

مصحح
نسخ التلافة

ابن أبي الجعد

مختار

بمطبعة الخليل

طبعة سنة ١٢٨٥

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

To PDF: www.al-mostafa.com

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

باب المختار من الخطب والأوامر

قال الرضي رحمه الله: باب المختار من خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأوامره ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب، في المقامات المحضرة والمواقف المذكورة، والخطوب الواردة.

الشرح: المقامات جمع مقامة، وقد تكون المقامة المجلس والنادي الذي يجتمع إليه الناس، وقد يكون اسماً للجماعة، والأول أليق ههنا بقوله: المحضرة، أي التي قد حضرها الناس.

ومنذ الان نبتدى بشرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ونجعل ترجمة الفصل الذي نروم شرحه الأصل فإذا أهيناه قلنا: الشرح، فذكرنا ما عندنا فيه، وبالله التوفيق.

فمن خطبة له خلق السماء والأرض وخلق آدم

الأصل: الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن. الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود. ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه.

الشرح: الذي عليه أكثر الأدباء والمتكلمين أن الحمد والمدح أخوان، لا فرق بينهما، تقول: حمدت زيداً على إنعامه، ومدحته على إنعامه، وحمدته على شجاعته، فهما سواء، يدخلان فيما كان من فعل الإنسان، وفيما ليس من فعله، كما ذكرناه من المثالين، فأما الشكر فأخص من المدح، لأنه لا يكون إلا على النعمة خاصة، ولا يكون إلا صادراً من منعم عليه، فلا يجوز عندهم أن يقال: شكر زيد عمراً لنعمة أنعمها عمرو على إنسان غير زيد.

إن قيل: الاستعمال خلاف ذلك، لأنهم يقولون: حضرنا عند فلان فوجدناه يشكر الأمير على معرفته عند زيد، قيل: ذلك إنما يصح إذا كان إنعام الأمير على زيد أوجب سرور فلان، فيكون شكر إنعام الأمير على زيد شكراً على السرور الداخلة على قلبه بالإنعام على زيد، وتكون لفظة زيد التي استعيرت ظاهراً لاستناد الشكر إلى مسمائها كناية لا حقيقة، ويكون ذلك الشكر شكراً باعتبار السرور المذكور، ومدحاً باعتبار آخر، وهو المنادة على ذلك الجميل والثناء الواقع بجنسه.

ثم إن هؤلاء المتكلمين الذين حكينا قولهم يزعمون أن الحمد والمدح والشكر لا يكون إلا باللسان مع انطواء القلب على الثناء والتعظيم، فإن استعمل شيء من ذلك في الأفعال بالجوارح كان مجازاً. وبقي البحث عن اشتراطهم مطابقة القلب للسان، فإن الاستعمال لا يساعدهم، لأن أهل الإصطلاح يقولون لمن مدح غيره، أو شكره رياء وسمعة: إنه قد مدحه

وشكره وإن كان منافقاً عندهم. ونظير هذا الموضع الإيمان، فإن أكثر المتكلمين لا يطلقونه على مجرد النطق اللساني، بل يشترطون فيه الاعتقاد القلبي، فأما أن يقصروا به عليه كما هو مذهب الأشعرية والإمامية، أو تؤخذ معه أمور أخرى وهي فعل الواجب وتجنب القبيح كما هو مذهب المعتزلة، ولا يخالف جمهور المتكلمين في هذه المسألة إلا الكرامية فإن المنافق عندهم يسمى مؤمناً، ونظروا إلى مجرد الظاهر، فجعلوا النطق اللساني وحده إيماناً. والمدحة: هيئة المدح، كالركبة، هيئة الركوب، والجلسة هيئة الجلوس، والمعنى مطروق جداً، ومنه في الكتاب العزيز كثير، كقوله تعالى: " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " ، وفي الأثر النبوي: " لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك "، وقال الكتاب من ذلك ما يطول ذكره، فمن جيد ذلك قول بعضهم: الحمد لله على نعمه التي منها إقدارنا على الاجتهاد في حمدها، وإن عجزنا عن إحصائها وعدّها. وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشريد :

فما بلغت كف امرئ متناول
بها المجد إلا والذي نلت أطول
ولا حبر المثنون في القول مدحةً
وإن أطنبوا إلا وما فيك أفضل

ومن مستحسن ما وقفت عليه من تعظيم البارئ عز جلاله بلفظ الحمد قول بعض الفضلاء في خطبة أرجوزة علمية:

الحمد لله بقدر الله
والحمد لله الذي برهانه
والحمد لله الذي ينكره
لا قدر العبد ذي التناهي
أن ليس شأن ليس فيه شأنه
فإنما ينكر من يصوره

وأما قوله: الذي لا يدركه، فيريد أن همم النظر وأصحاب الفكر وإن علت وبعدت فإنها لا تدركه تعالى؛ ولا تحيط به. وهذا حق، لأن كل متصور فلا بد أن يكون محسوساً، أو متخيلاً، أو موجوداً من فطرة النفس، والاستقراء يشهد بذلك. مثال المحسوس السواد والحموضة، ومثال المتخيل إنسان يطير، أو بحر من دم. مثال الموجود من فطرة النفس تصور الألم واللذة. ولما كان البارئ سبحانه خارجاً عن هذا أجمع لم يكن متصوراً.

فأما قوله: الذي ليس لصفته حد محدود، فإنه يعني بصفته ههنا كنهه وحقيقته، يقول: ليس كنهه حد فيعرف بذلك الحد قياساً على الأشياء المحدودة، لأنه ليس بمركب، وكل محدود مركب.

ثم قال: ولا نعت موجود، أي ولا يدرك بالرسم، كما تدرك الأشياء برسومها، وهو أن تعرف بلازم من لوازمها وصفة من صفاتها.

ثم قال: ولا وقت معدود ولا أجل ممدود، فيه إشارة إلى الرد على من قال: إنا نعلم كنه البارئ سبحانه لا في هذه الدنيا بل في الآخرة، فإن القائلين برؤيته في الآخرة يقولون: إنا نعرف حينئذ كنهه، فهو عليه السلام رد قولهم، وقال: إنه لا وقت أبداً على الإطلاق تعرف فيه حقيقته وكنهه، لا الآن ولا بعد الآن؛ وهو الحق؛ لأننا لو رأيناه في الآخرة وعرفنا كنهه لتشخص تشخصاً يمنع من حمله على كثيرين، ولا يتصور أن يتشخص هذا التشخص إلا ما يشار إلى جهته، ولا جهة له سبحانه. وقد شرحت هذا الموضع في كتابي المعروف بزيادات النقيضين، وبينت أن الرؤية المترهة عن الكيفية التي

يزعمها أصحاب الأشعري لا بد فيها من إثبات الجهة، وأنها لا تجري مجرى العلم: لأن العلم لا يشخص المعلوم، والرؤية تشخص المرئي، والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخص ذا جهة.

واعلم أن نفي الإحاطة مذكور في الكتاب العزيز في مواضع، منها قوله تعالى: " ولا يحيطون به علماً " ، ومنها قوله: " ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير " ، وقال بعض الصحابة: العجز عن درك الإدراك إدراك؛ وقد غلا محمد بن هاني فقال في ممدوحه المعز أبي تميم معد بن المنصور العلوي:

غاياتها بين تصويب وتصويب

أتبعته فكري حتى إذا بلغت

رأيت موضع تكيف وتحديد

رأيت موضع برهان يلوح وما

وهذا مدح يليق بالخالق تعالى، ولا يليق بالمخلوق.

فأما قوله: فطر الخلائق...، إلى آخر الفصل؛ فهو تقسيم مشتق من الكتاب العزيز؛ فقوله: فطر الخلائق بقدرته، من قوله تعالى: " قال من رب السموات وما بينهما " ، وقوله: ونشر الرياح برحمته، من قوله: " يرسل الرياح نشرًا بين يدي رحمته " .

وقوله: ووتد بالصخور ميدان أرضه، من قوله: " والجال أوتاداً " . والميدان: التحرك والتموج.

فأما القطب الراوندي رحمه الله فإنه قال إنه عليه السلام أخبر عن نفسه بأول هذا الفصل أنه يحمد الله، وذلك من ظاهر كلامه، ثم أمر غيره من فحوى كلامه أن يحمد الله، وأخبر عليه السلام أنه ثابت على ذلك مدة حياته، وأنه يجب على المكلفين ثبوتهم عليه ما بقوا؛ ولو قال: أحمد الله، لم يعلم منه جميع ذلك. ثم قال: والحمد أعم من الشكر؛ والله أخص من الإله. قال: فأما قوله: الذي لا يبلغ مدحته القائلون؛ فإنه أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه، فكيف بمحامده! والمعنى أن الحمد كل الحمد ثابت للمعبود الذي حقت العبادة له في الأزل، واستحقها حين خلق الخلق، وأنعم بأصول النعم التي يستحق بها العبادة.

ولقائل أن يقول: إنه ليس في فحوى كلامه أنه أمر غيره أن يحمد الله، وليس يفهم من قول بعض رعية الملك لغيره منهم: العظمة والجلال لهذا الملك أنه قد أمرهم بتعظيمه وإجلاله. ولا أيضاً في الكلام ما يدل على أنه ثابت على ذلك مدة حياته، وأنه يجب على المكلفين ثبوتهم عليه ما بقوا.

ولا أعلم كيف وقع ذلك للراوندي! فإن زعم أن العقل يقتضي ذلك فحق؛ ولكن ليس مستفاداً من الكلام، وهو إنما قال: إن ذلك موجود في الكلام.

فأما قوله: لو كان قال: أحمد الله لم يعلم منه جميع ذلك، فإنه لا فرق في انتفاء دلالة أحمد الله، على ذلك ودلالة الحمد لله، وهما سواء في أنهما لا يدلان على شيء من أحوال غير القائل، فضلاً عن دلالتهما على ثبوت ذلك ودوامه في حق غير القائل.

وأما قوله: الله أخص من الإله، فإن أراد في أصل اللغة؛ فلا فرق، بل الله هو الإله وفخم بعد حذف الهمزة، هذا قول

كافة البصريين، وإن أراد أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون على الأصنام لفظة الآلهة، ولا يسمونها الله فحق، وذلك عائد إلى عرفهم واصطلاحهم، لا إلى أصل اللغة والاشتقاق؛ ألا ترى أن الدابة في العرف لا تطلق على القملة، وإن كانت في أصل اللغة دابة! فأما قوله: قد أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه فكيف بمحامده! فكلام يقتضي أن المدح غير الحمد، ونحن لا نعرف فرقاً بينهما، وأيضاً فإن الكلام لا يقتضي العجز عن القيام بالواجب، لا من الممدوح ولا من المحامد؛ ولا فيه تعرض لذكر الوجوب، وإنما أن يبلغ القائلون مدحته، لم يقل غير ذلك. وأما قوله: الذي حقت العبادة له في الأزل واستحقها حين خلق الخلق، وأنعم بأصول النعم، فكلام ظاهره متناقض، لأنه إذا كان إنما استحقها حين خلق الخلق، فكيف يقال: إنه استحقها في الأزل! وهل يكون في الأزل مخلوق ليستحق عليه العبادة!.

واعلم أن المتكلمين لا يطلقون على البارئ سبحانه أنه معبود في الأزل أو مستحق للعبادة في الأزل إلا بالقوة لا بالفعل، لأنه ليس في الأزل مكلف يعبدته تعالى، ولا أنعم على أحد في الأزل بنعمة يستحق بها العبادة، حتى إنهم قالوا في الأثر الوارد: يا قديم الإحسان: إن معناه أن إحسانه متقدم العهد، لا أنه قديم حقيقة، كما جاء في الكتاب العزيز: " حتى عاد كالعرجون القديم " ، أي الذي قد توالى عليه الأزمنة المتطاولة. ثم قال الراوندي: والحمد والمدح يكونان بالقول وبالفعل، والألف واللام في القائلون لتعريف الجنس، كمثلهما في الحمد، والبلوغ: المشاركة، يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه، وإذا لم تشرف على حمده تعالى بالقول فكيف بوصول إليه بالفعل! والإله: مصدر بمعنى المألوه.

ولقائل أن يقول: الذي سمعناه أن التعظيم يكون بالقول والفعل وبترك القول والفعل، قالوا: فمن قال لغيره: يا عالم فقد عظمه ومن قام لغيره فقد عظمه، ومن ترك مد رجله بحضرة غيره فقد عظمه، ومن كف غرب لسانه عن غيره فقد عظمه. وكذلك الاستخفاف والإهانة تكون بالقول والفعل وبتركهما حسب ما قدمنا ذكره في التعظيم. فأما الحمد والمدح فلا وجه لكونهما بالفعل، وأما قوله: إن اللام في القائلون لتعريف الجنس؛ كما أنها في الحمد كذلك فعجيب؛ لأنها للاستغراق في القائلون لا شبهة في ذلك كالمؤمنين والمشركون، ولا يتم المعنى إلا به؛ لأنه للمبالغة، بل الحق المحض أنه لا يبلغ مدحته كل القائلين بأسرهم. وجعل اللام للجنس ينقص عن هذا المعنى إن أراد بالجنس المعهود، وإن أراد الجنس العامة، فلا نزاع بيننا وبينه، إلا أن قوله: كما أنها في الحمد كذلك، يمنع من أن يحمل كلامه على المحمل الصحيح؛ لأنها ليست في الحمد للاستغراق، يبين ذلك أنها لو كانت للاستغراق لما جاز أن يحمده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غيره من الناس، وهذا باطل.

وأيضاً فإنها لفظ واحد مفرد معرف بلام الجنس، والأصل في مثل ذلك أن يفيد الجنسية المطلقة، ولا يفيد الاستغراق، فإن جاء منه شيء للاستغراق، كقوله: " إن الإنسان لفي خسر " ، وأهلك الناس الدرهم والدينار، فمجاز، والحقيقة ما ذكرناه. فأما قوله: البلوغ المشاركة، يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه. فالأجود أن يقول: قالوا: بلغت المكان؛ إذا شارفته؛ وبين قولنا: شارفته، وأشرفت عليه فرق.

وأما قوله: وإذا لم يشرف على حمده بالقول فكيف يوصل إليه بالفعل!، فكلام مبني على أن الحمد قد يكون بالفعل،

وهو خلاف ما يقوله أرباب هذه الصناعة.

وقوله: والإله مصدر. بمعنى المألوه كلام طريف، أما أولاً، فإنه ليس بمصدر؛ بل هو اسم، كوجار للضيع وسرار للشهر؛ هو اسم جنس كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق، كالنجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، والسنة: اسم لكل عام ثم غلب على عام القحط. وأظنه رحمه الله لما رآه فعالاً، ظن أنه مصدر كالخصاد والجداذ وغيرهما. وأما ثانياً؛ فلأن المألوه صيغة مفعول، وليست صيغة مصدر إلا في ألفاظ نادرة، كقولهم: ليس له معقول ولا مجلود، ولم يسمع مألوه في اللغة، لأنه قد جاء: أله الرجل إذا دهش وتحير؛ وهو فعل لازم لا يبنى منه مفعول.

ثم قال الراوندي وفي قول الله تعالى: " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " ، بلفظ الإفراد، وقول أمير المؤمنين عليه السلام، لا يحصي نعماءه العادون، بلفظ الجمع. سر عجيب، لأنه تعالى أراد أن نعمة واحدة من نعمه لا يمكن العباد عد وجوه كوفها نعمة، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أن أصول نعمه لا تحصى لكثرتها، فكيف تعد وجوه فروع نعمائه! وكذلك في كون الآية واردة بلفظ إن الشرطية، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام على صيغة الخبر، تحته لطيفة عجيبة؛ لأنه سبحانه يريد أنكم إن أردتم أن تعدوا نعمه لم تقدرُوا على حصرها، وعلي عليه السلام أخبر أنه قد أنعم النظر، فعلم أن أحداً لا يمكنه حصر نعمه تعالى.

ولقائل أن يقول: الصحيح أن المفهوم من قوله: " وإن تعدوا نعمة الله " الجنس؛ كما يقول القائل: أنا لا أحسد إحسانك إلي، وامتنانك علي، ولا يقصد بذلك إحساناً واحداً، بل جنس الإحسان.

وما ذكره من الفرق بين كلام الباري وكلام أمير المؤمنين عليه السلام غير بين، فإنه لو قال تعالى: وإن تعدوا نعم الله، وقال عليه السلام: ولا يحصي نعمته العادون، لكان كل واحد منهما ساداً مسد الآخر.

أما اللطيفة الثانية فغير ظاهرة أيضاً ولا مليحة؛ لأنه لو انعكس الأمر؛ فكان القرآن بصيغة الخبر وكلام علي عليه السلام بصيغة الشرط، لكان مناسباً أيضاً، حسب مناسبته، والحال بعكس ذلك، اللهم إلا أن تكون قرينة السجعة من كلام علي عليه السلام تنبؤ عن لفظة الشرط، وإلا فمتى حذفت القرينة السجعية عن وهمك لم تجد فرقا، ونحن نعوذ بالله من التعسف والتعجرف الداعي إلى ارتكاب هذه الدعاوى المنكرة.

ثم قال الراوندي: إنه لو قال أمير المؤمنين عليه السلام: والذي لا يعد نعمه الحاسبون، ولم تحصل المبالغة التي أرادها بعبارته؛ لأن اشتقاق الحساب من الحسبان، وهو الظن. قال: وأما اشتقاق العدد فمن العد، وهو الماء الذي له مادة، والإحصاء: الإطاقة؛ أحصيته، أي أطقته؛ فتقدير الكلام: لا يطيق عد نعمائه العادون، ومعنى ذلك أن مدائحه تعالى لا يشرف على ذكرها الأنبياء والمرسلون، لأنها أكثر من أن تعدها الملائكة المقربون، والكرام الكاتبون.

ولقائل أن يقول: أما الحساب فليس مشتقاً من الحسبان. بمعنى الظن، كما توهمه، بل هو أصل برأسه؛ ألا ترى أن أحدهما حسبت أحسب. والآخر حسبت أحسب وأحسب بالفتح والضم، وهو من الألفاظ الأربعة التي جاءت شاذة. وأيضاً فإن حسبت بمعنى ظننت يتعدى إلى مفعولين لا يجوز الاقتصار على أحدهما، وحسبت من العدد يتعدى إلى مفعول واحد.

ثم يقال له: وهب أن الحاسيين، لو قالها مشتقة من الظن لم تحصل المبالغة، بل المبالغة كادت تكون أكثر؛ لأن النعم التي لا يحصرها الظان بظنونه أكثر من النعم التي لا يعدها العالم بعلومه.

وأما قوله: العدد مشتق من العد؛ وهو الماء الذي له مادة، فليس كذلك، بل هما أصلان. وأيضاً لو كان أحدهما مشتقاً من الآخر لوجب أن يكون العد مشتقاً من العدد، لأن المصادر هي الأصول التي يقع الاشتقاق منها، سواء أكان المشتق فعلاً أو اسماً، ألا تراهم قالوا في كتب الاشتقاق: إن الضرب: الرجل الخفيف، مشتق من الضرب، أي السير في الأرض للابتغاء، قل الله تعالى: " لا يستطيعون ضرباً في الأرض "، فجعل الاسم منقولاً ومشتقاً من المصدر.

وأما الإحصاء فهو الحصر والعد وليس هو الإطاقة كما ذكر؛ لا يقال: أحصيت الحجر، أي أطقته حمله. وأما ما قال إنه معنى الكلمة فطريف، لأنه عليه السلام لم يذكر الأنبياء ولا الملائكة، لا مطابقة ولا تضمناً ولا التزاماً، وأي حاجة إلى هذا التقدير الطريف الذي لا يشعر الكلام به! ومراده عليه السلام؛ وهو أن نعمه جلت لكثرتها أن يحصيها عاد ما، هو نفي لمطلق العادين من غير تعرض لعاد مخصوص.

قال الراوندي: فأما قوله: لا يدركه بعد الهمم؛ فالإدراك هو الرؤية والنيل والإصابة؛ ومعنى الكلام: الحمد لله الذي ليس بجسم ولا عرض، إذ لو كان أحدهما لرآه الراؤون إذا أصابوه، وإنما خص بعد الهمم، بإسناد نفي الإدراك وغوص الفطن، بإسناد نفي النيل لغرض صحيح؛ وذلك أن الثنوية يقولون بقدّم النور والظلمة، ويشتون النور جهة العلو والظلمة جهة السفلى، ويقولون: إن العالم ممتزج منهما، فرد عليه السلام عليهم بما معناه: إن النور والظلمة جسمان، والأجسام محدثة، والبارئ تعالى قديم.

ولقائل أن يقول: إنه لم يجز للرؤية ذكر في الكلام؛ لأنه عليه السلام لم يقل: الذي لا تدركه العيون ولا الحواس، وإنما قال لا يدركه الهمم، وهذا يدل على أنه إنما أراد أن العقول لا تحيط بكنهه وحقيقته.

وأيضاً فلو سلمنا أنه إنما نفى الرؤية، لكان لحاج أن يحاجه فيقول له: هب أن الأمر كما تزعم، ألسنت تريد بيان الأمر الذي لأجله خصص بعد الهمم بنفي الإدراك، وخصص غوص الفطن بنفي النيل! وقلت: إنما قسم هذا التقسيم لغرض صحيح، وما رأيته أوضحت هذا الغرض؛ وإنما حكيت مذهب الثنوية، وليس يدل مذهبهم على وجوب تخصيص بعد الهمم بنفي الإدراك دون نفي النيل، ولا يوجب تخصيص غوص الفطن بنفي النيل دون نفي الإدراك، وأكثر ما في حكاية مذهبهم أنهم يزعمون أن إلهي العالم: النور والظلمة، وهما جسمان؛ وأمير المؤمنين عليه السلام يقول: لو كان صانع العالم جسماً لرئي، وحيث لم ير لم يكن جسماً، أي شيء في هذا مما يدل على وجوب ذلك التقسيم والتخصيص الذي زعمت أنه إنما خصصه وقسمه لغرض صحيح! .

ثم قال الراوندي: ويجوز أن يقال: البعد والغوص مصدران ههنا بمعنى الفاعل، كقولهم: فلان عدل، أي عادل، وقوله تعالى: " إن أصبح ماؤكم غوراً "، أي غائراً، فيكون المعنى: لا يدركه العالم البعيد الهمم فكيف الجاهل! ويكون المقصد بذلك الرد على من قال: إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة الإسراء؛ وإن يونس عليه السلام رأى ربه ليلة هبوطه إلى قعر البحر. ولقائل أن يقول: إن المصدر الذي جاء بمعنى الفاعل ألفاظ معدودة، لا يجوز القياس عليها، ولو

جاز لما كان المصدر ههنا بمعنى الفاعل؛ لأنه مصدر مضاف، والمصدر المضاف لا يكون بمعنى الفاعل. ولو جاز أن يكون المصدر المضاف بمعنى الفاعل لم يجوز أن يحمل كلامه عليه السلام على الرد على من أثبت أن البارئ سبحانه مرئي: لأنه ليس في الكلام نفي الرؤية أصلاً، وإنما غرض الكلام نفي معقوليته سبحانه، وأن الأفكار والأنظار لا تحيط بكنهه، ولا تتعقل خصوصية ذاته، جلت عظمتة! ثم قال الراوندي: فأما قوله: الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فالوقت: تحرك الفلك ودورانه على وجهه، والأجل: مدة الشيء؛ ومعنى الكلام أن شكري لله تعالى متجدد عند تجدد كل ساعة، ولهذا أبدل هذه الجملة من الجملة التي قبلها وهي الثانية، كما أبدل الثانية من الأولى.

ولقائل أن يقول: الوقت عند أهل النظر مقدار حركة الفلك، لا نفس حركته، والأجل ليس مطلق الوقت، ألا تراهم يقولون: جئتكم وقت العصر، ولا يقولون: أجل العصر! والأجل عندهم هو الوقت الذي يعلم الله تعالى أن حياة الحيوان تبطل فيه، مأخوذ من أجل الدين، وهو الوقت الذي يحل قضاؤه فيه. فأما قوله: ومعنى الكلام أن شكري متجدد لله تعالى في كل وقت، ففاسد، ولا ذكر في هذه الألفاظ للشكر، ولا أعلم من أين خطر لراوندي! وظنه أن هذه الجمل من باب البدل غلط، لأنها صفات، كل واحدة منها صفة بعد أخرى، كما تقول: مررت بزيد العالم، الظريف، الشاعر.

قال الراوندي: فأما قوله: الذين ليس لصفته حد، فظاهره إثبات الصفة له سبحانه، وأصحابنا لا يشتبون لله سبحانه صفة، كما يثبتها الأشعرية، لكنهم يجعلونه على حال، أو يجعلونه متميزاً بذاته، فأمر المؤمنين عليه السلام بظاهر كلامه - وإن أثبت له صفة - إلا أن من له أنس بكلام العرب يعلم أنه ليس بإثبات على الحقيقة. وقد سألت سائل فقال: ههنا كلمتان؛ إحداهما كفر، والأخرى ليست بكفر؛ وهما: لله تعالى شريك غير بصير. ليس شريك الله تعالى بصيراً، فأيهما كلمة الكفر؟ فقلت له: القضية الثانية؛ وهي ليس شريك الله تعالى بصيراً، كفر؛ لأنها تتضمن إثبات الشريك، وأما الكلمة الأخرى، فيكون معناها لله الشريك غير بصير؟ بمزة الاستفهام المقدرة المحذوفة.

ثم أخذ في كلام طويل يبحث فيه عن الصفة والمعنى، ويبتل مذهب الأشعرية بما يقوله المتكلمون من أصحابنا، وأخذ في توحيد الصفة: لم جاء وكيف يدل نفي الصفة الواحدة على نفي مطلق الصفات؟ وانتقل من ذلك إلى الكلام في الصفة الخامسة التي أثبتها أبو هاشم، ثم خرج إلى مذهب أبي الحسين، وأطال جداً فيما لا حاجة إليه.

ولقائل أن يقول: الأمر أسهل مما تظن، فإننا قد بينا أن مراده نفي الإحاطة بكنهه، وايضاً يمكن أن يجعل الصفة ههنا قول الواصف، فيكون المعنى: لا ينتهي الواصف إلى حد إلا وهو قاصر عن النعت، لجلالته وعظمته، جلت قدرته.

فأما القضيتان اللتان سأله السائل عنهما فالصواب غير ما أجاب به فيهما، وهو أن القضية الأولى كفر، لأنها صريحة في إثبات الشريك، والثانية لا تقتضي ذلك، لأنه قد نفى كون الشريك بصيراً على أحد وجهين؛ إما لأن هناك شريكاً لكنه غير بصير؛ وإما لأن الشريك غير موجود، وإذا لم يكن موجوداً لم يكن بصيراً؛ فإذا كان هذا الاعتبار الثاني مراداً لم يكن كفراً، وصار كالأثر المنقول: كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تؤثر هفواته؛ أي لم يكن فيه هفوات فتؤثر

وتحكي، وليس أنه كان المراد في مجلسه هفوات إلا أنها لم تؤثر.

قال الراوندي: فإن قيل: تركيب هذه الجملة يدل على أنه تعالى فطر الخليقة قبل خلق السموات والأرض. قلنا: قد اختلف في ذلك فقيل: أول ما يحسن منه تعالى خلقه ذاتاً حية، يخلق فيها شهوةً لمدركه تدركه فتلتذ به، ولهذا قيل: تقديم خلق الجماد على خلق الحيوان عبث وقبيح. وقيل: لا مانع من تقديم خلق الجماد إذا علم أن علم بعض المكلفين فيما بعد بخلق قبله لطف له.

ولقائل أن يقول: أما إلى حيث انتهى به الشرح فليس في الكلام تركيب يدل على أنه تعالى فطر خلقه قبل خلق السموات والأرض وإنما قد يوهم تأمل كلامه عليه السلام فيما بعد شيئاً من ذلك، لما قال: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، على أنا إذا تأملناه لم نجد في كلامه عليه السلام ما يدل على تقديم خلق الحيوان، لأنه قبل أن يذكر خلق السماء لم يذكر إلا أنه فطر الخلائق. وتارة قال: أنشأ الخلق، ودل كلامه أيضاً على أنه نشر الرياح، وأنه خلق الأرض وهي مضطربة فأرساها بالجبال؛ كل هذا يدل عليه كلامه، وهو مقدم على فتق الهواء والفضاء وخلق السماء، فأما تقديم خلق الحيوان أو تأخيرها فلم يتعرض كلامه عليه السلام له، فلا معنى لجواب الراوندي وذكره ما يذكره المتكلمون من أنه هل يحسن تقديم خلق الجماد على الحيوان أم لا! الأصل: أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه وتعالى فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزاه، ومن جزاه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عدّه، ومن قال: فيم، فقد ضمنه، ومن قال: علام، فقد أحلى منه.

الشرح: إنما قال عليه السلام: أول الدين معرفته، لأن التقليد باطل، وأول الواجبات الدينية المعرفة. ويمكن أن يقول قائل: ألستم تقولون في علم الكلام: أول الواجبات النظر في طريق معرفة الله تعالى؛ وتارة تقولون: القصد إلى النظر؟ فهل يمكن الجمع بين هذا وبين كلامه عليه السلام؟!

وجوابه أن النظر والقصد إلى النظر إنما وجبا بالعرض لا بالذات؛ لأنهما وصلة إلى المعرفة، والمعرفة هي المقصود بالوجوب، وأمير المؤمنين عليه السلام أراد: أول واجب مقصود بذاته من الدين معرفة البارئ سبحانه؛ فلا تناقض بين كلامه وبين آراء المتكلمين.

وأما قوله: وكمال معرفته التصديق به، فلأن معرفته قد تكون ناقصة، وقد تكون غير ناقصة، فالمعرفة الناقصة هي المعرفة بأن للعالم صانعاً غير العالم، وذلك باعتبار أن الممكن لا بد له من مؤثر، فمن علم هذا فقط علم الله تعالى ولكن علماً ناقصاً، وأما المعرفة التي ليست ناقصة فأن تعلم أن ذلك المؤثر خارج عن سلسلة الممكنات، والخارج عن كل الممكنات ليس بممكن، وما ليس بممكن فهو واجب الوجود، فمن علم أن للعالم مؤثراً واجب الوجود فقد عرفه عرفاناً أكمل من عرفان أن للعالم مؤثراً فقط، وهذا الأمر الزائد هو المكنى عنه بالتصديق به؛ لأن أخص ما يمتاز به البارئ عن مخلوقاته هو وجوب الوجود.

وأما قوله عليه السلام: وكمال التصديق به توحيده، فلأن من علم أنه تعالى واجب الوجود مصدق بالبارئ سبحانه،

لكن ذلك التصديق قد يكون ناقصاً، وقد يكون غير ناقص؛ فالتصديق الناقص أن يقتصر على أن يعلم أنه واجب الوجود فقط، و التصديق الذي هو أكمل من ذلك وأتم هو العلم بتوحيده سبحانه، باعتبار أن وجوب الوجود لا يمكن أن يكون لذاتين، لأن فرض واجبي الوجود يفضي إلى عموم وجوب الوجود لهما وامتياز كل واحد منهما بأمر غير الوجوب المشترك، وذلك يفضي إلى تركيبهما وإخراجهما عن كونهما واجبي الوجود، فمن علم الباري سبحانه واحداً، أي لا واجب الوجود إلا هو يكون أكمل تصديقاً ممن لم يعلم ذلك؛ وإنما اقتصر على أن صانع العالم واجب الوجود فقط. وأما قوله: وكمال توحيده الإخلاص له؛ فالمراد بالإخلاص له ههنا هو نفي الجسمية والعرضية ولوازمهما عنه، لأن الجسم مركب، وكل مركب ممكن، وواجب الوجود ليس بممكن. أيضاً فكل عرضٍ مفتقر، وواجب الوجود غير مفتقر؛ فواجب الوجود ليس بعرض. وأيضاً فكل جرم محدث، وواجب الوجود ليس بمحدث، فواجب الوجود ليس بجرم. وأيضاً فكل حاصل في الجهة، إما جرم أو عرض، وواجب الوجود ليس بجرم ولا عرض، فلا يكون حاصلاً في جهة؛ فمن عرف وحدانية الباري ولم يعرف هذه الأمور كان توحيده ناقصاً، ومن عرف هذه الأمور بعد العلم بوحدانيته تعالى فهو المخلص في عرفانه جل اسمه، ومعرفته تكون أتم وأكمل.

وأما قوله: وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، فهو تصريح بالتوحيد الذي تذهب إليه المعتزلة، وهو نفي المعاني القديمة التي تثبتها الأشعرية وغيرهم، قال عليه السلام: لشهادة كل صفة أنهما غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة؛ وهذا هو دليل المعتزلة بعينه، قالوا: لو كان عالماً بمعنى قديم، لكان ذلك المعنى إنما هو أو غيره، أو ليس هو ولا غيره. والأول باطل؛ لأننا نعقل ذاته قبل أن نعقل أو نتصور له علماً؛ والمتصور مغاير لما ليس بممتصور. والثالث باطل أيضاً، لأن إثبات شيئين: أحدهما ليس هو الآخر ولا غيره، معلوم فساد بهديه العقل، فتعين القسم الثاني وهو محال، أما أولاً فبإجماع أهل الملة، و أما ثانياً فلما سبق من أن وجوب الوجود لا يجوز أن يكون لشيئين؛ فإذا عرفت هذا فاعرف أن الإخلاص له تعالى قد يكون ناقصاً وقد لا يكون، فالإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده، وأنه واحد ليس بجسم ولا عرض، ولا يصح عليه ما يصح على الأجسام والأعراض. والإخلاص التام هو العلم بأنه لا تقوم به المعاني القديمة، مضافاً إلى تلك العلوم السابقة؛ وحينئذ تتم المعرفة وتكمل.

ثم أكد أمير المؤمنين عليه السلام هذه الإشارات الإلهية بقوله: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، وهذا حق؛ لأن الموصوف يقارن الصفة، والصفة تقارنه.

قال: ومن قرنه فقد ثناه، وهذا حق، لأنه قد أثبت قديمين، وذلك محض التثنية.

قال: ومن ثناه فقد جزأه؛ وهذا حق، لأنه إذا أطلق لفظة الله تعالى على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمى هذا اللفظ وفائده متجزئة، كإطلاق لفظ الأسود على الذات التي حلها سواد.

قال: ومن جزأه فقد جهله، وهذا حق، لأن الجهل هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به.

قال: ومن أشار إليه فقد حده، وهذا حق، لأن كل مشارٍ إليه فهو محدود؛ لأن المشار إليه لا بد أن يكون في جهة مخصوصة، وكل ما هو في جهة فله حد وحدود؛ أي أقطار وأطراف، قال: ومن حده فقد عده، أي جعله من الأشياء

المحدثه، وهذا حق، لأن كل محدود معدود في الذوات المحدثه.

قال: ومن قال: فيم؟ فقد ضمنه، وهذا حق لأن من تصور أنه في شيء فقد جعله إما جسماً مستتراً في مكان، أو عرضاً سارياً في محل، والمكان متضمن للتمكن، والمحل متضمن للعرض.

قال: ومن قال: علام؟ فقد أحلى منه؛ وهذا حق؛ لأن من تصور أنه تعالى على العرش، أو على الكرسي، فقد أحلى منه غير ذلك الموضع. وأصحاب تلك المقالة يمتنعون من ذلك، ومراده عليه السلام إظهار تناقض أقوالهم؛ وإلا فلو قالوا: هب أنا قد خلينا منه غير ذلك الموضع، أي محذور يلزمنا؟ فإذا قيل لهم: لو خلا موضع دون موضع لكان جسماً، ولزم حدوثه، قالوا: لزوم الحدوث والجسمية إنما هو من حصوله في الجهة لا من خلو بعض الجهات عنه؛ وأنتم إنما احتجاجتم علينا بمجرد خلو بعض الجهات منه، فظهر أن توجيه الكلام عليهم إنما هو إلزام لهم، لا استدلال على فساد قولهم. فأما القطب الراوندي فإنه قال في معنى قوله: نفي الصفات عنه: أي صفات المخلوقين، قال: لأنه تعالى عالم قادر، وله بذلك صفات، فكيف يجوز أن يقال: لا صفة له! وأيضاً فإنه عليه السلام قد أثبت لله تعالى صفة أولاً، حيث قال: الذي ليس لصفته حد محدود، فوجب أن يحمل كلامه على ما يتزهد عن المناقضة.

وأيضاً فإنه قد قال فيما بعد في صفة الملائكة: إنهم لا يصفون الله تعالى بصفات المصنوعين، فوجب أن يحمل قوله الآن: وكمال توحيده نفي الصفات عنه، على صفات المخلوقين، حملاً للمطلق على المقيد.

ولقائل أن يقول: لو أراد نفي صفات المخلوقين عنه لم يستدل على ذلك بدليل الغيرية، وهو قوله: لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، لأن هذا الاستدلال لا ينطق على دعوى أنه غير موصوف بصفات المخلوقين، بل كان ينبغي أن يستدل بأن صفات المخلوقين من لوازم الجسمية والعرضية، والبارئ ليس بجسم ولا عرض، ونحن قد بينا أن مراده عليه السلام إبطال القول بالمعاني القديمة، وهي المسماة بالصفات في الإصطلاح القديم، ولهذا يسمى أصحاب المعاني بالصفائية. فأما كونه قادراً وعالماً فأصحابها أصحاب الأحوال، وقد بينا أن مراده عليه السلام بقوله: ليس لصفته حد محدود، أي لكونه وحقيقته، وأما كون الملائكة لا تصف البارئ بصفات المصنوعين فلا يقتضي أن يحمل كل موضوع فيه ذكر الصفات على صفات المصنوعين، لأجل تقييد ذلك في ذكر الملائكة، وأين هذا من باب حمل المطلق على المقيد! لا سيما وقد ثبت أن التعليل والاستدلال يقضي ألا يكون المراد صفات المخلوقين.

وقد تكلف الراوندي لتطبيق تعليله عليه السلام نفي الصفات عنه بقوله: لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، بكلام عجيب؛ وأنا أحكي ألفاظه لتعلم؛ قال: معنى هذا التعليل أن الفعل في الشاهد لا يشابه الفاعل، والفاعل غير الفعل؛ لأن ما يوصف به الغير إنما هو الفعل أو معنى الفعل، كالضارب والفهم؛ فإن الفهم والضرب كلاهما فعل، والموصوف بهما فاعل، والدليل لا يختلف شاهداً وغائباً؛ فإذا كان تعالى قديماً وهذه الأجسام محدثة كانت معدومة ثم وجدت، يدل على أنها غير الموصوف بأنه خالقها ومدبرها، انقضى كلامه. وحكايته تغني عن الرد عليه.

ثم قال: الأول على وزن أفعل يستوي فيه المذكر والمؤنث، إذا لم يكن فيه الألف واللام، فإذا كانا فيه قيل للمؤنث الأولى، وهذا غير صحيح، لأنه يقال: كلمت فضلاهن، وليس فيه ألف ولام، وكان ينبغي أن يقول إذا كان منكراً مصحوباً بمن استوى المذكر والمؤنث في لفظ أفعل، تقول: زيد أفضل من عمرو، وهند أحسن من دعد.

الأصل: كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير، إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد؛ إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده. أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، ولأعم بين مختلفاتها، وعرز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بما قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

الشرح: قوله عليه السلام: كائن، وإن كان في الاصطلاح العرفي مفعولاً على ما يتره الباري عنه، فمراده به المفهوم اللغوي، وهو اسم فاعل من كان، بمعنى وجد، كأنه قال: موجود غير محدث.

فإن قيل: فقد قال بعده: موجود لا عن عدم، فلا يبقى بين الكلمتين فرق.

قيل: بينهما فرق، ومراده بالموجود لا عن عدم ههنا وجوب وجوده ونفي إمكانه، لأن من أثبت قديماً ممكناً، فإنه وإن نفي حدوثه الزماني فلم ينف حدوثه الذاتي، وأمير المؤمنين عليه السلام نفى عن الباري تعالى في الكلمة الأولى الحدوث الزماني، ونفى عنه في الكلمة الثانية الذاتي. وقولنا في الممكن: إنه موجود من عدم، صحيح عند التأمل، لا بمعنى أن عدمه سابق له زماناً، بل سابق لوجوده ذاتاً، لأن الممكن يستحق من ذاته أنه لا يستحق الوجود من ذاته. وأما قوله: مع كل شيء لا بمقارنة، فمراده بذلك أنه يعلم الجزئيات والكميات، كما قال سبحانه: " ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم " .

وأما قوله: وغير كل شيء لا بمزايلة، فحق، لأن الغيرين في الشاهد هما ما زایل أحدهما الآخر وباينه. بمكان أو زمان، والباري سبحانه يباين الموجودات مباينة متزهة عن المكان والزمان، فصدق عليه أنه غير كل شيء لا بمزايلة. وأما قوله: فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، لأن فعله اختراع، والحكماء يقولون: إبداع، ومعنى الكلمتين واحد؛ وهو أنه لا يفعل لا بالحركة والآلة كما يفعل الواحد منا، ولا يوجد شيئاً من شيء.

وأما قوله: بصير؛ إذ لا منظور إليه من خلقه، فهو حقيقة مذهب أبي هاشم رحمه الله وأصحابه، لأنهم يطلقون عليه في الأزل أنه سميع بصير، وليس هناك مسموع ولا مبصر، ومعنى ذلك كونه بحالٍ يصح منه إدراك المسموعات والمبصرات إذا وجدت؛ وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به، ولا يطلقون عليه أنه سامع مبصر في الأزل، لأن السامع المبصر هو المدرك بالفعل لا بالقوة.

وأما قوله: متوحد، إذ لا سكن يستأنس به، ويستوحش لفقده، فإذا ههنا ظرف، ومعنى الكلام أن العادة والعرف إطلاق متوحد على من كان له من يستأنس بقربه ويستوحش ببعده فانفرد عنه، والباري سبحانه يطلق عليه أنه متوحد في الأزل ولا موجود سواه؛ وإذا صدق سلب الموجودات كلها في الأزل صدق سلب ما يؤنس أو يوحش؛ فتوحده بخلاف توحده غيره.

وأما قوله عليه السلام: أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء؛ كقوله سبحانه: " لا يمسن فيها لغوب " . وقوله: " لكل جعلنا منكم شرعةً منهاجاً " .

وقوله: بلا روية أجالها، فالروية الفكرة، وأجالها: رددتها؛ ومن رواه: أحالها بالحاء، أراد صرفها. قوله: ولا تجربة استفادها، أي لم يكن قد خلق من قبل أجساماً فحصلت له التجربة التي أعانتها على خلق هذه الأجسام. وقوله: ولا حركة أحدثها، فيه رد على الكرامية الذين يقولون: إنه إذا أراد أن يخلق شيئاً مباحناً عنه أحدث في ذاته حادثاً، يسمى الإحداث، فوقع ذلك الشيء المبين عن ذلك المعنى المتجدد المسمى إحداثاً.

وقوله: ولا همامة نفس اضطرب فيها، فيه رد على الجوس والثنوية القائلين بالهمامة، ولهم فيها خبط طويل يذكره أصحاب المقالات، وهذا يدل على صحة ما يقال: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام. وأما قوله: أحال الأشياء لأوقاتها، فمن رواها: أحل الأشياء لأوقاتها، فمعناه جعل كل شيء ووقته كمحل الدين. ومن رواها: أحال، فهو من قولك: حال في متن فرسه، أي وثب، وأحاله غيره، أي أوثبه على متن الفرس؛ عداه بالهمزة وكأنه لما أقر الأشياء في أحيائها وأوقاتها صار كمن أحال غيره على فرسه.

وقوله: ولاءم بين مختلفاتها، أي جعل المختلفات ملتئمت، كما قرن النفس الروحانية بالجسد الترابي، جلت عظمتها! وقوله: وعرز غرائرها، المروي بالتشديد، والغريزة: الطبيعة، وجمعها غرائز، وقوله: غرزها، أي جعلها غرائز، كما قيل: سبحان من ضوءاً الأضواء! ويجوز أن يكون من غرزت الإبرة بمعنى غرست. وقد رأينا في بعض النسخ بالتخفيف. وقوله: وألزمها أشباحها، الضمير المنصوب في ألزمها، عائد إلى الغرائز، أي ألزم الغرائز أشباحها، أي أشخاصها، جمع شبح، وهذا حق؛ لأن كلاً مطبوع على غريزة لازمة، فالشجاع لا يكون جباناً، والبخيل لا يكون جواداً؛ وكذلك كل الغرائز لازمة لا تنتقل.

وقوله: عالماً بما قبل ابتدائها، إشارة إلى أنه عالم بالأشياء فيما لم يزل، وقوله: محيطاً بحدودها وانتهائها أي بأطرافها ونهاياتها، وقوله: عارفاً بقرائنها وأحنائها، القرائن: جمع قرونة، وهي النفس. والأحناء: الجوانب، جمع حنو، يقول: إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التي ألزمها أشباحها، عارف بجهااتها وسائر أحوالها المتعلقة بها والصادرة عنها. فأما القطب الراوندي فإنه قال: معنى قوله عليه السلام: كائن لا عن حدث موجود لا عن عدم، أنه لم يزل موجوداً، ولا يزال موجوداً، فهو باقٍ أبداً كما كان موجوداً أولاً، وهذا ليس بجيد، لأن اللفظ لا يدل على ذلك ولا فيه تعرض بالبقاء فيما لا يزال.

وقال أيضاً: قوله عليه السلام: لا يستوحش، كلام مستأنف. ولقائل أن يقول: كيف يكون كلاماً مستأنفاً، والهاء في فقدته ترجع إلى السكن المذكور أولاً! وقال أيضاً: يقال: ما له في الأمر همة ولا همامة؛ أي لا يهتم به، والهمامة: التردد، كالعزم. ولقائل أن يقول: العزم هو إرادة جازمة حصلت بعد التردد، فبطل قوله: إن الهمامة هي نفس التردد كالعزم. وأيضاً فقد بينا مراده عليه السلام بالهمامة؛ حكى زرقان في كتاب المقالات، وأبو عيسى الوراق، والحسن بن موسى، وذكره شيخنا أبو القاسم البلخي في كتابه في المقالات أيضاً عن الثنوية: أن النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته في غزو الظلمة والإغارة عليها، فخرجت من ذاته قطعة - وهي الهمامة المضطربة في نفسه - فخالطت الظلمة غازية لها،

فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم، وحالت بينها وبينه، وخرجت همامة الظلمة غازية للنور الأعظم، فاقتطعتها النور الأعظم عن الظلمة، ومزجها بأجزائه، وامتزجت همامة النور بأجزاء الظلمة أيضاً، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان وتتدانيان وهما ممتزجتان، بأجزاء هذا وهذا؛ حتى انبنى منهما هذا العالم المحسوس. ولهم في الهمامة كلام مشهور؛ وهي لفظة اصطلاحاً عليها. واللغة العربية ما عرفنا فيها استعمال الهمامة بمعنى الهمّة، والذي عرفناه الهمّة والهمّة - بالكسر والفتح - والمهمة، وتقول لا همّام لي بهذا الأمر، مبني على الكسر كقطام، ولكنها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها.

الأصل: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكّك الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تياره، متراكماً زخاره، حمّله على متن الريح العاصفة، والزعرع القاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شدة، وقرنها إلى حده؛ الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق. ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها، وأدام مربها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها؛ فأمرها بتصفيق الماء الزخار؛ وإثارة موج البحار، فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفتها بالفضاء، ترد أوله على آخره، وساجيه على مائره، حتى عب عبايه، ورمى بالزبد ركامه، فرفعه في هواءٍ منفثقٍ، وجوٍ منفهقٍ، فسوى منه سبع سمواتٍ جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً؛ وعليهن سقفاً محفوظاً، وسمكاً مرفوعاً؛ بغير عمدٍ يدعمها، ولا دسارٍ ينتظمها. ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمرًا منيراً، في فلكٍ دائرٍ، وسقفٍ سائرٍ، ورقيمٍ مائرٍ.

الشرح: لسائل أن يسأل فيقول: ظاهر هذا الكلام أنه سبحانه خلق الفضاء والسموات بعد خلق كل شيء؛ لأنه قد قال قبل: فطر الخلائق، ونشر الرياح، ووتد الأرض بالجلال، ثم عاد فقال: أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، وهو الآن يقول: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، ولفظة ثم للتراخي!

فالجواب أن قوله: ثم هو تعقيب وتراخي، لا في مخلوقات البراء سبحانه، بل في كلامه عليه السلام؛ كأنه يقول: ثم أقول الآن بعد قول المتقدم: إنه تعالى أنشأ فتق الأجواء. ويمكن أن يقال: إن لفظة ثم، ههنا تعطي معنى الجمع المطلق كالواو، ومثل ذلك قوله تعالى: " وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ".

واعلم أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يشتمل على مباحث: منها: أن ظاهر لفظه أن الفضاء الذي هو الفراغ الذي يحصل فيه الأجسام خلقه الله تعالى ولم يكن من قبل؛ وهذا يقتضي كون الفضاء شيئاً، لأن المخلوق لا يكون عدماً محضاً. وليس ذلك ببعيد، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشاهدة هذه الأجسام. ومنهم من جعله مجرداً.

فإن قيل: هذا الكلام يشعر بأن خلق الأجسام في العدم المحض قبل خلق الفضاء ليس بممكن، وهذا ينافي العقل! قيل: بل هذا هو محض مذهب الحكماء، فإنهم يقولون: إنه لا يمكن وجود جسم ولا حركة جسم خارج الفلك الأقصى؛ وليس ذلك إلا لاستحالة وجود الأجسام وحركتها، إلا في الفضاء.

ومنها أن البراء - سبحانه - خلق في الفضاء الذي أوجده ماء جعله على متن الريح، فاستقل عليها، وثبت وصارت مكاناً له، ثم خلق فوق ذلك الماء ريحاً أخرى سلطها عليه، فموجته تمويجاً شديداً حتى ارتفع، فخلق منه السموات. وهذا أيضاً قد قاله قوم من الحكماء؛ ومن جملتهم تاليس الإسكندراني؛ وزعم أن الماء أصل كل العناصر؛ لأنه إذا انجم صار أرضاً، وإذا لطف صار هواء، والهواء يستحيل ناراً؛ لأن النار صفوة الهواء.

ويقال: إن في التوراة في أول السفر الأول كلاماً يناسب هذا؛ وهو أن الله تعالى خلق جوهرًا، فنظر إليه نظر الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماء، ثم ارتفع من ذلك الماء بخار كالدخان، فخلق منه السموات؛ وظهر على وجه ذلك الماء زبد، فخلق منه الأرض، ثم أرساها بالجلال.

ومنها: أن السماء الدنيا موج مكفوف، بخلاف السموات الفوقانية. وهذا قول قد ذهب إليه قوم، واستدلوا عليه بما نشاهده من حركة الكواكب المتحيرة وارتعاضها في مرأى العين واضطرابها؛ قالوا: لأن المتحيرة متحركة في أفلاكها؛ ونحن نشاهدها بالحس البصري، وبيننا وبينها أجرام الأفلاك الشفافة، ونشاهدها مرتعدة حسب ارتعاد الجسم السائر في الماء؛ وما ذاك إلا لأن السماء الدنيا ماء متموج، فارتعاد الكواكب المشاهدة حساً إنما هو بحسب ارتعاد أجزاء الفلك الأدنى. قالوا: فأما الكواكب الثابتة فإننا لم نشاهدها كذلك؛ لأنها ليست بمتحركة، وأما القمر وإن كان في السماء الدنيا، إلا في فلك تدويره من جنس الأجرام الفوقانية، وليس بماء متموج كالفلك المثل التحتاني. وكذلك القول في الشمس.

ومنها: أن الكواكب في قوله: ثم زينها بزينة الكواكب، أين هي؟ فإن اللفظ محتمل، وينبغي أن يتقدم على ذلك بحث في أصل قوله تعالى: "إنا زيننا السماء بزينة الكواكب، وحفظاً من كل شيطانٍ ماردٍ" ! فنقول: إن ظاهر هذا اللفظ أن الكواكب في السماء الدنيا، وأنها جعلت فيها حراسة للشياطين من استراق السمع؛ فمن دنا منهم لذلك رجم بشهاب؛ وهذا هو الذي يقتضيه ظاهر اللفظ. ومذهب الحكماء أن السماء ليس فيها إلا القمر وحده، وعندهم أن الشهب المنقضة هي آثار تظهر في الفلك الأثيري الناري الذي تحت فلك القمر، والكواكب لا ينقض منها شيء، والواجب التصديق بما في ظاهر لفظ الكتاب العزيز، وأن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على مطابقتها، فيكون الضمير في قوله: زينها، راجعاً إلى سفلاهن؛ التي قال: إنها موج مكفوف، ويكون الضمير في قوله: وأجرى فيها، راجعاً إلى جملة السموات؛ إذا وافقنا الحكماء في أن الشمس في السماء الرابعة.

ومنها: أن ظاهر الكلام يقتضي أن خلق السموات بعد خلق الأرض؛ ألا تراه كيف لم يتعرض فيه لكيفية خلق الأرض أصلاً. وهذا قول قد ذهب إليه جماعة من أهل الملة، واستدلوا عليه بقوله تعالى: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين"، ثم قال: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان".

ومنها: أن الهاء في قوله: فرفعه في هواء منفتح، والهاء في قوله: فسوى منه سبع سموات، إلى ماذا ترجع؟ فإن آخر المذكورات قبلها الزبد. وهل يجوز أن تكون السموات مخلوقة من زبد الماء؟ الحق أن الضمائر ترجع إلى الماء الذي عب عباؤه، لا إلى الزبد؛ فإن أحداً لم يذهب إلى أن السماء مخلوقة من زبد الماء، وإنما قالوا: إنها مخلوقة من بخاره.

ومنها: أن يقال إن الباري سبحانه قادر على خلق الأشياء إبداعاً واختراعاً؛ فما الذي اقتضى أنه خلق المخلوقات على هذا الترتيب؟ وهلا أوجدها إيجاد الماء الذي ابتدعه أولاً من غير شيء! فيقال في جواب ذلك على طريق أصحابنا: لعل إخباره للمكلفين بذلك على هذا الترتيب يكون لطفاً بهم، ولا يجوز الإخبار منه تعالى إلا والمخبر عنه مطابق للإخبار، فهذا حظ المباحث المعنوية من هذا الفصل.

ثم نشرع في تفسير ألفاظه.

أما الأجواء فجمع جو، والجو هنا الفضاء العالي بين السماء والأرض. والأرجاء: الجوانب، واحدها رجل مثل عصا. والسكائك: جمع سكاكة: وهي أعلى الفضاء، كما قالوا: ذؤابة وذوائب. والتيار: الموج. والمتراكم: الذي بعضه فوق بعض. والزخار: الذي يزخر، أي يمتد ويرتفع. والريح الزرعز: الشديدة المهبوب، وكذلك القاصفة، كأنها تهلك الناس بشدة هبوبها. ومعنى قوله: فأمرها برده، أي بمنعه عن الهبوط؛ لأن الماء ثقيل، ومن شأن الثقيل الهوي. ومعنى قوله: وسلطها على شدة، أي على وثاقه؛ كأنه سبحانه لما سلط الريح على منعه من الهبوط؛ فكأنه قد شده بها وأوثقه ومنعه من الحركة. ومعنى قوله: وقرنها إلى حده، أي جعلها مكاناً له؛ أي جعل حد الماء المذكور - وهو سطحه الأسفل - مما ساطح الريح التي تحمله وتقله. والفتيق: المفتوق المنبسط. والدفيق: المدفوق. واعتقم مهبها، أي جعل هبوبها عقيماً، والريح العقيم: التي لا تلقح سحاباً ولا شجراً؛ وكذلك كانت تلك الريح المشار إليها؛ لأنه سبحانه إنما خلقها لتمويج الماء فقط. وأدام مرها، أي ملازمتها، أرب بالمكان مثل ألب به، أي لازمه.

ومعنى قوله: وعصفت به عصفتها بالفضاء، فيه معنى لطيف؛ يقول: إن الريح إذا عصفت بالفضاء الذي لا أجسام فيه كان عصفتها شديداً لعدم المانع؛ وهذه الريح عصفت بذلك الماء العظيم عصفاً شديداً؛ كأنها تعصف في فضاء لا ممانع لها فيه من الأجسام.

الساجي: الساكن. والمائر: الذي يذهب ويحيى. وعب عباة: أي ارتفع أعلاه. وركامه: ثبجه وهضبه. والجو المنفهب: المفتوح الواسع. والموج المكفوف: الممنوع من السيالان، وعمد يدعمها: يكون لها دعامة. والدسار: واحد الدسر وهي المسامير.

والثواقب النيرة: المشرقة. وسراجاً مستطيراً، أي منتشر الضوء؛ يقال: قد استطار الفجر، أي انتشر ضوءه. ورقيم مائر، أي لوح متحرك، سمي الفلك رقيماً تشبيهاً باللوح، لأنه مسطح.

فأما القطب الراوندي فقال: إنه عليه السلام ذكر قبل هذه الكلمات أنه أنشأ حيواناً له أعضاء وأحشاء، ثم ذكر ههنا أنه فتق السماء، وميز بعضها عن بعض، ثم ذكر أن بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وهي سبع سموات، وكذلك بين كل أرض أرض، وهي سبع أيضاً. وروى حديث البقرة التي تحمل الملك الحامل للعرش، والصخرة التي تحمل البقرة، والحوت الذي يحمل الصخرة.

ولقائل أن يقول: إنه عليه السلام لم يذكر فيما تقدم أن الله تعالى خلق حيواناً ذا أعضاء، ولا قوله الآن: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، هو معنى قوله تعالى: " أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما " ، ألا تراه كيف صرح عليه السلام بأن البارئ سبحانه خلق الهواء الذي هو الفضاء، وعبر عن ذلك بقوله: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وليس فتق الأجواء هو فتق السماء! فإن قلت: فكيف يمكن التطبيق بين كلامه عليه السلام وبين الآية؟ قلت: إنه تعالى لما سلط الريح على الماء فعصفت به، حتى جعلته بخاراً وزبداً، وخلق من أحدهما السماء ومن الآخر الأرض، كان فاتقاً لهما من شيء واحد، وهو الماء.

فأما حديث البعد بين السموات وكونه مسيرة خمسمائة عام بين كل سماء وسماء، فقد ورد وروداً لم يوثق به؛ وأكثر

الناس على خلاف ذلك وكون الأرض سبعاً أيضاً خلاف ما يقوله جمهور العقلاء، وليس في القرآن العزيز ما يدل على تعدد الأرض إلا قوله تعالى: "ومن الأرض مثلهن"، وقد أولوه على الأقاليم السبعة. وحديث الصخرة والحوت والبقرة من الخرافات في غالب الظن، والصحيح أن الله تعالى يمسك الكل بغير واسطة جسم آخر. ثم قال الراوندي: السكائك: جمع سكاك، وهذا غير جائز، لأن فعلاً لا يجمع على فعائل؛ وإنما هو جمع سكاكة، ذكر ذلك الجواهري.

ثم قال: وسلطها على شدة، الشد: العدو. ولا يجوز حمل الشد ههنا على العدو؛ لأنه لا معنى له، والصحيح ما ذكرناه. وقال في تفسير قوله عليه السلام: جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، أراد تشبيهها بالموج لصفائها واعتلائها. فيقال له: إن الموج ليس بعالٍ يشبه به الجسم العالي، وأما صفاؤه فإن كل السموات صافية، فلماذا خص سفلاهن بذلك! ثم قال: ويمكن أن تكون السماء السفلى قد كانت أول ما وجدت موجاً ثم عقدتها. يقال له: والسموات الأخر كذلك كانت، فلماذا خص السفلى بذلك! ثم قال: الريح الأولى غير الريح الثانية، لأن أحدهما معرفة والأخرى نكرة، وهذا مثل قوله: صم اليوم، صم يوماً، فإنه يقتضي يومين.

يقال له: ليست المغيرة بينهما مستفادة من مجرد التعريف والتنكير، لأنه لو قال عليه السلام: وحمله على متن ريح عاصفة وزعزع قاصفة، لكانت الريحان: الأولى والثانية منكرتين معاً، وهما متغايرتان، وإنما علمنا تغايرهما، لأن إحداها تحت الماء والأخرى فوقه، والجسم الواحد لا يكون في جهتين.

الأصل: ثم فتق ما بين السموات العلا، فملاهن أطواراً من ملائكته؛ فمنهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان.

ومنهم أمناء على وحيه، والسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره. ومنهم الحفظة لعباده، والسدنة لأبواب جنانه. ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دوفهم حجب العزة وأستار القدرة؛ لا يتوهمون ربهم بالتصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر.

رأي المعتزلة بالملائكة

الشرح: الملك عند المعتزلة حيوان نوري، فمنه شفاف عادم اللون كالهواء، ومنه ملون بلون الشمس. والملائكة عندهم قادرون عالمون أحياء بعلوم وقدر وحياة؛ كالواحد منا، ومكلفون كالواحد منا، إلا أنهم معصومون. ولهم في كيفية تكليفهم كلام؛ لأن التكليف مبني على الشهوة، وفي كيفية خلق الشهوة فيهم نظر، وليس هذا الكتاب موضوعاً للبحث في ذلك.

وقد جعلهم عليه السلام في هذا الفصل أربعة أقسام: القسم الأول: أرباب العبادة؛ فمنهم من هو ساجد أبداً لم يقم من سجوده ليركع، ومنهم من هو راكع أبداً لم ينتصب قط، ومنهم الصافون في الصلاة بين يدي خالقهم لا يتزايلون، ومنهم

المسبحون الذين لا يملكون التسبيح والتحميد له سبحانه.

والقسم الثاني: السفراء بينه تعالى وبين المكلفين من البشر يتحمل الوحي الإلهي إلى الرسل، والمختلفون بقضائه وأمره إلى أهل الأرض.

والقسم الثالث ضربان: أحدهما حفظة العباد كالكرام الكاتبين، وكالملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات؛ ولولا ذلك لكان العطب أكثر من السلامة. وثانيهما سدنة الجنان.

القسم الرابع: حملة العرش، ويجب أن يكون الضمير في دونه، - وهو الهاء - راجعاً إلى العرش لا إلى البارئ سبحانه. وكذلك الهاء في قوله: تحته. ويجب أن تكون الإشارة بقوله: وبين من دونهم، إلى الملائكة الذين دون هؤلاء في الرتبة. فأما ألفاظ الفصل فكلها غنية عن التفسير إلا يسيراً، كالسدنة جمع سادن وهو الخادم، والمارق: الخارج. وتلفعت بالثوب، أي التحفت به.

وأما القطب الراوندي فجعل الأمان على الوحي وحفظة العباد وسدنة الجنان قسماً واحداً، فأعاد الأقسام الأربعة إلى ثلاثة. وليس بجيد، لأنه قال: ومنهم الحفظة، فلفظة ومنهم، تقتضي كون الأقسام أربعة؛ لأنه بما فصل بين الأقسام. وقال أيضاً: معنى قوله عليه السلام: لا يغشاهم نوم العيون، يقتضي أن لهم نوماً قليلاً لا يغفلهم عن ذكر الله سبحانه، فأما البارئ سبحانه فإنه لا تأخذه سنة ولا نوم أصلاً، مع أنه حي، وهذه هي المدحة العظمى. ولقائل أن يقول: لو ناموا قليلاً لكانوا زمان ذلك النوم - وإن قل - غافلين عن ذكر الله سبحانه؛ لأن الجمع بين النوم وبين الذكر مستحيل.

والصحيح أن الملك لا يجوز عليه النوم، كما لا يجوز عليه الأكل والشرب؛ لأن النوم من توابع المزاج، والملك لا مزاج له. وأما مدح البارئ بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم فخارج عن هذا الباب، لأنه تعالى يستحيل عليه النوم استحالة ذاتية، لا يجوز تبديلها، والملك يجوز أن يخرج عن كونه ملكاً، بأن يخلق في أجزاء جسمه رطوبة ويؤسسه، وحرارة وبرودة، يحصل من اجتماعها مزاج، ويتبع ذلك المزاج النوم. فاستحالة النوم عليه إنما هي ما دام ملكاً، فهو كقولك: الماء بارد، أي ما دام ماء؛ لأنه يمكن أن يستحيل هواء ثم ناراً، فلا يكون بارداً، لأنه ليس حينئذ ماء. والبارئ جلت عظمته يستحيل على ذاته أن يتغير، فاستحال عليه النوم استحالة مطلقة، مع أنه حي، ومن هذا إنشاء التمدح. وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق الخلق أربعة أصناف: الملائكة، والشیاطين، والجن، والإنس. ثم جعل الأصناف الأربعة عشرة أجزاء. فتسعة منها الملائكة وجزء واحد الشیاطین والجن والإنس، ثم جعل هؤلاء الثلاثة عشرة أجزاء، فتسعة منها الشیاطین وجزء واحد الجن والإنس، ثم جعل الجن والإنس عشرة أجزاء، فتسعة منها الجن وواحد الإنس".

وفي الحديث الصحيح: إن الملائكة كانت تصافح عمران بن الحصين وتزوره، ثم افتقدها، فقال: يا رسول الله، إن رجالاً كانوا يأتونني لم أر أحسن وجوهاً، ولا أطيب أرواحاً منهم، ثم انقطعوا. فقال صلى الله عليه وسلم: "إن أصابك جرح فكنت تكتمه؟" فقال: أجل، قال: "ثم أظهرته؟" قال: أجل، قال: "أما لو أقمت على كتمانك لزارتك الملائكة إلى أن تموت؟" وكان هذا الجرح أصابه في سبيل الله.

وقال سعيد بن المسيب وغيره: الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، والجن يتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون، والشياطين ذكور وإناث ويتوالدون، ولا يموتون حتى يموت إبليس .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم في رواية أبي ذر: " إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء وحق لها أن تظت فما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راکع أو ساجد واضع جبهته لله. والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفراش، ولخرجتم إلى الفلوات تجأرون إلى الله. والله لوددت أني كنت شجرة تعضد " .

قلت: ويوشك هذه الكلمة الأخيرة أن تكون قول أبي ذر.

واتفق أهل الكتب على أن رؤساء الملائكة وأعيانهم الأربعة: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، وهو ملك الموت. وقالوا: إن إسرافيل صاحب الصور وإليه النفخة، وإن ميكائيل صاحب النبات والمطر، وإن عزرائيل على أرواح الحيوانات، وإن جبرائيل على جنود السموات والأرض كلها، وإليه تدبير الرياح، وهو يتزل إليهم كلهم بما يؤمرون به.

وروى أنس بن مالك أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هؤلاء الذين استثنى بهم في قوله تعالى: " فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله " ؟ فقال: " جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل؛ فيقول الله عز وجل لعزرائيل: يا ملك الموت، من بقي ؟ وهو سبحانه أعلم - فيقول: سبحانه ربي ذا الجلال والإكرام! بقي جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت؛ فيقول: يا ملك الموت، خذ نفس إسرافيل، فيقع في صورته التي خلق عليها كأعظم ما يكون من الأطواد، ثم يقول: - وهو أعلم - من بقي يا ملك الموت؟ فيقول: سبحانه ربي يا ذا الجلال والإكرام! جبرائيل، وميكائيل، وملك الموت؛ فيقول: خذ نفس ميكائيل، فيقع في صورته التي خلق عليها، وهي أعظم ما يكون من خلق إسرافيل بأضعاف مضاعفة. ثم يقول سبحانه: يا ملك الموت، من بقي؟ فيقول: سبحانه ربي ذا الجلال والإكرام! جبرائيل، وملك الموت؛ فيقول تعالى: يا ملك الموت، مت فيموت ويبقى جبرائيل - وهو من الله تعالى بالمكان الذي ذكر لكم - فيقول الله: يا جبرائيل، إنه لا بد من أن يموت أحدنا، فيقع جبرائيل ساجداً يخفق بجناحيه، يقول: سبحانه ربي وبمحمد! أنت الدائم القائم الذي لا يموت؛ وجبرائيل الهالك الميت الفاني، فيقبض الله روحه، فيقع على ميكائيل وإسرافيل، وإن فضل خلقه على خلقهما كفضل الطود العظيم على الطرب من الطراب " .

وفي الأحاديث الصحيحة أن جبرائيل كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة دحية الكلبي، وأنه كان يوم بدر على فرس اسمه حيزوم، وإنه سمع ذلك اليوم صوته: أقدم حيزوم .

والكروبيون عند أهل الملة سادة الملائكة، كجبرائيل وميكائيل. وعند الفلاسفة أن سادة الملائكة هم الروحانيون -يعنون العقول الفعالة وهي المفارقة للعالم الجسماني المسلوقة التعلق به، لا بالحوال ولا بالتدبير. وأما الكروبيون فدون الروحانيون في المرتبة وهي أنفس الأفلاك المدبرة لها، الجارية منها مجرى نفوسنا مع أجسامنا.

ثم هي على قسمين: قسم أشرف وأعلى من القسم الآخر، فالقسم الأشرف ما كان نفساً ناطقة غير حالة في جرم الفلك، كأنفسنا بالنسبة إلى أبداننا. والقسم الثاني ما كان حالاً في جرم الفلك، ويجري ذلك مجرى القوى التي في أبداننا،

كالحس المشترك والقوة الباصرة.

منها في صفة خلق آدم عليه السلام: الأصل: ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها، وعذبها وسبخها، تربة سنها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبله حتى لزبت، فجبل منها ذات أحناء، ووصول وأعضاء، وفصول أجدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصت، لوقت معدود، وأجل معلوم.

ثم نفخ فيها من روحه فتمثلت إنساناً ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يخدمها، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام، والألوان والأجناس، معجوناً بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والأخلاق المتباينة، من الحر والبرد، والبله والجمود، والمساءة والسرور.

واستأدى الله سبحانه وتعالى الملائكة وديعته لديهم، وعهد وصيته إليهم، في الإذعان بالسجود له، والخنوع لتكريمته، فقال لهم: " اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس " وقيله؛ اعترقهم الحمية، وغلبت عليهم الشقوة، وتعززوا بخلقه النار، واستوهنوا خلق الصلصال؛ فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة، واستتماماً للبله، وإنجازاً للعدة، فقال: " فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم " .

الشرح: الحزن: ما غلظ من الأرض. وسبخها: ما ملح منها. وسنها بالماء، أي ملسها، قال:

راء تمشي في مرمٍ مسنون

ثم خاصرتها إلى القبة الخض

أي مملس. ولاطها، من قولهم: لطت الحوض بالطين، أي ملطته وطينته به. والبله بفتح الباء. من البلل ولزبت، بفتح الزاي، أي التصقت وثبتت. فجبل منها، أي خلق. والأحناء: الجوانب، جمع حنو. وأصلدها: جعلها صلباً، أي صلباً متيناً. وصلصت: ييس، وهو الصلصال. ويخدمها: يجعلها في مآربه وأوطاره كالخدم الذين تستعملهم وتستخدمهم. واستأدى الملائكة وديعته: طلب منهم أدائها. والخنوع: الخضوع. والشقوة، بكسر الشين، وفي الكتاب العزيز: " ربنا غلبت علينا شقوتنا " . واستوهنوا: عدّوه واهناً ضعيفاً. والنظرة، بفتح النون وكسر الظاء: الإمهال والتأخير. فأما معاني الفصل فظاهرة، وفيه مع ذلك مباحث: منها أن يقال: اللام في قوله: لوقت معدود، بماذا تتعلق؟ والجواب، أنها تتعلق بمحذوف تقديره: حتى صلصت كائنة لوقت، فيكون الجار والمجرور في موضع الحال، ويكون معنى الكلام أنه أصلدها حتى ييس وجفت معدة لوقت معلوم، فنفخ حينئذ روحه فيها. ويمكن أن تكون اللام متعلقة بقوله: فجبل، أي جبل وخلق من الأرض هذه الجثة لوقت، أي لأجل وقت معلوم، وهو يوم القيامة.

ومنها أن يقال: لماذا قال: من حزن الأرض وسهلها، وعذبها وسبخها؟ والجواب، أن المراد من ذلك أن يكون الإنسان مركباً من طباع مختلفة، وفيه استعداد للخير والشر، والحسن والقبح.

ومنها أن يقال: لماذا أخر نفخ الروح في جثة آدم مدة طويلة، فقد قيل: إنه بقي طيناً تشاهده الملائكة أربعين سنة، ولا يعلمون ما المراد به؟ والجواب، يجوز أن يكون في ذلك لطف للملائكة، لأنهم تذهب ظنونهم في ذلك كل مذهب، فصار كإنزال المتشابهات الذي تحصل به رياضة الأذهان وتخريجها، وفي ضمن ذلك يكون اللطف. ويجوز أن يكون في أخبار

ذرية آدم بذلك فيما بعد لطف بهم، ولا يجوز إخبارهم بذلك إلا إذا كان المخبر عنه حقاً. ومنها أن يقال: ما المعنى بقوله: ثم نفخ فيها من روحه؟ الجواب، أن النفس لما كانت جوهرًا مجردًا، لا متحيزة ولا حالة في المتحيز حسن لذلك نسبتها إلى البارئ، لأنها أقرب إلى الانتساب إليه من الجثمانيات. ويمكن أيضاً أن تكون لشرفها مضافة إليه، كما يقال: بيت الله، للكعبة وأما النفخ فعبارة عن إفاضة النفس على الجسد، ولما كان نفخ الريح في الوعاء عبارة عن إدخال الريح إلى جوفه، وكان الإحياء عبارة عن إفاضة النفس عن الجسد، ويستلزم ذلك حلول القوى والأرواح في الجثة باطنًا وظاهرًا، سمي ذلك نفخًا مجازاً.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله: معجوناً بطينة الألوان المختلفة؟ الجواب، أنه عليه السلام قد فسر ذلك بقوله: من الحر والبرد والبله والجمود، يعني الرطوبة واليبوسة، ومراده بذلك المزاج الذي هو كيفية واحدة حاصلة من كيفية مختلفة، قد انكسر بعضها ببعض. قوله: معجوناً، صفة إنساناً.

والألوان المختلفة، يعني الضروب والفنون، كما تقول: في الدار ألوان من الفاكهة.

ومنها أن يقال: ما المعنى بقوله: واستأدى الملائكة وديعته لديهم؟ وكيف كان هذا العهد الوصية بينه وبينهم؟ الجواب: أن العهد والوصية هو قوله تعالى: "إني خالق بشرًا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين".

ومنها أن يقال: كيف كانت شبهة إبليس وأصحابه في التعزز بخلقه النار؟ الجواب، لما كانت النار مشرقة بالذات والأرض مظلمة، وكانت النار أشبه بالنور، والنور أشبه بالمجردات، جعل إبليس ذلك حجة احتج بها في شرف عنصره على عنصر آدم عليه السلام، ولأن النار أقرب إلى الفلك من الأرض، وكل شيء كان أقرب إلى الفلك من غيره كان أشرف، والبارئ تعالى لم يعتبر ذلك، فعل سبحانه ما يعلم أنه المصلحة والصواب.

ومنها أن يقال: كيف يجوز السجود لغير الله تعالى؟ والجواب، أنه قيل: إن السجود لم يكن إلا لله تعالى، وإنما كان آدم عليه السلام قبله. ويمكن أن يقال: إن السجود لله على وجه العبادة، ولغيره على وجه التكرمة؛ كما سجد أبو يوسف وإخوته له. ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات في حسن ذلك وقبحه.

ومنها أن يقال: كيف جاز على ما تعتقدونه من حكمة البارئ أن يسلط إبليس على المكلفين؛ أليس هذا هو الاستفساد الذي تأبونه وتمنعونه!

والجواب، أما الشيخ أبو علي رحمه الله فيقول: حد المفسدة ما وقع عند الفساد، ولولا لم يقع مع تمكن المكلف من الفعل في الحالين، ومن فسد بدعاء إبليس لم يتحقق فيه هذا الحد، لأن الله تعالى علم أن كل من فسد عند دعائه، فإنه يفسد، ولو لم يدعه.

وأما أبو هاشم رحمه الله، فيحد المفسد بهذا الحد أيضاً، ويقول: إن في الإتيان بالطاعة مع دعاء إبليس إلى القبيح مشقة زائدة على مشقة الإتيان بها، لو لم يدع إبليس إلى القبيح، فصار الإتيان بها مع اعتبار دعاء إبليس إلى خلافها خارجاً عن الحد المذكور، وداخلاً في حيز التمكن الذي لو فرضنا ارتفاعه لما صح من المكلف الإتيان بالفعل، ونحن قلنا في الحد مع تمكن المكلف من الإتيان بالفعل في الحالين.

ومنها أن يقال: كيف جاز للحكيم سبحانه أن يقول لإبليس: "إنك من المنظرين" إلى يوم القيامة! وهذا إغراء بالقبيح،

وأنتم تمنعون أن يقول الحكيم لزيد: أنت لا تموت إلى سنة، بل إلى شهر أو يوم واحد، لما فيه من الإغراء بالقبيح، والعزم على التوبة قبل انقضاء الأمد.

والجواب، أن أصحابنا قالوا: إن الباري تعالى لم يقل إبليس: إني منظر إلى يوم القيامة، وإنما قال: " إلى يوم الوقت المعلوم "، وهو عبارة عن وقت موته واخترامه، وكل مكلف من الإنس والجن منظر إلى يوم الوقت المعلوم على هذا التفسير، وإذا كان كذلك لم يكن إبليس عالماً أنه يبقى لا محالة، فلم يكن في ذلك إغراء له بالقبيح. فإن قلت: فما معنى قوله عليه السلام: وإنجازاً للعدة؟ أليس معنى ذلك أنه قد كان وعده أن يبقيه إلى يوم القيامة! قلت: إنما وعده الإنظار، ويمكن أن يكون ليوم القيامة وإلى غيره من الأوقات ولم يبين فيه، فهو تعالى أنجز له وعده في الإنظار المطلق، وما من وقت إلا ويجوز فيه أن يخترم إبليس فلا يحصل الإغراء بالقبيح. وهذا الكلام عندنا ضعيف. ولنا فيه نظر مذكور في كتبنا الكلامية.

الأصل: ثم أسكن آدم داراً أرغد فيها عيشته، وآمن فيها محلته، وحذره من إبليس وعداوته، فاغتره عدوه نفاسةً عليه بدار المقام، ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجلد وجلاً، وبالاعتزاز ندماً، ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقاه كلمة رحمته ووعدته المرد إلى جنته؛ فأهبطه إلى دار البلية، وتناسل الذرية. الشرح: أما الألفاظ فظاهرة، والمعاني أظهر، وفيها ما يسأل عنه.

فمنها أن يقال: الفاء في قوله عليه السلام: فأهبطه، تقتضي أن تكون التوبة على آدم قبل هبوطه من الجنة. والجواب، أن ذلك أحد قولي المفسرين، ويعضده قوله تعالى: " وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدي، قال اهبطا منها "، فجعل الهبوط بعد قبول التوبة.

ومنها أن يقال: إذا كان تعالى قد طرد إبليس من الجنة لما أبى السجود، فكيف توصل إلى آدم وهو في الجنة حتى استترله عنها بتحسين أكل الشجرة له! الجواب، أنه يجوز أن يكون إنما منع من دخول الجنة على وجه التقريب والإكرام، كدخول الملائكة، ولم يمنع من دخولها على غير ذلك الوجه. وقيل: أنه دخل في جوف الحية، كما ورد في التفسير. ومنها أن يقال: كيف اشتبه على آدم الحال في الشجرة المنهي عنها فخالف النهي! الجواب، أنه قيل له: لا تقربا هذه الشجرة؛ وأريد بذلك نوع الشجرة، فحمل آدم النهي على الشخص، وأكل من شجرة أخرى من نوعها. ومنها أن يقال: هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام تصريح بوقوع المعصية من آدم عليه السلام، وهو قوله: فباع اليقين بشكه والعزيمة بوهنه، فما قولكم في ذلك؟ الجواب، أما أصحابنا فإنهم لا يمتنعون من إطلاق العصيان عليه، ويقولون: إنها كانت صغيرة، وعنده أن الصغائر جائزة على الأنبياء عليهم السلام. وأما الإمامية فيقولون: إن النهي كان نهي تنزيه لا نهي تحريم، لأنهم لا يميزون على الأنبياء الغلط والخطأ، لا كبيراً ولا صغيراً، وظواهر هذه الألفاظ تشهد بخلاف قولهم.

كيف ابتداء خلق البشر

واعلم أن الناس اختلفوا في ابتداء خلق البشر كيف كان، فذهب أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى أن مبدأ البشر هو آدم، الأب الأول عليه السلام. وأكثر ما في القرآن العزيز من قصة آدم مطابق لما في التوراة. وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك:

أما الفلاسفة، فإنهم زعموا أنه لا أول لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع. وأما الهند، فمن كان منهم على رأي الفلاسفة فقلوه ما ذكرناه. ومن لم يكن منهم على رأي الفلاسفة ويقول بحدوث الأجسام لا يثبت آدم، ويقول: إن الله تعالى خلق الأفلاك وخلق فيها طباعاً محرّكة لها بذاتها، فلما تحركت - وحشوها أجسام لاستحالة الخلاء - كانت تلك الأجسام على طبيعة واحدة، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلكية، فكان القريب من الفلك المتحرك أسخن وألطف، والبعيد أبرد وأكثر. ثم اختلطت العناصر، وتكونت منها المركبات، ومنها تكون نوع البشر كما يتكون الدود في الفاكهة واللحم، والبق في البطائح والمواضع العفنة، ثم تكون بعض البشر من بعض التوالد، وصار ذلك قانوناً مستمراً، ونسي التخليق الأول الذي كان بالتولد. ومن الممكن أن يكون بعض البشر في بعض الأراضي القاصية مخلوقاً بالتولد، وإنما انقطع التولد، لأن الطبيعة إذا وجدت للتكون طريقاً استغنت به عن طريق ثان. وأما الجحوس فلا يعرفون آدم، ولا نوحاً، ولا ساماً، ولا حاماً، ولا يافث، وأول متكون عندهم من البشر البشري المسمى كيومرث، ولقبه كوشاه: أي ملك الجبل، لأن كوه هو الجبل بالفهلوية، وكان هذا البشر في الجبال. ومنهم من يسميه كلشاه أي ملك الطين، وكل: اسم الطين، لأنه لم يكن حينئذ بشر ليملكهم.

وقيل: تفسير كيومرث: حي ناطق ميت. قالوا: وكان قد رزق من الحسن ما لا يقع عليه بصر حيوان إلا وبهت وأغمي عليه، ويزعمون أن مبدأ تكونه وحدوثه أن يزدان - وهو الصانع الأول - عندهم - أفكر في أمر أهرمن، - وهو الشيطان عندهم - فكرةً أوجبت أن عرق جبينه، فمسح العرق ورمى به، فصار منه كيومرث. ولهم خبط طويل في كيفية تكون أهرمن من فكرة يزدان أو من إعجابه بنفسه، أو من توحشه، وبينهم خلاف في قدم أهرمن، وحدوثه لا يليق شرحه بهذا الموضع.

ثم اختلفوا في مدة بقاء كيومرث في الوجود، فقال الأكثرون: ثلاثون سنة. وقال الأقلون: أربعون سنة، وقال قوم منهم: إن كيومرث مكث في الجنة التي في السماء ثلاثة آلاف سنة، وهي: ألف الحمل، وألف الثور، وألف الجوزاء. ثم أهبط إلى الأرض فكان بها آمناً مطمئناً ثلاثة آلاف سنة أخرى، وهي: ألف السرطان، وألف الأسد، وألف السنبلة. ثم مكث بعد ذلك ثلاثين أو أربعين سنة في حرب وخصام بينه وبين أهرمن حتى هلك. واختلفوا في كيفية هلاكه، مع اتفاقهم على أنه هلك قتلاً، فالأكثرون قالوا: إنه قتل ابناً لأهرمن يسمى خزورة، فاستغاث أهرمن منه إلى يزدان، فلم يجد بداً من أن يقاصه به حفظاً للعهود التي بينه وبين أهرمن. فقتله بابل أهرمن. وقال قوم: بل قتله أهرمن في صراع كان بينهما، قهره فيه أهرمن، وعلاه وأكله.

وذكروا في كيفية ذلك الصراع أن كيومرث كان هو القاهر لأهرمن في بادئ الحال، وأنه ركه وجعل يطوف به في العالم إلى أن سأل أهرمن: أي الأشياء أخوف له وأهولها عنده؟ قال له: باب جهنم، فلما بلغ به أهرمن إليها جمع به حتى

سقط من فوقه، ولم يستمسك، فعلاه وسأله عن أي الجهات يتدنى به في الأكل، فقال: من جهة الرجل لأكون ناظراً إلى حسن العالم مدة ما، فابتدأه أهرمن فأكله من عند رأسه، فبلغ إلى موضع الخصي وأوعية المني من الصلب، فقطر من كيومرث قطرتا نطفة على الأرض، فنبت منهما ريباستان في جبل بإصطخر يعرف بجبل دام داد؛ ثم ظهرت على تينك الريباستين الأعضاء البشرية في أول الشهر التاسع، وتمت في آخره، فتصور منهما بشران: ذكر وأنثى، وهما ميشى، وميشانه، وهما بتمتلة آدم وحواء على المليون. ويقال لهما أيضاً: ملهى وملهيانه، ويسميها مجوس خوارزم: مرد ومردانه، وزعموا أنهما مكثا خمسين سنة مستغنيين عن الطعام والشراب، متنعمين غير متأذيين بشيء إلى أن ظهر لهما أهرمن في صورة شيخ كبير، فحملهما على التناول من فواكه الأشجار وأكل منها، وهما يبصرانه شيخاً فعاد شاباً، فأكلا منها حينئذ، فوقعا في البلايا والشرور، وظهر فهما الحرص حتى تزوجا، وولد لهما ولد فأكلاه حرصاً، ثم ألقى الله تعالى في قلوبهما رافةً، فولد لهما بعد ذلك ستة أبطن؛ كل بطن ذكر وأنثى، وأسماءهم في كتاب أبستا - وهو الكتاب الذي جاء به زرادشت - معروفة، ثم كان في البطن السابع سيامك، وفرواك، فتزوجا، فولد لهما الملك المشهور الذي لم يعرف قبله ملك وهو أوشهنج، وهو الذي خلف جده كيومرث، وعقد له التاج، وجلس على السرير، وبني مدينتي بابل والسوس . فهذا ما يذكره المجوس في مبدأ الخلق.

الزنادقة من عصابة إبليس

وكان من المسلمين - ممن بالزندقة - من يذهب إلى تصويب إبليس في الامتناع من السجود، ويفضله على آدم، وهو بشار بن برد المرعش ، ومن الشعر المنسوب إليه:

والنار معبودة مذ كانت النار

النار مشرقة والأرض مظلمة

وكان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ ، أخو أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي، قاصاً لطيفاً وواعظاً مفوهاً، وهو من خراسان من مدينة طوس، وقدم إلى بغداد، ووعظ بها، وسلك في وعظه مسلكاً منكراً، لأنه كان يتعصب لإبليس، ويقول: إنه سيد الموحدين، وقال يوماً على المنبر: من لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق، أمر أن يسجد لغير سيده فأبى:

وأما غيركم حاشا وكلا

ولست بضارع إلا إليكم

وقال مرة أخرى: لما قال له موسى: أريني، فقال: لن قال: هذا شغلك، تصطفي آدم ثم تسود وجهه، وتخرجه من الجنة، وتدعوني إلى الطور، ثم تشمت بي الأعداء! هذا عملك بالأحباب، فكيف تصنع بالأعداء! وقال مرة أخرى: وقد ذكر إبليس على المنبر: لم يدر ذلك المسكين أن أظافير القضاء إذا حكّت أدمت، وأن قسي القدر، إذا رمت أصمت . ثم قال: لسان حال آدم ينشد في قصته وقصة إبليس:

فلما توفينا ثبت وزلت

وكننت وليلى في صعود من الهوى

وقال مرة أخرى: التقى موسى وإبليس عند عقبة الطور، فقال موسى: يا إبليس، لم لم تسجد لآدم؟ فقال: كلا، ما كنت لأسجد لبشر، كيف أوحده ثم ألتفت إلى غيره! ولكنك أنت يا موسى سألت رؤيته ثم نظرت إلى الجبل، فأنا أصدق منك في التوحيد.

وكان هذا النمط في كلامه ينفق على أهل بغداد، وصار له بينهم صيت مشهور واسم كبير. وحكى عنه أبو الفرج بن الجوزي في التاريخ، أنه قال على المنبر: معاشر الناس، إني كنت دائماً أدعوكم إلى الله، وأنا اليوم أحذركم منه، والله ما شددت الزناير إلا في حبه، ولا أدت الجزية إلا في عشقه.

وقال أيضاً: إن رجلاً يهودياً أدخل عليه ليسلم على يده، فقال له: لا تسلم، فقال له الناس: كيف تمنعه من الإسلام! فقال: احموه إلى أبي حامد - يعني أخاه - ليعلمه لا: إلى المنافقين. ثم قال: ويحكم أظنون أن قوله: لا إله إلا الله، منشور ولايته! ذا منشور عزله. وهذا نوع تعرفه الصوفية بالغلو والشطح. ويروى عن أبي يزيد البسطامي منه كثير. ومما يتعلق بما نحن فيه ما روه عنه من قوله:

ومن إبليس لولاكا!

مع الفتنة يهواكا

فمن آدم في البين

فتنت الكل والكل

ويقال: أول من قاس إبليس، فأخطأ في القياس وهلك بخطئه. ويقال: إن أول حمية وعصبية ظهرت لعصبة إبليس وحميته.

تضارب الآراء في خلق الجنة والنار

فإن قيل - فما قول شيوخكم في الجنة والنار؟ فإن المشهور عنهم أنهما لم يخلقا وسيخلقان عند قيام الأجسام، وقد دل القرآن العزيز، ونطق كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل بأن آدم كان في الجنة وأخرج منها. قيل: قد اختلف شيوخنا رحمهم الله في هذه المسألة، فمن ذهب منهم إلى أنهما غير مخلوقتين الآن يقول: قد ثبت بدليل السمع أن سائر الأجسام تعدم ولا يبقى في الوجود إلا ذات الله تعالى؛ بدليل قوله: "كل شيء هالك إلا وجهه"، وقوله: "هو الأول والآخر". فلما كان أولاً بمعنى أنه لا جسم من الوجود معه في الأزل وجب أن يكون آخراً، بمعنى أنه لا يبقى في الوجود جسم من الأجسام معه فيما لا يزال، وبآيات كثيرة أخرى، وإذا كان لا بد من عدم سائر الأجسام لم يكن في خلق الجنة والنار قبل أوقات الجزاء فائدة: لأنه لا بد أن يفنيهما مع الأجسام التي تفنى يوم القيامة، فلا يبقى مع خلقهما من قبل معنى. ويحملون الآيات التي دلت على كون آدم عليه السلام كان في الجنة وأخرج منها، على بستان من بساتين الدنيا. قالوا: والهبوط لا يدل على كونهما في السماء لجواز أن يكون في الأرض؛ إلا أنهما في موضع مرتفع عن سائر الأرض.

وأما غير هؤلاء من شيوخنا فقالوا: إنهما مخلوقان الآن، واعترفوا بأن آدم كان في جنة الجزاء والثواب، وقالوا: لا يبعد أن يكون في إخبار المكلفين بوجود الجنة والنار لطف لهم في التكليف، وإنما يحسن الإخبار بذلك إذا كان صدقاً، وإنما يكون صدقاً إذا كان خبره على ما هو عليه.

آدم والملائكة أيهما أفضل

فإن قيل: فما الذي يقوله شيوخنا في آدم والملائكة: أيهما أفضل؟ قيل: لا خلاف بين شيوخنا رحمهم الله أن الملائكة أفضل من آدم ومن جميع الأنبياء عليهم السلام، ولو لم يدل على ذلك إلا قوله تعالى في هذه القصة: "إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين"، لكفى.

وقد احتج أصحابنا أيضاً بقوله تعالى: "لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون"، وهذا كما تقول: لا يستنكف الوزير أن يعظمي ويرفع من منزلتي ولا الملك أيضاً. فإن هذا يقتضي كون الملك أرفع منزلة من الوزير وكذلك قوله: "ولا الملائكة المقربون"، يقتضي كونهم أرفع منزلة من عيسى.

ومما احتجوا به قولهم: إنه تعالى لما ذكر جبرائيل ومحمداً عليه السلام في معرض المدح، مدح جبرائيل عليه السلام بأعظم مما مدح به محمداً عليه السلام، فقال: "إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين". فالمديح الأول لجبرائيل والثاني لمحمد عليه السلام، ولا يخفى تفاوت ما بين المدحين.

فإن قيل: فهل كان إبليس من الملائكة أم من نوع آخر؟ قيل: قد اختلف في ذلك فمن قال: إنه من الملائكة احتج بالاستثناء في قوله: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس"، وقال: إن الاستثناء من غير الجنس خلاف الأصل. ومن قال: إنه لم يكن منهم احتج بقوله تعالى: "إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه". وأجاب الأولون عن هذا فقالوا: إن الملائكة يطلق عليهم لفظ الجن لاجتماعهم واستتارهم عن العين. وقالوا: قد ورد ذلك في القرآن أيضاً في قوله تعالى: "وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً"، والجنة ههنا الملائكة، لأنهم قالوا: إن الملائكة بنات الله، بدليل قوله: "أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً"، وكتب التفسير تشتمل من هذا على ما لا نرى الإطالة بذكره.

فأما القطب الراوندي: فقال في هذين الفصلين في تفسير ألفاظهما اللغوية: العذب من الأرض ما ينبت، والسبخ: ما لا ينبت، وهذا غير صحيح، لأن السبخ ينبت النخل، فيلزم أن يكون عذقاً على تفسيره! وقال: فجبل منها صورة، أي خلق خلقاً عظيماً. ولفظة جبل، في اللغة تدل على خلق سواء كان المخلوق عظيماً أو غير عظيم. وقال: الوصول: جمع وصل، وهو العضو، وكل شيء اتصل بشيء فما بينهما وصلة. والفصول: جمع فصل وهو الشيء المنفصل، وما عرفنا في كتب اللغة أن الوصل هو العضو، ولا قيل هذا.

وقوله بعد ذلك: وكل شيء اتصل بشيء فما بينهما وصلة لا معنى لذكره بعد ذلك التفسير. والصحيح أن مراده عليه السلام أظهر من أن يتكلف له هذا التكلف، ومراده عليه السلام أن تلك الصورة ذات أعضاء متصلة كعظم الساق أو عظم الساعد، وذات أعضاء منفصلة في الحقيقة، وإن كانت متصلة بروابط خارجها عن ذواتها كاتصال الساعد بالرفق واتصال الساق بالفخذ.

ثم قال: يقال: استخدمته لنفسي ولغيري، واخدمته لنفسي خاصة، وهذا مما لم أعرفه، ولعله نقله من كتاب.

ثم قال: والإذعان: الإنقياد، والخنوع: الخضوع، وإنما كرر الخنوع بعد الإذعان لأن الأول يفيد أنهم أمروا بالخضوع له في السجود، والثاني يفيد ثباتهم على الخضوع لتكرمه أبداً.

ولقائل أن يقول: إنه لم يكرر لفظة الخنوع، وإنما ذكر أولاً الإذعان، وهو الإنقياد والطاعة، ومعناه أنهم سجدوا، ثم ذكر الخنوع الذي معناه الخضوع، وهو يعطي معنى غير المعنى الأول، لأنه ليس كل ساجد خاضعاً بقلبه، فقد يكون ساجداً بظاهره دون باطنه. وقول الراوندي: أفاد بالثاني ثباتهم على الخضوع له لتكرمه أبداً تفسير لا يدل عليه اللفظ، ولا معنى الكلام.

ثم قال: قبيل إبليس نسله، قال تعالى: "إنه يراكم هو وقبيله"، وكل جيل من الإنس والجن قبيل. والصحيح أن قبيله نوعه، كما أن البشر قبيل كل بشري، سواء كانوا من ولده أو لم يكونوا. وقد قيل أيضاً: كل جماعة قبيل وإن اختلفوا، نحو أن يكون بعضهم روماً وبعضهم زنجاً، وبعضهم عرباً، وقوله تعالى: "إنه يراكم هو وقبيله" لا يدل على أنهم نسله. وقوله بعد: وكل جيل من الإنس والجن قبيل، ينقض دعواه أن قبيله لا يكون إلا نسله.

ثم تكلم في المعاني فقال: إن القياس الذي قاسه إبليس كان باطلاً، لأنه ادعى أن النار أشرف من الأرض، والأمر بالعكس؛ لأن كل ما يدخل إلى النار ينقص، وكل ما يدخل التراب يزيد. وهذا عجيب! فإذا نرى الحيوانات الميتة إذا دفنت في الأرض تنقص أجسامها، وكذلك الأشجار المدفونة في الأرض؛ على أن التحقيق أن المحترق بالنار وبالتالي لم تعدم أجزاؤه ولا بعضها، وإنما استحالت إلى صور أخرى.

ثم قال: ولما علمنا أن تقديم المفضل على الفاضل قبيح، علمنا أن آدم أفضل من الملائكة في ذلك الوقت وفيما بعده. ولقائل أن يقول: أليس قد سجد يعقوب ليوסף عليه السلام! أفيدل ذلك على أن يوسف أفضل من يعقوب! ولا يقال: إن قوله تعالى: "ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً"؛ لا يدل على سجود الوالدين؛ فلعل الضمير يرجع إلى الإخوة خاصة لأننا نقول: هذا الاحتمال مدفوع بقوله: "والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين"، وهو كناية عن الوالدين.

وأيضاً قد بينا أن السجود إنما كان لله سبحانه، وأن آدم كان قبلة، والقبلة لا تكون أفضل من الساجد إليها، ألا ترى أن الكعبة ليست أفضل من النبي عليه السلام! الأصل: واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة؛ من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعایش تحييههم، وآجال تفتيههم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم. ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله.

الشرح: اجتالهم الشياطين: أدارتهم، تقول: اجتال فلان فلاناً، واجتاله عن كذا وعلى كذا، أي أداره عليه، كأنه يصرفه

تارة هكذا، وتارة هكذا، يحسن له فعله، ويغريه به.

وقال الراوندي: اجتالتهم: عدلت بهم، وليس بشيء.

وقوله عليه السلام: واتر إليهم أنبياءه، أي بعثهم وبين كل نبين فترة، وهذا مما تغلط فيه العامة فتظنه كما ظن الراوندي أن المراد به المرادفة والمتابعة. والأوصاب: الأمراض. والغابر: الباقي، ويسأل في هذا الفصل عن أشياء: منها، عن قوله عليه السلام: أخذ على الوحي ميثاقهم.

والجواب، أن المراد أخذ على أداء الوحي ميثاقهم، وذلك أن كل رسول أرسل فمأخوذ عليه أداء الرسالة، كقوله تعالى: " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " .

ومنها أن يقال: ما معنى قوله عليه السلام: ليستأدوهم ميثاق فطرته؟ هل هذا إشارة إلى ما يقوله أهل الحديث في تفسير قوله تعالى: " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى " ؟ والجواب، أنه لا حاجة في تفسير هذه اللفظة إلى تصحيح ذلك الخبر، ومراده عليه السلام بهذا اللفظ أنه لما كانت المعرفة به تعالى وأدلة التوحيد والعدل مركوزة في العقول، أرسل سبحانه الأنبياء أو بعضهم، ليؤكدوا ذلك المركوز في العقول. وهذه هي الفطرة المشار إليها بقوله عليه السلام: " كل مولود يولد على الفطرة " .

ومنها أن يقال: إلى ماذا يشير بقوله: أو حجة لازمة؟ هل هو إشارة إلى ما يقوله الإمامية، من أنه لا بد في كل زمان من وجود إمام معصوم؟ الجواب، أنهم يفسرون هذه اللفظة بذلك ويمكن أن يكون المراد بها حجة العقل. وأما القطب الراوندي، فقال في قوله عليه السلام: واصطفى سبحانه من ولده أنبياء: الولد يقال على الواحد والجمع، لأنه مصدر في الأصل، وليس بصحيح، لأن الماضي فعل بالفتح، والمفتوح لا يأتي مصدره بالفتح، ولكن فعلاً مصدر فعل بالكسر، كقولك: ولدت عليه ولهاً، ووحمت المرأة وحمماً.

ثم قال: إن الله تعالى بعث يونس قبل نوح، وهذا خلاف إجماع المفسرين وأصحاب السير.

ثم قال: وكل واحد من الرسل والأئمة كان يقوم بالأمر، ولا يردعه عن ذلك قلة عدد أوليائه، ولا كثرة عدد أعدائه.

فيقال له: هذا خلاف قولك في الأئمة المعصومين، فإنك تجيز عليهم التقية وترك القيام بالأمر إذ كثرت أعداؤهم.

وقال في تفسير قوله عليه السلام: من سبق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله: كان ألطف الأنبياء المتقدمين

وأوصيائهم، أن يعرفوا الأنبياء المتأخرين وأوصيائهم، فعرفهم الله تعالى ذلك، وكان من اللطف بالمأخرين وأوصيائهم أن يعرفوا أحوال المتقدمين من الأنبياء والأوصياء، فعرفهم الله تعالى ذلك أيضاً، فتم اللطف لجميعهم.

ولقائل أن يقول: لو كان عليه السلام قال: أو غابر عرف من قبله، لكان هذا التفسير مطابقاً، ولكنه عليه السلام لم يقل ذلك، وإنما قال: عرفه من قبله، وليس هذا التفسير مطابقاً لقوله: عرفه. والصحيح أن المراد به: من نبي سبق عرف من يأتي بعده من الأنبياء، أي عرفه الله تعالى ذلك، أو نبي غابر نص عليه من قبله، وبشر به كبشارة الأنبياء بمحمد عليه السلام.

الأصل: على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء؛ وخلفت الأبناء؛ إلى أن بعث الله سبحانه محمداً صلى

الله عليه وآله لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبهٍ لله بخلقه، أو ملحدٍ في اسمه، أو مشيرٍ إلى غيره؛ فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة.

ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا، ورغب به عن مقام البلوى، فقبضه إليه كريماً، وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها - إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم - كتاب ربكم، مبيناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه؛ مفسراً جملة، ومبيناً غوامضه، بين مأخوذٍ ميثاق علمه، وموسعٍ على العباد في جهله، وبين مثبتٍ في الكتاب فرضه، ومعلومٍ في السنة نسخه، وواجبٍ في السنة أخذه، ومرخصٍ في الكتاب تركه، وبين واجبٍ لوقته، وزائلٍ في مستقبله، ومباينٍ بين محارمه، من كبيرٍ أوعد عليه نيرانه، أو صغيرٍ أرصد له غفرانه. وبين مقبولٍ في أدناه، وموسعٍ في أقصاه.

الشرح: قوله عليه السلام: نسلت القرون. والهاء في قوله: لإنجاز عدته، راجعة إلى البارئ سبحانه. والهاء في قوله: وإتمام نبوته، راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقوله: مأخوذ على النبيين ميثاقه، قيل: لم يكن نبي قط إلا وبشر بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وأخذ عليه تعظيمه؛ وإن كان بعد لم يوجد.

فأما قوله: وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، فإن العلماء يذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث والناس أصناف شتى في أديانهم: يهود، نصارى، ومجوس، وصابئون، وعبداء أصنام، وفلاسفة، وزنادقة.

أديان العرب وفرقهم في الجاهلية

فأما الأمة التي بعث صلى الله عليه وسلم فيها فهم العرب، وكانوا أصنافاً شتى، فمنهم معطلة، ومنهم غير معطلة. فأما المعطلة منهم، فبعضهم أنكر الخالق والبعث والإعادة، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم: " ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر " ، فجعلوا الجامع لهم الطبع، والمهل لهم الدهر. وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: " قال من يحيي العظام وهي رميم " . ومنهم من أقر بالخالق ونوع من الإعادة، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام، وزعموا أنها شفعاء عند الله في الآخرة، وحجوا لها، ونحروا لها الهدى، وقربوا لها قربان، وحللوا وحرموا، وهم جمهور العرب، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: " وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق " .

فمن نطق شعره بإنكار البعث بعضهم يرثي قتلى بدر :

من الفتيان والقوم الكرام!

من الشيزى تكلك بالسنام

وكيف حياة أصداء وهام!

فماذا بالقليب قليب بدرٍ

وماذا بالقليب قليب بدرٍ

أيخبرنا ابن كبشة أن سنحيا

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

إذا ما الرأس زال بمنكبيه

فقد شبع النيس من الطعام

أَيَقْتُلْنِي إِذَا مَا كُنْتُ حَيًّا

ويحييني إِذَا رَمَتْ عَظَامِي !

وكان من العرب من يعتقد التناسخ وتنقل الأرواح في الأجساد، ومن هؤلاء أرباب الهامة، التي قال عليه السلام عنهم: " لا عدوى ولا هامة ولا صفر " . وقال ذو الأصبع:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي

أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وقالوا: إن ليلي الأخيلية لما سلمت على قبر توبة بن الحمير خرج إليها هامة من القبر صائحة، أفزعت ناقتها، فوقصت بها فماتت، وكان ذلك تصديق قوله:

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت

علي ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا

إليها صدّى من جانب القبر صائح

وكان توبة ويلي في أيام بني أمية.

وكانوا في عبادة الأصنام مختلفين، فمنهم من يجعلها مشاركة للبارئ تعالى، ويطلق عليها لفظة الشريك، ومن ذلك قولهم في التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه، وهم الذين قالوا: " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " . وكان في العرب مشبهة ومجسمة، منهم أمية بن أبي الصلت، وهو القائل:

من فوق عرش جالسٍ قد حط رج

ليه إلى كرسیه المنصوب

وكان جمهورهم عبدة الأصنام، فكان ود لكبٍ بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ونسر لحمير، ويغوث لهمدان، واللات لثقيف بالطائف، والعزى لكنانة وقريش وبعض بني سليم، ومناة لغسان والأوس والخزرج، وكان هبل لقريش خاصة على ظهر الكعبة، وأساف ونائلة على الصفا والمروة. وكان في العرب من يميل إلى اليهودية، منهم جماعة من التبابعة وملوك اليمن، ومنهم نصارى كبني تغلب والعباديين رهط عدي بن زيد، ونصارى نجران، ومنهم من كان يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والأنواء.

فأما الذين ليسوا بمعطلة من العرب فالقليل منهم، وهم المتأهلون أصحاب الورع والتحرج عن القبائح، كعبد الله وعبد المطلب وابنه أبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الإيادي، وعامر بن الظرب العدواني، وجماعة غير هؤلاء.

وغرضنا من هذا الفصل بيان قوله عليه السلام: بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه، إلى غير ذلك، وقد ظهر بما شرحناه. ثم ذكر عليه السلام أن محمداً صلى الله عليه وسلم خلف في الأمة بعده كتاب الله تعالى طريقاً واضحاً، وعلماً قائماً، والعلم المنار يهتدى به، ثم قسم ما بينه عليه السلام في الكتاب أقساماً: فمنها: حلاله وحرامه؛ فالحلال كالنكاح، والحرام كالزنا.

ومنها: فضائله وفرائضه، فالفضائل النوافل، أي هي فضلة غير واجبة كركعتي الصبح وغيرهما، والفرائض كفريضة

وقال الراوندي: الفضائل ههنا: جمع فضيلة، وهي الدرجة الرفيعة، وليس بصحيح، ألا تراه كيف جعل الفرائض في مقابلتها وقسيماً لها، فدل ذلك على أنه أراد النوافل! ومنها: ناسخه ومنسوخه، فالناسخ كقوله: " فاقتلوا المشركين " ، والمنسوخ كقوله: " لا إكراه في الدين " .

ومنها: رخصه وعزائمه، فالرخص كقوله تعالى: " فمن اضطر في مخمصةٍ والعزائم كقوله: " فاعلم أنه لا إله إلا الله " . ومنها: خاصه وعامه، فالخاص كقوله تعالى: " وامرأة مؤمنةٌ إن وهبت نفسها للنبي " ، والعام كالألفاظ الدالة على الأحكام العامة لسائر المكلفين كقوله: " وأقيموا الصلاة " . ويمكن أن يراد بالخاص العمومات التي يراد بها الخصوص كقوله: " وأوتيت من كل شيءٍ " ، وبالعام ما ليس مخصوصاً، بل هو على عموم كقوله تعالى: " والله بكل شيءٍ عليم " .

ومنها: عبره وأمثاله، فالعبر كقصة أصحاب الفيل، والآيات التي تتضمن النكال والعذاب النازل بأمر الأنبياء من قبل، والأمثال كقوله: " كمثل الذي استوقد ناراً " .

ومنها: مرسله ومحدوده، وهو عبارة عن المطلق والمقيد، وسمي المقيد محدوداً وهي لفظة فصيحة جداً، كقوله: " فتحرير رقبةٍ " ، وقال في موضع آخر: " وتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ " .

ومنها: محكمه ومتشابهه، فمحكمه كقوله تعالى: " قل هو الله أحد " ، والمتشابه كقوله: " إلى ربها ناظرة " .

ثم قسم عليه السلام الكتاب قسمة ثانية، فقال: إن منه ما لا يسع أحداً جهله ومنه ما يسمع الناس جهله، مثال الأول قوله: " الله لا إله هو الحي القيوم " ، ومثال الثاني: " كهيعص " " حمسق " .

ثم قال: ومنه ما حكمه مذكور في الكتاب منسوخ بالسنة، وما حكمه مذكور في السنة منسوخ بالكتاب؛ مثال الأول قوله تعالى: " فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت " ؛ نسخ بما سنه عليه السلام من رجم الزاني المحصن. ومثال الثاني صوم يوم عاشوراء، كان واجباً بالسنة ثم نسخ صوم شهر رمضان الواجب بنص الكتاب.

ثم قال: وبين واجبٍ بوقته وزائل في مستقبله، يريد الواجبات الموقته كصلاة الجمعة، فإنها تجب في وقت مخصوص، ويسقط وجوبها في مستقبل ذلك الوقت.

ثم قال عليه السلام: ومباين بين محارمه، الواجب أن يكون ومباينٌ بالرفع لا بالجر، فإنه ليس معطوفاً على ما قبله، ألا ترى أن جميع ما قبله يستدعي الشيء وضده، أو الشيء ونقيضه؛ وقوله: ومباين بين محارمه، لا نقيض ولا ضد له، لأنه ليس القرآن العزيز على قسمين: أحدهما مباين بين محارمه والآخر غير مباين، فإن ذلك لا يجوز، فوجب رفع مباين، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف. ثم فسر ما معنى المباينة بين محارمه، فقال: إن محارمه تنقسم إلى كبيرة وصغيرة، فالكبيرة أوعد سبحانه عليها بالعقاب، والصغيرة مغفورة، وهذا نص مذهب المعتزلة في الوعيد.

ثم عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة، ورجع إلى تقسيم الكتاب فقال: وبين مقبول في أدناه، وموسع في أقصاه، كقوله: " فاقرءوا ما تيسر منه " ، فإن القليل مقبول، والكثير منه موسع مرخص في تركه.

الأصل: وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلة للأمم، يردونه ورود الأنعام، ويوهون إليه وله الحمام. وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعائهم لعزته. واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته. جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعائدين حرماً، وفرض حقه، وأوجب حجه، وكتب عليكم وفادته، فقال سبحانه: " والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين " .

الشرح: الوله: شدة الوجد؛ حتى يكاد العقل يذهب، وله الرجل يوله ولهاً. ومن روى: يألهون إليه ولوه الحمام، فسرّه بشيء آخر، وهو يعكفون عليه عكوف الحمام. وأصل أله عبد، ومنه الإله، أي المعبود. ولما كان العكوف على الشيء كالعبادة له لملازمته والانقطاع إليه قيل: أله فلان إلى كذا، أي عكف عليه كأنه يعبده. ولا يجوز أن يقال: يألهون إليه، في هذا الموضع. بمعنى يوهون، وأن أصل الهمزة الواو كما فسرّه الراوندي، لأن فعولاً لا يجوز أن يكون مصدرّاً من فعلت بالكسر، ولو كان يألهون هو يوهون، كان أصله أله بالكسر، فلم يجوز أن يقول: ولوه الحمام، وأما على ما فسرناه نحن فلا يمتنع أن يكون الولوه مصدرّاً، لأن أله مفتوح، فصار كقولك: دخل دخولاً. وباقي الفصل غني عن التفسير.

الملائكة وآدم والبيت المعمور

جاء في الخبر الصحيح أن في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضراح، وأن هذا البيت تحته على خط مستقيم، وأنه المراد بقوله تعالى: " والبيت المعمور " ، أقسم سبحانه به لشرفه ومزله عنده، وفي الحديث: إن آدم لما قضى مناسكه، وطاف بالبيت لقبيته الملائكة، فقالت: يا آدم؛ لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. قال مجاهد: إن الحاج إذا قدموا مكة استقبلتهم الملائكة، فسلموا على ركبّان الإبل، وصافحوا ركبّان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقاً.

من سنة السلف أن يستقبلوا الحاج، ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالذنوب والآثام.

وفي الحديث: إن الله تعالى قد وعد هذا البيت أن يحجه في كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا أتمهم الله بالملائكة، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة، وكل من حجها متعلق بأستارها يسعون حولها، حتى تدخل الجنة فيدخلون معها. وفي الحديث: إن من الذنوب ذنباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة. وفيه: أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لا يغفر له.

عمر بن ذر الهمداني: لما قضى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة وقال مودعاً للبيت: ما زلنا نخل إليك عروة، ونشد إليك أخرى، ونصعد لك أكمة، ونهبط أخرى، وتخفصنا أرض، وترفعنا أخرى، حتى أتيناك. فليت شعري بم يكون منصرفنا؟ أبذنب مغفور، فأعظم بها من نعمة! أم بعمل مردود فأعظم بها من مصيبة! فيا من له خرجنا، وإليه قصدنا، وبجرمه اخننا، ارحم. يا معطي الوفد بفنائك، فقد أتيناك بما معرة جلودها، ذابلةً أسنمتها، نقبةً أخفافها. وإن أعظم الرزية أن نرجع

وقد اكتفتنا الخيبة. اللهم إن للزائرين حقاً فاجعل حقنا عليك غفران ذنوبنا، فإنك جواد كريم، ماجد لا ينقصك نائل ، ولا يهلك سائل.

ابن جريج: ما ظننت أن الله ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة، حتى كنت باليمن، فسمعت منشداً ينشد قوله :

بالله قولاً له في غير معتبةٍ ماذا أردت بطول المكث في اليمن

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن!

فحركني ذلك على ترك اليمن، والخروج إلى مكة، فخرجت فحججت.

سمع أبو حازم امرأة حاجة ترفث في كلامها، فقال: يا أمة الله، ألسنت حاجة! ألا تتقين الله! فسفرت عن وجه صبيح، ثم قالت له: أنا من اللواتي قال فيهن العرجي :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وردت على الخدين برداً مهلهلاً

من اللاء لم يحجن يبغيح حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلاً

فقال أبو حازم: فأنا أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار، فبلغ ذلك سعيد بن المسيب، فقال: رحم الله أبا حازم! لو كان من عباد العراق، لقال لها: اعزبي يا عدوة الله! ولكنه ظرف نساك الحجاز.

القول في الكلام على السجع

واعلم أن قوماً من أرباب علم البيان عابوا السجع، وأدخلوا خطب أمير المؤمنين عليه السلام في جملة ما عابوه؛ لأنه يقصد فيها السجع، وقالوا: إن الخطب الخالية من السجع والقرائن والفواصل، هي خطب العرب، وهي المستحسنة الخالية من التكلف، كخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وهي: " الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على العمل بطاعته، واستفتح الله بالذي هو خير. أما بعد، أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري، لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا. أيها الناس، إن دماؤكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول رباً أبداً به ربا العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبداً به دم آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، فيه مائة بعير، فمن ازداد فهو من الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك فيما تحتقرون من أعمالكم.

أيها الناس، إنما النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يخلونه عاماً، ويحرمونه عاماً، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت! أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً، فعليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن بيوتكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة؛ فإن فعلن فقد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم كسوتهن ورزقهن بالمعروف، فإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس. ألا هل بلغت اللهم فاشهد! ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا؛ كتاب الله ربكم. ألا هل بلغت؟ الله اشهد.

أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وادم من تراب؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس، إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فهو ملعون، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً. والسلام عليكم ورحمة الله عليكم.

واعلم أن السجع لو كان عيباً لكان كلام الله سبحانه معيباً لأنه مسجوع، كله ذو فواصل وقرائن؛ ويكفي هذا القدر وحده مبطلاً لمذهب هؤلاء. فأما خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه فإنها وإن لم تكن ذات سجع، فإن أكثر خطبه مسجوع، كقوله: "إن مع العز ذلاً، وإن مع الحياة موتاً، وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكل شيء حساباً، ولكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً، وإن على كل شيء رقيباً، وإنه لا بد لك من قرين يدفن معك هو حي وأنت ميت؛ فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لثيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك، ولا تبعث إلا معه، ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً فإنه إن صلح أنست به، وإن فسد لم تستوحش إلا منه، وهو عملك".

فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه، وكذلك خطبه الطوال كلها. وأما كلامه القصير، فإنه غير مسجوع، لأنه لا يحتل السجع، وكذلك القصير من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

فأما قولهم: إن السجع يدل على التكلف، فإن المذموم هو التكلف الذي تظهر سماجته وثقله للسامعين؛ فإما التكلف المستحسن، فأبي عيب فيه! ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك!

واحتج عائبو السجع بقوله عليه السلام لبعضهم منكراً عليه: "أسجعاً كسجع الكهان"! ولولا أن السجع منكر لما أنكر

عليه السلام سجع الكهان وأمثاله. فيقال لهم: إنما أنكر عليه السلام السجع الذي يسجع الكهان أمثاله، لا السجع على الإطلاق، وصورة الواقعة أنه عليه السلام أمر في الجنين بغرة ، فقال قائل: أأدي من لا شرب ولا أكل، و لا نطق ولا استهل ، ومثل هذا يطل ! فأنكر عليه السلام ذلك، لأن الكهان كانوا يحكمون في الجاهلية بألفاظ مسجوعة كقولهم: حبة بر، في إحليل مهر. وقولهم: عبد المسيح على حمل مشيح ، لرؤيا الموبدان ، وارتجاس الإيوان؛ ونحو ذلك من كلامهم. وكان عليه السلام قد أبطل الكهانة والتنجيم والسحر، ونهى عنها، فلما سمع كلام ذلك القائل أعاد الإنكار، ومراده به تأكيد تحريم العمل على أقوال الكهنة. ولو كان عليه السلام قد أنكر السجع لما قاله، وقد بينا أن كثيراً من كلامه مسجوع، وذكرنا خطبته.

ومن كلامه عليه السلام المسجوع خبر ابن مسعود رحمه الله تعالى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " استحيوا من الله حق الحياء "، فقلنا: إنا لنستحيي يا رسول الله من الله تعالى، فقال: " ليس ذلك ما أمرتكم به، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ". ومن ذلك كلامه المشهور لما قدم المدينة عليه السلام أول قدومه إليها: " أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا الليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام ". وعود الحسن عليه السلام، فقال: " أعيدك من الهامة، والسامة، وكل عين لامة "؛ وإنما أراد ملمة، فقال: لامة لأجل السجع.

وكذلك قوله: " ارجعن مأزورات، غير مأجورات "، وإنما هو موزورات، بالواو.

ومن خطبة له بعد انصرافه من صفين

صفين: اسم الأرض التي كانت فيها الحرب، والنون فيها أصلية، ذكر ذلك صاحب الصحاح؛ فوزنهما على هذا فعيل، كفسيق، وخمير، وصريع، وظليم، وضليل، فإن قيل: فاشتقاقه مماذا يكون؟ قيل: لو كان اسماً لحيوان لأمكن أن يكون من صفن الفرس - إذا قام على ثلاث وأقام الرابعة على طرف الحافر - يصفن بالكسر، صفوناً. أو من صفن القوم، إذا صفوا أقدامهم لا يخرج بعضها من بعض.

فإن قيل: أيمن أن يشتق من ذلك وهو اسم أرض؟ قيل: يمكن على تعسف، وهو أن تكون تلك الأرض لما كانت مما تصفن فيها الخيل، أو تصطف فيها الأقدام؛ سميت صفين.

فإن قيل: أيمن أن تكون النون زائدة مع الياء، كما هو في غسلين، وغفرين؟ قيل: لو جاء في الأصل صف، بكسر الصاد لأمكن أن تتوهم الزيادة، كالزيادة في غسل، وهو ما يغتسل به، نحو الخطمي وغيره، فقيل: غسلين، لما يسيل من صديد أهل النار ودمائهم، وكالزيادة في غفر وهو الخبيث الداعي ، فقيل: غفرين، لمأسدة بعينها. وقيل: غفريت للداهية، هكذا ذكره.

ولقائل أن يقول لهم: أليس قد قالوا للأسد: غفري، بفتح العين، وأصله العفر، بالكسر، فقد بان أنهم لم يراعوا في اشتقاقهم وتصريف كلامهم الحركة المخصوصة، وإنما يراعون الحرف، ولا كل الحروف، بل الأصلي منها؛ فغير ممتنع

على هذا عندنا أن تكون الياء والنون زائدتين في صفين.

وصفين: اسم غير منصرف للتانيث والتعريف، قال :

يوم الخريبة من قتل المحلينا

وشاركت كفه كفي بصفيها

ثم اسقني مثلها أمين آمينا

إني أدِين بما دان الوصي به

وبالذي دان يوم النهر دنت به

تلك الدماء معاً يا رب في عنقي

الأصل: أحمدته استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزته، واستعصاماً من معصيته. وأستيعنه فاقّةً إلى كفايته؛ إنه لا يضل من هداة، ولا يثُل من عاداه، ولا يفتقر من كفاه، فإنه أرجح ما وزن، وأفضل ما خزن. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ممتحناً لإخلاصها، معتقداً مصاصها، نتمسك بها أبداً ما أبقانا، وندخرها لأهاويل ما يلقانا؛ فإنها عزيمة الإيمان، وفتاحة الإحسان، ومرضاة الرحمن ومدرحة الشيطان.

الشرح: وأل، أي نجا، يثُل. والمصاص: خالص الشيء. والفاقة: الحاجة والفقر. والأهاويل: جمع أهوال، والأهوال: جمع هول، فهو جمع الجمع، كما قالوا: أنعام وأناعم، وقيل: أهاويل أصله تهاويل، وهي ما يهولك من شيء، أي يروعك، وإن جاز هذا فهو بعيد، لأن التاء قل أن تبدل همزة. والعزيمة: النية المقطوع عليها، ومدرحة الشيطان، أي تدخره، أي تبعده وتطرده.

وقوله عليه السلام: استتماماً، واستسلاماً، واستعصاماً؛ من لطيف الكناية وبديعها، فسبحان من خصه بالفضائل التي لا تنتهي ألسنة الفصحاء إلى وصفها، وجعله إمام كل ذي علم، وقدوة كل صاحب خصيصة! وقوله: فإنه أرجح، الهاء عائدة إلى ما دل عليه قوله: أحمدته، يعني الحمد، والفعل يدل على المصدر، وترجع الضمائر إليه كقوله تعالى: " بل هو شر " وهو ضمير البخل الذي دل عليه قوله: " ييخلون ".

لزوم ما لا يلزم أحد أنواع البديع

وقوله عليه السلام: وزن وخزن، بلزوم الزاي، من الباب المسمى لزوم ما لا يلزم، وهو أحد أنواع البديع، وذلك أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً؛ هذا في المنشور، وأما في المنظوم فأن تتساوى الحروف التي قبل الروي مع كونها ليست بواجبة التساوي، مثال ذلك قول بعض شعراء الحماسة :

بلباقة فأدقها وأجلها

ما كان أكثرها لنا وأقلها

شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها

حببت تحيتها فقلت لصاحبي

وإذا وجدت لها وساوس سلوة

ألا تراه كيف قد لزم اللام الأولى من اللامين اللذين صاروا حرفاً مشدداً! فالثاني منهما هو الروي، واللام الأول الذي قبله التزام ما لا يلزم؛ فلو قال في القصيدة: وصلها، وقبلها، وفعلها، لجاز. واحترزنا نحن بقولنا: مع كونها ليست بواجبة التساوي، عن قول الراجز، وهو من شعر الحماسة أيضاً:

قد ملئت من نرق طيش

وفيشة ليست كهذي الفيش

من ذاقها يعرف طعم العيش

إذا بدت قلت أمير الجيش

فإن لزوم الياء قبل حرف الروي ليس من هذا الباب، لأنه لزوم واجب، ألا ترى أنه لو قال في هذا الرجز: البطش والفرش والعرش لم يجوز أن يكون حرفاً خارجاً عن حروف العلة. وقد جاء من اللزوم في الكتاب العزيز مواضع ليست بكثيرة، فمنها قوله سبحانه: " فتكون للشيطان ولياً، قال أراغب أنت عن آلهي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجري ملياً " ، وقوله تعالى: " ولكن كان في ضلال بعيد، قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد " ، وقوله: " اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق " ، وقوله: " والطور، وكتاب مسطور " ، وقوله: " بكاهن ولا مجنون، أم يقولون شاعر نترصد به ريب المنون " ؛ وقوله: " في سدر مخضود، وطلح منضود " ، وقوله: " فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير " ، والظاهر أن ذلك غير مقصود قصده.

ومما ورد منه في كلام العرب أن لقيط بن زرارة تزوج ابنة قيس بن خالد الشيباني فأحبته، فلما قتل عنها تزوجت غيره، فكانت تذكر لقيطاً، فسألها عن حبها له، فقالت: أذكره وقد خرج تارة في يوم دجن، وقد تطيب وشرب الخمر، وطرده بقرأ، فصرع بعضها، ثم جاءني وبه نضح دم وعبير، فضممني ضمة، وشممني شمة، فليتني كنت مت شمة. وقد صنع أبو العلاء المعري كتاباً في اللزوم من نظمه، فأتى فيه بالجيد والردى، وأكثره متكلف، ومن جيده قوله:

قلم البليغ بغير حظ مغزل

لا تطلبن بآلة لك حالة

هذا له رمح وهذا أعزل

سكن السماكان السماء كلاهما

الأصل: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتحويلاً بالمثلات، والناس في فتنٍ انجذم فيها حبل الدين، وترعزعت سوارى اليقين، واختلف النجر، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمى المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل. عصي الرحمن، ونصر الشيطان، وخذل الإيمان، فانهارت دعائمه، وتنكرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شركه.

أطاعو الشيطان فسلخوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، وقام لواؤه. في فتنٍ داستهم بأخفافها، ووطئتهم بأظلافها، وقامت على سنانبكها، فهم فيها تائهون حائرون، جاهلون مفتونون، في خير دارٍ وشر جيرانٍ، نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرضٍ عالمها ملحم، وجاهلها مكرم.

الشرح: قوله عليه السلام: والعلم المأثور، يجوز أن يكون عني به القرآن، لأن المأثور المحكي، والعلم ما يهتدى به، والمتكلمون يسمون المعجزات أعلاماً. ويجوز أن يريد به أحد معجزاته غير القرآن، فإنها كثيرة ومأثورة، ويؤكد هذا قوله بعد: والكتاب المسطور، فدل على تباينهما، ومن يذهب إلى الأول يقول: المراد بهما واحد، والثانية تأكيد الأولى على قاعدة الخطابة والكتابة.

والصادع: الظاهر الجلي، قال تعالى: " فاصدع بما تؤمر " ، أي أظهره ولا تخفه. والمثالث؛ بفتح الميم وضم الثاء: العقوبات، جمع مثلة؛ قال تعالى: " ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثالات " .

وانجذم: انقطع. والسواري: جمع سارية، وهي الدعامة يدعم بها السقف. والنجر: الأصل، ومثله النجار. وانهارت: تساقطت. والشرك: الطرائق، جمع شرك. والأخفاف للإبل، والأظلاف للبقر والمعز. وقال الراوندي في تفسير قوله: خير دار وشر جيران: خير دار: الكوفة. وقيل الشام، لأنها الأرض المقدسة، وأهلها شر جيران، يعني أصحاب معاوية. وعلى التفسير الأول يعني أصحابه عليه السلام. قال: وقوله: نومهم سهود، يعني أصحاب معاوية لا ينامون طول الليل، بل يرتبون أمره. وإن كان وصفاً لأصحابه عليه السلام بالكوفة - وهو الأقرب - فالمعنى أنهم خائفون يسهرون ويكون لقلّة موافقتهم إياه؛ وهذا شكاية منه عليه السلام لهم، وكحلهم دموع، أي نفاقاً، فإنه إذا تم نفاق المرء ملك عينيه.

ولقائل أن يقول: لم يجز فيما تقدم ذكر أصحابه عليه السلام ولا أصحاب معاوية، والكلام كله في وصف أهل الجاهلية قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم. ثم لا يخفى ما في هذا التفسير من الركاكة والفجاجة، وهو أن يريد بقوله: نومهم سهود، أنهم طوال الليل يرتبون أمر معاوية، لا ينامون، وأن يريد بذلك أن أصحابه يكون من خوف معاوية وعساكره، أو أنهم يكون نفاقاً، والأمر أقرب من أن يتمحل له مثل هذا.

ونحن نقول: إنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية، وقوله: في خير دار، يعني مكة، وشر جيران، يعني قريشاً، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وسلم حين حكى بالمدينة حالة كانت في مبدأ البعثة، فقال: " كنت في خير دار وشر جيران " . ثم حكى عليه السلام ما جرى له مع عقبة بن أبي معيط، والحديث مشهور.

وقوله: نومهم سهود وكحلهم دموع، مثل أن يقول: جودهم بخل، وأمنهم خوف، أي لو استباحهم محمد عليه السلام النوم لجادوا عليه بالسهود عوضاً عنه، ولو استجدهم الكحل لكان كحلهم الذي يصلونه به الدموع. ثم قال: بأرض عالمها ملجم، أي من عرف صدق محمد عليه السلام وآمن به في تقية وخوف. وجاهلها مكرم، أي من جحد نبوته وكذبه في عز ومنعة. وهذا ظاهر.

الأصل: ومنها - يعني آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: هم موضع سره، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه. بهم أقام انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرائضه.

الشرح: اللجأ: ما تلتجئ إليه، كالوزير ما تعتصم منه. والموئل: ما ترجع إليه؛ يقول: إن أمر النبي صلى الله عليه وسلم - أي شأنه - ملتجئ إليهم، وعلمه مودع عندهم، كالثوب يودع العيبة.

وحكمه - أي شرعه - يرجع ويؤول إليهم. وكتبه - يعني القرآن والسنة - عندهم؛ فهم كالكهوف له، لاحتوائهم عليه. وهم جبال دينه لا يتحلحلون عن الدين؛ أو أن الدين ثابت بوجودهم؛ كما أن الأرض ثابتة بالجبال، ولولا الجبال لمادت بأهلها.

والهاء في ظهره ترجع إلى الدين، وكذلك الهاء في فرائضه، والفرائض: جمع فريضة، وهي اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد من الدابة.

الأصل: ومنها في المنافقين: زرعوا الفجور، وسقوه الغرور، وحصدوا الثبور، لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفى الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله.

الشرح: جعل ما فعلوه من القبيح بمثالة زرع زرعه، ثم سقوه؛ فالذي زرعه الفجور، ثم سقوه بالغرور؛ والاستعارة واقعة موقعها، لأن عمادهم وما سكنت إليه نفوسهم من الإمهال، هو الذي أوجب استمرارهم على القبائح التي واقعوها، فكان ذلك كما يسقى الزرع ويرى بالماء ويستحفظ.

ثم قال: وحصدوا الثبور، أي كانت نتيجة ذلك الزرع والسقي حصاد ما هو الهلاك والعطب. وإشارته هذه ليست إلى المنافقين كما ذكر الرضي رحمه الله، وإنما هي إشارة إلى من تغلب عليه، وجحد حقه كمعاوية وغيره. ولعل الرضي رحمه الله تعالى عرف ذلك وكفى عنه.

ثم عاد إلى الثناء على آل محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: هم أصول الدين إليهم يفى الغالي وبهم يلحق التالي، جعلهم كمقنب يسير في فلاة، فالغالي منه أي الفارط المتقدم، الذي قد غلا في سيره يرجع إلى ذلك المقنب إذا خاف عدواً، ومن قد تخلف عن ذلك المقنب فصار تالياً له يلتحق به إذا أشفق من أن يتخطف.

ثم ذكر حق الولاية، والولاية: الإمرة، فأما الإمامية فيقولون: أراد نص النبي صلى الله عليه وسلم عليه وعلى أولاده. ونحن نقول: لهم خصائص حق ولاية الرسول صلى الله عليه وسلم على الخلق.

ثم قال عليه السلام: وفيهم الوصية والوراثة، أما الوصية فلا ريب عندنا أن علياً عليه السلام كان وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن خالف في ذلك من هو منسوب عندنا إلى العناد، ولسنا نعي بالوصية النص والخلافة، ولكن أموراً أخرى لعلها - إذا لحت - أشرف وأجل.

وأما الوراثة فالإمامية يحملونها على ميراث المال والخلافة، ونحن نحملها على وراثة العلم.

ثم ذكر عليه السلام أن الحق رجع الآن إلى أهله، وهذا يقتضي أن يكون فيما قبل في غير أهله، ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الإمامية، ونقول: إنه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحق، لا على وجه النص، بل على وجه الأفضلية، فإنه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحق بالخلافة من جميع المسلمين، لكنه ترك حقه لما علمه من المصلحة، وما تفرس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له، وضغنهم عليه. وجائز لمن كان أولى بشيء فتركه ثم استرجعه أن يقول: قد رجع الأمر إلى أهله.

وأما قوله: انتقل إلى منتقله، ففيه مضاف محذوف، تقديره: إلى موضع منتقله، والمنتقل بفتح القاف: مصدر بمعنى الانتقال، كقولك: لي في هذا الأمر مضطرب، أي اضطراب، قال :

قد كان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض

وتقول ما معتقدك؟ أي ما اعتقادك. قد رجع الأمر إلى نصابه. وإلى الموضع الذي هو على الحقيقة الموضع الذي يجب أن يكون انتقله إليه.

فإن قيل: ما معنى قوله عليه السلام: لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من حرت نعمتهم عليه أبداً؟ قيل: لا شبهة أن المنعم أعلى وأشرف من المنعم عليه، ولا ريب أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأهله الأذنين من بني هاشم - لا سيما علياً عليه السلام - أنعموا على الخلق كافة بنعمة لا يقدر قدرها، وهي الدعاء إلى الإسلام والهداية إليه، فمحمداً صلى الله عليه وسلم وإن كان هدى الخلق بالدعوة التي قام بها بلسانه ويده، ونصرة الله تعالى له بملائكته وتأييده، وهو السيد المتبوع، والمصطفى المنتجب الواجب الطاعة، إلا أن لعلي عليه السلام من الهداية أيضاً - وإن كان ثانياً لأول، ومصلياً على إثر سابق - ما لا يجحد، ولو لم يكن إلا جهاده بالسيف أولاً وثانياً، وما كان بين الجهادين من نشر العلوم وتفسير القرآن وإرشاد العرب إلى ما لم تكن له فاهمة ولا متصورة، لكفى في وجوب حقه، وسبوغ نعمته عليه السلام. فإن قيل: لا ريب في أن كلامه هذا تعريض بمن تقدم عليه، فأى نعمة له عليهم؟ قيل: نعمتان: الأولى منهما الجهاد عنهم وهم قاعدون، فإن من أنصف علم أنه لولا سيف علي عليه السلام لاصطلم المشركون من أشار إليه وغيرهم من المسلمين، وقد علمت آثاره في بدر، وأحد، والخندق، وحنين، وأن الشرك فيها فغر فاه، فلو لا أن سده بسيفه لالتهم المسلمين كافة - والثانية علومه التي لولاها لحكم بغير الصواب في كثير من الأحكام، وقد اعترف عمر له بذلك، والخبر مشهور: لولا علي لهلك عمر.

ويمكن أن يخرج كلامه على وجه آخر، وذلك أن العرب تفضل القبيلة التي منها الرئيس الأعظم على سائر القبائل، وتفضل الأدنى منه نسباً، فالأدنى على سائر آحاد تلك القبيلة؛ فإن بني دارم يفتخرون بحاجب وإخوته، وبزرارة أبيهم على سائر بني تميم، ويسوغ للواحد من أبناء دارم أن يقول: لا يقاس ببني دارم أحد من بني تميم، ولا يستوي بهم من حرت رئاستهم عليه أبداً، ويعني بذلك أن واحداً من بني دارم قد رأس على بني تميم؛ فكذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيس الكل، والمنعم على الكل، جاز لواحد من بني هاشم، لا سيما مثل علي عليه السلام أن يقول هذه الكلمات.

واعلم أن علياً عليه السلام كان يدعي التقدم على الكل، والشرف على الكل، والنعمة على الكل، بابن عمه صلى الله عليه وسلم، وبنفسه وبأبيه أبي طالب، فإن من قرأ علوم السير عرف أن الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيئاً مذكوراً. وليس لقائل أن يقول: كيف يقال هذا في دين تكفل الله تعالى بإظهاره، سواء كان أبو طالب موجوداً أو معدوماً! لأننا نقول: فينبغي على هذا ألا يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا ياقل: إنه هدى الناس من الضلالة، وأنقذهم من

الجهالة، وإن له حقاً على المسلمين. وإنه لولاه لما عبد الله تعالى في الأرض، وألا يمدح أبو بكر، ولا يقال: إن له أثراً في الإسلام، وإن عبد الرحمن وسعداً وطلحة وعثمان وغيرهم من الأولين في الدين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتباعه له، وإن له يداً غير محدودة في الإنفاق واشتراء المعذنين وإعتاقهم، وإنه لولاه لاستمرت الردة بعد الوفاة، وظهرت دعوة مسيلمة وطلحة؛ وإنه لولا عمر لما كانت الفتوح، ولا جهزت الجيوش، ولا قوي أمر الدين بعد ضعفه، ولا انتشرت الدعوة بعد خمولها.

فإن قلت في كل ذلك: إن هؤلاء يحمدون ويشن عليهم؛ لأن الله تعالى أجرى هذه الأمور على أيديهم، ووفقهم لها، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى؛ وهؤلاء آلة مستعملة، ووسائل تجري الأفعال على أيديها، فحمدهم والثناء عليهم، والاعتراف لهم إنما هو باعتبار ذلك، قيل لكم في شأن أبي طالب مثله.

واعلم أن هذه الكلمات؛ وهي قوله عليه السلام: الآن إذ رجع الحق إلى أهله...، إلى آخرها يبعد عندي أن تكون مقولة عقيب انصرافه عليه السلام من صفين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطرب الأمر، منتشر الحبل، بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وما تم لمعاوية عليه من الاستظهار، وما شاهد في عسكره من الخذلان. وهذه الكلمات لا تقال في مثل هذه الحال، وأخلق بما أن تكون قيلت في ابتداء بيعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأن الرضي رحمه الله تعالى نقل ما وجد، وحكى ما سمع، والغلط من غيره والوهم سابق له. وما ذكرناه واضح.

أشعار وأراجيز في الوصاية

ومما رويناه من الشعر المقول في صدر الإسلام المتضمن كونه عليه السلام وصي رسول الله قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

وصاحب بدرٍ يوم سالت كتائبه

فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه!

ومنا علي ذاك صاحب خيبرٍ

وصي النبي المصطفى وابن عمه

وقال عبد الرحمن بن جعيل:

على الدين، معروف العفاف موقفاً

وأول من صلى أبا الدين والتقوى

لعمري لقد ذا حفيظةٍ

علياً وصي المصطفى وابن عمه

وقال أبو الهيثم بن التيهان - وكان بدرياً:

نحن الذين شعارنا الأنصار

يوم القليب أولئك الكفار

يفديه منا الروح والأبصار

برح الخفاء وباحت الأسرار

قل للزبير وقل لطلحة إننا

نحن الذين رأيت قريش فعلنا

كنا شعار نبينا ودثاره

إن الوصي إمامنا وولينا

وقال عمر بن حارثة الأنصاري، وكان محمد بن حنيفة يوم الحمل، وقد لامه أبوه عليه السلام لما أمره بالحملة فتقاعس:

أبو حسنٍ أنتَ فصلِ الأمور
جمعت الرجال على رايةٍ
ولم ينكص المرء من خيفةٍ
فقال رويداً ولا تعجلوا
يبين بك الحل والمحرم
بها ابنك يوم الوغى مقحم
ولكن توالت له أسهم
فإنني إذا رشقوا مقدم

فأعجلته والفتى مجمع
سمي النبي وشبه الوصي
وقال رجل من الأزدي يوم الجمل:
بما يكره الوجل المحجم
ورايته لونها العندم

هذا علي وهو الوصي
وقال هذا بعدي الولي
وخرج يوم الجمل غلام من بني ضبة شاب معلم من عسكر عائشة، وهو يقول:
آخاه يوم النجوة النبي
وعاه واع ونسي الشقي

نحن بني ضبة أعداء علي
وفارس الخيل على عهد النبي
لكنني أنعى ابن عفان التقي
وقال سعيد بن قيس الهمداني يوم الجمل - وكان في عسكر علي عليه السلام:
ذاك الذي يعرف قدماً بالوصي
ما أنا عن فضل علي بالعمي
إن الولي طالب ثأر الولي

أية حربٍ أضرمت نيرانها
قل للوصي أقبلت قحطانها
هم بنوها وهم إخوانها
وكسرت يوم الوغى مرانها
فادع بها تكفيكها همدانها

وقال زياد بن لبید الأنصاري يوم الجمل - وكان من أصحاب علي عليه السلام:
كيف ترى الأنصار في يوم الكلب
ولا نبالي في الوصي من غضب
هذا علي وابن عبد المطلب
إننا أناس لا نبالي من عطب
وإنما الأنصار جد لا لعب
ننصره اليوم على من قد كذب

من يكسب البغي فبئسما اكتسب
وقال حجر بن عدي الكندي في ذلك اليوم أيضاً:
يا ربنا سلم لنا عليا
المؤمن الموحد التقيا
سلم لنا المبارك المضيا
لا خطل الرأي ولا غويا

بل هادياً موقفاً مهدياً

واحفظه ربي واحفظ النبيا

فيه فقد كان له ولياً

ثم ارتضاه بعده وصياً

وقال خزيمه بن ثابت الأنصاري، ذو الشهادتين - وكان بدرياً - في يوم الجمل أيضاً:

ليس بين الأنصار في حجمة الحر

ب وبين العداة إلا الطعان

وقراع الكماة بالقضيب البي

ض إذا ما تحطم المران

فادعها تستجب فليس من الخز

رج والأوس يا علي جبان

يا وصي النبي قد أجلت الحر

ب العادي وسارت الأظعان

واستقامت لك الأمور سوى الش

ام وفي الشام يظهر الإذعان

حسبهم ما رأوا وحسبك منا

هكذا نحن حيث كنا وكانوا

وقال خزيمه أيضاً في يوم الجمل:

أعائش خلي عن علي وعيبيه

بما ليس فيه إنما أنت والده

وصي رسول الله من دون أهله

وأنت على ما كان من ذاك شاهده

وحسبك منه بعض ما تعلمينه

ويكفيك لو لم تعلمي غير واحده

إذا قيل ماذا عبت منه رميته

بخذل ابن عفان وما تلك آبه

وليس سماء الله فاطرة دماً

لذاك وما الأرض الفضاء بمائده

وقال ابن بديل بن ورقاء الخزاعي يوم الجمل أيضاً:

يا قوم للخطبة العظمى التي حدثت

حرب الوصي وما للحرب من آسي

الفاصل الحكم بالتقوى إذا ضربت

تلك القبائل أخماساً لأسداس

وقال عمرو بن أحيحة يوم الجمل في خطبة الحسن بن علي عليه السلام بعد خطبة عبد الله ابن الزبير:

حسن الخبر يا شبيه أبيه

قمت فينا مقام خير الخطب

قمت بالخطبة التي صدع الل

ه بها عن أبيك أهل العيوب

وكشفت القناع فاتضح الأم

ر وأصلحت فاسدات القلوب

لست كابن الزبير لجلج في القو

ل وطاطا عنان فسل مريب

وأبى الله أن يقوم بما قا

م به ابن الوصي وابن النجيب

إن شخصاً بين النبي لك

الخير وبين الوصي غير مشوب

وقال زحر بن قيس الجعفي يوم الجمل أيضاً:

خير قریش كلها بعد النبي
إن الولي حافظ ظهر الولي

أضربكم حتى تقرؤا لعلي
من زانه الله وسماه الوصي
كما الغوي تابع أمر الغوي

ذكر هذه الأشعار والأراجيز بأجمعها أبو مخنف لوط بن يحيى في كتاب وقعة الجمل. وأبو مخنف من المحدثين، وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها. ومما رويناه من أشعار صفين التي تتضمن تسميته عليه السلام بالوصي ما ذكره نصر بن مزاحم بن يسار المنقري في كتاب صفين، وهو من رجال الحديث. قال زحر بن قيس الجعفي :

رسول الملئك تمام النعم
خليفتنا القائم المدعم
نجالد عنه غواة الأمم

فصلى الإله على أحمد
رسول الملئك ومن بعده
علياً عنيت وصي النبي

قال نصر: ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث بن قيس:

فسر بمقدمه المسلمونا
له السبق والفضل في المؤمنينا

أتانا الرسول الإمام
رسول الوصي وصي النبي
ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث أيضاً:

علي المذهب من هاشم
وخير البرية والعالم

أتانا الرسول رسول الوصي
وزير النبي وذو صهره

قال نصر بن مزاحم: من شعر أمير المؤمنين عليه السلام في صفين:

كذباً على الله يشيب الشعرا
أن يقرنوا وصيه والأبترا
إني إذا الموت دنا وحضرا
قدم لوائي لا تؤخر حذرا
لو أن عندي يابن حرب جعفرا
رأت قریش نجم ليل ظهرا

يا عجباً لقد سمعت منكرا
ما كان يرضى أحمد لو أخبرا
شاني الرسول واللعين الأخزرا
شمرت ثوبي ودعوت قنبرا:
لا يدفع الحذار ما قد قدرا
أو حمزة القرم الهمام الأزهرا

وقال جرير بن عبد الله البجلي: كتب بهذا الشعر إلى شرحبيل بن السمط الكندي، رئيس اليمانية من أصحاب معاوية:

فمالك في الدنيا من الدين من بدل
فقد خرق السربال واستنوق الجمل

نصحتك يابن السمط لا تتبع الهوى
ولا تك كالمجرى إلى شر غاية

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

مقال ابن هند في علي عضيته

وما كان إلا لازماً قعر بيته

وصي رسول الله من دون أهله

وقال النعمان بن عجلان الأنصاري:

كيف التفرق والوصي إمامنا

لا تغبن عقولكم، لا خير في

وذروا معاوية الغوي وتابعوا

وقال عبد الرحمن بن ذؤيب الأسلمي:

ألا أبلغ معاوية بن حرب

فإن تسلم وتبق الدهر يوماً

يقودهم الوصي إليك حتى

وقال المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب:

يا عصابة الموت صبراً لا يهولكم

وأيقنوا أن من أضحى يخالفكم

فيكم وصي رسول الله قائدكم

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب :

وصي رسول الله من دون أهله

فدونكه إن كنت تبغي مهاجراً

ولله في صدر ابن أبي طالب أجل

إلى أن أتى عثمان في بيته الأجل

وفارسه الحامي به يضرب المثل

لا كيف إلا حيرةً وتخاذلاً

من لم يكن عند البلابل عاقلاً

دين الوصي لتحمدوه أجلاً

فمالك لا تهش إلى الضراب !

نزرك بجحفل عدد التراب

يردك عن ضلالٍ وارتياب

جيش ابن حرب فإن الحق قد ظهرا

أضحى وأمسى نفسه خسرا

وصهره وكتاب الله قد نشرا

وفارسه إن قيل هل من منازل !

أشم كنصل السيف غير حلال

والأشعار التي تتضمن هذه اللفظة كثيرة جداً، ولكننا ذكرنا منها ههنا بعض ما قيل في هذين الحزبين، فأما ما عداهما فإنه يجل عن الحصر، ويعظم عن الإحصاء والعد، ولولا خوف الملالة والإضجار، لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة.

ومن خطبة له وهي المعروفة بالشقشقية

الأصل: أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا؛ ينحدر عني السيل، ولا يرقى إلي الطير، فسدت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتني بين أصول بيد جذاء، أو أصير على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجاً. أرى تراثي نهباً.

الشرح: سدلت دونها ثوباً، أي أرخيت، يقول: ضربت بيني وبينها حجاباً، فعل الزاهد فيها، الراغب عنها. وطويت عنها كشحاً، أي قطعتها وصرمتها، وهو مثل، قالوا: لأن من كان إلى جانبك الأيمن ماثلاً فطويت كشحك الأيسر فقد ملت عنه، والكشح: ما بين الخاصرة والجنب. وعندي أنهم أرادوا غير ذلك. وهو أن من أجاع نفسه فقد طوى كشحه، كما أن من أكل وشبع فقد ملأ كشحه، فكأنه أراد أني أجعت نفسي عنها، ولم ألقمها. واليد الجذاء بالذال المهملة، وبالذال المعجمة، والحاء المهملة مع الذال المعجمة، كلها بمعنى المقطوعة. والطخية: قطعة من الغيم والسحاب. وقوله: عمياء، تأكيد لظلام الحال واسودادها؛ يقولون: مفازة عمياء، أي يعمى فيها الدليل. ويكده: يسعى ويكد مع مشقة، قال تعالى: "إنك كادح إلى ربك كدحاً" وهاتان بمعنى هذه، ها للتنبيه، وتا للإشارة، ومعنى تا ذي، وهذا أحجى من كذا أي أليق بالحجاء، وهو العقل، وفي هذا الفصل من باب البديع في علم البيان عشرة ألفاظ: أولها: قوله: لقد تقمصها، أي جعلها كالقميص مشتملة عليه؛ والضمير للخلافة، ولم يذكرها للعلم بها، كقوله سبحانه: "حتى توارت بالحجاب"، وكقوله: "كل من عليها فان"، وكقول حاتم:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وهذه اللفظة مأخوذة من كتاب الله تعالى في قوله سبحانه: "ولباس التقوى" وقول النابغة:

تسربل سربالاً من النصر وارتدى عليه بعضب في الكريهة فاصل

الثانية: قوله: ينحدر عني السيل، يعني رفعة منزلته عليه السلام، كأنه في ذروة جبل أو يفاع مشرف، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان، قال الهذلي:

وعيطاء يكثر فيها الزليل وينحدر السيل عنها انحدارا

الثالثة: قوله عليه السلام: ولا يرقى إلي الطير، هذه أعظم في الرفعة والعلو من التي قبلها، لأن السيل ينحدر عن الرابية والهضبة، وأما تعذر رقي الطير فربما يكون للقلال الشاهقة جداً، بل ما هو أعلى من قلال الجبال، كأنه يقول: إني لعلو منزلي كمن في السماء التي يستحيل أن يرقى الطير إليها، قال أبو الطيب:

فوق السماء وفوق ما طلبوا فإذا أرادوا غايةً نزلوا

وقال حبيب:

مكارم لجت في علو كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

الرابعة: قوله: سدلت دونها ثوباً، قد ذكرناه.

الخامسة: قوله: وطويت عنها كشحاً، وقد ذكرناه أيضاً.

السادسة: قوله: أصول بيد جذاء، قد ذكرناه.

السابعة: قوله: أصبر على طخية عمياء، قد ذكرناه أيضاً.

الثامنة: قوله: وفي العين قذى، أي صبرت على مضض كما يصبر الأرمـد .

التاسعة: قوله: وفي الحلق شجاً، وهو ما يعترض في الحلق. أي كما يصبر من غص بأمرٍ فهو يكابد الخنق.

العاشرة: قوله: أرى تراثي نهباً؛ كنى عن الخلافة بالتراث، وهو الموروث من المال.
 فأما قوله عليه السلام: إن محلي منها محل القطب من الرحا، فليس من هذا النمط الذي نحن فيه، ولكنه تشبيه محض،
 خارج باب الاستعارة والتوسع، يقول: كما أن الرحا لا تدور إلا على القطب، ودورانها بغير قطب لا ثمرة له ولا فائدة
 فيه، كذلك نسيتي إلى الخلافة، فإنها لا تقوم إلا بي، ولا يدور أمرها إلا علي.
 هكذا فسروه. وعندي أنه أراد أمراً آخر، وهو أي من الخلافة في الصميم، وفي وسطها وبحبوحتها، كما أن القطب وسط
 دائرة الرحا، قال الراجز :

إذا قطعن علماً بدا علم
 خليفة الحجاج غير المتهم

على قلاصٍ مثل خيطان السلم
 حتى أنخناها إلى باب الحكم
 في سرة المجد وبحبوح الكرم
 وقال أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان:

ح وحل غيرك بالظواهر

فحللت منها بالبطا

وأما قوله: يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير، فيمكن أن يكون من باب الحقائق، ويمكن أن يكون من باب المجازات
 والاستعارات، أما الأول فإنه يعني به طول مدة ولاية المتقدمين عليه، فإنها مدة يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير.
 وأما الثاني فإنه يعني بذلك صعوبة تلك الأيام، حتى إن الكبير من الناس يكاد يهرم لصعوبتها، والصغير يشيب من أهوالها،
 كقولهم: هذا أمر يشيب له الوليد، وإن لم يشب على الحقيقة.
 واعلم أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وتقديره: ولا يرقى إلى الطير، فطفقت أرتمي بين كذا وكذا، فرأيت أن الصبر على
 هاتا أحجى فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، ثم صبرت وفي العين قذى، إلى آخر القصة، لأنه لا يجوز أن يسدل
 دونها ثوباً ويطوي عنها كشحاً، ثم يطفق يرتمي بين أن يباذهم أو يصبر؛ ألا ترى أنه إذا سدل دونها ثوباً، وطوى عنها
 كشحاً فقد تركها وصرمها، ومن يترك ويصرم لا يرتمي في المنابذة! والتقديم والتأخير طريق لاجب، وسبيل مهيع في لغة
 العرب، قال سبوحانه: " الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً " ، أي أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم
 يجعل له عوجاً، وهذا كثير.
 وقوله عليه السلام: حتى يلقي ربه ، بالوقف والإسكان، كما جاءت به الرواية في قوله سبوحانه: " ذلك لمن خشي ربه "
 بالوقف أيضاً.

التعريف بأبي بكر

ابن أبي قحافة المشار إليه، هو أبو بكر، واسمه القديم عبد الكعبة، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله.
 واختلفوا في عتيق، فقيل: كان اسمه في الجاهلية، وقيل: بل سماه به رسول الله صلى الله عليه وسلم. واسم أبي قحافة

عثمان، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب. وأمه ابنة عم أبيه، وهي أم الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد. أسلم أبو قحافة يوم الفتح، جاء به ابنه أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو شيخ كبير رأسه كالثغامة البيضاء، فأسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غيروا شيبته.

وولي ابنه الخلافة وهو حي منقطع في بيته، مكفوف عاجز عن الحركة، فسمع ضوضاء الناس، فقال: ما الخبر؟ فقالوا: ولي ابنك الخلافة، فقال: رضيت بنو عبد مناف بذلك؟ قالوا: نعم، قال: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت. ولم يل الخلافة من أبوه حي إلا أبو بكر وأبو بكر عبد الكريم الطائع لله، ولي الأمر وأبوه المطيع حي، خلع نفسه من الخلافة، وعهد بها إلى ابنه. وكان المنصور يسمى عبد الله بن الحسن بن الحسن أبا قحافة تحكماً به، لأن ابنه محمداً ادعى الخلافة وأبوه حي.

ومات أبو بكر وأبو قحافة حي، فسمع الأصوات فسأل، فقليل: مات ابنك، فقال: رزء جليل. وتوفي أبو قحافة في أيام عمر في سنة أربع عشرة للهجرة، وعمره سبع وتسعون سنة، وهي السنة التي توفي فيها نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم.

إن قيل: بينوا لنا ما عندكم في هذا الكلام؟ أليس صريحه دالاً على تظليم القوم ونسبتهم إلى اغتصاب الأمر! فما قولكم في ذلك؟ إن حكمتهم عليهم بذلك فقد طعنتم فيه. وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم في المتظلم المتكلم عليهم! قيل: أما الإمامية من الشيعة فتجري هذه الألفاظ على ظواهرها، وتذهب إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على أمير المؤمنين عليه السلام، وأنه غصب حقه.

وأما أصحابنا رحمهم الله، فلهم أن يقولوا: إنه لما كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الأفضل والأحق، وعدل عنه إلى من لا يساويه في فضل، ولا يوازيه في جهاد وعلم، ولا يماثله في سؤدد وشرف - ساغ إطلاق هذه الألفاظ، وإن كان من وسم بالخلافة قبله عدلاً تقياً، وكانت بيعته بيعَةً صحيحة، ألا ترى أن البلد قد يكون فيه فقيهان؛ أحدهما أعلم من الآخر بطبقات كثيرة، فيجعل السلطان الأنقص علماً منهما قاضياً، فيتوجد الأعلم ويتألم، وينفث أحياناً بالشكوى، ولا يكون ذلك طعناً في القاضي ولا تفسيراً له، ولا حكماً منه بأنه غير صالح، بل للعدول عن الأحق والأولى! وهذا أمر مركوز في طباع البشر، ومجبول في أصل الغريزة والفطرة، فأصحابنا رحمهم الله، لما أحسنوا الظن بالصحابة - وحملوا ما وقع منهم على وجه الصواب، وأنهم نظروا إلى مصلحة الإسلام، وخافوا فتنة لا تقتصر على ذهاب الخلافة فقط، بل وتفضي إلى ذهاب النبوة والملة، فعدلوا عن الأفضل الأشرف الأحق، إلى فاضل آخر دونه، فعقدوا له - احتاجوا إلى تأويل هذه الألفاظ الصادرة عن معتقدونه في الجلالة والرفعة قريباً من منزلة النبوة، فتأولوها بهذا التأويل، وحملوها على التألم للعدول عن الأولى.

وليس هذا بأبعد من تأويل الإمامية قوله تعالى: "وعصى آدم ربه فغوى"، وقولهم معنى عصي، أنه عدل عن الأولى، لأن الأمر بترك أكل الشجرة كان أمراً على سبيل الندب، فلما تركه آدم، كان تاركاً للأفضل والأولى، فسمي عاصياً باعتبار مخالفة الأولى، وحملوا غوى على خاب لا على الغواية بمعنى الضلال. ومعلوم أن تأويل كلام أمير المؤمنين عليه السلام

وحمله على أنه شكاً من تركهم الأولى أحسن من حمل قوله تعالى: "وعصى آدم" على أنه ترك الأولى. إن قيل: لا تخلو الصحابة إما أن تكون عدلت عن الأفضل لعلّة ومانع في الأفضل أو لا لمانع، فإن كان لا لمانع كان ذلك عقداً للمفضول بالهوى، فيكون باطلاً، وإن كان لمانع - وهو ما تذكرونه من خوف الفتنة، وكون الناس كانوا يغيضون علياً عليه السلام ويحسدونه - فقد كان يجب أن يعذرهم أمير المؤمنين عليه السلام في العدول عنه، ويعلم أن العقد لغيره هو المصلحة للإسلام، فكيف حسن منه أن يشكّوهم بعد ذلك، ويتوجد عليهم! وأيضاً، فما معنى قوله: فطفقت أرثي بين أن أصول بيد جذاء، على ما تأولتم به كلامه، فإن تارك الأولى لا يصلح عليه بالحرب! قيل: يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلب على ظنه ما غلب على ظنون الصحابة من الشغب وثوران الفتنة، والظنون تختلف باختلاف الأمارات، فرب إنسان يغلب على ظنه أمر يغلب على ظن غيره خلافه. وأما قوله: أرثي بين أن أصول، فيجوز أن يكون لم يعن به صيال الحرب، بل صيال الجدل والمناظرة، يبين ذلك أنه لو كان جادلهم وأظهر ما في نفسه لهم، فرمما خصمهم بأن يقولوا له: قد غلب على ظنوننا أن الفساد يعظم ويتفاقم إن وليت الأمر، ولا يجوز مع غلبة ظنوننا لذلك أن نسلم الأمر إليك، فهو عليه السلام قال: طفقت أرثي بين أن أذكر لهم فضائلي عليهم وأحاجهم بما فيحيوني بهذا الضرب من الجواب -الذي تصير حجتي به جذاء مقطوعة، ولا قدرة لي على تشييدها ونصرتها - وبين أن أصبر على ما منيت به. ودفعت إليه.

إن قيل: إذا كان عليه السلام لم يغلب على ظنه وجود العلة والمانع فيه، وقد استراب الصحابة وشكاهم لعدولهم عن الأفضل الذي لا علة فيه عنده فقد سلمتم أنه ظلم الصحابة، ونسبهم إلى غضب حقه، فما الفرق بين ذلك وبين أن يستظلمهم لمخالفة النص؟ وكيف هربتم من نسبته لهم إلى الظلم لدفع النص، ووقعتم في نسبته لهم إلى الظلم لخلاف الأولى من غير علة في الأولى، ومعلوم أن مخالفة الأولى من غير علة كتارك النص، لأن العقد في كلا الموضعين يكون فاسداً!

قيل: الفرق بين الأمرين ظاهر، لأنه عليه السلام لو نسبهم إلى مخالفة النص لوجب وجود النص، ولو كان النص موجوداً لكانوا فاسقاً أو كفاراً لمخالفته، وأما إذا نسبهم إلى ترك الأولى من غير علة في الأولى، فقد نسبهم إلى أمر يدعون فيه خلاف ما يدعي عليه السلام، وأحد الأمرين لازم؛ وهو إما أن يكون ظنهم صحيحاً أو غير صحيح، فإن كان ظنهم هو الصحيح فلا كلام في المسألة، وإن لم يكن ظنهم صحيحاً كانوا كالجتهد إذا ظن وأخطأ فإنه معذور، ومخالفة النص أمر خارج عن هذا الباب؛ لأن مخالفته غير معذور بحال، فافترق المحملان.

تأثير أسامة بن زيد

لما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض الموت، دعا أسامة بن زيد بن حارثة، فقال: سر إلى مقتل أبيك، فأوطنيهم الخيل، فقد وليتكم على هذا الجيش، وإن أظفرك الله بالعدو، فأقلل اللبث، وبث العيون، وقدم الطلائع. فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان في ذلك الجيش، منهم أبو بكر وعمر، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على جلة المهاجرين والأنصار!! فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع ذلك، وخرج عاصباً رأسه، فصعد المنبر

وعليه قطيفة فقال: "أيها الناس، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة! لئن طعنتم في تأميري أسامة، فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله، وإيم الله إن كان خليقاً بالإمارة، وابنه من بعده لخليق بها، وإنهما لمن أحب الناس إلي؛ فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم". ثم نزل ودخل بيته، وجاء المسلمون يودعون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويمضون إلى عسكر أسامة بالجرف .

وثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتد ما يجده، فأرسل بعض نسائه إلى أسامة وبعض من كان معه، يعلمونهم ذلك، فدخل أسامة من معسكره - والني صلى الله عليه وسلم مغمور، وهو اليوم الذي لدوه فيه - فتطأطأ أسامة عليه فقبله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسكت فهو لا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة، كالداعي له، ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره، والتوجه لما بعثه فيه، فرجع أسامة إلى عسكره. ثم أرسل نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أسامة يأمرنه بالدخول، ويقلن إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصبح بارئاً، فدخل أسامة من معسكره يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مفيقاً، فأمره بالخروج وتعجيل النفوذ، وقال: "اغد على بركة الله"، وجعل يقول: "أنفذوا بعث أسامة"، ويكرر ذلك، فودع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج ومعه أبو بكر وعمر، فلما ركب جاءه رسول أم أيمن، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فانتھوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زالت الشمس من هذا اليوم، وهو يوم الاثنين، وقد مات واللواء مع بريدة بن الحصيب، فدخل باللواء فركزه عند باب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغلق، وعلي عليه السلام وبعض بني هاشم مشغولون بإعداد جهازه وغسله، فقال العباس لعلي - وهما في الدار: امدد يدك أبايعك فيقول الناس: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله، فلا يختلف عليك اثنان، فقال له: أو يطمع يا عم فيها طامع غيري! قال: ستعلم؛ فلم يلبثا أن جاءتهما الأخبار بأن الأنصار أقعدت سعداً لتبايعه، وأن عمرأ جاء بأبي بكر فبايعه، وسبق الأنصار بالبيعة، فندم علي عليه السلام على تفريطه في أمر البيعة وتقاعده عنها، وأنشده العباس قول دريد:

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى

وتزعم الشيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم موته، وأنه سير أبا بكر وعمر في بعث أسامة لتخلو دار الهجرة منهما، فيصفو الأمر لعلي عليه السلام، ويبايعه من تخلف من المسلمين بالمدينة على سكونٍ وطمأنينة، فإذا جاءهما الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيعة الناس لعلي عليه السلام بعده كانا عن المنازعة والخلاف أبعد، لأن العرب كانت تلتزم بإتمام تلك البيعة، ويحتاج في نقضها إلى حروب شديدة، فلم يتم له ما قدر، وتناقل أسامة بالجيش أياماً، مع شدة حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفوذه وخروجه بالجيش، حتى مات صلى الله عليه وسلم وهما بالمدينة، فسبقا علياً إلى البيعة وجرى ما جرى.

وهذا عندي غير منقذ، لأنه إن كان صلى الله عليه وسلم يعلم موته، فهو أيضاً يعلم أن أبا بكر سيلبي الخلافة، وما

يعلمه لا يحترس منه؛ وإنما يتم هذا ويصح إذا فرضنا أنه عليه السلام كان يظن موته ولا يعلمه حقيقة، ويظن أن أبا بكر وعمر يتمالآن على ابن عمه، ويخاف وقوع ذلك منهما ولا يعلمه حقيقة، فيجوز إن كانت الحال هكذا أن ينقدح هذا التوهم، ويتطرق هذا الظن، كالأحد منا له ولدان، يخاف من أحدهما أن يتغلب بعد موته على جميع ماله، ولا يوصل أخاه إلى شيء من حقه، فإنه قد يخطر له عند مرضه الذي يتخوف أن يموت فيه أن يأمر الولد المخوف جانبه بالسفر إلى بلد بعيد في تجارة يسلمها إليه، يجعل ذلك طريقاً إلى دفع تغلبه على الولد الآخر.

الأصل: حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى إلى ابن الخطاب بعده.

ويوم حيان أخي جابر

شتان ما يومي على كورها

فيا عجباً! بينا هو يستقلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته! لشد ما تشطرا ضرعيها! فصيرها في حوزة حشناء يغلظ كلمها، ويخشن العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها حرم، وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس لعمر الله بجبط وشماس، وتلون واعتراض، فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة.

الشرح: مضى لسبيله: مات، والسبيل الطريق، وتقديره: مضى على سبيله، وتجيء اللام بمعنى على كقوله:

فخر صريعاً للدين وللهم

وقوله: فأدلى بها، من قوله تعالى: " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام ". أي تدفعوها إليهم رشوة، وأصله من أدليت الدلو في البئر، أرسلتها.

فإن قلت: فإن أبا بكر إنما دفعها إلى عمر حين مات، ولا معنى للرشوة عند الموت! قلت: لما كان عليه السلام يرى أن العدول بها عنه إلى غيره إخراج لها إلى غير جهة الاستحقاق شبه ذلك بإدلاء الإنسان بماله إلى الحاكم، فإنه إخراج للمال إلى غير وجهه، فكان ذلك من باب الاستعارة.

أبو بكر يعهد بالخلافة إلى عمر

وابن الخطاب هو أبو حفص عمر الفاروق، وأبوه الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب. وأم عمر حنتمة بنت هاشم ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

لما احتضر أبو بكر، قال للكاتب اكتب: هذا ما عهد عبد الله بن عثمان، آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الساعة التي يبر فيها الفاجر، ويسلم فيها الكافر، ثم أغمي عليه فكتب الكاتب: عمر بن الخطاب، ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ ما كتبت، فقرأ وذكر اسم عمر، فقال: أئني لك هذا! قال: ما كنت لتعدوه، فقال: أصبت، ثم قال: أتم كتابك، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب: وذلك حيث أجال رأيه وأعمل فكره فرأى أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما يصلح به أوله، ولا يحتمله إلا أفضل العرب مقدرة، وأملكهم لنفسه، وأشدهم في حال الشدة، وأسلسهم في حال اللين، وأعلمهم برأي ذوي الرأي، لا يتشاغل بما لا يعنيه، ولا يحزن لما لم يزل به، ولا يستحي من التعلم، ولا يتحير عند البديهة. قوي على الأمور، لا يجوز بشيء منها حده عدواناً ولا تقصيراً، يرصد لما هو آت عتاده من الحذر.

فلما فرغ من الكتاب، دخل عليه قوم من الصحابة، منهم طلحة؛ فقال له: ما أنت قائل لربك غداً، وقد وليت علينا فظاً

غليظاً، تفرق منه النفوس؛ وتنفض عنه القلوب! فقال أبو بكر: أسندوني - وكان مستلقياً - فأسندوه، فقال لطلحة:

أبالله تخوفني! إذا قال لي ذلك غداً قلت له: وليت عليهم خير أهلك.

ويقال: أصدق الناس فراسة ثلاثة: العزيز في قوله لامرأته عن يوسف عليه السلام: " وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً " ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها في موسى: " يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين " ، وأبو بكر في عمر.

وروى كثير من الناس أن أبا بكر لما نزل به الموت دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عمر، فقال: إنه أفضل من رأيت إلا أن فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذاك لأنه يراني رقيقاً، ولو قد أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه، وقد رمقته إذ أنا غضبت على رجل أراي الرضا عنه، وإذا كنت له أراي الشدة عليه، ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر، فقال: سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله. فقال لهما: لا تذكر ما قلتما شيئاً، ولو تركت عمر لما عدوتك يا عثمان، والخيرة لك ألا تلي من أمورهم شيئاً، ولوددت أني كنت من أموركم خلواً، وكنت فيمن مضى من سلفكم. ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر، فقال: إنه بلغني يا خليفة رسول الله استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معهم فكيف به إذا خلا بهم، وأنت غداً لاق ربك، فيسألك عن رعيتك! فقال أبو بكر: أجلسوني، ثم قال: أبالله تخوفني! إذا لقيت ربي فسألني، قلت: استخلفت عليهم خير أهلك. فقال طلحة: أعمر خير الناس يا خليفة رسول الله! فاشتد غضبه وقال: إي والله، هو خيرهم وأنت شرهم. أما والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها! أتيتني وقد دلت عينك، تريد أن تفتني عن ديني، وتزيلي عن رأيي! قم لا أقام الله رجلك! أما والله لئن عشت فواق ناقة، وبلغني أنك غمصته فيها، أو ذكرته بسوء، لألحقنك بمحمضات قنة ، حيث كنتم تسقون ولا تروون، وترعون ولا تشبعون، وأنتم بذلك بجحون راضون! فقام طلحة فخرج. أحضر أبو بكر عثمان - وهو يجود بنفسه - فأمره أن يكتب عهداً، وقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد عبد الله بن عثمان إلى المسلمين. أما بعد ثم أغمي عليه؛ وكتب عثمان: قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب. وأفاق أبو بكر، فقال: اقرأ فقرأه، فكبر أبو بكر، وسر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي! قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. ثم أتم العهد، وأمر أن يقرأ على الناس فقرئ عليهم، ثم أوصى عمر، فقال له: إن الله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وحقاً في النهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة ما لم تؤد الفريضة، وإنما ثقلت موازين من اتبع الحق مع ثقله عليه، وإنما خفت موازين من اتبع الباطل لحفته عليه، إنما أنزلت آية الرخاء مع آية الشدة، لئلا يرغب المؤمن رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولئلا يرهب رهبة يلقي فيها بيده، فإن حفظت وصيتي، فلا يكن غائب أحب إليك من الموت ولست معجزه. ثم توفي أبو بكر.

دعا أبو بكر عمر يوم موته بعد عهده إليه، فقال: إني لأرجو أن أموت في يومي هذا فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى بن حارثة، وإن تأخرت إلى الليل لا تصبحن حتى تندب الناس معه، ولا تشغلنكم مصيبة عن دينكم، وقد رأيته متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف صنعت.

وتوفي أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة.
وأما البيت الذي تمثل به عليه السلام، فإنه للأعشى الكبير أعشى قيس. وهو أبو بصير ميمون ابن قيس بن جندل، من القصيدة التي قالها في منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، وأولها:

الناقض الأوتار والواتر

علقم ما أنت إلى عامر

يقول فيها:

بجسرة دوسرة عاقر

وقد أسلي الهم إذ يعتري

تلوي بشرخي ميسة قاتر

زيافة بالرحل خطارة

- شرخا الرحل: مقدمه ومؤخره، والميس: شجر يتخذ منه الرحال، ورحل قاتر: جيد الوقوع على ظهر البعير -

ويوم حيان أخي جابر

شتان ما يومي على كورها

وأنت بين القرو والعاصر

أرمي بها البیداء إذ هجرت

يزل عنه ظفر الطائر

في مجدلٍ شيد بنيانه

تقول: شتان ما هما، وشتان هما، ولا يجوز: شتان ما بينهما، إلا على قول ضعيف. وشتان: أصله شتت، كوشكان ذا خروجاً، من وشك. وحيان وجابر ابنا السمين الحنفیان، وكان حيان صاحب شراب ومعاقرة خمر، وكان نديم الأعشى، وكان أخوه جابر أصغر سنّاً منه، فيقال: إن حيان قال للأعشى: نسبتي إلى أخي، وهو أصغر سنّاً مني! فقال: إن الروي اضطرني إلى ذلك، فقال: والله لا نازعتك كأساً أبداً ما عشت. يقول: شتان يومي وأنا في الهاجرة والرمضاء، أسير على كور هذه الناقة ويوم حيان وهو في سكرة الشراب، ناعم البال، مرفه من الأكدار والمشاق. والقرو: شبه حوض، يتخذ من جذع أو من شجر ينبذ فيه، والعاصر: الذي يعتصر العنب. والمجدل: الحصن المنيع.

وشبيه بهذا المعنى قول الفضل بين الربيع في أيام فتنة الأمين يذكر حاله وحال أخيه المأمون: إنما نحن شعب من أصل، إن قوي قويننا، وإن ضعف ضعفنا، وإن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء، يشاور النساء، ويقدم على الرؤيا، قد أمكن أهل الخسارة واللهم من سمعه. فهم يمنونه الظفر، ويعدونه عقب الأيام، والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل، ينام نوم الظربان، ويتنبه انتباه الذئب، همه بطنه وفرجه، لا يفكر في زوال النعمة، ولا يروي في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد شمر له عبد الله عن ساقه، وفوق إليه أسد سهامه، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ، والموت القاصد، قد عبأ له المنايا على متون الخيل، وناط له البلايا بأسنة الرماح وشفار السيوف، فهو كما قال الشاعر:

أمية في الرزق الذي الله يقسم

لشتان ما بيني وبين ابن خالد

إلى أن يرى الإصباح لا يتلعثم

يقارع أتراك ابن خاقان ليله

لها أرج من دنها يتنسم

وآخذها حمراء كالمسك ريحها

فيصبح من طول الطراد وجسمه

نحيل وأضحى في النعيم أصمم

وأمية المذكور في هذا الشعر، هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ابن عبد شمس، كان والي خراسان، وحارب الترك. والشعر للبعيث.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: شتان بين يومي في الخلافة مع ما انتقض علي من الأمر ومنيت به من انتشار الجبل واضطراب أركان الخلافة، وبين يوم عمر حيث وليها على قاعدة ممهدة، وأركان ثابتة، وسكون شامل، فانتظم أمره، واطرد حاله، وسكنت أيامه.

قوله عليه السلام: فيا عجباً، أصله فيا عجي، كقولك: يا غلامي، ثم قلبوا الياء ألفاً، فقالوا: يا عجباً، كقولهم: يا غلاماً، فإن وقفت وقفت على هاء السكت، فقلت: يا عجباه! ويا غلاماه! قال: العجب منه وهو يستقيل المسلمين من الخلافة أيام حياته، فيقول: أقيلوني ثم يعقدها عند وفاته لآخر، وهذا يناقض الزهد فيها والاستقالة منها. وقال شاعر من شعراء الشيعة:

حملوها يوم السقيفة أوزا

راً تخف الجبال وهي ثقال

ثم جاؤوا من بعدها يستقيلو

ن وهيهات عثرة لا تقال!

وقد اختلف الرواة في هذه اللفظة، فكثير من الناس رواها: أقيلوني فلست بخيركم، ومن الناس من أنكر هذه اللفظة ولم يروها، وإنما روى قوله: وليتكم ولست بخيركم. واحتج بذلك من لم يشترط الأفضلية في الإمامة. ومن رواها اعتذر لأبي بكر فقال: أقيلوني، ليثور ما في نفوس الناس من بيعته، ويخبر ما عندهم من ولايته، فيعلم مريدكم وكارههم، ومحبههم ومبغضهم؛ فلما رأى النفوس إليه ساكنة، والقلوب لبيعته مذعنة، استمر على إمارته، وحكم حكم الخلفاء في رعيته، ولم يكن منكراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته.

قالوا: وقد جرى مثل ذلك لعلي عليه السلام، فإنه قاله للناس بعد قتل عثمان: دعوني والتمسوا غيري، فأنا لكم وزيراً خيراً مني لكم أميراً. وقال لهم: فأنا كأحدكم، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. فأبوا عليه وبايعوه، فكرهها أولاً، ثم عهد بها إلى الحسن عليه السلام عند موته.

قالت الإمامية: هذا غير لازم، والفرق بين الموضعين ظاهر، لأن علياً عليه السلام لم يقل: إني لا أصلح، ولكنه كره الفتنة، وأبو بكر قال كلاماً معناه: إني لا أصلح لها، لقوله: لست بخيركم، ومن نفى عن نفسه صلاحيته للإمامة، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره.

واعلم أن الكلام في هذا الموضع مبني على أن الأفضلية هل هي شرط في الإمامة أم لا؟ وقد تكلمنا في شرح الغرر لشيخنا أبي الحسين رحمه الله تعالى في هذا البحث بما لا يحتمله هذا الكتاب.

وقوله عليه السلام: لشد ما تشطرا ضرعها، شد، أصله شدد، كقولك: حب في حبذا أصله حب، ومعنى شد صار شديداً جداً، ومعنى حب صار حبيباً، قال البحري:

شد ما أغريت ظلوم بهجري

بعد وجدي بها و غلة صدري

وللناقة أربعة أخلاف؛ خلفان قادمان وخلفان آخران، وكل اثنين منهما شطر. وتشطرا ضرعها اقتسما فائدتهما ونفعهما. والضمير للخلافة، وسمى القادمين معاً ضرعاً، وسمى الآخرين معاً ضرعاً لما كانا - لتجاورهما، ولكونهما لا يجلبان إلا معاً - كشيء واحد.

قوله عليه السلام: فجعلهما في حوزة حشناء، أي في جهة صعبة المرام، شديدة الشكيمة. والكلم: الجرح. وقوله: يغلظ، من الناس من قال: كيف قال: يغلظ كلمها، والكلم لا يوصف بالغلظ! وهذا قلة فهم بالفصاحة، ألا ترى كيف قد وصف الله سبحانه العذاب بالغلظ، فقال: "ونجيناهم من عذاب غليظ" أي متضاعف، لأن الغليظ من الأجسام هو ما كثف وجسم، فكان أجزاؤه وجواهره متضاعفة، فلما كان العذاب - أعاذنا الله منه - متضاعفاً، سمي غليظاً؛ وكذلك الجرح إذا أمعن وعمق، فكأنه قد تضاعف وصار جروحاً، فسمي غليظاً. إن قيل: قد قال عليه السلام: في حوزة حشناء، فوصفها بالخشونة، فكيف أعاد ذكر الخشونة ثانية فقال، يخشن مسها! قيل: الاعتبار مختلف؛ لأن مراده بقوله: في حوزة حشناء، أي لا ينال ما عندها ولا يرام، قال: إن فلاناً لخشن الجانب ووعر الجانب، ومراده بقوله: يخشن مسها، أي تؤذي وتضر وتنكئ من لمسها؛ يصف جفاء أخلاق الوالي المذكور ونفور طبعه وشدة بادرته.

قوله عليه السلام: ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، يقول: ليست هذه الجهة جديداً مهيئاً، بل هي كطريق كثير الحجارة، لا يزال الماشي فيه عاثراً. وأما منها في قوله عليه السلام: والاعتذار منها، فيمكن أن تكون من على أصلها، يعني أن عمر كان كثيراً ما يحكم بالأمر ثم ينقضه، ويفتي بالفتيا ثم يرجع عنها، ويعتذر مما أفتى به أولاً. ويمكن أن تكون من ههنا للتعليل والسببية، أي ويكثر اعتذار الناس عن أفعالهم وحرركاتهم لأجلها، قال:

أمن رسم دارٍ مربع ومصيف

لعينيك من ماء الشؤون وكيف !

أي لأجل رسم المربع والمصيف هذه الدار وكف دمع عينيك! والصعبة من النوق: ما لم تركب ولم ترض، إن أشق لها راكبها بالزمام خرم أنفها، وإن أسلس زمامها تقحم في المهالك فألقته في مهواة أو ماء أو نار، أو ندت فلن تقف حتى ترديه عنها فهلك.

وأشقى الرجل ناقته، إذا كفها بالزمام، وهو راكبها، واللغة المشهورة شنى، ثلاثية. وفي الحديث: إن طلحة أنشد قصيدة فما زال شانقاً راحلته، حتى كتبت له. وأشقى البعير نفسه، إذا رفع رأسه، يتعدى ولا تعدى، وأصله من الشناق، وهو خيط يشد به فم القربة.

وقال الرضي أبو الحسن رحمه الله تعالى: إنما قال عليه السلام: أشقى لها، ولم يقل: أشققها، لأنه جعل ذلك في مقابلة قوله: أسلس لها، وهذا حسن. فإنهم إذا قصدوا الازدواج في الخطابة فعلوا مثل هذا، قالوا: الغدايا والعشايا، والأصل الغدوات

جمع غدوة. وقال صلى الله عليه وسلم: " ارجعن مأزورات غير مأجورات "، وأصله موزورات بالواو، لأنه من الوزر. وقال الرضي رحمه الله تعالى: ومما يشهد على أن أشنق بمعنى شنق قول عدي بن زيد العبادي :

ساءها ما لها تبين في الأيدي وإشناقها إلى الأعناق

قلت: تبين في هذا البيت فعل ماض، تبين يتبين تبييناً، واللام في لها تتعلق بتبين. يقول: ظهر لها ما في أيدينا فساءها، وهذا البيت من قصيدة أولها:

ليس شيء على المنون بياق غير وجه المسبح الخلاق

وقد كان زارته بنية له صغيرة اسمها هند، وهو في الحبس - حبس النعمان - ويدها مغلولتان إلى عنقه، فأنكرت ذلك، وقالت: ما هذا الذي في يدك وعنقك يا أبت! وبكت، فقال هذا الشعر. وقبل هذا البيت:

ولقد غمني زيارة ذي قر بي صغير لقربنا مشتاق

ساءها ما لها تبين في الأيدي وإشناقها إلى الأعناق

أي ساءها ما ظهر لها من ذلك. ويروى: ساءها ما بنا تبين، أي ما بان وظهر، ويروى ما بنا تبين بالرفع على أنه مضارع.

ويروى إشناقها بالرفع عطفاً على ما، التي هي بمعنى الذي، وهي فاعلة. ويروى بالجر عطفاً على الأيدي. وقال الرضي رحمه الله تعالى أيضاً: ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطب الناس وهو على ناقه قد شنق لها وهي تقصع بجرتها.

قلت: الجرة: ما يعلو من الجوف وتحتريه الإبل، والدرة: ما يسفل. وتقصع بها: تدفع، وقد كان للرضي رحمه الله تعالى إذا كانت الرواية قد وردت هكذا أن يحتج بها على جواز أشنق لها، فإن الفعل في الخبر قد عدي باللام لا بنفسه. قوله عليه السلام: فمني الناس، أي بلي الناس، قال:

منيت بزمردة كالعصا

والخبط: السير على غير جادة، والشماس: النفار. والتلون: التبديل. والاعتراض: السير لا على خط مستقيم، كأنه يسير عرضاً في غضون سيره طولاً، وإنما يفعل ذلك البعير الجامح الخابط. وبعير عرضي: يعترض في مسيره؛ لأنه لم يتم رياضته، وفي فلان عرضية، أي عجرفة وصعوبة.

نبذة من أخبار عمر بن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب صعباً، عظيم الهيبة شديد السياسة، لا يجاي أحدًا، ولا يراقب شريفاً ولا مشروفاً. وكان أكابر الصحابة يتحامون ويتفادون من لقائه، كان أبو سفيان بن حرب في مجلس عمر، وهناك زياد بن سمية وكثير من الصحابة، فتكلم زياد فأحسن - وهو يومئذ غلام - فقال علي عليه السلام - وكان حاضراً - لأبي سفيان وهو إلى جانبه: لله

هذا الغلام، لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه! فقال له أبو سفيان: أما والله لو عرفت أباه لعرفت أنه من خير أهلك، قال: ومن أبوه؟ قال: أنا وضعته والله في رحم أمه، فقال علي عليه السلام: فما يمنعك من استلحاقه؟ قال: أخاف هذا العير الجالس علي إهابي! وقيل لابن عباس لما أظهر قوله في العول بعد موت عمر - ولم يكن يظهره: هلا قلت هذا وعمر حي؟ قال: هبته، وكان امرأً مهياً.

واستدعى عمر امرأة ليسألها عن أمر - وكانت حاملاً - فلشدة هيئته ألقت ما في بطنها، فأجهضت به جنيناً ميتاً، فاستفى عمر أكابر الصحابة في ذلك، فقالوا: لا شيء عليك، إنما أنت مؤدب، فقال له علي عليه السلام: إن كانوا راقبوك فقد غشوك، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطأوا؛ عليك غرة - يعني عتق رقبة - فرجع عمر والصحابة إلى قوله.

وعمر هو الذي شيد بيعة أبي بكر ووقم المخالفين فيها فكسر فكسر سيف الزبير لما جرده، ودفع في صدر المقداد، ووطئ في السقيف سعد بن عباد، وقال: اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً! وحطم أنف الحباب بن المنذر الذي قال يوم السقيفة: أنا جديها المحكك، وعذيقها المرجب. وتوعد من لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشمين، وأخرجهم منها. ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة، وهو الذي ساس العمال وأخذ أموالهم في خلافته، وذلك من أحسن السياسات. وروى الزبير بن بكار، قال: لما قلد عمر عمرو بن العاص مصر، بلغه أنه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامت، فكتب إليه، أما بعد: فقد ظهر لي من مالك ما لم يكن في رزقك، ولا كان لك مال قبل أن أستعملك، فأني لك هذا! فوالله لو لم يهمني في ذات الله إلا من اختان في مال الله، لكثير همي، وانتثر أمري، ولقد كان عندي من المهاجرين الأولين من هو خير منك، ولكني قلدتك رجاء غنائك؛ فكتب إلي من أين لك هذا المال، وعجل.

فكتب إليه عمرو: أما بعد، فقد فهمت كتاب أمير المؤمنين، فأما ما ظهر لي من مال، فإننا قدمنا بلاداً رخيصة الأسعار، كثيرة الغزو، فجعلنا ما أصابنا في الفضول التي اتصل بأمر المؤمنين نبؤها، ووالله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك؛ وقد ائتمنتني، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك. وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير مني، فإذا كان ذاك فوالله ما دقت لك يا أمير المؤمنين باباً، ولا فتحت لك قفلاً.

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني لست من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام في شيء؛ ولكنكم معشر الأمراء قعدتم على عيون الأموال، ولن تعدموا عذراً، وإنما تأكلون النار، وتتعجلون العار، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة، فسلم إليه شطر مالك.

فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاماً ودعاه فلم يأكل، وقال: هذه مقدمة الشر، ولو جئتني بطعام الضيف لأكلت، فنح عني طعامك، وأحضر لي مالك، فأحضره، فأخذ شطره. فلما رأى عمرو كثرة ما أخذ منه، قال: لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر، والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تجاوز مأبض ركبتيه، وعلى عنقه حزمة حطب، والعاص بن وائل في مزررات الديباج. فقال محمد: إيهأ عنك يا عمرو! فعمر والله خير منك، وأما أبوك وأبوه فإنهما في النار، ولولا الإسلام لألفيت معتقاً شاة، يسرك غزرها، ويسوءك بكوؤها. قال: صدقت فاكم علي. قال:

أفعل.

قال الربيع بن زياد الحارثي: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعماله، وأن يستخلفوا جميعاً. فلما قدمنا المدينة أتيت يرفاً حاجب عمر، فقلت: يا يرفاً، مسترشد وابن سبيل! أي الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله؟ فأوماً إلي بالخشونة، فاتخذت خفين مطارقين، ولبست جبة صوف، ولثت عمامتي على رأسي، ثم دخلنا على عمر فصفنا بين يديه، فصعد بصره فينا وصوب، فلم تأخذ عينه أحداً غيري، فدعاني، فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي، قال: وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين، قال: كم ترزق؟ قلت: ألفاً، قال: كثير، فما تصنع به؟ قلت: أتقوت منه شيئاً، وأعود بباقيه على أقارب لي، فما فضل منهم فعلى فقراء المسلمين، قال: لا بأس، ارجع إلى موضعك. فرجعت إلى موضعي من الصف، فصعد فينا وصوب، فلم تقع عينه إلا علي فدعاني، فقال: كم سنك؟ قلت: خمس وأربعون، فقال: الآن حيث استحكمت! ثم دعا بالطعام، وأصحابي حديث عهدهم بلين العيش، وقد تجوعت له، فأتى بخبز يابس وأكسار بغير، فجعل أصحابي يعافون ذلك، وجعلت أكل فأجيد، وأنا أنظر إليه، وهو يلحظني من بينهم، ثم سبقتني كلمة تمنيت أني سحنت في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا! فزجرني، ثم قال: كيف قلت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أن تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز قبل إرادتك إياه بيوم، ويطبخ لك اللحم كذلك، فتؤتى بالخبز ليناً، وباللحم غريضاً. فسكن من غربه، وقال: أهنا غرت! قلت: نعم، فقال: يا ربيع، إنا لو نشاء لمألنا هذه الرحاب من صلاتك وسبائك وصناب، ولكني رأيت الله نعي على قوم شهواتهم، فقال: "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا"، ثم أمر أبا موسى بإقراري، وأن يستبدل بأصحابي.

أسلم عمر بعد جماعة من الناس، وكان سبب إسلامه أن أخته وبعلمها أسلما سراً من عمر، فدخل إليهما خباب بن الارت، يعلمهما الدين خفية، فوشى بهم واش إلى عمر، فجاء دار أخته، فتوارى خباب منه داخل البيت، فقال عمر: ما هذه الهينة عندكم؟ قالت أخته: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا. قال: أراكما قد صبوتما! قال ختنه: أرأيت إن كان هو الحق! فوثب عليه عمر فوطئه وطمأً شديداً، فجاءت أخته فدفعته عنه، فنفحها بيده، فدمى وجهها، ثم ندم ورق، وجلس واجماً، فخرج إليه خباب فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله لك الليلة، فإنه لم يزل يدعو منذ الليلة: "اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام".

قال: فانطلق عمر متقلداً سيفه حتى أتى إلى الدار التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، وهي الدار التي في أصل الصفا، وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من المسلمين، فوجل القوم من عمر إلا حمزة فإنه قال: قد جاءنا عمر، فإن يرد الله به خيراً يهدده، وإن يرد غير ذلك كان قتله علينا هيناً - والني صلى الله عليه وسلم داخل الدار يوحى إليه - فسمع كلامهم، فخرج حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحماثل سيفه، وقال: "ما أنت بمنته يا عمر حتى يتزل الله بك الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة. اللهم هذا عمر، اللهم أعز الإسلام بعمر"، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

مر يوماً عمر في بعض شوارع المدينة فناده إنسان: ما أراك إلا تستعمل عمالك، وتعهده إليهم العهود، وترى أن ذلك قد أجزأك. كلا والله إنك المأخوذ بهم إن لم تتعهدهم، قال: ما ذاك؟ قال: عياض بن غنم يلبس اللين، ويأكل الطيب، ويفعل كذا وكذا. قال: أساع؟ قال: بل مؤد ما عليه، فقال لمحمد بن مسلمة: الحق بعياض بن غنم فأتني به كما تجده، فمضى محمد بن مسلمة حتى أتى باب عياض - وهو أمير على حمص - وإذا عليه بواب، فقال له: قل لعياض: على بابك رجل يريد أن يلقاك، قال: ما تقول؟ قال: قل له ما أقول لك؛ فقام كالمعجب فأخبره، فعرف عياض أنه أمر حدث، فخرج فإذا محمد بن مسلمة، فأدخله، فرأى على عياض قميصاً رقيقاً، ورداءً ليناً، فقال: إن أمير المؤمنين أمرني ألا أفارقك حتى آتية بك كما أجذك. فأقدمه على عمر وأخبره أنه وجدته في عيش ناعم. فأمر له بعضا وكساء، وقال: اذهب بهذه الغنم، فأحسن رعيها، فقال: الموت أهون من ذلك، فقال: كذبت، ولقد كان ترك ما كنت عليه أهون عليك من ذلك. فساق الغنم بعضاه، والكساء في عنقه، فلما بعد رده، وقال: أرأيت إن رددتك إلى عملك أتصنع خيراً؟ قال: نعم والله يا أمير المؤمنين لا يبلغك مني بعدها ما تكره. فردته إلى عمله، فلم يبلغه عنه بعدها ما ينقمه عليه.

كان الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتون الشجرة التي كانت بيعة الرضوان تحتها فيصلون عندها، فقال عمر: أراكم أيها الناس رجعتم إلى العزى! ألا لا أوتى منذ اليوم بأحد عاد لمثلها إلا قتلته بالسيف كما يقتل المرتد، ثم أمر بها فقطعت.

لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشاع بين الناس موته، طاف عمر على الناس قائلاً: إنه لم يمت، ولكنه غاب عنا كما غاب موسى عن قومه، وليرجعن فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات. فجعل لا يمر بأحد يقول إنه مات إلا ويخطبه ويتوعده، حتى جاء أبو بكر، فقال: أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لم يمت، ثم تلا قوله تعالى: " أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم " ، قالوا: فوالله لكأن الناس ما سمعوا هذه الآية حتى تلاها أبو بكر. وقال عمر: لما سمعته يتلوها هويت إلى الأرض، وعلمت أن رسول الله قد مات. لما قتل خالد مالك بن نويرة ونكح امرأته، كان في عسكره أبو قتادة الأنصاري، فركب فرسه، والتحق بأبي بكر وحلف ألا يسير في جيش تحت لواء خالد أبداً، فقص على أبي بكر القصة، فقال أبو بكر: لقد فتنت الغنائم العرب، وترك خالد ما أمر به، فقال عمر: إن عليك أن تقيده بمالك، فسكت أبو بكر، وقدم خالد فدخل المسجد وعليه ثياب قد صدئت من الحديد، وفي عمامته ثلاثة أسهم، فلما رآه عمر قال: أرياء يا عدو الله! عدوت على رجل من المسلمين فقتلته ونكحت امرأته، أما والله إن أمكنني الله منك لأرجمنك، ثم تناول الأسهم من عمامته فكسرها - وخالد ساكت لا يرد عليه، ظناً أن ذلك عن أمر أبي بكر ورأيه - فلما دخل إلى أبي بكر وحدثه، صدقه فيما حكاه وقبل عذره. فكان عمر يحرض أبا بكر على خالد ويشير عليه أن يقتص منه بدم مالك، فقال أبو بكر: إيهاً يا عمر! ما هو بأول من أخطأ، فارفع لسانك عنه. ثم ودى مالكا من بيت مال المسلمين.

لما صالح خالد أهل اليمامة وكتب بينه وبينهم كتاب الصلح، وتزوج ابنة مجاعة بن مرارة الحنفي، وصل إليه كتاب أبي بكر: لعمرى يابن أم خالد، إنك لفارغ حتى تزوج النساء، وحول حجرتك دماء المسلمين لم تحف بعد.. في كلام أغلظ له فيه، فقال خالد: هذا الكتاب ليس من علم أبي بكر، هذا عمل الأعيسر - يعني عمر.

عزل عمر خالداً عن إمارة حمص في سنة سبع عشرة، وأقامه للناس، وعقله بعمامته، ونزع قلنسوته عن رأسه وقال: أعلمني، من أين لك هذا المال؟ وذلك أنه أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف درهم، فقال: من الأنفال والسهمان، فقال: لا والله، لا تعمل لي عملاً بعد اليوم، وشاطره ماله، وكتب إلى الأمصار بعزله، وقال: إن الناس فتنوا به، فخفت أن يוכלوا إليه، وأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع.

لما أسر الهرمزان حمل إلى عمر من تُستر إلى المدينة، ومعه رجال المسلمين، منهم الأحنف ابن قيس، وأنس بن مالك، فأدخلوه المدينة في هيئته وتاجه وكسوته، فوجدوا عمر نائماً في جانب المسجد، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه، فقال الهرمزان: وأين عمر؟ قالوا: ها هو ذا؛ قال: أين حرسه؟ قالوا: لا حاجب له ولا حارس قال: فينبغي أن يكون هذا نبياً، قالوا: إنه يعمل بعمل الأنبياء. واستيقظ عمر، فقال: الهرمزان؟ فقالوا: نعم؛ قال: لا أكلمه أو لا يبقى عليه من حليته شيء، فرموا ما عليه، وألبسوه ثوباً صفيقاً، فلما كلمه عمر أمر أبا طلحة أن ينتضي سيفه ويقوم على رأسه، ففعل. ثم قال له: ما عذرك في نقض الصلح ونكث العهد؟ وقد كان الهرمزان صالح أولاً، ثم نقض وغدر، فقال: أخبرك، قال: قل، قال: وأنا شديد العطش! فاسقني ثم أخبرك. فأحضر له ماء، فلما تناوله جعلت يده ترعد، قال: ما شأنك؟ قال: أخاف أن أمد عنقي وأنا أشرب فيقتلني سيفك. قال: لا بأس عليك حتى تشرب، فألقى الإناء عن يده، فقال: ما بالك؟ أعيدوا عليه الماء، ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش، قال: إنك قد أمنتني، قال: كذبت! قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قال: ويحك يا أنس! أنا أؤمن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك! والله لتأتيني بالمرح أو لأعاقبك، قال: أنت يا أمير المؤمنين قلت: لا بأس عليك حتى تشرب. وقال له ناس من المسلمين مثل قول أنس، فقال للهرمزان: ويحك! أتدعني! والله لأقتلنك إلا أن تسلم، ثم أوماً إلى أبي طلحة، فقال الهرمزان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فأمنه وأنزله المدينة.

سأل عمر عمرو بن معد يكرب عن السلاح فقال له: ما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك، قال فالنبل؟ قال: رسل المنايا، تخطئ وتصيب، قال فالدروع؟ قال: مشغلة للفارس، متعبة للراجل، وإنما مع ذلك لحصن حصين، قال فالترس؟ قال: هو الجن، وعليه تدور الدوائر، قال: فالسيف؟ قال: هناك قارعت أمك الهبل، قال: بل أمك، قال: والحمى أضرعتني لك .

وأول من ضرب عمر بالدرة أم فروة بنت أبي قحافة، مات أبو بكر فراح النساء عليه، وفيهن أخته أم فروة، فنهاهن عمر مراراً، وهن يعاودن، فأخرج أم فروة من بينهن، وعلاها بالدرة، فهربن وتفرقن. كان يقال: درة عمر أهيب من سيف الحجاج. وفي الصحيح: إن نسوة كن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كثر لغطهن، فجاء عمر فهربن هيبة له، فقال لهن: يا عديات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ.

وكان عمر يفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه، ويفتي بضده وخلافه، قضى في الجد مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال: من أراد أن يتقحم جرائم جهنم فليقل في الجد برأيه.

وقال مرة: لا يبلغني امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبي إلا ارتجعت ذلك منها، فقالت له امرأة: ما جعل الله لك ذلك، إنه تعالى قال: " وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً " ، فقال: كل الناس أفقه من عمر، حتى ربات الحجال! ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت، فاضلت إمامكم ففضلته! ومر يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاها، فجدح له ماء بعسل فلم يشربه، وقال: إن الله تعالى يقول: " أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا " فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنما ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة، اقرأ ما قبلها: " ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا " ، فقال عمر: كل الناس أفقه من عمر! وقيل: إن عمر كان يعس بالليل، فسمع صوت رجل وامرأة في بيت، فارتاب فتسور الحائط، فوجد امرأة ورجلاً، وعندهما زق خمر، فقال: يا عدو الله، أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصيته! قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت في ثلاث، قال الله تعالى: " ولا تجسسوا " ، وقد تجسست. وقال: " وأتوا البيوت من أبوابها " وقد تسورت، وقال: " فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا " ، وما سلمت! وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا محرهما، ومعاقب عليهما: متعة النساء ومتعة الحج. وهذا الكلام وإن كان ظاهره منكراً فله عندنا مخرج وتأويل، وقد ذكره أصحابنا الفقهاء في كتبهم.

وكان في أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعنجهية ظاهرة، يحسبه السامع لها أنه أراد بها ما لم يكن قد أراد، ويتوهم من تحكى له أنه قصد بها ظاهراً ما لم يقصده، فمنها الكلمة التي قالها في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها! ولكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته، ولم يتحفظ منها. وكان الأحسن أن يقول: مغمور أو مغلوب بالمرض، وحاشاه أن يعني بها غير ذلك! ولجفاة الأعراب من هذا الفن كثير، سمع سليمان بن عبد الملك أعرابياً يقول في سنة قحط:

قد كنت تسقينا فما بدا لك!

رب العباد ما لنا وما لك!

أنزل علينا القطر لا أبا لك!

فقال سليمان: أشهد أنه لا أب له ولا صاحبة ولا ولد، فأخرجه أحسن مخرج.

وعلى نحو هذا يحتمل كلامه في صلح الحديبية لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألم تقل لنا: ستدخلونها! في ألفاظ نكرة حكايتها، حتى شكاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر، وحتى قال له أبو بكر: الزم بغرزه ، فوالله إنه لرسول الله. وعمر هو الذي أغلظ على جبلة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة، بل مفارقة دار الإسلام كلها، وعاد مرتداً داخلًا في دين النصرانية، لأجل لظمة لظمها. وقال جبلة بعد ارتداده متندماً على ما فعل:

وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تنتصرت الأشراف من أجل لظمة

رجعت إلى القول الذي قاله عمر

فيا ليت أمني لم تلدني وليتني

الأصل: حتى إذا مضى لسبيله، جعلها في ستة زعم أي أحدهم، فيا لله وللشورى! متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر! لكني أسففت إذ أسفوا، وطرت إذ طاروا، فصغا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر

لصهره، مع هنٍ وهنٍ.

الشرح: اللام في يا لله مفتوحة، واللام في وللشورى مكسورة؛ لأن الأولى للمدعو، والثانية للمدعو إليه، قال :

يا للرجال ليوم الأربعاء أما

ينفك يحدث لي بعد النهي طرباً

اللام في للرجال مفتوحة، وفي ليوم مكسورة. وأسف الرجل، إذا دخل في الأمر الديني، أصله من أسف الطائر إذا دنا من الأرض في طيرانه. والضغن: الحقد.

وقوله مع هنٍ وهنٍ، أي مع أمور يكنى عنها ولا يصرح بذكرها، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشر، قال : على هنواتٍ شرها متتابع يقول عليه السلام: إن عمر لما طعن جعل الخلافة في ستة، هو عليه السلام أحدهم، ثم تعجب من ذلك، فقال: متى اعترض الشك في مع أبي بكر، حتى أقرن بسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأمثالهما! لكني طلبت الأمر وهو موسوم بالأصاغر منهم، كما طلبته أولاً وهو موسوم بأكابرهم؛ أي هو حقي فلا أستنكف من طلبه، إن كان المنازع فيه جليل القدر أو صغير المتزلة، وصغا الرجل بمعنى مال، الصغو: الميل، بالفتح والكسر.

ما هي قصة الشورى

وصورة هذه الواقعة أن عمر لما طعنه أبو لؤلؤة، وعلم أنه ميت، استشار فيمن يوليه الأمر بعده، فأشير عليه بابنه عبد الله، فقال: لا ها الله إذا! لا يليها رجلان من ولد الخطاب! حسب عمر ما حمل! حسب عمر ما احتقب، لا ها الله! لا أتحمّلها حياً وميتاً! ثم قال: إن رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم فليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثم قال: ادعوهم لي، فدعوههم، فدخلوا عليه، وهو ملقى على فراشه يجود بنفسه. فنظر إليهم، فقال: أكلكم يطمع في الخلافة بعدي! فوجئوا، فقال لهم ثانية، فأجابه الزبير وقال: وما الذي يبعدنا منها! وليتها أنت فقمتم بها، ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة. - قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لولا علمه أن عمر يموت في مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة، ولا أن ينبس منه بلفظة.

فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم! قال: قل، فإننا لو استعفيناك لم تعفنا، فقال: أما أنت يا زبير فوقع لقس، مؤمن الرضا كافر الغضب، يوماً إنساناً ويوماً شيطاناً، ولعلها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير! أفرأيت إن أفضت إليك! فليت شعري، من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة، وأنت على هذه الصفة.

ثم أقبل على طلحة - وكان له مبغضاً منذ قال لأبي بكر ما قال في عمر - فقال له: أقول أم أسكت؟ قال: قل، فإنك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أما إني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أحد والبأ الذي حدث لك، ولقد مات رسول الله

صلى الله عليه وسلم سائحاً عليك بالكلمة التي قتلها يوم أنزلت آية الحجاب.

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى: الكلمة المذكورة أن طلحة لما أنزلت آية الحجاب قال بمحضر من نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الذي يغنيه حجابهم اليوم! وسيموت غداً فنكحهن. قال أبو عثمان أيضاً: لو قال لعمر قائل: أنت قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو راض عن الستة، فكيف تقول الآن لطلحة إنه مات عليه السلام سائحاً عليك للكلمة التي قتلها! لكان قد رماه بمشاقصه، ولكن من الذي يجسر على عمر أن يقول له ما دون هذا، فكيف هذا! قال: ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال: إنما أنت صاحب مقنب من هذه المقانب، تقاتل به، وصاحب قنص وقوس وأسهم، ومازهرة والخلافة وأمور الناس! ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف، فقال: وأما أنت يا عبد الرحمن، فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرحح إيمانك به، ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر! ثم أقبل على علي عليه السلام، فقال: لله أنت لولا دعاية فيك! أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والمحجة البيضاء.

ثم أقبل على عثمان، فقال: هيهأ إليك! كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب، فذبجوك على فراشك ذبجاً. والله لئن فعلوا لتفعلن، ولئن فعلت ليفعلن. ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذاكر قولي، فإنه كائن.

ذكر هذا الخبر كله شيخنا أبو عثمان في كتاب السفينانية، وذكره جماعة غيره في باب فراسة عمر. وذكر أبو عثمان في هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال: وروى معمر بن سليمان التيمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأهل الشورى: إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم، غلبكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية حينئذ أمير الشام.

ثم رجع بنا الكلام إلى تمام قصة الشورى. ثم قال: ادعوا إلي أبا طلحة الأنصاري، فدعوه له فقال: انظر يا أبا طلحة، إذا عدتم من حفرتي، فكن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملِي سيوفكم، فخذ هؤلاء نفر بأمضاء المر وتعجيله، واجمعهم في بيت، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب أعناقهما، وإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة، فانظر الثلاثة التي فيها عبد الرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمر، فاضرب أعناق الستة، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

فلما دفن عمر، جمعهم أبو طلحة، ووقف على باب البيت بالسيف في خمسين من الأنصار، حاملِي سيوفهم، ثم تكلم القوم وتنازعوا، فأول ما عمل طلحة أنه أشهدهم على نفسه أنه قد وهب حقه من الشورى لعثمان، وذلك لعلمه أن الناس لا يعدلون به علماً وعثمان، وأن الخلافة لا تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب علي عليه السلام، بهبة أمر لا انتفاع له به، ولا تمكن له منه.

فقال الزبير في معارضته: وأنا أشهدكم على نفسي أني قد وهبت حقي من الشورى لعلي، وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى

علياً قد ضعف وانخزل بهبة طلحة حقه لعثمان، ودخلت حمية النسب، لأنه ابن عمة أمير المؤمنين عليه السلام، وهي صفية بنت عبد المطلب، وأبو طالب خاله. وإنما مال طلحة إلى عثمان لانحرافه عن علي عليه السلام، باعتبار أنه تيمي، وابن عم أبي بكر الصديق، وقد كان حصل في نفوس بني هاشم من تيم حنق شديد لأجل الخلافة، وكذلك صار في صدور تيم علي بني هاشم، وهذا أمر مركوز في طبيعة البشر، وخصوصاً طينة العرب وطباعها، والتجربة إلى الآن تحقق ذلك، فبقي من الستة أربعة.

فقال سعد بن أبي وقاص: وأنا قد وهبت حقي من الشورى لابن عمي عبد الرحمن - وذلك لأنهما من بني زهرة، ولعلم سعد، أن الأمر لا يتم له - فلما لم يبق إلا الثلاثة. قال عبد الرحمن لعلي وعثمان: أيكما يخرج نفسه عن الخلافة، ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين؟ فلم يتكلم منهما أحد، فقال عبد الرحمن: أشهدكم أنني قد أخرجت نفسي من الخلافة على أن أختار أحدهما، فأمسكاً. فبدأ بعلي عليه السلام، وقال له: أبايعك على كتاب الله، وسنة رسول الله، وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر. فقال: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي. فعدل عنه إلى عثمان، فعرض ذلك عليه، فقال: نعم، فعاد إلى علي عليه السلام، فأعاد قوله؛ فعل ذلك عبد الرحمن ثلاثاً، فلما رأى أن علياً غير راجع عما قاله، وأن عثمان ينعم له بالإجابة، صفق على يد عثمان، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فيقال: إن علياً عليه السلام قال له: والله ما فعلتها إلا لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه، دق الله بينكما عطر منشم . قيل: ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمن، فلم يكلم أحدهما صاحبه حتى مات عبد الرحمن.

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل: أما قوله عليه السلام: فصغا منهم رجل لضغنه، فإنه يعني طلحة، وقال القطب الراوندي: يعني سعد بن أبي وقاص؛ لأن علياً عليه السلام قتل أباه يوم بدر. وهذا خطأ فإن أباه أبو وقاص، واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب؛ مات في الجاهلية حتف أنفه . وأما قوله: ومال الآخر لصهره، يعني عبد الرحمن مال إلى عثمان، لأن أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط كانت تحتها، وأم كلثوم هذه هي أخت عثمان من أمه أروى بنت كرز.

وروى القطب الراوندي أن عمر لما قال: كونوا مع الثلاثة التي عبد الرحمن فيها، قال ابن عباس لعلي عليه السلام: ذهب الأمر منا، الرجل يريد أن يكون الأمر في عثمان. فقال علي عليه السلام: وأنا أعلم ذلك، ولكني أدخل معهم في الشورى، لأن عمر قد أهلي الآن للخلافة، وكان قبل ذلك يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن النبوة والإمامة لا يجتمعان في بيت واحد، فأنا أدخل في ذلك لأظهر للناس مناقضة فعله لروايته.

الذي ذكره الراوندي غير معروف، ولم ينقل عمر هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه قال لعبد الله بن عباس يوماً: يا عبد الله، ما تقول منع قومكم منكم؟ قال: لا أعلم يا أمير المؤمنين، قال: اللهم غفرًا! إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة، فتذهبون في السماء بذخاً وشمخاً، لعلكم تقولون: إن أبا بكر أراد الإمرة عليكم وهضمكم! كلا، لكنه حضره أمر لم يكن عنده أحزم مما فعل، ولولا رأي أبي بكر في بعد موته لأعاد أمركم إليكم، ولو فعل ما هنأكم مع قومكم، إنهم لينظرون إليكم نظرة الثور إلى جازره.

فأما الرواية التي جاءت بأن طلحة لم يكن حاضراً يوم الشورى، فإن صحت فذو الضغن هو سعد بن أبي وقاص، لأن أمه

حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، والضعينة التي عنده علي بن علي عليه السلام من قبل أخواله الذين قتل صناديدهم، وتقلد دماءهم، ولم يعرف أن علياً عليه السلام قتل أحداً من بني زهرة لينسب الضغن إليه.

وهذه الرواية التي اختارها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ قال: لما طعن عمر قيل له: لو استخلفت يا أمير المؤمنين! فقال: من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي لو سألتني: سمعت نبيك يقول: "أبو عبيدة أمين هذه الأمة" ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته، وقلت لربي إن سألتني: سمعت نبيك عليه السلام يقول: "سالمًا شديد الحب لله"، فقال له رجل: ول عبد الله بن عمر، فقال: فأتلك الله! والله ما الله أردت بهذا الأمر! ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته! لا أرب لعمر في خلافتكم، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي؛ إن تك خيراً فقد أصبنا منه، وإن تك شراً يصرف عنا. حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد.

فخرج الناس من عنده، ثم راحوا إليه فقالوا له: لو عهدت عهداً! قال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أولي أمركم رجلاً هو أحراكم أن يحملكم على الحق - وأشار إلى علي عليه السلام - فرهقتني غشية، فرأيت رجلاً يدخل جنة قد غرسها فجعل يجعل يقطف كل غضة ويانعة، فيضمها إليه، ويصيرها تحته، فخفت أن أتحمّلها حياً وميتاً، وعلمت أن الله غالب أمره عليكم بالرهط الذي قال رسول الله عنهم: إنهم من أهل الجنة، ثم ذكر خمسة: علياً، وعثمان، وعبد الرحمن، والزبير، وسعداً.

- قال: ولم يذكر في هذا المجلس طلحة، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة - ثم قال لهم: انفضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها، ووضع رأسه وقد نزفه الدم، فقال العباس لعلي عليه السلام: لا تدخل معهم، وارفع نفسك عنهم، قال: إني أكره الخلاف، قال: إذن ترى ما تكره، فدخلوا الحجرة فتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر: إن أمير المؤمنين لم يمت بعد، ففيم هذا اللغط! وانتبه عمر، وسمع الأصوات، فقال: ليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع من يوم موتي إلا وعليكم أمير، وليحضر عبد الله بن عمر مشيراً وليس له شيء من الأمر، وطلحة بن عبيد الله شريككم في الأمر، فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضره أمركم، وإلا فارضوه، ومن لي برضا طلحة! فقال سعد: أنا لك به، ولن يخالف إن شاء الله تعالى.

ثم ذكر وصيته لأبي طلحة الأنصاري وما خص به عبد الرحمن بن عوف من كون الحق في الفئة التي هو فيها وأمره بقتل من يخالف، ثم خرج الناس فقال علي عليه السلام لقوم معه من بني هاشم: إن أطيع فيكم قومكم من قريش لم تؤمروا أبداً.

وقال للعباس: عدل بالأمر عني يا عم. قال: وما علمك؟ قال: قرن بي عثمان. وقال عمر: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالف ابن عمه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان، فيوليها أحدهما الآخر، فلو كان الآخرون معي لم يغنيا شيئاً. فقال العباس: لم أدفعك إلى شيء إلا رجعت إلي مستأخراً بما أكره، أشرت عليك عند مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله عن هذا الأمر فيمن هو فأبيت،

وأشرت عليك عند وفاته أن تعاجل البيعة فأبيت، وقد أشرت عليك حين سماك عمر في الشورى اليوم أن ترفع نفسك عنها، ولا تدخل معهم فيها فأبيت، فاحفظ عني واحدة؛ كلما عرض عليك القوم الأمر فقل: لا، إلا أن يولوك. واعلم أن هؤلاء لا يرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرك، وإيم الله لا تناله إلا بشر لا ينفع معه خير. فقال عليه السلام: أما إني أعلم أنهم سيولون عثمان وليحدثن البدع والأحداث، ولئن بقي لأذكرنك، وإن قتل ليتداولنها بنو أمية بينهم، وإن كنت حياً لتجدني حيث تكرهون، ثم تمثل:

غدون خفافاً يبتدرن المحصبا

حلفت برب الراقصات عشية

نجيعاً بنو الشداخ ورداً مصلبا

ليجتلبن رهط ابن يعمر غدوة

قال: ثم التفت فرأى أبا طلحة الأنصاري، فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لا ترع أبا حسن. فلما مات عمر ودفن وخلوا بأنفسهم للمشاورة في الأمر، وقام أبو طلحة يحجبهم بباب البيت، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، فجلسا بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما، وقال: إنما تريدان أن تقولاً حضرنا وكنا في أصحاب الشورى.

فتنافس القوم وكثر في الأمر وكثر بينهم الكلام، فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدافعوها أخوف مني عليكم أن تنافسوها! أما والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي وقفت لكم، فاصنعوا ما بدا لكم! قال: ثم إن عبد الرحمن قال لابن عمه سعد بن أبي وقاص: إني قد كرهتها، وسأخلع نفسي منها، لأني رأيت الليلة روضة خضراء كثيرة العشب، فدخل فحل ما رأيت أكرم منه، فمر كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها، لم يعرج، ودخل بعير يتلوه تابع أثره، حتى خرج منها. ثم دخل فحل عبقرى يجرح خطامه، ومضى قصد الأولين، ثم دخل بعير رابع، فوقع في الروضة يرتع ويخضم. ولا والله لا أكون الرابع: وإن أحداً لا يقوم مقام أبي بكر وعمر فيرضى الناس عنه. ثم ذكر خلع عبد الرحمن نفسه من الأمر، على أن يوليها أفضلهم في نفسه، وأن عثمان أجاب إلى ذلك، وأن علياً عليه السلام سكت، فلما رجع رضي على موثق أعطاه عبد الرحمن؛ أن يؤثر الحق، ولا يتبع الهوى، ولا يخص ذا رحم، ولا يألو الأمة نصحاً، وأن عبد الرحمن ردد القول بين علي وعثمان متلوماً، وأنه خلا بسعد تارة، وبالمسور بن مخزومة الزهري تارة أخرى، وأجال فكره، وأعمل نظره، ووقف موقف الحائر بينهما. قال علي عليه السلام لسعد ابن أبي وقاص: يا سعد، "اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام"، أسألك برحم ابني هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم عمي حمزة منك، ألا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً.

قلت: رحم الله حمزة بن سعد، هي أن حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة؛ وهي أيضاً أم المقوم وحجفل - واسمه المغيرة - والغيداق أبناء عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف؛ هؤلاء الأربعة بنو عبد المطلب من هالة، وهالة هذه هي عمة سعد بن أبي وقاص؛ فحمزة إذن ابن عمة سعد، وسعد ابن خال حمزة.

قال أبو جعفر: فلما أتى اليوم الثالث جمعهم عبد الرحمن، واجتمع الناس كافة، فقال عبد الرحمن: أيها الناس، أشيروا علي في هذين الرجلين. فقال عمار بن ياسر: إن أردت ألا يختلف الناس، فبايع علياً عليه السلام، فقال المقداد: صدق عمار،

وإن بايعت علياً سمعنا وأطعنا. فقال عبد الله بن أبي سرح: إن أردت ألا تختلف قريش، فبايع عثمان. وقال عبد الله ابن أبي ربيعة المخزومي: صدق، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا. فشتتم عمار ابن أبي سرح، وقال له: متى كنت تنصح الإسلام! فتكلم بنو هاشم وبنو أمية، وقام عمار فقال: أيها الناس، إن الله أكرمكم بنبيه، وأعزكم بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بين نبيكم! فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يابن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها! فقال سعد: يا عبد الرحمن، افرغ من أمرك قبل أن يفتتن الناس. فحينئذ عرض عبد الرحمن على علي عليه السلام العمل بسيرة الشيخين، فقال: بل أجتهد برأيي. فبايع عثمان بعد أن عرض عليه فقال: نعم. فقال علي عليه السلام: ليس هذا بأول يوم تظاهرت فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون؛ والله ما وليته الأمر إلا ليرده إليك، والله كل يوم في شأن.

فقال عبد الرحمن: لا تجعلن على نفسك سبيلاً يا علي - يعني أمر عمر أبا طلحة أن يضرب عنق المخالف - فقام علي عليه السلام فخرج، وقال: سيبلغ الكتاب أجله، فقال عمار: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركته، وإنه من الذين يقضون بالحق وبه كانوا يعدلون. فقال المقداد: تالله ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم، وأعجباً لقريش! لقد تركت رجلاً ما أقول ولا أعلم أن أحداً أقضى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه! أما والله لو أجدنا أعواناً! فقال عبد الرحمن: اتق الله يا مقداد، فإني خائف عليك الفتنة.

وقال علي عليه السلام: إني لأعلم ما في أنفسهم، إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر في صلاح شأنها، فتقول: إن ولي الأمر بنو هاشم لم يخرج منهم أبداً، وما كان في غيرهم فهو متداول في بطون قريش. قال: وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان فتلكأ ساعة، ثم بايع. وروى أبو جعفر رواية أخرى أطلها، وذكر خطب أهل الشورى وما قاله كل منهم، وذكر كلاماً قاله علي عليه السلام في ذلك اليوم، وهو:

الحمد لله الذي اختار محمداً منا نبياً، وابتعثه إلينا رسولاً، فنحن أهل بيت النبوة ومعدن الحكمة؛ أمان لأهل الأرض، ونجاة لمن طلب؛ إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجالدنا عليه حتى نموت. لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اسمعوا كلامي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا الجمع تنتضي فيه السيوف، وتخان فيه العهود؛ حتى لا يكون لكم جماعة، وحتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة. قلت: وقد ذكر الهروي في كتاب الجمع بين الغريبين قوله: وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل، وفسره على وجهين: أحدهما: أن من ركب عجز البعير يعاني مشقة، ويقاسي جهداً، فكأنه قال: وإن نمنعه نصبر على المشقة؛ كما يصبر عليها راكب عجز البعير.

والوجه الثاني أنه أراد: نتبع غيرنا، كما أن راكب عجز البعير يكون رديفاً لمن هو أمامه، فكأنه قال: وإن نمنعه نتأخر ونتبع غيرنا كما يتأخر راكب البعير.

وقال أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل: استجيب دعوة علي عليه السلام في عثمان وعبد الرحمن، فما ماتا إلا

متهاجرين متعددين. أرسل عبد الرحمن إلى عثمان يعاتبه وقال لرسوله: قل له: لقد وليتك ما وليتك من أمر الناس، وإن لي لأموراً ما هي لك: شهدت بداراً وما شهدتها، وشهدت بيعة الرضوان وما شهدتها، وفررت يوم أحد وصبرت، فقال عثمان لرسوله: قل له: أما بدر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردي إلى ابنته لما بها من المرض، وقد كنت خرجت للذي خرجت له، ولقيته عند منصرفه، فبشرني بأجرٍ مثل أجوركم، وأعطاني سهماً مثل سهامكم. وأما بيعة الرضوان فإنه صلى الله عليه وسلم بعثني أستاذاً قريشاً في دخوله إلى مكة، فلما قيل له: إني قتلت، بايع المسلمين على الموت لما سمعته عني، وقال: إن كان حياً فأنا أبايع عنه، وصفق بإحدى يديه على الأخرى، وقال: يساري خير من يمين عثمان، فيدك أفضل أم يد رسول الله صلى الله عليه وسلم! وأما صبرك يوم أحد وفراري، فلقد كان ذلك، فأنزل الله تعالى العفو عني في كتابه، فعيرتني بذنب غفره الله لي، ونسيت من ذنوبك ما لا تدري أغفر أم لم يغفر! لما بنى عثمان قصره طمار بالزوراء، وصنع طعاماً كثيراً، ودعا الناس إليه، كان فيهم عبد الرحمن فلما نظر للبناء والطعام قال: يا بن عفان، لقد صدقنا عليك ما كنا نكذب فيك، وإني أستعيز بالله من بيعتك، فغضب عثمان، وقال: أخرج عني يا غلام، فأخرجوه، وأمر الناس ألا يجالسوه، فلم يكن يأتيه أحد إلا ابن عباس، كان يأتيه فيتعلم منه القرآن والفرائض. ومرض عبد الرحمن فعاده عثمان وكلمه فلم يكلمه حتى مات.

الأصل: إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع؛ إلى أن انتكث قتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته.

الشرح: نافجاً حضنيه: رافعاً لهما، والحضن: ما بين الإبط والكشح، يقال للمتكبر: جاء نافجاً حضنيه، ويقال لمن امتلأ بطنه طعاماً: فجاء نافجاً حضنيه، ومراده عليه السلام هذا الثاني. والنثيل: الروث. والمعتلف: موضع العلف، يريد أن همه الأكل والرجيع، وهذا من ممض الدم، وأشد من قول الحطيئة الذي قيل: أنه أهجى بيت للعرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيته **واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي**

والخضم: أكل بكل الفم، وضده القضم، وهو الأكل بأطراف الأسنان، وقيل: الخضم أكل الشيء الرطب، والقضم أكل الشيء اليابس، والمراد على التفسيرين لا يختلف، وهو أنهم على قدم عظيمة من النهم وشدة الأكل وامتلاء الأفواه. وقال أبو ذر رحمه الله تعالى عن بني أمية: يخضمون ونقضهم، والموعود الله. والماضي خضمت بالكسر، ومثله قضمت. والنبتة، بكسر النون كالنبات، تقول: نبت الرطب نباتاً ونبتة. وانتكث قتله: انتقض؛ وهذه استعارة. وأجهز عليه عمله: تم قتله. يقال: أجهزت على الجريح، مثل ذففت، إذا أتممت قتله وكبت به بطنته، كبا الجواد، إذا سقط والبطنة: الإسراف في الشبع.

نبذة من أخبار عثمان بن عفان

وثالث القوم هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف، كنيته أبو عمرو، وأمه أروى بنت كريب بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقرار الأمر له، وصحت فيه فراسة عمر، فإنه أوطأ بني أمية في رقاب الناس، وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتتحت إفريقية في أيامه، فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان، فقال عبد الرحمن بن حنبل الجمحي:

أحلف بالله رب الأنا
ولكن خلقت لنا فتنة
فإن الأميين قد بينا
فما أخذنا درهماً غيلةً
وأعطيت مروان خمس البلاد
م ما ترك الله شيئاً سدى
لكي نبتلى بك أو نبتلى
منار الطريق عليه الهدى
ولا جعلنا درهماً في هوى
فهيهات سعيك ممن سعى!

الأميين: أبو بكر وعمر.

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمئة ألف درهم. وأعاد الحكم بن أبي العاص، بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سيره ثم لم يردّه أبو بكر ولا عمر؛ وأعطاه مائة ألف درهم، وتصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم، وأقطع مروان فذك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليه، تارة بالميراث، وتارة بالنحلة فدفعت عنها، وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية.

وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب - وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة - من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي! قال: لا، ولكن أبكي لأنني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقت في سبيل الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً، فقال: ألق بالمفاتيح يا بن أرقم، فإننا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جلييلة، فقسّمها كلها في بني أمية. وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه.

وانضم إلى هذه الأمور أمور أخرى نقمها عليه المسلمون، كتسيير أبي ذر رحمه الله تعالى إلى الربذة، وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر في إقامة الحدود ورد المظالم، وكف الأيدي العادية، والانتصاب لسياسة الرعية، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، واجتمع عليه كثير من من أهل المدينة مع القوم الذين وصلوا من مصر لتعدد أحداثه فقتلوه.

وقد أجاب أصحابنا عن المطاعن في عثمان بأجوبة مشهورة مذكورة في كتبهم. والذي نقول نحن: إنها وإن كانت أحداثاً، إلا أنها لم تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه، وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها، ولا يعجلوا بقتله، وأمير المؤمنين عليه السلام أبرأ الناس من دمه، وقد صرح بذلك في كثير من كلامه؛ من ذلك قوله عليه السلام: والله ما قتلت عثمان ولا مالات على قتله. وصدق صلوات الله عليه.

الأصل: فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، يثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفائي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم. فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وفسق آخرون، كأثم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين " ؛ بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها. الشرح: عرف الضبع ثخين، ويضرب به المثل في الازدحام. ويثالون: يتتابعون مزدحمين. والحسنان: الحسن والحسين عليه السلام. والعطفان: الجانبان من المنكب إلى الورك؛ ويروى عطاقي، والعكاف: الرداء وهو أشبه بالحال؛ إلا أن الرواية الأولى أشهر، والمعنى خدش جانباي لشدة الإصطكاك منهم والزحام.

وقال القطب الرواندي: الحسنان: إيهاما الرجل؛ وهذا لا أعرفه. وقوله: كربيضة الغنم، أي كالقطعة الرابضة من الغنم، يصف شدة ازدحامهم حوله، وجنومهم بين يديه، وقال القطب الرواندي: يصف بلادهم ونقصان عقولهم، لأن الغنم توصف بقلة الفطنة. وهذا التفسير بعيد وغير مناسب للحال. فأما الطائفة الناكثة، فهم أصحاب الحمل، وأما الطائفة الفاسقة فأصحاب صفين. وسماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسطين. وأما الطائفة المارقة فأصحاب النهروان؛ وأشرنا نحن بقولنا: سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسطين إلى قوله عليه السلام: " ستقاتل بعدي الناكثين، والقاسطين والمارقين ". وهذا الخبر من دلائل نبوته صلوات الله عليه، لأنه إخبار صريح بالغيب، لا يحتمل التمويه والتدليس كما تحتمله الخبر المجملة، وصدق قوله عليه السلام: " والمارقين "، قوله أولاً في الخوارج: " يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"، وصدق قوله عليه السلام: " الناكثين " كونهم نكثوا البيعة بادئ بدء، وقد كان عليه السلام يتلو وقت مبايعتهم له: " فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ". وأما أصحاب صفين، فإنهم عند أصحابنا رحمهم الله مخلصون في النار لفسقهم، فصح فيهم قوله تعالى: " وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً " .

وقوله عليه السلام: حليت الدنيا في أعينهم، تقول: حلا الشيء في فمي يخلو، وحلي لعيني يخلو. والزبرج: الزينة من وشي أو غيره، ويقال: الزبرج: الذهب. فأما الآية فنحن نذكر بعض ما فيها، فنقول: إنه تعالى لم يعلق الوعد بترك العلو في الأرض والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وهو كقوله تعالى " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار " ؛ علق الوعيد بالركون إليهم والميل معهم، وهذا شديد في الوعيد.

ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أحسن من شراك نعل صاحبه فيدخل تحت هذه الآية. ويقال: إن عمر بن عبد العزيز كان يرددها حتى قبض.

الأصل: أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاتلوا على كفة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها. ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عتر.

الشرح: فلق الحبة، من قوله تعالى: " فائق الحب والنوى ". والنسمة: كل ذي روح من البشر خاصة.

قوله: لولا حضور الحاضر، يمكن أن يريد به لولا حضور البيعة، فإنها بعد عقدتها تتعين المحاماة عنها، ويمكن أن يريد بالحاضر من حضره من الجيش الذي يستعين بهم على الحرب. والكفة بكسر الكاف: ما يعتري الإنسان من الثقل والكره عند الإمتلاء من الطعام. والسغب: الجوع. وقولهم: قد ألقى فلان حبل فلان على غاربه، أي تركه هماً يسرح حيث يشاء من غير وازع ولا مانع؛ والفقهاء يذكرون هذه اللفظة في كنايات الطلاق. وعفطة عتر: ما تنثره من انفها، عفتت تعفت بالكسر؛ وأكثر ما يستعمل ذلك في النعجة. فأما العتر فالمستعمل الأشهر فيها النفطة بالنون، ويقولون: ما له عافط ولا نافط، أي نعجة ولا عتر، فإن قيل: أيجوز أن يقال العفطة ههنا الحبة؟ فإن ذلك يقال في العتر خاصة، عفتت تعفت. قيل: ذلك جائز، إلا أن الأحسن والأليق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام التفسير الأول؛ فإن جلالته وسؤدده تقتضي أن يكون ذاك أراد لا الثاني. فإن صح أنه لا يقال في العطسة عفطة إلا للنعجة. قلنا: إنه استعمله في العتر مجازاً.

يقول عليه السلام: لولا وجود من ينصري - لا كما كانت الحال عليها أولاً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنني لم أكن حينئذ واحداً للناصر مع كوني مكلفاً ألا أمكن الظالم من ظلمه - لتركت، ولرفضتها الآن كما رفضتها قبل، ولوجدتم هذه الدنيا عندي أهون من عطسة عتر، وهذا إشارة إلى ما يقول أصحابنا من وجوب النهي عن المنكر عند التمكن.

الأصل: قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً فأقبل ينظر فيه، فلما فرغ من قراءته قال له ابن عباس رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين، لو اطردت مقاتلتك من حيث أفضيت! فقال: هيهات يا ابن عباس! تلك شقشقة هدرت ثم قرت.

قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين بلغ منه حيث أراد. قال الرضي: قوله عليه السلام في هذه الخطبة: كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم، يريد أنه إذا شدد عليها في جذب الزمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها، وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها. يقال: أشنق الناقة إذا جذب رأسها بالزمام فرفعه، وشنقها أيضاً، ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق. وإنما قال عليه السلام: أشنق لها، ولم يقل أشنقها لأنه جعله في مقابلة قوله: أسلس لها، فكأنه قال: إن رفع لها رأسها بالزمام يعني

أمسكه عليها. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب على ناقه وقد شقق عليها فهي تقصع بجرتها. ومن الشاهد على أن أشنق بمعنى شقق قول عدي بن زيد العبادي:

دي وإشناقها إلى الأعناق

ساءها ما لها تبين في الأبي

الشرح: سمي السواد سواداً لخضرته بالزروع والأشجار والنخل، والعرب تسمي الأخضر أسود، قال سبحانه: "مدهامتان" يريد الخضرة. وقوله: لو اطردت مقاتلك، أي اتبعت الأول قولاً ثانياً! من قولهم اطرده النهر، إذا تتابع جريه. وقوله: من حيث أفضيت، أصل أفضى خرج إلى الفضاء، فكأنه شبهه عليه السلام حيث سكت عما كان يقوله، بمن خرج من خباء أو جدار إلى فضاء من الأرض، وذلك لأن النفس والقوى والهمة عند ارتجال الخطب والأشعار تجتمع إلى القلب، فإذا قطع الإنسان وفرغ، تفرقت وخرجت عن حجر الاجتماع واستراحت. والشقشقة، بالكسر فيهما: شيء يخرج البعير من فيه إذا هاج، وإذا قالوا للخطيب: ذو شقشقة فإنما شبهوه بالفحل. والهدير: صوتهما. وأما قول ابن عباس: ما أسفت على كلام... إلى آخره، فحدثني شيخني أبو الخير مصدق بن شبيب الواسطي في سنة ثلاث وستمائة، وقال: قرأت على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما انتهت إلى هذا الموضع، قال لي: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمك أمر لم يبلغه في هذه الخطبة لتأسف ألا يكون بلغ من كلامه ما أراد! والله ما رجع عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بقي في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال مصدق: وكان ابن خشاب صاحب دعاية وهزل. قال: فقلت له: أتقول له: أتقول إنها منحولة! فقال: لا والله، وإني لأعلم أنها كلامه، كما أعلم أنك مصدق. قال: إن كثيراً من الناس يقولون إنها من كلام الرضي رحمه الله تعالى. فقال: أني للرضي ولغير الرضي هذا النفس وهذا الأسلوب! قد وقفنا على رسائل الرضي، وعرفنا طريقته وفنه في الكلام المنثور، وما يقع مع هذا الكلام في خل ولا حمر. ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنف قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة، ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضي.

قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي إمام البغداديين من المعتزلة، وكان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضي بمدة طويلة. ووجدت أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبة أحد متكلمي الإمامية وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب الإنصاف. وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البلخي رحمه الله تعالى، ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضي رحمه الله تعالى موجوداً.

ومن خطبة له في هداية الناس وكمال يقينه

الأصل: بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنتم العلياء. وبنا انفجرتم عن السرار. وقر سمع لم يفقه الواعية؛ وكيف يراعي النبأة من أصمته الصيحة! ربط جنان لم يفارقه الخفقان. ما زلت أنتظر بكم عواقب الغدر، وأتوسمكم بحلية المغترين، سترني عنكم جلباب الدين، وبصرنيكم صدق النية.

أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة، حيث تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون.
اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان، عزب رأي امرئٍ تخلف عني، ما شككت في الحق مذ رأيت، لم يوجس موسى خيفةً
على نفسه؛ أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال، اليوم توافقنا على سبيل الحق والباطل. من وثق بماءٍ لم يظماً.

الشرح: هذه الكلمات والأمثال ملتقطة من خطبة طويلة منسوبة عليه السلام، قد زاد فيها قوم أشياء حملتهم عليها
أهواؤهم، لا توافق ألفاظها طريقته عليه السلام في الخطب، ولا تناسب فصاحتها فصاحته، ولا حاجة إلى ذكرها فهي
شهيرّة. ونحن نشرح هذه الألفاظ، لأنها كلامه عليه السلام، لا يشك في ذلك من له ذوق ونقد ومعرفة بمذاهب الخطباء
والفصحاء في خطبهم ورسائلهم، ولأن الرواية لها كثيرة، ولأن الرضي رحمة الله تعالى عليه قد التقطها ونسبها عليه
السلام، وصححها وحذف ما عداها.

وأما قوله عليه السلام: بنا اهتديتم في الظلماء، فيعني بالظلماء الجهالة، وتسندتم العلياء: ركبتم سنامها، وهذه استعارة.
قوله: وبنا انفجرت عن السرار، أي دخلتم في الفجر، والسرار: الليلة والليلتان يستتر فيهما القمر في آخر الشهر فلا يظهر.
وروي أفجرت، وهو أفصح وأصح، لأن انفعل لا يكون إلا مطاوع فعل، نحو كسرت فأنكسر، وحطمت فأنحطم، إلا ما
شد من قولهم: أغلقت الباب فانغلق وأزعجته فانزعج. وأيضاً فلا يقع إلا حيث يكون علاج وتأثير، نحو انكسر وانحطم،
ولهذا قالوا: إن قولهم: انعدم خطأ، وأما أفعل فيجزي لصيرورة الشيء على حال وأمر، نحو أغد البعير، أي صار ذا غدة،
وأجرب الرجل، إذا صار ذا إبلٍ جرب. وغير ذلك. فأفجرت؛ أي صرتم ذوي فجر.

وأما عن في قوله: عن السرار فهي للمجازة على حقيقة معناها الأصلي، أي منتقلين عن السرار ومتجاوزين له.
وقوله عليه السلام: وقر سمع، هذا دعاء على السمع الذي لم يفقه الواعية بالثقل والصمم، وقرت أذن زيد، بضم الواو
فهي موقورة، والوقر، بالفتح: الثقل في الأذن، وقرت أذنه - توقر وقرأ أي صمت، والمصدر في هذا الموضع جاء
بالسكون، وهو شاذ، وقياسه التحريك بالفتح، نحو ورم ورمماً. والواعية: الصارخة، من الوعاء، وهو الجلبة والأصوات،
والمراد العبر والمواعظ.

قوله: كيف يراعي النبأ، هذا مثل آخر، يقول: كيف يلاحظ ويراعي العبر الضعيفة من لم ينتفع بالعبر الجلية الظاهرة، بل
فسد عندها، وشبه ذلك بمن أصمته الصيحة القوية؛ فإنه محال أن يراعي بعد ذلك الصوت الضعيف. والنبأ: هي الصوت
الخفي.

فإن قيل: هذا يخالف قولكم: إن الاستفاد لا يجوز على الحكيم سبحانه، فإن كلامه عليه السلام صريح في أن بعض
المكلفين يفسد عن العبر والمواعظ.

قيل: إن لفظة أفعل قد تأتي لوجود الشيء على صفة، نحو أحمده، إذا أصبته محموداً. وقالوا: أحيت الأرض، إذا وجدتها
حية النبات، فقوله: أصمته الصيحة، ليس معناه أن الصيحة كانت علة لصممه، بل معناه صادفته أصم، وبهذا تأول
أصحابنا قوله تعالى: " وأضله الله على علم " .

قوله: ربط جنان لم يفارقه الخفقان، هذا مثل آخر، وهو دعاء لقلب لا يزال خائفاً من الله يخفق بالثبوت والاستمسك.

قوله: ما زلت أنتظر بكم، يقول: كنت مترقباً غدركم متفرساً فيكم الغرر، وهو الغفلة.
وقيل: إن هذه الخطبة خطبها بعد مقتل طلحة والزبير، مخاطباً بها، لهما ولغيرهما من أمثالهما، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر، بعد قتل من قتل من قريش. "يا عتبة ابن ربيعة، يا عمرو بن هشام"، وهم جيف منتنة قد جروا إلى القليب.

قوله: سترني عنكم، هذا يحتمل وجوهاً، أوضحوا أن إظهاركم شعار الإسلام عصمكم مني علمي بنفاقكم، وإنما أبصرت نفاقكم وبواطنكم الخبيثة بصدق نيتي. كما يقال: المؤمن يبصر بنور الله. ويحتمل أن يريد: سترني عنكم جلباب ديني، ومنعني أن أعرفكم نفسي وما أقدر عليه من عسفكم، كما تقول لمن استهان بحقك: أنت لا تعرفني ولو شئت لعرفت نفسي.

وفسر القطب الراوندي قوله عليه السلام: وبصريكم صدق النية، قال: معناه أنكم إذا صدقتم نياتكم، ونظرتم بأعين لم تطرف بالحسد والغش وأنصفتموني، أبصرتم عظيم منزلي.

وهذا ليس بجيد، لأنه لو كان هو المراد لقال: وبصريكم إياي صدق النية، ولم يقل ذلك، وإنما قال: بصريكم، فجعل صدق النية مبصراً له لا لهم. وأيضاً فإنه حكم بأن صدق النية هو علة التبصير، وأعداؤه لم يكن فيهم صادق النية، وظاهر الكلام الحكم والقطع، لا التعليق بالشرط.

قوله: أقمت عليكم على سنن الحق، يقال: تنح عن سنن الطريق وسنن الطريق بفتح السين وضمها، فالأول مفرد والثاني جمع سنة، وهي جادة الطريق والواضح منها. وأرض مضلة ومضلة، بفتح الضاد وكسرها: يضل سالكها. وأماه المحتفر يميء، أنبط الماء. يقول: فعلت من إرشادكم وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر ما يجب على مثلي، فوقفت لكم على جادة الحق ومنهجه، حيث طرق الضلال كثيرة مختلفة من سائر جهاتي، وأنتم تائهون فيها تلتقون، ولا دليل لكم، وتحتفرون لتجدوا ماء تنقعون به غلتكم فلا تظفرون بالماء، وهذه كلها استعارات.

قوله: اليوم أنطق، هذا مثل آخر. والعجماء: التي لا نطق لها، وهذا إشارة إلى الرموز التي تتضمنها هذه الخطبة، يقول: هي خفية غامضة، وهي مع غموضها جلية لأولي الأبواب، فكأنها تنطق كما ينطق ذوو الألسنة، كما قيل: ما الأمور الصامته الناطقة؟ فليل: الدلائل المخبرة والعبر الواعظة. وفي الأثر: سل الأرض: من شق أنهارك، وأخرج ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً، أحابتك اعتباراً.

قوله: عزب رأي امرئ تخلف عني، هذا كلام آخر، عزب: أي بعد، والعازب البعيد. ويحتمل أن يكون هذا الكلام إخباراً وأن يكون دعاء، كما أن قوله تعالى: "حصرت صدورهم" يحتمل الأمرين.

قوله: ما شككت في الحق مذ رأيت، هذا كلام آخر، يقول: معارفي ثابتة لا يتطرق إليها الشك والشبهة.

قوله: لم يوحس موسى، هذا كلام شريف جداً، يقول: إن موسى لما أوحس الخيفة، بدلالة قوله تعالى: "فأوحس في نفسه خيفة موسى"، لم يكن ذلك الخوف على نفسه، وإنما خاف من الفتنة والشبهة الداخلة على المكلفين عند إلقاء السحرة عصيهم، فخيّل إليهم من سحرهم أنها تسعى، وكذلك أنا لا أخاف على نفسي من الأعداء الذين نصبوا لي

الحبائل، وأرصدوا لي المكائد، وسعروا علي نيران الحرب، وإنما أخاف أن يفتتن المكلفون بشبههم وتمويهاتهم، فتقوى دولة الضلال، وتغلب كلمة الجهال.

قوله: اليوم تواقفنا، القاف قبل الفاء، تواقف القوم على الطريق، أي وقفوا كلهم عليها؛ يقول: اليوم اتضح الحق والباطل، وعرفناهما نحن وأنتم.

قوله: من وثق بماء لم يظمأ، الظمأ الذي يكون عند عدم الثقة بالماء، وليس يريد النفي المطلق؛ لأن الوثائق بالماء قد يظمأ، ولكن لا يكون عطشه على حد العطش الكائن عند عدم الماء، وعدم الوثوق بوجوده، وهذا كقول أبي الطيب:

وما صباية مشتاقٍ على أملٍ من اللقاء كمشتاقٍ بلا أملٍ

والصائم في شهر رمضان يصبح جائعاً تنازعه نفسه إلى الغذاء، وفي أيام الفطر لا يجد تلك المنازعة في مثل ذلك الوقت، لأن الصائم ممنوع، والنفس تحرص على طلب ما منعت منه؛ يقول: إن وثقتم بي وسكنتم إلى قولي كنتم أبعد عن الضلال وأقرب إلى اليقين وثلج النفس، كمن وثق بأن الماء في إداوته، يكون عن الظمأ وخوف الهلاك من العطش أبعد ممن لم يثق بذلك.

ومن كلامه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبایعا له بالخلافة :

الأصل: أيها الناس؛ شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق النافرة، وضعوا تيجان المفاخرة. أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح. ماء آجن، ولقمة يغص بها أكلها. ومجتي الثمرة لغير وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه، فإن أقل يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت. هيهات بعد اللتيا والي! والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علمٍ لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة.

الشرح: المفاخرة: أن يذكر كل واحد من الرجلين مفاخره وفضائله وقديمه، ثم يتحاكما إلى ثالث. والماء الآجن: المتغير الفاسد، آجن الماء، بفتح الجيم، يأجن ويأجن، بالكسر والضم. والإيناع: إدراك الثمرة، واللتيا: تصغير الي، كما أن اللذا تصغير الذي. واندمجت: انطويت. والطوي: البئر المطوية بالحجارة. يقول: تخلصوا عن الفتنة وانجوا منها بالمتاركة والمسالة والعدول عن المنافرة والمفاخرة.

أفلح من نهض بجناح، أي مات؛ شبه الميت المفارق للعالم بطائر نهض عن الأرض بجناحه. ويحتمل أن يريد بذلك: أفلح من اعتزل هذا العالم، وساح في الأرض منقطعاً عن تكاليف الدنيا. ويحتمل أيضاً أن يريد: أفلح من نهض في طلب الرئاسة بناصر ينصره، وأعوان يجاهدون بين يديه؛ وعلى التقادير كلها تنطبق اللفظة الثانية، وهي قوله: أو استسلم فأراح، أي أراح نفسه باستسلامه.

ثم قال: الإمرة على الناس وخيمة العاقبة، ذات مشقة في العاجلة، فهي في عاجلها كالماء الآجن يجد شاربه مشقة، وفي آجلها كاللحمة التي تحدث عن أكلها الغصة. ويغص مفتوح حرف المضارعة ومفتوح الغين، أصله: غصصت بالكسر.

ويحتمل أن يكون الأمران معاً للمعالجة؛ لأن الغصص في أول البلع، كما أن ألم شرب الماء الآجن يحدث في أول الشرب. ويجوز ألا يكون عن الإمرة المطلقة؛ بل هي الإمرة المخصوصة، يعني بيعة السقيفة .

ثم أخذ في الاعتذار عن الإمساك وترك المنازعة، فقال: مجتني الثمرة قبل أن تدرك لا ينتفع بما اجتناه، كمن زرع في غير أرضه، ولا ينتفع بذلك الزرع، يريد أنه ليس هذا الوقت الذي يسوغ لي فيه طلب الأمر، وأنه لم يأن بعد. ثم قال: قد حصل بين حالين، إن قلت، قال الناس: حرص على الملك، وإن لم أقل، قالوا: جزع من الموت. قال: هيهات، استبعاداً لظنهم فيه الجزع. ثم قال: اللتيا والي، أي: أبعد اللتيا والي أجزع! أبعد أن قاسيت الأهوال الكبار والصغار، ومنيت بكل داهية عظيمة وصغيرة! فاللتيا للصغيرة و اليتي للكبيرة.

ذكر أن أنسه بالموت كأنس الطفل بثدي أمه، وأنه انطوى على علم هو ممتنع لموجهه من المنازعة، وأن ذلك العلم لا يباح به، ولو باح به لاضطرب سامعوه كاضطراب الأرضية - وهي الجبال - في البئر البعيدة القعر، وهذا إشارة إلى الوصية التي خص بها عليه السلام. إنه قد كان من جملتها المربك التزاع في مبدأ الاختلاف عليه.

أقسام الاستعارات: واعلم أن أحسن الاستعارات ما تضمن مناسبة بين المستعار والمستعار منه، كهذه الاستعارات، فإن قوله عليه السلام: شقو أمواج الفتن بسفن النجاة، من هذا النوع، وذلك لأن الفتن قد تتضاعف وتترادف، فحسن تشبيهها بأمواج البحر المضطربة. ولما كانت السفن الحقيقية تنجي من أمواج البحر، حسن أن يستعار لفظ السفن لما ينجي من الفتن. وكذلك قوله: وضعوا تيجان المفاخرة، لأن التاج لما كان مما يعظم به قدر الإنسان من الافتخار وذكر القديم و كذلك استعارة النهوض بالجنح لمن اعتزل الناس، كأنه لما نفّض يديه عنهم صار كالطائر الذي ينهض من الأرض بجناحيه.

وفي الاستعارات ما هو خارج عن هذا النوع، وهو مستقبح، وذلك كقول أبي نواس:

منك يبكي وينوح

بح صوت المال مما

وكذلك قوله:

تشتكي منك الكلالا

ما لرجل المال أضحت

وقول أبي تمام:

صروف النوى من مرهف حسن القد

وكم أحرزت منكم على قبج قدها

وكقوله:

فعال، ولكن خد مالك أسفل

بلونك، أما كعب عرضك في العلا

فإنه لا مناسبة بين الرجل والمال، ولا بين الصوت والمال، ولا معنى لتصويره للنوى قدأً، ولا للعرض كعباً، ولا للمال خدأً، وقريب منه أيضاً قوله:

صب قد استعذبت ماء بكائي

لا تسقني ماء الملام فإنني

ويقال: إن مخلداً الموصلية بعث إليه بقارورة يسأله أن يبعث له فيها قليلاً من ماء الملام، فقال لصاحبه: قل له يبعث إلي بريشة من جناح الذل لأستخرج بها من القارورة ما أبعثه إليه.

وهذا ظلم من أبي تمام لمخلد، وما الأمران سواء، لأن الطائر إذا أعيا وتعب ذل وخفض جناحيه، وكذلك الإنسان إذا استسلم ألقى بيديه ذلاً، ويده جناحه، فذاك هو الذي حسن قوله تعالى: "واخفض لهما جناح الذل" ألا ترى أنه لو قال: واخفض لهما ساق الذل، أو بطن الذل لم يكن مستحسنًا! ومن الاستعارة المستحسنة في الكلام المنشور، ما اختاره قدامة بن جعفر في كتاب الخراج نحو قول أبي الحسين جعفر بن محمد ثوبة في جوابه لأبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون عن المعتضد بالله، لما كتب بإنفاذ ابنته قطر الندى التي تزوجها المعتضد، وذلك قول ابن ثوبة هذا: وأما الوديعة فهي بمنزلة ما انتقل من شمالك إلى يمينك، عنايةً بها وحيطة لها، ورعايةً لمودتك فيها.

وقال ابن ثوبة لما كتب هذا الكتاب لأبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد: والله إن تسميتي إياها بالوديعة نصف البلاغة.

وذكر أحمد بن يوسف الكاتب رجلاً خلا بالمأمون، فقال: ما زال يفتله في الذروة والغارب حتى لفته عن رأيه. وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلية: النبيذ قيد الحديث، وذكر بعضهم رجلاً فذمه، فقال: هو أملس ليس فيه مستقر لخير ولا شر.

ورضي بعض الرؤساء عن رجل من موحدة، ثم أقبل يوبخه عليها، فقال: إن رأيت ألا تحدش وجه رضاك بالتوبيخ فافعل. وقال بعض الأعراب: خرجنا في ليلةٍ حندس، قد أَلَقْتُ على الأرض أكارعها، فمحت صورة الأبدان، فما كنا نتعارف إلا بالآذان.

وغزت حنيفة نمرًا، فأتبعتهم نمر فأتوا عليهم، فقليل لرجل منهم: كيف صنع قومك؟ قال: اتبعوهم والله. وقد أحقوا كل جمالية خيفانة، فما زالوا يخصفون آثار المطي بجوافر الخيل حتى لحقوهم، فجعلوا المران أرشية الموت، فاستقوا بها أرواحهم.

ومن كلامٍ لعبد الله بن المعتز، يصف القلم: يخدم الإرادة، ولا يمل الاستزادة، ويسكت واقفًا، وينطق سائرًا، على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء.

قأما القطب الراوندي فقال: قوله عليه السلام: شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة معناه: كونوا مع أهل البيت لأنهم سفن النجاة، لقوله عليه السلام: "مثل أهل بيتي كسفينة نوح: من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق".

ولقائل أن يقول: لا شبهة أن أهل البيت سفن النجاة، ولكنهم لم يراودوا ههنا بهذه اللفظة، لأنه لو كان ذلك هو المراد، لكان قد أمر أبا سفيان والعباس بالكون مع أهل البيت، ومراده الآن ينقض ذلك، لأنه أمر بالتقية وإظهار اتباع الذين عقد لهم الأمر، ويرى أن الاستسلام هو المتعين، فالذي ظنه الراوندي لا يحتمله الكلام ولا يناسبه.

وقال أيضاً: التعرّيج على الشيء: الإقامة عليه، يقال: عرج فلان على المنزل، إذا حبس نفسه عليه، فالتقدير: عرجوا على الاستقامة منصرفين عن المنافرة.

ولقائل أن يقول: التعريج يعدى تارة يعن، وتارة يعلى، فإذا عديته يعن أردت التجنب والرفض، وإذا عديته يعلى أردت المقام والوقوف، وكلامه عليه السلام معدى يعن. قال: وعرجوا عن طريق المنافرة.

وقال أيضاً: آنس بالموت، أي سر به، وليس بتفسير صحيح، بل هو من الأنس ضد الوحشة.

من أحق بالخلافة بعد النبي؟ لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتغل علي عليه السلام بغسله ودفنه، وبويع أبو بكر؛ خلا الزبير وأبو سفيان وجماعة من المهاجرين بعباس وعلي عليه السلام لإحالة الرأي، وتكلموا بكلام يقتضي الاستنهاض والتهيج، فقال العباس رضي الله عنه: قد سمعنا قولكم فلا لقله نستعين بكم، ولا لظنة نترك آراءكم، فأمهلونا نراجع الفكر؛ فإن يكن لنا من الإثم مخرج يصير بنا وبهم الحق صرير الجدجد، ونبسط إلى المجد أكفاً لا نقبضها أو نبليغ المدى، وإن تكن الأخرى، فلا لقله في العدد ولا لوهم في الأيد، والله لولا أن الإسلام قيد الفتك، لتدكدت جنادل صخر يسمع اصطكاكها من الحل العلي.

فحل علي عليه السلام حبوته، وقال: الصبر حلم، والتقوى دين، والحجة محمد، والطريق الصراط. أيها الناس شقوا أمواج الفتن... الخطبة. ثم نهض إلى منزله وافترق القوم.

وقال البراء بن عازب: لم أزل لبني هاشم محباً، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خفت أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الوالدة العجول، مع ما في نفسي من الحزن لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت أتردد إلى بني هاشم وهم عند النبي صلى الله عليه وسلم في الحجرة، وأتفقد وجوه قريش، فإني كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر، وإذا قائل يقول: القوم في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبو بكر، فلم ألبث؛ وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالأزر الصنعانية لا يمرون بأحد إلا خبطوه، وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء ذلك أو أبي؛ فأنكرت عقلي، وخرجت أشدد حتى انتهيت إلى بني هاشم، والباب مغلق، فضربت عليهم الباب ضرباً عنيفاً وقلت: قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قحافة. فقال العباس: تربت أيديكم إلى آخر الدهر، أما إني قد أمرتكم فعصيتُموني. فمكثت أكابد ما في نفسي، ورأيت في الليل المقداد وسلمان وأبا ذر وعبادة بن الصامت وأبا الهيثم بن التيهان وحذيفة وعماراً، وهم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين.

وبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فأرسلا إلى أبي عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة، فسألاه عن الرأي، فقال المغيرة: الرأي أن تلقوا العباس فتجعلوا له ولولده في هذه الإمرة نصيباً، ليقطعوا بذلك ناحية علي بن أبي طالب.

فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة، حتى دخلوا على العباس، وذلك في الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه، وقال: إن الله ابتعث لكم محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً، وللمؤمنين ولياً؛ فمن الله عليكم بكونه بين ظهرائهم؛ حتى اختار له ما عنده؛ فخلى على الناس أمورهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين، فاختاروني عليهم والياً، ولأمرهم راعياً، فتوليت ذلك، وما أخاف بعون الله وتسديده وهناً ولا حيرة ولا جبناً، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. وما أنفك يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين، يتخذكم لجأ

فتكونون حصنه المنيع، وخطبه البديع، فإذا دخلتم فيما دخل فيه الناس، أو صرفتموهم عما مالوا إليه. فقد جئناك، ونحن نريد أن نجعل لك في هذا المر نصيباً ولمن بعدك من عقبك، إذ كنت عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومكان أهلكت، ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم. وعلى رسلهم بني هاشم؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا ومنكم.

فاعترض كلامه عمر، وخرج إلى مذهبه في الخشونة والوعيد وإتيان الأمر من أصعب جهاته، فقال: إي والله. وأخرى: إنا لم نأتكم حاجةً إليكم، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم، فيتفاقم الخطب بكم وبهم. فانظروا لأنفسكم ولعامتهم. ثم سكت.

فتكلم العباس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله ابتعث محمداً نبياً كما وصفت وولياً للمؤمنين، فمن الله به على أمته حتى اختار له ما عنده، فخلى الناس على أمرهم ليختاروا لأنفسهم، مصيبين للحق، مائلين عن زيغ الهوى؛ فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم؛ وما تقدمنا في أمركم فرطاً، ولا حللنا وسطاً، ولا نزعنا شحطاً، فإن يكن هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين. وما أبعد قولك: إنهم طعنوا من قولك إنهم مالوا إليك! وأما ما بذلت لنا، فإن يكن حقك أعطيتناه فأمسكه عليك، وإن يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن يكن حقنا لم نرض لك ببعضه دون بعض. وما أقول هذا أروم صرفك عما دخلت فيه، ولكن للحجة نصيبها من البيان. وأما قولك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ومنكم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شجرة نحن أغصانها، وأنتم جيرانها. وأما قولك يا عمر: إنك تخاف الناس علينا، فهذا الذي قدمته أول ذلك، وبالله المستعان.

لما اجتمع المهاجرون على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: أما والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم، يا لعبد مناف، فيم أبو بكر من أمركم! أين المستضعفان؟ أين الأذلان؟ يعني علياً والعباس. ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش. ثم قال لعلي: ابسط يدك أبايعك، فوالله لأملائها على أبي فصيل - يعني أبا بكر - خيلاً ورجلاً. فامتنع عليه علي عليه السلام؛ فلما يئس منه قام عنه وهو ينشد شعر المتلمس :

إلا الأذلان غير الحي والوتد

ولا يقيم على ضيم يراد به

وذا يشج فلا يرثي له أحد

هذا على الخسف مربوط برمته

قيل لأبي قحافة يوم ولي الأمر ابنه: قد ولي ابنك الخلافة، فقرأ: " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزع الملك ممن تشاء "، ثم قال: لم ولوه؟ قالوا: لسنه؟ قال: أنا أسن منه.

نازع أبو سفيان أبا بكر في أمر فأغلظ له أبو بكر، فقال له أبو قحافة: يا بني، أتقول هذا لأبي سفيان شيخ البطحاء! قال: إن الله تعالى رفع بالإسلام بيوتاً، ووضع بيوتاً، فكان مما رفع بيتك يا أبت، وما وضع بيت أبي سفيان.

ومن كلام له لما أشير عليه بالأب يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال :

الأصل: والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم؛ حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً، حتى يأتي علي يومي، فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مستائراً علي منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا.

الشرح: يقال: أرصد له بشر، أي أعد له وهياً، وفي الحديث: "إلا أن أرصده لدين علي". واللدم: صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباً ليس بشديد.

ولما شرح الراوندي هذه اللفظات، قال: وفي الحديث: والله لا أكون مثل الضبع تسمع اللدم حتى تخرج فتصاد، وقد كان - سامحه الله - وقت تصنيفه الشرح ينظر في صحاح الجوهرى وينقل منها، فنقل هذا الحديث ظناً منه أنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس كما ظن، بل الحديث الذي أشار إليه الجوهرى هو حديث علي عليه السلام الذي نحن بصدد تفسيره.

ويختلها راصدها: يخدعها مترقبها، ختلت فلاناً: خدعته. ورصدته: ترقبته. ومستائراً علي، أي مستتبداً دوني بالأمر، والاسم الأثرة، وفي الحديث: أنه صلى الله عليه وسلم قال للأنصار: "ستلقون بعدي أثرة، فإذا كان ذلك فاصبروا حتى تردوا علي الحوض".

والعرب تقول في رموزها وأمثالها: أحقق من الضبع، ويزعمون أن الصائد يدخل عليها وجارها، فيقول لها: أطرقى أم طريق، خامري أم عامر، ويكرر ذلك عليها مراراً. معنى أطرقى أم طريق طأطئي رأسك، وكنها أم طريق لكثرة إطراقها، على فعيل كالقبيط للناطف، والعليق لنبت. ومعنى خامري الزمي وجارك واستتري فيه، خامر الرجل منزله إذا لزمه. قالوا: فتلجأ إلى أقصى مغارها وتتقبض، فيقول: أم عامر ليس في وجارها، أم عامر نائمة، فتمد يديها ورجليها وتستلقي، فيدخل عليها فيوثقها، وهو يقول لها: أبشري أم عامر بكم الرجال، أبشري أم عامر بشاء هنلى، وجرادٍ عظمى، أي يركب بعضه بعضاً، فتشد عراقبيها فلا تتحرك، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها، قال الكمي:

لعة خامري يا أم عامر

فعل المقررة للمقا

وقال الشنفرى:

عليكم ولكن خامري أم عامر

لا تقبروني إن قبري محرم

وغودر عند الملتقى ثم سائري

إذا ما مضى رأسي وفي الرأس أكثرى

سجيس الليالي مبسلاً بالجرائر

هنالك لا أرجو حياة تسرني

أوصاهم ألا يدفونه إذا قتل، وقال: اجعلوني أكلاً للسباع، كالشيء الذي يرغب به الضبع في الخروج، وتقدير الكلام؛ ي تقبروني ولكن اجعلوني كالتى يقال لها: خامري أم عامر، وهي الضبع، فإنها لا تقبر. ويمكن أن يقال أيضاً: أراد لا تقبروني واجعلوني فريسة للتي يقال لها: خامري أم عامر؛ لأنها تأكل الجيف وأشلاء القتلى والموتى.

وقال أبو عبيدة: يأتي الصائد فيضرب بعقبه الأرض عند باب مغارها ضرباً خفيفاً؛ وذلك هو اللدم، ويقول: خامري أم

عامر؛ مراراً، بصوت ليس بشديد، فتنام على ذلك، فيدخل إليها، فيجعل الحبل في عرقوبها ويجرها فيخرجها. يقول: لا أقعد عن الحرب والانتصار لنفسي وسلطاني، فيكون حالي مع القوم المشار إليهم حال الضيع مع صائدها، فأكون قد أسلمت نفسي، فعل العاجز الأحمق، ولكني أحارب من عصائي بمن أطاعني حتى أموت، ثم عقب ذلك بقوله: إن الاستئثار علي والتغلب أمر لم يتجدد الآن، ولكنه كان منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

التعريف بطلحة والزبير

وطلحة هو أبو محمد بن عبيد الله بن عثمان بن سعد بن تيم بن مرة. أبوه ابن عم أبي بكر، وأمه الصعبة بنت الحضرمي، وكانت قبل أن تكون عند عبيد الله تحت أبي سفيان صخر بن حرب، فطلقها ثم تبعها نفسه، فقال فيها شعراً أوله:

بعيذان والود ود قريب

وإني وصعبة فيما أرى

في أبيات مشهورة. وطلحة أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أصحاب الشورى، وكان له في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أثر عظيم، وشلت بعض أصابعه يومئذ وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده من سيوف المشركين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: "اليوم أوجب طلحة الجنة". والزبير هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، أمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أحد العشرة أيضاً، وأحد الستة، وممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأبلى بلاء حسناً، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لكل نبي حواري وحواري الزبير". والحواري: الخالصة، تقول فلان خالصة فلان، وخلصانه وحواريه، أي شديد الاختصاص به والاستخلاص له.

طارق بن شهاب يستقبل علياً

خرج طارق بن شهاب الأحمسي يستقبل علياً عليه السلام، وقد صار بالربذة طالباً عائشة وأصحابها، وكان طارق من صحابة علي عليه السلام وشيعته، قال: فسألت عنه قبل أن ألقاه؛ ما أقدمه؟ فقل: خالفه طلحة والزبير وعائشة فأتوا البصرة، فقلت في نفسي: إنها الحرب! أفأقاتل أم المؤمنين، وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم! إن هذا لعظيم، ثم قلت: أأدع علياً، وهو أول المؤمنين إيماناً بالله وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيه! هذا أعظم. ثم أتيته فسلمت عليه، ثم جلست إليه، فقص علي قصة القوم وقصته، ثم صلى بنا الظهر، فلما انفتل جاءه الحسن ابنه عليه السلام، فبكى بين يديه، قال: ما بالك؟ قال: أبكي لقتلك غداً بمضيعة ولا ناصر لك. أما إني أمرتك فعصيتني، ثم أمرتك فعصيتني، فقال عليه السلام: لا تزال نحن نحين الأمة! ما الذي أمرتني به فعصيتك! قال: أمرتك حين أحاط الناس بعثمان أن تعتزل، فإن الناس إذا قتلوه طلبوك أينما كنت حتى يبايعوك، فلم تفعل ثم أمرتك لما قتل عثمان ألا توافقهم على البيعة حتى يجتمع الناس إليك ويأتوك وفود العرب فلم تفعل. ثم خالفك هؤلاء القوم، فأمرتك ألا تخرج من المدينة، وأن تدعهم وشأنهم، فإن اجتمعت عليك الأمة فذاك، وإلا رضيت بقضاء الله. فقال عليه السلام: والله لا أكون كالضيع تنام على اللدم حتى يدخل إليها طالبها فيعلق الحبل برجلها، ويقول لها: دباب دباب، حتى يقطع عرقوبها... وذكر تمام الفصل.

فكان طارق بن شهاب ييكي إذا ذكر هذا الحديث.
دباب: اسم الضبع، مبني على الكسر كبراح اسم للشمس.

ومن خطبة له في ذم أتباع الشيطان

الأصل: اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم، ودب ودرج في حجورهم؛ فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل، فعل من قد شرکه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه.

الشرح: يجوز أن يكون أشراكاً، جمع شريك، كشریف وأشراف، ويجوز أن يكون جمع شرك، كجبل وأجبال، والمعنى بالاعتبارين مختلف.

وباض وفرخ في صدورهم، استعارة للوسوسة والإغواء، ومراده طول مكثه، وإقامته عليهم، لأن الطائر لا يبيض ويفرخ إلا في الأعشاش التي هي وطنه ومسكنه، ودب ودرج في حجورهم، أي ربوا الباطل كما يربي الوالدان الولد في حجورهما. ثم ذكر أنه لشدة اتحاده بهم وامتزاجه صار كمن ينظر بأعينهم، وينطق بألسنتهم، أي صار الاثنان كالواحد، قال أبو الطيب:

وأرى بطرفٍ لا يرى بسوائه

ما الخل إلا من أود بقلبه

وقال آخر:

نحيا بروحٍ واحد

كنا من المساعدة

وقال آخر:

تجبل الخمرة بالماء الزلال

جبلت نفسك في نفسي كما

فإذا أنت أنا في كل حال

فإذا مسك شيء مسني

والخطل: القول الفاسد. ويجوز أشركه الشيطان في سلطانه، بالهمزة، وشركه أيضاً؛ وبغير الهمزة أفصح.

ومن كلام له يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك

الأصل: يزعم أنه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعة، وادعى الوليعة. فليأت عليها بأمرٍ يعرف، وإلا فليدخل فيما خرج منه.

الشرح: الوليعة: البطانة، والأمر يسر ويكتم، قال الله سبحانه: " ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ". كان الزبير يقول: بايعت بيدي لا بقلبي، وكان يدعي تارة أنه أكره، ويدعي تارة أنه وري في البيعة تورية، ونوى دخیلة، وأتى بمعاريض على ظاهرها، فقال عليه السلام: هذا الكلام إقرار منه بالبيعة وادعاء أمر آخر لم يقم عليه دليلاً، ولم ينصب له برهاناً، فإما أن يقيم دليلاً على فساد البيعة الظاهرة، وأما غير لازمة له، وإما أن يعاود طاعته.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

قال علي عليه السلام للزبير يوم بايعه: إني لخائف أن تغدر بي وتنكث بيعتي، قال: لا تخافن، فإن ذلك لا يكون مني أبداً، فقال عليه السلام: فلي الله عليك بذلك راعٍ وكفيل. قال: نعم، الله لك علي بذلك راعٍ وكفيل.

طلحة والزبير ينكثان البيعة

لما بويع علي عليه السلام كتب إلى معاوية: أما بعد، فإن الناس قتلوا عثمان عن غير مشورة مني، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايع لي، وأوفد إلي أشرف أهل الشام قبلك. فلما قدم رسوله على معاوية، وقرأ كتابه، بعث رجلاً من بني عميس، وكتب معه كتاباً إلى الزبير بن العوام، وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم.. لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان: سلام عليك، أما بعد، فإني قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدوّنك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرها الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجد والتشهير، أظفركما الله، وخذل منائكما! فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سر به، وأعمل به طلحة وأقرأه إياه، فلم يشكا في النصح لهما من قبل معاوية، وأجمعاً عند ذلك على خلاف علي عليه السلام. جاء الزبير وطلحة إلى علي عليه السلام بعد البيعة بأيام، فقالا له: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كنا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلها، وعلمت رأي عثمان كان في بني أمية، وقد ولاك الله الخلافة من بعده، فولنا بعض أعمالك، فقال لهما: ارضيا بقسم الله لكما، حتى أرى رأيي، واعلما أي لا أشرك في أمانتي إلا من أَرْضَى بدينه وأمانته من أصحابي، ومن قد عرفت دخيلته، فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس، فاستأذناه في العمرة. طلب طلحة والزبير من علي عليه السلام أن يوليهم المصيرين: البصرة والكوفة، فقال: حتى أنظر. ثم استشار المغيرة بن شعبه، فقال له: أرى أن توليهم إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الكوفة والبصرة عين الخلافة، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولست آمنهما إن وليتهما أن يحدثا أمراً. فأخذ علي عليه السلام برأي ابن عباس. وقد كان استشار المغيرة أيضاً في أمر معاوية، فقال له: أرى إقراره على الشام، وأن تبعث إليه بعهدته إلى أن يسكن شغب الناس. ولك بعد رأيك. فلم يأخذ برأيه. فقال المغيرة بعد ذلك: والله ما نصحته قبلها، ولا أنصحه بعدها ما بقيت.

دخل الزبير وطلحة على علي عليه السلام، فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان؛ فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة؛ فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث البيعة يريدان، وما رأيهما غير العمرة. قال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانية، فأعادها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: والله لا تروهما إلا في فتنة يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمر بردهما عليك، قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكة لم يلقيا أحداً إلا وقالوا له: ليس لعلي في أعناقنا بيعة، وإنما بايعناه مكرهين.

فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أبعدهما الله وأغرب دارهما! أما والله لقد علمت أنهما سيقتلان أنفسهما أخبث مقتل، ويأتیان من وردا عليه بأشأم يوم، والله ما العمرة يريدان، ولقد أتياي بوجهي فاجرین، ورجعا بوجهي غادرین ناكثین، والله لا يلتقياني بعد اليوم إلا في كتيبة خشناء، يقتلان فيهما أنفسهما، فبعداً لهما وسحقاً! وذكر أبو مخنف في كتاب الجمل، أن علياً عليه السلام خطب لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة، فقال: أيها الناس، إن عائشة سارت إلى البصرة، ومعها طلحة والزبير، وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه، أما طلحة فابن عمها، وأما الزبير فختنها، والله لو ظفروا بما أرادوا - ولن ينالوا ذلك أبداً - لضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد. والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة إلا في معصية الله وسخطه، حتى تورث نفسها ومن معها موارد الهلكة، أي والله ليقتلن ثلثهم، وليهرين ثلثهم، وإنها التي تنبأها كلاب الحوآب، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان. ورب عالم قتله جهله، ومعه علمه لا ينفعه، وحسبنا الله ونعم الوكيل! فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية، أين المحتسبون؟ أين المؤمنون؟ مالي ولقریش! أما والله لقد قتلتهم كافرين، ولأقتلهم مفتونين! وما لنا إلى عائشة من ذنب إلا أنا أدخلناها في حيزنا. والله لأبقرن الباطل، حتى يظهر الحق من خاصرته، فقل لقریش فلتضج ضجيجها. ثم نزل.

برز علي عليه السلام يوم الجمل، ونادى بالزبير: يا عبد الله، مراراً، فخرج الزبير، فتقاربا حتى اختلفت أعناق خيلهما، فقال له علي عليه السلام: إنما دعوتك لأذكرك حديثاً قاله لي ولك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتذكر يوم رآك وأنت معتنقي، فقال لك: "أتحبه؟" قلت: وما لي لا أحبه وهو أخي وابن خالي! فقال: "أما إنك ستحاربه وأنت ظالم له". فاسترجع الزبير، وقال: أذكرتني ما أنسانيه الدهر، ورجع إلى صفوفه. فقال له عبد الله ابنه، لقد رجعت إلينا بغير الوجه الذي فارقنا به! فقال: أذكرني علي حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحاربه أبداً، وإني لأراجع وتارككم منذ اليوم. فقال له عبد الله: ما أراك إلا جنت عن سيف بني عبد المطلب، إنها لسيف حداد، تحملها فتية أنجاد؛ فقال الزبير: ويلك! أتهيجني على حربته! أما إني قد حلفت ألا أحاربه، قال: كفر عن يمينك؛ لا تتحدث نساء قریش أنك جنت، وما كنت جباناً، فقال الزبير: غلامي مكحول حر كفارة عن يميني، ثم أنصل سنان رمح، وحمل على عسكر علي عليه السلام برمح لا سنان له، فقال علي عليه السلام: أفرجوا له، فإنه محرج، ثم عاد إلى أصحابه، ثم حمل ثانية، ثم ثالثة، ثم قال لابنه: أجبناً ويلك ترى! فقال: لقد أعذرت.

لما أذكر علي عليه السلام الزبير بما أذكره به ورجع الزبير، قال:

وكان عمر أبيك الخير مذبذب

بعض الذي قلت منذ اليوم يكفيني

والله أمثل في الدنيا وفي الدين

أنى يقوم لها خلق من الطين!

نادى علي بأمر لست أنكره

فقلت حسبك من عدل أبا حسن

ترك الأمور التي تخشى مغبتها

فاخترت عاراً على نار مؤججة

لما خرج علي عليه السلام لطلب الزبير خرج حاسراً، وخرج إليه الزبير دارعاً مدحجاً، فقال علي عليه السلام: يا أبا عبد

الله، قد لعمرى أعددت سلاحاً، وحبذا فهل أعددت عند الله عذراً؟ فقال الزبير: إن مردنا إلى الله، قال علي عليه السلام: "يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين"، ثم أذكره الخبر، فلما كر الزبير راجعاً إلى أصحابه نادماً واجماً، رجع علي عليه السلام إلى أصحابه جذلاً مسروراً، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، تبرز إلى الزبير حاسراً، وهو شاك في السلاح، وأن تعرف شجاعته! قال: إنه ليس بقاتلي، إنما يقتلني رجل حامل الذكر، ضئيل النسب، غيلة في غير مأقط حرب، ولا معركة رجال، ويلمه أشقى البشر! ليودن أن أمه هبلت به! أما إنه وأحمر ثمود لمقرونان في قرن. لما انصرف الزبير عن حرب علي عليه السلام مر بوادي السباع، والأحنف بن قيس هناك في جمع من بني تميم قد اعتزل الفريقين، فأخبر الأحنف بمرور الزبير، فقال رافعاً صوته: ما أصنع بالزبير! لف غارين من المسلمين، حتى إذا أخذت السيوف منهما مأخذها، انسل وتركهم. أما إنه لخليق بالقتل، قتله الله! فاتبعه عمرو بن جرموز - وكان فاتكاً - فلما قرب منه وقف الزبير، وقال: ما شأنك؟ قال: جئت لأسألك عن أمر الناس، قال الزبير: إني تركتهم قياماً في الركب، يضرب بعضهم وجه بعض بالسيف. فسار ابن جرموز معه، وكل واحد منهما يتقي الآخر. فلما حضرت الصلاة، قال الزبير: يا هذا، إنا نريد أن نصلي.

فقال ابن جرموز: وأنا أريد ذلك، فقال الزبير: فتؤمني وأؤمنك؟ قال: نعم، فثنى الزبير رجله، وأخذ وضوءه. فلما قام إلى الصلاة شد ابن جرموز عليه فقتله، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه، وحثا عليه التراب يسيراً، ورجع إلى الأحنف، فأخبره، فقال: والله ما أدري أسأت أم أحسنت؟ اذهب إلى علي عليه السلام فأخبره، فجاء إلى علي عليه السلام، فقال للآذن: قل له: عمرو بن جرموز بالباب ومعه رأس الزبير وسيفه، فأدخله. وفي كثير من الروايات أنه لم يأت بالرأس بالسيف، فقال له: وأنت قتلت؟ قال: نعم، قال: والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً، ولكن الحين ومصارع السوء، ثم قال: ناولني سيفه، فناوله فهزه، وقال: سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال ابن جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بشر قاتل ابن صفية بالنار"، فخرج ابن جرموز خائباً، وقال:

أتيت علياً برأس الزبير

فبئست بشارة ذي التحفه

فقلت له إن قتل الزبير لولا رضاك من الكفه

وإلا فدونك لي حلفه

ورب الجماعة والألفه

وضرطة عنزٍ بذي الجحفه

أتيت علياً برأس الزبير

فبشر بالنار يوم الحساب

فإن ترض ذلك فمك الرضا

ورب المحلين والمحرمين

لسيان عندي قتل الزبير

ثم خرج ابن الجرموز على علي عليه السلام، مع أهل النهر، فقتله معهم فيمن قتل.

ومن كلام في صفة قوم أَرعدوا وفشلهم في ذلك

الأصل: وقد أَرعدوا وأبرقوا، ومع هذين الأمرين الفشل، ولسنا نرعد حتى نوقع، ولا نسيل حتى نخطر.
الشرح: أَرعد الرجل وأبرق، إذا أَوعد وتهدد، وكان الأصمعي ينكره، ويزعم أنه لا يقال إلا رعد وبرق، ولما احتج عليه ببيت الكميت:

فما وعيدك لي بضائر

أَرعد وأبرق يا زيد

قال: الكميت قروي لا يحتج بقوله.

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام حجة دالة على بطلان قول الأصمعي. والفشل: الجبن والخور.
وقوله: ولا نسيل حتى نخطر، كلمة فصيحة، يقول: إن أصحاب الجمل في وعيدهم وإحلالهم بمثلة من يدعي أنه يحدث السيل قبل إحداث المطر، وهذا محال، لأن السيل إنما يكون من المطر، فكيف يسبق المطر! وأما نحن فإننا لا ندعي ذلك، وإنما نجزي الأمور على حقائقها؛ فإن كان منا مطر كان منا سيل، وإذا أوقعنا بخصمنا أوعدنا حيثنذ بالإيقاع به غيره من خصومنا.

وقوله عليه السلام: ومع هذين الأمرين الفشل، معنى حسن، لأن الغالب من الجبناء كثرة الضوضاء والجلبة يوم الحرب، كما أن الغالب من الشجعان الصمت والسكون.

وسمع أبو طاهر الجنابي ضوضاء عسكر المقتدر بالله ودبادهم وبوقاتهم، وهو في ألف وخمسمائة، وعسكر المقتدر في عشرين ألفاً، مقدمهم يوسف بن أبي الساج، فقال لبعض أصحابه: ما هذا الزجل؟ قال: فشل، قال: أجل.
ويقال: إنه ما رئي جيش كجيش أبي طاهر، ما كان يسمع لهم صوت، حتى إن الخيل لم تكن لها حمحمة، فرشق عسكر ابن أبي الساج القرامطة بالسهم المسمومة، فجرح منهم أكثر من خمسمائة إنسان.
وكان أبو طاهر في عمارة له، فتزل وركب فرساً، وحمل بنفسه ومعه أصحابه حملة على عسكر ابن أبي الساج، فكسروه وفلوه وخلصوا إلى يوسف فأسروه، وتقطع عسكره بعد أن أتى بالقتل على كثير منهم، وكان ذلك في سنة خمس عشرة وثلاثمائة، ومن أمثالهم: الصدق ينبئ عنك لا الوعيد.

ومن خطبة له يوعد قوماً

الأصل: ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله، وإن معي لبصيرتي؛ ما لبست على نفسي، ولا لبس علي. وإيم الله لأفرطن لهم حوضاً أنا ماتحه، لا يصدرون عنه، ولا يعودون إليه.
الشرح: يمكن أن يعني بالشيطان الشيطان الحقيقي، ويمكن أن يعني معاوية، فإن عنى معاوية، فقوله: قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله، كلام جارٍ على حقائقه، وإن عنى به الشيطان، كان ذلك من باب الاستعارة؛ ومأخوذاً من قوله تعالى: "واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك"، والرجل: جمع راجل، كالشرب: جمع شارب، والركب: جمع راكب.

قوله: وإن معي لبصيرتي، يريد أن البصيرة التي كانت معي في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تتغير.

وقوله: ما لبست تقسيم جيد، لأن كل ضال عن الهداية، فإما أن يضل من تلقاء نفسه، أو بإضلال غيره له.
 وقوله: لأفرطن من رواها بفتح الهمزة، فأصله فرط ثلاثي، يقال: فرط زيد القوم أي سبقهم، ورجل فرط: يسبق القوم إلى البئر، فيهيئ لهم الأرشية والدلاء، ومنه قوله عليه السلام: أنا فرطكم على الحوض، ويكون تقدير الكلام: وإيم الله لأفرطن لهم إلى حوض، فلما حذف الجار عدى الفعل بنفسه، فنصب، كقوله تعالى: " واختار موسى قومه " ، وتكون اللام في لهم إما لام التعدية، كقوله: ويؤمن للمؤمنين، أي ويؤمن المؤمنين، أو تكون لام التعليل، أي لأجلهم. ومن رواها لأفرطن بضم الهمزة، فهو أفرط المزايدة، أي ملأها.

والماتح: المستقي، متح يمتح، بالفتح، والمايح بالياء: الذي يتزل إلى البئر فيملاً الدلو.
 وقيل لأبي علي رحمه الله: ما الفرق بين الماتح والمايح؟ فقال: هما كإعجامهما، يعني أن التاء بنقطتين من فوق، وكذلك، الماتح لأنه المستقي، فهو فوق البئر، والياء بنقطتين من تحت، وكذلك المايح لأنه تحت في الماء الذي في البئر يملأ الدلاء. ومعنى قوله: أنا ماتحه، أنا خبير به، كما يقول من يدعي معرفة الدار: أنا باني هذه الدار، والكلام استعارة؛ تقول: لأملأن لهم حياض الحرب التي هي دريتي وعاديتي، أو لأسبقنهم إلى حياض حرب أنا متدرب بها، مجرب لها، إذا وردوها لا يصدرون عنها. يعني قتلهم وإزهاق أنفسهم، ومن فر منهم لا يعود إليها ومن هذا اللفظ قول الشاعر:

ذنب الشر ملأى أو قرابا

مخضت بدلوه حتى تحسى

ومن كلام له لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل :

الأصل: تزول الجبال ولا تزل، عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه.
 الشرح: قوله تزول الجبال ولا تزل، خبر فيه معنى الشرط، تقديره: إن زالت الجبال فلا تزل أنت، والمراد المبالغة في أخبار صفين أن بني عكلٍ - وكانوا مع أهل الشام - حملوا في يوم من أيام صفين، خرجوا وعقلوا أنفسهم بعمائمهم، وتحالفوا أنا لا نفر حتى يفر هذا الحكر، بالكاف، قالوا: لأن عكلاً تبدل الجيم كاف.

والناخذ: أقصى الأضراس. وتد، أمر من وتد قدمه في الأرض، أي أثبتها فيها كالوتد. ولا تناقض بين قوله: ارم ببصرك، وقوله غض بصرك، وذلك لأنه في الأولى أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه، ويحدق إلى أقاصي القوم ببصره، فعل الشجاع المقدام غير المكتثر ولا المبالي، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره، ولا يرتفع طرفه، ولا يمتد عنقه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف، وفي الثانية أمره أن يغض بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لئلا يبرق بصره، ويدهش ويستشعر خوفاً. وتقدير الكلام واحمل، وحذف ذلك للعلم، فكأنه قال: إذا عزمت على الحملة وصممت، فغض حينئذ بصرك واحمل، وكن كالعشواء التي تخط ما أمامها ولا تبالى.

وقوله: عض على ناجذك، قالوا: إن العاض على نواجذه ينبو السيف عن دماغه، لأن عظام الرأس تشد وتصلب؛ وقد جاء في كلامه عليه السلام هذا مشروحاً في موضع آخر، وهو قوله: وعضوا على النواجذ فإنه أنبى للصوارم عن الهام ،

ويحتمل أن يريد به شدة الحنق، قالوا: فلان يحرق علي الأرم، يريدون شدة الغيظ، والحرق: صريف الأسنان وصوتها، والأرم: الأضراس.

وقوله: أعر الله جمجمتك، معناه ابدلها في طاعة الله. ويمكن أن يقال: إن ذلك إشعار له أنه لا يقتل في تلك الحرب، لأن العارية مردودة، ولو قال له: بع الله جمجمتك، لكان ذلك إشعاراً له بالشهادة فيها. وأخذ يزيد بن المهلب هذه اللفظة فخطب أصحابه بواسط، فقال: إني قد أسمع قول الرعاع: جاء مسلمة، وجاء العباس، وجاء أهل الشام، ومن أهل الشام! والله ما هم إلا تسعة أسياف، سبعة منها معي، واثان علي، وأما مسلمة فجرادة صفراء، وأما العباس فنسطوس ابن نسطوس، أناكم في برابرة وصقالبة وجرامقة وجراجمة وأقباط وأنباط وأخلاط، إنما أقبل إليكم الفلاحون وأوباش كأشلاء اللحم. والله ما لقوا قط كحديدكم وعديدكم، أعيروني سواعدكم ساعة تصفقون بها خراطيمهم، فإنما هي غدوة أو روحة، حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين. من صفات الشجاع قولهم: فلان مغامر، وفلان غشمشم، أي لا يبصر ما بين يديه في الحرب، وذلك لشدة تقحمه وركوبه المهلكة، وقلة نظره في العاقبة، وهذا هو معنى قوله عليه السلام لمحمد: غض بصرك.

وحشي يقتل حمزة

وكان حمزة بن عبد المطلب مغامراً غشمشماً لا يبصر أمامه، قال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف لعبده وحشي يوم أحد: ويلك! إن علياً قتل عمي طعيمة سيد البطحاء يوم بدر، فإن قتلته اليوم فأنت حر، وإن قتلت محمداً فأنت حر، وإن قتلت حمزة فأنت حر، فلا أحد يعدل عمي إلا هؤلاء. فقال: أما محمد فإن أصحابه دونه، ولن يسلموه، ولا أراي أصل إليه، وأما علي فرجل مرس، كثير الالتفات في الحرب لا أستطيع قتله، ولكن سأقتل لك حمزة، فإنه رجل لا يبصر أمامه في الحرب، فوقف لحمزة حتى إذا حاذاه زرقه بالحربة كما تزرق الحبشة بجراهما، فقتله.

من أخبار محمد بن الحنفية

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الحمل رايته إلى محمد ابنه عليهما السلام، وقد استوت الصفوف، وقال له: احمل، فتوقف قليلاً، فقال له: احمل، فقال يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شأبيب المطر! فدفع في صدره، فقال: أدركك عرق من أملك، ثم أخذ الراية فhezها، ثم قال:

لا خير في الحرب إذا لم توقد

اطعن بها طعن أببك تحمد

بالمشرفي والقنا المسدد

ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة.

قيل لمحمد: لم يغرب بك أبوك في الحرب ولا يغرب بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنهما عيناها وأنا يمينه، فهو يدفع عن عيني يمينه، كان علي عليه السلام يقذف بمحمد في مهالك الحرب، وكيف حسناً وحسيناً عنها. ومن كلامه في يوم صفين: املكوا عني هذين الفتيتين، أخاف أن ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أم محمد رضي الله عنه خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل.

واختلف في أمرها، فقال قوم: إنها سبية من سبايا الردة، قوتل أهلها على يد خالد بن الوليد في أيام أبي بكر، لما منع كثير من العرب الزكاة، وارتدت بنو حنيفة، وادعت نبوة مسيلمة. وإن أبا بكر دفعها إلى علي عليه السلام من سهمه في المغنم.

وقال قوم، منهم أبو الحسن علي بن محمد بن سيف المدائني: هي سبية في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً إلى اليمن، فأصاب خولة في بني زبيد، وقد ارتدوا مع عمرو بن معدى كرب، وكانت زبيد سبتها من بني حنيفة في غارة لهم عليهم، فصارت في سهم علي عليه السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن ولدت منك غلاماً فسمه باسمي، وكنه بكيتي، فولدت له بعد موت فاطمة عليها السلام محمداً، فكانه أبا القاسم.

وقال قوم، وهم المحققون، وقولهم الأظهر: إن بني أسدٍ أغارت على بني حنيفة في خلافة أبي بكر الصديق، فسيبوا خولة بنت جعفر، وقدموا بها إلى المدينة فباعوها من علي عليه السلام، وبلغ قومها خبرها، فقدموا المدينة على علي عليه السلام، فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم، فأعتقها ومهرها وتزوجها، فولدت له محمداً، فكانه أبا القاسم. وهذا القول، هو اختيار أحمد بن يحيى البلاذري في كتابه المعروف بتاريخ الأشراف.

لما تقاعس محمد يوم الجمل عن الحملة، وحمل علي عليه السلام بالراية، فضضع أركان عسكر الجمل، دفع إليه الراية، وقال: امح الأولى بالأخرى، وهذه الأنصار معك. وضم إليه خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، في جمع من الأنصار، كثير منهم من أهل بدر، فحمل حملات كثيرة، أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاءً حسناً. فقال خزيمة بن ثابت لعلي عليه السلام: أما إنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح، ولئن كنت خفت عليه الحين وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خفناه عليه، وإن كنت أردت أن تعلمه الطعان فطالما علمته الرجال.

وقالت الأنصار: يا أمير المؤمنين، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدمنا على محمد أحداً من العرب. فقال علي عليه السلام: أين النجم من الشمس والقمر! أما إنه قد أغنى وأبلى، وله فضله، ولا ينقص فضل صاحبيه عليه، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا والله لا نجعله كالحسن والحسين، ولا نظلمهما له، ولا نظلمه - لفضلهما عليه - حقه، فقال علي عليه السلام: أين يقع ابني من ابني رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال خزيمة بن ثابت فيه:

ولا كنت في الحرب الضروس معردا

علي، وسماك النبي محمدا

لكنت، ولكن ذاك ما لا يرى بدا

لساناً، وأنداها بمال ملكت يدا

محمد ما في عودك اليوم وصمة

أبوك الذي لم يركب الخيل مثله

فلو كان حقاً من أبيك خليفة

وأنت بحمد الله أطول غالب

وأقربها من كل خيرٍ تريده
وأطعنهم صدر الكمي برمحه
سوى أخويك السيدين، كلاهما
أبى الله أن يعطي مقعداً
قريش وأوفاهما بما قال موعدا
وأكساهم للهام عضباً مهندا
إمام الورى والداعيان إلى الهدى
من الأرض أو في الأوج مرقى ومصعدا

ومن كلام له لما أظفره الله بأصحاب الجمل

وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال علي عليه السلام: الأصل: أهوى أخيك معنا. فقال: نعم، قال: فقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان.

الشرح: يعرف بهم الزمان: يوجههم ويخرجهم، كما يعرف الإنسان بالدم الذي يخرج من أنفه، قال الشاعر:

وما رعى الزمان بمثل عمرو ولا تلد النساء له ضربياً

والمعنى مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لعثمان ولم يكن شهد بداراً، تخلف على رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مرضت مرض موتها - : " لقد كنت شاهداً وإن كنت غائباً، لك أجرك وسهمك ".
علي ويوم الجمل: قال الكلبي: قلت لأبي صالح: كيف لم يضع علي عليه السلام السيف في أهل البصرة يوم الجمل بعد ظفـره؟ قال: سار فيهم بالصفـح والمن الذي سار به رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل مكة يوم الفتح، فإنه أراد أن يستعرضهم بالسيف، ثم من عليهم، وكان يجب أن يهديهم الله.
قال فطر بن خليفة: ما دخلت دار الوليد بالكوفة التي فيها القصارون إلا وذكرت بأصواتهم وقع السيوف يوم الجمل.

حرب بن جيهان الجعفي: لقد رأيت الرماح يوم الجمل قد أشرعها الرجال بعضهم في صدر بعض، كأنها آجام القصب، لو شئت الرجال أن تمشي عليها لمشت، ولقد صدقونا القتال حتى ما ظننت أن ينهزموا، وما رأيت يوماً قط أشبه بيوم الجمل من يوم جلولاء الوقعة .

الأصبغ بن نباتة: لما انهزم أهل البصرة ركب علي عليه السلام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء، وكانت باقية عنده، وسار في القتلى يستعرضهم، فمر بكعب بن سور القاضي، قاضي البصرة، وهو قتيل، فقال: أجلسوه، فأجلس، فقال له: ويلمك كعب بن سور! لقد كان لك علم لو نفعل! ولكن الشيطان أضلك فأزلك، فعجلك إلى النار، أرسلوه. ثم مر بطلحة بن عبيد الله قتيلاً؛ فقال: أجلسوه، فأجلس - قال أبو مخنف في كتابه: فقال: ويلمك طلحة! لقد كان لك قدم لو نفعل! ولكن الشيطان أضلك فأزلك فعجلك إلى النار.

وأما أصحابنا فيرون غير ذلك، يروون أنه عليه السلام قال له لما أجلسوه: أعزز علي أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء وفي بطن هذا الوادي! أبعد جهادك في الله، وذبك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم! فجاء إليه إنسان فقال:

أشهد يا أمير المؤمنين، لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو صريع، فقال: من أصحاب من أنت؟ فقلت: من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: امدد يدك لأبائع لأمر المؤمنين عليه السلام، فمددت إليه يدي فبايعني لك. فقال علي عليه السلام: أبا الله أن يدخل طلحة الجنة إلا ويبعني في عنقه.

ثم مر بعبد الله بن خلف الخزاعي، وكان عليه السلام قتله بيده مبارزة، وكان رئيس أهل البصرة، فقال: أجلسوه، فأجلس، فقال: الويل لك يا بن خلف! لقد عانيت أمراً عظيماً.

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: ومر عليه السلام بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، فقال: أجلسوه، فأجلس، فقال: هذا يعسوب قريش، هذا اللباب المحض من بني عبد مناف. ثم قال: شفيت نفسي، وقتلت معشري، وإلى الله أشكو عجري وبجري! قتلت الصناديد من بني عبد مناف، وأفلتني الأعيار من بني جمح، فقال له القائل: لشد ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين! قال: إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك.

قال أبو الأسود الدؤلي: لما ظهر علي عليه السلام يوم الجمل، دخل بيت المال بالبصرة في ناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم، فلما رأى كثرة ما فيه، قال: غري غيري... مراراً. ثم نظر إلى المال، وصعد فيه بصره وصوب، وقال: أقسموه بين أصحابي خمسمائة خمسمائة، فقسم بينهم، فلا والذي بعث محمداً بالحق ما نقص درهماً ولا زاد درهماً، كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره، وكان ستة آلاف ألف درهم، والناس اثنا عشر ألفاً.

حبة العربي، قسم علي عليه السلام بيت مال البصرة على أصحابه خمسمائة خمسمائة، وأخذ خمسمائة درهم كواحد منهم، فجاءه إنسان لم يحضر الواقعة، فقال: يا أمير المؤمنين، كنت شاهداً معك بقلبي، وإن غاب عنك جسمي فأعطني من الفيء شيئاً. فدفع إليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم، ولم يصب من الفيء شيئاً.

اتفقت الرواة كلها على أنه عليه السلام قبض ما وجد في عسكر الجمل من سلاح ودابة ومملوك ومتاع وعروض، فقسمه بين أصحابه، وأنهم قالوا له: اقسم بيننا أهل البصرة فاجعلهم رقيقاً، فقال: لا، فقالوا: فكيف تحل لنا دمائهم وتحرم علينا سيبيهم! فقال: كيف يحل لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام! أما ما أجلب به القوم في معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم، وأما ما وارت الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهلها، ولا نصيب لكم في شيء منه، فلما أكثروا عليه قال: فأقرعوا على عائشة، لأدفعها إلى من تصيبه القرعة! فقالوا: نستغفر الله يا أمير المؤمنين! ثم انصرفوا.

ومن كلام له في ذم أهل البصرة

الأصل: كنتم جند المرأة، وأتباع البهيمة. رغا فأجبتم، وعقر فهربتم. أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وماؤكم زعاق، والمقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه، كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة، قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها، وغرق من في ضمنها. وفي رواية: وائم الله، لتغرقن بلدنكم، حتى كأني أنظر إلى مسجدك كجؤجؤ سفينة، أو نعمامة جاثمة. وفي رواية: كجؤجؤ طير في لجة بحر.

وفي رواية أخرى: بلادكم أنتن بلاد الله تربةً، أقربها من الماء، وأبعدها من السماء، وبها تسعة أعشار الشر. المحتبس فيها بذنبه، والخرج بعفو الله، كأني أنظر إلى قريبتكم هذه قد طبقتها الماء، حتى ما يرى منها إلا شرف المسجد؛ كأنه جؤجؤ طيرٍ في لجة بحرٍ.

الشرح: قوله: وأتباع البهيمة، يعني الجمل، وكان جمل عائشة راية عسكر البصرة، قتلوا دونه كما تقتل الرجال تحت راياتها.

وقوله: أخلاقكم دقاق، يصفهم باللؤم، وفي الحديث أن رجلاً قال له: يا رسول الله إني أحب أن أنكح فلانة، إلا أن في أخلاق أهلها دقة، فقال له: " إياك وخضراء الدمن، إياك والمرأة الحسناء في منبت السوء ".

قوله: وعهدكم شقاق، يصفهم بالغدر، يقول: عهدكم وذمتكم لا يوثق بها، بل هي وإن كانت في الصورة عهداً أو ذمة، فإنها في المعنى خلاف وعداوة.

قوله: وماؤكم زعاق، أي ملح، وهذا وإن لم يكن من أفعالهم إلا أنه مما تدم به المدينة، كما قال:

وفيها المعلى يعتدي ويجور

بلاد بها الحمى وأسد عرينة

وإني لمن لم يأتها لنذير

فإني لمن قد حل فيها لراحم

ولا ذنب لأهلها في أنها بلاد الحمى والسباع.

ثم وصف المقيم بين أظهرهم بأنه مرتكن بذنبه، لأنه إما أن يشاركهم في الذنوب أو يراها فلا ينكرها؛ ومذهب أصحابنا أنه لا تجوز الإقامة في دار الفسق، كما لا تجوز الإقامة في دار الكفر.

والجؤجؤ: عظم الصدر، وجؤجؤ السفينة: صدرها.

فأما إخباره عليه السلام أن البصرة تغرق عدا المسجد الجامع بها، فقد رأيت من يذكر أن كتب الملاحم تدل على أن البصرة تمهلك بالماء الأسود ينفجر من أرضها، فتغرق ويبقى مسجدها.

والصحيح أن المخبر به قد وقع، فإن البصرة غرقت مرتين، مرة في أيام القادر بالله؛ ومرة في أيام القائم بأمر الله، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها، وغرق كل ما في ضمنها، وهلك كثير من أهلها.

وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة، يتناقلها خلفهم عن سلفهم.

أشعار وأراجيز يوم الجمل: قال أبو الحسن علي بن محمد بن سيف المدائني ومحمد بن عمر الواقدي: ما حفظ رجز قط أكثر من رجز قيل يوم الجمل، وأكثره لبني ضبة والأزد، الذين كانوا حول الجمل يحامون عنه، ولقد كانت الرؤوس تندثر عن الكواهل، والأيدي تطيح من المعاصم وأقتاب البطن تندلق من الأحواف؛ وهم حول الجمل كالجرا الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل؛ حتى لقد صرخ عليه السلام بأعلى صوته: ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان! ثم قال: اعقروه وإلا فنيتم العرب. ولا يزال السيف قائماً وراكعاً حتى يهوي هذا البعير إلى الأرض، فصمدوا له حتى عقروه وله رغاء شديد، فلما

برك كانت الهزيمة.

ومن الأراجيز المحفوظة يوم الجمل لعسكر البصرة قول بعضهم:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل
إن علياً هو من شر البدل
أين الوهاد وشماريخ القلل

فأجابه رجل من عسكر الكوفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام:

نحن قتلنا نعثلاً فيمن قتل
أنى يرد نعتل وقد قحل
لحكمه حكم الطواغيت الأول
فأبدل الله به خير بدل
مشمّر للحرب معروف بطل

ومن أراجيز أهل البصرة:

يا أيها الجند الصليب الإيمان
إنني أتاني خبر ذو ألوان
ردوا إلينا شيخنا كما كان
يقتلهم بقوة وسلطان
فأجابه رجل من عسكر الكوفة:

أبت سيوف مذحج وهمدان
بأن ترد نعثلاً كما كان

خلقاً سويماً بعد خلق الرحمن
وفارق الحق ونور الفرقان

ومن الرجز المشهور المقول يوم الجمل، قال أهل البصرة:

يا أمنا عائش لا تراعي
ينعى ابن عفان إليك ناع
كل بنيك بطل المصاع
كعب بن سور كاشف القناع

ومنه قول بعضهم:

يا أمنا يكفيك منا دنوه

لن يؤخذ الدهر الخطام عنوه

وحولك اليوم رجال شنوه

وحي همدان رجال الهبوه

والمالكيون القليلو الكبوة

والأزد حي ليس فيهم نبوه

قالوا: وخرج من أهل البصرة شيخ صبيح الوجه، نبيل، عليه جبة وشي، يحض الناس على الحرب، ويقول:

يا معشر الأزد عليكم أمكم

فإنها صلاتكم وصومكم

والحرمة العظمى التي تعمكم

فأحضروها جدكم وحزمكم

لا يغلبن سم العدو سمكم

إن الغدو إن علاكم زمكم

وخصكم بجوره وعمكم

لا تفضحوا فداكم قومكم

قال المدائني والواقدي: وهذا الرجز يصدق الرواية أن الزبير وطلحة قاما في الناس، فقالا: إن علياً إن يظفر فهو فناؤكم يا أهل البصرة، فاحموا حقيقتكم، فإنه لا يبقى حرمة إلا انتهكها، ولا حريماً إلا هتكه، ولا ذرية إلا قتلها، ولا ذوات خدرٍ إلا سباهن، فقاتلوا مقاتلة من يحمي عن حريمه، ويختار الموت على الفضيحة يراها في أهله.

وقال أبو مخنف: لم يقل أحد من رجاز البصرة قولاً كان أحب إلى أهل الجمل من قول هذا الشيخ، استقتل الناس عند قوله، وثبتوا حول الجمل، وانتدبوا، فخرج عوف بن قطن الضبي، وهو ينادي: ليس لعثمان ثأر إلا علي بن أبي طالب وولده، فأخذ خطام الجمل، وقال:

يا أم يا أم خلا مني الوطن

لا أبتغي القبر ولا أبغي الكفن

من ههنا محشر عوف بن قطن

إن فانتا اليوم علي فالغبين

أو فانتا ابناه حسين وحسن

إذا أمت بطول هم وحزن

ثم تقدم، فضرب بسيفه حتى قتل.

وتناول عبد الله بن أبرى خطام الجمل، وكان كل من أراد الجد في الحرب وقاتل قتال مستميت يتقدم إلى الجمل فيأخذ بخطامه، ثم شد على عسكر علي عليه السلام، وقال:

أضربهم ولا أرى أبا حسن

ها إن هذا حزن من الحزن

فشد عليه علي أمير المؤمنين عليه السلام بالرمح قطعته فقتله، وقال: قد رأيت أبا الحسن، فكيف رأيته! وترك الرمح فيه.

وأخذت عائشة كفاً من حصي، فحصبته به أصحاب علي عليه السلام، وصاحت بأعلى صوتها: شأهت الوجوه! كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فقال لها قاتل: وما رميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى. وزحف علي

عليه السلام نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار، وحوله بنوه: حسن وحسين ومحمد عليهم السلام، ودفع الراية إلى محمد، وقال: أقدم بها حتى تركزها في عين الجمل، ولا تقفن دونه. فتقدم محمد؛ ورشقه السهام، فقال لأصحابه؛ رويداً حتى تنفذ سهامهم، فلم يبق لهم إلا رشقة أو رشقتان. فأنفذ علي عليه السلام إليه يستحثه، ويأمره بالمناجزة، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خلفه، فوضع يده اليسرى على منكبه الأيمن، وقال له: أقدم لا أم لك! فكان محمد رضي الله عنه إذا ذكر ذلك بعد ييكي، ويقول: لكأني أحد ريح نفسه في قفائي، والله لا أنسى أبداً. ثم أدركت علياً عليه السلام رقة على ولده، فتناول الراية منه بيده اليسرى، وذو الفقار مشهور في يمين يديه، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل، ثم رجع وقد انحنى سيفه، فأقامه بركبته. فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار: نحن نكفيك يا أمير المؤمنين. فلم يجب أحداً منهم ولا رد إليهم بصره؛ وظل ينحط ويزأر زئير الأسد، حتى فرق من حوله. وتبادروه؛ وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة، لا يبصر من حوله، ولا يرد حواراً، ثم دفع الراية إلى ابنه محمد، ثم حمل حملة ثانية وحده، فدخل في وسطهم فضربهم بالسيف قدماً قدماً، والرجال تفر من بين يديه، وتنحاز عنه يمنة ويسرة، حتى خضب الأرض بدماء القتلى، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته، فاعصو صب به أصحابه، وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام، وقالوا: إنك إن تصب يذهب الدين، فأمسك ونحن نكفيك. فقال: والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة. ثم قال لمحمد ابنه: هكذا تصنع يا ابن الحنفية، فقال الناس: من الذي يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين! ومن كلماته الفصيحة عليه السلام في يوم الجمل، ما رواه الكلبي عن رجل من الأنصار قال: بينا أنا واقف في أول الصفوف يوم الجمل؛ إذ جاء علي عليه السلام فانحرت إليه فقال: أين مثرى القوم؟ فقلت: ههنا - نحو عائشة.

قال الكلبي: يريد أين عددهم؟ وأين جمهورهم وكثرتهم؟ والمال الثري على فعيل هو الكثير، ومنه رجل ثروان، وامرأة ثروى، وتصغيرها ثرياً. والصدقة مثرة للمال، أي مكررة له.

قال أبو مخنف: وبعث علي عليه السلام إلى الأشتر أن يحمل على ميسرهم، فحمل عليها وفيها هلال بن وكيع، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل هلال؛ قتله الأشتر؛ فمالت الميسرة إلى عائشة فلاذوا بها، وعظمهم بنو ضبة وبنو عدي، ثم عطفت الأزد وضبة وناجية وباهلة إلى الجمل، فأحاطوا به، واقتتل الناس حوله قتالاً شديداً، وقتل كعب بن سور قاضي البصرة، جاءه سهم غرب فقتله وخطام الجمل في يده، ثم قتل عمرو بن يثربي الضبي، وكان فارس أصحاب الجمل وشجاعهم، بعد أن قتل كثيراً من أصحاب علي عليه السلام.

قالوا: كان عمرو أخذ بخطام الجمل، فدفعه إلى ابنه، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه علباء بن الهيثم السدوسي، فقتله عمرو، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه هند بن عمرو الجملي فقتله عمرو، ثم دعا إلى البراز، فقال زيد بن صوحان العبدي لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، إني رأيت يداً أشرفت علي من السماء وهي تقول: هلم إلينا، وأنا خارج إلى ابن يثربي، فإذا قتلتني فادفني بدمي ولا تغسلني، فإني مخاصم عند ربي. ثم خرج فقتله عمرو، ثم رجع إلى خطام الجمل مرتجزاً يقول:

ثم ابن صوحان خضيباً في علق

والوتر منا في عدي ذي الفرق

أرديت علباء وهنداً في طلق

قد سبق اليوم لنا ما قد سبق

والأشتر الغاوي وعمرو بن الحمق

والفارس المعلم في الحرب الحنق

ذاك الذي في الحادثات لم يطق

أعني علياً ليتة فينا مزق

قال: قوله: والوتر منا في عدي، يعني عدي بن حاتم الطائي، وكان من أشد الناس على عثمان، ومن أشدهم جهاداً مع علي عليه السلام. ثم ترك ابن يثري الخطام، وخرج يطلب المبارزة، فاختلف في قاتله، فقال قوم: إن عمار بن ياسر خرج إليه والناس يسترجعون له، لأنه كان أضعف من برز إليه يومئذ. أقصرهم سيفاً، وأقصفهم رحماً، وأحمشهم ساقاً، حمالة سيفه من نسعة الرحل، وذباب سيفه قريب من إبطه. فاختلفا ضربتين، فنشب سيف ابن يثري في حجرة عمار، فضربه عمار على رأسه فصصره، ثم أخذ برجله يسحبه حتى انتهى به إلى علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، استبقني أجاهد بين يديك، وأقتل منهم مثل ما قتلت منكم. فقال له علي عليه السلام: أبعد زيد وهند وعلابء أستبقيك! لا ها الله إذا! قال: فأدني منك أسارك، قال له: أنت متمرّد، وقد أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمتمردين، وذكرك فيهم. فقال: أما والله لو وصلت إليك لعضضت أنفك عضة ابنته منك، فأمر به علي عليه السلام فضربت عنقه. وقال قوم: إن عمراً لما قتل من قتل، وأراد أن يخرج لطلب البراز، قال للأزد: يا معشر الأزد، إنكم قوم لكم حياء وبأس، وإني قد وترت القوم، وهم قاتلي، وهذه أمكم نصرها دين، وخذلناها عقوق، ولست أخشى أن أقتل حتى أصرع، فإن صرعت فاستنقدوني. فقالت له الأزد: ما في هذا الجمع أحد نخافه عليك إلا الأشتر، قال: فإياه أخاف، قال أبو مخنف: فقيضه الله له، وقد أعلمنا جميعاً، فارتجز الأشتر:

إني إذا ما الحرب أبدت نابها

وأغلقت يوم الوغى أبوابها

ومزقت من حنق أثوابها

كنا قدأماها ولا أذناها

ليس العدو دوننا أصحابها

من هابها اليوم فلن أهابها

لا طعناً أخشى ولا ضرابها

ثم حمل عليه فطعنه فصرعه، وحامت عنه الزد فاستنقدوه، فوثب وهو وقيد ثقيل، فلم يستطع أن يدفع عن نفسه، واستعرضه عبد الرحمن بن طود البكري، فطعنه فصرعه ثانية، ووثب عليه رجل من سدوس، فأخذه مسحوباً برجله حتى أتى به علياً عليه السلام، فناشده الله وقال: يا أمير المؤمنين، اعف عني، فإن العرب لم تزل قائمةً عنك: إنك لم تجهز على جريح قط. فأطلقه، وقال: اذهب حيث شئت، فجاء إلى أصحابه وهو لما به، حضره الموت، فقالوا له: دمك عند أي الناس؟ فقال: أما الأشتر فلقيني وأنا كالمهر الأرن، فعلا حده حدي، ولقيت رجلاً يتغي له عشرة أمثالي، وأما البكري فلقيني، وأنا لما بي، وكان يتغي لي عشرة أمثاله، وتولى أسري أضعف القوم، وصاحي الأشتر. قال أبو مخنف: فلما انكشفت الحرب، شكرت ابنة عمرو بن يثري الأزد، وعابت قومها، فقالت:

يا ضب إنك قد فجعت بفارسٍ

حامى الحقيقة قاتل الأقران

عمرو بن يثرب الذي فجعت به

كل القبائل من بني عدنان

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وحننت عليه الأزد، أزد عمان

ولحبهم أحببت كل يمان

طول الأكف بذابل المران

وسط العجاجة والحتوف دوان

حتى ينال النجم والقمران

وبكيتته ما دام هضب أبان

أسد الأسود وفارس الفرسان

لم يحمه وسط العجاجة قومه

فلهم علي بذاك حادث نعمة

لو كان يدفع عن منية هالك

أو معشر وصلوا الخطا بسيوفهم

ما نيل عمرو والحوادث جمّة

لو غير الأشتر ناله لندبته

لكنه من لا يعاب بقتله

قال أبو مخنف: وبلغنا أن عبد الرحمن بن طود البكري قال لقومه: أنا والله قتلت عمراً، وإن الأشتر كان بعدي وأنا أمامه في الصعاليك، فطعنت عمراً طعنة لم أحسب أنها تجعل للأشتر دوني، وإنما الأشتر ذو حظ في الحرب، وإنه ليعلم أنه كان خلفي، ولكن أبي الناس إلا أنه صاحبه، ولا أرى أن أكون خصم العامة، وإن الأشتر لأهل ألا ينازع. فلما بلغ الأشتر قوله قال: أما والله لولا أبي أطفأت جمرته عنه ما دنا منه، وما صاحبه غيري، وإن الصيد لمن وقده . فقال عبد الرحمن: لا أنازع فيه، ما القول إلا ما قاله، وأني لي أن أخالف الناس! قال: وخرج عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو رئيس البصرة، وأكثر أهلها مالاً وضياعاً، فطلب البراز، وسأل ألا يخرج إليه إلا علي عليه السلام، وارتجز فقال:

فإنني دانٍ إليك شبرا

أبا ترابٍ ادن مني فترا

وإن في صدري عليك غمرا

فخرج إليه علي عليه السلام، فلم يمهل أن ضربه، ففلق هامته.

قالوا: استدار الجمل كما تدور الرحا، وتكاثفت الرجال من حوله، واشتد رغاؤه، واشتد زحام الناس عليه، ونادى الحتات المجاشعي: أيها الناس، أمكم أمكم! واختلط الناس فضرب بعضهم بعضاً، وتقصد أهل الكوفة قصد الجمل، والرجال دونه كالجبال، كلما خف قوم جاء أضعافهم، فنادى علي عليه السلام: ويحكم! ارشقوا الجمل بالنبل اعقروه لعنه الله! فرشق بالسهم، فلم يبق فيه موضع إلا أصابه النبل، وكان مجففاً فتعلقت السهام به، فصار كالقنفذ، ونادت الأزد وضبة: يا لثارات عثمان! فاتخذوها شعاراً، ونادى أصحاب علي عليه السلام: يا محمد! فاتخذوها شعاراً، واختلط الفريقان؛ ونادى علي عليه السلام بشعار رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا منصور أمت . وهذا في اليوم الثاني من أيام الجمل، فلما دعا بها تزلزلت أقدام القوم، وذلك وقت العصر، بعد أن كانت الحرب من وقت الفجر.

قال الواقدي: وقد روي أن شعاره عليه السلام كان في ذلك اليوم " حم لا ينصرون. اللهم انصرنا على القوم الناكثين " ثم تحاجز الفريقان، والقتل فاش فيهما، إلا أنه في أهل البصرة أكثر، وأمارات النصر لائحة لعسكر الكوفة، ثم توافقوا في اليوم الثالث، فبرز أول الناس عبد الله بن الزبير، ودعا إلى المبارزة، فبرز إليه الأشتر، فقالت عائشة: من برز إلى عبد الله؟ قالوا: الأشتر، فقالت: واثكل أسماء! فضرب كل منهما صاحبه فجرحه، ثم اعتنقا، فصرع الأشتر عبد الله، وقعد على صدره، واختلط الفريقان: هؤلاء لينقذوا عبد الله، وهؤلاء ليعينوا الأشتر. وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام لم يطعم - وهذه

عادته في الحرب - وكان أيضاً شيخاً عالي السن، فجعل عبد الله ينادي: اقتلوني ومالكا فلو قال: اقتلوني والأشتر، لقتلوهما، إلا أن أكثر من كان يمر بهما لا يعرفهما؛ لكثرة من وقع في المعركة صرعى بعضهم فوق بعض، وأفلت ابن الزبير من تحته ولم يكد، فذلك قول الأشتر:

ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا

بأضعف صوت: اقتلوني ومالكا

خدب عليه في العجاجة باركا

وأني شيخ لم أكن متماسكا

أعائش لولا أنني كنت طاوياً

غداة ينادي والرجال تحوزة

فلم يعرفوه إذ دعاهم وغمه

فنجاه مني أكله وشبابه

وروى أبو مخنف عن الأصبع بن نباتة، قال: دخل عمار بن ياسر ومالك بن الحارث الأشتر على عائشة بعد انقضاء أمر الجمل، فقالت عائشة: يا عمار، من معك؟ قال: الأشتر. فقالت: يا مالك، أنت الذي صنعت بابن أخي ما صنعت؟ قال: نعم، ولولا أنني كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحت أمة محمد منه، فقالت: أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا يحل دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة: كفر بعد إيمان، أو زناً بعد إحصان، أو قتل نفس بغير حق " ! فقال الأشتر: على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أم المؤمنين، وإيم الله ما خانني سيفي قبلها، ولقد أقسمت ألا يصحبنى بعدها، قال أبو مخنف: ففي ذلك يقول الأشتر من جملة هذا الشعر الذي ذكرناه:

بقتل أتى، أم ردة لا أبالكا!

فقلت لها لا بد من بعض ذلكا

وقالت على أي الخصال صرعته

أم المحصن الزاني الذي حل قتله

قال أبو مخنف: وانتهى الحارث بن زهير الأزدي من أصحاب علي عليه السلام إلى الجمل، ورجل أخذ بخطامه، لا يدنو منه أحد إلا قتله، فلما رآه الحارث بن زهير مشى إليه بالسيف وارتجز، فقال لعائشة:

والأم تغذو ولدها وترحم

وتختلى هامته والمعصم !

يا أمنا أعق أم نعلم

أما ترين كم شجاع يكلم!

فاختلف هو والرجل ضربتين، فكلاهما أنحن صاحبه.

قال جندب بن عبد الله الأزدي: فجئت حتى وقفت عليهما وهما يفحصان بأرجلهما حتى ماتا. قال: فأتيت عائشة بعد ذلك أسلم عليها بالمدينة، فقالت: من أنت؟ قلت: رجل من أهل الكوفة، قالت: هل شهدتنا يوم البصرة؟ قلت: نعم، قالت: مع أي الفريقين؟ قلت: مع علي، قالت: هل سمعت مقالة الذي قال:

يا أمنا أعق أم نعلم

قلت: نعم، وأعرفه، قالت: ومن هو؟ قلت: ابن عم لي، قالت: وما فعل؟ قلت: قتل عند الجمل، وقتل قاتله، قال: فبكت

حتى ظننت والله أنها لا تسكت، ثم قالت: لوددت والله أنني كنت مت قبل ذلك اليوم بعشرين سنة.
قالوا: وخرج رجل من عسكر البصرة يعرف بخباب بن عمرو الراسبي، فارتجز فقال:

عممته أبيض مشرفيا

أضربهم ولو أرى علياً

أريح منه معشراً غويا

فصمد عليه الأشر فقتله.

ثم تقدم عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس وهو من أشرف قريش - وكان اسم سيفه ولول - فارتجز فقال:

والموت دون الجمل المجلل

أنا ابن عتاب وسيفي ولول

فحمل عليه الأشر فقتله. ثم خرج عبد الله بن حكيم بن حزام من بني أسد بن عبد العزى بن قصي، من أشرف قريش أيضاً، فارتجز وطلب المبارزة، فخرج إليه الأشر فضربه على رأسه فصرعه، ثم قام فنجا بنفسه.

قالوا: وأخذ خطام الجمل سبعون من قريش، قتلوا كلهم، ولم يكن يأخذ بخطام الجمل أحد إلا سالت نفسه، أو قطعت يده. وجاءت بنو ناجية فأخذوا بخطام الجمل، ولم يكن يأخذ الخطام أحد إلا سألت عائشة: من هذا؟ فسألت عنهم، فقيل: بنو ناجية، فقالت عائشة: صبراً بني ناجية، فإني أعرف فيكم شمائل قريش. قالوا: وبنو ناجية مطعون في نسبهم إلى قريش، فقتلوا حولها جميعاً.

قال أبو مخنف: وحدثنا إسحاق بن راشد عن عبد الله بن الزبير، قال: أمسيت يوم الجمل وبني سبعة وثلاثون جرحاً، من ضربة وطعنة ورمية، وما رأيت مثل يوم الجمل قط، ما كان الفريقان إلا كالجبلين لا يزولان.

قال أبو مخنف: وقام رجل إلى علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، أي فتنة أعظم من هذه؟ إن البدرية ليمشي بعضها إلى بعض بالسيف، فقال علي عليه السلام: ويحك! أتكون فتنة أنا أميرها وقائدها! والذي بعث محمداً بالحق وكرم وجهه، ما كذبت ولا كذبت، ولا ضللت ولا ضل بي، ولا زلت ولا زل بي، وإني لعلى بينة من ربي، بينها الله لرسوله، وبينها رسوله لي، وسأدعى يوم القيامة ولا ذنب لي، ولو كان لي ذنب لكفر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم.

قال أبو مخنف: وحدثنا مسلم الأعور عن حبة العري قال: فلما رأى علي عليه السلام أن الموت عند الجمل، وأنه ما دام قائماً فالحرب لا تطفأ، وضع سيفه على عاتقه، وعطف نحوه، وأمر أصحابه بذلك، ومشى نحوه والخطام مع بني ضبة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، واستحر القتل في بني ضبة، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وخلص علي عليه السلام في جماعة من النخع وهمدان إلى الجمل، فقال لرجل من النخع اسمه بجير: دونك الجمل يا بجير، فضرِب عجز الجمل بسيفه فوقع لجنبه، وضرب بجارانه الأرض، وعج عجيماً لم يسمع بأشد منه، فما هو إلا أن صرع الجمل حتى فرت الرجال كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب، واحتملت عائشة بهودجها، فحملت إلى دار عبد الله بن خلف، وأمر علي عليه السلام بالجمل أن يحرق ثم يذرى في الريح. وقال علي عليه السلام: لعنة الله من دابة! فما أشبهه بعجل بني إسرائيل، ثم قرأ " وانظر إلى إهلك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً " .

ومن كلام له في ذم أهل البصرة أيضاً

الأصل: أرضكم قرية من الماء، بعيد من السماء. خفت عقولكم، وسفهت حلومكم، فأنتم غرض لنابل، وأكلة لآكلٍ، وفريسة لصائلٍ.

الشرح: الغرض: ما ينصب ليرمى بالسهم. والنابل: ذو النبل. والأكاة، بضم الهمزة: المأكول. وفريسة الأسد: ما يفترسه. وسفه فلان، بالكسر، أي صار سفيهاً، وسفه بالضم أيضاً، فإذا قلت: سفه فلان رأيته أو حلمه أو نفسه، لم تقل إلا بالكسر، لأن فعل بالضم لا يتعدى. وقولهم: سفه فلان نفسه، وغبن رأيته، وبطر عيشته، وألم بطنه، ورفق حاله، ورشد أمره، كان في الأصل فيه كله: سفهت نفس زيد فلما حول الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بالمفعولية. هذا مذهب البصريين والكسائي من الكوفيين.

وقال الفراء: لما حول الفعل إلى الرجل خرج ما بعده مفسراً ليدل على أن السفاهة فيه، وكان حكمه أن يكون: سفه زيد نفساً، لأن المفسر لا يكون إلا نكرة، ولكنه ترك على إضافته، ونصب كنصب النكرة، تشبيهاً بها. ويجوز عند البصريين والكسائي تقديم المنصوب، كما يجوز: ضرب غلامه زيد، وعند الفراء لا يجوز تقديمه، لأن المفسر لا يتقدم.

فأما قوله: أرضكم قرية من الماء، بعيدة من السماء، فقد قدمنا معنى قوله: قرية من الماء، وذكرنا غرقها من بحر فارس دفعتين، ومراده عليه السلام بقوله: قرية من الماء، أي قرية من الغرق بالماء. وأما بعيدة من السماء؛ فإن أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أن أبعد موضع في الأرض عن السماء الأبله، وذلك موافق لقوله عليه السلام. ومعنى البعد عن السماء ههنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدل النهار والبقاع والبلاد تختلف في ذلك. وقد دلت الأرصاد والآلات النجومية على أن أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدل النهار هو الأبله، والأبله هي قسبة البصرة.

وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب، ولا تهتدي إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء. وهذا من أسرارهِ وغرائبهِ البديعة.

ومن كلام له فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان رضي الله عنه :

الأصل: والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الإماء؛ لرددته؛ فإن في العدل سعة. ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق.

الشرح: القطائع: ما يقطعه الإمام بعض الرعية من أرض بيت المال ذات الخراج، ويسقط عنه خراجه، ويجعل عليه ضريبة يسيرة عوضاً عن الخراج. وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بني أمية وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة، وقد كان عمر أقطع قطائع؛ ولكن لأرباب الغناء في الحرب والآثار المشهورة في الجهاد؛ فعل ذلك ثناً عما بذلوه من مهجهم في طاعة الله سبحانه، وعثمان أقطع القطائع صلةً لرحمه، وميلاً إلى أصحابه، عن غير غناء في

الحرب ولا أثر.

وهذه الخطبة ذكرها الكلبي مرويةً مرفوعةً إلى أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن علياً عليه السلام خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة، فقال: ألا إن كل قطعةٍ أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإن الحق القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته وقد تزوج به النساء، وفرق في البلدان، لرددته إلى حاله، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيّق.

وتفسير هذا الكلام أن الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره في العدل، فهي في الجور أضيّق عليه؛ لأن الجائر في مظنة أن يمنع ويصد عن جوره.

قال الكلبي: ثم أمر عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان في داره مما تقوى به على المسلمين فقبض، وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة، فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألا يعرض لسلاحه وجد له لم يقاتل به المسلمون، وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره، وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها.

فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بأيلة من أرض الشام، أتاه حيث وثب الناس على عثمان، فترها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانعاً فاصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاها.

وقال الوليد بن عقبة - وهو أخذ عثمان من أمه - يذكر قبض علي عليه السلام بنجائب عثمان وسيفه وسلاحه:

ولا تنهبوه لا تحل مناهبه

وعند علي درعه ونجائبه!

وبز ابن أروى فيكم وحرائبه!

سواء علينا قاتلاه وسالبه

كصدع الصفا لا يشعب الصدع شاعبه

كما غدرت يوماً بكسرى مرأيه

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم

بني هاشم كيف الهوادة بيننا

بني هاشم كيف التودد منكم

بني هاشم إلا تردوا فإننا

بني هاشم إنا وما كان منكم

قتلتم أخي كيما تكونوا مكانه

فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة من جملتها:

أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه

شديهاً بكسرى هديه وضرائبه

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم

وشبهته كسرى وقد كان مثله

أي كان كافراً كما كان كسرى كافراً.

وكان المنصور رحمه الله تعالى إذا أنشد هذا الشعر يقول: لعن الله الوليد! هو الذي فرق بين بني عبد مناف بهذا الشعر!

ومن خطبة له لما بويع بالمدينة

الأصل ذمّي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم. إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات. ألا وإن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه. والذي بعثه بالحق لتبيلن بلبلةً، ولتغربلن غربلةً، ولتساطن سوط القدر؛ حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم وليسبقن سابقون كانوا قصروا، وليقصرن سابقون كانوا سيقوا.

والله ما كتمت وشمةً، ولا كذبت كذبةً، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم. ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها، فتقحمت بهم في النار. ألا وإن التقوى مطايا ذلل، حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمته، فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل، فلئن أمر الباطل لقديماً فعل، ولئن قل الحق لربما ولعل، ولقلما أدبر شيء فأقبل. قال الرضي: إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الإحسان ما لا تبلغه مواقع الإحسان. وإن حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به، وفيه مع الحال التي وصفنا زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق، "وما يعقلها إلا العالمون". ومن هذه الخطبة: شغل من الجنة والنار أمامه. ساعٍ سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى. اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة، هلك من ادعى، وخاب من افترى.

من أبدى صفحته للحق هلك عند جهلة الناس. وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره. لا يهلك على التقوى سنخ أصل، ولا يظماً عليها زرع قوم، فاستتروا في بيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، والتوبة من ورائكم، ولا يحمد حامد إلا ربه، ولا يلم لائم إلا نفسه.

الشرح: الذمة: العقد والعهد، يقول: هذا الدين في ذمّي، كقولك: في عنقي؛ وهما كناية عن الالتزام والضمان والتقلد. والزعيم: الكفيل، ومخرج الكلام لهم مخرج الترغيب في سماع ما يقوله، كما يقول المهتم بإيضاح أمر لقوم لهم: أنا المدرك المتقلد بصدق ما أقوله لكم. وصرحت: كشفت. والعبر: جمع عبرة، وهي الموعظة. والمثالات: العقوبات. وحجزه: منعه. وقوله: لتبيلن، أي لتخلطن، تبيلت الألسن، أي اختلطت. ولتغربلن، يجوز أن يكون من الغربال الذي يغربل به الدقيق، ويجوز أن يكون من غربلت اللحم، أي قطعته. فإن كان الأول كان له معنيان: أحدهما الاختلاط، كالتبيل، لأن غربلة الدقيق تخلط بعضه ببعض. والثاني أن يريد بذلك أنه يستخلص الصالح منكم من الفاسد، ويتميز كما يتميز الدقيق عند الغربلة من نخالته.

وتقول: ما عصيت فلاناً وشمةً، أي كلمة. وحصان شمس: يمنع ظهره، شمس الفرس، بالفتح، وبه شماس. وأمر الباطل: كثر.

وقوله: لقديماً فعل، أي قديماً فعل الباطل ذلك، ونسب الفعل إلى الباطل مجازاً. ويجوز أن يكون فعل بمعنى انفعل كقوله:

قد جبر الدين الإله فجبر

إي فانجبر. والسنخ: الأصل، وقوله: سنخ أصل كقوله:

إذا حاص عينيه كرى النوم

وفي بعض الروايات: من أبدى صفحته للحق هلك عند جهلة الناس، والتأويل مختلف، فمراده على الرواية الأولى - وهي الصحيحة - من كاشف الحق مخلصاً له هلك، وهي كلمة جارية مجرى المثل. ومراده على الرواية: الثانية: من أبدى صفحته لنصرة الحق غلبه أهل الجهل لأنهم العامة وفيهم الكثرة، فهلك. وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها، قد رواها الناس كلهم، وفيها زيادات حذفها الرضي، إما اختصاراً أو خوفاً من إباحش السامعين، وقد ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين على وجهها، ورواها عن أبي عبيدة معمر بن المثنى. قال: خطبة خطبها أمير المؤمنين علي عليه السلام بالمدينة في خلافته حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

ألا لا يرعين مرعٍ إلا على نفسه. شغل من الجنة والنار أمامه. ساعٍ مجتهد ينجو، وطالب يرجو، ومقصر في النار، ثلاثة واثنان: ملك طار بجناحيه، ونبي أخذ الله بيده؛ لا سادس. هلك من ادعى، وردى من اقتحم. اليمين والشمال مضلة، والوسطى الجادة، منهج عليه باقي الكتاب والسنة وآثار النبوة. إن الله داوى هذه الأمة بدوائين: السوط والسيوف؛ لا هودة عند الإمام فيهما. استتروا في بيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، والتوبة من ورائكم. من أبدى صفحته للحق هلك. قد كانت لكم أمور ملتم فيها علي ميلة لم تكونوا عندي فيها محمودين ولا مصيبين. أما إني لو أشاء لقلت، عفا الله عما سلف. سبق الرجالن وقام الثالث كالغراب همته بطنه. ويحه لو قص جناحاه، وقطع رأسه لكان خيراً له! انظروا فإن أنكرتم فأنكروا، وإن عرفتم فآزروا. حق وباطل، ولكل أهل. ولئن أمر الباطل لقدماً فعل، ولئن قل الحق لربما ولعل، وقلما أدبر شيء فأقبل. ولئن رجعت إليكم أموركم إنكم لسعداء، وإني لأخشى أن تكونوا في فترة، وما علينا إلا الاجتهاد.

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى: وقال أبو عبيدة: وزاد فيها في رواية جعفر بن محمد عليه السلام عن آبائه عليه السلام: ألا إن أبرار عترتي، وأطايب أرومي، أحلم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً. ألا وإنا أهل بيت من علم الله علمنا، وبحكم الله حكمنا، ومن قول صادق سمعنا، فإن تتبعوا آثارنا تفتدوا ببصائرنا، وإن لم تفعلوا يهلككم الله بأيدينا. ومعنا راية الحق؛ ومن تبعها لحق، ومن تأخر عنها غرق. ألا وبنا يدرك ترة كل مؤمن، وبنا تخلع ربقة الذل عن أعناقكم وبنا فتح لا بكم، وبنا يختم لا بكم.

قوله: لا يرعين أي لا ييقين، أرعيت عليه، إي أبقيت؛ يقول: من أبقي على الناس فإنما أبقي على نفسه. والهوداة: الرفق والصلح، وأصله اللين. والتهويد: المشي، رويداً، وفي الحديث: أسرعوا المشي في الجنابة ولا تهودوا كما تهود أهل الكتاب، وآزرت زيدا: أعنته. الترة: التوتر. والريقة: الحبل يجعل في عنق الشاة. وردى: هلك، من الردى، كقولك: عمي

من العمى، وشجي من الشجى.

وقوله: شغل من الجنة والنار أمامه؛ يريد به أن من كانت هاتان الداران أمامه لفي شغل عن أمور الدنيا إن كان رشيداً. وقوله: ساع مجتهد إلى قوله: لا سادس، كلام تقديره: المكلفون على خمسة أقسام: ساع مجتهد، وطالب راج، ومقصر هالك. ثم قال: ثلاثة، أي فهؤلاء ثلاثة أقسام، وهذا ينظر إلى قوله سبحانه: " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله " ، ثم ذكر القسمين: الرابع والخامس، فقال: هما ملك طار بجناحيه، وني أخذ الله بيده؛ يريد عصمة هذين النوعين من القبيح، ثم قال: لا سادس، أي لم يبق في المكلفين قسم سادس. وهذا يقتضي أن العصمة ليست إلا للأنبياء والملائكة، ولو كان الإمام يجب أن يكون معصوماً لكان قسماً سادساً، فإذا قد شهد هذا الكلام بصحة ما تقوله المعتزلة في نفي اشتراط العصمة في الإمامة، اللهم إلا أن يجعل الإمام المعصوم داخلاً في القسم الأول، وهو الساعي المجتهد. وفيه بعد وضعف.

وقوله: هلك من ادعى وردي من اقتحم، يريد هلك من ادعى وكذب، لا بد من تقدير ذلك، لأن الدعوى تعم الصدق والكذب، وكأنه يقول: هلك من ادعى الإمامة، وردي من اقتحمها وولجها عن غير استحقاق؛ لأن كلامه عليه السلام في هذه الخطبة، كله كنايات عن الإمامة لا عن غيرها.

وقوله: اليمين والشمال، مثال لأن السالك الطريق المنهج اللاحب ناج، والعاذل عنها يميناً وشمالاً معرض للخطر. ونحو هذا الكلام ما روي عن عمر، أنه لما صدر عن منى في السنة التي قتل فيها، كوم كومة من البطحاء فقام عليها، فخطب الناس، فقال: أيها الناس، قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة، إلا أن تميلوا بالناس يميناً وشمالاً، ثم قرأ: " ألم نجعل عينين، ولساناً وشفقتين، وهديناه النجدين " ، ثم قال: ألا إنهما نجدا الخير والشر، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير.

وقوله: إن الله داوى هذه الأمة بدواءين، كلام شريف، وعلى منواله نسج الحجاج وزياذ كلامهما المذكور فيه السوط والسيف، فمن ذلك قول الحجاج:

من أعياه داؤه فعلي دواؤه، ومن استبطأ أجله فعلي أن أعجله، ومن استثقل رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه. إن للشيطان طيفاً، وإن للسلطان سيفاً، فمن سقمت سريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة، ومن سبقتة بادرة فمه، سبق بدنه سفك دمه. إني لأنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أغفر، إنما أفسدكم ترقيق ولا تكلم. ومن استرخى لبيه؛ ساء أدبه. إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وجعلا سوطي سيفي، فقائم بيدي، ونجاده في عنقي، وذبابه قلادة لمن عصاني. والله لا أمر أحداً أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه.

ومن ذلك قول زياذ: إنما هو زجر بالقول، ثم ضرب بالسوط، ثم الثالثة التي لا شوى لها. فلا يكون لسان أحدكم شفرة تجري على أوداجه، وليعلم إذا خلا بنفسه أي قد حملت سيفي بيده؛ فإن شهره لم أعمده، وإن أعمده لم أشهره. وقوله عليه السلام: كالغراب، يعني الحرص والجشع، والغراب يقع على التمرة، ويقع على الحبة؛ وفي المثال: أجشع من غراب، وأحرص من غراب.

وقوله: ويجه لو قص، يريد كان قتل أو مات قبل أن يتلبس بالخلافة لكان خيراً له من أن يعيش ويدخل فيها، ثم قال لهم: أفكروا فيما قد قلت، فإن كان منكراً فأنكروه، وإن كان حقاً فأعينوا عليه.

وقوله: استتروا في بيوتكم، نهي لهم عن العصبيّة والاجتماع والتحزب، فقد كان قوم بعد قتل عثمان تكلموا في قتله من شيعة بني أمية بالمدينة.

وأما قوله: قد كانت أمور لم تكونوا عندي فيها محمودين، فمراده أمر عثمان وتقديمه في الخلافة عليه. ومن الناس من يحمل ذلك على خلافة الشيخين أيضاً. ويعد عندي أن يكون أرادته، لأن المدة قد كانت طالت، ولم يبق من يعاتبه ليقول: قد كانت أمور لم تكونوا عندي فيها محمودين، فإن هذا الكلام يشعر بمعاذرة قوم على أمر كان أنكره منهم. وأما بيعة عثمان، ثم ما جرى بينه وبين عثمان من منازعات طويلة، وغضب تارة، وصلاح تارة، ومراسلات خشنّة ولطيفة، وكون الناس بالمدينة كانوا حزبين وفتتين: إحداهما معه عليه السلام، والأخرى مع عثمان؛ فإن صرف الكلام إلى ما قلناه بهذا الاعتبار أليق.

ولسنا نمنع من أن يكون في كلامه عليه السلام الكثير من التوجد والتألم لصرف الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عنه؛ وإنما كلامنا الآن في هذه اللفظات التي في هذه الخطبة، على أن قوله عليه السلام: سبق الرجال، والاقتصار على ذلك فيه كفاية في انحرافه عنهما.

وأما قوله: حق وباطل.. إلى آخر الفصل، فمعناه كل أمر فهو إما حق وإما باطل، ولكل واحدٍ من هذين أهل، وما زال أهل الباطل أكثر من أهل الحق؛ ولئن كان الحق قليلاً لربما كثر، ولعله ينتصر أهله.

ثم قال على سبيل التضجر بنفسه: وقلما أدبر شيء فأقبل، استبعد عليه السلام أن تعود دولة قوم بعد زوالها عنهم؛ وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر في قوله:

ذوى نبت جنبه وجف المشارع

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما

ويعشب جنباه تموت الضفادع

فقلت إلى أن يرجع النهر جارياً

ثم قال: ولئن رجعت عليكم أموركم، أي إن ساعدني الوقت، وتمكنت من أن أحكم فيها بحكم الله تعالى ورسوله، وعادت إليكم أيام شبيهة بأيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيرة مماثلة لسيرته في أصحابه؛ إنكم لسعداء. ثم قال: وإني لأخشى أن تكونوا في فترة، الفترة هي الأزمنة التي بين الأنبياء إذا انقطعت الرسل فيها؛ كالفترة التي بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يكن بينهما نبي، بخلاف المدة التي كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام، لأنه بعث فيها أنبياء كثيرون، فيقول عليه السلام: إني لأخشى ألا أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم، فتكونوا كالأمم الذين في أزمنة الفترة لا يرجعون إلى نبي يشافهمهم بالشرائع والأحكام، وكأنه عليه السلام قد كان يعلم أن الأمر سيضطرب عليه.

ثم قال: وما علينا إلا الاجتهاد، يقول: أن أعمل ما يجب علي من الاجتهاد في القيام بالشرعية وعزل ولاية السوء وأمراء الفساد عن المسلمين، فإن تم ما أريده فذاك، وإلا كنت قد أعدرت.

وأما التتمة المروية عن جعفر بن محمد عليهما السلام فواضحة الألفاظ، وقوله في آخرها: وبنا يحتّم لا بكم، إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الزمان. وأكثر المحدثين على أنه من ولد فاطمة عليه السلام. وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه، وقد صرحوا بذكره في كتبهم، واعترف به شيوخهم، إلا أنه عندنا لم يخلق بعد، وسيخلق. وإلى هذا المذهب يذهب أصحاب الحديث أيضاً.

وروى قاضي القضاة رحمه الله تعالى عن كافي الكفاة أبي القاسم إسماعيل بن عباد رحمه الله بإسناد متصل بعلي عليه السلام أنه ذكر المهدي، وقال: إنه من ولد الحسين عليه السلام، وذكر حليته، فقال: رجل أجلى الجبين، أقى الأنف، ضخم البطن، أزبل الفخذين، أبلج الشنايا، بفخذه اليمى شامة . . . وذكر هذا الحديث بعينه عبد الله بن قتيبة في كتاب غريب الحديث.

ومن كلام له في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل :

الأصل: إن أبغض الخلائق إلى الله تعالى رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته. حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته.

ورجل قمش جهلاً، موضع في جهال الأمة، عادٍ في أغباش الفتنة، عم بما عقد الهدنة، قد سماه أشباه الناس علماً، وليس به. بكر فاستكثر من جمع، ما قل منه خير مما كثر، إذا ارتوى من آجنٍ واكتثر من غير طائل، جلس بين الناس قاضياً، ضامناً لتخليص ما التبس على غيره. فإن نزلت به إحدى المبهمات؛ هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به. فهو من ليس الشبهات في مثل نسج العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب. جاهل خباط جهالات، عاش ركاب عشوات، لم يعض على العلم بضررٍ قاطع. يذري الروايات إذراء الريح الهشيم، لا ملئى والله بإصدار ما ورد عليه، ولا هو أهل لما فوض إليه. لا يحسب العلم في شيءٍ مما أنكره، ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهباً لغيره، وإن أظلم عليه أمر اكتتم به، لما يعلم من جهل نفسه، تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج منه الموارد إلى الله من معشر جهالاً، ويموتون ضلالاً؛ ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعاً، ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرف عن موضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر. الشرح: وكله إلى نفسه: تركه ونفسه، وكلته وكلاً ووكولاً. والجائر: الضال العادل عن الطريق، وقمش جهلاً: جمعه. وموضع: مسرع، أوضع البعير: أسرع، وأوضعه راكمه، فهو موضع به، أي أسرع به.

وأغباش الفتنة: ظلمها، الواحد غبش، وأغباش الليل: بقايا ظلمته، ومنه الحديث في صلاة الصبح: " والنساء متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغبش " والماء الآجن: الفاسد. وأكثر، كقولك: استكثرُوا، ويروى: اكتثر، أي اتخذ العلم كثراً. والتخليص: التبيين، وهو والتلخيص متقاربان، ولعلهما شيء واحد من المقلوب.

والمبهمات: المشكلات؛ وإنما قيل لها مبهمة، لأنها أبهمت عن البيان، كأنها أصممت فلم يجعل عليها دليل ولا إليها سبيل،

أو جعل عليها دليل وإليها سبيل؛ إلا أنه متعسر مستصعب؛ ولهذا قيل لما لا ينطق من الحيوان: بهيمة، وقيل للمصمت اللون الذي لا شية فيه: بهيم.

وقوله: حشوا رثاً، كلام مخرجه الدم، والرث: الخلق، ضد الجديد.

وقوله: حشواً، يعني كثيراً لا فائدة فيه. وعاش: خابط في ظلام وقوله: لم يعض، يريد أنه لم يتقن ولم يحكم الأمور، فيكون بمنزلة من يعض بالناجذ، وهو آخر الأضراس وإنما يطلع إذا استحكمت شبيهة الإنسان واشتدت مرته - ولذلك يدعو العوام ضرس الحلم، كأن الحلم يأتي مع طلوعه، ويذهب نزع الصبا، ويقولون: رجل منجذ، أي مجرب محكم، كأنه قد عض على ناجذه وكمل عقله.

وقوله: يذري الروايات، هكذا أكثر النسخ، وأكثر الروايات يذري من أذرى رباعياً، وقد أوضحه قوله: إذرء الرياح، يقال: طعنه فأذراه، أي ألقاه، وأذريت الحب للزرع، أي ألقيته، فكأنه يقول: يلقي الروايات كما يلقي الإنسان الشيء على الأرض؛ والأجود والأصح الرواية الأخرى: يذرو الروايات ذرو الرياح الهشيم، وهكذا ذكر ابن قتيبة في غريب الحديث، لما ذكر هذه الخطبة عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال تعالى: " فأصبح هشيماً تذروه الرياح " ، والهشيم: ما ييس من النبت وتفتت.

قوله: لا ملئ أي لا قيم به، وفلان غني ملئ، أي ثقة بين الملاء والملاء، بالمد، وفي كتاب ابن قتيبة تنمة هذا الكلام: ولا أهل لما قرظ به، قال: أي ليس بمستحق للمدح الذي مدح به، والذي رواه ابن قتيبة من تمام كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو الصحيح الجيد، لأنه يستقبح في العربية أن تقول: لا زيد قائم، حتى تقول: ولا عمرو، أو تقول: ولا قاعد؛ فقولاه عليه السلام: لا ملئ، أي لا هو ملئ، وهذا يستدعي لا ثانية، ولا يحسن الاختصار على الأولى.

وقوله عليه السلام: اكتتم به، أي كتمه وستره. وقوله: تصرخ منه وتعج. والعج: رفع الصوت - وهذا من باب الاستعارة.

وفي كثير من النسخ: إلى الله أشكو، فمن روى ذلك وقف على الموارث، ومن روى الرواية الأولى وقف على قوله: إلى الله، ويكون قوله: من معشر؛ من تمام صفات ذلك الحاكم، أي هو من معشر صفتهم كذا.

وأبور أفعال من البور: الفاسد، بار الشيء، أي فسد، وبارت السلعة؛ أي كسدت ولم تنفق، وهو المراد ههنا، وأصله الفساد أيضاً.

إن قيل: بينوا الفرق بين الرجلين اللذين أحدهما وكله الله إلى نفسه، والآخر رجل قمش جهلاً، فإنهما في الظاهر واحد. قيل: أما الرجل الأول، فهو الضال في أصول العقائد، كالمشبه والجبر ونحوهما، ألا تراه كيف قال: مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، وهذا يشعر بما قلناه؛ من أن مراده به المتكلم في أصول الدين، وهو ضال عن الحق، ولهذا قال: إنه فتنة لمن افتتن به ضال عن هدى من قبله، مضل لمن يجيء بعده. وأما الرجل الثاني فهو المتفقه في فروع الشرعيات، وليس بأهل لذلك، كفقهاء السوء ألا تراه كيف يقول: جلس بين الناس قاضياً.

وقال أيضاً: تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج منه الموارث.

فإن قيل: ما معنى قوله في الرجل الأول: رهن بخطيئته؟ قيل: لأنه إن كان ضالاً في دعوته مضلاً لمن اتبعه، فقد حمل خطاياهم، وخطايا غيره، فهو رهن بالخطيئتين معاً، وهذا مثل قوله تعالى: " وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ".
إن قيل: ما معنى قوله: عم بما في عقد الهدنة؟ قيل: الهدنة أصلها في اللغة السكون، يقال: هدن إذا سكن، ومعنى الكلام أنه لا يعرف ما في الفتنة من الشر، ولا ما في السكون والمصالحة من الخير.

ويروى: بما في غيب الهدنة، أي في طيها وفي ضمنها. ويروى: غار في أغباش الفتنة، أي غافل ذو غرة.
وروي: من جمع، بالتونين فتكون ما على هذا اسماً موصولاً، وهي صلتها في وضع جرٍ لأنها صفة جمع، ومن لم يرو التونين في جمع حذف الموصوف، تقديره: من جمع شيء ما قل منه خير مما كثر، فتكون ما مصدرية، وتقدير الكلام: قلته خير من كثرته، ويكون موضع ذلك جرّاً أيضاً بالصفة.

ومن كلام له في ذم اختلاف العلماء في الفتيا

الأصل: ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام، فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره، فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم، فيصوب آراءهم جميعاً وإلهم واحد، ونبيهم واحد، وكتائبهم واحد.

أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه! أم نهاهم عنه فعصوه! أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه! أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى! أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: " ما فرطنا في الكتاب من شيء "، وفيه تبيان كل شيء.
وذكر أن الكتاب صدق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً " .

وإن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائب ولا تكشف الظلمات إلا به.

الشرح: الأنيق: المعجب، وأنقني الشيء، أي أعجبي؛ يقول: لا ينبغي أن يحمل جميع ما في الكتاب العزيز على ظاهره، فكم من ظاهر فيه غير مراد، بل المراد به أمر آخر باطن، والمراد الرد على أهل الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وإفساد قول من قال: كل مجتهد مصيب، وتلخيص الاحتجاج من خمسة أوجه: الأول: أنه لما كان الإله سبحانه واحداً، والرسول صلى الله عليه وسلم واحداً والكتاب واحداً، وجب أن يكون الحكم في الواقعة واحداً، كالملك الذي يرسل إلى رعيته رسولاً بكتاب يأمرهم فيه بأوامر يقتضيها ملكه وإمرته، فإنه لا يجوز أن تتناقض أوامره، ولو تناقضت لنسب إلى السفه والجهل.

الثاني: لا يخلو الاختلاف الذي ذهب إليه المجتهدون، إما أن يكون مأموراً به أو منهيّاً عنه، والأول باطل، لأنه ليس في الكتاب والسنة ما يمكن الخصم أن يتعلق به كون الاختلاف مأموراً به. والثاني حق، ويلزم منه تحريم الاختلاف.

الثالث: إما أن يكون دين الإسلام ناقصاً أو تاماً، فإن كان الله سبحانه قد استعان بالمكلفين على إتمام شريعة ناقصة أرسل

به رسوله، إما استعانة على سبيل النيابة عنه، أو على سبيل المشاركة له، وكلاهما كفر. وإن كان الثاني، فإما أن يكون الله تعالى أنزل الشرع تاماً فقصر الرسول عن تبليغه، أو يكون الرسول قد أبلغه على تمامه وكمالهِ؛ فإن كان الأول فهو كفر أيضاً؛ وإن كان الثاني فقد بطل الاجتهاد، لأن الاجتهاد إنما يكون فيما لم يتبين؛ فإما ما قد بين للاجتهاد فيه. الرابع: الاستدلال بقوله تعالى: " ما فرطنا في الكتاب من شيء "، وقوله: " تبياناً لكل شيء "، وقوله سبحانه: " ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين "، فهذه الآيات دالة على اشتغال الكتاب العزيز على جميع الأحكام، فكل ما ليس في الكتاب وجب ألا يكون في الشرع. الخامس: قوله تعالى: " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً "، فجعل الاختلاف دليلاً على أنه ليس من عند الله، لكنه من عند الله سبحانه بالأدلة القاطعة الدالة على صحة النبوة، فوجب ألا يكون فيه اختلاف. واعلم أن هذه الوجوه هي التي يتعلق بها الإمامية ونفاة القياس والاجتهاد في الشرعيات وقد تكلم عليها أصحابنا في كتبهم، وقالوا: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يجتهد ويقيس، وادعوا إجماع الصحابة على صحة الاجتهاد والقياس، ودفعوا صحة هذا الكلام المنسوب في هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقالوا: إنه من رواية الإمامية، وهو معارض بما ترويه الزيدية عنه وعن أبنائه عليه السلام في صحة القياس والاجتهاد، ومخالطة الزيدية لأئمة أهل البيت عليه السلام كمخالطة الإمامية لهم؛ ومعرفتهم بأقوالهم وأحوالهم ومذاهبهم كعرفة الإمامية، لا فرق بين الفئتين في ذلك. والزيدية قاطبةً جاروديتها وصالحيتها تقول بالقياس والاجتهاد، وينقلون في ذلك نصوصاً عن أهل البيت عليه السلام. وإذا تعارضت تساقطتا، وعدنا إلى الأدلة المذكورة في هذه المسألة. وقد تكلمت في اعتبار الذريعة للمرتضى على احتجاجة في إبطال القياس والاجتهاد بما ليس هذا موضع ذكره.

ومن كلام له قاله للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب

فمضى في بعض كلامه شيء اعترض الأشعث فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض إليه بصره عليه السلام، ثم قال: الأصل: وما يدريك ما علي مما لي، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حائك ابن حائك، منافق ابن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى، فما فداك من واحدةٍ منها مالك ولا حسبك. وإن امرأً دل على قومه السيف، وساق إليهم الحنف، لحري أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد. قال الرضي رحمه الله تعالى: يريد عليه السلام أنه أسر في الكفر مرة وفي الإسلام مرة. وأما قوله عليه السلام: دل على قومه السيف، فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة، غر فيه قومه، ومكر بهم، حتى أوقع بهم خالد، وكان قومه بعد ذلك يسمونه عرف النار، وهو اسم للغادر عندهم. الشرح: خفض إليه بصره: طأطأه. وقوله: فما فداك، لا يريد به الفداء الحقيقي، فإن الأشعث فدي في الجاهلية بفداء يضرب به المثل، فقال: أغلى فداء من الأشعث، وسندكره، وإنما يريد: ما دفع عنك الأسر مالك ولا حسبك. ويمقته:

من أخبار الأشعث بن قيس

اسم الأشعث معدي كرب، وأبوه قيس الأشج - سمي الأشج، لأنه شج في بعض حروبهم - ابن معدي كرب بن معاوية بن معدي كرب بن معاوية بن جبلة بن عبد العزى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية ابن كندة بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد. وأم الأشعث كبشة بنت يزيد بن شرحبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك. كان الأشعث أبدأ أشعث الرأس، فسمي الأشعث، وغلب عليه حتى نسي اسمه، ولعبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث يقول أعشى همدان :

ددة لا أبالي فيك عتبا

يابن الأشج قريع كن

س وأنت أعلى الناس كعبا

أنت الرئيس ابن الرئي

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قتيلة أخت الأشعث، فتوفي قبل أن تصل إليه. فأما الأسر الذي أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه في الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبي في جمهرة النسب، فقال: إن مراداً لما قتلت قيساً الأشج، خرج الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كندة متساندين على ثلاثة ألوية: على أحد الألوية كبس ابن هانئ بن شرحبيل بن الحارث بن عدي ابن ربيعة بن معاوية الأكرمين - ويعرف هانئ بالمطلع، لأنه كان يغزو فيقول: اطلعت بني فلان، فسمي المطلع. وعلى أحدها القشعم أبو جبر بن يزيد الأرقم. وعلى أحدها الأشعث، فأخطأوا مراداً، ولم يقعوا عليهم، ووقعوا على بني الحارث بن كعب، فقتل كبس والقشعم أبو جبر، وأسر الأشعث، ففدي بثلاثة آلاف بعير، لم يفد بها عربي بعده ولا قبله، فقال في ذلك عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

وألفاً من طريفات وتلد

فكان فداؤه ألفي بعير

وأما الأسر الثاني في الإسلام، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدمت كندة حجاجاً قبل الهجرة، عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه عليهم، كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب، فدفعه بنو وليعة من بني عمرو بن معاوية ولم يقبلوه، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم وتمهدت دعوته، وجاءته وفود العرب، جاءه وفد كندة، فيهم الأشعث وبنو وليعة، فأسلموا، فأطعم رسول الله صلى الله عليه وسلم بني وليعة طعمة من صدقات حضرموت، وكان استعمل على حضرموت زياد بن لبيد البياضي الأنصاري، فدفعها زياد إليهم، فأبوا أخذها، وقالوا: لا ظهر لنا، فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك، فأبى زياد، وحدث بينهم وبين زياد شر كاد يكون حرباً، فرجع منهم قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم.

وفي هذه الواقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لبني وليعة: "لستهن يا بني وليعة، أو لأبعثن

عليكم رجلاً عدل نفسي، يقتل مقاتلكم، ويسبي ذراريكم ". قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، وجعلت أنصب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد علي عليه السلام، وقال: " هو هذا ". ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زياد، فوصلوا إليه بالكتاب وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب، فارتدت بنو وليعة، وغنت بغاياهم، وخضبن له أيديهن. وقال محمد بن حبيب: كان إسلام بني وليعة ضعيفاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك منهم. ولما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، وانتهى إلى فم الشعب دخل أسامة بن زيد ليبول، فانتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان أسامة أسود أفتس - فقال بنو وداعة: هذ الحبشي حبسنا! فكانت الردة في أنفسهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير: فأمر أبو بكر زياداً على حضرموت، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم، فبايعوه إلا بني وليعة، فلما خرج ليقبض الصدقات من بني عمرو بن معاوية، أخذ ناقة لغلام منهم يعرف بشيطان بن حجر - وكانت صفية نفيسة، اسمها شذرة - فمنعه الغلام عنها. وقال: خذ غيرها، فأبى زياد ذلك ولج، فاستغاث شيطان بأخيه العداء بن حجر، فقال لزياد: دعها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك، ولج الغلامان في أخذها، ولج زياد وقال لهما: لا تكونن شذرة عليكما كالبسوس فهتف الغلامان: يا لعمرو! أنضام ونضطهد! إن الذليل من أكل في داره. وهتفا بمسروق بن معدي كرب، فقال مسروق لزياد: أطلقها، فأبى، فقال مسروق:

ملمع فيه كتلميع الثوب

يطلقها شيخ بخديه الشيب

ماضٍ على الريب إذا كان الريب

ثم قام فأطلقها، فاجتمع إلى زياد بن ليلى أصحابه، واجتمع بنو وليعة، وأظهروا أمرهم، فبيتهم زياد وهم غارون، فقتل منهم جمعاً كثيراً، ونهب وسبى، ولحق فلهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: لا أنصركم حتى تملكوني عليكم. فملكوه وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان. فخرج إلى زياد في جمع كثير، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية وهو على صنعاء أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقوا الأشعث، فهزموه وقتل مسروق، ولجأ الأشعث والباقيون إلى الحصن المعروف بالنجير. فحاصروهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا، ونزل الأشعث ليلاً إلى المهاجر وزياد، فسألها الأمان على نفسه حتى يقدم به على أبي بكر فيرى فيه رأيه، على أن يفتح لهم الحصن ويسلم إليهم من فيه.

وقيل: بل كان في الأمان عشرة من أهل الأشعث.

فأمناه وأمضيا شرطه، ففتح لهم الحصن؛ فدخلوه واستزلوا كل من فيه، وأخذوا أسلحتهم، وقالوا للأشعث: اعزل العشرة، فعزلهم، فتركوهم وقتلوا الباقيين - وكانوا ثمانمائة - وقطعوا أيدي النساء اللواتي شتمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وحملوا الأشعث إلى أبي بكر موثقاً في الحديد هو والعشرة، فعفا عنه وعنهم، وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة - وكانت عمياء - فولدت للأشعث محمداً وإسماعيل وإسحاق.

وخرج الأشعث يوم البناء عليها إلى سوق المدينة، فما مر بذات أربع إلا عقرها، وقال للناس: هذه وليمة البناء، وثمن كل عقيرة في مالي. فدفع أثمائها إلى أربابها.

قال أبو جعفر محمد بن جرير في التاريخ: وكان المسلمون يلعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وسبايا قومه، وسماه نساء قومه عرف النار، وهو اسم للغادر عندهم.

وهذا عندي هو الوجه، وهو أصح مما ذكره الرضي رحمه الله تعالى من قوله في تفسير قول أمير المؤمنين: وإن امرأ دل على قومه السيف، أنه أراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غر فيه قومه، ومكر بهم حتى قتلهم، فإننا لم نعرف في التواريخ أن الأشعث جرى له باليمامة مع خالد هذا ولا شبهه، وأين كندة واليمامة! كندة باليمن، واليمامة لبني حنيفة، ولا أعلم من أين نقل الرضي رحمه الله تعالى هذا!.

فأما الكلام الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام قاله على منبر الكوفة فاعترضه فيه الأشعث، فإن علياً عليه السلام قام إليه - وهو يخطب، ويذكر أمر الحكمين - رجل من أصحابه، بعد أن انقضى أمر الخوارج، فقال له: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فما ندري أي الأمرين أرشد! فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى، وقال: هذا جزاء من ترك العقدة. وكان مراده عليه السلام: هذا جزاؤكم إذ تركتم الرأي والحزم، وأصررتم على إجابة القوم إلى التحكيم؛ فظن الأشعث أنه أراد: هذا جزائي حيث تركت الرأي والحزم وحكمت، لأن هذه اللفظة محتملة، ألا ترى أن الرئيس إذا شغب عليه جنده وطلبوا منه اعتماد أمر ليس بصواب، فوافقهم تسكيناً لشغبهم لا استصلاحاً لرأيهم، ثم ندموا بعد ذلك، قد يقول: هذا جزاء من ترك الرأي، وخالف وجه الحزم؛ ويعني بذلك أصحابه؛ وقد يقوله يعني به نفسه حيث وافقهم أمير المؤمنين عليه السلام، إنما عني ما ذكرناه دون ما خطر للأشعث، فلما قال له: هذه عليك لا لك، قال له: وما يدريك ما علي مما لي، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين!

وكان الأشعث من المنافقين في خلافة علي عليه السلام، وهو في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، كما كان عبد الله بن أبي بن سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كل واحد منهما رأس النفاق في زمانه.

وأما قوله عليه السلام للأشعث: حائك ابن حائك، فإن أهل اليمن يعيرون بالحيافة، وليس هذا مما يخص الأشعث. ومن كلام خالد بن صفوان: ما أقول في قوم ليس فيهم إلا حائك برد، أو دابغ جلد، أو سائس قرد، ملكتهم امرأة، وأغرقتهم فأرة، ودل عليهم هدهد!

ومن خطبة له في تهويل ما بعد الموت وتعظيمه

الأصل: فإنكم لو قد عايينتم ما قد عاين من مات منكم، لجزعتم ووهلتم، وسمعتهم وأطعتم، ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا؛ وقريب ما يطرح الحجاب.

ولقد بصرتهم إن أبصرتهم، وأسسمتهم إن سمعتهم، وهديتهم إن اهتديتكم، وبحق أقول لكم: لقد جاهرتمكم العبر، وزجرتم بما فيه مزدجر، ما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلا البشر.

الشرح: الوهل الخوف، وهل الرجل يوهل.

و ما في قوله: ما يطرح، مصدرية؛ تقديره: وقريب طرح الحجاب، يعني رفعه بالموت.
وهذا الكلام يدل على صحة القول بعذاب القبر، وأصحابنا كلهم يذهبون إليه، وإن شنع عليهم أعداؤهم من الأشعرية وغيرهم بجحده.

وذكر قاضي القضاة رحمه الله تعالى أنه لم يعرف معتزلياً نفى عذاب القبر، لا من متقدمه ولا من متأخرهم؛ قال: وإنما نفاه ضرار بن عمرو، لمخالطته لأصحابنا وأخذه عن شيوخنا، ما نسب قوله إليهم.
ويمكن أن يقول قائل: هذا الكلام لا يدل على صحة القول بعذاب القبر؛ لجواز أن يعني بمعاينة من قد مات، ما يشاهده المحتضر من الحالة الدالة على السعادة أو الشقاوة، فقد جاء في الخبر: " لا يموت امرؤ حتى يعلم مصيره، هل هو إلى الجنة أم إلى النار ". ويمكن أن يعني به ما يعاينه المحتضر من ملك الموت وهول قدومه. ويمكن أن يعني به ما كان عليه السلام يقوله عن نفسه: إنه لا يموت ميت حتى يشاهده عليه السلام حاضراً عنده. والشيعَة تذهب إلى هذا القول وتعتقد، وتروي عنه عليه السلام شعراً للحارث الأعور الهمداني:

يا حار همدان من يمت يرني	من مؤمنٍ أو منافق قبلا
يعرفني طرفه وأعرفه	بعينه واسمه وما فعلا
أقول للنار وهي توقد لل	عرض ذريه لا تقربي الرجال
ذريه لا تقربيه إن له	حبلاً بحبل الوصي متصلا
وأنت يا حار إن تمت ترني	فلا تخف عثرة ولا زللا
أسقيك من باردٍ على ظمأ	تخاله في الحلاوة العسلا

وليس هذا بمنكر؛ إن صح أنه عليه السلام قاله عن نفسه، ففي الكتاب العزيز ما يدل على أن أهل الكتاب لا يموت منهم ميت حتى يصدق بعيسى بن مريم عليه السلام، وذلك قوله: " وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً "؛ قال كثير من المفسرين: معنى ذلك أن كل ميت من اليهود وغيرهم من أهل الكتاب السالفة إذا احتضر رأى المسيح عيسى عنده، فيصدق به من لم يكن في أوقات التكليف مصدقاً به.
وشبهه بقوله عليه السلام: " لو عاينتم ما عاين من مات قبلكم " قول أبي حازم لسليمان بن عبد الملك في كلام يعظه به: إن آباؤك ابتزوا هذا الأمر من غير مشورة، ثم ماتوا، فلو علمت ما قالوا وما قيل لهم! فقيل: إنه بكى حتى سقط.

ومن خطبة له في موعظة الناس

الأصل: فإن الغاية أمامكم، وإن وراءكم الساعة تحذوكم.
تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم.
قال الرضي رحمه الله: أقول: إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه، وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلامٍ لمال به راجحاً، وبرز عليه سابقاً.

فأما قوله عليه السلام: تخففوا تلحقوا، فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة! وأنقع نطقها من حكمة! وقد نبهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها، وشرف جوهرها. الشرح: غاية المكلفين هي الثواب أو العقاب، فيحتمل أن يكون أراد ذلك، ويحتمل أن يكون أراد بالغاية الموت، وإنما جعل ذلك أمامنا، لأن الإنسان كالسائر إلى الموت أو كالسائر إلى الجزاء، فهي أمامه، أي بين يديه.

ثم قال: وإن وراءكم الساعة تحذوكم، أي تسوقكم، وإنما جعلها وراءنا، لأنها إذا وجدت ساقطت الناس إلى موقف الجزاء كما يسوق الراعي الإبل، فلما كانت سائقةً لنا، كانت كالشيء يحفز الإنسان من خلفه، ويحركه من ورائه، إلى جهة ما بين يديه.

ولا يجوز أن يقال: إنما سماها وراءنا، لأنها تكون بعد موتنا وخروجنا من الدنيا، وذلك أن الثواب والعقاب هذا شأنهما، وقد جعلهما أمامنا.

وأما القطب الراوندي، فإنه قال: معنى قال: فإن الغاية أمامكم، يعني أن الجنة والنار خلفكم. ومعنى قوله: وراءكم الساعة أي قدامكم.

ولقائل أن يقول: أما الورا بمعنى القدام فقد ورد، ولكن ما ورد أما بمعنى خلف ولا سمعنا ذلك.

وأما قوله: تخففوا تلحقوا، فأصله الرجل يسعى وهو غير مثقل بما يحمله، يكون أجدر أن يلحق الذين سبقوه، ومثله قوله: بنا المخففون.

وقوله عليه السلام: فإنما ينتظر بأولكم آخركم، يريد: إنما ينتظر بيعت الذين ماتوا في أول الدهر بمجيء من يخلقون ويموتون في آخره، كأمر يريد إعطاء جنده إذا تكامل عرضهم، إنما يعطي الأول منهم إذا انتهى عرض الخير وهذا كلام فصيح جداً.

والغور: العمق. والنظفة: ما صفا من الماء، وما أنقع هذا الماء! أي ما أرواه للعطش!

ومن خطبة له بعدما اتهموه بقتل عثمان

الأصل: ألا وإن الشيطان قد ذمر حزبه، واستجلب جلبه، ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه.

والله ما أنكروا علي منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه، ودماً هم سفكوه، فإن كنت شريكهم فيه؛ فإن لهم لنصيبهم منه، وإن كانوا ولوه دوني، فما التبعة إلا عندهم. وإن أعظم حججهم لعلى أنفسهم، يرتضعون أمأ وقد فطمت، ويحيون بدعة قد أميتت.

يا خيبة الداعي! من دعا! وإلام أجيب! وإني لراضٍ بحجة الله عليهم، وعلمه فيهم، فإن أبوا أعطيتهم حد السيف، وكفى به شافياً من الباطل، وناصرراً للحق! ومن العجب بعثتهم إلي أن أبرز للطعان، وأن أصبر للجلاد. هبتم الهبول! لقد كنت وما أهدد بالحرب؛ ولا أرهب بالضرب. وإني لعلى يقين من ربي، وغير شبهة من ديني.

الشرح: يروى: ذمر بالتخفيف، وذمر بالتشديد، وأصله الحض والحث، والتشديد دليل على التكثير.

واستجلب جلبه، الجلب بفتح اللام: ما يجلب، كما يقال جمع جمعه. ويروى: جلبه وجلبه؛ وهما بمعنى، وهو السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه، أي جمع قوماً كالجهام الذي لا نفع فيه. وروى: ليعود الجور إلى أقطابه. والقطاب: مزاج الخمر بالماء، أي ليعود الجور ممتزجاً بالعدل كما كان. ويجوز أن يعني بالقطاب قطاب الجيب، وهو مدخل الرأس فيه، أي ليعود الجور إلى لباسه وثوبه.

وقال الراوندي: قطابه: أصله، وليس ذلك بمعروف في اللغة.

وروي الباطل بالنصب، على أن يكون يرجع متعدياً، تقول: رجعت زيدا إلى كذا، والمعنى: ويرد الجور الباطل إلى أوطانه.

وقال الراوندي: يعود أيضاً مثل يرجع، يكون لازماً ومتعدياً، وأجاز نصب الجور به، وهذا غير صحيح؛ لأن عاد لم يأت متعدياً، وإنما يعدى بالهمزة. والنصف: الذي ينصف.

وقال الراوندي: النصف: النصفة؛ والمعنى لا يحتمله؛ لأنه لا معنى لقوله: ولا جعلوا بيني وبينهم أنصافاً، بل المعنى: لم يجعلوا ذا إنصاف بيني وبينهم.

يرتضعون أمماً قد فطمت، يقول: يطلبون الشيء بعد فواته؛ لأن الأم إذا فطمت ولدها فقد انقضت إرضاعها. وقوله: يا خيبة الداعي، ههنا كالنداء في قوله تعالى: "يا حسرة على العباد"، وقوله: "يا حسرتنا على ما فرطنا فيها" أي يا خيبة احضري فهذا أوانك! وكلامه في هذه الخطبة مع أصحاب الجمل؛ والداعي هو أحد الثلاثة: الرجلان والمرأة. ثم قال على سبيل الاستصغار لهم، والاستحقار: من دعا! وإلى ماذا أجيب!، أي أحقر بقوم دعاهم هذا الداعي! وأفبح بالأمر الذي أجابوه إليه، فما أفحشه وأرذله! وقال الراوندي: يا خيبة الداعي؛ تقديره: يا هؤلاء، فحذف المنادى، ثم قال: خيبة الداعي، أي خاب الداعي خيبةً. وهذا ارتكاب ضرورة لا حاجة إليها، وإنما يحذف المنادى في المواضع التي دل الدليل فيها على الحذف، كقوله:

يا فانظرا أيمن الوادي على إضم

وأيضاً، فإن المصدر الذي لا عامل فيه غير جائز حذف عامله، وتقدير حذفه تقدير ما لا دليل عليه. وهبلته أمه، بكسر الباء: ثكلته.

وقوله: لقد كنت وما أهدد بالحرب، معناه: ما زلت لا أهدد بالحرب، والواو زائدة. وهذه الكلمة فصيحة كثيراً ما تستعملها العرب. وقد ورد في القرآن العزيز كان بمعنى ما زال في قوله: "وكان الله عليمًا حكيمًا" ونحو ذلك من الآي، معنى ذلك: لو يزل الله عليمًا حكيمًا. والذي تأوله الله تعالى في: تكلمة الغرر والدرر، كلام متكلف، والوجه الصحيح ما ذكرناه.

وهذه الخطبة ليست من خطب صفين كما ذكر الراوندي، بل من خطب الجمل، وقد ذكر كثيراً منها أبو مخنف رحمه

الله تعالى، قال: حدثنا مسافر بن عفيف بن أبي الأحنس قال: لما رجعت رسل علي عليه السلام من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذنون به بالحرب، قام فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس إني قد راقبت هؤلاء القوم كي يرفعوا أو يرجعوا، ووبختهم بنكثهم، وعرفتهم بغيهم فلم يستحيوا، وقد بعثوا إلي أن ابرز للطعان، واصبر للجلاد، وإنما تمنيك نفسك أمانى الباطل، وتعدك الغرور. ألا هيلتهم الهبول، لقد كنت وما أهدد بالحرب، ولا أرهب بالضرب! ولقد أنصف القارة من رامها، فليرفعوا وليبرقوا، فقد رأوني قديماً، وعرفوا نكايي، فكيف رأوني! أنا أبو الحسن، الذي فللت حد المشركين، وفرقت جماعتهم. وبذلك القلب ألقى عدوي اليوم، وإني لعلى ما وعدني ربي من النصر والتأييد، وعلى يقينٍ من أمري، وفي غير شبهة من ديني.

أيها الناس، إن الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيد ولا محيص، من لم يقتل مات. إن أفضل الموت القتل، والذي نفس علي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش، اللهم إن طلحة نكث بيعتي، وألب على عثمان حتى قتله، ثم عضهني به ورمان. اللهم فلا تمهله. اللهم إن الزبير قطع رحمي، ونكث بيعتي، وظاهر علي عدوي، فاكفنيه اليوم بما شئت، ثم نزل.

خطبة علي في المدينة

واعلم أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام أصحابه وعماله في واقعة الجمل، كله يدور على هذه المعاني التي اشتملت عليها ألفاظ هذا الفصل؛ فمن ذلك الخطبة التي رواها أبو الحسن علي بن محمد المدائني، عن عبد الله بن جنادة، قال: قدمت من الحجاز أريد العراق، في أول إمارة علي عليه السلام، فمررت بمكة. فاعتمرت، ثم قدمت المدينة، فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ نودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، وخرج علي عليه السلام متقلداً سيفه، فشخصت الأبصار نحوه، فحمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أما بعد، فإنه لما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم، قلنا: نحن أهله وورثته وعترته، وأولياؤه دون الناس، لا ينازعنا سلطانه أحد، ولا يطمع في حقنا طامع؛ إذ انبرى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبينا، فصارت الإمرة لغيرنا. وصرنا سوقة، يطمع فينا الضعيف؛ ويتعزز علينا الذليل؛ فبكت الأعين منا لذلك، وخشنت الصدور، وجزعت النفوس. وإيم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين وأن يعود الكفر، ويور الدين، لكنا على غير ما كنا لهم عليه، فولي الأمر ولالة لم يألو الناس خيراً، ثم استخرجتموني أيها الناس من بيتي، فبايعتموني علي شينٍ مني لأمركم، وفراصة تصدقني ما في قلوب كثير منكم، وبايعني هذان الرجلان في أول من بايع، تعلمون ذلك، وقد نكثنا وغدرا، ونهضنا إلى البصرة بعائشة ليفرقا جماعتكم، ويلقيا بأسكم بينكم. اللهم فخذهما بما عملا أخذةً رابيةً، لهما ولا تنعش لهما صرعة، ولا تقل لهما عثرة، ولا تمهلهما فواقاً، فإنهما يطلبان حقاً تركاه، ودمماً سفكاه. اللهم إني اقتضيك وعدك، فإنك قلت وقولك حق: "ثم بغى عليه لينصرنه الله" اللهم فأنجز لي موعدك، ولا تكلني إلى نفسي، إنك على كل شيء قدير، ثم نزل.

خطبته عند مسيره إلى البصرة

وروى الكلبي قال: لما أراد علي عليه السلام المسير إلى البصرة، قام فخطب الناس، فقال بعد أن حمد الله و صلى على رسوله صلى الله عليه:

إن الله لما قبض نبيه، استأثرت علينا قريش بالأمر، ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة، فرأيت أن الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين، وسفك دمائهم. والناس حديثو عهد بالإسلام، والدين بمخض مخض الوطى، يفسده أدنى وهن، ويعكسه أقل خلف. فولي الأمر قوم لم يألوا في أمرهم اجتهاداً، ثم انتقلوا إلى دار الجزاء، والله وليّ تمحيص سيئاتهم، والعفو عن هفواتهم. فما بال طلحة والزبير، وليسا من هذا الأمر بسبيل! لم يصبرا علي حولاً ولا شهراً حتى وثبا ومرفا، ونازعاني أمراً لم يجعل الله لهما إليه سبيلاً، بعد أن بايعا طائعين غير مكرهين، يرتضعان أما قد فطمت، ويحييان بدعة قد أميتت. أدم عثمان زعماً! والله ما التبعة إلا عندهم وفيهم، وإن أعظم حجتهم لعلى أنفسهم، وأنا راضٍ بحجة الله عليهم وعمله، فإن فاءاً وانا با فحظهما أحرزا، وأنفسهما غنما، وأعظم بما غنيمته! وإن أيا أعطيتهما حد السيف، وكفى به ناصراً لحق، وشافياً لباطل، ثم نزل.

خطبته بذي قار

وروى أبو مخنف عن زيد بن صوحان، قال: شهدت علياً عليه السلام بذي قار، وهو معتم بعمامة سوداء، ملتف بساجٍ يخطب، فقال في خطبة: الحمد لله على كل أمر وحال، وفي الغدو والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ابتعثه رحمة للعباد، وحياة للبلاد، حين امتلأت الأرض فتنة، واضطرب حبلها، وعبد الشيطان في أكفافها، واشتمل عدو الله إبليس على عقائد أهلها، فكان محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب، الذي أطفأ الله به نيرانها، وأخمد به شرارها، ونزع به أوتادها، وأقام به ميلها، إمام الهدى، والنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فلقد صدع بما أمر به، وبلغ رسالات ربه، فأصلح الله به ذات البين، وآمن به السبل، وحقق به الدماء، وألف به بين ذوي الضغائن الواغرة في الصدور، حتى أتاه اليقين، ثم قبضه الله إليه حميداً. ثم استخلف الناس أبا بكر، فلم يأل جهده، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يأل جهده، ثم استخلف الناس عثمان، فنال منكم، ونلت منكم، حتى إذا كان من أمره ما كان، أتيتوني لتبايعوني، لا حاجة لي في ذلك، ودخلت منزلي، فاستخرجتموني فقبضت يدي فبسطتموها، وتداككتم علي، حتى ظننت أنكم قاتلي، وأن بعضكم قاتل بعض، فبايعتموني وأنا غير مسرور بذلك ولا جزل.

وقد علم الله سبحانه أن كنت كارهاً للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولقد سمعته يقول: " ما من والٍ يلي شيئاً من أمر أمي إلا أتى به يوم القيامة مغلولاً يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق، ثم ينشر كتابه، فإن كان عادلاً نجاً، وإن كان جائراً هوى "، حتى اجتمع علي ملؤكم، وبايعني طلحة والزبير، وأنا أعرف الغدر في أوجههما، والنكت في أعينهما، ثم استأذناني في العمرة، فأعلمتهما أن ليس للعمرة يريدان، فسارا إلى مكة واستخفا بعائشة وخدعاها، وشخص معهما أبناء الطلقاء، فقدموا البصرة، فقتلوا بها المسلمين، وفعلوا المنكر. ويا عجباً لاستقامتهما لأبي بكر وعمر وبغيتهما علي! وهما يعلمان أني لست دون أحدهما، ولو شئت أن أقول لقلت، ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدعهما فيه، فكتماه عني، وخرجا يوهمان الطغام أنهما يطلبان بدم عثمان؛ والله ما أنكرا علي منكراً، ولا جعلنا بيني

وبينهم نصفاً، وإن دم عثمان لمعصوب بهما، ومطلوب منهما. يا خيبة الداعي! إلام دعا! وبماذا أجيب؟ والله إنهما لعلی ضلالة صماء، وجهالة عمياء، وإن الشيطان قد ذمر لهما حزبه، واستجلب منهما خيله ورجله، ليعيد الجور إلى أوطانه، ويرد الباطل إلى نصابه.

ثم رفع يديه، فقال: اللهم إن طلحا والزبير قطعاني، وظلماني، وألبا علي، ونكثا بيعتي، فأحلل ما عقدنا، وانكث ما أبرما، ولا تغفر لهما أبداً، وأرهما المساءة فيما عملا واملا! قال أبو مخنف: فقام إليه الأشر فقال: الحمد لله الذي من علينا فأفضل، وأحسن إلينا فأجمل، قد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين، ولقد أصبت ووفقت، وأنت ابن عم نبينا وصهره ووصيه، وأول مصدق به، ومصل معه، شهدت مشاهدته كلها، فكان لك الفضل فيها على جميع الأمة، فمن اتبعك أصاب حظه، واستبشر بفلجه، ومن عصاك، ورغب عنك، فإلى أمه الهاوية! لعمري يا أمير المؤمنين ما أمر طلحة والزبير وعائشة علينا بمخيل، ولقد دخل الرجلان فيما دخلا فيه، وفارقا على غير حدث أحدثت، ولا جور صنعت؛ فإن زعما أنهما يطلبان بدم عثمان فليقيدا من أنفسهما فإنهما أول من ألب عليه وأغرى الناس بدمه، وأشهد الله، لئن لم يدخلا فيما خرجا منه لنلحقهما بعثمان، فإن سيوفنا في عواتقنا، وقلوبنا في صدورنا، ونحن اليوم كما كنا أمس. ثم قعد.

ومن خطبة له في قسمة الأرزاق بين الناس

الأصل: أما بعد، فإن الأمر يتزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان، فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنه، فإن المرء المسلم ما لم يعش دناءةً تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام الناس، كان كالفالج الياسر الذي ينتظر أول فوزه من قداحه توجب له المغنم، ويرفع عنه بما المغرم. وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنين، إما داعي الله فما عند الله خير له، وإما رزق الله، فإذا هو ذو أهل ومال، ومعه دينه وحسبه.

إن المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام؛ فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، واحشوه خشيةً ليست بتعذير، واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله إلى من عمل له. نسأل الله منازل الشهداء، ومعاشة السعداء، ومرافقة الأنبياء.

أيها الناس، إنه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم؛ وهم أعظم الناس حيلةً من ورائه، وألمهم لشعته، وأعطفهم عليه عند نازلة إن نزلت به، ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه غيره.

ومنها: ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه، ولا ينقصه إن أهلكه. ومن يقبض يده عن عشيرته؛ فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيدٍ كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة.

قال الرضي رحمه الله: أقول: الغفيرة ههنا الزيادة والكثرة، من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى:

عفوة من أهل أومال، والعفوة: الخيار من الشيء؛ يقال: أكلت عفوة الطعام، أي خياره. وما أحسن المعنى الذي أراده عليه السلام بقوله: ومن يقبض يده عن عشرته... إلى تمام الكلام، فإن المسك خير من عشرته، إنما يمك نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرته واضطر إلى مرافقتهم، قعدوا عن نصره، وتناقلوا عن صوته، فمك ترافد الأيدي الكثيرة وتناهض الأقدام الجملة.

الشرح: الفالج: الظافر الفائز، فليج يفلج، بالضم، وفي المثل: من يأت الحكم وحده يفلج. والياسر: الذي يلعب بالقداح، واليسر مثله، والجمع أيسار. وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: كالياسر الفالج، أي كاللاعب بالقداح المحظوظ منها، وهو من باب تقديم الصفة على الموصوف، كقوله تعالى: "وغرايب سود"، وحسن ذلك ههنا أن اللفظتين صفتان، وإن كانت إحدهما مرتبة على الأخرى.

وقوله: ليست بتعذير، أي ليست بذات تعذير، أي تقصير، فحذف المضاف، كقوله تعالى: "قتل أصحاب الأعداء، النار" أي ذي النار.

وقوله: هم أعظم الناس حيلة، كبيعة، أي رعاية وكلاءة، ويروى: حيلة، كغبية، وهي مصدر حاط أي تحنناً وتعطفاً.

والخصاصة: الفقر، يقول: القضاء والقدر يزلان من السماء إلى الأرض كقطر المطر، أي ميثوث في جميع أقطار الأرض إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان، في المال والعمر والجاه والولد وغير ذلك. فإذا رأى أحدكم لأخيه زيادة في رزق أو عمر أو ولد وغير ذلك، فلا يكون ذلك له فتنة تفضي به إلى الحسد، فإن الإنسان المسلم إذا كان غير مواقع لدناءة وقبيح يستحي من ذكره بين الناس، ويخشع إذا قرع به، ويغري لئام الناس بهتك ستره به، كاللاعب بالقداح؛ المحظوظ منها، ينتظر أول فوزة وغلبة من قداحه، تجلب له نفعاً، وتدفع عنه ضرراً، كذلك من وصفنا حاله، يصبر وينتظر إحدى الحسنين، إما أن يدعوه الله فيقبضه إليه، ويستأثر به، فالذي عند الله خير له. وإما أن ينسأ في أجله، فيرزقه الله أهلاً ومالاً، فيصبح وقد اجتمع له ذلك مع حسبه ودينه ومروءته المحفوظة عليه.

ثم قال: المال والبنون حرث الدنيا، وهو من قوله سبحانه: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا"، ومن قوله تعالى: "من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب".

قال: وقد يجمعهما الله لأقوام، فإنه تعالى قد يرزق الرجل الصالح مالاً وبنين، فتجتمع له الدنيا والآخرة.

ثم قال: فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، وذلك لأنه تعالى قال: "فاتقون"، وقال: "فارهبون"، وقال: "فلا تخشوا الناس واخشون"، وغير ذلك من آيات لتحذير.

ثم قال: ولتكن التقوى منكم أقصى نهايات جهدكم، لا ذات تقصيركم، فإن العمل القاصر قاصر الثواب، قاصر المتزلة.

النهي عن الحسد

واعلم أن مصدر هذا الكلام النهي عن الحسد، وهو من أقبح الأخلاق المذمومة. وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا لا تعادوا نعم الله"، قيل: يا رسول الله، ومن الذي يعادي نعم الله؟ قال: "الذين يحسدون الناس".

وكان ابن عمر يقول: تعوذوا بالله من قدرٍ وافق إرادة حسود.
قيل لأرسطو: ما بال الحسود أشد غماً من المكروب؟ قال: لأنه يأخذ نصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه بسرور الناس.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود "، وقال منصور الفقيه :

على نقصان همته دليل

وكل فوائد الدنيا قليل

منافسة الفتى فيما يزول

ومختار القليل أقل منه

ومن الكلام المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: لله در الحسد! ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله.
ومن كلام عثمان بن عفان: يكفيك من انتقامك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك.
وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسداً من السوس في الوبر، وقال أبو تمام:

طويت، أتاح لها لسان حسود

ما كان يعرف طيب عرف العود

للحاسد النعمى على المحسود

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ

لولا اشتعال النار فيما جاورت

لولا محاذرة العواقب لم تنزل

وتذاكر قوم من ظرفاء البصرة الحسد، فقال رجل منهم: إن الناس ربما حسدوا على الصلب، فأنكروا ذلك، ثم جاءهم بعد ذلك بأيام، فقال: إن الخليفة قد أمر بصلب الأحنف بن قيس، ومالك بن مسمع، وحمدان الحجام؛ فقالوا: هذا الخبيث يصلب مع هذين الرئيسين! فقال: ألم أقل لكم إن الناس يحسدون على الصلب! وروى أنس بن مالك مرفوعاً: إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وفي الكتب القديمة: يقول الله عز وجل: " الحاسد عدو نعمتي، متسخط لفعلي، غير راضٍ بقسمتي ".
وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً قد بلغ مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك! فقال: تركت الحسد فبقيت.
وقال بعضهم: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد.
قال الشاعر:

وأذنيه إن مولاه ثاب إلى وفر

تراه كأن الله يجدع أنفه

وقال آخر:

يا ظالماً وكأنه مظلوم!

قل للحسود إذا تنفس ضغنه

ومن كلام الحكماء: إياك والحسد، فإنه يبين فيك ولا يبين في الحسود.

ومن كلامهم: من دناءة الحاسد أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب.

وقيل لبعضهم: لزمت البادية، وتركت قومك وبلدك! قال: وهل بقي إلا حاسد نعمة، أو شامت بمصيبة!

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

بيننا عبد الملك بن صالح يسير مع الرشيد في موكبه، إذ هتف هاتف: يا أمير المؤمنين، طأطئ من إشرافه، وقصر من عنانه، واشدد من شكاله - وكان عبد الملك متهماً عند الرشيد بالطمع في الخلافة - فقال الرشيد: ما يقول هذا؟ فقال عبد الملك: مقال حاسد ودسيس حاقِد يا أمير المؤمنين. قال: قد صدقت، نقص القوم وفضلتهم، وتخلفوا وسبقتهم؛ حتى برز شأوك، وقصر عنك غيرك، ففي صدورهم جمرات التخلف، وحزازات التبلد. قال عبد الملك: فأضرّمها يا أمير المؤمنين عليهم بالمزيد، وقال شاعر:

محضاً بلا كدر، صفواً بلا زنق

يا طالب العيش في أمن وفي دعة

فالغل في القلب مثل الغل في العنق

خلص فؤادك من غلٍ ومن حسدٍ

ومن كلام عبد الله بن المعتز: إذا زال المحسود عليه، علمت أن الحاسد كان يحسد على غير شيء.

ومن كلامه: الحاسد مغتاط على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملكه.

ومن كلامه: لا راحة للحاسد، ولا حياة لحريص.

ومن كلامه: الميت يقل الحسد له، ويكثر الكذب عليه.

ومن كلامه: ما ذل قوم حتى ضعفوا، وما ضعفوا حتى تفرقوا، وما تفرقوا حتى اختلفوا، وما اختلفوا حتى تباغضوا، وما

تباغضوا حتى تحاسدوا، وما تحاسدوا حتى استأثّر بعضهم على بعض، وقال الشاعر :

قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

إن يحسدوني فإني غير لأئثمهم

ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

فدام لي ولهم ما بي وما بهم

ومن كلامهم: ما خلا حسد عن حسد.

وحد الحسد هو أن تغتاط مما رزقه غيرك، وتود أنه زال عنه وصار إليك. والغبطة: ألا تغتاط ولا تود زواله عنه، وإنما تود

أن ترزق مثله، وليست الغبطة بمدمومة، وقال الشاعر :

فالكل أعداء له خصوم

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه

إنه لدميم حسداً وبغياً

كضرائر الحسناء قلن لوجهها

الأمر بالصبر وانتظار الفرج

واعلم أنه عليه السلام بعد أن نهى عن الحسد أمر الصبر وانتظار الفرج من الله، إما بموت مريح، أو بظفر بالمطلوب.

والصبر من المقامات الشريفة، وقد وردت فيه آثار كثيرة، وروى عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إن

الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله "

وقالت عائشة: لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً.

وقال علي عليه السلام: الصبر إما صبر على المصيبة، أو على الطاعة، أو على المعصية، وهذا القسم الثالث أعلى درجة من

القسمين الأولين.

وقال علي عليه السلام: الحياء زينة، والتقوى كرم، وخير المراكب مركب الصبر.
وعنه عليه السلام: القناعة سيف لا ينو، والصبر مطية لا تكبو، وأفضل العدة الصبر مع الشدة.
قال الحسن عليه السلام: جربنا وجرب المجربون، فلم نر شيئاً أنفع وجداناً، ولا أضر فقداناً من الصبر، تداوى به الأمور،
ولا يداوى هو بغيره، وقال سعيد بن حميد الكاتب:

لا تعتبن على النوائب
واصبر على حدثانه
كم نعمة مطوية
ومسرة قد أقبلت
فالدهر يرغم كل عائب
إن الأمور لها عواقب
لك بين أثناء النوائب
من حيث تنتظر المصائب

ومن كلامهم: الصبر مر، لا يتجرعه إلا حر.
قال أعرابي: كن حلو الصبر عند مرارة النازلة.
وقال كسرى لبرزجمهر: ما علامة الظفر بالأمور المطلوبة المستعصبة؟ قال: ملازمة الطلب، والمحافظة على الصبر، وكتمان السر.

وقال الأخنف بن قيس: لست حليماً؛ إنما أنا صبور، فأفادني الصبر صفتي بالحلم.
وسئل علي عليه السلام: أي شيء أقرب إلى الكفر؟ قال: ذو فاقة لا صبر له.
ومن كلامه عليه السلام: الصبر يناضل الحدثان، والجزع من أعوان الزمان.
وقال أعشى همدان:

إن نلت لم أفرح بشيء نلته
ومتى تصبك من الحوادث نكبة
وإذا سبقت به فلا أتلهف
فاصبر فكل غيابة تتكشف

والأمر يذكر بالأمر، وهذا البيت هو الذي قاله له الحجاج يوم قتله، ذكر ذلك أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار
الأنباري في الأمالي قال: لما أتى الحجاج بأعشى همدان أسيراً؛ وقد كان خرج مع ابن الأشعث، قال له: يا ابن اللخناء!
أنت القاتل لعدو الرحمن - يعني عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث:

يا ابن الأشج قريع كن
أنت الرئيس ابن الرئي
ددة لا أبالي فيك عتبا
س وأنت أعلى الناس كعبا
فنبئت حجاج بن يوس
فانهض هديت لعله
يجلو بك الرحمن كربا
وابعث عطية في الحرو
ب يكبهن عليه كبا

ثم قال: عبد الرحمن خر من زلقٍ فتب، وخسر وانكب، وما لقي ما أحب. ورفع بها صوته، واهتز منكباه، ودر ودجاء، واحمرت عيناه، ولم يبق في المجلس إلا من هابه، فقال: أيها الأمير، وأنا القائل:

أبى الله إلا أن يتم نوره
ويُنزل ذلاً بالعراق وأهله
وما لبث الحجاج أن سل سيفه
علينا، فولى جمعنا وتبددا
ويطفئ نار الكافرين فتخمدا
كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا

فالتفت الحجاج إلى من حضر، فقال: ما تقولون؟ قالوا: لقد أحسن أيها الأمير، ومحا بآخر قوله أوله، فليسهه حلمك. فقال: لا ها الله لم يرد ما ظننتم، وإنما أراد تحريض أصحابه، ثم قال له: ويلك! أأنت القائل:

إن نلت لم أفرح بشيء نلته
ومتى تصبك من الحوادث نكبة
وإذا سبقت به فلا أتلهف
فاصبر، فكل غيابة تتكشف

أما والله لتظلمن عليك غيابة لا تنكشف أبداً، أأنت القائل في عبد الرحمن:

وإذا سألت المجد أين محله
بين الأشج وبين قيس نازل
فالمجد بين محمد وسعيد
بخ بخ لوالده وللمولود

والله لا يخبخ بعدها أبداً: يا حوسي اضرب عنقه.

ومما جاء في الصبر قيل للأحنف: إنك شيخ ضعيف، وإن الصيام يهدك. فقال: إني أعده لشر يوم طويل وإن الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله.

ومن كلامه: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات. رب غيظ قد تجرعت مخافة ما هو أشد منه. يونس بن عبيد: لو أمرنا بالجزع لصبرنا.

ابن السماك: المصيبة واحدة، فإن جزع صاحبها منها صارت اثنتين. يعني: فقد المصاب وفقد الثواب.

الحارث بن أسد المحاسبي: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

جابر بن عبد الله: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، فقال: الصبر والسماحة. قال العتابي:

اصبر إذا بدهتك نائبة
الصبر أولى ما اعتصمت به
ما عال منقطع إلى الصبر
ولنعم حشو جوانح الصدر

ومن كلام علي عليه السلام: الصبر مفتاح الظر، والتوكل على الله رسول الفرج، ومن كلامه عليه السلام: انتظار الفرج بالصبر عبادة.

أكثم بن صيفي: الصبر على جرع الحمام أعذب من جنا الندم.

ومن كلام بعض الزهاد: واصبر على عمل لا غناء بك عن ثوابه، واصبر عن عمل لا صبر على عقابك به.

وكتب ابن العميد: أقرأ في الصبر سوراً، ولا أقرأ في الجزع آية. وأحفظ في التماسك والتجلد قصائد، ولا أحفظ في التهافت قافية، وقال الشاعر:

ويوم كيوم البعث ما فيه حاكم
حبست به نفسي على موقف الردى
وما يستوي عند الملمات إن عرت
أبو حية النميري :

إنني رأيت وفي الأيام تجربة
وقل من جد في أمرٍ يحاوله
ووصف الحسن البصري علياً عليه السلام، فقال: كان لا يجهل، وإن جهل عليه حلم. ولا يظلم، وإن ظلم غفر. ولا ييخل، وإن بخل الدنيا عليه صبر. عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

قد عشت في الدهر أطواراً على طرقٍ
كلاً بلوت فلا النعماء تبطرني
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه
ومن كلام بعضهم: من تبصر تبصر. الصبر يفسح الفرج، ويفتح المرتج. المحنة إذا تلقيت بالرضا والصبر كانت نعمةً دائمة، والنعمة إذا خلت من الشكر كانت محنةً لازمة.

قيل لأبي مسلم صاحب الدولة. بم أصبت ما أصبت؟ قال: ارتديت بالصبر، واتزرت بالكتمان، وحالفت الحزم، وخالفت الهوى، ولم أجعل العدو صديقاً، ولا الصديق عدواً. منصور النميري في الرشيد:

وليس لأعباء الأمور إذا عرت
يرى ساكن الأطراف باسط وجهه
بمكثرت لكن لهن صبور
يريك الهوينى والأمور تطير

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: أوصيكم بخمس لو ضربتم إليهن آباط الإبل كانت لذلك أهلاً: لا يرجون أحدكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحين إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يستحي إذا جهل أمراً أن يتعلمه. وعليكم بالصبر، فإن الصبر من الإيمان بمثالة الرأس من الجسد، فكما لا خير في إيمانٍ لا صبر معه، وعنه عليه السلام: لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمان. نمشل بن حري:

ويوم كَأَن المصطلين بحرَه

وإن لم يكن جمراً قيام على جمر

صبرنا له حتى تجلى وإنما

تفرج أيام الكريهة بالصبر

علي عليه السلام: اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين.

علي عليه السلام: وإن كنت جازعاً على ما تغلت من يديك، فاجزع على كل ما لم يصل إليك! وفي كتابه عليه السلام الذي كتبه إلى عقيل أخيه: ولا تحسبن ابن أمك - ولو أسلمه الناس - متضرعاً متخشعاً، ولا مقرأً للضميم واهناً، ولا سلس الزمام للقائد، ولا وطئ الظاهر للراكب، ولكنه كما قال أخو بني سليم:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني

صبور على ريب الزمان صليب

يعز علي أن ترى بي كآبة

فيشمت عادٍ أو يساء حبيب

النهي عن الرياء والكذب

واعلم أنه عليه السلام، بعد أن أمرنا بالصبر، نهي عن الرياء في العمل، والرياء في العمل منهي عنه، بل العمل ذو الرياء ليس بعملٍ على الحقيقة، لأنه لم يقصد به وجه الله تعالى. وأصحابنا المتكلمون يقولون: ينبغي أن يعمل المكلف الواجب لأنه واجب، ويجتنب القبيح لأنه قبيح، ولا يفعل الطاعة ويترك المعصية رغبةً في الثواب، وخوفاً من العقاب؛ فإن ذلك يخرج عمله من أن يكون طريقاً إلى الثواب؛ وشبهوه بالاعتذار في الشيء؛ فإن من يعتذر إليك من ذنبٍ خوفاً أن تعاقبه على ذلك الذنب، لا ندماً على القبيح الذي سبق منه، لا يكون عذره مقبولاً، ولا ذنبه عندك مغفوراً. وهذا مقام جليل لا يصل إليه إلا الأفراد من ألوف الألوف.

وقد جاء في الآثار من النهي عن الرياء والسمعة كثير، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يؤتى في يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال - أو قال: كجبال قنطرة - وله خطيئة واحدة، فيقال: إنما عملتها ليقال عنك، فقد قيل؛ وذاك ثوابك وهذه خطيئتك، أدخلوه بها إلى جهنم".

وقال عليه السلام: "ليست الصلاة قيامك وعودك، إنما الصلاة إخلاصك، وأن تريد بها الله وحده".

وقال حبيب الفارسي: لو أن الله تعالى أقامني يوم القيامة وقال: هل تعدد سجدةً سجدت ليس للشيطان فيها نصيب لم أقدر على ذلك.

توصل عبد الله بن الزبير إلى امرأة عبد الله بن عمرو - وهي أخت المختار بن أبي عبيد الثقفي - في أن تكلم بعلمها عبد الله بن عمر أن يبائعه. فكلّمته في ذلك، وذكرت صلاته وقيامه وصيامه، فقال لها: أما رأيت البغلات الشهب التي كنا نراها تحت معاوية بالحجر إذا قدم مكة؟ قالت: بلى، قال: فبأيها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته! وفي الخبر المرفوع: "إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء في العمل، ألا وإن الرياء في العمل هو الشرك الخفي".

صلى وصام لأمرٍ كان يطلبه

حتى حواه فلا صلى ولا صاماً

أهمية العشيرة والقبيلة والتقوي بهما

ثم إنه عليه السلام بعد نفيه عن الرياء وطلب السمعة، أمر بالاعتضاد بالعشيرة والتكثير بالقبيلة، فإن الإنسان لا يستغني عنهم وإن كان ذا مال، وقد قالت الشعراء في هذا المعنى كثيراً، فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة :

إذا المرء لم يغضب له حين يغضب
فوارس إن قيل اركبوا الموت يركبوا
ولم يحبه بالنصر قوم أعزة
مقاحيم في الأمر الذي يتهيب
تهضمه أدنى العداة فلم يزل
وإن كان عضاً بالظلمة يضرب

فآخ لحال السلم من شئت واعلمن
بأن سوى مولاك في الحرب أجنب
ومولاك مولاك الذي إن دعوته
أجابك طوعاً والدماء تصيب
فلا تخذل المولى وإن كان ظالماً
فإن به تتأى الأمور وترأب
ومن شعر الحماسة أيضاً :

أفيقوا بني حزنٍ وأهواؤنا معاً
وأرحامنا موصولة لم تقضب
لعمري لرهط المرء خير بقيةٍ
عليه إن عالوا به كل مركب
إذا كنت في قومٍ وأمك منهم
لتعزى إليهم في خبيثٍ وطيب
وإن حدثتك النفس أنك قادر
على ما حوت أيدي الرجال فكذب
ومن شعر الحماسة أيضاً :

لعمرك ما أنصفتني حتى سمتني
هواك مع المولى وأن لا هوى ليا
إذا ظلم المولى فزعت لظلمه
فحرق أحشائي وهرت كلابيا
ومن شعر الحماسة أيضاً :

وما كنت أبغي العم يمشي على شفا
وإن بلغتني من أذاه الجنادع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه
لترجعه يوماً إلي الرواجع
وحسبك من ذلٍ وسوء صنيعٍ
مناواة ذي القربى وأن قيل قاطع
ومن شعر الحماسة أيضاً :

ألا هل أتى الأنصار أن ابن بحدلٍ
حميداً شفى كلباً فقرت عيونها
فإننا وكلباً كاليدنين متى تقع
شمالك في الهيجا تعنها يمينها
ومن شعر الحماسة أيضاً :

أخوك أخوك من ينأى وتدنو
مودته وإن دعي استجاب

إذا حاربت حارب من تعدي

وزاد غناؤه منك اقترابا

يواسي في كريهته ويدنو

إذا ما مضى الحدثان نابا

في الصدق والأريحية

ثم إنه عليه السلام ذكر أن لسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خيراً له من المال يورثه غيره. ولسان الصدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويشي عليه به، قال سبحانه: " واجعل لي لسان صدقٍ في الآخرين " .
وقد ورد في هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلك قول عمر لابنة هرم: ما الذي أعطى أبوك زهيراً؟ قالت: أعطاه مالاً يفي، قال: لكن ما أعطاكم زهير لا يلبه الدهر، ولا يفنيه الزمان.
ومن شعر الحماسة أيضاً :

إذا أنت أعطيت الغنى ثم لم تجد

بفضل الغنى ألفيت ما لك حامد

وقل غناءً عنك مال جمعته

إذا كان ميراثاً وواراك لاحد

وقال يزيد بن المهلب: المال والحياة أحب شيء إلى الإنسان، والثناء الحسن أحب إلي منهما، ولو أني أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن يكون لي أذن أسمع بها ما يقال في غداً وقد مت كريماً.
وحكى أبو عثمان الجاحظ عن إبراهيم السندي، قال: قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من وجوهها - كان لا يخف لبده ولا يستريح قلمه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الناس، وإدخال السرور على قلوبهم، والرفق على ضعفائهم، وكان عفيف الطعمة - : خبرني عما هون عليك النصب، وقواك على التعب؟ فقال: قد والله سمعت غناء الأطياف بالأسحار، على أغصان الأشجار، وسمعت خفق الأوتار، وتجاوب العود والمزمار، فما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن على رجل محسن، فقلت: لله أبوك فلقد ملئت كرمًا، وقال حاتم:

أماوي إن يصبح صدائي بقرّة

من الأرض لا ماء لدي ولا خمر

تري أن ما أنفقت لم يك ضرني

وأن يدي مما بخلت به صفر

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

بعض الحديثين:

من اشترى بماله

حسن الثناء غبنا

أفقره سماحه

وذلك الفقر الغنى

ومن أمثال الفرس: كل ما يؤكل ينتن، وكل ما يوهب يأرج، وقال أبو الطيب:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته

ما قاته وفضول العيش أشغال

في صلة الرحم

ثم إنه عليه السلام بعد أن قرظ الثناء والذكر الجميل، وفضله على المال، أمر بمواساة الأهل، وصلة الرحم، وإن قل ما يواسي به، فقال: ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة...، إلى آخر الفصل، وقد قال الناس في هذا المعنى فأكثرُوا، فمن ذلك قول زهير:

ومن يك ذا فضلٍ فيبخل بفضله **على قومه يستغن عنه ويذمم**

وقال عثمان: إن عمر كان يمنع أقرباءه وجه الله، وأنا أعطيتهم ابتغاء وجه الله، ولن تروا مثل عمر. أبو هريرة مرفوعاً: "الرحم مشتقة من الرحمن، والرحمن اسم من أسماء الله العظمى، قال الله لها: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته"، وفي الحديث المشهور: "صلة الرحم تزيد في العمر". وقال طرفة يهجو إنساناً بأنه لا يصل الأبعد ويقطع الأقارب:

وأنت على الأدنى شمال عرية **شامية تزوي الوجوه بليل**

وأنت على الأقصى صباً غير قرّة **تذاعب منها مزرع ومسيل**

ومن شعر الحماسة :

لهم جل مالي إن تتابع لي غنى **وإن قل مالي لا أكلفهم رفا**

ولا أحمل الحقد القديم عليهم **وليس رئيس القوم من يحمل الحقا**

ومن خطبة له في الحث على قتال الخوارج

الأصل: ولعمري ما علي من قتال من خالف الحق، وخابط الغي، من إدهان ولا إيهان. فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم، وقوموا بما عصبه بكم، فعلي ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً. الشرح: الإدهان: المصانعة والمناققة، قال سبحانه: "ودوا لو تدهن فيدهنون". والإيهان: مصدر أوهنته، أي أضعفته، ويجوز وهنته، بحذف الهمزة. ونهجه: أوضحه وجعله نهجاً، أي طريقاً بيناً. وعصبه بكم: ناطه بكم وجعله كالعصاة التي تشد بها الرأس. والفلج: الفوز والظفر. وقوله: وخابط الغي، كأنه جعله والغي متخاطبين، يخبط أحدهما في الآخر؛ وذلك أشد مبالغة من أن تقول: خبط في الغي، لأن من يخبط ويخبطه غيره يكون أشد اضطراباً ممن يخبط ولا يخبطه غيره. وقوله: وفروا إلى الله من الله، أي اهربوا إلى رحمة الله من عذابه. وقد نظر الفرزدق إلى هذا فقال:

إليك فررت منك ومن زيادٍ **ولم أحسب دمي لكم حلالاً**

ومن خطبة له وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد

وقدم عليه عاملاه على اليمن، وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران، لما غلب عليهما بسر بن أرطاة، فقام عليه السلام على المنبر ضحراً بشاقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي؛ فقال :

الأصل: ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها، إن لم يكن إلا أنت تهب أعاصيرك فقبحك الله! وتمثل بقول الشاعر:

على وضرٍ من ذا الإناء قليل

لعمر أبئك الخير يا عمرو إنني

ثم قال عليه السلام: أنبتت بسراً قد اطلع اليمين، وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، ومعضيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم، فلو ائتمنت أحدكم على قعبٍ لخشيت أن يذهب بعلاقته. اللهم إني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني! اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء. أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارسٍ من بني فراس بن غنم:

فوارس مثل أرمية الحميم

هنالك لو دعوت أتاك منهم

ثم نزل عليه السلام من المنبر.

قال الرضي رحمه الله: أقول: الأرمية جمع رمي؛ وهو السحاب. والحميم ههنا: وقت الصيف، وإنما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولاً، وأسرع خفوقاً، لأنه لا ماء فيه، وإنما يكون السحاب ثقیل السير لامتلائه بالماء، وذلك لا يكون في الأكثر إلا زمان الشتاء؛ وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

الشرح: تواترت عليه الأخبار، مثل ترادفت وتواصلت. ومن الناس من يطعن في هذا، ويقول: التواتر لا يكون إلا مع فترات بين أوقات الإتيان، ومنه قوله سبحانه "ثم أرسلنا رسلنا تترى"، ليس المراد أنهم مترادفون، بل بين كل نبين فترة، قالوا: وأصل تترى من الواو، واشتقاقها من الوتر، وهو الفرد: وعدلوا هذا الموضع مما تغلط فيه الخاصة.

من أخبار معاوية بن أبي سفيان

ومعاوية هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي.

وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. وهي أم أخيه عتبة بن أبي سفيان. فأما يزيد بن أبي سفيان، ومحمد بن أبي سفيان، وعنبسة بن أبي سفيان، وحنظلة ابن أبي سفيان، وعمرو بن أبي سفيان، فمن أمهات شتى. وأبو سفيان هو الذي قاد قريشاً في حرومها إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهو رئيس بني عبد شمس بعد قتل عتبة بن ربيعة ببدر، ذاك صاحب العير، وهذا صاحب النفير، وبهما يضرب المثل، فيقال للخامل: لا في العير ولا في النفير. وروى الزبير بن بكار أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام عبد الملك، فقال: لقد هممت اليوم يا أخي أن أفتك بالوليد بن عبد الملك، قال: بئسما هممت به في ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين! فما ذاك؟ قال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغري، فقال خالد: أنا أكفيك، فدخل على عبد الملك والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الوليد مرت به خيل ابن عمه عبد الله، فعبث بها وأصغره - وكان عبد الملك مطرقاً -، فرفع رأسه، وقال: "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون"، فقال خالد: "وإذا أردنا أن نهلك قرية

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً " ، فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلمني! والله لقد دخل أمس علي فما أقام لسانه لحناً! قال خالد: أفعلى الوليد تعول يا أمير المؤمنين! قال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا. فقال خالد: وإن كان عبد الله يلحن، فإن أخاه خالداً لا، فالتفت الوليد إلى خالد وقال له: اسكت ويحك! فوالله ما تعد في العير ولا في النفير، فقال: اسمع يا أمير المؤمنين، ثم التفت إلى الوليد، فقال له: ويحك! فمن صاحب العير والنفير غير جدي أبي سفيان صاحب العير، وجدي عتبة صاحب النفير! ولكن لو قلت: غنيمات وحبيلات والطائف، ورحم الله عثمان، لقلنا: صدقت.

وهذا من الكلام المستحسن، والألفاظ الفصيحة، والجوابات المسكتة، وإنما كان أبو سفيان صاحب العير، لأنه هو الذي قدم بالعير التي رام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يعترضوها، وكانت قادمة من الشام إلى مكة تحمل العطر والبر، فنذر بهم أبو سفيان، فضرب وجوه العير إلى البحر، فساحل بها حتى أنقذها منهم، وكانت وقعة بدر العظمى لأجلها، لأن قريشاً اتاهم النذير بحالها، وبخروج النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه من المدينة في طلبها، لينفروا، وكان رئيس الجيش المسافر لحمايتها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه.

وأما غنيمات وحبيلات... إلى آخر الكلام، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص إلى الطائف لأمر نقمها عليه، أقام بالطائف في حيلة ابتاعها - وهي الكرمة - وكان يرعى غنيمات اتخذها، يشرب من لبنها. فلما ولي أبو بكر، شفع إليه عثمان في أن يرده، فلم يفعل، فلما ولي عمر شفع إليه أيضاً فلم يفعل، فلما ولي هو الأمر رده. والحكم جد عبد الملك، فغيرهم خالد بن يزيد به.

وبنو أمية صنفان: الأعياص والعنابس، فالأعياص: العاص، والعيص، وأبو العيص. والعنابس: حرب، وأبو حرب، وسفيان. فبنو مروان وعثمان من الأعياص، ومعاوية وابنه من العنابس؛ ولكل واحد من الصنفين المذكورين وشيعتهم كلام طويل، واختلاف شديد في تفضيل بعضهم على بعض، وكانت هند تذكر في مكة بفجور وعهر.

وقال الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار: كان معاوية يعزى إلى أربعة: مسافر بن أبي عمرو، وإلى عمار بن الوليد بن المغيرة، وإلى العباس بن عبد المطلب، وإلى الصباح؛ مغنٍ كان لعمار بن الوليد. قال: وقد كان أبو سفيان دميماً قصيراً، وكان الصباح عسيفاً لأبي سفيان، شاباً وسيماً، فدعته هند إلى نفسها فغشيها.

وقالوا: إن عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً، وقالوا: إنها كرهت أن تدعه في منزله، فخرجت إلى أجياد، فوضعتة هناك. وفي هذا المعنى يقول حسان أيام المهاجرة بين المسلمين والمشركين في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل عام الفتح:

في التراب ملقى غير ذي مهد

من عبد شمس صلتة الخد

لمن الصبي بجانب البطحا

نجلت به بيضاء آنسة

والذين نزهوا هند عن هذا القذف رووا غير هذا. فروى أبو عبيدة معمر بن المثنى أن هنداً كانت تحت الفاكه بن المغيرة

المخزومي، وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس، فيدخلونه من غير إذن، فخلا ذلك البيت يوماً، فاضطجع فيه الفاكه وهند، ثم قام الفاكه وترك هنداً في البيت لأمر عرض له، ثم عاد إلى البيت، فإذا رجل قد خرج من البيت، فأقبل إلى هند فركلها برجله، وقال: من الذي كان عندك؟ فقالت: لم يكن عندي أحد، وإنما كنت نائمة. فقال: الحقني بأهلك، فقامت من فورها إلى أهلها، فتكلم الناس في ذلك، فقال لها عتبة أبوها: يا بنية، إن الناس قد أكثروا في أمرك، فأخبريني بقصتك على الصحة، فإن كان لك ذنب دسست إلى الفاكه من يقاتله، فتقطع عنك القالة. فحلفت أنها لا تعرف لنفسها جرماً، وإنه لكاذب عليها. فقال عتبة للفاكه: إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم، فهل لك أن تحاكمني إلى بعض الكهنة؟ فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم، وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف، وأخرج معه هنداً ونسوة معها، فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيرت حال هند، وتنكر أمرها، واختطف لونها. فرأى ذلك أبوها، فقال لها: إني أرى ما بك، وما ذاك إلا لمكروه عندك! فهلا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا! قالت: يا أبت، إن الذي رأيت مني ليس لمكروه عندي، ولكني أعلم أنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب، ولا آمن أن يسمني ميسماً يكون علي عند نساء مكة. قال لها: فإني سأمتحنه قبل المسألة بأمر. ثم صفر بفرس له فأدلى، ثم أخذ حبة بر فأدخلها في إحليله، وشده بسير وتركه؛ حتى إذا وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فقال عتبة: إنا قد جئناك لأمر، وقد خبأت لك خبيئاً أختبرك به، فانظر ما هو؟ فقال: ثمرة في كمره، فقال: أين من هذا، قال: حبة بر، في إحليل مهر، قال: صدقت، انظر الآن في أمر هؤلاء النسوة. فجعل يدنو من واحدة واحدة منهن، ويقول: انهضي، حتى صار إلى هند، فضرب على كتفها، وقال: انهضي غير رقحاء ولا زانية، ولتلدن ملكاً يقال له معاوية، فوثب إليها الفاكه، فأخذها بيده وقال: قومي إلى بيتك، فجذبت يدها من يده، وقالت: إليك عني، فوالله لا كان منك، ولا كان إلا من غيرك! فتزوجها أبو سفيان بن حرب.

الرقحاء: البغي التي تكتسب بالفجور، والرقاحة: التجارة.

وولي معاوية اثنتين وأربعين سنة منها اثنتان وعشرون سنة ولي فيها إمارة الشام منذ مات أخوه يزيد بن أبي سفيان، بعد خمس سنين من خلافة عمر، إلى أن قتل أمير المؤمنين علي عليه السلام في سنة أربعين. ومنها عشرون سنة خليفة إلى أن مات في سنة ستين، ومر به إنسان وهو غلام يلعب مع الغلمان، فقال: إني أظن هذا الغلام سيسود قومه، فقالت هند: ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه! ولم يزل معاوية ذا همة عالية، يطلب معالي الأمور، ويرشح نفسه للرياسة، وكان أحد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واختلف في كتابته له كيف كانت، فالذي عليه المحققون من أهل السيرة أن الوحي كان يكتبه علي عليه السلام وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وأن حنظلة بن الربيع التيمي ومعاوية بن أبي سفيان كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل، ويكتبان حوائجه بين يديه، ويكتبان ما يجي من أموال الصدقات وما يقسم في أربابها.

وكان معاوية على أس الدهر مبغضاً لعلي عليه السلام، شديد الانحراف عنه، وكيف لا يبغضه وقد قتل أخاه حنظلة يوم بدر، وخاله الوليد بن عتبة، وشرك عمه في جده وهو عتبة، أو في عمه، وهو شيبه، على اختلاف الرواية، وقتل بني عمه عبد شمس نفراً كثيراً من أعيانهم وأماثلهم، ثم جاءت الطامة الكبرى واقعة عثمان، فنسبها كلها إليه بشبهة إمساكه عنه، وانضواء كثير من قتلته إليه عليه السلام، فتأكدت البغضة، وثار الأحقاد، وتذكرت تلك الترات الأولى، حتى أفضى

الأمر إلى ما أفضى إليه.

وقد كان معاوية، مع عظم قدر علي عليه السلام في النفوس، واعتراف العرب بشجاعته؛ وأنه البطل الذي لا يقام له، يتهدده - وعثمان بعد حي - بالحرب والمنابذة، ويراسله من الشام رسائل خشنة، حتى قال له في وجهه ما رواه أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل، قال: قدم معاوية المدينة قدمة أيام عثمان في أواخر خلافته، فجلس عثمان يوماً للناس، فاعتذر من أمور نقت عليه، فقال:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل توبة الكافر، وإن رددت الحكم عمي لأنه تاب، فقبلت توبته، ولو كان بينه وبين أبي بكر وعمر من الرحم ما بين وبينه لآويه. فأما ما نقتم علي أني أعطيت من مال الله، فإن الأمر إلي، أحكم في هذا المال بما آراه صلاحاً للأمة، وإلا فلماذا كنت خليفة! فقطع عليه الكلام معاوية وقال للمسلمين الحاضرين عنده: أيها المهاجرون، قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغموراً في قومه، تقطع الأمور من دونه، حتى بعث الله رسوله فسبقتم إليه، وأبطأ عنه أهل الشرف والرياسة، فسدت بالسبق لا بغيره؛ حتى إنه ليقال اليوم: رهط فلان، وآل فلان؛ ولم يكونوا قبل شيئاً مذكوراً، وسيدوم لكم هذا الأمر ما استقمتم، فإن تركتم شيخنا هذا يموت على فراشه وإلا خرج منكم، ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم.

فقال له علي عليه السلام: ما أنت وهذا يابن اللخناء! فقال معاوية: مهلاً يا أبا الحسن عن ذكر أمي، فما كانت بأخس نسائك، ولقد صافحها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أسلمت ولم يصافح امرأة غيرها، أما لو قالها غيرك! فنهض علي عليه السلام ليخرج مغضباً، فقال عثمان: اجلس، فقال له: لا أجلس، فقال: عزمت عليك لتجلسن، فأبى وولى، فأخذ عثمان طرف رداءه، فترك الرداء في يده وخرج، فأتبعه عثمان بصره، فقال: والله لا تصل إليك ولا إلا أحد من ولدك.

قال أسامة بن زيد: كنت حاضراً هذا المجلس، فعجبت في نفسي من تألي عثمان، فذكرته لسعد ابن أبي وقاص، فقال: لا تعجب، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا ينالها علي ولا ولده".

قال أسامة: فإني في الغد لفي المسجد، وعلي وطلحة والزبير وجماعة من المهاجرين جلوس؛ إذ جاء معاوية، فتآمروا بينهم ألا يوسعوا له، فجاء حتى جلس بين أيديهم، فقال: أتدرون لماذا جئت؟ قالوا: لا، قال: إني أقسم بالله إن لم تتركوا شيخكم يموت على فراشه لا أعطيكم إلا هذا السيف! ثم قام فخرج.

فقال علي عليه السلام: لقد كنت أحسب أن عند هذا شيئاً، فقال له طلحة: وأي شيء يكون عنده أعظم مما قال! قتله الله! لقد رمى الغرض فأصاب؛ والله ما سمعت يا أبا الحسن كلمة هي أملاً لصدرك منها. ومعاوية مطعون في دينه عند شيوخنا رحمهم الله، يرمى بالزندقة.

وقد ذكرنا في نقض السفينانية، على شيخنا أبي عثمان الجاحظ ما رواه أصحابنا في كتبهم الكلامية عنه من الإلحاد والتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وما تظاهر به من الجبر والإرجاء، ولو لم يكن شيء من ذلك، لكان في محاربه الإمام ما يكفي في فساد حاله، لا سيما على قواعد أصحابنا، وكوفهم بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النار والخلود فيها إن لم تكفرها التوبة.

بسر بن أرطاة ونسبه

وأما بسر بن أرطاة، فهو بسر بن أرطاة - وقيل بن أبي أرطاة - بن عويمر بن عمران بن الحليس بن سيار بن نزار بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة. بعثه معاوية إلى اليمن في جيش كثيف، وأمره أن يقتل كل من كان في طاعة علي عليه السلام، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فيمن قتل ابني عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وكانا غلامين صغيرين، فقالت أمهما ترثيهما .

كالدريتين تشظى عنهما الصدف

يا من أحس بنيي اللذين هما

في أبيات مشهورة.

أخبار عبيد الله بن العباس

وكان عبيد الله عامل علي عليه السلام على اليمن، وهو عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي.

أمه وأم إخوته عبد الله وقثم ومعبد وعبد الرحمن، لبابة بنت الحارث بن حزن، من بني عامر ابن صعصعة. ومات عبيد الله بالمدينة، وكان جواداً، وأعقب، ومن أولاده: قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ولاء أبو جعفر المنصور المدينة، وكان جواداً ممدوحاً، وله يقول ابن المولى :

يا ناق إن أدنيتني من قثم

أعفيت من كورٍ ومن رحلةٍ

طول وفي العرنين منه شمم

في وجهه نور وفي باعه

ويقال: ما رثي قبور إخوة أكثر تباعداً من قبور بني العباس رحمه الله تعالى: قبر عبد الله بالطائف، وقبر عبيد الله بالمدينة، وقبر قثم بسمرقند، وقبر عبد الرحمن بالشام، وقبر معبد بإفريقية، ثم نعود إلى شرح الخطبة: الأعاصير: جمع إعصار، وهي الرياح المستديرة على نفسها، قال الله تعالى: " فأصابتها إعصار فيه نار " . والوضر: بقية الدسم في الإناء. وقد اطلع اليمن، أي غشيها وغزاها وأغار عليها. وقوله: سيدالون منكم، أي يغلبونكم وتكون لهم الدولة عليكم. ومات زيد الملح في الماء: أذابه.

وبنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، حي مشهور بالشجاعة؛ منهم علقمة بن فراس، وهو جذل الطعان. ومنهم ربيعة بن مكدم بن حرثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس، الشجاع المشهور، حامي الطعن حياً وميتاً، ولم يحم الحریم وهو ميت أحد غيره، عرض له فرسان من بني سليم، ومعه طعائن من أهله يحميهم وحده، فطاعنهم. فرماه نبيشة بن حبيب بسهم أصاب قلبه، فنصب رحمه في الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل. وأشار إلى الطعائن بالرواح، فسرنا حتى بلغن بيوت الحي، وبنو سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه، ويظنونه حياً؛ حتى قال قائل منهم: إني لا أراه إلا ميتاً، ولو كان حياً لتحرك؛ إنه والله لماثل راتب على هيئة واحدة، لا يرفع يده ولا يحرك رأسه. فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه، حتى رموا فرسه بسهم، فشب من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الطعائن، وقال الشاعر :

وسقى الغوادي قبره بذنوب

بنيت على طلق اليدين وهوب

شريب خمر مسعر لحروب

لتركنتها تجثو على العرقوب

يوم اللقاء نبيشة بن حبيب

لا يبعدن ربيعة بن مكرم

نفرت قلوصي من حجارة حرة

لا تنفري يا ناق منه فإنه

لولا السفار وبعد خرق مهمه

نعم الفتى أدى نبيشة بزه

وقوله عليه السلام: ما هي إلا الكوفة، أي ما ملكتي إلا الكوفة. أقبضها وأبسطها، أي أتصرف فيها كما يتصرف الإنسان في ثوبه، يقبضه ويسطه كما يريد.

ثم قال على طريق صرف الخطاب: فإن لم تكوني إلا أنت، خرج من الغيبة إلى خطاب الحاضر؛ كقوله تعالى: " الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين " ، يقول: إن لم يكن لي من الدنيا ملك إلا ملك الكوفة ذات الفتن، والاراء المختلفة، فأبعدها الله! وشبه ما كان يحدث من أهلها من الاختلاف والشقاق بالأعاصير؛ لإثارتها التراب وإفسادها الأرض. ثم ذكر علة إدالة أهل الشام من أهل العراق؛ وهي اجتماع كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم، وأداؤهم الأمانة وإصلاحهم بلادهم.

عصيان أهل العراق على الأمراء

وقال أبو عثمان الجاحظ: العلة في عصيان أهل العراق على الإمراء وطاعة أهل الشام أن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد، لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال، وما زال العراق موصوفاً أهله بقلة الطاعة، وبالشقاق على أولي الرئاسة. ومن كلام الحجاج: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الخلاق! أما والله لأخونكم لحو العصا، ولأعصبنكم عصب السلم، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ إني أسمع لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الترغيب؛ ولكنه تكبير الترهيب.

ألا إنها عجاجة تحتها قصف ، يا بني اللكيعة ، وعبيد العصا، وأبناء الإماء! إنما مثلي ومثلكم كما قال ابن بركة :

فهل أنا في ذا يال همدان ظالم!

وأناً حمياً تجتنبك المظالم

وكننت إذا قوم غزوني غزوتهم

متى تجمع القلب الذكي وصارماً

والله لا تفرع عصاً عصاً إلا جعلتها كأمس الذاهب.

وكانت هذه الخطبة عقيب سماعه تكبيراً منكراً في شوارع الكوفة، فأشفق من الفتنة.

ومما خطب به في ذم أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم :

يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، إن الشيطان استبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب، والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى الأنخاخ والأصماخ؛ ثم ارتفع فعشش، ثم باض ففرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وملاًكم غدرًا وخلافاً، اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً تستشيرونه؛ فكيف تنفَعكم تجربة، أو تعظكم واقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يعصمكم ميثاق! أَلستم أصحابي بالأهواز؛ حيث رمتكم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته؛ وأنا أرميكم بطرفي، وأنتم تتسللون لواءاً، وتنهزمون سراعاً! ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وكسلكم وتحاذلكم وتنازعكم، وبراءة الله منكم، ونكول وليكم عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطائها؛ لا يسأل المرء على أخيه، ولا يلوي الأب على بنيه، لما عضكم السلاح، وقمصتكم الرماح. ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم! بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله.

يا أهل العراق؛ يا أهل الشقاق والنفاق! الكفريات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والتزوة بعد التزوات! إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتكم وختتم، وإن أمنتكم أرجفتكم، وإن خفتكم نافقتكم. لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استفزكم عاص، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع إلا اتبعتموه وآوَيْتموه، ونصرتموه وزكيتموه! يا أهل العراق؛ هل شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو زفر كاذب، إلا كنتم أشياعه وأتباعه، وحماته وأنصاره! يا أهل العراق؛ ألم تزجركم المواعظ! ألم تنبهكم الوقائع! ألم تردعكم الحوادث! ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر، فقال: يا أهل الشام: إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفي عنها القدر ويباعد عنها الحجر، ويكنها من المطر، ويحميها من الضباب، ويجرسها من الذئاب! يا أهل الشام؛ أنت الجنة والرداء، وأنتم العدة والحذاء. ثم نزل.

ومن خطبة له في هذا المعنى وقد أراد الحج

يا أهل الكوفة، إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني محمداً، وأوصيته بخلاف وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار، فإنه أمر أن يقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، وإني قد أوصيته ألا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم. ألا وإنكم ستقولون بعدي: لا أحسن الله له الصحابة! ألا وإني معجل لكم الجواب: لا أحسن الله لكم الخلافة.

ومن خطبة له في هذا المعنى

يا أهل الكوفة؛ إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف؛ أما والله إن أبغضتموني لا تضروني؛ وإن أحببتهموني لا تنفعوني! وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم؛ زعمتم أي ساحر وقد قال الله تعالى: "

ولا يفلح الساحر " ، وقد أفلحت. وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر؛ فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون! ثم التفت إلى أهل الشام فقال: لأزواجكم أطيب من المسك، ولأبناؤكم أنس بالقلب من الولد؛ وما أنتم إلا كما قال أخو ذبيان:

إذا حاولت في أسدٍ فجوراً
فإنني لست منك ولست مني

هم درعي التي استلأمت فيها
إلى يوم النصار وهم مجني

ثم قال: بل أنتم يا أهل الشام؛ كما قال الله سبحانه: " ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون " .

وخطب مرة بعد موت ابنه وقال: بلغني أنكم تقولون: يموت الحجاج، ومات الحجاج! فمه! وما كان ماذا! والله ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت! وما رضي الله البقاء إلا لأهون المخلوقين عليه إبليس؛ " قال أنظري إلى يوم يبعثون، قال إنك لمن المنظرين " . ثم قال: يا أهل العراق؛ أتيتكم وأنا ذو لمةٍ وافرة أرفل فيها؛ فما زال بي شقاقكم وعصيانكم حتى حص شعري. ثم كشف رأسه وهو أصلع، وقال:

من يك ذا لمةٍ يكشفها
فإنني غير ضائري زعري

لا يمنع المرء أن يسود وأن يضرب بالسيف قلة الشعر

فأما قوله عليه السلام: " اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني " ، ولا خير فيهم ولا شر فيه عليه السلام، فإن أفعّل ههنا بمثلته في قوله تعالى: " أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمناً يوم القيامة " ، وبمثلته في قوله: " قل أذلك خير أم جنة الخلد " .

ويحتمل أن يكون الذي تمناه عليه السلام من إبدالهم بهم خيراً منهم قوماً صالحين ينصرونه ويوفقون لطاعته.

ويحتمل أن يريد بذلك ما بعد الموت من مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال القطب الراوندي: بنو فراس بن غنم هم الروم. وليس بجيد، والصحيح ما ذكرناه.

والبيت المتمثل به أخيراً لأبي جندب الهذلي، وأول الأبيات:

ألا يا أم زنباعٍ أقيمي
صدور العيس نحو بني تميم

وهذه الخطبة. خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد فراغه من صفين، وانقضاء أمر الحكمين والخوارج؛ وهي من أواخر خطبه عليه السلام.

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

باب المختار من الخطب والأوامر

بسر بن أرطاة إلى الحجاز واليمن

فأما خبر بسر بن أرطاة العامري؛ من بني عامر بن لؤي بن غالب، وبعث معاوية له ليغير على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام، وما عمله من سفك الدماء وأخذ الأموال فقد ذكر أرباب أن الذي هاج معاوية على تسيير بسر بن أرطاة - ويقال ابن أبي أرطاة - إلى الحجاز واليمن، أن قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يعظمون قتله، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعلي عليه السلام على ما في أنفسهم؛ وعامل علي عليه السلام على صنعاء يومئذ عبيد الله بن عباس وعامله على الجند سعيد بن نمران .

فلما اختلف الناس على علي عليه السلام بالعراق، وقتل محمد بن أبي بكر بمصر، وكثرت غارات أهل الشام، تكلموا ودعوا إلى الطلب بدم عثمان، فبلغ ذلك عبيد الله بن عباس، فأرسل إلى ناسٍ من وجوههم، فقال: ما هذا الذي بلغني عنكم؟ قالوا: إنا لم نزل ننكر قتل عثمان، ونرى مجاهدة من سعى إليه. فحبسهم. فكتبوا إلى من بالجند من أصحابهم، فثاروا بسعيد بن نمران، فأخرجوه من الجند، وأظهروا أمرهم، وخرج إليهم من كان بصنعاء، وانضم إليهم كل من كان على رأيهم، ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم، إرادة أن يمنعوا الصدقة، والتقى عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران، ومعهما شيعة علي عليه السلام، فقال ابن عباس لابن نمران: والله لقد اجتمع هؤلاء، وإنهم لمقاربون، وإن قاتلناهم لا نعلم على من تكون الدائرة فهلهم لنكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بخبرهم وقدحهم، ويمتزلهم الذي هم به، فكتبنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعد، فإننا نخبر أمير المؤمنين، أن شيعة عثمان وثبوا بنا، وأظهروا أن معاوية قد شيد أمره، واتسق له أكثر الناس، وأنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومن كان على طاعته، وأن ذلك أحشمهم وألبهم، فعبثوا لنا، وتداعوا علينا من كل أوب، ونصرهم علينا من لم يكن له رأي فيهم، إرادة أن يمنع حق الله المفروض عليه، وليس يمنعنا من مناجزهم إلا انتظار أمر أمير المؤمنين، أدام الله عزه وأيده، وقضى له بالأقدار الصالحة في جميع أموره. والسلام.

فلما وصل كتابهما، ساء علياً عليه السلام وأغضبه، وكتب إليهما: من علي أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن العباس وسعيد بن نمران: سلام الله عليكما، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد؛ فإنه أتاني كتابكما تذكران فيه خروج هذه الخارجة، وتعظمان من شأنها صغيراً؛ وتكثران من عددها قليلاً؛ وقد علمت أن نخب أفندتكما، وصغر أنفسكما، وشتات رأيكما، وسوء تدبيركما، هو الذي أفسد عليكما من لم يكن عليكما فاسداً، وجرأ عليكما من كان عن لقائكما جباناً، فإذا قدم رسولي عليكما، فامضيا إلى القوم حتى تقرأ عليهم كتابي إليهم، وتدعواهم إلى حظهم وتقوى ربهم، فإن أجابوا حمدنا الله وقبلناهم، وإن حاربوا استعنا بالله عليهم؛ ونابذناهم على سواء؛ إن الله لا يحب الخائنين.

قالوا: وقال علي عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبي: ألا ترى إلى ما صنع قومك! فقال: إن ظني يا أمير المؤمنين بقومي

لحسن في طاعتك، فإن شئت خرجت إليهم فكفيتهم، وإن شئت كتبت إليهم فتنظر ما يجيبونك. فكتب علي عليه السلام إليهم:

من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى من شاق وغدر من أهل الجند وصنعاء. أما بعد، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا يعقب له حكم، ولا يرد له قضاء، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وقد بلغني تجرؤكم وشقاقكم وإعراضكم عن دينكم، بعد الطاعة وإعطاء البيعة، فسألت أهل الدين الخالص، والورع الصادق، واللب الراجح، عن بدء محرركم، وما نويتم به، وما أمهشكم له؛ فحدثت عن ذلك بما لم أر لكم في شيء منه عذراً مبيهاً، ولا مقالاً جميلاً، ولا حجة ظاهرة، فإذا أتاكم رسولي فترقبوا وانصرفوا إلى رحالكم أعف عنكم، وأصفح عن جاهلكم، وأحفظ قاصيكم، وأعمل فيكم بحكم الكتاب، فإن لم تفعلوا، فاستعدوا لقدم جيشٍ جم الفرسان، عظيم الأركان، يقصد لمن طغى وعصى، فتطحنوا كطحن الرحا، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد.

ووجه الكتاب مع رجل من همدان، فقدم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خير، فقال لهم: إني تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليكم يزيد بن قيس الأرحبي في جيش كثيف، فلم يمنعه إلا انتظار جوابكم، فقالوا: نحن سامعون مطيعون، إن عزل عنا هذين الرجلين: عبيد الله وسعيداً، فرجع الهمداني من عندهم إلى علي عليه السلام فأخبره خبر القوم. قالوا: وكتبت تلك العصابة حين جاءها كتاب علي عليه السلام إلى معاوية يخبرونه، وكتبوا في كتابهم:

نبايع علياً أو يزيد اليمانياً

معاوي ألا أسرع السير نحونا

فلما قدم كتابهم، دعا بسر بن أبي أرطاة - وكان قاسي القلب فظاً سفاكاً للدماء، لا رأفة عنده ولا رحمة - فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهي إلى اليمن، وقال له: لا تتزل على بلد أهله على طاعة علي، إلا بسطت عليهم لسانك؛ حتى يروا أنهم لا نجاء لهم، وأنك محيط بهم. ثم أكف عنهم، وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبي فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا.

وروى إبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب الغارات عن يزيد بن جابر الأزدي، قال: سمعت عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري يحدث في خلافة عبد الملك، قال: لما دخلت سنة أربعين، تحدث الناس بالشام أن علياً عليه السلام يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفت أهواؤهم، ووقعت الفرقة بينهم، قال: فقممت في نفرٍ من أهل الشام إلى الوليد بن عقبة، فقلنا له: إن الناس لا يشكون في اختلاف الناس على علي عليه السلام بالعراق، فادخل إلى صاحبك فمره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، حتى لقد برم بي، واستنقل طلعتي، وإيم الله على ذلك ما أدع أن أبلغه ما مشيتم إلي فيه.

فدخل عليه فخره بمجيئنا إليه، ومقاتلتنا له، فأذن لنا، فدخلنا عليه، فقال: ما هذا الخبر الذي جاءني به عنكم الوليد؟ فقلنا: هذا خبر في الناس سائر، فشمز للحرب، وناهض الأعداء، واهتبل الفرصة، واغتنم الغرة، فإنك لا تدري متى تقدر على عدوك على مثل حالهم التي هم عليها، وأن تسير إلى عدوك أعز لك من أن يسيروا إليك. واعلم والله أنه لولا تفرق الناس

عن صاحبك لقد نهض إليك. فقال لنا: ما أستغني عن رأيكم ومشورتكم، ومتى أحتج إلى ذلك منكم أدعكم. إن هؤلاء الذي تذكرون تفرقهم على صاحبهم، واختلاف أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكون أطمع في استئصالهم واجتياحهم، وأن أسير إليهم مخاطراً بجندي، لا أدري علي تكون الدائرة أم لي! فإياكم واستبطائي، فإني آخذ بهم في وجه هو أرفق بكم، وأبلغ في هلكتهم. قد شنت عليهم الغارات من كل جانب؛ فخيلى مرة بالجزيرة، ومرة بالحجاز، وقد فتح الله فيما بين ذلك مصر، فأعز بفتحها ولينا، وأذل به عدونا، فأشراف أهل العراق لما يرون من حسن صنيع الله لنا، يأتوننا على قلائصهم في كل الأيام، وهذا مما يزيدكم الله به وينقصهم، ويقويكم ويضعفهم، ويعزكم ويذلهم؛ فاصبروا ولا تعجلوا، فإني لو رأيت فرصتي لاهتبلتها.

فخرجنا من عنده ونحن نعرف الفضل فيما ذكر، فجلسنا ناحية، وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بسر بن أبي أرطاة، فبعثه في ثلاثة آلاف، وقال: سر حتى تمر بالمدينة، فاطرد الناس، وأخف من مررت به، وانهب أموال كل من أصبت له مالاً؛ ممن لم يكن دخل في طاعتنا؛ فإذا دخلت المدينة، فأرهم أنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم، ثم سر حتى تدخل مكة، ولا تعرض فيها لأحد، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شرداً، حتى تأتي صنعاء والجند، فإن لنا بهما شيعه، وقد جاءني كتابهم. فخرج بسر في ذلك البعث، حتى أتى دير مروان، فعرضهم فسقط منهم أربعمائة، فمضى في ألفين وستمائة، فقال الوليد بن عقبة: أشرنا على معاوية برأينا أن يسير إلى الكوفة، فبعث الجيش إلى المدينة، فمثلنا ومثله، كما قال الأول: أريها السها وتريني القمر.

فبلغ ذلك معاوية، فغضب وقال: والله لقد هممت بمساءة هذا الأحمق الذي لا يحسن التدبير، ولا يدري سياسة الأمور. ثم كف عنه.

قلت: الوليد كان لشدة بغضه علياً عليه السلام القديم التالد، لا يرى الأناة في حربه، ولا يستصلح الغارات على أطراف بلاده، ولا يشفي غيظه ولا يبرد حزازات قلبه، إلا باستئصاله نفسه بالجيش، وتسييرها إلى دار ملكه، وسرير خلافته، وهي الكوفة، وأن يكون معاوية بنفسه هو الذي يسير بالجيش إليه، ليكون ذلك أبلغ في هلاك علي عليه السلام، واجتثاث أصل سلطانه. ومعاوية كان يرى غير هذا الرأي، ويعلم أن السير بالجيش للقاء علي عليه السلام خطر عظيم؛ فاقتضت المصلحة عنده وما يغلب على ظنه من حسن التدبير، أن يثبت بمركره بالشام في جمهور جيشه، ويسرب الغارات على أعمال علي عليه السلام وبلاده، فتجوس خلال الديار وتضعفها؛ فإذا أضعفتها بيضة ملك علي عليه السلام؛ لأن ضعف الأطراف يوجب ضعف البيضة، وإذا أضعفت البيضة كان على بلوغ إرادته، والمسير حينئذ - إن استصوب المسير - أقدر.

ولا يلام الوليد على ما في نفسه؛ فإن علياً عليه السلام قتل أباه عقبة بن أبي معيط صبراً يوم بدر وسمي الفاسق بعد ذلك في القرآن، لتزاع وقع بينه وبينه، ثم جلدته الحد في خلافة عثمان، وعزله عن الكوفة، وكان عاملها. وبيعض هذا عند العرب أرباب الدين والتقى تستحل المحارم، وتستباح الدماء، ولا تبقى مراقبة في شفاء الغيظ لدين ولا لعقاب ولا لثواب،

فكيف الوليد المشتمل على الفسوق والفجور، مجاهراً بذلك! وكان المؤلفة قلوبهم ، مطعوناً في نسبه، مرمياً بالإلحاد والزندقة.

قال إبراهيم بن هلال: روى عوانة عن الكلبي ولوط بن يحيى أن بسراً لما أسقط من أسقط من جيشه، سار بمن تخلف معه، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبل أهل ذلك الماء فركبوها، وقادوا خيولهم حتى يردوا الماء الآخر، فيردون تلك الإبل، ويركبون إبل هؤلاء، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة.

قال: وقد روى أن قضاة استقبلتهم؛ ينحرون لهم الجزر، حتى دخلوا المدينة قال: فدخلوها، وعامل علي عليه السلام عليها أبو أيوب الأنصاري، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج عنها هارباً، ودخل بسر المدينة، فخطب الناس وشتهم وتهددهم يومئذ وتوعدهم، وقال: شامت الوجوه! إن الله تعالى قال: " وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها... " الآية، وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجعلكم أهله؛ كان بلدكم مهاجر النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه قبره ومنازل الخلفاء من بعده؛ فلم تشكروا نعمة ربكم، ولم ترعوا حق نبيكم، وقتل خليفة الله بين أظهركم، فكنتم بين قاتلٍ وحاذل، ومتربص وشامت، إن كانت للمؤمنين، قلت: ألم نكن معكم! وإن كان للكافرين نصيب، قلت: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين! ثم شتم الأنصار، فقال: يا معشر اليهود وأبناء العبيد: بني زريق، وبني النجار، وبني سليمة، وبني عبد الأشهل، أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان؛ أما والله لأدعنكم أحاديث كالأمم السالفة.

فتهددتهم حتى خاف الناس أن يوقع بهم، ففزعوا إلى حويطب بن عبد العزى - ويقال إنه زوج أمه - فصعد إليه المنبر، فناشده، وقال: عترتك وأنصار رسول الله، وليسوا بقتلة عثمان؛ فلم يزل به حتى سكن، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه. ونزل فأحرق دوراً كثيرة، منها دار زرارة بن حرون، أحد بني عمرو بن عوف، ودار رفاعة بن رافع الزرقني، ودار أبي أيوب الأنصاري. وتفقد جابر بن عبد الله، فقال: ما لي لا أرى جابراً يا بني سلمة! لا أمان لكم عندي، أو تأتوني بجابر؛ فعاذ جابر بأمر سلمة رضي الله عنها، فأرسلت إلى بسر ابن أرطاة، فقال: لا أؤمنه حتى يبايع، فقالت له أم سلمة: إذهب فبايع، وقالت لابنها عمر: اذهب فبايع، فذهب فبايعاه.

قال إبراهيم: وروى الوليد بن كثير عن وهب بن كيسان، قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: لما خفت بسراً وتواريت عنه، قال لقومي: لا أمان لكم عندي حتى يحضر جابر، فأتوني وقالوا: ننشدك الله لما انطلقت معنا فبايعت، فحقنت دمك ودماء قومك، فإنك إن لم تفعل قتلت مقاتلتنا، وسيبت ذرارينا. فاستنظرتهم الليل، فلام أمسيت دخلت على أم سلمة فأخبرتها الخبر، فقالت: يا بني، انطلق فبايع، احقن دمك ودماء قومك؛ فإني قد أمرت ابن أخي أن يذهب فيبايع، وإني لأعلم أنها بيعة ضلالة.

قال إبراهيم: فأقام بسر بالمدينة أياماً ثم قال لهم: إني قد عفوت عنكم، وإن لم تكونوا لذلك بأهل؛ ما قوم قتل إمامهم بين ظهرائهم بأهل أن يكف عنهم العذاب؛ ولن نالكم العفو مني في الدنيا؛ إني لأرجو ألا تنالكم رحمة الله عز وجل في الآخرة، وقد استخلفت عليكم أبا هريرة، فإياكم وخلافه. ثم خرج إلى مكة.

قال إبراهيم: وروى الوليد بن هشام، قال: أقبل بسر، فدخل المدينة، فصعد منبر الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا أهل المدينة، خضبت لحاكم، وقتلت عثمان مخضوباً، والله لا أدع في المسجد مخضوباً إلا قتلته، ثم قال لأصحابه: خذوا بأبواب المسجد - وهو يريد أن يستعرضهم - فقام إليه عبد الله بن الزبير وأبو قيس أحد بني عامر بن لؤي، فطلبا إليه حتى كف عنهم. وخرج إلى مكة، فلما قرب منها هرب قثم بن العباس - وكان عامل علي عليه السلام - ودخلها بسر، فشتهم أهل مكة وأنبهم. ثم خرج عنها، واستعمل عليها شيبة بن عثمان.

قال إبراهيم: وقد روى عوانة عن الكلبي أن بسرًا لما خرج من المدينة إلى مكة قتل في طريقه رجلاً، وأخذ أموالاً، وبلغ أهل مكة خبره، فتنحى عنها عامة أهلها، وتراضى الناس بشيبة بن عثمان أميراً لما خرج قثم بن العباس عنها، وخرج إلى بسر قوم من قريش، فتلوه، فشتهم، ثم قال: أما والله لو تركت ورأيي فيكم لترككم وما فيكم روح تمشي على الأرض.

فقالوا: ننشدك الله في أهلك وعترتك! فسكت ثم دخل وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، ثم خطبهم، فقال: الحمد لله الذي أعز دعوتنا، وجمع ألفتنا، وأذل عدونا بالقتل والتشريد، هذا ابن أبي طالب بناحية العراق في ضنك وضيق، قد ابتلاه الله بخطيئته، وأسلمه بجريرته؛ فتفرق عنه أصحابه ناقلين عليه، وولي الأمر معاوية الطالب بدم عثمان؛ فبايعوا ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً. فبايعوا.

وتفقد سعيد بن العاص فطلبه فلم يجده، وأقام أياماً ثم خطبهم فقال: يا أهل مكة، إني قد صفحت عنكم، فإياكم والخلاف، فوالله إن فعلتم لأقصدن منكم إلى التي تبيير الأصل، وتخرب المال، وتخرب الديار.

ثم خرج إلى الطائف، فكتب إليه المغيرة بن شعبة حين خرج من مكة إليها: أما بعد، فقد بلغني مسيرك إلى الحجاز، ونزولك مكة، وشدتك على المريب، وعفوك عن المسيء، وإكرامك لأولي النهى، فحمدت رأيك في ذلك، قدم على صالح ما كنت عليه، فإن الله عز وجل لن يزيد بالخير أهله إلا خيراً؛ جعلنا الله وإياك من الآمرين بالمعروف، والقاصدين إلى الحق، والذاكرين الله كثيراً.

قال: ووجه رجلاً من قريش إلى تبالة، وبها قوم من شيعة علي عليه السلام، وأمره بقتلهم. فأخذهم، وكلم فيهم وقيل له:

هؤلاء قومك، فكف عنهم حتى نأتيك بكتاب من بسر بأمانهم، فحبسهم. وخرج منيع الباهلي من عندهم إلى بسر وهو بالطائف يستشفع إليه فيهم، فتحمل عليه بقوم من الطائف، فكلموه فيهم، وسألوه الكتاب بإطلاقهم، فوعدهم، ومطلهم بالكتاب حتى ظن أنه قد قتلهم القرشي المبعوث لقتلهم، وأن كتابه لا يصل إليهم حتى يقتلوا. ثم كتب لهم، فأتى منيع منزله، وكان قد نزل على امرأة بالطائف ورحله عندها، فلم يجدها في منزلها، فوطئ على ناقته بردائه، وركب فصار يوم الجمعة وليلة السبت لم يتزل عن راحلته قط، فأتاهم ضحوة، وقد أخرج القوم ليقتلوا، واستبطئ كتاب بسر فيهم، فقدم رجل منهم فضربه رجل من أهل الشام، فانقطع سيفه، فقال الشاميون بعضهم لبعض، شمسوا سيوفكم حتى تلين فهزوها. وتبصر منيع الباهلي بريق السيوف، فألع بثوبه، فقال القوم: هذا راكب عنده خبر، فكفوا، وقام به بغيره فتزل عنه، وجاء على رجله يشتد دفع الكتاب إليهم فأطلقوا. وكان الرجل المقدم - الذي ضرب بالسيف فانكسر السيوف - أخاه.

قال إبراهيم: وروى علي بن مجاهد، عن ابن إسحاق أن أهل مكة لما بلغهم ما صنع بسر، خافوه وهربوا، فخرج ابنا عبيد الله بن العباس؛ وهما سليمان وداود، وأمهما جويرية ابنة خالد ابن قرظ الكنانية، وتكنى أم حكيم، وهم حلفاء بني زهرة - وهما غلامان - مع أهل مكة، فأضلوهما عند بئر ميمون بن الحضرمي - وميمون هذا هو أخو العلاء بن الحضرمي - وهجم عليهما بسر، فأخذهما وذبحهما، فقالت أمهما :

ها من أحس بإبني اللذين هما	كالدرتين تشظى عنهما الصدف
ها من أحس بإبني اللذين هما	سمعي وقلبي، فقلبي اليوم مختطف
ها من أحس بإبني اللذين هما	مخ العظام، فمخي اليوم مزدهف
نبئت بسراً وما صدقت ما زعموا	من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا
أنحى على ودجي إبني مرهفة	مشحودة، وكذاك الإثم يقترف
من دل والهة حرى مسلبة	على صبيين ضللاً إذ مضى السلف

وقد روي أن اسمهما قثم وعبد الرحمن. وروي أنهما ضلّا في أخوالهما بني كنانة. وروي أن بسراً إنما قتلتهما باليمن، وأنهما ذبحا على درج صنعاء.

وروى عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن أبيه، أن بسراً لما دخل الطائف، وقد كلمه المغيرة، قال له: لقد صدقتني ونصحتني؛ فبات بها وخرج منها، وشيعه المغيرة ساعة، ثم ودعه وانصرف عنه، فخرج حتى مر ببني كنانة، وفيهم ابنا عبيد الله بن العباس وأمهما. فلما انتهى بسر إليهما، طلبهما، فدخل رجل من بني كنانة - وكان أبوهما أوصاه بهما - فأخذ السيف من بيته وخرج، فقال له بسر: ثكلتك أمك! والله ما كنا أردنا قتلك، فلم عرضت نفسك للقتل! قال: أقتل دون جاري أعذر لي عند الله والناس. ثم شد على أصحاب بسر بالسيف حاسراً، وهو يرتجز:

آليت لا يمنع حافات الدار	ولا يموت مصلتاً دون الجار
إلا فتىً أروع غير غدار	

فضارب بسيفه حتى قتل، ثم قدم الغلامان فقتلا. فخرج نسوة من بني كنانة، فقالت امرأة منهن: هذه الرجال يقتلها فما بال الولدان! والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام، والله إن سلطاناً لا يشتد إلا بقتل الضرع الضعيف، والشيخ الكبير، وقطع الرحمة لسلطان سوء، فقال بسر: والله لهمت أن أضع فيكن السيف، قالت: والله إنه لأحب إلي إن فعلت! قال إبراهيم: وخرج بسر من الطائف، فأتى نجران، فقتل عبد الله بن عبد المدان وابنه مالكاً، وكان عبد الله هذا صهراً لعبيد الله بن العباس، ثم جمعهم وقام فيهم، وقال: يا أهل نجران، يا معشر النصارى وإخوان القروء: أما والله إن بلغني عنكم ما أكره لأعودن عليكم بالتي تقطع النسل، وتهلك الحرث، وتخرب الديار! وتهددهم طويلاً، ثم سار حتى بلغ أرحب، فقتل أبا كرب - وكان يتشيع - ويقال: إنه سيد من كان بالبادية من همدان، فقدمه فقتله.

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس وسعيد بن نمران، وقد استخلف عبيد الله عليها عمرو بن أراكة الثقفي، فمنع بسراً من دخولها وقاتله، فقتله بسر، ودخل صنعاء، فقتل منها قوماً، وأتاه وفد مأرب فقتلهم، فلم ينج منهم إلا

رجل واحد، ورجع إلى قومه، فقال لهم: أنعى قتلانا، شيوخاً وشباناً.

قال إبراهيم: وهذه الأبيات المشهورة لعبد الله بن أراكة الثقفي؛ يرثي بها ابنه عمراً:

لعمري لقد أردى ابن أرطأة فارساً
بصنعاء كالليث الهزبر أبي الأجر
تعز فإن كان البكا رد هالكاً
على أحد، فاجهد بكاك على عمرو
ولا تبك ميتاً بعد ميت أجنه
علي وعباس وآل أبي بكر

قال: وروى غير بن وعله، عن أبي وداك، قال: كنت عند علي عليه السلام لما قدم عليه سعيد بن نمران الكوفي، فعتب عليه وعلى عبيد الله ألا يكونا قاتلاً بسرّاً، فقال سعيد: قد والله قاتلت، ولكن ابن عباس خذلي وأبي أن يقاتل، ولقد خلوت به حين دنا منا بسر، فقلت: إن ابن عمك لا يرضى مني ومنك بدون الجحد في قتالهم، قال: لا والله ما لنا بهم طاقة ولا يدان، فقممت في الناس، فحمدت الله ثم قلت: يا أهل اليمن، من كان في طاعتنا وعلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام فيالي إلي فأجاني منهم عصابة، فاستقدمت بهم، فقاتلت قتالاً ضعيفاً، وتفرق الناس عني وانصرفت.

قال: ثم خرج بسر من صنعاء، فأتى أهل جيشان - وهم شيعة لعلي عليه السلام - فقاتلهم وقتلوه، فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعاً، ثم رجع إلى صنعاء، فقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس، لأن ابني عبيد الله بن العباس كانا مستترين في بيت امرأة من أبنائهم، تعرف بابنة بزرج.

وقال الكلبي وأبو مخنف: فندب علي عليه السلام أصحابه لبعث سرية في إثر بسر. فتتأقلوا، وأجابه جارية بن قدامة السعدي، فبعثه في ألفين، فشخص إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدم اليمن، وسأل عن بسر ف قيل: أخذ في بلاد بني تميم فقال: أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم. وبلغ بسرّاً مسير جارية، فأنحدر إلى اليمامة، وأخذ جارية بن قدامة السير، ما يلتفت إلى مدينة مر بها ولا أهل حصن، ولا يعرج على شيء إلا أن يرمل بعض أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته، أو يسقط بعير رجل أو تحفى دابته، فيأمر أصحابه بأن يعقبوه، حتى انتهوا إلى أرض اليمن؛ فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال، واتبعهم شيعة علي عليه السلام، وتداعت عليهم من كل جانب، وأصابوا منهم، وصمد نحو بسر، وبسر بين يديه يفر من جهة إلى جهة أخرى، حتى أخرجه من أعمال علي عليه السلام كلها.

فلما فعل به ذلك، أقام جارية بحرس نحواً من شهر، حتى استراح وأراح أصحابه، ووثب الناس ببسر في طريقه لما انصرف من بين يدي جارية، لسوء سيرته وفضاظته وظلمه وغشمه وأصاب بنو تميم ثقلًا من ثقله في بلاده وصحبه إلى معاوية ليبايعه على الطاعة ابن جماعة رئيس اليمامة، فلما وصل بسر إلى معاوية قال: يا أمير المؤمنين، هذا ابن جماعة قد أتيتك به فاقتله، فقال معاوية: تركته لم تقتله، ثم جئتني به فقلت اقتله! لا لعمري لا أقتله. ثم بايعه ووصله، وأعادته إلى قومه.

وقال بسر: أحمد الله يا أمير المؤمنين أي سرت في هذا الجيش أقتل عدوك ذاهباً جائياً لم ينكب رجل منهم نكبة، فقال معاوية: الله قد فعل ذلك لا أنت.

وكان الذي قتل بسر في وجهه ذلك ثلاثين ألفاً، وحرقت قوماً بالنار، فقال يزيد بن مفرغ:

ومثل الذي لاقى من الشوق أرقا

منازلها من مسرقان فسرقا

إلى قريات الشيخ من نهر أربقا

إلى مجمع السلان من بطن دورقا

إلى مجمع النهرين حيث تفرقا

فقتل بسر ما استطاع وحرقا

تعلق من أسماء ما قد تعلقا

سقى هزم الرعاد منبعج الكلى

إلى الشرف الأعلى إلى رامهرمز

إلى دشت بارين إلى الشط كله

إلى حيث يرفا من دجيل سفينه

إلى حيث سار المرء بجيشه

وروى أبو الحسن المدائني قال: اجتمع عبيد الله بن العباس وبسر بن أطاة يوماً عند معاوية بعد صلح الحسن عليه السلام، فقال له ابن عباس: أنت أمرت اللعين السيء القدم أن يقتل ابني؟ فقال: ما أمرته بذلك، ولوددت أنه لم يكن قتلها، فغضب بسر ونزع سيفه فألقاه وقال لمعاوية: اقض سيفك، قلدتني وأمرتني أن أخبط به الناس ففعلت، حتى إذا بلغت ما أردت قلت: لم أهو ولم آمر! فقال: خذ سيفك إليك، فلعمري إنك ضعيف مائق حين تلقي السيف بين يدي رجل من بني عبد مناف، قد قتلت أمس ابنه.

فقال له عبيد الله: أتحسني يا معاوية قاتلاً بسراً بأحد ابني! هو أحقر وألأم من ذلك، ولكني والله لا أرى مقنعاً، ولا أدرك ثأراً إلا أن أصيب بهما يزيد وعبد الله.

فتبسم معاوية وقال: وما ذنب معاوية وابني معاوية! والله ما علمت ولا أمرت، ولا رضيت ولا هويت. واحتملها منه لشرفه وسؤدده.

قال: ودعا علي عليه السلام على بسر فقال: اللهم إن بسراً باع دينه بالدنيا، وانتهك محارمك، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك. اللهم فلا تمته حتى تسلبه عقله، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار. اللهم العن بسراً وعمراً ومعاوية، وليحل عليهم غضبك، ولتزل بهم نعمتك، وليصبهم بأسك ورجزك الذي لا ترده عن القوم المحرمين. فلم يلبث بسر بعد ذلك إلا يسيراً حتى وسوس وذهب عقله. فكان يهذي بالسيف، ويقول: أعطوني سيفاً أقتل به، لا يزال يردد ذلك حتى اتخذ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقة، فلا يزال يضربها حتى يغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

قلت: كان مسلم بن عقبة ليزيد وما عمل بالمدينة في وقعة الحرة كما كان بسر لمعاوية وما عمل في الحجاز واليمن، ومن أشبه أباه فما ظلم.

تبني ونفعل مثل ما فعلوا

تبني كما كانت أوائلنا

ومن خطبة له في ذم من بايعه بشروط

الأصل إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين، وأميناً على الترتيل، وأنتم معشر العرب على شر دين، وفي شر دار، منيخون بين حجارةٍ وخشنٍ، وحياتٍ صمٍ، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم. الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة.

الشرح: يجوز أن يعني بقوله: بين حجارةٍ خشنٍ وحياتٍ صمٍ، الحقيقة لا المجاز؛ وذلك أن البادية بالحجاز ونجد وقحمة وغيرها من أرض العرب ذات حياتٍ وحجارةٍ خشنٍ، وقد يعني بالحجارة الخشن الجبال أيضاً أو الأصنام، فيكون داخلياً في قسم الحقيقة إذا فرضناه مراداً، ويكون المعنى بذلك وصف ما كانوا عليه من البؤس وشظف العيشة وسوء الاختيار في العبادة، فأبدلهم الله تعالى بذلك الريف ولين المهاد وعبادة من يستحق العبادة.

ويجوز أن يعني به المجاز، وهو الأحسن؛ يقال للأعداء حيات. والحية الصماء أدهى من التي ليست بصماء، لأنها لا تترجر بالصوت. ويقال للعدو أيضاً: إنه لحجر خشن المس، إذا كان ألد الخصام. والجشب من الطعام: الغليظ الخشن.

وقال أبو البخترى وهب بن وهب القاضي: كنت عند الرشيد يوماً، واستدعى ماءً مبرداً بالثلج، فلم يوجد في الخزانة ثلج، فاعتذر إليه بذلك، وأحضر إليه ماءً غير مثلوج، فضرب وجه الغلام بالكوز، واستشاط غضباً، فقلت له: أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمن؟ فقال: قل، قلت: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من الغير بالأمس - يعني زوال دولة بني أمية - والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها، والحزم ألا تعود الترفه والنعمة، بل تأكل اللين والجشب، وتلبس الناعم والخشن، وتشرب الحار والقار؛ فنفحني بيده، وقال: لا والله، لا أذهب إلى ما تذهب إليه، بل ألبس النعمة ما لبستني، فإذا نابت نوبة الدهر عدت إلى نصاب غير خوار.

وقوله: والآثام بكم معصوبة، استعارة، كأنها مشدودة إليهم. وعنى بقوله: تسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، ما كانوا عليه في الجاهلية من الغارات والحروب. ومنها: الأصل: فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي، فضننت بهم عن الموت، وأغضيت على القذى، وشربت على الشحى، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمر من طعم العلقم. الشرح: الكظم، بفتح الظاء: مخرج النفس، والجمع أكظام. وضننت بالكسر: بخلت، وأغضيت على كذا: غضضت طرفي، والشحى: ما يعترض في الحلق.

اختلاف الروايات في قصة السقيفة

اختلفت الروايات في قصة السقيفة، فالذي تقوله الشيعة - وقد قال قوم من المحدثين بعضه ورووا كثيراً منه - أن علياً عليه السلام امتنع من البيعة حتى أخرج كرهاً، وأن الزبير بن العوام امتنع من البيعة وقال: لا أبايع إلا علياً عليه السلام، وكذلك أبو سفيان بن حرب، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، والعباس بن عبد المطلب وبنوه، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وجميع بني هاشم. وقالوا: إن الزبير شهر سيفه، فلما جاء عمر ومعه جماعة من

الأنصار وغيرهم، قال في جملة ما قال: خذوا سيف هذا فاضربوا به الحجر. ويقال: إنه أخذ السيف من يد الزبير فضرب به حجراً فكسره، وساقهم كلهم بين يديه إلى أبي بكر، فحملهم على بيعته ولم يتخلف إلا علي عليه السلام وحده، فإنه اعتصم ببيت فاطمة عليها السلام، فتحاموا إخراجهم منه قسراً، وقامت فاطمة عليها السلام إلى باب البيت فأسمعت من جاء يطلبه، فتفرقوا وعلموا أنه بمفرده لا يضر شيئاً، فتركوه.

وقيل: إنهم أخرجوه فيمن أخرج وحمل إلى أبي بكر فبايعه. وقد روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري كثيراً من هذا. فأما حديث التحريق وما جرى مجراه من الأمور الفظيعة، وقول من قال إنهم أخذوا علياً عليه السلام يقاد بعمامته والناس حوله؛ فأمر بعيد والشبهة تنفرد به، على أن جماعة من أهل الحديث قد رووا نحوه، وسنذكر ذلك. وقال أبو جعفر: إن الأنصار لما فاتها ماطلبت من الخلافة، قالت - أو قال بعضها: لا نبايع إلا علياً. وذكر نحو هذا علي بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي في تاريخه.

فأما قوله: لم يكن لي معين إلا أهل بيتي فضننت بهم عن الموت، فقول ما زال علي عليه السلام يقوله، ولقد قاله عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لو وجدت أربعين ذوي عزم! ذكر ذلك نصر بن مزاحم في كتاب صفين، وذكره كثير من أرباب السيرة.

وأما الذي يقوله جمهور المحدثين وأعيانهم، فإنه عليه السلام امتنع من البيعة ستة أشهر، ولزم بيته، فلم يبايع حتى ماتت فاطمة عليها السلام، فلما ماتت بايع طوعاً.

وفي صحيح مسلم والبخاري: كانت وجوه الناس إليه وفاطمة باقية بعد، فلما ماتت فاطمة عليها السلام انصرف وجوه الناس عنه، وخرج من بيته فبايع أبا بكر، وكانت مدة بقائها بعد أبيها عليه الصلاة والسلام ستة أشهر. وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال لي عبد الرحمن بن عوف، وقد حججنا مع عمر: شهدت اليوم أمير المؤمنين عليه السلام بمعى، وقال له الرجل: إني سمعت فلاناً يقول: لو قد مات عمر لبايعت فلاناً، فقال عمر: إني لقائم العشية في الناس أحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم. قال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الموسم يجمع رعاك الناس وغوغاءهم، وهم الذين يقربون من مجلسك ويغلبون عليه، وأخاف أن أقول مقالة لا يعونها، ولا يحفظونها فيطيروا بها، ولكن أمهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله، فتقول ما قلت متمكناً، فيسمعوا مقالتك، فقال: والله لأقومن بها أول مقام أقومه بالمدينة.

قال ابن عباس: فلما قدمناها، هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن، فلما جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال بعد أن ذكر الرجم وحد الزنا: إنه بلغني أن قاتلاً منكم يقول: لو مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً، فلا يغرن أمراً أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، فلقد كانت كذلك؛ ولكن الله وقى شرها، وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق كأبي بكر، وإنه كان من خبرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن علياً والزبير تخلفا في بيت فاطمة ومن معهما، وتخلفت عنا الأنصار، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت له: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار فانطلقنا نحوهم، فلقينا رجلاً صالحاً من الأنصار قد شهدا بدرًا: أحدهما عويم بن ساعدة، والثاني معن بن عدي، فقالا لنا: ارجعوا فاقضوا أمركم بينكم، فأتينا الأنصار، وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة، وبين أظهرهم رجل مزمل، فقلت: من هذا؟ قالوا:

سعد بن عباد وجع. فقام رجل منهم، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: أما بعد، فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام يا معشر قريش رهط بيننا، قد دفت إلينا دافة من قومكم، فإذا أنتم أن تغضبونا الأمر.

فلما سكت، وكنت قد زورت في نفسي مقالة أقولها بين يدي أبي بكر، فلما ذهبت أتكلم، قال أبو بكر: على رسلك! فقام فحمد الله وأثنى عليه، فما ترك شيئاً كنت زورت نفسي إلا جاء به أو بأحسن منه، وقال: يا معشر الأنصار، إنكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش، أواسط العرب داراً ونسباً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين - وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح - والله ما كرهت من كلامه غيرها؛ إن كنت لأقدم فتضرب عنقي فيما لا يقربني إلى إثم؛ أحب إلي من أن أوامر على قوم فيهم أبو بكر.

فلما قضى أبو بكر كلامه، قام رجل من الأنصار، فقال: أنا جديها المحكك، وعذيقها المرجب؛ منا أمير ومنكم أمير. وارتفعت الأصوات واللغط، فلما خفت الاختلاف، قلت لأبي بكر: ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعته وبايعه الناس، ثم نزونا على سعد بن عباد، فقال قائلهم: قتلتم سعداً! فقلت: اقتلوه قتله الله، وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر، خشيت إن فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى، أو نخالفهم فيكون الفساد.

هذا حديث متفق عليه من أهل السيرة، وقد وردت الروايات فيه بزيادات؛ روى المدائني قال: لما أخذ أبو بكر بيد عمر وأبي عبيدة وقال للناس: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، قال أبو عبيدة لعمر: امدد يدك نبايعك، فقال عمر: ما لك في الإسلام فهة غيرها. أتقول هذا وأبو بكر حاضر! ثم قال للناس: أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة؟ رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا، أفلا نرضاك لديننا! ثم مد يده إلى أبي بكر فبايعه، وهذه الرواية هي التي ذكرها قاضي القضاة رحمه الله تعالى في كتاب المغني.

وقال الواقدي في روايته في حكاية كلام عمر: والله لأن أقدم فأنحر كما ينحر البعير، أحب إلي من أن أتقدم على أبي بكر.

وقال شيخنا أبو القاسم البلخي: قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: إن الرجل الذي قال: لو قد مات عمر لباعته فلاناً، عمار بن ياسر، قال: لو مات عمر لباعته علياً عليه السلام. فهذا القول هو الذي هاج عمر أن خطب بما خطب به. وقال غيره من أهل الحديث: إنما كان المعزوم على بيعته لو مات عمر، طلحة بن عبيد الله. فأما حديث الفلته، فقد كان سبق من عمر أن قال: إن بيعة أبي بكر كما كانت فلته وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه.

وهذا الخبر الذي ذكرناه عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف فيه حديث الفلته، ولكنه منسوق على ما قاله أولاً، ألا تراه يقول: فلا يغرن أمراً أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلته، فلقد كانت كذلك، فهذا يشعر بأنه قد كان قال من قبل: إن بيعة أبي بكر كانت فلته.

وقد أكثر الناس في حديث الفلثة، وذكرها شيوخنا المتكلمون، فقال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: الفلثة ليست الزلة والخطيئة، بل هي البغته، وما وقع فجأة من غير روية ولا مشاورة، واستشهد بقول الشاعر:

من يأمن الحدثان بعد صبيرة القرشي ماتا

سبقت منيته المشيب وكان ميته افتلاتا

يعني بغته.

وقال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: ذكر الرياشي أن العرب تسمي آخر يوم من شوال فلثة، من حيث إن كل من لم يدرك ثأره فيه فاته، لأنهم كانوا إذا دخلوا في الأشهر الحرم لا يطلبون الثأر، وذو القعدة من الأشهر الحرم، فسموا ذلك اليوم فلثة، لأنهم إذا أدركوا فيه ثأرهم، فقد أدركوا ما كان يفوقهم، فأراد عمر أن بيعة أبي بكر تداركها بعد أن كادت تفوت.

وقوله: وقى الله شرها، دليل على تصويب البيعة، لأن المراد بذلك أن الله تعالى دفع شر الاختلاف فيها.

فأما قوله: فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه؛ فالمراد من عاد إلى أن يبايع من غير مشاورة ولا عدد يثبت صحة البيعة به، ولا ضرورة داعية إلى البيعة، ثم بسط يده على المسلمين يدخلهم في البيعة قهراً، فاقتلوه.

قال قاضي القضاة رحمه الله تعالى: وهل يشك أحد في تعظيم عمر لأبي بكر وطاعته إياه! ومعلوم ضرورة من حال عمر إعظامه له، والقول بإمامته والرضا بالبيعة والثناء عليه، فكيف يجوز أن يترك ما يعلم ضرورة لقول محتمل ذي وجوه وتأويلات! وكيف يجوز أن تحمل هذه اللفظة من عمر على الذم والتخطئة وسوء القول.

واعلم أن هذه اللفظة من عمر مناسبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ما جبله الله تعالى عليه من غلظ الطينة وجفاء الطبيعة، ولا حيلة له فيها؛ لأنه مجبول عليها لا يستطيع تغييرها، ولا ريب عندنا أنه كان يتعاطى أن يتلطف، وأن يخرج ألفاظه مخارج حسنة لطيفة، فيترع به الطبع الجاسي، والغريزة الغليظة، إلى أمثال هذه اللفظات، ولا يقصد بها سوءاً، ولا يريد بها ذماً ولا تخطئة، كما قدمنا من قبل في اللفظة التي قالها في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكاللفظات التي قالها عام الحديبية وغير ذلك، والله تعالى لا يجازي المكلف إلا بما نواه، ولقد كانت نيته من أظهر النيات وأخلصها لله سبحانه وللمسلمين. ومن أنصف علم أن هذا الكلام حق، وأنه يغني عن تأويل شيخنا أبي علي.

ونحن من بعد نذكر ما قاله المرتضى رحمه الله تعالى في كتاب الشافي لما تكلم في هذا الموضع، قال: أما ما ادعى من العلم الضروري برضا عمر ببيعة أبي بكر وإمامته، فالمعلوم ضرورة بلا شبهة أنه كان راضياً بإمامته، وليس كل من رضي شيئاً كان متديناً به، معتقداً لصوابه؛ فإن كثيراً من الناس يرضون بأشياء من حيث كانت دافعة لما هو أضر منها، وإن كانوا لا يرونها صواباً، ولو ملكوه الاختيار لاختار غيرها، وقد علمنا أن معاوية كان راضياً ببيعة يزيد وولاية العهد له من بعده، ولم يكن متديناً بذلك ومعتقداً صحته، وإنما رضي عمر ببيعة أبي بكر، من حيث كانت حاجزة عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ولو ملك الاختيار لكان مصير الأمر إليه أسر في نفسه، وأقر لعينه. وإن ادعى أن المعلوم ضرورة تدين عمر

بإمامة أبي بكر، وأنه أولى بالإمامة منه، فهذا مدفوع أشد دفع، مع أنه قد كان يبدر من عمر في وقتٍ بعد آخر ما يدل على ما أوردناه. روى الهيثم بن عدي عن عبد الله بن عياش الهمداني عن سعيد بن جبير، قال: ذكر أبو بكر وعمر عند عبد الله بن عمر، فقال رجل: كانا والله شمسي هذه الأمة ونوريها، فقال ابن عمر: وما يدرك؟ قال الرجل: أو ليس قد اتتلفا! قال ابن عمر: بل اختلفا لو كنتم تعلمون! أشهد أي كنت عند أبي يوماً، وقد أمرني أن أحبس الناس عنه، فاستأذن عليه عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر: دويبة سوء، وهو خير من أبيه، فأوحشني ذلك منه، فقلت: يا أبت، عبد الرحمن خير من أبيه! فقال: ومن ليس بخير من أبيه لا أم لك! ائذن لعبد الرحمن، فدخل عليه فكلمه في الخطيئة الشاعر أن يرضى عنه - وقد كان عمر حبسه في شعر قاله - فقال عمر: إن الخطيئة أوداً فدعني أقومه بطول حبسه، فألح عليه عبد الرحمن وأبى عمر، فخرج عبد الرحمن، فأقبل علي وقال: أفي غفلة أنت إلى يومك هذا عما كان من تقدم أحيمق بني تميم علي وظلمه لي! فقلت: - لا علم لي بما كان من ذلك، قال: يا بني فما عسيت أن تعلم؟ فقلت: والله هو أحب الناس من ضياء أبصارهم، قال: إن ذلك لكذلك على رغم أبيك وسخطه، قلت: يا أبت، أفلا تجلي عن فعله بموقف في الناس تبين ذلك لهم؟ قال: وكيف لي بذلك مع ما ذكرت أنه أحب الناس من ضياء أبصارهم! إذن يرضخ رأس أبيك بالجدل. قال ابن عمر: ثم تجاسر والله فجسر، فما دارت الجمعة حتى قام خطيباً في الناس، فقال: أيها الناس؛ إن بيعة أبي بكر كانت فلتنة وقى الله شرها، فمن دعاكم إلى مثلها فاقتلوه.

وروى الهيثم بن عدي، عن مجالد بن سعيد، قال: غدوت يوماً إلى الشعبي وأنا أريد أن أسأله عن شيء بلغني عن ابن مسعود أنه كان يقوله، فأتيته وهو في مسجد حيه وفي المسجد قوم ينتظرونه، فخرج فتعرفت إليه، وقلت: أصلحك الله! كان ابن مسعود يقول: ما كنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، قال: نعم، كان ابن مسعود يقول ذلك، وكان ابن عباس يقول أيضاً - وكان عند ابن عباس دفتان علم يعطيها أهلها، ويصرفها عن غيرهم - فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل من الأزدي، فجلس إلينا، فأخذنا في ذكر أبي بكر وعمر، فضحك الشعبي وقال: لقد كان في صدر عمر ضب على أبي بكر، فقال الأزدي: والله ما رأينا ولا سمعنا برجل قط كان أسلس قياداً لرجل، ولا أقول فيه بالجميل من عمر في أبي بكر، فأقبل علي الشعبي وقال: هذا مما سألت عنه، ثم أقبل على الرجل وقال: يا أبا الأزدي، فكيف تصنع بالفتنة التي وقى الله شرها! أترى عدواً يقول في عدوٍ يريد أن يهدم ما بنى لنفسه في الناس أكثر من قول عمر في أبي بكر! فقال الرجل: سبحان الله! أنت تقول ذلك يا أبا عمرو! فقال الشعبي: أنا أقوله، قاله عمر بن الخطاب على رؤوس الأشهاد، فلمه أو دع. فنهض الرجل مغضباً وهو يهمهم في الكلام بشيء لم أفهمه. قال مجالد: فقلت للشعبي: ما أحسب هذا الرجل إلا سينقل عنك هذا الكلام إلى الناس ويثبه فيهم! قال: إذن والله لا أحفل به، وشيء لم يحفل به عمر حين قام على رؤوس الأشهاد من المهاجرين والأنصار أحفل به أنا! أذيعوه أنتم عني أيضاً ما بدا لكم.

وروى شريك بن عبد الله النخعي، عن محمد بن عمرو بن مرة عن أبيه، عن عبد الله بن سلمة، وعن أبي موسى الأشعري، قال: حججت مع عمر، فلما نزلنا وعظم الناس خرجت من رحلي أريده، فلقيني المغيرة بن شعبة، فراقني، ثم قال: أين تريد؟ فقلت: أمير المؤمنين، فهل لك؟ قال: نعم، فانطلقنا نريد رحل عمر، فإنا لفي طريقنا إذ ذكرنا تولي عمر

وقيامه بما هو فيه، وحياطته على الإسلام، ونهوضه بما قبله من ذلك، ثم خرجنا إلى ذكر أبي بكر، فقلت للمغيرة: يا لك الخير! لقد كان أبو بكر مسدداً في عمر، لكأنه ينظر إلى قيامه بعده، وجده واجتهاده وغناؤه في الإسلام، فقال المغيرة: لقد كان ذلك، وإن كان قوم كرهوا ولاية عمر ليزووها عنه، وما كان لهم في ذلك من حظ، فقلت له: لا أبا لك! ومن القوم الذين كرهوا ذلك لعمر؟ فقال المغيرة: لله أنت! كأنك لا تعرف هذا الحي من قريش وما خصوا به من الحسد! فوالله لو كان هذا الحسد يدرك بحساب لكان لقريش تسعة أعشاره وللناس كلهم عشر، فقلت: مه يا مغيرة! فإن قريشاً بانت بفضلها على الناس. فلم نزل في مثل ذلك حتى انتهينا إلى رحل عمر فلم نجد، فسألنا عنه فقيل: قد خرج آنفاً، فمضينا نقفو أثره حتى دخلنا المسجد، فإذا عمر يطوف بالبيت، فطفنا معه، فلما فرغ دخل بيني وبين المغيرة، فتوكل على المغيرة وقال: من أين جئتما؟ فقلنا: خرجنا نريدك يا أمير المؤمنين، فأتينا رحلك فقيل لنا: خرج إلى المسجد، فاتبعناك. فقال: اتبعكما الخير، ثم نظر المغيرة إلي وتبسم، فرمقه عمر، فقال: مم تبسمت أيها العبد! فقال: من حديث كنت أنا وأبو موسى فيه آنفاً في طريقنا إليك، قال: وما ذاك الحديث؟ فقصصنا عليه الخبر حتى بلغنا ذكر حسد قريش، وذكر من أراد صرف أبي بكر عن استخلاف عمر، فتنفس الصعداء ثم قال: ثكلتك أمك يا مغيرة! وما تسعة أعشار الحسد! بل وتسعة أعشار العشر، وفي الناس كلهم عشر العشر، بل وقريش شركاؤهم أيضاً فيه! وسكت ملياً وهو يتهادى بيننا، ثم قال: ألا أخبركما بأحسد قريش كلها؟ قلنا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: وعليكما ثيابكما؟ قلنا: نعم، قال: وكيف بذلك وأنتما ملبسان ثيابكما؟ قلنا: يا أمير المؤمنين، وما بال الثياب! قال: خوف الإذاعة منها، قلنا له: أتحاف الإذاعة من الثياب أنت، وأنت ملبس الثياب أخوف! وما الثياب أردت! قال: هو ذاك، ثم انطلق وانطلقنا معه حتى انتهينا إلى رحله، فخلى أيدينا من يده، ثم قال: لا تريما، ودخل فقلت للمغيرة: لا أبا لك! لقد عثرنا بكلامنا معه، وما كنا فيه، وما نراه حبسنا إلا ليذاكرنا إياها، قال: فإننا لكذلك إذ أخرج أذنه إلينا، فقال: ادخلا، فدخلنا فوجدناه مستلقياً على برذعة برحل، فلما رأنا تمثل بقول كعب ابن زهير:

أولى وأفضل ما استودعت أسراراً

لا نقش سرك إلا عندي ذي ثقة

ألا تخاف متى أودعت إظهاراً

صدراً رحيباً وقلباً واسعاً قمناً

فعلما أنه يريد أن نضمن له كتمان حديثه، فقلت أنا له: يا أمير المؤمنين، الزمنا وحصنا وصلنا، قال: بماذا يا أخوا الأشعرين؟ فقلت: بإفشاء سرك وأن تشركنا في همتك فنعم المستشاران نحن لك! قال: إنكما كذلك، فاسألا عما بدا لكما، ثم قام إلى الباب ليغلقه، فإذا الأذن الذي أذن لنا عليه في الحجرة، فقال: امض عنا لا أم لك! فخرج وأغلق الباب خلفه، ثم أقبل علينا، فجلس معنا، وقال: سلا تخبرا، قلنا: نريد أن نخبرنا أمير المؤمنين بأحسد قريش، الذي لم يأمن ثيابنا على ذكره لنا، فقال: سألتما عن معضلة؛ وسأخبركما فليكن عندكما في ذمة منيعة وحرز ما بقيت؛ فإذا مت فشأنكما وما شئتما من إظهار أو كتمان. قلنا: فإن لك عندنا ذلك. قال أبو موسى: وأنا أقول في نفسي: ما يريد إلا الذين كرهوا استخلاف أبي بكر له كطلحة وغيره، فإنهم قالوا لأبي بكر: أتستخلف علينا فظاً غليظاً! وإذا هو يذهب إلى غير ما في نفسي، فعاد إلى التنفس ثم قال: من تريانه؟ قلنا: والله ما ندري إلا ظناً! قال: ومن تظنان؟ قلنا: عساك تريد القوم الذين

أرادوا أبا بكر على صرف هذا الأمر عنك؛ قال: كلا والله! بل كان أبو بكر أعق؛ وهو الذي سألتما عنه، كان والله أحسد قريش كلها. ثم أطرقت طويلاً، فنظر المغيرة إلي ونظرت إليه، وأطرفنا ملياً لإطراقه، وطال السكوت منا ومنه، حتى ظننا أنه قد ندم على ما بدا منه. ثم قال: والهفاه على ضئيل بني تميم بن مرة! لقد تقدمني ظالماً، وخرج إلي منها آثماً، فقال المغيرة: أما تقدمه عليك يا أمير المؤمنين ظالماً فقد عرفناه، كيف خرج إليك منها آثماً؟ قال: ذاك لأنه لم يخرج إلي منها إلا بعد يأس منها، أما والله لو كنت أطعت يزيد بن الخطاب وأصحابه لم يتلمظ من حلاوتها بشيء أبداً، ولكني قدمت وأخرت، وصعدت وصوبت، ونقضت وأبرمت، فلم أجد إلا الإغضاء على ما نشب به منها، والتلهف على نفسي، وأملت إنابته ورجوعه، فوالله ما فعل حتى نغر بها بشماً.

قال المغيرة: فما منعك منها يا أمير المؤمنين، وقد عرضك لها يوم السقيفة بدعائك إليها! ثم أنت الآن تنقم وتتأسف.

قال: ثكلتك أمك يا مغيرة! إني كنت لأعدك من دهاة العرب، كأنك كنت غائباً عما هناك! إن الرجل ما كرتي فما كرتي، وألفاني احذر من قطاة، إنه لما رأى شغف الناس به، وإقبالهم بوجوههم عليه، أيقن أنهم لا يريدون به بدلاً، فأحب لما رأى من حرص الناس عليه، وميلهم إليه أن يعلم ما عندي، وهل تنازعني نفسي إليها؟ وأحب أن يبلوني بإطماعي فيها، والتعريض لي بها، وقد علم وعلمت لو قبلت ما عرضه علي، لم يجب الناس إلى ذلك، فألفاني قائماً على إخصي مستوفراً حذراً، ولو أجبته إلى قبولها لم يسلم الناس إلى ذلك، واختبأها ضعفاً علي في قلبه، ولم آمن غائله ولو بعد حين مع ما بدا لي من كراهة الناس لي، أما سمعت نداءهم من كل ناحية من كل ناحية عند عرضها علي: لا نريد سواك يا أبا بكر، أنت لها! فردتها إليه عند ذلك؛ فلقد رأيته التمع وجهه لذلك سروراً. ولقد عاتبني مرة على الكلام بلغه عني، وذلك لما قدم عليه بالأشعث أسيراً، فمن عليه وأطلقه، وزوجه أخته أم فروة، فقلت للأشعث وهو قاعد بين يديه: يا عدو الله، أكفرت بعد إسلامك، وارتددت ناكصاً على عقبيك! فنظر إلي نظراً علمت أنه يريد يكلمني بكلام في نفسه، ثم لقيني بعد ذلك في سكك المدينة، فقال لي: أنت صاحب الكلام يابن الخطاب؟ فقلت: نعم يا عدو الله؛ ولك عندي شر من ذلك، فقال: بئس الجزاء هذا لي منك! قلت: وعلام تريد مني حسن الجزاء؟ قال: لأنفي لك من اتباع هذا الرجل، والله ما جرأني على الخلاف عليه إلا تقدمه عليك، وتخلفك عنها، ولو كنت صاحبها لما رأيت مني خلافاً عليك. قلت: لقد كان ذلك، فما تأمر الآن؟ قال: إنه ليس بوقت أمر بل وقت صبر، ومضى ومضيت. ولقي الأشعث الزبرقان بن بدر فذكر له ما جرى بيني وبينه، فنقل ذلك إلى أبي بكر؛ فأرسل إلي بعتاب مؤلم، فأرسلت إليه: أما والله لتكفن أو لأقولن كلمة بالغة بي وبك في الناس، تحملها الركبان حيث ساروا، وإن شئت استمدنا ما نحن فيه عفواً، فقال: بل نستديمه، وإنها لصائرة إليك بعد أيام، فظننت أنه لا يأتي عليه جمعة حتى يردها علي، فتغافل، والله ما ذاكرني بعد ذلك حرفاً حتى هلك.

ولقد مد في أمدها عاضاً على نواجذه حتى حضره الموت، وأيس منها فكان منه ما رأيتم، فاكتمنا ما قلت لكما عن الناس كافة وعن بني هاشم خاصة، وليكن منكما بحيث أمرتكما. قومكما إذا شئتما على بركة الله. فقمنا ونحن نعجب من قوله، فوالله ما أفشيناه سره حتى هلك.

قال المرتضى: وليس في طعن عمر على أبي بكر ما يؤدي إلى فساد خلافته، إذ له أن يثبت إمامة نفسه بالإجماع، لا ينص

أبي بكر عليه. وأما الفلته فإنها وإن كانت محتملةً للبعثة كما قاله أبو علي رحمه الله تعالى؛ إلا أن قوله: وقى الله شرها، يخصصها بأن مخرجها مخرج الدم. وكذلك قوله: فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، وقوله: المراد وقى الله شر الاختلاف فيها، عدول عن الظاهر؛ لأن الشر في الكلام مضاف إليها دون غيرها. وأبعد من هذا التأويل قوله: إن المراد من عاد إلى مثلها من غير ضرورة وأكره المسلمين عليها فاقتلوه؛ لأن ما جرى هذا المجرى لا يعمون مثلاً لبيعة أبي بكر عندهم؛ لأن كل ذلك ما جرى فيها على مذاهبهم، وقد كان يجب على هذا أن يقول: فمن عاد فاقتلوه.

وليس له أن يقول: إنما أراد بالمثل وجهاً واحداً، وهو وقوعها من غير مشاورة، لأن ذلك إنما تم في أبي بكر خاصة بظهور أمره واشتتهار فضله، ولأنهم بادروا إلى العقد خوفاً من الفتنة؛ وذلك لأنه غير منكر أن يتفق من ظهور فضل غير أبي بكر واشتتهار أمره وخوف الفتنة ما اتفق لأبي بكر، فلا يستحق قتلاً ولا ذماً، على أن قوله: مثلها يقتضي وقوعها على الوجه الذي وقعت عليه، فكيف يكون ما وقع من غير مشاورة لضرورة داعية وأسباب موجبة مثلاً لما وقع بلا مشاورة، ومن غير ضرورة ولا أسباب! والذي رواه عن أهل اللغة من أن آخر يوم من شوال فلتة من حيث إن من لم يدرك فيه الثأر فإنه قول لا تعرفه، والذي نعرفه أنهم يسمون الليلة التي ينقضي بها آخر الأشهر الحرم ويتم فلتة، وهي آخر ليلة من ليالي الشهر، لأنه ربما رأى الهلال قوم لتسع وعشرين ولم يبصره الباقون، فيغير هؤلاء على أولئك وهم غارون، فلهذا سميت تلك الليلة فلتة؛ على أننا قد بينا أن مجموع الكلام يقتضي ما ذكرناه من المعنى، لو سلم له ما رواه عن أهل اللغة في احتمال هذه اللفظة.

قال: وقد ذكر صاحب كتاب العين أن الفلته الأمر الذي يقع على غير إحكام، فقد صح أنها موضوعة في اللغة لهذا، وإن جاز ألا تختص به، بل تكون لفظة مشتركة.

وبعد: فلو كان عمر لم يرد بقوله توهين بيعة أبي بكر، بل أراد ما ظنه المخالفون، لكان ذلك عائداً عليه بالنقص، لأنه وضع كلامه في غير موضعه، وأراد شيئاً فعبّر عن خلافه، فليس يخرج هذا الخبر من أن يكون طعنًا على أبي بكر؛ إلا بأن يكون طعنًا على عمر.

واعلم أنه لا يبعد أن يقال: إن الرضا والسخط، والحب والبغض، وما شاكل ذلك، من الأخلاق النفسانية وإن كانت أموراً باطنة، فإنها قد تعلم ويضطر الحاضرون بقرائن أحوال تفيدهم العلم الضروري؛ كما يعلم خوف الخائف وسرور المبتهج وقد يكون الإنسان عاشقاً لآخر فيعلم المخالطون لهما ضرورة أنه يعشقه، لما يشاهدونه من قرائن الأحوال، وكذلك يعلم من رقائق أحوال العابد المجتهد في العبادة، وصوم الهواجر وملازمة الأوراد وسهر الليل، أنه يتدين بذلك. فغير منكر أن يقول قاضي القضاة رحمه الله تعالى: إن المعلوم ضرورة في حال عمر تعظيم أبي بكر ورضاه بخلافته وتدينه بذلك، فالذي اعترضه رحمه الله تعالى به غير وارد عليه.

وأما الأخبار التي رواها عن عمر فأخبار غريبة، ما رأيناها في الكتب المدونة، وما وقفنا عليها إلا من كتاب المرتضى، وكتاب آخر يعرف بكتاب المسترشد لمحمد بن جرير الطبري - وليس هو محمد بن جرير صاحب التاريخ، بل هو من

رجال الشيعة - وأظن أن أمه من بني جرير من مدينة آمل طبرستان، وبنو جرير الآمليون شيعة مستهترون بالشيعة، فنسب إلى أخواله، ويدل على ذلك شعر مروى له وهو:

فأخوالي ويحكى المرء خاله

بأمل مولدي وبنو جرير

فإني رافضي عن كلاله

فمن يك رافضياً عن أبيه

وأنت تعلم حال الأخبار الغريبة التي لا توجد في الكتب المدونة كيف هي؟ فأما إنكاره ما ذكره شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى من أن الفلته هي آخر يوم من شوال، وقوله: إنا لا نعرفه؛ فليس الأمر كذلك بل هو تفسير صحيح، ذكره الجوهري في كتاب الصحاح قال: الفلته آخر ليلة من كل شهر، ويقال: هي آخر يوم من الشهر الذي بعده الشهر الحرام. وهذا يدل على أن آخر يوم من شوال يسمى فلته، وكذلك آخر يوم من جمادى الآخرة، وإنما التفسير الذي ذكره المرتضى غير معروف عند أهل اللغة.

وأما ما ذكره من إفساد حمل الفلته في الخبر على هذه الوجوه المتأولة فجيد، إلا أن الإنصاف أن عمر لم يخرج الكلام مخرج الذم لأمر أبي بكر؛ وإنما أراد بالفضة محض حقيقتها في اللغة، ذكر صاحب الصحاح أن الفلته الأمر الذي يعمل فجأة من غير تردد ولا تدبر، وهكذا كانت بيعة أبي بكر، لأن الأمر لم يكن فيها شورى بين المسلمين، وإنما وقعت بغتة لم تمحص فيها الآراء، ولم يتناظر فيها الرجال، وكانت كالشيء المستلب المنتهب، وكان عمر يخاف أن يموت عن غير وصية، أو يقتل عن غير وصية، أو يقتل قتلاً فيبايع أحد المسلمين بغتة كبيعة أبي بكر، فخطب بما خطب به، وقال معذراً: ألا أنه ليس فيكم من تقطع إليه الأعناق كأبي بكر! وأيضاً قول المرتضى: قد يتفق من ظهور فضل غير أبي بكر وخوف الفتنة مثل ما اتفق لأبي بكر، فلا يستحق القتل، فإن لقائل أن يقول: إن عمر لم يخاطب بهذا إلا أهل عصره، وكان رحمه الله تعالى يذهب إلى أنه ليس فيهم كأبي بكر، ولا من يحتمل له أن يبايع فلته كما احتتمل ذلك لأبي بكر؛ فإن اتفق أن يكون في عصر آخر بعد عصره من يظهر فضله، ويكون في زمانه كأبي بكر في زمانه فهو غير داخل في نهي عمر وتحريمه.

واعلم أن الشيعة لم تسلم لعمر أن بيعة أبي بكر كانت فلته، قال محمد بن هانئ المغربي:

وإن قال قوم فلته غير مبرم

ولكن أمراً كان أبرم بينهم

وقال آخر:

لا ورب البيت والركن المشيد

زعموها فلته فاجئة

بينهم أسبابها نسج البرود

إنما كانت أموراً نسجت

وروى أبو جعفر أيضاً في التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخرجوا سعد بن عباد، ليولوه الخلافة، وكان مريضاً، فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه، ثم تراءوا الكلام فقالوا: فإن أبي المهاجرين، وقالوا: نحن أوليائه وعترته؟ فقال قوم من الأنصار: نقول: منا أمير ومنكم أمير، فقال

سعد: هذا أول الوهن! وسمع عمر الخير فأتى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه أبو بكر، فأرسل إليه أن اخرج إلي، فأرسل: إني مشغول، فأرسل إليه عمر أن اخرج، فقد حدث أمر لا بد أن تحضره، فخرج فأعلمه الخبر، فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة، فتكلم أبو بكر، فذكر قرب المهاجرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهم أولياؤه وعترته، ثم قال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نفتات عليكم بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور. فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم، فإن الناس في ظلكم، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولا يصدر أحد إلا عن رأيكم. أنتم أهل العزة والمنعة، وأولوا العدد والكثرة، وذووا البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس ما تصنعون، فلا تختلفوا فتفسد عليكم أموركم، فإن أبي هؤلاء إلا ما سمعتم؛ فمننا أمير ومنهم أمير. فقال عمر: هيهات! لا يجتمع سيفان في غمد، والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة منهم، من ينازعنا سلطان محمد، ونحن أولياؤه وعشيرته! فقال الحباب بن المنذر: يا معشر الأنصار، املكوا أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه؛ فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم فأجلوهم من هذه البلاد، فأنتم أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيا فكم دان الناس بهذا الدين؛ أنا جدي لها المحكك، وعذيقها المرجب، أنا أبو شبل في عريسة الأسد، والله إن شئتم لنعيذنها جذعة، فقال عمر: إذن يقتلك الله، قال: بل إياك يقتل. فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار؛ إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير. فقام بشير بن سعد، والد النعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار؛ ألا إن محمداً من قريش، وقومه أولى به، وإيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر. فقال أبو بكر: هذا عمرك وأبو عبيدة بايعوا أيهما شئتم، فقالوا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة - وهي أفضل الدين - أبسط يدك. فلما بسط يده لبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير، عقلت عقاق! أنفست على ابن عمك الإمارة! فقال أسيد بن حضير رئيس الأوس لأصحابه: والله لئن لم تبايعوا ليكونن للخزرج عليكم الفضيلة أبداً. فقاموا فبايعوا أبا بكر. فانكسر على سعد بن عباد والخزرج ما اجتمعوا عليه، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب، ثم حمل سعد بن عباد إلى داره، فبقي أياماً، وأرسل إليه أبو بكر لبايع، فقال: لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي، وأخضب سنان رمحي، وأضرب بسيفي ما أطاعني، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن تبعني، ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي. فقال عمر: لا تدعه حتى يبايع، فقال بشير بن سعد: إنه قد لج، وليس بمبايع لكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته، ولا يضركم تركه؛ إنما هو رجل واحد، فتركوه، وجاءت أسلم فبايعت، فقوي بهم جانب أبي بكر، وبايعه الناس. وفي كتب غريب الحديث في تنمة كلام عمر: فأما رجل يبايع رجلاً بغير مشورة من الناس فلا يؤمر واحد منهما تغرة أن يقتلا.

قالوا: غرر تغريراً وتغرة. كما قالوا: حلل تحليلاً وتحلة، وعلل تعليلاً وتعلة، وانتصب تغرة ههنا لأنه مفعول له؛ ومعنى

الكلام أنه إذا بايع واحد آخر بغتة عن غير شورى، فلا يؤمر واحد منهما، لأفهما قد غررا بأنفسهما تغرة، وعرضاهما لأن تقتلا.

وروى جميع أصحاب السيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي كان أبو بكر في منزله بالسنح، فقام عمر بن الخطاب فقال:

ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله، وليرجعن، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ممن أرجف بموته، لا أسمع رجلاً يقول: مات رسول الله إلا ضربته بسيفي. فجاء أبو بكر وكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: بأبي وأمي! طبت حياً وميتاً، والله لا يذيقك الله الموتين أبداً، ثم خرج والناس حول عمر، وهو يقول لهم: إنه لم يمت، ويحلف، فقال له: أيها الخالف، على رسلك! ثم قال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون"، وقال: "أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم"، قال عمر: فوالله ما ملكت نفسي حيث سمعتها أن سقطت إلى الأرض، وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه قد مات.

وقد تكلمت الشيعة في هذا الموضع، وقالوا: إنه بلغ من قلة علمه أنه لم يعلم أن الموت يجوز على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه أسوة بالأنبياء في ذلك، وقال: لما تلا أبو بكر الآيات، أيقنت الآن بوفاته. كأني لم أسمع هذه الآية، فلو كان يحفظ القرآن أو يتفكر فيه، ما قال ذلك، ومن هذه حاله لا يجوز أن يكون إماماً.

وأجاب قاضي القضاة رحمه الله تعالى في المغني عن هذا فقال: إن عمر لم يمنع من جواز موته عليه السلام، ولا نفى كونه ممكناً، ولكنه تأول في ذلك قوله تعالى: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله"، وقال: كيف يموت ولم يظهر صلوات الله عليه على الدين كله! فقال أبو بكر: إذا ظهر دينه فقد ظهر هو، وسيظهر دينه بعد وفاته.

فحمل عمر قوله تعالى: "أفإن مات" على تأخر الموت، لا على نفيه بالكلية، قال: ولا يجب فيمن ذهل عن بعض أحكام القرآن، لأن الأمر لو كان كذلك لوجب ألا يحفظ القرآن إلا من عرف جميع أحكامه؛ على أن حفظ جميع القرآن غير واجب، ولا يقدح الإخلال به في الفصل.

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في كتاب الشافي هذا الكلام، فقال: لا يخلو خلاف عمر في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كل حال والاعتقاد أن الموت لا يجوز عليه على كل وجه، أو يكون منكرًا لموته في تلك الحال من حيث لم يظهر على الدين كله، فإن كان الأول فهو مما لا يجوز خلاف عاقل فيه، والعلم بجواز الموت على جميع البشر ضروري. وليس يحتاج في حصول هذا العلم إلى تلاوة الآيات التي تلاها أبو بكر. وإن كان الثاني، فأول ما فيه أن هذا الاختلاف لا يليق بما احتج به أبو بكر عليه من قوله: "إنك ميت"، لأن عمر لم ينكر على هذا الوجه جواز الموت عليه وصحته وإنما خالف في وقته. فكان يجب أن يقول لأبي بكر: وأي حجة في هذه الآيات علي! فإني لم أمنع جواز موته، وإنما منعت وقوع موته الآن، وجوزته في المستقبل، والآيات إنما تدل على جواز الموت فقط، لا على تخصيصه بحال معينة.

وبعد، فكيف دخلت هذه الشبهة البعيدة على عمر من بين سائر الخلق! ومن أين زعم أنه سيعود فيقطع أيدي رجال وأرجلهم! وكيف لم يحصل له من اليقين لما رأى من الواعية وكتابة الخلق وإغلاق الباب وصراخ النساء ما يدفع به ذلك الوهم والشبهة البعيدة، فلم يحتج إلى موقف! وبعد، فيجب إن كانت هذه شبهته أن يقول في مرض النبي صلى الله عليه وسلم - وقد رأى جزع أهله وخوفهم عليه الموت، وقول أسامة صاحب الجيش - : لم أكن لأرحل وأنت هكذا عنك الركب؛ يا هؤلاء لا تخافوا ولا تجزعوا، ولا تحف أنت يا أسامة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت الآن لأنه لم يظهر على الدين كله.

وبعد، فليس هذا من أحكام الكتاب التي يعذر من لا يعرفها على ما ظن المعتذر له.

ونحن نقول: إن عمر كان أجل قدراً من أن يعتقد ما ظهر عنه في هذه الواقعة، ولكنه لما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات، خاف من وقوع فتنة في الإمامة، وتقلب أقوام عليها، إما من الأنصار أو غيرهم، وخاف أيضاً من حدوث ردة، ورجوع عن الإسلام، فإنه كان ضعيفاً بعد لم يتمكن، وخاف من تراتٍ تشن، ودماء تراق، فإن أكثر العرب كان موتوراً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتل من قتل أصحابه منهم، وفي مثل ذلك الحال تنتهز الفرصة، وتهتل الغرة، فافتضت المصلحة عنده تسكين الناس بأن أظهر ما أظهره من كون رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت، وأوقع تلك الشبهة في قلوبهم، فكسر بها شرة كثير منهم، وظنوها حقاً، فثناهم بذلك عن حادث يحدثونه، تحيلاً منهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات، وإنما غاب كما غاب موسى عن قومه، وهكذا كان عمر يقول لهم: إنه قد غاب عنكم كما غاب موسى عن قومه، وليعودن فليقطعن أيدي قوم أرجفوا بموته.

ومثل هذا الكلام يقع في الوهم، فيصد عن كثير من العزم؛ ألا ترى أن الملك إذا مات في مدينة وقع فيها في أكثر الأمر نهب وفساد وتحريق، وكل من في نفسه حقد على آخر بلغ منه غرضه، إما بقتل أو جرح أو نهب مال؛ إلى أن تتمهد قاعدة الملك الذي يلي بعده؛ فإذا كان في المدينة وزير حازم الرأي، كتم موت الملك، وسجن قوماً ممن أرجف نداء بموته، وأقام فيهم السياسة، وأشاع أن الملك حي، وأن أوامره وكتبه نافذة، ولا يزال يلوم ذلك الناموس إلى أن يمهد قاعدة الملك للوالي بعده؛ وكذلك عمر أظهر ما أظهر حراسة للدين والدولة، إلى أن جاء أبو بكر - وكان غائباً بالسنح، وهو منزل بعيد عن المدينة - فلما اجتمع بأبي بكر قوي به جأشه، واشتد به أزره، وعظم طاعة الناس له وميلهم إليهم، فسكت حينئذ عن تلك الدعوى التي كان ادعاها، لأنه قد آمن بحضور أبي بكر من خطب يحدث، أو فساد يتجدد؛ وكان أبو بكر محبباً إلى الناس؛ لا سيما المهاجرين.

ويجوز عند الشيعة وعند أصحابنا أيضاً أن يقول الإنسان كلاماً ظاهر الكذب على جهة المعارض، فلا وصمة على عمر إذا كان حلف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت، ولا وصمة عليه في قوله بعد حضور أبي بكر وتلاوة ما تلا: كأني لم أسمعها، أو قد تيقنت الآن وفاته صلى الله عليه وسلم، لأنه أراد بهذا القول الأخير تشييد القول الأول، وكان هو الصواب، وكان من سيئ الرأي وقبيحه أن يقول: إنما قلته تسكيناً لكم، ولم أقله عن اعتقاد، فالذي بدأ به حسن وصواب، والذي ختم به أحسن وأصوب.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة عن عمر بن شبة، عن محمد ابن منصور، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث أبا سفيان ساعياً، فرجع من سعائته وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقيه قوم فسألهم، فقالوا: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: من ولي بعده؟ قيل: أبو بكر، قال: أبو فضيل! قالوا: نعم، قال: فما فعل المستضعفان: علي والعباس! أما والذي نفسي بيده لأرفعن لهما من أعضادهما.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وذكر الراوي - وهو جعفر بن سليمان - أن أبا سفيان قال شيئاً آخر لم تحفظه الرواة؛ فلما قدم المدينة قال: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم! قال: فكلّم عمر أبو بكر، فقال: إن أبا سفيان قد قدم، وإنا لا نأمن شره، فدع له ما في يده، فتركه فرضي.

وروى أحمد بن عبد العزيز أن أبا سفيان قال لما بايع عثمان: كان هذا الأمر في تيم، وأنى لتيّم هذا الأمر! ثم صار إلى عدي فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها، واستقر الأمر قراره، فتلقفوها تلقف الكرة. قال أحمد بن عبد العزيز: وحدثني المغيرة بن محمد المهلي قال: ذكرت إسماعيل بن إسحاق القاضي بهذا الحديث، وأن أبا سفيان قال لعثمان: بأي أنت! أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار - وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزب، فقال: يا بني أهنا أحد! قال الزبير: نعم والله لا كنتمتها عليك - قال: فقال إسماعيل: هذا باطل. قلت: وكيف ذلك؟ قال: ما أنكر هذا من أبي سفيان، ولكن أنكر أن يكون سمعه عثمان، ولم يضرب عنقه.

وروى أحمد بن عبد العزيز، قال: جاء أبو سفيان إلى علي عليه السلام، فقال: وليتم على هذا الأمر أذل بيت في قريش، أما والله لئن شئت لأملأها على أبي فضيل خيلاً ورجالاً، فقال علي عليه السلام: طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررهم شيئاً! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك، لولا أنا رأينا أبا بكر لها أهلاً، لما تركناه. وروى أحمد بن عبد العزيز، قال: لما بويع لأبي بكر كان الزبير والمقداد يختلفان في جماعة من الناس إلى علي وهو في بيت فاطمة، فيتشاورون ويتراجعون أمورهم، فخرج عمر حتى دخل على فاطمة عليها السلام، وقال: يا بنت رسول الله، ما من أحد من الخلق أحب إلينا من أبيك، وما من أحد أحب إلينا منك بعد أبيك، وإيم الله ما ذاك بمناعي إن اجتمع هؤلاء النفر عندك، أن أمر بتحريق البيت عليهم. فلما خرج عمر جاؤوها، فقالت: تعلمون أن عمر جاءني، وحلف لي بالله إن عدتم ليحرقن عليكم البيت، وإيم الله ليمضين لما حلف له، فانصرفوا عنا راشدين. فلم يرجعوا إلى بيتها، وذهبوا فبايعوا لأبي بكر.

وروى أحمد - وروى المبرد في الكامل صدر هذا الخبر - عن عبد الرحمن بن عوف، قال: دخلت على أبي بكر أعوده في مرضه الذي مات فيه، فسلمت، وسألته: كيف به؟ فاستوى جالساً، فقلت: لقد أصبحت بحمد الله بارئاً، فقال: أما إني على ما ترى لوجع، وجعلتم لي معشر المهاجرين شغلاً مع وجعي، وجعلت لكم عهداً مني من بعدي، واخترت لكم خيركم في نفسي، فكلكم ورم لذلك أنفه رجاء أن يكون الأمر له، ورأيتم الدنيا قد أقبلت؛ والله لتتخذن ستور الحرير

ونضائد الدياج، وتألون ضجائع الصوف الأذري ، كأن أحدكم على حسك السعدان . والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يسبح في غمرة الدنيا، وإنكم غداً لأول ضال بالناس يجورون عن الطريق يميناً وشمالاً، يا هادي الطريق جرت، إنما هو البحر أو الفجر . فقال له عبد الرحمن: لا تكثر على ما بك فيهيضك ، والله ما أردت إلا خيراً، وإن صاحبك لذو خير؛ وما الناس إلا رجлан: رجل رأى ما رأيت؛ فلا خلاف عليك منه، ورجل رأى غير ذلك، وإنما يشير عليك برأيه. فسكن وسكت هنيهةً، فقال عبد الرحمن: ما أرى بك بأساً والحمد لله، فلا تأس على الدنيا، فوالله إن علمناك إلا صالحاً مصلحاً. فقال: أما إني لا آسى إلا على ثلاث فعلتھن، ووددت أني أفعلھن، وثلاث لم أفعلھن ووددت أني أفعلھن، وثلاث ووددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنھن.

فأما الثلاث التي فعلتها ووددت أني لم أكن فعلتها: فوددت أني لم أكن كشفت عن بيت فاطمة وتركته ولو أغلق على حرب، ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين: عمر أو أبي عبيدة، فكان أميراً وكنت وزيراً، ووددت أني إذ أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقتة، وكنت قتلته بالحديد أو أطلقته. وأما الثلاث التي تركتها ووددت أني فعلتها: فوددت أني يوم أتيت بالأشعث كنت ضربت عنقه، فإنه يخيل إلي أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه؛ ووددت أني حيث وجهت خالداً إلى أهل الردة أقمت بذئ القصة، فإن ظفر المسلمون وإلا كنت رداءً لهم، ووددت حيث وجهت خالداً إلى الشام كنت وجهت عمر إلى العراق، فأكون بسطت كلتا يدي: اليمين والشمال في سبيل الله.

وأما الثلاث اللواتي ووددت أني كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنھن: فوددت أني سألته فيمن هذا الأمر، فكنا لا ننازعه أهله، ووددت أني كنت سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ ووددت أني سألته عن ميراث العمة وابنة الأخت، فإن في نفسي منهما حاجة.

ومن كتاب معاوية المشهور إلى علي عليه السلام: وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلاً على حمار ويداك في يدي إبنيك الحسن والحسين يوم بويح أبو بكر الصديق، فلم تدع أحداً من أهل بدر والسوابق إلا دعوتهم إلى نفسك، ومشيت إليهم بامرأتك، وادليت إليهم بابنيك، واستنصرتهم على صاحب رسول الله، فلم يجبك منهم إلا أربعة أو خمسة، ولعمري لو كنت محقاً لأجابوك، ولكن ادعيت باطلاً، وقلت ما لا تعرف، ورمت ما لا يدرك، ومهما نسيت فلا أنسى قولك لأبي سفيان، لما حركك وهيحك: لو وجدت أربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم؛ فما يوم المسلمين منك بواحد، ولا بغيك على الخلفاء بطريف ولا مستبدع.

وسنذكر تمام هذا الكتاب وأوله عند انتهائنا إلى كتب علي عليه السلام.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن أبي المنذر وهشام بن محمد بن السائب عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: كان بين العباس وعلي مباحدة، فلقي ابن عباس علياً، فقال: إن كان لك في النظر إلى عمك حاجة فأتها، وما أراك تلقاه بعدها. فوجم لها وقال: تقدمني واستأذن، فتقدمته واستأذنت له، فأذن فدخل، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه، وأقبل علي عليه السلام على يده ورجله يقبلهما، ويقول: يا عم، ارض عني رضي الله عنك، قال: قد رضيت

عنك.

ثم قال: يابن أخي، قد أشرت عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل، ورأيت عاقبتها ما كرهت، وهأنذا أشير برأيٍ رابع، فإن قبلته؛ وإلا نالك ما نالك مما كان قبله. قال: وما ذاك يا عم؟ قال: أشرت عليك في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله، فإن كان الأمر فينا أعطانا، وإن كان في غيرنا أوصى بنا. فقلت: أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده، فمضت تلك. فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة، فدعوناك إلى أن نبايعك، وقلت لك: ابسط يدك أبايعك، وبايعك هذا الشيخ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك أحد من قريش، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب، فقلت: لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم شغل، وهذا الأمر فليس نخشى عليه؛ فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة، فقلت: يا عم، ما هذا؟ قلت: ما دعوناك إليه فأبيت، قلت: سبحان الله! أو يكون هذا! قلت: نعم. قلت: أفلا يرد؟ قلت لك: وهل رد مثل هذا قط! ثم أشرت عليك حين طعن عمر فقلت: لا تدخل نفسك في الشورى، فإنك إن اعترلتهم قدموك، وإن ساويتهم تقدموك، فدخلت معهم فكان ما رأيت.

ثم أنا الآن أشير عليك برأيٍ رابع، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله؛ إني أرى أن هذا الرجل - يعني عثمان - قد أخذ في أمور، والله لكأني بالعرب قد سارت إليه حتى ينحر في بيته كما ينحر الجمل. والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة ألزمتك الناس به، وإذا كان ذلك لم تنل من الأمر شيئاً إلا من بعد شر لا خير معه. قال عبد الله بن عباس: فلما كان يوم الجمل عرضت له - وقد قتل طلحة، وقد أكثر أهل الكوفة في سبه وغمصه - فقال علي عليه السلام: أما والله لئن قالوا ذلك، لقد كان كما قال أخو جعفي :

فتى كان يدينه الغنى من صديقه

إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

ثم قال: والله لكأن عمي كان ينظر من وراء سترٍ رقيق، والله ما نلت من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شرٍ لا خير معه. وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز، عن حباب بن يزيد، عن جرير بن المغيرة أن سلمان والزيبر والأنصار كان هواهم أن يبايعوا علياً عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فلام بويج أبو بكر، قال سلمان: أصبتم الخبرة وأخطأتم المعدن. قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا علي بن أبي هاشم، قال: حدثنا عمرو ابن ثابت، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: قال سلمان يومئذ: أصبتم ذا السن منكم، وأخطأتم أهل بيت نبيكم؛ لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان، ولأكلتموها رغداً.

قال أبو بكر: وأخبرنا عمر بن شبة، قال: حدثني محمد بن يحيى، قال: حدثنا غسان بن عبد الحميد، قال: لما أكثر الناس في تخلف علي عليه السلام عن بيعة أبي بكر، واشتد أبو بكر وعمر عليه في ذلك، خرجت أم مسطح بن أثانة، فوقفت عند القبر، وقالت :

كانت أمور وأبناء وهنبة

لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها

واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، قال: غضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر بغير مشورة، وغضب علي والزبير، فدخلوا بيت فاطمة عليها السلام، معهما السلاح، فجاء عمر في عصابة، منهم أسيد بن حضير وسلمة بن سلامة بن وقش - وهما من بني عبد الأشهل - فصاحت فاطمة عليها السلام، وناشدتهم الله. فأخذوا سيفي علي والزبير، فضربوا بهما الجدار حتى كسروهما، ثم أخرجهما عمر يسوقهما حتى بايعا، ثم قام أبو بكر فخطب الناس، واعتذر إليهم، وقال: إن بيعتي كانت فلتة وقى الله شرها، وخشيت الفتنة، وإيم الله ما حرصت عليها يوماً قط، ولقد تقلدت أمراً عظيماً ما لي به طاقة ولا يدان، ولوددت أن أقوى الناس عليه مكاني. وجعل يعتذر إليهم، فقبل المهاجرون عذره. وقال علي والزبير: ما غضبنا إلا في المشورة، وإنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف له سنه، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حي.

قال أبو بكر - وقد روى بإسناد آخر ذكره؛ أن ثابت بن قيس بن شماس كان مع الجماعة الذين حضروا مع عمر في بيت فاطمة عليها السلام، وثابت هذا أخو بني الحارث بن الخزرج. وروى أيضاً أن محمد بن مسلمة كان معهم، وأن محمداً هو الذي كسر سيف الزبير.

قال أبو بكر: وحدثني يعقوب بن شيبه، عن أحمد بن أيوب، عن إبراهيم بن سعد، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الله بن عباس، قال: خرج علي عليه السلام على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه، فقال له الناس: كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا الحسن؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً، قال: فأخذ العباس بيد علي، ثم قال: يا علي، أنت عبد العصا بعد ثلاث؛ أحلف لقد رأيت الموت في وجهه - وإن لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب - فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا ذكر له هذا الأمر: إن كان فينا أعلمنا، وإن كان في غيرنا أوصى بنا. فقال: لا أفعل، والله إن منعناه اليوم لا يؤتيناها الناس بعده؛ قال: فتوفي رسول الله ذلك اليوم.

وقال أبو بكر: حدثني المغيرة بن محمد المهلي من حفظه وعمر بن شبة من كتابه، بإسناد رفعه إلى أبي سعيد الخدري، قال: سمعت البراء بن عازب يقول: لم أزل لبني هاشم محباً، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تخوفت أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عن بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الواله العجول.

ثم ذكر ما قد ذكرناه نحن في أول هذا الكتاب في شرح قوله عليه السلام: أما والله لقد تقمصها فلان، وزاد فيه في هذه الرواية: فمكثت أكابد ما في نفسي، فلما كان بليل، خرجت إلى المسجد، فلما صرت فيه تذكرت أني كنت أسمع همهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن، فامتنعت من مكاني، فخرجت إلى الفضاء، فضاء بني بياضة، وأجد نفراً يتناجون، فلما دنوت منهم سكتوا، فانصرفت عنهم، فعرفوني وما أعرفهم، فدعوني إليهم فأتيتهم، فأجد المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وأبا ذر، وحذيفة، وأبا الهيثم بن التيهان، وإذا حذيفة يقول لهم: والله ليكونن ما أخبرتكم به، والله ما كذبت ولا كذبت، وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين.

ثم قال: اتوا أبي بن كعب، فقد علم كما علمت. قال: فانطلقنا إلى أبي، فضربنا عليه بابه، حتى صار خلف الباب، فقال:

من أنتم؟ فكلمه المقداد، فقال: ما حاجتكم؟ فقال له: افتح عليك بابك، فإن الأمر أعظم من أن يجري من وراء حجاب، قال: ما أنا بفاتح بابي، وقد عرفت ما جئتم له، كأنكم أردتم النظر في هذا العقد. فقلنا: نعم، فقال: أفيكم حذيفة؟ فقلنا: نعم، قال: فالقول ما قال، وبالله ما أفتح عني بابي حتى يجري على ما هي جارية، ولما يكون بعدها شر منها، وإلى الله المشتكى! قال: وبلغ الخبر أبا بكر وعمر، فأرسلا إلى أبي عبيدة والمغيرة بن شعبة، فسألاههما عن الرأي، فقال المغيرة: أن تلقوا العباس فتجعلوا له في هذا الأمر نصيباً فيكون له ولعقبه، فتقطعوا به من ناحية علي، ويكون لكم حجة عند الناس على علي، إذا مال معكم العباس.

فانطلقوا حتى دخلوا على العباس في الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم ذكر خطبة أبي بكر وكلام عمر وما أجابهما العباس به، وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب في الجزء الأول.

وروى أبو بكر، قال: أخبرنا أحمد بن إسحاق بن صالح، قال: حدثنا عبد الله بن عمر، عن حماد بن زيد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، قال: لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عباد، فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فقال الحباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير، إنا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط؛ ولكننا نخاف أن يليه بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم، فقال عمر بن الخطاب: إذا كان ذلك قمت قمت إن استطعت. فتكلم أبو بكر فقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، والأمر بيننا نصفان كشق الأبلême. فبويع، وكان أول من بايعه بشير بن سعد والد النعمان بن بشير.

فلما اجتمع للناس على أبي بكر، قسم قسماً بين نساء المهاجرين والأنصار، فبعث إلى امرأة من بني عدي بن النجار قسمها مع زيد بن ثابت، فقالت: ما هذا؟ قال: قسم قسمه أبو بكر للنساء، قالت: أتراشوني عن ديني! والله لا أقبل منه شيئاً فردته عليه.

قلت: قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي الحسيني المعروف بابن أبي زيد نقيب البصرة رحمه الله تعالى في سنة عشر وستمئة من كتاب السقيفة لأحمد بن عبد العزيز الجوهري، قال: لقد صدقت فراسة الحباب، فإن الذي خافه وقع يوم الحرة وأخذ من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر. ثم قال لي رحمه الله تعالى: ومن هذا خاف أيضاً رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذريته وأهله، فإنه كان عليه السلام قد وتر الناس، وعلم أنه إن مات وترك ابنته وولدها سوقة ورعية تحت أيدي الولاة، كانوا بعرض خطر عظيم، فما زال يقرر لابن عمه قاعدة الأمر بعده، حفظاً لدمه ودماء أهل بيته، فإنهم إذا كانوا ولاية الأمر كانت دماؤهم أقرب إلى الصيانة والعصمة مما إذا كانوا سوقة تحت يد والٍ من غيرهم، فلم يساعده القضاء والقدر، وكان من الأمر ما كان. ثم أفضى أمر ذريته فيما بعد إلى ما قد علمت.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: حدثني يعقوب بن شيبه بإسناد رفعه إلى طلحة بن مصرف، قال: قلت لهذيل بن شرحبيل: إن الناس يقولون: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى علي عليه السلام، فقال: أبو بكر يتأمر على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم! ود أبو بكر أنه وجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه عهداً فخزم أنفه. قلت: هذا الحديث قد خرج الشيوخان: محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري في صحيحيهما عن

طلحة بن مصرف، قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى: أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، قلت: فكيف كتب على المسلمين الوصية أو كيف أمر بالوصية ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله. قال طلحة: ثم قال ابن أبي أوفى: ما كان أبو بكر يتأمر على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ود أبو بكر أنه وجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً، فخرم أنفه بخزاه.

وروى الشيخان في الصحيحين عن عائشة أنه ذكر عندها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى، قالت: ومتى أوصى؟ ومن يقول ذلك! قيل: إنهم يقولون، قالت: من يقوله؟ لقد دعا بطست ليبول، وإنه بين سحري ونحري فانخت، في صدري فمات وما شعرت.

وفي الصحيحين أيضاً، خرجاه معاً عن ابن عباس، أنه كان يقول: يوم الخميس، وما يوم الخميس! ثم بكى حتى بل دمه الحصى، فقلنا: يابن عباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه، فقال: اتوني بكتاب أكتبه لكم لا تضلوا بعدي أبداً. فتنازعوا، فقال: إنه لا ينبغي عندي تنازع، فقال قائل: ما شأنه؟ أهرج؟ استفهموه. فذهبوا يعيدون عليه، فقال: دعوني، والذي أنه فيه خير من الذي أنتم فيه، ثم أمر بثلاثة أشياء، فقال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم؛ وسئل ابن عباس عن الثالثة، فقال: إما ألا يكون تكلم بها، وإما أن يكون قالها فنسيت.

وفي الصحيحين أيضاً خرجاه معاً عن ابن عباس رحمه الله تعالى، قال: لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا إليه يكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول: القول ما قاله عمر؛ فلما أكثروا اللغو والاختلاف عنده عليه السلام، قال لهم: قوموا، فقاموا، فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لكم ذلك الكتاب.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري: وحدثني أحمد بن إسحاق بن صالح، قال: حدثني عبد الله بن عمر بن معاذ، عن ابن عون، قال: حدثني رجل من زريق أن عمر كان يومئذ قال: يعني يوم بويح أبو بكر، محتجراً يهرول بين يدي أبي بكر؛ ويقول: ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر. قال: فجاء أبو بكر حتى جلس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني وليتكم ولست بخيركم، ولكنه نزل القرآن، وسنت السنن، وعلمنا فتعلمنا أن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور. وإن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بالحق، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق. أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع، إذا أحسنت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني.

قال أبو بكر: وحدثني أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا أحمد بن معاوية، قال: حدثني النضر بن شميل، قال: حدثنا محمد بن عمرو، عن سلمة بن عبد الرحمن، قال: لما جلس أبو بكر على المنبر، كان علي عليه السلام والزبير وناس من بني هاشم في بيت فاطمة، فجاء عمر إليهم، فقال: والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم! فخرج

الزبير مصلاً سيفه، فاعتنقه رجل من الأنصار وزيد بن لبيد، فبدر السيف، فصاح به أبو بكر وهو على المنبر: اضرب به الحجر، فدق به. قال أبو عمرو بن حماس: فلقد رأيت الحجر فيه تلك الضربة، ويقال هذه ضربة سيف الزبير، ثم قال أبو بكر: دعوهم فسيأتي الله بهم، قال: فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه.

قال أبو بكر: وقد روي في رواية أخرى أن سعد بن أبي وقاص، كان معهم في بيت فاطمة عليها السلام والمقداد بن الأسود أيضاً، وأنهم اجتمعوا على أن يبايعوا علياً عليه السلام، فأتاهم عمر ليحرق عليهم البيت، فخرج إليه الزبير بالسيف، وخرجت فاطمة عليها السلام تبكي وتصيح؛ فنهت من الناس، وقالوا: ليس عندنا معصية، ولا خلاف في خير اجتماع عليه الناس؛ وإنما اجتمعنا لنؤلف القرآن في مصحف واحد. ثم بايعوا أبا بكر، فاستمر الأمر واطمأن الناس. قال أبو بكر: وحدثنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: أخبرنا أبو بكر الباهلي، قال: حدثنا إسماعيل ابن مجالد، عن الشعبي، قال: سألت أبو بكر فقال: أين الزبير؟ فقليل: عند علي وقد تقلد سيفه، فقال: قم يا عمر، قم يا خالد بن الوليد؛ انطلقا حتى تأتيا به، فانطلقا، فدخل عمر، وقام خالد على باب البيت من خارج، فقال عمر للزبير: ما هذا السيف؟ فقال نبايع علياً، فاختارطه عمر فضرب به حجراً فكسره، ثم أخذ بيد الزبير فأقامه ثم دفعه، وقال: يا خالد دونكه فأمسكه، ثم قال لعلي: قم فبايع لأبي بكر، فتلكأ واحتبس، فأخذ بيده، وقال: قم، فأبى أن يقوم، فحمله ودفعه كما دفع الزبير فأخرجه، ورأت فاطمة ما صنع بهما، فقامت على باب الحجرة، وقالت: يا أبا بكر، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله! والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله. قال: فمشى إليها أبو بكر بعد ذلك وشفع لعمر، وطلب إليها فرضيت عنه.

قال أبو بكر: وحدثنا أبو زيد، قال: حدثنا محمد بن حاتم، قال: حدثنا الحرامي، قال: حدثنا الحسين بن زيد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: مر عمر بعلي وعنده ابن عباس بفناء داره، فسلم فسألاه: أين تريد؟ فقال: مالي بينبع، قال علي: أفلا نصل جناحك ونقوم معك؟ فقال: بلى، فقال لابن عباس: قم معه، قال: فشبك أصابعه في أصابعي، ومضى حتى إذا خلطنا البقيع، قال: يابن عباس، أما والله إن كان صاحبك هذا أولى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلا أنا خفناه على اثنين. قال ابن عباس: فجاء بمنطق لم أجد بداً معه من مسألته عنه، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما هما؟ قال: خشينا على حداثة سنه وحبه بني عبد المطلب.

قال أبو بكر: وحدثني أبو زيد، قال: حدثنا هارون بن عمر، بإسناد رفعه إلى ابن عباس رحمه الله تعالى، قال: تفرق الناس ليلة الجابية عن عمر، فسار كل واحد مع إلفه، ثم صادفت عمر تلك الليلة في مسيرنا، فحدثته، فشكا إلي تخلف علي عنه. فقلت: ألم يعتذر إليك؟ قال: بلى، فقلت: هو ما اعتذر به، قال: يابن عباس، إن أول من ريثكم عن هذا الأمر أبو بكر، إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوة، قلت: لم ذاك يا أمير المؤمنين؟ ألم نلهم خيراً؟ قال: بلى، ولكنهم لو فعلوا لكتنم عليهم جحفاً جحفاً.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا عبد العزيز بن الخطاب، قال: حدثنا علي بن هشام، مرفوعاً إلى عاصم بن عمرو بن قتادة، قال: لقي علي عليه السلام عمر، فقال له علي عليه السلام: أنشدك الله، هل استخلفك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، قال: فكيف تصنع أنت وصاحبك؟ قال: أما صاحبي فقد مضى لسبيله، وأما أنا فسأخلعها من

عنقي إلى عنقك، فقال: جدع الله أنف من ينقذك منها! لا ولكن جعلني الله علماً؛ فإذا قمت فمن خالفني ضل.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، عن هارون بن عمر، وعن محمد بن سعيد بن الفضل عن أبيه، عن الحارث بن كعب، عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي، قال: كان خالد بن سعيد بن العاص من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء المدينة، وقد بايع الناس أبا بكر، فاحتبس عن أبي بكر فلم يبايعه أياماً، وقد بايع الناس، وأتى بني هاشم، فقال: أنتم الظهر والبطن، والشعار دون الدثار، والعصا دون اللحا، فإذا رضيتم رضينا، وإذا سخطتم سخطنا. حدثوني إن كنتم قد بايعتم هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: على برد ورضاً من جماعتكم؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أَرْضَى وأُبايع إذا بايعتم. أما والله يا بني هاشم، إنكم الطوال الشجر الطيبو الثمر. ثم إنه بايع أبا بكر، وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها، واضطغنها عليه عمر، فلما ولاه أبو بكر الجند الذي استنفر إلى الشام، قال له عمر: أتولي خالداً وقد حبس عليك بيعته، وقال لبني هاشم ما قال، وقد جاء بورق من اليمن وعبيد وحبشان ودروع ورماح! ما أرى أن توليه، وما آمن خلافة. فانصرف عنه أبو بكر؛ وولى أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة.

واعلم أن الآثار والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً، ومن تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نص صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك، ولا تتطرق إليه الاحتمالات كما تزعم الإمامية، فإنهم يقولون: إن الرسول صلى الله عليه وسلم على أمير المؤمنين عليه السلام نصاً صريحاً جلياً ليس بنص يوم الغدير، ولا خير المتزلة، ولا ما شاههما من الأخبار الواردة من طرق العامة وغيرها، بل نص عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين، وأمر المسلمين أن يسلموا عليه بذلك، فسلموا عليه بها، وصرح لهم في كثير من المقامات بأنه خليفة عليهم من بعده، وأمرهم بالسمع والطاعة له. ولا ريب أن المنصف إذا سمع ما جرى لهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قطعاً أنه لم يكن هذا النص، ولكن قد سبق إلى النفوس والعقول أنه قد كان هناك تعريض وتلويح، وكناية وقول غير صريح، وحكم غير مثبت، ولعله صلى الله عليه وسلم كان يصده عن التصريح بذلك أمر يعلمه، ومصلحة يراعيها، أو وقوف مع إذن الله تعالى في ذلك.

فأما امتناع علي عليه السلام من البيعة حتى أخرج على الوجه الذي أخرج عليه، فقد ذكره المحدثون ورواه أهل السير وقد ذكرنا ما قاله الجوهرى في هذا الباب؛ وهو من رجال الحديث ومن الثقات المأمونين، وقد ذكر غيره من هذا النحو ما لا يحصى كثرة.

فأما الأمور الشنيعة المستهجنة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة عليها السلام، وأنه ضربها بالسوط فصار في عضدها كالدملج وبقي أثره إلى أن ماتت، وأن عمر أضغطها بين الباب والجدار، فصاحت: يا أبتاه يا رسول الله! وألقت جنيئاً ميتاً، وجعل في عنق علي عليه السلام حبل يقاد به وهو يعتل، وفاطمة خلفه تصرخ وتنادي بالويل والثبور، وابناه حسن وحسين معهما يبكيان، وأن علياً لما أحضر سأله البيعة فامتنع، فتهدد بالقتل، فقال: إذن تقتلون عبد الله وأخا رسول الله! فقالوا: أما عبد الله فنعم، وأما أخو رسول الله فلا، وأنه طعن فيهم في أوجههم بالنفاق، وسطر صحيفة الغدر التي اجتمعوا عليها، وبأنهم أرادوا أن ينفروا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، فكله لا أصل

له عند أصحابنا، ولا يثبت أحد منهم، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله. ومنها: الأصل: ولم يبايع حتى شرط أن يؤتبه على البيعة ثمناً. فلا ظفرت يد البائع، وخزيت أمانة المبتاع! فخذوا للحرب أهبتها، وأعدوا لها عدتها، فقد شب لظاها، وعلا سناها. واستشعروا الصبر، فإنه أدعى إلى النصر. الشرح: هذا فصل من كلام يذكر فيه عليه السلام عمرو بن العاص. وقوله: فلا ظفرت يد البائع، يعني معاوية. وقوله: وخزيت أمانة المبتاع، يعني عمرًا، وخزيت، أي خسرت وهانت. وفي أكثر النسخ: فلا ظفرت يد المبايع، بميم المفاعلة، والظاهر ما روينا.

وفي بعض النسخ: فإنه أحزم للنصر، من حزمت الشيء إذا شددته، كأنه يشد النصر ويوثقه، والرواية التي ذكرناها أحسن.

والأهبة: العدة. وشب لظاها استعاره، وأصله صعود طرف النار الأعلى. والسنا بالقصر: الضوء. واستشعروا الصبر: اتخذوه شعاراً، والشعار: ما يلي الجسد من الثياب؛ وهو ألزم الثياب للجسد، يقول: لا زموا الصبر كما يلزم الإنسان ثوبه الذي يلي جلده لا بد له منه، وقد يستغني عن غيره من الثياب.

كتب إلى معاوية وعمرو بن العاص

لما نزل علي عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعو به إلى البيعة، أرسل فيه جرير بن عبد الله البجلي. فقدم عليه به الشام. فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وطاول جريراً بالجواب عن الكتاب، حتى كلم قوماً من أهل الشام في الطلب بدم عثمان، فأجابوه ووثقوا له، وأحب الزيادة في الاستظهار، فاستشار أخاه عتبة بن أبي سفيان، فقال له: استعن بعمر بن العاص، فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشد اعتزالاً؛ إلا أن يثمن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا، فكتب إليه معاوية: أما بعد، فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أذاكرك أموراً لا تعدم صلاح مغبتها، إن شاء الله.

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنه: عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبد الله: أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو راض، والخليفتان من بعده؛ وقتل عثمان وأنت عنه غائب، فقر في منزلك، فلست مجعولاً خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية، على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا، فتستويا في عقابها. وقال محمد: أرى أنك شيخ قريش، وصاحب أمرها، وإن تصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل تصاغر أمرك، فالحق بجماعة أهل الشام، وكن يداً من أيديها، طالباً بدم عثمان، فإنه سيقوم بذلك بنو أمية.

فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله، فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا ناظر. فلما جنه الليل رفع صوته وأهله يسمعون، فقال:

وخوف التي تجلو وجوه العوائق

وتلك التي فيها بنات البوائق

تطاول ليلى بالهموم الطوارق

وإن ابن هند سألني أن أزوره

أثناء جرير من علي بخطبة
فإن نال مني ما يؤمل رده
فوالله ما أدري وما كنت هكذا
أخادعه إن الخداع دنية
أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحة
وقد قال عبد الله قولاً تعلق
وخالقه فيه أخوه محمد
أمرت عليه العيش ذات مضائق
وإن لم ينله ذل المطابق
أكون ومهما قادني فهو سابق
أمن أعطيه من نفسي نصيحة وامق
لشيخ يخاف الموت في كل شارق
به النفس إن لم تقتطعني عوائي
وإني لصلب العود عند الحقائق

فقال عبد الله: رحل الشيخ. ودعا عمرو غلامه وردان - وكان داهياً مارداً - فقال: ارحل يا وردان، ثم قال: احطط يا وردان، ثم قال: ارحل يا وردان، احطط يا وردان. فقال له وردان: خلطت أبا عبد الله! أما إنك إن شئت أنأتك بما في قلبك، قال: هات ويحك! قال: اعتزكت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: علي معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوض من الدنيا، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة، وليس في الدنيا عوض من الآخرة، وأنت واقف بينهما، قال: قاتلك الله! ما أخطأت ما في قلبي، فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. قال: الآن لما أشهرت العرب سيري إلى معاوية! فارتحل وهو يقول:

يا قاتل الله ورداناً وقدحته
أبدى لعمرك ما في النفس وردان
لما تعرضت الدنيا عرضت لها
بحرص نفسي وفي الأطباع إدهان
نفس تعف وأخرى الحرص يغلبها
والمرء يأكل تبناً وهو غرثان
أما علي فدين ليس يشركه
دنياه، وذاك له دنيا وسلطان
فاخترت من طمعي دنيا على بصر
وما معي بالذي أختار برهان
إني لأعرف ما فيها وأبصره
وفي أيضاً لما أهواه ألوان
لكن نفسي تحب العيش في شرف
وليس يرضى بذل العيش إنسان

فسار حتى قدم على معاوية، وعرف حاجة معاوية إليه، فباعده من نفسه، وكايد كل واحد منهما صاحبه. فقال له معاوية يوم دخل عليه: أبا عبد الله، طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها ورد ولا صدر، قال: وما ذاك؟ قال: منها أن محمد بن أبي حذيفة كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه، وهو من آفات هذا الدين. ومنها أن قيصر زحف بجماعة الروم ليغلب على الشام. ومنها أن علياً نزل الكوفة، وهياً للمسير إلينا. فقال عمرو: ليس كل ما ذكرت عظيماً؛ أما ابن حذيفة، فما يتعاضمك من رجل خرج في أشباهه أن تبعث إليه رجلاً يقتله أو يأتيك به، وإن قاتل لم يضرك! وأما قيصر فأهد له الوصائف وآنية الذهب والفضة، وسله المواعدة فإنه إليها

سريع. وأما علي فلا والله ما يسوي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء، وإن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش، وإنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه. هكذا في رواية نصر بن مزاحم عن محمد بن عبيد الله. وروى نصر أيضاً عن عمر بن سعد قال: قال معاوية لعمر: يا أبا عبد الله، إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصا المسلمين، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة، وفرق الجماعة وقطع الرحم، فقال عمرو: من هو؟ قال: علي، قال: والله يا معاوية ما أنت وعلي بحملي بعير، ليس لك هجرته ولا سابقته، ولا صحبته ولا جهاده، ولا فقهه ولا علمه. والله إن له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لأحد غيره، ولكني قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً، فما تجعل لي إن شابتك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال: مصر طعمة، فتلكاً عليه معاوية. قال نصر: وفي هذا حديث غير عمر بن سعد: فقال له معاوية: يا أبا عبد الله، إني أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا، قال عمرو: دعني عنك، فقال معاوية: إني لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت، قال عمرو: لا، لعمر الله ما مثلي يخدع، لأننا أكيس من ذلك، قال معاوية: ادن مني أسارك، فدنا منه عمرو ليساره، فعض معاوية أذنه، وقال: هذه خدعة! هل ترى في البيت أحداً؟ ليس غيري وغيرك.

قلت: قال شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله تعالى: قول عمرو له: دعني عنك، كناية عن الإلحاد، بل تصريح به، أي دع هذا الكلام لا أصل له، فإن اعتقاد الآخرة، وأنها لا تباع بعرض الدنيا من الخرافات. وقال رحمه الله تعالى: وما زال عمرو بن العاص ملحداً، ما تردد قط في الإلحاد والزندقة، وكان معاوية مثله، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السرار المروي، وأن معاوية عض أذن عمرو، أين هذا من سيرة عمر؟ وأين هذا من أخلاق علي عليه السلام وشدته في ذات الله، وهما مع ذلك يعيانه بالدعابة! قال نصر: فأنشأ عمرو يقول:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل	به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصرأ فأربح بصفقة	أخذت بها شيخاً يضر وينفع
وما الدين والدنيا سواء وإنني	لأخذ ما تعطي ورأسي مقتنع
ولكني أغضي الجفون وإنني	لأخدع نفسي، والمخادع يخدع
وأعطيك أمراً فيه للملك قوة	وألقي به إن زلت النعل أصرع
وتمنعي مصرأ وليست برغبة	وإني بذ الممنوع قدماً لمولع

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: كانت مصر في نفس عمرو بن العاص، لأنه هو الذي فتحها في سنة تسع عشرة من الهجرة في خلافة عمر، فكان لعظمها في نفسه وجلالتها في صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثناً من دينه، وهذا معنى قوله: وإني بذ الممنوع قدماً لمولع.

قال نصر: فقال له معاوية: يا أبا عبد الله، أما تعلم أن مصر مثل العراق! قال: بلى، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك،

وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق.

قال: وقد كان أهل مصر بعثوا بطاعتهم إلى علي عليه السلام، فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هي صفت لك! ليتك لا تغلب على الشام. فقال معاوية: يا عتبة، بت عندنا الليلة، فلما جن الليل على عتبة رفع صوته لسمع معاوية، وقال:

أيها المانع سيفاً لم يهز	إنما ملئت على خزٍ وقز
إنما أنت خروف مائل	بين ضرعين وصوفٍ لم يجز
أعط عمراً إن عمراً تارك	دينه اليوم لدنيا لم تحز
يا لك الخير فخذ من دره	شخبه الأول وابعد ما غرز
واسحب الذيل وبادر فوقها	وانتهزها إن عمراً ينتهز
أعطه مصرأ وزده مثلها	إنما مصر لمن عز فبز
واترك الحرص عليها صلة	واشعب النار لمقرورٍ يكز
إن مصرأ لعلّي أو لنا	يغلب اليوم عليها من عجز

قال: فلما سمع معاوية قول عتبة، أرسل إلى عمرو، فأعطاه مصر، فقال عمرو: لي الله عليك بذلك شاهد؟ قال: نعم، لك الله علي بذلك إن فتح علينا الكوفة، فقال عمرو: "والله على ما نقول وكيل".

فخرج عمرو من عنده، فقال له ابنه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر طعمة، قالوا: وما مصر في ملك العرب! قال: لا أشبع بطونكم إن لم تشبعكم مصر.

قال: وكتب معاوية له بمصر كتابه، وكتب: على ألا ينقض شرط طاعة، فكتب عمرو: على ألا تنقض طاعة شرطاً. فكايد كل واحد منهما صاحبه.

قلت: قد ذكر هذا اللفظ أبو العباس محمد بن يزيد الميرد في كتابه الكامل ولم يفسره، وتفسيره أن معاوية قال للكاتب: اكتب على ألا ينقض شرط طاعة، يريد أخذ إقرار عمرو له أنه قد بايعه على الطاعة ببيعة مطلقة غير مشروطة بشيء، وهذه مكيدة له؛ لأنه لو كتب ذلك لكان لمعاوية أن يرجع في إعطائه مصر، ولم يكن لعمرو أن يرجع عن طاعته، ويحتج عليه برجوعه عن مصر، لأن مقتضى المشاركة المذكورة، أن طاعة معاوية واجبة عليه مطلقاً، سواء أكانت مصر مسلمة إليه أم لا.

فلما انتبه عمرو إلى هذه المكيدة منع الكاتب من أن يكتب ذلك، وقال: بل اكتب: على ألا تنقض طاعة شرطاً، يريد أخذ إقرار معاوية له بأنه إذا كان أطاعه لا تنقض طاعته إياه ما شارطه عليه من تسليم مصر إليه. وهذا أيضاً مكيدة من عمرو لمعاوية، ومنع له من أن يغدر بما أعطاه من مصر.

قال نصر: وكان لعمرو بن العاص عم من بني سهم، أريب، فلما جاء عمرو بالكتاب مسروراً عجب الفتى، وقال: ألا

تخبرني يا عمرو، بأي رأي تعيش في قريش! أعطيت دينك وتمنيت دنيا غيرك! أترى أهل مصر - وهم قتلة عثمان - يدفعونها إلى معاوية وعلي حي! وأتراها إن صارت لمعاوية لا يأخذها بالحرف الذي قدمه بالكتاب؟ فقال عمرو: يابن أخي، إن الأمر لله دون علي ومعاوية، فقال الفتى:

ألا يا هند أخت بني زياد	رمي عمرو بدهية البلاد
رمي عمرو بأعور عبشمي	بعيد القعر مخشي الكياد
له خدع يحار العقل منها	مزخرفة صوائد للفؤاد
فشرط في الكتاب عليه حرفاً	يناديه بخدعته المنادي
وأثبت مثله عمرو عليه	كلا المرأين حية بطن واد
ألا يا عمرو وما أحرزت مصراً	ولا ملت الغداة إلى الرشاد
أبعت الدين بالدنيا خساراً	فأنت بذاك من شر العباد
فلو كنت الغداة أخذت مصراً	ولكن دونها خرط القتاد
وفدت إلى معاوية بن حرب	فكنت بها كوافد قوم عاد
وأعطيت الذي أعطيت منها	بطرس فيه نضح من مداد
ألم تعرف أبا حسن علياً	وما نالت يداه من الأعادي
عدلت به معاوية بن حرب	فيما بعد البياض من السواد!
ويا بعد الأصابع من سهيل	ويا بعد الصلاح من الفساد
أتأمن أن تدال على خدب	يحث الخيل بالأسل الحداد
ينادي بالنزال وأنت منه	قريب فانظرن من ذا تعادي

فقال عمرو: يابن أخي، لو كنت عند علي لوسعي، ولكني الآن عند معاوية. قال الفتى: إنك لم لم ترد معاوية لم يردك؛ ولكنك تريد دنياه، وهو يريد دينك. وبلغ معاوية قول الفتى فطلبه، فهرب فلحق بعلي عليه السلام، فحدثه أمره فسر به وقربه.

قال: وغضب مروان وقال: ما بالي لا أشتري كما اشترى عمرو! فقال معاوية: إنما يشتري الرجال لك. فلما بلغ علياً عليه السلام ما صنع معاوية قال:

يا عجباً لقد سمعت منكراً	كذباً على الله يشيب الشعرا
يسترق السمع ويعشي البصرا	ما كان يرضى أحمد لو أخبرا
أن يقرنوا وصيه والأبترا	شائي الرسول واللعين الأخزرا
كلاهما في جنده قد عسكرا	قد باع هذا دينه فأفجرا

من ذا بدنيا بيعه قد خسرا
 بملك مصر أن أصاب الظفرا !
 إني إذا الموت دنا وحضرا
 شمريت ثوبي ودعوت قنبرا
 قدم لوائي لا تؤخر حذرا
 لا يدفع الحذار ما قد قدرا
 لما رأيت الموت موتاً أحمر
 عبأت همدان وعبوا حميرا
 حي يمان يعظمون الخطرا
 قرن إذا ناطح قرناً كسرا
 قل لابن حرب لا تدب الخمر
 أرود قليلاً أبد منك الضجر
 لا تحسبني يابن هند غمرا
 يوم جعلناكم ببدر جزرا
 أو حمزة القرم الهمام الأزهر
 لو أن عندي يابن هند جعفرا
 رأيت قریش نجم ليلٍ ظهرا

قال نصر: فلما كتب الكتاب، قال معاوية لعمرو: ما ترى الآن؟ قال: امض الرأي الأول. فبعث مالك بن هبيرة الكندي في طلب محمد بن أبي حذيفة، فأدركه فقتله، وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه، ثم قال: ما ترى في علي؟ قال: أرى فيه خيراً، إنه قد أتاك في طلب البيعة خير أهل العراق، ومن عند خير الناس في أنفس الناس، ودعواك أهل الشام في رد هذه البيعة خطر شديد، ورأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي، وهو عدو لجرير المرسل إليك، فابعث إليه ووطن له ثقاتك، فليفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل رضا عند شرحبيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً.

فكتب إلى شرحبيل: إن جرير بن عبد الله قدم علينا من عند علي بن أبي طالب بأمر مفضع، فاقدم.

ودعا معاوية يزيد بن أسد، وبسر بن أرطاة، وعمرو بن سفيان، ومخارق بن الحارث الزبيدي، وحمزة بن مالك، وحابس بن سعد الطائي - وهؤلاء رؤوس قحطان واليمن، وكانوا ثقات معاوية وخاصته وبني عم شرحبيل بن السمط - فأمرهم أن يلقوه ويخبروه أن علياً قتل عثمان. فلما قدم كتاب معاوية على شرحبيل وهو بحمص، استشار أهل اليمن فاختلفوا عليه، فقام إليه عبد الرحمن بن غنم الأزدي - وهو صاحب معاذ بن جبل وختنه، وكان أفقه أهل الشام - فقال: يا شرحبيل بن السمط، إن الله لم يزل يزيدك خيراً منذ هاجرت إلى اليوم، وإنه لا ينقطع المزيدي من الله حتى ينقطع الشكر من الناس، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. إنه قد ألقى إلى معاوية أن علياً قتل عثمان، ولهذا يريدك، فإن كان قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار، وهم الحكام على الناس، وإن لم يكن قتله، فعلام تصدق معاوية عليه! لا تهلكن نفسك وقومك؛ فإن كرهت أن يذهب بحظها جرير، فسر إلى علي، فبايعه عن شامك وقومك فأبى شرحبيل إلا أن يسير إلى معاوية، فكتب إليه عياض الثمالي - وكان ناسكاً:

يا شرح بن السمط إنك بالغ
 يود علي ما تريد من الأمر

سواك فدع عنك المضلل من فھر
تكون علينا مثل راغية البكر
هنيئاً له، والحرب قاصمة الظهر
تحرم أطھار النساء من الذعر
من الهاشميين المداريك للوتر
كعهد أبي حفص وعهد أبي بكر
أعيزك بالله العزيز من الكفر!
يريدون أن يلقوك في لجة البحر
علياً بأطراف المتقفة السمر
وكنا بحمد الله من ولد الطھر
وكان علي حربنا آخر الدهر
دماء بني قحطان في ملكهم تجري
لك الخير لا تدري بأنك لا تدري
فلا تسمعن قول الأعيور أو عمرو

ويا شرح إن الشام شامك ما بها
فإن ابن هند ناصب لك خدعةً
فإن نالوا ما يرجو بنا كان ملكنا
فلا تبغين حرب العراق فإنها
وإن علياً خير من وطئ الثرى
له في رقاب الناس عهد وذمة
فبايع ولا ترجع على العقب كافراً
ولا تسمعن قول الطغاة فإنهم
وماذا عليهم أن تطاعن دونهم
فإن غلبوا كانوا علينا أئمةً
وإن غلبوا لم يصل بالخطب غيرنا
يهون على علياً لؤي بن غالب
فدع عنك عثمان بن عفان إنما
على أي حال كان مصرع جنبه

قال: فلما قدم شرحبيل على معاوية، أمر الناس أن يتلقوه ويعظموه، فلما دخل على معاوية، تكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: شرحبيل: إن جرير بن عبد الله يدعوننا إلى بيعة علي، وعلي خير الناس؛ لولا أنه قتل عثمان بن عفان، وقد حبست نفسي عليك، وإنما أنا رجل من أهل الشام، أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا.
فقال شرحبيل: أخرج فأنظر. فلقية هؤلاء نفر الموطئون له، فكلهم أخبره أن علياً قتل عثمان، فرجع مغضباً إلى معاوية فقال: معاوية، أباي الناس إلا أن علياً قتل عثمان، والله إن بايعت له لنخرجك من شامنا أو لنقتلك. فقال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم، ما أنا إلا رجل من أهل الشام. قال: فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذن. فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق، وأن الشام كله مع شرحبيل، وكتب إلى علي عليه السلام ما سنورده فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

ومن خطبة له في الحث على الجهاد ودم القاعدين

الأصل: أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، وديث بالصغار والقماء، وضرب على قلبه بالإسهاب، وأدبل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف.

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، قلت لكم: اغزوه قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتحاذلتم، حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان.

فهذا أخو غامد، قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها، وقلائدها ورعنها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم؛ فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً! فيا عجباً! عجباً والله يميت القلب، ويجلب الهم، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون! فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتهم: هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتهم هذه صبرة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد؛ كل هذا فراراً من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر! يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال؛ لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة - والله - جرت ندماً وأعقت سدماً. قاتلكم الله! لقد ملائم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدت علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوه! وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين؛ وهأنذا قد ذرفت على الستين! ولكن لا رأي لمن لا يطاع! الشرح: هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام، قد ذكرها كثير من الناس، ورواها أبو العباس المبرد في أول الكامل، وأسقط من هذه الراوية ألفاظاً وزاد فيها ألفاظاً، وقال في أولها: إنه انتهى إلى علي عليه السلام أن خيلاً وردت الأنبار لمعاوية، فقتلوا عاملاً له يقال له: حسان بن حسان، فخرج مغضباً يجر رداءه، حتى أتى النخيلة، واتبعه الناس، فرقي رباوة من الأرض، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أما بعد فعن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله الذل وسيماء الخسف.

وقال في شرح ذلك: قوله: وسيماء الخسف، هكذا حدثونا به، وأظنه سيم الخسف، من قوله تعالى: "يسومونكم سوء العذاب". وقال: فإن نصرنا ما سمعناه، فسيماء الخسف، تأويله علامة الخسف، قال الله تعالى: "سيماهم في وجوههم"، وقال: "يعرف المجرمون بسيماهم"، وسيماء مقصور؛ وفي معناه سيماء ممدود، قال الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعاً له سيماء لا تشق على البصر

ونحن نقول: إن السماع الذي حكاه أبو العباس غير مرضي، والصحيح ما تضمنه نهج البلاغة، وهو سيم الخسف فعل ما لم يسم فاعله، والخسف منصوب؛ لأنه مفعول، وتأويله: أولي الخسف وكلف إياه، والخسف: الذل والمشقة. وأيضاً فإن في نهج البلاغة لا يمكن أن يكون إلا كما اخترناه؛ لأنه بين أفعال متعددة بنيت للمفعول به، وهي ديث وضرب وأدبيل ومنع، ولا يمكن أن يكون ما بين هذه الأفعال معطوفاً عليها إلا مثلها، ولا يجوز أن يكون اسماً.

وأما قوله عليه السلام: وهو لباس التقوى، فهو لفظة مأخوذة من الكتاب العزيز، قال الله سبحانه: " قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى " .

والجنة: ما يجتن به، أي يستتر، كالدرع والحجفة .

وتركه رغبة عنه، أي زهداً فيه، ورغبت عن كذا، ضد رغبت في كذا.

وديث بالصغار، أي ذلل، بعير مديث أي مذلل؛ ومنه الديوث: الذي لا غيرة له، كأنه قد ذلل حتى صار كذلك،

والصغار: الذل والضميم.

والقماء؛ بالمد: مصدر قمئ الرجل قماء وقماءة، أي صار قميثاً، وهو الصغير الذليل، فأما قمأ، بفتح الميم فمعناه سمن، ومصدره القمئ والقموءة، وروى الراوندي: وديث بالصغار والقما، بالقصر، وهو غير معروف.

وقوله عليه السلام: وضرب على قلبه بالإسهاب، فالإسهاب ههنا هو ذهاب العقل؛ ويمكن أن يكون من الإسهاب الذي هو كثرة الكلام، كأنه عوقب بأن يكثر كلامه فيما لا فائدة تحته.

قوله: وأدب الحق منه بتضييع الجهاد، قد يظن ظان أنه يريد عليه السلام: وأدب الحق منه بأن أضيع جهاده؛ كالباءات المتقدمة، وهي قوله: وديث بالصغار، وضرب على قلبه بالإسهاب، وليس كما ظن، بل المراد: وأدب الحق منه لأجل تضييعه الجهاد، فالباء ههنا للسببية، كقوله تعالى: " ذلك جزيناهم بيغيهم " .

والنصف: الإنصاف. وعقر دارهم، بالضم: أصل دراهم، والعقر: الأصل، ومنه العقار للنخل، كأنه أصل المال. وتواكلتم، من وكلت الأمر إليك ووكلته إلي، أي لم يتوله أحد منا، ولكن أحال به كل واحد على الآخر، ومنه رجل وكل، أي عاجز يكل أمره إلى غيره، وكذلك وكلة. وتخاذلتم من الخذلان.

وشنت عليكم الغارات: فرقت، وما كان من ذلك متفرقاً نحو إرسال الماء على الوجه دفعة بعد دفعة، فهو بالشين المعجمة، وما كان إرسالاً غير متفرق، فهو بالسين المهملة، ويجوز شن الغارة وأشنها.

والمسالح: جمع مسلحة، وهي كالثغر والمرقب، وفي الحديث: كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العذيب .

والمعاهدة: ذات العهد، وهي الذمية. والحجل: الخلخال، ومن هذا قيل للفرس محجل، وسمي القيد حجلاً، لأنه يكون

مكان الخلخال. ورعنها: شئونها، جمع رعات بكسر الراء، ورعات: جمع رعثة، فالأول مثل خمار وخمر، والثاني مثل

جفنة وجفان. والقلب: جمع قلب، وهو السوار المصمت. والاسترجاع، قوله: " إنا لله وإنا إليه راجعون " . والاسترحام:

أن تناشده الرحم. وانصرفوا وافرين، أي تامين، وفر الشيء نفسه أي تم فهو وافر، ووفرت الشيء، متعد، أي أتمته.

وفي رواية المبرد موفورين، قال: من الوفير، أي لم ينل أحد منهم بأن يرزأ في بدن أو مال.

وفي رواية المبرد أيضاً: فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي واتخذتوه وراءكم ظهرياً، قال: أي رميتم به وراء ظهوركم،

أي لم تلفتوا إليه، يقال في المثل: لا تجعل حاجتي منك بظهر، أي لا تطرحها غير ناظر إليها، قال الفرزدق:

بظهرٍ ولا يعيا عليك جوابها

تميم بن مر لا تكونن حاجتي

والكلم: الجراح وفي رواية المبرد أيضاً: مات من دون هذا أسفاً، والأسف: التحسر. وفي رواية المبرد أيضاً: من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم، أي تعاونهم وتظاهروهم. وفي رواية المبرد أيضاً: وفشلكم عن حقكم، الفشل: الجبن والنكول عن الشيء. فقبحاً لكم وترحاً، دعاء بأن ينجيهم الله عن الخير، وأن يخرجهم ويسوءهم.

والغرض: الهدف. وحمارة القيظ، بتشديد الراء: شدة حره. ويسبخ عنا الحر، أي يخف، وفي الحديث أن عائشة أكثرت من الدعاء على سارق سرق منها شيئاً، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تسبخي عنه بدعائك".

وصبارة الشتاء، بتشديد الراء: شدة برده، ولم يرو المبرد هذه اللفظة، وروى: إذا قلت لكم اغزوهم في الشتاء قلت هذا أو أن قر وصر، وإن قلت لكم اغزوهم في الصيف قلت هذه حمارة القيظ أنظرنا ينصرم عنا الحر. الصر: شدة البرد قال تعالى: "كمثل ريح فيها صر".

ولم يرو المبرد: حلوم الأطفال، وروى عنها: يا طعام الأحلم، وقال: الطعام: من لا معرفة عنده، ومنه قولهم: طعام أهل الشام.

وربات الحجال: النساء، والحجال جمع حجلة، وهي بيت يزين بالستور والثياب والأسرة.

والسدم: الحزن والغيط. والقيح ما يكون في القرحة من صديدها. وشحنتم: ملأتم.

والنغب: جمع نغبة وهي الجرعة. والتهمام، بفتح التاء: الهم، وكذلك كل تفعال، كالترداد، والتكرار، والتحوال، إلا التبيان والتلقاء، فإثما بالكسر.

وأنفاساً، أي جرعة بعد جرعة، يقال: اكرع في الإناء نفسين أو ثلاثة.

وذرفت على الستين، أي زدت. ورواها المبرد: نيفت.

وروى المبرد في آخرها: فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال: يا أمير المؤمنين، إني وأخي هذا، كما قال الله تعالى: "رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي"، فمرنا بأمرك، فوالله لنتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضا وشوك القتاد. فدعا لهما بخير وقال: وأين تقعان مما أريد! ثم نزل.

كلام لابن نباتة نسج فيه على منوال كلامه

عليه السلام في الجهاد:

واعلم أن التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثرُوا، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فمن جيد ذلك ما قاله ابن نباتة الخطيب:

أيها الناس، إلى كم تسمعون الذكر فلا تعون، وإلى كم تقرعون بالزجر فلا تقلعون! كأن أسمعكم تمج ودائع الوعظ، وكأن قلوبكم بما استكبار عن الحفظ، وعدوكم يعمل في دياركم عمله، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله، وصرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالقتموه، وهذه البهائم تناضل عن ذمارها، وهذه الطير تموت حمية دون أوكارها، بلا كتاب أنزل عليها، ولا رسول أرسل إليها. وأنتم أهل العقول والأفهام، وأهل الشرائع والحكام، تندون من عدوكم نديد الإبل، وتدرعون له مدارع العجز والفشل، وأنتم والله أولى بالغزو إليهم، وأحرى بالمغار عليهم،

لأنكم أمناء الله على كتابه، والمصدقون بعقابه وثوابه، خصكم الله بالنجدة والبأس، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس؛ فأين حمية الإيمان؟ وأين بصيرة الإيقان؟ وأين الإشفاق من لب النيران؟ وأين الثقة بضمان الرحمن؟ فقد قال الله عز وجل في القرآن: " بلى إن تصبروا وتتقوا ؛ فاشترط عليكم التقوى والصبر، وضمن لكم المعونة والنصر؛ أفقتهمونه في ضمانه! أم تشكون في عدله وإحسانه! فسابقوا رحمكم الله إلى الجهاد بقلوب نقية، ونفوس أبية وأعمال رضية، ووجوه مضبية، وخدوا بعزائم التشمير واكشفوا عن رؤوسكم عار التقصير، وهبوا نفوسكم لمن هو أملك بها منكم، ولا تركنوا إلى الجزع فإنه لا يدفع الموت عنكم، " ولا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا " .

فالجهاد الجهاد أيها الموقنون، والظفر الظفر أيها الصابرون! والجنة الجنة أيها الراغبون! والنار والنار أيها الراهبون! فإن الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان، وإن من ناصح الله لبين مترلتي مرغوب فيهما، مجمع على تفضيلهما: إما السعادة بالظفر في العاجل، وإما الفوز بالشهادة في الآجل؛ وأكره المترلتي إليكم أعظمهما نعمة عليكم، فانصروا الله فإن نصره حرز من الهلكات حريز، " ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز " . هذا آخر خطبة ابن نباتة، فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الإنصاف، تجدها بالنسبة إليها كمخنت بالنسبة إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالإضافة إلى سيف من حديد. وانظر ما عليها من أثر التوليد وشين التكلف وفجاجة كثير من الألفاظ؛ ألا ترى إلى فجاجة قوله: كأن أسماعكم تمج ودائع الوعظ، وكأن قلوبكم بها استكبار عن الحفظ! وكذلك ليس يخفى نزول قوله: تندون من عدوكم نديد الإبل، وتدرعون له مدارع العجز والفشل. وفيها كثير من هذا الجنس، إذا تأمله الخبير عرفه، ومع هذا فهي مسروقة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ألا ترى أن قوله عليه السلام: أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، قد سرقه ابن نباتة. فقال: فإن الجهاد أثبت قواعد الإيمان وأوسع أبواب الرضوان وأرفع درجات الجنان! وقوله عليه السلام: من اجتماع هؤلاء على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، سرقه أيضاً، فقال: صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه وندبكم الرحمن إلى حقه فخالقتموه، وقوله عليه السلام: قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم... إلى آخره، سرقه أيضاً فقال: كم تسمعون الذكر فلا تعون وتقرعون بالرجز فلا تقلعون! وقوله عليه السلام: حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان، وسرقه أيضاً وقال: وعدوكم يعمل في دياركم عمله، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله، وأما باقي خطبة ابن نباتة فمسروق من خطب لأمير المؤمنين عليه السلام آخر، سيأتي ذكرها.

واعلم أي أضرب لك مثلاً تتخذه دستوراً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وكلام الكتاب والخطباء بعده كابن نباتة والصابي وغيرهما؛ انظر نسبة شعر أبي تمام والبحري وأبي نواس ومسلم، إلى شعر امرئ القيس والنابعة وزهير والأعشى، هل إذا تأملت أشعار هؤلاء وأشعار هؤلاء، تجد نفسك حاكمةً بتساوي القيلتين أو بتفضيل أبي نواس وأصحابه عليهم؟ ما أظن أن ذلك ما تقوله أنت ولا قاله غيرك، ولا يقوله إلا من لا يعرف علم البيان، وماهية الفصاحة، وكنه البلاغة، وفضيلة المطبوع على المصنوع، ومزية المتقدم على المتأخر، فإذا أقررت من نفسك بالفرق والفضل، وعرفت فضل الفاضل

ونقص الناقص، فاعلم أن نسبة أمير المؤمنين عليه السلام إلى هؤلاء هذه النسبة، بل أظهر، لأنك تجد في شعر امرئ القيس وأصحابه من التعجرف والكلام الحوشي، واللفظ الغريب المستكره شيئاً كثيراً؛ ولا تجد من ذلك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً، وأكثر فساد الكلام ونزوله إنما هو باستعمال ذلك.

فإن شئت أن تزداد استبصاراً، فانظر القرآن العزيز - واعلم أن الناس قد اتفقوا على أنه في أعلى طبقات الفصاحة - وتأمله تأملاً شافياً، وانظر إلى ما خص به من مزية الفصاحة والبعد عن التعقير والتعقيب والكلام الوحشي الغريب، وانظر أمير المؤمنين عليه السلام، فإنك تجده مشتقاً من ألفاظه، ومقتضياً من معانيه ومذاهبه، ومحدوفاً به حدوه، ومسلوكاً به في منهاجه، فهو وإن لم يكن نظيراً ولا نداً، يصلح أن يقال إنه ليس بعده كلام أفصح منه ولا أجزل، ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل، إلا أن يكون كلام ابن عمه عليه السلام، وهذا أمر لا يعلمه إلا من ثبت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة، وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر، بل ولا لانتقاد الذهب، ولكل صناعة أهل، ولكل عمل رجال.

ومن خطبة ابن نباتة التي يحرض فيها على الجهاد

ألا وإن الجهاد كثر وفر الله منه أقسامكم، وحرز طهر الله به أجسامكم، وعز أظهر الله به إسلامكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فانفروا رحمكم الله جميعاً وثباتاً، وشنوا على أعدائكم الغارات، وتمسكوا بعصم الإقدام ومعقل الثبات، وأخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النيات، فإنه والله ما غزي قوم في عقر دراهم إلا ذلوا، ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلوا. واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدموا بمجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الهواء قبل محاربة الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر، فإنها من أنفس العدد والذخائر، واعتاضوا من حياة لا بد من فنائها، بالحياة التي لا ريب في بقائها، وكونوا ممن أطاع الله وشر في مرضاته، وسابقوا بالجهاد إلى تملك جناته، فإن للجنة باباً حدوده تطهير الأعمال، وتشبيده إنفاق الأموال، وساحته زحف الرجال، وطريقه غمغمة الأبطال، ومفتاحه الثبات في معترك القتال، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال. فلينظر الناظر في هذا الكلام، فإنه قد أخذ من صناعة البديع بنصيب، إلا أنه في حضيض الأرض وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في أوج السماء، فإنه لا ينكر لزومه فيه لما لا يلزمه اقتداراً وقوة وكتابة، نحو قوله: كثر فإنه بإزاء حرز وعز، وقوله: مشاهدة بإزاء قوله مجاهدة، ومغالبة بإزاء محاربة، وحدود بإزاء تشييده، لكن مثله بالقياس إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام كدار مبنية من اللبن والطين، موهة الجدران بالنقوش والتصاوير، مزخرفة بالذهب من فوق الحص والإسفيداج، بالقياس إلى دار مبنية بالصخر الأصم الصلد، المسبوك بينه عمد الرصاص والنحاس المذاب، وهي مكشوفة غير موهة ولا مزخرفة. فإن بين هاتن الدارين بوناً بعيداً، وفرقاً عظيماً. وانظر قوله: ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، كيف تصيح من بين الخطبة صياحاً، وتنادي على نفسها نداء فصيحاً، وتعلم سامعها أنها ليست من المعدن الذي خرج باقي الكلام منه، ولا من الخاطر الذي صدر ذلك السجع عنه، ولعمر الله لقد جملت الخطبة وحسنتها وزانتها، وما مثلها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز يتمثل بها في رسالة أو خطبة، فإنها تكون كاللؤلؤة المضيئة تزهو وتنير، وتقوم بنفسها وتكتسي الرسالة بها رونقاً، وتكتسب بها ديباجة.

وإذا أردت تحقيق ذلك فانظر إلى السجعة الثانية التي تكلفها ليوازنها بها، وهي قوله: ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلوا، فإنك إذا نظرت إليها وجدت عليها من التكلف والغثاثة ما يقوي عندك صدق ما قلته لك. على أن في كلام ابن نباتة في هذا الفصل ما ليس بجيد، وهو قوله: وحرز طهر الله به أجسامكم، فإنه لا يقال في الحرز: إنه يطهر الأجسام، ولو قال عوض طهر: حصن الله به أجسامكم، لكان أليق، لكنه أراد أن يقول طهر ليكون بإزاء وفر وبإزاء أظهر، فأداه حب التقابل إلى ما ليس بجيد.

كتائب سفیان الغامدي في الأنبار

فأما أخو غامد الذي وردت خيله الأنبار، فهو سفیان بن عوف بن المغفل الغامدي، وغامد قبيلة من اليمن، وهي من الأزد، أزد شنوءة. واسم غامد بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب ابن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد. وسمي غامداً لأنه كان بين قومه شر فأصلحه وتغمدهم بذلك.

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب الغارات عن أبي الكنود، قال: حدثني سفیان بن عوف الغامدي، قال: دعاني معاوية، فقال: إني باعثك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل في المدائن؛ ثم أقبل إلي واتق أن تقرب الكوفة. واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة، إن هذه الغارات يا سفیان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو إلى كل من خاف الدوائر؛ فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيهة بالقتل، وهو أوجع للقلب.

قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاوية في الناس فخطبهم، فقال: أيها الناس، انتدبوا مع سفیان بن عوف، فإنه وجه عظيم فيه أجر، سريعة فيه أوبتكم إن شاء الله. ثم نزل.

قال: فوالذي لا إله غيره ما مرت ثالثة حتى خرجت في ستة آلاف، ثم لزم شاطئ الفرات، فأغذذت السير حتى أمر بهيت، فبلغهم أبي غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عريب، كأنها لم تحلل قط، فوطئتها حتى أمر بصندوداء، ففروا فلم ألق بها أحد، فأمضي حتى أفتتح الأنبار، وقد نذروا بي، فخرج صاحب المسلحة إلي، فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية، فقلت لهم: أخبروني، كم بالأنبار من أصحاب علي عليه السلام؟ قالوا: عدة رجال المسلحة خمسمائة، ولكنهم قد تبددوا ورجعوا إلى الكوفة، ولا ندري الذي يكون فيها، قد يكون مائتي رجل؛ فترلت فكتبت أصحابي كتائب، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبة بعد كتيبة فيقاتلهم والله يصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة، فلما رأيت ذلك أنزلت نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فلما حملت عليهم الخيل وأمامها الرجال تمشي، لم يكن شيء حتى تفرقوا، وقتل صاحبهم في نحو من ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال، ثم انصرفنا، فوالله ما غزوت غزاة كانت أسلم ولا أقر للعيون، ولا أسر للنفوس منها. وبلغني والله أنها أرعبت الناس، فلما عدت إلى معاوية، حدثته

الحديث على وجهه، فقال: كنت عند ظني بك، لا تتزل في بلد من بلداني إلا قضيت فيه مثل ما يقضي فيه أميره، وإن أحببت توليته وليتك، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دوني.

قال: فوالله ما لبثنا إلا يسيراً، حتى رأيت أهل العراق يأتوننا على الإبل هرباً من عسكر علي عليه السلام.

قال إبراهيم: كان اسم عامل علي عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس بن حسان البكري.

ورى إبراهيم عن عبد الله بن قيس، عن حبيب بن عفيف، قال: كنت مع أشرس بن حسان البكري بالأنبار على مسلحتها، إذ صبحنا سفيان بن عوف في كتائب تلمع الأبصار منها، فهالونا والله، وعلمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقيهم نصفنا، وإيم الله لقد قاتلناهم فأحسننا قتالهم، حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا، وهو يتلو قوله تعالى: " فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً " . ثم قال لنا: من كان لا يريد لقاء الله، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية ما دمنا نقاتلهم، فإن قاتلنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار. ثم نزل في ثلاثين رجلاً، فهممت بالتزول معه، ثم أبت نفسي، واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله، وانصرفنا نحن منهزمين.

قال إبراهيم: وقدم عليج من أهل الأنبار على علي عليه السلام، فأخبره الخبر، فصعد المنبر فخطب الناس، وقال: إن أحاكم البكري قد أصيب بالأنبار، وهو معتر لا يخاف ما كان، واختار ما عند الله على الدنيا، فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم، فإن أصبتم منهم طرفاً أنكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا.

ثم سكت عنهم رجاء أن يجيئوه أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينس أحد منهم بكلمة، فلما رأى صمتهم نزل، وخرج يمشي راجلاً حتى أتى النخيلة، والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: ارجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تكفوني ولا تكفون أنفسكم! فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله، فرجع وهو واجم كئيب، ودعا سعيد بن قيس الهمداني، فبعثه من النخيلة في ثمانية آلاف، وذلك أنه أخبر أن القوم جاؤوا في جمع كثيف.

فخرج سعيد بن قيس على شاطئ الفرات في طلب سفيان بن عوف، حتى إذا بلغ عانات، سرح أمامه هانئ بن الخطاب الهمداني، فاتبع آثارهم حتى دخل أداني أرض قنسرين وقد فاتوه، فانصرف.

قال: ولبت علي عليه السلام، ترى فيه الكآبة والحزن، حتى قدم عليه سعيد بن قيس، وكان تلك الأيام عليلاً، فلم يقو على القيام في الناس بما يريده من القول، فجلس بباب السدة التي تصل إلى المسجد، ومعه ابنه حسن وحسين عليهما السلام، وعبد الله بن جعفر، ودعا سعداً مولاه، فدفع إليه الكتاب، وأمره أن يقرأه على الناس، فقام سعد بحيث يستمع علي عليه السلام صوته، ويسمع ما يرد الناس عليه، ثم قرأ هذه الخطبة التي نحن في شرحها.

وذكر أن القائم إليه، العارض نفسه عليه جندب بن عفيف الأزدي، هو وابن أخ له يقال له: عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف.

قال: ثم أمر الحارث الأعور الهمداني، فنادى في الناس: أين من يشتري نفسه لربه ويبيع دنياه بآخرته؟ أصبحوا غداً بالرحبة إن شاء الله، ولا يحضر إلا صادق النية في السير معنا، والجهاد لعدونا فأصبح وليس بالرحبة إلا دون ثلاثمائة، فلما

عرضهم، قال: لو كانوا ألفاً كان لي فيهم رأي.

وأتاه قوم يعتذرون، فقال: " وجاء المعذرون " ، وتخلف المكذبون، ومكث أياماً بادياً حزنه شديد الكآبة، ثم جمع الناس فخطبهم فقال: أما بعد، أيها الناس، فوالله لأهل مصركم في الأمصار أكثر من الأنصار في العرب، وما كانوا يوم أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمنعه ومن معه من المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلا قبيلتين، قريباً مولدهما، ما هما باقدم العرب ميلاداً، ولا بأكثرهم عدداً. فلما آووا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ونصروا الله ودينه، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فتحالفت عليهم اليهود، وغزهم القبائل قبيلةً بعد قبيلة، فتجردوا لنصرة دين الله، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبال، وما بينهم وبين اليهود من الحلف، ونصبوا لأهل نجد وقامة وأهل مكة واليمامة، وأهل الحزن والسهل، وأقاموا قناة الدين، وصبروا تحت حماس الجلال، حتى دانت العرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله عز وجل إليه، وأنتم اليوم في الناس أكثر من أولئك ذلك الزمان في العرب.

فقام إليه رجل آدم طوال، فقال: ما أنت بمحمد، ولا نحن بأولئك الذين ذكرت، فقال عليه السلام: أحسن سمعاً تحسن إجابة! ثكلتكم الثواكل! ما تزيدوني إلا غمماً! هل أخبرتكم أي محمد، وأنكم الأنصار! إنما ضربت لكم مثلاً، وإنما أرجو أن تتأسوا بهم.

ثم قام رجل آخر، فقال: ما أحوج أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النهروان. ثم تكلم الناس من كل ناحية ولغظوا، وقام رجل منهم فقال بأعلى صوته: استبان فقد الأشر على العراق! أشهد لو كان حياً لقل اللغظ، ولعلم كل امرئ ما يقول.

فقال علي عليه السلام: هبلتكم الهوابل! أنا أوجب عليكم حقاً من الأشر؛ وهل للأشر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم! فقام حجر بن عدي الكندي وسعيد بن قيس الهمداني، فقالا: لا يسوءك الله يا أمير المؤمنين، مرنا بأمرك نتبعه، فوالله ما نعظم جزعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرننا إن قتلت في طاعتك. فقال: تجهزوا للمسير إلى عدونا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: أشيروا علي برجل صليب ناصح، يحشر الناس من السواد. فقال له سعيد بن قيس: يا أمير المؤمنين، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب، معقل بن قيس التميمي، قال: نعم، ثم دعاه فوجهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن خطبة له في الحث على التزود للآخرة

الأصل: أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرقَتْ باطلاع، ألا وإن اليوم بمضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنة والغاية النار.

أفلا تأتئ من خطيئته قبل منيته! ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه! ألا وإنكم في أيام أمل، من ورائه أجل؛ فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد نفعه عمله، ولم يضره أجله. ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله،

وضره أجله.

ألا فاعملوا في الرغبة، كما تعملون في الرهبة، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى.

ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودلتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فترودوا في الدنيا من الدنيا ما تحززون به أنفسكم غداً.

قال الرضي رحمه الله: وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام. وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاعتاظ والازدجار. ومن أعجبه قوله عليه السلام: ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق والسبقة الجنة والغاية النار، فإن فيه مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه، سرّاً عجيباً، ومعنىً لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: والسبقة الجنة والغاية النار، فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل السبقة النار، كما قال: السبقة الجنة، لأن الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوبٍ وغرضٍ مطلوبٍ، وهذه صفة الجنة، وليس هذا المعنى موجوداً في النار، نعوذ بالله منها! فلم يجوز أن يقول: والسبقة النار، بل قال: والغاية النار، لأن الغاية قد ينتهي إليها من لا يسره الانتهاء إليها، ومن يسره ذلك فصلح أن يعبر بها عن الأمرين معاً، فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل، قال الله تعالى: " قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار " ، ولا يجوز في هذا الموضع أن يقال: فإن سبقتكم إلى النار، فتأمل ذلك فباطنه عجيب، وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه عليه السلام.

وفي بعض النسخ، وقد جاء في روايةٍ أخرى: والسبقة الجنة، بضم السين، والسبقة عندهم: اسم لما يجعل للسابق، إذا سبق من مال أو عرضٍ، والمعنيان متقاربان، لأن ذلك لا يكون جزاءً على فعل الأمر المذموم، وإنما يكون جزاءً على فعل الأمر الحمود.

الشرح: آذنت: أعلمت. والمضمار؛ منصوب لأنه اسم إن. واليوم ظرف، وموضعه رفع، لأنه خبر إن، وظرف الزمان يجوز أن يكون خبراً عن الحدث، والمضمار: وهو الزمان الذي تضر فيه الخيل للسباق، والضر: الهزال وخفة اللحم. وإعراب قوله: وغداً السباق، على هذا الوجه أيضاً.

ويجوز الرفع في الموضعين على أن تجعلهما خبر إن بأنفسهما.

وقوله عليه السلام: ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه، أخذه ابن نباتة مصالته، فقال في بعض خطبه: ألا عامل لنفسه قبل حلول رمسه.

قوله: ألا فاعملوا في الرغبة، يقول: لا ريب أن أحدكم إذا مسه الضر من مرض شديد، أو خوف مقلق، من عدو قاهر، فإنه يكون شديد الإخلاص والعبادة، وهذه حال من يخاف الغرق في سفينة تتلاعب بها الأمواج، فهو عليه السلام أمر بأن يكون المكلف عاملاً أيام عدم الخوف، مثل عمله وإخلاصه وانقطاعه إلى الله أيام هذه العوارض.

قوله: لم أر كالجنة نام طالبها، يقول: إن من أعجب العجائب من يؤمن بالجنة كيف يطلبها وينام! ومن أعجب العجائب

من يؤمن بالنار، كيف لا يهرب منها وينام! أي لا ينبغي طالب هذه ولا الهارب من هذه.
وقد فسر الرضي رحمه الله تعالى معنى قوله: والسبقة الجنة.

من مواعظ الصالحين

ونحن نورد في هذا الفصل نكتاً من مواعظ الصالحين يرحمهم الله، تناسب هذا المأخذ. فمما يؤثر عن أبي حازم الأعرج - كان في أيام بني أمية - قوله لعمر بن عبد العزيز، وقد قال له: يا أبا حازم، إني أخاف الله مما قد دخلت فيه، فقال: لست أخاف عليك أن تخاف؛ وإنما أخاف عليك ألا تخاف.

وقيل له: كيف يكون الناس يوم القيامة؟ قال: أما العاصي فأبق قدم به على مولاه، وأما المطيع فغائب قدم على أهله. ومن كلامه: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، أما أمس فلا يجدون لذته، ولا أجد شدته، وأما غداً فيني وإياهم منه على خطر، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون! ومن كلامه: إذا تتابعت عليك نعم ربك وأنت تعصيه فاحذره.

وقال له سليمان بن عبد الملك: عظمي، فقال: عظم ربك أن يراك حيث نفاك، أو يفقدك حيث أمرك.

وقيل له: ما مالك؟ قال: شيان لا عدم بي معهما: الرضا عن الله، والغنى عن الناس.

ومن كلامه: عجباً لقوم لدارٍ يرحلون عنها كل يوم مرحلة، ويتركون أن يعملوا لدارٍ يرحلون إليها كل يوم مرحلة! ومن كلامه: إن عوفينا من شر ما أعطانا، لم يضرنا فقد ما زوي عنا.

ومن كلامه: نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت.

ولما ثقل عبد الملك رأى غسلاً يلوي بيده ثوباً، فقال: وددت أني كنت غسلاً مثل هذا، أعيش بما أكتسب يوماً فيوماً؛

فذكر ذلك لأبي حازم، فقال: الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يتمنون ما نحن فيه، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

ومن كلام غيره من الصالحين: دخل سالم بن عبد الله بن عمر على هشام بن عبد الملك في الكعبة، فكلمه هشام، ثم قال

له: سل حاجتك، قال: معاذ الله أن أسأل في بيت الله غير الله.

وقيل لرابعة القيسية: لو كلمت أهلك أن يشتروا لك خادماً يكفيك مؤنة بيتك! قالت: إني لأستحي أن أسأل الدنيا من

يملكها، فكيف من لا يملكها! وقال بكر بن عبد الله: أطفئوا نار الغضب بذكر نار جهنم.

عامر بن عبد القيس: الدنيا والددة للموت، ناقضة للمبرم، مرتجة للعطية، وكل من فيها يجري إلى ما لا يدري، وكل

مستقر فيها غير راضٍ بها، وذلك شهيد على أنها ليست بدار قرار.

باع عتبة بن عبد الله بن مسعود أرضاً له بثمانين ألفاً، فتصدق بها، فقيل له: لو جعلت هذا المال أو بعضه ذخراً لولدك!

قال: بل أجعل هذا المال ذخراً لي، وأجعل الله تعالى ذخراً لولدي.

رأى إياس بن قتادة شيباً في لحيته، فقال: أرى الموت يطلبني، وأراي لا أفوته. فلزم بيته وترك الإكتساب. فقال له أهله:

تموت هزلاً! قال: لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إلي من أعيش منافقاً سميناً.

بكر بن عبد الله المزني: ما الدنيا ليت شعري! أما ما مضى منها فحلُم، وأما ما بقي فأما ني.

مورق العجلي: خير من العجب بالطاعة ألا تأتي بالطاعة.

ومن كلامه: ضاحك معترف بذنبه، خير من باك مدلل على ربه.

ومن كلامه: أوحى الله إلى الدنيا: من خدمني فاحدميه، ومن خدمك فاستخدميه.

قيل لرابعة: هل عملت عملاً ترين أنه يقبل منك؟ قالت: إن كان فخوفي أن يرد علي.

نظر حبيب إلى مالك بن دينار، وهو يقسم صدقته علانية، فقال: يا أخي، إن الكنوز لتستر، فما بال هذا يجهر به! قال عمرو بن عبيد المنصور: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، وإن هذا الذي أصبح اليوم في يدك لو كان مما يبقى على الناس ل بقي في يد من كان قبلك، ولم يصر إليك، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ترى بعده إلا يوم القيامة. فبكى المنصور، وقال: يا أبا عثمان، سل حاجة، قال: حاجتي ألا تعطيني حتى أسألك، ولا تدعني حتى أجيئك، قال: إذن لا نلتقي أبداً، قال: فذاك أريد.

كان يقال: الدنيا جاهلة، ومن جهلها، ألها لاتعطي أحداً ما يستحقه؛ إما أن تزيده، وإما أن تنقصه.

قيل لخالد بن صفوان: من أبلغ الناس؟ قال: الحسن، لقوله: فضح الموت الدنيا.

قيل لبعض الزهاد: كيف سخط نفسك على الدنيا؟ قال: أيقنت أي خارج منها كرهاً، فأحببت أن أخرج منها طوعاً.

مر إبراهيم بن أدهم بباب أبي جعفر المنصور، فنظر السلاح والحرس، فقال: المريب خائف.

قيل لزاهد: ما أصبرك على الوحدة! قال: كلا أنا جالس ربي، إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صليت.

كان يقال: خف الله لقدرته عليك، واستح منه لقربه منك.

قال الرشيد للفضيل بن عياض: ما أزهك! قال: أنت يا هارون أزهديني، لأني زهدت في دنيا فانية، وزهدت في آخرة باقية.

وقال الفضيل: يا ربي، إني لأستحي أن أقول: توكلت عليك، لو توكلت عليك ما خفت إلا منك، ولا رجوت إلا إياك. عوتب بعض الزهاد على كثرة التصدق بماله، فقال: لو أراد رجل أن ينتقل من دارٍ إلى دارٍ، ما أظنه كان يترك في الدار الأولى شيئاً.

قال بعض الملوك لبعض الزهاد: مالك لا تغشى بابي وأنت عبدي! قال: لو علمت أيها الملك، لعلمت أنك عبد عبدي، لأنني أملك الهوى والهوى يملكك.

دخل متظلم على سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، أذكر يوم الأذان، قال: وما يوم الأذان؟ قال: اليوم الذي قال الله فيه: " فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين " ، فبكى سليمان وأزال ظلامته.

سئل الفضيل بن عياض عن الزهد، فقال: يجمعه حرفان في كتاب الله: " لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم " .

كتب يحيى بن خالد من الحبس إلى الرشيد: ما يمر يوم من نعيمك إلا ويمر يوم من بؤسي، وكلاهما إلى نفاذ.

قيل لحاتم الأصم: علام بنيت أمرك؟ قال: على أربع خصال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فلم أهتم به، وعلمت أن

عملي لا يعمل غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره، وعلمت أني بعين الله في كل حال فاستحييت منه.

نظر بعض الصالحين إلى رجل يفحش في قوله، فقال: يا هذا إنما تملي على حافظيك كتاباً إلى ربك، فانظر ما تودعه. كان يقال: مثل الدنيا والآخرة مثل ضربتين لبعل واحد، إن أرضى هذه أسخط الأخرى. قيل لبعضهم: ما مثل الدنيا؟ قال: هي أقل من أن يكون لها مثل.

دخل لص على بعض الزهاد الصالحين، فلم ير في داره شيئاً، فقال له: يا هذا، أين متاعك؟ قال: حولته إلى الدار الأخرى.

قيل للربيع بن خيثم: يا ربيع، ما نراك تدم أحداً! فقال: ما أنا عن نفسي براص، فأتحول من ذمي إلى ذم الناس، إن الناس خافوا على ذنوب العباد وأمنوه على ذنوبهم.

قال عيسى بن موسى لأبي شيبه القاضي: لم لا تأتينا؟ قال: إن قربتي ففنتني، وإن أقصيتني أحزنتني، وليس عندي ما أخافك عليه، ولا عندك ما أرجوك له.

من كلام بعض الزهاد: تأمل ذا الغنى، ما أشد نصبه، ولم أقل راحته، وأخس من ماله حظه، وأشد من الأيام حذره! هو بين سلطان يتهمه، وعدو يبغى عليه، وحقوق تلزمه، وأكفاء يحسدونه، وولد يود فراقه، قد بعث عليه غناه من سلطانه العنت، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوي الحقوق الدم، ومن الولد الملالة.

ومن كلام سفیان الثوري: يابن آدم، جوارحك سلاح الله عليك، بأيها شاء قتلك.

ميمون بن مهران في قوله تعالى: "ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون"، قال: إنها لتعزية للمظلوم، ووعيد للظالم. دخل عبد الوارث بن سعيد على مريض يعود، فقال له: ما نمت منذ أربعين ليلة، فقال: يا هذا، أحصيت ليالي البلاء، فهل أحصيت ليالي الرخاء! بعضهم: واعجباه لمن يفرح بالدنيا، فإنما هي عقوبة ذنب!

ابن السماك: خف الله حتى كأنك لم تطعه قط، وارجحه كأنك لم تعصه قط.

بعضهم: العلماء أطباء هذا الخلق، والدنيا داء هذا الخلق؛ فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره! قيل لمحمد بن واسع: فلان زاهد، قال: وما قدر الدنيا حتى يحمد من يزهدها؟ رثي عبد الله بن المبارك واقفاً بين مقبرة ومزبلة، فقيل له: ما أوقفك؟ قال: أنا بين كثرين من كنوز الدنيا فيهما عبرة: هذا كثر الأموال، وهذا كثر الرجال. قيل لبعضهم: أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب.

دخل الإسكندر مدينة فتحها، فسأل عمن بقي من أولاد الملوك بها، فقيل: رجل يسكن المقابر، فدعا به، فقال: ما دعاك إلى لزوم هذه المقابر؟ فقال: أحببت أن أميز بين عظام الملوك وعظام عبيدهم، فوجدتها سواء. فقال: هل لك أن تتبعني فأحيي شرفك وشرف آبائك، إن كانت لك همة! قال: همتي عظيمة، قال: وما همتك؟ قال: حياة لا موت معها، وشباب لا هرم معه، وغنى لا فقر معه، وسرور لا مكروه معه، فقال: ليس هذا عندي، قال: فدعني ألتمسه ممن هو عنده. مات ابن لعمر بن ذر، فقال: لقد شغلني الحزن لك يا بني عن الحزن عليك.

كان يقال: من هوان الدنيا على الله ألا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها.

ومن كلام عبد الله بن شداد: أرى دواعي الموت لا تقلع، وأرى من مضى لا يرجع، فلا ترهذن في معروف، فإن الدهر ذو صروف كم من راغب قد كان مرغوباً إليه! والزمان ذو ألوان، من يصحب الزمان ير الهوان، وإن غلبت يوماً على المال فلا تغلبن على الحيلة على كل حال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقل ما تكون في الباطن مالاً.

كان يقال: إن مما يجعل الله تعالى عقوبته: الأمانة تخان، والإحسان يكفر، والرحم تقطع، والبغي على الناس.

الربيع بن خيثم: لو كانت الذنوب تفوح روائحها لم يجلس أحد إلى أحد.

قيل لبعضهم: كيف أصبحت؟ قال: آسفاً على أمسي، كارهاً ليومي، متهماً لغدي.

وقيل لآخر: لم تركت الدنيا؟ قال: أنفت من قليلها، وأنف مني كثيرها. وهذا كما قال بعضهم، وقد قيل له: لم لا تقول الشعر، قال: يأباني جیده، وآبی رديئه.

بعض الصالحين: لو أنزل الله تعالى كتاباً: إني معذب رجلاً واحداً، خفت أن أكونه، أو إنه راحم رجلاً واحداً، لرجوت أن أكونه.

مطرف بن الشخير: خير الأمور أوساطها، وشر السير الحقة . وهذا الكلام قد روي مرفوعاً.

يحيى بن معاذ: إن لله عليك نعمتين: في السراء التذكر، وفي الضراء التصبر، فكن في السراء عبداً شكوراً، وفي الضراء حراً صبوراً.

دخل ابن السماك على الرشيد، فقال له: عظمي، ثم دعا بماء ليشربه، فقال له: ناشدتك الله؛ لو منعك الله من شربه ما كنت فاعلاً؟ قال كنت أفنديه بنصف ملكي. قال: فاشربه، فلما شرب، قال: ناشدتك الله! لو منعك الله من خروجه ما كنت فاعلاً؟ قال: كنت أفنديه بنصف ملكي، قال: إن ملكاً يفتدى به شربة ماء، لخليق ألا ينافس عليه.

قال المنصور لعمر بن عبيد رحمه الله تعالى: عظمي، قال: بما رأيت أم بما سمعت؟ قال: بما رأيت. قال: رأيت عمر بن عبد العزيز، وقد مات، فخلف أحد عشر ابناً، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً، كفن منها بخمسة دنانير، واشتري موضع قبره بدنانيرين، وأصاب كل واحد من ولده دون الدينار. ثم رأيت هشام بن عبد الملك، وقد مات وخلف عشرة ذكور، فأصاب كل واحد من ولده ألف ألف دينار. ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز، قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من ولد هشام، يسأل الناس ليتصدقوا عليه.

حسان بن أبي سنان: ما شيء أهون من ورع؛ إذا رابك شيء فدعه.

مورق العجلي: لقد سألت الله حاجة أربعين سنة، ما قضاها ولا يئست منها، قيل: وما هي؟ قال: ترك ما لا يعنيني.

قتادة: إن الله ليعطي العبد على نية الآخرة ما يسأله من الدنيا، ولا يعطيه على نية الدنيا إلا بالدنيا.

من كلام محمد بن واسع: ليس في النار عذاب أشد على أهلها من علمهم بأنه ليس لكرهم تنفيس، ولا لضيقهم ترفيه، ولا لعذابهم غاية، وليس في الجنة أبلغ من علم أهلها بأن ذلك الملك لا يزول عنهم.

قال بعض الملوك لبعض الزهاد: اذمم لي الدنيا، قال: أيها الملك، هي الآخذة لما تعطي، المورثة بعد ذلك الندم، السالبة ما تكسو، المورثة بعد ذلك الفضوح، تسد بالأراذل مكان الأفاضل، وبالعجزة مكان الحزمة، تجد في كل من كل خلفاً،

وترضى بكل من كل بدلاً، تسكن دار كل قرن قرناً، وتطعم سور كل قوم قوماً.
ومن كلام الحجاج - وكان مع غشمه وإلحاده واعظاً بليغاً مفوهاً - خطب فقال: اللهم أرني الغي غياً فأجنبه، وأرني الهدى هدئاً فأتبعه، ولا تكلني إلى نفسي ضلالاً بعيداً؛ والله ما أحب أن مضي من الدنيا بعمامي هذه، ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء.

وقال مالك بن دينار: غدوت إلى الجمعة، فجلست قريباً من المنبر، فصعد الحجاج، فسمعتة يقول: امرؤ زور عمله، امرؤ حاسب نفسه، امرؤ فكر فيما يقرؤه في صحيفته، ويراه في ميزانه، امرؤ كان عند قلبه زاجر، وعند همه أمر، امرؤ أخذ بعنان قلبه، كما يأخذ الرجال بخطام جملة، فإن قاده إلى الطاعة الله تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفه، إنا والله ما خلقنا للفناء، وإنما خلقنا للبقاء، وإنما نتقل من دار إلى دار.
وخطب يوماً، فقال: إن الله أمرنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤونة الدنيا، فليته كفانا مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا. فقال الحسن: ضالة المؤمن خرجت من قلب المنافق.

ومن الكلام المنسوب إليه - وأكثر الناس يروونه عن أمير المؤمنين عليه السلام: أيها الناس، اقدعوا هذه النفس؛ فإنها أسأل شيء إذا أعطيت، وأبخل لشيء إذا سئلت، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاماً وزماماً، فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله؛ فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله.
ومن كلامه: إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه، ويستغفر من ذنبه، ويفكر في معاده، لجدير أن يطول حزنه، ويتضاعف أسفه. إن الله كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء، ولا فناء لما كتب عليه البقاء؛ فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل.
ونقلت من أمالي أبي أحمد العسكري رحمه الله تعالى قال: خطب الحجاج يوماً، فقال: أيها الناس، قد أصبحتم في أجل منقوص، وعمل محفوظ. رب دائب مضيع وساع غيره والموت في أعقابكم، والنار بين أيديكم، والجنة أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما في أيديكم لما بين أيديكم، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء؛ وكل ما ترونه فإنه ذاهب. هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك، هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة، ثم طلعت على قبورهم! أين الملوك الأولون! أين الجبابرة المتكبرون! المحاسب الله، والصراط منصوب، وجهنم تفر وتوقد، وأهل الجنة ينعمون، هم في روضة يجرون، جعلنا الله وإياكم من الذين، " إذا ذكروا بأيات ربهم لم يخروا عليهم صماً وعمياناً " .
قال: فكانوا الحسن رحمه الله تعالى يقول: ألا تعجبون من هذا الفاجر! يرقى عتبات المنبر فيتكلم بكلام الأنبياء، ويتزل فيفتك فتك الجبارين، يوافق الله في قوله، ويخالفه في فعله!.

في الكلام على المقابلة

وأما ما ذكره الرضي رحمه الله تعالى من المقابلة بين السبقة والغاية، فنكتة جيدة من علم البيان؛ ونحن نذكر فيها أبحاثاً نافعة، فنقول: إما أن يقابل الشيء ضده أو ما ليس بضده. فالأول كالسواد والبياض؛ وهو قسمان: أحدهما مقابله في اللفظ والمعنى، والثاني: مقابله في المعنى لا في اللفظ.

أما الأول، فقوله تعالى: " فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً " ، فالضحك ضد البكاء، والقليل ضد الكثير. وكذلك قوله تعالى: " لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم " . ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم: " خير المال عين ساهرة لعين نائمة " . ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام لعثمان: إن الحق ثقیل مرئ، وإن الباطل خفيف وبئ، وأنت رجل إن صدقت سخطت، وإن كذبت رضيت.

وكذلك قوله عليه السلام لما قالت الخوارج: لا حكم إلا لله: كلمة حق أريد بها باطل.

وقال الحجاج لسعيد بن جبیر لما أراد قتله: ما اسمك؟ فقال: سعيد بن جبیر، فقال: بل شقي بن كسير. وقال ابن الأثير في كتابه المسمى بالمثل السائرة: إن هذا النوع من المقابلة غير مختص بلغة العرب، فإنه لما مات قباد أحد ملوك الفرس، قال وزيره: حركنا بسكونه.

وفي أول كتاب الفصول لبقرات في الطب: العمر قصير والصناعة طويلة، وهذا الكتاب على لغة اليونان.

قلت: أي حاجة به إلى هذا التكلف! وهل هذه الدعوى من الأمور التي يجوز أن يعتري الشك والشبهة فيها، ليأتي بحكاية مواضع من غير كلام العرب يحتج بها! أليس كل قبيلة وكل أمة لها لغة تختص بها! أليس الألفاظ دلالات على ما في الأنفس في المعاني! فإذا خطر في النفس كلام يتضمن أمرين ضدين فلا بد لصاحب ذلك خاطر - سواء أكان عربياً أم فارسياً أم زنجياً أم حبشياً - أن ينطق بلفظ يدل على تلك المعاني المتضادة، وهذا أمر يعم العقلاء كلهم، على أن تلك اللفظة التي قالها، ما قيلت في موت قباد، وإنما قيلت في موت الإسكندر، لما تكلمت الحكماء وهم حول تابوته بما تكلموا به من الحكم .

ومما جاء من هذا القسم من المقابلة في الكتاب العزيز قوله تعالى في صفة الواقعة: " حافضة رافعة " ؛ لأنها تخفض العاصين، وترفع المطيعين.

وقوله تعالى: " فضرِبَ بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب " .

وقوله: " أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين " .

ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار: " إنكم لتكثرّون عند الفزع وتقلّون عند الطمع " .

ومما جاء من ذلك في الشعر قول الفرزدق يهجو قبيلة جرير:

وتنام أعينهم عن الأوتار

يستيقظون إلى نهيق حميرهم

وقال آخر:

ولا البخل يبقي المال والجد مدبر

فلا الجود يفني المال والجد مقبل

وقال أبو تمام:

إلا بحيث ترى المنايا سودا

ما إن ترى الأحساب بيضاً وضحاً

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضاً:

خلق المناسب ما يكون جديدا

شرف على أولى الزمان وإنما

وأما القسم الثاني من القسم الأول؛ وهو مقابلة الشيء بضده بالمعنى لا باللفظ، فكقول المقنع الكندي:

وإن قل مالي لا أكلفهم رفدا

لهم جل مالي إن تتابع لي غنى

فقوله: إن تتابع لي غنى، في قوة قوله: إن كثر مالي، والكثرة ضد القلة، فهو إذن مقابل بالمعنى لا باللفظ بعينه، ومن هذا الباب قول البحري:

ويسري إلي الشوق من حيث أعلم

تقيض لي من حيث لا أعلم النوى

فقوله: لا أعلم ليس ضداً لقوله: أعلم، لكنه نقيض له؛ وفي قوة قوله: أجهل، والجهل ضد العلم، ومن لطيف ما وقعت المقابلة به من هذا النوع قول أبي تمام:

قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس

فقابل بين هاتا وبين تلك، وهي مقابلة معنوية لا لفظية، لأن هاتا للحاضرة، وتلك للغائبة، والحضور ضد الغيبة، وأما مقابلة الشيء لما ليس بضده، فإما أن يكون مثلاً أو مخالفاً.

والأول على ضربين: مقابلة المفرد بالمفرد، ومقابلة الجملة بالجملة.

مثال مقابلة المفرد بالمفرد قوله تعالى: "نسوا الله فأنساهم أنفسهم"، وقوله: "ومكروا مكراً ومكرنا مكراً"، هكذا قال نصر الله بن الأثير.

قال: وهذا مراعى في القرآن الكريم إذا كان جواباً كما تقدم من الآيتين، وكقوله: "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، وقوله: "من كفر فعليه كفره".

قال: وقد كان يجوز أن يقول: من كفر فعليه ذنبه، لكن الأحسن هو إعادة اللفظ، فأما إذا كان غير جواب لم تلزم فيه هذه المراعاة اللفظية، بل قد تقابل اللفظة بلفظة تفيد معناها؛ وإن لم تكن هي بعينها، نحو قوله تعالى: "ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون"، فقال: يفعلون ولم يقل يعملون.

وكذلك قوله تعالى: "ففزع منهم قالوا لا تخف"، ولم يقل: قالوا لا تفزع.

وكذلك قوله تعالى: "إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون"، ولم يقل: كنتم تخوضون وتلعبون، قال: ونحو ذلك من الأبيات الشعرية قول أبي تمام:

كثرت بهن مصارع الآمال

بسط الرجاء لنا برغم نوائب

فقال: الآمال عوض الرجاء، قال أبو الطيب:

إنني لأعلم والليبيب خبير أن الحياة وإن حرصت غرور

فقال: خبير ولم يقل: عليم، قال: وإنما حسن ذلك، لأنه ليس بجواب، وإنما هو كلام مبتدأ.

قلت: الصحيح أن هذه الآيات، وهي قوله تعالى: "نسوا الله فأنساهم أنفسهم" وما شابهها ليست من باب المقابلة التي نحن في ذكرها، وإنما نوع آخر، ولو سميت: المماثلة أو المكافأة لكان أولى، والدليل على ذلك أن هذا الرجل حد المقابلة في أول الباب الذي ذكر هذا البحث فيه، فقال: إنها ضد التجنيس؛ لأن التجنيس أن يكون اللفظ واحداً مختلف المعنى؛ وهذه لا بد أن تتضمن معنيين ضدين، وإن كان التضاد مأخوذاً من حدها، فقد خرجت هذه الآيات من باب المقابلة، وكانت نوعاً آخر.

وأيضاً فإن قوله تعالى: "ومكروا مكراً ومكرنا مكراً" ليس من سلك الآيات الأخرى، لأنه بالواو والآيات الأخرى بالفاء، والفاء جواب، والواو ليست بجواب.

وأيضاً، فإننا إذ تأملنا القرآن العزيز لم نجد ما ذكره هذا الرجل مطرداً، قال تعالى: "أما من استغنى، فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى، وأما من جاعك يسعى، وهو يخشى، فأنت عنه تلهي"، فلم يقل في الثانية: وأما من جاعك يسعى وهو فقير.

وقال تعالى: "فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى"، فقابل بين أعطى وبخل ولم يقابل بين اتقى واستغنى، ومثل هذا في القرآن العزيز كثير، وأكثر من الكثير.

وقد بان الآن أن التقسيم الأول فاسد، وأنه لا مقابلة إلا بين الأضداد وما يجري مجراها. وأما مقابلة الجملة بالجملة في تقابل المتماثلين، فإنه إذا كانت إحدهما في معنى الأخرى وقعت المقابلة؛ والأغلب أن تقابل الجملة الماضية بالماضية، والمستقبلية بالمستقبلية.

وقد تقابل الجملة الماضية بالمستقبلية؛ فمن ذلك قوله تعالى: "قل إن ضللت على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي"، فإن هذا تقابل من جهة المعنى، لأنه لو كان من جهة اللفظ لقال: وإن اهتديت فإنما أهتدي لها.

ووجه التقابل المعنوي، هو أن كل ما على النفس فهو بها، أعني كل ما هو عليها وبال وضرر فهو منها وبسببها، لأنها الأمانة بالسوء، وكل ما لها ينفعها فهو بمداية ربها وتوفيقه لها.

ومن ذلك قوله تعالى: "ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً"، فإنه لم يراع التقابل اللفظي، ولو راعاه لقال: والنهار ليبصروا فيه، وإنما المراعاة لجانب المعنى، لأن معنى مبصراً ليبصروا فيه طرق القلب في الحاجات، وأما مقابلة المخالف؛ فهو على وجهين: أحدهما: أن يكون بين المقابل والمقابل نوع مناسبة وتقابل، كقول القائل:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحساناً

فقابل الظلم بالتمغفرة، وهي مخالفة له، ليست مثله ولا ضده، وإنما الظلم ضد العدل؛ إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسنت المقابلة بينها وبين الظلم، ونحو هذا قوله تعالى: "أشداء على الكفار رحماء بينهم"، فإن الرحمة ليست ضدًا للشدة، وإنما ضد الشدة اللين، إلا أنه لما كانت الرحمة سبباً للين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة. وكذلك قوله تعالى: "إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا". فإن المصيبة أخص من السيئة، فالتقابل ههنا من جهة العموم والخصوص.

الوجه الثاني: ما كان بين المقابل والمقابل بعد؛ وذلك مما لا يحسن استعماله، كقول امرأة من العرب لابنها، وقد تزوج بامرأة غير محمودة:

سترمي بها في جاحم متسعر

تربص بها الأيام عل صروفها

بمذمومة الأخلاق واسعة الحر

فكم من كريم من قد مناه إلهه

فمذمومة ليست في مقابلة واسعة، ولو كانت قالت: بضيق الأخلاق، كانت المقابلة صحيحة، والشعر مستقيماً. وكذلك قول المتنبي:

سرور محبٍ أو مساءة مجرم!

لمن نطلب الدنيا إذا لم ترد بها

فالمقابلة الصحيحة بين الحب والبغض؛ لا بين الحب والمجرم.

قلت: إن لقائل أن يقول: هلا قلت في هذا ما قلت في السيئة والمصيبة! أليست القائل: إن التقابل حسن بين المصيبة والسيئة، لكنه تقابل العموم والخصوص! وهذا الموضع مثله أيضاً، لأن كل مبغض لك مجرم إليك، مجرد البغضة جرم، ففيهما عموم وخصوص.

بل لقائل أن يقول: كل مجرم مبغض، وكل مبغض مجرم، وهذا صحيح مطرد.

ومن خطبة له في ذم المتخاذلين

الأصل: أيها الناس، المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب؛ وفعلكم يطمع فيكم الأعداء. تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلت: حيدي حياد! ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. أعاليل بأضاليل؛ دفاع ذي الدين المطول؛ لا يمنع الضيم الذليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد. أي دار بعد داركم تمنعون! ومع أي إمام بعدي تقاتلون! المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل.

أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم، ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم، أقولاً بغير علم، وغفلة من غير ورع، وطمعاً في غير حق! الشرح: حيدي حياد، كلمة يقولها الفار، وهي نظيرة قولهم: فيحي فياح، أي اتسعي، وصمي صمام، للدهاية. وأصلها من حاد عن الشيء، أي انحرف، وحياد مبنية

على الكسر، وكذلك ما كان من باهما، نحو قولهم: بدار، أي ليأخذ كل واحدٍ قرنه. وقولهم: خراج في لعبة للصبيان، أي اخرجوا.

والباء في قوله: بأضاليل متعلقة بأعاليل نفسها، أي يتعللون بالأضاليل التي لا جدوى لها. والسهم الأفوق: المكسور الفوق، وهو مدخل الوتر. والناصل: الذي لا نصل فيه؛ يخاطبهم فيقول لهم: أبدانكم مجتمعة وأهواؤكم مختلفة، متكلمون بما هو في الشدة والقوة يوهي الجبال الصم الصلبة، وعند الحرب يظهر أن ذلك الكلام لم يكن له ثمرة.

تقولون في المجالس كيت وكيت، أي سنفعل وسنفعل، وكيت وكيت كناية عن الحديث، كما كني بفلان عن العلم، ولا تستعمل إلا مكررة، وهما مخففان من كية، وقد استعملت على الأصل، وهي مبنية على الفتح. وقد روى أئمة العربية الضم والكسر أيضاً.

فإذا جاء القتال فررتم وقتلتم: الفرار الفرار.

ثم أخذ في الشكوى، فقال: من دعاكم لم تعز دعوته، ومن قاساكم لم يسترح قلبه. دأبكم التعلل بالأمر الباطلة، والأمان الكاذبة. وسألتهموني الإرجاء وتأخر الحرب كمن يمتل بدين لازم له. والضيم لا يدفعه الدليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد فيه والاجتهاد وعدم الانكماش. وباقي الفصل ظاهر المعنى، وقوله: القوم رجالكم أمثالكم، مثل قول الشاعر:

يدخلكم من قتالهم فشل

قاتلوا القوم يا خزاع ولا

في الرأس لا ينشرون إن قتلوا

القوم أمثالكم لهم شعر

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام في غارة الضحاك بن قيس، ونحن نقصها ههنا:

من أخبار الضحاك بن قيس

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب الغارات قال: كانت غارة الضحاك ابن قيس بعد الحكمين، وقبل قتال النهروان، وذلك أن معاوية لما بلغه أن علياً عليه السلام بعد واقعة الحكمين تحمل إليه مقبلاً، هاله ذلك، فخرج من دمشق معسكراً، وبعث إلى كور الشام، فصاح بها: إن علياً قد سار إليكم وكتب إليهم نسخة واحدة، فقرئت على الناس: أما بعد، فإننا كنا كتبنا كتاباً بيننا وبين علي، وشرطنا فيه شروطاً، وحكمنا رجلين يحكمنا علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه، وجعلنا عهد الله وميثاقه على من نكث العهد ولم يمض الحكم، وإن حكمني الذي كنت حكمته أثبتني، وإن حكمه خلعه، وقد أقبل إليكم ظالماً، " فمن نكث فإنما ينكث على نفسه "، تجهزوا للحرب بأحسن الجهاز، واعدوا آلة القتال، وأقبلوا خفافاً وثقالاً يسرنا الله وإياكم لصالح الأعمال! فاجتمع إليه الناس من كل كورة وأرادوا المسير إلى صفين، فاستشارهم، وقال: إن علياً قد خرج من الكوفة، وعهد العاهد به أنه فارق النخيلة .

فقال حبيب بن مسلمة: فإني أرى أن نخرج حتى نزل منزلنا الذي كنا فيه، فإنه منزل مبارك، وقد متعنا الله به وأعطانا من عدونا فيه النصف.

وقال عمرو بن العاص: إني أرى لك أن تسير بالجنود حتى توغلها في سلطاهم من أرض الجزيرة، فإن ذلك أقوى لجندك،

وأذل لأهل حربك. فقال معاوية: والله إني لأعرف أن الذي تقول كما تقول، ولكن الناس لا يطيقون ذلك. قال عمر: إنها أرض رفيقة، فقال معاوية: إن جهد الناس أن يبلغوا مترهم الذي كانوا به - يعني صفين.

فمكثوا يجيلون الرأي يومين أو ثلاثة، حتى قدمت عليهم عيونهم أن علياً اختلف عليه أصحابه ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحكومة، وأنه قد رجع عنكم إليهم. فكبر الناس سروراً لانصرافه عنهم، وما ألقى الله عز وجل من الخلاف بينهم. فلم يزل معاوية معسكراً في مكانه، منتظراً لما يكون من علي وأصحابه؛ وهل يقبل بالناس أم لا؟ فما برح حتى جاء الخبر أن علياً قد قتل أولئك الخوارج، وأنه أراد بعد قتلهم أن يقبل بالناس، وأنهم استنظروه ودافعوه. فسر بذلك هو ومن قبله من الناس.

قال: وروى ابن أبي سيف، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري، قال: جاءنا كتاب عمارة بن عقبة بن أبي معيط، وكان بالكوفة مقيماً، ونحن معسكرون مع معاوية، نتخوف أن يفرغ علي من الخوارج ثم يقبل إلينا، ونحن نقول: إن أقبل إلينا كان أفضل المكان الذي نستقبله به المكان الذي لقيناه فيه العام الماضي. فكان في كتاب عمارة بن عقبة: أما بعد فإن علياً خرج عليه قراء أصحابه ونساکهم، فخرج إليهم فقتلهم، وقد فسد عليه جنده وأهل مصره، ووقعت بينهم العداوة، وتفرقوا أشد الفرقة، وأحببت إعلامك لتحمد الله، والسلام.

قال عبد الرحمن بن مسعدة: فقرأه معاوية على وجه أخيه عتبة، وعلى الوليد بن عقبة، وعلى أبي الأعور السلمي، ثم نظر إلى أخيه عتبة وإلى الوليد بن عقبة، وقال للوليد: لقد رضي أخوك أن يكون لنا عيناً. فضحك الوليد وقال: إن في ذلك أيضاً لنفعاً.

وروى أبو جعفر الطبري، قال: كان عمارة مقيماً بالكوفة بعد قتل عثمان، لم يهجه علي عليه السلام ولم يذعره، وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سراً، ومن شعر الوليد لأخيه عمارة يحرضه:

ينم ثم لا يطلب بذحل ولا وتر

مخيمة بين الخورنق فالقصر

كأنك لم تسمع بقتل أبي عمرو

قتيل التجيبي الذي جاء من مصر

وما لابن ذكوان الصفوري والوتر

وتتسى أباه إذ تسامى أولو الفخر

وصي النبي المصطفى عند ذي الذكر

وأول من أردى الغواة لدى بدر

إن يك ظني في عمارة صادقاً

يبيت وأوتار ابن عفان عنده

تمشى رخي البال مستشزر القوى

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة

قال: فأجابه الفضل بن العباس بن عتبة:

أطلب ثأراً لست منه ولا له

كما افتخرت بنت الحمار بأمرها

ألا إن خير الناس بعد نبيهم

وأول من صلى وصنو نبيه

أما معنى قوله: وما لابن ذكوان الصفوري، فإن الوليد، هو ابن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو، واسمه ذكوان بن أمية بن عبد شمس. وقد ذكر جماعة من النسابين أن ذكوان كان مولدًا لأمية بن عبد شمس، فتبناه وكناه أبا عمرو، فبنوه موالٍ وليسوا من بني أمية لصلبه. والصفوري: منسوب إلى صفورية؛ قرية من قرى الروم.

قال إبراهيم بن هلال الثقفي: فعند ذلك دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري، وقال له: سر حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليها وإذا أصبحت في بلدة فأمس في أخرى، ولا تقيمن لخييلٍ بلغك أنها قد سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها. فسرعه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف.

فأقبل الضحاك، فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب، حتى مر بالثعلبية فأغار على الحاج، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقى عمرو بن عيسى بن مسعود الهذلي، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتله في طريق الحاج عند القطقطة. وقتل معه ناساً من أصحابه.

قال: فروى إبراهيم بن مبارك البجلي عن أبيه، عن بكر بن عيسى، عن أبي روق، قال: حدثني أبي، قال: سمعت علياً عليه السلام، وقد خرج إلى الناس، وهو يقول على المنبر: يا أهل الكوفة، اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عيسى، وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طرف، اخرجوا فقاتلوا عدوكم، وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين.

فردوا عليه رداً ضعيفاً، ورأى منهم عجزاً وفشلاً فقال: والله لوددت أن لي بكل ثمانية منكم رجلاً منهم! ويحكم أخرجوا معي، ثم فروا عني ما بدا لكم. فوالله ما أكره لقاء ربي على نيتي وبصيرتي، وفي ذلك روح لي عظيم، وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم. ثم نزل.

فخرج يمشي حتى بلغ الغريين، ثم دعا حيدر بن عدي الكندي، فعقد له على أربعة آلاف. وروى محمد بن يعقوب الكليني، قال: استصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناس عقيب غارة الضحاك بن قيس الفهري على أطراف أعماله، فتقاعدوا عنه، فخطبهم فقال: ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم... الفصل إلى آخره.

قال إبراهيم الثقفي: فخرج حجر بن عدي حتى مر بالسماوة - وهي أرض كلب - فلقى بها امرأ القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم الكلبي - وهم أصحاب الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام - فكانوا أدلاءه في الطريق وعلى المياه، فلم يزل مغذاً في أثر الضحاك، حتى لقيه بناحية تدمر، فواقعه فاقتتلوا ساعة، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلاً، وقتل من أصحاب حجر رجلاً، وحج الليل بينهم. فمضى الضحاك، فلما أصبحوا لم يجدوا له ولأصحابه أثراً.

وكان الضحاك يقول بعد: أنا ابن قيس، أنا أبو أنيس! أنا قاتل عمرو بن عيسى.

قال: وكتب في أثر هذه الوقعة عقيل بن أبي طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام، حين بلغه خذلان أهل الكوفة، وتقاعدهم به: لعبد الله علي عليه السلام من عقيل بن أبي طالب. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو،

أما بعد، فإن الله حارسك من كل سوء، وعاصمك من كل مكروه، وعلى كل حال؛ إني قد خرجت إلى مكة معتمراً، فلقيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطلقاء، فعرفت المنكر في وجوههم، فقلت: إلى أين يا أبناء الشانئين! أعماليت تلحقون! عداوة والله منكم قديماً غير مستنكرة؛ تريدون بما إطفاء نور الله، وتبديل أمره فأسمعني القوم وأسمعتهم، فلما قدمت مكة، سمعت أهلها يتحدثون أن الضحاك بن قيس أغار على الحيرة، فاحتمل من أموالها ما شاء، ثم انكفأ راجعاً سالماً. فأف حياة في دهر جرأ عليك الضحاك! وما الضحاك! فقع بقرق! وقد توهمت حيث بلغني ذلك أن شيعتك وأنصارك خذلوك فاكتب إلي يابن أمي برأيك، فإن كنت الموت تريد، تحملت إليك بيني أخيك، وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت، ومتنا معك إذا مت؛ فوالله ما أحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً.

وأقسم بالأعز الأجل، إن عيشاً نعيشه بعدك في الحياة لغير هنئ ولا مرئ ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه عليه السلام: من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى عقيل بن أبي طالب. سلام الله عليك، فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: كلأنا الله وإياك كلاءة من يخشاه بالغيب، إنه حميد مجيد. قد وصل إلي كتابك مع عبد الرحمن بن عبيد الأزدي، تذكر فيه أنك لقيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح مقبلاً من قديد في نحو من أربعين فارساً من أبناء الطلقاء، متوجهين إلى جهة الغرب. وإن ابن أبي سرح طالما كاد الله ورسوله وكتابه، وصد عن سبيله وبغاهما عوجاً؛ فدع ابن أبي سرح، ودع عنك قريشاً، وخلهم وتركاظمهم في الضلال، وتجوأهم في الشقاق. ألا وإن العرب قد أجمعت على حرب أخيك اليوم إجماعها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم، فأصبحوا قد جهلوا حقه، وجحدوا فضله، وبادروه العداوة، ونصبوا له الحرب، وجهدوا عليه كل الجهد، وجروا إليه جيش الأحزاب. اللهم فاجز قريشاً عني قريشاً عني الجوازي! فقد قطعت رحمي، وتظاهرت علي، ودفعتني عن حقي، وسلبتني سلطان ابن أمي، وسلمت ذلك إلى من ليس مثلي في قرابتي من الرسول، وسابقتني في الإسلام! إلا أن يدعي مدع ما لا أعرفه، ولا أظن الله يعرفه، والحمد لله على كل حال.

فأما ما ذكرته من غارة الضحاك على أهل الحيرة، فهو أقل وأزل من أن يلزم بها أو يدنو منها؛ ولكنه قد كان أقبل في جريدة خيل، فأخذ على السماوة، حتى مر بواقصة وشراف والقطقطانة مما والى ذلك الصقع، فوجهت إليه جنداً كثيراً من المسلمين، فلما بلغه ذلك هارباً، فاتبعوه فلحقوه ببعض الطريق وقد أمعن، وكان ذلك حين طفلت الشمس للإياب، فتناوشوا القتال قليلاً كلاً ولا، فلم يصبر لوقع المشرفية وولى هارباً، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلاً، ونجا جريضاً بعد ما أخذ منه بالمخنق، فلأيا بلأبي ما نجا. فأما ما سألتني أن أكتب لك برأيي فيما أنا فيه، فإن رأيي جهاد المحلين حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس معي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، لأنني محق والله مع الحق، ووالله ما أكره الموت على الحق وما الخير كله إلا بعد الموت لمن كان محقاً.

وأما ما عرضت به من مسيرك إلي ببنيك وبني أبيك فلا حاجة لي في ذلك، فأقم راشداً محموداً، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت، ولا تحسبن ابن أمك - ولو أسلمه الناس - متخشعاً ولا متضرعاً، إنه لكما قال أخو بني سليم :

فإن تسأليني كيف أنت فإنني

صبور على ريب الزمان صليب

يعز علي أن ترى بي كآبة

فيشمت عادٍ أو يساء حبيب

قال إبراهيم بن هلال الثقفي: وذكر محمد بن مخنف أنه سمع الضحاك بن قيس بعد ذلك بزمان يخطب على منبر الكوفة، وقد كان بلغه أن قوماً من أهلها يشتمون عثمان ويبرأون منه، قال: فسمعتة يقول: بلغني أن رجلاً منكم ضالاً يشتمون أئمة الهدى، ويعيبون أسلافنا الصالحين، أما والذي ليس له ند ولا شريك؛ لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم، لأضعن فيكم سيف زياد، ثم لا تجدوني ضعيف السورة، ولا كليل الشفرة. أما إني لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم، فكنت أول من غزاها في الإسلام، وشرب من ماء الثعلبية ومن شاطئ الفرات، أعاقب من شئت، وأعفو عمن شئت؛ لقد دعرت المخدرات في خدورهن، وإن كانت المرأة ليكي ابنها فلا ترهبه ولا تسكته إلا بذكر اسمي. فاتقوا الله يا أهل العراق؛ أنا الضحاك بن قيس، أنا أبو أنيس، أنا قاتل عمرو بن عَميس.

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد، فقال: صدق الأمير وأحسن القول، ما أعرفنا والله بما ذكرت! ولقد لقيناك بغربي تدمر، فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً. ثم جلس وقال: أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أول ما قدم! وإيم الله لأذكرنه أبغض مواطنه إليه. قال: فسكت الضحاك قليلاً، وكأنه خزي واستحيا، ثم قال: نعم كان ذلك اليوم! فأخذه بكلام ثقيل، ثم نزل. قال محمد بن مخنف: فلت لعبد الرحمن بن عبيد - أو قيل له: لقد اجترأت حين تذكره هذا اليوم، وتخبره أنك كنت فيمن لقيه! فقال: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

قال: وسأل الضحاك عبد الرحمن بن عبيد حين قدم الكوفة، فقال: لقد رأيت منكم بغربي تدمر رجلاً ما كنت أرى أن في الناس مثله، حمل علينا، فما كذب حتى ضرب الكتبية التي أنا فيها، فلما ذهب ليولي حملت عليه، فطعنته، فوقع ثم قام فلم يضره شيئاً، ثم لم يلبث أن حمل علينا في الكتبية التي أنا فيها، فصرع رجلاً ثم ذهب لينصرف، فحملت عليه فضربته على رأسه بالسيف، فحيل إلي أن سيفي قد ثبت في عظم رأسه فضربني، فوالله ما صنع سيفه شيئاً، ثم ذهب فظننت أنه لن يعود، فوالله ما راعني إلا وقد عصب رأسه بعمامة، ثم أقبل نحونا فقلت: ثكلتك أمك! أما تهتك الأوليان عن الإقدام علينا! قال: إنهما لم تنهياني، إنما احتسب هذا في سبيل الله. ثم حمل ليطعنني، فطعنته وحمل أصحابه علينا، فانفصلنا، وحال الليل بيننا، فقال له عبد الرحمن: هذا يوم شهده هذا - يعني ربيعة بن ماجد - وهو فارس الحي، وما أظنه يخفى أمر هذا الرجل. فقال له: أتعرفه؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: فأرني الضربة التي برأسك، فأراه فإذا هي ضربة قد برت العظم منكراً، فقال له: فما رأيك اليوم؟ أهو كرايك يومئذ! قال: رأي اليوم رأي الجماعة، قال: فما عليكم من بأس، أنتم آمنون ما لم تظهروا خلافاً، ولكن العجب كيف نجوت من زياد لم يقتلك فيمن قتل، أو يسيرك فيمن سير! فقال: أما التسيير فقد سيرني، وأما القتل فقد عافانا الله منه!.

قال إبراهيم الثقفي: وأصاب الضحاك في هربه من حجر عطش شديد، وذلك لأن الحمل الذي كان عليه ماؤه ضل فعطش، وخفق برأسه خفقتين لنعاسٍ أصابه، فترك الطريق وانتبه، وليس معه إلا نفر يسير من أصحابي، وليس منهم أحد

معه ماء، فبعث رجالاً منهم في جانب يلتمسون الماء ولا أنيس، فكان الضحاك بعد ذلك يحكي، قال: فرأيت جادة فلزمتها، فسمعت قائلاً يقول:

دعاني الهوى من ساعة فأجيب

أرقت لساري الهم حين يؤوب

فإني بداري عامر لغريب

دعاني الهوى فازددت شوقاً وربما

وأرقتني بعد المنام وربما

فإن أك قد أحببتكم ورأيتكم

قال: واشرف علي رجل، فقلت: يا عبد الله، اسقني ماء، فقال: لا والله، حتى تعطيني ثمنه، قلت: وما ثمنه! قال: ديتك، قلت: أما ترى عليك من الحق أن تقرري الضيف، فطعمه وتسقيه! قال: ربما فعلنا وربما بخلنا، قال: فقلت: والله ما أراك فعلت خيراً قط، اسقني، قال: ما أطيق، قلت: فإني أحسن إليك وأكسوك، قال: لا والله لا أنقص شربة من مائة دينار، فقلت له: ويحك! اسقني! فقال: ويحك! أعطني، قلت: لا والله ما هي معي، ولكنك تسقيني، ثم تنطلق معي أعطيكها، قال: لا والله، قلت: اسقني وأرهنيك فرسي حتى أوفيكها، قال: نعم، ثم خرج بين يدي واتبعته، فأشرفنا على أجنبية وناس على ماء فقال لي: مكانك حتى آتيك. فقلت: بل أجيء معك، قال: وساءه حيث رأيت الناس والماء، فذهب يشد حتى دخل بيتاً، ثم جاء بماء في إناء، فقال: اشرب، فقلت: لا حاجة لي فيه. ثم دنوت من القوم، فقلت: اسقوني ماء، فقال شيخ لابنته اسقيه، فقامت ابنته فجاءت بماء ولبن، فقال ذلك الرجل: نجيتك من العطش، وتذهب بحقي! والله لا أفارقك حتى أستوفي منك حقي، فقلت: اجلس حتى أوفيك. فجلس، فترلت فأخذت الماء واللبن من يد الفتاة، فشربت واجتمع إلي أهل الماء، فقلت لهم: هذا ألأم الناس! فعل بي كذا وكذا! وهذا الشيخ خير منه وأسدى، استسقيته فلم يكلمني وأمر ابنته فسقتني، وهو الآن يلزمني بمائة دينار. فشتمه أهل الحي، ووقعوا به، ولم يكن بأسرع من أن لحقني قوم من أصحابي، فسلموا علي بالإمرة، فارتاب الرجل وجزع، وذهب يريد أن يقوم، فقلت: والله لا تبرح حتى أوفيك المائة، فجلس ما يدري ما الذي أريد به! فلما كثر جندي عندي سرحت إلى ثقلي، فأتيت به، ثم أمرت بالرجل فجلد مائة جلدة، ودعوت الشيخ وابنته فأمرت لهما بمائة دينار وكسوتهما، وكسوت أهل الماء ثوباً ثوباً، وحرمتهم. فقال أهل الماء: كان أيها الأمير أهلاً لذلك. وكنت لما أتيت من خير أهلاً.

فلما رجعت إلى معاوية، وحدثته عجب، وقال: لقد رأيت في سفرك هذا عجباً.

ويذكر أهل النسب أن قيساً أبا الضحاك بن قيس كان يبيع عسب الفحول في الجاهلية.

وروي أن عقيلاً رحمه الله تعالى، قدم على أمير المؤمنين، فوجده جالساً في صحن المسجد بالكوفة، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته - وكان عقيل قد كف بصره - فقال: وعليك السلام يا أبا يزيد، ثم التفت إلى ابنه الحسن عليه السلام، فقال: قم فأنزل عمك، فقام فأنزله، ثم عاد فقال: اذهب فاشتر لعمك قميصاً جديداً، ورداءً جديداً وإزاراً جديداً ونعلاناً جديداً، فذهب فاشترى له، فغدا عقيل على علي عليه السلام في الثياب، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: وعليك السلام يا أبا يزيد، قال: يا أمير المؤمنين، ما أراك أصبت من الدنيا شيئاً، وإني لا ترضى نفسي من خلافتك بما رضيت به لنفسك، فقال: يا أبا يزيد، يخرج عطائي فأدفعه إليك.

فلما ارتحل عن أمير المؤمنين عليه السلام أتى معاوية فنصب له كراسيه، وأجلس جلساءه حوله، فلما ورد عليه أمر له بمائة ألف فقبضها، ثم غدا عليه يوماً بعد ذلك، وبعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام، وبيعة الحسن لمعاوية، وجلساء معاوية حوله، فقال: يا أبا يزيد، أخبرني عن عسكري وعسكر أخيك، فقد وردت عليهما، قال: أخبرك، مررت بعسكر أخي، فإذا ليل كليل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس في القوم؛ ما رأيت إلا مصلياً، ولا سمعت إلا قارئاً. ومررت بعسكرك، فاستقبلني قوم من المنافقين ممن نفر برسول الله ليلة العقبة، ثم قال: من هذا عن يمينك يا معاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص، قال: هذا الذي اختصم فيه ستة نفر، فغلب عليه جزار قريش! فمن الآخر؟ قال: الضحاك بن قيس الفهري قال: أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس؟ فمن هذا الآخر؟ قال: أبو موسى الأشعري، قال: هذا ابن السراقة، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه، علم أنه إن استخبره عن نفسه، قال فيه سوءاً، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من سوء، فيذهب بذلك غضب جلسائه، قال: يا أبا يزيد، فما تقول في؟ قال: دعني من هذا! قال: لتقولن، قال: أتعرف حمامة؟ قال: ومن حمامة يا أبا يزيد؟ قال: قد أخبرتك، ثم قام فمضى، فأرسل معاوية إلى النسابة، فدعاه، فقال: من حمامة؟ قال: ولي الأمان؟ قال: نعم، قال: حمامة جدتك أم أبي سفيان، كانت بغياً في الجاهلية صاحبة راية، فقال معاوية لجلسائه: قد ساويتكم وزدت عليكم فلا تغضبوا.

ومن خطبة له في معنى قتل عثمان

الأصل: لو أمرت به لكنت قاتلاً، أو نهيته عنه لكنت ناصراً؛ غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هو خير مني، وأنا جامع لكم أمره؛ استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، والله حكم واقع في المستأثر والجازع.

الشرح: هذا الكلام بظاهره يقتضي أنه ما أمر بقتله، ولا نهي عنه، فيكون دمه عنده في حكم الأمور المباحة التي لا يؤمر بها، ولا ينهى عنها. غير أنه لا يجوز أن يحمل الكلام على ظاهره، لما ثبت من عصمة دم عثمان. وأيضاً فقد ثبت في السير والآخبار أنه كان عليه السلام ينهى الناس عن قتله، فإذاً يجب أن يحمل لفظ النهي على المنع كما يقال: الأمير ينهى عن نهب أموال الرعية، أي يمنع، وحينئذ يستقيم الكلام؛ لأنه عليه السلام ما أمر بقتله ولا منع عن قتله، وإنما كان ينهى عنه باللسان ولا يمنع عنه باليد، فإن قيل: فالنهي عن المنكر واجب، فهلا منع من قتله باليد؟ قيل: إنما يجب المنع باليد عن المنكر إذا كان حسناً؛ وإنما يكون الإنكار حسناً إذا لم يغلب على ظن الناهي عن المنكر أن نهيته لا يؤثر، فإن غلب على ظنه أن نهيته لا يؤثر قبح إنكار المنكر، لأنه إن كان الغرض تعريف فاعل القبيح قبح ما أقدم عليه؛ فذلك حاصل من دون الإنكار؛ وإن كان الغرض ألا يقع المنكر، فذلك غير حاصل؛ لأنه قد غلب على ظنه أن نهيته وإنكاره لا يؤثر، ولذلك لا يحسن من الإنسان الإنكار على أصحاب المآصر ما هم عليه من أخذ المكوس، لما غلب على الظن أن الإنكار لا يؤثر؛

وهذا يقتضي أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام قد غلب على ظنه أن إنكاره لا يؤثر، فلذلك لم ينكر.
ولأجل اشتباه هذا الكلام على السامعين، قال كعب بن جعيل، شاعر أهل الشام الأبيات التي منها:

أرى الشام تكره أهل العراق	وأهل العراق لهم كارهونا
وكل لصاحبه مبغض	يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم	ودناهم مثل ما يقرضونا
وقالوا: علي إمام لنا	فقلنا: رضينا ابن هند رضينا
وقالوا: نرى أن تدينوا لنا	فقلنا: ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد	وطعن وضرب يقر العيوننا
وكل يسر بما عنده	يرى غث ما في يديه سمينا
وما في علي لمستعتب	مقال سوى ضمه المحدثنا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب	ورفع القصاص عن القاتلينا

إذا سئل عنه هذا شبهة	وعمى الجواب على السائلينا
فليس هو براضٍ ولا ساخط	ولا في النهاية ولا الأمرينا
ولا هو ساء ولا سره	ولا بد من بعض ذا أن يكونا

وهذا شعر حبيث منكر، ومقصد عميق، وما قال هذا الشعر إلا بعد أن نقل إلى أهل الشام كلام كثير لأمير المؤمنين عليه السلام في عثمان يجري هذا الجرى، نحو قوله: ما سري ولا ساءني. وقيل له: أرضيت بقتله؟ فقال: لم أرض، فقيل له: أسخطت قتله؟ فقال: لم أسخط. وقوله تارة: الله قتله وأنا معه، وقوله تارة أخرى: ما قتلت عثمان ولا مالأت في قتله. وقوله تارة أخرى: كنت رجلاً من المسلمين أوردت إذ أوردوا، وأصدرت إذ أصدروا.

ولكل شيء من كلامه إذا صح عنه تأويل يعرفه أولو الألباب.

فأما قوله: غير أن من نصره، فكلام معناه أن خاذليه كانوا خيراً من ناصريه؛ لأن الذين نصره كان أكثرهم فساقاً، كمروان بن الحكم وأضرابه، وخذله المهاجرون والأنصار.

فأما قوله: وأنا جامع لكم أمره... إلى آخر الفصل؛ فمعناه أنه فعل ما لا يجوز، وفعلتم ما لا يجوز، أما هو فاستأثر فأساء الأثرة، أي استبد بالأمور فأساء في الاستبداد، وأما أنتم فجزعتم مما فعل أي حزنتم فأسأتم الجزع، لأنكم قتلتموه، وقد كان الواجب عليه أن يرجع عن استثنائه، وكان الواجب عليكم ألا تجعلوا جزاءه عما أذن القتل، بل الخلع والحبس وترتيب غيره في الإمامة، ثم قال: والله حكم سيحكم به فيه وفيكم.

المؤرخون يروون أخبار مقتل عثمان

ويجب أن نذكر في هذا الموضع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قتل.

وأصح ما ذكر في ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ.

وخلاصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثاً مشهورة نقمها الناس عليه، من تأمير بني أمية، ولا سيما الفساق منهم وأرباب السفه وقلة الدين، وإخراج مال الفيء إليهم، وما جرى في أمر عمار وأبي ذر وعبد الله بن مسعود، وغير ذلك من الأمور التي جرت في أواخر خلافته. ثم اتفق أن الوليد بن عقبة لما كان عامله على الكوفة وشهد عليه بشرب الخمر، صرفه وولى سعيد بن العاص مكانه، فقدم سعيد الكوفة، واستخلص من أهلها قوماً يسمرون عنده، فقال سعيد يوماً: إن السواد بستان لقريش وبني أمية. فقال الأشتر النخعي: وتزعم أن السواد الذي أفاءه الله على المسلمين بأسيا فانا بستان لك ولقومك! فقال صاحب شرطته: أترد مقالته وأغلظ له، فقال الأشتر لمن كان حوله من النخع وغيرهم من أشراف الكوفة: ألا تسمعون! فوثبوا عليه بحضرة سعيد فوطئوه وطاً عنيفاً وجروا برجله، فغلظ ذلك على سعيد، وأبعد سماره فلم يأذن بعد لهم، فجعلوا يشتمون سعيداً في مجالسهم، ثم تعدوا ذلك إلى شتم عثمان، واجتمع إليهم ناس كثير، حتى غلظ أمرهم، فكتب سعيد إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليهم أن يسيرهم إلى الشام، لئلا يفسدوا أهل الكوفة، وكتب إلى معاوية وهو والي الشام: إن نفرًا من أهل الكوفة قد هموا بإثارة الفتنة، وقد سيرتهم إليك، فأنست منهم رشداً فأحسن إليهم، واردهم إلى بلادهم.

فلما قدموا على معاوية - وكانوا: الأشتر، ومالك بن كعب الأرحبي، والأسود بن يزيد النخعي، وعلقمة بن قيس النخعي، وصعصعة بن صوحان العبدي، وغيرهم - جمعهم يوماً، وقال لهم: إنكم قوم من العرب، ذوو أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مواريتهم، وقد بلغني أنكم ذمتم قريشاً، ونقمتم على الولاة فيها، ولولا قريش لكنتم أذلة، إن أئمتكم لكم جنة، فلا تفرقوا عن جنتكم، إن أئمتكم ليصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم العتاب، والله لنتنتهن أو ليتلينكم الله. من يسومكم الخسف، ولا يحمدكم على الصبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم، وبعد وفاتكم.

فقال له صعصعة بن صوحان: أما قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية، وإن غيرها من العرب لأكثر منها كان وأمنع.

فقال معاوية: إنك لخطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً، وقد عرفتمكم الآن، وعلمت أن الذي أغراكم قلة العقول.

أعظم عليكم أمر الإسلام فتذكروني الجاهلية! أخزى الله قوماً عظموا أمركم! افقهوا عني ولا أظنكم تفقهون؛ إن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله وحده؛ لم تكن بأكثر العرب ولا أشدها، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأحضرهم أنساباً، وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية - والناس يأكل بعضهم بعضاً - إلا بالله، فبؤاهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حوله. هل تعرفون عرباً أو عجماً، أو سوداً أو حمراً إلا وقد أصابهم الدهر وحرهم، إلا ما كان من قريش، فإنه لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خده الأسفل، حتى أراد الله تعالى أن يستنقذ من أكرمه باتباع دينه من هوان الدنيا، وسوء مرد الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحابنا، وكان خيارهم قريشاً. ثم بني هذا

الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، فلا يصلح الأمر إلا بهم؛ وقد كان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم، أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه! أف لك ولأصحابك! أما أنت يا صعصعة، فإن قرينك شر القرى، أنتنها نبأً وأعمقها وادياً، ولألمها جيراناً، وأعرفها بالشر، لم يسكنها شريف قط ولا وضع إلا سب بها، نزاع الأمم وعبيد فارس، وأنت شر قومك. أحين أبرزك الإسلام، وخلطك بالناس، أقبلت تبغي دين الله عوجاً، وتترع الغواية! إنه لن يضر ذلك قريشاً ولا يضعهم، ولا يمنعهم من تأدية ما عليهم، إن الشيطان عنكم لغير غافل، قد عرفكم بالشر، فأغراكم بالناس، وهو صارعكم، وإنكم لا تدركون بالشر أمراً إلا فتح عليكم شر منه وأخزى. لقد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم، لا ينفع الله بكم أحداً أبداً، ولا يضره، ولستم برجال منفعة ولا مضرة، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا تبطنركم النعمة، فإن البطر لا يجز خيراً. اذهبوا حيث شئتم، فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

وكتب إلى عثمان: إنه قدم علي قوم ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة، والله مبتليهم ثم فاضحهم، وليسوا بالذين نخاف نكايتهم، وليسوا بأكثر ممن له شغب ونكير، ثم أخرجهم من الشام.

وروى أبو الحسن المدائني أنه كان لهم مع معاوية بالشام مجالس طالت فيها المحاورات والمخاطبات بينهم، وأن معاوية قال لهم في جملة ما قاله: إن قريشاً قد عرفت أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها، إلا ما جعل الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، فإنه انتجبه وأكرمه، ولو أن أبا سفيان ولد الناس كلهم لكانوا حلماً.

فقال له صعصعة بن صوحان: كذبت! وقد ولد لهم خير من أبي سفيان! من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البر والفاجر، والكيس والأحمق.

قال: ومن المجالس التي دارت بينهم أن معاوية قال لهم: أيها القوم ردوا خيراً أو اسكتوا، وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم والمسلمين، فاطلبوه وأطيعوني. فقال له صعصعة: لست بأهل ذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله.

فقال: إن أول كلام ابتدأت به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعة رسوله، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. فقالوا: بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال: إن كنت فعلت فإني الآن أتوب، وأمركم بتقوى الله وطاعته، ولزوم الجماعة، وأن توقروا أثمتكم وتطيعوهم.

فقال صعصعة: إن كنت تبت فإننا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك، ممن كان أبوه أحسن أثراً في الإسلام من أبيك، وهو أحسن قدماً في الإسلام منك.

فقال معاوية: إن لي في الإسلام لقدماً، وإن كان غيري أحسن قدماً مني، لكنه ليس في زمانٍ أحد أقوى على ما أنا فيه مني، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن عند عمر هوادة لي ولا لغيري، ولم أحدث ما ينبغي له أن أعترل عملي، فلو رأى ذلك أمير المؤمنين لكتب إلي بخط يده فاعتزلت عمله، فمهلاً فإن في دون ما أنتم فيه ما يأمر فيه الشيطان وينهى. ولعمري لو كانت الأمور تقضى على رأيكم وأهوائكم ما استقام الأمر لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، فعاودوا الخير وقولوه، فإن الله ذو سطوات؛ وإني خائف عليكم أن تتابعوا إلى مطاوعة الشيطان ومعصية

الرحمن فيحللكم ذلك دار الهوان في العاجل والآجل.

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

فوثبوا على معاوية فأخذوا برأسه ولحيته فقال: مه! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا إمامهم ما ملكت أن أتهمهم عنكم حتى يقتلوكم؛ فلعمري إن صنيعكم يشبه بعضه بعضاً.

ثم قام من عندهم، وكتب إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه أن ردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة. فردهم، فأطلقوا ألسنتهم في ذمه وذم عثمان وعيبيهما. فكتب إليه عثمان أن يسيرهم إلى حمص، إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فسيرهم إليها.

وروى الواقدي قال: لما سير بالنفر الذي طردهم عثمان عن الكوفة إلى حمص - وهم: الأشر، وثابت بن قيس الهمداني، وكميل بن زياد النخعي، وزيد بن صوحان، وأخوه صعصعة، وجندب بن زهير الغامدي، وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد، وعمر بن الحمق الخزاعي، وابن الكواء - جمعهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، بعد أن أنزلهم أياماً، وفرض لهم طعاماً، ثم قال لهم يا بني الشيطان، لا مرحباً بكم ولا أهلاً؛ قد رجع الشيطان محسوراً. وأنتم بعد في بساط ضلالكم وغيكم! جزى الله عبد الرحمن إن لم يؤذكم! يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم! أتراكم تقولون لي ما قلتكم لمعاوية! أنا ابن خالد بن الوليد! أنا ابن من عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ عين الردة؛ والله يابن صوحان لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى إن بلغني أن أحداً ممن معي دق أنفك فأقنعت رأسك.

قال: فأقاموا عنده شهراً، كلما ركب أمشاهم معه، ويقول لصعصعة: يابن الخطيئة، إن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر؛ ما لك لا تقول كما كنت تقول لسعيد ومعاوية! فيقولون: سنتوب إلى الله، أقلنا أقالك الله! فما زال دأبه ودأبهم، حتى قال: تاب الله عليكم، فكتب إلى عثمان يسترضيه عنهم، ويسأله فيهم، فردهم إلى الكوفة.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ثم إن سعيد بن العاص قدم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته. فلما دخل المدينة اجتمع قوم من الصحابة، فذكروا سعيداً وأعماله، وذكروا قرابات عثمان وما سوغهم من مال المسلمين، وعابوا أفعال عثمان، فأرسلوا إليه عامر بن عبد القيس - وكان متأهلاً، واسم أبيه عبد الله، وهو من تميم، ثم من بني العنبر - فدخل على عثمان، فقال له: إن ناساً من الصحابة اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت أموراً عظيماً، فاتق الله وتب إليه. فقال عثمان: انظروا إلى هذا، ترعم الناس أنه قارئ، ثم يجيء إلي فيكلمني فيما لا يعلمه! والله ما تدري أين الله! فقال عامر: بلى والله لأدري أن الله لبالمرصاد.

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإلى معاوية وسعيد بن العاص وعمر بن العاص وعبد الله بن عامر - وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم - فشاوورهم، وقال: إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلى أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم.

فقال عبد الله بن عامر: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد حتى يذلوا لك، ولا تكون همّة أحدهم إلا في نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته.

وقال سعيد بن العاص: احسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف، إن لكل قوم قادة متى يهلكوا يتفرقوا ولا يجتمع لهم

أمر. فقال: إن هذا هو الرأي لولا ما فيه.

وقال معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد، فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، فأنا أكفيك أهل الشام.

وقال عبد الله بن سعد: إن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم.

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إنك ركبت الناس بيني أمية، فقلت وقالوا، زغت وزاغوا، فاعتدل أو اعتزل، فإن أبيت فاعزم عزمًا، وامض قدماً.

فقال له عثمان: مالك قمل فروك! أهذا بجد منك! فسكت عمرو حتى تفرقوا، ثم قال: والله يا أمير المؤمنين، لأنت أكرم علي من ذلك، ولكني علمت أن بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولي، فيثقوا بي، فأقود إليك خيراً، وأدفع عنك شراً.

فرد عثمان عماله إلى أعمالهم، وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث، وعزم على أن يحرمهم أعطياتهم ليطيعوه، ورد سعيد بن العاص إلى الكوفة، فتلقاه أهلها بالجرعة - وكانوا قد كرهوا إمارته، وذموا سيرته - فقالوا له: ارجع إلى صاحبك، فلا حاجة لنا فيك. فهم بأن يمضي لوجهه ولا يرجع، فكثر الناس عليه، فقال له قائل: ما هذا! أترد السيل عن أدراجه! والله لا يسكن الغوغاء إلا المشرفية، ويوشك أن تنتضى بعد اليوم، ثم يتمنون ما هم اليوم فيه فلا يرد عليهم. فارجع إلى المدينة، فإن الكوفة ليست لك بدار.

فرجع إلى عثمان، فأخبره بما فعلوا. فأنفذ أبا موسى الأشعري أميراً على الكوفة، وكتب إليهم: أما بعد، فقد أرسلت إليكم أبا موسى الأشعري أميراً، وأعفيتكم من سعيد، ووالله لأفوضنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم جهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه؛ لأكون فيه عند ما أحببتم وكرهتم، حتى لا يكون لكم على الله حجة، والله لنصبرن كما أمرنا، وسيجزى الله الصابرين. قال أبو جعفر: فلما دخلت سنة خمسٍ وثلاثين، تكاتب أعداء عثمان وبني أمية في البلاد، وحرص بعضهم بعضاً على خلع عثمان عن الخلافة، وعزل عماله عن الأمصار، واتصل ذلك بعثمان، فكتب إلى أهل الأمصار: أما بعد، فإنه رفع إلي أن أقوماً منكم يشتمهم عمالي ويضربونهم، فمن أصابه شيء من ذلك فليواف الموسم بمكة، فليأخذ بحقه مني أو من عمالي فإنني قد استقدمتهم، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين.

ثم كاتب عماله واستقدمهم، فلما قدموا عليه جمعهم، وقال: ما شكايه الناس منكم؟ إني لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا الأمر إلا بي. فقالوا له: والله ما صدق من رفع إليك ولا بر، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً. فقال عثمان: فأشيروا علي، فقال سعيد بن العاص: هذه أمور مصنوعة تلقى في السر فيتحدث بها الناس، ودواء ذلك السيف. وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم. وقال معاوية: الرأي حسن الأدب.

وقال عمرو بن العاص: أرى لك أن تلزم طريق صاحبك، فتلين في موضع اللين وتشتد في موضع الشدة.

فقال عثمان: قد سمعت ما قلت؛ إن الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن لا بد منه، وإن باباه الذي يغلق عليه ليفتحن؛

فكفكفهم باللين والمدارة إلا في حدود الله، فقد علم الله أني لم آل الناس خيراً، وإن راحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها! سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها .

ثم نفر فقدم المدينة، فدعا علياً وطلحة والزبير، فحضرُوا وعنده معاوية، فسكت عثمان ولم يتكلم، وتكلم معاوية، فحمد الله، وقال: أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرته من خلقه، وولاة أمر هذه الأمة، لا يطمع فيه أحد غيركم، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع؛ وقد كبر وولى عمره؛ فلو انتظرتُم به الهرم كان قريباً؛ مع أني أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك، وقد فشت مقالة خفتها عليكم، فما عبتُم فيه من شيء فهذه يدي لكم به رهناً، فلا تطمعوا الناس في أمركم، فوالله إن أطمعتموهم لا رأيتم أبداً منها إلا إدباراً.

فقال علي عليه السلام: وما لك وذاك لا أم لك! فقال: دع أُمي فإنها ليست بشر أمهاتكم، قد أسلمت وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم، وأجبي عما أقول لك.

فقال عثمان: صدق ابن أخي، أنا أخبركم عني وعما وليت؛ إن صاحبي اللذين كانا قبلي، ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً. وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه؛ فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه، فأمرني لأمركم تبع. قالوا: أصبت وأحسنست، إنك أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً، وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً، فاستعدها منهما. فاستعادها، فخرجوا راضين.

قال أبو جعفر: وقال معاوية لعثمان: اخرج معي إلى الشام، فإنهم على الطاعة قبل أن يهجم عليك ما لا قبل لك به، فقال: لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء، وإن كان فيه قطع خيط عنقي. قال: فأبعث إليك جنداً من الشام يقيم معك لئلا تنابت المدينة أو إياك. فقال: لا أضيق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: والله لتغتالن، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

قال أبو جعفر: وخرج معاوية من عند عثمان، فمر على نفر من المهاجرين، فيهم علي عليه السلام وطلحة والزبير، وعلى معاوية ثياب سفره، وهو خارج إلى الشام، فقام عليهم، فقال: إنكم تعلمون أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه، حتى بعث الله نبيه، فتفاضوا بالسابقة والقدمة والجهاد؛ فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم، والناس لهم تبع، وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك، وردّه الله إلى غيرهم، وإن الله على البذل لقادر. وإني قد خلفت فيكم شيخنا، فاستوصوا به خيراً وكانفوه، تكونوا أسعد منه بذلك. ثم ودعهم ومضى. فقال علي: كنت أرى في هذا خيراً. فقال الزبير: والله ما كان أعظم قط في صدرك وصدورنا منه اليوم.

قلت: من هذا اليوم أنشب معاوية أظفاره في الخلافة، لأنه غلب على ظنه قتل عثمان، ورأى أن الشام بيده، وإن أهلها يطيعونه، وأن له حجة يحتج بها عليهم، ويجعلها ذريعة إلى غرضه، وهي قتل عثمان إذا قتل، وأنه ليس في أمراء عثمان أقوى منه ولا أقدر على تدبير الجيوش، واستمالة العرب، فبنى أمره من هذا اليوم على الطمع في الخلافة. ألا ترى إلى قوله لصعصعة من قبل: إنه ليس أحد أقوى مني على الإمارة، وإن عمر استعملني ورضي سيرتي! ألا ترى إلى قوله للمهاجرين

الأولين: إن شرعتم في أخذها بالتغالب، وملتم على هذا الشيخ، أخرجها الله منكم إلى غيركم وهو على الاستبدال قادر، وإنما كان يعني نفسه، وهو يكتني عنها، ولهذا تربض بنصرة عثمان لما استنصره ولم يبعث إليه أحداً.

وروى محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى، قال: لما أجلب الناس على عثمان، وكثرت القالة فيه، خرج ناس من مصر؛ منهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر الليثي، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة بن وهبي السكسكي؛ وعليهم جميعاً أبو حرب الغافقي، وكانوا في ألفين. وخرج ناس من الكوفة، منهم زيد بن صوحان العبدي، ومالك الأشتر النخعي، وزباد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم الغامدي، في ألفين. وخرج ناس من أهل البصرة، منهم حكيم بن جبلة العبدي، وجماعة من أمرائهم، وعليهم حرقوص بن زهير السعدي؛ وذلك في شوال من سنة خمس وثلاثين، وأظهروا أنهم يريدون الحج. فلما كانوا من المدينة على ثلاث، تقدم أهل البصرة، فتلوا ذا خشب - وكان هواهم في طلحة - وتقدم أهل الكوفة، فتلوا الأعوص - وكان هواهم في الزبير - وجاء أهل مصر فتلوا المروة - وكان هواهم في علي عليه السلام - ودخل ناس منهم إلى المدينة يخبرون ما في قلوب الناس لعثمان، فلقوا جماعة من المهاجرين والأنصار، ولقوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنما نريد الحج، ونستعفي من عمالنا. ثم لقي جماعة من المصريين علياً عليه السلام، وهو متقلد سيفه عند أحجار الزيت، فسلموا عليه، وعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم، وقال: لقد علم الصالحون أن جيش المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فانصرفوا عنه.

وأتى البصريون طلحة، فقال لهم مثل ذلك، وأتى الكوفيون الزبير، فقل لهم مثل ذلك. فتفرقوا وخرجوا عن المدينة إلى أصحابهم، فلما أمن أهل المدينة واطمأنوا إلى رجوعهم لم يشعروا إلا والتكبير في نواحي المدينة، وقد نزلوها، وأحاطوا بعثمان، ونادى مناديهم: يا أهل المدينة، من كف يده عن الحرب فهو آمن. فحصره في منزله، إلا أنهم لم يمنعوا الناس من كلامه ولقائه، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين، وسألوهم: ما شأنهم؟ فقالوا: لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا لنولي غيره، لم يزيدوهم على ذلك.

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار، يستنجدهم ويأمرهم بتعجيل الشخصوص إليه للمنع عنه، ويعرفهم ما الناس فيه. فخرج أهل الأمصار على الصعب والذلول، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح معاوية بن خديج، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو، بعثه أبو موسى.

وقام بالكوفة نفر يحرضون الناس على نصر عثمان وإعانة أهل المدينة، منهم عقبة بن عمر، وعبد الله بن أبي أوفى، وحنظلة الكاتب، وكل هؤلاء من الصحابة، ومن التابعين مسروق، والأسود، وشريح، وغيرهم.

وقام بالبصرة عمران بن الحصين وأنس بن مالك، وغيرهما من الصحابة. ومن التابعين كعب ابن سور، وهرم بن حيان وغيرهما، وقام بالشام ومصر جماعة من الصحابة والتابعين.

وخرج عثمان يوم الجمعة، فصلى بالناس، وقام على المنبر، فقال: يا هؤلاء، الله الله؛ فوالله إن أهل المدينة يعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فاحموا الخطأ بالصواب.

فقام محمد بن مسلمة الأنصاري، فقال: نعم أنا أعلم ذلك، فأقعدته حكيم بن جبلة. وقام زيد بن ثابت فأقعدته قتيبة بن وهب. وثار القوم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه؛ فأدخل داره؛ واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان؛ منهم سعد بن أبي وقاص، والحسن بن علي عليه السلام، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة، فأرسل إليهم عثمان: عزمت عليكم أن تنصرفوا، فانصرفوا.

وأقبل علي وطلحة والزبير، فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعته، ويشكون إليه ما يجدون لأجله، وعند عثمان نفر من بني أمية، منهم مروان بن الحكم، فقالوا لعلي عليه السلام: أهلكتنا وصنعت هذا الذي صنعت! والله إن بلغت هذا الأمر الذي تريده لنمرن عليك الدنيا، فقام مغضباً، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم.

وروى الواقدي قال: صلى عثمان بعد ما وثبوا به المسجد شهراً كاملاً، ثم منعه الصلاة، وصلى بالناس أميرهم الغافقي. وروى المدائني، قال: كان عثمان محصوراً محاطاً به، وهو يصلي بالناس في المسجد، وأهل مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خلفه، وهم أدق في عينه من التراب.

قال أبو جعفر في التاريخ: ثم إن أهل المدينة تفرقوا عنه، ولزموا بيوتهم، لا يخرج أحد منهم إلا بسيفه يمتنع به، فكان حصاره أربعين يوماً.

وروى الكلبي والواقدي والمدائني أن محمداً بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة كانا بمصر يحرضان الناس على عثمان، فسار محمد بن أبي بكر مع من سار إلى عثمان، وأقام محمد بن أبي حذيفة بمصر، ثم غلب عليها لما سار عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان عنها إلى المدينة في أثر المصريين، بإذن عثمان له، فلما كان بأيلة، بلغه أن المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول، وأن محمد بن أبي حذيفة قد غلب على مصر، فعاد عبد الله إلى مصر، فمنع عنها، فأتى فلسطين، فأقام بها حتى قتل عثمان.

وروى الكلبي، قال: بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح رسولاً من مصر إلى عثمان يخبره بنهوض من نهض من مصر إليه، وأنهم قد أظهروا العمرة، وقصدهم خلعه أو قتله، فخطب عثمان الناس، وأعلمهم حالهم، وقال: إنهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عمري، والله إن فارقتهم ليتمين كل منهم أن عمري كان طال عليهم مكان كل يوم سنة، مما يرون من الدماء المسفوكة والإحن والأثرة الظاهرة، والأحكام المغيرة.

وروى أبو جعفر، قال: كان عمرو بن العاص ممن يحرض على عثمان ويغري به، ولقد خطب عثمان يوماً في أواخر خلافته، فصاح به عمرو بن العاص: اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك، فتب إلى الله نتب. فناداه عثمان: وإنك ههنا يابن النابغة! قملت والله جبتك منذ نزعتك عن العمل. فنودي من ناحية أخرى: تب إلى الله. ونودي من أخرى مثل ذلك، فرفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم إني أول التائبين، ثم نزل.

وروى أبو جعفر، قال: كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان، وكان يقول: والله إن كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان، فضلاً عن الرؤساء والوجوه. فلما شعر الشر بالمدينة، خرج إلى منزله بفلسطين، فبينما هو بقصره ومعه ابناه: عبد الله ومحمد؛ وعندهم سلامة بن روح الجذامي، إذ مر بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان، فقال: محصور، فقال عمرو: أنا أبو عبد الله! قد يضطر العير والمكواة في النار. ثم مر بهم راكب آخر، فسألوه، فقال: قتل

عثمان، فقال عمرو: انا أبو عبد الله، إذا نكات قرحةً أدميتها. فقال سلامة بن روح يا معشر قريش؛ إنما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه، فقال: نعم أردنا أن يخرج الحق من خاصرة الباطل، ليكون الناس في الأمر شرعاً سواء.

وروى أبو جعفر قال: لما نزل القوم ذا خشب يريدون قتل عثمان إن لم يترع عما يكرهون، وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل علي عليه السلام، فدخل وقال: يا بن عم، إن قرابتي قريبة، ولي عليك حق، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي، ولك عند الناس قدر، وهم يسمعون منك، وأحب أن تركب إليهم فتردهم عني، فإن في دخولهم علي وهناً لأمري، وجرأة علي. فقال عليه السلام: على أي شيء أردتهم؟ قال: على أن أصير إلى ما أشرت به، ورأيت لي. فقال علي عليه السلام: إني قد كلمتك مرة بعد أخرى، فكل ذلك تخرج وتقول، وتعد ثم ترجع! وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد، فإنك أطعتهم وعصيتني! قال عثمان: فإني أعصيه وأطيعك.

فأمر علي عليه السلام الناس أن يركبوا معه، فركب ثلاثون رجلاً من المهاجرين والأنصار، منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو جهم العدوي، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ومن الأنصار أبو أسيد الساعدي، وزيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وغيرهم. فأتوا المصريين فكلموهم، فكان الذي يكلمهم علي ومحمد بن مسلمة، فسمعوا منهما، ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر، ورجع علي عليه السلام حتى دخل على عثمان، فأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناس منه، ليسكنوا إلى ما يعدهم به من التزوع. وقال له: إن البلاد قد تمحضت عليك، ولا آمن أن يجيء ركب من جهة أخرى، فتقول لي: يا علي، اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك، واستخففت بحقك.

فخرج عثمان، فخطب الخطبة التي نزع فيها، وأعطى الناس من نفسه التوبة، وقال لهم: أنا أول من اتعظ، وأستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب؛ فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروا رأيهم، وليذكر كل واحد ظلامته، لأكشفها، وحاجة لأقضيها، فوالله لئن ردي الحق عبداً لأستن بسنة العبيد، ولأذلن ذل العبيد، وما عن الله مذهب إلا إليه، والله لأعطينكم الرضا، ولأنحين مروان وذويه، ولا أحتجب عنكم.

فرق الناس له وبكوا حتى خضلوا لحاهم، وبكى هو أيضاً، فلما نزل وجد مروان وسعيداً ونفراً من بني أمية في منزله فعوداً لم يكونوا شهدوا خطبته؛ ولكنها بلغتهم؛ فلما جلس، قال مروان: يا أمير المؤمنين، أأتكلم أم أسكت؟ فقالت نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان: لا بل تسكت، فأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله، إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن يترع عنها. فقال لها مروان: وما أنت وذاك! والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ! فقالت: مهلاً يا مروان عن ذكر أبي إلا بخير؛ والله لولا أن أباك عم عثمان، وأنه يناله غمه وعيبه، لأخبرتكم من أمره بما لا أكذب فيه عليه.

فأعرض عنه عثمان، ثم عاد فقال: يا أمير المؤمنين، أأتكلم أم أسكت، فقال: تكلم، فقال: بأي أنت وأمي! والله لوددت أن مقالتي هذه كانت وأنت ممتنع، فكنت أول من رضي بها وأعان عليها؛ ولكنك قلت ما قلت، وقد بلغ الحزام الطبيين، وجاوز السيل الزبي، وحين أعطى الخطة الذليلة الدليل: والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها، أجمل من توبة تخوف عليها، ما زدت على أن جرأت عليك الناس.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

فقال عثمان: قد كان من قولي ما كان، وإن الفأث لا يرد، ولم آل خيراً.

فقال مروان: إن الناس قد اجتمعوا ببابك أمثال الجبال، قال: ما شأنهم، قال: أنت دعوتهم إلى نفسك، فهذا يذكر مظلمة، وهذا يطلب مالاً، وهذا يسأل نزع عامل من عمالك عنه، وهذا ما جنيت على خلافتك، ولو استمسكت وصبرت كان خيراً لك. قال: فأخرج أنت إلى الناس فكلهم فإني أستحي أن أكلهم وأردهم. فخرج مروان إلى الناس، وقد ركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم؟ قد اجتمعتم كأنتكم جئتم لنهب، شأهت الوجوه! أتريدون أن تترعوا ملكنا من أيدينا! اعزبوا عنا، والله إن رمتونا لنمرن عليكم ما حلا، ولنحلن بكم ما لا يسركم، ولا تحمدوا فيه غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا.

فرجع الناس حائبين يشتمون عثمان ومروان، وأتى بعضهم علياً عليه السلام فأخبره الخبر، فأقبل علي عليه السلام على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهري، فقال: أحضرت خطبة عثمان؟ فقال: نعم، قال: أحضرت مقالة مروان للناس؟ قال: نعم، فقال: أي عباد الله، يا لله للمسلمين! إني إن قعدت في بيتي، قال لي: تركتني وخذلتني! وإن تكلمت فبلغت له ما يريد، جاء مروان فتلعب به حتى قد صار سيقاً له، يسوقه حيث يشاء، بعد كبر السن وصحبته الرسول صلى الله عليه وسلم. وقام مغضباً من فوره حتى دخل على عثمان، فقال له: أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك! فأنت معه كجمل الطعينة، يقاد حيث يسار به؛ والله ما مروان بذى رأي في دينه ولا عقله، وإني لأراه يوردك ثم لا يصدرك، وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك؛ أفسدت شرفك، وغلبت على رأيك. ثم نهض. فدخلت نائلة بنت الفرافصة، فقالت: قد سمعت قول علي لك، وإنه ليس برأح إليك ولا معاود لك، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء. قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، وليس لمروان عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما رجع عنك أهل مصر لقول علي، فأرسل إليه فاستصلحه، فإن له عند الناس قدماً، وإنه لا يعصى.

فأرسل إلى علي فلم يأته وقال: قد أعلمته أي غير عائد.

قال أبو جعفر: فجاء عثمان إلى علي بمزله ليلاً، فاعتذر إليه، ووعد من نفسه الجميل، وقال: إني فاعل، وإني غير فاعل، فقال له علي عليه السلام: أبعد ما تلکمت على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطيت من نفسك، ثم دخلت بيتك، وخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك! فخرج عثمان من عنده، وهو يقول: خذلتني يا أبا الحسن! وجزأت علي الناس، فقال علي عليه السلام: والله إن لأكثر الناس ذباً عنك، ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضا، جاء مروان بغيره فسمعت قوله، وتركت قولي.

ولم يعد علي إلى نصر عثمان؛ إلى أن منع الماء لما اشتد الحصار عليه، فغضب علي من ذلك غضباً شديداً، وقال طلحة: أدخلوا عليه الروايا، فكره طلحة ذلك وساءه، فلم يزل علي عليه السلام حتى أدخل الماء إليه.

وروى أبو جعفر أيضاً أن علياً عليه السلام كان في ماله بخير لما حصر عثمان، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة، وكان لطلحة في حصار عثمان أثر، فلما قدم علي عليه السلام أتاه عثمان، وقال له: أما بعد، فإن لي حق الإسلام وحق

الإخاء والقراة والصهر، ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في جاهلية، لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم - يعني طلحة - فقال له علي: أنا أكفيك، فاذهب أنت.

ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة بن زيد، فتوكل على يده حتى دخل دار طلحة وهي مملوءة من الناس، فقال له: يا طلحة، ما هذا الأمر الذي صنعت بعثمان؟ فقال: يا أبا الحسن، أبعد أن مس الحزام الطيبين! فانصرف علي عليه السلام حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب، وفرق ما فيه على الناس؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بقي وحده، وسر عثمان بذلك، وجاء طلحة فدخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إني أردت أمراً فحال الله بيني وبينه، وقد جئتك تائباً، فقال: والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً، الله حسيبك يا طلحة! قال أبو جعفر: كان عثمان مستضعفاً، طمع فيه الناس بأفعاله وباستيلاء بني أمية عليه، وكان ابتداء الجرأة عليه أن إبلاً من إبل الصدقة قدم بها عليه، فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبي العاص، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره، فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان.

وقيل: بل كان أول وهن دخل عليه، أن عثمان مر بجبلية بن عمرو الساعدي، وهو في نادي قومه، وفي يده جامعة، فسلم، فرد القوم عليه، فقال جبلية: لم تردون على رجل فعل كذا وفعل كذا؟ ثم قال لعثمان: والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتترك بطنتك الخبيثة: مروان وابن عامر وابن أبي سرح، فمنهم من نزل القرآن بدمه، ومنهم من أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه.

وقيل: إنه خطب يوماً ويده عصا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يخطبون عليها، فأخذها جهجاه الغفاري من يده، وكسرها على ركبته، فلما تكاثرت أحداثه، وتكاثر طمع الناس فيه، كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من بالآفاق: إن كنتم تريدون الجهاد، فهلموا إلينا فإن دين محمد قد أفسده خليفتم فاخلعوه، فاختلفت عليه القلوب، وجاء المصريون وغيرهم إلى المدينة حتى حدث ما حدث.

وروى الواقدي والمدائني وابن الكلبي وغيرهم، وذكره أبو جعفر في التاريخ، وذكره غيره من جميع المؤرخين: أن علياً عليه السلام لما رد المصريين، رجعوا بعد ثلاثة أيام، فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رصاص، وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالموضع المعروف بالبويب على بغير من إبل الصدقة، ففتشنا متاعه، لأننا استرنا أمره، فوجدنا فيه هذه الصحيفة، مضمونها أمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق، وحلق رؤوسهما ولحاهما، وحبسهما، وصلب قوم آخرين من أهل مصر.

وقيل: إن الذي أخذت منه الصحيفة أبو الأعور السلمي، وإنهم لما رأوه وسألوه عن مسيره، وهل معه كتاب؟ فقال: لا، فسألوه: في أي شيء هو؟ فتغير كلامه، فأخذه وفتشوه وأخذوا الكتاب منه، وعادوا إلى المدينة. وجاء الناس إلى علي عليه السلام، وسألوه أن يدخل إلى عثمان فيسأله عن هذه الحال، فقام فجاء إليه فسأله، فأقسم بالله ما كتبته ولا علمته، ولا أمرت به، فقال محمد بن مسلمة: صدق، هذا من عمل مروان، فقال: لا أدري - وكان أهل مصر حضوراً - فقالوا: أفيجتراً علينا ويبعث غلامك على جمل من إبل الصدقة، وينقش على خاتمك، ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة،

وأنت لا تدري! قال: نعم، قالوا: إنك إما صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع، لما أمرت به من قتلنا وعقوبتنا بغير حق، وإن كنت صادقاً فقد استحققت الخلع، لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك، وخبث بطانتك، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته، فاخلع نفسك منه. فقال: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله، ولكني أتوب وأنزع، قالوا: لو كان هذا أول ذنب تبت منه لقبنا، ولكننا رأيناك تتوب ثم تعود، ولسنا بمنصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله، وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك. فقال: أما أن أبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلي من ذلك! وأما قتالكم من يمنع عني، فيني لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قاتلكم فيغير أمري قاتل، ولو أردت قتالكم لكثبت إلى الأجناد فقدموا علي أو لحقت ببعض الأطراف. وكثرت الأصوات واللغط، فقام علي فأخرج أهل مصر معه، وخرج إلى منزله.

قال أبو جعفر: وكتب عثمان إلى معاوية وابن عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم، ويأمر بالعجل والبدار وإرسال الجنود إليه، فتربص به معاوية، فقام في أهل الشام يزيد بن أسد القسري جد خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق، فتبعه خلق كثير، فسار بهم إلى عثمان، فلما كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان، فرجعوا.

وقيل: بل أشخص معاوية من الشام حبيب بن مسلمة الفهري، وسار من البصرة بجاشع بن مسعود السلمي، فلما وصلوا الربذة، ونزلت مقدمتهم الموضع المسمى صراراً بناحية المدينة، أتاهم قتل عثمان، فرجعوا. وكان عثمان قد استشار نصحاءه في أمره، فأشاروا أن يرسل إلى علي عليه السلام، يطلب إليه أن يرد الناس ويعطيهم ما يرضيهم ليطاوهم حتى تأتية الأمداد، فقال: إنهم لا يقبلون التعليل، وقد كان مني في المرة الأولى ما كان، فقال مروان: أعطهم ما سألوك وطاوهم ما طاولوك، فإنهم قوم قد بغوا عليك ولا عهد لهم.

فدعا علياً عليه السلام، وقال له: قد ترى ما كان من الناس، ولست آمنهم على دمي، فارددهم عني، فإني أعطيتهم ما يريدون من الحق من نفسي ومن غيري.

فقال علي: إن الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك، وإنهم لا يرضون إلا بالرضا، وقد كنت أعطيتهم من قبل عهداً فلم تف به، فلا تغرر في هذه المرة، فإني معطيهم عنك الحق، قال: أعطهم فوالله لأفين لهم.

فخرج علي عليه السلام إلى الناس، فقال: إنكم إنما تطلبون الحق وقد أعطيتموه، وإنه منصفكم من نفسه، فسأله الناس أن يستوثق لهم، وقالوا: إنا لا نرضى بقول دون فعل، فدخل عليه فأعلمه، فقال: اضرب بيني وبين الناس أجلاً، فإني لا أقدر على تبديل ما كرهوا في يوم واحد، فقال علي عليه السلام: أما ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وأما ما غاب فأجله وصول أمرك، قال: نعم، فأجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام. فأجابه إلى ذلك، وكتب بينه وبين الناس كتاباً على رد كل مظلمة، وعزل كل عامل كرهوه. فكف الناس عنه، وجعل يتأهب سراً للقتال، ويستعد بالسلاح، واتخذ جنداً، فلما مضت الأيام الثلاثة ولم يغير شيئاً ثار به الناس، وخرج قوم إلى من بذى خشب من المصريين، فأعلموهم الحال، فقدموا المدينة، وتكاثر الناس عليه، وطلبوا منه عزل عماله ورد مظالمهم، فكان جوابه لهم: إني إن كنت أستعمل من تريدون لا من أريد، فلست إذن في شيء من الخلافة، والأمر أمركم. فقالوا: والله لتفعلن أو لتخلعن أو لنقتلنك. فأبى عليهم وقال: لا أنزع سربالاً

سريلنيه الله. فحصره وضيقوا الحصار عليه.

وروى أبو جعفر: لما اشتد على عثمان الحصار، أشرف على الناس، فقال: يا أهل المدينة، أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي. ثم قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنكم دعوتكم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم! أفتقولون: إن الله لم يستجب لكم، وهتتم عليه، وأنتم أهل حقه وأنصار نبيه، أم تقولون: هان على الله دينه فلم يبال من ولى، والدين لم يتفرق أهله بعد! أم تقولون: لم يكن أخذ عن مشورة، إنما كان مكابرة، فوكل الله الأمة - إذ عصته ولم يتشاوروا في الإمامة - إلى أنفسها! أم تقولون: إن الله لم يعلم عاقبة أمري! فمهلاً مهلاً! لا تقتلوني، وإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة: زان بعد إحسان، أو كافر بعد إيمان، أو قاتل نفس بغير حق. أما إنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لا يرفعه الله عنكم أبداً. فقالوا: أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر، فإن كل ما يصنعه الله الخيرة، ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده، ولقد كانت لك قدم وسابقة، وكنت أهلاً للولاية، ولكن أحدث ما تعلمه، ولا نترك اليوم إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً. وأما قولك: لا يحل دم إلا بإحدى ثلاث؛ فإننا نجد في كتاب الله إباحة دم غير الثلاثة: دم من سعى في الأرض بالفساد، ودم من بغى ثم قاتل على بغيه، ودم من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه؛ وقد بغيت ومنعت الحق، وحلت دونه، وكابرت عليه، ولم تقد من نفسك من ظلمته، ولا من عمالك، وقد تمسكت بالإمارة علينا، والذين يقومون دونك ويمنعوك، إنما يمنعونك ويقاتلوننا لتسميتك بالإمارة، فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك.

فسكت عثمان ولزم الدار، وأمر أهل المدينة بالرجوع، وأقسم عليهم فرجعوا، إلا الحسن بن علي، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير وأشباهاً لهم، وكانت مدة الحصار أربعين يوماً. قال أبو جعفر: ثم إن محاصري عثمان أشفقوا من وصول أجناد من الشام والبصرة تمنعه، فحالوا بين عثمان وبين الناس، ومنعوه كل شيء حتى الماء، فأرسل عثمان سراً إلى علي عليه السلام، وإلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد منعونا الماء، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا ماء فافعلوا. فجاء علي عليه السلام في الغلس وأم حبيبة بنت أبي سفيان، فوقف علي عليه السلام على الناس فوعظهم، وقال: أيها الناس؛ إن الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، إن فارس والروم لتأسر فتطعم وتسقي، فالله الله! لا تقطعوا الماء عن الرجل؛ فأغلظوا له وقالوا: لا نعم ولا نعمة عين. فلما رأى منهم الجد نزع عمامته عن رأسه، ورمى بها إلى دار عثمان، يعلمه أنه قد نهض وعاد. وأما أم حبيبة - وكانت مشتملة على إداوة - فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إن وصايا أيتام بني أمية عند هذا الرجل، فأحبيت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال اليتامى، فشتموها، وقالوا: أنت كاذبة، وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فنفرت وكادت تسقط عنها، فتلقاها الناس فحملوها إلى منزلها.

وروى أبو جعفر قال: أشرف عثمان عليهم يوماً، فقال: أنشدكم الله، هل تعلمون أي اشتريت بئر رومة بمالي، أستعذب بها وجعلت رشائي فيها كرجل من المسلمين! قالوا: نعم، قال: فلم تمنعوني أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر! ثم قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أي اشتريت أرض كذا، فردتها في المسجد؟ قالوا: نعم، قال: فهل علمتم أن أحداً منع أن

يصلّي فيه قبلي!.

وروى أبو جعفر عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، قال: دخلت على عثمان، فأخذ بيدي فأسمعني كلام من على بابه من الناس، فمنهم من يقول: ما تنتظرون به؟ ومنهم من يقول: لا تعجلوا، فعساه يترع ويراجع؛ فبينما نحن إذ أمر طلحة، فقام إليه ابن عديس البلوي، فناجاه، ثم رجع ابن عديس، فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل إلى عثمان، ولا يخرج من عنده، قال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة، اللهم اكفني طلحة، فإنه حمل هؤلاء القوم وألبهم علي، والله إني لأرجو أن يكون منها صفرًا، وأن يسفك دمه! قال: فأردت أن أخرج، فمنعوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر، فتركوني أخرج.

قال أبو جعفر: فلما طال الأمر وعلم المصريون أنهم قد أجزموا عليه جرماً كجرم القتل، وأنه لا فرق بين قتله وبين ما أتوا إليه، وخافوا على نفوسهم من تركه حياً، راموا الدخول عليه من باب داره، فأغلقوا الباب، ومانعهم الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومروان، وسعيد بن العاص، وجماعة من أبناء الأنصار، فزجرهم عثمان، وقال: أنتم في حل من نصرتي، فأبوا ولم يرجعوا.

وقام رجل من أسلم يقال له نيار بن عياض - وكان من الصحابة - فنادى عثمان، وأمره أن يخلع نفسه، فبينما هو يناشده ويسومه خلع نفسه، رماه كثير بن الصلت الكندي - وكان من أصحاب عثمان من أهل الدار - بسهم فقتله، فصاح المصريون وغيرهم عند ذلك: ادفعوا إلينا قاتل ابن عياض لنقتله به، فقال عثمان: لم أكن لأدفع إليكم رجلاً نصرتي وأنتم تريدون قتلي! فثاروا إلى الباب، فأغلق دونه، فجاءوا بنار فأحرقوه وأحرقوا السقيفة التي عليه، فقال لمن عنده من أنصاره: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي عهداً فأنا صابر عليه، فأخرج على رجل يقاتل دوني! ثم قال للحسن: إن أباك الآن لفي أمر عظيم من أحلك، فأخرج إليه، أقسمت عليك لما خرجت إليه! فلم يفعل، ووقف محامياً عنه.

وخرج مروان بسيفه يجالّد الناس، فضربه رجل من من بني ليث على رقبتة، فأثبته وقطع إحدى علباويه، فعاش مروان بعد ذلك أوقص، وقام إليه عبيد بن رفاعة الزرقلي ليذفف عليه، فقامت دونه فاطمة أم إبراهيم بن عدي - وكانت أرضعت مروان وأرضعت له - فقالت له: إن كنت تريد قتله فقد قتل، وإن كنت إنما تريد أن تتلعب لحمه فأقبح بذلك! فتركه، فخلصته وأدخلته بيتها، فعرف لها بنوه ذلك بعد، واستعملوا ابنها إبراهيم، وكان له منهم خاصة.

وقتل المغيرة بن الأخنس بن شريق، وهو يحامي عن عثمان بالسيف، واقتحم القوم الدار، ودخل كثير منهم الدور المجاورة، وتسوروا من دار عمرو بن حزم إليها حتى ملأوها، وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلاً لقتله، فدخل إليه البيت، فقال له: اخلعها وندعك، فقال: ويحك! والله ما كشفت عن امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تعينت ولا تمنيت، ولا وضعت يميني على عورتي مذ بايعت رسول الله، ولست بخالقميصاً كسانيه الله، حتى يكرم أهل السعادة، ويهين أهل الشقاوة.

فخرج عنه فقالوا له: ما صنعت؟ قال: إني لم أستحل قتله، فأدخلوا إليه رجلاً من الصحابة، فقال له: لست بصاحبي، إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لك أن يحفظك يوم كذا، ولن تضيع؛ فرجع عنه.

فأدخلوا إليه رجلاً من قريش، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لك يوم كذا، فلن تقارف دماً حراماً، فرجع عنه.

فدخل عليه محمد بن أبي بكر، فقال: له عثمان: ويحك! أعلى الله تغضب! هل لي إليك جرم إلا أني أخذت حق الله منك؟ فأخذ محمد بلحيته، وقال: أخزأك الله يا نعثل! قال: لست بنعثل، ولكني عثمان وأمير المؤمنين؛ فقال: ما أغني عنك معاوية وفلان وفلان، فقال عثمان: يابن أخي، دعها من يدك، فما كان أبوك ليقبض عليها، فقال: لو عملت ما عملت في حياة أبي لقبض عليها، والذي أريد بك أشد من قبضي عليها، فقال: أستنصر الله عليك وأستعين به، فتركه وخرج.

وقيل: بل طعن جبينه بمشقص كان في يده، فثار سودان بن حمران، وأبو حرب الغافقي وقتيرة بن وهب السكسكي، فضربه الغافقي بعمود كان في يده، وضرب المصحف برجله، وكان في حجره، فترل من بين يديه وسال عليه الدم. وجاء سودان ليضربه بالسيف، فأكبت عليه امرأته نائلة بنت الفرافصة الكلبية، واتقت السيف بيدها وهي تصرخ، فنفخ أصابعها فأطننها، فوالت، فغمز بعضهم أوراكها، وقال: إنما لكبيرة العجز، وضرب سودان عثمان فقتله.

وقيل: بل قتله كنانة بن بشر التجيبي وقيل: بل قتيرة بن وهب. ودخل غلمان عثمان ومواليه، فضرب أحدهم عنق سودان فقتله، فوثب قتيرة بن وهب على ذلك الغلام فقتله، فوثب غلام آخر على قتيرة فقتله، ونهبت دار عثمان، وأخذ ما على نسائه وما كان في بيت المال، وكان فيه غرارتان دراهم. ووثب عمرو بن الحمق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات، وقال: أما ثلاث منها فإني طعنتهن لله تعالى، وأما ست منها فلما كان في صدري عليه. وأرادوا قطع رأسه، فوقعت عليه زوجته: نائلة بنت الفرافصة وأم البنين، ابنة عيينة بن حصن الفزاري، فصحن وضربن الوجوه، فقال ابن عديس: اتركوه، وأقبل عمير بن ضابئ البرجمي فوثب عليه، فكسر ضلعين من أضلاعه، وقال له: سحنت أبي حتى مات في السجن! وكان قتله يوم الثامن عشر من ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين. وقيل: بل في أيام التشريق، وكان عمره ستاً وثمانين سنة.

قال أبو جعفر: وبقي عثمان ثلاثة أيام لا يدفن. ثم إن حكيم بن حزام بن مطعم كلما علياً عليه السلام في أن يأذن في دفنه ففعل، فلما سمع الناس بذلك قعد له قوم في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله، ومعهم الحسن بن علي وابن الزبير، وأبو جهم بن حذيفة بين المغرب والعشاء، فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة، يعرف بحش كوكب وهو خارج البقيع، فصلوا عليه. وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه، فأرسل علي عليه السلام، فمنع من رجم سريره، وكف الذي راموا منع الصلاة عليه، ودفن في حش كوكب، فلما ظهر معاوية على الأمر، أمر بذلك الحائط فهدم، وأدخل في البقيع، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره؛ حتى اتصل بمقابر المسلمين بالبقيع. وقيل إن عثمان لم يغسل، وإنه كفن في ثيابه التي قتل فيها.

وقال أبو جعفر: وروي عن عامر الشعبي أنه قال: ما قتل عمر بن الخطاب حتى ملته قريش واستطالت خلافته، وقد كان يعلم فتنتهم، فحصرهم في المدينة وقال لهم: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد. وإن كان الرجل

ليستأذنه في الغزو، فيقول: إن لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكفيك، وهو خير لك من غزوك اليوم، وخير لك من الغزو ألا ترى الدنيا ولا تراك. فكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش، ولم يكن يفعل به غيرهم من أهل مكة، فلما ولي عثمان الخلافة خلى عنهم فانتشروا في البلاد، وخالطهم الناس، وأفضى الأمر إلى ما أفضى إليه، وكان عثمان أحب إلى الرعية من عمر.

قال أبو جعفر: وكان أول منكر ظهر بالمدينة في خلافة عثمان حين فاضت الدنيا على العرب والمسلمين طيران الحمام والمسابقة بها، والرمي عن الجلاهقات - وهي قسي البندق - فاستعمل عثمان عليها رجلاً من بني ليث في سنة ثمان من خلافته فقص الطيور وكسر الجلاهقات.

وروى أبو جعفر قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن محمد بن أبي حذيفة: ما دعاه إلى الخروج على عثمان؟ فقال: كان يتيماً في حجر عثمان، وكان والي أيتام أهل بيته ومحتمل كلهم، فسأل عثمان العمل، فقال: يا بني لو كنت راضاً لاستعملتك، قال: فأذن لي فأخرج فأطلب الرزق، قال: اذهب حيث شئت، وجهزه من عنده، وحمله وأعطاه، فلما وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه، لأنه منعه الإمارة. ف قيل له: فعمار بن ياسر؟ قال: كان بينه وبين العباس بن عتبة بن أبي لهب كلام فضر بهما عثمان، فأورث ذلك تعادياً بين عمار وعثمان. وقد كان تقاذفاً قبل ذلك.

قال أبو جعفر: وسئل سالم بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر: ما دعاه إلى ركوب عثمان؟ فقال: لزمه حق، فأخذ عثمان من ظهره، فغضب، وغره أقوال فطمع، لأنه كان من الإسلام بمكان، وكانت له دالة، فصار مذمماً بعد أن كان محمداً، وكان كعب بن ذي الحبكة النهدي يلعب بالنيرنجات بالكوفة، فكتب عثمان إلى الوليد أن يوجعه ضرباً، فضر به وسيره إلى دنباوند.

وكان ممن خرج إليه وسار إليه، وحبس ضابئ بن الحارث البرجمي، لأنه هجا قوماً فنسبهم إلى أن كلبهم يأتي أمهم، فقال لهم:

فإن عقوق الوالدين كبير

فأمكم لا تتركوها وكنكم

فاستعدوا عليه عثمان، فحبسه فمات في السجن، فلذلك حقد ابنه عمير عليه وكسر أضلعه بعد قتله.

قال أبو جعفر: وكان لعثمان على طلحة بن عبيد خمسون ألفاً، فقال له طلحة يوماً: قد تهيأ ماك فاقبضه، فقال: هو لك معونة على مروءتك، فلما حصر عثمان، قال علي عليه السلام لطلحة: أنشدك الله إلا كففت عن عثمان! فقال: لا والله حتى تعطي بنو أمية الحق من أنفسها. فكان علي عليه السلام يقول: لحا الله ابن الصعبة! أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به ما فعل.

لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير

قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته :

الأصل: لا تلقين طلحة، فإنك إن لقيته تجده كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعب ويقول: هو الذلول؛ ولكن الق الزبير، فإنه ألين عريكة، فقل له: يقول لك ابن خالك: عرفتي بالحجاز؛ وأنكرتني بالعراق؛ فما عدا مما بدا! قال الرضي رحمه الله: وهو عليه السلام أول من سمعت منه هذه الكلمة - أعني: فما عدا مما بدا.

الشرح: ليستفيئه إلى طاعته، أي يسترجعه، فاء أي رجع، ومنه سمي الفيء للظل بعد الزوال. وجاء في رواية: فإنك إن تلقه تلفه، أي تجده، ألفيته على كذا، أي وجدته.

وعاقصاً قرنه، أي قد عطفه؛ تيس أعقص، أي قد التوى قرناه على أذنيه، والفعل فيه عَقَصَ الثور قرنه، بالفتح. وقال القطب الرواني: عَقَصَ، بالكسر، وليس بصحيح، وإنما يقال: عَقَصَ الرجل، بالكسر، إذا شح وساء خلقه، فهو عَقَصَ.

وقوله: يركب الصعب، أي يستهين بالمستصعب من الأمور، يصفه بشراسة الخلق والبأو، وكذلك كان طلحة، وقد وصفه عمر بذلك. ويقال: إن طلحة أحدث يوم أحدٍ عنده كبيراً شديداً لم يكن، وذاك لأنه أغنى في ذلك اليوم، وأبلى بلاءً حسناً.

والعريكة ههنا: الطبيعة، يقال: لين العريكة، إذا كان سلساً.

وقال الراوندي: العريكة بقية السنام؛ ولقد صدق، ولكن ليس لهذا موضع ذاك.

وقوله عليه السلام لابن عباس: قل له يقول لك ابن خالك، لطيف جداً، وهو من باب الاستمالة والإذكار بالنسب والرحم، ألا ترى أن له في القلب من الموقع الداعي إلى الانقياد ما ليس لقوله: يقول لك أمير المؤمنين! ومن هذا الباب قوله تعالى في ذكر موسى وهارون: " وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يتقلوني فلا تشمت بي الأعداء "، لما رأى هارون غضب موسى واحتدامه، شرع معه في الاستمالة والملاطفة، فقل له: " ابن أم "، وأذكره حق الأخوة، وذلك أدعى إلى عطفه عليه من أن يقول له: يا موسى، أو يا أيها النبي. فأما قوله: فما عدا مما بدا، فعدا بمعنى صرف؛ قال الشاعر:

متى ما أحرك فيه ساقي يصخب

وإني عداني أن أزورك محكم

و من ههنا بمعنى عن؛ وقد جاءت في كثير من كلامهم كذلك، قال ابن قتيبة في أدب الكاتب: قالوا: حدثني فلان بن فلان، أي عن فلان، ولهيت عن كذا، أي عنه، ويصير ترتيب الكلام وتقديره: فما صرفك عما بدا منك! أي ظهر، والمعنى: ما الذي صدك عن طاعتي بعد إظهارك لها! وحذف الضمير المفعول المنصوب كثير جداً، كقوله تعالى: " واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا "، أي أرسلناه، ولا بد من تقديره، كي لا يبقى الموصول بلا عائد.

وقال القطب الراوندي: قوله: فما عدا مما بدا، له معنيان، أحدهما: ما الذي منعك مما كان قد بدا منك من البيعة قبل هذه الحالة؟ والثاني: ما الذي عاقل؟ ويكون المفعول الثاني لعدا محذوفاً، يدل عليه الكلام، أي ما عداك! يريد ما شغلك وما منعك مما كان بدا لك من نصرتي! من البدا الذي يبدو للإنسان. ولقائل أن يقول: ليس في الوجه الثاني زيادة على الوجه الأول إلا زيادة فاسدة، أما أنه ليس فيه زيادة، فلأنه فسر في الوجه الأول عدا بمعنى منع، ثم فسره في الوجه الثاني

بمعنى عاق، وفسر عاق بمنع وشغل، فصار عدا في الوجه الثاني مثل عدا في الوجه الأول.

وقوله: مما كان بدا منك، فسر في الأول والثاني بتفسير واحد، فلم يبق بين الوجهين تفاوت. وأما الزيادة الفاسدة فظنه أن عدا يتعدى إلى مفعولين، وأنه قد حذف الثاني، وهذا غير صحيح، لأن عدا ليس من الأفعال التي تتعدى إلى مفعولين بإجماع النحاة، ومن العجب تفسيره المفعول الثاني المحذوف على زعمه بقوله: أي ما عداك، وهذا المفعول المحذوف ههنا هو مفعول عدا الذي لا مفعول لها غيره، فلا يجوز أن يقال إنه أول ولا ثان.

ثم حكى القطب الراوندي حكاية معناها أن صفية بنت عبد المطلب أعتقت عبداً، ثم ماتت، ثم مات العبيد ولم يخلفوا وارثاً إلا مواليتهم، وطلب علي عليه السلام ميراث العبيد بحق التعصب، وطلبه الزبير بحق الإرث من أمه. وتحاكما إلى عمر، فقضى عمر بالميراث للزبير.

قال القطب الراوندي رحمه الله تعالى، حكاية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: هذا خلاف الشرع، لأن ولاء معتق المرأة - إذا كانت ميتة - يكون لعصبتها، وهم العاقلة، لا لأولادها.

قلت: هذه المسألة مختلف فيها بين الإمامية، فأبو عبد الله بن النعمان المعروف بالمفيد، يقول: إن الولاية لولدها، ولا يصحح هذا الخبر، ويطعن في روايته؛ وغيره من فقهاء الإمامية كأبي جعفر الطوسي ومن قال بقوله يذهبون إلى أن الولاية لعصبتها لا لولدها، ويصححون الخبر، ويزعمون أن أمير المؤمنين عليه السلام سكت ولم ينزع، على قاعدته في التقية، واستعمال المحاملة مع القوم.

فأما مذاهب الفقهاء غير الإمامية فإنها متفقة على أن الولاية للولد لا للعصبة، كما هو قول المفيد رحمه الله تعالى. وروى جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه عن جده عليه السلام، قال: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن ذلك، فقال: إني قد أتيت الزبير، فقلت له، فقال: قل له: إني أريد ما تريد - كأنه يقول: الملك - لم يردني على ذلك. فرجعت إلى علي عليه السلام فأخبرته.

وروى محمد بن إسحاق والكلبي، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قلت الكلمة للزبير فلم يردني على أن قال: قل له: إنا الخوف الشديد لنطمع.

قال: وسئل ابن عباس عما يعني بقوله هذا، فقال: يقول: إنا على الخوف لنطمع أن نلي من الأمر ما وليتم، وقد فسرهم قوم تفسيراً آخر، وقالوا: أراد: إنا مع الخوف من الله لنطمع أن يغفر لنا هذا الذنب. قلت: وعلى كلا التفسيرين لم يحصل جواب المسألة.

من أخبار عبد الله بن الزبير وأبيه

كان عبد الله بن الزبير هو الذي يصلي بالناس في أيام الحمل، لأن طلحة والزبير تدافعا الصلاة، فأمرت عائشة عبد الله أن يصلي قطعاً لمنازعتهم، فإن ظهروا كان الأمر إلى عائشة، تستخلف من شاءت. وكان عبد الله بن الزبير يدعي أنه أحق بالخلافة من أبيه ومن طلحة، ويزعم أن عثمان يوم الدار أوصى بها إليه.

واختلفت الرواية في كيفية السلام على الزبير وطلحة، فروي أنه كان يسلم على الزبير وحده بالإمرة، فيقول: السلام عليك أيها الأمير، لأن عائشة ولته أمر الحرب.

وروي أنه كان يسلم على كل واحدٍ منهما بذلك.

لما نزل علي عليه السلام بالبصرة ووقف جيشه بإزاء جيش عائشة قال الزبير: والله ما كان أمر قط إلا عرفت أين أين أضع قدمي فيه إلا هذا الأمر، فإني لا أدري: أمقبل أنا فيه أم مدبر! فقال له ابنه عبد الله: كلا ولكنك فرقت سيوف ابن أبي طالب، وعرفت أن الموت الناقع تحت رايته. فقال الزبير: مالك أحزاك الله من ولد! ما أشأملك! كان أمير المؤمنين عليه السلام، يقول: ما زال الزبير منا أهل البيت، حتى شب ابنه عبد الله.

برز علي عليه السلام بين الصفيين حاسراً، وقال: ليزر إلي الزبير، فبرز إليه مدحجاً؛ فقبل لعائشة: قد برز الزبير إلى علي عليه السلام، فصاحت: وازبراه! فقبل لها: لا بأس عليه منه، إنه حاسر والزبير دارع - فقال له: ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحة وليتماه، وإنما نوبتك من ذلك أن تقيد به نفسك وتسلمها إلى ورثته، ثم قال: نشدتك الله! أتذكر يوم مررت بي ورسول الله صلى الله عليه وسلم متكئ على يدك، وهو جاء من بني عمرو بن عوف، فسلم علي وضحك في وجهي، فضحكت إليه، لم أزد على ذلك، فقلت: لا يترك ابن أبي طالب يا رسول الله زهوه! فقال لك: "مه إنه ليس بذئ زهو، أما إنك ستقاتله وأنت ظالم له!" فاسترجع الزبير وقال: لقد كان ذلك، ولكن الدهر أنسانيه، ولأنصرفن عنك، فرجع، فأعتق عبده سرجس تحلاً من يمين لزمته في القتال، ثم أتى عائشة، فقال لها: إني ما وقفت موقفاً قط، ولا شهدت حرباً إلا ولي رأي وبصيرة إلا هذه الحرب، وإني لعلّ شك من أمري، وما أكاد أبصر موضع قدمي. فقالت له: يا أبا عبد الله، أظنك فرقت سيوف ابن أبي طالب؛ إنما والله سيوف حداد، معدة للجلاد، تحملها فئة أنجاد ولئن فرقتهما لقد فرقها الرجال قبلك، قال: كلا، ولكنه ما قلت لك، ثم انصرف.

وروي فروة بن الحارث التميمي، قال: كنت فيمن اعتزل عن الحرب بوادي السباع مع الأحنف بن قيس، وخرج ابن عم لي يقال له الجون، مع عسكر البصرة، فنهيته فقال: لا أرغب بنفسني عن نصرته أم المؤمنين وحواري رسول الله. فخرج معهم، وإني لجالس مع الأحنف، يستنبي الأخبار، إذا بالجون بن قتادة، ابن عمي مقبلاً، فقممت إليه واعتنقته، وسألته عن الخبر، فقال: أخبرك العجب، خرجت وأنا لا أريد أن أبرح الحرب حتى يحكم الله بين الفريقين، فبينما أنا واقف مع الزبير، جاءه رجل فقال: أبشر أيها الأمير، فإن علياً لما رأى ما أعد الله له من هذا الجمع، نكص على عقبيه، وتفرق عنه أصحابه. وأتاه آخر، فقال له مثل ذلك، فقال الزبير: ويحكم! أبو حسن يرجع! والله لو لم يجد إلا العرفج لدب إلينا فيه. ثم أقبل رجل آخر، فقال: أيها الأمير، إن نفرًا من أصحاب علي فارقه ليدخلوا معنا، منهم عمار بن ياسر، فقال الزبير: كلا ورب الكعبة، إن عماراً لا يفارقه أبداً، فقال الرجل: بلى والله، مراراً.

فلما رأى الزبير أن الرجل ليس برافع عن قوله، بعث معه رجلاً آخر، وقال: اذهبا فانظرا، فعادا وقالوا إن عماراً قد أتاك رسولاً من عند صاحبه، قال جون: فسمعت والله الزبير يقول: وانقطاع ظهره! واجدع أنفاه! واسود وجهه! ويكرر ذلك مراراً، ثم أخذته رعدة شديدة، فقلت: والله إن الزبير ليس بجبان، وإنه لمن فرسان قريش المذكورين، وإن لهذا الكلام

لشأننا، ولا أريد أن أشهد مشهداً يقول أميره هذه المقالة، فرجعت إليكم؛ فلم يكن إلا قليل حتى مر الزبير بنا متاركاً للقوم، فاتبعه ابن جرموز فقتله.

أكثر الروايات على أن ابن الجرموز قتل مع أصحاب النهر، وجاء في بعضها أنه عاش إلى أيام ولاية مصعب بن الزبير العراق، وأنه لما قدم مصعب خافه ابن جرموز فهرب، فقال مصعب: ليظهر سالماً، وليأخذ عطاءه موفوراً، أظن أني أقتله بأبي عبد الله وأجعله فداء له! فكان هذا من الكبر المستحسن.

كان ابن جرموز يدعو لدينياه، ف قيل له: هلا دعوت لآخرتك! فقال: آيست من الجنة.

الزبير أول من أشهر سيفه في سبيل الله، قيل له في أول الدعوة: قد قتل رسول الله، فخرج وهو غلام يسعى بسيفه مشهوراً.

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات قال: لما سار علي عليه السلام إلى البصرة، بعث ابن عباس فقال: أثت الزبير، فافراً عليه السلام، وقل له: يا أبا عبد الله، كيف عرفتنا بالمدينة وأنكرتنا بالبصرة! فقال ابن عباس: أفلا آتي طلحة؟ قال: لا؛ إذاً تجده عاقصاً قرنه في حزن، يقول: هذا سهل.

قال: فأتيت الزبير، فوجدته في بيت يتروح في يومٍ حار وعبد الله ابنه عنده، فقال: مرحباً بك يا ابن لبانة! أجتت زائراً أم سفيراً؟ قلت: كلا، إن ابن خالك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: يا أبا عبد الله، كيف عرفتنا بالمدينة، وأنكرتنا بالبصرة! فقال:

قتادة تعلقت بنشبه

علقتهم أني خلقت عصبه

لن أدعهم حتى أولف بينهم! قال: فأردت منه جواباً غير ذلك، فقال لي ابنه عبد الله: قل له: بيننا وبينك دم خليفة ووصية خليفة، واجتماع اثنين، وانفراد واحد، وأم مبرورة، ومشاورة العشيرة، قال: فعلمت أنه ليس وراء هذا الكلام إلا الحرب؛ فرجعت إلى علي عليه السلام فأخبرته.

قال الزبير بن بكار: هذا الحديث كان يرويه عمي مصعب، ثم تركه، وقال: إني رأيت جدي أبا عبد الله الزبير بن العوام في المنام، وهو يعتذر من يوم الجمل، فقلت له: كيف تعتذر منه، وأنت القائل:

قتادة تعلقت بنشبه

علقتهم أني خلقت عصبه

لن أدعهم حتى أولف بينهم! فقال: لم أقله.

في الكلام على الاستدراج

واعلم أن في علم البيان باباً يسمى باب الخداع والاستدراج، يناسب ما يذكره فيه علماء البيان قول أمير المؤمنين عليه السلام: يقول لك ابن خالك: عرفني بالحجاز وأنكرتني بالعراق! قالوا: ومن ذلك قول الله تعالى حكايةً عن مؤمن آل فرعون: " وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب " ، فإنه

أخذ معهم في الاحتجاج بطريق التقسيم، فقال: هذا الرجل إما أن يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتعداه، وإما أن يكون صادقاً فيصيبكم بعض ما يعدكم به، ولم يقل: كل ما يعدكم به، مخادعةً لهم وتلطفاً؛ واستمالة لقلوبهم كي لا ينفروا منه لو أغلظ في القول، وأظهر لهم أنه يهضمه بعض حقه.

وكذلك تقدم قسم الكذب على قسم الصدق، كأنه رشاهم ذلك، وجعله برطيلاً لهم، ليطمئنوا إلى نصحه.

ومن ذلك قول إبراهيم على ما حكاه تعالى عنه في قوله: "إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً"، فطلب منه في مبدأ الأمر السبب في عبادته الصنم والعلة لذلك، ونبهه على أن عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً قبيحة، ثم لم يقل له: إني قد تبخرت في العلوم، بل قال له: قد حصل عندي نوع من العلم لم يحصل عندك. وهذا باب الأدب في الخطاب، ثم نبهه على أن الشيطان عاصٍ لله، فلا يجوز اتباعه، ثم خوفه من عذاب الله إن اتبع الشيطان، وخاطبه في جميع ذلك بقوله: "يا أبت"؛ استعطافاً واستدراجاً، كقول علي عليه السلام: يقول لك ابن خالك، فلم يجبه أبوه إلى ما أراد، ولا قال له: يا بني، بل قال: "أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم"، فخاطبه بالاسم، وأتاه بهمة الاستفهام المتضمنة للإنكار، ثم توعده فقال: "لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً".

قالوا: ومن هذا الباب ما روي أن الحسين بن علي عليه السلام كلم معاوية في أمر ابنه يزيد، ونهاه عن أن يعهد إليه، فأبى عليه معاوية حتى أغضب كل واحد منهما صاحبه، فقال الحسين عليه السلام في غضون كلامه: أي خير من أبيه وأمي خير من أمه، فقال معاوية: يابن أخي، أما أمك فخير من أمه، وكيف تقاس امرأة من كلب بابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم! وأما أبوه فحاكم أباك إلى الله تعالى، فحكم لأبيه على أبيك.

قالوا: وهذا باب الاستدراج اللطيف، لأن معاوية علم أنه إن أجابه بجواب يتضمن الدعوى لكونه خيراً من علي عليه السلام لم يلتفت أحد إليه، ولم يكن له كلام يتعلق به، لأن آثار علي عليه السلام في الإسلام، وشرفه وفضيلته تجل أن يقاس بها أحد، فعدل عن ذكر ذلك إلى التعلق بما تعلق به، فكان الفلج له.

ذكر هذا الخبر نصر الله بن الأثير في كتابه المسمى بالمثل السائر، في باب الاستدراج.

وعندي أن هذا خارج عن باب الاستدراج، وأنه من باب الجوابات الإقناعية التي تسميها الحكماء الجدليات والخطايات، وهي أجوبة إذا بحث عنها لم يكن وراءها تحقيق، وكانت ببادئ النظر مسكتة للخصم، صالحة لمصادمته في مقام المجادلة. ومثل ذلك قول معاوية لأهل الشام حيث التحق به عقيل بن أبي طالب: يا أهل الشام، ما ظنكم برجل لم يصلح لأخيه!.

وقوله لأهل الشام: إن أبا هب المذموم في القرآن باسمه عم علي بن أبي طالب. فارتاع أهل الشام لذلك، وشتموا علياً ولعنوه.

ومن ذلك قول عمر يوم السقيفة: لأيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صلى الله عليه للصلاة! ومن ذلك قول علي عليه السلام مجيئاً لمن سأل: كم بين السماء والأرض؟ فقال: دعوة مستجابة.

وجوابه أيضاً لمن قال: كم بين المشرق والمغرب؟ فقال: مسيرة يوم للشمس.
ومن ذلك قول أبي بكر - وقد قال له عمر: أقد خالداً بمالك بن نويرة -: سيف الله فلا أغمده.
وكقوله - وقد أشير عليه أيضاً بأن يقيد من بعض أمرائه -: انا أقيد من وزعة الله! ذكر ذلك صاحب الصحاح في باب وزع.

والجوابات الإقناعية كثيرة، ولعلها جمهور ما يتداوله الناس، ويسكت بهم بعضهم بعضاً.

ومن خطبة له عليه السلام في جور الزمان

الأصل: أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهرٍ عنود، وزمنٍ شديدٍ، يعد فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم فيه عتواً، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوف قارعةً حتى تحل بنا. والناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنع الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلاله حده، ونضيض وفره.

ومنهم المصلت بسيفه، والمعلن بشره، والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه، وأوبق دينه؛ لحطامٍ ينتهزه، أو مقنبٍ يقوده، أو منبرٍ يفرعه، ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، ومما لك عند الله عوضاً! ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشتر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية.

ومنهم من أبعد الله عن طلب الملك ضئولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك في مراحٍ ولا مغدئ.

وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريدٍ نادٍ، وخائفٍ مقموعٍ، وساكِتٍ مكعومٍ، وداعٍ مخلصٍ، وثكلانٍ موجعٍ، قد أحمَلتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم في بحرٍ أجاج، أفواهم ضامزة، وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قتلوا.

فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ، وفراصة الجلم. واتعظوا. بمن كان قبلكم أن يتعظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمةً، فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم.

قال الرضي رحمه الله: وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية؛ وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه، وأين الذهب من الرغام! وأين العذب من الأجاج! وقد ذل على ذلك الدليل الخريت، ونقده الناقد البصير، عمرو بن بحر الجاحظ، فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب التبيين والبيان، وذكر من نسبتها إلى معاوية. ثم تكلم من بعدها بكلام في معناها، حملته أنه قال: وهذا الكلام بكلام علي عليه السلام أشبه ومذهبه في تصنيف الناس وفي الأخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ومذاهب العباد! الشرح: دهر عنود: جائر، عند عن الطريق، يعنُد بالضم، أي عدل وجار. ويمكن أن يكون من عند يعنُد بالكسر، أي خالف ورد الحق وهو يعرفه، إلا أن اسم الفاعل المشهور في ذلك عاند وعنيد، وأما عنود فهو اسم فاعل، من عند يعنُد بالضم.

قوله: وزمن شديد، أي بخيل، ومنه قوله تعالى: " إنه لحب الخير لشديد " ، أي وإنه لبخيل لأجل حب الخير، والخير: المال، وقد روي: وزمن كنود، وهو الكفور، قال تعالى: " إن الإنسان لربه لكنود " .
والقارعة: الخطب الذي يقرع، أي يصيب.

قوله: ونضيض وفره، أي قلة ماله، وكان الأصل ونضاضة وفره، ليكون المصدر في مقابلة المصدر الأول، وهو كلاله حده، لكنه أخرجه على باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولهم: عليه سحق عمامة، وجرّد قطيفة، وأخلاق ثياب.
قوله: والمجلب بخيله ورجله، المجلب: اسم فاعل من أجلب عليهم، أي أعان عليهم.
والرجل: جمع راجل، كالركب جمع راكب، والشرب جمع شارب؛ وهذا من ألفاظ الكتاب العزيز: " وأجلب عليهم بخيلك ورجلك " .

وأشطر نفسه، أي هياها وأعدها للفساد في الأرض.
وأوبق دينه: أهلكه. والخطام: المال، وأصله ما تكسر من اليبیس. ينتهزه: يحتلسه.

والمقنب: خيل ما بين الثلاثين والأربعين.
ويفرعه: يعلوه. وطامن من شخصه، أي خفض. وقارب من خطوه: لم يسرع ومشى رويداً.
وشمر ثوبه: قصره. وزخرف من نفسه: حسن ونمق وزين، والزخرف: الذهب في الأصل.
وضئولة نفسه: حقارته، والناد: المنفرد. والمكعوم، من كعمت البعير، إذا شددت فمه. والأجاج: الملح.
وأفواههم ضامزة، بالزاي: أي ساكنة، قال بشر بن أبي حازم:

مخافتنا كما ضمير الحمار

لقد ضمزت بجرتها سليم

والقرظ: ورق السلم، يدبغ به، وحثالته: ما يسقط منه.
والجلم: المقص تجز به أوبار الإبل. وقراضته: ما يقع من قرضه وقطعه.
فإن قيل: بينوا لنا تفصيل هذه الأقسام الأربعة.
قيل: القسم الأول من يقعد به عن طلب الإمرة قلة ماله وحقارته في نفسه.
والقسم الثاني: من يشمر ويطلب الإمارة ويفسد في الأرض ويكاشف.
والقسم الثالث: من يظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا.
والقسم الرابع: من لا مال له أصلاً، ولا يكاشف، ويطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالرياء والناموس، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعة، ويتحلى بحلية الزهادة في اللذات الدنيوية، لا طلباً للدنيا بل عجزاً عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة.

فإن قيل: فهنا قسم خامس، قد ذكره عليه السلام؛ وهم الأبرار الأتقياء، الذين أراق دموعهم خوف الآخرة.

قيل: إنه عليه السلام إنما قال: إن الناس على أربعة أصناف، وعنى بهم من عدا المتقين، ولهذا قال لما انقضى التقسيم: وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، فأبان بذلك عن أن هؤلاء خارجون عن الأقسام الأربعة.

في ذم الرياء والشهرة

واعلم أن هذه الخطبة تتضمن الذم لكثير ممن يدعي الآخرة من أهل زماننا، وهم أهل الرياء والنفاق، ولا بسوا الصوف والشياب المرقوعة لغير وجه الله.

وقد ورد في ذم الرياء شيء كثير، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما تقدم.

ومن الآيات الواردة في ذلك قوله تعالى: " يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً " .

ومنها قوله تعالى: " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً " .

ومنها قوله تعالى: " إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً " .

ومنها قوله تعالى: " الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين يراؤون ويمنعون الماعون " .

ومن الأخبار النبوية قوله صلى الله عليه وسلم، وقد سألته رجل: يا رسول الله، فيم النجاة؟ فقال: " ألا تعمل بطاعة الله وتريد بها الناس " .

وفي الحديث: " من رأى رأى الله به، ومن سمع سمع الله به " .

وفي الحديث: " إن الله تعالى يقول للملائكة: إن هذا العمل لم يرد صاحبه به وجهي، فاجعلوه في سجين " .

وقال صلى الله عليه وسلم: " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر "، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

قال: " الرياء، يقول الله تعالى إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤوهم في الدنيا، فاطلبوا جزاءكم منهم " .

وفي حديث شدد بن أوس : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يكي، فقلت: يا رسول الله، ما يكيك؟ فقال: " إني

تخوفت على أمي الشرك، أما إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً، ولكنهم يراؤون بأعمالهم " .

ورأى عمر رجلاً يتخشع، ويطأطئ رقبته في مشيته، فقل له: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب.

ورأى أبو أمامة رجلاً في المسجد يكي في سجوده، فقال له: أنت أنت لو كان هذا في بيتك! وقال علي عليه السلام:

للمرائي أربع علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص منه إذا لم يثن عليه.

وقال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجهه ومحمدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث

مرات، كل ذلك يقول: لا شيء لك! ثم قال في الثالثة: يقول الله تعالى: " أنا أغني الأغنياء عن الشرك... " الحديث.

وضرب عمر رجلاً بالدرة، ثم ظهر له أنه لم يأت جرمًا، فقال له: اقتص مني، فقال: بل أدعها لله ولك، قال: ما صنعت شيئاً؛ إما أن تدعها لي فأعرف ذلك لك، أو تدعها لله وحده.

وقال الحسن: لقد صبحت أقواماً، إن كان أحدهم لتعرض له الكلمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه، ما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى على الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة.

وقال الفضيل: كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون.

وقال عكرمة: إن الله تعالى يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله، لأن النية لا رياء فيها.

وقال الحسن: المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى، هو رجل سوء، يريد أن يقول الناس: هذا صالح؛ وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردئاء، فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه.

وقال قتادة: إذا رآى العبد، قال الله تعالى لملائكته: "انظروا إلى عبدي يستهزئ بي".

وقال الفضيل: من أراد أن ينظر مرائياً فليُنظر إلي.

وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمات بالليل، فإنه أشرف من سمتك بالنهار، فإن سمت النهار للمخلوقين، وسمت الليل لرب العالمين.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب أن يشتهر.

ومن الكلام المعزى إلى عيسى بن مريم عليه السلام: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته، وليمسح شفتيه، لئلا يعلم الناس أنه صائم. وإذا أعطى يمينه، فليخف عن شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق.

ومن كلام بعض الصالحين: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة.

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بحسب المرء من الشر، إلا من عصمه الله من السوء، أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودينه، إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

وقال علي عليه السلام: تبذل لا تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر بعلم، واسكت واصمت تسلم، تسر الأبرار، وتغيظ الفجار.

وكان خالد بن معدان إذا كثرت حلقاته قام مخافة الشهرة.

ورأى طلحة بن مصرف قوماً يمشون معه نحو عشرة، فقال: فراش نار، وذبان طمع.

وقال سليمان بن حنظلة: بينا نحن حوالي أبي كعب نمشي، إذ رآه عمر فعلاه بالدرة، وقال له: انظر من حولك! إن الذي أنت فيه ذلة للتابع، فتنة للمتبوع.

وخرج عبد الله بن مسعود من منزله، فاتبعه قوم، فالتفت إليهم وقال: علام تتبعونني؟ فوالله لو تعلمون مني ما أغلق عليه بابي لما تبعني منكم اثنان.

وقال الحسن: خفق النعال حول الرجال مما يثبت عليهم قلوب الحمقى.

وروي أن رجلاً صاحب الحسن في طريق، فلما فارقه قال: أوصني رحمك الله! قال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف، وتمشي ولا يمشي إليك، وتسأل ولا تسأل، فافعل.

وخرج أيوب السخيتاني في سفر، فشيعه قوم، فقال: لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره، لخشيت المقت من

الله.

وعوتب أيوب على تطويل قميصه، فقال: إن الشهرة كانت فيما مضى في طوله، وهي اليوم في قصره.
وقال بعضهم: كنت مع أبي قلابة، إذ دخل رجل عليه كساء، فقال: إياكم وهذا الحمار الناهق - يشير به إلى طالب شهرة.

وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال أحمل ذكرك، وطيب مطعمك.

وكان حوشب ييكي ويقول: بلغ اسمي المسجد الجامع.

وقال بشر: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح.

وقال أيضاً: لا يجد الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

فهذه الآثار مما ورد عن الصالحين رحمهم الله في ذم الرياء وكون الشهرة طريقاً إلى الفتنة.

وقد صرح أمير المؤمنين عليه السلام في مدح الأبرار - وهم القسم الخامس - بمدح الخمول، فقال: وقد أخملتهم التقية - يعني الخوف.

وقد ورد في الأخبار والآثار شيء كثير في مدح الخمول.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبر قسمه ". وفي رواية ابن مسعود: " رب ذي طمرين لا يؤبه له، ولو سأل الجنة لأعطيها ".

وفي الحديث أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم: " ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أدلكم على أهل النار؟ كل متكبر جواظ ".

وعنه صلى الله عليه وسلم: " إن أهل الجنة الشعث الغبر، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره، لو قسم نورهم يوم القيامة على الناس لوسعهم ".

وروي أن عمر دخل على المسجد، فإذا بمعاذ بن جبل ييكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما ييكيك؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن اليسير من الرياء لشرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة ".

وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلجان الثياب، تعرفون عند أهل السماء، وتخفون عند أهل الأرض.

وفي حديث أبي أمامة، يرفعه: قال الله تعالى: " إن أغبط أوليائي لعبد مؤمن، خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة، وقد أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع ".

وفي الحديث: " السعيد من خمل صيته، وقل تراثه، وسهلت منيته، وقلت بواكيه ".

وقال الفضيل: روي لي أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده: " ألم أنعم عليك! ألم أسترك! ألم أحمل ذكرك! ".

وكان الخليل بن أحمد يقول في دعائه: اللهم اجعلي عندك من أرفع خلقك، واجعلي عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلي عند الناس من أوسط خلقك.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما قرت عيني ليلة قط في الدنيا إلا مرة، بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام، وكان بي علة البطن، فجرني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد.

وقال الفضيل: إن قدرت على ألا تعرف، فافعل، وما عليك ألا تعرف! وما عليك ألا يثنى عليك! وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس؛ إذا كنت محموداً عند الله تعالى! فإن قيل: فما قولك في شهرة الأنبياء والأئمة عليه السلام، وأكابر الفقهاء المجتهدين؟ قيل: إن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم؛ بل لا بد من وجود إنسان يشتهر أمره؛ فإن بطريقه ينصلح العالم، ومثال ذلك الغرقى الذين بينهم غريق ضعيف، الأولى به ألا يعرفه أحد منهم، لئلا يتعلق به فيهلك ويهلكوا معه؛ فإن كان بينهم صاحب قوي مشهور بالقوة؛ فالأولى ألا يكون مجهولاً، بل ينبغي أن يعرف ليعلقوا به، فينجو هو ويتخلصوا من الغرق بطريقه.

عند خروجه لقتال أهل البصرة

الأصل: قال عبد الله بن العباس: دخلت على أمير المؤمنين بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها، فقال: والله لي أحب إلي من إمرتكم؛ إلا أن أقيم حقاً، أو أدفع باطلاً، ثم خرج فخطب الناس فقال: إن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله، وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوةً، فساق الناس حتى بوأهم محلتهم، وبلغهم منجاتهم، فاستقامت قناتهم، واطمأنت صفتهم. أما والله إن كنت لفي ساقتها، حتى ولت بخذافيرها؛ وما ضعفت ولا جبت، وإن مسيري هذا لمثلها؛ فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه.

ما لي ولقريش! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم. والله ما تنقم منا قریش إلا أن الله اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيزنا، فكانوا كما قال الأول:

وأكلك بالزبد المقشرة البجرا

أدمت لعمري شربك المحض صابحاً

علياً، وحطنا حولك الجرد والسمرا

ونحن وهبناك العلاء ولم تكن

الشرح: ذو قار: موضع قريب من البصرة، وهو المكان الذي كانت فيه الحرب بين العرب والفرس، ونصرت العرب على الفرس قبل الإسلام، ويخصف نعله، أي يخرزها.

وبوأهم محلتهم: أسكنهم مترلهم، أي ضرب الناس بسيفه على الإسلام حتى أوصلهم إليه، ومثله وبلغهم منجاتهم، إلا أن في هذه الفاصلة ذكر النحاة مصرحاً به.

فاستقامت قناتهم: استقاموا على الإسلام، أي كانت قناتهم معوجة فاستقامت.

واطمأنت صفتهم، كانت متقلقلة متزلزلة، فاطمأنت واستقرت.

وهذه كلها استعارات.

ثم أقسم أنه كان في ساقته حتى تولت بحذافيرها؛ الأصل في ساقته، أن يكون جمع سائق كحائض وحاضة، وحائك وحاقة، ثم استعملت لفظة الساقة للأخير، لأن السائق إنما يكون في آخر الركب أو الجيش.

وشبه عليه السلام أمر الجاهلية؛ أما بعجاجة نائرة، أو بكتيبة مقبلة للحرب، فقال: إني طردتها فولت بين يدي، ولم أزل في ساقته أنا أطردها وهي تنطرد أمامي؛ حتى تولت بأسرها ولم يبق منها شيء ما عجزت عنها، ولا جنت منها. ثم قال: وإن مسيري هذا مثلها، فلأنقبن الباطل، كأنه جعل الباطل كشيء قد اشتمل على الحق، واحتوى عليه، وصار الحق في طيه، كالشيء الكامن المستتر فيه، فأقسم لينقبن ذلك الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبه وهذا باب الإستعارة أيضاً.

ثم قال: لقد قاتلت قريشاً كافرين ولأقاتلنهم مفتونين، لأن الباغي على الإمام مفتون فاسق. وهذا الكلام يؤكد قول أصحابنا: إن أصحاب صفين والجميل ليسوا بكفار، خلافاً للإمامية، فإنهم يزعمون أنهم كفار.

حذيفة بن اليمان وخبر يوم ذي قار

وروى أبو مخنف عن الكلبي، عن أبي صالح، عن زيد بن علي، عن ابن عباس، قال: لما نزلنا مع علي عليه السلام ذا قار، قلت: يا أمير المؤمنين، ما أقل من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظن! فقال: والله ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً؛ لا يزيدون ولا ينقصون.

قال ابن عباس: فدخلني والله من ذلك شك شديد في قوله، وقلت في نفسي: والله إن قدموا لأعدهم.

قال أبو مخنف: فحدث ابن إسحاق، عن عمه عبد الرحمن بن يسار، قال: نفر إلى علي عليه السلام إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبر ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً، أقام علي بذئ قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله.

قال: فلما سار بهم منقلة، قال ابن عباس: والله لأعدهم، فإن كانوا كما قال، وإلا أتممتهم من غيرهم، فإن الناس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلاً، ولا ينقصون رجلاً، فقلت: الله أكبر! صدق الله ورسوله! ثم سرنا.

قال أبو مخنف: ولما بلغ حذيفة بن اليمان أن علياً قد قدم ذا قار، واستنفر الناس، دعا أصحابه فوعظهم وذكرهم الله وزهدهم في الدنيا، ورغبهم في الآخرة، وقال لهم: الحقوا بأمر المؤمنين ووصي سيد المرسلين، فإن الحق أن تنصروه؛ وهذا الحسن ابنه وعمار قد قدما الكوفة يستنفران الناس، فأنفروا.

قال: فنفر أصحاب حذيفة إلى أمير المؤمنين، ومكث حذيفة بعد ذلك خمس عشرة ليلة، وتوفي رحمه الله تعالى.

قال أبو مخنف: وقال هاشم بن عتبة المرقال، يذكر نفورهم إلى علي عليه السلام:

على علمنا أنا إلى الله نرجع

وفي الله ما نرجو وما نتوقع

وسرنا إلى خير البرية كلها

نوقره في فضله ونجله

وفي الله ما نزجي وفي الله نوضع

ونخصف أخفاف المطي على الوجا

إلى ذي تقى في نضره نتسرع

دلفنا بجمع أثروا الحق والهدى

تصافح أعناق الرجال فتقطع

نكافح عنه والسيوف شهيرة

قال أبو مخنف: فلما قدم أهل الكوفة على علي عليه السلام، سلموا عليه، وقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين اختصنا بموازرتك، وأكرمنا بنصرتك، قد أجنبناك طائعين غير مكرهين، فمرنا بأمرك.

قال: فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال: مرحباً بأهل الكوفة، بيوتات العرب ووجوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشد العرب مودة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأهل بيته، ولذلك بعثت إليكم واستصخرتكم عند نقض طلحة والزبير بيعتي، عن غير جورٍ مني ولا حدثٍ، ولعمري لو لم تنصروني يا أهل الكوفة، لرجوت أن يكفيني الله غوغاء الناس، وطعام أهل البصرة، مع أن عامة من بها ووجوهها وأهل الفضل والدين قد اعتزلوها، ورغبوا عنها. فقام رؤوس القبائل فخطبوا وبذلوا له النصر، فأمرهم بالرحيل إلى البصرة.

ومن خطبة له في استنفار إلى أهل الشام

الأصل: أف لكم! لقد سئمت عتابكم. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً، وبالذل من العز خلفاً! إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم؛ كأنكم من الموت في غمرة، ومن الدهول في سكرة. يرتج عليكم حوارى فتعمهون؛ فكأن قلوبكم مألوسة، فأنتم لا تعقلون. ما أنتم بثقة سحيس الليالي، وما أنتم بركن يمال بكم، ولا زوافر عز يفتقر إليكم. ما أنتم إلا كإبلٍ ضل رعاها، فكلما جمعت من جانبٍ انتشرت من آخر.

لبئس لعمر الله سعر نار الحرب أنتم! تكادون ولا تكيدون، وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون؛ لا ينام عنكم وأنتم في غفلةٍ ساهون. غلب والله المتخاذلون! وإيم الله؛ إني لأظن بكم أن لو حمس الوغى، واستحر الموت؛ قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس.

والله إن امرأً يمكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه، ويهشم عظمه، ويفري جلده، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره.

أنت فكن ذاك إن شئت؛ فأما أنا والله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه فراش الهام، وتطيح السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء.

أيها الناس، إن لي عليكم حقاً، ولكم علي حق، فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلاً تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم.

الشرح: أف لكم: كلمة استقذار ومهانة؛ وفيها لغات. ويرتج: يغلق. والحوار: المحاورة والمخاطبة. وتعمهون: من العمه

وهو التحير والتردد، الماضي عمه بالكسر.

وقوله: دارت أعينكم، من قوله تعالى: " ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت " ، ومن قوله: " تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت " .

وقلوبكم مألوسة، من الألس، بسكون اللام، وهو الجنون واختلاط العقل.

قوله: ما أنتم لي بثقة سحيس الليالي، كلمة تقال للأبد، تقول: لا أفعله سحيس الليالي، وسحيس عجيس، وسحيس الأوجس، معنى ذلك كله الدهر، والزمان، وأبداً.

قوله: ما أنتم بركن يمال بكم، أي لستم بركن يستند إليكم، ويمال على العدو بعزكم وقوتكم.

قوله: ولا زوافر عز، جمع زافرة، وزافرة الرجل: أنصاره وعشيرته؛ ويجوز أن يكون زوافر عز، أي حوامل عز، زفرت الجمل أزفره زفراً، أي حملته.

قوله: سعر نارالحرب، جمع ساعر، كقولك: قوم كظم للغيط، جمع كاظم، وتمتعضون: تأنفون وتغضبون. وحس الوغى؛ اشتد، وأصل الوغى الصوت والجلبة، ثم سميت الحرب نفسها وغى، لما فيها من الأصوات والجلبة. واستحر الموت، أي اشتد.

وقوله: انفرجتم انفراج الرأس، أي كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يمنة ونصفه شامة. والمشرقية: السيوف المنسوبة إلى مشارف، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف، ولا يقال: مشارفي، كما لا يقال: جعفري، لمن ينسب إلى جعفر.

وفرش الهام: العظام الخفيفة تلي القحف .

وقال الرواندي في تفسير قوله: انفراج الرأس، أراد به انفرجتم عني رأساً، أي قطعاً، وعرفه بالألف واللام، وهذا غير صحيح لأن رأساً لا يعرف. قال: وله تفسير آخر، أن يكون المعنى انفراج رأس من أدنى رأسه إلى غيره، ثم حرف رأسه عنه.

وهذا أيضاً غير صحيح، لأنه لا خصوصية للرأس في ذلك، فإن اليد والرجل إذا أدنيتهما من شخص، ثم حرفتهما فقد انفرج ما بين ذلك العضو وبينه، فأى معنى لتخصيص الرأس بالذكر!.

فأما قوله: أنت فكن ذاك، فإنه إنما خاطب من يمكن عدوه من نفسه كائناً من كان، غير معين ولا مخصص؛ ولكن الرواية وردت بأنه خاطب بذلك الأشعث بن قيس، فإنه روي أنه قال له عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم: هلا فعلت فعل ابن عفان! فقال له: إن فعل ابن عفان لمخزاة على من لا دين له، ولا وثيقة معه، إن امرأً أمكن عدوه من نفسه يهشم عظمه، ويفري جلده، لضعيف رأيه مأفون عقله. أنت فكن ذاك إن أحببت، فأما أنا فدون أن أعطي ذاك ضرب بالمشرقية... الفصل.

ويمكن أن تكون الرواية صحيحة، والخطاب عام لكل من أمكن من نفسه، فلا منافاة بينهما.

وقد نظمت أنا هذه الألفاظ في أبيات كتبتها إلى صاحب لي في ضمن مكتوب اقتضاها، وهي:

إن امرأً أمكن من نفسه
 لا يدفع الضيم ولا ينكر الذ
 لفائل الرأي ضعيف القوى
 أنت فكن ذاك فإني امرؤ
 إن قال دهر لم يطع أو شحا
 أو سامه الخسف أبى وانتضى
 أخزر غضبان شدي السطا
 عدوه يجده آرابه
 ل ولا يحصن جلبابه
 قد صرم الخذلان أسبابه
 لا يرهب الخطب إذا نابه
 له فم أدر أنيابه
 دون مرام الخسف قرضابه
 يقدر أن يترك ما رابه

خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة، بعد فراغه من أمر الخوارج، وقد كان قام بالنهروان، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإن الله قد أحسن نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام. فقاموا إليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، نفدت نبأنا، وكلت سيوفنا وانصلت أسنة رماحنا، وعاد أكثرها قصداً. ارجع بنا إلى مصرنا، نستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل ما هلك منا، فإنه أقوى لنا على عدونا. فكان جزابه عليه السلام: " يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين " ، فتلكوا عليه وقالوا: إن البرد شديد.

فقال: إنهم يجدون البرد كما تجدون. فتلكوا وأبوا، فقال: أف لكم! إنها سنة جرت ثم تلا قوله تعالى: " قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا فإنا داخلون " . فقام منهم ناس فقالوا: يا أمير المؤمنين، الجراح فاشية في الناس - وكان أهل النهروان قد أكثروا الجراح في عسكر أمير المؤمنين عليه السلام - فارجع إلى الكوفة، فأقم بها أياماً ثم اخرج. خار الله لك! فرجع إلى الكوفة عن غير رضا.

أول خطبة لعلي بالكوفة بعد قدومه

من حرب الخوارج:

وروى نصر بن مزاحم، عن عمرو بن سعد، عن نعيم بن وعلة، عن أبي وداك، قال: لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعة النهروان، أقبل به أمير المؤمنين، فأنزلهم النخيلة، وأمر الناس أن يلزموا معسكرهم، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلوا زيارة النساء وأبنائهم، حتى يسير بهم إلى عدوهم، وكان ذلك هو الرأي لو فعلوه، لكنهم لم يفعلوا، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة. فتركوه عليه السلام وما معه من الناس إلا رجال من وجوههم قليل، وبقي المعسكر خالياً، فلا من دخل الكوفة خرج إليه، ولا من أقام معه صبر. فلما رأى ذلك دخل الكوفة.

قال نصر بن مزاحم: فخطب الناس بالكوفة، وهي أول خطبة خطبها بعد قدومه من حرب الخوارج، فقال: أيها الناس؛ استعدوا لقتال عدو في جهادهم القربة إلى الله عز وجل، ودرك الوسيلة عنده؛ قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه، موزعين

بالجور والظلم لا يعدلون به، جفاة عن الكتاب، نكب عن الدين، يعمهون في الطغيان، ويتسكعون في غمرة الضلال، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله، وكفى بالله وكيلاً.

قال: فلم ينفروا ولم ينشروا، فتركهم أياماً، ثم خطبهم، فقال: أف لكم! لقد سئمت عتابكم. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً. الفصل الذي شرحناه آنفاً إلى آخره. وزاد فيه: أنتم أسود الشرى في الدعة وثعالب راوغة حين البأس، إن أخوا الحرب اليقظان؛ ألا إن المغلوب مقهور ومسلوب.

وروى الأعمش عن الحكم بن عتيبة، عن قيس بن أبي حازم، قال: سمعت علياً عليه السلام على منبر الكوفة، وهو يقول: يا أبناء المهاجرين؛ انفروا إلى أئمة الكفر، وأولياء الشيطان. انفروا إلى من يقاتل على دم حمال الخطايا، فوالله الذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه ليحمل خطاياهم إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئاً.

قلت: هذا قيس بن أبي حازم؛ وهو الذي روى الحديث: "إنكم لترون ربكم يوم القيامة، كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته". وقد طعن مشايخنا المتكلمون فيه، وقالوا: إنه فاسق، ولا تقبل روايته؛ لأنه قال: إني سمعت علياً يخطب على منبر الكوفة، ويقول: انفروا إلى بقية الأحزاب؛ فأبغضته، ودخل بغضه في قلبي، ومن يبغض علياً عليه السلام لا تقبل روايته.

فإن قيل: فما يقول مشايخكم في قوله عليه السلام: انفروا إلى من يقاتل على دم حمال الخطايا؟ أليس هذا طعنًا منه عليه السلام في عثمان! قيل: الأشهر الأكثر في الرواية صدر الحديث، وأما عجز الحديث فليس بمشهور تلك الشهرة، وإن صح حملناه على أنه أراد به معاوية؛ وسمى ناصريه مقاتلين على دمه، لأنهم يحامون عن دمه، ومن حامى عن دم إنسان فقد قاتل عليه.

وروى أبو نعيم الحافظ، قال: حدثنا أبو عاصم الثقفي، قال: جاءت امرأة من بني عباس إلى علي عليه السلام، وهو يخطب بهذه الخطبة على منبر الكوفة، فقالت: يا أمير المؤمنين، ثلاث بلبلن القلوب عليك، قال: وما هن ويحك! قالت: رضاك بالقضية، وأخذك بالدنية، وجزعك عند البلية. فقال: إنما أنت امرأة، فاذهبي فاجلسي على ذيلك، فقالت: لا والله ما من جلوس إلا تحت ظلال السيوف.

وروى عمرو بن شمر الجعفي، عن جابر، عن رفيع بن فرقد البجلي، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: يا أهل الكوفة، لقد ضربتكم بالدرة التي أعظ بها السفهاء فما أراكم تنتهون! ولقد ضربتكم بالسياط التي أقيم بها الحدود، فما أراكم ترعون! فلم يبق إلا أن أضربكم بسيفي، وإني لأعلم ما يقومكم؛ ولكني لا أحب أن ألي ذلك منكم.

واعجباً لكم ولأهل الشام! أميرهم يعصي الله وهم يطيعونه، وأميركم يطيع الله وأنتم تعصونه! والله لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو سقت الدنيا بحذافيرها إلى الكافر لما أحبني؛ وذلك أنه قضى ما قضى على لسان النبي الأمي أنه لا يبغضني مؤمن، ولا يحبني كافر، وقد خاب من حمل ظلماً. والله لتصبرن يا أهل الكوفة على قتال عدوكم أو ليسلطن الله عليكم قوماً أنتم أولى بالحق منهم فليعدنكم! أفمن قتلة بالسيف تحيدون إلى موتة على الفراش! والله لموتة على الفراش أشد من ضربة ألف سيف.

قلت: ما أحسن قول أبي العيناء، وقد قال له المتوكل: إلى متى تمدح الناس وتهجوهم! فقال: ما أحسنوا وأساؤوا. وهذا أمير المؤمنين عليه السلام، وهو سيد البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يمدح الكوفة وأهلها عقيب الانتصار على أصحاب الجمل، بما قد ذكرنا بعضه وسنذكر باقيه، مدحاً ليس باليسير ولا بالمستصغر، ويقول للكوفة عند نظره إليها: أهلاً بك وبأهلك! ما أراك جبار بكيدٍ إلا قصمه الله. ويثني عليها وعلى أهلها حسب ذمه للبصرة وعيبه لها ودعائه عليها وعلى أهلها، فلما خذله أهل الكوفة يوم التحكيم، وتقاعدوا عن نصره على أهل الشام، وخرج منهم الخوارج، ومرق منهم المراق، ثم استنفرهم بعد فلم ينفروا، واستصرخهم فلم يصرخوا، ورأى منهم دلائل الوهن وأمارات الفشل، انقلب ذلك المدح ذمّاً، وذلك الثناء استزادة وتقريراً وتهجيناً.

وهذا أمر مركوز في طبيعة البشر، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك، والقرآن العزيز أيضاً كذلك، أثني على الأنصار لما نخصوا، وذمهم لما قعدوا في غزاة تبوك، فقال: "فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله... " الآيات، إلى أن رضي الله عنهم، فقال: "وعلى الثلاثة الذين خلفوا" أي عن رسول الله "حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت... " الآية.

نبذ من فضائل الإمام علي

روى علي بن محمد بن أبي سيف المدائني عن فضيل بن الجعد، قال: أكد الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين أمر المال، فإنه لم يكن يفضل شريفاً على مشروف، ولا عريباً على عجمي، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه، وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا؛ فشكا علي عليه السلام إلى الأشتر تخاذل أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة، ورأي الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، وتعادوا وضعفت النية، وقل العدد، وأنت تأخذهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتنصف الوضع من الشريف؛ فليس للشريف عندك فضل مترلة على الوضع، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عموا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف، فتاقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقل من ليس للدنيا بصحب، وأكثرهم يحتوي الحق ويشترى الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجال، وتصف نصيحتهم لك، وتستخلص ودهم، صنع لك يا أمير المؤمنين! وكبت أعداءك، وفض جمعهم، وأوهن كيدهم، وشنت أمورهم، إنه بما يعملون خبير.

فقال علي عليه السلام: أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل؛ فإن الله عز وجل يقول: "من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلامٍ للعبيد"؛ وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف.

وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عدل، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كان قد فارقوها، وليسألن يوم القيامة: ألدنيا أرادوا أم الله عملوا؟ وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال، فإنه لا يسعنا أن نؤتي امرأة من الفئء أكثر من حقه، وقد قال الله سبحانه وتعالى

وقوله الحق: " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين " وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وحده، فكثره بعد قلة، وأعز فئته بعد الذلة، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذل لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عز وجل رضا، وأنت من آمن الناس عندي، وأنصحهم لي، وأوثقهم في نفسي إن شاء الله. وذكر الشعبي، وقال: دخلت الرحبة بالكوفة - وأنا غلام - في غلمان؛ فإذا أنا بعلي عليه السلام قائماً على صيرتين من ذهب وفضة، ومعه مخفقة، وهو يطرد الناس بمخففته ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس؛ حتى لم يبق منه شيء، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلاً ولا كثيراً. فرجعت إلى أبي فقلت له: لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحق الناس، قال: من هو يا بني، قلت: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، رأيته يصنع كذا، فقصصت عليه، فبكى، وقال: يا بني، بل رأيت خير الناس.

وروى محمد بن فضيل عن هارون بن عنتر، عن زاذان؛ قال: انطلقت مع قنبر غلام علي عليه السلام، فإذا هو يقول: قم يا أمير المؤمنين، فقد خبأت لك خبيئاً، قال: وما هو ويحك! قال: قم معي، فانطلق به إلى بيته، وإذا بغرارة مملوءة من جامات ذهباً وفضة، فقال: يا أمير المؤمنين، رأيته لا تترك شيئاً إلا قسمته، فادخرت لك هذا من بيت المال، فقال علي عليه السلام: ويحك يا قنبر! لقد أحببت أن تدخل بيتي ناراً عظيمة. ثم سل سيفه وضربه ضربات كثيرة، فانتشرت من بين إناء مقطوع نصفه، وآخر ثلثه، ونحو ذلك، ثم دعا بالناس، فقال: اقسموه بالخصص، ثم قام إلى بيت المال، فقسم ما وجد فيه، ثم رأى في البيت إبراً ومسال، فقال: ولتقسموا هذا، فقالوا: لا حاجة لنا فيه - وقد كان علي عليه السلام يأخذ من كل عامل مما يعمل - وقال: ليؤخذن شره مع خيره.

وروى عبد الرحمن بن عجلان، قال: كان علي عليه السلام يقسم بين الناس والأبزاز والحرف والكمون، وكذا وكذا. وروى مجمع التيمي، قال: كان علي عليه السلام يكنس بيت المال كل جمعة، ويصلي فيه ركعتين، ويقول: ليشهد لي يوم القيامة.

وروى بكر بن عيسى عن عاصم بن كليب الجرمي، عن أبيه، قال: شهدت علياً عليه السلام وقد جاءه مال من الجبل، فقام وقمنا معه، وجاء الناس يزدحمون، فأخذ حبالاً فوصلها بيده، وعقد بعضها إلى بعض، ثم أدارها حول المال، وقال: لا أحل لأحد أن يجاوز هذا الجبل، قال: فقعد الناس كلهم من وراء الجبل، ودخل هو، فقال: أين رؤوس الأسباع؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعاً - فجعلوا يحملون هذه الجوالق إلى هذه الجوالق، وهذا إلى هذا، حتى استوت القسمة سبعة أجزاء، ووجد مع المتاع رغيف، فقال: اكسروه سبع كسر، وضعوا على كل جزء كسرة، ثم قال:

هذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

ثم أقرع عليها ودفعها إلى رؤوس الأسباع، فجعل كل منهم يدعو قومه فيحملون الجوالق. وروى مجمع، عن أبي رجاء، قال: أخرج علي عليه السلام سيفاً إلى السوق، فقال: من يشتري مني هذا؟ فوالذي نفس علي بيده، لو كان عندي ثمن إزار ما بعته، فقلت له: أنا أبيعك إزاراً وأنسك ثمنه إلى عطائك، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه، فلما قبض عطائه دفع إلي ثمن الإزار.

وروى هارون بن سعيد، قال: قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة! فوالله ما لي إلا أن أبيع دابتي، فقال: لا والله ما أجد لك شيئاً إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك.
وروى بكر بن عيسى، قال: كان علي عليه السلام يقول: يا أهل الكوفة، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلي ورحلي وغلامي فلان فأنا حائن، فكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع، وكان يطعم الناس منها الخبز واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت.

وروى أبو إسحاق الهمداني أن امرأتين أتتا علياً عليه السلام: إحدهما من العرب والأخرى من الموالي، فسألتاه، فدفع إليهما دراهم وطعاماً بالسواء، فقالت إحدهما: إني امرأة من العرب، وهذه من العجم، فقال: إني والله لا أجد لبي إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق.

وروى معاوية بن عمار عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: ما اعتلج على علي عليه السلام أمران في ذات الله، إلا أخذ بأشدهما، ولقد علمتم أنه كان يأكل - يا أهل الكوفة - عندكم من ماله بالمدينة، وأن كان ليأخذ السوق فيجعله في جراب، ويختم عليه مخافة أن يزداد عليه من غيره، ومن كان أزهد في الدنيا من علي عليه السلام!

وروى النضر بن منصور، عن عقبة بن علقمة، قال: دخلت على علي عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض، آذني حموضته، وكسر يابسة، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا! فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيس من هذا، ويلبس أحشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به.

وروى عمران بن مسلمة، عن سويد بن علقمة، قال: دخلت على علي عليه السلام بالكوفة، فإذا بين يديه قعب لبن أجد ريحه من شدة حموضته، وفي يده رغيف، ترى قشار الشعير على وجهه وهو يكسره، ويستعين أحياناً بركبته، وإذا جاريته فضة قائمة على رأسه، فقلت: يا فضة، أما تتقون الله في هذا الشيخ! ألا نخلتم دقيقه؟ فقالت: إنا نكره أن نؤجر ويأثم، نحن قد أخذ علينا ألا ننخل له دقيقاً ما صحبناه - قال: وعلي عليه السلام لا يسمع ما تقول - فالتفت إليها فقال: ما تقولين؟ قالت: سله، فقال لي: ما قلت لها؟ قال: فقلت إني قلت لها: لو نخلتم دقيقه! فبكي، ثم قال: بأبي وأمي من لم يشبع ثلاثاً متوالية من خبز بر حتى فارق الدنيا، ولم ينخل دقيقه! قال: يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى يوسف بن يعقوب، عن صالح بياح الأكسية، أن جدته لقيت علياً عليه السلام بالكوفة، ومعه تمر يحمله، فسلمت عليه، وقالت له: أعطني يا أمير المؤمنين هذا التمر أحمله عنك إلى بيتك، فقال: أبو العيال أحق بحمله، قالت: ثم قال لي: ألا تأكلين منه؟ فقلت: لا أريد، قالت: فانطلق به إلى منزله ثم رجع مرتدياً بتلك الشملة، وفيها قشور التمر، فصلى بالناس فيها الجمعة.

وروى محمد بن فضيل بن غزوان، قال: قيل لعلي عليه السلام: كم تصدق! كم تخرج مالك! ألا تمسك! قال: إني والله لو أعلم أن الله تعالى قبل مني فرضاً واحداً لأمسكت، ولكني والله ما أدري، أقبل مني سبحانه شيئاً أم لا!

وروى عنبة العابد، عن عبد الله بن الحسين بن الحسن، قال: أعتق علي عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مملوك مما مجلت يده، وعرق جبينه؛ ولقد ولي الخلافة، وأتته الأموال، فما كان حلواه إلا التمر، ولا ثيابه إلا

الكرايس.

وروى العوام بن حوشب، عن أبي صادق، قال: تزوج علي عليه السلام ليلى بنت مسعود النهشلية، فضربت له في داره، حجلة، فجاء فهتكها، وقال: حسب أهل علي ما هم فيه!.

وروى حاتم بن إسماعيل المدني، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: ابتاع علي عليه السلام في خلافته قميصاً سماً بأربعة دراهم، ثم دعا الخياط، فمد كم القميص، وأمره بقطع ما جاوز الأصابع. وإنما ذكرنا هذه الأخبار والروايات - وإن كانت خارجة عن مقصد الفصل - لأن الحال اقتضى ذكرها، من حيث أردنا أن نبين أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن يذهب في خلافته مذهب الملوك الذين يصنعون بالأموال، ويصرفونها في مصالح ملكهم وملأذ أنفسهم، وأنه لم يكن من أهل الدنيا، وإنما كان رجلاً متألهماً صاحب حق، لا يريد بالله ورسوله بدلاً.

وروى علي بن محمد بن أبي يوسف المدائني أن طائفة من أصحاب علي عليه السلام مشوا إليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافته من الناس وفراذه، وإنما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع في المال، فقال لهم: أتأمروني أن أطلب النصر بال جور! لا والله لا أفعل ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم، والله لو كان المال لي لواسيت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم! ثم سكت طويلاً واجماً، ثم قال: الأمر أسرع من ذلك؛ قالها ثلاثاً.

ومن خطبة له بعد التحكيم

الأصل: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليل؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله.

أما بعد، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر! فأبيتم علي إباء المخالفين الجفاة، والمناذرين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضم الزند بقدحه، فكنت أنا وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

الشرح: الخطب الفادح: الثقيل، ونخلت لكم، أي أخلصته، من نخلت الدقيق بالمنخل.

وقوله: الحمد لله وإن أتى الدهر، أي أحمدته على كل حال من السراء والضراء.

وقوله: لو كان يطاع لقصير أمر، فهو قصير صاحب جذيمة، وحديثه مع جذيمة ومع الزباء مشهور، فضرب المثل لكل ناصح يعصى بقصير.

وقوله: حتى ارتاب الناصح بنصحه وضم الزند بقدحه، يشير إلى نفسه؛ يقول: خالفتموني حتى ظننت أن النصح الذي نصحتكم به غير نصح، لإطباقكم وإجماعكم على خلافي، وهذا حق، لأن ذا الرأي الصواب إذا كثر مخالفوه يشك في

نفسه.

وأما صن الزند بقدحه، فمعناه أنه لم يقدح لي بعد ذلك رأي صالح، لشدة ما لقيت منكم من الإباء والخلاف والعصيان، وهذا أيضاً حق، لأن المشير الناصح إذا اهتم واستغش عمي قلبه وفسد رأيه. وأخو هوازن صاحب الشعر هو دريد بن الصمة، والآيات المذكورة في الحماسة، وأولها:

نصحت لعارضٍ وأصحاب عارضٍ	وربط بني السوداء والقوم شهدي
فقلت لهم ظنوا بألفي مدججٍ	سراتهم في الفارسي المسرد
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى	فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى	غوايتهم وأنني غير مهتد
وما أنا إلا من غزية إن غوت	غويت وإن ترشد غزية أرشد

وهذه الألفاظ من خطبة خطب بها عليه السلام بعد خديعة ابن العاص لأبي موسى وافتراقهما، وقبل وقعة النهروان.

التحكيم وظهور الخوارج

ويجب أن نذكر في هذا الفصل أمر التحكيم، كيف كان، وما الذي دعا إليه! فنقول: إن الذي دعا إليه طلب أهل الشام له، واعتصامهم به من سيوف أهل العراق؛ فقد كانت إمارات القهر والغلبة لاحت، ودلائل النصر والظفر وضحت، فعدل أهل الشام عن القراع إلى الخداع، وكان ذلك برأي عمرو بن العاص، وهذه الحال وقعت عقيب ليلة الحرير، وهي الليلة العظيمة التي يضرب بها المثل.

ونحن نذكر ما أورده نصر بن مزاحم في كتاب صفين في هذا المعنى، فهو ثقة ثبت، صحيح النقل، غير منسوب إلى هوى ولا إدغال، وهو من رجال أصحاب الحديث. قال نصر: حدثنا عمرو بن شمر، قال: حدثني أبو ضرار، قال: حدثني عمرو بن ربيعة، قال: غلس علي عليه السلام بالناس صلاة الغداة يوم الثلاثاء، عاشر شهر ربيع الأول، سنة سبع وثلاثين، وقيل: عاشر شهر صفر، ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر العراق، والناس على رايهم وأعلامهم، وزحف إليهم أهل الشام، وقد كانت الحرب أكلت الفريقين؛ ولكنها في أهل الشام أشد نكابة، وأعظم وقعاً، فقد ملوا الحرب، وكرهوا القتال، وتضعضت أركانهم.

قال: فخرج رجل من أهل العراق، على فرس كميث ذنوب، عليه السلاح لا يرى منه إلا عيناه، وبيده الرمح. فجعل يضرب رؤوس أهل العراق بالقناة، ويقول: سووا صفوفكم رحمكم الله! حتى إذا عدل الصفوف والرايات، استقبلهم بوجهه، وولى أهل الشام ظهره، ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال: الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه، أقدمهم هجرة، وأولهم إسلاماً، سيف من سيوف الله على أعدائه، فانظروا إذا حمي الوطيس، وثار القتام، وتكسر المران، وجالت الخيل بالأبطال، فلا أسمع إلا غمغمة أو همهمة، فاتبعوني وكونوا في أثري، ثم حمل على أهل الشام فكسر فيهم رحمة، ثم رجع فإذا هو الأشتر.

قال: وخرج رجل من أهل الشام فنأدى بين الصفيين: يا أبا الحسن، يا علي، ابرز إلي. فخرج إليه علي عليه السلام، حتى اختلفت أعناق دابتيهما بين الصفيين، فقال: إن لك يا علي لقدماً في الإسلام والمهجرة، فهل لك في أمر أعرضه عليك، يكون فيه حقن هذه الدماء، وتأخر هذه الحروب، حتى ترى رأيك؟ قال: وما هو؟ قال: ترجع إلى عراقك، فنخلي بينك وبين العراق، ونرجع نحن إلى شامنا فتحلي بيننا وبين الشام.

فقال علي عليه السلام: قد عرفت ما عرضت، إن هذه لنصيحة وشفقة، ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني، وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد. إن الله تعالى ذكره لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مدعنون؛ لا يأمرهم بمعروف، ولا ينهون عن منكر؛ فوجدت القتال أهون علي من معالجة في الأغلال في جهنم.

قال: فرجع الرجل وهو يسترجع، وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتقوا بالنبل والحجارة حتى فنيتم، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت. ثم مشى القوم بعضه إلى بعض بالسيوف وعمد الحديد، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض؛ لهو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق، ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً، وانكسفت الشمس بالنقع، وثار القتام والقسطل، وضلت الأولوية والرايات، وأخذ الأشر يسير فيما بين الميمنة والميسرة، فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها؛ فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد، من صلاة الغداة من اليوم المذكور إلى نصف الليل، لم يصلوا لله صلاةً. فلم يزل الأشر يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم، وتلك الليلة وهي ليلة الهزير المشهورة، وكان الأشر في ميمنة الناس وابن عباس في الميسرة، وعلي عليه السلام في القلب، والناس يقتتلون.

ثم استمر القتال من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضحى، والأشر يقول لأصحابه، وهو يزحف بهم نحو أهل الشام: ازحفوا قيد رمحي هذا، ويلقي رمحه، فإذا فعلوا ذلك، قال: ازحفوا قاب هذا القوس، فإذا فعلوا ذلك سألهم مثل ذلك، حتى مل أكثر الناس من الإقدام، فلما رأى ذلك قال: أعيذك بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم. ثم دعا بفرسه، وركز رايته، وكانت مع حيان بن هوزة النخعي، وسار بين الكتائب، وهو يقول: ألا من يشتري نفسه لله ويقاتل مع الأشر، حتى يظهر أو يلحق بالله! فلا يزال الرجل من الناس يخرج إليه فيقاتل معه.

قال نصر: وحدثني عمرو قال: حدثني أبو ضرار، قال: حدثني عمار بن ربيعة، قال: مر بي الأشر، فأقبلت معه حتى رجعت إلى المكان الذي كان به، فقام في أصحابه، فقال: شدوا - فداً لكم عمي وحالي - شدة ترضون بها الله، وتعززون بها الدين. إذ أنا حملت فاحملوا ثم نزل، وضرب وجه دابته، وقال لصاحب رايته: أقدم، فتقدم بها، ثم شد على القوم، وشد معه أصحابه، فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم، فقاتلوا عند المعسكر قتالاً شديداً، وقتل صاحب رايته، وأخذ علي عليه السلام - لما رأى الظفر قد جاء قبله - يمد به بالرجال.

وروى نصر عن رجاله، قال: لما بلغ القوم إلى ما بلغوا إليه، قام علي عليه السلام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، قد بلغ بكم الأمر وبعوكم ما قد رأيتم، ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها

بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله.
قال: فبلغ ذلك معاوية، فدعا عمرو بن العاص، وقال: يا عمرو، إنما هي الليلة، حتى يغدو علي علينا بالفیصل، فما ترى؟
قال: إن رجالك لا يقومون لرجاله، ولست مثله، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء، وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون عليك إن ظفر بهم؛ ولكن ألق إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك في القوم، وإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه، فعرف معاوية ذلك وقال له: صدقت.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر عن جابر بن عمير الأنصاري، قال: والله لكأني أسمع عليك يوم المهري، وذلك بعد ما طحنت رحاً مذحج، فيما بينها وبين عك لحم وجذام والأشعرين بأمر عظيم تشيب منه النواصي، حتى استقلت الشمس، وقام قائم الظهر، وعلي عليه السلام يقول لأصحابه: حتى متى نخلي بين هذين الحيين! قد فنيا وأنتم وقوف تنظرون! أما تخافون مقت الله! ثم انفتل إلى القبلة، ورفع يديه إلى الله عز وجل، ونادى: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا واحد، يا أحد، يا صمد! يا الله، يا إله محمد؛ اللهم إليك نقلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورفع الأيدي، ومدت الأعناق، وشخصت الأبصار، وطلبت الحوائج! اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين " سيروا على بركة الله، ثم نادى: لا إله إلا الله والله أكبر، كلمة التقوى.
قال: فلا والذي بعث محمداً بالحق نبياً، ما سمعنا رئيس قوم منذ خلق الله السموات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب، إنه قتل - فيما ذكر العادون - زيادة على خمسمائة من أعلام العرب، يخرج بسيفه منحنيًا، فيقول: معذرة إلى الله وإليكم من هذا. لقد هممت أن أفلقه؛ ولكن يحجزني عنه أي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: " لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي ". وأنا أقاتل به دونه صلى الله عليه وسلم.
قال: فكنا نأخذه فنقومه، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصف، فلا والله ما ليث بأشد نكاية منه في عدوه عليه السلام.

قال نصر: فحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: سمعت تميم بن حذم، يقول: لما أصبحنا في ليلة المهري، نظرنا فإذا أشباه الرايات، أمام أهل الشام في وسط الفيلق، حيال موقف علي ومعاوية، فلما أسفرنا إذا هي المصاحف قد ربطت على أطراف الرماح، وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة أرماع جميعاً، وربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم، يمسكه عشرة رهط.

قال نصر: وقال أبو جعفر وأبو الطفيل: استقبلوا عليك بمائة مصحف، ووضعوا في كل مجنبه مائتي مصحف، فكان جميعها خمسمائة مصحف.

قال أبو جعفر: ثم قام الطفيل بن أدهم حيال علي عليه السلام، وقام أبو شريح الجذامي حيال الميمنة، وقام ورقاء بن المعمر حيال الميسرة، ثم نادوا: يا معشر العرب، الله الله في النساء والبنات والأبناء من الروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فنيتم! الله الله في دينكم! هذا كتاب الله بيننا وبينكم.

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

فقال علي عليه السلام: اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكم الحق المبين. فاختلف أصحاب علي عليه السلام في الرأي؛ فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب، وقد دعينا إلى حكم الكتاب؛ فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين قال: لما كان اليوم الأعظم، قال أصحاب معاوية: والله لا نبرح اليوم العرصة حتى نموت أو يفتح لنا، وقال أصحاب علي عليه السلام: لا نبرح اليوم العرصة حتى نموت أو يفتح لنا، فبادروا القتال غدوةً في يوم من أيام الشعرى طويل، شديد الحر فتراموا حتى فنيت النبال، وتطاعنوا حتى تقصفت الرماح، ثم نزل القوم عن خيولهم، ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوف حتى كسرت جفونها، وقام الفرسان في الركب، ثم اضطربوا بالسيوف وبعمد الحديد، فلم يسمع السامعون إلا تغمغم القوم، وصليل الحديد في الهام، وتكاد الأفواه وكسفت الشمس، وثار القتام، وضلت الألوية والرايات، ومرت مواقيت أربع صلوات، ما يسجد فيهن لله إلا تكبيراً، ونادت المشيخة في تلك الغمرات: يا معشر العرب؛ الله الله في الحرمات من النساء والبنات! قال جابر: فبكى أبو جعفر وهو يحدثنا بهذا الحديث.

قال نصر: وأقبل الأشر على فرسٍ محذوفٍ، وقد وضع مغفره على قريوس السرج، وهو ينادي: اصبروا يا معشر المؤمنين، فقد حمي الوطيس، ورجعت الشمس من الكسوف، واشتد القتال، وأخذت السباع بعضها بعضاً، فهم كما قال الشاعر:

وخلي بينهم إلا الوريع

مضت واستأخر القرعاء عنها

قال: يقول واحد لصاحبه في تلك الحال: أي رجل هذا لو كانت له نية! فيقول صاحبه: وأي نية أعظم من هذه ثكلتك أمك وهبلك! إن رجلاً كما ترى قد سبح في الدم، وما أضجرت الحرب، وقد غلت هام الكماة من الحر، وبلغت القلوب الحناجر، وهو كما تراه جزعاً يقول هذه المقالة! اللهم لا تبقنا بعد هذا! قلت: لله أم قامت عن الأشر! لو أن إنساناً يقسم أن الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلا أستاذة عليه السلام لما خشيت عليه الإثم! والله در القائل، وقد سئل عن الأشر: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام، وهزم موته أهل العراق.

وبحق ما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: كان الأشر لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال نصر: وروى الشعبي عن صعصعة، قال: وقد كان الأشعث بن قيس بدر منه قول ليلة الحرير، نقله الناقلون إلى معاوية، فاغتتمه وبني عليه تدبيره؛ وذلك أن الأشعث خطب أصحابه من كندة تلك الليلة، فقال: الحمد لله، أحمد، وأستعينه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأستنصره وأستغفره، وأستجير به وأستهديه، وأستشير به واستشهد به؛ فإن من هداه الله فلا مضل له، ومن يضل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيتم مثل هذا اليوم قط. ألا فليبلغ الشاهد الغائب؛ إنا نحن إن تواقفنا غداً، إنه لفناء

العرب وضيعة الحرمات! أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب، ولكني مسن أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنيّا، اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل، وما توفيتني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والرأي يخطئ ويصيب، وإذا قضى الله أمراً أمضاه على ما أحب العباد أو كرهوا، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم! قال الشعبي: قال صعصعة: فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث، فقال: أصاب ورب الكعبة! لئن نحن التقينا غداً لتميلن الروم على ذراري أهل الشام ونسائهم، ولتميلن فارس على ذراري أهل العراق ونسائهم! إنما يبصر ذوو الأحلام والنهي؛ ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا.

فثار أهل الشام في سواد الليل ينادون عن قول معاوية وأمره: يا أهل العراق، من لذرارينّا إن قتلتمونا! ومن لذراريكم إذا قتلناكم! الله الله في البقية! وأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح، وقد قلدوها الخيل والناس على الرايات قد اشتها ما دعوا إليه، ومصحف دمشق الأعظم يحمله عشرة رجال على رؤوس الرماح، وهم ينادون: كتاب الله بيننا وبينكم.

وأقبل أبو الأعور السلمي على برذونٍ أبيض، وقد وضع المصحف على رأسه، ينادي: يا أهل العراق، كتاب الله بيننا وبينكم.

قال: فجاء عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لم يصب منا عصابة إلا وقد أصيب منهم مثلها، وكل مقروح؛ ولكنّا أمثل بقية منهم، وقد جزع القوم، وليس بعد الجزع إلا ما نحب، فناجزهم .

وقام الأشتر، فقال: يا أمير المؤمنين إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولكن بحمد الله لك الخلف، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا نصرك، فاقرع الحديد بالحديد، واستعن بالله الحميد.

ثم قام عمرو بن الحمق، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنا والله ما أجبنك ولا نصرناك على الباطل، ولا أجبننا إلا الله ولا طلبنا إلا الحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه لاستشرى فيه اللجاج، وطالت فيه النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا معك رأي.

فقام الأشعث بن قيس مغضباً، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، وليس آخر أمرنا كأوله، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني! فأجب القوم إلى كتاب الله عز وجل، فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء، وكرهوا القتال.

فقال علي عليه السلام: هذا أمر ينظر فيه، فتنادى الناس من كل جانب: المودة.

فقال علي عليه السلام: أيها الناس، إني أحق من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وابن أبي سرح وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أني أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شر صغار، وشر رجال. ويحكم إنما كلمة حق يراد بها باطل! إنهم ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة! أعيروني سواعدكم وجهاكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا.

فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد، شاكبي السلاح، سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودت جباههم من السجود، يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا حوارج بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا علي، أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبه! فقال لهم: ويحكم! أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه؛ وليس يحل لي، ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، إني إنما قاتلتهم ليدنوا بحكم القرآن؛ فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبدوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم؛ وأنهم ليس العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتيك، وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير أشرف على عسكر معاوية ليدخله.

قال نصر: فحدثني فضيل بن خديج عن رجل من النخع قال: سأل مصعب إبراهيم بن الأشتر عن الحال كيف كانت؟ فقال: كنت عند علي عليه السلام حين بعث إلى الأشتر ليأتيه، وقد كان الأشتر أشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه علي عليه السلام يزيد بن هانئ: أن اتني، فاتاه فأبلغه، فقال الأشتر: اتته فقل له: ليس بهذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلي عن موقعي؛ إني قد رجوت الفتح فلا تعجلي. فرجع يزيد بن هانئ إلى علي عليه السلام فأخبره؛ فما هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرهج، وعلت الأصوات من قبل الأشتر، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام، فقال القوم لعلي: والله ما نراك أمرته إلا بالقتال! قال: رأيتموني ساررت رسولي إليه! ليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون! قالوا: فابعث إليه فليأتك؛ وإلا فوالله اعترلناك! فقال: ويحك يا يزيد! قل له: أقبل إلي، فإن الفتنة قد وقعت. فاتاه فأخبره، فقال الأشتر: أرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم، قال: أما والله لقد ظننت أنما حين رفعت ستوق خلافاً وفرقة، إنها مشورة ابن النابغة! ثم قال ليزيد بن هانئ: ويحك! ألا ترى إلى الفتح! ألا ترى إلى ما يلقون! ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه! فقال له يزيد: أتحب أنك ظفرت ههنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج عنه، ويسلم إلى عدوه! قال: سبحان الله! لا والله لا أحب ذلك، قال: فإنهم قد قالوا له، وحلفوا عليه، لترسلن إلى الأشتر فليأتيك، أو لنقتلنك بأسيفنا كما قتلنا عثمان، أو لنسلمنك إلى عدوك.

فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم، فصاح يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وتركوا سنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم! أمهلوني فواقعاً فإني قد أحسست بالفتح، قالوا: لا نمهلك، قال: فأمهلوني عدوة الفرس، فإني قد طمعت في النصر، قالوا: إذن ندخل معك في خطيتك.

قال: فحدثوني عنكم، وقد قتل أمثالكم، وبقي أراذلكم؛ متى كنتم محقين! أحين كنتم تقتلون أهل الشام! فأنتم الآن حين أمسكنكم عن قتالها مبطلون! أم أنتم الآن في إمساكنكم عن القتال محقون! فقتلاكهم إذن الذين لا تنكرون فضلهم، وإنهم خير منكم في النار، قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله، إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا، فقال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله! فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت؛ ألا فقبحاً يا أشباه النيب الجلالة، ما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً، فابعدوا

فسبوه وسبهم، وضربوا بسياطهم وجهه دابته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم، وصاح بهم علي عليه السلام، فكفوا. وقال الأشر: يا أمير المؤمنين، أحمل الصف على الصف تصرع القوم. فتصايحوا: إن أمير المؤمنين قد قبل الحكومة، ورضي بحكم القرآن. فقال الأشر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي، فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين، فأقبل الناس يقولون: قد رضي أمير المؤمنين، قد أقبل أمير المؤمنين، وهو ساكت لا يبيض بكلمة، مطرق إلى الأرض.

ثم قام فسكت الناس كلهم، فقال: أيها الناس، إن أمري لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك، وإنما فيهم أنكى وأهك، ألا إني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد أحببتكم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون. ثم قعد. قال نصر: ثم تكلم رؤساء القبائل، فكل قال ما يراه ويهواه، إما من الحرب أو من السلم، فقام كردوس بن هانئ البكري فقال: أيها الناس، إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه، ولا تبرأنا من علي منذ تولينا، وإن قتلنا لشهداء، وإن أحياءنا لأبرار؛ إن علياً لعلى بينة من ربه، وما أحدث إلا الإنصاف، فمن سلم له نجا، ومن خالفه هلك. ثم قام شقيق بن ثور البكري، فقال: أيها الناس، إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله، فردوه علينا، فقاتلناهم عليه، وإهم قد دعونا اليوم إليه، فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله، ألا إن علياً ليس بالراجع الناكس، ولا الشاك الواقف؛ وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد أكلتنا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلا في المودعة. قال نصر: ثم إن أهل الشام لما أبطأ عنهم علم حال أهل العراق: هل أجابوا إلى المودعة أم لا؟ جزعوا فقالوا: يا معاوية، ما نرى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه، فأعدها جذعة، فإنك قد غمرت بدعائك القوم، وأطمعتهم فيك. فدعا معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص، فأمره أن يكلم أهل العراق، ويستعلم له ما عندهم، فأقبل حتى إذا كان بين الصفيين نادى: يا أهل العراق، أنا عبد الله بن عمرو بن العاص، إنه كانت بيننا وبينكم أمور للدين أو الدنيا فإن تكن للدين فقد والله أعذرنا وأعذرتم، وإن تكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتونا إليه لأجبناكم، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله. فاغتنموا هذه الفرصة، عسى أن يعيش فيها المحترف وينسى فيها القتل فإن بقاء المهلك بعد الهلك قليل.

فأجابه سعد بن قيس الهمداني، فقال: أما بعد يا أهل الشام، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا، وسميتوها غدرًا وسرفاً، وقد دعوتونا اليوم إلى ما قاتلناكم عليه أمس، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم، وأهل الشام إلى شامهم، بأمر أجمل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه، فالأمر في أيدينا دونكم، وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم.

فقام الناس إلى علي عليه السلام، فقالوا: أجب القوم إلى المحاكمة، قال: ونادى إنسان من أهل الشام في جوف الليل بشعر سمعه الناس، وهو:

رؤوس العراق أجيبوا الدعاء	فقد بلغت غاية الشده
وقد أودت الحرب بالعالمين	وأهل الحفاظ والنجده
فلسنا ولستم من المشركين	ولا المجمعين على الرده
ولكن أناس لقوا مثلهم	لنا عدة ولكم عده
فقاتل كل على وجهه	يقحمه الجد والحده
فإن تقبلوها ففيها البقاء	وآمن الفريقين والبلده
وإن تدفعوها ففيها الفناء	وكل بلاءٍ إلى مده
فحتى متى مخض هذا السقاء	ولا بد أن تخرج الزبده
ثلاثة رهطٍ هم أهلها	وإن يسكنوا تخمد الوقده
سعيد بن قيسٍ وكبش العراق	وذاك المسود من كنده

قال: فأما المسود من كنده، وهو الأشعث، فإنه لم يرض بالسكوت، بل كان من أعظم الناس قولاً في إطفاء الحرب والركون إلى المودعة. وأما كبش العراق، وهو الأشتر، فلم يكن يرى إلا الحرب، ولكنه ساكت على مضضٍ. أما سعيد بن قيس، فكان تارة هكذا وتارة هكذا.

وذكر ابن ديزيل الهمداني في كتاب صفين قال: خرج عبد الرحمن بن خالد ومعه لواء معاوية، فارتجز فخرج إليه جارية بن قدامة السعدي، فارتجز أيضاً مجيباً له ثم اطعنا فلم يصنعاً شيئاً، وانصرف كل واحد منهما عن صاحبه، فقال عمرو بن العاص لعبد الرحمن: اقحم يابن سيف الله، فتقدم عبد الرحمن بلوائه، وتقدم أصحابه، فأقبل علي عليه السلام على الأشتر، فقال له: قد بلغ لواء معاوية حيث ترى، فدونك القوم. فأخذ الأشتر لواء علي عليه السلام، وقال:

إني أنا الأشتر معروف الشتر	إني أنا الأفعى العراقي الذكر
لست ربيعياً ولست مضر	لكنني من مذحج الشم الغرر

فضارب القوم حتى ردهم، فانتدب له همام بن قبيصة الطائي - وكان مع معاوية - فشد عليه في مذحج، فانتصر عدي بن حاتم الطائي للأشتر، فحمل عليه في طيئ، فاشتد القتال جداً، فدعا علي ببغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فركبها، ثم تعصب بعمامة رسول الله، ونادى: أيها الناس، من يشري نفسه لله! إن هذا يوم له ما بعده، فانتدب معه ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشرة ألفاً، فتقدمهم علي عليه السلام، وقال:

دبوا دبيب النمل لا تفوتوا	واصبحوا أمركم أو بيتوا
حتى تتالوا الثأر أو تموتوا	

وحمل وحمل الناس حملاً واحدة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أزالوه، حتى أفضوا إلى معاوية، فدعا معاوية بفرسه ليفر عليه، وكان معاوية بعد ذلك يحدث فيقول: لما وضعت رجلي في الركاب، ذكرت قول عمرو بن الإطنابة :

وأخذي الحمد بالثمن الربيع

وضربي هامة البطل المشيح

مكانك تحمدي أو تستريحي

أبت علي عفتي وأبى بلاتي

وإقدامي على المكروه نفسي

وقولي كلما جشأت وجاشت:

فأخرجت رجلي من الركاب وأقمت، ونظرت إلى عمرو فقلت له: اليوم صبر وغداً فخر، فقال: صدقت.

قال إبراهيم بن ديزيل: وروى عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الرحمن بن حاطب، عن معاوية، قال: أخذت بمعرفة فرسي ووضعت رجلي في الركاب للهرب، حتى ذكرت شعر ابن الإطنابة، فعدت إلى مقعدي، فأصبت خير الدنيا، وإني لراج أن أصيب خير الآخرة.

قال إبراهيم بن ديزيل: فكان ذلك يوم الهريز، ثم رفعت المصاحف بعده.

وروى إبراهيم، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن ربيعة بن لقيط، قال: شهدنا صفين، فمطرت السماء علينا دماً عبيطاً.

وقال: وفي حديث الليث بن سعد أن كانوا ليأخذونه بالصحاف والآنية. وفي حديث ابن لهيعة: حتى إن الصحاف والآنية لتمتلى ونهريقها .

قال إبراهيم: وروى عبد الرحمن بن زياد، عن الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عمن حدثه ممن حضر صفين أنهم مطروا دماً عبيطاً. فتلقياه الناس بالقصاع والآنية، وذلك في يوم الهريز، وفزع أهل الشام وهموا أن يتفرقوا، فقام عمرو بن العاص فيهم فقال: أيها الناس، إنما هذه آية من آيات الله، فأصلح امرؤ ما بينه وبين الله، ثم لا عليه أن ينتطح هذان الجبلان، فأخذوا في القتال.

قال إبراهيم: وروى أبو عبد الله المكي، قال: حدثنا سفيان بن عاصم بن كليب الحارثي عن أبيه، قال: أخبرني ابن عباس قال: لقد حدثني معاوية أنه كان يومئذ قد قرب إليه فرساً له أنثى، بعيدة البطن من الأرض، ليهرب عليها؛ حتى أتاه آت من أهل العراق، فقال له: إني تركت أصحاب علي في مثل ليلة الصدر من منى، فأقمت، قال: فقلنا له: فأخبرنا من هو ذلك الرجل؟ فأبى وقال: لا أخبركم من هو.

قال نصر وإبراهيم أيضاً: وكتب معاوية إلى علي عليه السلام:

أما بعد، فإن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك ، وكل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه، ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر، وقد قتل فيما بيننا بشر كثير ، وأنا أتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى، وإنا سوف نسأل عن ذلك الموطن، ولا يحاسب به غيري وغيرك، وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر، وبراءة وصلاح للأمة، وحقن للدماء، وألفة للدين، وذهاب للضعائن والفتن، وأن نحكم بيني وبينكم حكمين مرضيين، أحدهما من أصحابي، والآخر من أصحابك، فيحكمان بيننا بما أنزل الله، فهو خير لي ولك، وأقطع لهذه الفتن، فاتق الله فيما دعيت إليه، وارض

بحكم القرآن إن كنت من أهله، والسلام.

فكتب إليه علي عليه السلام: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، فإن أفضل ما شغل به المرء نفسه اتباع ما حسن به فعله، واستوجب فضله، وسلم من عيبه، وإن البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ونياه، فاحذر الدنيا، فإنه لا فرح في شيء وصلت إليه منها، ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته، وقد رام قوم أمراً بغير الحق، وتأولوه على الله جل وعز، فأكذبهم ومتعهم قليلاً، ثم اضطروهم إلى عذاب غليظ، فاحذر يوماً يغتبط فيه من حمد عاقبة عمله، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ولم يحاده، وغرته الدنيا واطمأن إليها. ثم إنك قد دعوتني إلى حكم القرآن، ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ولا حكمه تريد، والله المستعان، فقد أجبنا القرآن إلى حكمه، ولسنا إياك أجبنا، ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيداً.

فكتب معاوية إلى علي عليه السلام: أما بعد، عافانا الله وإياك، فقد آن لك أن تجيب إلى ما فيه صلاحنا وألفة بيننا، وقد فعلت الذي فعلت وأنا أعرف حقي، ولكني اشتريت بالعفو صلاح الأمة، ولم أكن أكثر فرحاً بشيء جاء ولا ذهب، وإنما أدخلني في هذا الأمر القيام بالحق فيما بين الباغي والمبغي عليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدعوت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك؛ فإنه لا يجمعنا وإياك إلا هو، نحبي ما أحيا القرآن، ونميت ما أemat القرآن، والسلام.

قال نصر: فكتب علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص، يعظه ويرشده: أما بعد، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولن يصيب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً يزيد فيه رغبة، ولن يستغني صاحبها بما نال عما لم يبلغ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من وعظ بغيره، فلا تحبط أبا عبد الله أجرك، ولا تجار معاوية في باطله، والسلام.

فكتب إليه عمرو الجواب: أما بعد أقول: فالذي فيه صلاحنا وألفتنا الإنابة إلى الحق، وقد جعلنا القرآن بيننا حكماً، وأجبنا إليه، فصبر الرجل منا نفسه على ما حكم عليه القرآن، وعذره الناس بعد المحاجة، والسلام.

فكتب إليه علي عليه السلام: أما بعد، فإن الذي أعجبك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك، ووثقت به منها لمتقلب عنك، ومفارق لك، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غزارة، ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقي، وانتفعت منها بما وعظت به.

والسلام.

فأجابه عمرو: أما بعد، فقد أنصف من جعل القرآن إماماً، ودعا الناس إلى أحكامه، فاصبر أبا حسن، فإننا غير منيليك إلا ما أنالك القرآن، والسلام.

قال نصر: وجاء الأشعث إلى علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، وما أرى الناس إلا قد رضوا، وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد، ونظرت ما الذي يسأل، قال: فآته إن شئت، فأتاه، فسأله: يا معاوية: لأي شيء رفعت هذه المصاحف؟ قال: لترجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فيها، فابعثوا رجلاً منكم ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ونأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب الله ولا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه.

فقال الأشعث: هذا هو الحق.

وانصرف إلى علي عليه السلام، فأخبره، فبعث علي عليه السلام قراءاً من أهل العراق، وبعث معاوية قراءاً من أهل الشام،

فاجتمعوا بين الصفيين، ومعهم المصحف فنظروا فيه وتدارسوا واجتمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن، ويميتوا ما أمات القرآن، ورجع كل فريق إلى صاحبه، فقال أهل الشام: إنا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعري، قال لهم علي عليه السلام: فإني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه، فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسر بن فذكي في عصابة القراء: إنا لا نرضى إلا به، فإنه قد كان حذرنا ما وقعنا فيه. فقال علي عليه السلام: فإنه ليس لي برضاً، وقد فارقتني وخذل الناس عني، وهرب مني حتى أمنتته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك. قالوا: والله ما نبالي، أكنت أنت أو ابن عباس! ولا نريد رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر. قال علي عليه السلام: فإني أجعل الأشتر، فقال الأشعث: وهل سعر الأرض علينا إلا الأشر! وهل نحن إلا في حكم الأشر! قال علي عليه السلام: وما حكمه؟ قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: لما أراد الناس علينا أن يضع الحكمين، قال لهم: إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله، فعليكم بعبد الله بن العباس فارموه به، فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله، ولا يحل عقدة إلا عقدها، ولا يبرم أمراً إلا نقضه، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه. فقال الأشعث: لا والله، لا يحكم فينا مضرين حتى تقوم الساعة، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلاً من مضر، فقال علي عليه السلام: إني أخاف أن يخدع يمينكم، فإن عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى. فقال الأشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكره، وأحدهما من أهل اليمن، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضرين، قال: وذكر الشعبي مثل ذلك.

قال نصر: فقال علي عليه السلام: قد أبيتم إلا أبا موسى! قالوا: نعم، قال: فاصنعوا ما شئتم، فبعثوا إلى أبي موسى - وهو بأرض الشام يقال لها عرض قد اعتزل القتال - فأتاه مولى له، فقال: إن الناس قد اصطلحوا، فقال: الحمد لله رب العالمين، قال: وقد جعلوك حكماً، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! فجاء أبو موسى حتى دخل عسكر علي عليه السلام، وجاء الأشتر علياً، فقال: يا أمير المؤمنين ألزني بعمر بن العاص، فوالذي لا إله غيره، لئن ملأت عيني منه لأقتلنه. وجاء الأحنف بن قيس علياً، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك قد رميت بحجر الأرض؛ ومن حارب الله ورسوله أنف الإسلام، وإني قد عجمت هذا الرجل - يعني أبا موسى - وحلبت أشطره، فوجدته كليل الشفرة قريب القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم، ويتباعد منهم حتى يكون بمترلة النجم منهم، فإن شئت أن تجعلني حكماً فاجعلي، وإن شئت أن تجعلني ثانياً أو ثالثاً، فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حللتها، ولا يحل عقدة إلا عقدت لك أشد منها.

فعرض علي عليه السلام ذلك على الناس فأبوه، وقالوا: لا يكون إلا أبا موسى.

قال نصر: مال الأحنف إلى علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إني خيرتك يوم الجمل أن آتيك فيمن أطاعني، أو أكف عنك بني سعد، فقلت: كف قومك، فكفى بكفك نصيراً. فأقمت بأمرك، وإن عبد الله بن قيس رجل قد حلبت أشطره، فوجدته قريب القعر، كليل المدينة، وهو رجل يمان وقومه مع معاوية، وقد رميت بحجر الأرض، ومن حارب الله

ورسوله، وإن صاحب القوم من ينأى حتى يكون مع النجم، ويدنو حتى يكون في أكفهم، فابعثني، فوالله لا يحال عنك عقدة إلا عقدت لك أشد منها، فإن قلت: إني لست من أصحاب رسول الله، ابعث رجلاً من أصحاب رسول الله، وابعثني معه.

فقال علي عليه السلام: إن القوم أتوني بعبد الله بن قيس مبرنساً، فقالوا: ابعث هذا، رضيينا به والله بالغ أمره.

قال نصر: وروي أن ابن الكواء، قام إلى علي عليه السلام، فقال: هذا عبد الله بن قيس وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب مقاسم أبي بكر وعامل عمر، وقد رضي به القوم، وعرضنا عليهم ابن عباس، فزعموا أنه قريب القرابة منك، ظنون في أمرك.

فبلغ ذلك أهل الشام، فبعث أيمن بن خزيمة الأسدي، وكان معتزلاً لمعاوية بهذه الأبيات، وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق:

لو كان للقوم رأي يعصمون به	من الضلال رموكم بآبن عباس
لله در أبيه أيما رجل	ما مثله لفصال الخطب في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن	لا يهتدي ضرب أخماس لأسداس
إن يخل عمرو به يقذفه في لجج	يهوي به النجم تيساً بين أتياس
أبلغ لديك علياً غير عاتبه	قول امرئ لا يرى بالحق من باس
ما الأشعري بمأمون أبا حسن	فاعلم هديت وليس العجز كالراس
فاصدم بصاحبك الأدنى زعيمهم	إن ابن عمك عباس هو الآسي

فلما بلغ الناس هذا الشعر، طارت أهواء قوم من أولياء علي عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس، وأبت القراء إلا أبا موسى.

قال نصر: وكان أيمن بن خزيمة رجلاً عابداً مجتهداً، وقد كان معاوية جعل له فلسطين، على أن يتابعه ويشايعه على قتال علي عليه السلام، فقال أيمن، وبعث إليه:

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي	على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلي إثمي	معاذ الله من سفه وطيش
أأقتل مسلماً في غير جرم	فليس بنافعي ما عشت عيشي !

قال نصر: فلما رضي أهل الشام بعمرو، وأهل العراق بأبي موسى، أخذوا في سطر كتاب المواعدة، وكانت صورته: هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان. فقال معاوية: بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته! وقال عمرو: بل نكتب اسمه واسم أبيه؟ إنما هو أميركم، فأما أميرنا فلا، فلما أعيد إليه الكتاب أمر بمحوه، فقال الأحنف: لا تمح اسم أمير المؤمنين عنك؛ فإني أتخوف إن محوها ألا ترجع إليك أبداً، فلا تمحها. فقال علي عليه السلام:

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

إن هذا اليوم كيوم الحديبية حين كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله لم أقاتلك، ولم أخالفك، إني إذاً لظالم لك إن منعتك أن تطوف ببيت الله الحرام وأنت رسوله، ولكن اكتب: من محمد بن عبد الله، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا علي، إني لرسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، ولن يمحو عني الرسالة كتابي لهم من محمد بن عبد الله، فاكتبها وامح ما أراد محوه، أما إن لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد "

قال نصر: وقد روي أن عمرو بن العاص عاد بالكتاب إلى علي عليه السلام، فطلب منه أن يمحو اسمه من إمرة المؤمنين فقص عليه وعلى من حضر قصة صلح الحديبية، قال: إن ذلك الكتاب أنا كتبت بيننا وبين المشركين، واليوم أكتبه إلى آبائهم، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه إلى آبائهم شبهاً ومثلاً، فقال عمرو: سبحان الله! أتشبهنا بالكفار، ونحن مسلمون! فقال علي عليه السلام: يا بن النابغة، ومتى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً! فقام عمرو وقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم، فقال علي: أما والله لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك. وجاءت عصابة وقد وضعت سيوفها على عواتقها، فقالوا: يا أمير المؤمنين، مرنا بما شئت، فقال لهم سهل بن حنيف: أيها الناس، اتمموا رأيكم، فلقد شهدنا صلح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، ولو نرى قتلاً لقاتلنا. وزاد إبراهيم بن ديزيل: لقد رأيتني يوم أبي جندل - يعني الحديبية - ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته، ثم لم نر في ذلك الصلح إلا خيراً.

قال نصر: وقد روى أبو إسحاق الشيباني، قال: قرأت كتاب الصلح عند سعيد بن أبي بردة في صحيفة صفراء، عليها خاتمان: خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها، على خاتم علي عليه السلام: محمد رسول الله، وعلى خاتم معاوية: محمد رسول الله. وقيل لعلي عليه السلام، حين أراد أن يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام: أقرر أنهم مؤمنون مسلمون! فقال علي عليه السلام: ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون، ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء، ويقر بما شاء لنفسه ولأصحابه، ويسمي نفسه بما شاء وأصحابه، فكتبوا: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي بن أبي طالب على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين، إننا نزل عند حكم الله تعالى وكتابه، ولا يجمع بيننا إلا إياه، وإن كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحى ما أحيا القرآن، ونميت ما أمات القرآن، فإن وجد الحكماء ذلك في كتاب الله اتبعاه، وإن لم يجدها أخذوا بالسنة العادلة غير المفرقة. والحكماء: عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، وقد أخذ الحكماء من علي ومعاوية ومن الجندين أنهما آمان على أنفسهما وأموالهما وأهلهم، والأمة لهما أنصار، وعلى الذي يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعملوا بما يقضيان عليه؛ مما وافق الكتاب والسنة، وإن الأمن والموادة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين؛ إلى أن يقع الحكم، وعلى كل واحد من الحكمين عهد الله، ليحكم بين الأمة بالحق، لا بالهوى. وأجل الموادة سنة كاملة، فإن أحب الحكماء أن يعجلا الحكم عجلاه، وإن توفي أحدهما فلا مير شيعته أن يختار مكانه رجلاً، لا يألو الحق والعدل، وإن

توفي أحد الأميرين كان نصب غيره إلى أصحابه ممن يرضون أمره، ويحمدون طريقته. اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة، وأراد فيها إلحاداً وظلماً.

قال نصر: هذه رواية محمد بن علي بن الحسين والشعبي، وروى جابر عن زيد بن الحسن بن الحسن زيادات على هذه النسخة:

هذا ما تقاضى عليه ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة رسوله؛ قضية علي على أهل العراق ومن كان شيعته من شاهد أو غائب، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب؛ إننا رضينا أن نترل عند حكم القرآن فيما حكم، وأن نقف عند أمره فيما أمر، فإنه لا يجمع بيننا إلا ذلك، وإننا جعلنا كتاب الله سبحانه حكماً بيننا فيما اختلفنا فيه، من فاتحته إلى خاتمته، نحبي ما أحيا القرآن، ونميت ما أماته، على ذلك تقاضينا، وبه تراضينا. وإن علينا وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله ابن قيس ناظراً ومحكماً، ورضي معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظراً ومحكماً، على أنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ليتخذان الكتاب إماماً فيما بعثنا إليه، لا يعدوانه إلى غيره ما وجداه فيه مسطوراً، وما لم يجدها مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجامعة، لا يعتمدان لها خلافاً، ولا يتبعان هوى، ولا يدخلان في شبهة؛ وقد أخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه، وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره؛ وأنهما آمانان في حكمهما على دمائهما وأموالهما وأهلتهما، ما لم يعدوا الحق؛ رضي بذلك راضٍ أو أنكره منكر. وإن الأمة أنصار لهما على ما قضيا به من العدل، فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة فأمر شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجلاً، لا يألون عن أهل المعدلة والإقسط على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وله مثل شرط صاحبه، وإن مات أحد الأميرين قبل القضاء، فلشيعته أن يولوا مكانه رجلاً يرضون عدله. وقد وقعت هذه القضية، ومعها الأمن والتفاوض، ووضع السلاح والسلام والموادعة، وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه ألا يألوا اجتهداً، ولا يتعمدا جوراً، ولا يدخلا في شبهة، ولا يعدوا حكم الكتاب، فإن لم يقبلوا برئت الأمة من حكمهما، ولا عهد لهما ولا ذمة، وقد وجبت القضية على ما قد سمي في هذا الكتاب من مواقع الشروط على الحكمين والأميرين والفريقين، والله أقرب شهيداً، وأدنى حفيظاً. والناس آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل، والسلاح موضوع، والسبل مخلاة، والشاهد والغائب من الفريقين سواء في الأمن، وللحكمين أن يتزلا متزلاً عدلاً بين أهل العراق والشام، لا يحضرهما فيه إلا من أحبا عن ملامتهما وتراضٍ، وإن المسلمين قد أجلوا هذين القاضيين إلى انسلاخ شهر رمضان، فإن رأيا تعجيل الحكومة فيما وجها له عجلها، وإن أرادا تأخيرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فذلك إليهما، وإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين الفريقين، وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب، وهم يد على من أراد فيه إلحاداً وظلماً، أو حاول له نقضاً. وشهد فيه من أصحاب علي عشرة، ومن أصحاب معاوية عشرة؛ وتاريخ كتابته لليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن سعيد، قال: حدثني أبو جناب، عن ربيعة الجرهمي، قال: لما كتبت الصحيفة دعي لها الأشتر،

ليشهد مع الشهود عليه، فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعني بعدها الشمال إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح أو مودة، أو لست على بينة من أمري وبقين من ضلالة عدوي! أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور! فقال له رجل من الناس: والله ما رأيته ظفراً ولا خوراً هلم فأشهد على نفسك، وأقرر بما كتب في هذه الصحيفة، فإنه لا رغبة لك عن الناس. فقال: بلى والله، إن لي لرغبةً عنك في الدنيا للدنيا، وفي الآخرة للآخرة ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت عندي بخير منهم، ولا أحرم دماً.

قال نصر بن مزاحم: الرجل هو الأشعث بن قيس، قال: فكأنما قصع على أنفه الحميم ثم قال: ولكني رضيت بما يرضى به أمير المؤمنين؛ ودخلت فيما دخل فيه، وخرجت مما خرج منه، فإنه لا يدخل إلا في الهدى والصواب.

قال نصر: فحدثنا عمر بن سعد عن أبي جناب الكلبي عن إسماعيل بن شفيع عن سفيان بن سلمة، قال: فلما تم الكتاب وشهدت فيه الشهود، وتراضى الناس خرج الأشعث، ومعه ناس بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس، ويعرضها عليهم، فمر به على صفوف من أهل الشام، وهم على راياتهم، فأسمعهم إياه، فرضوا به، ثم مر به على صفوف من أهل العراق، وهم على راياتهم، فأسمعهم إياه، فرضوا به، حتى مر برايات عترة، وكان مع علي عليه السلام من عترة بصفين أربعة آلاف مخفف، فلما مر بهم الأشعث يقرؤه عليهم، قال فتیان منهم: لا حكم إلا لله، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما، فقاتلا حتى قتلا على باب رواق معاوية - فهما أول من حكم. واسماهما جعد ومعدان - ثم مر بهما على مراد، فقال صالح بن شقيق، وكان من رؤوسهم:

ما لعلني في الدماء قد حكم لو قاتل الأحزاب يوماً ما ظلم

لا حكم إلا لله، وكره المشركون. ثم مر على رايات بني راسب، فقرأها عليهم، فقال رجل منهم: لا حكم إلا لله، لا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله. ثم مر على رايات تميم، فقرأها عليهم، فقال رجل منهم: لا حكم إلا لله، يقضي بالحق وهو خير الفاصلين. فقال رجل منهم لآخر: أما هذا فقد طعن طعنة نافذة. وخرج عروة بن أديّة، أخو مرداس بن أديّة التميمي، فقال: أتحكمون الرجال في أمر الله لا حكم إلا لله! فأين قتالنا يا أشعث! ثم شد بسيفه ليضرب به الأشعث، فأخطأه، وضرب عجز دابته ضربة خفيفة، فصاح به الناس: أن املك يدك، فكف ورجع الأشعث إلى قومه، فمشى الأحنف إليه ومعل بن قيس ومسعر بن فدكي، ورجال من بني تميم، فتنصلوا واعتذروا، فقبل منهم ذلك وانطلق إلى علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إني عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام، وأهل العراق، فقالوا جميعاً: رضينا، حتى مررت برايات بني راسب، ونبذ من الناس سواهم، فقالوا: لا نرضى، لا حكم إلا لله فمِل بأهل العراق وأهل الشام عليهم حتى نقتلهم. فقال علي عليه السلام: هل هي غير راية أو رايتين ونبذ من الناس؟ قال: لا، قل: فدعهم.

قال نصر: فظن علي عليه السلام أنهم قليلون لا يعبأ بهم، فما راعه إلا نداء الناس من كل جهة ومن كل ناحية: لا حكم إلا لله! الحكم لله يا علي لا لك! لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله. إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا عليهم، وقد كنا زلنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين، وقد بان لنا زلنا وخطؤنا فرجعنا

إلى الله وتبنا، فارجع أنت يا علي كما رجعنا، وتب إلى الله كما تبنا، وإلا برئنا منك. فقال علي عليه السلام: ويحكم! أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع! أليس الله تعالى قد قال: "أوفوا بالعقود"، وقال: "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً" ! فأبى علي أن يرجع، وأبت الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه، فبرئت من علي عليه السلام وبرئ علي عليه السلام منهم.

قال نصر: وقام إلى علي عليه السلام محمد بن جريش فقال: يا أمير المؤمنين، أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل! فوالله إني لأخاف أن يورث ذلاً، فقال علي عليه السلام: أبعد أن كتبناه ننقضه! إن هذا لا يحل.

قال نصر: وحدثني عمر بن نمير بن وعلة، عن أبي الوداك، قال: لما تداعى الناس إلى المصاحف، وكتبت صحيفة الصلح والتحكيم، قال علي عليه السلام: إنما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم من الخور والفشل عن الحرب، فجاءت إليه همدان كأنها ركن حصير فيهم سعيد بن قيس وابنه عبد الرحمن؛ غلام له ذؤابة فقال سعيد: هأنذا وقومي، لا نرد أمرك فقل ما شئت نعمله، فقال: أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم، أو تنفرد سالفتي قبل ذلك، ولكن انصرفوا راشدين، فلعمري ما كنت لأعرض قبيلة واحدة للناس.

قال نصر: وروى الشعبي أن علياً عليه السلام، قال يوم صفين حين أقر الناس بالصلح: إن هؤلاء القوم لينبؤوا إلى الحق، ولا ليحببوا إلى كلمة سواءٍ حتى يرموا بالمناسر تتبعها العساكر، وحتى يرحموا بالكتائب تقفوها الجلائب، وحتى يجر ببلادهم الحميس يتلوه الحميس؛ وحتى يدعوا الخيول في نواحي أرضهم، وبأحناء مسارهم، ومسارحهم، وحتى تشن عليهم الغارات من كل فج؛ وحتى يلقاهم قوم صدق صبر، ولا يزيدهم هلاك من هلك من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلا جدّاً في طاعة الله، وحرصاً على لقاء الله؛ ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأخوانا وأعمامنا، لا يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومضياً على أمض الأمل، وجدّاً على جهاد العدو، والاستقلال بمبارزة الأقران، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منا، فلمكا رأنا الله صدقاً صبراً أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، ولعمري لو كنا نأتي مثل الذي أتيتم ما قام الدين ولا عز الإسلام، وإيم الله لتحلبنها دمماً، فاحفظوا ما أقول لكم.

وروى نصر عن عمرو بن شمر، عن فضيل بن خديج، قال: قيل لعلي عليه السلام لما كتبت الصحيفة: إن الأشتر لم يرض بما في الصحيفة، ولا يرى إلا قتال القوم، فقال علي عليه السلام: بلى إن الأشتر ليرضى إذا رضيت، وقد رضيت ورضيتم، ولا يصلح الرجوع بعد الرضا، ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله أو يتعدى ما في كتابه. وأما الذي ذكرت من تركه أمري وما أنا عليه، فليس من أولئك ولا أعرفه على ذلك، وليت فيكم مثله اثنين، بل ليت فيكم مثله واحداً، يرى في عدوي مثل رأيه، إذا لحفت مؤونتكم علي، ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم.

قال نصر: وروى أبو عبد الله زيد الأودي أن رجلاً منهم يقال له عمرو بن أوس، قاتل مع علي عليه السلام يوم صفين، فأسرته معاوية في أسرى كثيرة، فقال له عمرو بن العاص: اقتلهم، فقال له عمرو بن أوس: لا تقتلني يا معاوية، فإنك خالي، فقامت إليه بنو أود فاستوهبوه، فقال: دعوه، فلعمري إن كان صادقاً فيما ادعاه ليستغين عن شفاعتكم، وإلا

فشفاعتكم من ورائه؛ ثم استدناه، فقال: من أين أنا خالك؟ فوالله ما بين عبد شمس وبين أود من مصاهرة! قال: فإن أخبرتك فعرفت فهو أمان عندك؟ قال: نعم، قال: أليست أم حبيبة أختك أم المؤمنين؟ فأنا ابنها وأنت أخوها، فأنت إذاً خالي. فقال معاوية: لله أبوه! أما كان في هؤلاء الأسرى من يفتن إلى هذا غيره! ثم خلى سبيله.

وروى إبراهيم بن الحسين بن علي الكسائي المعروف بابن ديزيل الحمداي؛ في كتاب صفين، قال: حدثنا عبد الله بن عمر، قال: حدثنا عمرو بن محمد، قال: دعا معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص، ليعثه حكماً، فجاء وهو متحزم، عليه ثيابه وسيفه، وحوله أخوه وناس من قريش، فقال له معاوية: يا عمرو؛ إن أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لا يريد، ونحن بك راضون، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، كليل المدينة، وله بعد حظ من دين، فإذا قال فدعه يقل، ثم قل فأوجز، واقطع المفصل، ولا تلقه بكل رأيك، واعلم أن خبء الرأي زيادة في العقل، فإن خوفك بأهل العراق فخوفه بأهل الشام، وإن خوفك بعلي فخوفه بمعاوية، وإن خوفك بمصر فخوفه باليمن، وإن أتاك بالتفصيل فأته بالجمال. فقال عمرو: يا معاوية، أنت وعلي رجل قريش، ولم تنل في حربك ما رجوت، ولم تأمن ما خفت، ذكرت أن لعبد الله ديناً، وصاحب الدين منصور، وإم الله لأفنين عليه عله، ولأستخرجن خبأه، ولكن إذا جاءني بالإيمان والمهجرة ومناقب علي، ما عسيت أن أقول! قال: قل ما ترى، فقال عمرو: وهل تدعني وما أرى! وخرج مغضباً كأنه كره أن يوصى ثقة بنفسه، وقال لأصحابه حين خرج: إنما أراد معاوية أن يصغر أمر أبي موسى، لأنه علم أي خادعه غداً، فأحب أن يقول: إن عمراً لم يخدع أريباً، فقد كدته بالخلاف عليه وقال في ذلك:

كأنني للحوادث مستكين

بحمد الله والله المعين

وقال له على ما كان دين

يشجعني معاوية بن حرب

وإني عن معاوية غني

وهون أمر عبد الله عمداً

مقاتله وللشاكى أنين

وعن جيرانهم رجل مهين !

وغث القول يحمله السمين

وفضل المرء فيهم مستبين

وإن يظفر فقد قطع الوتين

فقلت له ولم أردد عليه

ترى أهل العراق يذب عنهم

فلو جهلوه لم يجهل علي

ولكن خطبه فيهم عظيم

فإن أظفر فلم أظفر بوغد

فلما بلغ معاوية شعره، غضب من ذلك وقال: لولا مسيره لكان لي فيه رأي! فقال عبد الرحمن ابن أم الحكم: أما والله إن أمثاله في قريش لكثير؛ ولكنك ألزمت نفسك الحاجة إليه، فألزمها الغناء عنه، فقال له معاوية: فأجبه عن شعره، فقال عبد الرحمن يعيره بفراره من علي يوم صفين:

أمن طب أصابك ذا الجنون !

ألا يا عمرو عمرو قبيل سهم

دع البغي الذي أصبحت فيه

ألم تهرب بنفسك من علي

حذاراً أن تلاقيك المنايا

ولسنا عائبين عليك إلا

فإن البغي صاحبه لعين

بصفين وأنت بها ضنين

وكل فتى سيدركه المنون

لقولك إنني لا أستكين

قال نصر: ثم إن الناس أقبلوا على قتلاهم فدفنوههم، قال: وقد كان عمر بن الخطاب دعا في خلافته حابس بن سعد الطائي، فقال له: إني أريد أن أوليك قضاء حمص، فكيف أنت صانع؟ قال: أجتهد رأيي وأستشير جلسائي، قال: فانطلق إليها. فلم يمش إلا يسيراً حتى رجع، فقال: يا أمير المؤمنين، إني رأيت رؤيا أحببت أن أقصها عليك، قال: هاتها، قال: رأيت كأن الشمس أقبلت من المشرق، ومعها جمع عظيم، وكأن القمر قد أقبل من المغرب ومعها جمع عظيم، فقال له عمر: مع أيهما كنت؟ قال: كنت مع القمر، قال: كنت مع الآية المحوطة، اذهب فلا والله لا تلي لي عملاً، وردده. فشهد مع معاوية صفين، وكانت راية طيئ معه، فقتل يومئذ، فمر به عدي بن حاتم، ومعها ابنه زيد، فرآه قتيلاً، فقال له: يا أبت هذا والله خالي، قال: نعم، لعن الله خالك! فبئس والله المصراع لمصرعه! فوقف زيد وقال: من قتل هذا الرجل؟ مراراً، فخرج إليه رجل من بكر بن وائل، طوال يخضب، فقال: أنا قتلته، فقال له: كيف صنعت به؟ فجعل يخبره، فطعنه زيد بالرمح فقتله، وذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها؛ فحمل عليه عدي أبوه يسبه ويشتم أمه، ويقول: يابن المائقة، لست على دين محمد إن لم أدفئك إليهم، فضرب زيد فرسه فلحق بمعاوية، فأكرمه وحمله وأدى مجلسه، فرفع عدي يديه فدعا عليه، وقال: اللهم إن زيدا قد فارق المسلمين، ولحق بالملحدين، اللهم فارمه بسهم من سهامك لا يشوي - أو قال لا يخطئ - فإن رميتك لا تنمي، والله لا أكلمه من رأسي كلمة أبداً، ولا يظلمي وإياه سقف أبداً. وقال زيد في قتل البكري:

من مبلغ أبناء طي بآنني

تركت أبا بكر ينوء بصدره

وذكرني ثأري غداة رأيت

لقد غادرت أرماح بكر بن وائل

قتيلاً يظل الحي يثنون بعده

لقد فجعت طي بحلم ونائل

لقد كان خالي ليس خال كمثل

ثارت بخالي ثم لم أتأثم

بصفين مخضوب الجبين من الدم

فأوجرته رمحي فخر على الفم

قتيلاً عن الأهوال ليس بمحجم

عليه بأيدي من نداه وأنعم

وصاحب غارات ونهب مقسم

دفاعاً لضيم واحتمالاً لمغرم

قال نصر: وروى الشعبي، عن زياد بن النضر أن علياً عليه السلام بعث أربعمائة، عليهم شريح بن هانئ الحارثي، ومعهم عبد الله بن عباس يصلي بهم، ويولي أمورهم، ومعهم أبو موسى الأشعري، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة، ثم إنهم خلوا بين الحكمين، فكان رأي عبد الله بن قيس في عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان يقول: والله إن استطعت

قال نصر: وفي حديث محمد بن عبيد الله، عن الجرجاني قال: لما أراد أبو موسى المسير قام إليه شريح بن هانئ، فأخذ بيده، وقال: يا أبا موسى، إنك قد نصبت لأمرٍ عظيمٍ لا يجبر صدعه، ولا تستقال فنتته، ومهما تقل من شيء عليك أو لك، يثبت حقه وتر صحته وإن كان باطلاً، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية، ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم علي، وقد كانت منك تبيطة أيام الكوفة والجل، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً، والرجاء منك يأساً، ثم قال له شريح في ذلك:

أبا موسى رميت بشر خصم	فلا تضع العراق فدتك نفسي
وأعط الحق شامهم وخذه	فإن اليوم في مهل كأمس
وإن غداً يجيء بما عليه	كذاك الدهر من سعد ونحس
ولا يخدعك عمرو إن عمراً	عدو الله مطلع كل شمس
له خدع يحار العقل منها	مموهة مزخرفة بلبس
فلا تجعل معاوية بن حرب	كشيخ في الحوادث غير نكس
هداه الله للإسلام فرداً	سوى عرس النبي، وأي عرس!

فقال أبو موسى: ما ينبغي لقومٍ اهتموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً، أو أجز إليهم حقاً. وروى المدائني في كتاب صفين، قال: لما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى، وأحضروه للتحكيم على كره من علي عليه السلام، أتاه عبد الله بن العباس، وعنده وجوه الناس وأشرافهم، فقال له: يا أبا موسى، إن الناس لم يرضوا بك، ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك، ولكن أهل العراق أبوا إلا أن يكون الحكم يمانياً، ورأوا أن معظم أهل الشام يمان، وإيم الله، إني لأظن ذلك شراً لك ولنا؛ فإنه قد ضم إليك داهية العرب، وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه، وإن يطمع باطله في حقك يدرك حاجتك منك. واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق؛ استعمله عمر وهو الوالي عليه، بمزلة الطبيب يحميه ما يشتهي، ويوجره ما يكره؛ ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر من استعمل ممن لم يدع الخلافة. واعلم أن عمرو مع كل شيء يسرك خبيثاً يسوءك؛ ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بيعة هدى، وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين.

فقال أبو موسى: رحمك الله! والله مالي إمام غير علي، وإني لواقف عند ما رأي، وإن حق الله أحب إلي من رضا معاوية وأهل الشام، وما أنت وأنا إلا بالله.

وروى البلاذري في كتاب أنساب الأشراف، قال: قيل لعبد الله بن عباس: ما منع علياً أن يبعثك مع عمرو يوم التحكيم؟

فقال: فقال: منعه حاجز القدر، ومحنة الابتلاء، وقصر المدة؛ أما والله لو كنت، لقعدت على مدارج أنفاسه، ناقضاً ما أبرم، ومبرماً ما نقض، أظير إذا أسف، وأسف إذا طار، ولكن سبق قدر، وبقي أسف، ومع اليوم غد، والآخرة خير لأمر المؤمنين.

وذكر البلاذري أيضاً، قام عمرو بن العاص بالموسم، فأطرى معاوية وبني أمية، وتناول بني هاشم، وذكر مشاهدته بصفين ويوم أبي موسى، فقام إليه ابن عباس، فقال: يا عمرو، إنك بعت دينك من معاوية، فأعطيته ما في يدك، ومناك في يد غيره، فكان الذي أخذه منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذت منه دون ما أعطيته، وكل راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك، تتبعك بالنقض عليك والتعقب لأمرك، ثم بالعزل لك، حتى لو أن نفسك في يدك لأرسلتها. وذكرت يومك مع أبي موسى، فلا أراك فخرت إلا بالغدر، ولا منيت إلا بالفجور والغش. وذكرت مشاهدك بصفين؛ فوالله ما ثقلت علينا وطأتك، ولا نكأت فينا جرأتك، ولقد كنت فيها طويل اللسان، قصير البنان، آخر الحرب إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت لك يدان: يد لا تقبضها عن شر، ويد لا تبسطها إلى خير، ووجهان: وجه مؤنس، ووجه موحش، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري على ما باع واشترى. أما إن لك بياناً ولكن فيك خطل، وإن لك لرأياً ولكن فيك فشل؛ وإن أصغر عيب فيك لأعظم عيب في غيرك. قال نصر: وكان النجاشي الشاعر صديقاً لأبي موسى، فكتب إليه يحذره من عمرو بن العاص:

لأمل عبد الله عند الحقائق

يومل أهل الشام عمراً وإنني

إذا ما رمى عمراً بإحدى البوائق

وإن أبا موسى سيدرك حقنا

به منه إن لم يرمه بالصواعق

فله ما يرمى العراق وأهله

فكتب إليه أبو موسى: إني لأرجو أن ينجلي هذا الأمر، وأنا فيه على رضا الله سبحانه.

قال نصر: ثم إن شريح بن هانئ جهز أبا موسى جهازاً حسناً، وعظم أمره في الناس ليشرف في قومه، فقال الأعور الشني في ذلك يخاطب شريحاً:

شريح إلى دومة الجندل

زففت ابن قيس زفاف العروس

وما قض من حادث ينزل

وفي زفك الأشعري البلاء

ولا صاحب الخطة الفيصل

وما الأشعري بذى إربة

ولو قيل ها خذه لم يفعل

ولا أخذ حظ أهل العراق

خدائع يأتي بها من علي

يحاول عمراً وعمرو له

وإن يحكما بالهوى الأميل

فإن يحكما بالهدى يتبعا

أكيلى نقيف من الحنظل

يكونا كتيسين في قفرة

فقال شريح: والله لقد تعجلت رجال مساءتنا في أبي موسى، وطعنوا عليه بأسوأ الطعن، وظنوا فيه ما الله عصمه منه، إن شاء الله.

قال: وسار مع عمرو بن العاص شرحبيل بن السمط في خيل عظيمة؛ حتى إذا أمن عليه خيل أهل العراق ودعه، ثم قال له: يا عمرو، إنك رجل قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا لعلمه أنك لا تؤتى من عجز ولا مكيدة، وقد عرفت أي وطأت هذا الأمر لك ولصاحبك؛ فكن عند ظني بك. ثم انصرف وانصرف شريح بن هانئ حين أمن خيل أهل الشام على أبي موسى، وودعه.

وكان آخر من ودع أبا موسى الأحنف بن قيس، أخذ بيده، ثم قال له: يا أبا موسى، اعرف خطب هذا الأمر، واعلم أن له ما بعده، وأنت إن أضعت العراق فلا عراق، اتق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك، وإذا لقيت غداً عمراً فلا تبدأه بالسلام، فإنها وإن كانت سنة إلا أنه ليس من أهلها، ولا تعطه يدك فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة، ولا تلقه إلا وحده. واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ لك فيه الرجال والشهود. ثم أراد أن يثور ما في نفسه لعلي، فقال له: فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي، فليختر أهل العراق من قريش الشام من شاؤوا، أو فليختر أهل الشام من قريش العراق من شاؤوا.

فقال أبو موسى: قد سمعت ما قلت، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علي. فرجع الأحنف إلى علي عليه السلام، فقال له: أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه في أول مخضه، لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعتك. فقال علي: الله غالب على أمره.

قال نصر: وشاع وفشا أمر الأحنف وأبي موسى في الناس، فبعث الصلتان العبدى وهو بالكوفة إلى دومة الجندل بهذه الأبيات:

لعمرك لا ألفى مدى الدهر خالفاً	علياً بقول الأشعري ولا عمرو
فإن يحكما بالحق نقبله منهما	وإلا أثرناهما كراغية البكر
ولسنا نقول الدهر ذاك إليهما	وفي ذاك لو قلنا قاصمة الظهر
ولكن نقول: الأمر والنهي كله	إليه، وفي كفيه عاقبة الأمر
وما اليوم إلا مثل أمس وإننا	لفي وشل الضحضاح أو لجة البحر

قال: فلما سمع الناس قول الصلتان شحذهم ذلك على أبي موسى، واستبطأه القوم وظنوا به الظنون، ومكث الرجلان بدومة الجندل لا يقولان شيئاً. وكان سعد بن أبي وقاص قد اعتزل علياً ومعاوية، ونزل على ماء لبني سليم بأرض البادية، يتشوف الأخبار - وكان رجلاً له بأس ورأي ومكان في قريش، ولم يكن له هوى في علي ولا في معاوية - فأقبل راكب يوضع من بعيد، فإذا هو ابنه عمر، فقال له أبوه: مهيم؟ فقال: التقى الناس بصفين، فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا. ثم حكموا عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص؛ وقد حضر ناس من قريش عندهما، وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل الشورى، ومن قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " اتقوا دعوته "، ولم تدخل في شيء مما تكره الأمة، فاحضر دومة الجندل، فإنك صاحبها غداً. فقال: مهلاً يا عمر، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "

تكون بعدي فتنة، خير الناس فيها التقى الخفي"، وهذا أمر لم أشهد أوله، فلا أشهد آخره، ولو كنت غامساً يدي في هذا الأمر لغمستها مع علي بن أبي طالب؛ وقد رأيت أباك كيف وهب حقه من الشورى، وكره الدخول في الأمر. فارتحل عمر، وقد استبان له أمر أبيه.

قال نصر: وقد كان الأجناد أبطات على معاوية، فبعث إلى رجال من قريش كانوا كرهوا أن يعينوه في حربه: إن الحرب قد وضعت أوزارها، والتقى هذان الرجلان في دومة الجندل، فاقدما علي.

فأتاه عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجهم بن حذيفة العدوي، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهري، وعبد الله بن صفوان الجمحي. وأتاه المغيرة بن شعبة - وكان مقيماً بالطائف لم يشهد الحرب - فقال له: يا مغيرة، ما ترى؟ قال: يا معاوية، لو وسعني أن أنصرك لنصرتك، ولكن علي أن آتيك بأمر الرجلين. فرحل حتى أتى دومة الجندل، فدخل على أبي موسى كالتائر له، فقال: يا أبا موسى، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء؟ قال: أولئك خير الناس، خفت ظهورهم من دمائهم، وخمست بطونهم من أموالهم. ثم أتى عمرًا فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر، وكره الدماء؟ قال: أولئك شرار الناس، لم يعرفوا حقاً، ولم ينكروا باطلاً. فرجع المغيرة إلى معاوية فقال له: قد ذقت الرجلين، أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه، وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر، وهواه في عبد الله بن عمر، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي تعرف، وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه.

قال نصر: في حديث عمرو بن شمر، قال: أقبل أبو موسى على عمر، فقال: يا عمرو، هل لك في أمرٍ هو للأمة صلاح، ولصلحاء الناس رضاً؟ نولي هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب، الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة، ولا هذه الفرقة. قال: وكان عبد الله بن عمرو ابن العاص وعبد الله بن الزبير قرييين يسمعان هذا الكلام، فقال عمرو: فأين أنت يا أبا موسى عن معاوية! فأبى عليه أبو موسى، قال: وشهدهم عبد الله بن هشام، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وأبو الجهم بن حذيفة العدوي والمغيرة بن شعبة، فقال عمرو: ألسنت تعلم أن عثمان قتل مظلوماً؟ قال: بلى، قال: أشهدوا، ثم قال: فما يمنعك من معاوية وهو ولي عثمان، وقد قال الله تعالى: "ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً"؟ ثم إن بيت معاوية من قريش ما قد علمت، فإن خشيت أن يقول الناس: ولي معاوية وليست له سابقة؛ فإن لك حجة، أن تقول: وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم، والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير؛ وهو أخو أم حبيبة أم المؤمنين، وزوج النبي صلى الله عليه وسلم، وقد صحبه، وهو أحد الصحابة. ثم عرض له بالسلطان، فقال له: إن هو ولي الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط مثلها؛ فقال أبو موسى: اتق الله يا عمر! أما ما ذكرت من شرف معاوية، فإن هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله، لو كان على الشرف كان أحق الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصباح؛ إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت أعطيه أفضل قريش شرفاً لأعطيته علي بن أبي طالب. وأما قولك: إن معاوية ولي عثمان فوله هذا الأمر؛ فإني لم أكن أوليه إياه لنسبته من عثمان، وأدع المهاجرين الأولين، وأما تعرضك لي بالإمرة والسلطان؛ فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته، وما كنت أرتشي في الله، ولكنك إن شئت أحيينا سنة عمر بن الخطاب.

قال نصر: وحدثني عمر بن سعد عن أبي جناب أن أبا موسى قال غير مرة: والله إن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب، قال: فقال عمرو بن العاص: إن كنت إنما تريد أن تبائع ابن عمر لدينه، فما يمنعك من ابني عبد الله، وأنت تعرف فضله وصلاحه! فقال: إن ابنك لرجل صدق، ولكنك غمسته في هذه الفتنة.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعيد، عن محمد بن إسحاق، عن نافع، قال: قال أبو موسى لعمرو: يا عمرو، إن شئت ولينا هذا الأمر الطيب ابن الطيب، عبد الله بن عمر، فقال له عمرو: يا أبا موسى، إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجل له ضرر يأكل ويطعم، وإن عبد الله ليس هناك.

قال نصر: وقد كان في أبي موسى غفلة، فقال ابن الزبير لابن عمر: اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه، فقال ابن عمر: لا والله لا أرشو عليها بشيء أبداً ما عشت، ولكنه قال له: إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعدما تقارعت بالسيوف، وتطاعنت بالرماح، فلا تردهم في فتنة؛ واتق الله.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن أزهر العبسي عن النضر بن صالح، قال: كنت مع شريح بن هانئ في غزوة سجستان، فحدثني أن علياً عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص، وقال له: قل لعمرو إذا لقيت: إن علياً يقول لك: إن أفضل الخلق عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه، وإن أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه وإن زاده؛ والله يا عمرو إنك لتعلم أين موضع الحق، فلم تتجاهل؟ أبأن أوتيت طمعاً يسيراً صرت لله ولأوليائه عدواً! فكأن والله ما قد أوتيت قد زال عنك، فلا تكن للخائنين خصيماً، ولا للظالمين ظهيراً. أما إني أعلم أن يومك الذي أنت فيه نادم هو يوم وفاتك، وسوف تتمنى أنك لم تظهر لي عداوة، ولم تأخذ على حكم الله رشوة. قال شريح: فأبلغته ذلك يوم لقيت، فتمعر وجهه وقال: متى كنت قابلاً مشورة علي أو منيباً إلى رأي، أو معتداً بأمره! فقلت: وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبههم مشورته! لقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه، فقال: إن مثلي لا يكلم مثلك، فقلت: بأي أبويك ترغب عن كلامي! بأيك الوشيط أم بأمك النابغة! فقام من مكانه وقمت.

قال نصر: وروى أبو جناب الكلبي أن عمرأ وأبا موسى لما التقيا بدومة الجندل، أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام، ويقول: إنك صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي، وأنت أكبر مني سنأ، فتكلم أنت، ثم أتكلم أنا، فجعل ذلك سنة وعادة بينهما وإنما كان مكرأ وخديعة واغترارأ له أن يقدمه، فبدأ بخلع علي ثم يرى رأيه. وقال ابن ديزيل في كتاب صفين: أعطاه عمرو صدر المجلس، وكان لا يتكلم قبله، وأعطاه التقدم في الصلاة وفي الطعام، لا يأكل حتى يأكل، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجل الأسماء، ويقول له: يا صاحب رسول الله؛ حتى اطمأن إليه، وظن أنه لا يغشه.

وقال نصر: فلما انخفضت الزبدة بينهما، قال له عمرو: أخبرني ما رأيك يا أبا موسى؟ قال: أرى أن أخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، يختارون من شاؤوا، فقال عمرو: الرأي والله ما رأيت. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فتكلم أبو موسى، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به

شأن هذه الأمة، فقال عمرو: صدق، ثم قال له: تقدم يا أبا موسى؛ فتكلم، فقام ليتكلم، فدعاه ابن عباس، فقال له: ويحك! والله إني لأظنه خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمرٍ فقدمه قبلك ليتكلم به ثم تكلم أنت بعده، فإنه رجل غدار، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت به في الناس خالفك - وكان أبو موسى رجلاً مغفلاً - فقال: إيهما عنك إنا قد اتفقتنا! فتقدم أبو موسى، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس؛ إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر شيئاً هو أصلح لأمرها ولا أَلَمَ لشعثها من ألا تتباين أمورها، وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية، وأن يستقبل هذا الأمر، فيكون شورى بين المسلمين، يولون أمورهم من أحبوا، وإني قد خلعت علياً ومعاوية؛ فاستقبلوا أموركم، وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً، ثم تنحى.

فقام عمرو بن العاص في مقامه: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة، فإنه ولي عثمان، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه.

فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت! وإنما مثلك " كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " . فقال له عمرو: إنما مثلك " كمثل الحمار يحمل أسفاراً " .

وحمل شريح بن هانئ على عمرو فقنعه بالسوط، وحمل ابن عمرو على ابن شريح فقنعه بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهما، فكان شريح يقول بعد ذلك: ما ندمت على شيء ندامتي ألا أكون ضربت عمرًا بالسيف بدل السوط، أتى الدهر بما أتى به! والتمس أصحاب علي عليه السلام أبا موسى فركب ناقته، ولحق بمكة. وكان ابن عباس يقول: قبح الله أبا موسى! لقد حذرته وهديته إلى الرأي فما عقل. وكان أبو موسى يقول: لقد حذرتني ابن عباس غدرة الفاسق، ولكني اطمأنت إليه، وظننت أنه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة.

قال نصر: ورجع معاوية إلى منزله من دومة الجندل، فكتب إلى معاوية:

هناً مريباً تقرر العيون	أتتك الخلافة مزفوفة
بأهون من طعنك الدارين	تترف إليك زفاف العروس
ولا خامل الذكر في الأشعرين	وما الأشعري بصلد الزناد
يظل الشجاع لها مستكينا	ولكن أتيت له حية
أجهجه بالخصم حتى يلينا	فقالوا وقلت وكنت امرأ
فقد دافع الله ما تحذرون	فخذها ابن هند على بعدها
عدواً مبيناً وحرباً زبونا	وقد صرف الله عن شامكم

قال نصر: فقام سعد بن قيس الهمداني، وقال: والله لو اجتمعنا على الهدى ما زدنا على ما نحن فيه الآن عليه، وما ضلالكما بلأزم لنا، وما رجعتما إلا بما بدأتما به، وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس.

وقام كردوس بن هانئ مغضباً، فقال:

ألا ليت من يرضى من الناس كلهم	بعمرٍ وعبد الله في لجة البحر

وبالله رباً والنبي وبالذكر

رضينا بذاك الشيخ في العسر واليسر

رضينا بحكم الله لا حكم غيره

وبالأصلع الهادي علي إمامنا

إمام هدى في الحكم والنهي والأمر

لأفضل ما نعطاه في ليلة القدر

وما بيننا غير المتفقة السمر

وهيهات الرضا آخر الدهر!

أسب بها حتى أغيب في القبر

رضينا به حياً وميتاً، وإنه

فمن قال لا، قلنا بلى، إن أمره

وما لابن هند بيعة في رقابنا

وضرب يزيل الهام عن مستقره

أبت لي أشياخ الأراقم سبةً

وتكلم يزيد بن أسد القسري - وهو من قواد معاوية - فقال: يا أهل العراق، اتقوا الله؛ فإن أهون ما تردنا وإياكم إليه الحرب ما كنا عليه بالأمس، وهو الفناء، وقد شخّصت الأبصار إلى الصلح، وأشرفت النفس على الفناء، وأصبح كل امرئ ييكي على قتيل؛ وما لكم بأول أمر صاحبكم وكرهتم آخره! إنه ليس لكم وحدكم الرضا.
قال: وقال بعض الأشعرين لأبي موسى:

قريب القعر مدهوش الجنان

بأمر لا تتوء به اليدان

فصرحت الظنون عن العيان

يرد عليك عضك بالبنان!

أبا موسى خدعت وكنت شيخاً

رمى عمرو صفاتك يابن قيس

وقد كنت نجمم عن ظنون

فعض الكف من ندم وماذا

قال: وشمّت أهل الشام بأهل العراق. وقال كعب بن جعيل شاعر معاوية:

يطوف بلقمان الحكيم يواربه

نمت بابن هند في قريش مناسبه

وأولى عباد الله بالثأر طالبه

وطلحة إذ قامت عليه نوادبه

ومن غالب الأقدار فالله غالبه

نظير وإن جاشت عليه أقاربه

وهذاك ملك القوم قد جب غاربه

ليضرب في بحر عريض مذهبه

إلى أسفل الجب الظنون كواذبه

كأن أبا موسى عشية أدرج

ولما تلاقوا في تراث محمد

سعى بابن عفان ليدرك ثأره

وقد غشيتنا في الزبير غضاضةً

فرد ابن هند ملكه في نصابه

وما لابن هند من لؤي بن غالب

فهذاك ملك الشام واف سنامه

يحاول عبد الله عمراً وإنه

دحا دحوة في صدره فهوت به

قال نصر: وكان علي عليه السلام لما خدع عمرو أبا موسى بالكوفة، كان قد دخلها منتظراً ما يحكم به الحكماء، فلما تم على أبي موسى ما تم من الحيلة، غم ذلك علياً وسائاً، ووجم له، وخطب الناس، فقال: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليل... الخطبة التي ذكرها الرضي رحمه الله تعالى؛ وهي التي نحن في شرحها، وزاد في آخرها بعد الاستشهاد ببيت دريد: ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب، وأحيا ما أمات، واتبع كل واحد منهما هواه، وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية، واختلفا فيما حكما، فكلاهما لم يرشد الله. فاستعدوا للجهاد، وتأهبوا للمسير، وأصبحوا في معسكرهم يوم كذا.

قال نصر: فكان علي عليه السلام بعد الحكومة إذا صلى الغداة والمغرب، وفرغ من الصلاة وسلم، قال اللهم العن معاوية، وعمرأ، وأبا موسى، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد، والضحاك بن قيس، والوليد بن عقبة، فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا صلى لعن علياً، وحسنأ، وحسينأ، وابن عباس، وقيس بن سعد بن عبادة، والأشتر. وزاد ابن ديزيل في أصحاب معاوية أبا الأعور السلمي.

وروى ابن ديزيل أيضاً أن أبا موسى كتب من مكة إلى علي عليه السلام: أما بعد، فإني قد بلغني أنك تلعني في الصلاة ويؤمن خلفك الجاهلون، وإنا أقول كما قال موسى عليه السلام: "رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين". وروى ابن ديزيل، عن وكيع، عن فضل بن مرزوق، عن عطية، عن عبد الرحمن بن حبيب، عن علي عليه السلام، أنه قال: يؤتى بي ومعاوية يوم القيامة، فنجيء ونختصم عند ذي العرش، فأينا فليج أصحابه".

وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن نافع القارئ، عن أبيه، قال: سئل علي عليه السلام عن قتلى صفين، فقال: إنما الحساب علي وعلى معاوية.

وروى أيضاً عن الأعمش، عن موسى بن طريف، عن عباية، قال: سمعت علياً عليه السلام، وهو يقول: أنا قسيم النار، هذا لي وهذا لك.

وروى أيضاً عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان، دعوتهما واحدة، فبينما هم كذلك مرقت منهم مارقة؛ يقتلهم أولى الطائفتين بالحق".

قال إبراهيم بن ديزيل: وحدثنا سعيد بن كثير، عن عفير، قال: حدثنا ابن لهيعة، عن ابن هبيرة، عن حنش الصنعاني، قال: جئت إلى أبي سعيد الخدري، وقد عمي، فقلت: أخبرني عن هذه الخوارج، فقال: تأتوننا فنخبركم، ثم ترفعون ذلك إلى معاوية، فيبعث إلينا بالكلام الشديد! قال: قلت: أنا حنش، فقال: مرحباً بك يا حنش المصري، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "يخرج ناس يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم في نصله، فلا يرى شيئاً، فينظر في قذذه فلا يرى شيئاً، سبق الفرث والدم، يصلى بقتالهم أولى الطائفتين بالله". فقال حنش: فإن علياً صلي بقتالهم، فقال أبو سعيد: وما يمنع علياً أن يكون أولى الطائفتين بالله! وذكر محمد بن

القاسم بن بشار الأنباري في أماليه، قال: قال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: حضرت الحكومة، فلما كان يوم الفصل جاء عبد الله بن عباس، فقعد إلى جانب أبي موسى وقد نشر أذنيه؛ حتى كاد أن ينطق بهما، فعلمت أن الأمر لا يتم لنا ما

دام هناك؛ وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعلمت المكيدة في أمره، فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو وأبو موسى في الكلام، فكلمت ابن عباس كلمة استطعمته جوابها فلم يجب، فكلمته أخرى فلم يجب، فكلمته الثالثة، فقال: إني لفي شغل عن حوارك الآن، فجهته، وقلت: يا بني هاشم، لا تتركون بأوكم وكبركم أبداً! أما والله لولا مكان النبوة لكان لي ولك شأن. قال: فحمي وغضب، واضطرب فكره ورأيه، وأسمعي كلاماً يسوء سماعه، فأعرضت عنه، وقمت فقعدت إلى جانب عمرو بن العاص، فقلت: قد كفيتك التقوالة، إني قد شغلت باله بما دار بيني وبينه، فأحكم أنت أمرك. قال: فذهل والله ابن عباس في الكلام الدائر بين الرجلين، حتى قام أبو موسى، فخلع علياً.

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات، ورواه جميع الناس ممن عني بتقل الآثار والسير، عن الحسن البصري قال: أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة منهن لكانت موبقة: انتراؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه يزيد، سكيراً خميراً، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر"، وقتله حجر بن عدي وأصحابه، فيا ويله من حجر وأصحاب حجر!

وروى في الموفقيات أيضاً الخبر الذي رواه المدائني، وقد ذكرناه آنفاً من كلام ابن عباس لأبي موسى، وقوله: إن الناس لم يرتضوك لفضل عندك لم تشارك فيه... وذكر في آخره: فقال بعض شعراء قریش:

بعد الوصي علي كابن عباس

لو كان فيها أبو موسى من الناس

أرجو رجاء مخوف شيب بالياس

والله ما كلم الأقوام من بشر

أوصى ابن قيس بأمر فيه عصمته

إني أخاف عليه مكر صحابه

وذكر الزبير أيضاً في الموفقيات أن يزيد بن حجية التيمي، شهد الحمل وصفين ونهروان مع علي عليه السلام، ثم ولاه الري ودستى، فسرق أموالهما، ولحق بمعاوية، وهجا علياً وأصحابه، ومدح معاوية وأصحابه، فدعا عليه علي عليه السلام، ورفع أصحابه أيديهم فأمنوا، وكتب إليه رجل من بني عمه كتاباً يقبح إليه ما صنع، وكان الكتاب شعراً، فكتب يزيد بن حجية إليه: لو كنت أقول شعراً لأجبتك، ولكن قد كان منكم خلال ثلاث، لا ترون معهن شيئاً، مما تحبون؛ أما الأولى فإنكم سرتهم إلى أهل الشام؛ حتى إذا دخلتم بلادهم، وطعنتموهم بالرماح، وأذقتموهم ألم الجراح، رفعوا المصاحف فسخرؤا منكم وردوكم عنهم، فوالله ووالله لا دخلتموها بمثل تلك الشوكة والشدة أبداً. والثانية أن القوم بعثوا حكماً، وبعثتم حكماً، فأما حكمهم فأثبتهم، وأما حكمكم فخلعكم، ورجع صاحبهم يدعى أمير المؤمنين، ورجعتم متضاغنين. والثالثة أن قراءكم وفقهاءكم وفرسانكم خالفوكم، فعدوتم عليهم فقتلتموهم. ثم كتب في آخر بيتين لعفان بن شرحبيل التيمي:

وبكيت من أسف على عثمان

أهل اليقين وتابعوا الفرقان

أحببت أهل الشام من بين الملا

أرضاً مقدسة وقوماً منهم

وذكر أبو أحمد العسكري في كتاب الأمالي أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية عام الجماعة ، فلم يسلم عليه بإمرة المؤمنين، فقال له معاوية: لو شئت أن تقول في سلامك غير هذا لقلت، فقال سعد: نحن المؤمنون ولم نؤمرك، كأنك قد بهجت بما؟ أنت فيه يا معاوية! والله ما يسريني ما أنت فيه وأني هزقت المحجمة دم. قال: ولكني وابن عمك علياً يا أبا إسحاق قد هرقنا أكثر من محجمة ومحجتين، هلم فاجلس معي على السرير، فجلس معه، فذكر له معاوية اعتزاله الحرب، يعاتبه، فقال سعد: إنما كان مثلي ومثل الناس كقوم أصابتهم ظلمة، فقال واحد منهم لبيعه إخ، فأناخ حتى أضاء له الطريق فقال معاوية: والله يا أبا إسحاق، ما في كتاب الله إخ، وإنما فيه: " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله " ؛ فوالله ما قاتلت الباغية ولا المبغي عليها. فأفحمه.

وزاد ابن ديزيل في هذا الخبر زيادة ذكرها في كتاب صفين، قال: فقال سعد: أتأمروني أن أقاتل رجلاً قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنت مني بمتلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي "! فقال معاوية: من سمع هذا معك؟ قال: فلان وفلان وأم سلمة، فقال معاوية: لو كنت سمعت هذا لما قاتلته.

في تخويف أهل النهروان

الأصل: فأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، على غير بينة من ربكم، ولا سلطانٍ مبينٍ معكم، قد طوحت بكم الدار واحتبلكم المقدار.

وقد كنت نهيتمكم عن هذه الحكومة؛ فأيتتم علي إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأيي إلى هواكم. وأنتم معاشر أخفاء الهام؛ سفهاء الأحلام، ولم آت - لا أبا لكم - بجراً، ولا أردت بكم ضرراً.

الشرح: الأهضام: جمع هضم؛ وهو المطمئن من الوادي. والغائط: ما سفلى من الأرض. واحتبلكم المقدار: أوقعكم في الحبال.

والبجر: الداهية والأمر العظيم. ويروى: هجرأ. وهو المستقبح من القول. ويروى عراً. والعز: قروح في مشافر الإبل، ويستعار للداهية.

الثواب لقاتلي الخوارج

قد تضافرت الأخبار حتى بلغت حد التواتر بما وعد الله تعالى قاتلي الخوارج من الثواب، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي الصحاح المتفق عليها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا هو يقسم قسماً جاء رجل من بني تميم، يدعى ذا الخويصرة، فقال: اعدل يا محمد، فقال صلى الله عليه وسلم: " قد عدلت "، فقال له ثانية: اعدل يا محمد، فإنك لم تعدل، فقال عليه السلام: " ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل! "، فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ائذن لي أن أضرب عنقه، فقال: دعه، فسيخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئاً، فينظر إلى نضيه فلا يجد شيئاً، ثم ينظر إلى القذذ فكذلك؛ سبق الفرث والدم يخرجون على حين

فرقة من الناس، تحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم، وصومكم عند صومهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. آيتهم رجل أسود - أو قال: أدعج - مخدج اليد، إحدى يديه كأنها ثدي امرأة، أو بضعة تدردر .

وفي بعض الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر، وقد غاب الرجل عن عينه: قم إلى هذا فاقتله، فقام ثم عاد وقال: وجدته يصلي، فقال لعمر مثل ذلك، فعاد وقال: وجدته يصلي، فقال لعلي عليه السلام مثل ذلك، فعاد فقال: لم أجده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو قتل هذا لكان أول فتنة وآخرها، أما إنه سيخرج من ضئضئ هذا قوم... " الحديث.

وفي بعض الصحاح: " يقتلهم أولى الفريقين بالحق ".

وفي مسند أحمد بن حنبل، عن مسروق، قال قالت لي عائشة: إنك من ولدي ومن أحبهم إلي، فهل عندك علم عن المخدج؟ فقلت: نعم، قتله علي بن أبي طالب على نهر يقال لأعلاه تامراً ولأسفله النهروان، بين لخائيق وطرفاء، قالت: ابغني على ذلك بينة، فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك، وقال: فقلت لها: سألتك بصاحب القبر، ما الذي سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؟ فقالت: نعم سمعته يقول: " إنهم شر الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم عند الله وسيلة ".

وفي كتاب صفين للواقدي عن علي عليه السلام: لولا أن تبطروا فتدعوا العمل، لحدثكم بما سبق على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قتل هؤلاء.

وفيه: قال علي عليه السلام: إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأن آخر من السماء أحب إلي من أن اكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا حدثتكم فيما بيننا عن نفسي، فإن الحرب خدعة، وإنما أنا رجل محارب؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، قولهم من خير أقوال أهل البرية، صلاتهم أكثر من صلاتكم، وقراءتهم أكثر من قراءتكم، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم - أو قال: حناجرهم - يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة ".

وفي كتاب صفين أيضاً للمدائني عن مسروق، أن عائشة قالت له لما عرفت أن علياً عليه السلام قتل ذا الندية: لعن الله عمرو بن العاص! فإنه كتب إلي يخبرني أنه قتله بالإسكندرية، ألا إنه ليس بمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: " يقتله خير أمي من بعدي ".

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ أن علياً عليه السلام لما دخل الكوفة دخلها معه كثير من الخوارج، وتخلف منهم بالنخيلة وغيرها خلق كثير لم يدخلوها، فدخل حرقوص بن زهير السعدي، وزرعة بن البرج الطائي - وهما من رؤوس الخوارج - على علي عليه السلام، فقال له حرقوص: تب من خطيئتك، وأخرج بنا إلى معاوية نجاهده، فقال له علي عليه السلام: إني كنت نهيتكم عن الحكومة فأيتتم، ثم الآن تجعلونها ذنباً! أما إنها ليست بمعصية، ولكنها عجز من الرأي، وضعف في التدبير، وقد نهيتكم عنه، فقال زرعة: أما والله لئن لم تتب من تحكيمك الرجال لأقتلنك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه، فقال علي عليه السلام: بؤساً لك ما أشقاك! كأني بك قتيلاً تسفي عليك الرياح! قال زرعة: وددت

أنه كان ذلك.

قال: وخرج علي عليه السلام يخطب الناس فصاحوا به من جوانب المسجد: لا حكم إلا لله، وصاح به رجل منهم واضع إصبعه في أذنيه، فقال: " ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين " ، فقال له علي عليه السلام: " فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون " .

وروى ابن ديزيل في كتاب صفين قال: كانت الخوارج في أول ما انصرفت عن رايات علي عليه السلام تهدد الناس قتلاً، قال: فأتت طائفة منهم على نهر إلى جانب قرية، فخرج منها رجل مذعوراً آخذاً بثيابه، فأدركوه فقالوا له: رعبناك؟ قال: أجل، فقالوا له: قد عرفناك، أنت عبد الله بن حباب، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: نعم، قالوا: فما سمعت من أبيك يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال ابن ديزيل: فحدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن فتنة جائية، القاعد فيها خير من القائم... " الحديث.

وقال غيره: بل حدثهم: " إن طائفة تمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن، صلاحهم أكثر من صلاتكم... " الحديث، فضربوا رأسه، فسال دمه في النهر، ما امذقر - أي ما اختلط بالماء - كأنه شراك، ثم دعوا بجارية له حبلى فبقروا عما في بطنها.

وروى ابن ديزيل، قال: عزم علي عليه السلام على الخروج من الكوفة إلى الحرورية ، وكان في أصحابه منجم فقال له: يا أمير المؤمنين، لا تسر في هذه الساعة، وسر على ثلاث ساعات مضين من النهار، فإنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصحابك أذى وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت، وأصبت ما طلبت. فقال له علي عليه السلام: أتدري ما في بطن فرسي هذه؟ أذكر هو أم أنثى؟ قال: إن حسبت علمت، فقال علي عليه السلام: من صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن، قال الله تعالى: " إن الله عنده علم الساعة ويتزل الغيث ويعلم ما في الأرحام... " الآية، ثم قال عليه السلام: إن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان يدعي علم ما ادعيت علمه، أترعم أنك تهدي إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها، وتصرف عن الساعة التي يحيق السوء بمن سار فيها! فمن صدقك بهذا فقد استغنى عن الاستعانة بالله جل ذكره في صرف المكروه عنه. وينبغي للموقن بأمرك أن يولييك الحمد دون الله جل جلاله، لأنك بزعمك هديته إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها، وصرفته عن الساعة التي يحيق السوء بمن سار فيها؛ فمن آمن بك في هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضداً ونداً. اللهم لا طير إلا طيرك، ولا ضر إلا ضررك، ولا إله غيرك. ثم قال: نخالف ونسير في الساعة التي هيتنا عنها، ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، إياكم والتعلم للنجوم إلا ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجم كالكاهن، والكاهن كالكاfer، والكاfer في النار. أما والله لئن بلغني أنك تعمل بالنجوم لأخلدنك السجن أبداً ما بقيت، ولأحرمنك العطاء ما كان لي من سلطان.

ثم سار في الساعة التي نهاه عنها المنجم، فظفر بأهل النهر وظهر عليهم، ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم لقال الناس: سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر وظهر، أما إنه ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم، ولا لنا من بعده؛ حتى فتح الله لنا بلاد كسرى وقيصر. أيها الناس، توكلوا على الله وثقوا به، فإنه يكفي ممن سواه.

قال: فروى مسلم الضبي عن حبة العري، قال: لما انتهينا إليهم رمونا، فقلنا لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين قد رمونا، فقال لنا: كفوا، ثم رمونا، فقال لنا عليه السلام: كفوا، ثم الثالثة، فقال: الآن طاب القتال، احمّلوا عليهم. وروى أيضاً عن قيس بن سعد بن عبادة أن علياً عليه السلام لما انتهى إليهم، قال لهم: أقيدونا بدم عبد الله بن حباب، فقالوا: كلنا قتله، فقال: احمّلوا عليهم.

وذكر أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل أن أول من قال: لا حكم إلا لله، عروة بن حدير، قالها بصفين، وقيل: زيد بن عاصم المحاري. قال: وكان أميرهم أول ما اعتزلوا ابن الكواء، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسي - وكان أحد الخطباء - فقال لهم عند بيعتهم إياه: إياكم والرأي الفطير، والكلام القضيب، دعوا الرأي يغب، فإن غبوه يكشف للمرء عن قصته، وازدحام الجواب مضلة للصواب، وليس الرأي بالارتجال، ولا الحزم بالافتضاب، فلا تدعونكم السلامة من خطأ موبق، وغنيمة نلتموها من غير صواب إلى معاودته والتماس الربح من جهته. إن الرأي ليس بنهني، ولا هو ما أعطتك البديهة، وإن خمير الرأي خير من فطيره، ورب شيء غابه خير من طريقه، وتأخيرته خير من تقديمه.

وذكر المدائني في كتاب الخوارج قال: لما خرج علي عليه السلام إلى أهل النهر أقبل رجل من أصحابه ممن كان على مقدمتهم يركض؛ حتى انتهى إلى علي عليه السلام، فقال: البشري يا أمير المؤمنين! قال: ما بشراك؟ قال: إن القوم عبروا النهر لما بلغهم وصولك، فأبشر؛ فقد منحك الله أكتافهم، فقال له: الله أنت رأيتمهم قد عبروا! قال: نعم، فأحلفه ثلاث مرات، في كلها يقول: نعم، فقال علي عليه السلام: والله ما عبروه ولن يعبروه؛ وإن مصارعهم لدون النطفة، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لن يبلغوا الأثلاث ولا قصر بوازن، وقد خاب من افترى. قال: ثم أقبل فارس آخر يركض، فقال كقول الأول، فلم يكثرث علي عليه السلام بقوله، وجاءت الفرسان تركض، كلها تقول مثل ذلك؛ فقام علي عليه السلام فجال في متن فرسه. قال: فيقول شاب من الناس: والله لأكونن قريباً منه، فإن كانوا عبروا النهر لأجعلن سنان هذا الرمح في عينه؛ أيدعي علم الغيب! فلما انتهى عليه السلام إلى النهر وجد القوم قد كسروا جفون سيوفهم، وعرقبوا خيلهم، وجثوا على ركبهم، وحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زجل فتزل ذلك الشاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إني كنت شككت فيك آنفاً، وإني تائب إلى الله وإليك، فاغفر لي، فاقبل علي عليه السلام: إن الله هو الذي يغفر الذنوب، فاستغفره.

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في الكامل قال: لما واقفهم علي عليه السلام بالنهروان، قال: لا تبدأوهم بقتال حتى يبدأوكم، فحمل منهم رجل على صف علي عليه السلام، فقتل منهم ثلاثة؛ ثم قال:

ولو بدا أوجرته الخطيا

أقتلهم ولا أرى علياً

فخرج إليه علي عليه السلام فضربه، فقتله، فلما خالطه سيفه، قال: يا حبذا الروحة إلى الجنة! فقال عبد الله بن وهب: والله ما أدري إلى الجنة أم إلى النار! فقال رجل منهم من بني سعد: إنما حضرت اغتراراً بهذا الرجل - يعني عبد الله - وأراه قد شك واعتزل عن الحرب بجماعة من الناس، ومال ألف منهم إلى جهة أبي أيوب الأنصاري؛ وكان على ميمنة

علي عليه السلام، فقال علي عليه السلام لأصحابه: احملوا عليهم؛ فوالله لا يقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة. فحمل عليهم فطحنهم طحنًا، قتل من أصحابه عليه السلام تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية. وذكر العباس - وذكر غيره أيضاً - أن أمير المؤمنين عليه السلام لما وجه إليهم عبد الله بن عباس قال لهم: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟ قالوا له: قد كان للمؤمنين أميراً، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان، فليتبع بعد إقراره بالكفر نعد إليه، قال ابن عباس: ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن يقر على نفسه بالكفر، قالوا: إنه حكم، قال: إن الله أمر بالتحكيم في قتل صيد، فقال: " يحكم به ذوا عدل منكم " ، فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين! فقالوا: إنه حكم عليه فلم يرض، فقال: إن الحكومة كالإمامة، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكماء لما خالفوا نبذت أقاويلهما، فقال بعضهم لبعض: اجعلوا احتجاج قريش حجة عليهم، فإن هذا من الذين قال الله فيهم: " بل هم قوم خصمون " ، وقال جل ثناؤه: " وتندر به قوماً لداً " .

قال أبو العباس: ويقال: إن أول من حكم عروة بن أديّة - وأديّة جدّة له جاهلية - وهو عروة ابن حدير، أحد بني ربيعة بن حنظلة. وقال قوم: أول من حكم رجل من بني محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان، يقال له سعيد. ولم يختلفوا في اجتماعهم على عبد الله بن وهب الراسبي، وأنه امتنع عليهم، وأوماً إلى غيره فلم يقنعوا إلا به، فكان إمام القوم، وكان يوصف برأي. فأما أول سيف سل من سيوف الخوارج فسيف عروة بن أديّة، وذاك أنه أقبل على الأشعث، فقال له: ما هذه الدنيا يا أشعث؟ وما هذا التحكيم؟ أشرط أوثق من شرط الله عز وجل! ثم شهر عليه السيف، والأشعث مول؛ فضرب به عجز بغلته.

قال أبو العباس: وعروة بن حدير هذا من النفر الذين نجوا من حرب النهروان، فلم يزل باقياً مدةً من أيام معاوية، ثم أتى به زياد ومعه مولى له، فسأله عن أبي بكر وعمر فقال خيراً، فقال له: فما تقول في أمير المؤمنين عثمان وفي أبي تراب؟ فتولى عثمان ست سنين من خلافته ثم شهد عليه بالكفر، وفعل في أمر علي عليه السلام مثل ذلك إلى أن حكم ثم شهد عليه بالكفر، ثم سأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً، ثم سأله عن نفسه؛ فقال له: أولك لزنية وآخرك لدعوة، وأنت بعد عاصٍ لربك. فأمر به فضربت عنقه، ثم دعا مولاه فقال له: صف لي أموره، قال: أأطنب أم أختصر؟ قال: بل أختصر، قال: ما أتيته بطعام بنهار قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط!.

قال أبو العباس: وسبب تسميتهم الحرورية أن علياً عليه السلام لما ناظرهم بعد مناظرة ابن عباس إياهم، كان فيما قال لهم: ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم: إن هذه مكيدة ووهن، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لأتوني، وسألوني التحكيم! أفتعلمون أن أحداً كان أكره للتحكيم مني؟ قالوا: صدقت، قال: فهل تعلمون أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أحببتكم إليه، فاشتترط أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله، فمتى خالفاه، فأنا وأنتم من ذلك برآء، وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدوني؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وكان معهم في ذلك الوقت ابن الكواء، قال: وهذا من قبل أن يذبحوا عبد الله بن خباب، وإنما ذبحوه في الفرقة الثانية بكسرك، فقالوا له: حكمت في دين الله برأينا ونحن مقرون بأننا كنا كفرنا، ولكننا الآن تائبون فأقر بمثل ما أقررنا به، وتب ننهض معك إلى الشام، فقال: أما تعلمون أن

الله تعالى قد أمر بالتحكيم في شقاق بين الرجل وامرأته، فقال سبحانه: " فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها "، وفي صيد أصيب كأرنب يساوي نصف درهم، فقال: " يحكم به ذوا عدل منكم " ! فقالوا له: فإن عمراً لما أبي أن تقول في كتابك: هذا ما كتبه عبد الله علي أمير المؤمنين، محوت اسمك من الخلافة، وكتبت: علي بن أبي طالب، فقد خلعت نفسك، فقال: لي في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حين أبي عليه سهيل بن عمرو أن يكتب: هذا كتاب كتبه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمرو، وقال له: لو أقررت بأنك رسول الله ما خالفتك، ولكني أقدمك لفضلك، فاكتب: محمد بن عبد الله، فقال لي: " يا علي امح رسول الله "، فقلت: يا رسول الله، لا تشجعني نفسي على محو اسمك من النبوة، قال: فقضى عليه، فمحاها بيده، ثم قال: " اكتب محمد بن عبد الله "، ثم تبسم إلي وقال: يا علي، أما إنك ستسام مثلها فتعطي، فرجع معه منهم ألفان من حروراء وقد كانوا تجمعوا بها، فقال لهم علي: ما نسبيكم؟ ثم قال: أنتم الحرورية، لاجتماعكم بحروراء.

وروى جميع أهل السير كافة أن علياً عليه السلام لما طحن القوم طلب ذا الثدية طلباً شديداً، وقلب القتلى ظهراً لبطن، فلم يقدر عليه، فساء ذلك، وجعل يقول: والله ما كذبت ولا كذبت، اطلبوا الرجل، وإنه لفي القوم؛ فلم يزل يتطلبه حتى وجده، وهو رجل مخدج اليد، كأها ثدي في صدره.

وروى إبراهيم بن ديزيل في كتاب صفين عن الأعمش، عن زيد بن وهب، قال: لما شجرهم علي عليه السلام بالرماح، قال: اطلبوا ذا الثدية، فطلبوه طلباً شديداً، حتى وجدوه في وهدة من الأرض تحت ناس من القتلى، فأتي به، وإذا رجل على ثديه مثل سبلات السنور، فكبر علي عليه السلام، وكبر الناس معه سروراً بذلك.

وروى أيضاً عن مسلم الضبي عن حبة العري، قال: كان رجلاً أسود منتن الريح، له ثدي كثدي المرأة، إذا مدت كانت بطول الأخرى، وإذا تركت اجتمعت وتقلصت، وصارت كثدي المرأة، عليها شعرات مثل شوارب الهرة، فلما وجدوه قطعوا يده، ونصبوها على رمح. ثم جعل علي عليه السلام ينادي: صدق الله وبلغ رسوله، لم يزل يقول ذلك هو وأصحابه بعد العصر إلى أن غربت الشمس أو كادت.

وروى ابن ديزيل أيضاً، قال: لما عيل صبر علي عليه السلام في طلب المخدج، قال: ائتوني ببغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فركبها واتبعه الناس، فرأى القتلى، ويقول: اقلبوا، فيقلبون قتيلاً عن قتيل، حتى استخرجوه، فسجد علي عليه السلام.

وروى كثير من الناس أنه لما دعا بالبغلة ليركبها، قال: ائتوني بها فإنها هادية، فوقف به على المخدج، فأخرجه من تحت قتلى كثيرين.

وروى العوام بن حوشب عن أبيه، عن جده يزيد بن رويم، قال: قال علي عليه السلام: يقتل اليوم أربعة آلاف من الخوارج، أحدهم ذو الثدية، فلما طحن القوم ورام استخراج ذي الثدية فاتبعه، أمرني أن أقطع له أربعة آلاف قصبة، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: اطرح على كل قتيل منهم قصبة، فلم أزل كذلك وأنا بين يديه، وهو راكب خلفي، والناس يتبعونه حتى بقيت في يدي واحدة، فنظرت إليه وإذا وجهه أربد، وإذا هو يقول: والله ما

كذبت ولا كذبت، فإذا خرير ماء عند موضع دالية، فقال: فتش هذا ففتشته، فإذا قتيل قد صار في الماء، وإذا رجله في يدي، فجذبتها، وقلت: هذه رجل إنسان، فتزل عن البغلة مسرعاً، ف جذب الرجل الأخرى، وجررناه حتى صار على التراب، فإذا هو المخدج، فكبر علي عليه السلام بأعلى صوته، ثم سجد، فكبر الناس كلهم.

وقد وري كثير من المحدثين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوماً: " إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تزييله "، فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله؟ فقال: "لا"، فقال عمر: أنا يا رسول الله؟ فقال: " لا "، بل خاصف النعل ، وأشار إلى علي عليه السلام.

وقال أبو العباس في الكامل: يقال: إن أول من لفظ بالحكومة ولم يشد بها رجل من بني سعد ابن زيد مناة بن تميم بن مرة، من بني صريم، يقال له الحجاج بن عبد الله، ويعرف بالبرك؛ وهو الذي ضرب آخراً معاوية على أليته، يقال: إنه لما سمع بذكر الحكمين، قال: أئحكم أمير المؤمنين الرجال في دين الله! لا حكم إلا الله، فسمعه سامع، فقال: طعن والله فأنفذ.

قال أبو العباس: وأول من حكم بين الصفيين رجل من بين يشكر بن بكر بن وائل، كان من أصحاب علي عليه السلام، فحمل على رجل منهم فقتله غيلة، ثم مرق بين الصفيين يحكم، وحمل على أصحاب معاوية، فكثروه، فرجع إلى ناحية علي عليه السلام، فخرج إليه رجل من همدان فقتله، فقال شاعر همدان:

تصلى بها جمرأ من النار حاميا

وما كان أغنى اليشكري عن التي

خلعت علياً بادئاً ومعاويا

غداة ينادي والرماح تنوشه

قال أبو العباس: وقد روى المحدثون أن رجلاً تلا بحضرة علي عليه السلام: " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " ، فقال علي عليه السلام: أهل حروراء منهم.

قال أبو العباس: ومن شعر أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا اختلاف فيه أنه قاله: - وكان يردده - أنهم لما ساموه أنه يقر بالكفر، ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام، فقال: أبعد صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه في الدين أرجع كافراً! ثم قال:

أني على دين النبي أحمد

يا شاهد الله علي فاشهد

من شك في الله فإني مهتد

وذكر أبو العباس أيضاً في الكامل أن علياً عليه السلام في أول خروج القوم عليه، دعا صعصعة بن صوحان العبدي - وقد كان وجهه إليهم - وزياد بن النضر الحارثي، مع عبد الله بن عباس، فقال لصعصعة: بأي القوم رأيتم أشد إطفاء؟ قال: بيزيد بن قيس الأرحي، فركب علي عليه السلام إلى حروراء، فجعل يتخللهم حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس، فصلى فيه ركعتين، ثم خرج فاتكأ على قوسه، وأقبل على الناس، فقال: هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة. ثم كلمهم وناشدهم، فقالوا: إنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم، وقد تبنا، فتب إلى الله كما تبنا نعد لك، فقال علي عليه السلام: أنا أستغفر الله من كل ذنب، فرجعوا معه وهم ستة آلاف، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً عليه السلام رجع عن

التحكيم، ورآه ضاللاً، وقالوا: إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع وتجي الأموال، ثم ينهض بنا إلى الشام. فأتى الأشعث علياً عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضاللاً والإقامة عليها كفرًا، فقام علي عليه السلام يخطب، فقال: من زعم أنني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضاللاً فقد ضل؛ فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت.

قلت: كل فساد كان في خلافة علي عليه السلام، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث، ولولا محاقته أمير المؤمنين عليه السلام في معنى الحكومة في هذه المرة لم تكن حرب النهروان، ولكان أمير المؤمنين عليه السلام ينهض بهم إلى معاوية، ويعلمك الشام، فإنه صلوات الله عليه حاول أن يسلك معهم مسلك التعريض والمواربة؛ وفي المثل النبوي صلوات الله على قائله: "الحرب خدعة"، وذاك أنهم قالوا له: تب إلى الله مما فعلت، كما تبنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام، فقال لهم بمجمل مرسلة يقولها الأنبياء والمعصومون، وهي قوله: أستغفر الله من كل ذنب، فرضوا بما وعدوها إجابة لهم على سؤالهم، وصفت له عليه السلام نياتهم، واستخلص بها ضمائرهم، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو ذنب، فلم يتركه الأشعث، وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال، وهاتكاً ستر التورية والكناية، ومخرجاً لها من ظلمة الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يفسد التدبير، ويوغر الصدور، ويعيد الفتنة، ولم يستفسره عليه السلام عنها إلا بحضور من لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دخن، ولا ترقيقاً عن صبوح، وألجأه بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما في نفسه، ولا يترك الكلمة على احتمالها، ولا يطويها على غرها، فخطب بما صدع به عن صورة ما عنده مجاهرة، فانتقض ما دبره، وعادت الخوارج إلى شبهتها الأولى، وراجعوا التحكيم والمروق، وهكذا الدول التي تظهر فيها إمارات الانقضاء والزوال، يتاح لها أمثال الأشعث من أولي الفساد في الأرض، "سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً".

قال أبو العباس: ثم مضى القوم إلى النهروان، وقد كانوا أرادوا المضي إلى المدائن، فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافراً؛ إذا كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصري، وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم.

قال أبو العباس: ونحو ذلك أن واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل في رفقة فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إن هذا ليس من شأنكم، فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا على العطب، فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ فقال: قوم مشركون مستحيرون بكم، ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده، قالوا: قد أجرناكم، قال: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي، قالوا: فامضوا مصاحبين، فقد صرتم إخواننا، فقال: بل تبلغونا مأمناً، لأن الله تعالى يقول: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه"، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن.

قال أبو العباس: ولقيهم عبد الله بن خباب في عنقه مصحف، على حمار، ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا له: إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياء القرآن فأحيوه، وما أماته فأميتوه، فوثب رجل منهم على رطبة سقطت من نخلة فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعاً. وعرض لرجل منهم خنزير فقتله، فقالوا: هذا فساد في

الأرض، وأنكروا قتل الخنزير، ثم قالوا لابن حبيب: حدثنا عن أبيك، فقال: إني سمعت أبي يقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، فكن عبد الله المقتول، ولا تكن القاتل "، قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم، وفي عثمان في السنين الست الأخيرة؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إن علياً أعلم بالله وأشد توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة، فقالوا: إنك لست تتبع الهدى، إنما تتبع الرجال على أسمائهم، ثم قربوه إلى شاطئ النهر، فأضجعوه فذبحوه.

قال أبو العباس: وساموا رجلاً نصرانياً بنخلة له، فقال: هي لكم، فقالوا: ما كنا لنأخذها إلا بثمان، فقال: واعجباه! أتقتلون مثل عبد الله بن حبيب، ولا تقبلون جنا نخلة إلا بثمان! وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى، قال: طعن واحد من الخوارج يوم النهروان، فمشى في الرمح، وهو شاهر سيفه، إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله، وهو يقرأ: " وعجلت إليك رب لترضى " .

وروى أبو عبيدة أيضاً، قال: استنطقهم علي عليه السلام بقتل عبد الله بن حبيب، فأقروا به، فقال: انفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة، فتكتبوا كتائب، وأقرت كل كتيبة بمثل ما أقرت به الأخرى؛ من قتل ابن حبيب، وقالوا: ولنقتلنك كما قتلناه، فقال علي: والله لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلهم، ثم التفت إلى أصحابه، فقال لهم: شدوا عليهم، فأنا أول من يشد عليهم. وحمل بذي الفقار حملةً منكراً ثلاث مرات، كل حملة يضرب به حتى يعوج منته، ثم يخرج فيسويه بركبتيه، ثم يحمل به حتى أفناهم.

وروى محمد بن حبيب، قال: خطب علي عليه السلام الخوارج يوم النهر، فقال لهم: نحن أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وعنصر الرحمة، ومعدن العلم والحكمة، نحن أفق الحجاز، بنا يلحق البطيء، وإلينا يرجع التائب، أيها القوم، إني نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأهضام هذا الوادي... إلى آخر الفصل.

ومن كلام له يجري مجرى الخطبة

الأصل: فقامت بالأمر حين فشلوا، وتطلعت حين تقبعوا، ونطقت حين تعتوا، ومضيت بنور الله حين وقفوا. وكنت أخفضهم صوتاً، وأعلاهم فوتاً، فطرت بعنائها، واستبددت برهانها.

كالجبل لا تحركه القواصف، ولا تزيله العواصف؛ لم يكن لأحدٍ في مهمز، ولا لقائلٍ في مغمز؛ الدليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه.

رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا لله أمره. أتراني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم! والله لأنا أول من صدقه، فلا أكون أول من كذب عليه.

فنظرت في أمري، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي؛ وإذا الميثاق في عنقي لغيري.

الشرح: هذه فصول أربعة، لا يمتزج بعضها ببعض، وكل كلام منها ينحو به أمير المؤمنين عليه السلام نحواً غير ما ينحوه

بالآخر، وإنما رضي رحمه الله تعالى التقطها من كلامٍ لأمير المؤمنين عليه السلام طويل منتشر، قاله بعد وقعة النهروان، ذكر فيه حاله منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى آخر وقت، فجعل رضي رحمه الله تعالى ما التقطه منه سرداً، وصار عند السامع كأنه يقصد به مقصد واحداً.

فالفصل الأول وهو من أول الكلام إلى قوله: واستبددت برهانها، يذكر فيه مقاماته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيام أحداث عثمان، وكون المهاجرين كلهم لم ينكروا ولم يواجهوا عثمان بما كان يواجهه به وينهاه عنه، فهذا هو معنى قوله: فقامت بالأمر حين فشلوا، أي قمت بإنكار المنكر حين فشل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عنه. والفشل: الخور والجبن.

قال: ونطقت حين تعتعوا، يقال: تعتع فلان؛ إذا تردد في كلامه من عي أو حصر. قوله: وتطلعت حين تقبعوا، امرأة طلعة قبة، تطلع ثم تقبع رأسها، أي تدخله كما يقبع القنفذ، يدخل برأسه في جلده، وقد تقبع الرجل، أي اختبأ، وضده تطلع.

قوله: وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً، يقول: علوهم وفنهم وشأوهم سبقاً، وأنا مع ذلك خافض الصوت، يشير إلى التواضع ونفي التكبر.

وقوله: فطرت بعنائها واستبددت برهانها، يقول: سبقتهم، وهذا الكلام استعارة من مسابقة خيل الحلبة. واستبددت بالرهان، أي انفردت بالخطر الذي وقع التراهن عليه.

الفصل الثاني فيه ذكر حاله عليه السلام في الخلافة بعد عثمان، يقول: كنت لما وليت الأمر كالجلبل لا تحركه القواصف، يعني الرياح الشديدة، ومثله العواصف.

والمهمز: موضع الهمز، وهو العيب، وكذاك المغمز.

ثم قال: الدليل عندي عزيز حتى أخذ الحق له والوقي عندي ضعيف حتى أخذ الحق منه، وهذا آخر الفصل الثاني، يقول: الدليل المظلوم أقوم بإعرازه ونصره، وأقوي يده إلى أن أخذ الحق له، ثم يعود بعد ذلك إلى الحالة التي كان عليها قبل أن أقوم بإعرازه ونصره، والقوي الظالم أستضعفه وأقهره وأذله إلى أن أخذ الحق منه، ثم يعود إلى الحالة التي كان عليها قبل أن أهتمضمه، لا ستيفاء الحق.

الفصل الثالث: من قوله: رضينا عن الله قضاءه، إلى قوله: فلا أكون أول من كذب عليه، وهذا كلام قال عليه السلام لما تفرس في قوم من عسكره أنهم يتهمونه فيما يخبرهم به عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الملاحم والغائبات، وقد كان شك منهم جماعة في أقواله؛ ومنهم من واجهه بالشك والتهمة.

سلوني قبل أن تفقدوني

الإمام علي عليه السلام وعلم الغيب

روى ابن هلال الثقفي في كتاب الغارات عن زكريا بن يحيى العطار، عن فضيل، عن محمد ابن علي، قال: لما قال علي

عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة، وتهدى مائة إلا أنبأتكم بناعتها وسائقها، قام إليه رجل فقال: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة الشعر، فقال له علي عليه السلام: والله لقد حدثني خليلي أن على كل طاقة شعرٍ من رأسك ملكاً بلعنك، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك؛ وأن في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يجبو - وهو سنان بن أنس النخعي. وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الشمالي، عن سويد بن غفلة أن علياً عليه السلام، خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إني مررت بوادي القرى، فوجدت خالد بن عرفطة قد مات، فاستغفر له، فقال عليه السلام: والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة، ثاحب لوائه حبيب بن حمار. فقام رجل آخر من تحت المنبر، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا حبيب بن حمار، وإني لك شيعه ومحِب، قال: أما والله إنك لحاملها ولتحمّلها، ولتدخلن بها من هذا الباب - وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة.

قال ثابت: فوالله ما مت حتى رأيت ابن زياد، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي عليه السلام، وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته وحبيب بن حمار صاحب رأيته، فدخل بها من باب الفيل.

وروى محمد بن إسماعيل بن عمرو البجلي، قال: أخبرنا عمرو بن موسى الوجيهي، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، قال: قال علي عليه السلام على المنبر: ما أحد جرت عليه المواسي إلا وقد أنزل الله فيه قرآناً؛ فقام إليه رجل من مبغضيه فقال له: فما أنزل الله تعالى فيك؟ فقام الناس إليه يضربونه؛ فقال: دعوه، أتقرأ سورة هود؟ قال: نعم، قال: فقرأ عليه السلام: " أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه " ثم قال: الذي كان على بينة من ربه محمد صلى الله عليه وسلم، والشاهد الذي يتلوه أنا.

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن بكير، عن حكيم بن جبير: قال: خطب علي عليه السلام فقال في أثناء خطبته: " أنا عبد الله، وأخو رسوله، لا يقولها أحد قبلي ولا بعدي إلا كذب، ورثت نبي الرحمة، ونكحت سيدة نساء هذه الأمة، وأنا خاتم الوصيين.

فقال رجل من عبس: ومن لا يحسن أن يقول مثل هذا! فلم يرجع إلى أهله حتى جن وصرع، فسألوه: هل رأيتم به عرضاً قبل هذا؟ قالوا: ما رأينا به قبل هذا عرضاً.

وروى محمد بن جبلة الخياط، عن عكرمة، عن يزيد الأحمسي أن علياً عليه السلام كان جالساً في مسجد الكوفة، وبين يديه قوم منهم عمرو بن حريث، إذ أقبلت امرأة محتمرة لا تعرف، فوقفت فقالت لعلي عليه السلام: يا من قتل الرجال، وسفك الدماء وأيتم الصبيان، وأرمل النساء! فقال عليه السلام: وإنا لهي هذه السلقلقة الجلعة المجعة، وإنا لهي هذه؛ شبيهة الرجال والنساء، التي ما رأيت دماً قط، قال: فولت هاربة منكسة رأسها، فتبعها عمرو بن حريث، فلما صارت بالرحبة، قال لها: والله لقد سررت بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل، فادخلي منزلي حتى اهب لك وأكسوك، فلما دخلت منزله أمر جواريه بتفتيشها وكشفها ونزع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها، فبكت وسألته ألا يكشفها؛ وقالت: أنا والله كما قال، لي ركب النساء، وأنثيان كأننى الرجال، وما رأييت دماً قط، فتركها وأخرجها. ثم جاء إلى علي عليه السلام فأخبره، فقال: إن خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني بالمتمردين علي من الرجال والتمردات من النساء

إلى أن تقوم الساعة.

قلت: السلقلة: السليطة وأصله من السلق وهو الذئب، والسلقة: الذئبة، والجلعة المجعة: البذيئة اللسان. والركب: منبت العانة.

وروى عثمان بن سعيد، عن شريك بن عبد الله، قال: لما بلغ علياً عليه السلام أن الناس يتهمون به فيما يذكره من تقديم النبي صلى الله عليه وسلم وتفضيله إياه على الناس، قال: أنشد الله من بقي من لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع مقالته في يوم غدير خم إلا قام فشهد بما سمع، فقام ستة ممن عن يمينه، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وستة ممن عن شماله من الصحابة أيضاً، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك اليوم، وهو رافع بيدي علي عليه السلام: "من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه".

وروى عثمان بن سعيد عن يحيى التيمي، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، قال: قام أعشى همدان - وهو غلام يومئذ حدث - إلى علي عليه السلام، وهو يخطب ويذكر الملاحم، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة! فقال علي عليه السلام: إن كنت آثماً فيما قلت يا غلام، فرماك الله بغلام ثقيف؛ ثم سكت، فقام رجال فقالوا: ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال: غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك لله حرمة إلا انتهكها، يضرب عنق هذا الغلام بسيفه، فقالوا: كم يملك يا أمير المؤمنين؟ قال: عشرين إن بلغها، قالوا: فيقتل قتلاً أم يموت موتاً، قال: بل يموت حتف أنفه بداء البطن، يثقب سريه لكثرة ما يخرج من جوفه.

قال إسماعيل بن رجاء: فوالله لقد رأيت بعيني أعشى باهلة، وقد أحضر في جملة الأسرى الذين أسروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدي الحجاج، فقرعه ووجّهه. واستنشدته شعره الذي يحرض فيه عبد الرحمن على الحرب، ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس.

وروى محمد بن علي الصواف، عن الحسين بن سفيان، عن أبيه، عن شمير بن سدير الأزدي، قال: قال علي عليه السلام لعمر بن الحمق الخزاعي: أين نزلت يا عمرو؟ قال: في قومي، قال: لا تتزلن فيهم. قال: فأنزل في بني كنانة جيراننا؟ قال: لا، قال: فأنزل في ثقيف، قال: فما تصنع بالمعرة والمجرة؟ قال: وما هما؟ قال: عنقان من نار، يخرجان من ظهر الكوفة، يأتي أحدهما على تميم وبكر بن وائل، فقلما يفلت منه أحد، ويأتي العنق الآخر، فيأخذ على الجانب الآخر من الكوفة، فقل من يصيب منهم، إنما يدخل الدار فيحرق البيت والبيتين. قال: فأين أنزل؟ قال: أنزل في بني عمرو بن عامر، من الأزد - قال: فقال قوم حضروا هذا الكلام: ما نراه إلا كاهناً يتحدث بحديث الكهنة - فقال: يا عمرو، إنك المقتول بعدي، وإن رأسك لمنقول؛ وهو أول رأس ينقل في الإسلام، والويل لقاتلك! أما إنك لا تتزل بقوم إلا أسلموك برمتك، إلا هذا الحي من بني عمر بن عامر بن الأزد، فإنهم لن يسلموك ولن يخذلوك، قال: فوالله ما مضت إلا أيام حتى تنقل عمرو بن الحمق في خلافة معاوية في بعض أحياء العرب، خائفاً مذعوراً، حتى نزل في قومه من بني خزاعة، فأسلموه، فقتل وحمل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام، وهو أول رأس حمل في الإسلام من بلد إلى بلد.

وروى إبراهيم بن ميمون الزدي عن حبة العربي، قال: كان جويرية بن مسهر العبدى صالحاً، وكان لعلي بن أبي طالب صديقاً، وكان علي يحبه، ونظر يوماً إليه وهو يسير، فناده: يا جويرية، الحق بي، فإني إذا رأيتك هويتك، قال إسماعيل بن أبان: فحدثني الصباح، عن مسلم عن حبة العربي، قال: سرنا مع علي عليه السلام يوماً فالتفت فإذا جويرية خلفه بعيداً، فناده: يا جويرية، الحق بي لا أبا لك! ألا تعلم أني أهواك وأحبك! قال: فركض نحوه، فقال له: إني محدثك بأمور فاحفظها، ثم اشتركا في الحديث سراً، فقال له جويرية: يا أمير المؤمنين، إني رجل نسي، فقال له: إني أعيد عليك الحديث لتحفظه، ثم قال له في آخر ما حدثه إياه: يا جويرية، أحبب حبيبنا ما أحبنا، فإذا بغضنا فأبغضه، وأبغض بغضنا ما أبغضنا، فإذا أحبنا فأحبه.

قال: فكان ناس ممن يشك في أمر علي عليه السلام يقولون: أترأه جعل جويرية وصيه كما يدعي هو من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: يقولون ذلك لشدة اختصاصه له، حتى دخل على علي عليه السلام يوماً وهو مضطجع، وعنده قوم من أصحابه، فناده جويرية: أيها النائم، استيقظ، فلتضربن على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك، قال: فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام، قال: وأحدثك يا جويرية بأمر؛ أما والذي نفسي بيده لتعتلن إلى العتل الزنيم، فليقطعن يدك ورجلك وليصلبنك تحت جذع كافر، قال: فوالله ما مضت إلا أيام على ذلك حتى أخذ زياد جويرية، فقطع يده ورجله وصلبه إلى جانب جذع ابن مكعب، وكان جذعاً طويلاً، فصلبه على جذع قصير إلى جانبه.

وروى إبراهيم بن كتاب الغارات عن أحمد بن الحسن الميثمي، قال: كان ميثم التمار مولى علي بن أبي طالب عليه السلام عبداً لامرأة من بني أسد، فاشتره علي عليه السلام منها وأعتقه، وقال له: ما اسمك؟ فقال: سالم، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أن اسمك الذي سماك به أبوك في العجم ميثم، فقال: صدق الله ورسوله، وصدقت يا أمير المؤمنين، فهو والله اسمي، قال: فارجع إلى اسمك، ودع سالماً، فنحن نكنيك به، فكناه أبا سالم. قال: وقد كان قد أطلعه علي عليه السلام على علم كثير، وأسرار خفية من أسرار الوصية، فكان ميثم يحدث ببعض ذلك، فيشك فيه قوم من أهل الكوفة، وينسبون عليه السلام في ذلك إلى المخرفة والإيهام والتدليس، حتى قال له يوماً بمحض من خلق كثير من أصحابه، وفيهم الشاك والمخلص: يا ميثم، إنك تؤخذ بعدي وتصلب، فإذا كان اليوم الثاني ابتدر منخراك وفمك دماً، حتى تخضب لحيتك، فإذا كان اليوم الثالث طعنت بحربة يقضى عليك، فانتظر ذلك. والموضع الذي تصلب فيه على باب دار عمرو بن حريث، إنك لعاشر عشرة أنت أقصرهم خشبة، وأقربهم إلى المطهرة - يعني الأرض - ولأرينك النخلة التي تصلب على جذعها، ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين، وكان ميثم يأتيها، فيصلي عندها، ويقول: بوركت من نخلة لك خلقت، ولي نبت، فلم يزل يتعاهدها بعد قتل علي عليه السلام، حتى قطعت، فكان يرصد جذعها، ويتعاهده ويتردد إليه، ويصره، وكان يلقي عمرو بن حريث، فيقول له: إني مجاورك فأحسن حوارني، فلا يعلم عمرو ما يريد، فيقول له: أتريد أن تشتري دار ابن مسعود، أم دار ابن حكيم! قال: وحج في السنة التي قتل فيها، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها، فقالت له: من أنت! قال: عراقي، فاستنسبته، فذكر لها أنه مولى علي بن أبي طالب، فقالت: أنت هيثم، قال: بل أنا ميثم، فقالت: سبحان الله! والله لربما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بك علياً في جوف الليل، فسألها

عن الحسين بن علي، فقال: هو في حائط له، قال: أخبريه أي قد أحبت السلام عليه، ونحن ملتقون عند رب العالمين، إن شاء الله، ولا أقدر اليوم على لقائه، وأريد الرجوع، فدعت بطيب فطيت لحيته، فقال لها: أما إنما ستخضب بدم، فقالت: من أنباك بهذا؟ قال: أنبأني سيدي، فبكت أم سلمة، وقالت له: إنه ليس بسيدك وحدك؛ هو سيدي وسيد المسلمين، ثم ودعته.

فقدم الكوفة، فأخذ وأدخل على عبيد الله بن زياد. وقيل له: هذا كان من أثر الناس عند أبي تراب، قال: ويحكم! هذا الأعجمي! قالوا: نعم، فقال له عبيد الله: أين ربك؟ قال: بالمرصاد، قال: قد بلغني اختصاص أبي تراب لك، قال: قد كان بعض ذلك، فما تريد؟ قال: وإنه ليقال إنه قد أخبرك بما سيلقاك، قال: نعم، إنه أخبرني، قال: ما الذي أخبرك أي صانع بك؟ قال: أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة وأنا أقصرهم خشبة، وأقريهم إلى المطهرة، قال: لأخالفه، قال: ويحك! كيف تخالفه؟ إنما أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبر رسول الله عن جبرائيل، وأخبر جبرائيل عن الله، فكيف تخالف هؤلاء! أما والله لقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه أين هو من الكوفة! وإني لأول خلق الله أجمع في الإسلام بلجامٍ كما يلجم الخيل. فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيد الثقفي، فقال ميثم للمختار - وهما في حبس ابن زياد: إنك تفلت وتخرج تائراً بدم الحسين عليه السلام، فتقتل هذا الجبار الذي نحن في سجنه، وتطوُّ بقدمك هذه على جبهته وخديه. فلما دعا عبيد الله بن زياد المختار ليقضه طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد، يأمره بتخليه سبيله، وذاك أن أخته كانت تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب، فسألت بعلها أن يشفع فيه إلى يزيد فشفع، فأمضى شفاعته، وكتب بتخليه سبيل المختار على البريد، فوافى البريد وقد أخرج ليضرب عنقه، فأطلق. وأما ميثم فأخرج بعده ليصلب؛ وقال عبيد الله: لأمضين حكم أبي تراب فيه، فلقية رجل، فقال له: ما كان أغناك عن هذا يا ميثم؟ فتبسم، وقال: لها خلقت، ولي غذيت، فلما رفع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث، فقال عمرو: لقد كان يقول لي: إني مجاورك، فكان يأمر جاريته كل عشية أن تكنس تحت خشبته وترشه، وتجر بالجر تحتها، فجعل ميثم يحدث بفضائل بني هاشم، ومخازي بني أمية، وهو مصلوب على الخشبة، فقيل لابن زياد: قد فضحك هذا العبد، فقال: أجموه، فألجم، فكان أول خلق الله أجمع في الإسلام. فلما كان في اليوم الثاني فاضت منخره وفمه دماً، فلما كان اليوم الثالث طعن بحربة فمات.

وكان قتل ميثم قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيام.

قال إبراهيم: وحدثني إبراهيم بن العباس النهدي، حدثني مبارك البجلي، عن أبي بكر بن عياش، قال: حدثني الجاهلي، عن الشعبي، عن زياد بن النضر الحارثي، قال: كنت عند زياد، وقد أتى برشيد المهجري - وكان من خواص أصحاب علي عليه السلام - فقال له زياد: ما قال خليلك لك إنا فاعلون بك؟ قال: تقطعون يدي ورجلي، وتصلبونني، فقال زياد: أما والله لأكذب حديثه؛ خلوا سبيله، فلما أراد أن يخرج قال: ردوه، لا نجد شيئاً أصلح مما قال لك صاحبك، إنك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت؛ اقطعوا يديه ورجليه، وهو يتكلم؛ فقال: اصلبوه خنقاً في عنقه، فقال رشيد: قد بقي لي عندك شيء ما أراكم فعلتموه، فقال زياد: اقطعوا لسانه، فلما أخرجوا لسانه ليقطع قال: نفسوا عني أتكلم كلمة واحدة،

فنفسوا عنه، فقال: هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين، أخبرني بقطع لساني. فقطعوا لسانه وصلبوه.

وروى أبو داود الطيالسي، عن سليمان بن رزيق، عن عبد العزيز بن صهيب، قال: حدثني أبو العالية، قال: حدثني مزرع صاحب علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: ليقبلن جيش حتى إذا كانوا بالبيداء، خسف بهم. قال أبو العالية: فقلت له: إنك لتحديثي بالغيب! فقال: احفظ ما أقوله لك، فإنما حدثني به الثقة علي بن أبي طالب. وحدثني أيضاً شيئاً آخر: ليؤخذن رجل فليقتلن وليصلبن بين شرفتين من شرف المسجد، فقلت له: إنك لتحديثي بالغيب! فقال: احفظ ما أقول لك، قال أبو العالية: فوالله ما أتت علينا جمعة حتى أخذ مزرع، فقتل وصلب بين شرفتين من شرف المسجد.

قلت: حديث الخسف بالجيش قد خرج البخاري ومسلم في الصحيحين، عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يعوذ قوم بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم"، فقلت: يا رسول الله، لعل فيهم المكره أو الكاره، فقال: "يخسف بهم ولكن يحشرون" - أو قال: "يعثون على نياهم يوم القيامة".

قال: فسئل أبو جعفر محمد بن علي: أهى ببداء من الأرض؟ فقال: كلا والله إنما ببداء المدينة. أخرج البخاري بعضه وأخرج مسلمة الباقي.

وروى محمد بن موسى العتري، قال: كان مالك بن ضمرة الرؤاسي من أصحاب علي عليه السلام، ومن استبطن من جهته علماً كثيراً، وكان أيضاً قد صحب أبا ذر، فأخذ من علمه، وكان يقول في أيام بني أمية: اللهم لا تجعلني أشقى الثلاثة، فيقال له: وما الثلاثة؟ فيقول: رجل يرمى من فوق طمار، ورجل تقطع يده ورجلاه ولسانه ويصلب، ورجل يموت على فراشه. فكان من الناس من يهزأ به، ويقول: هذا من أكاذيب أبي تراب.

قال: وكان الذي رمي به من طمار هانئ بن عروة، والذي قطع وصلب رشيد المجري، ومات مالك على فراشه.

الفصل الرابع وهو من قوله: فنظرت في أمري... إلى آخر الكلام، هذه كلمات مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه كان معهوداً إليه لا ينازع في الأمر، ولا يثير فتنة، بل يطلبه بالرفق، فإن حصل له وإلا أمسك.

هكذا كان يقول عليه السلام، وقوله الحق، وتأويل هذه الكلمات: فنظرت فإذا طاعتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أي وجوب طاعتي، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه.

قد سبقت بيعتي للقوم؛ أي وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم علي، وجوب امتثالي أمره سابق على بيعتي للقوم، فلا سبيل لي إلى الامتناع من البيعة، لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني بها.

وإذا الميثاق في عنقي لغيري، أي رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ علي الميثاق بترك الشقاق والمنازعة، فلم يحل لي أن أتعدى أمره، أو أخالف نهي.

فإن قيل: فهذا تصريح بمذهب الإمامية.

قيل: ليس الأمر كذلك، بل هذا تصريح بمذهب أصحابنا من البغداديين، لأنهم يزعمون أنه الأفضل والأحق بالإمامة، وأنه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أن الأصلح للمكلفين من تقديم المفضل عليه، لكان من تقدم عليه هالكاً، فرسول الله صلى

الله عليه وسلم أخبره أن الإمامة حقه. وأنه أولى بها من الناس أجمعين، وأعلمه أن في تقديم غيره وصبره على التأخر عنها مصلحة للدين راجعة إلى المكلفين، وأنه يجب عليه أن يمسك عن طلبها، ويغضي عنها لمن هو دون مرتبته، فامتثل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يخرجته تقدم من تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحق. وقد صرح شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله تعالى بهذا، وصرح به تلامذته، وقالوا: لو نازع عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسل سيفه لحكمنا بهلاك كل من خالفه وتقدم عليه كما حكمنا بهلاك من نازعه حين أظهر نفسه، ولكن مالك الأمر، وصاحب الخلافة؛ إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق من ينازعه فيها، وإذا أمسك عنها وجب علينا القول بعدالة من أغضى له عليها، وحكمه في ذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه قد ثبت عنه في الأخبار الصحيحة أنه قال: "علي مع الحق، والحق مع علي يدور حيثما دار"، وقال له غير مرة: "حربك حربي وسلمك سلمتي"، وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندي، وبه أقول.

ومن خطبة له في معنى الشبهة

الأصل: وإنما سميت الشبهة شبهةً لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضيأؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى. وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال، ودليلهم العمى. فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه.

الشرح: هذان فصلان، أحدهما غير ملتئم مع الآخر، بل مبتور عنه؛ وإنما الرضي رحمه الله تعالى كان يلتقط الكلام التقاطاً، ومراده أن يأتي بفصيح كلامه عليه السلام، وما يجري مجرى الخطابة والكتابة، فلهذا يقع في الفصل الواحد الكلام الذي لا يناسب بعضه بعضاً، وقد قال الرضي ذلك في خطبة الكتاب. أما الفصل الأول فهو الكلام في الشبهة، ولماذا سميت شبهة، قال عليه السلام: لأنها تشبه الحق، وهذا هو محض ما يقوله المتكلمون؛ ولهذا يسمون ما يحتج به أهل الحق دليلاً، ويسمون ما يحتج به أهل الباطل شبهة.

قال: فأما أولياء الله فضيأؤهم في حل الشبهة اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وهذا حق لأن من اعتبر مقدمات الشبهة، وراعى الأمور اليقينية، وطلب المقدمات المعلومة قطعاً، انحلت الشبهة، وظهر له فسادها من أين هو؟ ثم قال: وأما أعداء الله فدعاؤهم الضلال ودليلهم العمى، وهذا حق؛ لأن المبطل ينظر في الشبهة، لا نظر من راعى الأمور اليقينية، ويحلل المقدمات إلى القضايا المعلومة، بل يغلب عليه حب المذهب، وعصبية أسلافه، وإيثار نصره من قد ألزم بنصرته، فذاك هو العمى والضلال، اللذان أشار أمير المؤمنين إليهما، فلا تنحل الشبهة له، وتزداد عقيدته فساداً، وقد ذكرنا في كتبنا الكلامية الكلام في توليد النظر للعلم، وأنه لا يولد الجهل.

الفصل الثاني، قوله: فما ينجو من الموت من خافه ولا يعطى البقاء من أحبه، هذا كلام أجنبي عما تقدم، وهو مأخوذ من قوله تعالى: "قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم"، وقوله: "أينما تكونوا يدرككم الموت"، وقوله: "إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون".

في ذم المتفاعدين عن القتال

الأصل: منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت، لا أبا لكم! ما تنتظرون بنصركم ربكم! أما دين يجمعكم، ولا حمية تحمشمكم! أقوم فيكم مستصرخاً، وأناديكم متغوئاً، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً، حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة، فما يدرك بكم ثأر، ولا يبلغ بكم مرام. دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجر جرتم جرجرة الحمل الأسر، وتناقلتم النضو الأدبر، ثم خرج إلي منكم جنيد متدائب ضعيف؛ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. قال الرضي رحمه الله: متدائب أي مضطرب، من قولهم: تذاءبت الريح، أي اضطرب هبوبها، ومنه سمي الذئب ذئباً لاضطراب مشيته.

الشرح: منيت، أي بليت، وتحمشمكم: تغضبكم، أحمشه أي أغضبه. والمستصرخ: المستنصر. والمتغوئ: القائل: واغوثاه! والجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرته؛ وأكثر ما يكون ذلك عند الإعياء والتعب. والحمل الأسر: الذي بكر كرتة دبيرة. والنضو: البعير المهزول. والأدبر: الذي به دبر؛ وهو المعقور من القتب وغيره. هذا الكلام خطب به أمير المؤمنين عليه السلام في غارة النعمان بن بشير الأنصاري علي عين التمر.

خبر النعمان بن بشير ومالك الأرحبي

مع الإمام علي عليه السلام:

ذكر صاحب الغارات أن النعمان بن بشير قدم هو وأبو هريرة على علي عليه السلام من عند معاوية، بعد أبي مسلم الخولاني، يسألانه أن يدفع قتلة عثمان إلى معاوية ليقيدهم بعثمان؛ لعل الحرب أن تطفأ؛ ويصطلح الناس؛ وإنما أراد معاوية أن يرجع مثل النعمان وأبي هريرة من عند علي عليه السلام إلى الناس، وهم لمعاوية عاذرون ولعلي لائمون، وقد علم معاوية أن علياً لا يدفع قتلة عثمان إليه، فأراد أن يكون هذان يشهدان له عند أهل الشام بذلك، وأن يظهر عذره، فقال لهما: ائتيا علياً فانشده الله وسلاه بالله لما دفع إلينا قتلة عثمان، فإنه قد آواهم ومنعهم، ثم لا حرب بيننا وبينه، فإن أبي فكونوا شهداء الله عليه.

وأقبلا على الناس فأعلماهم ذلك، فاتيا إلى علي عليه السلام، فدخلا عليه، فقال له أبو هريرة: يا أبا حسن، إن الله قد جعل لك في الإسلام فضلاً وشرفاً؛ أنت ابن عم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقد بعثنا إليك ابن عمك معاوية، يسألك أمراً تسكن به هذه الحرب، ويصلح الله تعالى ذات البين، أن تدفع إليه قتلة عثمان ابن عمه، فيقتلهم به، ويجمع الله تعالى أمرك وأمره، ويصلح بينكم، وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة. ثم تكلم النعمان بنحو من ذلك.

فقال لهما: دعا الكلام في هذا، حدثني عنك يا نعمان، أنت أهدي قومك سبيلاً؟ يعني الأنصار، قال: لا، قال: فكل قومك قد اتبعني إلا شذاذاً؛ منهم ثلاثة أو أربعة؛ أف تكون أنت من الشذاذ! فقال النعمان: أصلحك الله! إنما جئت لأكون معك وألزمك، وقد كان معاوية سألني أن أؤدي هذا الكلام، ورجوت أن يكون لي موقف أجمع فيه معك، وطمعت أن

يجري الله تعالى بينكما صلحاً؛ فإذا كان غير ذلك رأيك، فأنا ملازمك وكائن معك.

فأما أبو هريرة فلحق بالشام، وأقام النعمان عند علي عليه السلام، فأخبر أبو هريرة معاوية بالخبر، فأمره أن يعلم الناس، ففعل، وأقام النعمان بعده شهراً، ثم خرج فاراً من علي عليه السلام، حتى إذا مر بعين التمر أخذه مالك بن كعب الأرحي - وكان عامل علي عليه السلام عليها - فأراد حبسه، وقال له: ما مر بك بيننا! قال: إنما أنا رسول بلغت رسالة صاحبي، ثم انصرفت، فحبسه وقال: كما أنت؛ حتى أكتب إلى علي فيك. فناشده، وعظم عليه أن يكتب إلى علي فيه، فأرسل النعمان إلى قرظة بن كعب الأنصاري - وهو كاتب عين التمر يجي خراجها لعلي عليه السلام - فجاءه مسرعاً، فقال لمالك بن كعب: خل سبيل ابن عمي، يرحمك الله! فقال: يا قرظة؛ اتق الله ولا تتكلم في هذا، فإنه لو كان من عباد الأنصار ونساکهم لم يهرب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين.

فلم يزل به يقسم عليه حتى خلى سبيله، وقال له: يا هذا، لك الأمان اليوم والليلة. وغداً، والله إن أدركتك بعدها لأضربن عنقك، فخرج مسرعاً لا يلوي على شيء، وذهبت به راحلته، فلم يدر أين يتسكع من الأرض ثلاثة أيام، لا يعلم أين هو! فكان النعمان يحدث بعد ذلك، يقول: والله ما علمت أين أنا، حتى سمعت قول قاتلة تقول وهي تطحن:

وأخرى مع الشعرى إذ ما استقلت

شربت مع الجوزاء كأساً رويةً

فلما استحلوا قتل عثمان حلت

معتقة كانت قریش تصونها

فعلمت أني عند حي من أصحاب معاوية، وإذا الماء لبني القين، فعلمت أني قد انتهيت إلى الماء.

ثم قدم على معاوية فخبّره بما لقي، ولم يزل معه مصاحباً؛ لم يجاهد علياً، ويتتبع قتلة عثمان؛ حتى غزا الضحّاك بن قيس أرض العراق، ثم انصرف إلى معاوية؛ وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة: أما من رجل أبعث به بجريدة خيل حتى يغير على شاطئ الفرات، فإن الله يرعب بها أهل العراق! فقال له النعمان: فابعثني؛ فإن لي في قتالهم نية وهوى - وكان النعمان عثمانياً - قال: فانتدب على اسم الله، فانتدب وندب معه ألفي رجل، وأوصاه أن يتجنب المدن والجماعات، وألا يغير إلا على مسلحة، وأن يعجل الرجوع.

فأقبل النعمان بن بشير، حتى دنا من عين التمر، وبها مالك بن كعب الأرحي الذي جرى له معه ما جرى، ومع مالك ألف رجل؛ وقد أذن لهم، فرجعوا إلى الكوفة، فلم يبق معه إلا مائة أو نحوها، فكتب مالك إلى علي عليه السلام: أما بعد؛ فإن النعمان بن بشير، قد نزل بي في جمع كثيف، فر رأيك، سددك الله تعالى وثبتك. والسلام. فوصل الكتاب إلى علي عليه السلام، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم، فإن النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام، ليس بالكثير، فاهضوا إلى أخوانكم، لعل الله يقطع بكم من الكافرين طرفاً. ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسل إلى وجوههم وكبرائهم، فأمرهم أن ينهضوا ويحثوا الناس على المسير، فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلاثمائة فارس أو دونها، فقام عليه السلام، فقال ألا إني منيت بمن لا يطيع... الفصل الذي شرحناه إلى

آخره، ثم نزل.

فدخل منزله، فقام عدي بن حاتم، فقال: هذا والله الخذلان؛ على هذا بايعنا أمير المؤمنين! ثم دخل إليه فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن معي من طيئ ألف رجل لا يعصوني؛ فإن شئت أن أن أسير بهم سرت. قال: ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس ولكن اخرج إلى النخيلة فعسكر بهم. وفرض علي عليه السلام لكل رجل سبعمائة، فاجتمع إليه ألف فارس، عدا طيئاً أصحاب عدي بن حاتم.

وورد على علي عليه السلام الخبر بمزيمة النعمان بن بشير ونصرة مالك بن كعب، فقرأ الكتاب؛ على أهل الكوفة، وحمد الله وأثنى عليه، ثم نظر إليهم وقال: هذا بحمد الله وذم أكثركم.

فأما خبر مالك بن كعب مع النعمان بن بشير، قال عبد الله بن حوزة الآزدي قال: كنت مع مالك بن كعب حين نزل بنا النعمان بن بشير، وهو في ألفين؛ وما نحن إلا مائة فقال لنا: قاتلوهم في القرية، واجعلوا الجدر في ظهوركم، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، واعلموا أن الله تعالى ينصر العشرة على المائة، والمائة على الألف، والقليل على الكثير. ثم قال: إن أقرب من ههنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قرظة بن كعب ومخنف بن سليم، فاركض إليهما، فأعلمهما حالنا، وقل لهما: فلينصرانا ما استطاعا، فأقبلت أركض، وقد تركته وأصحابه يرمون أصحاب ابن بشير بالنبل، فمررت بقرظة فاستصرخته، فقال إنما أنا صاحب خراج، وليس عندي من أعينه به. فمضيت إلى مخنف بن سليم، فأخبرته الخبر، فسرحت معي عبد الرحمن بن مخنف في خمسين رجلاً، وقاتل مالك بن كعب النعمان وأصحابه إلى العصر، فأتيناه وقد كسر هو وأصحابه جفون سيوفهم، واستقبلوا الموت، فلو أبطأنا عنهم هلكوا، فما هو إلا أن رأنا أهل الشام، وقد أقبلنا عليهم، فأخذوا ينكصون عنهم ويرتفعون، ورأنا مالك وأصحابه، فشدوا عليهم حتى دفعوهم عن القرية، فاستعرضناهم، فصرعنا منهم رجالاً ثلاثة، وارتفع القوم عنا، وظنوا أن وراءنا مدداً، ولو ظنوا أنه ليس غيرنا لأقبلوا علينا ولأهلكونا، وحال الليل بيننا وبينهم، فانصرفوا إلى أرضهم. وكتب مالك بن كعب إلى علي عليه السلام: أما بعد، فإنه نزل بنا النعمان بن بشير في جمع من أهل الشام، كالظاهر علينا، وكان عظم أصحابي متفرقين، وكنا للذي كان منهم آمين؛ فخرجنا إليهم رجالاً مصلتين، فقاتلناهم حتى المساء، واستصرخنا مخنف بن سليم، فبعث إلينا رجالاً من شيعة أمير المؤمنين وولده، فنعم الفتى ونعم الأنصار كانوا، فحملنا على عدونا وشددنا عليهم فأنزل الله علينا نصره، وهزم عدوه، وأعز جنده. والحمد لله رب العالمين، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وروى محمد بن فرات الحرمي، عن زيد بن علي عليه السلام، قال: قال علي عليه السلام في هذه الخطبة: أيها الناس، إني دعوتكم إلى الحق فتوليتهم، وضربتكم بالدرة فأعيتهموني، أما إنه سيليككم بعدي ولاة لا يرضون عنكم حتى يعذبوكم بالسياط وبالحديد، فأما أنا فلا أعذبكم بهما، إنه من عذب الناس في الدنيا عذبه الله في الآخرة، وآية ذلك أن يأتيكم صاحب اليمن، حتى يحل بين أظهركم، فيأخذ العمال وعمال العمال، رجل يقال له يوسف بن عمرو، ويقوم عند ذلك رجل منها أهل البيت، فانصروه فإنه داع إلى الحق.

قال: وكان الناس يتحدثون أن ذلك الرجل هو زيد عليه السلام.

ومن كلام له عليه السلام للخوارج

لما سمع قولهم: لا حكم إلا لله، قال :

الأصل: كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة. وإنه لا بد للناس من أميرٍ برٍّ أو فاجرٍ، يعمل في إمرته المؤمن، ويتمتع فيه الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقا تل به العدو، وتأمين به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي؛ حتى يستريح بر، ويستراح من فاجرٍ.
وفي رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال: حكم الله أنتظر فيكم.
وقال: أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقى، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي؛ إلى أن تنقطع مدته، وتدركه منيته.

القول بوجوب الإمامة

الشرح: هذا نص صريح منه عليه السلام، بأن الإمامة واجبة، وقد اختلف الناس في هذه المسألة فقال المتكلمون كافة: الإمامة واجبة، إلا ما يحكى عن أبي بكر الأصم من قدماء أصحابنا أنها غير واجبة، إذا تناصفت الأمة؛ ولم تتظالم.
وقال المتأخرون من أصحابنا: إن هذا القول منه غير مخالف لما عليه الأمة، لأنه إذا كان لا يجوز في العادة أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس يحكم بينهم، فقد قال بوجوب الرياسة على كل حال، اللهم إلا أن يقول: إنه يجوز أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس، وهذا بعيد أن يوقله؛ فأما طريق وجوب الأمة ما هي؟ فإن مشايخنا البصريين رحمهم الله يقولون: طريق وجوبها الشرع، وليس في العقل ما يدل على وجوبها.

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى: إن العقل يدل على وجوب الرياسة، وهو قول الإمامية، إلا أن الوجه الذي منه يوجب أصحابنا الرياسة غير الوجه الذي توجب الإمامية منه الرياسة، وذلك أن أصحابنا يوجبون الرياسة على المكلفين، من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية، ودفع مضار دنيوية. والإمامية يوجبون الرياسة على الله تعالى، من حيث كان في الرياسة لطف وبعد للمكلفين عن مواجهة القبائح العقلية.
والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابق ما يقوله أصحابنا، ألا تراه كيف علل قوله: لا بد للناس من أمير، فقال في تعليقه: يجمع الفيء ويقا تل به العدو وتؤمن به السبل ويؤخذ للضعيف من القوي! وهذه كلها من مصالح الدنيا.
فإن قيل: ذكرتم أن الناس كافة قالوا بوجوب الإمام فكيف يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنهم يقولون: لا إمرة!.

قيل: إنهم كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي.

فإن قيل: فسروا لنا ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام.

قيل: إن الألفاظ كلها ترجع إلى إمرة الفاجر.

قال: يعمل فيها المؤمن، أي ليست بممانعة من العمل، لأنه يمكنه أن يصلي ويتصدق؛ وإن كان الأمير فاجراً في نفسه. ثم قال: ويستمتع فيها الكافر، أي يتمتع بمدته، كما قال سبحانه للكافرين: "قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار". ويبلغ الله فيها الأجل، أن إمارة الفاجر كإمارة البر، في أن المدة المضروبة فيها تنتهي إلى الأجل المؤقت للإنسان. ثم قال: ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمين به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، وهذا كله يمكن حصوله في إمارة الفاجر القوي في نفسه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر"، وقد اتفقت المعتزلة على أن أمراء بني أمية كانوا فجاراً عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز يزيد بن الوليد. وكان الفيء يجمع بهم، والبلاد تفتح في أيامهم، والثغور الإسلامية محصنة محوطة، والسبل آمنة، والضعيف منصور على القوي الظالم؛ وما ضر فجورهم شيئاً في هذه الأمور. ثم قال عليه السلام: فتكون هذه الأمور حاصلة إلى أن يستريح بر بموته، أو يستراح من فاجر بموته أو عزله.

فأما الرواية الثانية، فإنه قد جعل التقي يعمل فيها للإمرة البرة خاصة وباقي الكلام غني عن الشرح.

الخوارج عود على بدء

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدث في كتاب صفين، عن عبد الرحمن بن زياد، عن خالد بن حميد المصري، عن عمر مولى غفرة، قال: لما رجع علي عليه السلام من صفين إلى الكوفة، أقام الخوارج حتى جموا، ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حروراء، فنادوا: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون، ألا أن علياً ومعاوية أشركا في حكم الله. فأرسل علي عليه السلام إليهم عبد الله بن عباس، فنظر في أمورهم وكلمهم، ثم رجع إلى علي عليه السلام، فقال له: ما رأيت؟ فقال ابن عباس: والله ما أدري ما هم! فقال له علي عليه السلام: رأيتم منافقين؟ قال: والله ما سيماهم بسيما المنافقين، إن بين أعينهم لأثر السجود، وهم يتأولون القرآن. فقال علي عليه السلام: دعوهم ما لم يسفكوا دماً، أو يغصبوا مالاً، وأرسل إليهم: ما هذا الذي أحدثتم؟ وما تريدون؟ قالوا: نريد أن نخرج نحن وأنت ومن كان معنا بصفين ثلاث ليال، ونتوب إلى الله من أمر الحكمين، ثم نسير إلى معاوية، فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه. فقال علي عليه السلام: فهلا قلتم هذا حين بعثنا الحكمين، وأخذنا منهم العهد، وأعطيناهموه! ألا قلتم هذا حينئذ! قالوا: كنا قد طالت الحرب علينا، واشتد البأس، وكثر الجراح، وخلا الكراع والسلاح، فقال لهم: أفحين اشتد البأس عليكم، عاهدتم، فلما وجدتم الجمام قلتم: ننقض العهد إن رسول الله كان يفي للمشركين، أفأمروني بنقضه! فمكثوا مكائهم لا يزال الواحد منهم يرجع إلى علي عليه السلام، ولا يزال الآخر من عند علي عليه السلام، فدخل واحد منهم على علي عليه السلام بالمسجد، والناس حوله، فصاح: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون، فتلفت الناس، فنادى: لا حكم إلا لله ولو كره المتلفتون، فرفع علي عليه السلام رأسه إليه، فقال: لا حكم إلا والله ولو كره أبو حسن. فقال علي عليه السلام: إن أبا الحسن لا يكره أن يكون الحكم لله، ثم قال: حكم الله أنتظر فيكم، فقال له الناس: هلا ملت يا أمير المؤمنين فأفنيتمهم! فقال: إنهم لا يفنون، إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة. وروى أنس بن عياض المدني، قال: حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، عن أبيه عن جده، أن علياً عليه السلام

كان يوماً يؤم الناس، وهو يجهر بالقراءة، فجهر ابن الكواء من خلفه: " ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين " ، فلما جهر ابن الكواء وهو خلفه بما سكت علي، فلما أنهاها ابن الكواء عاد علي عليه السلام، فأتم قراءته، فلما شرع علي عليه السلام في القراءة أعاد ابن الكواء الجهر بتلك الآية، فسكت علي، فلم يزل كذلك يسكت هذا، ويقرأ ذاك مراراً، حتى قرأ علي عليه السلام: "فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون " ، فسكت ابن الكواء، وعاد عليه السلام إلى قراءته.

ومن خطبة له في الوفاء والصدق

الأصل: إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنةً أوقى منه، وما يغدر من علم كيف المرجع. ولقد أصبحنا في زمانٍ قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم قاتلهم الله! قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عينٍ بعد القدرة عليها، وينتهاز فرصتها من لا حريجة له في الدين.

الشرح: يقال: هذا توأم هذا، وهذه توأمته، وهما توأمان وإنما جعل الوفاء توأم الصدق؛ لأن الوفاء صدق في الحقيقة، ألا ترى أنه قد عاهد على أمرٍ وصدق فيه ولم يخلف؛ وكأنهما أعم وأخص، وكل وفاءٍ صدق وليس كل صدقٍ وفاء، فإن امتنع من حيث الاصطلاح تسمية الوفاء صدقاً فلا أمرٍ آخر، وهو أن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول، ولا يكون الصدق إلا في القول، لأنه نوع من أنواع الخبر، والخبر قول.

ثم قال: ولا أعلم جنة، أي درعاً. أوقى منه: أي أشد وقاية وحفظاً، لأن الوفي محفوظ من الله، مشكور بين الناس.

ثم قال: وما يغدر من علم كيف المرجع، أي من علم الآخرة وطوى عليها عقيدته، منعه ذلك، أن يغدر، لأن الغدر يحبط الإيمان.

ثم ذكر أن الناس في هذا الزمان ينسبون أصحاب الغدر إلى الكيس، وهو الفطنة والذكاء، فيقولون لمن يخدع ويغدر، ولأرباب الجريرة والمكر: هؤلاء أذكىء أكياس، كما كانوا يقولون في عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وينسبون أرباب ذلك إلى حسن الحيلة وصحة التدبير.

ثم قال: ما لهم قاتلهم الله! دعاء عليهم.

ثم قال: قد يرى الحول القلب وجه الحيلة، ويمنعه عنها نهي الله تعالى عنها، وتحريمه بعد أن قدر عليها، وأمكنه. والحول القلب: الذي قد تحول وتقلب في الأمور وجرب، وحنكته الخطوب والحوادث.

ثم قال: وينتهاز فرصتها، أي يبادر إلى افتراضها ويغتمها. من لا حريجة له في الدين، أي ليس بذي حرج، والتحرج التأثم والحريجة: التقوى؛ وهذه كانت سجيته عليه السلام وشيمته، ملك أهل الشام الماء عليه، والشرية بصفين، وأرادوا قتله وقتل أهل العراق عطشاً، فضاربهم على الشريعة حتى ملكها عليهم، وطردهم عنها، فقال له أهل العراق: اقتلهم بسيف العطش، وامنعهم الماء، وخذهم قبضاً بالأيدي، فقال: إن في حد السيف لغنى عن ذلك، وإني لا أستحل منعهم الماء.

فأفرج لهم عن الماء فورده، ثم قاسمهم الشريعة شطرين بينهم وبينه. وكان الأشتر يستأذنه أن يبيت معاوية، فيقول: إن

رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي أن يبيت المشركون، وتوارث بنوه عليه السلام هذا الخلق الأبي .
أراد المضاء أن يبيت عيسى بن موسى فمنعه إبراهيم بن عبد الله .

وأرسل لما ظهر بالبصرة إلى محمد بن قحطبة مولى باهلة وكان قد ولي لأبي جعفر المنصور بعض أعمال بفارس، فقال له:
هل عندك مال! قال: لا، قال: آله؟ قال: آله. قال: خلوا سبيله، فخرج ابن قحطبة، وهو يقول بالفارسية: ليس هذا من
رجال أبي جعفر، وقال لعبد الحميد بن لاحق: بلغني أن عندك مالاً للظلمة، يعني آل أبي أيوب المورياني كاتب المنصور،
فقال: ما لهم عند مال، قال: تقسم بالله! قال: نعم، فقال: إن ظهر لهم عندك مال لأعدنك كذاباً.
وأرسل إلى طلحة الغدري - وكان المنصور عنده مال - : بلغنا أن عندك مالاً فأتنا به، فقال: أجل، إن عندي مالاً، فإن
أخذته مني أغرمني أبو جعفر، فأضرب عنه.
وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبي طالب من هذا النوع أخبار كثيرة، وكان القوم أصحاب دين ليسوا من الدنيا
بسبيل، وإنما كانوا يطلبونها فيقيموا عمود الدين بالإمرة فيها. فلم يستقم لهم، والدنيا إلى أهلها أميل.

مدح الوفاء وذم الغدر

ومن الأخبار النبوية المرفوعة في ذم الغدر: " ذمة المسلمين واحدة، فإن جارت عليهم أمة منهم، فلا تخفروا جوارها، فإن
لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة ".
وروى أبو هريرة، قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يبيع طعاماً فسأله: كيف تبيع؟ فأخبره، فأمر أبا هريرة
أن يدخل فيه يده، فأدخلها فإذا هو مبلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس منا من غش ".
قال بعض الملوك لرسولٍ ورد إليه من ملك آخر: أطلعني على سر صاحبك، فقال: أيها الملك، إنا لا نستحسن الغدر،
وإنه لو حول ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عوض من قبحه، ولكان سماحة اسمه وبشاعة ذكره ناهيين عنه.
مالك بن دينار: كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة.

وقع جعفر بن يحيى على ظهر كتاب كتبه علي بن عيسى بن ماهان إلى الرشيد، يسعى فيه بالبرامكة، فدفعه الرشيد إلى
جعفر، يمن به عليه، وقال: أحبه عنه، فكتب في ظاهره: حب الله إليك الوفاء يا أخي فقد أبغضته، وبغض إليك الغدر
فقد أحببته، إني نظرت إلى الأشياء حتى أجد لك فيها مشبهاً فلم أجد، فرجعت إليك، فشبهتك بك، ولقد بلغ من حسن
ظنك بالأيام أن أملت السلامة مع البغي، وليس هذا من عادتها. والسلام.

كان العهد في عيسى بن موسى بن محمد بعد المنصور بكتاب كتبه السفاح، فلما طالت أيام المنصور ، سامه أن يخلع
نفسه من العهد، ويقدم محمداً المهدي عليه، فكتب إليه عيسى:

أرى ما بدا منها سيمطركم دما

بدت لي أمارات من الغدر شمتها

وإن سار في ريح الغرور مسلما

وما يعلم العالي متى هبطاته

أبو هريرة يرفعه: " اللهم إني أعوذ بك من الجوع فبئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فبئس البطانة! ".
وعنه مرفوعاً: " المكر والخديعة والخيانة في النار ".

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب، عند زوال أمره: أرى أن تصير إلى هؤلاء، فلعلك أن تنفعني في مخلفي، فقال:
وكيف لي بعلم الناس جميعاً أن هذا عن رأيك! إنهم ليقولون كلهم: إني غدرت بك، ثم أنشد:

لمبصره وعذري بالمغيب

وعذري ظاهر لا شك فيه

فلما ظفر به عبد الله بن علي، قطع يديه ورجليه، ثم ضرب عنقه.

كان يقال: لا يغدر غادر إلا لصغر همته عن الوفاء، واتضاع قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم.

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: الوفاء لأهل الغدر غدر، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله تعالى.

قلت: هذا إنما يريد به إذا كان بينهما عهد ومشارطة، فغدر أحد الفريقين، وخاس بشرطه، فإن للآخر أن يغدر بشرطه
أيضاً ولا يفي به، ومن شعر الحماسة، واسم الشاعر العارق الطائي :

إذا استحقبتها العيس جاءت من البعد

من مبلغ عمرو بن هند رسالة

تبين رويداً ما أمامه من هند

أيو عدني والرمل بيني وبينه

قنابل خيل من كميت ومن ورد

ومن أجأ حولي كأنها

إليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

غدرت بأمر كنت أنت اجتريتنا

قال أبو بكر الصديق: ثلاثة من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر، قال سبحانه: " يا أيها الناس إنما بغيتكم على
أنفسكم "، وقال: " فمن نكث فإنما ينكث على نفسه " ، وقال: " ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله " .

في اتباع الهوى وطول المل

الأصل: أيها الناس، إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى وطول الأمل؛ فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما
طول الأمل فينسي الآخرة.

ألا وإن الدنيا قد ولت حذاء، فلم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء، اصطبها صابها. ألا وإن الآخرة قد أقبلت؛ ولكل
منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة، وإن اليوم عمل
ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

قال رضي رحمه الله: أقول: الحذاء، السريعة. ومن الناس من يرويه: حذاء بالجيم والذال، أي انقطع درها وخيرها.

الشرح: الصباية؛ بقية الماء في الإناء. واصلطبها صابها، مثل قولك: أبقاها مبقيةا أو تركها تاركها، ونحو ذلك، يقول:

أخوف ما أخافه عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق؛ وهذا صحيح لا ريب فيه، لأن الهوى

يعمي البصيرة، وقد قيل: حبك الشيء يعمي ويصم، ولهذا قال بعض الصالحين: رحم الله امرأً أهدى إلى عيوي؛ وذاك لأن الإنسان يحب نفسه، ومن أحب شيئاً عمي عن عيوبه، فلا يكاد الإنسان يلمح عيب نفسه، وقد قيل:

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ويعمي عن العيب الذي هو فيه

فلهذا استعان الصالحون على معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم، علماً منهم أن هوى النفس لذاتها يعميها عن أن تدرك عيوبها، وما زال الهوى مردياً قتالاً، ولهذا قال سبحانه: " ونهى النفس عن الهوى " ، وقال صلى الله عليه وسلم: " ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه " .

وأنت إذا تأملت هلاك من هلك من المتكلمين كالمجبرة والمرجئة ، مع ذكائهم وفطنتهم واشتغالهم بالعلوم، عرفت أنه لا سبب لهلاكهم إلا هوى الأنفس، وحبهم الانتصار للمذهب الذي قد ألفوه، وقد رأسوا بطريقه، وصارت لهم الأتباع والتلامذة، وأقبلت الدنيا عليهم، وعدهم السلاطين علماء ورؤساء، فيكروهون نقض ذلك كله وإبطاله، ويجنون الانتصار لتلك المذاهب والآراء التي نشأوا عليها، وعرفوا بها، ووصلوا إلى ما وصلوا إليه بطريقها، ويخافون عار الانتقال عن المذهب، وأن يشتفي بهم الخصوم ويقرعهم الأعداء، ومن أنصف علم أن الذي ذكرناه. وأما طول الأمل فينسي الآخرة، وهذا حق، لأن الذهن إذا انصرف إلى الأمل، ومد الإنسان في مداه، فإنه لا يذكر الآخرة، بل يصير مستغرق الوقت بأحوال الدنيا، وما يرجو حصوله منها في مستقبل الزمان.

ومن كلام مسعر بن كدام : كم من مستقبل يوماً ليس يستكمل، ومنتظر غداً ليس من أجله! ولو رأيتم الأجل ومسيره أبغضتم الأمل وغروره.

وكان يقال: تسويف الأمل غرار، وتسويل المحال ضرار، ومن الشعر المنسوب إلى علي عليه السلام:

غر جهولاً أمله يموت من جا أجله

ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله

وما بقاء آخر قد غاب عنه أوله

والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله

وقال أبو العتاهية:

لا تأمن الموت في لحظ ولا نفس ولو تمنعت بالحجاب والحرس

واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منا ومترس

ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوب لبسك مغسول من الدنس!

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

ومن الحديث المرفوع: " يا أيها الناس إن الأعمال تطوى، والأعمار تفتن، والآبدان تبلى في الثرى، وإن الليل والنهار يتراكم تراكض الفرقدين، يقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد؛ وفي ذلك ما ألهى عن الأمل، وأذكرك بحلول الأجل "

وقال بعض الصالحين: بقاؤك إلى فناء، وفناؤك إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى.
وقال بعضهم: اغتنم تنفس الأجل، وإمكان العمل، واقطع ذكر المعاذير والعلل، ودع تسويف الأماني والأمل، فإنك في نفسٍ معدود، وعمرٍ محدود، ليس بمعدود.
وقال بعضهم: أعمل عمل المرتحل، فإن حادي الموت يحدوك ليوم لا يعدوك.

ثم قال عليه السلام: إلا الدنيا قد أدبرت حذاء، بالحاء والذال المعجمة، وهي السريعة، وقطاة حذاء: خف ريش ذنبها، ورجل أحد، أي خفيف اليد، وقد روي، قد أدبرت جذاء بالجيم؛ أي انقطع خيرها ودرها.
ثم قال: إن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة، فكونوا من أبناء الآخرة لتلحقوا بها وتفوزوا، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فتلحقوا بها وتخسروا.
ثم قال: اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، وهذا من باب المقابلة في علم البيان.

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام

بعد إرساله إلى معاوية بجريير بن عبد الله البجلي :

الأصل: إن استعدادي لحرب أهل الشام وجريير عندهم إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير إن أرادوه، ولكن قد وقت لجريير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً، والرأي مع الأناة فأرودوا، ولا أكره لكم الإعداد.
ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر فيه إلا القتال أو الكفر. بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله.

إنه قد كان على الأمة والحدث أحداثاً، وأوجد الناس مقالاً فقالوا، ثم نقموا فغيروا.
الشرح: أرودوا، أي ارفقوا، أرود في السير إرواداً، أي سار برفق، والأناة: التثبت والتأني. ونهيه لهم عن الاستعداد، وقوله بعد: ولا أكره لكم الإعداد، غير متناقض، لأنه كره منهم إظهار الاستعداد والجهز به، ولم يكره الإعداد في السر، وعلى وجه الخفاء والكتمان، ويمكن أن يقال إنه كره استعداد نفسه، ولم يكره إعداد أصحابه؛ وهذان متغايران. وهذا الوجه اختاره القطب الراوندي.

ولقائل أن يقول: التعليل الذي علل به عليه السلام يقتضي كراهية الأمرين معاً، وهو أن يتصل بأهل الشام الاستعداد فيرجعوا عن السلم إلى الحرب؛ بل ينبغي أن تكون كراهته لإعداد جيشه وعسكره خيولهم وآلات حربهم أولى، لأن شياع ذلك أعظم، من شياع استعداده وحده، لأنه وحده يمكن أن يكتم استعداد، وأما استعداد العساكر العظيمة فلا يمكن أن يكتم، فيكون اتصاله وانتقاله إلى أهل الشام أسرع، فيكون إغلاق الشام عن باب خيرٍ إن أرادوه أقرب، والوجه في الجمع بين اللفظتين ما قدمناه.

وأما قوله عليه السلام: ضربت أنف هذا الأمر وعينه، فمثل تقوله العرب إذا أرادت الاستقصاء في البحث والتأمل والفكر، وإنما خص الأنف والعين، لأنهما صورة الوجه، والذي يتأمل من الإنسان إنما هو وجهه.

وأما قوله: ليس إلا القتال أو الكفر، فلأن النهي عن المنكر واجب على الإمام، ولا يجوز له الإقرار عليه، فإن تركه فسق، ووجب عزله عن الإمامة.

وقوله: أو الكفر، من باب المبالغة؛ وإنما هو القتال أو الفسق، فسمى الفسق كفراً تغليظاً وتشديداً في الزجر عنه. وقوله عليه السلام: أوجد الناس مقالاً، أي جعلهم واجدين له.

وقال الراوندي: أوجد ههنا بمعنى أغضب. وهو غير صحيح، لأنه لا شيء ينصب به مقالاً إذا كان بمعنى أغضب. والوالي المشار إليه عثمان.

ماذا قال قاضي القضاة

يجب أن نذكر ههنا أحداثه، وما يقوله أصحابنا في تأويلاتها، وما تكلم به المرتضى في كتاب الشافي في هذا المعنى، فنقول: إن قاضي القضاة رحمه الله تعالى، قال في المغني قبل الكلام في تفصيل هذه الأحداث كلاماً مجملاً، معناه أن كل من ثبت عدالته ووجب توليه إما على القطع وإما على الظاهر فغير جائز أن يعدل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقن يقتضي العدول عنها، يبين ذلك أن من شاهدناه على ما يوجب الظاهر توليه وتعظيمه يجب أن يبقى فيه على هذه الطريقة، وإن غاب عنا. وقد عرفنا أنه مع الغيبة يجوز أن يكون مستمراً على حالته، ويجوز أن يكون منتقلاً، ولم يقدح هذا التجويز في وجوب ما ذكرناه.

ثم قال: فالحدث الذي يوجب الانتقال عن التعظيم والتولي إذا كان من باب محتمل لم يجز الانتقال لأجله. والأحوال المتقررة في النفوس بالعوادات والأحوال فيمن نتولاه أقوى من باب الإمارة من الأمور المتجددة، فإن مثل فرقد السبخي، ومالك بن دينار لو شاهدا في دارٍ فيها منكر لقوي في الظن حضورهما للتغير والإنكار، أو على وجه الإكراه أو الغلط، ولو كان الحاضر هناك من علم من حاله الاختلاط بالمنكر لجوز حضوره للفساد؛ بل كان ذلك هو الظاهر من حاله.

ثم قال: واعلم أن الكلام فيما يدعى من الحدث والتغير فيمن ثبت توليه؛ قد يكون من وجهين:

أحدهما: هل علم بذلك أم لا؟ والثاني: أنه مع يقين حصوله: هل هو حدث يؤثر في العدالة أم لا؟.

ولا فرق بين تجويز ألا يكون حدث أصلاً، وبين أن يعلم حدوثه ويجوز ألا يكون حدثاً.

ثم قال: كل محتمل لو أخبر الفاعل أنه فعله على أحد الوجهين، وكان يغلب على الظن صدقه لوجب تصديقه، فإذا عرف من حاله المتقررة في النفوس ما يطابق ذلك جرى مجرى الإقرار، بل ربما كان أقوى، ومتى لم نسلك هذه الطريقة في الأمور المشتبهة لم يصح في أكثر من نتولاه ونعظمه أن تسلم حاله عندنا، فإننا لو رأينا من يظن به الخير يكلم امرأة حسناء في الطريق لكان ذلك من باب المحتمل، فإذا كان لو أخبر أنها أخته أو امرأته لوجب ألا نحول عن توليه، فكذلك إذا كان قد تقدم في النفوس ستره وصلاحه؛ فالواجب أن نحمله على هذا الوجه.

ثم قال: وقول الإمام له مزية في هذا الباب، لأنه أكد من غيره، وأما ما ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه وإن لم يكن مقطوعاً به يؤثر في هذا الباب، ويكون أقوى مما تقدم.

ثم قال: وقد طعن الطاعنون فيه بأمور متنوعة مختلفة؛ ونحن نقدم على تلك المطاعن كلاماً مجملاً، يبين بطلانها على

الجملة، ثم تتكلم عن تفصيلها.

قال: وذلك أن شيخنا أبا علي رحمه الله تعالى قد قال: لو كانت هذه الأحداث مما توجب طعناً على الحقيقة، لوجب من الوقت الذي ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلاً ينصب للإمامة، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته، فإنه لا خلاف أنه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه، أن الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه، فلما علمنا أن طلبهم لإقامة إمام إنما كان بعد قتله، ولم يكن من قبل والتمكن قائم، علمنا بطلان ما أضيف إليه من الأحداث.

قال: وليس لأحد أن يقول: إنهم لم يتمكنوا من ذلك، لأن المتعالم من حالهم أنهم حصروه ومنعوه من التمكن من نفسه، ومن التصرف في سلطانه؛ خصوصاً والخصوم يدعون أن الجميع كانوا على قول واحد في خلعه والبراءة منه.

قال: ومعلوم من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع في الأيام التي حوشر فيها وقتل، بل كانت تحصل من قبل حالاً بعد حال، فلو كان ذلك يوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الإنكار عليه؛ ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد، لأن أهل العلم والفضل بإنكار ذلك أحق من غيرهم.

قال: فقد كان يجب على طريقتهم أن تحصل البراءة والخلع من أول الوقت الذي حصل منه ما أوجب ذلك، وألا ينتظر حصول غيره من الأحداث، لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حد إلا وينتظر غيره.

ثم ذكر أن إمساكهم عن ذلك إذا تيقنوا الأحداث منه يوجب نسبة الجميع إلى الخطأ والضلال. ولا يمكنهم أن يقولوا: إن علمهم بذلك إنما حصل في الوقت الذي حصر ومنع، لأن من جملة الأحداث التي يذكرونها ما تقدم على هذه الحال، بل كلها أو جلها تقدم هذا الوقت؛ وإنما يمكنهم أن يتعلقوا فيما حدث في هذا الوقت بما يذكرونه من حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبي سرح بالقتل، وما أوجب كون ذلك حدثاً يوجب كون غيره حدثاً، فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل؛ واحتمال المتقدم للتأويل كاحتمال المتأخر.

ثم قال: وبعد؛ فليس يخلو من أن يدعوا أن طلب الخلع وقع من كل الأمة أو من بعضهم؛ فإن ادعوا ذلك في بعض الأمة، فقد علمنا أن الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجز إبطالها بلا خلاف، لأن الخطأ جائز على بعض الأمة، وإن ادعوا في ذلك الإجماع لم يصح؛ لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومن كان ينصره، ولا يمكن إخراجهم من الإجماع، بأن يقال: إنه كان على باطل، لأن بالإجماع يتوصل إلى ذلك، ولم يثبت.

ثم قال: على أن الظاهر من حال الصحابة أنها كانت بين فريقين؛ أما من نصره، فقد روي عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار: ائذن لنا بنصرك. وروي مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة، والباقيون ممنعون انتظاراً لزوال العارض؛ إلا أنه لو ضيق عليهم الأمر في الدفع ما قعدوا، بل المتعالم من حالهم ذلك.

ثم ذكر ما روي من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام إليه، وأنه لما قتل لأمهما عليه السلام على وصول القوم إليه، ظناً منه أنهما قصرا.

وذكر أن أصحاب الحديث يروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ستكون فتنة واختلاف، وإن عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى ". وما روي عن عائشة من قولها: قتل والله مظلوماً.

قال: ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاديث في ذلك، لأنه ليس هناك أمر ظاهر يدفعه، نحو دعوهم أن جميع الصحابة كانوا عليه، لأن ذلك دعوى منهم، وإن كان فيه رواية من جهة الآحاد، وإذا تعارضت الروايات سقطت، ووجب الرجوع إلى ما ثبت من أحواله السليمة، ووجوب توليه.

قال: ولا يجوز أن يعدل عن تعظيمه وصحة إمامته بأمور محتملة، فلا شيء مما ذكره إلا ويحتمل الوجه الصحيح. ثم ذكر أن للإمام أن يجتهد برأيه في الأمور المنوطة به، ويعمل فيها على غالب ظنه، وقد يكون مصيباً، وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة.

فهذه جملة ما ذكره قاضي القضاة رحمه الله تعالى في المغني من الكلام إجمالاً في دفع ما يتعلق به على عثمان من الأحداث.

رد المرتضى على قاضي القضاة

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في الشافي فقال: أما قوله من تثبت عدالته ووجب توليه إما قطعاً أو على الظاهر، فغير جائز أن يعدل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقن، فغير مسلم لأن من نتولاه على الظاهر، وثبتت عدالته عندنا من جهة غالب الظن، يجب أن نرجع عن ولايته بما يقتضي غالب الظن دون اليقين، ولهذا يؤثر في جرح الشهود وسقوط عدالتهم أقوال الجارحين، وإن كانت مظنونة غير معلومة.

وما يظهر من أنفسهم من الأفعال التي لها ظاهر يظن معه القبيح بهم حتى نرجع عما كنا عليه من القول بعدالتهم؛ وإن لم يكن كل ذلك متيقناً، وإنما يصح ما ذكره فيمن ثبتت عدالته على القطع ووجب توليه على الباطن؛ فلا يجوز أن يؤثر في حاله ما يقتضي الظن، لأن الظن لا يقابل العلم، والدلالة لا تقابل الأمانة.

فإن قال: لم أرد بقولي إلا بأمر متيقن أن كونه حدثاً متيقن؛ وإنما أردت تيقن وقوع الفعل نفسه.

قلنا: الأمران سواء في تأثير غلبة الظن فيهما، ولهذا يؤثر في عدالة من تقدمت عدالته عندنا على سبيل الظن أقوال من يخبرنا عنه بارتكاب القبائح إذا كانوا عدولاً، وإن كانت أقوالهم لا تقتضي اليقين، بل يحصل عندها غالب الظن. وكيف لا نرجع عن ولاية من توليناه على الظاهر بوقوع أفعال منه يقتضي ظاهرها خلاف الولاية، ونحن إنما قلنا بعدالته في الأصل على سبيل الظاهر! ومع التجويز لأن يكون ما وقع منه في الباطن قبيحاً لا يستحق به التولي والتعظيم، ألا ترى أن من شاهدناه يلزم مجالس العلم، ويكرر تلاوة القرآن، ويدمن الصلاة والصيام والحج، يجب أن نتولاه ونعظمه على الظاهر! وإن جوزنا أن يكون جميع ما وقع منه مع خبث باطنه، وأن غرضه في فعله القبيح فلم نتولاه إلا على الظاهر. ومع التجويز، فكيف لا نرجع عن ولايته بما يقابل هذه الطريقة! فأما من غاب عنا وتقدمت له أحوال تقتضي الولاية، فيجب أن نستمر على ولايته؛ وإن جوزنا على الغيبة أن يكون منتقلاً عن الأحوال الجميلة التي عهدناها منه؛ إلا أن هذا تجويز محض معه يقابل ما تقدم من الظاهر الجميل، وهو بخلاف ما ذكرناه من مقابلة الظاهر للظاهر، وإن كان في كل واحد من الأمرين تجويز.

قال: وقد أصاب في قوله: إن ما يحتمل لا ينتقل له عن التعظيم والتولي، إن أراد بالاحتمال ما لا ظاهر له، وأما ما له

ظاهر ومع ذلك يجوز أن يكون الأمر فيه بخلاف ظاهره؛ فإنه لا يسمى محتملاً. وقد يكون مؤثراً فيما ثبت من التولي على الظاهر على ما ذكرناه.

قال: فأما قوله: إن الأحوال المتقررة في النفوس بالعادات فيمن نتولاه تؤثر ما لا يؤثر غيرها، وتقتضي حمل أفعاله على الصحة والتأول له، فلا شك أن ما ذكره مؤثر وطريق قوي إلى غلبة الظن، إلا أنه ليس يقتضي ما يتقرر في نفوسنا لبعض من نتولاه على الظاهر أن نتأول كما ما يشاهد منه من الأفعال التي لها ظاهر قبيح، ونحمل الجميع على أجمل الوجوه، وإن كان بخلاف الظاهر، بل ربما تبين الأمر فيما يقع منه من الأفعال التي ظاهرها القبيح إلى أن تؤثر في أحواله المقررة، ونرجع بها عن ولايته؛ ولهذا نجد كثيراً من أهل العدالة المتقررة لهم في النفوس، ينسلخون منها حتى يلحقوا بمن لا تثبت له في وقت من الأوقات عدالة، وإنما يكون ذلك بما يتوالى منهم ويتكرر من الأفعال القبيحة الظاهرة.

قال: فأما ما استشهد به من أن مثل مالك بن دينار لو شاهدناه في دارٍ فيها منكر لقوي في الظن حضوره لأجل التغيير والإنكار، أو على وجه الإكراه والغلط وأن غيره يخالفه في هذا الباب؛ فصحيح لا يخالف ما ذكرناه؛ لأن مثل مالك بن دينار ممن تناصرت أمارات عدالته وشواهد نزاهته حالاً بعد حال، لا يجوز أن يقدح فيه فعل له ظاهر قبيح، بل يجب لما تقدم من حاله أن نتأول فعله، ونخرجه عن ظاهره إلى أجمل وجوهه. وإنما وجب ذلك لأن الظنون المتقدمة أقوى وأولى بالترجيح والغلبة، فنجعلها قاضية على الفعل والفعلين، ولهذا متى توالى منه الأفعال القبيحة الظاهرة وتكررت، قدحت في حاله، وأثرت في ولايته، كيف لا يكون كذلك وطريق ولايته في الأصل هو الظن والظاهر، ولا بد من قدح الظاهر في الظاهر، وتأثير الظن في الظن على بعض الوجوه.

قال: فأما قوله: فإن كل محتمل لو أخبرنا عنه وهو مما يغلب على صدقه أنه فعله على أحد الوجهين، وجب تصديقه، فمضى عرف من حاله المتقررة في النفوس ما يطابق ذلك، جرى مجرى الإخبار؛ فأول ما فيه أن المحتمل هو ما لا ظاهر له من الأفعال، والذي يكون جواز كونه قبيحاً كجواز كونه حسناً، ومثل هذا الفعل لا يقتضي ولاية ولا عداوة، وإنما يقتضي الولاية ما له من الأفعال ظاهر جميل، ويقتضي العداوة ما له ظاهر قبيح. فإن قال: أردت بالمحتمل ما له ظاهر، لكنه يجوز أن يكون الأمر بخلاف ظاهره.

قيل له: ما ذكرته لا يسمى محتملاً؛ فإن كنت عنيته فقد وضعت العبارة في غير موضعها، ولا شك في أنه إذا كان ممن لو أخبرنا بأنه فعل الفعل على أحد الوجهين لوجب تصديقه، وحمل الفعل على خلاف ظاهره؛ فإن الواجب لما تقرر له في النفوس أن يتأول له ويعدل بفعله عن الوجه القبيح إلى الوجه الجميل، إلا أنه متى توالى منه الأفعال التي لها ظواهر قبيحة، فلا بد أن تكون مؤثرة في تصديقه، متى خبرنا بأن غرضه في الفعل خلاف ظاهره، كما تكون مانعة من الابتداء بالتأول. وضربه المثل بأن من نراه يكلم امرأة حسناء في الطريق إذا أخبر أنها أخته أو امرأته في أن تصديقه واجب، ولو لم يخبر بذلك لحملنا كلامه لها على أجمل الوجوه؛ لما تقدم له في النفوس - صحيح، إلا أنه لا بد من مراعاة ما تقدم ذكره، من أنه قد يقوى الأمر لقوة الأمارات والظواهر إلى حد لا يجوز معه تصديقه ولا التأول له، ولولا أن الأمر قد ينتهي إلى ذلك لما صح أن يخرج أحد عندنا من الولاية إلى العداوة، ولا من العدالة إلى خلافها؛ لأنه لا شيء مما يفعله الفساق المتهمون

إلا ويجوز أن يكون له باطن بخلاف الظاهر، ومع ذلك فلا يلتفت إلى هذا التجويز؛ يبين صحة ما ذكرناه أنا لو رأينا من يظن به الخير يكلم امرأة حسناء في الطريق ويداعبها ويضاحكها لظننا به الجميل مرة ومرات، ثم ينتهي الأمر إلى ألا نظنه. وكذلك لو شاهدناه وبحضرته المنكر، حملنا حضوره على الغلط أو الإكراه أو غير ذلك من الوجوه الجميلة. ثم لا بد من انتهاء الأمر إلى أن نظن به القبيح ولا نصدقه في كلامه.

قال: ثم نقول له: أخبرنا عمن شاهدناه من بعد وهو مفترش امرأة نعلم أنها ليست له بمحرم، وأن لها في الحال زوجاً غيره، وهو ممن تقرر له في النفوس عدالة متقدمة، ماذا يجب أن نظن به؟ وهل نرجع بهذا الفعل عن ولايته، أم نحمله على أنه غالط ومتوهم أن المرأة زوجته، أو على أنه مكره على الفعل، أو غير ذلك من الوجوه الجميلة! فإن قال: نرجع عن الولاية، اعترف بخلاف ما قصده في الكلام، وقيل له: أي فرق بين هذا الفعل وبين جميع ما عددناه من الأفعال وادعيت أن الواجب أن نعدل عن ظاهرها؟ وما جواز الجميل في هذا الفعل. وإن قال: لا أرجع بهذا الفعل عن ولايته، بل نؤوله على بعض الوجوه الجميلة.

قيل له: أرأيت لو تكرر هذا الفعل وتوالى هو وأمثاله حتى نشاهده حاضراً في دور القمار ومجالس اللهو واللعب ونراه يشرب الخمر بعينها، وكل هذا مما يجوز أن يكون عليه مكرهاً وفي أنه القبيح بعينه غلطاً، أكان يجب علينا الاستمرار على ولايته أم العدول عنها؟ فإن قال: نستمر ونتأول، ارتكب ما لا شبهة في فساده، وألزم ما قدمنا ذكره من أنه لا طريق إلى الرجوع عن ولاية أحد، ولو شاهدنا منه أعظم المناكير. ووقف أيضاً على أن طريق الولاية المتقدمة إذا كان الظن دون القطع، فكيف لا نرجع عنها لمثل هذا الطريق، فلا بد إذن من الرجوع إلى ما بيناه وفصلناه في هذا الباب. قال: فأما قوله: إن قول الإمام له مزية لأنه أكد من غيره، فلا معنى له: لأن قول الإمام على مذهبنا يجب أن يكون له مزية، من حيث كان معصوماً مأمون الباطن، وعلى مذهبه إنما تثبت ولايته بالظاهر كما تثبت ولاية غيره من سائر المؤمنين؛ فأبي مزية له في هذا الباب!.

وقوله: إن ما ينقل عن الرسول وإن لم يكن مقطوعاً عليه يؤثر في هذا الباب، ويكون أقوى مما تقدم، غير صحيح على إطلاقه؛ لأن تأثير ما ينقل إذا كان يقتضي غلبة الظن لا شبهة فيه؛ فأما تقويته على غيره فلا وجه له، وقد كان يجب أن يبين من أي الوجوه يكون أقوى.

فهذه جملة ما اعترض به المرتضى على الفصل الأول من كلام قاضي القضاة رحمه الله تعالى.

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الواحد العدل الكريم

تابع بقية رد المرتضى

واعلم أن الذي ذكره المرتضى رحمه الله تعالى، وأورده على قاضي القضاة جيد ولازم، متى ادعى قاضي القضاة أن العدالة إذا ثبتت ظناً أو قطعاً لم يجوز العدول عنها والتبرؤ إلا بما يوجب القطع، ويعلم به علماً يقينياً زوالها، فأما إذا ادعى أن المعلوم لا يزول إلا بما يوجب العلم، فلا يرد عليه ما ذكره المرتضى رحمه الله تعالى.

وله أن يقول: قد ثبتت بالإجماع إمامة عثمان، والإجماع دليل قطعي عند أصحابنا، وكل من ثبتت إمامته ثبتت عدالته بالطريق التي بها ثبتت إمامته، لأنه لا يجوز أن تكون إمامته معلومة وشرائطها مظنونة؛ لأن الموقوف على المظنون مظنون، فتكون إمامته مظنونة، وقد فرضناها معلومة، وهذا خلف ومحال. وإذا كانت عدالته معلومة لم يجوز القول بانتفائها وزوالها إلا بأمر معلوم.

والأخبار التي رويت في أحداثه أخبار آحاد لا تفيد العلم، فلا يجوز العدول عن المعلوم بها، فهذا الكلام إذا رتب هذا الترتيب اندفع به ما اعترض به المرتضى رحمه الله تعالى.

عود على بدء بقية رد المرتضى

فأما كلام المرتضى رحمه الله تعالى على الفصل الثاني من كلام قاضي القضاة، وهو الفصل المحكي عن شيخنا أبي علي رحمه الله تعالى، فنحن نورد. قال رحمه الله تعالى: أما قوله: لو كان كل ما ذكر من الأحداث قادحاً لوجب من الوقت الذي ظهرت الأحداث فيه أن يطلبوا رجلاً ينصبونه في الإمامة، لأن ظهور الحدث كموته، فلما رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دل على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث. فليس بشيء معتمد؛ لأن تلك الأحداث وإن كانت مزيلةً عندهم لإمامته، وفاسخة لها، ومقتضية لأن يعقدوا لغيره الإمامة، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نصب غيره، مع تشبهه بالأمر؛ خوفاً من الفتنة والتنازع والتجاذب، وأرادوا أن يخلع نفسه، حتى تزول الشبهة، وينشط من يصلح للأمر لقبول العقد والتكفل بالأمر. وليس يجري ذلك مجرى موته؛ لأن موته يحسم الطمع في استمرار ولايته، ولا تبقى شبهة في خلو الزمان من إمام. وليس كذلك حدثه الذي يسوغ فيه التأويل على بعده، وتبقى معه الشبهة في استمرار أمره. وليس نقول: إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسه، بل الوجه في عدولهم ما ذكرناه من إرادتهم حسم المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة.

قال: فأما قوله: إنه معلوم من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع في الأيام التي حصر فيها وقتل، بل كانت تقع حالاً

فلو كانت توجب الخلع والبراءة، لما تأخر من المسلمين الإنكار عليه، ولكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد؛ فلا شك أن الأحداث لم تحصل في وقت واحد؛ إلا أنه غير منكر أن يكون نكيرهم إنما تأخر لأنهم تأولوا ما ورد عليهم من أفعاله على أجمل الوجوه؛ حتى زاد الأمر وتفاقم، وبعد التأويل، وتعدر التخريج، ولم يبق للظن الجميل طريق، فحينئذ أنكروا، وهذا مستمر على ما قدمنا ذكره، من أن العدالة والطريقة الجميلة يتأول لها في الفعل والأفعال القليلة، بحسب ما تقدم من حسن الظن به، ثم ينتهي الأمر بعد ذلك إلى بعد التأويل، والعمل على الظاهر القبيح.

قال: على أن الوجه الصحيح في هذا الباب أن أهل الحق كانوا معتقدين بخلعه من أول حدث، بل معتقدين أن إمامته لم تثبت وقتاً من الأوقات، وإنما منعهم من إظهار ما في نفوسهم ما قدمناه من أسباب الخوف والتقية، لأن الاعتذار بالوجل كان عاماً، فلما تبين أمره حالاً بعد حال، وأعرضت الوجوه عنه، وقل العاذر له، قويت الكلمة في خلعه. وهذا إنما كان في آخر الأمر دون أوله، فليس يقتضي الإمساك عنه إلى الوقت الذي وقع الكلام فيه نسبة الخطأ إلى الجميع؛ على ما ظنه. قال: فأما دفعه بأن تكون الأمة أجمعت على خلعه بخروجه نفسه وخروج من كان في حيزه عن القوم، فليس بشيء، لأنه إذا ثبت أن من عداه وعدا عبيده والرهيط من فجار أهله وفساقهم، كمروان ومن جرى مجراه، كانوا مجمعين على خلعه، فلا شبهة في أن الحق في غير حيزه، لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب، وجميع الأمة مبطل، وإنما يدعي أنه على الحق لمن ينازع في إجماع من عداه، فأما مع التسليم لذلك، فليس يبقى شبهة، وما نجد مخالفينا يعتبرون في باب الإجماع بإجماع الشذاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع، ألا ترى أنهم لا يحفلون بخلاف سعد وأهله وولده في بيعة أبي بكر لقلتهم وكثرة من يازائهم؛ ولذلك لا يعتدون بخلاف من امتنع من بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ويجعلونه شاذاً؛ لا تأثير بخلافه، فكيف فارقوا هذه الطريقة في خلع عثمان! وهل هذا إلا قلب وتلون.

قلت: أما إذا احتج أصحابنا على إمامة أبي بكر بالإجماع، فاعتراض حجتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جيد، وليس يقول أصحابنا في جوابه: هؤلاء شذاذ فلا نحفل بخلافهم؛ وإنما المعتبر بالكثرة التي يازائهم. وكيف يقولون هذا، وحجتهم الإجماع ولا إجماع! ولكنهم يجيبون عن ذلك بأن سعداً مات في خلافة عمر، فلم يبق من يخالف في خلافة عمر، فانعقد الإجماع عليها، وبايع ولد سعد وأهله من قبل، وإذا صحت خلافة أبي بكر؛ لأنها فرع عليها؛ ومحال أن يصح الفرع، ويكون الأصل فاسداً، فهكذا يجب أصحابنا عن الاعتراض بخلاف سعد إذا احتجوا بالإجماع، فأما إذا احتجوا بالإختیار فلا يتوجه نحوهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده؛ لأنه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالإختیار إجماع الأمة على الإختیار؛ وإنما يكفي فيه بيعة خمسة من أهل الحل والعقد على الترتيب الذي يرتب أصحابنا الدلالة عليه؛ وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامة علي عليه السلام، ولم يحفل بخلاف معاوية وأهل الشام فيها.

قال رحمه الله تعالى: فأما قوله: إن الصحابة كانت بين فريقين: من نصره كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلان، والباقيون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ولأنه ما ضيق عليهم الأمر في الدفع عنه، فعجيب، لأن الظاهر أن أنصاره هم الذين كانوا معه في الدار، يقاتلون عنه، ويدفعون المهاجمين عليه.

فأما من كان منزله ما أغنى عنه فتياً، فلا يعد ناصراً، وكيف يجوز ممن أراد نصرته، وكان معتقداً لصوابه، وخطأ

المطالبين له بالخلع، أن يتوقف عن النصرة طلباً لزوال العارض! وهل تراد النصرة إلا للدفع العارض، وبعد زواله لا حاجة إليها! وليس يحتاج في نصرته إلى أن يضيق هو عليهم الأمر فيها، بل من كان معتقداً لها لا يحتاج حمله إلى أذنه فيها، ولا يحفل بنهيها عنها، لأن المنكر مما قد تقدم أمر الله تعالى بالنهي عنه، فليس يحتاج في إنكاره إلى أمر غيره.

قال: فأما زيد بن ثابت، فقد روي ميله إلى عثمان، وما يغني ذلك وبإزائه جميع المهاجرين والأنصار! ولميله إليه سبب معروف، فإن الواقدي روى في كتاب الدار أن مروان بن الحكم لما حصر عثمان الحصر الأخير أتى زيد بن ثابت فاستصحبه إلى عائشة ليكملها في هذا الأمر، فمضيا إليها وهي عازمة على الحج، فكلماها في أن تقيم وتذب عنه، فأقبلت على زيد ابن ثابت، فقالت: وما منعك يابن ثابت ولك الأشاريف قد اقتطعكها عثمان، ولك كذا وكذا، وأعطاك عثمان من بيت المال عشرة آلاف دينار! قال زيد: فلم أرجع عليها حرفاً واحداً، وأشارت إلى مروان بالقيام، فقام مروان وهو يقول:

د حتى اضطرمت أجذما

حرق قيس علي البلا

فنادته عائشة، وقد خرج من العتبة: يابن الحكم، أعلي تمثل الأشعار! قد والله سمعت ما قلت أتراني في شك من صاحبك! والذي نفسي بيده لوددت أنه الآن في غرارة من غرائري مخيط عليه، فألقيه في البحر الأخضر، قال زيد بن ثابت: فخرجنا من عندها على اليأس منها.

وروى الواقدي أن زيد بن ثابت اجتمع عليه عصبة من الأنصار، وهو يدعوهم إلى نصرة عثمان. فوقف عليه جبلة بن عمرو بن حبة المازني، فقال له: وما يمنعك يا زيد أن تذب عنه؟ أعطاك عشرة آلاف دينار وحدثك من نخل لم ترث عن أبيك مثل حديقة منها.

فأما ابن عمر فإن الواقدي روى أيضاً عنه أنه قال: والله ما كان فينا إلا حاذل أو قاتل. والأمر على هذا أوضح من أن يخفى.

فأما ما ذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام، فإنما أنفذهما - إن كان أنفذهما - ليمنعا من انتهاك حريمه وتعمد قتله، ومنع حرمة ونسائه من الطعام والشراب، ولم ينفذهما ليمنا من مطالبته بالخلع، وكيف وهو عليه السلام مصرح بأنه يستحق بأحداثه الخلع، والقوم الذين سعوا في ذلك إليه كانوا يغدون ويروحون، ومعلوم منه ضرورة أنه كان مساعداً على خلعه ونقض أمره، لا سيما في المرة الأخيرة.

فأما ادعائه أنه عليه السلام لعن قتلته، فهو يعلم ما في هذا من الروايات المختلفة التي هي أظهر من هذه الرواية، وإن صحت فيجوز أن تكون محمولة على لعن من قتله متعمداً قتله، قاصداً إليه، فإن ذلك لم يكن لهم.

فأما ادعائه أن طلحة رجع لما ناشده عثمان يوم الدار، فظاهر البطلان وغير معروف في الرواية، والظاهر المعروف أنه لم يكن على عثمان أشد من طلحة، ولا أغلظ منه.

قال: ولو حكينا من كلامه فيه ما قد روي لأفينا قطعة كثيرة من هذا الكتاب، وقد روي أن عثمان كان يقول يوم

الدار: اللهم اكفني طلحة، ويكرر ذلك، علماً بأنه أشد القوم عليه. وروي أن طلحة كان عليه يوم الدار درع وهو يرامي الناس، ولم يترع عن القتال حتى قتل الرجل.

فأما ادعاؤه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ستكون فتنة، وإن عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى "، فهو يعلم أن هذه الرواية الشاذة لا تكون في مقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمة على خلعه وحذله، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه، وبإزاء هذه الرواية ما يملأ الطروس عن النبي صلى الله عليه وسلم، مما يتضمن ما تضمنته. ولو كانت هذه الرواية معروفة لكان عثمان أولى الناس بالاحتجاج بها يوم الدار، وقد احتج عليهم بكل غث وسمين، وقبل ذلك لما خوصم وطولب بأن يخلع نفسه، ولاحتج بها عنه بعض أصحابه وأنصاره، وفي علمنا بأن شيئاً من ذلك لم يكن، دلالة على أنها مصنوعة موضوعة.

فأما ما رواه عن عائشة من قولها: قتل والله مظلوماً، فأقوال عائشة فيه معروفة ومعلومة، وإخراجها قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول: " هذا قميصه لم يبل، وقد أبلى عثمان سنته "، إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة. فأما مدحها له وثناؤها عليه؛ فإنما كانا عقب علمها بانتقال الأمر إلى من انتقل إليه، والسبب فيه معروف، وقد وقفت عليه، وقوبل بين كلامها فيه متقدماً ومتأخراً.

فأما قوله: لا يمتنع أن يتعلق بأخبار الآحاد في ذلك لأنها في مقابلة ما يدعونه مما طريقه أيضاً الآحاد، فواضح البطلان، لأن أطباق الصحابة وأهل المدينة - إلا من كان في الدار معه على خلافه، فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتل مبارز، وبين متقاعد خاذل - معلوم ضرورة لكل من سمع الأخبار، وكيف يدعي أنها من جهة الآحاد حتى يعارض بأخبار شاذة نادرة! وهل هذا إلا مكابرة وظاهرة!

فأما قوله: إنا لا نعدل عن ولايته بأمر محتملة، فقد مضى الكلام في هذا المعنى، وقلنا إن المحتمل هو ما لا ظاهر له، ويتجاذبه أمور محتملة، فأما ما له ظاهر فلا يسمى محتملاً وإن سماه بهذه التسمية، فقد بينا أنه مما يعدل من أجله عن الولاية، وفصلنا ذلك تفصيلاً بيناً.

وأما قوله: إن للإمام أن يجتهد برأيه في الأمور المنوطة به، ويكون مصيباً وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة، فأول ما فيه أنه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد في الأحكام، ولا يجوز أن يعمل فيها إلا على النص، ثم إذا سلمنا الإجتهد، فلا شك أن هاهنا أموراً لا يسوغ فيها الإجتهد حتى يكون من خبرنا عنه بأنه اجتهد فيها غير مصوب، وتفصيل هذه الجملة يبين عن الكلام على ما تعاطاه من الأعذار عن إحداثه على جهة التفصيل.

قلت: الكلام في هذا الموضوع على سبيل الاستقصاء إنما يكون في الكتب الكلامية المبسوبة في مسألة الإمامة، وليس هذا موضع ذاك، ولكن يكفي قاضي القضاة أن يقول: قد ثبت بالإجماع صحة إمامة عثمان، فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خلعه وإباحة قتله، ولم يجمع المسلمون على ذلك، لأنه قد كان بالمدينة من ينكر ذلك وإن قتلوا، وقد كان أهل الأمصار ينكرون ذلك، كالشام والبصرة والحجاز واليمن ومكة وخراسان، وكثير من أهل الكوفة، وهؤلاء مسلمون، فيجب أن تعتبر أقوالهم في الإجماع، فإذا لم يدخلوا فيمن أحلب عليه لم ينعقد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه، فوجب البقاء على ما اقتضاه الإجماع الأول.

متفرقات

المطاعن على عثمان والرد عليها

فأما الكلام في المطاعن المفصلة التي طعن بها فيه، فنحن نذكرها، ونحكي ما ذكره قاضي القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى.

الطعن الأول: قال قاضي القضاة في المغني: فمما طعن به عليه قوهم: إنه ولي أمور المسلمين من لا يصلح لذلك ولا يؤمن عليه، ومن ظهر منه الفسق والفساد، ومن لا علم عنده، مراعاةً منه لحرمة القرابة، وعدولاً عن مراعاة حرمة الدين والنظر للمسلمين؛ حتى ظهر ذلك منه وتكرر؛ وقد كان عمر حذره من ذلك؛ حيث وصفه بأنه كلف بأقاربه، وقال له: إذا وليت هذا الأمر فلا تسلط بني أبي معيط على رقاب الناس. فوقع منه ما حذره إياه، وعوتب في ذلك فلم ينفع العتب، وذلك نحو استعماله الوليد بن عقبة، وتقليده إياه، حتى ظهر منه شرب الخمر؛ واستعماله سعيد بن العاص حتى ظهرت منه الأمور التي عندها أخرجها أهل الكوفة، وتوليته عبد الله بن أبي سرح، وعبد الله بن عامر بن كريز؛ حتى روي عنه في أمر ابن أبي سرح أنه لما تظلم منه أهل مصر وصرفه عنهم بمحمد بن أبي بكر، كاتبه بأن يستمر على ولايته، فأبطن خلاف ما أظهر، فعل من غرضه خلاف الدين، ويقال: إنه كاتبه بقتل محمد بن أبي بكر وغيره ممن يرد عليه، وظفر بذلك الكتاب، ولذلك عظم التظلم من بعد، وكثر الجمع، وكان سبب الحصار والقتل، حتى كان من أمر مروان وتسلمه عليه وعلى أموره ما قتل بسببه، وذلك ظاهر لا يمكن دفعه.

قال رحمه الله تعالى: وجوابنا عن ذلك أن تقول: أما ما ذكر من توليته من لا يجوز أن يستعمل، فقد علمنا أنه لا يمكن أن يدعى أنه حين استعمالهم علم من أحوالهم خلاف الستر والصلاح، لأن الذي ثبت عنهم من الأمور القبيحة حدث من بعد، ولا يتمتع كوفهم في الأول مستورين في الحقيقة أو مستورين عنده، وإنما كان يجب تخطيطته لو استعمالهم؛ وهم في الحال لا يصلحون لذلك.

فإن قيل: فلما علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم! قيل: كذلك فعل، لأنه إنما استعمل الوليد بن عقبة قبل ظهور شرب الخمر عنه فلما شهد عليه جلده الحد وصرفه. وقد روي مثله عن عمر، فإنه ولي قدامة بن مظعون بعض أعماله، فشهدوا عليه بشرب الخمر، فأشخصه وجلده الحد، فإذا عد ذلك في فضائل عمر لم يجز أن يعد ما ذكروه في الوليد من معائب عثمان. ويقال: إنه لما أشخصه أقام عليه الحد بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام. وقد اعتذر من عزله سعد بن أبي وقاص بالوليد، بأن سعداً شكاه أهل الكوفة، فأداه اجتهاده إلى عزله بالوليد.

فأما سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولى مكانه أبا موسى، وكذلك عبد الله بن أبي سرح عزله وولى مكانه محمد بن أبي بكر، ولم يظهر له من مروان ما يوجب أن يصرفه عما كان مستعملاً فيه، ولو كان ذلك طعناً لوجب مثله في كل من ولى، وقد علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى الوليد بن عقبة، فحدث منه ما حدث. وحدث من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة، كالقعقاع بن شور، لأنه ولاه على ميسان فأخذ ما لها ولحق بمعاوية، وكذلك

فعل الأشعث بن قيس بمال أذربيجان. وولى أبا موسى الحكم، فكان منه ما كان، ولا يجب أن يعاب أحد بفعل غيره، وإذا لم يلحقه عيب في ابتداء ولايته فقد زال العيب فيما بعده.

وقولهم: إنه قسم أكثر الولايات في أقاربه، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين، وقد كان عمر حذره من ذلك، فليس بعيب؛ لأن تولية الأقارب كتولية الأبعد، في أنه يحسن إذا كانوا على صفات مخصوصة. ولو قيل إن تقلدكمهم أولى لم يمتنع، إذا كان المولى لهم أشد تمكناً من عزلهم، والاستبدال بهم، وقد ولى أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن العباس البصرة، وعبيد الله بن العباس اليمن، وقثم بن العباس مكة؛ حتى قال مالك الأشتر عند ذلك: على ماذا قتلنا الشيخ أمس! فيما يروى؛ ولم يكن ذلك بعيب إذا أدى ما وجب عليه في اجتهاده.

فأما قولهم: إنه كتب إلى ابن أبي سرح حيث ولى محمد بن أبي بكر بأنه يقتله ويقتل أصحابه، فقد أنكر ذلك أشد إنكار، حتى حلف عليه، وبين أن الكتاب الذي ظهر ليس كتابه ولا الغلام غلامه ولا الراحلة راحلته، وكان في جملة من خاطبه في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، فقبل عذره. وذلك بين؛ لأن قول كل أحد مقبول في مثل ذلك، وقد علم أن الكتاب يجوز فيه التزوير، فهو بمنزلة الخبر الذي يجوز فيه الكذب.

فإن قيل: فقد علم أن مروان هو الذي زور الكتاب، لأنه هو الذي كان يكتب عنه، فهلا أقام فيه الحد! قيل: ليس يجب بهذا القدر أن يقطع على أن مروان هو الذي فعل ذلك، لأنه وإن غلب ذلك في الظن، فلا يجوز أن يحكم به، وقد كان القوم يسومونه تسليم مروان إليهم، وذلك ظلم، لأن الواجب على الإمام أن يقيم الحد على من يستحقه أو التأديب، ولا يحل له تسليمه إلى غيره، فقد كان الواجب أن يثبتوا عنده ما يوجب في مروان الحد والتأديب ليفعله به؛ وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحق التعنيف. وقد ذكر الفقهاء في كتبهم أن الأمر بالقتل لا يوجب قوداً ولا دية ولا حداً، فلو ثبت في مروان ما ذكره لم يستحق القتل وإن استحق التعزير، لكنه عدل عن تعزيره؛ لأنه لم يثبت؛ وقد يجوز أن يكون عثمان ظن أن هذا الفعل فعل بعض من يعادي مروان تقبيحاً لأمره؛ لأن ذلك يجوز، كما يجوز أن يكون من فعله، ولا يعلم كيف كان اجتهاده وظنه! وبعد فإن هذا الحدث من أجل ما نعموا عليه، فإن كل شيء من ذلك يوجب خلع عثمان وقتله؛ فليس إلا هذا؛ وقد علمنا أن هذا الأمر لو ثبت ما كان يوجب القتل، لأن الأمر بالقتل لا يوجب القتل؛ سيما قبل وقوع القتل المأمور به؛ فنقول لهم: لو ثبت ذلك على عثمان أكان يجب قتله! فلا يمكنهم ادعاء ذلك، لأنه بخلاف الدين؛ ولا بد أن يقولوا: إن قتله ظلم، وكذلك حبسه في الدار، ومنعه من الماء، فقد كان يجب أن يدفع القوم عن كل ذلك، وأن يقال: إن من لم يدفعهم وينكر عليهم يكون مخطئاً.

وفي القول بأن الصحابة اجتمعوا على ذلك كلهم تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك غير جائز، وقد علم أيضاً أن المستحق للقتل والخلع لا يحل أن يمنع الطعام والشراب، وعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يمنع أهل الشام من الماء من صفين، وقد تمكن من منعهم؛ وكل ذلك يدل على كون عثمان مظلوماً، وأن ذلك من صنع الجهال، وأن أعيان الصحابة كانوا كارهين لذلك. وأيضاً فإن قتله لو وجب لم يجز أن يتولاه العوام من الناس، ولا شبهة أن الذين أقدموا على قتله كانوا بهذه الصفة، وإذا صح أن قتله لم يكن لهم، فمنعهم والنكير عليهم واجب. وأيضاً فقد علم أنه لم يكن من عثمان ما يستحق به القتل؛ من كفر بعد إيمان، أو زناً بعد إحصان، أو قتل نفسٍ بغير

حق، وأنه لو كان منه ما يوجب القتل لكان الواجب أن يتولاه الإمام، فقتله على كل حال منكر، وإنكار المنكر واجب.

وليس لأحد أن يقول: إنه أباح قتل نفسه، من حيث امتنع من دفع الظلم عنهم، لأنه لم يمتنع من ذلك، بل أنصفهم، ونظر في حالهم، ولأنه لو لم يفعل ذلك لم يحل لهم قتله، لأنه إنما يحل قتل الظالم إذا كان على وجه الدفع، والمروي أنهم أحرقوا بابه، وهجموا عليه في منزله، وبعجوه بالسيف والمشاقص، وضربوا يد زوجته لما وقعت عليه، وانهبوا متاع داره؛ ومثل هذه القتلة لا تحل في الكافر المرتد، فكيف يظن أن الصحابة لم ينكروا ذلك، ولم يعدوه ظلماً؛ حتى يقال إنه مستحق من حيث لم يدفع القوم عنه! وقد تظاهر الخبر بما جرى من تجمع القوم عليه، وتوسط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم، وأنه بذل لهم ما أرادوه، وأعتبهم وأشهد على نفسه بذلك؛ وإن الكتاب الموجود بعد ذلك المتضمن لقتل القوم، ووقف عليه - ومن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام - فحلف أنه ما كتبه، ولا أمر به، فقال له: فمن تتهم؟ قال: ما تهم أحداً، وأن للناس لحيلاً.

والرواية ظاهرة أيضاً بقوله: إن كنت أخطأت أو تعمدت فإني تائب ومستغفر؛ فكيف يجوز والحال هذه أن تهتك فيه حرمة الإسلام وحرمة البلد الحرام! ولا شبهة في أن القتل على وجه الغيلة لا يحل فيمن يستحق القتل، فكيف فيمن لا يستحقه! ولولا أنه كان يمنع من محاربة القوم ظناً منه أن ذلك يؤدي إلى القتل الذريع لكثير أنصاره. وقد جاء في الرواية أن الأنصار بدأت معونته ونصرته، وأن أمير المؤمنين عليه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السلام، فقال له: قل لأبيك فلتأني؛ فأراد أمير المؤمنين عليه السلام المصير إليه، فمنعه من ذلك محمد ابنه، واستعان بالنساء عليه، حتى جاء الصريخ بقتل عثمان، فمد يده إلى القبلة، وقال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. فإن قالوا: إنهم اعتقدوا أنه من المفسدين في الأرض، وأنه داخل تحت آية المحاربين.

قيل: فقد كان يجب أن يتولى الإمام هذا الفعل، لأن ذلك يجري مجرى الحد، وكيف يدعى ذلك، والمشهور عنه أنه كان يمنع من مقاتلتهم، حتى روي أنه قال لعبيده ومواليه، وقد هموا بالقتال: من أغمد سيفه فهو حراً! ولقد كان مؤثراً لنكير ذلك الأمر بما لا يؤدي إلى إراقة الدماء والفتنة، ولذلك لم يستعن بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان لما اشتد الأمر، أعانه من أعان، لأن عند ذلك تجب النصرة والمعونة، فحيث كانت الحال متماسكة، وكان ينهى عن إنجاده وإعانته بالحرب امتنعوا وتوقفوا، وحيث اشتد الأمر أعانه ونصره من أدركه، دون من لم يغلب ذلك في ظنه.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما قوله: لم يكن عالماً بحال الفسقة الذين ولاهم قبل الولاية؛ فلا تعويل عليه، لأنه لم يول هؤلاء نفر إلا وحالهم مشهورة في الخلاعة والمجانة والتجرم والتهتك؛ ولم يختلف اثنان في أن الوليد بن عقبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدين على استقبال ولايته للكوفة؛ بل هذه كانت سنته والعادة المعروفة منه؛ وكيف يخفى على عثمان - وهو قريبه ولصيقه وأخوه لأمه - من حاله ما لا يخفى على الأجانب الأبعاد! ولهذا قال له سعد بن أبي وقاص - في رواية الواقدي، وقد دخل الكوفة -: يا أبا وهب، أمير أم زائر؟ قال: بل أمير، فقال سعد: ما أدري أحمقت بعدك أم كست بعدي! قال: ما حمقت بعدي ولا كست بعدك، ولكن القوم ملكوا فاستأثروا، فقال سعد: ما أراك إلا صادقاً.

وفي رواية أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي أن الوليد لما دخل الكوفة مر على مجلس عمرو ابن زرارة النخعي، فوقف، فقال عمرو: يا معشر بني أسد، بئسما استقبلنا به أخوكم ابن عفان! أمن عدله أن يترع عنا ابن أبي وقاص، الهين اللين السهل القريب، ويبعث بدله أخاه الوليد، الأحمق الماجن الفاجر قديماً وحديثاً! واستعظم الناس مقدمه، وعزل سعد به، وقالوا: أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد صلى الله عليه وسلم! وهذا تحقيق ما ذكرناه من أن حاله كانت مشهورة قبل الولاية، لا ريب فيها عند أحد، فكيف يقال: إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر! وفي الوليد نزل قوله تعالى: "أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون"، فالمؤمن ههنا أمير المؤمنين عليه السلام، والفاسق الوليد، على ما ذكره أهل التأويل. وفيه نزل قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"، والسبب في ذلك أنه كذب على بني المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وادعى أنهم منعوه الصدقة. ولو قصصنا مخازيه المتقدمة ومساويه لطال بها الشرح.

وأما شربه الخمر بالكوفة وسكره، حتى دخل عليه من دخل وأخذ خاتمه من إصبعه، وهو لا يعلم، فظاهر، وقد سارت به الركبان. وكذلك كلامه في الصلاة، والتفاتة إلى من يقتدي به فيها وهو سكران، وقوله لهم: أأزيدكم؟ فقالوا: لا، قد قضينا صلاتنا، حتى قال الحطيئة في ذلك:

أن الوليد أحق بالعدر

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه

نادى وقد نفدت صلاتهما أزيدكم ثملاً وما يدري

منه لقادهم على عشر

ليزيدهم خيراً ولو قبلوا

لقرنت بين الشفع والوتر

فأبوا أبا وهب ولو فعلوا

خلوا عنانك لم تزل تجري

حبسوا عنانك إذ جريت ولو

وقال فيه أيضاً:

علانية وجاهر بالنفاق

تكلم في الصلاة وزاد فيها

ونادى والجميع إلى افتراق

ومج الخمر في سنن المصلى

فما لكم وما لي من خلاق

أزيدكم على أن تحمدوني

وأما قوله: إنه جلده الحد وعزله، فبعد أي شيء كان ذلك، ولم يعزله إلا بعد أن دافع ومانع، واحتج عنه وناضل! ولو لم يقهره أمير المؤمنين عليه السلام على رأيه لما عزله، ولا أمكن من جلده. وقد روى الواقدي أن عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بشرب الخمر أو عدهم وتهدهم.

قال الواقدي: ويقال إنه ضرب بعض الشهود أيضاً أسواطاً، فأتوا أمير المؤمنين عليه السلام، فشكوا إليه، فأتى عثمان، فقال: عطلت الحدود، وضربت قوماً شهدوا على أخيك، فقلت الحكم، وقد قال لك عمر: لا تحمل بني أمية وآل أبي معيط على رقاب الناس! قال: فما ترى؟ قال: أرى أن تعزله ولا توليه شيئاً من أمور المسلمين، وأن تسأل عن الشهود؛

فإن لم يكونوا أهل ظنة ولا عداوة، أقمت على صاحبك الحد. وتكلم في مثل ذلك طلحة والزبير وعائشة، وقالوا أقوالاً شديدة، وأخذته الألسن من كل جانب، فحينئذ عزله، ومكن من إقامة الحد عليه. وقد روى الواقدي أن الشهود لما شهدوا عليه في وجهه، وأراد عثمان أن يحده ألبسه جبة خز، وأدخله بيتاً، فجعل إذا بعث إليه رجلاً من قريش ليضربه، قال له الوليد: أنشدك الله أن تقطع رحمي وتغضب أمير المؤمنين! فلما رأى علي عليه السلام ذلك، أخذ السوط ودخل عليه، فجلده به. فأبى عذر لعثمان في عزله وجلده بعد هذه الممانعة الطويلة، والمدافعة الشديدة!.

وقصة الوليد - مع الساحر الذي كان يلعب بين يديه، ويغر الناس بمكره وخديعته، وأن جندب ابن عبد الله الأزدي امتنع من ذلك ودخل عليه فقتله، وقال له: أحي نفسك إن كنت صادقاً، وأن الوليد أراد أن يقتل جندباً بالساحر، حتى أنكر الأزدي ذلك عليه، فحبسه وطال حبسه حتى هرب من السجن - معروفة ومشهورة.

فإن قيل: فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة هذا صدقة بني المصطلق، وولاه عمر صدقة تغلب، فكيف تدعون أن حاله في أنه لا يصلح للولاية ظاهرة!.

قلنا: لا جرم، إنه غر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذب على القوم حتى نزلت فيه الآية التي قدمنا ذكرها، فعزله. وليس خطب ولاية الصدقة مثل خطب ولاية الكوفة، فأما عمر فإنه لما بلغه قوله:

فويلك مني تغلب ابنة وائل

إذا ما شددت الرأس مني بمشوذ

عزله، وأما عزل أمير المؤمنين عليه السلام بعض أمرائه لما ظهر من الحدث كالتقعاع بن شور وغيره، وكذلك عزل عمر قدامة بن مظعون لما شهد عليه بشرب الخمر، وجلده له؛ فإنه لا يشبه ما تقدم؛ لأن كل واحد ممن ذكرناه لم يول إلا من هو حسن الظاهر عنده وعند الناس، غير معروف باللعب ولا مشهور بالفساد. ثم لما ظهر منه ما ظهر لم يحام عنه ولا كذب الشهود عليه وكابره، بل عزله غير مضطر، وكل هذا لم يجر في أمراء عثمان، وقد بينا كيف كان عزل الوليد وإقامة الحد عليه.

فأما موسى فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يوله الحكم مختاراً، لكنه غلب على رأيه وقهر على أمره، ولا رأي لمقهور. فأما قوله: إن ولاية الأقارب كولاية الأبعاد، بل الأقارب أولى؛ من حيث كان التمكن من عزلهم أشد. وذكر تولية أمير المؤمنين عليه السلام أولاد العباس رحمه الله تعالى وغيرهم - فليس بشيء؛ لأن عثمان لم ينقم عليه تولية الأقارب من حيث كانوا أقارب، بل من حيث كانوا أهل بيت الظنة والتهمة، ولهذا حذره عمر وأشعر بأنه يحملهم على رقاب الناس. وأمير المؤمنين عليه السلام لم يول من أقاربه متهماً ولا ظنياً، وحين أحس من ابن العباس ببعض الريية لم يمهله ولا احتمله، وكاتبه بما هو شائع وظاهر؛ ولو لم يجب على عثمان أن يعدل على ولاية أقاربه إلا من حيث جعل عمر ذلك سبب عدوله عن النص عليه، وشرط عليه يوم الشورى ألا يحمل أقاربه على رقاب الناس، ولا يؤثرهم لمكان القرابة بما لا يؤثر به غيرهم - لكان صارفاً قوياً، فضلاً عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خصالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة. فأما سعيد بن أبي العاص، فإنه قال في الكوفة: إنما السواد بستان لقريش، تأخذ منه ما شاءت وتترك، حتى قالوا له: أتجعل ما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك! ونابذوه، وأفضى الأمر إلى تسييره من سير عن الكوفة، والقصة مشهورة، ثم انتهى

الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيداً من دخولها، وتكلموا فيه وفي عثمان كلاماً ظاهراً، حتى كادوا يخلعون عثمان؛ فاضطر حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى، فلم يصرف سعيداً مختاراً، بل ما صرفه جملة، وإنما صرفه أهل الكوفة عنهم. فأما قوله: إنه أنكر الكتاب المتضمن لقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه، وحلف على أن الكتاب ليس بكتابه، ولا الغلام غلامه، ولا الراحلة راحلته، وأن أمير المؤمنين عليه السلام قبل عذره، فأول ما فيه أنه حكى القصة بخلاف ما جرت عليه؛ لأن جميع من يروي هذه القصة ذكر أنه اعترف بالخاتم والغلام والراحلة، وإنما أنكر أن يكون أمر بالكتابة، لأنه روى أن القوم لما ظفروا بالكتاب قدموا المدينة، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعداً وجماعة من الأصحاب، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم، وأخبروهم بقصة الغلام، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين، فقال له: أهذا الغلام غلامك؟ قال: نعم، قال: والبغير بعيرك؟ قال: نعم، قال: أفأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله أنه ما كتب الكتاب، ولا أمر به؛ فقال له: فالخاتم خاتمك؟ قال: نعم، قال: فكيف يخرج غلامك على بعيرك بكتاب عليه ختمك، ولا تعلم به!.

وفي رواية أخرى أنه لما واقفه عليه، قال عثمان: أما الخط فخط كاتي، وأما الخاتم فعلى خاتمي، قال: فمن تتهم؟ قال: أتهمك واتهم كاتي، فخرج أمير المؤمنين عليه السلام مغضباً، وهو يقول: بل بأمرك، ولزم داره، وبعد عن توسط أمره، حتى جرى عليه ما جرى.

وأعجب الأمور قوله لأمر المؤمنين عليه السلام: إني أتهمك، وتظاهره بذلك وتلقيه إياه في وجهه بهذا القول، مع بعده من التهمة والظنة في كل شيء، وفي أمره خاصة؛ فإن القوم في الدفعة الأولى أرادوا أن يعجلوا له ما أخبروه؛ حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسطه وأصلحه، وأشار عليه بأن يقاربهم ويعينهم، حتى انصرفوا عنه، وهذا فعل النصيح المشفق الحذب المتحنن، ولو كان عليه السلام - وحوشي من ذلك - متهماً عليه لما كان للتهمة عليه مجال في أمر الكتاب خاصة؛ لأن الكتاب بخط عدوه مروان، وفي يد غلام عثمان، ومحمول على بعيره، ومختوم بخاتمه، فأبي ظن تعلق بأمر المؤمنين عليه السلام في هذا المكان، لولا العداوة وقلة الشكر للنعمة!.

ولقد قال له المصريون لما جحد أن يكون الكتاب كتابه شيئاً لا زيادة عليه في باب الحجة، لأنهم قالوا: إذا كنت ما كتبت ولا أمرت به، فأنت ضعيف؛ من حيث تم عليك أن يكتب كاتبك بما تحتّمه بخاتمك وينفذه بيد غلامك وعلى بعيرك بغير أمرك؛ ومن تم عليه ذلك لا يصلح أن يكون والياً على أمور المسلمين. فاختلعت عن الخلافة على كل حال. قال: ولقد كان يجب على صاحب المغني أن يستحي من قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام قبل عذره؛ وكيف يقبل عذر من يتهمه ويستغشه؛ وهو له ناصح! وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد سماع هذا القول منه معروف. وقوله: إن الكتاب يجوز فيه التزوير، ليس بشيء، لأنه لا يجوز التزوير في الكتاب والغلام والبغير، وهذه الأمور إذا انضاف بعضها إلى بعض، بعد فيها التزوير؛ وقد كان يجب على كل حال أن يبحث عن القصة وعمن زور الكتاب، وأنفذ الرسول، ولا ينام عن ذلك، حتى يعرف من أين دهي؛ وكيف تمت الحيلة عليه، فيحترز من مثلها، ولا يغضي عن ذلك إغضاء سائر له، خائف من بحثه وكشفه.

فأما قوله إنه وإن غلب على الظن أن مروان كتب الكتاب، فإن الحكم بالظن لا يجوز، وتسليمه إلى القوم على ما سألوه إياه ظلم، لأن الحد والأدب إذا وجب عليه، فالإمام يقيمه دونهم؛ فتعلل بما لا يجدي، لأننا لا نعمل إلا على قوله في أنه لم يعلم أن مروان هو الذي كتب الكتاب، وإنما غلب على ظنه؛ أما كان يستحق مروان بهذا الظن بعض التعنيف والزجر والتهديد! أو ما كان يجب مع وقوع التهمة عليه، وقوة الأمارات في أنه جالب الفتنة وسبب الفرقة أن يعده عنه، ويطرده من داره ويسلبه ما كان يخصه به من إكرامه! وما في هذه الأمور أظهر من أن ينبه له.

فأما قوله: إن الأمر بالقتل لا يوجب قوداً ولا ديةً، سيما قبل وقوع القتل المأمور به، فهب أن ذلك على ما قال، أما أوجب الله تعالى على الأمر بقتل المسلمين تأديباً ولا تعزيراً ولا طرداً ولا إبعاداً! وقوله: لم يثبت ذلك، قد مضى ما فيه، وبين أنه لم يستعمل فيه ما يجب استعماله من البحث والكشف، وتهديد المتهم وطرده وإبعاده والتبرؤ من التهمة بما يتبرأ به من مثلها.

فأما قوله: إن قتله ظلم وكذلك حبسه في الدار، ومنعه من الماء، وأنه لو استحق القتل أو الخلع لا يحل أن يمنع الطعام والشراب، وقوله: إن من لم يدفع عن ذلك من الصحابة يجب أن يكون مخطئاً، وقوله: إن قتله لو وجب لم يجز أن يتولاه العوام من الناس، فباطل، لأن الذين قتلوه غير منكر أن يكونوا تعمدوا قتله، وإنما طلبه بأن يخلع نفسه لما ظهر لهم من إحداثه، ويعتزل عن الأمر اعتزالاً يتمكنون معه من إقامة غيره، فلج وصمم على الامتناع، وأقام على أمر واحد، فقصد القوم بحصره أن يلجئوه إلى خلع نفسه، فاعتصم بداره، واجتمع إليه نفر من أوباش بني أمية، يدفعون عنه، ويرمون من دنا إلى الدار، فأنتهى الأمر إلى القتال بتدريج؛ ثم إلى القتل، ولم يكن القتال ولا القتل مقصودين في الأصل، وإنما أفضى الأمر إليهما على ترتيب، وجرى ذلك مجرى ظالم غلب إنساناً على رحله أو متاعه، فالواجب على المغلوب أن يمانعه ويدفعه ليخلص ماله من يده، ولا يقصد إلى إتلافه ولا قتله، فإن أفضى الأمر إلى ذلك بلا قصد كان معذوراً، وإنما خاف القوم - في الثاني به، والصبر عليه، إلى أن يخلع نفسه - من كتبه التي طارت في الآفاق، يستنصر عليهم ويستقدم الحيوش إليهم، ولم يأمنوا أن يرد بعض من يدفع عنه فيؤدي ذلك إلى الفتنة الكبرى والبلية العظمى.

وأما منع الماء والطعام فما فعل ذلك إلا تضييقاً عليه؛ ليخرج ويحج إلى الخلع الواجب عليه. وقد يستعمل في الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرم من ذوي الجنايات، وتعذر إقامة الحد عليه لمكان الحرم. على أن أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكر منع الماء والطعام، وأنفذ من مكن من حمل ذلك، لأنه قد كان في الدار من الحرم والنسوان والصبيان من لا يحل منعه من الطعام والشراب. ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمع عليه والتضافر فيه حكم منع الطعام والشراب في القبح والمنكر، لأنكره أمير المؤمنين عليه السلام، ومنع منه كما منع من غيره، فقد روي عنه عليه السلام أنه لما بلغه أن القوم قد منعوا الدار من الماء، قال: لا أرى ذلك، إن في الدار صبياناً وعيالاً، لا أرى أن يقتل هؤلاء عطشاً بجرم عثمان. فصرح بالمعنى الذي ذكرناه، ومعلوم أن أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلع، بل كان مساعداً على ذلك ومشاوراً فيه.

فأما قوله: إن قتل الظالم إنما يحل على سبيل الدفع؛ فقد بينا أنه لا ينكر أن يكون قتله وقع على ذلك الوجه، لأنه في

تمسكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها، في حكم الظالم لهم، فمدافعتهم واجبة.

وأما قصة الكتاب الموجود؛ فلم يحكمها على الوجه؛ وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها.

وأما قوله: إنه قال: إن كنت أخطأت أو تعمدت، فإني تائب مستغفر، فقد أجابه القوم عن هذا، وقالوا: هكذا قلت في المرة الأولى؛ وخطبت على المنبر بالتوبة والاستغفار؛ ثم وجدنا كتابك بما يقتضي الإصرار على أقبح ما عتبنا منه، فكيف نثق بتوبتك واستغفارك! فأما قوله: إن القتل على وجه الغيلة لا يحل فيمن يستحق القتل، فكيف فيمن لا يستحقه! فقد بينا أنه لم يكن على سبيل الغيلة، وأنه لا يمتنع أن يكون إنما وقع على سبيل المدافعة.

فأما ادعاؤه أنه منع من نصرته، وأقسم على عبيده بترك القتال؛ فقد كان ذلك لعمرى في ابتداء الأمر ظناً منه أن الأمر ينصلح؛ والقوم يرجعون عما هموا به، فلما اشتد الأمر، ووقع اليأس من الرجوع والتزوع، لم يمنع أحداً من نصرته والمحاربة عنه، وكيف يمنع من ذلك، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصره ويستصرخه! والذي يدل على أنه لم يمنع في الإبتداء من محاربتهم إلا للوجه الذي ذكرناه دون غيره، أنه لا خلاف بين أهل الرواية في أن كتبه تفرقت في الآفاق يستنصر ويستدعي الجيوش، فكيف يرغب عن نصرته الحاضر من يستدعي نصرته الغائب! فأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتيه، حتى منعه ابنه محمد، فقول بعيد مما جاءت به الرواية جداً، لأنه لا إشكال في أن أمير المؤمنين عليه السلام لما واجهه عثمان بأنه يتهمة ويستغشه، انصرف مغضباً عامداً على أنه لا يأتيه أبداً، قائلاً فيه ما يستحقه من الأقوال.

فأما قوله في جواب سؤال من قال إنهم اعتقدوا فيه أنه من المفسدين في الأرض، وأن آية المحاربة تتناولها، وأنه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه، لأن ذلك يجري مجرى الحد، لأن الإمام يتولى ما يجري هذا المجرى إذا كان منصوباً ثابتاً، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمام يجوز أن يتولى ما يجري مجرى الحدود؛ ومتى لم يكن إمام يقوم بالدفع عن الدين والذب عن الأمة، جاز أن يتولى الأمة ذلك بنفسها.

قال: وما رأيت أعجب من ادعاء مخالفينا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا كارهين لما جرى على عثمان، وأنهم كانوا يعتقدونه منكراً وظلماً، وهذا يجري عند من تأمله مجرى دفع الضرورات قبل النظر في الأخبار، وسماع ما ورد من شرح هذه القصة، لأنه معلوم أن ما يكرهه جميع الصحابة أو أكثرهم في دار عزهم، وبحيث ينفذ أمرهم ونهيهم لا يجوز أن يتم. ومعلوم أن نفرًا من أهل مصر لا يجوز أن يقدموا المدينة فيغلبوا جميع المسلمين على آرائهم، ويفعلوا بإمامهم ما يكرهونه بمرأى منهم ومسمع؛ وهذا معلوم بطلانه بالبداهة والضرورات قبل تصفح الأخبار وتأملها. وقد روى الواقدي عن ابن أبي الزناد، عن أبي جعفر القاري مولى بني مخزوم، قال: كان المصريون الذين حصروا عثمان ستمائة، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر الكندي، وعمر بن الحمق الخزاعي. والذين قدموا المدينة من الكوفة مائتين، عليهم مالك الأشتر النخعي.

والذين قدموا من البصرة مائة رجل، رئيسهم حكيم بن جبلة العبدي، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين خذلوه لا يرون أن الأمر يبلغ به القتل، ولعمرى لو قام بعضهم فحشا التراب في وجوه أولئك لانصرفوا، وهذه الرواية

تضمنت من عدد القوم الوافدين في هذا الباب أكثر مما تضمنه غيرها.

وروى شعبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، قال: قلت له: كيف لم يمنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عثمان؟ فقال: إنما قتله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروي عن أبي سعيد الخدري، أنه سئل عن مقتل عثمان: هل شهدته أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: نعم، شهدته ثمانمائة.

وكيف يقال: إن القوم كانوا كارهين، وهؤلاء المصريون كانوا يغدون إلى كل واحد منهم، ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو عاقد الأمر لعثمان، وجالبه إليه، ومصيره في يده، يقول - على ما رواه الواقدي، وقد ذكر له عثمان في مرضه الذي مات فيه: عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه، فبلغ ذلك عثمان فبعث إلى بئر كان عبد الرحمن يسقي منها نعمة، فمنع منها، ووصى عبد الرحمن ألا يصلي عليه عثمان؛ فصلى عليه الزبير - أو سعد بن أبي وقاص - وقد كان حلف لما تابعت أحداث عثمان ألا يكلمه أبداً.

وروى الواقدي، قال: لما توفي أبو ذر بالربذة تذاكر أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الرحمن فعل عثمان، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له: هذا عملك! فقال عبد الرحمن: فإذا شئت فخذ سيفك وأخذ سيفي، إنه خالف ما أعطاني. فأما محمد بن مسلمة؛ فإنه أرسل إليه عثمان يقول له عند قدوم المصريين في الدفعة الثانية: اردد عني، فقال: لا والله لا أكذب الله في سنة مرتين، وإنما عني بذلك أنه كان أحد من كلم المصريين في الدفعة الأولى، وضمن لهم عن عثمان الرضا.

وفي رواية الواقدي أن محمد بن مسلمة، كان يموت وعثمان محصور، فيقال له: عثمان مقتول، فيقول: هو قتل نفسه. فأما كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وطلحة والزبير وعائشة، وجميع الصحابة واحداً واحداً، فلو تعاطيناه ذكره لطلال به الشرح؛ ومن أراد أن يقف على أقوالهم مفصلة، وما صرحوا به من خلعه والإجلاب عليه؛ فعليه بكتاب الواقدي، فقد ذكر هو وغيره من ذلك ما لا زيادة عليه.

الطعن الثاني: كونه رد الحكم بن أبي العاص إلى المدينة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرده، وامتنع أبو بكر من رده، فصار بذلك مخالفاً للسنة ولسيرة من تقدمه، مدعياً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، عاملاً بدعواه من غير بينة.

قال قاضي القضاة رحمه الله: وجوابنا عن ذلك أن المروي في الأخبار أنه لما عوتب في ذلك ذكر أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه؛ وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد، وكذلك روي عنهما، فكأنهما جعلاً ذلك بمثلة الحقوق التي تختص، فلم يقبلوا فيه خبر واحد، وأجرياه مجرى الشهادة، فلما صار الأمر إليه حكم بعلمه، لأن الحاكم أن يحكم بعلمه في هذا الباب وفي غيره عند شيخنا، ولا يفصلان بين حد وحق، ولا بين أن يكون العلم قبل الولاية أو حال الولاية، ويقولان: إنه أقوى من البينة والإقرار.

وقال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: إنه لا وجه يقطع به على كذب روايته في إذن النبي صلى الله عليه وسلم في رده، ولا بد من تجويز كونه صادقاً؛ وفي تجويز ذلك كونه معذوراً.

فإن قيل: الحاكم إنما يحكم بعلمه مع زوال التهمة، وقد كانت التهمة في رد الحكم قوية لقرايته! قيل: الواجب على غيره ألا يتهمه؛ إذا كان لفعله وجه يصح عليه؛ لأنه قد نصب منصباً يقتضي زوال التهمة عنه، وحمل أفعاله على الصحة، ومتى طرقت عليه التهمة أدى إلى بطلان كثير من الأحكام. وقد قال الشيخ أبو الحسين الخياط رحمه الله تعالى: إنه لو لم يكن في رده من رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد، لأن النفي إذا كان صلاحاً في الحال لا يمتنع أن يتغير حكمه باختلاف الأوقات وتغير حال المنفي، وإذا كان لأبي بكر أن يسترد عمر من جيش أسامة للحاجة إليه - وإن كان قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفوذه - من حيث تغيرت الحال؛ فغير ممتنع مثله في الحكم.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا، فقال: أما دعواه أن عثمان ادعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في رد الحكم فشيء لم يسمع إلا من قاضي القضاة، ولا يدري من أين نقله، ولا في أي كتاب وجده! والذي رواه الناس كلهم خلاف ذلك؛ روى الواقدي من طرق مختلفة وغيره أن الحكم بن أبي العاص لما قدم المدينة بعد الفتح، أخرجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وقال: لا تساكني في بلد أبداً، فجاءه عثمان فكلمه فأبى، ثم كان من أبي بكر مثل ذلك، ثم كان من عمر مثل ذلك، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه، فمشى في ذلك علي والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر؛ حتى دخلوا على عثمان فقالوا له: إنك قد أدخلت هؤلاء القوم - يعنون الحكم ومن معه - وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أخرجهم، وإنا نذكرك الله والإسلام ومعادك؛ فإن لك معاداً ومنقلباً، وقد أبت ذلك الولاية قبلك، ولم يطمع أحد أن يكلمها فيهم، وهذا شيء نخاف الله فيه عليك. فقال عثمان: إن قرابتهم مني ما تعلمون؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كلمته أطمعني في أن يأذن لهم، وإنما أخرجهم لكلمة بلغته عن الحكم، ولم يضرهم مكافهم شيئاً، وفي الناس من هو شر منهم. فقال علي عليه السلام: لا أجد شراً منه ولا منهم، ثم قال: هل تعلم عمر يقول: والله ليحملن بني أبي معيط على رقاب الناس! والله إن فعل ليقتلنه، فقال عثمان: ما كان منكم أحد ليكون بينه وبينه من القراية ما بيني وبينه، وينال من المقدرة ما نلت إلا قد كان سيدخله، وفي الناس من هو شر منه. قال: فغضب علي عليه السلام، وقال: والله لتأتينا بشر من هذا إن سلمت، وسترى يا عثمان غب ما تفعل! ثم خرجوا من عنده.

وهذا كما ترى خلاف ما ادعاه صاحب المغني لأن الرجل لما احتفل ادعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أطمعه في رده، ثم صرحه بأن رعيته في القراية هي الموجبة لرده ومخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد روي من طرق مختلفة أن عثمان لما كلم أبا بكر وعمر في رد الحكم أغلظا له وزبراه، وقال له عمر: يخرجك رسول الله صلى الله عليه وسلم وتامرني أن أدخله! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل: غير عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لأن أشق بائنتين كما تشق الأبلمة أحب إلي من أن أخالف لرسول الله أمراً، وإياك يابن عفان أن تعاودني فيه بعد اليوم؛ وما رأينا عثمان قال في جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبي بكر وعمر: إن عندي عهداً من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، لا أستحق معه عتاباً ولا تهجيناً، وكيف تطيب نفس مسلم موقر لرسول الله صلى الله عليه وسلم معظم له، أن يأتي إلى عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم، مصرح بعداوته والوقية فيه؛ حتى بلغ به الأمر إلى أن كان يحكي مشيته، طرده رسول

الله، وأبعده ولعنه، حتى صار مشهوراً بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكرمه ويرده إلى حيث أخرج منه، ويصله بالمال العظيم: إما من مال المسلمين أو من ماله! إن هذا لعظيم كبير قبل التصفح والتأمل والتعلل بالتأويل الباطل! فأما قول صاحب المغني: إن أبا بكر وعمر لم يقبلوا قوله لأنه شاهد واحد، وجعل ذلك بمرتبة الحقوق التي تخص، فأول ما فيه أنه لم يشهد عندهما بشيء واحد في باب الحكم على ما رواه جميع الناس؛ ثم ليس هذا من باب الذي يحتاج فيه إلى الشاهدين، بل هو بمرتبة كل ما يقبل فيه أخبار الآحاد. وكيف يجوز أن يجري أبو بكر وعمر بحرق الحقوق ما ليس منها! وقوله: لا بد من تجويز كونه صادقاً في روايته؛ لأن القطع على كذب روايته لا سبيل إليه ليس بشيء، لأننا قد بينا أنه لم يرو عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذناً، إنما ادعى أنه أطمعه في ذلك. وإذا جوزنا كونه صادقاً في هذه الرواية؛ بل قطعنا على صدقه لم يكن معذوراً.

فأما قوله: الواجب على غيره ألا يتهمه إذا كان لفعله وجه يصح عليه؛ لانتصابه منصباً يزيل التهمة، فأول ما فيه أن الحاكم لا يجوز أن يحكم بعلمه مع التهمة، والتهمة قد تكون لها أمارات وعلامات؛ فما وقع منها عن أمارات وأسباب تهم في العادة كان مؤثراً؛ وما لم يكن كذلك فلا تأثير له، والحكم هو عم عثمان، وقريبه ونسيبه، ومن قد تكلم في رده مرة بعد أخرى، ولوال بعد وال، وهذه كلها أسباب التهمة، فقد كان يجب أن يتجنب الحكم بعلمه في هذا الباب خاصة، لتطرق التهمة إليه.

فأما ما حكاه عن أبي الحسين الخياط من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو لم يأذن في رده لجاز أن يرده إذا أذاه اجتهداه إلى ذلك، لأن الأحوال قد تتغير - فظاهر البطلان؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا حظر شيئاً أو أباحه لم يكن لأحد في إباحة المحظور أو حظر المباح، ومن يجوز الاجتهاد في الشريعة لا يقدم على مثل هذا، لأنه إنما يجوز عندهم فيما لا نص فيه. ولو سوغنا الاجتهاد في مخالفة ما تناوله النص لم يؤمن أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى تحليل الخمر وإسقاط الصلاة، بأن تتغير الحال، وهذا هدم للشريعة. فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام في الأمرين واحد. الطعن الثالث: أنه كان يؤثر أهل بيته بالأموال العظيمة التي هي عدة للمسلمين، نحو ما روي أنه دفع إلى أربعة أنفس من قريش زوجهم بناته أربع مائة ألف دينار، وأعطى مروان مائة ألف عند فتح إفريقية، ويروي خمس إفريقية، وغير ذلك، وهذا بخلاف سيرة من تقدمه في القسمة على الناس بقدر الاستحقاق، وإيثار الأبعاد على الأقارب.

قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أن من الظاهر المشهور أن عثمان كان عظيم اليسار، كثير المال، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهل بيته من ماله، وإذا احتمل ذلك وجب حمله على الصحة.

وقد قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: إن الذي روي من دفعه إلى ثلاثة نفر من قريش زوجهم بناته، إلى كل واحد منهم مائة ألف دينار، إنما هو من ماله، ولا رواية تصح أنه أعطاهم ذلك من بيت المال، ولو صح ذلك لكان لا يمتنع أن يكون أعطاهم من بيت المال ليرد عوضه عن ماله، لأن للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك، كما له أن يقرض غيره.

وقال شيخنا أبو علي أيضاً: إن ما روي من دفعه خمس إفريقية لما فتحت إفريقية إلى مروان؛ ليس بمحفوظ ولا منقول على وجه يجب قبوله؛ وإنما يرويه من يقصد التشنيع. وقد قال الشيخ أبو الحسين الخياط: إن ابن أبي سرح لما غزا البحر،

ومعه مروان في الجيش، ففتح الله عليهم، وغنموا غنيمة عظيمة، اشترى مروان من ابن أبي سرح الخمس بمائة ألف، وأعطاه أكثرها، ثم قدم على عثمان بشيراً بالفتح، وقد كانت قلوب المسلمين تعلق بأمير ذلك الجيش، فرأى عثمان أن يهب له ما بقي عليه من المال، وللإمام فعل مثل ذلك، ترغيباً في مثل هذه الأمور.

قال: وهذا الصنع كان منه في السنة الأولى من إمامته، ولم يبرأ أحد منه فيها، فلا وجه للتعليق بذلك. وذكر أبو الحسين الخياط أيضاً فيما أعطاه أقرابه أنه وصلهم لحاجتهم، فلا يمتنع مثله في الإمام إذا رآه صلاحاً. وذكر في إقطاعه القطائع لبني أمية، أن الأئمة قد تحصل في أيديهم الضياع لا مالك لها، ويلمون أنها لا بد فيها ممن يقوم بإصلاحها وعمارتها، ويؤدي عنها ما يجب من الحق، فله أن يصرف من ذلك إلى من يقوم به، وله أيضاً أن يهد بعضها على بعض بحسب ما يعلم من الصلاح والتألف، وطريق ذلك الاجتهاد.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله، فالرواية بخلاف ذلك، وقد صرح الرجل بأنه كان يعطي من بيت المال صلة لرحمه، ولما عوتب على ذلك لم يعتذر عنه بهذا الضرب من العذر، ولا قال: إن هذه العطايا من مالي، فلا اعتراض لأحد فيها. روى الواقدي بإسناده عن المسور بن عتبة، قال: سمعت عثمان يقول: إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامهما، وإني تأولت فيه صلة رحي.

وروي عنه أيضاً أنه كان بحضرته زياد بن عبيد، مولى الحارث بن كلدة الثقفي، وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البصرة، فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصحاف، فبكى زياد فقال: لا تبك، فإن عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي أهلي وولدي وقرابتي ابتغاء وجه الله، وقد روي هذا المعنى عنه في عدة طرق بألفاظ مختلفة.

وروى الواقدي أيضاً بإسناده، قال: قدمت إبل من إبل الصدقة على عثمان، فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص. وروي أيضاً أنه ولي الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة، فبلغت ثلاثمائة ألف فوهبها له حين أتاه بها. وروى أبو مخنف والواقدي أن الناس أنكروا على عثمان إعطاء سعيد بن العاص مائة ألف، وكلمه علي والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن في ذلك، فقال: إن له قرابةً ورحماً، قالوا: فما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذوو رحم؟ فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي، قالوا: فهديهما - والله - أحب إلينا من هديك. وروى أبو مخنف أن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، قدم على عثمان من مكة، ومعه ناس، فأمر لعبد الله بثلاثمائة ألف، ولكل واحد من القوم بمائة ألف وصك بذلك على عبد الله بن الأرقم - وكان خازن بيت المال - فاستكثره ورد الصك به. ويقال: إنه سأل عثمان أن يكتب عليه بذلك كتاباً، فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفع المال إلى القوم، فقال له عثمان: إنما أنت خازن لنا، فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن الأرقم: كنت أراي خازن المسلمين، وإنما خازنك غلامك، والله لا ألي لك بيت المال أبداً، وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر، ويقال: بل ألقاها إلى عثمان، فرفعها إلى نائل مولاه.

وروى الواقدي أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم في عقيب هذا الفعل

ثلاثمائة ألف درهم، فلما دخل بها عليه، قال له: يا أبا محمد، إن أمير المؤمنين أرسل إليك يقول: إنا قد شغلناك عن التجارة، ولك ذوو رحم أهل حاجة، ففرق هذا المال فيهم، واستعن به على عيالك، فقال عبد الله بن الأرقم: ما لي إليه حاجة، وما عملت لأن يثيبني عثمان، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قدر عملي أن أعطى ثلاثمائة ألف، ولئن كان من مال عثمان ما أحب أن أرزاه من ماله شيئاً. وما في هذه الأمور أوضح من أن يشار إليه وبينه عليه. فأما قوله: ولو صح أنه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكون ذلك على طريق القرض، فليس بشيء؛ لأن الروايات أولاً تخالف ما ذكره، وقد كان يجب لما نقم عليه وجوه الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال، أن يقول لهم: هذا على سبيل القرض، وأنا أرد عوضه، ولا يقول ما تقدم ذكره، من أنني أصل به رحمي، على أنه ليس للإمام أن يقترض من بيت مال المسلمين إلا ما ينصرف في مصلحة لهم مهمة؛ يعود عليهم نفعها، أو في سد خلة وفاقة لا يتمكنون من القيام بالأمر معها، فاما أن يقرض المال ليتسع به، وبمرح فيه مترفي بني أمية وفساقهم فلا أحد يجيز ذلك.

فأما قوله حاكياً عن أبي علي: إن دفعه خمس إفريقية إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول، فباطل؛ لأن العلم بذلك يجري مجرى العلم بسائر ما تقدم، ومن قرأ الأخبار علم ذلك على وجه لا يعترض فيه شك، كما يعلم نظائره.

روى الواقدي عن أسامة بن زيد، عن نافع مولى الزبير، عن عبد الله بن الزبير، قال: أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقية، فأصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح غنائم جلييلة، فأعطى عثمان مروان بن الحكم تلك الغنائم. وهذا كما ترى يتضمن الزيادة على إعطاء الخمس، ويتجاوزها إلى إعطاء الأصل.

وروى الواقدي، عن عبد الله بن جعفر، عن أم بكر بنت أم المسور، قالت: لما بنى مروان داره بالمدينة، دعا الناس إلى طعامه، وكان المسور ممن دعاه، فقال مروان وهو يحدثهم: والله ما أنفقت في داري هذه من مال المسلمين درهماً فما فوقه، فقال المسور: لو أكلت طعامك وسكت كان خيراً لك. لقد غزوت معنا إفريقية، وإنك لأقلنا مالاً ورقيقاً وأعواناً، وأخفنا ثقلًا، فأعطاك ابن عمك خمس إفريقية، وعملت على الصدقات، فأخذت أموال المسلمين.

وروى الكلبي عن أبيه، عن أبي مخنف أن مروان ابتاع إفريقية بمائتي ألف درهم أو مائتي ألف دينار، وكلم عثمان، فوهبها له، فأنكر الناس ذلك على عثمان. وهذا بعينه هو الذي اعترف به أبو الحسين الحياط واعتذر عنه بأن قلوب المسلمين تعلقت بأمر ذلك الجيش، فرأى عثمان أن يهب لمروان ثمن ما ابتاعه من الخمس لما جاءه بشيراً بالفتح على سبيل الترغيب. وهذا الاعتذار ليس بشيء؛ لأن الذي رويناه من الأخبار في هذا الباب خالٍ من البشارة، وإنما يقتضي أنه سأله ترك ذلك عليه، فتركه وابتدأ هو بصلته، ولو أتى بشيراً بالفتح كما ادعوا لما جاز أن يترك عليه خمس الغنيمة العائد نفعه على المسلمين، لأن تلك البشارة لا تبلغ إلى أن يستحق البشير بها مائتي ألف درهم، ولا اجتهد في مثل هذا، ولا فرق بين من جوز أن يؤدي الاجتهاد إلى مثله ومن جوز أن يؤدي الاجتهاد إلى دفع أصل الغنيمة إلى البشير بها، ومن ارتكب ذلك ألزم جواز أن يؤدي الاجتهاد إلى إعطاء هذا البشير جميع أموال المسلمين في الشرق والغرب.

فأما قوله: إنه وصل بني عمه لحاجتهم، ورأى في ذلك صلاحاً؛ فقد بينا أن صلاته لهم كانت أكثر مما تقضيه الخلة والحاجة، وأنه كان يصل فيهم المياسير. ثم الصلاح الذي زعم أنه رآه، لا يخلو إما أن يكون عائداً على المسلمين، أو على

أقاربه؛ فإن كان على المسلمين فمعلوم ضرورة أنه لا صلاح لأحد من المسلمين في إعطاء مروان مائتي ألف دينار، والحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وابن أسيد ثلاثمائة ألف درهم، إلى غير ما ذكرنا، بل على المسلمين في ذلك غاية الضرر. وإن أراد الصلاح الرجوع إلى الأقارب فليس له أن يصلح أمر أقاربه بفساد أمر المسلمين. وينفعهم بما يضر به المسلمين.

وأما قوله: إن القطائع التي أقطعها بني أمية، أقطعهم إياها لمصلحة تعود على المسلمين، لأن تلك الضياع كانت خراباً لا عامر لها، فسلمها إلى من يعمرها ويؤدي الحق عنه، فأول ما فيه أنه لو كان الأمر على ما ذكره، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصلة والمعونة لأقاربه لما خفي ذلك على الحاضرين، ولكانوا لا يعدون ذلك من مثالبه، ولا يوافقونه عليه في جملة ما واقفوه عليه من إحدائه. ثم كان يجب لو فعلوا ذلك أن يكون جوابه بخلاف ما روي من جوابه، لأنه كان يجب أن يقول لهم: وأي منفعة في هذه القطائع عائدة على قرابتي حتى تعدوا ذلك من جملة صلاتي لهم؛ وإيصالي المنافع إليهم! وإنما جعلتهم فيها بمنزلة الأكررة الذين ينتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم، وما كان يجب أن يقول ما تقدمت روايته، من أني محتسب في إعطاء قرابتي، وأن ذلك على سبيل الصلة لرحمي، إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذي ذكره. الطعن الرابع: أنه حمى الحمى عن المسلمين، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء في الماء والكلاء. قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أنه لم يحم الكلاء لنفسه، ولا استأثر به، لكنه حماه لإبل الصدقة التي منفعتها تعود على المسلمين. وقد روي عنه هذا الكلام بعينه، وأنه قال: إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة، وقد أطلقته الآن، وأنا أستغفر الله، وليس في الاعتذار ما يزيد عن ذلك.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما أولاً فالمروي بخلاف ما ذكر، لأن الواقدي روى بإسناده، قال: كان عثمان يحمي الربذة والشرف والبقيع، فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس، ولا لبني أمية حتى كان آخر الزمان، فكان يحمي الشرف لإبله وكانت ألف بعير، وإبل الحكم بن أبي العاص، ويحمي الربذة لإبل الصدقة، ويحمي البقيع لحيل المسلمين وخيله وخيل بني أمية.

قال: على أنه لو كان إنما حماه لإبل الصدقة لم يكن بذلك مصيباً، لأن الله تعالى ورسوله أباحا الكلاء؛ وجعلاه مشتركاً؛ فليس لأحد أن يغير هذه الإباحة. ولو كان في هذا الفعل مصيباً، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أن يستغفر الله منه ويعتذر، لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب. الطعن الخامس: أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها، وذلك مما لا يحل في الدين.

قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أنه إنما جاز له ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة، واستغناء أهل الصدقة، ففعل ذلك على سبيل الإقراض، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله، وللإمام في مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرى هذا الجرى؛ لأن عند الحاجة ربما يجوز له أن يقترض من الناس؛ فأن يجوز له أن يتناول من مالٍ في يده، ليرد عوضه من المال الآخر أولى.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: إن المال الذي جعل الله تعالى له جهة مخصوصة، لا يجوز أن يعدل به

عن جهته بالاجتهاد، ولو كانت المصلحة في ذلك موقوفة على الحاجة لشرطها الله تعالى في هذا الحكم، لأنه سبحانه أعلم بالمصالح واختلافها منا، ولكان لا يجعل لأهل الصدقة منها القسط مطلقاً.

وأما قوله: إن الرسول صلى الله عليه وسلم فعل مثله، فهي دعوة مجردة من برهان، وقد كان يجب أن يروي ما ذكر في ذلك. وأما ما ذكره من الاقتراض، فأين كان عثمان عن هذا العذر لما ووقف عليه!.

الطعن السادس: أنه ضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر بعض أضلاعه.

قال قاضي القضاة: قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: لم يثبت عندنا ولا صح عندنا ما يقال من طعن عبد الله عليه، وإكفاره له، والذي يصح من ذلك أن عبد الله كره منه جمعه الناس على قراءة زيد بن ثابت وإحراقه المصاحف، وثقل ذلك عليه كما يثقل على الواحد منا تقديم غيره عليه.

وقد قيل: إن بعض موالي عثمان ضربه لما سمع منه الواقعة في عثمان، ولو صح أنه أمر بضربه لم يكن بأن يكون طعنًا في عثمان بأولى من أن يكون طعنًا في ابن مسعود، لأن للإمام تأديب غيره، وليس لغيره الواقعة فيه إلا بعد البيان. وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الحياط أن ابن مسعود إنما عابه لعزله إياه؛ وقد روي أن عثمان اعتذر إليه فلم يقبل عذره، ولما أحضر إليه عطاءه في مرضه، قال ابن مسعود: منعتني إياه إذ كان ينفعني، وجئتني به عند الموت! لا أقبله. وأنه وسط أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليزيل ما في نفسه فلم يجب؛ وهذا يوجب ذم ابن مسعود إذ لم يقبل الندم، ويوجب براءة عثمان من هذا العيب، لو صح ما روه من ضربه.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: المعلوم المروي خلاف ما ذكره أبو علي، ولا يختلف أهل النقل في طعن ابن مسعود على عثمان، وقوله فيه أشد الأقوال وأعظمها، والعلم بذلك كالعلم بكل ما يدعي فيه الضرورة، وقد روى كل من روى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طرقهم أن ابن مسعود كان يقول: ليتني وعثمان برمل عاجل يحثو علي واحثو عليه حتى يموت الأعجز مني ومنه! ورووا أنه كان يطعن عليه، فيقال له: ألا خرجت عليه، ليخرج معك! فيقول: لأن أزاول جبلاً راسياً أحب إلي من أن أزاول ملكاً مؤجلاً.

وكان يقول كل يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلناً: إن أصدق القول كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وإنما كان يقول ذلك معرضاً بعثمان حتى غضب الوليد بن عقبة من استمرار تعريضه، ونهاه عن خطبته هذه، فأبى أن ينتهي، فكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان يستقدمه عليه.

وروي أنه لما خرج عبد الله بن مسعود إلى المدينة مزعجاً عن الكوفة خرج الناس معه يشيعونه، وقالوا له: يا أبا عبد الرحمن، ارجع، فوالله لا نوصله إليك أبداً، فإننا لا نأمنه عليك، فقال: أمر سيكون، ولا أحب أن أكون أول من فتحه. وقد روي عنه أيضاً من طرق لا تحصى كثرة أنه كان يقول: ما يزن عثمان عند الله جناح ذباب، وتعاطي ما روي عنه في هذا الباب يطول، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه؛ وإنه بلغ من إصرار عبد الله على مظاهرتة بالعداوة أن قال لما حضره الموت: من يتقبل مني وصية أوصيه بها على ما فيها! فسكت القوم، وعرفوا الذي يريد، فأعادها، فقال عمار بن ياسر رحمه الله تعالى: أنا أقبلها، فقال ابن مسعود: ألا يصلي علي عثمان، قال: ذلك لك، فيقال: إنه لما دفن

جاء عثمان منكرًا لذلك، فقال له قائل: إن عماراً ولي الأمر، فقال لعمار: ما حملك على أن تؤذني؟ فقال: عهد إلي ألا أؤذنك، فوقف على قبره وأثنى عليه، ثم انصرف وهو يقول: رفعتم والله أيديكم عن خير من بقي، فتمثل الزبير بقول الشاعر:

وفي حياتي ما زودتني زادي

لا ألفينك بعد الموت تندبني

ولما مرض ابن مسعود مرضه الذي مات فيه، أتاه عثمان عائداً، فقال: ما تشتهي؟ فقال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا آمر لك بعطائك؟ قال: منعنيته وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغن عنه! قال: يكون لولدك، قال: رزقهم على الله تعالى، قال: استغفر لي يا أبا عبد الرحمن، قال: أسأل الله أن يأخذ لي منك حقي.

قال: وصاحب المغني قد حكى بعض هذا الخبر في آخر الفصل الذي حكاه من كلامه، وقال: هذا يوجب ذم ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر، وهذا منه طريف، لأن مذهبه لا يقتضي قبول كل عذر ظاهر، وإنما يجب قبول العذر الصادق، الذي يغلب في الظن أن الباطن فيه كالظاهر، فمن أين لصاحب المغني أن يعتذر عثمان إلى ابن مسعود كان مستوفياً للشرائط التي يجب معها القبول! وإذا جاز ما ذكرناه لم يكن على ابن مسعود لوم في الامتناع من قبول عذره. فأما قوله: إن عثمان لم يضربه، وإنما ضربه بعض مواليه لما سمع وقيعته فيه، فالأمر بخلاف ذلك، وكل من قرأ الأخبار علم أن عثمان أمر بإخراجه من المسجد على أعنف الوجوه، وبأمره جرى ما جرى عليه، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كسر ضلعه، ويعتذر إلى من عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول: إني لم آمر بذلك ولا رضيته من فاعله، وقد أنكرت عليه فعله.

وفي علمنا بأن ذلك لم يكن دليلاً على ما قلنا، وقد روى الواقدي بإسناده وغيره أن ابن مسعود لما استقدم المدينة، دخلها ليلة الجمعة، فلما علم عثمان بدخوله، قال: أيها الناس، إنه قد طرركم الليلة دويبة، من تمشي على طعامه يقيء ويسلح. فقال ابن مسعود: لست كذلك، ولكنني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وصاحبه يوم أحد، وصاحبه يوم بيعة الرضوان، وصاحبه يوم الخندق، وصاحبه يوم حنين. قال: وصاحت عائشة: يا عثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال عثمان: اسكتي؛ ثم قال لعبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن عبد العزى بن قصي: أخرجه إخراجاً عنيفاً، فأخذ ابن زمعة، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد، فضرب به الأرض، فكسر ضلعاً من أضلاعه، فقال ابن مسعود: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان، وفي رواية أخرى إن ابن زمعة الذي فعل به ما فعل كان مولى لعثمان أسود مسدماً طوالاً. وفي رواية أخرى: إن فاعل ذلك يحموم مولى عثمان. وفي رواية أخرى: إنه لما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبد الله: أنشدك الله، ألا تخرجني من مسجد خليل صلى الله عليه وسلم.

قال الراوي: فكأنني أنظر إلى حموشة ساقى عبد الله بن مسعود ورجلاه تحتلفان على عنق مولى عثمان حتى أخرج من المسجد، وهو الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لساقا ابن أم عبد أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطاً في دفنه أبا ذر. وهذه قصة أخرى، وذلك أن أبا ذر رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بالربذة، وليس معه إلا امرأته وغلّامه عهد إليهما أن يغسلاني ثم كفناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم قولوا لهم: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعينونا على دفنه، فلما مات فعلوا ذلك، وأقبل ابن مسعود في ركب من العراق معتمرين، فلم يرعهم إلا الجنّازة على قارعة الطريق، قد كادت الإبل تطوّها، فقام إليهم العبد فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعينونا على دفنه، فاهل ابن مسعود باكياً، وقال: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له: "تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك"، ثم نزل هو وأصحابه، فواروه.

قال: فأما قوله إن ذلك ليس بأن يكون طعنًا في عثمان بأولى من أن يكون طعنًا في ابن مسعود، فواضح البطلان، وإنما كان طعنًا في عثمان دون ابن مسعود، لأنه لا خلاف بين الأمة في طهارة ابن مسعود وفضله وإيمانه، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثنائه عليه، وأنه مات على الجملة المحمودة منه، وفي جميع هذا خلاف بين المسلمين في عثمان.

فأما قوله: إن ابن مسعود كره جمع عثمان الناس على قراءة زيد، وإحراقه المصاحف، فلا شك أن عبد الله كره ذلك، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكلموا فيه، وقد ذكر الرواة كلام كل واحد منهم في ذلك مفصلاً، وما كره عبد الله من ذلك إلا مكروهاً، وهو الذي يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه: "من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد". وروي عن ابن عباس رحمه الله تعالى أنه قال: قراءة ابن أم عبد هي القراءة الأخيرة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض عليه القرآن في كل سنة من شهر رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عرض عليه دفعتين، فشهد عبد الله ما نسخ منه، وما صح فهي القراءة الأخيرة. وروي عن الأعمش، قال: قال ابن مسعود: لقد أخذت القرآن من في رسول الله صلى الله عليه وسلم، سبعين سورة، وإن زيد بن ثابت لغلّام في الكتاب، له ذؤابة.

فأما حكايته عن أبي الحسين الخياط أن ابن مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه، فعبد الله عند كل من عرفه بخلاف هذه الصورة، وإنه لم يكن يخرج على عثمان ويطعن في إمامته بأمر يعود إلى منفعة الدنيا، وإن كان عزله بما لا شبهة فيه في دين ولا أمانة عيباً لا شك فيه.

الطعن السابع: أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت، وأحرق المصاحف، وأبطل ما لاشك أنه نزل من القرآن، وأنه مأخوذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو كان ذلك مما يسوغ لسبق إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولفعله أبو بكر وعمر.

قال قاضي القضاة: وجوابنا في ذلك أن الوجه في جمع القرآن على قراءة واحدة تحصين القرآن وضبطه، وقطع المنازعة والاختلاف فيه. وقولهم: لو كان ذلك واجباً لفعله الرسول صلى الله عليه وسلم غير لازم، لأن الإمام إذا فعله صار كان الرسول صلى الله عليه وسلم فعله، ولأن الأحوال في ذلك تختلف، وقد روي أن عمر كان عزم على ذلك فمات دونه.

وليس لأحد أن يقول: إن إحراقه المصاحف استخفاف بالدين، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرب المسجد الذي بني ضراراً وكفرأً، فغير ممتنع إحراق المصاحف.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: إن اختلاف الناس في القراءة ليس بموجب لما صنعه؛ لأنهم يروون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نزل القرآن على سبعة أحرف، كلها شافٍ كافٍ"، فهذا الاختلاف عندهم في القرآن مباح مسند عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فكيف يحظر عليهم عثمان من التوسع في الحروف ما هو مباح! فلو كان في القراءة الواحدة تحصيل القرآن كما ادعى، لما أباح النبي صلى الله عليه وسلم في الأصل إلا القراءة الواحدة؛ لأنه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته، من حيث كان مؤيداً بالوحي موفقاً في كل ما يأتي ويذر. وليس له أن يقول: حدث من الاختلاف في أيام عثمان ما لم يكن في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا ما أباحه، وذلك لأن الأمر لو كان على هذا لوجب أن ينهى عن القراءة الحادثة، والأمر المبتدع، ولا يحمله ما أحدث من القراءة على تحريم المتقدم بلا شبهة. وقوله: إن الإمام إذا فعل ذلك، فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم فعله تعلل بالباطل؛ وكيف يكون كما ادعى، وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو كان سبب الانتشار الزيادة في القرآن، وفي قطعه تحصيل له، لكان عليه السلام بالنهي عن هذا الاختلاف أولى من غيره، اللهم إلا أن يقال: حدث اختلاف لم يكن، فقد قلنا فيه ما كفى.

وأما قوله: إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه، فما سمعناه إلا منه، ولو فعل ذلك أي فاعل كان لكان منكراً، فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لا يكون استخفافاً بالدين، بحمله إياه على تخريب مسجد الضرار، فيين الأمرين بون بعيد، لأن البنين إنما يكون مسجداً وبيتاً لله تعالى بنية الباني وقصده، ولولا ذلك لم يكن بعض البنين بأن يكون مسجداً أولى من بعض، ولما كان قصد الباني لذلك الموضع غير القربة والعبادة، بل خلافها وضدها من الفساد والمكيدة، لم يكن في الحقيقة مسجداً، وإنما سمي بذلك مجازاً على ظاهر الأمر، فهدمه لا حرج فيه، وليس كذلك ما بين الدفتين؛ لأنه كلام الله تعالى الموقر المعظم، الذي يجب صيانتُه عن البذلة والاستخفاف، فأى نسبة بين الأمرين! الطعن الثامن: أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضرب، حتى حدث به فتق، ولهذا صار أحد من ظاهر المتظلمين من أهل الأمصار على قتله، وكان يقول: قتلناه كافراً.

قال قاضي القضاة: وقد أجاب شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال: إن ضرب عمار بن ياسر غير ثابت، ولو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه؛ لأن للإمام تأديب من يستحق التأديب. ومما يبعد صحة ذلك أن عماراً لا يجوز أن يكفره، ولما يقع منه ما يستوجب به الكفر، لأن الذي يكفر به الكافر معلوم، ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيره من الصحابة أولى بذلك، ولوجب أن يجتمعوا على خلعه، ولوجب أن يكون قتله مباحاً لهم، بل كان يجب أن يقيموا إماماً ليقتله على ما قدمناه، وليس لأحد أن يقول: إنما كفره عمار من حيث وثب على الخلافة، ولم يكن لها أهلاً، لأننا قد بينا القول في ذلك، ولأنه كان منصوباً لأبي بكر وعمر على ما تقدم، وقد بينا أن صحة إمامتهما تقتضي صحة إمامة عثمان.

وقد روي أن عماراً نازع الحسن بن علي عليه السلام في أمر عثمان فقال عمار: قتل عثمان كافراً، وقال الحسن عليه

السلام: قتل مؤمناً، وتعلق بعضهما ببعض، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: ماذا تريد من ابن أخيك؟ فقال: إني قلت كذا، وقال كذا، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: أتكفر برب كان يؤمن به عثمان! فسكت عمار؛ وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نقم عليه ضربه عمار احتج لنفسه، فقال: جاءني سعد وعمار، فأرسلا إلي أن ائتنا، فإننا نريد أن نذكرك أشياء فعلتها، فأرسلت إليهما: إني مشغول، فأنصرفا، فموعداً يوم كذا، فأنصرف سعد وأبي عمار أن ينصرف، فأعدت الرسول إليه فأبي أن ينصرف، فتناوله بغير أمري، ووالله ما أمرت به ولا رضيت؛ وها أنا، فليقتصص مني، قال: وهذا من أنصف قول وأعدله.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما الدفع لضرب عمار، فهو كالإنكار لطلوع الشمس ظهوراً وانتشاراً، وكل من قرأ الأخبار، وتصفح السير، يعلم من هذا الأمر ما لا تشبه عنه مكابرة ولا مدافعة، وهذا الفعل - أعني ضرب عمار - تختلف الرواة فيه؛ وإنما اختلفوا في سببه، فروى عباس بن هشام الكلبي عن أبي مخنف، في إسناده أنه كان في بيت المال بالمدينة سبط فيه حلى وجواهر، فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك، وكلموه فيه بكل كلام شديد؛ حتى أغضبوه، فخطب فقال: لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء، وإن رغمت به أنوف أقوام! فقال له علي عليه السلام: إذن تمنع من ذلك، ويحال بينك وبينه، فقال عمار: أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك، فقال عثمان: أعلي يابن ياسر تجترئ! خذوه، فأخذ ودخل عثمان، فدعا به فضربه حتى غشي عليه، ثم أخرج فحمل حتى أتى به منزل أم سلمة رضي الله عنها، فلم يصل الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق توضاً وصلى، وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أودينا في الله تعالى! فقال هشام بن الوليد ابن المغيرة المخزومي - وكان عمار حليفاً لبني مخزوم -: يا عثمان، أما علي فاتقيته، وأما نحن فاجترأت علينا، وضربت أخانا حتى اشفيت به على التلف؛ أما والله لئن مات لأقتلن به رجلاً من بني أمية عظيم الشأن! فقال عثمان: وإنك لهنا يابن القسرية، قال: فإنهما قسريتان - وكانت أم هشام وجدته قسريتين من بجيلة - فشتمه عثمان، وأمر به فأخرج، فأتي به أم سلمة رضي الله عنها، فإذا هي قد غضبت لعمار، وبلغ عائشة رضي الله عنها ما صنع بعمار، فغضبت أيضاً، وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونعلًا من نعاله، وثوبًا من ثيابه، وقالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد! وروى آخرون أن السبب في ذلك أن عثمان مر بقبر جديد، فسأل عنه، فقيل: عبد الله بن مسعود، فغضب على عمار لكتمانه إياه موته، إذ كان المتولي للصلاة عليه، والقيام بشأنه، فعندها وطئ عثمان عماراً حتى أصابه الفتق.

وروى آخرون أن المقداد وعماراً وطلحة والزبير وعدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبوا كتاباً عددوا فيه أحداث عثمان، وخوفوه به، وأعلموه أنهم موأثوه إن لم يقلع، فأخذ عمار الكتاب، فأثاه به، فقرأ منه صدرًا، ثم قال: أعلي تقدم من بينهم! فقال: لأني أنصحهم لك، قال: كذبت يابن سمية! فقال: أنا والله ابن سمية، وابن ياسر! فأمر عثمان غلماناً له، فمدوا يديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه - وهي في الخفين - على مذاكيره، فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً كبيراً فغشي عليه.

قال: فضرب عمار على ما ترى غير مختلف فيه بين الرواة، وإنما اختلفوا في سببه، والخبر الذي رواه صاحب المغني،

وحكاه عن أبي الحسين الخياط ما نعرفه، وكتب السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره، وقد كان يجب أن يضيفه إلى الموضوع الذي أخذ منه، فإن قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة، ولو كان صحيحاً لكان يجب أن يقول بدل قوله: ها أنا فليقتصص مني، إذا كان ما أمر بذلك، ولا رضي عنه، وإنما ضربه الغلام الجاني فليقتصص منه، فإنه أولى وأعدل. وبعد؛ فلا تنافي بين الروایتين لو كان ما رواه معروفاً، لأنه يجوز أن يكون غلامه ضربه في حال، وضربه هو في حال أخرى، والروايات إذا لم تتعارض لم يجوز إسقاط شيء منها.

فأما قوله: إن عماراً لا يجوز أن يكفره، ولم يقع منه ما يوجب الكفر، فإن تكفير عمار وغير عمار له معروف، وقد جاءت به الروايات، وقد روي من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة أن عماراً كان يقول: ثلاثة يشهدون على عثمان بالكفر وأنا الرابع، وأنا شر الأربعة، "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"، وأنا أشهد أنه قد حكم بغير ما أنزل الله.

وروي عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنه قيل له: بأي شيء كفرتم عثمان؟ فقال: بثلاث: جعل المال دولة بين الأغنياء، وجعل المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة من حارب الله ورسوله، وعمل بغير كتاب الله. وروي عن حذيفة أنه كان يقول: ما في عثمان بحمد الله أشك، لكنني أشك في قاتله، لا أدري أكافر قتل كافراً، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قتله، وهو أفضل المؤمنين إيماناً! فأما ما رواه من منازعة الحسن عليه السلام عماراً في ذلك، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فهو أولاً غير دافع لكون عمار مكفراً له، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام. ثم إن كان الخبر صحيحاً فالوجه فيه أن عماراً كان يعلم من لحن كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وعدوله عن أن يقضي بينهما بصريح من القول إنه متمسك بالتقية، فأمسك عمار متابعة لغرضه.

فأما قوله: لا يجوز أن يكفره من حيث وثب على الخلافة، لأنه مصوباً لأبي بكر وعمر لما تقدم من كلامه في ذلك؛ فإننا لا نسلم أن عماراً كان مصوباً لهما، وما تقدم من كلامه قد تقدم كلامنا عليه.

فأما قوله عن أبي علي: إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله فيه لم يكن طعناً، لأن للإمام تأديب من يستحق ذلك، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب المغني أو من حكى كلامه من أبي علي وغيره من أن يعتذر - من ضرب عمار ووقذه حتى لحقه من الغشي ما ترك له الصلاة، ووطئه بالأقدام امتهاناً أو استخفافاً - بشيء من العذر، فلا عذر يسمع من إيقاع نهاية المكروه. عن روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه: "عمار جلدة ما بين العين والأنف ومتى تنكأ الجلدة يدم الأنف". وروي أنه قال عليه السلام: ما لهم ولعمار! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. وروي العوام بن حوشب عن سلمة بن كهيل عن علقمة عن خالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله"؛ وأي كلام غليظ سمعه عثمان من عمار يستحق به ذلك المكروه العظيم الذي يجاوز مقدار ما فرضه الله تعالى في الحدود! وإنما كان عمار وغيره أثبتوا عليه أحداثه ومعانيه على ما يظهر من سيئ أفعاله. وقد كان يجب عليه أحد أمرين: إما أن يترع عما يواقف عليه من تلك الأفعال، أو يبين من عذره عنها وبرائه منها ما يظهر ويشتهر؛ فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجره عن ذلك بوعظ أو غيره، ولا يقدم على ما يفعله الجبابة والأكاسرة من شفاء الغيط بغير ما أنزل الله تعالى وحكم به.

الطعن التاسع: إقدامه على أبي ذر مع تقدمه في الإسلام، حتى سيره إلى الربذة ونفاه، وقيل: إنه ضربه.

قال قاضي القضاة في الجواب عن ذلك: إن شيخنا أبا علي رحمه الله تعالى قال: إن الناس اختلفوا في أمر أبي ذر رحمه الله تعالى. وروي أنه قيل لأبي ذر: عثمان أنزلك الربذة؟ فقال: لا، بل اخترت لنفسي ذلك.

وروي أن معاوية كتب يشكوه وهو بالشام، فكتب عثمان إليه أن صر إلى المدينة، فلما صار إليها قال: ما أخرجك إلى الشام؟ قال: لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا بلغت عمارة المدينة موضع كذا فاخرج عنها"؛ فلذلك خرجت، فقال: فأبي البلاد أحب إليك بعد الشام؟ قال: الربذة، فقال: صر إليها.

قال: وإذا تكافأت الأخبار لم يكن لهم في ذلك حجة، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يخرج به إلى الربذة لصالح يرجع إلى الدين، فلا يكون ظالماً لأبي ذر، بل يكون إشفافاً عليه، وخوفاً من أن يناله من بعض أهل المدينة مكروه، فقد روي أنه كان يغلظ في القول ويخشن في الكلام، فيقول: لم يبق أصحاب محمد على ما عهد، وينغر بهذا القول، فرأى إخراجهم أصلح لما يرجع إليه وإليه وإلى الدين، وقد روي أن عمر أخرج عن المدينة نصر بن الحجاج لما خاف ناحيته، وقد ندب الله سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين، وإلى القول اللين للكافرين، وبين للرسول صلى الله عليه وسلم أنه لو استعمل الفظاظة لانفضوا من حوله، فلما رأى عثمان من خشونة كلام أبي ذر، وما كان يورده مما يخشى منه التنغير فعل ما فعل.

قال: وقد روي عن زيد بن وهب، قال: قلت لأبي ذر رحمه الله تعالى، وهو بالربذة: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: أخبرك، إني كنت بالشام في أيام معاوية، وقد ذكرت هذه الآية: "والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقوها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم"، فقال معاوية: هذه في أهل الكتاب، فقلت: هي فيهم وفينا، فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك، فكتب إلي أن أقدم علي، فقدمت عليه، فانتال الناس إلي كأنهم لم يعرفوني، فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيرني وقال: انزل حيث شئت، فترلت الربذة.

وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدم، من أن إخراج أبي ذر إلى الربذة كان باختياره، وروى في ذلك خبراً، قال: وأقل ما في ذلك أن تختلف الأخبار فتطرح، ويرجع إلى الأمر الأول في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما قول أبي علي إن الأخبار في سبب خروج أبي ذر إلى الربذة متكافئة، فمعاذ الله أن تتكافأ في ذلك! بل المعروف والظاهر أنه نفاه أولاً إلى الشام، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكاه منه معاوية، ثم نفاه من المدينة إلى الربذة. وقد روى جميع أهل السير على اختلاف طرقهم وأسانيدهم أن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم، جعل أبو ذر يقول: بشر الكائنين بعذاب أليم، ويتلو قول الله تعالى: "والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقوها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم" فرفع ذلك مروان إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذر نائلاً مولاه: أن انته عما يبلغني عنك، فقال: أئنيهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعيب من ترك أمر الله! فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي وخير لي من أن أسخط الله برضاه. فأغضب عثمان ذلك، وأحفظه فتصابر.

وقال يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال، فإذا أيسر قضى؟ فقال كعب الأخبار: لا بأس بذلك، فقال له أبو ذر: يابن

اليهوديين، أتعلّمنا ديننا! فقال عثمان: قد كثر أذاك لي وتولّعك بأصحابي، الحق بالشام. فأخرجه إليها، فكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه معاوية ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذر: إن كانت هذه من عطائي الذي حرمتوني عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها، وردها عليه.

وبني معاوية الخضراء بدمشق، فقال أبو ذر: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهو الإسراف.

وكان أبو ذر رحمه الله تعالى يقول: والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إني لأرى حقاً يظفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقى، وصالحاً مستاثراً عليه، فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: أما بعد؛ فاحمل جندباً إلي على أغلظ مركب وأوعره، فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلا قتب . حتى قدم به المدينة، وقد سقط لحم فخذه من الجهد، فلما قدم أبو ذر المدينة، بعث إليه عثمان أن الحق بأي أرضٍ شئت، فقال: بمكة؟ قال: لا، قال: فبيت المقدس؟ قال: لا، قال: فأحد المصريين؟ قال: لا، ولكني مسيرك إلى الربرة، فسيره إليها، فلم يزل بها حتى مات.

وفي رواية الواقدي أن أبا ذر لما دخل على عثمان، قال له: لا أنعم الله بك عينا يا جنيدب! فقال: أنا جنيدب وسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، فاخترت اسم رسول الله الذي سماني به على اسمي؛ فقال عثمان: أنت الذي تزعم أنا نقول أن يد الله مغلوله؛ وأن الله فقير ونحن أغنياء! فقال أبو ذر: لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مال الله على عباده؛ ولكني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً ، ودين الله دخلاً "، فقال عثمان لمن حضره: أسمعتموها من نبي الله؟ فقالوا: ما سمعناه، فقال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله! فقال أبو ذر لمن حضره: أما تظنون اني صدقت! قالوا: لا والله ما ندري، فقال عثمان: ادعوا لي علياً، فدعي، فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: أقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فحدثه، فقال عثمان لعلي: هل سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال علي عليه السلام: لا، وقد صدق أبو ذر، قال عثمان: بم عرفت صدقه؟ قال: لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر "، فقال جميع من حضر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: لقد صدق أبو ذر، فقال أبو ذر: أحدثكم أي سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تتهموني! ما كنت أظن أي أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده عن صهبان مولى الأسلميين، قال: رأيت أبا ذر يوم دخل به على عثمان، فقال له: أنت الذي فعلت وفعلت! فقال له أبو ذر: نصحتك فاستغششتني، ونصحت صاحبك فاستغشني، فقال عثمان: كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبها، قد أغلّت الشام علينا، فقال له أبو ذر: اتبع سنة صاحبيك، لا يكن لأحدٍ عليك كلام، قال عثمان: مالك وذلك لا أم لك! قال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فغضب عثمان وقال: أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب، إما أن أضربه أو أحبسّه أو أقتله؛ فإنه فرق جماعة المسلمين، أو أنفيه

من أرض الإسلام. فتكلم علي عليه السلام - وكان حاضراً - وقال: أشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون: " وإن يك كاذباً فعليه وكذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب " ، قال: فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ، لا أحب ذكره، وأجابه عليه السلام بمثله، قال: ثم إن عثمان حظر على الناس أن يقاعدوا أبا ذر، أو يكلموه، فمكث كذلك أياماً، ثم أمر أن يؤتى به، فلما أتى به بين يديه، قال: ويحك يا عثمان! أما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت أبا بكر وعمر! هل رأيت هذا هديهم! إنك لتبتطش بي بطش جبار؛ فقال: أخرج عنا من بلادنا، فقال أبو ذر: ما أبغض إلي جوابك! فلما أُن أخرج؟ قال: حيث شئت، قال: فأخرج إلى الشام أرض الجهاد؟ قال: إنما جلبتك من الشام لما قد أفسدتها فأردك إليها! قال: فأخرج إلى العراق؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال: تقدم على قوم أهل شبه وطعن في الأئمة، قال: فأخرج إلى مصر؟ قال: لا، قال: فلما أُن أخرج؟ قال: حيث شئت، قال أبو ذر: فهو إذن التعرب بعد الهجرة؛ أخرج إلى نجد؟ فقال عثمان: الشرف الأبعد أقصى فأقصى، امض على وجهك هذا، ولا تعدون الربذة. فخرج إليها.

وروى الواقدي عن مالك بن أبي الرجال، عن موسى بن ميسرة أن أبا الأسود الدؤلي، قال: كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب خروجه، فترلت الربذة، فقلت له: ألا تخبرني؟ أخرجت من المدينة طائعاً أم خرجت مكرهاً؟ فقال: كنت في ثغر من ثغور المسلمين، أغني عنهم، فأخرجت إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقلت: أصحابي ودار هجري، فأخرجت منها إلى ما ترى، ثم قال: بينا أنا ذات ليلة نائم في المسجد إذ مر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضرمني برجله وقال: " لا أراك نائماً في المسجد "، فقلت: بأبي أنت وأمي! غلبتني عيني، فنمت فيه، فقال: " كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟ " فقلت: إذن ألحق بالشام فلها أرض مقدسة، وأرض بقية الإسلام، وأرض الجهاد، فقال: " فكيف تصنع إذا أخرجت منها؟ " فقلت: أرجع إلى المسجد، قال: " فكيف تصنع إذا أخرجوك منه؟ " قلت: آخذ سيفي فأضرب به، فقال صلى الله عليه وسلم: " ألا أدلك على خيرٍ من ذلك، انسق معهم حيث ساقوك، وتسمع وتطيع "، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع، والله ليلقين الله عثمان وهو آثم في جنبي.

وكان يقول بالربذة: ما ترك الحق لي صديقاً، وكان يقول: فيها ردي عثمان بعد الهجرة أعرابياً. والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها. وما يحمل نفسه على ادعاء أن أبا ذر خرج مختاراً إلى الربذة إلا مكابر. ولسنا ننكر ما أورده صاحب كتاب المغني من أنه خرج مختاراً قد روي، إلا أنه من الشاذ النادر. وبإزاء هذه الرواية الفذة كل الروايات التي تتضمن خلافها، ومن تصفح الأخبار علم أنها غير متكافئة على ما ظن صاحب المغني؛ وكيف يجوز خروجه عن اختيار! وإنما أشخص من الشام على الوجه الذي أشخص عليه: من خشونة المركب، وقبح السير به للموجدة عليه. ثم لما قدم منع الناس من كلامه، وأغلظ له في القول؛ وكل هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الربذة باختياره. وكيف يظن عاقل أن أبا ذر يختار الربذة منزلاً مع جدبها وقحطها وبعدها عن الخيرات؛ ولم تكن بمنزل مثله! فأما قوله: إنه أشفق عليه من أن يناله بعض أهل المدينة بمكروه من حيث كان يغلظ لهم القول، فليس بشيء؛ لأنه لم يكن في أهل المدينة إلا من كان راضياً بقوله، عاتباً بمثل عتبه، إلا أنهم كانوا بين مجاهرٍ بما في نفسه، ومخفٍ

ما عنده؛ وما في أهل المدينة إلا من رثى لأبي ذر مما حدث عليه، ومن استفظعه، ومن رجع إلى كتب السيرة عرف ما ذكرناه.

فأما قوله: إن عمر أخرج من المدينة نصر بن حجاج، فبما بعد ما بين الأمرين! وما كنا نظن أن أحداً يسوي بين أبي ذر وهو وجه الصحابة وعينهم، ومن أجمع المسلمون على توقيره وتعظيمه، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدحه في صدق اللهجة بما لم يمدح به أحداً، وبين نصر بن الحجاج الحدث الذي كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه، ولاحظ له في فضل ولا دين! على أن عمر قد ذم بإخراجه نصر بن الحجاج من غير ذنب كان منه، فإذا كان من أخرج نصر بن حجاج مذموماً، فكيف من أخرج أبا ذر! فأما قوله: إن الله تعالى والرسول قد ندبا إلى خفض الجناح، ولين القول للمؤمن والكافر، فهو كما قال؛ إلا أن هذا أدب كان ينبغي أن يتأدب به عثمان في أبي ذر، ولا يقابله بالتكذيب، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقه؛ ولا يسمعه مكروه الكلام، فإنما نصح له، وأهدى إليه عيوبه، وعاتبه على ما لو نزع عنه لكان خيراً له في الدنيا والآخرة.

الطعن العاشر: تعطيله الحد الواجب على عبيد الله بن عمر بن الخطاب، فإنه قتل الهرمزان مسلماً فلم يقده به، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يطلبه لذلك.

قال قاضي القضاة في الجواب عن ذلك: إن شيخنا أبا علي رحمه الله تعالى قال: إنه لم يكن للهرمزان ولي يطلب بدمه، والإمام ولي من لا ولي له، وللولي أن يعفو كما له أن يقتل، وقد روي أنه سأل المسلمين أن يعفوا عنه، فأجابوا عنه إلى ذلك.

قال: وإنما أراد عثمان بالعفو عنه ما يعود إلى عز الدين، لأنه خاف أن يبلغ العدو قتله، فيقال: قتلوا إمامهم وقتلوا ولده ولا يعرفون الحال في ذلك فيكون فيه شماتة، وقد قال الشيخ أبو الحسين الخياط: إن عامة المهاجرين أجمعوا على أنه لا يقاد بالهرمزان، وقالوا لعثمان: هذا دم سفك في غير ولايتك، وليس له ولي يطلب به، وأمره إلى الإمام، فاقبل منه الدية، فذلك صلاح للمسلمين.

قال: ولم يثبت أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يطلبه ليقضه بالهرمزان، لأنه لا يجوز قتل من عفا عنه ولي المقتول، وإنما كان يطلبه ليضع من قدره، ويصغر من شأنه.

قال: ويجوز أن يكون ما روي عن علي عليه السلام من أنه قال: لو كنت بدل عثمان لقتلته، يعني أنه كان يرى ذلك أقوى في الاجتهاد، وأقرب إلى التشدد في دين الله سبحانه.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، قال: أما قوله: لم يكن للهرمزان ولي يطلب بدمه، فالإمام يكون وليه، وله أن يعفو عنه، كما له أن يقتص؛ فليس بمعتمد، لأن الهرمزان رجل من أهل فارس، ولم يكن له ولي حاضر يطالب بدمه، وقد كان الواجب أن يبذل الإنصاف لأوليائه ويؤمنوا متى حضروا، حتى إنه لو كان له ولي يريد المطالبة حضر وطالب. ثم لو لم يكن له ولي لم يكن عثمان ولي دمه، لأنه قتل في أيام عمر، فصار عمر ولي دمه، وقد أصى عمر على ما جاءت به الروايات الظاهرة بقتل ابنه عبيد الله إن لم تقم البينة العادلة على الهرمزان وجفينة، أنهما أمرا أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن

شعبة بقتله، وكانت وصيته بذلك إلى أهل الشورى، فقال: أيكم ولي هذا الأمر فليفعل كذا وكذا مما ذكرناه، فلما مات عمر، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء الوصية في عبيد الله بن عمر، فدافع عن ذلك وعملهم، ولو كان هو ولي الدم على ما ذكروا لم يكن له أن يعفو وأن ييطل حداً من حدود الله تعالى، وأي شماتة للعدو في إقامة حد من حدود الله تعالى! وإنما الشماتة كلها من أعداء الإسلام في تعطيل الحدود. وأي حرج في الجمع بين قتل الإمام وابنه، حتى يقال: كره أن ينتشر الخبر بأن الإمام وابنه قتلا، وإنما قتل أحدهما ظلماً، والآخر عدلاً، أو أحدهما بغير أمر الله، والآخر بأمره سبحانه! وقد روى زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح أن أمير المؤمنين عليه السلام أتى عثمان، بعد ما استخلف، فكلمه في عبيد الله ولم يكلمه أحد غيره، فقال: اقتل هذا الفاسق الخبيث الذي قتل أميراً مسلماً، فقال عثمان: قتلوا أباه بالأمس، وأقتله اليوم! وإنما هو رجل من أهل الأرض؛ فلما أبي عليه مر عبيد الله على علي عليه السلام، فقال له: إيه يا فاسق! أما والله لئن ظفرت بك يوماً من الدهر لأضربن عنقك، فلذلك خرج مع معاوية عليه. وروى القناد، عن الحسن بن عيسى بن زيد، عن أبيه، أن المسلمين لما قال عثمان: إني قد عفوت عن عبيد الله بن عمر، قالوا: ليس لك أن تعفو عنه، قال: بلى ليس لجفينة والهرمزان قرابة من أهل الإسلام، وأنا ولي أمر المسلمين، وأنا أولى بهما، وقد عفوت، فقال علي عليه السلام: إنه ليس كما تقول، إنما أنت في أمرهما بمنزلة أقصى المسلمين؛ إنه قتلتهما في إمرة غيرك، وقد حكم الوالي الذي قتلا في إمارته بقتله، ولو كان قتلتهما في إمارتك لم يكن لك العفو عنه، فاتق الله؛ فإن الله سائلك عن هذا! فلما رأى عثمان أن المسلمين قد أبوا إلا قتل عبيد الله، أمره فارتحل إلى الكوفة، وأقطعها بها داراً وأرضاً، وهي التي يقال لها: كويغة ابن عمر، فعظم ذلك عند المسلمين وأكبروه، وكثر كلامهم فيه. وروي عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: ما أمسى عثمان يوم ولي حتى نقموا عليه في أمر عبيد الله بن عمر، حيث لم يقتله بالهرمزان. فأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقته، بل ليضع من قدره؛ فهو بخلاف ما صرح به عليه السلام من أنه إن تمكن ليضربن عنقه. وبعد؛ فإن ولي الدم إذا عفا عنه على ما ادعوا لم يكن لأحد أن يستخف به، ولا يضع من قدره كما ليس له أن يقتله. وأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوز أن يتوعده مع عفو الإمام عنه؛ فإنما يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثراً، وقد بينا أنه غير مؤثر. وأما قوله: يجوز أن يكون عليه السلام رأى أن قتله أقوى في الاجتهاد، وأقرب إلى التشدد في دين الله؛ فلا شك أنه كذلك وهذا بناء منه على أن كل مجتهد مصيب، وقد بينا أن الأمر بخلاف ذلك، وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي قتله، فهو الذي لا يسوغ خلافه.

الطعن الحادي عشر: وهو إجمالي؛ قالوا: وجدنا أحوال الصحابة دالة على تصديقهم المطاعين فيه، وبراءتهم منه؛ والدليل على ذلك أنهم تركوه بعد قتله ثلاثة أيام لم يدفنوه، ولا أنكروا على من أجلب عليه من أهل الأمصار؛ بل أسلموه ولم يدفعوا عنه؛ ولكنهم أعانوا عليه، ولم يمنعوا من حصره ولا من منع الماء عنه؛ ولا من قتله، مع تمكنهم من خلاف ذلك،

وهذا من أقوى الدلائل على ما قلناه؛ ولو لم يدل على أمره عندهم إلا ما روي عن علي عليه السلام أنه قال: الله قتله وأنا معه، وأنه كان في أصحابه عليه السلام من يصرح بأنه قتل عثمان؛ ومع ذلك لا يقيدهم بل ولا ينكر عليهم؛ وكان أهل الشام يصرحون بأن مع أمير المؤمنين قتلة عثمان، ويجعلون ذلك من أوكد الشبه، ولا ينكر ذلك عليهم، مع أننا نعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضد هو وأصحابه على المنع عنه لما وقع في حقه ما وقع، فصار كفه وكف غيره عن ذلك من أدل الدلائل على أنهم صدقوا عليه ما نسب إليه من الأحداث، وأنهم لم يقبلوا منه ما جعله عذراً. وأجاب قاضي القضاة عن هذا، فقال: أما تركه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن فليس بثابت، ولو صح لكان طعننا على من لزمه القيام به، وقد قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: إنه لا يمتنع أن يشتغلوا بإبرام البيعة لأمر المؤمنين عليه السلام خوفاً على الإسلام من الفتنة، فيؤخروا دفنه.

قال: وبعيد مع حضور قريش وقبائل العرب وسائر بني أمية ومواليهم أن يترك عثمان ولا يدفن هذه المدة، وبعيد أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدم بدفنه، ولو مات في جواره يهودي أو نصراني ولم يكن له من يواريه ما تركه أمير المؤمنين ألا يدفن، فكيف يجوز مثل ذلك في عثمان؛ وقد روي أنه دفن في تلك الليلة، وهذا هو الأولى. فأما التعلق بأن الصحابة لم تنكر على القوم، ولا دفعت عنه، فقد سبق القول في ذلك، والصحيح عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تبرأ من قتل عثمان، ولعن قتلته في البر والبحر والسهل والجبل، وإنما كان يجري في جيشه هذا القول منه على جهة المجاز، لأننا نعلم أن جميع من كان يقول: نحن قتلناه لم يقتله، لأن في الخبر أن العدد الكثير كانوا يصرحون بذلك؛ والذين دخلوا عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة، وإنما كانوا يقصدون بهذا القول؛ أي احسبوا أننا قتلناه فما لكم! وذلك أن الإمام هو الذي يقوم بأمر القود، وليس للخارج عليه أن يطالب بذلك؛ ولم يكن لأمر المؤمنين عليه السلام أن يقتل قتلته لو عرفهم ببينة أو إقرار، ويميزهم من غيرهم إلا عندهم مطالبة ولي الدم، والذين كانوا أولياء الدم لم يكونوا يطالبونه، ولا كانت صفتهم صفة من يطالب؛ لأنهم كانوا كلهم أو بعضهم يدعون أن علياً عليه السلام ليس بإمام، ولا يحل لولي الدم مع هذا الاعتقاد أن يطالب بالقود، فلذلك لم يقتلهم عليه السلام، هذا لو صح أنه كان يميزهم، فكيف وذلك غير صحيح.

فأما ما روي عنه من قوله عليه السلام: قتله الله وأنا معه! فإن صح فمعناه مستقيم، يريد أن الله أماته وسيميتني وسائر العباد.

ثم قال سائلاً نفسه: كيف يقول ذلك وعثمان مات مقتولاً من جهة المكلفين! وأجاب بأنه وإن قتل، فالإماتة من قبل الله تعالى. ويجوز أن يكون ما ناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة لا محالة؛ فإذا مات صحت الإماتة على طريق الحقيقة. اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما تضعيفه أن يكون عثمان ترك بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن، فليس بحجة، لأن ذلك قد رواه جماعة من الرواة، وليس يخالف في مثله أحد يعرف بالرواية؛ وقد ذكر ذلك الواقدي وغيره؛ وروى أن أهل المدينة منعوا الصلاة عليه، حتى حمل بين المغرب والعتمة، ولم يشهد جنازته غير مروان وثلاثة من مواليه، ولما أحسوا بذلك رموه بالحجارة وذكروه بأسوأ الذكر، ولم يقع التمكن من دفنه إلا بعد أن أنكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دفنه، وأمر أهله بتولي ذلك منه.

فأما قوله: إن ذلك إن صح كان طعنًا على من لزمه القيام بأمره، فليس الأمر على ما ظنه، بل يكون طعنًا على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنع أهل المدينة - وفيها وجوه الصحابة - من دفنه والصلاة عليه إلا لاعتقاد قبيح، أو لأن أكثرهم وجمهورهم يعتقد ذلك، وهذا طعن لا شبهة فيه؛ واستبعاد صاحب المغني لذلك، مع ظهور الرواية به لا يلتفت إليه، فأما أمير المؤمنين عليه السلام فقد بينا أنه تقدم بذلك بعد مماكسة ومراوضة. وأعجب من كل شيء قول صاحب المغني: إنهم أخرجوا دفنه تشاغلاً بالبيعة لأمر المؤمنين عليه السلام؛ وأي شغل في البيعة يمنع من دفنه، والدفن فرض على الكفاية، لو قام به البعض وتشاغل الباقون بالبيعة لجاز! وليس الدفن ولا البيعة أيضاً مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها. فأما قوله: إنه قد روي أن عثمان دفن تلك الليلة، فما تعرف هذه الرواية، وقد كان يجب أن يسندوها ويعزووها إلى راويها، أو الكتاب الذي أخذها منه، فالذي ظهر في الرواية هو ما ذكرناه.

فأما إحالته على ما تقدم في معنى الإنكار من الصحابة على القوم المجلبين على عثمان، فقد سبق القول في ذلك. فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤه من قتل عثمان، ولعنه قتلته في البر والبحر والسهل والجبل، فلا شك في أنه عليه السلام كان بريئاً من قتله، وقد روي عنه عليه السلام أنه قال: والله ما قتلت عثمان، ولا مالات في قتله، والممالة هي المعاونة والموازرة، وقد صدق عليه السلام في أنه ما قتل ولا وازر على القتل. فأما لعنه قتلته فضعيف في الرواية، وإن كان قد روي، فأظهر منه ما رواه الواقدي، عن الحكم ابن الصلت، عن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: رأيت علياً عليه السلام على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتل، وهو يقول: ما أحببت قتله ولا كرهته، ولا أمرت به، ولا نهيت عنه.

وقد روى محمد بن سعد، عن عفان بن جرير بن بشير، عن أبي جلدة، أنه سمع علياً عليه السلام، يقول وهو يخطب، فذكر عثمان، وقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما قتلته ولا مالات على قتله ولا ساءني. وروى ابن بشير، عن عبيدة السلماني، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: من كان سائلي عن دم عثمان، فإن الله قتله وأنا معه. وقد روي هذا اللفظ من طرق كثيرة.

وقد روى شعبة عن أبي حمزة الضبعي، قال: قلت لابن عباس: إن أبي أخبرني أنه سمع علياً، يقول: ألا من كان سائلي عن دم عثمان، فإن الله قتله وأنا معه - فقال: صدق أبوك؛ هل تدري ما معنى قوله! إنما عني: الله قتله وأنا مع الله. قال: فإن قيل: كيف يصح الجمع بين معاني هذه الأخبار؟ قلنا: لا تنافي بينها، لأنه عليه السلام تبرأ من مباشرة قتله والموازرة عليه، ثم قال: ما أمرت بذلك ولا نهيت عنه؛ يريد أن قاتليه لم يرجعوا إلي، ولم يكن مني قول في ذلك بأمر ولا نهي. فأما قوله: الله قتله وأنا معه، فيجوز أن يكون المراد به: الله حكم بقتله وأوجهه وأنا كذلك، لأن من المعلوم أن الله تعالى لم يقتله على الحقيقة، فإضافة القتل إليه لا تكون إلا بمعنى الحكم والرضا؛ وليس يتمتع أن يكون مما حكم الله تعالى به، ما لم يتوله بنفسه، ولا آزر عليه، ولا شايع فيه.

فإن قال قائل: هذا ينافي ما روي عنه من قوله: ما أحببت قتله ولا كرهته، وكيف يكون من حكم الله وحكمه أن يقتل وهو لا يحب قتله! قلنا: يجوز أن يريد بقوله: ما أحببت قتله ولا كرهته، أن ذلك لم يكن مني على سبيل التفصيل، ولا

خطر لي ببال؛ وإن كان على سبيل الحملة يجب قتل من غلب المسلمين على أمورهم، وطالبوه بأن يعتزل، لأنه مستولٍ عليهم بغير حق فامتنع من ذلك، ويكون فائدة هذا الكلام التبرؤ من مباشرة قتله، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهي عنه. ويجوز أن يريد أنني ما أحببت قتله، إن كانوا تعمدوا القتل، ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود، ويريد بقوله: ما كرهته، أي لم أكرهه على كل حال، ومن كل وجه.

فأما لعنه قتلته فقد بينا أنه ليس بظاهرٍ ظهور ما ذكرناه، وإن صح فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه المخطور من تعمدٍ له، وقصدٍ إليه وغير ذلك، على أن المتولي للقتل على ما صحت به الرواية كنانة بن بشر التميمي، وسودان بن حمران المرادي؛ وما منهما من كان غرضه صحيحاً في القتل، ولا له أن يقدم عليه، فهو ملعون به. فأما محمد بن أبي بكر؛ فما تولى قتله، وإنما روي أنه لما جثا بين يديه قابضاً على لحيته، قال له: يا بن أخي دع لحيتي؛ فإن أباك لو كان حياً لم يقعد مني هذا المقعد، فقال محمد: إن أبي لو كان حياً ثم يراك تفعل ما تفعل لأنكره عليك، ثم وجأه بجماعة قداح كانت في يده فحزت في جلده ولم تقطع، وبادره من ذكرناه في قتله بما كان فيه قتله.

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عليه السلام: قتله الله وأنا معه، على أن المراد به؛ الله أماته وسيميتي، فبعيد من الصواب، لأن لفظة أنا لا تكون كناية عن المفعول، وإنما تكون كناية عن الفاعل، ولو أراد ما ذكرناه لكان يقول: وإياي معه، وليس له أن يقول: إننا نجعل قوله: وأنا معه، مبتدأً محذوف الخبر، ويكون تقدير الكلام: وأنا معه مقتول، وذلك أن هذا ترك للظاهر وإحالة على ما ليس فيه؛ والكلام إذا أمكن حمله على معنى يستقل ظاهره به من غير تقدير وحذف كان أولى مما يتعلق بمحذوف، على أنهم إذا جعلوه مبتدأً وقدروا خبراً لم يكونوا بأن يقدروا ما يوافق مذهبهم بأولى من تقدير خلافه، ويجعل بدلاً من لفظة المقتول المحذوفة لفظة معين أو ظهير، وإذا تكافأ القولان في التقدير وتعارضاً سقطاً، ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر، على أن عثمان مضى مقتولاً، فكيف يقال: إن الله تعالى أماته، والقتل كافٍ في انتفاء الحياة، وليس يحتاج معه إلى نافٍ للحياة يسمى موتاً.

وقول صاحب المغني: يجوز أن يكون ما ناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة؛ ليس بشيء، لأن المروي أنه ضرب على رأسه بعمود عظيم من حديد، وأن أحد قتلته قال: جلست على صدره فوجأته تسع طعنات، علمت أنه مات في ثلاث، ووجأته الست الأخرى لما كان في نفسي عليه من الحق.

وبعد: فإذا كان جائزاً، فمن أين علمه أمير المؤمنين عليه السلام حتى يقول: إن الله أماته؟ وإن الحياة لم تنتف. بما فعله القاتلون، وإنما انتفت بشيء على فعلهم من قبل الله تعالى مما لا يعلمه على سبيل التفصيل إلا علام الغيوب سبحانه. والجواب عن هذه المطاعن على وجهين، إجمالاً وتفصيلاً: أما الوجه الإجمالي، فهو أننا لا ننكر أن عثمان أحدث أحداثاً أنكرها كثير من المسلمين، ولكننا ندعي مع ذلك أنها لم تبلغ درجة الفسق، ولا أحببت ثوابه، وأنها من الصغائر التي وقعت مكفرة، وذلك لأننا علمنا أنه مغفور له، وأنه من أهل الجنة لثلاثة أوجه: أحدها: أنه من أهل بدر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم"؛ ولا يقال: إن عثمان لم يشهد بدرًا، لأننا نقول: صدقتم، إنه لم يشهدها، ولكنه تخلف على رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالمدينة لمرضها، وضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره باتفاق سائر الناس.
 وثانيها: أنه من أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم: "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة"، ولا يقال: إنه لم يشهد البيعة تحت الشجرة، لأننا نقول: صدقتم، إنه لم يشهدا، ولكنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله إلى أهل مكة، ولأجله كانت بيعة الرضوان، حيث أرجف بأن قريشاً قتلت عثمان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن كانوا قتلوه، لأضرمها عليهم ناراً"؛ ثم جلس تحت الشجرة، وبايع الناس على الموت، ثم قال: "إن كان عثمان حياً فأنا أبايع عنه"، فصفح بشماله على يمينه، وقال: "شمالي خير من يمين عثمان" روى ذلك جميع أرباب أهل السيرة متفقاً عليه.
 وثالثها: أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار أنهم من أهل الجنة.

وإذا كانت الوجوه الثلاثة دالة على أنه مغفور له، وأن الله تعالى قد رضي عنه، وهو من أهل الجنة، بطل أن يكون فاسقاً، لأن الفاسق يخرج عندنا من الإيمان، ويحبط ثوابه، ويحكم له بالنار ولا يغفر له، ولا يرضى عنه، ولا يرى الجنة ولا يدخلها، فاقتضت هذه الوجوه الصحيحة الثابتة أن يحكم بأن كل ما وقع منه فهو من باب الصغائر المكفرة، توفيقاً بين هذه الوجوه، وبين روايات الأحداث المذكورة.
 وأما الوجه التفصيلي فهو مذكور في كتب أصحابنا المطولة في الإمامة، فليطلب من مظانه، فإنهم قد استقصوا في الجواب عن هذه المطاعن استقصاء لا مزيد عليه.

أخبار جرير بن عبد الله البجلي

وبيعته لعلي عليه السلام:

فأما خبر جرير بن عبد الله البجلي، وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية، فنحن نذكره نقلاً من كتاب صفين، لنصر بن مزاحم بن بشار المنقري؛ ونذكر حال أمير المؤمنين عليه السلام، منذ قدم الكوفة بعد وقعة الجمل، ومراسلته معاوية وغيره، ومراسلة معاوية له ولغيره، وما كان من ذلك في مبدأ حالتها إلى أن سار علي عليه السلام إلى صفين.
 قال نصر: حدثني محمد بن عبيد الله عن الجرجاني، قال: لما قدم علي عليه السلام الكوفة بعد إنقضاء أمر الجمل، كاتب العمال، فكتب إلى جرير بن عبد الله البجلي مع زحر بن قيس الجعفي - وكان جرير عاملاً لعثمان على ثغر همدان - :
 أما بعد، ف "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ". وإني أخبرك عن نبأ من سرنا إليه من جموع طلحة والزبير، عند نكثهم بيعتي، وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف.

إني نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار؛ حتى إذا كنت بالعذيب، بعثت إلى أهل الكوفة الحسن بن علي، وعبد الله بن عباس، وعمار بن ياسر، وقيس بن عباد، فاستنفرهم فأجابوا، فسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في الدعاء، وأقلت العثرة، وناشدتهم عهد بيعتهم، فأبوا إلا قتالي، فاستعنت بالله عليهم، فقتل من قتل، وولوا مدبرين إلى مصرهم،

وسألوني ما كنت دعوتهم إليه من قبل اللقاء، فقبلت العافية، ورفعت السيف، واستعملت عليهم عبد الله بن العباس، وسرت إلى الكوفة؛ وقد بعثت إليك زحر بن قيس، فاسأله عما بدا لك والسلام.

قال: فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال: أيها الناس، هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو المأمون على الدين والدنيا، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما نحمد الله عليه، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها. ألا وإن البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة، وإن علياً حاملكم على الحق ما استقمتم، فإن ملتزم أقيم ميلكم. فقال الناس: سمعاً وطاعة، رضيينا رضيينا. فكتب جرير إلى علي عليه السلام جواب كتابه بالطاعة.

قال نصر: وكان مع علي رجل من طيئ، ابن أخت لجرير، فحمل زحر بن قيس شعراً له إلى خاله جرير، وهو:

جرير بن عبد الله لا تردد الهدى	وبايع علياً إنني لك ناصح
فإن علياً خير من وطئ الحصا	سوى أحمد، والموت غاد ورائح
ودع عنك قول الناكثين فإنما	كلاب نوابح أبا عمرو أولاك
وبايع إذا بايعته بنصيحة	ولا يك منها في ضميرك قادح
فإنك إن تطلب بها الدين تعطه	وإن تطلب الدنيا فإنك رابح
وإن قلت عثمان بن عفان حقه	علي عظيم والشكور مناصح
فحق علي إذ وليك كحقه	وشكرك ما أوليت في الناس ناصح
وإن قلت لا أرضى علياً إمامنا	فدع عنك بحراً ضل فيه السوابح
أبى الله إلا أنه خير دهره	وأفضل من ضمت عليه الأباطح

قال نصر: ثم إن جريراً قام في أهل همدان خطيباً، فقال: الحمد لله الذي اختار لنفسه الحمد، وتولاه دون خلقه، لا شريك له في الحمد، ولا نظير له في الجحد، ولا إله إلا الله وحده، الدائم القائم، إله السماء والأرض، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالنور الواضح؛ والحق الناطق؛ داعياً إلى الخير، وقائداً إلى الهدى، ثم قال: أيها الناس، إن علياً قد كتب إليكم كتاباً لا يقال بعده إلا رجيع من القول، لكن لا بد من رد الكلام. إن الناس بايعوا علياً بالمدينة عن غير محابة له ببيعته، لعلمه بكتاب الله وسنن الحق، وإن طلحة والزبير نقضا بيعته على غير محابة حدثت، وألبا عليه الناس، ثم لم يرضيا حتى نصبا له الحرب، وأخرجوا أم المؤمنين، فلقيهما فأعذر في الدعاء، وأحسن في البقية، وحمل الناس على ما يعرفون، فهذا عيان ما غاب عنكم؛ وإن سألتهم الزيادة زدناكم، ولا قوة إلا بالله، ثم قال:

أتانا كتاب علي فلم	نرد الكتاب بأرض العجم
ولم نعص ما فيه لما أتى	ولما نذم ولما نلم

نضيم العزيز ونحمي الذمم
بكأس المنايا ونشفي القرم
رسول المليك تمام النعم
خليفتنا القائم المدعم
نجالد عنه غواة الأمم
وبيت النبوة لا يهتضم

ونحن ولادة على ما نثرنا
نساقبهم الموت عند اللقاء
فصلى الإله على أحمد
رسول المليك ومن بعده
علياً عنيت وصي النبي
له الفضل والسبق والمكرمات

قال نصر: فسر الناس بخطبة جرير وشعره، وقال ابن الأوزار القسري في جرير يمدحه بذلك:

لقد جلى بخطبته جرير
من الحيين خطبهم كبير
ومضك إن رددت الحق رير
وزحر بالتى حدثت خبير
وكدت إليه من فرح تطير
وأنت لما تعد له نصير
حدا بالركب ليس له بغير

لعمر أبليك والأنباء تنمي
وقال مقالة جدعت رجالاً
بدا بك قبل أمته علي
أتاك أمره زحر بن قيس
فكنت لما أتاك به سميعاً
فأنت بما سعدت به ولي
وأحرزت الثواب ورب حاد
بيعة الأشعث لعل:

قال نصر: وكتب علي عليه السلام إلى الأشعث - وكان عامل عثمان على أذربيجان - يدعو به إلى البيعة والطاعة، وكتب جرير بن عبد الله البجلي إلى الأشعث، يحضه على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام، وقبول كتابه: أما بعد، فإنني أتتني بيعة علي، فقبلتها ولم أجد إلى دفعها سبيلاً؛ لأني نظرت فيما غاب عني من أمر عثمان، فلم أجده يلزمني، وقد شهد المهاجرون والأنصار؛ فكان أوفق أمرهم فيه الوقوف، فاقبل بيعته؛ فإنك لا تنقلب إلى خير منه، واعلم أن بيعة علي خير من مصارع أهل البصرة. والسلام.

قال نصر: فقبل الأشعث البيعة، وسمع وأطاع، وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد علي عليه السلام الكوفة فبايعه، ودخل فيما دخل فيه الناس من طاعته ولزوم أمره.

بين علي عليه السلام ومعاوية

قال نصر: فلما أراد علي عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً، قال له جرير: ابعتني يا أمير المؤمنين إليه؛ فإنه لم يزل لي مستخصاً ووداً، آتية فأدعوه؛ على أن يسلم لك هذا الأمر، ويجمعك على الحق، على أن يكون أميراً من أمرائك، وعاملاً من عمالك، ما عمل بطاعة الله، واتبع ما في كتاب الله، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك، فجلهم قومي

وأهل بلادي، وقد رجوت ألا يعصوني.

فقال له الأشر: لا تبعته ولا تصدقه، فوالله إني لأظن هواه هواهم، ونيته نيتهم.

فقال له علي عليه السلام: دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا. فبعته علي عليه السلام، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعته: إن حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الرأي والدين من قد رأيت، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله فيك: "إنك من خير ذي يمن"، أئت معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فانبذ إليه وأعلمه أني لا أرضى به أميراً، وأن العامة لا ترضى به خليفة.

فانطلق جرير حتى أتى الشام، ونزل معاوية، فلما دخل عليه حمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد يا معاوية، فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين، وأهل المصرين، وأهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل مصر، وأهل العروص - والعروض عمان - وأهل البحرين واليمامة؛ فلم يبق إلا هذه الحصون التي أنت فيها، لو سال عليها سيل من أوديته غرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل. ودفع إليه كتاب علي عليه السلام، وفيه: أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمته وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، إذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً، كان ذلك لله رضا؛ فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على اتباع سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، ويصليه جهنم وساءت مصيراً. وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي، فكان نقضهما كردتهما، فجاهدتهما على ذلك، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إلي فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك، واستعنت بالله عليك.

وقد أكترت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدي أبرأ قريش من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا يحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله البجلي، وهو من أهل الإيمان والمجرة، فبايع، ولا قوة إلا بالله.

فلما قرأ الكتاب، قام جرير فخطب، فقال: الحمد لله الحمود بالعوائد، والمأمول منه الزوائد، المرتجى منه الثواب، المستعان على النوائب؛ أحمد وأستعينه في الأمور التي تحير دونها الألباب، وتضمحل عندها الأسباب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بعد فترة من الرسل الماضية، والقرون الخالية، والأبدان البالية، والجبلة الطاغية، فبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وأدى الحق الذي استودعه الله، وأمره بأدائه إلى أمته صلى الله عليه وسلم، من رسول ومبعث ومنتجب.

أيها الناس، إن أمر عثمان قد أعيا من شاهده، فكيف بمن غاب عنه! وإن الناس بايعوا علياً غير واثق ولا موقوف؛ وكان طلحة والزبير ممن بايعاه ثم نكثا بيعته على غير حدث، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن ألا وإن العرب لا تحتمل الفتن، وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس. وقد بايعت الأمة علياً، ولو ملكنا والله

الأمر، لم نختار لها غيره ومن خالف هذا استعجب فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس.
 فإن قلت: استعملني عثمان ثم لم يعزلني، فإن هذا قول لو جاز لم يقيم الله دين، وكان لكل امرئ ما في يديه؛ ولكن الله جعل للآخر من الولاية حق الأول، وجعل موطأة ينسخ بعضها بعضاً. ثم قعد.
 قال نصر: فقال معاوية: أنظر وتنظر، وأستطلع رأي أهل الشام.

فمضت أيام، وأمر معاوية منادياً ينادي: الصلاة جامعة! فلما اجتمع الناس صعد المنبر، ثم قال:
 الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً، والشرائع للإيمان برهاناً، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة، جعلها الله محل
 الأنبياء الصالحين من عباده، فأحلهم أرض الشام، ورضيهم لها، ورضيها لهم، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم
 ومناصحتهم خلفاءه، والقوام بأمره، والذابين عن دينه وحرماته، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً، وفي سبيل الخيرات أعلاماً،
 يردع الله بهم الناكثين، ويجمع بهم ألفة المؤمنين، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام، وتباعد بعد
 القرب. اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا، ويخيفون آمننا، ويريدون إراقة دمائنا، وإخافة سبلنا. وقد علم الله أنا لا
 نريد بهم عقاباً، ولا نهتك لهم حجاباً، ولا نوطئهم زلقاً، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن نترعه طوعاً، ما
 جابو الصدى، وسقط الندى، وعرف الهدى؛ حملهم على ذلك البغي والحسد، فنستعين الله عليهم. أيها الناس، قد
 علمتم أي خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم، وأي لم أقم رجلاً منكم على
 خراية قط، وأي ولي عثمان، وقد قتل مظلوماً، والله تعالى يقول: "ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف
 في القتل إنه كان منصوراً"، وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان.
 فقام أهل الشام بأجمعهم، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم
 وأنفسهم؛ حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله.
 قال نصر: فلما أمسى معاوية اغتم بما هو فيه، وجنه الليل وعنده أهل بيته، فقال:

لأت بالترهات البسباس

بتلك التي فيها اجتداع المعاطس

ولست لأثواب الدنيء بلباس

تواصفها أشياخها في المجالس

تقت عليه كل رطب ويابس

وما أنا من ملك العراق بآيس

تطاول ليلى واعترتني وساوسي

أتاني جرير والحوادث جمة

أكابده والسيف بيني وبينه

إن الشام أعطت طاعة يمنية

فإن يفعلوا أضدم علياً بجبهة

وإني لأرجو خير ما نال نائل

قلت: الجبهة ههنا: الخيل، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس في الجبهة صدقة"، أي زكاة.

قال نصر: فاستحثه جرير بالبيعة، فقال: يا جرير؛ إنها ليست بجلسة، وإنه أمر له ما بعده، فأبلغني ريقى حتى أنظر، ودعا
 ثقاته؛ فأشار عليه أخوه بعمر بن العاص، وقال له: إنه من قد عرفت، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمر أشد
 اعتزلاً إلا أن يثمن له دينه.

وقد ذكرنا فيما تقدم خبر استدعائه عمرًا، وما شرط له من ولاية مصر، واستقدامه شرحبيل ابن السمط رئيس اليمينية وشيخها والمقدم عليها، وتدسيس الرجال إليه يغرونه بعلي عليه السلام، ويشهدون عنده أنه قتل عثمان، حتى ملأوا صدره وقلبه حقدًا وترة وإحنة على علي عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته.

قال نصر: فحدثني محمد بن عبيد الله عن الجرجاني، قال: جاء شرحبيل إلى حصين بن نمير، فقال: ابعث إلى جرير فليأتنا، فبعث حصين بن نمير إلى جرير: أن زرنا فعندنا شرحبيل، فاجتمعنا عند حصين، فتكلم شرحبيل، فقال: يا جرير أتيتنا بأمر ملففٍ لتلقينا في لهوات الأسد، وأردت أن تخلط الشام بالعراق، وأطريت عليًا، وهو قاتل عثمان، والله سائلك عما قلت يوم القيامة.

فأقبل عليه جرير وقال: يا شرحبيل، أما قولك: إني جئت بأمر ملففٍ فكيف يكون ملففًا وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وقوتل على رده طلحة والزبير! وأما قولك: إني ألقىك في لهوات الأسد، ففي لهواتها ألقى نفسك.

وأما خلط أهل الشام بأهل العراق، فخلطهما على حق خير من فرقتهما على باطل.

وأما قولك: إن عليًا قتل عثمان، فوالله ما في يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد، ولكنك ملت إلى الدنيا؛ وشيء كان في نفسك على زمن سعد بن أبي وقاص.

فبلغ ما قالاه إلى معاوية، فبعث إلى جرير فزجره. قال نصر: وكتب إلى شرحبيل كتاب لا يعرف كاتبه فيه:

شرحبيل يابن السمط: لا تتبع الهوى
ولا تلك كالمجرى إلى شر غايةٍ
فما لك في الدنيا من الدين من بدل
فقد خرق السربال واستنوق الجمل

وقل لابن حرب: ما لك اليوم خلة
شرحبيل: إن الحق قد جد جد
وأرود ولا تفرط بشيءٍ نخافه
مقال ابن هند في علي عضيبة
وما من علي في ابن عفان سقطة
وما كان إلا لازماً قعر بيته
فمن قال قولاً غير هذا فحسبه
وصي رسول الله من دون أهله
تروم بها ما رمت واقطع له الأمل
فكن فيه مأمون الأديم من النغل
عليك، ولا تعجل، فلا خير في العجل
ولله في صدر ابن أبي طالب أجل
بقول، ولا مالا عليه ولا قتل
إلى أن أتى عثمان في داره الأجل
من الزور والبهتان بعض الذي احتمل
ومن باسمه في فضله يضرب المثل

قال نصر: فلما قرأ شرحبيل الكتاب ذعر وفكر، وقال: هذه نصيحة لي في ديني، ولا والله لا أعجل في هذا الأمر بشيء وفي نفسي منه حاجة، وكاد يحول عن نصر معاوية ويتوقف، فلفق له معاوية الرجال يدخلون إليه ويخرجون، ويعظمون عنده قتل عثمان، ويرمون به عليًا، ويطعمون الشهادة الباطلة، والكتب المختلفة، حتى أعادوا رأيه، وشحذوا عزمه.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد بإسناده قال: بعث معاوية إلى شرحبيل بن السمط: إنه قد كان من إجابتك إلى الحق،

وما وقع فيه أجرك على الله، وقبله عنك صلحاء الناس ما علمت، وإن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يتم إلا برضا العامة، فسر في مدائن الشام، وناد فيهم بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه.

فسار شرحبيل، فبدأ بأهل حمص، فقام فيهم خطيباً - وكان مأموناً في أهل الشام ناسكاً متأهلاً، فقال: أيها الناس، إن علياً قتل عثمان، فغضب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقبهم فهزم الجمع، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام؛ وهو واضع سيفه على عاتقه، ثم حائض غمرات الموت، حتى يأتيكم أو يحدث الله أمراً، ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجدوا وانفضوا.

فأجابه الناس كلهم إلا ناسكاً من أهل حمص، فإنهم قالوا له: بيوتنا قبورنا ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى. قال: وجعل شرحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها، لا يأتي على قوم إلا قبلوا ما أتاهم به، فبعث إليه النجاشي بن الحارث - وكان له صديقاً:

ولكن لبغض المالكي جرير

فأصبحت كالحادي بغير بعير

قريشاً فيأله بعد نصير

وقد حار فيه عقل كل بصير

ولا للتي لقوكها بحضور

من الغيب ما دلاهم بغرور

علياً على أنس به سرور

نظيراً له لم يفصحوا بنظير

فليس الذي قد جئته بصغير

شرحبيل ما للدين فارقت ديننا

وشحناء دببت بين سعد وبينه

وما أنت إذ كانت بجيلة عاتبت

أنفصل أمراً غبت عنه بشبهة

بقول رجال لم يكونوا أئمة

وما قول قوم غائبين تقاذفوا

وتترك أن الناس أعطوا عهدهم

إذا قيل هاتوا واحداً يقتدى به

لعلك أن تشقى الغداة بحربه

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن غير بن وعله، عن الشعبي، أن شرحبيل بن السمط بن الأسود بن جبلة الكندي دخل على معاوية، فقال له: أنت عامل أمير المؤمنين وابن عمه، ونحن المؤمنون، فإن كنت رجلاً تجاهد علياً وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تذهب أرواحنا استعملناك علينا، وإلا عزلناك واستعملنا غيرك ممن نريد، ثم جاهدنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلك.

فقال جرير بن عبد الله - وكان حاضراً: مهلاً يا شرحبيل؛ فإن الله قد حقن الدماء، ولم الشعث، وجمع أمر الأمة، ودنا من هذه الأمة سكون، فإياك أن تفسد بين الناس، وأمسك عن هذا القول قبل أن يشيع ويظهر عنك قول لا تستطيع رده، فقال: لا والله لا أسره أبداً. ثم قام فتكلم به، فقال الناس: صدق صدق! القول ما قال، والرأي ما رأى. فأيس جرير عند ذلك من معاوية ومن عوام أهل الشام.

قال نصر: وحدثني محمد بن عبيد الله، عن الجرجاني، قال: كان معاوية قد أتى جريراً قبل ذلك في منزله، فقال له: يا

جرير؛ إني قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده في عنقي بيعة، وأسلم له هذا الأمر؛ وكتب إليه بالخلافة. فقال جرير: اكتب ما أردت أكتب معك. فكتب معاوية بذلك إلى علي، فكتب علي عليه السلام إلى جرير: أما بعد، فإنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب، وأراد أن يرثك ويطئك حتى يذوق أهل الشام، وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار علي أن أستعمل معاوية على الشام، وأنا حينئذ بالمدينة، فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عضداً، فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل والسلام.

قال نصر: وفشا كتاب معاوية في العرب فبعث إليه الوليد بن عقبة:

معاوي إن الشام شامك فاعتصم	بشامك ولا تدخل عليك الأفاعيا
وحام عليها بالصوارم والقنا	ولا تك موهون الذراعين وانبا
وإن علياً ناظر ما تجيبه	فأهد له حرباً تشيب النواصيا
وإلا فسلم إن في السلم راحة	لمن لا يريد الحرب فاختر معاويا
وإن كتاباً يابن حرب كتبتة	على طمع، يزجي إليك الدواهيا
سألت علياً فيه ما لن تناله	ولو نلته لم يبق إلا ليالبا
وسوف ترى منه التي ليس بعدها	بقاء، فلا تكثر عليك الأمانبا
أمثل علي تعتريه بخدعة	وقد كان ما جربت من قبل كافيا !

قال: وكتب الوليد بن عقبة إلى معاوية أيضاً يوقظه ويشير عليه بالحرب، وألا يكتب جواب جرير:

معاوي إن الملك قد جب غاربه	وأنت بما في كفك اليوم صاحبه
أتاك كتاب من علي بخطة	هي الفصل فاختر سلمه أو تحاربه
فلا ترج عند الواترين مودة	ولا تأمن اليوم الذي أنت راهبه
وحاربه إن حاربت حرب ابن حرة	وإلا فسلم لا تدب عقاربه
فإن علياً غير ساحب ذيله	على خدعة ما سوغ الماء شاربه
ولا قابل ما لا يريد وهذه	يقوم بها يوماً عليه نواذبه
فلا تدعن الملك والأمر مقبل	وتطلب ما أعيت عليك مذهبه
فإن كنت تنوي أن تجيب كتابه	فقبح ممليه وقبح كاتبه
وإن كنت تنوي أن ترد كتابه	وأنت بأمر لا محالة راكبه
فألق إلى الحي اليمانيين كلمة	تتال بها الأمر الذي أنت طالبه
تقول: أمير المؤمنين أصابه	عدو ومالاهم عليه أقاربه

أفانين منهم قائل ومعرض
وكننت أميراً قبل بالشام فيكم
فجيئوا، ومن أرسى ثبيراً مكانه
فأقلل وأكثر ما لها اليوم صاحب
بلا ترة كانت، وآخر سالبه
فحسبي وإياكم من الحق واجبه
ندافع بحراً لا ترد غواربه
سواك؛ فصرح لست ممن تواربه

قال نصر: وخرج جرير يوماً يتجسس الأخبار، فإذا هو بسلام يتغنى على قعود له، وهو يقول:

حكيم وعمار الشجا ومحمد
وقد كان فيها للزبير عجاجة
فأما علي فاستجار ببيته
فقل في جميع الناس ما شئت بعده
وأشتر والمكشوح جروا الدواهيا
وصاحبه الأدنى أثاروا الدواهيا
فلا أمر فيها ولم يك ناهيا
فلو قلت: أخطأ الناس لم تك خاطيا
فحسبك من ذاك الذي كان كافيا
وخصا الرجال القربين الأدانيا
على غير شيء ليس إلا تعاميا
ونخضب من أهل الشنان العواليا
فقل في جميع الناس ما شئت بعده
وإن قلت: عم القوم فيه بفتنة
فقلوا لأصحاب النبي محمد
أيقتل عثمان بن عفان بينكم
فلا نوم حتى نستبيح حريمكم

فقال جرير: يابن أخي، من أنت؟ فقال: سلام من قريش، وأصلي من ثقيف، أنا ابن المغيرة بن الحنيس بن شريق، قتل أبي مع عثمان يوم الدار. فعجب جرير من شعره وقوله، وكتب بذلك إلى علي عليه السلام، فقال علي: والله ما أخطأ الغلام شيئاً.

قال نصر: وفي حديث صالح بن صدقة، قال: أبطأ جرير عند معاوية حتى أتمه الناس، وقال علي عليه السلام: قد وقت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً، وأبطأ علي حتى أيس منه.

قال: وفي حديث محمد وصالح بن صدقة، قالوا: فكتب علي عليه السلام إلى جرير بعد ذلك: إذا أتاك كتابي هذا فاحمل على الفصل، ثم خيره وخذه بالجواب بين حربٍ مخزية أو سلمٍ محظية، فإن اختار الحرب فابذ إليه، وإن اختار السلم فخذ به بيعته. والسلام.

قال: فلما انتهى الكتاب إلى جرير أتى معاوية، فأقرأه الكتاب، وقال له: يا معاوية، إنه لا يطبع على قلب إلا بذنب، ولا يشرح صدر إلا بتوبة، ولا أظن قلبك إلا مطبوعاً عليه، أراك قد وقفت بين الحق والباطل، كأنك تنتظر شيئاً في يد غيرك. فقال معاوية: ألقاك بالفصل في أول مجلس إن شاء الله.

فلما بايع أهل الشام بعد أن ذاقهم، قال: يا جرير الحق بصاحبك، وكتب إليه بالحرب، وكتب في أسفل الكتاب شعر كعب بن جعيل:

أرى الشام تكره أهل العراق

وأهل العراق لهم كارهونا

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتاب الكامل: إن علياً عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية، قال: والله يا أمير المؤمنين ما أذكرك من نصرتي شيئاً، وما أطمع لك في معاوية. فقال علي عليه السلام: إنما قصدي حجة أقيمها عليه. فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيعة، فقال له جرير: إن المنافق لا يصلي حتى لا يجد من الصلاة بدءاً. فقال معاوية: إنها ليست بخدعة الصبي عن اللبن، فأبلعني ريقى، إنه أمر له ما بعده.

قال: وكتب مع جرير إلى علي عليه السلام جواباً عن كتابه إليه: من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب، أما بعد فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان؛ ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمري ليس حججك علي كحججك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ولم أبايحك، وما حججتك على أهل الشام كحججتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام. فأما شرفك في الإسلام، وقرابتك من النبي صلى الله عليه وسلم وموضعك من قریش، فلست أدفعه. ثم كتب في آخر الكتاب شعر كعب بن جعيل الذي أوله:

أرى الشام تكره أهل العراق

وأهل العراق لهم كارهونا

قال أبو العباس المبرد رحمه الله تعالى: فكتب إليه علي عليه السلام جواباً عن كتابه هذا: من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب: أما بعد: فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتبعه، زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئي في عثمان، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا؛ وما كان الله ليجمعهم على الضلال، ولا ليضربهم بالعمى. وبعد، فما أنت وعثمان! إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إلي. وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير، وبين أهل الشام وأهل البصرة، فلعمري ما الأمر فيما هناك إلا سواء؛ لأنها بيعة شاملة لا يستثنى فيها الخيار، ولا يستأنف فيها النظر. وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموضعي من قریش، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته. قال: ثم دعا النجاشي، أحد بن الحارث بن كعب، فقال له: إن ابن جعيل شاعر أهل الشام، وأنت شاعر أهل العراق، فأجب الرجل. فقال: يا أمير المؤمنين، أسمعني قوله، قال: إذن أسمعك شعر شاعر، ثم أسمع، فقال النجاشي يبيبه:

دعاً يا معاوي ما لن يكونا

فقد حقق الله ما تحذرونا

أتاكم علي بأهل العراق

وأهل الحجاز فما تصنعونا !

على كل جرداء خيفانة

وأشعث نهدي يسر العيوننا

عليها فوارس مخشية	كأسد العرين حمين العرينا
يرون الطعان خلال العجاج	وضرب الفوارس في النقع دينا
هم هزموا الجمع جمع الزبير	وطلحة والمعشر الناكثينا
وآلوا يميناً على حلفة	لنهدى إلى الشام حرباً زبوناً
تشيب النواهد قبل المشيب	وتلقي الحوامل منها الجنينا
فإن تكرهوا الملك ملك العراق	فقد رضي القوم ما تكرهونا
فقل للمضلل من وائل	ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلتم علياً وأشياعه	نظير ابن هند، أما تستحونا!
إلى أفضل الناس بعد الرسول	وصنو الرسول من العالمينا
وصهر الرسول ومن مثله	إذا كان يوم يشيب القرونا!

قلت: أبيات كعب بن جعيل خير من هذه الأبيات، وأخبت مقصداً وأدهى وأحسن.

وزاد نصر بن مزاحم في هذه الرسالة بعد قوله: ولا ليضربهم بالعمى، وما ألبت فتلزميني خطيئة الأمر، ولا قتلت فيجب علي القصاص. وأما قولك إن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز، فهات رجلاً من أهل الشام يقبل في الشورى، أو تحل له الخلافة، فإن زعمت ذلك كذبك المهاجرون والأنصار؛ وإلا أتيتك به من قريش الحجاز. وأما ولوعك بي في أمر عثمان، فما قلت ذلك عن حق العيان، ولا يقين الخير.

وهذه الزيادة التي ذكرها نصر بن مزاحم تقتضي أنه كان في كتاب معاوية إليه عليه السلام أن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز؛ وما وجدنا هذا الكلام في كتابه.

متفرقات

وروى نصر بن مزاحم، قال: لما قتل عثمان ضربت الركبان إلى الشام بقتله، فبينما معاوية يوماً إذ أقبل رجل متلفف، فكشف عن وجهه، وقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين، أتعرفني؟ قال: نعم، أنت الحجاج بن خزيمة بن الصمة، فأين تريد؟ قال: إليك القربان، أنعى ابن عفان، ثم قال:

إن بني عمك عبد المطلب	هم قتلوا شيخكم غير كذب
وأنت أولى الناس بالوثب فثب	واغضب معاوي للاله واحتسب
وسر بنا سير الجرير المتلئب	وانهض بأهل الشام ترشد وتصب
ثم اهزز الصعدة للشأس الشغب	

قال: يعني علياً عليه السلام.

قلت: المتلئب المستقيم المطرد، يقال: هذا قياس متلئب، أي مستمر مطرد. ويقال: مكان شأس، أي غليظ صلب. والشغب: الهائج للشر، ومن رواه: للشاسي بالياء فأصله الشاسي بالصاد، وهو المرتفع، يقال: شصا السحاب إذا ارتفع، فأبدل الصاد سيناً، ومراده هنا نسبة علي عليه السلام إلى التيه والترفع عن الناس.

قال نصر: فقال له معاوية: أفيك مهز؟ فقال: نعم، قال أخبر الناس، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين - ولم يخاطب معاوية ب أمير المؤمنين قبلها - إني كنت فيمن خرج مع يزيد بن أسد القسري، مغيثاً لعثمان، فقدمت أنا وزفر بن الحارث، فلقينا رجلاً زعم أنه ممن قتل عثمان، فقتلناه؛ وإني أخبرك يا أمير المؤمنين أنك لتقوى على علي بدون ما يقوى به عليك، لأن معك قوماً لا يقولون إذا قلت، ولا يسألون إذا أمرت؛ وإن مع علي قوماً يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر، فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه. واعلم أنه لا يرضى علي إلا بالرضا، وأن رضاه سخطك، ولست وعلي سواء؛ علي لا يرضى بالعراق دون الشام، وأنت ترضى بالشام دون العراق.

قال نصر: فضاق معاوية صدرًا بما أتاه، وندم على خذلان عثمان وقال:

وفيه بكاء للعيون طويل

وفيه اجتداع للأنوف أصيل

تكاد لها صم الجبال تزول

أصيب بلا ذنب وذاك جليل!

فريقان منهم قاتل وخذول

وذاك على ما في النفوس دليل

وقصري فيه حسرة وعويل

أتاني أمر فيه للنفس غمة

وفيه فناء شامل وخزاية

مصاب أمير المؤمنين وهدّة

قلله عينا من رأى مثل هالك

تداعت عليه بالمدينة عصبه

دعاهم فصموا عنه عند دعائه

ندمت على ما كان من تبغي الهوى

وبيض لها في الدار عين صليل

شجاك فماذا بعد ذاك أقول!

أجر بها ذيلي وأنت قتيل

ويشفى من القوم الغواة غليل

وذاك بما أسدوا إليك قليل

فليس إليها ما حبيت سبيل

وإني بها من عامنا لكفيل

سأبغي أبا عمرو بكل منقف

تركتك للقوم الذين هم هم

فلست مقيماً ما حبيت ببلدة

فلا نوم حتى تشجر الخيل بالقنا

ونطحهم طحن الرحا بثقالها

فأما التي فيها مودة بيننا

سألقحها حرباً عواناً ملحّة

قال نصر: وافتخر الحجاج على أهل الشام بما كان من تسليمه على معاوية بإمرة المؤمنين.
 قال نصر: وحدثنا صالح بن صدفة، عن ابن إسحاق، عن خالد الخزازي وغيره ممن لا يتهم، أن عثمان لما قتل وأتي معاوية بكتاب علي عليه السلام بعزله عن الشام؛ صعد المنبر ونادى في الناس أن يحضروا، فحضروا، فخطبهم. فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: يا أهل الشام، قد علمتم أي خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان، وقد قتل وأنا ابن عمه ووليه، والله تعالى يقول: "ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً" وأنا أحب أن تعلموني ما في نفوسكم من قتل خليفتمكم.

فقام مرة بن كعب، وفي المسجد يومئذ أربعمائة رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو نحوها، فقال: والله لقد قمت مقامي هذا، وإني لأعلم أن فيكم من هو أقدم صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني؛ ولكني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم نصف النهار في يوم شديد الحر، وهو يقول: "لتكونن فتنة حاضرة"، فمر رجل مقنع، فقال رسول الله: "وهذا المقنع يومئذ على الهدى"، فقمت فأخذت بمنكبه، وحسرت عن رأسه؛ فإذا هو عثمان، فأقبلت بوجهه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلت: هذا يا رسول الله؟ فقال: نعم.

فأصفق أهل الشام مع معاوية حينئذ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع في الخلافة ثم الأمر شورى. وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل في كتاب صفين عن أبي بكر بن عبد الله الهذلي أن الوليد ابن عقبة كتب إلى معاوية يستبطئه في الطلب بدم عثمان، ويحرضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة:

فإنك من أخي ثقةٍ مليم

تهدر في دمشق ولا تريم

كدابغة وقد حلم الأديم

فخير الطالبي الترة الغشوم

ألا أبلغ معاوية بن حرب

قطعت الدهر كالسدوم المعنى

فإنك والكتاب إلى علي

لك الولايات أقحمها عليهم

قال: فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حجر:

ولو زينت الحرب لم يترمرم

ومستعجب مما يرى من أناتنا

وروى ابن ديزيل قال: لما عزم علي عليه السلام على المسير إلى الشام، دعا رجلاً، فأمره أن يتجهز ويسير إلى دمشق، فإذا دخل أناخ راحلته بباب المسجد، ولا يلقي من ثياب سفره شيئاً؛ فإن الناس إذا رأوه عليه آثار الغربة سألوه، فليقل لهم: تركت علياً قد نهد إليكم بأهل العراق. فانظر ما يكون من أمرهم.

ففعل الرجل ذلك، فاجتمع الناس وسألوه، فقال لهم، فكثروا عليه يسألونه فأرسل إليه معاوية بالأعور السلمي يسأله، فأتاه فسأله، فقال له، فأتى معاوية فأخبره، فنادى: الصلاة جامعة، ثم قام فخطب الناس، وقال لهم إن علياً قد نهد إليكم في أهل العراق، فما ترون؟ ف ضرب الناس بأذقائهم على صدورهم؛ لا يتكلمون، فقام ذو الكلاع الحميري فقال: عليك ام رأي وعلينا ام فعال؛ وهي لغة حمير.

فتزل، ونادى في الناس بالخروج إلى معسكرهم، وعاد إلى علي عليه السلام، فأخبره فنادى: الصلاة جامعة، ثم قام فخطب

الناس، فأخبرهم أنه قدم عليه رسول كان بعثه إلى الشام، وأخبره أن معاوية قد نهد إلى العراق في أهل الشام، فما الرأي؟ قال: فاضطرب أهل المسجد، هذا يقول: الرأي كذا، وكثر اللغط واللجب، فلم يفهم علي عليه السلام من كلامهم شيئاً، ولم يدر المصيب من المخطئ، فترل عن المنبر، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! ذهب بها ابن أكلة الأكباد - يعني معاوية.

وروى ابن ديزيل عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بكير، عن الأعمش، قال: كان أبو مريم صديقاً لعلي عليه السلام، فسمع بما كان فيه علي عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه، فجاءه، فلم يره علياً عليه السلام إلا وهو قائم على رأسه بالعراق، فقال له: أبا مريم، ما جاء بك نحوي؟ قال: ما جاء بي غيرك؛ عهدي بك لو وليت أمر الأمة كفيتهم، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف! فقال: يا أبا مريم؛ إني منيت بشار خلق الله، أريدهم على الأمر الذي هو الرأي، فلا يتبعوني. وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر، عن زيد بن الحباب، عن علاء بن جرير العنبري، عن الحكم بن عمير الشمالي - وكانت أمه بنت أبي سفيان بن حرب - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم: " كيف بك يا أبا بكر إذا وليت؟ " قال: لا يكون ذلك أبداً، قال: " فكيف بك يا عثمان إذا وليت؟ " قال: آكل وأطعم وأقسم ولا أظلم، قال: " فكيف بك يا علي إذا وليت؟ " قال: آكل الفوت وأحمي الجمرة، وأقسم التمرة، وأخفي الصور - قال: أي العورة - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: : أما إنكم كلكم سيلي، وسيرى الله أعمالكم، " ثم قال: " يا معاوية، كيف بك إذا وليت؟ " قال: والله ورسوله أعلم، فقال: " أنت رأس الحطم، ومفتاح الظلم، حصباً وحقياً، تتخذ الحسن قبيحاً، والسيئة حسنة، يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، أجلك يسير، وظلمك عظيم " .

وروى ابن ديزيل أيضاً عن عمر بن عمر بن عون، عن هشيم، عن أبي فلج، عن عمرو بن ميمون، قال: قال عبد الله بن مسعود: كيف أنتم إذا لقيتم فتنة يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، تجري بين الناس، ويتخذونها سنة، فإذا غيرت قيل: هذا منكر! وروى ابن ديزيل، قال: حدثنا الحسن بن الربيع البجلي، عن أبي إسحاق الفزاري عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، في قوله تعالى: " فإذا نذهب بك فإننا منهم منتقمون، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون " . قال: أكرم الله تعالى نبيه عليه السلام أن يريه في أمته ما يكره رفعه إليه، وبقيت النعمة.

قال ابن ديزيل: وحدثنا عبد الله بن عمر، قال: حدثنا عمرو بن محمد، قال: أخبرنا أسباط، عن السدي، عن أبي المنهال، عن أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سألت ربي لأمتي ثلاث خلال، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة: سألته ألا تكفر أمتي صفقة واحدة فأعطانيها، وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " .

قال ابن ديزيل: وحدثنا يحيى بن عبد الله الكرابيسي، قال: حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا أبو معاوية، عن عمار بن زريق، عن عمار الدهني، عن سالم بن أبي الجعد قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود، فقال: إن الله تعالى قد آمننا أن يظلمنا، ولم يؤمننا أن يفتننا، أرايت إذا أنزلت فتنة، كيف أصنع؟ فقال: عليك كتاب الله تعالى، قال: أرايت إن جاء قوم كلهم يدعوا إلى كتاب الله تعالى؟ فقال ابن مسعود: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا اختلف الناس كان ابن

سمية مع الحق"، يعني عماراً.

وروى ابن ديزيل، قال: حدثنا يحيى بن زكريا، قال: حدثنا علي بن القاسم، عن سعيد بن طارق، عن عثمان بن القاسم، عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أدلكم على ما إن تساءلتم عليه لم تهلكوا؟ إن وليكم الله، وإن إمامكم علي بن أبي طالب، فناصره وصدقوه، فإن جبريل أخبرني بذلك".

فإن قلت: هذا نص صريح في الإمامة، فما الذي تصنع المعتزلة بذلك؟ قلت: يجوز أن يريد أنه إمامهم في الفتاوى والأحكام الشرعية، لا في الخلافة. وأيضاً فإننا قد شرحنا من قول شيوخنا البغداديين ما محصله: إن الإمامة كانت لعلي عليه السلام إن رغب فيها ونازع عليها، وإن أقرها في غيره وسكت عنها تولينا ذلك الغير، وقلنا بصحة خلافته، وأمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الأئمة الثلاثة، ولا جرد السيف، ولا استنجد بالناس عليهم، فدل ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه؛ فلذلك توليناهم، وقلنا فيهم بالطهارة والخير والصلاح، ولو حاربهم وجرد السيف عليهم، واستصرخ العرب على حربهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه المعاملة، من التفسيق والتضليل.

قال ابن ديزيل: وحدثنا عمرو بن الربيع، قال: حدثنا السري بن شيبان، عن عبد الكريم، أن عمر بن الخطاب قال لما طعن: يا أصحاب محمد تناصحوها؛ فإنكم إن لم تفعلوا غلبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان. قلت: إن محمد بن النعمان المعروف بالمفيد أحد الإمامية قال في بعض كتبه: إنما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص عامله وأميره على مصر، وخاف أن يضعف عثمان عنها، وأن تصير إلى علي عليه السلام، فألقى هذه الكلمة إلى الناس لتنتقل إليهما - وهما بمصر والشام - فيتغلبا على هذين الإقليمين إن أفضت إلى علي عليه السلام. وهذا عندي من باب الاستنباطات التي يوجبها الشنآن والحنق، وعمر كان أتقى الله من أن يخطر له هذا، ولكنه من فراسته الصادقة التي كان يعلم بها كثيراً من الأمور المستقبلية، كما قال عبد الله بن عباس في وصفه: والله ما كان أوس بن حجر عنى أحداً سواه بقوله:

كأن قد رأى وقد سمعا

الألمعي الذي يظن بك الظن

وروى ابن ديزيل، عن عفان بن مسلم، عن وهب بن خالد، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث، عن مرة بن كعب، قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة فقرها، فمر رجل قد تقنع بثوبه، فقال عليه السلام: " هذا وأصحابه يومئذ على الحق"، فقمتم إليه فأخذت بمنكبه، فقلت: هو هذا؟ فقال: نعم، فإذا هو عثمان بن عفان. قلت: هذا الحديث قد رواه كثير من محققي أصحاب الحديث، ورواه محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه الكبير بعدة روايات. وليس لقائل أن يقول: فهذا الحديث إذا صححتموه كان حجة للسفيانية، لأننا نقول: الخبر يتضمن أن عثمان وأصحابه على الحق، وهذا مذهبنا. لأننا نذهب إلى أن عثمان قتل مظلوماً، وأنه وناصره يوم الدار على الحق، وأن القوم الذين قتلوه لم يكونوا على الحق، فأما معاوية وأهل الشام الذين حاربوا علياً عليه السلام بصفين فليسوا بداخلين في الخبر؛ ولا في ألفاظ الخبر لفظ عموم يتعلق به، ألا ترى أنه ليس فيه كل من أظهر الانتصار لعثمان في حياته بعد وفاته فهو على

الحق، وإنما خلاصته أنه ستقوم فتنة، يكون عثمان فيها وأصحابه على الحق، ونحن لا نأبى ذلك، بل هو مذهبنا. وروى نصر بن مزاحم في كتاب صفين قال: لما قدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص: إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدم عبيد الله بن عمر، وقد رأيت أن أقيم خطيباً يشهد على علي بقتل عثمان، وينال منه، فقال: الرأي ما رأيته، فبعث إليه، فأتاه، فقال له معاوية: يابن أخي، إن لك اسم أبيك فانظر بملء عينيك، وانطق بملء فيك، فأنت المأمون المصدق، فاصعد المنبر واشتم علياً، واشهد عليه أنه قتل عثمان. فقال: أيها الأمير، أما شتمه؛ فإن أباه أبو طالب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما عسى أن أقول في حسبه! وأما بأسه فهو الشجاع المطرق، وأما أيامه فما قد عرفت، ولكني ملزمه دم عثمان، فقال عمرو بن العاص: قد وأبيك إذن نكأت القرحة.

فلما خرج عبيد الله بن عمر، قال معاوية: أما والله لولا قتله الهرمزان، ومخافته علياً على نفسه ما أتاننا أبداً؛ ألا ترى إلى تقريظه علياً! فقال عمرو: يا معاوية، إن لم تغلب فاخلب، قال: وخرج حديثهما إلى عبيد الله، فلما قام خطيباً تكلم بحاجته، فلما انتهى إلى أمر علي أمسك ولم يقل شيئاً، فلما نزل بعث إليه معاوية: يابن أخي؛ إنك بين عي وخيانة، فبعث إليه: إني كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان، وعرفت أن الناس محتملوها عني فتركها، قال: فهجره معاوية واستخف به وفسقه، فقال عبيد الله:

معاوي لم أحرص بخطبة خاطب	ولم أك عياً في لؤي بن غالب
ولكني زاولت نفساً أبيّة	على قذف شيخ بالعراقي غائب
وقدفي علياً بابن عفان جهرة	كذاب، وما طبي سجايا المكاذب
ولكنه قد قرب القوم جهده	ودبوا حواليه دبيب العقارب
فما قال: أحسنتم ولا قد أسأتم	وأطرق إطراق الشجاع الموانب
فأما ابن عفان فأشهد أنه	أصيب بريئاً لابساً ثوب تائب
وقد كان فيها للزبير عجاجة	وظلحة فيها جاهد غير لاعب

وقد أظهرنا من بعد ذلك توبة

فيا ليت شعري ما هما في العواقب !

قال: فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه، وقال: حسبي هذا منك.

وروى نصر، عن عبيد الله بن موسى، قال: سمعت سفيان بن سعيد المعروف بسفيان الثوري، يقول: ما أشك أن طلحة والزبير بايعا علياً، وما نقما عليه جوراً في حكم ولا استئثاراً بفيء؛ وما قاتل علياً أحد إلا وعلي أولى بالحق منه. وروى نصر بن مزاحم أن علياً عليه السلام قدم من البصرة في غرة شهر رجب من سنة ست وثلاثين إلى الكوفة، وأقام بها سبعة عشر شهراً، تجري الكتب بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص، حتى سار إلى الشام.

قال نصر: وقد روي من طريق أبي الكنود وغيره أنه قدم الكوفة بعد وقعة الجمل، لاثنتي عشر ليلة خلت من شهر رجب

سنة ست وثلاثين.

قال نصر: فدخل الكوفة ومعه أشرف الناس من أهل البصرة وغيرهم، فاستقبله أهل الكوفة، وفيهم قراؤهم وأشرفهم، فدعوا له بالبركة، وقالوا: يا أمير المؤمنين، أين تنزل؟ أتزل القصر؟ قال: لا، ولكني أنزل الرحبة، فترلها وأقبل حتى دخل المسجد الأعظم، فصلى فيه ركعتين، ثم صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد يا أهل الكوفة، فإن لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدلوا وتغيروا، دعوتكم إلى الحق فأجبتكم، وبدأتم بالمنكر فغيرتم، ألا إن فضلكم فيما بينكم وبين الله، فأما في الأحكام والقسم فأنتم أسوة غيركم ممن أجابكم، ودخل فيما دخلتم فيه.

ألا إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل؛ أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة؛ ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة. اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل؛ الحمد لله الذي نصر وليه، وخذل عدوه، وأعز الصادق الحق، وأذل الناكث المبطل.

عليكم بتقوى الله وطاعة من أطاع الله من بيت نبيكم، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المستحلين المدعين المقابلين إلينا؛ يتفضلون بفضلنا، ويحاذوننا أمرنا، وينازعوننا حقنا، ويباعدوننا عنه، فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا فسوف يلقون غيماً. ألا إنه قد قعد عن نصرتي رجال منكم؛ وأنا عليهم عاتب زارٍ، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون، حتى يعتبوا ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة.

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعي - وكان صاحب شرطته - فقال: والله إني لأرى المجر وسماع المكروه لهم قليلاً، والله لو أمرتنا لنقتلنهم. قال علي عليه السلام: سبحان الله يا مال! جزت المدى، وعدوت الحد، فأغرقت في التزع. فقال: يا أمير المؤمنين، لبعض الغشم أبلغ في أمر ينوبك من مهادنة الأعداء، فقال علي عليه السلام: ليس هكذا قضى الله، يامال، قال سبحانه: " النفس بالنفس " فما بال ذكر الغشم! وقال تعالى: " ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل "، والإسراف في القتل أن تقتل غير قاتلك، فقد نهى الله عنه، وذاك هو الغشم.

فقام إليه أبو بردة بن عوف الأزدي - وكان ممن تخلف عنه - فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت القتلى حول عائشة وطلحة والزبير، علام قتلوا؟ - أو قال: بم قتلوا؟ - فقال علي عليه السلام: قتلوا بما قتلوا شيعتي وعمالي، وقتلوا أخا ربيعة العبد في عصابة من المسلمين، فقالوا: إنا لا ننكث كما نكثتم، ولا نغدر كما غدرتم، فوثبوا عليهم فقتلوهم، فسألتهم أن يدفعوا إلي قتلة إخواني أقتلهم بهم، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم، فأبوا علي، وقاتلوني - وفي أعناقهم بيعتي، ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي - فقتلتهم، أفي شك أنت من ذلك! فقال: قد كنت في شك، فأما الآن فقد عرفت، واستبان لي خطأ القوم، وإنك المهتدي المصيب.

قال نصر: وكان أشياخ الحي يذكرون أنه كان عثمانياً، وقد شهد صفين مع علي عليه السلام، ولكنه بعد ما رجع كان يكتب معاوية، فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعة بالفلوجة، وكان عليه كريماً.

قال: ثم إن علياً عليه السلام تهيأ ليتزل، وقام رجال ليتكلموا، فلما رأوه نزل جلسوا وسكتوا.

قال: ونزل علي عليه السلام بالكوفة على جعدة بن هبيرة المخزومي.

قلت: جعدة ابن أخته أم هانئ بنت أبي طالب، كانت تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فاولدها جعدة، وكان شريفاً.

قال نصر: لما قدم علي عليه السلام إلى الكوفة نزل على باب المسجد، فدخل فصلى، ثم تحول فجلس إليه الناس، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة، فقال قائل: استأثر الله به، فقال علي عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خلقه، إنما أراد الله جل ذكره بالموت إعزاز نفسه؛ وإذلال خلقه، وقرأ: " كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم "؛ قال نصر: فلما لحقه عليه السلام ثقله قالوا: أنزل القصر؟ فقال: قصر الخبال، لا تتزلوا فيه.

قال نصر: ودخل سليمان بن صرد الخزاعي على علي عليه السلام مرجعه من البصرة، فعاتبه وعذله، وقال له: ارتبت وتربصت وراوغت؛ وقد كنت من أوثق الناس في نفسي، وأسرعهم فيما أظن إلى نصرتي؛ فما قعد بك عن أهل بيت نبيك؟ وما زهدك في نصرتهم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تردن الأمور على أعقابها، ولا تؤنّبني بما مضى منها، واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي، فقد بقيت أمور تعرف فيها عدوك من وليك.

فسكت عنه، وجلس سليمان قليلاً، فخرج إلى الحسين بن علي عليه السلام؛ وهو قاعد في باب المسجد، فقال: ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه إلا التوبيخ والتبكيك؟ فقال الحسن: إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته، فقال: لقد وثبت أمور ستشرع فيها القنا، وتنتضى فيها السيوف، ويحتاج فيها إلى أشباهي، فلا تستعشوا عتي، ولا تتهموا نصحي.

فقال الحسن: رحمك الله، ما أنت عندنا بظنين .

قال نصر: ودخل عليه سعيد بن قيس الأزدي، فسلم عليه، فقال: وعليك السلام وإن كنت من المتربصين! قال: حاش لله يا أمير المؤمنين! إني لست من أولئك. فقال لعل الله فعل ذلك.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، عن محمد بن مخنف، قال: دخلت مع أبي علي عليه السلام، مقدمه من البصرة، وهو عام بلغت الحلم، فإذا بين يديه رجال يؤنبهم، ويقول لهم: ما أبطأ بكم عني، وأنتم أشراف قومكم! والله إن كان من ضعف النية وتقصير البصيرة؛ إنكم لبور، وإن كان من شك في فضلي ومظاهرة علي، إنكم لعدو.

فقالوا: حاش لله يا أمير المؤمنين! نحن سلمك وحرب عدوك. ثم اعتذر القوم فمنهم من ذكر عذراً، ومنهم من اعتل بمرض، ومنهم من ذكر غيبة، فنظرت إليهم فعرفتهم، فإذا عبد الله المعتم العبسي، وحنظلة بن الربيع التميمي؛ وكلاهما كانت له صحبة، وإذا أبو بردة بن عوف الأزدي؛ وإذا غريب بن شرحبيل الهمداني.

قال: ونظر علي عليه السلام إلى أبي، فقال: ولكن مخنف بن مسلم وقومه لم يتخلفوا، ولم يكن مثلهم كمثل القوم الذين قال الله تعالى فيهم: " وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبةٌ قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً ولن أصابكم فضل من الله ليقولن كأنا لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً " .

قال نصر: ثم إن علياً عليه السلام مكث بالكوفة، فقال الشني في ذلك، شن بن عبد القيس:

ب وتمت بذلك النعماء

د وبالشام حية صماء

فارمها قبل أن تعض شفاء

س ومن دون بيته البيداء

م بخيل كأنها أشلاء

ل بكفيه صعدة سمراء

ر بمعطيك ما أراك تشاء

ك ونجم العيوق والعواء

ليس والله غير ذاك دواء

قل لهذا الإمام قد خبت الحر

وفرغنا من حرب من نقض العه

تنتفث السم ما لمن نهشته

إنه والذي يحج له الناء

لضعيف النخاع إن رمي اليو

تنتبارى بكل أصيد كالفتح

إن تذره فما معاوية الده

ولنيل السماء أقرب من ذا

فاعد بالحد والحديد إليهم

قال نصر: وأتم علي عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة، فلما كانت الجمعة خطب الناس، فقال: الحمد لله الذي أحمده وأستعينه وأستهديه، وأعوذ بالله من الضلالة؛ من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، انتجبه لأمره، واختصه بنبوته. أكرم خلقه عليه، وأحبهم إليه، فبلغ رسالة ربه، ونصح لأئمة، وأدى الذي عليه.

أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله، وأقربه إلى رضوان الله، وخيره في عواقب الأمور عند الله، وبتقوى الله أمرتم، ولالإحسان والطاعة خلقتكم، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، فإنه حذر بأساً شديداً، واخلشوا خشية ليست بتعذير واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل له، ومن عمل لله مخلصاً تولى الله أجره. أشفقوا من عذاب الله؛ فإنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سدىً، قد سمى آثاركم، وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم، فلا تغتروا بالدنيا فإنها غرارة لأهلها، مغرور من اغتر بها، وإلى فناء ما هي، وإن الآخرة هي دار الحيوان لو كانوا يعلمون. أسأل الله منازل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، ومعيشة السعداء، فإنما نحن به وله.

قال نصر: ثم استعمل علي عليه السلام العمال وفرقهم في البلاد، وكتب إلى معاوية مع جرير ابن عبد الله البجلي ما تقدم ذكره.

قال نصر: وقال معاوية لعمر بن العاص، أيام كان جرير عنده ينتظر جوابه: إنني قد رأيت أن نلقي إلى أهل مكة وأهل المدينة كتاباً، نذكر فيه أمر عثمان، فإذا أن ندرك به حاجتنا، أو نكف القوم عنا، فقال له عمرو: إنما تكتب إلى ثلاثة نفر: رجل راضٍ بعلي فلا يزيدك كتابك إلا بصيرة فيه، أو رجل يهوى عثمان؛ فلن يزيدك كتابك على ما هو عليه، أو رجل معتزل، فلست في نفسه بأوثق من علي.

قال: علي ذاك، فكتبا: أما بعد، فإنه مهما غاب عنا من الأمور فلم يغيب عنا أن علينا قتل عثمان؛ والدليل على ذلك مكان قتلته منه، وإنما نطلب قتلته؛ حتى يدفعوا إلينا، فنقتلهم بكتاب الله عز وجل، فإن دفعهم علي إلينا كففنا عنه؛

وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب. فأما الخلافة فلسنا نطلبها، فأعينونا على أمرنا هذا، وانفضوا من ناحيتكم؛ فإن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد هاب علي ما هو فيه، والسلام.

فكتب إليهما عبد الله بن عمر: أما بعد، فلعمري لقد أخطأتم موضع النصرة وتناولتماها من مكان بعيد؛ وما زاد الله من شك في هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً، وما أنتما والمشورة، وما أنتما والخلافة! أما أنت يا معاوية فطليق، وأما أنت يا عمرو فظنين، ألا فكفا أنفسكما، فليس لكم فينا ولي ولا نصير. والسلام.

قال نصر: وكتب رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر:

وليس بما ربصت أنت ولا عمرو

كما نصب الشيخان إذ قضى الأمر

معاوي إن الحق أبلج واضح

نصبت ابن عفان لنا اليوم خدعة

- يعني طلحة والزبير رحمهما الله -.

سواء كرقراق يغرب به السفر

وإن عظمت فيه المكيدة والمكر

أتوه من الأحياء تجمعهم مصر

علانية ما كان فيها لهم قسر

إلى العمرة العظمى وباطنها الغدر

يطول، فيا الله ما أحدث الدهر

بعيثاً حروب ما يبوخ لها جمر

وذكركما الشورى وقد وضح الفجر

فهذا كهذاك البلا حذو نعله

رميتم علياً بالذي لا يضيره

وما ذنبه إن نال عثمان معشر

فتار إليه المسلمون ببيعة

وبايعة الشيخان ثم تحملاً

فكان الذي قد كان مما اقتصاصه

وما أنتما والنصر منا وأنتما

وما أنتما لله در أبيكما

قال نصر: وقام عدي بن حاتم الطائي إلى علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندي رجلاً لا يوازي به رجل، وهو يريد أن يزور ابن عمه حابس بن سعد الطائي بالشام، فلو أمرناه أن يلقي معاوية لعله أن يكسره ويكسر أهل الشام، فقال علي عليه السلام: نعم، فأمره عدي بذلك - وكان اسم الرجل خفاف بن عبد الله.

فقدم على ابن عمه حابس بن سعد بالشام - وحابس سيد طيئ بها - فحدث خفاف حابساً أنه شهد عثمان بالمدينة، وسار مع علي إلى الكوفة، وكان لخفاف لسان وهيئة وشعر، فغدا حابس بخفاف إلى معاوية، فقال: إن هذا ابن عم لي، قدم الكوفة مع علي، وشهد عثمان بالمدينة، وهو ثقة. فقال له معاوية: هات، حدثنا عن عثمان، فقال: نعم حصره المكشوح وحكم فيه حكيم، ووليه عمار، وتجرد في أمره ثلاثة نفر: عدي بن حاتم والأشتر النخعي، وعمرو بن الحمق، وجد في أمره رجلان طلحة والزبير، وأبرأ الناس منه علي. قال: ثم مه، قال: ثم تهافت الناس على علي بالبيعة تهافت الفراش، حتى ضاعت النعل وسقط الرداء، ووطئ الشيخ. ولم يذكر عثمان ولم يذكر له، ثم تهياً للمسير، وخف معه المهاجرون والأنصار، وكره القتال معه ثلاثة نفر: سعد بن مالك، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، فلم يستكره

أحداً، واستغنى بمن خف معه عمن ثقل. ثم سار حتى أتى جبل طيبى، فأتته منا جماعة كان ضارباً بهم الناس؛ حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، فسرح رجالاً إلى الكوفة يدعونهم؛ فأجابوا دعوته، فسار إلى البصرة، فإذا هي في كفه، ثم قدم الكوفة فحمل إليه الصبي، ودبت إليه العجوز، وخرجت إليه العروس فرحاً به وشوقاً إليه، وتركته وليس له همة إلا الشام.

فدعر معاوية من قوله، وقال حابس: أيها الأمير، لقد أسمعني شعراً غير به حالي في عثمان، وعظم به علياً عندي. فقال معاوية: أسمعني يا خفاف، فأنشده شعراً أوله:

قلت والليل ساقط الأكناف

ولجنبني عن الفراش تجاف

- يذكر فيه حال عثمان وقتله، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره... ومن جملته:

ر كما مر ذاهب الأسلاف

قد مضى ما مضى ومر به الده

س على لحق البطون عجاف

إنني والذي يحج له النا

ع بشعثٍ مثل السهام نحاف

تتبارى مثل القسي من النق

صيحةً مثل صيحة الأحقاف

أرهب اليوم إن أتاكم علي

مطرق نافث بسم زعاف

إنه الليث غادياً وشجاع

من يفري به شؤون القحاف

واضع السيف فوق عاتقه الأي

بايعوه إلى الطعان خفاف

سوم الخيل ثم قال لقوم

م قلبوه كاليددين اللطاف

استعدوا لحرب طاغية الشا

ش ونحن منه الخوافي

ثم قالوا أنت الجناح لك الري

م بسلمٍ تهم أم بخلاف

فانظر اليوم قبل بادرة القو

قال: فانكسر معاوية، وقال: يا حابس، إني لأظن هذا عيناً لعلي، أخرجه عنك لئلا يفسد علينا أهل الشام.

قال نصر: وحدثنا عطية بن غني، عن زياد بن رستم، قال: كتب معاوية إلى عبد الله بن عمر خاصة، وإلى سعد بن أبي

وقاص، وإلى محمد بن مسلمة، دون كتابه إلى أهل المدينة، فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر: أما بعد، فإنه لم يكن أحد

من قريش أحب إلي أن يجتمع عليه الناس بعد قتل عثمان منك، ثم ذكرت خذلك إياه، وطعنك على أنصاره، فتغيرت

لك؛ وقد هون ذلك علي خلافاً لك علي، ومحا عنك بعض ما كان منك، فأعنا - رحمك الله - على حق هذا الخليفة

المظلوم؛ فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك؛ فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين.

فاجابه عبد الله بن عمر: أما بعد، فإن الرأي الذي أطمعك في، هو الذي صيرك إلى ما صيرك إليه. أترك علياً في المهاجرين

والأنصار، وطلحة بن الزبير وعائشة أم المؤمنين، وأتبعك! وأما زعمك أي طعنت علي، فلعمري ما أنا كعلي في

الإيمان والهجرة، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونكايته في المشركين، ولكني عهد إلي في هذا الأمر عهد،

ففزعت فيه إلى الوقوف وقلت: إن كان هذا هدياً ففضل تركته، وإن كان ضلالاً فشر نجوت منه، فأغن عنا نفسك، والسلام.

قال: وكان كتاب معاوية إلى سعد: أما بعد، فإن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكان في الأمر، ونظيرك في الإسلام، وخفت لذلك أم المؤمنين، فلا تكرهن ما رضوا، ولا تردن ما قبلوا، فإننا نردها شورى بين المسلمين.

فاجابه سعد: أما بعد، فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة من قريش، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا بإجماعنا عليه، إلا إن علياً كان فيه ما فينا، ولم يكن فينا ما فيه؛ وهذا أمر قد كرهت أوله، وكرهت آخره، فأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما لكان خيراً لهما، والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت. والسلام.

قال: وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة: أما بعد، فإني لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك؛ ولكنني أردت أن أذكرك النعمة التي خرجت منها، والشك الذي صرت إليه؛ إنك فارس الأنصار، وعدة المهاجرين، وقد ادعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً لم تستطع إلا أن تمضي عليه، وهو أنه نهاك عن قتال أهل القبلة، أفلا نهيت أهل القبلة عن قتال بعضهم بعضاً! فقد كان عليك أن تكره لهم ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألم تر عثمان وأهل الدار من أهل القبلة! فأما قومك فقد عصوا الله، وخذلوا عثمان، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة، والسلام.

قال: فكتب إليه محمد بن مسلمة: أما بعد، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي في يدي، قد أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي هو كائن قبل أن يكون، فلما كان كسرت سيفي، وجلست في بيتي، واتهمت الرأي على الدين، إذا لم يصح لي معروف أمر به، ولا منكر أنهي عنه، وأما أنت فلعمري ما طلبت إلا الدنيا، ولا اتبعت إلا الهوى وإن تنصر عثمان ميتاً فقد خذلت حياً، والسلام.

جرير البجلي يفارق علياً عليه السلام

قد أتينا على ما أردنا ذكره من حال أمير المؤمنين عليه السلام، مذ قدم من حرب البصرة إلى الكوفة، وما جرى بينه وبين معاوية من المراسلات، وما جرى بين معاوية وبين غيره من الصحابة من الاستنجاد والاستصراخ؛ وما أجابوه به؛ ونحن نذكر الآن ما جرى لجرير بن عبد الله عند عودته إلى أمير المؤمنين من قهمة الشيعة له بممالة معاوية عليهم، ومفارقة جنة أمير المؤمنين.

قال نصر بن مزاحم: حدثنا صالح بن صدقة، بإسناده، قال: قال لما رجع جرير إلى علي عليه السلام، كثر قول الناس في التهمة لجرير في أمر معاوية، فاجتمع جرير والأشتر عند علي عليه السلام، فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين، أن لو كنت أرسلتني إلى معاوية، لكنت خيراً لك من هذا الذي أرخى خناقه، وأقام عنده، حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلا فتحه، ولا باباً يخاف أمره إلا سده.

فقال جرير: لو كنت والله أتيتهم لقتلوك - وخوفه بعمرو، وذو الكلاع، وحوشب - وقال: إنهم يزعمون أنك من قتلة

عثمان .

فقال الأشر: والله لو أتيتهم يا جرير لم يعيني جوابها، ولم يثقل علي حملها، ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر.

قال: فائتهم إذاً، قال: الآن وقد أفسدتم ووقع بينهم الشر! وروى نصر، عن نمر بن وعلة، عن الشعبي قال: اجتمع جرير والأشر عند علي عليه السلام، فقال الأشر: أليس قد نهيته يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً، وأخبرتكم بعداوتيه وغشه! وأقبل الأشر يشتمه، ويقول: يا أبا بجيلة، إن عثمان اشترى منك دينك بثمان، والله ما أنت بأهل أن تترك تمشي فوق الأرض، إنما أتيتهم لتتخذ عندهم يداً بمسيرك إليهم، ثم رجعت إلينا من عندهم، تهددنا بهم، وأنت والله منهم، ولا أرى سعيك إلا لهم؛ لئن أطاعني فيك أمير المؤمنين ليحبسكن وأشباههك في حبس لا تخرجون منه حتى تستتم هذه الأمور، ويهلك الله الظالمين.

قال جرير: وددت والله أن لو كنت مكاني بعثت، إذن والله لم ترجع.

قال: فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله، فارق علياً عليه السلام، فلحق بقرقيسياء ولحق به ناس من قسر من قومه فلم يشهد صفين من قسر غير تسعة عشر رجلاً؛ ولكن شهدها من أحسن سبعمائة رجل. قال نصر: وقال الأشر فيما كان من تخويف جرير إياه بعمره وحوشب وذو الكلاع :

وصاحبه معاوي بالشام

أخف علي من ريش النعمان

وعن بازٍ مخالبه دوامي

وكيف أخاف أحلام النيام

من الدنيا، وهمي ما أمامي

لعمرك يا جرير لقول عمرو

وذو كلعٍ وحوشب ذي ظليمٍ

إذا اجتمعوا علي فخل عنهم

ولست بخائفٍ ما خوفوني

وهمهم الذي حاموا عليه

يشيب لهولها رأس الغلام

أفوز بفلجه يوم الخصام

ومن ذا مات من خوف الكلام !

فإن أسلم أعمهم بحربٍ

وإن أهلك فقد قدمت أمراً

وقد زادوا علي وأعدوني

وذكر ابن قتيبة في المعارف، أن جريراً قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة في شهر رمضان، فبايعه وأسلم، وكان جرير صبيح الوجه جميلاً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كأن علي وجهه مسحة ملك ". وكان عمر يقول: جرير يوسف هذه الأمة. وكان طوالاً يفتل في ذروة البعير طوله، وكانت نعله ذراعاً، وكان يخضب لحيته بالزعفران من الليل ويغسلها إذا أصبح، فتخرج مثل لون التبر. واعتزل علياً عليه السلام ومعاوية، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشرارة سنة أربع وخمسين في ولاية الضحاك ابن قيس على الكوفة.

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبي في جمهرة الأنساب، فقال: هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلب بن

جشم بن عوف بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن بدير بن قسر - واسمه ملك - بن عبق بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن زيد بن كهلان.

ويذكر أهل السير أن علياً هدم دار جرير ودور قوم ممن خرج معه، حيث فارق علياً عليه السلام، منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القسري، كان ختنه على ابنته، وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبي أراكة قديماً، ولعله اليوم نسي ذلك الاسم.

لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية

وكان قد ابتاع سي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام فقال: الأصل: قبح الله مصقلة! فعل فعل السادة، وفر فرار العبيد، فما أنطق مادحه حتى أسكته، ولا صدق واصفه حتى بكته، ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره.

الشرح: خاس به يخيس ويخوس: أي غدر به، وخاس بالعهد: أي نكث. وقبح الله فلاناً: أي نحاه عن الخير، فهو مقبوح، والتبكيك كالتقريع والتعنيف. والوفور. مصدر وفر المال: أي تم، ويحيى متعدياً. ويروى موفوره، والموفور: التام، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

بفعاله وأثابنا خجلاً

يا من مدحناء فأكذبنا

سربلت فاررد لنا سماً

برداً قشيباً من مدائننا

بنائها وتبهرج الرجال

إن التجارب تهتك المستور من

من هم بنو ناجية

فأما القول في نسب بني ناجية، فإنهم ينسبون أنفسهم إلى سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وقريش تدفعهم عن هذا النسب، ويسمونهم بني ناجية - وهي أمهم - وهي امرأة سامة ابن لؤي بن غالب، ويقولون: إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مغاضباً لأخيه كعب بن لؤي في مماظة كانت بينهما، فطأطأت ناقته رأسها لتأخذ العشب، فعلق بمشفرها أفعى، ثم عطفت على قتبها فحكته به، فدب الأفعى على القتب حتى نكش ساق سامة فقتله، فقال أخوه كعب بن لؤي يرثيه:

علقت ساق سامة العلاقه

عين جودي لسامة بن لؤي

حذر الموت لم تكن مهراقه

رب كأس هرقتها ابن لؤي

قالوا: وكانت معه امرأته ناجية، فما مات تزوجت رجلاً في البحرين، فولدت منه الحارث، ومات أبوه وهو صغير، فلما ترعرع طمعت أمه أن تلحقه بقريش، فأخبرته أنه ابن سامة بن لؤي بن غالب، فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمه، فأخبر كعب بن لؤي أنه ابن أخيه سامة، فعرف كعب أمه ناجية، فظن أنه صادق في دعواه، فقبله ومكث عنده مدة؛

حتى قدم مكة ركب من البحرين، فأروا الحارث، فسلموا عليه، وحادثوه، فسألهم كعب بن لؤي: من أين يعرفونه؟ فقالوا: هذا ابن رجلٍ من بلدنا يعرف بفلان، وشرحوا له خبره، فنفاه كعب عن مكة ونفى أمه، فرجعا إلى البحرين، فكانا هناك، وتزوج الحارث، فأعقب هذا العقب.
وقال هؤلاء: إنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " عمي سامة لم يعقب "

وزعم الكلبي أن سامة بن لؤي ولد غالب بن سامة، والحارث بن سامة - وأم غالب بن سامة ناجية - ثم هلك سامة، فخلف عليها ابنه الحارث بن سامة، نكاح مقت ، ثم هلك ابنها سامة ولم يعقبا، وإن قوماً من بني ناجية بن جرم بن زبان بن علاف، ادعوا أنهم بنو سامة بن لؤي، وأن أمهم ناجية هذه، ونسبوها هذا النسب، وانتموا إلى الحارث بن سامة، وهم الذين باعهم علي عليه السلام على مصقلة بن هبيرة ، وهذا هو قول الهيثم بن عدي. كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني الكبير.

ووجدت أنا في جمهرة النسب لابن الكلبي كلاماً قد صرح فيه بأن سامة بن لؤي أعقب، فقال: ولد سامة بن لؤي الحارث - وأمهم هند بنت تيم - وغالب بن سامة - وأمهم ناجية بنت جرم ابن زبان، من قضاة، فهلك غالب بعد أبيه؛ وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فولد الحارث بن سامة لؤياً وعبيدة وربيعاً وسعداً، وأمهم سلمى بنت تيم بن شيبان بن محارب بن فهر وعبد البيت، وأمهم ناجية بنت جرم، خلف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح مقت، فهم الذين قتلهم علي عليه السلام.

قال أبو الفرج الأصفهاني: أما الزبير بن بكار، فإنه أدخلهم في قريش، وهم قريش العازبة، قال: وإنما سموها العازبة، لأنهم عزبوا عن قومهم فنسبوا إلى أمهم ناجية بنت جرم بن زبان ابن علاف، وهو أول من اتخذ الرحال العلافية، فنسبت إليه، واسم ناجية ليلي، وإنما سميت ناجية، لأنها سارت مع سامة في مفازة ، فعطشت، فاستسقت، فقال لها : الماء بين يديك، وهو يريها السراب؛ حتى أتت إلى الماء فشربت، فسميت ناجية.

قال أبو الفرج: وللزبير بن بكار في إدخالهم في قريش مذهب، وهو مخالفة أمير المؤمنين علي عليه السلام، وميله إليهم، لأجمعهم على بغضه عليه السلام، حسب المشهور المأثور من مذهب الزبير في ذلك.

أخبار علي بن الجهم

ومن المنتسبين إلى سامة بن لؤي علي بن الجهم الشاعر، وهو علي بن الجهم بن بدر بن جهم ابن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كراز بن كعب بن جابر بن مالك بن عتبة بن الحارث بن عبد البيت بن سامة بن لؤي بن غالب.
هكذا ينسب نفسه، وكان مبغضاً لعلي عليه السلام، ينحو نحو مروان بن أبي حفصة في هجاء الطالبين وذم الشيعة، وهو القائل:

إمام، خاب ذلك من إمام!

من الأتراك مشرعة السهام!

ورافضة تقول بشعب رضوى

إمام من له عشرون ألفاً

وقد هجاه أبو عبادة البحتري، فقال فيه:

فلا في العير أنت ولا النفير
لزد الخلق في عظم الأيور
من الأقمار ثم ولا الدور
بما لففت من كذب وزور!
يكفك عن أذى أهل القبور!

إذا ما حصلت عليا قريش
ولو أعطاك ربك ما تمنى
وما الجهم بن بدر حين يعزى
علام هجوت مجتهداً علياً
أما لك في إسنك الوجعاء شغل

وسمع أبو العيلاء علي بن الجهم يوماً يطعن علي أمير المؤمنين، فقال له: أنا أدري لم طعن علي أمير المؤمنين! فقال: أعني قصة بيعة أهلي من مصقلة بن هبيرة؟ قال: لا، أنت أوضع من ذلك، ولكنه عليه السلام قتل الفاعل من قوم لوط، والمفعول به، وأنت أسفلهما. ومن شعر علي بن الجهم لما حبسه المتوكل:

وهم بالأمس إخوان الصفاء
علي أشد أسباب البلاء
بمالٍ أو بجاهٍ أو ثراء
صديقاً، فادعوا قدم الجفاء
وأهل الاعتزال على هجائي
سوى علمي بأولاد الزناء

ألم تر مظهرين علي عتباً
فلما أن بليت غدوا وراحوا
أبت أخطارهم أن ينصروني
وخافوا أن يقال لهم: خذلتهم
تظافرت الروافض والنصارى
وعابوني وما ذنبي إليهم

يعني بالروافض: نجاح بن مسلمة، والنصار بختيشوع، وأهل الاعتزال علي بن يحيى بن المنجم.

قال أبو الفرج: وكان علي بن الجهم من الحشوية، شديد النصب عدواً للتوحيد والعدل، فلما سخط المتوكل على أحمد بن أبي دواد وكفأه، شتم به علي بن الجهم، فهجاه، وقال فيه:

بعثت عليك جناداً وحديدا
بالجهل منك العدل والتوحيدا

يا أحمد بن أبي دواد دعوة
ما هذه البدع التي سميتها

ورميته بأبي الوليد وليدا

أفسدت أمر الدين حين وليته

- أبو الوليد بن أحمد بن أبي دواد، وكان رتبة قاضياً -

كهلاً ولا مستحدثاً محمودا

لا محكماً جلدأ ولا مستطرفاً

ذكر القلايا مبدئاً ومعيدا

شرهاً إذا ذكر المكارم والعلا

وبنو إيادٍ صحفةً وثريدا

ويود لو مسخت ربيعة كلها

ضبعاً وخلت بني أبيه قرودا

وإذا تربع في المجالس خلته

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

شرقاً تعجل شربه مردودا
تلك المناخر والتنايا السودا

وإذا تبسم ضاحكاً شبيهته
لا أصبحت بالخير عين أبصرت
وقال يهجو له لما فلج:

فوق الفراش ممهداً بوساد
من كان منهم موقناً بمعاد
كي لا يحدث فيه بالإسناد
حتى نحيد عن الطريق الهادي
ومحدثٍ أوثقت في الأقياد
لما أنتك مواكب العواد
لدواء دائك حيلة المرتاد
والله رب العرش بالمرصاد
وفجعت قبل الموت بالأولاد

لم يبق منك سوى خيالك لامعاً
فرحت بمصرعك البرية كلها
كم مجلس لله قد عطلته
ولكم مصابيح لنا أطفأتها
ولكم كريمة معشرٍ أرملتها
إن الأسارى في السجون تفرجوا
وغدا لمصرعك الطبيب فلم يجد
فندق الهوان معجلاً ومؤجلاً
لا زال فالجك الذي بك دائماً

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني في ترجمة مروان بن أبي حفصة الأصغر أن علي بن الجهم خطب امرأة من قريش، فلم يزوجه، وبلغ المتوكل ذلك، فسأل عن السبب، فحدث بقصة بني سامة بن لؤي، وأن أبا بكر وعمر لم يدخلاهم في قريش، وأن عثمان أدخلهم فيها، وأن علياً عليه السلام أخرجهم منها، فارتدوا، وأنه قتل من ارتد منهم، وسبى بقيتهم، فباعهم من مصقلة بن هبيرة، فضحك المتوكل، وبعث إلى علي بن الجهم فأحضره، وأخبره بما قال القوم، وكان فيهم مروان بن أبي حفصة المكنى أبا السمط وهو مروان الأصغر، وكان المتوكل يغريه بعلي بن الجهم، ويضعه على هجائه وثلبه، فيضحك منهما، فقال مروان:

ليس من عجمٍ و لا عرب
سارق للشعر والنسب
ما له في الناس من عقب

إن جهماً حين تتسبه
لج في شتمي بلا سبب
من أناسٍ يدعون أبا

فغضب علي بن الجهم، ولم يجبه، لأنه كان يستحقه، فأوماً إليه المتوكل أن يزيده، فقال:

وقد باعوكم ممن تريد
بأصلكم وقد بيع الجدود

أنتم يابن جهم من قريش
أترجو أن تكاثرنا جهاراً
فلم يجبه ابن الجهم، فقال فيه أيضاً:

لجهلك بالشعر يا مائق
وأنت لأنسابها سارق

علي تعرضت لي ضلةً
تروم قريشاً وأنسابها

نسب مصقلة وخبر بني ناجية مع علي عليه السلام

فأما نسب مصقلة بن هبيرة، فإن ابن الكلبي، قد ذكره في جمهرة النسب فقال: هو مصقلة بن هبيرة بن شبل بن يثري بن امرئ القيس بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي، بن جديلة ابن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

وأما خبر بني ناجية مع أمير المؤمنين عليه السلام، فقد ذكره إبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب الغارات قال: حدثني محمد بن عبد الله بن عثمان، عن نصر بن مزاحم، قال: حدثني عمر بن سعد، عن حدثه ممن أدرك أمر بني ناجية، قال: لما بايع أهل البصرة علياً بعد الهزيمة، دخلوا في الطاعة غير بني ناجية، فإلهم عسكروا، فبعث إليهم علي عليه السلام رجلاً من أصحابه في خيل ليقاتلهم، فأتاهم، فقال: ما بالكم عسكركم، وقد دخل الناس في الطاعة غيركم! فافترقوا ثلاث فرق: فرقة قالوا: كنا نصارى فأسلمنا، ودخلنا فيما دخل الناس فيه من الفتنة، ونحن نبايع كما بايع الناس، فأمرهم فاعتزلوا. وفرقة قالوا: كنا نصارى فلم نسلم، وخرجنا مع القوم الذين كانوا خرجوا، قهرونا فأخرجونا كرهاً، فخرجنا معهم فهزموا، فنحن ندخل فيما دخل الناس فيه، ونعطيك الجزية كما أعطيناكم؛ فقال: اعتزلوا فاعتزلوا. وفرقة قالوا: كنا نصارى فأسلمنا فلم يعجبنا الإسلام، فرجعنا إلى النصرانية، فنحن نعطيك الجزية كما أعطاكم النصارى. فقال لهم: توبوا وارجعوا إلى الإسلام، فأبوا، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم، وقدم بهم على علي عليه السلام.

أخبار الخريت بن راشد الناجي

قال ابن هلال الثقفي: وروى محمد بن عبد الله بن عثمان، عن أبي سيف، عن الحارث بن كعب الأزدي، عن عمه عبد الله بن قعين الأزدي، قال: كان الخريت بن راشد الناجي، أحد بني ناجية، قد شهد مع علي عليه السلام صفين، فجاء إلى علي عليه السلام بعد انقضاء صفين، وبعد تحكيم الحكيمين في ثلاثين من أصحابه، يمشي بينهم حتى قام بين يديه، فقال: لا والله لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، وإني غداً لمفارق لك، فقال له: ثكلتك أمك! إذاً تنقض عهدك، وتعصي ربك، ولا تضر إلا نفسك، أخبرني لم تفعل ذلك! قال: لأنك حكمت في الكتاب وضعفت عن الحق إذ جد الجد، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد، وعليهم ناقد، ولكم جميعاً مباين.

فقال له علي عليه السلام: ويحك! هلم إلي أدارسك وأناظرك في السنن، وأفاتحك أموراً عن الحق أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت الآن له منك، وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل، فقال الخريت: فإني غاد عليك غداً. فقال علي عليه السلام: اغد ولا يستهوينك الشيطان، ولا يتقحم بك رأي سوء، ولا يستخفك الجهلاء الذين لا يعلمون؛ فوالله إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مني لأهديك سبيل الرشاد.

فخرج الخريت من عند منصرفاً إلى أهله.

قال عبد الله بن قعين: فعجلت في أثره مسرعاً، وكان لي من بني عمه صديق، فأردت أن ألقى ابن عمه في ذلك، فأعلمه

بما كان من قوله لأمر المؤمنين، وأمر ابن عمه أن يشتد بلسانه عليه، وأن يأمره بطاعة أمير المؤمنين ومناصحته، ويخبره أن ذلك خير له في عاجل الدنيا، وآجل الآخرة.

قال: فخرجت حتى انتهيت إلى منزله - وقد سبقني - فقامت عند باب دار فيها رجال من أصحابه، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين عليه السلام، فوالله ما رجعت ولا ندم على ما قاله لأمر المؤمنين وما رد عليه، ولكنه قال لهم: يا هؤلاء، إني قد رأيت أن أفارق هذا الرجل، وقد فارقتك على أن أرجع إليه من غد، ولا أرى إلا المفارقة؛ فقال له أكثر أصحابه: لا تفعل حتى تأتبه، فإن أتاك بأمر تعرفه قبلت منه، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه! قال لهم: نعم ما رأيتم، قال: فاستأذنت عليهم فأذنوا لي، فأقبلت على ابن عمه - وهو مدرك بن الريان الناجي، وكان من كبراء العرب - فقلت له: إن لك علي حقاً لإحسانك وودك وحق المسلم على المسلم. إن ابن عمك كان فيه ما قد ذكر لك، فاخل به فاردد عليه رأيه وعظم عليه ما أتى؛ واعلم أي خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته فقال: جزاك الله خيراً من أخ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام ففي ذلك هلاكه، وإن اختار مناصحته والإقامة معه ففي ذلك حظّه ورشده.

قال: فأردت الرجوع إلى علي عليه السلام، لأعلمه الذي كان، ثم اطمأننت إلى قول صاحبي، فرجعت إلى منزلي، فبت ثم أصبحت، فلما ارتفع النهار أتيت أمير المؤمنين عليه السلام، فجلست عنده ساعة؛ وأنا أريد أن أحدثه بالذي كان على خلوة، فأطلت الجلوس، ولا يزداد الناس إلا كثرة، فدنوت منه، فجلست وراءه، فأصغى إلي برأسه، فأخبرته بما سمعته من الخريت، وما قلت لابن عمه وما رد علي، فقال عليه السلام: دعه؛ فإن قبل الحق ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه، فقلت: يا أمير المؤمنين، فلم لا تأخذه الآن فتستوثق منه؟ فقال: إنا لو فعلنا هذا بكل من يتهم الناس ملأنا السجون منهم، ولا أراي يسعي الثوب بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يظهروا لي الخلاف.

قال: فسكت عنه وتنحيت، فجلس مع أصحابي هنيهة، فقال لي عليه السلام: ادن مني، فدنوت، فقال لي مسر: اذهب إلى منزل الرجل فاعلم ما فعل؛ فإنه قل يوم لم يكن يأتي في هذه الساعة، فأتيت إلى منزله، وإذا ليس في منزله منهم دينار، فدرت على أبواب دور أخرى، كان فيها طائفة من أصحابه، فإذا ليس فيها دأ ولا مجيب فأقبلت إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لي حين رأي: أوطنوا فأقاموا، أم جبنوا فظعنوا؟ قلت: لا بل ظعنوا، فقال: أبعدهم الله كما بعدت ثمود! أما والله لو قد أشرعت لهم الأسنة، وصبت على هامهم السيوف، لقد ندموا؛ إن الشيطان قد استهواهم وأضلهم وهو غداً متبرئ منهم، ومخل عنهم، فقام إليه زياد بن خصفة، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنه لو لم يكن من مضرة هؤلاء إلا فراقهم إيانا لم يعظم فقدهم علينا، فإنهم قلما يزدون في عددنا لو أقاموا معنا، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم منا، ولكننا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليهم من أهل طاعتك، فائذن لي في أتباعهم حتى أردهم عليك إن شاء الله.

فقال له عليه السلام: فاخرج في آثارهم راشداً، فلما ذهب ليخرج قال له: وهل تدري أين توجه القوم؟ قال: لا والله؛ ولكنني أخرج فأسأل وأتبع الأثر، فقال: اخرج رحمك الله حتى تنزل دير أبي موسى ثم لا تبرحه حتى يأتيك أمري، فإنهم

إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة، فإن عمالي ستكتب إلي بذلك، وإن كانوا متفرقين مستخفين، فذلك أخفى لهم، وسأكتب إلى من حولي من عمالي فيهم.

فكتب نسخة واحدة وأخرجها إلى العمال: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابي هذا من العمال، أما بعد؛ فإن رجالاً لنا عندهم تبعه، خرجوا هرباً نظنهم خرجوا نحو بلاد البصرة، فاسأل عنهم أهل بلادك، واجعل عليهم العيون في كل ناحية من أرضك، ثم اكتب إلي بما ينتهي إليك عنهم. والسلام.

فخرج زياد بن خصفة حتى أتى داره، وجمع أصحابه فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر بكر بن وائل؛ إن أمير المؤمنين ندبني لأمر من أموره مهم له، وأمرني بالإنكماش فيه بالعشيرة، حتى آتي أمره؛ وأنتم شيعته وأنصاره، وأوثق حي من أحياء العرب في نفسه، فانتدبوا معي الساعة، وعجلوا. فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع إليه مائة وثلاثون رجلاً، فقال: اكتفينا لا نريد أكثر من هؤلاء، فخرج حتى قطع الجسر، ثم أتى دير أبي موسى فترله، فأقام به بقية يومه ذلك، ينتظر أمر أمير المؤمنين عليه السلام.

قال إبراهيم بن هلال: فحدثني محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف، عن أبي الصلت التيمي، عن أبي سعيد، عن عبد الله بن وائل التيمي، قال: إني لعند أمير المؤمنين، إذا فيج قد جاءه يسعى بكتاب من قرظة بن كعب بن عمرو الأنصاري - وكان أحد عماله - فيه:

لعبد الله علي أمير المؤمنين من قرظة بن كعب، سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني أخبر أمير المؤمنين، أن خيلاً مرت من قبل الكوفة متوجهة نحو نفر وإن رجلاً من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلى؛ يقال له: زاذان فروخ، أقبل من عند أحوال له فلقوه، فقالوا له: أمسلم أنت أم كافر؟ قال: بل مسلم، قالوا: فما تقول في علي؟ قال: أقول فيه خيراً، أقول: إنه أمير المؤمنين عليه السلام وسيد البشر ووصي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا: كفرت يا عدو الله! ثم حملت عليه عصابة منهم، فقطعوه بأسيا فمهم، وأخذوا معه رجلاً من أهل الذمة يهودياً، فقالوا له: ما دينك؟ قال: يهودي، فقالوا: خلوا سبيل هذا، لا سبيل لكم عليه، فأقبل إلينا ذلك الذمي، فأخبرنا الخبر، وقد سألت عنهم، فلم يخبرني أحد عنهم بشيء، فليكتب إلي أمير المؤمنين فيهم برأي أنته إليه، إن شاء الله.

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعد، فقد فهمت ما ذكرت من أمر العصاة التي مرت بعملك، فقتلت البر المسلم، وأمن من عندهم المخالف المشرك، وإن أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلو، كالذين حسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا، فأسمع بهم وأبصر يوم تخبر أفعالهم! فالزم عملك وأقبل على خراجك، فإنك كما ذكرت في طاعتك ونصيحتك، والسلام.

قال: فكتب علي عليه السلام إلى زياد بن خصفة، مع عبد الله بن وائل التيمي، كتاباً نسخته: أما بعد، فقد كنت أمرتك أن تنزل دير أبي موسى حتى يأتيك أمري؛ وذلك أني لم أكن علمت أين توجه القوم، وقد بلغني أنهم أخذوا نحو قرية من قرى السواد، فاتبع آثارهم وسل عنهم؛ فإنهم قد قتلوا رجلاً من أهل السواد مسلماً مصلياً، فإذا أنت لحقت بهم فارددهم إلي، فإن أبوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم، فإنهم قد فارقوا الحق، وسفكوا الدم الحرام، وأخافوا السبيل. والسلام.

قال عبد الله بن وائل: فأخذت الكتاب منه عليه السلام - وأنا يومئذ شاب - فمضيت به غير بعيد ثم رجعت إليه،

فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أمضي مع زياد بن حصيفة إلى عدوك، إذا دفعت إليه كتابك؟ فقال: يابن أخي، افعل، فوالله
إني لأرجو أن تكون من أعواني على الحق وأنصاري على القوم الظالمين. قال: فوالله ما أحب أن لي بمقاتلته تلك حمر
النعم، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أنا والله كذلك من أولئك؛ أنا والله حيث تحب.

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب، وأنا على فرس رائع كريم، وعلي السلاح، فقال لي زياد: يابن أخي، والله ما لي عنك من
غنى، وإني أحب أن تكون معي في وجهي هذا، فقلت: إني قد استأذنت أمير المؤمنين فأذن لي، فسر بذلك، ثم خرجنا
حتى أتينا الموضع الذي كانوا فيه، فسألنا عنهم، فقيل: أخذوا نحو المدائن فلحقناهم؛ وهم نزول بالمدائن، وقد أقاموا بها
يوماً وليلة، وقد استراحوا وعلفوا خيولهم، فهم جامون مريحون، وأتيناهم وقد تقطعنا ولغينا ونصبنا، فلما رأونا وثبوا
على خيولهم، فاستووا عليها، فجئنا حتى انتهينا إليهم؛ فنادى الخريت ابن راشد: يا عميان القلوب والأبصار، أمع الله
وكتابه أنتم أم مع القوم الظالمين؟ فقال له زياد ابن حصيفة: بل مع الله وكتابه وسنة رسوله، ومع من الله ورسوله وكتابه
آثر عنده من الدنيا ثواباً ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تفتي لآثر الله عليها. أيها العمي الأبصار، الصم الأسماع! فقال
الخریت: فأخبرونا ما تريدون؟ فقال له زياد - وكان مجرباً رفيقاً: قد ترى ما بنا من النصب واللغوب، والذي جئنا له لا
يصلح فيه الكلام علانية على رؤوس أصحابك؛ ولكن تتزلون وتنزل، ثم نخلو جميعاً، فتتذكر أمرنا وننظر فيه؛ فإن رأيت
فيما جئنا له حظاً لنفسك قبلته؛ وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنا ولك لم أردعه عليك.

فقال الخريت: انزل، فترل، فأقبل إلينا زياد، فقال: انزلوا على هذا الماء، فأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء، فترلنا به، فما هو إلا
أن نزلنا فتفرقنا، فتحلقنا عشرة وتسعة وثمانية وسبعة، تضع كل حلقة طعامها بين أيديها، لتأكل ثم تقوم إلى الماء فتشرب.

وقال لنا زياد: علقوا على خيولكم، فعلقنا عليها مخاليها، ووقف زياد في خمسة فوارس، أحدهم عبد الله بن وائل بيننا وبين
القوم، وانطلق القوم ففتحوا، فترلوا وأقبل إلينا زياد، فلما رأى تفرقنا وتحلقنا، قال: سبحان الله! أنتم أصحاب حرب!
والله لو أن هؤلاء جاؤوكم الساعة على هذه الحالة ما أرادوا من غرتكم أفضل من أعمالكم التي أنتم عليها؛ عجلوا،
قوموا إلى خيولكم. فأسرعنا فمنا من يتوضأ، ومنا من يشرب، ومنا من يسقي فرسه، حتى إذا فرغنا من ذلك أتينا زياداً،
وإن في يده لعرقاً ينهسه، فنهس منه نهستين أو ثلاثة، ثم أتى بإداوة فيها ماء، فشرب ثم ألقى العرق من يده، وقال: يا
هؤلاء، إنا قد لقينا العدو، وإن القوم لفي عدتكم، ولقد حزرهم فما أظن أحد الفريقين يزيد على الآخر خمسة أنفر، فإني
أرى أمرهم سيصير إلى القتال؛ فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجز الفريقين.

ثم قال: ليأخذ كل رجل منكم بعنان فرسه، فإذا دنوت منهم وكلمت صاحبهم، فإن تابعتني على ما أريد؛ وإلا فإذا
دعوتكم فاستووا على متون خيلكم، ثم أقبلوا معاً غير متفرقين. ثم استقدم أمامنا وأنا معه، فسمعت رجلاً من القوم
يقول: جاءكم القوم وهم كالون معيون، وأنتم جامون مريحون، فتركتموهم حتى نزلوا فأكلوا وشربوا، وأراحوا دوابهم؛
هذا والله سوء الرأي.

قال: ودعا زياد صاحبهم الخريت، فقال له: اعتزل ننظر في أمرنا، فأقبل إليه في خمسة نفر، فقلت لزياد: أدعوك ثلاثة
نفر من أصحابنا؛ حتى نلقاهم في عددهم؟ فقال: ادع من أحببت. فدعوت له ثلاثة، فكنا خمسة وهم خمسة.

فقال له زياد: ما الذي نقتل على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا؟ فقال: لم أرض صاحبكم إماماً، ولم أرض بسيرتكم سيرة، فرأيت أن أعزل، وأكون مع من يدعو إلى الشورى بين الناس؛ فإذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الأمة رضاء كنت مع الناس. فقال زياد: ويحك! وهل يجتمع الناس على رجل يداي علياً عالماً بالله وبكتابه وسنة رسوله، مع قرابته وسابقته في الإسلام! فقال الخريت: هو ما أقول لك، فقال: فقيم قتلتم الرجل المسلم؟ فقال الخريت: ما أنا قتلته، قتلته طائفة من أصحابي، قال: فادفعهم إلينا قال: ما إلى ذلك من سبيل، قال: أو هكذا أنت فاعل! قال: هو ما تسمع. قال: فدعونا أصحابنا، ودعا الخريت أصحابه، ثم اقتتلنا؛ فوالله ما رأيت قتالاً مثله منذ خلقتني الله، لقد تطاعنا بالرمح حتى لم يبق في أيدينا رمح، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انخنت، وعقرت عامة خيلنا وخيلهم، وكثرت الجراح فيما بيننا وبينهم، وقتل منا رجلان: مولى لزياد كانت معه رايته يدعى سويداً، ورجل من الأبناء يدعى واقد بن بكر، وصرع منهم خمسة نفر، وحال الليل بيننا وبينهم؛ وقد والله كرهونا وكرهناهم، وهرونا وهررناهم، وقد جرح زياد وجرحنا. ثم إنا بتنا في جانب وتحنوا، فمكثوا ساعة من الليل ثم مضوا، فذهبوا وأصبحنا، فوجدناهم قد ذهبوا؛ فوالله ما كرهنا ذلك؛ فمضينا حتى أتينا البصرة، وبلغنا أنهم أتوا الأهواز، فترلوا في جانب منها، وتلاحق بهم ناس من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة، لم يكن لهم من القوة ما ينهضون به معهم حين نهضوا؛ فاتبعوهم من بعد لحوقهم بالأهواز، فأقاموا معهم.

قال: وكتب زياد بن خصفة إلى علي عليه السلام: أما بعد، فإننا لقينا عدو الله الناجي وأصحابه بالمدائن، فدعوناهم إلى الهدى والحق وكلمة السواء، فتولوا عن الحق وأخذتهم العزة بالإثم، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، فقصدونا وصمدنا صمدهم، فاقتتلنا قتالاً شديداً ما بين قائم الظهر إلى أن دلت الشمس، واستشهد منا رجلان صالحان، وأصيب منهم خمسة نفر، وخلوا لنا المعركة، وقد فشت فينا وفيهم الجراح - ثم إن القوم لما أدركوا الليل خرجوا من تحته متنكرين إلى أرض الأهواز، وقد بلغني أنهم نزلوا من الأهواز جانباً. ونحن بالبصرة نداوي جراحنا، وننتظر أمرك رحمك الله، والسلام.

فلما أتاه الكتاب، قرأه على الناس، فقام إليه معقل بن قيس الرياحي، فقال: أصلحك الله يا أمير المؤمنين إنما كان ينبغي أن يكون مكان كل رجل من هؤلاء الذين بعثتهم في طلبهم عشرة من المسلمين، فإذا لحقوهم استأصلوا شأفتهم، وقطعوا دابرهم؛ فأما أن تلقاهم بأعدادهم؛ فلعمري ليصبرن لهم، فإنهم قوم عرب، والعدة تصبر للعدة، فيقاتلون كل القتال.

قال: فقال عليه السلام له: تجهز يا معقل إليهم، وندب معه ألفين من أهل الكوفة، فيهم يزيد بن معقل، وكتب إلى عبد الله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى: أما بعد، فابعث رجلاً من قبلك صليلاً شجاعاً، معروفاً بالصلاح في ألفي رجل من أهل البصرة، فليتب معقل بن قيس؛ فإذا خرج من أرض البصرة، فهو أمير أصحابه حتى يلقي معقلاً، فإذا لقيه فمعقل أمير الفريقين، فليسمع منه وليطعه ولا يخالفه؛ ومر زياد بن خصفة فيقبل إلينا، فنعم المرء زياد، ونعم القبيل قبيله! والسلام. قال: وكتب عليه السلام إلى زياد بن خصفة: أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت به الناجي وأصحابه، الذين

طبع الله على قلوبهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم؛ فهم حيارى عمون، يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ووصفت ما بلغ بك وبهم الأمر، فأما أنت وأصحابك فله سعيكم وعليه جزاؤكم! وأيسر ثواب الله للمؤمن خير له من الدنيا التي يقبل الجاهلون بأنفسهم عليها، ف " ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ولنجزين الذي صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " : وأما عدوكم الذين لقيتم فحسبهم خروجهم من الهدى، وارتكاسهم في الضلالة، وردهم الحق، وجماعهم في التيه، فذرهم وما يفترون، ودعهم في طغيانهم يعمهون، فأسمع بهم وأبصر، فكأنك بهم عن قليل بين أسير وقتيل، فأقبل إلينا أنت وأصحابك مأجورين، فقد أطعتم وسمعتهم، وأحسنتم البلاء. والسلام.

قال: ونزل الناجي جانباً من الأهواز، واجتمع إليه علوج كثير من أهلها؛ ممن أراد كسر الخراج ومن اللصوص، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رأيه.

قال إبراهيم بن هلال: فحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني ابن أبي سيف، عن الحارث بن كعب، عن عبد الله بن قعين، قال: كنت أنا وأخي كعب بن قعين في ذلك الجيش مع معقل بن قيس، فلما أراد الخروج أتى أمير المؤمنين عليه السلام يودعه، فقال: يا معقل بن قيس، اتق الله ما استطعت، فإنه وصية الله للمؤمنين؛ لا تبغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة ولا تتكبر؛ فإن الله لا يحب المتكبرين. فقال معقل: الله المستعان، فقال: خير مستعان.

ثم قام فخرج، وخرجنا معه؛ حتى نزل الأهواز، فأقمنا ننتظر بعث البصرة، فأبطأ علينا، فقام معقل فقال: أيها الناس، إنا قد انتظرنا أهل البصرة، وقد أبطأوا علينا، وليس بنا بحمد الله قلة ولا وحشة إلى الناس، فسيروا بنا إلى هذا العدو القليل الدليل؛ فإني أرجو أن ينصركم الله ويهلكهم. فقام إليه أخي كعب بن قعين فقال: أصبت إن شاء الله رأينا رأيك، وإني لأرجو أن ينصرنا الله عليهم، وإن كانت الأخرى؛ فإن في الموت على الحق لتعزية عن الدنيا. فقال: سيروا على بركة الله. فسرنا، فوالله ما زال معقل بن قيس لي ولأخي مكرماً واداً، ما يعدل بنا أحداً من الجند، ولا يزال يقول لأخي: كيف قلت: إن في الموت على الحق لتعزية عن الدنيا! صدقت والله وأحسن، ووقفت وفقك الله! قال: فوالله ما سرنا يوماً؛ وإذا بقبيح يشتد بصحيفة في يده: من عبد الله بن عباس إلى معقل بن قيس، أما بعد فإن أدركك رسولي بالمكان الذي كنت مقيماً به، أو أدركك وقد شخصت منه، فلا تبرحن من المكان الذي ينتهي إليك رسولي وأنت فيه، حتى يقدم عليك بعثنا الذي وجهناه إليك، فقد وجهت إليك خالد بن معدان الطائي، وهو من أهل الدين والصلاح والنجدة، فاسمع منه واعرف ذلك له إن شاء الله والسلام.

قال: فقرأه معقل بن قيس على أصحابه. فسروا به، وحمدوا الله، وقد كان ذلك الوجه هالهم. وأقمنا حتى قدم علينا خالد بن معدان الطائي، وجاءنا حتى دخل على صاحبنا، فسلم عليه بالإمرة، واجتمعنا جميعاً في عسكر واحد، ثم خرجنا إلى الناجي وأصحابه، فأخذوا يرتفعون نحو جبال رامهرمز، يريدون قلعة حصينة، وجاءنا أهل البلد. فأخبرونا بذلك، فخرجنا في آثارهم فلحقناهم، وقد دنوا من الجبل، فصفقنا لهم، ثم أقبلنا نحوهم، فجعل معقل على ميمنته يزيد بن المعقل الأزدي، وعلى مسيرته منجاب بن راشد الضبي، ووقف الخريت بن راشد الناجي بمن معه من العرب، فكانوا ميمنة، وجعل أهل البلد والعلوج ومن أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة.

قال: وسار فينا معقل يحرضنا، ويقول: يا عباد الله، لا تبدؤوا القوم، وغضوا الأبصار، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب، وأبشروا في قتالهم بالأجر العظيم، إنما تقاتلون مارقةً مرقت وعلوجاً منعوا الخراج، ولصوصاً وأكراداً، فما تنتظرون! فإذا حملت فشدوا شدة رجل واحد.

قال: فمر في الصف يكلمهم، يقول هذه المقالة، حتى إذا مر الناس كلهم أقبل فوقف وسط الصف في القلب، ونظرنا إليه ما يصنع، فحرك رأسه تحريكين، ثم حمل في الثالثة؛ وحملنا معه جميعاً، فوالله ما صبروا لنا ساعة حتى ولوا وهزموا، وقتلنا سبعين عربياً من بني ناجية، ومن بعض من اتبعه من العرب، ونحو ثلاثمائة من العلوج والأكراد.

قال كعب: ونظرت، فإذا صديقي مدرك بن الريان قتيلاً، وخرج الخريت منهزماً، حتى لحق بسيف من أسياف البحر؛ وبها جماعة من قومه كثير، فما زال يسير فيهم ويدعوهم إلى خلاف علي عليه السلام، ويزين لهم فراقه، ويخبرهم أن الهدى في حربه ومخالفته، حتى اتبعه منهم ناس كثير.

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفتح، وكنت أنا الذي قدم بالكتاب عليه، وكان في الكتاب: لعبد الله علي أمير المؤمنين، من معقل بن قيس. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإننا لقينا المارقين؛ وقد استظهروا علينا بالمشركين؛ فقتلنا منهم ناساً كثيراً ولم نعد فيهم سيرتك فلن نقتل منهم مديراً ولا أسيراً؛ ولم نذفف منهم على جريح، وقد نصرك الله والمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

قال: فلما قدمت بالكتاب على علي عليه السلام، قرأه على أصحابه، واستشارهم في الرأي، فاجتمع رأي عامتهم على قول واحد. قالوا: نرى أن تكتب إلى معقل بن قيس، يتبع آثارهم، ولا يزال في طلبهم حتى يقتلهم أو ينفهم من أرض الإسلام؛ فإننا لا نأمن أن يفسدوا عليك الناس.

قال: فردني إليه، وكتب معي: أما بعد، فالحمد لله على تأييده أوليائه، وخذله أعداءه، جزاك الله والمسلمين خيراً؛ فقد أحسنتم البلاء، وقضيت ما عليكم، فاسأل عن أخي بني ناجية، فإن بلغك أنه استقر في بلد من البلدان، فسر إليه حتى تقتله أو تنفيه، فإنه لم يزل للمسلمين عدواً، وللغاسقين ولياً، والسلام.

قال: فسأل معقل عن مسيره والمكان الذي انتهى إليه، فنبئ بما كانه بسيف البحر بفارس، وأنه قد رد قومه عن طاعة علي عليه السلام، وأفسد من قبله من عبد القيس، ومن والاهم من سائر العرب، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صفين، ومنعوها في ذلك العام أيضاً، فسار إليهم معقل بن قيس في ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة، فأخذوا على أرض فارس، حتى انتهوا إلى أسياف البحر؛ فلما سمع الخريت بن راشد بمسيره، أقبل على من كان معه من أصحابه، ممن يرى رأي الخوارج، فأسر إليهم: إني أرى رأيكم، وإن علياً ما كان ينبغي له أن يحكم الرجال في دين الله، وقال لمن يرى رأي عثمان وأصحابه: أنا على رأيكم، وإن عثمان قتل مظلوماً معقولاً، وقال لمن منع الصدقة: شدوا أيديكم على صدقاتكم، ثم صلوا بها أرجامكم، وعودا إن شئتم على فقرائكم؛ فأرضى كل طائفة بضرب من القول؛ وكان فيهم نصارى كثير، وقد كانوا أسلموا؛ فلما رأوا ذلك الاختلاف، قالوا: والله لديننا الذي خرجنا منه خير وأهدى من دين هؤلاء الذين لا ينههم دينهم عن سفك الدماء، وإخافة السبل، فرجعوا إلى دينهم.

فلقي الخريت أولئك، فقال: ويحكم! إنه لا ينجيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ولقتالهم، أتدرون ما حكم علي فيمن

أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية؟ لا والله لا يسمع له قولاً، ولا يرى له عذراً، ولا يقبل منه توبة، ولا يدعوه إليها؛ وإن حكمه فيه أن يضرب عنقه ساعة يستمكن منه؛ فما زال حتى خدعهم وجاءهم من كان من بني ناجية في تلك الناحية ومن غيرهم، فاجتمع إليه ناس كثير، وكان منكراً داهياً.

قال: فلما رجع معقل، قرأ على أصحابه كتاباً من علي عليه السلام فيه:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابي هذا؛ من المسلمين والمؤمنين والمارقين والنصارى المرتدين. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه، والبعث بعد الموت وافياً بعهد الله، ولم يكن من الخائنين، أما بعد فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن أعمل فيكم بالحق وبما أمر الله تعالى في كتابه، فمن رجع منكم إلى رحله وكف يده، واعتزل هذا المارق الهالك المحارب؛ الذي حارب الله ورسوله والمسلمين، وسعى في الأرض فساداً، فله الأمان على ماله ودمه. ومن تابعه على حربنا والخروج من طاعتنا، استعنا بالله عليه، وجعلناه بيننا وبينه، وكفى بالله ولياً. والسلام. قال: فأخرج معقل راية أمان فنصبها، وقال: من أتاه من الناس فهو آمن إلا الخريت وأصحابه الذين نابذوا أول مرة، فتفرق عن الخريت كل من كان معه من غير قومه، وعباً معقل بن قيس أصحابه، ثم زحف بهم نحوه، وقد حضر مع الخريت جميع قومه! مسلمهم ونصرانيهم؛ ومانعي الصدقة منهم، فجعل مسلميهم يمنة، والنصارى ومانعي الصدقة يسرة، وجعل يقول لقومه: امنعوا اليوم حريمكم، وقاتلوا عن نسائكم وأولادكم، والله لئن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليسلبنكم. فقال له رجل من قومه: هذ والله ما جرته علينا يدك ولسانك، فقال لهم: قاتلوا فقد سبق السيف العذل.

قال: وسار معقل بن قيس يحرض أصحابه فيما بين الميمنة والميسرة، ويقول: أيها الناس، ما تدرون ما سيق إليكم في هذا الموقف من الأجر العظيم! إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة، وارتدوا عن الإسلام، ونكثوا البيعة ظلماً وعدواناً، إني شهيد لمن قتل منكم بالجنة، ومن عاش بأن الله يقر عينه بالفتح والغنيمة، ففعل ذلك حتى مر بالناس أجمعين، ثم وقف في القلب برايته، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزدي، وهو في الميمنة؛ أن احمل عليهم، فحمل، فثبتوا له، فقاتل طويلاً وقتلوه، ثم رجع حتى وقف موقفه الذي كان فيه من الميمنة، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبي، وهو في الميسرة: أن احمل عليهم؛ فحمل فثبتوا، فقاتل طويلاً وقتلوه، ثم رجع حتى وقف موقفه الذي كان في الميسرة، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته: إذا حملت فاحملوا جميعاً. ثم أجرى فرسه وضربها، وحمل أصحابه، فصبروا لهم ساعة.

ثم إن النعمان بن صهبان الراسي بصر بالخرية، فحمل عليه، فصرعه عن فرسه، ثم نزل إليه وقد جرحه، فاختلفا بينهما ضربتين، فقتله النعمان وقتل معه في المعركة سبعون ومائة، وذهب الباقون في الأرض يميناً وشمالاً، وبعث معقل الخيل إلى رحالهم، فسي من أدرك فيها رجالاً ونساءً وصبياناً، ثم نظر فيهم، فمن كان مسلماً خلاه وأخذ بيعته، وخلي سبيل عياله، ومن كان ارتد عن الإسلام عرض عليه الرجوع إلى الإسلام وإلا القتل، فأسلموا. فخلي سبيلهم، وسبيل عيالاتهم، إلا شيخاً نصرانياً يقال له: الرماحس بن منصور؛ فإنه قال: والله ما زلت مصيباً مذعلت، إلا في خروجي من ديني؛ دين الصدق، إلى دينكم، دين السوء؛ لا والله لا أدع ديني ولا أقرب دينكم ما حييت.

فقدمه معقل فضرب عنقه، وجمع الناس، فقال: أدوا ما عليكم في هذه السنين من الصدقة، فأخذ المسلمين عقالين، وعمد إلى النصارى وعيالاتهم فاحتملهم معه، وأقبل المسلمون الذين كانوا معهم، يشيعونهم، فأمر معقل بردهم، فلما ذهبوا

لينصرفوا، تصايحوا ودعا الرجال والنساء بعضهم إلى بعض.

قال: فلقد رحمتهم رحمة ما رحمتها أحداً قبلهم ولا بعدهم. وكتب معقل إلى علي عليه السلام: أما بعد، فإني أخبر أمير المؤمنين عن جنده وعن عدوه أنا دفعنا إلى عدونا بأسيايف البحر، فوجدنا بما قبائل ذات حد وعدد، وقد جمعوا لنا، فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة، وإلى حكم الكتاب والسنة؛ وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام، ورفعنا لهم راية أمان، فمالت إلينا طائفة منهم، وثبتت طائفة أخرى، فقبلنا أمر التي أقبلت، وصمدنا إلى التي أدبرت، فضرب الله وجوههم، نصرنا عليهم، فأما من كان مسلماً، فإننا مننا عليه، وأخذنا بيعته لأمر المؤمنين، وأخذنا منهم الصدقة التي كانت عليهم، وأما من ارتد فعرضنا عليهم الرجوع إلى الإسلام، وإلا قتلناهم؛ فرجعوا إلى الإسلام، غير رجل واحد فقتلناه، وأما النصاري؛ فإننا سبيناهم وأقبلنا بهم؛ ليكونوا نكالا لمن بعدهم من أهل الذمة، كي لا يمنعوا الجزية، ولا يجترئوا على قتال أهل القبلة، وهم للصغار والذلة أهل. رحمك الله يا أمير المؤمنين، وعليك الصلاة والسلام، وأوجب لك جنات النعيم. والسلام.

قال: ثم أقبل بالأسارى حتى مر على مصقلة بن هبيرة الشيباني، وهو عامل لعلي عليه السلام على أردشير خرة وهم خمسمائة إنسان، فبكى إليه النساء والصبيان، وتصايح الرجال: يا أبا الفضل، يا حامل الثقل، يا مؤوي الضعيف، وفكاك العصاة، امنن علينا فاشترنا وأعتقنا. فقال مصقلة: أقسم بالله لأتصدقن عليهم، إن الله يجزي المتصدقين. فبلغ قوله معقل بن قيس، فقال: والله لو أعلمه قالها توجعاً لهم وإزراء علي لضربت عنقه، وإن كان في ذلك فناء بني تميم وبكر بن وائل. ثم إن مصقلة بعث ذهل بن الحارث الذهلي إلى معقل، فقال: بعني نصارى ناجية، فقال: أبيعكم بألف ألف درهم، فأبى عليه، فلم يزل يراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم، ودفعهم إليه، وقال: عجل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال مصقلة: أنا باعث الآن بصدر منه، ثم أتبعك بصدر آخر، ثم كذلك حتى لا يبقى منه شيء. وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فأخبره بما كان من الأمر، فقال له: أحسنت وأصبت ووفقت.

وانتظر علي عليه السلام مصقلة أن يبعث المال فأبطأ به. وبلغ علياً عليه السلام أن مصقلة خلى الأسارى ولم يسألهم أن يعينوه في فكاك أنفسهم بشيء، فقال: ما أرى مصقلة إلا قد حمل حمالة، ولا أراكم إلا سترونه عن قريب مبلدحاً، ثم كتب إليه: أما بعد، فإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام، وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف درهم، فابعث بها إلي حين يأتيك رسولي، وإلا فأقبل إلي حين تنتظر في كتابي، فإني قد تقدمت إلى رسولي ألا يدعك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك، إلا أن تبعث بالمال. والسلام.

وكان الرسول أبو جرة الحنفي، فقال له أبو جرة: إن تبعث بهذا المال إلا فاشخص معي إلى أمير المؤمنين. فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البصرة، وكان العمال يحملون المال من كوز البصرة إلى ابن عباس، فيكون ابن عباس هو الذي يبعث به إلى أمير المؤمنين عليه السلام، ثم أقبل من البصرة حتى أتى علياً عليه السلام بالكوفة، فأقره أياماً لم يذكر له شيئاً، ثم سأله المال، فأدى إليه مائتي ألف درهم، وعجز عن الباقي.

قال: فروى ابن أبي سيف، عن أبي الصلت، عن ذهل بن الحارث، قال: دعاني مصقلة إلى رحله، فقدم عشاء فطعمنا منه،

ثم قال: والله إن أمير المؤمنين يسألني هذا المال، ووالله ما أقدر عليه، فقلت له: لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمع هذا المال، فقال: ما كنت لأحملها قومي، ولا أطلب فيها إلى أحد.

ثم قال: والله لو أن ابن هند مطالي بها، أو ابن عفان، لتركها لي؛ ألم تر إلى عثمان كيف أعطى الأشعث مائة ألف درهم من خراج أذربيجان في كل سنة! فقلت: إن هذا لا يرى ذلك الرأي، وما هو بتارك لك شيئاً. فسكت ساعة، وسكت عنه؛ فمكث ليلة واحدة بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية.

فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال: ماله ترحه الله! فعل فعل السيد وفر فرار العبد، وخان خيانة الفاجر، أما إنه لو أقام فعجز ما زدنا على حبسه، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه، وإن لم نجد له مالاً تركناه. ثم سار علي عليه السلام إلى داره فهدمها.

وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيباني شيعاً لعلي عليه السلام، مناصحاً، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تغلب، يقال له حلوان: أما بعد، فإني كلمت معاوية فيك، فوعدك الكرامة، ومناك الإمارة، فأقبل ساعة تلقى رسولي. والسلام.

فأخذه مالك بن كعب الأرحي فسرح به إلى علي عليه السلام، فأخذ كتابه فقرأه ثم قدمه فقطع يده، فمات. وكتب نعيم إلى أخيه مصقلة شعراً لم يرده عليه:

بالظن منك فما بالي وحلوانا

وهو البعيد فلا يورثك أحزانا

ترجو سقاط امرئ لم يلف وسنانا

يمشي العرضنة من آساد خفانا

تحمي العراق وتدعى خير شيبانا

للكابيين له سراً وإعلانا

للحق زكيت أحيانا وموتانا

فضل ابن هند فذاك الرأي أشجانا

ماذا تقول وقد كان الذي كانا!

لم يرفع الله بالعصيان إنسانا

لا ترمين هداك الله معترضاً

ذاك الحريص على ما نال من طمع

ماذا أردت إلى إرساله سفهاً

عرضته لعلي إنه أسد

قد كنت في خير مصطفى ومرتبِع

حتى تقحمت أمراً كنت تكرهه

لو كنت أدبت مال الله مصطبراً

لكن لحقت بأهل الشام ملتمساً

فاليوم تفرع سن العجز من ندم

أصبحت تبغضك الحياء قاطبةً

فلما بلغ الكتاب إليه علم أن النصراني قد هلك، ولم يلبث التغلبيون إلا قليلاً حتى بلغهم هلاك صاحبهم، فأتوا مصقلة، فقالوا: أنت أهلكنا، فإما أن تجيئنا به، وإما أن تديه، فقال: أما أن أجيء به، فليست أستطيع ذلك، وأما أن أديه فنعم، فوداه.

قال إبراهيم: وحدثني ابن أبي سيف، عن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه، قال: قيل لعلي عليه السلام حين هرب

مصقلة: اردد الذين سبوا ولم تستوف أثمهم في الرق، فقال: ليس ذلك في القضاء بحق؛ قد عتقوا إذ أعتقهم الذي اشتراهم، وصار مالي ديناً على الذي اشتراهم.

وروى إبراهيم أيضاً، عن إبراهيم بن ميمون، عن عمرو بن القاسم بن حبيب التمار، عن عمار الدهني، قال: لما هرب مصقلة قال أصحاب علي عليه السلام له: يا أمير المؤمنين، فيننا! قال: إنه قد صار على غريم من الغرماء، فاطلبوه. وقال ظبيان بن عمار، أحد بني سعد بن زيد مناة في بني ناجية:

والمرهفات تختلي الهوديا

وصائبات الأسهم القواضيا

هلا صبرت للقراع ناجيا

والطعن في نحورك تواليا

وقال ظبيان أيضاً:

وللمرهفات يختلين الهوديا

وصيركم من بعد عز مواليا

أخو ثقة لا يبرح الدهر غازيا

بضرب يرى منه المدجج هاويا

عبيد العصا لا تمنعون الذاريا

ألا فاصبروا للطعن ناجيا

فقد صب رب الناس خزيًا عليكم

سما لكم بالخيول جرداً عواديا

فصبحكم في رحلكم وخبولكم

فأصبحتم من بعد عز وكثرة

قال إبراهيم بن هلال: وروى عبد الرحمن بن حبيب، عن أبيه، أنه لما بلغ علياً عليه السلام مصاب بني ناجية، وقتل صاحبهم، قال: هوت أمه! ما كان أنقص عقله وأجرأه! إنه جاءني مرة فقال: إن في أصحابك رجالاً قد خشيت أن يفارقوك، فما ترى فيهم؟ فقلت: إني لا آخذ على التهمة، ولا أعاقب على الظن، ولا أقاتل إلا من خالفني وناصبني، وأظهر العداوة لي؛ ثم لست مقاتله حتى أدعوه وأعذر إليه؛ فإن تاب ورجع قبلنا منه، وإن أبى إلا الاعتزام على حربنا استعنا بالله عليه، وناجزناه. كف عني ما شاء الله، ثم جاءني مرة أخرى، فقال لي: إني قد خشيت أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي، إني سمعتهم يذكرانك بأشياء لو سمعتهم لم تفارقهما حتى تقتلتهما أو توثقهما، فلا يزالان بحبسك أبداً. فقلت له: إني مستشيرك فيهما، فماذا تأمرني به؟ قال: إني أمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابهما، فعلمت أنه لا ورع له ولا عقل فقلت له: والله ما أظن لك ورعاً ولا عقلاً، لقد كان ينبغي لك أن تعلم أي لا أقتل من لم يقاتلني، ولم يظهر لي عداوته للذي كنت أعلمتكه من رأيي، حيث جئتني في المرة الأولى؛ ولقد كان ينبغي لك - لو أردت قتلهم - أن تقول لي: اتق الله! بم تستحل قتلهم ولم يقتلوا أحداً، ولم ينادوك ولم يخرجوا من طاعتك! فأما ما يقوله الفقهاء في مثل هذا السي، فقبل أن نذكر ذلك نقول: إن الرواية قد اختلفت في المرتدين من بني ناجية، فالرواية الأولى التي رواها محمد بن عبد الله بن عثمان، عن نصر ابن مزاحم، تتضمن أن الأمير الذي من قبل علي عليه السلام قتل مقاتلة المرتدين منهم بعد امتناعهم من العود إلى الإسلام، وسبى ذراريهم، فقدم بها على علي عليه السلام؛ فعلى هذه الرواية يكون الذين اشتراهم مصقلة ذراري أهل الردة.

والرواية الثانية التي رواها محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف، تتضمن أن معقل بن قيس، الأمير من قبل علي عليه السلام لم يقتل من المرتدين من بني ناجية إلا رجلاً واحداً، وأما الباقيون فرجعوا إلى الإسلام، والاسترقاق إنما كان للنصارى الذين ساعدوا في الحرب وشهروا السيف على جيش الإمام؛ وليسوا مرتدين؛ بل نصارى في الأصل، وهم الذين اشتراهم مصقلة.

فإن كانت الرواية الأولى هي الصحيحة ففيها إشكال؛ لأن المرتدين لا يجوز عند الفقهاء استرقاقهم، ولا أعرف خلافاً في هذه المسألة، ولا أظن الإمامية أيضاً تخالف فيها، وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أن المرأة المرتدة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقها، وسائر الفقهاء على خلافه، ولم يختلفوا في أن الذكور البالغين من المرتدين لا يجوز استرقاقهم، فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدين من بني ناجية على هذه الرواية! على أي أرى أن الرواية المذكورة لم يصرح فيها باسترقاقهم، ولا بأنهم بيعوا على مصقلة، لأن لفظ الراوي: فأبوا، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم فقدم بها على علي عليه السلام؛ وليس في الرواية ذكر استرقاقهم ولا بيعهم على مصقلة، بل فيها ما يناهض بيعهم على مصقلة، بل فيها ما يناهض بيعهم على مصقلة، وهو قوله: فقدم بهم على علي عليه السلام؛ فإن مصقلة ابتاع السبي من الطريق في أردشير خرة قبل قدومه على علي عليه السلام، ولفظ الخبر: فقدم بهم على علي عليه السلام.

وإنما يبقى الإشكال على هذه الرواية أن يقال: إذا كان قد قدم بهم على علي عليه السلام، فمصقلة من اشترى! ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوماً في الحملة، فإن الخبر بذلك مشهور جداً يكاد يكون متواتراً. فإن قيل: فما قولكم فيما إذا ارتد البالغون من الرجال والنساء، ثم أولدوا ذرية صغاراً بعد الردة، هل يجوز استرقاق الأولاد؟ فإن كان يجوز، فهلا حملتم الخبر عليه! قيل: إذا ارتد الزوجان فحملت منه في حال الردة وأتت بولد كان محكوماً بكفره؛ لأنه ولد بين الكافرين.

وهل يجوز استرقاقه؟ فيه للشافعي قولان، وأما أبو حنيفة فقال: إن ولد في دار الإسلام لم يجز استرقاقه، وإن ولد في دار الحرب جاز استرقاقه، فإن كان استرقاق هؤلاء الذرية موافقاً لأحد قولي الشافعي، فلعله ذلك.

وأما الرواية الثانية، فإن كانت هي الصحيحة - وهو الأولى - فالفقه في المسألة أن الذمي إذا حارب المسلمين فقد نقض عهده، فصار كالمشركين الذين في دار الحرب، فإذا ظفر به الإمام جاز استرقاقه وبيعه، وكذلك إذا امتنع من أداء الجزية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام.

واختلف الفقهاء في أمور سبعة: هل ينتقض بها عهدهم، ويجوز استرقاقهم أم لا، وهي أن يزني الذمي بمسلمة، أو يصيبها باسم نكاح، أو يفتن مسلماً عن دينه، أو يقطع الطريق على المسلمين، أو يؤوي للكفار عينا، أو يدل على عورات المسلمين، أو يقتل مسلماً.

فأصحاب الشافعي يقولون: إن شرط عليهم في عقد الذمة الكف عن ذلك، فهل ينتقض عهدهم بفعله؟ فيه وجهان. وإن لم يشترط ذلك في عقد الذمة، لم ينتقض عهدهم بذلك.

وقال الطحاوي من أصحاب أبي حنيفة: ينتقض عهدهم بذلك، سواء شورتوا عن الكف عنه في عقد الذمة، أو لم

يشارطوا عليه.

فنصارى بني ناجية على هذه الرواية قد انتقض عهدهم بحرب المسلمين، فأبيحت دماؤهم، وجاز للإمام قتلهم وجاز له استرقاقهم كالمشركين الأصليين في دار الحرب؛ وأما استرقاق أبي بكر بن أبي قحافة لأهل الردة وسبيه ذراريهم؛ فإن صح كان مخالفاً لما يقول الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدين، إلا أن يقولوا إنه لم يسب المرتدين، وإنما سبى من ساعدتهم وأعانهم في الحرب من المشركين الأصليين. وفي هذا الموضع نظر.

ومن خطبة له في الزهد وتعظيم الله

الأصل: الحمد لله غير مقنوطٍ من رحمته، ولا مخلو من نعمته، ولا مأْيوسٍ من مغفرته، ولا مستنكفٍ عن عبادته؛ الذي لا تبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة. والدنيا دار مني لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء، وهي حلوة خضرة، وقد عجلت للطالب، والتبست بقلب الناظر؛ فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ. الشرح: مني لها الفناء، أي قدر، والجلاء، بفتح الجيم: الخروج عن الوطن، قال سبحانه: "ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء". وحلوة خضرة، مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون".

والكفاف من الرزق: قدر القوت؛ وهو ما كف عن الناس؛ أي أغنى، والبلاغ والبلغة من العيش: ما يتبلغ به. واعلم أن هذا الفصل يشتمل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: أحدهما حمد الله والثناء عليه إلى قوله: ولا تفقد له نعمة، والفصل الثاني ذكر الدنيا إلى آخر الكلام. وأحدهما غير مختلط بالآخر ولا منسوقٍ عليه، ولكن الرضي رحمه الله تعالى يلتقط كلام أمير المؤمنين عليه السلام التقاطاً، ولا يقف مع الكلام المتوالي؛ لأن غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير، ولو أتى بخطبه كلها على وجهها لكانت أضعاف كتابه الذي جمعه.

الموازنة والسجع

فأما الفصل الأول، فمشمتمل من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة، وذلك غير مقنوط فإنه وازنه في الفقرة الثانية بقوله: ولا مخلو. ألا ترى كل واحدة منهما على وزن مفعول، ثم قال في الفقرة الثالثة: ولا مأْيوس، فجاء بها على وزن مفعول أيضاً؛ ولم يمكنه في الفقرة الرابعة ما أمكنه في الأولى، فقال: ولا مستنكف، فجاء به على وزن مستفعل وهو وإن كان خارجاً عن الوزن، فإنه غير خارج عن المفعولية، لأن مستفعل مفعول في الحقيقة، كقولك: زيد مستحسن، ألا ترى أن مستحسناً من استحسنه، فهو أيضاً غير خارج عن المفعولية.

ثم وازن عليه السلام بين قوله: لا تبرح وقوله: لا تفقد، وبين رحمة ونعمة، فأعطت هذه الموازنات الكلام من الطلاوة والصنعة ما لا تجده عليه لو قال: الحمد لله غير مخلو من نعمته ولا مبعد من رحمته، لأن مبعد بوزن مفعول، وهو غير

مطابق ولا مماثل لمفعول، بل هو بناء آخر.

وكذلك لو قال: لا تزول منه رحمة، فإن تزول ليست في المماثلة والموازنة لتفقد كترج، ألا ترى أنها معتلة، وتلك صحيحة! وكذلك لو قال: لا تبرح رحمة ولا يفقد إنعام، فإن إنعاماً ليس في وزن رحمة، والموازنة مطلوبة في الكلام الذي يقصد فيه الفصاحة، لأجل الاعتدال الذي هو مطلوب الطبع في جميع الأشياء، والموازنة أعم من السجع، لأن السجع تماثل أجزاء الفواصل لو أوردتها على حرف واحد، نحو القريب، والغريب، والنسيب، وما أشبه ذلك. وأما الموازنة فنحو القريب والشديد، والجليل، وما كان على هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحداً، وكل سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً، ومثال ذلك في الكتاب العزيز: "وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم" ؛ وقوله تعالى: " ليكونوا لهم عزاً "، ثم قال: " ويكونون عليهم ضدّاً "، ثم قال: " تؤزهم أزاً " ثم قال: " نعد لهم عدّاً " فهذه الموازنة. ومما جاء من المثال في الشعر قوله:

وأعزهم فقدأ على الأصحاب

بأشدهم بأساً على أعدائهم

فقوله: وأعزهم بإزاء أشدهم، وقوله: فقدأ بإزاء بأساً. والموازنة كثيرة في الكلام وهي كتاب الله تعالى أكثر.

التحذير من مفاتن الدنيا

فأما الفصل فيشتمل على التحذير من الدنيا، وعلى الأمر بالقناعة، والرضا بالكفاف، فأما التحذير من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه ما يحضرنا؛ وأما القناعة فقد ورد فيها شيء كثير.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخوين من الأنصار: " لا تئسا من روح الله ما تهزرت رؤوسكما، فإن أحدكما يولد لا قشر عليه، ثم يكسوه الله ويرزقه ".

وعنه صلى الله عليه وسلم - ويعزى إلى أمير المؤمنين عليه السلام - : " القناعة كثر لا ينفد ".

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم: كفى بالقناعة عزاً، وبطيب النفس نعيماً.

ومن كلام عيسى عليه السلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام. لعمرى لقد انقطعتم إلى غير الله فما ضيعكم، أفتخافون الضيعة إذا انقطعتم إليه! وفي بعض الكتب الإلهية القديمة: يقول الله تعالى: " يا بن آدم، أتخاف أن أقتلك بطاعتي هزلاً، وأنت تتفتق بمعصيتي سناً! " .

قال أبو وائل: ذهبت أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي، فجلسنا عنده، فقال: لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن التكلف لتكلف لك، ثم جاء بخبز وملح ساذج لا أبارز عليه، فقال صاحبي: لو كان لنا في ملحنا هذا سعترا ! فبعث سلمان مطهرته، فرهنها على سعترا، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة! عباد بن منصور: لقد كان بالبصرة من هو أفقه من عمرو بن عبيد وأفصح؛ ولكنه كان أصبرهم عن الدينار والدرهم، فساد أهل البصرة.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

قال خالد بن صفوان لعمر بن عبيد: لم لا تأخذ مني؟ فقال: لا يأخذ أحد من أحد إلا ذل له؛ وأنا أكره أن أذل لغير الله.

كان معاش عمرو بن عبيد من دارٍ ورثها، كان يأخذ أجرهما في كل شهر ديناراً واحداً فيبلغ به. الخليل بن أحمد: كان الناس يكتسبون الرغائب بعلمه، وهو بين أخصاص البصرة، لا يلتفت إلى الدنيا ولا يطلبها. وهب بن منبه: أرملت مرة حتى كدت أقنط، فأتاني آت في المنام ومعه شبه لوزة، فقال: افضض، ففضضتها، فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر: لا ينبغي لمن عقل عن الله أمره، وعرف الله عدله، أن يستبطئ الله في رزقه، فقنعت وصبرت، ثم أعطاني الله أكثر.

قيل للحسن عليه السلام: إن أبا ذر كان يقول: الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة، فقال: رحم أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل إلى حسن الاختيار من الله لم يتمن أنه في غير الحال التي اختارها الله له، لعمرى يا بن آدم، الطير لا تأكل رغداً، ولا تحبأ لغد، وأنت تأكل رغداً، وتحبأ لغد، فالطير أحسن ظناً منك بالله عز وجل. حبس عمر بن عبد العزيز الغداء عن مسلمة، حتى برح به الجوع، ثم دعا بسويق فسقاه، فلما فرغ منه لم يقدر على الأكل، فقال: يا مسلمة، إذا كفاك من الدنيا ما رأيت، فعلام التهافت في النار! عبد الواحد بن زيد: ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا والقناعة، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة.

قال ابن شبرمة في محمد بن واسع: لو أن إنساناً اكتفى بالتراب لاكتفى به. يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: "قل لعبادي المتسخطين لرزقي، إياكم أن أغضب فأبسط عليكم الدنيا".

كان لبعض الملوك نديم، فسكر، ففاته الصلاة، فجاءت جارية له بجمرة نار، فوضعتها على رجله، فانتبه مذعوراً، فقالت: إنك لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة، وقعد يبيع البقل، فدخل عليه الفضيل وابن عيينة، فإذا تحت رأسه لبنة، وليس تحت جنبه حصير، فقالا له: إنا روينا أنه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوضه خيراً منه، فما عوضك؟ قال: القناعة والرضا بما أنا فيه.

أصاب دارود الطائي ضائقة شديدة، فجاء حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، فقال داود: هي لعمرى من مال رجل ما أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه، ولو كنت قابلاً من أحداً شيئاً لقبلتها إعظاماً للميت، وإيجاباً للحى، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة.

سفيان الثوري: ما أكلت طعام أحد قط إلا هنت عليه.

مسعر بن كدام: من صبر على الخل والبقل لم يستعبد.

فضيل: أصل الزهد الرضا بما رزقك الله، ألا تراه كيف يصنع بعبد ما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها! تطعمه مرة خبيصاً، مرة صبراً، تريد بذلك ما هو أصلح له.

المسيح عليه السلام: أنا الذي كبيت الدنيا على وجهها، وقدرتها بقدرها، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، وسادي

الحجر، و فراشي الدر ، وسراجي القمر.

أمير المؤمنين عليه السلام: أكل تمر دقل ، ثم شرب عليه ماء، ومسح بطنه، وقال: من أدخلته بطنه النار، فأبعده الله، ثم أنشد:

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله

وفرجك نالا منتهى الذم جميعا

في الحديث الصحيح المرفوع: " إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فأجملوا في الطلب "، من كلام الحكماء: من ظفر بالقناعة فقد ظفر بالكيماء الأعظم.

الحسن: الحريص الراغب، والقانع الزاهد كلاهما مستوفٍ أحله، مستكمل أكله، غير مزداد ولا منتقصٍ مما قدر له، فعلام التقحم في النار! ابن مسعود، رفعه: " إنه ليس أحد بأكيس من أحد، قد كتب النصيب والأجل، وقسمت المعيشة والعمل، والناس يجرون منهما إلى منتهى معلوم ".

المسيح عليه السلام: انظروا إلى طير السماء تغدو وتروح، ليس معهما شيء من أرزاقها، لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أوسع بطوناً من الطير؛ فهذه الوحوش من البقر والحمير، لا تحرث ولا تحصد؛ والله يرزقها. سويد بن غفلة: كان إذا قيل له: قد ولي فلان، يقول: حسبي كسرتي وملحي. عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته ، فقال له: ألسن القائل:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي

أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيعنيني تطلبه

ولو قعدت أأتاني لا يعنيني

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطلب الرزق! ثم اشتغل عنه، فخرج وقعد على ناقته ونصبها راجعاً إلى الحجاز، فذكره هشام في الليل، فسأل عنه فقل: إنه رجع إلى الحجاز، فتذمر وندم، وقال: رجل قال حكمة، ووفد علي مستجدياً، فجبهته، ورددته! ثم وجه إليه بألفي درهم، فجاء الرسول وهو بالمدينة، فدفعها إليه، فقال له: قل لأمر المؤمنين، كيف رأيت! سعت فأكدت، وقعدت في متري فأتاني رزقي.

عمر بن الخطاب: تعلم أن الطمع فقر، وأن اليأس غنى، ومن يئس من شيء استغنى عنه.

أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم طائران، فأكل أحدهما عشية، فلما أصبح طلب غداء، فأنته بعض أزواجه بالطائر الآخر، فقال: " ألم أهلك أن ترفعي شيئاً لغد، فإن من خلق الغد خلق رزقه ".

وفي الحديث المرفوع: " قد أفلح من رزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه ".

من حكمة سليمان عليه السلام: قد جربنا لين العيش وشدته، فوجدنا أنهأه أدناه.

وهب، في قوله تعالى: " فلنحيينه حياةً طيبةً " ، قال: القناعة.

بعض حكماء الشعراء:

فلا تجزع إذا أعسرت يوماً

فقد أيسرت في الدهر الطويل

ولا تظنن بربك ظن سوءٍ

فإن الله أولى بالجميل

ولو أن العقول تجر رزقاً

لكان المال عند ذوي العقول

عائشة: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أردت اللحوق بي فيكيفيك من الدنيا زاد الراكب، ولا تخلقي ثوباً حتى ترقيعه؛ وإياك ومجالسة الأغنياء ".
 يقال: إن جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمفاتيح خزائن الدنيا، فقال: " لا حاجة لي فيها، بل جوعتان وشبعة ".

وجد مكتوباً على صخرة عادية: يابن آدم، لست ببالغ أملك، ولا سابق أجلك، ولا مغلوب على رزقك، ولا مرزوق ما ليس لك، فعلام تقتل نفسك! الحسين بن الضحاك:

يا روح من عظمت قناعته

حسم الماطم من غدٍ وغد

من لم يكن لله متهماً

لم يمس محتاجاً إلى أحد

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: " أتدري لم رزقت الأحمق؟ " قال: لا، قال: " ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتياج ".

قنط يوسف بن يعقوب عليه السلام في الجب لجوع اعتراه، فأوحى إليه: " انظر إلى حائط البئر "، فنظر فانفرج الحائط عن ذرة على صخرة، معها طعامها، فقليل له: " أتراني لا أغفل عن هذه الذرة، وأغفل عنك، وأنت ابن نبي! ".

دخل علي عليه السلام المسجد، وقال الرجل: أمسك علي بغلتي، فخلع لجامها، وذهب به، فخرج علي عليه السلام بعدما قضى صلاته، ويده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له، فدفعت إلى أحد غلمانة الدرهمين؛ ليشترى بهم لجاماً، فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق، قد باعه الرجل بدرهمين، فأخذه بالدرهمين وعاد إلى مولاه، فقال علي عليه السلام: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قدر له.
 سليمان بن المهاجر البجلي:

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه

به الله عن غشيان كل بخيل

فلم يتبذلني البخيل ولم أقم

على بابه يوماً مقام ذليل

وإن قليلاً يستر الوجه أن يرى

إلى الناس مبذولاً لغير قليل

وقف بعض الملوك على سقراط وهو في المشرقة، فقال له: سل حاجتك، قال: حاجتي أن تزيل عني ظلك، فقد منعتني الرفق بالشمس، فأحضر له ذهباً وكسوة ديباج، فقال: إنه لا حاجة بسقراط إلى حجارة الأرض ولعاب الدود؛ إنما حاجته إلى أمر يصحبه حيثما توجه.

صلى معروف الكرخي خلف إمام، فلما انفتل سأل ذلك الإمام معروفاً: من أين تأكل؟ قال: أصبر علي حتى أعيد ما صليته خلفك؛ قال: لماذا؟ قال: لأن من شك في الرزق شك في الرزاق، قال الشاعر:

ولا تهلك النفس وجداً وحسرةً
ولا تيأس من صالح أن تتاله
فإنك لا تعطي امرأً حظ نفسه
ولا تمنع الشق الذي الغيث ناصره
على الشيء أسداه لغيرك قادره
وإن كان نهباً بين أيدي تبادره

قال عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب عليه السلام: قد مللت الناس، وأحببت أن ألحق بصاحبي، فقال: إن سرك اللقوق بما فقصر أملك، وكل دون الشبع، واخصف النعل وكن كميض الإزار، مرقوع القميص، تلحق بهما. وقال بعض شعراء العجم:

غلا السعر في بغداد من بعد رخصه
فلست أخاف الضيق والله واسع
وإني في الحالين بالله واثق
غناه، ولا الحرمان والله رازق

قيل لعلي عليه السلام: لو سد على رجل باب بيت وترك فيه، من أين كان يأتيه رزقه؟ قال: من حيث كان يأتيه أجله، قال بعض الشعراء:

صبرت النفس لا أجز
رأيت الرزق لا يكس
ولا بالسلف الأمت
ولا بالسمر اللدن
ولا بالعقل والدين
ولا يدرك بالطيش
ولكن قسم تجري
ع من حادثة الدهر
ب بالعرف ولا النكر
ل أهل الفضل والذكر
ولا بالخدم البتر
ولا الجاه ولا القدر
ولا الجهل ولا الهذر
بما ندري ولا ندري

جاء فتح بن شخرف إلى منزله بعد العشاء، فلم يجد عندهم ما يتعشى به، ولا وجد دهنًا للسراج وهم في الظلمة، فجلس ليلة ييكي من الفرح، ويقول: بأي يد قد كانت مني، بأي طاعة تنعم علي بأن أترك على مثل بأن أترك على مثل هذه الحال!

لقي هرم بن حيان أويساً القرني، فقال: السلام عليك يا أويس بن عامر! فقال: وعليك السلام يا هرم بن حيان، فقال هرم: أما إني عرفتك بالصفة، فكيف عرفتني؟ قال: إن أرواح المؤمنين لتشام كما تشام الخيل، فيعرف بعضها بعضاً. قال: أوصني، قال: عليك بسيف البحر، قال: فمن أين المعاش؟ قال: أف لك! خالطت الشك الكموعة، أتفر إلى الله بدينك وتتهمه في رزقك! منصور الفقيه:

الموت أسهل عندي
والخيل تجري سراعاً
من أن يكون لنذل
بين القتال والأسنة
مقطعات الأعنة
علي فضل ومنه

فأين الله والقدر المتاح

أتئس أن يقارنك النجاح

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: " إياك والطمع؛ فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس مما في أيدي الناس ".
حكيم: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك، ولا يحقرك لها من فوقك.

أبو العلاء المعري:

فعند التناهي يقصر المتطاول

فإن كنت تهوى العيش فابغ توسطاً

ويدركها النقصان، وهي كوامل

توقى الدور النقص وهي أهلة

خالد بن صفوان: كن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقل ما تكون في الباطن مآلاً، فإن الكريم من كرمته عند الحاجة خلته ، واللئيم من لؤمته عند الفاقة طعمته.
شعر:

لإغلاق باب أو لتشديد حاجب

وكم ملك جانبته من كراهة

إذا أبهت دوني وجوه المذاهب

ولي في غنى نفسي مراد ومذهب

بعض الحكماء: ينبغي للعاقل أن يكون في دنياه كالمدعو إلى الوليمة، إن أتته صحيفة تناولها، وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها.

عند عزمه على المسير إلى الشام

الأصل: اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر، في الأهل والمال والولد. اللهم أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في الأهل، ولا يجمعهما غيرك، لأن المستخلف لا يكون مستصبحاً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً.

قال الرضي رحمه الله: وابتداء هذا الكلام مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قفاه أمير المؤمنين عليه السلام بأبلغ كلام، وطمه بأحسن تمام، من قوله: ولا يجمعهما غيرك، إلى آخر الفصل.

الشرح: وعثاء السفر: مشقته، وأصل الوعث المكان السهل الكثير الدهس، تغيب فيه الإقدام، ويشق على من يمشي فيه، أوعث القوم، أي وقعوا في الوعث. والكآبة: الحزن، والمنقلب، مصدر من انقلب منقلباً، أي رجع، وسوء المنظر: قبح المرأى.

وصدر الكلام مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسانيد الصحيحة، وختمه أمير المؤمنين عليه السلام وطمه بقوله: ولا يجمعهما غيرك، لأن من يستصحب لا يكون مستخلفاً، فإنه مستحيل أن يكون الشيء الواحد في المكانين مقيماً وسائراً؛ وإنما تصح هذه القضية في الأجسام، لأن الجسم الواحد لا يكون في جهتين في وقت واحد، فأما ما ليس

بجسم وهو البارئ سبحانه؛ فإنه في كل مكان؛ لا على معنى أن ذاته ليست مكانية؛ وإنما المراد علمه وإحاطته ونفوذ حكمه وقضائه وقدره، فقد صدق عليه السلام أنه المستخلف وأنه المستصحب؛ وأن الأمرين مجتمعان له جل اسمه. وهذا الدعاء دعا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وضع رجله في الركاب، من منزله بالكوفة متوجهاً إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه؛ ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفين وذكره غيره أيضاً من رواة السيرة.

ما قاله عليه السلام يوم خروجه من الكوفة

قال نصر: لما وضع علي عليه السلام رجله في ركاب دابته يوم خرج من الكوفة إلى صفين، قال: بسم الله؛ فلما جلس على ظهرها، قال: " سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون " ، اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر... إلى آخر الفصل. وزاد فيه نصر: ومن الحيرة بعد اليقين. قال: ثم خرج أمامه الحر بن سهم بن طريف، وهو يرتجز ويقول:

وقطعي الحزون والأعلاما

إني لأرجو إن لقينا العاما

أن نقتل العاصي والهاما

يا فرسي سيري وأمي الشاما

ونابذي من خالف الإماما

جمع بني أمية الطغاما

وأن نزيل من رجال هاما

قال: وقال حبيب بن مالك، وهو على شرطة علي عليه السلام، وهو آخذ بعنان دابته: يا أمير المؤمنين، أخرج بالمسلمين فيصيبوا أجر الجهاد بالقتال، وتخلفني بالكوفة لحشر الرجال! فقال عليه السلام: إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئاً إلا كنت شريكهم فيه؛ وأنت ها هنا أعظم غناء عنهم منك لو كنت معهم. فخرج علي عليه السلام، حتى إذا حاذى الكوفة صلى ركعتين.

قال: وحدثنا عمر بن خالد، عن أبي الحسين زيد بن علي عليه السلام، عن آبائه: أن علياً عليه السلام خرج وهو يريد صفين، حتى إذا قطع النهر، أمر مناديه، فنادى بالصلاة، فتقدم فصلى ركعتين، حتى إذا قضى الصلاة، أقبل على الناس بوجهه، فقال: أيها الناس؛ ألا من كان مشيعاً أو مقيماً فليتم الصلاة، فإننا قوم سفر، ألا ومن صحبنا فلا يصوم من المفروض. والصلاة المفروضة ركعتان.

قال نصر: ثم خرج حتى نزل دير أبي موسى - وهو من الكوفة على فرسخين - فصلى به العصر، فلما انصرف من الصلاة، قال: سبحان الله ذي الطول والنعم! سبحان الله ذي القدرة والإفضال، أسأل الله الرضا بقضائه، والعمل بطاعته، والإنابة إلى أمره، إنه سميع الدعاء.

قال نصر: ثم خرج عليه السلام حتى نزل على شاطئ نرس بين موضع حمام أبي بردة وحمام عمر، فصلى بالناس المغرب، فلما انصرف، قال: الحمد لله الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل؛ والحمد لله كلما وقب ليل وغسق؛

والحمد لله كلما لاح نجم وحقق.

ثم أقام حتى صلى الغداة، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قبين ، وفيها نخل طوال إلى جانب البيعة من وراء النهر، فلما رآها، قال: " والنخل باسقات لها طلع نضيد " . ثم أقحم دابته النهر، فعبر إلى تلك البيعة فترلها، ومكث قدر الغداء.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن محمد بن مخنف بن سليم قال: إني لأنظر إلى أبي وهو يساير علياً عليه السلام، وعلي يقول له: إن بابل أرض قد خسف بها، فحرك دابته لعلنا نصلي العصر خارجاً منها. فحرك دابته، وحرك الناس دوابهم في أثره، فلما جاز جسر الفرات، نزل فصلى بالناس العصر.

قال: حدثني عمر بن عبد الله يعلى بن مرة الثقفي، عن أبيه، عن عبد خير، قال: كنت مع علي أسير في أرض بابل، قال: وحضرت الصلاة صلاة العصر، قال: فجعلنا لا نأتي مكاناً إلا رأيناه أفيح من الآخر، قال: حتى أتينا على مكان أحسن ما رأينا، وقد كادت الشمس أن تغيب. قال: فترل علي عليه السلام، فترلت معه، قال: فدعا الله، فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر. قال: فصليت العصر، ثم غابت الشمس، ثم خرج حتى أتى دير كعب، ثم خرج منه فبات بساباط، فأتاه دهاقينها يعرضون عليه التزل والطعام، فقال: لا، ليس ذلك عليكم. فلما أصبح وهو بمظلم سباط ، قرأ: " أتبنون بكل ريع آية تعبثون " .

قال نصر: وبلغ عمرو بن العاص مسيره فقال:

لأوردن الكوفة القنابلا

لا تحسبني يا علي غافلا

بجمعي العام وجمعي قابلا

قال: فبلغ ذلك علياً عليه السلام، فقال:

سبعين ألفاً عاقدي النواصي

لأوردن العاصي ابن العاصي

قد جنبوا الخيل مع القلاص

مستحقين حلق الدلاص

أسود غيل حين لا مناص

علي عليه السلام في كربلاء واهاً لك يا تربة

قال نصر: وحدثنا منصور بن سلام التميمي، قال: حدثنا حيان التميمي، عن أبي عبيدة، عن هرثة بن سليم، قال: غزونا مع علي عليه السلام صفين، فلما نزل بكربلاء صلى بنا، فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال: واهاً لك يا تربة! ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب.

قال: فلما رجع هرثة من غزاته إلى امرأته جرداء بنت سمير - وكانت من شيعة علي عليه السلام - حدثها هرثة فيما حدث، فقال لها: ألا أعجبك من صديقك أبي حسن! قال: لما نزلنا كربلاء، وقد أخذ حفنة من تربتها فشمها، وقال: واهاً لك أيتها التربة! ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب، وما علمه بالغيب؟ فقالت المرأة له: دعنا منك أيها الرجل، فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل إلا حقاً.

قال: فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين عليه السلام، كنت في الخيل التي بعث إليهم؛ فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه، عرفت المتزل الذي نزلنا فيه مع علي عليه السلام، والبقعة التي رفع إليه من تربتها والقول الذي قاله، فكرهت مسيري، فأقبلت على فرسي حتى وقفت على الحسين عليه السلام فسلمت عليه، وحدثته بالذي سمعت من أبيه في هذا المتزل؛ فقال الحسين: أمعنا أم علينا؟ فقلت: يا بن رسول الله، لا معك، ولا عليك؛ تركت ولدي وعيالي أخاف عليهم من ابن زياد، فقال الحسين عليه السلام: فول هرباً حتى لا ترى مقتلتنا، فوالذي نفس حسين بيده لا يرى اليوم مقتلتنا أحد ثم لا يعيننا إلا دخل النار.

قال: فأقبلت في الأرض أشد هرباً، حتى خفي علي مقتلهم.

قال نصر: وحدثنا مصعب، قال: حدثنا الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي جحيفة، قال: جاء عروة البارقي إلى سعد بن وهب، فسأله فقال: حديث حدثناه عن علي بن أبي طالب، قال: نعم بعثني مخنف بن سليم إلى علي عند توجهه إلى صفين، فأتيته بكرباء، فوجدته يشير بيده، ويقول: ههنا، ههنا! فقال له رجل: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ثقل لآل محمد يتزل ههنا، فويل لهم منكم، وويل لكم منهم! فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تقتلوهم، وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار.

قال نصر: وقد روي هذا الكلام على وجه آخر، أنه عليه السلام قال: فويل لكم منهم، وويل لكم عليهم، فقال الرجل أما ويل لنا منهم، فقد عرفناه، فويل لنا عليهم، ما معناه! فقال: تروهم يقتلون لا تستطيعون نصرهم. قال نصر: وحدثنا سعيد بن حكيم العبسي، عن الحسن بن كثير، عن أبيه، أن علياً عليه السلام أتى كربلاء، فوقف بها، فقيل له: يا أمير المؤمنين، هذه كربلاء، فقال: ذات كرب وبلاء، ثم أوماً بيده إلى مكان، فقال: ههنا موضع رحلهم، ومناخ ركاهم، ثم أوماً بيده إلى مكان آخر، فقال: ههنا مراق دمائهم، ثم مضى إلى ساباط.

مفارقة علي والمسير إلى الشام

وينبغي أن نذكر ههنا ابتداء عزمه على مفارقة الكوفة، والمسير إلى الشام وما خاطب به أصحابه، وما خاطبوه به، وما كاتب به العمال وكاتبوه جواباً عن كتبه، وجميع ذلك منقول من كتاب نصر بن مزاحم. قال نصر: حدثنا عمر بن سعيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود، قال: لما أراد علي عليه السلام المسير إلى الشام، دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار، فجمعهم، ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد؛ فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مباركوا الأمر، ومقاويل بالحق، وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم؛ فأشيروا علينا برأيكم.

فقام هاشم بن عتبة عن أبي وقاص، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد يا أمير المؤمنين؛ فأنا بالقوم جد خبير، هم لك ولأشياعك أعداء؛ وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء، وهم مقاتلون ومجادلون لا ييقون جهداً، مشاحة على الدنيا، وضناً بما في أيديهم منها، ليس لهم إربة غيرها، إلا ما يخدعون به الجهال من طلب دم ابن عفان، كذبوا ليس لدمه ينفرون،

ولكن الدنيا يطلبون؛ انهض بنا إليهم؛ فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال، وإن أبوا إلا الشقاق، فذاك ظني بهم، والله ما أراهم يبايعون وقد بقي فيهم أحد ممن يطاع إذا نهى، ويسمع إذا أمر.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الحارث بن حصيرة، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود أن عمار بن ياسر قام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أمير المؤمنين، إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل، اشخص بنا قبل استعمار نار الفجرة، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، وادعهم إلى حظهم ورشدهم؛ فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلا حربنا، فوالله إن سفك دمائهم، والجد في جهادهم، لقربة عند الله، وكرامة منه.

ثم قام قيس بن سعد بن عباد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرج، فوالله لجهادهم أحب إلي من جهاد الترك والروم؛ لإدهائهم في دين الله، واستدلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، إذا غضبوا على رجل حبسوه وضربوه وحرموه وسيروه، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين - قال: يعني رقيق.

فقال أشياخ الأنصار، منهم خزيمه بن ثابت وأبو أيوب؛ وغيرهما: لم تقدمت أشياخ قومك وبدأنهم بالكلام يا قيس؟ فقال: أما إني عارف بفضلكم، معظم لشأنكم؛ ولكني وجدت في نفسي الضغن الذي في صدوركم جاش حين ذكرت الأحزاب.

فقال بعضهم لبعض: ليقم رجل منكم فليجب أمير المؤمنين عن جماعتكم، فقام سهيل بن حنيف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، نحن سلم لمن سلمت، وحرب لمن حاربت، ورأينا رأيك، ونحن يمينك، وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة فتأمرهم بالشخص، وتخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل، فإلهم أهل البلد وهم الناس؛ فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب؛ فأما نحن فليس عليك خلاف منا، متى دعوتنا أجبتك، ومتى أمرتنا أطعناك. قال نصر: فحدثنا عمر بن سعد، عن أبي مخنف، عن زكريا بن الحارث، عن أبي خشيش، عن معبد، قال: قام علي عليه السلام خطيباً على منبره، فكنث تحت المنبر، أسمع تحريضه الناس وأمره لهم بالمسير إلى صفين لقتال أهل الشام، فسمعته يقول: سيروا إلى أعداء الله، سيروا إلى أعداء القرآن والسنن، سيروا إلى بقية الأحزاب وقتلة المهاجرين والأنصار. فقام رجل من بني فزارة، فقال له: أتريد أن تسير بنا إلى أخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرت بنا إلى أخواننا من أهل البصرة فقتلتهم! كلا، ها الله إذاً لا نفعل ذلك فقام الأشر، فقال: من هذا المارق! فهرب الفزاري، واشتد الناس على أثره، فلحق في مكانٍ من السوق تباع فيه البراذين، فوطئوه بأرجلهم، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قتل؛ فأتى علي عليه السلام، فقيل له: يا أمير المؤمنين، قتل الرجل، قال: ومن قتله؟ قالوا: قتلته همدان ومعهم شوب من الناس، فقال: قتل عمية، لا يدري من قتله! ديته من بيت مال المسلمين، فقال بعض بني تيم اللات ابن ثعلبة:

كما مات في سوق البراذين أربد

إذا رفعت عنه يد وضعت يد

أعوذ بربي أن تكون منيتي

تعاوره همدان خفق نعالهم

فقام الأشر، فقال: يا أمير المؤمنين، لا يهدنك ما رأيت، ولا يؤيسنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن؛ إن جميع من ترى من الناس شيعتك، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك، ولا يحبون البقاء بعدك، فإن شئت فسر بنا إلى عدوك، فوالله ما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه، وإنا لعلى بينة من ربنا، وإن أنفسنا لن تموت حتى يأتي أجلها. وكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين، وقد وثبت عصاة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس، وباعوا خلاقهم بعرضٍ من الدنيا يسيراً! فقال علي عليه السلام: الطريق مشترك، والناس في الحق سواء، ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامة، فقد قضى ما عليه. ثم نزل فدخل منزله.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثني أبو زهير العبسي، عن النضر بن صالح أن عبد الله بن المعتم العبسي وحنظلة بن الربيع التميمي، لما أمر علي عليه السلام الناس بالمسير إلى الشام دخلا عليه في رجال كثير من غطفان وبني تميم، فقال له حنظلة: يا أمير المؤمنين؛ إنا قد مشينا إليك في نصيحة فاقبلها، ورأينا لك رأياً فلا تردنه علينا، فإنا نظرنا لك ولمن معك، أقم وكاتب هذا الرجل، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام؛ فإنا والله ما ندري ولا تدري لمن تكون الغلبة إذا التقيتم، ولا على من تكون الدبرة! وقال ابن المعتم مثل قوله، وتكلم القوم الذين دخلوا معهما بمثل كلامهما، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن الله وارث العباد والبلاد، ورب السموات السبع، والأرضين السبع، وإليه ترجعون، يؤتي الملك من يشاء، ويتزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، أما الدبرة، فإنها على الضالين العاصين ظفروا أو ظفر بهم، وإيم الله إني لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.

فقام إليه معقل بن قيس الرياحي، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن هؤلاء والله ما آثروك بنصح، ولا دخلوا عليك إلا بغش، فاحذرهم فإنهم أدنى العدو.

وقال له مالك بن حبيب: إنه بلغني يا أمير المؤمنين أن حنظلة هذا ي كاتب معاوية، فادفعه إلينا نجبسه حتى تنقضي غزاتك، وتنصرف.

وقام من بني عبس قائد بن بكير وعياش بن ربيعة العبسيان، فقالا: يا أمير المؤمنين إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه ي كاتب معاوية، فاحبسه أو مكنا من حبسه، حتى تنقضي غزاتك ثم تنصرف.

فقالا: هذا جزاء لمن نظر لكم، وأشار عليكم بالرأي فيما بينكم وبين عدوكم.

فقال لهما علي عليه السلام: الله بيني وبينكم، وإليه أكلكم، وبه أستظهر عليكم، اذهبوا حيث شئتم.

قال نصر: وبعث علي عليه السلام إلى حنظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب، - وهو من الصحابة - فقال له: يا حنظلة، أنت علي أم لي؟ فقال: لا لك ولا عليك، قال: فما تريد؟ قال: اشخص إلى الرها، فإنه فرج من الفروج، اصمدوا له حتى ينقضي هذا الأمر.

فغضب من قوله خيار بني عمرو بن تميم وهم رهطه، فقال: إنكم والله لا تغروني من ديني، دعوني فأنا أعلم منكم، فقالوا: والله إن لم تخرج مع هذا الرجل لا ندع فلانة تخرج معك - لأم ولده - ولا ولدها، ولئن أردت ذلك لنقتلنك. فأعانه ناس من قومه واختلطوا سيوفهم، فقال: أجلوني حتى أنظر. ودخل منزله وأغلق بابه؛ حتى إذا أمسى هرب إلى

معاوية، وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير، وهرب ابن المعتم أيضاً، حتى أتى معاوية في أحد عشر رجلاً من قومه.

وأما حنظلة فخرج إلى معاوية في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه؛ لكنهما لم يقاتلا مع معاوية، واعتزلا الفريقين جميعاً. وقال: وأمر علي عليه السلام بهدم دار حنظلة، فهدمت، هدمها عريفهم شيبث بن ربيعي وبكر ابن تميم، فقال حنظلة يهجوها:

مغلغلةً عني سراة بني عمرو

ولا تنظروا في النائبات إلى بكر

أزب جمالٍ قد رغا ليلة النفر

أيا راكباً إما عرضت فبلغن

فأوصيكم بالله والبر والتقوى

ولا شيبث ذي المنخرين كأنه

وقال أيضاً يحرض معاوية بن أبي سفيان:

ولكل سائلةٍ تسيل قرار

في الأمر حتى تقتل الأنصار

وكما تهدم بالديار ديار

ولهن من تكل الرجال جوار

أبلغ معاوية بن حرب خطبةً

لا تقبلن دنيةً ترضونها

وكما تبوء دماؤهم بدمائكم

وترى نساؤهم يجلن حواسراً

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن سعد بن طريف، عن أبي المجاهد، عن الحل بن خليفة، قال: قام عدي بن حاتم الطائي بين يدي علي عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أمير المؤمنين، ما قلت إلا بعلم، ولا دعوت إلا إلى حق، ولا أمرت إلا برشد، ولكن إذا رأيت أن تستأني هؤلاء القوم وتستدعيهم - حتى تأتيتهم كتبك، ويقدم عليهم رسلك - فعلت.

فإن قبلوا يصيبوا رشدهم، والعافية أوسع لنا ولهم؛ وإن يتمادوا في الشقاق ولا يترعوا عن الغي فسر إليهم. وقد قدمنا إليهم بالعدر، ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحق، فوالله لهم من الحق أبعد، وعلى الله أهون، من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة لما دعوناهم إلى الحق فتركوه، ناوجناهم براكاء القتال، حتى بلغنا منهم ما نحب، وبلغ الله منهم رضاه. فقام زيد بن حصين الطائي - وكان من أصحاب البرانس المجتهدين - فقال: الحمد لله حتى يرضى، ولا إله إلا الله ربنا، أما بعد: فوالله إن كنا في شك من قتال من خالفنا، ولا تصلح لنا النية في قتالهم حتى نستدعيهم ونستأنيهم - ما الأعمال إلا في تباب، ولا السعي إلا في ضلال، والله تعالى يقول: "وأما بنعمة ربك فحدث"، إننا والله ما ارتبنا طرفة عين فيمن يتبعونه؛ فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم، القليل من الإسلام حظهم، أعوان الظلمة وأصحاب الجور والعدوان؛ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار، ولا التابعين بإحسان.

فقام رجل من طيئ فقال: يا زيد بن حصين، أكلام سيدنا عدي بن حاتم تهجن! فقال زيد: ما أنتم بأعرف بحق عدي مني، ولكني لا أدع القول بالحق وإن سخط الناس.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الحارث بن حصين قال: دخل أبو زينب بن عوف، على علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين؛ لئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلاً، وأعظمتنا في الخير نصيباً، ولئن كنا على ضلال، إنك لأثقلنا ظهراً وأعظمتنا وزراً، قد أمرتنا بالمسير إلى هذا العدو، وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية، وأظهرنا لهم العداوة؛ نريد بذلك ما يعلمه الله تعالى من طاعتك؛ أليس الذي نحن عليه هو الحق المبين، والذي عليه عدونا هو الحوب الكبير! فقال عليه السلام: بلى، شهدت أنك إن أمضيت معنا ناصراً لدعوتنا، صحيح النية في نصرنا، قد قطعت منهم الولاية، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت، فإنك ولي الله، تسبح في رضوانه، وتركض في طاعته، فأبشر أبا زينب. وقال له عمار بن ياسر: أثبت أبا زينب، ولا تشك في الأحزاب، أعداء الله ورسوله. فقال أبو زينب: ما أحب أن لي شاهدين من هذه الأمة شهدا لي عما سألت من هذا الأمر الذي أهمني، مكانكما، قال: وخرج عمار بن ياسر، وهو يقول:

سيروا فخير الناس أتباع علي

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبي

وقودنا الخيل وهز السمهري

هذا أو أن طاب سل المشرفي

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن أبي روق، قال: دخل يزيد بن قيس الأرحبي على علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين؛ نحن أولو جهاز وعدة، وأكثر الناس أهل قوة، ومن ليس به ضعف ولا علة، فمر مناديك، فليناد الناس ويخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة، فإن أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النؤوم، ولا من إذا أمكنته الفرص أجلها، واستشار فيها؛ ولا من يؤخر عمل الحرب في اليوم لغد وبعد غد. فقال زياد بن النضر: لقد نصح لك يزيد بن قيس يا أمير المؤمنين، وقال ما يعرف، فتوكل على الله، وثق به، واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً، فإن يرد الله بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك إلى من ليس له مثل سابقتك وقدمك، وإلا ينيبوا ويقبلوا ويأبوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هيناً، ونرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم بالأمس. ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، فقال: يا أمير المؤمنين، إن القوم لو كانوا الله يريدون، والله يعملون، ما خالفونا؛ ولكن القوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة وحباً للأثرة، وضناً بسلطانهم، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم، وعلى إحني في نفوسهم، وعداوة يجدونها في صدورهم، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة، قتلت فيها آبائهم وأعوامهم.

ثم التفت إلى الناس، فقال: كيف يبائع معاوية علياً، وقد قتل أخاه حنظلة، وخاله الوليد، وجده عتبة في موقف واحد؛ والله ما أظنهم يفعلون، ولن يستقيموا لكم دون أن تقصف فيهم قنا المران، وتقطع على هامهم السيوف، وتنشر حواجبهم بعمد الحديد، وتكون أمور جمعة بين الفريقين.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين عن عبد الله بن شريك، قال: خرج حجر بن عدي وعمرو بن الحمق، يظهران البراءة من أهل الشام، فأرسل علي عليه السلام إليهما أن كفا عما يبلغني عنكما، فأتياه، فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا محقين؟ قال: بلى، قالوا: أو ليسوا مبطلين؟ قال: بلى، قالوا: فلم منعنا من شتمهم؟ قال: قال: كرهت لكم

أن تكونوا لعائنين شتامين تشتمون وتتبرأون؛ ولكن لو وصفتهم مساوئ أعمالهم فقلتكم: من سيرتكم كذا وكذا، ومن أعمالهم كذا وكذا، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر؛ وقلتكم مكان لعنكم إياهم، وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءهم ودماءنا، وأصلح ذات بينهم وبيننا، واهددهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله، ويرعوي عن الغي منهم من لهج به - لكان أحب إلي وخيراً لكم. فقالوا: يا أمير المؤمنين، نقبل عظمتك، ونتأدب بأدبك.

قال نصر: وقال له عمرو بن الحمق يومئذ: والله يا أمير المؤمنين إني ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك، ولا إرادة ما تؤتيني، ولا التماس سلطان ترفع ذكره به؛ ولكنني أحببتك بخصال خمس: أنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصيه، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسبق الناس إلى الإسلام، وأعظم المهاجرين سهماً في الجهاد، فلو أي كلفت نقل الجبال الرواسي، ونزح البحور الطوامي، حتى يأتي علي يومي في أمرٍ أقوى به وليك، وأهين عدوك، ما رأيت أي قد أدت فيه كل الذي يحق علي من حَقِّك. فقال علي عليه السلام: اللهم نور قلبه بالتقى، واهدده إلى صراطك المستقيم، ليت أن في جندي مائة مثلك، فقال حجر: إذاً والله يا أمير المؤمنين، صح جندك، وقل فيهم من يغشك.

قال نصر: وقام حجر بن عدي، فقال: يا أمير المؤمنين، ونحن بنو الحرب وأهلها الذين نلقحها وننتجها، قد ضارستنا وضارسناها؛ ولنا أعوان وعشيرة ذات عدد ورأي مجرب، وبأس محمود، وأزمتنا منقاداً لك بالسمع والطاعة، فإن شرقت شرقنا، وإن غربت غربنا، وما أمرتنا به من أمرٍ فعلنا. فقال علي عليه السلام: أكل قومك يرى مثل رأيك؟ قال: ما رأيت منهم إلا حسناً، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة. فقال له علي عليه السلام خيراً.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، قال: كتب عليه السلام إلى عماله حينئذ يستفزههم، فكتب إلى مخنف بن سليم: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن جهاد من صدف عن الحق رغبة عنه، وهب في نعاس العمى والضلال، اختياراً له - فريضةً على العارفين. إن الله يرضى عن أرضاه، ويسخط على من عصاه، وإننا قد هممنا بالسير إلى هؤلاء القوم الذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله، واستأثروا بالفيء، وعطلوا الحدود، وأماتوا الحق، وأظهروا في الأرض الفساد، واتخذوا الفاسقين وليجةً من دون المؤمنين، فإذا ولي الله أعظم أحداثهم أبغضوه وأقصوه وحرموه، وإذا ظالم ساعدهم على ظلمهم أحبوه، وأذنوه وبروه، فقد أصروا على الظلم، وأجمعوا على الخلاف، وقديماً ما صدوا عن الحق، وتعاونوا على الإثم، وكانوا ظالمين. فإذا أتيت بكتابي هذا، فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك، وأقبل إلينا، لعلك تلقى معنا هذا العدو المحل، فتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وتجامع الحق، وتباين الباطل، فإنه لا غناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وكتبه عبيد الله بن رافع في سنة سبع وثلاثين.

قال: فاستعمل مخنف على أصبهان الحارث بن أبي الحارث بن الربيع، واستعمل على همدان سعيد بن وهب، وكلاهما من قومه، وأقبل حتى شهد مع علي عليه السلام صفين.

قال نصر: وكتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى علي عليه السلام يذكر له اختلاف أهل البصرة، فكتب إليه علي عليه السلام: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس: أما بعد، فقد قدم علي رسولك، وقرأت كتابك، تذكر

فيه حال أهل البصرة واختلافهم بعد انصرافي عنهم، وسأخبرك عن القوم؛ وهم بين مقيم لرغبة يروجوها، أو خائف من عقوبة يخشاهما، فأرغب راغبهم بالعدل عليه، والإنصاف له والإحسان إليه؛ واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم، وانه إلى أمري ولا تعده، وأحسن إلى هذا الحي من ربيعة وكل من قبلك فأحسن إليه ما استطعت إن شاء الله.

قال نصر: وكتب إلى أمراء أعماله كلهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم، وأقام ينتظرهم.

قال: فحدثنا عمر بن سعد، عن أبي روق، قال: قال زياد بن النضر الحارثي لعبد الله بن بديل: إن يومنا اليوم عصبب ما يصبر عليه إلا كل مشيع القلب، الصادق النية، رابط الجأش، وإيم الله ما أظن ذلك اليوم يبقى منهم ولا منا إلا الرذال .

فقال عبد الله بن بديل: أنا والله أظن ذلك، فبلغ كلامهما علياً عليه السلام، فقال لهما: ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع، إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين، وكل آتية منيته كما كتب الله له، فطوبى للمجاهدين في سبيله، والمقتولين في طاعته!

قال نصر: فلما سمع هاشم بن عتبة ما قالاه، أتى علياً عليه السلام، فقال: سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم، القاسية قلوبهم، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله، فأحلوا حرامه، وحرّموا حلاله، واستوى بهم الشيطان، ووعدهم الأباطيل، ومناههم الأمان، حتى أزاغهم عن الهدى، وقصد بهم قصد الردى، وحبب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها؛ كرهت لنا في الآخرة وانتجاز موعد ربنا. وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً، وأفضل الناس سابقةً وقدماً، وهم يا أمير المؤمنين يعملون منك مثل الذي نعلم، ولكن كتب عليهم الشقاء، ومالت بهم الأهواء، وكانوا ظالمين، فأيدينا مبسوطاً لك بالسمع والطاعة، وقلوبنا منشرحة لك ببذل النصيحة، وأنفسنا تنصرك على من خالفك، وتولى الأمر دونك جذلةً، والله ما أحب أن لي ما على الأرض ما أقلت، ولا ما تحت السماء مما أظلت، وأني واليت عدواً لك؛ أو عاديته ولياً لك! فقال عليه السلام: اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك، والمرافقة لنبيك.

قال نصر: ثم إن علياً عليه السلام صعد المنبر فخطب الناس، ودعاهم إلى الجهاد، فبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم قال: إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فأنصبوا أنفسكم في أداء حقه، وتنجزوا موعوده؛ واعلموا أن الله جعل أمراً الإسلام متينة، وعرة وثيقة، ثم جعل الطاعة حظ الأنفس ورضا الرب، وغنيمة الأكياس عند تفريط العجزة، وقد حملت أمر أسودها وأحمرها، ولا قوة إلا بالله! ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سيفه نفسه، وتناول ما ليس له وما لا يدركه معاوية وجنده، الفئة الطاغية الباغية، يقودهم إبليس، ويرق لهم ببارق تسويفه، ويدليهم بغروره، وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته، والمغرور من أثر الضلالة على الهدى، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عني، وقال: في غيري كفاية؛ فإن الذود إلى الذود إبل، ومن لا يزد عن حوضه يتهدم. ثم إني آمركم بالشدة في الأمر، والجهاد في سبيل الله، وألا تغتابوا مسلماً، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله.

قال نصر: ثم قام ابنه الحسن بن علي عليه السلام، فقال: الحمد لله لا إله إلا غيره ولا شريك له.

ثم قال: إن مما عظم الله عليكم من حقه، وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره، ولا يبلغه قول ولا صفة، ونحن إنما غضبنا الله ولكم، إنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم. فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده، ولا تخاذلوا، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب؛ وإن الإقدام على الأسنة نخوة وعصمة، لم يتمنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة، وكفاهم جوائح الذلة، وهدهم إلى معالم الملة، ثم أنشد:

والصلح تأخذ منه ما رضى به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

ثم قام الحسين بن علي عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أهل الكوفة، أنتم الأحبة الكرماء، والشعار دون الدثار، جدوا في إطفاء ما دثر بينكم، وتسهيل ما توعر عليكم. ألا إن الحرب شرها ذريع وطعمها فظيع: فمن أخذ لها أهبتها، واستعد لها عدتها، ولم يألم كلومها قبل حلولها، فذاك صاحبها، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها، واستبصار سعيه فيها، فذاك قمن ألا ينفع قومه، وأن يهلك نفسه، نسأل الله بقوته أن يدعمكم بالفيئة ثم نزل.

قال نصر: فأجاب علياً عليه السلام إلى السير حل الناس، إلا أن أصحاب عبد الله بن مسعود أتوه، فيهم عبدة السلماني وأصحابه، فقالوا له: إنا نخرج معكم، ولا نترك عسكركم ونعسكر على حدة، حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له أو بدا لنا منه بغي كنا عليه. فقال لهم علي عليه السلام: مرحباً وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين، والعلم بالسنة، من لم يرض بهذا فهو خائن جبار.

وأتاه آخرون من أصحاب عبد الله بن مسعود، منهم الربيع بن خيثم، وهم يومئذ أربعمئة رجل، فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ إنا قد شككنا في هذا القتال؛ على معرفتنا بفضلك، ولا غناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عمن يقاتل العدو؛ فولنا بعض هذه الثغور نكمن ثم نقاتل عن أهلنا؛ فوجه علي عليه السلام بالربيع بن خيثم على ثغر الري، فكان أول لواء عقده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خيثم.

قال نصر: وحدثني عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر، أن علياً عليه السلام لم يبرح النخيلة، حتى قدم عليه ابن عباس بأهل البصرة. قال: وكان كتاب علي عليه السلام إلى ابن عباس: أما بعد، فاشخص إلي عن قبلك من المسلمين والمؤمنين، وذكرهم بلأني عندهم، وعفوي عنهم في الحرب، وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل. والسلام.

قال: فلما وصل كتابه إلى ابن عباس بالبصرة، قام في الناس، فقرأ عليهم الكتاب، وحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، استعدوا للشخص إلى إمامكم، وانفروا خفافاً ثقلاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فإنكم تقاتلون الحلين القاسطين، الذين لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون حكم الكتاب، ولا يدينون دين الحق، مع أمير المؤمنين، وابن عم رسول الله، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصادق بالحق، والقيم بالهدى، والحاكم بحكم الكتاب، الذي لا يرتشي في الحكم، ولا يدهن الفجار، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

فقام إليه الأحنف بن قيس، فقال: نعم والله لنجيبك، ولنخرجن معك على العسر واليسر، والرضا والكره، نحتسب في

ذلك الأجر، ونأمل به من الله العظيم حسن الثواب.

وقام خالد بن المعمر السدوسي فقال: سمعنا وأطعنا، فمضى استنفرتنا نفرنا، ومضى دعوتنا أجبنا.

وقام عمرو بن مرجوم العبدى، فقال: وفق الله أمير المؤمنين، وجمع له أمر المسلمين، ولعن الخلقين القاسطين، لا يقرأون

القرآن؛ نحن والله عليهم حنقون، ولهم في الله مفارقون، فمضى أردتنا صحبك خيلنا ورجالنا إن شاء الله.

قال: وأجاب الناس إلى المسير، ونشطوا وخفوا، فاستعمل ابن عباس على البصرة أبا الأسود الدؤلي وخرج حتى قدم على علي عليه السلام بالنخيلة.

بين محمد بن أبي بكر ومعاوية

قال نصر: وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية:

من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر، سلام على أهل طاعة الله ممن هو سلم لأهل ولاية الله. أما بعد فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته، خلق خلقاً بلا عبث ولا ضعف في قوته، لا حاجة به إلى خلقهم، ولكنه خلقهم عبيداً، وجعل منهم شقياً وسعيداً، وغوياً ورشيداً، ثم اختارهم على علمه، فاصطفى وانتخب منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فاخصه برسالته، واختاره لوحيه، واثمنه على أمره، وبعثه رسولاً مصداقاً لما بين يديه من الكتب، ودليلاً على الشرائع - فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان أول من أجاب وأجاب، وصدق ووافق فأسلم وسلم أخوه وابن عمه - علي بن أبي طالب عليه السلام، فصدقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، ووقاه كل هول، وواساه بنفسه في كل خوف، فحارب حربه، وسالم سلمه، فلم يبرح مبتدلاً لنفسه في ساعات الأزل، ومقامات الروع، حتى برز سابقاً لا نظير له في جهاده، ولا مقارب له في فعله؛ وقد رأيتك تساميه وأنت أنت، وهو هو السابق المبرز في كل خير؛ أول الناس إسلاماً، وأصدق الناس نية، وأطيب الناس ذرية، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم. وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل، وتجتهدان على إطفاء نور الله؛ وتجمعان على ذلك الجموع، وتبدلان فيه المال، وتحالفان في ذلك القبائل؛ على هذا مات أبوك، وعلى ذلك خلفته، والشاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك؛ من بقية الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ والشاهد لعلي مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن، ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه كتائب وعصائب؛ يجالدون حوله بأسياقهم، ويهريقون دماءهم دونه؛ يرون الفضل في اتباعه، والشقاق والعصيان في خلافه، فكيف - يا لك الويل - تعدل نفسك بعلي، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعاً، وآخرهم به عهداً، يخبره بسر، ويشركه في أمره، وأنت عدوه وابن عدوه؛ فتمتع ما استطعت بباطلك، وليمدك ابن العاص في غوايتك، فكأن أجلك قد انقضى، وكيدك قد وهى، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا. واعلم أنك إنما تكايد ربك الذي قد أمنت كيده، وأيسست من روحه، وهو لك بالمرصاد؛ وأنت منه في غرور. وبالله وبأهل بيت رسوله عنك الغناء! والسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه معاوية: من معاوية بن أبي سفيان، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر. سلام على أهل طاعة الله، أما بعد،

فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه، وما أصفى به نبيه، مع كلام ألفته ووضعته، لرأيت فيه تضعيف؛ ولأبيك فيه تعنيف؛ ذكرت حق ابن أبي طالب وقديم سابقته، وقرابته من نبي الله ونصرته له، ومواساته إياه، في كل خوف وهول، واحتجاجك علي، وفخرك بفضل غيرك لا بفضلك. فاحمد إلهاً صرف ذلك الفضل عنك، وجعله لغيرك؛ فقد كنا وأبوك معنا في حياة نبينا، نرى حق ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرزاً علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده، وأتم له ما وعده، وأفلج حجته، قبضه الله إليه، فكان أبوك وفاروقه، أول من ابتزّه وخالفه، على ذلك اتفاقاً واتساقاً، ثم دعواهم إلى أنفسهم فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهما به الهموم، وأراد به العظيم؛ فبايعهما وسلم لهما، لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعاهما على سرهما، حتى قبضا وانقضى أمرهما: ثم أقاما بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان، يهتدي بهديهما، ويسير بسيرتهما فعبته أنت وصاحبك، حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، وبطنتما وظهرتما، وكشفتما له عداوتكما وغلكما، حتى بلغت ما منكما، فخذ حذرک يابن أبي بكر، فستري وبال أمرک، وقس شيرک بفترک، تقصر عن أن تساوي أو توازي من يزن الجبال حلمه، ولا تلين على قسر قناته ولا يدرك ذو مدى أناته، أبوك مهد له مهاده، وبني ملكه وشاده، فإن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله، وإن لم يكن جوراً فأبوك أسه ونحن شركاؤه، فبهديه أخذنا، وبفعله اقتدينا، رأينا أباك فعل ما فعل، فاحتذينا مثاله، واقتدينا بفعاله، فعب أباك بما بدا لك، أودع. والسلام على من أناب، ورجع من غوايته وناب.

قال: وأمر علي عليه السلام الحارث بن الأعور أن ينادي في الناس: اخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة، فنادى الحارث في الناس بذلك، وبعث إلى مالك بن حبيب اليربوعي صاحب شرطته، يأمره أن يحشر الناس إلى المعسكر، ودعا عقبة بن عمرو الأنصاري، فاستخلفه على الكوفة - وكان أصغر أصحاب العقبة السبعين - ثم خرج عليه السلام، وخرج الناس معه.

قال نصر: ودعا علي عليه السلام زياد بن النضر وشريح بن هانئ - وكانا على مذبح والأشعرين - فقال: يا زياد، اتق الله في كل ممسى ومصبح، وخف على نفسك الدينا الغرور، ولا تأمنها على حال واعلم أنك إن لم تزعها عن كثير مما تحب مخافة مكروهه، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر، فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغي والظلم والعدوان؛ فإني قد وليتك هذا الجند، فلا تستطيلن عليهم؛ إن خيركم عند الله أتقاكم، تعلم من عالمهم، وعلم جاهلهم، واحلم عن سفيهم؛ فإنك إنما تدرك الخير بالحلم وكف الأذى والجهل.

فقال زياد: أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيتك، مؤدياً لأمرک، يرى الرشد في نفاذ أمرک، والغني في تضييع عهدک. فأمرهما أن يأخذا في طريق واحد ولا يختلفا، وبعثهما في اثني عشر ألفاً على مقدمته، وكل واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش؛ فأخذ شريح يعتزل بمن معه من أصحابه على حدة، ولا يقرب زياداً، فكتب زياد إلى علي عليه السلام مع مولى له يقال له شوذب: لعبد الله علي أمير المؤمنين؛ من زياد بن النضر: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فإنك وليتني أمر الناس، وإن شريحاً لا يرى عليه طاعة ولا حقاً، وذلك من فعله بي استخفاف بأمرک، وترك لعهدک، والسلام.

وكتب شريح بن هانئ إلى علي عليه السلام: لعبد الله علي أمير المؤمنين من شريح بن هانئ، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن زياد بن النضر حين أشركته في أمرك، ووليته جنداً من جنودك، طغى واستكبر، ومال به العجب والخيلاء والزهو إلى ما لا يرضى الله تعالى به من القول والفعل؛ فإن رأى أمير المؤمنين عليه السلام أن يعزله عنا ويبعث مكانه من يحب فليفعل؛ فإننا له كارهون، والسلام.

فكتب علي عليه السلام إليهما: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هانئ. سلام عليكما، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فإني قد وليت مقدمتي زياد بن النضر، وأمرته عليها، وشريح بن هانئ على طائفة منها أمير، فإن انتهى جمعكما إلى بأس، فزياد بن النضر على الناس كلهم، وإن افترقتما فكل واحد منكما أمير الطائفة التي وليناه أمرها. واعلما أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع، ومن نقض الشعاب والشجر والخمر في كل جانب، كي لا يغتركما عدو، أو يكون لهم كمين. ولا تسيرن الكتاب والقبائل من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبئة، فإن دهمكم عدو أو غشيكم مكره، كنتم قد تقدمتم في التعبئة، فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف أو سفاح الجبال وأثناء النهار، كيما يكون ذلك لكم رداءً، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا رقباء كما في صياصي الجبال، وبأعالي الأشراف، ومناكب الأنهار يرون لكم، كي لا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن. وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا رحلتهم فارحلوا جميعاً، فإذا غشيكم الليل فزلتهم فخفوا عسكركم بالرماح والترسة، ولتكن رمايتكم من وراء ترسكم ورماحكم يلونهم. وما أقمتكم فكذلك فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تلفى لكم غرة، فما قوم يحفون عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون. واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تصبحا إلا غراراً أو مضمضة. ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوكم؛ وليكن كل يوم عندي خبركما ورسول من قبلكما. فإني - ولا شيء إلا ما شاء الله - حثيث السير في أثركما. عليكما في جريكما بالتؤدة، وإياكما والعجلة؛ إلا أن تمكنكما فرصة بعد الإغدار والحجة، وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما، إلا أن تبدأ، أو يأتيكما أمر، إن شاء الله.

قال نصر: وكتب علي عليه السلام إلى أمراء الأجناد - وكان قد قسم عسكره أسباعات، فجعل على كل سبع أميراً؛ فجعل سعد بن مسعود الثقفي على قيس وعبد القيس، ومعقل بن قيس اليربوعي على تميم وضبة والرباب وقريش وكنانة وأسد، ومخنف بن سليم على الأزدي وبجيلة وخنعم والأنصار وخزاعة، وحجر بن عدي الكندي على كندة وحضرموت وقضاعة، وزياد بن النضر على مذحج والأشعرين، وسعيد بن مرة الهمداني على همدان ومن معهم من حمير، وعدي بن حاتم الطائي على طي؛ تجمعهم الدعوة مع مذحج، وتختلف الرايتان: راية مذحج مع زياد بن النضر، وراية طي مع عدي بن حاتم؛ هذه عساكر الكوفة. وأما عساكر البصرة فبخالد بن معمر السدوسي على بكر بن وائل، وعمرو بن مرجوم العبدي على عبد القيس، وابن شيمان الزدي على الأزدي، والأحنف على تميم وضبة والرباب، وشريك بن الأعور الحارثي على أهل العالية: أما بعد، فإني أبرأ إليكم من معرة الجنود إلا من جوعة إلى شبعة، ومن فقر إلى غنى، أو عمى إلى

هدى؛ فإن ذلك عليهم. فأغربوا الناس عن الظلم والعدوان، وخذوا على أيدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا فيرد بها علينا وعليكم دعاءنا؛ فإنه تعالى يقول: " ما يعبا بكم ري لولا دعاؤكم ". وإن الله إذا مقت قوماً من السماء هلكوا في الأرض، فلا تألوا أنفسكم خيراً، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونةً ولا دين الله قوة، وأبلوا في سبيله ما استوجب عليكم، فإن الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا، وأن ننصره ما بلغت قوتنا ولا قوة إلا بالله.

قال: وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالذي لهم وعليهم: أما بعد؛ فإن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء؛ أسودكم وأحمركم، وجعلكم من الوالي وجعل الوالي منكم بمرتلة الوالد من الولد، ومرتلة الولد من الوالد، الذي لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوه والتهمة به، ما سمعتم وأطعتم وقضيتهم الذي عليكم. فحقكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم، والكف عن فيئكم؛ فإذا فعل معكم ذلك، وجبت عليكم طاعته فيما وافق الحق، ونصرته والدفع عن سلطان الله، فإنكم وزعة الله في الأرض، فكونوا له أعواناً، ولدينه أنصاراً، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، إن الله لا يحب المفسدين.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثنا سعد بن طريف، عن الأصبع بن نباتة، قال: قال علي عليه السلام: ما يقول الناس في هذا القبر بالنخيلة؟ - وبالنخيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله - فقال الحسن بن علي عليه السلام: يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه، جاء فمات ها هنا، فقال: كذبوا، لأننا أعلم به منهم، هذا قبر يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، بكر يعقوب، ثم قال: أما هنا أحد من مهرة؟ فأتي بشيخ كبير، فقال: أين متلك؟ قال: على شاطئ البحر، قال: أين أنت من الجبل؟ قال: أنا قريب منه، قال: فما يقول قومك فيه؟ قال: يقولون إن فيه قبر ساحر، قال: كذبوا، ذاك قبر هود النبي عليه السلام، وهذا قبر يهودا بن يعقوب. ثم قال عليه السلام: يحشر من ظهر الكوفة سبعون ألفاً على غرة الشمس، يدخلون الجنة بغير حساب.

قال نصر: فلما نزل علي عليه السلام النخيلة متوجهاً إلى الشام، وبلغ معاوية خبره، وهو يومئذ بدمشق، قد ألبس منبر دمشق قميص عثمان محتضباً بالدم، وحول المنبر سبعون ألف شيخ يكون حوله، لا تحف دموعهم على عثمان، خطبهم، وقال: يا أهل الشام، قد كنتم تكذبوني في علي، وقد استبان لكم أمره، والله ما قتل خليفتم غيري. وهو أمر بقتله، وألب الناس عليه، وآوى قتلته، وهم جنده وأنصاره وأعوانه، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم. يا أهل الشام، الله في دم عثمان، فأنا وليه وأحق من طلب بدمه؛ وقد جعل الله لولي المقتول ظمناً سلطاناً، فانصروا خليفتم المظلوم، فقد صنع القوم به ما تعلمون، قتلوه ظمناً وبغياً؛ وقد أمر الله بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، ثم نزل. قال نصر: فأعطوه الطاعة وانقادوا له، وجمع إليه أطرافه، واستعد للقاء علي عليه السلام.

ومن كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة

الأصل: كأني بك يا كوفة تمددين مد الأديم العكاظي؛ تعركين بالنوازل، وتركبين بالزلازل، وإني لأعلم أنه ما أراد بك جبار سوءاً إلا ابتلاه الله بشاغلٍ أو رماه بقاتلٍ.

الشرح: عكاظ: اسم سوق للعرب بناحية مكة، كانوا يجتمعون بها في كل سنة، يقيمون شهراً ويتبايعون ويتناشدون شعراً ويتفاخرون، قال أبو ذؤيب:

إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واحتتم الألوفا

فلما جاء الإسلام هدم ذلك، وأكثر ما كان يباع الأديم بها، فنسب إليها. والأديم واحد والجمع أدم، كما قالوا: أفيق للجلد الذي لم تتم دباغته، وجمعه أفق. وقد يجمع أديم على آدمة، كما قالوا: رغيف وأرغفة. والزلازل ها هنا: الأمور المزعجة، والخطوب المحركة. وقوله عليه السلام: تمدن مد الأديم، استعارة لما ينالها من العسف والخبط. وقوله: تعركين؛ من عركت القوم الحرب إذا مارسهم حتى أتعبتهم.

الكوفة في نظر علي عليه السلام

وجعفر بن محمد عليه السلام:

وقد جاء في فضل الكوفة عن أهل البيت عليهم السلام شيء كثير، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام: نعمت المدرة. وقوله عليه السلام: إنه يحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفاً، وجوههم على صورة القمر. وقوله عليه السلام: هذه مدينتنا ومحلتنا، ومقر شيعتنا. وقول جعفر بن محمد عليه السلام: اللهم ارم من رماها، وعاد من عادها. وقوله عليه السلام: تربة تحبنا ونحبها. فأما ما هم به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء، ودفاع الله تعالى عنها؛ فكثير. قال المنصور لجعفر بن محمد عليه السلام: إن قد هممت أن أبعث إلى الكوفة من ينقض منازلها، ويحمر نخلها، ويستصفي أموالها، ويقتل أهل الريه منها؛ فأشر علي. فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن المرء ليقتردي بسلفه، ولك أسلاف ثلاثة: سليمان أعطي فشكر، وأيوب ابتلي فصبر، ويوسف قدر فغفر، فاقتد بأيهم شئت. فصمت قليلاً، ثم قال: قد غفرت. وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في كتاب المنتظم أن زياداً لما حصبه أهل الكوفة، وهو يخطب على المنبر، قطع أيدي ثمانين منهم، وهم أن يخرب دورهم، ويحمر نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة، يعرضهم على البراءة من علي عليه السلام؛ وعلم أنهم سيمتنعون، فيحتج بذلك على استئصالهم، وإخراجه بلدهم. قال عبد الرحمن بن السائب النصارى: فلاني لمع نفر من قومي، والناس يومئذ في أمر عظيم، إذ هومت قهوبمة، فرأيت شيئاً أقبل، طويل العنق، مثل عنق البعير أهدر أهدل، فقلت: ما أنت؟ فقال: أنا النقاد ذو الرقبة، بعثت إلى صاحب هذا القصر، فاستيقظت فرعاً، فقلت لأصحابي: هل رأيتم ما رأيتم؟ قالوا: لا؛ فأخبرتهم، وخرج علينا خارج القصر، فقال: انصرفوا؛ فإن الأمير يقول لكم: إني عنكم اليوم مشغول، وإذا بالطاعون قد ضربه، فكان يقول: إني لأجد في النصف من جسدي حر النار حتى مات، فقال عبد الرحمن بن السائب:

ما كان منتهياً عما أراد بنا

حتى تناوله النقاد ذو الرقبة

فأثبت الشق منه ضربة عظمت

كما تناول ظلاماً صاحب الرحبة

قلت: قد يظن ظان أن قوله: صاحب الرحبة، يمكن أن يحتج به من قال: إن قبر أمير المؤمنين عليه السلام في رحبة المسجد بالكوفة؛ ولا حجة في ذلك، لأن أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه في رحبة المسجد، يحكم بين الناس، فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار.

ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام

الأصل: الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق، والحمد لله غير مفقود الإنعام، ولا مكافأ الإفضال. أما بعد، فقد بعثت مقدمتي، وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط حتى يأتيهم أمري، وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة إلى شردمة منكم، موطنين أكناف دجلة، فأهضهم معكم إلى عدوكم، وأجعلهم من أمداد القوة لكم. قال الرضي رحمه الله: يعني عليه السلام بالملطاط ها هنا السمت الذي أمرهم بلزومه، وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك أيضاً لشاطئ البحر، وأصله ما استوى من الأرض، ويعني بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها. الشرح: وقب الليل؛ أي دخل، قال الله تعالى: "ومن شر غاسقٍ إذا وقب" وغسق، أي أظلم. وخفق النجم أي غاب. ومقدمة الجيش، بكسر الدال: أوله؛ وما يتقدم منه على جمهور العسكر؛ ومقدمة الإنسان، بفتح الدال: صدره. والملطاط: حافة الوادي وشفيره، وساحل البحر، قال رؤية:

نحن جمعنا الناس بالملطاط

قال الأصمعي: يعني به ساحل البحر، وقول ابن مسعود: هذا الملطاط طريق بقية المؤمنين، هراباً من الدجال - يعني به شاطئ الفرات.

فأما قول الرضي رحمه الله تعالى: الملطاط: السمت الذي أمرهم بلزومه وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك لشاطئ البحر، فلا معنى له؛ لأنه لا فرق بين شاطئ الفرات وشاطئ البحر، وكلاهما أمر واحد، وكان الواجب أن يقول: الملطاط: السمت في الأرض، ويقال أيضاً لشاطئ البحر.

والشردمة: نفر قليلون، وموطنين أكناف دجلة، أي قد جعلوا أكنافها وطناً، وأوطنت البقعة.

والأكناف: الجوانب، واحدها كنف. والأمداد: جمع مدد، وهو ما يمد به الجيش تقوية له.

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة ومتوجهاً إلى صفين لخمس بقين من

شوال سنة سبع وثلاثين، ذكرها جماعة من أصحاب السير، وزادوا فيها: وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو

الأنصاري، ولم آلكم ولا نفسي؛ فإياكم والتخلف والتربص، فإني قد خلفت مالك بن حبيب البربوعي، وأمرته ألا يترك متخلفاً إلا ألحقه بكم عاجلاً، إن شاء الله.

وروى نصر بن مزاحم عوض قوله: فأهضهم معكم إلى عدوكم، فأهضهم معكم إلى عدو الله. قال نصر: فقام إليه معقل بن قيس الرياحي، فقال: يا أمير المؤمنين؛ والله ما يتخلف عنك إلا ظنين، ولا يترصد بك إلا منافق، فمر مالك بن حبيب فليضرب أعناق المتخلفين. فقال: قد أمرته بأمرى، وليس بمقصر إن شاء الله.

في الطريق إلى صفين

قال نصر بن مزاحم: ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بهرسير؛ وإذا رجل من أصحابه يقال له حر بن سهم بن طريف، من بني ربيعة بن مالك، ينظر إلى آثار كسرى؛ ويتمثل بقول الأسود بن يعفر:

فكأنما كانوا على ميعاد

جرت الرياح على محل ديارهم

فقال له عليه السلام: ألا قلت: "كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها أقواماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين"؛ إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا مورثين، ولم يشكروا النعمة، فسلبوا دنياهم بالمعصية. إياكم وكفر النعم، لا تحل بكم النقم، انزلوا بهذه الفجوة.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن مسلم الأعور عن حبة العربي، قال: أمر علي عليه السلام الحارث الأعور، فصاح في أهل المدائن: من كان من المقاتلة فليواف أمير المؤمنين عليه السلام صلاة العصر. فوافوه في تلك الساعة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني قد تعجبت من تخلفكم عن دعوتكم، وانقطاعكم عن أهل مصركم في هذه المساكن الظالم أهلها، الهالك أكثر ساكنيها، لا معروف يأمرهم به، ولا منكر ينهون عنه.

قالوا: يا أمير المؤمنين إنا ننتظر أمرك، مرنا بما أحببت. فسار وخلف عليهم عدي بن حاتم، فأقام عليهم ثلاثاً ثم خرج في ثمانمائة رجل منهم، وخلف ابنه زيداً بعده، فلحقه في أربعمائة رجل منهم. وجاء علي عليه السلام حتى مر بالأنبار، فاستقبله بنو خشنوشك؛ دهاقينها.

- قال نصر: الكلمة فارسية، أصلها خش أي الطيب - قال: فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاؤوا يشتدون معه، وبين يديه ومعهم براذين قد أوقفوها في طريقه، فقال: ما هذه الدواب التي معكم؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم؟ قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء، وأما هذه البراذين فهديّة لك، وقد صنعنا للمسلمين طعاماً، وهياًنا لدوابكم علفاً كثيراً.

فقال عليه السلام: أما هذا الذي زعمتم أنه فيكم خلق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك المراء، وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه؛ فإن أحببت أن آخذها منكم، واحسبها لكم من خراجكم آخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتم لنا؛ فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بثمن. قالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه، قال: إذا لا تقومونه قيمته، نحن نكتفي بما هو دونه. قالوا: يا أمير المؤمنين؛ فإن لنا من العرب موالٍ ومعارف، أئمننا أن نهدى لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا؟ فقال: كل العرب لكم موالٍ، وليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم، وإن غصبكم أحد فأعلمونا. قالوا: يا أمير المؤمنين، إنا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا. قال: ويحكم! فنحن أغنى منكم. وتركهم وسار.

قال نصر: وحدثنا عبد العزيز بن سياه، قال: حدثنا حبيب بن أبي ثابت، قال: حدثنا أبو سعيد التيمي المعروف بعقيصى، قال: كنا مع علي عليه السلام في مسيره إلى الشام، حتى إذا كنا بظهر الكوفة من جانب هذا السواد، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا علي عليه السلام حتى أتى بنا إلى صخرة ضرس في الأرض، كأنها ربضة عتر، فأمرنا فاقتلعناها فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه، وارتووا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلاً، قال عليه السلام: أمنكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فانطلقوا إليه، فانطلق منا رجال ركباناً ومشاة، فاقتصصنا الطريق إليه، حتى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شيء، حتى إذا عيل علينا انطلقنا إلى دير قريب منا، فسألناهم: أين هذا الماء الذي عندكم؟ قالوا: ليس قربنا ماء، فقلنا: بلى إنا شربنا منه، قالوا: أنتم شربتم منه! قلنا نعم: فقال صاحب الدير: والله ما بني هذا الدير إلا بذلك الماء، وما استخرجه إلا نبي أو وصي نبي.

قال نصر: ثم مضى عليه السلام، حتى نزل بأرض الجزيرة، فاستقبله بنو تغلب والنمر بن قاسط بجزور، فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبي: يا يزيد، قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: هؤلاء قومك، من طعامهم فاطعم، ومن شراهم فاشرب.

قال: ثم سار حتى أتى الرقة - وجل أهلها عثمانية، فروا من الكوفة إلى معاوية - فأغلقوا أبوابها دونه، وتحصنوا، وكان أميرهم سماك بن مخرقعة الأسدي في طاعة معاوية، وقد كان فارق علياً عليه السلام في نحو مائة رجل من بني أسد، ثم كاتب معاوية، وأقام بالرقة حتى لحق به سبعمائة رجل.

قال نصر: فروى حبة أن علياً عليه السلام لما نزل على الرقة، نزل بموضع يقال له البليخ على جانب الفرات، فزل راهب هناك من صومعته، فقال لعلي عليه السلام: إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحاب عيسى بن مريم، أعرضه عليك؟ قال: نعم، فقرأ الراهب الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. الذي قضى فيما قضى، وسطر فيما كتب: أنه باعث في الأميين رسولاً منهم؛ يعلمهم الكتاب والحكمة، ويدلهم على سبيل الله، لا فظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل نشز، وفي كل صعود وهبوط، تذلل ألسنتهم بالتكبير والتهليل، والتسبيح؛ وينصره الله على من ناوأه؛ فإذا توفاه الله، اختلفت أمته من بعده، ثم اجتمعت، فلبثت ما شاء الله، ثم اختلفت، فيمر رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقضي بالحق ولا يركس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرماد في يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمان. يخاف الله في السر، وينصح له في العلانية، لا يخاف في الله لومة لائم، فمن أدرك ذلك النبي من أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره؛ فإن القتل معه شهادة.

ثم قال له: أنا مصاحبك، فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك. فبكى عليه السلام، ثم قال: الحمد لله الذي لم أكن عنده منسياً، الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار.

فمضى الراهب معه، فكان فيما ذكروا يتغدى مع أمير المؤمنين ويتعشى، حتى أصيب يوم صفين، فلما خرج الناس

يدفنون قتلاهم قال عليه السلام: اطلبوه، فلما وجدوه صلى عليه ودفنه. وقال: هذا منا أهل البيت، واستغفروا له مراراً، روى هذا الخبر نصر بن مزاحم في كتاب صفين عن عمر بن سعد، عن مسلم الأعور، عن حبة العري، ورواه أيضاً إبراهيم بن ديزيل الهمداني، بهذا الإسناد عن حبة أيضاً في كتاب صفين.

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب، قال: حدثني يحيى بن سليمان. قال حدثني يحيى بن عبد الملك بن حميد بن عتبة، عن أبيه، عن إسماعيل بن رجاء، عن أبيه ومحمد بن فضيل، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن أبي سعيد الخدري، رحمه الله قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانقطع شسع نعله، فألقاها إلى علي عليه السلام يصلحها؛ ثم قال: "إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله"، فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: "لا، ولكنه ذاكم خاصف النعل" - ويد علي عليه السلام على نعل النبي صلى الله عليه وسلم يصلحها.

قال أبو سعيد: فأتيت علياً عليه السلام فبشرته بذلك فلم يحفل به، كأنه شيء قد كان علمه من قبل.

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب أيضاً، عن يحيى بن سليمان، عن ابن فضيل، عن إبراهيم الهجري، عن أبي صادق، قال: قدم علينا أبو أيوب الأنصاري العراق، فأهدت له الزد جزراً، فبعثوها معي، فدهلت إليه فسلمت عليه، وقلت له: يا أبا أيوب، قد كرمك الله عز وجل بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونزوله عليك، فما لي أراك تستقبل الناس بسيفك، تقاتلهم هؤلاء مرة وهؤلاء مرة؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلينا أن نقاتل مع علي الناكثين، فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين؛ فهذا وجهنا إليهم - يعني معاوية وأصحابه - وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين، ولم أرهم بعد.

وروى ابن ديزيل أيضاً في هذا الكتاب، عن يحيى، عن يعلى بن عبيد الحنفي، عن إسماعيل السدي، عن زيد بن أرقم، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الحجرة يوحى إليه ونحن ننتظره حتى اشتد الحر، فجاء علي بن أبي طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهم السلام، فقعدها في ظل حائط ينتظرونه، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأهم فأتاهم ووقفنا نحن مكاننا، ثم جاء إلينا وهو يظلمهم بثوبه، ممسكاً بطرف الثوب، وعلي ممسكاً بطرفه الآخر؛ وهو يقول: "اللهم إني أحبهم، فأحبهم؛ اللهم إني سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم" قال: فقال ذلك ثلاث مرات.

قال إبراهيم في الكتاب المذكور: وحدثنا يحيى بن سليمان، قال: حدثنا ابن فضيل، فقال: حدثنا الحسن بن الحكم

النخعي، عن رباح بن الحارث النخعي، قال: كنت جالساً عند علي عليه السلام، إذ قدم عليه قوم متلثمون، فقالوا:

السلام عليك يا مولانا، فقال لهم: أولستم قوماً عرباً؟ قالوا: بلى، ولكننا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله"، قال: فلقد رأيت علياً عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: اشهدوا.

ثم إن القوم مضوا إلى رحالهم فبعتهم، فقلت لرجل منهم: من القوم؟ قالوا: نحن رهط من الأنصار، وذاك - يعنون رجلاً منهم - أبو أيوب، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأتيته فصافحته.

قال نصر: وحدثني عمر بن سعد، عن نعيم بن وعلة، عن أبي الوداك، أن علياً عليه السلام بعث من المدائن معقل بن قيس

الرياحي، في ثلاثة آلاف، وقال له: خذ على الموصل، ثم نصيبين، ثم القني بالركة، فإني موافيهما. وسكن الناس وأمنهم، ولا تقاتل إلا من قاتلك، وسر البردين، وغور بالناس. أقم الليل، ورفه في السير، ولا تسر أول الليل، فإن الله جعله سكناً، أرح فيه بدنك وجندك وظهرك، فإذا كان السحر، أو حين يتبلج الفجر، فسر.

فسار حتى أتى الحديثة - وهي إذ ذاك منزل الناس، وإنما بنى مدينة الموصل بعد ذلك محمد ابن مروان - فإذا بكبشين ينتطحان، ومع معقل بن قيس رجل من خثعم يقال له شداد بن أبي ربيعة - قتل بعد ذلك مع الحرورية - فأخذ يقول: إيه، إيه! فقال معقل: ما تقول؟ فجاء رجلان نحو الكبشين، فأخذ كل واحد منهما كبشاً وانصرفا، فقال الخثعمي لمعقل: لا تغلبون ولا تغلبون: فقال معقل: من أين علمت؟ قال: أما أبصرت الكبشين، أحدهما مشرق والآخر مغرب، التقيا فاقتتلا وانتطحا، فلم يزل كل واحد من مصاحبه منتصفاً، حتى أتى كل واحد منهما صاحبه فانطلق به! فقال معقل: أو يكون خيراً مما تقول يا أخا خثعم! ثم مضى حتى وافى علياً عليه السلام بالركة.

قال نصر: وقالت طائفة من أصحاب علي عليه السلام له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى معاوية ومن قبله من قومك، فإن الحجة لا ترداد عليهم بذلك إلا عظماً. فكتب إليهم عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قبله من قريش: سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن لله عبداً آمنوا بالتزليل، وعرفوا التأويل، وفقهوا في الدين، وبين الله فضلهم في القرآن الحكيم، وأنتم في ذلك الزمان أعداء للرسول، تكذبون بالكتاب، مجمعون على حرب المسلمين، من ثقتهم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه، حتى أراد الله تعالى إعزاز دينه، وإظهار أمره، فدخلت العرب في الدين أفواجا، وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً، فكنتم فيمن دخل في هذا الدين، إما رغبة وإما رهبة، على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وفاز المهاجرون الأولون بفضلهم. ولا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين، ولا فضائلهم في الإسلام؛ أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولى به، فيجور ويظلم، ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره، ويعدو طوره، ويشقي نفسه بالتماس ما ليس بأهله، فإن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من الرسول، وأعلمها بالكتاب، وأفقهها في الدين، أولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً، وأشدّها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعاً؛ فاتقوا الله الذي إليه ترجعون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. واعلموا أن خيار عباد الله يعملون بما يعلمون، وأن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم، فإن للعالم بعلمه فضلاً، وإن الجاهل لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلاً. ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وحقق دماء هذه الأمة؛ فإن قبلتم أصبتم رشدكم، واهتديتم لحظكم، وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة؛ لم تزدادوا من الله إلا بعداً، ولا يزداد الرب عليكم إلا سخطاً والسلام.

فكتب إليه معاوية جواب هذا الكتاب، سطرًا واحدًا، وهو: أما بعد فإنه:

غير طعن الكلى وضرب الرقاب

ليس بيني وبين قيس عتاب

فقال علي عليه السلام لما أتاه هذا الجواب: " إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ". قال نصر: وقال علي عليه السلام لأهل الرقة: جسروا لي جسراً أعبر عليه من هذا المكان إلى الشام، فأبوا، وقد كانوا ضموا السفن إليهم؛ فنهض من عندهم ليعبر على جسر منبج، وخلف عليهم الأشر، فقال: يا أهل هذا الحصن، إني أقسم بالله إن مضى أمير المؤمنين عليه السلام ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبروا منها؛ لأجردن فيكم السيف، فلاقتلن مقاتلكم، لأخرين أرضكم، ولأخذن أموالكم.

فلقي بعضهم بعضاً، فقالوا: إن الأشر يفي بما حلف عليه، وإنما خلفه علي عندنا ليأتينا بشر، فبعثوا إليه: إنا ناصبون لكم جسراً، فأقبلوا. فأرسل الأشر إلى علي عليه السلام، فجاء، ونصبوا له الجسر، فعبر الأثقال والرجال، وأمر الأشر فوقف في ثلاثة آلاف فارس، حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر، ثم عبر آخر الناس رجلاً.

قال نصر: وازدحمت الخيل حين عبرت، فسقطت قلنسوة عبد الله بن أبي الحصين، فترل فأخذها، وركب، ثم سقطت قلنسوة عبد الله بن الحجاج، فترل فأخذها، ثم ركب فقال لصاحبه:

فإن يك ظن الزاجري الطير صادقاً كما زعموا، أقتل وشيكاً وتقتل

فقال عبد الله بن أبي الحصين: ما شيء أحب إلي مما ذكرت، فقتلا معاً يوم صفين.

قال نصر: فلما قطع علي عليه السلام الفرات، دعا زياد بن النضر وشريح بن هانئ فسرحهما أمامه نحو معاوية، على حالهما الذي كانا عليه حين خرجا من الكوفة، في اثني عشر ألفاً، وقد كانا حيث سرحهما من الكوفة مقدمة له أخذاً على شاطئ الفرات من قبل البر، مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات، فبلغهم أخذ علي عليه السلام طريق الجزيرة، وعلم أن معاوية قد أقبل في جنود الشام من دمشق لاستقباله، فقالا: والله ما هذا برأي، أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر، وما لنا خير في أن نلقى جموع الشام في قلة من العدد، منقطعين عن المدد. فذهبوا ليعبروا من عانات، فمنعهم أهلها، وحبسوا عنهم السفن، فأقبلوا راجعين حتى عبروا من هيت، ولحقوا علياً عليه السلام بقرية دون قرقيسيا، فلما لحقوا علياً عليه السلام عجب، وقال: مقدمتي تأتي من ورائي! فقام له زياد وشريح، وأخبراه بالرأي الذي رأيا. فقال: قد أصبتما رشدكما. فلما عبروا الفرات قدمهما أمامه نحو معاوية، فلما انتهيا إلى معاوية، لقيهما أبو الأعور السلمي في جنود من أهل الشام، وهو على مقدمة معاوية، فدعواه إلى الدخول في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى، فبعثوا إلى علي عليه السلام: إنا قد لقينا أبا الأعور السلمي بسور الروم في جند من أهل الشام، فدعونا وأصحابه إلى الدخول في طاعتك، فأبى علينا، فمرنا بأمرك.

فأرسل علي عليه السلام إلى الأشر، فقال: يا مال، إن زياداً وشريحاً أرسلنا إلي يعلماني أنهما لقياً أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم، ونبأني الرسول أنه تركهم متواقفين، فالتجاء النجاء إلى أصحابك، فإذا أتيتهم فأنت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدؤوك، والقهم واسمع منهم، ولا يجزمنك شنائهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمتك زياداً، وعلى مسيرتك شريحاً، وقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن

منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تتباعد عنهم تباعد من يهاب الناس؛ حتى أقدم عليك؛ فإني حثيث السير إليك إن شاء الله.

قال: وكتب علي عليه السلام إليهما - وكان الرسول الحارث بن جهمان الجعفي -: أما بعد، فإني قد أمرت عليكما مالكا، فاسمعا له وأطيعا أمره، وهو ممن لا يخاف رهنه ولا سقاطه، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل؛ وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما، ألا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم ويدعوهم، ويعذر إليهم إن شاء الله.

قال: فخرج الأشر حتى قدم على القوم، فاتبع ما أمره به علي عليه السلام، وكف عن القتال، فلما يزالوا متواقفين؛ حتى إذا كان عند المساء، حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له واضطربوا ساعة. ثم إن أهل الشام انصرفوا، ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عدتها وعددها، فخرج إليهم أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، وصبر بعضهم لبعض، ثم انصرفوا. وبكر عليهم الأشر، فقتل من أهل الشام عبد الله بن المنذر التنوخي، قتله ظبيان بن عمارة التميمي، وما هو يومئذ إلا فتى حديث السن. وإن كان الشامي لفارس أهل الشام، وأخذ الأشر يقول: ويحكم أروني أبا الأعور! ثم إن أبا الأعور دعا الناس، فرجعوا نحوه فوقف على تل من وراء المكان الذي كان فيه أول مرة، وجاء الأشر حتى صف أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور أول مرة، فقال الأشر لسنان بن مالك النخعي: انطلق إلى أبي الأعور، فادعه إلى المبارزة، فقال: إلى مبارزتي أم إلى مبارزتك؟ فقال: أولو أمرتك بمبارزته فعلت؟ قال: نعم، والذي لا إله إلا هو، لو أمرتني أن أعترض صفهم بسيفي لفعلت حتى أضربه بالسيف. فقال: يابن أخي، أطل الله بقاءك! قد والله ازددت فيك رغبة، لا ما أمرتك بمبارزته، إنما أمرتك أن تدعوه لمبارزتي، فإنه لا يبارز - إن كان ذلك من شأنه - إلا ذوي الأسنان والكفاءة والشرف، وأنت بمحمد الله من أهل الكفاءة والشرف؛ ولكنك حديث السن، وليس يبارز الأحداث؛ فاذهب فادعه إلى مبارزتي.

فأتاهم فقال: أنا رسول فأموني، فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور.

قال نصر: فحدثني عمر بن سعيد، عن أبي زهير العبسي، عن صالح بن سنان، عن أبيه، قال: فقلت له: إن الأشر يدعوك إلى المبارزة، قال: فسكت عني طويلاً، ثم قال: إن خفة الأشر وسوء رأيه وهوانه؛ دعاه إلى إجلاء عمال عثمان، وافترائه عليه، يقبح محاسنه، ويجهل حقه، ويظهر عداوته. ومن خفة الأشر وسوء رأيه أنه سار إلى عثمان في داره وقراره، فقتله فيمن قتله، وأصبح متبعاً بدمه، لا حاجة لي في مبارزته.

فقلت: إنك قد تكلمت فاسمع حتى أحبيك، فقال: لا حاجة لي في جوابك ولا الاستماع منك. اذهب عني، وصاح بي أصحابه فانصرف عنه، ولو سمع لأسمعته عذر صاحبي وحجته. فرجعت إلى الأشر، فأخبرته أنه قد أبي المبارزة، فقال: لنفسه نظر.

قال: فتوافقنا، فإذا هم قد انصرفوا. قال: وصبحنا علي عليه السلام غدوة سائراً نحو معاوية، فإذا أبو الأعور قد سبق إلى سهولة الأرض وسعة المنزل، وشريرة الماء، مكان أفيح؛ وكان أبو الأعور على مقدمة معاوية، واسمه سفيان بن عمرو، وقد جعل على ساقته بسر بن أرطاة العامري، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن

خالد ابن الوليد، وجعل على ميمته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى رجالته من الميمنة يزيد بن زحر الضبي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى وعلى الرجالة من الميسرة حابس بن سعيد الطائي، وعلى خيل دمشق الضحاك بن قيس الفهري، وعلى رجالة أهل دمشق يزيد بن أسد بن كرز البجلي، وعلى أهل حمص ذا الكلاع، وعلى أهل فلسطين مسلمة ابن مخلد، وكان وصول علي عليه السلام إلى صفين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين.

في تمجيد الله تعالى وتحميده

الأصل: الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور، ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصير؛ فلا عين من لم يره تنكره؛ ولا قلب من أثبتته يبصره.

سيق في العلو فلا شيء أعلى منه؛ وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه؛ فلا استعلاؤه باعدته عن شيء من خلقه، ولا قرب ساواهم في المكان به.

لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذي الجحود، تعالى الله عما يقوله المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً.

الشرح: بطنت سر فلان، أي أخفيته، والأعلام: جمع علم، وهو المنار يهتدى به، ثم جعل لكل ما دل على شيء؛ فقليل لمعجزات الأنبياء أعلام، لدلالاتها على نبوتهم. وقوله عليه السلام: أعلام الظهور، أي الأدلة الظاهرة الواضحة.

وقوله فيما بعد: أعلام الوجود، أي الأدلة الموجودة، والدلالة هي الوجود نفسه، وسيأتي شرح ذلك.

وقوله: وامتنع على عين البصير، يقول: إنه سبحانه ليس بمبرئي بالعين؛ ومع ذلك فلا يمكن من لم يره بعينه أن ينكره؛ لدلالة كل شيء عليه، بل لدلالته سبحانه على نفسه.

ثم قال: ولا قلب من أثبتته يبصره، أي لا سبيل لمن أثبت وجوده أن يحيط علماً بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته؛ أو أراد أنه لا تعلم حقيقة ذاته؛ كما قاله قوم من المحققين.

وقد روي هذا الكلام على وجه آخر، قالوا في الخطبة: فلا قلب من لم يره ينكره ولا عين من أثبتته تبصره، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه.

وقوله عليه السلام: فلا استعلاؤه باعدته، أي ليس علوه ولا قربه كما نعقله من العلو والقرب المكانيين، بل هو علو وقرب خارج من ذلك، فليس علوه يقتضي بعده بالمكان عن الأجسام، ولا قربه يقتضي مساواته إياها في الحاجة إلى المكان والجهة.

والباء في به متعلقة بساواهم، معناه: ولا قرب ساواهم به في الحاجة إلى المكان؛ أي لم يقتض قربهم ومساواتهم إياهم في ذلك.

مباحث من العلم الإلهي

وهذا الفصل يشتمل على عدة مباحث من العلم الإلهي:

أولها: كونه تعالى عالماً بالأموور الخفية، والثاني: كونه تعالى مدلولاً عليه بالأموور الظاهرة، يعني أفعاله، والثالث: أن هويته تعالى غير معلومة للبشر، الرابع: نفي تشبيهه بشيء من مخلوقاته، الخامس: بيان أن الجاحد لإثباته مكابر بلسانه، وعارف به بقلبه.

ونحن نذكر القول في جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال، ونحيل في البرهان على الحق من ذلك وبطلان شبه المخالفين فيه على ما هو مذكور في كتبنا الكلامية، إذ ليس هذا الكتاب موضوعاً لذلك، وإن كنا قد لا نخلي بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجزة، وتلويح إلى الشبهة لطيف؛ فنقول: الفصل الأول الكلام في كونه تعالى عالماً بالأموور الخفية اعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام، إنما قال: بطن خفيات الأمور، وهذا القدر من الكلام يقتضي كونه تعالى عالماً، يعلم الأمور الخفية الباطنة؛ وهذا منقسم قسمين: أحدهما: أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة، والثاني: أن يعلم الأمور الخفية المستقبلية.

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين، فنحمله عليهما معاً، فقد خالف في كل واحدة من المسألتين قوم؛ فمن الناس من نفى كونه عالماً بالمستقبلات، ومن الناس من نفى كونه عالماً بالأموور الحاضرة، سواء كانت خفية أو ظاهرة، وهذا يقتضينا أن نشرح أقوال العقلاء في هذه المسائل، فنقول: إن الناس فيها على أقوال: القول الأول: قول جمهور المتكلمين، وهو أن الباري سبحانه يعلم كل معلوم: الماضي والحاضر والمستقبل، ظاهرها وباطنها، ومحسوسها وغير محسوسها، فهو تعالى العالم بما كان وما هو حاضر، وما سيكون وما لم يكن، أن لو كان كيف كان يكون، كقوله تعالى: "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه"، فهذا علم بأمرٍ مقدر على تقدير وقوع أصله الذي قد علم أنه لا يكون. القول: قول من زعم أنه تعالى لا يعلم الأمور المستقبلية، وشبهوه بكونه مدركاً، قالوا: كما أنه لا يدرك المستقبلات، فكذلك لا يعلم المستقبلات. وهو قول هشام بن الحكم.

القول الثالث: قول من زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة؛ وهذا القول نقيض القول الثاني، وشبهوه بكونه قادراً، قالوا: كما إنه لا يقدر على الموجود، فكذلك لا يعلم الموجود، ونسب ابن الراوندي هذا القول إلى معمر بن عباد، أحد شيوخنا، وأصحابنا يكذبونه في ذلك، ويدفعون الحكاية عنه.

القول الرابع: قول من زعم أنه تعالى لا يعلم نفسه خاصة، ويعلم كل ما عدا ذاته، ونسب ابن الراوندي هذه المقالة إلى معمر أيضاً، وقال: إنه يقول: إن العالم غير المعلوم، والشيء لا يكون غير نفسه، وأصحابنا يكذبون ابن الراوندي في هذه الحكاية، ويتزهون بمعمر عنها.

القول الخامس: قول من قال إنه تعالى لم يكن فيما لم يزل عالماً بشيء أصلاً، وإنما أحدث لنفسه علماً به الأشياء، وهو قول جهم بن صفوان.

القول السادس: قول من قال إنه تعالى لا يعلم كل المعلومات على تفصيلها؛ وإنما يعلم ذلك إجمالاً وهؤلاء يسمون المسترسلية؛ لأنهم يقولون: يسترسل علمه على المعلومات إجمالاً ولا تفصيلاً، وهو مذهب الجويني من متكلمي الأشعرية. القول السابع: قول من قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة ما لم يفيض القول به إلى محال؛ وزعموا أن القول بأنه يعلم

كل شيء يفضي إلى محال، وهو أن يعلم ويعلم أنه يعلم، وهلم جرّاً إلى ما لا نهاية له، وكذلك الحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع، وفروع الفروع ولوازمها ولوازم لوازمها إلى ما لا نهاية له. قالوا: ومحال اجتماع كل هذه العلوم غير المتناهية في الوجود، وهذا مذهب أبي البركات البغدادي صاحب المعبر.

القول الثامن: قول من زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيات الجزئية، وإنما يعلم الكليات التي لا يجوز عليها التغير؛ كالعلم بأن كل إنسان حيوان، ويعلم نفسه أيضاً؛ وهذا مذهب أرسطو وناصرى قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره. القول التاسع: قول من زعم أنه تعالى لا يعلم شيئاً أصلاً، لا كلياً ولا جزئياً؛ وإنما وجد العالم عنه لخصوصية ذاته فقط من غير أن يعلمه؛ كما أن المغناطيس يجذب الحديد لقوة فيه من غير أن يعلم بالجذب، وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة، فهذا تفصيل المذاهب في هذه المسألة.

واعلم أن حجة المتكلمين على كونه عالماً بكل شيء؛ إنما تتضح بعد إثبات حدوث العالم، وأنه فعله بالاختيار؛ فحينئذ لا بد من كونه عالماً؛ لأنه لو لم يكن عالماً بشيء أصلاً لما صح أن يحدث العالم على طريق الاختيار، إنما يكون بالعرض والداعي، وذلك يقتضي كونه عالماً، فإذا ثبت أنه عالم بشيء أفسدوا حينئذ أن يكون عالماً بمعنى اقتضى له العالمية، أو بأمر خارج عن ذاته، مختاراً كان أو غير مختار.

فحينئذ ثبت لهم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لا لشيء أزيد منها، فإذا كان لهم ذلك وجب أن يكون عالماً بكل معلوم؛ لأن الأمر الذي أوجب كونه عالماً بأمر ما؛ هو ذاته يوجب كونه عالماً بغيره من الأمور؛ لأن نسبة ذاته إلى الكل نسبة واحدة.

فأما الجواب عن شبه المخالفين فمذكور في المواضع المختصة بذلك، فليطلب من كتبنا الكلامية.

الفصل الثاني في قوله ودلت عليه أعلام الظهور فنقول: إن الذي يستدل به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين، وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور، أحدهما الوجود والثاني الموجود.

أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهي طريقة المدققين من الفلاسفة؛ فإنهم استدلوا على أن مسمى الوجود مشترك، وأنه زائد على ماهيات الممكنات، وأن وجود الباري لا يصح أن يكون زائداً على ماهيته، فتكون ماهيته وجوداً؛ ولا يجوز أن تكون ماهيته عارية عن الوجود؛ فلم يبق إلا أن تكون ماهيته هي الوجود نفسه، وأثبتوا وجوب ذلك الوجود، واستحالة تطرق العدم إليه بوجه ما، فلم يفتقروا في إثبات الباري إلى تأمل أمر غير نفس الوجود.

وأما الاستدلال عليه بالموجود لا بالوجود نفسه؛ فهو الاستدلال عليه بأفعاله، وهي طريقة المتكلمين. قالوا: كل ما لم يعلم بالبديهة ولا بالحس؛ فإنما يعلم بآثاره الصادرة عنه؛ والبارئ تعالى كذلك؛ فالطريق إليه ليس إلا أفعاله؛ فاستدلوا عليه بالعالم، وقالوا تارة: العالم محدث وكل محدث له محدث. وقالوا تارة أخرى: العالم ممكن، فله مؤثر.

وقال ابن سينا: إن الطريقة الأولى وهي الاستدلال عليه بالوجود نفسه أعلى وأشرف، لأنه لم يحتج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته، واستنبط آية من الكتاب العزيز في هذا المعنى؛ وهي قوله تعالى: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق".

قال ابن سينا: أقول: إن هذا حكم لقوم - يعني المتكلمين وغيرهم؛ ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله؛ وتغام الآية: " أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " .

قال: هذا حكم الصديقين الذين يستشهدون به لا عليه؛ يعني الذين استدلوا عليه بنفس الوجود، ولم يفتقروا إلى التعلق بأفعاله في إثبات ربوبيته.

الفصل الثالث في أن هويته تعالى غير هوية البشر وذلك معنى قوله عليه السلام: وامتنع على عين البصير، وقوله: ولا قلب من أثبتته يبصره، وقوله: ولم يطلع العقول على تحديد صفته؛ فنقول: إن جمهور المتكلمين زعموا أنا نعرف حقيقة ذات الإله، ولم يتحاشوا من القول بأنه تعالى لا يعلم من ذاته إلا ما نعلمه نحن منها.

وذهب ضرار بن عمرو أن الله تعالى ماهية لا يعلمها إلا هو، وهذا هو مذهب الفلاسفة. وقد حكي عن أبي حنيفة وأصحابه أيضاً؛ وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل.

الفصل الرابع في نفي التشبيه عنه تعالى وهو معنى قوله عليه السلام: بعد وقرب، أي في حال واحدة، وذلك يقتضي نفي كونه تعالى جسماً. وكذلك قوله عليه السلام: فلا استعلاؤه باعدده، ولا قربه ساواهم في المكان به، فنقول: إن مذهب جمهور المتكلمين نفي التشبيه، وهذا القول يتنوع أنواعاً.

النوع الأول: نفي كونه تعالى جسماً مركباً، أو جوهرًا فرداً غير مركب، والمراد بالجواهر ههنا الجرم والحجم. وهو قول المعتزلة، وأكثر محققي المتكلمين من سائر الفرق، وإليه ذهب الفلاسفة أيضاً.

وقال قوم من مستضعفي المتكلمين خلاف ذلك، فذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى جسم مركب كهذه الجسام، واختلفت الحكاية عنه، فروي عنه أن قال: إنه يشبر نفسه سبعة أشبار. وروي عنه أنه قال: إنه على هيئة السبيكة. وروي عنه أنه قال: إنه على هيئة البلورة الصافية المستوية الاستدارة من حيث أتيتها على هيئة واحدة، وروي عنه أيضاً قال: إنه ذو صورة. وأصحابه من الشيعة يدفعون اليوم هذه الحكايات عنه، ويزعمون أنه لم يزد على قوله: إنه جسم لا كالأجسام، وإنه أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته.

وصدقوا عنه أنه كان يطلق عليه كونه نوراً، لقول الله سبحانه: " الله نور السماوات والأرض مثل نوره " .

وحكي عن محمد بن النعمان الأول، المعروف بشيطان الطاق، وهشام بن سالم المعروف بالجواليقي، وأبي مالك بن الحضرمي، أنه نور على صورة الإنسان، وأنكروا مع ذلك أن يكون جسماً، وهذه مناقضة ظاهرة.

وحكي عن علي بن ميثم مثله. وقد حكي عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم.

وحكي عن مقاتل بن سليمان، وداود الجواربي، ونعيم بن حماد المصري، أنه في صورة الإنسان، وأنه لحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان وعينين، وهو مع ذلك لا يشبه غيره، ولا يشبهه غيره، وافقهم على ذلك جماعة من العامة ومن لا نظر له.

وحكي عن داود الجواربي أنه قال: اعفوني من الفرج واللحية وسلوبي عما وراء ذلك. وحكي عنه أنه قال: هو أجوف من فيه إلى صدره، وما سوى ذلك مصمت.

وحكى أبو عيسى الوراق أن هشام بن سالم الجواليقي كان يقول: إن له وفرة سوداء.

وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالمؤانسة والخلوة والمجالسة والمحادثة.

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى: " في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ " ، فقال يقعد معه على سريره ويغلفه بيده.

وقال بعضهم: سألت معاذاً العنبري، فقلت: أله وجه؟ فقال: نعم؛ حتى عدت جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر

وبطن؛ واستحييت أن أذكر الفرج؛ فأومأت بيدي إلى فرجي، فقال: نعم، فقلت أذكر أم أنثى؟ فقال: ذكر.

ويقال: إن ابن خزيمة أشكل عليه القول في أنه: أذكر أم أنثى، فقال له بعض أصحابه: إن هذا مذكور في القرآن؛ وهو

قوله تعالى: " وليس الذكر كالأنثى " ، فقال: أفدت وأجدت، وأودعه كتابه.

ودخل إنسان على معاذ يوم عيد، وبين يديه لحم في طبخ سكباج ، فسأله عن البارئ تعالى في جملة ما سأله، فقال: هو

والله مثل هذا الذي بين يدي، لحم ودم.

وشهد بعض المعتزلة عند معاذ؛ فقال له: لقد هممت أن أسقطك، لولا أني سمعتك تلعن حماد ابن سلمة، فقال: أما حماد

فلم ألعه، ولكني ألعن من يقول: إنه سبحانه يتزل ليلة عرفة من السماء إلى الأرض على جمل في هودج من ذهب؛ فإن

كان حماد يروي هذا أو يقوله فعليه لعنة الله. فقال: أخرجوه، فأخرج.

وقال بعضهم: خرجنا يوم عيد إلى المصلى، فإذا جماعة بين يدي أمير، والطبول تضرب والأعلام تخفق فقال واحد من

خلفنا: اللهم لا طبل إلا طبلك! فقيل له: لا تقل هكذا، فليس لله تعالى طبل، فبكى، وقال: رأيتم هو يجيء وحده ولا

يضرب بين يديه طبل، ولا ينضب على رأسه علم، فإذا هو دون الأمير! وروى بعضهم أنه تعالى أجرى خيلاً، فخلق

نفسه من مثلها.

وروى قوم منهم أنه نظر في المرأة صورة نفسه، فخلق آدم عليها، ورووا أنه يضحك حتى تبدو نواجذه.

وروا أنه أمرد جعد قطط ، في رجليه نعلان من ذهب، وأنه في روضة خضراء على كرسي تحمله الملائكة.

وروا أنه يضع رجلاً على رجل، ويستلقي فيهما جلسة الرب.

وروا أنه خلق الملائكة من زغب ذراعيه، وأنه اشتكى عينه فعادته الملائكة، وأنه يتصور بصورة آدم، ويحاسب الناس في

القيامة؛ وله حجاب من الملائكة يحجبونه.

وروا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " رأيت ربي في أحسن صورة، فسألته عما يختلف فيه الملائكة الأعلى، فوضع

يده بين كتفي، فوجدت بردها، فعلمت ما اختلفوا فيه " .

وروا أنه يتزل إلى السماء في نصف شعبان، وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب، وأنه يأتي

الناس يوم القيامة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، فيقول لهم: أفتعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: بيننا وبينه

علامة، فيكشف لهم عن ساقه، وقد تحول في الصورة التي يعرفونها، فيخرون له سجداً.

وروا أنه يأتي في غمام، فوقه هواء، وتحت هواء.

وكان بطبرستان قاص من المشبهة، يقص على الناس، فقال يوماً في قصصه: إن يوم القيامة تحيي فاطمة بنت محمد، معها

قميص الحسين ابنها تلتمس القصاص من يزيد بن معاوية، فإذا رآها الله تعالى من بعيد، دعا يزيد وهو بين يديه، فقال له: ادخل تحت قوائم العرش، لا تظفر بك فاطمة، فیدخل ویختبئ، وتحضر فاطمة، فتتظلم وتبكي، فيقول سبحانه: انظري يا فاطمة إلى قدمي، ويخرجها إليها، وبه جرح من سهم نمرود، فيقول: هذا جرح نمرود في قدمي، وقد عفوت عنه، أفلا تعفين أنت عن يزيد! فتقول أفلا تعفين عن يزيد! فتقول هي: اشهد يا رب قد عفوت عنه.

وذهب بعض متكلمي الحسمة إلى أن البارئ تعالى مركب من أعضاء على حروف المعجم. وقال بعضهم: إنه يتزل على حمار في صورة غلام أمرد، في رجليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير. وقال بعضهم: إنه في صورة غلام أمرد صبيح الوجه، عليه كساء أسود، ملتحف به.

وسمعت أنا في عصري هذا من قال في قوله تعالى: " وترى الملائكة حافين من حول العرش " : إنهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم، فقال له آخر على سبيل التهكم به: يحرسونه من المعتزلة أن يفتكوا به! فغضب وقال: هذا إلحاد. ورووا أن النار تترفر وتغيظ تغيظاً شديداً، فلا تسكن حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط، أي حسي حسي، ويرفعون هذا الخبر مسنداً. وقد ذكر شبيهه به في الصحاح.

وروي في الكتب الصحاح أيضاً: أن الله خلق آدم على صورته، وقيل: إن في التوراة نحو ذلك في السفر الأول. واعلم أن أهل التوحيد يتأولون ما يحتمل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة غير مستبعدة، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعون ببطلانه، وبأنه موضوع، وللاستقصاء في هذا المعنى موضع غير هذا الموضع.

وحكى أبو إسحاق النظام ومحمد بن عيسى برغوث أن قوماً قالوا: إنه تعالى الفضاء نفسه، وليس بجسم، لأن الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء.

وقال برغوث: وطائفة منهم يقولون: هو الفضاء نفسه، وهو جسم تحل الأشياء فيه، وليس بذئ غاية ولا نهاية؛ واحتجوا بقوله تعالى: " وجاهدوا في الله حق جهاده " .

فأما من قال: إنه جسم لا كالأجسام، على معنى أنه بخلاف العرض الذي يستحيل أن يتوهم منه فعل، ونفوا عنه معنى الجسمية، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنه شيء لا كالأشياء، وذات لا كالدوات، فأمرهم سهل، لأن خلافهم في العبارة وهم: علي بن منصور، والسكاك، ويونس بن عبد الرحمن، والفضل بن شاذان، وكل هؤلاء من قدماء رجال الشيعة. وقد قال بهذا القول ابن كرام وأصحابه؛ قالوا: معنى قولنا فيه سبحانه أنه جسم، إنه قائم بذاته لا بغيره.

والمتعصبون لهشام بن الحكم من الشيعة في وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتجسيم المعنوي؛ وإنما قال أنه جسم لا كالأجسام؛ فالمعنى الذي ذكرناه عن يونس والسكاك وغيرهما، وإنه كان الحسن بن موسى النوبختي - وهو من فضلاء الشيعة - قد روي عنه التجسيم المحض في كتاب الآراء والديانات.

النوع الثاني: نفى الأعضاء والجوارح عنه سبحانه؛ فالذي يذهب إليه المعتزلة وسائر المحققين من المتكلمين نفى ذلك عنه، وقد تأولوا ما ورد في القرآن العزيز من ذلك، من نحو قوله تعالى: " لما خلقت بيدي " ، وقوله سبحانه: " على ما فرطت في جنب الله " وغيره ذلك، وحملوا على وجوه صحيحة جائرة في اللغة العربية.

وأطلقت الكرامية عليه سبحانه لفظ اليمين والوجه، وقالوا: لا نتجاوز الإطلاق، ولا نفسر ذلك ولا نتأوله؛ وإنما تقتصر

على إطلاق ما ورد به النص.

وأثبت الأشعري اليدين صفة قائمة بالبارئ سبحانه؛ وكذلك الوجه من غير تجسيم.

وقالت المجسمة: إن لله تعالى يدين، هما عضوان له، وكذلك الوجه والعين، وأثبتوا له رجلين قد فضلنا عن عرشه، وساقين يكشف عنهما يوم القيامة، وقدماً يضعها في جهنم فتمتلئ، وأثبتوا له ذلك معنى لا لفظاً، وحقيقة لا مجازاً.

فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً، وإنما كان يقول بترك التأويل فقط، ويطلق ما أطلقه الكتاب والسنة، ولا يخوض في تأويله؛ ويقف على قوله تعالى: "وما يعلم تأويله إلا الله"، وأكثر المحصلين من أصحابه على هذا القول.

النوع الثالث: نفي الجهة عنه سبحانه؛ فالذي يذهب إليه المعتزلة وجمهور المحققين من المتكلمين أنه سبحانه ليس في جهة ولا مكان، وأن ذلك من توابع الجسمية أو العرضية اللاحقة بالجسمية، فإذا انتفى عنه كونه جسماً وكونه عرضاً لم يكن في جهة أصلاً، وإلى هذا القول يذهب الفلاسفة.

وذابت الكرامية والحشوية إلى الله تعالى في جهة فوق، وإليه يذهب هشام بن الحكم، وعلي ابن منصور، ويونس بن عبد الرحمن، وهشام بن سالم الجواليقي، وكثير من أهل الحديث.

وذبح محمد بن الهيصم، متكلم الكرامية إلى أنه تعالى ذات موجودة منفردة بنفسها عن سائر الموجودات، لا تحل شيئاً حلول الأعراس، ولا تمازج شيئاً مازجة بل هو مبين للمخلوقين؛ إلا أنه في جهة فوق، وبينه وبين العرش بعد لا يتناهى. هكذا يحكي المتكلمون عنه، ولم أره في شيء من تصانيفه. وأحالوا ذلك؛ لأن ما لا يتناهى لا يكون محصوراً بين

حاصرين، وأنا أستبعد عنه هذه الحكاية، لأنه كان أذكى من أن يذهب عليه فساد هذا القول. وحقيقة مذهب مثبتي المكان أنه سبحانه متمكن على العرش، كما يتمكن الملك على سريرته، فقليل لبعض هؤلاء: أهو أكبر من العرش، أم أصغر، أم مساوٍ له؟ فقال: بل أكبر من العرش، فقليل له: فكيف يحمله؟ فقال: كما تحمل رجلاً الكركي جسم الكركي وجسمه أكبر من رجله. ومنهم من يجعله مساوياً للعرش في المقدار، ولا يمتنع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضل عن العرش؛ وقد سمعت أنا من قال منهم: إنه مستوٍ على عرشه كما أنا مستوٍ على هذه الدكة ورجلاه على الكرسي الذي وسع السموات والأرض، والكرسي تحت العرش، كما يجعل اليوم الناس تحت أسرهم كراسي يستريحون بوضع أرجلهم عليها.

وقال هؤلاء كلهم: إنه تعالى يتزل ويصعد حقيقة لا مجازاً، وإنه يتحرك ويتزل؛ فمن ذلك نزوله إلى السماء الدنيا، كما ورد في الخبر؛ ومن ذلك إتيانه ومجيئه، كما نطق به الكتاب العزيز في قوله سبحانه: "هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلٍ من الغمام" وقوله: "وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً".

وأطلق ابن الهيصم عليه هذه الألفاظ اتباعاً لما ورد في الكتاب والسنة، وقال: لا أقول بمعانيها، ولا أعتقد حركته الحقيقية، وإنما أرسلها إرسالاً كما وردت. وأما غيره فاعتقد معانيها حقيقة.

وقال ابن الهيصم في كتاب المقالات: إن أكثر الحشوية يجيز عليه تعالى العدو والهرولة.

وقال قوم منهم: إنه تعالى يجوز أن يتزل فيطوف البلدان، ويدور في السكك.

وقال بعض الأشعرين: إن سائلاً سأل السكك فقال: إذا أجزت عليه الحركة، فهلا أجزت عليه أن يطفر! فقال: لا يجوز عليه الطفر، لأن الطفر إنما يكون فراراً من ضد، أو اتصالاً بشكل. فقال له: فالحركة أيضاً كذلك! فلم يأت بفرق. فأما القول بأنه تعالى في كل مكان؛ فإن المعتزلة يقولون ذلك، وتريد به أنه وإن لم يكن في مكان أصلاً، فإنه عالم بما في كل مكان، ومدير لما في كل مكان، وكأنه موجود في جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع.

وقال قوم من قدماء الفلاسفة: إن البارئ تعالى روح شديد في غاية اللطافة، وفي غاية القوة، ينفذ في كل العالم. وهؤلاء يطلقون عليه أنه في كل مكان حقيقة لا تأويلاً، ومن هؤلاء من أوضح هذا القول، وقال: إنه تعالى سار في هذا العالم سريان نفس الواحد منا في بدنه، فكما أن كل بدن منا له نفس سارية فيه تدبره، كذلك البارئ سبحانه هو نفس العالم، وسار في كل جزء من العالم، فهو إذاً في كل مكان بهذا الاعتبار، لأن النفس في كل جزء من البدن. وحكى الحسن بن موسى النوبختي عن أهل الرواق من الفلاسفة، أن الجوهر الإلهي سبحانه روح ناري عقلي، ليس له صورة، لكنه قادر على أن يتصور بأي صورة شاء، ويتشبه بالكل، وينفذ في الكل بذاته وقوته؛ ويعلمه وتديره. النوع الرابع: نفي كونه عرضاً حالاً في المحل، فالذي تذهب إليه المعتزلة وأكثر المسلمين والفلاسفة نفي ذلك القول باستحالته عليه سبحانه وتعالى لوجوب وجوده، وكون كل حال في الأجسام ممكناً بل حادثاً.

وزهدت الحلولية من أهل الملة وغيرها، إلى أنه تعالى يحل في بعض الأجسام دون بعض كما يشاء سبحانه، وإلى هذا القول ذهب أكثر الغلاة في أمير المؤمنين عليه السلام. ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم شيعته وأوليائه، واتبعهم على هذه المقالة قوم من المتصوفة كالحلاجية والبسطامية وغيرهم. وزهدت النسطورية من النصاري إلى حلول الكلمة في بدن عيس عليه السلام؛ كحلول السواد في الجسم. فأما اليعقوبية من النصاري، فلا تثبت الحلول، وإنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهي والجوهر الجسماني، وهو أشد بعداً من الحلول.

النوع الخامس: في نفي كونه تعالى محلاً لشيء، زهدت المعتزلة وأكثر أهل الملة والفلاسفة إلى نفي ذلك؛ والقول باستحالته على ذاته سبحانه.

وزهدت الكرامية إلى أن الحوادث تحل في ذاته، فإذا أحدث جسمًا أحدث معنى حالاً في ذاته، وهو الإحداث، فحدث ذلك الجسم مقارناً لذلك المعنى أو عقبيه، قالوا: وذلك المعنى هو قول كن وهو المسمى خلقاً، والخلق غير المخلوق، قال الله تعالى: " ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم " ، وقالوا: لكنه قد أشهدنا ذواتها، فدل على أن خلقها غيرها.

وصرح ابن الهيصم في كتاب المقالات، بقيام الحوادث بذات البارئ فقال: إنه تعالى إذا أمر أو نهى، أو أراد شيئاً كان أمره ونهيه وإرادته كائنة بعد أن لم تكن، وهي قائمة به، لأن قوله منه يسمع، وكذلك إرادته منه توجد. قال: وليس قيام الحوادث بذاته دليلاً على حدوثه، وإنما يدل على الحدوث تعاقب الأضداد التي لا يصح أن يتعطل منها،

والباري تعالى لا تتعاقب عليه الأضداد.

وذهب أبو البركات البغدادي صاحب المعتبر إلى أن الحوادث تقوم بذات البارئ سبحانه؛ وأنه لا يصح إثبات الإلهية إلا بذلك. وقال: إن المتكلمين يترهونه عن ذلك، والتترية عن هذا التترية، هو الواجب.

وذهب أصحابنا وأكثر المتكلمين إلى أن ذلك لا يصح في حق واجب الوجود، وأنه دليل على إمكان ذاته، بل على حدوثها. وأجازوا مع ذلك عليه أن يتجدد له صفات - يعنون الأحوال لا المعاني -؛ نحو كونه مدركاً بعد أن لم يكن. وكقول أبي الحسين: إنه يتجدد له عالمية بما وجد؛ وكان من قبل علماً بأنه سيوجد؛ وإحدى هاتين الصفتين غير الأخرى. وقالوا: إن الصفات والأحوال قيل مفرد عن المعاني، والمحال إنما هو حلول المعاني في ذاته لا تجدد الصفات لذاته؛ وللكلام في هذا الباب موضع هو أليق به.

النوع السادس: في نفي اتحاده تعالى بغيره، ذهب أكثر العقلاء إلى استحالة ذلك؛ وذهبت اليعقوبية من النصارى إلى أن الكلمة اتحدت بعبسى، فصارت جوهرًا من جوهرين: أحدهما إلهي، والآخر جسماني. وقد أجاز الاتحاد في نفس الأمر لا في ذات البارئ قوم من قدماء الفلاسفة، منهم فرفيوس. وأجازه أيضاً منهم من ذهب إلى أن النفس إنما تعقل المعقولات، لاتحادها بالجوهر المفارق المفيض للنفوس على الأبدان؛ وهو المسمى بالعقل الفعال.

النوع السابع: في نفي الأعراض الجسمانية عنه من التعب والاستراحة، والألم واللذة، والغم والسرور؛ ونحو ذلك.

وذهبت المعتزلة وأكثر العقلاء من أهل الملة وغيرهم إلى نفي ذلك؛ والقول باستحالته عليه سبحانه.

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللذة عليه؛ وقالوا: إنه يلتذ بإدراك ذاته وكمالها؛ لأن إدراك الكمال هو اللذة أو سبب اللذة؛ وهو تعالى أكمل الموجودات، وإدراكه أكمل الإدراكات؛ وإلى هذا القول ذهب محمد الغزالي من الأشعرية.

وحكى ابن الراوندي عن الجاحظ أن أحد قدماء المعتزلة - ويعرف بأبي شعيب - كان يجوز عليه تعالى السرور والغم، والغيرة والأسف، ويذكر في ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا أحد أغير من الله، وأنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسر بها ". وقال تعالى: " فلما آسفونا انتقمنا منهم " ، وقال مقال المتحسر على الشيء: " يا حسرة على العباد " ، وحكى عنه أيضاً أنه يجوز عليه أن يتعب ويستريح؛ ويحتج بقوله: " وما مسنا من لغوب " ، وهذه الألفاظ كلها عند أصحابنا متأولة محمولة على محامل صحيحة؛ تشتمل على شرحها الكتب المبسطة.

النوع الثامن: في أنه تعالى ليس بمتلون. لم يصرح أحد من العقلاء قاطبة بأن الله تعالى متلون؛ وإنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتجسيم إلى أنه نور، فإذا أبصرته العيون وأدركته أبصرت شخصاً نورانياً مضيئاً، لم يزدوا على ذلك، ولم يصرحوا بإثبات اللون بهذه العبارة؛ وإن كان كل مضيء ملوناً.

النوع التاسع: في أنه تعالى لا يشتهي ولا ينفر، ذهب شيوخنا المتكلمون إلى أنه سبحانه لا يصح عليه الشهوة والنفرة؛ لأنهما إنما يصحان على ما يقبل الزيادة والنقصان بطريق الإغناء والنمو، والبارئ سبحانه وتعالى يتعالى عن ذلك؛ وما عرفت لأحد من الناس خلافاً في ذلك؛ اللهم إلا أن يطلق هاتان اللفظتان على مسمى الإرادة والكراهية؛ على سبيل المجاز.

النوع العاشر: في أن البارئ تعالى ليس بجسم ولا جسماني، وكانت النهاية في لواحق الأشياء ذوات المقادير، يقال: هذا الجسم متناه، أي ذو طرف.

قلنا: إن ذات البارئ تعالى غير متناهية؛ لا بل على معنى أن امتداد ذاته غير متناه، فإنه سبحانه ليس بذی امتداد، بل بمعنى أن الموضوع الذي يصدق عليه النهاية ليس بمتحقق في حقه سبحانه؛ فقلنا: إن ذاته غير متناهية، كما يقول المهندس: إن النقطة غير متناهية، لا على معنى أن لها امتداداً غير متناه، فإنها ليس بممتدة أصلاً؛ بل على معنى أن الأمر الذي تصدق عليه النهاية - وهو الامتداد - لا يصدق عليها؛ فإذا صدق عليها أنها غير متناهية. وهذا قول الفلاسفة وأكثر المتحققين. وقالت الكرامية: البارئ تعالى ذات واحدة منفردة عن العالم قائمة بنفسها، مباينة للموجودات، متناهية في ذاتها؛ وإن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهام انقطاع وجودها، وتصرم بقائها.

وأطلق هشام بن الحكم وأصحابه عليه تعالى القول بأنه متناهي الذات؛ غير متناهي القدرة.

وقال الجاحظ: إن لي قوماً زعموا أنه تعالى ذاهب في الجهات الست، التي لا نهاية لها.

النوع الحادي عشر: في أنه تعالى لا تصح رؤيته. قالت المعتزلة: رؤية البارئ تعالى مستحيلة في الدنيا والآخرة، وإنما يصح أن يرى المقابل ذو الجهة.

وقالت الكرامية والحنابلة والأشعرية: تصح رؤيته ويرى في الآخرة؛ يراه المؤمنون، ثم اختلفوا، فقالت الكرامية والحنابلة: يرى في جهة فوق، وحكي عن مضر وكهمس وأحمد الجهمي أنهم أجازوا رؤيته في الدنيا، وملاسته ومصافحته؛ وزعموا أن المخلصين يعانقونه متى شاؤوا، ويسمون الحبية.

وحكى شيخنا أبو الحسين في التصفح عن أبواب السجستاني من المرجئة، أن البارئ تعالى تصح رؤيته ولمسه.

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يرون الله تعالى، وأن الناس كلهم كافرهم ومؤمنهم يرونه، ولكن لا يعرفونه.

وقال من ترفع عن هذه الطبقة منهم: لا يجوز أن يرى بعين خلقت للفناء، وإنما يرى في الآخرة بعين خلقت للبقاء.

وقال كثير من هؤلاء: إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج.

وروا عن كعب الأحبار أن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليه السلام.

وروا عن المبارك بن فضالة أن الحسن كان يحلف بالله: قد رأى محمد ربه.

وتعلق كثير منهم بقول تعالى: "وقد رآه نزلةً أخرى"، وقالوا: كلمه موسى عليه السلام مرتين، ورآه محمد صلى الله عليه وسلم مرتين.

وأنكر ابن الهيصم مع اعتقاده أقوال الكرامية ذلك، وقال: إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يره، ولكنه سوف يراه في الآخرة.

قال: وإلى هذا القول ذهب عائشة وأبو ذر وقتادة، وقد روي مثله عن ابن عباس وابن مسعود.

واختلف من قال: إنه يرى في الآخرة، هل يجوز أن يراه الكافر؟ فقال أكثرهم: إن الكفار لا يرونه؛ لأن رؤيته كرامة،

والكافر لا كرامة له. وقالت السالمية وبعض الحشوية: إن الكفار يرونه يوم القيامة، وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة؛ ذكر ذلك عنه محمد بن الهيصم.

فأما الأشعري وأصحابه؛ فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء: إنه يرى كما يرى الواحد منا، بل قالوا: يرى، وليس فوقاً ولا تحتاً ولا يميناً ولا شمالاً ولا أماماً ولا وراء، ولا يرى كله ولا بعضه؛ ولا هو في مقابلة الرائي ولا منحرفاً عنه؛ ولا تصح الإشارة إليه إذا رئي، وهو مع ذلك يرى ويصير. وأجازوا أيضاً أن تسمع ذاته، وأن تشم وتذاق وتحس، لا على طريق الاتصال، بل تتعلق هذه الإدراكات كلها بذاته تعلقاً عارياً عن الاتصال.

وأنكرت الكرامية ذلك ولم يجيزوا عليه إلا إدراك البصر وحده، وناقضهم شيخنا أبو الحسين في التصريح والزمهم أحد أمرين؛ إما نفي الجميع أو إثبات إدراكه من جميع الجهات، كما يقوله الأشعرية.

وذهب ضرار بن عمرو، إلى أن الله تعالى يرى يوم القيامة بحاسة سادسة لا بهذا البصر. وقيل ذلك عن جماعة غيره. وقال قوم: يجوز أن يحول الله تعالى قوة القلب إلى العين، فيعلم الله تعالى بها، فيكون ذلك الإدراك علماً باعتبار أنه بقوة القلب، ورؤية باعتبار أنه قد وقع بالمعنى الحال في العين.

فهذه الأنواع الأحد عشر هي الأقوال والمذاهب التي يشتمل قوله عليه السلام بنفي التشبيه عليها؛ وسيأتي من كلامه عليه السلام في نفي التشبيه ما هو أشد تصريحاً من الألفاظ التي نحن في شرحها.

الفصل الخامس في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه: وهو معنى قوله عليه السلام: فهو الذي تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذي الجحود.

لا شبهة في أن العلم بافتقار المتغير إلى المغير ضروري، والعلم بأن المتغير ليس هو المغير إما أن يكون ضرورياً أو قريباً من الضروري، فإذا قد شهدت أعلام الوجود على أن الجاحد لإثبات الصانع، إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه؛ لأن العقلاء لا يحددون الأوليات بقلوبهم، وإن كابروا بألستهم؛ ولم يذهب أحد من العقلاء إلى نفي الصانع سبحانه. وأما القائلون بأن العالم وجد عن طبيعة، وأن الطبيعة هي المدبرة له، والقائلون بتصادم الأجزاء في الخلاء الذي لا نهاية له؛ حتى حصل منها هذا العالم. والقائلون بأن أصل العالم وأساس بنيته هو النور والظلمة، والقائلون بأن مبادئ العالم هي الأعداد المجردة، والقائلون بالهوى القديمة، التي منها حدث العالم، والقائلون بعشق النفس للهوى؛ حتى تكونت منها هذه الأجسام، فكل هؤلاء أثبتوا الصانع، وإنما اختلفوا في ماهيته وكيفية فعله.

وقال قاضي القضاة: إن أحداً من العقلاء لم يذهب إلى نفي الصانع للعالم بالكلية، ولكن قوماً من الوراقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة؛ لم يذهب أحد إليها؛ وهي أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه، ولا إله للعالم ولا صانع أصلاً؛ وإنما هو هكذا ما زال، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر.

قال: وأخذ ابن الراوندي هذه المقالة فنصرها في كتابه المعروف بكتاب التاج قال: فأما الفلاسفة القدماء والمتأخرون، فلم ينفوا الصانع، وإنما نفوا كونه فاعلاً بالاختيار؛ وتلك مسألة أخرى. قال: والقول بنفي الصانع قريب من القول بالسفسطة؛ بل هو هو بعينه؛ لأن من شك في المحسوس أعذر ممن قال: إن المتحركات تتحرك من غير محرك حركها. وقول قاضي القضاة هذا، هو محض كلام أمير المؤمنين عليه السلام وعينه، وليس قول الجاحظ هو هذا، لأن الجاحظ

يذهب إلى أن جميع المعارف والعلوم الإلهية ضرورية، ونحن ما ادعينا في هذا المقام إلا أن العلم بإثبات الصانع فقط هو الضروري، فأين أحد القولين من الآخر!

ومن خطبة له في وقوع الفتن

الأصل: إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالاً؛ على غير دين الله، فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين؛ ولو أن الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه السن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضعف ومن هذا ضعف، فيمزجان، فهناك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

الشرح: المرتاد: الطالب. والضعف من الحشيش: القبضه منه، قال الله تعالى: " وخذ بيدك ضعفاً " .

يقول عليه السلام: إن المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتتن الناس بها، أصلها اتباع الأهواء، وابتداع الأحكام التي لم تعرف يخالف فيها الكتاب، وتحمل العصبية والهوى على تولى أقوام قالوا بها، على غير وثيقة من الدين. ومستند وقوع هذه الشبهات امتزاج الحق بالباطل في النظر الذي هو الطريق إلى استعلام المجهولات، فلو أن النظر تخلص مقدماته وترتب قضاياها من قضايا باطلة، لكان الواقع عنه هو العلم المحض، وانقطع عنه ألسن المخالفين، وكذلك لو كان النظر تخلص مقدماته من قضايا صحيحة، بأن كان كله مبنياً على الفساد، لظهر فساده لطلبة الحق، وإنما يقع الاشتباه لامتزاج قضاياها الصادقة بالقضايا الكاذبة.

مثال ذلك احتجاج من أجاز الرؤية بأن الباري تعالى ذات موجودة، وكل موجود يصح أن يرى، فيأخذى المقدمتين حق، والأخرى باطل، فالتبس أمر النتيجة على كثير من الناس.

ومثال ما يكون المقدمتان جميعاً باطلتين، قول قوم من الباطنية: الباري لا موجود ولا معدوم، وكل ما لا يكون موجوداً ولا معدوماً يصح أن يكون حياً قادراً، فالباري تعالى يصح أن يكون حياً قادراً، فهاتان المقدمتان جميعاً باطلتان. لا جرم أن هذه المقالة مرغوب عنها عند العقلاء! ومثال ما تكون مقدماته حقاً كلها: العالم متغير، وكل متغير ممكن؛ فالعالم ممكن؛ فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء.

فإن قيل: فما معنى قوله عليه السلام: فهناك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى، أليس هذا إشعاراً بقول المجرة وتلويحاً به؟ قيل: لا إشعار في ذلك بالجبر، ومراده عليه السلام أنه إذا امتزج في النظر الحق بالباطل، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة، تمكن الشيطان من الإضلال والإغواء، ووسوس إلى المكلف، وخيل له النتيجة الباطلة، وأماله إليها، وزينها عنده، بخلاف ما إذا كانت المقدمات حقاً كلها، فإنه لا يقدر الشيطان على أن يخيل له ما يخالف العقل الصريح؛ ولا يكون له مجال في تزوين الباطل عنده، ألا ترى الأوليات لا سبيل للإنسان إلى جحدها وإنكارها، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك! ومعنى قوله: على أوليائه، أي على من عنده استعداد للجهل، وقرن على اتباع الهوى، وزهد في تحقيق الأمور العقلية على وجهها، تقليداً للأسلاف، ومحبة لاتباع المذهب المألوف،

فذاك هو الذي يستولي عليه الشيطان ويضله، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وهم الذين يتبعون محض العقل، ولا يركنون إلى التقليد، ويسلكون مسلك التحقيق، وينظرون النظر الدقيق، يجتهدون في البحث عن مقدمات أنظارهم، وليس في هذا الكلام تصريح بالجبر، ولا إشعار به على وجه من الوجوه، وهذا واضح.

وحمل الراوندي قوله عليه السلام: فلو أن الباطل خلس... إلى آخره، على أن المراد به نفي القياس في الشرع، قال: لأن القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطق، فيمتزج المجهول بالمعلوم، فيلتبس ويظن لامتزاج بعضه ببعض حقاً، وهذا غير مستقيم، لأن لفظ الخطبة أن الحق يمتزج بالباطل، وأصحاب القياس لا يسلمون أن استخراج العلة من الحكم المعلوم باطل، بل يقولون إنه حق، وإن الدليل الدال على ورود العبارة بالقياس، قد أمنهم من كونه باطلاً.

واعلم أن هذا الكلام الذي قاله عليه السلام حق إذا تأملته، وإن لم تفسره على ما قدمناه من التفسير، فإن الذين ضلوا مقلدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة من أهل الملة الإسلامية وغيرها، إنما ضل أكثرهم بتقليد الأسلاف، ومن يحسن الظن فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب، وإنما قلدهم الأتباع، لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها، وإقبالهم على العبادة، وتمسكهم بالدين، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وشدقهم في ذات الله، وجهادهم في سبيله، وقوتهم في مذاهبهم، وصلابتهم في عقائدهم، فاعتقد الأتباع والخلف والقرون التي جاءت بعدهم أن هؤلاء يجب اتباعهم، وتحرم مخالفتهم، وأن الحق معهم، وأن مخالفهم مبتدع ضال، فقلدوهم في جميع ما نقل إليهم عنهم، ووقع الضلال والغلط بذلك، لأن الباطل استتر وانغمز بما مازجه من الحق الغالب الظاهر المشاهد عياناً، أو الحكم الظاهر، ولولاه لما تروج الباطل، ولا كان له قبول أصلاً.

لما غلب أصحاب معاوية أصحابه

على شريعة الفرات بصفين ومنعواهم من الماء :

الأصل: قد استطعموكم القتال، فأقروا على مذلة، وتأخير محلة، أو رروا السيوف من الدماء ترووا من الماء؛ فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين. ألا وإن معاوية قادم من الغواة، وعمس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية.

الشرح: استطعموكم القتال، كلمة مجازية، ومعناها: طلبوا القتال منكم؛ كأنه جعل القتال شيئاً استطعم، أي يطلب أكله وفي الحديث: "إذا استطعمكم الإمام فأطعموه"، يعني إمام الصلاة، أي إذا أرتج فاستفتحكم فافتحوا عليه. وتقول: فلان استطعمني الحديث؛ أي يستدعيه مني ويطلبه.

واللممة، بالتخفيف: جماعة قليلة، وعمس عليهم الخبر؛ يجوز بالتشديد، ويجوز بالتخفيف، والتشديد يعطي الكثرة ويفيدها، ومعناه أنهم عليهم الخبر، وجعله مظلماً. ليل عماس، أي مظلم، وقد عمس الليل نفسه بالكسر، إذا أظلم وعمسه غيره، وعمست عليه عمساً، إذا أريته أنك لا تعرف الأمر وأنت به عارف. والأغراض: جمع غرض وهو الهدف. وقوله: فأقروا على مذلة وتأخير محلة، أي اثبتوا على الذل وتأخر المرتبة والمترلة، أو فافعلوا كذا وكذا.

ونحو قوله عليه السلام: فالموت في حياتكم مقهورين، قول أبي نصر بن نباتة، والحسين الذي رأى الموت في العز حياة والعيش في الذل قتلاً وقال التهامي:

ومن فاته نيل العلا بعلومه
فموت الفتى في العز مثل حياته
وأقلامه فليبلغها بحسامه
وعيشته في الذل مثل حمامه

أشعار في الإباء والتحريض على الحرب

والأشعار في الإباء والأنف من احتمال الضيم والذل والتحريض على الحرب كثيرة، ونحن نذكر منها ها هنا طرفاً؛ فمن ذلك قول عمرو بن براقة الهمداني:

وكيف ينام الليل من جل ماله
كذبتكم وبيت الله لا تأخذونها
حسام كلون الملح أبيض صارم
مراغمة ما دام للسيف قائم
ومن يطلب المال الممنع بالقنا
يعش ماجداً أو تخترمه الخوارم

ومثله:

ومن يطلب الممنع بالقنا
وقال حرب بن مسعر:

عطفت عليه المهر عطفة باسل
فأوجرته لكدن الكعوب متقفاً
كمي ومن لا يظلم الناس يظلم
فخر صريعاً لليدين وللهم

وقال الحارث بن الأرقم:

وما ضاق صدري يا سليمي بسخطكم
تروك لدار الخسف والضيم، منكر
ولكنني في الحادثات صليب
إذا سامني السلطان ذلاً أبيتته
بصير بفعل المكرمات أريب
ولم أعط خسفاً ما أقام عسيب

وقال العباس بن مرداس السلمي:

بأبي فوارس لا يعرى صواهلها
لا والسيوف بأيدينا مجردة
أن يقبلوا الخسف من ملك وإن عظما
لا كان منا غداة الروع منهزما

وقال وهب بن الحارث:

لا تحسبني كأقوام عبثت بهم
لا تعلقني قذاة لست فاعلها
لن يأنفوا الذل حتى تأنف لحمر
فقد علمت بأنني غير مهتضم
واحذر شباتي فقداً ينفع الحذر
حتى يلوح ببطن الراحة الشعر

وقال المسيب بن غلس:

أبلغ ضبيعة أن البلا
وقد يقعد القوم في دارهم
ويرتحل القوم عند الهوا
وقد كان سامة في قومه
فساموه خسفاً فلم يرضه
د فيها لذي قوة مغضب
إذا لم يضاموا وإن أجذبوا
ن عن دراهم بعد ما أخصبوا
له مطعم وله مشرب
وفي الأرض عن ضميمهم مهرب

وقال آخر:

إن الهوان حمار القوم يعرفه
ولا يقيم على خسف يراد به
هذا على الخسف مشدود برمته
فإن أقمت على ضميم يراد بكم
وفي البلاد إذا ما خفت بادرة
والحر ينكره والرسلة الأجد
إلا الأذلان غير الحي والوتد
وذا يشج فلا يأوي له أحد
فإن رحلي له وال ومعتمد
مكروهة عن ولادة السوء مفتقد

وقال بعض بني أسد:

إنني امرؤ من بني خزيمة لا
أطعم خسفاً لناعب نعبا

لست بمعط ظلامة أبداً
عجماً ولا أتقي بها عرباً

دخل مويلك السدوسي إلى البصرة يبيع إبلاً، فأخذ عامل الصدقة بعضها، فخرج إلى البادية وقال:

ناق إنني أرى المقام على الضي
قد أراني ولي من العامل النص
م عظيماً في قبة الإسلام
ف بحد السنان أو بالحسام

وقال يزيد بن مفرغ الحميري:

لا ذعرت السوام في فلق الصب
يوم أعطى من المخافة ضيماً
ح مغيراً ولا دعيت يزيداً
والمنايا يرصدني أن أجيدا

وقال آخر:

لا تحسبيني يا أما
إنني إذا خفت الهوا
مة عاجزاً دنساً ثيابه
ن مشيع ذلل ركابه

مثله قول عنتره:

ذلل ركابي حيث شئت مشايعي

لبي وأحفزه برأي مبرم

وقال آخر:

أخشية الموت در دركم

أعطيتم القوم فوق ما سألوا

إنالعمر الإله نأبى الذي قا

لوا ولما تقصف الأسل

تقبل ضيماً ونحن نعرفه

ما دام منا بظهرها رجل

وقال آخر:

ورب يوم حبست النفس مكرهه

فيه لأكبت أعداء أحاشيها

أبى وأنف من أشياء أخذها

رث القوى، وضعيف القوم يعطيها

مثله للشداخ:

أبينافلا نعطي مليكاً ظلامه

ولا سواقة إلا الوشيح المقوما

وإلا حساماً يبهر العين لمح

كصاعقة في عارض قد تبسما

من هم أباة الضيم

سيد أهل الإباء، الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدنية، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، عرض عليه الأمان وأصحابه، فأنف من الذل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان؛ إن لم يقتله؛ فاختار الموت على ذلك.

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوي البصري، يقول: كأن أبيات أبي تمام في محمد ابن حميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين عليه السلام:

وقد كان فوت الموت سهلاً فرد

إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

ونفس تعاف الضيم حتى كأنه

هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

فأثبت في مستنقع الموت رجله

وقال لها: من تحت أخمصك الحشر

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى

لها الليل إلا وهي من سندس خضر

لما فر أصحاب مصعب عنه، وتحلف في نفر يسير من أصحابه، كسر جفن سيفه، وأنشد:

فإن الألى بالطف من آل هاشم

تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

فعلم أصحابه أنه قد استقتل.

ومن كلام الحسين عليه السلام يوم الطف، المنقول عنه، نقله عنه زين العابدين علي ابنه عليه السلام: ألا وإن الدعي ابن الدعي، قد خيرنا بين اثنتين: السلة أو الذلة! وهيئات منا الذلة! يأي الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت،

وحجز طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبيية.

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام، وقد ذكرناه فيما تقدم: إن امرأً أمكن عدواً من نفسه، يعرق لحمه، ويفري جلده، ويهشم عظمه، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره؛ فكن أنت ذاك إن شئت؛ فأما أنا فدون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه فراش الهام، وتطيح السواعد والأقدام.

وقال العباس بن مرداس السلمي:

مقال امرئ يهدي إليك نصيحة
وإن بوؤوك منزلاً غير طائل
ولا تطعمن ما يعلفونك إنهم
أراك إذا قد صرت للقوم ناضحاً
فخذها فليست للعزير بخطبة
وله أيضاً:

إذا معشر جادوا بعرضك فابخل
غليظاً فلا تنزل به وتحول
أتوك على قرباهم بالمثل
يقال له بالغرب أدبر وأقبل
وفيهما مقام امرئ متذلل

فحارب فإن مولاك حارد نصره
وقال مالك بن خريم الهمداني:

ففي السيف مولى نصره لا يحارد
وكننت إذا قوم غزوني غزوتهم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً
وقال رشيد بن رميص العتري:

فهل أنا في ذا يال همدان ظالم!
وأناً حمياً تجتنبك المظالم

باتوا نياماً وابن هند لم ينم
خدلج الساقين خفاق القدم
ليس براعي إبل ولا غنم
من يلقني يود كما أودت إرم
وقال آخر:

بات يقاسيها غلام كالزلم
قد لفها الليل بسواق حطم
ولا بجزارٍ على ظهر وضم

ولست بمبتاع الحياة بسبة
ولما رأيت الود ليس بنافعي
ولا مرتقٍ من خشية الموت سلماً
عمدت إلى الأمر الذي كان أحزماً

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب، كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته؛ لأسباب ليس هذا موضع ذكرها، فلما أفضت إليه الخلافة، خلعه يزيد بن المهلب، ونزع يده من طاعته، وعلم أنه إن ظفر به قتله وناله من الهوان ما القتل دونه، فدخل البصرة وملكها عنوةً، وحبس عدي ابن أرطأة عامل عامل يزيد بن عبد الملك عليها، فسرّح إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً، ويشتمل على ثمانين ألفاً من أهل الشام والجزيرة، وبعث مع الجيش مسلمة بن عبد الملك، وكان

أعرف الناس بقيادة الجيوش وتدريبها، وأيمن الناس نقيبةً في الحرب، وضم إليه ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك، فسار يزيد بن المهلب من البصرة، فقدم واسط، فأقام بها أياماً، ثم سار عنها فتزل العقر، واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفاً، وقدم مسلمة بجيوش الشام، فلما تراءى العسكران، وشبت الحرب، أمر مسلمة قائداً من قواده أن يحرق الجسور التي كان عقدها يزيد بن المهلب فأحرقها، فلما رأى أهل العراق الدخان قد علا انهزموا، فقبل ليزيد بن المهلب: قد انهزم الناس، قال: ومم انهزموا؟ هل كان قتال ينهزم الناس من مثله؟ فقبل له: إن مسلمة أحرق الجسور فلم يثبتوا، فقال قبهم الله! بق دخن عليه فطار! ثم وقف ومعه أصحابه، فقال: اضربوا وجوه المنهزمين، ففعلوا ذلك حتى كثروا عليه، واستقبله منهم أمثال الجبال، فقال: دعوهم قبهم الله! غنم عدا في نواحيها الذئب. وكان يزيد لا يحدث نفسه بالفرار، وقد كان أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي بواسط، فقال له:

وسيفك مشهور بكفك تعذر

فعش ملكاً أو مت كريماً فإن تمت

فقال: ما شعرت، فقال:

فإن كنت لم تشعر بذلك فاشعر

إن بني مروان قد باد ملكهم

فقال: أما هذا فعسى. فلما رأى يزيد انهزام أصحابه، نزل عن فرسه، وكسر جفن سيفه واستقتل، فأتاه آت فقال: إن أخاك حبيباً قد قتل، فزاده ذلك بصيرة في توطينه نفسه على القتل، وقال: لا خير في العيش بعد حبيب! والله لقد كنت أبغض الحياة بعد الهزيمة؛ وقد ازددت لها بغضاً؛ امضوا قدماً. فعلم أصحابه أنه مستميت، فتسلل عنه من يكره القتال، وبقي معه جماعة خشية، فهو يتقدم كلما مر بخيل كشفها، وهو يقصد مسلمة بن عبد الملك لا يريد غيره، فلما دنا منه، أدنى مسلمة فرسه ليركب، وحالت خيول أهل الشام بينهما، وعطفت على يزيد بن المهلب، فجالدهم بالسف مصلتا؛ حتى قتل وحمل رأسه إلى مسلمة، وقتل معه أخوه محمد بن المهلب؛ وكان أخوهما المفضل بن المهلب؛ يقاتل أهل الشام في جهة أخرى، ولا يعلم بقتل أخويه يزيد ومحمد؛ فأتاه أخوه عبد الملك بن المهلب، وقال له: ما تصنع وقد قتل يزيد ومحمد، وقبلهما قتل حبيب، وقد انهزم الناس! وقد روي أنه لم يأت به بالخبر على وجهه، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويقتل، فقال له: إن الأمير قد انحدر إلى واسط، فاقتص أثره، فانحدر المفضل حيثنذ، فلما علم بقتل إخوته، حلف ألا يكلم أخاه عبد الملك أبداً؛ وكانت عين المفضل قد أصيبت من قبل في حرب الخوارج، فقال: فضحني عبد الملك فضحه الله! ما عذري إذا رأي الناس فقالوا: شيخ أعور مهزوم، ألا صدقني فقتلت! ثم قال:

ولا في لقاء الناس بعد يزيد

ولا خير في طعن الصناديد بالقنا

فلما اجتمع من بقي من آل المهلب بالبصرة بعد الكسرة، أخرجوا عدي بن أرطاة أمير البصرة من الحبس، فقتلوه وحملوا عيالهم في السفن البحرية، ولججوا في البحر؛ فبعث إليهم مسلمة بن عبد الملك بعثاً عليه قائد من قواده، فأدركهم في قنديل؛ فحاربهم وحاربوه، وتقدم بنو المهلب بأسيا فقتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وهم المفضل بن المهلب، وزباد بن المهلب، ومروان بن المهلب، وعبد الملك بن المهلب، ومعاوية بن المهلب، والمنهال بن المهلب بن أبي عيينة ابن

المهلب، وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب، وحملت رؤوسهم إلى مسلمة بن عبد الملك، وفي أذن كل واحد منهم رقعة فيها اسمه، واستؤسر الباقون في الوقعة، فحملوا إلى يزيد ابن عبد الملك بالشام، وهم احد عشر رجلاً، فلما دخلوا عليه قام كثير بن أبي جمعة، فأنشد:

حليم إذا ما نال عاقب مجملاً
أشد العقاب أو عفا لم يثرب
فعفواً أمير المؤمنين وحسبةً
فما تأتته من صالح لك يكتب
أسأؤوا فإن تصفح فإنك قادر
وأفضل حلم حسبةً حلم مغضب

فقال يزيد: أظن بك الرجم يا أبا صخر! لولا أنهم قدحوا في الملك لعفوت عنهم؛ ثم أمر بقتلهم فقتلوا، وبقي منهم صبي صغير، فقال: اقتلوني فلست بصغير، فقال يزيد بن عبد الملك: انظروا هل أنبت! فقال: أنا أعلم بنفسي، قد احتلمت ووطأت النساء فاقتلوني؛ فلا خير في العيش بعد أهلي! فأمر به فقتل.
قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبراً - وهم أحد عشر مهلبياً: المارك وعبد الله والمغيرة والمفضل والمنجاب؛ بنو يزيد بن المهلب. ودريد والحجاج وغسان وشبيب والفضل، بنو المفضل بن المهلب لصلبه. والفضل بن قبيصة بن المهلب. قال: ولم يبق بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب. وعمرو بن يزيد ابن المهلب، وعثمان بن المفضل بن المهلب، فإنهم لحقوا برتبيل، ثم أومنوا بعد ذلك.
وقال الرضي الموسوي رحمه الله تعالى :

ألا لله بادرة الطلاب
وعزم لا يروع بالعقاب
وكل مشمر البردين يهوي
هوي المصلتات إلى الرقاب
أعاتبه على بعد التناهي
فيعذلني على قرب الإياب
رأيت العجز يخضع لليالي
ويرضى عن نوائبها الغضاب
وآمل أن تطاوعني الليالي
وينشب في المنى ظفري ونابي
ولولا صولة الأقدار دوني
هجمت على العلا من كل ناب

وقال أيضاً:

لا يبذ الهموم إلا غلام
يركب الهول والحسام رديف
ما يذل الزمان بالفقر حراً
كيفما كان فالشريف شريف

وقال أيضاً رحمه الله تعالى:

ولست أضل في طرق المعالي
ونار العز عالية الشعاع
ودوني المجد رأي مستطيل
وباع غير محبوب الذراع
ويعجبني البعاد كأن قلبي
يحدث عن عدي بن الرقاع

فرد نهى العلاء بلا رقيب
ولا تغررك قعقة الأعادي
ونحن أحق بالدنيا ولكن

وقال حارثة بن الغداني:

وشمر في الأمور بلا نزاع
فذاك الصخر خر من اليفاع
تخيرت القطوف على الوساع

أهان وأقصى ثم ينتصحووني
رأيت أكف المصلتين عليكم
متى تسألوني ما علي وتمنعوا ال

وقال بعض الخوارج:

ومن ذا الذي يعطي نصيحته قسراً !
ملاءً وكفي من عطائكم صفراً
ذي لي، لا أستطيع في ذلكم صبراً

تعيرني بالحرب عرسي وما درت
لحا الله قوماً يقعدون وعندهم

وقال الأعشى:

بأنّي لها في كل ما أمرت ضد
سيوف ولم يعصب بأيديهم قد

أبالموت خشتني عباد وإنما
وما مودة إن متها غير عاجز

وقال آخر:

رأيت منايا القوم يسعى دليها
بعارٍ إذا ما غالت النفس غولها

فلا أسمعن فيكم بأمر هزيمة
فإن السنان يركب المرء حده

ومثله:

وضيم ولا تسمع به هامتي بعدي
من الضيم، أو يعدو على الأسد الورد

إذا أنت لم تتصف أخاك وجدته
ويركب حد السيف من أن تضيمه

وقال آخر:

على طرف الهجران إن كان يعقل
إذا لم يكن عن شفرة السيف معدل

كرهوا الموت فاستبيح حماهم
أمن الموت تهربون فإن ال

وقال بشامة بن الغدير:

وأقاموا فعل اللئيم الذليل
موت الذليل غير جميل

وإن التي سامكم قومكم
أخزي الحياة وكره الممات
فإن لم يكن غير إحداهما

هم جعلوها عليكم عدولا
فكلاً أراه طعاماً وبيلاً
فسيروا إلى الموت سيراً جميلاً

ولا تقعدوا وبكم منة

كفى بالحوادث للمرء غولا

قال يزيد بن المهلب في حرب جرجان لأخيه أبي عيينة: ما أحسن منظرٍ رأيت في هذه الحرب؟ قال: سيف بن أبي سبرة وبيضته؛ وكان عبد الله بن أبي سبرة حمل على غلام تركي قد أفرج الناس له، وصدوا عنه لبأسه وشجاعته، فتضاربا ضربتين، فقتله ابن أبي سبرة بعد أن ضربه التركي في رأسه، فنشب سيفه في بيضة ابن أبي سبرة، فعاد إلى الصف وسيفه مصبوغ بدم التركي وسيف التركي في بيضته كجزء منها يلمع، فقال الناس: هذا كوكب الذنب، وعجبوا من منظره. وقال هذبة بن خشرم:

وإني إذا ما الموت لم يك دونه

قدى الشبر أحصى الأنف أن أتأخرا

ولكنني أعطي الحفيظة حقها

فأعرف معروفاً وأنكر منكرا

وقال آخر:

إني أنا المرء لا يغضي على ترة

ولا يقر على ضيم إذا غشما

ألقي المنية خوفاً أن يقال فتى

منهزما وقد ثبت الصفان أمسى

وقال آخر:

قوض خيامك والتمس بلداً

تنأى عن الغاشيك بالظلم

أو شد شدة بيهس فعسى

أن يتقوك بصفحة السلم

استنصر سبيع بن الخطيم التيمي من بني تيم اللات بن ثعلبة زيد الفوارس الضبي فنصره، فقال:

نبهت زيدا فلم أفرع إلى وكل

رث السلاح ولا في الحي مغمور

سألت عليه شعاب الحي حين دعا

أنصاره بوجوه كالدنانير

وقال أبو طالب بن عبد المطلب:

كذبتكم وبيت الله نخلي محمداً

ولما نطاعن دونه وناضل

وننصره حتى نصرع حوله

ونذهل عن أبنائنا والحلائل

لما برز علي وحمزة وعبيدة عليهم السلام يوم بدر إلى عتبة وشيبة والوليد، قتل علي عليه السلام الوليد، وقتل حمزة شيبة، على اختلاف في رواية ذلك: هل كان شيبة قرنه أم عتبة؟ وتجالد عبيدة وعتبة بسيفيهما، فجرح عبيدة عتبة في رأسه، وقطع عتبة ساق عبيدة؛ فكر علي وحمزة عليهما السلام على صاحبهما، فاستنقذهما من عتبة، وخطاهما بسيفهما حتى قتلاه واحتملا صاحبهما، فوضعهما بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، وهو يجود بنفسه، وإن مخ ساقه ليسيل، فقال: يا رسول الله، لو كان أبو طالب حياً لعلم أبي أولى منه بقوله:

كذبتكم وبيت الله نخلي محمداً

ولما نطاعن دونه وناضل

وننصره حتى نصرع حوله

ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: " اللهم أنجز لي ما وعدتني! اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ".

لما قدم جيش الحرة إلى المدينة، وعلى الجيش مسلم بن عقبة المري، أباح المدينة ثلاثاً، واستعرض أهلها بالسيف جزراً كما يجزر القصاب الغنم؛ حتى ساحت الأقدام في الدم، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين؛ على أنه عبد قن لأمر المؤمنين يزيد بن معاوية؛ هكذا كانت صورة المبايعة يوم الحرة، إلا علي بن الحسين بن علي عليهم السلام فإنه أعظمه وأجلسه معه على سرير، وأخذ بيعته على أنه أخو أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وابن عمه، دفعاً له عما بايع عليه غيره، وكان ذلك بوصاة من يزيد بن معاوية له، فهرب علي بن عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى إلى أخواله من كندة، فحموه من مسلم بن عقبة، وقالوا: لا نبايع ابن أختنا إلا على ما بايع عليه ابن عمه علي بن الحسين، فأبى مسلم بن عقبة ذلك، وقال: إني لم أفعل ما فعلت إلا بوصاة أمير المؤمنين، ولولا ذلك لقتلته، فإن أهل هذا البيت أجدر بالقتل، أو لأخذت بيعته على ما أخذت عليه بيعة غيره، وسفر السفراء بينه وبينهم، حتى وقع الاتفاق على أن يبايع ويقول: أنا أبايع لأمر المؤمنين يزيد بن معاوية، وألتزم طاعته، ولا يقول غير ذلك، فقال علي بن عبد الله بن العباس:

وأخوالي الملوك بنو وليعه

كتائب مسرف وبنو اللكيعة

فحالت دونه أيد منيعه

أبي العباس رأس بني قصي

هم منعوا ذماري يوم جاءت

أراد بي التي لا عز فيها

مسرف كناية عن مسلم، وأم علي بن عبد الله بن العباس زرة بنت مشرح بن معدي كرب ابن وليعة بن شرحبيل بن معاوية بن كندة.

قال الحصين بن الحمام:

ولا مرتقى من خشية الموت سلما

لنفسى حياةً مثل أن أتقدما

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

علينا، وهم كانوا أعق وأظلما

ملاقي المنايا أي صرف تيمما

ولست بمبتاع الحياة بسبة

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

نفلق هاماً من رجال أعزة

أبى لابن سلمى أنه غير خالد

ابن سلمى يعني نفسه، وسلمى أمه.

وقال الطرماح بن حكيم:

من الناس إلا بالقنا والقنابل

وما منعت دار ولا عز أهلها

وقال آخر:

وإن التي حدثتها في أنوفنا

وأعناقنا من الإباء كما هيا

وقال آخر:

فإن تكن الأيام فينا تبدلت

ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل

فما لينت منا قنأة صليبة

ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

ولكن رحلناها نفوساً كريمة

تحمل ما لا يستطاع فتحمل

وقال آخر :

إذا جانب أعيالك فاعمد لجانب

فإنك لاق في البلاد معولا

وقال أبو النشاش:

إذا المرء لم يسرح سواماً ولم يرح

سواماً ولم تعطف عليه أقاربه

فللموت خير للفتى من قعوده

عديماً ومن مولى تدب عقاربه

ولم أر مثل الهم ضاجعه الفتى

ولا كسواد الليل أخفق طالبه

فعش معدماً أو مت كريماً فإنني

أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه

وفد يحيى بن عروة بن الزبير على عبد الملك، فجلس يوماً على بابه ينتظر إذنه، فجرى ذكر عبد الله بن الزبير، فنال منه حاجب عبد الملك، فلطم يحيى وجهه حتى أدمى أنفه، فدخل على عبد الملك ودمه يجري من أنفه، فقال: من ضربك؟ قال: يحيى بن عروة، قال: أدخله - وكان عبد الملك متكئاً فجلس - فلما دخل قال: ما حملك على ما صنعت بحاجي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن عمي عبد الله كان أحسن جواراً لعمتك منك لنا، والله إن كان ليوصي أهل ناحيته ألا يسمعوها قذعاً، ولا يذكرهم عندها إلا بخير، وإن كان ليقول لها: من سب أهلك فقد سب أهلها، فأنا والله المعتم المخول، تفرقت العرب بين عمي وخالي، فكنت كما قال الأول:

يداه أصابت هذه حتف هذه

فلم تجد الأخرى عليها مقدا

فرجع عبد الملك إلى متكئه، ولم يزل يعرف منه الزيادة في إكرام يحيى وبعدها. وأم يحيى هذه ابنة الحكم بن أبي العاص عمة عبد الملك بن مروان، وقال سعيد بن عمر الحرشي أمير خارسان:

فلست لعامرٍ إن لم تروني

أمام الخيل أطعن بالعوالي

وأضرب هامة الجبار منهم

بماضي الغرب حودث بالصقال

فما أنا في الحروب بمستكين

ولا أخشى مصاولة الرجال

أبى لي والدي من كل ذم

وخالي حين يذكر خير خال

قال عبد الله بن الزبير لما خطب حين أتاه نعي مصعب: أما بعد، فإنه أتانا من العراق خير أفرحنا وأحزننا؛ أتانا خير قتل المصعب؛ فأما الذي أحزننا فلوعة يجدها الحميم عند فراق حميمه، ثم يرعوي بعدها ذو اللب إلى حسن الصبر وكرم العزاء.

وأما الذي أفرحنا، فإن ذلك كان له شهادة، وكان لنا وله خيرة، إنا والله ما نموت حبيجاً كما يموت آل أبي العاص؛ ما نموت إلا قتلاً قعصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف؛ فإن يهلك المصعب، فإن آل الزبير لخلقاً، وخطب مرة أخرى فذكره فقال: لوددت والله أن الأرض قاءتني عنده حين لفظ غصته وقضى نجبه.

شعر:

بلحم امرئٍ لم يشهد اليوم ناصره

خذيهِ فجرية ضباع وأبشري

وقال الشداخ بن يعمر الكناي:

يدخلكم من قتالهم فشل

قاتلوا القوم يا خزاع ولا

في الرأس لا ينشرون إن قتلوا

القوم أمثالكم لهم شعر

وقال يحيى بن منصور الحنفي:

أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر

ولما نأت عنا العشيرة كلها

ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

فما أسلمتنا عند يوم كريهة

قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال: عضضت بالجنديل؛ إنك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة، أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية، أو الاستيلاء على الملك؛ فلو كفنا عنها رويداً لأنت على نفوس العسكر بحذاويرها، فما كنا فاعلين لا أم لك! السخاء من باب الشجاعة، والشجاعة من باب السخاء؛ لأن الشجاعة إنفاق العمر وبذله فكانت سخاء، والسخاء إقدام على إتلاف ما هو عدل المهجة، فكان شجاعة.

أبو تمام في تفضيل الشجاعة على السخاء:

مال وقوم ينفقون نفوساً

كم بين قوم إنما نفقاتهم

قيل لشيخنا أبي عبد الله البصري رحمه الله تعالى: أتجد في النصوص ما يدل على تفضيل علي عليه السلام، بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه، فإن ذاك أمر مفروغ منه؟ فذكر حديث الطائر المشوي، وأن المحبة من الله تعالى إرادة الثواب. فقيل له: قد سبقك الشيخ أبو علي رحمه الله تعالى إلى هذا؛ فهل تجد غير ذلك؟ قال: نعم قول الله تعالى: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص"، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص، فكل من زاد ثباته؛ زادت المحبة له، ومعلوم أن علياً عليه السلام ما فر في زحف قط، وفر غيره في غير موطن، وقال أبو تمام:

تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في
والعلم في شهب الأرماع لامعة

وقال أبو الطيب المتنبي:

حتى رجعت واقلامي قوائلي
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به
أسمعتني ودوائي ما أشرت به
من اقتضى بسوى الهندي حاجته

قال عطف بن محمد الألوسي:

أمكابد الفرات مؤصدة
صرف همومك تتدب همماً
وليلة الميلاد مفرحة

في حده الحد بين الجد واللعب
متونهن جلاء الشك والريب
بين الخميسين لا في السبعة الشهب

المجد للسيف ليس المجد للقلم
فإنما نحن للأسياف كالخدم
فإن غفلت فدائي قلة الفهم
أجاب كل سؤالٍ عن هلٍ بلم

تلثد خوف القطع بالشلل
فالسكر يعقب نشوة الثمل
تنسي الحوامل أشهر الحبل

فالدر ليس يصاب في الوشل
والدور أكواراً على الإبل
غرب الحسام وغارب الجمل
ضعة الخمول وفترة الكسل
ما الرمي موقوفاً على ثعل
قد يستجاد السيف بالفلل

سر في البلاد تخوضها لججاً
واجعل لصبوتك الظبا سكناً
والعيش والوطن الممهد في
واشدد عليك وخذ إليك ودع
وارم العداة بكل صائبة
لا تحسب النكبات منقصة

وقال عروة بن الورد:

لحا الله صعلوكاً إذا جن ليله
يعد الغنى من نفسه كل ليلة
ينام عشاءً ثم يصبح ناعساً
يعين نساء الحي ما يستعنه
ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه
مطلاً على أعدائه يزجرونه

مصافى المشاش آفاً كل مجزر
أصاب قراها من صديق ميسر
يحت الحصا من جنبه المتغفر
ويمسي طليحاً كالبعير المحسر
كضوء شهاب القابس المتثور
بساحتهم زجر المنيح المشهر

وإن قعدوا لا يأمنون اقترابه

تشوف أهل الغائب المنتظر

فذلك إن يلق المنية يلقيها

حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

وقال آخر:

ولست بمولى سوءٍ أدعى لها

فإن لسوآت الأمور مواليا

وسيان عندي أن أموت وأن أرى

كبعض رجال يوطنون المخازيا

ولن يجد الناس الصديق ولا العدا

أديمي إذا عدواً أديمي واهيا

وإن نجاري يابن غنمٍ مخالف

نجار لئامٍ فابغني من ورائيا

ولست بهيابٍ لمن لا يهابني

ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا

إذا المرء لم يحببك إلا تكرهاً

عراض العلوق لم يكن ذلك باقيا

نهار بن توسعة في يزيد بن المهلب:

وما كنا نؤمل من أميرٍ

كما كنا نؤمل من يزيد

فأخطأ ظننا فيه وقدماً

زهدنا في معاشرة الزهيد

إذا لم يعطنا نصفاً أمير

مشينا نحوه مشي الأسود

كان هدية الإشكري - وهو ابن عم شوذب الخارجي الإشكري - شجاعاً مقداماً، وكان ابن عمه بسطام الملقب شوذباً الخارج في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً فحاربه، فانكشفت الخوارج، وثبت هدية وأبي الفرار، فقاتل حتى قتل، فقال أيوب بن خولي يرثيه:

فيا هذب للهيجا ويا هذب للندی

ويا هذب للخصم الألد يحاربه

ويا هذب كم من ملحمٍ قد أجبتّه

وقد أسلمته للرماح كتائبه

تزودت من دنياك درعاً ومغفراً

وعضباً حساماً لم تخنك مضاربه

وأجرد محبوبك السراة كأنه

إذا انفض وافي الريش حجن مخالفه

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه ترد إلى أبي مسلم بخراسان: إن استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم بالعربية إلا وقتلته فافعل، وأما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمة فاقتله، وعليك بمضر، فإنهم العدو القريب الدار، فأبد حضراءهم، ولا تدع على الأرض منهم دياراً، قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

وله:

ومن عرف الأيام معرفتي بها

وبالناس روى رمح غير راحم

فليس بمرحومٍ إذا ظفروا به

ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

وقال المتنبي أيضاً:

حياض خوف الردى للشاء والنعم

ردى حياض الردى يا نفس واطرحي

فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

إن لم أذكر على الأرماع سائلة

ومن أباة الضيم قتيبة بن مسلم الباهلي أمير الخراسان وما وراء النهر، لم يصنع أحد صنيعه في فتح بلاد الترك، وكان الوليد بن عبد الملك أراد أن يترع أخاه سليمان بن عبد الملك من العهد بعده، ويجعله في ابنه عبد العزيز بن الوليد، فأجابه إلى ذلك قتيبة بن مسلم الباهلي وجماعة من الأمراء، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك، وقام سليمان بالأمر بعده - وكان قتيبة أشد الناس في أمر سليمان وخلعه عن العهد - علم أنه سيعزله عن خراسان ويوليها يزيد بن المهلب، لود كان بينه وبين سليمان، فكتب قتيبة إليه كتاباً يهنئه بالخلافة، ويذكر بلائه وطاعته لعبد الملك وللوليد بعده، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خراسان، وكتب إليه كتاباً آخر يذكره فيه بفتوحه وآثاره، ونكايته في الترك، وعظم قدره عند ملوكهم، وهيبة العجم والعرب له وعظم صيته فيهم، ويذم آل المهلب، ويحلف له بالله: لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنه، وليملأها عليه خيلاً ورجلاً، وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلع سليمان، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به، وقال له: ادفع الكتاب الأول له، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً عنده، فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثاني، فإن قرأه وألقاه إليه أيضاً فادفع إليه الثالث، وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد، فاحتبس الكتابين الآخرين معك.

فقدم الرسول على سليمان، ودخل عليه وعنده يزيد بن المهلب، فدفع إليه الكتاب الأول، فقرأه وألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الثاني، فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضاً، فدفع إليه الكتاب الثالث، فقرأه وتغير لونه وطواه، وأمسكه بيده، وأمر بإنزال الرسول وإكرامه، ثم أحضره ليلاً، وأعطاه عهد قتيبة على خراسان، وكان ذلك مكيدة من سليمان يسكنه ليطمئن ثم يعزله، وبعث مع رسوله رسولاً، فلما كان بجلوان بلغه خلع قتيبة سليمان بن عبد الملك، فرجع رسول سليمان إليه، فلما اختلفت العرب على قتيبة حين أبدى صفحته لسليمان، وخلع ربة الطاعة، بايعوا وكيع بن أبي سود التميمي على إمارة خراسان، وكانت أمراء القبائل قد تنكرت لقتيبة لإذلاله إياهم، واستهانته بهم واستطالته عليهم، وكرهوا إمارته، فكانت بيعة وكيع في أول الأمر سرّاً، ثم ظهر لقتيبة أمره، فأرسل إليه يدعوه، فوجده قد طلا رجله بمغرة وعلق في عنقه خرزاً، وعنده رجلان يرقيان رجله، فقال للرسول: قد ترى ما برجلي! فرجع وأخبر قتيبة، فأعاده إليه، فقال: قل له ليأتي محمولاً، قال: لا أستطيع. فقال قتيبة لصاحب شرطته: انطلق إلى وكيع فأتني به، فإن أبي فاضرب عنقه، وأتني برأسه، ووجهه معه خيلاً. فقال وكيع لصاحب الشرطة: البث قليلاً تلحق الكتاب، وقام فلبس سلاحه، ونادى في الناس فأتوه، فخرج فتلقاه رجل، فقال: ممن أنت؟ فقال: من بني أسد، فقال: ما اسمك؟ فقال ضرغام، فقال: ابن من؟ قال: ابن ليث، فتيمن به وأعطاه رايته، وأتاه الناس أرسالاً من كل وجه، فتقدم بهم، وهو يقول:

شد الشراسيف لها والحزيم

قرم إذا حمل مكروهة

واجتمع إلى قتيبة أهله وثقاته، وأكثر العرب ألسنتهم له وقلوبهم عليه. فأمر قتيبة رجلاً فنادى: أين بنو عامر؟ - وقد كان قتيبة جفاهم في أيام سلطانه - فقال له مجفر بن جزء الكلابي: نادهم حيث وضعتهم، فقال قتيبة: أنشدكم الله والرحم - وذاك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان - فقال مجفر: أنت قطعته، قال: فلكم العتي، فقال مجفر: لا أقالنا الله إذاً، فقال قتيبة:

**يا نفس صبراً على ما كان من ألم
إذ لم أجد لفضول العيش أقرانا**

ثم دعا ببرذون له مدرب ليركبه، فجعل يمنعه الركوب حتى أعيأ. فلما رأى ذلك عاد إلى سريره فجلس، وقال: دعوه؛ فإن هذا أمر يراد. وجاء حيان النبطي - وهو يومئذ أمير الموالي، وعدتهم سبعة آلاف، وكان واحداً على قتيبة - فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة: احمل يا حيان، فقال: لم يأن بعد، فقال له: ناولني قوسك، فقال حيان: ليس هذا بيوم قوس.

ثم قال حيان لابنه: إذا رأيته قد حولت قلنسوتي، ومضيت نحو عسكر وكيع فمل بمن معك من العجم إلي، فلما حول حيان قلنسوته ومضى نحو عسكر وكيع، مالت الموالي معه بأسرها، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس، فرماه رجل من بني ضبة فأصاب رأسه، فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل، فوضعه على مصلاه، وجلس عند رأسه ساعة، وتهايج الناس، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوهم، فرماه الغوغاء وأهل السوق فقتلوه، وأشير على قتيبة بالانصراف، فقال: الموت أهون من الفرار. وأحرق وكيع موضعاً كانت فيه إبل قتيبة ودوابه، وزحف بمن معه حتى دنا منه، فقاتل دونه رجل من أهله قتالاً شديداً، فقال له قتيبة: انج بنفسك، فإن مثلك يضمن به عن القتل، قال: بتسما جزيتك به أيها الأمير إذاً، وقد أطعمتني الجرذق، وألبستني النمرق. وتقدم الناس حتى بلغوا فسطاط قتيبة، فأشار عليه نصحاؤه بالهرب، فقال: إذا لست لمسلم بن عمرو! ثم خرج إليهم بسيفه يجالدهم، فجرح جراحات كثيرة، حتى ارتث وسقط، فأكبوا عليه، فاحتزوا رأسه، وقتل من معه من إخوته عبد الرحمن، وعبد الله وصالح، والحصين، وعبد الكريم، ومسلم، وقتل معه جماعة من أهله وعدة من قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلاً. وصعد وكيع بن أبي سود المنبر وأنشد:

من ينك العير ينك نياكا

إن قتيبة أراد قتلي، وأنا قتال الأقران، ثم أنشد:

من غلوتين ومن المئين

خلوا عناني ثم سيبوني

فإنني رام لمن يرميني

قد جربوني ثم جربوني

حتى إذا شبت وشيبوني

حذار مني وتتكبوني

ثم قال: أنا أبو مطرف، يكررها مراراً، ثم قال:

للصالحات وومي قيس عيلانا

أنا ابن خندف تمني قبالها

ثم أخذ بلحيته، وقال: إني لأقتلن ثم لأقتلن ولأصلبن ثم لأصلبن، إن مرزبانكم هذا ابن الزانية، قد أغلى أسعاركم، والله لئن لم يصبر القفيز بأربعة دراهم لأصلبته، صلوا على نبيكم.

ثم نزل وطلب رأس قتيبة وخاتمه، فقبل له: إن الأزد أخذته، فخرج مشهراً ، وقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أبرح حتى أوتى بالرأس، أو يذهب رأسي معي، فقال له الحضيض بن المنذر: يا أبا مطرف فإنك تؤتي به. ثم ذهب إلى الأزد، فأخذ الرأس وأتاه به، فسيره إلى سليمان بن عبد الملك، فأدخل عليه ومعه رؤوس إخوته وأهله، وعنده الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي، فقال: أساءك هذا يا هذيل؟ فقال: لو ساءني لساء ناساً كثيراً. فقال سليمان: ما أردت هذا كله، وإنما قال سليمان ذاك للهذيل، لأن قيس عيلان تجمع كلاباً وباهلة، قالوا: ما ولي خراسان أحد كقتيبة بن مسلم؛ ولو كانت باهلة في الدناءة والضعفة واللؤم إلى أقصى غاية، لكان لها بقتيبة الفخر على قبائل العرب.

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتل قتيبة: يا معشر العرب، قتلتم قتيبة، والله لو كان منا ثم مات لجعلناه في تابوت، فكنا نستفتح به إذا غزونا.

وقال الأصمعي: يا معشر العرب، قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلب، لقد جئتم شيئاً إداً! فقبل له: أيهما كان أعظم عندكم وأهيب؟ قال: لو كان قتيبة بأقصى حجرة في المغرب، مكبلاً بالحديد والقيود، ويزيد معنا في بلدنا والعلينا، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم، وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يرثي قتيبة:

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر
ولم تخفق الرايات والجيش حوله
دعته المنايا فاستجاب لربه
فما رزئ الإسلام بعد محمدٍ

بجيشٍ إلى جيشٍ ولم يعل منبرا
صفوفاً ولم يشهد له الناس عسكرا
وراح إلى الجنات عفاً مطهرا
بمثل أبي حفص، فبكيه عبهرا

عبهرا: أم ولد له.

وفي الحديث الصحيح: "إن من خير الناس رجلاً ممسكاً بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة طار إليها".

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد: واعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو، فاحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة.

عمر: لا تزالون أصحاب ما نزعتم ونزوتهم؛ يريد: ما نزعتم في القوس، ونزوتهم على الخيل.

بعض الخوارج:

ومن يخش أظفار المنايا فإننا
لبسنا لهن السابغات من الصبر

وإن كرية الموت عذب مذاقه
إذا ما مزجناه بطيب من الذكر

حض منصور بن عمار في قصصه على الغزو والجهاد، فطرح في المجلس صرة فيها شيء، ففتحت فإذا فيها ضفیرتا امرأة، وقد كتبت: رأيتك يابن عمار تحض على الجهاد، والله إني لا أملك لنفسي مالاً، ولا أملك سوى ضفیرتي هاتين، وقد ألقيهما إليك، فتالله إلا جعلتهما قيد فرسٍ غازٍ في سبيل الله، فعمل الله أن يرحمني بذلك، فارتج المجلس بالبكاء

والضحيج.

لبعض شعراء العجم:

واسوءنا لامرئٍ شبيبته
راضٍ بنزر المعاش مضطهدٍ
لا حفظ الله ذاك من رجلٍ
كلا وربى حتى تكون فتىً
مشمراً يطلب الرئاسة أو
حتى متى تتبع الرجال ولا
عبد الله بن ثعلبة الأزدي:

ففلئن عمرت لأشفين
ولأعلمن البطن أن
أما النهار فقد أرى
في قرّة هلكٍ وشو
ترد السباع معي فتح
النفس من تلك المساعي
الزاد ليس بمستطاع
قومي بمراقبة يفاع
ك مثل أنياب الأفاعي
سبني السباع من السباع

مجير الجراد أبو حنبل حارثة بن مر الطائي، أجاز جرّاداً نزل به ومنع من صيده، حتى طار من أرضه، فسمي مجير الجراد.
وقال هلال بن معاوية الطائي:

وبالجبلىن لنا معقل
ملكناه في أوليات الزما
ومنا ابن مر أبو حنبلٍ
وزيد لنا ولنا حاتم
وقال يحيى بن منصور الحنفي:

ولما نأت عنا العشيرة كلها
فما أسلمتنا عند يوم كريهةٍ
أنخنا فخالفنا السيوف على الدهر
ولا نحن أغضينا الجفون على وتر
وقال آخر:

أرق لأرحامٍ أراها قريبةً
وإننا نرى أقدامنا في نعالهم
لحار بن كعب لا لجرمٍ وراسب
وأنفنا بين اللحى والحواسب

وإقدامنا يوم الوغى وإياعنا

إذا ما أبينا لا ندر لعاصب

حاصرت الترك مدينة بردعة من أعمال أذربيجان في أيام هشام بن عبد الملك حصاراً شديداً، واستضعفتها وكادت تملكها، وتوجه إليها لمعاونتها سعيد الحرشي من قبل هشام بن عبد الملك في جيوش كثيفة، وعلم الترك بقربه منهم فخافوا، وأرسلوا سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل بردعة سراً يعرفهم وصوله، ويأمرهم بالصبر خوفاً ألا يدركهم، فسار الرجل، ولقيه قوم من الترك، فأخذوه وسألوه عن حاله، فكتمهم فعذبوه، فأخبرهم وصدقهم فقالوا: إن فعلت ما نأمرك به أطلقناك، وإلا قتلناك، فقال: ما تريدون؟ قالوا: أنت عارف بأصحابك ببردعة وهم يعرفونك، فإذا وصلت تحت السور فنادهم: إنه ليس خلفي مدد، ولا من يكشف ما بكم، وإنما بعثت جاسوساً. فأجابهم إلى ذلك، فلما صار تحت سورها، وقف حيث يسمع أهلها كلامه، وقال لهم: أتعرفوني؟ قالوا: نعم، أنت فلان ابن فلان. قال: فإن سعيداً الحرشي قد وصل إلى مكان كذا في مائة ألف سيف، وهو يأمركم بالصبر وحفظ البلد، وهو مصبحكم أو ممسيكم، فرفع أهل بردعة أصواتهم بالتكبير، وقتلت الترك ذلك الرجل، ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين، وقال الراجز:

من كان ينوي أهله فلا رجع

فر من الموت وفي الموت وقع

أشرف معاوية يوماً فرأى عسكر علي عليه السلام بصفين فهاله، فقال: من طلب عظيماً خاطر بعظيمته، وقال الكلجة:

إذا المر لم يغش المكاره أو شكت

جبال الهوينى بالفتى أن تقطعا

ومن شعر الحماسة :

أقول لها وقد طارت شعاعاً

من الأبطال ويحك لا تراعي

فإنك لو سألت بقاء يوم

على الأجل الذي لك لم تطاعي

فصبراً في مجال الموت صبراً

فما نيل الخلود بمستطاع

ولا ثوب البقاء بثوب عزٍ

فيطوى عن أخي الخنع اليراع

سبيل الموت غاية كل حي

فداعيه لأهل الأرض داع

ومن لا يعتبط يسأم ويهرم

وتسلمه المنون إلى انقطاع

وما للمرء خير في حياةٍ

إذا ما عد من سقط المتاع

ومنه أيضاً: وفي الشر نجاه حين لا ينجيك إحسان.

ومنه أيضاً:

ولم ندر إن جضنا عن الموت جيضة

كم العمر باقٍ والمدى متناول

ومنه أيضاً :

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة

ومنه أيضاً :

فلا تحسبي أنني تخشعت بعدكم

ولا أن نفسي يزدهيها وعيدكم

ومنه أيضاً :

سأغسل عني العار بالسيف جالباً

وأذهل عن داري وأجعل هدمها

ويصغر في عيني تلادي إذا انتنت

فإن تهدموا بالغدر داري فإنها

أخي عزمات لا يطيع على الذي

إذا هم ألقى بين عيني عزمه

فيألزام رشحوا بي مقدماً

إذا هم لم تردع عزيمة همه

ولم يستشر في أمره غير نفسه

ومنه أيضاً :

هما خطتا إما إيسار ومنة

ومنه أيضاً :

وإننا لقوم لا نرى القتل سبةً

يقصر حب الموت آجالنا لنا

وما مات منا سيد حتف أنفه

تسيل على حد الظبابة نفوسنا

ومنه أيضاً :

لا يركنن أحد إلى الأحجام

فلقد أراني للرماح دريئةً

حتى خضبت بما تحدر من دمي

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب

يرى غمرات الموت ثم يزورها

لشيء ولا أنني من الموت أفرق

ولا أنني بالمشي في القيد أخرق

علي قضاء الله ما كان جالبا

لعرضي من باقي المذمة حاجبا

يميني بإدراك الذي كنت طالبا

تراث كريم لا يبالي العواقبا

يهم به من مفضع الأمر عاتبا

ونكب عن ذكر العواقب جانبا

إلى الموت خواضاً إليه السباسباً

ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا

ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

وإما دم، والقتل بالحر أجدر

إذا ما رآته عامر وسلول

وتكرهه آجالهم فتطول

ولا طل منا حيث كان قتيلا

وليست على غير السيوف تسيل

يوم الوغى متخوفاً لحمام

من عن يميني تارةً وأمامي

أكناف سرجي أو عنان لجامي

جذع البصيرة قارح الأقدام

ومنه أيضاً :

بإقدام نفسي لا أريد بقاءها

وإني لدى الحرب الضروس موكل

لنفسى إلا قد قضيت قضاءها

متى يأت هذا الموت لا تلف حاجة

كتب عبد الحميد بن يحيى عن مروان بن محمد إلى أبي مسلم كتاباً، حمل على جملٍ لعظمه وكثرته. وقيل: إنه لم يكن في الطول إلى هذه الغاية، وقد حمل على جمل تعظيماً لأمره، وقال لمروان بن محمد: إن قرأه خالياً نخب قلبه، وإن قرأه في ملاء من أصحابه ثبطهم وخذلهم، فلما وصل إلى أبي مسلم أحرقه بالنار ولم يقرأه، وكتب على بياض كان على رأسه وأعاده إلى مروان:

إليك ليوث الغاب من كل جانب

محا السيف أسطار البلاغة وانتحت

يهون عليها العتب من كل عاتب

فإن تقدموا نعمل سيوفاً شحيذة

ويقال: إن أول الكتاب كان: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحاً. وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار، وهو أول كتاب صدر عن أبي مسلم إلى نصر، وذلك حين لبس السواد، وأعلن بالدعوة في شهر رمضان من سنة سبع وعشرين ومائة: أما بعد، فإن الله جل ثناؤه ذكر أقواماً فقال: " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً، استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً " .

فلما ورد الكتاب إلى نصر تعاضمه أمره، وكسر له إحدى عينيه، وقال: إن لهذا الكتاب لأخوات، وكتب إلى مروان يستصرخه، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجده، فقعدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبد شمس.

الرضي الموسوي رحمه الله تعالى:

وإن لم أستفد إلا عناء

سأمضي للتي لا عيب فيها

أصابني بي الحمام أو العلاء

وأطلب غاية إن طوحت بي

أفاض علي تلك الكبرياء

ثمانى من أباة الضيم آب

إذا أنت لددته بالذل قاء

ومنا كل أغلب مستमित

وقام على برائته إباء

إذا ما ضيم نمر صفحتيه

وأن نعطي مقارنا السواء

ونأبى أن ينال النصف منا

لما سمنا الورى إلا العداء

ولو كان العداء يسوغ فينا

وله:

ويعطيك المثقف ما تشاء

سيقطعك المهند ما تمنى

ومن أهل الإباء الذين كرهوا الدنيا واختاروا عليها المنية، عبد الله بن الزبير، تفرق عنه - لما حاربه الحجاج بمكة، وحصره في الحرم - عامة أصحابه، وخرج كثير منهم إلى الحجاج في الأمان؛ حتى حمزة وخبيب ابنه، فدخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكانت قد كف بصرها، وهي عجوز كبيرة، فقال لها: خذني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا من ليس عنده من الدفع أكثر من ساعة، والقوم يعطونني من الدنيا ما سألت، فما رأيك؟ فقالت: أنت يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل أكثر أصحابك، فلا تمكن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن كنت قاتلت على الحق، فما وهن أصحابك إلا ضعفت، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين. وكم خلودك في الدنيا! القتل أحسن.

فدنا عبد الله منها فقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، والله ما ركنت إلى الدنيا وأحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله تعالى عز وجل أن تستحل محارمه، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك، فقد زدني بصيرة، فانظري يا أمه، إني مقتول يومي هذا، فلا يشتد جزعك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يظلم مسلماً ولا معاهداً، ولا بلغني ظلم عن عامل من عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء عندي أثر من رضا الله. اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، أنت أعلم بي؛ ولكني أقوله تعزيةً لأمي لتسلو عني. فقالت: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتي؛ فأخرج لأنظر إلى ماذا يصير أمرك! فقال: جزاك الله خيراً يا أمي! فلا تدعي الدعاء لي حياً وميتاً. قالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطلٍ فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب في الظلماء، وذلك الصوم في هواجر مكة والمدينة، وبره بأبيه وبني؛ اللهم إني قد أسلمت لأمرك، ورضيت بما قضيت فيه، فأثبني عليه ثواب الصابرين.

وقد روي في قصة عبد الله مع أمه أسماء رواية أخرى، أنه لما دخل عليها وعليه الدرع والمغفر - وهي عمية لا تبصر - وقف فسلم، ثم دنا فتناول يدها فقبلها، قالت: هذا وداع فلا تبعد، فقال: نعم، إنما جئت مودعاً، إني لأرى هذا اليوم آخر أيامي من الدنيا، واعلمي يا أمي أي إذا قتلت فإنما أنا لحم لا يضرني ما صنع بي، فقالت: صدقت يا بني! أقم على بصيرتك، ولا تمكن ابن أبي عقيل منك، ادن مني لأودعك، فدنا منها فقبلته وعانقته، فوجدت مس الدرع، فقالت: ما هذا صنع من يريد ما تريد. فقال: إنما لبسته لأشد منك، قالت: إنه لا يشد مني، ثم انصرف عنها وهو يقول:

إني إذا أعرف يومي أصبر

إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

وأقام أهل الشام على كل باب من أبواب الحرم رجالاً وقائداً؛ فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبه، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم. وخرج ابن الزبير فمرة يحمل ههنا ومرة يحمل ههنا، وكأنه أسد لا يقدم عليه الرجال، وأرسلت إليه زوجته: أأخرج فأقاتل معك؟ فقال: لا، وأنشد:

فلما كان الليل، قام يصلي إلى قريب السحر ثم أغفى محتثياً بحمائل سيفه، ثم قام فتوضأ وصلى، وقرأ " ن والقلم وما يسطرون "، ثم قال بعد إنقضاء صلاته: من كان عني سائلاً فإني في الرعيل الأول، ثم أنشد:

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتقى من خشية الموت سالما

ثم حمل حتى بلغ الحجون ، فرمي بآجرة، فأصاب وجهه فدمي، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه، أنشد:

ولسنا على الأعقاب تدى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم حمل على أهل الشام فغاص فيهم، واعتوروه بأسيا فمهم حتى سقط، وجاء الحجاج فوقف عليه وهو ميت، ومعه طارق بن عمرو، فقال: ما ولدت النساء أذكر من هذا! وبعث برأسه إلى المدينة، فنصب بها، ثم حمل إلى عبد الملك. أبو الطيب المتنبي:

أطاعن خيلاً من فوراسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعني الصبر!

وأشجع مني كل يوم سلامتي وما تثبت إلا وفي نفسها أمر

تمرست بالآفات حتى تركتها تقول: أمات الموت أم زعر الذعر؟

وأقدمت إقدام الأبى كأن لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر

ذر النفس تأخذ قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر!

ولا تحسبن المجد زقاً وقينةً فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب هامات الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركك في الدنيا دويماً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وقال ابن حيوس:

ولست كمن أخنى عليه زمانه فظل على أحداثه يتعتب

تلد له الشكوى وإن لم يفد بها صلاحاً كما يلتذ بالحك أجرب

ولكنني أحمي ذماري بعزيمة تتوب مناب السيف والسيف مقضب

وليس الفتى من لم تسم جسمه الظبا ويحطم فيه من قنا الخط أكعب

وله أيضاً:

أخفق المترف الجنوح إلى الخفض وفاز المخاطر المقدام

وإذا ما السيوف لم تشهد الحر ب فسيان صارم وكهام

ومن تقبل مذاهب الأسلاف في إباء الضيم والكراهية الذل، واختار القتل على ذلك وأن يموت كريماً؛ أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، أمه أم ولد، وكان السبب في خروجه وخلعه طاعة بني مروان، أنه كان يخاصم عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام في صدقات علي عليه السلام، هذا يخاصم عن بني حسين، وهذا عن بني حسن، فتنازعا يوماً عند خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم أمير المدينة، فأغلظ كل واحد منهما لصاحبه، فسر خالد بن عبد الملك بذلك، وأعجبه سبأهما وقال لهما حين سكما: اغدوا علي، فلست بآبن عبد الملك إن لم أفصل بينكما غداً، فباتت المدينة تغلي كالمرجل، فمن قائل يقول: قال زيد كذا، وقائل يقول: قال عبد الله كذا، فلما كان الغد جلس خالد في المسجد، وجمع الناس؛ فمن بين شامت، ومغموم، ودعا بهما وهو يحب أن يتشامتا، فذهب عبد الله يتكلم، فقال زيد: لا تعجل يا أبا محمد، أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبداً، ثم أقبل على خالد، فقال له: أجمعت ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر، فقال خالد: أما لهذا السفه أحد يكلمه! فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم، فقال: يابن أبي تراب، ويابن حسين السفه! أما ترى عليك لوالٍ حقاً ولا طاعة! فقال زيد: اسكت أيها القحطاني، فإننا لا نجيب مثلك، فقال الأنصاري: ولم ترغب عني! فوالله إني لخير منك، وأبي خير من أبيك، وأمي خير من أمك! فتضاحك زيد، وقال: يا معشر قريش؛ هذا الدين قد ذهب؛ أفذهبت الأحساب! فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: كذبت أيها القحطاني، والله هو خير منك نفساً وأباً وأماً ومحتداً، وتناوله بكلام كثير، وأخذ كفاً من الحصا، فضرب به الأرض، وقال: إنه والله ما لنا على هذا من صبر، وقام.

فقام زيد أيضاً، وشخص من فوره إلى هشام بن عبد الملك، فجعل هشام لا يأذن له وزيد يرفع إليه القصص، وكلما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها: ارجع إلى أرضك، فيقول زيد: والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبداً. ثم أذن له بعد حبسٍ طويل وهشام في عليّة له، فرقي زيد إليها، وقد أمر هشام خادماً له أن يتبعه حيث لا يراه زيد، ويسمع ما يقول. فصعد زيد - وكان بادناً - فوق في بعض الدرجة، فسمعه الخادم، وهو يقول: ما أحب الحياة إلا من ذل! فأخبر الخادم هشاماً بذلك، فلما قعد زيد بين يدي هشام وحده حلف له على شيء، فقال هشام: لا أصدقك، فقال زيد: إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه. قال له هشام: إنه بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمناها، ولست هناك! لأنك ابن أمة، فقال زيد: إن لك جواباً، قال: تكلم، قال: إنه ليس أحد أولى بالله، ولا أرفع درجة عنده من نبي ابتعثه؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم، وهو ابن أمة، قد اختاره الله لنبوته، وأخرج منه خير البشر، فقال هشام: فما يصنع أخوك البقرة! فغضب زيد، حتى كاد يخرج من إهابه، ثم قال: سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الباقر وتسميه أنت البقرة! لشد ما اختلفتما! لتخالفنه في الآخرة، كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة وترد النار.

فقال هشام: خذوا بيد هذا الأحق المائق، فأخرجوه، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه، فقال هشام: احمّلوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله، فقال زيد: والله لئن حملتني إليه لا أجمع أنا وأنت حينين، وليموتن الأعجل منا. فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة، ومعه نفر يسيرونه حتى طردوه عن حدود الشام، فلما فارقه عدل إلى العراق، ودخل الكوفة وباع نفسه، فأعطاه

البيعة أكثر أهلها، والعامل عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي، فكان بينهما من الحرب ما هو مذكور في كتب التواريخ. وخذل أهل الكوفة زيدا، وتخلف معه ممن تابعه نفر يسير، وأبلى بنفسه بلاءً حسناً وجهاداً عظيماً، حتى أتاه سهم غرب، فأصاب جانب جبهته اليسرى، فثبت في دماغه فحين نزع منه مات عليه السلام. عنف محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام زيدا لما خرج، وحذره القتل، وقال له: إن أهل العراق خذلوا أباك علياً وحسناً وحسيناً عليهم السلام، وإنك مقتول وإنهم خاذلوك، فلم يثن ذلك عزمه وتمثل:

أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

لا بد أن أسقى بذاك المنهل

متلي، إذا نزلوا بضيق المنزل

أنني امرؤ سأموت إن لم أقتل

بكرت تخوفني الحتوف كأنني

فاجبتها إن المنية منهل

إن المنية لو تمثل مثلت

فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي

العلوي البصري صاحب الزنج يقول:

موت الملوك على صعود المنبر

ولك الأمان من الذي لم يقدر

وإذا تنازعني أقول لها قري

ما قد قضى سيكون فاصطبري له

وقال أيضاً:

كمسجد الخيف في بحبوحة الخيف

إلا وعزمته أمضى من السيف

إن قومي في أنساب قومهم

ما علق السيف منا يابن عاشر

بعض الطالبين:

إذا ما انتضين ليوم سفوك

وأغمادهن رؤوس الملوك

وإننا لتصبح أسيفنا

منابرهن بطون الأكف

بعض الخوارج يصف أصحابه:

ومن الخشوع كأنهم أحبار

متبسمين وفيه استبشار

فرحاً إذا خطر القنا الخطار

تالله عند نفوسهم لصغار

وهم لدي أحبة أبرار

يا لهف كيف يفوتني المقدار!

وهم الأسود لذي العرين بسالة

يمضون قد كسروا الجفون إلى الدعاء

فكأنما أعداؤهم أحبابهم

يردون حومات الحمام وإنها

ولقد مضوا وأنا الحبيب إليهم

قدر يخلفني ويمضيهم به

وفي الحديث المرفوع: "خلقان يحبهما الله: الشجاعة والسخاء".

كان بشر من المعتمر من قدماء شيوخننا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علي عليه السلام ويقول: كان أشجعهم وأسخاهم،

ومنه سرى القول بالفضل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة، وفي كثير من البصريين.

دخل نصر بن راشد العبدي على امرأته في حرب الترك بخراسان في ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المري في خلافة هشام بن عبد الملك، والناس يقتتلون، فقال لها: كيف تكونين إذا أتيت بي في لبدٍ قتيلاً مضرراً بالدماء؟ فشقت جيبتها، ودعت بالويل، فقال: حسبك! لو أعولت علي كل أنثى لعصيتها شوقاً إلى الجنة. ثم خرج فقاتل حتى قتل، وحمل إلى امرأته في لبد ودمه يقطر من خلاله، قال أبو الطيب المتنبي:

إذا غامرت في شرفٍ مروم
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ
يرى الجبناء أن الجبن حزم
وكل شجاعة في المرء تغني
فلا تقنع بما دون النجوم
كطعم الموت في أمرٍ عظيم
وتلك خديعة الطبع اللئيم
ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وقال:

إذا لم تجد ما يبتز العمر قاعداً
فقم واطلب الشيء الذي يبتز العمر

وقال:

أهم بشيء والليالي كأنها
وحيداً من الخلان في كل بلدة
تطاردني عن كونه وأطارد
إذا عظم المطلوب قل المساعد

قيل لأبي مسلم في أيام صباه: نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنك تسترق السمع، أو تنتظر نزول الوحي! قال: لا، ولكن لي همة عالية، ونفس تتطلع إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج والرعاع، وحال متناهية في الاتضاع. قيل: فما الذي يشفي علتك، ويروي غلتك؟ قال: الملك، قيل: فاطلب الملك، قال: إن الملك لا يطلب هكذا. قيل: فما تصنع وأنت تذوب حسراً، وتموت كمداً؟ قال: سأجعل بعض عقلي جهلاً، وأطلب به ما لا يطلب إلا بالجهل، وأحرس بالباقي ما لا يحرس إلا بالعقل، فأعيش بين تدبير ضدين، فإن الخمول أخو العدم، والشهرة أخت الكون.

قال ابن حيوس:

أمواتهم بالذكر كالأحياء
نزلوا على حكم المروءة وامتطوا
ولحيهم فضل على الأحياء
والعز لا يبقى لغير معود
بالبأس ظهر العزة القعساء
لا تحسب الضراء ضراء إذا
أن يكشف الغماء بالغماء
أفضت بصاحبها إلى السراء

وقال:

وهي الرياسة لا تبوح بسرها
إلا لأروع لا يباح ذماره

يحمي حماه قلبه ولسانه

وتذود عنه يمينه ويساره

لا العذل ناهيه، ولا الحرص الذي

أمر النفوس بشحها أماره

فليعلم الساعي ليلبلغ ذا المدى

أن الطريق كثيرة أخطاره

كان ثابت قطنة في خيل عبد الله بن بسطام في فتح شكند من بلاد الترك في أيام هشام بن عبد الملك، فاشتدت شوكة الترك، وانحاز كثير من المسلمين واستؤسر منهم خلق، فقال ثابت: والله لا ينظر إلي بنو أمية غداً مشدوداً في الحديد، أطلب الفداء؛ اللهم إن كنت ضيف ابن بسطام البارحة، فاجعلني ضيفك الليلة، ثم حمل وحمل معه جماعة، فكسرتهم الترك، فرجع أصحابه وثبت هو، فرمي برذونه فشب، وضربه فأقدم، فصرع ثابت وارتث، فقال: اللهم إنك استجبت دعوتي وأنا الآن ضيفك، فاجعل قراري الجنة؛ فتزل تركي فأجهز عليه.

قال يزيد بن المهلب لابنه خالد، وقد أمره على جيش في حرب جرجان: يا بني، إن غلبت على الحياة فلا تغلبن على الموت، وإياك أن أراك غداً عندي مهزوماً! عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الخير في السيف، والخير مع السيف، والخير بالسيف"، كما يقال: النية ولا الدنية، والنار ولا العار، والسيف ولا الحيف. قال سيف بن ذي يزن لأنوشروان حين أعانه بوهرز الديلمي ومن معه: أيها الملك، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفاً؟ فقال: يا أعرابي، كثير الخطب يكفيه قليل من النار.

لما حبس مروان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السفاح، وأخوه أبو جعفر، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد أبناء علي بن عبد الله بن العباس، وعيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس، من الحميمة من أرض الشراة، يطلبون الكوفة، وقد كان داود بن علي بن عبد الله بن العباس وابنه موسى بن داود بالعراق، فخرجوا يطلبان الشام، فتلقاهما أبو العباس وأهل بيته بدومة الجندل، فسألهم داود عن خروجهم، فأخبروه أنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها، ويدعوا إلى البيعة لأبي العباس. فقال: يا أبا العباس، يظهر أمرك الآن بالكوفة، ومروان بن محمد شيخ بني أمية بخران مطلق على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة، ويزيد بن عمر بن هبيرة شيخ العرب بالعراق في فرسان العرب! فقال: يا عم من أحب الحياة ذل، ثم تمثل بقول الأعشى:

فما مية إن متها غير عاجزٍ

بعارٍ إذا ما غالت النفس غولها

فقال داود لابنه موسى: صدق ابن عمك، ارجع بنا معه، فإما أن تهلك أو تموت كراماً.

وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة: إن ثلاثة عشر رجلاً من ديارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة همهم، كبيرة نفوسهم، شديدة قلوبهم. أبو الطيب المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت في مرادها الأجسام

إلى أي حين أنت في زي محرم
وإلا تمت تحت السيوف مكرماً
فثب وثقاً بالله وثبة ماجد
وحتى متى في شقوة وإلى كم!
تمت وتقاسي الذل غير مكرم
يرى الموت في الهيجاجنى النحل في الفم

وقال آخر:

إن تقتلونني فأجال الرجال كما
وإن سلمت لوقت بعده فعسى
وكل شيء إلى حد ومقدار
حدثت قتل وما بالقتل من عار

خطب الحجاج، فشكا سوء طاعة أهل العراق، فقام إليه جامع المحاري، فقال: أيها الأمير، دع ما يباعدكم منك إلى ما يقرهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تعطيها ممن فوقك، فلو أحبوك لأطاعوك، إنهم ما شأوك ينسبك ولا لبأوك، ولكن لإيقاعك بعد وعيدك، ووعدك بعد وعدك.
فقال الحجاج: ما أراي أرد بني اللكية إلى طاعتي إلا بالسيف، فقال جامع: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار، فقال الحجاج: الخيار يومئذ لله، فقال: أجل، ولكنك لا تدري لمن جعله الله، فقال: يا هناء، إيهما فإنك من محارب، فقال جامع:

وللحرب سميناً فكنا محارباً
إذا ما القنا أمسى من الطعن أحمرأ

ومن الشعر الجيد في تحسين الإباء والحمية والتحريض على النهوض والحرب وطلب الملك والرياسة، قصيدة عمارة اليميني شاعر المصريين في فخر الدين توران شاه بن أيوب، التي يغريه فيها بالنهوض إلى اليمن، والاستيلاء على ملكها، وصادفت هذه القصيدة محلاً قابلاً، وملك توران شاه اليمن بما هزت هذه القصيدة من عطفه، وحركت من عزمه، وأولها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم
وخير خيلك إن غامرت في شرف
إن المعالي عروس غير واصله
تري مسامع فخر الدين تسمع ما
فإن أصبت فلي حظ المصيب وإن
كم تترك البيض في الأجفان ظامئة
ومقلة المجد نحو العزم شاخصة
فعمك الملك المنصور سومها
واخلق لنفسك أمراً لا تضاف به
وانه المشيرين إن لجت نصيحتهم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
عزم يفرق بين الساق والقدم
ما لم تخلق رداً عليها بنضح دم
أملاه خاطر أفكاري على قلبي
أخطأت قصدك فاعذرني ولا تلم
إلى الموارد في الأعناق والقمم
فاترك قعودك عن إدراكها وقم
من الفرات إلى مصر بلا سأم
إلى سواك، وأور النار في العلم
أولاً، فأنعم على العميان بالصمم

واعزم وصمم فقد طالت وقد سمجت

قضية لفظتها ألسن الأمم

فرب أمر يهاب الناس غايته
فكيف إن نهضت فيما هممت به
لا يدرك المجد إلا كل مقتحم
لا ينقض الخطوة الأولى بثانية
كأنما السيف أفتاه بقتلهم
ولم يراعوا لعثمان ولا عمر
فما تروم سوى فتح صوارمه
حتى كأن لسان السيف في يده
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
وقد ترقى إلى أن صار طالعه
وكان أول هذا الدين من رجل
والأمر أهون فيه من يد لقم
أسد تسير من الخطي في أجم
في موج ملتطم أو فوج مضطرم
ولا يفكر في العقبي من الندم
في فتح مكة حل القتل في الحرم
ولا الحسين نمام الأشهر الحرم
يضحك في كل يوم عابس البهم
يروى الشريعة عن عادٍ وعن إرم
فيما يقول الورى لحماً على وضم
من الكواكب بالأنفاس والكظم
سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

- كذب، لم يظهر الدين الحنيف المقدس على الأديان بسعي البشر، بل بالتأييد الإلهي، والسر الرباني، صلوات الله وسلامه على القائم به، والمتحمل له -

والبدر يبدو هلالاً ثم يكشف بال
والغيث فهو كما قد قيل أوله
تنمو قوى الشيء بالتدريج إن رزقت
حاسب ضميرك عن رأي أذاك وقل
أقسمت ما أنت ممن جل همته
وإنما أنت مرجو لو واحدة
كأنني بالليالي وهي هاتفة
وبالعلا كلما لاقتك قائلة
أنوار ما سترته شملة الظلم
قطر وبدء خراب السد بالعرم
لطفاً ويقوى شرار النار بالضررم
نصيحه وردت من غير متهم
ما راق من نعم أورك من نعم
بنى بها الدهر مجداً غير منهدم
قد صم سمع رجال دونها وعمي
أهلاً بمنشر آمالي من الرمم

ومن أباة الضيم الذين اختاروا القتل على الأسر، والموت على الدنية، مصعب بن الزبير، كان أمير العراقيين من قبل عبد الله بن الزبير، وكان قد كسر جيوش عبد الملك مراراً، وأعياه أمره، فخرج إليه من الشام بنفسه، فليم في ذلك، وقيل له: إنك تغرر بنفسك وخلافتك، فقال: إنه لا يقوم لحرب مصعبٍ غيري؛ هذا أمر يحتاج إلى أن يقوم به شجاع ذو رأي، وربما بعثت شجاعاً ولا رأي له، أو ذا رأي ولا شجاعة عنده، وأنا بصير بالحرب، شجاع بالسيف، فلما أجمع الخروج

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

إلى حرب مصعب، جاءت امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فالتزمته، وبكت لفراقه، وبكى جواربها حولها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي جمعة! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول:

حصان عليها نظم در يزینها

إذا هم بالأعداء لم يثن عزمه

بكت فبکی مما عراها قطینها

نهته فلما لم تر النهي عاقه

فسار عبد الملك حتى إذا كان بمسكن من أرض العراق، وقد دنا منه عسكر مصعب، تقاعد بمصعب أصحابه وقواده وخذلوه، فقال لابنه عيسى: الحق بمكة فانج بنفسك، وأخبر عمك عبد الله بما صنع أهل العراق بي، ودعني فلاني مقتول، فقال: لا تتحدث نساء قريش أي فررت عنك، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل، فالفرار عار، ولا عار في القتل، ثم قاتل دونه حتى قتل. وخف من يحامي عن مصعب من أهل العراق، وأيقن بالقتل، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد ابن مروان، فأعطاه الأمان وولاية العراقيين أبداً ما دام حياً، وألفي ألف درهم صلة، فأبى وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا المكان إلا غالباً أو مقتولاً، فشد عليه أهل الشام ورموه بالنبل فأثخنوه، وطعنه زائدة بن قيس بن قدامة السعدي، ونادى: يا لثارات المختار! فوقع إلى الأرض، فترل إليه عبد الملك بن زياد بن ظبيان، فاحتر رأسه، وحمله إلى عبد الملك. لما حمل رأس مصعب إلى عبد الملك بكى وقال: لقد كان أحب الناس إلي وأشدّهم مودة لي، ولكن الملك عقيم. كتب مصعب إلى سكينه بنت الحسين عليه السلام، وكانت زوجته لما شخص إلى حرب عبد الملك وهي بالكوفة بعد ليال من فراقها:

حجاب فقد أصبحت مني على عشر

وكان عزيزاً إن أبيت وبيننا

إذا ازددت مثيلها فصرت على شهر

وأبكاها والله للعين فاعلمي

أخاف بالألا نلتقي آخر الدهر

وأنكى لقلبي منهما اليوم أنني

ثم أرسل إليها وأشخصها، فشهدت معه حرب عبد الملك، فدخل عليها يوم قتل، وقد نزع ثيابه ثم لبس غلالة، وتوشح بثوب واحد، وهو محتضن سيفه، فعلمت أنه غير راجع، فصاحت: واحزنه عليك يا مصعب! فالتفت إليها، وقال: إن كل هذا في قلبك! قالت: وما أخفي أكثر. قال: لو كنت أعلم هذا لكان لي ولك شأن، ثم خرج فلم يرجع. فقال عبد الملك يوماً لجلسائه: من أشجع الناس؟ فقالوا: قطري، شبيب، فلان وفلان، قال عبد الملك: بل رجل جمع بين سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد الله ابن عامر بن كريز، وقلابة ابنة زبان بن أنيف الكلبي سيد العرب، وولي العراقيين خمس سنين، فأصاب كذا وكذا ألف درهم، وأعطى الأمان على ذلك كله وعلى ولايته وماله فأبى، ومشى بسيفه إلى الموت حتى قتل، ذاك مصعب بن الزبير، لا من قطع الجسور مرة ها هنا ومرة ها هنا! سئل سالم بن عبد الله بن عمر، أي ابني الزبير أشجع؟ فقال: كلاهما جاءه الموت، وهو ينظر إليه. لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك أنشد:

غلاماً غير مناع المتاع

لقد أردى الفوارس يوم حسي

ولا فرح بخير إن أتاه

ولا هلع من الحدثان لاع

ولا وقافة والخيل تردي

ولا خال كأنبوب اليراع

كان ابن ظبيان، يقول: ما ندمت على شيء ندمي على ألا أكون لما حملت إلى عبد الملك رأس مصعب فسجد قتله في سجدته، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد.

قال رجل لعبد الله بن ظبيان: بماذا تحتج عند الله عز وجل غداً، وقد قتلت مصعباً؟ قال: إن تركت أحتج كنت أخطب من صعصة بن صوحان! كان مصعب لما خرج إلى حرب عبد الملك سأل الحسين بن علي عليه السلام، وكيف كان قتله؟ فجعل عروة بن المغيرة يحدث عن ذلك، فقال متمثلاً بقول سليمان بن قته:

وإن الألى من آل هاشم

تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

قال عروة: فعلمت أن مصعباً لا يفر.

لما كان يوم السبخة، وعسكر الحجاج بإزاء شبيب، قال له الناس: أيها الأمير، لو تنحيت عن هذه السبخة، فإنها منتنة الريح! قال: ما تنحوني - والله - إليه أنتن؟ وهل ترك مصعب لكريم مفراً! ثم أنشد قول الكلجة:

إذا المرء لم يغش الكريهة أو شكت

حبال الهوينى بالفتى إن تقطعا

وروى أبو الفرج في كتاب الأغاني: خطبة عبد الله بن الزبير في قتل مصعب برواية هي أتم مما ذكرناه نحن فيما تقدم، قال: لما أتى خبر المصعب إلى مكة، أضرب عبد الله بن الزبير عن ذكره أياماً؛ حتى تحدث به جميع أهل مكة في الطريق، ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم، فنظر الناس إليه؛ وإن الكآبة على وجهه لبادية، وإن جبينه ليرشح عرقاً، فقال واحد لآخر: ما له لا يتكلم؟ أترأه يهاب النطق! فوالله إنه لخطيب.؟ فما تراه يهاب؟ قال: أراه يريد أن يذكر قتل المصعب سيد العرب، فهو يقطع بذلك. فابتدأ فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، ملك الدنيا والآخرة، يعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ ألا إنه لا يذل من كان الحق معه وإن كان مفرداً ضعيفاً، ولا يعز من كان الباطل معه، وإن كان ذا عدد وكثرة. ثم قال: أتانا خبر من العراق، بلد الغدر والشقاق، فساءنا وسرنا، أتانا أن مصعباً قتل رحمه الله، فأما الذي أحزننا من ذلك فأن لفراق الحميم لذعة ولوعة، يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر، وأما الذي سرنا منه؛ فأن قتله كان شهادة؛ وإن الله جاعل لنا وله في ذلك الخيرة. ألا إن أهل العراق باعوه بأقل الأثمان وأحسرها، وأسلموه إسلام النعم المخطمة فقتل، وإن قتل لقد قتل أبوه وعمه وأخوه، وكانوا الخيار الصالحين، وإنا والله ما نموت حتف أنافنا، ما نموت إلا قتلاً قتلاً، وقعصاً قعصاً، بين قصد الرماح، وتحت ظلال السيوف؛ ليس كما نموت بنومروان؛ والله ما قتل منهم رجل في جاهلية ولا إسلام؛ وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا علي لا آخذها أخذ اللثيم البطر، وإن تدبر عني لا أبكي عليها بكاء الخرف المهتر. ثم نزل.

وقال الطرماح بن حكيم، وكان يرى رأي الخوارج:

وإني لمقتاد جوادي فقاذف

به وبنفسي اليوم إحدى المتالف

لأُكسب مالاً أو أأوب إلى غنى
من الله يكفيني عداة الخلائف
فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن
على شرجعٍ يعلى بخضر المطارف
ولكن قبري بطن نسرٍ مقيله
بجو السماء في نسور عواكف
وأُمسي شهيداً ثاوياً في عصابة
يصابون في فجٍ من الأرض خائف
فوارس أشتات يؤلف بينهم
هدى الله نزالون عند المواقف

قال ابن شبرمة: مررت يوماً في بعض شوارع الكوفة، فإذا بنعشٍ حوله رجال، وعليه مطرف خزر أخضر، فسألت عنه فقيل: الطرماح، فعلمت أن الله لم يستجب له، وقال محمد بن هانئ:

ولم أجد الإنسان إلا أين سعيه
فمن كان أسعى كان بالمجد أجدر
وبالهمة العليا إلى العلا
فمن كان أعلى همةً كان أظهر
ولم يتأخر من أراد تقدماً
ولم يتقدم من أراد تأخراً
الرضي الموسوي رحمه الله تعالى:
ومن أخرته نفسه مات عاجزاً
وله رحمه الله:

ما مقامي على الهوان وعندي
مقول صارم وأنف حمي
وإباء محلق بي عن الضيم كما زاغ طائر وحشي
أبو الطيب المتنبي:

تقولين ما في الناس مثلك عاشق
جدي مثل من أحببته تجدي مثلي
محب كنى بالبيض عن مرهفاته
وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني
جناها أحبائي وأطرافها رسلي
عدمت فؤاداً لم يبت فيه فضلة
لغير ثنايا الغر والحدق النجل
تريدين إدراك المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ابن الهبارية: الهمم العلية، والمهج الأبية، تقرب المنية، منك أو الأمنية.
أبو تمام:

فتى النكبات من يأوي إذا ما
قطفن به إلى خلقٍ وساع
يثير عجاجة في كل فجٍ
يهيم بها عدي بن الرقاع
يخوض مع السباع الماء حتى
لتحسبه السباع من السباع

قلب العزم إن حاولت يوماً

بأن تستطيع غير المستطاع

فلم تركب كناجية المهاري

ولم تركب همومك كالزماح

وله أيضاً:

إن خيراً مما رأيت من الصفح

عن النائبات والإغماض

غربة تقتدي بغربة قيس بن زهير

والحارث بن مضاض

غرضي نكبتين ما فتلا رأ

ياً فخافا عليه نكت انتقاض

من أبن البيوت أصبح في ثو

ب من العيش ليس بالفضفاض

صلتان أعداؤه حيث حلوا

في حديث من ذكره مستفاض

والفتى من تعرفته الليالي

والفيافي، كالحية النضناض

كل يوم له بصرف الليالي

فتكة مثل فتكة البراض

وله أيضاً:

إن تري حساماً صقيلاً

مشرفياً من السيوف الحداد

ثاني الليل ثالث البيد والسي

ر نديم النجوم ترب السهاد

أخذ هذا اللفظ أبو عبادة البحرني فقال:

يا نديمي بالسواجير من

شمس بن عمرو وبحتر بن عتود

اطلبا ثالثاً سواي فإني

رابع العيس والدجى والبيد

لست بالعاجز الضعيف ولا القا

ئل يوماً إن الغنى بالجدود

وإذا استصعبت مقادة أمر

سهلته أيدي المهاري القود

وقال الرضي رحمه الله تعالى:

ولم أر كالرجاء اليوم شيئاً

تنزل له الجماجم والرقاب

وبعض العدم مأثرة وفخر

وبعض المال منقصة وعاب

بناني والعنان إذا نبت بي

ربا أرض، ورجلي والركاب

وقد عرفت توقلي الليالي

كما عرفت توقلي العقاب

لأمنع جانباً وأفيد عزاً

وعز الموت ما عز الجناح

إذا هول دعاك فلا تهبه

فلم يبق الذين أبوا وهابوا

كليب عافسته يد وأودى

عتيبة يوم أقعص ذؤاب

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

سواء من أقل التراب منا
وإن مزابل العيش اعتباطاً
وأولنا العناء إذا طلعتنا
إلى كم ذا التردد في الأماني
ولا تقع يثار ولا قتام
ولا خيل معقدة النواصي
عليها كل ملتهب الحواشي
سأخطبها بحد السيف فعلاً
وآخذها وإن رغمت أنوف

ومن وارى معالمه التراب
مساو للذين بقوا وشابوا
إلى الدنيا، وآخرنا الذهاب
وكم يلوي بناظري السراب !
ولا طعن يشب ولا ضراب
يموج على شكائهما اللعاب
يصيب من العدو ولا يصاب
إذا لم يغن قول أو خطاب
مغالبه وإن ذلت رقاب

قعد سليمان بن عبد الملك يعرض ويفرض، فأقبل فتى من بني عبس وسيم، فأعجبه، فقال: ما اسمك؟ قال: سليمان، قال: ابن من؟ قال: ابن عبد الملك، فأعرض عنه، وجعل يفرض لمن دونه، فعلم الفتى أنه كره موافقة اسمه واسم أبيه، فقال: يا أمير المؤمنين لا عدمت اسمك، ولا شقي اسم يوافق اسمك! فافرض، فإنما أنا سيف بيدك، إن ضربت به قطعت، وإن أمرتني أطعت، وسهم في كنانتك، أشد إن أرسلت، وأنفذ حيث وجهت. فقال له سليمان، وهو يروزه ويختبره: ما قولك يا فتى، لو لقيت عدواً؟ قال: أقول: حسبي الله ونعم الوكيل. قال سليمان: أكنت مكتفياً بهذا لو لقيت عدوك دون ضرب شديد! قال الفتى: إنما سألتني يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل فأخبرتك، ولو سألتني: ما أنت فاعل لأنبأتك، إنه لو كان ذلك لضربت بالسيف حتى يتعقف، ولطعنت بالرمح حتى يتقصف، ولعلمت إن ألت فلأهزم يألمون، ولرجوت من الله ما لا يرجون، فأعجب سليمان به وألحقه في العطاء بالأشراف، وتمثل:

إذا ما اتقى الله الفتى ثم لم يكن
على أهله كلاً فقد كمل الفتى

السر تحت قوله: ثم لم يكن على أهله كلاً، يقال في المثل: لا تكن كلاً على أهلِكَ فتهلك.
عدي بن زيد:

فهل من خالدٍ إما هلكنا
وهل بالموت يا للناس عار

الرضي الموسوي رحمه الله تعالى:

إذا لم يكن إلا الحمام فإنني
وألبسها حمراء تضيفو ذيولها
فمن قبل ما اختار ابن الأشعث عيشه
فطار ذميماً قد تقلد عارها
وجاءهم يجري البريد برأسه

سأكرم نفسي عن مقال اللوائم
من الدم بعداً عن لباس الملاوم
على شرف عالٍ رفيع الدعائم
بشر جناح يوم دير الجماجم
ولم يغن إيغال به في الهزائم

وقد حاص من خوف الردى كل حيصة

وهذا يزيد بن المهلب نافرت

فقال وقد عن الفرار أو الردى

وما غمرات الموت إلا انغماسة

رأى أن السيف أهون محملاً

وما قلد البيض المباتير عنقه

فعاف الدنيا وامتطى الموت شامخاً

وقد خلقت خوف الهوان بمصعب

على حين أعطوه الأمان فعافه

وفي خدره غراء من آل طلحة

تحبب أيام الحياة وإنها

ففارقها والملك لما رآهما

ولما ألح الحوفزان من الردى

وغادرها شنعاء إن ذكرت له

فلم ينج والأقدار ضربة لازم

به الذل أعراق الجدود الأكارم

لحا الله أخزى ذكراً في المواسم

ولا ذي المنايا غير تهويم نائم

من العار يبقى وسمه في المخاطم

سوى الخوف من تقليدها بالأداهم

بمارن عز لا يذل لخاطم

قوادم آباء كرام المقادم

وخير فاختار الردى غير نادم

علاقة قلب للنديم المخالم

لأعذب من طعم الخلود لطاعم

يجران إذلال النفوس الكرائم

حذاه المخازي رمح قيس بن عاصم

من العار طاطا رأس خزيان واجم

كذاك مني بعد الفرار أمية

وسل لها سل الحسام ابن معمر

يردد ذكري كل نجد وغائر

وهددني الأعداء في المهد لم يحن

وعندي يوم لو يزيد ومسلم

على العزمت لامية مستيكنة

وخاطر على الجلى خطار ابن حرة

بشقشقة لوثاء من آل دارم

فكر على أعقاب ناب بصارم

والجم خوفي كل باغ وظالم

نهوضي ولم تقطع عقود تمانمي

بدا لهم لاستصغرا يوم واقم

تزيل عن الدنيا بشم المراغم

وإن راحم الأمر العظيم فزاحم

ومن أباة الضيم ومؤثري الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم، ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام. لما أحاطت عساكر عيسى بن موسى بمحمد وهو بالمدينة، قيل له: انج بنفسك، فإن لك خيلاً مضمرة ونجائب سابقة، فاقعد عليها، والتحق بمكة أو باليمن. قال: إني إذاً لعبد! وخرج إلى الحرب يياشرها بنفسه وبمواليه، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل، أشير عليه بالاستتار، فقال: إذن يستعرض عيسى أهل المدينة بالسيف، فيكون لهم يوم

كيوم الحرة ، لا والله لا أحفظ نفسي بهلاك أهل المدينة، بل أجعل دمي دون دمائهم. فبذل له عيسى الأمان على نفسه وأهله وأمواله، فأبى ونهد إلى الناس بسيفه، لا يقاربه أحد إلا قتله، لا والله ما يبقي شيئاً، وإن أشبه خلق الله به فيما ذكر هو حمزة بن عبد المطلب. ورمى بالسهم، ودهمته الخيل، فوقف إلى ناحية جدار، وتحاماه الناس فوجد الموت، فتحامل على سيفه فكسره؛ فالزيدية تزعم أنه كان سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا الفقار.

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين أن محمداً عليه السلام، قال لأخته ذلك اليوم: إني في هذا اليوم على قتال هؤلاء، فإن زالت الشمس، وأمطرت السماء فإني مقتول، وإن زالت الشمس ولم تمطر السماء، وهبت الريح، فإني أظفر بالقوم، فأجحي التناير، وهيئي هذه الكتب - يعني كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق - فإن زالت الشمس، ومطرت السماء فاطرحي هذه الكتب في التناير، فإن قدرتم عم بدني فخذوه، وإن لم تقدروا على رأسي فخذوا سائر بدني، فأتوا به ظلة بني بلية على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها، فاحفروا لي حفيرة، وادفوني فيها. فمطرت السماء وقت الزوال؛ وقتل محمد عليه السلام؛ وكان عندهم مشهوراً أن آية قتل النفس الزكية أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عاتكة، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت! فأمطرت السماء ذلك اليوم، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عاتكة، وأخذ جسده، فحفر له حفيرة في الموضع الذي حده لهم، فوقعوا على صخرة فأخرجوها، فإذا فيها مكتوب: هذا قبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام: رحم الله أخي، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن في هذا الموضع.

وروى أبو الفرج، قال: قدم على المنصور قادم، فقال: هرب محمد! فقال له: كذبت! إنا أهل البيت لا نفر. وأما إبراهيم عليه السلام، فروى أبو الفرج عن المفضل بن محمد الضبي، قال: كان إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن متوارياً عندي بالبصرة، وكنت أخرج وأتركه، فقال لي: إذا خرجت ضاق صدري، فأخرج إلي شيئاً من كتبك أفرج به؛ فأخرجت إليه كتباً من الشعر، فاختار منها القصائد السبعين التي صدرت بها كتاب الفضليات، ثم أتممت عليها باقي الكتاب.

فلما خرج خرجت معه، فلما صار بالمربد؛ مر بد سليمان بن علي، وقف عليهم، وأمنهم واستسقى ماء، فأتي به فشرب، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم إليه، وقال: هؤلاء والله منا ونحن منهم؛ لحمنا ودمنا؛ ولكن آباءهم انتزوا على أمرنا، وابتزوا حقوقنا؛ وسفكوا دماءنا، ثم تمثل:

إن بنا سورةً من الغلق

تغمر أحسابنا من الرقق

عز عزيزٍ ومعشرٍ صدق

تكحل يوم الهياج بالعلق

مهلاً بني عما ظلامتنا

لمتلکم حمل السيوف ولا

إنني لأنمي إذا انتميت إلى

بيض سباطٍ كأن أعينهم

فقلت له: ما أجود هذه الأبيات وأفحلها! فلمن هي؟ فقال: هذه يقولها ضرار بن الخطاب الفهري يوم عبر الخندق على

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمثل بها علي بن أبي طالب يوم صفين، والحسين يوم الطف، وزيد بن علي يوم السبخة، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان؛ فتطيرت له من تمثله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قتل. ثم سرنا إلى باخرى، فلما قرب منها أتاه نعي أخيه محمد، فتغير لونه وجرض بريقه، ثم أجهش باكياً، وقال: اللهم إن كنت تعلم أن محمداً خرج يطلب مرضاتك، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا، وأمرك المتبع المطاع؛ فاغفرله وارحمه، وارض عنه، واجعل ما نقلته إليه من الآخرة خيراً مما نقلته عنه من الدنيا؛ ثم انفجر باكياً ثم تمثل:

أبا المنازل يا خير الفوارس من يفجع بمثلك في الدنيا فقد فجعا

الله يعلم أنني لو خشيتهم أو أنس القلب من خوفٍ لهم فزعا

لم يقتلوك ولم أسلم أخي لهم حتى نعيش جميعاً، أو نموت معا

قال المفضل: فجعلت أعزيه وأعاتبه على ما ظهر من جرعه، فقال: إني والله في هذا، كما قال دريد بن الصمة:

يقول ألا تبكي أخاك وقد أرى مكان البكاء، لكن بنيت على الصبر

لمقتل عبد الله والهالك الذي على الشرف الأعلى قتيل أبي بكر

وعبد يغوث تحجل الطير حوله وجل مصاباً جثو قبرٍ على قبر

فإما ترينا لا تزال دماؤنا لدى وائرٍ يسعى بها آخر الدهر

فإنا للحم السيف غير نكيرة ونلحمه طوراً، وليس بذي نكر

يغار علينا وائرٍ فيشتقى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

بذاك قسمنا الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شطر

قال المفضل: ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثل الجراد، فتمثل إبراهيم عليه السلام قوله:

إن يقتلونني لا تصب أرماحهم تأري ويسعى القوم سعياً جاهدا

نبئت أن بني جذيمة أجمعت أمراً تدبره لتقتل خالدا

أرمي الطريق وإن رصدت بضيقه وأنزل البطل الكمي الحاردا

فقلت له: من يقول هذا الشعر يا بن رسول الله؟ فقال: يقوله خالد بن جعفر بن كلاب يوم شعب جيلة، وهذا اليوم الذي

لقيت فيه قيس تيمماً. قال: وأقبلت عساكر أبي جعفر، فطعن رجلاً وطعنه آخر، فقلت له: أتباشر القتال بنفسك! وإنما

العسكر منوط بك، فقال: إليك يا أخا بني ضبة، فإني لكما قال عوف القوافي :

ألمت سعاد وإمامها أحاديث نفس وأحلامها

محجة من بني مالك تطاول في المجد أعلامها

وإن لنا أصل جرثومة ترد الحوادث أيامها

ترد الكتيبة مفلولة بها أفنها وبها ذامها

والتحمت الحرب واشتدت، فقال: يا مفضل، احكي بشيء؛ فذكرت أبياتاً لعوف القوافي لما كان ذكره هو من شعره، فأنشدته:

ألا أيها الناهي فزارة بعدما أجدت لسيرٍ، إنما أنت ظالم
أبى كل حر أن يبيت بوتره وتمنع منه النوم إذ أنت نائم
أقول لفتيانٍ كرامٍ تروحو على الجرد في أفواههن الشكائم
قفوا وقفة من يحي لا يخز بعدها ومن يخترم لا تتبعه اللوائم
وهل أنت إن باعدت نفسك عنهم لتسلم فيما بعد ذلك سالم

فقال: أعد، وتبينت من وجهه أنه يستقتل، فأنتهيت وقلت: أو غير ذلك؟ فقال: لا، بل أعد الأبيات، فأعدتها، فتمطى في ركابيه فقطعهما، وحمل فغاب عني، وأتاه سهم عائر فقتله، وكان آخر عهدي به عليه السلام. قلت: في هذا الخبر ما يحتاج إلى تفسيره، أما قوله:

إن بنا سورةً من الغلق

فالغلق: الضجر وضيق الصدر والحدة، يقال: احتد فلان فنشب في حدته وغلق. والسورة: الوثوب، يقال: إن لغضبه لسورة، وإنه لسوار، أي وثاب معربد. وسورة الشراب: وثوبه في الرأس؛ وكذلك سورة السم، وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه.

وأما قوله: لمثلکم نحل السيوف، فمعناه أن غيرهم ليس بكفء لنا لنحمل له السيوف وإنما نحملها لكم، لأنكم أكفأونا، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة، وإن كانت أحسابنا واحدة، وهي شريفة لا مغمز فيها، والرقق: بفتح الراء: الضعف؛ ومنه قول الشاعر:

لم تلق في عظمها وهناً ولا رقاً

وقوله: تكحل يوم الهياج بالعلق فالعلق الدم؛ يريد أن عيونهم حمر لشدة الغيظ والغضب؛ فكأنها كحلت بالدم، وقوله: لكن بنيت على الصبر، أي خلقت وبنيت بنية تقتضي الصبر. والشرف الأعلى: العالي، وبنو أبي بكر بن كلاب، من قيس عيلان، ثم أحد بني عامر بن صعصعة.

وأما قوله: إن يقتلوني لا تصب أرماحهم فمعناه أنهم إن قتلوني ثم حاولوا أن يصيبوا رجلاً آخر مثلي يصلح أن يكون لي نظيراً؛ وأن يجعل دمه بواء لدمي، وسعوا في ذلك سعيًا جاهدًا، فإنهم لم يجدوا ولم يقدروا عليه. وقوله: أرمي الطريق... البيت، يقول: أسلك الطريق الضيق، ولو جعل علي فيه الرصد لقتلي، والحارد: المنفرد في شجاعته؛ الذي لا مثل له.

شريعة الفرات بين معاوية وعلي

فأما حديث الماء وغلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات بصفين، فنحن نذكره من كتاب صفين لنصر بن مزاحم. قال نصر: كان أبو الأعور السلمي على مقدمة معاوية، وكان قد نأوش مقدمة علي عليه السلام وعليها الأشر النخعي مناوشة ليست بالعظيمة، وقد ذكرنا ذلك فيما سبق من هذا الكتاب، وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين إلى جانب صفين، وساق الأشر يتبعه، فوجده غالباً على الماء، وكان في أربعة آلاف من مستبصري أهل العراق، فصدموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء، فأقبل معاوية في جميع الفيلق بقضه وقضيضه، فلما رآهم الأشر انحاز إلى علي عليه السلام، وغلب معاوية وأهل الشام على الماء، وحالوا بين أهل العراق وبينه، وأقبل علي عليه السلام في جموعه، فطلب موضعاً لعسكره، وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم، وهم أكثر من مائة ألف فارس، فلما نزلوا تسرع فوارس من فوارس علي عليه السلام على خيولهم إلى جهة معاوية يتطاعنون ويرمون بالسهم، ومعاوية بعد لم يترل، فناوشهم أهل الشام القتال، فاقتتلوا هويماً .

قال نصر: فحدثني عمر بن سعد، عن سعد بن طريف، عن الأصبع بن نباتة. فكتب معاوية إلى علي عليه السلام: عافانا الله وإياك

وأقبح الطيش ثم النفس في الرجل

ما أحسن العدل والإنصاف من عمل

وكتب بعده:

إذا يرد وقيد العير مكروب

اربط حمارك لا تنزع سويته

كما يراه بنو كوز ومرهوب

ليست ترى السيد زيداً في نفوسهم

والدرع محقبة والسيف مقروب

إن تسألوا الحق نعط الحق سائله

لا نطعم الضيم إن السم مشروب

أو تأنفون فإننا معشر أنف

فأمر علي عليه السلام أن يوزع الناس عن القتال، حتى أخذ أهل الشام مصافهم ثم قال: أيها الناس، إن هذا موقف، من نطف فيه نطف يوم القيامة، ومن فلج فيه فلج يوم القيامة، ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين:

يهبط الناس على اعتزابه

لقد أتانا كاشراً عن نابه

فليأتنا الدهر بما أتى به

قال نصر: وكتب علي عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه، أما بعد:

إن عليها قائداً عشنزرا

فإن للحرب عراماً شررا

على نواحيها مزجاً زمجرا

ينصف من أحجر أو تنمرا

إذا ونين ساعة تغشمرا

وكتب بعده:

أجابوا، وإن يغضب على القوم يغضبوا

ألم تر قومي إن دعاهم أخوهم

هم حفظوا غيبى كما كنت حافظاً

لقومي أخرى مثلها إن يغيبوا

بنو الحرب لم تقعد بهم أمهاتهم

وآباؤهم آباء صدقٍ فأنجبوا

قال: قد تراجع الناس كل من الفريقين إلى معسكرهم، وذهب شباب من الناس إلى أن يستقوا فمنعهم أهل الشام.

قلت: في هذه الألفاظ ما ينبغي أن يشرح.

قوله: فاقتتلوا هويًا، بفتح الهاء، أي قطعة من الزمان، وذهب هوي من الليل، أي فريق منه.

والنفس: كثرة الكلام والدعاوى، وأصله من نفس الصوف.

والسوية: كساء محشو بثمان ونحوه، كالبرذعة. وكرب القيد، إذا ضيقه على المقيّد، وقيد مكروب، أي ضيق، يقول: لا

تترع برذعة حمارك عنه واربطه وقيده، وإلا أعيد إليك وقيده ضيق. وهذا مثل ضربه لعلّي عليه السلام، يأمره فيه بأن

يردع جيشه عن التسرع والعجلة في الحرب.

وزيد المذكور في الشعر، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب ابن بجالة بن ذهل بن مالك

بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان؛ وهو المعروف بزيد الخيل، وكان

فارسهم. وبنو السيد من ضبة أيضاً، وهم بنو السيد مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة... إلى آخر النسب،

وبنو السيد بنو عم زيد الفوارس؛ لأنه من بني ذهل بن مالك، وهؤلاء بنو السيد بن مالك، وبينهم عداوة النسب؛ يقول:

إن بني السيد لا يرون زيدا في نفوسهم كما تراه أهله الأدنون منه نسباً، وهم بنو كوز وبنو مرهوب، فأما بنو كوز فإنهم

بنو كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل ابن مالك، وأما بنو مرهوب، فإنهم بنو مرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجالة

بن ذهل ابن مالك، يقول: نحن لا نعظم زيدا ولا نعتقد فيه من الفضالة ما يعتقده أهله وبنو عمه الأدنون، والمثل لعلّي

عليه السلام، أي نحن لا نرى في علي ما يراه أهل العراق من تعظيمه وتبجيله.

وقوله: والدرع محقبة والسيف مقروب، أي والدرع بحالها في حقابها، وهو ما يشد به في غلافها، والسيف بحاله أي في

قربابه، وهو جفنه، يقال: حقبت الدرع وقربت السياف، كلاهما ثلاثيان، يقول: إن سألتهم الحق أعطيناكموه من غير

حاجة إلى الحرب، بل نجيبكم إليه والدروع بحالها لم تلبس، والسيوف في أجفانها لم تشهر.

وأما إثبات النون في تأنّفون فإن الأصوب حذفها لعطف الكلمة على الجزوم قبلها، ولكنه استأنف ولم يعطف، كأنه قال:

أو كنتم تأنّفون؛ يقول: وإن أنفتم وأبيتم إلا الحرب، فإننا نأنف مثلكم أيضاً، لا نطعم الضيم ولا نقبله. ثم قال: إن السم

مشروب، أي أن السم قد نشره ولا نشرب الضيم، أي نختار الموت على الضيم والذلة. ويروى:

وإن أنفتم فإننا معشر أنف

لانطعم الضيم إن الضيم مرهوب

والشعر لعبد الله بن عنة الضبي، من بني السيد، ومن جملة:

وقد أروح أمام الحي يقدمني

صافي الأديم كميّ اللون منسوب

محذب مثل شاة الربل محتفز

بالقصريين على أولاه مصبوب

يبيذ ملجمه هادٍ له تلغ

كأنه من جذوع العين مشذوب

فذاك ذخري إذا ما خيلهم ركضت

إلى المثوب أو مقاء سرحوب

فأما قوله عليه السلام: هذا موقف من نطف فيه نطف يوم القيامة، أي من تلتطخ فيه بغيث من فرار أو نكول عن العدو. يقال: نطف فلان بالكسر، إذا تدنس بغيث. ونطف أيضاً إذا فسد، يقول: من فسد حاله اليوم في هذا الجهاد فسد حاله غداً عند الله.

قوله: من فلج فيه، بفتح اللام، أي من ظهر وفاز، وكذلك يكون غداً عند الله، يقال: فلج زيد على خصمه، بالفتح، يفلج بضم اللام؛ أي ظهرت عليه، وفي المثل: من يأت الحكم وحده يفلج.

قوله: يهبط الناس، أي يقهرهم ويخبطهم، وأصله الأخذ بغير تقدير.

وقوله: على اعتزابه، أي على بعده عن الإمارة والولاية على الناس. والعرام، بالضم: الشراسة والهوج. والعشتر: الشديد القوي.

وأحجر: ظلم الناس حتى ألجأهم إلى أن دخلوا حجرهم أو ييوقهم. وتتمر، أي تنكر حتى صار كالنمر، يقول: هذا القائد الشديد القوي ينصف من يظلم الناس ويتنكر لهم، أي ينصف منه، فحذف حرف الجر كقوله: " واختار موسى قومه "، أي من قومه. والمزج، بكسر الميم: السريع النفوذ، وأصله الرمح القصير، كالمنزراق.

ورجل زجر، أي مانع حوزته، والميم زائدة. ومن رواها زخرا بالخاء، عنى به المرتفع العالي الشأن، وجعل الميم زائدة أيضاً، من زخر الوادي، أي علا وارتفع.

وغشمر السيل: أقبل، والغشمة: إثبات الأمر بغير تثبيت، يقول: إذا أبطأن ساقهن سوقاً عنيفاً. والأبيات البائية لربيعة بن مقروم الطائي.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر، قال: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين، وجدناهم قد نزلوا منزلاً مستويًا بساطاً واسعاً، وأخذوا الشريعة فهي في أيديهم؛ وقد صف عليها أبو الأعور الخيل والرجالة، وقدم الرامية معهم أصحاب الرماح والدرق، وعلى رؤوسهم البيض، وقد أجمعوا أن يمنعوننا الماء، ففزعنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك، فدعا صعصعة بن صوحان فقال: اتت معاوية وقل له: إنا سرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كره لقتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت خيلك، فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالحرب؛ ونحن ممن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك؛ وهذه أخرى قد فعلتموها، قد حلت بين الناس وبين الماء، فحل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم له؛ وإن كان أحب إليك، أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب، فعلنا.

فلما مضى صعصعة برسالته إلى معاوية، قال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعه ابن عفان، حصروه أربعين يوماً يمنعونهم برد الماء ولين الطعام، اقتلهم عطشاً، قتلهم الله! وقال عمرو بن العاص: خل بين القوم

وبين الماء، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم. فأعاد الوليد مقالته.

وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وكان أخا عثمان من الرضاعة - : منعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدرُوا عليه رجعوا، وكان رجوعهم هزيمتهم، منعهم الماء، منعهم الله يوم القيامة! فقال صعصعة بن صوحان: إنما يمنعه الله يوم القيامة الفجرة والكفرة، شربة الخمر، ضربك وضرب هذا الفاسق - يعني الوليد بن عقبة.

فتواثبوا عليه يشتمونه ويتهددونه، فقال معاوية: كفوا عن الرجل؛ فإنما هو رسول. قال عبد الله بن عوف بن أحمر: إن صعصعة لما رجع إلينا بما قال معاوية، وما كان منه وما رده عليه؛ قلنا: وما الذي رده عليك معاوية؟ قال: لما أردت الانصراف من عنده، قلت: ما ترد علي؟ قال: سيأتيكم رأيي، قال: فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والصفوف والخيول، فأرسل إلى أبي الأعور: منعهم الماء؛ فازدلفنا والله إليهم، فارتمينا واطعنا بالرماح، واضطربنا بالسيوف، فطال ذلك بيننا وبينهم حتى صار الماء في أيدينا؛ فقلنا: لا والله لا نسقيهم. فأرسل إلينا علي عليه السلام أن أخذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى معسكركم، وخلوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم.

وروى نصر بن عبد الله، قال: قام ذلك اليوم رجل من أهل الشام من السكون، يعرف بالشليل ابن عمر إلى معاوية، فقال:

إن قولي قول له تأويل

أن يذوقوه، فالذليل ذليل

خ صدىً فالقصاص أمر جميل

ن هدايا كأنهن الفيول

ء لما ذقتموه حتى تقولوا

بعد ذلك الرضا جلاد ثقيل

م بقاء وإن يكن فقليل

اسمع اليوم ما يقول الشليل

امنع الماء من صحاب علي

واقتل القوم مثل ما قتل الشي

إننا والذي تساق له البد

لو علي وصحبه وردوا الما

قد رضينا بأمركم وعلينا

فامنع القوم ماعكم، ليس للقوق

فقال معاوية: أما أنت فندري ما تقول - وهو الرأي - ولكن عمراً لا يدري. فقال عمرو: خل بينهم وبين الماء؛ فإن علياً لم يكن ليظماً وأنت ريان، وفي يده أعنة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت، وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق ومعه أهل العراق وأهل الحجاز، وقد سمعته أنا مراراً وهو يقول: لو استمكنت من أربعين رجلاً يعني في الأمر الأول! وروى نصر، قال: لما غلب أهل الشام على الفرات، فرحوا بالغبلة، وقال معاوية: يا أهل الشام؛ هذا والله أول الظفر، لا سقاني الله ولا أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتى يقتلوا بأجمعه عليه، وتباشر أهل الشام، فقام إلى معاوية رجل من أهل الشام همداني، ناسك يتأله ويكثر العبادة، يعرف بمعري بن أقبل، وكان صديقاً لعمرو بن العاص وأخاً له، فقال: يا معاوية، سبحانه الله! لأن سبقتهم القوم إلى الفرات فغلبتموهم عليه، تمنعهم الماء! أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه.

أليس أعظم ما تتالون من القوم أن تمنعوهم الفرات فيترلوا على فرضةٍ أخرى ويجازوكم بما صنعتم! أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف، ومن لا ذنب له. هذا والله أول الجور! لقد شجعت الجبان، ونصرت المرتاب، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك. فأغلظ له معاوية، وقيل لعمر: اكفني صديقك. فأتاه عمرو فأغلظ له، فقال الهمداني في ذلك شعراً:

لعمر أبي معاوية بن حرب	وعمر، ما لدائهما دواء
سوى طعنٍ يحار العقل فيه	وضرب حين تختلط الدماء
ولست بتابع دين ابن هند	طوال الدهر ما أرسى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب	وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولي في حوادث كل خطب	على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درك يابن هند	لقد برح الخفاء فلا خفاء!
أتحمون الفرات على رجال	وفي أيديهم الأسل الضماء
وفي الأعناق أسياف حداد	كأن القوم عندهم نساء
أترجو أن يجاوركم علي	بلا ماء ولأحزاب ماء
دعاهم دعوةً فأجاب قوم	كجرب الإبل خالطها الهناء

قال: ثم سار الهمداني في سواد الليل حتى لحق بعلي عليه السلام.

قال: ومكث أصحاب علي عليه السلام بغير ماء، واغتم علي عليه السلام بما فيه أهل العراق.

قال نصر: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن الجرجاني، قال: لما اغتم علي بما فيه أهل العراق من العطش، خرج ليلاً قبل رايات مذحج، فإذا رجل ينشد شعراً:

أيمنعنا القوم ماء الفرات	وفينا الرماح وفينا الحجف
وفينا الشواذب مثل الوشيح	وفينا السيوف وفينا الزغف
وفينا علي له سورة	إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن الذين غداة الزبير	وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا أمس أسد العرين	وما بالنا اليوم شاء النجف
فما للعراق وما للحجاز	سوى الشام خصم فصكوا الهدف
وثوروا عليهم كبزل الجمال	دوين الذميل وفوق القطف
فإما تفوزوا بماء الفرات	ومنا ومنهم عليه جيف
وإما تموتوا على طاعة	تحل الجنان وتحبو الشرف

وإلا فأنتم عبيد العصا

وعبد العصا مستذل نطف

قال: فحرك ذلك علياً عليه السلام، ثم مضى إلى رايات كندة، فإذا إنسان ينشد إلى جانب منزل الأشعث، وهو يقول:

لئن لم يجل الأشعث اليوم كربةً

من الموت فيها للنفوس تعنت

فنشرب من ماء الفرات بسيفه

فهبنا أناساً قبل ذاك فموتوا

فإن أنت لم تجمع لنا اليوم أمرنا

وتتنض التي فيها عليك المذلة

فمن ذا الذي تنثنى الخناصر باسمه

سواك، ومن هذا إليه التلفت!

وهل من بقاء بعد يومٍ وليلةٍ

نظل خفوتاً والعدو يصوت!

هلموا إلى ماء الفرات ودونه

صدور العوالي والصفائح المشتت

وأنت امرؤ من عصابة يمنية

وكل امرئ من سنخه حين ينبت

قال: فلما سمع الأشعث قول الرجل، قام فأتى علياً عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، أئمننا القوم ماء الفرات، وأنت فينا، والسيوف في أيدينا! خل عني وعن القوم، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت، ومر الأشر فليعل بخيله، ويقف حيث تأمره. فقال علي عليه السلام: ذلك إليكم.

فرجع الأشعث فنأدى في الناس: من كان يريد الماء أو الموت فميعاده موضع كذا، فإني ناهض. فأتاه اثنا عشر ألفاً من كندة وأفناء قحطان، واضعبي سيوفهم على عواتقهم، فشد عليه سلاحه ونهض بهم؛ حتى كاد يخالط أهل الشام، وجعل يلقي رمحه، ويقول لأصحابه: بأبي وأمي أنتم! تقدموا إليهم قاب رمحي هذا؛ فلم يزل ذلك دأبه، حتى خالط القوم، وحسر عن رأسه، ونادى: أنا الأشعث بن قيس! خلوا عن الماء. فنأدى أبو الأعور: أما والله حتى لا نأخذ وإياكم السيوف. فقال الأشعث: قد والله أظنها دنت منا ومنكم. وكان الأشر قد تعالى بخيله حيث أمره علي، فبعث إليه الأشعث: أقحم الخيل؛ فأقحمها حتى وضعت سنانكها في الفرات، وأخذت أهل الشام السيوف، فولوا مدبرين. قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر وزيد بن الحسن، قال: فنأدى الأشعث عمرو بن العاص، فقال: ويحك يابن العاص! خل بيننا وبين الماء، فوالله لئن لم تفعل لتأخذنا وإياكم السيوف، فقال عمرو: والله لا نخلي عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم، فيعلم ربنا: أينما أصبح اليوم. فترجل الأشعث والأشر، وذوو البصائر من أصحاب علي عليه السلام، وترجل معهما اثنا عشر ألفاً، فحملوا على عمرو وأبي الأعور ومن معهما من أهل الشام، فأزالوهم عن الماء، حتى غمست خيل علي عليه السلام سنانكها في الماء.

قال نصر: فروى عمر بن سعد أن علياً عليه السلام قال ذلك اليوم: هذا يوم نصرتم فيه بالحمية.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: سمعت تميم الناجي يقول: سمعت الأشعث يقول: حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفرات، فقلت له: ويحك يا عمرو! أما والله إن كنت لأظن لك رأياً، فإن أنت لا عقل لك. أترانا نخليك والماء! تربت يداك! أما علمت أنا معشر عرب! ثكلتك أمك وهبتك! لقد رمت أمراً عظيماً. فقال لي

عمرو: أما والله لتعلمن اليوم أنا سنفي بالعهد، ونحكم العقد، ولنلقاكم بصبر وجد. فنأدى به الأشر: يابن العاص؛ أما والله لقد نزلنا هذه الفرضة، وإنا لنريد القتال على البصائر والدين؛ وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية. ثم كبر الأشر وكبرنا معه وحملنا، فما ثار الغبار حتى انهزم أهل الشام. قالوا: فلقي عمرو بن العاص بعد انقضاء صفيين الأشعث، فقال له: يا أبا كندة، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء، ولكن كنت مقهوراً على ذلك الرأي، فكابرتك بالتهدد والوعيد، والحرب خدعة. قال نصر: ولقد كان من رأي عمرو التولية بين أهل العراق والماء. ورجع معاوية بأخرة إلى قوله بعد اختلاط القوم في الحرب؛ فإن عمراً - فيما رويناه - أرسل إلى معاوية: أن حل بين القوم وبين الماء، أترى القوم يموتون عطشاً وهم ينظرون إلى الماء! فأرسل معاوية إلى يزيد ابن أسد القسري: أن حل بين القوم وبين الماء يا أبا عبد الله، فقال يزيد - وكان شديد العثمانية -: كلا والله لنقتلنهم عطشاً كما قتلوا أمير المؤمنين.

قال: فحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: خطب علي عليه السلام يوم الماء فقال: أما بعد، فإن القوم قد بدأوكم بالظلم، وفتحوكم بالبغي، واستقبلوكم بالعدوان، وقد استطعموكم القتال حيث منعوكم الماء، فأقروا على مذلة وتأخير مهلة... الفصل إلى آخره.

قال نصر: وكان قد بلغ أهل الشام أن علياً عليه السلام جعل الناس إن فتح الشام أن يقسم بينهم التبر والذهب - وهما الأحمران - وأن يعطي كلاً منهم خمسمائة كما أعطاهم بالبصرة، فنأدى ذلك اليوم منادي أهل الشام: يا أهل العراق؛ لماذا نزلتم بعجاج من الأرض! نحن أزد شنوءة لا أزد عمان، يا أهل العراق:

والخمس قد تجشمك الأمرين

لا خمس إلا جندل الأحرين

قال نصر: فحدثني عمرو بن شمر، عن إسماعيل السدي، عن بكر بن تغلب، قال: حدثني من سمع الأشعث يوم الفرات - وقد كان له غناء عظيم من أهل العراق، وقتل رجالاً من أهل الشام بيده، وهو يقول: والله إن كنت لكارهاً قتال أهل الصلاة، ولكن معي من هو أقدم مني في الإسلام، وأعلم بالكتاب والسنة، فهو الذي يسخى بنفسه. قال نصر: وحمل ظبيان بن عمارة التميمي على أهل الشام، وهو يقول:

في ساكني الأرض بغير ماء!

هل لك يا ظبيان من بقاء

فاضرب وجوه الغدر الأعداء

لا وإله الأرض والسماء

حتى يجيبوك إلى السواء

بالسيف عند حمس الهيجاء

قال: فضرهم والله حتى خلوا له الماء.

قال نصر: ودعا الأشر بالحارث بن همام النخعي، ثم الصهباني، فأعطاه لواءه، وقال له: يا حارث، لولا أي أعلم أنك تصير عند الموت لأخذت لوائي منك، ولم أحبك بكرامتي، فقال: والله يا مالك لأسرنك أو لأموتن، فاتبعني. ثم تقدم باللواء وارتجز، فقال:

يا أبا الخيرات يا خير النخع
وكاشف الخطب إذا الأمر وقع
قد جزع القوم وعموا بالجزع
إن تسقنا الماء فليست بالبدع
ما شئت خذ منها وما شئت فدع
وصاحب النصر إذا عم الفزع
ما أنت في الحرب العوان بالجدع
وجرعوا الغيظ وغصوا بالجرع
أو نعطش اليوم فجند مقتطع

فقال الأشتر: ادن مني يا حارث، فدنا منه فقبل رأسه، فقال: لا يتبع رأسه اليوم إلا خير، ثم صاح الأشتر في أصحابه: فدتكم نفسي! شدوا شدة المخرج الراجي للفرج، فإذا نالتكم الرماح فالتوا فيها، فإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه، فإنه أشد لشؤون الرأس، ثم استقبلوا القوم بهامكم .

قال: وكان الأشتر يومئذ على فرس له محذوف أدهم، كأنه حلك الغراب، وقتل بيده من أهل الشام من فرسانهم وصناديدهم سبعة: صالح بن فيروز العكي، ومالك بن أدهم السلماني، ورياح بن عتيك الغساني، والأجلح بن منصور الكندي - وكان فارس أهل الشام - وإبراهيم ابن وضاح الجمحي، وزامل بن عبيد الحزامي، ومحمد بن روضة الجمحي. قال نصر: فأول قتيل قتله الأشتر بيده صالح بن فيروز، ارتجز الأشتر وقال له:

يا صاحب الطرف الحصان الأدهم
أنا ابن ذي العز وذي التكرم
سيد عك كل عك فاعلم
أقدم إذا شئت علينا أقدم

وقال: وكان صالح مشهوراً بالشدة والبأس، فارتجز عليه الأشتر، فقال له:

أنا ابن خير مذحج مركبا
آليت لا أرجع حتى أضربا
وخيرها نفساً وأماً وأبا
بسيفي ضرباً معجبا

ثم شد عليه فقتله، فخرج إليه مالك بن أدهم السلماني - وهو من مشهورهم أيضاً، فحمل على الأشتر بالرمح فلما رهقه التوى الأشتر على فرسه ومار السنان فأخطأه، ثم استوى على فرسه، وشد على الشامي طعنًا بالرمح، ثم قتل بعده رياح بن عقيل وإبراهيم بن وضاح، ثم برز إليه زامل بن عقيل - وكان فارساً - فطعن الأشتر في موضع الجوشن فصرعه عن فرسه، ولم يصب مقتلاً، وشد عليه الأشتر بالسيف راجلاً فكشف قوائم فرسه، وارتجز عليه فقال:

لا بد من قتلي أو من قتلكا
كلهم كانوا حماةً مثلكا
قتلت منكم أربعاً من قبلكا

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان فقتله، ثم خرج إليه محمد بن روضة، فقال وهو يضرب في أهل العراق ضرباً منكراً:

يا ساكني الكوفة يا أهل الفتن
أورث قلبي قتله طول الحزن
يا قاتلي عثمان ذاك المؤتمن
أضربكم ولا أرى أبا حسن!

فشد عليه الأشتر فقتله، وقال:

لا يبعد الله سوى عثماننا

وأنزل الله بكم هواننا

ولا يسلي عنكم الأحزاننا

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكندي - وكان من شجعان العرب وفرسانها - وهو على فرس له اسمه لاحق، فلما استقبله الأشتر، كره لقاءه واستحيا أن يرجع عنه، فتضاربا بسيفيهما، فسبقه الأشتر بالضربة فقتله، فقالت أخته ترضيه:

ألا فابكي أخا ثقةٍ

فقد والله أبكينا

لقتل الماجد القمقا

م لا مثل له فينا

أتانا اليوم مقتله

فقد جرت نواصينا

كريم ماجد الجدي

ن يشفي من أعادينا

شفانا الله من اهل ال

عراق فقد أبادونا

أما يخشون ربهم

ولم يرعوا له ديننا!

قال: وبلغ شعرها علياً عليه السلام، فقال: أما إني ليس بملكهن ما رأيتم من الجزع، أما إنهم قد أضروا بنسائهم، فتركوهن أيامي حزاني بئسات. قاتل الله معاوية! اللهم حملة آثامهم وأوزاراً وأثقالاً مع أثقاله! اللهم لا تعف عنه! قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبي، عن الحارث بن أدهم، وعن صعصعة، قال: أقبل الأشتر يوم الماء، فضرب بسيفه جمهور أهل الشام حتى كشفهم عن الماء، وهو يقول:

لا تذكروا ما قد مضى وفاتا

والله ربي الباعث الأمواتا

من بعد ما صاروا كذا رفاتا

لأوردن خليي الفراتا

شعث النواصي أو يقال ماتا

قال: وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث، فقال له الأشعث: لله أبوك! ليست النخع بخير من كندة، قدم لواءك فإن الحظ لمن سبق. وحملت الرجال بعضها على بعض، وحمل في ذلك اليوم أبو الأعور السلمي؛ وحمل الأشتر عليه، فلم ينتصف أحدهما من صاحبه، وحمل شرحبيل بن السمط على الأشعث، فكانا كذلك، وحمل حوشب ذو ظليم على الأشعث أيضاً، وانفصلا ولم ينل أحدهما من صاحبه أمراً، فما زالوا كذلك حتى انكشف أهل الشام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعة.

قال نصر: فحدثنا محمد بن عبد الله، عن الجرجاني، قال: قال عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهل العراق الماء؛ ما ظنك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتمهم أمس! أترك تضاربهم كما ضاربوك عليه! ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة.

فقال معاوية: دع عنك ما مضى، فما ظنك بعلي؟ قال: ظني أنه لا يستحل منك ما استحلت منه، وأن الذي جاء له غير الماء. قال: فقال له معاوية قولاً أغضبه، فقال عمرو:

أمرتك أمراً فسخفته
وأغمضت في الرأي إغماضةً
فكيف رأيت كباش العراق
فإن ينطحونا غداً مثلها
أظن لها اليوم ما بعدها
وإن أخروها لما بعدها
وقد شرب القوم ماء الفرات
وخالفني ابن أبي سرحه
ولم تر في الحرب كالفسحه
ألم ينطحوا جمعنا نطحه!
نكن كالزبيري أو طلحه
وميعاد ما بيننا صبحه
فقد قدموا الخبط والنفحه
وقلدك الأشر الفضحه

قال نصر: فقال أصحاب علي عليه السلام له: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك. فقال: لا، خلوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون، سنعرض عليهم كتاب الله، ندعوهم إلى الهدى، فإن أجابوا، وإلا ففي حد السيف ما يغني إن شاء الله.
قال: فوالله ما أمسى الناس حتى رأوا سقايتهم وسقاة أهل الشام ورواياهم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء، ما يؤدي إنسان إنساناً.

ومن خطبة له وقد تقدم مختارها برواية

ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى لتغاير الروايتين :

الأصل: ألا وإن الدنيا قد تصرمت وآذنت بانقضاء، وتنكر معروفها وأدبرت حذاء، فهي تحفز بالفناء سكانها، وتحذو بالموت جيرانها، وقد أمر فيها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً، فلم يبق منها إلا سملة كسملة الإداوة، أو جرعة كجرعة المقلّة، لو تمزرها الصديان لم ينقع.
فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال، ولا يغلبنكم فيها الأمل، ولا يطولن عليكم فيها الأمد. فوالله لو حننتم حنين الوله العجال، ودعوتهم بمديل الحمام، وجأرتهم جوار متبلي الرهبان، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد؛ التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة أحصتها كتبه، وحفظتها رسله لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه.
وبالله لو انمائت قلوبكم انمياً، وسالت عيونكم - من رغبة إليه أو رهبة منه - دماً، ثم عمرتم في الدنيا - ما الدنيا باقية - ما جزت أعمالكم - ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم - أنعمه عليكم العظام، وهداه إياكم للإيمان.
الشرح: تصرمت: انقطعت وفنيت. وآذنت بانقضاء: أعلمت بذلك، آذنته بكذا، أي أعلمته. وتنكر معروفها: جهل منها ما كان معروفاً.

والخذاء، السريعة الذهاب، ورحم حذاء: مقطوعة غير موصولة. ومن رواه حذاء بالجيم. أراد منقطعة الدر والخير. وتحفز بالفناء سكانها: تعجلهم وتسوقهم. وأمر الشيء: صار مرأً. وكدر الماء، بكسر الدال، ويجوز كدُر بضمها.

والمصدر من الأول كدراً، والسملة، بفتح الميم: البقية من الماء تبقى في الإناء.

والمقلة، بفتح الميم وتسكين القاف: حصاة القسم التي تلقى في الماء ليعرف قدر ما يسقى كل واحد منهم، وذلك عند قلة الماء في المفاوز، قال:

قذفك المقلة وسط المعترك

قذفوا سيدهم في ورطة

والتمزز: تمصص الشراب قليلاً قليلاً. والصديان: العطشان.

ولم ينقع: لم يرو، وهذا يمكن أن يكون لازماً، ويمكن أن يكون متعدياً، تقول: نقع الرجل بالماء، أي روي وشفى غليله، ينقع. ونقع الماء الصدي ينقع، أي سكنه.

فأزمعوا الرحيل، أي اعزموا عليه، يقال: أزمعت الأمر، ولا يجوز أزمعت على الأمر؛ وأجازه الفراء. قوله: المقدور على أهلها الزوال، أي المكتوب، قال:

في الصحف الأولى الذي كان سطر

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر

أي كتب. وأوله العجال: النوق الواهة الفاقدة أولادها، الواحدة عجول، والوله: ذهاب العقل وفقد التمييز.

وهديل الحمام: صوت نوحه. والجؤار: صوت مرتفع. والمتبتل: المنقطع عن الدنيا. وانماث القلب، أي ذاب، وقوله: ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم، اعتراض في الكلام، وأنعمه، منصوب لأنه مفعول جزت.

وفي هذا الكلام تلويح وإشارة إلى مذهب البغداديين من أصحابنا في أن الثواب على فعل الطاعة غير واجب، لأنه شكر النعمة، فلا يقتضي وجوب ثواب آخر، وهو قوله عليه السلام: لو انماثت قلوبكم انماثاً... إلى آخر الفصل.

وأصحابنا البصريون لا يذهبون إلى ذلك، بل يقولون: إن الثواب واجب على الحكيم سبحانه، لأنه قد كلفنا ما يشق علينا، وتكليف المشاق كإنزال المشاق، فكما اقتضت الآلام والمشاق النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقة عليه تعالى عن إنزالها بنا، كذلك تقتضي التكليفات الشاقة ثواباً مستحقاً عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها، قالوا: فأما ما سلف من نعمه علينا فهو تفضل منه تعالى، ولا يجوز في الحكمة أن يتفضل الحكيم على غيره بأمر من الأمور، ثم يلزمه أفعالاً شاقة ويجعلها بإزاء ذلك التفضل؛ إلا إذا كان في تلك الأمور منافع عائدة على ذلك الحكيم، فكان ما سلف من المنافع جارياً مجرى الأجرة، كمن يدفع درهماً إلى إنسان ليخيط له ثوباً، والبارئ تعالى مثره عن المنافع، ونعمه علينا مثره أن تجري مجرى الأجرة على تكليفنا المشاق.

وأيضاً فقد يتساوى اثنان من الناس في النعم المنعم بها عليهما، ويختلفان في التكاليف فلو كان التكليف لأجل ما مضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها. فإن قيل: فعلى ماذا يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين؟ قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين؛ ولكنه قال: لو عبدتموه بأقصى ما ينتهي الجهد إليه ما وفيتكم بشكر أنعمه، وهذا حق غير مختلف فيه، لأن نعم البارئ تعالى لا تقوم العباد بشكرها، وإن بالغوا في عبادته والخضوع له

والإخلاص في طاعته؛ ولا يقتضي صدق هذه القضية وصحتها صحة مذهب البغداديين في أن الثواب على الله تعالى غير واجب، لأن التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة.

أشعار في ذم الدنيا

فأما ما قاله الناس في ذم الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها وتنكرها لأهلها، والشكوى منها، والعتاب لها والمواظبة بها، وتصرمها وتقلبها، فكثير؛ من ذلك قول بعضهم:

هي الدنيا تقول بملء فيها
فلا يغرركم حسن ابتسامي
حذار حذار من بطشي وفتكي
فقولي مضحك والفعل مبك

وقال آخر:

تتح عن الدنيا ولا تطلبنها
فليس يفي مرجوها بمخوفها
لقد قال فيها القائلون فأكثرُوا
سلاف، قصارها ذعاف، ومركب
ولا تخطبن فتالةً من تتاكح
ومكروها إما تأملت راجح
وعندي لها وصف لعمر ك صالح
شهى إذا استلذذته فهو جامح
ولكن له أفعال سوء قبائح
وشخص جميل يعجب الناس حسنه

وقال أبو الطيب:

أبدأ تسترد ما تهب الدنيا
وهي معشوقة على الغدر
كل دمع يسيل منها عليها
شيم الغانيات فيها ولا أد
فيا ليت جودها كان بخلا
لا تحفظ عهداً ولا تتم وصلا
وبفك اليدين عنها تخلي
ري لذا أنت اسمها الناس أم لا!

وقال آخر:

إنما الدنيا عوارٍ
شدة بعد رخاء
والعواري مسترده
ورخاء بعد شدة

وقال ابن المظفر المغربي:

دنياك دار غرورٍ
ودار أكلٍ وشربٍ
ورأس مالك نفس
ولا تبعها بأكلٍ
ونعمة مستعاره
ومكسبٍ وتجاره
فخف عليها الخساره
وطيب عرفٍ وشاره

فإن ملك سلّما

وقال أبو العتاهية:

ن لا يفى بشراره

وحبك للدنفا هو الفقر والعدم
إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

ألا إنما التقوى هي البر والكرم
وليس على عبد تقى غضاضة

وقال أيضاً:

طوال أي آمال
ملحاً أي إقبال
فراق الأهل والمال
على حال من الحال

تعلقت بآمال
وأقبلت على الدنيا
أيا هذا تجهز ل
فلا بد من الموت

وقال أيضاً:

ما بهذا يؤذن الزمن!
ببلاها ناطق لسن
لامرئ فيها ولا حزن
كلنا بالموت مرتهن
حظها من مالها الكفن
منه إلا ذكره الحسن

سكن يبقى له سكن
نحن في دارٍ يخبرنا
دار سوءٍ لم يدم فرج
في سبيل الله أنفسنا
كل نفسٍ عند موتتها
إن مال المرء ليس له

وقال أيضاً:

وأي بني آدم خالدا!
وكل إلى ربه عائد
ه أم يجده الجاد
تدل على أنه الواجد

ألا إنما كلنا بائد
وبدوهم كان من ربهم
فواعجبا كيف يعصي الإل
وفي كل شيء له آية

وقال الرضي الموسوي:

واعلم بأن الطالبين حثاث
شركاؤك الأيام والوراث
نظروا الزمان يعيث فيه فعاثوا
والفقر عن عيب الفتى بحاث

يا آمن الأيام بادر صرفها
خذ من ثرائك ما استطعت فإنما
لم يقض حق المال إلا معشر
تحشو على عيب الغني يد الغنى

المال مال المرء ما بلغت به
ما كان منه فاضلاً عن قوته
ما لي إلى الدنيا الدنية حاجة
طلقتها ألفاً لأحسم داءها
وثباتها مرهوبة، وعداتها
أم المصائب لا تزال تروعنا
إنني لأعجب للذين تمسكوا
كنزوا الكنوز وأعقلوا شهواتهم
أتراهم لم يعلموا أن التقى

وقال آخر:

هذه الدنيا إذا صرفت
وإذا ما أقبلت لعم
وإذا ما أدبرت لذكي
في زمان صار ثعلبه
فالذنابي فيه ناصية
فاصبري يا نفس واحتملي

وقال أبو الطيب:

نعد المشرفية والعوالي
ونرتبط السوابق مقربات
ومن لم يعشق الدنيا قديماً
نصيبك في حياتك من حبيب
رمانى الدهر بالأرزاء حتى
فصرت إذا أصابتني سهام
وهان فما أبالي بالرزايا
يدفن بعضنا بعضاً ويمشي
وكم من عينٍ مقبلة النواحي

الشهوات أو دفعت به الأحداث
فليعلمن بأنه ميراث
فليجن ساحر كيدها النفاث
وطلاق من عزم الطلاق ثلاث
مكذوبة، وحبالها أنكاث
منها ذكور حوادث وإناث
بحبائل الدنيا، وهن رثاث
فالأرض تشبع والبطون غراث
أزوادنا، وديارنا الأجداث!

وجهها لم تنفع الحيل
بصرته كيف يفتعل
غاب عنه السهل والجبل
أسداً واستأبب الحمل
والنواصي خضع ذلل
إن نفس الحر تحتمل

وتقتلنا المنون بلا قتال
وما ينجين من خيب الليالي
ولكن لا سبيل إلى الوصال!
نصيبك في منامك من خيال
فؤادي في غشاء من نبال
تكسرت النصال على النصال
لأنني ما انتفعت بأن أبالي
أواخرنا على هام الأوالي
كحيل في الجنادل والرمال

وبالِ كان يفكر في الهزال

ومغضٍ كان لا يغضي لخطبٍ

وقال أبو العتاهية في أرجوزته المشهورة في ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة:

ممزوجة الصفو بألوان القذى

ما زالت الدنيا لنا دار أذى

لذا نتاج، ولذا نتاج

الخير والشر بها أزواج

يخبث بعض ويطيب بعض

من لك بالمحض وليس محض

خير وشر وهما ضدان

لكل إنسان طبيعتان

بينهما بون بعيد جدا

والخير والشر إذا ما عدا

وجدته أتنن شيء ريجا

إنك لو تستنشق الشحيجا

ما أكثر القوت لمن يموت!

حسبك مما تبتغيه القوت

من اتقى الله رجا وخافا

الفقر فيما جاوز الكفافا

إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

هي المقادير فلمني أو فذر

ما أطول الليل على من لم ينم!

لكل ما يؤذي وإن قل ألم

وخير ذخر المرء حسن فعله

ما انتفع المرء بمثل عقله

ورب جد جره المزاح

إن الفساد ضده الصلاح

مبلغك الشر كباغيه لكا

من جعل المنام عينا هلكا

مفسدة للمرء أي مفسده

إن الشباب والفراغ والجده

قد يوهن الرأي الأصيل شكه

يغنيك عن كل قبيح تركه

نغض عيشاً ناعماً فناه

ما عيش من آفته بقاءه

قد سرنا الله بغير حمده

يا رب من أسخطنا بجهد

إلا لأمر شأنه عجيب

ما تطلع الشمس ولا تغيب

وأوسط وأصغر وأكبر

لكل شيءٍ قدر وجوهر

أصغره متصل بأكبره

وكل شيءٍ لاحق بجوهره

وساوس في الصدر منك تعتلج

من لك بالمحض وكل ممتزج

حتى كأني حائر مبهوت

عجبت واستغرقتني السكوت

والصمت إن ضاق الكلام أوسع

إذا قضى الله فكيف أصنع

وقال أيضاً:

كل على الدنيا له حرص
وكان من واروه في جدث
يهوى من الدنيا وزياتها
ليد المنية في تلطفها

والحادثات لنا بها قرص
لم يبد منه لناظر شخص
وزيادة الدنيا هي النقص
عن دخر كل نفيسة فحص

وقال أيضاً:

أبلغ الدهر في مواعظه بل
أي عيش يكون أطيب من
غصبتني الأيام أهلي ومالي
صاحب البغي ليس يسلم منه
رب ذي نعمة تعرض منها

زاد فيهن لي من الإبلاغ
عيش كفاف قوت بقدر البلاغ
وشبابي وصحتي وفراغي
وعلى نفسه بغى كل باغ
حائل بينه وبين المساغ

وقال ابن المعتز:

حمداً لربي وذنماً للزمان فما
كفت يدي أمني عن كل مطلب

أقل في هذه الدنيا مسراتي!
وأغلقت بابها من دون حاجاتي

وله أيضاً:

ألست ترى يا صاح ما أعجب الدهرا
لقد حبيب الموت البقاء الذي أرى
وسبحان ربي راضياً بقضائه

فذنماً له، لكن للخالق الشكرا
فيا حبذا مني لمن سكن القبرا
وكان اتقائي الشر يغري بي الشرا

وله:

قل لدنياك قد تمكنت مني
واخرقي كيف شئت خرق جهول

فافعلي ما أردت أن تفعلي بي
إن عندي لك اصطبار لبيب

وقال أبو العلاء المعري:

والدهر إبرام ونقض وتف
لو قال لي صاحبه سمه

ريق وجمع ونهار وليل
ما جرت عن ناجية أو بديل

وقال آخر:

والدهر لا يبقى على حالة

لا بد أن يدبر أو يقبل

وقال أبو الطيب:

ومسعاي منها في شقوق الأرقام

فما لي وللدنيا طلابي ونجومها

وقال آخر:

فما اسطعت من معروفها فتزود

لعمرك ما الأيام إلا معارة

وقال آخر:

رزية مالٍ، أو فراق حبيب

لعمرك ما الأيام إلا كما ترى

الوزير المهلب:

فهذا العيش ما لا خير فيه

ألا موت يباع فأشتريه

تصدق بالممات على أخيه

ألا رحم المهيمن نفس حر

وله:

يبريني مثل بري القدح بالسفن

أشكو إلى الله أحداثاً من الزمن

إذا تذوقته، والحو منه فني

لم يبق بالعيش لي إلا مرارته

إلا مفاتيح أبواب من الحزن

لا تحسبن نعماً سرتك صحبتها

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

سألتك إلا ما سللت حياتي

ألا أيها الدهر الذي قد مللته

مماتي على كره الممات إلي

فقد وجلال الله حببت جاهدا

وله:

ويسلب ما أعطى ويفسد ما أسدى

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى

فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

فمن سره ألا يرى ما يسوءه

البحري:

حبب الذي نأبى، وبغض الذي نهوى

كأن الليالي أغريت أحداثها

نعيماً ولم يعدد مضرتها بلوى

ومن عرف الأيام لم ير خفضها

أبو بكر الخوارزمي:

على من ركبه

ما أثقل الدهر

لسان التجربة

حدثني عنه

لخير سببه

لا تشكر الدهر

فإنه لم يتعمد بالهبة

وإنما أخطأ

كالسيل قد يسقي مكاناً أخربه

والسم يستشفى به من شربه

وقال آخر:

يسعى الفتى في صلاح العيش مجتهداً

والدهر ما عاش في إفساده ساعي

آخر:

يغر الفتى مر الليالي سليمةً

وهن به عما قليل عواثر

آخر:

إذا ما الدهر جر على أناسٍ

كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا

سيلقى الشامتون كما لقينا

آخر:

قل لمن أنكر حالاً منكره

ورأى من دهره ما حيره

ليس بالمنكر ما أنكرته

كل من عاش رأى ما لم يره

ابن الرومي:

سكن الزمان وتحت سكنته

دفع من الحركات والبطش

كالأفعوان تراه منبطحاً

بالأرض ثم يثور للنهش

أبو الطيب:

إنّا لفي زمن ترك القبيح به

من أكثر الناس إحسان وإجمال

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته

ما فاتته، وفضول العيش أشغال

وقال آخر:

جار الزمان علينا في تصرفه

وأي حر عليه الدهر لم يجر !

عندي من الدهر مالو أن أيسره

يلقى على الفلك الدوار لم يدر

آخر:

هذا الزمان الذي كنا نحاذره

فيما يحدث كعب وابن مسعود

إن دام هذا ولم تعقب له غير

لم يبك ميت، ولم يفرح بمولود

يا زماناً ألبس الأح
لست عندي بزمانٍ
أجنون ما نراه
رار ذلاً ومهانته
إنما أنت زمانه
منك يبدو أم مجانه !

الرضي الموسوي:

تأبى الليالي أن تديما
والمرء بالإقبال يب
فإذا انقضى إقباله
وهو الزمان إذا نبا
كالريح ترجع عاصفاً
بؤساً لخلقٍ أو نعيما
لغ وادعاً خطراً جسيما
رجع الشفيغ له خصيما
سلب الذي أعطى قديما
من بعد ما بدأت نسيما

أبو عثمان الخالدي:

ألقت من حادثات الدهر أكبرها
تزيدني قسوة الأيام طيب نثاً
فما أعادي على أحداثها الصغر
كأنني المسك بين الفهر والحجر

السري الرفاء:

تتكذ هذا الدهر فيما يرومه
فسير الذي نرجوه سير مقيد
على أنه فيما نحاذره ندب
وسير الذي نخشى غوائله وثب

ابن الرومي:

ألا إن في الدنيا عجائب جمّة
إذا ذل في الدنيا الأعزاء واكتست
وأعجبها ألا يشيب وليدها
أذلّتها عزاً وساد مسودها

هناك فلا جادت سماء بصوبها
أرى الناس مخسوفاً بهم غير أنهم
على الأرض لم يقلب عليهم صعيدها
أعاليها بل أن يسود عبيدها
ولا أمرعت أرض، ولا اخضر عودها

السري الرفاء:

لنا من الدهر خصم لا نطالبه
يرتد عنه جريحاً من يسالمة
فما على الدهر لو كفت نوائبه !
فكيف يسلم منه من يحاربه !

ولو أمنت الذي تجني أراقمه

أبو فراس بن حمدان:

تصفحت أحوال الزمان ولم يكن

أكل خليل هكذا غير منصف

ابن الرومي:

أرأيت الدهر يرفع كل وغد

كمثل البحر يغرق فيه حي

أو الميزان يخفض كل واف

ابن نباتة:

وأصغر عيب في زمانك أنه

وكيف يسر الحر فيه بمطلب

أبو العتاهية:

لتجذبني يد الدنيا بقوتها

لله دنيا أناس دائبين لها

كسائمات رواع تبتغي سمناً

وله أيضاً:

أنساك محياك المماتا

ووثقت بالدنيا وأنت

وعزمت ويك على الحيا

يا من رأى أبويه فيمن قد رأى كانا فماتا

هل فيها لك عبرة أم خلت أن لك انفلاتا !

ومن الذي طلب التقلت من منيته ففاتا !

كل تصبحة المنية

وله:

أرى الدنيا لمن هي في يديه

تهين المكرمين لها بصغر

علي هان الذي تجني عقاربه

إلى غير شاك للزمان وصول

وكل زمان بالكرام بخيل!

ويخفض كل ذي شيم شريفه

ولا ينفك تطفو فيه جيفه

ويرفع كل ذي زنة خفيفه

به العلم جهل، والعفاف فسوق

وما فيه شيء بالسرور حقيق !

إلى المنايا، وإن نازعتها رسني

قد ارتعوا في غياض الغي والفتن

وحثفها لو درت في ذلك السمن

فطلبت في الدنيا الثباتا

ترى جماعتها شتاتا

ة وطولها عزمًا بتاتا

أو تبيته بياتا

عذاباً، كلما كثرت لديه

وتكرم كل من هانت عليه

إذا استغنيت عن شيء فدعه

وخذ ما أنت محتاج إليه

وله:

ألم تر ريب الدهر في كل ساعةٍ

له عارض فيه المنية تلمع

أيا باني الدنيا لغيرك تبتتي

ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع

أرى المرء وثاباً على كل فرصةٍ

وللمرء يوماً لا محالة مصرع

ينازل ما لا يملك غيره

متى تتقضي حاجات من ليس يشبع !

وأني امرئ في غايةٍ ليس نفسه

إلى غايةٍ أخرى سواها تطلع!

وله:

سل الأيام عن أممٍ تقضت

ستخبرك المعالم والرسوم

تروم الخلد في دار التفاني

وكم قد رام قبلك ما تروم !

لأمرٍ ما تصرمت الليالي

وأمرٍ ما تقلبت النجوم

تنام ولم تنم عنك المنايا

تنبه للمنية يا نؤوم

إلى ديان يوم الدين نمضي

وعند الله تجتمع الخصوم

حسبنا الله وحده، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الحكيم؛ وصلى الله على رسوله الكريم

متفرقات

ومنها في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

الأصل: ومن تمام الأضحية استشراف أذنها، وسلامة عينها، فإذا سلمت الأذن والعين سلمت الأضحية وتمت، ولو كانت عضباء القرن تجر رجلها إلى المنسك.

قال الرضي رحمه الله: والمنسك ههنا: المذبح.

الشرح: الأضحية: ما يذبح يوم النحر، وما يجري مجراه أيام التشريق من النعم. واستشراف أذنها: انتصابها وارتفاعها، أذن شرفاء أي منتصبه.

والعضباء: المكسورة القرن. والتي تجر رجلها إلى المنسك، كناية عن العرجاء، ويجوز المنسك، بفتح السين وكسرها.

رأي الفقهاء في وجوب الأضحية

واختلف الفقهاء في وجوب الأضحية، فقال أبو حنيفة: هي واجبة على المقيمين من أهل الأمصار، ويعتبر في وجوبها النصاب، وبه قال مالك والثوري، إلا أن مالكا لم يعتبر الإقامة.

وقال الشافعي: الأضحية سنة مؤكدة، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد.

واختلفوا في العمياء؛ هل تجزئ أم لا؟ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يقتضي ذلك؛ لأنه قال: إذا سلمت العين سلمت الأضحية، فيقتضي أنه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحية. ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء إجزائها.

وحكي عن بعض أهل الظاهر أنه قال: تجزئ العمياء.

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضي الله تعالى عنه، أحد فقهاء الشيعة في كتابه المعروف بالمقنعة: إن الصادق عليه السلام سئل عن الرجل يهدي الهدى أو الأضحية وهي سمينة، فيصيبها مرض، أو تفقأ عينها أو تنكسر، فتبلغ يوم النحر وهي حية، أتجزئ عنه؟ فقال: نعم.

فأما الأذن، فقال أحمد: لا يجوز التضحية بمقطوعة الأذن، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك. وقال سائر الفقهاء: تجزئ إلا أنه مكروه.

وأما العضباء، فأكثر الفقهاء على أنها تجزئ، إلا أنه مكروه، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك، وكذلك

الحكم في الجلهاء، وهي التي لم يخلق لها قرن، والقصماء: وهي التي انكسر غلاف قرنها، والشرفاء: وهي التي انتقبت أذنها من الكي، والخرقاء: وهي التي شقت أذنها طولاً.

وقال مالك: إن كانت العضباء يخرج من قرنها دم لم تجزئ.

وقال أحمد والنخعي: لا تجوز التضحية بالعضباء.

فأما العرجاء التي كنى عنها بقوله: تجر رجلها إلى المنسك، فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي أنها تجزئ. وقد نقل أصحاب الشافعي عنه أن الأضحية إذا كانت مريضة مرضاً يسيراً أجزأت.

وقال الماوردي من الشافعية في كتابه المعروف بالحاوي: إن عجزت عن أن تجر رجلها خلقاً أجزأت، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزئ.

ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة

الأصل: فتدأكوا علي تذاك الإبل الميم يوم وردها، وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثانيها، حتى ظننت أنهم قاتلي، أو بعضهم قاتل بعضٍ لدي. وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعي النوم، فما وجدتني يسعي إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله، فكانت معالجة القتال أهون علي من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون علي من موتات الآخرة.

الشرح: تدأكوا: ازدحموا. والهيم: العطاش. ويوم وردها: يوم شرها الماء. والمثاني: الجبال، جمع مثناة ومثناة بالفتح والكسر، وهو الحبل.

وجهاد البغاة واجب على الإمام، إذا وجد أنصاراً، فإذا أحل بذلك أحل بواجب، واستحق العقاب.

فإن قيل: إنه عليه السلام قال: لم يسعي إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون تارك الواجب جاحداً لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

قيل: إنه في حكم الجاحد، لأنه مخالف وعاصٍ، لا سيما على مذهبنا في أن تارك الواجب يخلد في النار وإن لم يحدد النبوة.

بيعة علي عليه السلام

اختلف الناس في بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، فالذي عليه أكثر الناس وجمهور أرباب السير أن طلحة والزبير بايعاه طائعين غير مكرهين، ثم تغيرت عزائمهما، وفسدت نيتهما، وغدرا به.

وقال الزبيريون، منهم عبد الله بن مصعب، والزبير بن بكار وشيعتهم ومن وافق قولهم من بني تيم بن مرة، أرباب العصبية لطلحة: إنهما بايعا مكرهين، وإن الزبير كان يقول: بايعت والليج على قفي، والليج سيف الأشر، وقفي لغة هذلية؛ إذا أضافوا المقصور إلى أنفسهم قبلوا الألف ياء، وأدغموا إحدى الياءين في الأخرى، فيقولون: قد وافق ذلك هوي، أي هواي، وهذه عصي، أي عصاي.

وذكر صاحب كتاب الأوائل أن الأشتر جاء إلى علي عليه السلام حين قتله عثمان، فقال: قم فبايع الناس، فقد اجتمعوا لك، ورغبوا فيك، والله لئن نكلت عنها لتعصرن عليها عينيك مرة رابعة، فجاء حتى دخل بئر سكن، واجتمع الناس، وحضر طلحة والزبير، لا يشكان أن الأمر شورى، فقال الأشتر: أنتظرون أحداً! قم يا طلحة فبايع، فتقاعس، فقال: قم يا بن الصعبة، وسل سيفه، فقام طلحة يجر رجله؛ حتى بايع فقال قائل: أول من بايعه أشل! لا يتم أمره، ثم لا يتم، قال: قم يا زبير، والله لا ينازع أحداً إلا وضربت قرطه بهذا السيف، فقام الزبير فبايع؛ ثم انثال الناس عليه فبايعوا. وقيل أول من بايعه الأشتر، ألقى خميصاً كانت عليه، واختلط سيفه، وجذب يد علي عليه السلام فبايعه وقال للزبير وطلحة: قوما فبايعا، وإلا كنتما الليلة عند عثمان، فقاما يعثران في ثيابهما لا يرجوان نجاة، حتى صفقا بأيديهما على يده، ثم قام بعدهما البصريون، وأولهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، فبايعوا، وقال له عبد الرحمن:

أنا نمر الأمر إمرار الرسن

خذها إليك واعلمن أبا حسن

وقد ذكرنا نحن في شرح الفصل الذي فيه أن الزبير أقر بالبيعة، وادعى الوليعة أن بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة، أولهم طلحة والزبير، وذكرنا في ذلك ما يبطل رواية الزبير. وذكر أبو مخنف في كتاب الجمل أن الأنصار والمهاجرين اجتمعوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لينظروا من يولونه أمرهم، حتى غص المسجد بأهله، فاتفق رأي عمار وأبي الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبي أيوب خالد بن يزيد على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة، وكان أشدهم تمالكاً عليه عمار، فقال لهم: أيها الأنصار، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه، وأنتم على شرف من الوقوع في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم، وإن علياً أولى الناس بهذا الأمر، لفضله وسابقتة، فقالوا: رضينا به حينئذ، وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين: أيها الناس، إنا لن نألوكم خيراً وأنفسنا إن شاء الله، وإن علياً من قد علمتم، وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر منه، ولا أولى به. فقال الناس بأجمعهم: قد رضينا، وهو عندنا ما ذكرتم وأفضل. وقاموا كلهم، فأتوا علياً عليه السلام، فاستخرجوه من داره، وسألوه بسط يده، فقبضها فتداكوا عليه تذاك الإبل الهيم على وردها، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً، فلما رأى منهم ما رأى، سألهم أن تكون بيعته في المسجد ظاهرة للناس. وقال: إن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر.

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد، فكان أول من بايعه طلحة. فقال قبيصة بن ذؤيب الأسدي: تخوفت ألا يتم له أمره، لأن أول يد بايعته شلاء، ثم بايعه الزبير، وبايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، وعبد الله بن سلام.

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر، فقال له: بايع، قال: لا أبايع حتى يبايع جميع الناس، فقال له عليه السلام: فأعطني حميلاً ألا تبرح، قال: ولا أعطيك حميلاً، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، إن هذا قد أمن سوطك وسيفك، فدعني أضرب عنقه، فقال: لست أريد ذلك منه على كره، خلوا سبيله، فلما انصرف قال أمير المؤمنين: لقد كان صغيراً وهو سيء الخلق وهو

في كبره أسوأ خلقاً.

ثم أتى بسعد بن أبي وقاص، فقال له بايع، فقال: يا أبا الحسن خلني، فإذا لم يبق غيري بايعتك، فوالله لا يأتيك من قبلي أمر تكرهه أبداً، فقال: صدق، خلوا سبيله. ثم بعث إلى محمد ابن مسلمة، فلما أتاه قال له: بايع، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني إذا اختلف الناس وصاروا هكذا - وشبك بين أصابعه - أن أخرج بسيفي هذا فأضرب به عرض أحد فإذا تقطع أتيت منزلي، فكنيت فيه لا أبرحه حتى تأتيني يد خاطية، أو منية قاضية. فقال له عليه السلام: فانطلق إذاً، فكن كما أمرت به.

ثم بعث إلى أسامة بن زيد، فلما جاء قال له: بايع، فقال: إني ملاك ولا خلاف مني عليك، وستأتيك بيعتي إذا سكن الناس. فأمره بالانصراف، ولم يبعث إلى أحد غيره.

وقيل له: ألا تبعث إلى حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن سلام! فقال: لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فينا.

فأما أصحابنا فإنهم يذكرون في كتبهم أن هؤلاء الرهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به، لما ندبهم إلى الشخص مع الحرب أصحاب الجمل، وأنهم لم يتخلفوا عن البيعة، وإنما تخلفوا عن الحرب.

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى في كتاب الغرر أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار، قال لهم: ما كل مفتون يعاتب، أعندكم شك في بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فإذا بايعتم فقد قاتلتم. وأعفاهم من حضور الحرب. فإن قيل: رويتم أنه قال: إن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر، ثم رويتم أن جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراحتهم.

قيل: إنما مراده عليه السلام أنه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضت يدي عن الأمر ولم أدخل فيه، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة، وإذا ثبتت لم يجز له تركها. وروى أبو مخنف عن ابن عباس، قال: لما دخل علي عليه السلام المسجد، وجاء الناس خفت أن يتكلم بعض أهل الشنآن لعلي عليه السلام ممن قتل أباه وأخاه، أو ذا قربته في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيزهد علي في الأمر ويتركه، فكنيت أرصد ذلك وأتخوفه، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غير مكرهين.

لما بايع الناس علياً عليه السلام، وتخلف عبد الله بن عمر، وكلمه علي عليه السلام في البيعة فامتنع عليه، أتاه في اليوم الثاني، فقال: إني لك ناصح، إن بيعتك لم يرض بها كلهم، فلو نظرت لدينك ورددت الأمر شورى بين المسلمين! فقال علي عليه السلام: ويحك! وهل ما كان عن طلب مني له! ألم يبلغك صنيعهم؟ قم عني يا أحمق، ما أنت وهذا الكلام! فلما خرج أتى علياً في اليوم الثالث آت، فقال: إن ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك، فأمر بالبعث في أثره، فجاءت أم كلثوم ابنته، فسألته وضرعت إليه فيه، وقالت: يا أمير المؤمنين، إنما خرج إلى مكة ليقيم بها، وإنه ليس بصاحب سلطان ولا هو من رجال هذا الشأن، وطلبت إليه أن يقبل شفاعتها في أمره؛ لأنه ابن بعلها. فأجابها وكف عن البعثة إليه، وقال: دعوه وما أراد.

وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

الأصل: أما قولكم: أكل ذلك كراهية الموت! فوالله ما أبالي؛ دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي. وأما قولكم شكاً في أهل الشام! فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشوا إلى ضوئي، فهو أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها. الشرح: من رواه: أكل ذلك، بالنصب فمفعول فعل مقدر، أي تفعل كل ذلك، وكراهية منصوب لأنه مفعول له ومن رواه أكل ذلك، بالرفع أجاز في كراهية الرفع والنصب، أما الرفع فإنه يجعل كل مبتدأ، وكراهية خبره، وأما النصب فيجعلها مفعولاً له كما قلنا في الرواية الأولى، ويجعل خبر المبتدأ محذوفاً، وتقديره: أكل هذا مفعول! أو تفعله كراهية للموت! ثم أقسم أنه لا يبالي أتعرض هو للموت حتى يموت، أم جاءه الموت ابتداء من غير أن يتعرض له. وعشا إلى النار يعشوا: استدل عليها ببصر ضعيف، قال :

تجد خير نارٍ عندها خير موقد

متى تأتته تعشوا إلى ضوء ناره

وهذا الكلام استعارة، شبه من عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشوا ليلاً إلى النار، وذلك لأن بصائر أهل الشام ضعيفة، فهم من الاهتداء بهداه عليه السلام كمن يعشوا ببصرٍ ضعيف إلى النار في الليل، قال: ذاك أحب إلي من أن أقتلهم على ضلالهم، وإن كنت لو قتلتهم على هذه الحالة لبأؤوا بآثامهم، أي رجعوا، قال سبحانه: " إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك " أي ترجع.

بعض ما جاء من أخبار في يوم صفين

لما ملك أمير المؤمنين الماء بصفين ثم سمح لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يعطفوا إليه، واستمالة لقلوبهم وإظهاراً للمعدلة وحسن السيرة فيهم، مكث أياماً لا يرسل إلى معاوية، ولا يأتيه من عند معاوية أحد، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم في القتال، وقال: يا أمير المؤمنين، خلفنا ذرارينا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لتتخذها وطناً، ائذن لنا في القتال، فإن الناس قد قالوا. قال لهم عليه السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إن الناس يظنون أنك تكره الحرب كراهية للموت، وإن من الناس من يظن أنك في شك من قتال أهل الشام. فقال عليه السلام: ومتى كنت كارهاً للحرب قط! إن من العجب حيي لها غلاماً ويفعاً، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاذ العمر وقرب الوقت! وأما شكّي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل البصرة، والله لقد ضربت هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعني إلا القتال أو أن أعصي الله ورسوله، ولكني أستاذني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي يوم خيبر: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس.

قال نصر بن مزاحم: حدثنا محمد بن عبيد الله عن الجرجاني، قال: فبعث علي عليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن محسن الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن الربيعي التميمي، فقال: ائتوا هذا الرجل، فادعوه إلى الله عز وجل، وإلى الطاعة والجماعة، وإلى اتباع أمر الله سبحانه. فقال له شبث: يا أمير المؤمنين، ألا تطمعه في سلطان توليه إياه، ومترلة

يكون له بما أثرة عندك إن هو بايعك؟ فقال: اتتوه الآن والقوه واحتجوا عليه، وانظروا ما رأيه في هذا.

فأتوه فدخلوا عليه، فحمد أبو عمرو بن محسن الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد يا معاوية فإن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله مجازيك ومحاسبك بما قدمت يداك، وإنني أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة، وألا تسفك دماءها بينها. فقطع معاوية عليه الكلام وقال: فهلا أوصيت صاحبك! فقال: سبحان الله! إن صاحبي لا يوصي، إن صاحبي ليس مثلك، صاحبي أحق الناس بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقراة من الرسول. قال معاوية: فتقول ماذا؟ قال: أدعوك إلى تقوى ربك. وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دينك، وخير لك في عاقبة أمرك. قال: ويطل دم عثمان! لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً.

فذهب سعيد بن قيس يتكلم، فبدره شيث بن الربيعي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معاوية، قد فهمت ما رددت على ابن محسن، أنه لا يخفى علينا ما تقرر وما تطلب، إنك لا تجد شيئاً تستغوي به الناس، ولا شيئاً تستميل به أهواءهم؛ وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم: قتل إمامكم مظلوماً، فهللوا نطلب بدمه؛ فاستجاب لك سفهاء طغام رذال، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر، وأحببت له القتل، لهذه المثلة التي تطلب؛ ورب مبتغٍ أمراً، وطالبٍ له يحول الله دونه، وربما أوتي الممتني أمنيته، وربما لم يؤتمها، ووالله ما لك في واحدة منهما خير، والله لئن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالاً، ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق صلى النار، فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله.

فحمد معاوية الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد فإن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقته. ثم عتبت بعد فيما لا علم لك به، ولقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجاني في كل ما وصفت وذكرته. انصرفوا من عندي فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف. وغضب فخرج القوم وشيث يقول: أعلينا قهول بالسيف! أما والله لنعجلنه إليك، فأتوا علياً عليه السلام، فأخبروه بالذي كان من قوله، وذلك في شهر ربيع الآخر. قال نصر: وخرج قراء أهل العراق، وقراء أهل الشام فعسكروا ناحية صفين ثلاثين ألفاً.

قال: وعسكر علي عليه السلام على الماء، وعسكر معاوية فوقه على الماء أيضاً، ومشيت القراء فيما بين علي عليه السلام ومعاوية، منهم عبيدة السلماني، وعلقمة بن قيس النخعي، وعبد الله بن عتبة، وعامر بن عبد القيس - وقد كان في بعض تلك السواحل - فانصرف إلى عسكر علي عليه السلام، فدخلوا على معاوية فقالوا: يا معاوية، ما الذي تطلب؟ قال: أطلب بدم عثمان، قالوا: ممن تطلب بدم عثمان؟ قال: أطلبه من علي، قالوا: وعلي قتله؟ قال: نعم هو قتله، وآوى قتلته، فانصرفوا من عنده فدخلوا على علي عليه السلام، فقالوا: إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان، قال: اللهم لكذب فيما قال، لم أقتله.

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه، فقال لهم: إنه إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالاً، فرجعوا إلى علي فقالوا: إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت بيدك، فقد أمرت مالأت على قتل عثمان، فقال: اللهم لكذب فيما قال، فرجعوا إلى معاوية،

فقالوا: إن علياً يزعم أنه لم يفعل، فقال معاوية: إن كان صادقاً فليقدنا من قتلة عثمان، فإنهم في عسكره وجنده وأصحابه وعضده. فرجعوا إلى علي عليه السلام، فقالوا: إن معاوية يقول لك: إن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلة عثمان أو مكنا منهم، فقال لهم: إن القوم تأولوا عليه القرآن، ووقعت الفرقة، فقتلوه في سلطانه، وليس على ضربهم قود، فخصم علي معاوية.

- قلت: على ضربهم ههنا، على مثلهم، يقال: زيد ضرب عمرو من ضربه، أي مثله ومن صنفه، ولا أدري لم عدل عليه السلام عن الحجة بما هو أوضح من هذا الكلام، وهو أن يقول: إن الذين باشروا قتله بأيديهم كانوا اثنين وهما قتيبة بن وهب وسودان بن حمران، وكلاهما قتل يوم الدار، قتلها عبيد عثمان، والباقون الذين هم جندي وعصدي كما تزعمون، لم يقتلوا بأيديهم، وإنما أغروا به، وحصروه وأجلبوا عليه، وهجموا على داره، كمحمد بن أبي بكر والأشتر وعمرو بن الحمق وغيرهم؛ وليس على مثل هؤلاء قود - .

قال نصر: فقال لهم معاوية: إن كان الأمر كما تزعمون، فلم ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن ههنا معنا؟ فقال علي عليه السلام: إن الناس تبع المهاجرين والأنصار، وهم شهود للمسلمين في البلاد على ولائهم وأمرائهم، فرضوا بي وبايعوني، ولست أستحل أن أدع ضرب معاوية يحكم بيده على الأمة ويركبهم ويشق عصاهم. فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك، فقال: ليس كما يقول. فما بال من ههنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر ويؤامروا فيه .

فانصرفوا إلى علي عليه السلام، فأخبروه بقوله، فقال: ويحكم! هذا للبدرين دون الصحابة، ليس في الأرض بدري إلا وقد بايعني وهو معي، أو قد قام ورضي، فلا يغرنكم معاوية من أنفسكم ودينكم.

قال نصر: فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر: ربيع الآخر، وجماديين؛ وهم مع ذلك يفزعون الفرعة فيما بينهم، فيزحف بعضهم إلى بعض، وتحجز القراء بينهم.

قال: فزعوا في ثلاثة أشهر خمساً وثمانين فرعة، كل فرعة يزحف بعضهم إلى بعض، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال.

قال نصر: وخرج أبو إمامة الباهلي وأبو الدرداء، فدخلا على معاوية - وكانا معه - فقالا: يا معاوية، علام تقاتل هذا الرجل؟ فوالله لو أقدم منك إسلاماً، وأحق بهذا الأمر؛ وأقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلام تقاتله؟ فقال: أقاتله على دم عثمان، وأنه آوى قتلته، فقولوا له: فليقدنا من قتلته وأنا أول من بايعه من أهل الشام.

فانطلقوا إلى علي عليه السلام فأخبروه بقول معاوية، فقال: إنما يطلب الذين ترون، فخرج عشرون ألفاً أو أكثر متسربلين الحديد؛ لا يرى منهم إلا الحدق، فقالوا: كلنا قتله؛ فإن شاؤوا فليرموا ذلك منا.

فرجع أبو إمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال.

قال نصر: حتى إذا كان رجب، وخشي معاوية أن يتابع القراء علياً عليه السلام، أخذ في المكر، وأخذ يحتال للقراء لكيما يجمعوا ويكفوا حتى ينظروا.

قال: فكتب في سهم: من عبد الله الناصح، إني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فيغرقكم، فخذوا حذركم. ثم رمى بالسهم في عسكر علي عليه السلام، فوقع السهم في يد رجل فقراه ثم أقرأ صاحبه، فلما قرأ وقرأته الناس وأقرأه من أقبل وأدبر، قالوا: هذا أخ لنا ناصح، كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية؛ فلم يزل السهم يقرأ ويرتفع حتى رفع إلى علي عليه السلام، وقد بعث معاوية مائتي رجل من العملة إلى عاقول من النهر، بأيديهم المرور والزبل يحفرون فيها بحيال عسكر علي عليه السلام. فقال علي عليه السلام: ويحكم! إن الذي يعالج معاوية لا يستقيم له، ولا يقوى عليه، إنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم، فانتهوا عن ذلك، فقالوا له: لا ندعهم والله يحفرون، فقال علي عليه السلام: لا تكونوا ضعفي، ويحكم! لا تغلبوني على رأيي. فقالوا: والله لنتحeln، فإن شئت فارتحل، وإن شئت فأقم، فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم ملياً، وارتحل علي عليه السلام في أخريات الناس، وهو يقول:

إلى ركن اليمامة أو شمام

فو أني أطعت عصمت قومي

منيت بخلف آراء الطغام

ولكني متى أبرمت أمراً

قال: وارتحل معاوية حتى نزل معسكر علي عليه السلام الذي كان فيه، فدعا علي عليه السلام الأشر، فقال: ألم تغلبي على رأيي أنت والأشعث! فدوونكما. فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين، سأداوي ما أفسدت اليوم من ذلك، فجمع كندة فقال لهم: يا معشر كندة، لا تفضحوني اليوم ولا تخزوني؛ فإني إنما أقارع بكم أهل الشام، فخرجوا معه رجالة يمشون، وييده رمح له يلقيه على الأرض، ويقول: امشوا قيد رمحي هذا، فيمشون، فلم يزل يقيس لهم الأرض برمح، ويمشون معه رجالة حتى لقي معاوية وسط بني سليم واقفاً على الماء، وقد جاءه أداني عسكره، فاقتتلوا قتالاً شديداً على الماء ساعة، وانتهى أوائل أهل العراق فترلوا، وأقبل الأشر في خيل من أهل العراق، فحمل على معاوية، والأشعث يحارب في ناحية أخرى؛ فانحاز معاوية في بني سليم، فرد وجوه إبله ثلاثة فراسخ، ثم نزل ووضع أهل الشام أثقالهم، والأشعث يهدر ويقول: أرضيتك يا أمير المؤمنين! ثم تمثل بقول طرفة بن العبد:

ما أصاب الناس من خير وشر

ففداء لبني سعد على

نعم الساعون في الحي الشطر

ما أقلت قدماي إنهم

فعقبتم بذنوب غير مر

ولقد كنت عليكم عاتباً

فانجلى اليوم قناعي وخمر

كنتم فيكم كالمغطي رأسه

فتناهيت وقد صابت بقر

سادرأ أحسب غيي رشداً

وقال الأشر: يا أمير المؤمنين، قد غلب الله لك على الماء، فقال علي عليه السلام، أنتما كما قال الشاعر:

فيوقد للحرب ناراً فنارا

تلاقين قيساً وأشياعه

سما للعلا وأجل الخطارا

أخو الحرب إن لقحت بازلاً

قال نصر: فكان كل واحد من علي ومعاوية يخرج الرجل الشريف في جماعة، فيقاتل مثله؛ وكانوا يكرهون أن يتزاحفوا بجميع الفيلق مخافة الاستئصال والهلاك، فاقتتل الناس ذا الحجة كله، فلما انقضى تداعوا إلى أن يكف بعضهم عن بعض

إلى أن ينقضي الحرم، لعل الله أن يجري صلحاً أو جماعاً، فكف الناس في الحرم بعضهم عن بعض.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن أبي المجاهد عن الحل بن خليفة، قال: لما توادعوا في الحرم، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصلح، فأرسل علي عليه السلام إلى معاوية عدي بن حاتم الطائي وشيث بن ربعي التميمي ويزيد بن قيس وزباد بن خصفة، فلما دخلوا عليه، حمد الله تعالى عدي بن حاتم الطائي وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإننا أتيناك لندعوك إلى أمرٍ يجمع الله فيه كلمتنا وأمتنا، ويحقن به دماء المسلمين. ندعوك إلى أفضل الناس سابقة، وأحسنهم في الإسلام آثاراً؛ وقد اجتمع إليه الناس، وقد أرشدهم الله بالذي رأوا وأتوا، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فانت يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل.

فقال له معاوية: كأنك إنما جئت مهدداً، ولم تأت مصلحاً! هيهات يا عدي! إني لابن حرب! ما يقعق لي بالشنان. أما والله إنك من الجلبين على عثمان، وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله.

فقال له شيث بن ربعي وزباد بن خصفة، وتنازعا كلاماً واحداً: أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب لنا الأمثال، دع ما لا ينفع من القول والفعل، وأجبنا فيما يعمننا وإياك نفعه.

وتكلم يزيد بن قيس الأرجي، فقال: إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك، ولنؤدي عنك ما سمعنا منك؛ ولم ندع أن ننصح لك، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة، أو أنه راجع بك إلى الألفة والجماعة إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله، ولا أظنه يخفى عليك، إن أهل الدين والفضل لا يعدلونك بعلي، ولا يميلون بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً؛ فإننا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى، ولا أزهدي في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فحمد الله ومعاوية وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإنكم دعوتكم إلى الجماعة والطاعة؛ فأما الجماعة التي دعوتكم إليها فنعمنا هي! وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها؛ فإن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتنا؛ وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله؛ فنحن لا نرد ذلك عليه أرايتم قتلة صاحبنا! ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؛ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به؛ ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

فقال له شيث بن ربعي: أيسرك بالله يا معاوية أن أمكنت من عمار بن ياسر فقتلته! قال: وما يمنعني من ذلك! والله لو أمكنني صاحبكم من ابن سمية ما قتلته بعثمان، ولكني كنت اقتله بنائل مولى عثمان!.

فقال شيث: وإله السماء ما عدلت معدلاً، ولا الذي لا إله إلا هو، لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تندر الهام عن كواهل الرجال، وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها.

فقال معاوية: إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضييق.

ثم رجع القوم عن معاوية، فبعث إلى زياد بن خصفة من بينهم، فأدخل عليه، فحمد معاوية الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا أخا ربيعة، فإن علياً قطع أرحامنا، وقتل إمامنا، وآوى قتلة صاحبنا، وإن أسألك النصر بأسرتك وعشيرتك، ولك علي عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أي المصرين أحببت.

قال أبو المجاهد: فسمعت زياد بن خصفة يحدث بهذا الحديث.

قال: فلما قضى معاوية كلامه، حمدت الله وأثنت عليه، ثم قلت: أما بعد، فإنني لعلی بينة من ربي وبما أنعم علي، فلن أكون ظهيراً للمجرمين، ثم قمت.

فقال معاوية لعمر بن العاص - وكان إلى جانبه - : ما لهم غضبهم الله! ما قلبهم إلا قلب رجل واحد! قال نصر: وحدثنا سليمان بن أبي راشد، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود، قال: بعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وبعث معه شرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي، فدخلوا على علي عليه السلام فتكلم حبيب بن مسلمة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً، يعمل بكتاب الله ويثبت إلى أمر الله، فاستثقلت حياته، واستبطأتم وفاته. فعدوتم عليه قتلتموه؛ فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به، فإن قلت: إنك لم تقتله، فاعتزل الناس، فيكون أمرهم هذا شورى بينهم، يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم. فقال له علي: وما أنت لا أم لك والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر! اسكت فإنك لست هناك، ولا بأهل لذاك! فقام حبيب بن مسلمة وقال: أما والله لترييني حيث تكره. فقال له عليه السلام: وما أنت! ولو أجليت بخيلك ورجلك. اذهب فصوصب وصعد ما بدا لك، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت!

فقال شرحبيل بن السمط: إن كلمتك، فلعمري ما كلامي إلا نحو كلام صاحبي، فهل لي عندك جواب غير الجواب الذي أجبت به؟ فقال: نعم، قال: فقله؛ فحمد الله علي عليه السلام وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم فأنقذ به من الضلالة، ونعش به من الهلكة، وجمع به بعد الفرقة، ثم قبضه الله إليه، وقد أدى ما عليه، فاستخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فأحسننا السيرة، وعدلنا في الأمة، ووجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا، ونحن آل الرسول، وأحق بالأمر، فغفرنا ذلك لهما، ثم ولي أمر الناس عثمان، فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فسار إليه ناس فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرهم، فقالوا لي، بايع، فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع، فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس؛ فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعا، وخلاف معاوية إياي الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، وحزب من الأحزاب؛ لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين مكرهين، فيا عجباً لكم، ولإجلابكم معه، وانقيادكم له؛ وتدعون آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا تعدلوا بهم أحداً من الناس، إني أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم، وإمارة الباطل، وإحياء معالم الدين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ولكل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة.

فقال له شرحبيل ومعن بن يزيد: أتشهد أن عثمان قتل مظلوماً؟ فقال لهما: إني لا أقول ذلك؛ قالوا: فمن لم يشهد أن عثمان قتل مظلوماً، فنحن برآء منه! ثم قاما فانصرفا. فقال علي عليه السلام: " إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين، وما أنت بمهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون " .

ثم أقبل على أصحابه، فقال: لا يكن هؤلاء في ضلالتهم بأولى بالجد منكم في حقكم وطاعة إمامكم. ثم مكث الناس متوابعين إلى انصلاح المحرم، فلما انسلخ واستقبل الناس صفرًا من سنة سبع وثلاثين، بعث علي عليه السلام نفرًا من

أصحابه؛ حتى إذا كانوا من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت، قام مرثد بن الحارث الجشمي، فنادى عند غروب الشمس: يا أهل الشام إن أمير المؤمنين علياً وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون لكم: إنا لم نكف عنكم شكاً في أمركم، ولا إبقاءً عليكم؛ وإنما كففنا عنكم لخروج الحرم، وقد انسلخ؛ وإنا قد نبذنا إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين. قال: فتحاجز الناس وثاروا على أمرائهم.

قال نصر: فأما رواية عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي الزبير أن نداء مرثد بن الحارث الجشمي، كانت صورته: يا أهل الشام، ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استقدمتكم واستأنيت بكم؛ لتراجعوا الحق، وتثوبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، فلم تتناهوا عن طغيان، ولم يجيبوا إلى حق، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين. قال: فثار الناس إلى أمرائهم ورؤوسائهم.

قال نصر: وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتائب، ويعبيان العساكر، وأوقدوا النيران، وجاؤوا بالشموع، وبات علي عليه السلام تلك الليلة كلها، يعبئ الناس، ويكتب الكتائب، ويدور في الناس ويحرضهم. قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، بإسناده عن عبد الله بن جندب، عن أبيه أن علياً عليه السلام كان يأمرنا في كل مواطن لقينا معه عدوه، فيقول: لا تقتالوا القوم حتى يبدؤكم؛ فهي حجة أخرى لكم عليهم، فإذا قاتلتموهم فهزمتهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتكم إلى رجال القوم فلا تهتكوا سترأ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن؛ ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة، وإن شتمت أعضائكم، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم؛ فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول، ولقد كنا وإنا لنؤمر بالكف عنهن وهن مشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيغير بها عقبه من بعده. قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن إسماعيل بن يزيد - يعني ابن أبي خالد - عن أبي صادق، أن علياً عليه السلام حرض الناس في حروبه، فقال:

عباد الله، اتقوا الله وغضوا أبصاركم، واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجولة والمبارزة والمعانقة، واثبتوا: " واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون " ، " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين " . اللهم ألهمهم الصبر، وأنزل عليهم النصر، وأعظم لهم الأجر.

قال نصر: وكان ترتيب عسكر علي عليه السلام، بموجب ما رواه لنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن محمد بن علي، وزيد بن حسن، ومحمد بن عبد المطلب: أنه جعل على الخيل عمار بن ياسر، وعلى الرجال عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، ودفع اللواء إلى هشام بن عتبة بن أبي وقاص الزهري، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس، وعلى الميسرة عبد الله ابن العباس، وجعل على رجال الميمنة سليمان بن صرد الخزاعي، وعلى رجال الميسرة الحارث بن مرة العبدي، وجعل القلب مضر الكوفة والبصرة. وجعل على ميمنة القلب اليمن وعلى ميسرته ربيعة، وعقد ألوية القبائل، فأعطاهما قوماً منهم بأعيانهم، وجعلهم رؤساءهم وأمراءهم، وجعل على قريش وأسد وكنانة عبد الله بن عباس، وعلى كندة حجر بن عدي الكندي، وعلى بكر البصرة الحصين بن المنذر الرقاشي، وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس، وعلى خزاعة عمرو بن الحمق، وعلى بكر الكوفة نعيم بن هبيرة، وعلى سعد البصرة ورباهما جارية بن قدامة السعدي، وعلى بجيلة رفاعة بن

شداد، وعلى ذهل الكوفة رويماً الشيباني - أو يزيد بن رويم - وعلى عمرو البصرة وحفظتها أعين بن ضبيعة، وعلى قضاة وطبي عدي بن حاتم الطائي، وعلى لهازم الكوفة عبد الله بن حجل العجلي، وعلى تميم الكوفة عمير بن عطارد، وعلى الأزدي واليمن جندب بن زهير، وعلى ذهل البصرة خالد ابن المعمر السدوسي، وعلى عمرو الكوفة وحفظتها شبت بن ريعي، وعلى همدان سعيد بن قيس، وعلى لهازم البصرة حريث بن جابر الجعفي، وعلى سعد الكوفة ورباهما الطفيل أبا صريمة، وعلى مذحج الأشتر بن الحارث النخعي، وعلى عبد القيس الكوفة صعصعة بن صوحان، وعلى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة، وعلى قيس الكوفة عبد الله بن الطفيل البكائي، وعلى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشمي، وعلى قيس البصرة قبيصة بن شداد الهلالي، وعلى اللقيف من القواصي القاسم بن حنظلة الجهني.

وأما معاوية فقد استعمل على الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى الرجالة مسلم بن عقبة المري، وجعل على الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهري، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وجعل على أهل دمشق - وهم القلب - الضحاك بن قيس الفهري، وعلى أهل حمص - وهم الميمنة - ذا الكلاع الحميري، وعلى أهل قنسرين - وهم في الميمنة أيضاً - زفر بن الحارث الكلبي، وعلى أهل الأردن، وهم الميسرة، سفيان بن عمرو أبا الأعور السلمي، وعلى أهل فلسطين - وهم في الميسرة أيضاً - مسلمة بن مخلد، وعلى رجالة أهل دمشق بسر بن أبي أرطاة العامري بن لؤي بن غالب، وعلى رجالة أهل حمص حوشباً ذا ظليم، وعلى رجالة قيس طريف بن حابس الألهاني، وعلى رجالة الأردن عبد الرحمن بن قيس القيني، وعلى رجالة أهل فلسطين الحارث ابن خالد الأزدي، وعلى رجالة قيس دمشق همام بن قبيصة؛ وعلى قضاة حمص وإيادها بلال بن أبي هبيرة الأزدي، وحاتم بن المعتمر الباهلي، وعلى رجالة الميمنة حابس بن سعيد الطائي، وعلى قضاة دمشق حسان بن مجدل الكلبي، وعلى قضاة عباد بن يزيد الكلبي، وعلى كندة دمشق حسان بن حوي السكسكي، وعلى كندة حمص يزيد بن هبيرة السكوني، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البجلي، وعلى حمير وحضرموت اليمان بن غفير، وعلى قضاة الأردن حبيش بن دلجة القيني، وعلى كنانة فلسطين شريكاً الكناني، وعلى مذحج الأردن المخارق بن الحارث الزبيدي، وعلى جذام فلسطين ولحمها ناتل بن قيس الجذامي، وعلى همدان الأردن حمزة بن مالك الهمداني، وعلى الخثعم حمل بن عبد الله الخثعمي، وعلى غسان الأردن يزيد بن الحارث، وعلى جميع القواصي الققعاق بن أبرهة الكلاعي، أصيب في المبارزة أول يوم تراءت فيه الفتتان.

قال نصر: فأما رواية الشعبي التي رواها عنه إسماعيل بن أبي عميرة، فإن علياً عليه السلام بعث على ميمنته عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس، وعلى خيل الكوفة الأشتر، وعلى البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجالة الكوفة عمار بن ياسر، وعلى رجالة أهل البصرة قيس بن سعد - كان قد أقبل من مصر إلى صفين - وجعل معه هاشم بن عتبة، وجعل مسعود بن فدكي التميمي على قراء أهل البصرة، وأما قراء أهل الكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بديل، وعمار بن ياسر.

قال نصر: وأما ترتيب عسكر الشام - فيما رواه لنا عمر بن سعد، عن عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر، عن القاسم مولى

يزيد بن معاوية - فإن معاوية بعث على ميمنته ذا الكلاع، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى مقدمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السلمي، وكان على خيل دمشق كلها عمرو بن العاص، ومعه خيول أهل الشام بأسرها، وجعل مسلم ابن عقبة المري على رجالة دمشق، والضحاك بن قيس على سائر الرجالة بعد.

قال نصر: وتبايع رجال من أهل الشام على الموت وتحالفوا عليه وعقلوا أنفسهم بالعمائم، وكانوا صفوفاً خمسة معقلين، كانوا يخرجون فيصطفون أحد عشر صفاً، ويخرج أهل العراق فيصطفون أحد عشر صفاً أيضاً.

قال نصر: فخرجوا أول يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين، وهو يوم الأربعاء، فاقتتلوا، وعلى من خرج يومئذ من أهل الكوفة الأشتر، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة فاقتتلوا قتالاً شديداً جل النهار، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض. ثم خرج في اليوم الثاني هاشم ابن عتبة في خيل ورجال حسنٍ عددها وعدتها، فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال، ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض، وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر، وخرج إليه عمر بن العاص؛ فاقتتل الناس كأشد قتال كان، وجعل عمار يقول: يا أهل الشام، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهداهما، وبغى على المسلمين، وظاهر المشركين. فلما أراد الله أن يظهر دينه، وينصر رسوله أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، وهو والله فيما يرى راهب غير راغب. ثم قبض الله رسوله، وإنا والله لنعرفه بعداوة مسلم، ومودة المجرم! ألا وإنه معاوية، فقاتلوه والعنوه، فإنه ممن يطفى نور الله، ويظاهر أعداء الله.

قال: وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل، فأمره أن يحمل في الخيل، فحمل فصبروا له، وشد عمار في الرجالة، فأزال عمر بن العاص عن موقفه، وبارز يومئذ زياد بن النضر أحماً له من بني عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العقيلي؛ وأمهما هند الزبيدية، فانصرف كل واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالماً، ورجع الناس يومهم ذلك.

قال نصر: وحدثني أبو عبد الرحمن المسعودي قال: حدثني يونس بن الأرقم، عن حدثه من شيوخ بكر بن وائل، قال: كنا مع علي عليه السلام بصفين، فرفع عمرو بن العاص شقة خمصة سوداء في رأس رمح؛ فقال ناس: هذا لواء عقده له رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلم يزالوا يتحدثون حتى وصل ذلك إلى علي عليه السلام؛ فقال: أتدرون ما أمر هذا اللواء! إن عدو الله عمراً أخرج له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الشقة، فقال: "من يأخذها بما فيها؟" فقال عمرو: وما فيها يا رسول الله؟ قال: "فيها ألا تقاتل بها مسلماً، ولا تقر بها من كافر؟" فأخذها؛ فقد والله قربها من المشركين، وقاتل بها اليوم المسلمين؛ والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة؛ ما أسلموا ولكنهم استسلموا وأسروا الكفر، فلما وجدوا عليه أعواناً أظهروه.

وروى نصر، عن أبي عبد الرحمن المسعودي، عن يونس بن الأرقم، عن عوف بن عبد الله، عن عمرو بن هند البجلي، عن أبيه، قال: لما نظر علي عليه السلام إلى رايات معاوية وأهل الشام، قال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسروا الكفر؛ فلما وجدوا عليه أعواناً، رجعوا إلى عداوتهم لنا، إلا أنهم لم يتركوا الصلاة.

وروى نصر، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: لما كان قتال صفين، قال رجل لعمار: يا أبا

اليقظان؛ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قاتلوا الناس حتى يسلموا؛ فإذا أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم "؟ قال: بلى، ولكن والله ما أسلموا؛ ولكن استسلموا، وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعواناً.

وروى نصر، عن عبد العزيز عن حبيب بن أبي ثابت، عن منذر الثوري، قال: قال محمد بن الحنفية: لما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلى الوادي ومن أسفله، وملاً الأودية كئائب - يعني يوم فتح مكة - استسلموا حتى وجدوا أعواناً.

وروى نصر، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل، عن الحسن، قال: وحدثنا الحكم أيضاً عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبري فاضربوا عنقه "، فقال الحسن: فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا.

يذكر حروبه مع الرسول

الأصل: ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، نقتل آباءنا وابنائنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً؛ ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو. ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما؛ أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام ملقياً جراحه، ومتبوءاً أوطانه. ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود، ولا اخضر للإيمان عود. وإيم الله لتحلبنها دمماً، ولتتبعنها ندماً! الشرح: لقم الطريق: الجادة الواضحة منها. والمضض: لدع الألم وبرحاؤه. والتصاول: أن يحمل كل واحد من القرنين على صاحبه. والتخالس: التسالب والانتهاج. والكبت: الإذلال. وجراح البعير: مقدم عنقه. وتبوءت المنزل: نزلته. ويقال لمن أسرف في الأمر: لتحلبن دمماً، وأصله الناقة يفرط في حلبها فيحلب الحالب الدم. وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة؛ وهي: قوله: استقر الإسلام ملقياً جراحه، أي ثابتاً متمكناً كالبعير يلقي جراحه على الأرض.

وقوله: متبوءاً أوطانه، جعله كالجسم المستقر في وطنه ومكانه.

وقوله: ما قام للدين عمود، جعله كالبيت القائم على العمود.

وقوله: ولا اخضر للإيمان عوده، جعله كالشجرة ذات الفروع والأغصان.

فأما قتلهم الأقارب في ذات الله فكثير؛ قتل علي عليه السلام الجهم الغفير من بني عبد مناف وبني عبد الدار في يوم بدر وأحد؛ وهم عشيرته وبنو عمه، وقتل عمر بن الخطاب يوم بدر خاله العاص بن هشام بن المغيرة، وقتل حمزة بن عبد المطلب شبيهة بن ربيعة يوم بدر، وهو ابن عمه، لأنهما ابنا عبد مناف؛ ومثل ذلك كثير مذكور في كتب السيرة.

وأما كون الرجل منهم وقرنه يتصاولان ويتخالسان، فإن الحال كذلك كانت، بارز علي عليه السلام الوليد بن عتبة، وبارز طلحة بن أبي طلحة، وبارز عمرو بن عبدود؛ وقتل هؤلاء الأقران مبارزة، وبارز كثيراً من الأبطال غيرهم وقتلهم، وبارز جماعة من شجعان الصحابة جماعة من المشركين؛ فمنهم من قتل، ومنهم من قتل، وكتب المغازي تتضمن تفصيل ذلك.

عبد الله بن الحضرمي وفتنته بالبصرة

وهذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في قصة ابن الحضرمي حيث قدم البصرة من قبل معاوية، واستنهض أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة، فتقاعدوا.

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب الغارات: حدثنا محمد بن يوسف، قال: حدثنا الحسن بن علي الزعفراني، عن محمد بن عبد الله بن عثمان، عن ابن أبي سيف، عن يزيد بن حارثة الأزدي، عن عمرو بن محسن، أن معاوية لما أصاب محمد بن أبي بكر بمصر وظهر عليها، دعا عبد الله بن عامر الحضرمي، فقال له: سر إلى البصرة؛ فإن جل أهلها يرون رأينا في عثمان، ويعظمون قتله، وقد قتلوا في الطلب بدمه، فهم موتورون حنقون لما أصابهم؛ ودلوا لو يجدون من يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم في الطلب بدم عثمان؛ واحذر ربيعة، وانزل في مضر، وتودد الأزدي، فإن الأزدي كلها معك إلا قليلاً منهم؛ وإهم إن شاء الله غير مخالفين.

فقال عبد الله بن الحضرمي له: أنا سهم في كنانتك، وأنا من قد جربت، وعدو أهل حربك، وظهيرك على قتلة عثمان، فوجهني إليهم متى شئت. فقال: اخرج غداً إن شاء الله. فودعه وخرج من عنده.

فلما كان الليل جلس معاوية وأصحابه يتحدثون، فقال لهم معاوية: في أي منزل يتزل القمر الليلة؟ فقالوا: بسعد الذابح؛ فكره معاوية ذلك، وأرسل إليه ألا تبرح حتى يأتيتك أمري. فأقام.

ورأى معاوية أن يكتب إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر، عامله عليها، يستطلع رأيه في ذلك، فكتب إليه، وقد كان تسمى بإمرة المؤمنين بعد يوم صفين، وبعد تحكيم الحكيمين: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلام عليك، أما بعد؛ فأني قد رأيت رأياً هممت بإمضائه، ولم يخذلني عنه إلا الاستطلاع رأيك؛ فإن توافقي أحمد الله وامضه، وإن تخالفني فأني أستخير الله وأستهديه. إني نظرت في أمر أهل البصرة فوجدت معظم أهلها لنا ولياً ولعلي وشيعته عدواً؛ وقد أوقع بهم علي الوقعة التي علمت، فأحقاد تلك الدماء ثابتة في صدورهم لا تبرح ولا تريم، وقد علمت أن قتلنا ابن أبي بكر، ووقعنا بأهل مصر قد أطفأت نيران أصحاب علي في الآفاق، ورفعت رؤوس أشياعنا أينما كانوا من البلاد؛ وقد بلغ من كان بالبصرة على مثل رأينا من ذلك ما بلغ الناس، وليس أحد ممن يرى رأينا أكثر عدداً، ولا أضر خلافاً على علي من أولئك، فقد رأيت أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرمي، فيترل في مضر ويتودد الأزدي، ويحذر ربيعة، ويبتغي دم ابن عفان؛ ويذكرهم وقعة علي بهم، التي أهلكت لصالح إخوانهم وآبائهم وأبنائهم. فقد رجوت عند ذلك أن يفسد على علي وشيعته ذلك الفرج من الأرض؛ ومتى يؤتوا من خلفهم وأمامهم يضل سعيهم، ويطل كيدهم. فهذا رأيي. فما رأيك؟ فلا تحبس رسولي إلا قدر مضي الساعة التي ينتظر فيها جواب كتابي هذا. أرشدنا الله وإياك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية: أما بعد، فقد بلغني رسولك وكتابك، فقرأته وفهمت رأيك الذي رأيته، فعجبت له، إن الذي ألقاه في روعك، وجعله في نفسك هو الثائر بابن عفان، والطالب بدمه، وإنه لم يك منك ولا منا منذ نهضنا في

هذه الحروب وبادينا أهلها، ولا رأى الناس رأياً أضر على عدوك، ولا أسر لوليك من هذا الأمر الذي ألهمته، فامض رأيك مسدداً؛ فقد وجهت الصليب الأريب الناصح غير الظنين والسلام.

فلما جاء كتاب عمرو ابن الحضرمي - وقد كان ظن حين تركه معاوية أياماً لا يأمره بالشخص، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه - فقال: يابن الحضرمي، سر على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل في مضر، واحذر ريعة، وتودد الأزدي، وانع ابن عفان، وذكرهم الوقعة التي أهلكتهم، ومن لمن سمع وأطاع دنيا لا تفي، وأثرة لا يفقدها حتى يفقدنا أو نفقده.

فودعه ثم خرج من عنده، وقد دفع إليه كتاباً، وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس.

قال عمرو بن محسن: فكنيت معه حين خرج، فلما خرجنا سرنا ما شاء الله أن نسير، فسمح لنا ظي أعضب عن شمائلنا، فنظرت إليه؛ فوالله لرأيت الكراهية في وجهه؛ ثم مضينا حتى نزلنا البصرة في بني تميم، فسمع بقدمونا أهل البصرة؛ فجاءنا كل من يرى رأي عثمان، فاجتمع إلينا رؤوس أهلها، فحمد الله ابن الحضرمي وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفان، قتله علي بن أبي طالب ظلماً، فطلبتم بدمه، وقتلتم من قتله، فجزاكم الله من أهل مصر خيراً، وقد أصيب منكم الملاء الأخيار، وقد جاءكم الله بإخوان لكم، لهم بأس يتقى، وعدد لا يحصى؛ فلقوا عدوكم الذين قتلوكم؛ فبلغوا الغاية التي أرادوا صابرين، ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا، فمالئوهم وساعدوهم، وتذكروا تأركم لتشفوا صدوركم من عدوكم.

فقام إليه الضحاك بن عبد الله الهلالي، فقال قبح الله ما جئنا به، وما دعوتنا إليه! جئنا والله بمثل ما جاء به صاحبك طلحة والزبير، أتيانا وقد بايعنا علياً، واجتمعنا له، فكلمتنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم، فدعوانا إلى الفرقة، وقاما فينا بزخرف القول، حتى ضربنا بعضنا ببعض عدواناً وظلماً؛ فاقتلنا على ذلك، وإيم الله، ما سلمنا من عظيم وبال ذلك؛ ونحن الآن مجمعون على بيع هذا العبد الصالح الذي أقال العثرة، وعفا عن المسيء وأخذ بيعة غائبا وشاهدنا. أفتأمرنا الآن أن نختلج أسيافنا من أغمادها، ثم يضرب بعضنا بعضاً، ليكون معاوية أميراً، وتكون له وزيراً، ونعدل بهذا الأمر عن علي! والله ليوم من أيام علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من بلاء معاوية وآل ومعاوية لو بقوا في الدنيا، ما الدنيا باقية.

فقام عبد الله بن خازم السلمي، فقال للضحاك: اسكت؛ فلست بأهل أن تتكلم في أمر العامة. ثم أقبل على ابن الحضرمي، فقال: نحن يدك وأنصارك؛ والقول ما قلت؛ وقد فهمنا عنك؛ فادعنا أني شئت! فقال الضحاك لابن خازم: يابن السوداء؛ والله لا يعز من نصرت، ولا يذل بخذلانك من خذلت؛ فتشامتا. قال صاحب كتاب الغارات: والضحاك هذا هو الذي يقول:

بين تقيفٍ وهلالٍ منصبي

يا أيهذا السائلي عن نسبي

أمي أسماء وضحاك أبي

قال: وهو القائل في بني العباس:

في جبل نعلمه وسهل

ما ولدت من ناقة لفحل

أكرم بها من كهلة وكهل

كسته من بطن أم الفضل

وخاتم الأنبياء بعد الرسل

عم النبي المصطفى ذي الفضل

قال: فقام عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي ثم التيمي، فقال عباد الله؛ إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفرقة، ولا نريد أن تقتتلوا ولا تتنازروا؛ ولكننا إنما ندعوكم أن تجمعوا كلمتكم، وتوازروا إخوانكم الذين هم على رأيكم، وأن تلموا شعثكم وتصلحوا ذات بينكم؛ فمهلاً مهلاً! رحمكم الله، استمعوا لهذا الكتاب، وأطيعوا الذي يقرأ عليكم. ففضوا كتاب معاوية وإذا فيه: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين، إلى من قرئ كتابي هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة: سلام عليكم. أما بعد، فإن سفك الدماء بغير حلها، وقتل النفوس التي حرم الله قتلها هلاك موبق، وخسران مبين، لا يقبل الله ممن سفكها صرفاً ولا عدلاً، وقد رأيتم رحمكم الله آثار ابن عفان وسيرته، وحبه للعافية، ومعدلته، وسده للثغور، وإعطاؤه في الحقوق، وإنصافه للمظلوم، وحبه للضعيف، حتى توثب عليه المتوثبون؛ وتظاهر عليه الظالمون، فقتلوه مسلماً محرماً، ظمآن صائماً، لم يسفك فيهم دمًا، ولم يقتل منهم أحداً ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوط، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه، وإلى قتال من قتله، فإننا وإياكم على أمر هدى واضح، وسبيل مستقيم. إنكم إن جامعتونا طفت النائرة، واجتمعت الكلمة، واستقام أمر هذه الأمة، وأقر الظالمون المتوثبون الذين قتلوا إمامهم بغير حق، فأخذوا بجرائرهم وما قدمت أيديهم. إن لكم أن تعمل فيكم بالكتاب، وأن أعطيتكم في السنة عطاءين، ولا أحتمل فضلاً من فيئكم عنكم أبداً. فسارعوا إلى ما تدعون إليه رحمكم الله! وقد بعثت إليكم رجلاً من الصالحين؛ كان من أئمة خليفتم المظلوم ابن عفان وعماله وأعوانه على الهدى والحق، جعلنا الله وإياكم ممن يجيب إلى الحق ويعرفه، وينكر الباطل ويحجده، والسلام عليكم ورحمة الله، قال: فلما قرئ عليهم الكتاب، قال معظمهم: سمعنا وأطعنا.

قال: وروى محمد بن عبد الله بن عثمان، عن علي، عن أبي زهير، عن أبي منقر الشيباني، قال: قال الأحنف لما قرئ عليهم كتاب معاوية: أما أنا فلا ناقة لي في هذا ولا جمل، واعتزل أمرهم ذلك.

وقال عمرو بن مرجوم، من عبد القيس: أيها الناس، الزموا طاعتكم، ولا تنكثوا بيعتكم، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة؛ ولا يكن بعدها لكم بقية؛ ألا إني قد نصحت لكم؛ ولكن لا تحبون الناصحين.

قال إبراهيم بن هلال: وروى محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف، عن الأسود بن قيس، عن ثعلبة بن عباد، أن الذي كان سدد لمعاوية رأيه في تسريح ابن الحضرمي كتاب كتبه إليه عباس بن ضحاك العبدي، وهو ممن كان يرى رأي عثمان، ويخالف قومه في حبهم علياً عليه السلام ونصرته إياه؛ وكان الكتاب: أما بعد، فقد بلغنا بأهل مصر؛ الذين بغوا على إمامهم، وقتلوا خليفتهم طمعاً وبغياً، فقرت بذلك العيون، وشفيت بذلك النفوس؛ وبردت أفئدة أقوام كانوا لقتل

عثمان كارهين، ولعدوه مفارقين، ولكم موالين، وبك راضين؛ فإن رأيت أن تبعث إلينا أميراً طيباً ذكياً ذا عفاف ودين، إلى الطلب بدم عثمان فعلت، فإني لا أخال الناس إلا مجتمعين عليك، وإن ابن عباس غائب عن المصر. والسلام.

قال: فلما قرأ معاوية كتابه قال: لا عزمت رأياً سوى ما كتب به إلي هذا، وكتب إليه جوابه: أما بعد، فقد قرأت كتابك، فعرفت نصيحتك، وقبلت مشورتك، رحمك الله وسددك، أثبت. هداك الله على رأيك الرشيد، فكأنك بالرجل الذي سألت قد أتاك، وكأنك بالجيش قد أطل عليك فسررت وحببت؛ والسلام.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني علي بن أبي سيف عن أبي زهير قال: لما نزل ابن الحضرمي في بني تميم أرسل إلى الرؤوس فأتوه، فقال لهم: أجيئوني إلى الحق، وانصروني على هذا الأمر.

قال: وإن الأمير بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس، وقدم على علي عليه السلام إلى الكوفة يعزيه عن محمد بن أبي بكر، قال: فقام إليه ابن ضحاك، فقال: إي والذي له أسعى، وإياه أخشى، لننصرنك بأسيفنا وأيدينا. وقام المثنى بن مخزومة العبدى فقال: لا والذي لا إله إلا هو، لئن لم ترجع إلى مكانك الذي أقبلت منه لنجاهدك بأسيفنا وأيدينا، ونالنا وأسنة رماحنا. نحن ندع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيد المسلمين، وندخل في طاعة حزب من الأحزاب طاغ! والله لا يكون ذلك أبداً حتى نسير كتيبة، ونفلق السيوف بالهام .

فأقبل ابن الحضرمي على صبرة بن شيمان الأزدي فقال: يا صبرة، أنت رأس قومك، وعظيم من العظماء العرب، وأحد الطلبة بدم عثمان، رأينا رأيك، ورأيك رأينا، وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورأيت، فانصرتي وكن من دوين. فقال له: إن أنت أتيتني فتزلت في داري نصرتك ومنعتك. فقال: إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أنزل في قومه من مضر، فقال: اتبع ما أمرك به.

وانصرف من عنده، وأقبل الناس إلى ابن الحضرمي، وكثر تبعه، ففرغ لذلك زياد وهاله وهو في دار الإمارة، فبعث إلى الحضيض بن المنذر ومالك بن مسمع، فدعاهما، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنكم أنصار أمير المؤمنين وشيعته وثقته، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم، فأجيروني حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين ورأيه.

فأما مالك بن مسمع، فقال: هذا أمر فيه نظر، أرجع إلى من ورائي، وأنظر وأستشير في ذلك.

وأما الحضيض بن المنذر فقال: نعم، نحن فاعلون، ولن نخذلك ولن نسلمك.

فلم ير زياد من القوم ما يطمئن إليه، فبعث إلى صبرة بن شيمان الأزدي، فقال: يابن شيمان، أنت سيد قومك، وأحد عظماء هذا المصر، فإن يكن فيه أحد هو أعظم أهله فأنت ذاك؛ أفلا تجيرون وتنعني، وتمنع بيت مال المسلمين! فإنما أنا أمين عليه. فقال: بلى، إن تحملت حتى تنزل في داري منعتك، فقال: إني فاعل.

فارتحل ليلاً حتى نزل دار صبرة بن شيمان، وكتب إلى عبد الله بن عباس - ولم يكن معاوية ادعى زياداً بعد؛ لأنه إنما ادعاه بعد وفاة علي عليه السلام: للأمير عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد سلام عليك، أما بعد فإن عبد الله بن عامر بن الحضرمي أقبل من قبل معاوية حتى نزل في بني تميم، ونعى ابن عفان، ودعا إلى حرب، فبايعه جل أهل البصرة، فلما رأيت ذلك استجرت بالأزد، ببصرة بن شيمان وقومه لنفسي ولبيت مال المسلمين، ورحلت من قصر الإمارة فتزلت فيهم، وإن الأزدي معي، وشيعة أمير المؤمنين من فرسان القبائل تختلف إلي وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمي؛ والقصر

خالٍ منا ومنهم، فارتفع ذلك إلى أمير المؤمنين، ليرى فيه رأيه، وأعجل إلي بالذي ترى أن يكون منه فيه. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فرفع ذلك ابن عباس إلى علي عليه السلام، وشاع في الناس بالكوفة ما كان من ذلك، وكانت بنو تميم وقيس، ومن يرى رأي عثمان قد أمروا ابن الحضرمي أن يسير إلى قصر الإمارة حين خلاه زياد، فلما تقياً لذلك ودعا أصحابه، ركبت الأزد، وبعثت إليه وإليهم: إنا والله لا ندعكم تأتون القصر فتزولون فيه من لا نرضى، ومن نحن له كارهون؛ حتى يأتي رجل لنا ولكم الرضا، فأبى أصحاب ابن الحضرمي إلا أن يسيروا إلى القصر، وأبت الأزد إلا أن يمنعوهم. فركب الأحنف، فقال لأصحاب ابن الحضرمي: إنكم والله ما أنتم أحق بقصر الإمارة من القوم، وما لكم أن تؤمروا عليهم من يكرهونه، فانصرفوا عنهم؛ ففعلوا، ثم جاء إلى الأزد، فقال: إنه لم يكن ما تكرهون، ولا يؤتى إلا ما تحبون، فانصرفوا رحمكم الله، ففعلوا.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله بن أبي سيف، عن الكلبي، أن ابن الحضرمي لما أتى البصرة، ودخلها نزل في بني تميم في دار سنبل، ودعا بني تميم وأخلاق مضر، فقال زياد لأبي الأسود الدؤلي: أما ترى ما صغى أهل البصرة إلى معاوية؛ وما في الأزد لي مطمع، فقال: إن كنت تركتهم لم ينصروك، وإن أصبحت فيهم منعوك. فخرج زياد من ليلته، فأتى صبرة بن شيمان الحداني الأزدي، فأجاره، وقال له حين أصبح: يا زياد، إنه ليس حسناً بنا أن نقيم فينا محتفياً أكثر من يومك هذا؛ فأعد له منبراً وسريراً في مسجد الحدان، وجعل له شرطاً، وصلى بهم الجمعة في مسجد الحدان.

وغلب ابن الحضرمي على ما يليه من البصرة وجباها، وأجمعت الأزد على زياد، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر الأزد، إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي، وأولى الناس بي. وإن لو كنت في بني تميم وابن الحضرمي فيكم لم أطمع فيه أبداً وأنتم دوني، فلا يطمع ابن الحضرمي في وأنتم دوني، وليس ابن آكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأذن إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار؛ وقد أصبحت فيكم مضموناً، وأمانة مؤداة، وقد رأينا وقعتكم يوم الجمل، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل، فإنكم لا تحمدون إلا على النجدة، ولا تعذرون على الجبن.

فقام شيمان أبو صبرة - ولم يكن شهد يوم الجمل، وكان غائباً - فقال: يا معشر الأزد، ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر، وقد كنتم أمس على علي عليه السلام، فكونوا اليوم له، واعلموا أن إسلامكم له ذل، وخذلانكم إياه عار، وأنتم حي مضماركم الصبر، وعاقبتكم الوفاء؛ فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم، وإن استمدوا معاوية، فاستمدوا علياً عليه السلام، وإن وادعوك فوادعهم.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: يا معشر الأزد، إنا قلنا يوم الجمل: نمنع مصرنا، ونطيع أمنا، نطلب دم خليفتنا المظلوم، فجددنا في القتال، وأقمنا بعد انهزام الناس، حتى قتل منا من لا خير فينا بعده، وهذا زياد جاركم اليوم، والجار مضمون، ولسنا نخاف من علي ما نخاف من معاوية، فهبوا لنا أنفسكم، وامنعوا جاركم أو فأبلغوه مأمته.

فقلت الأزدي: إنما نحن لكم تبع فأجبروه. فضحك زياد، وقال: يا صبرة، أنتخسون ألا تقوموا لبني تميم! فقال صبرة: إن جاؤونا بالأحنف جئناهم بأي صبرة، وإن جاؤونا بالحباب جئت أنا، وإن كان فيهم شباب كثير. فقال زياد: إنما كنت مازحاً.

فلما رأت بنو تميم أن الأزدي قد قامت دون زياد بعثت إليهم: أخرجوا صاحبكم ونحن نخرج صاحبنا، فأبي الأميرين غلب - علي أو معاوية - دخلنا في طاعته، ولا نهلك عامتنا.

فبعث إليهم أبو صبرة: إنما كان هذا يرجي عندنا قبل أن نجيره، ولعمري ما قتل زياد وإخراجه إلا سواء؛ وإنكم لتعلمون إننا لم نجره إلا كرمًا، فاهلوا عن هذا.

قال: وروى أبو الكنود أن شيب بن ربيعي قال لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، ابعث إلى هذا الحي من تميم، فادعهم إلى طاعتك، ولزوم بيعتك، ولا تسلط عليهم أزد عمان البعداء البغضاء؛ فإن واحداً من قومك خير لك من عشرة من غيرهم.

فقال له مخنف بن سليم الأزدي: إن البعيد البغيض، من عصى الله وخالف أمير المؤمنين، وهم قومك، وإن الحبيب القريب من أطاع الله ونصر أمير المؤمنين، وهم قومي، واحدهم خير لأمر المؤمنين من عشرة من قومك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: مه ! تناهوا أيها الناس، وليردعكم الإسلام ووقاره عن التبغي والتهاذي، ولتجتمع كلمتكم، والزموا دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص التي هي قوام الدين، وحجة الله على الكافرين؛ واذكروا إذا كنتم قليلاً مشركين متباغضين متفرقين، فألف بينكم بالإسلام فكثرت، واجتمعت وتحاببت. فلا تفرقوا بعد إذ اجتمعتم، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببت؛ وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل؛ فاقصدوا لهمهم ووجوههم بالسيف حتى يفزعوا إلى الله، وإلى كتابه وسنة نبيه، فأما تلك الحمية من خطرات الشياطين فانتهاها عنها، لا أبا لكم تفلحوا وتنجحوا!.

ثم إنه عليه السلام دعا أعين بن ضبيعة المجاشعي، وقال يا أعين، ألم يبلغك أن قومك وثبوا على عاملي مع ابن الحضرمي بالبصرة، يدعون إلى فراقني وشقاقي ويساعدون الضلال القاسطين علي!.

فقال: لا تسأ يا أمير المؤمنين، ولا يكن ما تكره. ابعني إليهم؛ فأنا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم، ونفي ابن الحضرمي من البصرة أو قتله.

قال: فاخرج الساعة، فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة.

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات.

وروى الواقدي أن علياً عليه السلام، استنفر بني تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي، ويرد عادية بني تميم الذين أجاروه بها، فلم يجبه أحد، فخطبهم، وقال: أليس من العجب أن ينصري الأزدي، وتخذلني مضراً! وأعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي، وخلاف تميم البصرة علي، وأن أستنجد بطائفة منها، تشخص إلى أخوانها فتدعوهم إلى الرشاد، فإن أجابت وإلا فالمنازعة والحرب. فكأنني أحاطب صمماً بكماً لا يفقهون حواراً، ولا يجيبون نداءً،

كل هذا جنباً عن البأس، وحباً للحياة، لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نقتل آبائنا وأبناءنا... الفصل إلى آخره.

قال: فقام إليه أعين بن ضبيعة الجاشعي، فقال: أنا - إن شاء الله - أكفيك يا أمير المؤمنين هذا الخطب، وأتكفل لك بقتل ابن الحضرمي، أو إخراجة عن البصرة. فأمره بالتهيؤ للشخص، فشخص حتى قدم البصرة. قال إبراهيم بن هلال: فلما قدمها على زياد وهو بالأزد مقيم، فرحب به وأجلسه إلى جانبه، فأخبره بما قال له علي عليه السلام، وما رد عليه، وما الذي عليه رأيه، فإنه إذ يكلمه جاءه كتاب من علي عليه السلام فيه: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد: سلام عليك، أما بعد؛ فإني قد بعثت أعين ابن ضبيعة، ليفرق قومه عن ابن الحضرمي، فأرغب ما يكون منه؛ فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظن به، وكان في ذلك تفريق تلك الأوباش فهو ما نحب، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان، فانبذ بمن أطاعك إلى من عصاك، فجاهدهم، فإن ظهرت فهو ما ظننت، وإلا فطاولهم وماطلهم؛ فكأن كتائب المسلمين قد أطلت عليك، فقتل الله المفسدين الظالمين، ونصر المؤمنين المحقين، والسلام. فلما قرأه زياد أقرأه أعين بن ضبيعة، فقال له: إني لأرجو أن يكفي هذا الأمر إن شاء الله. ثم خرج من عنده؛ فأتى رحله، فجمع إليه رجالاً من قومه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا قوم، على ماذا تقتلون أنفسكم، وتهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار! وإني والله ما جئكم حتى عبث إليكم الجنود، فإن تنبؤوا إلى الحق يقبل منكم، ويكف عنكم؛ وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبواركم.

فقالوا: بل نسمع ونطيع. فقال: انهضوا الآن على بركة الله عز وجل. فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمي، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمي فصافوه وواقفهم عامة يومه يناشدهم الله، ويقول: يا قوم لا تنكثوا بيعتكم، ولا تخالفوا إمامكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فقد رأيتم وجريتم كيف صنع الله بكم عند نكثكم بيعتكم وخلافكم... فكفوا عنه، ولم يكن بينه وبينهم قتال، وهم في ذلك يشتمونه وينالون منه، فانصرف عنهم وهو منهم منتصف. فلما آوى إلى رحله تبعه عشرة نفر يظن الناس أنهم خوارج، فضربوه بأسيايفهم وهو على فراشه، ولا يظن أن الذي كان يكون، فخرج يشد عريانه، فلحقوه في الطريق فقتلوه، فأراد زياد أن يناهض ابن الحضرمي حين قتل أعين بجماعة من معه من الأزد وغيرهم من شيعة علي عليه السلام، فأرسل بنو تميم إلى الأزد: والله ما عرضنا لجاركم إذ أكرمتموه، ولا لمال هو له، ولا لأحد ليس على رأينا؛ فما تريدون إلى حربنا وإلى جارنا! فكأن الأزد عند ذلك كرهت قتالهم.

فكتب زياد إلى علي عليه السلام: أما بعد يا أمير المؤمنين، فإن أعين بن ضبيعة قدم علينا من قبلك بجذ ومناصحة وصدق ويقين، فجمع إليه من أطاعه من عشيرته، فحثهم على الطاعة والجماعة، وحذرهم الخلاف والفرقة، ثم نهض بمن أقبل معه إلى من أدبر عنه، فواقفهم عامة النهار، فهال أهل الخلاف تقدمه، وتصددع عن ابن الحضرمي كثير ممن كان يريد نصرته، فكان كذلك حتى أمسى، فأتى في رحله فبيته نفر من هذه الخارجة المارقة، فأصيب رحمه الله تعالى، فأردت أن أناهض ابن الحضرمي عند ذلك، فحدث أمر، قد أمرت صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمر المؤمنين، وقد رأيت إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت، أن يبعث إليهم جارية ابن قدامة، فإنه نافذ البصيرة، ومطاع في العشيرة، شديد على عدو أمير المؤمنين،

فإن يقدم يفرق بينهم بإذن الله. والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما جاء الكتاب، دعا جارية بن قدامة، فقال له: يابن قدامة، تمنع الأزد عاملي وبيت مالي، وتشاقي مضر وتناذني! وبنا ابتدأها الله تعالى بالكرامة، وعرفها الهدى، وتداعوا إلى المعشر الذين حادوا الله ورسوله، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه، حتى علت كلمة الله، وهلك الكافرون.

فقال: يا أمير المؤمنين، ابغثني إليهم، واستعن بالله عليهم. قال: قد بعثتك إليهم، واستعنت بالله عليهم.

قال إبراهيم: فحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني ابن أبي السيف، عن سليمان بن أبي راشد، عن كعب بن قعين، قال: خرجت مع جارية من الكوفة إلى البصرة في خمسين رجلاً من بني تميم، ما كان فيهم يماني غيري، وكنت شديد التشيع، فقلت لجارية: إن شئت كنت معك، وإن شئت ملت إلى قومي! فقال: بل معي، فوالله لوددت أن الطير والبهايم تنصرن عليهم، فضلاً عن الإنس.

قال: وروى كعب بن قعين أن علياً عليه السلام كتب مع جارية كتاباً، وقال: اقرأه على أصحابك، قال: فمضينا معه، فلما دخلنا البصرة، بدأ يزيد، فرحب به وأجلسه إلى جانبه، وناجاه ساعة وساءله، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أن قال: احذر على نفسك، واتق أن تلقى ما لقي صاحبك القادم قبلك.

وخرج جارية من عنده، فقام في الأزد، فقال: جزاكم الله من حي خيراً! ما أعظم غناءكم، وأحسن بلاءكم، وأطوعكم لأمركم! لقد عرفتم الحق إذ ضيعه من أنكره، ودعوتهم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه. ثم قرأ عليهم وعلى من كان معه من شيعة علي عليه السلام وغيرهم، كتاب علي عليه السلام، فإذا فيه: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابي هذا من ساكني البصرة من المؤمنين والمسلمين:

سلام عليكم، أما بعد فإن الله حليم ذو أناة، لا يعجل بالعقوبة قبل البينة، ولا يأخذ المذنب عند أول وهلة، ولكنه يقبل التوبة، ويستدغم الأناة، ويرضى بالإنابة، ليكون أعظم للحجة، وأبلغ في المعةرة؛ وقد كان من شقاق جلكم أيها الناس ما استحققت أن تعاقبوا عليه، ففوت عن مجرمكم، ورفعت السيف عن مدبركم، وقبلت من مقبلكم، وأخذت ببيعكم، فإن تفوا ببيعتي، وتقبلوا نصيحتي، وتستقيموا على طاعتي، أعمل فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق، وأقم فيكم سبيل الهدى، فوالله ما أعلم أن والياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بذلك مني، ولا أعمل بقولي. أقول قولي هذا صادقاً، غير ذام لمن مضى، ولا منتقصاً لأعمالهم، وإن خبطت بكم الأهواء المردية، وسفه الرأي الجائر إلى مناظرتي، تريدون خلافي! فها أنا ذا قربت جيادي، ورحلت ركابي، وإيم الله لئن الجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعةً، لا يكون يوم الحمل عندها إلا كلعقة لاعق، وإني لظان ألا تجعلوا - إن شاء الله - على أنفسكم سبيلاً، وقد قدمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم، ولن أكتب إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استغششتهم نصيحتي، وناذتم رسولي، حتى أكون أنا الشاخص نحوكم، إن شاء الله تعالى. والسلام.

قال: فلما قرئ الكتاب على الناس قام صبرة بن شيمان، فقال: سمعنا وأطعنا، ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب، ولمن سالم سلم، إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك، وإن أحببت أن ننصرك نصرك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحد منهم أن يسير معه، ومضى نحو بني تميم.

فقام زياد في الأزد، فقال: يا معشر الأزد، إن هؤلاء كانوا أمس سلماً، فأصبحوا اليوم حرباً، وإنكم كنتم حرباً فأصبحتم سلماً، وإني والله ما اخترتكم إلا على التجربة، ولا أقمت فيكم إلا على الأمل، فما رضيتم أن أخرجوني، حتى نصبتم لي منبراً وسريراً، وجعلتم لي شرطاً وأعواناً، ومنادياً وجمعة، فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلا هذا الدرهم، لا أجيئه اليوم، فإن لم أجيئه اليوم أجيئه غداً إن شاء الله. واعلموا أن حربكم اليوم معاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس علياً، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة، وإنما أرسله علي ليصدع أمر قومه، والله ما هو بالأمر المطاع، ولو أدرك أمله في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لكان لي تبعاً، وأنتم الهامة العظمى، والجمرة الحامية، فقدموه إلى قومه. فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبرة شيمان فقال: يا زياد، إني والله لو شهدت قومي يوم الحمل، رجوت ألا يقاتلوا علياً، وقد مضى الأمر بما فيه. وهو يوم بيوم، وأمر بأمر، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسبي، والتوبة مع الحق، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الأمور، ولكنها جماعة دماؤها حرام، وجروحها قصاص، ونحن معك نحب ما أحببت، فعجب زياد من كلامه، وقال: ما أظن في الناس مثل هذا.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: إنا والله ما أصبنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الحمل، وإنا لنرجو اليوم أن نمحص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين، وأما أنت يا زياد، فوالله ما أدركت أملك فينا، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك، ونحن رادوك إليها غداً إن شاء الله تعالى، فإذا فعلنا فلا يكن أحد أولى بك منا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنا والله نخاف من حرب علي في الآخرة، ما لا نخاف من حرب معاوية في الدنيا، فقدم هواك وأخر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنقر الحماني، فقال: أيها الأمير، إنك لو رضيت منا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سر بنا إلى القوم إن شئت، وإيم الله ما لقينا قوماً قط إلا اكتفين بعفونا دون جهدنا؛ إلا ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأما جارية، فإنه كلم قومه فلم يجيبوه، وخرج إليهم منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتموه وأسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزد، يستصرخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه، فسارت الأزد بزياد، وخرج إليهم ابن الحضرمي، وعلى خيله عبد الله بن خازم السلمي، فاقتتلوا ساعة، وأقبل شريك بن الأعور الحارثي - وكان من شيعة علي عليه السلام، وصديقاً لجارية بن قدامة - فقال: ألا أقاتل معك عدوك؟ فقال: بلى، فما لبثت بنو تميم أن هزموهم واضطروهم إلى دار سنبل السعدي؛ فحصر ابن الحضرمي وحدوه، فأتى رجل من بني تميم، ومعه عبد الله بن خازم السلمي، فجاءت أمه وهي سوداء حبشية اسمها عجلي، فنادته، فأشرف عليها، فقالت: يا بني، إنزل إلي، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قناعها، وسألته التزول فأبى، فقالت: والله لتترلن أو لأتعرين، وأهوت بيدها إلى ثيابها، فلما رأى ذلك نزل، فذهبت به، وأحاط جارية وزيا بالدار، وقال جارية: علي بالنار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق بالنار في شيء؛ وهم قومك وأنت أعلم، فحرق جارية الدار عليهم، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلاً؛ أحدهم عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي التيمي؛ وسمي جارية منذ ذلك اليوم محرقاً، وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة، ومعه بيت المال، وقالت له: هل بقي

علينا من جوارك شيء؟ قال: لا، قالوا: فبرئنا منه؟ فقال: نعم؛ فانصرفوا عنه. وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعد، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قدم من عندك، فناهض جمع ابن الحضرمي بمن نصره وأعانه من الأزد، ففضه واضطره إلى دار من دور البصرة في عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما، فقتل ابن الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق بالنار، ومنهم من ألقي عليه جدار؛ ومنهم من هدم عليه البيت من أعلاه، ومنهم من قتل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما وصل كتاب زياد قرأه علي عليه السلام على الناس، وكان زياد قد أنفذه مع ظبيان بن عمارة، فسر علي عليه السلام بذلك وسر أصحابه، وأثنى على جارية وعلى الأزد، وذم البصرة فقال: إنها أول القرى خراباً؛ إما غرقاً وإما حرقاً؛ حتى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة. ثم قال لظبيان: أين منزلك منها؟ فقال: مكان كذا، فقال: عليك بضواحيها، وقال ابن العرندس الأزدى يذكر تحريق ابن الحضرمي، ويعبر تميماً بذلك:

وجار تميم ينادي الشجب

لعمري لبئس الشواء الشصب

وقد شيطوا رأسها باللهب

رددنا زياداً إلى داره

لحا الله قوماً شؤوا جارهم

ينادي الخناق وأبناءها

والخناق لقب قوم بني تميم.

ومن كلام له لأصحابه يخبر عن رجل يأمر بسبه

الأصل: أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه - ولن تقتلوه. ألا وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني؛ فأما السب فسبوني، فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني؛ فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة.

الشرح: مندحق البطن: بارزها، والدحوق من النوق: التي يخرج رحمها عند الولادة. وسيظهر سيغلب. ورحب البلعوم: واسعه.

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عن زياداً، وكثير منهم يقول: إنه عن الحجاج. وقال قوم: إنه عن المغيرة بن شعبة؛ والأشبه عندي أنه عن معاوية، لأنه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل، وكان بطيناً، يقعد بطنه إذا جلس على فخذه، وكان معاوية جواداً بالمال والصلات، وبخيلاً على الطعام، يقال: إنه مازح أعرابياً على طعامه، وقد قدم بين يديه خروف، فأمعن الأعرابي في أكله، فقال له: ما ذنبه إليك، أنطحك أبوه؟ فقال الأعرابي: وما حنوك عليه؟ أرضعتك أمه!. وقال لأعرابي يأكل بين يديه، وقد استعظم أكله: ألا أبغيك سكيناً؟ فقال: كل امرئ سكينه في رأسه، فقال له: ما اسمك؟ قال: لقيم، قال: منها أتيت.

كان معاوية يأكل فيكثر، ثم يقول: ارفعوا، فوالله ما شبت ولكن مللت وتعبت.

تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على معاوية لما بعث إليه يستدعيه، فوجده يأكل، ثم بعث فوجده يأكل، فقال: " اللهم لا تشيع بطنه "، قال الشاعر:

كأن في أحشائه معاوية

وصاحب لي بطنه كالهويه

وفي هذا الفصل مسائل: الأولى: في تفسير قوله عليه السلام: فاقتلوه ولن تقتلوه، فنقول: إنه لا تنافي بين الأمر بالشيء والإخبار عن أنه لا يقع، كما أخبر الحكيم سبحانه عن أبا لهب لا يؤمن وأمره بالإيمان، وكما قال تعالى: " فتمنوا الموت إن كنتم صادقين "، ثم قال: " ولا يتمنونه أبداً "، وأكثر التكليفات على هذا المنهاج.

أهل العدل والمجبرة وبعض المسائل الكلامية

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا في أنه تعالى قد يأمر بما يعلم أنه لا يقع، أو يخبر عن أنه لا يقع، وإنما اختلفوا: هل يصح أن يريد ما يعلم أنه لا يقع، أو يخبر عنه أنه لا يقع؟ فقال أصحابنا: يصح ذلك، وقال المجبرة: لا يصح؛ لأن إرادة ما يعلم المريد لأنه لا يقع قضية متناقضة، لأن تحت قولنا: أراد مفهوم أن ذلك المراد مما يمكن حصوله، لأن إرادة المحال ممتنعة. وتحت قولنا: إنه يعلم أنه لا يقع، مفهوم أن ذلك المراد مما لا يمكن حصوله، لأننا قد فرضنا أنه لا يقع وما لا يقع لا يمكن حصوله مع فرض كونه لا يقع، فقال لهم أصحابنا: هذا يلزمكم في الأمر، لأنكم قد أحزتم أن يأمر بما يعلم أنه لا يقع، فقالوا في الجواب: نحن عندنا أنه لا يأمر بما لا يريد، فإذا أمر بما يعلم أنه لا يقع، أو يخبر عن أنه لا يقع، كان ذلك الأمر أمراً عارياً عن الإرادة، والمحال إنما نشأ من إرادة ما علم المريد أنه لا يقع، وههنا لا إرادة. فقليل لهم: هب أنكم ذهبتم إلى أن الأمر قد يعرى من الإرادة مع كونه أمراً، أليست تقولون: إن الأمر يدل على الطلب، والطلب شيء آخر الإرادة! وتقولون: إن ذلك الطلب قائم بذات البارئ، فنحن نلزمكم في الطلب القائم بذات البارئ، الذي لا يجوز أن يعرى الأمر منه ما ألزمتونا في الإرادة. ونقول لكم: كيف يجوز أن يطلب الطالب ما يعلم أنه لا يقع! أليس تحت قولنا: طلب؛ مفهوم أن ذلك المطلوب مما يمكن وقوعه! فالحال في الطلب كالحال في الإرادة، حذو النعل بالنعل. ولنا في هذا الموضوع أبحاث دقيقة ذكرناها في كتبنا الكلامية.

معاوية يأمر بسب علي عليه السلام

المسألة الثانية: في قوله عليه السلام: يأمركم بسبي والبراءة مني، فنقول: إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسب علي عليه السلام والبراءة منه. وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة في أيام بن أمية إلى أن قام عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه فأزاله. وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصد عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر؛ إلى خلافة عمر بن عبد العزيز.

وذكر أبو عثمان أيضاً أن هشام بن عبد الملك لما حج خطب بالموسم، فقام إليه إنسان، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب، فقال: اكفف، فما لهذا جئنا.

وذكر المبرد في الكامل أن خالد بن عبد الله القسري لما كان أمير العراق في خلافة هشام، كان يلعن علياً عليه السلام على المنبر، فيقول: اللهم العن علي بن أبي طالب بن هاشم، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته، وأبا الحسن والحسين! ثم يقبل على الناس، فيقول هل كنييت!.

وروى أبو عثمان أيضاً أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أملت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً!.

وقال أبو عثمان أيضاً: وما كان عبد الملك - مع فضله وأناته وسداده ورجحانه - ممن يخفى عليه فضل علي عليه السلام، وأن لعنه على رؤوس الأشهاد، وفي أعطاف الخطب، وعلى صهوات المنابر مما يعود عليه نقصه، ويرجع إليه وهنه؛ لأنهما جميعاً من بني عبد مناف؛ والأصل واحد، والجرثومة منبت لهما، وشرف علي عليه السلام وفضله عائد عليه، ومحسوب له، ولكنه أراد تشييد الملك وتأكيده ما فعله الأسلاف، وأن يقرر في أنفس الناس أن بني هاشم لا حظ لهم في هذا الأمر، وأن سيدهم الذي به يصلون، وبفخره يفخرون، هذا حاله وهذا مقداره، فيكون من ينتمي إليه ويدلي به عن الأمر أبعد، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح.

وروى أهل السيرة أن الوليد بن عبد الملك في خلافته ذكر علياً عليه السلام، فقال: لعنه الله، بالجر، كان لص ابن لص. فعجب الناس من لحنه فيما لا يلحن فيه أحد، ومن نسبته علياً عليه السلام إلى اللصوصية وقالوا: ما ندري أيهما اعجب! وكان الوليد لحناً.

وأمر المغيرة بن شعبه - وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل معاوية - حجر بن عدي أن يقوم في الناس، فيلعن علياً عليه السلام، فأبى ذلك، فتوعده، فقام فقال: أيها الناس: أن أميركم أمرني أن ألعن علياً فألعنوه. فقال أهل الكوفة: لعنه الله، وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد.

وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي عليه السلام ولعنه وأن يقتل كل من امتنع من ذلك، ويخرب منزله، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون، فمات - لا رحمه الله - بعد ثلاثة أيام، وذلك في خلافة معاوية. وكان الحجاج - لعنه الله - يلعن علياً عليه السلام، ويأمر بلعنه. وقال له متعرض به يوماً وهو راكب: أيها الأمير، إن أهلي عقوبني فسموني علياً، فغير اسمي، وصلني بما أتبلغ به فإني فقير. فقال: للطف ما توصلت به قد سميتك كذا، ووليتك العمل الفلاني فاشخص إليه.

فأما عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فإنه قال: كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود، فمر بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعن علياً، فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردي، فلما رأيته قام فصلى وأطال في الصلاة - شبه المعرض عني - حتى أحسست منه بذلك، فلما انفتل من صلاته كلع في وجهي، فقلت له: ما بال الشيخ؟ فقال لي: يا بني، أنت اللاعن علياً منذ اليوم؟ قلت: نعم، قال: فمتى علمت أن الله

سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم! فقلت: يا أبت، وهل كان علي من أهل بدر! فقال: ويحك! وهل كانت بدر كلها إلا له! فقلت: لا أعود، فقال: أشهد الله أنك لا تعود! قلت: نعم، فلم ألغنه بعدها. ثم كنت أحضر تحت منبر المدينة، وأبي يخطب يوم الجمعة - وهو حينئذ أمير المدينة - فكنت أسمع أبي يمر في خطبه تهدر شقاشقه، حتى يأتي إلى لعن علي عليه السلام فيجملهم، ويعرض له من الفاهة والحصر ما الله عالم به، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوماً: يا أبت، أنت أفصح الناس وأخطبهم، فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حفلك، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل، صرت ألكن عيباً! فقال: يا بني، إن من ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد. فوقرت كلمته في صدري؛ مع ما كان قاله لي معلمي أيام صغري، فأعطيت الله عهداً؛ لكن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيرنه، فلما من الله علي بالخلافة أسقطت ذلك، وجعلت مكانه: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون"، وكتب به إلى الآفاق فصار سنة. وقال كثير بن عبد الرحمن يمدح عمر ويذكر قطعه السب:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف	برياً ولم تقبل إساءة مجرم
وكفرت بالعفو الذنوب مع الذي	أتيت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيغ	من الأود البادي ثقاف المقوم
وما زلت تواقاً إلى كل غاية	بلغت بها أعلى العلاء المقدم
فلما أتاك الأمر عفواً ولم يكن	لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذي يفنى لأنه كان بائداً	وآثرت ما يبقى برأي مصمم

وقال الرضي أبو الحسن رحمه الله تعالى:

بابن عبد العزطيز لو بكت	العين فتى من أمية لبكيتك
غير أنني أقول قد طببت وإن	لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والقذف	؛ فلو أمكن الجزاء جزيتك
ولو أنني رأيت قبرك لاستحييت	من أن أرى وما حبيتك
وقليل أن لو بذلت دماء البدن	صرفاً على الذرا وسقيتك
دير سمعان: فيك مأوى أبي حفص	بودي لو أنني آويتك
دير سمعان، لا أغبك غيث	خير ميت من آل مروان ميتك
أنت بالذكر بين عيني وقلبي	إن تدانيت منك أو إن نأيتك
وإذا حرك الحشا خاطر	منك توهمت أنني قد رأيت

وعجيب أني قليت بني مر

قرب العدل منك لما نأى الجو

فلو أني ملكت دفعا لما نا

وان طراً وأنني ما قليتك

ر بهم فاجتويتهم واجتبيتك

بك من طارق الردى لفديتك

وروى ابن الكلبي، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن السائب، قال: قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هانئ، وهو رجل من بني أود - حي بن يقظان - وكان شريفاً في قومه، قد شهد مع الحجاج مشاهدته كلها، وكان من أنصاره وشيعته: والله ما كافأتك بعد! ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة سيد بني فزارة: أن زوج عبد الله بن هانئ بابنتك، فقال: لا والله ولا كرامة! فدعا بالسياط، فلما رأى الشر قال: نعم أزوجه، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهمداني رئيس اليمانية: زوج ابنتك من عبد الله بن أود، فقال: ومن أود! لا والله لا أزوجه ولا كرامة! فقال: علي بالسيف، فقال: دعني حتى أشاور أهلي، فشاورهم، فقالوا: زوجه ولا تعرض نفسك لهذا الفاسق، فزوجه. فقال الحجاج لعبد الله: قد زوجتك بنت سيد فزارة وبنت سيد همدان، وعظيم كهلان وما أود هناك! فقال: لا تقل أصلح الله الأمير ذاك! فإن لنا مناقب ليست لأحد من العرب، قال: وما هي؟ قال: ما سب أمير المؤمنين عبد الملك في نادٍ لنا قط، قال: منقبة والله، قال: وشهد منا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً، ما شهد منا مع أبي تراب إلا رجل واحد، وكان والله ما علمته امرأ سوء، قال: منقبة والله، قال: ومنا نسوة نذرنا: إن قتل الحسين بن علي أن تنحر كل واحدة عشر قلائص، ففعلن، قال: منقبة والله، قال: وما منا رجل عرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنه حسناً وحسيناً وأمهما فاطمة، قال: منقبة والله، قال: وما أحد من العرب له من الصباحة والملاحاة ما لنا، فضحك الحجاج، وقال: أما هذه يا أبا هانئ فدعها. وكان عبد الله دميماً شديداً الأدمة مجدوراً، في رأسه عجر، مائل الشدق، أحول، قبيح الوجه؛ شديد الحول.

وكان عبد الله بن الزبير ييغض عليه السلام؛ وينتقصه وينال من عرضه.

وروى عمر بن شبة وابن الكلبي والواقدي وغيرهم من رواة السير، أنه مكث أيام ادعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلي فيها على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: لا يمنعني من ذكره إلا أن تشمخ رجال بأنوفها.

وفي رواية محمد بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنى: أن له أهيل سوء ينعضون رؤوسهم عند ذكره.

وروى سعيد بن جبيرة أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن عباس: ما حديث أسمعه عنك؟ قال: وما هو؟ قال: تأنيبي وذممي! فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بئس المرء المسلم يشيع ويحجج جاره"، فقال ابن الزبير: إني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة. وذكر تمام الحديث.

وروى عمر بن شبة أيضاً عن سعيد بن جبيرة، قال: خطب عبد الله بن الزبير، فنال من علي عليه السلام، فبلغ ذلك محمد بن الحنفية، فجاء وهو يخطب، فوضع له كرسي، فقطع عليه خطبته، وقال: يا معشر العرب، شاهت الوجوه! أينتقص علي وأنتم حضور! إن علياً كان يد الله على أعداء الله، وصاعقة من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقه، فقتلهم بكفرهم فشنئوه وأبغضوه، وأضمرؤا له الشنف والحسد، وابن عمه صلى الله عليه وسلم حي بعد لم يميت، فلما نقله الله

إلى جواره، وأحب له ما عنده؛ أظهرت له رجال أحقادها، وشفّت أضغاثها، فمنهم من ابتز حقه، ومنهم من ائتمر به ليقبله، ومنهم من شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن لم يكن لذريته وناصره دولة تنشر عظامهم، وتحفر على أجسادهم؛ والأبدان منهم يومئذ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذل رقابهم، فيكون رقابهم، فيكون الله عز اسمه قد عذبهم بأيدينا وأخزاهم، ونصرنا عليهم، وشفنا صدورنا منهم؛ إنه والله ما يشتم علياً إلا كافراً يسر شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخاف أن ييوح به، فيكفي بشتم علي عليه السلام عنه. أما إنه قد تحطت المنية منكم من امتد عمره، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه: " لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"، فعاد ابن الزبير إلى خطبته، وقال: عذرت بني الفواطم يتكلمون؛ فما بال ابن أم حنيفة! فقال محمد: يابن أم رومان؛ وما لي لا أتكلم! وهل فاتني من الفواطم إلا واحدة! ولم يفتني فخرها؛ لأنها أم أخوي. أنا ابن فاطمة بنت عمران بن عائذ بن مخزوم، جدة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم، كافلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقائمة مقام أمه؛ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركت في بني أسد بن عبد العزى عظماً إلا هشمته! ثم قام فانصرف.

الأحاديث الموضوعة في ذم علي عليه السلام

وذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي - رحمه الله تعالى - وكان من المتحققين بموالاته علي عليه السلام، والمبالغين في تفضيله؛ وإن كان القول بالتفضيل عاماً شائعاً في البغداديين من أصحابنا كافة، إلا أن أبا جعفر أشدهم في ذلك قولاً، وأخلصهم فيه اعتقاداً - أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه؛ وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله؛ فاختلفوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير.

روى الزهري أن عروة بن الزبير حدثه، قال: حدثني عائشة، قالت: كنت عند رسول الله إذ أقبل العباس وعلي، فقال: يا عائشة إن هذين بموتان على غير مليتي - أو قال ديني.

وروى عبد الرزاق عن معمر، قال: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في علي عليه السلام؛ فسألتها عنهما يوماً، فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما! الله أعلم بهما؛ إني لأتألم بهما في بني هاشم.

قال: فأما الحديث الأول، فقد ذكرناه؛ وأما الحديث الثاني فهو أن عروة زعم أن عائشة حدثته، قالت: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل العباس وعلي، فقال: " يا عائشة؛ إن سرك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا"، فنظرت، فإذا العباس وعلي ابن أبي طالب.

وأما عمرو بن العاص، فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين". وأما أبو هريرة، فروى عنه الحديث الذي معناه أن علياً عليه السلام خطب ابنة أبي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسخطه، فخطب على المنبر، وقال: " لاها الله! لا تجتمع ابنة ولي الله وابنة عدو الله أبي جهل! إن فاطمة

بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها؛ فإن كان علي يريد ابنة أبي جهل فليفارق ابنتي، وليفعل ما يريد"، أو كلاماً هذا معناه، والحديث مشهور من رواية الكرايسي .

قلت: هذا الحديث أيضاً مخرج في صحيح مسلم والبخاري عن المسور بن مخرمة الزهري، وقد ذكره المرتضى في كتابه المسمى تنزيه الأنبياء والأئمة، وذكر أنه رواية حسين الكرايسي، وأنه مشهور بالإنحراف عن أهل البيت عليهم السلام، وعداوتهم والمناسبة لهم، فلا تقبل روايته. ولشيعاء هذا الخبر وانتشاره ذكره مروان بن أبي حفصة في قصيدة يمدح بها الرشيد، ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام وينحي عليهم، ويذمهم، وقد بالغ حين ذم علياً عليه السلام ونال منه، وأولها:

سلام على جمل، وهيهات من جمل ويا حبذا جمل وإن صرمت حبلي

يقول فيها:

علي أبوكم كان أفضل منكم	أباه ذوو الشورى وكانوا وكانوا ذوي الفضل
وساء رسول الله إذ ساء بنته	بخطبته بنت اللعين أبي جهل
فدم رسول الله صهر أبيكم	على منبر بالمنطق الصادع الفضل
وحكم فيها حاكمين أبوكم	هما خلعا خلع ذي النعل للنعل
وقد باعها من بعده الحسن ابنه	فقد أبطلت دعواكم الرثة الحبل
وخلينتموها وهي في غير أهلها	وطالبتموها حين صارت إلى أهل

وقد روي هذا الخبر على وجوه مختلفة، وفيه زيادات متفاوتة؛ فمن الناس من يروي فيه: مهمنا ذمنا من صهر فإننا لم نذم صهر أبي العاص بن الربيع، ومن الناس من يروي فيه: ألا إن بني المغيرة أرسلوا إلى علي ليزوجه كريمتهم... وغير ذلك. وعندي أن هذا الخبر لو صح لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قدح، لأن الأمة مجمعة على أنه لو نكح ابنة أبي جهل، مضافاً إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز، لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع، فابنة أبي جهل المشار إليها كانت مسلمة، لأن هذه القصة كانت بعد فتح مكة، وإسلام أهلها طوعاً وكرهاً، ورواة الخبر موافقون على ذلك، فلم يبق إلا أنه إن كان هذا الخبر صحيحاً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى فاطمة عليها السلام قد غارت، وأدركها ما يدرك النساء، عاتب علياً عليه السلام عتاب الأهل، وكما يستثبت الوالد رأي الولد، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلح زوجته. ولعل الواقع كان بعض هذا الكلام فحرف وزيد فيه. ولو تأملت أحوال النبي صلى الله عليه وسلم مع زوجاته، وما كان يجري بينه وبينهن من الغضب تارة، والصلح أخرى، والسخط تارة والرضا أخرى، حتى بلغ الأمر إلى الطلاق مرة، وإلى الإيلاء مرة، وإلى الهجر والقطيعة مرة، وتدبرت ما ورد في الروايات الصحيحة مما كن يلقينه عليه السلام به، ويسمعنه إياه، لعلمت أن الذي عاب الحسدة والشائتون علياً عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين تينك الامرأتين من

الأحوال والأقوال، حتى أنزل فيهما قرآن يتلى في الحاريب، ويكتب في المصاحف، وقيل لهما ما لا يقال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حياً، منابذاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير"، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف: "عسى ربه إن طلقكن... " الآيات بتمامها. ثم ضرب لهما مثلاً امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعليهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً؛ وتام الآية معلوم. فهل ما روي في الخبر من تعصب فاطمة على علي عليه السلام وغيرها من تعريض بني المغيرة له بنكاح عقيلتهم، إذا قويس إلى هذه الأحوال وغيرها مما كان يجري إلا كنسبة التأفيف إلى حرب البسوس! ولكن صاحب الهوى والعصبية لا علاج له.

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبي جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى. قال أبو جعفر: وروى الأعمش، قال: لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة، جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلته مراراً، وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أني أكذب على الله وعلى رسوله، وأحرق نفسي بالنار! والله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن لكل نبي حرماً، وإن حرمي بالمدينة، ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"، وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها؛ فلما بلغ معاوية قوله أجازته وأكرمه وولاه إمارة المدينة.

قلت: أما قوله: ما بين عير وثور، فالظاهر أنه غلط من الراوي، لأن ثوراً بمكة وهو جبل يقال له ثور أطحل، وفيه الغار الذي دخله النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وإنما قيل أطحل لأن أطحل بن عبد مناف بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان كان يسكنه. وقيل: اسم الجبل أطحل، فأضيف ثوراً إليه: وهو ثور بن عبد مناف، والصواب: ما بين عير إلى أحد.

فأما قول أبي هريرة: إن علياً أحدث في المدينة، فحاش لله! كان علي عليه السلام أتقى لله من ذلك؛ والله لقد نصر عثمان نصراً لو كان المحصور جعفر بن أبي طالب لم يبذل له إلا مثله.

قال أبو جعفر: وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضي الرواية، ضربه عمر بالدرة، وقال: قد أكثرت من الرواية وأحر بك أن تكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم! وروى سفیان الثوري عن منصور، عن إبراهيم التيمي، قال: كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلا ما كان من ذكر جنة أو نار.

وورى أبو أسامة عن الأعمش، قال: كان إبراهيم صحيح الحديث، فكنت إذا سمعت الحديث أتيتته فعرضته عليه، فأتيتته يوماً بأحاديث من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، فقال: دعني من أبي هريرة، إنهم كانوا يتركون كثيراً من حديثه. وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: ألا إن أكذب الناس - أو قال: أكذب الأحياء - علي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو هريرة الدوسي.

وروى أبو يوسف، قال: قلت لأبي حنيفة: الخبر يجيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يخالف قياسنا ما تصنع به؟ قال: إذا جاءت به الرواة الثقات عملنا به وتركنا الرأي، فقلت: ما تقول في رواية أبي بكر وعمر؟ فقال: ناهيك بهما! فقلت: علي وعثمان، قال: كذلك، فلما رأي أن أعد الصحابة قال: والصحابة كلهم عدول ما عدا رجلاً، ثم عد منهم أبا

هريرة وأنس ابن مالك.

وروى سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن عمر بن عبد الغفار، أن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية، كان يجلس بالعشيات بباب كندة، ويجلس الناس إليه، فجاء شاب من الكوفة، فجلس إليه، فقال: يا أبا هريرة، أنشدك الله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي بن أبي طالب: " اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " ! فقال: اللهم نعم، قال: فأشهد بالله، لقد واليت عدوه، وعاديت وليه! ثم قام عنه.

وروت الرواة أن أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان في الطريق، ويلعب معهم، وكان يخطب وهو أمير المدينة، فيقول: الحمد لله الذي جعل الدين قياماً، وأبا هريرة إماماً، يضحك الناس بذلك. وكان يمشي وهو أمير المدينة في السوق، فإذا انتهى إلى رجل يمشي أمامه، ضرب برجليه الأرض، ويقول: الطريق الطريق! قد جاء الأمير! يعني نفسه.

قلت قد ذكر ابن قتيبة هذا كله في كتاب المعارف في ترجمة أبي هريرة، وقوله فيه حجة لأنه متهم عليه.

قال أبو جعفر: وكان المغيرة بن شعبة يلعن علياً عليه السلام لعناً صريحاً على منبر الكوفة، وكان بلغه عن علي عليه السلام في أيام عمر أنه قال: لئن رأيت المغيرة لأرجمنه بأحجاره، يعني واقعة الزنا التي شهد عليه فيها أبو بكر، ونكل زياد عن الشهادة، فكان يبغضه لذلك ولغيره من أحوال اجتمعت في نفسه.

قال: وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الزمعة عند ذكر علي عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى، ويقول: وما يغني أنه لم يخالف إلى ما نهي عنه، وقد أراق من دماء المسلمين ما أراق!

قال: وقد كان في الحديثين من يبغضه عليه السلام، ويروي فيه الأحاديث المنكرة؛ منهم حريز بن عثمان، كان يبغضه وينتقصه، ويروي فيه أخباراً مكذوبة، وقد روى المحدثون أن حريزاً رئي في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: كاد يغفر لي لولا بغض علي.

قلت: قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة قال: حدثني المحفوظ ابن المفضل بن عمر، قال: حدثني أبو جعفر بن الجنيد، قال: حدثني أبو البهلول يوسف بن يعقوب، قال: حدثنا حمزة بن حسان - وكان مولى لبني أمية، وكان مؤذناً عشرين سنة، وحج غير حجة، وأثنى أبو البهلول عليه خيراً - قال: حضرت حريز بن عثمان، وذكر علي بن أبي طالب، فقال: ذاك الذي أحل حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى كاد يقع.

قال محفوظ: قلت ليحيى بن صالح الوحاظي: قد رويت عن مشايخ من نظراء حريز، فما بالك لم تحمل عن حريز! قال: إني أتيت فناولني كتاباً، فإذا فيه: حدثني فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة أوصى أن تقطع يد علي بن أبي طالب عليه السلام، فرددت الكتاب، ولم أستحل أن أكتب عنه شيئاً.

قال أبو بكر: وحدثني أبو جعفر، قال: حدثني إبراهيم، قال: محمد بن عاصم، صاحب الخانات، قال: قال لنا حريز بن عثمان: أنتم يا أهل العراق تحبون علي بن أبي طالب عليه السلام ونحن نبغضه، قالوا: لم؟ قال: لأنه قتل أجدادي. قال محمد بن عاصم: وكان حريز بن عثمان نازلاً علينا.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: وكان المغيرة بن شعبة صاحب دنيا، يبيع دينه بالقليل التز منها ويرضي معاوية بذكر علي بن أبي طالب عليه السلام، قال يوماً في مجلس معاوية: إن علياً لم ينكح رسول الله ابنته حباً؛ ولكنه أراد أن يكافئ بذلك

إحسان أبي طالب إليه.

قال: وقد صح عندنا أن المغيرة لعنه على منبر العراق مراتٍ لا تحصى، ويروى أنه لما مات ودفنوه، أقبل رجل راكب ظليماً، فوقف قريباً ثم قال:

عليها زواني الإنس والجنان تعزف

أمن رسم دارٍ من مغيرة تعرف

وهامان فاعلم أن ذا العرش منصف

فإن كنت قد لاقيت فرعون بعدنا

قال: فطلبوه فغاب عنهم ولم يروا أحداً، فعلموا أنه من الجن.

قال: فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقل من يذكر في الصحابة الذين قد غمصناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم؛ لأنه كان مجاهرًا بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص، وهما الطريدان اللعينان، كان أبوه عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكيه في مشيه، ويغمز عليه عينه، ويدلع له لسانه ويتهكم به، ويتهانف عليه، هذا وهو في قبضته وتحت يده، وفي دار دعوته بالمدينة؛ وهو يعلم أنه قادر على قتله في أي وقت شاء من ليل أو نهار، فهل يكون هذا إلا من شائى شديد البغضة، ومستحكم العداوة؛ حتى أفضى أمره إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدينة، وسيره إلى الطائف! وأما مروان ابنه فأخبت عقيدة، وأعظم إلحاداً وكفرًا، وهو الذي خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة؛ وهو يومئذ أميرها وقد حمل الرأس على يديه فقال:

وحمرة تجري على الخدين

يا حبذا بردك في اليدين

كأنما بت بمسجدين

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبي، وقال: يا محمد، يوم بيوم بدر. وهذا القول مشتق من الشعر الذي تمثل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزبير يوم وصل الرأس إليه، والخبر مشهور .

قلت: هكذا قال شيخنا أبو جعفر، والصحيح أن مروان لم يكن أمير المدينة يومئذ بل كان أميرها عمرو بن سعيد بن العاص، ولم يحمل إليه الرأس؛ وإنما كتب إليه عبيد الله بن زياد يبشره بقتل الحسين عليه السلام، فقرأ كتابه على المنبر، وأنشد الرجز المذكور، وأومأ إلى القبر قائلاً: يوم بيوم بدر، فأنكر عليه قوله قوم من الأنصار. ذكر ذلك أبو عبيدة في كتاب المثالب.

قال: وروى الواقدي أن معاوية لما عاد من العراق إلى الشام بعدبيعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال: أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: "إنك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة، فإن فيها الأبدال"، وقد اخترتكم، فالعنوا أبا تراب، فلعنوه. فلما كان من الغد كتب كتاباً، ثم جمعهم فقرأ عليهم، وفيه: هذا كتاب أمير المؤمنين معاوية، صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فاصطفى له من أهله وزيراً كاتباً أميناً، فكان الوحي ينزل على محمد وأنا أكتبه، وهو لا يعلم ما أكتب، فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلقه، فقال له الحاضرون كلهم: صدقت يا أمير المؤمنين.

قال أبو جعفر: وقد روي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد"، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله"، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربع مائة ألف فقبل، وروى ذلك.

قال: وقد صح أن بني أمية منعوا من إظهار فضائل علي عليه السلام، وعاقبوا على ذلك الراوي له؛ حتى إن الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسر على ذكر اسمه؛ فيقول: عن أبي زينب. وروى عطاء، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: وددت أن أترك فأحدث بفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام يوماً إلى الليل؛ وأن عنقي هذه ضربت بالسيف.

قال: فالأحاديث الواردة في فضله لو لم تكن في الشهرة والإستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة؛ لا تقطع نقلها للخوف والتقية من بني مروان مع طول المدة، وشدة العداوة؛ ولولا أن الله تعالى في هذا الرجل سرّاً يعلمه من يعلمه لم يرو في فضله حديث، ولا عرفت له منقبة؛ ألا ترى أن رئيس قرية لو سخط على واحد من أهلها، ومنع الناس أن يذكروه بخير وصلاح لحمل ذكره، ونسي اسمه وصار وهو موجود معدوماً، وهو حي ميتاً! هذه الخلاصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى في هذا المعنى في كتاب التفضيل.

فصل في ذكر المنحرفين عن علي عليه السلام

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أن عدة من الصحابة والتابعين والمحدثين كانوا منحرفين عن علي عليه السلام، قائلين فيه السوء، ومنهم من كتم وأعان أعداءه ميلاً مع الدنيا، وإيثاراً للعاجلة، فمنهم أنس بن مالك، ناشد علي عليه السلام الناس في رحبة القصر - أو قال رحبة الجامع بالكوفة - : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من كنت مولاه فعلي مولاه"؟ فقام اثنا عشر رجلاً فشهدوا بها، وأنس بن مالك في القوم لم يقم، فقال له: يا أنس، ما يمنعك أن تقوم فتشهد، ولقد حضرتهما! فقال: يا أمير المؤمنين، كبرت ونسيت، فقال: اللهم إن كان كاذباً فارمه بما بيضاء لا توارىها العمامة. قال طلحة بن عمير: فوالله لقد رأيت الوضع به بعد ذلك أبيض بين عينيه.

وروى عثمان بن مطرف أن رجلاً سأل أنس بن مالك في آخر عمره عن علي بن أبي طالب، فقال: إني آليت ألا أكنم حديثاً سئلت عنه في علي يوم الرحبة؛ ذاك رأس المتقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيكم.

وروى أبو إسرائيل عن الحكم عن أبي سليمان المؤذن، أن علياً عليه السلام نشد الناس من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من كنت مولاه فعلي مولاه"، فشهد له قوم وأمسك زيد بن أرقم، فلم يشهد - وكان يعلمها - فدعا علي عليه السلام عليه بذهاب البصر فعمي، فكان يحدث الناس بالحديث بعدما كف البصر.

قالوا: وكان الأشعث بن قيس الكندي وجرير بن عبد الله البجلي ييغضانه، وهدم علي عليه السلام دار جرير بن عبد الله، قال إسماعيل بن جرير: هدم علي دارنا مرتين.

وروى الحارث بن حصين، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع إلى جرير بن عبد الله نعلين من نعاله، وقال: احتفظ بهما، فإن ذهابهما ذهاب دينك، فلما كان يوم الجمل ذهبت إحداهما، فلما أرسله علي عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأخرى؛ ثم فارق علياً واعتزل الحرب.

وروى أهل السيرة أن الأشعث خطب إلى علي عليه السلام ابنته، فزبره، وقال: يابن الحائك، أغرك ابن أبي قحافة. وروى أبو بكر الهذلي عن الزهري، عن عبيد الله بن الحيار بن نوفل بن عبد مناف، قال: قام الأشعث إلى علي عليه السلام، فقال: إن الناس يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليك عهداً لم يعهده إلى غيرك؛ فقال: إنه عهد إلي ما في قراب سيفي، لم يعهد إلي غير ذلك. فقال الأشعث: هذه إن قلتها فهي عليك لا لك، دعها ترحل عنك، فقال له: وما علمك بما علي مما لي! منافق ابن كافر، حائك ابن حائك! إني لأجد منك بنة الغزل. ثم التفت إلى عبيد الله بن عدي بن الحيار، فقال: يا عبيد، إنك لتسمع خلافاً وترى عجباً، ثم أنشد:

أصبحت هزءاً لراعي الضأن أتبعه ماذا يريبك مني راعي الضأن!

وقد ذكرنا في بعض الروايات المتقدّمات أن سبب قوله: هذه عليك لا لك، أمر آخر، والروايات تختلف. وروى يحيى بن عيسى الرملي، عن الأعمش: أن جريراً والأشعث خرجا إلى جبان الكوفة، فمر بهما ضب يعدو، وهما في ذم علي عليه السلام، فنادياه: يا أبا حسل؛ هلم يدك نبايعك بالخلافة، فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أما إنهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضب. وكان أبو مسعود الأنصاري منحرفاً عنه عليه السلام، روى شريك، عن عثمان بن أبي زرعة، عن زيد بن وهب، قال: تذاكرنا القيام إذا مرت الجنازة عند علي عليه السلام، فقال أبو مسعود الأنصاري: قد كنا نقوم، فقال علي عليه السلام ذاك وأنتم يومئذ يهود.

وروى شعبة، عن عبيد بن الحسن، عن عبد الرحمن بن معقل، قال: حضرت علياً عليه السلام، وقد سأله رجل عن امرأة توفي عنها زوجها وهي حامل، فقال: تتربص أبعد الأجلين، فقال رجل: فإن أبا مسعود يقول: وضعها انقضاء عدتها، فقال علياً عليه السلام: إن فروجاً لا يعلم، فبلغ قوله أبا مسعود، فقال: بلى، والله إني لأعلم أن الآخر شر. وروى منهال، عن نعيم بن دجاجة، قال: كنت جالساً عند علياً عليه السلام، إذ جاء أبو مسعود، فقال علي عليه السلام: جاءكم فروج، فجاء فجلس، فقال له علي عليه السلام: بلغني أنك تفتي الناس، قال: نعم، وأخبرهم أن الآخر شر، قال: فهل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً؟ قال: نعم، سمعته يقول: " لا يأتي على الناس سنة مائة وعلى الأرض عين تطرف "، قال: أخطأت إستك الحفرة، وغلطت في أول ظنك، إنما عني من حضره يومئذ، وهل الرخاء إلا بعد المائة!.

وروى جماعة من أهل السير أن علياً عليه السلام كان يقول عن كعب الأحبار: إنه لكذاب، وكان كعب منحرفاً عن علي عليه السلام. وكان النعمان بن بشير الأنصاري منحرفاً عنه، وعدواً له، وخاض الدماء مع معاوية خوفاً، وكان من

أمراء يزيد ابنه حتى قتل وهو على حاله.

وقد روي أن عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليه السلام، وأن علياً سيره إلى المدائن؛ وذلك أنه كان يقول: إن مات علي فلا أدري ما موته، وإن قتل فعسى أي إن قتل رجوت له، ومن الناس من يجعل عمران في الشيعة.

وكان سمرة بن جندب من شرطة زياد، روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن، قال: جاء رجل من أهل خراسان إلى البصرة، فترك مالا كان معه في بيت المال، وأخذ براءة، ثم دخل المسجد فصلى ركعتين، فأخذه سمرة بن جندب، وأتبعه برأي الخوارج، فقدمه فضرب عنقه؛ وهو يومئذ على شرطة زياد، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال، فقال أبو بكر: يا سمرة، أما سمعت الله تعالى يقول: "قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى" ! فقال: أخوك أمرني بذلك. وروى الأعمش، عن أبي صالح، قال: قيل لنا: قد قدم رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيناه فإذا هو سمرة بن جندب، وإذا عند إحدى رجله خمر، وعن الأخرى ثلج، فقلنا: ما هذا؟ قالوا: به النقرس، وإذا قوم قد أتوه فقالوا: يا سمرة، ما تقول لربك غداً؟ تؤتى بالرجل فيقال لك: هو من الخوارج فتأمر بقتله، ثم تؤتى بآخر فيقال لك: ليس الذي قتلته بخارجي، ذاك فتى وجدناه ماضياً في حاجته، فشبه علينا، وإنما الخارجي هذا، فتأمر بقتل الثاني! فقال سمرة: وأي بأس في ذلك! إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة، وإن كان من أهل النار مضى إلى النار!

وروى واصل مولى أبي عيينة، عن جعفر بن محمد بن علي عليه السلام عن آبائه، قال: كان لسمرة بن جندب نخل في بستان رجل من الأنصار، فكان يؤذيه، فشكا الأنصاري ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى سمرة، فدعاه فقال له: بع نخلك من هذا، وخذ ثمنه، قال: لا أفعل، قال: فخذ نخلًا مكان نخلك، قال: لا أفعل، قال: فاشتر منه بستانه، قال: لا أفعل، قال: فاترك لي هذا النخل ولك الجنة، قال: لا أفعل، فقال صلى الله عليه وسلم للأنصاري: "اذهب فاقطع نخله، فإنه لا حق له فيه".

وروى شريك قال: أخبرنا عبد الله بن سعد عن حجر بن عدي، قال: قدمت المدينة فجلست إلى أبي هريرة، فقال: ممن أنت؟ قلت: من أهل البصرة؛ قال: ما فعل سمرة بن جندب؟ قلت: هو حي، قال: ما أحد أحب إلي طول حياة منه. قلت: ولم ذاك؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي وله والحذيفة بن اليمان: "أحرکم موتاً في النار"، فسبقنا حذيفة؛ وأن الآن أتمنى أن أسبقه، قال: فبقي سمرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين.

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام، قال: كان سمرة بن جندب أيام مسير الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شرطة عبيد الله بن زياد، وكان يحرض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله. ومن المنحرفين عنه، المبغضين له عبد الله بن الزبير، وقد ذكرناه آنفاً، كان علي عليه السلام يقول: ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله، فأفسده.

وعبد الله هو الذي حمل الزبير على الحرب، وهو الذي زين لعائشة مسيرها إلى البصرة؛ وكان سباباً فاحشاً، ييغض بني هاشم، ويلعن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان علي عليه السلام يقنت في صلاة الفجر وفي صلاة المغرب، ويلعن معاوية، وعمرأ، والمغيرة، والوليد ابن عقبة، وأبا الأعور، والضحاك بن قيس؛ وبسر بن أرطاة، وحبيب بن مسلمة، وأبا

موسى الأشعري، ومروان بن الحكم، وكان هؤلاء يقتنون عليه ويلعنونه.

وروى شيخنا أبو عبد الله البصري المتكلم رحمه الله تعالى، عن نصر بن عاصم الليثي، عن أبيه، قال: أتيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والناس يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله! فقلت: ما هذا؟ قالوا: معاوية قام الساعة، فأخذ بيد أبي سفيان، فخرجا من المسجد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله التابع والمتبوع؛ ورب يوم لأمتي من معاوية ذي الأستاه"، قالوا: يعني الكبير العجز.

وقال: روى العلاء بن حريز القشيري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية: "للتخذن يا معاوية البدعة سنة، والقبح حسناً، أكلك كثير، وظلمك عظيم".

قال: وروى الحارث بن حصيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجذ، قال: قال علي عليه السلام: نحن وآل أبي سفيان قوم تعادوا في الأمر، والأمور يعود كما بدا.

قلت: وقد ذكرنا نحن في تلخيص نقض السفينانية ما فيه كفاية في هذا الباب.

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبي صادق، عن جندب بن عبد الله، قال: ذكر المغيرة بن شعبة عند علي عليه السلام وجده مع معاوية، قال: وما المغيرة! إنما كان إسلامه لفجرة وغدرة غدرها بنفر من قومه فتك بهم، وركبها منهم، فهرب منهم؛ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم كالعائد بالإسلام؛ والله ما رأى أحد عليه منذ ادعى الإسلام خضوعاً ولا خشوعاً، ألا وإنه يكون من ثقيف فراغته قبل يوم القيامة يجانبون الحق، ويسعون نيران الحرب ويوازرون الظالمين، ألا إن ثقيفاً قوم غدر، لا يوفون بعهد، يبغضون العرب كأنهم ليسوا منهم، ولرب صالح قد كان منهم. فمنهم عروة بن مسعود وأبو عبيدة بن مسعود المستشهد يوم قس الناطف. وإن الصالح في ثقيف لغريب.

قال شيخنا أبو القاسم البلخي: من المعلوم الذي لا ريب فيه لاشتهار الخبر به؛ وإطباق الناس عليه؛ أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان يبغض علياً ويشتمه، وأنه هو الذي لاحاه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونازله، وقال له: أنا أثبت منك جناحاً، وأحد سنناً، فقال له علي عليه السلام: اسكت يا فاسق، فأنزل الله تعالى فيهما: "أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون..." "الآيات المتلوة؛ وسمي الوليد بحسب ذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق، فكان لا يعرف إلا بالوليد الفاسق.

وهذه الآية من الآيات التي نزل فيها القرآن بموافقة علي عليه السلام، كما نزل في مواضع بموافقة عمر؛ وسماه الله تعالى فاسقاً في آية أخرى، وهو قوله تعالى: "إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا"، وسبب نزولها مشهور؛ وهو كذبه على بني المصطلق، وادعائه أنهم منعوا الزكاة وشهروا السيف، حتى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتجهيز للمسير إليهم؛ فأنزل الله تعالى في تكذيبه وبراءة ساحة القوم هذه الآية.

وكان الوليد مذموماً معيياً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يشنؤه ويعرض عنه؛ وكان الوليد يبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً ويشنؤه، وأبو عقبة بن أبي معيط هو العدو الأزرق بمكة، والذي كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه وأهله؛ وأخبره في ذلك مشهورة، فلما ظفر به يوم بدر ضرب عنقه. وورث ابنه الوليد الشنآن والبغضة

لحمد وأهله، فلم يزل عليهما إلى أن مات.

قال الشيخ أبو القاسم: وهو أحد الصبية الذين قال أبوه عقبة فيهم، وقد قدم ليضرب عنقه: من للصبية يا محمد؟ فقال: " النار، اضربوا عنقه ".

قال: وللوليد شعر يقصد فيه الرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: " إن تولوها علياً، تجدوه هادياً مهدياً ". قال: وذلك أن علياً عليه السلام لما قتل قصد بنوه أن يخفوا قبره خوفاً من بني أمية أن يحدثوا في قبره حدثاً، فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة - وهي ليلة دفنه - إيهامات مختلفة، فشدوا على جمل تابوتاً موثقاً بالحبال، يفوح منه روائح الكافور، وأخرجوه من الكوفة من سواد الليل صحبة ثقاتهم، يوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام، وأخرجوا بغلاً وعليه جنازة مغطاة؛ يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عدة، منها بالمسجد، ومنها برحبة القصر، قصر الإمارة، ومنها في حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزومي، ومنها في أصل دار عبد الله بن يزيد القسري بجذاء باب الوراقين مما يلي قبلة المسجد، ومنها في الكناسة، ومنها في الثوية، فعمي على الناس موضع قبره، ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواص المخلصون من أصحابه؛ فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السحر في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوه في النجف، بالموضع المعروف بالغري، بوصاة منه عليه السلام إليهم في ذلك، وعهد كان عهد به إليهم، وعمي موضع قبره على الناس؛ واختلفت الأراجيف في صبيحة ذلك اليوم اختلافاً شديداً، واختلفت الأقوال في موضع قبره الشريف وتشعبت، وادعى قوم أن جماعة من طيئ وقعوا على جمل في تلك الليلة، وقد أضله أصحابهم ببلادهم، وعليه صندوق، فظنوا فيه مალأً، فلما رأوا ما فيه خافوا أن يطلبوا به، فدفنوا الصندوق بما فيه، ونحروا البعير وأكلوه، وشاع ذلك في بني أمية وشيعتهم، واعتقدوه حقاً؛ فقال الوليد بن عقبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها:

فما كان مهدياً ولا كان هادياً

فإن يك قد ضل البعير بحمله

وروى الشيخ أبو القاسم البلخي أيضاً، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبي، قال: مر ناس بالحسن بن علي عليه السلام، وهم يريدون عيادة الوليد بن عقبة، وهو في علة شديدة، فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائداً، فقال للحسن: أتوب إلى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس، إلا ما كان بيني وبين أبيك، فإني لا أتوب منه. قال شيخنا أبو القاسم البلخي: وأكد بغضه له بضربه إياه الحد في ولاية عثمان، وعزله عن الكوفة. وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدثين؛ على أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يعضك إلا منافق، ولا يحبك إلا مؤمن ".

قال: وروى حبة العربي، عن علي عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل أخذ ميثاق كل مؤمن على حي وميثاق كل منافق على بغضي، فلو ضربت وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني، ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحبني. وروى عبد الكريم بن هلال، عن أسلم المكي، عن أبي الطفيل، قال: سمعت علياً عليه السلام، وهو يقول: لو ضربت خياشيم المؤمن بالسيف ما أبغضني ولو نثرت على المنافق ذهباً وفضة ما أحبني؛ إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبي، وميثاق

المنافقين ببغضي، فلا يبغضني مؤمن، ولا يحبني منافق أبداً.

قال الشيخ أبو القاسم البلخي: وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة، قالوا: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغض علي بن أبي طالب.

ذكر إبراهيم بن هلال صاحب كتاب الغارات فيمن فارق علياً عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حجية التيمي، من بني تيم ثعلبة بن بكر بن وائل، وكان عليه السلام قد استعمله على الري ودستى، فكسر الخوارج، واحتجج المال لنفسه، فحبسه علي عليه السلام، وجعل معه سعداً مولاه، فقرب يزيد ركائبه، وهو بعد نائم، فالتحق بمعاوية، وقال:

خادعت سعداً وارتمت بي ركائبي إلى الشام واخترت الذي هو أفضل

وغادرت سعداً نائماً في عباءة وسعد غلام مستهام مضلل

ثم خرج حتى أتى الرقة، وكذلك كان يصنع من يفارق علياً عليه السلام، يبدأ بالرقة حتى يستأذن معاوية في القدوم عليه، وكانت الرقة والرها وقرقيسيا وحران من حيز معاوية، وعليها الضحاك بن قيس، وكانت هيت وعانات ونصيبين ودارا وآمد وسنجار من حيز علي عليه السلام؛ وعليها الأشر، وكانا يقتتلان في كل شهر.

وقال يزيد بن حجية وهو بالرقة يهجو علياً عليه السلام:

يا طول ليلي بالرقات لم أنم من غير عشقٍ صبت نفسي ولا سقم

لكن لذكر أمورٍ جمّةٍ طرقت أخشى على الأصل منها زلة القدم

أخشى علياً عليهم أن يكون لهم مثل العقور الذي عفى على إرم

وبعد ذلك ما لا نذكره.

قال إبراهيم بن هلال: وقد كان زياد بن خصفة التيمي، قال لعلي عليه السلام يوم هرب يزيد ابن حجية: ابغطني يا أمير المؤمنين في أثره أردّه إليك؛ فبلغ قوله يزيد بن حجية، فقال في ذلك:

أبلغ زياداً أنني قد كفيته أموري وخليت الذي هو عاتبه

وباب شديد موثق قد فتحته عليك، وقد أعيت عليك مذهبيه

هبلت أما ترجو غنائي ومشهدي إذ الخصم لم يوجد له من يجاذبه

فأقسم لولا أن أمك أمنا وأنتك مولى ما طفقت أعاتبه

وأقسم لو أدركتني ما رددتني كلانا قد اصطفت إليه جلائبه

قال ابن هلال: وكتاب إلى العراق شعراً يذم فيه علياً عليه السلام ويخبره أنه من أعدائه، فدعا عليه وقال لأصحابه عقيب الصلاة: ارفعوا أيديكم فادعوا عليه، فدعا عليه وأمن أصحابه.

قال أبو الصلت التيمي: كان دعاؤه عليه: اللهم إن يزيد بن حجية هرب بمال المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين، فاكفنا

مكره وكيده واجزه جزاء الظالمين.

قال: ورفع القوم أيديهم يؤمنون، وكان في المسجد عفاق بن شرحبيل بن أبي رهم التيمي شيخاً كبيراً، وكان يعد ممن شهد على حجر بن عدي حتى قتله معاوية، فقال عفاق: على من يدعو القوم؟ قالوا: على يزيد بن حجية، فقال: تربت أيديكم! أعلی أشرافنا تدعون! فقاموا عليه فضربوه حتى كاد يهلك. وقام زياد بن خصفة - وكان من شيعة علي عليه السلام - فقال: دعوا لي ابن عمي، فقال علي عليه السلام: دعوا للرجل ابن عمه، فتركه الناس، فأخذ زياد بيده فأخرجه من المسجد، وجعل يمشي معه يمسح التراب عن وجهه، وعفاق يقول: والله لا أحبكم ما اختلفت الدرة والجرة، وزیاد يقول: ذلك أضر لك، ذلك شر لك، وقال زياد بن خصفة يذكر ضرب الناس عفاقاً:

دعوت عفاقاً للهدى فاستغشني

ولولا دفاعي عن عفاق ومشهدي

أنبئه أن الهدى في اتباعنا

فإن لا يشايعنا عفاق فإننا

سيغني الإله عن عفاق وسعيه

قبائل من حيي معد ومثلها

لهم عدد مثل التراب وطاعة

فقال له عفاق: لو كنت شاعراً لأجبتك، ولكني أخبركم عن ثلاث خصال كن منكم، والله ما أرى أن تصيبوا بعدهن شيئاً مما يسركم:

أما واحدة: فإنكم سرتم إلى أهل الشام حتى إذا دخلتم عليهم بلادهم قاتلتموهم؛ فلما ظن القوم أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف، فسحروا بكم فردوكم عنهم، فلا والله لا تدخلوها بمثل ذلك الجد والحد والعدد الذي دخلتم به أبداً. وأما الثانية: فإنكم بعثتم حكماً وبعث القوم حكماً، فأما حكمكم فخلعكم، وأما حكمهم فاثبتهم، فرجع صاحبهم يدعى أمير المؤمنين، ورجعتم متلاعنين متباغضين؛ فوالله لا يزال القوم في علاء، ولا تزالون في سفال. وأما الثالثة: فإنه خالفكم قراؤكم وفرسانكم فعدوتم عليهم فذبحتموهم بأيديكم، فوالله لا تزالون بعدها متضعضين. قال: وكان يمر عليهم بعد، فيقول: اللهم إني منهم بريء، ولابن عفان ولي! فيقولون: اللهم إنا لعلي أولياء، ومن ابن عفان برآء، ومنك يا عفاق!.

قال: فأخذ لا يقلع؛ فدعوا رجلاً منهم له سجاعة الكهان، فقالوا: ويحك! أما تكفيننا بسجعك وخطبك هذا! فقال: كفيتمكم، فمر عفاق عليهم، فقال كما كان يقول، فلم يمهله أن قال له: الله اقتل عفاقاً، فإنه أسر نفاقاً، وأظهر شقاقاً، وبين فراقاً، وتلون أخلاقاً.

فقال عفاق: ويحكم! من سلط علي هذا! قال: الله بعثني إليك، وسلطني عليك لأقطع لسانك، وأنصل سنانك، وأطرد شيطانك، قال: فلم يك يمر عليهم بعد؛ إنما يمر على مزينة.

ومن فارقه عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن معتب الثقفي، شهد مع علي عليه السلام صفين، وكان في أول أمره مع معاوية، ثم صار إلى علي عليه السلام، ثم رجع بعد إلى معاوية، وكان علي عليه السلام يسميه المهجع، والمهجع: الطويل.

ومنهم القعقاع بن شور، استعمله علي عليه السلام على كسكر، فنقم منه أموراً؛ منها أنه تزوج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم؛ فهرب إلى معاوية.

ومنهم النجاشي الشاعر من بني الحارث بن كعب، كان شاعر أهل العراق بصفين، وكان علي عليه السلام يأمره بمحاربة شعراء أهل الشام، مثل كعب بن جعيل وغيره، فشرب الخمر بالكوفة، فحده علي عليه السلام، فغضب ولحق بمعاوية، وهجا علياً عليه السلام.

حدث ابن الكلبي عن عوانة، قال: خرج النجاشي في أول يوم من شهر رمضان، فمر بأبي سمال الأسدي، وهو قاعد بفناء داره، فقال له: أين تريد؟ قال: أردت الكناسة، فقال: هل لك في رؤوس وأليات قد وضعت في التنور من أول الليل، فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت؟ قال: ويحك! في أول يوم من رمضان! قال: دعنا مما لا نعرف، قال: ثم مه، قال: أسقيك من شراب كالورس، يطيب النفس، ويجري في العرق، ويزيد في الطرق، يهضم الطعام، ويسهل للفم الكلام، فتزل؛ فتغديا، ثم أتاه بنبيذ فشرباه، فلما كان آخر النهار علت أصواتهما، ولهما جار من شيعة علي عليه السلام، فأتاه فأخبره بقصتهما، فأرسل إليهما قوماً فأحاطوا بالدار، فأما أبو سمال فوثب إلى دور بني أسد فأفلت، وأخذ النجاشي فأتي عليه السلام به، فلما أصبح أقامه في سراويل، فضربه ثمانين، ثم زاده عشرين سوطاً، فقال: يا أمير المؤمنين؛ أما الحد فقد عرفته، فما هذه العلاوة؟ قال: لجراءتك على الله، وإفطارك في شهر رمضان. ثم أقامه في سراويله للناس. فجعل الصبيان يصيحون به: خري النجاشي! وجعل يقول: كلا إنها يمانية وكاؤها شعر.

قال: ومر به هند بن عاصم السلولي، فطرح عليه مطراً، فجعل الناس يمرون به ويطرحون عليه المطارف، حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة، فمدح بني سلول فقال:

تقياً فحيا الله هند بن عاصم

سريع إلى داعي العلا والمكارم

جلوها إذا اسودت وجوه الملائم

ولا يبتغي المخ الذي في الجماجم

بأنني قد أمنت فلا أخاف

رأيت أموركم فيها اختلاف

إذا الله حيا صالحاً من عباده

وكل سلولي إذا ما دعوته

هم البيض أقداماً وديباج أوجه

ولا يأكل الكلب السروق نعالهم

ثم لحق معاوية، وهجا علياً عليه السلام، فقال:

ألا من مبلغ عني علياً

عمدت لمستقر الحق لما

وروى عبد الملك بن قريب الأصمعي، عن ابن أبي الزناد، قال: دخل النجاشي على معاوية، وقد أذن للناس عامة، فقال

لحاجبه: ادع النجاشي، والنجاشي بين يديه، ولكن اقتحمته عينه، فقال: هأنذا النجاشي بين يديك يا أمير المؤمنين، إن الرجال ليست بأجسامها؛ إنما لك من الرجل أصغراه: قلبه ولسانه، قال: ويحك! أنت القائل:

أجش هزيم والرماح دواني

مرته به الساقان والقدمان

ونجى ابن حربٍ سابح ذو علالةٍ

إذا قلت أطراف الرماح تنوشه

ثم ضرب بيده إلى ثديه، فقال: ويحك! إن مثلي لا تعدو به الخيل؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إني لم أعنك، وإنما عنيت عتبة. وروى صاحب كتاب الغارات أن علياً عليه السلام لما حد النجاشي غضبت اليمانية لذلك، وكان أحصمهم به طارق بن عبد الله بن كعب النهدي، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاية العدل ومعادن الفضل سيان في الجزاء، حتى رأينا ما كان من صنيعة بأخي الحارث، فأوغرت صدورنا، وشتت أمورنا، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار. فقال علي عليه السلام: "وإنما لكبيرة إلا على الخاشعين"؛ يا أخاه؛ وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرم الله، فأقمنا عليه حداً كان كفرته! إن الله تعالى يقول: "ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى" قال: فخرج طارق من عنده، فلقبه الأشر، فقال: يا طارق؛ أنت القائل لأمر المؤمنين: أوغرت صدورنا وشتت أمورنا؟ قال طارق: نعم، أنا قائلها، قال: والله ما ذاك كما قلت، إن صدورنا له لسامعة، وإن أمورنا له الجامعة. فغضب طارق وقال: ستعلم يا أشر أنه غير ما قلت؛ فلما جنه الليل همس هو والنجاشي إلى معاوية، فلما قدما عليه، دخل آذنه فأخبره بقدميهما، وعنده وجوه أهل الشام؛ ومنهم عمرو بن مرة الجهني، وعمر بن صيفي وغيرهما، فلم دخلا نظر إلى طارق، وقال: مرحباً بالمورق غصنه، والمعرق أصله، المسود غير المسود، من رجل كانت منه هفوة ونبوة، باتباعه صاحب الفتنة، ورأس الضلالة والشبهة، الذي اغترز في ركاب الفتنة حتى استوى على رجلها، ثم أوجف في عشوة ظلمتها وتيه ضلالها، واتبعه رجرة من الناس، وأشباهة من الحثالة لا أفئدة لهم: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها".

فقام طارق، فقال: يا معاوية إني متكلم فلا يسخطك، ثم قال: وهو متكئ على سيفه: إن الحمود على كل حال رب علا فوق عباد، فهم منه بمنظر ومسمع، بعث فيهم رسولاً منهم، يتلو كتاباً لم يكن من قبله ولا يخطه بيمينه، إذا لارتاب المبطلون؛ فعليه السلام من رسول كان بالمؤمنين براً رحيماً! أما بعد، فإن ما كنا نوضع فيما أوضعنا فيه من بين يدي إمام تقي عادل، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أتقياء مرشدين، ما زالوا مناراً للهدى، ومعالم للدين، خلفاً عن سلف مهتدين، أهل دين لا دنيا، كل الخير فيهم، واتبعهم من الناس ملوك وأقيال، وأهل بيوتات وشرف، ليسوا بناكثين ولا قاسطين، فلم يكن رغبة من رغب عنهم وعن صحبتهم إلا لمرارة الحق حيث جرعوها، ولوعورته حيث سلكوها؛ وغلبت عليهم دنيا مؤثرة، وهو متبع، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وقد فارق الإسلام قبلنا جبلة بن الأيهم فراراً من الضيم، وأنفاً من الذلة، فلا تفخرن يا معاوية؛ إن شددنا نخوك الرحال، وأوضعنا إليك الركاب. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولجميع المسلمين.

فعظم على معاوية ما سمعه وغضب، لكنه أمسك، وقال: يا عبد الله؛ إنا لم نرد بما قلناه أن نوردك مشرع ظمأ، ولا أن

نصدرك عن مكرع ري، ولكن القول قد يجري بصاحبه إلى غير ما ينطوي عليه من الفعل، ثم أجلسه معه على سريرته، ودعا له بمقطعات وبرود فصبها عليه؛ وأقبل نحوه بوجهه يحدثه حتى قام.

وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفي الجهنيان، فأقبلا عليه بأشد العتاب وأمضه، يلومانه في خطبته. وما واجه به معاوية.

فقال طارق: والله ما قمت بما سمعتماه حتى خيل لي أن بطن الأرض خير لي من ظهرها عند سماعي ما أظهر من العيب والنقص لمن هو خير منه في الدنيا والآخرة، وما زهت به نفسه، وملكه عجبه، وعاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقصهم، فقامت مقاماً أوجب الله علي فيه ألا أقول إلا حقاً، وأي خير فيمن لا ينظر ما يصير إليه غداً! فبلغ علياً عليه السلام قوله، فقال: لو قتل النهدي يومئذ لقتل شهيداً.

وقال معاوية للهيثم بن الأسود أبي العريان - وكان عثمانياً، وكانت امرأته علوية الرأي، تكتب بأخبار معاوية في أعنة الخيل وتُدفعها إلى عسكر علي عليه السلام بصفين فيدفعونها إليه، فقال معاوية بعد التحكيم: يا هيثم، أهل العراق كانوا أنصح لعلي في صفين أم أهل الشام لي؟ فقال: أهل العراق قبل أن يضربوا بالبلاء كانوا أنصح لصاحبهم؛ قال: كيف قلت ذلك؟ قال: لأن القوم ناصحوه على الدين، وناصحك أهل الشام على الدنيا، وأهل الدين أصبر، وهم أهل بصيرة، وإنما أهل الدنيا أهل طمع، ثم والله ما لبث أهل العراق أن نبذوا الذين وراء ظهورهم، ونظروا إلى الدنيا، فالتحقوا بك.

فقال معاوية: فما الذي يمنع الأشعث أن يقدم علينا، فيطلب ما قبلنا؟ قال: إن الأشعث يكرم نفسه أن يكون رأساً في الحرب، وذنباً في الطمع.

ومن المفارقين لعلي عليه السلام أخوه عقيل بن أبي طالب، قدم على أمير المؤمنين بالكوفة يسترفده، فعرض عليه عطاءه، فقال: إنما أريد من بيت المال، فقال: تقيم إلى يوم الجمعة، فلما صلى عليه السلام الجمعة، قال له: ما تقول فيمن خان هؤلاء أجمعين؟ قال: بنس الرجل! قال: فإنك أمرتني أن أخونهم وأعطيك، فلما خرج من عنده شخص إلى معاوية، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم، وقال له: يا أبا يزيد، أنا خير لك أم علي؟ قال: وجدت علياً أنظر لنفسه منه لي، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك.

وقال معاوية لعقيل: إن فيكم يا بني هاشم لينا، قال: أجل إن فينا لينا من غير ضعف، وعزاً من غير عنف، وإن لينكم يا معاوية غدر، وسلمكم كفر. فقال معاوية: ولا كل هذا يا أبا يزيد!

وقال الوليد بن عقبة لعقيل في مجلس معاوية: غلبك أخوك يا أبا يزيد على الثروة! قال: نعم، وسبقني وإياك إلى الجنة، قال: فأما والله إن شذقيه لمضمومان من دم عثمان، فقال: وما أنت وقريش! والله ما أنت فينا إلا كنطيح التيس. فغضب الوليد وقال: والله لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لأرهبوا صعوذاً، وإن أخاك لأشد هذه الأمة عذاباً، فقال: صه! والله إنا لنرغب بعبد من عبده عن صحبة أبيك عقبة بن أبي معيط.

وقال معاوية يوماً - وعنده عمرو بن العاص، وقد أقبل عقيل: لأضحكنك من عقيل، فلما سلم قال معاوية: مرحباً برجل عمه أبو لهب، فقال عقيل: وأهلاً برجل عمته: "حمالة الخطب، في جيدها حبل من مسد"؛ لأن امرأة أبي لهب أم جميل

بنت حرب بن أمية.

قال معاوية: يا أبا يزيد ماظنك بعملك أبي لهب! قال: إذا دخلت النار فخذ على يسارك تجده مفترشاً عمته حمالة الحطب؛ أفناكح في النار خير أم منكوح! قال: كلاهما شر، والله.

وممن فارقه عليه السلام حنظلة الكاتب، خرج هو وجريير بن عبد الله البجلي من الكوفة إلى قرقيسيا، وقالوا: لا نقيم ببلدة يعاب فيها عثمان.

وممن فارقه وائل بن حجر الحضرمي، وخبره مذكور في قصة بسر بن أرطأة.

وروى صاحب كتاب الغارات عن إسماعيل بن حكيم، عن أبي مسعود الجريري، قال: كان ثلاثة من أهل البصرة يتواصلون على بغض علي عليه السلام: مطرف بن عبد الله بن الشخير، والعلاء بن زياد، وعبد الله بن شقيق.

قال صاحب كتاب الغارات: وكان مطرف عابداً ناسكاً، وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين: أن عمار بن ياسر دخل على أبي مسعود وعنده ابن الشخير، فذكر علياً بما لا يجوز أن يذكر به، فقال عمار: يا فاسق وإنك لها هنا! فقال أبو مسعود: أذكرك الله يا أبا اليقظان في ضيفي!.

قال: وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة؛ كانوا عثمانية وكانت في أنفسهم أحقاد يوم الجمل، وكان هو عليه السلام قليل التألف للناس، شديداً في دين الله، لا يبالي مع علمه بالدين؛ واتباعه الحق من سخط ومن رضي.

قال: وقد روى يونس بن أرقم، عن يزيد بن أرقم، عن ابن ناجية، مولى أم هانئ، قال: كنت عند علي عليه السلام؛ فأتاه رجل عليه زي السفر. فقال: يا أمير المؤمنين، إني أتيتك من بلدة ما رأيت لك بها محباً، قال: من أين أتيت؟ قال: من البصرة، قال: أنا إنهم لو يستطيعون أن يحبوني لأحبوني، إني وشيعتي في ميثاق الله لا يزداد فينا رجل ولا ينقص إلى يوم القيامة.

وروي أبو غسان البصري، قال: بنى عبید الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة تقوم على بغض علي بن أبي طالب والوقعة فيه: مسجد بني عدي، ومسجد بني مجاشع، ومسجد كان في العلافين على فرضة البصرة؛ ومسجد في الأزدر. ومما قيل عنه إنه يبغض علياً عليه السلام ويذمه، الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد، وروي عنه حماد بن سلمة أنه قال: لو كان علي يأكل الحشف بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه. ورووا عنه أنه كان من المخذلين عن نصرته. وروي عنه أنه أن علياً عليه السلام رآه وهو يتوضأ للصلاة - وكان ذا وسوسة - فصب على أعضائه ماءً كثيراً، فقال له: أرقق ماء كثيراً يا حسن؛ فقال: ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر! قال: أو ساءك ذلك؟ قال: نعم. قال: فلا زلت مسوؤاً.

قالوا: فما زال الحسن عابساً قاطباً مهموماً إلى أن مات.

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكرونه ويقولون: إنه كان من محبي علي بن أبي طالب عليه السلام والمعظمين له! وروي أبو عمر بن عبد البر المحدث في كتابه المعروف بالاستيعاب في معرفة الأصحاب، إن إنساناً سأل الحسن عن علي عليه السلام، فقال: كان والله سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، ورباني هذه الأمة وذا فضلها، وذا سابقتها، وذا

قربتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لم يكن بالثؤمة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض موقنة، ذلك علي بن أبي طالب يا لكع !.

وروى الواقدي، قال: سئل الحسن عن علي عليه السلام - وكان يظن به الانحراف عنه، ولم يكن كما يظن - فقال: ما أقول فيمن جمع الخصال الأربع: ائتمانه على براءة، وما قال له الرسول في غزاة تبوك، فلو كان غير النبوة شيء يفوته لاستثناه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " الثقلان كتاب الله وعتري "، وإنه لم يؤمر عليه أمير قط وقد أمرت الأمراء على غيره.

وروى أبان بن عياش، قال: سألت الحسن البصري عن علي عليه السلام، فقال: ما أقول فيه! كانت له السابقة، والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأي والصحة والنجدة والبلاء والزهد والقضاء والقراءة، إن علياً كان في أمره علياً، رحم الله علياً، وصلى عليه! فقلت: يا أبا سعيد، أتقول: صلى عليه، لغير النبي! فقال: ترحم على المسلمين إذا ذكروا، وصل على النبي وآله وعلى خير آله. فقلت: أهو خير من حمزة وجعفر؟ قال: نعم، قلت: وخير من فاطمة وابنيها؟ قال: نعم، والله إنه خير آل محمد كلهم، ومن يشك أنه خير منهم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وأبوهما خير منهما "! ولم يجز عليه اسم شرك، ولا شرب خمر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة عليها السلام: " زوجتك خير أمي "، فلو كان في أمته خير منه لاستثناه، ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فأخى بين علي ونفسه، فرسول الله صلى الله عليه وسلم خير الناس نفساً، وخيرهم أحاً. فقلت: يا أبا سعيد، فما هذا الذي يقال عنك إنك قلته في علي؟ فقال: يابن أخي، أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة، ولولا ذلك لشالت بي الحشب.

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى، ووجدته أيضاً في كتاب الغارات لإبراهيم بن هلال الثقفى: وقد كان بالكوفة من فقهاء من يعادي علياً ويغضبه، مع غلبة التشيع على الكوفة، فمنهم مرة الهمداني. وروى أبو نعيم الفضل بن دكين عن فطر بن خليفة، قال: سمعت مرة يقول: لأن يكون علي جماً يستقي عليه أهله خيراً له مما كان عليه.

وروى إسماعيل بن بهرام، عن إسماعيل بن محمد، عن عمرو بن مرة، قال: قيل لمرة الهمداني: كيف تخلفت عن علي؟ قال: سبقنا بحسناته، وابتلينا بسيئاته.

قال إسماعيل بن بهرام: وقد روينا عنه أنه قال أشد فحشاً من هذا، ولكننا نتورع عن ذكره.

وروى الفضل بن دكين، عن الحسن بن صالح، قال: لم يصل أبو صادق على مرة الهمداني، قال الفضل بن دكين: وسمعت أن أبا صادق قال في أيام حياة مرة: والله لا يظلني وإياه سقف بيت أبداً، قال: ولما مات لم يحضره عمرو بن شريحيل، قال: لا أحضره لشيء كان في قلبه على علي بن أبي طالب.

قال إبراهيم بن هلال: فحدثنا المسعودي، عن عبد الله بن نمير بهذا الحديث. قال: ثم كان عبد الله بن نمير يقول - وكذلك أنا؛ والله لو مات رجل في نفسه شيء على علي عليه السلام لم أحضره، ولم أصل عليه.

ومنهم الأسود بن يزيد ومسروق بن الأجدع، روى سلمة بن كهيل: أنهما كانا يمشيان إلى بعض أزواج رسول الله صلى

الله عليه وسلم، فيقعان في علي عليه السلام؛ فأما الأسود فمات على ذلك، وأما مسروق فلم يمت حتى كان لا يصلي لله تعالى صلاة إلا صلى بعدها على علي بن أبي طالب عليه السلام، لحديث سمعه من عائشة في فضله.

وروى أبو نعيم الفضل بن دكين، عن عبد السلام بن حرب، عن ليث بن أبي سليم، قال: كان مسروق يقول: كان علي كحاطب ليل؛ قال: فلم يمت مسروق حتى رجع عن رأيه هذا.

وروى سلمة بن كهيل، قال: دخلت أنا وزبيد اليمامي على امرأة مسروق بعد موته؛ فحدثتنا، قالت: كان مسروق والأسود بن يزيد يفرطان في سب علي بن أبي طالب، ثم ما مات مسروق حتى سمعته يصلي عليه، وأما الأسود فمضى لشأنه.

قال: فسألناها: لم ذاك؟ قالت: شيء سمعه من عائشة ترويه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيمن أصاب الخوارج. وروى أبو نعيم، عن عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، قال: ثلاثة لا يؤمنون على علي بن أبي طالب: مسروق، ومرة، وشريح، وروى أن الشعبي رابعهم.

وروى عن هيثم، عن مجالد، عن الشعبي، أن مسروقاً ندم على إبطائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام. وروى الأعمش، عن إبراهيم التيمي، قال: قال علي عليه السلام لشريح؛ وقد قضى قضية نقم عليه أمرها: والله لأنفينك إلى بانقيا شهرين تقضي بين اليهود، قال: ثم قتل علي عليه السلام ومضى دهر؛ فلما قام المختار بن أبي عبيد قال لشريح: ما قال لك أمير المؤمنين عليه السلام يوم كذا؟ قال: إنه قال لي كذا، قال: فلا والله لا تقعد، حتى تخرج إلى بانقيا تقضي بين اليهود. فسيره إليها فقضى بين اليهود شهرين.

ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة، كان عثمانياً يقع في علي عليه السلام، ويقال: إنه كان يرى رأي الخوارج، ولم يختلف في أنه خرج معهم، وأنه عاد إلى علي عليه السلام منياً مقلعاً.

روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف، فخرج إلينا علي، فما زال يكلمنا حتى رجع منا ألفان. وروى صاحب كتاب الغارات، عن عثمان بن أبي شيبة، عن الفضل بن دكين، عن سفيان الثوري، قال: سمعت أبا وائل يقول: شهدت صفين وبئس الصفوف كانت!.

قال: وقد روى أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، قال: كان أبو وائل عثمانياً، وكان زر بن حبیش علوياً. ومن المبغضين القالين: أبو بردة بن أبي موسى الأشعري، ورث البغضة له، لا عن كلاله.

وروى عبد الرحمن بن جندب، قال: قال أبو بردة لزياد: أشهد أن حجر بن عدي قد كفر بالله كفره أصلع، قال عبد الرحمن: إنما عني بذلك نسبة الكفر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنه كان أصلع.

قال: وقد روى عبد الرحمن المسعودي، عن ابن عياش المنتوف، قال: رايت أبا بردة قال لأبي العادية الجهني قاتل عمار بن ياسر: أنت قتلت عمار بن ياسر؟ قال: نعم، قال: ناولني يدك: فقبلها، وقال: لا تمسك النار أبداً.

وروى أبو نعيم عن هشام بن المغيرة، عن الغضبان بن يزيد، قال: رأيت أبا بردة قال لأبي العادية قاتل عمار بن ياسر: مرحباً بأخي ههنا! فأجلسه إلى جانبه.

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن السلمي القارئ؛ روى صاحب كتاب الغارات عن عطاء بن السائب،

قال: قال رجل لأبي عبد الرحمن السلمي: أنشدك بالله، إن سألتك لتخبرني؟ قال: نعم، فلما أكد عليه قال: بالله هل أبغضت علياً إلا يوم قسم المال بالكوفة فلم يصلك ولا أهل بيتك منه بشيء! قال: أما إذ أنشدتني بالله، فلقد كان كذلك.

قال: وروى أبو عمر الضرير، عن أبي عوانة، قال: كان بين عبد الرحمن بن عطية وبين أبي عبد الرحمن السلمي شيء في أمر علي عليه السلام؛ فأقبل أبو عبد الرحمن على حيان، فقال: هل تدري ما جرأ صاحبك على الدماء؟ يعني علياً، قال: وما جرأه لا أبا لغيرك! قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل بدر: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، أو كلاماً هذا معناه.

وكان عبد الله بن عكيم عثمانياً؛ وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى علوياً، فروى موسى الجهني، عن ابنة عبد الله بن عكيم، قالت: تحدثنا يوماً، فسمعت أبي يقول لعبد الرحمن: أما إن صاحبك لو صبر لأتاه الناس. وكان سهم بن طريف عثمانياً، وكان علي بن ربيعة علوياً، فضرب أمير الكوفة على الناس بعثاً، وضرب على سهم بن طريف معهم، فقال سهم لعلي بن ربيعة: اذهب إلى الأمير فكلمه في أمري ليعفيني، فأتى علي بن ربيعة الأمير، فقال: أصلحك الله! إن سهماً أعمى فاعفه، قال: قد أعفيت، فلما التقيا قال: قد أخبرت الأمير أنك أعمى؛ وإنما عنيت عمى القلب.

وكان قيس بن أبي حازم يبغض علياً عليه السلام؛ وروى وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: أتيت علياً عليه السلام ليكلم لي عثمان في حاجة، فأبى فأبغضته.

قلت: وشيوخنا المتكلمون - رحمهم الله - يسقطون روايته عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إنكم لترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر"، ويقولون: إنه كان يبغض علياً عليه السلام؛ فكان فاسقاً، ونقلوا عنه أنه قال: سمعت علياً عليه السلام يخطب على المنبر، ويقول: انفروا إلى بقية الأحزاب، فدخل بغضه في قلبي.

وكان سعيد بن المسيب منحرفاً عنه عليه السلام، وجهه عمر بن علي عليه السلام في وجهه بكلام شديد.

روى عبد الرحمن بن الأسود، عن أبي داود الهمداني، قال: شهدت سعيد بن المسيب - وأقبل عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له سعيد: يا بن أخي، ما أراك تكثر غشيان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفعل إخوانك وبنو أعمامك! فقال عمر: يا بن المسيب، أكلما دخلت المسجد أحيى فأشهدك! فقال سعيد: ما أحب أن تغضب، سمعت أباك يقول: إن لي من الله مقاماً هو خير لبني عبد المطلب مما على الأرض من شيء. فقال عمر: وأنا سمعت أبي يقول: ما كلمة حكمة في قلب منافق فيخرج من الدنيا؛ حتى يتكلم بها. فقال سعيد: يا بن أخي، جعلتني منافقاً! قال: هو ما أقول لك، ثم انصرف، وكان الزهري من المنحرفين عنه عليه السلام.

وروى جرير بن عبد الحميد، عن محمد بن شيبه، قال: شهدت مسجد المدينة، فإذا الزهري وعروة بن الزبير جالسان يذكران علياً عليه السلام، فنالا منه، فبلغ ذلك علي بن الحسين عليه السلام؛ فجاء حتى وقف عليهما، فقال: أما أنت يا عروة؛ فإن أبي حاكم أباك إلى الله، فحكم لأبي على أهلك، وأما أنت يا زهري، فلو كنت بمكة لأريتك كبر أهلك.

وقد روي من طرق كثيرة، أن عروة بن الزبير كان يقول: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهو إلا علي بن أبي طالب وأسامه بن زيد.

وروى عاصم بن أبي عامر البحلي، عن يحيى بن عروة، قال: كان أبي إذا ذكر علياً نال منه. وقال لي مرة: يا بني، والله ما أحجم الناس عنه إلا طلباً للدنيا، لقد بعث إليه أسامة بن زيد أن ابعث إلي بعطائي، فوالله إنك لتعلم أنك لو كنت في فم أسد لدخلت معك. فكتب إليه: إن هذا المال لمن جاهد عليه؛ ولكن لي مالا بالمدينة فأصب منه ما شئت.

قال يحيى: فكنت أعجب من وصفه إياه بما وصفه به، ومن عيبه له وانحرافه عنه. وكان زيد بن ثابت عثمانياً شديداً في ذلك، وكان عمرو بن ثابت عثمانياً، من أعداء علي عليه السلام ومبغضيه، وعمرو بن ثابت هو الذي روى عن أبي أيوب الأنصاري حديث: ستة أيام من شوال. روي عن عمر أنه كان يركب ويدور القرى بالشام ويجمع أهلها، ويقول: أيها الناس، إن علياً كان رجلاً منافقاً، أراد أن ينخس برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، فalcنوه، فيلعنه أهل تلك القرية، ثم يسير إلى القرية الأخرى، فيأمرهم بمثل ذلك، وكان في أيام معاوية.

وكان مكحول من المبغضين له عليه السلام، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحر، قال: لقيت مكحولاً؛ فإذا هو مطبوع - يعني مملوءاً - بغضاً لعلي عليه السلام - فلم أزل به حتى لان وسكن.

وروى المحدثون عن حماد بن زيد، أنه قال: أرى أن أصحاب علي أشد حباً له من أصحاب العجل لعجلهم. وهذا كلام شنيع.

وروي عن شباة بن سوار أنه ذكر عنده ولد علي عليه السلام، وطلبهم الخلافة فقال: والله لا يصلون إليها أبداً، والله ما استقامت لعلي، ولا فرح بها يوماً؛ فكيف تصير إلى ولده! هيهات هيهات! لا والله لا يذوق طعم الخلافة من رضي بقتل عثمان.

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافي: كان أهل البصرة كلهم يبغضونه، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة؛ وأما أهل مكة فكلهم كانوا يبغضونه قاطبةً، وكانت قريش كلها على خلافه، وكان جمهور الخلق مع بني أمية عليه. وروى عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، قال: سمعت علياً عليه السلام، وهو يقول: ما لقي أحد من الناس ما لقيت! ثم بكى عليه السلام.

وروى الشعبي، عن شريح بن هانئ، قال: قال علي عليه السلام: اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رحمي؛ وأصغوا إنائي، وصغروا عظيم منزلي، وأجمعوا على منازعتي.

وروى جابر عن أبي الطفيل، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رحمي، وغصبوني حقي، وأجمعوا على منازعتي أمراً كنت أولى به، ثم قالوا: إن من الحق أن نأخذه، ومن الحق أن تتركه.

وروى المسيب بن نجيبة الفزاري، قال: قال علي عليه السلام: من وجدتموه من بني أمية في ماء فغطوا على صماخه، حت

يدخل الماء في فيه.

وروى عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة، عن المسور بن مخرمة، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف عمر بن الخطاب، فقال ألم نكن نقرأ من جملة القرآن: قاتلوهم في آخر الأمر كما قاتلتموهم في أوله؟ قال: بلى، ولكن ذاك إذا كان الأمراء بني أمية والوزراء بني مخزوم! وروى أبو عمر النهدي، قال: سمعت علي بن الحسين يقول: ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يجنبا.

وروى سفيان الثوري، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، قال: أثنى رجل على علي بن أبي طالب في وجهه - وكان يبغيه - فقال علي: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك.

وروى أبو غسان النهدي، قال: دخل قوم من الشيعة على علي عليه السلام في الرحبة، وهو على حصير خلق، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: حبك يا أمير المؤمنين، قال: أما إنه من أحبني رأيي حيث يحب أن يراني، ومن أبغضني رأيي حيث يكره أن يراني، ثم قال ما عبد الله أحد قبلي إلا نبيه عليه السلام، ولقد هجم أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان، فقال: أو فعلتموها! ثم قال لي وأنا غلام: ويحك، انصر ابن عمك! ويحك لا تخذله، وجعل يحثي على مؤازرته ومكانفته، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلا تصلي أنت معنا يا عم! فقال: لا أفعل يابن أخي، لا تعلوني إسي. ثم انصرف. وروى جعفر بن الأحمر، عن مسلم الأعور، عن حبة العري، قال: قال علي عليه السلام: من أحبني كان معي، أما إنك لو صمت الدهر كله، وقمت الليل كله، ثم قتلت بين الصفا والمروة - أو قال بين الركن والمقام - لما بعثك الله إلا مع هواك بالغاً ما بلغ، إن في جنة ففي جنة، وإن في نار ففي نار.

وروى جابر الجعفي، عن علي عليه السلام أنه قال: من أحبنا أهل البيت فليستعد عدة للبلاء.

وروى أبو الأحوص، عن أبي حيان عن علي عليه السلام: يهلك في رجلان، محبٍ غالٍ، ومبغضٍ قال .

وروى حماد بن صالح، عن أيوب، عن كههمس؛ أن علياً عليه السلام قال: يهلك في ثلاثة: اللاعن والمستمع المقر، وحامل الوزر، وهو الملك المترفع، الذي يتقرب إليه بلعني، ويرأى عنده من ديني، وينتقص عنده حسبي؛ وإنما حسبي حسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وديني دينه. وينجو في ثلاثة: من أحبني، ومن أحب محبي، ومن عادى عدوي؛ فمن أشرب قلبه بغضي أو ألب على بغضي؛ أو انتقصني، فليعلم أن الله عدوه وخصمه، والله عدو للكافرين. وروى محمد بن الصلت، عن محمد بن الحنفية، قال: من أحبنا نفعه الله بجنبا، ولو كان أسيراً بالديلم. وروى أبو صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن علي عليه السلام، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن فيك لشبهاً من عيسى بن مريم، أحبته النصارى حتى أنزلته بالمتزلة التي ليست له، وأبغضه اليهود حتى بهتت أمه ".

وروى صاحب كتاب الغارات حديث البراءة على غير الوجه المذكور في كتاب نهج البلاغة، قال: أخبرنا يوسف بن كليب المسعودي، عن يحيى بن سليمان العبدي، عن أبي مريم الأنصاري، عن محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال: خطب علي عليه السلام على منبر الكوفة، فقال: سيعرض عليكم سبي، وستذبحون عليه؛ فإن عرض عليكم سبي فسيبوني، وإن عرض عليكم البراءة مني، فإني على دين محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقل: فلا تبرأوا مني.

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن مفضل، قال: حدثني الحسن بن صالح، عن جعفر بن محمد عليه السلام. قال: قال علي عليه السلام: والله لتذبحن علي سبي - وأشار بيده إلى حلقه - ثم قال: فإن أمروكم بسبي فسبون، وإن أمروكم أن تبرأوا مني فلإن علي دين محمد صلى الله عليه وسلم. ولم ينههم عن إظهار البراءة.

وروى شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله تعالى، عن سلمة بن كهيل، عن المسيب بن نجبة، قال: بينا علي عليه السلام يخطب إذ قام أعرابي، فصاح: وامظلمتاه! فاستدناه علي عليه السلام، فلما دنا قال له: إنما لك مظلمة واحدة، وأنا قد ظلمت عدد المدر والوبر. قال: وفي رواية عباد بن يعقوب، أنه دعاه فقال له: ويحك! وأنا والله مظلوم أيضاً؛ هات فلندع علي من ظلمنا.

وروى سدير الصيرفي، عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: اشتكى علي عليه السلام شكاة، فعاده أبو بكر وعمر، وخرجا من عنده، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم، فسألهما: "من أين جئتما؟" قالوا: عدنا علياً، قال: "كيف رأيتماه؟" قال: رأيناه يخاف عليه مما به، فقال: "كلا إنه لن يموت حتى يوسع غدراً وبغيًا، وليكونن في هذه الأمة عبرةً يعتبر به الناس من بعده".

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن الغنوي، أن علياً عليه السلام خطب بالرحبة، فقال: أيها الناس؛ إنكم قد أبيتم إلا أن أقولها! ورب السماء والأرض، إن من عهد النبي الأمي إلي: "إن الأمة ستغدر بك بعدي".

وروى هيثم بن بشير، عن إسماعيل بن سالم مثله، وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بهذا اللفظ أو بقريب منه. وروى أبو جعفر الإسكافي أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على فاطمة عليها السلام، فوجد علياً نائماً، فذهبت تنبيهه، فقال: "دعيه فرب سهر له من بعدي طويل، ورب جفوة لأهل بيتي من أحله شديدة" فبكت؛ فقال: "لا تبكي فإنكما معي، وفي موقف الكرامة عندي".

وروى الناس كافة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "هذا وليي وأنا وليه عاديت من عاداه؛ وسالمت من ساله"، أو نحو هذا اللفظ.

وروى أيضاً محمد بن عبد الله بن أبي رافع، عن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي عليه السلام: "عدوك عدوي وعدوي عدو الله عز وجل".

وروى يونس بن حباب، عن أنس بن مالك، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب معنا، فمررنا بحديقة، فقال علي: يا رسول الله، ألا ترى ما أحسن هذه الحديقة! فقال: "إن حديقتك في الجنة أحسن منها"؛ حتى مررنا بسبع حدائق، يقول علي ما قال، ويحييه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أجابه. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف فوقفنا، فوضع رأسه على رأس علي وبكى، فقال علي: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: "ضغائن في صدور قوم لا يبدوها لك حتى يفقدوني"، فقال: يا رسول الله، أفلا أضع سيفي على عاتقي فأبيد حضراءهم! قال: "بل تصبر"، قال: فإن صبرت! قال: "تلاقي جهداً"، قال: أفي سلامة من ديني؟ قال: "نعم"، قال: فإذا لا أبالي.

وروى جابر الجعفي، عن محمد بن علي عليه السلام، قال: قال علي عليه السلام: ما رأيت منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رخاء، لقد أخافتني قريش صغيراً، وأنصبتني كبيراً، حتى قبض الله رسوله، فكانت الطامة الكبرى، والله

المستعان على ما تصفون! وروى صاحب كتاب الغارات عن الأعمش، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " سيظهر على الناس رجل من أمي، عظيم السرم، واسع البلعوم، يأكل ولا يشبع، يحمل وزر الثقلين، يطلب الإمارة يوماً، فإذا أدركتموه فابقروا بطنه "، قال: وكان في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيب، قد وضع طرفه في بطن معاوية.

قلت: هذا الخبر مرفوع مناسب لما قاله علي عليه السلام في نهج البلاغة، ومؤكد لاختيارنا أن المراد به معاوية، دون ما قاله كثير من الناس أنه زياد والمغيرة.

وروى جعفر بن سليمان الضبيعي، عن أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً لعلي ما يلقي بعده من العنت فأطال، فقال له عليه السلام: أنشدك الله يا رسول الله لم دعوت الله أن يقبضني إليه قبلك! قال: " كيف أسأله في أجل مؤجل "! قال: يا رسول الله، فعلام أقاتل من أمرتني بقتاله؟ قال: " على الحدث في الدين".

وروى الأعمش، عن عمار الدهني، عن أبي صالح الحنفي، عن علي عليه السلام، قال: قال لنا يوماً: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، فشكوت إليه ما لقيت حتى بكيت، فقال لي: " انظر "، فنظرت فإذا جلاميد، وإذا رجلان مصفدان - قال الأعمش: هما معاوية وعمر بن العاص - قال: فجعلت أرضخ رؤوسهما ثم تعود، ثم أرضخ ثم تعود، حتى انتهت.

وروى نحو هذا الحديث عمرو بن مرة، عن أبي عبد الله بن سلمة، عن علي عليه السلام، قال: رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشكوت إليه، فقال: " هذه جهنم، فانظر من فيها "، فإذا معاوية وعمر بن العاص معلقين بأرجلهم منكسين؛ ترضخ رؤوسهما بالحجارة - أو قال: تشدخ.

وروى قيس بن الربيع، عن يحيى بن هانئ المرادي، عن رجل من قومه يقال له زياد ابن فلان، قال: كنا في بيت مع علي عليه السلام نحن شيعته وخواصه، فالتفت فلم ينكر منا أحداً، فقال: إن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم فيقطعون أيديكم ويسملون أعينكم، فقال رجل منا: وأنت حي يا أمير المؤمنين؟ قال: أعاذني الله من ذلك، فالتفت فإذا واحد يبكي، فقال له: يابن الحمقاء، أتريد اللذات في الدنيا والدرجات في الآخرة! إنما وعد الله الصابرين.

وروى زرارة بن أعين عن أبيه، عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام، قال: كان علي عليه السلام إذا صلى الفجر لم يزل معقباً إلى أن تطلع الشمس؛ فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس؛ فيعلمهم الفقه والقرآن، وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك؛ فقام يوماً فمر رجل، فرماه بكلمة هجر - قال: لم يسمعه محمد بن علي عليه السلام - فرجع عوده على بدئه حتى صعد المنبر، وأمر فتودي: الصلاة جامعة! فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ثم قال: أيها الناس، إنه ليس شيء أحب إلى الله ولا أعم نفعاً من حلم إمام وفقهه، ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعم ضرراً من جهل إمام وخرقه، ألا وإنه من لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ؛ ألا وإنه من أنصف من نفسه لم يزد الله إلا عزاً؛ ألا وإن الذل في طاعة الله أقرب إلى الله من التعزز في معصيته. ثم قال: أين المتكلم أنفاً؟ فلم يستطع

الإنكار، فقال: هأنذا يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني لو أشاء لقلت، فقال: إن تعف وتصفح، فأنت أهل ذلك؛ قال: قد عفوت وصفح، فقليل لمحمد بن علي عليه السلام: ما أراد أن يقول؟ قال: أراد أن ينسبه. وروى زرارة أيضاً، قال: قيل لجعفر بن محمد عليه السلام: إن قوماً ها هنا ينتقصون علياً عليه السلام، قال: بما ينتقصونه لا أبا لهم! وهل فيه موضع نقيصة! والله ما عرض لعلي أمران قط كلاهما لله طاعة إلا عمل بأشدهما وأشقهما عليه، ولقد كان يعمل العمل كأنه قائم بين الجنة والنار، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له؛ وإن كان ليقوم إلى الصلاة، فإذا قال: وجهت وجهي تغير لونه؛ حتى يعرف ذلك في وجهه، ولقد أعتق ألف عبد من كد يده؛ كل منهم يعرق فيه جبينه، وتحفى فيه كفاه، ولقد بشر بعين نبعت في ماله مثل عنق الجزور، فقال: بشر الوارث بشر، ثم جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ليصرف الله النار عن وجهه، ويصرف وجهه عن النار.

وروى القناد، عن أبي مريم الأنصاري، عن علي عليه السلام، لا يجيني كافر ولا ولد زنا. وروى جعفر بن زياد، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا نبور إيماننا بحب علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن أحبه عرفنا أنه منا.

سب علي عليه السلام عند الإكراه زكاة له

المسألة الثالثة: في معنى قوله عليه السلام: فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، فنقول: إنه أباح لهم سبه عند الإكراه، لأن الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفظ بكلمة الكفر، فقال: "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان"، والتلفظ بكلمة الكفر أعظم من التلفظ بسب الإمام.

فأما قوله: فإنه لي زكاة ولكم نجاة، فمعناه أنكم تنجون من القتل إذا أظهرتم ذلك، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين: أحدهما ما ورد في الأخبار النبوية أن سب المؤمن زكاة له وزيادة في حسناته.

والثاني: أن يريد به أن سبهم لي لا ينقص في الدنيا من قدري، بل أزيد به شرفاً وعلو قدر، وشياع ذكر؛ وهكذا كان، فإن الله تعالى جعل الأسباب التي حاول أعداؤه بها الغض منه عللاً لانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها. وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نباتة، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العلوي:

د منار الهدى وصام وصلى

إلى صبحه القيامة فتلا

واحتذيت أنا حدوه، فقلت لأبي المظفر هبة الله بن موسى الموسوي رحمه الله تعالى في قصيدة أذكر فيها أباه:

جوهر المجد راضياً مرضياً

كظيم الغيظ حتى يعيده منسيا

وأبوك الوصي أول من شا

نشرت حبله قریش فأعطته

أمك الدرة التي أنجبت من

وأبوك الإمام موسى

وأبوه تاج الهدى جعفر الصا
وأبوه محمد باقر العلم
وأبوه السجاد أتقى عباد ال
والحسين الذي تخير أن يقضي
وأبوه الوصي أول من طا
طامنت مجده قريش فأعطته
أخملت صيته فطار إلى أن
وأبو طالب كفيل أبي القاسم
ولشيخ البطحاء تاج معدٍ
وأبو عمر العلا هاشم الجو
وأبوه الهمام عبد منافٍ
ثم زيد أعني قصي الذي
نسب إن ترفع النسب المحض
وإذا أظلمت مناسخة الأن
يا له مجدة على قدم الدهر

دق وحيًا عن الغيوب وحيًا
مضى لنا هادياً مهدياً
له الله مخلصاً ووفياً
عزيزاً ولا يعيش دنيا
ف ولبي سبعاً وساق الهديا
إلى سدره السماء رقبيا
ملأ الأفق ضجةً ودويا
كهلاً ويافعاً وفتيا
شبية الحمد هل علمت سميا!
د ومن مثل هاشم بشريا!
قل تقل صادقاً وتبدي بديا
لميك عن ذروة العلاء قصيا
لفاعاً كان السليب العريا
ساب يوماً كان المنير الجليا
وقد يفضل العتيق الطريا

وذكرنا ههنا ما قبل المعنى وما بعده؛ لأن الشعر حديث، والحديث - كما قيل - يأخذ بعضه برقاب بعض؛ ولأن ما قبل المعنى وما بعده مكمل له، وموضح مقصده.

فإن قلت: أي مناسبة بين لفظ الزكاة وانتشار الصيت والسمع؟ قلت: لأن الزكاة هي النماء والزيادة، ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمي المال المزكى، وانتشار الصيت نماء وزيادة.

معنى السب والبراءة

المسألة الرابعة: أن يقال: كيف قال عليه السلام: فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تبرأوا مني؟ وأي فرق بين السب والبراءة؟ وكيف أجاز لهم السب ومنعهم عن التبرؤ، والسب أفحش من التبرؤ! والجواب؛ أما الذي يقوله أصحابنا في ذلك فإنه لا فرق عندهم بين سبه والتبرؤ منه، في أنهما حرام وفسق وكبيرة، وأن المكروه عليهما يجوز له فعلهما عند خوفه على نفسه، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف.

ويجوز ألا يفعلهما وإن قتل، إذا قصد بذلك إعزاز الدين، كما يجوز له أن يسلم نفسه للقتل ولا يظهر كلمة الكفر إعزازاً للدين، وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأن هذه اللفظة ما وردت في القرآن العزيز إلا عن المشركين، ألا ترى إلى قوله

تعالى: " براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين " ، وقال تعالى: " . إن الله بريء من المشركين ورسوله " ، فقد صارت بحسب العرف الشرعي مطلقة على المشركين خاصة؛ فإذاً يحمل هذا النهي على ترجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السب، وإن كان حكمهما واحداً؛ ألا ترى أن إلقاء المصحف في القدر أفحش من إلقاء المصحف في دن الشراب؛ وإن كانا جميعاً محرمين، وكان حكمهما واحداً! فأما الإمامية فتروي عنه عليه السلام أنه قال: إذا عرضتم على البراءة منا فمدوا الأعناق.

ويقولون: إنه لا يجوز التبرؤ منه، وإن كان الحالف صادقاً، وإن عليه الكفارة. ويقولون: إن حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام ومن أحد الأئمة عليهم السلام، حكم واحد. ويقولون: إن الإكراه على السب يبيح إظهاره؛ ولا يجوز الاستسلام للقتل معه، وأما الإكراه على البراءة؛ فإنه يجوز معه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التبرؤ، والأولى أن يستسلم للقتل.

علي عليه السلام يقول إني ولدت على الفطرة

المسألة الخامسة: أن يقال: كيف علل نفيه لهم على البراءة منه عليه السلام، بقوله: إني ولدت على الفطرة، فإن هذا التعليل لا يختص به عليه السلام، لأن كل أحد يولد على الفطرة؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: " كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه ". والجواب، أنه عليه السلام علل نفيه لهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل، وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان بالهجرة؛ ولم يعمل بآحاد هذا المجموع، ومراده ههنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية؛ لأنه ولد عليه السلام ثلاثين عاماً مضت من عام الفيل؛ والنبي صلى الله عليه وسلم أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم مكث قبل الرسالة عشر سنين يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد؛ وكان ذلك إرهاباً لرسالته عليه السلام فحكم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وسلم، فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولي لتربيته مولود في أيام كأيام النبوة، وليس بمولود في جاهلية محضة، ففارقت حاله حال من يدعى له من الصحابة مماثلته في الفضل. وقد روي أن السنة التي ولد فيها علي عليه السلام هي السنة التي بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسمع الهتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً، ولم يخاطب فيها بشيء. وهذه السنة هي السنة التي ابتدأ فيها بالتبذل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل به حتى كوشف بالرسالة، وأنزل عليه الوحي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمن بتلك السنة وبولادة علي عليه السلام فيها، ويسمونها سنة الخير وسنة البركة، وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن من قبلها من شاهد من ذلك شيئاً: " لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة "، وكان كما قال صلوات الله عليه، فإنه عليه السلام كان ناصره والمحامي عنه وكاشف الغماء عن وجهه، وبسيفه ثبت دين الإسلام، وورست دعائمه، وتمهدت قواعده عليه السلام.

وفي المسألة تفسير آخر؛ وهو أن يعني بقوله عليه السلام: فإني ولدت على الفطرة، أي على الفطرة التي لم تتغير ولم تحل، وذلك أن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " كل مولود يولد على الفطرة " أن كل مولود فإن الله تعالى قد هيأه بالعقل الذي خلقه فيه وبصحة الحواس والمشاعر لأن يعلم التوحيد والعدل، ولم يجعل فيه مانعاً يمنعه عن ذلك؛ ولكن التربية والعقيدة في الوالدين والإلف لاعتقادهما وحسن الظن فيهما يصده عما فطر عليه؛ وأمير المؤمنين عليه السلام دون غيره؛ ولد على الفطرة التي لم تحل ولم يصد عن مقتضاها مانع؛ لا من جانب الأبوين ولا من جهة غيرهما، وغيره ولد على الفطرة، ولكنه حال عن مقتضاها، وزال عن موجبها.

ويمكن أن يفسر بأنه عليه السلام أراد بالفطرة العصمة، وأنه منذ ولد لم يواقع قبيحاً، ولا كان كافراً طرفة عين قط، ولا مخطئاً ولا غلطاً في شيء من الأشياء المتعلقة بالدين. وهذا تفسير الإمامية.

المحققون من أهل السيرة

علي عليه السلام أول من أسلم

المسألة السادسة: أن يقال: كيف قال: وسبقت إلى الإيمان، وقد قال قوم من الناس: إن أبا بكر سبقه، وقال قوم: إن زيد بن حارثة سبقه؟ والجواب: إن أكثر أهل الحديث وأكثر المحققين من أهل السيرة رَوَوْا أنه عليه السلام أول من أسلم، ونحن نذكر كلام أبي عمر يوسف بن عبد البر، المحدث في كتابه المعروف بالإستيعاب.

قال أبو عمر في ترجمة علي عليه السلام: المروي عن سلمان وأبي ذر والمقداد وخباب وأبي سعيد الخدري وزيد بن أسلم أن علياً عليه السلام أول من أسلم؛ وفضله هؤلاء على غيره.

قال أبو عمر: وقال ابن إسحاق: أول من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب عليه السلام؛ وهو قول ابن شهاب، إلا أنه قال: من الرجال بعد خديجة.

قال أبو عمر: وحدثنا أحمد بن محمد، قال: حدثنا أحمد بن الفضل، قال: حدثنا محمد بن جرير، قال: حدثنا علي بن عبد الله الدهقان، قال: حدثنا محمد بن صالح، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لعلي أربع خصال، ليست لأحد غيره: هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كان معه لواؤه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فر عنه غيره، وهو الذي غسله وأدخله قبره.

قال أبو عمر: وروي عن سلمان الفارسي أنه قال: أول هذه الأمة وروداً على نبيها صلى الله عليه وسلم الحوض، أولها إسلاماً: علي بن أبي طالب. وقد روي هذا الحديث مرفوعاً عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " أول هذه الأمة وروداً علي الحوض أولها إسلاماً: علي بن أبي طالب ".

قال أبو عمر: ورفعته أولى، لأن مثله لا يدرك بالرأي.

قال أبو عمر: فأما إسناد المرفوع، فإن أحمد بن قاسم، قال: حدثنا قاسم بن أصبغ قال: حدثنا الحارث بن أبي أسامة، قال: حدثني يحيى بن هاشم، قال: حدثنا سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي صادق، عن حنش بن المعتمر، عن

عليه الكندي، عن سلمان الفارسي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أولكم وارداً علي الخوض أولكم إسلاماً؛ علي بن أبي طالب ".

قال أبو عمر: وروى أبو داود الطيالسي، قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس أنه قال: أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة علي ابن أبي طالب.

قال أبو عمر: وحدثنا عبد الوارث بن سفيان، قال: حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، قال: حدثنا الحسن بن حماد، قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج عن عمرو ابن ميمون، عن ابن عباس، قال: كان علي أول من آمن من الناس بعد خديجة.

قال أبو عمر: هذا الإسناد لا مطعن فيه لأحد، لصحته وثقته نقلته، وقد عارض ما ذكرنا في باب أبي بكر الصديق، عن ابن عباس، والصحيح في أمر أبي بكر أنه أول من أظهر إسلامه، كذلك قاله مجاهد وغيره، قالوا: ومنعه قومه. قال أبو عمر: اتفق ابن شهاب، وعبد الله بن محمد بن عقيل، وقتادة، وابن إسحاق على أن أول من أسلم من الرجال علي. واتفقوا على أن خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقه فيما جاء به، ثم علي بعدها. وروي عن أبي رافع مثل ذلك.

قال أبو عمر: وحدثنا عبد الوارث، قال: حدثنا قاسم، قال: حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا عبد السلام بن صالح، قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي، قال: حدثنا عمر مولى غفرة، قال: سئل محمد بن كعب القرظي عن أول من أسلم: علي أم أبي بكر؟ فقال: سبحان الله! علي أولهما إسلاماً، وإنما شبه علي الناس؛ لأن علياً أخفى إسلامه عن أبي طالب، وأسلم أبو بكر، فأظهر إسلامه.

قال أبو عمر: ولا شك عندنا أن علياً أولهما إسلاماً، ذكر عبد الرزاق في جامعه، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن وغيره قالوا: أول من أسلم بعد خديجة علي بن أبي طالب عليه السلام.

وروى معمر، عن عثمان الجزري، عن مقسم، عن ابن عباس، قال: أول من أسلم علي بن أبي طالب. قال أبو عمر: وروى ابن فضيل عن الجلاح، عن حبة بن جوين العري، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: لقد عبدت الله قبل أن يعبدته أحد من هذه الأمة خمس سنين.

قال أبو عمر: وروى شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن حبة العري، قال: سمعت علياً يقول: أنا أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال أبو عمر: وقد روى سالم بن أبي الجعد، قال: قلت لابن حنفية: أبو بكر كان أولهما إسلاماً؟ قال: لا. قال أبو عمر: وروى مسلم الملائكي، عن أنس بن مالك، قال: استنبت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء.

قال أبو عمر: وقال يزيد بن أرقم: أول من آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب.

قال: وقد روي حديث زيد بن أرقم من وجوه، ذكرها النسائي وأسلم بن موسى وغيرهما؛ منها ما حدثنا به عبد

الوارث، قال: حدثنا قاسم، قال: حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا علي بن الجعد، قال: حدثنا شعبة، قال: أخبرني عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا حمزة الأنصاري قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب.

قال أبو عمر: وحدثنا أبي، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، قال: حدثنا ابن إسحاق قال: حدثنا يحيى بن أبي الأشعث، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندي، عن أبيه، عن جده، قال: كنت أمراً تاجراً، فقدمت الحج، فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة - وكان أمراً تاجراً - فوالله إني لعنده بمنى، إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى الشمس، فلما رآها قد مالت قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء، فقام معه يصلي، فقلت للعباس: ما هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي، قلت: من هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: ما هذا الفتى؟ قال: علي بن أبي طالب ابن عمه، قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي، وهو يزعم أنه نبي، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام، وهو يزعم أن سيفتح على أمته كنوز كسرى وقيصير، قال: فكان عفيف الكندي يقول - وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ كنت أكون ثانياً مع علي.

قال أبو عمر: وقد ذكرنا هذا الحديث من طرق في باب عفيف الكندي من هذا الكتاب، قال أبو عمر: ولقد قال علي عليه السلام: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا، لا يصلي معه غيري إلا خديجة.

فهذه الروايات والأخبار كلها، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البر في الكتاب المذكور، وهي كما تراها تكاد تكون إجماعاً.

قال أبو عمر: وإنما الاختلاف في كمية سنه عليه السلام يوم أسلم، ذكر الحسن بن علي الحلواني في كتاب المعرفة له، قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثنا الليث بن سعد، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، أنه بلغه أن علياً والزبير أسلما وهما ابنا ثمان سنين. كذا يقول أبو الأسود يتيم عروة؛ وذكره أيضاً ابن أبي خيثمة عن قتيبة بن سعيد، عن الليث بن سعد، عن أبي الأسود؛ وذكره عمر بن شبة، عن الحزامي، عن أبي وهب، عن الليث، عن أبي الأسود، قال الليث: وهاجرا وهما ابنا ثمان عشرة سنة.

قال أبو عمر: ولا أعلم أحداً قال بقول أبي الأسود هذا.

قال أبو عمر؛ وروى الحسن بن علي الحلواني، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا معمر، عن قتادة، عن الحسن، قال: أسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة.

قال أبو عمر: وأخبرنا أبو القاسم خلف بن قاسم بن سهل، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل الطوسي، قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السراج، قال: حدثنا محمد بن مسعود، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن الحسن، قال: أسلم علي - وهو أول من أسلم - وهو ابن خمس عشرة سنة، أو ست عشرة سنة، قال أبو عمر: قال ابن وضاح: وما رأيت أحداً قط أعلم بالحديث من محمد بن مسعود، ولا بالرأي من سحنون.

قال أبو عمر: قال ابن إسحاق: أول ذكر آمن بالله ورسوله علي بن أبي طالب عليه السلام؛ وهو يومئذ ابن عشر سنين. قال أبو عمر: والروايات في مبلغ سنه عليه السلام مختلفة، قيل: أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: ابن اثني عشرة سنة. وقيل: ابن خمس عشرة سنة. وقيل: ابن ست عشرة سنة. وقيل ابن عشر. وقيل: ابن ثمان. قال أبو عمر: وذكر عمر بن شبة، عن المدائني، عن ابن جعدة، عن نافع، عن ابن عمر قال: أسلم علي وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

قال: وأخبرنا إبراهيم بن المنذر الحرامي، قال: حدثنا محمد بن طلحة، قال: حدثني جدي إسحاق بن يحيى، عن طلحة، قال: كان علي بن أبي طالب عليه السلام والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص أعماراً واحدة.

قال: وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال: حدثنا إسماعيل بن علي الخطي، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني حجين أبو عمر، قال: حدثنا حبان، عن معروف، عن أبي معشر، قال: كان علي عليه السلام وطلحة والزبير في سن واحدة.

قال: وروى عبد الرزاق، عن الحسن وغيره: أن أول من أسلم بعد خديجة علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ابن خمس عشرة سنة، أو ست عشرة.

قال أبو عمر: وروى أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا شريح بن النعمان، قال: حدثنا الفرات ابن السائب، عن ميمون بن مهران، عن ابن عمر، قال: أسلم علي وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. قال أبو عمر: هذا أصح ما قيل في ذلك والله أعلم، انتهى حكاية كلام أبي عمر في كتاب الاستيعاب.

واعلم أن شيوخ المتكلمين لا يكادون يختلفون في أن أول من الناس إسلاماً علي بن أبي طالب عليه السلام؛ إلا من عساه خالف في ذلك من أوائل البصريين، فأما الذي تقررت المقالة عليه الآن فهو القول بأنه أسبق الناس إلى الإيمان، لا تكاد تجد اليوم في تصانيفهم وعند متكلميهم والحققين منهم خلافاً في ذلك.

واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام ما زال يدعي ذلك لنفسه، ويفتخر به، ويجعله في أفضليته على غيره، ويصرح بذلك، وقد قال غير مرة: أنا الصديق الأكبر، والفاروق الأول. أسلمت قبل إسلام أبي بكر، وصليت قبل صلاته. وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمد بن قتيبة في كتاب المعارف وهو غير متهم في أمره. ومن الشعر المروي عنه عليه السلام في هذا المعنى الأبيات التي أولها:

وحمزة سيد الشهداء عمي

محمد النبي أخي وصهري

ومن جملتها:

غلاماً ما بلغت أوان حلمي

سبقتكم إلى الإسلام طراً

والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة جداً لا يتسع هذا الكتاب لذكرها، فلتطلب من مظانها .

ومن تأمل كتب السيرة والتواريخ عرف من ذلك ما قلناه، فأما الذاهبون إلى أن أبا بكر أقدمهما إسلاماً فنفر قليلون،

ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البر أيضاً في كتاب الاستيعاب في ترجمة أبي بكر.

قال أبو عمر: حدثني خالد بن القاسم، قال: حدثنا أحمد بن محبوب، قال: حدثنا محمد بن عبدوس، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا شيخ لنا، قال: أخبرنا مجالد، عن الشعبي، قال: سألت ابن عباس - أو سئل -: أي الناس كان أول إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت من أخي ثقة
خبر البرية أنقاها وأعدلها
فأذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
بعد النبي وأوفاهما بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده
وأول الناس منهم صدق الرسلا

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لحسان: "هل قلت في أبي بكر شيئاً؟" قال: نعم، وأنشده هذه الأبيات، وفيها بيت رابع:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد
طاف العدو به إذ صعدوا الجبلا
فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "أحسنت يا حسان"، وقد روي فيها بيت خامس:
وكان حب رسول الله قد علموا
من البرية لم يعدل به رجلا

وقال أبو عمر: وروى شعبة، عن عمرو بن مرة، عن إبراهيم النخعي، قال: أول من أسلم أبو بكر. قال: وروى الجريري، عن أبي نصر، قال: قال أبو بكر لعلي عليه السلام: أنا أسلمت قبلك؛ في حديث ذكره فلم ينكره عليه، قال أبو عمر: وقال فيه أبو محجن الثقفي:

وسميت صديقاً وكل مهاجر
سبقت إلى الإسلام والله شاهد
سواك يسمى باسمه غير منكر
وكنت جليساً بالعريش المشهر
وبالغار إذ سميت خلاً وصاحباً
وكنت رفيقاً للنبي المطهر

قال أبو عمر: وروينا من وجوه، عن أبي أمامة الباهلي، قال: حدثني عمرو بن عبسة، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بعكاظ، فقلت: يا رسول الله، من اتبعك على هذا الأمر؟ فقال: حر وعبد: أبو بكر وبلال. قال: فأسلمت عند ذلك، وذكر الحديث.

هذا مجموع ما ذكره أبو عمر بن عبد البر في هذا الباب في ترجمة أبي بكر؛ ومعلوم أنه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التي ذكرها في ترجمة علي عليه السلام الدالة على سبقه، ولا ريب أن الصحيح ما ذكره أبو عمر أن علياً عليه السلام كان هو السابق، وأن أبا بكر هو أول من أظهر إسلامه، فظن أن السابق له.

وأما زيد بن حارثة، فإن أبا عمر بن عبد البر رضي الله تعالى عنه ذكر في كتاب الاستيعاب أيضاً في ترجمة زيد بن حارثة، قال: ذكر معمر بن شبة في جامعته عن الزهري أنه قال: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة. قال عبد الرزاق: وما أعلم أحداً ذكره غير الزهري.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

ولم يذكر صاحب الاستيعاب ما يدل على سبق زيد إلا هذه الرواية؛ واستغرها، فدل مجموع ما ذكرناه أن علياً عليه السلام أول الناس إسلاماً، وأن المخالف لذلك شاذ، والشاذ لا يعتد به.

علي عليه السلام من السابقين إلى الهجرة

المسألة السابعة: أن يقال: كيف قال: إنه سبق إلى الهجرة، ومعلوم أن جماعة من المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره؛ وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر في صحبة النبي صلى الله عليه وسلم؛ وتختلف علي عليه السلام عنهما، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ومكث أياماً يرد الودائع التي كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟ والجواب، أنه عليه السلام لم يقل: وسبقت كل الناس إلى الهجرة، وإنما قال: وسبقت، فقط. ولا يدل ذلك على سبقه الناس كافة، ولا شبهة أنه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبله أحد إلا نفر يسير جداً. وأيضاً فقد قلنا إنه علل أفضليته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفطرة، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سبقه إلى الهجرة، وهذه الأمور الثلاثة لم تجتمع لأحد غيره؛ فكان مجموعها متميزاً عن كل أحد من الناس.

وأيضاً فإن اللام في الهجرة يجوز ألا تكون للمعهود السابق، بل تكون للجنس، وأمير المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التي قبل هجرة المدينة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هاجر عن مكة مراراً يطوف على أحياء العرب، وينتقل من أرض قوم إلى غيرها؛ وكان علي عليه السلام معه دون غيره. أما هجرته إلى بني شيبان؛ فما اختلف أحد من أهل السيرة أن علياً عليه السلام كان معه هو وأبو بكر، وأنهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوماً وعادوا إليها، لما لم يجدوا عند بني شيبان ما أرادوه من النصر. وروى المدائني في كتاب الأمثال عن الفضل الضبي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج عن مكة يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى ربيعة، ومعه علي عليه السلام وأبو بكر، فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر - وكان نسابة - فسلم فردوا عليه السلام؛ فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: أمن هامتها أم من لهازمها؟ قالوا: من هامتها العظمى، فقال: من أي هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذهل الأكبر، قال: أفمنكم عوف الذي يقال له: لا حر بوادي عوف؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم حساس حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم الحوفزان، قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم أحوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذن ذهلاً الأكبر؛ أنتم ذهل الأصغر.

فقام إليه غلام قد بقل وجهه، اسمه دغفل، فقال:

والعبء لا تعرفه أو تحمله

إن على سائلنا أن نسأله

يا هذا، إنك قد سألتنا فاجبنك، ولم نكتمك شيئاً، فمن الرجل؟ قال: من قريش، قال: بخٍ بخٍ ! أهل الشرف والرياسة،

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

فمن أي قريش أنت؟ قال: من تيم بن مرة، قال: أمكنت والله الرامي من الثغرة، أمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان يدعى مجعاً؟ قال: لا، قال: أمنكم هاشم الذي هشم لقومه الثريد؟ قال: لا، قال: أمنكم شيبه الحمد، مطعم طير السماء؟ قال: لا، قال: أمن المفيضين بالناس أنت؟ قال: لا، قال: أمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا، قال: أمن أهل الرفادة أنت؟ قال: لا، قال: أمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا، قال: أمن أهل السقاية؟ قال: لا، قال: فاجتذب أبو بكر زمام ناقته، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هارباً من الغلام؛ فقال دغفل:

صادف درء السيل درء يصدعه

أما والله لو ثبت لأخبرت أنك من زمعات قريش؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال علي عليه السلام لأبي بكر: لقد وقعت يا أبا بكر من الأعراي على باقعة؛ قال: أجل، إن لكل طامة طامة والبلاء موكل بالمنطق، فذهبت مثلاً. وأما هجرته صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، فكان معه علي عليه السلام وزيد بن حارثة في رواية أبي الحسن المدائني، ولم يكن معهم أبو بكر. وأما رواية محمد بن إسحاق؛ فإنه قال: كان معه زيد بن حارثة وحده، وغاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة في هذه الهجرة أربعين يوماً؛ ودخل إليها في جوار مطعم بن عدي. وأما هجرته صلى الله عليه وسلم إلى بني عامر بن صعصعة وإخوانهم من قيس عيلان، فإنه لم يكن معه إلا علي عليه السلام وحده؛ وذلك عقيب وفاة أبي طالب؛ أوحى إليه صلى الله عليه وسلم: " اخرج منها، فقد مات ناصرك "، فخرج إلى بني عامر بن صعصعة؛ ومعه علي عليه السلام وحده، فعرض نفسه عليهم وسألهم النصر، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه؛ فعادا عليهما السلام إلى مكة؛ وكانت مدة غيبته في هذه الهجرة عشرة أيام، وهي أول هجرة هاجرها صلى الله عليه وسلم بنفسه.

فأما أول هجرة هاجرها ولم يهاجر بنفسه فهجرة الحبشة، هاجر فيها كثير من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة في البحر؛ منهم جعفر بن أبي طالب عليه السلام، فغابوا عنه سنين؛ ثم قدم عليهم منهم من سلم وطالت أيامه. وكان قدوم جعفر عليه عام فتح خيبر، فقال صلى الله عليه وسلم: " ما أدري بأيهما أنا أسر، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر "!

ومن كلام له كلم به الخوارج

الأصل: أصابكم حاصب، ولا بقي منكر آبر. أبعد إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه وآله، أشهد على نفسي بالكفر! لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين. فأوبوا شر مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب. أما إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرةً يتخذها الظالمون فيكم سنة. قال الرضي رحمه الله: قوله عليه السلام: ولا بقي منكم آبر، يروى على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون كما ذكرناه: آبر بالراء، من قولهم: رجل آبر، للذي يأبر النخل، أي يصلحه. ويروى: أثر بالثاء، بثلاث نقط، يراد به الذي يأثر الحديث، أي يرويه ويحكيه؛ وهو أصح الوجوه عندي، كأنه عليه السلام قال: لا بقي منكم مخبر.

ويروى: آبز بالزاي المعجمة، وهو الواثب، والهالك أيضاً يقال له: آبز.

الشرح: الحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء، وهو صغار الحصى، ويقال لها أيضاً حصبة، قال لبيد:

أذبالها كل عصوف حصبه

جرت عليها إذ خوت من أهلها

فأما التفسيرات التي فسر بها الرضي رحمه الله تعالى قوله عليه السلام: آبز، فيمكن أن يزداد فيها، فيقال: يجوز أن يريد بقوله: ولا بقي منكم آبز، أي تمام يفسد ذات البين؛ والمفيرة: النيمة، وأبر فلان، أي نم، والآبر أيضاً: من يبغي القوم الغوائل خفية، مأخوذ من أبرت الكلب إذا أطعمته الإبرة في الخبز، وفي الحديث: "المؤمن كالكلب المأبور"؛ ويجوز أن يكون أصله هابر؛ أي من يضرب بالسيف فيقطع، وأبدلت الهاء همزة، كما قالوا في آل أهل، وإن صحت الرواية الأخرى أثر بالثاء بثلاث نقط، فيمكن أن يريد به ساجي باطن خف البعير، وكانوا يسجون باطن الخف بحديدة ليقتص أثره، رجل أثر وبعير مأثور.

وقوله عليه السلام: فأوبوا شر مآب، أي ارجعوا شر مرجع. والأعقاب: جمع عقب بكسر القاف، وهو مؤخر القدم، وهذا كله دعاء عليهم، قال لهم أولاً: أصابكم حاصب، وهذا من دعاء العرب، قال تميم بن أبي مقبل:

فأصابها الحصباء والسفان

فإذا خلت من أهلها وقطينها

ثم قال لهم ثانياً: لا بقي منكم مخبر. ثم قال لهم ثالثاً: ارجعوا شر مرجع، ثم قال لهم رابعاً: عودوا على أثر الأعقاب: وهو مأخوذ من قوله تعالى: "ونزد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله" والمراد انعكاس حالهم؛ وعودهم من العز إلى الذل؛ ومن الهداية إلى الضلال.

وقوله عليه السلام: وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة، فالأثرة ههنا الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم واطراح جانبهم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: "ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني".

الخوارج رجالهم وحروبهم

واعلم أن الخوارج على أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أصحابه وأنصاره في الجمل وصفين قبل التحكيم؛ وهذه المخاطبة لهم، وهذا الدعاء عليهم، وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم، وقد وقع ذلك؛ فإن الله تعالى سلط على الخوارج بعده الذل الشامل، والسيف القاطع، والأثرة من السلطان، وما زالت حالهم تضحل؛ حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جمهوعهم؛ ولقد كان لهم من سيف المهلب بن أبي صفرة وبنية الحنف القاضي، والموت الزوام. ونحن نذكر من أخبار الخوارج وحروبهم ههنا طرفاً.

عروة بن حدير

فمنهم عروة بن حدير أحد بني ربيعة بن حنظلة من بني تميم؛ ويعرف بعروة ابن أدية، وأدية جدة له جاهلية، وكان له أصحاب وأتباع وشيعة، فقتله زياد في خلافة معاوية صبراً.

نجدة بن عويمر الحنفي

ومنهم نجدة بن عويمر الحنفي، كان من رؤسائهم؛ وله مقالة مفردة من مقالة الخوارج وله أتباع وأصحاب؛ وإليهم أشار الصلتان العبدى بقوله:

أرى أمة شهرت سيفها	وقد زيد في سوطها الأصبحي
بنجدية أو حرورية	وأزرق يدعو إلى أزرق
فملتنا أننا مسلمون	على دين صديقنا والنبي
أشباب الصغير وأفنى الكب	ير مر الغداة وكر العشي
إذا ليلة أهرمت يومها	أتى بعد ذلك يوم فتي
نروح ونغدو لحاجاتنا	وحاجة من عاش لا تتقضي
تموت مع المرء حاجاته	وتبقى له حاجة ما بقي

وكان نجدة يصلي بمكة بجذاء عبد الله بن الزبير في جمعه في كل جمعة، وعبد الله يطلب الخلافة، فيمسكان عن القتال من أجل الحرم.

وقال الراعي يخاطب عبد الملك:

إنني حلفت على يمينٍ برة	لا أكذب اليوم الخليفة قيلا
ما إن أتيت أبا خبيبٍ وافداً	يوماً أريد لبيعتي تبديلا
ولما أتيت نجيدة بن عويمرٍ	أبغى الهدى فيزيد تضليلا
من نعمة الرحمن لا من حيلتي	أنى أعد له علي فضولا!

واستولى نجدة على الإمامة، وعظم أمره؛ حتى ملك اليمن والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر، ثم إن أصحابه نقموا عليه أحكاماً أحدثها في مذهبهم، منها قوله: إن المخطئ بعد الاجتهاد معذور، وإن الدين أمران: معرفة الله ومعرفة رسوله؛ وما سوى ذلك فالتناس معذورون بجهله؛ إلى أن تقوم عليهم الحجة، فمن استحل محرماً من طريق الاجتهاد فهو معذور؛ حتى إن من تزوج أخته أو أمه مستحلاً لذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن؛ فخلعوه وجعلوا اختيار الإمام إليه؛ فاختار لهم أبا فديك، أحد بني قيس بن ثعلبة، فجعله رئيسهم. ثم إن أبا فديك أنفذ إلى نجدة بعد من قتله، ثم تولاه بعد قتله طوائف من أصحابه بعد أن تفرقوا عليه؛ وقالوا: قتل مظلوماً.

المستورد بن سعد التميمي

ومنهم المستورد بن سعد أحد بني تميم؛ كان ممن شهد يوم النخيلة ونجا بنفسه فيمن نجا من سيف علي عليه السلام، ثم

خرج بعد ذلك عمدة على المغيرة بن شعبة، وهو والي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان في جماعة من الخوارج، فوجه المغيرة إليه معقل بن قيس الرياحي، فلما تواقفا دعاه المستورد إلى المبارزة، وقال له: علام تقتل الناس بيني وبينك؟ فقال معقل: النصف سألت، فأقسم عليه أصحابه، فقال: ما كنت لأبى عليه، فخرج إليه فاختلفا ضربتين، خر كل واحد منهما من ضربة صاحبه قتيلاً، وكان المستورد ناسكاً كثير الصلاة، وله آداب وحكم مأثورة.

حوثر الأسدي

ومنهم حوثر الأسدي، خرج على معاوية في عام الجماعة في عصابة من الخوارج؛ فبعث إليه معاوية جيشاً من أهل الكوفة، فلما نظر حوثر إليهم، قال لهم: يا أعداء الله أتمم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه؛ وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشددوا سلطانه! فلما التحمت الحرب قتل حوثر، قتله رجل من طيئ، وفضت جموعه.

قريب بن مرة وزحاف الطائي

ومنهم قريب بن مرة الأزدي، وزحاف الطائي، كانا عابدين مجتهدين من أهل البصرة، فخرجا في أيام معاوية في إمارة زياد، واختلف الناس: أيهما كان الرئيس؟ فاعترضا الناس، فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعة من ربيعة بن نزار فقتلاه - وكان يقال له رؤية الضبيعي - وتنادى الناس، فخرج رجل من بني قطيعة، من الأزدي، وفي يده السيف، فناداه الناس من ظهور البيوت الحرورية: انج بنفسك؛ فنادوه: لسنا حرورية، نحن الشرط فوقف فقتلوه؛ فبلغ أبا بلال مرداس بن أديّة خبرهما، فقال: قريب، لا قربه الله! وزحاف لا عفا الله عنه! ركبها عشواء مظلمة - يريد اعتراضهما الناس - ثم جعل لا يمران بقبيلة إلا قتلا من وجدا، حتى مرا على بني علي بن سود، من الأزدي، وكانوا رماة، كان فيهم مائة يجيدون الرمي؛ فرموهم شديداً فصاحوا: يا بني علي، البقية، لا رماء بيننا. فقال رجل من بني علي بن سود:

مشحودة في غلس الظلام

لا شيء للقوم سوى السهام

فعد عنهم الخوارج، وخافوا الطلب، واشتقوا مقبرة بني يشكر حتى نفذوا إلى مزينة ينتظرون من يلحق بهم من مضر وغيرها، فجاءهم ثمانون، وخرجت إليهم بنو طاحية، من بني سود، وقبائل من مزينة وغيرها، فاستقلت الخوارج، وحاربت حتى قتلت عن آخرها، وقتل قريب وزحاف.

ومنهم أبو بلال مرداس بن أديّة، وهو أخو عروة بن حدير الذي ذكرناه أولاً، خرج في أيام عبيد الله بن زياد، وأنفذ إليه ابن زياد عباس بن أخضر المازني، فقتله وقتل أصحابه، وحمل رأسه إلى ابن زياد، وكان أبو بلال عابداً ناسكاً شاعراً، ومن قدماء أصحابنا من يدعيه، لما كان يذهب إليه من العدل وإنكار المنكر، ومن قدماء الشيعة من يدعيه أيضاً.

نافع بن الأزرق الحنفي

ومنهم نافع بن الأزرق الحنفي، وكان شجاعاً مقدماً في فقه الخوارج، وإليه تنسب الأزارقة، وكان يفني بأن الدار كفر، وأنهم جميعاً في النار، وكل من فيها كافر، إلا من أظهر إيمانه، ولا يحل للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة، ولا أن

يأكلوا من ذبائحهم، ولا أن يناكحهم، ولا يتوارث الخارجي وغيره، وهم مثل كفار العرب وعبداء الأوثان، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمرتلتهم، والتقية لا تحل، لأن الله تعالى يقول: "إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية"، وقال فيمن كان على خلافهم: "يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم"، فتفرق عنه جماعة من الخوارج؛ منهم نجدة بن عامر، واحتج نجدة بقول الله تعالى: "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه"، فسار نجدة وأصحابه إلى اليمامة، وأضاف نافع إلى مقالته التي قدمناها، استحلاله الغدر بأمانته لمن خالفه، فكتب نجدة إليه: أما بعد، فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البر، تعاضد قوي المسلمين، وتصنع للأخرق منهم؛ لا تأخذك في الله لومة لائم؛ ولا ترى معونة ظالم، كذلك كنت أنت وأصحابك، أولاً تتذكر قولك: لولا أي أعلم أن للإمام العادل مثل أجر رعيتيه ما توليت أمر رجلين من المسلمين! فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء مرضاته، وأصبحت من الحق فسه، وصبرت على مره، تجرد لك الشيطان؛ ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك؛ فاستمالك واستهواك، وأغواك فغويت، وأكفرت الذين عذرهم الله تعالى في كتابه، من قعدة المسلمين وضعفتهم، قال الله عز وجل، وقوله الحق، ووعد الصادق: "ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله": ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال: "ما على المحسنين من سبيل" ثم استحلت قتل الأطفال، وقد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم، وقال الله جل ثناؤه: "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، وقال سبحانه في القعدة خيراً، فقال: "وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً" فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين، أو ما سمعت قوله تعالى: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر" فجعلهم من المؤمنين وفصل عليهم المجاهدين بأعمالهم ثم إنك لا تؤدي أمانة إلى من خالفك، والله تعالى قد أمر أن تؤدي الأمانات إلى أهلها. فاتق الله في نفسك، واتق فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً فإن الله بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل. والسلام.

فكتب إليه نافع: أما بعد، أتاني كتابك تعظني فيه، وتذكرني وتنصح لي وترجيني، وتصف ما كنت عليه من الحق، وما كنت أوتره من الصواب، وأنا أسأل الله أن يجعلني من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وعبت علي ما دنت به، من إكفار القعدة وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة من المخالفين، وسأفسر لك إن شاء الله... أما هؤلاء القعدة، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً، وهؤلاء قد تفقهوا في الدين، وقرأوا القرآن، والطريق لهم نهج واضح. وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم، إذ قالوا: "كنا مستضعفين في الأرض" فقال: "ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها"، وقال سبحانه: "فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله"، وقال: "وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم" فخبر بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله، ثم قال: "سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم" فانظر إلى أسمائهم وسماتهم. وأما الأطفال، فإن نوحاً نبي الله كان أعلم بالله مني ومنك، وقد قال: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً"، فسماهم بالكفر وهم أطفال، وقبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك

في قوم نوح، ولا تقوله في قومنا، والله تعالى يقول: "أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر"، وهؤلاء كمشركي العرب، لا يقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام. وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله تعالى أحل لنا أموالهم، كما أحل دمائهم لنا، فدمائهم حلال طلق، وأموالهم فيء للمسلمين، فاتق الله وراجع نفسك، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا وترك ما نهجناه لك من مقاتلتنا، والسلام على من أقر بالحق وعمل به.

وكتب إلى من بالبصرة من المحكمة: أما بعد، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة، والدين واحد، فقيم المقام بين أظهر الكفار ترون الظلم ليلاً ونهاراً، وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد، فقال: "وقاتلوا المشركين كافة"، ولم يجعل لكم في التخلف عذراً في حال من الأحوال، فقال: "انفروا خفافاً وثقالاً" وإنما عذر الضعفاء والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، ومن كانت إقامته لعله، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله"، فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا؛ فإنها غرارة مكاراة، لذمها نافذة، ونعيمها بائد، حفت بالشهوات اغتراراً، وأظهرت حيرة وأضمرت عبرة، فليس أكل منها أكلة تسره، ولا شارب منها شربة تؤنقه إلا ودنا بها درجة إلى أجله، وتباعد بها مسافة من أمله، وإنما جعلها الله دار المتزود منها، إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، فليس يرضى بها حازم داراً ولا حكيم قراراً، فاتقوا الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، والسلام على من اتبع الهدى.

فلما أظهر مقالته هذه، وانفرد عن الخوارج بها، أقام في أصحابه بالأهواز يستعرض الناس، ويقتل الأطفال، ويأخذ الأموال، ويحبي الخراج، وفشا عماله بالسواد، فارتاع لذلك أهل البصرة، واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف، وسألوه أن يؤمر عليهم أميراً يحميهم من الخوارج، ويجاهد بهم؛ فأتى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمى ببة، فسأله أن يؤمر عليهم - وبية يومئذ أمير البصرة من قبل ابن الزبير - فأمر عليهم مسلم بن عبيس بن كرز، وكان ديناً شجاعاً، فلما خرج بهم من جسر البصرة، أقبل عليهم، وقال: أيها الناس، إني ما خرجت لامتياز ذهب ولا فضة، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا السيوف والرماح، فمن كان شأنه الجهاد، فلينهض، ومن أحب الحياة فليرجع.

فرجع نفر يسير، ومضى الباقيون معه، فلما صاروا بدولاب خرج إليهم نافع وأصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل، وكثر الجراح والقتل، وتضاربوا بالسيوف والعمد، فقتل ابن عبيس أمير أهل البصرة، وقتل نافع بن الأزرق أمير الخوارج، وادعى قتله سلامة الباهلي، وكان نافع قد استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي اليربوعي، واستخلف ابن عبيس الربيع بن عمرو الأحزم الغداني اليربوعي، فكان الرئيسان من بني يربوع، فاقتتلوا بعد قتل ابن عبيس ونافع قتالاً شديداً نيفاً وعشرين يوماً؛ حتى قال الربيع لأصحابه: إني رأيت البارحة كأن يدي التي أصيبت بكابل انحطت من السماء، فاستشلتني، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل. ثم عاودهم القتال، فقتل، فتدافع أهل البصرة الراية؛ حتى خافوا العطب، إذ لم يكن لهم رئيس. ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحميري، فأبأها، فقبل له: ألا ترى

رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم! فقال: إنها مشؤومة، لا ياخذها أحد إلا قتل، ثم أخذها فلم يزل يقاتل القوم بدولاب حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبي؛ وذلك بعد أن اقتتلوا زهاء شهر، فاختلفا ضربتين، فخرا ميتين. وقام حارثة بن بدر الغداني بأمر أهل البصرة بعده، وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشة خفيفة، ويزجي الأوقات انتظاراً لقدم أمير من قبل ببة يلي حرب الخوارج، وهذه الحرب تسمى حرب دولاب؛ وهي من حروب الخوارج المشهورة، انتصف فيها الخوارج من المسلمين، وانتصف المسلمون منهم، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب.

عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي

ومنهم عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي، قام بأمر الخوارج يوم دولاب بعد قتل نافع ابن الأزرق؛ وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، ولاه عبد الله بن الزبير ذلك، ولقيه كتابه بالإمارة وهو يريد الحج، وقد صار إلى بعض الطريق، فرجع فأقام بالبصرة، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً، فلقاه أهل البصرة الذين كانوا في وجه الأزارقة، ومعهم حارثة بن بدر الغداني، يقوم بأمرهم عن غير ولاية، وكان ابن الماحوز حينئذ في سوق الأهواز، فلما عبر عثمان إليهم دجياً، نهضت إليه الخوارج، فقال عثمان لحارثة: ما الخوارج إلا ما أرى؛ فقال حارثة: حسبك هؤلاء! قال: لا جرم، لا أتعدى حتى أناجزهم، فقال حارثة: إن هؤلاء القوم لا يقاتلون بالتعسف، فأبق على نفسك وجندك، فقال: أبيت يا أهل العراق إلا جنباً! وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب! أنت والله بغير هذا أعلم - يعرض له بالشراب، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب - فغضب حارثة، فاعتزل، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غربت الشمس، فأجلت الحرب عنه قتيلاً، وهزم الناس، وأخذ حارثة بن بدر الراية، وصاح بالناس: أنا حارثة بن بدر! فثاب إليه قوم فغير بهم دجياً، وبلغ قتل عثمان البصرة، فقال شاعر من بني تميم:

مضى ابن عبيس صابراً غير عاجز وأعقبنا هذا الحجازي عثمان
فأرعد من قبل اللقاء ابن معمر وأبرق، والبرق اليماني خوان
فضحت قريشاً غثها وسمينها وقيل بنو تيم بن مرة عزلان
فلولا ابن بدر للعراقيين لم يقم بما قام فيه للعراقيين إنسان
إذا قيل من حامى الحقيقة؟ أو مات إليه معد بالأكف وقحطان

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر بعزله، وولى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي المعروف بالقباع البصرة، فقدمها، فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد، فأراد توليته، فقال له رجل من بكر وائل: إن حارثة ليس بذلك، إنما هو صاحب شراب، وكان حارثة مستهتراً بالشراب، معاقراً للخمر، وفيه يقول رجل من قومه:

ألم تر أن حارثة بن بدر يصلي وهو أكفر من حمار

ألم تر أن للفتيان حظاً

وحظك في البغايا والعقار

فكتب إليه القبايع: تكفى حرمهم إن شاء الله. فاقام حارثة يدافعهم حتى تفرق أصحابه عنه وبقي في خف منهم؛ فاقام بنهر تيرى، فعبرت إليه الخوارج، فهرب من تخلف معه من أصحابه؛ وخرج يركض حتى أتى دجياً، فجلس في سفينة، واتبعه جماعة من أصحابه؛ فكانوا معه فيها؛ ووافاه رجل من بني تميم، عليه سلاحه والخوارج وراءه، وقد توسط حارثة دجياً، فصاح به: يا حارثة، ليس مثلي يضيع! فقال للملاح: قرب، فقرب إلى جرف، ولا فرصة هناك، فطفر بسلاحه في السفينة، فساخت بالقوم جميعاً، وهلك حارثة.

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني الكبير، أن حارثة لما عقدوا له الرئاسة، وسلموا إليه الراية، أمرهم بالثبات، وقال لهم: إذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة فريضتين، وللموالي زيادة فريضة، وندب الناس، فالتقوا وليس بأحد منهم طرق قد فشئت فيهم الجراحات، وما تطأ الخيل إلا على القتلى؛ فبينما هم كذلك، إذ أقبل جمع من الشراة من جهة اليمامة -يقول المكثرون: إنهم مائتان، والمقلل: إنهم أربعة - فاجتمعوا وهم مريحون مع أصحابهم، فصاروا كوكبة واحدة، فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزماً، وقال لأصحابه:

كرنبوا ودولبوا

أو حيث شئتم فاذهبوا

وقال:

أير الحمار فريضة لعبيدكم

والخصيتان فريضة الأعراب

قال: كرنبوا، أي اطلبوا كرنبي، وهي قرية من الأهواز، ودولبوا: اطلبوا دولاب، وهي ضيعة بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ.

قال: فتتابع الناس على أثره منهزمين، وتبعتهم الخوارج، فألقى الناس أنفسهم في الماء، فغرق منهم بدجيل الأهواز خلق كثير.

الزبير بن علي السليطي وظهور أمر المهلب

ومنهم الزبير بن علي السليطي التميمي، كان على مقدمة ابن الماحوز، وكان ابن الماحوز يخاطب بالخلافة، ويخاطب الزبير بالإمارة. ووصل الزبير بعد هلاك حارثة بن بدر، وهرب أصحابه إلى البصرة، فخافه الناس خوفاً شديداً، وضع أهل البصرة إلى الأحنف، فأتى القبايع، فقال: أصلح الله الأمير! إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا، فلم يبق إلا أن يحصرنا في بلدنا حتى نموت هزلاً، قال: فسموا إلي رجلاً يلي الحرب، فقال الأحنف: لا أرى لها رجلاً إلا المهلب بن أبي صفرة، فقال: أو هذا رأي جميع أهل البصرة؟ اجتمعوا إلي في غدٍ لأنظر، وجاء الزبير حتى نزل على البصرة، وعقد الجسر ليعبر إليها، فخرج أكثر أهل البصرة إليه، وانضم إلى الزبير جميع كور الأهواز وأهلها رغبة ورهبة، فوافاه البصريون في السفن وعلى الدواب؛ فاسودت بهم الأرض، فقال الزبير لما رآهم: أبي قومنا إلا كفراً؛ وقطع الجسر، وأقام الخوارج

بإزائهم، واجتمع الناس عند القباع، وخافوا الخوارج خوفاً شديداً، وكانوا ثلاث فرق: سمي قوم المهلب، وسمي قوم مالك بن مسمع، وسمي قوم زياد بن عمرو بن أشرف العتكي، فاختر القباع ما عند مالك وزياد، فوجدهما متشاقلين عن الحرب، وعاد إليه من أشار بهما، وقالوا: قد رجعنا عن رأينا؛ ما نرى لها إلا المهلب، فوجه إليه القباع فأتاه، فقال له: يا أبا سعيد، قد ترى ما قد رهقنا من هذا العدو، وقد أجمع أهل مصرك عليك؛ وقال له الأحنف: يا أبا سعيد، إنا والله ما آثرناك، ولكننا لم نر من يقوم مقامك.

ثم قال القباع - وأوماً إلى الأحنف - : إن هذا الشيخ لم يمسك إلا إيثاراً للدين والبقيا وكل من في مصرك ماد عينه إليك، راجح أن يكشف الله عنه هذه الغمة بك، فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلا بالله، إني عند نفسي لدون ما وصفتم، ولست آبي ما دعوتكم إليه، لكن أي شروطاً أشرطها؛ قالوا: قل، قال: على أن أنتخب من أحببت! قال الأحنف: ذاك لك، قال: ولي إمرة كل بلد أغلب عليه! قالوا: لك ذلك، قال: ولي فيء كل بلد أظفر به! قال الأحنف: ليس ذاك لك ولا لنا، إنما هو فيء للمسلمين؛ فإن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوهم، ولكن لك أن تعطي أصحابك من فيء كل بلد تغلب عليه ما أحببت، وتنفق منه على محاربة عدوك؛ فما فضل عنكم كان للمسلمين؛ فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلا بالله! فمن لي بذلك؟ قال الأحنف: نحن وأميرك وجماعة أهل مصرك، قال: قد قبلت. فكتبوا بينهم بذلك كتاباً، ووضع على يدي الصلت بن حريث بن جابر الجعفي، وانتخب المهلب من جميع الأخماس، فبلغت نخبته اثني عشر ألفاً، ونظروا في بيت المال، فلم يكن إلا مائتي ألف درهم، فعجزت. فبعث المهلب إلى التجار، فقال: إن تجارتكم منذ حول قد فسدت بانقطاع مواد الأهواز وفارس عنكم، فهلّموا فبايعوني واخرجوا معي أوفكم حقوقكم. فبايعوه وتاجروه، فأخذ منهم من المال ما أصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه الخفاتين والرانات المحشوة بالصوف، ثم نهض - وكان أكثر أصحابه رجالة - حتى إذا صار بجذاء القوم أمر بسفن فأصلحت وأحضرت، فما ارتفع النهار حتى فرغ منها، ثم أمر الناس بالعبور، وأمر عليهم ابنه المغيرة، فخرج الناس، فلما قاربوا الشط خاضت إليهم الخوارج، فحاربوهم وحاربهم المغيرة، ونضحهم بالسهم حتى تنحوا، وصار هو وأصحابه على الشط، فحاربوا الخوارج، فكشفوهم وشغلوهم حتى عقد المهلب الجسر وعبر، والخوارج منهزمون، فنهى الناس عن اتباعهم، ففي ذلك يقول شاعر من الأزد:

مثل المهلب في الحروب فسلموا

إن العراق وأهله لم يخبروا

وأقل تهليلاً إذا ما أحجموا

أمضى وأيمن في اللقاء نقيبة

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبري، من فرسان تميم وشجعانهم. ومن شعر عطية:

يدعى عطية للطعان الأجرد

يدعى رجال للعطاء وإنما

وقال فيه شاعر من بني تميم:

إذا الحرب أبدت عن نواجذها الفما

وما فارس إلا عطية فوقه

أباحوا من المصريين حلاً ومحرمًا

به هزم الله الأزارق بعدما

فأقام المهلب أربعين ليلة يجي الخراج بكور دجلة، والخوارج بنهر تيرى، والزبير بن علي منفرد بعسكره عن عسكر ابن الماحوز؛ ففضى المهلب التجار، وأعطى أصحابه، فأسرع الناس إليه رغبة في مجاهدة العدو وطمعاً في الغنائم والتجارات، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزدي وعبد الله بن رباح ومعاوية بن قرّة المزني، وكان يقول: لو جاءت الديلم من ههنا والحرورية من ههنا لحاربت الحرورية، وجاءه أبو عمران الجوني، وكان يروى عن كعب أن قتيل الحرورية يفضل قتيل غيرهم بعشرة أبواب.

ثم أتى المهلب إلى نهر تيرى، ففتحوا عنه إلى الأهواز، وأقام المهلب يجي ما حواله من الكور، وقد دس الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومن في عسكرهم، وإذا حشوة، ما بين قصاب وحداد وداعر، فخطب المهلب الناس، وذكر لهم ذلك؛ وقال: أمثل هؤلاء يغلبونكم على فيئكم! ولم يزل مقيماً حتى فهمهم، وأحكم أمرهم وقوى أصحابه، وكثرت الفرسان في عسكره، وتنام أصحابه عشرين ألفاً.

ثم مضى يؤم كور الأهواز، فاستخلف أخاه المكارك بن أبي صفرة على نهر تيرى، وجعل المغيرة على مقدمته، فسار حتى قاربهم، فناوشهم وناوشوه، فانكشف عن المغيرة بعض أصحابه، وثبت المغيرة نفسه بقية يومه وليلته يوقد النيران، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران في بقية متاعهم، وارتحلوا عن سوق الأهواز، فدخلها المغيرة، وقد جاءت أوائل خيل المهلب، فأقام بسوق الأهواز، وكتب بذلك إلى الحارث القباع كتاباً يقول فيه: أما بعد؛ فإننا مذ خرجنا نؤم العدو، في نعم من فضل الله متصلة علينا، ونقم متتابعة عليهم، نقدم ويحجمون، ونحل ویرتحلون، إلى أن حللنا سوق الأهواز، والحمد لله رب العالمين، الذي من عند النصر، وهو العزيز الحكيم.

فكتب إليه الحارث: هنيئاً لك أcha الأزدي الشرف في الدنيا والأجر في الآخرة، إن شاء الله.

فقال المهلب لأصحابه: ما أجفى أهل الحجاز أما ترونه عرف اسمي وكنيتي واسم أبي! قالوا: وكان المهلب يث الحراس في الأمن، كما يثهم في الخوف، ويذكي العيون في الأمصار كما يذكيها في الصحارى، ويأمر أصحابه بالتحرز، ويخوفهم البيات، وإن بعد منه العدو، ويقول: احذروا أن تكادوا كما تكيدون، ولا تقولوا: هزمناهم وغلبناهم، والقوم حائفون وجلون، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة.

ثم قام فيهم خطيباً، فقال: أيها الناس، قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وأنهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم، وسفكوا دماءكم، فقاتلوهم على ما قاتلهم عليه أولكم علي بن أبي طالب، لقيهم الصابر المحتسب مسلم بن عبيس، والعجل المفرط عثمان بن عبيد الله، والمعصي المخالف حارثة بن بدر، فقتلوا جميعاً وقتلوا، فالقوهم بحد وجد فإنما هم مهنتكم وعبيدكم، وعار عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم، ويطأوا حريمكم.

ثم سار يريدهم وهم بمناذر الصغرى، فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيس الخوارج رجلاً يقال له واقد، مولى لآل أبي صفرة من سبي الجاهلية، في خمسين رجلاً، فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تيرى، وبها المكارك بن أبي صفرة، فقتلوه وصلبوه، فمسي الخبر إلى المهلب، فوجه ابنه المغيرة، فدخل نهر تيرى، وقد خرج واقد منها، فاستترل عمه فدفنه، وسكن الناس، واستخلف بها ورجع إلى أبيه، وقد نزل بسولاف والخوارج بها، فواقعهم، وجعل على بني تميم الحريش بن هلال،

فخرج رجل من أصحاب المهلب، يقال له عبد الرحمن الإسكاف، فجعل يحض الناس ويهون أمر الخوارج، ويختال بين الصنفين، فقال رجل من الخوارج لأصحابه: يا معشر المهاجرين، هل لكم في قتلة فيها الجنة! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارساً، ثم كبا به فرسه، فقاتلهم راجلاً قائماً وباركاً، ثم كثرت به الجراحات فذبح بسيفه، ثم جعل يحنو في وجوههم التراب، والمهلب غير حاضر، فقتل، ثم حضر المهلب فأعلم، فقال للحريش ولعطية العنبري: أسلمتما سيد أهل العراق، لم تعيناه ولم تستنقذاه حسداً له، لأنه رجل من الموالي، ووبخهما.

وحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب فقتله، فحمل عليه المهلب فطعنه فقتله، ومال الخوارج بأجمعهم على العسكر، فانهمز الناس، وقتل منهم سبعون رجلاً، وثبت المهلب وابنه المغيرة يومئذ، وعرف مكانه.

ويقال: حاص المهلب يومئذ حيصة. ويقول الأزدي: بل كان يرد المنهزمة ويحمي أدبارهم، وبنو تميم تزعم أنه فر، وقال شاعرهم:

وطريت على مواشكة درور

بسولاف أضعت دماء قومي

وقال آخر من بني تميم:

يزجي كل أربعة حمارا

تبعنا الأعور الكذاب طوعاً

معاينة وأطلبه ضمارا

فيا ندمي على تركي غطائي

فحرق في قرى سولاف نارا

إذا الرحمن يسر لي قفولا

قوله: الأعور الكذاب، يعني به المهلب، كانت عينه عارت بسهم أصابها، وسموه الكذاب، لأنه كان فقيهاً، وكان يتأول ما ورد في الأثر من أن كل كذب يكتب كذباً إلا ثلاثة: الكذب في الصلح بين رجلين، وكذب الرجل لامرأته بوعده، وكذب الرجل في الحرب بتوعد وتهدد. قالوا: وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: "إنما أنت رجل فخذل عنا ما استطعت". وقال: "إنما الحرب خدعة"، فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين ما ضعف، ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتد، وكان حي من الأزدي يقال لهم الندب، إذا رأوا المهلب رائجاً إليهم قالوا: راح ليكذب، وفيه يقول رجل منهم:

لو كنت تصدق ما تقول

أنت الفتى كل الفتى

فبات المهلب في ألفين، فلما أصبح رجع بعض المنهزمة، فصاروا في أربعة آلاف، فخطب أصحابه، فقال: والله ما بكم من قلة، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطبع والطمع، فإن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله؛ فسيروا إلى عدوكم على بركة الله.

فقام إليه الحريش بن هلال، فقال: أنشدك الله أيها الأمير أن تقاتلهم، إلا أن يقاتلوك؛ فإن في أصحابك جراحاً، وقد أئختنتهم هذه الجولة.

فقبل منه، ومضى المهلب في عشرة فأشرف على عسكر الخوارج، فلم ير منهم أحداً يتحرك، فقال له الحريش: ارتحل عن

هذا المنزل، فارتحل، فعبر دجياً وصار إلى عاقول لا يؤتى إلا من جهة واحدة، فأقام به، وأقام الناس ثلاثاً مستريحين، وفي يوم سولاف يقول ابن قيس الرقيات:

على أنها معشوقة الدل عاشقه

ألا طرقت من آل مية طارقه

ورستاق سولاف حمته الأزارقه

تراعت وأرض السوس بيني وبينها

حرورية فيها من الموت بارقه

إذا نحن شئنا صادفتنا عصابة

فباتت لنا اللحاف معانقه

أجازت علينا العسكرين كليهما

فأقام المهلب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ثم ارتحل، والخوارج بسلى وسلبرى فتزل قريباً منهم، فقال ابن الماحوز لأصحابه: ما تنتظرون بعدوكم وقد هزمتهم بالأمس، وكسرت حدهم! فقال له واقد مولى أبي صفرة: يا أمير المؤمنين إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجبن، وبقي أهل النجدة والقوة، فإن أصبتهم لم يكن ظفراً هيناً، لأني أراهم لا يصابون حتى يصيبوا، وإن غلبوا ذهب الدين. فقال أصحابه: نافق واقد، فقال ابن الماحوز: لا تعجلوا على أخيك، فإنه إنما قال هذا نظراً لكم. ثم وجه الزبير بن علي إلى عسكر المهلب لينظر ما حالهم، فأتاهم في مائتين فحزهم ورجع. وأمر المهلب أصحابه بالتحارس، حتى إذا أصبح ركب إليهم في تعبئة، فالتقوا بسلى وسلبرى، فتصافوا، فخرج من الخوارج مائة فارس، فركزوا رماحهم بين الصفين، واتكأوا عليها، وأخرج إليهم المهلب أعدادهم، ففعلوا مثل ما فعلوا، لا يراعون إلا الصلاة، حتى إذا أمسوا رجع كل قوم إلى معسكرهم، ففعلوا هكذا ثلاثة أيام.

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث، فحمل عليهم هؤلاء الفرسان، فجالوا ساعة، ثم إن رجلاً من الخوارج حمل على رجل قطعنه، فحمل عليه المهلب قطعنه، فحمل الخوارج بأجمعهم، كما صنعوا يوم سولاف فضعضوا الناس، وفقد المهلب وثبت المغيرة في جمع أكثرهم أهل عمان.

ثم نجم المهلب في مائة، وقد انغمس كماه في الدم، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المغفر محشوة قرأ قد تمزقت، وإن حشوها ليتطاير وهو يلهث، وذلك في وقت الظهر فلم يزل يحاربهم حتى أتى الليل، وكثر القتلى في الفريقين، فلما كان الغد غاداهم؛ وقد كان وجه بالأمس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن فهم، من الأزد من ثقافته وأصحابه، يرد المنهزمين، فمر به عامر بن مسمع فردده، فقال: إن الأمير أذن لي في الانصراف، فبعث إلى المهلب، فأعلمه، فقال: دعه فلا حاجة لي في مثله من أهل الجبن والضعف، ثم غاداهم المهلب في ثلاثة آلاف، وقد تفرق عنه أكثر الناس، وقال لأصحابه: ما بكم من قلة! أيعجز أحدكم أن يلقي رمحه ثم يتقدم فيأخذه! ففعل ذلك رجل من كندة، واتبعه قوم، ثم قال المهلب لأصحابه: أعدوا مخالي فيها حجارة، وارموا بها في وقت الغفلة، فإنها تصد الفارس، وتصرع الراحل، ففعلوا. ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه، يأمرهم بالجد والصبر، ويطمعهم في العدو، ففعل ذلك حتى مر بيني العدو، من بني مالك بن حنظلة، فنادى فيهم فضربوه، فدعا المهلب بسيدهم - وهو معاوية بن عمرو - فجعل يركله برجله، فقال: أصلى الله الأمير! أعفني من أم كيسان - والأزد تسمى الركبة أم كيسان - ثم حمل المهلب وحملوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فجهد الخوارج،

ونادى مناد منهم: ألا إن المهلب قد قتل.

فركب المهلب برذوناً ورداً ، وأقبل يركض بين الصفيين؛ وإن إحدى يديه لفي القباء ، وما يشعر لها، وهو يصيح: أنا المهلب! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قتل، وكل الناس مع العصر، فصاح المهلب بابنه المعيرة: تقدم؛ ففعل وصاح بذكوان مولاه: قدم رايتك، ففعل، فقال له رجل من ولده: إنك تغرر بنفسك، فزبره وزجره، وصاح: يا بني سلمة، أمركم فتعصوني! فتقدم وتقدم الناس فاجتلدوا أشد جلاد، حتى إذا كان المساء قتل ابن الماحوز، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله، فقال لأصحابه: ابغوا لي رجلاً جلدًا يطوف في القتلى، فأشاروا عليه برجل من جرم، وقالوا: إنا لم نر قط رجلاً أشد منه؛ فجعل يطوف ومعه النيران، فجعل إذا مر بجريح من الخوارج. قال: كافر ورب الكعبة! فأجهز عليه، وإذا أمر بجريح من المسلمين أمر بسقيه وحمله، وأقام المهلب يأمرهم بالاحتباس؛ حتى إذا كان في نصف الليل، وجه رجلاً من اليماني في عشرة، فصاروا إلى عسكر الخوارج، فإذا هم قد تحملوا إلى أرجان، فرجع إلى المهلب فأعلمه، فقال لهم: أنا الساعة أشد خوفاً، احذروا البيات .

ويروى عن شعبة بن الحجاج أن المهلب قال لأصحابه يوماً: إن هؤلاء الخوارج قد يئسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات، فإن يكن فاجعلوا شعاركم: " حم لا ينصرون "، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بها. ويروى أنه كان شعار أصحاب علي بن أبي طالب عليه السلام.

فلما أصبح القوم غدوا على القتلى؛ فأصابوا ابن الماحوز قتيلاً، ففي ذلك يقول رجل من الخوارج:

بسلى وسلبرى مصارع فتية **كرام وعقرى من كميته ومن ورد**

وقال آخر:

بسلى وسلبرى جماجم فتية **كرام وصرعى لم توسد خدودها**

وقال رجل من موالي المهلب: لقد صرعت يومئذ بحجر واحد ثلاثة، رميت به رجلاً فصرعته، ثم رميت به رجلاً فأصبت به أصل أذنه فصرعته، ثم أخذت الحجر وصرعت به ثالثاً؛ وفي ذلك يقول رجل من الخوارج:

أتانا بأحجار ليقتلنا **وهل يقتل الأبطال ويحك بالحجر !**

وقال رجل من أصحاب المهلب في يوم سلى وسلبرى وقتل ابن الماحوز:

ويوم سلى وسلبرى أحاط بهم **منا صواعق لا تبقي ولا تذر**

حتى تركنا عبيد الله منجداً **كما تجدل جذع مال منقعر**

ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سلى حمل على رجل من أصحاب المهلب؛ فطعنه، فلما خالطه الرمح صاح: يا أمتاه! فصاح به المهلب: لا كثر الله منك في المسلمين! فضحك الخارجي، وقال:

أمك خير لك مني صاحباً **تسقيك محضاً وتعل رائباً**

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه، نكس على قربوس السرج، وحمل من تحتها، فبراها

بسيفه، وأثر في أصحابها، فتحوميت الميمنة من أجله، وكان أشد ما تكون الحرب استعاراً أشد ما يكون تبسماً. وكان المهلب يقول: ما شهد معي حرباً قط إلا رأيت البشرى في وجهه! وقال رجل من الخوارج في هذا اليوم:

فكم غادرت أسيافنا في قماقم

فإن تلك يوم سلى تتابعت

بسولاف يوم المأزق المتلاحم

غداة نكر المشرفية فيهم

فكتب المهلب إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القباع: أما بعد، فإننا لقينا الأزارقة بحد وجد، فكانت في الناس جولة، ثم تاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة، وأبدان شداد، وسيوف حداد، فأعقب الله خير عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دريئة رماحنا، وضرائب سيوفنا، وقتل الله أميرهم ابن الماحوز، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها. والسلام.

فكتب إليه القباع: قد قرأت كتابك يا أخا الأزد، فرأيتك قد وهب لك شرف الدنيا وعزها، وذخر لك إن شاء الله ثواب الآخرة وأجرها، ورأيتك أوثق حصون المسلمين، وهاد أركان المشركين، وذا الرياسة وأخا السياسة، فاستدم الله بشكره، يتمم عليك نعمه. والسلام.

وكتب إليه أهل البصرة يهنتونه، ولم يكتب إليه الأحنف، ولكن قال: اقرأوا عليه السلام وقولوا: أنا لك على مفارقتك عليه. فلم يزل يقرأ الكتب وينظر في تضاعيفها، ويلتمس كتاب الأحنف فلا يراه، فلما لم يره، قال لأصحابه: أما كتب أبو بحر؟ فقال له الرسول: إنه حملني إليك رسالة، فأبلغه، فقال: هذا أحب إلي من هذه الكتب.

واجتمعت الخوارج بأرجان، فبايعوا الزبير بن علي، وهو من بني سليط بن يربوع، من رهط ابن الماحوز، فرأى فيهم انكساراً شديداً، وضعفاً بيناً، فقال لهم: اجتمعوا، فاجتمعوا، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ثم أقبل عليهم فقال: إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر، وهو على الكافرين عقوبة وخزي، وإن يصب منكم أمير المؤمنين، فما صار إليه خير مما خلف، وقد أصبتم منهم مسلم بن عبيس وربيعاً الأجدم والحجاج بن رباب وحارثة بن بدر، وأشجيتهم المهلب وقتلتهم أخاه المعارك، والله يقول لإخوانكم المؤمنين: "إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس"، فيوم سلى كان لكم بلاء وتمحيصاً، ويوم سولاف كان لهم عقوبة ونكالا، فلا تغلبن على الشكر في حينه، والصبر في وقته، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض، والعاقبة للمتقين.

ثم تحمل للمحاربة نحو المهلب، فنفتحهم المهلب نفحة فرجعوا وأكمنوا للمهلب - في غمض من غموض الأرض يقرب من عسكره - مائة فارس ليغتالوه، فسار المهلب يوماً يطيف بعسكره، ويتفقد سواده، فوقف على جبل، فقال: إن من التدبير لهذه المارقة أن تكون قد أكمنت في سفح هذا الجبل كميناً، فبعث المهلب عشرة فوارس، فاطلعوا على المائة، فلما علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا وانكشفت الشمس فصاحوا: يا أعداء الله، لو قامت القيامة لوجدتنا ونحن في جهادكم. ثم ينس الزبير من ناحية المهلب، فضرب في ناحية أصبهان، ثم كر راجعاً إلى أرجان، وقد جمع جمعاً؛ وكان المهلب يقول: كأني بالزبير وقد جمع لكم؛ فلا ترهبوهم؛ فتتحب قلوبكم، ولا تغفلوا الاحتراس فيطمعوا فيكم. فجاءوه من أرجان، فلقوه مستعداً آخذاً بأفواه الطرق، فحاربهم فظهر عليهم ظهوراً بيناً، ففي ذلك يقول رجل من بني يربوع:

سقى الله المهلب كل غيثٍ

من الوسمي ينتحر انتحارا

فما وهن المهلب يوم جاءت

عوايس خيلهم تبغي الغوارا

وقال المهلب يومئذ: ما وقفت في مضيق من الحرب إلا رأيت أمامي رجلاً من بني المهجم بن عمرو بن تميم يجالدون، وكأن لحاهم أذنان العقاق وكانوا صبروا معه في غير مواطن، وقال رجل من أصحاب المهلب من بني تميم:

ألا يا من لصب مستهامٍ

قريح القلب قد مل المزونا

لهان على المهلب ما لقينا

إذا ما راح مسروراً بطينا

يجر السابري ونحن شعث

كأن جلودنا كسيت طحينا

وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف، وكان من أنجد فرسان الخوارج؛ فطعنه فدق صلبه، وقال:

قيس الإكاف غداة الروح يعلمني

ثبت المقام إذا لاقيت أقراني

وقد كان بعض جيش المهلب يوم سلى وسلبرى صاروا إلى البصرة، فذكروا أن المهلب قد أصيب، فهم أهل البصرة بالنقلة إلى البادية، حتى ورد كتابه بظفره، فأقام الناس؛ وتراجع من كان ذهب منهم؛ فعند ذلك قال الأحنف: البصرة بصره المهلب. وقدم رجل من كندة يعرف بابن أرقم، فنعى ابن عم له، وقال: إني رأيت رجلاً من الخوارج، وقد مكن رحمه من صلبه، فلم ينشب أن قدم المنعي سالماً، فقبل له ذلك، فقال: صدق ابن أرقم، لما أحسست برمحه بين كتفي صحت به: البقية، فرفعه، وتلا: "بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين" ووجه المهلب يعقب هذه الوقعة رجلاً من الأزد، برأس عبيد الله بن الماحوز إلى الحارث بن عبد الله، فلما صار بكرج ديار لقيته إخوة عبيد الله: حبيب وعبد الملك وعلي بنو بشير بن الماحوز فقالوا: ما الخير؟ وهو لا يعرفهم؛ فقال: قتل الله ابن الماحوز المارق، وهذا رأسه معي، فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه، ودفنوا رأس أخيهم عبيد الله، فلما ولي الحجاج دخل عليه علي بن بشير، وكان وسيماً جسيماً، فقال: من هذا؟ فخره فقتله ووهب ابنه وابنته لأهل الأزد المقتول، وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة، فوهبها لها. قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتاب الكامل: ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج في ولاية الحارث القباع، حتى عزل وولي مصعب بن الزبير، فكتب إلى المهلب أن أقدم علي، واستخلف ابنك المغيرة. ففعل بعد أن جمع الناس، وقال لهم: إني قد استخلفت المغيرة عليكم، وهو أبو صغيركم رقةً ورحمةً، وابن كبيركم طاعةً وبراً وتبجيلاً، وأخو مثله مواساةً ومناصحةً، فلتحسن له طاعتكم، وليلن له جانبكم، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سبقني إليه. ثم مضى إلى مصعب، فكتب مصعب إلى المغيرة بولايته، وكتب إليه: إنك إن لم تكن كأبيك، فإنك كافٍ لما وليت، فشمر وائتزر، وجد واجتهد.

ثم شخص المصعب إلى المذار، فقتل أحمر بن شमित، ثم أتى الكوفة فقتل المختار، وقال للمهلب: أشر علي برجل أجعله بيني وبين عبد الملك، فقال له: اذكر واحداً من ثلاثة: محمد ابن عمير بن عطار الدارمي، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي، أو داود بن قحزم، قال: أو تكفيني أنت؟ قال: أكفيك إن شاء الله. فشخص فولاه الموصل فخرج إليها، وصار مصعب إلى البصرة لينفر إلى أخيه بمكة. فشاور الناس فيمن يستكفيه أمر الخوارج، فقال قوم: ول عبد الله بن أبي بكر،

وقال قوم: ول عمر بن عبيد الله بن معمر، وقال قوم: ليس لهم إلا المهلب فاردده إليهم، وبلغت المشورة الخوارج فأداروا الأمر بينهم، فقال قطري بن الفجاءة المازني - ولم يكن أمره عليهم بعد - : إن جاءكم عبد الله بن أبي بكره أتاكم سيد سمح كريم جواد مضيع لعسكره، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله أتاكم فارس شجاع، بطل جاد، يقاتل لدينه وملكه، وبطبيعة لم أر مثلها لأحد، فقد شهدته في وقائع، فما نودي في القوم لحرب إلا كان أول فارس؛ حتى يشد على قرنه ويضربه؛ وإن رد المهلب فهو من عرفتموه، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر، يمدّه إذا أرسلتموه، ويرسله إذا مددتموه، لا ييدؤكم إلا أن تبدأوه، إلا أن يرى فرصة فينتهزها، فهو الليث المير، والثعلب الرواغ، والبلاء المقيم.

فولى مصعب عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر، ولأه فارس، والخوارج بأرجان يومئذ، وعليهم الزبير بن علي السليطي، فشخص إليهم فقاتلهم، وألح عليهم حتى أخرجهم منها، فألحقهم بأصبهان، فلما بلغ المهلب أن مصعباً ولى حرب الخوارج عمر بن عبيد الله، قال: رماهم بفارس العرب وفتاها. فجمع الخوارج له، وأعدوا واستعدوا، ثم أتوا سابور، فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ، فقال له مالك بن حسان الأزدي: إن المهلب كان يذكي العيون، ويخاف البيات، ويرتقب الغفلة، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم.

فقال عمر: اسكت، خلع الله قلبك! أترأى تموت قبل أحلك! وأقام هناك، فلما كان ذات ليلة بيته الخوارج، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح، فلم يظفروا منه بشيء. فأقبل على مالك بن أبي حسان، فقال: كيف رأيت؟ فقال: قد سلم الله، ولم يكونوا يطعمون في مثلها من المهلب، فقال: أما إنكم لو ناصحتهموني مناصحتكم المهلب، لرجوت أن أنفي هذا العدو، ولكنكم تقولون: قرشي حجازي، بعيد الدار خيره لغيرنا، فتقاتلون معي تعذيراً. ثم زحف إلى الخوارج من غد ذلك اليوم، فقاتلهم قتالاً شديداً، حتى ألجأهم إلى قنطرة، فنكاثف الناس عليها حتى سقطت، فأقام حتى أصلحها، ثم عبر، وتقدم ابنه عبيد الله بن عمر - وأمه من بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب - فقاتلهم حتى قتل، فقال قطري للخوارج: لا تقاتلوا عمر اليوم، فإنه موتور، قد قتلتم ابنه - ولم يعلم عمر بقتل ابنه حتى أفضى إلى القوم، وكان معه ابنه النعمان ابن عباد - فصاح به عمر: يا نعمان، أين ابني؟ قال: احتسبه فقد استشهد صابراً مقبلاً غير مدبر، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم حمل على الخوارج حملة لم ير مثلها، وحمل أصحابه بحملته؛ فقتلوا في وجههم ذلك تسعين رجلاً من الخوارج، وحمل على قطري فضربه على جبينه ففلقه، وانهمزت الخوارج وانتهبها، فلما استقروا ورأى ما نزل بهم، قال: ألم أشر عليكم بالإنصراف! فجعلوه حينئذ من وجوههم؛ حتى خرجوا من فارس، وتلقاهم في ذلك الوقت الفرز بن مهزم العبدي، فسأله عن خبره، وأرادوا قتله، فأقبل على قطري، وقال: إني مؤمن مهاجر، فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها، فخلوا عنه، ففي ذلك يقول في كلمة له:

إلى قطري ذي الجبين المفلق

وما دينهم غير الهوى والتخلق

فشدوا وثاقي ثم ألجموا خصومتي

وحاجبتهم في دينهم فحجبتهم

ثم رجعوا وتكانفوا ، وعادوا إلى ناحية أرجان، فسار إليهم عمر بن عبيد الله، وكتب إلى مصعب: أما بعد: فإني لقيت الأزارقة؛ فرزق الله عز وجل عبيد الله بن عمر الشهادة، ووهب له السعادة، ورزقنا بعد عليهم الظفر، فتفرقوا شذر مذر . وبلغني عنهم عودة فيممتهم، وبالله أستعين؛ وعليهم أتوكل.

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو، ومجاعة بن سعر فالتقوا، فألح عليهم عمر حتى أخرجهم، وانفرد من أصحابه، فعمد إلى أربعة عشر رجلاً من مذكوريهم وشجعائهم، وفي يده عمود، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صرعه، فركض إليه قطري على فرس طمر وعمر على مهر، فاستعلاه قطري بقوة فرسه، حتى كاد يصصره؛ فبصر به مجاعة، فأسرع إليه، فصاحت الخوارج: يا أبا نعام، إن عدو الله قد رهقك . فانحط قطري على قربوسه وطعنه مجاعة، وعلى قطري درعان فهتكهما وأسرع السنان في رأس قطري، فكشط جلده ونجا، وارتحل القوم إلى أصفهان، فأقاموا برهة، ثم رجعوا إلى الأهواز؛ وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى اصطخر ، فأمر مجاعة فجى الخراج أسبوعاً، فقال له: كم جيت؟ قال: تسعمائة ألف، فقال: هي لك، وقال يزيد بن الحكم لمجاعة:

عمر وقد نسي الحياة وضاعا

ودعاك مرهق فأجبتة

قد كاد يترك لحمه أوزاعا

فرددت عادية الكتبية عن فتى

قال: ثم عزل مصعب بن الزبير، وولى عبد الله بن الزبير العراق ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير؛ فمكث قليلاً؛ ثم أعيد مصعب إلى العراق، والخوارج بأطراف أصبهان، والوالي عليها عتاب بن ورقاء الرياحي؛ فأقام الخوارج هناك يجبون شيئاً من القرى، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس، فكتب مصعب إلى عمر بن عبيد الله: ما أنصفتنا! أقمت بفارس تجي الخراج؛ ومثل هذا العدو يجتاز بك لا تحاربه! والله لو قاتلت ثم هزمت لكان أعذر لك! وخرج مصعب من البصرة يريداهم، وأقبل عمر بن عبيد الله يريداهم، فتنحى الخوارج إلى السوس، ثم أتوا إلى المدائن؛ وبسطوا في القتل، فجعلوا يقتلون النساء والصبيان؛ حتى أتوا المذار؛ فقتلوا أحمر طيئ؛ وكان شجاعاً، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر، وفي ذلك يقول الشاعر:

بسابط لم يعطف عليه خليل

تركتكم فتى الفتیان أحمر طيئ

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة، فلما خالطوا سوادها - ووالها الحارث القباع - تناقل عن الخروج، وكان جباناً؛ فذمره إبراهيم بن الأشتر، ولامه الناس، فخرج متحاملاً حتى أتى النخيلة، ففي ذلك يقول الشاعر:

يسير يوماً ويقيم عشرا

إن القباع سار سيراً نكرا

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج، والخوارج يعيشون؛ حتى أخذوا امرأة، فقتلوا أباهما بين يديها، وكانت جميلة، ثم أرادوا قتلها، فقالت: أتقتلون من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين! فقال قائل منهم، دعوها، فقالوا: قد فتنك، ثم قدموها فقتلوها.

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القباع، والجسر معقود بينهم؛ فقطعه القباع وهو في ستة آلاف، والمرأة تستغيث به وهي تقبل؛ وتقول: علام تقتلونني! فوالله ما فسقت، ولا كفرت، ولا زנית، والناس يتفلتون إلى القتال، والقباع يمنعهم. فلما

خاف أن يعصوه أمر عند ذاك بقطع الجسر، فأقام بين دبيري ودباها خمسة أيام، والخوارج بقربه، وهو يقول للناس في كل يوم: إذا لقيتم العدو غداً، فأثبتوا أقدامكم واصبروا، فإن أول الحرب الترامي، ثم إشراع الرماح، ثم السلة، فشككت رجلاً أمه فر من الزحف! فقال بعضه لما أكثر عليهم: أما الصفة فقد سمعناها، فمتى يقع الفعل؟ وقال الراجز:

بين دباها ودبيري خمسا

إن القبايع سار سيراً ملسا

وأخذ الخوارج حاجتهم، وكان شأن القبايع التحصن منهم؛ ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة؛ وساروا من فورهم إلى أصبهان، فبعث عتاب بن ورقاء الرياحي إلى الزبير بن علي: أنا ابن عمك، ولست أراك تقصد في انصرافك من كل حرب غيري. فبعث إليه الزبير: إن أدنى الفاسقين وأبعدهم في الحق سواء.

فأقام الخوارج يغادون عتاب بن ورقاء القتال ويراوحونه، حتى طال عليهم المقام، ولم يظفروا بكبير شيء، فلما كثر عليهم ذلك انصرفوا، لا يمرون بقرية بين أصبهان والأهواز إلا استباحوها، وقتلوا من فيها. وشاور المصعب الناس فيهم؛ فأجمع رأيهم على المهلب، فبلغ الخوارج مشاورتهم؛ فقال لهم قطري: إن جاءكم عتاب بن ورقاء؛ فهو فاتك يطلع في أول المقنب، ولا يظفر بكثير، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله ففارس يقدم، إما عليه وإما له؛ وإن جاءكم المهلب فرجل لا يناجزكم حتى تناجزوه؛ ويأخذ منكم ولا يعطيكم، فهو البلاء الملازم، والمكروه الدائم.

وعزم مصعب على توجيه المهلب، وأن يشخص هو لحرب عبد الملك. فلما أحس به الزبير خرج إلى الري - وبها يزيد الحارث بن رويم - فحاربه ثم حصره؛ فلما طال عليه الحصار خرج إليه؛ فكان الظفر للخوارج، فقتل يزيد الحارث بن رويم؛ ونادى يزيد ابنه حوشباً، ففر عنه وعن أمه لطيفة وكان علي بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد، فقال: عندي جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك، فسامها يزيد لطيفة، فقتلت مع بعلها يزيد يومئذ. وقال الشاعر:

أسر وأشقى من مواقف حوشب

واقفنا في كل يوم كريمة

فلم يستجب بل راغ تراوغ ثعلب

دعاه أبوه والرماح شوارع

رأى ما رأى في الموت عيسى بن مصعب

ولو كان شهم النفس أو ذا حفيظة

وقال آخر:

نصب الأسنة حوشب بن يزيد

نجى حليلته وأسلم شيخه

قال: ثم انخط الزبير على أصفهان، فحصر بها عتاب بن ورقاء سبعة أشهر، وعتاب يحاربه في بعضهن؛ فلما طال به الحصار قال لأصحابه: ما تنتظرون! والله ما تؤتون من قلة؛ وإنكم لفرسان عشائركم؛ ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتهم منهم؛ وما بقي مع هذا الحصار إلا أن تفنى ذخائركم، فيموت أحدكم، فيدفنه أخوه، ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه؛ فقاتلوا القوم وبكم قوة من قبل أن يضعف أحدكم على أن يمشي إلى قرنه.

فلما أصبح صلى بهم الصبح؛ ثم خرج إلى الخوارج وهم غارون، وقد نصب لواءً لجارية له يقال لها ياسمين، فقال: من أراد البقاء فليلق بلواء ياسمين، ومن أراد الجهاد فليخرج معي؛ فخرج في ألفين وسبعمئة فارس، فلم يشعر بهم الخوارج

حتى غشوهم فقاتلوهم بجد لم تر الخوارج منهم مثله، فعقروا منهم خلقاً كثيراً وقتل الزبير بن علي، وانهمزت الخوارج، فلم يتبعهم عتاب، ففي ذلك يقول القائل:

ويوم بجي تلافيته

ولولاك لاصطلم العسكر

وقال آخر:

خرجت من المدينة مستميتاً

ولم أك في كتيبة ياسمينا

أليس من الفضائل أن قومي

غدوا مستلثمين مجاهدينا

قال: وتزعم الرواة أنهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون، ويحمل بعضهم على بعض، وربما كانت واقفة بغير حرب، وربما اشتدت الحرب بينهم، وكان رجل من أصحاب عتاب - يقال له: شريح، ويكنى أبا هريرة - إذا تحاجر القوم مع المساء نادى بالخوارج والزبير بن علي:

يابن أبي الماحوز والأشرار

كيف ترون يا كلاب النار

شد أبي هريرة الهرار

يهركم بالليل والنهار

ألم تروا جياً على المضمار

تمسي من الرحمن في جوار

فغاضهم ذلك، فكمن له عبيدة بن هلال، فضربه بالسيف، واحتمله أصحابه، وظنت الخوارج أنه قد قتل؛ فكانوا إذا تواقفوا نادوهم: ما فعل الهرار؟ فيقولون: ما به من بأس، حتى أبل من علته، فخرج إليهم، فقال: يا أعداء الله، أترون بي بأساً؟ فصاحوا به: قد كنا نرى أنك قد لحقت بأملك الهاوية، إلى النار الحامية.

قطري بن الفجاءة المازني

ومنهم قطري بن الفجاءة المازني، قال أبو العباس: لما قتل الزبير بن علي أدارت الخوارج أمرها، فأرادوا تولية عبيدة بن هلال؛ فقال: أدلكم على من هو خير لكم مني؟ من يطاعن في قبل، ويحمي في دبر؛ عليكم بقطري بن الفجاءة المازني. وقالوا: يا أمير المؤمنين؛ امض بنا إلى فارس، فقال: إن فارس عمر بن عبيد الله بن معمر؛ ولكن نسير إلى الأهواز، فإن خرج مصعب من البصرة دخلناها، فأتوا الأهواز ثم ترفعوا عنها على إيدج، - وكان المصعب قد عزم على الخروج إلى باجميرا - وقال لأصحابه: إن قطرياً لمطل علينا؛ وإن خرجنا عن البصرة دخلها، فبعث إلى المهلب فقال: اكفنا هذا العدو، فخرج إليهم المهلب؛ فلما أحس به قطري يم نحو كرمان، وأقام المهلب بالأهواز، ثم كر عليه قطري، وقد استعد، وكانت الخوارج في حالهم أحسن عدة ممن يقاتلهم بكثرة السلاح وكثرة الدواب، وحصانة الجن. فحاربهم المهلب، فدفعهم فصاروا إلى رامهرمز؛ وكان الحارث بن عميرة الهمداني قد صار إلى المهلب مراغماً لعتاب بن ورقاء، ويقال: إنه لم يرضه عن قتله الزبير بن علي، وكان الحارث بن عميرة، هو الذي قتله وخاض إليه أصحابه، ففي ذلك يقول أعشى همدان:

إن المكارم أكملت أسبابها

للفارس الحامي الحقيقة معلماً

الحارث بن عميرة الليث الذي

ود الأزارق لو يصاب بطعنة

لابن الليوث الغر من همدان

زاد الرفاق وفارس الفرسان

يحمي العراق إلى قرى نجران

ويموت من فرسانهم مائتتان

قال أبو العباس: وخرج مصعب إلى باجميرا، ثم أتى الخوارج خبر مقتله بمسكن، ولم يأت المهلب وأصحابه، فتوافقوا يوماً برامهرمز على الخندق، فناداهم الخوارج: ما تقولون في مصعب؟ قالوا: إمام هدى، قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: ضال مضل، فلما كان بعد يومين أتى المهلب قتل المصعب؛ وأن أهل العراق قد اجتمعوا على عبد الملك، وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته؛ فلما توافقوا ناداهم الخوارج: ما تقولون في المصعب؟ قالوا: لا نخبركم، قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: إمام هدى، قالوا: يا أعداء الله، بالأمس ضال مضل، واليوم إمام هدى! يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله!

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني، قال: كان الشراة والمسلمون في حرب المهلب وقطري يتوافقون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك، على أمان وسكون، لا يهيج بعضهم بعضاً، فتوقف يوماً عبدة بن هلال الليشكري، وأبو حربة التميمي، فقال عبدة: يا أبا حزابة، إني أسألك عن أشياء، أفتصدقي عنها في الجواب؟ قال: نعم، إن ضمننت لي مثل ذلك، قال: قد فعلت:، قال: فسل عما بدا لك، قال: ما تقولون في أئمتكم؟ قال: يبيحون الدم الحرام، قال: فكيف فعلهم في المال؟ قال: يجبونه من غير حله، وينفقونه في غير وجهه، قال: فكيف فعلهم في اليتيم؟ قال: يظلمونه ماله، ويمنعونه حقه، وينيكون أمه، قال: ويحك يا أبا حزابة! أمثل هؤلاء تتبع! قال: قد أجبتك، فاسمع سؤالي، ودع عتابي على رأيي، قال: سل، قال: أي الخمر أطيب، خمر السهل أم خمر الجبل؟ قال: ويحك! أمثلي يسأل عن هذا! قال: قد أوجبت على نفسك أن تجيب، قال: أما إذا أبيت، فإن خمر الجبل أقوى وأسكر، وخمر السهل أحسن وأسلم، قال: فأبي الزواني أفره؟ أزواني رامهرمز، أم زواني أرجان؟ قال: ويحك! إن مثلي لا يسأل عن هذا، قال: لا بد من الجواب أو تغدر.

قال: أما إذا أبيت فزواني رامهرمز أرق أبشاراً، وزواني أرجان أحسن أبداناً. قال: فأبي الرجلين أشعر، جرير أم الفرزدق؟ قال: عليك وعليهما لعنة الله، قال: لا بد أن تجيب، قال: أيهما الذي يقول:

وطوى الطراد مع القياد بطونها

طي التجار بحضرموت برودا

قال: جرير، قال: فهو أشعرهما.

قال أبو الفرج وقد كان الناس تجادلوا في أمر جرير والفرزدق في عسكر المهلب، حتى تواتبوا، وصاروا إليه محكمين له في ذلك، فقال: أتريدون أن أحكم بين هذا الكلين المتهارشين، فيمضغاني! ما كنت لأحكم بينهما، ولكني أدلكم على من يحكم بينهما، ثم يهون عليه سبائهما، عليكم بالشراة، فاسألوهم إذ توافقتم، فلما توافقوا سأل أبو حزابة عبدة بن هلال عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب.

وروى أبو الفرج أن امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن الفجاءة، يقال لها أم حكيم، وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بالدين تمسكاً، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجبهم، فأخبر من شاهدها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز، فتقول:

أحمل رأساً قد سئمت حمله

وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله

والخوارج يقدونها بالآباء والأمهات، فما رأينا قبلها ولا بعدها مثلها.

وروى أبو الفرج، قال: كان عبيدة بن هلال، إذا تكاف الناس ناداهم: ليخرج إلي بعضكم؛ فيخرج إليه فتیان من عسكر المهلب؛ فيقول لهم: أيما أحب إليكم؟ أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الشعر؟ فيقولون له: أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك، ولكن نشدنا؛ فيقول: يا فسقة، قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن! ثم لا يزال ينشدهم ويستنشدهم حتى يملوا ويفترقوا.

قال أبو العباس: وولي خالد بن عبد الله بن أسيد فقدم فدخل البصرة، فأراد عزل المهلب، فأشير عليه ألا يفعل، وقيل له: إنما أمن أهل هذا المصر، لأن المهلب وعمر بن عبيد الله بفارس، فقد تنحى عمر، وإن نحت المهلب لم تأمن على البصرة. فأبى إلا عزله، فقدم المهلب البصرة، وخرج خالد إلى الأهواز، فاستصحبه، فلما صار بكرنج دينار لقيه قطري، فمنعه حط أثقاله، وحاربه ثلاثين يوماً.

ثم أقام قطري بإزائه، وخذق على نفسه، فقال المهلب لخالد: إن قطرياً ليس بأحق بالخذق منك، فعبّر دجياً إلى شق نهر تيرى، واتبعه قطري فصار إلى مدينة نهر تيرى، فبنى سورها، وخذق عليها؛ فقال المهلب لخالد: خذق على نفسك، فإني لا آمن البيات، فقال: يا أبا سعيد، الأمر أعجل من ذاك، فقال المهلب لبعض ولده: إني أرى أمراً ضائعاً، ثم قال لزيد ابن عمرو: خذق علينا، فخذق المهلب على نفسه، وأمر بسفنه ففرغت، وأبى خالد أن يفرغ سفنه، فقال المهلب لفيروز حصين: صر معنا؛ فقال: يا أبا سعيد، إن الحزم ما تقول، غير أبي أكره أن أفارق أصحابي، قال: فكن بقربنا، قال: أما هذه فنعم.

وقد كان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان يأمره أن يمد خالداً بجيش كثيف أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ففعل، فقدم عليه عبد الرحمن. فأقام قطري يغاديهما القتال ويروا حهم أربعين يوماً؛ فقال المهلب لمولى أبي عيينة: سر إلى ذلك الناموس، فبت عليه كل ليلة، فمتى أحسست خيراً للخوارج، أو حركة أو سهيل خيل، فاعجل إلينا.

فجاءه ليلة، فقال: قد تحرك القوم، فجلس المهلب بباب الخندق، وأعد قطري سفناً فيها حطب وأشعلها ناراً، وأرسلها على سفن خالد؛ وخرج من أدبارها حتى خالطهم، لا يمر برجل إلا قتله، ولا بدابة إلا عقرها، ولا بفسطاط إلا هتكه، فأمر المهلب يزيداً ابنه، فخرج في مائة فارس. فقاتل، وأبلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يومئذ بلاءً حسناً، وخرج فيروز حصين في مواليه، وصرع عبد الرحمن هو ومن معه، فأثر أثراً جميلاً، وصرع يزيد بن المهلب يومئذ، وصرع عبد

الرحمن بن محمد بن الأشعث، فحامى عنهما أصحابهما حتى ركبا، وسقط فيروز حصين في الخندق، فأخذ بيده رجل من الأزد، فاستنقذه؛ فوهب له فيروز عشرة آلاف، وأصبح عسكر خالد كأنه حرة سوداء، فجعل لا يرى إلا قتيلاً أو جريحاً؛ فقال للمهلب: يا أبا سعيد، كدنا نفتضح! فقال: خندق على نفسك، فإن لم تفعل عادوا إليك، فقال: اكفي أمر الخندق، فجمع له الأحماس فلم يبق شريف إلا عمل فيه، فصاح بهم الخوارج: والله لولا هذا الساحر المزوني، لكان الله قد دمر عليكم - وكانت الخوارج تسمي المهلب الساحر-، لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدون المهلب قد سبق إلى نقض تدبيرهم.

وقال أعشى همدان لابن الأشعث، يذكره بلاء القحطانية عنده؛ في كلمة طويلة:

ليس الثنا والذكر بالبائد

ويوم أهوازك لا تنسه

ثم مضى قطري إلى كرمان؛ وانصرف خالد إلى البصرة؛ وأقام قطري بكرمان شهراً، ثم عمد لفارس، فخرج خالد إلى الأهواز وندب الناس للرحيل، فجعلوا يطلبون المهلب، فقال خالد: ذهب المهلب بخط هذا المصر، إني قد وليت أخي قتال الأزارقة. فولى أخاه عبد العزيز، واستخلف المهلب على الأهواز في ثلاثمائة؛ ومضى عبد العزيز والخوارج بدار مجرد وهو في ثلاثين ألفاً، فجعل عبد العزيز يقول في طريقه: يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب؛ سيعلمون! قال صقعب بن يزيد: فلما خرج عبد العزيز عن الأهواز، جاءني كردوس، حاحب المهلب، فدعاني، فجئت إلى المهلب وهو في سطح، وعليه ثياب هروية، فقال: يا صقعب، أنا ضائع كأني أنظر إلى هزيمة عبد العزيز، وأحشى أن توافيني الأزارقة ولا جند معي، فابعث رجلاً من قبلك يأتيني بخبرهم سابقاً إلي به، فوجهت رجلاً من قبلي يقال له عمران بن فلان، وقلت له: اصحب عسكر عبد العزيز، واكتب إلي بخبر يوم فيوم، فجعلت أوردته على المهلب، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة، فقال له الناس: هذا متزل، فينبغي أن تتزل فيه أيها الأمير؛ حتى تطمئن ثم نأخذ أهبتنا، فقال: كلا، الأمر قريب؛ فتزل الناس عن غير أمره، فلم يستتم التزل؛ حتى ورد عليه سعد الطلائع في خمسمائة فارس؛ كأنهم خيط ممدود؛ فناهضهم عبد العزيز فواقفوه ساعة، ثم انهزموا عنه مكيدة، واتبعهم فقال له الناس: لا تتبعهم، فإننا على غير تعبئة، فأبى؛ فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقبة، فاقتحمها ورائهم والناس ينهونه ويأبى، وكان قد جعل على بني تميم عبس بن طلق الصريمي الملقب عبس الطعان، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مسمع، وعلى شرطته رجلاً من بني ربيعة بن نزار. فترلوا عن العقبة، ونزل خلفهم وكان لهم في بطن العقبة كمين، فلما صاروا من ورائها؛ خرج عليهم الكمين، وعطف سعد الطلائع، فترجل عبس بن طلق، فقتل وقتل مقاتل بن مسمع، وقتل الضبيعي، صاحب شرطة عبد العزيز، وانحاز عبد العزيز واتبعهم الخوارج فرسخين يقتلونهم كيف شاءوا، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أم حفص بنت المنذر بن الجارود امرأته، فسبوا النساء يومئذ، وأخذوا أسارى لا تحصى، فقتلوه في غار بعد أن شدوهم وثاقاً، ثم سدوا عليهم بابه، حتى ماتوا فيه.

وقال بعض من حضر ذلك اليوم: رأيت عبد العزيز، وإن ثلاثين رجلاً ليضربونه بسيوفهم؛ فما تحيك في جنبه، ونودي

على السبي يومئذ، فغولي بأم حفص، فبلغ بها رجل سبعين ألفاً، وكان ذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا، ولحقوا بالخوارج، ففرضوا لكل رجل منهم خمسمائة، فكاد ذلك الرجل يأخذ أم حفص، فشق ذلك على قطري، وقال: ما ينبغي لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفاً؛ إن هذه لفتنه! فوثب عليها أبو الحديد العبدى فقتلها، فأتي به قطري، قال: مهيم يا أبا الحديد! فقال: يا أمير المؤمنين؛ رأيت المؤمنين ترايدوا في هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة، فقال قطري: أحسنت، فقال رجل من الخوارج:

بحمد الله سيف أبي الحديد

كفانا فتنة عظمت وجلت

على فرط الهوى هل من مزيد!

أهاب المسلمون بها وقالوا

رقيق الحد فعل فتى رشيد

فزاد أبو الحديد بنصل سيف

وكان العلاء بن مطرف السعدي ابن عم عمرو القنا، وكان يجب أن يلقاه في صدر مبارزة، فلحقه عمرو القنا يومئذ؛ وهو منهزم، فضحك منه وقال متمثلاً:

أعام لك ابن صعصعة بن سعد

تمناني ليلقاني لقيط

ثم صاح به: انج يا أبا المصدى، وكان العلاء بن مطرف قد حمل معه امرأتين: إحداهما من بني ضبة، يقال لها أم جميل، والأخرى بنت عمه، يقال لها فلانة بنت عقيل فطلق الضبية؛ وحملها أولاً، وتخلص بابنة عمه، فقال في ذلك:

قفوا فاحملوها قبل بنت عقيل

ألست كريماً إذ أقول لفتيتي

تجر على المتتين أم جميل

ولو لم يكن عودي نضاراً لأصبحت

قال الصقعب بن يزيد: وبعثني المهلب لآتيه بالخبر؛ فصرت إلى قنطرة أربك على فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم؛ فلم أحسن خبراً، فسرت مهجراً إلى أن أمسيت؛ فلما أمسينا وأظلمنا، سمعت كلام رجل عرفته من الجهاضم، فقلت: ما وراءك؟ قال: الشر، قلت: فأين عبد العزيز؟ قال: أمامك، فلما كان آخر الليل، إذا أنا بزهاء خمسين فارساً معهم لواء، فقلت: لواء من هذا؟ قالوا: لواء عبد العزيز، فتقدمت إليه، فسلمت عليه، وقلت: أصلح الله الأمير! لا يكبرن عليك ما كان، فإنك كنت في شر جند وأحبته، قال لي: أو كنت معنا؟ قلت: لا، ولكن كأني شاهد أمرك، ثم أقبلت إلى المهلب وتركته، فقال لي: ما وراءك؟ قلت: ما يسرك، هزم الرجل وفل جيشه، فقال: ويحك! وما يسرنى من هزيمة رجل من قريش وفل جيش من المسلمين! قلت: قد كان ذلك، ساءك أو سرك، فوجه رجلاً إلى خالد يخبره بسلامة أخيه. قال الرجل: فلما أخبرت خالداً، قال: كذبت ولؤمت، ودخل رجل من قريش فكذبني، فقال لي خالد: والله لقد هممت أن أضرب عنقك، فقلت: أصلح الله الأمير! إن كنت كاذباً فاقتلني، وإن كنت صادقاً فأعطني مطرف هذا المتكلم، فقال خالد: لبئس ما أخطرت به دمك! فما برحت حتى دخل عليه بعض الفل، وقدم عبد العزيز سوق الأهواز، فأكرمه المهلب وكساه، وقدم معه على خالد، واستخلف المهلب ابنه حبيباً، وقال له: تجسس الأخبار، فإن أحسست بخيل الأزارقة قريباً منك فانصرف إلى البصرة على نهر تيرى. فلما أحس حبيب بهم، دخل البصرة وأعلم خالداً بدخوله،

فغضب وخاف حبيب منه، فاستتر في بني عامر بن صعصعة، وتزوج هناك في استتاره الهلالية، وهي أم ابنه عباد بن حبيب. وقال الشاعر لخالد يفيل رأيه:

وتترك ذا الرأي الأصل المهلبي

قواه، وقد ساس الأمور وجربا

بعثت غلاماً من قريش فروقة

أبى الذم واختار الوفاء وأحكمت

وقال الحارث بن خالد المخزومي:

وابن داود نازلاً قطريا

ليعودن بعدها حرما

فر عبد العزيز إذ راء عيسى

عاهد الله إن نجا ملمايا

يسكن الخل والصفاح فغورينا مراراً ومرة نجديا

حيث لا يشهد القتال ولا يسمع لكر خيل دويا

وكتب خالد إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز، وقال للمهلبي: ما ترى أمير المؤمنين صانعاً بي؟ قال: يعزلك، قال: أترأه قاطعاً رحمي! قال: نعم، قد أتته هزيمة أمية أخيك - ففعل - يعني هرب أمية من سجستان - فكتب عبد الملك إلى خالد:

أما بعد؛ فإنني كنت حددت حداً في أمر المهلبي؛ فلما ملكت أمرك، نبذت طاعتي ورائك، واستبددت برأيك؛ فوليت المهلبي الجباية، ووليت أخاك حرب الأزارقة؛ ففبح الله هذا رأياً! أتبعث غلاماً غراً لم يجرب الأمور والحروب للحرب؛ وتترك سيداً شجاعاً مدبراً حازماً قد مارس الحروب ففلج؛ فشغلته بالجباية! أما لو كافأتك على قدر ذنبك لأتاك من نكيري ما لا بقية لك معه! ولكن تذكرت رحمك فكفتني عنك؛ وقد جعلت عقوبتك عزلك. والسلام.

قال: وولى بشر بن مروان الإمارة وهو بالكوفة؛ وكتب إليه: أما بعد؛ فإنك أخو أمير المؤمنين؛ يجمعك وإياه مروان بن الحكم؛ وإن خالداً لا مجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية؛ فانظر المهلبي بن أبي صفرة، فوله حرب الأزارقة؛ فإنه سيد بطل مجرب، وامدده من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل؛ والسلام.

فشق على بشر ما أمره به في المهلبي؛ وقال: والله لأقتلنه، فقال له موسى بن نصير: أيها الأمير؛ إن للمهلبي حفاظاً ووفاءً وبلاءً.

وخرج بشر بن مروان يريد البصرة، فكتب موسى بن نصير وعكرمة بن ربيعي إلى المهلبي أن يتلقاه لقاء لا يعرفه به؛ فتلقاه المهلبي على بغل، وسلم عليه في غمار الناس، فلما جلس بشر مجلسه، قال: ما فعل أميركم المهلبي؟ قالوا: قد تلقاك أيها الأمير، وهو شاك.

فهم بشر أن يولي حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله بن معمر، وشد عزمه أسماء بن خارجة، وقال له: إنما ولاك أمير المؤمنين لترى رأيك؛ فقال له عكرمة بن ربيعي: اكتب إلى أمير المؤمنين فأعلمه علة المهلبي، فكتب إليه بذلك، وأن بالبصرة من يغني غناؤه، ووجه بالكتاب مع وفد أوفدهم إليه، رئيسهم عبد الله بن حكيم المجاشعي.

فلما قرأ عبد الملك الكتاب خلا بعبد الله، فقال له: إن لك ديناً ورأياً وحزماً، فمن لقتال هؤلاء الأزارقة؟ قال: المهلبي؛

قال: إنه عليل، قال: ليست علتة بمائعة، فقال له عبد الملك: لقد أراد بشر أن يفعل ما فعل خالد؛ فكتب إليه يعزم عليه أن يولي المهلب الحرب، فوجه إليه، فقال: أنا عليل، ولا يمكنني الاختلاف؛ فأمر بشر بحمل الدواوين إليه؛ فجعل ينتحب، فعزم عليه بشر بالخروج؛ فاقتطع أكثر نخبته، ثم عزم عليه ألا يقيم بعد ثلاثة، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلفوها وراء ظهورهم، وصاروا بالفرات، فخرج المهلب حتى صار إلى شهارطاق؛ فأتاه شيخ من بني تميم فقال: أصلح الله الأمير! إن سني ما ترى، فهبني لعيالي، فقال: على أن تقول للأمير إذا خطب فحثكم على الجهاد: كيف تحثنا على الجهاد؛ وأنت تحبس عنه أشرافنا، وأهل النجدة منا! ففعل الشيخ ذلك؛ فقال له بشر: وما أنت وذاك! ثم أعطى المهلب رجلاً ألف درهم، على أن يأتي بشراً فيقول له: أيها الأمير، أعن المهلب بالشرطة والمقاتلة، ففعل الرجل ذلك؛ فقال له بشر: وما أنت وذاك؟ فقال: نصيحة حضرني للأمير والمسلمين؛ ولا أعود إلى مثلها، فأمدته بشر بالشرطة والمقاتلة، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف، من كل ربع ألفين، ويوجه بهم مدداً للمهلب. فلما أتاه الكتاب، بعث إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي يعقد له، واختار من كل ربع ألفين، فكان ربع أهل المدينة بشر بن جرير بن عبد الله البجلي، وعلى ربع تميم وهمدان محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، وعلى ربع كندة محمد بن إسحاق بن الأشعث بن قيس الكندي، وعلى ربع مذحج وأسد زحر بن قيس المذحجي، فقدموا على بشر بن مروان، فخلا بعبد الرحمن بن مخنف، وقال له: قد عرفت رأيي فيك، وثقتي بك، فكن عند ظني بك، وانظر إلى هذا المزوي، فخالفه في أمره، وأفسد عليه رأيه.

فخرج عبد الرحمن، وهو يقول: ما أعجب ما طلب مني هذا الغلام! يأمرني أن أصغر شأن شيخ من مشايخ أهلي، وسيد من ساداتهم! فلحق بالمهلب.

فلما أحس الأزارقة بدنو المهلب منهم انكشفوا عن الفرات، فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز، فنفاهم عنها، ثم اتبعهم إلى رامهرمز فهزمهم عنها، فدخلوا فارس، وأبلى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاءً شديداً، وهو ابن إحدى وعشرين سنة.

فلما صار القوم إلى فارس، وجه إليهم ابنه المغيرة، فقال له عبد الرحمن بن صالح: أيها الأمير، إنه ليس لك برأي قتل هذه الأكلب، ولئن والله قتلتهم لتقعدن في بيتك، ولكن طاولهم، وكل بهم. فقال: ليس هذا من الوفاء، فلم يلبث برامهرمز إلا شهراً، حتى أتاه موت بشر بن مروان.

فاضطرب الجند على ابن مخنف، فوجه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زحر، فاستحلفهما ألا يبرحا، فحلفا له ولم يفيا، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز، وأراد أهل البصرة الانسلاخ من المهلب، فخطبهم فقال: إنكم لستم كأهل الكوفة، إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرملكم.

فأقام منهم قوم، وتسلى منهم قوم كثير، وكان خالد بن عبد الله خليفة بشر بن مروان، فوجه مولى له بكتاب منه إلى من بالأهواز، يحلف بالله مجتهداً: لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم، وانصرفوا عصاةً لا يظفر بأحد إلا قتله. فجاءهم مولاه، فجعل يقرأ عليهم الكتاب، ولا يرى في وجوههم قبولاً، فقال: إني أرى وجوهاً ما القبول من شأنها، فقال له ابن زحر: أيها العبد، اقرأ ما في الكتاب، وانصرف إلى صاحبك، فإنك لا تدري ما في أنفسنا. وجعلوا يستحثونه بقراءته، ثم قصدوا

قصده الكوفة، فترلوا النخيلة، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونه أن يأذن لهم في دخول الكوفة، فأبى، فدخلوها بغير إذن، فلم يزل المهلب ومن معه من قواده وابن مخنف، في عدد قليل، فلم يلبثوا أن ولي الحجاج العراق. فدخل الكوفة قبل البصرة، وذلك في سنة خمس وسبعين، فخطبهم الخطبة المشهورة، وتهددهم؛ ثم نزل فقال لوجوه أهلها: ما كانت الولاة تفعل بالعصاة؟ قالوا: كانت تضرب وتحبس، فقال: ولكن ليس لهم عندي إلا السيف، إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين، لغزاهم المشركون، ولو ساءت المعصية لأهلها، ما قوتل عدو، ولا جبي فيء، ولا عز دين. ثم جلس لتوجيه الناس، فقال: قد أجلتكم ثلاثاً، وأقسم بالله لا يتخلف أحد من أصحاب ابن مخنف بعدها إلا قتلته. ثم قال لصاحب حرسه ولصاحب شرطته: إذا مضت ثلاثة أيام، فاشحذا سيوفكما. فجاءه عمير بن ضابئ البرجمي بابه فقال: أصلح الله الأمير! إن هذا أنفع لكم مني، وهو أشد بني تميم أيداناً؛ وأجمعهم سلاحاً؛ وأربطهم شأجاً؛ وأنا شيخ كبير عليل، واستشهد جلساءه؛ فقال له الحجاج: إن عذرَكَ لواضح، وإن ضعفك لبين، ولكني أكره أن يجترأ بك الناس علي؛ وبعد، فأنت ابن ضابئ صاحب عثمان، وأمر به فقتل، فاحتمل الناس، وإن أحدهم ليتبع بزاده وسلاحه، ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

أرى الأمر أمسى منصباً متشعباً

عميراً، وإما أن تزور المهلبا

ركوبك حولياً من الثلج أشهباً

مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيباً

رأها مكان السوق أو هي أقربا

أقول لعبد الله يوم لقيته

تجهز فلما أن تزور ابن ضابئ

هما خطنا خسف نجاؤك منهما

فما أن أرى الحجاج يغمد سيفه

فأضحى ولو كانت خراسان دونه

وهرب سوار بن المضرب السعدي من الحجاج، وقال:

دراب وأترك عند هند فؤاديا

أفأنتلي الحجاج إن لم أزر له

في قصيدة مشهورة له.

فخرج الناس عن الكوفة، وأتى الحجاج البصرة، فكان أشد عليهم إلحاحاً، وقد كان أتاها خبره بالكوفة، فتحمل الناس قبل قدومه. وأتاه رجل من بني يشكر، وكان شيخاً أعور؛ يجعل على عينه العوراء صوفة، فكان يلعب ذا الكرسة، فقال: أصلح الله الأمير! إن بي فتقاً، وقد عذرتني بشر بن مروان؛ وقد رددت العطاء، فقال: إنك عندي لصادق، ثم أمر به فضربت عنقه؛ ففي ذلك يقول كعب الأشقر - أو الفرزدق:

تقرر منها بطن كل عريف

لقد ضرب الحجاج بالمصر ضربة

ويروى عن أبي البثر، قال: إنا لتغدى معه يوماً، إذا جاءه رجل من بني سليم برجل يقوده، فقال: أصلح الله الأمير! إن هذا عاصي، فقال له الرجل: أنشدك الله أيها الأمير في دمي! فوالله ما قبضت ديواناً قط، ولا شهدت عسكرياً قط، وإني لحائك، أخذت من تحت الحف. فقال: اضربوا عنقه. فلما أحس بالسيف سجد، فلحقه السيف وهو ساجد، فأمسكنا

عن الأكل، فأقبل علينا، وقال: مالي أراكم قد صفرت أيديكم، واصفرت وجوهكم، وحد نظركم من قتل رجل واحد! ألا إن العاصي يجمع خللاً، يخل بمركزه؛ ويعصي أميره، ويغر المسلمين، وهو أجير لهم؛ وإنما يأخذ الأجرة لما يعمل، والوالي مخير فيه، إن شاء قتل، وإن شاء عفا.

ثم كتب إلى المهلب: أما بعد، فإن بشراً استكره نفسه عليك، وأراك غناه عنك، وأنا أريك حاجتي إليك، فأرني الجد في قتالك عدوك، ومن خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله، فإني قاتل من قبلي، ومن كان عندي ممن هرب عنك؛ فأعلمني مكانه؛ فإني أرى أن آخذ السمي بالسمي، والولي بالولي، فكتب إليه المهلب: ليس قبلي إلا مطيع - وإن الناس إذا خافوا العقوبة كبروا الذنب، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب، وإذا يتسوا من العفو أكفروهم ذلك؛ فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة، فإنهم فرسان أبطال؛ أرجو أن يقتل الله بهم العدو - ونادم على ذنبه، فلما رأى المهلب كثرة الناس عنده قال: اليوم قوتل هذا العدو.

ولما رأى ذلك قطري، قال لأصحابه: انهضوا بنا نريد السردن، فنتحصن فيها، فقال عبيد بن هلال: ونأتي سابور، فنأخذ منها ما نريد، ونصير إلى كرمان. فأتوا سابور، وخرج المهلب في آثارهم فأتى أرجان، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسردن - وليست بمدينة، ولكنها جبال محدقة منيعة - فلم يصب بها أحداً، فخرج فعسكر بكازرون، واستعدوا لقتاله، فخندق على نفسه، ووجه إلى عبد الرحمن بن مخنف: خندق على نفسك. فوجه إليه: خنادقنا سيوفنا، فوجه المهلب إليه: إني لا آمن عليك البيات، فقال ابنه جعفر: ذاك أهون علينا من ضرورة حمل، فأقبل المهلب على ابنه المغيرة، فقال: لم يصيبوا الرأي، ولم يأخذوا بالوثيقة.

فلما أصبح القوم عاودوه الحرب؛ فبعث إلى ابن مخنف يستمده، فأمدته بجماعة، جعل عليهم ابنه جعفر، فجاءوا وعليهم أقبية بيض جدد، فأبلوا يومئذ حتى عرف مكائهم المهلب، وأبلى بنوه يومئذ كبلاء الموفيين أو أشد. ثم أتى رئيس من الخوارج، يقال له صالح بن مخراق، وهو ينتخب قوماً من جلة العسكر حتى بلغ أربعمائة، فقال لابنه المغيرة: ما أراه يعد هؤلاء إلا للبيات.

وانكشفت الخوارج، والأمر للمهلب عليهم، وقد كثر فيهم الجراح والقتل، وقد كان الحجاج يتفقد العصاة، ويوجه الرجال، وكان يجبسهم نهاراً، ويفتح الحبس ليلاً، فيتسلل الرجال إلى ناحية المهلب، وكان الحجاج لا يعلم، فإذا رأى إسراعهم تمثل:

إن لها لسائقاً عشنزرا

إذا وثبن وثبةً تغشمرا

ثم كتب الحجاج إلى المهلب يستحثه: أما بعد، فإنه قد بلغني أنك قد أقبلت على جباية الخراج، وتركت قتال العدو، وإني وليتك وأنا أرى مكان عبد الله بن حكيم المحاشعي. وعباد بن الحصين الحبطي، واخترتك وأنا من أهل عمان، ثم رجل من الأزدي، فالفهم يوم كذا في مكان كذا، وإلا أشرعت إليك صدر الرمح، فشاور بني، فقالوا: أيها الأمير، لا تغلظ عليه في الجواب.

فكتب إليه: ورد إلي كتابك، تزعم أنني أقبلت على جباية الخراج، وتركت قتال العدو، ومن عجز عن جباية الخراج، فهو

عن قتال العدو أعجز. وزعمت أنك وليتني وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعباد بن الحصين، ولو وليتهما لكانا مستحقين لذلك لفضلهما وغنائهما وبطشهما. وزعمت أنك اخترتني وأنا رجل من الأزد، ولعمري إن شراً من الأزد لقبيلة تنازعتها ثلاث قبائل، لم تستقر في واحدة منهن. وزعمت أي إن لم ألقهم يوم كذا في مكان كذا أشرعت إلي صدر الرمح، لو فعلت لقلبت لك ظهر الجحش. والسلام.

قال: ثم كانت الوقعة بينه وبين الخوارج عقيب هذا الكتاب.

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة، قال لابنه المغيرة: إني أخاف البيات على بني تميم، فانهض إليهم فكن فيهم، فأتاهم المغيرة، فقال له الحريش بن هلال، يا أبا حاتم، أيتخاف الأمير أن يؤتى من ناحيتنا! قل له: فليت آمناً، فإننا كافوه ما قبلنا إن شاء الله.

فلما انتصف الليل، وقد رجع المغيرة إلى أبيه، سرى صالح بن مخراق في القوم الذين كان أعدهم للبيات إلى ناحية بني تميم، ومعه عبدة بن هلال، وهو يقول:

ومانع ممن أتاها دراها

إني لمذك للشرارة نارها

وغاسل بالسيف عنها عارها

فوجد بني تميم أيقاظاً متحارسين، وخرج إليهم الحريش بن هلال، وهو يقول:

لا كشفاً ميلاً ولا أوغادا

وجدتمونا وقرأ أنجادا

ثم حمل على الخوارج، فرجعوا عنه، فاتبعهم ثم صاح بهم: إلى أين يا كلاب النار! فقالوا: إنما أعدت لك ولأصحابك، فقال الحريش: كل مملوك لي حر إن لم تدخلوا النار، ما دخلها مجوسي فيما بين سفوان وخراسان.

ثم قال بعضهم لبعض: نأتي عسكر ابن مخنف، فإنه لا خندق عليه، وقد بعث فرسانهم اليوم مع المهلب، وقد زعموا أنا أهون عليهم من ضرورة جمل. فأتوهم فلم يشعر ابن مخنف وأصحابه، إلا وقد خالطوهم في عسكرهم. وكان ابن مخنف شريفاً، وفيه يقول رجل من بني عامر لرجل يعاتبه، ويضرب بابن مخنف المثل:

كأنك فينا مخنف وابن مخنف

تروح وتغدو كل يوم معظماً

فترجل عبد الرحمن تلك الليلة يجالدهم، حتى قتل وقتل معه سبعون رجلاً من القراء، فيهم نفر من أصحاب علي بن أبي طالب، ونفر من أصحاب ابن مسعود. وبلغ الخبر المهلب - وجعفر ابن عبد الرحمن بن مخنف عند المهلب - فجاءهم مغيثاً فقاتل حتى ارتث، ووجه المهلب إليهم ابنه حبيباً، فكشفهم، ثم جاء المهلب حتى صلى على عبد الرحمن بن مخنف وأصحابه، وصار جنده في جند المهلب، فضمهم إلى ابنه حبيب، فغيرهم البصريون، وسموا جعفرأ خضفة الجمل، وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف:

وجئت تسعى إلينا خضفة الجمل

تركت أصحابكم تدمي نحورهم

فلام المهلب أهل البصرة، وقال: بئسما قلتهم، والله ما فروا ولا جبنوا؛ ولكنهم خالفوا أميرهم؛ أفلا تذكرون فراركم بدولاب عني، وفراركم بدارس عن عثمان! ووجه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلب يستحثه في مناجزة القوم، وكتب إليه: إنك تحب بقاءهم لتأكل بهم، فقال المهلب لأصحابه: حركوهم، فخرج فرسان من أصحابه، فخرج إليهم من الخوارج جمع كثير، فاقتتلوا إلى الليل: فقال لهم الخوارج: ويلكم! أما تملون! فقالوا: لا، حتى تملوا، فقالوا: فمن أنتم؟ قالوا: تميم، فقالت الخوارج: ونحن تميم أيضاً، فما أمسوا افترقوا، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلب، وخرج إليهم من الخوارج عشرة، واحتفر كل واحد منهم حفيرة، وأثبت قدميه فيها، كلما قتل رجل جاء رجل من أصحابه فاجتره وقام مكانه حتى أعتموا، فقال لهم الخوارج: ارجعوا، فقالوا: بل ارجعوا أنتم، قالوا لهم: ويلكم من أنتم! قالوا: تميم، قالوا: ونحن تميم أيضاً. فرجع البراء بن قبيصة إلى الحجاج فقال له: مهيم؟ قال: رأيت أيها الأمير قوماً لا يعين عليه إلا الله.

وكتب المهلب جواب الحجاج: إني منتظر بهم إحدى ثلاث: موتاً ذريعاً، أو جوعاً مضراً، أو اختلافاً من أهوائهم. وكان المهلب لا يتكل في الحراسة على أحد، كان يتولى ذلك بنفسه، ويستعين عليه بولده، ومن يحل محلهم في الثقة عنده، قال أبو حرملة العبدي يهجو المهلب، وكان في عسكره:

أما تتدى يمينك للفقير!

عدمته يا مهلب من أمير

وطرت على مواشكة درور

بدولاب أضعت دماء قومي

فقال له المهلب: ويحك! والله إني لأقيكم بنفسي وولدي، قال: جعلني الله فداء الأمير! فذاك الذي نكره منك، ما كلنا يحب الموت. قال: ويحك! وهل عنه من محيص! فقال: لا، ولكننا نكره التعجيل؛ وأنت تقدم عليه إقداماً، قال المهلب: ويلك أما سمعت قول الكلحبة اليربوعي:

نزلنا الكتيب من زرود لنفزعاً

فقلت لكأس الجميعها فإنما

فقال: بلى، قد سمعت، ولكن قولي أحب إلي منه:

إلى مهجتي وليت أعداءكم ظهري

ولما وقفت غدوة وعدوكم

يسلقي المنايا بالردينية السمر

وطرت ولم أحفل ملامة جاهل

فقال المهلب: بئس حشو الكتيبة أنت والله يا أبا حرملة! إن شئت أذنت لك فانصرفت إلى أهلك. قال: بل أقيم معك أيها الأمير، فوهب له المهلب وأعطاه، فقال يمدحه:

جلاد القوم في أولى النفير

يرى حتماً عليه أبو سعيد

مشى في رفل محكمة القتيير

إذا نادى الشراة أبا سعيد

قال: وكان المهلب يقول: ما يسرني أن في عسكري ألف شجاع مكان بيهس بن صهيب، فيقال له: أيها الأمير، بيهس ليس بشجاع، فيقول: أجل، ولكنه سديد الرأي، محكم العقل، وذو الرأي حذر سؤول، فأنا آمن أن يغتفل، ولو كان

مكانه ألف شجاع لخلت أنهم ينشامون حيث يحتاج إليهم.

قال: ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور، وبين المهلب وبين الشراة عقبة، فقال المهلب: من يكفينا أمر هذه العقبة الليلة؟ فلم يقم أحد، فلبس المهلب سلاحه، وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرة، فقال رجل من أصحابه: دعانا الأمير إلى ضبط العقبة، والحظ في ذلك لنا، فلم نطعه، ولبس سلاحه واتبعه جماعة من العسكر، فصاروا إليه، فإذا المهلب والمغيرة ولا ثالث لهما، فقالوا: انصرف أيها الأمير، فنحن نكفيك إن شاء الله، فلما أصبحوا إذا هم بالشراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عمان على فرس، فجعل يحمل وفرسه تزلق، ويلقاه مدرك في جماعة معه، حتى ردوهم عن العقبة. فلما كان يوم النحر والمهلب على المنبر يخطب الناس، إذ الشراة قد أكبوا، فقال المهلب: سبحان الله! أفي مثل هذا اليوم! يا مغيرة اكفنيهم؟ فخرج إليهم المغيرة، وأمامه سعد بن نجد القردوسي وكان سعد مقدماً في شجاعته، وكان الحجاج إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبته قال له: لو كنت سعد بن نجد القردوسي ما عدا! فخرج أمام المغيرة، ومع المغيرة جماعة من فرسان المهلب، فالتقوا، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح، مديد القامة، كرية الوجه، شديد الحملة، صحيح الفروسية، فأقبل يحمل على الناس، ويرتجز فيقول:

نحن صبحناكم غداة النحر

بالخيل أمثال الوشيح تجري

فخرج إليه سعد بن نجد القردوسي، من الأزد، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله، والتقى الناس، فصرع المغيرة يومئذ، فحامى عليه سعد بن نجد ودينار السجستاني وجماعة من الفرسان، حتى ركب وانكشف الناس عند سقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب، فقالوا: قتل المغيرة، فأتاه دينار السجستاني، فأخبره بسلامته، فأعتق كل مملوك كان بحضرته. قال: ووجه الحجاج الجراح بن عبد الله إلى المهلب يستبطنه في مناخزة القوم، وكتب إليه: أما بعد، فإنك جبيت الخراج بالعلل، وتحصنت بالخنادق، وطاولت القوم وأنت أعز ناصراً، وأكثر عدداً، وما أظن بك مع هذا معصية ولا جبناً، ولكن اتخذهم أكلاً، وكان بقاؤهم أيسر عليك من قتالهم، فناجزهم وإلا أنكرتني، والسلام. فقال المهلب للجراح: يا أبا عقبة، والله ما تركت حيلة إلا احتلتها، ولا مكيدة إلا أعملتها؛ وما العجب من إبطاء النصره وتراخي الظفر، ولكن العجب أن يكون الرأي لمن دون من يبصره.

ثم ناهضه ثلاثة أيام، يغاديهم القتال، فلا يزالون كذلك إلى العصر، وينصرف أصحابه وبهم قرح، وبالخوارج قرح وقتل. فقال له الجراح: قد أعذرت، فكتب المهلب إلى الحجاج: أتاني كتابك تستبطني في لقاء القوم، على أنك لا تظن بي معصية ولا جبناً، وقد عاتبتني معاتبة الجبان، وأوعدتني وعيد العاصي؛ فسل الجراح. والسلام.

فقال الحجاج للجراح: كيف رأيت أحاك؟ قال: والله أيها الأمير، ما رأيت مثله قط، ولا ظننت أن أحداً يبقى على مثل ما هو عليه، ولقد شهدت أصحابه أياماً ثلاثة يغدون إلى الحرب، ثم ينصرفون عنها، وهم يتطاعنون بالرماح، ويتجالدون بالسيوف؛ ويتخابطون بالعمد، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً، رواح قوم تلك عادتهم وتجارتهم، فقال الحجاج: لشد ما مدحته أبا عقبة! فقال: الحق أولى.

وكانت ركب الناس قديماً من الخشب، فكان الرجل يضرب ركابه فينقطع، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد؛ فأمر المهلب بضرب الركب من الحديد؛ فهو أول من أمر بطبعها؛ وفي ذلك يقول عمران بن عصام العتري:

وضربت للحدثان والحرب

كمناكب الجمالة الجرب

ضربوا الدراهم في إمارتهم

حلقاً ترى منها مرافقهم

قال: وكتب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحي؛ من بني رياح بن يربوع - وهو والي أصفهان - يأمره بالمسير إلى المهلب، وأن يضم إليه جند عبد الرحمن بن مخنف، فكل بلد يدخلانه من فتوح أهل البصرة فالمهلب أمير الجماعة فيه، وأنت على أهل الكوفة، فإذا دخلتم بلداً فتحه أهل الكوفة فأنت أمير الجماعة، والمهلب على أهل البصرة. فقدم عتاب في إحدى جماديين من سنة ست وسبعين على المهلب، وهو بسابور - وهي من فتوح أهل البصرة - فكان المهلب أمير الناس وعتاب على أصحاب ابن مخنف، والخوارج بأيديهم كerman، وهم بإزاء المهلب بفارس، يحاربونه من جميع النواحي.

قال: ووجه الحجاج إلى المهلب رجلين يستحثانه لمناجزة القوم: أحدهما يقال له زياد بن عبد الرحمن، من بني عامر بن صعصعة، والآخر من آل أبي عقيل من رهط الحجاج، فضم المهلب زياداً إلى ابنه حبيب، وضم الثقفي إلى ابنه يزيد، وقال لهما: خذا يزيد وحبيباً بالمناجزة، وغادوا الخوارج. فاقتتلوا أشد قتال؛ فقتل زياد بن عبد الرحمن العامري، وفقد الثقفي. ثم باكروهم في اليوم الثاني؛ وقد وجد الثقفي، فدعا به المهلب، ودعا بالغداء، فجعل النبل يقع قريباً منهم ويتجاوزهم، والثقفي يعجب من أمر المهلب؛ فقال الصلتان العبدى:

وقبل اختراط القوم مثل العقائق

يخوض المنايا في ظلال الخوافق

وهاج عجاج النقع فوق المفارق

زياداً أطلحته رماح الأزارق!

ألا يا اصبحاني قبل عوق العوائق

غداة حبيب في الحديد يقودنا

حرون إذا ما الحرب طار شرارها

فمن مبلغ الحجاج أن أمينه

فلم يزل عتاب بن ورقاء مع المهلب ثمانية أشهر حتى ظهر شبيب بن يزيد، فكتب الحجاج إلى عتاب يأمره بالمصير إليه ليوجهه إلى شبيب، وكتب إلى المهلب يأمره أن يرزق الجند، فرزق أهل البصرة، وأبى أن يرزق أهل الكوفة، فقال له عتاب: ما أن يبارح حتى ترزق أهل الكوفة، فأبى، فجرت بينهما غلظة، فقال له عتاب: قد كان يبلغني أنك شجاع، فرأيتك جباناً، وكان يبلغني أنك جواد، فرأيتك بخيلاً. فقال له المهلب: يابن اللخناء؛ فقال له عتاب: لكنك معم مخول! فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف، ووثب نعيم بن هبيرة، ابن أخي مصقلة بن هبيرة على عتاب فشتمه، وقد كان المهلب كارهاً للحلف، فلما رأى نصرة بكر بن وائل له سره، واعتبط به، فلم يزل يؤكده، وغضبت تميم البصرة لعتاب، وغضبت أزد الكوفة للمهلب؛ فلما رأى ذلك المغيرة مشى بين أبيه وبين عتاب؛ وقال لعتاب: يا أبا ورقاء، إن الأمير يصير إلى كل ما تحب، وسأل أباه أن يرزق أهل الكوفة، ففعل فصلح الأمر، فكانت تميم قاطبة وعتاب بن ورقاء يحمدون

المغيرة بن المهلب، وكان عتاب يقول: إني لأعرف فضله على أبيه.

وقال رجل من الأزدي، من بني إباد بن سود:

ألا أبلغ أبا ورقاء عنا

فلولا أننا كنا غضابا

على الشيخ المهلب إذ جفانا

للاقت خيلكم خيلكم منا ضرابا

قال: وكان المهلب يقول لبنيه: لا تبدأوا الخوارج بقتال حتى يبدأوكم، ويغوا عليكم، فإنهم إذا بغوا عليكم نصرتم عليهم. فشخص عتاب إلى الحجاج في سنة سبع وسبعين، فوجهه إلى شبيب فقتله شبيب.

وأقام المهلب على حربهم، فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهراً اختلفوا واختلفت كلمتهم. وكان سبب اختلافهم أن رجلاً حداداً من الأزارقة، كان يعمل نصالاً مسمومة، فيرمي بها أصحاب المهلب، فرفع ذلك إلى المهلب، فقال: أنا أكفيكموه إن شاء الله، فوجه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطري، فقال له: ألق هذا الكتاب في العسكر والدراهم، واحذر على نفسك - وكان الحداد يقال له أبزى - فمضى الرجل. وكان في الكتاب: أما بعد، فإن نصالك قد وصلت إلي، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال.

فوقع الكتاب إلى قطري، فدعا بأبزي، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أدري، قال: فما هذه الدراهم؟ قال: لا أعلم، فأمر به فقتل. فجاءه عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة، فقال له: أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تبين! قال قطري: فما حال هذه الألف؟ قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً، ويجوز أن يكون حقاً، فقال قطري: إن قتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً؛ وليس للرعية أن تعترض عليه. فتنكر له عبد ربه في جماعة معه، ولم يفارقوه. وبلغ ذلك المهلب فدرس إليهم رجلاً نصرانياً وجعل له جعلاً يرغب في مثله، وقال له: إذا رأيت قطرياً فاسجد له؛ فإذا هناك فقل: إنما سجدت لك؛ ففعل ذلك النصراني؛ فقال قطري: إنما السجود لله تعالى؛ فقال ما سجدت إلا لك، فقال رجل من الخوارج: إنه قد عبدك من دون الله، وتلا: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون"؛ فقال قطري: إن النصراني قد عبدوا عيسى بن مريم؛ فما ضر عيسى ذلك شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله؛ فأنكر قطري ذلك عليه، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره.

وبلغ المهلب ذلك، فوجه إليهم رجلاً يسألهم، فأتاهم الرجل، فقال: رأيتم رجلاً خرجاً مهاجرين إليكم، فمات أحدهما في الطريق، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يجز الحنة، ما تقولون فيهما؟ فقال بعضهم: أما الميت فمؤمن من أهل الجنة، وأما الذي لم يجز فكافر حتى يجيز الحنة.

وقال قوم آخرون: بل هما كافران حتى يجيز الحنة؛ فكثر الاختلاف.

وخرج قطري إلى حدود إصطخر؛ فأقام شهراً، والقوم في اختلافهم. ثم أقبل فقال لهم صالح ابن مخراق: يا قوم، إنكم أقررتم عين عدوكم، وأطمعتموه فيكم بما يظهر من خلافتكم، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة.

وخرج عمر القنا - وهو من بني سعد بن زيد مناة بن تميم - فنأدى: يا أيها المحلون ؛ هل لكم في الطراد فقد طال عهدي به! ثم قال:

ألم تر أنا مذ ثلاثين ليلةً

جديب وأعداء الكتاب على خفض

فتهايج القوم، وأسرع بعضهم إلى بعض، وكانت الوقعة؛ وأبلى يومئذ المغيرة بن المهلب، وصار في وسط الأزارقة، فجعلت الرماح تحطه وترفعه، واعتورت رأسه السيوف، وعليه ساعد حديد، فوضع يده على رأسه؛ فلم يعمل السيف فيه شيئاً، واستنقذه فرسان من الأزدي بعد أن صرع، وكان الذي صرعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل، وكان يقول يومئذ:

أنا ابن خير قومه هلال

شيخ على دين أبي بلال

وذاك ديني آخر الليالي

فقال رجل للمغيرة: كنا نعجب كيف تصرع، والآن نعجب كيف تنجو! وقال المهلب لبنيه: إن سرحكم لغار، ولست آمنهم عليه، أفوكلتم به أحداً؟ قالوا: لا، فلم يستتم الكلام حتى أتاه آت، فقال: إن صالح بن مخراق قد أغار على السرح، فشق على المهلب، وقال: كل أمر لا أليه بنفسه فهو ضائع، وتذمر عليهم؛ فقال له بشر بن المغيرة: أرح نفسك؛ فإن كنت إنما تريد مثلك فوالله ما يعدل خيرنا شسع نعلك، فقال: خذوا عليهم الطريق، فبادر بشر بن المغيرة، ومدرّك والمفضل ابنا المهلب، فسبق بشر إلى الطريق، فإذا رجل أسود من الأزارقة يشل السرح، وهو يقول:

نحن قمعناكم بشل السرح

وقد نكأنا القرح بعد القرح

ولحقه المفضل ومدرّك، فصاحا برجل من طيء: اكفنا الأسود؛ فاعتوره الطائي وبشر بن المغيرة فقتلاه، وأسرا رجلاً من الأزارقة من همدان، واستردا السرح.

قال: وكان عياش الكندي شجاعاً بئيساً، فأبلى يومئذ؛ فلما مات على فراشه بعد ذلك، قال المهلب: لا وألت نفس الجبان بعد عياش! وقال المهلب: ما رأيت تالله كهؤلاء القوم، كلما انتقص منهم يزيد فيهم! ووجه الحجاج رجلين إلى المهلب يستحثانه بالقتال: أحدهما من كلب، والآخر من سليم، فقال المهلب متمثلاً بشعر لأوس بن حجر:

ومستعجب مما يرى من أناتنا

ولو زبنته الحرب لم يترمرم

فقال المهلب ليزيد ابنه: حرك القوم، فحركهم فتهايجوا؛ وذلك في قرية من قرى إصطخر؛ فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب وطعنه، فشك فحذه بالسرج، فقال المهلب للسلمي والكلبي: كيف يقاتل قوم هذا طعنهم! وحمل يزيد عليهم؛ وقد جاء الرقاد - وهو من فرسان المهلب - وهو أحد بني مالك بن ربيعة، على فرس له أدهم، وبه نيف وعشرون جراحة، وقد وضع عليها القطن، فلما حمل يزيد ولى الجمع، وحماهم فارسان منهم؛ فقال يزيد لقيس الحشني، مولى العتيك: من هذين؟ قال: أنا، فحمل عليهما، فعطف عليه أحدهما فطعنه قيس فصرعه، وحمل عليه الآخر فتعانقا، فسقطا جميعاً إلى الأرض، فصاح قيس الحشني: اقتلونا جميعاً، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء، فحجزوا بينهما،

فإذا معانق قيس امرأة، فقام قيس مستحيماً، فقال له يزيد: يا أبا بشر، أما أنت فبارزتها على أهما رجل، فقال: أرأيت لو قتلت، أما كان يقال: قتلته امرأة! وأبلى يومئذ ابن المنجب السدوسي، فقال غلام له يقال له خلاج: والله لوددنا أنا فضضنا عسكرهم حتى نصير إلى مستقرهم، فأستلب مما هناك جاريتين. فقال له مولاه ابن المنجب: وكيف تمنيت ويحك اثنتين! فقال: لأعطيك إحداها وأخذ الأخرى، فقال ابن المنجب:

أخلاج إنك لن تعانق طفلةً
حتى تلاقى في الكتبية معلماً
وترى المقعطر في الفوارس مقدماً
أو أن يعلمك المهلب غزوه
شرقاً بها الجادي كالتمثال
عمرو القنا وعبيدة بن هلال
في عصابة نشطوا على الضلال
وترى جبلاً قد دنت لجبال

قال: وكان بدر بن الهذيل من أصحاب المهلب شجاعاً، وكان لحانة؛ كان إذا أحس بالخوارج ينادي: يا خيل الله اركبي؛ وإليه يشير القائل:

وإذا طلبت إلى المهلب حاجةً
العبد كردس وبدر مثله
عرضت توابع دونه وعبيد
وعلاج باب الأحمرين شديد

قال: وكان بشر بن المغيرة بن أبي صفرة أبلى يومئذ بلاءً حسناً مكانه فيه؛ وكانت بينه وبين المهلب جفوة، فقال لبنيه: يا بني عم، إني قد قصرت عن شكاة العاتب؛ وجاوزت شكاة المستعتب؛ حتى كأني لا موصول ولا محروم؛ فاجعلوا لي فرجة أعيش بها، وهبوني امرأً رجوت نصره، أو خفتم لسانه. فرجعوا له ووصلوه، وكلموا فيه المهلب، فوصله. وولى الحجاج كردماً فارس، ووجهه إليها والحرب قائمة، فقال رجل من أصحاب المهلب:

ولو رآها كردم لكردما
كردمة العير أحس الضيغما

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن إصطخر ودارا بمجرد لأرزاق الجند. ففعل. وقد كان قطري هدم مدينة إصطخر، لأن أهلها كانوا يكتبون المهلب بأخباره؛ وأراد مثل ذلك بمدينة فسا، فاشتراها منه آراذ مرد بن الهربذ بمائة ألف درهم فلم يهدمها. فواقعه وجه المهلب فهزمه. فنفاه إلى كرمان، وأتبعه المغيرة ابنه؛ وقد كان دفع إليه سيفاً وجه به الحجاج إلى المهلب، وأقسم عليه أن يتقلده، فدفعه إلى المغيرة بعدما تقلده، فرجع به المغيرة إليه وقد دماه، فسر المهلب، وقال: ما يسرني أن يكون كنت دفعته إلى غيرك من ولدي؛ وقال له: اكفني جباية خراج هاتين الكورتين، وضم إليه الرقاد، فجعلنا يجبيان، ولا يعطيان الجند شيئاً، ففي ذلك يقول رجل من بني تميم في كلمة له:

ولو علم ابن يوسف ما نلاقي
لفاضت عينه جزعاً علينا
ألا قل للأمير جزييت خيراً
فما رزق الجنود بهم قفيزاً
من الآفات والكرب الشداد
وأصلح ما استطاع من الفساد
أرحنا من مغيرة والرقاد
وقد ساست مطامير الحصاد

أي وقع فيها السوس.

قال: ثم حاربه المهلب بالسيرجان حتى نفاهم عنها إلى جيرفت واتبعهم ونزل قريباً منهم.

ثم اختلفت كلمة الخوارج، وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اتهم بامرأة رجل نجار، رأوه يدخل مراراً إليها بغير إذن، فأثنى قطرياً فذكروا ذلك له، فقال لهم: إن عبيدة من الدين بحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم، فقالوا: إنا لا نقار على الفاحشة، فقال: انصرفوا، ثم بعث إلى عبيدة، فأخبره، وقال له: أنا لا أقار على الفاحشة، فقال: بهتوني يا أمير المؤمنين فما ترى؟ قال: إني جامع بينك وبينهم، فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البري؛ فجمع بينهم، فتكلموا، فقام عبيدة، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، "إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم" ... حتى تلا الآيات، فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه، وقالوا: استغفر لنا. ففعل، فقال عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة: والله لقد خدعكم، فتابع عبد ربه منهم ناس كثير؛ ولم يظهروا، ولم يجدوا على عبيدة في إقامة الحد ثباً.

وكان قطري قد استعمل رجلاً من الدهاقين، فظهرت له أموال كثيرة، فأثوا قطرياً؛ فقالوا: إن عمر بن الخطاب يقار عماله على مثل هذا؛ فقال قطري: إني استعملته، وله ضياع وتجارات، فأوغر ذلك صدورهم؛ وبلغ المهلب ذلك، فقال: اختلافهم أشد عليهم مني، ثم قالوا لقطري: ألا تخرج بنا إلى عدونا؟ فقال: لا، ثم خرج فقالوا: قد كذب وارتد، فاتبعوه يوماً، فأحس بالشر، ودخل داراً مع جماعة من أصحابه، فاجتمعوا عليه وصاحوا: اخرج إلينا يا دابة؛ فخرج إليهم، فقال: أرجعتم بعدي كفاراً! قالوا: أو لست دابة! قال الله تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها"؛ ولكنك قد كفرت بقولك: إنا قد رجعنا كفاراً، فتب إلى الله. فشاور عبيدة في ذلك، فقال له: إن تبتم لم يقبلوا منك، فقل: إني استفهمت فقلت: أرجعتم بعدي كفاراً؟ فقال لهم ذلك، فقبلوا منه، فرجع إلى منزله.

عبد ربه الصغير

ومنهم عبد ربه الصغير، أحد مولى قيس بن ثعلبة.

لما اختلف الخوارج على قطري بايعه منهم جمع كثير، وكان قطري قد عزم على أن يبايع للمقطر العبدى، ويخلع نفسه، فجعله أمير الجيش في الحرب قبل أن يعهد إليه بالخلافة، فكرهه القوم وأبوه، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه: ابغ لنا غير المقطر، فقال لهم قطري: إني أرى طول العهد قد غيركم، وأنتم بصدد عدو، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم، واستعدوا للقاء القوم؛ فقال صالح: إن الناس قبلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزل سعيد بن العاصي عنهم ففعل. ويجب على الإمام أن يعفي الرعية مما كرهت. فأبى قطري أن يعزل المقطر، فقال له القوم: إنا قد خلعتناك وبايعنا عبد ربه الصغير - وكان عبد ربه هذا معلّم كتاب، وكان عبد ربه الكبير بائع رمان، وكلاهما من موالي فيس بن ثعلبة - فانفصل إلى عبد ربه الصغير أكثر من شطرهم؛ وجلهم الموالي والعجم، وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القراء، ثم ندم صالح بن مخراق، وقال لقطري: هذه نفخة من نفخات الشيطان فأعفنا من المقطر، وسر بنا إلى عدونا وعدوك، فأبى قطري إلا المقطر، وحمل فتى من الشراة على صالح بن مخراق، فطعنه فأنفذه، وأوجره الرمح.

فنشبت الحرب بينهم، فتهايجوا. ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم، فلما كان الغد اجتمعوا، فاقتتلوا، فأجلت الحرب عن ألفي قتيل، فلما كان الغد عاودوا الحرب، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العرب عن المدينة، فأقام عبد ربه بها، وصار قطري خارجاً من مدينة جيرفت بإزائهم، فقال له عبيدة بن هلال: يا أمير المؤمنين، إن أقمت لم آمن هذه العبيد عليك؛ إلا أن تخندق على نفسك، فخندق على باب المدينة وجعل يناوشهم، وارتحل المهلب، وكان منهم على ليلة، ورسول الحجاج معه يستحثه، فقال له: أصلح الله الأمير! عاجلهم قبل أن يصطلحوا، فقال المهلب: إنهم لن يصطلحوا؛ ولكن دعهم فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفلحون معها، ثم دس رجلاً من أصحابه، فقال: اتت عسكر قطري، فقل: إني لم أزل أرى قطرياً يصيب الرأي؛ حتى نزل منزله هذا، فظهر خطؤه، أقيم بين المهلب وعبد ربه، يغاديه القتال هذا، ويرأوحه هذا! فمني الكلام إلى قطري، فقال: تنحوا بنا عن هذا الموضع، فإن اتبعنا المهلب قاتلناه، وإن أقام على عبد ربه رأيت فيه ما تحبون.

فقال له الصلت بن مرة: يا أمير المؤمنين، إن كنت إنما تريد فأقدم على القوم، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا، ثم قال:

قل للمحليين قد قرت عيونكم
كنت أناساً على دينٍ فغيرنا
ما كان أغنى رجالاً قل جيشهم
إني لأهونكم في الأرض مضطرباً
بفرقة القوم والبغضاء والهرب
طول الجدل وخط الجد باللعب
عن الجدل وأغناهم عن الخطب
مالي سوى فرسي والرمح من نشب

ثم قال: أصبح المهلب يرجو منا ما كنا نطمع منه فيه.

وارتحل قطري، وبلغ ذلك المهلب، فقال لهزيم بن أبي طحمة الجاشعي: إني لا آمن أن يكون كاذباً بترك موضعه، اذهب فتعرف الخبر، فمضى الهزيم في اثني عشر فارساً، فلم ير في المعسكر إلا عبداً وعلجاً مريضين، فسألهما عن قطري وأصحابه، فقالا: مضوا يرتادون غير هذا المنزل، فرجع هزيم إلى المهلب، فأخبره، فارتحل حتى نزل خندق قطري، فجعل يقاتل عبد ربه أحياناً بالغداة، وأحياناً بالعشي، فقال رجل من سدوس يقال له المعتق، وكان فارساً:

ليت الحرائر بالعراق شهدنا
فنكحن أهل الجد من فرساننا
ورأينا بالسفح ذي الأجيال
والضاربين جماجم الأبطال

ووجه المهلب يزيد ابنه إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قطري، وأنه مقيم على عبد ربه، ويسأله أن يوجه في أثر قطري رجلاً جلدأ. فسر بذلك الحجاج سروراً أظهره. ثم كتب إلى المهلب يستحثه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب: أما بعد؛ فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رسلي فيرجعون بعذر، وذلك أنك تمسك حتى تبرأ الجراح، وتنسى القتلى، وتحمل الكال ثم تلقاهم، فتحمل منهم ثقل ما يحتملون منك من وحشة القتل، وألم الجراح، ولو كنت تلقاهم بذلك الجدل لكان الداء قد حسم، والقرن قد قصم، ولعمري ما أنت والقوم سواء، لأن من ورائك رجالاً، وأمامك أموالاً، وليس للقوم إلا ما نعهد، ولا يدرك الوجيف بالديب، ولا الظفر بالتعذير.

فلما ورد عليه الكتاب، قال لأصحابه: يا قوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعة: قطري بن الفجاءة، وصالح بن مخراق، وعبيدة بن هلال، وسعد بن الطلائع، وإنما بين أيديكم عبد ربه الصغير في خشار من خشار الشيطان، تقتلونهم إن شاء الله تعالى.

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحن، فتصيبهم الجراح، ثم يتحاجزون؛ فكأنما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدثون فيه؛ يضحك بعضهم إلى بعض، فقال عبيد بن موهب للمهلب: قد بان عذرك، فاكتب فيني مخبر الأمير. فكتب إلى الحجاج: أما بعد؛ فيني لم أعط رسلك على قول الحق أجراً، ولم أحتج منهم عن المشاهدة إلى تلقين. ذكرت أني أجم القوم؛ ولا بد من وقت راحة يستريح فيه الغالب، ويحتال فيه المغلوب. وذكرت أن في الحمام ما ينسي القتل، وتبرأ منه الجراح، وهيهات أن ينسى ما بيننا وبينهم! تأبى ذلك قتلى لم تجن، وقروح لم تتقرف، ونحن والقوم على حالة، وهم يرقبون منا حالات، إن طمعوا حاربوا، وإن ملوا وقفوا، وإن يئسوا انصرفوا. وعلمنا أن نقاتلهم إذا قاتلوا، ونتحرز إذا وقفوا، ونطلب إذا هربوا، فإن تركتني والرأي، كان القرن مقصوماً، والداء بإذن الله محسوماً، وإن أعجلتني لم أبعك ولم أعصك، وجعلت وجهي إلى بابك، وأعوذ بالله من سخط الله ومقت الناس.

قال: ولما اشتد الحصار على عبد ربه، قال لأصحابه: لا تفتقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال؛ فإن المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره، والمسلم إذا صح توحيد عزمه عز بره، وقد أراحكم الله من غلظة قطري، وعجلة صالح بن مخراق ونخوته، واختلاط عبيدة بن هلال، ووكلكم إلى بصائرهم، فalcقوا عدوكم بصبر ونية، وانتقلوا عن منزلكم هذا، فمن قتل شهيداً، ومن سلم من القتل فهو المحروم.

قال: وورد في ذلك الوقت على المهلب بن عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت الثقفي من عند الحجاج، يستحثه بالقتال، ومعه أمينان، فقال المهلب: خالفت وصية الأمير، وآثرت المدافعة والمطاوله. فقال له المهلب: والله ما تركت جهداً. فلما كان العشي خرجت الأزارقة، وقد حملوا حريمهم وأموالهم، وخف متاعهم لينتقلوا؛ فقال المهلب لأصحابه: الزموا مصافكم، وأشرعوا رماحكم، ودعوهم والذهاب؛ فقال له عبيدة بن أبي ربيعة: هذا لعمري أيسر عليك. فغضب وقال للناس: ردوهم عن وجههم، وقال لبنيه: تفرقوا في الناس؛ وقال لعبيدة بن أبي ربيعة: كن مع يزيد، فخذ به بالحاربة أشد الأخذ؛ وقال لأحد الأمينين: كن مع المغيرة، ولا ترخص له في الفتور.

فاقتتلوا قتلاً شديداً، حتى عقرت الخيل، وصرع الفرسان، وقتلت الرجال؛ وجعلت الخوارج تقاتل عن القدح يؤخذ منها، والسوط والعلف والحشيش أشد قتال. وسقط رمح لرجل من مراد، من الخوارج، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل؛ وذلك مع المغرب، والمرادي يرتجز، ويقول:

قد سال بالقوم الشراة السيل

الليل ليل فيه ويل ويل

إن جاز للإعداء فينا قول

فلما عظم الخطب في ذلك الرمح بعث المهلب إلى المغيرة: حل لهم عن الرمح؛ عليهم لعنة الله! فخلوا لهم عنه، ومضت الخوارج فترلت على أربعة فراسخ من جيرفت، فدخلها المهلب، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع، وما خلفوه من دقيق، وجثم عليه هو والثقفي والأمينان، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلوا على ماء وعين لا يشرب منها أحد إلا قوي، يأتي الرجل بالذلو قد شدها في طرف رمحه فيستقي بها، وهناك قرية فيها أهلها، فغاداهم القتال، وضم الثقفي إلى ابن يزيد، وأحد الأميين إلى المغيرة، فاقتتل القوم إلى نصف النهار.

وقال المهلب لأبي علقمة العبدى - وكان شجاعاً، وكان عاتياً هازلاً - : امددنا يا أبا علقمة بخيل اليحمد، وقل لهم: فليعيرونا جماعهم ساعة؛ فقال: أيها الأمير، إن جماعهم ليست بفخار فتعار، ولا أعناقهم كرادي فتنبت. وقال الحبيب بن أوس: كر على القوم، فلم يفعل، وقال:

يقول لي الأمير بغير علمٍ

تقدم حين جد به المراس

فمالي إن أطعتك من حياةٍ

ومالي غير هذا الرأس راس

وقال لمعن بن المغيرة بن أبي صفرة: احمل، فقال: لا، إلا أن تزوجني ابنتك أم مالك، فقال: قد زوجتك، فحمل على الخوارج فكشفهم، وطعن فيهم، وقال:

ليت من يشتري الحياة مبالٍ

ملكةً كان عندنا فيرانا

نصل الكر عند ذاك بطعنٍ

إن للموت عندنا ألوانا

قوله: ملكة، أي تزويجاً ونكاحاً.

قال: ثم جال الناس جولةً عند حملة حملها عليهم الخوارج، فالتفت المهلب، فقال للمغيرة ابنه: ما فعل الأمين الذي كان معك؟ قال: قتل وهرب الثقفي، فقال ليزيد: ما فعل عبيدة بن أبي ربيعة؟ قال: لم أره منذ كانت الجولة، فقال الأمين الآخر للمغيرة: أنت قتلت صاحبي، فلما كان العشي رجع الثقفي، فقال رجل من بني عامر بن صعصعة:

ما زلت يا ثقفى تخطب بيننا

وتغنا بوصية الحجاج

حتى إذا ما الموت أقبل زائراً

وسقى لنا صرفاً بغير مزاج

وليت يا ثقفى غير مناظرٍ

تنساب بين أحزة وفجاج

ليست مقارعة الكماة لدى الوغى

شرب المدامة في إناء زجاج

فقال المهلب للأمين الآخر: ينبغي أن تتوجه مع ابني حبيب في ألف رجل؛ حتى تبيتوا عسكرهم، فقال: ما تريد أيها الأمير إلا أن تقتلني كما فعلت بصاحبي! فضحك المهلب، وقال: ذاك إليك. ولم يكن للقوم خنادق، فكان كل حذراً من صاحبه، غير أن الطعام والعدة مع المهلب، وهو في زهاء ثلاثين ألفاً، فلما أصبح أشرف على وادٍ فإذا هو برجلٍ معه رمح مكسور مخضوب بالدم، وهو ينشد:

وإني لأعفي ذا الخمار وصنعتي

إذا راح أطواء بني الأصاغر

أخادعهم عنه ليغيبق دونهم

وأعلم غير الظن إنني مغاور

كأنني وأبدان السلاح عشية

يمر بنا في بطن فيحان طائر

فقال له: أتميمي أنت؟ قال: نعم، قال: أحنظلي؟ قال: نعم، قال: أيربوعي؟ قال: نعم، قال: أومن آل نويرة؟ قال: نعم، أنا ولد مالك بن نويرة، قال: قد عرفتك بالشعر.

قال أبو العباس: وذو الخمار فرس مالك بن نويرة.

قال: فمكثوا أياماً يتحاربون ودواهم مسرجة، ولا خنادق لهم؛ حتى ضعف الفريقان، فلما كان الليلة التي قتل في صبيحتها عبد ربه، جمع أصحابه، فقال: يا معشر المهاجرين؛ إن قطرياً وعبدة هرباً طلباً للبقاء، ولا سبيل إلى البقاء، فالقوا عدوكم غداً، فإن غلبوكم على الحياة، فلا يغلبنكم عن الموت، فتلقوا الرماح بنحوركم، والسيوف بوجوهكم، وهبوا أنفسهم لله في الدنيا يهبها لكم في الآخرة.

فلما أصبحوا، غادوا المهلب، فاقتتلوا قتالاً شديداً أنسى ما كان قبله، وقال رجل من الأزد، من أصحاب المهلب: من يبايعني على الموت؟ فبايعه أربعون رجلاً من الأزد، فصرع بعضهم، وقتل بعضهم، وجرح بعضهم.

وقال عبد الله بن رزام الحارثي للمهلب: احموا، فقال المهلب: أعراي مجنون - وكان من أهل نجران - فحمل وحده، فاخترق القوم حتى خرج من ناحية أخرى، ثم كر ثانية ففعل فعلته الأولى، وهمايخ الناس، فترجلت الخوارج، وعقروا دواهم، فناداهم عمرو القنا - ولم يترجل هو ولا أصحابه وهم زهاء أربعمئة - فقال: موتوا على ظهور دوابكم كراماً، ولا تعقروها، فقالوا: إنا إذا كنا على الدواب ذكرنا الفرار، فاقتتلوا، ونادى المهلب بأصحابه: الأرض الأرض! وقال لبنينه: تفرقوا في الناس ليروا وجوهكم، ونادت الخوارج: ألا إن العيال لمن غلب؛ فصبر بنو المهلب؛ وقاتل يزيد بين يدي أبيه قتالاً شديداً، أبلى فيه، فقال له أبوه: يا بني، أني أرى موطناً لا ينجو فيه إلا من صبر، وما مر بي يوم مثل هذا منذ مارست الحروب.

وكسرت الخوارج أجفان سيوفها، وتجاوزوا، فأجلت حولتهم عن عبد ربه مقتولاً. فهرب عمرو القنا وأصحابه، واستأمن قوم، وأجلت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج ومأسور، وأمر المهلب أن يدفع كل جريح إلى عشيرته، وظفر بعسكرهم، فحوى ما فيه، ثم انصرف إلى جيرفت، فقال: الحمد لله الذي ردنا إلى الخفض والدعة، فما كان عيشنا ذلك العيش.

ثم نظر المهلب إلى قوم في عسكره ولم يعرفهم، فقال: ما أشد عادة السلاح! ناولني درعي، فلبسها، ثم قال: خذوا هؤلاء، فلما صيرهم إليه، قال: ما أنتم؟ قالوا: جئنا لنطلب غرتك للفتك بك. فأمر بهم فقتلوا.

المهلب وبنوه

ووجه كعب بن معدان الأشقري ومرة بن بليد الأزدي، فوردوا على الحجاج، فلما طلعا عليه، تقدم كعب فأنشده:

يا حفص إني عداني عنكم السفر

فقال الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: شاعر، فأنشده القصيدة؛ فأقبل عليه الحجاج، وقال: خبرني عن بني المهلب، قال: المغيرة سيدهم وفارسهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً! وجوادهم وسخيهم قبيصة، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك، وعبد الملك سم نافع، وحبيب موت ذعاف، ومحمد ليث غاب، وكفاك بالفضل نجدة! فقال له: فكيف خلفت جماعة الناس؟ قال: خلفتهم بخير، قد أدركوا ما أملوا، وأمّنوا ما خافوا، قال: فكيف كان بنو المهلب فيهم؟ قال: كانوا حماة السرح فإذا أليلوا ففرسان البيات، قال: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة، لا يدرى أين طرفاها، قال: فكيف كنتم أنتم وعدوكم؟ قال: كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم؛ وإذا اجتهدنا واجتهدوا طمعنا فيهم. قال الحجاج: إن العاقبة للمتقين، فكيف أفلتكم قطري؟ قال: كدناه وظن أن قد كادنا، بأن صرنا منه إلى التي نحب، قال: فهلا اتبعتموه؟ قال: كان حرب الحاضر أثر عندنا من اتباع الفل، قال: فكيف كان المهلب لكم وكنتم له؟ قال: كان لنا منه شفقة الوالد، وله منا بر الولد، قال: فكيف كان اغتباط الناس به؟ قال: نشأ فيهم الأمن، وشملهم النفل. قال: أكنت أعددت لي هذا الجواب؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: هكذا والله تكون الرجال! المهلب كان أعلم بذلك حيث بعثك. هذه رواية أبي العباس.

وروى أبو الفرج في الأغاني، أن كعباً لما أوفده المهلب إلى الحجاج أنشده قصيدته التي أولها:

يا حفص إني عداني عنكم السفر

وقد سهرت وأذى عيني السهر

يذكر فيها حروب المهلب مع الخوارج، ويصف وقائعه فيهم في بلد؛ وهي طويلة، ومن جملتها:

كنا نهون قبل اليوم شأنهم

حتى تفاقم أمر كان يحتقر

لما وهنا وقد حلوا بساحتنا

واستتفر الناس تارات فما نفروا

نادى امرؤ لا خلاف في عشيرته

عنه، وليس به عن مثله قصر

خبوا كمينهم بالسفح إذ نزلوا

بكازرون فما عزوا ولا نصروا

باتت كتابنا تردي مسومة

حول المهلب حتى نور القمر

هناك ولوا خزايا بعد ما هزموا

وحال دونهم الأنهار والجدر

تأبى علينا حزازات النفوس فما

ن بقي عليهم ولا يبقون إن قدروا

فضحك الحجاج، وقال: إنك لمنصف يا كعب، ثم قال له: كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم يئسنا منهم، وإذا لقيناهم بجندا وجدهم طمعنا فيهم. قال: فكيف كان بنو المهلب؟ قال: حماة الحرم نهاراً، وفرسان الليل تيقظاً؛ قال: فأين السماع من العيان؟ قال: السماع دون العيان، قال: صفهم لي رجلاً رجلاً. قال: المغيرة فارسهم وسيدهم، نار ذاكية، وصعدة عالية. وكفى بيزيد فارساً شجاعاً! ليث غاب، وبحر جم العباب. وجوادهم قبيصة، ليث المغار، وحامي الذمار؛ ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك؛ وكيف لا يفر من الموت الحاضر، والأسد

الخادر ! وعبد الملك سم نافع ، وسيف قاطع؛ وحبیب الموت الذعاف، طود شامخ، وبحر باذخ ؛ وأبو عيينة البطل
 الهمام، والسيف الحسام، وكفاك بالمفضل نجدة؛ ليث هدار وبحر موار ! ومحمد ليث غاب، وحسام ضراب. قال: فأیهم
 أفضل؟ قال: هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها؛ قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسن حال، أرضاهم العدل،
 وأغناهم النفل. قال: فكيف رضاهم بالمهلب؟ قال: أحسن رضا، لا يعدمون منه إشفاق الوالد، ولا يعدم منهم بر الولد.
 وذكر تمام الحديث.

وقال: إن الحجاج أمر له بعشرين ألف درهم، وحمله على فرس، وأوفده على عبد الملك؛ فأمر له بعشرين ألفاً أخرى.
 قال أبو الفرج: وكعب الأشقري من شعراء المهلب ومادحيه، وهو شاعر مجيد. قال عبد الملك ابن مروان للشعراء:
 تشبهوني مرةً بالأسد، ومرةً بالبازي، ألا قلت كما قال كعب الأشقري للمهلب وولده:

براك الله حين براك بحراً	وفجر منك أنهاراً غزارا
بنوك السابقون إلى المعالي	إذا ما أعظم الناس الخطارا
كأنهم نجوم حول بدرٍ	تكمل إذ تكمل فاستدارا
ملوك ينزلون بكل ثغرٍ	إذا ما الهام يوم الروع طارا
رزان في الخطوب ترى عليهم	من الشيخ الشمائل والنجارا
نجوم يهتدى بهم إذا ما	أخو الغمرات في الظلماء حارا

قال أبو الفرج: وهذا الشعر من قصيدة لكعب، يمدح بها المهلب؛ ويذكر الخوارج، ومنها:

سلوا أهل الأباطح من قریشٍ	عن المجد المؤتّل أين صارا
لقوم الأزد في الغمرات أمضى	وأوفى ذمةً وأعز جارا
هم قادوا على وجاها	من الأمصار يقذفن المهارا
إلى كرمان يحملن المنايا	بكل ثنيةٍ يوقدن نارا
شواذب ما أصبنا الثار حتى	رددناها مكلمةً مرارا
غداة تركن مصرع عبد ربٍ	نثرن عليه من رهجٍ غبارا
ويوم الزحف بالأهواز ظللنا	نروي منهم الأسل الحرارا
فقرت أعين كانت حزيناً	قليلاً نومها إلا غرارا
ولولا الشيخ بالمصريين ينفي	عدوهم لقد نزلوا الديارا
ولكن قارع الأبطال حتى	أصابوا الأمن واحتلوا القرارا
إذا وهنوا وحل بهم عظيم	يدق العظم كان لهم جبارا
ومبهمهٍ يحيد الناس عنها	تشب الموت شد لها إزارا

شهاب تتجلي الظلماء عنه

براك الله حين براك بحراً

يرى في كل مظلمة منارا

وفجر منك أنهاراً غزارا

الآيات المتقدمة.

قال أبو الفرج: وحدثني محمد بن خلف وكيع، بإسناد ذكره، أن الحجاج لما كتب إلى المهلب يأمره بمناجزة الخوارج حينئذ، ويستبطئه، ويضعفه ويعجزه من تأخيرهم أمرهم، ومطاولته لهم، قال المهلب لرسوله قل له: إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه، لا لمن يعرفه؛ فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم - على أن أدبرها كما رأى، فإذا أمكنتني فرصة انتهزتها، وإن لم تمكني توقفت - فأنا أدبر ذلك بما يصلحه؛ وإن أردت أن أعمل برأيك وأنا حاضر وأنت غائب - فإن كان صواباً فلك، وإن كان خطأ فعلي - فابعث من رأيت مكاني؛ وكتب من فوره بذلك إلى عبد الملك؛ فكتب عبد الملك إلى الحجاج: لا تعارض المهلب فيما يراه، ولا تعجله ودعه يدبر أمره.

قال: وقام كعب الأشقري إلى المهلب، فأنشده بحضرة رسول الحجاج:

خفض المقام بجانب الأمصار

ضاققت عليه رحبية الأقطار

مثل القداح بريتها بشفار

وقع الظبابة مع القنا الخطار

أزمان كان محالف الإقتار

وعليك كل غريرة معطار

إن ابن يوسف غره من أمركم

لو شاهد الصفين حيث تلاقيا

من أرض سابور الجنود وخیلنا

من كل صنديد يرى بلبانه

لرأى معاودة الرباع غنيمه

فدع الحروب لشبيبها وشبابها

فبلغت أبياته الحجاج، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقري إليه؛ فأعلم المهلب كعباً بذلك، وأوفده إلى عبد الملك من ليلته، وكتب إليه يستوهمه منه؛ فقدم كعب على عبد الملك برسالة المهلب، فاستنطقه فأعجبه، وأوفده إلى الحجاج؛ وكتب إليه يقسم عليه أن يصفح، ويعفو عما بلغه من شعره؛ فلما دخل قال: إيه يا كعب!

لرأى معاودة الرباع غنيمه

فقال: أيها الأمير، والله لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب، وما أوردناه المهلب من خطرهما، أن أنجو منها وأكون حجاجاً أو حاكماً، قال: أولى لك! لولا قسم أمير المؤمنين ما نفعتك ما تقول، الحق بصاحبك، وردته إلى المهلب. قال أبو العباس: وكان كتاب المهلب إلى الحجاج، الذي بشره فيه بالظفر والنصر: بسم الله الرحمن الرحيم؛ الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه، الحاكم بالآل ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من عبادته؛ أما بعد: فقد كان من أمرنا ما قد بلغك، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين، يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا، ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم، على اشتداد شوكتهم، فقد كان علا أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة، ونوم به الرضيع، فانتهزت الفرصة منهم في وقت إمكاتها؛ وأدنت السواد من السواد، حتى تعارفت الوجوه؛ فلم نزل كذلك حتى بلغ

الكتاب أجله، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

فكتب إليه الحجاج: أما بعد، فقد فعل الله بالمسلمين خيراً، وأراحهم من بأس الجلاذ، وثقل الجهاد، ولقد كنت أعلم بما قبلك، فالحمد لله رب العالمين؛ فإذا ورد عليك كتابي فاقسم في المجاهدين فيهم، ونفل الناس على قدر بلائهم، وفضل من رأيت تفضيله، وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلاً تقوم بإزائهم، واستعمل على كرمان من رأيت، وول الخيل شهماً من ولدك، ولا ترخص لأحد في اللحاق بمتزله دون أن تقدم بهم علي، وعجل القدوم إن شاء الله.

فولى المهلب يزيد ابنه كرمان، وقال له: يا بني، إنك اليوم لست كما كنت؛ إنما لك من كرمان ما فضل عن الحجاج، ولن تحتمل إلا على ما احتمل عليه أبوك، فأحسن إلى من تبعك؛ وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إلي، وتفضل على قومك، إن شاء الله.

ثم قدم المهلب على الحجاج، فأجلسه إلى جانبه، وأظهر بره وإكرامه؛ قال: يا أهل العراق، أنتم عبيد قن للمهلب؛ ثم قال: أنت والله كما قال لقيط :

رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

فقلدوا أمركم الله دركم

هم يكاد حشاه يقصم الضلعا

لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه

ولا إذا عض مكروه به خشعا

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده

يكون متبعاً طوراً ومتبعاً

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره

مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعا

حتى استمرت على شزرٍ مريرته

وروي أنه قام إليه رجل فقال: أصلح الله الأمير! والله لكأني أسمع الساعة قطرياً وهو يقول لأصحابه: المهلب والله كما قال لقيط الإيادي، ثم أنشد هذا الشعر. فسر الحجاج حتى امتلأ سروراً؛ فقال المهلب: أما والله ما كنا أشد من عدونا ولا أحد، ولكن دمع الحق الباطل، وقهرت الجماعة الفتنة، والعاقبة للمتقين، وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً لنا مما أحبيناه من المعاجلة.

فقال الحجاج: صدقت، اذكر لي القوم الذين أبلوا، وصف لي بلاءهم، فأمر الناس فكتبوا ذلك إلى الحجاج، فقال لهم المهلب: ما دخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله، فذكرهم المهلب على مراتبهم في البلاء، وتفاضلهم في الغناء، وقدم بنيه: المغيرة، ويزيد، ومدركا، وحبيباً، وقبيصة، والمفضل وعبد الملك، ومحمداً، وقال: والله لو واحد يقدمهم في البلاء لقدمته عليهم، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم. فقال الحجاج: صدقت، وما أنت أعلم بهم مني، وإن حضرت وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله. ثم ذكر معن بن المغيرة والرقاد وأشباههما.

فقال الحجاج: من الرقاد؟ فدخل رجل طويل أجناً، فقال المهلب: هذا فارس العرب، فقال الرقاد للحجاج: أيها الأمير، إني كنت أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس، فلما صرت مع من يلزمني الصبر، ويجعلني أسوة نفسه وولده، ويجازيني على البلاء، صرت أنا وأصحابي فرساناً.

فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم، وزاد ولد المهلب ألفين ألفين، وفعل بالرقاد وبجماعة شبيهاً بذلك، وقال يزيد بن حبناء من الأزارقة:

دعي اللوم إن العيش ليس بدائم
فإن عجلت منك الملامة فاسمعي
ولا تعذلينا في الهدية إنما
وليس بمهدٍ من يكون نهاره
يريد ثواب الله يوماً بطعنة
أبيت وسربالي دلاص حصينة
حلفت برب الواقفين عشية
لقد كان في القوم الذين لقيتهم
توقد في أيديهم زاعبية
وقال المغيرة الحنظلي من أصحاب المهلب:

إني امرؤ كفني ربي وأكرمني
وإنما أنا إنسان أعيش كما
ما عاقني عن قفول الجند إذ قفلوا
ولو أردت قفولاً ما تجهمني
إن المهلب إن اشتق لرؤيته
أنه الأريب الذي ترجى نوافله
والقائل الفاعل الميمون طائره
أزمان كرمان إذا غص الحديد بهم
وقال حبيب بن عوف من قواد المهلب:

أبا سعيد جزاك الله سالحة
داويت بالحلم أهل الجهل فانقمعوا
وقال عبدة بن هلال الخارجي يذكر رجلاً من أصحابه:
يهوي فترفعه الرماح كأنه
يهوي صريعاً والرماح تنوشه
فقد كفيت ولم تعنف على أحد
وكنت كالوالد الحاني على الولد
شلو تنشب في مخالِب ضار
إن الشراة قصيرة الأعمار

ومنهم شبيب بن يزيد الشيباني؛ وكان في ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرح؛ أحد الخوارج الصفرية؛ وكان ناسكاً مصفر الوجه، صاحب عبادة، وله أصحاب يقرئهم القرآن، ويفقههم ويقص عليهم؛ ويقدم الكوفة، فيقيم بها الشهر والشهرين. وكان بأرض الموصل والجزيرة، وكان إذا فرغ من التحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ذكر أبا بكر فأتى عليه، وثني بعمر، ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه؛ ثم علياً عليه السلام وتحكيمه الرجال في دين الله؛ ويتبرأ من عثمان وعلي، ثم يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال، وقال: تيسروا يا إخواني للخروج من دار الفناء إلى دار البقاء؛ واللحاق بإخواننا المؤمنين؛ الذين باعوا الدنيا بالآخرة، ولا تجزعوا من القتل في الله، فإن القتل أيسر من الموت، والموت نازل بكم؛ مفرق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم، وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم؛ وإن اشتد لذلك جزعكم؛ ألا فبيعوا أنفسكم طائعين وأموالكم؛ تدخلوا الجنة... وأشبه هذا من الكلام.

وكان فيمن يحضره من أهل الكوفة سويد والبطين؛ فقال يوماً لأصحابه: ماذا تنتظرون؟ ما يزيد أئمة الجور إلا عتواً وعلواً، وتباعداً من الحق، وجراءً على الرب، فراسلوا إخوانكم حتى يأتوكم؛ وننظر في أمورنا وما نحن صانعون. وأي وقت إن خرجنا نحن خارجون.

فبينما هو كذلك إذ أتاه المحلل بن وائل بكتاب من شبيب بن يزيد، وقد كتب إلى صالح: أما بعد؛ فقد أردت الشخص، وقد كنت دعوتي إلى أمرٍ أستجيب لك؛ فإن كان ذلك من شأنك، فإنك شيخ المسلمين، ولم يعدل بك منا أحد، وإن أردت تأخير ذلك أعلمني؛ فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمن أن تحترمني المنية، ولما أجاهد الظالمين؛ فيا له غبناً ويا له فضلاً! جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه ورضوانه والنظر إلى وجهه، ومرافقة الصالحين في دار السلام. والسلام عليك.

فأجابه صالح بجواب جميل؛ يقول فيه: إنه لم يمنعني من الخروج - مع ما أنا فيه من الاستعداد - إلا انتظارك؛ فاقدماً علينا، ثم أخرج بنا، فإنك ممن لا تقضى الأمور دونه؛ والسلام عليك.

فلما ورد كتابه على شبيب؛ دعا القراء من أصحابه؛ فجمعهم إليه؛ منهم أخوه مصاد بن يزيد، والمحلل بن وائل، والصقر بن حاتم، وإبراهيم بن حجر وجماع مثلهم؛ ثم خرج حتى قدم على صالح بن مسرح؛ وهو بدارات أرض الموصل؛ فبث صالح رسله، وواعدهم بالخروج؛ في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين.

فاجتمع بعضهم إلى بعض، واجتمعوا عند تلك الليلة؛ فحدث فروة بن لقيط؛ قال: إني لمعهم تلك الليلة عند صالح؛ وكان رأيي استعراض الناس لما رأيت من المكر والفساد في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، كيف ترى السيرة في هؤلاء الظلمة؛ أنقلتهم قبل الدعاء، أم ندعوهم قبل القتال؟ فإني أخبرك برأيي فيهم قبل أن تخبرني بذلك؛ إنا نخرج على قوم طاغين، قد تركوا أمر الله، أو راضين بذلك، فأرى أن نضع السيف؛ فقال: لا، بل ندعوهم؛ ولعمري لا يجيبك إلا من يرى رأيك؛ وليقاتلنك من يزري عليك، والدعاء أقطع لحجتهم، وأبلغ في الحجة عليهم لك. فقلت: وكيف ترى

فيمن قاتلنا فظفرنا به؟ وما تقول في دمائهم وأموالهم؟ فقال: إن قتلنا وغنمنا فلنا وإن تجاوزنا وعفونا فموسع علينا. ثم قال صالح لأصحابه ليلته تلك: اتقوا الله عباد الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس؛ إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون لكم، فإنكم إنما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه؛ وعصي في الأرض، وسفكت الدماء بغير حقها، وأخذت الأموال غضباً، فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملونها؛ فإن كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسؤولون، وإن عظمكم رجالة، وهذه دواب لحمد بن مروان في هذا الرستاق؛ وابدأوا بها فاحملوا عليها راجلكم، وتقووا بها على عدوكم ففعلوا ذلك، وتحصن منهم أهل دارا.

وبلغ خبرهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة، فاستخف بأمرهم، وبعث إليهم عدي ابن عميرة في خمسمائة، وكان صالح في مائة وعشرة؛ فقال عدي: أصلح الله الأمير! تبعني إلى رأس الخوارج منذ عشرين سنة، ومعه رجال سمو لي كانوا يعازوننا؛ وإن الرجل منهم خير من مائة فارس في خمسمائة! فقال له: إني أزيدك خمسمائة، فسر إليهم في ألف فارس.

فسار من حران في ألف رجل، وكأنا يساقون إلى الموت - وكان عدي رجلاً ناسكاً - فلما نزل دوغان نزل بالناس، وأنفذ إلى صالح بن مسرح رجلاً دسه إليه فقال: إن عدياً بعثني إليك يسألك أن تخرج عن هذا البلد، وتأتي بلداً آخر فتقاتل أهله؛ فإني للقتال كاره، فقال له صالح: ارجع إليه، فقل له: إن كنت ترى رأينا، فأرنا من ذلك ما نعرف، ثم نحن، مدلجون عنك، وإن كنت على رأي الجبابة وأئمة السوء، رأينا رأينا، فإما بدأنا بك، وإلا رحلنا إلى غيرك. فانصرف إليه الرسول، فأبلغه، فقال له عدي: ارجع إليه فقل له: إني والله أرى رأيك، ولكني أكره قتالك، وقتال غيرك من المسلمين.

فقال صالح لأصحابه: اركبوا، فركبوا، واحتبس الرجل عنده، ومضى بأصحابه حتى أتى عدياً في سوق دوغان؛ وهو قائم يصلي الضحى، فلم يشعر إلا بالخييل طالعة عليهم؛ فلما دنا صالح منهم، رآهم على غير تعبئة، وقد تنادوا وبعضهم يحول في بعض، فأمر شبيباً فحمل عليهم في كتيبة، ثم أمر سويداً فحمل في كتيبة، فكانت هزيمتهم، وأتى عدي بدابته فركبها، ومضى على وجهه، واحتوى صالح على عسكره وما فيه، وذهب فل عدي حتى لحقوا بمحمد بن مروان، فغضب، ثم دعا بخالد بن جزء السلمي فبعثه في ألف وخمسمائة، ودعا الحارث بن جعونة في ألف وخمسمائة، وقال لهما: أخرجنا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة، وعجلا الخروج، وأغذا السير فأيكما سبق، فهو الأمير على صاحبه، فخرجوا وأغذا في السير، وجعلا يسألان عن صالح، فقيل لهما: توجه نحو آمد، فاتبعاه حتى انتهيا إليه بآمد، فتزلا ليلاً، وخندقا وهما متساندان؛ كل واحد منهما على حدته، فوجه صالح شبيباً إلى الحارث بن جعونة في شطر أصحابه، وتوجه هو نحو خالد السلمي، فاقتتلوا أشد قتال اقتتله قوم، حتى حجز بينهم الليل؛ وقد انتصف بعضهم من بعض.

فتحدث بعض أصحاب صالح، قال: كنا إذا حملنا عليهم استقبلنا رجالهم بالرماح، ونضحنا رماهم بالنبل، وخيلهم تطاردنا في خلال ذلك، فانصرفنا عند الليل، وقد كرهناهم وكرهونا، فلما رجعنا وصلينا وتروحنا وأكلنا من الكسر، دعانا صالح وقال: يا أخلائي، ماذا ترون؟ فقال شبيب: إنا إن قاتلنا هؤلاء القوم وهم معتمصمون بخندقهم، لم نل منهم

طائلاً، والرأي أن نرحل عنهم، فقال صالح: وأنا أرى ذلك؛ فخرجوا من تحت ليلتهم حتى قطعوا أرض الجزيرة، وأرض الموصل، ومضوا حتى قطعوا أرض الدسكرة. ففلما بلغ ذلك الحجاج سرح عليهم الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف، فسار وخرج صالح نحو جلولاء، وخانقين واتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية يقال لها المديج، وصالح يومئذ في تسعين رجلاً، فبعى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة، وجعل صالح ثلاثة كراديس وهو في كردوس، وشبيب في ميمنة في كردوس، وسويد بن سليم في كردوس في ميسرة؛ في كل كردوس منهم ثلاثون رجلاً؛ فلما شد عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سليم، وثبت صالح فقتل، وضارب شبيب حتى صرع عن فرسه، فوقع بين رجاله، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح، فوجده قتيلاً فنادى: إلي يا معشر المسلمين! فلاذوا به، فقال لأصحابه: ليجعل كل رجلٍ منكم ظهره إلى ظهر صاحبه، وليطاعن عدوه إذا قدم عليه؛ حتى ندخل هذا الحصن، ونرى رأينا. ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحصن، وهم سبعون رجلاً مع شبيب، وأحاط بهم الحارث بن عميرة ممسياً، وقال لأصحابه: أحرقوا الباب، فإذا صار جمرًا فدعوه، فإنهم لا يقدرّون على الخروج حتى نصبح فنقتلهم، ففعلوا ذلك بالباب؛ ثم انصرفوا إلى معسكرهم.

فقال شبيب لأصحابه: يا هؤلاء، ما تنتظرون! فوالله إن صبحوكم غدوة إنه هلاككم، فقالوا له: مرنا بأمرك، فقال لهم: إن الليل أخفى للويل، بايعوني إن شئتم، أو بايعوا من شئتم منكم، ثم أخرجوا بنا حتى نشد عليهم في معسكرهم، فإنهم آمنون منكم، وإني لأرجو أن ينصركم الله عليهم. قالوا: ابسط يدك، فبايعوه، فلما جاؤوا إلى الباب، وجدوه جمرًا، فاتوه باللبود فبلوها بالماء، ثم القوها عليه وخرجوا فلم يشعر الحارث بن عمير إلا وشبيب وأصحابه يضربونهم بالسيوف في جوف معسكرهم، فضارب الحارث حتى صرع، واحتمله أصحابه، وانهمزوا وخلوا لهم المعسكر وما فيه، ومضوا حتى نزلوا المدائن، وكان ذلك الجيش أول جيش هزمه شبيب.

بين شبيب والحجاج

ثم ارتفع في أداني أرض الموصل، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يجي الخراج، وكان سفيان ابن أبي العالية قد أمر أن يحارب صاحب طبرستان، فأمر بالقفول نحو شبيب، وأن يصلح طبرستان، فصالحه، فأقبل في ألف فارس، وقد ورد عليه كتاب من الحجاج: أما بعد، فأقم بالدسكرة فيمن معك، حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة. قاتل صالح بن مسرح، ثم سر إلى شبيب حتى نناجزه.

ففعل سفيان ذلك، ونزل إلى الدسكرة حتى أتوه، وخرج مرتحلاً في طلب شبيب، فارتفع شبيب عنهم، كأنه يكره قتالهم ولقاءهم، وقد أكن لهم أخاه مصاداً في خمسين رجلاً، في هضم من الأرض، فلما رأوا شبيباً جمع أصحابه، ومضى في سفح من الجبل مشرقاً، قالوا: هرب عدو الله، وابعوه. فقال لهم عدي بن عميرة الشيباني: أيها الناس، لا تعجلوا عليهم حتى تضرب في الأرض ونستبرئها؛ فإن يكونوا أكنموا كميناً حذرناه؛ وإلا كان طلبهم بين أيدينا لن يفوتنا. فلم يسمعوا منه، فأسرعوا في آثارهم.

فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكمين، عطف عليهم، فحمل من أمامهم، وخرج الكمين من ورائهم؛ فلم يقاتل أحد؛ وإنما كانت الهزيمة، وثبت سفيان بن أبي العالية في مائتي رجل، فقاتل قتالاً شديداً حتى انتصف من شبيب؛ فقال سويد بن سليم لأصحابه؛ أمنكم أحد يعرف أمير القوم ابن أبي العالية؟ فقال له شبيب: أنا من أعرف الناس به، أما ترى صاحب الفرس الأغر الذي دونه المرامية! فإنه هو، فإن كنت تريده فأمهله قليلاً.

ثم قال: يا قعنب، اخرج في عشرين، فأتتهم من ورائهم. فخرج قعنب في عشرين فارتفع عليهم؛ فلما رأوه يريد أن يأتهم من ورائهم، جعلوا ينتقصون ويتسللون، وحمل سويد بن سليم على سفيان بن أبي العالية يطاعنه، فلم تصنع رماحهما شيئاً، ثم اضطربا بسيفيهما، ثم اعتنق كل واحد منهما صاحبه، فوقعا إلى الأرض يعتركان، ثم تحاجزا، وحمل عليهم شبيب، فأنكشف من كان مع سفيان، ونزل غلام له يقال له غزوان عن برذونه، وقال لسفيان: اركب يا مولاي، فركب سفيان، وأحاط به أصحاب شبيب، فقاتل دونه غزوان حتى قتل، وكان معه رايته، وأقبل سفيان منهزماً، حتى انتهى إلى بابل مهروذ، فترل بها؛ وكتب إلى الحجاج، وكان الحجاج أمر سورة بن أبحر أن يلحق بسفيان، فكتب سورة سفيان، وقال له: انتظرني؛ فلم يفعل وعجل نحو الخوارج، فلما عرف الحجاج خبر سفيان، وقرأ كتابه، قال للناس: من صنع كما صنع هذا وأبلى فقد أحسن. ثم كتب إليه يعذره، ويقول: إذا خف عليك الوجد فأقبل مأجوراً إلى أهلك. وكتب إلى سورة بن أبحر: أما بعد يابن أم سورة، فما كنت خليفاً أن تجترئ على ترك عهدي، وخذلان جندي، فإذا أتاك كتابي فابعث رجلاً ممن معك صليلاً إلى المدائن، فلينتخب من جندها خمسمائة رجل، ثم ليقدم بهم عليك، ثم سر بهم حتى تلقى هذه المارقة، واحزم أمرك، وكد عدوك؛ فإن أفضل أمر الحروب حسن المكيدة. والسلام.

فلما أتى سورة كتاب الحجاج بعث عدي بن عمير إلى المدائن، وكان بها ألف فارس، فانتخب منهم خمسمائة، ثم رحل بهم حتى قدم على سورة ببابل مهروذ، فخرج بهم في طلب شبيب، وخرج شبيب يحول في جوحى، وسورة في طلبه، فجاء شبيب إلى المدائن فتحصن منه أهلها فانتهب المدائن الأولى، وأصاب دواب من دواب الجند، وقتل من ظهر له، ولم يدخل البيوت، ثم أتى ف قيل له: هذا سورة قد أقبل إليك، فخرج في أصحابه حتى انتهى إلى النهروان، فترلوا به وتوضأوا وصلوا، ثم أتوا مصارع إخوانهم الذين قتلهم علي بن أبي طالب، فاستغفروا لهم، وتبرأوا من علي وأصحابه، وبكوا فاطلوا البكاء، ثم عبروا جسر النهروان، فترلوا جانبه الشرقي، وجاء سورة حتى نزل بنفطرانا وجاءته عيونه، فأخبروه بمثل شبيب بالنهروان، فدعا سورة رؤوس أصحابه، فقال لهم: إن الخوارج قلما يلقون في صحراء أو على ظهر إلا انتصفوا، وقد حدثت أنهم لا يزيدون على مائة رجل، وقد رأيت أن أنتخبكم، وأسير في ثلاثمائة رجل منكم، من أقويائكم وشجعانكم فأبيتهم فإنهم آيسون من بياتكم، وإني والله أرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم في النهروان من قبل، فقالوا: اصنع ما أحببت.

فاستعمل على عسكره حازم بن قدامة، وانتخب ثلاثمائة من شجعان أصحابه، ثم أقبل بهم حتى قرب من النهروان، وبات وقد أذكى الحرس، ثم بيتهم؛ فلما دنا أصحاب سورة منهم نذروا بهم، فاستووا على خيولهم، وتعبوا تعبيتهم؛ فلما انتهى

إليهم سورة وأصحابه، أصابوهم وقد نذروا، فحمل عليهم سورة، فصاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم حتى تركوا له العرصة، وحمل شبيب، وجعل يضرب ويقول:

من ينك العير ينك نياكا

فرجع سورة مفلولاً، قد هزم فرسانه وأهل القوة من أصحابه، وأقبل نحو المدائن، وتبعه شبيب؛ حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن، وانتهى شبيب إليهم، وقد دخل الناس البيوت، وخرج ابن أبي عصيفر، وهو أمير المدائن يومئذ في جماعة، فلقاهم في شوارع المدائن، ورماهم الناس بالنبل والحجارة من فوق البيوت.

ثم سار شبيب إلى تكريت، فبينما ذلك الجند بالمدائن إذ أرحف الناس فقالوا: هذا شبيب قد أقبل يريد أن يبيت أهل المدائن، فارتحل عامة الجند، فلحقوا بالكوفة، وإن شبيباً بتكريت، فلما أتى الحجاج الخبر، قال: قبح الله سورة! ضيع العسكر وخرج يبيت الخوارج؛ والله لأسوءته.

ثم دعا الحجاج بالجزل؛ وهو عثمان بن سعيد، فقال له: تيسر للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتهم فلا تعجل عجلة الخرق الترق، ولا تحجم إحجام الوائي الفرق، أفهمت؟ قال: نعم أصلح الله الأمير قد فهمت؛ قال: فاخرج وعسكر بدير عبد الرحمن حتى يخرج الناس إليك، فقال: أصلح الله الأمير! لا تبعث معي أحداً من الجند المهزوم المفلول، فإن الرعب قد دخل قلوبهم، وقد خشيت ألا ينفعك والمسلمين منهم أحد، قال: ذلك لك، ولا أراك إلا قد أحسنت الرأي، ووفقت؛ ثم دعا أصحاب الدواوين، فقال: اضربوا على الناس البعث، وأخرجوا أربعة آلاف من الناس، وعجلوا، فجمعت العرفاء، وجلس أصحاب الدواوين، وضربوا البعث، فأخرجوا أربعة آلاف، فأمرهم باللحاق بالعسكر، ثم نوذي فيهم بالرحيل، فارتحلوا؛ ونادى منادي الحجاج: أن برئت الذمة من رجل أصبناه من بعث الجزل متخلفاً. فمضى بهم الجزل، وقد قدم بين يديه عياض بن أبي لينة الكندي على مقدمته فخرج، حتى أتى المدائن، فأقام بها ثلاثاً؛ ثم خرج وبعث إليه ابن أبي عصيفر بفرس وبرذون وألفي درهم، وضع للناس من الحطب والعلف ما كفاهم ثلاثة أيام، وأصاب الناس ما شاؤوا من ذلك.

ثم إن الجزل خرج بالناس إثر شبيب، فطلبه في أرض جوحى، فجعل شبيب يريه الهيبة، فيخرج من رستاق إلى رستاق، ومن طسوج إلى طسوج ولا يقيم له. يريد بذلك أن يفرق الجزل أصحابه، ويتعجل إليه فيلقاه في عدد يسير على غير تعب؛ فجعل الجزل لا يسير إلا على تعب، ولا يتزل إلا خندق على نفسه وأصحابه؛ فلما طال ذلك على شبيب، دعا يوماً أصحابه، وهم مائة وستون رجلاً، هو في أربعين، ومصاد أخوه في أربعين، وسويد بن سليم في أربعين، والمجلل بن وائل في أربعين، وقد أثنى عيونه فأخبرته، أن الجزل بن سعيد قد نزل ببئر سعيد. فقال لأخيه وللأمرء الذين ذكرناهم: إني أريد أن أبيت الليلة هذا العسكر، فأتم أنت يا مصاد من قبل حلوان، وسأتيهم أنا من أمامهم من قبل الكوفة، وأتم أنت يا سويد من قبل المشرق، وأتم أنت يا مجلل من قبل المغرب، وليلج كل امرئ منكم على الجانب الذي يحمل عليه، ولا تقلعوا عنهم حتى يأتيتكم أمري.

قال فروة بن لقيط: وكنت أنا الأربعين الذين كانوا معه، فقال لجماعتنا: تيسروا وليسر كل امرئ منكم مع أميره، ولينظر

ما يأمره به أميره فليتبعه، فلما قضمت دوابنا - وذلك أول ما هدأت العيون - خرجنا حتى انتهينا إلى دير الحرارة، فإذا القوم عليهم مسلحة بن أبي لينة، فما هو إلا أن رأهم مصاد أخو شبيب حتى حمل عليهم في أربعين رجلاً، وكان شبيب أراد أن يرتفع عليهم حتى يأتيهم من ورائهم، كما أمره.

فلما لقي هؤلاء قاتلهم، فصبروا له ساعة وقتلوه. ثم إنا دفعنا إليهم جميعاً، فهزمناهم، وأخذوا الطريق الأعظم، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدجرد إلا نحو ميل، فقال لنا شبيب: اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم؛ حتى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم، فأتبعناهم ملظين بهم، ملحين عليهم، ما نرفه عنهم وهم منهزمون، ما لهم همة إلا عسكرهم.

فمنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم، ورشقوهم بالنبل، وكانت لهم عيون قد أتتهم فأخبرتهم بمكاننا، وكان الجزل قد خندق عليهم وتحرز، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم بدير الحرارة، ووضع مسلحة أخرى مما يلي حلوان. فلما اجتمعت المسالح، ورشقوهم بالنبل، ومنعونا من خندقهم، رأى شبيب أنه لا يصل إليهم، فقال لأصحابه: سيروا ودعوهم، فلما سار عنهم أخذ على طريق حلوان؛ حتى كان منهم على سبعة أميال، قال لأصحابه: انزلوا فأقضموا دوابكم، وقيلوا وتروحوا، فصلوا ركعتين، ثم اركبوا. ففعلوا ذلك. ثم أقبل بهم راجعاً إلى عسكر الكوفة، وقال: سيروا على تعبيتكم التي عبأتكم عليها أول الليل، وأطيفوا بعسكرهم كما أمرتكم. فأقبلنا معه، وقد أدخل أهل العسكر مسالحهم إليهم، وأمنوا فما شعروا حتى سمعوا وقع حوافر الخيل، فانتبهنا إليهم قبيل الصبح، وأحطنا بعسكرهم، وصحنا بهم من كل ناحية، فقاتلونا، ورمونا بالنبل، فقال شبيب لأخيه مصاد، وكان يقاتلهم من الجانب الذي يلي الكوفة: خل لهم سبيل طريق الكوفة، فخلى لهم، وقتلناهم من تلك الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح، ثم سرنا وتركناهم، لأننا لم نظفر بهم، فلما سار شبيب سار الجزل في أثره يطلبه، وجعل لا يسير إلا على تعبئة وترتيب، ولا يتزل إلا على خندق؛ وأما شبيب فضرب في أرض جوحى، وترك الجزل، فطال أمره على الحجاج، فكتب إلى الجزل كتاباً قرئ على الناس وهو: أما بعد، إني بعثتك في فرسان أهل المصر ووجوه الناس، وأمرتك باتباع هذه المارقة، وإلا تفلع عنها تقتلها وتفتنيها؛ فجعلت التعريس في القرى، والتخيم في الخنادق، أهون عليك من المضي لمناهضتهم ومناجزتهم. والسلام.

قال: فشق كتاب الحجاج على الجزل، وأرجف الناس بأمره، وقالوا: سيعزله، فما لبث الناس أن بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميراً بدله. وعهد إليه، إذا لقي المارقة أن يزحف إليهم، ولا يناظرهم، ولا يطاولهم، ولا يصنع صنع الجزل، وكان الجزل يومئذ قد انتهى في طلب شبيب إلى النهروان، وقد لزم عسكره، وخندق عليهم، فجاء سعيد حتى دخل عسكر أهل الكوفة أميراً فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل الكوفة، إنكم قد عجزتم ووهنتم، وأغضبتكم عليكم أميركم، أنتم في طلب هذه الأعراب العجف منذ شهرين، قد أخربوا بلادكم، وكسروا خراجكم؛ وأنتم حذرون في الجوف هذه الخنادق لا تزايلونها إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم، ونزلوا بلداً سوى بلدكم؛ اخرجوا على اسم الله إليهم.

ثم خرج وخرج الناس معه، فقال له الجزل: ما تريد أن تصنع؟ قال: أقدم على شبيب وأصحابه في هذه الخيل، فقال له الجزل: أقم أنت في جماعة الناس، فارسلهم وراجلهم، ولا تفرق أصحابك، ودعني أصحر له، فإن ذلك خير لك وشر

لهم. فقال سعيد: بل تقف أنت في الصف، وأنا أصحر له، فقال الجزل: إني بريء من رأيك هذا، سمع الله ومن حضر من المسلمين! فقال سعيد: هو رأيي، إن أصبت فيه، فالله وفقني، وإن أخطأت فيه فأنتم برآء.

فوقف الجزل في صف أهل الكوفة، وقد أخرجهم من الخندق وجعل على ميمنتهم عياض بن أبي لينة الكندي، وعلى ميسرتهم عبد الرحمن بن عوف أبا حميد الراسبي؛ ووقف الجزل في جماعتهم، واستقدم سعيد بن مجالد فخرج وأخرج الناس معه، وقد أخذ شبيب إلى براز الروز، فترل قطفتا، وأمر دهاقنها أن يشوي لهم غنماً، ويعد لهم غداءً ففعل، وأغلق مدينة قطفتا، ولم يفرغ الدهقان من طعامه حتى أحاط بها ابن مجالد، فصعد الدهقان، ثم نزل، وقد تغير لونه، فقال شبيب: ما بالك؟ قال: قد جاءك جمع عظيم، قال: أبلغ شواؤك؟ قال: لا، قال: دعه يبلغ، ثم أشرف الدهقان إشرافاً أخرى، ثم نزل فقال: قد أحاطوا بالجوسق، قال: هات شواءك، فجعل يأكل غير مكترث بهم ولا فزع، فلما فرغ قال لأصحابه، قوموا إلى الصلاة، وقام فتوضأ، فصلّى بأصحابه صلاة الأولى، ولبس درعه، وتقلد سيفه، وأخذ عموده الحديد، ثم قال: أسرجوا لي بغلي، فقال أخوه: أي مثل هذا اليوم تركب بغلة؟ قال: نعم، أسرجوها، فركبها، ثم قال: يا فلان، أنت على الميمنة، وأنت يا فلان على الميسرة، وأنت يا مصاد-يعني أخاه - على القلب، وأمر الدهقان بفتح الباب في وجوههم.

فخرج إليهم وهو يحكم، وحمل حملة عظيمة، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقري، حتى صار بينهم وبين الدير ميل، وشبيب يصيح: أتاكم الموت الزؤام! فاثبتوا، وسعيد يصيح: يا معشر همدان، إلي إلي، أنا ابن ذي مران! فقال شبيب لمصاد: ويحك! استعرضهم استعراضاً؛ فإنهم قد تقطعوا، وإني حامل على أميرهم، وأتكلنيك الله إن لم أكله ولده؛ ثم حمل على سعيد فعلاه بالعمود؛ فسقط ميتاً وانهمز أصحابه، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد.

وانتهى قتل سعيد إلى الجزل، فناداهم: أيها الناس، إلي إلي، وصاح عياض بن أبي لينة: أيها الناس، إن لم يكن أميركم هذا القادم هلك، فهذا أميركم الميمون النقيبة، أقبلوا إليه؛ فمنهم من أقبل إليه، ومنهم من ركب فرسه منهزماً، وقاتل الجزل يومئذ قتالاً شديداً حتى صرع، وحامى عنه خالد بن هيك، وعياض بن أبي لينة، حتى استنقذه مرتين، وأقبل الناس منهزمين حتى دخلوا الكوفة، وأتى بالجزل جريحاً حتى دخل المدائن، فكتب إلى الحجاج: أما بعد؛ فإني أخبر الأمير - أصلحه الله - أني خرجت فيمن قبلي من الجند الذي وجهني فيه إلى عدوه، وقد كنت حفظت عهد الأمير إلي فيهم ورأيه؛ فكنت أخرج إلى المارقين إذا رأيت الفرصة، وأحبس الناس عنهم إذا خشيت الورطة، فلم أزل كذلك أدير الأمر، وأرفق في التدبير؛ وقد أرادني العدو بك مكيدة، فلم يصب مني غرة، حتى قدم علي سعيد بن مجالد، فأمرته بالتؤدة، ونهيته عن العجلة، وأمرته ألا يقاتلهم إلا في جماعة الناس عامة، فعصاني وتعجل إليهم في الخيل، فأشهدت الله عليه وأهل المصرين أني بريء من رأيه الذي رأى، وأنني لا أهوى الذي صنع، فمضى فقتل، تجاوز الله عنه! ودفع الناس إلي فترلت ودعوتهم إلى نفسي ورفعت رايتي، وقاتلت حتى صرعت، فحملني أصحابي من بين القتلى، فما أفقت إلا وأنا على أيديهم، على رأس ميلٍ من المعركة، وأنا اليوم بالمدائن، وفيّ جراحات قد يموت الإنسان من دونها؛ وقد يعافى من مثلها؛ فليسأل الأمير أصلحه الله عن نصيحتي له ولجنده، وعن مكايدي عدوه، وعن موقفني يوم البأس؛ فإنه سيبين له عند ذلك

أني صدقته ونصحت له. والسلام.

فكتب إليه الحجاج: أما بعد، فقد أتاني كتابك وقرأته، وفهمت كل ما ذكرته من أمر سعيد وأمر نفسك، وقد صدقتك في نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصر، وشدتك على عدوك، وقد رضيت عجلة سعيد وتؤدتك. فأما عجلته فإنها أفضت به إلى الجنة وأما تؤدتك فإنها ما لم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم، وقد أحسنت وأصبت وأجرت، وأنت عندي من أهل السمع والطاعة والنصيحة، وقد أشخصت إليك حيان بن أبجر الطبيب ليداويك، ويعالج جراحاتك؛ وقد بعثت إليك بألفي درهم نفقة تصرفها في حاجتك وما ينوبك. والسلام.

وبعث عبد الله بن أبي عصفور والي المدائن إلى الجزل بألف درهم، وكان يعودده ويتعاهده بالأنطاف والمدايا. وأما شبيب، فأقبل حتى قطع دجلة عند الكرخ، وأخذ بأصحابه نحو الكوفة. وبلغ الحجاج مكانه بحمام أعين؛ فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن السعدي، فجهزه بألفي فارس منتخبين، وقال له: اخرج إلى شبيب فالحقه ولا تتبعه، فخرج بالناس بالسبخة؛ وبلغه أن شبيباً قد أقبل، فسار نحوه كأنما يساق إلى الموت هو وأصحابه، وأمر الحجاج عثمان بن قطن، فعسكر بالناس في السبخة، ونادى: ألا برئت الذمة من رجل من هذا الجند، بات الليلة بالكوفة؛ ولم يخرج إلى عثمان بن قطن بالسبخة، فبينما سويد بن عبد الرحمن يسير في الألفين الذين معه، وهو يعيهم ويحرضهم؛ إذا قيل له: قد غشيك شبيب؛ فترل ونزل معه جل أصحابه، وقدم رايته، فأخبر أن شبيباً لما علم بمكانه تركه، ووجد مخاضة فعبر الفرات؛ يريد الكوفة من غير الوجه الذي سويد بن عبد الرحمن به، ثم قيل: أما تراهم! فنادى في أصحابه، فركبوا في آثارهم، فأتى شبيب دار الرزق فترلها، وقيل له: إن أهل الكوفة بأجمعهم معسكرون، فلما بلغهم مكان شبيب، ماج الناس بعضهم إلى بعض، وجالوا وهموا بدخول الكوفة، حتى قيل: هذا سويد بن عبد الرحمن في آثارهم قد لحقهم؛ وهو يقاتلهم في الخيل، ومضى شبيب حتى أخذ على شاطئ الفرات، ثم أخذ على الأنبار، ثم دخل دقوقاء، ثم ارتفع إلى أداني أذربيجان.

وخرج الحجاج من الكوفة إلى البصرة حيث بعد شبيب، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، فما شعر الناس إلا بكتاب من مادارست، دهقان بابل مهروز إلى عروة بن المغيرة بن شعبة، أن تاجراً من تجار الأنبار من أهل بلادي أتاني يذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة في أول هذا الشهر المقبل، وأحببت إعلامك ذلك لترى رأيك، وإني لم ألبث بعد ذلك إذ جائي اثنان من حيراني فحدثاني أن شبيباً قد نزل خانيجار. فأخذ عروة كتابه فأدرجه وسرح به إلى الحجاج إلى البصرة. فلما قرأ الحجاج أقبل جاداً إلى الكوفة، وأقبل شبيب يسير حتى انتهى إلى قرية حربى على شاطئ دجلة، فعبرها وقال لأصحابه: يا هؤلاء، إن الحجاج ليس بالكوفة، وليس دون أخذها شيء إن شاء الله. فسيروا بنا، فخرج يبادر الحجاج إلى الكوفة، وكتب عروة إلى الحجاج: إن شبيباً قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة، فاعجل العجل.

فطوى الحجاج المنازل مسابقاً لشبيب إلى الكوفة، فسبقه ونزلها صلاة العصر، ونزل شبيب السبخة صلاة العشاء الآخرة، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئاً يسيراً، ثم ركبوا خيولهم، فدخل شبيب الكوفة في أصحابه حتى انتهى إلى السوق،

وشد حتى ضرب باب القصر بعموده، فحدث جماعة أظم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة، وأنشد:

وكان حافرها بكل ثنية

فرق يكيل به شحيح معدم

ثم أقحم هو وأصحابه المسجد الجامع، ولا يفارقه قوم يصلون فيه، فقتل منهم جماعة، ومر هو بدار حوشب - وكان هو على شرطة الحجاج - فوقف على بابه في جماعة، فقالوا: إن الأمير - يعنون الحجاج - يدعو حوشباً، وقد أخرج ميمون غلامه بردونه ليركب، فكأنه أنكرهم، فظنوا أنه قد أتهمهم فأراد أن يدخل إلى صاحبه، فقالوا له: كما أنت حتى يخرج صاحبك إليك، فسمع حوشب الكلام، فأنكر القوم، وذهب لينصرف فعجلوا نحوه، فأغلق الباب دونه، فقتلوا غلامه ميموناً، وأخذوا بردونه، ومضوا حتى مروا بالجحاف بن نبيط الشيباني، من رهط حوشب. فقال له سويد: انزل إلينا، فقال: ما تصنع بتزولي! فقال: انزل، إني لم أقضك ثمن البكرة التي ابتعتها منك بالبادية، فقال الجحاف: بئس ساعة القضاء هذه! وبئس المكان لقضاء الدين هذا. ويحك! أما ذكرت أداء أمانتك إلا والليل مظلم، وأنت على متن فرسك! قبح الله يا سويد ديناً لا يصلح إلا بقتل الأنفس وسفك الدماء. ثم مروا بمسجد بني ذهل، فلقوا ذهل بن الحارث، وكان يصلي في مسجد قومه، فيطيل الصلاة إلى الليل، فصادفوه منصرفاً إلى منزله فقتلوه ثم خرجوا متوجهين نحو الردمة؛ وأمر الحجاج المنادي: يا خيل الله اركبي وأبشري، وهو فوق باب القصر، وهناك مصباح مع غلام له قائم.

وكان أول من جاء من الناس عثمان بن قطن، ومعه مواليه وناس من أهله، وقال: أعلموا الأمير بمكاني، أنا عثمان بن قطن، فليأمرني بأمره. فناداه الغلام صاحب المصباح: قف مكانك حتى يأتيك أمر الأمير، وجاء الناس من كل جانب، وبات عثمان مكانه فيمن اجتمع إليه من الناس؛ حتى أصبح.

وقد كان عبد الملك بن مروان بعث محمد بن موسى بن طلحة على سجستان، وكتب له عهده عليها، وكتب إلى

الحجاج: إذا قدم عليك محمد بن موسى الكوفة، فجهز معه ألفي رجل، وعجل سراحه إلى سجستان.

فلما قدم الكوفة، جعل يتجهز، فقال له أصحابه ونصحاؤه: تعجل أيها الرجل إلى عملك، فإنك لا تدري ما يحدث،

وعرض أمر شبيب حينئذ دخوله الكوفة، فقليل للحجاج: إن محمد بن موسى إن سار إلى سجستان مع نجذته وصهره

لأمير المؤمنين عبد الملك، فلجأ إليه أحد ممن تطلبه، منعك منه. قال: فما الحيلة؟ قالوا: أن تذكر له أن شبيباً في طريقه وقد

أعياك، وأنت ترجو أن يريح الله منه على يده، فيكون له ذكر ذلك وشهرته.

فكتب إليه الحجاج: إنك عامل على كل بلد مررت به، وهذا شبيب في طريقك تجاهده ومن معه، ولك أجره وذكره

وصيته، ثم تمضي إلى عملك؛ فاستجاب له.

وبعث الحجاج بشر بن غالب الأسدي في ألفي رجل، وزباد بن قدامة في ألفين، وأبا الضريس مولى تميم في ألف من

الموالي، وأعين صاحب حمام أعين لبشر بن مروان في ألف، وجماعة غيرهم، فاجتمعت تلك الأمراء في أسفل الفرات،

وترك شبيب الوجه الذي فيه جماعة هؤلاء القواد، وأخذ نحو، القادسية، فوجه الحجاج زحر بن قيس في جريدة خيل،

نقاوة ، عدتها ألف وثمانمائة فارس، وقال له: اتبع شبيباً حتى تواقعه حيثما أدركته، فخرج زحر بن قيس حتى انتهى إلى السيلحين ، وبلغ شبيباً مسيره إليه فأقبل نحوه، فالتقيا، وقد جعل زحر على يمينته عبد الله بن كنانز، وكان شجاعاً، وعلى يسارته عدي بن عميرة الكندي، وجمع شبيب خيله كلها كبكبة واحدة، ثم اعترض بها الصف يوجف وجيفاً، حتى انتهى إلى زحر بن قيس، فترل زحر، فقاتل حتى صرع وانهمز أصحابه، وظن أنه قد قتل.

فلما كان الليل وأصابه البرد؛ قام يمشي حتى دخل قرية. فبات بها وحمل منها إلى الكوفة، وبوجهه أربع عشرة ضربة، فمكث أياماً، ثم أتى الحجاج، وعلى وجهه وجراحه القطن، فأجلسه معه على السرير. وقال أصحاب شبيب لشبيب؛ وهم يظنون أنهم قد قتلوا زحراً: قد هزمنا جندهم، وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيماً؛ فانصرف بنا الآن موفورين. فقال لهم: إن قتلكم هذا الرجل وهزيمتكم هذا الجند قد أربع هؤلاء الأمراء، فاقصدوا بنا قصدهم؛ فوالله لئن نحن قتلناهم ما دون قتل الحجاج وأخذ الكوفة شيء. فقالوا له: نحن طوع لأمرك ورأيك. فانقض بهم جاداً؛ حتى أتى ناحية عين التمر؛ واستخبر عن القوم، فعرف اجتماعهم في روذبار في أسفل الفرات، على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة.

وبلغ الحجاج مسير شبيب إليهم، فبعث إليهم: إن جمعكم قتال، فأمر الناس زائدة بن قدامة.

فانتهى إليهم شبيب، وفيهم سبعة أمراء، على جماعتهم زائدة بن قدامة، وقد عي كل أمير أصحابه على حدة، وهو واقف في أصحابه، فأشرف شبيب على الناس، وهو على فرس أغر كميته، فنظر إلى تعبيتهم، ثم رجع إلى أصحابه، وأقبل في ثلاث كتائب يزحف بها، حتى إذا دنا من الناس مضت كتيبة فيها سويد بن سليم، فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة، وفيها زياد ابن عمرو العتكي، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب، فوقفت بإزاء الميسرة، وفيها بشر بن غالب الأسدي، وجاء شبيب في كتيبة، حتى وقف مقابل القوم في القلب، فخرج زائدة بن قدامة يسير في الناس بين الميمنة والميسرة، يحرص الناس، ويقول: عباد الله، إنكم الطيبون الكثيرون، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون؛ فاصبروا جعلت لكم الفداء! إنما هي حملتان أو ثلاث، ثم هو النصر ليس دونه شيء، ألا ترونهم والله لا يكونون مائتي رجل، إنما هم أكلة رأس وهم السراق المراق؛ إنما جاؤوكم ليهريقوا دماءكم، ويأخذوا فينكم، فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه؛ وهم قليل وأنتم كثير؛ وهم أهل فرقة وأنتم أهل جماعة، غضوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنة، ولا تحملوا عليهم حتى آمركم.

ثم انصرف إلى موقفه، فحمل سويد بن سليم على زياد بن عمرو العتكي، فكشف صفه، وثبت زياد قليلاً ثم ارتفع سويد عنهم يسيراً ثم كر عليهم ثانية.

فقال فروة بن لقيط الخارجي: اطعنا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا، وقاتل زياد بن عمرو قتالاً شديداً، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذٍ وإنه لأشد العرب قتالاً وأشجعهم، وهو واقف لا يعرض لهم؛ ثم ارتفعنا عنهم؛ فإذا هم يتقوضون، فقال بعض أصحابنا لبعض: ألا ترونهم يتقوضون! أحملوا عليهم، فأرسل إلينا شبيب: خلوهم لا تحملوا عليهم حتى يخفوا، فتركناهم قليلاً، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهمزوا، فنظرت إلى زياد بن عمرو، وإنه ليضرب بالسيوف، وما من سيف يضرب به إلا نبا عنه؛ ولقد اعتوره أكثر من عشرين سيفاً وهو مجفف، فما ضربه شيء منها، ثم انهمز.

وانتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة أمير سجستان عند المغرب، وهو قائم في أصحابه؛ فقاتلناه قتالاً شديداً، وصبر لنا.

ثم إن مصاداً حمل على بشر بن غالب في الميسرة فصبر وكرم وأبلى، ونزل معه رجال من أهل البصرة نحو خمسين، فضاربوا بأسيا فهم حتى قتلوا، ثم انهم أصحابه فشددنا على أبي الضريس فهزمناه، ثم انتهينا إلى موقف أعين، ثم شددنا على أعين، فهزمناهم حتى انتهينا إلى زائدة بن قدامة، فلما انتهوا إليه، نزل ونادى: يا أهل الإسلام، الأرض الأرض! ألا لا يكونون على كفرهم أصير منكم على إيمانكم. فقاتلوا عامة الليل إلى السحر.

ثم إن شيباً شد على زائدة بن قدامة في جماعة من أصحابه، فقتله وقتل ربيعة حوله من أهل الحفاظ، ونادى شبيب في أصحابه: ارفعوا السيف، وادعوه إلى البيعة، فدعوه عند الفجر إلى البيعة.

قال عبد الرحمن بن جندب: فكنيت فيمن تقدم فبايعه بالخلافة، وهو واقف على فرسٍ أغر كميته، وخيله واقفة دونه وكل من جاء لبياعه يترع سيفه عن عاتقه، ويؤخذ سلاحه؛ ثم يدنو من شبيب فيسلم عليه بإمرة المؤمنين، ثم يبايع؛ فلما كذلك إذ أضاء الفجر ومحمد بن موسى ابن طلحة في أقصى العسكر مع أصحابه؛ وكان الحجاج قد جعل موقفه آخر الناس، وزائدة ابن قدامة بين يديه، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلها، فأمر محمد مؤذنه فأذن؛ فلما سمع شبيب الأذان، قال: ما هذا؟ قيل: هذا ابن طلحة لم يبرح، قال: ظننت أن حمقه وخيلاءه سيحملانه على هذا، نحوا هؤلاء عنا، وانزلوا بنا فلنصل، فتزل وأذن هو، ثم استقدم فصلى بأصحابه، وقرأ: " ويل لكل همزة لمزة " ، " أرأيت الذي يكذب بالدين " ، ثم سلم وركب؛ وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة: إنك امرؤ مخدوع قد اتقى بك الحجاج المنية، وأنت لي جار بالكوفة، ولك حق فانطلق لما أمرت له؛ ولك الله ألا أسوءك، فأبى إلا محاربتة فأعاد عليه الرسول فأبى إلا قتاله، فقال له شبيب: كأني بأصحابك لو التقت حلقتا البطان قد أسلموك، وصرعت مصرع أمثالك؛ فأطعني وانصرف لشأنك، فأني أنفك بك عن القتل، فأبى وخرج بنفسه، ودعا إلى البرازن فبرز له البطين ثم قعن بن سويد، وهو يأبى إلا شيباً. فقالوا لشبيب: إنه قد رغب عنا إليك، قال: فما ظنكم بمن يرغب عن الأشراف! ثم برز له، وقال له: أنشدك الله يا محمد في دمك، فإن لك جواراً! فأبى إلا قتاله، فحمل عليه بعموده الحديد، وكان فيه اثنا عشر رطلاً، فهشم رأسه وببيضة كانت عليه فقتله؛ ونزل إليه فكفنه ودفنه. وتبع ما غنم الخوارج من عسكره؛ فبعث به إلى أهله، واعتذر إلى أصحابه، وقال: هو جاري بالكوفة، ولي أن أهب ما غنمت. فقل له أصحابه: ما دون الكوفة الآن أحد يمنعك، فنظر فإذا أصحابه قد فشا فيهم الجراح، فقال: ليس عليكم أكثر مما قد فعلتم.

وخرج بهم على نفر، ثم خرج بهم نحو بغداد؛ يطلب خانيجار. وبلغ الحجاج أن شيباً قد أخذ نحو نفر، فظن أنه يريد المدائن؛ وهي باب الكوفة؛ ومن أخذ المدائن كان ما في يديه من أرض الكوفة أكثر، فهال ذلك الحجاج، وبعث إلى عثمان بن قطن، فسرحه إلى المدائن، وولاه منبرها والصلاة ومعونة جوخي كلها، وخراج الأستان، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن، وعزل الحجاج ابن أبي عصيفر عن المدائن، وكان الجزل مقيماً بها يداوي جراحاته، وكان ابن أبي عصيفر يعود ويكرمه، ويلطفه، فلما قدم عثمان بن قطن لم يكن يتعاهده ولا يلطفه بشيء، فكان الجزل يقول: اللهم زد ابن أبي عصيفر فضلاً وكرماً، وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلاً.

ثم إن الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال له: انتخب الناس؛ فأخرج ستمائة من قومه من كندة، وأخرج

من سائر الناس ستة آلاف، واستحثه الحجاج على الشخوص؛ فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن، فلما استتموا هناك كتب إليهم الحجاج كتاباً قرئ عليهم: أما بعد، فقد اعتدتم عادة الأذلاء، ووليتم الدبر يوم الزحف، دأب الكافرين وقد صفحت عنكم مرة بعد مرة، وتارة بعد أخرى؛ وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن عدتم لذلك لأوقعن بكم لإيقاعاً يكون أشد عليكم من هذا العدو الذي تنهزمون منه في بطون الأودية والشعاب، وتستترون منه بأثناء الأنهار والوادي الجبال، فليخف من كان له معقول على نفسه، ولا يجعل عليها سبيلاً، فقد أعذر من أنذر. والسلام.

وارتحل عبد الرحمن بالناس حتى مر بالمدائن، فترل بها يوماً ليشتري أصحابه منها حوائجهم، ثم نادى في الناس بالرحيل؛ وأقبل حتى دخل على عثمان بن قطن مودعاً؛ ثم أتى الجزل عائداً، فسأله عن جراحاته، وحادثه، فقال الجزل: يابن عم، إنك تسير إلى فرسان العرب وأبناء الحرب وأحلاس الخيل، والله لكأنما خلقوا من ضلوعها؛ ثم ربوا على ظهورها؛ ثم هم أسد الأجم، الفارس منهم أشد من مائة، إن لم يبدأ به بدأ هو، وإن هجهج أقدم، وإني قد قاتلتهم وبلوهم، فإذا أصحرت لهم انتصفوا مني، وكان لهم الفضل علي، وإذا خندقت أو قاتلت في مضيق نلت منهم ما أحب؛ وكانت لي عليهم، فلا تلقهم وأنت تستطيع إلا وأنت في تعبئة أو خندق، ثم ودعه، وقال له: هذه فرسي الفسيفساء خذها فإنها لا تجارى، فأخذها ثم خرج بالناس نحو شبيب، فلما دنا منه ارتفع شبيب عنه إلى دقواء وشهرزور، فخرج عبد الرحمن في طلبه؛ حتى إذا كان على تخوم تلك الأرض أقام، وقال: إنما هو في أرض الموصل؛ فليقاتل أمير الموصل وأهلها عن بلادهم أو فليدعوا.

وبلغ ذلك الحجاج، فكتب إليه: أما بعد، فاطلب شبيباً واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فتقتله أو تنفيه عن الأرض، فإنما السلطان أمير المؤمنين، والجند جنده. والسلام.

فلما قرأ عبد الرحمن كتاب الحجاج خرج في طلب شبيب، فكان شبيب يدعه، حتى إذا دنا منه لبيته فيجده قد خندق وحذر، فيمضي ويتركه، فيتبعه عبد الرحمن فإذا بلغ شبيباً أنه قد تحمل وسار يطلبه كر في الخيل نحوه، فإذا انتهى إليه وجده قد صف خيله ورجالته المرامية، فلا يصيب له غرة ولا غفلة، فيمضي ويدعه.

ولما رأى شبيب أنه لا يصيب غرته، ولا يصل إليه، حتى صار يخرج كلما دنا منه عبد الرحمن حتى يتزل على مسيرة عشرين فرسخاً، ثم يقيم في أرض غليظة وعرة، فيجيء عبد الرحمن في ثقله وخيله، حتى إذا دنا من شبيب ارتحل، فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخاً، فترل غليظاً حشناً، ثم يقيم حتى يبلغ عبد الرحمن ذلك المنزل، ثم يرتحل، فعذب العسكر، وشق عليهم، وأحفى دواهم، ولقوا منه كل بلاء.

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه، حتى صار إلى خانقين وجلولاء، ثم أقبل على تامرا، فصار إلى البت، ونزل على تخوم الموصل ليس بينه وبين الكوفة إلا نهر حولايا، وجاء عبد الرحمن حتى نزل بشرقي حولايا، وهم في راذان الأعلى من أرض جوخي، ونزل في عواقل من النهر، ونزلها عبد الرحمن حيث نزلها، وهي تعجبه، يرى أنها مثل الخندق الحصين. فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أن هذه الأيام عيد لنا ولكم، فإن رأيتم أن توادعونا حتى تمضي هذه الأيام فعلتم؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك؛ ولم يكن شيء أحب إلى عبد الرحمن من المطاولة والمواذعة، فكتب عثمان بن قطن إلى الحجاج:

أما بعد، فإني أخير الأمير أصلحه الله، أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد حفر جوحى كلها عليه خندقاً واحداً، وخلقى شبيباً، وكسر خراجها، فهو يأكل أهلها، والسلام.

فكتب إليه الحجاج: قد فهمت ما ذكرت، وقد لعمرى فعل عبد الرحمن، فسر إلى الناس، فأنت أميرهم، وعاجل المارقة حتى تلقاهم، فإن الله إن شاء ناصرك عليهم، والسلام.

وبعث الحجاج على المدائن مطرف بن المغيرة بن شعبة، وخرج عثمان حتى قدم على عبد الرحمن ومن معه، وهم معسكرون على نهر حولايا، قريباً من البت، وذلك يوم التروية عشاء، فنادى في الناس، وهو على تلعة: أيها الناس، اخرجوا إلى عدوكم. فوثبوا إليه، وقالوا: نندك الله! هذا المساء قد غشنا، والناس لم يوطنوا أنفسهم على القتال فبت الليلة ثم اخرج على تعبئة، فجعل يقول: لأناجزهم الليلة، ولتكونن الفرصة لي أو لهم، فأتاه عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث، فأخذ بعنان بغلته، وناشده الله لما نزل، وقال له عقيل بن شداد السلوي: إن الذي تريده من مناجزهم الساعة أنت فاعله غداً، وهو خير لك وللناس، إن هذه ساعة ريح قد اشتدت مساءً، فانزل، ثم أبكر بنا غدوة. فترل وسفت عليه الريح، وشق عليه الغبار، فاستدعى صاحب الخراج علوجاً، فبنوا له قبة فيها؛ ثم أصبح فخرج بالناس، فاستقبلتهم ريح شديدة وغبرة، فصاح الناس إليه، نندك الله ألا تخرج بنا في هذا اليوم! فإن الريح علينا، فأقام ذلك اليوم.

وكان لشبيب يخرج إليهم، فلما رآهم لا يخرجون إليه أقام، فلما كان الغد خرج عثمان يعي الناس على أرباعهم، وسألهم: من كان على ميمنتكم وميسرتكم؟ فقالوا: خالد بن نهيك بن قيس الكندي على ميسرتنا، وعقيل بن شداد السلوي على ميمنتنا، فدعاهما وقال لهما: قفا في موافقكما التي كنتما بهما، فقد وليتكما المخبيتين، فاثبتا ولا تفرا، فوالله لا أزول حتى تزول نخيل راذان عن أصولها. فقالا: نحن والله الذي لا إله إلا هو لا نفر حتى نظفر أو نقتل، فقال لهما: جزاكم الله خيراً! ثم أقام حتى صلى بالناس الغداة، ثم خرج بالخيـل، فترل يمشي في الرجال، وخرج شبيب ومعه يومئذ مائة وأحد وثمانون رجلاً، فقطع إليهم النهر؛ وكان هو في ميمنة أصحابه، وجعل على الميسرة سويد بن سليم، وجعل في القلب مصداً أخاه وزحفوا، وكان عثمان بن قطن يقول لأصحابه فيكثر: " قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً " .

ثم قال شبيب لأصحابه: إني حامل على ميسرتهم، مما يلي النهر؛ فإذا هزمتها فليحمل صاحب ميسرتي على ميمنتهم، ولا يبرح صاحب القلب حتى يأتيه أمري، ثم حمل في ميمنة أصحابه مما يلي النهر على ميسرة عثمان بن قطين؛ فانهزموا، ونزل عقيل بن شداد مع طائفة من أهل الحفاظ، فقاتل حتى قتل، وقتلوا معه.

ودخل شبيب عسكرهم، وحمل سويد بن سليم في ميسرة شبيب على ميمنة عثمان بن قطن فهزمها، وعليها خالد بن نهيك الكندي، فترل خالد، وقاتل قتالاً شديداً، فحمل عليه شبيب من ورائه، فلم يثن حتى علاه بالسيف فقتله، ومشى عثمان بن قطن؛ وقد نزلت معه العرفاء والفرسان وأشراف الناس نحو القلب، وفيه أخو شبيب في نحو من ستين رجلاً، فلما دنا منهم عثمان، شد عليهم في الأشراف وأهل الصبر، فضرهم مصداً وأصحابه، حتى فرقوا بينهم، وحمل شبيب من

ورائهم بالخيـل، فما شعروا إلا والرماح في أكتافهم تكبهم لوجوههم، وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً في خيله، وقاتل عثمان فأحسن القتال.

ثم إن الخوارج شدوا عليهم؛ فأحاطوا بعثمان، وحمل عليه مصاد أخو شبيب؛ فضربه ضربةً بالسيف فاستدار لها، وسقط، وقال: "وكان أمر الله قدراً مقدوراً"، فقتل وقتل معه العرفاء ووجوه الناس، وقتل من كندة يومئذ مائة وعشرون رجلاً، وقتل من سائر الناس نحو ألف، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض، فعرفه ابن أبي سيرة، فترل وأركبه، وصار رديفاً له. وقال له عبد الرحمن: ناد في الناس، الحقوا بدير ابن أبي مریم؛ فنأدى بذلك؛ وانطلقا ذاهبين، وأمر شبيب أصحابه، فرفعوا عن الناس السيف، ودعاهم إلى البيعة، فأتاه من بقي من الرجال، فبايعوه، وبات عبد الرحمن بدير اليعار، فأتاه فارسان ليلاً، فخلا به أحدهما يناجيه طويلاً، وقام الآخر قريباً منهما، ثم مضيا ولم يعرفا؛ فتحدث الناس أن المناجي له كان شبيباً؛ وأن الذي كان يرقبهما كان مصاداً أخاه، واتهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل.

ثم خرج عبد الرحمن آخر الليل، فسار حتى أتى دير ابن أبي مریم، فإذا هو بالناس قبله قد سبقوه، وقد وضع لهم ابن أبي سيرة صبر الشعير والقت كألها القصور، ونحر لهم من الجزور ما شاؤوا، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن، فقالوا له: إن علم شبيب بمكانك أنك فكننت له غنيمة؛ قد تفرق الناس عنك، وقتل خيارهم، فالحق أيها الرجل بالكوفة.

فخرج وخرج معه الناس؛ حتى دخل الكوفة مستتراً من الحجاج، إلى أن أخذ له الأمان بعد ذلك.

ثم إن شبيباً عليه الحر وعلى أصحابه، فأتى ماه بمراذان، فصيف بها ثلاثة أشهر، وأتاه ناس ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير، ولحق به ناس ممن كان يطلبهم الحجاج بمال وتبعة، فمنهم رجل يقال له الحر بن عبد الله بن عوف، كان قتل دهقانين من أهل نهر درقيط، كانا أساءا إليه، ولحق بشبيب حتى شهد معه موطنه إلى أن هلك، وله مقام عند الحجاج، وكلام سلم به من القتل، وهو أن الحجاج بعد هلاك شبيب، أمن كل من خرج إليه ممن كان يطلبهم الحجاج بمال، أو تبعة، فخرج إليه الحر فيمن خرج، فجاء أهل الدهقانين يستعدون عليه الحجاج، فأحضره، وقال: يا عدو الله، قتلت رجلين من أهل الخراج؛ فقال: قد كان أصلحك الله مني ما هو أعظم من هذا، قال: وما هو؟ قال: خروجي عن الطاعة، وفراقي الجماعة، ثم إنك أمنت كل من خرج عليك، وهذا أمان وكتابك لي.

فقال الحجاج: قد لعمرى فعلت، ذلك أولى لك! وخلي سبيله.

ثم لما باخ الحر، وسكن عن شبيب خرج من ماه بمراذان في نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن، وعليها المطرف بن المغيرة بن شعبة، فجاء حتى نزل قناطر حذيفة بن اليمان فكتب ما ذراسب وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شبيب وقدمه إلى قناطر حذيفة، فقام الحجاج في الناس وخطبهم، وقال: أيها الناس، لتقاتلن عن بلادكم وفيكم، أو لأبعثن إلى قوم هم أطوع وأسمع، وأصبر على البلاء منكم، فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيكم - يعني جند الشام. فقام إليه الناس من كل جانب، يقولون: بل نحن نقاتلهم، ونغيث الأمير، فليندبنا إليهم، فإننا حيث يسره.

وقام إليه زهرة بن حوية - وهو يومئذ شيخ كبير لا يستتم قائماً، حتى يؤخذ بيده - فقال: أصلح الله الأمير! إنك إنما تبعث الناس متقطعين، فاستقر إليهم الناس كافة، وابعث عليهم رجلاً متيناً شجاعاً مجرباً، يرى الفرار هضماً وعاراً،

والصبر مجداً وكرماً.

فقال الحجاج: فأنت ذاك، فأخرج، فقال: أصلح الله الأمير! إنما يصلح لهذا الموقف رجل يحمل الرمح والدرع، ويهز السيف، ويثبت على متن الفرس، وأنا لا أطيق ذلك، قد ضعفت وضعف بصري ولكن ابعتني مع أميرٍ تعتمده، فأكون في عسكره، وأشير عليه برأيي.

فقال: جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيراً، لقد نصحت وصدقت، وأنا مخرج الناس كافة، ألا فسيروا أيها الناس، فانصرف الناس يتجهزون وينتشرون، ولا يدرون من أميرهم.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك: أما بعد، فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله، أن شبيباً قد شارف المدائن، وإنما يريد الكوفة، وقد عجز أهل العراق عن قتاله في مواطن كثيرة، في كلها تقتل أمراؤهم ويقل خيولهم وأجنادهم؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلي جنداً من الشام ليقاتلوا عدوهم، ويأكلوا بلادهم فعل إن شاء الله.

فلما أتى عبد الملك كتابه بعث إليه سفيان بن الأبرد في أربعة آلاف، وبعث إليه حبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مدحج في ألفين وسرحهم نحوه حين أتاه الكتاب.

وقد كان الحجاج بعث إلى عتاب بن ورقاء الرياحي ليأتيه، وكان على خيل الكوفة مع المهلب، ودعا الحجاج أشراف أهل الكوفة، منهم زهرة بن حوية، وقبيصة بن الق، فقال: من ترون أن أبعث على هذا الجيش؟ قالوا: رأيك أيها الأمير أفضل؛ قال: إني قد بعثت وهو قادم عليكم الليلة، فيكون هو الذي يسير بالناس، فقال زهرة بن حوية: أصلح الله الأمير! رميتهم بحجرهم، لا والله لا يرجع إليك حتى يظفر أو يقتل.

فقال قبيصة بن الق: وإني مشير عليك أيها الأمير برأيٍ اجتهدته، نصيحة لك ولأمير المؤمنين ولعمامة المسلمين، إن الناس قد تحدثوا أن جيشاً قد وصل إليك من الشام؛ لأن أهل الكوفة قد هزموا، وهان عليهم الفرار والعار من الهزيمة، فكأنما قلوبهم في صدور قوم آخرين، فإن رأيت أن تبعث إلى الجيش قد أمددت به من أهل الشام، فليأخذوا حذرهم، ولا يثبتوا بمثل إلا وهم يرون أنهم يبيتون، فإن فعلت فإنك إنما تحارب حولاً قلباً محلاًلاً مظعناً، إن شبيباً بينا هو في أرض إذا هو في أخرى، ولا آمن أن يأتيهم وهم غارون، فإن يهلكوا يهلك العراق كله.

فقال الحجاج: لله أبوك! ما أحسن ما رأيت! وما أصح ما أشرت به! فبعث إلى الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرأوه وقد نزلوا هيت؛ وهو: أما بعد، فإذا حاذيت هيت، فدعوا طريق الفرات والأنبار، وخذوا على عين التمر، حتى تقدموا الكوفة، إن شاء الله.

فأقبل القوم سراعاً، وقدم عتاب بن ورقاء في الليلة التي قال الحجاج إنه فيها قادم؛ فأمره الحجاج؛ فخرج بالناس، وعسكر بحمام أعين وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كلواذى، فقطع منها دجلة، وأقبل حتى نزل بهر سير وصار بينه وبين مطرف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة، فقطع مطرف الجسر، ورأى رايماً صالحاً كاد به شبيباً؛ حتى حبسه عن وجهه، وذلك أنه بعث إليه: أن ابعت إلي رجالاً من فقهاء أصحابك وقرائهم، وأظهر له أنه يريد أن يدارسهم القرآن، وينظر فيما يدعون إليه، فإن وجد حقاً اتبعه، فبعث إليه شبيب رجالاً، فيهم قعنب وسويد والمجلل، ووصاهم ألا يدخلوا السفينة حتى يرجع

رسوله من عند مطرف، وأرسل إلى مطرف: أن ابعث إلي من أصحابك ووجوه فرسانك بعدة أصحابي، ليكونوا رهناً في يدي، حتى ترد علي أصحابي. فقال مطرف لرسوله: القه، وقل له: كيف آمنك الآن على أصحابي، إذ أبعثهم إليك، وأنت لا تأمنني على أصحابك! فأبلغه الرسول، فقال: قل له: قد علمت أنا لا نستحل الغدر في ديننا، وأنتم قوم غدر تستحلون الغدر وتفعلونه. فبعث إليه مطرف جماعةً من وجوه أصحابه، فلما صاروا في يد شبيب، سرح إليه أصحابه، فعبروا إليه في السفينة، فأتوه، فمكثوا أربعة أيام يتناظرون، ولم يتفقوا على شيء، فلما تبين لشبيب أن مطرفاً كاده، وأنه غير متابع له، تعيى للمسير، وجمع إليه أصحابه، وقال لهم: إن هذا الثقيفي قطعني عن رأيي منذ أربعة أيام، وذلك أني هممت أن أخرج في جريدة من الخيل، حتى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام، وأرجو أن أصادف غرقم قبل أن يحدروا، وكنت ألقاهم منقطعين عن المصر، ليس عليهم أمير كالحجاج يستندون إليه، ولا لهم مصر كالكوفة يعتصمون به، وقد جاءني عيون أن أوائلهم قد دخلوا عين التمر، فهم الآن قد شارفوا الكوفة، وجاءني أيضاً عيون من نحو عتاب أنه نزل بحمام أعين بجماعة أهل الكوفة وأهل البصرة، فما أقرب ما بيننا وبينهم! فتيسروا بنا للمسير إلى عتاب. وكان عتاب حينئذ قد أخرج معه خمسين ألفاً من المقاتلة، وهددهم الحجاج إن هربوا كعادة أهل الكوفة، وتوعدهم، وعرض شبيب أصحابه بالمدائن، فكانوا ألف رجل فخطبهم وقال: يا معشر المسلمين، إن الله عز وجل كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان، واليوم فأنتم مئون ومئون، ألا وإني مصل الظهر، ثم سائر بكم إن شاء الله، فصلى الظهر، ثم نادى في الناس، فتخلف عنه بعضهم.

قال فروة بن لقيط: فلما جاز ساباط، ونزلنا معه، قص علينا، وذكرنا بأيام الله، وزهدنا في الدنيا، ورغبنا في الآخرة. ثم أذن مؤذنه فصلى بنا العصر، ثم أقبل حتى أشرف على عتاب ابن ورقاء، فلما رأى جيش عتاب نزل من ساعته، وأمر مؤذنه، فأذن ثم تقدم، فصلى بأصحابه صلاة المغرب، وخرج عتاب بالناس كلهم فعبأهم، وكان قد خندق على نفسه مذ يوم نزل.

وجعل على ميمنته محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، قال له: يابن أخي إنك شريف، فاصبر وصابر، فقال: أما أنا فوالله لأقاتلن ما ثبت معي إنسان.

وقال لقيصة بن والقي التغلي: اكفني الميسرة، فقال: أنا شيخ كبير، غاييتي أن أثبت تحت رايتي، أما تراني لا أستطيع القيام إلا أن أقام، وأخي نعيم بن عليم ذو غناء، فابعثه على الميسرة. فبعثه عليها. وبعث حنظلة بن الحارث الرياحي ابن عمه، وشيخ أهل بيته على الرحالة، وبعث معه ثلاثة صفوف: صف فيه الرحالة ومعهم السيوف، وصف هم أصحاب الرماح، وصف فيه المرامية.

ثم سار عتاب بين الميمنة والميسرة يمر بأهل راية راية، فيحرض من تحتها على الصبر، ومن كلامه يومئذ: إن أعظم الناس نصيباً من الجنة الشهداء، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي، ألا ترون عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه؛ لا يرى ذلك إلا قرية لهم! فهم شرار أهل الأرض، وكلاب أهل النار. فلم يجبه أحد، فقال: أين القصاص يقصون على الناس، ويحرضونهم؟ فلم يتكلم أحد، فقال: أين من يروي شعر عنترة، فيحرك الناس؟ فلم يجبه أحد ولا رد عليه كلمة؛ فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ والله لكأني بكم وقد تفرقتم عن عتاب وتركتموه تسفي في إسته الريح، ثم أقبل حتى

جلس في القلب، ومعه زهرة بن حوية، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

وأقبل شبيب في ستمائة، وقد تخلف عنه من الناس أربعمائة؛ فقال: إنه لم يتخلف عني إلا من لا أحب أن أراه معي، فبعث سويد بن سليم في مائتين إلى الميسرة، وبعث الجحلل بن وائل في مائتين إلى القلب، ومضى هو في مائتين إلى الميمنة، وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة، حين أضاء القمر؛ فناداهم: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات همدان. فقال: رايات طالما نصرت الحق، وطالما نصرت الباطل، لها في كل نصيب؛ أنا أبو المدلة اثبتوا إن شئتم. ثم حمل عليهم، وهم على مسناة أمام الخندق، ففضهم، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق.

فجاء شبيب فوقف عليه، وقال لأصحابه: مثل هذا قوله تعالى: "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين".

ثم حمل على الميسرة ففضها، وصمد نحو القلب، وعتاب جالس على طنفسة، هو وزهرة بن حوية، فغشيه شبيب، فانفض الناس عن عتاب وتركوه، فقال عتاب: يا زهرة، هذا يوم كثر فيه العدد، وقل فيه الغناء، لهفي على خمسمائة فارس من وجوه الناس، ألا صابر لعدوه! ألا مواسٍ بنفسه! فمضى الناس على وجوههم، فلما دنا منه شبيب وثب إليه في عصابة قليلة صبرت معه، فقال له بعضهم: إن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد هرب، وانصفق معه ناس كثير، فقال: أما إنه قد فر قبل اليوم، وما رأيت ذلك الفتى، ما يبالي ما صنع، ثم قاتلهم ساعة، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط موطناً لم أبل بمثله، أقل ناصراً، ولا أكثر هارباً خاذلاً؛ فراه رجل من بني تغلب من أصحاب شبيب - وكان أصاب دماً في قومه، والتحق بشبيب، فقال: إني لأظن هذا المتكلم عتاب بن ورقاء، فحمل عليه فطعنه؛ فوقع وقتل، ووطئت الخيل زهرة بن حوية، فأخذ يذب بسيفه، وهو شيخ كبير لا يستطيع أن ينهض، فجاءه الفضل بن عامر الشيباني فقتله، وانتهى إليه شبيب؛ فوجده صريعاً فعرفه، فقال: من قتل هذا؟ قال الفضل: أنا قتلته، فقال شبيب: هذا زهرة بن حوية، أما والله لئن كنت قتلت على ضلالة؛ لرب يوم من أيام المسلمين قد حسن فيه بلاؤك، وعظم فيه غناؤك، ولرب خيل للمشركين هزمتها، وسرية لهم ذعرتها، ومدينة لهم فتحتها! ثم كان في علم الله أن تقتل ناصراً للظالمين.

وقتل يومئذ وجوه العرب من عسكر العراق في المعركة؛ واستمكن شبيب من أهل العسكر، فقال: ارفعوا عنهم السيف، ودعاهم إلى البيعة، فبايعه الناس عامة من ساعتهم، واحتوى على جميع ما في العسكر، وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن؛ فأتاه فأقام بموضع المعركة يومين، ودخل سفيان بن الأبرد الكلبي، وحبيب بن عبد الرحمن فيمن معهما إلى الكوفة، فشددوا ظهر الحجاج، واستغنى بهم عن أهل العراق، ووصلته أخبار عتاب وعسكره، فصعد المنبر، فقال: يا أهل الكوفة؛ لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد منكم النصر، اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا، والحقوا بالحيرة، فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا يقاتلن معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء.

وخرج شبيب يريد الكوفة، فأنتهى إلى سورا، فقال لأصحابه: أيكم يأتيني برأس عاملها، فانتدب إليه قطين، وقعب، وسويد، ورجلان من أصحاب شبيب، فكانوا خمسة، وساروا حتى انتهوا إلى دار الخراج، والعمال فيها، فقالوا: أجيوا الأمير، فقال الناس: أي أمير؟ قالوا: أمير قد خرج من قبل الحجاج، يريد هذا الفاسق شبيباً، فاغتر بذلك عامل سورا،

فخرج إليهم، فلما خالطهم شهروا السيوف، وحكموا وخبطوه بها حتى قتلوه، وقبضوا ما وجدوا في دار الخراج من مال، ولحقوا بشيب.

فلما رأى شيب البدر. قال: أتيتمونا بفتنة المسلمين! هلم يا غلام الحرب، فخرق بها البدر، وأمر أن تنخس الدواب التي كانت البدر عليها، فمرت رائحة، والمال يتناثر من البدر، حتى وردت الصراة، فقال: إن كان بقي شيء فاقدفوه في الماء.

وقال سفيان بن الأبرد للحجاج: ابعني إلى شيب أستقبله قبل أن يرد الكوفة، فقال: لا، ما أحب أن نفرق حتى ألقاه في جماعتكم، والكوفة في ظهرنا؛ وأقبل شيب حتى نزل حمام أعين، ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفي فوجهه في ناس لم يكونوا شهدوا يوم عتاب. فخرج في ألف رجل؛ حتى انتهى إلى شيب ليدفعه عن الكوفة؛ فلما رآه شيب حمل عليه فقتله؛ وفل أصحابه. فجاؤوا حتى دخلوا الكوفة، وبعث شيب البطين في عشرة فوارس يرتادون له منزلاً على شاطئ الفرات، في دار الرزق، فوجه الحجاج حوشب ابن يزيد، في جمع من أهل الكوفة، فأخذوا بأفواه السكك، فقاتلهم البطين فلم يبق عليهم، فبعث إلى شيب، فأمدته بفوارس من أصحابه، فعقرها فرس حوشب وهزموه، فجأ بنفسه، ومضى البطين إلى دار الرزق في أصحابه، ونزل شيب بها، ولم يوجه إليه الحجاج أحداً، فابتنى مسجداً في أقصى السبخة، وأقام ثلاثاً لم يوجه إليه الحجاج أحداً، ولا يخرج إليه من أهل الكوفة، ولا من أهل الشام أحد، وكانت امرأته غزاة نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين، تقرأ فيهما البقرة وآل عمران.

فجاء شيب مع امرأته حتى أوفت بنذرهما في المسجد، وأشير على الحجاج أن يخرج بنفسه إليه، فقال لقتيبة بن مسلم: إني خارج، فاخرج أنت، فارتد لي معسكراً، فخرج وعاد؛ فقال: وجدت المدى سهلاً، فسر أيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون، فخرج الحجاج بنفسه، ومر على مكان فيه كناسة وأقدار، فقال: ألقوا لي هنا بساطاً، فقبل له: إن الموضع قدر، فقال: ما تدعوني إليه أفدر، الأرض تحته طيبة، والسماء فوقه طيبة.

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبي الورد، وعليه تجفاف، وأحاط به غلمان كثير؛ وقيل: هذا الحجاج؛ فحمل عليه شيب فقتله، وقال: إن يكن الحجاج، فقد أرحت الناس منه، ودلف الحجاج نحوه حينئذ، وعلى ميمنته مطر بن ناجية، وعلى ميسرته خالد بن عتاب بن ورقاء، وهو في زهاء أربعة آلاف؛ فقبل له: أيها الأمير لا نعرف شيباً بمكانك، فتنكر، وأخفى مكانه، وتشبه به مولى آخر للحجاج في هيئته وزيه، فحمل عليه شيب، فضربه بالعمود فقتله، ويقال إنه قال لما سقط: أخ بالخاء المعجمة قال شيب: قاتل الله ابن أم الحجاج! اتقى الموت بالعبيد؛ وذلك أن العرب تقول عند التأوه أح بالخاء المهملة.

ثم تشبه بالحجاج أعين صاحب حمام أعين، ولبس لبسته، فحمل عليه شيب فقتله، فقال الحجاج: علي بالبغل لأركبه، فأني ببغل محجل، وقيل: أيها الأمير؛ أصلحك الله! إن الأعاجم كانت تطير أن تركب مثل هذا البغل في مثل هذا اليوم؛ فقال: أدنوه مني فإنه أغر محجل، وهذا يوم أغر محجل، فركبه، ثم سار في الناس يميناً وشمالاً، ثم قال: اطرحوا لي عباءة، فطرحته له، فترل فجلس عليها، ثم قال: اتنوني بكرسي، فأني به، فقام فجلس عليه، ثم نادى أهل الشام، فقال: يا أهل الشام، يا أهل السمع والطاعة، لا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم، غضوا الأبصار، واجثو على الركب، واستقبلوا

القوم بأطراف الأسنة، فحشوا على الركب، وكأنهم حرة سوداء.

ومنذ هذا الوقت ركدت ريح شبيب، وأذن الله تعالى في إدبار أمره، وانقضاء أيامه فأقبل، حتى إذا دنا من أهل الشام عى أصحابه ثلاثة كراديس، كتيبة معه، وكتيبة مع سويد بن سليم وكتيبة مع المجلل بن وائل، وقال لسويد: احمل عليهم في خيلك، فحمل عليهم فثبتوا له حتى إذا غشي أطراف أسنتهم، وثبوا في وجهه، فقاتلهم طويلاً، فصبروا له، ثم طاعنوه، قدماً قدماً؛ حتى ألحقوه بأصحابه.

فلما رأى شبيب صبرهم، نادى: يا سويد، احمل في خيلك في هذه الرايات الأخرى، لعلك تزيل أهلها، فتأتي الحجاج من ورائه، ونحمل نحن عليه من أمامه. فحمل سويد على تلك الرايات، وهي بين جدران الكوفة، فرمي بالحجارة من سطوح البيوت، ومن أفواه السكك، فانصرفوا ولم يظفروا.

ورماه عروة بن المغيرة بن شعبة بالسهم، وقد كان الحجاج جعله في ثلاثمائة رامٍ من أهل الشام رداءً له كي لا يؤتى من ورائه، فصاح شبيب في أصحابه: يا أهل الإسلام! إنما شريتم الله، ومن يكن شراؤه لله لم يضره ما أصابه من ألم وأذى، لله أبوكم! الصبر الصبر، شدة كشداتكم الكريمة في مواطنكم المشهورة.

فشدوا شدة عظيمة، فلم يزل أهل الشام عن مراكزهم، فقال شبيب: الأرض! دبوا ديباً تحت تراسكم، حتى إذا صارت أسنة أصحاب الحجاج فوقها، فأذلقوها صعداً، وادخلوها تحتها، واضربوا سوقهم وأقدامهم، وهي الهزيمة بإذن الله. فأقبلوا يدبون ديباً تحت الجحف: صمداً صمداً، نحو أصحاب الحجاج.

فقال خالد بن عتاب بن ورقاء: أيها الأمير، أنا موتور، ولا أهتم في نصيحتي، فأذن لي حتى آتيهم من ورائهم، فأغير على معسكرهم وثقلهم، فقال: افعل ذلك، فخرج في جمع من مواليه وشاكريته وبني عمه، حتى صار من ورائهم، فالتقى بمصائد أخي شبيب فقتله، وقتل غزاة امرأة شبيب، وألقى النار في معسكرهم، والتفت شبيب والحجاج، فشاهدا النار، فأما الحجاج فكبر وكبر أصحابه، وأما شبيب، فوثب هو وكل راجل من أصحابه على خيولهم مرعوبين، فقال الحجاج لأصحابه: شدوا عليهم، فقد أتاهم ما أرعبهم؛ فشدوا عليهم، فهزمهم، وتخلف شبيب في خاصة الناس، حتى خرج من الجسر، وتبعه خيل الحجاج، وغشيه النعاس، فجعل يخفق برأسه، والخيل تطلبه.

قال أصغر الخارجي: كنت معه ذلك اليوم، فقلت: يا أمير المؤمنين، التفت فانظر من خلفك؛ فالتفت غير مكترث، وجعل يخفق برأسه. وقال: ودنوا منا، فقلت: يا أمير المؤمنين، قد دنا القوم منك، فالتفت والله ثانية غير مكترث بهم، وجعل يخفق برأسه، وبعث الحجاج خيلاً تركض تقول: دعوه يذهب في حرق الله، فتركوه وانصرفوا عنه.

ومضى شبيب بأصحابه، حتى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا ديراً هناك، وخالد بن عتاب يقفهم، فحصرهم في الدير، فخرج شبيب إليه فهزمه وأصحابه نحواً من فرسخين، حتى ألقي خالد نفسه في دجلة هو وأصحابه بخيولهم، فمر به شبيب، فرآه دجلة، ولواؤه في يده، فقال: قاتله الله فارساً، وقاتل فرسه! فرس هذا أشد الناس قوة، وفرسه أقوى فرس في الأرض، وانصرف، فقبل له بعد انصرافه: إن الفارس الذي رأيت هو خالد بن عتاب بن ورقاء، فقال: معرق في الشجاعة! لو علمت لأقحمت خلفه، ولو دخل النار.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

ثم دخل الحجاج الكوفة بعد هزيمة شبيب، فصعد المنبر، وقال: والله ما قوتل شبيب قط قبل اليوم، ولى هارباً، وترك أرماته يكسر في إستها القصب.

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام، وقال: احذر بيّاته، وحيثما لقيته فنازله، فإن الله تعالى قد فل حده، وقصم نابه. فخرج حبيب في أثره، حتى نزل الأنبار، وبعث الحجاج إلى العمال: أن دسوا إلى أصحاب شبيب، من جاءنا منكم فهو آمن، فكان كل من ليست له بصيرة في دين الخوارج، ممن هزه القتال وكرهه ذلك اليوم يجيء فيؤمن. وقبل ذلك كان الحجاج نادى يوم هزم شبيب؛ من جاءنا فهو آمن، فتفرق عن شبيب ناس كثير من أصحابه.

وبلغ شبيباً منزلاً حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه؛ فقال يزيد السكسكي، كنت مع أهل الشام بالأنبار ليلة جاءنا شبيب، فبيتنا، فلما أمسينا جمعنا حبيب بن عبد الرحمن، فجعلنا أربعاً وجعل على كل ربع أميراً، وقال لنا: ليحم كل ربع منكم جانبه، فإن قتل هذا الربع فلا يعنهم الربع الآخر، فإنه بلغني أن الخوارج منكم قريب؛ فوطنوا أنفسكم على أنكم مبيتون فمقاتلون، قال: فما زلنا على تعبيتنا حتى جاءنا شبيب تلك الليلة فبيتنا، فشد على ربع منا فصابرهم طويلاً، فما زالت قدم إنسان منهم. ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر، فقاتلهم طويلاً فلم يظفر بشيء، ثم طاف بنا يحمل علينا ربعاً ربعاً، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل ولصق بنا حتى قلنا: لا يفارقنا، ثم ترجل فنازلنا راجلاً نزلاً طويلاً هو وأصحابه، فسقطت والله بيننا وبينهم الأيدي والأرجل، وفقت الأعين، وكثرت القتلى، فقتلنا منهم نحو ثلاثين، وقتلوا منا نحو مائة، وإيم الله لو كانوا أكثر رجل لأهلكونا، ثم فارقونا وقد مللناهم وملونا، وكرهناهم وكرهونا، ولقد رأيت الرجل منا يضرب الرجل منهم بالسيف فما يضره من الإعياء والضعف، ولقد رأيت الرجل منا يقاتل جالساً ينفح بسيفه ما يستطيع أن يقوم من الإعياء والبحر. حتى ركب شبيب، وقال لأصحابه الذين نزلوا معه: اركبوا، وتوجه بهم منصرفاً عنا.

فقال فروة بن لقيط الخارجي - وكان شهد معه مواطنه كلها - قال لنا ليلتئذ، وقد رأى بنا كآبة ظاهرة، وجراحات شديدة: ما أشد هذا الذي بنا لو كنا نطلب الدنيا! وما أيسر هذا في طاعة الله وثوابه! فقال أصحابه: صدقت يا أمير المؤمنين.

قال فروة بن لقيط: وسمعت تلك الليلة يحدث سويد بن سليم، ويقول له: لقد قتلت منهم أمس رجلين من أشجع الناس، خرجت عشية أمس طليعة لكم، فلقيت منهم ثلاثة نفر دخلوا قرية يشترون منها حوائجهم، فاشترى أحدهم حاجته، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه، فقال لي: أراك لم تشتري علفاً! فقلت: إن لي رفقاء قد كفوني ذلك، ثم قلت له: أين ترى عدونا هذا نزل؟ فقال: بلغني أنه قد نزل قريباً منا، وإيم الله لو ددت أني لقيت شبيبهم هذا، قلت: أفتحب ذلك؟ قال: إي والله، قلت: فخذ حذرك، فأنا والله شبيب، وانتضيت السيف، فخر والله ميتاً فقلت له: ارتفع ويحك! وذهبت أنظر فإذا هو قد مات فانصرفت راجعاً، فاستقبلت الآخر خارجاً من القرية، فقال: أين تذهب هذه الساعة التي يرجع فيها الناس إلى معسكرهم؟ فلم أكلمه، ومضيت، فنفرت بي فرسي، وذهبت تتمطر، فإذا به في أثري حتى لحقني،

فعطفت عليه؛ وقلت: ما بالك؟ قال: أظنك والله من عدونا. قلت: أجل والله، قال: إذا لا تبرح حتى أقتلك أو تقتلني؛ فحملت عليه وحمل علي، فاضطربنا بسيوفنا ساعة، فوالله ما فضلتته في شدة نفس ولا إقدام، إلا أن سيفي كان أقطع من سيفه فقتلته.

وبلغ شبیباً أن جند الشام الذي مع حبيب حملوا معهم حجراً، وحلفوا لا يفرون حتى يفر هذا الحجر، فأراد أن يكذبهم، فعمد إلى أربعة أفراس، وربط في أذناها ترسة، في ذنب كل فرس ترسين، ثم ندب ثمانية نفر من أصحابه، وغلاماً له يقال له حيان - كان شجاعاً فاتكاً - وأمره أن يحمل معه إداوة من ماء، ثم سار ليلاً حتى أتى ناحية من عسكر أهل الشام، فأمر أصحابه أن يكونوا في نواحي العسكر الأربع، وأن يكون مع كل رجلين فرس، ثم يلبسوها الحديد حتى تجد حره، ثم يخلوها في العسكر، وواعدتهم تلعةً قريبة من العسكر، وقال: من بنا منكم؛ فإن موعدة التلعة، فكره أصحابه الإقدام على ما أمرهم؛ فترل بنفسه حتى صنع بالخليل ما أمرهم به؛ حتى دخلت في العسكر، ودخل هو يتلوها، ويشد خلفها شداً محكماً، فتفرقا في نواحي العسكر، واضطرب الناس، فضرب بعضهم بعضاً، وماجوا، ونادى حبيب بن عبد الرحمن: ويحكم! إنما مكيدة، فالزموا الأرض حتى يتبين لكم الأمر، ففعلوا؛ وحصل شبیب بينهم، فلزم الأرض معهم، حتى رأهم قد سكنوا، وقد أصابته ضربة عمود أوهنته.

فلما هدأ الناس ورجعوا إلى مراكزهم خرج في غمارهم، حتى أتى التلعة، فإذا مولاه حيان؛ فقال: افرغ ويحك على رأسي من هذه الإداوة! فلما مد رأسه ليصب عليه الماء هم حيان بضرب عنقه؛ وقال لنفسه: لا أجد مكرمة لي، ولا ذكراً أرفع من هذا في هذه الخلوة، وهو أمان من الحجاج؛ فأخذته الرعدة حين هم بما هم به؛ فلما أبطأ عليه، قال له: ويحك! ما انتظارك بجلها! ناولنيها، وتناول السكين من موزجه فخرقها به، ثم ناولها إياها، فأفرغ عليه من الماء، فكان حيان بعد ذلك يقول: لقد هممت فأخذتني الرعدة فجبت عنه؛ وما كنت أعهد نفسي جباناً.

ثم إن الحجاج أخرج الناس إلى شبیب، وقسم فيهم أموالاً عظيمة، وأعطى الجرحى وكل ذي بلاء، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسير بهم، فشق ذلك على حبيب بن عبد الرحمن، وقال: تبعث سفيان إلى رجل قد فلتته، وقتلت فرسانه! وكان شبیب قد أقام بكرمان حتى جبر، واستراش هو وأصحابه؛ فمضى سفيان بالرجال، واستقبله شبیب بدجيل الأهواز؛ وعليه جسر معقود، فعبر إلى سفيان، فوجده قد نزل بالرجال، وجعل مهاصر بن صيفي على خيله، وبشر ابن حسان الفهري على ميمنته، وعمر بن هبيرة الفزاري على ميسرته، وأقبل شبیب في ثلاثة كراديس، هو في كتيبة؛ وسويد بن سليم في كتيبة، وقعب في كتيبة، وخلف المجلل في عسكره، فلما حمل سويد وهو في ميمنته على ميسرة سفيان وقعب وهو في ميسرته على ميمنة سفيان، حمل سفيان، ثم اضطربوا ملياً، حتى رجعت الخوارج إلى مكائهم الذي كانوا فيه.

فقال يزيد السكسكي - وكان من أصحاب سفيان يومئذ: كر علينا شبیب واصحابه أكثر من ثلاثين كرة، ولا يزول من صفنا أحد، فقال لنا سفيان: لا تحملوا عليهم متفرقين، ولكن لترحف عليهم الرجال زحفاً؛ ففعلنا، وما زلنا نطاعنهم حتى اضطربناهم إلى الجسر، فقاتلونا عليه أشد قتال يكون لقوم قط. ثم نزل شبیب، ونزل معه نحو مائة رجل؛ فما هو إلا أن نزلوا حتى أوقعوا بنا من الضرب والطعن شيئاً ما رأينا مثله قط، ولا ظننا به يكون؛ فلما رأى سفيان أنه لا يقدر عليهم،

ولا يأمن ظفرهم، دعا الرماة فقال: ارشقوهم بالنبل؛ وذلك عند المساء، وكان الالتقاء ذلك اليوم نصف النهار، فرشقهم أصحابه؛ وقد كان سفيان صفهم على حدة، وعليهم أمير، فلما رشقوهم شدوا عليهم، فشددنا نحن، وشغلناهم عنهم، فلما رأوا ذلك ركب شبيب وأصحابه، وكروا على أصحاب النبل كرة شديدة، صرعوا منهم فيها أكثر من ثلاثين رامياً، ثم عطف علينا يطاعنا بالرماح، حتى اختلط الظلام، ثم انصرف عنا، فقال سفيان بن الأبرد لأصحابه: يا قوم، دعوهم لا تتبعوهم؛ يا قوم دعوهم لا تتبعوهم حتى نصبحهم . قال: فكففنا عنهم وليس شيء أحب إلينا من أن ينصرفوا عنا. قال فروة بن لقيط الخارجي: فلما انتهينا إلى الجسر، قال شبيب: اعبروا معاشر المسلمين فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله تعالى، قال: فعبرنا أمامه، وتخلف في آخرنا، وأقبل يعبر الجسر، وتحتة حصان جموح، وبين يديه فرس أثنى ماذيانه، فترا حصانه عليها وهو على الجسر؛ فاضطربت الماذيانه، وزل حافر فرس شبيب عن حرف السفينة، فسقط في الماء، فسمعناه يقول لما سقط: " ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ": واغتمس في الماء ثم ارتفع فقال: " ذلك تقدير العزيز العليم " ثم اغتمس في الماء، فلم يرتفع.

هكذا روى أكثر الناس. وقال قوم: إنه كان مع شبيب رجال كثير بايعوه في الوقائع التي كان يهزم الجيش فيها، وكانت بيعتهم إياه على غير بصيرة، وقد كان أصاب عشائرتهم وساداتهم، فهم منه موتورون ، فلما تخلف في أخريات الناس يومئذ، قال بعضهم لبعض: هل لكم أن نقطع به الجسر، فندرك تأرنا الساعة! فقالوا: هذا هو الرأي، فقطعوا الجسر، فمالت به السفينة، ففزع حصانه ونفر، فسقط في الماء وغرق. والرواية الأولى أشهر، فحدث قوم من أصحاب سفيان، قالوا: سمعنا صوت الخوارج يقولون: غرق أمير المؤمنين، فعبرنا إلى عسكرهم، فإذا هو ليس فيه صافر ولا أثر، فترلنا فيه، وطلبنا شبيباً حتى استخرجناه من الماء، وعليه الدرع؛ فيزعم الناس أنهم شقوا بطنه وأخرجوا قلبه فكان مجتمعاً صلباً كالصخرة، وأنه كان يضرب به الأرض فينبو، ويثب قامة الإنسان.

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدق أحداً نعاها إليها، وقد كان قيل لها مراراً إنه قد قتل فلا تقبل، فلما قيل لها: إنه قد غرق بك، فقبل لها في ذلك، فقالت: رأيت في المنام حين ولدته أنه خرج من فرجي نار ملأت الآفاق، ثم سقطت في الماء فحمدت. فعلمت أنه لا يهلك إلا بالغرق.

٨

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين الأصل: وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج، وقيل له: إن القوم قد عبروا جسر النهر وان: مصارعهم دون النطفة؟ والله لا يفلت منهم عشرة، ولا يهلك منكم عشرة.

قال الرضي رحمه الله: يعني بالنطفة ماء النهر، وهي أفصح كناية عن الماء وإن كان كثيراً جداً، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم عند مضي ما أشبهه.

الشرح: هذا الخبر من الأخبار التي تكاد تكون متواترة، لاشتهاره ونقل الناس كافة له، وهو من معجزاته وأخباره المفصلة عن الغيوب. والأخبار على قسمين: أحدهما: الأخبار المجملة، ولا إعجاز فيها نحو أن يقول الرجل لأصحابه: إنكم ستنتصرون على هذه الفئة التي تلقونها غداً، فإن نصر جعل ذلك حجة له عند أصحابه وسماها معجزة، وإن لم ينصر، قال لهم: تغيرت نياتكم وشككتكم في قولي، فمنعكم الله نصره؟ ونحو ذلك من القول، ولأنه قد جرت العادة أن الملوك والرؤساء يعدون أصحابهم بالظفر والنصر، ويمنونهم الدول، فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على إخبار عن غيب يتضمن إعجازاً.

والقسم الثاني: في الأخبار المفصلة عن الغيوب، مثل هذا الخبر، فإنه لا يحتمل التلبيس، لتقييده بالعدد المعين في أصحابه وفي الخوارج، ووقوع الأمر بعد الحرب بموجبه من غير زيادة ولا نقصان، وذلك أمر إلهي عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الله سبحانه. والقوة البشرية تقصر عن إدراك مثل هذا، ولقد كان له من هذا الباب ما لم يكن لغيره.

وعمقتضى ما شاهد الناس من معجزاته وأحواله المنافية لقوى البشر، غلا فيه من غلا، حتى نسب إلى أن الجوهر الإلهي حل في بدنه، كما قالت النصراني عيسى عليه السلام، وقد أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: "يهلك فيك رجلان: محب غال، ومبغض قال". وقال له تارة أخرى: "والذي نفسي بيده، لولا أني أشفق أن يقول طوائف من أمتي فيك ما قالت النصراني في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقلاً، لا تمر بمأ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة".

ظهور الغلاة

وأول من جهر بالغلو في أيامه عبد الله بن سبأ، قام إليه وهو يخطب، فقال له: أنت أنت! وجعل يكررها، فقال له: ويلك! من أنا. فقال: أنت الله، فأمر بأخذه وأخذ قوم كانوا معه على رأيه.

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله، عن عمار الثقفي، عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي، عن أبيه عن غيره من

مشيخته؟ أن علياً قال: "يهلك في رجلا: محب مطر يضعني غير موضعي ويمدحني بما ليس في، ومبغض مفتر يرميني بما أنا منه بريء".

وقال أبو العباس: وهذا تأويل الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه، وهو قوله: "إن فيك مثلاً من عيسى بن مريم، أحبته النصارى فرفعته فوق قدره، وأبغضته اليهود حتى بهتت أمه".

قال أبو العباس: وقد كان علي عشر على قوم خرجوا من محبته باستحواذ الشيطان عليهم، إلى أن كفروا بربهم، وجحدوا ما جاء به نبيهم، واتخذوه رباً وإلهاً، وقالوا: أنت خالقنا ورازقنا، فاستأجهم وتوعدهم، فأقاموا على قولهم، فحفر لهم حفراً دخن عليهم فيها طمعاً في رجوعهم، فأبوا، فحرقهم بالنار، وقال:

إني إذا رأيت أمراً منكراً

ألا ترون قد حفرت حفراً

وقدت ناري ودعوت قنبرا

وروى أصحابنا في كتب المقالات أنه لما حرقهم صاحبوا إليه: الآن ظهر لنا ظهوراً بيناً أنك أنت الإله! لأن ابن عمك الذي أرسلته قال: "لا يعذب بالنار إلا رب النار".

وروى أبو العباس، عن محمد بن سليمان بن حبيب المصيصي عن علي بن محمد النوفلي، عن أبيه ومشيخته، أن علياً مر بهم وهم يأكلون في شهر رمضان فماراً، فقال: أسفر أم مرضى. قالوا: ولا واحدة منهما، قال: أفمن أهل الكتاب أنتم؟ قالوا: لا، قال: فما بال الأكل في شهر رمضان فماراً! قالوا: أنت أنت! لم يزيده على ذلك، ففهم مرادهم، فترل عن فرسه، فألصق خده بالتراب، ثم قال: ويلكم! إنما أنا عبد من عبيد الله، فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام، فأبوا، فدعاهم مراراً، فأقاموا على أمرهم، فنهض عنهم، ثم قال: شدوهم وثاقاً، وعلي بالفعلة والنار والخطب، ثم أمر بحفر بئرين، فحفرتا، فجعل إحدهما سرباً، والأخرى مكشوفة، وألقى الخطب في المكشوفة، وفتح بينهما فتحاً، وألقى النار في الخطب، فدخن عليهم، وجعل يهتف بهم، ويناشدهم: ارجعوا إلى الإسلام، فأبوا، فأمر بالخطب والنار، وألقى عليهم، فاحرقوا، فقال الشاعر:

إذا لم ترم بي في الحفرتين

لترم بي المنية حيث شاءت

فذاك الموت نقداً غير دين

إذا ما حشنا خطبا بنار

قال: فلم يرح واقفاً عليهم حتى صاروا حمماً.

قال أبو العباس: ثم إن جماعة من أصحاب علي، منهم عبد الله بن عباس، شفعوا في عبد الله بن سبأ خاصة، وقالوا يا أمير المؤمنين، إنه قد تاب فاعف عنه، فأطلقه بعد أن اشترط عليه ألا يقيم بالكوفة، فقال: أين أذهب؟ قال: المدائن، فنفاه إلى المدائن.

فلما قتل أمير المؤمنين رضي الله عنه أظهر مقالته، وصارت له طائفة وفرقة يصدقونه ويتبعونه. وقال لما بلغه قتل علي: والله لو جئتمونا بدماعه في سبعين صرة، لعلمنا أنه لم يمت، ولا يموت حتى يسوف العرب بعضاه. فلما بلغ ابن عباس ذلك، قال: لو علمنا أنه يرجع لما تزوجنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه.

قال أصحاب المقالات: واجتمع إلى عبد الله بن سبأ بالمدائن جماعة على هذا القول؟ منهم عبد الله بن صبرة الحمداني، وعبد الله بن عمرو بن حرب الكندي، وآخرون غيرهما وتفاقم أمرهم.

وشاع بين الناس قولهم، وصار لهم دعوة يدعون إليها، وشبهة يرجعون إليها، وهي ما ظهر وشاع بين الناس، من إخباره بالمغيبات حالاً بعد حال، فقالوا: إن ذلك لا يمكن أن يكون إلا من الله تعالى، أو ممن حلت ذات الإله في جسده، ولعمري إنه لا يقدر على ذلك إلا بإقدار الله تعالى إياه عليه، ولكن لا يلزم من إقداره إياه عليه أن يكون هو الإله، أو تكون ذات الإله حالة فيه. وتعلق بعضهم بشبهة ضعيفة، نحو قول عمر، وقد فقأ علي عين إنسان ألد في الحرم: ما أقول في يد الله، فقأت عيناً في حرم الله ونحو قول علي: والله ما قلعت باب خير بقوة جسدانية، بل بقوة إلهية، ونحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"، والذي هزم الأحزاب هو علي بن أبي طالب، لأنه قتل بارعهم وفارسهم عمراً لما اقتحموا الخندق فأصبحوا صبيحة تلك الليلة هارين مفلولين، من غير حرب سوى قتل فارسهم. وقد أوماً بعض شعراء الإمامية إلى هذه المقالة، فجعلها من فضائله، وذلك قوله:

إذا كنتم ممن يروم لحاقه	فهلبرزتم نحو عمرو ومرحب
وكيف فررتم يوم أحد وخبير	ويوم حنين مهرباً بعد مهرب
ألم تشهدوا يوم الإخاء وبيعة	الغدِير وكل حضر غير غيب
فكيف غداً صنو النفيلي ويحه	أمير أعلى صنو النبي المرجب
وكيف علا من لايطا ثوب أحمد	على من عل امن أحمد فوق منكب
إمام هدى ردت له الشمس جهرة	فصلى أداء عصره بعده مغرب
ومن قبله أفنى سليمان خيله	رجاء فلم يبلغ بها نيل مطلب
يجل عن الأفهام كنه صفاته	ويرجع عنها الذهن رجعة أخيب
فليس بيان القول عنه بكاشف	غطاء، ولا فصل الخطاب بمعرب
وحق لقبر ضم أعضاء حيدر	وغودر منه في صفيح مغيب
يكون ثراه سر قدس ممنع	وحصباؤه من نور وحي محجب
وتغشاه من نور الإله غمامة	تغاديه من قدس الجلال بصيب
وتتنقض أسراب النجوم عواكفاً	على حجرته كوكب بعد كوكب
فلولاك لم ينج ابن متى ولاخبا	سعير لإبراهيم بعد تلهب
ولا فلق البحر ابن عمران بالعصا	ولا فرت الأحزاب عن أهل يثرب

ولا قبلت من عابد صلواته

ولا غفر الرحمن زلة مذنب

ولم يغفل فيك المسلمون جهالةً

ولكن لسر في علاك مغيب

وقالوا أيضاً: إن بكرياً وشيعياً تجادلا، واحتكما إلى بعض أهل الذمة، ممن لا هوى له مع أحد الرجلين في التفضيل، فأنشدهما:

كم بين من شك في عقيدته

وبين من قيل إنه الله

الإخبار عن الغيوب

فأما الإخبار عن الغيوب، فلمعترض أن يقول: قد يقع الإخبار عن الغيوب من طريق النجوم، فإن المنجمين قد اتفقوا على أن شكلاً من أشكال الطالع إذا وقع لمولود، اقتضى أن يكون صاحبه متمكناً من الإخبار عن الغيوب. وقد يقع الإخبار عن الغيوب من الكهان، كما يحكى عن سطحي، وشق، وسواد بن قارب وغيرهم. وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأصحاب زجر الطير والبهائم، كما يحكى عن بني لهب في الجاهلية، وقد يقع الإخبار عن الغيوب للقفاة، كما يحكى عن بني مدج.

وقد يخبر أرباب النيرنجات وأرباب السحر والطلسمات بالمغيبات. وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأرباب النفس الناطقة القوية الصافية، التي تتصل مادتها الروحانية على ما تقوله الفلاسفة. وقد يقع الإخبار عن الغيوب بطريق المنامات الصادقة؟ على ما رآه أكثر الناس، وقد وردت الشريعة نصاً به.

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بأمر صناعي يشبه الطبيعي، كما رأيناه عن أبي البيان وابنه، وقد يقع الإخبار عن الغيوب بواسطة إعلام ذلك الغيب إنساناً آخر، لنفسه بنفس ذلك المخبر اتحاد أو كالاتحاد، وذلك كما يحكى أبو البركات بن ملكا الطبيب في كتاب المعبر، قال: والمرأة العمياء التي رأيناها ببغداد، وتكررت مشاهدتنا لها منذ مدة مديدة، قدرها ما يقارب ثلاثين سنة؟ وهي على ذلك إلى الآن تعرض عليها الخبايا، فتدل عليها بأنواعها وأشكالها ومقاديرها، وأعدادها غريبها ومألوفها دقيقها وجليلها، تجيب على أثر السؤال من غير توقف ولا استعانة بشيء من الأشياء، إلا أنها كانت تلتبس أن ترى الذي يسأل عنه أبوها، أو يسمعه في بعض الأوقات دون بعض، وعند قوم دون قوم، فيتصور في أمرها أن الذي تقوله بإشارة من أبيها، وكان التي تقوله يبلغ الكثرة إلى ما يزيد على عشرين كلمة، إذا قيل بصريح الكلام الذي هو الطريق الأحصر، وإنما كان أبوها يقول إذا رأى ما يراه من أشياء كثيرة مختلفة الأنواع والأشكال في مدة واحدة كلمة واحدة، وأقصاه كلمتان وهي التي يكررها في كل قول ومع كل ما يسمع ويرى: سلها وسلها تخبرك، أو قولي له، أو قولي يا صغيرة.

قال أبو البركات: ولقد عاندته يوماً وحاقفته في ألا يتكلم البتة، وأريته عدة أشياء، فقال لفظة واحدة، فقلت له: الشرط أملك، فاغتاظ واحتد طيشه عن أن يملك نفسه، فباح بخبيته، قال: ومثلك يظن أنني أشرت إلى هذا كله بهذه اللفظة!

فاسمع الآن، ثم التفت إليها، وأخذ يشير بإصبعه إلى شيء، وهو يقول تلك الكلمة، وهي تقول: هذا كذا وهذا كذا، على الاتصال من غير توقف، وهو يقول تلك الكلمة، لا زيادة عليها، وهي لفظة واحدة، بلحن واحد، وهيئة واحدة، حتى ضجرنا، واشتد تعجبنا، ورأينا أن هذه الإشارة، لو كانت تتضمن هذه الأشياء لكانت أعجب من كل ما تقوله العمياء.

قال أبو البركات: ومن عجب ما شاهدناه من أمرها، أن أباهما كان يغلط في شيء يعتقد على خلاف ما هو به، فتخبر هي عنه على معتقد أبيها، كأن نفسها نفسه.

قال أبو البركات: ورأيناها تقول ما لا يعلمه أبوها من خبيثة في الخبيثة التي اطلع عليها أبوها، وهذا أعجب وأعجب. قال أبو البركات: وحكاياتها أكثر من أن تعد، وعند كل أحد من الناس من حديثها ما ليس عند الآخر، لأنها كانت تقول من ذلك على الاتصال لشخص شخص جواباً بحسب السؤال.

قال: وما زلت أقول: إن من يأتي بعدنا لا يصدق ما رأيناه منها، فإن قلت لي: أريد أن تفيدني العلة في معرفة المغيبات هذه؟ قلت: لك العلة التي تصلح في جواب لم، في نسبة المحمول إلى الموضوع تكون الحد الأوسط في القياس وهذه، فالعلة الفاعلة الموجبة لذلك فيها هي نفسها بقوتها وخاصتها، فما الذي أقوله في هذا! وهل لي أن أجعل ما ليس بعلة علة! واعلم أنا لا ننكر أن يكون في نوع البشر أشخاص يخبرون عن الغيوب، ولكن كل ذلك مستند إلى الباري سبحانه بإقداره وتمكينه وهيئة أسبابه، فإن كان المخبر عن الغيوب ممن يدعي النبوة لم يجوز أن يكون ذلك إلا بإذن الله سبحانه وتمكينه، وأن يريد به تعالى استدلال المكلفين على صدق مدعي النبوة، لأنه لو كان كاذباً لكان يجوز أن يمكن الله تعالى الجن من تعليمه ذلك إضلالاً للمكلفين، وكذلك لا يجوز أن يمكن سبحانه الكاذب في ادعاء النبوة من الإخبار عن الغيب بطريق السحر وتسخير الكواكب، والطلسمات، ولا بالزجر، ولا بالقيافة، ولا بغير ذلك من الطرق المذكورة، لما فيه من استفساد البشر وإغوائهم. وأما إذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدعياً للنجوة، نظر في حاله، فإن كان ذلك من الصالحين الأتقياء نسب ذلك إلى أنه كرامة أظهرها الله تعالى على يده، إبانة له وتمييزاً من غيره، كما في حق علي رضي الله عنه، وإن لم يكن كذلك أمكن أن يكون ساحراً أو كاهناً، أو نحو ذلك.

وبالجملة فصاحب هذه الخاصية أفضل وأشرف ممن لا تكون فيه، من حيث اختصاصه بها، فإن كان للإنسان العاري منها مزية أخرى يختص بها توازيها، أو تزيد عليها، فترجع إلى التمييز والترجيح بينهما، وإلا فالمختص بهذه الخاصية أرحح وأعظم من الخالي منها على جميع الأحوال.

الأصل: وقال لما قتل الخوارج وقيل له: يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم:

كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال، وقرارات النساء، وكلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين.

الشرح: نجم: ظهر وطلع. قرارات النساء: كناية لطيفة عن الأرحام.

ومن الكنايات اللطيفة الجارية هذا المجرى قوله تعالى: "أو لامستم النساء"، يعني الجماع، وقوله تعالى: "إن هذا أخي له

تسع وتسعون نعجة" ، وقوله: "شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم"، يعني الفروج. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للحادي: "يا أنجشة، رفقا بالقوارير" ، يعني النساء.

الكناية وتوابعها

والكناية إبدال لفظة يستحي من ذكرها، أو يستهجن ذكرها، أو يتطير بها، ويقتضي الحال رفضها لأمير من الأمور بلفظة ليس فيها ذلك المانع، ومن هذا الباب قول امرئ القيس:

سموت إليها بعدما نام أهلها	سمو حباب الماء حالاً على حال
فقال لك الويلات إنك فاضحي	ألست ترى السمار والناس أحوالي
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت	هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا	ورضت فذلت صعبة أي إذلال

قوله: فصرنا إلى الحسنى، كناية عن الرفث ومقدمات الجماع.

وقال ابن قتيبة: تمازح معاوية والأحنف، فما رئي مازحان أوفر منهما، قال معاوية: يا أبا بحر، ما الشيء الملفف في البجاد. فقال: السخينة يا أمير المؤمنين، وإنما كنى معاوية عن رمي بني تميم بالنهم وحب الأكل، بقول القائل:

إذا ما مات ميت من تميم	فسرك أن يعيش فجىء بزد
بخبز أو بتمر أو بسمن	أو الشيء الملفف في البجاد
تراه يطوف في الآفاق حرصاً	ليأكل رأس لقمان بن عاد

وأراد الشاعر وطب اللبن، فقال الأحنف: هو السخينة يا أمير المؤمنين، لأن قريشا كانت تعير بأكل السخينة قبل الإسلام، لأن أكثر زمانها كان زمان قحط، والسخينة ما يسخن بالنار ويذر عليه دقيق، وغلب ذلك على قريش حتى سميت سخينة، قال حسان:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها	وليغلبن مغالب الغلاب

فعبر كل واحد من معاوية والأحنف عما أراده بلفظ غير مستهجن ولا مستقبح، وعلم كل واحد منهما مراد صاحبه، ولم يفهم الحاضرون ما دار بينهما، وهذا من باب التعريض، وهو قريب من الكناية.

ومن كنايات الكتاب العزيز أيضاً قوله تعالى: "وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها"، كنى بذلك عن مناكح النساء.

ومنها قوله تعالى: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم"، كنى عن مواقع النسل بمواقع الحرث.

ومما ورد في الأخبار النبوية في هذا الباب، الخبر الذي فيه: إن المرأة قالت للرجل القاعد منها مقعد القابلة: لا يحل لك أن تفرض الخاتم إلا بحقه، فقام عنها وتركها.

وقد أخذ صاحب بن عباد هذه اللفظة، فقال لأبي العلاء الأسدي الأصفهاني، وقد دخل بزوجة له بكر:

قلبي على الجمرة يا أبا العلا فهل

فتحت الموضع المقفلا

وهل فضضت الكيس عن ختمه

وهل كحلت الناظر الأحولا

وأنشد الفرزدق في سليمان بن عبد الملك شعراً قال فيه:

دفعن إلي لم يطمئن قبلي

وهن أصح من بيض النعام

فبتن بجائبي مصرعات

وبت أفض أغلاق الختام

فاستنكر سليمان ذلك وكان غيوراً جداً، وقال له: قد أقررت بالزنا، فلاجلدنك، فقال: يا أمير المؤمنين إني شاعر، وإن الله يقول في الشعراء: "وإنهم يقولون ما لا يفعلون"، وقد قلت ما لم أفعل، قال سليمان: نجوت بها.

ومن الأخبار النبوية أيضاً، قوله صلى الله عليه وسلم في الشهادة على الزنا، "حتى تشهد الميل في المكحلة". ومنها قوله صلى الله عليه وسلم للمرأة التي استفتته في الذي استحل له ولم يستطع جماعها: "لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك".

ومنها قول المرأة التي شكت إلى عائشة زوجها أنه يطمح بصره إلى غيرها: "إني عزمت على أن أقيد الجمل" إشارة إلى ربطه.

ومنها قول عمر: يا رسول الله، هلكت، قال: "وما أهلكك." قال: حولت رحلي فقال صلى الله عليه وسلم: "أقبل وأدبر واتق الحيضة"، ففهم صلى الله عليه وسلم ما أراد.

ورأى عبد الله بن سلام على إنسان ثوباً معصفاً، فقال: لو أن ثوبك في تنور أهلك لكان خيراً لك، فذهب الرجل فأحرق ثوبه في تنور أهله وظن أنه أراد الظاهرة ولم يرد ابن سلام ذلك، وإنما أراد: لو صرف ثمنه في دقيق يخبزه في تنور أهله.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم وخضراء الدمن" والدمن: جمع دمنة، وهي المزيلة فيها البعر تنبت نباتاً أخضر، وكنى بذلك عن المرأة الحسناء في منبت السوء.

ومن ذلك قولهم: "إياك وعقيلة الملح"، لأن الدرة تكون في الماء الملح، ومرادهم النهي عن المرأة الحسناء وأهلها أهل سوء.

ومن ذلك قولهم: "لبس له جلد النمر"، و"قلب له ظهر الجحش"، وقال أبو نواس:

لا أذود الطير عن شجر

قد بلوت المرمن ثمره

وقد فسر قوم قوله تعالى: "وإذا مروا باللغو مروا كراماً" فقالوا: أراد: وإذا عبروا عن اللفظ بما يقبح ذكره كنوا عنه، فسمي التعبير عن الشيء مروراً به، وسمي الكناية عنه كراماً.

ومن ذلك أن بنت أعرابية صرخت، وقالت: لسعتني العقرب، فقالت امها: أين. فقالت: موضع لا يضع الراقي فيه أنفه كنت بذلك عن السوأة.

ومن هذا الباب قوله سبحانه: "ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام"، قال كثير من المفسرين: هو كناية عن الغائط، لأنه يكون من الطعام، فكنى عنه، إذ هو منه مسبب، كما كنوا عن السمة بالنار فقالوا: ما نار تلك؟ أي ما سمتها؟ ومنه قول الشاعر:

قد وسموا آباهم بالنار

والنار قد تشفى من الأوار

وهذا من أبيات المعاني، يقول: هم أهل عز ومنعة، فسقى راعيهم إبلهم بالسلمات التي على الإبل، وعلم المزاحمون له في الماء أنه لا طاقة لهم بمنازعتهم عليه لعزهم، فكانت السلمات سببا لسقيها. والأوار: العطش، فكنى سبحانه بقوله: "يأكلان الطعام" عن إتيان الغائط؟ لما كان أكل الطعام سبباً له، كما كنى الشاعر بالنار عن السمة، لما كانت النار سبب السمة. ومن هذا الباب قوله سبحانه: "وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض" كنى بالإفضاء عن الجماع. ومن الأحاديث النبوية: "من كشف قناع امرأة، وجب عليه مهرها"، كنى عن الدخول بها بكشف القناع، لأنه يكشف في تلك الحالة غالباً.

والعرب تقول في الكناية عن العفة: ما وضعت مومسة عنده قناعاً.

ومن حديث عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيب من رؤوس نسائه وهو صائم كنت بذلك عن القبلة، ومن ذلك قوله تعالى: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"، كنى بذلك عن الجماع والمخالطة، وقال النابغة الجعدي:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها

تنثت فكانت عليه لباسا

وقد كنت العرب عن المرأة بالريحان، وبالسرحة، قال ابن الرقيات:

لا أشم الريحان إلا بعيني

كرماً إنما تشم الكلاب

أي أقنع من النساء بالنظر، ولا أرتكب منهن محرماً، وقال حميد بن ثور الهلالي:

أبى الله إلا أن سرحة مالك

على كل أفنان العضاء تروق

فيا طيب رياها وبرد ظلالها

إذا حان من حامي النهار وديق

وهل أنا إن عللت نفسي بسرحة

من السرح مسدود علي طريق

والسرحة: الشجرة.

وقال أعرابي، وكنى عن امرأتين:

أيا نخلتي أود إذا كان فيكما

جنى فانظرا من تطعمان جناكما

ويا نخلتي أود إذا هبت الصبا

وأمسيت مقروراً ذكرت ذراكما

ومن الأخبار النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقين ماءه زرع غيره" أراد النهي عن نكاح الحبايل لأنه إذا وطئها فقد سقى ماءه زرع غيره.

وقال صلى الله عليه وسلم لخوات بن جبير: "ما فعل جملك يا خوات". يمازحه، فقال: قيده الإسلام يا رسول الله؟ لأن خواتاً في الجاهلية كان يغشى البيوت، ويقول: شرد جملي وأنا أطلبه وإنما يطلب النساء والخلو بهن وخوات هذا هو

صاحب ذات النحين.

ومن كنايات القرآن العزيز قوله تعالى: "ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن" كنى بذلك عن الزنا، لأن الرجل يكون في تلك الحال بين يدي المرأة ورجليها.
ومنه في الحديث: "إذا قعد الرجل بين شعبها الأربع".

وفسر قوم قوله تعالى: "وأمراته حمالة الحطب" عن النميمة، والعرب تقول لمن ينم ويشي: يوقد بين الناس الحطب الرطب، وقال الشاعر يذكر امرأة:

من البيض لم تصطد على خيل لامة **ولم تمش بين الناس بالحطب الرطب**

أي لم تؤخذ على أمر تلام عليه، ولم تفسد بين الحي بالكذب والنميمة.
ومما ورد نظير ممازحة معاوية والأحنف من التعريضات أن أبا غسان المسمعي مر بأبي غفار السدوسي، فقال: يا أبا غفار؟ ما فعل الدرهمان. فمال: لحقا بالدرهم، أراد بالدرهمين قول الأخطل:

فإن تبخل سدوس بدرهميها **فإن الريح طيبة قبول**

وأراد الآخر قول بشار:

وفي جدر لؤم، وفي آل مسمع **صلاح ولكن درهم القوم كوكب**

وكان محمد بن عقال الجاشعي عند يزيد بن يزيد الشيباني، وعنده سيوف تعرض عليه، فدفعت سيفاً منها إلى يد محمد، فقال: كيف ترى هذا السيف. فقال: نحن أبصر بالتمر منا بالسيوف، أراد يزيد قول جرير في الفرزدق:

بسياف أبي رغيان سيف **مجاشع ضربت ولم تضرب بسياف ابن ظالم**

ضربت به عند الإمام فأرعثت **يداك، وقالوا: محدث غير صارم**

وأراد محمد قول مروان بن أبي حفصة:

لقد أفسدت أسنان بكر بن وائل **من التمر مالو أصلحته لمارها**

وقال محمد بن عمير بن عطاء التميمي لشريك النميري، وعلى يده صقر: ليس في الجوارح أحب إلي من البازي، فقال شريك: إذا كان يصيد القطا، أراد محمد قول جرير:

أنا البازي المطل على نمير **أتيح من السماء لها انصبابا**

وأراد شريك قول الطرماح:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا **ولوسلكت سبل المكارم ضلت**

ودخل عبد الله بن ثعلبة المحاربي على عبد الملك بن يزيد الهلالي، وهو يومئذ والي أرمينية، فقال له: ماذا لقينا الليلة من شيوخ محارب! منعونا النوم بضوضائهم ولغظهم، فقال عبد الله بن ثعلبة: إنهم أصلح الله الأمير، أضلوا الليلة برقعاً، فكانوا يطلبونه. أراد عبد الملك قول الشاعر:

وماخلتها كانت تريش ولاتبري

تكش بلا شيء شيوخ محارب

فدل عليها صوتها حية البحر

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت

وأراد عبد الله قول القائل:

ولابن يزيد برقع وجلال

لكل هلال من اللؤم رقع

وروى أبو بكر بن عريد في كتاب الأمالي عن أبي حاتم، عن العتي، عن أبيه، أنه عرض على معاوية فرس، وعنده عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص! فقال: كيف ترى هذا الفرس يا أبا مطرف. قال أراه أجش هزيماً، قال معاوية: أجل، لكنه لا يطلع على الكنائن، قال: يا أمير المؤمنين؟ ما استوجبت منك هذا الجواب كله، قال: قد عوضتك عنه عشرين ألفاً.

قال أبو بكر بن دريد: أراد عبد الرحمن التعريض بمعاوية بما قاله النجاشي في أيام صفين:

أجش هزيم والرماح دواني

ونجى ابن حرب سابح ذوعلالة

مرته له الساقان والقدمان

إذا قلت أطراف الرماح تتوشه

فلم يحتمل معاوية منه هذا المزاح، وقال: لكنه لا يطلع على الكنائن، لأن عبد الرحمن كان يتهم بنساء إخوته.

وروى ابن عريد أيضاً في كتاب "الأمالي" عن أبي حاتم النخعي، أن النجاشي دخل على معاوية، فقال له: كيف قلت: "ونجى ابن حرب سابح"، وقد علمت أن الخيل لا تجري بمثلي فراراً. قال: إنما عنيت عتبة أخاك وعتبة جالس فلم يقل معاوية ولا عتبة شيئاً.

وورد إلى البصرة غلام من بني فقعس، كان يجلس في المبرد، فينشد شعراً. ويجمع الناس إليه، فذكر ذلك للفرزدق، فقال: لأسوءنه، فجاء إليه، فسمع شيئاً من شعره، فحسده عليه، فقال: ممن أنت؟ قال: من بني فقعس، قال: كيف تركت القنان. فقال: مقابل لصاف، فقال: يا غلام، هل أنجذت أمك. قال: بل أنجد أبي. قال أبو العباس المبرد: أراد الفرزدق قول الشاعر:

إن القنان لفقعس لمعمر

ضمن القنان لفقعس سواتها

والقنان جبل في بلاد فقعس، يريد أن هذا الجبل يستر سواتهم، وأراد الغلام قول أبي المهوش:

فلما يسوءك من تميم أكثر

وإذا يسرك من تميم خلة

أير الحمار وخصيتيه العنبر

أكلت أسيد والهجوم ودارم

قد كنت أحسبهم أسود خفية

فإذا لصادف يبيض فيه الحمر

ولصادف: جبل في بلاد بني تميم، وأراد بقوله: "هل أنجذت أمك"، أي إن كانت أنجذت فقد أصابها أبي، فخرجت تشبهني، فقال: بل أنجد أبي، يريد بل أبي أصاب أمك فوجدها بغياً.
قال عبد الله بن سوار: كنا على مائدة إسحاق بن عيسى بن علي الهاشمي، فأتينا بحريرة قد عملت بالسكر والسمن والدقيق؟ فقال معد بن غيلان العبدى: يا حبذا السخينة! ما أكلت أيها الأمير سخينةً ألد من هذه، فقال: إلا أنها تولد الرياح في الجوف كثيراً فقال: إن المعاييب لا تذكر على الخوان.
أراد معد ما كانت العرب تعير به قريشاً في الجاهلية من أكل السخينة، وقد قحمننا ذكره، وأراد إسحاق بن عيسى ما يعير به عبد القيس من الفسوء، قال الشاعر:

وعبد القيس مصفر لحاها

كأن فسائها قطع الضباب

وكان سنان بن أحمر النيمري يسائر الأمير عمر بن هبيرة الفزاري، وهو على بغلة له، فتقدمت البغلة على فرس الأمير، فقال: اغضض بغلتك يا سنان، فقال: أيها الأمير، إنها مكتوبة، فضحك الأمير، أراد عمر بن هبيرة قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير

فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وأراد سنان قول ابن دارة:

لا تأمنن فزارياً خلوت به

على قلوصلك واكتبها بأسيار

وكانت فزارة تعير بإتيان الإبل؟ ولذلك قال الفرزق يهجو عمر بن هبيرة هذا، ويخاطب يزيد بن عبد الملك:

أمير المؤمنين وأنت بر

تقي لست بالجشع الحريص

أطعمت العراق ورافديه

فزارياً أخذ يد القميص

تفنى بالعراق أبو المثنى

وعلم قومه أكل الخبيص

ولم يك قبلها راعي مخاض

لتأمنه على وركي قلوصل

الرافدان: دجلة والفرات، وأخذ يد القميص، كناية عن السرقة والخيانة. وتفنى: تنعم وسمن، وجارية فنق؟ أي سمينه، والبيت الآخر كناية عن إتيان الإبل الذي كانوا يعيرون به.

وروى أبو عبيدة عن عبد الله بن عبد الأعلى قال: كنا نتغدى مع الأمير عمر بن هبيرة. فأحضر طباخه جام خبيص، فكرهه للبيت المذكور السابق، إلا أن جلده أدركه، فقال: ضعه يا غلام، قاتل الله الفرزدق، لقد جعلني أرى الخبيص فأستحي منه!.

قال المبرد: وقد يسير البيت في واحد؟ ويرى أثره عليه أبداً، كقول أبي العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة:

فما تصنع بالسيف

إذا لم تك قتالا

فكسر حلية السيف

وصغها لك خلخالاً

وكان عبد الله بن معن إذا تقلد السيف ورأى من يرمقه بان أثره عليه؟ فظهر الخجل منه.
ومثل ذلك ما يحكى أن جريراً قال: والله قد قلت في بني تغلب بيتاًلو طعنوا بعدها بالرماح في أستاذهم ما حكوها،

حك استه وتمثل الأمثالا

والتغليبي إذا تنحنح للقرى

وحكى أبو عبيدة عن يونس، قال: قال عبد الملك بن مروان يوماً،وعنده رجال: هل تعلمون أهل بيت قيل فيهم شعر،
ودوا لو أنهم افتدوا منه بأموالهم. فقال أسماء بن خارجة الفزاري: نحن يا أمير المؤمنين،قال: وما هو؟ قال: قول الحارث
بن ظالم المري:

ولا بفزارة الشعر الرقابا

وما قومي بثعلبية بن سعد

فوالله يا أمير المؤمنين، إني لألبس العمامة الصفيفة؟ فيخئل لي أن شعر قفاي قد بدا منها.
وقال هانيء بن قبيصة النميري: نحن يا أمير المؤمنين؟ قال وما هو. قال قول جرير:

فلاكعباً بلغت ولاكلابا

فغض الطرف إنك من نمير

كان النميري يا أمير المؤمنين إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: من نمير، فصار يقول بعد هذا البيت: من عامر بن صعصعة.
ومثل ذلك ما يروى أن النجاشي لما هجا بني العجلان بقوله:

فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

إذا الله عادى أهل لؤم وقلة

ولا يظلمون الناس حبة خردل

قبيلة لا يغدرون بذمة

إذا صدرالوراد عن كل منهل

ولا يردون الماء إلا عشيةً

خذ القعب فاحلب أيها العبد واعجل

وما سمي العجلان إلا لقوله:

فكان الرجل منهم إذا سئل عن نسبه يقول: من بني كعب، وترك أن يقول: عجلاني.

وكان عبد الملك بن عمير القاضي، يقول: والله إن التنحنح والسعال ليأخذني وأنا في الخلاء فأرده حياء من قول القائل:

فهم بأن يقضي تنحنح أولسعل

إذا ذات دل كلمته لحاجة

ومن التعريضات اللطيفة، ما روي أن المفضل بن محمد الضبي بعث بأضحية هزيل إلى شاعر، فلما لقيه سأله عنها، فقال:
كانت قليلة الدم، فضحك المفضل، وقال: مهلاً يا أبا فلان،أراد الشاعر قول القائل:

من اللؤم للضبي لحماً ولادماً

ولوذبح الضبي بالسيف لم تجد

وروى ابن الأعرابي في الأمالي قال: رأى عقال بن شبة بن عقال المجاشعي على أصبغ بن عنبس وضحاً ، فقال: ما هذا
البياض على إصبعك يا أبا الجراح. فقال: سلح النعامة يا بن أخي،أراد قول جرير:

سلح النعامة شبة بن عقال

فضح العشيرة يوم يسلمح قائماً

وكان شبة بن عقال قد برز يوم الطوانة مع العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى رجل من الروم، فحمل عليه الرومي، فنكص وأحدث، فبلغ ذلك جريراً باليمامة، فقال فيه ذلك. ولقي الفرزدق مختشاً يحمل قماشه، كأنه يتحول من دار إلى دار، فقال: أين راحت عمتنا. فقال: قد نفاها الأغر يا أبا فراس، يريد قول جرير في الفرزدق:

وحقك تنفى من المسجد

نفاك الأعرابن عبد العزيز

وذلك أن الفرزدق ورد المدينة، والأمير عليها عمر بن عبد العزيز، فأكرمه حمزة بن عبد الله بن الزبير وأعطاه، وقعد عنه عبد الله بن عمرو بن عفان، وقصر به، فمدح الفرزدق حمزة بن عبد الله، وهجا عبد الله، فقال:

فاذهب إليك ولا بني العوام

ما أنتنم من هاشم في سرها

وضر البلاط موطئ الأقدام

قوم لهم شرف البطاح وأنتم

فلما تناشد الناس ذلك، بعث إليه عمر بن عبد العزيز، فأمره أن يخرج عن المدينة، وقال له: إن وجدت فيها بعد ثلاث عاقبتك، فقال الفرزدق: ما أراي إلا كشمود حين قيل لهم: "تمتعوا في داركم ثلاثة أيام" فقال جرير يهجو:

وحقك تنفى من المسجد

نفاك الأعرابن عبد العزيز

فقالوا ضللت ولم تهتد

وسميت نفسك أشقى ثمود

ثلاث ليال إلى الموعد

وقد اجلوا حين حل العذاب

خبيث المداخل والمشهد

وجدنا الفرزدق بالموسمين

وحكى أبو عبيدة، قال: بينا نحن على أشراف الكوفة وقوف، إذ جاء أسماء بن خارجة الفزاري فوقف، وأقبل ابن مكعب الضبي فوقف متنجساً عنه، فأخذ أسماء خاتماً كان في يده، فصفه فيروز أزرق، فدفعه إلى غلامه، وأشار إليه أن يدفعه إلى ابن مكعب، فأخذ ابن مكعب شسمع نعله، فربطه بالخاتم، وأعادته إلى أسماء، فتمازحوا ولم يفهم أحد من الناس ما أراد، أراد أسماء بن خارجة قول الشاعر:

كذا كل ضبي من اللؤم أزرق

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعب

وأراد ابن مكعب قول الشاعر:

على قلو صك واكتبها بأسيار

لا تأمنن فزارياً خلوت به

وكانت فزارة تعير بإتيان الإبل؟ وعيرت أيضاً بأكل جردان الحمار؟ لأن رجلاً منهم كان في سفر فجاع، فاستطعم قوماً فدفعوا إليه جردان الحمار، فشواه وأكله، فأكثر الشعراء ذكرهم بذلك، وقال الفرزدق:

إلى فزارة عيرا تحمل الكمرا

جهز إذا كنت مرتاداً ومنتجعاً

أير الحمار طبيب أبرأ البصرا

إن الفزاري لو يعمى فيطعمه

أطايب العيرحتى ينهش الذكر

إن الفزاري لا يشفيه من قرم

وفي كتب الأمثال أنه اصطحب ثلاثة: فزاري وتغلي ومري، وكان اسم التغلي مرقمة فصادوا حماراً، وغاب عنهما الفزاري لحاجة، فقالوا: نخبأ له خردانه، نضحك منه، وأكلوا سائره، فلما جاء دفعا إليه الجردان، وقالوا: هذا نصيبك، فنهسه فإذا هو صلب، فعرف أنهم عرضوا له بما تعاب به فزارة، فاستل سيفه، وقال: لتأكلانه، ودفعه إلى مرقمة، فأبى أن يأكله، فضربه فقتله، فقال المري: طاح مرقمة، قال: وأنت إن لم تلقمه! فأكله.

وذكر أبو عبيدة أن إنساناً قال لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري: اقض ديني أيها الأمير، فإن علي ديناً، قال: مالك عندي إلا ما ضرب به الحمار بطنه، فقال له عبيد بن أبي محجن: بارك الله لكم يا بني فزارة في أير الحمار، إن جعتم أكلتموه، وإن أصابكم غرم قضيتموه به.

ويحكى أن بني فزارة وبني هلال بن عامر بن صعصعة تنافروا إلى أنس بن مدرك الخثعمي، وتراضوا به، فقالت بنو هلال: أكلتم يا بني فزارة أير الحمار، فقالت بنو فزارة: وأنتم مدرتم الحوض بسلحكم، فقضى أنس لبني فزارة على بني هلال، فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير كانوا تخاطروا عليها، وفي مآدر يقول الشاعر:

بنو عامر طراً بسلحة مآدر

لقد جللت خزيًا هلال بن عامر

بعدها بني عامر، أنتم شرار المعاشر

فأف لكم لا تذكروا الفخر

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتاب الكامل، أن قتيبة بن مسلم لما فتح سمرقند، أفضى إلى أثاث لم ير مثله، وآلات لم يسمع مثلها، فأراد أن يري الناس عظيم ما فتح الله عليه، ويعرفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم، فأمر بدار ففرشت، وفي صحنها قدور يرتقى إليها بالسلالم، فإذا بالحضين بن المنذر بن الحارث بن ويلة الرقاشي قد أقبل، والناس جلوس على مراتبهم، والحضين شيخ كبير، فلما رآه عبد الله بن مسلم قال لأخيه قتيبة: ائذن لي في معاتبته، قال: لا ترده، فإنه خبيث الجواب، فأبى عبد الله إلا أن يأذن له، وكان عبد الله يضعف وكان قد تسور حائطاً إلى امرأة قبل ذلك، فأقبل على الحضين، فقال: أمن الباب دخلت يا أبا ساسان. قال: أجل، أسن عمد عن تسور الحيطان، قال: أرايت هذه القدور. قال: هي أعظم من ألا ترى، قال: ما أحسب بكر بن وائل رأى مثلها، قال: أجل، ولا عيلان، ولو رآها سمي شعبان، ولم يسم عيلان، فقال عبد الله: أتعرف يا أبا ساسان الذي يقول:

تجرخصاها تبتغي من تحالف

عزلنا وأمرنا وبكر بن وائل

فقال: أعرفه، وأعرف الذي يقول:

ومن كانت له أسرى كلاب

فأدى الغرم من نادى مشيراً

وباهلة بن أعصر والرباب

وخيبة من يخيب على غني

فقال: أفتعرف الذي يقول:

وقد عرقت أفواه بكر بن وائل

كأن فقاح الأزد حول ابن مسمع

قال: نعم وأعرف الذي يقول:

قال: أما الشعر فأراك ترويه، فهل تقرأ من القرآن شيئاً، قال: نعم: أقرأ الأكثر الأطيب: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً". فأغضبه، فقال: والله لقد بلغني أن امرأة الحضيض حملت إليه وهي حبلى من غيره، قال: فما تحرك الشيخ عن هيئته الأولى، بل قال على رسله: وما يكون تلد غلاماً على فراشي، فيقال: فلان ابن الحضيض، كما يقال: عبد الله بن مسلم، فأقبل قتيبة على عبد الله، وقال له: لا يبعد الله غيرك. وغرضنا من هذه الحكاية الأدبية المستحسنة قول الحضيض تعريضاً بفاحشة عبد الله: أجل، أسن عمك عن تسور الحيطان. ويحكى أن أبا العيناء أهدى إلى أبي علي البصير وقد ولد له مولود حجراً، يذهب ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر"، فاستخرج أبو علي ذلك بفطنته وذكائه، ثم ولد بعد أيام لأبي العيناء مولود، فقال له: في أي وقت ولد لك، قال: وقت السحر، فقال: اطرد قياسه، وخرج في الوقت الذي يخرج فيه أمثاله، يعني السؤال، يعرض بأن أبا العيناء شحاذ، وأن ولده خرج يشبهه.

ومن التعريضات والرموز بالفعل لمخون القول ما ذكره مؤرج بن عمرو السدوسي في كتاب الأمثال، أن الأحوص بن جعفر الكلابي، أتاه آت من قومه، فقال: إن رجلاً لا نعرفه جاءنا، فلما دنا منا حيث نراه، نزل عن راحلته، فعلق على شجرة وطباً من لبن، ووضع في بعض أغصانها حنظلة، ووضع صرة من تراب، وحزمة من شوك، ثم أثار راحلته، فاستوى عليها وذهب، وكان أيام حرب تميم وقيس عيلان، فنظر الأحوص في ذلك، فعي به، فقال: أرسلوا إلى قيس بن زهير، فأتوا قيساً، فجاءوا به إليه، فقال له: ألم تك أخبرتي أنه لا يرد عليك أمر إلا عرفت ما فيه ما لم تر نواصي الخيل! قال: ما خبرك، فأعلمه، فقال: قد بين الصبح لذي عينين، هذا رجل قد أخذت عليه العهود ألا يكلمكم، ولا يرسل إليكم، وإنه قد جاء فأندركم. أما الحنظلة، فإنه يخبركم أنه قد أتاكم بنو حنظلة، وأما الصرة من التراب، فإنه يزعم أنهم عدد كثير، وأما الشوك فيخبركم أن لهم شوكة، وأما الوطب فإنه يدلكم على قرب القوم وبعدهم، فذوقوه، فإن كان حلواً حليماً فالقوم قريب، وإن كان قارصاً فالقوم بعيد، وإن كان المسيخ لا حلواً ولا حامضاً فالقوم لا قريب ولا بعيد، فقاموا إلى الوطب فوجدوه حليماً، فبادروا الاستعداد، وغشيتهم الخيل فوجدتهم مستعدين.

ومن الكنايات، بل الرموز الدقيقة، ما حكى أن قتيبة بن مسلم دخل على الحجاج وبين يديه كتاب قد ورد إليه من عبد الملك، وهو يقرأه، ولا يعلم معناه، وهو مفكر، فقال: ما الذي أحزن الأمير؟ قال: كتاب ورد من أمير المؤمنين، لا أعلم معناه، فقال: إن رأى الأمير إعلامي به، فناوله إياه، وفيه: أما بعد، فإنك سالم، والسلام. فقال قتيبة: مالي إن استخرجت لك ما أراد به. قال: ولاية خراسان، قال: إنه ما يسرك أيها الأمير، ويقر عينك، إنما أراد قول الشاعر:

يديروني عن سالم وأديرهم

وجلدة بين العين والأنف سالم

أي أنت عندي مثل سالم عند هذا الشاعر، فوله خراسان.

حكى الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، قال: خطب الوليد بن عبد الملك فقال: أمير المؤمنين عبد الملك قال: إن الحجاج

جلدة ما بين عيني وأنفي، ألا وإني أقول: إن الحجاج جلدة وجهي كله.
وعلى ذكر هذا البيت، حكى أن رجلاً كان يسقي جلساءه شرباً صرفاً غير ممزوج، وكان يحتاج إلى المزج لقوته، فجعل يغني لهم:

وجلدة بين العين والأنف سالم

يدير ونني عن سالم وأديرهم

فقال له واحد منهم: يا أبا فلان، لو نقلت ما، من غنائك إلى شرابك، لصلح غناؤنا ونبيذنا جميعاً.
ويشبه حكاية قتيبة والحجاج كتاب عبد الملك إلى الحجاج، جواباً عن كتاب كتبه إليه يغلظ فيه أمر الخوارج، ويذكر فيه حال قطري وغيره وشدة شوكتهم، فكتب إليه عبد الملك: أوصيك بما أوصى به البكري زيداً، والسلام.
فلم يفهم الحجاج ما أراد عبد الملك، فاستعلم ذلك من كثير من العلماء بأخبار العرب فلم يعلموه، فقال: من جاني تفسيره فله عشرة آلاف درهم، وورد رجل من أهل الحجاز يتظلم من بعض العمال، فقال له قائل: أتعلم ما أوصى به البكري زيداً، قال: نعم أعلمه، فقيل له: فأت الأمير، فأخبره ولك عشرة آلاف درهم، فدخل عليه فسأله، فقال: نعم أيها الأمير، إنه يعني قوله:

يرون المنايا دون قتلك أوقتي

أقول لزيد لا تترتر فإنهم

فعرضة نار الحرب مثلك أو مثلي

فإن وضعوا حرباً فضعها، وإن أبوا

فشب وقود النار بالحطب الجزل

وإن رفعوا الحرب العوان التي ترى

فقال الحجاج: أصاب أمير المؤمنين فيما أوصاني، وأصاب البكري فيما أوصى به زيداً، وأصبت أيها الأعرابي، ودفع إليه الدراهم. وكتب إلى المهلب: إن أمير المؤمنين أوصاني بما أوصى به البكري زيداً، وأنا أوصيك بذلك، وبما أوصى به الحارث بن كعب بنيه.

فنظر المهلب في وصية الحارث بن كعب، فإذا فيها: يا بني كونوا جميعاً، ولا تكونوا شيعاً فتفرقوا، وبزوا قبل أن تبزوا. الموت في قوة وعز، خير من الحياة في ذل وعجز. فقال المهلب: صمت البكري وأصاب، وصدق الحارث وأصاب. واعلم أن كثيراً مما ذكرناه داخل في باب التعريض، وخارج عن باب الكناية، وإنما ذكرناه لمشابهة الكناية، وكونهما كالنوعين تحت جنس عام، وسنذكر كلاماً كلياً فيهما إذا انتهينا إلى آخر الفصل إن شاء الله.

ومن الكنايات قول أبي نواس:

بطرف مستراب

وناضرة إلي من النقاب تلاحظني

مموهة المفارق بالخضاب

كشفت قناعها فإذا عجز

وتأخذ في أحاديث التصابي

فما زالت تجشمني طويلاً

وثون قيامه شيب الغراب

تحاول أن يقوم أبو زياد

فقامت وهي فارغة الجراب

أنت جرابها تكتال فيه

والكناية في البيت الأخير وهي ظاهرة.

ومنها قول أبي تمام: مالي رأيت تراكم بئس=الثرى مالي أرى أطوادكم تتهدم

فكنى ب بئس الثرى، عن تنكر ذات بينهم، وتهدم الأطواد عن خفة حلومهم وطيش عقولهم. ومنها قول أبي الطيب:

وشرما قنصته راحتني قنصق شهب البزاة سواء فيه والرخم

كنى بذلك عن سيف الدولة، وأنه يساوي بينه وبين غيره من أراذل الشعراء وخامليهم في الصلة والقرب.

وقال الأقيشر لرجل: ما أراد الشاعر بقوله:

ولقد غدوت بمشرف يافوخه مثل الهراوة مأؤه يتقصّد

أرن يسيل من المراح لعبه ويكاد جلد إهابه يتقدّد

قال: إنه يصف فرساً، فقال: حملك الله على مثله، وهذان البيتان من لطيف الكناية ورشيقتها، وإنما عنى العضو. وقريمن

هذه الكناية قول سعيد بن عبد الرحمن بن حسان، وهو غلام يختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ولد هشام بن

عبد الملك، وقد جمشه عبد الصمد فأغضبه، فدخل إلى هشام، فقال له:

إنه والله لولا أنت لم ينح مني سالماً عبد الصمد

فقال هشام: ولم ذلك. قال:

إنه قد رام مني خطّة لم يرمها قبله مني أحد

قال هشام: وما هي. ويحك قال:

رام جهلاً بي وجهلاً بابي يدخل الأفعى إلى بيت الأسد

فضحك هشام، وقال: لو ضربته لم أنكر عليك، ومن هذا الباب قول أبي نواس:

إذا ما كنت جار أبي حسين فنم ويداك في طرف السلاح

فإن له نساء سارقات إذا ما بتن أطراف الرماح

سرقن وقد نزلت عليه عضوي فلم أظفر به حتى الصباح

فجاء وقد تخدش جانباه يئن إلي من ألم الجراح

والكناية في قوله: أطراف الرماح، وفي قوله: في طرف السلاح.

ومن الكناية الحسنة قول الفرزدق يرثي امرأته، وقد ماتت بجمع:

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه، ولم أبعث عليه البواكيا

وفي جوفه من دارم ذو حفيظة لو أن المنايا أخطأت لياليا

أخذه الرضي رحمه الله تعالى فقال يرثي امرأة:

إن لم تكن نصلاً فغمد نصول

غالته أحداث الزمان بغول

أولم تكن بأبي شبول ضيغم

تدمى أظافره فأم شبول

ومن الكنايات ما يروى أن رجلاً من خواص كسرى أحب الملك امرأته، فكان يختلف إليها سراً وتختلف إليه، فعلم بذلك، فهجرها وترك فراشها، فأخبرت كسرى، فقال له يوماً: بلغني أن لك عينا عذبة، وأنك لا تشرب منها، فقال: بلغني أيها الملك أن الأسد يردها فخفته، فتركتها له، فاستحسن ذلك منه ووصله. ومن الكنايات الحسنة قول حاتم:

وما تشكيني جارتى غير أنني

إذا غاب عنها بعلمها لا أزورها

سبيلها خيرى ويرجع بعلمها

إليها ولم يسبل علي ستورها

فكنى بإسبال السترعن الفعل، لأنه يقع عنده غالباً.

فأما قول عمر: من أرخى ستراً أو أغلق باباً وجب عليه المهر. فيمكن أن يكنى بذلك عن الجماع نفسه، ويمكن أن يكنى به عن الخلوة فقط. وهو مذهب أبي حنيفة، وهو الظاهر من اللفظ لأمرين: أحدهما قوله: أغلق باباً، فإنه لو أراد الكناية لم يحسن التردد أو، وثانيهما أنه قد كان مقررأ عندهم أن الجماع نفسه يوجب كمال المهر، فلم يكن به حاجة إلى ذكر ذلك.

ويشبه قول حاتم في الكناية المقدم ذكرها قول بشار بن بشر:

وإني لعف عن زيارة جارتى

وإني لمشئوء إلي اغتياها

ولم أك طلاباً أحاديث سرها

ولا عالماً من أي حوك ثيابها

إذا غاب عنها بعلمها لم أكن لها

زؤوراً ولم تتبج علي كلابها

وقال الأخطل في ضد ذلك يهجو رجلاً ويرميه بالزنا:

سبنتى يظل الكلب يمضغ ثوبه

له في ديار الغانيات طريق

السبنتى: النمر، يريد أنه جريء وقح، وأن الكلب لأنسه به وكثرة اختلافه إلى جاراته يعرفه، ويمضغ ثوبه، يطلب ما يطعمه، والعفيف ينكره الكلب ولا يأنس به، ثم أكد ذلك بأنه قد صار له بكثرة تردده إلى ديار النساء طريق معروف. ومن جيد الكناية عن العفة قول عقيل بن علفة المري:

ولست بسائل جارات بيتي

أغياث رجالك أم شهود

ولاملق لذي الودعات سوطي

ألاعبه وربيتته أريد

ومن جيد ذلك ومختاره قول مسكين الدارمي:

ناري ونار اتجار واحدة

وإليه قبلي تنزل القدر

ما ضر جاراً لي أجاوره

ألا يكون لبابه ستر

أعشى إذا ما جرتي برزت

حتى يوارى جرتي الخدر

والعرب تكني عن الفرج بالإزار، فتقول: هو عفيف الإزار، وبالدليل، فتقول: هو طاهر الذيل، وإنما كنوا بهما، لأن الذيل والإزار لا بد من رفعهما عند الفعل، وقد كنوا بالإزار عن الزوجة في قول الشاعر:

ألا أبلغ أبا بشر رسولاً

فداً لك من أخي ثقة إزاري

يريد به زوجتي، أو كنى بالإزار ههنا عن نفسه، وقال زهير:

الحافظون ذمام عهدهم

والطيبون معاهد الأزر

الستر دون الفاحشات ولا

يلقاك عون الخير من ستر

ويقولون في الكناية عن العفيف: ما وضعت مومسة عنده قناعاً، ولا رفع عن مومسة ذيلاً، وقد أحسن ابن طباطبا في قوله:

فطربت طربة فاسق متهتك

وعففت عفة ناسك متخرج

الله يعلم كيف كانت عفتي

ما بين خلخال هناك ودملج

ومن الكناية عن العفة قول ابن ميادة:

ومانلت منها محرماً غير أنني

أقبل بساماً من الثغر أفلجا

وألثم فاما آخذاً بقرونها

وأترك حاجات النفوس تحرجا

فكنى عن الفعل نفسه بحاجات النفوس، كما كنى أبو نواس عنه بذلك العمل في قوله:

مربنا والعيون ترمقه

تجرح منه مواضع القبل

أفرغ في قالب الجمال فما

يصلح إلا لذلك العمل

وكما كنى عنه ابن المعتز بقوله:

وزارني في ظلام الليل مستتراً

يستعجل الخطو من خوف ومن حذر

ولاح ضوء هلال كاد يفضحه

مثل القلامة قد قصت من الظفر

فقمتم أفرش خدي في الطريق له

ذلاً وأسحب أذيالي على الأثر

فكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ومما تطيروا من ذكره، فكنا عنه قولهم: مات، فإنهم عبروا عنه بعبارات مختلفة داخلية في باب الكناية، نحو قولهم: لعق إصبغه. وقالوا: اصفرت أنامله، لأن اصفرار الأنامل من صفات الموتى، قال الشاعر:

فقرباني بأبي أنتما

من وطني قبل اصفرار البنان

وقبل منعاي إلى نسوة

منزلها حران والرقتان

وقال ليبد:

وكل أناس سوف تدخل بينهم

دويهيّة تصفر منها الأنامل

يعني الموت، ويقولون في الكناية عنه: صك لفلان على أبي يحيى، وأبو يحيى كنية الموت، كني عنه بضده، كما كنوا عن الأسود بالأبيض، وقال الخوارزمي:

سريعة موت العاشقين كأنما

يغار عليهم من هواها أبويحيى

وكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه بهاذم اللذات، فقال: أكثروا من ذكر هاذم اللذات وقال أبو العتاهية:

رأيت المنايا قسمت بين أنفس

ونفسي سيأتي بينهن نصيبها

فيا هاذم اللذات مامنك مهرب

تحاذر نفسي منك ماسيبيها

وقالوا: حلقت به العنقاء، وحلقت به عنقاء مغرب، قال:

فلولا دفاعي اليوم عنك لحلقت

بشلوك بين القوم عنقاء مغرب

وقالوا فيه: زل الشراك عن قدمه، قال:

لا يسلمون العداة جارهم

حتى يزل الشراك عن قدمه

أي حتى يموت، فيستغي عن لبس النعل.

فأما قولهم: زلت نعله، فيكنى به تارة عن غلظه وخطئه، وتارة عن سوء حاله واختلال أمره بالفقر، وهذا المعنى الأخير أراوده الشاعر بقوله :

لسأشكر عمراً ماترأخت منيتي

أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محبوب الغنى عن صديقه

ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها

فكانت قذى عينيه حتى تجلت

ويقولون فيه: شالت نعامته، قال:

ياليت أُمي قد شالت نعامته

أيما إلى جنة أيما إلى نار

ليست بشبعى ولو أوردتها هجراً

ولا برياً ولو حلت بذي قار

أي لا يشبعها كثرة التمر ولو نزلت هجر - وهجر كثرة النخل - ولا تروى ولو نزلت ذا قار، وهو موضع كثير الماء. قال ابن دريد: والنعامة خط باطن القدم في هذه الكناية. ويقال أيضاً للقوم قد تفرقوا بجلاء عن منازلهم: شالت نعامتهم، وذلك لأن النعامة خفيفة الطيران عن وجه الأرض، كأنهم خفوا عن منزلهم.

وقال ابن السكيت: يقال لمن يغضب ثم يسكن: شالت نعامته ثم وقعت.

وقالوا أيضاً في الكناية عن الموت: مفى لسبيله، واستأثر الله به، ونقله إلى جواره، ودعي فأجاب، وقضى نحب، والنحب: النذر، كأنهم رأوا أن الموت لما كان حتماً في الأعناق كان نذراً.

وقالوا في الدعاء عليه: اقتضاه الله بذنبه، إشارة إلى هذا، وقالوا: ضحا ظله، ومعناه صار ظله شمساً، وإذا صار الظل شمساً فقد عدم صاحبه.

ويقولون أيضاً: خلى فلان مكانه: وأنشد ثعلب للعتي في السري بن عبد الله:

كأن الذي يأتي السري لحاجة

أباح إليه بالذي جاء يطلب

إذا ما ابن عبد الله خلى مكانه

فقد حلفت بالجود عنقاء مغرب

وقال دريد بن الصمة:

فإن يك عبد الله خلى مكانه

فما كان وقافاً ولا طائش اليد

وكثير ممن لا يفهم يعتقد أنه أراد بقوله: خلى مكانه، أي فر، ولو كان كذلك لكان هجاء.

ويقولون: وقع في حياض غتيم، وهو اسم للموت.

ويقولون: طار من ماله الثمين، يريحون الثمن، يقال: ثمن وثمان، وسبع وسبيع، وذلك لأن الميت ترث زوجته من ماله الثمن غالباً، قال الشاعر يذكر جوع بماله ويخاطب امرأته:

فلا وأبيك لا أولي عليها

لتمنع طالباً منها اليمين

فإني لست منك ولست مني

إذا ما طار من مالي الثمين

أي إذا مت، فأخذت ثمنك من تركتي، وقالوا: لحق باللطيف الخبير، قال:

ومن الناس من يحبك حباً

ظاهر الود ليس بالتقصير

فإذا ما سألته ربع فلس

ألحق الود باللطيف الخبير

وقال أبو العلاء:

لا تنسل عن عداك أين استقروا

لحق القوم باللطيف الخبير

ويقولون: قرض رباطه، أي كاد يموت جهداً وعطشاً.

وقالوا في الدعاء عليه: لا عد من نفره، أي إذا عد قومه، فلا عد معهم، وإنما يكون كذلك إذا مات، قال امرؤ القيس:

فهو لا تنمي رميته

ما له لاعد من نفره

وهذا إنما يريد به وصفه، والتعجب منه، لا أنه يدعو عليه حقيقة، كما تقول لمن يجيد الطعن: شلت يده، ما أحذقه.

وقالوا في الكناية عن الدفن: أضلوه وأضلوا به، قال الله تعالى: "وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد"، أي إذا دفنا في الأرض.

وقال المخبل السعدي:

أضلت بنو قيس بن سعد عميدها

وسيدها في الدهر قيس بن عاصم

ويقولون للمقتول: ركب الأشقر، كناية عن الدم، وإليه أشار الحارث بن هشام المخزومي في شعره، الذي يعتذر به عن فراره يوم بدر عن أخيه أبي جهل بن هشام حين قتل:

علوا فرسي بأشقر مزبد

أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي

طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى

وعلمت أنني إن أقاتل واحداً

فصددت عنهم والأحبة فيهم

أراد بدم أشقر، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه كناية عنه، والعرب تقيم الصفة مقام الموصوف كثيراً، كقوله تعالى: "وحملناه على ذات ألواح ودسر"، أي على سفينة ذات ألواح، وكقول عنترة:

كشديق الأعلم

تمكو فريصته

أي كشديق الإنسان الأعلم، أو البعير الأعلم.

ويقولون: ترك فلان بجعجاع، أي قتل، قال أبو قيس بن الأسلت:

مراً وتتركة بجعجاع

من يذق الحرب يجد طعمها

أي تركه قتيلاً مخلى بالفضاء.

ومما كنوا عنه قولهم للمقيد: هو محمول على الأدهم، والأدهم: القيد، قال الشاعر:

رجلي ورجلي شتنة المناسم

أو عدني بالسجن والأدهم

وقال الحجاج للغضبان بن القبعثري: لأحملنك على الأدهم، فتجاهل عليه، وقال: مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب. وقد كنوا عن القيد أيضاً بالأسم، أنشد ابن عرفة لبعضهم:

بساقيه من سمر القيود كبول

له بعد نومات العيون غليل

غداة غد أو رائح فقتيل

فراق حبيب ما إليه سبيل

فما وجد صعلوك بصنعاء موثق

قليل الموالي مسلم بجريرة

يقول له البواب أنت معذب

بأكثر من وجدي بكم يوم راعني

وهذا من لطيف شعر العرب وتشبيهها. ومن كنايةاتهم عنه: ركب ردعه، وأصله في السهم يرمى به فيرتدع نصله فيه، يقال: ارتدع السهم، إذا رجع النصل في السنخ متجاوزاً، فقولهم: ركب ردعه، أي وقص فدخل عنقه في صدره، قال الشاعر وهو من شعر الحماسة:

أبعلي هذا بالرحا المتقاعس

بلابي إذا التفت علي الفوارس

وفيه سنان ذو غرارين يابس

لضيبي وإني إن ركبت لفارس

تقول وصكت صدرها بيمينها

فقلت لها لاتعجلي وتبينني

ألست أرد القرن يركب ردعه

لعمر أبيك الخير إني لخادم

وأنشد الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، لبعض الخوارج:

ومسوم للموت يركب ردعه
بين الأسنة والقنا الخطار
يدنو وترفعه الرماح كأنه
شلو تنشب في مخالب ضاري
فثوى صريعاً و الرماح تنوشه
إن الشراة لصيرة الأعمار

وقد تطيرت العرب من لفظة البرص، فكنوا عنه بالوضح، فقالوا: جذيمة الوضح، يريدون الأبرص، وكني عنه بالأبرش أيضاً، وكل أبيض عند العرب وضاح، وشسمون اللبن وضحاً، يقولون: ما أكثر الوضح عند بني فلان. ومما تفاءلوا به قولهم للفلاة التي يظن فيها الهلاك: مفازة، اشتقاقاً من الفوز وهو النجاة، وقال بعض المحدثين:

أحب الفأل حين رأى كثيراً
أبوه عن اقتناء المجد عاجز
فسماه لقلته كثيراً
كتلقيب المهالك بالمفاوز

فأما من قال: إن المفازة مفعلة، من فوز الرجل، أي هلك، فإنه يخرج هذه اللفظة من باب الكنايات، ومن هذا تسميتهم اللديغ سليماً، قال:

كأنني من تذكر ما ألقى
إذا ما أظلم الليل البهيم
سليم مل منه أقربوه
وأسلمه المجاور والحميم

وقال أبو تمام في الشيب:

شعلة في المفارق استودعتني
في صميم الأحشاء ثكلاً صميماً
تستثير الهموم ما اكتن منها
صعداً وهي تستثير الهموما
دقة في الحياة تدعى جلاً
متلماً سمي اللديغ سليماً
غرة بهمة ألا إنما كنت
أغراً أيام كنت بهيماً

حلمتني زعمتم وأراني قبل هذا التحليم كنت حلماً

ومن هذا قولهم للأعور: ممتع، كأنهم أرادوا أنه قد متع ببقاء إحدى عينيه، ولم يحرم ضوءهما معاً. ومن كناياتهم على العكس قولهم للأسود: يا أبا البيضاء، وللأسود أيضاً: يا كافور، وللأبيض: يا أبا الجون، وللأقرع: يا أبا الجعد، وسموا الغراب أعور لحدة بصره، قال ابن ميادة:

ألا طرقتنا أم عمرو ودونها
فياف من البيداء يعشى غرابها

حص الغراب بذلك لحمة نظره، أي فكيف غيره.

ومما جاء في تحسين اللفظ ما روي أن المنصور كان في بستان داره والربيع بين يديه، فقال له: ما هذه الشجرة، فقال: وفاق، يا أمير المؤمنين، وكانت شجرة خلاف، فاستحسن منه ذلك.

ومثل هذا استحسان الرشيد قول عبد الملك بن صالح، وقد أهدى إليه باكورة فاكهة في أطباق خيزران: بعثت إلى أمير

المؤمنين في أطباق قضبان تحمل من جنايا باكورة بستانه ما راج وأينع، فقال الرشيد لمن حضر: ما أحسن ما كنى عن اسم أمتنا.

ويقال: إن عبد الملك سبق بهذه الكناية، وإن الهادي قال لابن دأب، وفي يده عصا: ما جنس هذه، فقال: من أصول القنا - يعني الخيزران، والخيزران أم الهادي والرشيد معاً.

وشبيه بذلك ما يقال: إن الحسن بن سهل كان في يده ضغث من أطراف الأراك، فسأله المأمون عنه: ما هذه، فقال: محاسنك يا أمير المؤمنين، تجنباً لأن يقول: مساوئك، وهذا لطيف.

ومن الكنايات اللطيفة أن عبد الملك بعث الشعبي إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر يومئذ، ليسير أخلاقه وسياسته، ويعود إليه فيخبره بحاله، فلما عاد سأله فقال: وجدته أحوج الناس إلى بقائك يا أمير المؤمنين، وكان عبد العزيز يضعف.

ومن الألفاظ التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الكنايات قوله صلى الله عليه وسلم: "بعثت إلى الأسود والأحمر"، يريد إلى العرب والعجم، فكنى عن العرب بالأسود وعن العجم بالأحمر، والعرب تسمى العجمي أحمر، لأن الشقرة تغلب عليه.

قال ابن قتيبة: خطب إلى عقيل بن علفة المري ابنته هشام بن إسماعيل المخزومي - وكان والي المدينة، وخال هشام بن عبد الملك - فرده، لأنه كان أبيض شديد البياض - وكان عقيل أعرايياً جافياً غيوراً مفرط الغيرة - وقال:

رددت صحيفة القرشي لما أبت أعراقه إلا احمرارا

فرده، لأنه توسم في أن بعض أعراقه يترع إلى العجم، لما رأى من بياض لونه وشقرته، ومنه قول جرير يذكر العجم:

يسموننا الأعراب والعرب اسمنا وأسماءهم فينا رقاب المزاد

وإنما يسمونهم رقاب المزاد، لأنها حمراء .

ومن كناياتهم تعبيرهم عن المفاخرة بالمساجلة، وأصلها من السجل، وهي الدلو المليء كان الرجلان يستقيان، فأيهما غلب صاحبه كان الفوز والفخر له، قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجملة من بيت العرب

من يساجلني يساجل ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب

برسول الله وابني عمه وبعباس بن عبد المطلب

ويقال: إن الفرزدق مر بالفضل وهو ينشد: من يساجلني، فقال: أنا أساجلك ونزع ثيابه، فقال الفضل: برسول الله وابن عمه، فلبس الفرزدق ثيابه، وقال: أغص الله من يساجلك بما نفت الموالي من بظر أمه، ورواها أبو بكر بن ثريد: بما أبقّت المواسي.

وقد نزل القرآن العزيز على مخرج كلام العرب في المساجلة، فقال تبارك وتعالى: "فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب

أصحابهم"، الذنوب: الدلو، والمراد ما ذكرناه.

وقال المبرد: المراد بقوله: وأنا الأخضر، أي الأسمر والأسود، والعرب كانت تفتخر بالسمر والسواد، وكانت تكره الحمرة والشقرة، وتقول: إنهما من ألوان العجم.

وقال ابن دريد: مراده أن بيتي ربيع أبداً مخصب، كثير الخير، لأن الخصب مع الخضرة، وقال الشاعر:

يتناهقون تناهق الحمر

قوم إذا اخضرت نعالهم

أي إذا أعشبت الأرض اخضرت نعالهم من وطئهم إياها، فأغار بعضهم على بعض، والتناهق ههنا: أصواتهم حين ينادون للغارة، ويدعو بعضهم بعضاً، ونظير هذا البيت قول الآخر:

نبتت عداوتهم مع البقل

قوم إذا نبت الربيع لهم

أي إذا أخصبوا وشبعوا غزا بعضهم بعضاً. ومثله قول الآخر:

فكلهم يغدو بسيف وقرن

يابن هشام أهلك الناس اللبن

أي تسفهوا لما رأوا من كثرة اللبن والخصب، فأفسدوا في الأرض، وأغار بعضهم على بعض. والقرن: الجعبة. وقيل لبعضهم: متى يخاف من شر بني فلان، فقال: إذا ألبنوا. ومن الكنايات الداخلة في باب الإيماء قول الشاعر:

ولكنما يوهي القميص عوائقه

فتى لا يرى قد القميص بخصره

لما كان سلامة القميص من الخرق في موضع الخصر تابعاً لدقة الخصر، ووهنه في الكاهل تابعاً لعظم الكاهل، ذكر ما دل بهما على دقة خصر هذا الممدوح وعظم كاهله، ومنه قول مسلم بن الوليد:

على قضيب على حقف النقا الدهس

فرعاء في فرعها ليل على قمر

وقلبها قلبها في الصمت والخرس

كأن قلبي وشاحاً إذا خطرت

مجرى السلامة في أعضاء منتكس

تجري محبتها في قلب عاشقها

فلما كان قلق الوشاح تابعاً لدقة الخصر ذكره دالا به عليه، ومن هذا الباب قول القائل:

فويل لأهل الشاء والحمراء

إذا غرد المكاء في غير روضة

أوماً بذلك إلى الجذب، لأن المكاء يألف الرياض، فإذا أجذبت الأرض سقط في غير روضة وغرد، فالويل حينئذ لأهل الشاء والحمراء، ومنه قول القائل:

إذا جعل الخلخال في موضع القلب

لعميري لنعم الحي حي بني كعب

القلب: السوار، يقول: نعم الحي هؤلاء إذا ريع الناس وخافوا، حتى إن المرأة لشدة خوفها تلبس الخلخال مكان السوار، فاختصر الكلام اختصاراً شديداً، ومنه قول الأوفى الأودي:

للحرب أوللجذب عام الشموس

إن بني أود هم ما هم

أشار إلى الجذب وقلة السحب والمطر، أي الأيام التي كلها أيام شمس وصحو، لا غيم فيها ولا مطر، فقد ذكرنا من الكنايات والتعريضات وما يدخل في ذلك ويجري مجراه من باب الإيماء والرمز قطعة صالحة، وسنذكر شيئاً آخر من ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى، إذا مررنا في شرح كلامه صلى الله عليه وسلم بما يقتضيه ويستدعيه.

الفرق بين الكناية والتعريض

وقد كنا وعدنا أن نذكر كلاماً كلياً في حقيقة الكناية والتعريض، والفرق بينهما، فنقول: الكناية قسم من أقسام المجاز، وهو إبدال لفظة عرض في النطق بما مانع بلفظة لا مانع عن النطق بها، كقوله صلى الله عليه وسلم: "قرارات النساء"، لما وجد الناس قد تواضعوا على استهجان لفظة "أرحام النساء".
وأما التعريض فقد يكون بغير اللفظ كدفع أسماء بن خارجة الفص الفيروز الأزرق من يده إلى ابن مكعب الضبي إذكراً له بقول الشاعر:

كذا كل ضبي من اللؤم أزرق

فالتعريض إذا هو التنبيه بفعل أو لفظ على معنى اقتضت الحال العدول عن التصريح به.
وأنا أحكي ههنا كلام نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري. في كتابه المسمى بالمثل السائر في الكناية والتعريض، وأذكر ما عندي فيه، قال: خلط أرباب هذه الصناعة الكناية بالتعريض، ولم يفصلوا بينهما، فقال ابن سنان: إن قول امرئ القيس:

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبةً أي إذلال

من باب الكناية، والصحيح أنه من باب التعريض.

قال: وقد قال الغائي والعسكري وابن حمدون وغيرهم نحو ذلك، ومزجوا أحد القسمين بالآخر.

قال: وقد حد قوم الكناية، فقالوا: هي اللفظ الدال على الشيء بغير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه، كاللمس والجماع، فإن الجماع اسم لموضوع حقيقي، واللمس كناية عنه، وبينهما وصف جامع، إذ الجماع لمس وزيادة، فكان دالاً عليه بالوضع المجازي.

قال: وهذا الحد فاسد، لأنه يجوز أن يكون حدثاً للتشبيه والمشبه، فإن التشبيه هو اللفظ الدال على الوضع الحقيقي الجامع بين المشبه والمشبه به في صفة من الأوصاف، ألا ترى إذا قلنا: زيد أسد، كان ذلك لفظاً دالاً على غير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين زيد والأسد، وذلك الوصف هو الشجاعة.

قال: وأما أصحاب أصول الفقه، فقالوا في حد الكناية: إنها اللفظ المحتمل، ومعناه أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى، وعلى خلافه. وهذا منقوض بالألفاظ المفردة المشتركة، وبكثير من الأقوال المركبة المحتملة للشيء وخلافه، وليست بكنايات.

قال: وعندي أن الكنايات لا بد أن يتجاوزها جانباً حقيقة ومجاز، ومتى أفردت جاز حملها على الجانبين معاً، ألا ترى أن اللمس في قوله سبحانه، "أو لامستم النساء" يجوز حمله على الحقيقة والمجاز، وكل منهما يصح به المعنى ولا يختل، ولهذا

قال الشافعي: إن ملامسة المرأة تنقض الوضوء والطهارة.

وذهب غيره إلى أن المراد باللمس في الآية الجماع، وهو الكناية المجازية، فكل موضع يرد فيه الكناية، فسيبيله هذا السبيل، وليس التشبيه بهذه الصورة ولا غيره من أقسام المجاز، لأنه لا يجوز حمله إلا على جانب المجاز خاصة، ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى، ألا ترى أنا إذا قلنا: زيد أسد لم يصح أن يحمل إلا على الجهة المجازية ث وهي التشبيه بالأسد في شجاعته، ولا يجوز حمله على الجهة الحقيقية، لأن زيداً لا يكون سبعاً ذا أنياب ومخالب، فقد صار إذن حد الكناية أهما اللفظ الدال على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز.

قال: والدليل على ذلك أن الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره، يقال: كنت بكذا عن كذا، فهي تدل على ما تكلمت به، وعلى ما أردته من غيره فلا يخلو إما أن يكون في لفظ تجاذبه جانباً حقيقة وحقيقة، أو في لفظ تجاذبه جانباً مجاز ومجاز، أو في لفظ لا يتجاذبه أمر. وليس لنا قسم رابع.

والثاني باطل، لأن ذاك هو اللفظ المشترك، فإن أطلق من غير قرينة مخصصة كان مبهماً غير مفهوم، وإن كان معه قرينة صار مخصصاً لشيء بعينه، والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أضيف إليه القرينة، لأنه يختص بشيء واحد بعينه، ولا يتعداه إلى غيره، والثالث باطل أيضاً، لأن المجاز لا بد له من حقيقة ينقل عنها لأنه فرع عليها.

وذلك اللفظ الدال على المجاز، إما أن يكون للحقيقة شركة في الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة في الدلالة عليه، كأن اللفظ الواحد قد دل على ثلاثة أشياء: أحدها الحقيقة، والأخران المجازان.

وهذا مخالف لأصل الوضع، لأن أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره، وههنا يكون قد تكلمت بشيء وأنت تريد شيئين غيرين، وإن لم يكن للحقيقة شركة في الدلالة، كان ذلك مخالفاً لأصل الوضع أيضاً، إذ أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره، فيكون الذي تكلمت به دالاً على غيره، وإذا أخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركة في الدلالة، لم يكن الذي تكلمت به، وهذا محال، فثبت إذن أن الكناية هي أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز. قال: وهذا مما لم يسبقني إليه أحد. ثم قال: قد يأتي من الكلام ما يجوز أن يكون كناية، ويجوز أن يكون استعارة، ويختلف ذلك باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى ما بعده. كقول نصر بن سيار في أبياته المشهورة التي يحرض بها على بني أمية عند خروج أبي مسلم:

ويوشك أن يكون له ضرام

وإن الحرب أولها كلام

أيقاظ أمية أم نيام

أرى خلل الرماد وميض جمر

فإن النار بالزندان توري

أقول من التعجب: ليت شعري

فالبيت الأول لو ورد بمفرده لكان كناية، لأنه لا يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجازة فإذا نظرنا إلى الأبيات بجملة، كان البيت الأول المذكور استعارة لا كناية.

ثم أخذ في الفرق بين الكناية والتعريض، فقال: التعريض هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا بالمجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع معرفته وصلته بغير طلب: أنا محتاج ولا شيء في يدي، وأنا عريان والبرد قد آذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس اللفظ موضوعاً للطلب، لا حقيقة ولا مجازاً، وإنما يدل عليه من طريق المفهوم بخلاف قوله: "أولامستم النساء". وعلى هذا ورد تفسير التعريض في خطبة النكاح، كقولك للمرأة: أنت جميلة، أو إنك خلية وأنا عزب. فإن هذا وشبهه لا يدل على طلب النكاح بالحقيقة ولا بالمجاز، والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم المركب، وليست وضعية، وإنما يسمى التعريض تعريضاً، لأن المعنى فيه يفهم من عرض اللفظ المفهوم، أي من جانبه.

قال: واعلم أن الكناية تشتمل على اللفظ المفرد، واللفظ المركب، فتأتي على هذا مرة، وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة، لأنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة، ولا من جهة المجاز، بل من جهة التلويح والإشارة، وهذا أمر لا يستقل به اللفظ المفرد، ويحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب. قال: فقد ظهر فيما قلنا في البيت الذي ذكره ابن سنان مثال الكناية، ومثال التعريض هو بيت امرئ القيس، لأن غرض الشاعر منه أن يذكر الجماع، إلا أنه لم يذكره بل ذكر كلاماً آخر، ففهم الجماع من عرضه، لأن المصير إلى الحسنى ورقة الكلام لا يدلان على الجماع، لا حقيقة ولا مجازاً.

ثم ذكر أن من باب الكناية قوله سبحانه: "أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقحون عليه في النار". قال: كنى بالماء عن العلم، وبالأودية عن القلوب، وبالزبد عن الضلال.

قال: وقد تحقق ما اخترعناه وقدرناه من هذه الآية، لأنه يجوز حملها على جانب الحقيقة، كما يجوز حملها على جانب المجاز. قال: وقد أخطأ الفراء حيث زعم أن قوله سبحانه وتعالى: "وإن كان مكرمهم لتزول منه الجبال" كناية عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كنى عنه بالجبال. قال: ووجه الخطأ أنه لا يجوز أن يتجاذب اللفظ ههنا جانباً الحقيقة والمجاز، لأن مكرمهم لم يكن لتزول منه الجبال الحقيقية، فالآية إذا من باب المجاز لا من باب الكناية.

قال: ومن الكنايات المستحسنة قوله صلى الله عليه وسلم للحادي بالنساء: "يا أنجشة رفقا بالقوارير". وقول امرأة لرجل قعد منها مقعد القابلة: لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه. وقول بديل بن ورقاء الخزاعي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قريشاً قد نزلت على ماء الحديدية معها العوذ المطافيل، وإنهم صادوك عن البيت". قال: فهذه كناية عن النساء والصبيان، لأن العوذ المطافيل: الإبل الحديثات النتاج ومعها أولادها.

ومن الكناية ما ورد لا شهادة الزنا، أن يشهد عليه برؤية الميل في المكحلة. ومنها قول عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هلكت يا رسول الله، قال: "وما أهلكك"، قال: حولت رحلي البارحة.

قال: أشار بذلك إلى الإتيان في غير المأتى.

ومنها قول ابن سلام لمن رأى عليه ثوباً معصفاً: لو أن ثوبك في تنور أهلك لكان خيراً لك.
قال: ومن الكنايات المستقبحة قول الرضي يرثي امرأة:

فغمد نصول

إن لم تكن نصلاً

لأن الوهم يسبق في هذا الموضع إلى ما يقبح، وإنما سرقه من قول الفرزدق في امرأته وقد ماتت بجمع:

عليه، ولم أبعث عليه البواكيا

وجفن لسلاح قد رزئت فلم أنح

لو أن المنايا أخطأته لياليا

وفي جوفه من دارم فو حفيظة

فأخذ الرضي فأفسده ولم يحسن تصريفه.

قال: فأما أمثلة التعريض فكثيرة، منها قوله تعالى: "قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين"، فقوله: "ما نراك إلا بشراً مثلنا" تعريض بأنهم أحق بالنبوة، وأن الله تعالى لو أراد أن يجعلها في واحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازيتهم في المترلة، فما جعلك أحق بالنبوة منهم، ألا ترى إلى قوله: "وما نرى لكم علينا من فضل"، هذه خلاصة ما ذكره ابن الأثير في هذا الباب.

واعلم أنا قد تكلمنا عليه في كثير من هذا الموضع في كتابنا الذي أفردناه للنقض عليه، وهو الكتاب المسمى بالفلك الدائر على المثل السائر، فقلنا أولاً: إنه اختار حد الكناية وشرع يبرهن على التحديد، والحدود لا يبرهن عليها، ولا هي من باب الدعاوى التي تحتاج إلى الأدلة، لأن من وضع لفظ الكناية لمفهوم مخصوص لا يحتاج إلى دليل، كمن وضع لفظ الجدار للحائط لا يحتاج إلى دليل.

ثم يقال له: لم قلت: إنه لا بد من أن يتردد لفظ الكناية بين محملي حقيقة ومجاز. ولم لا يتردد بين مجازين. وما استدلت به على ذلك لامعني له.

أما أولاً، فلأنك أردت أن تقول: إما أن تكون للفظ الدالة على المجازين شركة، الدلالة على الحقيقة، أو لا يكون لها في الدلالة على الحقيقة شركة، لأن كلامك هكذا يقتضي، ولا ينتظم إلا إذا قلت هكذا فلم تقله، وقلت: إما أن يكون للحقيقة شركة في اللفظ الدال على المجازين، وهذا قلب للكلام الصحيح وعكس له.

وأما ثانياً فلم قلت: إنه لا يكون للفظ الدالة على المجازين شركة في الدلالة على الحقيقة التي هي أصل لهما، فأما قولك هذا فيقتضي أن يكون الإنسان متكلماً بشيء وهو يريد شيئين غيره، وأصل الوضع أن يتكلم بشيء وهو يريد غيره، فليس معنى قولهم: الكناية أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره، أنك تريد شيئاً واحداً غيره، كلا ليس هذا هو المقصود، بل المقصود أن تتكلم بشيء وأنت تريد ما هو مغاير له، وإن أردت شيئاً واحداً أو شيئين أو ثلاثة أشياء أو ما زاد، فقد أردت ما هو مغاير له، لأن كل مغاير لما دل عليه ظاهر لفظك فليس في لفظه غير ما يقتضي الوحدة والإفراد.

وأما ثالثاً فلم لا يجوز أن يكون للفظ الدال على المجازين شركة في الدلالة على الحقيقة أصلاً، بل يدل على المجازين فقط،

فأما قولك إذا خرجت الحقيقة عن أن يكون لها في ذلك شركة لم يكن الذي تكلمت به دالاً على ما تكلمت به وهو محال، ومرادك بهذا الكلام المقلوب أنه إذا خرجت اللفظة عن أن يكون لها شركة في الدلالة على الحقيقة التي هي موضوعها في الأصل لم يكن ما تكلم به الإنسان دالاً على ما تكلم به وهو حقيقة، ولا دالاً أيضاً على ما تكلم به وهو مجازة لأنه إذا لم يدل على الحقيقة، وهي الأصل، لم يجوز أن يدل على المجاز التي هو الفرع، لأن انتفاء الدلالة على الأصل، يوجب انتفاء الدلالة على الفرع، وهكذا يجب أن يتأول استدلاله، وإلا لم يكن له معنى محصل، لأن اللفظ هو الدال على مفهوماته، وليس المفهوم دالاً على اللفظ، ولا له شركة في الدلالة عليه، ولا على مفهوم آخر يعترض اللفظ بتقدير انتقال اللفظ، اللهم إلا أن يكون دلالة عقلية، وكلامنا في الألفاظ ودلالاتها.

فإذا أصلحنا كلامه على ما ينبغي، قلنا له في الاعتراض عليه: لم قلت إنه إذا خرج اللفظ عن أن يكون له شركة في الدلالة على الحقيقة، لم يكن ما تكلم به الإنسان دالاً على ما تكلم به. ولم لا يجوز أن يكون للحقيقة مجازان قد كثر استعمالهما حتى نسيت تلك الحقيقة، فإذا تكلم الإنسان بذلك اللفظ كان دالاً به على أحد ذينك المجازين، ولا يكون له تعرض ما بتلك الحقيقة، فلا يكون الذي تكلم به غير دال على ما تكلم به، لأن حقيقة تلك اللفظة قد صارت ملغاة منسية، فلا يكون عدم إرادتها موجباً أن يكون اللفظ الذي يتكلم به المتكلم غير دال على ما تكلم به، لأنها قد خرجت بترك الاستعمال، عن أن تكون هي ما تكلم به المتكلم.

ثم يقال: إنك منعت أن يكون قولنا: زيد أسد. كناية، وقلت: لأنه لا يجوز أن يحمل أحد هذا اللفظ على أن زيدا هو السبع ذو الأنياب والمخالب، ومنعت من قول الفراء إن الجبال في قوله: " لتزول منه الجبال " كناية عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته، لأن أحداً لا يعتقد ولا يتصور أن مكر البشر يزيل الجبال الحقيقية عن أماكنها، ومنعت من قول من قال إن قول الشاعر:

ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

من باب الكناية، لأن أحداً لا يتصور أن الحقائق - وهي جمادات - تثني وتشكر. وقلت: لا بد أن يصح حمل لفظ الكناية على محمل الحقيقة والمجاز، ثم قلت: إن قول عبد الله بن سلام لصاحب الثوب المعصر: لو أنك جعلت ثوبك في تنور أهلك كناية، وقول الرضي في امرأة ماتت:

إن لم تكن نصلاً

فغمد نصول

كناية، وإن كانت مستقبحة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبجشة رفقا بالقوارير"، وهو يحدو بالنساء كناية، فهل يميز عاقل قط أو يتصور في الأذهان أن تكون المرأة غمداً للسيوف، وهل يحمل أحد قط قوله للحادي "رفقا بالقوارير" على أنه يمكن أن يكون نماء عن الغنف بالزجاج، أو يحمل أحد قط قول ابن سلام على أنه أراد إحراق الثوب بالنار، أو يحمل قط أحد قوله: "الميل في المكحلة" على حقيقتها، أو يحمل قط أحد قوله: "لا يحل لك فض الخاتم" على حقيقته، وهل يشك عاقل قط في أن هذه الألفاظ ليست دائرة بين الحملين عوران اللمس والجماع والمصافحة، وهذه مناقضة ظاهرة، ولا جواب عنها إلا بإخراج هذه المواضع من باب الكناية، أو بحذف ذلك الشرط الذي اشترطته في حد الكناية.

فأما ما ذكره حكاية عن غيره في حد الكناية بألها اللفظ الدال على الشيء بغير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه، وقوله: هذا الحد هو حد التشبيه، فلا يجوز أن يكون حد الكناية.

فلقائل أن يقول: إذا قلنا: زيد أسد، كان ذلك لفظاً دالاً على غير الوضع الحقيقي، وذلك المدلول هو بعينه الوصف المشترك بين المشبه والمشبه به، ألا ترى أن المدلول هو الشجاعة، وهي المشترك بين زيد والأسد، وأصحاب الحد قالوا في حدهم: الكناية هي اللفظ الدال على الشيء بغير الوضع الحقيقي، باعتبار وصف جامع بينهما، فجعلوا المدلول أمراً والوصف الجامع أمراً آخر باعتباره وقت الدلالة، ألا ترى أن لفظ "لامستم" له يدل على الجماع الذي لم يوضع لفظ "لامستم" له، وإنما يدل عليه باعتبار أمر آخر، هو كون الملامسة مقدمة الجماع ومفضية إليه، فقد تغاير إذن حد التشبيه وحد الكناية، ولم يكن أحدهما هو الآخر.

فأما قوله: إن الكناية قد تكون بالمفردات والتعريض لا يكون بالمفردات، فدعوى، وذلك أن اللفظ المفرد لا ينتظم منه فائدة، وإنما تفيد الجملة المركبة من مبتدأ وخبر، أو من فعل وفاعل، والكناية والتعريض في هذا الباب سواء، وأقل ما يمكن أن يقيد في الكناية قولك: لامست هنداً، وكذلك أقل ما يمكن أن يفيد في التعريض: "أنا عزب"، كما قد ذكره هو في أمثلة التعريض. فإن قال: أردت أنه قد يقال: اللمس يصلح أن يكنى به عن الجماع، واللمس لفظ مفرد، قيل له: وقد يقال: التعزب يصلح أن يعرض به في طلب النكاح.

فأما قوله: إن بيت نصر بن سيار، إذا نظر إليه لمفرده صلح أن يكون كناية، وإنما يخرج عن كونه كناية ضم الأبيات التي بعده إليه، ويدخله في باب الاستعارة، فلزم عليه أن يخرج قول عمر: "حولت رحلي" عن باب الكناية بما انضم إليه من قوله: "هلكت"، وبما أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله: "أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة"، وبقرينة الحال. وكان يجب ألا تذكر هذه اللفظة في أمثلة الكنايات.

فأما بيت امرئ القيس فلا وجه لإسقاطه من باب الكناية وإدخاله في باب التعريض، إلا فيما اعتمد عليه، من أن من شرط الكناية أن يتجاوزها جانباً حقيقة ومجاز. وقد بينا بطلان اشتراط ذلك، فبطل ما يتفرع عليه.

وأما قول بديل بن ورقاء: "معها العوذ المطافيل" فإنه ليس بكناية عن النساء والأولاد كما زعم، بل أراد به الإبل ونتاجها، فإن كتب السير كلها متفقة على أن قريشاً لم يخرج معها في سنة الحديبية نساؤها وأولادها، ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً أحضروا معهم نساءهم وأولادهم، إلا هوازن يوم حنين، وإذا لم يكن لهذا الوجه حقيقة ولا وجود، فقد بطل حمل اللفظ فأما ما زرى به على الرضي رحمه الله تعالى من قوله:

فغمد نصول

إن لم تكن نصلاً

وقوله: هذا مما يسبق الوهم فيه إلى ما يستقبح واستحسانه شعر الفرزدق وقوله: إن الرضي أخذه منه فأساء الأخذ، فالوهم الذي يسبق إلى بيت الرضي يسبق مثله إلى بيت الفرزدق، لأنه قد جعل هذه المرأة جفن السلاح، فإن كان الوهم يسبق هناك إلى قبيح فهانها أيضاً يسبق إلى مثله.

وأما الآية التي مثل بها على التعريض، فإنه قال: إن قوله تعالى: "ما نراك إلا بشراً مثلنا" تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه، ولم يبين ذلك، وإنما قال: فحوى الكلام أنهم قالوا له: هب أنك واحد من الملائكة وممازيتهم في المترلة، فما جعلك أحق بالنبوة منهم، ألا ترى إلى قوله: "وما نرى لكم علينا من فضل" وهذا الكلام لا يقتضي ما ادعاه أولاً من التعريض، لأنه ادعى أن قوله: "ما نراك إلا بشراً مثلنا" و تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه، وما قرره به يقتضي مساواته لهم، ولا يقتضي كونهم أحق بالنبوة منه، فبطل دعوى الحقيقة، التي زعم أن التعريض إنما كان بما.

فأما قوله تعالى: "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً"، وقوله: إن هذا من باب الكناية وأنه تعالى كنى به عن العلم والضلال وقلوب البشر، فبعيد، والحكيم سبحانه لا يجوز أن يخاطب قوما بلغتهم، فيعني عليهم، وأن يصطلح هو نفسه على ألفاظ لا يفهمون المراد بها، وإنما يعلمها هو وحده، ألا ترى أنه لا يجوز أن يحمل قوله تعالى: "ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين" على أنه أراد أنا زينا رؤوس البشر بالحواس الباطنة والظاهرة المجعولة فيها، وجعلناها بالقوى الفكرية والخيالية المركبة في الدماغ راجمة وطاردة للشبه المضلة، وإن من حمل كلام الحكيم سبحانه على ذلك فقد نسبته إلى الإلغاز والتعمية، وذلك يقدر في حكمته تعالى. والمراد بالآية المقدم ذكرها ظاهرها، والمتكلف لحملها على غيرها سخييف العقل، ويؤكد ذلك قوله تعالى: "ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله"، أفترى الحكيم سبحانه يقول: إن للذهب والفضة زبداً مثل الجهل والضلال، ويبين ذلك قوله: "كذلك يضرب الله الأمثال"، فضرَب سبحانه الماء الذي يبقى في الأرض فينتفع به الناس، والزبد الذي يعلو فوق الماء فيذهب جفاء مثلاً للحق والباطل، كما صرح به سبحانه فقال: "كذلك يضرب الله الحق والباطل"، ولو كانت هذه الآية من باب الكنايات - وقد كنى سبحانه بالأودية عن القلوب، وبالماء الذي أنزله من السماء عن العلم، وبالزبد عن الضلال - لما جعل تعالى هذه الألفاظ أمثالاً، فإن الكناية خارجة عن باب المثل، ولهذا لا تقول إن قوله تعالى: "أو لامستم النساء" من باب المثل، ولهذا أفرد هذا الرجل في كتابه باباً آخر غير باب الكناية، سماه باب المثل، وجعلهما قسمين متغايرين في علم البيان، والأمر في هذا الموضوع واضح، ولكن هذا الرجل كان يجب هذه الترهات، ويذهب وقته فيها، وقد استقصينا في مناقضته والرد عليه في كتابنا الذي أشرنا إليه.

فأما قوله رضي الله عنه: "كلما نجم منهم قرن قطع"، فاستعارة حسنة، يريد: كلما ظهر منهم قوم استؤصلوا، فعبّر عن ذلك بلفظة "قرن" كما يقطع قرن الشاة إذا نجم، وقد صح إخباره صلى الله عليه وسلم عنهم أنهم لم يهلكوا بأجمعهم في وقعة النهروان، وأنها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد، وهكذا وقع وصح إخباره رضي الله عنه أيضاً أنه سيكون آخرهم لصوصاً سلابين، فإن دعوة الخوارج اضمحلت، ورجالها فئت، حتى أففى الأمر إلى أن صار خلفهم قطاع طريق، متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض.

الوليد بن طريف

فممن انتهى أمره منهم إلى ذلك الوليد بن طريف الشيباني . في أيام الرشيد بن المهدي، فأشخص إليه يزيد بن يزيد الشيباني فقتله، وحمل رأسه إلى الرشيد، وقالت أخته ترثيه، وتذكر أنه كان من أهل التقى والدين، على قاعدة شعراء الخوارج، ولم يكن الوليد كما زعمت:

أيأ شجر الخابورمالك مورقاً
كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى
ولا المال إلا من قناً وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء شطبة
وكل رقيق الشفرتين خفيف
فقدناك فقدان الربيع وليتنا
فدينك من ساداتنا بألوف

وقال مسلم بن الوليد يمدح يزيد بن يزيد، ويذكر قتله الوليد:

والمارق ابن طريف قد دلفت له
بعارض للمنايا مسبل هطل
لوأن شيئاً بكى مما أطف به
فاز الوليد بقدر الناضل الخصل
ماكان جمعهم لمالقيتهم
إلاكرجل جراد ريع منجفل
فاسلم يزيد فما في الملك من أود
إذا سلمت، ولا في الدين من خلل

خروج ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة

ثم خرج في أيام المتوكل ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة فقطع الطريق، وأخاف السبيل وتسمى بالخلافة، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي الثغري الصامي، فقتل كثيراً من أصحابه، وأسر كثيراً منهم ونجا بنفسه هارباً، فمدحه أبو عبادة البحري، وذكر ذلك فقال:

كنا نكفر من أمية عصبية
طلبوا الخلافة فجرة وفسوقا
ونلوم طلحة والزبير كليهما
ونعنف الصديق والفاروقا
ونقول: تيم أقرب وعديها أمراً
بعيداً حيث كان سحيقا
وهم قريش الأبطحون إذا انتموا
طابوا اصولاً في العلا وعروقا
حتى غدت جشم بن بكر تبتغي
إرث النبي وتدعيه حقوقا
جاءوا براعيهم ليتخذوا به
عمداً إلى قطع الطريق طريقا
عقدوا عمامته برأس قناته
ورأوه براً فاستحال عقوقا
وأقام ينفذ في الجزيرة حكمه
ويظن وعد الكاذبين صدوقا

حتى إذا ما الحية الذكر انكفى
من أرزن حرباً يمج حريقا

غضبان يلقي الشمس منه بهامة
 أوفى عليه فظل من دهش
 غدرت أمانيه به وتمزقت
 طلعت جياذك من ربا الجودي قد
 فدعا فريقاً من سيوفك حتفهم
 ومضى ابن عمرو قد أساء بعمره
 فاجتاز دجلة خائضاً وكأنها
 لو خاضها عمليق أو عوج إذاً
 لولا اضطراب الخوف في أحشائه
 لو نفسه الخيل لفئة ناظر
 لثى صدور الخيل تكشف كربةً
 ولبكرت بكروراحت تغلب
 حتى يعود الذئب ليثاً ضيغماً
 هيهات مارس فيلقاً متيقظاً
 مستسلفاً جعل الغبوق صبوحة

وهنه القصيدة من ناصع شعر البحري ومختاره.

ذكر طائفة من جماعة الخوارج

وقد خرج بعد هذين جماعة من الخوارج بأعمال كرمات وجماعة أخرى من أهل عمان لا نباهة لهم، وقد ذكرهم أبو إسحاق الصابي في الكتاب التاجي، وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم، وإنما وكدهم وقصدهم إخافة السبيل، والفساد في الأرض، واكتساب الأموال من غير حلها. ولا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرهم. ومن المشهورين برأي الخوارج الذين تم بهم صدق قول أمير المؤمنين رضي الله عنه: إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء، عكرمة مولى ابن عباس، ومالك بن أنس الأصبحي الفقيه، يروى عنه أنه كان يذكر علياً رضي الله عنه وعثمان وطلحة والزبير، فيقول: والله ما اقتتلوا إلا على الشريد الأعفر.

ومنهم المنذر بن الجارود العبدى، ومنهم يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج. وروى أن الحجاج أتى بامرأة من الخوارج وبحضرته مولاه يزيد بن أبي مسلم، وكان يستسر برأي الخوارج، فكلّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه، فقال لها يزيد: الأمير - ويلك - يكلمك، فقالت: بل الويل لك أيها الفاسق الريء، والردء عند

الخوارج هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكتمه.

ومنهم صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق.

ومن ينسب إلى هذا الرأي من السلف جابر بن زيد وعمرو بن دينار ومجاهد.

ومن ينسب إليه بعد هذه الطبقة أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، يقال: إنه كان يرى رأي الصفريّة .

ومنهم اليمان بن رباب، وكان على رأي البيهسية، وعبد الله بن يزيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل، وهؤلاء إباضية .

وقد نسب إلى هذا المذهب أيضاً من قبل أبو هارون العبدى، وأبو الشعثاء، وإسماعيل بن سميع، وهبيرة بن بريم، وزعم ابن قتيبة أن ابن هبيرة كان من غلاة الشيعة.

ونسب أبو العباس محمد بن يزيد المبرد إلى رأي الخوارج لإطنابه في كتابه المعروف بالكامل في ذكرهم وظهور الميل منه إليهم.

الأصل: وقال عليه السلام في الخوارج: لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه.

قال الرضي رحمه الله: يعني معاوية وأصحابه.

الشرح: مراده أن الخوارج ضلوا بشبهة دخلت عليهم، وكانوا يطلبون الحق، ولهم في الجملة تمسك بالدين، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها، وإن أخطأوا فيها، وأما معاوية فلم يكن يطلب الحق، وإنما كان ذا باطل، لا يحامي عن اعتقاد قد بناه على شبهة، وأحواله كانت تدل على ذلك، فإنه لم يكن من أرباب الدين، ولا ظهر عنه نسك، ولا صلاح حال، وكان مترفاً يذهب مال الفيء في مآربه، وتمهيد ملكه، ويصانع به عن سلطانه، وكانت أحواله كلها مؤذيةً بانسلاخه عن العدالة، وإصراره على الباطل، وإذا كان كذلك لم يجوز أن ينصر المسلمون سلطانه، وتحارب الخوارج عليه وإن كانوا أهل ضلال، لأنهم أحسن حالاً منه، فإنهم كانوا ينهون عن المنكر، ويرون الخروج على أئمة الجور واجباً. وعند أصحابنا أن الخروج على أئمة الجور واجب، وعند أصحابنا أيضاً أن الفاسق المتغلب بغير شبهة يعتمد عليها لا يجوز أن ينصر على من يخرج عليه ممن ينتمي إلى الدين، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، بل يجب أن ينصر الخارجون عليه وإن كانوا ضالين في عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلت عليهم، لأنهم أعدل منه، وأقرب إلى الحق، ولا ريب في تلزم الخوارج بالدين، كما لا ريب في أن معاوية لم يظهر عنه مثل ذلك.

في ذكر الخوارج وحروبهم

ذكر أبو العباس المبرد في الكتاب الكامل، أن عروة بن أدية أحد بني ربيعة بن حنظلة - ويقال إنه أول من حكم، حضر حرب النهروان، ونجا فيها فيمن نجا، فلم يزل باقياً مدة من خلافة معاوية، ثم أخذ فأتي به زياد ومعه مولى له، فسأله عن أبي بكر وعمر، فقال خيراً، فقال له: فما تقول في عثمان وفي أبي تراب، فتوك عثمان ست سنين من خلافته، ثم شهد عليه بالكفر، وفعل في أمر علي رضي الله عنه مثل ذلك إلى أن حكم ثم شهد عليه بالكفر. ثم سأله عن معاوية فسبه سباً

قبيحاً، ثم سأله عن نفسه، فقال: أولك لرية، وأحرك لدعوة، وأنت بعد عاص ربك. فأمر فضربت عنقه، ثم دعا مولاه، فقال: صف لي أموره، فقال: أأظن أم أحتصر. قال: بل اختصر، قال: ما أتيت بطعام في نهار قط ولا فرشت له فراشاً في ليل قط. قال: وحدثت أن واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل في رفقة، فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا، ودعوني وإياهم - وقد كانوا قد أشرفوا على العطب - فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك. فقال: قوم مشركون مستجبرون بكم، ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده، فقالوا: قد أجرناكم قال: فاعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، وواصل يقول: قد قبلت أنا ومن معي، قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا، فقال: ليس ذاك إليكم، قال الله عز وجل: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه". فأبلغونا مأمننا. فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساروا معهم بجمعهم، حتى أبلغوهم المأمن. وقال أبو العباس: أتى عبد الملك بن مروان برجل من الخوارج، فبحثه فرأى منه ما شاء فهماً وعلماً، ثم بحثه فرأى منه ما شاء أدباً وذهناً، فرغب فيه، فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصراً محققاً، فزاده في الاستدعاء، فقال: تغنيك الأولى عن الثانية، وقد قلت وسمعت، فاسمع أقل، قال: قل، فجعل ييسط من قول الخوارج ويزين له من مذهبهم بلسان طلق، وألفاظ بينة، ومعان قريبة. فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته وفضله: لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة إنما خلقت لهم، وأني أولى العباد بالجهاد معهم، ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة، وقرر في قلبي من الحق، فقلت له: الدنيا والآخرة لله، وقد سلطنا الله في الدنيا، ومكن لنا فيها، وأراك لست تجيئنا إلى ما نقول: والله لأقتلنك إن لم تطع. فأنا في ذلك، إذ دخل علي بابني مروان.

قال أبو العباس: وكان مروان أخا يزيد بن عبد الملك لأمه، أمهما عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان أياً عزيز النفس، فدخل به على أبيه في هذا الوقت باكياً لضرب المؤدب إياه، فشق ذلك على عبد الملك، فأقبل عليه الخارجي وقال له: دعه يبك، فإنه أرحب لشدقه، وأصح لدماغه، وأذهب لصوته، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة واستدعى عبرتها.

فأعجب ذلك من قوله عبد الملك، وقال له متعجباً: أما يشغلك ما أنت فيه ويعرضك عن هذا، فقال: ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء، فأمر بحبسه، وصفح عن قتله، وقال بعد معتذراً إليه: لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيي ما حبستك، ثم قال عبد الملك: لقد شككتني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله، وغير بعيد أن يستهوي من بعدي.

مرداس بن حدير الناسك

قال أبو العباس: وكان من المجتهدين من الخوارج البلجاء، وهي امرأة من بني حرام بن يربوع بن حنظلة بن ملك بن زيد مناة بن تميم.

وكان مرداس بن حدير أبو بلال، أحد بني ربيعة بن حنظلة ناسكاً، تعظمه الخوارج، وكان كثير الصواب في لفظه مجتهداً، فلقبه غيلان بن خرشة الضبي، فقال: يا أبا بلال، إني سمعت الأمير البارحة - يعني عبيد الله بن زياد - يذكر

البلجاء، وأحسبها ستؤخذ، فمضى إليها أبو بلال فقال: إن الله قد وسع على المؤمنين في التقية فاستتري، فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك، قالت: إن يأخذني فهو أشقى به، فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسبي، فوجه إليها عبيد الله بن زياد، فأتي بها فقطع يديها ورجليها، ورمى بها في السوق، فمر بها أبو بلال والناس مجتمعون، فقال: ما هذا، قالوا: البلجاء، فخرج إليها فنظر ثم عض على لحيته، وقال لنفسه: لهذه أطيّب نفساً من بقية الدنيا منك يامرداس.

قال: ثم إن عبيد الله أخذ مرداساً فحبسه، فرأى صاحب السجن معه شدة اجتهاده، وحلاوة منطقته، فقال له: إني أرى لك مذهباً حسناً، وإني لأحب أن أوليك معروفاً، أفرأيتك إن تركتك تنصرف ليلاً إلى بيتك أتدج إلي، قال: نعم، فكان يفعل ذلك به.

ولج عبيد الله في حبس الخوارج وقتلهم، وكلم في بعضهم فأبى وقال: أقمع النفاق قبل أن ينجم، لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع.

فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلاً من الشرطة، فقال ابن زياد: ما أثري ما أصنع هؤلاء، كلما أمرت رجلاً بقتل رجل منهم فتكوا بقاتله، لأقتلن من في حبسي منهم. وأخرج السجن مرداساً إلى منزله كما كان يفعل، فأتى مرداساً الحبر، فلما كان في السحر، تمياً للرجوع إلى السجن، فقال له أهله: اتق الله في نفسك، فإنك إذا رجعت قتلت، فأبى وقال: والله ما كنت لألقى الله غادراً، فرجع إلى السجن، فقال: إني قد علمت ما عزم عليه صاحبك، قال: أعلمت، ثم قال أبو العباس: ويروى أن مرداساً مر بأعرابي يهنأ بغيراً له، فهرج البعير، فسقط مرداس مغشياً عليه، فظن الأعرابي أنه صرع، فقرأ في أذنه، فلما أفاق قال له الأعرابي: إني قرأت في أذنك، فقال مرداس: ليس بي ما خفته علي، ولكني رأيت بغيراً هرج من القطران، فذكرت به قطران جهنم، فأصابني ما رأيت، فقال الأعرابي: لا جرم، والله لا أفارقك أبداً. قال أبو العباس: وكان مرداس قد شهد مع علي رضي الله عنه صفين، ثم أنكر التحكيم، وشهد النهروان، ونجا فيمن نجا، ثم حبسه ابن زياد، كما ذكرناه، وخرج من حبسه، فرأى جد ابن زياد في طلب الشراة، فعزم على الخروج، فقال لأصحابه: إنه والله ما يسعنا المقام مع هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامهم، مجانبين للعدل، مفارقين للقصد والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة الناس لعظيم، ولكننا ننتبذ عنهم، ولا نجرد سيفاً، ولا نقاتل إلا من قاتلنا. فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً، منهم حريث بن حجل وكهمس بن طلق الصريمي، وأرادوا أن يولوا أمرهم حريثاً فأبى، فولوا أمرهم مرداساً، فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصاري - وكان له صديقاً - فقال: يا أخي، أين تريد، قال: أريد أن أهرب بديني ودين أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة، فقال: أعلم بكم أحد. قال: لا، قال: فارجع، قال: أو تخاف علي نكراً، قال: نعم، وأن يؤتى بك. قال: لا تخف، فإني لا أجرد سيفاً، ولا أخيف أحداً، ولا أقاتل إلا من قاتلني.

ثم مضى حتى نزل آسك، وهي ما بين رامهرمز وأرجان، فمر به مال يحمل إلى ابن زياد، وقد قارب أصحابه الأربعين، فحط ذلك المال، وأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه، ورد الباقي على الرسل، وقال: قولوا لصاحبكم: إنا قبضنا أعطياتنا، فقال بعض أصحابه: علام ندع الباقي، فقال: إنهم يقيمون هذا الفيء، كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم على الصلاة.

قال أبو العباس: ولأبي بلال مرداس في الخروج أشعار، اخترت منها قوله:

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى
ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجي سلامة
وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي
وهب لي التقى حتى ألاقي أو لا تـ

قال أبو العباس: ثم إن عبيد الله بن زياد، ندب جيشاً إلى خراسان، فحكى بعض من كان في ذلك الجيش، قال: مررنا بآسك، فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلاً، فصاح بنا أبو بلال: أقاصدون لقتالنا أنتم. قال: وكنت أنا وأخي قد دخلنا زرباً، فوقف أخي ببابه، فقال: السلام عليكم، فقال مرداس: وعليكم السلام، ثم قال لأخي: أجتثم لقتالنا؟ قال: لا، إنما نريد خراسان، قال: فأبلغوا من لقيتم أنا لم نخرج لنفسد في الأرض، ولا لنروع أحداً، ولكن هرباً من الظلم. ولسنا نقاتل إلا من يقاتلنا، ولا نأخذ من الفيء إلا أعطيتنا، ثم قال: أندب لنا أحد، قلنا: نعم، أسلم بن زرعة الكلابي، قال: فمتى ترونه يصل إلينا، قلنا: يوم كذا وكذا، فقال أبو بلال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال أبو العباس: وجهز عبيد الله بن زياد أسلم بن زرعة في أسرع مدة، ووجهه إليهم في ألفين، وقد تنام أصحاب مرداس أربعين رجلاً، فلما صار أسلم إليهم صاح به أبو بلال: اتق الله يا أسلم، فإننا لا نريد فساداً في الأرض، ولا نختجر فيئاً، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن أردكم إلى ابن زياد، قال: إذن يقتلنا، قال: وإن قتلكم، قال: تشرك في دمائنا، قال: إني أدين بأنه محق وأنتم مبطلون، فصاح به حريث بن حجل: أهو محق، وهو يطيع الفجرة، وهو أحدهم، ويقتل بالظنة ويخلص بالفيء، ويجور في الحكم، أما علمت أنه قتل بابن سعاد أربعة برآء، وأنا أحد قتلته، وقد وضعت في بطنه دراهم كانت معه.

ثم حملوا على أسلم حملة رجل واحد، فانهزم هو وأصحابه من غير قتال، وكاد يأسره معبد أحد الخوارج، فلما عاد إلى ابن زياد غضب عليه غضباً شديداً، وقال ويلك، أتمضي في ألفين، فتنهزم بهم من حملة أربعين، فكان أسلم يقول: لأن يذمني ابن زياد وأنا حي، أحب إلي أن يمدحني وأنا ميت.

وكان إذا خرج إلى السوق، أو مر بصبيان صاحوا به: أبو بلال ورائك، وربما صاحوا به: يا معبد خذه، حتى شكا إلى ابن زياد، فأمر الشرط أن يكفوا الناس عنه، ففي ذلك يقول عيسى بن فاتك، من بني تيم اللات بن ثعلبة أحد الخوارج:

فلما أصبحوا صلوا وقاموا
إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم
فظل ذوو الجعائل يقتلوننا
بقية يومهم حتى أتاهم
سواد الليل فيه يراوغونا
يقول نصيرهم لما أتاهم
فإن القوم ولوا هاربينا
ألفا مؤمن فيكم زعمتم
ويهزمكم بأسك أربعونا
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم
ولكن الخوارج مؤمنونا

قال أبو العباس: أما قول حريث بن حجل: لا أما علمت أنه قتل بابن سعاد أربعة برآ وأنا أحد قتلته، فابن سعاد هو المثلث بن مسروح الباهلي، وسعاد اسم أمه، وكان من خبره أنه ذكر لعبيد الله بن زياد رجل من سدوس، يقال له خالد بن عباد، أو ابن عباد، وكان من نساك الخوارج، فوجه إليه فأخذه، فأتاه رجل من آل ثور فكذب عنه وقال: هو صهري وفي ضمني، فخلى عنه، فلم يزل الرجل يتفقمه حتى تغيب، فأتى ابن زياد فأخبره، فلم يزل يبعث إلى خالد بن عباد حتى ظفر به، فأخذه، فقال: أين كنت في غيبتك هذه. قال: كنت عند قوم يذكرون الله ويسبحونه، ويذكرون أئمة الجور، فيتبرأون منهم. قال: ادلني عليهم، قال: إذن يسعدوا وتشقى، ولم أكن لأروهم، قال: فما تقول في أبي بكر وعمر. فقال: خيراً، قال: فما تقول في عثمان وفي معاوية، أتتولاهما، فقال: إن كانا وليين لله فلست معاديهما، فأراغه مراراً ليرجع عن قوله فلم يفعل، فعزم على قتله، فأمر بإخراجه إلى رحبة تعرف برحبة الرسي وقتله بها، فجعل الشرطة يتفادون من قتله ويروغون عنه توقياً لأنه كان متقشفاً عليه أثر العبادة، حتى أتى المثلث بن مسروح الباهلي، وكان من الشرطة، فتقدم فقتله، فائتمر به الخوارج أن يقتلوه، وكان مغرمًا باللحاق يتبعها، فيشتريها من مظانها، وهم في تفقده، فسدوا إليه رجلاً في هيئة الفتيان عليه ردع زعفران، فلقية بالمربد وهو يسأل عن لقحة صفى، فقال له الفتى: إن كنت تبتغي فعندي ما يغنيك عن غيره، فامض معي. فمضى المثلث معه على فرسه، يمشي الفتى أمامه حتى أتى به بني سعد، فدخل داراً، وقال له: أدخل على فرسك، فلما دخل وتوغل في الدار أغلق الباب، وثارت به الخوارج، فاعتوره حريث بن حجل وكهمس بن طلق الصريمي، فقتلاه، وجعلوا دراهم كانت معه في بطنه، ودفناه في ناحية الدار، وحكا آثار الدم وخليا فرسه في الليل، فأصيب في الغد في المربد وتجنس عنه الباهليون، فلم يروا له أثراً، فاتهموا بني سدوس به، فاستعدوا عليهم السلطان، وجعل السدوسية يحلفون، فتحامل ابن زياد مع الباهليين، فأخذ من السدوسيين أربع ديات، وقال: ما أدري ما أصنع هؤلاء الخوارج، كلما أمرت بقتل رجل اغتالوا قاتله. فلم يعلم بمكان المثلث حتى خرج مرداس وأصحابه، فلما واقفهم ابن زرعة الكلابي صاح بهم حريث، وقال: أهنا من باهلة أحد. قالوا: نعم، قال: يا أعداء الله، أخذتم للمثلث من بني سدوس أربع ديات، وأنا قتلته، وجعلت دراهم كانت معه في بطنه، وهو في موضع كذا مدفون، فلما انهزم ابن زرعة وأصحابه صاروا إلى الدار، فأصابوا أشلاء، ففي ذلك يقول أبو الأسود:

وآليت لا أغزو إلى رب لقحة

أساومه حتى يؤوب المثلث

قال أبو العباس: فأما ما كان من مرداس، فإن عبيد الله بن زياد ندب إليه الناس، فاختار عباد بن أخضر المازني - وليس بابن أخضر، بل هو عباد بن علقمة المازني وكان أخضر زوج أمه، وغلب عليه - فوجهه إلى مرداس وأصحابه في أربعة آلاف فارس، وكانت الخوارج قد تنحت من موضعها، بدراجراد من أرض فارس، فصار إليهم عباد، فكان التقاؤهم في يوم جمعة، فناداه أبو بلال: أخرج إلي يا عباد، فإني أريد أن أحاورك، فخرج إليه، فقال: ما الذي تبغي، قال: أن اخذ بأقفيتم فأردكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد، قال: أو غير ذلك أن نرجع، فإننا لا نخيف سيلاً، ولا ندع مسلماً، ولا

نحارب إلا من يحاربنا، ولا نجني إلا ما حمينا. فقال عباد: الأمر ما قلت لك، فقال له حريث بن حجل: أتحاول أن ترد فئة من المسلمين إلى جبار عنيد ضال، فقال لهم: أنتم أولى بالضلال منه، وما من ذاك من بد.

قال: وقدم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان، يريد الحج، فلما رأى الجمع قال: ما هذا. قالوا: الشراة، فحمل عليهم ونشبت الحرب بينهم، فأخذت الخوارج القعقاع أسيراً، فأتوا به أبا بلال، فقال له: من أنت. قال: ما أنا من أعدائك، إنما قدمت للحج، فحملت وغررت، فأطلقه، فرجع إلى عباد وأصلح من شأنه، وحمل على الخوارج ثانية، وهو يقول:

نشاطاً ليس هذا بالنشاط

أفأنتلهم وليس علي بعث

لأحملهم على وضح الصراط

أكر على الحروريين مهري

فحمل عليه حريث بن حجل السدوسي وكهمس بن طلق الصريمي، فأسراه وقتلاه، ولم يأتيا به أبا بلال. ولم يزل القوم يجتلدون حتى جاء وقت صلاة الجمعة، فناداهم أبو بلال: يا قوم، هذا وقت الصلاة، فوادعونا حتى نصلي وتصلوا، قالوا: لك ذاك، فرمى القوم أجمعون بأسلحتهم، وعمدوا للصلاة، فأسرع عباد ومن معه وقضوا صلاتهم، والحرورية مبطنون، فيهم ما بين رакع وساجد، وقائم في الصلاة وقاعد، حتى مال عليهم عباد ومن معه، فقتلوهم جميعاً، وأتى برأس أبي بلال. قال: ويرى الشراة أن مرداساً أبا بلال لما عقد على أصحابه، وعزم على الخروج رفع يديه، فقال: اللهم إن كان ما نحن فيه حقاً فأرنا آية، فرجف البيت، وقال آخرون: فارتفع السقف.

ويقال: إن رجلاً من الخوارج ذكر ذلك لأبي العالية الرياحي، يعجبه من الآية، ويرغبه في مذهب القوم، فقال أبو العالية: كاد الخسف يترل بهم، ثم أدركتهم نظرة من الله.

قال: فلما فرغ عباد من الجماعة أقبل بهم فصلب رؤوسهم، وفيهم داود بن شبيب، وكان ناسكاً، وفيهم حبيبة البكري من عبد القيس، وكان مجتهداً، ويروى عنه أنه قال: لما عزمت على الخروج فكرت في بناتي، فقلت ذات ليلة: لأمسكن عن نفقتهن حتى أنظر، فلما كان في خوف الليل استسقت بنية لي، فقالت: يا أبت اسقني، فلم أجبها، وأعادت، فقامت أخت لها فسقتها، فعلمت أن الله عز وجل غير مضيعهن، فأتممت عزمي.

وكان في القوم كهمس، وكان من أبر الناس بأمه، فقال لها: يا أمه، لولا مكانك لخرجت، فقالت: يا بني، وهبتك لله ففي مقتلهم يقول عيسى بن فاتك الخطي:

بداود وإخوته الجذوع

ألا في الله ل في الناس سالت

تحوم عليهم طير وقوع

مضوا قتلاً وتمزيقاً وصلباً

فيسفر عنهم وهم ركوع

إذا ما الليل أظلم كابدوه

وأهل الأرض في الدنيا هجوع

أطار الخوف نومهم فقاموا

وقال عمران بن حطان:

يا رب مرداس اجعلني كمرداس
في منزل موحش من بعد إيناس
ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
على القرون فذاقوا جرعة الكاس
يسقى بأنفاس ورد بعد أنفاس

يا عين بكى لمرداس ومصرعه
ترككتي هائماً أبكي لمرزئة
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه
إما شربت بكأس دار أولها
فكل من لم يذقها شارباً عجلاً

وقال أيضاً:

وحباً للخروج أبو بلال
وأرجو الموت تحت ذرى العوالي

لقد زاد الحياة إلي بغضاً
أحاذر أن أموت على فراشي

فمن يك همه الدنيا فإنيلها والله رب البيت قال

فقيه الصفرية عمران بن حطان

وقال أبو العباس: وعمران هذا، أحد بني عمرو بن يسار بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن عك بن بكر بن وائل، وكان رأس القعد من الصفرية وفقههم وخطيبهم وشاعرهم، وشعره هذا بخلاف شعر أبي خالد القناني وكان من قعد الخوارج أيضاً. وقد كان كتب قطري بن الفجاءة المازني يلومه على القعود:

وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
وأنت مقيم بين لص وجاحد

أبا خالد أيقن فلست بخالد
أترعم ألن الخارجي على الهدى

فكتب إليه أبو خالد:

بناتي إنهن من الضعاف
وأن يشربن رنقاً بعد صاف
فتنبو العين عن كرم عجاف
وفي الرحمن للضعفاء كاف

لقد زاد الحياة إلي حباً
أحافران يرين الفقر بعدي
وأن يعرين إن كسي الجواري
ولولا ذاك قد سومت مهري

وقال أبو العباس: ومما حدثني به العباس بن أبي الفرج الرياشي، عن محمد بن سلام أن عمران بن حطان لما طرده الحجاج، جعل يتنقل في القبائل، وكان إذا نزل بحي انتسب نسباً يقرب منهم، ففي ذلك يقول:

وفي عك وعامر عوبثان
وفي بكر وحي بني الغدان

نزلنا في بني سعد بن زيد
وفي لخم وفي أدد بن عمرو

ثم خرج حتى لقي روح بن زنباع الجذامي، وكان روح يقري الأضياف، وكان مسائراً لعبد الملك بن مروان، أثيراً عنده. وقال ابن عبد الملك فيه: من أعطي مثل ما أعطي أبو زرعة أعطي فقه الحجاز ودهاء أهل العراق وطاعة أهل الشام.

وانتمى عمران إليه أنه من الأزدي، فكان روح لا يسمع شعراً نادراً، ولا حديثاً غريباً عند عبد الملك، فيسأل عنه عمران إلا عرفه وزاد فيه. فقال روح لعبد الملك: إن لي ضيفاً ما أسمع من أمير المؤمنين خبراً ولا شعراً إلا عرفه وزاد فيه، فقال: أخبرني ببعض أخباره، فأخبره وأنشده، فقال: إن اللغة لغة عدنانية، ولا أحسبه إلا عمران بن حطان، حتى تذاكروا ليلة البيتين اللذين أولهما: يا ضربة.

فلم يدر عبد الملك لمن هما، فرجع روح فسأل عمران عنهما، فقال: هذا الشعر لعمران بن حطان يمدح عبد الرحمن بن ملجم. فرجع روح إليه فأخبره، فقال: ضيفك عمران بن حطان، فاذهب فجنني به، فرجع إليه فقال: أمير المؤمنين قد أحب أن يراك، فقال له عمران: قد أردت أن أسألك ذاك فاستحييت منك، فاذهب فياني بالأثر، فرجع روح إلى عبد الملك فخبره، فقال: أما إنك سترجع فلا تجده، فرجع فوجد عمران قد احتمل، وخلف رقعة فيها:

ياروح كم من أخي مثوى نزلت به	قد ظن ظنك من لخم وغسان
حتى إذا خفته زائلت منزله	من بعدما قيل عمران بن حطان
قدكنت جارك حولاً لا يرو عني	فيه طوارق من إنس ولا جان
حتى أردت بي العظمى فأدركني	ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ابن زنباع فإن له	في الحادثات هنات ذات ألوان
يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن	وإن لقيت معدياً فعدناني
لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية	كنت المقدم في سري وإعلاني
لكن أبنت ذاك آيات مطهرة	عند التلاوة في طه وعمران

ثم ارتحل ث حتى نزل بزفر بن الحارث أحد بني عمر بن كلاب، فانتسب له أوزاعياً، وكان عمران يطيل الصلاة، فكان غلمان بني عامر يضحكون منه، فأتاه رجل ممن كان عند روح، فسلم عليه، فدعاه زفر فقال له: من هذا. فقال: رجل من الأزدي، رأيته ضيفاً لروح بن زنباع، فقال له زفر: يا هذا، أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى، إن كنت خائفاً أمناك، وإن كنت فقيراً جبرناك، فلما أمسى خلف في منزله رقعة، وهرب فوجدوا فيها:

إن التي أصبحت يعيا بها زفر	أعيت عياء على روح بن زنباع
ما زال يسألني حولاً لأخبره	والناس ما بين مخدوع وخداع
حتى إذا انقطعت مني وسائله	كف السؤال ولم يولع بإهلاع
فاكفف لسانك عن لومي ومسألتي	ماذا تريد إلى شيخ بلا راع
فاكفف كما كف عني إنني رجل	إما صميم وإما فقعة القاع
أما الصلاة فإنني غير تاركها	كل امرئ للذي يعنى به ساع

أكرم بروح بن زنباع وأسرته

قوم دعا أوليهم للعلا داع

جاورتهم سنة مما أسر به

عرضي صحيح ونومي غير تهجاع

فاعمل فإنك منعي بواحدة

حسب اللبيب بهذا الشيب من داع

ثم ارتحل حتى أتى عمان، فوجدهم يعظمون أمر أبي بلال، ويظهر فيهم، فأظهر أمره فيهم، فبلغ ذلك الحجاج، فكتب فيه إلى أهل عمان، فهرب حتى أتى قوماً من الأزدي سواد الكوفة، فترل بهم، فلم يزل عندهم حتى مات، وفي نزوله فيهم يقول:

نزلنا بحمد الله في خير منزل

نسربما فيه من الإنس والخفر

نزلنا بقوم يجمع الله شملهم

وليس لهم دعوى سوى المجد يعتصر

من الأزدي إن الأزدي أكرم أسوة

يمانية طابوا إذا انتسب البشر

فأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر

أتوني فقالوا: من ربعة أومضر

أم الحي قحطان فتلكم سفاهة

كما قال لي روح وصاحبه زفر

وما منهما إلا يسر بنسبة

تقربني منه وإن كان ذانفر

فنحن عباد الله، والله واحد

وأولى عباد الله بالله من شكر

قال أبو العباس: ومن الخثي ارج من مشى في الرمح وهو في صدره خارجاً من ظهره، حتى خالط طاعنه فضربه بالسيف فقتله، وهو يقول: "وعجلت إليك رب لترضى". ومنهم الذي سأل علياً رضي الله عنه يوم النهروان المبارزة في قوله:

أطعنهم ولا أرى علياً

لو بدا أوجرته الخطيأ

فخرج إليه علي فضربه بالسيف فقتله، فلما خالطه السيف قال: "يا حبذا الروحة إلى الجنة".

ومنهم ابن ملجم، وقطع الحسن بن علي يديه ورجليه وهو في ذلك يذكر الله، ثم عمد إلى لسانه فقطعه فجزع، فقيل له في ذلك قال: أحببت ألا يزال لساني رطباً من ذكر الله. ومنهم القوم الذين وثب رجل منهم على رتبة سقطت من نخلة، فوضعها في فيه، فلفظها تورعاً.

ومنهم أبو بلال مرداس، الذي ينتحله كثير من الفرق لتقشفه وتصومه وصحة عبادته، وصلابة نيته.

أما المعتزلة فتنتحله وتقول: إنه خرج منكراً لجور السلطان، داعياً إلى الحق، وإنه من أهل العدل، ويحتجون لذلك بقوله لزياد، وقد كان قال في خطبته على المنبر: والله لآخذن المحسن بالمسيء، والحاضر بالغائب، والصحيح بالسقيم، فقام إليه مرداس فقال: قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان، وما هكذا قال الله تعالى لنبيه إبراهيم، إذ يقول: "وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى"، ثم خرج عليه عقيب هذا اليوم.

وأما الشيعة فتنتحلله، وتزعم أنه كتب إلى الحسين بن علي: إني والله لست من الخوارج، ولا أرى رأيهم، وإني على دين أبيك إبراهيم.

الناسك المجتهد المستورد السعدي

ومنهم المستورد، أحد بني سعد بن زيد بن مناة، كان ناسكاً مجتهداً، وهو أحد من ترأس على الخوارج في أيام علي، وله الخطبة المشهورة التي أولها: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدل تخفق راياته، وتلمع معالمه، فبلغنا عن ربه، ونصح لأمته، حتى قبضه الله تعالى مخيراً مختاراً.

ونجا يوم النخيلة من سيف علي، فخرج بعد مدة على المغيرة بن شعبة - وهو والي الكوفة - فبارزه معقل بن قيس الرياحي، فاحتلفا ضربتين، فخر كل واحد منهما ميتاً.

ومن كلام المستورد: لو ملكت الدنيا بحذافيرها، ثم دعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت. ومن كلامه: إذا أفضيت بسري إلى صديقي فأفشاه لم ألمه، لأني كنت أولى بحفظه. ومن كلامه: كن أحرص على حفظ شرك منك على حقن دمك.

وكان يقول: أول ما يدل على عيب عائب الناس معرفته بالعيوب، ولا يعيب إلا معيب. وكان يقول: المال غير باق عليك، فاشتر به من الحمد والأجر ما يبقى عليك.

حوثره الأسدي

قال أبو العباس: وخرج من الخوارج على معاوية بعد قتل علي حوثره الأسدي، وحابس الطائي، خرجا في جمعهما، فصارا إلى مواضع أصحاب النخيلة، ومعاوية يومئذ بالكوفة قد دخلها في عام الجماعة، وقد نزل الحسن بن علي، وخرج يريد المدينة، فوجه إليه معاوية - وقد تجاوز في طريقه - يسأله أن يكون المتولي لمحاربة الخوارج، فكان جواب الحسن: والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين، وما أحسب ذاك يسعني، فأقاتل عنك قوماً أنت والله أولى بالقتال منهم. قلت: هذا موافق لقول أبيه: لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، مثل من طلب الباطل فأدركه، وهو الحق الذي لا يعدل عنه وبه يقول، أصحابنا، فإن الخوارج عندهم أعذر من معاوية، وأقل ضللاً، ومعاوية أولى بأن يحارب منهم.

قال أبو العباس: فلما رجع الجواب إلى معاوية أرسل إلى حوثره الأسدي أباه، وقال له: اذهب فاكفني أمر ابنك، فصار إليه أبوه، فدعاه إلى الرجوع فأبى، فما رآه فصمم، فقال: يا بني، أحيثك بابنك، فلعلك تراه فتحن إليه، فقال: يا أبت، أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح، اشوق مني إلى ابني.

فرجع إلى معاوية فأخبره فقال: يا أبا حوثره، لقد عتا بحق هذا جداً. ثم وجه إليه جيشاً أكثره أهل الكوفة، فلما نظر إليهم حوثره، قال لهم: يا أعداء الله، أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه، وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشددوا سلطانه،

فخرج إليه أبوه، فدعاه إلى البراز، فقال: يا أبت، لك في غيري مندوحة، ولي في غيرك مذهب، ثم حمل على القوم وهو يقول:

فعن قليل ما تنال المغفرة

أكرر على هذي الجموع حوثره

فحمل عليه رجل من طيء فقتله، فلما رأى أثر السجود قد لوح جبهته ندم على قتله.

الرهين الرادي

وقال الرهين المراعي أحد فقهاء الخوارج ونساکها:

لا تأمنن لصرف الدهر تنغيصا

يا نفس قد طال في الدنيا مراوغتي

إن لم يعقني رجاء العيش تربيصا

إنني لبائع مايفنى لباقية

حتى ألاقي الفردوس حرقوصا

وأسأل الله بيع النفس محتسباً

إذ فارقوا هفه الدنيا مخاميصا

وابن المنيع ومرداساً وأخوته

قال أبو العباس: وأكثرهم لم يكن يبالي بالقتل، وشيئتهم استعذاب الموت، والاستهانة بالمنية.

ومنهم الهازيء بالأمرء، وقد قدم إلى السيف، ولى زياد شييان بن عبد الله الأشعري - صاحب مقبرة بني شييان - باب عثمان وما يليه بالبصرة، فجد في طلب الخوارج، وأخافهم، فلم يزل على ذلك حتى أناه ليلة وهو متكئ بباب داره رجلان من الخوارج، فضرباه بأسيا فقتلاه، فأتي زياد بعد ذلك برجل من الخوارج، فقال: اذهبوا به فاقتلوه متكئاً كما قتل شييان متكئاً، فصاح به الخارجي: يا عدلاه يهزأ به.

عباد بن أخضر المازني

قال: وأما عباد بن أخضر قاتل أبي بلال مرداس بن أدية - وقد ذكرنا قصته - فإنه لم يزل بعد قتله مرداساً محموداً في المصر موصوفاً بما كان منه، حتى ائتمر جماعة من الخوارج أن يقتلوه، فذمر بعضهم بعضاً على ذلك، فجلسوا له يوم الجمعة بعد أن أقبل على بغلته، وابنه رديفه، فقام إليه رجل منهم فقال له: أسألك عن مسألة. قال: قل، قال: رأيت رجلاً قتل رجلاً بغير حق، وللقاتل جاه وقدر وناحية من السلطان، ولم يعد عليه السلطان لجوره، ألوي ذلك المقتول أن يقتل القاتل إن قدر عليه، فقال: بل يرفعه إلى السلطان. قال: إن السلطان لا يعدي عليه لمكانه منه، ولعظم جاهه عنده، قال: أخاف عليه إن فتك به فتك به السلطان. قال: دع ما تخافه من السلطان، أيلحقه تبعة فيما بينه وبين الله. قال: لا، فحكم هو وأصحابه ثم خبطوه بأسيا فقتلوه، ورمى عباد بابنه فنجأ، وتناس الناس: قتل عباد، فاجتمعوا فأخذوا أفواه الطرق - وكان مقتل عباد في سكة بني مازن عند مسجد بني كليب بن يربوع، فجاء معبد بن أخضر، أخو عباد - وهو معبد بن علقمة، وأخضر زوج أمهما - في جماعة من بني مازن، وصاحوا بالناس: دعونا وثأرنا فأحجم الناس، فتقدم المازنيون، فحاربوا

الخوارج حتى قتلوهم جميعاً، لم يفلت منهم أحد إلا عبيدة بن هلال، فإنه حرق خصاً ونفذ فيه، ففي ذلك يقول الفرزدق:

لقد أدرك الأوتار غير ذميمة
إذا ذم طلاب الترات الأخضر
هم جردوا الأسياف يوم ابن أخضر
فنالوا التي ما فوقها نال نائر
أقادوا به أسداً لها في اقتحامها
بصائر إذا برزت نحو الحروب

ثم هجا كليب بن يربوع، رهط حرير بن الخطفي، لأنه قتل بحفرة مسجدهم ولم ينصروه، فقال في كلمته هذه:

كفعل كليب إذ أخلت بجارها
ونصر اللئيم معتم وهو حاضر
وما لكليب حين تذكر أول
وما لكليب حين تذكر آخر

قال: وكان مقتل عباد بن أخضر وعبيد الله بن زياد بالكوفة، وخليفته على البصرة عبيد الله بن أبي بكرة، فكتب إليه يأمره ألا يدع أحداً يعرف بهذا الرأي إلا حبسه، فجد في طلب من تغيب عنه، وجعل يتبعهم ويأخذهم، فإذا شفع إليه أحد منهم كفله، إلى أن يقدم به على ابن زياد، حتى أتوه بعروة بن أدية فأطلقه، وقال: أنا كفيلك، فلما قدم ابن زياد أخذ من في الحبس، فقتلهم جميعاً، وطلب الكفلاء بمن كفلوا به، فكل من جاء بصاحبه أطلقه وقتل الخارجي، ومن لم يأت بمن كفله به منهم قتله.

ثم قال لابن أبي بكرة: هات عروة بن أدية، قال: لا أقدر عليه، قال: إذا والله أقتلك، فإنك كفيله، فلم يزل يطلبه حتى دل عليه في سرب العلاء بن سوية المنمري، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد، فقرأ عليه كتابه فقال: إنا قد أصبناه في شرب العلاء، فتهانف به عبيد الله وقال: صحفت ولؤمت، إنما هو في سرب العلاء، ولوددت أنه كان ممن شرب النبيذ. فلما أقيم عروة بين يديه، قال: لم جهزت أحاك علي، يعني أبا بلال، فقال: والله لقد كنت به ضنيناً، وكان لي عزاء، ولقد أردت له ما أريد لنفسي، فعزم عزماً فمضى عليه، وما أحب لنفسي إلا المقام وترك الخروج. فقال له: أفأنت على رأيه، قال: كلنا نعبد رباً واحداً، قال: أما والله لا مثلن بك، قال: اختر لنفسك من القصاص ما شئت، فأمر به فقطعوا يديه ورجليه، ثم قال له: كيف ترى. قال: أفسدت علي دنياي، وأفسدت عليك آخرتك، فأمر به فصلب على باب داره.

أبو الوازع الراسبي

قال أبو العباس: وكان أبو الوازع الراسبي من مجتهد الخوارج ونساکها، وكان يذم نفسه ويلومها على القعود، وكان شاعراً، وكان يفعل ذلك بأصحابه، فأق نافع بن الأزرق وهو في جماعة من أصحابه، يصف لهم جور السلطان وفساد العامة، وكان نافع ذا لسان غضب واحتجاج وصي على المنازعة، فأتاه أبو الوازع، فقال له: يا نافع، إنك اعطيت لساناً صارماً، وقلباً كليلاً، فلو تحدثت أن صرامة لسانك كانت لقلبك، وكلال قلبك كان للسانك، أتخص على الحق وتقعده

عنه، وتقبح الباطل وتقيم عليه، فقال نافع: يا أبا الوازع، إنما ننتظر الفرص، إلى أن تجمع من أصحابك من تنكئ به عدوك، فقال أبو الوازع:

تنال بكفيك النجاة من الكرب

لسانك لاتنكئ به القوم إنما

عسى الله أن يجزي غوي بني حرب

فجاهد أناساً حاربوا الله واصطبر

يعني معاوية. ثم قال: والله لا ألومك ونفسي ألوم، ولأعدون غدوة لا أنثي بعدها أبداً. ثم مضى فاشترى سيفاً، وأتى صيقلاً كان يذم الخوارج، ويدل على عورائهم، فشاوره لا السيف، فحمده، ثم قال: اشحنه، فشحنه حتى إذا رضى به، حيط به الصيقل فقتله، وحمل على الناس فهربوا منه، حتى أتى مقبرة بني يشكر، فدفن عليه رجل حائط ستره فشدخه، وأمر ابن زياد بصلبه.

عمران بن الحارث الراسبي

قال أبو العباس: ومن نساكهم الذين قتلوا في الحرب عمران بن الحارث الراسبي، قتل يوم دولا ب، التقى هو والحجاج بن باب الحميري - وكان الأمير يومئذ على أهل البصرة، وصاحب رأيهم - فاختلفا ضربتين فخرا ميتين، فقالت أم عمران ترثيه:

وكان عمران يدعو الله في السحر

الله أيد عمراناً وطهره

شهادةً بيدي ملحادة غدر

يدعوه سراً وإعلاناً ليرزقه

وشهادة عمران كالضرغامة الذكر

ولى صحابته عن حر ملحمة

قال: ومن قتل من رؤسائهم يوم لحولاب نافع بن الأزرق - وكان خليفته - خاطبوه بإمرة المؤمنين، فقال رجك منهم يرثيه:

والجائرون بنافع بن الأزرق

شمت ابن بدر والحوادث جمة

من لا يصبحه نهراً يطرق

والموت حتم لا محالة واقع

ريب المنون فمن يصبه يغلق

فلئن أمير المؤمنين أصابه

وقال قطري بن الفجاءة يذكر يوم دولا ب:

وفي العيش مالم ألق أم حكيم

لعمرك إني في الحياة لزاهد

شفاءً لذي بث ولا لسقيم

من الخفرات البيض لم ير مثلها

على نائبات الدهر جد لئيم

لعمرك إني يوم ألطم وجهها

طعان فتى في الحرب غير ذميم

فلوشهدتنا يوم دولا ب شاهدت

وعجنا صدور الخيل نحو تميم

غداة طفت علماء بكر بن وائل

وكان بعبد القيس أول جدنا
وظلت شيوخ الأزد في حومة الوعى
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً
وضاربة خدأ كريماً على فتى
أصيب بدولاب ولم تك موطناً
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا
رأت فتيةً باعوا الآله نفوسهم
وأحلافها من يحصب وسليم
تعوم فمن مستنزل وهزيم
يمج دماً من فائظ وكليم
أغر نجيب الأمهات كريم
له أرض دولاب وأرض حميم
تبيح الكفار كل حريم
بجنات عدن عنده ونعيم

عبد الله بن يحيى طالب الحق

ومن رؤساء الخوارج وكبارهم عبد الله بن يحيى الكندي الملقب طالب الحق، وصاحبه المختار بن عوف الأزدي صاحب وقعة قديد، ونحن نذكر ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني من قصتهما في كتاب الأغاني، مختصراً محذوفاً منه ما لا حاجة بنا في هذا الموضع إليه.

قال أبو الفرج: كان عبد الله بن يحيى من حضرموت، وكان مجتهداً عابداً، وكان يقول قبل أن يخرج: لقيني رجل فأطال النظر إلي وقال: ممن أنت. قلت: من كندة، فقال: من أيهم. فقلت: من بني شيطان، فقال: والله لتملكن وتبلغن واعي القرى، وذلك بعد أن تذهب إحدى عينيك، وقد ذهبت وأنا أتخوف ما قال، وأستخير الله.

فرأى باليمن جوراً ظاهراً، وعسفاً شديداً، وسيرة في الناس قبيحة، فقال لأصحابه: إنه لا يحل لنا المقام على ما نرى، ولا الصبر عليه وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها، يشاورهم في الخروج، فكتبوا إليه: إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، ولست تدري متى يأتي أجلك، والله بقية خير من عباده، يبعثهم إذا شاء بنصر دينه، ويختص بالشهادة منهم من يشاء.

وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبلج بن عقبة المسعودي في رجال من الإباضية، فقدموا عليه حضرموت فحرضوه على الخروج، وأتوه بكتب أصحابه يوصونه ويوصون أصحابه: إذا خرجتم فلا تغلوا، ولا تغدروا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا بسيرتهم، فقد علمتم أن الذي أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم. فدعا عبد الله أصحابه فبايعوه، وقصدوا دار الإمارة، وعلى حضرموت يومئذ إبراهيم بن جبلة بن نحرمة الكندي فأخذه، فحبسه يوماً ثم أطلقه، فأتى صنعاء، وأقام عبد الله بحضرموت، وكثر جمعه، وسموه طالب الحق.

وكتب إلى من كان من أصحابه بصنعاء: إني قادم عليكم، ثم استخلف على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمي، وتوجه إلى صنعاء - وذلك في سنة تسع وعشرين ومائة - في ألفين، والعامل على صنعاء يومئذ القاسم بن عمرو أخو يوسف بن عمرو الثقفي، فجرت بينه وبين عبد الله بن يحيى حروب ومناوشات، كانت الدولة فيها والنصرة لعبد الله بن

يحيى، فدخل إلى صنعاء، وجمع ما فيها من الخزائن والأموال فأحرزها.

فلما استولى على بلاد اليمن خطب، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، وذكر وحذر ثم قال: إنا ندعوكم أيها الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإجابة من دعا إليهما. الإسلام ديننا، ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا. رضينا بالحلal حللاً لا نبتغي به بدلاً، ولا نشترى به رضا، وحرمننا الحرام، ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى، وعليه المعول، من زق فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شك في أنه كافر فهو كافر. ندعوكم إلى فرائض بينات، وآيات محكمات، وآثار نقتدي بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، وعدل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الرب واليقين بالوعد والوعيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله. أيها الناس، إن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون على الألم في جنب الله، ويقتلون على الحق في سالف الأيام، شهداء فما نسيهم ربهم، وما كان ربك نسياً. أوصيكم بتقوى الله وحسن القيام على ما وكلتم بالقيام عليه، وقابلوا الله حسناً في أمره وزجره أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قال: وأقام عبد الله بن يحيى بصنعاء أشهراً، يحسن السيرة في الناس، ويلين جانبه لهم، ويكف الأذى عنهم، وكثر جمعه، وأتته الشراة من كل جانب، فلما كان في وقت الحج وجهه أبا حمزة المختار بن عوف، وبلج بن عقبة، وأبرهة بن الصباح إلى مكة، والأمير عليهم أبو حمزة في ألف، وأمره أن يقيم بمكة إذا صدر الناس، ويوجه بلجاً إلى الشام، فأقبل المختار إلى مكة يوم التروية، وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك في خلافة مروان بن محمد بن مروان، وأم عبد الواحد بنت عبد الله بن خالد بن أسيد، فكره عبد الواحد قتالهم، وفزع الناس منهم حين رأوهم، وقد طلوعوا عليهم بعرفة، ومعهم أعلام سود في رؤوس الرماح، وقالوا لهم: ما لكم وما حالكم، فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرؤ منهم، فراسلهم عبد الواحد في ألا يعطلوا على الناس حجهم. فقال أبو حمزة: نحن بحجنا أضن، وعليه أشح، فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض، حتى ينفر الناس النفر الأخير، وأصبحوا من الغد، ووقفوا بحيال عبد الواحد بعرفة، ودفع عبد الواحد بالناس، فلما كانوا بمنى، قيل لعبد الواحد: قد أخطأت فيهم، ولو حملت عليهم الحاج ما كانوا إلا أكلة رأس.

وبعث عبد الواحد إلى أبي حمزة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص العمري، وربيعه بن عبد الرحمن، ورجالاً أمثالهم، فلما قربوا من أبي حمزة أخذتهم مسالحه فأدخلوا على أبي حمزة، فوجدوه جالساً، وعليه إزار قطري قد ربطه بحورة في قفاه، فلما دنوا، تقدم إليه عبد الله بن الحسن العلوي، ومحمد بن عبد الله العثماني، فنسبهما، فلما انتسبا له عبس في وجوههما، وأظهر الكراهية لهما، ثم تقدم إليه بعدهما البكري والعمرى فنسبهما فانتسبا له، فهش إليهما وتبسم في وجوههما، وقال: والله ما خرجنا إلا لنسير سيرة أبويكما، فقال له عبد الله بن حسن: والله ما جئناك لتفاخر بين آبائنا، ولكن الأمير بعثنا إليك برسالة، وهذا ربيعة يخبركها، فلما أخبره ربيعة، قال له: إن الأمير يخاف نقض العهد، قال:

معاذ الله أن ننقض العهد، أو نخيس به، والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه، ولكن إلى أن تنقضي الهدنة بيننا وبينكم. فخرجوا من عنده، فأبلغوا عبد الواحد، فلما كان النفر الأخير، نفر عبد الواحد وخلقى مكة لأبي حمزة، فدخل بغير قتال، فقال بعض الشعراء يهجو عبد الواحد:

دين الإله ففر عبد الواحد

زار الحبيج عصابة قد خالفوا

ومضى يخط كالبعير الشارد

ترك الإمارة والمواسم هارباً

لصفت خلأته بعرق الوالد

قلو أن والده تخير أمه

ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة ودعا بالديوان، فضرب على الناس البعث، وزادهم في العطاء عشرة عشرة، واستعمل على الجيش عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فخرجوا، فلقيتهم جزر منحورة، فتشاءم الناس بها، فلما كانوا بالعقيق علق لواء عبد العزيز بسمرة فانكسر الرمح، فتشاءموا بذلك أيضاً. ثم ساروا حتى نزلوا قديداً، فتل بها قوم معتزلون، ليسوا بأصحاب حرب، وأكثرهم تجار أغمار، قد خرجوا في المصبغات والثياب الناعمة واللهو، لا يظنون أن للخوارج شوكة، ولا يشكون في أنهم في أيديهم. وقال رجل منهم من قريش: لو شاء أهل الطائف لكفونا أمر هؤلاء، ولكنهم داهنوا في دين الله، والله فظفرون ولنسيرن إلى أهل الطائف فلنسببهم، ثم قال: من يشتري مني من سيي أهل الطائف.

قال أبو الفرج: فكان هذا الرجل أول المنهزمين، فلما وصل المدينة، ودخل داره، أراد أن يقول لجاريته: أغلقي الباب، قال لها: غاق باق دهشاً، فلقيه أهل المدينة بعد ذلك غاق باق، ولم تفهم الجارية قوله، حتى أوماً إليها بيده، فأغلقت الباب. قال: وكان عبد العزيز يعرض الجيش بذي الحليفة، فمر به أمية بن عنبسة بن سعيد بن العاص، فرحب به وضحك إليه، ثم مر به عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فلم يكلمه، ولم يلتفت إليه، فقال له عمران بن عبد الله بن مطيع - وكان ابن خالته، أماهما ابنتا عبد الله بن خالد بن أسيد -: سبحان الله، مر بك شيخ من شيوخ قريش، فلم تنظر إليه ولم تكلمه، ومر بك غلام من بني أمية فضحكت إليه ولاطفته، أما والله لو التقى الجمعان لعلمت أيهما أصبر، قال: فكان أمية بن عنبسة أول من انهزم وركب فرسه ومضى، وقال لغلامه: يا مجيب، أما والله لئن أحرزت هذه الأكلب من بني الشراة إني لعاجز. وأما عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فقاتل يومئذ حتى قتل، وكان يحمل ويتمثل:

على الإذن من نفسي إذأشئت قادر

وإني إذا ضن الأمير بإذنه

والشعر للأغر بن حماد الشكري.

قال: فلما بلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه، استخلف على مكة أبرهة بن الصباح، وشخص إليهم، وعلى مقدمته بلج بن عقبة. فلما كان في الليلة التي وافهم في صبيحتها، وأهل المدينة نزول بقديد، قال لأصحابه: إنكم ملاقو القوم غداً، وأهراًهم فيما للغنى الن عثمان، أول من خالف سنة الخلفاء وبدل سنة رسول صلى الله عليه وسلم، وقد وضع الصبح لذي عينين

فأكثرنا ذكر الله وتلاوة القرآن، ووطنوا أنفسكم على الموت. وصباحهم غداة الخميس لتسع خلون من صفر سنة ثلاثين

ومائة. قال أبو الفرج: وقال عبد العزيز لغلامه في تلك الليلة: ابغنا علفاً، قال: هو غال، فقال: ويحك، البواكي علينا غداً أغلى، وأرسل أبو حمزة إليهم بليج بن عقبة ليدعوهم، فأتاهم في ثلاثين ركباً فذكرهم الله، وسألهم أن يكفوا عنهم، وقال لهم: خلوا سبيلنا إلى الشام، لنسير إلى من ظلمكم، وجار في الحكم عليكم، ولا تجعلوا حدنا بكم، فإننا لا نريد قتالكم، فشتهم أهل المدينة، وقالوا: يا أعداء الله، أنحن نخليكم، ونترككم تفسدون في الأرض فقالت الخوارج: يا أعداء الله، أنحن نفسد في الأرض، إنما خرجنا لنكف الفساد، ونقاتل من قاتلنا منكم، واستأثر بالفيء، فانظروا لأنفسكم، واحلوا من لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فدخلوا في السلم، وعاونوا أهل الحق.

فناداه عبد العزيز: ما تقول في عثمان. قال: قد برىء منه المسلمون قبلي، وأنا متبع آثارهم، ومقتد بهم، قال: ارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينكم إلا السيف، فرجع إلى أبي حمزة فأخبره، فقال: كفوا عنهم، ولا تقتلوه حتى يبدؤكم بالقتال، فوافقهم ولم يقاتلوه، فرمى رجل من أهل المدينة بسهم في عسكر أبي حمزة، فجرح منهم رجلاً، فقال أبو حمزة: شأنكم الآن فقد حل قتالهم، فحملوا عليهم، فثبت بعضهم لبعض، وراية قريش مع إبراهيم بن عبد الله بن مطيع، ثم انكشف أهل المدينة، فلم يتبعوهم، وكان على عامتهم صخر بن الجهم بن حذيفة العدوي، فكبر وكبر الناس معه، فقاتلوا قليلاً، ثم انهزموا فلم يبعدوا حتى كبر ثانية، فثبت معه ناس وقاتلوا، ثم انهزموا هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية. فقال علي بن الحصين لأبي حمزة: اتبع آثار القوم، أو دعني أتبعهم، فأقتل المدبر، وأذفف على الجريح، فإن هؤلاء شر علينا من أهل الشام، ولو قد جاءك أهل الشام غداً لرأيت من هؤلاء ما تكره، قال: لا أفعل، ولا أخالف سيرة أسلافنا.

وأخذ جماعة منهم أسراً، وأراد إطلاقهم، فمنعه علي بن الحصين، وقال: إن لكل زمان سيرة، وهؤلاء لم يؤسروا وهم هراب، وإنما أسروا وهم يقاتلون، ولو قتلوا في ذلك الوقت لم يحرم قتلهم، فهكذا الآن، قتلهم حلال ودعا بهم، فكان إذا رأى رجلاً من قريش قتله، وإذا رأى رجلاً من الأنصار أطلقه.

قال أبو الفرج: وذلك لأن قريشاً كانوا أكثر الجيش، وبهم كانت الشوكة. وأتى محمد بن عبد العزيز بن عمرو بن عثمان، فنسبه، فقال: أنا رجل من الأنصار، فسأل الأنصار فأقرت بذلك، فأطلقه، فلما ولى قال: والله إني لأعلم أنه قرشي، ولكن قد أطلقته.

قال: وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً، منهم من قريش أربعمائة وخمسون رجلاً، ومن الأنصار ثمانون رجلاً، ومن الموالي وسائر الناس ألف وسبعمائة رجل.

قال: وكان في قتلى قريش من بني أسد بن عبد العزى بن قمي أربعون رجلاً.

قال: وقتل يومئذ أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، خرج مقنعاً، فلم يكلم أحداً، وقاتل حتى قتل، ودخل بليج المدينة بغير حرب، فدخلوا في طاعته، وكف عنهم، ورجع إلى ملكه، وكان على شرطته أبو بكر بن عبد الله بن عمر، من آل سراقه، فكان أهل المدينة، يقولون: لعن الله السراقي، ولعن الله بلجاً العراقي. وقالت نائحة أهل المدينة تبكيهم:

أفنت قديد رجاليه

ولأبكين علانيه

ماللزمان وماليه

فلأبكين سريرة

أبو حمزة الشاري

قال أبو الفرج: ولما سار عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشام، وخلف المدينة لبلج، أقبل أبو حمزة من مكة حتى دخلها، فرقي المنبر، فحمد الله وقال: يا أهل المدينة، سألناكم عن ولايتكم هؤلاء فأسأتم لعمري والله القول فيهم، وسألناكم: هل يقتلون بالظن. فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام. فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم، فانشدوا الله وحده أن يتنحوا عنا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم، فقلتم: لا نفعل، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم نلقاهم، فإن نظهر نحن وأنتم يأت من يقيم لنا كتاب الله وسنة نبيه، ويعدل في أحكامكم، ويحكمكم على سنة نبيكم، فأبيتم وقاتلتمونا، فقاتلناكم وقتلناكم، فأبعدكم الله وأسحقكم يا أهل المدينة! مررت بكم في زمن الأحوال هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة في ثماركم، فركبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم، فكتب بوضعه عن قوم من ذوي اليسار منكم، فزاد الغني غنى، والفقر فقراً. وقلتم: جزاه الله خيراً، فلا جزاه خيراً ولا جزاكم! قال أبو الفرج: فأما خطبتا أبي حمزة المشهورتان اللتان خطب بهما في المدينة، فإن أحدهما قوله: تعلمون يا أهل المدينة، أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً، ولا عبثاً ولا هواً، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منا، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد أطفئت، ومعالم العدل قد عطلت، وعنف القائم بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله، "ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض".

فأقبلنا من قبائل شتى، نفر منا على البعير الواحد، وعليه زادهم، يتعاورون لحافاً واحداً، قليلون مستضعفون في الأرض، فأوانا الله وأيدنا بنصره، وأصبحنا والله الحمد من أهل فضله ونعمته. ثم لقينا رجالكم بقديد، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، فدعونا إلى طاعة الشيطان، وحكم مروان، فشتان لعمر الله ما بين الغي والرشد! ثم أقبلوا يزفون ويهرعون، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه، وصدق عليهم إبليس ظنه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب، بكل مهند ذي رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون.

وايم الله يا أهل المدينة، إن تنصروا مروان وآل مروان فيسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قوم مؤمنين. يا أهل المدينة، الناس منا ونحن منهم، إلا مشركاً عباد وثن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو إماماً جائراً. يا أهل المدينة، من يزعم أن الله تعالى كلف نفساً فوق طاقتها، وسألها عما لم يؤتها فهو لنا حرب. يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القوي والضعيف، فجاء تاسع ليس له منها سهم، فأخذها جميعاً لنفسه، مكابراً محارباً لربه، ما تقولون فيه، وفيمن عاونه على فعله؟ يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم: هم شباب أحداث، أعراب جفاة، ويحكم يا أهل المدينة! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباباً أحداثاً! نعم

والله إن أصحابي لشباب مكتهلون في شباههم، غضبضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا أنفسهم تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً، قد خلطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، محنية أصلاهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفاً من النار، وكلما مروا بآية رجاء شهقوا شوقاً إلى الجنة، وإذا نظروا إلى السيوف وقد انتضيت، وإلى الرماح وقد أشرعت، وإلى السهام وقد فوقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت استخفوا وعيدها عند وعيد الله، وانغمسوا فيها. فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله! وكم من يد قد أبيت عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راعياً وساجداً في طماعة الله! أقول قولي هذا وأستغفر الله، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وأما الخطبة الثانية، فقوله: يا أهل المدينة، مالي رأيت رسم الدين فيكم عافياً، وآثاره دارسة! لا تقبلون عليه عظة، ولا تفقهون من أهله حجة، قد بليت فيكم جدته، وانطمست عنكم سنته، ترون معروفة منكراً، والمنكر من غيره معروفاً، فإذا انكشفت لكم العبر، وأوضحت لكم النذر، عميت عنها أبصاركم، وصمت عنها آذانكم، ساهين في غمرة، لاهين في غفلة، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر، وتنقبض عن الحق إذا ذكر، مستوحشة من العلم، مستأنسة بالجهل، كلما وردت عليها موعظة زادتها عن الحق نفوراً، تحملون قلوباً في صدوركم كالبحرارة أو أشد قسوة من الحجارة، فهي لا تلين بكتاب الله، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله! يا أهل المدينة، إنه لا تغني عنكم صحة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم، قد جعل الله لكل شيء سبباً غالباً عليه، لينقاد إليه مطيع أمره، فجعل القلوب غالبية على الأبدان، فإذا مالت القلوب ميلاً كانت الأبدان لها تبعاً، وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها، ولا يصححها إلا المعرفة بالله، وقوة النية ونفاذ البصيرة، ولو استشعرت تقوى الله قلوبكم، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم.

يا أهل المدينة، داركم دار الهجرة، ومثوى الرسول صلى الله عليه وسلم لما نبت به داره، وضاق به قراره، وآذاه الأعداء وتجهمت له، فنقله الله إليكم، بل إلى قوم لعمرى لم يكونوا أمثالكم، متوازين مع الحق على الباطل، مختارين الآجل على العاجل، يصيرون للضراء رجاء ثوابها، فنصروا الله وجاهدوا في سبيله، وآزرُوا رسوله صلى الله عليه وسلم واتبعوا النور الذي أنزل معه، وآثروا الله على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، فقال الله تعالى لهم ولأمثالهم، ولمن اهتدى بهديهم: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون". وأنتم أبناءهم ومن بقي من خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم، أو تأخذوا بسنتهم، عمي القلوب صم الآذان. اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدى، وأسهاكم عن مواعظ القرآن، لا تزجركم فترجروا، ولا تعظكم فتعظون، ولا توقظكم فتستيقظون، لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم! ما سرتهم سيرتهم، ولا حفظتهم وصيتهم، ولا أحتذيتهم مثالهم، لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم! ألا ترون إلى خلافة الله وإمامة المسلمين كيف أضيعت، حتى تداولها بنو مروان، أهل بيت اللعنة، وطرء رسول الله، وقوم من الطلقاء، ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان! فأكلوا مال الله أكلاً، وتلعبوا بدين الله لعباً، واتخذوا عباد الله عبيداً، يورث الأكبر منهم ذلك الأصغر، فيألف أمة ما أضعفها وأضيعها! ومضوا على ذلك من سيئ أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله، قد نبذوه وراء ظهورهم، فالعنوهم لعنهم الله لعناً، كما يستحقونه.

ولقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز فاجتهد ولم يكدر، وعجز عن الذي أظهر، حتى مضى لسبيله. قال: ولم يذكره بخير ولا بشر. ثم قال: وولي بعده يزيد بن عبد الملك، غلام سفيه ضعيف، غير مأمون على شيء من أموال المسلمين، لم يبلغ أشده، ولم يؤنس رشده، وقد قال الله عز وجل: "فإن آنتستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم" وأمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأحكامها وفروجها ودماؤها أعظم عند الله من مال اليتيم، وإن كان عند الله عظيماً، غلام مأبون في فرجه وبطنه، يأكل الحرام، ويشرب الخمر، ويلبس بردين قد حيكاً من غير حلهم، وصرفت أثماتها في غير وجهها، بعد أن ضربت فيهما الأبخار، وحلقت فيهما الأشعار، استحل ما لم يحله الله لعبد صالح، ولا لني مرسل، فأجلس حباة عن يمينه، وسلامة عن يساره، يغنيانه بمزامير الشيطان، ويشرب الخمر الصراح، المحرمة نصاً بعينها، حتى إذا أخذت منه مأخذها، وخالطت روحه ولحمه ودمه، وغلبت سورتها على عقله، مزق برديه، ثم التفت إليهما، فقال: أتأذنان لي بأن أطير! نعم فطر إلى النار، طر إلى لعنة الله، طر إلى حيث لا يردك الله.

ثم ذكر بني أمية وأعمالهم، فقال: أصابوا إمرة ضائعة، وقوماً طغماً جهالاً لا يقومون لله بحق، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم، فملكوا الأمر، وتسلطوا فيه تسلط ربوبية، بطشهم بطش الجبابة، يحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب ويأخذون بالظن، ويعطلون الحدود بالشفاعات، ويؤمنون الخونة، ويعصون ذوي الأمانة، ويتناولون الصدقة من غير فرضها، ويضعونها غير موضعها، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله، فالعنوهم لعنهم الله. قال: ثم ذكر شيعة آل أبي طالب، فقال: وأما إخواننا من الشيعة وليسوا بإخواننا في الدين، لكني سمعت الله يقول: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر أنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا". فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله، وآثرت الفرقة على الله، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القران، ولا عقل بالغ في الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الثواب، قد قلدوا أمورهم أهواءهم، وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزموه وأطاعوه، في جميع ما يقوله لهم: غياً كان أو رشداً، ضلالة كان أو هدى، ينتظرون الدول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحد منهم ما في بيته، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه، أو يحويه جسمه، ينقمون المعاصي على أهلها، ويعملون بها ولا يعلمون المخرج منها، جفاة في دينهم، قليلة عقولهم، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة، وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

فأي الفرق يا أهل المدينة تتبعون، أم بأي مذاهبهم تقتدون ولقد بلغني مقالكم في أصحابي وما عبتموه من حادثة أسنانهم، ويحكم! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أحداثاً. نعم إنهم لشباب مكتهلون في شباهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة في الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة، قد نظر الله إليهم في جوف الليل، منحية أصلاهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً، وكلما مر بآية فيها ذكر النار شفق خوفاً، كأن زفير جهنم بين أذنيه، قد أكلت الأرض جباههم وركبهم، ووصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أبدانهم، من طول القيام، وكثرة الصيام، يوفون بعهد الله، منجزون لوعده الله، قد شروا أنفسهم في طاعة الله، حتى إذا التقت الكتبتان، وأبرقت سيوفهما، وفوقت سهامهما، وأشرعت رماحهما، لقوا شبا الأسنة وزجاج السهام وظى السيوف، بنحورهم

ووجوههم وصدورهم فمضى الشاب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، واختضبت محاسن وجهه بالدماء، وغفر جبينه بالتراب والثرى، وانحطت عليه الطير من السماء، ومزقته سباع الأرض، فكمن من عين في منقار طائر طالما بكى بما صاحبها في جوف الليل من خوف الله! وكم من وجه رقيق، وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد. ثم بكى فقال: آه، آه! على فراق الإخوان، رحمة الله تعالى على تلك الأبدان، اللهم أدخل أرواحها الجنان. قال أبو الفرج: وسار أبو حمزة، وخلف بالمدينة المفضل الأزدي في جماعة من أصحابه، وبعث مروان بن محمد عبد الملك بن عطية السعدي في أربعة آلاف من أهل الشام، فيهم فرسان عسكره ووجوههم لحرب أبي حمزة وعبد الله بن يحيى طالب الحق وأمر ابن عطية بالجد في المسير، وأعطى كل رجل من الجيش مائة دينار، وفرساً عربياً، وبغلاً لثقله، فخرج ابن عطية حتى إذا كان بالمعلى. فكان رجل من أهل وادي القرى، يقال له العلاء بن أفلح مولى أبي الغيث، يقول: لقيني في ذلك اليوم وأنا غلام رجل من أصحاب ابن عطية، فقال لي: ما اسمك يا غلام؟ فقلت: العلاء، فقال: ابن من؟ قلت: ابن أفلح، قال: أعربي أم مولى؟ فقلت: مولى، قال: مولى من؟ قلت: مولى أبي الغيث، قال: فأين نحن؟ قلت: بالمعلى، قال: فأين نحن غداً؟ قلت: بغالب، قال: فما كلمني حتى أردفني خلفه، ومضى حتى أدخلني على ابن عطية، وقال له: أيها الأمير، سل الغلام ما اسمه؟ فسألوا أنا أرد عليه القول؟ فسر بذلك، ووهب لي دراهم.

قال أبو الفرج: وقدم أبو حمزة، وأمامه بلج بن عقبة في ستمائة رجل، ليقا تل عبد الملك بن عطية، فلقيه بوادي القرى، لأيام خلّت من جمادى الأولى سنة ثلاثين ومائة، فتواقفوا، ودعاهم بلج إلى الكتاب والسنة، وذكر بني أمية وظلمهم، فشتّمه أهل الشام، وقالوا: يا أعداء الله، أنتم أحق بهذا ممن ذكرتم. فحمل بلج وأصحابه عليهم، وانكشفت طائفة من أهل الشام، وثبت ابن عطية في عصابة صبروا معه، فناداهم: يا أهل الشام، يا أهل الحفاظ ناضلوا عن دينكم وأميركم، واصبروا وقاتلوا قتلاً شديداً، فقتل بلج وأكثر أصحابه، وانحازت قطعة من أصحابه نحو المائة إلى جبل اعتصموا به، فقاتلهم ابن عطية ثلاثة أيام، فقتل منهم سبعين رجلاً، ونجا منهم ثلاثون. فرجعوا إلى أبي حمزة وهو بالمدينة، وقد اغتموا وجزعوا من ذلك الخبر، وقالوا: فررنا من الزحف، فقال لهم أبو حمزة: لا تجزعوا فإننا لكم فئة، وإلي تحيزتم.

وخرج أبو حمزة إلى مكة، فدعا عمر بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أهل المدينة إلى قتال المفضل، خليفة أبي حمزة على المدينة، فلم يجد أحداً، لأن القتل قد كان أسرع في الناس، وخرج وجوه أهل البلد عنه، فاجتمع إلى عمر البربر والزnoj وأهل السوق والعبيد، فقاتل بهم الشراة، فقتل المفضل وعامة أصحابه، وهرب الباقون، فلم يبق منهم أحد، فقال في ذلك سهيل مولى زينب بنت الحكم بن أبي العاص:

يوم الاثنين عشميه

وانتضينا المشرفيه

ليت مروان رأنا

إذ غسلنا العار عنا

قال: فلما قدم ابن عطية أتاحه عمر بن عبد الرحمن، فقال له: أصلحك الله! إني جمعت قضي وقضيضي، فقاتلت هؤلاء الشراة فلقبه أهل المدينة: قضي وقضيضي.

قال أبو الفرج، وأقام ابن عطية بالمدينة شهراً، وأبو حمزة مقيم بمكة، ثم توجه إليه، فقال علي بن الحصين العبدى لأبي حمزة: إني كنت أشرت عليك يوم قديد وقبله أن تقتل الأسرى فلم تفعل، حتى قتلوا المفضل وأصحابنا المقيمين معه بالمدينة، وأنا أشير عليك الآن أن تضع السيف في أهل مكة، فإنهم كفرة فجرة، ولو قد قدم ابن عطية لكانوا أشد عليك من أهل المدينة، فقال: لا أرى ذلك، لأنهم قد دخلوا في الطاعة، وأقروا بالحكم، ووجب لهم حق الولاية. فقال: إنهم سيغدرون، فقال: "ومن نكث فإنما ينكث على نفسه".

وقدم ابن عطية مكة فصير أصحابه فرقتين، ولقي الخوارج من وجهين، فكان هو بإزاء أبي حمزة في أسفل مكة، وجعل طائفة أخرى بالأبطح بإزاء أبرهة بن الصباح، فقتل أبرهة، كمن له ابن هبار وهو على خيل دمشق، فقتله عند بئر ميمون، والتقى ابن عطية بأبي حمزة، فخرج أهل مكة بأجمعهم مع ابن عطية، وتكاثر الناس على أبي حمزة، فقتل على فم الشعب، وقتلت معه امرأته وهي ترتجز:

من سال عن اسمي فاسمي مريم

أنا الجديعاء وبنت الأعلم

بعث سوارى بعضب مخذم

وقتل الخوارج قتلاً ذريعاً، وأسر منهم أربعمائة، فقال لهم ابن عطية: ويلكم! ما دعاكم إلى الخروج مع هذا؟ فقالوا: ضمن لنا الكنة، يريدون الجنة، فقتلهم كلهم، وصلب أبا حمزة وأبرهة بن الصباح على شعب الخيف، ودخل علي بن الحصين داراً من دور قريش، فأحرق أهل الشام بما فأحرقوها، فرمى بنفسه عليهم وقاتل، فأسر وقتل وصلب مع أبي حمزة، فلم يزالوا مصلوبين حتى أفضى الأمر إلى بني هاشم، فأنزّلوا في خلافة أبي العباس.

قال أبو الفرج: وذكر ابن الماجشون أن ابن عطية لما التقى بأبي حمزة، قال أبو حمزة لأصحابه: لا تقتلوه حتى تحتبروهم، فصاحوا فقالوا: يا أهل الشام، ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فقال ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق، قالوا: فما تقولون في اليتيم؟ قالوا: نأكل ماله ونفجر بأمه، في أشياء بلغني أنهم سئلوا عنها، فلما سمعوا كلامهم قاتلوه حتى أمسوا، فصاحت الشراة: ويحك يابن عطية! إن الله جل وعز قد جعل الليل سكناً فاسكن ونسكن، فأبى وقتلهم حتى أفناهم.

قال: ولما خرج أبو حمزة من المدينة خطب، فقال: يا أهل المدينة، إنا خارجون لحرب مروان، فإن نظهر عليه نعدل في أحكامكم، ونحملكم على سنة نبيكم، وإن يكن ما تمنيتم لنا، فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

قال: وقد كان اتبعه على رأيه قوم من أهل المدينة وبايعوه، منهم بشكست النحوي، فلما جاءهم قتله وثب الناس على أصحابه فقتلوه؟ وكان ممن قتلوه بشكست النحوي، فلما جاءهم قتله وثب الناس على أصحابه فقتلوه، وكان ممن قتلوه بشكست النحوي، طلبوه فرقي في درجة دار، فلحقوه فأنزلوه، وقتلوه وهو يصيح: يا عباد الله، فيم تقتلونني! فقيل فيه:

لقد كان بشكست عبد العزيز

من أهل القراءة والمسجد

فبعداً لبشكست عبد العزيز

وأما القرآن فلا تبعد

قال أبو الفرج: وحدثني بعض أصحابنا أنه رأى رجلاً واقفاً على سطح يرمي بالحجارة قوم أبي حمزة بمكة، فقبل له: ويلك! أتدري من ترمي مع اختلاط الناس، فقال: والله ما أبالي من رميت، إنما يقع حجري في شام أو شار، والله ما أبالي أيهما قتلت.

قال أبو الفرج: وخرج ابن عطية إلى الطائف، وأتى قتل أبي حمزة إلى عبد الله بن يحيى طالب الحق، وهو بصنعاء، فأقبل في أصحابه يريد حرب ابن عطية، فشخص ابن عطية إليه، والتقوا، فقتل بين الفريقين جمع كثير، وترجل عبد الله بن يحيى في ألف رجل، فقاتلوا حتى قتلوا كلهم، وقتل عبد الله بن يحيى، وبعث ابن عطية رأسه إلى مروان بن محمد، وقال أبو صخر الهذلي، يذكر ذلك:

قتلنا عبيداً والذي يكتني الكنى

أبا حمزة القاري المصلي اليماني

وأبرهة الكندي خاضت رماحنا

وبلجاً منحناه السيوف المواضيا

وما تركت أسيفنا منذ جردت

لمروان جباراً على الأرض عاصيا

وقال عمرو بن الحصين العنبري، يرثي أبا حمزة وغيره من الشراة، وهذه القصيدة من مختار شعر العرب:

هبت قبيل تبلج الفجر

هند تقول ودمعها يجري

إذ أبصرت عيني وأدمعها

تنهل واكفة على النحر:

أنى اعتراك وكنت عهدي لا

سرب الدموع وكنت ذا صبر

أفدى بعينك لا يفارقها

أم عائر، أم مالها تذري

أم ذكر إخوان فجعت بهم

سلخوا سبيلهم على قدر

فأجبتها بل ذكر مصرعهم

لا غيره عبراتها تمرى

يا رب أسكنني لسبيلهم

ذا العرش واشدد بالتقى أزي

في فتية صبروا نفوسهم

للمشرفية والقنا السمر

تالله ما في الدهر مثلهم

حتى أكون رهينة القبر

أوفى بذمتهم إذا عقدوا

وأعف عند العسر واليسر

متأهبون لكل صالحة

نافون من لاقوا عن النكر

صمت إذا حضروا مجالسهم

من غير ما عي بهم يزري

إلا تجيئهم فإنهم

رجف القلوب بحضرة الذكر

متأوهون كأن جمر غضاً

للموت بين ضلوعهم يسري

فهم كأن بهم جرى مرض
لا ليلهم ليل فيلبسهم
إلا كرى خلساً وآونة
كم من أخ لك قد فجعت به
متأوها يتلو قوارع من
ظمان وقدة كل هاجرة
رفاض ما تهوى النفوس إذا
ومبرأ من كل سيئة
والمصطفى بالحرب يوقدها
يختاضها بأفل ذي شطب
لا شيء يلقاه أسر له
منهارة منه تجيش بما
لخليك المختار أذك به
خواض غمرة كل متلفة

أو مسهم طرف من السحر
فيه غوشي النوم بالسكر
حذر العقاب فهم على دعر
قوام ليلته إلى الفجر
آي الكتاب مفرع الصدر
تراك لذته على قدر
رغب النفوس دعت إلى المزر
عف الهوى ذا مرة شزر
بحسامه في فنية زهر
عضب المضارب ظاهر الأثر
من طعنة في ثغرة النحر
كانت عواصم جوفه تجري
من مغتد في الله أو مسري
في الله تحت العثير الكدر

نزال ذي النجوات مختضبا
وابن الحصين وهل له شبه
بشهادة لم تحن أضلعه
طلق اللسان بكل محكمة
لم ينفكك في جوفه حزن
ترقى وآونة يخفضها
ومخالطي بلج وخالصتي
نكل الخصوم إذا هم شغبوا
والخائض الغمرات يخطر في
بمشطب أو غير ذي شطب
وأخيك أبرهة الهجان أخي ال

بنجيعة بالطعنة الشزر
في العرف أنى كان والنكر
لذوي أحزته على غدر
رآب صدع العظم ذي الكسر
تغلي حرارته وتستشري
بتنفس الصعداء والزفر
سهم العدو وجابر الكسر
وسداد ثلثة عورة الثغر
وسط الأعادي أيما خطر
هام العدا بذبابه يفري
حرب العوان وموقد الجمر

والضارب الأخدود ليس لها
وولي حكمهم فجعت به
قوال محكمة وذو فهم
ومسيب فاذكر وصيته
فكلاهما قد كان مختشعاً
في مخبتين ولم أسمهم
وهم مساعر في الوغى رجح
حتى وفوا لله حيث لقوا
فتخالسوا مهجات أنفسهم
وأسنة أثبتن في لدن
تحت العجاج وفوقهم خرق
فتوقدت نيران حربهم
وتصرعت عنهم فوارسهم
صرعى فخاوية بيوتهم

حد ينهنها عن السحر
عمرو، فواكبدي على عمرو
عف الهوى متثبت الأمر
لا تنس إما كنت ذا ذكر
لله ذا تقوى وذا بر
كانوا ندى وهم أولو نصري
وخيار من يمشي على العفر
بعهود لا كذب ولا غدر
وعدااتهم بقواضب بتر
خطية بأكفهم زهر
يخفقن من سود ومن حمر
ما بين أعلى البيت والحجر
لم يغمضوا عيناً على وتر
وخوامع بجسومهم تقري

قال أبو الفرج: وأقام ابن عطية بحضرموت بعد ظفره بالخوارج حتى أتاه كتاب مروان، يأمره بالتعجيل إلى مكة، فيحج بالناس، فشخص إلى مكة متعجلاً مخفياً في تسعة عشر فارساً، وندم مروان على ما كتبه، وقال: قتلت ابن عطية، وسوف يخرج متعجلاً مخفياً من اليمن ليلحق الحج فيقتله الخوارج، فكان كما قال، صادفه في طريقه جماعة متلففة، فمن كان منهم إباضياً قال: ما نتظر أن ندرك ثأر إخواننا، ومن لم يكن منهم إباضياً ظن أنه إباضي منهزم من ابن عطية، فصمد له سعيد وجماعة ابنا الأخنس الكنديان في جماعة من قومهما، وكانوا على رأي الخوارج، فعطف ابن عطية على سعيد فضربه بالسيف، وطعنه جماعة فصرعه، فترل إليه سعيد، فقعد على صدره، فقال له ابن عطية: هل لك في أن تكون أكرم العرب أسيراً؟ فقال سعيد: يا عدو الله، أظن الله يهلك! أو تطمع في الحياة، وقد قتلت طالب الحق وأبا حمزة وبلجاً وأبرهة فذبحه. وقتل أصحابه أجمعون.

فهذا يسير مما هو معلوم من حال هذه الطائفة في خشونتها في الدين، وتلزمها بناموسه، وإن كانت في أصل العقيدة على ضلال، وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عنهم: "تستحقر صلاة أحدكم في جنب صلاحهم، وصيام أحدكم في جنب صيامهم"، ومعلوم أن معاوية ومن بعده من بني أمية لم تكن هذه الطريقة طريقتهم، ولا هذه السنة سنتهم، وأنهم كانوا أهل دنيا وأصحاب لعب وهو وانغماس في اللذات، وقلة مبالة بالدين، ومنهم من هو مرمي بالزندقة والإلحاد.

أما أنكر علي معاوية

وقد طعن كثير من أصحابنا في دين معاوية، ولم يقتمروا على تفسيره، وقالوا عنه إنه كان ملحدًا لا يعتقد النبوة، ونقلوا عنه في فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدل على ذلك.

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات وهو غير متهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة علي رضي الله عنه والانحراف عنه:

قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، وكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيت مغتمًا فانتظرت ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فناء، فقلت: ما لي أراك مغتمًا منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سنًا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوانك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وثمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله، فأبي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك لا والله إلا دفناً دفناً.

وأما أفعاله المجانبة للعدالة الظاهرة من لبسه الحرير، وشربه في آنية الذهب والفضة، حتى أنكر عليه ذلك أبو الدرداء، فقال له: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "إن الشارب فيهما ليحرج في جوفه نار جهنم"، وقال معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية أنا أخبره عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يخبرني عن رأيه لا أساكنك بأرض أبداً.

نقل هذا الخبر المحدثون والفقهاء في كتبهم في باب الإحتجاج على أن خبر الواحد معمول به في الشرع، وهذا الخبر يقدر في عدالته، كما يقدر أيضاً في عقيدته، لأن من قال في مقابلة خبر قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما أنا فلا أرى بأساً فيما حرمه رسول الله، ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حالة استثثاره بمال الفبيء، وضربه من لا حد عليه، وإسقاط الحد عمن يستحق إقامة الحد عليه، وحكمه برأيه في الرعية وفي دين الله، واستلحاقه زياداً، وهو يعلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش وللعاهر الحجر"، وقتله حجر بن عدي وأصحابه ولم يجب عليهم القتل، ومهاتته لأبي ذر الغفاري وجبهه وشتمه وإشخاصه إلى المدينة على قتب بغير وطاء لإنكاره عليه، ولعنه علماً وحسناً وحسيناً وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد، مع ظهور فسقه وشربه المسكر جهاراً، ولعبه بالنرد، ونومه بين القيان المغنيات، واصطباحه معهن، ولعبه بالطنبور بينهن، وتطريقه بني أمية للوثوب على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافته، حتى أفضت إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، المفتضحين الفاسقين: صاحب حباة وسلامة، والآخر رامي المصحف بالسهام وصاحب الأشعار في الزندقة والإلحاد.

ولا ريب أن الخوارج إنما برئ أهل الدين والحق منهم، لأنهم فارقوا علماً وبرئوا منه، وما عدا ذلك من عقائدهم، نحو القول بتخليد الفاسق في النار، والقول بالخروج على أمراء الجور، وغير ذلك من أقاويلهم، فإن أصحابنا يقولون بما،

ويذهبون إليها، فلم يبق ما يقتضي البراءة منهم إلا براءتهم من علي، وقد كان معاوية يلعنه على رؤوس الأشهاد وعلى المنابر في الجمع والأعياد، في المدينة ومكة وفي سائر مدن الإسلام، فقد شارك الخوارج في الأمر المكروه منهم، وامتازوا عليه بإظهار الدين والتلزم بقوانين الشريعة، والاجتهاد في العبادة، وإنكار المنكرات، وكانوا أحق بأن ينصروا عليه من أن ينصر عليهم، فوضح بذلك قول أمير المؤمنين: لا تقاتلوا الخوارج بعدي، يعني في ملك معاوية. ومما يؤكد هذا المعنى أن عبد الله بن الزبير استنصر على يزيد بن معاوية بالخوارج، واستدعاهم إلى ملكه، فقال فيه الشاعر:

يابن الزبير أتهوى فتية قتلوا ظلما أباك ولما تنزع الشكك

ضحوا بعثمان يوم النحر ضاحية يا طيب ذاك الدم الزاكي الذي سفكوا

فقال ابن الزبير: لو شايعني الترك والديلم على محاربة بني أمية لشايعتهم وانتصرت بهم.

من كلام له لما خوف من الغيلة

الأصل: وإن علي جنة حصينة، فإذا جاء يومي انفرجت عني وأسلمتني، فحينئذ لا يطيش السهم، ولا يبرأ الكلم.

الشرح: الغيلة: القتل على غير علم ولا شعور. والجنة: الدرع وما يجن به، أي يستتر من ترس وغيره. وطاش السهم، إذا صدف عن الغرض. والكلم: الجرح، ويعني بالجنة ههنا الأجل، وعلى هذا المعنى الشعر المنسوب إليه رضي الله عنه:

من أي يومي من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر

فيوم لا يقدر لا أرهبه ويوم قد قدر لا يغني الحذر

ومنه قول صاحب الزنج:

وإذا تنازعني أقول لها قري موت يريحك أو صعود المنبر

ما قد قضى سيكون فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يقدر

ومثله:

قد علم المستأخرون في الوهل أن الفرار لا يزيد في الأجل

والأصل في هذا كله قوله تعالى: "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً". وقوله تعالى: "فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون".

وقوله سبحانه: "توفته رسلنا وهم لا يفرطون"، وفي القرآن العزيز كثير من ذلك.

الآجال واختلاف الناس فيها

واختلف الناس في الآجال، فقالت الفلاسفة والأطباء: لا أجل مضروب لأحد من الحيوان كله من البشر ولا من غيرهم. والموت عندهم على ضربين: قسري وطبيعي.

فالقسري الموت بعارض، إما من خارج الجسد، كالمرتدي والغريق والمقتول، ونحو ذلك، أو من داخل الجسد كما يعرض من الأمراض القاتلة مثل السل والاستسقاء والسرسام، ونحو ذلك.

والموت الطبيعي ما يكون بوقوف القوة الغذائية التي تورّد على البدن عوض ما يتحلل منه، وهذه القوة المستخدمة للقوى الأربع: الجاذبة، والدافعة، والماسكة، والهاضمة. والبدن لا يزال في التحلل دائماً من الحركات الخارجية، ومن الأفكار والهموم وملاقاة الشمس والرياح، والعوارض الطارئة، ومن الجوع والعطش. والقوة الغذائية تورّد على البدن عوض الأجزاء المتحللة، فتصرفها في الغذاء المتناول، واستخدام القوى الأربع المذكورة.

ومنتهى بقاء هذه القوة في الأعم الأغلب للإنسان مائة وعشرون سنة، وقد رأيت في كتب بعض الحكماء أنها تبقى مائة وستين سنة، ولا يصدق هؤلاء بما يروى من بقاء المعمرين، فأما أهل الملل فيصدقون بذلك.

واختلف المتكلمون في الآجال، فقالت المعتزلة: ينبغي أولاً أن نحقق مفهوم قولنا: أجل ليكون البحث في التصديق بعد تحقق التصور، فالأجل عندنا هو الوقت الذي يعلم الله أن حياة ذلك الإنسان أو الحيوان تبطل فيه، كما أن أجل الدين هو الوقت الذي يحل فيه، فإذا سألنا سائل فقال: هل للناس آجال مضروبة، قلنا له: ما تعني بذلك؟ أتريد: هل يعلم الله تعالى الأوقات التي تبطل فيها حياة الناس؟ أم تريد بذلك أنه: هل يراد بطلان حياة كل حي في الوقت الذي بطلت حياته. فإن قال: عنيت الأول، قيل له: نعم للناس آجال مضروبة بمعنى معلومة، فإن الله تعالى عالم بكل شيء. وإن قال: عنيت الثاني، قيل: لا يجوز عندنا إطلاق القول بذلك، لأنه قد تبطل حياة نبي أو ولي بقتل ظالم، والبارئ تعالى لا يريد عندنا ذلك. فإن قيل: فهل تقولون: إن كل حيوان يموت وتبطل حياته بأجله، قيل: نعم، لأن الله قد علم الوقت الذي تبطل حياته فيه، فليس تبطل حياته إلا في ذلك الوقت، لا لأن العلم ساق إلى ذلك، بل إنما تبطل حياته بالأمر الذي اقتضى بطلانه، والبارئ تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه، فإن بطلت حياته بقتل ظالم فذلك ظلم وجور، وإن بطلت حياته من قبل الله تعالى فذلك حكمة وصواب. وقد يكون ذلك لطفاً لبعض المكلفين.

واختلف الناس: لو لم يقتل القاتل المقتول، هل كان يجوز أن يبقية الله تعالى، فقطع الشيخ أبو الهذيل على موته لو لم يقتله القاتل، وإليه ذهب الكرامية، قال محمد بن الهيصم: مذهبنا أن الله تعالى قد أجل لكل نفس أجلاً لن ينقضي عمره دون بلوغه، ولا يتأخر عنه، ومعنى الأجل هو الوقت الذي علم الله أن الإنسان يموت فيه، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وليس يجوز أن يكون الله تعالى قد أجل له أجلاً، ثم يقتل قبل بلوغه أو يخترم دونه، ولا أن يتأخر عما أجل له، ليس على معنى أن القاتل مضطر إلى قتله، حتى لا يمكنه الامتناع منه، بل هو قادر على أن يمتنع من قتله، ولكنه لا يمتنع منه، إذ كان المعلوم أنه يقتله لأجله بعينه، وكتب ذلك عليه.

ولو توهّمنا في التقدير، أنه يمتنع من قتله، لكان الإنسان يموت لأجل ذلك، لأنهما أمران مؤجلان بأجل واحد، فأحدهما قتل القاتل إياه، والثاني تصرم مدة عمره وحلول الموت به، فلو قدرنا امتناع القاتل من قتله، لكان لا يجب بذلك ألا يقع المؤجل الثاني الذي هو حلول الموت به، بل كان يجب أن يموت بأجله.

قال: وبيان ذلك من كتاب الله توبيخه المنافقين على قولهم: "لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا"، فقال تعالى لهم: "قل

فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين"، فدل على أنهم لو تجنبوا مصارع القتل لم يكونوا ليدروا بذلك الموت عن أنفسهم.

وقالت الأشعرية والجهمية والجزيرية كافة: إنها آجال مضروبة محدودة، وإذا أجل الأجل، وكان في المعلوم أن بعض الناس يقتله، وجب وقوع القتل منه لا محالة، وليس يقدر القاتل على الامتناع من قتله، وتقدير انتفاء القتل ليقال: كيف كانت تكون الحال، تقدير أمر محال، كتقدير عدم القديم وإثبات الشريك، وتقدير أمور المستحيلة لغو وخلف من القول. وقال قوم من أصحابنا البغداديين رحمهم الله بالقطع على حياته لو لم يقتله القاتل، وهذا عكس مذهب أبي الهذيل ومن وافقه، وقالوا: لو كان المقتول يموت في ذلك الوقت لو لم يقتله القاتل لما كان القاتل مسيئاً إليه، إذ لم يفوت عليه حياة لو لم يبطئها لبقيت، ولما استحق القود، ولكان ذابح الشاة بغير إذن مالكة قد أحسن إلى مالكة، لأنه لو لم يذبحها لماتت، فلم يكن ينتفع بلحمها.

قالوا: والذي احتج به من كونهما مؤجلين بأجل واحد فلو قدرنا انتفاء أحد الأمرين في ذلك الوقت لم يجب انتفاء الآخر، ليس بشيء، لأن أحدهما علة الآخر، فإذا قدرنا انتفاء العلة، وجب أن ينتفي في ذلك التقدير انتفاء المعلول، فعلة قتل القاتل، والمعلول بطلان الحياة، وإنما كان يستمر ويصلح ما ذكره، لو لم يكن بين الأمرين علية العلية والمعلولية. قالوا: والآية التي تعلقوا فيها لا تدل على قولهم، لأنه تعالى لم ينكر ذلك القول إنكار حاكم بأنهم لو لم يقتلوا لماتوا، بل قال: كل حي ميت، أي لا بد من الموت، إما معجلاً وإما مؤجلاً.

قالوا: فإذا قال لنا قائل: إذا قلت إنه يبقى لو لم يقتله القاتل، ألسم تكونون قد قلت: إن القاتل قد قطع عليه أجله؟ قلنا له: إنما يكون قطعاً عليه أجله لو قتله قبل الوقت الذي علم الله تعالى أن حياته تبطل فيه، وليس الأمر كذلك، لأن الوقت الذي علم الله تعالى أن حياته تبطل فيه هو الوقت الذي قتله فيه القاتل، ولم يقتله القاتل قبل ذلك، فيكون قد قطع عليه أجله.

قالوا: فإذا قال لنا: فهل تقولون إنه قطع عليه عمره؟ قلنا له: إن الزمان الذي كان يعيش فيه لو لم يقتله القاتل لا يسمى عمراً إلا على طريق المجاز، باعتبار التقدير، ولسنا نطلق ذلك إلا مقيداً، لئلا يوهم، وإنما قلنا: إنا نقطع على أنه لو لم يقتل لم يموت، ولا نطلق غير ذلك.

وقال قدماء الشيعة: الآجال تزيد وتنقص، ومعنى الأجل، الوقت الذي علم الله تعالى أن الإنسان يموت فيه إن لم يقتل قبل ذلك، أو لم يفعل فعلاً يستحق به الزيادة والنقصان في عمره.

قالوا: وربما يقتل الإنسان الذي ضرب له من الأجل خمسون سنة، وهو ابن عشرين سنة، وربما يفعل من الأفعال ما يستحق به الزيادة فيبلغ مائة سنة، أو يستحق به النقيصة فيموت وهو ابن ثلاثين سنة.

قالوا: فما يقتضي الزيادة، صلة الرحم، ومما يقتضي النقيصة الزنا وعقوق الوالدين، وتعلقوا بقوله تعالى: "وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب".

وربما قال قوم منهم: إن الله تعالى يضرب الأجل لزيد خمسين سنة أو ما يشاء، فيرجع عن ذلك فيما بعد، ويجعله أربعين أو ثلاثين، أو ما يشاء، وبنوه على قولهم في البداء.

وقال أصحابنا: هذا يوجب أن يكون الله تعالى قد أجل الآجال على التخمين دون التحقيق، حيث أجل يزيد خمسين، فقتل لعشرين، وأفسدوا أن يعلم الله تعالى الشيء بشرط، وأن يبدو له فيما يقضيه ويقدره، بما هو مشهور في كتبهم. وقالوا في الآية: إن المراد بها أن ينقص سبحانه بعض الناس عن مقدار أجل المعمر، بأن يكون انتقص منه عمراً، ليس أنه ينقص من عمر ذلك المعمر.

فأما مشايخنا أبو علي وأبو هاشم فتوقفوا في هذه المسألة، وشكا في حياة المقتول وموته، وقالوا: لا يجوز أن يبقى لو لم يقتل، ويجوز أن يموت، قالوا: لأن حياته وموته مقدوران لله عز وجل، وليس في العقل ما يدل على قبح واحد منهما، ولا في الشرع ما يدل على حصول واحد منهما، فوجب الشك فيهما، إذ لا دليل يدل على واحد منهما. قالوا: فأما احتجاج القاطعين على موته، فقد ظهر فساد به حكي من الجواب عنه. قالوا: ومما يدل على بطلانه من الكتاب العزيز قوله تعالى: "ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب"، فحكم سبحانه بأن إثباته القصص مما يزرع القاتل عن القتل، فتدوم حياة المقتول، فلو كان المقتول يموت لو لم يقتله القاتل ما كان في إثبات القصص حياة.

قالوا: وأما احتجاج البغداديين على القطع على حياته بما حكي عنهم، فلا حجة فيه، أما إلزام القاتل القود والغرامة فلائنا غير قاطعين على موت المقتول لو لم يقتل، بل يجوز أن يبقى ويغلب ذلك على ظنوننا، لأن الظاهر من حال الحيوان الصحيح ألا يموت في ساعته، ولا بعد ساعته وساعات، فنحن نلزم القاتل القود والغرامة، لأن الظاهر أنه أبطل ما لو لم يبطله لبقى.

وأيضاً فموت المقتول لو لم يقتله القاتل لا يخرج القاتل من كونه مسيئاً، لأنه هو الذي تولى إبطال الحياة، ألا ترى أن زيدا لو قتل عمراً لكان مسيئاً إليه، وإن كان المعلوم أنه لو لم يقتله لقتله خالد في ذلك الوقت!. وأيضاً فلو لم يقتل القاتل المقتول ولم يذبح الشاة حتى ماتا، لكان يستحق المقتول ومالك الشاة من الأعواض على الباري سبحانه أكثر مما يستحقانه على القاتل والذابح، فقد أساء القاتل والذابح حيث فوتا على المقتول ومالك الشاة زيادة الأعواض. فأما شيخنا أبو الحسين فاختار الشك أيضاً في الأمرين إلا في صورة واحدة، فإنه قطع فيها على دوام الحياة، وهي أن الظالم قد يقتل في الوقت الواحد الألوف الكثيرة في المكان الواحد، ولم تجر العادة بموت مثلهم في حالة واحدة في المكان الواحد، واتفق ذلك نقض العادة، وذلك لا يجوز.

قال الشيخ: ليس يمتنع أن يقال في مثل هؤلاء إنه يقطع على أن جميعهم ما كانوا يموتون في ذلك المكان في ذلك الوقت لو لم يقتلهم القاتل، إن كان الوقت وقتاً لا يجوز انتقاض العادات فيه، ولكن يجوز أن يموت بعضهم دون بعض، لأنه ليس في موت الواحد والاثنين في وقت واحد في مكان واحد نقض عادة، ولا يمتنع هذا الفرض من موقم بأجمعهم في زمان نبي من الأنبياء. وقد ذكرت في كتيبي المبسوطة في علم الكلام في هذا الباب ما ليس هذا الشرح موضوعاً لاستقصائه.

ومن خطبة له يحذر من فتنة الدنيا

الأصل: ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها، ولا ينجى بشيء كان لها. ابتلي الناس بها فتنة فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه، وأقاموا فيه، فلأهلها عند ذوي العقول كفيء الظل، بينا تراه سابغاً حتى قلص، وزائداً حتى نقص.

الشرح: تقدير الكلام: أن الدنيا دار لا يسلم من عقاب ذنوبها إلا فيها، وهذا حق، لأن العقاب المستحق، إنما يسقط بأحد أمرين: إما بثواب على طاعات تفضل على ذلك العقاب المستحق، أو بتوبة كاملة الشروط.

وكلا الأمرين لا يصح من المكلفين إيقاعه إلا في الدنيا، فإن الآخرة ليست دار تكليف، ليصح من الإنسان فيها عمل الطاعة والتوبة عن المعصية السالفة، فقد ثبت إذا أن الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها.

إن قيل: بينوا أن الآخرة ليست بدار تكليف، قيل: قد بين الشيوخ ذلك بوجهين: أحدهما: الإجماع على المنع من تجويز استحقاق ثواب أو عقاب في الآخرة.

والثاني: أن الثواب يجب أن يكون خالصاً من المشاق، والتكليف يستلزم المشقة، لأنها شرط في صحته، فبطل أن يجوز استحقاق ثواب في الآخرة للمكلفين المثابرين في الآخرة لأجل تكاليفهم في الآخرة، وأما المعاقبون فلو كانوا مكلفين لجاز وقوع التوبة منهم، وسقوط العقاب بها، وهذا معلوم فساد ضروري من دين الرسول صلى الله عليه وسلم. وههنا اعتراضان: أحدهما: أن يقال: فما قولكم في قوله تعالى: "كلوا وأشربوا هنيئاً بما أسلفتم"، وهذا أمر وخطاب لأهل الجنة، والأمر تكليف؟.

والثاني: أن الإجماع حاصل على أن أهل الجنة يشكرون الله تعالى، والشكر عبادة وذلك يستدعي استحقاق الثواب! والجواب عن الأول أن قوله: "كلوا وأشربوا" عند شيخنا أبي علي رحمه الله تعالى ليس بأمر على الحقيقة، وإن كانت له صورته، كما في قوله تعالى: "كونوا حجارة أو حديداً".

وأما الشيخ أبو هاشم فعنده أن قوله: "كلوا وأشربوا" أمر، لكنه زائد في سرور أهل الجنة، إذا علموا أن الله تعالى أراد منهم الأكل وأمرهم به، ولكنه ليس بتكليف، لأن الأمر إنما يكون تكليفاً إذا انضمت إليه المشقة. وأما الجواب عن الثاني، فإن الشكر الذي بالقلب رجوعه إلى الاعتقادات، والله تعالى يفعل في أهل الجنة المعارف كلها، فلا وجوب إذا عليهم، وأما الشكر باللسان فيجوز أن يكون لهم فيه لذة، فيكون بذلك غير مناف للثواب الحاصل لهم. وبهذا الوجه نجيب عن قول من يقول: أليس زبانية النار يعالجون أهل العذاب في جهنم، أعادنا الله منها، وهل هذا إلا محض تكليف! لأننا نقول إنه يجوز أن يكون للزبانية في ذلك لذة عظيمة، فلا يثبت التكليف معها، كما لا يكون الإنسان مكلفاً في الدنيا بما يخلص إليه شهوته، ولا مشقة عليه فيه.

إن قيل: هذا الجواب ينبئ على أن معارف أهل الآخرة ضرورية، لأنكم أجبتكم عن مسألة الشكر، بأن الله تعالى يفعل المعارف في أهل الجنة، فدللوا على ذلك، بل يجب عليكم أن تدللوا أولاً على أن أهل الآخرة يعرفون الله تعالى. قيل: أما الدليل على أنهم يعرفونه تعالى، فإن المثاب لا بد أن يعلم وصول الثواب إليه على الوجه الذي استحقه، ولا يصح ذلك إلا مع المعرفة بالله تعالى، ليعلم أن ما فعله به هو الذي استحقه، والقول في المعاقب كالقول في المثاب.

وأيضاً فإن من شرط الثواب مقارنة التعظيم والتبجيل له من فاعل الثواب، لأن تعظيم غير فاعل الثواب لا يؤثر، والتعظيم لا يعلم إلا مع العلم بالقصد إلى التعظيم، ويستحيل أن يعلموا قصده تعالى، ولا يعلموه، والقول في العقاب وكون الاستحقاق والإهانة تقارنه تجري هذا الجرى.

فأما بيان أن هذه المعرفة ضرورية، فلأنها لو كانت من فعلهم، لكانت إما أن تقع عن نظر يتحرون فيه، أو يلجأون إليه، أو عن تذكر نظر، أو بأن يلجأوا إلى نفس المعرفة من غير تقدم نظر، والأول باطل، لأن ذلك تكليف وفيه مشقة، وقد بينا سقوط التكليف في الآخرة. ولا يجوز أن يلجأوا إلى النظر لأنهم لو ألتفتوا إلى النظر لكان ألتفتهم إلى المعرفة أولاً، وإلجأؤهم إلى المعرفة بمنع من إلجائهم إلى النظر، ولا يجوز وقوعها عند تذكر النظر، لأن المتذكر للنظر تعرض له الشبه، ويلزمه دفعها، وفي ذلك عود الأمر إلى التكليف، وليس معاينة الآيات بمنع عن وقوع الشبه، كما لم تمنع معاينة المعجزات والإعلام عن وقوعها، ولا يجوز أن يكون الإلجاء إلى المعرفة، لأن الإلجاء إلى أفعال القلوب لا يصح إلا من الله تعالى، فيجب أن يكون الملجأ إلى المعرفة عارفاً بهذه القضية، وفي ذلك استغناؤه بتقدم هذه المعرفة على الإلجاء إليها. إن قيل: إذا قلتم إنهم مضطرون إلى المعارف، فهل تقولون إنهم مضطرون إلى الأفعال؟

قيل: لا، لأنه تعالى قال: "وفاكهة مما يتخيرون" ولأن من تدبر ترغيبات القرآن في الجنة والثواب، علم قطعاً أن أهل الجنة غير مضطرين إلى أفعالهم، كما يضطر المرتعش إلى الرعشة.

إن قيل: فإذا كانوا غير مضطرين، فلم يمنعهم من وقوع القبيح منهم.

قيل: لأن الله تعالى قد خلق فيهم علماً بأنهم متى حاولوا القبيح منعوا منه وهذا يمنع من الإقدام على القبيح بطريق الإلجاء. ويمكن أيضاً أن يعلمهم استغناءهم بالحسن عن القبيح، مع ما في القبيح من المضرة، فيكونون ملجئين إلى ألا يفعلوا القبيح.

فأما قوله صلى الله عليه وسلم: "ولا ينجى بشيء كان لها" فمعناه أن أفعال المكلف التي يفعلها لأغراضه الدنيوية ليست طريقاً إلى النجاة في الآخرة، كمن ينفق ماله رياء الناس وليست طرق النجاة إلا بأفعال البر التي يقصد فيها وجه الله تعالى لا غير، وقد أوضح رضي الله عنه ذلك بقوله: فما أخذوه منها لها أخرجوا منه، وحوسبوا عليه، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه". فمثال الأول من يكتسب الأموال ويدخرها لملاذه، ومثال الثاني من يكسبها لينفقها في سبيل الخيرات والمعروف.

ثم قال رضي الله عنه: وإنما عند ذوي العقول كفيء الظل" إلى آخر الفصل: وإنما قال: كفيء الظل" لأن العرب تضيف الشيء إلى نفسه، قال تأبط شراً:

له كالى من قلب شيحان فانتك

إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل

ويمكن أن يقال: الظل أعم من الفيء، لأن الفيء لا يكون إلا بعد الزوال، وكل فيء ظل، وليس كل ظل فيء، فلما كان فيهما تغاير معنوي بهذا الاعتبار صحت الإضافة، والسايق: التام. وقلص، أي انقبض.

وقوله رضي الله عنه: بينا تراه، أصل بينا بين، فأشبع الفتحة، فصارت بينا على وزن فعلى ثم تقول بينما فتزيد ما والمعنى واحد تقول بينا نحن نرقبه أتاناً، أي بين أوقات رقبنا إياه أتاناً، والجميل تضاف إليها أسماء الزمان، كقولك: أتيتك زمن الحجاج أمير ثم حذفت المضاف الذي هو أوقات وولى الظرف الذي هو بين الجملة التي أقيمت مقام المضاف إليه، كقوله: "واسأل القرية".

وكان الأصمعي يخفض بينا إذا صلح في موضعه بين، وينشد بيت أبي ذؤيب، بالجر:

يوماً أتيج له جريء سلف

بيننا تعنقه الكماء وروغه

وغيره يرفع ما بعد بينا وبينما على الابتداء والخبر، وينشد هذا البيت على الرفع، وهذا المعنى متداول، قال الشاعر:

أظلت يسيراً ثم خفت فولت

ألا إنما الدنيا كظل غمامة

وقال آخر:

تدوم يوماً لمخلوق على حال

ظل الغمام، وأحلام المنام، فما

ومن خطبة في الاستعداد للموت

الأصل: فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، ابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحلوا فقد جد بكم، استعدوا للموت فقد أظلكم، وكونوا قوماً صريح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن يتزل به. وإن غاية تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة. وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار، لحري بسرعة الأوبة. وإن قادماً يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة.

فتزودوا في الدنيا ما تحززون به أنفسكم غداً، فاتقوا عبد ربه نصح نفسه، وقدم توبته، وكتب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها، ويعنيه التوبة ليسوفها، إذا هجمت منيته عليه أغفل ما يكون عنها.

فيا لها حسرة على ذي غفلة أن يكون غمره عليه حجة، وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية، ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة.

الشرح: بادرُوا آجالكم بأعمالكم، أي سابقوها وعاجلوها. البدار: العجلة، وابتاعوا الآخرة الباقية بالدنيا الفانية الزائلة. وقوله: فقد جد بكم أي حشتم على الرحيل يقال: جد الرحيل، وقد جد بفلان، إذا أزعج وحث على الرحيل، واستعوا للموت، يمكن أن يكون بمعنى أعدوا، فقد جاء استفعّل بمعنى أفعّل كقولهم: استجاب له، أي أجابه. ويمكن أن يكون بمعنى الطلب كما تقول: استطعم، أي طلب الطعام، فيكون بالاعتبار الأول، كأنه قال: أعدوا للموت عدة، وبمعنى الاعتبار الثاني كأنه قال: اطلبوا للموت عدة، وأظلكم: قرب منكم، كأنه ألقى عليهم ظله، وهذا من باب الإستعارة، والعبث: اللعب، أو ما لا غرض فيه، أو ما لا غرض صحيح فيه.

وقوله: ولم يترككم سدى، أي مهملين، وقوله: أن يتزل به موضعه رفع لأنه بدل من الموت، والغائب المشار إليه هو الموت.

ويحدوه الجديدان: يسوقه الليل والنهار، وقيل: الغائب هنا هو الإنسان يسوقه الجديدان إلى الدار التي هي داره الحقيقية، وهي الآخرة وهو في الدنيا غائب على الحقيقة عند داره التي خلق لها والأول أظهر.

وقوله: فتزودوا في الدنيا من الدنيا كلام فصيح لأن الأمر الذي به يتمكن المكلف من إحراز نفسه في الآخرة، إنما هو يكتسبه في الدنيا منها، وهو التقوى والإخلاص والإيمان.

والفاء في قوله: فاتقى عبد ربه لبيان ماهية الأمر الذي يحرز الإنسان به نفسه ولتفصيل أقسامه وأنواعه، كما تقول، فعل اليوم فلان أفعلاً جميلة فأعطى فلاناً، وصفح عن فلان، وفعل كذا. وقد روي: اتقى عبد ربه بلا فاء، بتقدير هلا، ومعناه التحضيض.

وقد روي ليسوفها بكسر الواو وفتحها والضمير في الرواية الأولى يرجع إلى نفسه، وقد تقدم ذكرها قبل بكلمات يسيرة. ويجوز أن يعني به: ليسوف التوبة، كأنه جعلها مخاطبة يقول لها: سوف أوقعك والتسويق أن يقول في نفسه: سوف أفعل وأكثر ما يستعمل للوعد الذي لا نجاز له. ومن روى بفتح الواو جعله فعل ما لم يسم فاعله، وتقديره: ويمنيه الشيطان التوبة، أي يجعلها في أمنيته ليكون مسوفاً إياها أي يعد من المسوفين المخدوعين.

وقوله: فيا لها حسرة، يجوز أن يكون نادى الحسرة، وفتح اللام على أصل نداء المدعو كقولك: يا للرجال، ويكون المعنى: هذا وقتك أيتها الحسرة فاحضري. ويجوز أن يكون المدعو غير الحسرة، كأنه قال: يا للرجال للحسرة! فتكون لامها مكسورة نحو الأصل لأنها المدعو إليه، إلا أنها لما كانت للضمير فتحت، أي أدعوكم أيها الرجال لتقضوا العجب من هذه الحسرة.

من مواعظ الحسن البصري

وهذا الكلام من مواعظ أمير المؤمنين البالغة ونحوه من كلام الحسن البصري ذكره شيخنا أبو عثمان في البيان والتبيين: ابن آدم، بع دنياك بآخرتك ترجمهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً، وإذا رأيت الناس في الخير فقاسمهم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه. البقاء ههنا قليل، والبقاء هناك طويل، أمتكم آخر الأمم وأنتم آخر أمتكم، وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون المعاينة! فكأن قد. هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحاليتها وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق. فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة! ألا إنه لا أمة بعد أمتكم، ولا نبي بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم. من رأى محمداً صلوات الله وسلامه عليه، فقد رآه غادياً راتحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة رفع له علم فسمما إليه، فالوحي الوحي. النجاء النجاء! على ماذا تعرجون! ذهب أمثالكم وأنتم ترذلون كل يوم، فما تنتظرون!.

إن الله بعث محمداً على علم منه، أختاره لنفسه، وبعثه برسالته، وأنزل إليه كتاب هو كان صفوته من خلقه، ورسوله إلى

عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض، فأثاه فيها قوتاً وبلغة، ثم قال: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"، فركن أقوام إلى غير عيشته، وسخطوا ما رضي له ربه، فأبعدهم وأسحقهم. يابن آدم، طأ الأرض بقدمك، فإنها عن قليل قيرك واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك رحم الله امرأ نظر فتفكر، وتفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر، وأبصر فأقصر فقد أبصر أقوام ولم يقصروا، ثم هلكوا فلم يدركوا ما طلبوا، ولا رجعوا إلى ما فارقوا.

يابن آدم، اذكر قوله عز وجل: "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً"، عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك.

خذوا صفوة الدنيا، ودعوا كدرها، ودعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم، ظهر الجفاء وقلت العلماء، وعفت السنة، وشاعت البدعة. لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة عين لكل مسلم، وجلاء الصدور ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم، أشفق منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها، وكانوا مما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها.

ما لي أسمع حسيباً ولا أرى أنيساً ذهب الناس، وبقي النسناس. لو تكاشفتهم ما تدافتم. تهدأتم الأطباق، ولم تتهادوا النصائح. أعدوا الجواب فإنكم مسؤولون. إن المؤمن من لا يأخذ دينه عن رأيه ولكن عن ربه. ألا إن الحق قد أجهد أهله، وحال بينهم وبين شهواتهم، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله، ورجا عقابته، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة، ولا يكره لقاء الله إلا مقيم على ما يسخطه. إن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتشهي، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال. وهذا كلام حسن وموعظة بالغة إلا أنه في الجزالة والفصاحة دون كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه بطبقات.

خطبتان لعمر بن عبد العزيز

ومن خطب عمر بن عبد العزيز:

إن لكل سفر زاداً لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة فكونوا كمن عاين ما أعد الله تعالى من ثوابه وعقابه، فرغبوا ورهبوا، ولا يطولن عليكم الأمر فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه، ولا يمسي بعد إصباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا. فكم رأينا وأنتم من كان بالدنيا مغترّاً فأصبح في حبال خطوبها ومناياها أسيراً وإنما تقرر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة، فأما من لا يبرأ من كلم إلا أصابه جراح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله أن أخبركم بما أنهى عنه نفسي، فتخيب صفقتي، وتظهر عورتي، وتبدو مسكنتي، في يوم يبدو فيه الغني والفقير، والموازين منصوبة، والجوارح ناطقة. لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، أو الأرض لانفطرت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار مترلة، وأنكم صائرون إلى أحدهما!.

ومن خطب عمر بن عبد العزيز: أيها الناس: إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يبين الله لكم فيه الحكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السموات

والأرض.

واعلموا أن الأمان لمن خاف الله، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباقي، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيسلبها بعدكم الباقون، حتى ترد إلى خير الوارثين ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه، وبلغ أجله، تغيبونه في صدع من الأرض ثم تدعونه غير ممهد ولا موسد، قد صرم الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب، وصار في التراب، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدم.

خطبة لابن نباتة

ومن خطب ابن نباتة الجيدة في ذكر الموت: أيها الناس، ما أسلس قياد من كان الموت جريده، وأبعد سداد من كان هواه أميره وأسرع فطام من كانت الدنيا ظفـره، وأمنع جناب من أضحت التقوى ظهيره! فاتقوا الله عباد الله حق تقواه، وراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، وتأهبوا لو ثبات المنون، فإنها كامنة في الحركات والسكون، بينما ترى المرء مسروراً بشبابه، مغروراً بإعجابه، مغموراً بسعة اكتسابه، مستوراً عما خلق له لما يغرى به، إذ أسعرت فيه الأسقام شهائهما، وكدرت له الأيام شراهما، وحومت عليه المنية عقوبهما، وأعلقت فيه ظفرها ونابها، فسرت فيه أوجاعه، وتنكرت عليه طباعه، وأظـل رحيله ووداعه وقل عنه منعه ودفاعه، فأصبح ذا بصر حائر، وقلب طائر، ونفس غابر، في قطب هلاك دائر، قد أيقن بمفارقة أهله ووطنه، وأذعن بانتزاع روحه عن بدنه، حتى إذا تحقق منه اليأس، وحل به المخذور والبأس، أوماً إلى خاص عواده، موصياً لهم بأصاغر أولاده، جزعاً عليهم من ظفر أعدائه وحساده والنفس بالسياق يجذب، والموت بالفراق يقرب، والعيون لهول مصرعه تسكب، والحامة عليه تعدد وتندب، حتى تجلى له ملك الموت من حجبه، فقضى فيه قضاء أمر ربه، فعافه الجليس، وأوحش معه الأنيس، وزود من ماله كفنا، وحمـر في الأرض بعمله مرهناً، وحيداً على كثرة الجيران، بعيداً على قرب المكان، مقيماً بين قوم كانوا فزالوا، وحات عليهم الحادثات فحالوا لا يخبرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأساً مرة، ولم يفقدوا من أعمالهم من ذرة، وآلى عليهم الدهر آلية برة، ألا يجعل لهم الدنيا كرة، كأنهم لم يكونوا للعيون قررة، ولم يعدوا في الأحياء مرة، أسكتهم الذي أنطقهم، وأبادهم الذي خلقهم وسيوجدهم كما خلقهم، ويجمعهم كما فرقهم، يوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الله الظالمين ل نار جهنم وقوداً: "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً".

ومن خطبة له في تنزيه الله وتقديسه

الأصل: الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات، ويصمه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام، وكل ظاهر غيره غير باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر.

لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على ند مثاور، ولا شريك مكاثر، ولا ضد منافر، ولكن خلأثق مربوبون، وعباد داخرون، لم يحلل في الأشياء فيقال: هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال: هو منها بائن.

لم يؤده خلق ما ابتداءً، ولا تدبير ما ذراً، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر فبرم، المأمول مع النقم، المرهوب مع النعم.

الشرح: يصم، بفتح الصاد، لأن الماضي صممت يا زيد، والصمم: فساد حاسة السمع، ويصمه بكسرهما، يحدث الصمم عنده، وأصممت زيداً.

والند: المثل والنظير. والمثاور: الموائب. والشريك المكاثر: المفتخر بالكثرة، وال ضد المنافر: المحاكم في الحسب، نافرت زيداً فنفرته، أي غلبته. ومربوبون: مملوكون وداخرون: ذليلون خاضعون. ولم ينأ: لم يبعد. ولم يؤده: لم يتعبه. وذراً: خلق، وولجت عليه الشبهة، بفتح اللام، أي دخلت. والمرهوب: المخوف.

فأما قوله: الذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً. فيمكن تفسيره على وجهين: أحدهما: أن معنى كونه أولاً أنه لم يزل موجوداً، ولا شيء من الأشياء بموجود أصلاً ومعنى كونه آخراً أنه باق لا يزال، وكل شيء من الأشياء يعدم عدماً محضاً حسب عدمه فيما مضى، وذاته سبحانه ذات يجب لها اجتماع استحقاق هذين الاعتبارين معاً في كل حال، فلا حال قط إلا ويصدق على ذاته أنه يجب كونها مستحقة للأولية والآخرة بالاعتبار المذكور استحقاقاً ذاتياً ضرورياً، وذلك الاستحقاق ليس على وجه وصف الترتيب، بل مع خلاف غيره من الموجودات الجسمانية، فإن غيره مما يبقى زمانين فصاعداً إذا نسبناه إلى ما يبقى دون زمان بقائه لم يكن استحقاقه الأولية والآخرة بالنسبة إليه على هذا الوصف، بل إما يكون استحقاقاً بالكلية، بأن يكون استحقاقاً قريباً، فيكون إنما يصدق عليه أحدهما، لأن الآخر لم يصدق عليها، ويكونا معاً يصدقان عليه مجتمعين غير مرتبين، لكن ليس ذلك لذات الموصوف بالأولية والآخرة، بل إنما ذلك الاستحقاق لأمر خارج عن ذاته.

الوجه الثاني: أن يريد بهذا الكلام أنه تعالى لا يجوز أن يكون مورداً للصفات المتعاقبة، على ما يذهب إليه قوم من أهل التوحيد؟ قالوا: لأنه واجب لذاته، والواجب لذاته واجب من جميع جهاته، إذ لو فرضنا جواز اتصافه بأمر جديد ثبوتي أو سلبى لقلنا: إن ذاته لا تكفي في تحققه، ولو قلنا ذلك لقلنا إن حصول ذلك الأمر، أو سلبه عنه، يتوقف على حصول أمر خارج عن ذاته، أو على عدم أمر خارج عن ذاته، فتكون ذاته لا محالة متوقفة على حضور ذلك الحصول أو السلب، والمتوقف على المتوقف على الغير متوقف على الغير، وكل متوقف على الغير ممكن، والواجب لا يكون ممكناً. فيكون معنى الكلام على هذا التفسير نفى كونه تعالى ذا صفة، بكونه أولاً وآخر، بل إنما المرجع بذلك إلى إضافات لا وجود لها في الأعيان، ولا يكون ذلك من أحوال ذاته الراجعة إليها كالعالمية ونحوها، لأن تلك أحوال ثابتة، ونحن إنما ننفي عنه بهذه الحجة الأحوال المتعاقبة.

وأما قوله: أو يكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً، فإن للباطن والظاهر تفسيراً على وجهين: أحدهما: أنه ظاهر بمعنى أن أدلة وجوده وأعلام ثبوته وإلهيته جلية واضحة، ومعنى كونه باطناً أنه غير مدرك بالحواس الظاهرة، بل بقوة أخرى باطنة،

وهي القوة العقلية.

وثانيهما: أنا نعي بالظاهر الغالب، يقال: ظهر فلان على بني فلان، أي غلبهم، ومعنى الباطل العالم، يقال: بطنت سر فلان، أي علمته، والقول في نفيه عنه سبحانه أن يكون ظاهراً قبل كونه باطناً، كالقول فيما تقدم من نفيه عنه سبحانه كونه أولاً قبل كونه آخراً.

وأما قوله: كل مسمى بالوحدة غيره قليل، فلأن الواحد أقل العدد، ومعنى كونه واحداً يبين ذلك، لأن معنى كونه واحداً إما نفي الثاني في الإلهية، أو كونه يستحيل عليها الانقسام، وعلى كلا التفسيرين يسلب عنها مفهوم القلة. هذا إذا فسرنا كلامه على التفسير الحقيقي، وإن فسرناه على قاعدة البلاغة وصناعة الخطابة، كان ظاهراً، لأن الناس يستحقرون القليل لقلته، ويستعظمون الكثير لكثرتة، قال الشاعر:

تجمعتم من كل أوب ووجهة على واحد لا زلتم قرن واحد

وأما قوله: وكل عزيز غيره ذليل فهو حق، لأن غيره من الملوك وإن كان عزيزاً فهو ذليل في قبضة القضاء والقدر، وهذا هو تفسير قوله: وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك.

وأما قوله: وكل عالم غيره متعلم فهو حق، لأنه سبحانه مفيض العلوم على النفوس، فهو المعلم الأول، جلت قدرته. وأما قوله: وكل قادر غيره يقدر ويعجز فهو حق، لأنه تعالى قادر لذاته، ويستحيل عليه العجز، وغيره قادر لأمر خارج عن ذاته، إما لقدرة، كما قاله قوم، أو لبنية وتركيب كما قاله قوم آخرون، والعجز على من عداه غير ممتنع، وعليه مستحيل. وأما قوله رضي الله عنه: وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات، ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها فحق، لأن كل ذي سمع من الأجسام يضعف سمعه عن إدراك خفي الأصوات، ويتأثر من شديدها، وقويها، لأنه يسمع بآلة جسمانية، والآلة الجسمانية ذات قوة متناهية واقفة عند حد محدود، والبارئ تعالى بخلاف ذلك.

واعلم أن أصحابنا اختلفوا في كونه تعالى مدركاً للمسموعات والمبصرات، فقال شيخنا أبو علي وأبو هاشم وأصحابهما: إن كونه مدركاً صفة زائدة على كونه عالماً، وقالوا: إنا نصف البارئ تعالى فيما لم يزل بأنه سميع بصير، ولا نصفه بأنه سامع مبصر، ومعنى كونه سامعاً مبصراً أنه مدرك للمسموعات والمبصرات.

وقال شيخنا أبو القاسم وأبو الحسين وأصحابهما: إن معنى كونه تعالى مدركاً، هو عالم بالمدركات ولا صفة زائدة على صفته بكونه عالماً، وهذا البحث مشروح في كتيبي الكلامية لتقرير الطريقين وفي شرح الغرر وغيرهما.

والقول في شرح قوله: وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان، ولطيف الأجسام، كالقول فيما تقدم في إدراك السمع.

وأما قوله: وكل ظاهر غيره غير باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر فحق، لأن كل ظاهر غيره على التفسير الأول فليس بباطن كالشمس والقمر وغيرهما من الألوان الظاهرة، فإنها ليست إنما تدرك بالقوة العقلية، بل بالحواس الظاهرة، وأما هو سبحانه فإنه أظهر وجوداً من الشمس، لكن ذلك الظهور لم يمكن إدراكه بالقوى الحاسة الظاهرة، بل بأمر آخر، إما خفي في باطن هذا الجسد، أو مفارق ليس في الجسد، ولا في جهة أخرى غير جهة الجسد.

وأما على التفسير الثاني، فلأن كل ملك ظاهر على رعيته أو على خصومه وقاهر لهم، ليس بعالم ببواطنهم، وليس مطلعاً على سرائرهم، والبارئ تعالى بخلاف ذلك، وإذا فهمت شرح القضية الأول، فهمت شرح الثانية، وهي قوله: وكل باطن غيره غير ظاهر.

اختلاف الفلاسفة والمجوس

والماتونية ومتكلمي الإسلام في خلق العالم

فأما قوله: لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطانه إلى قوله: عباد داخرون، فاعلم أن الناس اختلفوا في كمية خلقه تعالى للعالم ما هي؟ على أقوال: القول الأول: قول الفلاسفة: قال محمد بن زكريا الرازي عن أرسطاطاليس: إنه زعم أن العالم كان عن البارئ تعالى، لأن جوهره وذاته جوهر وذات مسخرة للمعدوم أن يكون مسخراً موجوداً.

قال: وزعم ابن قيس أن علة وجود العالم وجود البارئ.

قال: وعلى كلا القولين يكون العالم قديماً، أما على قول أرسطو فلأن جوهر ذات البارئ لما كان قديماً لم يزل، وجب أن يكون أثرها ومعلولها قديماً. وأما على قول ابن قيس فلأن البارئ موجود لم يزل، لأن وجوده من لوازم ذاته، فوجب أن يكون فيضه وأثره أيضاً لم يزل هكذا.

قال ابن زكريا: فأما الذي يقول أصحاب أرسطاطاليس الآن في زماننا، فهو أن العالم لم يجب عن الله سبحانه عن قصد ولا غرض، لأن كل من فعل فعلاً لغرض كان حصول ذلك الغرض له أولى من لا حصوله، فيكون كاملاً لحصول ذلك الغرض، وواجب الوجود لا يجوز أن يكون كاملاً بأمر خارج عن ذاته، لأن الكامل لا من ذاته ناقص من ذاته.

قالوا: لكن تمثل نظام العالم في علم واجب الوجود، يقتضي فيض ذلك النظام منه، قالوا: وهذا معنى قول الحكماء الأوائل: إن علمه تعالى فعلي لا انفعالي، وإن العلم على قسمين: أحدهما: ما يكون المعلوم سبباً له، والثاني ما يكون هو سبب المعلوم، مثال الأول أن نشاهد صورة فنعلمها، ومثال الثاني أن يتصور الصائغ أو النجار أو البناء كيفية العمل فيوقعه في الخارج على حسب ما تصوره.

قالوا: وعلمه تعالى من القسم الثاني، وهذا هو المعنى المعبر عنه بالعناية، وهو إحاطة علم الأول الحق سبحانه بالكل وبالواجب أن يكون عليه الكل، حتى يكون على أحسن النظام، وبأن ذلك واجب عن إحاطته به، فيكون الموجود وفق المعلوم من غير انبعاث قصد وطلب عن الأول الحق سبحانه، فعلمه تعالى بكيفية الصواب في ترتيب الكل هو المنبع لفيض الوجود في الكل.

القول الثاني: قول حكاة أبو القاسم البلخي عن قدماء الفلاسفة، وإليه كان يذهب محمد بن زكريا الرازي من المتأخرين. وهو أن علة خلق البارئ للعالم تنبيه النفس على أن ما تراه من الهوى وتريده ممكن لتفرض محبتها إياهما وعشقها لهما، وتعود إلى عالمها الأول غير مشتاقة إلى هذا العالم.

واعلم أن هذا القول هو القول المحكي عن الحرنانية أصحاب القدماء الخمسة، وحقيقة مذهبهم إثبات قدماء خمسة: اثنان منهم حيان فاعلان، وهما البارئ تعالى والنفس، ومرادهم بالنفس ذات هي مبدأ لسائر النفوس التي في العالم كالأرواح البشرية، والقوى النباتية والنفوس الفلكية، ويسمون هذه الذات النفس الكلية. وواحد من الخمسة منفعل غير حي، وهو الهيولى، واثنان لا حيان ولا فاعلان ولا منفعلان، وهما الدهر والقضاء. قالوا: والبارئ تعالى هو مبدأ العلوم والمنفعلات، وهو قائم العلم والحكمة، كما أن النفس مبدأ الأرواح والنفوس، العلوم والمنفعلات تفيض من البارئ سبحانه فيض النور عن قرص الشمس، والنفوس والأرواح تفيض عن النفس الكلية فيض النور عن القرص، إلا أن النفوس جاهلة لا تعرف الأشياء إلا على أحد وجهين: إما أن يفيض فيض البارئ تعالى عليها تعقلاً وإدراكاً، وإما أن تمارس غيرها وتمازجه، فتعرف ما تعرف باعتبار الممارسة والمخالطة معرفة ناقصة، وكان البارئ تعالى في الأزل عالماً بأن النفس تميل إلى التعلق بالهيولى وتعشقها، وتطلب اللذة الجسمانية، وتكره مفارقة الأجسام، وتنسى نفسها، ولما كان البارئ سبحانه قائم العلم والحكمة، اقتضت حكمته تركيب الهيولى لما تعلق النفس بها ضرورياً مختلفة من التراكيب، فجعل منها أفلاكاً وعناصر وحيوانات ونباتات، فأفاض على النفوس تعقلاً وشعوراً جعله سبباً لتذكرها عالمها الأول، ومعرفتها أنها ما دامت في هذا العالم مخالطة للهيولى لم تنفك عن الآلام، فيصير ذلك مقتضياً شوقها إلى عالمها الأول الذي لها فيه اللذات الخالية عن الآلام، ورفضها هذا العالم الذي هو سبب أذاها ومضرقتها.

القول الثالث: قول الجحوس: إن الغرض من خلق العالم أن يتحصن الخالق جل اسمه من العدو، وأن يجعل العالم شبكة له ليوقع العدو فيه، ويجعله في ربط ووثاق، والعدو عندهم هو الشيطان، وبعضهم يعتقد قدمه، وبعضهم حدوثه. قال قوم منهم: إن البارئ تعالى استوحش، ففكر فكرة رديئة، فتولد منها الشيطان، وقال آخرون: بل شك شكاً رديئاً، فتولد الشيطان من شكه.

وقال آخرون: بل تولد من عفونة رديئة قديمة، وزعموا أن الشيطان حارب البارئ سبحانه، وكان في الظلم لم يزل بمعزل عن سلطان البارئ سبحانه، فلم يزل يزحف حتى رأى النور، فوثب وثبة عظيمة، فصار في سلطان الله تعالى في النور، وأدخل معه الآفات والبلايا والسرور، فبني الله سبحانه هذه الأفلاك والأرض والعناصر شبكة له، وهو فيها محبوس، لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه الأول، وصار في الظلمة، فهو أبداً يضطرب ويرمي الآفات على خلق الله سبحانه، فمن أحياء الله رماه الشيطان بالموت، ومن أصحه رماه الشيطان بالسقم، ومن سره رماه بالحزن والكآبة، فلا يزال كذلك، وكل يوم ينتقص سلطانه وقوته، لأن الله تعالى يحتال له كل يوم، ويضعفه إلى أن تذهب قوته كلها، وتحمى وتصير جماداً لا حراك به، فيضعه الله تعالى حينئذ في الجوى، والجوى عندهم هو الظلمة، ولا ينتهى له، فيصير في الجوى جماداً جامداً هوائياً، ويجمع الله تعالى أهل الأديان فيعذبهم بقدر ما يطهرهم، ويصفيهم من طاعة الشيطان، ويغسلهم من الأدناس، ثم يدخلهم الجنة، وهي حنة لا أكل فيها ولا شرب ولا تمتع، ولكنها موضع لذة وسرور.

القول الرابع: قول المانوية: وهو أن النور لا نهاية له من جهة فوق، وأما من جهة تحت فله نهاية، والظلمة لا نهاية لها من جهة أسفل، وأما من جهة فوق فلها نهاية، وكان النور والظلمة هكذا قبل خلق العالم وبينهما فرجة، وأن بعض أجزاء

النور اقتحم تلك الفرجة لينظر إلى الظلمة، فأسرته الظلمة، فأقبل عالم كثير من النور، فحارب الظلمة ليستخلص المأسورين من تلك الأجزاء، وطالت الحرب، واختلط كثير من أجزاء النور بكثير من أجزاء الظلمة، فاقتضت حكمة نور الأنوار وهو البارئ سبحانه عندهم أن عمل الأرض من لحوم القتلى، والجبال من عظامهم، والبحار من صديدهم ودمائهم، والسماء من جلودهم، وخلق الشمس والقمر وسيرهما لاستقصاء ما في هذا العالم من أجزاء النور المختلطة بأجزاء الظلمة، وجعل حول هذا العالم خندقاً خارج الفلك الأعلى، يطرح فيه الظلام المستقصى، فهو لا يزال يزيد ويتضاعف ويكثر في هذا الخندق، وهو ظلام صرف قد استقصى نوره. وأما النور المستخلص فيلحق بعد الاستقصاء بعالم الأنوار من فوق، فلا تزال الأفلاك متحركة، والعالم مستمراً إلى أن يتم استقصاء النور المترج، وحينئذ يبقى من النور المترج شيء يسير، فينعقد بالظلمة، لا تقدر النيران على استقصائه، فعند ذلك تسقط الأجسام العالية وهي الأفلاك على الأجسام السافلة وهي الأرضون وتثور نار، وتضطرم في تلك الأسافل وهي المسماة بجهنم، ويكون الاضطرام مقدار ألف وأربعمائة سنة، فتحلل بتلك النار تلك الأجزاء المنعقدة من النور، المترجة بأجزاء الظلمة التي عجز الشمس والقمر عن استقصائها، فيرتفع إلى عالم الأنوار، ويبطل العالم حينئذ ويعود النور كله إلى حاله الأولى قبل الامتزاج، فكذلك الظلمة. القول الخامس: قول متكلمي الإسلام، وهو على وجوه: أولها قول جمهور أصحابنا. إن الله تعالى إنما خلق العالم للإحسان إليهم والإنعام على الحيوان، لأن خلقه حياً نعمة عليه، لأن حقيقة النعمة موجودة فيه، وذلك أن النعمة هي المنفعة المفعولة للإحسان، ووجود الجسم حياً منفعة مفعولة للإحسان، أما بيان كون ذلك منفعة، فلأن المنفعة هي اللذة والسرور ودفع المضار المخوفة، وما أدى إلى ذلك وصححه، ألا ترى أن من أشرف على أن يهوي من جبل، فمنعه بعض الناس من ذلك، فإنه يكون منعماً عليه، ومن سر غيره بأمر، وأوصل إليه لذة، يكون قد أنعم عليه، ومن دفع إلى غيره مალأ يكون قد أنعم عليه، لأنه قد مكنته بدفعه إليه من الانتفاع، وصححه له. ولا ريب أن وجودنا أحياء يصحح لنا اللذات، ويمكننا منها، لأننا لو لم نكن أحياء لم يصح ذلك فينا. قالوا: وإنما قلنا إن هذه المنفعة مفعولة للإحسان، لأننا إما أن تكون مفعولة لا لغرض أو لغرض، والأول باطل، لأن ما يفعل لا لغرض عبث، والبارئ سبحانه لا يصح أن تكون أفعاله عبثاً، لأنه حكيم.

وأما الثاني، فإما أن يكون ذلك الغرض عائداً عليه سبحانه بنفع أو دفع ضرر، أو يعود على غيره. والأول باطل، لأنه غني لذاته، يستحيل عليه المنافع والمضار ولا يجوز أن يفعله لمضرة يوصلها إلى غيره، لأن القصد إما الإضرار بالحيوان من غير استحقاق ولا منفعة يوصل إليها بالمضرة قبيح، تعالى الله عنه فثبت أنه سبحانه إنما خلق الحيوان لنفعه، وأما غير الحيوان فلو لم يفعله لينفع به الحيوان، لكان خلقه عبثاً، والبارئ تعالى لا يجوز عليه العبث، فإذا جميع ما في العالم إنما خلقه لينفع به الحيوان.

فهذا هو الكلام في علة خلق العالم عندهم، وأما الكلام في وجه حسن تكليف الإنسان، فذاك مقام آخر لسنا الآن في بيانه ولا الحاجة داعية إليه.

وثانيها: قول قوم من أصحابنا البغداديين: إنه خلق الخلق، ليظهر به لأرباب العقول صفاته الحميدة، وقدرته على كل

ممکن، وعلمه بكل معلوم، وما يستحقه من الثناء والحمد. قالوا: وقد ورد الخبر أنه تعالى قال: "كنت كثيراً لا أعرف، فأحببت أن أعرف" وهذا القول ليس بعيداً.

وثالثها: للمجبرة: إنه خلق الخلق لا لغرض أصلاً، ولا يقال: لم كان كل شيء لعله، ولا علة لفعله، ومذهب الأشعري وأصحابه أن إرادته القديمة تعلقت بإيجاد العالم في الحال التي وجد فيها لذاتها ولا لغرض ولا لداع، وما كان يجوز ألا يوجد العالم حيث وجد، لأن الإرادة القديمة، لا يجوز أن تتقلب وتتغير حقيقتها، وكذلك القول عندهم غي أجزاء العالم المجددة من الحركات والسكنات، والأجسام وسائر الأعراض.

ورابعها: قول بعض المتكلمين: إن الباري تعالى إنما فعل العالم لأنه ملتذ بأن يفعل، وأجاز أرباب هذا القول عليه اللذة والسرور والابتهاج. قالوا: والباري سبحانه وإن كان قبل أن يخلق العالم ملتذاً بكونه قادراً على خلق العالم إلا أن لذة الفعل أقوى من لذة القدرة على الفعل، كأن يلتذ بأنه قادر على أن يكتب خطأ مستحسناً، أو يبي بيتاً محكماً، فإلهذا أخرج تلك الصناعة من القوة إلى الفعل، كانت لذته أتم وأعظم. قالوا: ولم يثبت بالدليل العقلي استحالة اللذة عليه، وقد ورد في الآثار النبوية أن الله تعالى يسر واتفقت الفلاسفة على أنه ملتذ بذاته وكماله.

وعندي في هذا القول نظر ولي في اللذة والألم رسالة مفردة، وأما قوله: لم يحلل في الأشياء، فيقال: لا هو فيها كائن ولا منها مبين، فينبغي أن يحمل على أنه أراد أنه لم ينأ عن الأشياء نأياً مكانياً فيقال: هو بائن بالمكان، هكذا ينبغي أن يكون مراده، لأنه لا يجوز إطلاق القول بأنه ليس ببائن عن الأشياء، وكيف والمجرد بالضرورة بائن عن ذي الوضع، ولكنها بينونة بالذات لا بالجهة، والمسلمون كلهم متفقون على أنه تعالى يستحيل أن يحل في شيء إلا من اعتزى إلى الإسلام من الحلولية، كالذين قالوا بحلوله في علي وولده، وكالذين قالوا بحلوله في أشخاص يعتقدون فيها إظهاره كالحلاجية وغيرهم، والدليل على استحالة حلوله سبحانه في الأجسام، أنه لو صح أن يحل فيها لم يعقل منفرداً بنفسه أبداً، كما أن السواد لا يعقل كونه غير حال في الجسم، لأنه لو يعقل غير حال في الجسم لم يكن سواداً، ولا يجوز أن يكون الله تعالى حالاً أبداً، ولا أن يلاقي الجسم، إذ ذلك يستلزم قدم الأجسام، وقد ثبت أنها حادثة.

فأما قوله: لم يؤده خلق ما ابتداء إلى قوله: عما خلق فهو حق، لأنه تعالى قادر لذاته، والقادر لذاته لا يتعب ولا يعجز، لأنه ليس بجسم، ولا قادر بقدرة يقف مقدورها عند حد وغاية، بل إنما يقدر على شيء لأنه تعالى ذات مخصوصة، يجب لها أن تقدر على الممكنات، فيكون كل ممكن داخلاً تحت هذه القضية الكلية، والذات التي تكون هكذا لا تعجز ولا تقف مقدوراتها عند حد وغاية أصلاً، ويستحيل عليها التعب، لأنها ليست ذات أعضاء وأجزاء.

وأما قوله: ولا ولجت عليه شبهة إلى قوله: وأمر مبرم فحق، لأنه تعالى عالم لذاته، أي إنما علم ما علمه لا بمعنى أن يتعلق بمعلوم دون معلوم، بل إنما علم أي شيء أشرت إليه، لأنه ذات مخصوصة، ونسبة تلك الذات إلى غير ذلك الشيء المشار إليه، كنسبتها إلى المشار إليه، فكانت عالمة بكل معلوم، واستحال دخول الشبهة عليها فيما يقضيه ويقدره.

وأما قوله: المأمول مع النقم، المرهوب مع النعم فمعنى لطيف، وإليه وقعت الإشارة بقوله تعالى: "أفامن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون"، وقوله سبحانه: "نسنتدرجهم من

حيث لا يعلمون"، وقوله تعالى: "فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً"، وقوله سبحانه: "فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً" وإليه نظر الشاعر في قوله: من عاش لاقى مايسوء من الأمور وما يسر

ولرب حتف فوقه

ذهب وياقوت ودر

وقال البحتري:

يسرك الشيء قد يسوء وكم

نوه يوماً بخامل لقيه

لا يبئس المرء أن ينجي

ما يحسب الناس أنه عطبه

وقال آخر:

رب غم يدب تحت سرور

وسرور يأتي من المحذور

وقال سعيد بن حميد:

كم نعمة مطوية

لك بين أثناء النوائب

ومسرة قد أقبلت

من حيث تنتظر المصائب

وقال آخر:

أنتظر الروح وأسبابه

أيئس ما كنت من الروح

وقال آخر:

ربما تجزع النفوس من الأمر

له فرجة كحل العقال

وقال آخر:

العسر أكرمه ليس بعده

ولأجل عين ألف عين تكرم

والمرء يكره يومه ولعله

يأتيه فيه سعادة لا تعلم

وقال الحلاج:

ولربما هاج الكبير من

الأمر لك الصغير

ولرب أمر قد تضي

ق به الصدور ولا يصير

وقال آخر:

يا راقد الليل مسروراً بأوله

إن الحوادث قد يطرقن أسحاراً

وقال آخر:

كم مرة حفت بك المكاره

خار لك الله وأنت كاره

ومن شعري الذي أناجي به البارئ سبحانه في خلواتي، وهو فن أطويه وأكتمه عن الناس، وإنما ذكرت بعضه في هذا الموضوع، لأن المعنى ساق إليه، والحديث ذو شجون:

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

يا من جفاني فوجدي بعده عدم
أنا المرابط دون الناس فاجف وصل
إن المحب إذا صحت محبته
وحق فضلك ما استيأست من نعم
ولا أمنت نكالا منك أرهبه
حاشاك تعرض عمن في حشاشته
ألم تقل إن من يدنو إلي قدر الذ
والله والله لو عاقبتني حقبا
ما حلت عن حبك الباقي فليس على
هربي أسأت فأين العفو والكرم
وأقبل وعاقب وحاسب لست أنهزم
فما لوقع المواضي عنده ألم
تسري إلي وإن حلت بي النقم
وإن ترادفت الآلاء والنعم
نار لحبك طول الدهر تضطرم
راع أدنو له باعاً وأبتسم
بالنار تأكلني حطماً وتلتهم
حال بمنصرم، والدهر ينصرم

كان يقول لأصحابه في بعض أيام صفين

الأصل: معاشر المسلمين، استشعروا الخشية، وتجليبوا السكينة، وعضوا على النواجذ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام. وأكملوا الأمانة، وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلها. والحظوا الخزر، وأطعنوا الشزر، ونافخوا بالظبا، وسلوا السيوف بالخطا.

واعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله. فعاودوا الكر، واستحيوا من الفر، فإنه عار في الأعقاب، ونار يوم الحساب. وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وأمشوا إلى الموت مشياً سحجاً، وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطنب، فاضربوا ثبجه، فإن الشيطان كامن في كسره، وقد قدم للوثبة يداً، وآخر للنكوص رجلاً فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق، وأنتم الأعلون، والله معكم ولن يتركم أعمالكم.

الشرح: قوله: استشعروا الخشية، أي اجعلوا الخوف من الله تعالى من شعاركم، والشعار من الثياب: ما يكون دون الدثار، وهو يلي الجلد، وهو ألصق ثياب الجسد، وهذه استعارة حسنة، والمراد بذلك أمرهم بملازمة الخشية والتقوى، كما أن الجلد يلزم الشعار.

قوله: وتجليبوا السكينة أي اجعلوا السكينة والحلم والوقار جلباباً لكم، والجلباب الثوب المشتمل على البدن.

قوله: وعضوا على النواجذ جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ في كل شق، والنواجذ بعد الأرحاء، ويسمى الناجذ ضرس الحلم، لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل، ويقال: إن العاض على نواجذه ينبو السيف عن هامته نبواً ما، وهذا مما يساعد التعليل الطبيعي عليه، وذلك أنه إذا عض على نواجذه تصلبت الأعصاب والعضلات المتصلة بدماعه، وزال عنها الاسترخاء، فكانت على مقاومة السيف أقدر، وكان تأثير السيف فيها أقل.

وقوله: فإنه أنبى، الضمير راجع إلى المصدر الذي دل الفعل عليه، تقديره: فإن العاض أنبى، كقولهم: من فعل خيراً كان له

خيراً، أي كان فعله خيراً، وأنبى أفعّل، من نبا السيف، إذا لم يقطع.
قال الراوندي: هذا كلام ليس على حقيقته، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلب وترك اضطرابه واستيلاء الرعدة عليه،
إلى أن قال: ذلك أشد إبعاداً لسيف العدو عن هامتكم.

قوله: وأكملوا اللأمة، اللأمة، بالهمزة: الدرع، والهمزة ساكنة على فعلة، مثل النأمة للصوت، وإكمالها أن يزداد عليها
البيضة والسواعد ونحوها، ويجوز أن يعبر بالألأمة عن جميع أداة الحرب، كالدرع والرمح والسيف، يريد: أكملوا السلاح
الذي تحاربون العدو به.

قوله: وقلقلوا السيوف في أعمادها قبل سلها، يوم الحرب، لئلا يدوم مكثها في الأجفان فتلحج فيها فيستصعب سلها
وقت الحاجة إليها.

وقوله: والحظوا الخزر، الخزر أن ينظر الإنسان بعينه، وكأنه ينظر بمؤخرها وهي أمانة الغضب، والذي أعرفه الخزر
بالتحريك، قال الشاعر:

ثم كسرت العين وما بي من عور

أحمل ما حملت من خير وشر

إذا تخازرت وما بي من خزر

ألفيتني ألوى بعيد المستمر

فإن كان قد جاء مسكناً فتسكينه جائر للسجعة الثانية، وهي قوله. واطعنوا الشزر. والطنع شزراً، هو الطعن عن اليمين
والشمال، ولا يسمى الطعن تجاه الإنسان شزراً. وأكثر ما تستعمل لفظة الشزر في الطعن، لما كان عن اليمين خاصة،
وكذلك إدارة الرحا. وخزراً وشزراً، صفتان لمصدرين محذوفين، تقديره: الحظوا لحظاً خزراً، واطعنوا طعناً شزراً، وعين
اطعنوا مضمومة، يقال: طعنت بالرمح أطنع، بالضم، وطعنت في نسبه أطنع، بالفتح، أي قدحت، قال:

ويطعن بالصملة في قفيا

يطوف بي عكب في معد

قوله: نافحوا بالظبا أي ضاربوا نفحة بالسيف، أي ضربة، ونفحت الناقة برجلها، أي ضربت. والظبا: جمع ظبة، وهي
طرف السيف.

قوله: وصلوا السيوف بالخطا مثل قول الشاعر:

خطانا إلى أعدائنا فنضارب

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها

قالوا: بكسر نضارب لأنه معطوف على موضع جزاء الشرط، الذي هو إذا. وقال آخر:

يوماً ونلحقها إذا لم تلحق

نصل السيوف إذ قصرن بخطونا

وأنشدني شيخنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله العكبري، ولم يسم قائله، ووجدته بعد لنابعة بني الحارث بن كعب:

يسمو إلى قحم العلا أدنانا

إن تسألني عنا سمي فإنه

ترضى ويأخذ حقه مولانا

وتبيت جارتنا حصاناً عفة

لوصاة والدنا الذي أوصانا

ونقوم إن طرق المنون بسحرة

حتى تدور رحاهم ورحانا
مرداً وما وصل الوجوه لحانا
حتى تناول ما نريد خطانا

ألا نفر إذا الكتيبة أقبلت
وتعيش في أحلامنا أشياخنا
وإذا السيوف قصرن طولها لنا

وقال حميد بن ثور الهلالي:

به معقل إلا الرماح الشواجر
إذا ظن أن المرء ذا السيف قاصر

إلى أن نزلنا بالفضاء وما لنا
ووصل الخطا بالسيف والسيف بالخطا

وهذه الأبيات من قطعة لحמיד جيدة، ومن جملتها:

برشد وفي بعض الهوى ما يحاذر
إلى الجور لا أنقاد، والإلف جائر
أموراً وأخشى أن تدور الدوائر
من الدهر مكشوف غطائي فناظر

قضى الله في بعض المكاره للفتى
ألم تعلمي أنني إذا الإلف قاذني
وقد كنت في بعض الصباوة أتقي
وأعلم أنني إن تغطيت مرة

ومن المعنى الذي نحن في ذكره، ما روي أن رجلاً من الأزد، رفع إلى المهلب سيفاً له فقال: يا عم، كيف ترى سيفي هذا فقال: إنه لجيد لولا أنه قصير قال: أطوله يا عم بخطوتي، فقال: والله يابن أخي، إن المشي إلى الصين أو إلى أذربيجان على أنياب الأفاعي أسهل من تلك الخطوة، ولم يقل المهلب ذلك جبناً، بل قال ما توجهه الصورة إذ كانت تلك الخطوة قريبة للموت، قال أبو سعد المخزومي في هذا المعنى:

على الأرض مسبل الطيلسان
وألوف نقدتهن لجاني
فلم تتكر الكماة مكاني
طولته إلى العدو بناني

رب نار رفعتها ودجى الليل
وأمون نحرتها لضيوف
وحروب شهدتها جامع القلب
وإذا ما الحسام كان قصيراً

من الناس من يرويها في ديوانه لجاني بالجم، أي حملت الحمالة عنه، ومنهم من يرويها بالحاء، يعني الخمار. ومن المعنى المذكور أولاً قول بعض الشعراء، يمدح صخر بن عمرو بن الشريد الأسلمي.

يد له فخاز لا يرام
وندى إذا بخل الغمام
في الروع إن قصر الحسام

إن ابن عمرو بن الشر
وحجاً إذا عدم الحجا
يصل الحسام بخطوه

ومثله قول الراجز:

خطوا ترى منه المنايا تبتدر

يخطو إذا ما قصر العضب الذكر

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

ومثله:

وإنما لقوم ما نرى القتل سبة
إذا ما رآته عامر وسلول
يقصر ذكر الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول

ومنها:

وإن قصرت أسيافنا كان وصلها
خطانا إلى أعدائنا فتطول

ومثله قول وداك بن ثميل المازني:

مقاديم وصالون في الروع خطوهم
بكل رقيق الشفرتين يمانى
إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم
لأية حرب أم بأي مكان

وقال آخر:

إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم
حد السيوف وصلناها بأيدينا

وقال آخر:

وصلنا الرقاق المرهفات بخطونا
على الهول حتى أمكنتنا المضارب

وقال بعض الرجاز:

الطاعنون في النحور والكلى
والواصلون للسيوف بالخطا

قوله رضي الله عنه: واعلموا أنكم بعين الله أي يراكم ويعلم أعمالكم، والباء ههنا كالباء في قوله: أنت بمأى مني ومسمع، قوله: فعاودوا الكر أي إذا كررت على العدو كرة فلا تقتصروا عليها، بل كروا كرة أخرى بعدها، ثم قال لهم: واستحيوا من الفرار، فإنه عار في الأعقاب، أي في الأولاد، فإن الأبناء يعيرون بفرار الآباء. ويجوز أن يريد بالأعقاب جمع عقب، وهو العاقبة وما يؤول إليه الأمر، قال سبحانه: "خير ثواباً وخير عقباً"، أي خير عاقبة، فيعني على هذا الوجه أن الفرار عار في عاقبة أمركم، وما يتحدث به الناس في مستقبل الزمان عنكم.

ثم قال: ونار يوم الحساب، لأن الفرار من الزحف ذنب عظيم، وهو عند أصحابنا المعتزلة من الكبائر، قال الله تعالى: "ومن يولهم يومئذ دبرة إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم"، والجهاد بين يدي الإمام، كالجهاد بين يدي الرسول قوله رضي الله عنه: وطيبوا عن أنفسكم نفساً، لما نصب نفساً على التمييز وحده، لأن التمييز لا يكون إلا واحداً، وإن كان في معنى الجمع، تقول: انعموا بالاً، ولا تضيقوا ذرعاً وأبقى الأنفس على جمعها لما لم يكن به حاجة إلى توحيدها، يقول: وطنوا أنفسكم على الموت ولا تكرهوه، وهونوه عليكم، تقول: طبت عن مالي نفساً، إذا هونت ذهابه.

وقوله: وامشوا إلى الموت مشياً سحجاً أي سهلاً، والسجاجة: السهولة، يقال: في أخلاق فلان سجاجة، ومن رواه سمحاً أراد سهلاً أيضاً. والسواد الأعظم، يعني به جمهور أهل الشام.

قوله: والرواق المطنب، يريد به مضرب معاوية ذا الأطناب، وكان معاوية في مضرب عليه قبة عالية، وحوله صناديد أهل الشام. وثبجه: وسطه، وثبج الإنسان: ما بين كاهله إلى ظهره.

والكسر: جانب الخباء. وقوله: فإن الشيطان كامن في كسره، يحتمل وجهين، أحدهما: أن يعني به الشيطان الحقيقي، وهو إبليس، والثاني: أن يعني به معاوية. والثاني هو الأظهر للقرينة التي تؤيده، وهي قوله: قد قدم للوثبة يداً، وآخر للنكوص رجلاً، أي إن جبتكم وثب، وإن شجعتكم نكص، أي تأخر وفر، ومن حملة على الوجه الأول جعله من باب المجاز، أي أن إبليس كالإنسان الذي يعتوره دواع مختلفة بحسب المتجددات، فإن أنتم صدقتم عدوكم القتال فر عنكم بفرار عدوكم، وإن تخاذلتم وتواكلتم طمع فيكم بطمعه، وأقدم عليكم بإقدامه.

وقوله رضي الله عنه: فصمداً صمداً أي اصمدوا صمداً، صمداً، صمدت لفلان أي قصدت له. وقوله: حتى ينجلي لكم عمود الحق، أي يسطع نوره وضوءه، وهذا من باب الاستعارة، والواو في قوله: وأنتم الأعلون واو الحال.

ولن يترككم أعمالكم، أي لن ينقصكم، وههنا مضاف محذوف تقديره: جزاء أعمالكم، وهو من كلام الله تعالى رصع به خطبته، رضي الله عنه: وهذا الكلام خطب به أمير المؤمنين رضي الله عنه في اليوم الذي كانت عشيته ليلة الحرير في كثير من الروايات، وفي رواية نصر بن مزاحم أنه خطب به في أول أيام اللقاء والحرب بصفين، وذلك في صفر من سنة سبع وثلاثين.

وقعة صفين

قال نصر: كان علي رضي الله عنه يركب بغلة له يستلذها، قبل أن تلتقي الفئتان بصفين، فلما حضرت الحرب وبات تلك الليلة يعي الكتائب حتى أصبح قال: اتوني بفرس، فأتي بفرس له ذنوب أدهم، يقاد بشطنين، يبحث الأرض بيديه جميعاً، له حممة وصهيل، فركبه، وقال: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين"، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر الجعفي، قال: كان علي رضي الله عنه إذا سار إلى قتال، ذكر اسم الله قبل أن يركب، كان يقول: الحمد لله على نعمه علينا وفضله: "سبحان الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون" ثم يستقبل القبلة، ويرفع يديه إلى السماء ويقول: اللهم إليك نقلت الأقدام، وأتعبت الأبدان، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وشخصت الأبصار: "ربنا أفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين"، ثم يقول: سيروا على بركة الله، ثم يقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، يا الله يا أحد يا صمد، يا رب محمد، أكفف عنا بأس الظالمين: "الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين"، بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال: وكانت هذه الكلمات شعاره بصفين.

قال: وروى سعد بن طريف، عن الأصمغ بن نباتة، قال: ما كان علي رضي الله عنه في قتال إلا نادى: يا كهيص.

نصر: وحدثنا قيس بن الربيع، عن عبد الواحد بن حسان العجلي، عن حدثه أنه سمع علياً رضي الله عنه يقول يوم لقائه أهل الشام بصفين: اللهم إليك رفعت الأبصار، وبسطت الأيدي، ونقلت الأقدام، ودعت الألسن، وأفضت القلوب، وتحوكم إليك في الأعمال، فاحكم بيننا وبينهم بالحق، وأنت خير الفاتحين. اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا، وقلة عددنا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، وشدد الزمان، وظهور الفتن، فأعنا على ذلك بفتح منك تعجله، ونصر تعز به سلطان الحق وتظهره.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن سلام بن سويد، عن علي رضي الله عنه في قوله: وألزمهم كلمة التقوى، قال: هي لا إله إلا الله، وفي قوله: الله أكبر قال: هي آية النصر.

قال سلام: كانت شعاره رضي الله عنه يقولها في الحرب، ثم يحمل فيورد والله من اتبعه ومن حاده حياض الموت. قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه قال: لما كان غداة الخميس لسبع خلون من صفر من سنة سبع وثلاثين، صك علي رضي الله عنه الغداة فغلس، ما رأيت علياً غلس بالغداة أشد من تغليسه يومئذ. وخرج بالناس إلى أهل الشام، فزحف نحوهم، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم، فإذا رأوه قد زحف استقبلوه بزحوفهم.

قال نصر: فحدثني عمر بن سعد، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، قال: لما خرج علي رضي الله عنه إليهم غداة ذلك اليوم فاستقبلوه، رفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم رب هذا السقف المحفوظ المكفوف، الذي جعلته محيطاً بالليل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر، ومنازل الكواكب والنجوم، وجعلت سكانه سبطاً من الملائكة لا يسأمون العبادة، ورب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام، وما لا يحصى مما يرى ومما لا يرى، من خلقك العظيم، ورب الفلك التي تجري في البحر المحيط بما ينفع الناس، ورب السحاب المسخر بين السماء والأرض، ورب البحر المسجور، المحيط بالعالمين، ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق متاعاً، إن أظهرتنا على عدونا، فجنبنا البغي، وسددنا للحق. وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة، واعصم بقية أصحابي من الفتنة.

قال: فلما رأوه قد أقبل تقدموا إليه بزحوفهم، وكان علي رضي الله عنه يومئذ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقراء العراق مع ثلاثة نفر: عمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن بديل، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعلي رضي الله عنه في القلب في أهل المدينة، جمهورهم الأنصار، ومعه من خزاعة ومن كنانة عدد حسن.

قال نصر: وكان علي رضي الله عنه رجلاً ربعة، أدعج العينين، كأن وجهه القمر ليلة البدر حسناً، ضخيم البطن، عريض المسربة، شثن الكفين، ضخيم الكسور، كأن عنقه إبريق فضة، أصلع من خلفه شعر خفيف، لمنكبه مشاش كمشاش الأسد الضاري، إذا مشى تكفاً ومار به جسده، ولظهره سنام كسنام الثور لا يبين عضده من ساعده قد أدبجت إدماجاً، لم يمسك بذراع رجل قط إلا أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس، ولونه إلى سمرة ما، وهو أذلف الأنف، إذا مشى إلى الحرب هرول، قد أيده الله تعالى في حروبه بالنصر والظفر.

قال نصر: ورفع معاوية قبة عظيمة، وألقى عليها الكرابيس، وجلس تحتها.

قال نصر: وقد كان لهم قبل هذا اليوم أيام ثلاثة، وهي الرابع من صفر هذا، واليوم الخامس، واليوم السادس، كانت فيها مناوشات وقتال، ليس بذلك الكثير، فأما اليوم الرابع، فإن محمد بن الحنفية رضي الله عنه، خرج في جمع من أهل العراق، فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمع من أهل الشام، فاقتتلوا. ثم إن عبيد الله بن عمر أرسل إلى محمد بن الحنفية: أن اخرج إلي أبارزك، فقال: نعم، ثم خرج إليه، فبصر بهما علي رضي الله عنه، فقال: من هذان المتبارزان، قيل: محمد بن الحنفية وعبيد الله بن عمر، فحرك دابته، ثم دعا محمداً إليه، فجاءه فقال: أمسك دابتي، فأمسكها، فمضى راجلاً بيده سيفه نحو عبيد الله، وقال له: أنا أبارزك، فهل لي، فقال عبيد الله: لا حاجة بي إلى مبارزتك، قال: بلى، فهل لي، قال: لا أبارزك، ثم رجع إلى صفه، فرجع علي رضي الله عنه فقال ابن الحنفية: يا أبت لم منعني من مبارزته، فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله قال: يا بني، لو بارزته أنا لقتلته، ولو بارزته أنت لرجوت لك أن تقتله، وما كنت آمن أن يقتلك، قال: يا أبت أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدو الله والله لو أبوه يسألك المبارزة لرغبت بك عنه، فقال: يا بني لا تذكر أباه، ولا تقل فيه إلا خيراً، رحم الله أباه.

قال نصر: وأما اليوم الخامس، فإنه خرج فيه عبد الله بن العباس، فخرج إليه الوليد بن عقبة، فأكثر من سب بني عبد المطلب، وقال: يا بن عباس: قطعتم أرحامكم، وقتلتم إمامكم، فكيف رأيتم صنع الله بكم! لم تعطوا ما طلبتم، ولم تدر كوا ما أملتكم، والله إن شاء مهلككم، وناصرنا عليكم، فأرسل إليه عبد الله بن العباس: أن ابرز لي، فأبى أن يفعل، وقاتل ابن عباس ذلك اليوم قتالاً شديداً، ثم انصرفوا وكل غير غالب.

قال نصر: وخرج في ذلك اليوم ثمر بن أبرهة بن الصباح الحميري، فلحق بعلي رضي الله عنه في ناس من قراء أهل الشام، ففت ذلك في عضد معاوية وعمر بن العاص، وقال عمرو: يا معاوية، إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلاً له من محمد صلى الله عليه وسلم قرابه قريبة، ورحم ماسة، وقدم في الإسلام لا يعتد أحد بمثله، وحدة في الحرب لم تكن لأحد من أصحاب

محمد صلى الله عليه وسلم، وإنه قد سار إليك بأصحاب محمد المحدثين وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم وقدمائهم في الإسلام، ولهم في النفوس مهابة، فبادر بأهل الشام مخاشن الأوعار، ومضايق العياض، واحملهم على الجهد، واتهم من باب الطمع قبل أن ترفههم فيحدث عندهم طول المقام مللاً، فتظهر فيهم كآبة الخذلان. ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل وأن علياً على حق، فبادر الأمر قبل اضطرابه عليك. فقام معاوية في أهل الشام خطيباً، فقال: أيها الناس: أعيرونا جماجمكم وأنفسكم، لا تقتتلوا ولا تتجادلوا، فإن اليوم يوم خطار، ويوم حقيقة وحفاظ، إنكم لعلى حق، وبأيديكم حجة، إنما تقاتلون من نكت البيعة، وسفك الدم الحرام، فليس له في السماء عاذر، قدموا أصحاب السلاح المستلزمة، وأخروا الحاسر، واحملوا بأجمعكم، فقد بلغ الحق مقطعه، وإنما هو ظالم ومظلوم.

قال نصر: وخطب علي رضي الله عنه أصحابه فيما حدثنا به عمر بن سعد، عن أبي يحيى، عن محمد بن طلحة، عن أبي سنان، عن أبيه قال: كأني أنظر إليه متوكلماً على قوسه، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده، فهم يلونه، كأنه أحب أن يعلم الناس أن الصحابة متوافرون معه، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإن الخيلاء من التجبر، وإن النخوة من التكبر، وإن الشيطان عدو حاضر، يعدكم الباطل، ألا إن المسلم أخو المسلم، فلا تتابذوا ولا

تخادلوا. ألا إن شرائع الدين واحدة، وسبله قاصدة، من أخذ بها لحق، ومن فارقها محق، ومن تركها مرق. ليس المسلم بالخائن إذا ائتمن، ولا بالمخلف إذا وعد، ولا بالكذاب إذا نطق. نحن أهل بيت الرحمة، وقولنا الصدق، وفعلنا القصد، ومنا خاتم النبيين، وفينا قادة الإسلام، وفينا حملة الكتاب. ألا إنا ندعوكم إلى الله وإلى رسوله، وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره، وابتغاء مرضاته، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، وتوفير الفيء على أهله ألا وإن من أعجب، العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي، أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما، ولقد علمتم أني لم أخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم قط، ولم أعصه في أمر، أقيه نفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال، وترعد فيها الفرائص، بنجدة أكرمني الله سبحانه بها، وله الحمد. ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفي حجري، ولقد وليت غسله بيدي وحدي، تقبله الملائكة المقربون معي. وإيم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها، إلا ما شاء قال أبو سنان الأسلمي: فأشهد لقد سمعت عمار بن ياسر، يقول للناس: أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة لم تستقم عليه أولاً، وأنها لن تستقيم عليه آخراً. قال: ثم تفرق الناس، وقد نفذت أبصارهم في قتال عدوهم، فتأهبوا واستعدوا.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب أن علياً رضي الله عنه، قال في هذه الليلة: حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ثم قام في الناس فقال: الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض، ولا ينقض ما أبرم، ولو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه، ولا تنازع البشر في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله. وقد ساقطنا وهؤلاء القوم الأقدار، حتى لفت بيننا في هذا الموضع، ونحن من ربنا بمرأى ومسمع، ولو شاء لعجل النعمة، ولكان منه النصر، حتى يكذب الله الظالم، ويعلم الحق أين مصيره. ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، والآخرة دار الجزاء والقرار "ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى". ألا إنكم ملاقو العدو غداً إن شاء الله، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله الصبر والنصر، والقوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين.

قال: فوثب الناس إلى رماحهم وسيوفهم ونبلهم يصلحونها، وخرج رضي الله عنه فعبى الناس ليلته تلك كلها حتى أصبح، وعقد الألوية، وأمر الأمراء، وكتب الكتائب، وبعث إلى أهل الشام منادياً نادى فيهم: اغدوا على مصافكم. فضج أهل الشام في معسكرهم، واجتمعوا إلى معاوية فعبى خيله، وعقد ألويته، وأمر أمراءه، وكتب كتائبه، وأحاط به أهل حمص في راياتهم، وعليهم أبو الأعور السلمي، وأهل الأردن في راياتهم، وعليهم عمرو بن العاص، وأهل قنسرين وعليهم زفر بن الحارث الكلابي، وأهل دمشق وهم القلب وعليهم الضحاك بن قيس الفهري، فأطافوا كلهم بمعاوية، وكان أهل الشام أكثر من أهل العراق بالضعف، وسار أبو الأعور وعمرو بن العاص ومن معهما، حتى وقفا بجبال أهل العراق، فنظرا إليهم، واستقلا جمعهم، وطمعا فيهم، ونصب لمعاوية منبر، فقعده عليه في قبة ضربها، ألقى عليها الثياب والأرائك، وأحاط به أهل يمن، وقال: لا يقرب هذا المنبر أحد لا تعرفونه إلا قتلتموه كائناً من كان.

قال نصر: وأرسل عمرو إلى معاوية: قد عرفت ما بيننا من العهد والعقد، فاعصب برأسي هذا الأمر، وأرسل إلى أبي الأعور فنحه عني، ودعني والقوم، فأرسل معاوية إلى أبي الأعور أن لأبي عبد الله رأياً وتجربة ليست لي ولا لك، وقد وليته

أعنة الخيل، فسر أنت حتى تقف بخيلك على تل كذا ودعه والقوم.

فسار أبو الأعور، وبقي عمرو بن العاص فيمن معه واقفاً بإزاء عسكر العراق، فنادى عمرو ابنه: عبد الله ومحمدًا، فقال لهما: قدما هؤلاء الدرع، وأخرا هؤلاء الحسر، وأقيما الصف قص الشارب، فإن هؤلاء قد جاءوا بخطة قد بلغت السماء. فمشيا برايتهما، فعدلا الصفوف، وسار بينهما عمرو فأحسن الصف ثانية، ثم حمل قيساً وكليياً وكنانة على الخيول، ورجل سائر الناس.

قال نصر: وبات كعب بن جعيل التغلي، شاعر أهل الشام تلك الليلة يرتجز وينشد:

أصبحت الأمة في أمر عجب
أقول قولاً صادقاً غير كذب
غداً نلاقي ربنا فنحتسب
بعد الجمال والحياء والحسب
من خلع الأنداد طراً والصلب
والملك مجموع غداً لمن غلب
إن غداً يهلك أعلام العرب
غداً يصيرون رماداً قد ذهب
يا رب لا تشمت بنا ولا تصب

قال نصر: وقال معاوية: من في ميسره أهل العراق، فقل: ربيعة، فلم يجد في الشام ربيعة، فجاء بحمير، فجعلها بإزاء ربيعة على قرعة أقرعها بين حمير وعك، فقال ذو الكلاع الحميري: باستك من سهم لم تبغ الضراب كأنه أنف عن أن تكون حمير بإزاء ربيعة، فبلغ ذلك جحدرأ الحنفي، فحلف بالله إن عاينه ليقتلنه أو ليموتن دونه، فجاءت حمير حتى وقفت بإزاء ربيعة، وجعل السكاسك والسكون بإزاء كندة، وعليهما الأشعث بن قيس، وجعل بإزاء همدان العراق الأزدي، وبإزاء مذحج العراق عكا. وقال راجز من أهل الشام:

ويل أم مذحج من عك
نصكهم بالسيف أي صك
وأهم قائمة تبكي
فلا رجال كرجال عك

قال: وطرحت عك حجراً بين أيديهم، وقالوا: لا نفر حتى يفر هذا الحكر بالكاف وعك تقلب الجيم كافاً وصف القلب خمسة صفوف، وفعل أهل العراق أيضاً مثل ذلك، ونادى عمرو بن العاص بأعلى صوته:

يا أيها الجند الصليب الإيمان
إني أتاني خبر ذو ألوان
ردوا علينا شيخنا ما كان
قوموا قياماً واستعينوا الرحمن
أن علياً قتل ابن عفان

فرد أهل العراق وقالوا:

أبت سيوف مذحج وهمدان
خلقاً جديداً مثل خلق الرحمن
بأن ترد نعثلاً كما كان
ذلك شأن قد مضى وذا شان

ثم نادى عمرو بن العاص ثانية برفع صوته:

ردوا علينا شيخنا ثم بجل

فرد عليه أهل العراق:

أو لا تكونوا جزراً من الأسل

كيف نرد نعتلاً وقد قحل

نحن ضربنا رأسه حتى انجفل

وأبدل الله به خير بدل

أعلم بالدين وأزكى بالعمل

وقال إبراهيم بن أوس بن عبيدة من أهل الشام:

لله در كتائب جاءتكم

تبكي فوارسها على عثمان

تسعون ألفاً ليس فيهم قاسط

يتلون كل مفصل ومثان

يسلون حق الله لا يعدونه

ومجيبكم للملك والسلطان

فأتوا ببينة على ماجئتم

أولاً فحسبكم من العدوان

وأتوا بما يمحو قصاص خليفة

لله، ليس بكاذب خوان

قال نصر: وبات علي رضي الله عنه ليلته يعبئ الناس حتى إذا أصبح زحف بهم، وخرج إليه معاوية في أهل الشام فجعل يقول: من هذه القبيلة، ومن هذه القبيلة، يعني قبائل أهل الشام، فيسمون له حتى إذا عرفهم، وعرف مراكزهم قال للأزد: اكفوني الأزد، وقال لختعم: اكفوني خثعماً، وأمر كل قبيلة من العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام، إلا قبيلة ليس منهم بالعراق إلا القليل مثل بجيلة، فإن لحماً كانت بإزائها. ثم تناهض القوم يوم الأربعاء سادس صفر واقتتلوا إلى آخر نهارهم، وانصرفوا عند المساء، وكل غير غالب.

قال نصر: فأما اليوم السابع فكان القتال فيه شديداً، والخطب عظيماً، وكان عبد الله بن بديل الخزاعي على ميمنة العراق، فزحف نحو حبيب بن مسلمة، وهو على ميسرة أهل الشام، فلم يزل يحوزه ويكشف خيله حتى اضطر بهم إلى قبة معاوية وقت الظهر.

قال نصر: فحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثنا مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، أن عبد الله بن بديل قام في أصحابه فخطبهم فقال: ألا إن معاوية ادعى ما ليس له، ونازع الأمر أهله ومن ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزين لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمور، وزادهم رجساً إلى رجسهم، وأنتم والله على نور وبرهان مبين قاتلوا الطغاة الجفاة، قاتلوهم ولا تخشوهم، وكيف تخشوهم، وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبين: "أتخشوهم فإله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين في قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين"، لقد قاتلتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، والله ما هم في هذه بأزكى، ولا أتقى، ولا أبر، انهضوا إلى عدو الله وعدوكم.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثني عبد الرحمن، عن أبي عمرو، عن أبيه، أن علياً رضي الله عنه خطب في ليلة هذا اليوم، فقال: معاشر المسلمين، استشعروا الخشية، وتجليبوا السكينة، وعضوا على النواجذ، فإنه أنبي للسيوف عن

الهام، الفصل بطوله إلى آخر هو هو المذكور في الكتاب.

وروى نصر أيضاً بالإسناد المذكور أن علياً رضي الله عنه خطب ذلك اليوم، وقال: أيها الناس، إن الله تعالى ذكره، قد دلكم على تجارة تنجيكم من العذاب، وتشفي بكم على الخير: إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيله، وجعل ثوابه مغفرة الذنوب، ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر، وأخبركم بالذي يحب فقال: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص"، فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص، وقدموا الدارع، وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، وأربط للجأش، وأسكن للقلوب. وأميتوا الأصوات، فإنه أطرده للفشل، وأولى بالوفار، والتوا في أطراف الرماح، فإنه أمور للأسنة، ورايتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم المانعي الذمار، والصبر عند نزول الحقائق، أهل الحفاظ، الذين يحفون برايتكم ويكتنفونها، يضربون خلفها وأمامها، ولا تضعوها. أجزأ كل امرئ وقد قرنه، وواسى أخاه بنفسه، ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيجمع عليه قرنه وقرن أخيه، فيكسب بذلك من الإثم، ويأتي به دناءة، أنى هذا، وكيف يكون هكذا! هذا يقاتل اثنين، وهذا ممسك يده، قد حلى قرنه إلى أخيه، هارباً منه، أو قائماً ينظر إليه! من يفعل هذا يمقته الله، فلا تعرضوا لمقت الله، فإنما مردكم إلى الله، قال الله تعالى لقوم عابهم: "لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً"، وإم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة، استعينوا بالصدق والصبر فإنه بعد الصبر يزل النصر.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبي، عن مالك بن قدامة الأرحبي، قال: قام سعيد بن قيس يخطب أصحابه بقناصرين فقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وأورثنا كتابه، وامتن علينا بنبيه، فجعله رحمة للعالمين، وسيداً للمرسلين، وقائداً للمؤمنين، وخاتماً للنبيين، وحنة الله العظيم على الماضين والغابرين، ثم كان فيما قضى الله وقدره وله الحمد على ما أحببنا وكرهنا أن ضمنا وعدونا بقناصرين، فلا يحمل بنا اليوم الحياض وليس هذا بأوان انصراف، ولات حين مناص وقد خصنا الله بمنه برحمة لا نستطيع أداء شكرها، ولا نقدر قدرها، إن أصحاب محمد المصطفين الأخيار معنا، وفي حيزنا، فوالله الذي هو بالعباد بصير أن لو كان قائدنا رجلاً مجدداً، إلا أن معنا من البدرين سبعين رجلاً لكان ينبغي لنا أن تحسن بصائرنا، وتطيب أنفسنا، فكيف وإنما رئيسنا ابن عم نبينا، بدري صدق، صلى صغيراً، وجاهد مع نبيكم كثيراً، ومعاوية طليق من وثاق الإسار وابن طليق. ألا إنه أغوى جفاة فأوردتهم النار، وأوردتهم العار، والله محل بهم الذل والصغار. ألا إنكم ستلقون عدوكم غداً، فعليكم بتقوى الله، من الجد والحزم، والصدق والصبر فإن الله مع الصابرين. ألا إنكم تفوزون بقتلهم، ويشقون بقتلكم، والله لا يقتل رجل منكم رجلاً منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدن، وأدخل المقتول ناراً تطفى "لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون"، عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليائه، وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه، وأستغفر الله العظيم لي ولكم وللمؤمنين، ثم قال الشعبي: ولقد صدق فعله ما قال في خطبته.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر وزيد بن الحسن، قال: طلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يسوي صفوف أهل الشام، فقال له عمرو: على أن لي حكمي إن قتل الله ابن أبي طالب، واستوثقت لك البلاد! فقال: ليس حكمك في مصر قال: وهل مصر تكون عوضاً عن الجنة، وقتل ابن أبي طالب ثمناً لعذاب النار الذي "لا يفتر عنهم

وهم فيه مبلسون" فقال معاوية: إن لك حكمك أبا عبد الله إن قتل ابن أبي طالب. رويداً لا يسمع أهل الشام كلامك. فقام عمرو فقال: معاشر أهل الشام، سووا صفوفكم قص الشارب، وأعبرونا جماجمكم ساعة، فقد بلغ الحق مقطعه، فلم يبق إلا ظالم أو مظلوم.

قال نصر: وأقبل أبو الهيثم بن التيهان وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرياً نقيماً عقيباً يسوي صفوف أهل العراق، ويقول: يا معشر أهل العراق، إنه ليس بينكم وبين الفتح في العاجل، والجنة في الآجل إلا ساعة من النهار، فأرثوا أقدامكم، وسووا صفوفكم، وأعبروا ربكم جماجمكم، استعينوا بالله إلهكم، وجاهدوا عدو الله وعدوكم، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم! واصبروا فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الفضل بن أدهم، عن أبيه أن الأشتر قام يخطب الناس بقناصرين، وهو يومئذ على فرس أدهم، مثل حلك الغراب، فقال: الحمد لله الذي خلق السموات العلى "الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى"، أحمدده على حسن البلاء، وتظاهر النعماء حمداً كثيراً، بكرة وأصيلاً، من هداه الله فقد اهتدى، ومن يضل فقد غوى، أرسل محمداً بالصواب والهدى، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون صلى الله عليه وآله وسلم. ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر أن ساقطنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض، فلقت بيننا وبين عدو الله وعدونا، فنحن بحمد الله ونعمه، ومنه وفضله، قرية أعيننا، طيبة أنفسنا، نرجو بقتالهم حسن الثواب، والأمن من العقاب، معنا ابن عم نبينا، وسيف من سيوف الله علي بن أبي طالب، صلى مع رسول الله، لم يسبقه إلى الصلاة ذكر حتى كان شيخاً، لم تكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطه، فقيه في دين الله تعالى، عالم بحدود الله، ذو رأي أصيل، وصبر جميل، وعفاف قديم، فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجد، واعلموا أنكم على الحق، وأن القوم على الباطل، إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدرين، قريب من مائة بدري، سوى من حولكم من أصحاب محمد، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله، ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله، فما يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب، أنتم على إحدى الحسينين، إما الفتح وإما الشهادة، عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه، وأستغفر الله لي ولكم.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبي، عن صعصعة بن صوحان، عن زامل بن عمرو الجذامي، قال: طلب معاوية إلى ذي الكلاع أن يخطب الناس ويحرضهم على قتال علي رضي الله عنه ومن معه من أهل العراق، فعقد فرسه، وكان من أعظم أصحاب معاوية خطراً، وخطب الناس، فقال: الحمد لله حمداً كثيراً، نامياً واضحاً منيراً، بكرة وأصيلاً، أحمدده وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه، وكفى بالله وكياً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالفرقان إماماً، وبالهدى ودين الحق، حين ظهرت المعاصي، ودرست الطاعة، وامتألت الأرض جوراً وضلالة، واضطربت الدنيا نيراناً وفتنة، وورك عدو الله إبليس، على أن يكون قد عبد في أكنافها، واستولى على جميع أهلها، فكان محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي أطفأ الله به نيرانها، ونزع به أوتادها وأوهن به قوى

إبليس وآيسه مما كان قد طمع فيه من ظفريه بهم، وأظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم كان من قضاء الله أن ضم بيننا وبين أهل ديننا بصفين، وإنا لنعلم أن فيهم قوماً قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة ذات شأن وخطر عظيم، ولكني ضربت الأمر ظهراً وبطناً، فلم أر يسعني أن يهدر دم عثمان صهر نبينا صلى الله عليه وسلم، الذي جهز جيش العسرة، وألحق في مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتاً، وبني سقاية، بايع له نبي الله بيده اليمنى على اليسرى، واختصه بكرميتيه: أم كلثوم ورقية، فإن كان قد أذنب ذنباً فقد أذنب من هو خير منه، قال الله سبحانه لنبيه: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" وقتل موسى نفسه، ثم استغفر الله فغفر له، وقد أذنب نوح، ثم استغفر الله فغفر له، وقد أذنب أبوكم آدم، ثم استغفر الله فغفر له، ولم يعر أحدكم من الذنوب، وإنا لنعلم أنه قد كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يكن مالاً على قتل عثمان فلقد خذله، وإنه لأخوه في دينه وابن عمه وسلفه وابن عمته. ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامكم، وبلادكم وبيضتكم وإنما عامتهم بين قاتل وخاذل، فاستعينوا بالله واصبروا، فلقد ابتليت أيتها الأمة ولقد رأيت في منامي في ليلتي هذه، لكأنا وأهل العراق اعتورنا مصحفاً نضربه بسيوفنا، ونحن في ذلك جميعاً ننادي: ويحكم الله! ومع أنا والله لا نفارق العرصة حتى نموت، فعليكم بتقوى الله، ولتكن النيات لله، فإني سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما يبعث المقتتلون على النيات" أفرغ الله علينا وعليكم الصبر وأعز لنا ولكم النصر وكان لنا ولكم في كل أمر، وأستغفر الله لي ولكم.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن ابن عامر، عن صعصعة العبدي، عن أبرهة بن الصباح، قال: قام يزيد بن أسد البجلي في أهل الشام يخطب الناس بصفين، وعليه قباء من خز، وعمامة سوداء، آخذاً بقائم سيفه، واضعاً نصل السيف في الأرض، متوكئاً عليه. قال صعصعة: فذكر لي أبرهة أنه كان يومئذ من أجمل العرب وأكرمها وأبلغها، فقال: الحمد لله الواحد الفرد، ذي الطول والجلال، العزيز الجبار، الحكيم الغفار، الكبير المتعال، ذي العطاء والفعال، والسخاء والنوال، والبهاء والجمال، والمن والإفضال، مالك اليوم الذي لا يبيع فيه ولا خلال، أحمدته على حسن البلاء، وتظاهر النعماء، وفي كل حال من شدة أو رخاء. أحمدته على نعمه التوام، وآلائه العظام، حمداً يستنير بالليل والنهار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة النجاة في الحياة، وعند الوفاة، وفيها الخلاص يوم القصاص، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، النبي المصطفى، وإمام الهدى صلى الله عليه وسلم. ثم كان من قضاء الله أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض، والله يعلم أي كنت كارهاً لذلك ولكنهم لم يبلعوننا ريقنا، ولم يتركونا نرتاد لأنفسنا، وننظر لمعادنا، حتى نزلوا بين أظهرنا، وفي حريمنا وبيضتنا. وقد علمنا أن في القوم أحلاماً وطغماً، ولسنا نأمن من طغامهم على ذرارينا ونسائنا، ولقد كنا نحب ألا نقاتل أهل ديننا، فأخرجونا حتى صارت الأمور إلى أن قاتلناهم غداً حمية فإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين أما والذي بعث محمداً بالرسالة، لوددت أي مت منذ سنة، ولكن الله إذا أراد أمراً لم يستطع العباد رده، فنستعين بالله العظيم، وأستغفر الله لي ولكم.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن أبي روق الهمداني أن يزيد بن قيس الأرحبي، حرض أهل العراق بصفين يومئذ، فقال: إن

المسلم السليم من سلم دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم والله ما إن يقاتلوننا على إقامة دين رأونا ضيعناه، ولا على إحياء حق رأونا أمتناه، ولا يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا، ليكونوا فيها جبابرة وملوكاً، ولو ظهوروا عليكم لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً إذاً لوليكم مثل سعيد والوليد وعبد الله بن عامر السفية، يحدث أحدهم في مجلسه بذيت وذيت، ويأخذ مال الله ويقول: لا إثم علي فيه، كأنما أعطي تراثه من أبيه، كيف إنما هو مال الله، أفاءه علينا بأسيفنا ورماحنا، قاتلوا عباد الله القوم الظالمين، الحاكمين بغير ما أنزل الله، ولا تأخذكم فيهم لومة لائم، إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم، وهم من قد عرفتم وجريتم، والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شراً، وأستغفر الله العظيم لي ولكم. قال نصر: وارتجز عمرو بن العاص، وأرسل بها إلى علي:

إنا نمر الأمر إمرار الرسن

لا تأمننا بعدها أبا حسن

خذها إليك واعلمن أبا حسن

ويروى:

طاحنة تدقكم دق الحفن

لتصبحن مثلها أم لبن

قال: فأجابه شاعر من شعراء أهل العراق:

لينا أبا شبلين محذور فطن

ألا احذروا في حربكم أبا حسن

لتغبين يا جاهلاً أي غبن

يدقكم دق المهاريس الطحن

حتى تعض الكف أو تقرر سن

قال نصر: فحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبي أن أول فارسين التقيا في هذا اليوم وهو اليوم السابع من صفر، وكان من الأيام العظيمة في صفين، ذا أهوال شديدة حجر الخير وحجر الشر أما حجر الخير فهو حجر بن عدي، صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأما حجر الشر فابن عمه، كلاهما من كندة، وكان من أصحاب معاوية، فاطعنا برميحهما، وخرج رجل من بني أسد، يقال له خزيمة، من عسكر معاوية، فضرب حجر بن عدي ضربة برمح، فحمل أصحاب علي رضي الله عنه فقتلوا خزيمة الأسدي، ونجا حجر الشر هارباً، فالتحق بصف معاوية. ثم برز حجر الشر ثانية، فبرز إليه الحكم بن أزهر من أهل العراق، فقتله حجر الشر فخرج إليه رفاعة بن ظالم الحميري، من صف العراق فقتله، وعاد إلى أصحابه يقول: الحمد لله الذي قتل حجر الشر بالحكم بن أزهر.

ثم إن علياً رضي الله عنه دعا أصحابه إلى أن يذهب واحد منهم بمصحف كان في يده إلى أهل الشام، فقال: من يذهب إليهم، فيدعوهم إلى ما في هذا المصحف، فسكت الناس، وأقبل فتى اسمه سعيد، فقال: أنا صاحبه، فأعاد القول ثانية، فسكت الناس، وتقدم الفتى، فقال: أنا صاحبه، فسلمه إليه فقبضه بيده، ثم أتاهم فأنشدهم الله، ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه، فقال علي رضي الله عنه لعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي: احمل عليهم الآن. فحمل عليهم بمن معه من أهل الميمنة، وعليه يومئذ سيفان ودرعان، فجعل يضرب بسيفه قدماً، ويقول:

لم يبق غير الصبر والتوكل

والترس والرمح وسيف مقصل

ثم التمشي في الرعيل الأول

مشي الجمال في حياض المنهل

فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية، والذين بايعوه إلى الموت، فأمرهم أن يصمدوا لعبد الله بن بديل، وبعث إلى حبيب بن مسلمة الفهري وهو في الميسرة، أن يحمل عليه بجميع من معه، واختلط الناس، واضطرم الفيلقان، ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام، وأقبل عبد الله بن بديل يضرب الناس بسيفه قدماً، حتى أزال معاوية عن موقفه وجعل ينادي: يا ثارات عثمان وإنما يعني أخاً له قد قتل، وظن معاوية وأصحابه أنه يعني عثمان بن عفان، وتراجع معاوية عن مكانه القهقري كثيراً وأشفق على نفسه، وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية، وثالثة، يستنجد به ويستصرخه، ويحمل حبيب حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق، فكشفها حتى لم يبق مع ابن بديل إلا نحو مائة إنسان من القراء، فاستند بعضهم إلى بعض، يحمون أنفسهم، ولجح ابن بديل في الناس وصمم على قتل معاوية، وجعل يطلب موقفه، ويصمد نحوه، حتى انتهى إليه، ومع معاوية عبد الله بن عامر واقفاً، فنادى معاوية في الناس: ويلكم الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح. فرضخه الناس بالصخر والحجارة، حتى أثخنوه فسقط، فأقبلوا عليه بسيوفهم، فقتلوه.

وجاء معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه، فأما عبد الله بن عامر، فألقى عمامته على وجهه، وترحم عليه، وكان له أخاً صديقاً من قبل، فقال معاوية: اكشف عن وجهه فقال: لا والله لا يمثل به وفي روح فقال معاوية: اكشف عن وجهه فإننا لا نمثل به، قد وهبناه لك. فكشف ابن عامر عن وجهه، فقال معاوية: هذا كبش القوم ورب الكعبة، اللهم أظفري بالأشتر النخعي والأشعث الكندي والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها

وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ويحمي إذا ما الموت كان لقاءه

قدى الشبر يحمي الأنف أن يتأخرا

كليث هزبر كان يحمي ذماره

رمته المنايا قصدها فتقطرا

ثم قال: إن نساء خزاعة لو قدرت على أن تقتلني فضلاً عن رجالها، لفعلت.

قال نصر: فحدثنا عمرو، عن أبي روق، قال: استعلى أهل الشام عند قتل ابن بديل على أهل العراق يومئذ، وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة، وأجفلوا إجملاً شديداً، فأمر علي رضي الله عنه سهل بن حنيف، فاستقدم من كان معه، ليرفد الميمنة ويعضدها، فاستقبلهم جموع أهل الشام في خيل عظيمة، فحملت عليهم، فألحقهم بالميمنة، وكانت ميمنة أهل العراق متصلة بموقف علي رضي الله عنه في القلب في أهل اليمن، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى علي رضي الله عنه، فانصرف يمشي نحو الميسرة، فانكشف مضر عن الميسرة أيضاً، فلم يبق مع علي رضي الله عنه من أهل العراق إلا ربيعة وحدها في الميسرة.

قال نصر: فحدثنا عمرو، قال: حدثنا مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، قال: لقد مر علي رضي الله عنه يومئذ ومعه بنوه نحو الميسرة، ومعه ربيعة وحدها، وإنى لأرى النبل يمر بين عاتقه ومنكبيه، وما من بنيه إلا من يقيه بنفسه، فيكره علي

رضي الله عنه ذلك. فيتقدم عليه، ويجول بينه وبين أهل الشام ويأخذه بيده إذا فعل ذلك، فيلقيه من ورائه، ويصر به أحمر مولى بني أمية، وكان شجاعاً، وقال علي رضي الله عنه: ورب الكعبة، قتلني الله إن لم أقتلك! فأقبل نحوه، فخرج إليه كيسان مولى علي رضي الله عنه، فاختلفا ضربتين، فقتله أحمر، وحالط علياً ليضربه بالسيف، وينتهزه علي، فتقع يده في جيب درعه، فجذبه عن فرسه، فحمله على عاتقه، فوالله لكأني أنظر إلى رجلي أحمر تحتلفان على عنق علي، ثم ضرب به الأرض، فكسر منكبه وعضديه، وشد ابنا علي: حسين ومحمد فضرباه بأسيا فهما حتى برد، فكأني أنظر إلى علي قائماً، وشبلاه يضربان الرجل حتى إذا أتيا عليه، أقبلا على أبيهما، والحسن قائم معه، فقال له علي: يا بني، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك، فقال: كفياني يا أمير المؤمنين.

قال: ثم إن أهل الشام دنوا منه يريدونه، والله ما يزيد قريهم منه ودنوههم إليه سرعة في مشيته، فقال له الحسن: ما ضرك لو أسرعت حتى تنتهي إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك، قال: يعني ربيعة الميسرة فقال علي: يا بني إن لأبيك يوماً لن يعدوه ولا يبطئ به عند السعي، ولا يقربه إليه الوقوف، إن أباك لا يبالي، إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه. قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي إسحاق قال: خرج علي رضي الله عنه يوماً من أيام صفين، وفي يده عترة، فمر على سعيد بن قيس الهمداني، فقال له سعيد: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يعتالك أحد وأنت قرب عدوك، فقال علي رضي الله عنه: إنه ليس من أحد إلا وعليه من الله حفظة يحفظونه من أن يتردى في قليب، أو يخر عليه حائط، أو تصيبه آفة، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن فضيل بن خديج، قال: لما انهزمت ميمنة العراق يومئذ أقبل علي رضي الله عنه نحو الميسرة يركض، يستثيب الناس ويستوقفهم، ويأمرهم بالرجوع نحو الفرع، فمر بالأشتر، فقال: يا مالك، قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: انت هؤلاء القوم، فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه، إلى الحياة التي لا تبقى لكم! فمضى الأشتر، فاستقبل الناس مهزمين، فقال لهم الكلمات، وناداهم: إلي أيها الناس، أنا مالك بن الحارث، يكررها، فلم يلو أحد منهم عليه، وظن أن الأشتر أعرف في الناس من مالك بن الحارث، فجعل ينادي: ألا أيها الناس، فأنا الأشتر، فانقلب نحوه طائفة، وذهبت عنه طائفة، فقال: عضضتم بمن أبيكم! ما أقبح والله ما فعلتم اليوم! أيها الناس، غضوا الأبصار، وعضوا على النواجذ، واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا عليهم شدة قوم موتورين بآبائهم وأبنائهم وإخوانهم، حنقاً على عدوهم. قد وطنوا على الموت أنفسهم كي لا يسبقوا بئار. إن هؤلاء القوم والله لن يقاتلوكم إلا عن دينكم، ليطفئوا السنة، ويحيوا البدعة، ويدخلوكم في أمر قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة، فطيبوا عباد الله نفساً بدمائكم دون دينكم، فإن الفرار فيه سلب العز والغلبة على الفياء، وذل الحيا والممات، وعار الدنيا والآخرة، وسخط الله وأليم عقابه. ثم قال: أيها الناس، أخلصوا إلي مذحجاً، فاجتمعت إليه مذحج فقال لهم: عضضتم بصم الجندل والله ما أرضيتكم اليوم ربكم، ولا نصحتكم له في عدوه، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات، وفتيان الصباح، وفرسان الطراد، وحتوف الأقران، ومذحج الطعان، الذين لم يكونوا سبقوا بئارهم، ولم تطل دماؤهم، ولم يعرفوا في موطن من المواطن بخسف! وأنتم سادة مصركم، وأعز حي في قومكم، وما تفعلوا في هذا اليوم فهو مأثور بعد اليوم، فاتقوا مأثور الحديث في غد، وأصدقوا عدوكم اللقاء، فإن الله مع الصابرين، والذي نفس مالك بيده ما من هؤلاء وأشار بيده إلى أهل الشام

رجل على مثل جناح البعوضة من دين الله، لله أنتم! ما أحسنتم اليوم القراع، احبسوا سواد وجهي يرجع فيه دمي، عليكم هذا السواد الأعظم، فإن الله لو قد فضه تبعه من بجانبه كما يتبع السيل مقدمه.

فقالوا: خذ بنا حيث أحببت، فصمد بهم نحو عظمهم واستقبله أشباههم من همدان، وهم نحو ثمانمائة مقاتل قد انهزموا آخر الناس، وكانوا قد صبروا في ميمنة علي رضي الله عنه حتى قتل منهم مائة وثمانون رجلاً، وأصيب منهم أحد عشر رئيساً، كلما قتل منهم رئيس أخذ الراية آخر، وهم بنو شريح الهمدانيون وغيرهم من رؤساء العشيرة، فأول من أصيب منهم كريب بن شريح، وشرحبيل بن شريح، ومرثد بن شريح، وهبيرة بن شريح، وهريم بن شريح، وشهر بن شريح، وشمر بن شريح، قتل هؤلاء الإخوة الستة في وقت واحد.

ثم أخذ الراية سفيان بن زيد، ثم كرب بن زيد، ثم عبد بن زيد، فقتل هؤلاء الإخوة الثلاثة أيضاً، ثم أخذ الراية عمير بن بشر، ثم أخوه الحارث بن بشر، فقتلا جميعاً، ثم أخذ الراية أبو القلوص وهب بن كريب، فقال له رجل من قومه: انصرف يرحمك الله بهذه الراية، ترحها الله فقد قتل الناس حولها، فلا تقتل نفسك، ولا من بقي معك. فانصرفوا وهم يقولون: ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا على الموت، ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نظفر أو نقتل، فمروا بالأشتر وهم يقولون هذا القول فقال لهم الأشتر: أنا أحالفكم وأعاقدكم على ألا نرجع أبداً، حتى نظفر أو نهلك، فوقفوا معه على هذه النية والعزيمة، فهذا معنى قول كعب بن جعيل:

وهمدان زرق تبتغي من تحالف

قال: وزحف الأشتر نحو الميمنة، وثاب إليه أناس تراجعوا من أهل الصبر والوفاء والحياء، فأخذ لا يصمد لكنية إلا كشفها، ولا لجمع إلا حازه ورده، فإنه لكذلك إذ مر بزياد بن النضر مستلحماً، فقال الأشتر: هذا والله الصبر الجميل، هذا والله الفعل الكريم إلي، وقد كان هو وأصحابه في ميمنة العراق، فتقدم فرفع رايته لهم، فصبروا وقاتل حتى صرع، ثم لم يلبث الأشتر إلا يسيراً كلا شيء حتى مر بهم يزيد بن قيس الأرحبي مستلحماً أيضاً محمولاً، فقال الأشتر: من هذا، قالوا: يزيد بن قيس، لما صرع زياد بن النضر دفع رايته لأهل الميمنة، فقاتل تحتها حتى صرع، فقال الأشتر: هذا والله الصبر الجميل، هذا والله الفعل الكريم، ألا يستحي الرجل أن ينصرف لم يقتل ولم يشف به على القتل! قال نصر: وحدثنا عمرو عن الحارث بن الصباح، قال: كان بيد الأشتر يومئذ صفيحة له يمانية، إذا طأطأها خلت فيها ماء ينصب، وإذا رفعها يكاد يعشي البصر شعاعها، ومر يضرب الناس بها قدماً، ويقول:

الغمرات ثم ينجلينا

قال: فبصر به الحارث بن جهمان الجعفي، والأشتر مقنع في الحديد فلم يعرفه، فدنا منه، وقال له: جزاك الله منذ اليوم عن أمير المؤمنين وعن جماعة المسلمين خيراً. فعرفه الأشتر فقال: يابن جهمان، أمثلك يتخلف اليوم عن مثل موطني هذا! فتأمله ابن جهمان فعرفه وكان الأشتر من أعظم الرجال وأطولهم، إلا أن في لحمه خفة قليلة فقال له: جعلت فداك! لا والله ما علمت مكانك حتى الساعة، ولا والله لا أفارقك حتى أموت.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن الحارث بن الصباح، قال: رأى الأشتر يومئذ منقذاً وحميراً ابني قيس اليعظيان فقال منقذ لحمير: ما في العرب رجل مثل هذا، إن كان ما أرى من قتاله على نية! فقال له حمير: وهل النية إلا ما ترى! قال: إني أخاف أن يكون يحاول ملكاً.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن فضيل بن حديج، عن مولى الأشتر قال: لما اجتمع مع الأشتر عظيم من كان انهزم من الميمنة، حرضهم، فقال لهم: عضوا على النواجذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهامكم، فإن الفرار من الزحف فيه ذهاب العز، والغلبة على الفياء، وذل الحيا والممات، وعار الدنيا والآخرة. ثم حمل على صفوف أهل الشام حتى كشفهم، فألحقهم بمضارب معاوية، وذلك بين العصر والمغرب.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، أن علياً رضي الله عنه لما رأى ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافها، وكشفت من بإزائها حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم، أقبل حتى انتهى إليهم، فقال: إني قد رأيت جولتكم وانخيازكم من صفوفكم، يحوزكم الجفأة الطغاة وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب، والسنام الأعظم، وعمار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق، إذ ضل الخاطئون. فلولا إقبالكم بعد إداركم وكرركم بعد انخيازكم، وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحف دبره، وكنتم فيما أرى من الهالكين، ولقد هون علي بعض وجدي، وشفى بعض لاعج نفسي، أي رأيتم بأخرة، حزنوهم كما حازوكم، وأزلموهم عن مصافهم كما أزالوكم تحشونهم بالسيوف، يركب أولهم آخرهم، كالإبل المطرودة الهيم، فالآن فاصبروا، نزلت عليكم السكينة وثبتكم الله باليقين، وليعلم المنهزم أنه يسخط ربه، ويوبق نفسه، وفي الفرار موجدة الله عليه، والذل اللازم له، وفساد العيش. وإن الفار لا يزيد الفرار في عمره، ولا يرضي ربه، فموت الرجل محققاً قبل إتيان هذه الخصال، خير من الرضا بالتلبس بها، والإصرار عليها.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثنا أبو علقمة الخثعمي، أن عبد الله بن حنش الخثعمي، رأس خثعم الشام، أرسل إلى أبي كعب الخثعمي رأس خثعم العراق: إن شئت تواقفنا فلم نقتل، فإن ظهر صاحبكم كنا معكم، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا، ولا يقتل بعضنا بعضاً، فأبى أبو كعب ذلك. فلما التقت خثعم وخثعم، وزحف الناس بعضهم إلى بعض، قال عبد الله بن حنش لقومه: يا معشر خثعم، إنا قد عرضنا على قومنا من أهل العراق المودعة، صلة لأرحامها، وحفظاً لحقها، فأبوا إلا قتالنا، وقد بدأونا بالقطيعة، فكفوا أيديكم عنهم حفظاً لحقهم أبداً ما كفوا عنكم، فإن قاتلوكم فقاتلوهم. فخرج رجل من أصحابه فقال: إنهم قد ردوا عليك رأيك، وأقبلوا إليك يقاتلونك، ثم برز فنادى رجل: يا أهل العراق. فغضب عبد الله بن حنش، قال: اللهم قيض له وهب بن مسعود يعني رجلاً من خثعم الكوفة، كان شجاعاً يعرفونه في الجاهلية لم يبارزه رجل قط إلا قتله فخرج إليه وهب بن مسعود فقتله، ثم اضطربوا ساعة، واقتتلوا أشد قتال، فجعل أبو كعب يقول لأصحابه: يا معشر خثعم! خدموا، أي اضربوا موضع الخدمة، وهي الخلخال، يعني اضربوهم في سوقهم، فناداه عبد الله بن حنش: يا أبا كعب، الكل قومك فأنصف، قال: إي والله وأعظم. واشتد قتالهم، فحمل شمر بن عبد الله الخثعمي، من خثعم الشام، على أبي كعب، فطعنه فقتله، ثم انصرف يبكي، ويقول: يرحمك الله أبا كعب!

لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمس بي رحماً منهم، وأحب إلي منهم نفساً، ولكني والله لا أدري ما أقول، ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا، ولا أرى قريشاً إلا وقد لعبت بنا قال: ووثب كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه، فأخذها ففقت عينه وصرع، ثم أخذها شريح بن مالك الحثعمي، فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو ثمانين رجلاً، وأصيب من حثعم الشام مثلهم، ثم ردها شريح بن مالك بعد ذلك إلى كعب بن أبي كعب.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثنا عبد السلام بن عبد الله بن جابر، أن راية بجيلة في صفين مع أهل العراق كانت في أحس مع أبي شداد، قيس بن المكشوح بن هلال بن الحارث بن عمرو بن عوف بن عامر بن علي بن أسلم بن أحس بن الغوث بن أمار. قالت له بجيلة: خذ رايتنا، فقال: غيري خير لكم مني، قالوا: لا نريد غيرك. قال: فوالله لئن أعطيتمونيها لا أنتهي بكم دون صاحب الترس المذهب، قالوا: وكان على رأس معاوية رجل قائم معه ترس مذهب، يستره من الشمس، فقالوا: اصنع ما شئت، فأخذها ثم زحف بها وهم حوله يضربون الناس، حتى انتهى إلى صاحب الترس المذهب، وهو في خيل عظيمة من أصحاب معاوية، وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فاقتتل الناس هناك قتالاً شديداً، وشد أبو شداد بسيفه نحو صاحب الترس، فتعرض له رومي من دونه لمعاوية، فضرب قدم أبي شداد فقطعها، وضرب أبو شداد ذلك الرومي فقتله، وأسرعت إليه الأسنة، فقتل فأخذ الراية بعده عبد الله بن قلع الأحمسي، وارتجز وقال:

حيث أجاب دعوة المنادي

نعم الفتى كان لدى الطراد

لا يبعد الله أبا شداد

و شد بالسيف على الأعادي

وفي طعان الخيل والجلاد

ثم قاتل حتى قتل، فأخذها بعده أخوه عبد الرحمن بن قلع، فقاتل حتى قتل، ثم أخذها عفيف بن إياس الأحمسي، فلم تزل بيده حتى تحاجر الناس.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثنا عبد السلام، قال: قتل يومئذ من بني أحس حازم بن أبي حازم، أخو قيس بن أبي حازم، ونعيم بن شهيد بن التغلبية فأتى سمي ابن عمه نعيم بن الحارث بن التغلبية معاوية وكان من أصحابه فقال: إن هذا القتيل ابن عمي، فهبه لي أدفنه، فقال: لا تدفنوهم، فليسوا لذلك بأهل، والله ما قدرنا على دفن عثمان بينهم إلا سراً، قال: والله لتأذن لي في دفنه أو لألحقن بهم ولأدعنك، قال: ويحك! ترى أشياخ العرب لا نواريهم، وأنت تسألني في دفن ابن عمك! ادفنه إن شئت، أو دعه. فأتاه فدفنه.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثنا أبو زهير العبسي، عن النضر بن صالح، أن راية غطفان العراق كانت مع عياش بن شريك بن حارثة بن جندب بن زيد بن خلف بن رواحة، فخرج رجل من آل ذي الكلاع، فسأل المبارزة، فبرز إليه قائد بن بكير العبسي، فبارزه فشد عليه الكلاعي، فأوهطه، فقال أبو سليم عياش بن شريك لقومه: إني مبارز هذا الرجل، فإن أصبت فرأسكم الأسود بن حبيب بن جمانة بن قيس بن زهير، فإن أصيب فرأسكم هرم بن شتير بن عمرو بن جندب، فإن أكيب فرأسكم عبد الله بن ضرار، من بني حنظلة بن رواحة. ثم مشى نحو الكلاعي فلحقه هرم بن شتير فأخذ بظهره

وقال: ليمسك رحم، لا تبرز إلى هذا الطوال، فقال: هبلك الهبول وهل هو إلا الموت! قال. وهل الفرار إلا منه! قال: وهل منه بد! والله لأقتلنه، أو ليلحقني بقائد بن بكير. فبرز له ومعه جحفة من جلود الإبل فدنا منه، فإذا الحديد مفرغ على الكلاعي لا يبين من نحره إلا مثل شراك النعل من عنقه بين بيضته ودرعه، فضربه الكلاعي، فقطع جحفته إلا نحواً من شبر، فضربه عياش على ذلك الموضع، فقطع نخاعه، فقتله، وخرج ابن الكلاعي ثائراً بأبيه، فقتله بكير بن وائل.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر عن الصلت بن زهير النهدي أن راية بني همد بالعراق أخذها مسروق بن الهيثم بن سلمة فقتل، ثم أخذها صخر بن سمي فارتث، ثم أخذها علي بن عمير، فقاتل حتى ارتث. ثم أخذها عبد الله بن كعب فقتل، ثم أخذها سلمة بن خديم بن جرثومة، فارتث وصرع، ثم أخذها عبد الله بن عمرو بن كبشة، فارتث، ثم أخذها أبو مسيح بن عمرو فقتل، ثم أخذها عبد الله بن التزال فقتل، ثم أخذها ابن أخيه عبد الرحمن بن زهير، فقتل، ثم أخذها مولاه مخارق فقتل، حتى صارت إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي.

قال نصر: فحدثنا عمرو قال: حدثنا الصلت بن زهير، قال: حدثني عبد الرحمن بن مخنف، قال: صرع يزيد بن المغفل إلى جني، فقتل قاتله وقمت على رأسه، ثم صرع أبو زينب بن عروة، فقتلت قاتله، وقمت على رأسه وجاءني سفيان بن عوف، فقال: أقتلت يزيد بن المغفل، فقلت: إي والله إنه لهذا الذي تراني قائماً على رأسه، قال: ومن أنت حياك الله!

قلت: أنا عبد الرحمن بن مخنف، فقال: الشريف الكريم حياك الله ومرحباً بك يا ابن عم أفلا تدفعه إلي فأنا عمه سفيان بن عوف بن المغفل؟ فقلت: مرحباً بك، أما الآن فنحن أحق به منك، ولسنا بدافعيه إليك! وأما ما عدا ذلك فلعمري أنت عمه ووارثه.

قال نصر: حدثنا عمرو، قال: حدثنا الحارث بن حصين، عن أشياخ الأزدي، أن مخنف بن سليم، خطب لما ندبت أزد العراق إلى قتال أزد الشام، فقال: الحمد لله، والصلاة على محمد ورسوله، ثم قال: إن من الخطب الجليل، والبلاء العظيم، أنا صرفنا إلى قومنا، وصرفوا إلينا، والله ما هي إلا أيدينا نقطعها بأيدينا، وما هي إلا أجنحتنا نخذفها بأسيافنا، فإن نحن لم نفعل لم نناصح صاحبنا، ولم نواس جماعتنا، وإن نحن فعلنا، فعزنا المنا، وناارنا أخدمنا.

وقال جندب بن زهير الأزدي: والله لو كنا آباءهم ولدناهم، أو كانوا آباءنا ولدونا ثم خرجوا عن جماعتنا، طعنوا على إمامنا، ووازرروا الظالمين الحاكمين بغير الحق على أهل ملتنا وديننا، ما افترقنا بعد أن اجتمعنا، حتى يرجعوا عما هم عليه، ويدخلوا فيما ندعوهم إليه، أو تكثر القتلى بيننا وبينهم.

فقال مخنف: أعزبك الله في التيه! والله ما علمتك صغيراً ولا كبيراً إلا مشؤوماً، والله ما ميلنا في الرأي بين أمرين قط أيهما نأتي وأيهما ندع في جاهلية ولا إسلام إلا اخترت أعسرهما وأنكدهما. اللهم أن تعافينا أحب إلي من أن تبتلينا، اللهم أعط كل رجل منا ما سأل. فتقدم جندب بن زهير، فبارز أزدياً من أزد الشام، فقتله الشامي.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن الحارث بن حصين، عن أشياخ الحي، أن عتبة بن جويرة قال يوم صفين لأهله وأصحابه: ألا إن مرعى الدنيا قد أصبح هشيماً، وأصبح شجرها حصيداً، وجديدها سماً، وحلوها مرأ، ألا وإني أنبئكم نبأ امرئ صادق، أي قد سئمت الدنيا، وعزفت نفسي عنها، ولقد كنت أتمنى الشهادة، وأعرض لها في كل حين، فأبى الله إلا أن

يلبغني هذا اليوم، ألا وإني متعرض ساعتي هذه لها، وقد طمعت ألا أحرمها، فما تنظرون عباد الله من جهاد أعداء الله؟ أخوف الموت القادم عليكم، الذاهب بنفوسكم! أو من ضربة كف أو جبين بالسيف! أتستبدلون الدنيا بالنظر إلى وجه الله ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دار القرار ما هذا بالرأي السديد.

ثم قال: يا إخواني، إني قد بعث هذه الدار بالدار التي أمامها، وهذا وجهي إليها، لا يبرح الله وجوهكم، ولا يقطع أرحامكم، فتبعه أخواه عبد الله وعوف، فقالوا: لا نطلب ورق العيش دونك، قبح لله الدنيا بعدك! اللهم إنا نحتسب أنفسنا عندك، فاستقدموا جميعاً، وقاتلوا حتى قتلوا.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثني رجل من آل الصلت بن خارجة، أن تميمًا لما ذهبت لتهزم ذلك اليوم، ناداهم مالك بن حري النهشلي: ضاع الضراب اليوم، والذي أنا له عبد يا بني تميم، فقالوا: ألا ترى الناس قد انهزموا فقال: ويحكم! أفراراً واعتذاراً ثم نادى بالأحساب، فجعل يكررها، فقال له قوم منهم: أتنادي ببناء الجاهلية! إن هذا لا يحل، فقال: الفرار ويلكم أقبح، إن لم تقاتلوا على الدين واليقين فقاتلوا على الأحساب. ثم جعل يقاتل ويرتجز، فيقول:

وقد أراهم وهم الحي الصبر

إن تميمًا أخلفت عنك ابن مر

فإن يفروا أو يخيموا لا أفر

فقتل مالك ذلك اليوم. وقال أخوه نمشل بن حري التميمي يرثيه:

كليل التمام ما يريد انصراما

تطاول هذا الليل ما كاد ينجلي

أورق من بعد العشاء نياما

وبت بذكرى مالك بكآبة

فلا تعذليني إن جزعت أماما

أبى جزعي في مالك غير ذكره

يؤرق من وادي البطاح حماما

فأبكي أخي مادام صوت حمامة

وتذرف عيناى الدموع سجاما

وأبعث أنواحاً عليه بسحرة

وأبعث نوحاً يلتدمن قياما

وأدعو سراة الحي تبكي لمالك

وذو عزة يأبى بها أن يضاما

يقطن: ثوى رب السماحة والحجا

إذا اضطرمت نار العدو ضراما

وفارس خيل لا تتازل خيله

يرى ما يهاب الصالحون حراما

وأحيا عن الفحشاء من ذات كلة

وأمضى إذا رام الرجال صداما

وأجراً من ليث بخفان مخدر

وقال أيضاً يرثيه:

عند النداء، فلا نكساً ولا ورعا

بكى الفتى الأبيض البهلول سنتة

حين الشتاء وعز الرسل فانقطعا

بكى على مالك الأضياف إذ نزلوا

من البشار تزجي تحتها ربعا

ولم يجد لقراهم غير مربعة

أهوى لها السيف صلتاً وهي راتعة
فجاءهم بعد رقد الناس أطيها
يا فارس الروع يوم الروع قد علموا
ومدرك التبل في الأعداء يطلبه
قالوا: أخوك أتى الناعي بمصرعه
ثم ارعوى القلب شيئاً بعد طربته
فأوهن السيف عظم الساق فانجذعا
وأشبع منهن من نام واضطجعا
وصاحب العزم لا نكساً ولا طبعاً
وإن طلبت بتبل عنده منعا
فانشق قلبي غداة القول فانصدعا
والنفس تعلم أن قد أثبتت وجعا

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثني يونس بن أبي إسحاق، قال: قال لنا أدهم بن محرز الباهلي، ونحن معه لأذرح، هل رأى أحد منكم شمر بن ذي الجوشن، فقال عبد الله بن كبار النهدي وسعيد بن حازم البلوي: نحن رأيناه، قال: فهل رأيتم ضربة بوجهه، قالوا: نعم، قال: أنا والله ضربته تلك الضربة بصفين.
قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: قد كان خرج أدهم بن محرز من أصحاب معاوية إلى شمر بن ذي الجوشن في هذا اليوم، فاختلفا ضربتين، فضربه أدهم على جبينه، فأسرع فيه السيف حتى خالط العظم، وضربه شمر، فلم يصنع شيئاً، فرجع إلى عسكره، فشرب ماء وأخذ رمحاً، ثم أقبل وهو يقول:

إني زعيم لأخي باهله
وضربة تحت الوغى فاصله
بطعنة إن لم أمت عاجله
شبيهة بالقتل أو قاتله

ثم حمل على أدهم وهو يعرف وجهه وأدهم ثابت له لم ينصرف فطعنه، فوقع عن فرسه، وحال أصحابه دونه، فانصرف شمر وقال: هذه بتلك.

قال نصر. وخرج سويد بن قيس بن يزيد الأرحي من عسكر معاوية يسأل المبارزة، فخرج إليه من عسكر العراق أبو العمرطة قيس بن عمرو بن عمير بن يزيد وهو ابن عم سويد، وكان كل منهما لا يعرف صاحبه، فلما تقاربا تعارفاً، وتواقفاً وتساءلاً، ودعا كل واحد منهما صاحبه إلى دينه، فقال أبو العمرطة: أما أنا فوالله الذي لا إله إلا هو لئن استطعت لأضرب بسيفي هذه القبة البيضاء يعني القبة التي كان فيها معاوية ثم انصرف كل واحد منهما إلى أصحابه.
قال نصر: ثم خرج رجل من عسكر الشام من أزد شنوءة، يسأل المبارزة، فخرج إليه رجل من أهل العراق، فقتله الأزدي، فخرج إليه الأشر، فما ألثمه أن قتله، فقال قائل: كان هذا رجلاً فصارت إعصاراً.

قال نصر: وقال رجل من أصحاب علي رضي الله عنه: أما والله لأحملن على معاوية حتى أقتله، فركب فرساً، ثم ضربه حتى قام على سنانكه، ثم دفعه فلم ينهه شيء عن الوقوف على رأس معاوية، فهرب معاوية، ودخل خباء، فترل الرجل عن فرسه ودخل عليه، فخرج معاوية من جانب الخباء الآخر، فخرج الرجل في أثره، فاستصرخ معاوية بالناس، فأحاطوا به وحالوا بينهما، فقال معاوية، ويحكم! إن السيوف لم يؤذن لها في هذا، ولولا ذلك لم يصل إليكم، فعليكم بالحجارة، فرضخوه بالحجارة حتى همد. فعاد معاوية إلى مجلسه.

قال نصر: وحمل رجل من أصحاب علي رضي الله عنه يدعى أبا أيوب وليس بأبي أيوب الأنصاري على صف أهل الشام، ثم رجع فوافق رجلاً من أهل الشام صادراً، قد حمل على صف أهل العراق، ثم رجع فاختلفا ضربتين، فنفضه أبو أيوب بالسيف، فأبان عنقه، فثبت رأسه على جسده كما هو وكذب الناس أن يكون هو ضربه، فأراهم ذلك، حتى إذا أدخلته فرسه في صف أهل الشام ندر رأسه، ووقع ميتاً، فقال علي رضي الله عنه: والله لأنا من ثبات رأس الرجل أشد تعجباً من الضربة، وإن كان إليها ينتهي وصف الوصفين.

وجاء أبو أيوب فوقف بين يدي علي رضي الله عنه، فقال له: أنت والله كما قال الشاعر:

ونحن نعلم أيضاً بنينا

وعلمنا الضرب أباناً

قال نصر: فلما انقضى هذا اليوم بما فيه، أصبحوا في اليوم الثامن من صفين، والفيلقان متقابلاً، فخرج رجل من أهل الشام فسأل المبارزة، فخرج إليه رجل من أهل العراق، فاقتتلا بين الصفين قتالاً شديداً. ثم إن العراقي أعتقه فوقعا جميعاً، وغار الفرسان. ثم إن العراقي قهره، فجلس على صدره، وكشف المغفر عنه، يريد ذبحه، فإذا هو أخوه لأبيه وأمه، فصاح به أصحاب علي رضي الله عنه: ويحك أجهز عليه! قال: إنه أخي، قالوا: فاتركه، قال: لا والله حتى يأذن أمير المؤمنين، فأخبر علي رضي الله عنه بذلك، فأرسل إليه أن دعه، فتركه، فقام فعاد إلى صف معاوية.

قال نصر: وحدثنا محمد بن عبيد الله، عن الجرجاني، قال: كان فارس معاوية الذي يعده لكل مبارز ولكل عظيم، حريث مولاه، وكان يلبس سلاح معاوية متشبهاً به فإذا قاتل قال الناس!: ذاك معاوية. وإن معاوية دعاه، فقال له: يا حريث، اتق علياً وضع رمحك حيث شئت. فأتاه عمرو بن العاص، فقال: يا حريث، إنك والله لو كنت قرشياً لأحب لك معاوية أن تقتل علياً، ولكن كره أن يكون لك حظها، فإن رأيت فرصة فاقتحم. قال: وخرج علي رضي الله عنه في هذا اليوم أمام الخيل، فحمل عليه حريث.

قال نصر: فحدثني عمرو بن شمر، عن جابر، قال: برز حريث مولى معاوية هذا اليوم، وكان شديداً أيداً ذا بأس لا يرام، فصاح: يا علي، هل لك في المبارزة، فأقدم أبا حسن إن شئت، فأقبل علي رضي الله عنه، وهو يقول:

نحن لعمر الله أولى بالكتب

أنا علي وابن عبد المطلب

أهل اللواء والتمام والحجب

منا النبي المصطفى غير كذب

نحن نصرناه على كل العرب

ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة، فقطعه نصفين.

قال نصر: فحدثنا محمد بن عبيد الله، قال: حدثني الجرجاني، قال: جرع معاوية على حريث جزعاً شديداً، وعاتب عمرأ في إغرائه إياه بعلي رضي الله عنه، وقال في ذلك شعراً:

بأن علياً للفوارس قاهر

حريث ألم تعلم وجهلك ضائر

من الناس إلا أقصده الأظافر

وأن علياً لم يبارزه فارس

أمرتكَ أمراً حازماً فعصيتني
ودلاك عمرو والحوادث جمّة
وظن حريث أن عمراً نصيحه
وقد يهلك الإنسان من لا يحاذر
فجدك إذ لم تقبل النصيح عاثر
غروراً، وما جرت عليك المقادر

قال نصر: فلما قتل حريث برز عمرو بن الحصين السكسكي، فنادى: يا أبا حسن، هلم إلى المبارزة، فأوماً رضي الله عنه إلى سعيد بن قيس الهمداني، فبارزه فضربه بالسيف فقتله.
وقال نصر: وكان لهمدان بلاء عظيم في نصرة علي رضي الله عنه في صفين، ومن الشعر الذي لا يشك أن قائله علي رضي الله عنه لكثرة الرواة له:

دعوت فلباني من القوم عصبية
فوارس من همدان ليسوا بعزل
بكل رديني وعضب تخاله
لهمدان أخلاق كرام تزينهم
وجد وصدق في الحروب ونجدة
متى تأتتهم في دارهم تستضيفهم
جزى الله همدان الجنان فإنها
فلو كنت بواباً على باب جنة
فوارس من همدان غير لثام
غداة الوغى من شاكِر وشبام
إذا اختلف الأقوام شعل ضرام
وبأس إذا لاقوا وحد خصام
وقول إذا قالوا بغير أثام
تبت ناعماً في خدمة وطعام
سمام العدا في كل يوم زحام
لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

قال نصر: فحدثني عمم و بن شمر، قال: ثم قام علي رضي الله عنه بين الصفين، ونادى. يا معاوية، يكررها، فقال معاوية: سلوه ما شأنه، قال: أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة. فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قارباه، لم يلتفت إلى عمرو، وقال لمعاوية: ويحك! علام يقتتل الناس بيني وبينك، ويضرب بعضهم بعضاً! أبرز إلي، فأينا قتل صاحبه فالأمر له. فالتفت معاوية إلى عمرو، فقال: ما ترى يا أبا عبد الله، قال: قد أنصفك الرجل، واعلم أنك إن نكلت عنه لم يزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي على ظهر الأرض عربي. فقال معاوية: يابن العاص، ليس مثلي يخدع عن نفسه، والله ما بارز ابن أبي طالب شجاع قط إلا وسقى الأرض من دمه، ثم انصرف معاوية راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه، فلما رأى علي رضي الله عنه ذلك ضحك، وعاد إلى موقفه.

قال نصر: وفي حديث الجرجاني أن معاوية قال لعمرو: ويحك! ما أحمقك! تدعوني إلى مبارزته، ودوني عك وجذام والأشعرون! قال نصر: قال: وحقدتها معاوية على عمرو باطناً، وقال له ظاهراً: ما أظنك قلت ما قلته يا أبا عبد الله إلا مازحاً! فلما جلس معاوية مجلسه، أقبل عمرو يمشي حتى جلس إلى جانبه، فقال معاوية:

يا عمرو إنك قد قشرت لي العصا
برضاك لي وسط العجاج برازي
يا عمرو إنك قد أشرت بظنة
حسب المبارز خطفة من بازي

والهزل يحمله مقال الهازي

قتلي، جزاك بما نويت الجازي

ولقد لبست بها ثياب الخازي

ولقد ظننتك قلت مزحة مازح

فإذا الذي منتك نفسك حاكياً

ولقد كشفت قناعها مذمومة

فقال عمرو: أيها الرجل، أتجن عن خصمك، وتتهم نصيحتك وقال محبياً له:

وخفت فإنها أم المخازي

ولا أنا في الذي حدثت خازي

معاوي إن نكلت عن البراز

معاوي ما أجتزمت إليك ذنباً

وكبش القوم يدعى للبراز

حديد الناب يخطف كل بازي

جزاني بالذي أضمرت جازي

وما ذنبي بأن نادى علي

ولو بارزته بارزت ليثاً

وتزعم أنني أضمرت غشاً

وروى ابن قتيبة في كتابه المسمى عيون الأخبار قال: قال أبو الأغر التميمي: بينا أنا واقف بصفين، مربي العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، مكفراً بالسلاح، وعيناه تبصان من تحت المغفر، كأنهما عينا أرقم، وبيده صفيحة يمانية يقلبها، وهو على فرس له صعب، فبينما هو يبعثه، ويلين من عريكته، هتف به هاتف من أهل الشام، يعرف بعرار بن أدهم: يا عباس، هلم إلى البراز قال العباس: فالتزول إذا فإنه إياس من القفول، فتزل الشامي، وهو يقول:

أو تنزلون فإننا معشر نزل

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا

وثنى العباس رجله، وهو يقول:

العريض موضحة عن العظم

والكلم الأصيل كأرغب الكلم

ويصد عنك مخيلة الرجل

بحسام سيفك أو لسانك،

ثم عصب فضلات درعه في حجزته، ودفع فرسه إلى غلام له أسود، يقال له أسلم، كأني والله أنظر إلى فلافل شعره، ثم دلف كل واحد منهما إلى صاحبه، فذكرت قول أبي ذؤيب:

وكلاهما بطل اللقاء مخدع

فتنازلا وتواقفت خيلاهما

وكفت الناس أعنة خيولهم ينظرون ما يكون من الرحلي، فتكافحا بسيفيهما ملياً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأتمته إلى أن لحظ العباس وهناً في درع الشامي، فأهوى إليه بيده، فهتكه إلى ثندوته، ثم عاد لمحاولته، وقد أصحر له مفتق الدرع، فضر به العباس ضربة انتظم بها جوائح صدره، فخر الشامي لوجهه، وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض من تحتهم، وسما العباس في الناس، فإذا قائل يقول من ورائي: "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء"، فالتفت فإذا أمير المؤمنين رضي الله عنه، فقال لي: يا أبا الأغر، من المنازل لعدونا، قلت: هذا ابن أخيك، هذا العباس بن ربيعة، فقال: وإنه هو يا عباس ألم

أنهك، وابن عباس، أن تخلأ بمراكزكما، وأن تباشرا حرباً قال: إن ذلك كان، قال: فما غداً مما بدأ قال: يا أمير المؤمنين، أفأدعى إلى البراز فلا أجيب! قال: نعم طاعة إمامك أولى من إجابة عدوك، ثم تغيظ واستطار حتى قلت: الساعة الساعة. ثم سكن وتطامن، ورفع يديه مبتهلاً، فقال: اللهم أشكر للعباس مقامه، واغفر ذنبه، إني قد غفرت له، فاغفر له. قال: وهلف معاوية على عرار، وقال: متى ينتطح فحل لمثله أيطل دمه لاها الله إذا! ألا رجل يشري نفسه لله، يطلب بدم عرار! فانتدب له رجلان من لحم فقال لهما: اذهبا، فأيكما قتل العباس برازاً فله كذا، فأتيها، فدعوا للبراز، فقال: إن لي سيداً أريد أن أوامره. فأتى علياً رضي الله عنه، فأخبره الخبر، فقال علي رضي الله عنه، والله لود معاوية أنه ما بقي من بني هاشم نافخ ضربة إلا طعن في بطنه، إطفاء لنور الله: "ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون" أما والله ليملكنهم منا رجال ورجال يسومونهم الخسف، حتى يحتفروا الآبار، ويتكففوا الناس، ويتوكلوا على المساحي ثم قال: يا عباس، ناقلني سلاحك بسلاحي، فناقله، ووثب على فرس العباس، وقصد اللخمين، فما شكا أنه هو، فقالا: أذن لك صاحبك، فخرج أن يقول: نعم، فقال: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، فبرز إليه أحدهما، فكأتما اختطفه، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول، ثم أقبل وهو يقول: "الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" ثم قال: يا عباس، خذ سلاحك وهات سلاحي، فإن عاد لك أحد فعد إلي. قال: فمني الخبز إلى معاوية، فقال: قبح الله اللجاج! إنه لقعود ما ركبته قط إلا خذلت فقال عمرو بن العاص: المخذول والله اللخميان لا أنت! فقال: اسكت أيها الرجل، وليست هذه من ساعاتك، قال: وإن لم يكن فرحم الله اللخمين وما أراه يفعل! قال: فإن ذاك والله أخسر لصفقتك، وأضيق لحجرتك. قال: قد علمت ذاك، ولولا مصر لركبت المنجاة منها، قال: هي أعمتك، ولولاها ألفت بصيراً.

قال نصر بن مزاحم: وحدثنا عمرو، قال: حدثني فضيل بن خديج، قال: خرج رجل من أهل الشام يدعو إلى المبارزة، فخرج إليه عبد الرحمن بن محرز الكندي ثم الطمحي، فتجاولا ساعة. ثم إن عبد الرحمن حمل على الشامى، فطعنه في نقرة نحره فصرعه، ثم نزل إليه فسلبه درعه وسلاحه، فإذا هو عبد أسود، فقال: إنا لله! أخطرت نفسي بعبد أسود. قال: وخرج رجل من عك، فسأل البراز، فخرج إليه قيس بن فهران الكندي، فما ألبته أن طعنه فقتله، وقال:

لقد علمت عك بصفين أننا
إذا ما تلاقى الخيل نطعننا شزرا
ونحمل رايات القتال بحقها
فنوردها بيضاً ونصدرها حمرا

قال: وحمل عبد الله بن الطفيل البكائي على صفوف أهل الشام، فلما انصرف حمل عليه رجل من بني تميم يقال له قيس بن فهد الحنظلي اليربوعي، فوضع الرمح بين كتفي عبد الله، فاعترضه يزيد بن معاوية البكائي، ابن عم عبد الله بن الطفيل، فوضع الرمح بين كتفي التميمي، وقال: والله لئن طعنته لأطعنك، فقال: عليك عهد الله لئن رفعت السنان عن ظهر صاحبك لترفعه عن ظهري قال: نعم، لك العهد والميثاق بذلك. فرفع السنان عن ظهر عبد الله، فرفع يزيد السنان عن التميمي، فوقف التميمي، وقال ليزيد: ممن أنت، قال: من بني عامر، قال: جعلني الله فداكم، أينما لقيناكم، لقيناكم

كراماً، أما والله إني لآخر أحد عشر رجلاً من بني تميم قتلتموهم اليوم.

قال نصر: فبعد ذلك بدهر عتب يزيد على عبد الله بن الطفيل، فأذكره ما صنع معه يوم صفين، فقال:

بصفين إذ خلاك كل حميم

ألم ترني حاميت عنك مناصحاً

على سابح ذي ميعة وهزيم

ونهنت عنك الحنظلي وقد أتى

قال نصر: وخرج ابن مقيدة الحمار الأسدي وكان ذا بأس وشجاعة، وهو من فرسان الشام فطلب البراز، فقام المقطع العامري، وكان شيخاً كبيراً، فقال علي رضي الله عنه له: اقعد، فقال: يا أمير المؤمنين لا تردني، إما أن تقتلني فأتعجل الجنة وأستريح من الحياة الدنيا في الكبر والهرم، أو أقتله فأريحك منه.

وقال له رضي الله عنه: ما اسمك، فقال: المقطع، قال: ما معنى ذلك، قال: كنت أدعى هشيماً، فأصابني جراحة منكراً، فدعيت المقطع منها، فقال له رضي الله عنه: اخرج إليه، وأقدم عليه، اللهم انصر المقطع على ابن مقيدة الحمار، فحمل على ابن مقيدة الحمار فأدهشه لشدة الحملة، فهرب وهو يتبعه، حتى مر بمضرب معاوية حيث يراه والمقطع على أثره، فجاوزا معاوية بكثير، فلما رجع المقطع ورجع ابن مقيدة الحمار، ناداه معاوية: لقد شمس بك العراقي، قال: أما إنه قد فعل أيها الأمير ثم عاد المقطع، فوقف في موقفه.

قال نصر: فلما كان عام الجماعة، وباع الناس معاوية، سأل عن المقطع العامري، حتى أدخل عليه، وهو شيخ كبير، فلما رآه قال: آه، لولا أنك على مثل هذه الحال لما أفلت مني، قال: نشدتك الله إلا تقتلني وأرحمني من بؤس الحياة، وأدنييني إلى لقاء الله، قال: إني لا أقتلك، وإن بي إليك حاجة، قال: ما هي، قال: أحب أن تؤاخي، قال: إنا وإياكم، افترقنا في الله، فلا نجتمع حتى يحكم الله بيننا في الآخرة.

قال: فزوجني ابنتك، قال: قد منعتك ما هو أهون علي من ذلك، قال: فاقبل مني صلة، قال: لا حاجة لي فيما قبلك. قال: فخرج من عنده ولم يقبل منه شيئاً.

قال نصر: ثم التقى الناس، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وحاربت طيئ مع أمير المؤمنين رضي الله عنه حرباً عظيماً، وتداعت وارتجزت، فقتل منها أبطال كثيرون، وفقت عين بشر بن العوس الطائي وكان من رجال طيئ وفرسانها فكان يذكر بعد ذلك أيام صفين، فيقول: وددت أني كنت قتلت يومئذ، ووددت أن عيني هذه الصحيحة فقتت أيضاً، وقال:

ولم أمش بين الناس إلا بقائد

ألا ليت عيني هذه مثل هذه

وباليت كفي ثم طاح بساعدي

ويا ليت رجلي ثم طنت بنصفها

وسعد وبعد المستتير بن خالد

ويا ليتني لم أبق بعد مطرف

إذا هي أبدت عن خدام الخرائد

فوارس لم تغذ الحواضن مثلهم

قال نصر: وأبليت محارب يومئذ مع أمير المؤمنين رضي الله عنه بلاء حسناً، وكان عنتر بن عبيد بن خالد بن المحاربي أشجع الناس يومئذ، فلما رأى أصحابه متفرقين، ناداهم: يا معشر قيس، أطاعة الشيطان أبر عندكم من طاعة الرحمن! ألا

إن الفرار فيه معصية الله وسخطه، وإن الصبر فيه طاعة الله ورضوانه، أفتختارون سخط الله على رضوانه، ومعصيته على طاعته! ألا إنما الراحة بعد الموت لمن مات محتسباً لنفسه، ثم يرتجز فيقول:

أنا الذي لا أنتني ولا أفر

لا وألت نفس امرئ ولى الدبر

ولا يرى مع المعازيل الغدر

وقاتل حتى ارتث.

قال نصر: وقاتلت النخع مع علي رضي الله عنه ذلك اليوم قتالاً شديداً، وقطعت رجل علقمة بن قيس النخعي، وقتل أخوه أبي بن قيس، فكان علقمة يقول بعد: ما أحب أن رجلي أصح ما كانت، لما أرجو بها من حسن الثواب. وكان يقول: لقد كنت أحب أن أبصر أخي في نومي، فرأيت، فقلت له: يا أخي، ما الذي قدمتم عليه، فقال لي: التقينا نحن وأهل الشام بين يدي الله سبحانه، فاحتجنا عنده، فحججناهم. فما سررت بشيء منذ عقلت سروري بتلك الرؤيا. قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن سويد بن حبة البصري، عن الحضير بن المنذر الرقاشي، قال: إن ناساً أتوا علياً رضي الله عنه قبل الوقعة في هذا اليوم، فقالوا له: إنا لا نرى خالد بن المعمر السدوسي إلا وقد كاتب معاوية، وقد خشينا أن يلتحق به ويبيعه، فبعث إليه علي رضي الله عنه وإلى رجال من أشراف ربيعة، فجمعهم، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا معشر ربيعة، أنتم أنصاري ومجيبو دعوتي، ومن أوثق أحياء العرب في نفسي، وقد بلغني أن معاوية قد كاتب صاحبكم هذا، وهو خالد بن المعمر، وقد أتيت به وجمعتكم لأشهدكم عليه، وتسمعوا مني ومنه. ثم أقبل عليه فقال: يا خالد بن المعمر، إن كان ما بلغني عنك حقاً، فإني لأشهد من حضري من المسلمين أنك آمن، حتى تلحق بالعراق، أو بالحجاز أو بأرض لا سلطان لمعاوية فيها، وإن كنت مكذوباً عليك، فأبر صدورنا بأيمان نطمئن إليها، فحلف له خالد بالله ما فعل، وقال رجال منا كثير: والله يا أمير المؤمنين لو نعلم أنه فعل لقتلناه. وقال شقيق بن ثور السدوسي: ما وفق الله خالد بن المعمر حين ينصر معاوية وأهل الشام على علي وأهل العراق وربيعة. فقال له زياد بن خصفة: يا أمير المؤمنين، استوثق من ابن المعمر بالأيمان، لا يغدر بك، فاستوثق منه. ثم انصرفوا. فلما تصاف الناس في هذا اليوم، وحمل بعضهم على بعض، تضعضعت ميمنة أهل العراق، فجاءنا علي رضي الله عنه ومعه بنوه، حتى انتهى إلينا، فنأدى بصوت عال جهير: لمن هذه الرايات، فقلنا: رايات ربيعة، فقال: بل هي رايات الله عصم الله أهلها، وصبرهم وثبت أقدامهم، ثم قال لي وأنا حامل راية ربيعة يومئذ: يا فتى، ألا تدني رايتك هذه ذراعاً، فقلت: بلى، والله وعشرة أذرع، ثم ملت بها هكذا، فأدنيتهما، فقال لي: حسبك مكانك. قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثني يزيد بن أبي الصلت التيمي، قال: سمعت أشياخ الحي من بني تميم بن ثعلبة يقولون: كانت راية ربيعة كلها: كوفيتها وبصريتها، مع خالد بن المعمر السدوسي من ربيعة البصرة، ثم نافسه في الراية شقيق بن ثور، من بكر بن وائل من أهل الكوفة، فاصطلحا على أن يوليا الراية الحضير بن المنذر الرقاشي، وهو من أهل البصرة أيضاً، وقالوا: هذا فتى له حسب، نعطيه الراية إلى أن نرى رأينا، وكان الحضير يومئذ شاباً حدث السن.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: أقبل الحضيض بن المنذر يومئذ وهو غلام يزحف براية ربيعة، وكانت حمراء، فأعجب علياً رضي الله عنه زحفه وثباته، فقال:

لمن راية حمراء يخفق ظلها
وידنو بها في الصف حتى يزيها
تراه إذا ما كان يوم عزيمة
جزى الله قوماً صابروا في لقائهم
وأحزم صبراً يوم يدعى إلى الوغى
ربيعة أعني إنهم أهل نجدة
وقد صبرت عك ولخم وحمير
إذا قيل قدمها حضيض تقدما
حمام المنايا تقطر الموت والدماء
أبى فيه إلا عزة وتكرما
لدى الناس حراً ما أعف وأكرما
إذا كان أصوات الكمأة تغمغما
وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما
لمذحج حتى لم يفارق دم دما

ونادت جذام: يال مذحج ويحكم
أما تتقون الله في حرمانكم
أدقنا ابن حرب طعننا وضرابنا
وفر ينادي الزبرقان وظالماً
وعمرأ وسفياناً وجهماً ومالكاً
وكرز بن تيهان وعمرو بن جدر
جزى الله شراً أينما كان أظلماً
وما قرب الرحمن منها وعظماً
بأسيا فنانا حتى تولى وأحجماً
ونادى كلاعاً والكريب وأنعماً
وحوشب والغاوي شريحاً وأظلماً
وصباحاً القيني يدعو وأسلماً

قلت: هكذا روى نصر بن مزاحم، وسائر الرواة روى له رضي الله عنه الأبيات الستة الأولى، ورووا باقي الأبيات، من قوله: وقد صبرت عك للحضيض بن المنذر صاحب الراية.

قال نصر: وأقبل ذو الكلاع في حمير ومن لف لفها، ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من قراء أهل الشام، وذو الكلاع في حمير في الميمنة، وعبيد الله في القراء في الميسرة، فحملوا على ربيعة وهم في ميسرة أهل العراق، وفيهم عبيد الله بن العباس حملة شديدة، لتضعضت رايات ربيعة.

ثم إن أهل الشام انصرفوا فلم يملكوا إلا قليلاً، حتى كروا ثانية وعبيد الله بن عمر في أوائلهم، يقول: يا أهل الشام، هذا الحي من العراق قتله عثمان بن عفان وأنصار علي بن أبي طالب، ولئن هزمت هذه القبيلة أدركتم تأركم من عثمان، وهلك علي وأهل العراق. فشدوا على الناس شدة عظيمة، فثبتت لهم ربيعة، وصبرت صبراً حسناً، إلا قليلاً من الضعفاء. فأما أهل الرايات وذوو البصائر منهم والحفاظ، فثبتوا وقاتلوا قتالاً شديداً. وأما خالد بن المعمر فإنه لما رأى بعض أصحابه قد انصرفوا انصرف معهم، فلما رأى أهل الرايات ثابتين صابرين رجع إليهم وصاح بمن الهزم، وأمرهم بالرجوع، فكان من يتهمة من قومه، يقول: إنه فر، فلما رأنا قد ثبتنا رجع إلينا، وقال هو: لما رأيت رجالاً منا قد انهزموا، رأيت أن

أستقبلهم ثم أردهم إلى الحرب، فجاء بأمر مشتبّه.

قال نصر: وكان في جملة ربيعة من عترة وحدها أربعة آلاف مجفف.

قلت: لا ريب عند علماء السيرة أن خالد بن المعمر كان له باطن سوء مع معاوية، وأنه انهزم هذا اليوم ليكسر الميسرة على علي رضي الله عنه، ذكر ذلك الكلبي والواقدي وغيرهما. ويدل على باطنه أنه لما استظهرت ربيعة على معاوية وعلى صفوف أهل الشام في اليوم الثاني من هذا أرسل معاوية إلى خالد بن المعمر: أن كف عني ولك إمارة خراسان ما بقيت. فكف عنه، فرجع بريعة، وقد شارفوا أخذه من مضربه، وسيأتي ذكر ذلك.

قال نصر: فلما رجع خالد بن المعمر واستوت صفوف ربيعة كما كانت، خطبهم فقال: يا معشر ربيعة: إن الله تعالى قد أتى بكل رجل منكم من منبته ومسقط رأسه، فجمعكم في هذا المكان جمعاً لم تجتمعوا مثله قط منذ أفرشكم الله الأرض، وإنكم إن تمسكوا أيديكم، وتنكلوا عن عدوكم وتحولوا عن مصافكم، لا يرضى الرب فعلكم ولا تعدموا معيماً يقول: فضحت ربيعة الذمار، وخاموا عن القتال، وأتيت من قبلهم العرب، فإياكم أن يتشاءم بكم اليوم المسلمون. لأنكم إن تمضوا مقدمين وتصبروا محتسبين، فإن الإقدام منكم عادة، والصبر منكم سجية، فاصبروا ونيتكم صادقة تؤجروا، فإن ثواب من نوى ما عند الله شرف الدنيا وكرامة الآخرة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. فقام إليه رجل من ربيعة، وقال: قد ضاع والله أمر ربيعة حين جعلت أمرها إليك، تأمرنا ألا نحول ولا نزول، حتى نقتل أنفسنا، ونسفك دماءنا. فقام إليه رجل من قومه، فتناولوه بقسيهم، ولكزوه بأيديهم، وقالوا لخالد بن المعمر: أخرجوا هذا من بينكم، فإن هذا إن بقي فيكم ضرركم، لأن خرج منكم لم ينقصكم عدداً، هذا الذي لا ينقص العدد، ولا يملأ البلد. ترحك الله من خطيب قوم! لقد جنبك الخير. قبح الله ما جئت به.

قال نصر: واشتد القتال بين ربيعة وحمير وعبيد الله بن عمر حتى كثرت القتلى، وجعل عبيد الله يحمل ويقول: أنا الطيب ابن الطيب؟ فتقول له ربيعة: بل أنت الخبيث ابن الطيب.

ثم خرج نحو خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب علي رضي الله عنه على رؤوسهم البيض وهم غائصون في الحديد، لا يرى منهم إلا الحدق، وخرج إليهم من أهل الشام نحوهم في العدة، فاقتتلوا بين الصفين، والناس وقوف تحت راياتهم، فلم يرجع من هؤلاء ولا من هؤلاء مخبر، لا عراقي ولا شامي، قتلوا جميعاً بين الصفين.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن تميم، قال: نادى منادي أهل الشام: ألا إن معنا الطيب ابن الطيب، عبيد الله بن عمر، فنادى منادي أهل العراق بل هو الخبيث ابن الطيب، ونادى منادي أهل العراق: ألا إن معنا الطيب ابن الطيب محمد بن أبي بكر فنادى منادي أهل الشام: بل الخبيث ابن الطيب.

قال نصر: وكان بصفين تل تلتقي عليه جماجم الرجال، فكان يدعى تل الجماجم، قال عقبة بن سلم الرقاشي من أهل الشام:

وأمنع منا يوم تل الجماجم

ولم أر فرساناً أشد حفيظة

نعام تلاقى في فجاج المخارم
مللمة في البيض شمت المقدام
فقلنا: صه بل بالسيوف الصوارم

غداة غدا أهل العراق كأنهم
إذا قلت قد ولوا تثوب كتيبة
وقالوا لنا: هذا علي فبايعوه

وقال شيبث بن ربعي التميمي:

لن غدوة حتى هوت لغروب
وقد أرضت الأسياف كل غضوب
على كل محبوبك السراة شبوب
إذا غشي الآفاق رهج جنوب
وكل حديد الشفرتين قضب

وقفنا لديهم يوم صفين بالقنا
وولى ابن حرب والرماح تتوشه
نجالدهم طوراً وطوراً نشلهم
فلم أر فرساناً أشد حفيظة
أكر وأحمى بالخطاريف والقنا

قال نصر: ثم ذهب هذا اليوم بما فيه، فأصبحوا في اليوم التاسع من صفر، وقد خطب معاوية أهل الشام وحرصهم، فقال: إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وحضركم ما حضركم، فإذا هُدم إليهم إن شاء الله، فقدموا الدارع، وأخروا الحاسر، وصفوا الخيل وأجنبوها، وكونوا كقص الشارب، وأعيرونا جماجمكم ساعة، فإنما هو ظالم أو مظلوم، وقد بلغ الحق مقطعه.

قال نصر: وروى الشعبي، قال: قام معاوية فخطب الناس بصفين في هذا اليوم، فقال: الحمد لله الذي دنا في علوه، وعلا في دنوه، وظهر وبطن، وارتفع فوق كل ذي منظر، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، يقضي فيفصل، ويقدر فيغفر، ويفعل ما يشاء، إذا أراد أمراً أمضاه، وإذا عزم على شيء قضاه، لا يؤامر أحداً فيما يملك، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والحمد لله رب العالمين، على ما أحببنا وكرهنا. وقد كان فيما قضاه الله أن ساقنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض، ولف بيننا وبين أهل العراق، فنحن من الله بمنظر، وقد قال الله سبحانه: "ولو شاء الله ما أقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد".

انظروا يا أهل الشام، إنكم غدا تلقون أهل العراق، فكونوا على إحدى ثلاث خصال: إما أن تكونوا قوماً طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم، فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا في بيضتكم وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتم وصهر نبيكم، وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نسائكم وأبنائكم. فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل، أسأل الله لنا ولكم النصر وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق، وهو خير الفاتحين.

فقام ذو الكلاع، فقال: يا معاوية، إنا نحن الصبر الكرام، لا ننثني عند الخصام، بنو الملوك العظام، ذوي النهى والأحلام، لا يقربون الآثام. فقال معاوية: صدقت.

قال نصر: وكانت التعبئة في هذا اليوم كالتعبية في الذي قبله، وحمل عبيد الله بن عمر في قراء أهل الشام، ومعه ذو الكلاع في حمير على ربيعة، وهي في ميسرة علي رضي الله عنه، فقاتلوا قتالاً شديداً، فأتى زياد بن خصفة إلى عبد

القيس، فقال لهم: لا بكر بن وائل بعد اليوم! إن ذا الكلاع وعبيد الله أبدا ربيعة، فانهضوا لهم وإلا هلكوا. فركبت عبد القيس، وجاءت كأنها غمامة سوداء فشدت أزر الميسرة، فعظم القتال، فقتل ذو الكلاع الحميري، قتله رجل من بكر بن وائل، اسمه خندف، وتضععت أركان حمير، وثبتت بعد قتل ذي الكلاع تحارب مع عبيد الله بن عمر، وأرسل عبيد الله إلى الحسن بن علي رضي الله عنه: إن لي إليك حاجة فالقني، فلقيه الحسن رضي الله عنه، فقال له عبيد الله: إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخر، وقد شئت الناس، فهل لك في خلعه، وأن تتولى أنت هذا الأمر! فقال: كلا والله، لا يكون ذلك. ثم قال: يا بن الخطاب، والله لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك. أما إن الشيطان قد زين لك وخدعك، حتى أخرجك مخلقاً بالخلق، ترى نساء أهل الشام موقفك، وسيصرعك الله، ويطحك لوجهك قتيلاً.

قال نصر: فوالله ما كان إلا بياض ذلك اليوم حتى قتل عبيد الله، وهو في كتيبة رقطاع، وكانت تدعى الخضرية، كانوا أربعة آلاف، عليهم ثياب خضر، فمر الحسن رضي الله عنه، فإذا رجل متوسد برجل قتيل، قد ركز رمح في عينه، وربط فرسه برجله، فقال الحسن رضي الله عنه لمن معه: انظروا من هذا، فإذا رجل من همدان، وإذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قد قتله الهمداني في أول الليل، وبات عليه حتى أصبح.

قال نصر: وقد اختلف الرواة في قاتل عبيد الله، فقالت همدان: نحن قتلناه، قتله هانئ بن الخطاب الهمداني، وركز رمح في عينه. وذكر الحديث. وقالت حضرموت: نحن قتلناه، قتله مالك بن عمرو الحضرمي. وقالت بكر بن وائل: نحن قتلناه، قتله محرز بن الصحصح من بني تميم اللات بن ثعلبة، وأخذ سيفه الوشاح.

فلما كان عام الجماعة طلب معاوية السيف من ربيعة الكوفة، فقالوا: إنما قتله رجل من ربيعة البصرة يقال له محرز بن الصحصح، فبعث إليه معاوية، فأخذ السيف منه.

قال نصر: وقد روي أن قتله حريث بن جابر الحنفي، وكان رئيس بني حنيفة يوم صفين مع علي رضي الله عنه، حمل عبيد الله بن عمر على صف بني حنيفة، وهو يقول:

خير قريش من مضى ومن غبر
قد أبطأت عن نصر عثمان مضر
وسارع الحي اليمانون الغرر

أنا عبيد الله ينميني عمر
إلا رسول الله والشيخ الأغر
والربيعيون فلا أسقوا المطر
والخير في الناس قديماً يبتدر
فحمل عليه حريث بن جابر الحنفي، وقال:

في الحق والحق لها شريعه
في العصبية السامعة المطيعه

قد سارعت في نصرها ربيعه
فاكفف فلست تارك الوقيعه
حتى تذوق كأسها الفظيعه

قال نصر: فقال كعب بن جعيل التغلبي يرثي عبيد الله، وكان كعب شاعر أهل الشام:

بصفين أجلت خيله وهو واقف

ألا إنما تبكي العيون لفارس

تبدل من أسماء أسياف وائل	وأى فتى لو أخطأته المتالف
تركتكم عبيد الله في القاع مسلماً	يمج دماء، والعروق نوازف
ينوء وتغشاه شأبيب من دم	كما لاح في جيب القميص الكفاف
دعاهن فاستسمعن من أين صوته	فأقبلن شتى والعيون ذوارف
تحللن عنه زر درع حصينة	وينكر منه بعد ذاك معارف
وقرت تميم سعدا وربابها	وخالفت الخضراء فيمن يخالف
وقد صبرت حول ابن عم محمد	لدى الموت شهباء المناكب شارف
بمرج ترى الرايات فيه كأنها	إذا جنحت للطعن طير عواكف
فما برحوا حتى رأى الله صبرهم	وحتى أسرت بالأكف المصاحف
جزى الله قتلانا بصفين خير ما	أثيب عباد غادرتها المواقف

قلت: هذا الشعر نظمه كعب بن جعيل بعد رفع المصاحف وتحكيم الحكّمين يذكر فيه ما مضى هم من الحرب على عادة شعراء العرب، والضمير في قوله: دعاهن فاستسمعن من أين صوته يرجع إلى نساء عبيد الله، وكانت تحته أسماء بنت عطار بن حاجب بن زرارة التميمي وبحرية بنت هانئ بن قبيصة الشيباني، وكان عبيد الله قد أخرجهما معه إلى الحرب ذلك اليوم لينظرا إلى قتاله، فوقفتا راحلتين، وإلى أسماء بنت عطار، أشار كعب بن جعيل بقوله: تبدل من أسماء أسياف وائل والشعر يدل على أن ربيعة قتلتها، لا همدان ولا حضرموت.

ويدل أيضاً على ذلك ما رواه إبراهيم بن ديزيل الهمداني في كتاب صفين: قال شدت ربيعة الكوفة، وعليها زياد بن خصفة على عبيد الله بن عمر ذلك اليوم، وكان معاوية قد أقرع بين الناس، فخرج سهم عبيد الله بن عمر على ربيعة فقتلته، فلما ضرب فسطاط زياد بن خصفة بقي طنب من الأطناب لم يجدوا له وتداً، فشده برجل عبيد الله بن عمر، وكان ناحية فجروه، حتى ربطوا الطنب برجله، وأقبلت امرأته حتى وقفنا عليه، فبكنا عليه وصاحتا، فخرج زياد بن خصفة، فقيل له: هذه بحرية ابنة هانئ بن قبيصة الشيباني ابنة عمك، فقال لها: ما حاجتك يا بنة أخي! قالت: تدفع زوجي إلي، فقال: نعم خذي، فجيء ببغل فحملته عليه، فذكروا أن يديه ورجليه خطتا بالأرض عن ظهر البغل. قال نصر: ومما رثى به كعب بن جعيل عبيد الله بن عمر قوله:

يقول عبيد الله لما بدت له	سحابة موت تقطر الحنف والدما
ألا يالقومي فاصبروا إن صبركم	أعف وأحجى عفة وتكرما
فلما تدانى القوم خر مجدلاً	صريعاً تلاقي الترب كفيه والفما
وخفف أطفالاً يتامى أذلة	وعرساً عليه تسكب الدمع أيما

حلالاً لها الخطاب لا يمنعهم

وقد كان يحمي غيره أن تكلموا

وقال الصلتان العبدى يذكر مقتل عبيد الله، وأن حريث بن جابر الحنفى قتله:

ألا يا عبيد الله ما زلت مولعاً

ببكر لها تهدي القرى والتهددا

وكننت سفيهاً قد تعودت عادة

وكل امرئ جار على ما تعودا

فأصبحت مسلوباً على شر آله

صريع القنا تحت العجاجة مفردا

تشق عليك جبيها ابنة هانئ

مسلبة تبدي الشجا والتلدا

وكانت ترى ذا الأمر قبل عيانه

ولكن حكم الله أهدى لك الردى

وقالت عبيد الله لا تأت وائلا

فقلت لها لا تعجلي وانظري غدا

فقد جاء ما قد مسها فتسلبت

عليك، وأمسى الجيب منها مقددا

حباك أخو الهيجا حريث بن جابر

بجياشة تحكي بها النهر مزبدا

كأن حماة الحي بكر بن وائل

بذي الرمث أسد قد تبوأن غرقدا

قال نصر: فأما ذو الكلاع فقد ذكرنا مقتله، وأن قاتله خندف البكري.

وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: لما حمل ذو الكلاع ذلك اليوم بالفيلق العظيم من حمير على صفوف أهل العراق، ناداهم أبو شجاع الحميري - وكان من ذوي البصائر مع علي رضي الله عنه - فقال: يا معشر حمير، تبت أيديكم! أترون معاوية خيراً من علي رضي الله عنه أضل الله سعيكم. ثم أنت يا ذا الكلاع قد كنا نرى أن لك نية في الدين، فقال ذو الكلاع: إيه يا أبا شجاع! والله إني لأعلم ما معاوية بأفضل من علي رضي الله عنه ولكي أقاتل على دم عثمان، قال: فأصيب ذو الكلاع حينئذ، قتله خندف بن بكر البكري في المعركة.

قال نصر: فحدثنا عمرو، قال: حدثنا الحارث بن حصيرة أن ابن ذي الكلاع، أرسل إلى الأشعث بن قيس رسولاً يسأله أن يسلم إليه جثة أبيه، فقال الأشعث: إني أخاف أن يتهمني أمير المؤمنين في أمره، فاطلبه من سعيد بن قيس فهو في الميمنة، فذهب إلى معاوية فاستأذنه أن يدخل إلى عسكر علي رضي الله عنه، يطلب أباه بين القتلى، فقال له: إن علياً قد منع أن يدخل أحد منا إلى معسكره، يخاف أن يفسد عليه جنده، فخرج ابن ذي الكلاع، فأرسل إلى سعيد بن قيس الحمداني يستأذنه في ذلك، فقال سعيد: إنا لا نمنعك من دخول العسكر؛ إن أمير المؤمنين لا يبالي من دخل منكم إلى معسكره؛ فادخل، فدخل من قبل الميمنة، فطاف فلم يجد، ثم أتى الميسرة فطاف فلم يجد، ثم وجده وقد ربطت رجله بطنب من أطناب بعض فساطيط العسكر فجاء فوقف على باب الفسطاط، فقال: السلام عليكم يا أهل البيت فقيل له: وعليك السلام فقال: أتأذنون لنا في طنب من أطناب فسطاطكم؛ ومعه عبد أسود لم يكن معه غيره. فقالوا: قد أذننا لكم، وقالوا له: معذرة إلى الله وإليكم أما إنه لولا بغية علينا ما صنعنا به ما ترون فتزل ابنه إليه، فوجده قد انتفخ - وكان من أعظم الناس خلقاً - فلم يطق احتماله، فقال: هل من فتى معوان؛ فخرج إليه خندف البكري فقال: تنحوا عنه فقال

ابنه: ومن الذي يحمله إذا تنحينا عنه؟ قال: يحمله قاتله. فاحتمله خندف حتى رمى به على ظهر بغل، ثم شده بالحبال، فانطلقا به.

قال نصر: وقال معاوية لما قتل ذو الكلاع: لأننا أشد فرحاً بقتل ذي الكلاع مني بفتح مصر لو فتحناها. قال: لأن ذا الكلاع كان يحجر على معاوية في أشياء كان يأمر بها.

قال نصر: فلما قتل ذو الكلاع واشتدت الحرب وشدت عك ولحم وجذام، والأشعريون من أهل الشام على مذبح من أهل العراق، جعلهم معاوية بإزائهم، ونادى منادي عك:

لنتركن أمهم تبكي

ويل أم مذبح من عك

بكل قرن باسل مصك

نقتلهم بالطعن ثم الصك

فلا رجال كرجال عك

فنادى منادي مذبح؛ يا لمذبح! خدموا- أي اضربوا السوق مواضع الخدمة، وهي الخلاخيل- فاعترضت مذبح سوق القوم، فكان فيه بوار عامتهم ونادى منادي جذام حين طحنت رحا القوم وخاضت الخيل والرجال في الدماء: الله الله في جذام، ألا تذكرون الأرحام، أفنيتم لهما الكرام، والأشعريين وآل ذي حمام! أين النهى والأحلام! هذي النساء تبكي الأعلام.

ونادى منادي عك: يا عك أين المفر، اليوم تعلم ما الخبر، لأنكم قوم صبر، كونوا كمجتمع المدر، لا تشمتن بكم مضر، حتى يحول ذا الخبر.

ونادى منادي الأشعريين: يا مذبح، من للنساء غدا إذا أفناكم الردى؛ الله الله في الحرمات؛ أما تذكرون نساءكم والبنات، أما تذكرون فارس والروم والأتراك؛ لقد أذن الله فيكم بالهلاك! قال: والقوم ينحر بعضهم بعضاً ويتكادمون بالأفواه.

قال نصر: وحدثني عمرو بن الزبير: لقد سمعت الحضير بن المنذر، يقول: أعطاني علي رضي الله عنه ذلك اليوم راية ربيعة، وقال: باسم الله سر يا حضين، واعلم أنه لا تحق على رأسك راية مثلها أبداً، هذه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فجاء أبو عرفاء جبلة بن عطية الذهلي إلى الحضين، وقال: هل لك أن تعطيني الراية أحملها لك، فيكون لك ذكرها، ويكون لي أجرها! فقال الحضين: وما غناي يا عم عن أجرها مع ذكرها! قال: إنه لا غنى بك عن ذلك، ولكن أعرها عمك ساعة، فما أسرع ما ترجع إليك! قال الحضين: فقلت: إنه قد استقتل، وإنه يريد أن يموت مجاهداً، فقلت له: خذها فأخذها، ثم قال لأصحابه: إن عمل الجنة كره كله وثقيل، وإن عمل الناس خف كله وخييث، إن الجنة لا يدخلها إلا الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره، وليس شيء مما افترض الله على العباد أشد من الجهاد، هو أفضل الأعمال ثواباً عند الله، فإذا رأيتموني قد شددت فشداً، ويحكم! أما تشناقون إلى الجنة! أما تحبون أن يغفر الله لكم! فشدد وشدوا معه، فقاتلوا قتالاً شديداً، فقتل أبو عرفاء رحمه الله تعالى، وشدت ربيعة بعده شدة عظيمة على صفوف أهل الشام فنقضتها. وقال مجزأة بن ثور:

الأبرج العين العظيم الحاويه

جاوره فيها كلاب عاويه

قال نصر: وكان حريث بن جابر يومئذ نازلاً بين الصفيين في قبة له حمراء، يسقي أهل العراق اللبن والماء والسويق، ويطعمهم اللحم والثريد، فمن شاء أكل، ومن شاء شرب، ففى ذلك يقول شاعرهم:

لأصبح بحراً بالمفازة جاريا

قلت: هذا حريث بن جابر؛ هو الذي كتب معاوية إلى زياد في أمره بعد عام الجماعة - وحريث عامل لزياد على همدان - أما بعد فاعزل حريث بن جابر عن عمله فما ذكرت موافقه بصفين إلا كانت حزازة في صدري. فكتب إليه زياد: خفض عليك يا أمير المؤمنين، فإن حريثاً قد بلغ من الشرف مبلغاً لا تزيده الولاية، ولا ينقصه العزل.

قال نصر فاضطرب الناس يومئذ بالسيوف حتى تقطعت وتكسرت وصارت كالمناجل وتطاعنوا بالرماح حتى تقصفت وتناثرت أستنها، ثم جثوا على الركب فتحاثوا بالتراب، يحنو بعضهم التراب في وجه بعض ثم تعانقوا وتكادموا بالأفواه، ثم تراموا بالصخر والحجارة. ثم تحاجزوا، فكان الرجل من أهل العراق يمر على أهل الشام، فيقول: كيف أخذ إلى رايات بني فلان؛ فيقولون: هاهنا لا ههناك الله، ويمر الرجل من أهل الشام على أهل العراق، فيقول: كيف أخذ إلى راية بني فلان؛ فيقولون هاهنا لا حفظك الله ولا عافاك.

قال نصر: وقال معاوية لعمر بن العاص: أما ترى يا أبا عبد الله إلى ما قد دفعنا؛ كيف ترى أهل العراق غدا صانعين! إنا لمعرض خطر عظيم. فقال له: إن أصبحت غداً ربيعة وهم متعطفون حول علي رضي الله عنه تعطف الإبل حول فحلها، لقيت منهم جلاًداً صادقاً، وبأساً شديداً، وكانت التي لا يتعزى لها. فقال معاوية: أيجوز أنك تخوفنا يا أبا عبد الله! قال: إنك سألتني فأجبتك. فلما أصبحوا في اليوم العاشر أصبحوا وربيعة محدقة بعلي رضي الله عنه إحداق بياض العين بسوادها.

قال نصر: فحدثني عمرو، قال: لما أصبح علي رضي الله عنه هذا اليوم، جاء فوقف بين رايات ربيعة، فقال عتاب بن لقيط البكري، من بني قيس بن ثعلبة، يا معشر ربيعة، حاموا عن علي منذ اليوم فإن أصيب فيكم افتضحتم، ألا ترونه قائماً تحت راياتكم! وقال! لهم شقيق بن ثور: يا معشر ربيعة، ليس لكم عذر عند العرب إن وصل إلى علي وفيكم رجل حي فامنعوه اليوم، واصدقوا عدوكم اللقاء فإنه حمد الحياة تكسبونه، فتعاهدت ربيعة وتحالفت بالأيمان العظيمة منها تباع سبعة آلاف، على ألا ينظر رجل منهم خلفه حتى يردوا سراذق معاوية، فقاتلوا ذلك اليوم قتلاً شديداً لم يكن قبله مثله، وأقبلوا نحو سراذق معاوية، فلما نظر إليهم قد أقبلوا قال:

كتائب منها كالجبال تجالد

ثم قال لعمر: يا عمرو، ما ترى! قال: أرى ألا تحت أحوالي اليوم. فقام معاوية وخلي لهم سرادقه ورحله وخرج فاراً عنه لائذاً ببعض مضارب العسكر في أخريات الناس فدخله، وانتهت ربيعة سرادقه ورحله وبعث إلى خالد بن المعمر: إنك قد ظفرت ولك إمرة خراسان إن لم تتم. فقطع خالد القتال ولم يتمه، وقال لربيعة: قد برت أيمانكم فحسبكم فلما كان عام الجماعة، وبايع الناس معاوية، أمره معاوية على خراسان، وبعثه إليها فمات قبل أن يبلغها. قال نصر: في حديث عمرو بن سعد: إن علياً رضي الله عنه صلى بهم هذا اليوم صلاة الغداة، ثم زحف بهم فلما أبصروه قد خرج استقبلوه بزحوفهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم إن خيل أهل الشام حملت على خيل أهل العراق، فاقتطعوا من أصحاب علي رضي الله عنه ألف رجل أو أكثر، فأحاطوا بهم، وحالوا بينهم وبين أصحابهم فلم يروهم، فنادى علي رضي الله عنه يومئذ: ألا رجل يشري نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته! فأتاه رجل من جعف يقال! له عبد العزيز بن الحارث، على فرس أدهم، كأنه غراب مقنع في الحديد، لا يرى منه إلا عيناه، فقال: يا أمير المؤمنين، مرني بأمرك، فوالله لا تأمرني بشيء إلا صنعته، فقال علي رضي الله عنه:

وسدقاً وإخوان الوفاء قليل

لعمرك فضل ما هناك جزيل

سمحت بأمر لا يطاق حفيظة

جزاك إله الناس خيراً فإنه

يا أبا الحارث، شد الله ركنك، احمل على أهل الشام، حتى تأتي أصحابك فتقول لهم: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام؛ ويقول لكم: هللو وكبروا من ناحيتكم، ونهمل نحن ونكبر من هاهنا، واحملوا من جانبكم، ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام. فضرب الجعفي فرسه؛ حتى إذا أقامه على أطراف سناكه، حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب علي رضي الله عنه، فطاعنهم ساعة، وقتلهم، فأفرجوا له حتى خلص إلى أصحابه، فلما رأوه استبشروا به وفرحوا، وقالوا: ما فعل أمير المؤمنين؟ قال: صالح، يقرئكم السلام ويقول لكم: هللو وكبروا واحملوا حملة شديدة من جانبكم، ونهمل نحن ونكبر ونحمل من جانبنا، ففعلوا ما أمرهم به، وهللو وكبروا، وهمل علي رضي الله عنه وكبر هو وأصحابه، وحمل على أهل الشام وحملوا هم من وسط أهل الشام، فانفرج القوم عنهم وخرجوا؛ وما أصيب منهم رجل واحد ولقد قتل من فرسان الشام يومئذ زهاء سبعمئة إنسان.

قال علي رضي الله عنه: من أعظم الناس اليوم غناء؛ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: كلا، ولكنه الجعفي . قال نصر: وكان علي رضي الله عنه لا يعدل بريئة أحداً من الناس، فشق ذلك على مضر، وأظهروا لهم القبيح، وأبدوا ذات أنفسهم، فقال الحضيض بن المنذر الرقاشي شعراً أغضبهم به، من جملة:

دونها شعار أمير المؤمنين، وذا الفضل

هو السوء والبغضاء والحد والغل

ولن تلحقونا الدهر ما حنت الإبل

أرى مضراً صارت ربيعة

فأبدوا لنا مما تجن صدورهم

فأبلوا بلانا أو أقرؤا بفضلنا

فقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني، وعمير بن عطار بن حاجب بن زرارة التميمي، وقبيصة بن جابر الأسدي، وعبد الله بن الطفيل العامري في وجوه قبائلهم، فأتوا علياً رضي الله عنه، فتكلم أبو الطفيل، فقال إنا والله يا أمير المؤمنين ما نحسد قوماً حصهم الله منك بخير وإن هذا الحي من ربيعة قد ظنوا أنهم أولى بك منا، فأعفهم عن القتال أياماً، واجعل لكل امرئ منا يوماً يقاتل فيه فإننا إذا اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا. فقال علي رضي الله عنه: نعم أعطيتكم ما طلبتم، وأمر ربيعة أن تكف عن القتال، وكانت بإزاء اليمن من صفوف أهل الشام، فغدا أبو الطفيل عامر بن واثلة في قومه من كنانة، وهم جماعة عظيمة، فتقدم أمام الخيل، وهو يقول: طاعنوا وضاربوا. ثم حمل. وارتجز فقال:

والله يجزيها به جنانه

أو غلب الجبن عليه شأنه

غدا يعرض من عصى بنانه

قد ضاربت في حربها كنانه

من افرغ الصبر عليه زانه

أو كفر الله فقد أهانه

فاقتتلوا قتلاً شديداً ثم انصرف أبو الطفيل إلى علي رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أنبأتنا أن أشرف القتل الشهادة، وأحظى الأمر الصبر، وقد والله صبرنا حتى أصبنا، فقتلنا شهيداً، وحيناً سعيد، فليطلب من بقي ثأر من مضى فإننا وإن كنا قد ذهب صفونا، وبقي كدرنا، فإن لنا ديناً لا يميل به الهوى، ويقينا لا ترحمه الشبهة فأثنى علي رضي الله عنه عليه خيراً. ثم غدا في اليوم الثاني عمير بن عطار بجماعة من بني تميم - وهو يومئذ سيد مضر الكوفة - فقال يا قوم، إني أتبع آثار أبي الطفيل، فاتبعوا آثار كنانة، ثم قدم رايته وارتجز فقال:

إن تميماً خطبها عظيم

إن الكريم نسله كريم

إن لم تردهم رايتي فلوموا

قد ضاربت في حربها تميم

لها حديث ولها قديم

دين قويم وهوى سليم

ثم طعن برايته حتى خضبها، وقاتل أصحابه قتلاً شديداً حتى أمسوا، وانصرف عمير إلى علي رضي الله عنه، وعليه سلاحه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد كان ظني بالناس حسناً، وقد رأيت منهم فوق ظني بهم قاتلوا من كل جهة، وبلغوا من علوهم جهد عدوهم، وهم لهم إن شاء الله.

ثم غدا في اليوم الثالث قبيصة بن جابر الأسدي في بني أسد، وقال لأصحابه: يا بني أسد، أما أنا فلا أقصر دون صاحبي، وأما أنتم فذاك إليكم، ثم تقدم برايته، وقال:

ما مثلها تحت العجاج من أحد

كأننا ركننا ثبير أو أحد

لكننا المحة من ولد معد

قد حافظت في حربها بنو أسد

أقرب من يمن وأنأى من نكد

لسنا بأوباش ولا بيض البلد

فقاتل القوم إلى أن دخل الليل، ثم انصرفوا.

ثم غدا في اليوم الرابع عبد الله بن الطفيل العامري في جماعة هوازن، فحارب بهم حتى الليل ثم انصرفوا.
قال نصر: فانتصفوا المضرية من الربعية، وظهر أثرها وعرف بلاؤها، وقال أبو الطفيل:

وحامت كنانة في حربها	وحامت تميم وحامت أسد
وحامت هوازن يوم اللقا	فما خام منا ومنهم أحد
لقينا الفوارس يوم الخميس	والعيد والسبت ثم الأحد
لقينا قبائل أنسابهم	إلى حضر موت وأهل الجند
فامدادهم خلف آذانهم	وليس لنا من سوانا مدد
فلما تنادوا بآبائهم	دعونا معداً ونعم المعد
فظلنا نفلق هاماتهم	ولم نك فيها ببيض البلد
ونعم الفوارس يوم اللقا	فقل في عديد، وقل في عدد
وقل في طعان كفرع الدلاء	وضرب عظيم كنار الوقد
ولكن عصفنا بهم عصفه	وفي الحرب يمن وفيها نكد
طحنا الفوارس وسط العجاج	وسقنا الزعانف سوق النقد
وقلنا علي لنا والد	ونحن له طاعة كالولد

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن الأشعث بن سويد، عن كردوس، قال: كتب عقبة بن مسعود عامل علي على الكوفة إلى سليمان بن صرد الخزاعي؛ وهو مع علي بصفين: أما بعد: فإنهم "إن يظهروا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدأ" فعليك بالجهاد والصبر مع أمير المؤمنين. والسلام.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد وعمرو بن شمر، عن جابر عن أبي جعفر؛ قال: قام علي رضي الله عنه فخطب الناس بصفين، فقال: الحمد لله على نعمه الفاضلة على جميع من خلق من البر والفاجر، وعلى حججه البالغة على خلقه من أطاعه فيهم ومن عصاه إن يرحم بفضله ومنه، وإن عذب فيما كسبت أيديهم، وإن الله ليس بظلام للعبيد.
أحمدته على حسن البلاء، وتظاهر النعماء، وأستعينه على ما نابنا من أمر الدنيا والآخرة، وأتوكل عليه وكفى بالله وكيلاً.
ثم إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ارتضاه لذلك، وكان أهله واصطفاه لتبليغ رسالته، وجعله رحمة منه على خلقه فكان علمه فيه رؤوفاً رحيماً، أكرم خلق الله حسباً، وأجملهم منظرًا، وأسخاهم نفساً، وأبرهم لوالد، وأوصلهم لرحم وأفضلهم علماً، وأثقلهم حلماً، وأوفاهم لعهد، وآمنهم على عقد لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بمظلمة قط، بل كان يظلم فيغفر، ويقدر فيصفح، حتى مضى مطيعاً لله، صابراً على ما أصابه، مجاهداً في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وسلم فكان ذهابه أعظم المصيبة على أهل

الأرض: البر والفاجر ثم ترك فيكم كتاب الله يأمركم بطاعة الله، وينهاكم عن معصيته وقد عهد إلي رسول الله عهداً فلست أحمده وقد حضرتم عدوكم، وعلمتم أن رئيسهم منافق، يدعوهم إلى النار وابن عم نبيكم معكم وبين أظهركم يدعوكم إلى الجنة وإلى طاعة ربكم، والعمل بسنة نبيكم ولا سواء من صلى قبل كل ذكر لم يسبقني بصلاة مع رسول الله أحد، وأنا من أهل بدر، ومعاوية طليق وابن طليق. والله إنا على الحق وإهم على الباطل فلا يجتمعن على باطلهم وتفرقوا عن حقكم حتى يغلب باطلهم حقكم "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم"، فإن لم تفعلوا يعذبهم بأيدي غيركم. فقام أصحابه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، انهض بنا إلى عدونا وعدوك إذا شئت فوالله ما نريد بك بدلاً بل نموت معك، ونحيا معك. فقال لهم: والذي نفسي بيده لنظر إلي النبي صلى الله عليه وسلم أضرب بين يديه بسيفي هذا، فقال: "لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي"، وقال لي: "يا علي، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وموتك وحياتك يا علي معي" والله ما كذب ولا كذبت، ولا ضل ولا ضللت، ولا ضل لي، ولا نسيت ما عهد إلي، وإني على بينة من ربي وعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً. ثم نهض إلى القوم فاقتتلوا من حين طلعت الشمس حتى غاب الشفق الأحمر، وما كانت صلاة القوم في ذلك اليوم إلا تكبيراً.

قال: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبي، عن صعصعة بن صوحان، قال: برز في بعض أيام صفين رجل من حمير، من آل ذي يزن، اسمه كريب بن الصباح، ليس في الشام يومئذ رجل أشهر بالبأس والنجدة منه، فنادى: من يبارز؟ فخرج إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي، فقتله، ثم نادى: من يبارز؟ فخرج إليه الحارث بن الجلاح، فقتله، ثم نادى: من يبارز؟ فخرج إليه عابد بن مسروق الهمداني فقتله، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض، وقام عليها بغياً واعتداءً، ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه علي، وناداه: ويحك يا كريب! إني أحذرك الله وبأسه ونقمته، وأدعوك إلى سنة الله وسنة رسوله، ويحك! لا تدخلنك معاوية النار؛ فكان جوابه له أن قال: ما أكثر ما قد سمعت منك هذه المقالة! ولا حاجة لنا فيها، أقدم إذا شئت، من يشتري سيفي وهذا أثره؛ فقال علي: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم مشى إليه فلم يمهله أن ضربه ضربة خر منها قتيلاً يشحط في دمه، ثم نادى: من يبرز؟ فبرز إليه الحارث بن وادعة الحميري، فقتله، ثم نادى: من يبرز؟ فبرز إليه المطاع بن مطلب العنسي، فقتله، ثم نادى: من يبرز؟ فلم يبرز إليه أحد، فنادى: يا معشر المسلمين، "الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا إن الله مع المتقين"، ويحك يا معاوية! هلم إلي فبارزني؛ ولا يقتلن الناس فيما بيننا. فقال عمرو بن العاص: اغتنمه منتهزاً؛ قد قتل ثلاثة من أبطال العرب وإني أطمع أن يظفرك الله به، فقال معاوية: والله لن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي؛ اذهب، إليك عني، فليس مثلي يخدع.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثنا خالد بن عبد الواحد الجريري قال: حدثني من سمع عمرو بن العاص قبل الواقعة العظمى بصفين، وهو يحرض أهل الشام؛ وقد كان منحنيّاً على قوس، فقال: الحمد لله العظيم في شأنه؛ القوي في سلطانه، العلي في مكانه، الواضح في برهانه، أحمدته على حسن البلاء، وتظاهر النعماء؛ في كل رزية من بلاء، أو شدة أو رخاء؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؛ ثم إنا نحتسب عند الله رب العالمين ما

أصبح في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من اشتعال نيرانها، واضطراب حبلها، ووقوع بأسها بينها، فإننا لله وإنا إليه راجعون؛ والحمد لله رب العالمين! أو لا تعلمون أن صلاتنا وصلاتهم، وصيامنا وصيامهم، وحجنا وحجهم، وقتلنا وقتلهم، وديننا ودينهم واحد؛ ولكن الأهواء مختلفة؛ اللهم أصلح هذه الأمة بما أصلحت به أولها، واحفظ فيما بينها؛ مع أن القوم قد وطئوا بلادكم، وبغوا عليكم، فجدوا في قتال عدوكم، واستعينوا بالله ربكم، وحافظوا على حرمتكم. ثم جلس.

قال نصر: وخطب عبد الله بن العباس أهل العراق، يومئذ فقال:

الحمد لله رب العالمين؛ الذي دحا تحتنا سبعاً، وسمك فوقنا سبعاً، وخلق فيما بينهن خلقاً؛ وأنزل لنا منهن رزقاً، ثم جعل كل شيء قدراً يلى ويفنى غير وجهه الحي القيوم، الذي يحيا ويبقى. إن الله تعالى بعث أنبياء ورسلاً؛ فجعلهم حججاً على عباده، عذراً أو نذراً، لا يطاع إلا بعلمه وإذنه، يمن بالطاعة على من يشاء من عباده، ثم يثيب عليها، ويعمى بعلم منه، فيعفو ويغفر بجلمه، لا يقدر قدره، ولا يبلغ شيء مكانه، أحصى كل شيء عدداً، وأحاط بكل شيء علماً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إمام الهدى، والنبي المصطفى، وقد ساقنا قدر الله إلى ما ترون، حتى كان مما اضطرب من حبل هذه الأمة، وانتشر من أمرها، أن معاوية بن أبي سفيان، وجد من طغام الناس أعواناً، على علي ابن عم رسول الله وصهره، وأول ذكر صلى معه، بدري، قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاهدته التي فيها الفضل ومعاوية مشرك، كان يعبد الأصنام، والذي ملك الملك وحده، وبأن به وكان أهله، لقد قاتل علي بن أبي طالب مع رسول الله، وهو يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية يقول: كذب الله ورسوله، فعليكم بتقوى الله، والجد والحزم والصبر، والله إنا لنعلم إنكم لعلى حق، وإن القوم لعلى باطل، فلا يكونن أولى بالجد على باطلهم منكم في حقكم، وإنا لنعلم أن الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم، اللهم أعنا ولا تتخذنا؛ وانصرنا على عدونا، ولا تحل عنا؛ وافتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين.

قال نصر: وحدثنا عمرو؛ قال: حدثنا عبد الرحمن بن جندب، عن جندب بن عبد الله، قال: قام عمار يوم صفين، فقال: انهضوا معي عباد الله، إلى قوم يزعمون أنهم يطلبون بدم ظالم؛ إنما قتله الصالحون المنكرون للعدوان، الأمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو درس هذا الدين: لم قتلتموه؛ فقلنا: لإحداثه، فقالوا إنه لم يحدث شيئاً؛ وذلك لأنه مكنهم من الدنيا، فهم يأكلونها ويرعونها، ولا يبالون لو أهدمت الجبال. والله ما أظنهم يطلبون بدم، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحلوها، واستمرأوها، وعلموا أن صاحب الحق لو وليهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون منها.

إن القوم لم يكن لهم سابقة في الإسلام يستحقون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوماً؛ ليكونوا بذلك جابرة وملوكاً؛ تلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون، ولولاها ما بايعهم من الناس رجل؛ اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم.

ثم مضى، ومضى معه أصحابه، فدنا من عمرو بن العاص، فقال: يا عمرو، بعت دينك بمصر، فتباً لك! وطالما بغيت للإسلام عوجاً.

ثم قال: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت. اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحي عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت؛ اللهم إني أعلم مما علمتني أني لا أعمل عملاً صالحاً هذا اليوم، هو أَرْضَى من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً هو أَرْضَى لك منه لفعلته.

قال نصر: وحدثني عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: نادى عمار عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: بعث دينك بالدنيا من عدو الله، وعدو الإسلام معاوية، وطلبت هوى أهلك الفاسق، فقال: لا، ولكني أطلب بدم عثمان الشهيد المظلوم، قال: كلا، أشهد على علمي فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله، وأنت إن لم تقتل اليوم فستموت غداً، فانظر إذا أعطى الله العباد على نياقتهم، ما نيتك!

وروى ابن ديزيل في كتاب صفين، عن سيف الضبي، قال: سمعت الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة المحاربي يروي عن أبيه عن جده شريك، قال: كان الناس من أهل العراق وأهل الشام يقتتلون أيام صفين، ويتزايلون، فلا يستطيع الرجل أن يرجع إلى مكانه حتى يسفر الغبار عنه، فاقتتلوا يوماً، وتزايلا وأسفر الغبار، فإذا علي تحت رايتنا- يعني بني محارب- فقال: هل من ماء؟ فأتيته بإداوة فخنثتها له ليشرب، فقال: لا إنا نهينا أن نشرب من أفواه الأسقية. ثم علق سيفه وإنه لمحضب بالدم من ظبته إلى قائمه، فصببت له على يديه فغسلهما حتى أنقاهما، ثم شرب بيديه حتى إذا روي رفع رأسه، ثم قال: أين مضر؟ فقلت: أنت فيهم يا أمير المؤمنين، فقال: من أنتم بارك الله فيكم؛ فقلنا: نحن بنو محارب، فعرف موقفه، ثم رجع إلى موضعه.

قلت: خنثت الإداوة، إذا ثنيت فاهها إلى خارج، وإنما نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اختناث الأسقية، لأن رجلاً اختنث سقاء فشرب، فدخل إلى جوفه حية كانت في السقاء.

قال ابن ديزيل: وروى إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدثني عبد الملك بن قدامة بن إبراهيم بن حاطب الجمحي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف بك يا عبد الله إذا بقيت في حثالة من الناس، قد مرجحت عهدهم وموآثيقهم، وكانوا هكذا؛ وخالف بين أصابعه- فقلت: تأمرني بأمرك يا رسول الله، قال: تأخذ مما تعرف، وتدع ما تنكر، وتعمل بخاصة نفسك، وتدع الناس وهوام أمرهم.

قال: فلما كان يوم صفين، قال له أبوه عمرو بن العاص: يا عبد الله، اخرج فقاتل، فقال: يا أبتاه، أتأمرني أن أخرج فأقاتل، وقد سمعت ما سمعت يوم عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عهد! فقال: أنشدك الله يا عبد الله، ألم يكن آخر ما عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخذ يدك، فوضعها في يدي، فقال: أطع أباك فقال: اللهم بلى؛ قال: فإني أعزم عليك أن تخرج فتقاتل؛ فخرج عبد الله بن عمرو فقاتل يومئذ متقلداً سيفين. قال: وإن من شعر عبد الله بن عمرو بعد ذلك يذكر علياً بصفين:

بصفين يوماً شاب منها الذوائب

سحاب ربيع رفعته الجنائب

قلو شهدت جمل مقامي ومشهدي

عشية جاء أهل العراق كأنهم

إذا قلت قد ولت سراعاً بدت لنا

كتائب منهم وارجحت كتائب

وجئناهم فرادى كأن صفوفنا

من البحر مد موجه متراكب

فدارت رحانا واستدارت رحاهم

سراة النهار ما تولى المناكب

فقالوا لنا: إنا نرى أن تبائعوا

فقلنا بلى إنا نرى أن تضاربوا

وروى ابن ديزيل، عن يحيى بن سليمان الجعفي، قال: حدثنا مسهر بن عبد الملك بن سلع الهمداني، قال: حدثني أبي عن عبد خير الهمداني، قال: كنت أنا وعبد خير في سفر، قلت: يا أبا عمار، حدثني عن بعض ما كنتم فيه بصفين، فقال لي: يابن أخي، وما سؤالك؛ فقلت: أحببت أن أسمع منك شيئاً، فقال: يابن أخي؛ إنا كنا لنصلي الفجر، فنصف ويصف أهل الشام، ونشرع الرماح إليهم ويشرعون بها نحونا، أما لو دخلت تحتها لأظلتك؛ والله يابن أخي، إنا كنا لنقف ويقفون في الحرب لا نفتر ولا يفتر، حتى نصلي العشاء الآخرة؛ ما يعرف الرجل منا طول ذلك اليوم من عن يمينه ولا من عن يساره، من شدة الظلمة والنقع إلا بقرع الحديد بعضه على بعض، فيبرز منه شعاع كشعاع الشمس، فيعرف الرجل من عن يمينه ومن عن يساره؛ حتى إذا صلينا العشاء الآخرة جردنا قتلتنا إلينا فتوسدناهم حتى نصبح، وجروا قتلاهم فتوسدوهم حتى يصبحوا. قال: قلت له يا أبا عمار، هذا والله الصبر.

وروى ابن ديزيل، قال: كان عمرو بن العاص إذا مر عليه رجل من أصحاب علي فسأل عنه، فأخبر به، فقال: يرى علي ومعاوية أنهما بريئان من دم هذا.

قال ابن ديزيل: وروى ابن وهب، عن مالك بن أنس، قال: جلس عمرو بن العاص بصفين في رواق - وكان أهل العراق يدفنون قتلاهم، وأهل الشام يجعلون قتلاهم في العباء والأكسية يحملونهم فيها إلى مدافنهم - فكلما مر عليه برجل، قال: من هذا؛ فيقال: فلان، فقال عمرو: كم من رجل أحسن في الله، عظيم الحال لم ينج من قتله فلان وفلان! قال: يعني علياً ومعاوية.

قلت: ليت شعري! لم برأ نفسه، وكان رأساً في الفتنة! بل لولاه لم تكن؛ ولكن الله تعالى أنطقه بهذا الكلام وأشباهه؛ ليظهر بذلك شكه، وأنه لم يكن على بصيرة من أمره.

وروى نصر بن مزاحم، قال: حدثني يحيى بن يعلى، قال: حدثني صباح المزني، عن الحارث بن حصن، عن زيد بن أبي رجاء، عن أسماء بن حكيم الفزاري، قال: كنا بصفين مع علي، تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظللنا برداء أحمر؛ إذ أقبل رجل يستقري الصف حتى انتهى إلينا، فقال: أيكم عمار بن ياسر؛ فقال عمار: أنا عمار، قال: أبو اليقظان؛ قال: نعم، قال: إن لي إليك حاجة أفأنتطق بها سراً أو علانية؛ قال: اختر لنفسك، أيهما شئت، قال: لا بل علانية، قال: فانطق، قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه؛ لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً، حتى ليلتي هذه، فلني رأيت في منامي منادياً تقدم، فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونادى بالصلاة، ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة؛ فصلينا

صلاة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوة واحدة، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبت بليلة لا يعلمها إلا الله تعالى، حتى أصبحت، فأتييت أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا، قال: فالفقه، فانظر ماذا يقول لك عمار فاتبعه، فجئت لك؛ فقال عمار: تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي! فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، وهذه الرابعة فما هي بخيرهن، ولا أبرهن؛ بل هي شرهن وأفجرهن. أشهدت بدرًا وأحدًا ويوم حنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؛ قال: لا، قال: فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين، وإن مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيه! والله لوددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا، مفارقاً للذي نحن عليه كانوا خلقاً واحداً، فقطعته وذبحته. والله لدمائهم جميعاً أحل من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال؛ قال: فإنهم حلال كذلك، أتراني بينت لك؛ قال: قد بينت لي، قال: فاختر أي ذلك أحببت. فانصرف الرجل، فدعاه عمار ثم قال: أما إنهم سيضربونكم بأسيا فمهم حتى يرتاب المبطلون منكم، فيقولوا: لو لم يكونوا على حق ما أظهروا علينا؛ والله ما هم من الحق على ما يقذي عين ذباب؛ والله لو ضربونا بأسيا فمهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق، وأنهم على باطل.

قال نصر: وحدثنا يحيى بن يعلى، عن الأصبغ بن بائة، قال: جاء رجل إلى علي، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء القوم الذين نقاتلهم؛ الدعوة واحدة، والرسول واحد، والصلاة واحدة، والحج واحد فماذا نسسمهم؟ قال: سمهم بما سماهم الله في كتابه، قال: ما كل ما في الكتاب أعلمه، قال: أما سمعت الله تعالى يقول: "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض" إلى قوله: "ولو شاء الله ما أقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر" فلما وقع الاختلاف، كنا نحن أولى بالله وبالكتاب وبالنبي وبالحق، فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا، وشاء الله قتالهم؛ فقاتلهم بمشيئته وإرادته.

الجزء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين.

ومن كلام له في معنى الأنصار

الأصل ومن: قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال عليه السلام: ما قالت الأنصار؛ قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير، قال رضي الله عنه: فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم! قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؛ فقال عليه السلام: لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم. ثم قال رضي الله عنه: فماذا قالت قريش؛ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم! فقال رضي الله عنه: احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة!

الشرح: قد ذكرنا فيما تقدم طرفاً من أخبار السقيفة؛ فأما هذا الخبر الوارد في الوصية بالأنصار؛ فهو خبر صحيح، أخرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري في مسنديهما، عن أنس بن مالك، قال: مر أبو بكر والعباس رضي الله تعالى عنهما بمجلس من الأنصار، في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ييكون، فقالوا: ما يكيكم؟ قالوا: ذكرنا محاسن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وأخبراه بذلك؛ فخرج صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية بردة، فصعد المنبر - ولم يصعده بعد ذلك اليوم - فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشى وعييتي، وقد قضوا الذي عليهم؛ وبقي الذي لهم، فأقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئتهم".

فأما كيفية الإحتجاج على الأنصار، فقد ذكرها علي رضي الله عنه، وهي أنه لو كان - صلوات الله وسلامه عليه - ممن يجعل الإمامة فيهم؛ لأوصى إليهم، ولم يوص بهم. وإلى هذا نظر عمرو بن سعيد بن العاص، وهو المسمى بالأشديق؛ فإن أباه لما مات خلفه غلاماً، فدخل إلى معاوية فقال: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال: إن أبي أوصى إلي ولم يوص بي؛ فاستحسن معاوية منه ذلك؛ فقال: إن هذا الغلام لأشديق، فسمي الأشديق.

فأما قول أمير المؤمنين: "احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة"؛ فكلام قد تكرر منه رضي الله عنه أمثاله؛ نحو قوله: "إذا احتج عليهم المهاجرون بالقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الحجة لنا على المهاجرين لذلك قائمة؛ فان فلحت حجتهم كانت لنا دونهم؛ وإلا فالأنصار على دعوتهم". ونحو هذا المعنى قول العباس لأبي بكر: "وأما قولك: نحن شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم جيرانها؛ ونحن أغصانها".

خبر السقيفة

ونحن نذكر خبر السقيفة؛ روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب "السقيفة" قال: أخبرني أحمد بن إسحاق، قال: حدثنا أحمد بن سيار، قال: حدثنا سعيد بن كثير بن عفير الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قبض، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض، فقال سعد بن عباد لابنه قيس - أو لبعض بنيه: إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامي لمرضي؛ ولكن تلق مني قولي فأسمعهم. فكان سعد يتكلم، ويستمع ابنه ويرفع به صوته لسمع قومه؛ فكان من قوله بعد حمد الله والثناء عليه أن قال: إن لكم سابقة إلى الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في قومه بضع عشرة سنة، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأوثان؛ فما آمن به من قومه إلا قليل، والله ما كانوا يقدر أن يمنعوا رسول الله، ولا يعزوا دينه، ولا يدفعوا عنه عداه؛ حتى أراد الله بكم خير الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، وخصكم بدينه، ورزقكم الإيمان به وبرسوله، والإعزاز لدينه، والجهاد لأعدائه؛ فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم؛ حتى استقاموا لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، حتى أنجز الله لنيبكم الوعد، ودانت لأسيافكم

العرب. ثم توفاه الله تعالى وهو عنكم راض؛ وبكم قرير عين؛ فشدوا أيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحق الناس وأولاهم به. فأجابوا جميعاً: أن وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما أمرت. نوليك هذا الأمر، فأنت لنا مقنع، ولصالح المؤمنين رضاءً.

ثم إنهم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: إن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولون؛ ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعونا هذا الأمر من بعده! فقالت طائفة منهم: إذا نقول: منا أمير ومنكم أمير، لن نرضى بدون هذا منهم أبداً، لنا في الإيواء والنصرة ما لهم في الهجرة، ولنا في كتاب الله ما لهم، فليسوا يعدون شيئاً إلا ونعد مثله، وليس من رأينا الإستئثار عليهم، فمننا أمير ومنهم أمير؛ فقال سعد بن عباد: هذا أول الوهن!

وأتى الخبر عمر، فأتى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد أبا بكر في الدار وعلياً في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان الذي أتاه بالخبر معن بن عدي - فأخذ بيد عمر، وقال: قم، فقال عمر: إني عنك مشغول، فقال: إنه لا بد من قيام، فقام معه، فقال له: إن هذا الحي من الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، معهم سعد بن عباد، يدورون حوله، ويقولون: أنت المرجى، ونجلك المرجى. وثم أناس من أشrafهم، وقد خشيت الفتنة، فانظر يا عمر ماذا ترى! واذكر لإخوتك من المهاجرين، واختاروا لأنفسكم، فإني أنظر إلى باب فتنة قد فتح الساعة إلا أن يغلقه الله. ففزع عمر أشد الفزع، حتى أتى أبا بكر، فأخذ بيده، فقال: قم، فقال أبو بكر: إني عنك مشغول. فقال عمر: لا بد من قيام؛ وسنرجع إن شاء الله.

فقام أبو بكر مع عمر، فحدثه الحديث، ففزع أبو بكر أشد الفزع، وخرجا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة؛ وفيها رجال من أشraf الأنصار؛ ومعهم سعد بن عباد وهو مريض بين أظهرهم، فأراد عمر أن يتكلم ويمهد لأبي بكر؛ وقال: خشيت أن يقمر أبو بكر عن بعض الكلام؛ فلما نبس عمر، كفه أبو بكر وقال: على رسلك؛ فتلق الكلام ثم تكلم بعد كلامي بما بدا لك. فتشهد أبو بكر، ثم قال: إن الله جل ثناؤه بعث محمداً بالهدى ودين الحق، فدعا إلى الإسلام، فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى ما دعانا إليه، وكنا - معاشر المسلمين المهاجرين - أول الناس إسلاماً، والناس لنا في ذلك تبع؛ ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوسط العرب أنساباً، ليس من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة؛ وأنتم أنصار الله، وأنتم نصرتم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أنتم وزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين؛ وفيما كنا فيه من خير؛ فأنتم أحم! الناس إلينا، وأكرمهم علينا، وأحق الناس بالرضا بقضاء الله، والتسليم لما ساق الله إلى إخوانكم من المهاجرين، وأحق الناس ألا تحسدوهم، فأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة، وأحق الناس ألا يكون انتفاض هذا الدين واختلاطه على أيديكم، وأنا أدعوكم إلى أبي عبيدة وعمر؛ فكلاهما قد رضيت لهذا الأمر، وكلاهما أراه له أهلاً.

فقال عمر وأبو عبيدة: ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك، أنت صاحب الغار، ثاني اثنين، وأمرك رسول الله بالصلاة، فأنت أحق الناس بهذا الأمر.

فقال الأنصار: والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، ولا أحد أحب إلينا ولا أرضى عندنا منكم، ولكننا نشفق فيما

بعد هذا اليوم، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم؛ فلو جعلتم اليوم رجلاً منكم بايعنا ورضينا- على أنه إذا هلك اخترنا واحداً من الأنصار، فإذا هلك كان آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمة- كان ذلك أجدر أن نعدل في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فيشفق الأنصاري أن يزيغ فيقبض عليه القرشي، ويشفق القرشي أن يزيغ فيقبض عليه الأنصاري.

فقام أبو بكر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخالفوه وشاقوه، وخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومه، ولم يستوحشوا لكثرة عدوهم؛ فهم أول من عبد الله في الأرض، وهم أول من آمن برسول الله، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بالأمر بعده، لا ينازعهم فيه إلا ظالم؛ وليس أحد بعد المهاجرين فضلاً وقدماً في الإسلام مثلكم؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نمتاز دونكم بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور.

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح، فقال: يا معشر الأنصار؛ املكوا عليكم أيديكم؛ إنما الناس في فيكم وظلكم؛ ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولا يصدر الناس إلا عن أمركم، أنتم أهل الإيواء والنصرة، وإليكم كانت الهجرة، وأنتم أصحاب الدار والإيمان؛ والله ما عبد الله علانية إلا عندكم وفي بلادكم، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم، ولا عرف الإيمان إلا من أسيافكم، فاملكوا عليكم أمركم، فإن أبي هؤلاء فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع سيفان في غمد؛ إن العرب لا ترضى أن تؤمركم ونبيها من غيركم، وليس تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم؛ وأولو الأمر منهم، لنا بذلك الحجة الظاهرة على من خالفنا، والسلطان المبين على من نازعنا، من ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه؛ ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مدل بباطل، أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة! فقام الحباب، وقال: يا معشر الأنصار، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر، فإن أبوا عليكم ما أعطيتموهم فأجلوهم عن بلادكم، وتولوا هذا الأمر عليهم، فأنتم أولى الناس بهذا الأمر، إنه دان لهذا الأمر بأسيافكم من لم يكن يدين له. أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، إن شئتم لنعيدنها جذعة، والله لا يرد أحد علي ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف.

قال: فلما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمير سعد بن عباد- وكان حاسداً له، وكان من سادة الخزرج- قام فقال: أيها الأنصار، إنا وإن كنا ذوي سابقة، إنا لم نرد بجهدنا وإسلامنا إلا رضا ربنا وطاعة نبينا، ولا ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به عوضاً من الدنيا، إن محمداً صلى الله عليه وسلم رجل من قريش؛ وقومه أحق بميراث أمره، وإيم الله لا يراي الله أنازعهم هذا الأمر؛ فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم. فقام أبو بكر، وقال: هذا عمر وأبو عبيدة، بايعوا أيهما شئتم؛ فقالا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك؛ وأنت أفضل المهاجرين، وثاني اثنين، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة؛ والصلاة أفضل الدين. أبسط يدك نبايعك. فلما بسط يده، وذهباً يبايعانه، سبقهما بشير بن سعد، فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير، علك علق؛ والله ما اضطررك إلى هذا الأمر إلا الحسد لابن عمك.

ولما رأت الأوس أن رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع، قام أسيد بن حضير - وهو رئيس الأوس - فبايع حسداً لسعد أيضاً، ومنافسة له أن يلي الأمر، فبايعت الأوس كلها لما بايع أسيد، وحمل سعد بن عبادة وهو مريض، فأدخل إلى منزله، فامتنع من البيعة في ذلك اليوم وفيما بعده، وأراد عمر أن يكرهه عليها، فأشير عليه ألا يفعل، وأنه لا يبايع حتى يقتل، وأنه لا يقتل حتى يقتل أهله، ولا يقتل أهله حتى يقتل الخزرج؛ وإن حوربت الخزرج كانت الأوس معها.

وفسد الأمر فتركوه، فكان لا يصلي بصلاتهم، ولا يجتمع بجماعتهم، ولا يقضي بقضائهم؛ ولو وجد أعواناً لضاربهم، فلم يزل كذلك حتى مات أبو بكر، ثم لقي عمر في خلافته؛ وهو على فرس، وعمر على بعير، فقال له عمر: هيهات يا سعد! فقال سعد: هيهات يا عمر! فقال: أنت صاحب من أنت صاحبه؟ قال: نعم أنا ذاك؛ ثم قال لعمر: والله ما جاورني أحد هو أبغض إلي جواراً منك، قال عمر: فإنه من كره جوار رجل انتقل عنه؛ فقال سعد: إني لأرجو أن أخليها لك عاجلاً إلى جوار من هو أحب إلي جواراً منك ومن أصحابك؛ فلم يلبث سعد بعد ذلك إلا قليلاً حتى خرج إلى الشام، فمات بجوران ولم يبايع لأحد؛ لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما.

قال: وكثر الناس على أبي بكر، فبايعه معظم المسلمين في ذلك اليوم؛ واجتمعت بنو هاشم إلى بيت علي بن أبي طالب، ومعهم الزبير، وكان يعد نفسه رجلاً من بني هاشم؛ كان علي يقول: ما زال الزبير منا أهل البيت؛ حتى نشأ بنوه، فصرفوه عنا.

واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن، فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة، فقال: مالي أراكم ملثائين؟ قوموا فبايعوا أبا بكر؛ فقد بايع له الناس، وبايعه الأنصار. فقام عثمان ومن معه، وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهما، فبايعوا أبا بكر.

وذهب عمر ومعه عصابة إلى بيت فاطمة، منهم أسيد بن حضير وسلمة بن أسلم؛ فقال لهم: انطلقوا فبايعوا، فأبوا عليه؛ وخرج إليهم الزبير بسيفه، فقال عمر: عليكم الكلب، فوثب عليه سلمة بن أسلم، فأخذ السيف من يده فضرب به الجدار، ثم انطلقوا به وبعلي ومعهما بنو هاشم، وعلي يقول: أنا عبد الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حتى انتهوا له إلى أبي بكر،

فقيل له: بايع، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقربة من رسول الله، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار. فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون.

فقال عمر: إنك لست متروكاً حتى تبايع. فقال له علي: احلب يا عمر حلباً لك شطره! اشد له اليوم أمره ليرد عليك غداً! ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه. فقال له أبو بكر: فإن لم تبايعني لم أكرهك، فقال له أبو عبيدة: يا أبا الحسن، إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قريش قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالاً له؛ واضطلاًعاً به، فسلم له هذا الأمر وارض به، فإنك إن تعش ويطل عمرك فأنت لهذا الأمر خليف وبه حقيق؛ في فضلك وقربتك، وسابقتك وجهادك.

فقال علي: يا معشر المهاجرين، الله الله! لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين، لنحن - أهل البيت - أحق بهذا الأمر منكم. أما كان منا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بالسنة، المضطلع بأمر الرعية! والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى، فتزدادوا من الحق بعداً. فقال بشير بن سعد: لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار يا علي قبل بيعتهم لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان، ولكنهم قد بايعوا وانصرف علي إلى منزله، ولم يبايع، ولزم بيته حتى ماتت فاطمة فبايع.

قلت: هذا الحديث يدل على بطلان ما يدعى من النص على أمير المؤمنين وغيره، لأنه لو كان هناك نص صريح لاحتج به ولم يجز للنص ذكر، وإنما كان الإحتجاج منه ومن أبي بكر ومن الأنصار بالسوابق والفضائل والقرب، فلو كان هناك نص على أمير المؤمنين أو على أبي بكر، لاحتج به أبو بكر أيضاً على الأنصار، ولاحتج به أمير المؤمنين على أبي بكر، فإن هذا الخبر وغيره من الأخبار المستفيضة، يدل على أنه قد كان كاشفهم وهتك القناع بينه وبينهم، ألا تراه كيف نسبهم إلى التعدي عليه وظلمه، وتمنع من طاعتهم، وأسمعهم من الكلام أشده وأغلظه! فلو كان هناك نص لذكره، أو ذكره بعض من كان من شيعته وحزبه؛ لأنه لا عطر بعد عروس.

وهذا أيضاً يدل على أن الخبر المروي في أبي بكر في صحيح البخاري ومسلم غير صحيح؛ وهو ما روي من قوله رضي الله عنه لعائشة في مرضه: ادعي لي أباك، حتى أكتب لأبي بكر كتاباً؛ فإني أخاف أن يقول قائل، أو يتمنى متمن، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر!. وهذا هو نص مذهب المعتزلة.

وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهري أيضاً: حدثنا أحمد وقال: حدثنا ابن غفير، قال: حدثنا أبو عوف عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنهما، أن علياً حمل فاطمة على حمار، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار؛ يسألهم النصر، وتسألهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل؛ لو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به؛ فقال علي: أكنت أترك رسول الله ميتاً في بيته لا أجهزه، وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه! وقالت فاطمة: ما صنع أبو حسن إلا ما كان ينبغي له، وصنعوا هم ما الله حسبهم عليه.

وقال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وحدثنا أحمد، قال: حدثني سعيد بن كثير، قال: حدثني ابن لهيعة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات وأبو ذر غائب، وقدم وقد ولي أبو بكر، فقال: أصبتم قناعه، وتركتم قرابة، لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا أبو قبيصة محمد بن حرب، قال: لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم، وجرى في السقيفة ما جرى تمثل علي:

ويطغون لما غال زيدا غوائله

وأصبح أقوام يقولون ما اشتهاوا

قصيدة أبي القاسم المغربي

وتعصبه للأنصار على قریش

وحدثني أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلوي نقيب البصرة، قال: لما قدم أبو القاسم علي بن الحسين المغربي من مصر إلى بغداد، استكتبه شرف الدولة أبو علي بن بويه، وهو يومئذ سلطان الحضرة، وأمير الأمراء بها، والقادر خليفة، ففسدت الحال بينه وبين القادر؛ واتفق لأبي القاسم المغربي أعداء سوء أوحشوا القادر منه، - وأوهموه أنه مع شرف الدولة في القبض عليه وخلعه من الخلافة، فأطلق لسانه في ذكره بالقبيح. وأوصل القول فيه، والشكوى منه، ونسبه إلى الرفض وسب السلف، وإلى كفران النعمة، وأنه هرب من يد الحاكم صاحب مصر بعد إحسانه إليه.

قال النقيب أبو جعفر رحمه الله تعالى: فأما الرفض فنعم؛ وأما إحسان الحاكم إليه فلا كان الحاكم! قتل أباه وعمه وأخاً من أخوته، وأفلت منه أبو القاسم بخديعة الدين، ولو ظفر به لألحقه بهم.

قال أبو جعفر: وكان أبو القاسم المغربي، ينسب في الأزد، ويتعصب لقحطان على عدنان، وللأنصار على قريش، وكان غالباً في ذلك مع تشيعه، وكان أديباً فاضلاً شاعراً مترسلاً، وكثير الفنون عالماً، وانحدر مع شرف الدولة إلى واسط، فاتفق أن حصل بيد القادر كتاب بخطه شبه مجموع؛ قد جمعه من خطه وشعره وكلامه مسود، أتخفه به بعض من كان يشنأ أبا القاسم، ويريد كيده، فوجد القادر في ذلك المجموع قصيدة من شعره، فيها تعصب شديد للأنصار على المهاجرين، حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة؛ لإفراط غلوه وفيها تصريح بالرفض مع ذلك، فوجدها القادر تمرة الغراب، وأبرزها إلى ديوان الخلافة، فقرأ المجموع بمحضر من أعيان الناس من الأشراف والقضاة والمعدلين والفقهاء، ويشهد أكثرهم أنه خطه، وأنهم يعرفونه كما يعرفون وجهه، وأمر بمكاتبة شرف الدولة بذلك، فإلى أن وصل الكتاب إلى شرف الدولة بما جرى، اتصل الخبر بأبي القاسم قبل وصول الكتاب إلى شرف الدولة، فهرب ليلاً، ومعه بعض غلمانته، وجارية كان يهواها ويتحطاها، ومضى إلى البطيحة، ثم منها إلى الموصل، ثم إلى الشام، ومات في طريقه، فأوصى أن تحمل جثته إلا مشهد علي، فحملت في تابوت، ومعها خفراء العرب حتى دفن بالمشهد بالقرب منه صلى الله عليه وسلم.

وكنت برهة أسأل النقيب أبا جعفر عن القصيدة، وهو يدافعني بها، حتى أملاها علي بعد حين، وقد أوردت هاهنا بعضها؛ لأنني لم أستجز ولم أستحل إيرادها على وجهها، فمن جملتها - وهو يذكر في أولها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول؛ إنه لولا الأنصار لم تستقم لدعوته دعامة، ولا أurst له قاعدة، في أبيات فاحشة كرهنا ذكرها:

نحن الذين بنا استجار فلم يضع

بسيوفنا أمست سخينة بركاً

ولنحن في أحد سمحنا دونه

فنجا بمهجته، فلولاً ذبنا

وحمية السعدين بل بحماية الس

في الخندق المشهور إذ ألقى بها

قالا: معاذ الله إن هزيمة

ما عندنا إلا السيوف، وأقبلنا
ولنا بيوم حنين آثار متى
لما تصدع جمعه فغدا بنا
عطفت عليه كماتنا، فتحصنت
وفدته من أبناء قبيلة عصابة
أفحن أولى بالخلافة بعده
ما الأمر إلا أمرنا وبسعدنا
لكنما حسد النفوس وشحها
أفضى إلى هرج ومرح فانبرت
وتداولتها أربع لولا أبو
من عاجز ضرع، ومن ذي غلظة

ثم ارتدى المحروم فضل ردائها
فتأكلت تلك الجذى، وتلمظت
تالله لو ألقوا إليه زمامها
ولو أنها حقت بساحة مجده
هو كالنبي فضيلة، لكن ذا
والفضل ليس بنافع أربابه
ثم امتطأها عبد شمس فاعتدت
وتنقلت في عصابة أموية
ما بين مأفون إلى مترندق
ومداهن ومضاعف وحمار

فهذه الأبيات، هي نظيف القصيدة، التقطناها وحذفنا الفاحش، وفي الملتقط المذكور أيضاً ما لا يجوز، وهو قوله: "نحن الذين بنا استجار"، وقوله: "ألقى بها بيد"، وقوله: "فنجأ بمهجته..." البيت. وقوله عن أبي بكر: عبد تيم، وقوله: لولا علي لقلت في الأربعة إنهم إستار لوم، وذكره الثلاثة رضي الله عنهم بما ذكرهم ونسبهم إليه. وقوله: "إن علياً كالنبي في الفضيلة"، وقوله: "إن النبوة حظ أعطيه وحرمة علي رضي الله عنه".

فأما قوله في بني أمية: "ما بين مأفون..." البيت، فمأخوذ من قول عبد الملك بن مروان، وقد خطب فذكر الخلفاء من بني أمية قبله، فقال: إني والله لست بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المدهن، ولا بالخليفة المأفون؛ عني بالمستضعف

عثمان، وبالمداهن معاوية، وبالمأفون يزيد بن معاوية، فزاد هذا الشاعر فيهم اثنين: وهما المتزندق، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والحمار وهو مروان بن محمد بن مروان.

المهاجرون والأتصار بعد بيعة أبي بكر

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات قال: لما بايع بشير بن سعد أبا بكر، وازدحم الناس على أبي بكر فبايعوه، مر أبو سفيان بن حرب بالبيت الذي فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فوقف وأنشد:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم
ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكم وإليكم
وليس لها إلا أبو حسن علي
أبا حسن فاشدد بها كف حازم
فإنك بالأمر الذي يرتجى ملي
وأي امرئ يرمي قصياً ورأيها
!منيع الحمى والناس من غالب قصي

فقال علي لأبي سفيان: إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه، وقد عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً فأنا عليه؛ فتركه أبو سفيان وعدل إلى العباس بن عبد المطلب في منزله، فقال: يا أبا الفضل، أنت أحق بميراث ابن أخيك، امدد يدك لأبايعك، فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتي إياك. فضحك العباس، وقال: يا أبا سفيان، يدفعها علي ويطلبها العباس! فرجع أبو سفيان خائباً.

قال الزبير: وذكر محمد بن إسحاق أن الأوس تزعم أن أول من بايع أبا بكر بشير بن سعد، وتزعم الخزرج أن أول من بايع أسيد بن حضير.

قلت: بشير بن سعد خزرجي وأسيد بن حضير أوسي، وإنما تدافع الفريقان الروايتين تفادياً عن سعد بن عباد، وكراهية كل حي منهما أن يكون نقض أمره جاء من جهة صاحبه؛ فالخزرج هم أهله وقربته، لا يقرون أن بشير بن سعد هو أول من بايع أبا بكر وأبطل أمر سعد بن عباد، ويحيلون بذلك على أسيد بن حضير؛ لأنه من الأوس أعداء الخزرج. وأما الأوس فتكره أيضاً أن ينسب أسيد إلى أنه أول من نقض أمر سعد بن عباد، كي لا يرموه بالحسد للخزرج؛ لأن سعد بن عباد خزرجي، فيحيلون بانتقاض أمره على قبيلته - وهم الخزرج - ويقولون: إن أول من بايع أبا بكر ونقض دعوة سعد بن عباد بشير بن سعد. وكان بشير أعور.

والذي ثبت عندي أن أول من بايعه عمر، ثم بشير بن سعد، ثم أسيد بن حضير، ثم أبو عبيدة بن الجراح، ثم سالم مولى أبي حذيفة.

قال الزبير: وقد كان مالاً أبا بكر وعمر على نقض أمر سعد وإفساد حاله رجلاً من الأنصار ممن شهد بدرًا، وهما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي.

قلت: كان هذان الرجلان ذوي حب لأي بكر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتفق مع ذلك بغض وشحناء؛ كانت بينهما وبين سعد بن عباد، ولها سبب مذكور في كتاب القبائل لأبي عبيدة معمر بن المثنى، فليطلب من هناك.

وعويم بن ساعدة، هو القائل لما نصب الأنصار سعداً: يا معشر الخزرج؛ إن كان هذا الأمر فيكم دون قريش فعرّفونا ذلك وبرهنوا حتى نبايعكم عليه؛ وإن كان لهم دونكم، فسلموا إليهم؛ فوالله ما هلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرفنا أن أبا بكر خليفة حين أمره أن يصلي بالناس؛ فشتمه الأنصار وأخرجوه؛ فانطلق مسرعاً حتى التحق بأبي بكر، فشجذ عزمه على طلب الخلافة. ذكر هذا بعينه الزبير بن بكار في الموفقيات.

وذكر المدائني والواقدي أن معن بن عدي اتفق هو وعويم بن ساعدة على تحريض أبي بكر وعمر على طلب الأمر وصرفه عن الأنصار. قالوا: وكان معن بن عدي يشخصهما إشخاصاً، ويسوقهما سوقاً عنيفاً إلى السقيفة، مبادرة إلى الأمر قبل فواته. قال الزبير بن بكار: فلما بويع أبو بكر، أقبلت الجماعة التي بايعته تزفه زفاً إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان آخر النهار، افترقوا إلى منازلهم، فاجتمع قوم من الأنصار وقوم من المهاجرين، فتعاتبوا فيما بينهم، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا معشر الأنصار، إنكم وإن كنتم أولي فضل ونصر وسابقة؛ ولكن ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا علي ولا أبي عبيدة، فقال زيد بن أرقم: إنا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن؛ وإن منا لسيد الأنصار سعد بن عباد، ومن أمر الله رسوله أن يقرئه السلام، وأن يأخذ عنه القرآن أبي بن كعب، ومن يجيء يوم القيامة إمام العلماء معاذ بن جبل، ومن أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت؛ وإنا لنعلم أن ممن سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد؛ علي بن أبي طالب.

قال الزبير: فلما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وقال: أيها الناس؛ إني وليت أمركم ولست بخيركم، فإذا أحسنت فأعينوني؛ وإن أسأت فقوموني؛ إن لي شيطاناً يعتريني؛ فإياكم وإياي إذا غضبت؛ لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي حتى أرد إليه حقه، والقوي ضعيف حتى أخذ الحق منه. إنه لا يدع قوم الجهاد إلا ضربههم الله بالذل، ولا تشيع في قوم الفاحشة إلا عمهم البلاء؛ أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

قال ابن أبي عبرة القرشي:

ذهب اللجاج وبويع الصديق

ورجا رجاء دونه العيوق

فأتاهم الصديق والفاروق

نفس المؤمل للقاء تتوق

عمر وأولاهم بذاك عتيق

إن المنوه باسمه الموثوق

لم يخط مثل خطاهم مخلوق

شكراً لمن هو بالثناء حقيق

من بعد ما زلت بسعد نعله

حفت به الأنصار عاصب رأسه

وأبو عبيدة والذين إليهم

كنا نقول: لها علي والرضا

فدعت قريش باسمه فأجابها

قل للآلى طلبوا الخلافة زلة

إن الخلافة في قريش مالمكفيهاورب محمد معروق

وروى الزبير بن بكار، قال: روى محمد بن إسحاق أن أبا بكر لما بويع افتخرت تيم بن مرة- قال: وكان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم فقال الفضل بن العباس: يا معشر قريش، وخصوصاً يا بني تيم، إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة، ونحن أهلها دونكم، ولو طلبنا هذا الأمر الذي نحن أهله لكانت كراهة الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا؛ حسداً منهم لنا، وحقداً علينا، وإنا لنعلم أن عند صاحبنا عهداً هو ينتهي إليه.

وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم شعراً:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف	عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
أليس أول من صلى لقبلكم	وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وأقرب الناس عهداً بالنبى ومن	جبريل عون له في الغسل والكفن
ما فيه ما فيهم لا يمترون به	وليس في القوم ما فيه من الحسن
ماذا الذي ردهم عنه فتعلمه	ها إن ذا غبننا من أعظم الغبن!

قال الزبير: فبعث إليه علي فنهاه وأمره ألا يعود، وقال: سلامة الدين أحب إلينا من غيره.

قال الزبير: وكان خالد بن الوليد شيعة لأبي بكر، ومن المنحرفين عن علي، فقام خطيباً، فقال: أيها الناس، إنا رمينا في بدء هذا الدين بأمر ثقل علينا- والله- محمله، وصعب علينا مرتقاه؛ وكنا كأنا فيه على أوتار؛ ثم والله ما لبثنا أن خف علينا ثقله، وذلل لنا صعبه، وعجبنا ممن شك فيه بعد عجبنا ممن آمن به، حتى أمرنا بما كنا ننهى عنه، ونهينا عما كنا نأمر به؛ ولا والله ما سبقنا إليه بالعقول؛ ولكنه التوفيق. ألا وإن الوحي لم ينقطع حتى أحكم؛ ولم يذهب النبي صلى الله عليه وسلم فنستبدل بعده نبياً؛ ولا بعد الوحي وحياً؛ ونحن اليوم أكثر منا أمس، ونحن أمس خير منا اليوم؛ من دخل في هذا الدين كان ثوابه على حسب عمله، ومن تركه رددناه إليه، وإنه والله ما صاحب الأمر- يعني أبا بكر- بالمسؤول عنه، ولا المختلف فيه، ولا الخفي الشخص، ولا المغموز القناة.

فعجب الناس من كلامه. ومدحه حزن بن أبي وهب المخزومي؛ وهو الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلاً، وهو جد سعيد بن المسيب الفقيه، وقال:

وقامت رجال من قريش كثيرة	فلم يك منهم في الرجال كخالد
ترقى فلم يزلق به صدر نعله	وكف فلم يعرض لتلك الأوابد
فجاء بها غراء كالبدر ضوءها	فمسميتها في الحسن أم القلائد
أخالد لا تعدم لؤي بن غالب	قيامك فيها عند قذف الجلامد
كساك الوليد بن المغيرة مجده	وعلمك الأشياخ ضرب القماحد

وفي الشرك عن أحساب جد ووالد

يعدك فيها ماجداً وابن ماجد

عدلت بألف عند تلك الشدائد

فما أنت في الحرب العوان بواحد

تشيب له رؤوس العذارى النواهد

يقولوا جميعاً: حظنا غير شاهد

تقارع في الإسلام عن صلب دينه

وكنت لمخزوم بن يقظة جنة

إذا ما سما في حربها ألف فارس

ومن يك في الحرب المثيرة واحداً

إذا ناب أمر في قريش مخلج

توليت منه ما يخاف و وإن تغب

قال الزبير: وحدثنا محمد بن موسى الأنصاري المعروف بابن مخزومة، قال: حدثني إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، قال: لما بويع أبو بكر واستقر أمره، ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته، ولام بعضهم بعضاً، وذكروا علي بن أبي طالب، وهتفوا باسمه؛ وإنه في داره لم يخرج إليهم، وجزع لذلك المهاجرون، وكثر في ذلك الكلام. وكان أشد قريش على الأنصار نفر فيهم؛ وهم سهيل بن عمرو؛ أحد بني عامر بن لؤي، والحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان؛ وهؤلاء أشرف قريش الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دخلوا في الإسلام، وكلهم موتور قد وتره الأنصار. أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بدر، وأما الحارث بن هشام، فضربه عروة بن عمرو، فجرحه يوم بدر؛ وهو فار عن أخيه. وأما عكرمة بن أبي جهل، فقتل أباه ابناً عفراء، وسلبه درعه يوم بدر زياد بن لبيد، وفي أنفسهم ذلك.

فلما اعتزلت الأنصار تجمع هؤلاء، فقام سهيل بن عمرو فقال: يا معشر قريش؛ إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار، وأثنى عليهم في القرآن؛ فلهم! بذلك حظ عظيم؛ وشأن غالب؛ وقد دعوا إلى أنفسهم وإلى علي بن أبي طالب؛ وعلي في بيته لو شاء لردهم؛ فادعوه إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته؛ فإن أجابوكم وإلا قاتلوهم؛ فوالله إني لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم.

ثم قام الحارث بن هشام، فقال: إن تكن الأنصار تبوأ الدار والإيمان من قبل، ونقلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دورهم من دورنا، فأووا ونصروا، ثم ما رضوا حتى قاسمونا الأموال، وكفونا العمل؛ فإنهم قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه، فإنهم قد خرجوا مما وسموا به؛ وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف؛ وإن نزعوا عنه فقد فعلوا الأولى بهم والمظنون معهم.

ثم قام عكرمة بن أبي جهل، فقال: والله لولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأئمة من قريش"، ما أنكرنا إمرة الأنصار، ولكانوا لها أهلاً، ولكنه قول لا شك فيه ولا خيار، وقد عجلت الأنصار علينا، والله ما قبضنا عليهم الأمر ولا أخرجناهم من الشورى؛ وإن الذي هم فيه من فلتات الأمور ونزعات الشيطان، وما لا يبلغه المنى، ولا يحمله الأمل. أعذروا إلى القوم، فإن أبوا فقاتلوهم؛ فوالله لو لم يبق من قريش كلها إلا رجل واحد لصير الله هذا الأمر فيه. قال: وحضر أبو سفيان بن حرب، فقال: يا معشر قريش، إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقرؤا بفضلنا عليهم،

فإن تفضلوا فحسبنا حيث انتهى بنا، وإلا فحسبهم حيث انتهى بهم. وإيم الله لئن بطروا المعيشة، وكفروا النعمة، لنضربنهم على الإسلام كما ضربوا عليه، فأما علي بن أبي طالب فأهل والله أن يسود على قريش، وتطيعه الأنصار. فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا معشر الأنصار، إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش؛ فأما إذا كان من أهل الدنيا، لا سيما من أقوام كلهم موتور، فلا يكبرن عليكم؛ إنما الرأي والقول مع الأخيار المهاجرين؛ فإن تكلمت رجال قريش؛ والذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء؛ فعند ذلك قولوا ما أحببتهم وإلا فأمسكوا.

وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك:

وتنادى سهيل وابن حرب وحارث	وعكرمة الشاني لنا ابن أبي جهل
قتلنا أباه وانتزعنا سلاحه	فأصبح بالبطحا أذل من النعل
فأما سهيل فاحتواه ابن دخشم	أسيراً ذليلاً لا يمر ولا يجلي
وصخر بن حرب قد قتلنا رجاله	غداة لوا بدر فمرجله يغلي
وراكضنا تحت العجاجة حارث	على ظهر جرداء كباسقة النخل
يقبلها طوراً وطوراً يحثها	ويعدلها بالنفس والمال والأهل
أولئك رهط من قريش تبايعوا	على خطة ليست من الخطط الفضل
وأعجب منهم قابلو ذاك منهم	كأننا اشتملنا من قريش على نحل
وكلهم ثان عن الحق عطفه	يقول اقتلوا الأنصار، يا بنس من فعل !
نصرنا وآوينا النبي ولم نخف	صروف الليالي والبلاء على رجل
بذلنا لهم أنصاف مال أكفنا	كقسمة أيسار الجزور من الفضل
ومن بعد ذاك المال أنصاف دورنا	وكنا أناساً لا نغير بالبخل
ونحمي نمار الحي فهر بن مالك	ونوقد نار الحرب بالحطب الجزل
فكان جزاء الفضل منا عليهم	جهالتهم حمقاً وما ذاك بالعدل

فبلغ شعر حسان قريشاً، فغضبوا وأمروا ابن أبي عزة شاعرهم أن يجيبه، فقال:

معشر الأنصار خافوا ربكم	واستجبروا الله من شر الفتن
إنني أرهب حرباً لاقحاً	يشرق المرضع فيها باللبن
جرها سعد وسعد فتنة	ليت سعد بن عباد لم يكن
خلف برهوت خفياً شخصه	بين بصرى ذي رعين وجدن
ليس ما قدر سعد كائناً	ما جرى البحر وما دام حضن

ليس بالقاطع منا شعرة

كيف يرجى خير أمر لم يحن !

ليس بالمدرک منها أبداً

غير أضغاث أمانی الوسن

قال الزبير: لما اجتمع جمهور لأبي بكر أكرمت قريش معن بن عدي وعويم بن ساعدة؛ وكان لهما فضل قدس في الإسلام؛ فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوهما، فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين، وأكبروا فعلهما في ذلك؛ فتكلم معن، فقال: يا معشر الأنصار. إن الذي أراد الله بكم خير مما أردتم بأنفسكم، وقد كان منكم أمر عظيم البلاء، وصغرتة العاقبة؛ فلو كان لكم على قريش ما لقريش عليكم، ثم أردتوهم لما أرادوكم به لم آمن عليهم منكم مثل ما آمن عليكم منهم؛ فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجتم منه وإلا فأنتم فيه.

قلت: قوله: "وقد كان منكم أمر عظيم البلاء، وصغرتة العاقبة" يعني عاقبة الكف والإمساك، يقول: قد كان منكم أمر عظيم؛ وهو دعوى الخلافة لأنفسكم، وإنما جعل البلاء معظماً له، لأنه لو لم يتعقبه الإمساك؛ لأحدث فتنة عظيمة؛ وإنما صغره سكونهم ورجوعهم إلى بيعة المهاجرين.

وقوله: "وكان لكم على قريش... إلى آخر الكلام، معناه: لو كان لكم الفضل على قريش كفضل قريش عليكم، وادعت قريش الخلافة لها، ثم أردتم منهم الرجوع عن دعواهم، وجرت بينكم وبينهم من المنازعة مثل هذه المنازعة التي جرت الآن بينكم لم آمن عليهم منكم أن تقتلوهم، وتقدموا على سفك دمائهم؛ ولم يحصل لي من سكون النفس إلى حلمكم عنهم وصبركم عليهم مثل ما أنا آمن عليكم منهم، فإنهم صبروا وحلموا، ولم يقدموا على استباحة حربكم والدخول! في دمائكم. قال الزبير: ثم تكلم عويم بن ساعدة، فقال: يا معشر الأنصار؛ إن من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يرد بكم ما أردتم بأنفسكم، فاحمدوا الله على حسن البلاء، وطول العافية، وصرف هذه البلية عنكم، وقد نظرت في أول فتنكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأماني والحسد؛ واحذروا النقم؛ فوددت أن الله صير إليكم هذا الأمر بحقه فكنا نعيش فيه.

فوثبت عليهما الأنصار؛ فأغلظوا لهما، وفحشوا عليهما، وانبرى لهما فروة بن عمرو، فقال: أنسيتما قولكما لقريش: إنا قد خلفنا وراءنا قوما قد حلت دماؤهم بفتنتهم! هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى؛ قد تصرف إلية عن وجهها وسمها في ناهيا. فقال معن في ذلك:

وقالت لي الأنصار إنك لم تصب

فقلت: أما لي في الكلام نصيب!

فقالوا: بلى قل ما بدا لك راشداً

فقلت ومثلي بالجواب طبيب

تركتكم والله لما رأيتمكم

تيوساً لها بالحرثين نبيب

تتادون بالأمر الذي النجم دونه

ألا كل شيء ما سواه قريب

فقلت لكم قول الشفيق عليكم

وللقلب من خوف البلاء وجيب

دعوا الركض واثنوا من أعنة بغيكم

ودبوا فسير القاصدين دبيب

لمن بايعوه ترشدوا وتصيبوا
وما الناس إلا مخطئ ومصيب
وكنت كأني يوم ذاك غريب
فلي فيكم بعد الذنوب ذنوب
إذا شئت يوماً شاعر وخطيب
وملح أجاج تارة وشروب
أفانين شتى والرجال ضروب

وخلوا قريشاً والأمور وبايعوا
أراكم أخذتم حقكم بأكفكم
فلما أبيتم زلت عنكم إليهم
فإن كان هذا الأمر ذنبي إليكم
فلا تبعثوا مني الكلام فإنني
وإنني لخلو تعتريني مرارة
لكل امرئ عندي الذي هو أهله

وقال غويم بن ساعدة في ذلك:

لمعن، وذاك القول جهل من الجهل
فإني أخوكم صاحب الخطر الفصل
أقطع أنفاس الرجال على مهل
راحة وإن تتطقوا أصمت مقاتلكم تبلي
وإن كنتم مستجمعين على عدلي
وما عند رب الناس من درج الفضل
ولا دارها داري ولا أصلها أصلي
أدين لهم ما أنفذت قدمي نعلي
ويحتملوا من جاء في قوله مثلي
وفيما يسوء لا أمر ولا أحلي

وقالت لي الأنصار أضعاف قولهم
فقلت: دعوني لا أبا لأبيكم
أنا صاحب القول الذي تعرفونه
فإن تسكتوا أسكت وفي الصمت
وما لمت نفسي في الخلاف عليكم
أريد بذاك الله لا شيء غيره
وما لي رحم في قريش قريبة
ولكنهم قوم علينا أئمة
وكان أحق الناس أن تقنعوا به
لأنني أحق الناس فيما يسركم

قال فروة بن عمر - وكان ممن تخلف عن بيعة أبي بكر، وكان ممن جاهد مع رسول الله، وقاد فرسين في سبيل الله؛ وكان يتصدق من نخله بألف وسق في كل عام؛ وكان سيذاً؛ وهو من أصحاب علي؛ ومن شهد معه يوم الجمل. قال: فذكر معنا وعويماً، وعاتبهما على قولهما: خلفنا وراءنا قوما قد حلت دماؤهم بفتنتهم:

وذاك الذي شيخه ساعده
خفيف علينا سوى واحده
مراض قلوبهم فاسده
فيا بئسما ربت الوالده!

ألا قل لمعن إذا جئته
بأن المقال الذي قلتما
مقالكم: إن من خلفنا
حلال الدماء على فتنة

فلم تأخذوا قدر أثمانها

ولم تستفيدا بها فائده

لقد كذب الله ما قلتما

وقد يكذب الرائد الواعده

قال الزبير: ثم إن الأنصار أصلحوا بين هذين الرجلين وبين أصحابهما؛ ثم اجتمعت جماعة من قريش يوماً وفيهم ناس من الأنصار وأخلاق من المهاجرين؛ وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة؛ فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفر كان فيه، فجاء إليهم، فأفاضوا في ذكر يوم السقيفة وسعد ودعواه الأمر، فقال عمرو بن العاص: والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عزيمة، ولما دفع الله عنهم أعظم، كادوا والله أن يحلوا حبل الإسلام كما قاتلوا عليه، ويخرجوا منه من أدخلوا فيه، والله لئن كانوا سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأئمة من قريش"، ثم ادعوها لقد هلكوا وأهلكوا، وإن كانوا لم يسمعوها فما هم كالمهاجرين، ولا سعد كأبي بكر، ولا المدينة كمكة، ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء، ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة؛ فلم يجبه أحد، وانصرف إلى منزله وقد ظفر، فقال:

ألا قل لأوس إذا جئتها

وقل كلما جئت للخزرج

تمنيتم الملك في يثرب

فأنزلت القدر لم تتضج

وأخذتكم الأمر قبل التمام

وأعجب هذا المعجل المخدج

تريدون نتج الحيال العشا

ر ولم تلقوه فلم ينتج

عجبت، لسعد وأصحابه

ولو لم يهيجوه لم يهتج

رجا الخزرجي رجاء السراب

وقد يخلف المرء ما يرتجي

فكمان كمنح على كفه

بكف يقطعهما أهوج

فلما بلغ الأنصار مقالته وشعره، بعثوا إليه لسائهم وشاعرهم النعمان بن العجلان - وكان رجلاً أحمر قصيراً، تزدرية العيون، وكان سيداً فخماً - فأتى عمراً وهو في جماعة من قريش، فقال: والله يا عمرو ما كرهتم من حربنا إلا ما كرهنا من حربكم، وما كان الله ليخرجكم من الإسلام بمن أدخلكم فيه؛ إن كان النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الأئمة من قريش"، فقد قال: "لو سلك الناس شعباً، وسلك الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار"، والله ما أخرجناكم من الأمر إذ قلنا: منا أمير ومنكم أمير، وأما من ذكرت، فأبو بكر لعمرى خير من سعد، لكن سعداً في الأنصار أطوع من أبي بكر في قريش، فأما المهاجرون والأنصار، فلا فرق بينهم أبداً، ولكنك يا ابن العاص، وترت بني عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه، وتورت بني مخزوم بإهلاك عمارة بن الوليد. ثم انصرف فقال:

فقل لقريش نحن أصحاب مكة

ويوم حنين والفوارس في بدر

وأصحاب أحد والنضير وخيبر

ونحن رجعنا من قريظة بالذكر

ويوم بأرض الشام أدخل جعفر

وزيد وعبد الله في علق يجري

وفي كل يوم ينكر الكلب أهله

نطاعن فيه بالمتقفعة السمر

ونضرب في نقع العجاجة رؤساً
نصرنا وآوينا النبي ولم نخف
وقلنا لقوم هاجروا قبل: مرحباً
نقاسمكم أموالنا وبيوتنا
ونكفيكم الأمر الذي تكرهونه
وقلتم: حرام نصب سعد ونصبكم
وأهل أبو بكر لها خير قائم
وكان هوانا في علي وإنه
فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى
وصي النبي المصطفى وابن عمه
وهذا بحمد الله يهدي من العمى
نجي رسول الله في الغار وحده
فلولا اتقاء الله لم تذهبوا بها
ولم نرض إلا بالرضا ولربما

ببيض كأمثال البروق إذا تسري
صروف الليالي والعظيم من الأمر
وأهلاً وسهلاً، قد أنتم من الفقر
كقسمة أيسار الجزور على الشطر
وكنا أناسا نذهب العسر باليسر
عتيق بن عثمان حلال أبا بكر
وإن علياً كان أخلق بالأمر
لأهل لها يا عمرو من حيث لا تدري
وينهى عن الفحشاء والبغي والنكر
وقاتل فرسان الضلالة والكفر
ويفتح آذاناً ثقلن من الوقر
وصاحبه الصديق في سالف الدهر
ولكن هذا الخير أجمع للصبر
ضربنا بأيدينا إلى أسفل القدر

فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش، غضب كثير منها، وألقى ذلك قدوم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن وكان رسول الله استعمله عليها، وكان له ولأخيه أثر قدیم عظیم في الإسلام؛ وهما من أول من أسلم من قريش؛ ولهما عبادة وفضل. فغضب للأنصار، وشتم عمرو بن العاص، وقال: يا معشر قريش؛ إن عمراً دخل في الإسلام حين لم يجد بداً من الدخول فيه، فلما لم يستطع أن يكيد يده كاده بلسانه، وإن من كيده الإسلام تفرقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار. والله ما حاربناهم للدين ولا للدنيا؛ لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا بم وما بذلنا دماءنا لله فيهم، وقاسمونا ديارهم وأموالهم، وما فعلنا مثل ذلك بهم، وآثرونا على الفقر، وحرمانهم على الغنى، ولقد وصى رسول الله بهم، وعزاهم عن جفوة السلطان، فأعوذ بالله أن أكون وإياكم الخلف المضيع، والسلطان الجاني!.

قلت: هذا خالد بن سعيد بن العاص؛ هو الذي امتنع من بيعة أبي بكر، وقال: لا أبايع إلا علياً، وقد ذكرنا خبره فيما تقدم.

وأما قوله في الأنصار: "وعزاهم عن جفوة السلطان" فإشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تقدموا علي الحوض"، وهذا الخبر هو الذي يكفر كثير من أصحابنا معاوية بالاستهزاء به، وذلك أن النعمان بن بشير الأنصاري جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية، فشكوا إليه فقرهم، وقالوا: لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله لنا: "ستلقون بعدي أثرة"، فقد لقيناها. قال معاوية: فإذا قال لكم؛ قالوا: قال لنا: "فاصبروا حتى

تردوا علي الحوض"، قال: فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقونه غداً عند الحوض كما أخبركم؛ وحرّمهم ولم يعطهم شيئاً.

قال الزبير: وقال خالد بن سعيد بن العاص في ذلك:

تقوه عمرو بالذي لا نريده	وصرح للأنصار عن شناعة البغض
فإن تكن الأنصار زلت فإننا	نقيل ولا نجزيهم بالقرض
فلا تقطعن يا عمرو ما كان بيننا	ولا تحملن يا عمرو بعضاً على بعض
أتنسى لهم يا عمرو ما كان منهم	ليالي جنّاهم من النفل والفرض
وقسمتّا الأموال كاللحم بالمدى	وقسمتّا الأوطان كل به يقضي
ليالي كل الناس بالكفر جهرة	ثقال علينا، مجمعون على البغض
فساؤوا وآووا وانتهينا إلى المنى	وقر قرارنا من الأمن والخفض

قال الزبير: ثم إن رجالاً من سفهاء قريش ومثيري الفتن منهم، اجتمعوا إلى عمرو بن العاص، فقالوا له: إنك لسان قريش ورجلها في الجاهلية والإسلام، فلا تدع الأنصار وما قالت؛ وأكثروا عليه من ذلك، فراح إلى المسجد، وفيه ناس من قريش وغيرهم، فتكلم وقال: إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها، وإيم الله لوددت أن الله خلى عنا وعنهم، وقضى فيهم وفيما بما أحب، ولنحن الذين أفسدنا على أنفسنا أحرزناهم عن كل مكروه، وقدمناهم إلى كل محبوب؛ حتى أمنوا المخوف؛ فلما جاز لهم ذلك صغروا حقناً، ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم.

ثم التفت فرأى الفضل بن العباس بن عبد المطلب، وندم على قوله، للخزولة التي بين ولد عبد المطلب وبين الأنصار، ولأن الأنصار كانت تعظم علياً، وتهتف باسمه حينئذ، فقال الفضل: يا عمرو، إنه ليس لنا أن نكتّم ما سمعنا منك، وليس لنا أن نجيبك؛ وأبو الحسن شاهد بالمدينة؛ إلا أن يأمرنا فنفعل.

ثم رجع الفضل إلى علي فحدثه. فغضب وشتّم عمراً. وقال: آذى الله ورسوله؛ ثم قام فأتى المسجد، فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلم مغضباً، فقال: يا معشر قريش، إن حب الأنصار إيمان، وبغضهم نفاق، وقد قضوا ما عليهم، وبقي ما عليكم؛ واذكروا أن الله رغب لنبينا عن مكة، فنقله إلى المدينة. وكره له قريشاً؛ فنقله إلى الأنصار، ثم قدمنا عليهم دارهم، فقاسمونا الأموال، وكفونا العمل، فصرنا منهم بين بذل الغني وإيثار الفقير، ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم؛ وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن، جمع لهم فيها بين خمس نعم، فقال: "والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" ألا وإن عمرو بن العاص قد قام مقاماً آذى فيه الميت والحى، ساء به الواتر وسر به الموتور؛ فاستحق من المستمع الجواب، ومن الغائب المقت؛ وإنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار، فليكف عمرو عنا نفسه.

قال الزبير: فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص، فقالوا: أيها الرجل؛ أما إذا غضب علي فاكفف.
وقال خزيمه بن ثابت الأنصاري يخاطب قريشا:

أيال قريش أصلحوا ذات بيننا	وبينكم قد طال حبل التماحك
فلا خير فيكم بعدنا فارقوا بنا	ولا خير فينا بعد فھر بن مالك
كلنا على الأعداء كف طويلة	إذا كان يوم فيه جب الحوارك
فلا تذكروا ما كان منا ومنكم	ففي ذكر ما قد كان مشي التساوک

قال الزبير: وقال علي للفضل: يا فضل، انصر الأنصار بلسانك ويدك، فإنهم منك وإنك منهم، فقال الفضل:

قلت يا عمرو مقالاً فاحشاً	إن تعد يا عمرو والله فلك
إنما الأنصار سيف قاطع	من تصبه ظبة السيف هلك
وسيوف قاطع مضربها	وسهام الله في يوم الحلك
نصروا الدين وآووا أهله	منزل رحب ورزق مشترك
وإذا الحرب تلظت نارها	بركوا فيها إذا الموت برك

ودخل الفضل على علي فأسمعه شعره، ففرح به، وقال وريت بك زنادي يا فضل، أنت شاعر قريش وفتاها، فأظهر شعرك وابعث به إلى الأنصار؛ فلما بلغ ذلك الأنصار، قالت: لا أحد يجيب إلا حسان الحسام؛ فبعثوا إلى حسان بن ثابت فعرضوا عليه شعر الفضل، فقال: كيف أصنع بجوابه؟ إن لم أتحرقوافيه فضحني، فرويدا حتى أقفو أثره في القوافي؛ فقال له خزيمه بن ثابت: اذكر علياً وآله يكفك عن كل شيء، فقال:

جزى الله عنا والجزاء بكفه	أبا حسن عنا ومن كأبي حسن
سبقت قريشاً بالذي أنت أهله	فصدرك مشروح، وقلبك ممتحن
تمنت رجال من قريش أعزة	مكانك، هيهات الهزل من السمن
وأنت من الإسلام في كل موطن	بمنزلة الدلو البطين من الرسن
غضبت لنا إذ قام عمرو بخطبة	أمات بها التقوى وأحيا بها الإحن
فكنت المرجى من لؤي بن غالب	لما كان منهم، والذي كان لم يكن
حفظت رسول الله فينا وعهده	إليك ومن أولى به منك من ومن
ألست أخاه في الهدى ووصيه	وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن
فحكك ما دامت بنجد وشيجة	عظيم علينا ثم بعد على اليمن

قال الزبير: وبعثت الأنصار بهذا الشعر إلى علي بن أبي طالب، فخرج إلى المسجد، وقال لمن به من قريش وغيرهم. يا معشر قريش، إن الله جعل الأنصار أنصاراً، فأثنى عليهم في الكتاب، فلا خير فيكم بعدهم؛ إنه لا يزال سفيه من سفهاء

قريش وتره الإسلام، ودفعه عن الحق، وأطفأ شرفه وفضل غيره عليه؛ يقوم مقاماً فاحشاً فيذكر الأنصار، فاتقوا الله وارعوا حقهم، فوالله لو زالوا لزلت معهم؛ لأن رسول الله قال لهم: "أزول معكم حيثما زلتم"؛ فقال المسلمون جميعاً: رحمك الله يا أبا الحسن! قلت قولاً صادقاً.

قال الزبير: وترك عمرو بن العاص المدينة، وخرج عنها حتى رضي عنه علي والمهاجرون. قال الزبير: ثم إن الوليد بن عقبة بن أبي معيط - وكان ييغض الأنصار، لأنهم أسروا أباه يوم بدر، وضربوا عنقه بين يدي رسول الله - قام يشتم الأنصار، وذكرهم بالهجر، فقال: إن الأنصار لترى لها من الحق علينا ما لا نراه، والله لئن كانوا آووا لقد عزوا بنا، ولئن كانوا آسوا لقد منوا علينا، والله ما نستطيع مودتهم؛ لأنه لا يزال قائل منهم يذكر ذلنا بمكة، وعزنا بالمدينة، ولا ينفكون يعيرون موتانا، ويغيظون أحياءنا، فإن أجبناهم قالوا: غضبت قريش على غاربها، ولكن قد هون علي ذلك منهم حرصهم على الدين أمس، واعتذارهم من الذنب اليوم، ثم قال:

ونسبتها في الأزد عمرو بن عامر

على كل باد من معد وحاضر

بحرمته الأنصار فضل المهاجر

معاشها من جاء قسمة جازر

وما ذاك فعل الأكرمين الأكابر

بشتم قريش غنيت في المعاشر

وأعمل فيها كل خف وحافر

يقوم بها منكم ومن كل شاعر

وأهل بأن يرموا بنبل فواقر

تباذخت الأنصار في الناس باسمها

وقالوا: لنا حق عظيم ومنة

فإن يك للأنصار فضل فلم تتل

وإن تكن الأنصار آوت وقاسمت

فقد أفسدت ما كان منها بمنها

إذا قال حسان وكعب قصيدة

وسار بها الركبان في كل وجهة

فهذا لنا من كل صاحب خطبة

وأهل بأن يهجوا بكل قصيدة

قال: ففشا شعره في الناس، فغضبت الأنصار، وغضب لها من قريش قوم، منهم ضرار بن الخطاب الفهري، وزيد بن الخطاب، ويزيد بن أبي سفيان، فبعثوا إلى الوليد فجاء. فتكلم زيد بن الخطاب، فقال: يابن عقبة بن أبي معيط، أما والله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، لأحببت الأنصار، ولكنك من الجفافة في الإسلام البطاء عنه، الذين دخلوا فيه بعد أن ظهر أمر الله وهم كارهون؛ إنا نعلم أنا أتيناهم ونحن فقراء، فأغنونا، ثم أصبنا الغنى فكفوا عنا. ولم يرزئونا شيئاً. فأما ذكرهم ذلة قريش بمكة وعزها بالمدينة، فكذلك كنا، وكذلك قال الله تعالى: "وأذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس"، فنصرنا الله تعالى بهم، وآوانا إلى مدينتهم.

وأما غضبك لقريش فإننا لا ننصر كافراً، ولا نواد ملحداً ولا فاسقاً؛ ولقد قلت وقالوا، فقطعك الخطيب، وألجمك الشاعر. وأماذك الذي كان بالأمس، فدع المهاجرين والأنصار؛ فإنك لست من ألسنتهم في الرضا، ولا نحن من

أيديهم في الغضب.

وتكلم يزيد بن أبي سفيان، فقال: يابن عقبة، الأنصار أحق بالغضب لقتلى أحد، فاكفف لسانك، فإن من قتله الحق لا يغضب له.

وتكلم ضرار بن الخطاب، فقال: أما والله لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الأئمة من قريش" لقلنا: الأئمة من الأنصار، ولكن جاء أمر غلب الرأي، فاقمع شرتك أيها الرجل؛ ولا تكن امرء سوء، فإن الله لم يفرق بين الأنصار والمهاجرين في الدنيا، وكذلك الله لا يفرق بينهم في الآخرة.

وأقبل حسان بن ثابت مغضباً من كلام الوليد بن عقبة وشعره، فدخل المسجد وفيه قوم من قريش، فقال: يا معشر قريش، إن أعظم ذنبنا إليكم قتلنا كفاركم، وحمائنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإن كنتم تنتقمون منا مئة كانت بالأمس؛ فقد كفى الله شرها، فما لنا وما لكم؛ والله ما يمنعنا من قتالكم الجبن، ولا من جوابكم العي. إنا لحي فعال ومقال؛ ولكننا قلنا: إنما حرب؛ أولها عار وآخرها ذل؛ فأغضينا عليها عيوننا، وسحبنا ذيولنا، حتى نرى وتروا، فإن قلتم قلنا، وإن سكتكم سكتنا. فلم يجبه أحد من قريش، ثم سكت كل من الفريقين عن صاحبه، ورضي القوم أجمعون، وقطعوا الخلاف والعصية.

انتهى ما ذكره الزبير بن بكار في الموفقيات ونعود الآن إلى ذكر ما أورده أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة.

قال أبو بكر: حدثني أبو يوسف يعقوب بن شيبة، عن بحر بن آدم عن رجاله، عن سالم بن عبيد، قال: لما توفي رسول الله وقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير؛ أخذ عمر بيد أبي بكر، وقال سيفان في غمد واحد! إذا لا يصلحان. ثم قال: من له هذه الثلاث: "ثاني اثنين إذ هما في النار" من هما؟ "إذ يقول لصاحبه لا تحزن"، من صاحبه؟ "إن الله معنا" مع من؟ ثم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه، فبايعه الناس أحسن بيعة، وأجملها.

قال أبو بكر: حدثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن أبي بكر بن عياش، عن زيد بن عبد الله، قال: إن الله تعالى نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد عليه الصلاة والسلام خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعته برسالته، ثم نظر في قلوب الأمم بعد قلبه، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون عن دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأى المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ.

قال أبو بكر بن عياش: وقد رأى المسلمون أن يولوا أبا بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت ولايته حسنة.

قال أبو بكر: وحدثنا يعقوب بن شيبة، قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، قال عمر: أيها الناس، أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة! رضى الله لديننا أفلا نرضاك لدينانا!.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثني زيد بن يحيى الأنماطي، قال: حدثنا صخر بن جويرية، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، قال: أخذ أبو بكر بيد عمر ويد رجل من المهاجرين - يروونه أبا عبيدة - حتى انطلقوا إلى

الأنصار، وقد اجتمعوا عند سعد في سقيفة بني ساعدة، فقال عمر: قلت لأبي بكر: دعني أتكلم، وخشيت جد أبي بكر - وكان ذا جد - فقال أبو بكر لا، بل أنا أتكلم، فما هو والله إلا أن انتهينا إليهم، فما كان في نفسي شيء أريد أن أقوله إلا أتى أبو بكر عليه، فقال لهم: يا معشر الأنصار، ما ينكر حقكم مسلم؛ إنا والله ما أصبنا خيراً قط إلا شركتمونا فيه، لقد أويتم وغرتم، وآزرتهم وواسيتم، ولكن قد علمتم أن العرب لا تقر ولا تطيع إلا لأمري من قريش، هم رهط النبي صلى الله عليه وسلم، أوسط العرب وشيعة رحم، وأوسط الناس داراً، وأعرب الناس ألسناً، وأصبح الناس أوجهاً؛ وقد عرفتم بلاء ابن الخطاب في الإسلام وقدمه، هلم فلنبايعه.

قال عمر: بل إياك نبايع، قال عمر: فكنت أول الناس مد يده إلى أبي بكر فبايعه، إلا رجلاً من الأنصار أدخل يده بين يدي ويد أبي بكر فبايعه قبلي. ووطئ الناس فراش سعد، فقليل: قتلتم سعداً. فقال عمر: قتل الله سعداً فوثب رجل من الأنصار، فقال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب. فأخذ ووطئ في بطنه ودسوا في فيه التراب.

قال أبو بكر: وحدثني يعقوب، عن محمد بن جعفر، عن محمد بن إسماعيل، عن مختار اليمان؛ عن عيسى بن زيد، قال: لما بويع أبو بكر جاء أبو سفيان إلى علي، فقال: أغلبكم على هذا الأمر أذل بيت من قريش وأقلها! أما والله لئن شئت لأملأها على أبي فصيل خيلاً ورجلاً؛ ولأسدناها عليه من أقطارها، فقال علي: يا أبا سفيان، طالما كدت الإسلام وأهله، فما ضرهم شيئاً، أمسك عليك؛ فإننا رأينا أبا بكر لها أهلاً.

قال أبو بكر: وحدثنا يعقوب، عن رجاله، قال: لما بويع أبو بكر تخلف علي فلم يبايع، فقليل لأبي بكر: إنه كره إمارتك، فبعث إليه: أكرهت إمارتي؟ قال: لا، ولكن القرآن خشيت أن يزداد فيه، فحلفت ألا أرتدي رداء حتى أجمعه؛ اللهم إلا إلى صلاة الجمعة.

فقال أبو بكر: لقد أحسنت، قال: فكتبه عليه الصلاة والسلام كما أنزل، بناسخه ومنسوخه.

قال أبو بكر: حدثنا يعقوب، عن أبي النضر، عن محمد بن راشد، عن مكحول، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل خالد بن سعيد بن العاص على عمل، فقدم بعدما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بايع الناس أبا بكر، فدعاه إلى البيعة، فأبى، فقال عمر: دعني وإياه، فمنعه أبو بكر حتى مضت عليه سنة، ثم مر به أبو بكر وهو جالس على بابه فناده خالد: يا أبا بكر؛ هل لك في البيعة؟ قال: نعم، قال: فادن، فدنا منه، فبايعه خالد وهو قاعد على بابه.

قال أبو بكر: وحدثنا أبو يوسف يعقوب بن شيبة، عن خالد بن مخلد، عن يحيى بن عمر، قال: حدثني أبو جعفر الباقر، قال جاء أعرابي إلى أبي بكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: أوصني، فقال: لا تتأمر على اثنين. ثم إن الأعرابي شخص إلى الربذة، فبلغه بعد ذلك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عن أمر الناس: من وليه؛ فقليل: أبو بكر؛ فقدم الأعرابي إلى المدينة، فقال لأبي بكر: ألسنت أمرتني ألا أتأمر على اثنين؛ قال: بلى، قال: فما بالك؛ فقال أبو بكر: لم أجد لها أحداً غيري أحق مني.

قال: ثم رفع أبو جعفر الباقر يديه وخفضهما، فقال: صدق، صدق.

قال أبو بكر: وقد روي هذا الخبر برواية أتم من هذه الرواية: حدثنا يعقوب بن شيبة، قال: حدثنا يحيى بن حماد، قال:

حدثنا أبو عوانة، عن سليمان الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن رافع بن أبي رافع الطائي، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً، فأمر عليهم عمرو بن العاص، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمرهم أن يستنفروا من مروا به، فمروا علينا فاستنفرونا، فنفروا معهم في غزاة ذات السلاسل - وهي التي تفخر بها أهل الشام، فيقولون: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر وعمر - قال: فقلت: والله لأختارن في هذه الغزاة لنفسى رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أستهديه، فإني لست أستطيع إتيان المدينة؛ فاخترت أبا بكر ولم آل؛ وكان له كساء فدكي يخله عليه إذا ركب، ويلبسه إذا نزل؛ وهو الذي عبرته به هوازن بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا لا نبايع ذا الخلال، قال: فلما قضينا غزائنا، قلت له: يا أبا بكر. إني قد صحبتك وإن لي عليك حقاً. فعلمني شيئاً أنتفع به؛ فقال: قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لي: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتحج البيت، وتصوم شهر رمضان، ولا تتأمر على رجلين، فقلت: أما العبادات فقد عرفتوها؛ أرايت نهيك لي عن الإمارة! وهل يصيب الناس الخير والشر إلا بالإمارة؟ فقال: إنك استجهدتني فجهدت لك، إن الناس دخلوا في الإسلام طوعاً وكراهاً فأجارهم الله من الظلم، فهم حيران الله وعواد الله وفي ذمة الله، فمن يظلم منكم إنما يحقر ربه، والله إن أحدكم لياخذ شويهة جاره أو يعيره، فيظل عمله بأساً بجاره، والله من وراء جاره، قال: فلم يلبث إلا قليلاً حتى أتتنا وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألت: من استخلف بعده؟ قيل: أبو بكر، قلت أصحابي الذي كان ينهاني عن الإمارة! فشددت على راحلي، فأتيت المدينة، فجعلت أطلب خلوته، حتى قدرت عليها، فقلت أتعرفني؟ أنا فلان ابن فلان، أتعرف وصية أوصيتني بها؟ قال: نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض والناس حديثو عهد بالجاهلية، فخشيت أن يفتنوا، وإن أصحابي حملونيها، فما زال يعتذر إلي حتى عذرته، وصار من أمري بعد أن صرت عريفاً.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، عن رجاله، عن الشعبي، قال: قام الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى أبي بكر وهو يخطب على المنبر فقال له: انزل عن منبر أبي، فقال أبو بكر: صدقت؛ والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي، فبعث علي إلى أبي بكر: إنه غلام حدث، وأنا لم نأمره، فقال أبو بكر: صدقت، إنا لم نتهمك.

قال أبو بكر: وروى أبو زيد، عن حباب بن يزيد، عن جرير، عن المغيرة أن سلمان والزبير وبعض الأنصار كان هواهم أن يبايعوا علياً بعد النبي صلى الله عليه وسلم فلما بويع أبو بكر، قال سلمان للصحابه: أصبتم الخير؛ ولكن أخطأتم المعدن قال: وفي رواية أخرى: أصبتم ذا السن منكم، ولكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم. أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رغداً.

قلت: هذا الخبر هو الذي رواه المتكلمون في باب الإمامة عن سلمان أنه قال: "كرديد ونكرديد"، تفسره الشيعة، فتقول: أراد أسلمتم وما أسلمتم، ويفسره أصحابنا فيقولون معناه: أخطأتم وأصبتم.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال: حدثنا غسان بن عبد الحميد، قال: لما أكثر في تخلف علي عن البيعة، واشتد أبو بكر وعمر في ذلك، خرجت أم مسطح بن أثاثه، فوقفت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ونادته: يا رسول الله!

قد كان بعدك أنباء وهينة

لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب

إننا فقدناك فقد الأرض وابلها

فاختل قومك، فأشهدهم ولا تغب

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وسمعت أبا زيد عمر بن شبة يحدث رجلاً بحديث لم أحفظ إسناده، قال: مر المغيرة بن شعبة بأبي بكر وعمر، وهما جالسان على باب النبي حين قبض، فقال: ما يقعدكما؟ قالوا: ننتظر هذا الرجل يخرج فنبايعه - يعينان علياً - فقال: أتريدون أن تنظروا حبل الحيلة من أهل هذا البيت! وسعوها في قريش تتسع. قال: فقاما إلى سقيفة بني ساعدة، أو كلاماً هذا معناه.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو جعفر محمد بن عبد الملك الواسطي، عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهري، عن أنس بن مالك، قال: لما مرض رسول الله الذي مرضه الذي مات فيه أتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال بعد مرتين: يا بلال، قد بلغت؛ فمن شاء فليصل بالناس، ومن شاء فليدع.

قال: ورفعت الستور عن رسول الله، فنظرنا إليه كأنه ورقة بيضاء، وعليه خميصة له، فرجع إليه بلال فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، قال: فما رأيناه بعد ذلك رضي الله عنه.

وقال أبو بكر: وحدثني أبو الحسن علي بن سليمان النوفلي، قال: سمعت أياً يقول: ذكر سعد بن عباداً يوماً علياً بعد يوم السقيفة، فذكر أمراً من أمره نسيه أبو الحسن، يوجب ولايته، فقال له ابنه قيس بن سعد: أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام في علي بن أبي طالب، ثم تطلب الخلافة، ويقول أصحابك: منا أمير ومنكم أمير! لا كلمتك والله من رأسي بعد هذا كلمة أبداً.

قال! أبو بكر: وحدثني أبو الحسن علي بن سليمان النوفلي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني شريك بن عبد الله، عن إسماعيل بن خالد، عن زيد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جده، قال: قال علي: كنت مع الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له في المحبوب والمكروه، فلما عز الإسلام، وكثر أهله، قال: يا علي؛ زد فيها: "على أن تمنعوا رسول الله وأهل بيته مما تمنعون منه أنفسكم وذرائعكم"، قال: فحملها على ظهور القوم، فوفى بها من وفى، وهلك من هلك.

قلت؛ هذا يطابق ما رواه أبو الفرج الأصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين أن جعفر بن محمد رضي الله عنه وقف مستتراً في خفية، يشاهد المحامل التي حمل عليها عبد الله بن الحسن وأهله في القيود والحديد من المدينة إلى العراق، فلما مروا به بكى، قال: ما وفيت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بايعهم على أن يمنعوا محمداً وأبناءه وأهله وذريته مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم وأهلهم وذرائعهم، فلم يفوا. اللهم اشد وطأتك على الأنصار.

قال أبو بكر: وحدثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد، قال: حدثنا أحمد بن الحكم، قال: حدثنا عبد الله بن وهب، عن ليث بن سعد، قال: تخلف علي عن بيعة أبي بكر، فاخرج ملبياً يمضى به ركضاً وهو يقول: معاشر المسلمين، علام تضرب عنق رجل من المسلمين، لم يتخلف لخلاف، وإنما تخلف لحاجة! فما مر بمجلس من المجالس إلا يقال له: انطلق فبايع.

قال أبو بكر: وحدثنا علي بن جرير الطائي، قال: حدثنا ابن فضل، عن الأجلح، عن حبيب بن ثعلبة بن يزيد، قال: سمعت علياً يقول: أما ورب السماء والأرض، ثلاثاً؛ إنه لعهد النبي الأمي إلي: "لتغدرن بك الأمة من بعدي".

قال أبو بكر: وحدثنا أبو زيد عمر بن شبة بإسناد رفعه إلى ابن عباس، قال: إني لأماشي عمر في سكة من سكك المدينة، يده في يدي، فقال: يا بن عباس، ما أظن صاحبك إلا مظلوماً، فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، فاردد إليه ظلامته. فانتزع يده من يدي، ثم مر بهم ساعة ثم وقف. فلحقته فقال لي: يا بن عباس؛ ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا أنهم استصغروه؛ فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى؛ فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر.

خبر أمر فاطمة مع أبي بكر وعمر

فأما ما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين من كيفية المبايعة لأبي بكر بهذا اللفظ الذي أورده عليك؛ والإسناد إلى عائشة: أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من النبي صلى الله عليه وسلم، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فذك، وسهمه من خير، فقال لهما أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنا معشر الأنبياء لا نورث؛ ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال"؛ لأني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه إلا صنعته. فهجرته فاطمة ولم تكلمه في ذلك حتى ماتت. فدفنها في ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر. وكان لعلي وجه من الناس في حياة فاطمة. فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن علي، فمكثت فاطمة ستة أشهر ثم توفيت - فقال رجل للزهري وهو الراوي لهذا الخبر عن عائشة: فلم يبايعه علي ستة أشهر! قال: ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي. فلما رأى ذلك ضرع إلى مبايعة أبي بكر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا، ولا يأت معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما عرف من شدته، فقال عمر: لا تأثم وحدك، فقال أبو بكر: والله لا أتنيهم وحدي، وما دمي أن يصنعوا بي! فانطلق أبو بكر حتى دخل على علي، وقد جمع بني هاشم عنده؛ فقام علي. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضلك، ولا منافسة لخير ساقه الله إليك، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً، فاستبددتم به علينا. وذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقه، فلم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر، فلما صمت علي تشهد أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أما بعد فوالله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصلها من قرابتي، وإني والله ما آلوكم من هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم إلا الخير؛ ولكنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا نورث ما تركناه صدقة؛ وإنما يأكل آل محمد من هذا المال"، وإني والله لا أترك أمراً صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا صنعته إن شاء الله، قال علي: موعذك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر، أقبل على الناس ثم عذر علياً ببعض ما اعتذر به، ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر، وذكر فضله وسابقته، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه، فأقبل الناس إلى علي، فقالوا: أصبت وأحسن، وكان علي قريباً إلى الناس حين قارب الأمر بالمعروف.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز، قال: حدثني أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثني إبراهيم بن المنذر، قال: حدثنا ابن وهب، عن ابن لهيعة؛ عن أبي الأسود؛ قال: غضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر بغير مشورة، وغضب علي والزبير، فدخلوا بيت فاطمة، معهما السلاح، فجاء عمر في عصابة، فيهم أسيد بن حضير، وسلمة بن سلامة بن قريش؛ وهما من بني عبد الأشهل، فاقتحما الدار، فصاحت فاطمة وناشدتهما الله، فأخذوا سيفيهما، فضربوا بهما الحجر حتى كسروهما، فأخرجهما عمر يسوقهما حتى بايعا.

ثم قام أبو بكر، فخطب الناس، فاعتذر إليهم، وقال: إن بيعتي كانت فلتة وقى الله شرها، وخشيت الفتنة، وإيم الله ما حرصت عليها يوماً قط، ولا سألتها الله في سر ولا علانية قط، ولقد قلدت أمراً عظيماً ما لي به طاقة، ولا يدان، ولقد وددت أن أقوى الناس عليه مكاني.

فقبل المهاجرون، وقال علي والزبير: ما غضبنا إلا في المشورة، وإنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإنا لنعرف له سنه، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة وهو حي.

قال أبو بكر: وذكر ابن شهاب بن ثابت أن قيس بن شماس أخا بني الحارث من الخزرج، كان مع الجماعة الذين دخلوا بيت فاطمة. قال: وروى سعد بن إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ذلك اليوم، وأن محمد بن مسلمة كان معهم، وأنه هو الذي كسر سيف الزبير.

قال أبو بكر: وحدثني أبو زيد عمر بن شبة، عن رجاله، قال: جاء عمر إلى بيت فاطمة في رجال من الأنصار ونفر قليل من المهاجرين، فقال: والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت طيكم. فخرج إليه الزبير مصلاً بالسيف، فاعتنقه زياد بن ليلى الأنصاري ورجل آخر، فندر السيف من يده، فضرب به عمر الحجر فكسره، ثم أخرجهم بتلابيبهم يساقون سوقاً عنيفاً؛ حتى بايعوا أبا بكر.

قال أبو زيد: وروى النضر بن شميل، قال: خل سيف الزبير لما ندر من يده إلى أبي بكر وهو على المنبر يخطب، فقال: اضربوا به الحجر، قال أبو عمرو بن حماس: ولقد رأيت الحجر وفيه تلك الضربة، والناس يقولون: هذا أثر ضربة سيف الزبير.

قال أبو بكر: وأخبرني أبو بكر الباهلي، عن إسماعيل بن مجالد، عن الشعبي، قال: قال أبو بكر: يا عمر، أين خالد بن الوليد؛ قال: هو هذا، فقال: انطلقا إليهما - يعني علياً والزبير فأتيا بهما، فانطلقا، فدخل عمر ووقف خالد على الباب من خارج، فقال عمر للزبير: ما هذا السيف؟ قال: أعددت له لأبائع علياً، قال: وكان في البيت ناس كثير؛ منهم المقداد بن الأسود وجهور الهاشميين، فاخترط عمر السيف فضرب به صخرة في البيت فكسره، ثم أخذ بيد الزبير، فأقامه ثم دفعه فأخرجه، وقال: يا خالد، دونك هذا، فأمسكه خالد - وكان خارج البيت مع خالد جمع كثير من الناس، أرسلهم أبو بكر رداً لهما - ثم دخل عمر فقال لعلي: قم فبايع، فتلكأ واحتبس، فأخذ بيده، وقال: قم، فأبى أن يقوم، فحمله ودفعه كما دفع الزبير، ثم أمسكهما خالد، وساقهما عمر ومن معه سوقاً عنيفاً، واجتمع الناس ينظرون، وامتألت شوارع المدينة بالرجال!، ورأت فاطمة ما صنع عمر، فصرخت وولولت، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميات وغيرهن؛ فخرجت إلى

باب حجرهما، ونادت: يا أبا بكر، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله! والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله، قال: فلما بايع علي والزبير؛ وهذأت تلك الفورة، مشى إليها أبو بكر بعد ذلك فشفع لعمر، وطلب إليها فرضيت عنه. قال أبو بكر: وحدثني المؤمل بن جعفر، قال: حدثني محمد بن ميمون، قال: حدثني داود بن المبارك، قال: أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونحن راجعون من الحج في جماعة، فسألناه عن مسائل، وكنت أحد من سألته، فسألته عن أبي بكر وعمر، فقال: أجيبك بما أجاب به جدي عبد الله بن الحسن، فإنه سئل عنهما، فقال: كانت أمنا صديقة، ابنة نبي مرسل، وماتت وهي غصبي على قوم، فنحن غضاب لغضبهما. قلت: قد أخذ هذا المعنى بعض شعراء الطالبيين من أهل الحجاز؛ أنشدني النقيب جلال الدين عبد الحميد بن محمد بن عبد الحميد العلوي قال: أنشدني هذا الشاعر لنفسه - وذهب عني أنا اسمه - قال:

كنت ملياً بذاك لولا الحمام

يا أبا حفص الهويني وما

ما كذا يصنع البنون الكرام

أتموت البتول غضبي ونرضي

يخاطب عمر ويقول له: مهلاً ورويداً يا عمر، أي ارفق واتدد ولا تعنف بنا. وما كنت ملياً، أي وما كنت أهلاً لأن تخاطب بهذا وتستعطف، ولا كنت قادراً على ولوج دار فاطمة على ذلك الوجه الذي ولجتها عليه، لولا أن أباه الذي كان بيتها يحترم ويصان لأجله مات فطمع فيها من لم يكن يطمع. ثم قال: أتموت أمنا وهي غضبي ونرضى نحن إذا لسنا بكرام، فإن الولد الكريم يرضى لرضا أبيه وأمه ويغضب لغضبهما.

والصحيح عندي أنها ماتت وهي واجدة على أبي بكر وعمر، وأنها أوصت ألا يصليا عليها؛ وذلك عند أصحابنا من الأمور المغفورة لهما، وكان الأولى بهما إكرامها واحترام مترلها لكنهما خافا الفرقة، وأشفقا من الفتنة، ففعلا ما هو الأصلح بحسب ظنهما، وكانا من الدين وقوة اليقين بمكان مكين، لا شك في ذلك، والأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها وأسبابها، ولا يعلم حقائقها إلا من قد شاهدها ولا بسها، بل لعل الحاضرين المشاهدين لها لا يعلمون باطن الأمر؛ فلا يجوز العدول عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى؛ والله ولي المغفرة والعفو؛ فإن هذا لو ثبت أنه خطأ لم يكن كبيرة، بل كان من باب الصغائر التي لا تقتضي التبرؤ، ولا توجب زوال التولي.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا محمد بن حاتم، عن رجاله، عن ابن عباس، قال: مر عمر بعلي، وأنا معه بفناء داره فسلم عليه، فقال له علي: أين تريد؟ قال: البقيع، قال: أفلا تصل صاحبك، ويقوم معك؟ قال: بلى، فقال لي علي: قم معه، فقمتم فمشيت إلى جانبه، فشبك أصابعه في أصابعي، ومشينا قليلاً، حتى إذا خلفنا البقيع قال لي: يا ابن عباس، أما والله إن صاحبك هذا لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنا خفناه على اثنين؛ قال ابن عباس: فجاء بكلام لم أجد بداً من مسألته عنه، فقلت: ما هما يا أمير المؤمنين؟ قال: خفناه على حدثا سنة، وحبه بني عبد المطلب.

قال أبو بكر: وحدثني أبو زيد، قال: حدثني محمد بن عباد، قال: حدثني أخي سعيد بن عباد، عن الليث بن سعد، عن

رجاله، عن أبي بكر الصديق أنه قال: ليتني لم أكشف بيت فاطمة، ولو أغلق على الحرب!.

قال أبو بكر: وحدثنا الحسن بن الربيع، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه، قال: لما حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتتوني بدواة وصحيفة، أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدي، فقال عمر كلمة معناها أن الوجد قد غلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: عندنا القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف من في البيت واختصموا، فمن قائل يقول: القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن قائل يقول: القول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط واللغو والاختلاف، غضب رسول الله، فقال: "قوموا؛ إنه لا ينبغي لني أن يختلف عنده هكذا"، فقاموا، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم؛ فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني الاختلاف واللفظ.

قلت: هذا الحديث قد خرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج القشيري في صحيحيهما، واتفق المحدثون كافة على روايته.

قال أبو بكر: وحدثنا أبو زيد، عن رجالة، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن تولوها أبا بكر تجدوه ضعيفاً في بدنه، قوياً في أمر الله، وإن تولوها عمر تجدوه قوياً في بدنه قوياً في أمر الله، وإن تولوها علياً - وما أراكم فاعلين - تجدوه هادياً مهدياً، يحملكم على المحجة البيضاء، والصرائط المستقيم.

قال أبو بكر: وحدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح، عن أحمد بن سيار، عن سعيد بن كثير الأنصاري، عن رجالة، عن عبد الله بن عبد الرحمن، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته أمر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جلة المهاجرين والأنصار؛ منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير، وأمره أن يغير على مؤتة حيث قتل أبوه زيد، وأن يغزو وادي فلسطين. فتناقل أسامة وتناقل الجيش بثناقله، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه يثقل ويخف، ويؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث؛ حتى قال له أسامة: بأبي أنت وأمي أتأذن لي أن أمكث أياماً حتى يشفيك الله تعالى؟ فقال: اخرج وسر على بركة الله، فقال: يا رسول الله، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفي قلبي قرحة منك، فقال: سر على النصر والعافية، فقال: يا رسول الله، إني أكره أن أسأل عنك الركبان، فقال: انفذ لما أمرك به، ثم أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام أسامة فتجهز للخروج، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن أسامة والبعث، فآخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: "أنفذوا بعث أسامة، لعن الله من تخلف عنه"، وكرر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه، حتى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين؛ ومن الأنصار أسيد بن حضير وبشير بن سد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسول أم أيمن، يقول له: ادخل فإن رسول الله يموت، فقام من فورهِ، فدخل المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله، ورسول قد مات في تلك الساعة.

قال: فما كان أبو بكر وعمر يخاطبان أسامة إلى أن ماتا إلا بالأمير.

ومن كلام له لما قلد محمد بن أبي بكر

مصر فملكك عليه وقتل

الأصل: وقد أردت تولية مصر هاشم بن عتبة، ولو وليته إياها لما خلى لهم العرصة، ولا أئزهم الفرصة، بلا ذم محمد بن أبي بكر، فلقد كان إلي حبيباً، وكان لي ربيباً.

محمد بن أبي بكر

الشرح: أم محمد بن أبي بكر أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم؛ كانت تحت جعفر بن أبي طالب، وهاجرت معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبد الله بن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مؤتة، فخلف عليها أبو بكر الصديق، فأولدها محمداً، ثم مات عنها، فخلف عليها علي بن أبي طالب؛ وكان محمد ربيبه وخريجه، وجارياً عنده مجرى أولاده، رضع الولاء والتشيع مذ زمن الصبا، فنشأ عليه؛ فلم يكن يعرف له أبا غير علي، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره؛ حتى قال علي رضي الله عنه: محمد ابني من صلب أبي بكر؛ وكان يكنى أبا القاسم في قول ابن قتيبة. وقال غيره: بل كان يكنى أبا عبد الرحمن.

وكان محمد من نساك قریش، وكان ممن أعان على عثمان في يوم الدار؛ واحتلف: هل باشر قتل عثمان أم لا! ومن ولد محمد: القاسم بن محمد بن أبي بكر فقيه الحجاز وفاضلها؛ ومن ولد القاسم: عبد الرحمن بن القاسم بن محمد؛ كان من فضلاء قریش ويكنى أبا محمد، ومن ولد القاسم أيضاً أم فروة، تزوجها الباقر أبو جعفر محمد بن علي، فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمد رضي الله عنه؛ وإلى أم فروة أشار رضي أبو الحسن بقوله:

بنيتم إذا عد السوابق أو عدي

عذار جواد في الجياد مقلد

لمرمى علا أو نيل مجد وسودد

ولا جعجعوا فيها بمرعى ومورد

طلاع المساعي من مقام ومقعد

رقاب الورى من متهمين ومنجد

فخرکم بمولد بنت القاسم بن محمد

فأكرم بجدينا: عتيق وأحمد

يد صفقت يوم البياع على يد

يفأخرنا قوم بمن لم نلدهم

وينسون من لو قدموه لقدموا

فتى هاشم بعد النبي وباعها

ولولا علي ما علوا سرواتها

أخذنا عليكم بالنبي وفاطم

وطننا بسبطي أحمد ووصيه

وحزناً عتيقاً وهو غاية

فجد نبي ثم جد خليفة

وما افتخرت بعد النبي بغيره

قوله: ولولا علي ما علوا سرواتهما.. البيت.
ينظر فيه إلى قول المأمون في أبيات يمدح فيها علياً، أولها:

وذلك عندي من أعاجيب ذا الزمن

ألام على حبي الوصي أبا الحسن

والبيت المنظور إليه منها قوله:

وكان مدى الأيام يعصى ويمتنهن

ولولاه ما عدت لهاشم إمرة

نسب هاشم بن عتبة بن أبي وقاص

وأما هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، فعمه سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة، وأبوه عتبة بن أبي وقاص، الذي كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وكلم شفتيه وشج وجهه، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم"، فأنزل الله عز وجل: "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون" وقال حسان بن ثابت في ذلك اليوم:

ونصرهم الرحمن رب المشارف

إذا الله حيا معشراً بفعالهم

ولقائك قبل الموت إحدى الصواعق

فهدك ربي يا عتيب بن مالك

فدميت فاه قطعت بالبوراق

بسطت يميناً للنبي محمد

تصير إليه عند إحدى الصعائق

فهلا ذكرت الله والمنزل الذي

هوى في دجوجي شديد المضايق

فمن عاذري من عبد عذرة بعدما

وفي النار يوم البعث أم البوائق

وأورث عاراً في الحياة لأهله

وإنما قال، عبد عذرة لأن عتبة بن أبي وقاص وأخوته وأقاربه في نسبهم كلام، ذكر قوم من أهل النسب أنهم من عذرة، وأنهم أدعياء في قريش، ولهم خبر معروف، وقصة مذكورة في كتب النسب.

وتنازع عبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص في أيام عثمان في أمر فاختصما، فقال سعد لعبد الله: اسكت يا عبد هذيل، فقال له عبد الله: اسكت يا عبد عذرة.

وهاشم بن عتبة هو المرقال، سمي المرقال، لأنه كان يرقل في الحرب إرقالاً؛ وهو من شيعة علي، وسنفصل مقتله، إذا انتهينا إلى فصل من كلامه يتضمن ذكر صفين.

فأما قوله: "لما خلى لهم العرصة" فيعني عرصة مصر؛ وقد كان محمد رحمه الله تعالى؛ لما ضاق عليه الأمر، ترك لهم مصر وظن أنه بالفرار ينجو بنفسه، فلم ينج وأخذ وقتل، وقوله: "ولا أنزههم الفرصة"، أي ولا جعلهم للفرصة منتهزين. والهمزة للتعدية، يقال: أنهز الفرصة، إذا أنهزتها غيري.

ونحن نذكر في هذا الموضوع ابتداء أمر الذين ولاهم علي رضي الله عنه مصر، إلى أن تنتهي إلى كيفية ملك معاوية لها وقتل محمد بن أبي بكر؛ وننقل ذلك من كتاب إبراهيم بن سعد بن هلال الثقفي، وهو كتاب الغارات.

ولاية قيس بن سعد علي مصر

قال إبراهيم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان الثقفي، قال: حدثني علي بن محمد بن أبي سيف، عن الكلبي، أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، هو الذي حرض المصريين على قتل عثمان وندهم إليه، وكان حينئذ بمصر، فلما ساروا إلى عثمان وحصلوه، وثب هو بمصر على عامل عثمان عليها، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أحد بني عامر بن لؤي، فطرده عنها، وصلى بالناس؛ فخرج ابن أبي سرح من مصر، ونزل على تخوم أرضها مما يلي فلسطين، وانتظر ما يكون من أمر عثمان، فطلع عليه راكب، فقال له: يا عبد الله، ما وراءك؛ ما خبر الناس بالمدينة؟ قال: قتل المسلمون عثمان، فقال ابن أبي سرح: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم صنعوا ماذا يا عبد الله؟ قال: بايعوا ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب، فقال ثانية: إنا لله وإنا إليه راجعون! فقال الرجل: أرى أن ولاية علي عدلت عندك قتل عثمان! قال: أجل، فنظر إليه متأملاً له فعرفه، فقال أظنك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أمير مصر! قال: أجل، قال: إن كانت لك في الحياة حاجة فالنجاه النجاه؛ فإن رأي علي فيك وفي أصحابك إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين؛ وهذا أمير تقدم بعدي عليكم. قال: ومن الأمير؟ قال: قيس بن سعد بن عبادة. فقال ابن أبي سرح: أبعد الله ابن أبي حذيفة فإنه بغى على ابن عمه، وسعى عليه، وقد كان كفله ورباه، وأحسن إليه، وأمن جواره؛ فجهز الرجال إليه حتى قتل، ووثب على عامله، وخرج ابن أبي سرح حتى قدم على معاوية بدمشق.

قال إبراهيم: وكان قيس بن سعد بن عبادة من شيعة علي ومناصريه؛ فلما ولي الخلافة، قال له: سر إلى مصر فقد وليتكها، واخرج إلى ظاهر المدينة، واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتي مصر ومعك جند، فإن ذلك أربح لعدوك؛ وأعز لوليك. فإذا أنت قدمتها إن شاء الله، فأحسن إلى المحسن، واشتد على المريب، وارفق بالعامه والخاصة فالرفق بمن.

فقال قيس: رحمك الله يا أمير المؤمنين! قد فهمت ما ذكرت، فأما الجند فإني أدعه لك، فإذا احتجت إليهم كانوا قريباً منك، وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة، ولكني أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتي؛ وأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان فإلهي هو المستعان على ذلك.

قال: فخرج قيس في سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر، فصعد المنبر، وأمر بكتاب معه يقرأ على الناس، فيه: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين. سلام عليكم؛ فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فإن الله بحسن صنعه وقدره وتديره، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به أنبياءه إلى عباده؛ فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم به من الفضل أن بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إليهم، فعلمهم الكتاب والحكمة والسنة والفرائض وأدبهم لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيلا يتفرقوا، وزكاهم لكيما يتطهروا؛ فلما قضى من ذلك ما عليه، قبضه الله إليه، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه. ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم

صالحين، فعملوا بالكتاب والسنة وأحيوا السيرة؛ ولم يعدوا السنة. ثم توفيا رحمهما الله، فولي بعدهما وال أحدث أحدثاً، فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثم نقموا فغيروا ثم جاءوني فبايعوني، وأنا أستهدي الله الهدى، وأستعينه على التقوى. ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله والقيام بحقه، والنصح لكم بالغيب، والله المستعان على ما تصفون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد بعث لكم قيس بن سعد الأنصاري أميراً، فوازره وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدة على مريكم، والرفق بعوامكم وخواصكم؛ وهو ممن أرضى هديه، وأرجو صلاحه ونصحه. نسأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً، وثواباً جزيلاً ورحمة واسعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وكتبه عبد الله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين.

قال إبراهيم: فلما فرغ من قراءة الكتاب، قام قيس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وقال: الحمد لله الذي جاء بالحق، وأمات الباطل، وكبت الظالمين. أيها الناس؛ إنا بايعنا خير من نعلم من بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله، فإن نحن لم نعمل بكتاب الله وسنة رسوله فلا بيعه لنا عليكم. فقام الناس فبايعوا، واستقامت مصر وأعمالها لقيس، وبعث عليها عماله؛ إلا أن قرية منها قد أعظم أهلها قتل عثمان، وبها رجل من بني كنانة يقال له يزيد بن الحارث، فبعث إلى قيس: إنا لا نأتيك فابعث عمالك، فالأرض أرضك؛ ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس.

ووثب محمد بن مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري فنعى عثمان، ودعا إلى الطلب بدمه؛ فأرسل إليه قيس: ويحك أعلي ثب والله ما أحب أن لي ملك الشام ومصر وأني قتلتك! فاحقن دمك. فأرسل إليه مسلمة: إني كاف عنك ما دمت أنت والي مصر.

وكان قيس بن سعد ذا رأي وحزم، فبعث إلى الذين اعتزلوا: إني لا أكرهكم على البيعة، ولكني أدعكم وأكف عنكم. فهادهم وهادن مسلمة بن مخلد، وجى الخراج؛ وليس أحد ينازعه.

قال إبراهيم: وخرج علي رضي الله عنه إلى الجمل؛ وقيس على مصر، ورجع من البصرة إلى الكوفة، وهو بمكانه، فكان أثقل خلق الله على معاوية لقرب مصر وأعمالها من الشام، وخافة أن يقبل علي بأهل العراق، وبقبل إليه قيس بأهل مصر؛ فيقع بينهما. فكتب معاوية إلى قيس، وعلي يومئذ بالكوفة قبل أن يسير إلى صفين: من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان في أثره رأيتموها، أو ضربة سوط ضربها، أو في شتمه رجلاً، أو تعيره واحداً، أو في استعماله الفتيان من أهله - فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون، أن دمه لم يحل لكم بذلك؛ فقد ركبتم عظيماً من الأمر، وجئتم شيئاً إداً، فتب يا قيس إلى ربك، إن كنت من الجليلين على عثمان، إن كانت التوبة قبل الموت تغني شيئاً. وأما صاحبك فقد استيقنا أنه أغرى الناس بقتله، وحملهم على قتله حتى قتلوه، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك، فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل، وتابنا على علي في أمرنا. هذا ولك سلطان العراقيين إن أنا ظفرت ما بقيت، ولمن أحب! من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام

لي سلطان، وسلي عن غير هذا مما تحب، فإنك لا تسألني شيئاً إلا آتيته، واكتب إلي رأيك فيما كتبت إليك. فلما جاء إليه كتاب معاوية أحب أن يدافعه، ولا ييدي له أمره، ولا يعجل له حربه، فكتب إليه: أما بعد، فقد وصل إلي كتابك، وفهمت الذي ذكرت من أمر عثمان؛ وذلك أمر لم أقاربه. وذكرت أن صاحبي هو الذي أغرى الناس بعثمان ودسهم إليه حتى قتلوه؛ وهذا أمر لم أطلع عليه. وذكرت لي أن عظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان؛ فلعمري إن أولى الناس كان في أمره عشيرتي، وأما ما سألتني من مبايعتك على الطلب بدمه، وما عرضته علي فقد فهمته، وهذا أمر لي نظر فيه وفكر، وليس هذا مما يعجل إلى مثله، وأنا كاف عنك؛ وليس يأتيتك من قبلي شيء تكرهه، حتى ترى ونرى، إن شاء الله تعالى. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلا مقارباً مباعداً، ولم يأمن أن يكون له في ذلك مخادعاً مكاييداً، فكتب إليه: أما بعد، فقد قرأت كتابك، فلم أرك تدنو فأعدك سلماً. ولم أرك تتباعد فأعدك حرباً، أراك كجبل الجرور؛ وليس مثلي يصانع بالخداع، ولا يخدع بالمكائد، ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل، فإن قبلت الذي عرضت عليك فلك ما أعطيتك؛ وإن أنت لم تفعل ملأت مصر عليك خيلاً ورجلاً. والسلام.

فلما قرأ قيس كتابه، وعلم أنه لا يقبل منه المدافعة والمطاوله، أظهر له ما في نفسه، فكتب إليه: من قيس بن سعد، إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد، فالعجب من استسقاطك رأيي، والطمع في أن تسومني - لا أبا لغيرك - الخروج من طاعة أولى الناس بالأمر؛ وأقولهم بالحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله وسيلة. وتأمري بالدخول في طاعتك وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر؛ وأقولهم بالزور، وأضلهم سبيلاً، وأدوهم من رسول الله وسيلة؛ ولديك قوم ضالون مضلون. طواغيت من طواغيت إبليس. وأما قولك إنك تملأ علي مصر خيلاً ورجلاً، فلتن لم أشغلك عن ذلك حتى يكون منك، إنك لذو جد. والسلام.

فلما أتى معاوية كتاب قيس؛ أيس وثقل مكانه عليه؛ وكان أن يكون مكانه غيره أحب إليه، لما يعلم من قوته وتأنيبه ونجده، واشتداد أمره على معاوية؛ فأظهر للناس أن قيساً قد بايعكم، فادعوا الله له. وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه، واختلق كتاباً نسبته إلى قيس فقراه على أهل الشام: للأمرير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد: أما بعد؛ إن قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً؛ وقد نظرت لنفسي وديني، فلم أر يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً براً تقياً، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا. ألا وإني قد ألقيت إليكم بالسلام، وأجبتك إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم؛ فاطلب مني ما أحببت من الأموال والرجال أعجله إليك إن شاء الله. والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قال: فشاع قي الشام كلها أن قيساً صالح معاوية، أنت عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك، فأعظمه وأكبره وتعجب له، ودعا ابنه حسناً وحسيناً وابنه محمداً وعبد الله بن جعفر، فأعلمهم بذلك، وقال: ما رأيكم؛ فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، دع ما يريك إلى ما لا يريك. اعزل قيساً عن مصر. قال علي: والله إني غير مصدق بهذا على قيس. فقال عبد الله: اعزله يا أمير المؤمنين، فإن كان ما قد قيل حقاً فلا يعتزل لك أن عزلته؛ قال: وإهم لكذلك إذ جاءهم كتاب

من قيس بن سعد، فيه: أما بعد، فإني اخبر يا أمير المؤمنين - أكرمك الله وأعزك - أن قبلي رجالاً معترلين سألوني أن أكف عنهم وأدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويرون، وقد رأيت أن أكف عنهم ولا أعجل بحرهم، وأن أتألفهم فيما بين ذلك، لعل الله أن يقبل بقلوبهم، ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنك إن أطعته في تركهم واعتزالهم استشرى الأمر وتفاقت الفتنة، وقعد عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها، ولكن مره بقتالهم. فكتب إليه: أما بعد؛ فسر إلى القوم الذين ذكرت، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم، والسلام.

قال: فلما أتى هذا الكتاب قيساً فقرأه لم يتمالك أن كتب إلى علي: أما بعد يا أمير المؤمنين، تأمري بقتال قوم كافين عنك، ولم يمدوا يدا للفتنة، ولا أرصدوا لها، فأطعني يا أمير المؤمنين، وكف عنهم، فإن الرأي تركهم، والسلام. فلما أتاه هذا الكتاب، قال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، ابعث محمد بن أبي بكر إلى مصر يكفك أمرها، واعزل قيساً؛ فوالله لبلغني أن قيساً يقول: إن سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء؛ والله ما أحب أن لي سلطان الشام مع سلطان مصر، وأني قتلت ابن مخلد. وكان عبد الله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه؛ وكان يحب أن يكون له إمرة وسلطان؛ فاستعمل علي رضي الله عنه محمد بن أبي بكر على مصر، لمحبة له ولهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه؛ وكتب معه كتاباً إلى أهل مصر، فسار حتى قدمها، فقال له قيس: ما بال أمير المؤمنين! ما غيره! أدخل أحد بيني وبينه! قال: لا وهذا السلطان سلطانك. - وكان بينهما نسب، كان تحت قيس قرية بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق، فكان قيس زوج عمته - فقال قيس: لا والله لا أقيم معك ساعة واحدة، وغضب حين عزله علي عنها، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة ولم يمض إلى علي بالكوفة.

قال إبراهيم: وكان قيس مع شجاعته ونجدته جواداً مفضلاً؛ فحدثني علي بن محمد بن أبي سيف، عن هاشم، عن عروة، عن أبيه، قال: لما خرج قيس بن سعد من مصر، فمر بأهل بيت من بلقين، فتزل بمائهم، فنحر له صاحب المنزل جزوراً وأتاه بها، فلما كان الغد نحر له أخرى، ثم حبستهم السماء اليوم الثالث، فنحر لهم ثالثة، ثم إن السماء أفلعت فلما أراد قيس أن يرتحل، وضع عشرين ثوباً من ثياب مصر، وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل؛ وقال لها: إذا جاء صاحبك، فادفعي هذه إليه، ثم رحل؛ فما أتت عليه إلا ساعة حتى لحقه الرجل صاحب المنزل على فرس، ومعه رمح، والثياب والدرهم بين يديه، فقال: يا هؤلاء خذوا ثيابكم ودراهمكم فقال قيس: انصرف أيها الرجل، فإننا لم نكن لنأخذها، قال: والله لتأخذنها، فقال قيس: لله أبوك! ألم تكرمنا وتحسن ضيافتنا فكافأناك! فليس بهذا بأس؛ فقال! الرجل: إنا لا نأخذ لقرى الأضياف ثناءً؛ والله لا آخذها أبداً. فقال قيس: أما إذ أبي ألا يأخذها فخذوها؛ فوالله ما فضلي رجل من العرب غيره. قال إبراهيم: وقال أبو المنذر: مر قيس في طريقه برجل من بلي، يقال له: الأسود ابن فلان، فأكرمه، فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عند امرأته ثياباً ودراهم، فلما جاء الرجل دفعته إليه، فلحقه فقال: ما أنا بائع ضيافتي؛ والله لتأخذن هذا أو لأنفذن الرمح بين جنبيك! فقال قيس: ويحكم خذوه!.

قال إبراهيم: ثم أقبل قيس حتى قدم المدينة، فجاءه حسان بن ثابت شامتاً به - وكان عثمانياً - فقال له: نزعك علي بن

أبي طالب، وقد قتلت عثمان، فبقي عليك الإثم، ولم يحسن لك الشكر! فزجره قيس وقال: يا أعمى القلب، يا أعمى البصر، والله لولا ألقى بين رهطي ورهطك حرباً لضربت عنقك. ثم أخرجه من عنده.

قال إبراهيم: ثم إن قيساً وسهل بن حنيف، خرجا حتى قدما على علي الكوفة، فخبره قيس الخبر وما كان بمصر صدقه. وشهد مع علي صفين هو وسهل بن حنيف.

قال إبراهيم: وكان قيس طوالاً أطول الناس وأمدهم قامه، وكان سناطاً أصلع شيخاً شجاعاً مجرباً مناصحاً لعلي ولولده، ولم يزل على ذلك إلى أن مات.

قال إبراهيم: حدثني أبو غسان، قال: أخبرني علي بن أبي سيف، قال: كان قيس بن سعد مع أبي بكر وعمر في سفر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان ينفق عليهما وعلى غيرهما ويفضل. فقال له أبو بكر: إن هذا لا يقوم له مال إليك فأمسك يدك. فلما قدموا من سفرهم قال سعد بن عبادة لأبي بكر: أردت أن تبخل ابني! إنا لقوم لا نستطيع البخل.

قال: وكان قيس بن سعد يقول في دعائه: اللهم ارزقني حمداً ومجداً وشكراً، فإنه لا حمد إلا بفعل، ولا مجد إلا بمال. اللهم وسع علي فإن القليل لا يسعني ولا أسعه.

ولاية محمد بن أبي بكر

قال إبراهيم: وكان عهد علي إلى محمد بن أبي بكر الذي قرئ بمصر: هذا ما عهد عبد الله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر؛ أمره بتقوى الله في السر والعلانية، وخوف الله تعالى في المغيب والمشهد، وأمره باللين على المسلم، والغلظ على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمة، وبالإلصاق للمظلوم، وبالشدّة على الظالم، وبالعفو عن الناس وبالإحسان ما استطاع؛ والله يجزي الحسين. وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة؛ فإن لهم في ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه. وأمره أن يجي خراج الأرض على ما كانت تجي عليه من قبل، ولا ينتقص ولا يبتدع، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل؛ وإن تكن لهم حاجة يواس بينهم في مجلسه ووجهه؛ ليكون القريب والبعيد عنده على سواء. وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسط، ولا يتبع الهوى، ولا يخاف في الله لومة لائم؛ فإن الله جمع من اتقاه وآثر طاعته على من سواه. وكتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ليلة شهر رمضان سنة ست وثلاثين.

قال إبراهيم: ثم قام محمد بن أبي بكر خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد فالحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق، وبصرنا وإياكم كثيراً مما عمي عنه الجاهلون. ألا وإن أمير المؤمنين ولاني أموركم، وعهد إلي بما سمعتم، وأوصاني بكثير منه مشافهة، وإن ألوكم خيراً ما استطعت؛ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فإن يكن ما ترون من آثاري وأعمالي طاعة لله وتقوى، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك؛ فإنه هو الهادي إليه؛ فإن رأيتم من ذلك عملاً بغير الحق، فارفعوه إلي، وعاتبوني عليه، فإني بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون. وفقنا الله وإياكم لصالح

قال إبراهيم: وحدثني يحيى بن صالح، عن مالك بن خالد الأسدي، عن الحسن بن إبراهيم، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن، قال: كتب علي رضي الله عنه إلى أهل مصر لما بعث محمد بن أبي بكر إليهم كتاباً يخاطبهم به، ويخاطب محمداً أيضاً: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله في سر أمركم وعلائيته؛ وعلى أي حال كنتم عليها؛ وليعلم المرء منكم أن الدنيا دار بلاء وفناء، والآخرة دار جزاء وبقاء؛ فمن استطاع أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى فليفعل، فإن الآخرة تبقى، والدنيا تفتى. رزقنا الله وإياكم بصراً لما بصرنا وفهما لما فهمنا؛ حتى لا نقصر عما أمرنا، ولا نتعدى إلى ما نهانا. واعلم يا محمد أنك وإن كنت محتاجاً إلى نصيبك من الدنيا إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران: أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فابدأ بأمر الآخرة، ولتعظم رغبتك في الخير، ولتحسن فيه نيتك، فإن الله عز وجل يعطي العبد على قدر نيته، وإذا أحب الخير وأهله ولم يعمل به كان إن شاء الله كمن عمله، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من تبوك: إن بالمدينة لأقواماً ما سرتم من مسير، ولا هبطتم من واد إلا كانوا معكم؛ ما حبسهم إلا المرض - يقول: كانت لهم نية - ثم أعلم يا محمد أي قد وليتك أعظم أجنادي أهل مصر، ووليتك ما وليتك من أمر الناس، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك، وتحذر فيه على دينك؛ ولو كان ساعة من نهار. فإن استطعت ألا تسخط ربك لرضا أحد من خلقه فافعل، فإن في الله خلفاً من غيره، وليس في شيء خلص منه، فاشتد على الظالم، ولن لأهل الخير، وقرهم إليك، واجعلهم بطانتك وإخوانك. والسلام.

قال إبراهيم: حدثني يحيى بن صالح، عن مالك بن خالد، عن الحسن بن إبراهيم، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن، قال: كتب علي إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أتمت عنه مسؤولون، فأنتم به رهن، وإليه صائرون، فإن الله عز وجل يقول: "وكل نفس بما كسبت رهينة" وقال: "ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير". وقال: "فوربك لنسألنهم أجمعين" عما كانوا يعملون.

فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير؛ فإن يعذب فنحن الظالمون، وإن يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين. واعلموا أن أقرب ما يكون العبد إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته في التوبة، فعليكم بتقوى الله عز وجل؛ فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك غيرها خير الدنيا وخير الآخرة؛ يقول الله سبحانه: "وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين".

واعلموا عباد الله أن المؤمنين المتقين قد ذهبوا بعاجل الخير وآجله، شركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم؛ يقول الله عز وجل: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة"؛ سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم، فأكلوا من أفضل ما يأكلون، وشربوا من أفضل ما يشربون، ولبسوا من أفضل ما يلبسون، ويسكنون من أفضل ما يسكنون، أصابوا لذة أهل الدنيا مع أهل الدنيا مع أنهم غداً من جيران الله عز وجل، يتمنون عليه، لا يرد لهم دعوة، ولا ينقص لهم لذة. أما في هذا ما يشق إلى من كان له عقل!.

واعلموا- عباد الله- أنكم إذا اتقيتم ربكم، وحفظتم نبيكم في أهل بيته، فقد عبدتموه بأفضل ما عبد، وذكرتموه بأفضل ما ذكر، وشكرتموه بأفضل ما شكر، وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضل الجهاد؛ وإن كان غيركم أطول صلاة منكم، وأكثر صياماً، إذا كنتم أتقى الله وأنصح لأوليائه الله من آل محمد صلى الله عليه وسلم وأحشع. واحذروا عباد الله الموت ونزوله، وخذوله، فإنه يدخل بأمر عظيم؛ خير لا يكون معه شر أبداً، أو شر لا يكون معه خير أبداً. وليس أحد من الناس يفارق روحه جسده، حتى يعلم إلى أي المزلتين يصير؛ إلى الجنة أم إلى النار! أعدو هو الله أم ولي له! فإن كان ولياً فتحت له أبواب الجنة، وشرع له طريقها، ونظر إلى ما أعد الله عز وجل لأوليائه فيها؛ فرغ من كل شغل، ووضع عنه كل ثقل؛ وإن كان عدواً فتحت له أبواب النار، وسهل له طريقها، ونظر إلى ما أعد الله فيها لأهلها، واستقبل كل مكروه، وفارق كل سرور، قال الله تعالى: "الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون" فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فليس مثوى المتكبرين".

واعلموا عباد الله أن الموت ليس منه فوت، فاحذروه وأعدوا له عدته، فإنكم طرداء للموت؛ إن أقمتهم أخذكم، وإن هربتم أدركمكم؛ وهو ألزم لكم من ظلكم، معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من خلفكم؛ فأكثرُوا ذكر الموت عند ما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات، فإنه كفى بالموت واعظاً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكثرُوا ذكر الموت فإنه هادم اللذات". واعلموا عباد الله أن ما بعد الموت أشد من الموت؛ لمن لم يغفر الله له ويرحمه. واحذروا القبر وضيمته وضيقة وظلمته؛ فإنه الذي يتكلم كل يوم: أنا بيت التراب، وأنا بيت الغربة، وأنا بيت الدود. والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار. إن المسلم إذا مات قالت له الأرض مرحباً وأهلاً؛ قد كنت ممن أحب أن تمشي على ظهري، فإذا وليتك فستعلم كيف صنع بك! فيتسع له مد بصره. وإذا دفن الكافر قالت له الأرض: لا مرحباً ولا أهلاً؛ قد كنت ممن أبغض أن تمشي على ظهري، فإذا وليتك فستعلم كيف صنع بك! فتتضم عليه حتى تلتقي أضلعه.

واعلموا أن المعيشة الضنك التي قال سبحانه: "إن له معيشة ضنكاً" هي عذاب القبر، فإنه يسلط على الكافر في قبره حيات عظام تنهش لحمه حتى يبعث، لو أن تيناً منها نفخ الأرض ما أنبت الزرع أبداً.

واعلموا عباد الله أن أنفسكم وأجسادكم الرقيقة الناعمة التي يكفيها اليسير من العقاب ضعيفة عن هذا، فإن استطعتم أن ترحموا أنفسكم وأجسادكم مما لا طاقة لكم به، ولا صبر لكم عليه؛ فتعملوا بما أحب الله سبحانه وتتركوا ما كره؛ فافعلوا؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله!

واعلموا- عباد الله- أن ما بعد القبر أشد من القبر؛ يوم يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت. واحذروا يوماً عبوساً قمطيراً، كان شره مستطيراً. أما إن شر ذلك اليوم وفرعه استطار حتى فزعت منه الملائكة الذين ليست لهم ذنوب، والسبع الشداد، والجال الأوتاد، والأرضون المهادر. وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، وتغيرت فكانت وردة كالدهان، وكانت الجبال سراباً، بعدما كانت صماً صلاباً؛ يقول الله سبحانه: "ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله". فكيف بمن يعصيه بالسمع والبصر، واللسان واليد، والفرج والبطن؛ إن لم يغفر الله ويرحم!

واعلموا- عباد الله- أن ما بعد ذلك اليوم أشد وأدهى؛ نار قعرها بعيد، وحرها شديد، وعذابها جديد، ومقامها جديد، وشرابها صديد، لا يفتر عذابها، ولا يموت ساكنها؛ دار ليست لله سبحانه فيها رحمة، ولا يسمع فيها دعوة؛ ومع هذا رحمة الله التي وسعت كل شيء، لا تعجز عن العباد، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض، خير لا يكون بعده شر أبداً، وشهوة لا تنفد أبداً، ولذة لا تنفد أبداً، ومجمع لا يتفرق أبداً. قوم قد جاوروا الرحمن، وقام بين أيديهم الغلمان، بصحاف من ذهب فيها الفاكهة والريحان. وإن أهل الجنة يزورون الجبار سبحانه في كل جمعة، فيكون أقربهم منه على منابر من نور، والذين يلونهم على منابر من ياقوت؛ والذين يلونهم على منابر من مسك، فبينما هم كذلك ينظرون الله جل جلاله، وينظر الله في وجوههم؛ إذ أقبلت سحابة تغشاهم فتمطر عليهم من النعمة واللذة والسرور والبهجة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ومع هذا ما هو أفضل منه، رضوان الله الأكبر.

أما إننا لو لم نخوف إلا ببعض ما خوفنا به لكننا محقوقين أن يشدد خوفنا مما لا طاقة لنا به، ولا صبر لقوتنا عليه؛ وأن يشدد شوقنا إلى ما لا غنى لنا عنه ولا بد لنا منه؛ فإن استطعتم عباد الله أن يشدد خوفكم من ربكم فافعلوا، فإن العبد إنما تكون طاعته على قدر خوفه؛ وإن أحسن الناس لله طاعة، أشدهم له خوفاً.

وانظر يا محمد صلاتك كيف تصلّيها؛ فإنما أنت إمام ينبغي لك أن تتمها وأن تخففها وأن تصلّيها لوقتها، فإنه ليس من إمام يصلي يقوم فيكون في صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثم ذلك عليه، ولا ينقص من صلاتهم شيئاً. واعلم أن كل شيء من عملك يتبع صلاتك، فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها أشد تضييعاً. ووضوءك من تمام الصلاة، فأت به على وجهه؛ فالوضوء نصف الإيمان. أسأل الله الذي يرى ولا يرى وهو بالمنظر الأعلى، أن يجعلنا وإياك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فإن استطعتم يا أهل مصر، أن تصدق أقوالكم أفعالكم، وأن يتوافق سركم وعلانيتكم، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم فافعلوا. عصمنا الله وإياكم بالهدى، وسلك بنا وبكم المحجة الوسطى. وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند. وتأملوا واعلموا أنه لا سوى إمام الهدى وإمام الردى. ووصي النبي وعدو النبي؛ جعلنا الله وإياكم ممن يحب ويرضى. ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً؛ أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيخزيه الله بشركه؛ ولكني أخاف عليهم كل منافق اللسان؛ يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون".

واعلم يا محمد أن أفضل الفقه الورع في دين الله، والعمل بطاعته، فعليك بالتقوى في سر أمرك وعلانيته، أوصيك بسبع هن جوامع الإسلام: اخش الله ولا تخش الناس في الله؛ وخير القول ما صدقه العمل؛ ولا تقض في أمر واحد بقضاءين مختلفين فيتناقض أمرك وترى عن الحق. وأحب لعامة رعيتك ما تحبه لنفسك، واکره لهم ما تكره لنفسك. وأصلح أحوال رعيتك، والغمرات إلى الحق، ولا تحف لومة لائم. وانصح لمن استشارك، واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم. جعل الله خلف وودنا خلة المتقين وود المخلصين، وجمع بيننا وبينكم في دار الرضوان إخواناً على سرر متقابلين. إن شاء الله.

قال إبراهيم بن سعد الثقفي: فحدثني عبد الله بن محمد بن عثمان، عن علي بن محمد بن أبي سيف، عن أصحابه، أن علياً

لما كتب إلى محمد بن أبي بكر هذا الكتاب، كان ينظر فيه ويتأدب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجب منه، فقال الوليد بن عقبة، وهو عند معاوية، وقد رأى إعجابه به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاوية: مه؛ لا رأي لك! فقال الوليد: أفمن الرأي أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها! قال معاوية: ويحك أأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعمل هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله! فقال: لولا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أقتانا لأخذنا عنه. ثم سكت هنيهة، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنا لا نقول: إن هذه من كتب علي بن أبي طالب؛ ولكن نقول: هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد، فنحن ننظر فيها، ونأخذ منها.

قال: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية؛ حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قلت: الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظر فيه ويعجب منه، ويفتي به ويقضي بقضاياه وأحكامه هو عهد علي رضي الله عنه إلى الأشر، فإنه نسيج وحده، ومنه تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة؛ وهذا العهد صار إلى معاوية لما سم الأشر ومات قبل وصوله إلى مصر؛ فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق من مثله أن يقتني في خزائن الملوك.

قال إبراهيم: فلما بلغ علياً رضي الله عنه أن ذلك الكتاب صار إلى معاوية، اشتد عليه حزناً.

وحدثني بكر بن بكار، عن قيس بن الربيع، عن ميسرة بن حبيب، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، قال: صلى بنا علي رضي الله عنه، فلما انصرف قال:

سوف أكيس بعدها وأستمر

لقد عثرت عثرة لا أعتذر

وأجمع الأمر الشتيت المنتشر

فقلنا: ما بالك يا أمير المؤمنين؛ فقال: إني استعملت محمد بن أبي بكر على مصر؛ فكتب إلي أنه لا علم لي بالسنة، فكتبت إليه كتاباً فيه أدب وسنة، فقتل وأخذ الكتاب.

قال إبراهيم: فحدثني عبد الله بن محمد؛ عن ابن أبي سيف المدايني، قال: فلم يلبث محمد بن أبي بكر شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك المعتزلين الذين كان قيس بن سعد موادعاً لهم، فقال: يا هؤلاء، إما أن تدخلوا في طاعتنا، وإما أن تخرجوا من بلادنا. فبعثوا إليه: إنا لا نفعل، فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس، فلا تعجل علينا. فأبى عليهم، فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم. ثم كانت وقعة صفين؛ وهم لمحمد هائبون؛ فلما أتاهم خبر معاوية وأهل الشام، ثم صار الأمر إلى الحكومة، وأن علياً وأهل العراق قد قفلوا عن معاوية والشام إلى عراقهم، اجترأوا على محمد بن أبي بكر، وأظهروا المنابذة له. فلما رأى محمد ذلك بعث إليهم ابن جهمان البلوي ومعه يزيد بن الحارث الكناني فقاتلهم، فقتلوهما. ثم بعث إليهم رجلاً من كلب فقتلوه أيضاً. وخرج معاوية بن خديج من السكاسك يدعو إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه القوم وناس

كثير آخرون، وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر؛ فبلغ علياً توثبهم عليه، فقال ما أرى لمصر إلا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلنا بالأمس - يعني قيس بن سعد بن عباد - أو مالك بن الحارث الأشتر. وكان علي حين رجع عن صفين، رد الأشتر إلى عمله بالجزيرة، وقال لقيس بن سعد: أقم أنت معي على شرطتي حتى نفرغ من أمر هذه الحكومة، ثم اخرج إلى أذربيجان، فكان قيس مقيماً على شرطته، فلما أن انقضى أمر الحكومة كتب علي إلى الأشتر، وهو يومئذ بنصيبين: أما بعد، فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأئيم، وأسد به الثغر المخوف. وقد كنت وليت محمد بن أبي بكر ممر، فخرجت عليه خوارج، وهو غلام حدث السن، ليس بذئب تجربة للحروب، فاقدم علي لنظر فيما ينبغي، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك. والسلام.

فأقبل الأشتر إلى علي، واستخلف على عمله شبيب بن عامر الأزدي - وهو جد الكرمان الذي كان بخراسان صاحب نصر بن سيار - فلما دخل الأشتر على علي حدثه حديث مصر وخبره خبر أهلها، وقال له: ليس لها غيرك، فاخرج إليها رحمك الله، فإنني لا أوصيك اكتفاء برأيك؛ واستعن بالله على ما أهمك، واخلط الشدة باللين والرفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم على الشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة.

فخرج الأشتر من عنده، فأتى برحله وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية الأشتر مصر، فعظم ذلك عليه، وقد كان طمع في مصر، فعلم أن الأشتر إن قدم عليها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به، وقال له إن الأشتر قد ولي مصر، فإن كفتينيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت؛ فاحتل في هلاكه ما قدرت عليه. فخرج الأشتر حتى انتهى إلى القلزم حيث تركب السفن من مصر إلى الحجاز، فأقام به، فقال له ذلك الرجل، وكان ذلك المكان مكانه: أيها الأمير؛ هذا منزل فيه طعام وعلف، وأنا رجل من أهل الخراج، فأقم واسترح، وأتاه بالطعام حتى إذا طعم سقاه شربة عسل؛ قد جعل فيها سما، فلما شربها مات.

قال إبراهيم: وقد كان أمير المؤمنين كتب على يد الأشتر كتاباً إلى أهل مصر؛ روى ذلك الشعبي عن صعصعة بن صوحان: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بمصر من المسلمين: سلام الله عليكم، فإنني أحمد الله إليكم، الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد فإنني قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينال أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء حذار الدوائر. لا نأكل من قدم، ولا واه في عزم، من أشد عباد الله بأساً، وأكرمهم حسباً، أضر على الفجار من حريق النار، وأبعد الناس من دنس أو عار، وهو مالك بن الحارث الأشتر، حسام صارم، لا نابي الضريبة، ولا كليل الحد، حليم في السلم، رزين في الحرب، ذو رأي أصيل، وصبر جميل. فاسمعوا له وأطيعوا أمره، فإن أمركم بالنفر فأنفروا، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمر. وقد آثرتكم به على نفسي؛ نصيحة لكم، وشدة شكيمة على عدوكم. عصمكم الله بالهدى، وثبتكم بالتقوى، ووقفنا وإياكم لما يجب ويرضى. والسلام عليكم ورحمة الله.

قال إبراهيم: وروى جابر عن الشعبي قال: هلك الأشتر حين أتى عقبة أفيق.

قال إبراهيم: وحدثنا وطبة بن العلاء بن المنهال الغنوي، عن أبيه، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، أن علياً لما بعث الأشتر إلى مصر والياً عليها، وبلغ معاوية خبره، بعث رسولاً يتبع الأشتر إلى مصر، وأمره باغتياله؛ فحمل معه مزودين فيهما

شراب، وصحب الأشر، فاستسقى الأشر يوماً فسقاه من أحدهما، ثم استسقى يوماً آخر منه فسقاه من الآخر وفيه سم فشربه، فمالت عنقه. وطلب الرجل ففاهم.

قال إبراهيم: وحدثنا محرز بن هشام، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبي؛ أن معاوية دس للأشر مولى لآل عمر، فلم يزل المولى يذكر للأشر فضل علي وبني هاشم؛ حتى اطمأن إليه، واستأنس به، فقدم الأشر يوماً ثقله أو تقدم ثقله، فاستسقى ماء، فقال له مولى آل عمر: وهل لك في شربة سويق؛ فسقاه شربة سويق فيها سم فمات. وقد كان معاوية قال لأهل الشام لما دس إليه مولى آل عمر: ادعوا على الأشر، فدعوا عليه؛ فلما بلغه موته قال: ألا ترون كيف استجيب لكم!.

قال إبراهيم: قد روي من بعض الوجوه أن الأشر قتل بمصر بعد قتال شديد. والصحيح أنه سقي سم فمات قبل أن يبلغ مصر.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان، عن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني، أن معاوية أقبل يقول لأهل الشام: أيها الناس، إن علياً قد وجه الأشر إلى مصر، فادعوا الله أن يكفيكموه، فكانوا يدعون طيه في دبر كل صلاة، وأقبل الذي سقاه السم إلى معاوية، فأخبره بهلاك الأشر، فقام معاوية في الناس خطيباً، فقال: أما بعد، فإنه كان لعلي بن أبي طالب يدان يمينان، فقطعت إحداهما يوم صفين وهو عمار بن ياسر، وقد قطعت الأخرى اليوم؛ وهو مالك الأشر. قال إبراهيم: فلما بلغ علياً موت الأشر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! والحمد لله رب العالمين! اللهم إني أحاسبه عندك، فإن موته من مصائب الدهر. ثم قال: رحم الله مالكا؛ فلقد وفى بعهدده، وقضى نجه، ولقي ربه، مع أنا قد وطنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها من أعظم المصيبات.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن هشام المرادي، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبي، قال: لم يزل أمر علي شديداً حتى مات الأشر، وكان الأشر بالكوفة أسود من الأحنف بالبصرة.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف المدائني، عن جماعة من أشياخ النخع، قالوا: دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موت الأشر، فوجدناه يتلهف ويتأسف عليه، ثم قال: لله در مالك! وما مالك! لو كان من جبل لكان فنداً، ولو كان من حجر لكان صلداً، أما والله ليهدن موتك عالماً، وليفرحن عالماً، على مثل مالك فلتبك البواكي! وهل مرجو كمالك! وهل موجود كمالك!.

قال علقمة بن قيس النخعي: فما زال علي يتلهف ويتأسف؛ حتى ظننا أنه المصاب به دوننا، وعرف ذلك في وجهه أياماً.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني، قال: حدثنا مولى للأشر، قال: لما هلك الأشر أصيب في ثقله رسالة علي إلى أهل مصر: من عبد الله أمير المؤمنين إلى نفر من المسلمين الذين غضبوا لله إذ عصي في الأرض، وضرب الجور برواقه على البر والفاجر، فلا حق يستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه. سلام عليكم؛ فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فقد وجهت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر، أشد على الكافرين

من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا ناي الضريبة، ولا كليل الحد؛ فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تحجموا فأحجموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى، وقد آثرتكم به على نفسي، لنصيحتي وشدة شكيمة على عدوه، عصمكم الله بالحق، وثبتكم بالتقوى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني، عن رجالة، أن محمد بن أبي بكر لما بلغه أن علياً قد وجه الأشتر إلى مصر، شق عليه، فكتب رضي الله عنه إليه عند مهلك الأشتر: أما بعد، فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك، ولم أفعل ذلك استبطاء لك عن الجهاد، ولا استزادة لك مني في الجدد، ولو نزع ما حوت يداك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر مؤنة عليك، وأعجب ولاية إليك؛ إلا أن الرجل الذي وليته مصر، كان رجلاً لنا مناصحاً؛ وهو على عدونا شديد، فرحمة الله عليه، فقد استكمل أيامه، ولاقى حمامه، ونحن عنه راضون؛ فرضي الله عنه، وضاعف له الثواب، وأحسن له المآب. فأصحر لعدوك وثمر للحرب، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة؛ وأكثر ذكر الله والاستعانة به، والخوف منه. يكفك ما همك، ويعنك على ما ولاك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته؛ والسلام. قال: فكتب محمد بن أبي بكر إليه جوابه: إلى عبد الله أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد فقد انتهى إلي كتاب أمير المؤمنين وفهمته؛ وعرفت ما فيه، وليس أحد من الناس أشد على عدو أمير المؤمنين، ولا أرف وأرق لوليه مني. وقد خرجت فعسكرت، وأمنت الناس؛ إلا من نصب لنا حرباً، وأظهر لنا خلافاً، وأنا أتبع أمر أمير المؤمنين، وحافظ ولاجئ إليه وقائم به، والله المستعان على كل حال، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: فحدث محمد بن عبد الله بن عثمان، عن ابن سيف المدائني، عن أبي جهضم الأزدي أن أهل الشام لما انصرفوا عن صفين، كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان، فلما انصرفا وتفرقا، وبايع أهل الشام معاوية بالخلافة لم يزد معاوية إلا قوة؛ واختلف أهل العراق على علي بن أبي طالب فلم يكن هم معاوية إلا مصر؛ وقد كان لأهلها هائلاً لقرهم منه، وشدهم على من كان على رأي عثمان، وقد كان علم أن بها قوماً قد ساءهم قتل عثمان، وخالفوا علياً؛ مع أنه كان يرجو أن يكون له فيها معاونة إذا ظهر عليها على حرب علي، لوفور خراجها، فدعا من كان معه من قريش؛ وهم عمرو بن العاص السهمي، وحبيب بن مسلمة الفهري وبسر بن أبي أرطاة العامري، والضحاك بن قيس الفهري، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ودعا من غير قريش نحو شرحبيل بن السمط الحميري، وأبي الأعور السلمي، وحمزة بن مالك الهمداني، فقال: أئندرون لماذا دعوتكم؛ قالوا: لا، قال: فإني دعوتكم لأمر هو لي مهم، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد أعان عليه، فقال له القوم- أو من قال له منهم-: إن الله لم يطلع على غيبه أحداً، ولسنا ندري ما تريد! فقال عمرو بن العاص: أرى والله أن أمر هذه البلاد المصرية لكثرة خراجها وعدد أهلها قد أهمك، فدعوتنا تسألنا عن رأينا في ذلك، فإن كنت لذلك دعوتنا، وله جمعتنا، فاعزم واصرم، ونعم الرأي ما رأيت! إن في افتتاحها عزك وعز أصحابك، وذل عدوك، وكبت أهل الخلاف عليك.

قال معاوية: أهلك ما أهلك يابن العاص! وذلك أن عمراً كان بايع معاوية على قتال علي، وأن مصر له طعمة ما بقي. فأقبل معاوية على أصحابه، وقال: إن هذا - يعني ابن العاص - قد ظن وحقق ظنه، قالوا: ولكننا لا ندرى، ولعل أبا عبد الله قد أصاب؛ فقال عمرو: وأنا أبو عبد الله، إن أفضل الظنون ما شابه اليقين.

ثم إن معاوية حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ فقد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم! ولقد جاءوكم وهم لا يشكون أنهم يستأصلون ببيضتكم ويجوزون بلادكم، ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكفاكم مؤنتهم. وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم. ثم جمع كلمتنا، وأصلح ذات بيننا، وجعلهم أعداء متفرقين؛ يشهد بعضهم على بعض بالكفر، وسفك بعضهم دم بعض؛ والله إني لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر؛ وقد رأيت أن أحاول حرب مصر، فما ترون؟.

فقال عمرو بن العاص: قد أخبرتك عما سألت، وأشرت عليك بما سمعت. فقال معاوية: ما ترون؛ فقالوا: نرى ما رأى عمرو بن العاص. فقال معاوية: إن عمراً قد عزم وصرم بما قال، ولم يفسر كيف ينبغي أن نصنع!.

قال عمرو " فإني مشير عليك بما تصنع، أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً، عليهم رجل صارم، تأمنه وتثق به؛ فيأتي مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها، فنظاها على من كان من عدونا، فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك، رجوت الله أن يعز نصرك، ويظهر فلجك . فقال معاوية: هل عندك شيء غير هذا نعمله فيما بيننا وبينهم قبل هذا؛ قال: ما أعلمه.

قال معاوية: فإن رأي غير هذا؛ أرى أن نكتب من كان بها من شيعتنا، ومن كان بها من عدونا؛ فأما شيعتنا فنأمرهم بالثبات على أمرهم ونمئهم قدومنا عليهم؛ وأما من كان بها من عدونا فندعوهم إلى صلحنا، ونمئهم شكرنا، ونخوفهم حربنا، فإن صلح لنا ما قبلهم من غير حرب ولا قتال، فذلك ما أحببنا، وإلا فحربهم من وراء ذلك. إنك يابن العاص لا مرؤ بورك لك في العجلة، وبورك لي في التؤدة .

قال عمرو: فاعمل بما أراك الله، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى الحرب. قال: فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري، وإلى معاوية بن حديج الكندي، وكانا قد خالفاً علياً؛ أما بعد؛ فإن الله عز وجل قد ابتعثكما لأمر عظيم؛ أعظم به أجركما ورفع درجتكما ومرتبتكما في المسلمين. طلبتما بدم الخليفة المظلوم، وغضبتما لله، إذ ترك حكم الكتاب، وجاهدتما أهل الظلم والعدوان، فأبشرا برضوان الله، وعاجلا نصرة أولياء الله؛ والمواساة لكما في دار الدنيا وسلطاننا، حتى ينتهي ذلك إلى ما يرضيكما، ويؤدى به حقكما فالزما أمركما، وجاهدا عدوكم، وادعوا المدبرين منكم إلى هداكم؛ فكأن الجيش قد أظل عليكم، فاندفع كل ما تكرهان، ودام كل ما تهويان؛ والسلام عليكم ورحمة الله.

وبعث بالكتاب مع مولى له يقال له سبيع، فخرج بكتابه حتى قدم به عليهما بمصر، ومحمد بن أبي بكر يومئذ أميرها قد ناصبه هؤلاء نفر الحرب؛ وهم هائبون الإقدام عليه؛ فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلد، فقرأه فقال: الق به معاوية بن

حديث، ثم القني به حتى أجيب عني وعنه. فانطلق الرسول بكتاب معاوية فأقرأه إياه، ثم قال له إن مسلمة قد أمرني أن أرد الكتاب إليه لكي يجيب عنك وعنه. قال: قل له فليفعل، فأتي مسلمة بالكتاب. فكتب الجواب عنه وعن معاوية بن حديج: أما بعد، فإن هذا الأمر الذي قد ندبنا له أنفسنا، وابتغينا الله به على عدونا، أمر نرجو به ثواب ربنا، والنصر على من خالفنا، وتعجيل النعمة على من سعى على إمامنا، وطأطأ الركض في مهادنا، ونحن بهذه الأرض قد نفينا من كان بها من أهل البغي، وأهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل وقد ذكرت موازرتك في سلطانك وذات يدك؛ وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا، ولا إياه أردنا، فإن يجمع الله لنا ما نريد ونطلب أو يرينا ما تمنينا، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين، وقد يثوبهما الله جميعاً عالماً من خلقه، كما قال في كتابه: "فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين". عجل لنا بخيلك ورجلك؛ فإن عدونا قد كان علينا جريئاً، وكنا فيهم قليلاً، وقد أصبحوا لنا هائبين، وأصبحنا لهم نابذين، فإن يأتنا مدد من قبلك يفتح الله عليك؛ ولا قوة إلا بالله؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال: فجاء هذا الكتاب معاوية وهو يومئذ بفلسطين، فدعا النفر الذين سميناهم من قريش وغيرهم، وأقرأهم الكتاب، وقال لهم: ماذا ترون؛ قالوا: نرى أن تبعث إليهم جيشاً من قبلك فأنت مفتتحها إن شاء الله، بإذن الله.

قال معاوية: فتجهز إليها يا أبا عبد الله - يعني عمرو بن العاص - فبعثه في ستة آلاف فخرج يسير، وخرج معه معاوية يودعه، فقال له معاوية عند وداعه إياه: أوصيك بتقوى الله يا عمرو، وبالرفق فإنه يمن، وبالتؤدة فإن العجلة من الشيطان، وبأن تقبل من أقبل، وتعفو عمن أدبر، أنظره فإن تاب وأناب قبلت منه، وإن أبي فإن السطوة بعد المعرفة أبلغ في الحجة، وأحسن في العاقبة. وادع الناس إلى الصلح والجماعة، فإن أنت ظفرت فليكن أنصارك أبر الناس عندك، وكل الناس فأول حسناً.

قال: فسار عمرو في الجيش حتى دنا من مصر، فاجتمعت إليه العثمانية، فأقام وكتب إلى محمد بن أبي بكر: أما بعد، فتنح عني بدمك يابن أبي بكر، فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر، وإن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك، وندفوا على أتباعك، وهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان، فاخرج منها فإني لك من الناصحين. والسلام.

قال: وبعث عمرو إلى محمد مع هذا الكتاب كتاب معاوية إليه، وهو: أما بعد؛ فإن غب الظلم والبغي عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النعمة في الدنيا والتبعة الموبقة في الآخرة، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً، ولا أسوأ له عيباً، ولا أشد عليه خلافاً منك، سعت عليه في الساعين، وساعدت عليه مع المساعدين، وسفكت دمه مع السافكين، ثم تظن أي نائم عنك، فتأتي بلدة فتأمن فيها وجل أهلها أنصاري، يرون رأي، ويرفضون قولك، ويستصرخونني عليك. وقد بعثت إليك قوماً حناقاً عليك، يسفكون دمك، ويتقربون إلى الله عز وجل بجهادك؛ وقد أعطوا الله عهداً ليقتلنك؛ ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدي غيرهم من أوليائه؛ وأنا أحذرك وأنذرك؛ فإن الله مقيد منك، ومقتص لوليه وخليفته بظلمك له، وبغيك عليه ووقيعتك فيه، وعداوتك يوم الدار عليه، تطعن بمشاقصك فيما بين أحشائه وأوداجه؛ ومع هذا فإني أكره قتلك، ولا أحب أن أتولى ذلك منك؛ ولن يسلمك الله من النعمة أين كنت أبداً، فتنح وانج بنفسك. والسلام.

قال: فطوى محمد بن أبي بكر كتابيهما، وبعث بهما إلى علي رضي الله عنه، وكتب إليه: أما بعد يا أمير المؤمنين، فإن

العاصي ابن العاص، قد نزل أداني مصر، واجتمع إليه من أهل البلد من كان يرى رأيهم؛ وهو في جيش جرار، وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامددي بالأموال والرجال، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فكتب إليه علي: أما بعد، فقد أتاني رسولك بكتابك؛ تذكر أن ابن العاص قد نزل في جيش جرار، وأن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه. وخروج من كان يرى رأيه خير لك من إقامته عندك. وذكرت أنك قد رأيت ممن قبلك فشلاً، فلا تفشل وإن فشلوا؛ حصن قريتك، واضمم إليك شيعتك، وأذك الحرس في عسكرك، واندب إلى القوم كنانة بن بشر، المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس، وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذل. فاصبر لعدوك وامض على بصيرتك، وقاتلهم على نيتك، وجاهدهم محتسباً الله سبحانه؛ وإن كانت فتتك أقل الفتتين؛ فإن الله تعالى يعين القليل ويخذل الكثير. وقد قرأت كتابي الفاجرين المتحايين على المعصية، والمتلائين على الضلالة، والمرتشين على الحكومة، والمتكبرين على أهل الدين؛ الذين استمتعوا بخلاقهم؛ كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم، فلا يضرنك إرعاذهما وإبراقهما، وأجهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله، فإنك تجد مقالاً ما شئت. والسلام.

قال: فكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية جواب كتابه: أما بعد؛ فقد أتاني كتابك تذكر من أمر عثمان أمراً لا أعترد إليك منه، وتأمرني بالتنحي عنك كأنك لي ناصح، وتخوفني بالحرب كأنك علي شفيق؛ وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم، وأن يهلككم الله في الوقعة، وأن يتزل بكم الذل، وأن تولوا الدبر؛ فإن يكن لكم الأمر في الدنيا فكم وكم لعمرى من ظالم قد نصرتم وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به! وإلى الله المصير، وإليه ترد الأمور؛ وهو أرحم الراحمين؛ والله المستعان على ما تصفون.

قال: وكتب محمد بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص جواب كتابه: أما بعد، فهتم كتابك، وعلمت ما ذكرت؛ زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر، فأشهد بالله أنك لمن المبطلين. وزعمت أنك ناصح لي، واقسم إنك عندي ظنين. وقد زعمت أن أهل البلد قد رفضوني، وندفوا على أتباعي؛ فأولئك حزبك وحزب الشيطان الرحيم؛ وحسبنا الله رب العالمين ونعم الوكيل، وتوكلت على الله العزيز الرحيم، رب العرش العظيم.

قال إبراهيم: فحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني، قال: فأقبل عمرو بن العاص يقصد قصد مصر، فقام محمد بن أبي بكر في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ يا معاشر المؤمنين، فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمه، ويغشون الضلالة، ويسطيلون بالجبرية، قد نصبوا لكم العداوة، وساروا إليكم بالجنود، فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدكم في الله. انتدبوا رحمكم الله مع كنانة بن بشر. ثم ندب معه نحو ألفي رجل، وتخلف محمد في ألفين، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد، فلما دنا عمرو من كنانة سرح إليه الكتائب؛ كتيبة بعد كتيبة، فلم تأت منه كتائب الشام كتيبة إلا شد عليها. بمن معه فيضربها حتى يلحقها بعمرو، ففعل ذلك مراراً. فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حديج الكندي، فأتاه في مثل الدهم. فلما رأى كنانة ذلك الجيش، نزل عن فرسه؛ ونزل معه أصحابه فضاربهم بسيفه، وهو يقول: "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً". فلم يزل يضاربهم

بالسيف حتى استشهد رحمه الله.

قال إبراهيم: حدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني، عن محمد بن يوسف، أن عمرو بن العاص لما قتل كنانة أقبل نحو محمد بن أبي بكر، وقد تفرق عنه أصحابه؛ فخرج محمد متمهلاً، فمضى في طريقه حتى انتهى إلى خربة، فأوى إليها، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط، وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد، حتى انتهى إلى علوج على قارعة الطريق، فسألهم: هل مر بهم أحد ينكرونه؟ قالوا: لا، قال أحدهم: إني دخلت تلك الخربة، فإذا أنا برجل جالس. قال ابن حديج: هو هو ورب الكعبة، فانطلقوا يركضون، حتى دخلوا على محمد، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، فأقبلوا به نحو الفسطاط.

قال: ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جنده، فقال: لا والله لا تقتل أخي صبراً، ابعث إلى معاوية بن حديج فاهمه، فأرسل عمرو بن العاص: أن اتني بمحمد، فقال معاوية: أقتلتم كنانة بن بشر، ابن عمي، وأخلي عن محمد؛ هيهات! "أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر". فقال محمد: اسقوني قطرة من الماء، فقال له معاوية بن حديج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً؛ إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً، فسقاه الله من الرحيق المختوم؛ والله لأقتلنك يابن أبي بكر وأنت ظمآن، ويسقيك الله من الحميم والغسلين، فقال له محمد: يابن اليهودية النساجة؛ ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان، إنما ذلك إلى الله يسقي أوليائه ويظمئ أعداءه؛ وهم أنت وقرناؤك ومن تولاك وتوليته، والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتني ما بلغتني. فقال له معاوية بن حديج: أتدري ما أصنع بك؛ أدخلك جوف هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار. قال: إن فعلتم ذلك بي فطالما فعلتم ذاك بأولياء الله، وإيم الله إني لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي تخوفني بها برداً وسلاماً، كما جعلها الله على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك، كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإني لأرجو أن يحرقك الله وإمامك معاوية، وهذا - وأشار إلى عمرو بن العاص - بنار تلظى، كلما خبت زادها الله عليكم سعيراً. فقال له معاوية بن حديج: إني لا أقتلك ظلماً، إنما أقتلك بعثمان بن عفان، قال محمد: وما أنت وعثمان! رجل عمل بالجور، وبدل حكم الله والقرآن، وقد قال الله عز وجل: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"، "فأولئك هم الظالمون"، "فأولئك هم الفاسقون"؛ فنقمنا عليه أشياء عملها، فأردنا أن يخلع من الخلافة علناً، فلم يفعل، فقتله من قتله من الناس. فغضب معاوية بن حديج، فقدمه فضرب عنقه، ثم ألقاه في جوف حمار وأحرقه بالنار.

فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً، وقتت في دبر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج، وقبضت عيال محمد أخيها وولده إليها، فكان القاسم بن محمد من عيالها. قال: وكان ابن حديج ملعوناً خبيثاً يسب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال إبراهيم: وحدثني عمرو بن حماد بن طلحة القناد، عن علي بن هاشم، عن أبيه، عن داود بن أبي عوف، وقال: دخل معاوية بن حديج على الحسن بن علي في مسجد المدينة، فقال له الحسن: ويلك يا معاوية! أنت الذي تسب أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه أما والله لئن رأيته يوم القيامة - وما أظنك تراه - لترينه كاشفاً عن ساق، يضرب وجوه أمثالك عن

الحوض ضرب غرائب الإبل.

قال إبراهيم: وحدثني محمد بن عبد الله بن عثمان، عن المدائني، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن شداد، قال: حلفت عائشة لا تأكل شواء أبداً بعد قتل محمد، فلم تأكل شواء حتى لحقت بالله، وما عثرت قط إلا قالت: تعس معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، ومعاوية بن حديج!

قال إبراهيم: وقد روى هاشم أن أسماء بنت عميس، لما جاءها نعي محمد ابنها وما صنع به، قامت إلى مسجدها، وكظمت غيظها حتى تشخبت دمًا.

قال إبراهيم: وروى ابن عائشة التيمي عن رجالي عن كثير النواء، أن أبا بكر خرج في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة، فرأت أسماء بنت عميس وهي تحته؛ كأن أبا بكر مخضب بالحناء رأسه ولحيته، وعليه ثياب بيض، فجاءت إلى عائشة فأخبرتها، فقالت: إن صدقت رؤياك فقد قتل أبو بكر، إن خضابه الدم، وإن ثيابه أكفانه، ثم بكت، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهي كذلك، فقال: ما أبكاها؛ فقالوا: يا رسول الله، ما أبكاها أحد، ولكن أسماء ذكرت رؤيا رأتها لأبي بكر، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "ليس كما عبرت عائشة؛ ولكن يرجع أبو بكر صالحاً، فيلقى أسماء، فتحمل منه بغلام، فتسميه محمداً، يجعله الله غيظاً على الكافرين والمنافقين". قال: فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

قال إبراهيم: حدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني، قال: فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان عند قتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر: أما بعد، فإننا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموع من أهل مصر، فدعوناهم إلى الكتاب والسنة، فعصوا الحق، فتهولوا في الضلال، فجاهدناهم، واستنصرنا الله جل وعز عليهم، فضرب الله وجوههم وأدبارهم، ومنحنا أكتافهم؛ فقتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر، والحمد لله رب العالمين.

قال إبراهيم: وحدثني محمد بن عبد الله، عن المدائني، عن الحارث بن كعب بن عبد الله بن قعين، عن حبيب بن عبد الله، قال: والله إني لعند علي جالس إذ جاءه عبد الله بن قعين وكعب بن عبد الله من قبل محمد بن أبي بكر يستصرخانه قبل الواقعة؛ فقام علي فنأدى في الناس: الصلاة جامعة؛ فاجتمع الناس فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه؛ وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى عليه، ثم قال: أما بعد، فهذا صريخ محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله وعدو من والاه، وولي من عادى الله، فلا يكونون أهل الضلالة إلى باطلهم، والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعاً على باطلهم وضلالتهم منكم على حقكم. فكأنكم بهم وقد بدأوكم وإخوانكم بالغزو، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر عباد الله؛ إن مصر أعظم من الشام وخير أهلاً، فلا تغلبوا على مصر؛ فإن بقاء مصر في أيديكم عز لكم، وكبت لعدوكم، اخرجوا إلى الجرعة - قال: والجرعة بين الحيرة والكوفة - لتتوافي هناك كلنا غداً إن شاء الله. قال: فلما كان الغد، خرج يمشي، فترها بكرة، فأقام بها حتى انتصف النهار، فلم يوافه مائة رجل، فرجع. فلما كان العشي بعث إلى الأشراف فجمعهم، فدخلوا عليه القصر، وهو كئيب حزين، فقال: الحمد لله على ما قضى من أمر، وقدر من فعل، وابتلاني بكم أيها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتها، ولا تجيب إذا دعوتها. لا أبا لغيركم! ماذا تنتظرون

بنصركم، والجهاد على حقكم! الموت خير من الذل في هذه الدنيا لغير الحق؛ والله إن جاعني الموت - وليأتيني - لتجدني لصحبتيكم جد قال: ألا دين يجمعكم! ألا حمية تغضبكم! ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم، ويشن الغارة عليكم! أو ليس عجباً أن معاوية يدعو الجفافة الطغام الظلمة، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة، ويحيونه في السنة المرة والمرتين والثلاث، إلى أي وجه شاء، ثم أنا أدعوكم - وأنتم أولو النهى وبقية الناس - تختلفون وتفترقون عني، وتعصوني وتخالفون علي!

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبي، فقال يا أمير المؤمنين، اندب الناس معي؛ فإنه لا عطر بعد عروس، وإن الأجر لا يأتي إلا بالكراهة. ثم التفت إلى الناس وقال: اتقوا الله، وأجيبوا دعوة إمامكم، وانصروا دعوته، وقاتلوا عدوكم، إنا نسير إليهم يا أمير المؤمنين.

فأمر علي سعداً مولاه أن ينادي: ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر، وكان وجهاً مكروهاً، فلم يجتمعوا إليه شهراً، فلما اجتمع له منهم ما اجتمع خرج بهم مالك بن كعب، فعسكر بظاهر الكوفة، وخرج معه علي، فنظر فإذا جميع من خرج نحو من ألفين، فقال علي: سيروا، والله ما أخالكم تدركون القوم حتى ينقضي أمرهم!

فخرج مالك بهم وسار خمس ليال، وقدم الحجاج بن غزية الأنصاري على علي، وقدم عليه عبد الرحمن بن المسيب الفزاري من الشام، فأما الفزاري، فكان عيناً لعلي رضي الله عنه، لا ينام، وأما الأنصاري فكان مع محمد بن أبي بكر؛ فحدثه الأنصاري بما عاين وشاهد، وأخبره بهلاك محمد، وأخبره الفزاري أنه لم يخرج من الشام حتى قدمت البشرية من قبل عمرو بن العاص، يتبع بعضها بعضاً بفتح مصر، وقتل محمد بن أبي بكر، وحتى أذن معاوية بقتله على المنبر وقال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت يوماً قط سروراً مثل سرور رأيته بالشام حين أتاهم قتل محمد بن أبي بكر، فقال علي: أما إن حزننا على قتله، على قدر سرورهم به؛ لا بل يزيد أضعافاً.

قال: فسرح علي عبد الرحمن بن شريح إلى مالك بن كعب، فردّه من الطريق.

قال: وحزن علي محمد بن أبي بكر حتى رئي ذلك فيه، وتبين في وجهه، وقام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا وإن مصر قد افتتحها الفجرة أولياء الجور والظلم، الذين صدوا عن سبيل الله، وبغوا الإسلام عوجاً. ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمة الله عليه، وعند الله نحتسبه. أما والله لقد كان - ما علمت - ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويغض شكل الفاجر، ويحب سمّ المؤمن؛ إني والله لا ألوم نفسي على تقصير ولا عجز؛ وإني بمقاساة الحرب لجد بصير، إني لأقدم على الحرب، وأعرف وجه الحزم، وأقوم بالرأي المصيب، فأستصرحكم معلناً، وأناديكم مستغيثاً؛ فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً؛ حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءة. وأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر؛ ولا تنقض بكم الأوتار؛ دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة؛ فجرجرتهم علي جرجرة الحمل الأسر، وتقاتلتم إلى الأرض تناقل من لا نية له في الجهاد، ولا رأي له في الاكتساب للأجر، ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب ضعيف، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. فأف لكم ثم نزل فدخل رحله.

قال إبراهيم: فحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني؛ قال: كتب علي إلى عبد الله بن عباس وهو على البصرة: من عبد الله

علي أمير المؤمنين رضي الله عنه، إلى عبد الله بن عباس: سلام عليك ورحمة الله وبركاته: أما بعد؛ فإن مصر قد افتتحت، وقد استشهد محمد بن أبي بكر، فعند الله عز وجل نحتسبه. وقد كنت كتبت إلى الناس، وتقدمت إليهم في بدء الأمر، وأمرتهم بإغاثة قبل الواقعة، ودعوتهم سرّاً وجهراً، وعوداً وبدءاً، فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المتعلل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً. أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً، وأن يريحي منهم عاجلاً؛ فو الله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة، وتوطيئي نفسي عند ذلك، لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً. عزم الله لنا ولك على تقواه وهداه، إنه على كل شيء قدير. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فكتب إليه عبد الله بن عباس: لعبد الله علي أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس. سلام على أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته: أما بعد؛ فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر وهلاك محمد بن أبي بكر، وأنت سألت الله ربك أن يجعل لك من رعيته التي ابتليت بها فرجاً ومخرجاً، وأنا أسأل الله أن يعلي كلمتك، وأن يغشيك بالملائكة عاجلاً. واعلم أن الله صانع لك، ومعز دعوتك، وكابت عدوك. وأخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تباطأوا ثم نشطوا؛ فافرق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومنهم، واستعن بالله عليهم. كفك الله الهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: وروي عن المدائني، أن عبد الله بن عباس قدم من البصرة على علي، فعزاه عن محمد بن أبي بكر. وروى المدائني أن علياً قال: رحم الله محمداً كان غلاماً حدثاً، لقد كنت أردت أن أولي المرقال هاشم بن عتبة مصر، فإنه والله لو وليها لما خلى لابن العاص وأعوانه العرصه، ولا قتل إلا وسيفه في يده، بلا ذم لحمد، فلقد أجهد نفسه فقضى ما عليه. قال المدائني: وقيل لعلي رضي الله عنه: لقد جزعت على محمد بن أبي بكر يا أمير المؤمنين. فقال: وما يعني إنه كان لي ربيباً، وكان لبني أخاً، وكنت له والداً. أعده ولدأ.

خطبة للإمام علي بعد فتح مصر

وروى إبراهيم، عن رجاله، عن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه، قال: خطب علي رضي الله عنه بعد فتح مصر، وقتل محمد بن أبي بكر، فقال: أما بعد، فإن الله بعث محمداً نذيراً للعالمين، وأميناً على التزليل، وشهيداً على هذه الامة؛ وأنتم معاشر العرب يومئذ على شر دين، وفي شر دار، منيخون على حجارة خشن، وحيات صم، وشوك مبثوث في البلاد، تشربون الماء الخبيث، وتأكلون الطعام الخبيث؛ تسفكون دماءكم، وتقتلون أولادكم، وتقطعون أرحامكم؛ وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل. سبلكم خائفة، والأصنام فيكم منصوبة، ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

فمن الله - عز وجل - عليكم بمحمد، فبعثه إليكم رسولاً من أنفسكم، فعلمكم الكتاب والحكمة، والفرائض والسنن، وأمركم بصلة أرحامكم وحقن دماءكم وصلاح ذات البين، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن توفوا بالعهد، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وأن تعاطفوا وتباروا وتراحموا. ونهاكم عن التنهاب والتظالم والتحاسد والتباغم والتقاذف، وعن شرب الخمر وبخس المكيال، ونقص الميزان. وتقدم إليكم فيما يتلى عليكم: ألا تنزوا ولا تربوا، ولا تاكلوا أموال اليتامى ظلماً، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، وكل

خير يديني إلى الجنة، ويباعد عن النار أمركم به، وكل شر يديني إلى النار ويباعد عن الجنة نهاكم عنه. فلما استكمل مدته، توفاه الله إليه سعيداً حميداً، فيا لها مصيبةً خست الأقربين، وعمت المسلمين ما اصابوا قبلها. بمثلها، ولن يعاينوا بعدها أختها. فلما مضى لسبيله صلى الله عليه وسلم، تنازع المسلمون الأمر بعده، فو الله ما كان يلقي في روعي، ولا يخطر على بالي أن العرب تعدل هذا الأمر بعد محمد عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده. فما راعني إلا انشغال الناس على أبي بكر، وإجفاهم إليه ليبياعوه، فأمسكت يدي، ورأيت أي أحق بمقام محمد صلى الله عليه وسلم في الناس ممن تولى الأمر من بعده، فلبثت بذلك ما شاء الله حتى رأيت راجعةً من الناس رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين الله وملة محمد صلى الله عليه فخشيت - إن لم أنصر الإسلام وأهله - أن أرى فيه ثلماً وهدماً يكون المصاب بهما علي أعظم من فوات ولاية أموركم، التي إنما هي متاع أيام قلائل، ثم يزول ما كان منها كما يزول السراب، وكما يتقشع السحاب، فمشيت عند ذلك إلى أبي بكر فبايعته؛ ونهضت في تلك الأحداث، حتى زاغ الباطل وزهق، وكانت كلمة الله هي العليا، ولو كره الكافرون.

فتولى أبو بكر تلك الأمور، فيسر وسدد، وقارب واقتصد، وصحبته مناصحاً، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهداً، وما طمعت - أن لو حدث به حادث وأنا حي أن يرد إلي الأمر الذي نازعته فيه - طمع مستيقن، ولا يئست منه يأس من لا يرجوه، ولولا خاصة ما كان بينه وبين عمر، لظننت أنه لا يدفعها عني؛ فلما احتضر بعث إلى عمر فولاه فسمعنا وأطعنا وناصحنا. وتولى عمر الأمر، فكان مرضي السيرة، ميمون النقيبة؛ حتى إذا احتضر، فقلت في نفسي: لن يعدها عني؛ ليس يدفعها عني، فجعلني سادس ستة؛ فما كانوا لولاية أحد منهم أشد كراهة لولائي عليهم؛ كانوا يسمعون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاح أبي بكر، وأقول: يا معشر قريش، إنا - أهل البيت - أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا من يقرأ القرآن، ويعرف السنة، ويدين بدين الحق. فخشى القوم - إن أنا وليت عليهم - ألا يكون لهم من الأمر نصيب ما بقوا، فأجمعوا إجماعاً واحداً، فصرفوا الولاية إلى عثمان، وأخرجوني منها؛ رجاء أن ينالوها، ويتداولوها إذ يئسوا أن ينالوا بها من قبلي؛ ثم قالوا: هلم فبايع وإلا جاهدناك؛ فبايعت مستكرهاً، وصبرت محتسباً، فقال قائلهم: يا بن أبي طالب، إنك على هذا الأمر لحريص؛ فقلت أنتم أحرص مني وأبعد؛ أينأ أحرص؛ أنا الذي طلبت ميراثي وحقي الذي جعلني الله ورسوله أولى به، أم أنتم إذ تضربون وجهي دونه، وتحولون بيني وبينه فبهتوا، والله لا يهدي القوم الظالمين. اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رحمي، وأضاعوا إياي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به منهم، فسلبوني ثم قالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تمنعه؛ فاصبر كمداً، أومت أسفاً حقناً.

فنظرت فإذا ليس معي رافد ولا ذاب ولا ناصر ولا ساعد إلا أهل بيتي، فضننت بهم عن المنية، وأغضيت على القذى، وتجرعت ريقى على الشجى؛ وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم، وآلم للقلب من حز الشفار، حتى إذا نقيمت على عثمان أتيتموه فقتلتموه؛ ثم جئتموني لتبايعوني، فأبيت عليكم، وأمسكت يدي فنازعتموني ودافعتموني، وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، وازدحمت علي حتى ظننت أن بعضكم قاتل بعضكم أو أنكم قاتلي. فقلت: بايعنا لا نجد غيرك، ولا نرضى إلا بك، بايعنا لا نفرق ولا تختلف كلمتنا. فبايعتكم ودعوت الناس إلى بيعتي، فمن بايع طوعاً

قبلته؛ ومن أبي لم أكرهه وتركته.

فبايعني فيمن بايعني طلحة والزبير؛ ولو أبا ما أكرهتهما، كما لم أكره غيرهما؛ فما لبثا إلا يسيراً حتى بلغني أنهما خرجا من مكة متوجهين إلى البصرة؛ في جيش ما منهم رجل إلا أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة؛ فقدمنا على عاملي وخزان بيت مالي وعلى أهل مصري الذين كلهم على بيعتي وفي طاعتي، فشتتوا كلمتهم، وأفسدوا جماعتهم، ثم وثبوا على شيعتي من المسلمين، فقتلوا طائفةً منهم غدرًا، وطائفةً صبرًا. ومنهم طائفة غضبوا لله ولي، فشهبوا سيوفهم وضربوا بها، حتى لقوا الله عز وجل صادقين؛ فوالله لو لم يصيبوا منهم إلا رجلاً واحداً متعمدين لقتله لحل لي به قتل ذلك الجيش بأسره، فدع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من العدة التي دخلوا بها عليهم؛ وقد أذال الله منهم، فبعداً للقوم الظالمين. ثم إني نظرت في أمر أهل الشام، فإذا أعراب أحزاب وأهل طمع جفاة طغاة، يجتمعون من كل أوب؛ من كان ينبغي أن يؤدب وأن يولى عليه، ويؤخذ على يده؛ ليسوا من الأنصار ولا المهاجرين ولا التابعين بإحسان. فسرت إليهم، فدعوتهم إلى الطاعة والجماعة، فأبوا إلا شقاقاً وفراقاً. ونهضوا في وجوه المسلمين ينضحونهم بالنبل، ويشجرونهم بالرماح؛ فهناك نهدت إليهم بالمسلمين فقاتلتهم، فلما عضهم السلاح. ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؛ فأنبأتكم أنهم ليسوا بأهل دين ولا قرآن، وأنهم رفعوها مكيدة وخديعة ووهناً وضعفاً، فامضوا على حقكم وقتالكم. فأيتهم علي وقتلتهم؛ فقبل منهم؛ فإن أجابوا إلى ما في الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من الحق، وإن أبوا كان أعظم لحجتنا عليهم. فقبلت منهم، وكففت عنهم؛ إذ نيتهم وأيتهم؛ فكان الصلح بينكم وبينهم على رجلين، يحييان ما أحيا القرآن، ويميتان ما أemat القرآن؛ فاختلف رأيهما، وتفرق حكمهما، ونبذا ما في القرآن، وخالفا ما في الكتاب، فجنبهما الله السداد، ودلاهما في الضلالة، فانخرقت فرقة منا فتركانهم ما تركونا؛ حتى إذا عثوا في الأرض يقتلون ويفسدون، أتيناهم فقلنا: ادفعوا إلينا قتلة إخواننا، ثم كتاب الله بيننا وبينكم. قالوا: كلنا قتلهم؛ وكلنا استحل دماءهم. وشدت علينا خيلهم ورجالهم، فصرعهم الله مصارع الظالمين.

فلما كان ذلك من شأنهم أمرتكم أن تمضوا من فوركم إلى عدوكم، فقتلتهم: كلت سيوفنا، ونفدت نبالنا، ونصلت أسنة رماحنا، وعاد أكثرها قصداً، فارجع بنا إلى معرنا لنستعد بأحسن عدتنا، فإذا رجعت زدت في مقاتلتنا عدة من هلك منا وفارقنا؛ فإن ذلك أقوى لنا على عدونا. فأقبلت بكم، حتى إذا أطلتكم على الكوفة أمرتكم أن تتزلوا بالنخيلة، وأن تلزموا معسكركم، وأن تضموا قواصيككم، وأن توطنوا على الجهاد أنفسكم، ولا تكثروا زيارة أبنائكم ونسائكم، فإن أهل الحرب المصابروها، وأهل التشمير فيها الذين لا ينقادون من سهر ليلهم ولا ظمأ نهارهم، ولا خمص بطونهم، ولا نصب أبدانهم، فتزلت طائفة منكم معي معذرة، ودخلت طائفة منكم المصراعصية؛ فلا من بقي منكم صبر وثبت، ولا من دخل المصراع عاد ورجع، فنظرت إلى معسكري، وليس فيه خمسون رجلاً؛ فلما رأيت ما أيتهم، دخلت إليكم فلم أقدر على أن تخرجوا معي إلى يومنا هذا، فما تنتظرون أما ترون أطرافكم قد انتقصت، وإلى مصر قد فتحت، وإلما شيعتي بها قد قتلت؛ وإلى مسالحكم تعرى، وإلى بلادكم تغزى وأنتم ذوو عدد كثير، وشوكة وبأس شديد؛ فما بالكم لله أنتم من أين تؤتون وما لكم تؤفكون وأنى تسحرون. ولو أنكم عزمتم وأجمعتم لم تراموا؛ إلا أن القوم تراجعوا وتناشبو

وتنصحوها، وأنتم قد ونيتم وتغاششتهم وافتترقتهم، ما إن أنتم إن ألمتم عندى على هذا بسعداء؛ فانتهاوا بأجمعكم، وأجمعوا على حقكم، وتجردوا للحرب عدوكم؛ وقد أبدت الرغبة عن الصريح، وبين الصبح لذي عينين؛ إنما تقاتلون الطلقاء، وأبناء الطلقاء وأولي الجفاء، ومن أسلم كرهاً؛ وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنف الإسلام كله حرباً؛ أعداء الله والسنة والقرآن، وأهل البدع والأحداث، ومن كان بوائقه تتقى، وكان عن الإسلام منحرفاً، أكلة الرشا، وعبددة الدنيا؛ لقد أنهى إلي أن ابن النابغة لم يبايع معاوية حتى أعطاه، وشرط له أن يؤتیه ما هي أعظم مما في يده من سلطانه. ألا صفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا، وخزيت أمانة هذا المشتري نصرة فاسق غادر بأموال المسلمين؛ وإن فيهم من قد شرب فيكم الخمر وجلد الحد؛ يعرف بالفساد في الدين، والفعل السيئ؛ وإن فيهم من لم يسلم حتى رضخ له رضيخة. فهؤلاء قادة القوم؛ ومن تركت ذكر مساوئه من قادمكم مثل من ذكرت منهم؛ بل هو شر، ويود هؤلاء الذين ذكرت لو ولوا عليكم فأظهروا فيكم الكفر والفساد والفجور والتسلط بجزيرة؛ واتبعوا الهوى وحكموا بغير الحق. ولأنتم - على ما كان فيكم من تواكل وتخاذل - خير منهم وأهدى سبيلاً؛ فيكم العلماء والفقهاء، والنجباء والحكماء، وحملة الكتاب والمتهجدون بالأسحار، وعمار المساجد بتلاوة القرآن؛ أفلا تسخطون وتهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم، والأشرار الأراذل منكم.

فاسمعوا قولي، وأطيعوا أمري؛ فوالله لئن أطعتموني لا تغوون، وإن عصيتموني لا ترشدون؛ خذوا للحرب أهبتها وأعدوا لها عدتها؛ فقد شبت نارها، وعلا سناها وتجرد لكم فيها الفاسقون، كي يعذبوا عباد الله، ويطفئوا نور الله. ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأولى في الجد في غيهم وضلالتهم من أهل البر والزهادة والإحبات في حقهم وطاعة ربهم؛ إني والله لو لقيتهم فرداً وهم ملء الأرض؛ ما باليت ولا استوحشت؛ وإني من ضاللتهم التي هم فيها، والهدى الذي نحن عليه، لعلی ثقة وبينة، ويقين وبصيرة؛ وإني إلى لقاء ربي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر؛ ولكن أسفاً يعتريني، وحزناً يخامرني، أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والفاسقين حزباً. وإيم الله لولا ذلك ما أكثرت تأنيبكم وتحريضكم، ولتركتكم إذ ونيتم وأبيتكم حتى ألقاهم بنفسي؛ متى حم لي لقاءهم. فوالله إني لعلی الحق، وإني للشهادة لحب، فانفروا خفاً وثقالاً، واجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف، وتبوءوا بالذل، ويكن نصيبكم الخسران. إن أخوا الحرب اليقظان، ومن ضعف أودى، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين. اللهم اجمعنا وإياهم على الهدى، وزهدنا وإياهم في الدنيا، واجعل الآخرة خيراً لنا ولهم من الأولى.

مقتل محمد بن أبي حذيفة،

قال إبراهيم: وحدثني محمد بن عبد الله بن عثمان، عن المدائني، أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أصيب لما فتح عمرو بن العاص مصر، فبعث به إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ بفلسطين، فحبسه معاوية في سجن له، فمكث فيه غير كثير، ثم هرب - وكان ابن خال معاوية - فأرى معاوية الناس أنه كره انفلاته من السجن؛ وكان

يجب أن ينجو، فقال لأهل الشام: من يطلبه؛ فقال رجل من خثعم - يقال له عبيد الله بن عمرو بن ظلام، وكان شجاعاً وكان عثمانياً: أنا أطلبه، فخرج في خيل فلحقه بحوارين، وقد دخل بغار هناك، فجاءت حمراً فدخلته، فلما رأت الرجل في الغار فزعت ونفرت؛ فقال حمارون كانوا قريباً من الغار: إن لهذه الحمر لشأناً، ما نفرها من هذا الغار إلا أمر فذهبوا ينظرون؛ فإذا هم به؛ فخرجوا به؛ فوافاهم عبد الله بن عمرو بن ظلام؛ فسألهم ووصفه لهم فقالوا: ها هو هذا؛ فجاء حتى استخرجه، وكره أن يصير به إلى معاوية فيخلي سبيله، فضرب عنقه. رحمه الله تعالى.

ومن كلام له في ذم أصحابه

الأصل: كم أداريكم كما تدارى أباكراً العمدة، والثياب المتداعية كلما حيص من جانبٍ تهتكت من آخر، كلما أطل عليكم مفسراً من مناصر أهل الشام أغلق كل رجلٍ منكم بابه، وانجح أنجحاً الضبة في جحرها، والضبع في وجارها. الدليل والله من نصرتموه، ومن رمي بكم فقد رمي بأنوف فاصل. إنكم والله لكثير في البائحات، قليل تحت الرايات، وإني لعالم بما يصلحكم، وقيم أودكم، ولكني والله لا أرى إصلاحكم لإفساد نفسي. أضرع الله حدودكم، وأتعس حدودكم؛ لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحق.

الشرح أبكار: جمع بكر، وهو الفتي من الإبل. والعمدة: التي قد أنشدت أسمتها من داخل وظاهرها صحيح؛ وذلك لكثرة ركوبها، والثياب المتداعية. الأسمال التي قد أخلق؛ وإنما سميت متداعية، لأن بعضها يتخرق فيدعو بعضها إلى مثل حاله، وحيث: خيطت، والحوض: الخياطة. وتهتكت: تخرقت. أطل عليكم، أي أشرف، وروي: "أطل" بالطاء المعجم، والمعنى واحد. ومفسر: قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكثير، والأفصح "منس" بكسر الميم وفتح السين، ويجوز "مفسر" بفتح الميم وكسر السين. وانجح: استتر في بيته، آجرت الضب، إذا ألجأته إلى جحره فانجح. والضبة: أنثى الضباب، وإنما أوقع التشبيه على الضبة مبالغة في وصفهم بالجبن والفرار؛ لأن الأنثى أجبن وأذل من الذكر. والجار: بيت الضبع. والسهم الأنوف: الفاصل المكسور أتفوق، المتروع النصل، أتفوق: موضع الوتر من السهم، يقال نصل السهم إذا خرج منه النصل فهو فاصل؛ وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجده. والبائحات: جمع باحة، وهي ساحة الدار. والأود: العوج، أود الشيء بكسر الواو أود أوداً؛ أي اعوج، وتأود، أي تعوج. وأضرع الله حدودكم: أذل وجوهكم. ضرع الرجل ذل وأضرعه غيره، ومنه المثل: "الحمى أضرعته لك". وأتعس حدودكم، أي أحال حظوظكم وسعودكم وأهلكها فجعلها إدباراً ونحساً. والتعس: الهلاك. وأصله الكب؛ وهو ضد الإنتعاش. تعس الرجل، بفتح العين يتعس تعساً. يقول: كم أداريكم كما يداري راكب البعير بعيره المنفضخ السنام، وكما يداري لابس الثوب السمل ثوبه المتداعي، الذي كلما خيط منه جانب تمزق جانب. ثم ذكر خبثهم وذلمهم، وقلة انتصار من ينتصر بهم، وأهم كثير في الصورة، قليل في المعنى. ثم قال: إني عالم بما يصلحكم؛ يقول: إنما يصلحكم في السياسة السيف؛ وصدق فإن كثيراً لا يصلح إلا عليه. كما فعل الحجاج بالجيش الذي تقاعد بالمهلب، فإنه نادى مناديه: من وجدناه بعد ثلاثة لم يلتحق بالمهلب فقد حل لنا دمه؛ ثم قتل عمير بن ضابئ وغيره؛ فخرج الناس يهرعون إلى المهلب. وأمير المؤمنين لم يكن ليستحل من دماء أصحابه ما يستحله من

يريد الدنيا وسياسة الملك وانتظام الدولة، قال رضي الله عنه: "لكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي"، أي بإفساد ديني عند الله تعالى. فإن قلت: أليست نصره الإمام واجبة عليهم؟ فلم لا يقتلهم إذ أدخلوا بهذا الواجب؟ قلت: ليس كل إخلال بواجب يكون عقوبته القتل، كمن أحل بالحج. وأيضاً فإنه كان يعلم أن عاقبة القتل فسادهم عليه واضطرابهم؛ فلو أسرع في قتلهم لشغبوا عليه شغباً يفضي إلى أن يقتلوه ويقتلوا أولاده، أو يسلموه وسلموهم إلى معاوية؛ ومتى علم هذا أو غلب على ظنه لم يجوز له أن يسوسهم بالقتل الذي يفضي إلى هذه المفسدة، فلو ساسهم بالقتل والحال هذه: لكان أثماً عند الله تعالى، ومواقعاً للقبيح؛ وفي ذلك إفساد دينه كما قال: "لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل" إلى آخر الفصل؛ فكأنه قال: لا تعتقدون الصواب والحق كما تعتقدون الخطأ والباطل؛ أي اعتقادكم الحق قليل، واعتقادكم الباطل كثير؛ فعبّر عن الاعتقاد العام بالمعرفة الخاصة؛ وهي نوع تحت جنسه مجازاً. ثم قال: ولا تسرعون في نقض الباطل سرعتكم في نقض الحق وهدمه.

ذم الجبن في شعر الشعراء

واعلم أن المهجاء بالجبن والذل والفرق كثير جداً، ونظير قوله: "إنكم لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات" قول معدان الطائي:

وأما الذي يطريهم فمقل

فأما الذي يحصيهـم فمكثر

ونحو قول قراد بن حنش، وهو من شعر الحماسة:

بأبدة تحي شديد ويدها

وأنتم سماء يعجب الناس رزها

وأكذب شيء برقها ورعوها

تقطع أظناب البيوت بحاصب

إذا لاقت الأعداء لول اصدودها

فويلمها خيلاً بهاءً وشارة

ومن شعر الحماسة في هذا المعنى:

لحي ورقاب عردة ومناخر

لقد كان فيكم لو وفيتم بجاركم

عذارى عليها شارة ومعاجر

من الصهب أثناءً وجذعاً كأنها

ومن المهجاء بالجبن والفرار، قول بعض بني طيء يهجو حاتمًا، وهو من شعر الحماسة أيضاً:

لبئس الفتى المدعو بالليل حاتم

لعمرى وما عمري علي بهين

بجبهته أقتاله وهو قائم

غداة أتى كالنور أخرج فاتقى

تبادرها جناح الظلام نعائم

كأن بصحراء المريط نعامة

وقد جردت بيض المتون صوارم

أعارتك رجليها وهافي لبها

ونظير المعنى الأول أيضاً قول بعضهم من شعر الحماسة:

ولا ترج من سعدٍ وفاء ولا نصرا

كأثر بسعدٍ إن سعداً كثيرةٌ

وتزهد فيها حين تقتلها خبرا

يروعك من سعد بن عمروٍ جسومها

ومنه قول عويص القوافي:

بتكلى ولا زهراء من نسوة زهر

وما أمكم تحت الخوافق والقنا

وأكثرهم عند الذبيحة والقدر

ألستم أقل الناس عند لوائهم

وممن حسن الجبن والفرار بعض الشعراء في قوله:

أن الشجاعة مقرونٌ بها العطب

أضحت تشجعني هذٌّ وقد علمت

ما يشتهي الموت عندي من له أرب

لا والذي حجت الأنصار كعبته

إذا دعته إلى حوماتها وثبوا

للحرب قوم أضل الله سعيهم

لا القتل يعجبني منها ولا السلب

ولست منهم ولا أهوى فعالهم

وممن هذا قول أيمن بن خريم الأسدي:

ووريد الميط منها يعتدل

إن للفتنة ميطاً بينا

وإذا كان قتالٌ فاعتزل

فإذا كان عطاءً فابتدر

حطب النار فدعها تشتعل

إنما يسعرها جهالها

وممن عرف بالجبن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، غيره عبد الملك بن مروان فقال:

وليث حديد الناب عند الثرائد

إذا صوت العصفور طار فؤاده

وقال آخر:

ويكفيه من الزجر الصغير

يطير فؤاده من نبج كلبٍ

وقال آخر:

مسومةٌ تدعو عبداً وأزناً

ولو أنها عصفورة لحسبتها

أخبار الجبناء ونوادرهم

ومن أخبار الجبناء ما رواه ابن قتيبة في كتاب "عيون الأخبار" قال: رأى عمرو بن العاص معاوية يوماً فضحك، وقال: مم تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك؛ قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب؛ والله لقد وجدته مناناً كريماً ولو شاء أن يقتلك لقتلك فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، أما والله إني لعن عيذك حين دعاك إلى البراز فاحولت عيناك، وانتفخ سحرک، وبدا منك ما أكره ذكره لك؛ فمن نفسك فاضحك أو فدع. قال ابن قتيبة: وقدم

الحجاج على الوليد بن عبد الملك، وعليه درعٌ وعمامة سوداء وقوس عربية وكنانة، فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد - وهي تحت يومئذ: من هذا الأعراي المستلثم في السلاح عندك على خلوة، وأنت في غلالة؟ فأرسل إليها الوليد: إنه الحجاج، فأعادت عليه الرسول: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إلي من أن يخلو بك الحجاج، فضحك وأخبر الحجاج بقولها وهو يمازحه، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة؛ فلا تطلعها على سرك، ومكايدة عدوك.

فلما انصرف الحجاج ودخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي إليك اليوم أن تأمره غداً أن يأتيني مستلثماً، ففعل ذلك، وأتاها الحجاج فحجبتة ثم أدخلته، ولم تأذن له في القعود، فلم يزل قائماً، ثم قالت: إيه يا حجاج؛ أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام، ولا بقتل ابن ذات النطاقين أول مولود في الإسلام؛ وأما فهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره؛ فإن كن ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالقبول منك؛ وإن كن ينفرجن عن مثله، فهو غير قابل لقولك. أما والله لو نفض نساء أمير المؤمنين الطيب من غدائرهن فبعنه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيق من القرن، قد أظلتك الرماح، وأثخنك الكفاح؛ وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم؛ فأجناك الله من عدو أمير المؤمنين بحبهم إياه؛ قاتل الله القاتل حين ينظر إليك وسمان غزالة بين كتفك:

ربداء تنفر من صفير الصافر

أم كان قلبك في جناحي طائر

أسدٌ علي وفي الحروب نعامةٌ

هلا برزت إلى غزالة في الوغى

ثم قالت لجواربها: أخرجنه، فأخرج.

ومن طريف حكايات الجبناء ما ذكره ابن قتيبة أيضاً في الكتاب المذكور؛ قال كان بالبصرة شيخٌ من بني نهشل بن دارم، يقال له عروة بن مرثد، ويكنى أبا الأعز، يتزل في بني أخت له من الأزدي سكة بني مازن، فخرج رجالهم إلى ضياعهم في شهر رمضان، وخرج النساء يصلين في مسجدهم، ولم يبق في الدار إلا إماء، فدخل كلب يتعسس، فرأى بيتاً مفتوحاً فدخله، وانصفق الباب عليه، فسمع بعض الإماء الحركة، فظنوا أنه لص دخل الدار، فذهبت إحداهن إلى أبي الأعز، فأخبرته، فقال أبو الأعز: إلام يتغى اللص عندنا وأخذ عصاه، وجاء حتى وقف بباب البيت، وقال: إيه يا فلان؛ أما والله إني بك لعارف، فهل أنت من لصوص بني مازن؛ شربت حامضاً خبيثاً، حتى إذا دارت في رأسك منتك نفسك الأماني، وقلت: أطرق دور بني عمرو، والرجال خلوف، والنساء يصلين في مسجدهن، فأسرقهن. سوء لك والله ما يفعل هذا ولد الأحرار وإيم الله لتخرجن أو لأهتفن هتفة مشؤومة يلتقي فيها الحيان: عمرو وحنظلة، وتجيء سعد عدد الحمى، وتسيل عليك الرجال، من هنا وهنا، ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود.

فلما رأى أنه لا يجيبه، أخذه باللين، فقال: اخرج - بأبي أنت - مستوراً، والله ما أراك تعرفني. ولو عرفتني لقنعت بقولي، واطمأنت إلى ابن أختي البار الوصول، أنا - فديتك - أبو الأعز النهشليح وأنا خال القوم، وجلدة بين أعينهم؛ لا

يعصوني، ولا تضار الليلة وأنت في ذمتي، وعندى قوصرتان، أهدهما إلي ابن أخي البار الوصول، فخذ إحدهما، فانبذها حالاً من الله ورسوله.

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق، وإذا سكت أبو الأعز وثب يريد المخرج، فتهانف أبو الأعز، ثم تضاحك، وقال: يا ألام الناس وأوضعهم؛ ألا أراي لك منذ الليلة في واد وأنت لي في واد آخر، أقبلت السوداء والبيضاء، فتصيح وتطرق؛ فإذا سكت عنك وثبت تريد الخروج؛ والله لتخرجن أو لألجن عليك البيت.

فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء فقالت: أعرابي مجنون والله، ما أرى في البيت شيئاً، فدفعت الباب فخرج الكلب شاردًا، وحاد عنه أبو الأعز ساقطاً على قفاه، شائلة رجلاه؛ وقال: تالله ما رأيت كالبيلة هذه ما أراه إلا كلباً، ولو علمت بحاله لولجت عليه.

ونظير هذه الحكاية حكاية أبي حية النميري، وكان جباناً، قيل: كان لأبي حية سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرق، كان يسميه لعاب المنية، فحكى عنه بعض جيرانه أنه قال: أشرفت عليه ليلة، وقد انتضاه وهو واقفٌ بباب بيت في داره، وقد سمع فيه حساً، وهو يقول: أيها المغتر بنا، اجترى علينا، بنس والله ما اخترت لنفسك؛ خير قليل وسيف صقيل؛ لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة صولته، ولا تخاف نبوته. اخرج بالعفو عنك؛ لا أدخل بالعقوبة عليك؛ إني والله إن أدع قيساً تملأ الفضاء عليك خيلاً ورجلاً. سبحان الله؛ ما أكثرها وأطيبها؛ والله ما أنت ببعيد من تابعها، والرسوب في تيار لجتها.

قال. وهبت ريح ففتحت الباب؛ فخرج كلب يشدد، فلبط بأبي حية واربد، وشغل برجليه، وتبادرت إليه نساء الحتي، فقلن: يا أبا حية، لتفرخ روعتك؛ إنما هو كلب؛ فجلس وهو يقول: الحمد لله الذي مسحك كلباً، وكفاني حرباً وخرج مغيرة بن سعيد العجلي في ثلاثين رجلاً بظهر الكوفة، فعططوا، وخالد بن عبد الله القسري أمير العراق؛ يخطب على المنبر فعرق، واضطرب وتحير، وجعل يقول: اطعموني ماء، فهجاه ابن نوفل فقال:

وإيري في حرامك من أمير

كأنك من سراة بني جرير

كريم الأصل ذو خطرٍ كبير

وما الأذنان عدلٌ للصدر

تبول من المخافة للرئير

كبير السن ليس بذي ضرير

شراباً ثم بلت على السرير

أخالد لا جزاك الله خيراً

تروم الفخر في أعراب قسر

جرير من ذوي يمنٍ أصيل

وأملك علجةً وأبوك وغد

وكننت لدى المغيرة عبد سوء

لأعلاج ثمانية وشيخ

صرخت من المخافة: أطعموني

وقال آخر يعيره بذلك:

واستطعم الماء لما جد في الهرب

بل المنابر من خوف ومن دهش

ومن كلام ابن المقفع في ذم الجبن: الجبن مقتلة، والحرص محرمة؛ فانظر فيما رأيت وسمعت: من قتل في الحرب مقبلاً أكثر أم من قتل مدبراً؛ وانظر من يطلب إليك بالإجمال والتكرم أحق أن تسخو نفسك له بالعطية، أم من يطلب ذلك بالشره والحرص.

وقال في سحرة اليوم الذي ضرب فيه

الأصل: ملكتي عيني وأنا جالس، فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللد؛ فقال: أدع عليهم، فقلت: أبدلني الله بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً لهم قال رضي الله عنه: يعني بالأود الاعوجاج، وباللد الخصاص، وهذا من أفصح الكلام. الشرح: قوله: "ملكتي عيني" من فصيح الكلام، يريد غلبي النوم، قوله: "فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وسلم"، يريد مربّي كما تسنح الطباء والطير يمر بك، ويعترض لك. وذا ههنا بمعنى "الذي" كقوله تعالى: "ماذا ترى؟" أي ما الذي ترى، يقول: قلت له: ما الذي لقيت من أمتك؛ وما ههنا استفهامية كأبي، ويقال ذلك فيما يستعظم أمره، كقوله سبحانه: "القارعة؛ ما القارعة". و "شراً" ههنا لا يدل على أن فيه شراً، كقوله: "قل أذلك خير أم جنة الخلد" لا يدل على أن في النار خيراً.

مقتل الامام علي عليه السلام

ويجب أن نذكر في هذا الموضع مقتله رضي الله عنه؛ وأصح ما ورد في ذلك ما ذكره أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب "مقاتل الطالبين".

قال أبو الفرج علي بن الحسين - بعد أسانيد ذكرها مختلفة متفرقة، تجتمع على معنى واحد نحن ذاكروه: إن نفراً من الخوارج اجتمعوا بمكة فتذاكروا أمر المسلمين، فعابوهم وعابوا أعمالهم عليهم، وذكروا أهل النهروان، فترحموا عليهم، وقال بعضهم لبعض: لو أنا شربنا أنفسنا لله عز وجل فأتينا أئمة الضلال، وطلبنا غرقهم، وأرحنا منهم العباد والبلاد، وثأرنا بإخواننا الشهداء بالنهروان. فتعاقدوا عند انقضاء الحج، فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم علياً، وقال واحد: أنا أكفيكم معاوية، وقال الثالث: أنا أكفيكم عمرو بن العاص، فتعاقدوا وتواثقوا على الوفاء، وألا ينكل أحد منهم عن صاحبه الذي يتوجه إليه ولا عن قتله، واتعدوا لشهر رمضان، في الليلة التي قتل فيها ابن ملجم علياً. قال أبو الفرج: قال أبو مخنف: قال أبو زهير العبسي: الرجلان الآخران البرك بن عبد الله التميمي؛ وهو صاحب معاوية، وعمرو بن بكر التميمي، وهو صاحب عمرو بن العاص.

قال: فأما صاحب معاوية فإنه قصده، فلما وقعت عينه عليه ضربه، فوقعت ضربته على أليته، واخذ فجاء الطبيب إليه؛ فنظر إلى الضربة فقال: إن السيف مسموم؛ فاختر إما أن أحمي لك حديدة فأجعلها في الضربة فتبرأ، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك. فقال: أما النار فلا أطيّقها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تفر عيني، وحسبي بهما. فسقاه الدواء

فعوفي وعالج جرحه حتى التأم، ولم يولد له بعد ذلك.

وقال له البرك بن عبد الله: إن لك عندي بشارَةً؛ قال: وما هي؛ فأخبره خبر صاحبه، وقال له: إن علياً قتل في هذه الليلة فاحتبسني عندك، فإن قتل فأنت ولي ما تراه في أمري، وإن لم يقتل أعطيتك العهود والمواثيق أن أمضي إليه فأقتله، ثم أعود إليك فأضع يدي في يدك، حتى تحكم في بما ترى. فحبسه عنده، فلما أتى الخبر أن علياً قتل في تلك الليلة خلّى سبيله. هذه رواية إسماعيل بن راشد. وقال غيره من الرواة: بل قتله من وقته.

وأما صاحب عمرو بن العاص، فإنه وافاه في تلك الليلة، وقد وجد علة فأخذ دواء، واستخلف رجلاً يصلي بالناس، يقال له خارجة بن أبي حبيبة، أحد بني عامر بن لؤي، فخرج للصلاة، فشد عمرو بن بكر فضربه بالسيف فأثبته، وأخذ الرجل، فأتي به عمرو بن العاص فقتله، ودخل من غد إلى خارجة وهو يجود بنفسه؛ فقال: أما والله يا أبا عبد الله ما أراد غيرك. قال عمرو: ولكن الله أراد خارجة، وأما ابن ملجم فإنه قتل علياً تلك الليلة.

قال أبو الفرج: وحدثني محمد بن الحسن الأشنانداني وغيره، قال: أخبرني علي بن المنذر الطريقي، قال: حدثنا ابن فضيل، قال: حدثنا فطر، عن أبي الطفيل، قال: جمع علي رضي الله عنه الناس للبيعة، فجاء عبد الرحمن بن ملجم فردّه علي مرتين أو ثلاثاً، ثم مد يده فبايعه، فقال له علي: ما يحبسني أشقاها؛ فو الذي نفسي بيده لتخضبن هذه من هذه، ثم أنشد:

ت فإن الموت لافيكا

أشد حيازيمك للمو

ت إذا حل بواديكا

ولا تجزع من المو

قال أبو الفرج: وقد روي لنا من طرق غير هذه، أن علياً أعطى الناس، فلما بلغ ابن ملجم أعطاه، وقال له:

عذيرك من خليلك من مراد

أريد حياته ويريد قتلي

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد بن عيسى العجلي بإسناد ذكره في الكتاب، إلى أبي زهير العبسي، قال: كان ابن ملجم من مراد وعداده في كندة، فأقبل حتى قدم الكوفة، فلقي بها أصحابه وكنتمهم أمره، وطوى عنهم ما تعاهد هو وأصحابه عليه. بمكة من قتل أمراء المسلمين مخافة أن ينتشر، وزار رجلاً من أصحابه ذات يوم من بني تيم الرباب، فصادف عنده قطام بنت الأخضر، من بني تيم الرباب - وكان علي قتل أخاها وأباها بالنهروان، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها - فلما رآها شغف بها، واشتد إعجابه فخطبها، فقالت له: ما الذي تسمي لي من الصداق؟ فقال: احتكمني ما بدا لك، فقالت: أحتكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيفاً وخادماً، وأن تقتل علي بن أبي طالب. فقال لها: لك جميع ما سألت، وأما قتل علي فأني لي بذلك؛ قالت تلتمس غرته، فإن أنت قتلتني شفيت نفسي؛ وهنأك العيش معي؛ وإن قتلت فما عند الله خير لك من الدنيا، فقال لها: أما والله ما أقدمني هذا المصير، وقد كنت هارباً منه لأمن أهله، إلا ما سألتني من قتل علي.

قالت له: فأنا طالبة لك بعض من يساعدك على هذا ويقويك، ثم بعث إلى وردان بن مجالد، أحد بني تيم الرباب، فخبرته الخبر، وسأله معاونة ابن ملجم، فتحمل لها ذلك، وخرج ابن ملجم، فأتى رجلاً من أشجع، يقال له شبيب بن بجرة، وقال له: يا شبيب؛ هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: تساعدني على قتل علي - وكان شبيبٌ على رأي الخوارج - فقال له: هبلك الهبول؛ لقد جئت شيئاً إداً؛ وكيف تقدر ويحك على ذلك، قال ابن ملجم: نكمن له

في المسجد الأعظم، فإذا حرص لصلاة الفجر فتكنا به، وشفينا أنفسنا منه، وأدركنا ثأرنا. فلم يزل حتى أجابه. فأقبل به حتى دخلا على قطام، وهي معتكفة في المسجد الأعظم، قد ضربت لها قبة، فقالا لها: قد أجمع رأينا على قتل هذا الرجل، قالت لهما: فإذا أردتما ذلك فالقياني في هذا الموضع. فانصرفا من عندها، فلبثا أياماً ثم أتياها، ومعهما وردان بن مجالد، الذي كلفته مساعدة ابن فلجم؛ وذلك في ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين.

قال أبو الفرج: هكذا في رواية ابن مخنف، وفي رواية أبي عبد الرحمن السلمي أنها كانت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان، فقال لها ابن ملجم: هذه الليلة هي التي وعدت فيها صاحبي ووعداني أن يقتل كل واحد منا صاحبه الذي يتوجه إليه.

قلت: إنما تواعدوا بمكة: عبد الرحمن، والبرك، وعمرو؛ على هذه الليلة؛ لأنهم يعتقدون أن قتل ولاية الجور قربة إلى الله، وأحرى القربات ما تقرب به في الأوقات الشريفة المباركة، ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ليلة شريفة، يرجى أن تكون ليلة القدر، عينوها لفعل ما يعتقدونه قربة إلى الله؛ فليعجب المتعجب من العقائد، كيف تسري في القلوب، وتغلب على العقول، حتى يرتكب الناس عظام الأمور، وأهوال الخطوب لأجلها. قال أبو الفرج: فدعت لهم بحريز فعصبت به صدورهم، وتقلدوا سيوفهم، ومضوا فجلسوا مقابل السدة التي كان يخرج منها علي رضي الله عنه إلى الصلاة.

قال أبو الفرج: وقد كان ابن ملجم أتى الأشعث بن قيس في هذه الليلة، فخلا به في بعض نواحي المسجد. ومر بهما حجر بن عدي، فسمع الأشعث وهو يقول لابن ملجم: النجاء النجاء بحاجتك؛ فقد فضحك الصبح، قال له حجر: قتلته يا أعور؛ وخرج مبادراً إلى علي، وقد سبقه ابن ملجم فضربه، فأقبل حجر والناس يقولون: قتل أمير المؤمنين.

قال أبو الفرج: وللأشعث بن قيس في انحرافه عن أمير المؤمنين أخبار يطول شرحها، منها حديث حدثنيه محمد بن الحسين الأشناندي، قال: حدثني إسماعيل بن موسى: قال: حدثنا علي بن مسهر، عن الأجلح، عن موسى بن أبي النعمان قال: جاء الأشعث إلى علي يستأذن عليه، فردده قنب، فأدعى الأشعث أنفه، فخرج علي وهو يقول: مالي ولك يا أشعث؛ أما والله لو بعبد ثقيف تمرست لاقشعرت شعيراتك؛ قيل: يا أمير المؤمنين، ومن عبد ثقيف؛ قال: غلامٌ لهم لا يبقى أهل بيت من العرب إلا أدخلهم ذلاً، قيل: يا أمير المؤمنين، كم يلي - أو كم يمكث؟ قال: عشرين، إن بلغها.

قال أبو الفرج: وحدثني محمد بن الحسين أيضاً بإسناد ذكره، أن الأشعث دخل على علي فكلمه فأغلظ علي له، فعرض له الأشعث أنه سيفتك به، فقال له علي: أبا الموت تخوفي أو تهددي؛ فو الله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي. قال أبو الفرج: قال أبو مخنف: فحدثني أبي، عن عبد الله بن محمد الأزدي، قال: إني لأصلي تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر، كانوا يصلون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره؛ إذ نظرت إلى رجال يصلون قريباً من السدة قياماً وقعوداً، وركوعاً وسجوداً، ما يسأمون؛ إذ خرج عليهم علي بن أبي طالب الفجر، فأقبل ينادي: الصلاة الصلاة فرأيت بريق السيف، وسمعت قائلاً يقول: الحكم لله يا علي لا لك، ثم رأيت بريق سيف آخر، وسمعت صوت علي رضي الله عنه، يقول: لا يفوتكم الرجل.

قال أبو الفرج: فأما بريق السيف الأول، فإنه كان شبيب بن بجرة ضربه فأخطأه، ووقعت ضربته في الطاق، وأما بريق السيف الثاني، فإنه ابن ملجم، ضربه فأثبت الضربة في وسط رأسه، وشد الناس عليهما من كل ناحية، حتى أخذوهما. قال أبو مخنف: فهمدان تذكر أن رجلاً منهم، يكنى أبا أدماء أخذ ابن ملجم. وقال غيرهم: بل أخذه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، طرح عليه قطيفة ثم صرعه، وأخذ السيف من يده وجاء به. قال: وأما شبيب بن بجرة فإنه خرج هارباً، فأخذه رجلٌ فصرعه، وجلس على صدره، وأخذ السيف من يده ليقتله، فرأى الناس يقصدون نحوه، فخشى أن يعجلوا عليه، فوثب عن صدره، وخلاه وطرح السيف عن يده؛ وأما شبيب بن بجرة ففاته، فخرج هارباً حتى دخل منزله، فدخل عليه ابن عم له، فرآه يحل الحرير عن صدره، فقال له: ما هذا؟ لعلك قتلت أمير المؤمنين؛ فأراد أن يقول: لا، فقال: نعم فمضى ابن عمه فاشتمل على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله. قال أبو مخنف: فحدثني أبي، عن عبد الله بن محمد الأزدي، قال: أدخل ابن ملجم على علي رضي الله عنه، ودخلت عليه فيمن دخل، فسمعت علياً يقول: النفس بالنفس، إن أنا مت فاقتلوه كما قتلتني، وإن سلمت رأيت فيه رأيي؛ فقال ابن ملجم: ولقد اشتريته بألف - يعني السيف -، وسميته بألف، فإن خاني فأبعده الله؛ قال: فنادته أم كلثوم: يا عدو الله، قتلت أمير المؤمنين؛ قال إنما قتلت أباك، قالت: يا عدو الله؛ إني لأرخوا ألا يكون عليه بأس، قال: فأراك إنما تبكين علياً إذاً والله لقد ضربته ضربة لو قسمت بين أهل الأرض لأهلكتهم. قال أبو الفرج: وأخرج ابن ملجم من بين يديه، وهو يقول:

أباحسن مأمومةً فتفطرا

نحن ضربنا يا بنة الخير إذ طغى

بضربة سيفس إذ علا وتجبرا

ونحن حللنا ملكه من نظامه

إذا المرء بالموت ارتدى وتأزرا

ونحن كراماً في الصباح أعزة

قال: وانصرف الناس من صلاة الصبح، فأحدقوا بابن ملجم، ينهشون لحمه بأسنانهم كأنهم السباع، ويقولون: يا عدو الله، ماذا صنعت؛ أهلكت أمة محمد، وقتلت خير الناس؛ وإنه لصامت ما ينطق.

قال أبو الفرج: وروى أبو مخنف، عن أبي الطفيل، أن صعصة بن صوحان، استأذن علي رضي الله عنه، وقد أتاه عائداً لما ضربه ابن ملجم - فلم يكن عليه إذن - فقال صعصة للآذن: قل له: يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياص وميتاً، فلقد كان الله في صدرك عظيماً، ولقد كنت بذات الله عليمًا، فأبلغه الآذان مقالته، فقال: قل له: وأنت يرحمك الله، فلقد كنت خفيف المؤونة، كثير المعونة. قال أبو الفرج: ثم جمع له أطباء الكوفة، فلم يكن منهم أحدٌ أعلم بجرحه من أثير بن عمرو بن هانئ السكوني - وكان

متطبياً صاحب كرسي يعالج الجراحات، وكان من الأربعين غلاماً الذين كان خالد بن الوليد أصابهم في عين التمر فسيبهم - فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين دعا برئة شاة حارة، فاستخرج منها عرقاص، وأدخله في الجرح، ثم نفخه، ثم استخرجه، وإذا عليه بياض الدماغ، فقال: يا أمير المؤمنين، اعهد عهدك؛ فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك. فدعا علي رضي الله عنه عند ذلك بدواة وصحيفة، وكتب وصيته: هذا ما أوصى به أمير المؤمنين علي بن أبي

طالب؛ أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون؛ صلوات الله وبركاته عليه؛ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربنا وربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، فإني سمعت رسول الله يقول: "صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، وإن المبيرة حالقة الدين إفساد ذات البين، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوها يهون الله عليكم الحساب. والله الله في الأيتام فلا تغيرن أفواههم بحفوتكم. والله الله في جيرانكم، فإنها وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم الله؛ والله الله في القرآن فلا يسبقنكم بالعمل به غيركم، والله الله في الصلاة، فإنها عماد دينكم، والله الله في صيام شهر رمضان فإنه جنة من النار. والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم، والله الله في زكاة أموالكم، فإنها تطفئ غضب ربكم، والله الله في أهل بيت نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم، والله الله في أصحاب نبيكم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بهم. والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم. والله الله فيما ملكت أيمانكم فإنه كانت آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: "أوصيكم بالضعيفين؛ فيما ملكت أيمانكم"، ثم الصلاة الصلاة لا تخافوا في الله لومة لائم يكفكم من بغى عليكم، ومن أرادكم بسوء. قولوا للناس حسناً، كما أمركم الله به، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولى ذلك غيركم، وتدعون فلا يستجاب لكم. عليكم بالتواضع والتبازل والتبار، وإياكم والتقاطع والتفرق والتدابير، تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب. حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيه، أستودعكم الله خير مستودع، وعليكم سلام الله ورحمته.

قلت: قوله: "والله الله في الأيتام، فلا تغيرن أفواههم بحفوتكم" يحتمل تفسيرين. أحدهما لا تجيعوهم، فإن المجائع يخلف فمه، وتتغير نكهته. والثاني: لا تحوجوهم إلى تكرار الطلب والسؤال، فإن السائل ينضب ريقه وتنشف لهواته، ويتغير ريح فمه. وقوله حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم". يعني به الحيوان الناطق والحيوان الأعجم.

قال أبو الفرج: وحدثني أبو جعفر محمد بن جرير الطبري بإسناد ذكره في الكتاب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: قال لي الحسن بن علي صلى الله عليه وسلم: خرجت وأبي يصلي في المسجد، فقال لي: يا بني إني بت الليلة أوقظ أهلي، لأنها ليلة الجمعة صبيحة يوم بدر لتسع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، فملكتني عينا، فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله؛ ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد فقال لي: ادع عليهم؛ فقلت: اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي من هو شر مني".

قال الحسن رضي الله عنه: وجاء ابن أبي الساج، فأذنه بالصلاة؛ فخرج فخرجت خلفه، فاعتوره الرجال، فأما أحدهما فوقعت ضربته في الطاق، وأما الآخر فأثبتها في رأسه.

قال أبو الفرج: قال: حدثني أحمد بن عيسى، قال: حدثنا الحسين بن نصر، قال: حدثنا زيد بن المعدل، عن يحيى بن

شعيب، عن أبي مخنف، عن فضيل بن خديج، عن الأسود الكندي والأجلح؛ قالوا، توفي علي رضي الله عنه وهو ابن أربع وستين سنة في عام أربعين من الهجرة، ليلة الأحد لإحدى وعشرين ليلة مضت من شهر رمضان، وولي غسله ابنه الحسن وعبد الله بن العباس، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وصلى عليه ابنه الحسن، فكبر خمس تكبيرات، ودفن بالرحبة، مما يلي أبواب كندة عند صلاة الصبح، هذه رواية أبي مخنف. قال أبو الفرج: وحدثني أحمد بن سعيد، قال: حدثنا يحيى بن الحسن العلوي، قال: حدثنا يعقوب بن زيد، عن ابن أبي عمير، عن الحسن بن علي الخلال، عن جده، قال: قلت للحسين بن علي رضي الله عنه: أين دفنتم أمير المؤمنين رضي الله عنه؟ قال: خرجنا به ليلاً من منزله حتى مررنا به على منزل الأشعث بن قيس، ثم خرجنا به إلى الظهر بجنب الغري. قلت: وهذه الرواية هي الحق وعليها العمل؛ وقد قلنا فيما تقدم أن أبناء الناس أعرف بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب، وهذا القبر الذي بالغري، هو الذي كان بنو علي يزورونه قديماً وحديثاً؛ ويقولون: هذا قبر أبينا، لا يشك أحد في ذلك من الشيعة، ولا من غيرهم؛ أعني بني علي من ظهر الحسن والحسين وغيرهما من سلالته، المتقدمين منهم والمتأخرين، ما زاروا ولا وقفوا إلا على هذا القبر بعينه. وقد روى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في تاريخه المعروف بـ "المنتظم" وفاة أبي الغنائم محمد بن علي بن ميمون النرسي المعروف بأبي، لجودة قراءته قال: توفي أبو الغنائم هذا في سنة عشر وخمسمائة، وكان محدثاً من أهل الكوفة ثقة حافظاً، وكان من قوام الليل ومن أهل السنة، وكان يقول: ما بالكوفة من هو على مذهب أهل السنة وأصحاب الحديث غيري؛ وكان يقول: مات بالكوفة ثلاثمائة صحابي ليس قبر أحد منهم معروفاً إلا قبر أمير المؤمنين، وهو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن؛ جاء جعفر بن محمد صلى الله عليه وسلم وأبوه محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه إليه، فزاراه، ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً، وإنما كان به سرح عضاه، حتى جاء محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم، فأظهر القبر.

وسألت بعض من أثق به من عقلاء شيوخ أهل الكوفة عما ذكره الخطيب أبو بكر في تاريخه، أن قوماً يقولون: إن هذا القبر تزوره الشيعة إلى جانب الغري هو قبر المغيرة بن شعبة، فقال: غلطوا في ذلك، قبر المغيرة وقبر زياد بالثوية من أرض الكوفة، ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا وأجدادنا. وأنشدني قول الشاعر يرثي زياداً، وقد ذكره أبو تمام في الحماسة:

عند الثوية يسفي فوقه المور

فالحلم والجود فيه اليوم مقبور

وإن من غرت الدنيا لمغرور

وكان عندك للمنكور تنكير

فاليوم قبرك أضحى وهو مهجور

كأنما نفخت فيه الأعاصير

صلى الإله على قبرٍ وطهره

زفت إليه قریشٌ نعش سيدها

أبا المغيرة والدنيا مفاجئة

قد كان عندك للمعروف معرفة

وكننت تغشى وتعطي المال من سعة

والناس بعدك قد هفت حلومهم

وسألت قطب الدين نقيب الطالبين أبا عبد الله الحسين بن الأقساسي رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال: صدق من أخبرك؛

نحن وأهلها كافة نعرف مقابر ثقيف إلى الثوية، وهي إلى اليوم معروفة، وقبر المغيرة فيها، إلا أنها لا تعرف، وقد ابتلعها السبخ وزبد الأرض وفورائها، فطمست واختلط بعضها ببعض. ثم قال: إن شئت أن تتحقق أن قبر المغيرة في مقابر ثقيف فانظر إلى كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين، والمج ما قاله في ترجمة المغيرة، وأنه مدفون في مقابر ثقيف، ويكفيك قول أبي الفرج، فإنه الناقد البصير، والطبيب الخبير؛ فتصفحت ترجمة المغيرة في الكتاب المذكور، فوجدت الأمر كما قاله النقيب. قال أبو الفرج: كان مصقلة بن هبيرة الشيباني قد لاحى المغيرة في شيء كان بينهما منازعة، فضرع له المغيرة وتواضع في كلامه، حتى طمع فيه مصقلة، فاستعلى عليه وشتمه، وقال: إني لأعرف شبهي في عروة ابنك، فأشهد المغيرة على قوله هذا شهوداً، ثم قدمه إلى شريح القاضي، فأقام عليه البينة، فضربه شريح الحد وآلى مصقلة ألا يقيم ببلدة فيها المغيرة، فلم يدخل الكوفة، حتى مات المغيرة، فدخلها، فتلقاته قومه فسلموا عليه، فما فرغ من السلام حتى سألهم عن مقابر ثقيف، فأرشدوه إليها، فجعل قوم من مواليه يلتقطون الحجارة، فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا: نظن أنك تريد أن ترجم قبر المغيرة، فقال: ألقوا ما في أيديكم فانطلق حتى وقف على قبره، ثم قال: والله لقد كنت - ما علمت - نافعاً لصديقك، ضاراً لعدوك، وما مثلك إلا كما قال مهلهل في كليب أخيه:

وخصيماً ألد ذا معلاق

فع منه السليم نفثه راق

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً

حية في الوجار أربد لا يف

قال أبو الفرج: فأما ابن ملجم، فإن الحسن بن علي بعد دفنه أمير المؤمنين دعا به وأمر بضرب عنقه، فقال له: إن رأيت أن تأخذ علي العهود أن أرجع إليك حتى أضع يدي في يدك، بعد أن أمضي إلى الشام، فأنظر ما صنع صاحبي بمعاوية، فإن كان قتله وإلا قتلته ثم عدت إليك حتى تحكم في حكمك. فقال: هيهات، والله لا تشرب الماء البارد حتى تلحق روحك بالنار، ثم ضرب عنقه، واستوهبت أم الهيثم بنت الأسود النخعية جثته منه، فوهبها لها، فأحرقتها بالنار. وقال ابن أبي مياس الفزاري، وهو من الخوارج:

كمهر قطام من غني ومعدم

وضرب علي بالحسام المصمم

ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

فلم أر مهراً ساقه ذوسماحة

ثلاث آلاف وعبدٌ وقينةٌ

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب:

مصيبتها جلت على كل مسلم

ويخضبها أشقى البرية بالدم

لشؤم قطام عند ذاك ابن ملجم

تبوأ منها مقعداً في جهنم

وإن طرقت إحدى الليالي بمعظم

وهز علي بالعراقيين لحية

وقال سيأتينا من الله نازل

فعاجله بالسيف شلت يمينه

فياضربة من خاسر ضل سعيه

فهاز أمير المؤمنين بحظه

ألا إنما الدنيا بلاءٌ وفتنة

حلاوتها شبيبت بصاب وعلقم

قال أبو الفرج: وأنشدني عمي الحسن بن محمد، قال: أنشدني محمد بن سعد، لبعض بني عبد المطلب، يرثي علياً، ولم يذكر اسمه:

صلى الإله عليك يا قبر

يا قبر سيدنا المجن سماحةً

ألا يحل بأرضه القطر

ما ضر قبراً أنت ساكنه

وليورقن بجنبك الصخر

فليندبن سماح كفك بالثرى

إلا قتلت، لفاتني الوتر

والله لو بك لم أجد أحداً

ومن كلام له في ذم أهل العراق

الأصل: أما بعد يا أهل العراق، فإنما أنتم كالمرأة الحامل، حملت فلما أتمت أملت ومات قيمها، وطال تأيمها، وورثها أبعدها. أما والله ما أتيتكم اختياراً؛ ولكن جئت إليكم سوقاً، ولقد بلغني أنكم تقولون: عليّ يكذب، قاتلكم الله تعالى؛ فعلى من أكذب؛ أعلى الله فأنا أول من آمن به؛ أم على نبيه؛ فأنا أول من صدق به؛ كلا والله؛ لكنها لهجة غبت عنها، ولم تكونوا من أهلها، ويل امه كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء، ولتعلمن نبأه بعد حين.

الشرح: أملت الحامل: ألفت ولدها سقاطاً وقيمها: بعلمها. وتأيمها: خلوها عن الأزواج؛ يقول: لما شارفتم استئصال أهل الشام، وظهرت أمارات الظفر لكم، ودلائل الفتح، نكصتم وجنحتم إلى السلم والإجابة إلى التحكيم عند رفع المصاحف، فكنتم كالمرأة الحامل لما أتمت أشهر حملها ألفت ولدها إلقاء غير طبعي؛ نحو أن تلقيه لسقطة أو ضربة أو عارض يقتضي أن تلقيه هالكا. ثم لم يكتف لهم بذلك، حتى قال: "ومات بعلمها، وطال تأيمها، وورثها أبعدها"، أي لم يكن لها ولد وهو أقرب المخلفين إلى الميت، ولم يكن لها بعل فورثها الأبعد عنها، كالسافلين من بني عم، وكالمولاة تموت من غير ولد ولا من يجري مجراه، فيرثها مولاه ولا نسب بينها وبينه. ثم أقسم أنه لم يأثم اختياراً، ولكن المقادير ساقته إليهم سوقاً، يعني اضطراراً. وصدق رضي الله عنه، لأنه لولا يوم الجمل لم يحتج إلى الخروج من المدينة إلى العراق، وإنما استنجد بأهل الكوفة على أهل البصرة، اضطراراً إليهم، لأنه لم يكن جيشه الحجازي وافياً بأهل البصرة الذين أصفقوا على حربه ونكث بيعته، ولم يكن خروجه عن المدينة - وهي دار الهجرة - ومفارقته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر فاطمة عن إثارة ومحنة؛ ولكن الأحوال تحكم وتسوق الناس إلى ما لا يختارونه ابتداء. وقد روي هذا الكلام على وجه آخر: "ما أتيتكم اختياراً، ولا جئت إليكم شوقاً" بالشين المعجمة. ثم قال: "بلغني أنكم تقولون: يكذب"؛ وكان كثيراً ما يخبر عن الملاحم والكائنات ويومئ إلى أمور أخبره بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول المنافقون من أصحابه: يكذب كما كان المنافقون الأولون في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون عنه: يكذب. وروى صاحب كتاب "الغارات" عن الأعمش، عن رجاله، قال: خطب علي رضي الله عنه، فقال: والله لو أمرتكم فجمعتم من

خياركم مائة، ثم لو شئت لحدثتكم من غدوة إلى أن تغيب الشمس؛ لا أخبرتكم إلا حقاً؛ ثم لتخرجن فلتزعمن أي أكذب الناس وأفجرهم. وقد روى صاحب هذا الكتاب وغيره من الرواة أنه قال: إن أمرنا صعب مستصعب، لا يحمله إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان. وهذا الكلام منه كلام عارف عالم بأن في الناس من لا يصدق فيما يقول؛ وهذا أمر مركوز في الجبلية البشرية، وهو استبعاد الأمور الغريبة، وتكذيب الإخبار بها. وإذا تأملت أحواله في خلافته كلها وجدتها هي مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته؛ كأنها نسخة منتسخة منها، في حربه وسلمه، وسيرته وأخلاقه، وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره؛ وإذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً، فاقرأ سورة "براءة" ففيها الجمل الغفير من المعنى الذي أشرنا إليه.

مطاعن النظام على الإمام علي والرد عليه

واعلم أن النظام لما تكلم في كتاب "النكت"، وانتصر لكون الإجماع ليس بحجة، اضطر إلى ذكر عيوب الصحابة، فذكر لكل منهم عيباً، ووجه إلى كل واحد منهم طعناً، وقال في علي: إنه لما حارب الخوارج يوم النهروان، كان يرفع رأسه إلى السماء تارة ينظر إليها، ثم يطرق إلى الأرض فينظر إليها تارة أخرى، يوهم أصحابه أنه يوحى إليه، ثم يقول: "ما كذبت ولا كذبت"، فلما فرغ من قتالهم وأدبل عليهم، ووضعت الحروب أوزارها، قال الحسن ابنه: يا أمير المؤمنين، أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم إليك في أمر هؤلاء بشيء؛ فقال: لا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني بكل حق، ومن الحق أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين.

قال النظام: وقوله: "ما كذبت ولا كذبت"، ورفع رأسه أحياناً إلى السماء وإطرقه إلى الأرض إيهام؛ إما لتزول الوحي عليه، أو لأنه قد أوصي من قبل في شأن الخوارج بأمر. ثم هو يقول: ما أوصي فيهم على خصوصيتهم بأمر؛ وإنما أوصي بكل الحق، وقتالهم من الحق، وهذا عجيب طريف. فنقول: إن النظام أخطأ عندنا في تعريضه بهذا الرجل خطأ قبيحاً، وقال قولاً منكراً؛ نستغفر الله له من عقابه، ونسأله عفو عنه؛ وليست الرواية التي رواها عن الحسن وسؤاله لأبيه وجوابه له، بصحيحة ولا معروفة، والمشهور المعروف المنقول نقلاً يكاد يبلغ درجة المتواتر من الأخبار، ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في معنى الخوارج بأعيانهم وذكرهم بصفاتهم، وقوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: "إنك مقاتلهم وقتلهم، وإن المخدج ذا الشدية منهم؛ وإنك ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين؛ فجعلهم أصنافاً ثلاثة حسب ما وقعت الحال عليه. وهذا من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وإخباره عن الغيوب المفصلة. فما أعلم من أي كتاب نقل النظام هذه الرواية، ولا عن أي محدث رواها، ولقد كان رحمه الله لعالي بعيداً عن معرفة الأخبار والسير منصباً فكره، مجهداً نفسه في الأمور النظرية الدقيقة. كمسألة الجزء، ومداخلة الأجسام وغيرهما، ولم يكن الحديث والسير من فنونه ولا من علومه؛ ولا ريب أنه سمعها ممن لا يوثق بقوله، فنقلها كما سمعها. فأما كونه رضي الله عنه كان ينظر تارة إلى السماء، وتارة إلى الأرض. وقوله: "ما كذبت ولا كذبت"، فصحيح وموثوق بنقله، لاستقامته وشهرته وكثرة روايته؛ والوجه في ذلك أنه استبطاً وجود المخدج حيث طلبه في جملة القتلى. فلما طال الزمان، وأشفق من دخول

شبهة على أصحابه لما كان قدمه إليهم من الأخبار قلق واهتم. وجعل يكرر قوله: "ما كذبت ولا كذبت" أي ما كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا كذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرني به. فأما رفعه رأسه إلى السماء تارة، وإطراقه إلى الأرض أخرى؛ فإنه حيث كان يرفع رأسه، كان يدعو ويتضرع إلى الله في تعجيل الظفر بالمخدج؛ وحيث يطرق كان يغلبه الهم والفكر فيطرق. ثم حين يقول: "ما كذبت ولا كذبت"، كيف ينتظر نزول الوحي، فإن من نزل عليه الوحي لا يحتاج أن يسند الخبر إلى غيره، ويقول: ما كذبت فيما أخبرتكم به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومما طعن له النظام عليه أنه رضي الله عنه قال: إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما حدثتكم، فوالله لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا سمعتموني أحدثتكم فيما بيني وبينكم؛ فإنما الحرب خدعة. قال النظام: هذا يجري مجرى التدليس في الحديث، ولو لم يحدثهم عن رسول الله بالمعارض؛ وعلى طريق الإيهام لما اعتذر من ذلك. فنقول في الجواب: إن النظام قد وهم وانعكس عليه مقصد أمير المؤمنين؛ وذلك أنه رضي الله عنه لشدة ورعه أراد أن يفصل للسامعين بين ما يخبر به عن نفسه، وبين ما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأن الضرورة ربما تدعوه إلى استعماله المعارض، لا سيما في الحرب المبنية على الخديعة والرأي؛ فقال لهم: كلما أقول لكم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعلموا أنه سليم من المعارض، خال من الرمز والكناية، لأي لا أستجير ولا أستحل أن اعمي أو ألغز في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما حدثتكم به عن نفسي، فرمما أستعمل فيه المعارض؛ لأن الحرب خدعة.

وهذا كلام رجل قد استعمل التقوى والورع في جميع أموره، وبلغ من تعظيم أمر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وإجلال قدره واحترام حديثه ألا يرويه إلا بألفاظه لا بمعانيه، ولا بأمر يقتضي فيه إلباساً وتعميةً، ولو كان مضطراً إلى ذلك؛ ترجيحاً للجانب الذي على جانب مصلحته في خاص نفسه. فأما إذا هو قال كلاماً يتبدى به من نفسه، فإنه قد يستعمل فيه المعارض إذا اقتضت الحكمة والتدبير ذلك؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم باتفاق الرواة كافة إذا أراد أن يغزو وجهاً وري عنه بغيره، ولما خرج رضي الله عنه من المدينة لفتح مكة، قال لأصحابه كلاماً يقتضي أنه يقصد بني بكر بن عبد مناة من كنانة، فلم يعلموا حقيقة حاله حتى شارف مكة. وقال حين هاجر وصحبه أبو بكر الصديق لأعرابي لقيهما: من أين أنت؟ ومن أنت؟ فلما انتسب لهما، قال له الأعرابي: أما أنا فقد أطلعكما طلع أمري؛ فممن أنت؟ فقال: من ماء، لم يزد على ذلك؛ فجعل الأعرابي يفكر، ويقول: من أي ماء؟ من ماء بني فلان، من ماء بني فلان؛ فتركه ولم يفسر له؛ وإنما أراد رضي الله عنه أنه مخلوق من نطفة. فأما قول النظام: "لو لم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعارض لما اعتذر من ذلك"؛ فليس في كلامه اعتذار؛ ولكنه نفى أن يدخل المعارض في روايته؛ وأجازها فيما يتبدى عن نفسه؛ وليس يتضمن هذا اعتذاراً. وقوله: "لأن آخر من السماء" يدل على أنه ما فعل ذلك ولا يفعله. ثم قال: "على من أكذب"؛ يقول: كيف أكذب على الله وأنا أول المؤمنين به؛ وكيف أكذب على رسول الله وأنا أول المصدقين به؛ أخرجه مخرج الاستبعاد لدعواهم وزعمهم.

فإن قلت: كيف يمكن أن يكون المكلف الذي هو من أتباع الرسول كاذباً على الله إلا بواسطة إخباره عن الرسول؛ لأنه

لا وصلة ولا واسطة بينه وبين الله تعالى إلا الرسول؛ وإذا لم يمكن كذبه على الله إلا بكذبه على الرسول لم يبق لتقسيم الكذب وقوله: "أفأنا أكذب على الله أو على رسوله"؟ معنى.

قلت: يمكن أن يكذب الكاذب على الله دون أن يكون كاذباً على الرسول؛ وإن كان من أتباع الرسول؛ نحو أن يقول: كنت مع الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة في مقبرة فأحيا الله تعالى فلاناً الميت؛ فقام وقال كذا. أو يقول: كنت معه يوم كذا؛ فسمعت منادياً يناديه من السماء: افعل كذا، أو نحو ذلك من الإخبار بأمور لا تستند إلى حديث الرسول. ثم قال رضي الله عنه: "كلا والله"، أي لا والله. وقيل: إن "كلا" بمعنى "حقاً" وإنه إثبات، قال: "ولكنها لهجة غبتم عنها"، اللهجة، بفتح الجيم؛ وهي آلة النطق يقال له: هو فصيح اللهجة، وصادق اللهجة، ويمكن أن يعني بها لهجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: "شهدت وغبتم". ويمكن أن يعني بها لهجته هو، فيقول: إنها لهجة غبتم عن منافعها، وأعدمتم أنفسكم ثمن مناصحتها.

ثم قال: "ويلمه" الضمير راجع إلى ما دل عليه معنى الكلام من العلم؛ لأنه لما ذكر اللهجة وشهوده إياها وغيوبتهم عنها دل ذلك على علم له خصه به الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال: "ويلمه"، وهذه كلمة تقال للتعجب والاستعظام؛ يقال: "ويلمه فارساً" وتكتب موصولة كما هي بهذه الصورة، وأصله "ويل أمه" مرادهم التعظيم والمدح، وإن كان اللفظ موضوعاً لضعف ذلك، كقوله عليه الصلاة والسلام: "فاظفر بذات الدين تربت يداك"، وكقولهم للرجل يصفونه ويقرظونه: "لا أبا له". وقال الحسن البصري؛ وهو يذكر علياً رضي الله عنه، ويصف كونه على الحق في جميع أموره؛ حتى قال: "فلما شارف الظفر وافق على التحكيم، وما لك في التحكيم والحق في يدك، لا أبا لك". قال أبو العباس المبرد: هي كلمة فيها جفاء وخشونة؛ كانت الأعراب تستعملها فيمن يستعظمون أمره، قال: ولما انشد سليمان بن عبد الملك قول بعض الأعراب:

قد كنت تسقيننا فما بدا لك

رب العباد مالنا ومالكنا

أنزل علينا الغيث لا أبا لك

قال: أشهد أن لا أب له ولا صاحبة ولا ولد، فأخرجها أحسن مخرج. ثم قال رضي الله عنه: "كياًلاً بغير ثمن لو كان له وعاء"، انتصب "كياًلاً" لأنه مصدر في موضع الحال، ويمكن أن ينتصب على التمييز، كقولهم: لله دره فارساً يقول: أنا أكيل لكم العلم والحكمة كياًلاً ولا أطلب لذلك ثمناً لو وجدت وعاء أي حاملاً للعلم؛ وهذا مثل قوله رضي الله عنه: ها إن بين جنبي علماً جمّاً لو أجد له حملاً.

ثم ختم الفصل بقوله تعالى: "ولتعلمن نبأه بعد حين"؛ وهو أحسن ما ختم هذا الكلام به.

خطبة بعد انقضاء أمر النهروان

وروى المدائني في كتاب "صفين"، قال: خطب علي رضي الله عنه بعد انقضاء أمر النهروان، فذكر طرفاً من الملاحم، قال: إذا كثرت فيكم الأخلاط، واستولت الأنباط؛ دنا خراب العراق، ذاك إذا بنيت مدينة ذات أثلٍ وأثمار. فإذا غلت فيها الأسعار، وشيد فيها البنيان، وحكم فيها الفساق، واشتد البلاء، وتفاخر الغوغاء؛ دنا خسوف البيداء، وطاب الهرب والجلاء. وستكون قبل الجلاء أمورٌ يشيب منها الصغير، ويعطب الكبير، ويخرس الفصيح وييهت اللبيب؛ يعاجلون بالسيف صلتاً، وقد كانوا قبل ذلك في غضارة من عيشهم يمرحون. فيا لها مصيبة حينئذ من البلاء العقيم، والبكاء الطويل، والويل والعويل، وشدة الصريخ؛ في ذلك أمر الله - وهو كائن، وقتاً - يريج. فيا بن حرة الإماء، متى تنتظر أبشر بنصر قريب من رب رحيم. ألا فويلٌ للمتكبرين؛ عند حصاد الحاصدين، وقتل الفاسقين. عصاة ذي العرش العظيم؛ فبأي وأمي من عدة قليلة؛ أسماؤهم في الأرض مجهولة. قد دنا حينئذ ظهورهم، ولو شئت لأخبرتكم بما يأتي ويكون من حوادث دهركم ونوائب زمانكم، وبلايا أيامكم، وغمرات ساعاتكم، ولكنه أفضيه إلى من أفضيه إليه، مخافة عليكم، ونظراً لكم؛ علماً مني بما هو كائن وما يكون من البلاء الشامل؛ ذلك عند تمرد الأشرار، وطاعة أولي الخسار ذاك أو ان الحتف والدمار، ذاك إدبار أمركم، وانقطاع أصلكم وتشتت إفتكم؛ وإنما يكون ذلك عند ظهور العصيان، وانتشار الفسوق؛ حيث يكون الضرب بالسيف أهون على المؤمنين من اكتساب درهم حلال؛ حين لا تنال المعيشة إلا بمعصية الله في سوائه، حين تسكرون من غير شراب، وتحلفون من غير اضطرار، وتظلمون من غير منفعة، وتكذبون من غير إحراج. تتفكهون بالفسوق، وتبادرون بالمعصية. قولكم البهتان، وحديثكم الزور، وأعمالكم الغرور؛ فعند ذلك لا تأمنون البيات، فيا له من بيات ما أشد ظلمته؛ ومن صائح ما أفزع صوته؛ ذلك بيات لا ينمي صاحبه؛ فعند ذلك تقتلون، وبأنواع البلاء تضربون، وبالسيف تحصدون، وإلى النار تصيرون، ويعضكم البلاء كما يعض الغارب القتب. يا عجباً كل العجب، بين جمادى ورجب؛ من جمع أشتات، وحصد نبات، ومن أصوات بعدها أصوات. ثم قال: سبق القضاء سبق القضاء.

قال رجل من أهل البصرة لرجل من أهل الكوفة إلى جانبه: أشهد أنه كاذب على الله ورسوله؛ قال الكوفي: وما يدريك؟ قال: فوالله ما نزل علي من المنبر حتى فلج الرجل، فحمل إلى منزله في شق محمل، فمات من ليلته.

بعض مما قاله عليه السلام

وروى المدائني أيضاً، قال: خطب علي رضي الله عنه، فقال: لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقاتهم، وما من آية في كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى أنزلت، وفيمن أنزلت.

فقال رجل من القعود تحت منبره: يا لله وللدعوى الكاذبة؛ وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله رب العالمين؛ قال المدائني: فانظر إلى هذا التناقض والتباين فيه؛ وروى المدائني أيضاً، قال: خطب علي رضي الله عنه، فذكر الملاحم، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، أما والله لتشغرن الفتنة الصماء برجلها، وتطأ في خطامها.

يا لها من فتنة شبت نارها بالخطب الجزل، مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها، داعية ويلها، بدجلة أو حولها. ذاك إذا

استدار الفلك، وقتلتم: مات أو هلك، بأي واد سلك؛ فقال قوم تحت منبره: لله أبوه؛ ما أفصحه كاذباً.

وروى صاحب كتاب "الغارات" عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، قال: سمعت علياً يقول على المنبر: ما أحد جرت عليه الموالي إلا وقد أنزل الله فيه قرآناً؛ فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، فما أنزل الله تعالى فيك؛ قال: يريد تكذيبه. فقام الناس إليه يلکرونه في صدره وجنبه، فقال: دعوه، أقرأت سورة هود؟ قال نعم، قال: أقرأت قوله سبحانه: "أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه" قال: نعم، قال: صاحب البينة محمد، والتالي الشاهد أنا.

خطبة له علم فيها الناس الصلاة على النبي

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

الأصل: اللهم داحي المدحوات، وداعم المسموكات، وجابل القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها؛ اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، على محمد عبدك ورسولك. الخاتم لما سبق، والفتاح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق، والدافع جيشات الأباطيل، والدامغ صولات الأضاليل. كما حمل فاضطلع، قائماً بأمرك، مستوفزاً في مرضاتك، غير ناكل عن قدم، ولا واه في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك. ماضياً على نفاذ أمرك؛ حتى أورى قيس القابس، وأضاء الطريق للخابط، وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام. وأقام بموضحات الأعلام ونيرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك بالحق، ورسولك إلى الخلق.

اللهم أفسح له مفسحاً في ظلك؛ واجزه مضاعفات الخير من فضلك. اللهم وأعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك منزلته، وأتم له نوره، واجزه من أبتغائك له مقبول الشهادة؛ مرضي المقالة، ذا منطقي عدل، وخطبة فصل. اللهم اجمع بيننا وبينه في برد العيش وقرار النعمة، ومنى الشهوات، وأهواء اللذات، ورخاء الدعة، ومنتهى الطمأنينة، وتحف الكرامة. الشرح: دحوت الرغبة دحواً: بسطته؛ والمدحوات هنا: الأرضون.

فإن قلت: قد ثبت أن الأرض كرية؛ فكيف تكون بسيطة، والبسيط هو المسطح، والكري لا يكون مسطحاً؛ قلت: الأرض بجملتها شكل كرة؛ وذلك لا يمنع أن تكون كل قطعة منها مبسطة تصلح لأن تكون مستقراً ومجالاً للبشر وغيرهم من الحيوان؛ فإن المراد بانبساطها ههنا ليس هو السطح الحقيقي الذي لا يوجد في الكرة، بل كون كل قطعة منها صالحة لأن يتصرف عليها الحيوان لا يعني به غير ذلك. وداحي المدحوات، ينتصب لأنه منادى مضاف، تقديره: يا باسط الأرضين المبسوطات. قوله: "وداعم المسموكات"، أي حافظ السموات المرفوعات؛ دعمت الشيء إذا حفظته من الهوي بدعامة، والمسموك: المرفوع، قال:

بيناً دعائمه أعز وأطول

إن الذي سمك السماء بنى لنا

ويجوز أن يكون عني بكونها مسموكة كونها ثخينة. وسمك الجسم هو البعد الذي يعبر عنه المتكلمون بالعمق وهو قسيم الطول والعرض، ولا شيء أعظم ثخناً من الأفلاك.

فإن قلت: كيف قال: إنه تعالى دعم السموات وهي بغير عمد؟ قلت: إذا كان حافظاً لها من الهوي بقدرته وقوته فقد صدق عليه كونه داعماً لها؛ لأن قوته الحافظة تجري مجرى الدعامة. قوله: "وجابل القلوب" أي خالقها، والجبل الخلق، وجبل الإنسان: خلقته، وفطرتها: بكسر الفاء وفتح الطاء: جمع فطرة، ويجوز كسر الطاء، كما قالوا في سدره: سدرات وسدرات، والفطرة: الحالة التي يفطر الله عليها الإنسان، أي يخلقها عليها خالياً من الآراء والديانات والعقائد والأهوية؛ وهي ما يقتضيه محض العقل؛ وإنما يختار الإنسان بسوء نظره ما يفضي به إلى الشقوة؛ وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة، فأما أبواه يهودانه أو ينصرانه".

قوله: "شقيها وسعيدها" بدل من القلوب، وتقدير الكلام: وجابل الشقي من القلوب والسعيد على ما فطرت عليه. والنوامي: الزوائد. والخاتم لما سبق؛ أي لما سبق من الملل. والفتاح لما انغلق من أمر الجاهلية. والمعلن الحق بالحق، أي المظهر للحق الذي هو خلاف الباطل بالحق، أي بالحرب والخصومة؛ يقال: حاق فلان فلاناً فحقه، أي خاصمه فخصمه. ويقال: ما فيه حق أي خصومة.

قوله: "والدافع جيشات الأباطيل"، جمع جيشة، من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها. والأباطيل: جمع باطل على غير قياس؛ والمراد أنه قامع ما نجم من الباطل. والدامغ: المهلك، من دمغه أي شجحه حتى بلغ الدماغ؛ ومع ذلك يكون المهلاك. والصولات: جمع صولة وهي السطوة. والأضاليل: جمع ضلال على غير قياس. قوله: "كما حمل"، أي لأجل أنه يحمل، والعرب تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل، قال الشاعر:

كما أوسعتنا بغياً وعدوا

فقلت له أبا الملحاء خذها

أي هذه الضربة لبغيك علينا، وتعديك، وقوله: "كما حمل" يعني حمل أعباء الرسالة. فاضطلع، أي نهض بها قوياً؛ فرس ضليع أي قوي؛ وهي الضلالة، أي القوة. مستوفزاً، أي غير بطيء، بل يحث نفسه ويجهدا في رضا الله سبحانه، والوفز: العجلة، والمستوفز: المستعجل. غير ناكلٍ عن قدم، أي غير جبان ولا متأخر عن إقدام، والمقدام: المتقدم؛ يقال مضى قدماً أي تقدم وسار ولم يعرج.

قوله: "ولا واه في عزم"؛ وهى، أي ضعف، والواهي: الضعيف. واعياً لوحيك، أي فاهماً، وعيت الحديث، أي فهمته وعقلته. ماضياً على نفاذ أمرك، في الكلام حذف تقديره: ماضياً مصراً على نفاذ أمرك، كقوله تعالى: "في تسع آيات إلى فرعون"، ولم يقل: "مرسلاً" لأن الكلام يدل بعبه على بعض.

وقوله: "حتى أورى قبس القابس"؛ يقال: ورى الزند، يري؛ أي خرج ناره، وأوريته أنا. والقبس: شعلة من النار؛ والمراد بالقبس ههنا نور الحق، والقابس: الذي يطلب النار، يقال: قبست منه ناراً، وأقبسني ناراً؛ أي أعطانيها. وقال الراوندي: أقبست الرجل علماً، وقبسته ناراً؛ أعطيته؛ فإن كنت طلبتها له قلت: أقبسته ناراً. وقال الكسائي: أقبسته ناراً وعلماً سواء؛ قال: ويجوز "قبسته" بغير همزة فيهما.

قوله: "وأضاء الطريق للخابط"، أي جعل الطريق للخابط مضيئة، والخابط: الذي يسير ليلاً على غير جادة واضحة. وهذه

الألفاظ كلها استعارات ومجازات.

وخوضات الفتن: جمع خوضة؛ وهي المرة الواحدة، من خضت الماء والوحل، أخوضهما، وتقدير الكلام: وهديت به القلوب إلى الأعلام الموضحة بعد أن خاضت في الفتن أطواراً. والأعلام جمع علم، وهو ما يستدل به على الطريق، كالمنارة ونحوها. والموضحة: التي توضح للناس الأمور وتكشفها. والنيرات: ذوات النور. قوله: "فهو أمينك المأمون" أي أمينك على وحيك، والمأمون من ألقاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال كعب بن زهير:

وأنهلك المأمون منها وعلكا

سقاك أبو بكر بكأس روية

وخازن علمك، المخزون بالجر صفة "علمك" والعلم الإلهي المخزون: هو ما أطلع الله تعالى عليه رسوله من الأمور الخفية التي لا تتعلق بالأحكام الشرعية كالملاحم وأحكام الآخرة وغير ذلك، لأن الأمور الشرعية لا يجوز أن تكون مخزونة عن المكلفين .

وقوله: "وشهيدك يوم الدين"، أي شاهدك، قال سبحانه: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً" والبعيث: المبعوث "فعل" بمعنى "مفعول" كقتيل وجريح وصريع. ومفسحاً مصدر، أي وسع له مفسحاً. وقوله: "في ظلك" يمكن أن يكون مجازاً، كقولهم: فلان يشملني بظله، أي بإحسانه وبره، ويمكن أن يكون حقيقة، ويعني به الظل الممدود الذي ذكره الله تعالى، فقال: "وظل ممدود؛ وماء مسكوب". وقوله: "وأعل على بناء البانين بناء"، أي اجعل منزلته في دار الثواب أعلى المنازل. وأتم له نوره، من قوله تعالى: "ربنا أتم لنا نورنا". وقد روي أنه تطفأ سائر الأنوار إلا نور محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يعطى المخلصون من أصحابه أنواراً يسيرة يصرون بها مواطئ الأقدام، فيدعون إلى الله تعالى بزيادة تلك الأنوار وإتمامها. ثم إن الله تعالى يتم نور محمد صلى الله عليه وسلم، فيستطيل حتى يملأ الآفاق، فذلك هو إتمام نوره صلى الله عليه وسلم .

قوله: "من ابتعائك له"، أي في الآخرة. مقبول الشهادة، أي مصداقاً فيما يشهد به على أمته وعلى غيرها من الأمم. وقوله: "ذا منطق عدل"، أي عادل، وهو مصدر أقيم مقام اسم الفاعل؛ كقولك: رجل فطر وصوم، أي مفطر وصائم.

وقوله: "وخطبة فصل" أي يخطب خطبة فاصلة يوم القيامة، كقوله تعالى: "إنه لقول فصل"، وما هو بالهزل"، أي فاصل يفصل بين الحق والباطل؛ وهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى في الكتاب، فقال: "عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً"، وهو الذي يشار إليه في الدعوات في قولهم: "اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، وأبعثه المقام المحمود". قوله: "في برد العيش"؛ تقول العرب: عيش بارد ومعيشة باردة، أي لا حرب فيها ولا نزاع، لأن البرد والسكون متلازمان كتلازم الحر والحركة.

وقرار النعمة، أي مستقرها، يقال: هذا قرار السيل، أي مستقره. ومن أمثالهم: "لكل سائلة قرار". ومنى الشهوات: ما تتعلق به الشهوات من الأماني. وأهواء اللذات: ما تهواه النفوس وتستلذه. والرخاء: المصدر من قولك: رجل رخي البال

فهو بين الرخاء، أي واسع الحال. والدعة: السكون والطمأنينة، وأصلها الواو. ومنتهى الطمأنينة، غايتها التي ليس بعدها غاية، والتحف: جمع تحفة؛ وهي ما يكرم به الإنسان من البر واللفظ، ويجوز فتح الحاء.

معنى الصلاة على الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم

فإن قلت: ما معنى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، التي قال الله تعالى فيها: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً".

قلت: الصلاة من الله تعالى هي الإكرام والتبجيل ورفع المزية، والصلاة منا على النبي صلى الله عليه وسلم هي الدعاء له بذلك، فقوله سبحانه: "هو الذي يصلي عليكم" أي هو الذي يرفع منازلكم في الآخرة، وقوله: "وملائكته" أي يدعون لكم بذلك.

وقيل: جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأهم فاعلون التعظيم للمؤمن ورفع المزية، ونظيره قوله: "حياءك الله" أي أحياك الله وأبقاك، وحييتك أي دعوت لك بأن يحييك، لأنك لاعتمادك على إجابة دعوتك ووثوقك بذلك، كأنك تحييه وتبقيه على الحقيقة، وهكذا القول في قوله سبحانه: "إن الله وملائكته يصلون على النبي". وقد اختلف في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: هل هي واجبة أم لا؟ فمن الناس من لم يقل بوجوبها، وجعل الأمر في هذه الآية للنسب ومنهم من قال: إنها واجبة. واختلفوا في حال وجوبها؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره، وفي الحديث: "من ذكرت عنده فلم يصل علي دخل النار وأبعده الله"؛ ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة واحدة، وإن تكرر ذكره. ومنهم من أوجبها في العمر مرة واحدة، وكذلك قال في إظهار الشهادتين.

واختلف أيضاً في وجوبها في الصلاة المفروضة، فأبو حنيفة وأصحابه لا يوجبونها فيها. وروي عن إبراهيم النخعي أنهم كانوا يكتفون - يعني الصحابة - عنها بالتشهد، وهو: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته"، وأوجبها الشافعي وأصحابه. واختلف أصحابه في وجوب الصلاة على آل محمد صلى الله عليه وسلم، فالأكثر على أنها واجبة، وأنها شرط في صحة الصلاة. فإن قلت: فما تقول في الصلاة على الصحابة والصالحين من المسلمين؛ قلت: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن، لقوله تعالى: "هو الذي يصلي عليكم وملائكته"، وقوله: "وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم"؛ وقوله: "أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة"؛ ولكن العلماء قالوا: إذا ذكر أحد من المسلمين تبعاً للنبي صلى الله عليه وسلم فلا كلام في جواز ذلك؛ وأما إذا افردوا أو ذكر أحد منهم؛ فأكثر الناس كرهوا الصلاة عليه؛ لأن ذلك شعار رسول الله فلا يشركه فيه غيره.

وأما أصحابنا من البغداديين فلهم اصطلاح آخر؛ وهو أنهم يكرهون إذا ذكروا علياً رضي الله عنه أن يقولوا: "صلى الله عليه" ولا يكرهون أن يقولوا: "صلوات الله عليه"، وجعلوا اللفظة الأولى مختصة بالرسول صلى الله عليه وسلم، وجعلوا اللفظة الثانية مشتركة فيها بينهما عليه السلام، ولم يطلقوا لفظ الصلاة على أحد من المسلمين إلا على علي وحده.

كلام له قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

الأصل: قالوا: أخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فكلماه فيه فخلى سبيله، فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين. قال عليه السلام: أو لم يبايعني بعد قتل عثمان؛ لا حاجة لي في بيعته؛ إنها كفٌ يهوديةٌ، لو بايعني بيده لغدر بسبته. أما إن له إمرةً كلعة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر.

الشرح: قد روي هذا الخبر من طرق كثيرة، ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب "نهج البلاغة"، وهي قوله رضي الله عنه في مروان: "يحمل راية ضلالة بعد ما يشيب صدغاه، وإن له إمرة" إلى آخر الكلام. وقوله: "فاستشفع الحسن والحسين إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه"، هو الوجه، يقال: استشفعت فلاناً إلى فلان؛ أي سألته أن يشفع لي إليه، وتشفعت إلى فلان في فلان فشفعني فيه تشفيعاً. وقول الناس: "استشفعت بفلان إلى فلان" بالباء ليس بذلك الجيد. وقول أمير المؤمنين رضي الله عنه: "أو لم يبايعني بعد قتل عثمان؟" أي وقد غدر؛ وهكذا لو بايعني الآن. ومعنى قوله: "إنها كفٌ يهودية" أي غادرة، واليهود تنسب إلى الغدر والخبث، وقال تعالى: "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود". والسببة: الاست، بفتح السين، سبه يسبه أي طعنه في الموضوع؛ ومعنى الكلام محمول على وجهين: أحدهما: أن كون ذكر السببة إهانة له وغلظة عليه، والعرب تسلك مثل ذلك في خطبها وكلامها؛ قال المتوكل لأبي العيناء: إلى متى تمدح الناس وتذمهم؟ فقال: ما أحسنوا وأساءوا ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى رضي عن واحد فمدحه، وسخط على آخر فهجاه وهجا أمه؛ قال: "نعم العبد إنه أواب"، وقال: "عتل بعد ذلك زنيماً"؛ والزنيمة ولد الزنا. الوجه الثاني: أن يريد بالكلام حقيقة لا مجازاً؛ وذلك لأن الغادر من العرب كان إذا عزم على الغدر بعد عهد قد عاهده أو عقد قد عقده، حقيق استهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والعهد؛ وسخرية وتمكماً. والإمرة: الولاية، بكسر الهمزة. وقوله: "كلعة الكلب أنفه"، يريد قصر المدة، وكذلك كانت مدة خلافة مروان، فإنه ولي تسعة أشهر.

والأكبش الأربعة بنو عبد الملك: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام؛ ولم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء. وكل الناس فسروا الأكبش الأربعة بمن ذكرناه؛ وعندي أنه يجوز أن يعني به بني مروان لصلبه. وهم: عبد الملك، وعبد العزيز، وبشر، ومحمد؛ وكانوا كباشاً أبطالاً أنجاداً، أما عبد الملك فولي الخلافة، وأما بشر فولي العراق، وأما محمد فولي الجزيرة، وأما عبد العزيز فولي مصر، ولكل منهم آثار مشهورة. وهذا التفسير أولى؛ لأن الوليد وإخوته أبناء ابنه، وهؤلاء بنوه لصلبه. ويقال لليوم الشديد: يوم أحمر. وللجنة ذات الجذب: سنة حمراء، وكل ما أخبر به أمير المؤمنين رضي الله عنه في هذا الكلام وقع كما أخبر به؛ وكذلك قوله: "يحمل راية ضلالة بعد ما يشيب صدغاه"، فإنه ولي الخلافة وهو ابن خمسة وستين في أعدل الروايات.

نسب مروان بن الحكم وبعض أخباره

ونحن ذاكرون في هذا الموضع نسبه، وجمالاً من أمره وولايته للخلافة؛ ووفاته على سبيل الاختصار: هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمّه آمنة بنت علقمة بن صفوان بن أمية الكناني. يكنى أبا عبد الملك، ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: منذ سنة اثنتين من الهجرة، وقيل عام الخندق، وقيل يوم أحد؛ وقيل غير ذلك. وقال قوم: بل ولد بمكة، وقيل: ولد بالطائف. ذكر ذلك كله أبو عمر بن عبد البر في كتاب "الاستيعاب". قال أبو عمر: وممن قال بولادته يوم أحد مالك بن أنس، وعلى قوله يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي، وعمره ثمان سنين أو نحوها. وقيل: إنه لما نفى مع أبيه إلى الطائف كان طفلاً لا يعقل، وإنه لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الحكم أبوه قد طرده رسول الله عن المدينة، وسيره إلى الطائف؛ فلم يزل بها حتى ولي عثمان، فردّه إلى المدينة، فقدمها هو وولده في خلافة عثمان، وتوفي، فاستكتبه عثمان وضمه إليه، فاستولى عليه إلى أن قتل.

والحكم بن أبي العاص هو عم عثمان بن عفان، كان من مسلمة الفتح، ومن المؤلفة قلوبهم، وتوفي الحكم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور. واختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله صلى الله عليه وسلم له فقيل: إنه كان يتحيل ويستخفي ويتسمع ما يسره رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أكابر الصحابة في مشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين، ويفشي ذلك عنه، حتى ظهر ذلك عنه. وقيل كان يتجسس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند نسائه، ويسترق السمع، ويصغي إلى ما يجري هناك مما لا يجوز الاطلاع عليه، ثم يحدث به المنافقين على طريق الاستهزاء. وقيل: كان يحكيه في بعض مشيته وبعض حركاته، فقد قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى يتكفأ، وكان الحكم بن أبي العاص يحكيه، وكان شائناً اسمه مبغضاً حاسداً، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فرآه يمشي خلفه يحكيه في مشيته؛ فقال له: كذلك فلتكن يا حكم. فكان الحكم محتجباً يرتعش من يومئذ، فذكر ذلك عبد الرحمن بن حسان بن ثابت؛ فقال لعبد الرحمن بن الحكم يهجو:

إن ترم ترم مخلجاً مجنوناً

إن اللعين أبوك فارم عظامه

ويظل من عمل الخبيث بطينا

يمشي خميص البطن من عمل التقى

قال صاحب الاستيعاب: أما قول عبد الرحمن بن حسان "إن اللعين أبوك" فإنه روي عن عائشة من طرق ذكرها ابن أبي خيثمة وغيره، أنها قالت لمروان إذ قال في أخيها عبد الرحمن إنه أنزل فيه: "والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد حلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين": أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت في صلبه.

وروى صاحب كتاب "الاستيعاب" بإسناد ذكره عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل عليكم رجل لعين"، قال عبد الله: وكنت قد رأيت أبي يلبس ثيابه ليقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم أزل مشفقاً أن يكون من يدخل، فدخل الحكم بن أبي العاص. قال صاحب "الاستيعاب": ونظر علي رضي الله عنه يوماً إلى مروان، فقال له: "ويل لك، وويل لأمة محمد منك ومن بنيك إذا شاب صدغاك". وكان مروان يدعى خيط

باطل؛ قيل: لأنه كان طويلاً مضطرباً.

وضرب يوم الدار على قفاه فخر لفيه فلما بويع له بالخلافة، قال فيه أخوه عبد الرحمن بن الحكم - وكان ماجناً شاعراً محسناً؛ وكان لا يرى رأي مروان:

حليّة مضروب القفا كيف تصنع

فوالله ما أدري وإني لسائلٌ

على الناس يعطي مايشاء يمنع

لحا الله قوماً أمروا خيط باطلٍ

وقيل: إنما قال له أخوه عبد الرحمن ذلك حين ولاه معاوية إمرة المدينة، وكان كثيراً ما يهجو؛ ومن شعره فيه:

لعمرو ومروان الطويل وخالد

وهبت نصيبي منك يا مرو كله

وأنت ابن أم ناقصٍ غير زائد

ورب ابن أم زائد غير ناقصٍ

وقال مالك بن الريب يهجو مروان بن الحكم:

ولكن مايقضي لنا بنت جعفر

لعمرك ما مروان يقضي أمورنا

وليتك يا مروان أمسيت ذاحر

فيا ليتها كانت علينا أميرة ص

ومن شعر أخيه عبد الرحمن فيه:

رسولاً والرسول من البيان

ألا من يبلغن مروان عني

كالصاق به بعض الهوان

بأنك لن ترى طرداً لحر

معين في الحوادث أو معان

وهل حدثت قبلي عن كريم

يكن حيران أوخفق الجنان

يقيم بدار مضیعة إذا لم

أقل القوم من يغني مكاني

فلا تقذف بي الرجوين إني

بأمر لا تخالجه اليدان

سأكفيك الذي استكفيت مني

جريت وأنت مضطرب العنان

قلو أنا بمنزلة جرينا

وأن من قد هجاك فقد هجاني

ولولا أن أم أبيك أمني

إلى أمر الجهارة والعلان

لقد جاهرت بالبغضاء إني

ولما صار أمر الخلافة إلى معاوية، ولى مروان المدينة، ثم جمع له إلى المدينة مكة والطائف، ثم عزله وولى سعيد بن العاص، فلما مات يزيد بن معاوية، وولى ابنه أبو ليلى معاوية بن يزيد في سنة أربع وستين، عاش في الخلافة أربعين يوماً ومات، فقالت له أمه أم خالد بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس: أجعل الخلافة من بعدك لأخيك، فأبى وقال: لا يكون لي مرها ولكم خلوها، فوثب مروان عليها، وأنشد:

والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

إني أرى فتنة تغلي مراحلها

وذكر أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب "الأغاني": أن معاوية لما عزل مروان بن الحكم عن إمرة المدينة والحجاز، وولى مكانه سعيد بن العاص، وجه مروان أخاه عبد الرحمن بن الحكم أمامه إلى معاوية، وقال له: القه قبلي فعاتبه لي واستصلحه.

قال أبو الفرج: وقد روي أن عبد الرحمن كان بدمشق يومئذ، فلما بلغه خبر عزل مروان وقدمه إلى الشام، خرج وتلقاه، وقال له: أقم حتى أدخل إلى أخيك، فإن كان عزلك عن موحدة دخلت إليه منفرداً، وإن كان عن غير موحدة دخلت إليه مع الناس فأقام مروان ومضى عبد الرحمن، فلما قدم على معاوية دخل إليه وهو يعشي الناس، فأنشده:

تكشف عن مناكبها القطوع

أنتك العيس تنفخ في براها

كأن جبينه سيفٌ صنيع

بأبيض من أمية مضرحي

فقال له معاوية: أزائراً جئت أم مفاخراً مكابراً؟ فقال: أي ذلك شئت؟ فقال: ما أشاء من ذلك شيئاً؛ وأراد معاوية أن يقطعه عن كلامه الذي عن له، فقال له: على أي ظهر جئتنا؟ فقال: على فرس، قال: ما صفته؟ قال: أجش هزيم - يعرض بقول النجاشي في معاوية يوم صفين:

أجش هزيمٌ والرماح دوان

ونجى ابن حربٍ سابحٌ ذو علالةٍ

مرته له الساقان والقدا

إذا قلت أطراف الرماح تتاله

فغضب معاوية، وقال: إلا أنه لا يركبه صاحبه في الظلم إلى الريب؛ ولا هو ممن يتسور على جاراته، ولا يتوثب بعد هجعة الناس على كنانته - وكان عبد الرحمن يتهم بذلك في امرأة أخيه - فحجل عبد الرحمن، وقال: يا أمير المؤمنين، ما حملك على عزل ابن عمك؟ أالخيانة أوجبت ذلك، أم لرأي رأيته وتدبير استصلحته؟ قال: بل لتدبير استصلحته، قال: فلا بأس بذلك. فخرج من عنده فلقى أخاه مروان، فأخبره بما دار بينه وبين معاوية، فاستشاط غيظاً وقال لعبد الرحمن: قبحك الله، ما أضعفك؛ عرضت للرجل بما أغضبه، حتى إذا انتصر منك أحجمت عنه. ثم لبس خلته، وركب فرسه، وتقلد سيفه، ودخل على معاوية، فقال له حين رآه وتبين الغضب في وجهه: مرحباً بأبي عبد الملك؛ لقد زرتنا عند اشتياق منا إليك، فقال: لا ها الله، ما زرتك لذلك ولا قدمت عليك فألفيتك إلا عاقاً قاطعاً؛ والله ما أنصفتنا ولا جزيتنا جزاءنا، لقد كانت السابقة من بني عبد شمس لآل أبي العاص، والصهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، والخلافة منهم، فوصلوكم يا بني حرب وشرفوكم وولوكم، فما عزلوكم ولا آثروا عليكم؛ حتى إذا وليتم وأفضى الأمر إليكم أبيتتم إلا أثرة وسوء صنعة وقبح قطيعة، فرويداً رويداً فقد بلغ بنو الحكم وبنو بني نيفاً وعشرين، وإنما هي أيام قلائل حتى يكملوا أربعين، ثم يعلم امرؤ ما يكون منهم حينئذ؛ ثم هم للجزاء بالحسنى والسوء بالمرصاد.

قال أبو الفرج: هذا رمز إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلاً، اتخذوا مال الله دولاً وعباد الله حولاً"، فكان بنو أبي العاص يذكرون أنهم سيلون أمر الأمة إذا بلغوا هذه العدة.

قال أبو الفرج: فقال له معاوية: مهلاً أبا عبد الملك، إني لم أعزلك عن خيانة، وإنما عزلتك لثلاثةٍ لو لم يكن منهن إلا

واحدة لأوجبت عزلك: إحداهن أي أمرتك على عبد الله بن عامر، وبينكما ما بينكما، فلن تستطيع أن تشتفي منه، والثانية كراهيتك لإمرة زياد، والثالثة أن ابنتي رملة استعدتك على زوجها عمرو بن عثمان، فلم تعدها. فقال مروان: أما ابن عامر فلاني لا أنتصر منه في سلطاني، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موقعه، وأما كراهيتي لإمرة زياد فإن سائر بني أمية كرهوه؛ وجعل الله لنا في ذلك الكره خيراً كثيراً. وأما استعداد رملة على عمرو؛ فوالله إنه ليأتي علي سنة أو أكثر وعندني بنت عثمان، فما أكشف لها ثوباً - يعرض بأن رملة إنما تستعدي على عمرو بن عثمان طلب النكاح - فغضب معاوية، فقال: يا بن الوزغ؛ لست هناك؛ فقال مروان: هو ما قلت لك؛ وإني الآن لأبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، وقد كاد ولد أي أن يكملوا العدة - يعني أربعين؛ ولو قد بلغوها لعلمت أين تقع مني. فانخرل معاوية، وقال:

فإنني في خياركم كثير

وأم الصقر مقلاتٌ نزور

فإن أك في شراركم قليلاً

بغات الطير أكثرها فراخاً

ثم استخذي معاوية في يد مروان وخضع، وقال: لك العتي، وأنا رادك إلى عملك. فوثب مروان، وقال: كلا وعيشك لأرأيتني عائداً وخرج. فقال الأحنف لمعاوية: ما رأيت قط لك سقطةً مثلها؛ ما هذا الخضوع لمروان؛ وأي شيء يكون منه ومن بني أبيه إذا بلغوا أربعين؛ وما الذي تخشاه منهم؛ فقال: ادن مني أخبرك ذلك، فدنا الأحنف منه، فقال له: إن الحكم بن أبي العاص كان أحد من قدم مع أختي أم حبيبة لما زفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهويتولى نقلها إليه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحد النظر إليه، فلما خرج من عنده، قيل: يا رسول الله، لقد أهدت النظر إلى الحكم فقال: ابن المخزومية، ذاك رجل إذا بلغ بنو أبيه ثلاثين أو أربعين، ملكوا الأمر من بعدي، فوالله لقد تلقاها مروان من عين صافية. فقال الأحنف: رويداً يا أمير المؤمنين؛ لا يسمع هذا منك أحد؛ فإنك تضع من قدرك وقدر ولدك بعدك؛ وإن يقض الله أمراً يكن. فقال معاوية: اكتمها يا أبا بحر علي إذا، فقد لعمرك صدقت ونصحت. وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب "مفاخرة هاشم وعبد شمس" أن مروان كان يضعف، وأنه كان ينشد يوم مرج راهط والرؤوس تندرعن كواهلها:

س أي غلامي قریش غلب

وماضرهم غير حين النفو

قال: وهذا حمق شديد، وضعف عظيم؛ قال: وإنما ساد مروان وذكر بابنه عبد الملك، كما ساد بنوه، ولم يكن في نفسه هناك. فأما خلافة مروان، فذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ أن عبد الله بن الزبير لما أخرج بني أمية عن الحجاز إلى الشام في خلافة يزيد بن معاوية، خرجوا وفيهم مروان، وابنه عبد الملك، ولم تطل مدة يزيد، فتوفي، ومات ابنه بعده بأيام يسيرة. وكان من رأي مروان أن يدخل إلى ابن الزبير بمكة فيبايعه بالخلافة، فقدم عبيد الله بن زياد، وقد أخرج أهل البصرة عنها بعد وفاة يزيد، فاجتمع هو وبنو أمية؛ وأخبروه بما قد أجمع عليه مروان، فجاء إليه، وقال: استحييت لك أبا عبد الملك، فما تريد، أنت كبير قریش وسيدها تصنع ما تصنع، وتشخص إلى أبي حبيب فتبايعه بالخلافة؛ فقال مروان: ما فات شيء بعد؛ فقام مروان، واجتمع إليه بنو أمية ومواليهم وعبيد الله بن زياد وكثير من أهل

اليمن وكثير من كلب، فقدم دمشق وعليها الضحاك بن قيس الفهري، قد بايعه الناس على أن يصلي بهم، ويقيم لهم أمرهم، حتى يجتمع الناس على إمام، وكان هوى الضحاك مع ابن الزبير إلا أنه لم يبايع له بعد، وكان زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين يخطب لابن الزبير، والنعمان بن بشير الأنصاري بحمص يخطب لابن الزبير، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بفلسطين يهوى هوى بني أمية، ثم من بينهم بني حرب، لأنه كان عاملاً لمعاوية، ثم ليزيد بن معاوية من بعده، وكان حسان بن مالك مطاعاً في قومه، عظيماً عندهم؛ فخرج عن فلسطين يريد الأردن، واستخلف على فلسطين روح بن زنباع الجذامي، فوثب عليه بعد شحوص حسان بن مالك وناتل بن قيس الجذامي أيضاً، فأخرجه عن فلسطين، وخطب لابن الزبير، وكان له فيه هوى، فاستوثقت الشام كلها لابن الزبير، ما عدا الأردن؛ فإن حسان بن مالك الكلبي كان يهوى هوى بني أمية، ويدعو إليهم؛ فقام في أهل الأردن فخطبهم؛ وقال لهم: ما شهادتكم على ابن الزبير وقتلي المدينة بالحرّة؟ قالوا: نشهد أن ابن الزبير كان منافقاً؛ وأن قتلي أهل المدينة بالحرّة في النار، قال: فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكهم بالحرّة؟ قالوا نشهد أن يزيد بن معاوية كان مؤمناً، وكان قتلاًنا بالحرّة في الجنة، قال: وأنا أشهد أنه إن كان دين يزيد بن معاوية وهو حي حقاً، إنه اليوم لعلى حق هو وشيعته، وإن كان ابن الزبير يومئذ هو وشيعته على باطل؛ إنه اليوم وشيعته على باطل؛ قالوا: صدقت، نحن نبايعك على أن نقاتل معك من خالفك من الناس وأطاع ابن الزبير، على أن تجنبنا ولاية هذين الغلامين ابني يزيد بن معاوية، وهما خالد وعبد الله، فإنهما حديثا أسنأهما ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي. قال: وقد كان الضحاك بن قيس يوالي ابن الزبير باطناً، ويهوى هواه، ويمنعه إظهار ذلك بدمشق والبيعة له أن بني أمية وكلباً كانوا بحضرته، وكلب أحوال يزيد بن معاوية وبنيه، ويطلبون الإمرة لهم، فكان الضحاك يعمل في ذلك سراً، وبلغ حسان بن مالك بن بحدل ما أجمع عليه الضحاك، فكتب إليه كتاباً يعظم فيه حق بني أمية، ويذكر الطاعة والجماعة وحسن بلاء بني أمية عنده وصنيعهم إليه، ويدعوه إلى بيعتهم وطاعتهم ويذكر ابن الزبير ويقع فيه ويشتمه، ويذكر أنه منافق قد خلع خليفتين، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس؛ ثم دعا رجلاً من كلب يقال له ناغضة، فسرّح بالكتاب معه إلى الضحاك بن قيس، وكتب حسان نسخة ذلك الكتاب، ودفعه إلى ناغضة، وقال له: إن قرأ الضحاك كتابي على الناس، وإلا فقم أنت وقرأ هذا الكتاب عليهم، وكتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك، فقدم ناغضة بالكتاب على الضحاك، فدفعه إليه، ودفع كتاب بني أمية إليهم سراً. فلما كان يوم الجمعة، وصعد الضحاك على المنبر، وقدم إليه ناغضة، فقال: أصلح الله الأمير؛ ادع بكتاب حسان فقرأه على الناس، فقال له الضحاك: اجلس، فجلس ثم قام ثانية فتكلم مثل ذلك، فقال له: اجلس، فجلس ثم قام ثالثة وكان كالثانية والأولى، فلما رآه ناغضة لا يقرأ الكتاب أخرج الكتاب الذي معه، فقرأه على الناس، فقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فصدق حسان، وكذب ابن الزبير وشتمه، وقام يزيد أبي النمى الغساني، فصدق مقالة حسان وكتابه، وشتم ابن الزبير، وقام سفيان بن أبرد الكلبي، فصدق مقالة حسان وشتم ابن الزبير، وقام عمر بن يزيد الحكمي، فشتم حسان، وأثنى على ابن الزبير، فاضطرب الناس، ونزل الضحاك بن قيس، فأمر بالوليد بن عتبة، وسفيان بن الأبرد، ويزيد بن أبي النمى الذين كانوا صدقوا حسان، وشتموا ابن الزبير فحبسوا، وجال الناس بعضهم في بعض، ووثبت كلب على عمر بن يزيد الحكمي فضربوه، وخرقوا ثيابه. وقد كان قام خالد بن يزيد بن معاوية فصعد مرقأتين

من المنبر؛ وهو يومئذ غلام، والضحاك بن قيس فوق المنبر، فتكلم بكلام أوجز فيه، لم يسمع بمثله، ثم نزل.
فلما دخل الضحاك بن قيس داره، جاءت كلب إلى السجن فأخرجوا سفيان بن أبرد الكلبي، وجاءت غسان؛ فأخرجوا
يزيد بن أبي النميس؛ وقال الوليد بن عتبة: لو كنت من كلب أو غسان؛ لأخرجت؛ فجاء ابن يزيد بن معاوية: خالد
وعبد الله؛ ومعهما أخوالهما من كلب، فأخرجوه من السجن. ثم إن الضحاك بن قيس خرج إلى مسجد دمشق، فجلس
فيه؛ وذكر يزيد بن معاوية فوقع فيه، فقام إليه سنان من كلب ومعه عصا؛ فضربه بها؛ والناس جلوس حلقاً. متقلدي
السيوف. فقام بعضهم إلى بعض في المسجد. فاقتتلوا، فكانت قيس عيلان قاطبةً تدعو إلى ابن الزبير ومعهما الضحاك،
وكلب تدعو إلى بني أمية، ثم إلى خالد بن يزيد، فيتعصبون له، فدخل الضحاك دار الإمارة، وأصبح الناس، فلم يخرج
الضحاك إلى صلاة الفجر.

فلما ارتفع النهار بعث إلى بني أمية، فدخلوا عليه، فاعتذر إليهم، وذكر حسن بلائهم عنده، وأنه ليس يهوى شيئاً
يكرهونه، ثم قال: تكتبون إلى حسان ونكتب، ويسير حسان من الأردن حتى يتزل الجابية ونسير نحن وأنتم حتى نوافيه
بها؛ فيجتمع رأي الناس على رجل منكم؛ فرضيت بذلك بنو أمية، وكتبوا إلى حسان وهو بالأردن وكتب إليه الضحاك
يأمره بالموافاة في الجابية، وأخذ الناس في الجهاز للرحيل.

وخرج الضحاك بن قيس من دمشق، وخرج الناس وخرجت بنو أمية، وتوجهت الرايات يريدون الجابية، فجاء ثور بن
معن بن يزيد بن الأخنس السلمي إلى الضحاك: فقال: دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك: ثم أنت الآن تسير
إلى هذا الأعراي من كلب لتستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية؛ فقال الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن نظهر
ما كنا نسر، وندعو إلى طاعة ابن الزبير، ونقاتل عليها. فمال الضحاك بمن معه من الناس، وانخزل من بني أمية ومن معهم
من قبائل اليمن فزل مرج راهط.

قال أبو جعفر: واختلف في أي وقت كانت الوقعة بمرج راهط فقال الواقدي: كانت في سنة خمس وستين. وقال غيره:
في سنة أربع وستين.

قال أبو جعفر: وسارت بنو أمية ولفيفها حتى وافوا حسان بالجابية، فصلى بهم أربعين يوماً، والناس يتشاورون، وكتب
الضحاك بن قيس من مرج راهط إلى النعمان بن بشير الأنصاري، وهو على حمص يستنجد به؛ وإلى زفر بن الحارث وهو
في قنسرين، وإلى نائل بن قيس وهو على فلسطين ليستمدهم؛ وكلهم على طاعة ابن الزبير، فأمدوه، فاجتمعت الأجناد
إليه بمرج راهط، وأما الذين بالجابية فكانت أهواؤهم مختلفة، فأما مالك بن هبيرة السكوني، فكان يهوى هوى يزيد بن
معاوية، ويجب أن تكون الخلافة في ولده، وأما حصين بن نمير السكوني؛ فكان يهوى هوى بني أمية؛ ويجب أن تكون
الخلافة لمروان بن الحكم؛ فقال مالك بن هبيرة للحصين بن نمير: هلم فلنبايع لهذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه؛ وهو ابن
أختنا؛ فقد عرفت منزلتنا التي كانت من أبيه؛ إنك إن تبايعه يملك غداً على رقاب العرب - يعني خالد بن يزيد - فقال
الحصين: لا لعمر الله؛ لا يأتينا العرب بشيخ؛ ونأتيها بصبي؛ فقال مالك: أظن هواك في مروان؛ والله إن استخلفت مروان
ليحسدنك على سوطك وشراك نعليك، وظل شجرة تستظل بها. إن مروان أبو عشرة، وأخو عشرة وعم عشرة، فإن

بايعتموه كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بآبن أحتكم خالد بن يزيد فقال الحصين: إني رأيت في المنام قنديلاً معلقاً من السماء، وأنه جاء كل من يمد عنقه إلى الخلافة ليتناوله، فلم يصل إليه. وجاء مروان فتناوله، والله لنستخلفنه. فلما اجتمع رأيهم على بيعته، واستمالوا حسان بن بحدل إليها، قام روح بن زنباع الجذامي، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: أيها الناس؛ إنكم تذكرون لهذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب، وتذكرون صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون؛ لكنه رجل ضعيف، وليس صاحب أمة محمد بالضعيف؛ وأما عبد الله بن الزبير وما يذكر الناس من أمره، وأن أباه حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين؛ فهو لعمرى كما تذكرون ولكنه منافق قد خلع خليفتين: يزيد وأباه معاوية، وسفك الدماء، وشق عصا المسلمين؛ وليس صاحب أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالمنافق؛ وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدع قط إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذي قاتل عن عثمان بن عفان يوم الدار، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل؛ وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبهوا الصغير - يعني بالكبير مروان، وبالصغير خالد بن يزيد. فاجتمع رأي الناس على البيعة لمروان، ثم لخالد بن يزيد بعده؛ ثم لعمر بن سعيد بن العاص بعدهما، على أن تكون في أيام خلافة مروان إمرة دمشق لعمر بن سعيد، وإمرة حمص لخالد بن يزيد. فلما استقر الأمر على ذلك، دعا حسان بن بحدل خالد بن يزيد؛ فقال: يا بن أخي؛ إن الناس قد أبوك لحدائث سنك، وإني والله ما أريد هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك؛ وما أبايع مروان إلا نظراً لكم، فقال خالد: بل عجزت عنا، فقال: لا والله لم أعجز عنك، ولكن الرأي لك ما رأيت. ثم إن حسان دعا مروان بن الحكم، فقال له: يا مروان، إن الناس كلهم لا يرضون بك، فما ترى؟ فقال مروان: إن يرد الله أن يعطينيها لم يمنعيها أحد من خلقه؛ وإن يرد أن يمنعيها لا يعطينيها أحد من خلقه، فقال حسان: صدقت. ثم صعد حسان المنبر، فقال: أيها الناس؛ إني مستخلف في غد أحدكم إن شاء الله؛ فاجتمع الناس بكرة الغد ينتظرون، فصعد حسان المنبر، وبايع لمروان، وبايع الناس؛ وسار من الجابية حتى نزل بمرج راهط؛ حيث الضحاك بن قيس نازل، فجعل مروان على ميمنته عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد؛ وجعل الضحاك على ميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العتكي، وعلى ميسرته ثور بن معن السلمي؛ وكان يزيد بن أبي النميس الغساني بدمشق، لم يشهد الجابية، وكان مريضاً؛ فلما حصل الضحاك بمرج راهط ثار بأهل دمشق في عبيده وأهله، فغلب عليها، وأخرج عامل الضحاك منها؛ وغلب على الخزائن وبيت المال، وبايع لمروان، وأمدّه من دمشق بالرجال والمال والسلاح؛ فكان ذلك أول فتح فتح لمروان.

ثم وقعت الحرب بين مروان والضحاك؛ فاقتلوا بمرج راهط عشرين ليلة؛ فهزم أصحاب الضحاك وقتلوا؛ وقتل أشرف الناس من أهل الشام؛ وقتلت قيس مقتلة لم تقتل مثلها في موطن قط، وقتل ثور بن معن السلمي الذي رد الضحاك عن رأيه. قال أبو جعفر: وروي أن بشير بن مروان كان صاحب الراية ذلك اليوم، وأنه كان ينشد:

أن يخضب الصعدة أو يندقا

إن على الرئيس حقاً حقاً

وصرع ذلك اليوم عبد العزيز بن مروان ثم استنقذ.

قال: ومروان برجل من محارب وهو في نفر يسير من أصحاب مروان، فقال له: لو انضممت إلى أصحابك رحمك الله؛ فلاني أراك في قلة، فقال: إن معنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مدداً أضعاف من تأمرنا بالانضمام إليهم؛ قال: فضحك مروان وسر بذلك، وقال للناس ممن كان حوله: ألا تستمعون.

قال أبو جعفر: وكان قاتل الضحاك رجلاً من كلب، يقال له زحنة بن عبد الله، فلما قتله واحضر الرأس إلى مروان، ظهرت عليه كآبة، وقال: الآن حين كبرت سني، ودق عظمي، وصرت في مثل ظمء الحمار؛ أقبلت أضرب الكتاب ببعضها ببعض؛ قال أبو جعفر: وروي أن مروان أنشد لما بويع ودعا إلى نفسه:

سیرت غسان لهم وكلبا

وطيئاً تأباه إلا ضربا

ومن تنوخ مشمخراً صعبا

وإن دنت قيس فقل لا قربا

لما رأيت الأمر أمراً نهبا

والسكسكيين رجلاً غلبا

والقين تمشي في الحديد نكبا

لا يملكون الملك إلا غصبا

قال أبو جعفر: وخرج الناس منهزمين بعد قتل الضحاك؛ فانتهى أهل حمص إلى حمص؛ وعليها النعمان بن بشير، فلما عرف الخبر خرج هارباً ومعه ثقله وولده، وتخير ليلته كلها، وأصبح وهو بباب مدينة حمص، فرآه أهل حمص فقتلوه، وخرج زفر بن الحارث الكلابي من قنسرين هارباً، فلحق بقرقيسياً؛ وعليها عياض بن أسلم الجرشي فلم يمكنه من دخولها، فحلف له زفر بالطلاق والعتاق أنه إذا دخل حمامها خرج منها، وقال له: إن لي حاجة إلى دخول الحمام، فلما دخلها لم يدخل حمامها وأقام بها وأخرج عياضاً منها، وتحصن فيها، وثابت إليه قيس عيلان؛ وخرج نائل بن قيس الجذامي من فلسطين هارباً؛ فالتحق بابن الزبير بمكة، وأطبق أهل الشام على مروان، واستوثقوا له، واستعمل عليهم عماله، ففي ذلك يقول زفر بن الحارث:

أرى الحرب لا تزدد إلا تماديا

فريقٌ دمي، أوقاطعٌ من لسانيا

إذا نحن رفعنا لهن المبانيا

وتبقى حزارات النفوس كما هيا

وتترك قتلى راهطٍ هي ما هيا

لحسن صدعاً بيناً متتائيا

ومقتل همامٍ أمني الأمانيا

فراري وتركي صاحبي ورائيا

بصالح أيامي وحسن بلائيا

أريني سلاحي لا أبا لك إنني

أتأني عن مروان بالغيب أنه

وفي العيس منجاة، وفي الأرض مهربٌ

قد ينبت المرعى على دمن الثرى

أتذهب كلبٌ لم تتلها رماحنا

لعمري لقد أبقت وقية راھطٍ

أبعد عمرو وابن معن تتابعا

ولم تر مني نبوة قبل هذه

أيذهب يومٌ واحد إن أسأته

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا

وتتأثر من نسوان كلبٍ نسائيا

وقال زفر بن الحارث أيضاً، وهو من شعر الحماسة:

أفي الله بحدلٍ وابن بحدلٍ

فيحيا وأما ابن الزبير فيقتل

كذبتهم وببيت الله لاتقتلونه

ولما يكن يومٌ أغر محجل

ولما يكن للمشرقية فوقكم

شعاعٌ كقرن الشمس حين ترجل

وأما وفاة مروان، والسبب فيها أنه قد استقر الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ما قدمنا ذكره، فلما استوثق له لأمر، أحب أن يبايع لعبد الملك وعبد العزيز ابنيه، فاستشار في ذلك، فاشير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد، وهي ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغر شأنه فلا يرشح للخلافة، فتزوجها. ثم قال لخالد يوماً في كلام دار بينهما والمجلس غاص بأهله؛ اسكت يابن الرطبة، فقال خالد: أنت لعمري مؤتمن وخبير.

ثم قام باكياً من مجلسه - وكان غلاماً حينئذ - فدخل على أمه، فأخبرها، فقالت له: لا يعرفن ذلك فيك، واسكت فأنا أكفيك أمره. فلما دخل عليها مروان، قال لها: ما قال لك خالد؟ قالت: وما عساه يقول؛ قال: ألم يشكني إليك؟ قالت: إن خالداً أشد إعظماً لك من أن يشتكيك، فصدقها. ثم مكثت أياماً، فنام عندها وقد واعدت جواريتها، وقمن إليه، فجعلن الوسائد والبرازع عليه، وجلسن عليه حتى خنقنه، وذلك بدمشق في شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة، في قول الواقدي.

وأما هشام بن محمد الكلبي، فقال: ابن إحدى وثمانين سنة. وقال: كان ابن إحدى وثمانين، عاش في الخلافة تسعة أشهر. وقيل عشرة أشهر، وكان في أيام كتابته لعثمان بن عفان أكثر حكماً، وأشد تلطفاً وتسليطاً منه في أيام خلافته، وكان ذلك من أعظم الأسباب الداعية إلى خلع عثمان وقتله. وقد قال قوم: إن الضحاك بن قيس لما نزل مرج راهط لم يدع إلى ابن الزبير، وإنما دعا إلى نفسه. وبويع بالخلافة، وكان قرشياً. والأكثر الأشهر أنه كان يدعو إلى ابن الزبير.

ومن كلام له لما عزموا علي بيعه عثمان

الأصل: لقد علمتم أي أحق بها من غيري؛ ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين؛ ولم يكن فيها جورٌ إلا علي خاصة، ألتماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفته وزبرجه.

الشرح: نافست في الشيء فنافسة ونفاساً؛ إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه، أي رغبوا. والزخرف: الذهب، ثم شبه به كل مموه مزور، قال تعالى: "حتى إذا أخذت الأرض زخرفها" والمزخرف: المزين، والزبرج: الزينة من وشي أو جوهر، ونحو ذلك، ويقال: الزبرج الذهب أيضاً. يقول لأهل الشورى: إنكم تعلمون أي أحق بالخلافة من غيري، وتعطلون عني. ثم أقسم ليسلمن وليتركن المخالفة لهم، إذا كان في تسليمه ونزوله عن حقه سلامة أمور المسلمين، ولم يكن الجور والحيف إلا عليه خاصة، وهذا كلام مثله رضي الله عنه، لأنه إذا علم أو غلب على

ظنه أنه إن نازع وحارب دخل على الإسلام وهن وثلم لم يختر له المنازعة، وإن كان يطلب بالمنازعة ما هو حق؛ وإن علم أو غلب على ظنه بالإمساك عن طلب حقه أنما يدخل الثلم والوهن عليه خاصة، ويسلم الإسلام من الفتنة، وجب عليه أن يغضى ويصبر على ما أتوا إليه من أخذ حقه، وكف يده؛ حراسةً للإسلام من الفتنة. فإن قلت: فهلا سلم إلى معاوية وإلى أصحاب الجمل، وأغضى على اغتصاب حقه حفظاً للإسلام من الفتنة؟ قلت: إن الجور الداخل عليه من أصحاب الجمل ومن معاوية وأهل الشام، لم يكن مقصوراً عليه خاصة؛ بل كان يعم الإسلام والمسلمين جميعاً؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يصلح لرياسة الأمة وتحمل أعباء الخلافة، فلم يكن الشرط الذي اشترطه متحققاً، وهو قوله: "و لم يكن فيه جور إلا علي خاصة".

وهذا الكلام يدل على أنه رضي الله عنه لم يكن يذهب إلى أن خلافة عثمان كانت تتضمن جوراً على المسلمين والإسلام، وإنما كانت تتضمن جوراً عليه خاصة، وأما وقعت على جهة مخالفة الأولى؛ لا على جهة الفساد الكلي والبطلان الأصلي؛ وهذا عض مذهب أصحابنا.

الامام قبل المبايعة لعثمان

ونحن نذكر في هذا الموضع ما استفاض في الروايات من مناشدته أصحاب الشورى، وتعيده فضائله وخصائصه التي بان بها منهم ومن غيرهم. قد روى الناس ذلك فأكثرُوا؛ والذي صح عندنا أنه لم يكن الأمر كما روي من تلك التعديلات الطويلة؛ ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبد الرحمن والحاضرون عثمان، وتلكاً هو رضي الله عنه عن البيعة: إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى؛ في كلام قد ذكره أهل السيرة، وقد أوردنا بعضه فيما تقدم، ثم قال لهم: أنشدكم الله أفياكم أحدٌ أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين نفسه؛ حيث آخى بين بعض المسلمين وبعض غيري؛ فقالوا: لا؛ فقال: أفياكم أحدٌ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كنت مولاه فهذا مولاه" غيري؟ فقالوا: لا، فقال: أفياكم أحدٌ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" غيري؟ قالوا: لا، قال: أفياكم من ائتمن سورة براءة، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني غيري؟ قالوا: لا، قال: ألا تعلمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فروا عنه في مآقط الحرب في غير موطن، وما فررت قط؟ قالوا: بلى، قال: ألا تعلمون أي أول الناس إسلاماً؟ قالوا: بلى. قال: فأينا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً؟ قالوا: أنت. فقطع عليه عبد الرحمن بن عوف كلامه، وقال: يا علي؛ قد أبى الناس إلا على عثمان، فلا تجعل على نفسك سبيلاً، ثم قال: يا أبا طلحة، ما الذي أمرك به عمر؟ قال: أن أقتل من شق عصا الجماعة، فقال عبد الرحمن لعلي: بايع إذن؛ وإلا كنت متبعاً غير سبيل المؤمنين، وأنفذنا فيك ما امرنا به. فقال: "لقد علمتم أي أحق بها من غيري، والله لأسلمن" الفصل إلى آخره، ثم مد يده فبايع.

لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان

الأصل: أو لم ينه بني أمية علمها بي عن قرني أو ما وزع الجهال سابقتي عن تهمتي؛ ولما وعظهم الله به أبلغ من لساني. أنا حجيج المارقين، وخصيم الناكثين المرتابين، وعلى كتاب الله تعرض الأمثال، وبما في الصدور تجازى العباد. الشرح: القرف: العيب؛ قرفته بكذا أي عبته. ووزع: كف وردع؛ ومنه قوله: "لا بد للناس من وزعة"، جمع وازع، أي من رؤساء وأمرأء. والتهمة، بفتح الهاء؛ هي اللغة الفصيحة؛ وأصل التاء فيه واو. والحجيج كالخصيم: ذو الحجاج والخصومة. يقول رضي الله عنه: أما كان في علم بني أمية بحالي ما ينهاها عن قرني بدم عثمان؛ وحاله التي أشار إليها؛ وذكر أن علمهم بها يقتضي ألا يقرفوه بذلك؛ هي منزلة في الدين التي لا منزلة أعلى منها، وما نطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بني وزوجته؛ في قوله: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً". وقول النبي صلى الله عليه وسلم: فأنت مني بمنزلة هارون من موسى"، وذلك يقتضي عصمته عن الدم الحرام؛ كما أن هارون معصوم عن مثل ذلك. وترادف الأقوال والأفعال من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره التي يضطر معها الحاضرون لها والمشاهدون إياها إلى أن مثله لا يجوز أن يسعى في إراقة دم أمير مسلم، لم يحدث حدثاً يستوجب به إحلال دمه. وهذا الكلام صحيح معقول؛ وذلك أنا نرى من يظهر ناموس الدين؛ ويواظب على نوافل العبادات، ونشاهد من ورعه وتقواه ما يقرر معه في نفوسنا استشعاره الدين، واعتقاده إياه، فيصرفنا ذلك عن قرفته بالعيوب الفاحشة، ونستبعد مع ذلك طعن من يطعن فيه، وننكره ونأباه ونكذبه؛ فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين رضي الله عنه؛ مع علمهم بمنزلة العالية في الدين، والتي لم يصل إليها أحد كان من المسلمين، أن يطلقوا ألسنتهم فيه، وينسبوه إلى قتل عثمان أو الممالة عليه، لا سيما وقد اتصل بهم، وثبت عندهم؛ أنه كان من أنصاره لا من المجلبين عليه، وأنه كان أحسن الجماعة فيه قولاً وفعلاً. ثم قال: "لم ترع الجهال وتردعهم سابقتي عن تهمتي" وهذا الكلام تأكيد للقول الأول. ثم قال: إن الذي وعظهم الله تعالى به في القرآن من تحريم الغيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغ من وعظي لهم، لأنه لا عظة أبلغ من عظة القرآن.

ثم قال: "أنا حجيج المارقين، وخصيم المرتابين"، يعني يوم القيامة؛ روي عنه رضي الله عنه أنه قال: "أنا أول من يجثو للحكومة بين يدي الله تعالى"، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك مرفوعاً في قوله تعالى: "هذان خصمان اختصموا في ربهم" وأنه صلى الله عليه وسلم سئل عنها، فقال: "علي وحزرة وعبيدة، وعتبة وشيبة والوليد"، وكانت حادثتهم أول حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك، وكان المقتول الأول بالمبارزة الوليد بن عتبة، قتله علي رضي الله عنه، ضربه على رأسه فبدرت عيناه على وجنته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فيه وفي أصحابه ما قال، وكان علي رضي الله عنه يكثر من قوله: "أنا حجيج المارقين"، ويشير إلى هذا المعنى. ثم أشار إلى ذلك بقوله: "على كتاب الله تعرض الأمثال"، يريد قوله تعالى: "هذان خصمان اختصموا في ربهم". ثم قال: "بما في الصدور تجازى العباد" إن كنت قتلت عثمان أو مالأته عليه؛ فإن الله تعالى سيجازيني بذلك، وإلا فسوف يجازي بالعقوبة والعذاب من أتهمني به، ونسبه إلي.

وهذا الكلام يدل على ما يقوله أصحابنا من تبرؤ أمير المؤمنين رضي الله عنه من دم عثمان، وفيه رد وإبطال لما يزعمه

الإمامية، من كونه رضي به وأباحه؛ وليس يقول أصحابنا إنه رضي الله عنه لم يكن ساحطاً أفعال عثمان، ولكنهم يقولون: إنه وإن سخطها وكرهها وأنكرها لم يكن مبيحاً لدمه، ولا ممالئاً على قتله، ولا يلزم من إنكار أفعال الإنسان إحلال دمه، فقد لا يبلغ الفعل في القبح إلى أن يستحل به الدم؛ كما في كثير من المناهي.

ومن خطبة له في الزهد

الأصل: رحم الله امرأً سمع حكماً فوعى، ودعي إلى رشاد فدنا، وأخذ بحجزة هاد فنجا. راقب ربه، وخاف ذنبه، قدم خالصاً، وعمل صالحاً. اكتسب مذخوراً، واجتنب محذوراً. رمى غرضاً، وأحرز عوضاً. كابر هواه، وكذب مناه. جعل الصبر مطية نجاته، والتقوى عدة وفاته. ركب الطريقة الغراء، ولزم المحجة البيضاء. اغتنم المهل، وبادر الأجل، وتزود من العمل.

الشرح: الحكم ههنا: الحكمة، قال سبحانه: "وآتيناه الكم صبيّاً"، ووعى: حفظ، وعيت الحديث أعيه وعياً، وأذن واعيةً، أي حافظة. ودنا: قرب. والحجزة: معقد الإزار؛ وأخذ فلان بحجزة فلان إذا اعتصم به ولجأ إليه. ثم حذف رضي الله عنه الواو في اللفظ الآخر فلم يقل: "وراقب ربه"، ولا "وقدم خالصاً"، وكذلك إلى آخر اللفظات؛ وهذا نوع من الفصاحة كثير في استعمالهم. واكتسب، بمعنى كسب، يقال: كسبت الشيء واكتسبته بمعنى.

والغرض: ما يرمى بالسهم، يقول: رحم الله امرأً رمى غرضاً، أي قصد الحق كمن يرمى غرضاً يقصده، لا من يرمى في عمياء لا يقصد شيئاً بعينه. والعوض المحرز ههنا: هو الثواب. وقوله: "كابر هواه" أي غالبه. وروي "كاثر" بالثاء المنقوطة بالثلاث؛ أي غالب هواه بكثرة عقله، يقال: كاثرناهم فكثرناهم، أي غلبناهم بالكثرة. وقوله: "وكذب مناه" أي أمنيته. والطريقة الغراء: البيضاء. والمهل: النظر والتؤدة.

في حال بني أمية

الأصل: إن بني أمية ليفوقوني تراث محمد صلى الله عليه وآله تفويقاً، والله لئن بقيت لهم لأنفضنهم نفص اللحام الودام التربة.

قال رضي رحمه الله: ويروى "ألتراب الودمة"، وهو على القلب.

وقوله عليه السلام: "ليفوقوني" أي يعطوني من المال قليلاً كفواق الناقة، وهو الحلبة الواحدة من لبنها. والودام التربة: جمع ودمة، وهي الحزة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتتنفص.

الشرح: اعلم أن أصل هذا الخبر قد رواه أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب "الأغاني" بإسناد رفعه إلى الحارث بن حبيش، قال: بعثني سعيد بن العاص - وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل عثمان - بمدايا إلى المدينة، وبعث معي هدية إلى علي رضي الله عنه وكتب إليه: إني لم أبعث إلى أحد أكثر مما بعثت به إليك، إلا إلى أمير المؤمنين. فلما أتيت علياً رضي الله عنه وقرأ كتابه، قال: "لشد ما يحظر علي بنو أمية تراث محمد صلى الله عليه وسلم أما والله لئن وليتها لأنفضنها نفص القصاب التراب الودمة".

قال أبو الفرج: وهذا خطأ؛ إنما هو "الوذام التربة".

قال: وقد حدثني بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن أبي زيد عمر بن شبة، بإسناد ذكره في الكتاب، أن سعيد بن العاص حيث كان أمير الكوفة، بعث مع ابن أبي عائشة مولاة إلى علي بن أبي طالب صلى الله عليه وسلم بصلة، فقال علي رضي الله عنه: والله لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة؛ والله لئن بقيت لأنفضنها نفص القصاب الوذام التربة.

ومن كلمات كان عليه السلام يدعو بها

الأصل: اللهم أغفر لي ما أنت أعلم به مني؛ فإن عدت فعد علي بالمغفرة. اللهم اغفر لي ما وأيت من نفسي، ولم تجد له وفاء عندي. اللهم أغفر لي ما تقربت به إليك بلساني، ثم خالفه قلبي. اللهم اغفر لي رمزات الأحاظ، وسقطات الألفاظ وسهوات الجنان، وهفوات اللسان.

الشرح: وأيت، أي وعدت، والوأي الوعد. ورمزات الأحاظ: الإشارة بها. والأحاظ: جمع لحظ، بفتح اللام، وهو مؤخر العين وسقطات الألفاظ: لغوها، وسهوات الجنان: غفلاته، والجنان: القلب. وهفوات اللسان: زلاته.

وفي هذا الموضع يقال: ما فائدة الدعاء عندكم - والقديم تعالى إنما يغفر الصغائر؛ لأنها تقع مكفرة، فلا حاجة إلى الدعاء بغفرانها، ولا يؤثر الدعاء أيضاً في أفعال الباري سبحانه لأنه إنما يفعل بحسب المصالح ويرزق المال والولد وغير ذلك، ويصرف المرض والجذب وغيرهما بحسب ما يعلمه من المصلحة؛ فلا تأثير للدعاء في شيء من ذلك؟ والجواب؛ أنه لا يمتنع أن يحسن الدعاء بما يعلم أن القديم يفعل لا محالة، ويكون وجه حسنه، صدوره عن المكلف على سبيل الانقطاع إلى الخالق سبحانه.

ويجوز أيضاً أن يكون في الدعاء نفسه مصلحة ولطف للمكلف؛ ولهذا حسن منا الاستغفار للمؤمنين، والصلاة على الأنبياء والملائكة.

وأيضاً فليس كل أفعال الباري سبحانه واجبةً عليه، بل معظمها ما يصدر على وجه الإحسان والتفضل، فيجوز أن يفعل، ويجوز ألا يفعل.

فإن قلت: فهل يسمى فعل الواجب الذي لا بد للقديم - تعالى - من فعله إجابةً لدعاء المكلف؟ قلت: لا؛ وإنما يسمى إجابةً إذا فعل سبحانه ما يجوز أن يفعل، ويجوز ألا يفعل كالتفضل، وأيضاً فإن اللطف والمصلحة قد يكون لطفاً ومصلحة في كل حال، وقد يكون لطفاً عند الدعاء، ولولا الدعاء لم يكن لطفاً؛ وليس بمتنع في القسم الثاني أن يسمى إجابةً للدعاء؛ لأن للدعاء على كل حال تأثيراً في فعله.

فإن قيل: أيجوز أن يدعو النبي صلى الله عليه وسلم بدعاء فلا يستجاب له؟ قيل: إن من شرط حسن الدعاء أن يعلم الداعي حسن ما يطلبه بالدعاء؛ وإنما يعلم حسنه ألا يكون فيه وجه قبح ظاهر، وما غاب عنه من وجوه القبح؛ نحو كونه مفسدة يجب أن يشترطه في دعائه، ويطلب ما يطلبه بشرط ألا يكون مفسدة. وإن لم يظهر هذا الشرط في دعائه وجب

أن يضممه في نفسه، فمضى سأل النبي ربه تعالى أمراً فلم يفعله لم يجوز أن يقال: إنه ما أجيب دعوته، لأنه يكون قد سأل بشرط ألا يكون مفسدة؛ فإذا لم يقع ما يطلبه؛ فلا أن المطلوب قد علم الله فيه من المفسدة ما لم يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلا يقال: إنه ما أجيب دعاءه كان مشروطاً، وإنما يصدق قولنا: ما أجيب دعاؤه على من طلب أمراً طلباً مطلقاً غير مشروط فلم ويقع، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يتحقق ذلك في حقه.

من أدعية رسول الله المأثورة

ونحن نذكر في هذا الموضع جملة من الأدعية المأثورة طلباً لبركتها، ولينتفع قارئ الكتاب بها: كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح أن يقول: "أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والجلال والخلق والأمر والليل والنهار وما يسكن فيهما الله عز وجل وحده لا شريك له. اللهم اجعل أول يومي هذا صلاحاً، وأوسطه فلاحاً، وآخره نجاحاً. اللهم إني أسألك خير الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين. اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتنا ما تبلغنا به رحمتك؛ ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا؛ واجعلهما الوارث منا، وانصرنا على من ظلمنا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا".

من أدعية الصحيفة السجادية

ومن دعاء أمير المؤمنين رضي الله عنه، وكان يدعو به زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما؛ وهو من أدعية الصحيفة: يا من يرحم من لا يرحمه العباد، يا من يقبل من لا تقبله البلاد، يا من لا يحتقر أهل الحاجة إليه؛ يا من لا يجبه بالرد أهل الإلحاح إليه. يا من لا يخفى عليه صغير ما يتحلف به، ولا يضيع يسير ما يعمل له. يا من يشكر على القليل، ويجازي بالجليل. يا من يدنو إلى من دنا منه. يا من يدعو إلى نفسه من أدبر عنه. يا من لا يغير النعمة، ولا يبادر بالنقمة. يا من يثمر الحسنة حتى ينميها، ويتجاوز عن السيئة حتى يعفيها؛ انصرفت دون مدى كرمك الحاجات، وامتلات ببعض جودك أوعية الطلبات، وتفسخت دون بلوغ نعتك الصفات. فلك العلو الأعلى فوق كل عال، والجلال الأجد فوق كل جلال، كل جليل عندك حقير، وكل شريف في جنب شرفك صغير، خاب الوافدون على غيرك، وخسر المتعرضون إلا لك، وضاع الملمون إلا بك، وأجذب المنتجعون إلا من انتجع فضلك، لأنك ذو غاية قريبة من الراغبين، وذو مجد مباح للسائلين؛ لا يخيب لديك الآملون، ولا يخفق من عطائك المتعرضون، ولا يشقى بنقمتك المستغفرون؛ رزقك مبسوط لمن عصاك، وحلمك معرض لمن ناواك، وعادتك الإحسان إلى المسكين، وسنتك الإبقاء على المعتدين، حتى لقد غرهم أناتك عن التزوع، وصددهم إمهالك عن الرجوع، وإنما تأنيت لهم ليفيئوا إلى أمرك، وأمهلتهم ثقة بدوام ملكك، فمن كان من أهل السعادة احتصت له بها، ومن كان من أهل الشقاوة خذلتها لها. كلهم صائر إلى رحمتك، وأمورهم آيلة إلى أمرك؛ لم يهن على طول مدتهم سلطانك، ولم تدحض لترك معاجلتهم

حججك؛ حجتك قائمة، وسلطانك ثابت، فالويل الدائم لمن جنح عنك، والخيبة الخاذلة لمن خاب أمله منك، والشقاوة الأشقى لمن اغتر بك. ما أكثر تقلبه في عذابك، وما أعظم تردده في عقابك، وما أبعد غايته من الفرج، وما أثبطه من سهولة المخرج عدلاً من قضائك لا تجور فيه، وإنصافاً من حكمك لا تحيص عليه؛ قد ظهرت الحجج، وأزلت الأعدار، وتقدمت بالوعيد، وتلطفت في الترغيب؛ وضربت الأمثال، وأطلت الإمهال، وأخرت وأنت تستطيع المعاجلة، وتأنيت وأنت ملئ بالمبادرة.

لم تك أناتك عجزاً، ولا حلمك وهناً، ولا إمساكك لعله، ولا انتظارك لمدارة، بل لتكون حجتك الأبلغ، وكرمك الأكمل، وإحسانك الأوفى، ونعمتك الأتم. كل ذلك كان ولم يزل، وهو كائن لا يزول. نعمتك أجل من أن توصف بكلها، ومجدك أرفع من أن يحد بكنهه، وإحسانك أكبر من أن يشكر على أقله، فقد أقصرت ساكتاً عن تحميدك، وهيبتم مسكاً عن تمجيدك، لا رغبة يا إلهي عنك بل عجزاً، ولا زهداً فيما عندك بل تقصيراً، وها أنذا يا إلهي أوئل بالفادة، وأسألك حسن الرفادة، فاسمع ندائي، واستجب دعائي؛ ولا تحتم عملي بخييتي، ولا تجهني بالرد في مسألتي، وأكرم من عندك منصرفي؛ إنك غير ضائق عما تريد، ولا عاجز عما تشاء؛ وأنت على كل شيء قدير.

ومن أدعيته رضي الله عنه؛ وهو من أدعية الصحيفة أيضاً: اللهم يا من برحمته يستغيث المذنبون، ويا من إلى إحسانه يفرح المضطرون، ويا من لحيفته ينتحب الخاطئون؛ يا أنس كل مستوحش غريب، يا فرج كل مكروب حريب. يا عون كل مخذول فريد، يا عاضد كل محتاج طريد؛ أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلماً، وأنت الذي جعلت لكل مخلوق في نعمتك سهماً، وأنت الذي عفوه أعلى من عقابه، وأنت الذي رحمته أمام غضبه؛ وأنت الذي إعطاؤه أكبر من منعه، وأنت الذي وسع الخلائق كلهم بعفوه، وأنت الذي لا يرغب في غنى من أعطاه. وأنت الذي لا يفرط في عقاب من عصاه.

وأنا يا سيدي عبدك الذي أمرته بالدعاء فقال: لبيك وسعديك وأنا يا سيدي عبدك الذي أوقرت الخطايا ظهره، وأنا الذي أفنت الذنوب عمره، وأنا الذي بجهله عصاك؛ ولم يكن أهلاً منه لذلك؛ فهل أنت يا مولاي راحم من دعاك فأجتهد في الدعاء، أم أنت غافر لمن بكى لك، فأسرع في البكاء، أم أنت متجاوز عمن عفر لك وجهه، متدلاً، أم أنت مغنٍ من شكا إليك فقره متوكلاً.

اللهم فلا تخيب من لا يجد معطياً غيرك، ولا تخذل من لا يستغني عنك بأحدٍ دونك. اللهم لا تعرض عني وقد أقبلت عليك، ولا تحرمني وقد رغبت إليك، ولا تجهني بالرد وقد انتصبت بين يديك. أنت الذي وصفت نفسك بالرحمة، وأنت الذي سميت نفسك بالعفو، فارحمني واعف عني؛ فقد ترى يا سيدي فيض دموعي من خيفتك، ووجيب قلبي من خشيتك، وانتفاض جوارحي من هيبتك، كل ذلك حياءً منك بسوء عملي، وخجلاً منك لكثرة ذنوبي؛ قد كل لساني عن مناجاتك؛ وحمد صوتي عن الدعاء إليك.

يا إلهي، فكم من عيب سترته علي فلم تفضحني، وكم من ذنب غطيت عليه فلم تشهري؛ وكم من عاتبة ألمت بها فلم تهتك عني سترها، ولم تقلدني مكروه شئها، ولم تبد علي محرماً سواها. فمن يلتمس معايي من جيرتي وحسدة

نعمتك عندي، ثم لم ينهني ذلك حتى صرت إلى أسوأ ما عهدت مني؛ فمن أجهل مني يا سيدي برشدك؛ ومن أغفل مني عن حظه منك؛ ومن أبعد مني من استصلاح نفسه حين أنفقت ما أجريت علي من رزقك فيما نهيتني عنه من معصيتك؛ ومن أبعد غوراً في الباطل، وأشد إقداماً على السوء مني حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان، فأتابع دعوته على غير عَمى عن المعرفة به، ولا نسيان من حفظي له؛ وأنا حينئذ موقن أن منتهى دعوتك الجنة، ومنتهى دعوته النار.

سبحانك فما أعجب ما أشهد به على نفسي، واعدده من مكنون أمري؛ وأعجب من ذلك أناتك عني، وإبطاؤك عن معاجليتي؛ وليس ذلك من كرمي عليك، بل تأنياً منك بي وتفضلاً منك علي، لأن أرتدع عن خطيئي، ولأن عفوك أحب إليك من عقوبيتي. بل أنا يا إلهي أكثر ذنباً، وأقبح آثاراً، وأشنع أفعالاً، وأشد في الباطل قهوراً، وأضعف عند طاعتك تيقظاً، وأغفل لوعيدك انتباهاً؛ من أن أحصي لك عيوبي، وأقدر على تعديد ذنوبي؛ وإنما أوبخ بهذا نفسي طمعاً في رافتك التي بها صلاح أمر المذنبين، ورجاء لعصمتك التي بها فكك رقاب الخاطئين. اللهم وهذه رقبي قد أرقتها الذنوب فأعتقها بعفوك؛ وقد أثقلتها الخطايا فخفف عنها بمنك. اللهم إني لو بكيت حتى تسقط أشفار عيني؛ وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشر قدمي، وركعت لك حتى ينجذع صليي، وسجدت لك حتى تتفقا حدقتاي، وأكلت التراب طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهرتي؛ وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك؛ لما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي؛ فإن كنت تغفر لي حين أستوجب مغفرتك، وتغفو عني حين أستحق عفوك؛ فإن ذلك غير واجب لي بالاستحقاق، ولا أنا أهل له على الاستيجاب؛ إذ كان جزائي منك من أول ما عصيتك النار؛ فإن تعذبني فإنك غير ظالم.

إلهي فإن تغمدتني بسترِكَ فلم تفضحني، وأمهلتنني بكرمك فلم تعاجلني. وحلمت عني بتفضلك فلم تغير نعمك علي، ولم تكدر معروفك عندي، فارحم طول تضرعي، وشدة مسكنتي، وسوء موقعي.

اللهم صل على محمد وآل محمد، وأنقذني من المعاصي، واستعملني بالطاعة، وارزقني حسن الإنابة، وطهرني بالتوبة، وأيديني بالعصمة، واستصلحني بالعافية، وارزقني حلاوة المغفرة، واجعلي طليق عفوك، واكتب لي أماناً من سخطك، وبشرني بذلك في العاجل دون الآجل؛ بشرى أعرفها، وعرفني له علامة أتبينها؛ إن ذلك لا يضيق عليك في وجدك، ولا يتكأذك في قدرتك، وأنت على كل شيء قدير.

ومن أدعيته رضي الله عنه؛ وهو من أدعية الصحيفة: اللهم يا ذا الملك المتأبد بالخلود والسلطان؛ الممتنع بغير جنود، والمعز الباقي على مر الدهور؛ عز سلطانك عزاً لا حد له ولا منتهى لآخره، واستعلى ملكك علواً سقطت الأشياء دون بلوغ أمدّه، ولا يبلغ أدق ما استأثرت به من ذلك نعوت أقصى نعت الناعتين، ضلت فيك الصفات، وتفسخت دونك النعوت، وحارت في كبرياتك لطائف الأوهام.

كذلك أنت الله الأول في أوليتك، وعلى ذلك أنت دائم لا تزول، وكذلك أنت الله في آخريتك، وكذلك أنت ثابت لا تحول، وأنا العبد الضعيف عملاً، الجسيم أملاً، خرجت من يدي أسباب الوصلات إلى رحمتك، وتقطعت عني عصم الامال إلا ما أنا معتصم به من عفوك. قل عندي ما أعتد به من طاعتك، وكثر عندي ما أبوء به من معصيتك؛ ولن يفوتك عفو عن عبدك وإن أساء؛ فاعف عني.

اللهم قد أشرف على كل خطايا الأعمال علمك، وانكشف كل مستور عند خبرك؛ فلا ينطوي عنك دقائق الأمور، ولا يعزب عنك خفايا السرائر؛ وقد هربت إليك من صغائر ذنوب موبقة، وكبائر أعمال مردية، فلا شفيع يشفع لي إليك، ولا خفير يؤمني منك، ولا حصن يحجيني عنك، ولا ملاذ الجأ إليه غيرك، هذا مقام العائذ بك، ومحل المعترف لك، فلا يضيّقني فضلك، ولا يقصرن دوني عفوك، ولا أكون أخيب عبادك التائبين، ولا أقنط وفودك الآملين؛ واغفر لي إنك خير الغافرين.

اللهم إنك أمرتني فغفلت، ونهيتني فركبت، وهذا مقام من استحيا لنفسه منك، وسخط عليها ورضي عنك؛ وتلقاك بنفس خاشعة، وعين خاضعة، وظهر مثقل من الخطايا، واقفاً بين الرغبة إليك والرغبة منك؛ وأنت أولى من رجاءه، وأحق من خشيه واتقاه؛ فأعطني يا رب ما رجوت، وآمني ما حذرت، وعد علي بفضلك ورحمتك؛ إنك أكرم المسؤولين. اللهم وإذ سترتني بعفوك، وتغمدتني بفضلك في دار الفناء، فأجربي من فضيحات دار البقاء عند مواقف الأشهاد؛ من الملائكة المقربين، والرسل المكرمين، والشهداء الصالحين: من جارٍ كنت أكاتمته سيئاتي، ومن ذي رحمٍ كنت أحتشم منه لسرياتي؛ لم أثق بهم في الستر علي، ووثقت بك في المغفرة لي، وأنت أولى من وثق به، وأعطى من رغب إليه، وأرأف من استرحم؛ فارحمي.

اللهم إني أعوذ بك من نار تغلظت بها على من عصاك، وأوعدت بها من ضارك وناواك، وصدف عن رضاك. ومن نار نورها ظلمة؛ وهينها صعب؛ وقريبها بعيد. ومن نار يأكل بعضها بعضاً، ويصول بعضها على بعض؛ ومن نار تذر العظام رميمًا، وتسقي أهلها حميمًا، ومن نار لا تبقي على من تضرع، ولا ترحم من استعطفها، ولا تقدر على التخفيف عمن خشع لها، واستبتل إليها، تلقى سكانها بأحر ما لديها من أليم النكال، وشديد الوبال. اللهم بك أعوذ من عقاربها الفاغرة أفواهها وحياتها الناهشة بأنيابها، وشرابها الذي يقطع الأمعاء، ويذيب الأحشاء؛ وأستهديك لما باعد عنها، وأنقذ منها، فأجربي بفضل رحمتك؛ وأقلني عثرتي بحسن إقامتك، ولا تخذلي يا خير المجيرين. اللهم صل على محمد وآل محمد إذا ذكر الأبرار، وصل على محمد وآل محمد ما اختلف الليل والنهار، صلاة لا ينقطع مددها، ولا يحصى عددها، صلاة تشحن الهواء، وتملأ الأرض والسماء.

صل اللهم عليه وعليهم حتى ترضى، وصل عليه وعليهم بعد الرضا صلاة لا حد لها، ولا منتهى؛ يا أرحم الراحمين. ومن دعائه رضي الله عنه، وهو من أدعية الصحيفة: اللهم إني أعوذ بك من هيجان الحرص وسورة الغضب، وغلبة الحسد وضعف الصبر، وقلة القناعة، وشكاسة الخلق، وإلحاح الشهوة، وملكة الحمية، ومتابعة الهوى، ومخالفة الهدى وسنة الغفلة، وتعاطي الكلفة، وإيثار الباطل على الحق، والإصرار على المأثم، والاستكثار من المعصية، والإقلال من الطاعة، ومباهاة المكثرين، والإزراء على المقلين، وسوء الولاية على من تحت أيدينا، وترك الشكر لمن اصطنع العارفة عندنا، وأن نعضب ظالمًا، أو نخذل ملهوفًا، أو نروم ما ليس لنا بحق، أو نقول بغير علم، ونعوذ بك أن ننطوي على غش لأحد، وأن نعجب بأموالنا وأعمالنا، وأن نمد في آمالنا. ونعوذ بك من سوء السريرة، واحتقار الصغيرة، وأن يستحوذ علينا الشيطان، أو يشتد لنا الزمان؛ أو يتهضمنا السلطان، ونعوذ بك من حب الإصراف، وفقدان الكفاف، ومن شماتة الأعداء، والفقر إلى

الأصدقاء، من عيشة في شدة، أو موت على غير عدة، ونعوذ اللهم بك من الحسرة العظمى، والمصيبة الكبرى، ومن سوء المآب، وحرمان الثواب، وحلول العقاب، اللهم أعزنا من كل ذلك برحمتك ومنك وجودك، إنك على كل شيء قدير. ومن دعائه رضي الله عنه وتحميده، وذكره النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من أدعية الصحيفة أيضاً: الحمد لله بكل ما حمده أدق ملائكته إليه، وأكرم خلقه عليه، وأرضى حامديه لديه؛ حمداً يفضل سائر الحمد، كفضل ربنا - جل جلاله - على جميع خلقه.

ثم له الحمد مكان كل نعمة له علينا، وعلى جميع عبادته الماضين والباقيين، عدد ما أحاط به علمه، ومن جميع الأشياء أضعافاً مضاعفة، أبداً سرمداً إلى يوم القيامة، وإلى ما لا نهاية له من بعد القيامة؛ حمداً لا غاية لحده، ولا حساب لعدده، ولا مبلغ لأعدادده، ولا انقطاع لآماده؛ حمداً يكون وصلة إلى طاعته، وسبباً إلى رضوانه، وذريعة إلى مغفرته، وطريقاً إلى جنته، وخفيراً من نعمته وأمناً من غضبه، وظهيراً على طاعته، وحاجزاً عن معصيته؛ وعوناً على تأدية حقه ووظائفه؛ حمداً نسعد به في السعداء من أوليائه، وننتظم به في نظام الشهداء بسيوف أعدائه. والحمد لله الذي من علينا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم دون الأمم الماضية، والقرون السالفة؛ لقدرة التي لا تعجز عن شيء وإن عظم، ولا يفوقها شيء وإن لطف.

اللهم فصل على محمد أمينك على وحيك، ونجيك من خلقتك، وصفيك من عبادك. إمام الرحمة وقائد الخير، ومفتاح البركة، كما نصب لأمرك نفسه، وعرض فيك للمكروه بدنه، وكاشف في الدعاء إليك حاسته، وحارب في رضاك أسرتك، وقطع في نصرة دينك رحمه، وأقصى الأذنين على عنودهم عنك، وقرب الأفصين على استجابتهم لك؛ ووالى فيك الأبعدين، وعاند فيك الآقرين، وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك، وأتعبها في الدعاء إلى ملتك، وشغلها بالنصح لأهل دعوتك، وهاجر إلى بلاد الغربة ومحل النأي عن موطن رحله، وموضع رحله، ومسقط رأسه، ومأنس نفسه؛ إرادة منه لإعزاز دينك، واستنصاراً على أهل الكفر بك؛ حتى استتب له ما حاول في أعدائك، واستتم له ما دبر في أوليائك، فنهد إلى المشركين بك، مستفتحاً بعونك، ومتقوياً على ضعفه بنصرتك، فغزاهم في عقر ديارهم وهجم عليهم في مجبوحة قرارهم؛ حتى ظهر أمرك، وعلت كلمتك؛ وقد كره المشركون.

اللهم فارفعه - بما كدح فيك - إلى الدرجة العليا من جنتك؛ حتى لا يساوى في منزلة، لا يكافأ في مرتبة، ولا يوازيه لديك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وعرفه في أمته من حسن الشفاعة أجل ما وعدته، يا نافذ العدة، يا وافي القول، يا مبدل السيئات بأضعافها من الحسنات، إنك ذو الفضل العظيم.

من الأدعية المأثورة عن عيسى عليه السلام

ومن الأدعية المروية عن عيسى بن مريم عليهما السلام: اللهم أنت إله من في السماء، وإله من في الأرض، لا إله فيهما غيرك، وأنت حكيم من في السماء، وحكيم من في الأرض؛ لا حكيم فيهما غيرك؛ وأنت ملك من لا السماء، وملك من

في الأرض، لا ملك فيهما غيرك؛ قدرتك في السماء كقدرتك في الأرض، وسلطانك في السماء كسلطانك في الأرض؛ أسألك باسمك الكريم، ووجهك المنير، وملكك القديم أن تفعل بي كذا وكذا.

من الأدعية المأثورة عن بعض الصالحين

وكان بعض الصالحين يدعو فيقول: اللهم لا تدخلنا النار بعد أن أسكنت قلوبنا توحيدك، وإني لأرجو ألا تفعل؛ وإن فعلت لتجمعن بيننا وبين قوم عاديناهم فيك.

ومن دعاء بعضهم: اللهم إنك لم تشرك في خلقنا غيرك، فلا تشرك في الإحسان إلينا غيرك؛ اللهم لا رب لنا غيرك؛ فلا تجعل حاجتنا عند غيرك. اللهم إنا لا نعبد غيرك، فلا تسلط علينا غيرك.

قام أعرابي على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله؛ قلت فقبلنا، وتلوت فوعينا، ثم ظلمنا أنفسنا، وقرأنا فيما أتيتنا به عن ربنا: "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً"، اللهم إنا قد جئنا رسولك ونحن نستغفرك ونسألك رسولك أن يستغفر لنا خطايانا؛ فاغفر لنا وتب علينا. فيقال: إن إنساناً حضر ذلك الدعاء، فرأى تلك الليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه يقول له: أبلغ الأعرابي أن الله قد غفر له.

ومن أدعية بعض الصالحين: "اللهم إني لم آتكم بعمل صالح قدمته، ولا شفاعة مخلوق رجوته: أتيتك مقراً بالظلم والإساءة على نفسي؛ أتيتك بلا حجة، أتيتك أرجو عظيم عفوك الذي عدت به على الخاطئين؛ ثم لم يمنعك عكوفهم على عظيم الجرم أن جدت لهم بالمغفرة، فيا صاحب العفو العظيم اغفر الذنب العظيم، برحمتك يا أرحم الراحمين".

وروي أن علياً رضي الله عنه اعتمر، فرأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة، وهو يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع؛ يا من لا تقلقه المسائل ولا يبرمه إلحاح الملحين؛ أذقني برد عفوك، وحلاوة مغفرتك، وعدوبة عافيتك؛ والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

فقال علي رضي الله عنه: والذي نفسي بيده إن قالها وعليه مثل السموات والأرض من الذنوب قولاً مخلصاً ليغفرن له. ودعا أعرابي عند الملتزم، فقال: "اللهم إن لك علي حقوقاً فتصدق بها علي، وإن للناس قبلي تبعات فتحملها عني؛ وقد أوجبت لكل ضيف قرى وأنا ضيفك الليلة، فاجعل قراي الجنة".

ودعا بعض الأعراب أيضاً، وقد خرج حاجاً، فقال: اللهم إليك خرجت؛ وما عندك طلبت، فلا تحرمني خير ما عندك، لشر ما عندي؛ اللهم إن كنت لم ترحم تعبي ونصيي؛ فإنها لمصيبة أصبت بها، فلا تحرمني أجر المصاب على المصيبة. ودعا بعضهم فقال: اللهم إنك سترت علينا في الدنيا ذنوباً كثيرة؛ ونحن إلى سترها في الآخرة أحوج؛ فاغفر لنا. ومن دعاء بعضهم: اللهم اجعل الموت خير غائب نتظره، واجعل القبر خير بيت نعلمه؛ واجعل ما بعده خيراً لنا منه. اللهم إليك عجت الأصوات بصنوف اللغات تسألك الحاجات، وحاجتي إليك أن تذكرني عند طول البلى، إذا نسيني أهل الدنيا.

وقال بعضهم: كنت أدعو الله بعد وفاة مالك بن دينار أن أراه في منامي، فرأيته بعد سنة، فقلت: يا أبا يحيى، علمني كيف أدعو؟ فقال: قل: اللهم يسر الجواز، وسهل الحجاز.

وقال الشعبي: حسدت عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعو به على المنبر؛ يقول: اللهم إن ذنوبي كثيرة جلت أن توصف، وهي صغيرة في جنب عفوك، فاعف عني.

ومن دعاء بعض الزهاد: اللهم إني أعوذ بك من أهل يلهيني، ومن هوى يرديني، ومن عمل يخزي، ومن صاحب يغوي، ومن جار يؤذي؛ ومن غنى يطغيني، ومن فقر ينسي. اللهم اجعلنا نستحيك ونتقيك، ونخافك ونخشاك، ونرجوك ونطيعك في السر والعلانية. اللهم استرنا بالمعافاة والغنى؛ أستعين الله على أموري، وأستغفر الله لذنوبي، وأعوذ بك من شر نفسي. ويروى أن رجلاً أعمى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشكا إليه ذهاب بصره، فقال صلى الله عليه وسلم له: قل: يا سبوح يا قدوس، يا نور الأنوار، يا نور السموات والأرض، يا أول الأولين، يا آخر الآخرين، ويا أرحم الراحمين، أسألك أن تغفر لي الذنوب التي تغير النعم، والذنوب التي تنزل النقم، والذنوب التي تهتك العصم، والذنوب التي توجب البلاء، والذنوب التي تقطع الرجاء، والذنوب التي تحبس الدعاء، والذنوب التي تكشف الغطاء، والذنوب التي تعجل الفناء، والذنوب التي تظلم الهواء، وأسألك باسمك العظيم، ووجهك الكريم، أن ترد علي بصري، فدعا بذلك فرد عليه بصره.

ومن الآثار المنقولة، أن الله تعالى غضب على أمة فأنزل عليهم العذاب، وكان فيهم ثلاثة صالحون، فخرجوا وابتهلوا إلى الله سبحانه، فقام أحدهم فقال: اللهم إنك أمرتنا أن نعق أرقاءنا ونحن أرقاؤك؛ فأعتقنا، ثم جلس. وقام الثاني، فقال: اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، ثم جلس. وقام الثالث فقال: اللهم إنا على ثقة أنك لم تخلق خلقاً أوسع من مغفرتك، فاجعل لنا في سعتها نصيباً؛ فرفع عنهم العذاب.

قال لسفيان بن عيينة: ما حديث رويته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل دعاء أعطيته أنا والنبيون قبلي: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير"، كأنهم لم يروه دعاء؛ فقال: ما تنكرون من هذا؟ ثم روى لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تشاغل بالثناء على الله، أعطاه الله فوق رغبة السائلين". ثم قال: هذا أمية بن أبي الصلت يقول لابن جدعان:

حياؤك؟ إن شيمتك الحياء

كفاه من تعرضه الثناء

أذكر حاجتي أم قد كفاني

إذا أتني عليك المرء يوماً

وقال: هذا مخلوق يقول لمخلوق، فما ظنكم برب العالمين.

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك". ومن دعائه رضي الله عنه: "اللهم ارزقني عينين هطاليتين تسقيان القلوب مذروف الدموع، قبل أن يكون الدمع دماً، وقرع الضرر ندماً".

ومن دعائه رضي الله عنه: "اللهم طهر لساني من الكذب، وقلبي من النفاق، وعملي من الرياء، وبصري من الخيانة، فإنك

تعلم خاتمة الأعين وما تخفي الصدور".

ومن رواية جابر بن عبد الله: "لقد بارك الله للرجل في الحاجة بكثرة الدعاء فيها، أعطىها أو منعها".

أبو هريرة يرفعه: "اللهم أصلح لي في ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخري التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر".

قيل لأعرابي: أتحسن أن تدعو ربك؟ فقال: نعم، ثم دعا فقال: اللهم إنك مننت علينا بالإسلام من غير أن نسألك، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك.

لم سمعت أعرابية تقول في دعائها: يا عريض الجفن، يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه؛ فزجرها رجل، فقالت: دعوني أصف ربي بما يستحقه.

وكان موسى بن جعفر رضي الله عنه يقول في سجوده آخر الليل: إلهي عظم الذنب من عبدك، فليحسن العفو من عندك.

ذكر عند بعض الصالحين رجل قد أصابه بلاءٌ عظيم؛ وهو يدعو فتبطلت عنه الإجابة، فقال: بلغني أن الله تعالى يقول: كيف أحرم المبتلى من شيء أرحمه به.

قال طاوس: إني لفي الحجر ليلة إذ دخل علي بن الحسين رضي الله عنه، فقلت: رجل صالح من أهل بيت صالح؛ لأسمع دعاءه؛ فسمعتة يقول في أثناء دعائه: عبدك بفنائك، سائلك بفنائك، مسكينك بفنائك. فما دعوت بهن في كرب إلا وفرج عني. "عمر بن ذر: اللهم إن كنا عصيانك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك؛ وهو الإشراك، وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك، فقد تمسكنا منها بأحبها إليك، وهو شهادة أن لا إله إلا أنت، وأن رسلك جاءت بالحق من عندك. أعراب: اللهم إنا نبات نعمتك، فلا تجعلنا حصائد نعمتك.

بعضهم: اللهم إن كنت قد بلغت أحدا من عبادك الصالحين درجة ببلاء، فبلغنيها بالعافية.

حج أعرابي، فكان لا يستغفر إذا صلى كما يستغفر الناس، فقليل له، فقال: كما أن تركي الاستغفار مع ما أعلم من عفو الله ورحمته ضعف، فكذلك استغفاري مع ما أعلم من إصراري لؤم.

لما صاف قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقليل: هو في أقصى الميمنة جانحاً على سية قوسه، مبصبصاً بإصبعه نحو السماء، فقال قتيبة: لتلك الإصبع القارورة، أحب إلي من مائة ألف سيف شهير، ورمح طير. سمع مطرف بن الشخير صيحة الناس بالدعاء، فقال: لقد هممت أن أحلف أن الله غفر لهم، ثم ذكرت أني فيهم فكففت. كان المأمون إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول: الحمد لله الذي جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا.

الحسن البصري: من دخل المقبرة فقال: اللهم رب الأرواح العالية، والأجساد البالية، والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي مؤمنة بك؛ أدخل عليهم روحاً منك وسلاماً مني؛ كتب الله له بعدد من ولد - منذ زمن آدم إلى أن تقوم الساعة - حسنات.

علي رضي الله عنه: الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض.

قيل: إن فيما أنزله الله تعالى من الكتب القديمة: إن الله يتلى العبد وهو يحبه؛ ليسمع دعاءه وتضرعه.

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

أبو هريرة: اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات من رحمة الله تعالى، فإن الله تعالى نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم.

صلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك، فلما سلم الإمام وقام عجلًا، فجذب عبد الله بثوبه، وقال: أما لك إلى ربك حاجة.

قيل لعمر بن عبد العزيز: جزاك الله عن الإسلام خيرًا؟ فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا.

علي رضي الله عنه: الداعي بغير عمل كالرامي بغير وتر.

كان الزهري إذا فرغ من الحديث تلاه، فدعا: اللهم إني أسألك خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة.

كان زبيد النامي يستتبع الصبيان إلى المسجد، وفي كفه الجوز، ويقول: من يتبعني منكم فأعطيه خمس جوزات؛ فإذا دخلوا المسجد، قال ارفعوا أيديكم وقولوا: اللهم اغفر لزيد، فإذا دعوا قال: اللهم استجب لهم، فإنهم لم يذنبوا.

علي رضي الله عنه: جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابتها، فإن العطية على قدر النية، وربما أخرت عنك الإجابة، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الأمل؛ وربما سألت الشيء فلا تؤتاه، وأوتيت خيرًا منه، أو صرف عنك بما هو لك خير. واعلم أنه رب أمر قد طلبت؛ فيه هلاك دينك لو أوتيته.

ومن الدعاء المرفوع: اللهم من أراد بنا سوءاً فأحط به ذلك السوء كإحاطة القلائد بترائب الولايد، وأرسخه على هامته كرسوخ السجيل على قمم أصحاب الفيل.

سمع عمر رجلاً يقول في دعائه: اللهم اجعلني من الأقلين فقال: ما أردت بهذا؟ قال: قول الله عز وجل: "وما آمن معه إلا قليل"، وقوله تعالى: "وقليل من عبادي الشكور"، فقال: عليكم من الدعاء بما عرف.

قال سعيد بن المسيب: مر بي صلة بن أشيم؛ فقلت له: ادع لي، فقال: رغبت الله فيما يبقى، وزهدك فيما يفنى، ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه، ولا تعول إلا عليه.

كان علي بن عيسى بن ماهان صاحب خراسان، وفي أيامه عصام بن يوسف الزاهد فلقه في الطريق، وسلم عليه علي، فأعرض عنه ولم يرد عليه، فوقف علي، ورفع يديه وأسبل عينيه، وقال: اللهم إن هذا الرجل يتقرب إليك ببغضي، وأنا أتقرب إليك بحبه، فإن كنت غفرت له ببغضي، فاغفر لي بحبه، يا كريم؛ ثم سار.

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يدعو ويقول: اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان بعيداً فقربه، وإن كان قريباً فيسره، وإن كان قليلاً فكثره، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه.

من دعاء عمرو بن عبيد: اللهم أغني بالافتقار إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك؛ اللهم أعني على الدنيا بالقناعة؛ وعلى الدين بالعصمة.

شكا رجل إلى الحسن رحمه الله تعالى رجلاً يظلمه، فقال له: إذا صليت الركعتين بعد المغرب، فاسجد وقل: يا شديد

القوى، يا شديد الحال، يا عزيز، أذلت لعزك جميع من خلقت، فصل على محمد وآل محمد، واكفني مؤنة فلان بما شئت. فدعا بها فلم يرعه إلا الواعية بالليل. فسأل، فقيل: مات فلان فجأة.

قال موسى عليه السلام: يا رب إنك لتعطيني أكثر من أمني، قال: لأنك تكثر من قول: ما شاء الله؛ لا قوة إلا بالله. كان بعض الصالحين يقول قبل الصلاة: يا محسن، قد جاءك المني، وقد أمرت المحسن أن يتجاوز عن المني، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك. اللهم ارزقني عمل الخائفين وخوف العاملين؛ حتى أنعم بترك التنعم طمعاً فيما وعدت، وخوفاً مما أوعدت.

ومن الأدعية الجامعة: اللهم أغني بالعلم، وزيني بالحلم، وجملي بالعافية، وكرمني بالتقوى. أحمد بن يوسف كاتب المأمون؛ إذا دخل عليه حياه بتحية أبرويز الملك: عشت الدهر، ونلت المني، وجنبت طاعة النساء. ومن الدعاء المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها. اللهم أنعشني وأجزني وانصربي واهدني لصالح الأعمال والأخلاق؛ إنه لا يهدي لصالحها، ولا يصرف عن سيئها إلا أنت. اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم؛ وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب.

آداب الدعاء

قالوا: ومن آداب الدعاء أن ترصد له الأوقات الشريفة، كما بين الأذان والإقامة، وكوقت السجود ووقت السحر؛ ويستحب أن يدعو مستقبل القبلة رافعاً يديه؛ لما روى سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ربكم كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً"، ويستحب أن يمسخ بهما وجهه بعد الدعاء، فإن ذلك قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويكره أن يرفع بصره إلى السماء، لقوله رضي الله عنه: "ليتنهين أقوامٌ عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو لتخطفن أبصارهم"، وقد رخص في ذلك للصديقين والأئمة العادلين. ويستحب أن يخفض صوته، لقوله تعالى: "ادعوا ربكم تضرعاً وخفية". وقد روي أن عمر سمع رجلاً يجهر بالدعاء، فقال: لكن زكريا نادى ربه نداء خفياً.

ويكره أن يتكلف الكلام المسجوع، وشمحب الإتيان بالمطبوع منه، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والسجع في الدعاء، بحسب أحدكم أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل".

وقيل في الوصية الصالحة: ادع ربك بلسان الذلة والاحتقار. لا بلسان الفصاحة والتشدد. وقال سفيان بن عيينة: لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلمه من نفسه، فإن الله تعالى أجاب دعاء شر خلقه إبليس حيث قال: "أنظرني".

النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الإجابة، فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. ومن أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل: الحمد لله على كل حال".
ومن الآداب أن يفتتح بالذكر وألا يتبدىء بالمسألة، كان رسول الله ض قبل أن يدعو يقول: "سبحان رب العلي الوهاب".

أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله تعالى حاجته فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يسأل حاجته، ثم بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين؛ وهو أكرم من أن يدع ما بينهما. ومن دعاء علي رضي الله عنه: "اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبدل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلي بحمد من أعطاني، وأفتتن بدم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله ولي الإعطاء والمنع، إنك على كل شيء قدير".

ومن دعاء الحسن رحمه الله تعالى: "اللهم إني أعوذ بك من قلب يعرف، ولسان يصف، وأعمال تخالف".
ومن دعاء أهل البيت رضي الله عنهم، وفيه رائحة من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه الذي نحن في شرحه: اللهم إني أستغفرك لما تبنت منه إليك ثم عدت فيه، وأستغفرك لما وعدتك من نفسي ثم أخلفتك، وأستغفرك للنعم التي أنعمت بها علي، فتقويت بها على معصيتك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أذنبته ومعصية ارتكبتها في ضياء النهار وظلام الليل في ملا أو خلا أو سر أو علانية. وأستغفرك من كل ذنب تمكنت منه بعافيتك، ونالته يدي بفضل نعمتك، وانبسطت إليه بسعة رزقك، واحتجبت فيه عن الناس بستر، واتكلت فيه على كرم عفوك. اللهم إني أعوذ بك أن أقول حقاً ليس فيه رضاك، ألتمس به أحداً سواك، وأعوذ بك أن أترين للناس بشيء يشينني عندك، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك، وأن يكون أحد من خلقك أسعد بما علمتني مني، وأعوذ بك أن أستعين بمعصية لك على ضر يصيبني.
كان أبو مسلم الخولاني إذا أهمه أمر قال: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين.
ومن دعاء علي رضي الله عنه: اللهم إن تهمت عن مسألي وأعميت عن طلبتي، فدلني على مصالحتي، وخذ بقلبي إلى مراشدتي. اللهم احملني على عفوك، ولا تحملي على عدلك.

ومن كلام له عليه السلام

الأصل: ومن كلام له رضي الله عنه قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج، وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت، خشيت ألا تظفر بمراك من طريق علم النجوم، فقال رضي الله عنه: أترعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرت عنه السوء، وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر؛ فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن، وأستغنى عن استعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يولييك الحمد دون ربه؛ لأنك - بزعمك - أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع، وأمن الضر.
ثم أقبل رضي الله عنه على الناس فقال: أيها الناس، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة؛ المنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار؛ سيروا على اسم الله.

الشرح: حاق به الضر، أي أحاط به؛ قال تعالى: "ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله".
ويوليكم الحمد، مضارع "أولاك"؛ وأولاك معدى بالهمزة من "ولي"، يقال: ولي الشيء ولاية وأوليته ذلك؛ أي جعلته والياً له ومتسلطاً عليه. والكاهن: واحد الكهان وهم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين بكثير من الغائبات.

اختلاف الناس في أحكام النجوم

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أحكام النجوم، فأنكرها جمهور المسلمين والمحققون من الحكماء؛ ونحن نتكلم ههنا في ذلك ونبحث فيه بحثين: بحثاً كلامياً، وبحثاً حكماً.

أما البحث الكلامي؛ هو أن يقال: إما أن يذهب المنجمون إلى أن النجوم مؤثرة، أو أمارات.
والوجه الأول ينقسم قسمين: أحدهما أن يقال: إنها تفعل بالاختيار، والثاني أن تفعل بالإيجاب، والقول بأنها تفعل بالاختيار باطل؛ لأن المختار لا بد أن يكون قادراً حياً، والإجماع من المسلمين حاصل على أن الكواكب ليست حية ولا قادرة، والإجماع حجة، وقد بين المتكلمون أيضاً أن من شرط الحياة الرطوبة، وأن تكون الحرارة على قدر مخصوص، متى أفرط امتنع حلول الحياة في ذلك الجسم؛ فإن النار على صرافتها يستحيل أن تكون حية؛ وأن تحلها الحياة لعدم الرطوبة وإفراط الحرارة فيها واليبس، والشمس أشد حرارة من النار؛ لأنها على بعدها تؤثر ما تؤثره النار على قربها؛ وذلك دليل على أن حرارتها أضعاف حرارة النار؛ وبينوا أيضاً أنها لو كانت حية قادرة لم يجوز أن تفعل في غيرها ابتداء؛ لأن القادر بقدرة لا يصح منه الاختراع؛ وإنما يفعل في غيره على سبيل التوليد؛ ولا بد من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه، والكواكب غير مماسة لنا، فلا وصلة بينها وبيننا؛ فيستحيل أن تكون فاعلة فينا. فإن ادعى مدع أن الوصلة هي الهواء، فعن ذلك أجوبة: أحدها: أن الهواء لا يجوز أن يكون وصلة وآلة في الحركات الشديدة وحمل الأثقال، لا سيما إذا لم يتموج، والثاني: أنه كان يجب أن نحس بذلك، ونعلم أن الهواء يحركنا ويصرفنا؛ كما نعلم في الجسم إذا حركنا وصرفنا بآلة موضع تحريكه لنا بتلك الآلة، والثالث: أن في الأفعال الحادثة فينا ما لا يجوز أن يفعل بآلة، ولا يتولد عن سبب؛ كالإرادات والاعتقادات ونحوها. وقد دلل أصحابنا أيضاً على إبطال كون الكواكب فاعلة للأفعال فينا، بأن ذلك يقتضي سقوط الأمر والنهي، والمدح والذم، ويلزمهم ما يلزم المجرة، وهذا الوجه يبطل كون الكواكب فاعلة فينا بالإيجاب، كما يبطل كونها فاعلة بالاختيار. وأما القول بأنها أمارات على ما يحدث ويتجدد؛ فيمكن أن ينصر بأن يقال: لم لا يجوز أن يكون الله تعالى أجرى العادة، بأن يفعل أفعالاً مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتصاله بكوكب آخر.

والكلام على ذلك بأن يقال: هذا غير ممتنع لو ثبت سمع مقطوع به يقتضي ذلك؛ فإن هذا مما لا يعلم بالعقل. فإن قالوا: نعلم بالتجربة، قيل لهم: التجربة إنما تكون حجة إذا استمرت واطردت؛ وأنتم خطؤكم فيما تحكمون به أكثر من صوابكم، فهلا نسبتم الصواب الذي يقع منكم إلى الاتفاق والتخمين فقد رأينا من أصحاب الزرق والتخمين من يصيب أكثر مما يصيب المنجم، وهو من غير أصل صحيح ولا قاعدة معتمدة ومتى قلتم: إنما أخطأ المنجم لغلطه في تسيير

الكواكب؛ قيل لكم: ولم لا يكون سبب الإصابة اتفاقاً وإنما يصح لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع، هو غير إصابة المنجم.

فأما إذا كان دليل صحة الأحكام الإصابة، فهلا كان دليل فسادها الخطأ، فما أحدهما إلا في مقابلة صاحبه.

ومما قيل على أصحاب الأحكام، إن قيل لهم في شيء بعينه: خذوا الطالع واحكموا، أيؤخذ أم يترك؛ فإن حكموا بأحدهما خولفوا، وفعل خلاف ما أخبروا به؛ وهذه المسألة قد أعضل عليهم جوابها.

وقال بعض المتكلمين لبعض المنجمين: أخبرني، لو فرضنا جادة مسلوكة، وطريقاً يمشي فيها الناس نهاراً وليلاً؛ وفي تلك المحجة آبار متقاربة، وبين بعضها وبعض طريق يحتاج سالكه إلى تأمل وتوقف؛ حتى يتخلص من السقوط في بعض تلك الآبار؛ هل يجوز أن تكون سلامة من يمشي بهذا الطريق من العميان كسلامة من يمشي فيه من البصراء، والمفروض أن الطريق لا يخلو طرفة عين من مشاة فيها عميان ومبصرون؟ وهل يجوز أن يكون عطب البصراء مقارباً لعطب العميان. فقال المنجم: هذا مما لا يجوز، بل الواجب أن تكون سلامة البصراء أكثر من سلامة العميان. فقال المتكلم: فقد بطل قولكم؛ لأن مسألتنا نظير هذه الصورة، فإن مثال البصراء هم الذين يعرفون أحكام النجوم، ويميزون مساعدتها من مناحسها، ويتوقون بهذه المعرفة مضار الوقت والحركات ويتخطونها ويعتمدون منافعها ويقصدونها، ومثال العميان كل من لا يحسن علم النجوم؛ ولا يقولون به من أهل العلم والعامة، وهم أضعاف أضعاف عدد المنجمين. ومثال الطريق الذي فيه الآبار، الزمان الذي مضى ومر على الخلق أجمعين، ومثال آباره مصائبه ومحنه.

وقد كان يجب - لو صح علم أحكام النجوم لا - أن سلامة المنجمين أكثر ومصائبهم أقل؛ لأنهم يتوقون الحن ويتخطونها لعلمهم بما قبل كونها، وأن تكون محن المعرضين عن علم أحكام النجوم على كثرتهم أوفر وأظهر؛ حتى تكون سلامة كل واحد منهم هي الطريقة الغريبة؛ والمعلوم خلاف ذلك، فإن السلامة والحن في الجميع متقاربة متناسبة غير متفاوتة. وأما البحث الحكمي في هذا الموضوع؛ فهو أن الحادث في عالم العناصر عند حلول الكوكب المخصوص في البرج المخصوص؛ إما أن يكون مقتضي له مجرد ذلك الكوكب أو مجرد ذلك البرج، أو حلول ذلك الكوكب في ذلك البرج. فالأولان باطلان؛ وإلا لوجب أن يحدث ذلك الأمر قبل أن يحدث، والثالث باطل أيضاً؛ لأنه إما أن يكون ذلك البرج مساوياً لغيره من البروج في الماهية، أو مخالفاً. والأول يقتضي حدوث ذلك الحادث حال ما كان ذلك الكوكب حالاً في غيره من البروج؛ لأن حكم الشيء حكم مثله، والثاني يقتضي كون كرة البروج متخالفة الأجزاء في أنفسها؛ ويلزم في ذلك كونها مركبة، وقد قامت الدلالة على أنه لا شيء من الأفلاك بمركب.

وقد اعترض على هذا الدليل بوجهين: أحدهما: أنه لم لا يجوز أن تختلف أفعال الكواكب المتحيرة عند حلولها في البروج، لا لاختلاف البروج في نفسها، بل لاختلاف ما في تلك البروج من الكواكب الثابتة المختلفة الطبائع.

الوجه الثاني: لم لا يجوز أن يقال: الفلك التاسع مكوكب بكواكب صغار لا نراها لغاية بعدها عنا، فإذا تحركت في كرات تدويرها سامتت مواضع مخصوصة من كرة الكواكب الثابتة؛ وهي فلك البروج، فاختلفت آثار الكواكب المتحيرة عند حلولها في البروج، باعتبار اختلاف تلك الكواكب الصغيرة؛ ولم لا يجوز إثبات كرة بين الكرة الثامنة، وبين الفلك

الأطلس المدبر لجميع الأفلاك من المشرق إلى المغرب، وتكون تلك الكرة المتوسطة بينهما بطيئة الحركة بحيث لا تضي أعمارنا بالوقوف على حركتها؛ وهي مكوكبة بتلك الكواكب الصغار المختلفة الطبائع؟.

وأجيب عن الأول، بأنه لو كان الأمر كما ذكر، لوجب أن تختلف بيوت الكواكب وإشرافها وحدودها عند حركة الثوابت بحركة فلکها، حتى إنما تتقدم على مواضعها في كل مائة سنة على رأي المتقدمين، أو في كل ست وستين سنة على رأي المتأخرين درجة واحدة؛ لكن ليس الأمر كذلك، فإن شرف القمر، كما أنه في زماننا في درجة الثالثة من الثور، فكذلك كان عند الذين كانوا قبلنا بألف سنة وبألفي سنة. وأما الوجه الثاني فلا جواب عنه.

واعلم أن الفلاسفة قد عولت في إبطال القول بأحكام النجوم على وجه واحد، وهو أن مبنى هذا العلم على التجربة، ولم توجد التجربة فيما يدعيه أرباب علم النجوم، فإن ههنا أموراً لا تتكرر إلا في الأعمار المتطاولة مثل الأدوار والألوف التي زعم أبو معشر أنها هي الأصل في هذا العلم، ومثل مماسة جرم زحل للكرة المكوكبة، ومثل انطباق معدل النهار على دائرة فلک البروج، فإنهم يزعمون أن ذلك يقتضي حدوث طوفان الماء وإحاطته بالأرض من جميع الجوانب، مع أن هذه الأمور لا توجد إلا في ألوف الألوف من السنين؛ فكيف تصح أمثال هذه الأمور بالتجربة.

وأيضاً، فإننا إذا رأينا حادثاً حدث عند حلول كوكب مخصوص في برج مخصوص فكيف نعلم استناد حدوثه إلى ذلك الحلول؛ فإن في الفلك كواكب لا تخصى، فما الذي خصص حدوث ذلك الحدوث بحلول ذلك الكوكب في ذلك البرج لا غيره؛ وبتقدير أن يكون لحلوله تأثير في ذلك، فلا يمكن الجزم قبل حلوله بأنه إذا حل في البرج المذكور لا بد أن يحدث ذلك الحادث، لجواز أن يوجد ما يبطل تأثيره؛ نحو أن يحل كوكب آخر في برج آخر، فيدفع تأثيره، ويبطل عمله؛ أو لعل المادة الأرضية لا تكون مستعدة لقبول تلك الصورة، وحدوث الحادث، كما يتوقف على حصول الفاعل يتوقف على حصول القابل، وإذا وقع الشك في هذه الأمور بطل القول بالجزم بعلم أحكام النجوم؛ وهذه الحجة جيدة إن كان المنجمون يطلبون القطع في علمهم. فأما إن كانوا يطلبون الظن فإن هذه الحجة لا تفسد قولهم. فأما أبو البركات بن ملكا البغدادي صاحب كتاب "المعتبر" فإنه أبطل أحكام النجوم من وجه وأثبتته من وجه.

قال: أما من يريد تطبيق علم أحكام النجوم على قاعدة العلم الطبيعي فإنه لا سبيل له إلى ذلك، فإننا لا نتعلق من أقوالهم إلا بأحكام يحكمون بها من غير دليل؛ نحو القول بحر الكواكب وبردها أو رطوبتها، وبيوستها واعتدالها، كقولهم: إن زحل بارد يابس، والمشتري معتدل؛ والاعتدال خير والإفراط شر، وينتجون من ذلك أن الخير يوجب سعادة، والشر يوجب منحسة، وما جانس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تنتجهم ممداتهم في أنظارهم؛ وإنما الذي أنتجته هو أن الأجرام السماوية فعالة فيما تحويه وتشتمل عليه وتحرك حوله فعلاً على الإطلاق غير محدود بوقت؛ ولا مقدر بتقدير، والقائلون بالأحكام ادعوا حصول علمهم بذلك؛ من توقيف وتجربة لا يطابق نظر الطبيعي.

وإذا قلت بقول الطبيعي بحسب أنظاره أن المشتري سعد، والمريخ نحس، أو أن زحل بارد يابس، والمريخ حار يابس؛ والحر والبارد من الملموسات؛ وما دل على هذا المس وما استدل عليه بلمس كتأثيره فيما يلمسه؛ فإن ذلك لم يظهر للحس في غير الشمس، حيث تسخن الأرض بشعاعها؛ ولو كان في السماويات شيء من طبائع الأضداد؛ لكان الأولى

أن تكون كلها حارة؛ لأن كواكبها كلها منيرة.

ومتى يقول الطبيعي بتقطيع الفلك وتقسيمه إلى أجزاء، كما قسمه المنجمون قسمة وهمية إلى بروج ودرج ودقائق؛ وذلك جائز للمتوهم، كجواز غيره، وليس بواجب في الوجود ولا حاصل، فنقلوا ذلك التوهم الجائز إلى الوجود الواجب في أحكامهم، وكان الأصل فيه على زعمهم حركة الشمس والأيام والشهور، فحصلوا منها قسمة وهمية، وجعلوها كالحاصلة الوجودية المثمرة بحدود وخطوط، كأن الشمس بحركتها من وقت إلى مثله خطت في السماء خطوطاً، وأقامت فيها جدرأً أو حدوداً، أو غيرت في أجزائها طباعاً تغييراً ييقى، فيتقى به القسمة إلى تلك الدرج والدقائق، مع جواز الشمس عنها، وليس في جوهر الفلك اختلاف يتميز به موضع عن موضع سوى الكواكب، والكواكب تتحرك عن أمكنتها، فبقيت الأمكنة على التشابه، فيماذا تتميز بوجه ودرجه، ويبقى اختلافها بعد حركة المتحرك في سمتها؛ وكيف يقيس الطبيعي على هذه الأصول، وينتج منها نتائج ويحكم بحسبها أحكاماً؛ وكيف له أن يقول بالحدود ويجعل خمس درجات من برج لكوكب وستاً لآخر، وأربعاً لآخر، ويختلف فيها البابليون والمصريون، وجعلوا أرباب البيوت كأها ملاك، والبيوت كأها أملاك تثبت لأربابها بصكوك وأحكام الأسد للشمس والسرطان للقمر. وإذا نظر الناظر وجد الأسد أسداً من جهة كواكب شكلوها بشكل الأسد، ثم انقلبت عن مواضعها وبقي الموضع أسداً وجعلوا الأسد للشمس. وقد ذهبت منه الكواكب التي كان بها أسداً كأن ذلك الملك بيت للشمس، مع انتقال الساكن وكذلك السرطان للقمر.

ومن الدقائق في العلم النجومى الدرجات المدار والغربية والمظلمة والنيرة والزائدة في السعادة ودرجات الآثار؛ من جهة أنها أجزاء الفلك؛ إن قطعوها وما انقطعت؛ ومع انتقال ما ينتقل من الكواكب إليها وعنها، ثم أنتجوا من ذلك نتائج أنظارهم؛ من أعداد الدرج وأقسام الفلك، فقالوا: إن الكوكب ينظر إلى الكواكب من ستين درجة نظر تسديس لأنه سدس من الفلك، ولا ينظر إليه من خمسين ولا من سبعين، وقد كان قبل الستين بعشر درج، وهو أقرب من ستين، وبعدها بعشر درج، وهو أبعد من ستين لا ينظر.

فليت شعري ما هذا النظر! أترى الكواكب تظهر للكوكب ثم تحتجب عنه، ثم شعاعه يختلط بشعاعه عند حد لا يختلط به قبله ولا بعده! وكذلك التريبع، من الربع الذي هو تسعون درجة، والثلاث، من الثلث الذي هو مائة وعشرون درجة، فلم لا يكون التخميم والتسبيع والتعشير على هذا القياس! ثم يقولون: الحمل حار يابس ناري، والثور بارد يابس أرضي، والجوزاء حار رطب هوائي، والسرطان بارد رطب مائي! ما قال الطبيعي هذا قط، ولا يقول به. وإذا احتجوا وقاسوا كانت مبادئ قياساتهم الحمل برج ينقلب؛ لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع، والثور برج ثابت، لأن الشمس إذا نزلت فيه ثبت الربيع على ربيعته.

والحق أنه لا ينقلب الحمل ولا يثبت الثور؛ بل هما على حالهما في كل وقت. ثم كيف يبقى دهره منقلباً مع خروج الشمس منه وحلولها فيه! أتراها تخلف فيه أثراً أو تحيل منه طباعاً؛ وتبقى تلك الاستحالة إلى أن تعود فتجدها! ولم لا يقول! قائل: إن السرطان حار يابس، لأن الشمس إذا نزلت فيه يشتد حر الزمان؛ وما يجانس هذا مما لا يلزم؛ لا هو ولا

ضده، فليس في الفلك اختلاف يعرفه الطبيعي، إلا بما فيه من الكواكب، وهو في نفسه واحد متشابه الجوهر والطبع؛ ولكنها أقوال قال بها قائل فقبلها قائل، ونقلها ناقل، فحسن فيها ظن السامع، واغتر بها من لا خبرة له ولا قدرة له على النظر.

ثم حكم بها الحاكمون بجيد ورديء، وسلب وإيجاب، وبت وتجاوز، فصادف بعضه موافقة الوجود فصدق، فيعتبر به المعتبرون، ولم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيكذبه؛ بل عذروا وقالوا: إنما هو منجم؛ وليس بنبي حتى يصدق في كل ما يقول؛ واعتذروا له بأن العلم أوسع من أن يحيط به أحد، ولو أحاط به أحد لصدق في كل شيء! ولعمر الله إنه لو أحاط به علماً صادقاً لصدق، والشأن في أن يحيط به على الحقيقة، لا أن يفرض فرضاً، ويتوهم وهماً، فينقله إلى الوجود وينسب إليه، ويقيس عليه.

قال: والذي يصح من هذا العلم ويلتفت إليه العقلاء؛ هي أشياء غير هذه الخرافات التي لا أصل لها؛ فما حصل توقيف أو تجربة حقيقة كالقرانات والمقابلة، فإنها أيضاً من جملة الاتصالات؛ كالمقارنة من جهة أن تلك غاية القرب؛ وهذه غاية البعد؛ ونحو ممر كوكب من المتحيرة، تخص كوكب من الثابتة، ونحو ما يعرض للمتحيرة من رجوع واستقامة وارتفاع في شمال، وانخفاض في جنوب، وأمثال ذلك.

فهذا كلام ابن ملكا كما تراه يبطل هذا الفن من وجه، ويقول به من وجه.

وقد وقفت لأبي جعفر محمد بن الحسين الصنعاني المعروف بالخازن، صاحب كتاب "زيج الصفائح" على كلام في هذا الباب مختصر له سماه "كتاب العالمين" أنا ذاكره في هذا الموضع على وجهه. لأنه كلام لا بأس به، قال: إن بعض المصدقين بأحكام النجوم وكل المكذبين بها، قد زاغوا عن طريق الحق والصواب فيها. فإن الكثير من المصدقين بها قد أدخلوا فيها ما ليس منها، وادعوا ما لم يكن إدراكه بها، حتى كثر فيها خطوهم، وظهر كذبهم، وصار ذلك سبباً لتكذيب أكثر الناس بهذا العلم. فأما المكذبون به فقد بلغوا من إنكار صحيحه ورد ظاهره إلى أن قالوا: إنه لا يصح منه شيء أصلاً، ونسبوا أهله إلى الزرق والاحتيال والخداع والتمويه، فلذلك رأينا أن نبتدئ بتبيين صحة هذه الصناعة، ليظهر فساد قول المكذبين لها بأسرها، ثم نبين ما يمكن إدراكه بها ليبطل دعوى المدعين فيها ما يمتنع وجوده بها.

أما الوجوه التي بها تصح صناعة الأحكام فهي كثيرة، منها ما يظهر لجميع الناس من قبل الشمس، فإن حدوث الصيف والشتاء وما يعرض فيهما من الحر والبرد والأمطار والرياح ونبات الأرض، وخروج وقت الأشجار وحملها الثمار، وحركة الحيوان إلى النسل والتوالد وغير ذلك، مما يشاكلة من الأحوال، إنما يكون أكثر ذلك بحسب دنو الشمس من سمت الرؤوس في ناحية الشمال، وتباعدها منه إلى ناحية الجنوب، وبفضل قوة الشمس على قوة القمر، وقوى سائر الكواكب ظهر ما قلنا لجميع الناس.

وقد ظهر لهم أيضاً من قبل الشمس في تغيير الهواء كل يوم؛ عند طلوعها، وعند توسطها السماء، وعند غروبها ما لا خفاء به من الآثار.

ومن هذه الوجوه ما يظهر للفلاحين والملاحين بأدنى تفقد للأشياء التي تحدث. فإنهم يعلمون أشياء كثيرة من الآثار التي يؤثرها القمر وأنوار الكواكب الثابتة، كالمد والجزر، وحركات الرياح والأمطار وأوقاتها عند الحدوث، وما يوافق من

أوقات الزراعات وما لا يوافق، وأوقات اللقاح والتناج.

وقد يظهر من آثار القمر في الحيوان الذي يتوالد في الماء والرطوبات ما هو مشهور لا ينكر.

ومنها جهات أخرى يعرفها المنجمون فقط على حسب فضل علمهم، ودقة نظرهم في هذا العلم. وإذ قد وصفنا على سبيل الإجمال ما يوجب حقيقة هذا العلم، فإننا نصف ما يمكن إدراكه به أو لا يمكن، فنقول: لما كانت تغيرات الهواء، إنما تحدث بحسب أحوال الشمس والقمر والكواكب المتحيرة والثابتة، صارت معرفة هذه التغيرات قد تدرك من النجوم مع سائر ما يتبعها من الرياح والسحاب والأمطار والثلج والبرد والرعد والبرق؛ لأن الأشياء التي تلي الأرض وتصل إليها هذه الآثار من الهواء المحيط بها، كانت الأعراض العامة التي تعرض في هذه الأشياء تابعة لتلك الآثار؛ مثل كثرة مياه الأنهار وقتلتها، وكثرة الثمار وقتلتها وكثرة خصب الحيوان وقتلته، والجدوبة والقحط، والوباء والأمراض التي تحدث في الأجناس والأنواع، أو في جنس دون جنس، أو في نوع دون نوع، وسائر ما يشاكل ذلك من الأحداث.

ولما كانت أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن، وكانت الأحداث التي ذكرناها مغيرة لمزاج البدن، صارت أيضاً مغيرة للأخلاق، ولأن المزاج الأول الأصلي هو الغالب على الإنسان في الأمر الأكثر، وكان المزاج الأصلي هو الذي طبع عليه الإنسان في وقت كونه في الرحم، وفي وقت مولده وخروجه إلى جو العالم صار وقت الكون ووقت المولد أدل الأشياء على مزاج الإنسان، وعلى أحواله التابعة للمزاج، مثل خلقة البدن، وخلق النفس والمرض والصحة، وسائر ما يتبع ذلك، فهذه الأشياء وما يشبهها من الأمور التي لا تشارك شيئاً من الأفعال الإرادية فيه مما يمكن معرفته بالنجوم، وأما الأشياء التي تشارك الأمور الإرادية بعض المشاركة، فقد يمكن أن يصدق فيها هذا العلم على الأمر الأكثر، وإذا لم يستعمل فيه الإرادة جرى على ما تقود إليه الطبيعة.

على أنه قد يعرض الخطأ والغلط لأصحاب هذه الصناعة من أسباب كثيرة، بعضها يختص بهذه الصناعة دون غيرها، وبعضها يعمها وغيرها من الصنائع.

فأما ما يعم فهو من قصور طبيعة الناس في معرفة الصنائع أيّاً كانت عن بلوغ الغاية فيها، حتى لا يبقى وراءها غاية أخرى، فكثرة الخطأ وقتلته على حسب تقصير واحد واحد من الناس.

وأما ما يخص هذه الصناعة فهو كثير ما يحتاج صاحبها إلى معرفته، مما لا يمكنه أن يعلم كثيراً منه إلا بالحدس والتخمين، فضلاً عن لطف الاستنباط وحسن القياس، ومما يحتاج إلى معرفة علم أحوال الفلك، ومما يحدث في كل واحد من تلك الأحوال، فإن كل واحد منها له فعل خاص، ثم يؤلف تلك الأحوال بعضها مع بعض على كثرة فنونها واختلافاتها، ليحصل من جميع ذلك قوة واحدة، وفعل واحد، يكون عنه الحادث في هذا العالم، وذلك أمر عسير، فمضى أغفل من ذلك شيء كان الخطأ الواقع بحسب الشيء الذي سها عنه وترك استعماله.

ثم من بعد تحصيل ما وصفناه ينبغي أن يعلم الحال التي عليها يوافي تلك القوة الواحدة الأشياء التي تعرض فيها تلك الأحداث، كأنه مثلاً إذا دل ما في الفلك على حدوث حر، وكانت الأشياء التي يعرض فيها ما يعرض قد مر بها قبل ذلك حر، فحميت وسخنت أثر ذلك فيها أثراً قوياً، فإن كان قد مر بها برد قبل ذلك، أثر ذلك فيها أثراً ضعيفاً، وهذا شيء يحتاج إليه في جميع الأحداث التي تعمل في غيرها مما يناسب هذه المعرفة.

وأما الأحداث التي تخص ناحية ناحية، أو قوماً قوماً، أو جنساً جنساً، أو مولوداً واحداً من الناس؛ فيحتاج مع معرفتها إلى أن يعلم أيضاً أحوال البلاد والعادات، والأغذية والأوباء وسائر ما يشبه ذلك، مما له فيه أثر وشركة، مثل ما يفعل الطبيب في المعالجة، وفي مقدمة المعرفة، ثم من بعد تحصيل هذه الأشياء كلها ينبغي أن ينظر في الأمر الذي قد استدل على حدوثه، هل هو مما يمكن أن يرد أو يتلافى بما يبطله أو يغيره من جهة الطب والحيل أم لا؛ كأنه مثلاً استدل على أنه يصيب هذا الإنسان حرارة يحم منها، فينبغي أن يحكم بأنه يحم إن لم يتلاف تلك الحرارة بالتبريد، فإنه إذا فعل ذلك أنزل الأمور منازلها، وأجراها مجاريها، ثم إن كان الحادث قوياً لا يمكن دفعه ببعض ما ذكرنا، فليس يلزم الحاجة إلى ما قلنا، فإن الأمر يحدث لا محالة، وما قوي وشمل الناس فإنه لا يمكن دفعه ولا فسخه، وإن أمكن فإنما يمكن في بعض الناس دون بعض.

وأما أكثرهم فإنه يجري أمره على ما قد شمل وعم، فقد يعم الناس حر الصيف، وإن كان بعضهم يحتال في صرفه بالأشياء التي تبرد وتنفي الحر، فهذه جملة ما ينبغي أن يعلم ويعمل عليه أمور هذه الصناعة.

قلت: هذا اعتراف بأن جميع الأحداث المتعلقة باختيار الإنسان وغيره من الحيوان لا مدخل لعلم أحكام النجوم فيه، فعلى هذا لا يصح قول من يقول منهم لزيد مثلاً: إنك تتزوج أو تشتري فرساً، أو تقتل عدواً أو تسافر إلى بلد ونحو ذلك، وهو أكثر ما يقولونه ويحكمون به.

وأما الأمور الكلية الحادثة لا بإرادة الحيوان واختياره، فقد يكون لكلامهم فيه وجهٌ من الطريق التي ذكرها، وهي تعلق كثير من الأحداث بحركة الشمس والقمر، إلا أن المعلوم ضرورة من دين رسول الله صلى الله عليه وسلم إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها والنهي والزجر عن تصديق المنجمين، وهذا معنى قول أمير المؤمنين في هذا الفصل: "فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله". ثم أردف ذلك وأكد بقوله: كان يجب أن يحمد المنجم دون الباري تعالى، لأن المنجم هو الذي هدى الإنسان إلى الساعة التي ينجح فيها، وصده عن الساعة التي يخفق ويكُدي فيها فهو المحسن إليه إذًا، والمحسن يستحق الحمد والشكر، وليس للبارئ سبحانه إلى الإنسان في هذا الإحسان المخصوص؛ فوجب ألا يستحق الحمد على ظفر الإنسان بطلبه؛ لكن القول بذلك والتزامه كفر محض.

بعد فراغه من حرب الجمل في ذم النساء

الأصل: معاشر الناس؛ إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول. فأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن، وأما نقصان عقولهن فشهادة أمرأتين منهن كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان حظوظهن فموارِيثهن على الأنصاف من موارِيث الرجال.

فائقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر، ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر. الشرح: جعل رضي الله عنه نقصان الصلاة نقصاناً في الإيمان، وهذا هو قول أصحابنا: إن الأعمال من الإيمان، وإن المقر بالتوحيد والنبوة، وهو تارك للعمل ليس بمؤمن.

وقوله رضي الله عنه "ولا تطيعوهن في المعروف"، ليس ينهي عن فعل المعروف؛ وإنما هو نهي عن طاعتهم، أي لا تفعلوه لأجل أمرهن لكم به، بل افعلوه لأنه معروف، والكلام ينحو نحو المثل المشهور: "لا تعط العبد كُراعاً فيأخذ ذراعاً". وهذا الفصل كله رمز إلى عائشة، ولا يختلف أصحابنا في أنها أخطأت فيما فعلت ثم تابت وماتت تائبة، وأنها من أهل الجنة.

قال كل من صنف في السير والأخبار: إن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان؛ حتى إنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنصبته في مترلها، وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثواب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل، وعثمان قد أبلى سنته.

قالوا: أول من سمى عثمان نعتلاً عائشة؛ والنعتل: الكثير شعر اللحية والجسد، وكانت تقول: اقتلوا نعتلاً، قتل الله نعتلاً! وروى المدائني في كتاب "الجمال"، قال: لما قتل عثمان، كانت عائشة بمكة، وبلغ قتله إليها وهي بشراف، فلم تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: بعداً لنعتل وسحقاً! إيه ذا الإصبع! إيه أبا شبل! إيه يا بن عم؛ لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبائع له: حثوا الإبل ودعدعوها.

قال: وقد كان طلحة حين قتل عثمان أخذ مفاتيح بيت المال، وأخذ نجائب كانت لعثمان في داره، ثم فسد أمره، فدفعها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أخبار عائشة

وقال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي في كتابه: إن عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة، أقبلت مسرعة، وهي تقول: إيه ذا الإصبع! لله أبوك! أما إنهم وجدوا طلحة لها كفواً. فلما انتهت إلى شراف استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي، فقالت له: ما عندك؟ قال: قتل عثمان، قالت: ثم ماذا؟ قال: ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار؛ بايعوا علياً، فقالت: لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا، ويحك! انظر ما تقول! قال: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين، فولدت، فقال لها: ما شأنك يا أم المؤمنين! والله ما أعرف بين لابتيتها أحداً أولى بها منه ولا أحق؛ ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته؟ قال: فما ردت عليه جواباً.

قال: وقد روي من طرق مختلفة أن عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة، قالت: أبعد الله! ذلك بما قدمت يداه، وما الله بظلام للعبيد.

قال: وقد روى قيس بن أبي حازم أنه حج في العام الذي قتل فيه عثمان وكان مع عائشة لما بلغها قتله، فتحمل إلى المدينة، قال: فسمعها تقول في بعض الطريق: إيه ذا الإصبع! وإذا ذكرت عثمان قالت: أبعد الله! حتى أتاه خبر بيعة علي، فقالت: لوددت أن هذه وقعت على هذه، ثم أمرت برد ركائبها إلى مكة فردت معها، ورأيتهما في سيرها إلى مكة تخاطب نفسها، كأنها تخاطب أحداً: قتلوا ابن عفان مظلوماً، فقلت لها: يا أم المؤمنين، ألم أسمعك آنفاً تقولين: أبعد الله، وقد رأيته قبل أشد الناس عليه وأقبحهم فيه قولاً! فقالت: لقد كان ذلك، ولكني نظرت في أمره، فرأيتهم استتابوه حتى

إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً محرماً لا شهر حرام فقتلوه.

قال: وروي من طرق أخرى أنها قالت لما بلغها قتله أبعدده الله! قتله ذنبه، وأقاده الله بعمله! يا معشر قريش لا يسومنكم قتل عثمان، كما سام أحمر ثمود قومه، إن أحق الناس بهذا الأمر ذو الإصبع، فلما جاءت الأخبار ببيلة علي رضي الله عنه، قالت: تعسوا تعسوا! لا يردون الأمر في تيم أبداً.

كتب طلحة والزبير إلى عائشة وهي بمكة كتاباً: أن خذلي الناس عن بيعة علي، وأظهري الطلب بدم عثمان، وحملاً الكتاب مع ابن اختها عبد الله بن الزبير، فلما قرأت الكتاب كاشفت وأظهرت الطلب بدم عثمان؛ وكانت أم سلمة رضي الله عنها بمكة في ذلك العام؛ فلما رأت صنع عائشة، قابلتها بنقيض ذلك، وأظهرت موالة علي رضي الله عنه ونصرته على مقتضى العداوة المركوزة في طباع الضرتين.

قال أبو مخنف: جاءت عائشة إلى أم سلمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان، فقالت لها: يا بنت أبي أمية، أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت كبيرة أمهات المؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لنا من بيتك، وكان جبريل أكثر ما يكون في منزلك، فقالت أم سلمة: لأمر ما قلت هذه المقالة، فقالت عائشة: إن عبد الله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان، فلما تاب قتلوه صائماً في شهر حرام، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ومعني الزبير وطلحة، فاخرجي معنا، لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا، فقالت أم سلمة: إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان، وتقولين فيه أخبث القول، وما كان اسمه عندك إلا نعتلاً، وإنك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفأذكرك؟ قالت: نعم، قالت: أتذكرين يوم أقبل رضي الله عنه ونحن معه؛ حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال، خلا بعلي يناجيه فأطال، فأردت أن تهجمي عليهما، فنهيتك فعصيتني، فهجمت عليهما، فما لبثت أن رجعت باكياً، فقلت: ما شأنك؟ فقلت: إني هجمت عليهما وهما يتناجيان فقلت لعلي: ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام، أفما تدعني يا بن أبي طالب ويومي! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ، وهو غضبان محمر الوجه، فقال: ارجعي وراءك، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان، فرجعت نادمة ساقطة! قالت عائشة: نعم أذكر ذلك.

قالت: وأذكرك أيضاً، كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت تغسلين رأسه، وأنا أحيس له حيساً، وكان الحيس يعجبه، فرفع رأسه، وقال: "يا ليت شعري، أيتكن صاحبة الحمل الأذنب، تنبجها كلاب الحوء، فتكون ناكبة عن الصراط!" فرفعت يدي من الحيس، فقلت: أعوذ بالله وبرسوله من ذلك، ثم ضرب على ظهرك، وقال: "إياك أن تكونيها" ثم قال: يا بنت أبي أمية؛ إياك أن تكونيها يا حميراء، أما أنا فقد أنذرتك"، قالت عائشة: نعم أذكر هذا.

قالت: وأذكرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر له، وكان علي يتعاهد نعلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخصفها، ويتعاهد أثوابه فيغسلها، فنقبت له نعل، فأخذها يومئذ يخصفها، وقعد في ظل سمره، وجاء أبوك ومعه عمر، فاستأذنا عليه، فقمنا إلى الحجاب، ودخلا يحادثانه فيما أرادا، ثم قال: يا رسول الله إنا لا ندري قدر ما تصحبنا، فلو أعلمتنا من يستخلف علينا، ليكون لنا بعدك مفرعاً؟ فقال لهما: أما إني قد أرى مكانه، ولو فعلت

لتفرقتم عنه. كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران، فسكنا ثم خرجنا، فلما خرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت له، وكنت أجراً عليه منا: من كنت يا رسول الله، مستخلفاً عليهم؟ فقال: خاصف النعل، فنظرنا فلم نر أحداً إلا علياً، فقلت: يا رسول الله، ما أرى إلا علياً، فقال: هو ذاك، فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك، فقالت: فأبي خروج تخرجين بعد هذا؛ فقالت: إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله، فقالت: أنت ورأيك، فانصرفت عائشة عنها، وكتبت أم سلمة بما قالت وقيل لها إلى علي رضي الله عنه.

فإن قلت: فهذا نص صريح في إمامة علي رضي الله عنه، فما تصنع أنت وأصحابك المعتزلة به؛ قلت: كلا إنه ليس بنص كما ظننت، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقل: قد استخلفته، وإنما قال: "لو قد استخلفت أحداً لاستخلفته"، وذلك لا يقتضي حصول الاستخلاف؛ ويجوز أن تكون مصلحة المكلفين متعلقة بالنص عليه لو كان النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً بأن ينص على إمام بعينه من بعده، وأن يكون من مصلحتهم أن يختاروا لأنفسهم من شاءوا إذا تركهم النبي صلى الله عليه وسلم وآراءهم ولم يعين أحداً.

وروى هشام بن محمد الكلبي في كتاب "الجمال" أن أم سلمة كتبت إلى علي رضي الله عنه من مكة: أما بعد، فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة، يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر بن كريز؛ ويذكرون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنهم يطلبون بدمه؛ والله كافيههم بحوله وقوته؛ ولولا ما نأنا الله عنه من الخروج، وأمرنا به من لزوم البيت لم أدع الخروج إليك، والنصرة لك؛ ولكني باعثة نحوك ابني، عدل نفسي عمر بن أبي سلمة، فاستوص به يا أمير المؤمنين خيراً. قال: فلما قدم عمر على علي رضي الله عنه أكرمه، ولم يزل مقيماً معه حتى شهد مشاهدته كلها، ووجهه أميراً على البحرين. وقال لابن عم له: بلغني أن عمر يقول الشعر، فابعث إلي من شعره، فبعث إليه بأبيات له أولها:

جزتك أمير المؤمنين قرابة رفعت بها ذكري جزاء موقراً

فعجب علي رضي الله عنه من شعره واستحسنه.

ومن الكلام المشهور الذي قيل إن أم سلمة رحمها الله، كتبت به إلى عائشة: إنك جنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته، وإن الحجاب دونك لمضروب على حرمة، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكن عقيرك فلا تصحريها، لو أذكرتك قولة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفينها لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة. ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو لقيك ناصّة قلوب قعودك من منهل إلى منهل قد تركت عهدها، وهتكت ستره، إن عمود الدين لا يقوم بالنساء، وصدعه لا يرأب بهن، حماديات النساء خفض الأصوات وخفر الأعراض، اجعلي قاعدة البيت قبرك حتى تلقينه، وأنت على ذلك.

فقالت عائشة: ما أعرفني بنصحك، وأقبلني لوعظك! وليس الأمر حيث تذهبين؛ ما أنا بعمية عن رأيك، فإن أقم ففي غير حرج، وإن أخرج ففي إصلاح بين فئتين من المسلمين، وقد ذكر هذا الحديث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه المصنف في "غريب الحديث" في باب أم سلمة، على ما أورده عليك، قال: لما أرادت عائشة الخروج إلى البصرة،

أنتها أم سلمة، فقالت لها: إنك سدة بين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته، وحجابك مضروب على حرمة، قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكن عقيرك فلا تصحريها، الله من وراء هذه الأمة، لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعهد إليك عهداً علت علت؛ بل قد نماك عن الفرطة في البلاد؛ إن عمود الإسلام لا يثأث بالنساء إن مال، ولا يرأب بمن إن صدع، حماديات النساء غض الأطراف وخفر الأعراض وقصر الوهازة؛ ما كنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك بعد الفلوات، ناصةً قلوفاً من منهل إلى آخر، إن يعين الله مهواك، وعلى رسوله تردين؛ وقد وجهت سدافته ويروى سجافته وتركت عهده. لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي: ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً صلى الله عليه وسلم هاتكةً حجاباً، وقد ضربه عليّ، اجعلي حصنك بيتك، ووقاعة الستر قبرك، حتى تلقينه، وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله بالرقبة، وأنصر ما تكونين للدين ما حلت عنه. لو ذكرتك قولاً تعرفينه لنهشت به نمش الرقشاء المطرقة.

فقالت عائشة: ما أقبلني لوعظك! وليس الأمر كما تظنين، ولنعم المسير مسير فزعت فيه إلى فئتان متناجرتان أو قالت متناحرتان إن أقعد ففي غير حرج، وإن أخرج فإلى ما لا بد لي من الازدياد منه.

تفسير غريب هذا الخبر

السدة: الباب؛ ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر أول من يرد عليه الحوض، فقال: الشعث رؤوساً، الدنس ثياباً، الذين لا تفتح لهم السدد، ولا ينكحون المتنعمات؛ وأرادت أم سلمة أنك باب بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الناس، فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرمة وحوزته، واستبيح ما حماه، تقول: فلا تكوني أنت سبب ذلك بالخروج الذي لا يجب عليك، فتحوجي الناس إلى أن يفعلوا ذلك. وهذا مثل قول نعمان بن مقرن للمسلمين في غزاة نهاوند: ألا وإنكم باب بين المسلمين والمشركون، إن كسر ذلك الباب دخل عليهم منه.

وقولها: "قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه"، أي لا تفتحيه ولا توسعيه بالحركة والخروج؛ يقال: ندحت الشيء إذا وسعته، ومنه يقال: فلان في مندوحة عن كذا، أي في سعة؛ تريد قول الله تعالى: "وقرن في بيوتكن!". ومن روى "تبدحيه" بالياء فإنه من البداح وهو المتسع من الأرض؛ وهو معنى الأول.

وسكن عقيرك، من عقر الدار وهو أصلها؛ أهل الحجاز يضمون العين؛ وأهل نجد يفتحونها. وعقير اسم مبني على صيغة التصغير؛ ومثله مما جاء مصغراً "الثريا" و "الحميا" وهو سورة الشراب. قال ابن قتيبة: ولم أسمع "بعقيرا" إلا في هذا الحديث.

قولها: "فلا تصحريها"، أي لا تبرزها وتجعليها بالصحراء، يقال: أصحر، كما يقال: أنجد وأسهل وأحزن.

وقولها: "الله من وراء هذه الأمة"، أي محيط بهم وحافظ وعالم بأحوالهم، كقوله تعالى: "والله من ورائهم محيط".

قولها: "لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الجواب محذوف، أي لفعل ولعهد؛ وهذا كقوله تعالى: "ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض"، أي لكان هذا القرآن.

قولها: "عُلت عُلت"؛ أي جرت في هذا الخروج، وعدلت عن الجواب، والعول: الميل والجور، قال تعالى: "ذلك أنزىق ألا تعولوا". ومن الناس من يرويه "عِلت عِلت" بكسر العين، أي ذهبت في البلاد وأبعدت السير، يقال: عال فلان في البلاد، أي ذهب وأبعد؛ ومنه قيل للذئب: عيال.

قولها: "عن الفرطة في البلاد"، أي عن السفر والشخص، من الفرط وهو السبق والتقدم، ورجل فارط: أتى الماء، أي سابق.

قولها: "لا يثاب بالنساء"، أي لا يردّ بمن إن مال إلى استوائه؛ من قولك: ثاب فلان إلى كذا، أي عاد إليه. قولها: "ولا يرأب بمن إن صدع" أي لا يسدّ بمنّ، ولا يجمع، والصدع: الشق، ويروى: "إن صدع" بفتح الصاد والبدال أجروه مجرى قولهم: جبرت العظم فجبر.

قولها: "حماديات النساء" يقال: حُماذك أن تفعل كذا مثل "قصاراك أن تفعل كذا". أي جهدك وغايتك. وغض الأطراف؛ جمعها، وخضر الأعراض، الخضر: الحياء، والأعراض، جمع عرض وهو الجسد، يقال: فلان طيب العرض، أي طيب ريح البدن؛ ومن رواه "الإعراض" بكسر الهمزة جعله مصدراً؛ من أعرض عن كذا. قولها: و "قصر الوهازة"، قال ابن قتيبة: سألت عن هذا فقال لي من سألت: سألت عنه أعرابياً فصيحاً فقال: الوهازة: الخطوة، يقال للرجل: إنه لمتوهز ومتوهز، إذا وطىء وطئاً ثقيلاً. قولها: "ناصةً قلوصاً"، أي رافعة لها في السير، والنص: الرفع، ومنه يقال: حديث منصوص: أي مرفوع، والقلوص من النوق: الشابة وهي بمنزلة الفتاة من النساء، والمنهل: الماء ترده الإبل. قولها: "إن بعين الله مهواك"، أي إن الله يرى سيرك وحركتك، والهوي: الانحدار في السير من النجد إلى الغور. قولها: "وعلى رسوله تردين"، أي تقدمين في القيامة.

قولها: "وقد وجهت سدافته"، السدافة: الحجاب والستر، هي من أسدف الليل إذا ستر بظلمته، كأنه أرخى ستوراً من الظلام، ويروى بفتح السين، وكذلك القول في سجافته؛ إنه يروى بكسر السين وفتحها، والسدافة والسجافة بمعنى. ووجهت، أي نظمتها بالخرز، والوجيهة: خرزة معروفة، وعادة العرب أن تنظم على الحمل خرزات إذا كان للنساء. قولها: "وتركت عهيداه"، لفظة مصغرة مأخوذة من العهد، مشابهة لما سلف من قولها: "عقيراك" و "حماديات النساء". قولها: "ووقاعة الستر" أي موقعه على الأرض إذا أرسلته، وهي الموقعة أيضاً، وموقعة الطائر. قولها: "حتى تلقينه وأنت على تلك"، أي على تلك الحال، فحذف.

قولها: "أطوع ما تكونين لله إذا لزمته"، أطوع: مبتدأ، وإذا لزمته: خبر المبتدأ، والضمير في لزمته راجع إلى العهد والأمر الذي أمرت به.

قولها: "لنهشت به نمش الرقشاء المطرقة"، أي لعضك ونمشك ما أذكره لك وأذكرك به كما تنهشك أفعى رقشاء، والرقش في ظهرها، هو النقط، والجرادة أيضاً رقشاء، قال النابغة:

فبت كأني ساورتني ضئيلة

من الرقش في أنيابها السم نافع

والأفعى يوصف بالإطراق؛ وكذلك الأسد والنمر والرجل الشجاع؛ وكان معاوية يقول في علي رضي الله عنه: الشجاع المطرق، وقال الشاعر وذكر أفعى:

أصم أعمى ما يجيب الرقى

من طول إطراق وإسبات

قولها؛ "فتتان متناجزتان"، أي تسرع كل واحدة منهما إلى نفوس الأخرى، ومن رواه "متناجزتان" أراد الحرب وطعن النحور بالأسنة، ورشقها بالسهم.

وفزعت إلى فلان في كذا، أي لذت به والتجأت إليه.

وقولها: "إن أقعد ففي غير حرج" أي في غير إثم، وقولها: "فإن أخرج فيلى ما لا بد لي من الازدياد منه"، كلام من يعتقد الفضيلة في الخروج، أو يعرف موقع الخطأ ويصرّ عليه.

لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيداً يحمل هودجها، فجاءهم يعلى بن أمية ببعيره المسمى عسكراً، وكان عظيم الخلق شديداً، فلما رآته أعجبها، وأنشأ الجمال يحدثها بقوته وشدته، ويقول في أثناء كلامه: "عسكراً"، فلما سمعت هذه اللفظة، استرجعت، وقالت: ردوه لا حاجة لي فيه، وذكرت حيث سئلت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه، وأمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه، فغير لها بجلال غير جلاله، وقيل لها: قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً، وأشد قوة، وأتيت به فرضيت.

قال أبو مخنف: وأرسلت إلى حفصة تسألها الخروج والمسير معها، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فأتى أخته فعزم عليها، فأقامت وحطت الرحال بعد ما همت.

كتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهي بمكة، أما بعد: فانك طعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أمرت أن تقرري في بيتك، فإن فعلت فهو خير لك، فإن أبيت إلا أن تأخذي منسأتك، وتلقي جلبابك، وتبدي للناس شعيراتك، قاتلتك حتى أردك إلى بيتك، والموضع الذي يرضاه لك ربك.

فكتبت إليه في الجواب: أما بعد، فإنك أول العرب شب الفتنة، ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة، وسعى في قتل الخليفة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءني كتابك، وفهمت ما فيه؛ وسيكفينيك الله؛ وكل من أصبح مماثلاً لك في ضلالك وغيك، إن شاء الله.

وقال أبو مخنف: لما انتهت عائشة في مسيرها إلى الحوآب، وهو ماء لبني عامر بن صعصعة، نبحتها الكلاب، حتى نفرت صعاب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألا ترون، ما أكثر كلاب الحوآب، وما أشد نباها! فأمسكت زمام بعيرها، وقالت: وإنا لكلاب الحوآب! ردوني ردوني؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: . . . وذكرت الخبر، فقال لها قائل: مهلاً يرحمك الله! فقد جزنا ماء الحوآب؛ فقالت: فهل من شاهد؛ فلفقوا لها خمسين أعرابياً، جعلوا لهم جعلاً، فحلفوا لها: إن هذا ليس بماء الحوآب، فسارت لوجهها.

لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حفر أبي موسى قريباً من البصرة، أرسل عثمان بن حنيف وهو يومئذ عامل علي رضي الله عنه على البصرة إلى القوم أبا الأسود الدؤلي يعلم له علمهم، فجاء حتى دخل على عائشة، فسألها عن مسيرها، فقالت: أطلب بدم عثمان، قال: إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد، قالت: صدقت، ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله. أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم! فقال لها: ما أنت من السوط والسيف! إنما أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمرك أن تقر في بيتك، وتتل كتاب ربك، وليس على النساء قتال، ولا لهن الطلب بالدماء، وإن علياً لأولى بعثمان منك، وأمس رحماً؛ فإنهما ابنا عبد مناف، فقالت: لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت له، أفظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي! قال: أما والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد.

ثم قام فأتى الزبير، فقال: يا أبا عبد الله، عهد الناس بك، وأنت يوم يبيع أبو بكر آخذ بقائم سيفك، تقول: لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب؛ وأين هذا المقام من ذاك! فذكر له دم عثمان، قال: أنت وصاحبك وليتماه فيما بلغنا! قال: فانطلق إلى طلحة فاسمع ما يقول، فذهب إلى طلحة، فوجده سادراً في غيّه، مصراً على الحرب والفتنة، فرجع إلى عثمان بن حنيف، فقال: إنما الحرب، فتأهب لها! لما نزل علي رضي الله عنه بالبصرة، كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان العبدى: من عائشة بنت أبي بكر الصديق زوج النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان؛ أما بعد فأقم في بيتك، وخذل الناس عن علي، ولبيلغي عنك ما أحب، فإنك أوثق أهلي عندي، والسلام.

فكتب إليها: من زيد بن صوحان إلى عائشة بنت أبي بكر؛ أما بعد فإن الله أمرك بأمر وأمرنا بأمر، أمرك أن تقر في بيتك، وأمرنا أن نجاهد، وقد أتاني كتابك، فأمرتني أن أصنع خلاف ما أمرني الله، فأكون قد صنعت ما أمرك الله به، وصنعت ما أمرني الله به، فأمرك عندي غير مطاع، وكتابك غير مجاب والسلام.

روى هذين الكتابين شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر، عن شيخنا أبي سعيد الحسن البصري.

وركبت عائشة يوم الحرب الجمل المسمى عسكرياً في هودج، قد ألبس الرفرف، ثم ألبس جلود النمر، ثم ألبس فوق ذلك دروع الحديد.

الشعبي، عن مسلم بن أبي بكر، عن أبيه عن أبي بكر، قال: لما قدم طلحة والزبير البصرة، تقلدت سيفي، وأنا أريد نصرهما، فدخلت على عائشة، وإذا هي تأمر وتنهى، وإذا الأمر أمرها، فذكرت حديثاً كنت سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يفلح قوم تدبر أمرهم امرأة"، فأنصرفت واعتزلتهم، وقد روي هذا الخبر على صورة أخرى: "إن قوماً يخرجون بعدي في فئة، رأسها امرأة، لا يفلحون أبداً". كان الجمل لواء عسكر البصرة لم يكن لواء غيره.

خطبت عائشة والناس قد أخذوا مصافهم للحرب، فقالت: أما بعد فإننا كنا نقمنا على عثمان ضرب السوط، وإمرة الفتیان، ومرتع السحابة الحمية؛ ألا وإنكم استعيتبتموه فأعتبكم، فلما مصتموه كما يماص الثوب الرحيض، عدوتم عليه، فارتكبتم منه دماً حراماً، وإيم الله إن كان لأحصنكم فرجاً، واتقاكم الله.

خطب علي رضي الله عنه لما تواقف الجمعان، فقال: "لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤكم فإنكم بمحمد الله على حجة؛ وكفكم

عنهم حتى يبدؤكم حجة أخرى، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا فدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترًا، ولا تدخلوا دارًا، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تهيجوا امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم، فإنهم ضعاف القوى والأنفس والعقول؛ لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالمراوة والجريدة، فيعير بها وعقبه من بعده".

قتل بنو ضبة حول الجمل فلم يبق إلا من لا نفع عنده، وأخذت الأزد بخطامه، فقالت عائشة: من أنتم؟ قالوا: الأزد، قالت: صبراً، فإنما يصبر الأحرار؛ ما زلت أرى النصر مع بني ضبة؛ فلما فقدتم أنكرته. فحرضت الأزد بذلك؛ فقاتلوا قتالاً شديداً، ورمي الجمل بالنبل حتى صارت القبة عليه كهيئة القنفذ.

قال علي رضي الله عنه لما فني الناس على خطام الجمل، وقطعت الأيدي، وسالت النفوس: ادعوا لي الأشتر وعماراً، فجاء، فقال: اذهبا فاعقرا هذا الجمل؛ فإن الحرب لا يبوخ ضرامها ما دام حياً؛ إنهم قد اتخذوه قبلة، فذهبا ومعهما فتيان من مراد، يعرف أحدهما بعمر بن عبد الله، فما زالا يضربان الناس حتى خلاصا إليه، فضربه المرادي عك عرقوبيه، فأقعى وله رغاء، ثم وقع لجنبه، وفر الناس من حوله، فنادى علي رضي الله عنه: اقطعوا أنساع اليهودج، ثم قال لمحمد بن أبي بكر: اكفني أختك، فحملها محمد حتى أنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعي.

بعث علي عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة، قال: فأتيتهما، فدخلت عليها، فلم يوضع لي شيء، أجلس عليه، فتناولت وسادة كانت في رحلها، فقعدت عليها، فقالت: يا بن عباس، أخطأت السنة، قعدت على وسادتنا في بيتنا بغير إذننا! فقلت: ليس هذا بيتك الذي أمرك الله أن تقري فيه، ولو كان بيتك ما قعدت على وسادتك إلا بإذنك، ثم قلت: إن أمير المؤمنين أرسلني إليك يأمرك بالرحيل إلى المدينة، فقالت: وأين أمير المؤمنين! ذاك عمر، فقلت: عمر وعلي، قالت: أبيت! قلت: أما والله ما كان أبوك إلا قصير المدة، عظيم المشقة، قليل المنفعة، ظاهر الشؤم بين النكد، وما عسى أن يكون أبوك! والله ما كان أمرك إلا كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين، ولا تأخذين ولا تعطين، وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد:

نثَّ الحديث وكثرة الألقاب

ما زال إهداء الصغائر بيننا

بينهم في كل نائبة طنين ذباب

حتى نزلت كأن صوتك

قال: فبكت حتى سمع نحيبها من وراء الحجاب، ثم قالت: إني معجلة الرحيل إلى بلادي إن شاء الله تعاك، والله ما من بلد أبغض إلي من بلد أنتم فيه، قلت: ولم ذاك! فوالله لقد جعلناك للمؤمنين أمماً، وجعلنا أباك صديقاً، قالت: يا بن عباس، أتمن علي برسول الله؟ قلت: ما لي لا أمن عليك. عن لو كان منك لمننت به علي! ثم أتيت علياً رضي الله عنه فأخبرته بقولها وقولي، فسر بذلك، وقال لي: "ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم"؛ وفي رواية: أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك.

ومن كلام له رضي الله عنه في الزهد

الأصل: أيها الناس؛ الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والتورع عند المحارم، فإن عزب ذلك عنكم فلا يغلب الحوام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم؛ فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة ظاهرة؛ وكتب بارزة العذر واضحة. الشرح: فسر رضي الله عنه لفظ الزهادة، وهي الزهد، بثلاثة أمور وهي: قصر الأمل، وشكر النعمة، والتورع عن المحارم، فقال: لا يسمى الزاهد زاهداً حتى يستكمل هذه الأمور الثلاثة، ثم قال: "فإن عزب ذلك عنكم"، أي بعد، فأمران من الثلاثة لا بد منهما؛ وهما الورع وشكر النعم، جعلهما أكد وأهم من قصر الأمل.

واعلم أن الزهد في العرف المشهور هو الإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها، لكنه لما كانت الأمور الثلاثة طريقاً موطئة إلى ذلك أطلق رضي الله عنه لفظ الزهد عليها على وجه المجاز. وقوله: "فقد أعذر الله إليكم" أي بالغ؛ يقال: أعذر فلان في الأمر أي بالغ فيه، ويقال: ضرب فلان فأعذر، أي أشرف على الهلاك؛ وأصل اللفظة من العذر؛ يريد أنه قد أوضح لكم بالحجج النيرة المشرقة ما يجب اجتنابه، وما يجب فعله؛ فإن خالفتم استوجبتم العقوبة؛ فكان له في تعذيبكم العذر.

ما جاء في الزهد من أخبار

والآثار الواردة في الزهد كثيرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفلح الزاهد في الدنيا، حظي بعز العاجلة وبثواب الآخرة".

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أصبحت الدنيا همه وسدمه، نزع الله الغنى من قلبه وصير الفقر بين عينيه، ولم يأت به من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبحت الآخرة همه وسدمه، نزع الله الفقر عن قلبه، وصير الغنى بين عينيه، وأتته الدنيا وهي راغمة".

وقال رضي الله عنه للضحاك بن سفيان: ما طعامك؟ قال: اللحم والبن، قال: ثم يصير إلى ماذا؟ قال: إلى ما علمت، قال: فإن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا.

وكان الفضيل بن عياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيجيء بهم إلى المزبلة، فيقول: انظروا إلى عنبهم وسمنهم ودجاجهم وبطهم! صار إلى ما ترون.

ومن الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله سبحانه: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام" فقال: إذا دخل النور القلب انفسح، فذلك شرح الصدر، فقل: أفلذلك علامة يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله.

قالوا: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: اتخذ الدنيا ظهراً، واتخذ الآخرة أمّاً.

الشعبي: ما أعلم لنا وللدنيا مثلاً إلا قول كثير:

لدينا ولا مقلية إن تقلت

أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة

بعض الصالحين: المستغني عن الدنيا بالدنيا، كالمطفئ النار بالنار.

وفي بعض الكتب القديمة الإلهية: قال الله للدنيا: من خدمني فاحدميه، ومن خدمك فاستخدميه.

دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم، وعليه مدرعة من صوف، فقال: ما هذه؟ فسكت، فأعاد عليه السؤال، فقال: أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو فقراً فأشكو ربي.

قيل في صفة الدنيا والآخرة: هما كضرتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

قيل لمحمد بن واسع: إنك لترضى بالدون، قال: إنما رضى بالدون من رضى بالدنيا.

خطب أعرابي كان عاملاً لجعفر بن سليمان على ضرية يوم جمعة خطبة لم يسمع أوجز منها ولا أفصح، فقال: إن الدنيا دار بلاغ، وإن الآخرة دار قرار؛ فخذوا من ممركم لمستقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تحفى عليه أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها جئتم، ولغيرها خلقتم؛ إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؛ وقالت الملائكة: ما قدم؟ فله آثارك! قدموا بعضاً يكن لكم، ولا تؤخروا كلاً فيكون عليكم؛ أقول قولي هذا؛ وأستغفر الله، والمدعو له الخليفة، ثم الأمير جعفر. ونزل.

أبو حازم الأعرج: الدنيا كلها غموم، فما كان فيها سروراً فهو ربح.

محمد بن الحنفية: من عزت عليه نفسه هانت عليه الدنيا.

قيل لعلي بن الحسين رضي الله عنه: من أعظم الناس خطراً؛ قال: من لم ير الدنيا لنفسه خطراً.

قال المسيح عليه السلام لأصحابه: حب الدنيا رأس كل خطيئة، واقتناء المال فيها داء عظيم، قالوا له: كيف ذلك؛ قال: لا يسلم صاحبه من البغي والكبر؛ قيل: فإن سلم منهما؛ قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله.

أشرف أبو الدرداء على أهل دمشق؛ فقال: يا أهل دمشق، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون! أين من كان قبلكم؛ بنوا شديداً، وأملوا بعيداً، وجمعوا كثيراً، فأصبحت مساكنهم قبوراً، وجمعهم بوراً، وأملهم غروراً.

قال المأمون: لو سئلت الدنيا عن نفسها لم تستطع أن تصف نفسها بأحسن من قول الشاعر:

له عن عدو في ثياب صديق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

وقال رجل: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم أمري؛ قال: "إذا أردت شيئاً من أمور الدنيا فعسر عليك؛ فاعلم أنك بخير، وإذا أردت شيئاً من أمور الدنيا فيسر لك؛ فاعلم أنه شر لك".

قال رجل ليونس بن عبيد: إن فلاناً يعمل بعمل الحسن البصري، فقال: والله ما أعرف أحداً يقول بقوله، فكيف يعمل بعمله؛ قيل: فصغه لنا، قال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حبيب، وإذا جلس فكأنه أسيراً جلس لضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له.

وقال بعض الصالحين لرجل: يا فلان، هل أنت على حال أنت فيها مستعد للموت؛ قال: لا، قال: فهل أنت عالم بأنك

تنتقل إلى حال ترضى به؛ قال: لا، قال: أفتعلم بعد الموت داراً فيها مستعتب؛ قال: لا، قال: أفتأمن الموت أن يأتيك صباحاً أو مساءً؟ قال: لا، قال: أفيرضى بهذه الحال عاقل! وقال أبو الدرداء: أضحككتني ثلاث، وأبككتني ثلاث: أضحككتني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أراض عنه الله أم ساخط! وأبككتني فراق محمد وحزبه، وأبككتني هول الموت، وأبككتني هول الموقف، يوم تبدو السرائر حين لا أدري أيؤخذ بي إلى جنة أم إلى نار! وكان عبد الله بن صغير يقول: أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار! وكان يقال: من أتى الذنب ضاحكاً، دخل النار باكياً.

وكان مالك بن دينار يقول: وددت أن رزقي في حصاة أمصها حتى أبول، فلقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحييت من ربي.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما ليس به بأس حذراً عما به البأس". وقال المسيح عليه السلام: "بحق أقول لكم؛ إن من طلب الفردوس، فخير الشعير، والنوم على المزابل مع الكلاب، له كثير".

وأوصى ابن محرز رجلاً فقال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف، وتسأل ولا تسأل، وتمشي ولا يمشى إليك، فافعل.

وقال علي رضي الله عنه: طوبى لمن عرف الناس ولم يعرفوه، تعجلت له منيته، وقل تراثه، وفقد باكياته.

وكان يقال: في الجوع ثلاث خصال: حياة للقلب، ومذلة للنفس، ويورث العقل الدقيق من المعاني.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: أريد أن تقبل مني دراهم، قال: إن كنت غنياً قبلتها منك، وإن كنت فقيراً لم أقبلها، قال: فإني غني، قال: كم تملك؟ قال ألفي درهم، قال: أفسرك أن تكون أربعة آلاف؛ قال: نعم، قال: لست بغني ودراهمك لا أقبلها.

وكان أبو حازم الأعرج إذا نظر إلى الفاكهة في السوق، قال: موعذك الجنة إن شاء الله تعالى.

ومر أبو حازم بالقصايين، فقال له رجل منهم: يا أبا حازم؛ هذا سمين فاشتر منه، قال: ليس عندي دراهم، قال: أنا أنظرك، قال: فأفكر ساعة، ثم قال: أنا أنظر نفسي.

نزل الحجاج في يوم حار على بعض المياه، ودعا بالغداء وقال لحاجبه: انظر من يتغدى معي، واجهد ألا يكون من أهل الدنيا، فرأى الحاجب أعرابياً نائماً، عليه شملة من شعر، فضربه برجله، وقال: أجب الأمير، فأتاه، فدعاه الحجاج إلى الأكل، فقال: دعاني من هو خير من الأمير فأجبتة؛ قال: من هو؟ قال: الله، دعاني إلى الصوم فصمت؛ قال: أفي هذا اليوم الحار؛ قال: نار جهنم أشد حراً، قال: أفطر وتصوم غداً، قال: إن ضمننت لي البقاء إلى غد، قال: ليس ذلك إلي، قال: فكيف أدع عاجلاً لآجل لا تقدر عليه! قال: إنه طعام طيب، قال: إنك لم تطيبه ولا الخبز، ولكن العافية طيبته لك. وقال شبيب: كنا سنة في طريق مكة، فجاء أعرابي في يوم صائف شديد الحر، ومعه جارية سوداء، وصحيفة؛ فقال: أفيكم كاتب؟ قلنا: نعم، وحضر غداؤنا، فقلنا له: لو دخلت فأصبت من طعامنا! قال: إني صائم، قلنا: الحر وشدته، وجفاء البادية، فقال: إن الدنيا كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، وما أحب أن أغبن أمامي، ثم نبذ إلينا الصحيفة، فقال للكاتب: اكتب ولا تزد على ما أملكه عليك: هذا ما أعتق عبد الله بن عقيل الكلبي، أعتق جارية له

سوداء اسمها لؤلؤة، ابتغاء وجه الله وجواز العقبة، وإنه لا سبيل له عليها إلا سبيل الولاء، والمنة لله علينا وعليها واحدة. قال الأصمعي: فحدث بذلك الرشيد، فأمر أن يعتق عنه ألف نسمة، ويكتب لهم هذا الكتاب. وقال خالد بن صفوان: بت ليلتي هذه أتمنى، فكبست البحر الأخضر بالذهب الأحمر، فإذا الذي يلقاني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران.

ورأى رجل رجلاً من ولد معاوية يعمل على بعير له، فقال: هذا بعد ما كنتم فيه من الدنيا! قال: رحمك الله يا بن أخي، ما فقدنا إلا الفضول.

وقال الحسن: يا بن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك. قال يونس الكاتب: لو قيل بيت دريد في زاهد كان به جديراً:

قليل التشكي للمصيبات ذاكر من اليوم أعقاب الأحاديث في غد

وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

وقال رجل للفضيل بن عياض: ما أعجب الأشياء؛ قال: قلب عرف الله ثم عصاه.

قال وكيع: ما أحسنت قط إلى أحد، ولا أسأت إليه، قيل: كيف؛ قال: لأن الله تعالى قال: "إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها".

وقال الحسن لرجل: إن استطعت ألا تسيء إلى أحد ممن تحبه فافعل، قال الرجل: يا أبا سعيد، أو يسيء المرء إلى من يحبه؛ قال: نعم، نفسك أحب النفوس إليك، فإذا عصيت الله فقد أسأت إليها.

وكان مالك بن دينار إذا منع نفسه شيئاً من الشهوات، قال: اصبري، فوالله ما منعتك إلا لكرامتك عليّ.

قام رسول الله صلى الله عليه وسلم الليل، حتى تورمت قدماه، ف قيل له: يا رسول الله، أتفعل هذا، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً!".

وقال عبد الله بن مسعود: لا يكونن أحدكم جيفة ليله، قطرب نهاره.

وكان يقال: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وكان مالك بن دينار يقول في قصصه: ما أشد فطام الكبر! وينشد:

أتروض عرسك بعد ما هرمت! ومن العناء رياضة الهرم

وقال آخر:

إن كنت تؤمن بالقيا مة واجترأت على الخطيه

فلقد هلكت وإن جددت فذاك أعظم للبليه

ومن كلام له رضي الله عنه في صفة الدنيا

الأصل: ما أصف من دار، أولها عناء، وأخرها فناء! في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من أستغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واثته، ومن أبصر بها بصرتة، ومن أبصر إليها أعمته.

قال الرضي رحمه الله: أقول: وإذا تأمل المتأمل قوله رضي الله عنه: "ومن أبصر بها بصرتة"، وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا يبلغ غايته ولا يدرك غوره، لا سيما إذا قرن إليه قوله: "ومن أبصر إليها أعمته"، فإنه يجد الفرق بين "أبصر بها" و "أبصر إليها" واضحاً نيراً، وعجيباً باهراً.

الشرح: العناء: التعب. وساعاها: جاراها سعيًا. وواتته: طوعته.

ونظر الرضي إلى قوله. "أولها عناء وآخرها فناء"، فقال.

إلى الدنيا وآخرنا الذهاب

وأولنا العناء إذا طلعتنا

ونظر إلى قوله رضي الله عنه: "في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب" بعض الشعراء، فقال:

عنك بما فيه ويوم جديد

الدهر يومان فيوم مضى

حرام يوميك عذاب شديد

حلال يوميك حساب وفي

وأنت في القبر وحيد فريد

تجمع ما يأكله وارث

نفسى وقولي من فعالى بعيد

إني لغيري واعظ تارك

تكلف العاقل ما لا يريد

حلاوة الدنيا ولذاتها

ومن المعنى أيضاً قول بعضهم:

وفي المحارم منها الغنم منزور

حلالها حسرة تقضي إلى ندم

ونظر الحسن البصري إلى قوله رضي الله عنه: "من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن"، وقد جاءه إنسان يبشره بمولود له ذكر: ليهنك الفارس يا أبا سعيد، فقال: بل الراجل! ثم قال: لا مرحباً بمن إن كان غنياً فتنني، وإن كان فقيراً أحزنني، وإن عاش كدني، وإن مات هديني، ثم لا أرضى بسعيي له سعيًا، ولا بكدحي له كدحاً؛ حتى أهتم بما يصيبه بعد موتي، وأنا في حال لا ينالني بمسأته حزن، ولا بسروره جذل.

ونظر ابن المعتز إلى قوله رضي الله عنه: "من ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واثته" فقال: الدنيا كظلك، كلما طلبته زاد منك بعداً. ونظرت إلى قوله رضي الله عنه: "ومن أبصر بها بصرتة، ومن أبصر إليها أعمته"، فقلت:

ك الضوء لكن دعوة المهلك

دنياك مثل الشمس تدني إلي

تعش، وإن تبصر به تدرك

إن أنت أبصرت إلى نورها

فإن قلت: المسموع: أبصرت زيدا، ولم يسمع أبصرت إلى زيد، قلت: يجوز أن يكون قوله رضي الله عنه: "ومن أبصر إليها"، أي ومن أبصر متوجهاً إليها، كقوله عز وجل: "في تسع آيات إلى فرعون". ولم يقل مرسلًا؛ ويجوز أن يكون أقام

ذلك مقام قوله "نظر إليها" لما كان مثله، كما قالوا في دخلت البيت، ودخلت إلى البيت أجروه مجرى ولجت إلى البيت لما كان نظيره.

ومن الغراء وهي من الخطب العجيبة

الأصل: الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا بطوله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عزيمة وأزل. أحمدته على عواطف كرمه، وسوايغ نعمه، وأومن به أولاً بادياً، وأستهديه قريباً هادياً، وأستعينه قاهراً قادراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أرسله لإنفاذ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره.

الشرح: الحول: القوة: والطول: الإفضال، والمانح: المعطي. والأزل، بفتح الهمزة: الضيق والحبس والعواطف: جمع عاطفة وهي ما يعطفك على الغير، ويدنيه من معروفك، والسوايغ: التوام الكوامل؛ سبغ الظل؛ إذا عم وشمل.

وأولاً ههنا منصوب على الظرفية؛ كأنه قال: قبل كل شيء. والأول نقيض الآخر أصله أوّل على أفعل مهموز الوسط، قلبت الهمزة واواً وأدغم، يدل على ذلك قولهم: هذا أول منك والإتيان بحرف الجر دليل على أنه أفعل، كقولهم: هذا أفضل منك؛ وجمعه على أوائل وأوال أيضاً على القلب. وقال قوم: أصله ووّل على فوعل فقلب الواو الأولى همزة، وإنما لم يجمع على ووال لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع. وإذا جعلت الأول صفة لم تصرفه، تقول: لقيته عاماً أولاً، لاجتماع وزن الفعل، وتقول: ما رأيته مذ عام أولاً، كلاهما بغير تنوين؛ فمن رفع جعله صفة لعام؛ كأنه قال: أول من عامنا، ومن نصب جعله كالظرف، كأنه قال: مذ عام قبيل عامنا، فإن قلت: ابدأ بهذا أولاً، ضمته على الغاية.

والإنهاء: الإبلاغ، أنهت إليه الخبر فأنتهى، أي بلغ؛ والمعنى أن الله تعالى أعذر إلى خلقه وأنذرهم، فإعذاره إليهم أن عرفهم بالحجج العقلية والسمعية أنهم إن عصوه استحقوا العقاب؛ فأوضح عذره لهم في عقوبته إياهم على عصيانه. وإنذاره لهم: تخويفه إياهم من عقابه. وقد نظر البحري إلى معنى قوله رضي الله عنه: "علا بحوله، ودنا بطوله"، فقال:

فشأنك انخفاض وارتفاع

ويدنو النور منها والشعاع

دنوت تواضعاً وعلوت قدراً

كذاك الشمس تبعد أن تسامى

وفي هذا الفصل ضروب من البديع؛ فمنها أن دنا في مقابلة علا لفظاً ومعنى؛ وكذلك حوله وطوله.

فإن قلت: لا ريب في تقابل دنا و علا من حيث المعنى واللفظ؛ وأما حوله و طوله فإنهما يتناسبان لفظاً؛ وليسا متقابلين معنى، لأنهما ليسا ضدّين، كما العلو والدنو.

قلت: بل فيهما معنى التضاد، لأن الحول هو القوة، وهي مشعرة بالسطوة والقهر، ومنه منشأ الانتقام، والطول: الإفضال والتكرم، وهو نقيض الانتقام والبطش.

فإن قلت: أنت وأصحابك لا تقولون إن الله تعالى قادر بقدره، وهو عندكم قادر لذاته، فكيف تتأولون قوله رضي الله عنه: "الذي علا بحوله"؛ أليس في هذا إثبات قدرة له زائدة على ذاته، وهذا يخالف مذهبيكم! قلت: إن أصحابنا لا يمتنعون من إطلاق قولهم: إن لله قوة وقدرة وحولاً، وحاش لله أن يذهب ذاهب منهم إلى منع ذلك! ولكنهم يطلقونه

ويعنون به حقيقته العرفية، وهي كون الله تعالى قوياً قادراً، كما نقول نحن والمخالف: إن لله وجوداً وبقاءً وقدماً، ولا نعني بذلك أن وجوده أو بقاءه أو قدمه معان زائدة على نفسه، لكننا نعني كلنا بإطلاق هذه الألفاظ عليه كونه موجوداً أو باقياً أو قديماً، وهذا هو العرف المستعمل في قول الناس: لا قوة لي على ذلك و لا قدرة لي على فلان لا يعنون نفي المعنى، بل يعنون كون الإنسان قادراً على ذلك.

ومنها أن مانحاً في وزن كاشف وغنيمة بإزاء عظيمة في اللفظ، وضدها في المعنى؛ وكذلك فضل وأزل. ومنها أن عواطف بإزاء سوا بغ ونعمه بإزاء كرمه.

ومنها وهو اللطف ما يستعمله أرباب هذه الصناعة؛ أنه جعل قريباً هادياً، مع قوله: أستهديه، لأن الدليل القريب منك أجدر بأن يهديك من البعيد النازح، ولم يجعله مع قوله: وأستعينه؛ وجعل مع الاستعانة قاهراً قادراً لأن القادر القاهر يليق أن يستعان ويستنجد به؛ ولم يجعله قادراً وقاهراً مع التوكل عليه، وجعل مع التوكل كافياً ناصرًا؛ لأن الكافي الناصر أهل لأن يتوكل عليه.

وهذه اللطائف والدقائق من معجزاته رضي الله عنه التي فات بها البلغاء، وأخرس الفصحاء.

الأصل: أوصيكم عباد الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقت لكم الآجال، وألبسكم الرياش، وأرفع لكم المعاش، وأحاط بكم الإحصاء، وأرصد لكم الجزاء، وآثركم بالنعم السوابغ، والرغد الروافع، وأنذركم بالحجج البوالغ؛ فأحصاكم عدداً، ووظف لكم مدداً، في قرار خبرة، ودار عبرة، أنتم محتبرون فيها، ومحاسبون عليها.

الشرح: وقت وأقت بمعنى: أي جعل الآجال لوقت مقدر، والرياش والريش واحد؛ وهو اللباس، قال تعالى: "يواري سوءاتكم وريشاً". وقرئ "وريشاً"، ويقال: الرياش: الخصب والغنى، ومنه ارتاش فلان، حسنت حاله، ويكون لفظ ألبستكم مجازاً إن فسر بذلك، وأرفع لكم المعاش؛ أي جعله ربيعاً، أي واسعاً مخصباً، يقال: رفع بالضم عيشه رفاغة، اتسع، فهو رافع ورفيع، وترفع الرجل، وهو في رفاغة من العيش، مخففاً، مثل رفاهية وثمانية.

وقوله: أحاط بكم الإحصاء، يمكن أن ينصب الإحصاء على أنه مصدر فيه اللام، والعامل فيه غير لفظه، كقوله: يعجبه السخون، ثم قال: حباً، وليس دخول اللام بمنع من ذلك؛ تقول: ضربته الضربة، كما تقول: ضربته ضرباً. ويجوز أن ينصب بأنه مفعول به، ويكون ذلك على وجهين: أحدهما: أن يكون من حاط ثلاثياً، تقول: حاط فلان كرمه، أي جعل عليه حائطاً، فكأنه جعل الإحصاء والعد كالحائط المدار عليهم، لأنهم لا يبعدون منه ولا يخرجون عنه.

والثاني: أن يكون من حاط الحمار عاتته يحوطها، بالواو أي جمعها؛ فأدخل الهمزة؛ كأنه جعل الإحصاء يحوطهم ويجمعهم، تقول: ضربت زيداً وأضربته أي جعلته ذا ضرب، فلذلك كأنه جعل رضي الله عنه الإحصاء ذا تحويط عليهم بالاعتبار الأول، أو جعله ذا جمع لهم بالاعتبار الثاني.

ويمكن فيه وجه آخر، وهو أن يكون الإحصاء مفعولاً له ويكون في الكلام محذوف تقديره: وأحاط بكم حفظته وملائكته للإحصاء ودخول اللام في المفعول له كثير، كقوله:

والهول من تهول الهبور

قوله: وأرصد يعني أعد، وفي الحديث: "إلا أن أرصده لدين علي".
وآثركم، من الإيثار، وأصله أن تقدم غيرك على نفسك في منفعة أنت قادر على الاختصاص بها وهو في هذا الموضع مجاز مستحسن.

والرشد: جمع رعدة، مثل كسرة وكسر، وفدرة وفدر. والرعدة والرشد واحد، وهي العطية والصلة ورشدت فلاناً رفاً بالفتح، والمضارع أرشفه بكسر الفاء، ويجوز أرشدته بالهمزة.

والروافغ: الواسعة. والحجج البوالغ: الظاهرة المبينة، قال سبحانه: "فلله الحجة البالغة".

ووظف لكم مدداً، أي قدر ومنه وظيفة الطعام.

وقرار خبرة بكسر الخاء، أي دار بلاء واختبار، تقول: خبرت زيدا أخبره خبرة، بالضم فيهما، وخبرة بالكسر إذا بلوته واختبرته، ومنه قولهم: صغر الخبر الخبر.

ودار عبرة أي دار اعتبار واتعاظ، والضمير في فيها وعلينا ليس واحداً، فإنه في فيها يرجع إلى الدار، وفي عليها يرجع إلى النعم والرشد، ويجوز أن يكون الضمير في عليها عائداً إلى الدار على حذف المضاف، أي على سكانها.

الأصل: فإن الدنيا رنق مشربها، ردغ مشرعها، ويوبق منظرها، ويوبق مخبرها. غرور حائل، وضوء آفل، وظل زائل، وسناد مائل، حتى إذا أنس نافرهما، واطمأن ناكرها، قمصت بأرجلها وقنصت بأجلها، وأقصدت بأسهمها، وأعلقت المرء أوهاق المنية، قائدة له إلى ضنك المضجع، ووحشة المرجع، ومعينة المحل وثواب العمل.

وكذلك الخلف بعقب السلف؛ لا تقلع المنية احتراماً، ولا يرعوي الباقون احتراماً، يحتذون مثلاً، ويمضون أرسالاً، إلى غاية الانتهاء، وصيور الفناء.

الشرح: يقال: عيش رنق، بكسر النون، أي كدر، وماء رنق بالتسكين، أي كدر والرنق بفتح النون مصدر قولك: "رنق الماء" بالكسر ورنقته أنا ترنيقا، أي كدرته والرواية المشهورة في هذا الفصل "رنق مشربها" بالكسر أقامه مقام قولهم: "عيش رنق"، ومن رواه "رنق مشربها" بالسكون - وهم الأقلون - أجرى اللفظ على حقيقته.

ويقال: مشرع ردغ: ذو طين ووحل، روي "الردغة" بالتحريك، ويجوز تسكين الدال، والجمع رداغ وردغ، ويونق منظرها: يعجب الناظر؛ أتقني الشيء أعجبي. ويوبق مخبرها: تهلك، وبق الرجل يبق وبوقا، هلك؛ والموبق "مفعل" منه كالموعد "مفعل"، من وعد يعد، ومنه قوله سبحانه: "وجعلنا بينهم موبقا"، وقد جاء ببق يبق، بالكسر فيهما، وهو نادر، كورث يرث، وجاء أيضاً ببق يوبق وبقا.

والغرور: بضم الغين: ما يغتر به من متاع الدنيا، والغرور، بالفتح: الشيطان.

والحائل: الزائل: الأفل: الغائب، أفل غاب يأشل ويأفل أفولا.

والسناد: دعامة يسند بها السقف. وناكرها: فاعل، من نكرت كذا، أي أنكرته. وقمصت بأرجلها، قمص الفرس وغيره يقمص ويقمص قمصاً وقمصاً، أي استن؛ وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معاً، وشجن برجليه، وفي المثل المضروب لمن

ذل بعد عزة: "ما لعير من قماص".

وجمع فقال: بأرجلها وإنما للدابة رجلان، إما لأن المثنى قد يطلق عليه صيغة الجمع، كما في قولهم: امرأة ذات أوراك ومآكم؛ وهما وركان، وإما لأنه أجرى اليدين والرجلين مجرى واحد، فسامها كلها أرجلاً. ومن رواه بالحاء فهو جمع رحل الناقة، وأقصدت: قتلت مكانها من غير تأخير.

والأوهاق: جمع وهق بالتحريك، وهو الحبل، وقد يسكن مثل نَهَرٍ ونَهَر. وأعلقت المرء الأوهاق: جعلت الأوهاق عالقة به. والضنك: الضيق، والمضجع: المصدر أو المكان، والفعل ضجع الرجل جنبه بالأرض، بالفتح، يضجع ضجوعاً وضجعاً، فهو ضاجع؛ ومثله أضجع، والمرجع: مصدر رجع، ومنه قوله تعالى: "ثم إلى ربكم مرجعكم"، وهو شاذ، لأن المصادر من فعل يفعل بكسر العين؛ إنما يكون بالفتح.

قوله: ومعاينة الحل، أي الموضع الذي يحل به المكلف بعد الموت؛ ولا بد لكل مكلف أن يعلم عقيب الموت مصيره؛ إما إلم! جنة وإما إلى نار.

وقوله: ثواب العمل يريد جزاء العمل، ومراده الجزاء الأعم الشامل للسعادة والشقاوة، لا الجزاء الأخص الذي هو جزاء الطاعة، وسمي الأعم ثواباً على أصل الحقيقة اللغوية؛ لأن الثواب في اللغة الجزاء؛ يقال: قد أثاب فلان الشاعر لقصيدته كذا، أي جازاه.

وقوله: وكذلك الخلف يعقب السلف المتأخرون، والسلف المتقدمون؛ وعقب ههنا بالتسكين؛ وهو بمعنى بعد، جئت يعقب فلان أي بعده، وأصله جري الفرس بعد جريه، يقال: لهذا الفرس عقب حسن. وقال ابن السكيت: يقال جئت في عقب شهر كذا، بالضم، إذا جئت بعدما يمضي كله، وجئت في عقب، بكسر القاف إذا جئت وقد بقيت منه بقية. وقد روي: يعقب السلف، أي يتبع.

وقوله: لا تقلع المنية، أي لا تكف، والاخترام: إذهاب الأنفس واستئصالها. وارعوى: كف عن الأمر وأمسك، وأصل فعله الماضي رعى يرعو، أي كف عن الأمر، وفلان حسن الرعوة والرعوة والرعوى والارعواء. والاحترام، افتعال من الجرم، وهو الذنب، ومثله الجريمة، يقال: جرم وأجرم بمعنى.

قوله: يجتذون مثلاً أي يقتدون، وأصله من حذوت النعل بالنعل حذواً، إذا قدرت كل واحدة على صاحبها. قوله: ويمضون أرسالاً، بفتح الهمزة، جمع رسل، بفتح السين، وهو القطيع من الإبل أو الغنم، يقال: جاءت الخيل أرسالاً، أي قطعاً قطعاً، وصيور الأمر: آخره وما يؤول إليه.

الأصل: حتى إذا تصرمت الأمور، وتقضت الدهور، وأزف النشور، أخرجهم من ضرائح القبور، وأوكاء الطيور، وأوجرة السباع، ومطارح المهالك، سراعاً إلى أمره، مهطعين إلى معاده رعيلاً صموتاً، قياماً ضفوفاً، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي؛ عليهم لبوس الاستكانة، وضرع الاستسلام والذلة. قد ضلت الحيل، وانقطع الأمل، وهوت الأفئدة كاظمة، وخشعت الأصوات مهينة، وألجم العرق، وعظم الشفق، وأرعدت الأسماع، لزبرة الداعي إلى فصل الخطاب ومقايضة الجزاء، ونكال العقاب، ونوال الثواب.

الشرح: تصرمت الأمور: تقطعت، ومثله تقضت الدهور. وأزف: قرب ودنا، يأزف أزفاً؛ ومنه قوله تعالى: "أزفت الآزفة" أي القيامة، الفاعل ازف، والضرائح: جمع ضريح وهو الشق في وسط القبر. واللحد: ما كان في جانب القبر، وضرحت ضرحاً، إذا حفرت الضريح، والأوكار: جمع وكر بفتح الواو، وهو عش الطائر، وجمع الكثرة وكور، وكر الطائر يكر وكرأً، أي دخل وكره، والوكن بالفتح مثل الوكر، أي العش، وأوجرة السباع: جمع وجر بكسر الواو، ويجوز فتحها، وهو بيت السبع والضبع ونحوهما، مهطعين: مسرعين. والرغيل: القطعة من الخيل.

قوله رضي الله عنه: ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، أي هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك الباري سبحانه، وهم مع هذه الكثرة أيضاً لا يبقى منهم أحد إلا إذا دعا داعي الموت سمع دعاءه ونداءه. واللبوس، بفتح اللام: ما يلبس، قال:

البس لكل حالة لبوسها

إما نعيمها وإما بوسها

ومنه قوله تعالى: "وعلمناه صنعة لبوس لكم".

والاستكانة: الخضوع. والضرع: الخشوع والضعف، ضرع الرجل يضرع، وأضرعه غيره. وكاظمته: ساكته، كظم يكظم كظوماً أي سكت، وقوم كظم، أي ساكتون. ومهينة: ذات هيمنة، وهي الصوت الخفي. وألم العرق: صار لجاماً، وفي الحديث. "إن العرق ليحري منهم حتى إن منهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ صدره، ومنهم من يبلغ عنقه، ومنهم من يلجمه، وهم أعظمهم مشقة". وقال لي قائل: ما أرى لقوله رضي الله عنه: المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة، كثير فائدة، لأن طول العنق جداً ليس مما يرغب في مثله، فذكرت له الخبر الوارد في العرق وقلت: إذا كان الإنسان شديد طول العنق كان عن إلجام العرق أبعد، فظهرت فائدة الخبر. ويروى وأثجم العرق، أي كثر ودام.

والشفق والشفقة، بمعنى، وهو الاسم من الإشفاق، وهو الخوف والحذر، قال الشاعر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً

والموت أكرم نزال على الحرم

وأرعدت الأسماع: عرقتها الرعدة. وزبرة الداعي: صوته، ولا يقال للصوت زبرة إلا إذا خالطه زجر وانتهاز، زبرته أزبره، بالضم.

وقوله: إلى فصل الخطاب، إلى ههنا يتعلق بالداعي، وفصل الخطاب: بت الحكومة التي بين الله وبين عباده في الموقف، رزقنا الله المسامحة فيها بمنه! وإنما خص الأسماع بالرعدة، لأنها تحدث من صوت الملك الذي يدعو الناس إلى محاسبته. والمقايضة: المعاوضة، قايضت زيدا بالمتاع، وهما قيطان، كما قالوا: يبعان.

فإن قلت: كيف يصح ما ذكره المسلمون من حشر الأجساد! وكيف يمكن ما أشار إليه رضي الله عنه من جمع الأجزاء البدنية من أوكار الطيور وأوجرة السباع، ومعلوم أنه قد يأكل الإنسان سبع، ويأكل ذلك السبع إنسان آخر، ويأكل هذا الإنسان طائر، ثم يأكل الطائر إنسان آخر، والمأكول يصير أجزاء من أجزاء بدن الآكل، فإذا حشرت الحيوانات كلها على ما تزعم المعتزلة، فتلك الأجزاء المفروضة، إما أن تحشر أجزاء من بنية الإنسان، أو بنية السبع، أو منهما معاً، فإن

كان الأول وجب ألا يحشر السبع، وإن كان الثاني وجب ألا يحشر الإنسان، والثالث محال عقلاً، لأن الجزء الواحد لا يكون في موضعين.

قلت: إن في بدن كل إنسان وكل حيوان أجزاء أصلية وأجزاء زائدة، فالأجزاء الزائدة يمكن أن تصبح أجزاء بدن حيوان إذا اغتذى بها، والأجزاء الأصلية لا يمكن ذلك فيها، بل يحرسها الله تعالى من الاستحالة والتغيير، وإذا كان كذلك، أمكن الحشر بأن تعاد الأجزاء الأصلية إلى موضعها الأول، ولا فساد في استحالة الأجزاء الزائدة، لأنه لا يجب حشرها، لأنها ليست أصل بنية المكلف، فاندفع الإشكال. وأما من يقول بالنفس الناطقة من أهل الملة، فلا يلزمه الجواب عن السؤال، لأنه يقول: إن الأنفس إذا أزف يوم القيامة، خلقت لها أبدان غير الأبدان الأولى، لأن المكلف المطيع والعاصي المستحق للثواب والعقاب عندهم، هو النفس، وأما البدن فآلة لها تستعمله استعمال الكاتب للقلم، والنجار للفأس.

الأصل: عباد مخلوقون اقتداراً، ومر بوبون أقتساراً، ومقبوضون احتضاراً، وضمنون أجدائاً؛ وكائنون رفاتاً، ومبعوثون أفراداً، ومدينون جزاء، ومميزون حساباً. قد أمهلوا في طلب المخرج، وهدوا سبيل المنهج، وعمروا مهل المستعتب، وكشفت عنهم سدف الريب، وخلوا لمضمار الجياد، وروية الارتياح، وأناة المقتبس الفرتاد، في مدة الأجل، ومضطرب المهل؛ الشرح: مريبون: مملوكون. والاقتسار: الغلبة والقهر، والاحتضار: حضور الملائكة عند الميت؛ وهو حينئذ محتضر، وكانت العرب تقول: لبن محتضر: أي فاسد ذو آفة، يعنون أن الجن حضرته، يقال: اللبن محتضر فغط إناءك. والأحداث: جمع حدث، وهو القبر؛ واجتدث الرجل؛ اتخذ حدثاً، ويقال: جدف بالفاء.

والرفات: الحطام؛ تقول منه رفت الشيء فهو مرفوت، ومدينون، أي مجزيون. والدين: الجزاء؛ ومنه "مالك يوم الدين". ومميزون حساباً، من قوله تعالى: "وأما تازوا اليوم أيها المجرمون"، ومن قوله تعالى: "وكنتم أزواجاً ثلاثاً"؛ كما أن قوله: ومبعوثون أفراداً، مأخوذ من قوله تعالى: "ولقد جئتمونا فرادى" وأصل التمييز على الفصل والتبيين. قوله: قد أمهلوا في طلب المخرج، أي انظروا ليفيئوا إلى الطاعة ويخلصوا التوبة، لأن إخلاص التوبة هو المخرج الذي من سلكه خرج من ربة المعصية. ومثله قوله: وهدوا سبيل المنهج، والمنهج: الطريق الواضح.

والمستعتب: المسترضى؛ استعبت زيدا إذا استرضيته عني؛ فأنا مستعتب له، وهو مستعتب. وأعتبني، أي أرضاني، وإنما ضرب المثل بمهل المستعتب، لأن من يطلب رضاه في مجرى العادة لا يرهق بالتماس الرضا منه؛ وإنما يمهل ليرضى بقلبه لا بلسانه.

والسدف: جمع سدف؛ هي القطعة من الليل المظلم، هذا في لغة أهل نجد، وأما غيرهم فيجعل السدف الضوء، وهذا اللفظ من الأضداد، وكذلك السدف، بفتح السين والdal. وقد قيل: السدف: اختلاط الضوء والظلمة كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار، والسدف: الصبح وإقباله، وأسدف الليل، أظلم؛ وأسدف الصبح أضواء، يقال: أسدف الباب، أي افتحه حتى يضيء البيت؛ وفي لغة هوازن أسدفا؛ أي أسرجوا، من السراج، والريب: الشبهة، جمع ريبة. والمضمار: الموضع الذي تضم فيه الخيل، والمضمار أيضاً المدة التي تضم فيها. والتضمير: أن تغلف الفرس حتى يسمن؛ ثم ترده إلى قوته الأولى؛ وذلك في أربعين يوماً، وقد يطلق التضمير على نقيض ذلك؛ وهو التجويع حتى يهزل ويخف لحفه. ضم

الفرس بالفتح، يضم بالضم، ضموراً، وجاء ضمير الفرس بالضم، وأضمرته أنا، وضميرته فاضطر هو، ولؤلؤ مضطمر: في وسطه بعض الانضمام. رجل لطيف الجسم، ضمير البطن، وناقصة ضامر وضامرة أيضاً. يقول: مكنهم الحكيم سبحانه وخلاهم وأعمالهم، كما تمكن الخيل التي تستبق في المضمار ليعلم أيها أسبق.

والروية: الفكرة، والارتداد: الطلب، ارتاد فلان الكلاء يرتاده ارتياداً: طلبه، ومثله راد الكلاء يروده روداً ورياداً؛ وفي الحديث: "إذا بال أحدكم فليترد لبوله"، أي فليطلب مكاناً ليناً أو منحدرًا، والرائد: الذي يرسله القوم في طلب الكلاء؛ وفي المثل: الرائد لا يكذب أهله. والأناة: التؤدة والانتظار، مثل القناة.

وتأق في الأمر: ترفق، واستأق فلان بفلان، أي انتظر به، وجاء الأناة، بالفتح والمد، على فعال قال الخطيئة:

وأكريت العشاء إلى سهيل أو الشعرى فطال بي الأناة

والمقتبس: متعلم العلم ههنا، ولا بد له من أناة ومهل ليلبغ حاجته، فضرب مثلاً، وجاء في بعض الروايات: ومقبوضون اختصاراً بالخاء المعجمة؛ وهو موت الشاب غضاً أخضر، أي مات شاباً، وكان فتیان يقولون لشيخ: أجززت يا أبا فلان، فيقول: أي بني، وتختضرون! أجز الحشيش: أن أن يجز، ومنه قيل للشيخ كاد يموت: قد أجز، والرواية الأولى أحسن، لأنها أعم.

وفي رواية لمضمار الخيار، أي للمضمار الذي يستبق فيه الأبرار الأتقياء إلى رضوان الله سبحانه.

الأصل: فيا لها أمثالا صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوباً زاكية، وأسماعاً واعية، وأراء عازمة، وألباباً حازمة! فاتقوا الله تقية من سمع فخشع، وأقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فأزدرج، وأجاب فأناج، وراجع فتاب، وأفتدى فاحتذى، وأري فرأى، فأسرع طالباً، ونجا هارباً؛ فأفاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وعمر معاداً، واستظهر زاداً، ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقتة، وقدم أمانة لدار مقامه.

فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له، وأحذروا منه كنه ما حذركم من نفسه، واستحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز لصديق ميعاده، والحذر من هول معاده.

الشرح: صائبة: غير عادلة عن الصواب، صاب السهم يصوب صوبة، أي قصد ولم يجر، وصاب السهم القرطاس يصيبه صيباً لغة في أصابه، وفي المثل: مع الخواطيء سهم صائب.

وشافية: تبرىء من مرض الجهل والهوى. والقلوب الزاكية: الطاهرة، والأسماع الواعية: الحافظة. والآراء العازمة: ذات العزم. والألباب: العقول، والحازمة: ذات الحزم، والحزم: ضبط الرجل أمره.

وخشع الرجل، أي خضع. واقترب: اكتسب، ومثله قرف يقرف بالكسر، يقال: هو يقرف لعياله، أي يكسب. ووجل الرجل خاف، وجملاً، بفتح الجيم، ومستقبله يوجل وياجل وييجل وييجل، بكسر الياء المضارعة، وبادر: سارع، وعبر: أي أري العبر مراراً كثيرة، لأن التشديد ههنا دليل التكرير. فاعتبر، أي فاتعظ. والزجر: النهي والمنع، زجر أي

منع، وازدجر مطاوع ازدجر؛ اللفظ فيهما واحد، تقول: ازدجرت زيداً عن كذا فازدجر هو، وهذا غريب؛ وإنما جاء مطاوع ازدجر في زجر لأنهما كالشيء الواحد؛ وفي بعض الروايات ازدجر فازدجر، فلا يحتاج مع هذه الرواية إلى تأويل، وأناب الرجل إلى الله، أي أقبل وتاب. واقتدى بزيد؛ فعل مثل فعله، واحتذى مثله. قوله رضي الله عنه: فأفاد ذخيرة، أي فاستفاد؛ وهو من الأضداد، أفدت المال زيداً أعطيته إياه؛ وأفدت أنا مالاً؛ أي استفدته واكتسبته.

قوله رضي الله عنه: فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له. نصب جهة بفعل مقدر، تقديره: واقصدوا جهة ما خلقكم له يعني العبادة، لأنه تعالى قال: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون". فحذف الفعل، واستغنى عنه بقوله: فاتقوا الله لأن التقوى ملازمة لقصد المكلف العبادة، فدلّت عليه واستغنى بها عن إظهاره. والكنه: الغاية والنهاية؛ تقول: أعرفه كنه المعرفة؛ أي نهايتها.

ثم قال رضي الله عنه: واستحقوا منه ما أعد لكم، أي اجعلوا أنفسكم مستحقين لثوابه الذي أعده لكم إن أطعتم. والباء في بالتجنز متعلق باستحقوا ويقال: فلان يتجنز الحاجة، أي يستنجحها ويطلب تعجلها، والناجز: العاجل؛ يقال: ناجزاً بناجز؛ كقولك: يداً بيد أي تعجلاً بتعجيل؛ والتجنز من المكلفين بصدق ميعاد القديم سبحانه، وهو مواظبتهم على فعل الواجب، وتجنب القبيح. والحذر مجرور بالعطف على التجنز؛ لا على الصدق؛ لأنه لا معنى له. الأصل: ومنها: جعل لكم أسماً لتعي ما عنائها، وأبصاراً لتجلو عن عشاها، وأشلاء جامعة لأعضائها، ملائمة لأحنائها، في تركيب صورها؛ ومدد عمرها، بأبدان قائمة بأرفاقها، وقلوب رائدة لأرزاقها، في مجلات نعمه، وموجبات مننه، وحواجر عافيته.

وقدر لكم أعماراً سترها عنكم، وخلف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم، من مستمتع خلاقهم، ومستفسح خناقهم. أرهقتهم المنايا دون الآمال، وشذبههم عنها تخرم الآجال، لم يمهّدوا في سلامة الأبدان، ولم يعتبروا في أنف الأوان. الشرح: قوله: لتعي ما عنائها، أي لتحفظ وتفهم ما أهمها؛ ومنه الأثر المرفوع: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، ولتجلو، أي لتكشف. وعن ههنا زائدة؛ ويجوز أن تكون بمعنى بعد كما قال:

لقت حرب وائل عن حيال

أي بعد حيال، فيكون قد حذف المفعول، وحذفه جائر، لأنه فضلة؛ ويكون التقدير: لتجلو الأذى بعد عشاها، والعشا، مقصور: مصدر عشي، بكسر الشين، يعشى؛ فهو عش، إذا أبصر نهاراً ولم يبصر ليلاً. والأشلاء: جمع شلو، وهو العضو.

فإن قلت: فأني معنى في قوله: أعضاء تجمع أعضاءها؛ وكيف يجمع الشيء نفسه؛ قلت: أراد رضي الله عنه بالأشلاء ههنا الأعضاء الظاهرة، وبالأعضاء الجوارح الباطنة؛ ولا ريب أن الأعضاء الظاهرة تجمع الأعضاء الباطنة وتضمها. والملائمة: الموافقة. والأحناء: الجوانب والجهات. ووجه الموافقة والملائمة أن كون اليد في الجانب أولى من كونها في الرأس أو في

أسفل القدم؛ لأنها إذا كانت في الجانب كان البطش وتناول ما يراد ودفع ما يؤدي أسهل؛ وكذلك القول في جعل العين في الموضع الذي جعلت به، لأنها كديديبان السفينة البحرية، ولو جعلت في أم الرأس لم ينتفع بها هذا الحد من الانتفاع الآن؛ وإذا تأملت سائر أدوات الجسد وأعضائه وجدتها كذلك.

ثم قال: في تركيب صورها، كأنه قال: مركبة أو مصورة، فأتى بلفظة في كما تقول: ركب بسلاحه وفي سلاحه، أي متسلحاً.

وقوله: بأرفاقها، أي بمنافعها جمع رفق، بكسر الراء، مثل حمل وأحمال، وأرقت فلاناً، أي نفعته. والمرفق من الأمر: ما ارتفعت به وانتفعت، ويروى: بأرماقها، والرمق: بقية الروح.

ورائدة: طالبة. ومجالات النعم، تحفل الناس، أي نعمهم؛ من قولهم: إسحاب مجلل أي يطبق الأرض، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولك: أنا في سابغ ظلك وعميم فضلك، كأنه قال: في نعمه المجفلة؛ وكذلك القول في موجبات مننه، أي في مننه التي توجب الشكر.

وفي ههنا متعلقة بمحذوف، والموضع نصب على الحال.

ثم قال: وحواجز عافيته، الحواجز: الموانع، أي في عافية تحجز وتمنع عنكم المضار. ويروى وحواجز بليته، وقد فسر قوله: حواجز عافيته؛ على أن يراد به ما يحجز العافية ويمنعها عن الزوال والعدم.

قوله رضي الله عنه: من مستمتع خلاقهم، الخلاق: النصيب؛ قال تعالى: "وما له في الآخرة من خلاق"، وقال تعالى: "فاستمتعتم بخلاقكم كما أستمع الذين من قبلكم بخلاقهم"، وتقدير الكلام: خلف لكم عبراً من القرون السالفة، منها تمتعهم بنصيبهم من الدنيا ثم فناؤهم، ومنها فسحة خناقهم وطول إمهالهم، ثم كانت عاقبتهم الهلكة. وأرهقتهم المنايا: أدركتهم مسرعة. والمرهق: الذي أدرك ليقتل. وشذبه عنهما: قطعهم وفرقهم؛ من تشذيب الشجرة؛ وهو تقشيرها، وتخمرت زيد المنية: استأصلته واقتطعته.

ثم قال: لم يمهّدوا في سلامة الأبدان، أي لم يمهّدوا لأنفسهم؛ من تمهيد الأمور وهو تسويتها وإصلاحها، وأنف الأوان: أوله، يقال: روضة أنف لم ترع قبل، وكأس أنف: لم تشرب بها قبل.

الأصل: فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلا حواني الهرم، وأهل غضارة الصحة إلا نوازل السقم، وأهل مدة البقاء إلا آونة الفناء، مع قرب الزيال، وأزوف الانتقال، وعلز القلق وألم المضض، وغصص الجرض، وتلفت الاستغانة بنصرة الحفدة والأقرباء، والأعزة والقرناء، فهل دفعت الأقارب، أو نفعت النواحب، وقد غودر في محفة الأموات رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً، قد هتكت الهوام جلدته، وأبلت النواهل جلدته، وعفت العواصف أثاره، ومحا الحدثان معالمه، وصارت الأجساد شحبة بعد بضتها، والعظام نخرة بعد قوتها، والأرواح مرهنة بثقل أعبائها، موقنة بغيب أنبائها، لا تستزاد من صالح عملها، ولا تستعتب من سيئ زللها.

الشرح: البضاضة: مصدر، من بضضت يا رجل، بضضت، بالفتح والكسر بضاضة وبضوضه، ورجل بض، أي ممتلىء البدن رقيق الجلد، وامرأة بضة، وحواني الهرم: جمع حانية: وهي العلة التي تحني شواطئ الجسد، وتميله عن الإستقامة، والهرم: الكبر. والغضارة: طيب العيش، ومنه المثل: أباد الله غضراءهم، أي خيرهم وخصبهم، وآونة الفناء جمع أوان؛

وهو الحين، كزمان وأزمة، وفلان يصنع ذلك الأمر آونة كقولك: تارات، أي يصنعه مراراً ويدعه مراراً، والزيال: مصدر زايله مزايلة وزيالاً، أي فارقه، والأزوف: مصدر أزف، أي دنا، والعلز: قلق وخفة وهلع يصيب الإنسان، وقد علز بالكسر، وبات علزاً، أي وجعاً قلقاً. والمضض: الوجع، أمضي الجرح ومضي؛ لغتان، وقد مضضت يا رجل، بالكسر، والغصص: جمع غصة، وهي الشجاء، والغصص بالفتح: مصدر قولك غصصت يا رجل تغص بالطعام، فانت غاص وغصان، وأغصصته أنا.

والجريض: الريق يغص به؛ جرض بريقه بالفتح، يجرض بالكسر، مثل كسر يكسر؛ وهو أن ييلع ريقه على هم وحزن بالجهد. والجريض: الغصة، وفي المثل: حال الجريض دون القريض، وفلان يجرض بنفسه إذا كان يموت، وأجرضه الله بريقه أغصه.

والحفدة: الأعوان والخدم، وقيل: ولد الولد، واحدهم حافد: والباء في بنصرة الحفدة متعلق بالاستغاثة؛ يقول: إن الميت عند نزول الأمر به يتلفت مستغيثاً بنصرة أهله وولده، أي يستنصر ويستصرخ بهم. والنواحب: جمع ناحية، وهي الرافعة صوتها بالبكاء، ويروى: النوادب.

والهوام: جمع هامة؛ وهي ما يخاف ضرره من الأحناش؛ كالعقارب والعناكب ونحوها والنواهك: جمع ناهكة وهي ما ينهك البدن، أي ييليه.

وعفت: درست، ويروى بالتشديد. وشحبة: هالكة، والشحب: الهلاك، شحب الرجل بالكسر، يشحب، وجاء شحب، بالفتح يشحب بالضم؛ أي هلك؛ وشحبه الله يشحبه، يتعدى ولا يتعدى، ونخرة: بالية، والأعباء: الأثقال، واحدها عبء.

وقال: موقنة بغيب أنبائها، لأن الميت يعلم بعد موته ما يصير إليه حاله من جنة أو نار، ثم قال: إنها لا تكلف بعد ذلك زيادة في العمل الصالح، ولا يطلب منها التوبة من القبيح؛ لأن التكليف قد بطل.

الأصل: أو لستم أبناء القوم والآباء، وإخوانهم والأقرباء، تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدحهم وتطئون جادهم؛ فالقلوب قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها.

الشرح: القدة، بالبدال المهملة وبكسر القاف: الطريقة، ويقال لكل فرقة من الناس إذا كانت ذات هوى على حدة: قدة، ومنه قوله تعالى: "كنا طرائق قداً"، ومن رواه: ويركبون قدحهم بالذال المعجمة وضم القاف أراد الواحدة من قذذ

السهم؛ وهي ريشه، يقال: حذو القذة بالقذة، ويكون معنى: وتركبون قدحهم؛ تفتفون آثارهم وتشابهون بهم في أفعالهم، ثم قال: وتطئون جادهم؛ وهذه لفظة فصيحة جداً. ثم ذكر قساوة القلوب وضلالها عن رشدها، وقال: كأن المعني

سواها؛ هذا مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب". الأصل: واعلموا أن مجازكم على الصراط ومزالق دحضه، وأهاويل زلله، وتارات أهواله، فاتقوا الله عباد الله، تقية ذي

لب شغل التفكير قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه، وأظماً الرجاء هواجر يومه، وظلف الزهد شهواته، وأوجف الذكر بلسانه، وقدم الخوف لأمانه، وتنكب المخالجات عن وضح السبيل، وسلك أقصد المسالك إلى النهج

المطلوب؛ ولم تقتله فأتلات الغرور، ولم تعم عليه مشتبهات الأمور؛ ظافراً بفرحة البشرى، وراحة النعمى، في أنعم نومه وآمن يومه.

قد عبر معبر العاجلة حميداً، وقدم زاد الآجلة سعيداً، وبادر عن وجل، وأكمش في مهل، ورغب في طلب، وذهب عن هرب، وراقب في يومه غده، وربما نظر قدماً أمامه.

فكفى بالجنة ثواباً ونوالاً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً! وكفى بالله منتقماً ونصيراً! وكفى بالكتاب حجيلاً وخصيماً!

الشرح: وقال أصحابنا رحمهم الله تعالى: الصراط الوارد ذكره في الكتاب العزيز؛ هو الطريق لأهل الجنة إلى الجنة، ولأهل النار إلى النار بعد المحاسبة، قالوا: لأن أهل الجنة ممرهم على باب النار، فمن كان من أهل النار عدل به إليها، وقذف فيها، ومن كان من أهل الجنة مر بالنار مروراً نجاً منها إلى الجنة، وهو معنى قوله تعالى: "وإن منكم إلا واردة"؛ لأن ورودها هو القرب منها، والدنو إليها، وقد دل القرآن على سور مضروب بين مكان النار وبين الموضع الذي يجتازون منه إلى الجنة في قوله: "فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب".

قالوا: ولا يصح ما روي في بعض الأخبار أن الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، وأن المؤمن يقطعه كمرور البرق الخاطف، والكافر يمشي عليه حبواً، وأنه ينتفض بالذين عليه حتى تترايل مفاصلهم. قالوا: لأن مثل ذلك لا يكون طريقاً للماضي، ولا يتمكن من المشي عليه؛ ولو أمكن لم يصح التكليف في الآخرة، ليؤمر العقلاء بالمرور عليه على وجه التعبد.

ثم سأل أصحابنا أنفسهم، فقالوا: أي فائدة في عمل هذا السور؛ وأي فائدة في كون الطريق الذي هو الصراط منتهياً إلى باب النار منفرجاً منها إلى الجنة؛ ألسنم تعللون أفعال الباري تعالى بالمصالح، والآخرة ليست دار تكليف ليفعل فيها هذه الأفعال للمصالح!.

وأجابوا بأن شعور المكلفين في الدنيا بهذه الأشياء مصالح لهم، وألطاف في الواجبات العقلية، فإذا اعلم المكلفون بها وجب إيقاعها على حسب ما وعدوا واخبروا به، لأن الله صادق لا خلف في أخباره.

وعندي أنه لا يمتنع أن يكون الصراط على ما وردت به الأخبار، ولا مانع من ذلك قولهم: لا يكون طريقاً للماضي، ولا يتمكن من المشي عليه مسلم، ولكن لم لا يجوز أن يكون في جعله على هذا الوجه والإخبار عن كيفيته هذه مصلحة للمكلفين في الدنيا؛ وليس عدم تمكن الإنسان من المشي عليه بمانع من إيقاعه على هذا الوجه، لأن المراد من هذا وأمثاله هو التخويف والزجر.

وأما قولهم: الآخرة ليست دار تكليف، فلقائل أن يقول لهم: لم قلت: إنه تكليف؛ ولم لا يجوز أن يكون المكلفون مضطرين إلى سلوكه اضطراراً؛ فالؤمن يخلق الله فيه الثبات والسكينة، والحركة السريعة فينجو ويسلم، والكافر يخلق فيه ضد ذلك فيهوي ويعطب ولا مانع من ذلك.

يقال: مكان دحض ودحض، بالتحريك، أي زلق، وأدحضته أنا أرلقتة فدحض هو.

والأهويل؛ الأمور المفزعة. وتارات أهواله، كقوله: دفعات أهواله؛ وإنما جعل أهواله تارات: لأن الأمور الهائلة إذا استمرت لم تكن في الإزعاج والترويع، كما تكون إذا طرأت تارة، وسكنت تارة. وأنصب الخوف بدنه: أتعب؛

والنصب: التعب. والتهجد هنا: صلاة الليل، وأصله: السهر؛ وقد جاء التهجد بمعنى النوم أيضاً؛ وهو من الأضداد.

الغرار: قلة النوم؛ وأصله قلة لبن الناقة، ويقال: غارت الناقة تغار غراراً قل لبنها.

فإن قلت: كيف توصف قلة النوم بالسهر؛ وإنما يوصف بالسهر الإنسان نفسه؛.

قلت: هذا من مجازات كلامهم؛ كقولهم ليل ساهر، وليل نائم.

والهواجر: جمع هاجرة؛ وهي نصف النهار عند اشتداد الحر، يقال: قد هجر النهار، وأتينا أهلنا مهجرين، أي سائرين في الهاجرة.

وظلف: منع، وظلفت نفس فلان، بالكسر عن كذا؛ أي كفت.

وأوجف: أسرع، كأنه جعل الذكر لشدة تحريكه اللسان موجفاً به، كما توجف الناقة براكبها، والوجيف: ضرب من السير.

ثم قال: وقدم الخوف لأمانه، اللام ههنا لام التعليل، أي قدم خوفه ليأمن. والمخالج: الأمور المختلجة، أي الجاذبة، خلجه واختلجه، أي جذبه، وأقصد المسالك: أقومها. وطريق قاصد، أي مستقيم، وقتله عن كذا، أي رده وصرفه، وهو قلب الفت، ويروى: قد عبر معبر العاجلة حميداً، وقدم زاد الآجلة سعيداً.

وأكمش: أسرع، ومثله انكمش ورجل كمش أي سريع، وقد كمش بالضم كماشة فهو كمش وكميش، وكمشته تكميشاً: أعجلته.

قوله: ورغب في طلب، وذهب عن هرب، أي ورغب فيما يطلب مثله، وفر عما يهرب من مثله، فأقام المصدر مقام ذي المصدر.

ونظر قدماً أمامه، أي ونظر ما بين يديه مقدماً لم ينش ولم يعرج، والدال مضمومة ههنا، قال الشاعر يذم امرأة:

تمضي إذا زجرت عن سوءة قدماً كأنها هدم في الجفر منقاض

ومن رواه بالتسكين، جاز أن يعني به هذا ويكون قد خفف، كما قالوا: حلم وحلم. وجاز أن يجعله مصدراً، من قدم الرجل بالفتح، يقدم قدماً، أي تقدم، قال الله تعالى: "يقدم قومه يوم القيامة"، أي يتقدمهم إلى ورودها؛ كأنه قال: ونظر بين يديه متقدماً لغيره وسابقاً إياه إلى ذلك والباء في بالجنة و بالنار و بالله وبالكتاب زائدة، والتقدير: كفى الله، وكفى الكتاب!.

الأصل: أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر، وأحتج بما نهج، وحذركم عدواً نفذ في الصدور خفياً، ونفث في الأذان نجياً، فأضل وأردى، ووعد فمني، وزين سيئات الجرائم، وهون موبقات العظائم، حتى إذا استدرج قرينته، وأستغلق رهينته؛ أنكر ما زين، وأستعظم ما هون، وحذر ما أمن.

الشرح: أعذر بما أنذر، ما ههنا مصدرية، أي أعذر بإنذاره، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، والعدو المذكور: الشيطان. وقوله: تفذ في الصدور ونفث في الأذان كلام صحيح بديع. وفي قوله: نفذ في الصدور، مناسبة لقوله صلى الله عليه وسلم: "الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم"، والنحي؛ الذي يساره، والجمع الأنحية، قال:

إنني إذا ما القوم كانوا أنجيه

وقد يكون النجي جماعة مثل الصديق، قال الله تعالى: "خلصوا نجيا"، أي متناجين، القرينة ههنا: الإنسان الذي قارنه الشيطان، ولفظه لفظ التأنيث؛ وهو مذكر، أراد القرين، قال تعالى: "فبئس القرين"، ويجوز أن يكون أراد بالقرينة النفس، ويكون الضمير عائداً إلى غير مذكور لفظاً لما دل المعنى عليه؛ لأن قوله: فأضل وأردى، ووعد فمضى معناه أضل الإنسان وأردى، ووعد فمضى، فالمفعول محذوف لفظاً، وإليه رجع الضمير على هذا الوجه؛ ويقال: غلق الرهن إذا لم يفتكه الراهن في الوقت المشروط، فاستحقه المرهن. وهذا الكلام مأخوذ من قوله تعالى: "وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي".

الأصل: ومنها في صفة خلق الإنسان: أم هذا الذي أنشأه في ظلمات. الأرحام، وشغف الأستار؛ نطفة دهاقاً، وعلقة محاقاً، وجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً؛ ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، ويقصر مزدجراً؛ حتى إذا قام أعتداله، واستوى مثاله؛ نفر مستكبراً، وخبط سادراً؛ ماتحاً في غرب هواه، كادحاً سعيّاً لندياه؛ في لذات طربه، وبدوات أربه؛ ثم لا يحتسب رزية، ولا يخشع تقية؛ فمات في فتنته غريراً، وعاش في هفوته يسيراً، لم يفد عوضاً، ولم يقض مفترضاً.

دهمته فجعات النية في غبر جماحه، وسنن مراحه، فظل سادراً، وبات ساهراً، في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام؛ بين أخ شقيق، ووال شفيق، وداعية بالويل جزعاً، ولادمة للصدر قلقاً؛ والمرء في سكرة ملهته، وكمرة كارثة، وأنة موجعة، وجذبة مكربة، وسوقه فتعبة.

ثم أدرج في أكفانه مبلساً، وجذب منقاداً سلساً؛ ثم ألقى على الأعواد، رجيع وصب، ونضو سقم، تحمله حفدة الولدان، وحشدة الإخوان، إلى دار غربته، ومنقطع زورته؛ ومفرد وحشته؛ حتى إذا انصرف المشيع، ورجع المتفجع، أقعد في حفرة نجياً لبهته السؤال، وعثرة الامتحان.

وأعظم ما هنالك بلية نزل الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات السعير، وسورات الزفير، لا فترة مريحة، ولا دعة فريحة، ولا قوة حاجزة، ولا موة ناجزة، ولا سنة مسلية؛ بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات؛ إنا بالله عائدون!

الشرح: أم هنا إما استفهامية على حقيقتها؛ كأنه قال: أعظكم وأذكركم بحال الشيطان وإغوائه، أم بحال الإنسان منذ ابتدأ وجوده إلى حين مماته، وإما أن تكون منقطعة بمعنى بل كأنه قال: عادلاً وتاركاً لما وعظهم به؛ بل أتلو عليكم نبأ هذا الإنسان الذي حاله كذا.

الشغف بالغين المعجمة: جمع شغاف، بفتح الشين، وأصله غلاف القلب، يقال: شغفه الحب، أي بلغ شغافه، وقرئ: "قد شغفها حباً"، والدهاق: المملوءة، ويروى دفاقاً من دفقت الماء أي صببته.

قال: وعلقة محاقاً، المحاق: ثلاث ليال من آخر الشهر، وسميت محاقاً لأن القمر يمتتح فيهن، أي يخفى وتبطل صورته، وإنما جعل العلة محاقاً ههنا، لأنها لم تحصل لها الصورة الإنسانية بعد؛ فكانت ممحوة محوقة.

واليافع: الغلام المرتفع، أيفع وهو يافع؛ وهذا من النوادر. وغلّام يفع ويفعة وغلّمان أيفاع ويفعة أيضاً.

قوله: وخبط سادراً؛ خبط البعير إذا ضرب بيديه إلى الأرض، ومشى لا يتوقى شيئاً.

والسادر: المتحير، والسادر أيضاً: الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع، والموضع يحتمل كلا التفسيرين، والماتح: الذي يستقي الماء من البئر وهو على رأسها. والماتح: الذي نزل البئر إذا قل ماؤها، فيملاً الدلاء. وسئل بعض أئمة اللغة عن الفرق بين الماتح والماتح، فقال: اعتبر نقطتي الإعجام، فالأعلى للأعلى، والأدق للأدق، والغرب: الدلو العظيمة. والكدح: شدة السعي والحركة، قال تعالى: "يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً".

قوله: وبدوات، أي ما يخطر له من آرائه التي تختلف فيها دواعيه، فتقدم وتحجم، ومات غريراً، أي شاباً، ويمكن أن يراد بلى أنه غير مجرب للأمور، والهفوة: الزلة، هفا يهفو. لم يفد عوضاً، أي لم يكتسب، وغبر جماحه: بقاياه، قال أبو كبير الهذلي:

وفساد مرضعة وداء مغيل

ومبرأ من كل غبر حيضة

والجماح الشرة وارتكاب الهوى. وسنن مراحه، السنن: الطريقة، والمراح: شدة الفرح والنشاط.

قوله: فظل سادراً، السادر ههنا غير السادر الأول، لأنه ههنا المغمى عليه كأنه سكران؛ وأصله من سدر البعير من شدة الحر وكثرة الطلاء بالقطران، فيكون كالنائم لا يحس، ومراده رضي الله عنه ههنا أنه بدأ به المرض. ولادمة للصدر: ضاربة له، والتدام النساء: ضربهن الصدور عند النياحة. سكرة فلهثة: تجعل الإنسان لاهثاً لشدها لث يلهث لثثاً ولهاثاً، ويروى ملهية بالياء، أي تلهي الإنسان وتشغله.

والكارثة فاعلة من كثره الغم يكرثه بالضم، أي اشتد عليه وبلغ منه غاية المشقة.

الجدبة: جذب الملك الروح من الجسد أو جذب الإنسان إذا احتضر ليسجى. والسوقة: من سياق الروح عند الموت.

والمبلس: الذي يبئس من رحمة الله، ومنه سمي إبليس. والإبلاس أيضاً: الإنكسار والحزن. والسلس: السهل المقادة.

والأعواد خشب الجنازة، ورجيع وصب: الرجيع المعنى الكال؛ والوصب: الوجع، وصب الرجل يوصب، فهو واصب،

وأوصبه الله فهو موصب. والموصب بالتشديد: الكثير الأوجاع. والنضو: الهزيل. وحشدة الإخوان: جمع حاشد؛ وهو

المتأهب المستعد. ودار غربته: قبره. وكذلك منقطع زورته، لأن الزيارة تنقطع عنده.

ومفرد وحشته نحو ذلك، لانفراده بعمله، واستيحاش الناس منه؛ حتى إذا انصرف المشيع وهو الخارج مع جنازته، أقعد في

حفرة. هذا تصريح بعذاب القبر، وسنذكر ما يصلح ذكره في هذا الموضع.

والنجي: المناجي. ونزول الحميم وتصلية الجحيم، من الألفاظ الشريفة القرآنية.

ثم نفى رضي الله عنه أن يكون في العذاب فتور يجد الإنسان معه راحة، أو سكون يزيج عنه الألم أي يزيله، أو أن

الإنسان يجد في نفسه قوة تحجز بينه وبين الألم، أي تمنع ويموت موتاً ناجزاً معجلاً، فيستريح، أو ينام فيسلو وقت نومه

عما أصابه من الألم في اليقظة كما في دار الدنيا.

ثم قال: بين أطوار الموتات، وهذا في ظاهره متناقض، لأنه نفى الموت مطلقاً ثم قال: بين أطوار الموتات، والجواب أنه أراد بالموتات الآلام العظيمة؛ فسمّاها موتات؛ لأن العرب تسمي المشقة العظيمة موتاً، كما قال:

إنما الميت ميت الأحياء

ويقولون: الفقر الموت الأحمر، واستعمالهم مثل ذلك كثير جداً.
ثم قال: إنا بالله عائدون؛ عذت بفلان واستعذت به؛ أي التجأت إليه.

القبر وسؤال منكر ونكير

واعلم أن لقاضي القضاة في كتاب طبقات المعتزلة في باب القبر وسؤال منكر ونكير؛ كلاماً أنا أورد هاهنا بعضه، قال رحمه الله تعالى: إن عذاب القبر إنما أنكره ضرار بن عمرو، ولما كان ضرار من أصحاب واصل بن عطاء، ظن كثير من الناس أن ذلك مما أنكرته المعتزلة؛ وليس الأمر كذلك؛ بل المعتزلة رجالان: أحدهما يجوز عذاب القبر، ولا يقطع به؛ وهم الأقلون، والآخر يقطع على ذلك؛ وهم أكثر أصحابنا لظهور الأخبار الواردة فيه؛ وإنما تنكر المعتزلة قول طائفة من الجهلة إنهم يعذبون وهم موتى، لأن العقل يمنع من ذلك؛ وإذا كان الإنسان مع قرب العهد بموته؛ ولما يدفن يعلمون أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك، ولا يألم ولا يلتذ، فكيف يجوز عليه ذلك وهو ميت في قبره! وما روي من أن الموتى يسمعون لا يصح إلا أن يراد به أن الله تعالى أحياهم، وقوى حاسة سمعهم، فسمعوا وهم أحياء.

قال رحمه الله تعالى: وأنكر أيضاً مشايخنا أن يكون عذاب القبر دائماً في كل حال، لأن الأخبار إنما وردت بذلك في الجملة، فالذي يقال به هو قدر ما تقتضيه الأخبار دون ما زاد عليه مما لا دليل عليه، ولذلك لسنا نوقت في التعذيب وقتاً، وإن كان الأقرب في الأخبار أنها الأوقات المقارنة للدفن، وإن كان لا نعينها بأعيانها.

هكذا قال قاضي القضاة، والذي أعرفه أنا من مذهب كثير من شيوخنا قبل قاضي القضاة أن الأغلب أن يكون عذاب القبر بين النفختين.

ثم إن قاضي القضاة سأل نفسه، فقال: إذا كانت الآخرة هي وقت المجازاة، فكيف يعذب في القبر في أيام الدنيا؛ وأجاب بأن القليل من العقاب المستحق قد يجوز أن يجعله الله في الدنيا لبعض المصالح، كما يفعل في تعجيل إقامة الحدود على من يستحقها، فلا يمنع منه تعالى أن يفعل ذلك بالإنسان إذا كان من أهل النار.

ثم سأل نفسه، فقال: إذا كان بالموت قد زال عنه التكليف، فكيف يقولون يكون ذلك من مصالحه! وأجاب بأننا لم نقل: إن ذلك من مصالحه وهو ميت؛ وإنما نقول إنه مصلحة أن نعلم في الدنيا ذلك من حال الموت؛ لأنه إذا تصور أنه مات عوجل بضرب من العقاب في القبر، كان أقرب إلى أن ينصرف عن كثير من المعاصي. وقد يجوز أن يكون ذلك لطفاً للملائكة الذين يتولون هذا التعذيب.

فأما القول من منكر ونكير، فإنه سأل نفسه رحمه الله تعالى، وقال: كيف يجوز أن يسموا بأسماء الذم، وعندكم أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ وأجاب، فقال: إن التسمية إذا كانت لقباً لم يقع بها ذم، لأن الذم إنما يقع لفائدة الاسم، والألقاب كالأشارات لا فائدة تحتها؛ ولذا يلقب الرجل المسلم بظالم وكلب ونحو ذلك؛ فيجوز أن يكون هذان الإسمان

من باب الألقاب، ويجوز أن يسميا بذلك من حيث يهجمان على الإنسان عند إكمال الله تعالى عقله على وجه ينكره ويرتاع منه، فسميا منكراً ونكيراً.

قال: وقد روي في المسألة في القبر أخبار كثيرة وكل ذلك مما لا قبح فيه، بل يجوز أن يكون من مصالح المكلفين فلا يصح المنع عنه.

وجملة الأمر أن كل ما ثبت من ذلك بالتواتر والإجماع، وليس بمستحيل في القدرة، ولا قبيح في الحكمة يجب القول به، وما عداه مما وردت به آثار وأخبار آحاد يجب أن يجوز؛ ويقال: إنه مظنون ليس بمعلوم، إذا لم يمنع منه الدليل. الأصل: عباد الله، أين الذين عمروا فنعموا، وعلموا ففهموا، وأنظروا فلهوا، وسلموا فنسوا! أمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحذروا أليماً، ووعدوا جسيماً.

أحذروا الذنوب المورطة، والغيوب المستخطة. أولي الأبصار والأسماع، والعافية والمتاع، هل من مناص أو خلاص، أو معاذ أو ملاذ، أو فرار أو محار! فأني تؤفكون، أم أين تصرفون، أم بماذا تغترون! وإنما حظ أحدكم من الأرض، ذات الطول والعرض، قيد قدده، منعراً على خده.

لم الآن عباد الله، والحناق مهمل، والروح مرسل، في فينة الإرشاد، وراحة الأجساد، وباحة الإحتشاد، ومهل البقية، وأنف المشية، وإنظار التوبة، وأنفساح الحوبة، قبل الضنك والمضيق، والروع والزهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وأخذة العزيز المقتدر.

قال الرضي رحمه الله: وفي الخبر أنه رضي الله عنه لما خطب بهذه الخطبة أقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب؛ ومن الناس من يسمي هذه الخطبة الغراء.

الشرح: نعم الرجل ينعم ضد قولك: بئس، وجاء شاذاً نعم ينعم بالكسر. وأنظروا: أمهلوا. والذنوب المورطة: التي تلقي أصحابها في الورطة؛ وهي الهلاك؛ قال رؤبة:

فأصبحوا في ورطة الأوراط

وأصله أرض مطمئنة لا طريق فيها، وقد أورطت زيداً وورطته توريطاً فتورط. ثم قال رضي الله عنه: أولي الأبصار والأسماع، ناداهم نداءً ثانياً بعد النداء الذي في أول الفصل، وهو قوله: عباد الله؛ فقال: يا من منحهم الله أبصاراً وأسماعاً، وأعطاهم عافية، ومتعهم متاعاً هل من مناص؛ وهو الملجأ والمفر؛ يقال: ناص عن قرنه مناصاً، أي فر وراوغ، قال سبجانه: "ولات حين مناص".

والحار: المرجع، من حار يحور أي رجع، قال تعالى: "إنه ظن أن لن يحور".

ويؤفكون: يقلبون، أفكه يأفكه عن كذا، قلبه عنه إلى غيره، ومثله يصرفون.

وقيد قدده: مقدار قدده، يقال: قرب منه قيد رمح وقاد رمح، والمراد ها هنا هو القبر، لأنه بمقدار قامة الإنسان، والمنعفر: الذي قد لامس العفر، وهو التراب.

ثم قال رضي الله عنه: الآن والحناق مهمل؛ تقديره: اعملوا الآن وأنتم مخلون متمكنون لم يعقد الحبل في أعناقكم، ولم

تقبض أرواحكم. والروح يذكر ويؤنث. والفينة: الوقت، ويروى وفينة الإرتياد؛ وهو الطلب. وأنف المشية: أول أوقات الإرادة والإختيار.

قوله: وانفساح الحوبة، أي سعة وقت الحاجة، والحوبة: الحاجة والأرب، قال الفرزدق:

فهب لي خنيساً واتخذ فيه منةً
لحوبة أم ما يسوغ شرابها

والغائب المنتظر؛ هو الموت.

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى: حدثني ثمامة، قال: سمعت جعفر بن يحيى وكان من أبلغ الناس وأفصحهم يقول: الكتابة ضم اللفظة إلى أختها، ألم تسمعوا قول شاعر لشاعر؛ وقد تفاخرا: أنا أشعر منك لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه! ثم قال: وناهيك حسناً بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل من مناص أو خلاص، أو معاذ أو ملاذ، أو فرار أو محار.

قال أبو عثمان: وكان جعفر يعجب أيضاً بقول علي رضي الله عنه: أين من جد واجتهد، وجمع واحتشد، وبني فشيء، وفرش فمهد، وزخرف فنجد، قال: ألا ترى أن كل لفظة منها آخذة بعنق قرينتها، جاذبة إياها إلى نفسها، دالة عليها بذاتها! قال أبو عثمان: فكان جعفر يسميه فصيح قريش.

واعلم أننا لا يتخالجا الشك في أنه رضي الله عنه أفصح من كل ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين، إلا من كلام الله سبحانه، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأن فضيلة الخطيب والكاتب في خطابته وكتابته تعتمد على أمرين؛ هما: مفردات الألفاظ ومركباتها.

أما المفردات فأن تكون سهلة سلسلة غير وحشية ولا معقدة، وألفاظه رضي الله عنه كلها كذلك؛ فأما المركبات فحسن المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام، واشتماله على الصفات التي باعتبارها فضل بعض الكلام على بعض، وتلك الصفات هي الصناعة التي سماها المتأخرون البديع، من المقابلة، والمطابقة، وحسن التقسيم، ورد آخر الكلام على صدره، والترصيع، والتسهميم، والتوشيح، والمماثلة، والإستعارة، ولطافة استعمال المجاز، والموازنة، والتكافؤ، والتسميط والمشاكلة.

ولا شبهة أن هذه الصفات كلها موجودة في خطبه وكتبه، مبثوثة متفرقة في فرش كلامه رضي الله عنه، وليس يوجد هذان الأمران في كلام أحد غيره فإن كان قد عملها وأفكر فيها، وأعمل رويته في رصفها ونثرها، فلقد أتى بالعجب العجيب، ووجب أن يكون إمام الناس كلهم في ذلك؛ لأنه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها ابتداءً، وفاضت على لسانه مرتجلة، وجاش بها طبعه بديهة، من غير روية ولا اعتمال، فأعجب وأعجب! وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره. وبحق ما قال معاوية لحقن الضبي، لما قال له: جئتك من عند أعيان الناس: يا بن اللخناء، ألعلي تقول هذا؛ وهل سن الفصاحة لقريش غيره! واعلم أن تكلف الإستدلال على أن الشمس مضيئة يتعب،

وصاحبه منسوب إلى السفه، وليس جاحد الأمور المعلومة علماً ضرورياً بأشد سفها ممن رام الإستدلال بالأدلة النظرية عليها.

ومن ذكر عمرو بن العاص

الأصل: عجباً لابن النابغة! يزعم لأهل الشام أن في دعابة، وأني أمرؤ تلعباة، أعافس وأمارس! لقد قال باطلاً، ونطق آثماً. أما وشر القول الكذب إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويسأل فيبخل، ويسأل فيلحف، ويخون العهد، ويقطع الإل؛ فإذا كان عند الحرب فأني زاجر وأمر هو! ما لم تأخذ السيوف مأخذها؛ فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته.

أما والله إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة. وإنه لم يبايع معاوية حتى شرط له أن يؤتيه آتية، ويرضخ له على ترك الدين رضيخة.

الشرح: الدعابة: المزاح، دعب الرجل، بالفتح. ورجل تلعباة، بكسر التاء: كثير اللعب، والتلعب، بالفتح: مصدر لعب. والمعافسة: المعالجة والمصارعة، ومنه الحديث: "عافسنا النساء". والممارسة نحوه.

يقول رضي الله عنه: إن عمراً يقدح في عند أهل الشام بالدعابة واللعب، وأني كثير الممازحة، حتى أني لأعب النساء وأغازهن، فعل المترف الفارغ القلب، الذي تتقضى أوقاته بملاذ نفسه.

ويلحف: يلح في السؤال؛ قال تعالى: "لا يسألون الناس إلحافاً"؛ ومنه المثل: "ليس للملحف مثل الرد"، والإل: العهد، ولما اختلف اللفظان حسن التقسيم بهما، وإن كان المعنى واحداً.

ومعنى قوله: ما لم تأخذ السيوف مأخذها؛ أي ما لم تبلغ الحرب إلى أن تخالط الرؤوس، أي هو مليء بالتحريض قبل أن تلتحم الحرب، فإذا التحمت واشتدت فلا يمكث، وفعل فعلته التي فعل، والسبة: الإست، وسبه يسبه: طعنه في السبة. ويجوز رفع أكبر ونصبه، فإن رفعت فهو الإسم، وإن نصبت فهو الخبر.

والآتية: العطية، والإيتاء: الإعطاء. ورضخ له رضخاً: أعطاه عطاء بالكثير، وهي الرضيخة؛ لما يعطى.

أخبار عمرو بن العاص

ونحن نذكر طرفاً من نسب عمرو بن العاص وأخباره إلى حين وفاته إن شاء الله.

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر. يكنى أبا عبد الله، ويقال: أبو محمد.

أبوه العاص بن وائل، أحد المستهزئين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمكاشفين له بالعداوة والأذى، وفيه وفي أصحابه انزل قوله تعالى: "إنا كفيناك المستهزئين".

ويلقب العاص بن وائل في الإسلام بالأبتر، لأنه قال لقريش: سيموت هذا الأبتر غداً، فينقطع ذكره، يعني رسول الله

صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يكن له صلى الله عليه وسلم ولد ذكر يعقب منه، فأنزل الله سبحانه: "إن شانتك هو الأبر". وكان عمرو أحد من يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة؛ لأنه كان صلى الله عليه وسلم يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة، وكان عمرو يجعل له الحجارة في مسلكه ليعثر بها. وهو أحد القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله رضي الله عنها لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة، فروعوها وقرعوا هودجها بكعوب الرماح، حتى أجهضت جنيناً ميتاً من أبي وأبي العاص بن الربيع بعلمها، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، نال منه وشق عليه مشقة شديدة ولعنهم. روى ذلك الواقدي. وروى الواقدي أيضاً وغيره من أهل الحديث؛ أن عمرو بن العاص هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم هجاءً كثيراً، كان يعلمه صبيان مكة، فينشدونه ويصيحون لرسول الله إذا مر بهم، رافعين أصواتهم لذلك الهجاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالحجر: "اللهم إن عمرو بن العاص هجاني، ولست بشاعر؛ فالعنه بعدد ما هجاني".

وروى أهل الحديث أن النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص، عهدوا إلى سلى حمل فرفعه بينهم ووضعوه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد بفناء الكعبة، فسأل عليه، فصر ولم يرفع رأسه، وبكى في سجوده ودعا عليهم، فجاءت ابنته فاطمة رضي الله عنها وهي باكية، فاحتضنت ذلك السلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكي، فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم؛ وقال: "اللهم عليك بقريش"، قالها ثلاثاً، ثم قال رافعاً صوته: "إني مظلوم فانتصر"؛ قالها ثلاثاً، ثم قام فدخل منزله: وذلك بعد وفاة عمه أبي طالب بشهرين. ولشدة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسله أهل مكة إلى النجاشي ليزهده في الدين، وليطرد عن بلاده مهاجرة الحبشة، وليقتل جعفر بن أبي طالب عنده، إن أمكنه قتله، فكان منه في أمر جعفر هناك ما هو مذكور مشهور في السير، وسنذكر بعضه.

فأما النابغة فقد ذكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار قال: كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمة لرجل من عترة، فسبيت، فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة، فكانت بغياً، ثم أعتقها، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب، وأممية بن خلف الجمحي، وهشام بن المغيرة المخزومي، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل السهمي، في طهر واحد، فولدت عمراً، فادعاه كلهم، فحكمت أمه فيه، فقالت: هو من العاص بن وائل، وذاك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيراً، قالوا: وكان أشبه بأبي سفيان؛ وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص:

لنا فيك منه بينات الشمائل

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت

وقال أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب: كان اسمها سلمى وتلقبت بالنابغة بنت حرمة من بني جلال بن عترة بن أسد بن ربيعة بن نزار أصابها سباء، فصارت إلى العاص بن وائل بعد جماعة من قريش، فأولدها عمراً. قال أبو عمر: يقال إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمراً وهو على المنبر: من أمه؛ فسأله، فقال: أمي سلمى بنت حرمة؛ تلقب بالنابغة، من بني عترة ثم أحد بني جلال وأصابتها راح العرب فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن خدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت فأنجبت، فإن كان جعل لك شيء فخذ.

وقال المبرد في كتاب الكامل اسمها ليلي. وذكر هذا الخبر وقال: إنها لم تكن في موضع مرضي، قال المبرد: وقال المنذر بن الجارود مرة لعمر بن العاص: أي رجل أنت لولا أن أمك أمك! فقال: إني أحمد الله إليك، لقد فكرت البارحة فيها فأقبلت أنقلها في قبائل العرب ممن أحب أن تكون منها، فما خطرت لي عبد القيس على بال!

وقال المبرد: ودخل عمرو بن العاص مكة؛ فرأى قوماً من قريش قد جلسوا حلقة، فلما رآوه رمقوه بأبصارهم، فعدل إليهم فقال: أحسبكم كنتم في شيء من ذكري! قالوا: أجل؛ كنا نمثل بينك وبين أخيك هشام بن العاص، أيكما أفضل؛ فقال عمرو: إن هشام علي أربعة: أمه بنت هشام بن المغيرة، وأمي من قد عرفتم؛ وكان أحب إلى أبيه مني، وقد علمتم معرفة الوالد بولده، وأسلم قبلي، واستشهد وبقيت.

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب الأنساب أن عمراً اختصم فيه يوم ولادته رجلان: أبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل؛ ففعل: لتحكم أمه؛ فقالت أمه: إنه من العاص بن وائل؛ فقال أبو سفيان: أما إني لا أشك أني وضعته في رحم أمه، فأبى إلا العاص، ففعل لها: أبو سفيان أشرف نسباً؛ فقالت: إن العاص بن وائل كثير النفقة علي وأبو سفيان شحيح.

ففي ذلك يقول حسان بن ثابت لعمر بن العاص حيث هجاه مكافئاً له عن هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لنا فيك منه بينات الدلائل

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت

تفاخر بالعاص الهجين بن وائل

ففاخر به إما فخرت ولا تكن

فقال رجاء عند ذاك لنائل

وإن التي في ذاك يا عمر حكمت

تجمعت الأقوام عند المحافل

من العاص عمرو تخبر الناس كلما

الحسن بن علي رضي الله عنه يفحم رجالاً من قريش

وروى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات؛ قال: اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعتبة بن أبي سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علي رضي الله عنه قوارص، وبلغه عنهم مثل ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ إن الحسن قد أحيا أباه وذكره، وقال فصدق، وأمر فأطيع، وخفقت له النعال، وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوؤنا.

قال معاوية: فما تريدون؟ قالوا: ابعث عليه فليحضر لنسبه ونسب أباه، ونعيه ونوبخه، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرره بذلك، ولا يستطيع أن يغير علينا شيئاً من ذلك.

قال معاوية: إني لا أرى ذلك ولا أفعله؛ قالوا: عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن؛ فقال: ويحكم لا تفعلوا! فوالله ما رأيته قط جالساً عندي إلا خفت مقامه وعيبي لي، قالوا: ابعث إليه على كل حال؛ قال: إن بعثت إليه لأنصفه منكم.

فقال عمرو بن العاص: أتخشى أن يأتي باطله على حقنا، أو يربي قوله على قولنا! قال معاوية: أما إني إن بعثت إليه لأمره أن يتكلم بلسانه كله، قالوا: مره بذلك.

قال: أما إذ عصيتموني، وبعثتم إليهم وأيئتم إلا ذلك فلا ترضوا له في القول، واعلموا. أنهم أهل بيت لا يعيهم العائب، ولا يلصق بهم العار؛ ولكن اقدفوه بحجره؛ تقولون له: إن أباك قتل عثمان، وكره خلافة الخلفاء من قبله. فبعث إليهم معاوية، فجاءه رسوله، فقال: إن أمير المؤمنين يدعوكم.

قال: من عنده؛ فسامهم له؛ فقال الحسن رضي الله عنه: ما لهم خر عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. ثم قال: يا جارية، ابغيني ثيابي، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم، وأدراً بك في نحورهم، وأستعين بك عليهم، فاكفنيهم كيف شئت وأنى شئت، بحول منك وقوة، يا أرحم الراحمين! ثم قام، فلما دخل على معاوية، أعظمه وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وقد ارتاد القوم، وخطرأوا خطران الفحول، بغياً في أنفسهم وعلوا، ثم قال: يا أبا محمد؛ إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني.

فقال الحسن رضي الله عنه: سبحان الله! الدار دارك، والإذن فيها إليك، والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحي لك من الفحش، إن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الضعف؛ فأيهما تقرر، وأيهما تنكر؛ أما إني لو علمت بمكائهم جئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب، وما لي أن أكون مستوحشاً منك ولا منهم! إن وليي الله، وهو يتولى الصالحين.

فقال معاوية: يا هذا، إني كرهت أن أدعوك، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهيتي له، وإن لك منهم النصف ومني، وإنما دعوناك لنقرر أن عثمان قتل مظلوماً، وأن أباك قتله، فاستمع منهم ثم أجبه، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك.

فتكلم عمرو بن العاص، فحمد الله وصلى على رسوله، ثم ذكر علياً رضي الله عنه، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله، وقال: إنه شتم أبا بكر وكره خلافته، وامتنع من بيعته، ثم بايعه مكرهاً، وشرك في دم عمر، وقتل عثمان ظلماً. وادعى من الخلافة ما ليس له.

ثم ذكر الفتنة يعيره بها، وأضاف إليه مساوئ؛ وقال: إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء، وحرصكم على الملك، وإتيانكم ما لا يحل. ثم إنك يا حسن، تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك، وتركك أحق قریش، يسخر منك ويهزأ بك، وذلك لسوء عمل أبيك! وإنما دعوناك لنسبك وأباك، فأما أبوك فقد تفرد الله به وكفانا أمره، وأما أنت فإنك في أيدينا نختار فيك الخصال، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله، ولا عيب من الناس، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا؛ فإن كنت ترى أننا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان.

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فقال: يا بني هاشم، إنكم كنتم أحوال عثمان؛ فنعم الولد كان لكم؛ فعرف حقكم، وكنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم يكرمكم؛ فكنتم أول من حسده، فقتله أبوك ظلماً، لا عذر له ولا حجة، فكيف ترون الله طلب بدمه، وأنزلكم منزلتكم! والله إن بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية، وإن معاوية خير لك من نفسك.

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان، فقال: يا حسن، كان أبوك شر قريش لقريش، أسفكها لدمائها، وأقطعها لأرحامها، طويل السيف واللسان، يقتل الحي ويعيب الميت، وإنك ممن قتل عثمان، ونحن قاتلوك به، وأما رجاؤك الخلافة فلسست في زندها قادحاً، ولا في ميزانها راجحاً، وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان، وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به؛ فأما أبوك فقد كفانا الله أمره وأقاد منه، وأما أنت، فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان.

ثم تكلم المغيرة بن شعبة، فشتهم علياً، وقال: والله ما أعيبه في قضية يخون، ولا في حكم يميل، ولكنه قتل عثمان، ثم سكتوا.

فتكلم الحسن بن علي رضي الله عنه؛ فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أما بعد يا معاوية، فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني، فحشاً ألفته؛ وسوء رأي عرفت به، وخلقاً سيئاً ثبت عليه، وبغياً علينا؛ عداوة منك لمحمد وأهله، ولكن اسمع يا معاوية، واسمعوا فلاقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم. أنشدكم الله أيها الرهط، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم، صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية بهما كافر؛ تراها ضلالة، وتبعد اللات والعزى غواية! وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما: بيعة الفتح وبيعة الرضوان، وأنت يا معاوية بإحدهما كافر، وبالأخرى ناكث! وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً، وأنت يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم تسرون الكفر، وتظهرون الإسلام، وتستمالون بالأموال! وأنشدكم الله، أستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه، ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب، ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعك ومع أبيك راية الشرك؛ وفي كل ذلك يفتح الله. له ويفلج حجته، وينصر دعوته، ويصدق حديثه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك المواطن كلها عنه راض، وعليك وعلى أبيك ساخط! وأنشدك الله يا معاوية، أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر، وأنت تسوقه، وأخوك عتبة هذا يقوده، فراكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: "اللهم العن الراكب والقائد والسائق". أتتسى يا معاوية الشعر الذي كتبت به إلى أبيك لما هم أن يسلم، تنهاه عن ذلك:

بعد الذين ببدر أصبحوا فرقا

وحنظل الخير قد اهدى لنا الأرقا

والراقصات به في مكة الخرقا

حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحننا

خالي وعمي وعم الأم ثالثهم

لا تركنن إلى أمر تكلفنا

فالموت أهون من قول العداة: لقد

واللة لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت.

وأنشدكم الله أيها الرهط؛ أتعلمون أن علياً حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل فيه: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم"، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة فترلوا من حصنهم.

فهبزموا، فبعث علياً بالراية، فاستترههم على حكم الله وحكم رسوله، وفعل في خير مثلها! ثم قال: يا معاوية أظنك لا تعلم أني أعلم ما دعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني خزيمه، فبعث إليك ابن عباس، فوجدك تأكل، ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل، فدعا عليك الرسول بجوعك ونهمك إلى أن تموت.

وأنتم أيها الرهط: نشدتكم الله، ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردها: أولها: يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجاً من مكة إلى الطائف، يدعو ثقيفاً إلى الدين، فوقع به وسبه وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده، وهم أن ييطش به، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه.

والثانية يوم العير؛ إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي جائية من الشام، فطردها أبو سفيان، وساحل بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها.

والثالثة يوم أحد، حيث وقف تحت الجبل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلاه، وهو ينادي: اعل هبل! مراراً، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات، ولعنه المسلمون.

والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله وابتهل.

والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ذلك يوم الحديبية، فلعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان، ولعن القادة والأتباع، وقال: "ملعونون كلهم، وليس فيهم من يؤمن"، ف قيل: يا رسول الله، أفما يرجى الإسلام لأحد منهم فكيف، باللعنة؛ فقال: "لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد".

والسادسة يوم الجمل الأحمر، والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة ليستنفروا ناقته، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم أبو سفيان.

فهذا لك يا معاوية، وأما أنت يا بن العاص؛ فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً؛ من عهر وسفاح، فتحاكم فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزارها، ألأمهم حسباً، وأخبثهم منصباً؛ ثم قام أبوك فقال: أنا شاني محمد الأبر، فأنزل الله فيه ما أنزل.

وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع المشاهد، وهجوته وآذيته بمكة وكدته كيدك كله، وكنت من أشد الناس له تكديباً وعداوة.

ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجوت ورجعك الله خائباً، وأكذبك واشياً، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد، فوشيت به إلى النجاشي، حسداً لما ارتكب مع حليبتك، ففضحك الله وفضح صاحبك.

فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام. ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين بيتاً من الشعر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي، اللهم اعنه بكل حرف ألف لعنة"؛ فعليك إذاً من الله ما لا يحصى من اللعن.

وأما ما ذكرت من أمر عثمان، فأنت سعرت عليه الدنيا ناراً، ثم لحقت بفلسطين، فلما أتاك قتله، قلت: أنا أبو عبد الله إذا

نكأت قرحة أدميتها. ثم حبست نفسك إلى معاوية، وبعث دينك بدنياه، فلسنا نلومك على بغض، ولا نعاتبك على ودّ،
وبالله ما نصرت عثمان حياً ولا غضبت له مقتولاً، ويحك يا بن العاص! أأست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة
إلى النجاشي:

وما السير مني بمستكر

أريد النجاشي في جعفر

أقيم بها نخوة الأصعر

وأقولهم فيه بالمنكر

ولو كان كالذهب الأحمر

وما اسطعت في الغيب والمحضر

تقول ابنتي أين هذا الرحيل

فقلت: ذريني فإني امرؤ

لأكويه عنده كية

وشانئ أحمد من بينهم

وأجري إلى عتبة جاهداً

ولا أنثني عن بني هاشم

وإلا لويت له مشفري

فإن قبل العتب مني له

فهذا جوابك، هل سمعته! وأما أنت يا وليد؛ فوالله ما ألومك على بغض علي، وقد جلدك ثمانين في الخمر، وقتل أباك بين
يدي رسول الله صبراً، وأنت الذي سماه الله الفاسق، وسمى علياً المؤمن، حيث تفاخرتما فقلت له: اسكت يا علي، فأنا
أشجع منك جناناً، وأطول منك لساناً، فقال لك علي: اسكت يا وليد، فأنا مؤمن وأنت فاسق؛ فأنزل الله تعالى في
موافقة قوله: "أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون"، ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً: "إن جاءكم فاسق
بنياً فتبينوا".

ويحك يا وليد! مهما نسيت، فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه:

في علي وفي الوليد قرانا

وعلي مبرأ إيماننا

الله كمن كان فاسقاً خوانا

وعلي إلى الحساب عيانا

ووليد يجزى بذاك هوانا

لابس في بلادنا تباننا

أنزل الله والكتاب عزيز

فتبوا الوليد إذ ذاك فسقاً

ليس من كان مؤمناً عمرك

سوف يدعى الوليد بعد قليل

فعلي يجزى بذاك جناناً

رب جد لعقبة بن أبان

وما أنت وقريش؛ إنما أنت عالج من أهل صفورية، واقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد، وأسن ممن تدعى إليه. وأما أنت يا
عتبة؛ فوالله ما أنت بحصيف فأجيئك، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك، وما عندك خير يرجي، ولا شر يتقى، وما عقلك
وعقل أمتك إلا سواء، وما يضر علياً لو سبته على رؤوس الأشهاد! وأما وعيدك إياي بالقتل، فهلاً قتلته اللحياني إذ
وجدته على فراشك! أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك:

وبعد هذا، ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه؛ فكيف يخاف أحد سيفك، ولم تقتل فاضحك! وكيف ألومك على بغض علي، وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد! وأما أنت يا مغيرة؛ فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنحلة: استمسكي؛ فإني طائرة عنك، فقالت النحلة: وهل علمت بك واقعة علي فأعلم بك طائراً عني! والله ما نشعر بعداوتك إيانا، ولا اغتمنا إذ علمنا بها، ولا يشق علينا كلامك، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك، ولقد درأ عمر عنك حقاً الله سائله عنه! ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها؛ فقال: "لا بأس لذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا"، لعلمه بأنك زان.

وأما فخركم علينا بالإمارة، فإن الله تعالى يقول: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً".

ثم قام الحسن فنفض ثوبه، وانصرف؛ فتعلق عمرو بن العاص بثوبه، وقال: يا أمير المؤمنين، قد شهدت قوله في وقفه أُمي بالزنا، وأنا مطالب له بجد القذف.

فقال معاوية: خل عنه لا جزاك الله خيراً. فتركه.

فقال معاوية: قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتُموني، والله ما قام حتى أظلم علي البيت، قوموا عني، فلقد فضحككم الله وأخزاكم بترككم الحزم، وعدولكم عن رأي الناصح المشفق؛ والله المستعان.

عمرو بن العاص ومعاوية

وروى الشعبي، قال: دخل عمرو بن العاص على معاوية يسأله حاجة، وقد كان بلغ معاوية عنه ما كرهه، فكره قضاءها وتشاغل، فقال عمرو: يا معاوية؛ إن السخاء فطنة، واللؤم تغافل، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين. فقال معاوية: يا عمرو؛ بماذا تستحق منا قضاء الحوائج العظام؛ فغضب عمرو وقال: بأعظم حق وأوجب، إذ كنت في بحر عجاج، فلولا عمرو لغرقت في أقل مائه وأرقه، ولكني دفعتك فيه فصرت في وسطه، ثم دفعتك فيه أخرى فصرت في أعلى المواضع منه، فمضى حكمك، ونفذ أمرك، وانطلق لسانك بعد تلجلجه، وأضاء وجهك بعد ظلمته، وطمست لك الشمس بالعهن المنفوش، وأظلمت لك القمر بالليلة المدهمة.

فتناوم معاوية، وأطبق جفنيه ملياً، فخرج عمرو، فاستوى معاوية جالساً وقال لجلسائه: أرايتم ما خرج من فم ذلك الرجل؛ ما عليه لو عرض؛ ففي التعريض ما يكفي! ولكنه جبهني بكلامه، ورماني بسموم سهامه.

فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين؛ إن الحوائج لتقضى على ثلاث خصال: إما أن يكون السائل لقضاء الحاجة مستحقاً

فتقضى له بحقه، وإما أن يكون السائل لئيماً فيصون الشريف نفسه عن لسانه فيقضي حاجته، وإما أن يكون المسؤول كريماً فيقضيها لكرمه؛ صغرت أو كبرت.

فقال معاوية: لله أبوك! ما أحسن ما نطقت! وبعث إلى عمرو فأخبره، وقضى حاجته ووصله بصلة جلييلة، فلما أخذها ولى منصراً. فقال معاوية: "فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون" فسمعها عمرو، فالتفت إليه مغضباً وقال: والله يا معاوية، لا أزال آخذ منك قهراً، ولا أطيع لك أمراً، وأحفر لك بئراً عميقاً، إذا وقعت فيه لم تدرك إلا رميماً. فضحك معاوية، فقال: ما أريدك يا أبا عبد الله بالكلمة، وإنما كانت آية تلوها من كتاب الله عرضت بقلبي، فاصنع ما شئت.

عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص في مجلس معاوية

وروى المدائني قال: بينا معاوية يوماً جالساً عنده عمرو بن العاص، إذ قال الآذن: قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فقال عمرو: والله لأسوءنه اليوم، فقال معاوية: لا تفعل يا أبا عبد الله، فإنك لا تنصف منه، ولعلك أن تظهر لنا من منقبتة ما هو خفي عنا، وما لا نحب أن نعلمه منه. وغشيه عبد الله بن جعفر؛ فأدناه معاوية وقربه، فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية، فقال من علي رضي الله عنه جهاراً غير سائر له، وثلبه ثلباً قبيحاً. فالتمع لون عبد الله بن جعفر واعتراه أفكل حتى أرعدت خصائله، ثم نزل عن السرير كالغنيق، فقال عمرو: مه يا أبا جعفر! فقال له عبد الله: مه لا أم لك! ثم قال:

وقديستجهل الرجل الحليم

أظن الحلم دل علي قومي

ثم حسر عن ذراعيه، وقال: يا معاوية، حتام تنجرع غيظك؛ وإلى كم الصبر على مكروه قولك، وسيء أدبك، وذميم أخلاقك! هبلتك الهبول! أما يزجرك ذمام المجالسة عن القذع لجليسك إذا لم تكن لك حرمة من دينك تنهاك عما لا يجوز لك! أما والله لو عطفتك أواصر الأرحام، أو حاميت على سهمك من الإسلام، ما أرعيت بني الإماء المتك، والعبيد الصك أعراض قومك.

وما يجهل موضع الصفوة إلا أهل الجفوة، وإنك لتعرف وشائظ قريش وصبوة غرائزها، فلا يدعونك تصويب ما فرط من خطئك في سفك دماء المسلمين، ومحاربة أمير المؤمنين، إلى التماذي فيما قد وضح لك الصواب في خلافه. فاقصد لمنهج الحق، فقد طال عمهك عن سبيل الرشد، وخبطك في بحور ظلمة الغي.

فإن أبيت ألا تتابعنا في قبح اختيارك لنفسك، فأعفنا من سوء القالة فينا إذا ضمنا وإياك الندي، وشأنك وما تريد إذا خلوت؛ والله حسيبك، فوالله لولا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك.

ثم قال: إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق.

فقال معاوية: يا أبا جعفر، أقسمت عليك لتجلسن، لعن الله من أخرج ضب صدرك من وجاره؛ محمول لك ما قلت، ولك عندنا ما أملت، فلو لم يكن محمدك ومنصبك لكان خلقك وخلقك شافعين لك إلينا، وأنت ابن ذي الجناحين

وسيد بني هاشم.

فقال عبد الله: كلا، بل سيد بني هاشم حسن وحسين، لا ينازعهما في ذلك أحد.

فقال: أبا جعفر، أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة ما كانت، ولو ذهبت بجميع ما أملك، فقال: أما في هذا المجلس فلا، ثم انصرف.

فأتبعه معاوية بصره، وقال: والله لكأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، مشبه وخلقه وخلقه، وإنه لمن مشكاته، ولوددت أنه أخي بنفيس ما أملك.

ثم التفت إلى عمرو، فقال: أبا عبد الله، ما تراه منعه من الكلام معك؟ قال: ما لا خفاء به عنك، قال: أظنك تقول: إنه هاب جوابك؟ لا والله، ولكنه ازدراك واستحقرك، ولم يرك للكلام أهلاً، أما رأيت إقباله علي دونك ذاهباً بنفسه عنك! فقال عمرو: فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه؟ قال معاوية: اذهب إليك أبا عبد الله، فلات حين جواب سائر اليوم، ونهض معاوية وتفرق الناس.

عبد الله بن العباس ورجالات

قريش في مجلس معاوية

وروى المدائني أيضاً قال: وفد عبد الله بن عباس على معاوية مرة، فقال معاوية لابنه يزيد، ولزياد بن سمية، وعتبة بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن أم الحكم: إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس، وما كان شجر بيننا وبينه وبين ابن عمه، ولقد كان نصبه للتحكيم فدفع عنه، فحركوه على الكلام لنبلغ حقيقة صفته، ونقف على كنه معرفته، ونعرف ما صرف عنا من شبا حده، وزوي عنا من دهاء رأيه، فرمما وصف المرء بغير ما هو فيه، وأعطى من النعت والإسم ما لا يستحقه.

ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس، فلما دخل واستقر به المجلس، ابتدأه ابن أبي سفيان فقال: يا بن عباس، ما منع عليك أن يوجه بك حكماً؟ فقال: أما والله لو فعل لقرن عمراً بصعوبة من الإبل، يوجع كفه مراسها، ولأذهلت عقله، وأجرضته بريقه، وقدحت في سويداء قلبه، فلم يرم أمراً، ولم ينفذ تراباً، إلا كنت منه بمرأى ومسمع، فإن أنكاه أدميت قواه، وإن أدمه فصمت عراه، بغرب مقول لا يفيل حده، وأصالة رأي كمتاح الأجل لا وزر منه، أصدع به أديمه، وأفل به شبا حده، وأشحد به عزائم المتقين، وأزيح به شبه الشاكين.

فقال عمرو بن العاص: هذا والله يا أمير المؤمنين نجوم أول الشر، وأقول آخر الخير، وفي حسمه قطع مادته، فبادره بالحملة، وانتهاز منه الفرصة، واردع بالتنكيل به غيره، وشرده به من خلفه.

فقال ابن عباس: يا بن النابغة؟ ضل والله عقلك، وسفه حلمك، ونطق الشيطان على لسانك؛ هلا توليت ذلك بنفسك يوم صفين حين دعيت نزال، وتكافح الأبطال، وكثرت الجراح، وتقصفت الرماح، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً،

فانكفأ نحوك بالسيف حاملاً، فلما رأيت الكواشر من الموت؛ أعددت حيلة السلامة قبل لقائه، والإنكفاء عنه بعد إجابة دعائه، فمنحته رجاء النجاة عورتك، وكشفت له خوف بأسه سوأته، حذراً أن يصطلمك بسطوته، ويلتهمك بحملته، ثم أشرت على معاوية كالنصح له بمبارزته، وحسنت له التعرض لمكافحته، رجاء أن تكتفي مؤنته، وتعدم صورته، فعلم غل صدرك، وما انحنت عليه من النفاق أضلعك، وعرف مقر سهمك في غرضك.

فاكفف غرب لسانك، واقمع عوراء لفظك، فإنك لمن أسد خادر، وبحر زاجر، إن تبرزت للأسد افترسك؛ وإن عمت في البحر قمسك.

فقال مروان بن الحكم: يا بن عباس إنك لتصرف أنيابك، وتوري نارك، كأنك ترجو الغلبة وتؤمل العافية، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصر أنامله، فأوردكم منهاً بعيداً صدره، ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم، ولئن عفا عن جرائمكم فقيماً ما نسب إلى ذلك.

فقال ابن عباس: وإنك لتقول ذلك يا عدو الله، وطريد رسول الله، والمباح دمه، والداخل بين عثمان ورعيته، بما حملهم على قطع أوداجه، وركوب أثباجه! أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره.

وأما قولك لي: إنك لتصرف أنيابك، وتوري نارك؛ فسل معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهير، كيف ثباتنا للمثالات، واستخفنا بالمعضلات، وصدف جلادنا عند المصاولة، وصبرنا على اللأواء والمطاولة، ومصافحتنا بجباهنا السيوف المرهفة؛ ومباشرتنا بنحورنا حد الأسنة، هل خمننا عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل مهجنا للمتالف؛ وليس لك إذ ذاك فيها مقائم محمود، ولا يوم مشهود، ولا أثر معدود، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلقك؛ فاربع على ظلعك، ولا تتعرض لما ليس لك، فإنك كالمرغوز في صفد، لا يهبط برجل، ولا يرقى بيد.

فقال زياد: يا بن عباس، إني لأعلم ما منع حسناً وحسيناً من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سولت لهما أنفسهما، وغرهما به من هو عند البأساء سلمهما، وإيم الله لو وليتهما لأدأبا في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما، ولقل بمكانهما ليهما.

فقال ابن عباس: إذن والله يقصر دونهما باعك، ويضيق بهما ذراعك، ولو رمت ذلك لوجدت من دونهما فئة صدقاً، صبراً على البلاء، لا يخيمون عن اللقاء، فلعر كوك بكلاكلهم، ووطئوك بمناسمهم، وأوجروك مشق رماحهم، وشفار سيوفهم ووخز أسنتهم، حتى تشهد بسوء ما أتيت، وتبين ضياع الخزم فيما جنيت. فحذار حذار من سوء النية فتكافاً برد أمنية، وتكون سبباً لفساد هذين الحيين بعد صلاحتهما، وسعيّاً في اختلافهما بعد ائتلافهما، حيث لا يضرهما إبساسك، ولا يغني عنهما إيناسك.

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم: لله در ابن ملجم! فقد بلغ الأمل، وأمن الوجل، وأحد الشفرة وألان المهرة، وأدرك الثار، ونفى العار، وفاز بالمتلة العليا، ورقى الدرجة القصوى.

فقال ابن عباس: أما والله: لقد كرع كأس حتفه بيده، وعجل الله إلى النار بروحه، ولو أبدى لأمر المؤمنين صفحته

لخالطه الفحل القطم والسيف الخدم، ولألعه صاباً، وسقاه سماً، وألحقه بالوليد وعتبة وحنظلة، فكلهم كان أشد منه شكيمة، وأمضى عزيمة، ففرى بالسيف هامهم، ورفلهم بدمائهم؛ وقرى الذئاب أشلاءهم، وفرق بينهم وبين أحبائهم: أولئك حصب جهنم هم لها واردون، و "هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركراً"، ولا غرو إن ختل، ولا وصمة إن قتل، فإننا لكما قال دريد بن الصمة:

ونلحمه طوراً وليس بذي نكر

فإننا للحم السيف غير مكره

بنا إن أصبنا، أو نغير على وتر

يغار علينا واترين فيشتقى

فقال المغيرة بن شعبة: أما والله لقد أشرت على علي بالنصيحة فأثر رأيه، ومضى على غلوائه، فكانت العاقبة عليه لا له، وإني لأحسب أن خلفه يقتدون بمنهجه.

فقال ابن عباس: كان والله أمير المؤمنين رضي الله عنه أعلم بوجوه الرأي، ومعاهد الحزم، وتصريف الأمور، من أن يقبل مشورتك فيما نهي الله عنه، وعنف عليه، قال سبحانه: "لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله...؛ ولقد وقفك على ذكر مبين، وآية متلوة قوله تعالى: "وما كنت متخذ المضلين عضداً"، وهل كان يسوغ له أن يحكم في دماء المسلمين وفيء المؤمنين، من ليس بمأمن عنده، ولا موثوق به من نفسه؛ هيهات هيهات! هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يظن خلاف ما يظهر إلا للتقية، ولات حين تقيّة! مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار، يمضي كالسيف المصلت في أمر الله، مؤثراً لطاعة ربه والتقوى، على آراء أهل الدنيا.

فقال يزيد بن معاوية: يا بن عباس، إنك لتنتطق بلسان طلق ينبئ عن مكنون قلب حرق، فاطو ما أنت عليه كشحاً، فقد محا ضوء حقنا ظلمة باطلكم.

فقال ابن عباس: مهلاً يزيد، فوالله ما صفت القلوب لكم منذ تكدرت بالعداوة عليكم، ولا دنت بالحجة إليكم مذ نأت بالبعضاء عنكم، لا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم، وإن تدل الأيام نستقض ما سد عنا، ونسترجع ما ابتز منا، كيلاً بكيل، ووزناً بوزن، وإن تكن الاخرى فكفى بالله ولياً لنا، ووكيلاً على المعتدين علينا.

فقال معاوية: إن في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم، وإني لخليق أن أدرك فيكم الثار، وأنفي العار، فإن دماءنا قبلكم، وظلامتنا فيكم.

فقال ابن عباس: والله إن رمت ذلك يا معاوية لشيرن عليك أسداً مخدرة، وأفاعي مطرقة، لا يفتؤها كثرة السلاح، ولا يعضها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم، يضربون قدماً قدماً من ناوهم، يهون عليهم نباح الكلاب وعواء الذئاب، لا يفاتون بوتر، ولا يسبقون إلى كريم ذكر، قد وطنوا على الموت أنفسهم، ولست بهم إلى العلياء همهم؛ كما قالت الأزدية:

ضرب ينهنهم ولا زجر

قوم إذا شهدوا الهياج فلا

غرثت وبل متونها القطر

وكأنهم آساد غينة قد

فلتكون منهم بحيث أعددت ليلة الهرب فرسك، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك، ولولا طعام من أهل الشام وقوك بأنفسهم، وبذلوا دونك مهجهم، حتى إذا ذاقوا وخز الشفار، وأيقنوا بحلول الدمار، رفعوا المصاحف مستجبرين بها، وعائدين بعصمتها لكنت شلوأً مطروحاً بالعراء، تسفي عليك رياحها، ويعتورك ذباها. وما أقول هذا أريد صرفك عن عزيمتك، ولا إزالتك عن معقود نيتك، لكن الرحم التي تعطف عليك، والأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك.

فقال معاوية: لله درك يا بن عباس! ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل، ورأي أصيل! وبالله لو لم يلد هاشم غيرك لما نقص عددهم، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم. ثم نهض، فقام ابن عباس وانصرف.

وروى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في أماليه، أن عمرو بن العاص قال لعتبة بن أبي سفيان يوم الحكمين: أما ترى ابن عباس قد فتح عينيه، ونشر أذنيه، ولو قدر أن يتكلم بما فعل، وإن غفلة أصحابه لمجورة بفطنته، وهي ساعتنا الطولى فاكفنيه. قال عتبة: بجهدى.

قال. فقمتم فقعدت إلى جانبه، فلما أخذ القوم في الكلام أقبلت عليه بالحديث، فقرع يدي، وقال: ليست ساعة حديث؛ قال: فأظهرت غضباً، وقلت: يا بن عباس، إن ثقتك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراضنا، وقد والله تقدم من قبل العذر، وكثر منا الصبر؛ ثم أقذعته فجاش لي مرجله وارتفعت أصواتنا، فجاء القوم فأخذوا بأيدينا فنحوه عني ونحوي عنه، فجئت فقربت من عمرو بن العاص، فرماني بمؤخر عينيه وقال: ما صنعت؛ فقلت: كفيتك التقواله، فحمحم كما يحمحم الفرس للشعير. قال: وفات ابن عباس أول الكلام، فكره أن يتكلم في آخره. وقد ذكرنا نحن هذا الخبر فيما تقدم في أخبار صفين على وجه آخر غير هذا الوجه.

عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص في الحبشة

فأما خبر عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، أخي خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص فقد ذكره ابن إسحاق في كتاب المغازي قال: كان عمارة بن الوليد بن المغيرة وعمرو بن العاص بن وائل، بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرجا إلى أرض الحبشة على شركهما، وكلاهما كان شاعراً عارماً فاتكاً. وكان عمارة بن الوليد رجلاً جميلاً وسيماً تهواه النساء، صاحب محادثة لهن؛ فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته، حتى إذا صاروا في البحر ليالي، أصابا من خمر معهما، فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص: قبلي، فقال لها عمرو: قبلي ابن عمك، فقبلته فهويها عمارة، وجعل يراودها عن نفسها، فامتنعت منه. ثم إن عمراً جلس على منجاف السفينة يبول، فدفعه عمارة في البحر فلما وقع عمرو سبح، حتى أخذ بمنجاف السفينة، فقال له عمارة: أما والله لو علمت أنك سابع ما طرحتك، ولكني كنت أظن أنك لا تحسن السباحة، فضغن عمرو عليه في نفسه، وعلم أنه كان أراد قتله؛ ومضيا على وجههما ذلك؛ حتى قدما أرض الحبشة؛ فلما نزلاها كتب عمرو إلى أبيه العاص بن وائل؛ أن اخلعي وتبراً من جريرتي إلى بني المغيرة وسائر بني

مخزوم، وخشي على أبيه أن يتبع بحريته. فلما قدم الكتاب على العاص بن وائل، مشى إلى رجال بني المغيرة وبني مخزوم، فقال: إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم، وكلاهما فاتك صاحب شر، غير مأمونين على أنفسهما، ولا أدري ما يكون منهما، وإن أبرأ إليكم من عمرو وجريته، فقد خلعتة. فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم: وأنت تخاف عمراً على عمارة! ونحن فقد خلعنا عمارة وتبرأنا إليك من جريته، فخل بين الرجلين. قال: قد فعلت، فخلعوها وبريء كل قوم من صاحبهم وما يجري منه.

قال: فلما اطمأننا بأرض الحبشة، لم يلبث عمارة بن الوليد أن دب لامرأة النجاشي وكان جميلاً صبيحاً وسيماً فأدخلته، فاختلف إليها، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمراً بما كان من أمره، فيقول عمرو: لا أصدقك أنك قدرت على هذا، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك؛ فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره وكان عمرو قد علم صدقه، وعرف أنه دخل عليها، ورأى من حاله وهيئته وما تصنع المرأة به إذا كان معها، وبيتوته عندها؛ حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك، وكانا في منزل واحد؛ ولكنه كان يريد أن يأتيه بشيء لا يستطيع دفعه، إن هو رفع شأنه إلى النجاشي فقال له في بعض ما يتذاكران من أمرها: إن كنت صادقاً فقل لها: فلتدهنك بدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره، فإني أعرفه، وائتني بشيء منه حتى أصدقك، قال: أفعل.

فجاء في بعض ما يدخل إليها، فسألها ذلك، فدهنته منه، وأعطته شيئاً في قارورة، فلما شم عمرو عرفه، فقال: أشهد أنك قد صدقت! لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد من العرب مثله قط، ونلت من امرأة الملك شيئاً ما سمعنا بمثل هذا. وكانوا أهل جاهلية وشبانا، وذلك في أنفسهم فضل لمن أصابه وقدر عليه. ثم سكت عنه حتى اطمأن، ودخل على النجاشي، فقال: أيها الملك؛ إن معي سفيها من سفهاء قريش، وقد خشيت أن يعرني عندك أمره، وأردت أن أعلمك بشأنه، وألا أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قد دخل على بعض نساءك فأكثر. وهذا دهنك قد أعطته وادهن به.

فلما شم النجاشي الدهن، قال: صدقت، هذا دهني الذي لا يكون إلا عند نسائي، فلما أثبت أمره، دعا بعمارة، ودعا نسوة أحر، فجردوه من ثيابه، ثم أمرهن أن ينفخن في إحليله، ثم خلى سبيله.

فخرج هارباً في الوحش، فلم يزل في أرض الحبشة، حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب، فخرج إليه رجال من بني المغيرة، منهم عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة وكان اسم عبد الله قبل أن يسلم بجيراً، فلما أسلم، سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله فرصدوه على ماء بأرض الحبشة، كان يرده مع الوحش، فزعموا أنه أقبل في حمر من حمر الوحش ليرد معها، فلما وجد ريح الإنس، هرب منه، حتى إذا أجهده العطش، ورد فشرب حتى تملأ، وخرجوا في طلبه. قال عبد الله بن أبي ربيعة: فسبقت إليه فالترمته، فجعل يقول: أرسلني، إني أموت إن أمسكتني. قال عبد الله: فضبطته فمات في يدي مكانه، فواروه ثم انصرفوا.

وكان شعره فيما يزعمون قد غطى كل شيء منه؛ فقال عمرو بن العاص، يذكر ما كان صنع به وما أراد من امرأته:

تعلم عمار أن من شر سنة
على المرء أن يدهي ابن عم له انتمى
أن كنت ذا بردين أحوى مرجلاً
فلست لابن عمك محرماً
إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه
ولم ينه قلباً غاوياً حيث يemma
قضى وطراً منه يسيراً وأصبحت
إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

جعفر الطيار وابن العاص في الحبشة

وأما خبر عمرو بن العاص في شخوصه إلى الحبشة، ليكيد جعفر بن أبي طالب والمهاجرين من المؤمنين عند النجاشي، فقد رواه كل من صنف في السيرة، قال محمد بن إسحاق في كتاب المغازي قال: حدثني محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى كما كنا نؤذى بمكة، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي في أمرنا رجلين منهم جلدتين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منه الأدم؛ فجمعوا أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقاً إلا أهدوا إليه هدية. ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم.

ثم قدما إلى النجاشي، ونحن عنده في خير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقتهم بطريق إلا دفعا إليه هديته، قبل أن يكلمنا النجاشي، ثم قالوا للبطارقة: إنه قد فر إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك أشراف قومهم لتردهم إليهم، فإذا كلّمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قربا هدايا الملك إليه فقبلها منهم، ثم كلماه، فقالا له: أيها الملك، قد فر إلى بلادك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، جاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت؛ وقد بعثنا فيهم إليك أشراف قومنا من آبائهم وأعمامهم وعشائهم، لتردهم عليهم؛ فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعائنه منهم.

قالت أم سلمة: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقة الملك وخواصه حوله: صدقاً أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فليسلمهم الملك إليهما، ليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب الملك وقال: لا ها الله! إذا لا أسلمهم إليهما، ولا أخفر قوماً جاوروني ونزلوا بلادني، واختاروني على سواي، حتى أدعوههم وأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهما إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهما منهم، وأحسن جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمناه، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوه، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت أم سلمة: وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك إنا كنا قوماً في جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله عز وجل علينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن التجاور، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن سائر الفواحش؛ وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وبالصلاة وبالزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام كلها، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأصنام والأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشي: فهل معك مما جاء به صاحبكم عن الله شيء؟ فقال جعفر: نعم. فقال اقرأه علي، فقرأ عليه صدرًا من "كهيعص"، فبكى حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا لحاهم، ثم قال النجاشي: واللله إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، والله لا أسلمكم إليهم.

قالت أم سلمة: فلما خرج القوم من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأعييهم غداً عنده بما يستأصل به حضراءهم؛ فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا؛ قال: والله لأخبرنه غداً أنهم يقولون في عيسى بن مريم إنه عبد. ثم غدا عليه من الغد، فقال: أيها الملك، إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، فأرسل إليهم.

قالت أم سلمة: فما نزل بنا مثلها. واجتمع المسلمون، وقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؛ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه والله ما قال عز وجل، وما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر: نقول إنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشي يديه على الأرض، وأخذ منها عوداً، وقال: ما عدا عيسى بن مريم ما قال هذا العود.

قالت: فقد كانت بطارفته تناحرت حوله، حين قال جعفر ما قال، فقال لهم النجاشي: وإن تناخرت! ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، أي آمنون، من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً ذهباً وأني آذيت رجلاً منكم والدبر بلسان الحبشة: الجبل ردوا عليهما هدايها فلا حاجة لي فيها؛ فوالله ما أخذ الله مني

الرشوة حتى ردني إلى ملكي. فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في أفأطيعهم فيه! قالت: فخرج الرجلان من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده في خير دار مع خير جار، فوالله إنا لعلی ذلك، إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه.

قالت أم سلمة: فوالله ما أصابنا خوف وحزن قط كان أشد من خوف وحزن نزل بنا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان يعرف منه.

قالت: وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتيها بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا وكان من أحدث المسلمين سناً فنفخوا له قرية فجعلناها تحت صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها يلتقي القوم، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، فوالله إنا لعلی ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير يسعى ويلوح بثوبه ويقول: ألا أبشروا، فقد ظهر النجاشي وأهلك الله عدوه.

قالت: فوالله ما أعلمنا فرحنا فرحة مثلها قط، ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه وتمكن ومكن له في بلاده، واستوثق له أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل ودار إلى أن رجعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة. وروي عن عبد الله بن جعفر بن محمد رضي الله عنه أنه قال: لقد كاد عمرو بن العاص عمنا جعفرأ بأرض الحبشة عند النجاشي، وعند كثير من رعيته بأنواع الكيد ردها الله تعالى عنه بلطفه؛ رماه بالقتل والسرقة والزنا فلم يلصق به شيء من تلك العيوب، لما شاهده القوم من طهارته وعبادته، ونسكه وسيما النبوة عليه، فلما نبا معوله عن صفاته، هيأ له سماً قذفه إليه في طعام، فأرسل الله هراً كفاً تلك الصحيفة، وقد مد يده نحوه ثم مات لوقته، وقد أكل منها. فتبين لجعفر كيده وغائلته فلم يأكل بعدها عنده، وما زال ابن الجزار عدواً لنا أهل البيت.

ابن العاص في صفين

وأما خبر عمرو في صفين واتقائه حملة علي رضي الله عنه، بطرحه نفسه على الأرض وإبداء سواته؛ فقد ذكره كل من صنف في السير كتاباً، وخصوصاً الكتب الموضوعة لصفين.

قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي عمرو، وعن عبد الرحمن بن حاطب، قال: كان عمرو بن العاص عدواً للحارث بن نصر الخثعمي، وكان من أصحاب علي رضي الله عنه، وكان علي رضي الله عنه قد قهيبته فرسان الشام، وملاً قلوبهم بشجاعته، وامتنع كل منهم من الإقدام عليه. وكان عمرو قلماً جلس مجلساً إلا ذكر فيه الحارث بن نصر الخثعمي وعابه، فقال الحارث:

رث بالسوء أو يلاقي علياً

من لا يحسب الفوارس شياً

ليس عمرو بتارك ذكره الحا

واضع السيف فوق منكبه الأي

ع وقد أمست السيوف عصيا

م إذا كان بالبراز ملها

ر أو الموت كل ذاك عليا

ليت عمراً يلقاه في حومة النق

حيث يدعو للحرب حامية القو

فألقه إن أردت مكرمة الده

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمراً، فأقسم بالله ليلقين علياً ولو مات ألف مودة. فلما اختلطت الصفوف لقيه فحمل عليه برمحه، فتقدم علي رضي الله عنه وهو مختلط سيفاً معتقلاً رمحاً، فلما رهقه همز فرسه ليعلو عليه، فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه؛ كاشفاً عورته، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستديراً له، فعد الناس ذلك من مكارمه وسؤدده، وضرب بها المثل.

قال نصر وحدثني محمد بن إسحاق، قال: اجتمع عند معاوية في بعض ليالي صفين عمرو بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم، وعبد الله بن عامر، وابن طلحة الطلحات الخزاعي، فقال عتبة: إن أمرنا وأمر علي بن أبي طالب لعجب! ما فينا إلا موتور محتاج.

أما أنا فقتل جدي عتبة بن ربيعة، وأخي حنظلة، وشرك في دم عمي شيبة يوم بدر. وأما أنت يا وليد، فقتل أباك صبراً، وأما أنت يا بن عامر، فصرع أباك وسلب عمك. وأما أنت يا بن طلحة، فقتل أباك يوم الجمل، وأيتم إخوتك. وأما أنت يا مروان فكما قال الشاعر:

ولو أدركت صفر الوطاب

وأفلتت علباء جريضا

فقال معاوية: هذا الإقرار فأين الغير؟ قال مروان: وأي غير تريد؟ قال: أريد أن تشجروه بالرمح. قال: والله يا معاوية ما أراك إلا هاذياً أو هازئاً، وما أرانا إلا ثقلنا عليك، فقال ابن عقبة:

أما فيكم لو اترككم طلبو

بأسمر لا تهجنه الكعوب

ونقع الحرب مطرد يؤوب

يقول لنا معاوية بن حرب

يشد على أبي حسن علي

فيهتك مجمع اللبات منه

كأنك بيننا رجل غريب!

إذا نهشت، فليس لها طبيب

اتيح له به أسد مهيب

لقيناه ولقياه عجيب

وكان لقلبه منه وجيب

خلال النقع، ليس لهم قلوب

وما ظني ستلحقه العيوب

فقلت له: أتلعب يا بن هند

أتغرنا بحية بطن واد

وما ضبع يدب ببطن واد

بأضعف حيلة منا إذا ما

سوى عمرو وقته خصيتاه

كأن القوم لما عاينوه

لعمر أبي معاوية بن حرب

لقد ناداه في الهيجا علي

فأسمعه ولكن لا يجيب

فغضب عمرو: وقال: إن كان الوليد صادقاً فليلق علياً، أو فليقف حيث يسمع صوته، وقال عمرو:

يذكرني الوليد دعا علي

ونطق المرء يملؤه الوعيد

متى تذكر مشاهده قريش

يطر من خوفه القلب الشديد

فأما في اللقاء فأين منه

معاوية بن حرب والوليد!

وعيرني الوليد لقاء ليث

إذا ما شد هابته الأسود

لقيت ولست أجهله علياً

وقد بليت من العلق اللبود

فأطعنه وبطعنني خلاصاً

وماذا بعد طعنته أريد!

فرمها منه يابن أبي معيط

وأنت الفارس البطل النجيد

وأقسم لو سمعت ندا علي

لطار القلب وانتفخ الوريد

ولو لأقيته شقت جيوب

عليك، ولطمت فيك الخدود

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب الإستيعاب في باب بسر بن أرطاة قال: كان بسر من الأبطال الطغاة، وكان مع معاوية بصفين، فأمره أن يلتقى علياً رضي الله عنه في القتال، وقال له: إني سمعتك تتمنى لقاءه، فلو أظفرك الله به وصرعته حصلت على الدنيا والآخرة، ولم يزل يشجعه ويمنيه حتى رأى علياً في الحرب، فقصده، والتقيا فصرعه علي رضي الله عنه وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو بن العاص في كشف السوأة.

قال أبو عمر: وذكر ابن الكلبي في كتابه في أخبار صفين، أن بسر بن أرطاة بارز علياً يوم صفين، فطعنه علي رضي الله عنه فصرعه، فانكشف له، فكف عنه، كما عرض له مثل ذلك مع عمرو بن العاص.

قال: وللشعراء فيهما أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب؛ منها فيما ذكر ابن الكلبي والمدائني قول الحارث بن نضر الحثعمي وكان عدواً لعمرو بن العاص وبسر بن أرطاة:

أفي كل يوم فارس لك ينتهي

وعورته وسط العجاجة باديه

يكف لها عنه علي سنانه

ويضحك منها في الخلاء معاويه

بدت أمس من عمرو فقنع رأسه

وعورة بسر مثلها حذو حاذيه

فقلولاً لعمرو ثم بسر؛ ألا انظرا

لنفسكما: لا تلقيا الليث ثانيه

ولا تحمداً إلا الحيا وخصاكما

هما كانتا والله للنفس واقيه

ولولاهما لم تتجوا من سنانه

وتلك بما فيه إلى العود ناهيه

متى تلقيا الخيل المغيرة صبحه

وفيهما علي فاتركا الخيل ناحيه

وكونا بعيداً حيث لا يبلغ القنا

نحوركما، إن التجارب كافيه

وروى الواقدي قال: قال معاوية يوماً بعد استقرار الخلافة له لعمر بن العاص: يا أبا عبد الله، لا أراك إلا ويغلبني الضحك؛ قال: بماذا؟ قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين، فأزريت نفسك فرقاً من شبا سنانة، وكشفت سؤاتك له؛ فقال عمرو: أنا منك أشد ضحكاً؛ إني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحر، وربما لسانك في فمك، وغصصت بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك؛ فقال معاوية: لم يكن هذا كله، وكيف يكون ودوني عك والأشعريون! قال: إنك لتعلم أن الذي وصفت دون ما أصابك، وقد نزل ذلك بك ودونك عك والأشعريون، فكيف كانت حالك لو جمعكما مآقط الحرب! فقال: يا أبا عبد الله، خض بنا الهزل إلى الجدد، إن الجبن والفرار من علي لا عار على أحد فيهما.

إسلام ابن العاص

فأما القول في إسلام عمرو بن العاص، فقد ذكره محمد بن إسحاق في كتاب المغازي قال: حدثني زيد بن أبي حبيب، عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي، عن حبيب بن أبي أوس، قال: حدثني عمرو بن العاص من فيه: قال: لما انصرفنا مع الأحزاب من الخندق، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأي، ويسمعون مني، فقلت لهم: والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت رأياً، فما ترون فيه؛ فقالوا: ما رأيت؛ فقلت: أرى أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشي، فإن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، فإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير قالوا: إن هذا الرأي، فقلت: فاجمعوا ما تهدي له وكان أحب ما يأتيه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده، إذ قدم عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه.

قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أبي قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، قال: فدخلت عليه فسجدت له فقال: مرحباً بصديقي أهديت إلي من بلادك شيئاً؛ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

فغضب الملك، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؛ فقلت: أيها الملك، أكذلك هو؛ فقال: إي والله! أطعني ويحك واتبعه، فإنه والله لعلى حق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: فبايعني له على الإسلام، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، وخرجت عامداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قدمت المدينة جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أسلم خالد بن الوليد، وقد كان صحبني في الطريق إليه، فقلت: يا رسول الله، أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من

ذني، ولم أذكر ما تأخر، فقال: بايع يا عمرو؛ فإن الإسلام يجب ما قبله، وإن الهجرة تجب ما قبلها، فبايعته وأسلمت. وذكر أبو عمر في الاستيعاب، أن إسلامه كان سنة ثمان، وأنه قدم وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة، فلما رآهم رسول الله، قال: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها. قال: وقد قيل إنه أسلم بين الحديبية وخيبر، والقول الأول أصح.

بعث رسول الله عمراً إلى ذات السلاسل

قال أبو عمر: وبعث رسول الله عمراً إلى ذات السلاسل من بلاد قضاة في ثلاثمائة، وكانت أم العاص بن وائل من بلي، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمراً إلى أرض بلي وعذرة، يتألفهم لذلك ويدعوهم إلى الإسلام، فسار حتى إذا كان على ماء أرض خدام، يقال له: السلاسل وقد سميت تلك الغزاة ذات السلاسل خاف، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنجد، فأمره بجيش فيه مائتا فارس، فيه أهل الشرف والسوابق من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، فلما قدموا على عمرو، قال عمرو: أنا أميركم وإنما أنتم مددي، فقال أبو عبيدة: بل أنا أمير من معي وأنت أمير من معك، فأبى عمرو ذلك، فقال أبو عبيدة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي فقال: إذا قدمت إلى عمرو فتطاوعا، ولا تختلفا، فإن خالفتني أطعتك، قال عمرو: فإني أحالفك، فسلم إليه أبو عبيدة، وصلى خلفه في الجيش كله، وكان أميراً عليهم، وكانوا خمسمائة.

ولايات عمرو بن العاص ونبذ من كلامه

قال أبو عمرو: ثم ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُمان، فلم يزل عليها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمل لعمر وعثمان ومعاوية، وكان عمر بن الخطاب ولاه بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن، وولى معاوية دمشق وبلعبك والبلقاء، وولى سعيد بن عامر بن خنيم حمص. ثم جمع الشام كلها لمعاوية، وكتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر، فسار إليها فافتتحها، فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر فأمره عثمان عليها أربع سنين ونحوها، ثم عزله عنها وولاهها عبد الله بن سعد العامري.

قال أبو عمر: ثم إن عمرو بن العاص ادعى على أهل الإسكندرية أنهم قد نقضوا العهد الذي كان عاهدهم، فعمد إليها، فحارب أهلها وافتتحها، وقتل المقاتلة وسبى الذرية، فنقم ذلك عليه عثمان، ولم يصح عنده نقضهم العهد، فأمر برد السبي الذي سبوا من القرى إلى مواضعهم، وعزل عمراً عن مصر، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري مصر بدله؛ فكان ذلك بدو الشر بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفان، فلما بدا بينهما من الشر ما بدا، اعتزل عمرو في ناحية فلسطين بأهله، وكان يأتي المدينة أحياناً، فلما استقر الأمر لمعاوية بالشام، بعثه إلى مصر بعد تحكيم الحكيم فافتتحها، فلم يزل بها إلى أن مات أميراً عليها، في سنة ثلاث وأربعين، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة ثمان وأربعين، وقيل سنة إحدى وخمسين. قال أبو عمر: والصحيح أنه مات في سنة ثلاث وأربعين، ومات يوم عيد الفطر من هذه السنة وعمره تسعون سنة، ودفن بالمقطم من ناحية السفح، وصلى عليه ابنه عبد الله، ثم رجع فصلى بالناس صلاة العيد، فولاه

معاوية مكانه، ثم عزله وولى مكانه أخاه عتبة بن أبي سفيان.

قال أبو عمر: وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، مذكوراً فيهم بذلك، وكان شاعراً حسن الشعر، وأحد الدهاة المتقدمين في الرأي والذكاء، وكان عمر بن الخطاب إذا استضعف رجلاً في رأيه وعقله، قال: أشهد أن خالقتك وخالق عمرو واحد؛ يريد خالق.

الأضداد. ونقلت أنا من كتب متفرقة كلمات حكمية تنسب إلى عمرو بن العاص، استحسنتها وأوردتها، لأني لا أجد لفاضل فضله، وإن كال! دينه عندي غير مرضي.

فمن كلامه: ثلاث لا أملهن: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رحلي. وقال لعبد الله بن عباس بصفين: إن هذا الأمر الذي نحن وأنتم فيه، ليس بأول أمر قاده البلاء، وقد بلغ الأمر منا ما ترى، وما أبقت لنا هذه الحرب حياة ولا صبراً، ولسنا نقول: ليت الحرب عادت؛ ولكننا نقول: ليتها لم تكن كانت! فافعل فيما بقي بغير ما مضى، فإنك رأس هذا الأمر بعد علي، وإنما هو أمر مطاع، ومأمور مطيع، ومبارز مأمون، وأنت هو. ولما نصب معاوية قميص عثمان على المنبر، وبكى أهل الشام حوله، قال: قد هممت أن أدعه على المنبر، فقال له عمرو: إنه ليس بقميص يوسف، إنه إن طال نظرهم إليه، وبحثوا عن السبب وقفوا على ما لا تحب أن يقفوا عليه، ولكن لدعهم بالنظر إليه في الأوقات.

وقال: ما وضعت سرّي عند أحد فأفشاه فلمته، لأني أحق باللوم منه إذ كنت أضيق به صدرًا منه. وقال: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، لكن العاقل من يعرف خير الشرين.

وقال عمر بن الخطاب لجلسائه يوماً وعمرو فيهم: ما أحسن الأشياء؟ فقال كل منهم ما عنده، فقال: ما تقول أنت يا عمرو؟ فقال:

الغمرات ثم ينجلينا

وقال لعائشة: لوددت أنك قتلت يوم الجمل، قالت: ولم لا أبالك؟! قال: كنت تموتين بأجلتك، وتدخلين الجنة، ونجعلك على علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقال لبنيه، يا بني، اطلبوا العلم، فإن استغنيتم كان جمالاً وإن افتقرتم كان مالاً.

ومن كلامه: أمير عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم، وزلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر. واستراح من لا عقل له.

وكتب إليه عمر يسأله عن البحر، فكتب إليه: خلق عظيم يركبه خلق ضعيف. دود على عود، بين غرق ونزق.

وقال لعثمان وهو يخطب على المنبر: يا عثمان، إنك قد ركبت بهذه الأمة نهاية من الأمر، وزغت فراغوا. فاعتدل أو اعتزل.

ومن كلامه: استوحش من الكريم الجائع، ومن اللئيم الشبعان؛ فإن الكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع.

وقال: جمع العجز إلى التواني فنتج بينهما الندامة، وجمع الجبن إلى الكسل فنتج بينهما الحرمان.

وروى عبد الله بن عباس، قال: دخلت على عمرو بن العاص وقد احتضر، فقلت: يا أبا عبد الله! كنت تقول: أشتهي أنى أرى عاقلاً يموت حتى أسأله كيف تجد، فماذا تجد؟ قال: أجد السماء كأنها مطبقة على الأرض وأنا بينهما، وأراني كأنما أتنفس من خرق إبرة، ثم قال: اللهم خذ مني حتى ترضى، ثم رفع يده، فقال: اللهم أمرت فعصينا، ونهيت فركبنا؛ فلا بريء فأعتذر، ولا قوي فأنتصر، ولكن لا إله إلا الله؛ فجعل يرددها حتى فاض.

وقد روى أبو عمر بن عبد البر هذا الخبر في كتاب "الاستيعاب"، قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة، قال: اللهم أمرتني فلم أؤتمر، وزجرتني فلم أنزجر. ووضع يده في موضع الغل، ثم قال: اللهم لا قوي فأنتصر؛ ولا بريء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت؛ فلم يزل يرددها حتى مات.

قال أبو عمر: وحدثني خلف بن قاسم، قال: حدثني الحسن بن رشيق، قال: حدثنا الطحاوي، قال: حدثنا المزني، قال: سمعت الشافعي يقول: دخل ابن عباس على عمرو بن العاص في مرضه، فسلم عليه، فقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلاً، وأفسدت من ديني كثيراً؛ فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت، لفزت. ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان ينجي أن أهرب، هربت فقد صرت كالمنخنق بين السماء والأرض، لا أرقى بيدين، ولا أهبط برجلين، فعظي بعظة. أنتفع بها يا بن أخي، فقال ابن عباس: هيهات أبا عبد الله، صار ابن أخيك أخاك، ولا تشاء أن تبلى إلا بليت، كيف يؤمر برحيل من هو مقيم! فقال عمرو على حينها: من حين ابن بضع وثمانين تقنطني من رحمة ربي! اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك، فخذ مني حتى ترضى؛ فقال ابن عباس: هيهات أبا عبد الله! أخذت جديداً وتعطي خلقاً؛ قال عمرو: مالي ولك يا بن عباس! ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها.

وروى أبو عمر في كتاب الاستيعاب أيضاً عن رجال قد ذكرهم وعددهم أن عمراً لما حضرته الوفاة، قال له ابنه عبد الله وقد رآه يبكي؛ لم تبكي! أجزع من الموت؟ قال: لا والله، ولكن لما بعده. فقال له: لقد كنت على خير، فجعل يذكره صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفتح به بالشام، فقال له عمرو: تركت أفضل من ذلك شهادة أن لا إله إلا الله، إني كنت على ثلاثة أطباق، ليس منها طبق إلا عرفت نفسي فيه، كنت أول أمري كافراً، فكنت أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو مت حينئذ وجبت لي النار، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، كنت أشد الناس حياء منه، فما ملأت منه عيني قط، فلو مت يومئذ قال الناس: هنيئاً لعمرو! أسلم وكان على خير، ومات على خير أحواله، فسرحوا له بالجنة؛ ثم تلبث بعد ذلك بالسلطان وبأشياء، فلا أدري أعلي أم لي؛ فإذا مت فلا تبكين علي باكية، ولا يتبعني نائح، ولا تقربوا من قبري ناراً، وشدوا علي إزار، فإني مخاصم، وشنوا علي التراب شناً؛ فإن جني الأيمن ليس بأحق من جني الأيسر، ولا تجعلوا في قبري خشب ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جزور وتقطيعها؛ أستأنس بكم.

فإن قلت: فما الذي يقوله أصحابك المعتزلة في عمرو بن العاص؛ قلت: إنهم يحكمون على كل من شهد صفين، بما يحكم به على الباغي الخارج على الإمام العادل، ومذهبهم في صاحب الكبيرة إذا لم يتب معلوم.

فإن قلت: أليس في هذه الأخبار ما يدل على توبته؛ نحو قوله: "ولا مستكبر بل مستغفر" وقوله: اللهم خذ مني حتى ترضى، وقوله: "أمرت فعصيت، ونهيت فركبت". وهذا اعتراف وندم، وهو معنى التوبة؛ قلت: إن قوله تعالى: "وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن" يمنع من كون هذا توبة، وشروط التوبة وأركانها معلومة، وليس هذا الاعتراف والتأسف منها في شيء.

وقال شيخنا أبو عبد الله: أول من قال بالإرجاء المحض معاوية وعمرو بن العاص، كانا يزعمان أنه لا يضر مع الإيمان معصية، ولذلك قال معاوية لمن قال له: حاربت من تعلم، واركتب ما تعلم، فقال: وثقت بقوله تعالى: "إن الله يغفر الذنوب جميعاً". وإلى هذا المعنى أشار عمرو بقوله لابنه: تركت أفضل من ذلك؛ شهادة أن لا إله إلا الله

الإمام علي رجل العبادة لا رجل الدعابة

فأما ما كان يقوله عمرو بن العاصي في علي صلى الله عليه وسلم لأهل الشام: "إن فيه دعابة"، يروم أن يعيبه بذلك عندهم؛ فأصل ذلك كلمة قالها فتلقفها، حتى جعلها أعداؤه عيباً له وطعناً عليه.

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في كتاب الآمال: كان عبد الله بن عباس عند عمر، فتنفس عمر نفساً عالياً، قال ابن عباس: حتى ظننت أن أضلاعه قد انفرجت، فقلت له: ما أخرج هذا النفس منك يا أمير المؤمنين إلا هم شديد. قال: إي والله يا ابن عباس، إني فكرت فلم أدر فيمن أجعل هذا الأمر بعدي. ثم قال: لعلك ترى صاحبك لها أهلاً؟ قلت: وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقتها وقربته وعلمه! قال: صدقت، ولكنه امرؤ فيه دعابة؛ قلت: فأين أنت من طلع؟ قال: هو ذو ألب أو بإصبعة المقطوعة. قلت: فعبد الرحمن؟ قال: رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه في يد امرأته. قلت: فالزبيب؟ قال شاكس لقس، اللاطم في البقيع في صاع من بر. قلت: فسعد بن أبي وقاص؟ قال: صاحب مكتب وسلاح؛ قلت: فعثمان، قال: أوه أوه؛ مراراً. ثم قال: والله لئن وليها ليحملن بني أبي مغيط على رقاب الناس، ثم لتنهضن إليه العرب فتقتله. ثم قال: يا ابن عباس، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا حصيف العقدة، قليل الغرة، لا تأخذه في الله لوم لائم؛ يكون شديداً من، ليناً من غير ضعف، جواداً من غير ممسكا من غير وكف. قال ابن عباس: وكانت هذه صفات عمر، ثم أقبل علي فقال: إن أجراهم أن يحملهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم لصاحبك، والله لئن وليها ليحملنهم على الحجة البيضاء والصراط المستقيم.

واعلم أن الرجل ذا الخلق المخصوص لا يرى الفضيلة إلا في ذلك الخلق، ألا ترى أن الرجل ييخل فيعتقد أن الإمساك والبخيل يعيب أهل السماح والجود، وينسبهم إلى التبذير وإضاعة الحزم، وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبهم إلى ضيق النفس وسوء الظن وحب المال، والجبان يعتقد أن الفضيلة في الجبن ويعيب الشجاعة ويعتقد كونها خرقاً وتغريراً بالنفس، المتنبي:

يرى الجبناء أن الجبن حزم .

والشجاع يعيب الجبان وينسبه إلى الضعف، ويعتقد أن الجبن ذل ومهانة! وهكذا القول في جميع الأخلاق والسجاياء المقتسمة بين نوع الإنسان. ولما كان عمر شديد الغلظة وعمر الجانِب، خشن الملمس دائم العبوس، كان يعتقد أن ذلك هو

الفضيلة وأن خلافه نقص، حتى ولو كان سهلاً طلقاً مطبوعاً على البشاشة وسماحة الخلق، لكان يعتقد أن ذاك هو الفضيلة وأن خلافه نقص، حتى لو قدرنا أن خلقه حاصل لعلي عليه السلام، وخلق علي حاصل له، لقال في علي: "لولا شراسة فيه". فهو غير ملوم عندي فيما قاله، ولا منسوب إلى أنه أراد الغض من علي، والقدرح فيه، ولكنه أخبر عن خلقه، ظاناً أن الخلافة لا تصلح إلا لشديد الشكيمة، العظيم الوعورة. وبمقتضى ما كان يظنه من هذا المعنى، تم خلافة أبي بكر بمشاركته إياه في جميع تدبيراته وسياسته وسائر أحواله، لرفق وسهولة كانت في أخلاق أبي بكر، وبمقتضى هذا الخلق المتمكن عنده، كان يشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامات كثيرة، وخطوب متعددة، بقتل قوم كان يرى قتلهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرى استبقاءهم واستصلاحها، فلم يقبل عليه السلام مشورته على هذا الخلق. وأما إشارته عليه يوم بدر بقتل الأسرى حيث أشار أبو بكر بالفداء، فكان الصواب مع عمر ونزل القرآن بموافقة، فلما كان في اليوم الثاني وهو يوم الحديبية أشار بالحرب، وكره الصلح، فترل القرآن بضد ذلك، فليس كل وقت يصلح تجريد السيف، ولا كل وقت يصلح إغماده، والسياسة لا تجري على منهاج واحد ولا تلزم نظاماً واحداً. وجملة الأمر أنه رضي الله عنه لم يقصد عيب علي عليه السلام، ولا كان عنده معيماً، ولا منقوصاً؛ ألا ترى أنه قال في آخر الخبر: إن أحرهم إن وليها أن يحملهم على كتاب الله وسنة رسوله لصاحبك، ثم أكد ذلك بأن قال: إن وليهم ليحملنهم على المحجة البيضاء والصرط المستقيم، فلو كان أطلق تلك اللفظة، وعنى بها ما حملها عليه الخصوم، لم يقل في خاتمة كلامه ما قاله.

وأنت إذا تأملت حال علي عليه السلام في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجدته بعيداً عن أن ينسب إلى الدعابة والمزاح، لأنه لم ينقل عنه شيء من ذلك أصلاً؛ لا في كتب الشيعة ولا في كتب المحدثين، وكذلك إذا تأملت حاله في أيام الخليفين أبي بكر وعمر، لم تجد في كتب السيرة حديثاً واحداً يمكن أن يتعلق به متعلق في دعابته ومزاحه، فكيف يظن بعمر أنه نسبته إلى أمر لم ينقله عنه ناقل، ولا ندد به صديق ولا عدو؛ وإنما أراد سهولة خلقه لا غير، وظن أن ذلك مما يفضي به إلى ضعف إن ولي أمر الأمة، لاعتقاده أن قوام هذا الأمر إنما هو بالوعورة، بناء على ما قد ألفته نفسه، وطبعت عليه سجيته، والحال في أيام عثمان، وأيام ولايته عليه السلام الأمر كالحال فيما تقدم، في أنه لم يظهر منه دعابة، ولا مزاح يسمى الإنسان لأجله ذا دعابة ولعب. ومن تأمل كتب السير عرف صدق هذا القول، وعرف أن عمرو بن العاصي أخذ كلمة عمر إذ لم يقصد بها العيب فجعلها عيباً، وزاد عليها أنه كثير اللعب، يعاف النساء ويمارسهن، وأنه صاحب هزل.

ولعمر الله لقد كان أبعد الناس من ذلك، وأي وقت كان يتسع لعلي عليه السلام حتى يكون فيه على هذه الصفات؟ فإن أزماته كلها في العبادة والصلاة، والذكر والفتاوى والعلم، واختلاف الناس إليه في الأحكام وتفسير القرآن، ونهاره كله أو معظمه مشغول بالصوم، وليله كله أو معظمه مشغول بالصلاة. هذا في أيام سلمه، فأما أيام حربه فبالسيف الشهير، والسنان الحرير، وركوب الخيل، وقود الجيش، ومباشرة الحروب.

ولقد صدق عليه السلام في قوله: "إنني ليمنعني من اللعب ذكر الموت"، ولكن الرجل الشريف النبيل، الذي لا يستطيع

أعداؤه أن يذكروا له عيباً أو يعدوا عليه وصمة، لا بد أن يحتالوا ويذلوا جهدهم في تحصيل أمرٍ ما وإن ضعف، يجعلونه عذراً لأنفسهم في ذمه، ويتوسلون به إلى أتباعهم في تحسينهم لهم مفارقتهم، والانحراف عنه، وما زال المشركون والمنافقون يصنعون لرسول الله صلى الله عليه وآله الموضوعات، ينسبون إليه ما قد برأه الله عنه من العيوب والمطاعن، في حياته وبعد وفاته إلى زماننا هذا، وما يزيده الله سبحانه إلا رفعة وعلواً، فغير منكر أن يعيب علياً عليه السلام عمرو بن العاص وأمثاله من أعدائه، بما إذا تأمله المتأمل، علم أنهم باعتمادهم عليه وتعلقهم به، قد اجتهدوا في مدحه والثناء عليه، لأنهم لو وجدوا عيباً غير ذلك لذكروه، ولو بالغ أمير المؤمنين وبذل جهده في أن يثني أعداؤه وشائته عليه من حيث لا يعلمون، لم يستطع إلى أن يجد إلى ذلك طريقاً ألطف من هذه الطريق التي أسلكهم الله تعالى فيها، وهداهم إلى منهاجها، فظنوا أنهم يغضون منه؛ وإنما أعلوا شأنه، ويضعون من قدره، وإنما رفعوا منزلته ومكانه.

المزاح وما قيل فيه

ونحن نذكر من بعد ما جاء في الأحاديث الصحاح والآثار المستفيضة، المتفق على نقلها مزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومزاح الأشراف والأفاضل والأكابر من أصحابه والتابعين له، ليعلم أن المزاح إذا لم يخرج عن القاعدة الشرعية لم يكن قبيحاً.

فأول ذلك مما رواه الناس قاطبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني أمزح، ولا أقول إلا حقاً" وقيل لسفيان الثوري: المزاح هجن؛ فقال: بل هو سنة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أمزح ولا أقول إلا الحق". وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لامرأة من الأنصار: "الحقي زوجك فإن في عينه بياضاً"، فسعت نحوه مرعوبة. فقال لها: ما دهاك؟ فأخبرته، فقال: نعم إن في عيني بياضاً لا لسوء، فخفضي عليك. فهذا من مزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأتت عجوز من الأنصار إليه عليه السلام ، فسألته أن يدعو الله تعالى لها بالجنة، فقال: "إن الجنة لا تدخلها العجوز" فصاحت، فتبسم، فقال: "آنا أنشأناهن إنشاءً، فجعلناهن أبكاراً" وفي الخبر أيضاً: أن امرأة استحملته، فقال: "آنا حاملوك إن شاء الله تعالى على ولد الناقة"، فجعلت تقول: يا رسول الله: وما أصنع بولد الناقة؟ وهل يستطيع أن يحملني! وهو يتبسم ويقول: "لا أحملك إلا عليه"، حتى قال لها أخيراً: "وهل يلد الإبل إلا النوق" وفي الخبر أنه عليه السلام مر ببال وهو نائم فضربه برجله، وقال: أنائمة أم عمرو؟ فقام بلال مرعوباً، فضرب بيده إلى مذاكيره، فقال له: ما بالك؟ قال: ظننت أني تحولت امرأة. قيل: فلم يمزح رسول الله بعد هذه. وفي الخبر أيضاً أن نغراً كان لصبي من صبيان الأنصار، فطار من يده، فبكى الغلام، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به. فيقول: "يا أبا عمير؛ ما فعل النغير؟" والغلام يبكي.

وكان يمزح ابني بنته مزاحاً مشهوراً، وكان يأخذ الحسين عليه السلام ، فيجعله على بطنه، وهو عليه السلام نائم على ظهره ويقول له: حزقة خزقة، ترق عين بقعة .

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه: أنه مر على أصحاب الدركلة وهم يلعبون ويرقصون، فقال: جدوا يا بني أرفدة، حتى

يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة.

قال أهل اللغة: الدركلة، بكسر الدال والكاف: لعبة للحبش فيها ترقص. وبنو أرفدة: جنس من الحبش يرقصون. وجاء في الخبر أنه سابق عائشة فسبقته، ثم سابقها فسبقها فقال: هذه بتلك.

وفي الخبر أيضاً أن أصحاب الزفافة وهم الراقصون، كانوا يجمعون باب حجرة عائشة، فتخرج إليهم مستمعة ومبصرة، فيخرج هو عليه السلام من ورائها مستتراً بها.

وكان نعيمان، وهو من أهل بدر، أولع الناس بالمزاح عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكان يكثر الضحك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يدخل الجنة وهو يضحك".

وخرج نعيمان هو وسويط بن عبد العزى وأبو بكر الصديق، في تجارة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين، وكان سويط على الزاد، فكان نعيمان يستطعمه فيقول: حتى يجيء أبو بكر؛ فمر بركب من نجران، فباعه نعيمان منهم على أنه عبد له بعشر قلائص، وقال لهم: إنه ذو لسان ولهجة، وعساه يقول لكم: أنا حر؛ فقالوا: لا عليك. وجاءوا إليه فوضعوا عمامته في عنقه، وذهبوا به، فلما جاء أبو بكر أخبر بذلك، فردّه وأعاد القلائص إليهم. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من ذلك سنة.

وروي أن أعرابياً باع نعيمان عكة غسل، فاشتراها منه، فجاء بها إلى بيت عائشة في يومها وقال: خذوها، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه أهداها إليه، ومضى نعيمان، فتل الأعرابي على الباب، فلما طال قعوده نادى: يا هؤلاء، إما أن تعطونا ثمن الغسل أو تردوه علينا، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم: بالقصة، وأعطى الأعرابي الثمن، وقال لنعيمان: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيتك يا رسول الله تحب الغسل، ورأيت العكة مع الأعرابي. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه.

وسئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون؟ فقال: نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي. وجاء في الخبر أن يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام، وعيسى متبسّم، فقال يحيى عليه السلام: مالي أراك لا هيئاً كأنك آمن؛ فقال عليه السلام: مالي أراك عابسا كأنك آيس؛ فقالا: لا نبرح حتى يتزل علينا الوحي، فأوحى الله إليهما: أحبكما إلي الطلق البسام، أحسنكما ظناً بي.

وروي عن كبراء الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يتمازحون ويتناشدون الأشعار، فإذا خاضوا في الدين، انقلبت حماليقهم، وصاروا في صور أخرى.

وروي أن عبد الله بن عمر قال لجاريته: خلقي خالق الخير، وخلقت خالق الشر. فبكت، فقال: لا عليك، فإن الله تعالى هو خالق الخير وهو خالق الشر.

قلت: يعني بالشر المرض والغلاء ونحوهما. وكان ابن سيرين ينشد:

عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

نبتت أن فتاة كنت أخطبها

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

وجاء عبد الرحمن بن عوف إلى باب عمر بن الخطاب، فوجده مستلقياً على مرفقه له، رافعاً إحدى رجليه على الأخرى، منشداً بصوت عال:

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما

قضى وطراً منها جميل بن معمر؛

فلما دخل عبد الرحمن وجلس، قال: يا أبا محمد، إنا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس. وكان سعيد بن المسيب ينشد:

لقد أصبحت عرس الفرزدق جامحاً

ولو رضيت رمح استه لاستقرت

ويضحك حتى يستغرق، وكان يقال: لا بأس بقليل المزاح يخرج منه الرجل عن حد العبوس.

ومن كلام بعض الأدباء: ونحن نحمد الله إليك، فإن عقدة الإسلام في قلوبنا صحيحة، وأواخيه عندنا ثابتة، وقد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم، وأن يشوبوا يقيننا بشكهم، فعصم الله منهم، وحال توفيقه دونهم، ولنا بعد مذهب في الدعاة جميل، لا يشوبه أذى ولا قذى، يخرج بنا إلى الأنس من العبوس، وإلى الإسترسال من القطوب، ويلحقنا بأحرار الناس الذين ارتفعوا عن لبسة الرياء، وأنفوا من التشوف بالتصنع.

وقال ابن خريج: سألت عطاءً عن القراءة على ألحان الغناء والحداء، فقال لي: لا بأس بذلك؛ حدثني عبيد الله بن عمر الليثي، أنه كان لداود النبي عليه السلام معزفة، قد يضرب بها إذا قرأ الزبور، فتجتمع إليه الطير والوحش، فيبكي ويبكي من حوله.

وقال جابر بن عبد الله الجعفي: رأيت الشعبي يقول لخياط يمازحه: عندنا حب مكسور وأحب أن نخيطه؛ فقال الخياط: أحضر لي خيوطاً من ريش لأخيطه لك.

وسئل الشعبي: هل يجوز أن يؤكل الجني لو ظفر به؟ فقال: ليتنا نخرج منه كفافاً لا لنا ولا علينا.

وسأل إنسان محمد بن سيرين عن هشام بن حسان، فقال: توفي البارحة، أما شعرت؟ فخرج يسترجع، فلما رأى ابن سيرين جزعه، قرأ: "الله يتوفى الأنفس حين موتها".

وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس في بيته وأرفقهم، وقد أباح الله تعالى الرفث إلى النساء، فقال: "احل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن". وقال أهل اللغة: الرفث: القول الفاحش تخاطب به المرأة حال الجماع.

ومر بالشعبي حمال على ظهره دن خل، فوضع الدن وقال له: ما كان اسم امرأة إبليس؟ فقال الشعبي: ذلك نكاح ما شهدناه.

وقال عكرمة: ختن ابن عباس بنيه فأرسلني، فدعوت اللعابين فلعبوا، فأعطاهم أربعة دراهم.

وتقدم رجلان إلى شريح في خصومة، فأقر أحدهما بما ادعى عليه وهو لا يدري، فقضى شريح عليه، فقال: أصلحك الله؛ أتقضي علي بغير بينة؟ قال: بلى، شهد عندي ثقة. قال: ومن هو؟ قال: ابن أخت خالتك.

وجاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم: مر بصهيب وهو أرمد يأكل تمرًا، فنهاه، فقال: إنما أكله عن جانب العين

الصحيحة يا رسول الله، فضحك منه ولم ينكر عليه.

وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم مر بحسان بن ثابت، وقد رش أطماره، وعنده جارية تغنيه:

هل علي ويحكما

إن لغوت من حرج

فقال صلى الله عليه وسلم: "لأخرج إن شاء الله".

وقيل: إن عبد الله بن جعفر قال لحسان بن ثابت في أيام معاوية: لو غنتك فلانة جاريتي صوت كذا لم تدرك ركابك، فقال: يا أبا جعفر، "فكلوا منها واطعموا البائس الفقير".

وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب: مر بي عمر وأنا وعاصم نغني غناء النصب، فوقف وقال: أعيدا علي، وقلنا: أينما أحسن صنعة يا أمير المؤمنين؟ فقال: مثلكما كحماري العبادي، قيل له: أي حماريك شر؟ فقال: هذا ثم هذا. فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا الأول من الحمارين، فقال: أنت الثاني منهما.

ومر نعيمان وهو بدري بمخرمة بن نوفل في خلافة عثمان، وقد كف بصره، فقال: ألا يقودني رجل حتى أبول؟ فأخذ نعيمان بيده حتى صار به إلى مؤخر المسجد، وقال: ها هنا قبل، فبال، فصاح به الناس، فقال: من قادي؟ قيل: نعيمان، قال: لله علي أن أضربه بعصاي هذه. فبلغ نعيمان فأتاه، فقال: بلغني أنك أقسمت لتضربن نعيمان فهل لك فيه! قال: نعم. قال: قم، فقام معه حتى وافى به عثمان بن عفان وهو يصلي، فقال: دونك الرجل، فجمع مخزمة يديه في العصا وضربه بها، فصاح الناس: ويلك، أمير المؤمنين! قال: من فادي! قالوا: نعيمان، قال: ومالي ولنعيمان؛ لا أعرض له أبداً! وكان طويس يتغنى في عرس، فدخل النعمان بن بشير الأنصاري العرس وطويس يغنيهم:

أجد بعمره هجرانها

وتسخط أم شاننا شانها

فأشاروا إليه بالسكوت، فقال النعمان: دعوه إنه لم يقل بأساً، إنما قال:

وعمره من سروات النساء

ء تنفج بالمسك أردانها

وعمره هذه أم النعمان؛ وفيها قيل هذا النسيب.

وقط روي عن جماعة من الصحابة والتابعين اللعب بالنرد والشطرنج، ومنهم من روي عنهم شرب النبيذ وسماع الغناء المطرب.

فأما أمير المؤمنين علي عليه السلام، فإذا نظرت إلى كتب الحديث والسير، لم تجد أحداً من خلق الله عدواً ولا صديقاً، روى عنه شيئاً من هذا الفن؟ لا قولاً ولا فعلاً، ولم يكن جد أعظم من جده، ولا وقار أتم من وقاره، وما هزل قط ولا لعب، ولا فارق الحق والناموس الديني سراً ولا جهراً؛ وكيف يكون هازلاً ومن كلامه المشهور عنه: ما مزح امرؤ مزحة إلا ومج معها من عقله مجة! ولكنه خلق على سجية لطيفة، وأخلاق سهلة، ووجه طلق، وقول حسن، وبشر ظاهر، وذلك من فضائله عليه السلام، وخصائصه التي منحه الله شرفها، واختصه بمزيتها، إنما كانت غلظته وفضاظته فعلاً لا قولاً، وضرباً بالسيف لا جبهاً بالقول، وطعناً بالسنان لا عضهاً باللسان؛ كما قال الشاعر:

حسن الخلق وما قيل فيه

فأما سوء الخلق فلم يكن من سجايه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "حصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق". وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: "وإنك لعلی خلق عظیم" وقال أيضاً: "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك". وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الشؤم! فقال: سوء الخلق. وصحب جابر رجلاً في طريق مكة، فأذاه سوء خلقه، فقال جابر: إني لأرحمه، نحن نفارقه ويبقى معه سوء خلقه؛ وقيل لعبد الله بن جعفر: كيف تجاور بني زهرة وفي أخلاقهم زعارة؟ قال: لا يكون لي قبلهم شيء إلا تركته، ولا يطلبون مني شيئاً لا أعطيتهم.

وفي الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم: قال: "ألا أنبئكم بشر الناس؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "من نزل وحده، ومنع رفده، وضرب عبده"، ثم قال: "ألا أنبئكم بشر من ذلك؟" قالوا: بلى، قال: "من لم يقل عشرة، ولا يقبل معذرة". وقال إبراهيم بن عباس الصولي: لو وزنت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم: بمحاسن الخلق كلها لرجحت، قوله: "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم".

وفي الخبر المرفوع: "حسن الخلق زمام من رحمة الله في أنف صاحبه، والزمام بيد الملك، والملك يجره إلى الخير، والخير يجره إلى الجنة؛ وسوء الخلق زمام من عذاب الله في أنف صاحبه، والزمام بيد الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار".

.وروى الحسن بن علي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، وإنه ليكتب جباراً ولا يملك إلا أهله".

وروى أبو موسى الأشعري، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وامرأة بين يديه، فقلت: الطريق لرسول الله! فقالت: "الطريق معرض؛ إن شاء أخذ يميناً وإن شاء أخذ شمالاً. فقال صلى الله عليه وسلم: "دعوها فإنها جبارة".

وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب، والسيئ الخلق أجنبي عند أهله.

ومن كلام الأحنف: ألا أخبركم بالحمدة بلا مذمة؟ الخلق السجيح، والكف عن القبيح، ألا أخبركم بأدواء الداء؛ الخلق الديء واللسان البذيء.

وفي الحديث المرفوع: أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن .

وجاء مرفوعاً أيضاً: المؤمن هين لين كالجمل الأنف؛ إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ.

وجاء مرفوعاً أيضاً: ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة: الثرثارون المتفيهقون.

أبو رجاء العطاردي: من سره أن يكون مؤمناً حقاً، فليكن أذل من قعود؛ كل من مر به ادعاه.

فضيل بن عياض: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إلي من أن يصحبني عابد سيئ الخلق، لأن الفاسق إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبه، والعابد إذا ساء خلقه، ثقل على الناس ومقتوه.

دخل فرقد ومحمد بن واسع على رجل يعودانه، فجرى ذكر العنف والرفق، فروى فرقد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قيل له: على من حرمت النار يا رسول الله؟ قال: على الهين اللين السهل القريب؟ فلم يجد محمد بن واسع بياضاً يكتب ذلك فيه، فكتبه على ساقه. عبد الله بن الداراني: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب.

عائشة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم باب رفق" وعنهما، عنه صلى الله عليه وسلم: "من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة".
جرير بن عبد الله البجلي رفعه إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق، فإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق. وكان يقال: ما دخل الرفق في شيء إلا زانه.

أبوعون الأنصاري: ما تكلم الإنسان بكلمة عنيفة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها سئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت: كان خلقه القرآن: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين".
وسئل ابن المبارك عن حسن الخلق، فقال: بسط الوجه، وكف الأذى، وبذل الندي.

ابن عباس: إن الخلق يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل.
علي عليه السلام ما من شيء في الميزان أثقل من خلق حسن، وعنه عليه السلام: عنوان صحيفه المؤمن حسن خلقه، وعنه عليه السلام مرفوعاً: عليكم بحسن الخلق؛ فإنه في الجنة، وإياكم وسوء الخلق فإنه في النار.
قال المنصور لأخيه أبي العباس في بني حسن لما أزمعوا الخروج عليه: أنسهم يا أمير المؤمنين بالإحسان، فإن استوحشوا فالشر يصلح ما يعجز عنه الخير، ولا تدع محمداً يمرح في أعنة العقوق. فقال أبو العباس: يا أبا جعفر! إنه من شدد نفر، ومن لان ألف، والتغافل من سجايا الكرام.

الغلظة والفظاظة

ونحن نذكر بعد كلاماً كلياً في سبب الغلظة والفظاظة، وهو الخلق المنافي للخلق الذي كان عليه أمير المؤمنين، فنقول: إنه قد يكون لأمر عائد إلى المزاج الجسماني، وقد يكون لأمر راجع إلى النفس: فأما الأول؛ فإنما يكون من غلبة الأخلاط السوداوية وترفدها، وعدم صفاء الدم وكثرة كدرته وعكره، فإذا غلظ الدم وثخن غلظ الروح النفساني وثخن أيضاً، لأنه متولد من الدم، فيحدث منه نوع مما يحدث لأصحاب الفطرة، من الإستيحاش والنبوة عن الناس وعدم الإستئناس والبشاشة، وصار صاحبه ذا جفاء وأخلاق غليظة، ويشبه أن يكون هذا سبباً مادياً، فإن الذي يقوى في نفسي أن النفوس إن صحت وثبتت مختلفة بالذات. وأما الراجع إلى النفس فإن يجتمع عندها أسقاط وأنصباء من قوى مختلفة مذمومة، نحو أن تكون القوة الغضبية عندها متوافرة، وينضاف إليها تصور الكمال في ذاتها وتوهم النقصان في غيرها، فيعتقد أن حركات غيره واقعة على غير الصواب، وأن الصواب ما توهمه. وينضاف إلى ذلك قلة أدب النفس وعدم الضبط لها واستحقارها للغير؛ ويقل التوقير له، وينضاف إلى ذلك الجاح، وضيق في النفس، وحدة واستشاطة وقلة صبر عليه، فيتولد من مجموع هذه الأمور خلق ديني؛ وهو الغلظة والفظاظة، والوعورة والبادرة المكروهة، وعدم حبه الناس، ولقاؤهم

بالأذى، وقلة المراقبة لهم، واستعمال القهر في جميع الأمور، وتناول الأمر من السماء؛ وهو قادر على أن يتناوله من الأرض.

وهذا الخلق خارج عن الاعتدال، وداخل في حيز الجور؛ ولا ينبغي أن يسمى بأسماء المدح، وأعني بذلك أن قوماً يسمون هذا النوع من العنف والخلق الوعر رجولية، وشدة وشكيمه، ويذهبون به مذهب قوة النفس وشجاعتها؛ الذي هو بالحقيقة مدح، وشتان بين الخلقين، فإن صاحب هذا الخلق الذي ذمناه تصدر عنه أفعال كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على إخوانه؛ على الأقرب فالأقرب من معامليه، حتى ينتهي إلى عبيده وحرمة؛ فيكون عليهم سوط عذاب، لا يقللهم عثرة، ولا يرحم عبثاً، وإن كانوا برآء من الذنوب، غير مجرمين ولا مكتسبي سوء، بل يتجرم عليهم، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقاً إليهم، حتى ييسط يده ولسانه، وهم لا يمتنعون منه، ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم، بل يذعنون له ويقرون بذنوب لم يقترفوها؛ استكفافاً لعاديته وتسكيناً لغضبه، وهو في ذلك يستمر على طريقته لا يكف يداً ولا لساناً.

وأصل هذا الخلق الذي ذكرناه أنه مركب من قوى مختلفة من شدة القوة الغضبية، فهي الحاملة لصاحب هذا الحق على ما يصدر عنه من البادرة المكروهة والجبه والقحة؛ وقد رأينا وشاهدنا من تشتد القوة الغضبية فيه، فيتجاوز الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التي لا تعقل، وإلى الأواني التي لا تحس، وربما قام إلى الحمار وإلى البرذون؛ فضرهما ولكمهما، وربما كسر الآنية لشدة غضبه، وربما عض القفل إذا تعسر عليه، وربما كسر القلم إذا تعلق به شعرة من الدواة واجتهد في إزالتها فلم تزل.

ويحكى عن بعض ملوك اليونان المتقدمين؛ أنه كان يغضب على البحر إذا هاج واضطرب، وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه؛ فيقسم بمعبوده ليطمئنه وليطرحن الجبال فيه حتى يصير أرضاً، ويقف بنفسه على البحر، ويهدده بذلك، ويزجره زجراً عنيفاً، حتى تدر أوداجه ويشتد احمرار وجهه؛ ومنهم من لا يسكن غضبه حتى يصب عليه ماء بارد أو حتى يبول؛ ولهذا ورد في الشريعة، الأمر لمن اشتد غضبه أن يتوضأ للصلاة ويصلي، وكان عمر بن الخطاب إذا غضب على واحد من أهله لا يسكن غضبه؛ حتى يعض يده عضاً شديداً حتى يدميها.

وذكر الزبير بن بكار في الموفقيات أن سرية جاءت لعبد الرحمن أو لعبيد الله بن عمر بن الخطاب إليه تشكوه فقالت: يا أمير المؤمنين، ألا تعذرنى من أبي عيسى؟ قال: ومن أبو عيسى؟ قالت: ابنك عبيد الله، قال: ويحك! وقد تكنى بأبي عيسى؛ ثم دعاه فقال: إيهما اكتنيت بأبي عيسى؛ فحذر وفرع، وأخذ يده فعضها، ثم ضربه، وقال: ويلك! وهل لعيسى أب؟ أتدري ما كنى العرب! أبو سلمة، أبو حنظلة، أبو عرفة أبو مرة...

قال الزبير: وكان عمر إذا غضب على بعض أهله لم يسكن غضبه حتى يعض يده عضاً شديداً. وكان عبد الله بن الزبير كذلك، ولقوة هذا الخلق عنده أضمر عبد الله بن عباس في خلافته إبطال القول بالعول وأظهره بعده، فقليل له: هلا قلت هذا في أيام عمر! فقال: هبته، وكان أميراً مهيباً.

ولذلك قال أيضاً أبو سفيان في استلحاق زياد: أخاف من هذا العير الجالس أن يخرق علي إهابي؛ فإذا هابه أبو سفيان،

وهو من بني عبد مناف في المزلة التي تعلم، وحوله بنو عبد شمس، وهم حمرة قريش، فما ظنك بمن هو دونه؟ وقد علمت حال جبلة بن الأيهم وارتداده عن الإسلام لتهده له ووعيده إياه أن يضربه بالدرّة، وفساد الحال بينه وبين خالد بن الوليد بعد أن كان ولياً مصافياً، ومنحرفاً عن غيره قالياً، والشأن الذي كان بينه وبين طلحة حتى هم أن يوقع به، وحتى هم طلحة أن يجاهره، وطلحة هو الذي قال لأي بكر عند موته: ماذا تقول لربك وقد وليت فينا فظاً غليظاً! وهو القائل له: يا خليفة رسول الله! إنا كنا لا نحتمل شرسته وأنت حي تأخذ على يديه، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميت وهو الخليفة! واعلم أنا لا نريد بهذا القول ذمه رضي الله عنه؛ وكيف نذمه وهو أولى الناس بالمدح والتعظيم؛ ليمن نقيته وبركة خلافته، وكثرة الفتوح في أيامه، وانتظام أمور الإسلام على يده! ولكننا أردنا أن نشرح حال العنف والرفق، وحال سعة الخلق وضيقه، وحال البشاشة والعبوس، وحال الطلاقة والوعورة، فنذكر كل واحد منها ذكراً كلياً، لا نخص به إنساناً بعينه. فأما عمر فإنه وإن كان وعراً شديداً خشناً، فقد رزق من التوفيق والعناية الإلهية ونجح المساعي، وطاعة الرعية ونفوذ الحكم، وقوة الدين وحسن النية وصحة الرأي، ما يربي محاسنه ومحامده على ما في ذلك الخلق من نقص، وليس الكامل المطلق إلا الله تعالى وحده.

فأما حديث الرضيخة وما جعل معاوية لعمر بن العاص من جعالة على مبايعته ونصرته، فقد تقدم ذكره في أخبار صفين المشروحة في هذا الكتاب من قبل.

في تعظيم الله وتمجيده

الأصل: وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له، لا تقع الأوهام له على صفة، ولا تعقد القلوب منه على كيفية؛ ولا تناله التجزئة والتبعض، ولا تحيط به الأبصار والقلوب.

الشرح: في هذا الفصل على قصره ثمان مسائل من مسائل التوحيد:

الأولى: أنه لا ثاني له سبحانه في الإلهية؛ الثانية: أنه قديم لا أول له. فإن قلت: ليس يدل كلامه على القدم، لأنه قال: الأول لا شيء قبله فيوهم كونه غير قديم بأن يكون محدثاً وليس قبله شيء، لأنه محدث عن عدم والعدم ليس بشيء! قلت: إذا كان محدثاً كان له محدث؛ فكان ذلك المحدث قبله، فثبت أنه متى صدق أنه ليس شيء قبله صدق كونه قديماً، والثالثة: أنه أبدي لا انتهاء ولا انقضاء لذاته، والرابعة: نفي الصفات عنه - أعني المعاني والخامسة: نفي كونه مكيفاً؛ لأن كيف إنما يسأل بها عن ذوي الهيئات والأشكال وهو متركب عنها، والسادسة: أنه غير متبعض لأنه ليس بجسم ولا عرض. والسابعة: أنه لا يرى ولا يدرك، والثامنة: أن ماهيته غير معلومة، وهو مذهب الحكماء وكثير من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم، وأدلة هذه المسائل مشروحة في كتبنا الكلامية.

واعلم أن التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهية، ما عرفت إلا من كلام هذا الرجل، وأن كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمن شيئاً من ذلك أصلاً، ولا كانوا يتصورونه، ولو تصوروه لذكروه. وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه السلام.

الأصل: ومنها: فاتعظوا عباد الله بالعبير النوافع، وأعتبروا بالآي السواطع، وأزددجروا بالنذر والبوالغ وانتفعوا بالذكر

والمواعظ فكأن قد علقتمكم مخالب المنية، وانقطعت منكم علائق الأمنية، ودهمتكم مفضعات الأمور، والسيافة إلى الورد المورود، فكل نفس معها سائق وشهيد؛ سائق يسوقها إلى محشرها؛ وشاهد يشهد عليها بعملها.

الشرح: العبر: جمع عبرة، وهي ما يعتبر به أي يتعظ. والآي: جمع آية، ويجوز أن يريد بها آي القرآن، ويجوز أن يريد بها آيات الله في خلقه، وفي غرائب الحوادث في العالم.

والسواطع: المشرقة المنيرة، والنذر: جمع نذير؛ وهو المخوف، والأحسن أن يكون النذر هاهنا هي الإنذارات نفسها، لأنه قد وصف ذلك بالبوالغ، وفواعل لا تكون في الأكثر إلا صفة المؤنث، ومفضعات الأمور: شدائد الشريعة، أفضع الأمر فهو مفضع، ويجوز فضع الأمر بالضم فظاعة فهو فظيع، وأفضع الرجل على ما لم يسم فاعله، أي نزل به ذلك.

وقوله: والسيافة إلى الورد المورود؛ يعني الموت. وقوله: سائق وشهيد؛ وقد فسر عليه السلام ذلك وقال: سائق يسوقها إلى محشرها، وشاهد يشهد عليها بعملها؛ وقد قال بعض المفسرين: إن الآية لا تقتضي كونهما اثنين، بل من الجائز أن يكون ملكاً واحداً جامعاً بين الأمرين، كأنه قال: وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها ويشهد عليها. وكلام أمير المؤمنين يحتمل ذلك أيضاً، لأنه لم يقل أحدهما؛ لكن الأظهر في الأخبار والآثار أنهما ملكان.

فإن قلت: إذا كان تعالى عالماً بكل شيء فأبي حاجة إلى الملائكة التي تكتب الأعمال، كما قال سبحانه: "بلى ورسلنا لديهم يكتبون"؛ وإذا كان تعالى أعدل العادلين فأبي حاجة إلى ملك يشهد على المكلف يوم القيامة؟ وإذا كان قادراً لذاته، فأبي حاجة إلى ملك يسوق المكلف إلى المحشر؟ قلت: يجوز أن يكون في تقرير مثل ذلك في أنفس المكلفين في الدنيا اللطاف ومصالح لهم في أديانهم، فيخاطبهم الله تعالى به لوجوب اللطف في حكمته، وإذا خاطبهم به وجب فعله في الآخرة؟ لأن خبره سبحانه لا يجوز الخلف عليه.

الأصل: ومنها في صفة الجنة: درجات متفاوتات، ومنازل متفاوتات، لا ينقطع نعيمها، ولا يظعن مقيمها، ولا يهرم خالدها، ولا يبأس ساكنها.

الشرح: الدرجات: جمع درجة، وهي الطبقات والمراتب، ويقال لها: درجات في الجنة ودرجات في النار، وإنما تفاضلت وتفاوتت بحسب الأعمال، ولا يجوز أن يقع ذلك تفضلاً لأن التفضل بالثواب قبيح. فإن قلت: فما قولك في الحور والولدان والأطفال والمجانين؛ قلت: يكون الواصل إليهم نعيماً ولذة لا شبهة في ذلك، ولكن لا ثواب لهم ولا ينالونه، والثواب أمر أخص من المنافع والنعيم، لأنه منافع يقترب بها التعظيم والتبجيل، وهذا الأمر الأخص لا يحسن إيصاله إلا إلى أرباب العمل.

وقوله: لا ينقطع نعيمها ولا يظعن مقيمها قول متفق عليه بين أهل الملة، إلا ما يحكى عن أبي الهذيل؛ أن حركات أهل الجنة تنتهي إلى سكون دائم. وقد نزهه قوم من أصحابنا عن هذا القول وأكذبوا روايته، ومن أثبتته منهم عنه زعم أنه لم يقل بانقطاع النعيم، لكن بانقطاع الحركة مع دوام النعيم، وإنما حملة على ذلك أنه لما استدل على أن الحركة الماضية يستحيل ألا يكون لها أول، عورض بالحركات المستقبلية لأهل الجنة والنار، فالتزم أنها متناهية، وإنما استبعد هذا عنه، لأنه كان أجل قدراً من أن يذهب عليه الفرق بين الصورتين.

ويأس: مضارع يئس، وجاء فيه يئس بالكسر، وهو شاذ كشدوذ يحسب وينعم، ومعنى يئس: يصيبه اليأس وهو الشقاء.

ومن خطبة له عليه السلام في الوعظ

الأصل: قد علم السرائر، وخبر الضمائر، له الإحاطة بكل شيء، والغلبة لكل شيء والقوة على كل شيء، فليعمل العامل منكم في أيام مهله، قبل إرهاب أجله، وفي فراغه قبل أوان شغله، وفي متنفسه قبل أن يؤخذ بكظمه؛ وليمهد لنفسه وقدمه، وليتزود من دار ظعنه لدار إقامته.

فإن الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه، واستودعكم من حقوقه، فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى؛ ولم يدعكم في جهالة ولا عمى، قد سمى آثاركم، وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم، وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيء، وعمر فيكم نبيه أزماناً حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه؛ وأنهى إليكم على لسانه محابه من الأعمال ومكارهه، ونواهيته وأوامره، وألقى إليكم المذرة، واتخذ عليكم الحجة، وقدم إليكم بالوعيد، وأنذركم بين يدي عذاب شديد.

الشرح: السرائر: جمع سريرة، وهو ما يكتُم من السر، وخبر الضمائر، بفتح الباء: امتحنها وابتلاها، ومن رواه بكسر الباء أراد علم، والإسم الخير، بضم الخاء وهو العلم. والضمائر: جمع ضمير، وهو ما تضمنه وتكنه في نفسك. وفي قوله: له الإحاطة بكل شيء؛ وقد بينها ثلاث مسائل من التوحيد: إحداهن: أنه تعالى عالم بكل المعلومات. والثانية: أنه لا شريك له، وإذا ثبت كونه عالماً بكل شيء كان في ضمن ذلك نفي الشريك، لأن الشريك لا يكون مغلوباً، والثالثة: أنه قادر على كل ما يصح تعلق قدرته تعالى به، وأدلة هذه المسائل مذكورة في الكتب الكلامية.

وقوله: فليعمل العامل منكم إلى قوله: ولتتزود من دار ظعنه لدار إقامته مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته المشهورة وهي: أيها الناس؛ إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم وإن لكم غاية فانتبهوا إلى غايتكم. إن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وأجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبية قبل الهرم، ومن الحياة قبل الموت؛ فوالذي نفس محمد بيده؛ ما بعد الموت من مستعقب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

والمهل: المهلة والتؤدة. والإرهاب: مصدر أرهق، تقول: أرهقة قرنه في الحرب إرهاباً إذا غشيه ليقته، وزيد مرهق؛ قال الشاعر:

تتدى أكفهم وفي أبياتهم

ثقة المجاور والمضاف المرهق

وفي متنفسه، أي في سعة وقته؟ يقال: أنت في نفس من أمرك، أي في سعة. والكظم بفتحهما: مخرج النفس، والجمع أكظام. ويجوز ظعنه وطمعه، بتحريك العين وتسكينها، وقرئ بهما: "يوم ظعنكم" و "ظعنكم". ونصب الله الله على الإغراء، وهو أن تقدر فعلاً ينصب المفعول به؛ أي اتقوا الله، وجعل تكرير اللفظ نائباً عن الفعل المقدر ودليلاً عليه.

استحفظكم من كتابه: جعلكم حفظة له؛ جمع حافظ.

السدى: المهمل، ويجوز سدى بالفتح، أسديت الإبل: أهملتها. وقوله: قد سمي آثاركم يفسر بتفسيرين: أحدهما: قد بين لكم أعمالكم خيرها وشرها؛ كقوله تعالى: "وهديناه النجدين"؛ والثاني: قد أعلى مآثركم، أي رفع منازلكم إن أطعتم، ويكون سمي بمعنى أسمى، كما كان في الوجه الأول بمعنى أبان وأوضح.

والتيبان، بكسر التاء: مصدر، وهو شاذ؛ لأن المصادر إنما تأتي على التفعال بفتحها مثل التذكار والتكرار، ولم يأت بالكسر إلا حرفان وهما: التبيان والتلقاء.

وقوله: "حتى أكمل له ولكم دينه" من قوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي". وقوله: الذي رضي لنفسه من قوله تعالى: "وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم"؛ لأنه إذا ارتضى لهم فقد ارتضاه لنفسه، أي ارتضى أن ينسب إليه، فيقال: هذا دين الحق. وأنهى إليكم: عرفكم وأعلمكم. ومحابه: جمع محبة، ومكارهه: جمع مكروهة، وهي ما تكره، وفي هذا دلالة أن الله تعالى يحب الطاعة ويكره المعصية، وهو خلاف قول المجبرة.

والأوامر: جمع أمر، وأنكره قوم وقالوا: هاهنا جمع أمر، كالأحوص جمع أحوص، والأحامر جمع أحمر. يعني الكلام الأمر لهم بالطاعات وهو القرآن.

والنواهي: جمع ناهية، كالسواري جمع سارية، والغواذي جمع غادية، يعني الآيات الناهية لهم عن المعاصي، ويضعف أن يكون الأوامر والنواهي جمع أمر ونهي، لأن فعلاً لا يجمع على أفاعل وفواعل، وإن كان قال ذلك بعض الشواذ من أهل الأدب.

وقوله: وألقى إليكم المعذرة كلام فصيح، وهو من قوله تعالى: "ألقى إليكم السلام".

وقدم إليكم بالوعيد، وأنذركم بين يدي عذاب شديد، أي أمامه وقبله، مأخوذ أيضاً من القرآن. ومعنى قوله: بين يدي عذاب شديد، أي أمامه وقبله؛ لأن ما بين يديك متقدم لك.

الأصل: فاستدركوا بقية أيامكم، اصبروا لها أنفسكم؛ فإنها قليل في كثير الأيام التي تكون منكم فيها الغفلة، والتشاغل عن الموعظة، ولا ترخصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة، ولا تدهنوا فيهم بكم الأدهمان على المعصية. عباد الله: إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه، وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه؛ والمغبون من غبن نفسه، والمغبوط من سلم له دينه، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من أنخدع لهواه وغروره.

واعلموا أن يسير الرياء شرك، ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان؛ ومحضرة للشيطان.

جانبوا الكذب فإنه بجانب للإيمان. الصادق على شفا منجاة وكرامة، والكاذب على شرف مهواة ومهانة. ولا تحاسدوا؛ فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب، ولا تباغضوا فإنها الحالقة؛ واعلموا أن الأمل يسهي العقل، وينسي الذكر. فأكذبوا الأمل؛ فإنه غرور، وصاحبه مغرور.

الشرح: قوله: فاستدركوا بقية أيامكم؛ يقال: استدركت ما فات وتداركت ما فات، بمعنى واصبروا لها أنفسكم: مأخوذ

من قوله تعالى: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي" يقال: صبر فلان نفسه على كذا، أي حبسها عليه. يتعدى فينصب؛ قال عنتره:

فصبرت عارفةً لذلك حرةً

ترسو إذا نفس الجبان تطلع

أي حبست نفسك عارفة. وفي الحديث النبوي في رجل أمسك رجلاً وقتله الآخر، فقال عليه السلام: "اقتلوا القتال واصبروا الصابر"، أي احبسوا الذي أمسكه حتى يموت. والضمير في فإنها قليل عائد إلى الأيام التي أمرهم باستدراكها. يقول: إن هذه الأيام التي قد بقيت من أعماركم قليلة، بالنسبة والإضافة إلى الأيام التي تغفلون فيها عن الموعظة. وقوله: فإنها قليل فأخبر عن المؤث بصيغة المذكر، إنما معناه فإنها شيء قليل يحذف الموصوف؛ كقوله: "وحسن أولئك رفيقاً" أي قبلاً رفيقاً.

ثم قال: ولا ترخصوا نهي عن الأخذ برخص المذاهب؛ وذلك لأنه لا يجوز للواحد من العامة أن يقلد كلا من أئمة الإجتهد فيما خف وسهل من الأحكام الشرعية. أو لا تساهلوا أنفسكم في ترك تشديد المعصية، ولا تسامحوها وترخصوا إليها في ارتكاب الصغائر والمحقرات من الذنوب، فتهجم بكم على الكبائر، لأن من مرّن على أمر تدرج من صغيره إلى كبيره. والمداهنة: النفاق والمصانعة، والإدهان مثله؛ قال تعالى: "ودوا لو تدهن فيدهنون". قوله: إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه، لأنه قد صانها عن العقاب، وأوجب لها الثواب؛ وذلك غاية ما يمكن نصيحتها ونفعها.

قوله: وإن أغش الناس لنفسه أعصاهم لربه؛ لأنه ألقاها في الهلاك الدائم، وذلك أقصى ما يمكن من غشها والإضرار بها. ثم قال: والمغبون من غبن نفسه، أي أحق الناس أن يسمى مغبوناً من غبن نفسه، يقال: غبنته في البيع غبناً، بالتسكين، أي خدعته، وقد غبن فهو مغبون، وغبن الرجل رأيه بالكسر غبناً بالتحريك فهو غبين، أي ضعيف الرأي، وفيه إبانة. ولفظ الغبن يدل على أنه من باب غبن البيع والشراء، لأنه قال: والمغبون ولم يقل: والغبين.

والمغبوط: الذي يتمنى مثل حاله، والذي يتمنى زوال حاله وانتقالها هو الحاسد، والحسد مذموم، والغبطة غير مذمومة، يقال: غبطته بما نال، أغبطه غبطاً وغبطة فاغبط هو؛ كقولك منعتة فامتنع، وحبسته فاحتبس، قال الشاعر:

وبينما المرء في الأحياء مغتبط

إذ صار في الرمس تغفوه الأعاصير

هكذا أنشدوه بكسر الباء، وقالوا فيه: مغتبط، أي مغبوط.

قوله: "والسعيد من وعظ بغيره" مثل من الأمثال النبوية، وقد ذكرنا فيما تقدم، ما جاء في ذم الرياء وتفسير كونه شركاً. وقوله عليه السلام منساة للإيمان؛ أي داعية إلى نسيان الإيمان وإهماله، والإيمان الاعتقاد والعمل، ومحضرة للشيطان: موضع حضوره، كقولك: مسبعة، أي موضع السباع. ومفعلة، أي موضع الأفاعي. ثم نهي عن الكذب وقال: إنه بجانب للإيمان وكذا ورد في الخبر المرفوع.

وشفا منجاة؛ أي حرف نجاة وخلص، وشفا الشيء حرفه، قال تعالى: "وكنتم على شفا حفرة من النار" وسأشفي على

الشيء وأشرف عليه. بمعنى؛ وأكثر ما يقال ذلك في المكروه، يقال: أشفى المريض على الموت، وقد استعمله ها هنا في غير المكروه.

والشرف: المكان العالي، بفتح الشين، وأشرفت عليه، أي اطلعت من فوق.

والمهواة: موضع السقوط والمهانة: الحقارة.

ثم نهي عن الحسد وقال: إنه يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب، وقد ورد هذا الكلام في الأخبار المرفوعة؛ وقد تقدم منا كلام في الحسد، وذكرنا كثيراً مما جاء فيه.

ثم نهي عن المباغضة وقال: إنها الحالقة، أي المستأصلة التي تأتي على القوم، كالحلق للشعر.

ثم نهي عن الأمل وطوله وقال: إنه يورث العقل سهواً، وينسي الذكر. ثم أمر بإكذاب الأمل، ونهي عن الإعتماد عليه، والسكون إليه، فإنه من باب الغرور.

وقد ذكرنا في الأمل وطوله نكتاً نافعة فيما تقدم، ويجب أن نذكر ما جاء في النهي عن الكذب.

ذم الكذب والكذابين

جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كذب العبد كذبة تباعد الملك منه مسيرة ميل، من تن ما جاء به .

وعنه عليه السلام : إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب

ويتحرى الكذب، فيكتب عند الله كاذباً؛ وعليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر ليهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق، فيكتب عند الله صادقاً.

وروي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أنا يا رسول الله أؤتسر بخلال أربع: الزنا، وشرب الخمر، والسرقة،

والكذب، فأيتهن شئت تركتها لك؟ قال دع الكذب؛ فلما ولى هم بالزنا، فقال: يسألني فإن جحدت نقضت ما جعلت

له، وإن أقررت حددت، ثم هم بالسرقة، ثم بشرب الخمر، ففكر في مثل ذلك، فرجع إليه فقال: قد أخذت علي السبيل كله، فقد تركتهن أجمع.

قال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله: يا بني أنت أفقه مني، وأنا أعقل منك، وإن هذا الرجل يدنيك - يعني عمر بن

الخطاب - فاحفظ عني ثلاثاً: لا تفشين له سرّاً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا يطلعن منك على كذبة. قال عبد الله: فكانت

هذه الثلاث أحب إلي من ثلاث بدرات ياقوتاً.

قال الوثائق لأحمد بن أبي دواد رحمه الله تعالى: كان ابن الزيات عندي، فذكر بك قبيح، قال: الحمد لله الذي أحوجه

إلى الكذب علي، ونزهني عن الصدق في أمره. وكان يقال: أمران لا يكاد أحدهما ينفك من الكذب: كثرة المواعيد

وشدة الاعتذار.

ومن الحكم القديمة: إنما فضل الناطق على الآخرس بالنطق، وزين المنطق الصدق، فالكاذب شر من الآخرس.

قال الرشيد للفضل بن الربيع في كلام جرى بينهما: كذبت، فقال: يا أمير المؤمنين؛ وجه الكذوب لا يقابلك، ولسانه لا يحاورك.

قيل في تفسير قوله تعالى: "ولكم الويل مما تصفون"؛ هي في الكذابين، فالويل لكل كاذب إلى يوم القيامة.

ومن كلام بعض الصالحين: لو لم أترك الكذب تأثماً لتركته تكراً.

أبو حيان: الكذب شعار خلق، ومورد رنق، وأدب سيئ، وعادة فاحشة، وقل من استرسل معه إلا ألفه، وقل من ألفه إلا أتلفه، والصدق ملبس بهي، ومنهل غذي، وشعاع منبث، وقل من اعتاده ومرن عليه إلا صحبته السكينة، وأيده التوفيق، وخدمته القلوب بالحب، ولحظته العيون بالمهابة.

ابن السماك: لا أدري، أوجر على ترك الكذب أم لا! لأني أتركه أنفة.

يحيى بن خالد: رأيت شريب خمر نزع، ولصاً أفلع، وصاحب فواحش ارتدع، ولم أر كاذباً رجع. قالوا في تفسير هذا: إن المولع بالكذب لا يكاد يصبر عنه، فقد عوتب إنسان عليه، فقال لمعاتبه: يا بن أخي، لو تغرغرت به لما صبرت عنه. وقيل لكاذب معروف بالكذب: أصدقت قط؟ قال: لولا أي أخاف أن أصدق لقلت: لا! وجاء في بعض الأخبار المرفوعة: قيل له: يا رسول الله، أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: أيكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: أيكون كاذباً؟ قال: لا.

وقال ابن عباس: الحدث حدثان: حدث من فيك، وحدث من فرجك.

وقال بعضهم: من أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون؛ أخذه شاعر فقال:

ذموه بالحق وبالباطل

ومن دعا الناس إلى ذمه

وكان يقال: خذوا عن أهل الشرف، فإنهم قلما يكذبون.

وقال بعض الصالحين: لو صحبتني رجل، فقال لي: اشترط علي خصلة واحدة لا تزيد عليها، لقلت: لا تكذب. وكان يقال: خصلتان لا يجتمعان: الكذب والمروءة.

كان يقال: من شرف الصدق أن صاحبه يصدق على عدوه، ومن دناءة الكذب أن صاحبه يكذب وإن كان صادقاً. ومثل هذا قولهم: من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه.

وجاء في الخبر المرفوع: إن في المعارض لمدوحة عن الكذب.

وقال ابن سيرين: الكلام أوسع من أن يكذب ظريف.

وقالوا في قوله تعالى: "لا تؤاخذني بما نسيت؛ لم ينس، ولكنه من معارض الكلام، وكذلك قالوا في قول إبراهيم: "إني سقيم".

وقال العتيبي: إني لأصدق في صغار ما يضري، فكيف لا أصدق في كبار ما ينفعني.

وقال بعض الشعراء:

أو عادة السوء أو من قلة الأدب

لا يكذب المرء إلا من مهانتته

من كذبة المرء في جد وفي لعب

لعض جيفة كلب خير رائحة

شهد أعرابي عند معاوية بشهادة، فقال له: كذبت، فقال: الكاذب والله المتزمل في ثيابك؛ فقال معاوية: هذا جزء من عجل.

وقال معاوية يوماً لأحنف وحديثاً، أتكذب؟ فقال له الأحنف: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله. ودخل عبد الله بن الزبير يوماً على معاوية فقال له: اسمع أبياتاً قلتها وكان واجداً على معاوية فقال: هات، فأنشده:

إذا أنت لم تتصف أخاك وجدته
على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركب حد السيف من أن تضيمه
إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

فقال معاوية: لقد شعرت بعدنا يا أبا بكر؛ ثم لم يلبث معاوية أن دخل عليه معن بن أوس المزني فقال: أقلت بعدنا شيئاً؟ قال نعم، وأنشده:

لعمرك لا أدري وإني لأوجل
على أننا تعدو المنية أول

حتى صار إلى الأبيات التي أنشدها ابن الزبير، فقال معاوية: يا أبا بكر، أما ذكرت آنفاً أن هذا الشعر لك ؛ فقال: أنا أصلحت المعاني وهو ألف الشعر وبعد، فهو ظئري وما قال من شيء فهو لي. وكان عبد الله بن الزبير مسترضعاً في مزينة.

وروى أبو العباس المبرد في الكامل أن عمر بن عبد العزيز كتب في إشخاص إياس بن معاوية المزني، وعدي بن أرطاة الفزاري أمير البصرة وقاضيتها إليه، فصار عدي إلى إياس، وقدر أنه يمزنه عند عمر بن عبد العزيز ويثني عليه، فقال له: يا أبا وائلة، إن لنا حقاً ورحماً، فقال إياس: أعلى الكذب تريدني! والله ما يسرني ألن كذبت كذبة يغفرها الله لي، ولا يطلع عليها هذا- وأوماً إلى ابنه- ولي ما طلعت عليه الشمس! وروى أبو العباس أيضاً أن عمرو بن معد يكرب الزبيدي كان معروفاً بالكذب. وقيل لخلف الأحمر- وكان مولى لهم وشديد التعصب لليمن: أكان عمرو بن معد يكرب يكذب؟ قال: يكذب في المقال ويصدق في الفعل. قال أبو العباس: فروي لنا أن أهل الكوفة الأشراف، كانوا يظهرهم بالكناسة ، فيركبون على دواجم حتى تطردهم الشمس ، فوقف عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وخالد بن الصقعب النهدي- وعمرو لا يعرفه، إنما يسمع باسمه- فأقبل عمرو يحدثه، فقال: أغرنا مرة على بني همد، فخرجوا مسترعفين بخالد بن الصقعب، فحملت عليه، فطعنته فأذريته ثم ملت عليه بالصمصامة ، فأخذت رأسه، فقال خالد بن الصقعب: حلا أبا ثور، إن قتيلك هو المحدث؛ فقال عمرو: يا هذا إذا حدثت فاستمع، فإنما نتحدث بمثل ما تستمع لنرهب به هذه المعدية.

قوله: مسترعفين أي مقدمين له. وقوله: حلا أبا ثور أي استثن، يقال: حلف ولم يتحلل، أي لم يستثن والمعدية: مضر وربيعة وإياد، بنو معد بن عدنان، وهم أعداء اليمن في المفارقة والتكاثر.

في صفات من يحبه الله تعالى

الأصل: عباد الله؛ إن من أحب عباد الله إليه عبدا أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف؛ فزهر مصباح الهدى في قلبه، وأعد القرى ليومه النازل به، فقرب على نفسه البعيد، وهون الشديد. نظر فأبصر، وذكر فاستكثر، وارتوى من عذب فرات، سهلت له موارده، فشرب نهلاً، وسلك سبيلاً جديداً. قد خلع سراويل الشهوات، وتخلّى عن الهموم، إلا هماً واحداً أنفرد به، فخرج من صفة العمى، ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الردى.

قد أبصر طريقه، وسلك سبيلاً، وعرف مناره، وقطع غماره، واستمسك من العرا بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس، قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور؛ من إصدار كل وارد عليه، وتصيير كل فرع إلى أصله.

مصباح ظلمات، كشف عشوات، مفتاح مبهمات، دفاع معضلات، دليل فلوات؛ يقول فيفهم، ويسكت فيسلم. قد أخلص لله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، وأوتاد أرضه، قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه. يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مظنة إلا قصدها، قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائدة وإمامه، يحل حيث حل ثقله، ويتزل حيث كان منزل الشرح: استشعر الحزن: جعله كالشعار، وهو ما يلي الجسد من الثياب. وتجلبب الخوف: جعله جلباباً، أي ثوباً. زهر مصباح الهدى: أضاء. وأعد القرى ليومه، أي أعد ما قدمه من الطاعات قرىً لضيف الموت النازل به. والفرات: العذب.

وقوله: فشرب نهلاً؛ يجوز أن يكون أراد بقوله: نهلاً المصدر، من نهل ينهل نهلاً، أي شرب حتى روي، ويجوز أن يريد بالنهل الشرب الأول خاصة، ويريد أنه اكتفى بما شربه أولاً، فلم يحتج إلى العلل.

وطريق جدد: لا عثار فيه لقوة أرضه. وقطع غماره؛ يقال: بحر غمر، أي كثير الماء، وبحار غمار. واستمسك من العرا بأوثقها؛ أي من العقود الوثيقة، قال تعالى: "فقد أستمسك بالعروة الوثقى".

ونصب نفسه لله، أي أقامها. كشف عشوات: جمع عشوة وعشوة، بالحركات الثلاث، وهي الأمر الملتبس؛ يقال: أوطأني عشوة.

والمعضلات: جمع معضلة وهي الشدائد والأمور التي لا يهتدى لوجهها.

دليل فلوات: أي يهتدى به كما يهتدي الراكب في الفلاة بدليلهم.

أمها: قصدها. ومظنة الشيء: حيث يظن وجوده. والثقل. متاع المسافر وحشمه.

العباد والزهاد والعارفون

وأعلم أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى. والعارفان درجة حال رفيعة شريفة جداً، مناسبة للنبوة، ويختص الله تعالى بها من يقربه إليه من خلقه.

والأولياء على طبقات ثلاث: الطبقة الأولى: حال العابد، وهو صاحب الصلاة الكثيرة، والصوم الدائم، والحج والصدقة. والطبقة الثانية: حال الزاهد، وهو المعرض عن ملاذ الدنيا وطيباتها؛ تقنعه الكسرة، وتستره الخرقه، لا مال ولا زوجة ولا

ولد.

والطبقة الثالثة: حال العارف، وهو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدنه، والبارىء سبحانه متمثل في نفسه تمثل المعشوق في ذات العاشق؛ وهو أرفع الطبقات، وبعده الزاهد.

وأما العابد فهو أدونها، وذلك لأن العابد معامل كالتاجر، يعبد ليثاب، ويتعب نفسه ليرتاح؛ فهو يعطي من نفسه شيئاً ويطلب ثمنه وعوضه، وقد يكون العابد غنياً موسراً، كثير المال والولد، فليست حاله من أحوال الكمال. وأما الزاهد، فإنه احتقر الدنيا وعروضها وقيناتها، فخلصت نفسه من دناءة المطامع وصار عزيزاً ملكاً، لا سلطان عليه لنفسه ولا لغيره، فاستراح من الذل والهوان، ولم يبق لنفسه شيء تشتاق إليه بعد الموت، فكان أقرب إلى السلامة والنجاة من العابد الغني الموسر.

وأما العارف فإنه بالحال التي وصفناها، ويستلزم مع وجودها أن يكون زاهداً، لأنه لا يتصور العرفان مع تعلق النفس بملاذ الدنيا وشهواتها. نعم قد يحصل بعض العرفان لبعض العلماء الفضلاء، مع تعلقهم بشهوات الدنيا، ولكنهم لا يكونون كاملين في أحوالهم، وإنما تحصل الحالة الكاملة لمن رفض الدنيا وتخلّى عنها، وتستلزم الحالة المذكورة أيضاً أن يكون عابداً عبادةً ما، وليس يشترط في حصول حال العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة، بل الإكثار من العبادة حجاب كما قيل ولكن لا بد من القيام بالفرائض وشيء يسير من النوافل.

واعلم أن العارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وكتبه، وبالحكمة المودعة في نظام العالم، لا سيما الأفلاك والكواكب، وتركيب طبقات العناصر، والأحكام وفي تركيب الأبدان الإنسانية. فمن حصل له ذلك، فهو العارف؛ وإن لم يحصل له ذلك، فهو ناقص العرفان، وإن انضم إلى ذلك استشعاره جلال الله تعالى وعظمته، ورياضة النفس والمجاهدة، والصبر والرضا والتوكل، فقد ارتفع طبقة أخرى، فإن حصل له بعد ذلك الحب والوجد، فقد ارتفع طبقة أخرى، فإن حصل له بعد ذلك الإعراض عن كل شيء سوى الله، وأن يصير مسلوباً عن الموجودات كلها، فلا يشعر إلا بنفسه وبالله تعالى، فقد ارتفع طبقة أخرى، وهي أرفع الطبقات.

وهناك طبقة أخرى يذكرونها، وهي أن يسلب عن نفسه أيضاً، فلا يكون له شعور بها أصلاً، وإنما يكون شاعراً بالقيام الأول سبحانه لا غير، وهذه درجة الاتحاد، بأن تصير الذاتان ذاتاً واحدة.

وهذا قول قوم من الأوائل ومن المتأخرين أيضاً، وهو مقام صعب، لا تثبت العقول لتصوره واكتناحه. واعلم أن هذه الصفات والشروط والنعوت التي ذكرها في شرح حال العارف، إنما يعني بها نفسه عليه السلام؛ وهو من الكلام الذي له ظاهر وباطن؛ فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق، وباطنه أن يشرح حال عارف معين، وهو نفسه عليه السلام. وسيأتي في آخر الخطبة ما يدل على ذلك. ونحن نذكر الصفات التي أشار عليه السلام إليها واحدة واحدة: فأولها: أن يكون عبداً أعانه الله على نفسه، ومعنى ذلك أن يخصه باللطاف، يختار عندها الحسن ويتجنب القبيح، فكأنه أقام النفس في مقام العدو، وأقام اللطاف مقام المعونة التي يمدّه الله سبحانه بها، فيكسر عادية العدو المذكور؟ وبهذا الاعتبار سمي قوم من المتكلمين اللطف عوناً، وثانيها: أن يستشعر الحزن، أي يحزن على الأيام الماضية، إن لم يكن اكتسب فيها من موجبات

الإختصاص أضعاف ما اكتسبه، وثالثها: أن يتجلبب الخوف، أي يخاف من الإعراض عنه، بأن يصدر عنه ما يحجوه من جريدة المخلصين، ورابعها: أن يعد القرى لضيء المنية، وذلك بإقامة وظائف العبادة. وخامسها: أن يقرب على نفسه البعيد، وذلك بأن يمثل الموت بين عينيه صباحاً ومساءً، وألا يطيل الأمل، وسادسها: أن يهون عليه الشدائد، وذلك باحتمال كلف المجاهدة ورياضة النفس على عمل المشاق، وسابعها: أن يكون قد نظر فأبصر، وذلك بترتيب المقدمات المطابقة لمعلقاتها ترتيباً صحيحاً، لتنتج العلم اليقيني، وثامنها: أن يذكر الله تعالى فيستكثر من ذكره، لأن ذكره سبحانه والإكثار منه، يقتضي سكون النفس وطمأنينتها، كما قال تعالى: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"، وتاسعها: أن يرتوي من حب الله تعالى، وهو العذب الفرات، الذي سهل موارده على من انتخبه الله، وجعله أهلاً للوصول إليه، فشرب منه ونهل، وسلك طريقاً لا عثار فيه ولا وعث، وعاشرها: أن يخلع سراويل الشهوات، لأن الشهوات تصدىء مرآة العقل، فلا تنطبع المعقولات فيها كما ينبغي، وكذلك الغضب، وحادي عشرها: أن يتخلى من الهموم كلها، لأنها تزيد من وقواطع عن المطلوب، إلا هماً واحداً وهو همه بمولاه، الذي لذته وسروره الإهتمام به، والتفرد بمناجاته ومطالعة أنوار عزته، فحينئذ يخرج عن صفة أهل العمى، ومن مشاركة أهل الهوى، لأنه قد امتاز عنهم بهذه المرتبة والخاصية التي حصلت له فصار مفتاحاً لباب الهدى، ومغلاقاً لباب الضلال والردى، قد أبصر طريق الهدى، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره.

وثاني عشرها: أن ينصب نفسه لله في أرفع الأمور، وهو الخلوة به، ومقابلة أنوار جلاله بمرآة فكره، حتى تتكيف نفسه بتلك الكيفية العظيمة الإشراق، فهذا أرفع الأمور وأجلها وأعظمها، وقد رمز في هذا الفصل، ومزجه بكلام خرج به إلى أمر آخر، وهو فقه النفس في الدين، والأمور الشرعية النافعة للناس في دنياهم وآخرهم؛ أما في دنياهم فلردع المفسد وكف الظالم، وأما في آخرهم فللفوز بالسعادة باعتبار امتثال الأوامر الإلهية. فقال: في إصدار كل وارد عليه؛ أي في فتيا كل مستفت له، وهداية كل مسترشد له في الدين؛ ثم قال: وتصيير كل فرع إلى أصله. ويمكن أن يحتج بهذا من قال بالقياس، ويمكن أن يقال: إنه لم يرد ذلك، بل أراد تخريج الفروع العقلية، وردها إلى أصولها؛ كما يتكلف أصحابنا القول في بيان حكمة القديم تعالى، في الآلام وذبح الحيوانات، رداً له إلى أصل العدل، وهو كونه تعالى لا يفعل القبيح. وثالث عشرها: أن يكون مصباحاً لظلمات الضلال، كشافاً لعشوات الشبه، مفتاحاً لمبهمات الشكوك المستعلقة، دفاعاً لمعضلات الإحتجاجات العقلية الدقيقة الغامضة، دليلاً في فلوات الأنظار الصعبة المشتبهة، ولم يكن في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحد بهذه الصفة إلا هو.

ورابع عشرها: أن يقول مخاطباً لغيره فيفهمه ما خاطبه به، وأن يسكت فيسلم، وذلك لأنه ليس كل قائل مفهماً، ولا كل ساكت سالماً.

وخامس عشرها: أن يكون قد أخلص لله فاستخلصه الله، والإخلاص لله مقام عظيم جداً، وهو يتره الأفعال عن الرياء، وألا يمازج العبادة أمر لا يكون لله سبحانه؛ ولهذا كان بعض الصالحين يصبح من طول العبادة نصباً قشفاً، فيكتحل ويدهن؛ ليذهب بذلك أثر العبادة عنه.

وقوله: "فهو من معادن دينه وأوتاد أرضه"، معادن دينه: الذين يقتبس الدين منهم، كمعادن الذهب والفضة، وهي الأرضون التي يلتقط ذلك منها، وأوتاد أرضه: هم الذين لولاهم لمادت الأرض وارتجت بأهلها، وهذا من باب الإستعارة الفصيحة، وأهل هذا العلم يقولون: أوتاد الأرض جماعة من الصالحين، ولهم في الأوتاد والأبدال والأقطاب كلام مشهور في كتبهم.

وسادس عشرها: أن يكون قد ألزم نفسه العدل، والعدالة: ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال الفاضلة خلقاً لا تخلقاً. وأقسام العدالة ثلاثة، هي الأصول وما عداها من الفضائل فروع عليها: الأولى الشجاعة، ويدخل فيها السخاء لأنه شجاعة وتهوين للمال، كما أن الشجاعة الأصلية تهوين للنفس، فالشجاع في الحرب جواد بنفسه، والجواد بالمال شجاع في إنفاقه، ولهذا قال الطائي:

أيقنت أن من السماح شجاعة تدمي؛ وأن من الشجاعة جودا

والثانية: الفقه، ويدخل فيها القناعة والزهد والعزلة، والثالثة: الحكمة، وهي أشرفها، ولم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لهذا الرجل، ومن أنصف علم صحة ذلك، فإن شجاعته وجوده، وعفته وقناعته وزهده، يضرب بها الأمثال.

وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية، فلم يكن من فن أحد من العرب، ولا نقل في جهاد أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به؛ وأول من خاض فيه من العرب علي عليه السلام، ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك، ولا يتصورونه، ولو فهموه لم يفهموه، وأني للعرب ذلك! ولهذا انتسب المتكلمون الذين لجحوا في بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره، وسموه أستاذهم ورئيسهم، واجتذبتهم كل فرقة من الفرق إلى نفسها؛ ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد، ومحمد تلميذ أبيه علي صلى الله عليه وسلم! فأما الشيعة من الإمامية والزيدية والكيسانية، فانتماؤهم إليه ظاهر.

وأما الأشعرية فإنهم بأخرة ينتمون إليه أيضاً، لأن أبا الحسن الأشعري تلميذ شيخنا أبي علي رحمه الله تعالى، وأبو علي تلميذ أبي يعقوب الشحام، وأبو يعقوب تلميذ أبي الهذيل، وأبو الهذيل تلميذ أبي عثمان الطويل، وأبو عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء، فعاد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى علي عليه السلام.

وأما الكرامية فإن ابن الهيصم ذكر في كتاب المقالات أن أصل مقالتهم وعقيدتهم تنتهي إلى علي عليه السلام من طريقين: أحدهما: بأنهم يسندون اعتقادهم عن شيخ بعد شيخ، إلى أن ينتهي إلى سفيان الثوري، ثم قال: وسفيان الثوري من الزيدية، ثم سأل نفسه فقال: إذا كان شيخكم الأكبر الذي تنتمون إليه كان زيدياً، فما بالكم لا تكونون زيدية؟ وأجاب بأن سفيان الثوري رحمه الله تعالى، وإن اشتهر عنه الزيدية، إلا أن تزیده إنما كان عبارة عن موالة أهل البيت، وإنكار ما

كان بنو أمية عليه من الظلم، وإجلال زيد بن علي وتعظيمه، وتصوينه في أحكامه وأحواله، ولم ينقل عن سفيان الثوري أنه طعن في أحد من الصحابة.

الطريق الثاني: أنه عد مشايخهم واحداً فواحداً، حتى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب علي، كسلمه بن كهيل، وحة العرني، وسالم بن الجعد، والفضل بن دكين، وشعبة، والأعمش، وعلقمة وهبيرة بن مريم، وأبي إسحاق الشعمي، وغيرهم، ثم قال: وهؤلاء أخذوا العلم من علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو رئيس الجماعة - يعني أصحابه - وأقوالهم منقولة عنه ومأخوذة منه.

وأما الخوارج فانتماؤهم إليه ظاهر أيضاً، مع طعنهم فيه، لأنهم كانوا أصحابه، وعنه مرقوا، بعد أن تعلموا عنه واقتبسوا منه، وهم شيعته وأنصاره بالجمل وصفين، ولكن الشيطان ران على قلوبهم، وأعمى بصائرهم. ثم إنه عليه السلام ذكر حال هذا العارف العادل فقال: أول عدله نفي الهوى عن نفسه، وذلك لأن من يأمر ولا يأتمر، وينهى ولا ينتهي، لا تؤثر عظمته، ولا ينفع إرشاده. ثم شرح ذلك فقال: يصف الحق ويعمل به. ثم قال: لا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مظنة إلا قصدها؛ وذلك لأن الخير لذته وسروره وراحته، فمتى وجد إليه طريقاً سلكها، ثم قال: قد أمكن الكتاب يعني القرآن من زمامه أي قد أطاع الأوامر الإلهية، فالقرآن قائده وإمامه، يحل حيث حل، ويتزل حيث نزل.

الأصل: وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس أشراكاً من حبال غرور وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمن الناس من العظام، ويهون كبير الجرائم، يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع ويقول: أعتزل البدع - وبينها اضطجع - الصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، وذلك ميت الأحياء. فأين تذهبون! وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة، والآيات واضحة؛ والمنار منصوبة! فأين يتاه بكم! وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم؛ وهم أزمة الحق، وأعلام الدين، والسنة الصدق! فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاش.

أيها الناس، خذوها عن خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، إنه يموت من مات منا وليس بميت، ويلى من بلى منا وليس ببالي، فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون، وأعدروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا. ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر، وأترك فيكم الثقل الأصغر! قد ركزت فيكم راية الإيمان، ووقفتم على حدود الحلال والحرام، وألبستكم العافية من عدلي، وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي، وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي. فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك البصر، ولا تغلغل إليه الفكر.

الشرح: الجهائل: جمع جهالة؛ كما قالوا: علاقة وعلاق. والأضاليل: الضلال، جمع لا واحد له من لفظه. وقوله: وقد حمل الكتاب على آرائه، يعني قد فسر الكتاب وتأوله على مقتضى هواه وقد أوضح ذلك بقوله: وعطف الحق على أهوائه.

وقوله: يؤمن الناس من العظام، فيه تأكيد لمذهب أصحابنا في الوعيد، وتضعيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظام الذنوب، ويمتنعونهم العفو؛ مع الإصرار وترك التوبة. وجاء في الخبر المرفوع المشهور: الكيس من دان نفسه، وعمل

لما بعد الموت، والأحقق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله.

وقوله: يقول أقف عند الشبهات؛ يعني أن هذا المدعي للعلم يقول لنفسه وللناس: أنا واقف عند أدنى شبهة تخرجاً وتورعاً؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

ثم قال: وفي الشبهات وقع، أي بجهله؛ لأن من لا يعلم الشبهة ما هي، كيف يقف عندها، ويتخرج من الورطة فيها، وهولاً يأمن من كونها غير شبهة على الحقيقة!

وقوله: اعتزل البدع، وبينها اضطجع؛ إشارة إلى تضعيف مذاهب العامة والحشوية الذين رفضوا النظر العقلي، وقالوا: نعتزل البدع.

وقوله: فالصورة صورة إنسان... وما بعده، فمراده بالحيوان هاهنا الحيوان الآخر كالحمار والثور، وليس يريد العموم، لأن الإنسان داخل في الحيوان، وهذا مثل قوله تعالى: "إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً". وقال الشاعر:

وكائن ترى من صامت لك معجب

زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

قوله: "وذلك ميت الأحياء" كلمة فصيحة، وقد أخذها شاعر فقال:

ليس من مات فاستراح بميت

إنما الميت ميت الأحياء

إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام أراد لجهله، والشاعر أراد لبؤسه.

وتؤفكون: تقلبون وتصرفون، والأعلام: المعجزات هاهنا؛ جمع علم، وأصله الجبل أو الراية والمنارة، تنصب في الفلاة ليهتدى بها.

وقوله: فأين يتاه بكم! أي أين يذهب بكم في التيه! ويقال: أرض تيهاء يتحير سالكها. وتعمهون: تتحIRON وتضلون.

وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أهله الأذنون ونسله؛ وليس بصحيح قول من قال: إنهم رهطه وإن بعدوا؛ وإنما

قال أبو بكر يوم السقيفة أو بعده: نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيضته التي فقت عنه؛ على طريق المجاز؛

لأنهم بالنسبة إلى الأمصار عترة له في الحقيقة؛ ألا ترى أن العدناني يفاخر القحطاني؛ فيقول له: أنا ابن عم رسول الله

صلى الله عليه وسلم؛ ليس يعني أنه ابن عمه على الحقيقة، بل هو بالإضافة إلى القحطاني كأنه ابن عمه؛ وإنما استعمل

ذلك ونطق به مجازاً. فإن قدر مقدر أنه على طريق حذف المضافات؛ أي ابن ابن عم أب الأب؛ إلى عدد كثير في البنين

والآباء، فكذلك أراد أبو بكر أنهم عترة أجداده، على طريق حذف المضاف. وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم

عترته من هي، لما قال: إني تارك فيكم الثقلين، فقال: عترتي أهل بيتي، وبين في مقام آخر من أهل بيته حيث طرح عليهم

كساء. وقال حين نزلت: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت": اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب الرجس عنهم.

فإن قلت: فمن هي العترة التي عناها أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الكلام؟ قلت: نفسه وولده؛ والأصل في الحقيقة نفسه،

لأن ولديه تابعان له؛ ونسبتهما إليه مع وجوده كنسبة الكواكب المضيئة مع طلوع الشمس المشرقة، وقد نبه النبي صلى

الله عليه وسلم على ذلك بقوله: وأبوكم خير منكم.

وقوله: وهم أزمة الحق: جمع زمام كأنه جعل الحق دائراً معهم حيثما داروا، وذاهباً معهم حيثما ذهبوا، كما أن النافقة طوع زمامها، وقد نبه الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق هذه القضية بقوله: "وأدر الحق معه حيث دار".
وقوله: وألسنة الصدق من الألفاظ الشريفة القرآنية، قال الله تعالى: "وأجعل لي لسان صدق في الآخرين"، لما كان لا يصدر عنهم حكم ولا قول إلا وهو موافق للحق والصواب جعلهم كألسنة صدق لا يصدر عنها قول كاذب أصلاً؛ بل هي المطبوعة على الصدق.

وقوله: فأنزلوهم منازل القرآن تحته سر عظيم؛ وذلك أنه أمر المكلفين بأن يجروا العترة في إجلالها وإعظامها والإنقياد لها والطاعة لأوامرها مجرى القرآن.

فإن قلت: فهذا القول منه يشعر بأن العترة معصومة، فما قول أصحابكم في ذلك؟ قلت: نص أبو محمد بن متويه؛ رحمه الله تعالى في كتاب الكفاية على أن علياً عليه السلام معصوم، وإن لم يكن واجب العصمة، ولا العصمة شرط في الإمامة، لكن أدلة النصوص قد دلت على عصمته؛ والقطع على باطنه ومغيبه، وأن ذلك أمر اختص هو به دون غيره من الصحابة، والفرق ظاهر بين قولنا: زيد معصوم، وبين قولنا: زيد واجب العصمة، لأنه إمام؛ ومن شرط الإمام أن يكون معصوماً، فالاعتبار الأول مذهبننا، والاعتبار الثاني مذهب الإمامية.

ثم قال: وردوهم ورد الهيم العطاش، أي كونوا ذوي حرصٍ وانكماش على أخذ العلم والدين منهم، كحرص الهيم الظماء على ورود الماء.

ثم قال: أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين إلى قوله: وليس ببالٍ هذا الموضع يحتاج إلى تلميح في الشرح، لأن لقائل أن يقول: ظاهر هذا الكلام متناقض، لأنه قال: يموت من مات منا وليس بميت، وهذا كما تقول: يتحرك المتحرك وليس بمتحرك، وكذلك قوله: ويلى من بلي منا، وليس ببالٍ، ألا ترى أنه سلب وإيجاب لشيء واحد! فإن قلت: أراد بقاء النفس بعد موت الجسد، كما قاله الأوائل وقوم من المتكلمين، قيل لكم: فلا اختصاص للنبي ولا لعلي بذلك؛ بل هذه قضية عامة في جميع البشر، والكلام خرج مخرج التمدح والفخر.

فنقول في الجواب: إن هذا يمكن أن يحمل على وجهين: أحدهما: أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وعلي ومن يتلوها من أطياب العترة أحياءً بأبدانهم التي كانت في الدنيا بأعيانها؛ قد رفعهم الله تعالى إلى ملكوت سماواته؛ وعلى هذا لو قدرنا أن محتفراً احتفر تلك الأحداث الطاهرة عقب دفنهم لم يجد الأبدان في الأرض؛ وقد روي في الخبر النبوي مثل ذلك؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم: إن الأرض لم تسلط علي، وإنما لا تأكل لي لحماً ولا تشرب لي دماً نعم يبقى الإشكال في قوله: ويلى من بلي منا وليس ببالٍ؛ فإنه إن صح هذا التفسير في الكلام الأول، وهو قوله: يموت من مات منا وليس بميت؛ فليس يصح في القضية الثانية، وهي حديث البلاء، لأنها تقتضي أن الأبدان تبلى وذاك الإنسان لم يبل، فأحوج هذا الإشكال إلى تقدير فاعل محذوف؛ فيكون تقدير الكلام: يموت من مات حال موته وليس بميت فيما بعد ذلك من الأحوال والأوقات، ويلى كف من بلي منا وليس هو ببالٍ؛ فحذف المضاف كقوله: "وإلى مدين"، أي وإلى أهل مدين؛ ولما كان الكفن كالجزة من الميت لاشتماله عليه عبر بأحدهما عن الآخر للمجاورة والاشتغال، كما عبروا

عن المطر بالسما، وعن الخارج المخصوص بالغائط، وعن الخمر بالكأس. ويجوز أن يحذف الفاعل كقوله تعالى: "حتى توارت بالحجاب"؛ و "فلولا إذا بلغت الحلقوم". وقول حاتم: إذا حشرجت وحذف الفاعل كثير.

والوجه الثاني أن أكثر المتكلمين ذهبوا إلى أن للإنسان الحي الفعال أجزاء أصلية هذه البنية المشاهدة؛ وهي أقل ما يمكن أن تأتلف منه البنية التي معها يصح كون الحي حياً، وجعلوا الخطاب متوجهاً نحوها، والتكليف وارداً عليها، وما عداها من الأجزاء؛ فهي فاضلة ليست داخلية في حقيقة الإنسان، وإذا صح ذلك جاز أن ينتزع الله تلك الأجزاء الأصلية من أبدان الأنبياء والأوصياء، فيرفعها إليه بعد أن يخلق لها من الأجزاء الفاضلة عنها نظير ما كان لها في الدار الأولى؛ كما قاله من ذهب إلى قيامة الأنفس والأبدان معاً، فتتعم عنده وتلتذ بضروب اللذات الجسمانية، ويكون هذا مخصوصاً بهذه الشجرة المباركة دون غيرها؛ ولا عجب فقد ورد في حق الشهداء نحو ذلك في قوله تعالى: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون". وعلى الوجه الأول لو أن محتفراً احتفر أجدانهم لوجد الأبدان فيها، وإن لم يعلم أن أصول تلك البنى قد انتزعت منها ونقلت إلى الرفيق الأعلى؛ وهذا الوجه لا يحتاج إلى تقدير ما قدرناه أولاً من الحذف، لأن الجسد يبلى في القبر إلا قدر ما انتزع منه ونقل إلى محل القدس، وكذلك أيضاً يصدق على الجسد أنه ميت، وإن كان أصل بنيته لم يميت؛ وقد ورد في الخبر الصحيح: إن أرواح الشهداء من المؤمنين في حواصل طيور خضر تدور في أفناء الجنان، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فإذا جاء هذا في الشهداء فما ظنك بموالي الشهداء وساداتهم؛ فإن قلت: فهل يجوز أن يتأول كلامه، فيقال: لعله أراد بقاء الذكر والصيت؟ قلت: إنه لبعيد، لأن غيرهم يشركهم في ذلك، ولأنه أخرج الكلام مخرج المستغرب المستعظم له. فإن قلت: فهل يمكن أن يقال: إن الضمير يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه قد ذكره في قوله: خاتم النبيين فيكون التقدير: أنه يموت من مات منا والنبي صلى الله عليه وسلم ليس بميت، ويبلى من بلي منا والنبي ليس ببالي.

قلت: هذا أبعد من الأول، لأنه لو أراد ذلك لقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تبليه الأرض، وإنه الآن حي، ولم يأت بهذا الكلام الموهوم؛ ولأنه في سياق تعظيم العترة وتبجيل أمرها؛ وفخره بنفسه وتمدحه بخصائصه ومزاياه؛ فلا يجوز أن يدخل في غضون ذلك ما ليس منه. فإن قلت: فهل هذا الكلام منه أم قاله مرفوعاً؟ قلت: بل ذكره مرفوعاً، ألا تراه قال: خذوها عن خاتم النبيين.

ثم نعود إلى التفسير فنقول: إنه لما قال لهم ذلك علم أنه قال قولاً عجيباً؛ وذكر أمراً غريباً، وعلم أنهم ينكرون ذلك ويعجبون منه، فقال لهم: فلا تقولوا ما لا تعرفون؛ أي لا تكذبوا أخباري؛ ولا تكذبوا أحجار رسول الله لكم بهذا فتقولون ما لا تعلمون صحته، ثم قال: فإن أكثر الحق في الأمور العجيبة التي تنكرونها كإحياء الموتى في ألفي أمة، وكالصراط والميزان والنار والجنة وسائر أحوال الآخرة؛ هذا إن كان خاطب من لا يعتقد الإسلام؛ فإن كان الخطاب لمن يعتقد الإسلام فإنه يعني بذلك أن أكثرهم كانوا مرجئة ومشبهة ومجبرة؛ ومن يعتقد أفضلية غيره عليه، ومن يعتقد أنه شرك في دم عثمان، ومن يعتقد أن معاوية صاحب حجة في حربه؛ أو شبهة يمكن أن يتعلق بها متعلق، ومن، يعتقد أنه أخطأ في التحكيم، إلى غير ذلك من ضروب الخطأ التي كان أكثرهم عليها.

ثم قال: واعذروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا، يقول. قد عدلت فيكم، وأحسن السيرة وأقمتكم على المحجة البيضاء، حتى لم يبق لأحد منكم حجة يحتج بها علي، ثم شرح ذلك، فقال: عملت فيكم بالثقل الأكبر، يعني الكتاب وخلفت فيكم الأصغر يعني ولديه، لأنهما بقية الثقل الأصغر؛ فجاز أن يطلق عليهما بعد ذهاب من ذهب منه أنهما الثقل الأصغر، وإنما سمي النبي صلى الله عليه وسلم الكتاب، والعرة الثقلين لأن الثقل في اللغة متاع المسافر وحشمه؟ فكأنه صلى الله عليه وسلم لما شارفه الانتقال إلى جوار ربه تعالى جعل نفسه كالمسافر الذي ينتقل من منزل إلى منزل، وجعل الكتاب والعرة كمتاعه وحشمه، لأنهما أحصى الأشياء به.

قوله: وركرت فيكم راية الإيمان، أي غرزتها وأثبتها؛ وهذا من باب الاستعارة. وكذلك قوله: ووقفتم على حدود الحلال والحرام من باب الاستعارة أيضاً، مأخوذ من حدود الدار وهي الجهات الفاصلة بينها وبين غيرها.

قوله: وألبستم العافية من عدلي استعارة فصيحة، وأفصح منها قوله: وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي، أي جعلته لكم فراشاً، وفرش هاهنا؛ متعدد إلى مفعولين، يقال: فرشته كذا، أي أوسعته إياه. ثم نهاهم أن يستعملوا الرأي فيما ذكره لهم من خصائص العرة وعجائب ما منحها الله تعالى، فقال: إن أمرنا أمر صعب لا تهتدي إليه العقول، ولا تدرك الأبصار قعره، ولا تتغلغل الأفكار إليه، والتغلغل: الدخول، من تغلغل الماء بين الشجر، إذا تخللها ودخل بين أصولها.

الأصل: ومنها: حتى يظن أن الدنيا معقولة على بني أمية؛ تمنحهم درها؛ وتوردتهم صفوها، ولا يرفع عن هذه الأمة سوطها ولا سيفها. وكذب الظان لذلك، بل هي حجة من لذيذ العيش يتطعمونها برهة، ثم يلفظونها جملة. الشرح: معقولة: محبوسة بعقل كما تعقل الناقة. وتمنحهم: تعطيتهم، والمنح: العطاء، منح يمنح بالفتح، والإسم المنحة بالكسر، واستمنحت زيدا: طلبت منحته.

والدر في الأصل: اللبن، جعل الدنيا كناقاة معقولة عليهم تمنحهم لبنها، ثم استعمل الدر في كل خير ونفع، فقيل: لادر دره! أي لاكثر خيره، ويقال في المدح: لله دره! أي عمله.

وحجة من لذيذ العيش، مصدر مج الشراب من فيه، أي رمى به وقذفه، ويقال: انجحت نقطة من القلم، أي ترششت، وشيخ ماج، أي كبير يمج الريق، ولا يستطيع حبسه لكبره. ويتطعمونها؛ أي يذوقونها. وبرهة، أي مدة من الزمان فيها طول. ولفظت الشيء من فمي، ألفظه لفظاً: رميته، وذلك الشيء اللفاظ واللفاظ؛ أي يلفظونها كلها لا يبقى منها شيء معهم.

وهذه الخطبة طويلة، وقد حذف الرضي رحمه الله تعالى منها كثيراً، ومن جملتها:

أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لا يرون الذي ينتظرون حتى يهلك المتمنون. ويضمحل المحلون، ويتثبت المؤمنون، وقليل ما يكون، والله والله لا ترون الذي تنتظرون حتى لا تدعون الله إلا إشارة بأيديكم وإيماضاً بحواجبكم، وحتى لا تملكون من الأرض إلا مواضع أقدامكم، وحتى يكون موضع سلاحكم على ظهوركم؛ فيومئذ لا ينصربي إلا الله بملائكته، ومن كتب على قلبه الإيمان، والذي نفس علي بيده لا تقوم! عصابة تطلب لي أو لغيري حقاً، أو تدفع عنا

ضيماً إلا صرعتهم البلية، حتى تقوم عصاة شهدت مع محمد صلى الله عليه وسلم بدرأ، لا يودى قتلهم، ولا يداوى جريحهم، ولا ينعش صريعهم. قال المفسرون: هم الملائكة.

ومنها: لقد دعوتكم إلى الحق وتوليتهم، وضربتكم بالدرة فما استقمتم، وستليكم بعدي ولالة يعذبونكم بالسياط والحديد، وسيأتيكم غلاماً ثقيف: أخفش وجعوب، يقتلان ويظلمان، وقليل ما يمكنان.

قلت: الأخفش: الضعيف البصر خلقة، والجعوب: القصير الذميم، وهما الحجاج ويوسف بن عمر وفي كتاب عبد الملك إلى الحجاج: قاتلك الله أخيفش العينين، أصك الجاعرتين! ومن كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى يذكر فيه الحجاج: أتانا أعمش أحيشم يمد بيد قصيرة البنان، ما عرق فيها عنان في سبيل الله.

وكان المثل يضرب بقصر يوسف بن عمر، وكان يغضب إذا قيل له قصير، فصل له الخياط ثوباً، فأبقى منه فضلة كثيرة، فقال له: ما هذه؟ قال: فضلت من قميص الأمير، فضربه مائة سوط، فكان الخياطون بعد ذلك يفصلون له اليسير من الثوب، ويأخذون الباقي لأنفسهم.

في وصف ما عليه الناس من الخطأ

الأصل: أما بعد فإن الله لم يقصم جباري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء؛ ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل وبلاء؛ وفي دون ما استقبلتم من عتب وما استدبرتم من خطب معتبر. وما كل ذي قلب بليب، ولا كل ذي سمع بسميع، ولا كل ذي ناظر ببصير.

فيا عجباً! وما لي لا أعجب من خطايا هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها؛ لا يقتصون أثر نبئي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيث، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتحويلهم في المهمات على آرائهم؛ كأن كل أمرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعراً ثقات، وأسباب محكمات.

الشرح: القصم، بالقاف والصاد المهملة: الكسر، قصمته فانقصم، وقصمته فتقصم، ورجل أقصم الشية؛ أي مكسورها، بين القصم، بفتح الصاد.

والتمهيل: التأخير. ويروى رجاء وهو التأخير أيضاً؛ والرواية المشهورة ورخاء، أي بعد إعطائهم من سعة العيش وخصب الحال ما اقتضته المصلحة.

والأزل، بفتح الهمزة: الضيق. ويقتصون: يتبعون، قال سبحانه وتعالى: "وقالت لأخته قصيه". ويعفون، بكسر العين؛ عفت عن كذا، أعف عفاً وعفاً وعفاً وعفاً، أي كفت، فأنا عف وعفيف، وامرأة عفة وعفيفة، وقد أعفه الله، واستعف عن المسألة، أي عف. وتعفف الرجل، أي تكلف العفة، ويروى: ولا يعفون عن عيب، أي لا يصفحون.

ومفزعهم: ملجؤهم. وفيما يرى، أي فيما يظن، ويرى بفتح الباء؛ أي فيما يراه هو. وروي: بعراً وثقات.

يقول إن عادة الله تعالى ألا يقصم الجبابة إلا بعد الإمهال والإستدراج؛ بإفاضة النعم عليهم، وألا يجبر أوليائه وينصرهم إلا بعد بؤس وبلاء يمتحنهم به، ثم قال لأصحابه: إن في دون ما استقبلتم من عتب لمعتبر، أي من مشقة، يعني بما استقبلوه

ما لاقوه في مستقبل زمانهم من الشيب، وولاة السوء، وتنكر الوقت؛ وسمى المشقة عتياً، لأن العتب مصدر عتب عليه، أي وجد عليه، فجعل الزمان كالواحد عليهم، القائم في إنزال مشاقه بهم مقام الإنسان ذي الموحدة يعتب على صاحبه. وروي من عتب، بفتح التاء جمع عتبه؛ يقال: لقد حمل فلان على عتبه، أي أمر كرهه من البلاء؛ وفي المثل: ما في هذا رتب ولا عتب، أي شدة. وروي أيضاً من عنت وهو الأمر الشاق. وما استدبروه من خطب؛ يعني به ما تصرف عنهم من الحروب والوقائع التي قضوها ونضوها واستدبروها. ويروى: واستدبرتم من خصب؛ وهو رخاء العيش؛ وهذا يقتضي المعنى الأول، أي وما خلفتم وراءكم من الشباب والصحة وصفو العيشة.

ثم قال: وما كل ذي قلب بليب...الكلام إلى آخره، وهو مأخوذ من قول الله تعالى: "لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها".

ثم تعجب من اختلاف حجج الفرق في الدين وخطئهم وكوهم لا يتبعون أقوال الأنبياء، ولا أقوال الأوصياء، ثم نعى عليهم أحوالهم القبيحة، فقال: إنهم لا يؤمنون بالغيب، أي لا يصدقون بما لم يشاهدوه، ولا يكفون عن الأمور القبيحة، لكنهم يعملون في الشبهات، أي يعملون أعمالاً داخلية في لشبهات متوسطة لها. ويسيرون في الشهوات، جعل الشهوات كالطريق التي يسير فيها الإنسان ثم قال: المعروف فيهم ما عرفوه، أي ليس المعروف عندهم ما دل الدليل على كونه معروفاً وصواباً وحقاً، بل المعروف عندهم ما ذهبوا إلى أنه حق، سواء كان حقاً في نفس الأمر أو لم يكن، والمنكر عندهم ما أنكروه كما شرحناه في المعروف.

ثم قال: إنهم لا يستشيرون بعالم، ولا يستفتون فقيهاً فاضلاً، بل مفرعهم في الأمور المشككة إلى أنفسهم وآرائهم، ولقد صدق عليه السلام فإن هذه صفات من يدعي العلم والفضل في زماننا وقبله بدهر طويل، وذلك أنهم يأنفون من التعلم والإسترشاد، فالباديء منهم يعتقد في نفسه أنه أفضل من البارع المنتهي، ومتى ظفر الواحد منهم بمبادئ علم وحمله، شرع في التدريس والتصنيف، فمنعه التزامه بذلك من التردد إلى أبواب العلماء، وأنف من سؤالهم عن الأمور المشككة، فدام جهله إلى أن يموت.

ثم قال: كأن كل واحد منهم إمام نفسه، ويروى بحذف كأن وإسقاطها وهو أحسن

ذكر حال الناس قبل البعثة

الأصل: أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم، واعتزام من الفتن؛ وانتشار من الأمور، وتلظ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور؛ على حين أصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، وإعوار من مائها. قد درست منار الهدى، وظهرت أعلام الردى، فهي متجهمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السيف. فاعتبروا عباد الله، وأذكروا تيك التي أبأؤكم وإخوانكم بها مرتقنون، وعليها محاسبون. ولعمري ما تقادمت بكم ولا بهم العهود، ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون، وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلاهم ببعيد. والله ما أسمعكم الرسول شيئاً إلا وها أنا ذا اليوم مسمعكموه، وما أسمعكم اليوم بدون

أسماعكم بالأمس، ولا شقت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك الزمان؛ إلا وقد أعطيتهم مثلها في هذا الزمان،
ووالله ما بصرتم بعدهم شيئاً جهلوه، ولا أصفيتهم به وحرموه، ولقد نزلت بكم البلية جائلاً خطامها، رخواً بطانها؛ فلا
يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود.

الشرح: الفترة بين الرسل: انقطاع الرسالة والوحي؛ وكذلك كان إرسال محمد صلى الله عليه وسلم، لأن بين محمد
وبين عهد المسيح عليه السلام عهداً طويلاً، أكثر الناس على أنه ستمائة سنة، ولم يرسل في تلك المدة رسول، اللهم إلا ما
يقال عن خالد بن سنان العبسي، ولم يكن نبياً ولا مشهوراً. والمهجة: النوم ليلاً، والمهجوع مثله، وكذلك التهجاع،
بفتح التاء، فأما المهجة بكسر الهاء، فهي الهيئة كالجلسة من الجلوس.

قوله: واعتزام من الفتن، كأنه جعل الفتن معتزمة، أي مريدة مصممة للشغب والهرج. ويروى: واعتراض، ويروى:
واعترام بالراء المهملة من العرام، وهي الشرية. والتلطي: التلهب.

وكاسفة النور: قد ذهب ضوءها، كما تكسف الشمس. ثم وصفها بالتغير وذبول الحال. فجعلها كالشجرة التي اصفر
ورقها وبيس ثمرها وأعور ماؤها، والإعوار: ذهاب الماء، فلاة عوراء: لا ماء بها. ومن رواه. وإغوار من مائها، بالغين
المعجمة، جعله من غار الماء، أي ذهب، ومنه قوله تعالى: "أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً"، ومتجهمة لأهلها: كالحلة في
وجوههم.

ثم قال: ثمرها الفتنة أي نتيجتها وما يتولد عنها. وطعامها الجيفة، يعني أكل الجاهلية الميتة، أو يكون على وجه الاستعارة،
أي أكلها خبيث. ويروى الجيفة أي الخوف، ثم جعل الخوف والسيوف شعارها وذئارها، فالشعار ما يلي الجسد، والدثار
فوق الشعار، وهذا من بدیع الكلام ومن جيد الصناعة، لأنه لما كان الخوف يتقدم السيوف والسيوف يتلوه، جعل الخوف
شعاراً لأنه الأقرب إلى الجسد، وجعل الدثار تالياً له. ثم قال: واذكروا تيك كلمة إشارة إلى المؤنثة الغائبة، فيمكن أن يعني
بها الدنيا التي تقدم ذكرها، وقد جعل آباءهم وإخوانهم مرتين بها ومحاسبين عليها، والإرتقان: الإحتباس، ويمكن أن يعني
بها الأمانة التي عرضت على الإنسان فحملها، والمراد بالأمانة الطاعة والعبادة وفعل الواجب وتجنب القبيح. وقال. تيك
ولم يجر ذكرها، كما قال تعالى: "آلم ذلك الكتاب" ولم يجر ذكره لأن الإشارة إلى مثل هذا أعظم وأهيب وأشد روعة في
صدر المخاطب من التصريح. قوله: ولا خلعت فيما بينكم وبينهم الأحقاب، أي لم يطل العهد، والأحقاب: المدد
المتطاولة، والقرون: الأمم من الناس.

وقوله: من يوم كنتم؛ يروى بفتح الميم من يوم على أنه مبني؛ إذ هو مضاف إليه الفعل المبني، ويروى بجرها بالإضافة؛
على اختلاف القولين في علم العربية.

ثم اختلفت الرواية في قوله: والله ما أسمعكم فروي بالكاف وروي أسمعهم، وكذلك اختلفت الرواية في قوله: وما
أسماعكم اليوم بدون أسماعكم بالأمس، فروي هكذا، وروي بدون أسماعهم فمن رواه بهاء الغيبة في الموضعين فالكلام
منتظم، لا يحتاج إلى تأويل، ومن رواه بكاف الخطاب، قال: إنه خاطب به من صحب النبي صلى الله عليه وسلم وشاهده
وسمع خطابه، لأن أصحاب علي عليه السلام كانوا فريقين: صحابة وتابعين، ويعضد الرواية الأولى سياق الكلام.

وقوله: "ولا شقت لهم الأبصار... إلا وقد أعطيتكم مثلها".

وأصفيتم به: منحتموه، من الصفي وهو ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة، يقال: صفي وصفية.

وخلاصة هذا الكلام أن جميع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله لأصحابه قد قلت مثله لكم، فأطاع أولئك وعصيتهم أنتم، وحالكم مساوية لحالهم.

قلت: لو أن محباً منهم يجيبه لأمكن أن يقول له. المخاطبون وإن كانوا نوعاً واحداً متساوياً، إلا أن المخاطب مختلف الحال " وذلك لأنك وإن كنت ابن عمه في النسب وأخاه ولحمه ودمه؛ وفضائلك مشتقة من فضائله، وأنت قبس من نوره وثانيه على الحقيقة، ولا ثالث لكما؛ إلا أنك لم ترزق القبول الذي رزقه؛ ولا انفعلت نفوس الناس لك حسب انفعالها له؛ وتلك خاصية النبوة التي امتاز بها عنك؛ فإنه كان لا يسمع أحد كلامه إلا أحبه وماله إليه، ولذلك كانت قريش تسمي المسلمين قبل الهجرة الصباة، ويقولون: نخاف أن يصبو الوليد بن أبي طالب إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم ولئن صبا الوليد وهو ربحانة قريش لتصبون قريش، بأجمعها. وقالوا فيه. ما كلامه إلا السحر؛ وإنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر.

ونحوا صبيانهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشمائله، وكان إذا صلى في الحجر وجهر يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً أن يسحروهم ويستميلهم بقراءته وبوعظه وتذكيره، هذا هو معنى قوله تعالى: "جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ومعنى قوله " إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو على أدبارهم نفوراً" لأنهم كانوا يهربون إذا سمعوه يتلو القرآن، خوفاً أن يغير عقائدهم في أصنامهم، ولهذا أسلم أكثر الناس بمجرد سماع كلامه ورؤيته ومشاهدة روائه ومنظره، وما ذاقوه من حلاوة لفظه وسري كلامه في آذانهم، وملك قلوبهم وعقلهم، حتى بذلوا المهج في نصرته؛ وهذا من أعظم معجزاته عليه السلام، وهو القبول الذي منحه الله تعالى، والطاعة التي، جعلها في قلوب الناس له، ذلك على الحقيقة سر النبوة، الذي تفرد به صلوات الله عليه، فكيف يروم أمير المؤمنين أن يكونوا معه كما كان آباؤهم وإخوانهم مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ مع اختلاف حال الرئيسين وتساوي الأثرين كما يعبر في تحقيقه تساوي حال المحلين، يعتبر في حقيقته أيضاً تساوي حال العلتين.

ثم نعود إلى التفسير، قال: ولقد نزلت بكم البلية، أي الحنة العظيمة، يعني فتنة معاوية وبني أمية.

وقال: جائلاً خطامها لأن الناقة إذا اضطرب زمامها استصعبت على راكبها، ويسمى الزمام خطاماً لكونه في مقدم الأنف، والخطم من، كل دابة. مقدم أنفها وفمها، وإنما جعلها رخواً بطانها، لتكون أصعب على راكبها، لأنه إذا استرخى البطان كان الراكب في معرض السقوط عنها، وبطان القتب هو الحزام الذي يجعل، تحت بطن البعير. ثم نهاهم عن الإغترار بالدنيا ومتاعها، وقال: إنما ظل ممدود إلى أجل معدود، وإنما جعلها كالظل لأنه ساكن في رأي العين، وهو متحرك في الحقيقة، لا يزال يتقلص، كما قال تعالى: " ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً" وهو أشبه شيء بأحوال الدنيا.

وقال بعض الحكماء: أهل الدنيا كركب سير بهم وهم نيام.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

في عد بعض صفات الله تعالى

الأصل: الحمد لله المعروف من غير رؤية، والخالق من غير رؤية، الذي لم يزل قائماً دائماً، إذ لا سماء ذات أبراج، ولا حجب ذات إرتاج، ولا ليل داج، ولا بحر ساج، ولا جبل ذو فجاج، ولا فج ذو اعوجاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خلق ذو اعتماد، وذلك مبتدع الخلق ووارثه، وإله الخلق ورازقه، والشمس والقمر دائبان في مرضاته، ييلان كل جديد، ويقربان كل بعيد.

الشرح: الروية: الفكرة وأصلها الهمز، رأت في الأمر، وقد جاء مثلها كلمات يسيرة شاذة، نحو البرية، من برأ، أي خلق، والذرية من ذراً أي خلق أيضاً، والذرية وهي ما يستتر به الصائد، أصله من درأت أي دفعت، وفلان بري أصله بريء، وصف الله تعالى بأنه يعرف من غير أن تتعلق الأبصار بذاته، ويخلق من غير تفكر وترو فيما يخلقه. لم يزل قائماً، القائم والقيوم بمعنى، وهو الثابت الذي لا يزول، ويعبر عنه في الإصطلاح النظري بالواجب الوجود، وقد يفسر القائم على معنى قولهم: فلان قائم بأمر كذا، أي والٍ وممسك له أن يضطرب. ثم قال: هو موصوف بأنه قائم دائم من قبل أن يخلق العالم، وهذا يؤكد التفسير الأول؛ لأنه إذا لم يكن العالم مخلوقاً بعد لم يصدق عليه أنه قائم بأمره إلا بالقوة لا بالفعل؛ كما يصدق عليه أنه سميع بصير في الأزل، أي إذا وجدت المسموعات والمبصرات سمعها وأبصرها، ولو سمي قبل خلق الكلام متكلماً على هذا التفسير لم أستبعده؛ وإن كان أصحابنا يأبونه. والأبراج: الأركان في اللغة العربية.

فإن قلت: فهل يطابق هذا التفسير ما يعتقده أصحاب الهيئة وكثير من الحكماء والمتكلمين أن السماء كرة لا زاوية فيها ولا ضلع؟ قلت: نعم لا منافاة بين القولين، لأن الفلك وإن كان كرة لكن فيه من المتممات ما يجري مجرى أركان الحصن أو السور، فصح إطلاق لفظة الأبراج عليه، والمتممات أجسام في حشو الفلك تخف في موضع؛ والناس كلهم أثبتوها. فإن قلت: فهل يجوز أن يحمل لفظ الأبراج على ما يعتقده المنجمون وأهل الهيئة، وكثير من الحكماء والمتكلمين من كون الفلك مقسوماً باثني عشر قسماً، كل قسم منها يسمى برجاً؟ قلت: لا مانع من ذلك، لأن هذا المسمى كان معلوماً متصوراً قبل نزول القرآن، وكان أهل الإصطلاح قد وضعوا هذا اللفظ بإزائه، فجاز أن يتزل القرآن بموجبه؛ قال؛ تعالى: "والسماء ذات البروج"، وأخذها علي عليه السلام منه، فقال: "إذ لا سماء ذات أبراج"، وارتفع سماء لأنه مبتدأ وخبره محذوف؛ وتقديره في الوجود.

ثم قال: ولا حجب ذات إرتاج والإرتاج مصدر أرتج أي أغلق، أي ذات إغلاق، ومن رواه ذات رتاج على فعال، فالرتاج الباب المغلق، ويبعد رواية من رواه ذات أرتاج لأن فعلاً قل أن يجمع على أفعال؛ ويعني بالحجب ذات الإرتاج حجب النور المضروبة بين عرشه العظيم وبين ملائكته. ويجوز أن يريد بالحجب السموات أنفسها، لأنها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما الملائكة فيه.

والليل الداجي: المظلم، والبحر الساجي: الساكن. والفجاج: جمع فج؛ وهو الطريق الواسع بين جبلين. والمهاد: الفراش. قوله: ولا خلق ذو اعتماد؛ أي لا مخلوق يسعى برجلين فيعتمد عليهما، أو يطير بجناحيه فيعتمد عليهما؛ ويجوز أن يريد

بالإعتماد هنا: البطش والتصرف. مبتدع الخلق: مخرجه من العدم المحض، كقوله تعالى: "بديع السماوات والأرض".
ودائبان: ثنية دائب" وهو الجاد المجتهد المتعب، دأب في عمله أي جد وتعب دأباً ودعوباً فهو دئيب، ودأبته أنا.

وسمى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائماً لا يفتران ولا يسكنان، وروي دائبين بالنصب على الحال ويكون خبر المبتدأ ييليان وهذه من الألفاظ القرآنية.

الأصل: قسم أرزاقهم، وأحصى آثارهم وأعمالهم وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم، وما تخفي صدورهم من الضمير، ومستقرهم ومستودعهم من الأرحام والظهور، إلى أن تنتهى بهم الغايات.

الشرح: آثارهم، يمكن أن يعني به آثار وطئهم في الأرض إيداناً بأنه تعالى عالم بكل معلوم كما آذن قوله سبحانه: "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" بذلك. ويمكن أن يعني به حركاتهم وتصرفاتهم وروي: وعدد أنفاسهم على الإضافة.

وخائنة الأعين: ما يومى به مسارقة وخفية. ومستقرهم، أي في الأرحام. ومستودعهم، أي في الأصلاب، وقد فسر ذلك فتكون من متعلقة بمستودعهم ومستقرهم على إرادة تكررها، ويمكن أن يقال: أراد مستقرهم ومأواهم على ظهر الأرض ومستودعهم في بطنها بعد الموت، وتكون من هاهنا بمعنى مذ أي مذ زمان كونهم في الأرحام والظهور إلى أن تنتهى بهم الغايات، أي إلى أن يحشروا في القيامة. وعلى التأويل الأول يكون تناهي الغايات بهم عبارة عن كونهم أحياء في الدنيا.

الأصل: هو الذي أشتدت نغمته على أعدائه في سعة رحمته، وأتسعت رحمته لأوليائه في شدة نغمته. قاهر من عازره، ومدمر من شاقه؛ ومذل من ناواه، وغالب من عاداه، من توكل عليه كفاه، ومن سألها أعطاه، ومن أقرضه قضاه، ومن شكره جزاه.

عباد الله، زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق، واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر؛ لم يكن له من غيرها لا زاجر ولا واعظ. الشرح: يجوز نعمة ونقمة، مثل كلمة وكلمة، ولينة ولينة، ومعنى الكلام أنه مع كونه واسع الرحمة في نفس الأمر، وأنه أرحم الراحمين؛ فإنه شديد النقمة على أعدائه؛ ومع كونه عظيم النقمة في نفس الأمر وكونه شديد العقاب فإنه واسع الرحمة لأوليائه. وعازره، أي غالبه، وعزه أي غلبه، ومنه "وعزني في الخطاب"، وفي المثل من عز بز، أي من غلب سلب. والمدمر: المهلك، دمره ودمر عليه بمعنى، أي أهلكه. وشاقه: عاداه، قيل إن أصله من الشق وهو النصف، لأن المعادي يأخذ في شق والمعادي في شق يقابله. وناواه، أي عاداه، واللفظة مهموزة، وإنما لينها لأجل القرينة السجعية، وأصلها ناوأت الرجل مناوأة ونواء؛ ويقال في المثل: إذا ناوأت الرجل فاصبر.

قوله: زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا من الكلام الفصيح النادر اللطيف، يقول: اعتبروا أعمالكم وأنتم مختارون قادرون على استدراك الفارط، قبل أن يكون هذا الاعتبار فعل غيركم وأنتم لا تقتدرون على استدراك الفارط، ومثله قوله وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا.

ثم قال: وتنفسوا قبل ضيق الخناق، أي انتهزوا الفرصة، واعملوا قبل أن يفوتكم الأمر، ويجد بكم الرحيل ويقع الندم، قال الشاعر:

أختم وطينك رطب إن قدرت فكم

قد أمكن الختم أقواماً فما ختموا

ثم قال: وانقادوا قبل عنف السياق، هو العنف بالضم، وهو ضد الرفق، يقال عنف عليه وعنف به أيضاً، والعنيف: الذي لا رفق له بركوب الخيل، والجمع عنف. واعتنفت الأمر، أي أخذته بعنف، يقول: انقادوا أنتم من أنفسكم قبل أن تقادوا وتسحاقوا بغير اختياركم سوقاً عنيفاً. ثم قال من لم يعنه الله على نفسه حتى يجعل له منها واعظاً وزاجراً لم ينفعه الزجر والوعظ من غيرها أخذ هذا المعنى شاعر فقال:

وأقصرت عما تعهدين وزاجر

من النفس خير من عتاب العواذل

فإن قلت: أليس في هذا الكلام إشعار ما بالجبر؟ قلت: إنه لا خلاف بين أصحابنا في أن الله تعالى ألطافاً يفعلها بعباده، فيقرهم من الواجب، ويعددهم من القبيح؛ ومن يعلم الله تعالى من حاله أنه لا لطف له لأن كل ما يعرض لطفاً له فإنه لا يؤثر في حاله ولا يزداد به إلا إصراراً على القبيح والباطل؛ فهو الذي عناه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: من لم يعن على نفسه، لأنه ما قبل المعونة ولا انقاد إلى مقتضاها، وقد روي: واعلموا أنه من لم يعن على نفسه بكسر العين أي من لم يعن الواعظين له والمندرين على نفسه، ولم يكن معهم إلماً عليها وقاهراً لها، لم ينتفع بالوعظ والزجر، لأن هوى نفسه يغلب وعظ كل واعظ وزجر ثق زاجر.

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح وهي من جلائل خطبه عليه السلام الأصل: روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام، أنه قال: خطب أمير المؤمنين به بهذه الخطبة على منبر الكوفة، وذلك أن رجلاً أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين، صف لنا ربنا مثل ما نراه عياناً، لترداد له حباً، وبه معرفة، فغضب ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع إليه حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: الحمد لله الذي لا يفره المنع والجمود، ولا يكديه الإعطاء والجود، إذ كل معط منتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه؛ وهو المنان بفوائده، وعوائد المزيد والقسم، عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، ونهج سبيل الراغبين إليه، والطالبين ما لديه، وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل، الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي لم يكن له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، ما أختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال.

الشرح: الأشباح: الأشخاص، والمراد بهم ما هنا الملائكة، لأن الخطبة تتضمن، ذكر الملائكة وقوله: الصلاة جامعة

منصوب بفعل مقدر، أي احضروا الصلاة، وأقيموا الصلاة، وجامعة منصوب على الحال من الصلاة.

وغص المسجد، بفتح الغين، أي امتلأ، والمسجد غاص بأهله. ويقال: رجل مغضب، بفتح الضاد، أي قد اغضب، أي فعل به ما يوجب غضبه.

ويفره المنع: يزيد في ماله، والموفور التام، وفرت الشيء وفراً ووفر الشيء نفسه وفوراً، يتعدى ولا يتعدى. وفي أمثالهم: يوفر ويحمد هو من قولك وفرتة عرضه ووفرتة ماله.

وقوله: ولا يكديه الإعطاء، أي لا يفقره ولا ينفد خزائنه، يقال. كدت الأرض تكدو فهي كادية، إذا أبطأ نباتها، وقل خيرها، فهذا لازم، فإذا عديته أتيت بالهمزة فقلت: أكديت الأرض، أي جعلتها كادية، وتقول: أكدي الرجل إذا قل خير، وقوله تعالى: " وأعطى قليلاً وأكدى "، أي قطع القليل، يقول: إنه سبحانه قادر على المقدورات، وليس كالمملوك من البشر الذين إذا أعطوا نقصت خزائنهم وإن منعوا زادت، وقد شرح ذلك وقال. إذ كل معطٍ منتقص أي منقوص، ويحيى انتقص لازماً ومتعدياً، تقول: انتقص الشيء نفسه، وانتقصت الشيء، أي نقصته وكذلك نقص يحيى لازماً ومتعدياً.

ثم قال: وكل مانع مذموم غيره، وذلك لأنه تعالى إنما يمنع من تقتضي الحكمة والمصلحة منعه، وليس كما يمنع البشر. وسأل رجل علي بن موسى الرضا عن الجواد، فقال: إن لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق، فإن الجواد هو الذي يؤدي ما افترض الله عليه، والبخيل هو الذي يخل بما افترض الله عليه، وإن كنت تعني الخالق، فهو الجواد إن أعطى؛ وهو الجواد إن منع، لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له، وإن منعه منعه ما ليس له.

قوله: وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل فيه معنى لطيف، وذاك لأن هذا المعنى مما يختص بالبشر، لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزمهم الطلبات، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه، وأما الباري سبحانه فإن جوده ليس على المنهاج لأن جوده عام في جميع الأحوال ثم ذكر أن وجوده تعالى ليس بزمني، فلا يطلق عليه البعدية والقبلية، كما يطلق على الزمانيات، وإنما لم يكن وجوده زمانياً لأنه لا يقبل الحركة، والزمان من لواحق الحركة، وإنما لم تطلق عليه البعدية والقبلية إذ لم يكن زمانياً، لأن قولنا في الشيء: إنه بعد الشيء الفلاني، أي الموجود في زمان حضر بعد تقضي زمان ذلك الشيء الفلاني، وقولنا في الشيء: إنه قبل الشيء الفلاني، أي إنه موجود في زمان حضر ولم يحضر زمان ذلك الشيء الفلاني بعد، فما ليس في الزمان ليس يصدق عليه القبل والبعد الزمانيان، فيكون تقدير الكلام على هذا: الأول الذي لا يصدق عليه القبلية الزمانية، ليتمكن أن يكون شيء ما قبله، والآخر الذي لا يصدق عليه البعدية الزمانية، ليتمكن أن يكون شيء ما بعده.

وقد يحمل الكلام على وجه آخر أقرب متناولاً من هذا الوجه، وهو أن يكون أراد: الذي لم يكن محدثاً، أي موجوداً قد سبقه عدم، فيقال إنه مسبوق بشيء من الأشياء إما المؤثر فيه أو الزمان المقدم عليه، وإنه ليس بذات يمكن فناؤها وعدمها فيما لا يزال، فيقال: إنه ينقضي وينصرم، ويكون بعده شيء من الأشياء، إما الزمان أو غيره، والوجه الأول أدق وألطف، ويؤكد كونه مراداً قوله عقيبه: ما اختلف عليلاً دهر فيختلف منه الحال، وذلك لأن واجب الوجود أعلى من الدهر والزمان، فنسبة ذاته إلى الدهر والزمان بمجملته وتفصيل أجزائه نسبة متحدة.

فإن قلت: إذا لم يكن قبل الأشياء بالزمان ولا بعدها بالزمان؛ فهو معها بالزمان، لأنه لا يبقى بعد نفي القبلية والبعدين إلا المعية؛ قلت: إنما يلزم ذلك فيما وجوده زمني، وأما ما ليس زمانياً لا يلزم من نفي القبلية والبعدية إثبات المعية، كما أنه ما لم يكن وجوده مكانياً لم يلزم من نفي كونه فوق العالم أو تحت العالم بالمكان، أن يكون مع العالم بالمكان. ثم قال: الرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، الأناسي: جمع إنسان؛ وهو المثال الذي يرى في السواد؛ وهذا

اللفظ بظاهره يشعر بمذهب الأشعرية، وهو قولهم: إن الله تعالى خلق في الأبصار مانعاً عن إدراكه؛ إلا أن الأدلة العقلية من جانبنا اقتضت تأويل هذا اللفظ، كما تأول شيوخنا قوله تعالى: "وجوة يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"؛ فقالوا: إلى جنة ربها؛ فنقول: تقديره الرادع أناسي الأبصار أن تنال أنوار جلالته.

فإن قلت: أثبتون له تعالى أنواراً يمكن أن تدركها الأبصار، وهل هذا إلا قول بالتجسيم! قلت: كلا لا تجسيم في ذلك، فكما أن له عرشاً وكرسياً وليس بجسم، فكذلك أنوار عظيمة فوق العرش، وليس بجسم، فكيف تنكر الأنوار، وقد نطق الكتاب العزيز بها في غير موضع، كقوله: "وأشرق الأرض بنور ربها"، وكقوله: "مثل نوره كمشكاة فيها مصباح". الأصل: ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال؛ وضحكت عنه أصداف البحار؛ من فلز اللجين والعقيان، ونثارة الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذلك في جوده، ولا أنفد سعة ما عنده ولكان عنده من ذخائر الأنعام، ما لا تنفده مطالب الأنعام، لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين، ولا ييخله إلحاح الملحين.

الشرح: هذا الكلام من تنمة الكلام الأول، وهو قوله: لا يفره المنع، ولا يكديه الإعطاء والجود. وتنفست عنه المعادن: استعارة، كأنها لما أخرجته وولدت كانت كالحيوان يتنفس فيخرج من صدره ورثته الهواء.

وضحكت عنه الأصداف، أي تفتحت عنه وانشقت، يقال للطلع حين ينشق: الضحك، بفتح الضاد، وإنما سمي الضاحك ضاحكاً، لأنه يفتح فاه. والفلز: اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضة والرصاص ونحوها. واللجين: اسم الفضة جاء مصغراً، كالكميت والثريا. والعقيان: الذهب الخالص، ويقال: هو ما ينبت نباتاً وليس مما يحصل من الحجارة. ونثارة الدر: ما تناثر منه، كالسقاطة والنخالة، وتأتي فعالة تارة للجيد المختار، وتارة للساقط المتروك، فالأول نحو الخلاصة، والثاني نحو القلامة.

وحصيد المرجان: كأنه أراد المتبدد منه كما يتبدد الحب المحصود، ويجوز أن يعني به الصلب المحكم، من قولهم: شيء مستحصد، أي مستحصف مستحكم، يعني أنه ليس برخو ولا هش، ويروى: وحصباء المرجان، والحصباء: الحصى. وأرض حصبة ومحصة، بالفتح: ذات حصباء. والمرجان: صغار اللؤلؤ؛ وقد قيل إنه هذا الحجر، واستعمله بعض المتأخرين فقال:

وبكى عليها اللؤلؤ المكنون

ألمى لها المرجان صفحة خده

وتنفده: تفنيه، نفذ الشيء أي فني، وأنفدته أنا. ومطالب الأنعام: جمع مطلب، وهو المصدر، من طلبت الشيء طلباً ومطلباً، ويغيضه، بفتح حرف المضارعة: ينقصه؛ ويقال: غاض الماء، فهذا لازم، وغاض الله الماء، فهذا متعد "وجاء: أغاض الله الماء، والإلحاح: مصدر ألح على الأمر، أي أقام عليه دائماً، من ألح السحاب؛ إذا دام مطره، وألح البعير: حرن، كما تقول: خلأت الناقة، وروي ولا ييخله بالتخفيف؛ تقول: أبخلت زيداً، أي صادفته بخيلاً؛ وأجبنته: وجدته جباناً. وفي هذا الفصل من حسن الإستعارة وبديع الصنعة ما لا خفاء به.

الأصل: فانظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضيئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه، مما

ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك.

وأعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. الشرح: تقول: ائتم فلان بفلان؛ أي جعله إماماً واقتدى به. فكل علمه؛ من وكله إلى كذا وكلاً ووكولاً؛ وهذا الأمر موكل إلى رأيك. والافتحام: الهجوم والدخول مغالبة. والسدد المضروبة: جمع سدة؛ وهي الرتاج.

واعلم أن هذا الفصل يمكن أن تتعلق به الحشوية المانعون من تأويل الآيات الواردة في الصفات، القائلون بالجمود على الظواهر، ويمكن أيضاً أن يتعلق به من نفى النظر وحرمة أصل؛ ونحن قبل أن نحققه ونتكلم فيه نبدأ بتفسير قوله تعالى: "ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم" فنقول: إن من الناس من وقف على قوله: "إلا الله"، ومنهم من لم يقف على ذلك، وهذا القول أقوى من الأول؛ لأنه إذا كان لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله لم يكن في إنزاله ومخاطبة المكلفين به فائدة، بل يكون كخطاب العربي بالزنجية، ومعلوم أن ذلك عيب قبيح.

فإن قلت: فما الذي يكون موضع "يقولون" من الإعراب؟ قلت: يمكن أن يكون نصباً، على أنه حال من الراسخين، ويمكن أن يكون كلاماً مستأنفاً، أي هؤلاء العالمون بالتأويل، يقولون: آمنا به.

وقد روي عن ابن عباس أنه تأول آية، فقال قائل من الصحابة: "وما يعلم تأويله إلا الله"، فقال ابن عباس: "والراسخون في العلم"، وأنا من جملة الراسخين.

ثم نعود إلى تفسير كلام أمير المؤمنين عليه السلام فنقول: إنه غضب وتغير وجهه لقول السائل: صف لنا ربنا مثل ما نراه عياناً، وإذا هذا المعنى ينصرف وصية له بما أوصاه به من اتباع ما جاء في القرآن والسنة، وذلك لأن العلم الحاصل من رؤية الشيء عياناً، علم لا يمكن أن يتعلق مثله بالله سبحانه، لأن ذاته تعالى لا يمكن أن تعلم من حيث هي هي، كما تعلم المحسوسات، ألا ترى أننا إذا علمنا أنه صانع العالم، وأنه قادر عالم حي سميع بصير مريد، وأنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، وعلمنا جميع الأمور السلبية والإيجابية المتعلقة به، فإنما علمنا سلوباً وإضافات، ولا شك أن ماهية الموصوفمغايرة لماهية الصفات، والذوات المحسوسة بخلاف ذلك، لأننا إذا رأينا السواد، فقد علمنا نفس حقيقة السواد لا صفة من صفات السواد؛ وأيضاً فإننا لو قدرنا أن العلم بوجوده وصفاته السلبية والإيجابية، يستلزم العلم بذاته، من حيث هي هي لم يكن عالماً بذاته علماً جزئياً، لأنه يمكن أن يصدق هذا العلم على كثيرين، على سبيل البدل، وإذا ثبت أنه يستحيل أن يصدق على كثيرين على سبيل البدل، ثبت أنه يستحيل أن يصدق على كثيرين على سبيل الجمع، والعلم بالمحسوس يستحيل أن يصدق على كثيرين لا على سبيل الجمع، ولا على سبيل البدل، فقد بان أنه يستحيل أن يعلم الله تعالى كما يعلم الشيء المرئي عياناً، فأمر المؤمنين عليه السلام أنكر هذا السؤال كما أنكره الله تعالى على بني إسرائيل لما طلبوا الرؤية، قال تعالى: "وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة".

ثم قال للسائل بعد غضبه واستحالة لونه وظهور أثر الإنكار عليه: ما ذلك القرآن عليه من صفته فخذ به، فإن لم تجده في

الكتاب فاطلبه من السنة ومن مذاهب أئمة الحق، فإن لم تجد ذلك، فاعلم أن الشيطان حينئذ قد كلفك علم ما يكلفك الله علمه؛ وهذا حق؛ لأن الكتاب والسنة قد نطقا بصفات الله من كونه عالماً قادراً حياً مريداً سميعاً بصيراً، ونطقاً أيضاً بتزييه عن سمات الحدوث كالجسمية والحلول والجهة؛ وما استلزم الجهة كالرؤية فلا إنكار على من طلب في مدارك العقول وجوهاً تعضد ما جاء به القرآن والسنة، وتوفق بين بعض الآيات وبعض؛ وتحمل أحد اللفظين على الآخر إذا تناقضا في الظاهر، صيانةً لكلام الحكيم عن التهافت والتعارض.

وأما ما لم يأت الكتاب والسنة فيه بشيء فهو الذي حرم وحظر على المكلفين الفكر فيه؛ كالكلام في الماهية التي يذهب ضرار المتكلم إليها، وكإثبات صفات زائدة على الصفات المعقولة لذات الباري سبحانه، وهي على قسمين: أحدهما: ما لم يرد فيه نص كإثبات طائفة تعرف بالما تريدية صفة سموها التكوين زائدة على القدرة والإرادة. والثاني: ما ورد فيه لفظ فأخطأ بعض أهل النظر، فأثبت لأجل ذلك اللفظة صفة غير معقولة للباري سبحانه، نحو قول الأشعرين: إن اليدين صفة من صفات الله، والاستواء على العرش صفة من صفات الله، وإن وجه الله صفة من صفاته أيضاً، ثم قال: إن الراسخين في العلم الذين غنوا بالإقرار بما عرفوه عن الولوج والتقحم فيما لم يعرفوه، وهؤلاء هم أصحابنا المعتزلة لا شبهة في ذلك، ألا ترى أنهم يعللون أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح، فإذا ضاق عليهم الأمر في تفصيل بعض المصالح في بعض المواضع، قالوا نعلم على الجملة أن لهذا وجه حكمة ومصلحة، وإن كنا لا نعرف تفصيل تلك المصلحة، كما يقولون في تكليف من يعلم الله تعالى منه أنه يكفر، وكما يقولون في اختصاص الحال التي حدث فيها العالم بحدوثه دون ما قبلها وما بعدها وقد تأول القطب الراوندي كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل، فقال: إنما أنكر على من يقول: لم تعبد الله المكلفين بإقامة خمس صلوات، وهلا كانت ستاً أو أربعاً؛ ولم جعل الظهر أربع ركعات، والصبح ركعتين؛ وهلا عكس الحال! وهذا التأويل غير صحيح، لأنه عليه السلام إنما أخرج هذا الكلام مخرج المنكر على من سأل أن يصف له الباري سبحانه، ولم يكن السائل قد سأل عن العلة في أعداد الصلاة وكمية أجزاء العبادات. ثم إنه عليه السلام قد صرح في غضون الكلام بذلك؛ فقال: فانظر أيها السائل، فما ذلك القرآن عليه من صفته فائتم به، وما لم يدلك عليه فليس عليك أن تخوض فيه، وهذا الكلام تصريح بأن البحث إنما هو في النظر العقلي في فن الكلام، فلا يجوز أن يحمل على ما هو بمعزل عنه.

واعلم أننا نتساهل في ألفاظ المتكلمين فنوردها بعباراتهم، كقولهم في المحسوسات والصواب المحسات، لأنه لفظ المفعول من أحس الرباعي، لكننا لما رأينا العدول عن ألفاظهم إذا خضنا في مباحثهم مستهجنات عبرنا بعبارتهم على علم منا أن العربية لا تسوغها.

الأصل: هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطر الوسوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولعت القلوب إليه، لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب، متخلصةً إليه سبحانه؛ فرجعت إذ جبهت معترفةً بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته.

الشرح: ارتمت الأوهام، أي ترامت؛ يقال: ارتمى القوم بالنبل؛ أي تراموا، فشبه جولان الأوهام والأفكار وتعارضها بالترامي، وخطر الوسوس، بتسكين الطاء؛ مصدر خطر له خاطر، أي عرض في قلبه، وروي من خطرات الوسوس، وتولت القلوب إليه: اشتد عشقها حتى أصابها الوله وهو الحيرة.

وقوله: لتجري في كيفية صفاته، أي لتصادف مجرىً ومسلكاً في ذلك؛ وغمضت مداخل العقول، أي غمض دخولها، ودق في الأنظار العميقة التي لا تبلغ الصفات كنهها لدقتها وغموضها طالبة أن تنال معرفته تعالى. ولفظة ذات لفظة قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية، فأنكر قوم إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه، أما إطلاقها فلاهما لفظة تأنيث، والبارىء سبحانه مذكره عن الأسماء والصفات المؤنثة؛ وأما إضافتها فلاهما عين الشيء؛ والشيء لا يضاف إلى نفسه.

وأجاز آخرون إطلاقها في البارىء تعالى وإضافتها إليه، أما استعمالها فلو جهين: أحدهما أنها قد جاءت في الشعر القديم، قال خبيب الصحابي عند صلبه:

يبارك على أوصال شلو موزع

وذلك في ذات الإله وإن يشأ

ويروى ممزغ، وقال النابغة:

قديم فما يخشون غير العواقب

محبتهم ذات الإله ودينهم

والوجه الثاني أنها لفظة اصطلاحية، فجاز استعمالها لا على أنها مؤنث ذو بل تستعمل ارتباطاً في مسماها الذي عبر عنه بها أرباب النظر الإلهي، كما استعملوا لفظ الجوهر والعرض وغيرهما في غير ما كان أهل العربية واللغة يستعملونها فيه. وأما منعمهم إضافتها إليه تعالى، وأنه لا يقال: ذاته؛ لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه فباطل بقولهم: أخذته نفسه وأخذته عينه؛ فإنه بالإتفاق جائز، وفيه إضافة الشيء إلى نفسه.

ثم نعود إلى التفسير: قوله عليه السلام: ردعها، أي كفها، وتجب، أي تقطع. والمهاوي: المهالك، الواحدة مهواة بالفتح، وهي ما بين جبلين أو حائطين ونحو ذلك. والسدف: جمع سدف، وهي القطعة من الليل المظلم. وجبهت، أي ردت، وأصله من جبهته، أي صككت جبهته. والجور: العدول عن الطريق. والاعتساف: قطع المسافة على غير جادة معلومة. وخلاصة هذا الفصل أن العقول إذا حاولت أن تدرك متى ينقطع اقتداره على المقدرات نكصت عن ذلك، لأنه قادر أبداً دائماً على ما لا يتناهى؛ وإذا حاول الفكر الذي قد صفا وخلا عن الوسوس والعوائق أن يدرك مغيبات علمه تعالى كل وحسر ورجع ناقصاً أيضاً، وإذا اشتد عشق النفوس له، وتولت نحوه لتسلك مسلكاً تقف منه على كيفية صفاته عجزت عن ذلك؛ وإذا تغلغت العقول، وغمضت مداخلها في دقائق العلوم النظرية الإلهية التي لا توصف لدقتها طالبة أن تعلم حقيقة ذاته تعالى، انقطعت وأعييت، وردها سبحانه وتعالى وهي تحول وتقطع ظلمات الغيب لتخلص إليه، فارتدت حيث جبهها وردعها، مقرة معترفة بأن إدراكه ومعرفته لا تنال باعتساف المسافات التي بينها وبينه؛ وإن أرباب الأفكار والرويات يتعذر عليهم أن يخطر لهم خاطر يطابق ما في الخارج من تقدير جلال عزته، ولا بد من أخذ هذا القيد في

الكلام؛ لأن أرباب الأنظار لا بد أن تخطر لهم الخواطر في تقدير جلال عزته، ولكن تلك الخواطر لا تكون مطابقة لها في الخارج؛ لأنها خواطر مستندها الوهم لا العقل الصريح؛ وذلك لأن الوهم قد ألف الحسيات والمحسوسات، فهو يعقل خواطر بحسب ما ألفه من ذلك؛ وجلال واجب الوجود أعلى وأعظم من أن يتطرق الوهم نحوه، لأنه يرى من المحسوسات سبحانه، وأما العقل الصريح فلا يدرك خصوصية ذاته لما تقدم.

واعلم أن قوله تعالى: "فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير" فيه إشارة إلى هذا المعنى، وكذلك قوله: "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه".

الأصل: الذي أبدع الخلق على غير مثالٍ امتثله، ولا مقدار احتذى عليه من خالقٍ معبودٍ كان قبله، وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطق به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمسك قوته؛ ما دلنا باضطراب قيام الحجة له على معرفته، فظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته، وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له، ودليلاً عليه؛ وإن كان خلقاً صامتاً؛ فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على لمبدع قائمة.

الشرح: المساك، بكسر الميم: ما يمسك ويعصم به.

وقوله: ابتدع الخلق على غير مثالٍ امتثله، يحتمل وجهين: أحدهما: أن يريد بامتثله مثله، كما تقول: صنعت واصطنعت بمعنى، فيكون التقدير أنه لم يمثل لنفسه مثلاً قبل شروعه في خلق العالم؛ ثم احتذى ذلك المثال؛ وركب العالم على حسب ترتيبه، كالصانع الذي يصوغ حلقة من رصاص مثلاً، ثم يصوغ حلقة من ذهب عليها، وكالبناء يقدر ويفرض رسوماً وتقديرات في الأرض وخطوطاً، ثم يبنى بحسبها.

والوجه الثاني: أنه يريد بامتثله احتذاه وتقبله واتبعه، والأصل فيه امتثال الأمر في القول، فنقل إلى احتذاء الترتيب العقلي، فيكون التقدير أنه لم يمثل له فاعل آخر قبله مثلاً اتبعه واحتذاه وفعل نظيره، كما يفعل التلميذ في الصباغة والنجارة شيئاً قد مثل له أستاذه صورته وهيئته.

واعلم أن هذا أحد الأسئلة التي يذكرها أصحابنا في باب كونه عالماً، لأنهم لما استدلوا على كونه تعالى عالماً بطريق إحكام العلم وإتقانه، سألوا أنفسهم فقالوا: لم لا يجوز أن يكون القديم سبحانه أحدث العالم محتدياً لمثال مثله، وهيئة اقتضاها، والمحتذي لا يجب كونه عالماً بما يفعله، ألا ترى أن من لا يحسن الكتابة قد يحتذي خطأً مخصوصاً، فيكتب قريباً منه، وكذلك من يطبع الشمع بالخاتم ثم يطبع فيه مثال الخاتم، فهو فعل الطابع، ولا يجب كونه عالماً.

وأجاب أصحابنا عن ذلك فقالوا: إن أول فعل محكم وقع منه، ثم احتذى عليه، يكفي في ثبوت كونه عالماً، وأيضاً فإن المحتذي ليست العالمية بمسلوبة عنه، بل موصوف بها، ألا ترى أنه متصور صورة ما يحتذيه، ثم يوقع الفعل مشابهاً له، فاحتذي عالم في الجملة، ولكن علمه يحدث شيئاً فشيئاً.

فأما معنى الفصل فظاهر، يقول عليه السلام إنه ابتدع الخلق على غير مثال قدمه لنفسه ولا قدم له غيره ليحتذي عليه، وأرانا من عجائب صنعته ومن اعتراف الموجودات كلها، بأنها فقيرة محتاجة إلى أن يمسكها بقوته، ما دلنا على معرفته ضرورة، وفي هذا إشارة إلى أن كل ممكن مفتقر إلى المؤثر، ولما كانت الموجودات كلها غيره سبحانه ممكنة لم تكن غنية

عنه سبحانه، بل كانت فقيرة إليه، لأنها لولاه ما بقيت، فهو سبحانه غني عن كل شيء، ولا شيء من الأشياء مطلقاً بغني عنه سبحانه، وهذه من خصوصية الإلهية، وأجل ما تدركه العقول من الأنظار المتعلقة بها. فإن قلت: في هذا الكلام إشعار بمذهب شيخكم أبي عثمان، في أن معرفته تعالى ضرورية. قلت: يكاد أن يكون الكلام مشعراً بذلك؛ إلا أنه غير دال عليه، لأنه لم يقل ما دلنا على معرفته باضطرار، ولكن قال ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته، فالاضطرار راجع إلى قيام الحجة، لا إلى المعرفة. ثم قال عليه السلام: وظهرت آثار صنعته، ودلائل حكمته في مخلوقاته فكانت وهي صامتة في الصورة ناطقة في المعنى بوجوده وربوبيته سبحانه، وإلى هذا المعنى نظر الشاعر فقال:

أم كيف يجحده الجاحد!

تدل على أنه واحد

فواعجباً كيف يعصى الإله

وفي كل شيء له آية

وقال في تفسير قوله تعالى: "وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولاكن لا تفقهون تسبيحهم" إنه عبارة عن هذا المعنى. الأصل: فأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقائق مفاصلهم المحتجة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين عن المتبوعين؛ إذ يقولون: "تالله إن كنا لفي ضلال مبين؛ إذ نسويكم برب العالمين". كذب العادلون بك، إذ شبهوك بأصنامهم، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزءوك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقدروك على

الخلقة المختلفة ألقوى بقرائع عقولهم.

وأشهد أن من ساواك بشي من خلقك فقد عدل لك، والعاد ذلك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، أو عنه شواهد حجج بيناتك، وأنت الله الذي لم تنه في ألعقول؟ فتكون في مهبط فكرها مكيفا، ولا في انطمصا رويات خواطرها محدودا مصرفا. اص "صاس س-اررح: حقائق المفاصل جمع حقة؟ وجاء في جمعها حقائق وحق وحق؟ ولما قال: "بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقائق مفاصلهم"؟ فأوقع التلاحم في مقالة الت! ابن صناعة وبديعا. وروي "المحتجة"، فمن قال: "المحتجة"، أراد أنها بما اصا.. سا فيها من لطيف الصنعة كالمحتجة المستدلة على التدبير الحكمي من لدنه سم! ات، ومن قال: "المحتمة" أراد المستترة، لأد ا... ا! تركيبتها الباطن خفي محجوب. الند: المثل. والعدلون لك: الذين جعلوا لك عديلا ونظيرا. ونحلوك: أعطوك؟ وهي النحلة، وروي: "لم اوى.. 5، 1ءا يعقد" على ما لم يسم فاعله. ا، وغيب ضميره، بالرفع. والقرائح: جمع قرمحة، وهي القوة التي تستنمط! المعقولات وأصله من قرمحة الشر، وهو أول ا... ا! مائها. ومعنى هذا الفصل أنه عنته شهد بأن المجسم كافر، وأنه لا يعرف الله، وأن من شبه الله بالمخلوقين ذوي الأعضاء ا! المتباينة، والمفاصل المتلاحمة، لم يعرفه ولم يباشر قلبه اليقين، فإنه لا ند له ولا مثل، ثم أكد ذلك بآيات من كتاب الله تعالى، اء، س، اء وهي قوله تعالى: "فكذبوا نجحها فم والغاؤون! وجنود إبليس اجمعون" قالوا وهم فيها يختصمون! تالله إن كنا

لفي ضلالا ممين ! إذ نسويكم لرس العالمين ! "1". حكى سمحانه حكاية قول الكفار في النار؟ وهم التابعون للذين أغووهم من الشياطينا و! المتمو.: لقد كنا ضالين إذ سويناكم لآله تعالى، وحعلناكم مثله، ووحه الحجة أنه تعالى حكى ذلك حكاية منكر على 3. عوفي.... من زعم أن شيئ! من الأشياء يجوز تسويته بالباري سبحانه، فلو كان الباري سبحانه جسما مصورا، لكان مشابها لسائر الأجسام 51 المصورة، فلم يكن لإنكاره على من سواه بالمخلوقات معنى. اء" زاد عتته في تأكيد هذا المعنى؟ فقال: كذلك العادلون لك، المثشون لك نظيرا وشميها، يعني المشممة والمجسمة، اذ لم....-ءا قالوا: إنك على صورة آدم، فشبهوك بالأصنام التي كانت الحاهلية تدلى ها، وأعطوك حلية المخلوقين لما اقتضت أوهامهم .. اء" ذلك، من حيث لم يألفوا أن يكون القادر الفاعل العالم إلا جسما، وجعلوك مركبا ومتجزئا، كما تتجزأ الأجسام، وقدروك على اء، هذه الخلقة، يعني خلقة ال! شر المختلفة القوى، لأنها مركمة من عناصر مختلفة الطبائع. ثم كرر الشهادة فقال: أشهد أن من اء.. ساواك بغيرك، وأثبت أنك جوهر أو جسم فهو عادل بك كافر. وقالت تلك الخارجية للحجاج: "أشهد أنك قاسط عادل"، اء اء. فلم يفهم أهل الشام حوله ما قالت، حتى فسر له، قال مل! نه لمن يذهب إلى هذا المذهب فهو كافر بالكتاب، وبما ذلت عليه اء، "العقول. ثم قال: وإنك أنت الله، أي وأشهد أنك أنت الله الذي لم تحط العقول بك، كإحاطتها بالأشياء المتناهية، احججا فتكون ذا كيفية اء. "عوقوله: "في مهبط فكرها" استعارة حسنه، ثم قال: "ولا قي روايات خواطرها"، أي في أفكارها محدودا، ذا حداصا "فا، 1 قللاللحركة والتغير. امصري. وقد استدلل بعض المتكلمين على نفي كون الباريء- سبحانه- جسما بما هو مأخوذ من هذا الكلام، فقال: لو جاز أنا صا يكون الماريء سمحانه جسما، لجاز أن يكون القمر هو إله العالم، لكن لا يجوز أن يكون القمر إله العالم، فلا يجوز أن يكون اء. عها الساري حسم، ليان الملازمة أنه لو حاز أن يكون الساريء جسما، لما كان بين الإلهية وبين الجسمحة منافاة عقلية، وإذا لم يكن اء. ء- بينهما منافاة عقلية أمكن اجتماعهما، وإذا أمكن اجتماعهما جاز أن يكون القمر هو إله العالم، لأنه لا مانع من كونه إله العالم إلا كونه جسما يجوز عليه الحركة، والأقول، ونقصان ضوئه تارة، وامتلاؤه أخرى، فإذا لم يكن ذلك منافيا للإلهية، جاز أن يكون القمر إله العالم، وبيان الثاني إجماع المسلمين على كفر من أجاز كون القمر إله العالم، وإذا ثبتت الملازمة وثبتت المقدمة الثانية فقد تمت الدلالة. الأصل: ومنها: قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجهه لوجهته فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته، فكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته! المنشىء أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها، ولا قريحة كريمة أضمر عليها، ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور، فتم خلقه بأمره وأذن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، لم يعترض دونه ريث البطيء، ولا أناة المتلكىء، فأقام من الأشياء أودها، ونهج حدودها، ولأعم بقدرته بين متضادها، وو! أسباب قرائنها، وفرقها أجناسا، فختلفات في الحدود والأقدار، والغرائز والهيئات، بدايا خلأقق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وأبتدعها. اورخ: الوجهة، بالكسر: الجهة التي يثوجه نحوها، قال تعالى: "ولكل وجهة هو موليها! و" 1"، والريث: البطء والمتلكىء: المتأخر. والأود: الإعوجاج. ولأعم بين كذا وكذا، أي جمع، والقرائن هنا: الأنفس، واحدها قرونة وقرينة، يقال: سمحت قرينته وقرونته؟ أي أطاعته نفسه وذلت، وتابعت على الأمر. وبدايا ههنا: جمع بديء، وهي الحالة العجيبة، أبدأ الرجل إذا

جاء بالأمر البدئ، أي المعجب، والبدية أيضا: الحالة المبتدأة المبتكرة، ومنه قولهم: فعله بادئ ذي بدئ على وزن "فعليل"، أي أول كل شيء.

ويمكن أن يحمل كلامه أيضا على هذا الوجه. وأما خلائق؟ فيجوز أن يكون أضاف "بدايا" إليها؟ ويجوز ألا يكون أضافه إليها، بل جعلها بدلا من "أجناسا". ويروى "برايا" جمع برية. يقول عفته: إنه تعالى قدر الأشياء التي خلقها، فخلقها محكمة على حسب ما قدر. وألطف تديرها، أي جعله لطيفا، وأمضى الأمور إلى غايتها وحدودها المقدره لها، فهي الصقرة للإصطياد، والخيول للركوب والطراد، والسيوف للقطع، والقلم للكتابة، والفلك للدوران ونحو ذلك، ويخا هذا إشارة إلى قول النبي م! ه: "كل ميسر لما خلق له"؟ فلم تعد هذه المخلوقات حدود منزلتها التي جعلت غايتها، ولا قصرت دون الإتهاء إليها، يقول: لم تقف على الغاية ولا تجاوزتها. ثم قال: ولا استصعبت وامتنعت إذ أمرها بالمغي إلى تلك الغاية بمقتضى الإرادة الإلهية، وهذا كله من باب المجاز؟ كقوله تعالى: "فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين!" 2، وخلاصة ذلك، الإبانة عن نفوذ إرادته ومشئته. ثم عفل نفي الإستصعاب فقال: وكيف يستصعب، وإنما صدرت عن مشئته! يقول: إذا كانت مشئته هي المقتضية لوجود هذه المخلوقات، فكيف يستصعب عليه بلوغها إلى غايتها التي جعلت لأجلها، وأصل وجودها إنما هو مشئته، فإذا كان أصل وجودها بمشئته، فكيف يستصعب عليه توجيهها لوجهتها، وهو فرع من فروع وجودها وتابع له! ثم أعاد معاني القول الأول، فقال: إنه أنشأ الأشياء بغير روية ولا فكرة ولا غريزة أضمر عليها خلق ما خلق عليها. ولا تجربة أفادها، أي استفادها من حوادث مرت عليه من قبل، كما تكسب التجارب علوما لم تكن، ولا بمساعدة شريك أعانه عليها. فتم خلقه بأمره إشارة إلى قوله: "ولم يستصعب إذ أمر بالمضي"؟ فلما أثبت هناك كونها أمرت أعاد لفظ الأمر ها هنا، والكل مجاز، ومعناه نفوذ إرادته، وأنه إذا شاء أمرا استحال ألا يقع، وهذا المجاز هو المجاز المستعمل في قوله تعالى: مال! إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون! 3؟ تعبيرا بهذا اللفظ عن سرعة موآاة الأمور له، وانقيادها تحت قدرته. ثم قال: ليس كالأواحد منا يعترض دون مراده ريث وبطء، وتأخير والتواء. ثم قال: وأقام العوج وأوضح الطريق، وبمع بين الأمور المتضادة، ألا ترى أنه جمع في بدن الحيوانات والنبات بين الكيفيات المتباينة المتنافرة، من الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، ووصل أسباب أنفسها بتعديل أمرجتها، لأن اعتدال المزاج أو القرب من الاعتدال سبب بقاء الروح، وفرقها أجناسا مختلفات الحدود والأقدار، والخلق والأخلاق والأشكال. أمور عجيبة بديعة مبتكرة الصنعة، غير محتذ بها حت و صانع سابق، بل مخلوقة على غير مثال، قد أحكم سبحانه صنعها، وحققها على موجب ما أراد، وأخرجها من العدم المحض إلى الوجود، وهو معنى الابتداء، فإن الخلق في الإصطلاح النظري على قسمين: أحدهما صورة تخلق في مادة، والثاني ما لا مادة له، بل يكون وجود الثاني من الأول فقط، من غير تولسط المادة، فالأول يسمى التكوين، والثاني يسمى الإبداع، ومرتبة الإبداع أعلى من مرتبة التكوين. الأصلي: ومنها في صفة السماء: ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، ولاحم صدوغ أنفراجها، ووشج بينها وبين أزواجها، وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها، ونادها نجعد إذ هي دخان، فالتحمت عرا أشراجها، وفتق بعد الارتفاق ص! امت أبواها، وأقام رصدًا من الشهب الثواقب على نقابها، وأمسمكها من أن تمور في

حرق الهواء بأيده، وأمرها أن تقف فسئسلسمة لأمره، وجعل شمسها اية مبصرة لنهارها، وقمرها آية محوة من ليلها، وأجراها في مناقل مجراها، وقدر سيرهما في مدارج درجهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما، ثم علق في جوها فلكها، وناط بها زيتها، من خفيات دراريها، ومصاييح كواكبها، ورمى مسترقي السمع بثواقب شفيها، وأجراها على أذلال تسخيرها، من ثبات ثابتها، ومسير سائرها، وهبوطها وضعودها، ونحوسها وسغودها. اس خ: الرهوات: جمع رهوة، وهي المكان المرتفع والمنخفض أيضا، يجتمع فيه ماء المطر، وهو من الأضداد. والفرج: جمع فرجة، وهي المكان الخالي.

ولاحم: ألصق. والصدع: الشق. ووشج، بالتشديد، أي شبك. ووشجت العروق والأغصان، بالتخفيف: اشتبكت، وبيننا رحم واشجة، أي مشبكة. وأزواجها: أقرانها وأشباهاها، قال تعالى: !وكنتم أزواجا ثلاثة! "1"، أي أصنافا ثلاثة. والحزونة: ضد السهولة. وأشراجها: جمع شرج؟ وهو عرا العيبة؟ وأشرجت العيبة، أي أقفلت أشراجها، وتسمى مجرة السماء شرجا؟ تشبيها بشرج العيبة؟ وأشراج الوادي: ما انفسح منه واتسع. والارتناق: الإرتناج. والنقاب: جمع نقب؟ وهو الطريق في الجبل. وتمور: تتحرك وتذهب وتجيء؟ قال تعالى: "يوم تمور السما" مورا ه! "2" والأيد: القوة. وناط بها: علق. والدراري: الكواكب المضيئة، نسبت إلى الدر لبياضها؟ واحدها ذري، ويجوز كسر الدال، مثل بحر لحي ولحي. والثواقب: المضيئات. وتقول: افعل ما أمرتك على أذلاله، أي على وجهه؟ ودعه في أذلاله؟ أي على حاله، وأمور الله جارية على أذلالها؟ أي على مجاريها وطرقها. يقول عنته: كانت السماء أول ما خلقت غير منتظمة الأجزاء، بل بعضها أرفع وبعضها أخفض، فنظمها سبحانه، فجعلها بسيطا واحدا، نظما اقتضته القدرة الإلهية؟ من غير تعليق، أي لا كما ينظم الإنسان ثوبا مع ثوب، أو عقدا مع عقد، بالتعليق والحنياطة، وألصق تلك الفروج والشقوق، فجعلها جسما متصلا، وسطحا أملس لا نتوات فيه ولا فرج ولا ضدوع، بل جعل كل جزء منها ملتصقا بمثلته، وذلل للملائكة الماطبين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه - لأنهم الكتبة الحافظون لها - حزونة العروج إليها، وهو الصعود. ثم قال: "وناداه بعد إذ هي" روي بإضافة "بعد" إلى "إذ" وروي بضم "بعد"، أي وناداه بعد ذلك إذ هي دخان؟ والأول أحسن وأصوب، لأنها على الضم تكون دخانا بعد نظمه رهوات فروجها وملاحمة صدوعها؟ والحال تقتضي أن دخانها قبل ذلك لا بعده. فإن قلت: ما هذا النداء؟ قلت: هو قوله: "أئتيا طوعا أو كرها! "1"، فهو أمر في اللفظ ونداء في المعنى، وهو على الحقيقة نداء عن سرعة الإبداع. ثم قال: وفتق بعد الإرتناق صوامت أبوابها، هذا صريح في أن للسماء أبوابا، وكذلك قوله: "على نقابها"، وهو مطابق لقوله سبحانه وتعالى: لا تفتخ لهم أبواب السماء! "2" والقرآن العظيم وكلام هذا الإمام المعظم أولى بالاتباع من كلام الفلاسفة، الذين أحالوا الخرق على الفلك. وأما إقامة الرصد من الشهب الثواقب، فهو نص القرآن العزيز "وأنا لمسنأ السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا" وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا! "3" والقول بإحراق الشهب للشياطين اتباعا لنص الكتاب أولى من قول الفلاسفة الذين أحالوا الإنقباض على الكواكب. ثم قال: وأمسكها على الحركة بقوته، وأمرها بالوقوف فاستمسكت ووقفت. ثم ذكره الشمس والقمر تذكرة مأخوذ منقول الله تعالى: "وجعلنا الليل والقمر يحا مجراهما تذكرة مأخوذ من قوله

تعالى: "والشمسى تجري لمستقر لها!" 5، وقوله: "والقمر قدرناه منازل!" 5، وقوله: "ولتعلموا عدد السنين والحساب!" 6. ثم قال: أثم علق لا وها فلکها"، وهذا يقتضي أن الفلك غير السماء، وهو خلاف قول الجمهور، وقد قال به قائلون، ويمكن أن نفسر ذلك إذا أردنا موافقة قول الجمهور بأنه أراد بالفلك دائرة معدل النهار، فإنها الدائرة العظمى في الفلك الأعظم، وهي في الإصطلاح النظري تسمى فلکاً. ثم ذكر أنه زين السماء الدنيا بالكواكب، وأنها رجوم لمستقرقي السمع، وهو مأخوذ من قوله تعالى: "إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب كلو وحفظاً من كل شيطان مارد! لا يسمعون إلى المل! الأعلى ويقذفون من كل جانب" دحوراً ولهم عذاب واص!! 7. ثم إترح حال الدنيا فقال: "من ثبات ثابتها"، يعني الكواكب التي يخالجها البروج و "مسير سائرهما"، يعني الخمسة والنيرين لأنها سائرة دائماً. ثم قال: "وصعودها وهبوطها"، وذلك أن للكواكب السيارة صعوداً يخالجها الأوج، وهبوطاً لا الحضيض، فالأول هو البعد الأبعد عن المركز، والثاني البعد الأقرب. فإن قلت: ما باله ملنه قال: "ونحوسها وسعودها"، وهو القائل لمن أشار عليه ألا يحارب في يوم مخصوص: "المنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكاfer، والكاfer لا النار"؟

قلت: إنه علنه إنما أنكر في ذلك القول على من يزعم أن النجوم مؤثرة في الأمور الجزئية، كالذين يحكمون لأرباب المواليد وعليهم، وكمن يحكم في حرب أو سلم، أو سفر أو مقام، بأنه للسعد أو النحس، وأنه لم ينكر على من قال: إن النجوم تؤثر صعوداً ونحوساً في الأمور الكلية، نحو أن تقتفي حراً أو برداً، أو تدل على مرض عام أو قحط "8" عام، أو مطر دائم، ونحو ذلك من الأمور التي لا تخص إنساناً بعينه، وقد قدمنا يخالج ذلك الفصل ما يدل على تصويب هذا الرأي، وإفساد ما عداه. الأصق: ومنها في صفة الملائكة: ثم خلق سبحانه لإسكان سمواته، وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته، خلقاً بديعاً من ملائكته، وملاً بهم فروج فجاجها، وحشى بهم فتوق أجوائها، وبين فجوات تلك الفروج زجل المسيحين منهم في حظائر القدس، وسترات الحجب وسراقات المجد، ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماك سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها فتقف خاسئة على حدودها. وأنشأهم على صور مختلفات، وأقدار متفاوتات، أولي أجنحة تسبح جلال عزته، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من! نعه، ولا يدكون أنعم يخلقون شيئاً معه مما أنفرد به، ماله بل عباد مكرمون- لا لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون! 1" جعلهم الله فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهييه، وعصمهم من ريب الشبهات، فما منهم زاع عن سبيل مرضاته. وأمدفم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة، وفتح لهم أبواباً دلالاً إلى تماجيده، ونصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيده، لم تثقلهم مؤصرات الآثام، ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام، ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاهد يقينهم، ولا قدحت قاذحة الإحسان فيما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن من عظمتهم وهيبته جلاله في أثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوسوس فتتزعج برينها على فكرهم. ومنهم منقذ خرق أقدامهم تحوم الأرض السفلى؟ فهي الدلح، وفي عظم 2 لجال الشمخ، وفي فترة الظلام الأيهم. ومنهم منقذ خرق أقدامهم تحوم الأرض السفلى؟ فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هفافة تحبسها على حيث أنتهت من الحدود أمتناهيته؟ قد أستفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإيقان به إلى أوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره. قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من محبته، وتمكنت من سويداوات قلوبهم وشيجة خيفته،

فحنوا بطول الطاعة أعتدال ظهورهم، ولم ينفذ طوذ أركبة إليه مادة تضرعهم، ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم، ولم يتولهم الإعجاب فيستكث! وا ما سلف منهم، ولا تركت لهم أستكانة الإجلال نصيبا في تعظيم حسناهم.

ولم تخر ألفترا فيهم على طول دعوهم، ولم تغض ركبهم فيخالفوا عن رجاء رهم، ولم تحف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتقطع بمس الجوار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقاوم الطاعة منحهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم. ولا تعدو على عزيمة جدهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في همهم خدائع الشهوات. قد أأخذوا ذا العرش! خيرة ليوم فافتهم، ويمموه عند أنقطاع أخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته، ولا يرجع بهم أأستهتار بلزوم طاعته، إلا إلى مواد من قلوبهم غير فنقطعة من رجائه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدهم، ولم تا! سرهم الأطماع فيوثرأ وشيك السعي على أجتهدهم. لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم، ولو أستعظموا ذلك لنسخ أأرجاء منهم شفقات وجلهم، ولم يختلفوا في رهم باستحواذ الشيطان عليهم. ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولا تولاهم غل التحاسد، ولا تشعبتهم مصارف أأريب، ولا أقتسمتهم أأخفاف أأهم، فهم أسراء إيمان لم يفكهم من ربقة زيغ ولا عدول، ولا وني ولا فتور، وليس في أطباق السماء موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد، أو ساع حافد، يزدادون على طول الطاعة برهم علما، وترداد عزة رهم في قلوبهم عظما. اف خ: هذا موضع المثل: "إذا جاء نمر الله بطل نمر معقل "1!" إذا جاء هذا الكلام الرباني، واللفظ القدسي، بطلت فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه، نسبة التراب إلى النضار الخالص، ولو فرضنا أن العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة، أو المقاربة لهذه الألفاظ، من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون لرسول الله عب هذه المعاني الغامضة السمائية؟ ليتيها لها التعبير عنها! أما الجاهلية فيهم إنما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش، أو ثور فلاة، أو صفة جبال أو فلولات؟ ونحو ذلك. وأما الصحابة المذكورون منهم بفصاحة إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة، إما في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا، أو ما يتعلق بحرب وقتال؟ من ترغيب أو ترهيب؟ فأما الكلام في الملائكة وصفاتها، وصورها وعبادتها، وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبها له، وولها إليه، وما جرى مجرى ذلك مما تضمنه هذا الفصل على طوله، فإنه لم يكن معروفا عندهم على هذا التفصيل؟ نعم ربما علموه جملة غير مقسمة هذا التقسيم، ولا مرتبة هذا الترتيب؟ بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم؟

وأما من عنده علم من هذه المادة، كعبد الله بن سلام وأمية بن أبي الصلت وغيرهم؟ فلم تكن لهم هذه العبارة، ولا قدروا على هذه الفصاحة، فثبت أن الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة، لم تحصل إلا لعلي وحده؟ وأقسم أن هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده، ورجف قلبه، واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وخلده، وهام نحوه وغلب الوجد عليه؟ وكاد أن يخرج من مسكه شوقا؟ وأن يفارق هيكله صباة ووجدا. ثم نعود إلى التفسير فنقول: الصفيح الأعلى: سطح الفلك الأعظم؟ ويقال لوجه كل شيء عريض: صفيح وصفحة، والفروج: الأماكن الخالية. والفجاج: جمع فج، والفج: الطريق الواسع بين جبلين أو حائطين وأجوائها: جمع جو، وهو ما اتسع من الأودية، ويقال لما بين السماء والأرض جو،

ويروى: "أجواهما"، جمع جوبة، وهي الفرجة في السحاب وغيره ويروى: "أجواها" جمع جوز، وهو وسط الشيء. والفجوات: جمع فجوة، وهي الفرجة بين الشيئين؟ تقول منه: تفاجى الشيء، إذا صار له فجوة، ومنه الفجاء، وهوتباع ما بين غرقوي البعير. والزجل: الصوت. وحظائر القدس: لفظة وردت في كلام رسول الله عب، وأصل "الحظيرة" ما يعمل شبه البيت للإبل من الشجر ليقبها البرد؟ فسمى عليه السلام تلك المواطن الشريفة المقدسة العالية التي فوق الفلك حظائر القدس، والقدس بتسكين الدال وضمها: الطهر، والتقديس: التطهير، وتقديس: تطهر. والأرض المقدسة المطهرة، وبيت المقدس أيضاً، والنسبة إليه قديمي ومقدمي. والسترات: جمع شترة. والرجيح: الزلزلة والاضطراب؟ ومنه ارتج البحر. وتستك الأسماك: تنسد، قال النابغة: ونبت خير الناس أنك لم تني وتلك التي تستك منها المسامع سبحات النور، بضم السين والباء: عبارة عن جلالة الله تعالى وعظمته. وتردع الأبصار تكفها. وخاسئة، أيسادة، ومنه: !ينقلب إليك البصر خاسئاً وفو حسيراً! "1"، وخسأً بصره، خسأً وخسوءاً، أي سدر "2". وقوله: "على حدودها" أي تقف حيث تنتهي قوتها، لأن قوتها متناهية؟ فإذا بلغت حدها وقفت. وقوله: "أولي اجنحة" من الألفاظ القرآنية "3".

وقوله: "لا ينتحلون ما ظهر! الخلق من صنعة"، أي لا يدعون الإلهية لأنفسهم، وإن كان قوم من البشر يدعونهم لهم. وقوله: "لا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه مما انفرد به"، فيه إشارة إلى مذهب أصحابنا في أن أفعال العباد مخلوقة لهم، لأن فائدة هذا القيد، وهو قوله: "انفرد به" إنما تظهر بذلك. وأما الآيات المقدسة، فالرواية المشهورة "مكرمون" وقرئ: "مكرمون" بالتشديد، وقرئ: "لا يسبقونه" بالضم، والمشهور القراءة بالكسر، والمعنى أنهم يتبعون قوله، ولا يقولون شيئاً حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله، وأراد أن يقول: "لا يسبقونه بقولهم"، فحذف الضمير المضاف إليه، وأناب اللام منابه. ثم قال: "وهم بأمره يعملون"؟ أي كما أن قولهم تابع لقوله؟ فعملهم أيضاً كذلك فرع على أمره، لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به، وجاء في الخبر المرفوع عن رسول الله عليه: "أنه رأى جرائيل ليلة المعراج ساقطاً كالحلس من خشية الله". وأد وسلم. والحلس: "4" الكساء الخفيف. والزائغ: العادل عن الطريق، والإخبات: التذلل والإستكانة. وأبواباً ذلاً، أي سهلة وطيبة، ومنه: دابة ذلول؟ وتماجيده: الثناء عليه بالجد. والمؤصرات: المثقلات والإصر: الثقل. وتقول: ارتحلت البعير، أي ركبته، والعقبة: النوبة، والجمع غقب. ومعنى قوله: "ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام". أي لم تؤل فيهم نوبات الليالي والأيام وكروورها، كما يؤثر ارتحال الإنسان البعير في ظهره. ونوازعها: شهواتها النازعة الحركة، وروي: "نوازعها" بالغين المعجمة، من نزغ بينهم، أي أفسد. ولم تعترك الظنون، أي لم تردح الظنون على يقينهم الذي عقدوه. والإحن: جمع إحنة، وهي الحقد، يقول: لم تقدح قوادح الحقد في ضمائرهم. وما لاق، أي ما التصق، وأثناء صدورهم: جمع ثني وهي التضاعيف. والرین: الدنس والغلبة، قال تعالى: "كلا بل ران على قلوبهم! "5". وتقترح، من الإقترع بالسهم، بأن يتناوب كل من الوسوس عليها. ويروى: "فيفترع" بالفاء، أي تعلو برينها، فرعه، أي علاه. والغمام: جمع غمامة، وهي السحابة. والدخ: الثقال، جاء يدخ بجمله، أي جاء مثقلاً به. والجبال الشمخ: العالية الشاهقة. وقوله: "في فترة الظلام"، أي سواده. والأيهم: لا يهتدى فيه، ومنه فلاة يهماء. والتخوم، بضم التاء: جمع تخم وهو منتهى الأرض أو القرية، مثل فلس وفلوس، ويروى: "تخوم" بفتح التاء على أنها واحد، والجمع تخم مثل صبور وصبر. وريح هفافة؟ أي ساكنة طيبة؟

يقول: كأن أقدامهم التي خرقت الهواء إلى حضيض الأرض رايات بيض تحتها ريجساكنة ليس! مضطربة؟ فتموج تلك الرايات؟ بل هي ساكنة تحبسها حيث انتهت، وجاء في الخبر أن لإسرافيل جناحين أحدهما في أقصى المشرق والآخر يحد أقصى المغرب، وأن العرش على كاهله، وإنه ليتضاءل أحيانا لعظمة الله، حتى يعود مثل الوضع وهو العصفور. ثم قال: "قد استفرغتهم أشغال عبادته تعالى" أي جعلتهم فارغين إلا منها. ويروى: "ووسلت حقائق الإيمان"، بالسین المشددة، يقال: وسل فلان إلى ربه وسيلة، والوسيلة ما يتقرب به؟ والجمع وسيل ووسائل؟ ويقال: وسلت إليه وتوسلت إليه بمعنى. وسويداوات القلوب: جمع سويداء؟ وهي حبة. القلب. والوشيجة جما الأصل: عرق الشجرة، وهي هنا استعارة. وحنيت ضلعي، أي عوجتها. والريق: جمع ريقة؟ وهي الحبل. قوله: "ولم يتولهم الإعجاب"؟ أي لم يستول عليهم. والدؤوب: الجد والاجتهاد. والأسلات: جمع أسلة؟ وهي طرف اللسان ومستدقه، والجؤار: الصوت المرتفع، والهمس: الصوت الخفي، يقول: ليست لهم أشغال خارجة عن العبادة، فيكون لأجلها أصواتهم المرتفعة خافية ساكنة. لا تعدو، من عدا عليه، إذا قهره وظلمه، وهو هاهنا استعارة. ولا تنتضل الخدائع في همهم؟ استعارة أيضا من النضال؟ وهو المراماة بالسهم. وذو العرش: هو الله تعالى؟ وهذه قرآنية؟ قال سبحانه: مال! إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلا! "1". يعني لا بتغوا إلى الله تعالى سبيلا. وقال تعالى: !ذو اعرش المجيد، فعاذ لما يريد! و"2"، والاستهتار: مصدر استهتر فلان بكذا، أي لازمه وأولع به. وقوله: "فينوا" أي فيضعفوا؟ وني: يني. والجد: الاجتهاد والإنكماش. ثم قال: إنهم لا يستعظمون عبادتهم، ولو أن أحدا منهم استعظم عبادته لأذهب خوفه رجاء الذي يتولد من استعظام تلك العبادة؟ يصفهم بعظم التقوى. والإستحواذ: الغلبة، والغل: الحقد، وتشعبتهم: تقسمتهم وفرقتهم؟ ومنه قيل للمنية شعوب، أي مفرقة. وأخياف الهمم، أي الهمم المختلفة؟ وأصله من الخيف؟ وهو كحل إحدى العينين دون الأخرى؟ ومنه المثل: الناس أخياف؟ أي مختلفون، والإهاب: الجلد. والحافد: المسرع؟ ومنه الدعاء: اللهم إليك نسعى ونخفد. واعلم أنه عتته إنما كرر وأكد صفاقهم بما وصفهم به؟ ليكون ذلك مثالا يحتذي عليه أهل العرفان من البشر؟ فإن أعلى درجات البشر أن يتشبه بالملك، وخلاصة ذلك أمور: منها العبادة القائمة، ومنها ألا يدعي أحد لنفسه الحول! والقوة، بل لا حول ولا قوة، ومنها أن يكون متواضعا ذا سكينه ووقار، ومنها أن يكون ذا يقين لا تقدخ فيه الشكوك والشبهات، ومنها ألا يكون في صدره إحنة "3" على أحد من الناس، ومنها شدة التعظيم والهيبة لخالق الخلق، تباوك اسمه، ومنها أن تستفرغه أشغال العبادة له عن غيرها من الأشغال، ومنها أنه لا تتجاوز رغباته مما عند الله تعالى إلى ما عند غيره سبحانه، ومنها أن يعقد ضميره وقلبه على محبة الله تعالى، ويشرب بالكأس الروية من حبه، ومنها عظم التقوى بحيث يأمن كل شيء عدا الله، ولا يهاب أحدا إلا الله، ومنها الخشوع والخضوع والإخبات والذل لجلال عزته سبحانه، ومنها ألا يستكثر الطاعة والعمل، وإن جل وعظم، ومنها عظم الرجاء الواقع في مقابلة عظم الخوف؟ فإن الله تعالى يحب أن يرجي، كما يحب أن يخاف.

أبحاث تتعلق بالملائكة! واعلم أنه يجب أن تعلم أبحاث متعددة تتعلق بالملائكة ويقصد فيها قصد حكاية المذهب خاصة، ونكل الاحتجاج والنظر إلى ما هو مذكور في كتبنا الكلامية. البحث الأول: في وجود الملائكة، قال قوم من الباطنية:

السييل إلى إثبات الملائكة هو الحس والمشاهدة؟ وذلك أن الملائكة عندهم أهل الباطن. وقالت الفلاسفة: هي العقول المفارقة؟ وهي جواهر مجردة عن المادة لا تعلق لها بالأجسام تدبيرا، واحترزوا بذلك عن النفوس؟ لأنها جواهر مفارقة إلا أنها تدبر الأبدال!، وزعموا أنهم أثبتوها نظرا. وقال أصحابنا المتكلمون: الطريق إلى إثبات الملائكة الخبر الصادق المدلول على صدقه؟ وفي المتكلمين من زعم أنه أثبت الملائكة بطريق نظري؟ وهو أنه لما وجد خلقا من طين وجا في العقل أن يكون في المخلوقات خلق من الهواء وخلق من النار فالمخلوق من الهواء هو الملك، والمخلوق من النار هو الشيطان. البحث الثاني: في بنية الملائكة، وهيئة تركيبهم، قال أصحابنا المتكلمون: إن الملائكة أجسام لطاف، وليسوا من لحمودم وعظام، كما خلق البشر من هذه الأشياء. وقال أبو حفص المعود القرينسي من أصحابنا: إن الملائكة من أجسام من لحم وعظم، إنه لا فرق بينهم وبين البشر؟ وإنما لم يروا لبعده المسافة بيننا وبينهم. وقد تبعه على هذا القول جماعة من معتزلة ما وراء النهر، وهي مقالة ضعيفة لأن القرآن يشهد بخلافه في قوله: مه! ورسلنا لديهم يكتبون،! و "1"، وقوله: مالواذ يتلقى ألتلقيان عن أليمين وعن الشمال قعيد! و "2"، فلو كانوا أجساما كثيفة كأجسامنا لرأينا هم. البحث الثالث: في تكليف الملائكة، حكى عن قوم من الحشوية أنهم يقولون: إن الملائكة مضطرون إلى جميع أفعالهم، وليسوا مكلفين. وقال جمهور أهل النظر: إنهم مكلفون. وحكى عن أبي إسحاق النظام، أنه قال: إن قوما مغ المعتزلة قالوا: إنهم جبلوا على الطاعة لمخالفة خلقهم حلقة المكلفين، وأنهم قالوا: لو كانوا مكلفين لم يؤمن أن يعصوا فيما امرؤا به، وقد قال تعالى: ماله لا يعصون ال!ه ما امرهم ويفعلون ما يؤمر ون ! "3". وقال قوم: إن أكثر الملائكة مكلفون، وإن فيهم من ليس بمكلف بل هو مسخر للملائكة المكلفين، كما أن في الحيوانات ما هو غير مكلف، بل هو مسخر للبشر وخلق لمصالحهم. قالوا: ولا ننكر أن يكون الملائكة الذين ذكر منهم أنهم غلظ الأجسام وعظم الخلق والتركيب بحيث تبلغ أقدامهم إلى قرار الأرض؟ قد جعلوا غمدا للسموات والأرض؟ فهم يحملونها بمثلة الأساطين التي تحمل السقوف العالية ولم يرشحوا لأمر من الأمور سوى ذلك. البحث الرابع: فيما يجوز من الملائكة وما لا يجوز؟ قال شيخنا أبو القاسم: حكى أبو الحسن الخياط عن قدماء المعتزلة، أنه لا يجوز أن يعمي أحد من الملائكة؟ ولم يذكر عنهم علة في ذلك. وقال قوم: إنهم لا يعصون، ولا يجوز أن يعصوا؟ لأنهم غير مطيقين الشهوة والغضب، فلا داعي لهم إلى المعصية؟ والفاعل لا يفعل إلا بداع إلى الفعل. وقال قوم: إنهم لا يعصون، لأنهم يشاهدون من عجائب صنع الله وأثار هيئته ما يبهرهم عن فعل المعصية والقصد إليها، وكذلك قال تعالى: "وهم من خشيته مشفقون ! و "4". وقال قوم: إنما لم يجز أن يعصوا، لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم لا يعصون، ولا ينكر مع ذلك أن يكون منهم من يتغير حاله ويتبدل بما حالة أخرى ويعصي، على ما ورد من خبر الملكين ببابل، وخبر إبليس، وإنما يسلب عنهم المعصية ما داموا على حالهم التي هي عليها. وقال شيخنا أصحاب أبي هاشم رحمه الله تعالى: إن المعصية تجوز عليهم، كما تجوز علينا، إلا أن الله تعالى علم أن لهم ألقافا يمتنعون معها من القبيح لفعلها، فامتنعوا من فعل القبيح اختيارا، فكانت حالهم كحال الأنبياء من البشر يقدرّون على المعصية ولا يفعلونها، اختيارا من أنفسهم باعتبار الألقاف المفعولة لهم، ولو كان لإبليس أو فرعون أو نمرود ألقاف يعلم الله تعالى إذا فعلها فعلوا الواجب، وامتنعوا من فعل القبيح لفعلها بهم، ولكانوا معصومين كالأنبياء والملائكة، لكنه تعالى علم أنهم لا يؤمنون ولو فعل مهما فعل، فلا لطف في المعلوم، وهذا عندهم حكم عام لجميع المكلفين من الإنس والجن والملائكة. البحث الخامس: في أن أي القبيلين

أفضل: الملائكة أو الأنبياء؟ قال أصحابنا: نوع الملائكة أفضل من نوع البشر، والملائكة المقربون أفضل من نوع الأنبياء، وليس كل ملك عند الإطلاق أفضل من محمد عمت، بل بعض المقربين أفضل منه، وهو عفته أفضل من ملائكة أخرى غير الأولين، والمراد بالأفضل الأكثر ثواباً، وكذلك القول في موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء. والذي يحكيه قوم من أرباب المقالات أن المعتزلة قالوا: إن أدق ملك في السماء أفضل من محمد عليه ليس بصحيح عندهم. وقال أهل الحديث والأشعرية: إن الأنبياء أفضل من الملائكة. وقال الشيعة: الأنبياء أفضل من الملائكة، والأئمة أفضل من الملائكة. وقال قوم منهم ومن الحشوية: إن المؤمنين أفضل من الملائكة. البحث السادس: في قدم الملائكة وحدوثهم، أما الفلاسفة القائلون بأنهم العقول المفارقة، فإنهم يذهبون إلى قدماء! وقال غيرهم من أهل الملل: إنهم محدثون. وقال قوم من متأخري الحكماء: إن نفوس البشر إذا فارقت الأبدان بالموت بقيت قائمة بأنفسها غير مدبرة لشيء من الأبدان، فإن كانت خيرة صالحة فهي الملائكة، وإن كانت شريرة رديئة الجوهر فهي الشياطين؟ فالملائكة عند هؤلاء محدثون؟ وعندهم أن هذه النفوس تساعد نفوساً أخرى متعلقة بتدبير الأبدان، إما على الخير أو على الشر، فما ينسب في الكتب الإلهية إلى إغواء الشياطين للناس وإضلالهم، فالمراد به تلك النفوس الشريرة، وما ينسب فيها إلى إغانة الملائكة لهم على الخير والصالح، فالمراد به تلك النفوس الخيرة. البحث السابع: في إبليس، أهو من الملائكة أو ليس منها؟ قال شيخنا أبو عثمان وجماعة من أصحابنا: إنه من الملائكة، ولذلك استثناه الله تعالى، فقال: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس!"¹ وقال قوم: إنه كان من الملائكة بدلالة هذه الآية، لكن الله مسخه حيث خالف الأمر، فهو بعد المسخ خارج عن الملائكة، وقد كان قبل ذلك ملكاً، قالوا: ومعنى قوله: "كان من الجن! أي من خزان الجنة، وروي ذلك عن ابن عباس، قالوا: ويحمل على معناه أنه صار من الجن، فيكون "كان" بمعنى إصار" كقوله تعالى: "كيف نكلم من كان في المهد! ييا!"² أي من صار، لأنها لو كانت "كان" على حقيقتها، لوجب ألا يكفم بعضهم بعضاً، لأنهم كانوا صبيانا في اليهود. قالوا: ومعنى صيرورته من الجن صيرورته ضالاً، كما أن الجن ضالون، لأن الكفار بعضهم من بعض، كما لال تعالى: "وإنما لنا نفقون وألنا نفقات بعضهم من بعض!"³ وقال معظم أصحابنا: إن إبليس ليس من الملائكة، ولا كان منها، وإنما استثناه الله تعالى منهم، لأنه كان مأموراً بالسجود معهم، فهو مستثنى من عموم المأمورين بالسجود، لا من خصوص الملائكة. البحث الثامن: في هاروت وماروت "4"، هل هما من الملائكة أم لا؟ قال جمهور أصحابنا: إنهما من الملائكة، وإن القرآن العظيم قد صرح بذلك في قوله: "وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت أو "1"، وإن الذي أنزل عليهما هو علم السحر، ابتلاء من كالأله تعالى للناس، فمن تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن ليتوقاه كان مؤمناً: قالوا: وما كان هذان الملكان يعلمان أحداً حتى ينهياه وينصحا، ويقولان له: مالوا إننا نحن فتنة لأو، أي ابتلاء واختبار من الله، "فلا تكفرا"، ولا تتعلمه معتقداً أنه حق. وحكي عن الحسن البصري أن هاروت وماروت علجان أكلقان "2" من أهل بابل، كانا يعثمان الناس السحر، وقرأ الحسن: ماله على الملكين ببابل!، بكسر اللام. وقال قوم: كانا من الملائكة، فعصيا الله تعالى بالحيف في الحكومة، وقد كان استقصاهما في الأرض، وركب فيهما الشهوة والغضب، على نحو ما ركب في البشر، امتحانا لهما، لأنهما قد كانا غيرا البشر بالمعصية، فلما عصيا حبسهما الله تعالى وعاقبهما بعذاب معجل، وألهمهما كلاماً إذا تكلمتا به سكن بعض ما بهما من الألم، وإن السحرة يستمعون

ذلك الكلام فيحفظونه، ويفرقون به بين المرء وزوجه، فإنهما يتقدمان إلى من يحضرهما عندما يتكلمان بالزجر عن العمل بذلك الكلام، ويقولان: "إنما نحن فتنة فلا تكفرمهمو، وهما لم يكفرا، ولا دعوا إلى السحر؟ وإن عذابهما سيقطع وقد جاء!! الأخبار مما يوافق هذا. وقال قوم من الحشوية: إنهما شربا الخمر وقتلا النفس، وزنيا بامرأة اسمها "باهيد" فمسخت؟ وهي الزهرة التي فيالسماء.الأصلى: ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء: كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة، ولججبحار زاخرة، تلتطم اوادي أمواجه، وتصطفق متقاذفات أثباجها، وتركو زبدا كالفحول عند هياجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج 2 رتمائه إذ وطئته بكلكلها، وذل مستخدبا إذ تمعكت عليه بكواهلها؟ فأصبح بعد أصطحاب أمواجه ساجيا مقفورا، وفي حكمة الذل منقادا أسيرا، و!سكنت الأرض مدحوة في لجة تياره، وردت من نخوة با!وه وأعتلائه، وشفوخ أنفه وسمو كلوائه، وكعمته على كظة جريته، فهمد بعد نزقاته، ولبد بعد زيفان وثباته.فلما سكن هب! الماء من تحت أكنافها، وحمل شواحق ألبال الشفخ ألثذخ على أكتافها، فخر ينابيع أليون من عرائن انوفها، وفرقها في سهوب بيدها وأخايدها، وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها، وذوات الشناخيب الشم من صياخيدها، فسكنت من الميدان لرسوب ألبال في قطع أديمها، وتغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها، وفسح بين ألبو وبينها، وأعد ألواء متنسما لسمحنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها.ثم لم ياع جزز الأرض التي تقصر مياه 2 لعيون عن روابيها، ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بفوغها،حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحي مواتها، وتستخرج نباتها؟ ألف غمامها بعد أفتراق لمعه، وتباين قرعه، حتى إذا تمخضت لجة المزن فيه، والتمع برقه في كففه، ولم ينم وميضه في كنهور ربابه، ومتراكم سحابه، أرسله سحا متداركا، قد أسف هيدبه، يمرري ألبنوب درر أهاضيبه، ودفع شايبيه.فلما ألفت السحات برك بوانيتها، وبعا ما أمستقلت به من العبء القحمول عليها، أخرج به من هوامد الأرض النبات، ومن زعر ألبال الأعشاب، فهي تبهج بزينة رياضها، وتزدهي بما ألبسته من ريط أزاهيرها، وحلية ما سمطت به من ناضر أنوارها، وجعل ذلك بلاغا للأنام، ورزقا للأنعام، وخرق الفجاج في أفاقها، وأقام المنار للسالكين على جواد طرقها.

الشرح: كبس الأرض، أي أدخلها في الماء بقوة واعتماد شديد، وبقال لضرب من التمر: الكبيس لأنه يكبس حتى يتراس. والمور: مصدر مار أي ذهب وجاء. ومستفحلة: هائجة هيجان الفحول. واستفحل الأمر: تفاقم واشتد. وزاخرة، زخر الماء أي امتد جداً وارتفع.

والأواذي جمع آذي وهو الموج وتصطفق: يضرب بعضها بعضاً. والأثباج هاهنا: أعالي الأمواج، وأصل الثب: ما بين الكاهل إلى الظهر فنقل إلى هذا الموضع استعارة.

وترغو: تصوت صوت البعير، والرغاء: صوت ذات الخف وفي المثل: كفى برغائها منادياً أي أن رغاء بعير المضيف يقوم مقام ندائه للضيافة والقرى. وزبداً على هذا منصوب بفعل مقدر تقديره: وترغو قاذفة زبداً، والزبد: ما يظهر فوق السيل يقال: قد أزيد البحر والسيل، وبحر مزبد أي مالح يقذف بالزبد. والفحول عند هياجها فحول الإبل إذا هاجت للضراب. وجماح الماء: صعوده وغليانه، وأصله من جماح الفرس، وهو أن يعز فارسه ويغلبه. والجموح من الرجال: الذي يركب

هواه فلا يمكن رده. وخضع: ذل. وهيج الماء: اضطرابه، هاج هيجاً وهياجاً وهيجاناً واحتاج، وتهيج، كله بمعنى، أي ثار، وهاجه غيره، يتعدى ولا يتعدى. وهيج ارتمائيه، يعني تقاذفه وتلاطمه، يقال ارتمى القوم بالسهم وبالحجارة ارتماء. وكلكلها: صدرها وجاء كلكل وكلكال: وربما جاء في ضرورة الشعر مشدداً، قال:

كأن مهواها على الكلكل

موضع كفي راهب مصلي

والمستخذي: الخاضع، وقد يهمز. وقيل لأعرابي في مجلس أبي زيد: كيف تقول: استخذأت؟ ليتعرف منه الهزمة. فقال: العرب لا تستخذىء، وهمزه وأكثرما يستعمل مليناً وأصله من خذا الشيء يخذو خذواً، أي استرخى ويجوز خذي، بكسر الذال، وأذن خذواً: بينة الخذاء، أي مسترخية.

وتمعكت: تمرغت مستعار من تمعك الدابة في الأرض وقالوا: معكت الأديم، أي دلكته. وكواهلها: جمع كاهل وهو ما بين الكتفين، ويسمى الحارك.

واصطخب أمواجه: افتعال من الصخب وهو الصياح والجلبة، يقال: صخب الرجل فهو صخبان، واصطخب، افتعل منه قال: إن الضفادع في الغدران تصطخب والساجي: الساكن: والحكمة: ما أحاط من اللجام بحنك الدابة وكانت العرب تتخذها من القد والأبق لأن الزينة لم تكن قصدهم، قال زهير:

القائد الخيل منكوباً دوابرها

قد أحكمت حكمت القد والأبق

واستعار الحكمة هاهنا، فجعل للذل حكمة ينقاد الماء بها ويذل إليها.

ومدحوة: مبسوطة، قال تعالى: "والأرض بعد ذلك دحاه". ويجوز أن تكون مدحوة هاهنا بمعنى مقذوفة مرمية يقال: دحوت الحصاة أي قذفتها ويقال للاعب الجوز: ادح وأبعد المدى. والتيار: أعظم الموج. ولجته: أعمله والبأو: الكبير والفخر تقول: بأوت على القوم أبأى بأو، قال حاتم:

فما زادنا بأو على ذي قرابة

غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وهذا الكلام استعارة يقال: كسرت الأرض سورة الماء الجامح كما تكسر سورة بأو الرجل المتكبر المفتخر. والاعتلاء: التيه والتكبر. والشموخ: العلو، مصدر شمخ بأنفه أي تكبر، والجبال الشوامخ: الشاهقة والسمو: العلو، وسمو غلوائه أي غلوه وتجاوزه الحد.

وكعتمته، أي شددت فمه لما هاج، من الكعام وهو شيء يجعل في فم البعير، وبعير مكعوم.

والكظة: الجهد والثقل الذي يعتري الإنسان عند الامتلاء من الطعام، يقول: كعمت الأرض الماء حال كونه مكظوظاً لشدة امتلائه وكثرته وازدحام أمواجه. فهدم أي سكن، همدت النار تهمد، بالضم هموداً، أي طفتت وذهبت البتة.

والخمود دون الحمود. والتزقات: الخفة والطيش، نرق الرجل بالكسر، يترق نرقاً. والتزقات: الدفعات من ذلك.

ولبد الشيء بالأرض يلبد، بالضم لبوداً، أي لصق بها ساكناً. والزيفان: التبخر في المشي، زاف البعير يزيف، والزيفان من

النوق المختالة، ويروى: ولبد بعد زفيان وثباته، والزيفان: شدة هبوب الريح، يقال زفته الريح زفياناً، أي طردته، وناقة زفيان: سريعة، وقوس زفيان: سريعة الإرسال للسهم. وأكنافها: جوانبها، وكنافاً الطائر جناحاه، ويقال صلاء مكنف،

أي أحيط به من جوانبه، وتكنفه القوم واكتنفوه أحاطوا به. والجبال الشواهد: العالية، ومثله البذخ. والعرنين أول الأنف تحت مجتمع الحاجبين. والينابيع: جمع ينبوع، وهو ما انفجر من الأرض عن الماء. والسهوب: جمع سهب، وهو الفلاة. والبيد: جمع بيداء، وهي الفلاة أيضاً. والآخاديد: جمع أخدود، وهو الشق في الأرض، قال تعالى: "قتل أصحاب الأخدود". والراسيات: الثقال. والشناخيب: رؤوس الجبال. والشم: العالية، والجلاميد: الصخور، واحداها جلمود. والصياخيد: جمع صيخود، وهي الصخرة الصلبة. والميدان: التحرك والاضطراب، وماد الرجل يمد أي تبخر. ورسوب الجبال: نزولها رسب الشيء في الماء، أي سفل فيه، وسيف رسوب: يتزل في العظام.

وقوله: في قطع أديمها جمع قطعة، يريد في أجزائها وأبعاضها. ويروى في قطع أديمها، بضم القاف وفتح الطاء، جمع قطعة وهي القطعة مفروزة من الأرض، وحكي أن أعرابياً قال ورثت من أبي قطعة. ويروى: في قطع أديمها، بسكون الطاء، والقطع: طنفسة الرحل، فنقل ذلك إلى هذا الموضع استعارة، كأنه جعل الأرض ناقة، وجعل لها قطعاً، وجعل الجبال ثابتة في ذلك القطع.

وأديم الأرض: وجهها وظاهرها. وتغلغل الماء في الشجر: دخوله وتخلله في أصوله. وعروقه متسربة، أي داخله، تسرب الثعلب أي دخل السرب، وجوبات: جمع جوبة وهي الفرجة في جبل أو غيره. وخياشيمها: جمع خيشوم وهو أقصى الأنف، وتقول. خشمت الرجل خشماً، أي كسرت خيشومه. وجراثيمها: جمع جرثومة، وهي أصل الشجر. وفسح: أوسع. ومتنسماً، يعني موضع النسيم. والأرض الجرذ التي لا نبات فيها لانقطاع المطر عنها، وهذه من الألفاظ القرآنية والروابي: التلاع وما علا من الأرض. والجداول: الأنهار الصغار، جمع جدول. والذريعة: الوصلة. وناشئة سحب: ما يتبدى ظهوره. والموات، بفتح الميم: القفر من الأرض، واللمع: جمع لمعة، وهي القطعة من السحاب أو غيره. وتباين قزعه، القزع: قطع من السحاب رقيقة واحداها قرعة، قال الشاعر

كأن رعاله قزع الجهام

وفي الحديث "كأنهم قزع الخريف". وتباينها: افتراقها. وتمخضت: تحركت بقوة، يقال: تمخض اللبن إذا تحرك في الممخضة، وتمخض الولد: تحرك في بطن الحامل، والهاء في "فيه" ترجع إلى المزن، أي تحركت لجة المزن في المزن نفسه، أي تحرك من السحاب وسطه وثبجه. والتمع البرق ولمع أي أضاء، وكففه: جمع كفة. والكفة كالدارة تكون في السحاب. وكان الأصمعي يقول: كل ما استطال فهو كفة بالضم نحو كفة الثوب وهي حاشيته وكفة الرمل، والجمع كفاف، وكل ما استدار فهو كفة بالكسر نحو كفة الميزان، وكفة الصائد وهي حبالته، والجمع كفف. ويقال أيضاً: كفة الميزان بالفتح. والوميض: الضياء واللمعان.

وقوله: لم ينم أي لم يفتقر ولم ينقطع، فاستعار له لفظة النوم. والكنهور: العظيم من السحاب. والرباب: الغمام الأبيض، ويقال: إنه السحاب الذي تراه كأنه دون السحاب، وقد يكون أبيض، وقد يكون أسود، وهو جمع، والواحدة ربابة، وبه

سميت المرأة الرباب. والمتراكم: الذي قد ركب بعضه بعضاً، والميم بدل من الباء. وسحاً: صباً، وسحابة سحوح، وتسحسح الماء: سال، ومطر سحساح، أي يسح شديداً. ومتداركاً: يلحق بعضه بعضاً من غير انقطاع. وأسف: دنا من الأرض. وهيدبه: ما تهدب منه، أي تدلى كما يتدلى هدب العين على أشجارها. ويمري الجنوب، وهو بمعنى يحلب ويستدر، ويروى تمري الجنوب على أن يعدى الفعل إلى مفعولين، كما تقول حلبت الناقة لبناً. ويروى: تمري الجنوب وهو بمعنى تمري، من مريت الفرس وامتريته، إذا استخرجت بالسوط ما عنده من الجري. وإنما خص الجنوب بذلك لأنها الريح التي يكون عليها المطر. والدرر: جمع درة، وهي كثرة اللبن وسيلانه وصبه. والأهاضيب: جمع هضاب، والهضاب: جمع هضب، وهي حلبات القطر بعد القطر. والدفع: جمع دفعة، بالضم وهي كالدفقة من المطر بالضم أيضاً والشآبيب: جمع شؤبوب وهي رشة قوية من المطر، تنزل دفعة بشدة، والبرك: الصدر وبوانيهما، تشية بوان على فعال بكسر الفاء وهو عمود الخيمة، والجمع بون بالضم، قال الشاعر:

ألقى بواني زوره للمبرك

اصبر من ذي ضاغط عركرك

ومن روى: بوانيهما أراد لواصقها، من قولك: قوس بانية إذا التصقت بالوتر. والرواية الأولى أصح. وبعاغ السحاب: ثقله بالمطر، قال امرؤ القيس:

نزول اليماني بالعياب المنقل

والقى بصحراء الغبيط بعاعه

والعبء: الثقل، واستقلت: ارتفعت ونهضت، وهوامد الأرض، هي الأرضون التي لا نبات بها. وزعر الجبال: جمع أزعر، والمراد به قلة العشب والخلى: وأصله من الزعر، وهو قلة الشعر في الرأس، قال:

فإنني غير ضائري زعري

من يك ذا لمة يرجلها

وقد زعر الرجل يزعر: قل شعره. وتبهج: تسر وتفرح، تقول: بهجني أمر كذا بالفتح، وأبهجني معاً، أي سري.

ومن رواه بضم الهاء أراد يحسن ويملح، من البهجة، وهي الحسن، يقال بهج الرجل بالضم، بهجة، فهو بهيج، أي حسن، قال الله تعالى: "من كل زوج بهيج"، وتقول: قد أبهجت الأرض بالهمزة، أي بهج نباتها وحسن. وتزدهي، أي تتكبر، وهي اللغة التي حكاها ابن دريد، قال: تقول: زها الرجل يزهو زهواً، أي تكبر وعلى هذه اللغة تقول: ازدهى الرجل يزدهي، كما تقول من علا اعتلى يعتلي، ومن رمى ارتقى يرتقي، وأما من رواها وتزدهي بما البسته على ما لم يسم فاعله، فهي اللغة المشهورة، تقول: زهي فلان علينا، وللعرب أحرف تتكلم بها على سبيل المفعول به، وإن كانت بمعنى الفاعل، كقولهم: عني بالأمر، ونتجت الناقة، فتقول على هذه اللغة: فلان يزدهي بكذا.

والريط جمع ربطة، وهي الملاءة غير ذات لفقين. والأزاهير: النور ذو الألوان. وسمطت به: علق عليها السموط، جمع سمط وهو العقد، ومن رواه شمطت بالشين المعجمة، أراد ما خالط سواد الرياض من النور الأبيض كالأقحوان ونحوه، فصارت الرياض كالشعر الأشمط. والناضر ذو النضارة، وهي الحسن والطراوة. وبلاغاً للأنام، أي كفاية. والآفاق: النواحي، والمنار: الأعلام.

وينبغي أن نتكلم في هذا الموضع في فصول: الفصل الأول: في كيفية ابتداء خلق الأرض: ظاهر كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه أن الماء خلق قبل الأرض، وقد ذكرنا فيما تقدم أنه قول لبعض الحكماء، وأنه موافق لما في التوراة إلا أن في كلامه رضي الله عنه في هذا الموضع إشكالاً، وذلك أن لقائل أن يقول: كلامه يشعر بأن هيجان الماء وغليانه وموجه سكن بوضع الأرض عليه، وهذا خلاف ما يشاهد، وخلاف ما يقتضيه العقل، لأن الماء الساكن إذا جعل فيه جسم ثقيل اضطرب وتموج، وصعد علواً، فكيف الماء المتموج يسكن بطرح الجسم الثقيل فيه والجواب أن الماء إذا كان تموجه من قبل ريح هائجة، جاز أن يسكن هيجانه بجسم يحول بينه وبين تلك الريح، ولذلك إذا جعلنا في الإناء ماء وروحناه بمروحة تموجه، فإنه يتحرك، فإن جعلنا على سطح الماء جسماً يملأ حافات الإناء وروحناه بالمروحة فإن الماء لا يتحرك، لأن ذلك الجسم قد حال بين الهواء المحتلب بالمروحة وبين سطح الماء، فمن الجائز أن يكون الماء الأول هائجاً لأجل ريح محرّكة له، فإذا وضعت الأرض عليه حال بين سطح الماء وبين تلك الريح، وقد مر في كلام أمير المؤمنين في الخطبة الأولى ذكر هذه الريح، فقال: "رياح اعتقم مهبها، وأدام مربها وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضت مخض السقاء، وعصفت به عصفتها بالفضاء".

الفصل الثاني: في بيان قوله رضي الله عنه: "فلما سكن هيج الماء من تحت أكتافها، وحمل شواحق الجبال لبذخ على أكتافها، فجر ينابيع العيون فيها، وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها": وذلك لأن العامل في لما يجب أن يكون أمراً مبيناً لما أضيفت إليه، مثاله: لما قام زيد قام عمرو، فقام الثانية هي العاملة في لما، فيجوز أن تكون أمراً مبيناً لما أضيف لما إليه، وهو قيام زيد، وهاهنا قد قال رضي الله عنه: لما حمل الله تعالى شواحق الجبال على الأرض عدل حركات الأرض بالجبال، ومعلوم أن أحد الأمرين هو الآخر.

والجواب أنه ليس أحد الأمرين هو الآخر بعينه، بل الثاني معلول الأول، وموجب عنه لأن الأول هو حمل الجبال عليها، والثاني تعديل حركاتها بالجبال المحمول عليها، فكأنه قال: حمل عليها الجبال، فاقتضى ذلك الحمل تعديل حركاتها ومعلوم أن هذا الكلام منتظم.

الفصل الثالث: في قوله: "إن الجبال هي المسكنة للأرض": فنقول: إن هذا القول يخالف قول الحكماء لأن سكنون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك، بل لأنها تطلب المركز، وهي حاصلة في حيزها الطبيعي لكننا وإن كان مخالفاً لقول الحكماء، فإننا نعتقده ديناً ومذهباً، ونعدل عن قول الحكماء، لأن اتباع قوله رضي الله عنه أولى من اتباع أقوالهم.

الفصل الرابع: في ذكر نظائر لما وصف به المطر والسحاب: فمن ذلك ما رواه عبد الرحمن، ابن أخي الأصمعي، عن عمه قال: سئل أعرابي عن مطر، فقال: استقل سد مع انتشار الطفل، فشصا واحزأل، ثم اكفهرت أرجاؤه، واحمومت أرجاؤه، وانزعت فوارقه، وتضاحكت بوارقه، واستطار وادقه، وأرست جوبه، وارتعن هيدبه، وحسكت أخلاقه، واستقلت أردافه، وانتشرت أكتافه فالرعد يرتجس، والبرق يختلس، والماء ينبجس، فأترع الغدر، وأنبت الوجر، وخلط الأوعال بالآجال، وقرن الصيران بالرنال، فلأودية هدير، وللشراج خريز، وللتلاع زفير، وحط النبع والنعيم من القلل الشم إلى القيعان الصحم، فلم يبق في القلل إلا معصم محرجم، أو داحض محرجم، وذلك من فضل رب العالمين، على عباده

قلت: السد: السحاب الذي يسد الأفق، وأصل الجبل. والطفل: اختلاط الظلام وانتشازه حال غروب الشمس. وشصا: ارتفع وعلا. واحزأل: انتصب. واكفهرت أرجاؤه: غفظت نواحيه وجوانبه وتراكمت. واحمومت: اسودت مع مخالطة حمرة. وأرجاؤه: أوساطه. وانزعرت: تفرقت. والفوارق: قطع من السحاب تتفرق عنه مثل فرق الإبل وهي النوق إذا أرادت الولادة فارقت الإبل وبعدت عنها حيث لا ترى. وتضاحكت بوارقه: لمعت. واستطار: انتشر. والوداق: ذو الودق، وهو مطر كبار. وأرسعت جوبه. أي تلاءمت فرجه والتحمت. وارتعن: استرخى. وهيدبه: ما تدلى منه. وحسكت أخلافه: امتلأت ضروعه. وأردافه: مآخره. وأكنافه: نواحيه، ويرتجس: يصوت، والرجس: الصوت. ويختلس: يستلب البصر. وينبجس ينصب. فأترع الغدر: ملأها، جمع غدير. وأنبت الحجر: حفرها: جمع وجار وهو بيت الضبع. والآجال: جمع إجل وهو قطع البقر، والصيران مثله، جمع صوار. والرئال: جمع رال وهو فرخ النعام. والهدير: الصوت. والشرج: جمع شرج وهو مسيل الماء إلى الحرة. وخرير الماء. صوته. وزفير التلاع: أن تزفر بالماء لفرط امتلائها. والتبع: شجر، والعنم: شجر آخر وكلاهما لا ينبت إلا في رؤوس الجبال. والشم: العالية. والصحم: السود التي تضرب إلى الصفرة، والمعصم: المعتصم المتجىء. والمجرجم: المتقبض، والداحض: الزالق الواقع. والمجرجم: المصروع. ومن ذلك: ما رواه أبو حاتم، عن الأصمعي، قال: سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة، عن مطر أصاب بلادهم، فقال: نشأ عارضاً، فطلع ناهضاً، ثم ابتسم وامضاً فاعتن في الأقطار فأشجهاها، وامتد في الافاق فغطاها، ثم ارتجس فهمهم، ثم دوى فأظلم، فأرك ودث، وبغش وطش، ثم قطقط فأفرط، ثم ديم فأغمط، ثم ركد فأتجم، ثم وبل فسجم، وجاد فأنعم، فقمس الربا، وأفرط الزبي سيعاً تباعاً، يريد انقشاعاً حتى إذا ارتوت الحزون، وتضحضحت المتون، ساقه ربك إلى حيث يشاء، كما جلبه من حيث شاء.

قلت: العارض: سحاب يعترض في الأفق. واعتن: اعترض وأشجهاها: ملأها فكان كالشجى في حلقها. وارتجس: صوت. والهمهمة: صوت الرعد. ودوى: أحدث دويّاً، فأظلم: أعدم الضوء من الأرض بتكاثفه. فأرك، أي مطر ركاً، والرك: المطر الضعيف، وكذلك الدث والبغش والطش، وفوق ذلك القطقط. وديم: صار ديمة وهي المطر أياماً لا يقلع. وأغمط، أي دام. وأتجم: أقام. ووبل: جاء بالوابل وهو المطر العظيم: وسجم: صب. وأنعم: بالغ. وقمس: غوص في الماء. وأفرط الزبي: ملأها، جمع زبية وهي حفيرة تحفر للوحوش في مكان مرتفع. والحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض. والمتون: جمع محن وهو الصلب من الأرض. وتضحضحت: صار فوقها ضحضاح من الماء وهو الرقيق.

ومن ذلك: ما رواه أبو حاتم أيضاً، عن الأصمعي، قال: سألت أعرابياً عن مطر أصابهم بعد جذب، فقال: ارتاح لنا ربك بعد ما استولى اليأس على الظنون، وخامر القلوب القنوط فأنشأ بنوء الجبهة قزعة كالقرص من قبل العين، فاحزألت عند ترجل النهار لأدهم السرار حتى إذا نهضت في الأفق طالعة، أمر مسخرها الجنوب فتبسمت لها، فانتشرت أحضائها، واحمومت أركانها، وبسق عنائها، واكفهرت رحاها، وانبججت كلاها، وذمرت اخراها اولاهها ثم استطارت عقائقتها، وارتعجت بوارقها، وتعققت صواعقها، ثم ارتعبت جوانبها، وتداعت سواكيبها، ودرت حوالبها فكانت للأرض طبقاً شج فهضب، وعم فأحسب فعل القيعان، وضحضح الغيطان، وصوح الأضواج، وأترع الشراج، فالحمد لله الذي جعل

كفاء إساءتنا إحساناً، وجزاء ظلمنا غفراناً.

قلت: نوء الجبهة محمود عندهم للمطر، والقزعة: المطعة الصغيرة من السحاب. والقرص: الترس. والعين ما عن يمين قبلة العراق. وترجل النهار: انبساط الشمس. والأدهم: أحد ليالي السرار، والأحضان: النواحي. واحمومت: اسودت. ويسق: علا. والعنان: ما يعترض من السحاب في الأفق. وانبعجت: انفتقت. وذمرت: حضت والعقائق: البروق. وارتعجت: اهتزت وارتعدت. وطبقاً، أي غطت الأرض. وهضب: جاء بالمطر دفعة دفعة. وأحسب: كفى. وعل القيعان: سقاها مرة بعد أخرى، والغيطان: جمع غائط وهو ما سف من الأرض. وصوح الأضواج: هدم الأجواف. وأترع الشراج: ملأ المسيلات.

ومن ذلك: ما رواه ابن دريد، عن عبد الرحمن، عن عمه الأصمعي، قال: سمعت أعرابياً من بني عامر يصف مطراً، قال: نشأ عند القصر بنوء الغفر حياً عارضاً ضاحكاً وامضاً، فكلا ولا ما كان حتى شجيت به أقطار الهواء، واحتجبت به السماء، ثم أطرق فاكفهر، وتراكم فادلمهم، ويسق فازلأم، ثم حدث به الريح فخر، والبرق مرتعج، والرعد مبتوج، والحدج مبتعج، فأنجم ثلاثاً، متحيراً هثهثاً، أخلافه حاشكة، ودفعه متواشكة، وسوامه متعاركة. ثم ودع منجماً، وأقلع متهماً، محمود البلاء، مترع النهاء، مشكور النعماء، بطول ذي الكبرياء.

قلت: القصر: العشي. والغفر من نجوم الأسد. والحي: الداني من الأرض. وقوله: كلا ولا أي في زمان قصير جداً. وشجيت به الأقطار: صار كالشجى لها. وازلأم: انتصب. والمرتعج: المتدارك والمبتوج: العالي الصوت. والحدج: السحاب أول ما ينشأ. وينتعج: يشقق. وأنجم: دام متحيراً، أي كأنه قد تحير لا وجه له يقصده. والهثهث: المداخل. وأخلافه حاشكة أي ضروعه ممتلئة. ودفعه متواشكة، أي مسرعة. وسوامه متعاركة، شبه قطع السحاب بسوام الإبل. ومنجماً: مقلعاً. ومتهماً: يسير نحو قمامة.

الفصل الخامس

في بيان أنه إمام أرباب صناعة البديع

وذلك لأن هذا الفن لا يوجد منه في كلام غيره ممن تقدمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة ولكنها واقعة بالإتفاق كما وقع التجنيس في القرآن العزيز اتفاقاً غير مقصود، وذلك نحو قوله: "يا أسفا على يوسف"، وكما وقعت المقابلة أيضاً غير مقصودة في قوله: "والسما رفعها ووضع الميزان"، على أنها ليست مقابلة في المعنى، بل من اللفظ خاصة. ولما تأمل العلماء شعر امرئ القيس ووجدوا فيه من الإستعارة بيتاً أو بيتين نحو قوله يصف الليل:

وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فقلت له لما تمطى بصلبه

وقوله:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وإن يك قد ساءتني خليقة

ولم ينشدوا مثل ذلك في أشعار الجاهلية، حكموا له بأنه إمام الشعراء ورئيسهم.

وهذا الفصل من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه قد اشتمل من الإستعارة العجيبة وغيرها من أبواب البديع على ما لو كان موجوداً في ديوان شاعر مكث، أو مترسل مكث، لكان مستحق التقديم بذلك ألا تراه كيف وصف الأمواج بأنها مستفحلة، وأنها ترغو رغاء فحول الإبل. ثم جعل الماء جماعاً، ثم وصفه بالخضوع، وجعل للأرض كلكلاً، وجعلها واطئة للماء به، ووصف الماء بالذل والاستخذاء لما جعل الأرض متمعة عليه كما يتمعك الحمار أو الفرس، وجعل لها كواهل، وجعل للذل حكمة، وجعل الماء في حكمة الذل منقاداً أسيراً، وساجياً مقهوراً. وجعل الماء قد كان ذا نخوة وبأو واعتلاء، فردته الأرض خاضعاً مسكيناً، وطأطأت من شموخ أنفه، ولسمو غلوائه، وجعلها كاعمة له، وجعل الماء ذا كظة بامتلائه، كما تعتري الكظة المستكثر من الأكل. ثم جعله هامداً بعد أن كانت له نزقات، ولأبداً بعد أن كانت له وثبات، ثم جعل للأرض أكتافاً وعرانين، وأنوفاً وخياشيم ثم نفى النوم عن وميض البرق، وجعل الجنوب مارية درر السحاب، ثم جعل للسحاب صدراً وبوناً، ثم جعل الأرض مبتهجة مسرورة مزدهاة، وجعل لها ريطاً من لباس الزهور، وشموطاً تحلى بها. فيالله وللعجب من قوم زعموا أن الكلام إنما يفضل بعضه بعضاً لاشتماله على أمثال هذه الصنعة، فإذا وجدوا في مائة ورقة كلمتين أو ثلاثاً منها، أقاموا القيامة، ونفخوا في الصور، ملأوا الصحف بالاستحسان لذلك والاستظراف، ثم يمرن على هذا الكلام المشحون كله بهذه الصنعة على ألطف وجه، وأرصح وجه، وأرشق عبارة، وأدق معنى، وأحسن مقصد، ثم يحملهم الهوى والعصبية على السكوت عن تفضيله إذا أجملوا وأحسنوا، ولم يتعصبوا لتفضيل غيره عليه! على أنه لا عجب، فإنه كلام علي رضي الله عنه، وحظ الكلام حظ المتكلم وأشبه امرأ بعض بزه.

الجزء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الواحد العدل بقية الخطبة التسعين الأصل: فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه لسلام خيرة من خلقه، وجعله أول جبلته، وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمته أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة بمتزلته فأقدم على ما نهاه عنه موافاة لسابق علمه. فأهبطه بعد التوبة، ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجة به على عباده، ولم يخلهم بعد أن قبضه مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، ومتحملي ودائع رسالاته قرناً فقرناً حتى تمت بنينا محمد صلى الله عليه وآله حجته، وبلغ المقطع عذرة ونذرة.

الشرح: مهد أرضه: سواها وأصلحها. ومنه المهاد وهو الفراش، ومهدت الفراش بالتخفيف مهداً، أي بسطته ووطأته. وقوله: خيرة من خلقه على فعلة، مثل عنبه، الاسم من قولك: اختاره الله يقال: محمد خيرة الله من خلقه ويجوز: خيرة الله بالتسكين، والاختيار: الاصطفاء.

والجبلية: الخلق، ومنه قوله تعالى: "واتقوا الذي خلقكم والجبلية الأولين"، ويجوز الجبلية، بالضم، وقرأ بها الحسن البصري، وقرئ قوله سبحانه: "ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً" على وجوه: فقرأ أهل المدينة بالكسر والتشديد، وقرأ أبو عمرو: "جبلاً كثيراً" مثل قفل، وقرأ الكسائي "جبلاً" كثيراً بضم الباء مثل حلم، وقرأ عيسى بن عمر "جبلاً" بكسر الجيم، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: "جبلاً" بالضم والتشديد.

قوله: "وأرغد فيها أكله"، أي جعل أكله وهو المأكول رغداً، أي واسعاً طيباً، قال سبحانه: "وكلا منها رغداً حيث شئتما"، وتقرأ رغداً ورغداً بكسر الغين وضمهما، وأرغد القوم أخصبوا، وصاروا في رغد من العيش. وقوله: "وأوعز إليه فيما نهاه عنه"، أي تقدم إليه بالإنذار، ويجوز "ووعز إليه" بالتشديد توعيزاً، ويجوز التخفيف أيضاً وعز إليه وعزاً، والواو في وأعلمه عاطفة على وأوعز، لا على نهاه.

قوله، "موافاة لسابق علمه" لا يجوز أن ينتصب لأنه مفعول له، وذلك لأن المفعول له يكون عذراً وعلة للفعل، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلهي السابق، ولا يستمر ذلك على مذاهبنا، بل يجب أن ينصب موافاة على المصدرية المحضة كأنه قال: فوافى بالمعصية موافاة، وطابق بها سابق العلم مطابقة.

قوله: "فأهبطه بعد التوبة"، قد اختلف الناس في ذلك، فقال قوم: بل أهبطه قبل التوبة ثم تاب عليه وهو في الأرض. وقال قوم: تاب قبل الهبوط، وهو قول أمير المؤمنين رضي الله عنه، ويدل عليه قوله تعالى: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا اهبطوا منها جميعاً"، فأخبر عن أنه أهبطهم بعد تلقي الكلمات والتوبة. وقال تعالى في موضع آخر: "وظفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين، قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين". فبين أن اعترافهما بالمعصية واستغفارهما كانا قبل أمرهما بالهبوط. وقال في

موضع آخر: "وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي، قال اهبطا منها جميعاً"، فجعل الإهباط بعد الاجتباء والتوبة، واحتج الأولون بقوله تعالى: "ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه"، قالوا: فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب لإزالة الشيطان لهما، ثم عقب الهبوط بفاء التعقيب في قوله: "فتلقى آدم من ربه كلمات"، فدل على أن التوبة بعد الهبوط. ويمكن أن يجاب عن هذا فيقال: إنه تعالى لم يقل: "فقلنا اهبطوا" بالفاء، بل قال: "وقلنا اهبطوا" بالواو، والواو لا تقتضي الترتيب، ولو كان عوضها فاء لكانت صريحة في أن الإهباط كان عقيب الزلة فأما الواو فلا تدل على ذلك بل يجوز أن تكون التوبة قبل الإهباط، ويخبر عن الإهباط بالواو قبل أن يخبر عن التوبة. قوله رضي الله عنه: "وليقيم الحجة على عباده"، أي إذا كان أبوهم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فأخلق بها ألا يدخلها ذو خطايا جمّة وهذا يؤكد مذهب أصحابنا في الوعيد، ثم أخبر رضي الله عنه أن البارئ سبحانه ما أحلى عباده بعد قبض آدم وتوفيه مما يؤكد عليهم حجج الربوبية، بل أرسل إليهم الرسل قرناً فقرناً، بفتح القاف، وهو أهل الزمان الواحد، قال الشاعر:

وخلفت في قرن فأنت غريب

إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهم

وتعاهدهم بالحجج، أي جدد العهد عندهم بما يروى بل تعهدهم بالتشديد، والتعهد: التحفظ بالشيء تعهدت فلاناً وتعهدت ضيعتي وهو أفصح من تعاهدت لأن التفاعل إنما يكون من شيئين وتقول: فلان يتعهده صرع. قوله: "وبلغ المقطع عذرة ونذره"، مقطع الشيء حيث ينقطع، ولا يبقى خلفه شيء منه، أي لم يزل يبعث الأنبياء واحداً بعد واحد حتى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم فتمت له حجته على الخلق أجمعين. وبلغ الأمر مقطعه، أي لم يبق بعده رسول الله ينتظر وانتهدت عذر الله تعالى ونذره، فعذره ما بين للمكلفين من الإعذار في عقوبته لهم إن عصوه، ونذره ما أنذرهم به من الحوادث، ومن أنذرهم على لسانه من الرسل.

اختلاف المتكلمين في عصمة الأنبياء،

واعلم أن المتكلمين اختلفوا في عصمة الأنبياء، ونحن نذكر ههنا طرفاً من حكاية المذاهب في هذه المسألة على سبيل الاختصاص ونقل الآراء لا على سبيل الحجاج ونخص قصة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر إذ كانت هذه القصة المذكورة في كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في هذا الفصل، فنقول: اختلف الناس في المعصوم ما هو؟ فقال قوم: المعصوم هو الذي لا يمكنه الإتيان بالمعاصي وهؤلاء هم الأقلون من العلماء أهل النظر واختلفوا في عدم التمكن كيف هو فقال قوم منهم: المعصوم هو المختص في نفسه أو بدنه أو فيهما، بخاصية تقتضي امتناع إقدامه على المعاصي. وقال قوم منهم: بل المعصوم مساو في الخواص النفسية والبدنية لغير المعصوم. وإنما العصمة هي القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية، وهذا قول الأشعري نفسه وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه. وقال الأكثرون من أهل النظر: بل المعصوم مختار متمكن من المعصية والطاعة.

وفسروا العصمة بتفسيرين: أحدهما: أنها أمور يفعلها الله تعالى بالملكف فتقتضي ألا يفعل المعصية اقتضاء غيربالغ إلى حد الإيجاب، وفسروا هذه الأمور فقالوا: إنها أربعة أشياء: أولها أن يكون لنفس الإنسان ملكة مانعة من الفجور، داعية إلى العفة، وثانيها العلم بمثالب المعصية ومناقب الطاعة. وثالثها تأكيد ذلك العلم بالوحي والبيان من الله تعالى. ورابعها أنه متى صدر عنه خطأ من باب النسيان والسهو لم يترك مهماً بل يعاقب وينبه ويضيق عليه العذر قالوا: فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشخص معصوماً عن المعاصي لا محالة، لأن العفة إذا انضاف إليها العلم بما في الطاعة من السعادة وما في المعصية من الشقاوة ثم أكد ذلك تتابع الوحي إليه وترادفه، وتظاهر البيان عنده، وتم ذلك خوفه من العتاب على القدر القليل، حصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة العصمة.

وقال أصحابنا: العصمة لطف يمتنع المكلف عند فعله من القبيح اختياراً، وقد يكون ذلك اللطف خارجاً عن الأمور الأربعة المعدودة، مثل أن يعلم الله تعالى أنه إن أنشأ سبحانه، أو أهب ريحاً، أو حرك جسماً، فإن زيدا يمتنع عن قبيح مخصوص اختياراً، فإنه تعالى يجب عليه فعل ذلك، ويكون هذا اللطف عصمة لزيد، وإن كان الإطلاق المشتهر في العصمة إنما هو لمجموع ألطاف يمتنع المكلف بها عن القبيح مدة زمان تكليفه، وينبغي أن يقع الكلام بعد هذه المقدمة في ثلاثة فصول:

الفصل الأول في حال الأنبياء قبل البعثة

ومن الذي يجوز أن يرسله الله تعالى إلى العباد

فالذي عليه أصحابنا المعتزلة رحمهم الله، أنه يجب أن يتره النبي قبل البعثة عما كان فيه تنفير عن الحق الذي يدعو إليه، وعما فيه غضاظة وعيب.

فالأول نحو أن يكون كافراً أو فاسقاً، وذلك لأننا نجد التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد الناس منه السخف والجون والفسق، لا يقع أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهدوه إلا على السداد والصلاح. والثاني نحو أن يكون حجاجاً أو حاكماً أو محترفاً بحرفة يقدرها الناس، ويستخفون بصاحبها، إلا أن يكون المبعوث إليهم على خلاف ما هو المعهود الآن، بألا يكون من تعاطى ذلك مستهاناً به عندهم، ووافق أصحابنا في هذا القول جمهور المتكلمين.

وقال قوم من الخوارج: يجوز أن يبعث الله تعالى من كان كافراً قبل الرسالة، وهو قول ابن فورك من الأشعرية، لكنه زعم أن هذا الجائز لم يقع.

وقال قوم من الحشوية: قد كان محمد صلى الله عليه وسلم كافراً قبل البعثة، واحتجوا بقوله تعالى: "ووجدك ضالاً فهدى".

وقال برغوث المتكلم، وهو أحد النجارية: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً بالله قبل أن يبعثه، لأنه تعالى قال له: "ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان".

وروي عن السدي في قوله تعالى: "ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك"، قال: وزره: الشرك، فإنه كان على دين قومه أربعين سنة.

وقال بعض الكرامية في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام، "قال أسلمت": إنه أسلم يومئذ، ولم يكن من قبل ذلك مسلماً، ومثل ذلك، قال اليمان بن رباب، متكلم الخوارج.

وحكى كثير من أرباب المقالات عن شيخنا أبي الهذيل وأبي علي جواز أن يبعث الله تعالى من قد ارتكب كبيرة قبل البعثة، ولم أجد في كتب أصحابنا حكاية هذا المذهب عن الشيخ أبي الهذيل، ووجدته عن أبي علي، ذكره أبو محمد بن متويه في كتاب الكفالة، فقال: منع أهل العدل كلهم من تجويز بعثة من كان فاسقاً قبل النبوة إلا ما جرى في كلام الشيخ أبي علي رحمه الله تعالى من ثبوت فصل بين البعثة وقبلها، فأجاز أن يكون قبل البعثة مرتكباً لكبيرة ثم يتوب، فيبعثه الله تعالى حينئذ، وهو مذهب محكي عن عبد الله بن العباس الرامهرمزي.

ثم قال الشيخ أبو محمد رحمه الله تعالى: والصحيح من قول أبي علي رحمه الله تعالى مثل ما نختاره من التسوية بين حال البعثة وقبلها في المنع من جواز ذلك.

وقال قوم من الأشعرية ومن أهل الظاهر وأرباب الحديث: إن ذلك جائز واقع، واستدلوا بأحوال إخوة يوسف. ومنع المانعون من ذلك من ثبوت نبوة إخوة يوسف، ثم هؤلاء المجوزون، منهم من جوز عليهم فعل الكبائر مطلقاً، ومنهم من جوز ذلك على سبيل الندرة ثم يتوبون عنه، ويشتهر حالهم بين الخلق بالصلاح، فأما لو فرضنا إصرارهم على الكبائر بحيث يصيرون مشهورين بالفسق والمعاصي، فإن ذلك لا يجوز لأنه يفوت الغرض من إرسالهم ونبوتهم على هذا التقدير. وقالت الإمامية: لا يجوز أن يبعث الله تعالى نبياً قد وقع منه قبيح قبل النبوة، لا صغيراً ولا كبيراً، لا عمداً ولا خطأً، ولا على سبيل التأويل والشبهة وهذا المذهب مما تفردوا به فإن أصحابنا وغيرهم من المانعين للكبائر قبل النبوة، لم يمنعوا وقوع الصغائر منهم إذا لم تكن مسخفة منفرة. أطردت الإمامية هذا القول في الأئمة فجعلت حكمهم في ذلك حكم الأنبياء في وجوب العصمة المطلقة لهم قبل النبوة وبعدها.

الفصل الثاني عصمة الأنبياء في زمن النبوة

عن الذنوب في أفعالهم وتروكهم عدا ما يتعلق بتبليغ الوحي والفتوى في الأحكام جوز قوم من الحشوية عليهم هذه الكبائر وهم أنبياء كالزنا واللواط وغيرهما، وفيهم من جوز ذلك بشرط الاستسرار دون الإعلان، وفيهم من جوز ذلك على الأحوال كلها.

ومنع أصحابنا المعتزلة من وقوع الكبائر منهم رضي الله عنه أصلاً، ومنعوا أيضاً من وقوع الصغائر المسخفة منهم، وجوزوا وقوع الصغائر التي ليست بمسخفة منهم. ثم اختلفوا فمنهم من جوز على النبي الإقدام على المعصية الصغيرة غير المسخفة عمداً وهو قول شيخنا أبي هاشم رحمه الله تعالى فإنه أجاز ذلك وقال: إنه لا يقدم رضي الله عنه على ذلك إلا

على خوف ووجل، ولا يتجرأ على الله سبحانه.

ومنهم من منع من تعمد إثبات الصغيرة، وقال: إنهم لا يقدمون على الذنوب التي يعلمونها ذنباً، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة وهذا قول أبي علي رحمه الله تعالى.

وحكي عن أبي إسحاق النظام وجعفر بن مبشر، أن ذنوبهم لا تكون إلا على سبيل السهو والنسيان، وأنهم مؤاخذون بذلك وإن كان موضوعاً عن أمتهم، لأن معرفتهم أقوى، ودلائلهم أكثر، وأخطارهم أعظم ويتهياً لهم من التحفظ ما لا يتهياً لغيرهم.

وقالت الإمامية: لا يجوز عليهم الكبائر ولا الصغائر، لا عمداً ولا خطأ، ولا سهواً، ولا على سبيل التأويل والشبهة، وكذلك قولهم في الأئمة والخلاف بيننا وبينهم في الأنبياء يكاد يكون ساقطاً، لأن أصحابنا إنما لمجوزون عليهم الصغائر، لأنه لا عقاب عليها وإنما تقتضي نقصان الثواب المستحق على قاعدتهم في مسألة الإحباط، فقد اعترف إذاً أصحابنا بأنه لا يقع من الأنبياء ما يستحقون به ذمماً ولا عقاباً والإمامية إنما تنفي عن الأنبياء الصغائر والكبائر من حيث كان كل شيء منها يستحق فاعله به الذم والعقاب، لأن الإحباط باطل عندهم فإذا كان استحقاق الذم والعقاب يجب أن ينفي عن الأنبياء، وجب أن ينفي عنهم سائر الذنوب، فقد صار الخلاف إذا متعلقاً بمسألة الإحباط، وصارت هذه المسألة فرعاً من فروعها.

واعلم أن القول بجواز الصغائر على الأنبياء بالتأويل والشبهة على ما ذهب إليه شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى، إنما اقتضاه تفسيره لآية آدم والشجرة، وتكلفه إخراجها عن تعمد آدم للعصيان فقال إن آدم نهي عن نوع تلك الشجرة لا عن عينها، بقوله تعالى: "ولا تقربا هذه الشجرة"، وأراد سبحانه نوعها المطلق، فظن آدم أنه أراد خصوصية تلك الشجرة بعينها وقد كان أشير إليها فلم يأكل منها بعينها، ولكنه أكل من شجرة أخرى من نوعها، فأخطأ في التأويل. وأصحاب شيخنا أبي هاشم لا يرضون هذا المذهب، ويقولون إن الإشكال باق بحاله، لأن آدم أحل بالنظر على هذا القول في أن المنهي عنه: هل هو عين الشجرة أو نوعها مع أنه قد كان مدلولاً على ذلك، لأنه لو لم يكن مدلولاً على ذلك لكان تكليف الامتناع عن التناول تكليف ما لا يطاق، وإذا دل على ذلك وجب عليه النظر ولا وجه يجب النظر لأجله إلا الخوف من تركه وإذا لم يكن بد من كونه خائفاً فهو عالم إذا بوجوب هذا التأمل والنظر فإذا أحل به فقد وقعت منه المعصية مع علمه.

وكما لا يرضى أصحاب شيخنا أبي هاشم هذا المذهب فكذلك لا يرتضون مذهب النظام وجعفر بن مبشر وذلك لأن القول بأن الأنبياء يؤاخذون على ما يفعلونه سهواً متناقض لأن السهو يزيل التكليف، ويخرج الفعل من كونه ذنباً مؤاخذاً به ولهذا لا يصح مؤاخضة المجنون والنائم، والسهو في كونه مؤثراً في رفع التكليف جار مجرى فقد القدر والألات والأدلة فلو جاز أن يخالف حال الأنبياء حال غيرهم في صحة تكليفهم مع السهو، جاز أن يخالف حالهم حال غيرهم في صحة التكليف مع فقد القدر وإلا لا بد من ذلك باطل.

واعلم أن الشريف المرتضى - رحمه الله تعالى - قد تكلم في كتابه المسمى "بنتزيه الأنبياء والأئمة" على هذه الآية، وانتصر

لمذهب الإمامية فيها، وحاول صرفها عن ظاهرها، وتأول اللفظ بتأويل مستكره غير صحيح وأنا أحكي كلامه ههنا وأتكلم عليه نصرة لأصحابنا، ونصرة أيضاً لأمر المؤمنين رضي الله عنه فإنه قد صرح في هذا الفصل بوقوع الذنب من آدم عليه السلام، ألا ترى إلى قوله: "والمخاطرة بمثلته" وهل تكون هذه اللفظة إلا في الذنب، وكذلك سياقة الفصل من أوله إلى آخره إذا تأمله المنصف واطرح الهوى والتعصب. ثم إنا نذكر كلام السيد الشريف المرتضى رحمه تعالى، قال رحمه تعالى: أما قوله تعالى: "وعصى آدم ربه" فإن المعصية مخالفة للأمر والأمر من الحكيم تعالى قد يكون بالواجب وبالندب معاً فلا يمتنع على هذا أن يكون آدم مندوباً إلى ترك تناول من الشجرة، فيكون بمواقعتها تاركاً فرضاً ونفلاً، وغير فاعل قبيحاً، وليس يمتنع أن يسمى تارك النفل عاصياً، كما يسمى بذلك تارك الواجب، فإن تسمية من خالف ما أمر به سواء كان واجباً أو نفلاً بأنه عاص ظاهراً، ولهذا يقولون: أمرت فلاناً بكذا وكذا من الخير فعصاني وخالفني، وإن لم يكن ما أمر به واجباً يقال له: الكلام على هذا التأويل من وجوه: أولها أن ألفاظ الشرع يجب أن تحمل على حقائقها اللغوية ما لم يكن لها حقائق شرعية، فإذا كان لها حقائق شرعية وجب أن تحمل على عرف الشرع واصطلاحه، كالصلاة والحج والنفق والكفر، ونحو ذلك من الألفاظ الشرعية، وهكذا قال السيد المرتضى رحمه تعالى في كتابه في أصول الفقه المعروف بالذريعة في باب كون الأمر للوجوب وهو الحق الذي لا مندوحة عنه. وإذا كان لفظ العصيان في الاصطلاح الشرعي موضوعاً لمخالفة الأمر الإيجابي لم يجز العدول عنه وحمله على مخالفة الندب.

ومعلوم أن لفظ العصيان في العرف الشرعي لا يطلق إلا على مخالفة الأمر المقتضي للوجوب، فالقول بجواز حملها على مخالفة الأمر الندي قول تبطله وتدفعه تلك القاعدة المقررة التي ثبتت بالاتفاق وبالدليل، على أننا قبل أن نجيب بهذا الوجه نمنع أصلاً أنه يجوز أن يقال لتارك النفل: إنه عاص لا في أصل اللغة، ولا في العرف، ولا في الشرع، وذلك لأن حقيقة النفل هو ما يقال فيه للمكلف: الأولى أن تفعل هذا، ولك ألا تفعله، ومعلوم أن تارك مثل ذلك لا يطلق عليه أنه عاص ويبين ذلك أن لفظ العصيان في اللغة موضوع للامتناع ولذلك سميت العصا عصاً، لأنه يمتنع بها ومنه قولهم: قد شق العصا، أي خرج عن الرتبة المانعة من الاختلاف والتفرق، وتارك الندب لا يمتنع من أمر، لأن الأمر الندي لا يقتضي شيئاً اقتضاء للزوم، بل معناه إن فعلت فهو أولى ويجوز ألا تفعل، فأما امتناع حدث إذا خولف أمر الندب سمي المخالف له عاصياً، ويبين ذلك أيضاً أن لفظ عاص اسم ذم، فلا يجوز إطلاقه على تارك الندب كما لا يسمى فاسقاً، وإن كان الفسق في أصل اللغة للخروج.

ثم يسأل المرتضى رحمه تعالى عما سأل عنه نفسه، فيقال له: كيف يجوز أن يكون ترك الندب معصية أو ليس هذا يوجب أن يوصف الأنبياء بأنهم عصاة في كل حال، وأنهم لا ينفكون عن المعصية لأنهم لا يكادون ينفكون من ترك الندب؟! وقد أجاب رحمه تعالى عن هذا، فقال: وصف تارك الندب بأنه عاص توسع وتجوز، والمجاز لا يقاس عليه، ولا يعدى عن موضعه. ولو قيل إنه حقيقة في فاعل القبيح، وتارك الأولى والأفضل لم يجز إطلاقه في الأنبياء إلا مع التقييد، لأن استعماله قد كثر في فاعل القبيح، فإطلاقه عن التقييد موهم.

لكننا نقول: إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنهم فعلوا القبيح، فلا يجوز ذلك، وإن أردت أنهم تركوا ما لو فعلوه لاستحقوا الثواب ولكان أولى، فهم كذلك.

كذلك يقال له: ليس هذا من باب القياس على المجاز الذي اختلف فيه أرباب أصول الفقه لأن من قال: إذا ترك زيد النذب فإنه يسمى عاصياً يلزمه أن يقول: إن عمراً إذا ترك النذب يسمى عاصياً وليس هذا قياساً، كما أن من قال لزيد البلبد: هذا حمار، قال لعمرو البلبد: هذا حمار، والقياس على المجاز الذي اختلف الأصوليون في جوازه خارج عن هذا الموضوع، ومثال المسألة الأصولية المختلف فيها: "واخفض لهما جناح الذل"، هل يجوز أن يقال: طأطأ لهما عنق الذل! وأما قوله: لو سلمنا أنه حقيقة في تارك النذب لم يجز إطلاقه في حق الأنبياء لأنه يوهم العصيان بل يجب أن يقيد، فيقال له: لكن البارئ سبحانه أطلقه ولم يقيده في قوله: "وعصى آدم"، فيلزمك أن يكون تعالى موهماً وفاعلاً للقبيح لأن إيهام القبيح قبيح.

فإن قال: الدلالة العقلية على استحالة المعاصي على الأنبياء تؤمن من الإيهام. قيل له: وتلك الدلالة بعينها تؤمن من الإيهام في قول القائل: الأنبياء عصاة فهلا أجزت إطلاق ذلك! وثانيها أنه تعالى قال: "فغوى!" والغى الضلال.

قال المرتضى رحمه الله تعالى: معنى غوى ههنا خاب، لأنه نعلم أنه لو فعل ما ندب إليه من ترك التناول من الشجرة لاستحق الثواب العظيم فإذا خالف الأمر ولم يصبر إلى ما ندب إليه، فقد خاب لا محالة من حيث لم يصبر إلى الثواب الذي كان يستحقه بالامتناع لا شبهة في أن لفظ غوى يحتمل الحية، قال الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

يقال له: ألسنت القائل في مصنفاتك الكلامية: إن المندوبات إنما ندب إليها، لأنها كالمسهلات والميسرات لفعل الواجبات العقلية، وإنما ليست ألطافاً في واجب عقلي وإن ثوابها يسير جداً بالإضافة إلى ثواب الواجب! فإذا كان آدم عليه السلام ما أخل بشيء من الواجبات، ولا فعل شيئاً من المقبحات فقد استحق من الثواب العظيم ما يستحق ثواب المندوب بالإضافة إليه. ومثل هذا لا يقال فيه لمن ترك المندوب إنه قد خاب. ألا ترى أن من اكتسب مائة ألف قنطار من المال، وترك بعد ذلك درهماً واحداً كان يمكنه اكتسابه فلم يكتسبه، لا يقال: إنه خاب! وثالثها أن ظاهر القرآن يخالف ما ذكره، لأنه تعالى أخبر أن آدم منهى عن أكل الشجرة بقوله: "ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين"، وقوله: "ألم أنهكما عن تلكما الشجرة"، وهذا يوجب أنه قد عمى بأن فعل منهياً عنه، والشريف المرتضى رحمه الله تعالى يقول: إنه عمى بأن ترك مأموراً به.

قال المرتضى رحمه الله تعالى مجيباً عن هذا: إن الأمر والنهي ليسا يختصان عندنا بصيغة ليس فيها احتمال واشتراك، وقد يؤمر عندنا بلفظ النهي وينهى بلفظ الأمر وإنما يكون النهي نهياً بكرهه المني عنه، فإذا قال تعالى: "لا تقربا هذه الشجرة"، ولم يكره قربهما لم يكن في الحقيقة ناهياً، كما أنه تعالى لما قال: "اعملوا ما شئتم"، وإذا حللتهم فاصطادوا" ولم يرد ذلك، لم يكن أمراً به وإذا كان قد صحب قوله: "لا تقربا هذه الشجرة"، إرادة ترك التناول، وجب أن يكون هذا القول أمراً وإنما سماه منهياً، وسمى أمره له بأنه نهى من حيث كان فيه معنى النهي لأن في النهي ترغيباً في الامتناع من الفعل، وتزهيداً في

الفعل نفسه، ولما كان الأمر ترغيباً من فعل المأمور، وتزهيداً في تركه جاز أن يسمى نهياً. وقد يتداخل هذان الوضعان في الشاهد، فيقول أحدهما: قد أمرت فلاناً بألا يلقي الأمير وإنما يريد أنه نهاه عن لقائه ويقول: نهيتك عن هجر زيد وإنما معناه أمرتك بمواصلته.

يقال له: هذا خلاف الظاهر، فلا يجوز المصير إليه إلا بدلالة قاطعة تصرف اللفظ عن ظاهره ويكفي أصحاب أبي هاشم في نصره قولهم التمسك بالظاهر.

واعلم أن بعض أصحابنا تأول هذه الآية، وقال: إن ذلك وقع من آدم عليه السلام قبل نبوته لأنه لو كان نبياً قبل إخراجهم من الجنة، لكان إما أن يكون مرسلاً إلى نفسه وهو باطل، أو إلى حواء وقد كان الخطاب يأتيها بغير واسطة، لقوله تعالى: "ولا تقربا"، أو إلى الملائكة، وهذا باطل، لأن الملائكة رسل الله، بدليل قوله: "جاعل الملائكة رسلاً"، والرسول لا يحتاج إلى رسول آخر، أو يكون رسولاً وليس هناك من يرسل إليه، وهذا محال. فثبت أن هذه الواقعة وقعت له عليه السلام قبل نبوته وإرساله.

الفصل الثالث خطئهم في التبليغ والفتاوى

قال أصحابنا: إن الأنبياء معصومون من كل خطأ يتعلق بالأداء والتبليغ، فلا يجوز عليهم الكذب ولا التغيير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة، ولا الغلط فيما يؤدونه عن تعالى، ولا السهو فيه ولا الإلغاز ولا التعمية، لأن كل ذلك إما أن ينقض دلالة المعجز على صدقه، أو يؤدي إلى تكليف ما لا يطاق.

وقال قوم من الكرامية والحشوية: يجوز عليهم الخطأ في أقوالهم، كما جاز في أفعالهم قالوا: وقد أخطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التبليغ، حيث قال: "تلك الغرائق العلا وإن شفاعتهن لترتجى".

وقال قوم منهم: يجوز الغلط على الأنبياء فيما لم تكن الحجة فيه مجرد خبرهم، لأنه لا يكون في ذلك إبطال حجة الله على خلقه، كما وقع من النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الصورة، فإن قوله ذلك ليس بمبطل لحجة العقل في أن الأصنام لا يجوز تعظيمها، ولا ترجى شفاعتها. فأما ما كان السبيل إليه مجرد السمع فلو أمكن الغلط فيه لبطلت الحجة بإخبارهم.

وقال قوم منهم: إن الأنبياء يجوز أن يخطئوا في أقوالهم وأفعالهم، إذا لم تخر تلك الأفعال مجرى بيان الوحي، كبيانه رضي الله عنه لنا الشريعة، ولا يجوز عليه الخطأ في حال البيان، وإن كان يجوز عليه ذلك في غير حال البيان، كما روي من خبر ذي اليمين حين سها النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، وكذلك ما يكون منه من تبليغ وحي، فإنه لا يجوز عليه أن يخطئ فيه، لأنه حجة الله على عباده. فأما في أقواله الخارجة عن التبليغ، فيجوز أن يخطئ كما روي عنه صلى الله عليه وسلم في نهيه لأهل المدينة عن تأبير النخل، فأما أصحابنا المعتزلة، فإنهم اختلفوا في الخبر المروي عنه عليه الصلاة والسلام في سورة النجم، فمنهم من دفع الخبر أصلاً ولم يقبله، وطعن في رواته، ومنهم من اعترف بكونه قرآناً متزلاً، وهم فريقان: أحدهما القائلون بأنه كان وصفاً للملائكة، فلما ظن المشركون أنه وصف آلهتهم، رفع ونهى عن تلاوته. وثانيهما القائلون إنه خارج على وجه الاستفهام بمعنى الإنكار، فتوهم سامعوه أنه بمعنى التحقيق، فنسخه الله تعالى ونهى عن

تلاوته.

ومنهم من قال: ليس بقرآن منزل، بل هو كلام تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه على طريق الإنكار والهزء بقريش، فظنوا أنه يريد التحقيق، فنسخه الله بأن بين خطأ ظنهم، وهذا معنى قوله: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته". قالوا: فإلقاء الشيطان ههنا هو إلقاء الشبهة في قلوب المشركين، وإنما أضافه إلى أمنيته، وهي تلاوته القرآن، لأن بغرور الشيطان ووسوسته أضاف المشركون إلى تلاوته رضي الله عنه ما لم يرده بها.

وأنكر أصحابنا الأخبار الواردة التي تقتضي الطعن على الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا: وكيف يجوز أن تصدق هذه الأخبار الآحاد على من قد قال تعالى له: "كذلك لنثبت به فؤادك" وقال له: "سنقرئك فلا تنسى"، وقال عنه: "ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين" ثم لقطعنا منه الوتين". وأما خبر ذي اليمين وخبر تأبير النخل، فقد تكلما عليهما في كتبنا المصنفة في أصول الفقه.

الأصل: وقدر الأرزاق فكثرتها وقللها، وقسمها على الضيق والسعة، فعدل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها. ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها، وبسلامتها طوارق أفاتها، وبفرج أفرحها غصص أتراحها. وخلق الآجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها، ووصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا لأشطانها، وقاطعاً لمرائر أقرانها.

الشرح: الضيق والضيق: لغتان، فأما المصدر من ضاق فالضيق بالكسر، لا غير.

وعدل فيها: من التعديل وهو التقويم، وروي: فعدل، بالتخفيف، من العدل نقيض الظلم، والميسور والمعسور: مصدران. وقال سيبويه: هما صفتان، ولا يجيء عنده المصدر على وزن مفعول البتة، ويتأول قولهم: دعه إلى ميسوره، ويقول كأنه قال: دعه إلى أمر يوسر فيه، وكذلك يتأول المعقول أيضاً، فيقول كأنه عقل له شيء، أي حبس وأيد وسدد. ومعنى قوله رضي الله عنه: "ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها"، هو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن إعطاء هذا المال فتنة، وإمسأكه فتنة". والعقابيل في الأصل: الحلا، وهو قروح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض. والفاقة: الفقر، وطوارق الآفات: متجددات المصائب، وأصل الطروق ما يأتي ليلاً، والأتراح: الغموم، الواحد ترح، وترحه تريحاً، أي أحزنه، وخالجا: جاذباً، والخلج الجذب، خلجه يخلجه بالكسر، واختلجه، ومنه الخليج: الحبل لأنه يجذب به، وسمي خليج البحر خليجاً لأنه يجذب من معظم البحر.

والأشطان: الحبال، واحدها شطن، وشطنت الفرس أشطنه، إذا شدته بالشطن، والقرائن: الحبال، جمع قرن، وهو من شواذ الجموع، قال الشاعر:

أنى لدى الباب كالمشدود في قرن

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقبه

ومرائر القرائن: جمع مرير، وهو ما لطف وطال منها واشتد فتله، وهذا الكلام من باب الاستعارة. الأصل: عالم السر من ضمائر المضميرين ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الجفون، وما ضمته أكنان القلوب، وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائح الأسماخ، ومصائف الذر، ومشاتي الهوام ورجع الحنين من الموهلات، وهمس الأقدام، ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام، ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها، ومختبأ! البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها، ومغرز الأوراق من الأفنان، ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب، وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قطر السحاب في متراكمها، وما تسفي الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعموم بنات الأرض في كئيبان الرمال، ومستقر ذوات الأجنحة بذرا شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، وما أوعبته الأصداف، وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشيتها سدفة ليل، أو ذر عليه شارق نهار، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير، وسبحات النور وأثر كل خطوة، وحس كل حركة، ورجع كل كلمة، وتحريك كل شفة، ومستقر كل نسمة، ومثقال كل ذرة، وهماهم كل نفس هامة، وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرارة نطفة، أو نقاعة دم ومضغة، أو ناشئة خلق وسلالة لم يلحقه في ذلك كلفة، ولا أعترضته في حفظ ما أبتاع من خلقه عارضة، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة، بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله.

الشرح: لوسمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله علي بن العباس بن خريج، لإسماعيل بن بلبل :

كلا، ولكن لعمرى منه شيبان

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم

كما علا برسول الله عدنان

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقر به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول له: إنه لم يعف ما شيدت من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبتدعه أنت في جاهلية النبط بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس، القائل بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات لحشع قلبه، وقف شعره، واضطرب فكره ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابة، والعظمة والفخامة، والمتانة والجزالة! مع ما قد أشرب من الحلاوة والطلاوة واللفظ والسلاسة لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه، فإن هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة، وجدول من ذلك البحر، وجذوة من تلك النار وكأنه شرح قوله تعالى: "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين".

ثم نعود إلى التفسير فنقول: النجوى: المسارة، تقول: انتجى القوم وتناجوا، أي تساروا، وانتجيت زيدا إذا خصصته بمناجاتك ومنه الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أطال النجوى مع علي رضي الله عنه فقال قوم: لقد أطال اليوم نجوى ابن عمه، فبلغه ذلك فقال: "إني ما انتجيتك ولكن الله انتجاه". ويقال للسر نفسه النجو يقال: نجوته نجواً أي ساررته وكذلك

ناجيته مناجاة، وسمي ذلك الأمر المخصوص بنجوى لأنه يستسر به فأما قوله تعالى: "وإذ هم نجوى" فجعلهم هم النجوى، وإنما النجوى فعلهم فإنما هو كقولك: "قوم رضاً" وإنما الرضا، فعلهم ويقال للذي تساره: النجي على فعيل وجمعه أنجية، قال الشاعر:

إنني إذا ما القوم كانوا أنجيه

وقد يكون النجي جماعة مثل الصديق قال الله تعالى: "خلصوا نجياً"، وقال الفراء: قد يكون النجي والنجوى اسماً ومصدرًا. والمتخافتين: الذين يسرون المنطق، وهي المخافتة والتخافت والخفت، قال الشاعر:

وأخاطب جهراً إذ لهن تخافت

وشتان بين الجهر والمنطق الخفت

ورجم الظنون: القول بالظن، قال سبحانه: "رجماً بالغيب"، ومنه الحديث المرحم بالتشديد، وهو الذي لا يدري أحق هو أم باطل، ويقال صار رجماً، أي لا يوقف على حقيقة أمره. وعقد عزيمات اليقين، العزائم: التي يعقد القلب عليها وتطمئن النفس إليها.

ومسارق إيماض الجفون: ما تسترقه الأبصار حين تومض، يقال: أومض البصر والبرق إيماضاً إذا لمع لمعاً خفيفاً، ويجوز: ومض بغير همز، يمحض ومضاً ووميضاً وومضاناً. وأكنان قلوب: غلفها، والكن: الستر، والجمع أكنان، قال تعالى: "وجعل لكم من الجبال أكناناً"، ويروى: أكنة القلوب وهي الأغطية أيضاً، قال تعالى: "وجعلنا على قلوبهم أكنة"، والواحد كنان، قال عمر بن أبي ربيعة:

تحت عين كناننا

ظل برد مرchl

ويعني بالذي ضمته أكنان القلوب الضمائر.

وغيابات الغيوب: جمع غيابة، وهي قعر البئر في الأصل ثم نقلت إلى كل غامض خفي، مثل غيابة، وقد روي: غبابات بالباء، وأصغت: تسمعت ومالت نحوه، ولاستراقه: لاستماعه في خفية، قال تعالى: "إلا من استرق السمع"، ومصائخ الأسماع: خروقتها التي يصيح بها، أي يتسمع، ومصائف الذر: المواضع التي يصيف الذر فيها، أي يقيم الصيف، يقال: صاف بالمكان واصطاف بمعنى، والموضع مصيف ومصطاف، والذر: جمع ذرة، وهي أصغر النمل، ومشاتي الهوام: المواضع التي تشتهو الهوام بها، يقال: شتوت بموضع كذا وتشتيت، أي أقمت به الشتاء، والهوام: جمع هامة، ولا يقع هذا الاسم إلا على المخوف من الأحناش.

ورجع الحنين: ترجيعه وترديده، والمولحات: النوق والنساء اللواتي حيل بينهن وبين أولادهن، وهمس الأقدام: صوت وطئها خفياً جداً، قال تعالى: "فلا تسمع إلا همساً"، ومنه قول الراجز.

فهن يمشين بنا هميسا

والأسد الهموس: الخفي الوطاء، ومنفسح الثمرة، أي موضع سعتها من الأكمام، وقد روي: متفسخ بالخاء المعجمة وتشديد السين وبتاء بعد الميم، مصدرًا من تفسخت الثمرة، إذا انقطعت. والولائح: المواضع الساترة، والواحدة وليجة، وهو كالكهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره، ويقال أيضاً في جمعه: ولج

وأولاج.

ومتقمع الوحوش: موضع تقمعها واستتارها، وسمي قمعة بن إلياس بن مضر بذلك، لأنه انقمع في بيته كما زعموا، وغير أن الجبال: جمع غار، وهو كالكهف في الجبل، والمغار مثل الغار والمغارة مثله، ومختبأ البعوض: موضع اختبائها واستتارها، وسوق الأشجار: جمع ساق، وألحيثها جمع لحاء وهو القشر، ومغرز الأوراق: موضع غرزها فيها. والأفنان: جمع فنن، وهو الغصن والأمشاج: ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها، جمع مشيج، كيتيم وأيتام. ومحطها: إما مصدر أو مكان. ومسارب الأصلاب: المواضع التي يتسرب المني فيها من الصلب، أي يسيل. وناشئة الغيوم: أول ما ينشأ منها، وهو النشيء أيضاً، وناشئة الليل في قوله تعالى: "إن ناشئة الليل هي أشد وطأً أول ساعاته، ويقال: هي ما ينشأ في الليل من الطاعات. ومتلاحمها، ما يلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم.

ودرور قطر السحاب: مصدر، من در يدر، أي سال، وناقاة درور: أي كثيرة اللبن، وسحاب درور: أي كثير المطر، ويقال: إن لهذا السحاب لدرة، أي. صبا، والجمع درور. ومتراكمها: المجتمع المتكاثف منها، ركمت الشيء أركمه بالضم: جمعته وألقيت بعضه على بعض، ورمل ركام، وسحاب ركام، أي مجتمع. والأعاصير: جمع إعصار، وهي ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كالعمود. وقال تعالى: "فأصابها إعصار فيه نار"، وتسفي، من سفت الريح التراب سفياً، إذا أذرته فهو سفي. وذيوها ههنا، يريد به أطرافها وما لاحف الأرض منها، وما تعفو الأمطار: أي ما تدرس عفت الريح المتزل أي درسته، وعفا المتزل نفسه يعفو: درس، يتعدى، ولا يتعدى، وبنات الأرض: الهوام والحشرات التي تكون في الرمال، وعومها فيها: سباحتها ويقال لسير السفينة وسير الإبل أيضاً: عوم، عمت في الماء، بضم أوله أعوم. وكتبان الرمال: جمع كتيب وهو ما انصب من الرمل واجتمع في مكان واحد فصار تلا، وكتبت الشيء أكتبه كتباً، إذا جمعته، وانكتب الرمل: اجتمع.

وشناخيب الجبال: رؤوسها، واحدها شنخوب. وذراها: أعاليها جمع ذروة وذروة، بالكسر والضم، والتغريد: التطريب بالغناء، والتغرد مثله وكذلك الغرد بفتحهما، ويقال: غرد الطائر فهو غرد، إذا طرب بصوته، وذوات المنطق ههنا: الأطيوار وسمى صوتها منطقاً وإن كان لا يطلق إلا على ألفاظ البشر مجازاً، ودياجير: جمع ديجور وهو الظلام. والأوكار: جمع وكر وهو عش الطائر ويجمع أيضاً على وكور، ووكر الطائر يكر وكرأ، أي دخل وكره. وقوله: "وما أوعبته الأصداف"، أي من اللؤلؤ. وحضنت عليه أمواج البحار: أي ما ضمته كما تحضن الأنثى من الطير بيضها، وهو ما يكون في لجة، إما من سمك أو خشب أو ما يحمله البحر من العنبر كالجماجم بين الأمواج وغير ذلك. وسدفة الليل: ظلمته، وجاء بالفتح. وقيل: السدفة احتلاط الضوء والظلمة معا كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار. وغشيتها: غطته: وذر عليه شارق نهار، أي ما طلعت عليه الشمس، وذرت الشمس تذر بالضم، ذروراً: طلعت، وذر البقل، إذا طلع من الأرض.

وشرقت الشمس: طلعت، وأشرقت بالهمزة، إذا أضاءت وصفت.

واعتقت: تعاقبت. وأطباق الدياجير: أطباق الظلم. وأطباقها: جمع طبقة، أي أغطيتها، أطبقت الشيء أي غطيته، وجعلته مطبقاً، وقد تطبق هو، ومنه قولهم: لوتطبقت السماء على الأرض لما فعلت كذا. وسبحات النور: عطف على أطباق الدياجير، أي يعلم سبحانه ما تعاقب عليه الظلام والضياء. وسبحات ههنا، ليس يعني به ما يعني بقوله: "سبحان وجه ربنا"، لأنه هناك بمعنى ما يسبح عليه النور، أي يجري، من سبح الفرس وهو جريه، ويقال: فرس سابح. والخطوة: ما بين القدمين، بالضم، وخطوت خطوة بالفتح، لأنه المصدر.

ورجع كل كلمة: ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردده في فكرك. والنسمة: الإنسان نفسه، وجمعها نسيم، ومثقال كل ذرة: أي وزن كل ذرة، ومما يخطئ فيه العامة قولهم للدينار: مثقال، وإنما المثقال وزن كل شيء، قال تعالى: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة". وهماهم كل نفس هامة، الهماهم: جمع همهمة، وهي ترديد الصوت في الصدر، وحمارهمهم: يهمهم في صوته، وهمهمت المرأة في رأس الصبي، وذلك إذا نومت بصوت ترمقه له. والنفس الهامة: ذات الهمة التي تعزم على الأمر. قوله: وما عليها أي ما على الأرض، فجاء بالضمير ولم يسبق ذكر صاحبه، اعتماداً على فهم المخاطب، كما قال تعالى: "كل من عليها فان".

وقرارة النطفة: ما يستقر فيه الماء من الأماكن، قال الشاعر:

وأنتم قرارة كل معدن سوءة ولكل سائلة تسيل قرار

والنطفة: الماء نفسه، ومنه قوله رضي الله عنه في الخوارج: إن مصارعهم لدون النطفة، أي لا يعبرون النهر، ويجوز أن يريد بالنطفة المني ويقويه ما ذكره بعده من المضغة. والنقاعة: نقرة يجتمع فيها الدم، ومثله أنقوعة، ويقال لوقبة الزيد: أنقوعة. والمضغة: قطعة اللحم. والسلالة في الأصل: ما استل من الشيء، وسميت النطفة سلالة الإنسان، لأنها استلت منه، وكذلك الولد.

والكلفة: المشقة، واعتورته مثل عرته. ونفذهم علمه، تشبيهه بنفوذ السهم، وعدى الفعل بنفسه وإن كان معدى في الأصل بحرف الجر، كقولك: اخترت الرجال زيداً أي من الرجال، كأنه جعل علمه تعالى خارقاً لهم ونافذاً فيهم. ويروى: وأحصاهم عده، بالتضعيف.

الأصل: اللهم أنت أهل الوصف الجميل، والتعداد الكثير، إن تؤمل فخير مأمول، وإن ترج فخير مرجو. اللهم فقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك، ولا أثني به على أحد سواك، ولا أوجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الرية، وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين والثناء على المربوبين المخلوقين. اللهم ولكل من على من أثني عليه مثوبة من جزاء، أو عارفة من عطاء وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة.

اللهم، وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك، ولم ير مستحقاً لهذه المحامد والممدوح غيرك وبى فاقة إليك لا يجبر

مسكرتها إلا فضلك، ولا ينعش من خلقتها إلا منك وجودك، فهب لنا في هذا المقام رضاك، وأغننا عن مد الأيدي إلى سواك إنك على كل شيء قدير.

الشرح: التعداد: مصدر: وخير: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فأنت خير مأمول. ومعنى قوله: "قد بسطت لي"، أي قد أتيتني لسناً وفصاحة وسعة منطق، فلا أمدح غيرك، ولا أحمد سواك. وبني بمعادن الخيبة: البشر، لأن مادحهم ومؤملهم يخيب في الأكثر، وجعلهم مواضع الريبة، لأنهم لا يوثق بهم في حال. ومعنى قوله رضي الله عنه: "وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة"، أنه راج منه أن يدلّه على الأعمال التي ترضيه سبحانه، وتستوجب بها منه الرحمة والمغفرة، وكأنه جعل تلك الأعمال! التي يرجو أن يدل عليها ذخائر للرحمة وكنوزاً.

والفاقة: الفقر، وكذلك المسكنة، وينعش، بالفتح: يرفع، والماضي نعش، ومنه النعش لارتفاعه، والمن: العطاء والنعمة، والمنان، من أسماء الله سبحانه.

لما أراوده الناس على البيعة

بعد قتل عثمان رضي الله عنه

الأصل: دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. وإن ألافق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت. واعلموا أي إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً. الشرح: في أكثر النسخ: لما أراوده الناس على البيعة، ووجدت في بعضها: أداره الناس على البيعة، فمن روى الأول جعل على متعلقة بمحذوف، وتقديره موافقاً، ومن روى الثاني جعلها متعلقة بالفعل الظاهر نفسه، وهو أداره، تقول: أدرت فلاناً على كذا، وداورت فلاناً على كذا، أي عاجلته.

ولا تقوم له القلوب، أي لا تصير. وأغامت الافاق: غطاها الغيم، أغامت وغامت، وأغيمت وتغيمت، كله بمعنى، والمحجة: الطريق. وتنكرت: جهلت فلم تعرف. ووزيراً وأميراً: منصوبان على الحال. وهذا الكلام يحمله أصحابنا على ظاهره ويقولون: إنه رضي الله عنه لم يكن منصوباً عليه بالإمامة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كان أولى الناس بها وأحقهم بمثلتها، لأنه لو كان منصوباً عليه بالإمامة من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام لما جاز له أن يقول: دعوني والتمسوا غيري ولا أن يقول: "ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم"، ولا أن يقول: "وأنا لكم وزيراً خير مني لكم أميراً" وتحمله الإمامية على وجه آخر فيقولون: إن الذين أرادوه على البيعة هم كانوا العقادين ببيعة الخلفاء من قبل، وقد كان عثمان منعهم أو منع كثيراً منهم عن حقه من العطاء لأن بني أمية استأصلوا الأموال في أيام عثمان، فلما قتل قالوا لعلي رضي الله عنه: نبايعك على أن تسير فينا سيرة أبي بكر

وعمر لأنهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلتهما، فطلبوا من علي رضي الله عنه البيعة، على أن يقسم عليهم بيوت الأموال قسمة أبي بكر وعمر فاستعفاهم وسألهم أن يطلبوا غيره ممن يسير بسيرتهما وقال لهم كلاماً تحته رمز، وهو قوله: "إننا مستقبلون أمراً له وجوة وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت".

قالوا: وهذا كلام له باطن وغور عميق، معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونه هم، وهو الإنذار بحرب المسلمين بعضهم لبعض، واختلاف الكلمة وظهور الفتنة.

ومعنى قوله: "له وجوه وألوان أنه موضع شبهة وتأويل، فمن قائل يقول: أصاب علي، ومن قائل يقول: أخطأ، وكذلك القول في تصويب محاربيه من أهل الجمل وصفين والنهروان وتخطئتهم، فإن المذاهب فيه وفيهم تشعبت وتفرقت جداً. ومعنى قوله: "الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت أن الشبهة قد استولت على العقول والقلوب، وجعل أكثر الناس محجة الحق أين هي، فأنا لكم وزيراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفتي فيكم بشريعته وأحكامه خير لكم مني أميراً محجوراً عليه مدبراً بتدبيركم، فإني أعلم أنه لا قدرة لي أن أسير فيكم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه مستقلاً بالتدبير، لفساد أحوالكم، وتعذر صلاحكم.

وقد حمل بعضهم كلامه على محمل آخر، فقال: هذا كلام مستزيد شاك من أصحابه، يقول لهم: دعوني والتمسوا غيري، على طريق الضجر منهم، والتبرم بهم والتسخط لأفعالهم، لأنهم كانوا عدلوا عنه من قبل، واختاروا عليه، فلما طلبوه بعد أجابهم جواب المتسخط العاتب.

وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر، فقالوا: إنه أخرجه خرج التهكم والسخرية، أي أنا لكم وزيراً خير مني لكم أميراً فيما تعتقدونه، كما قال سبحانه: "ذق إنك انت العزيز الكريم" أي تزعم لنفسك ذلك وتعتقده.

واعلم أن ما ذكره ليس ببعيد أن يحمل الكلام عليه لو كان الدليل قد دل على ذلك، فأما إذا لم يدل عليه دليل، فلا يجوز صرف اللفظ عن ظاهره، ونحن نتمسك بالظاهر إلا أن تقوم دلالة على مذهبهم تصدنا عن حمل اللفظ عن ظاهره، ولو جاز أن تصرف الألفاظ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدف ويصد عنها، لم يبق وثوق بكلام الله عز وجل وبكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الحال التي كانت بعد قتل عثمان، والبيعة العلوية كيف وقعت.

طلحة والزبير وقسم المال،

ونحن نذكر ههنا في هذه القصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافي في كتابه الذي نقض فيه كتاب العثمانية لشيخنا أبي عثمان، فإن الذي ذكره لم نوردته نحن فيما تقدم.

قال أبو جعفر: لما اجتمعت الصحابة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قتل عثمان للنظر في أمر الإمامة، أشار أبو الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر بعلي رضي الله عنه، وذكروا فضله وسابقته وجهاده وقرابته، فأجابهم الناس إليه، فقام كل واحد منهم خطيباً يذكر فضل علي رضي الله عنه

فمنهم من فضله على أهل عصره خاصة، ومنهم من فضله على المسلمين كلهم كافة. ثم بويع وصعد المنبر في اليوم الثاني من يوم البيعة، وهو يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة بقين من ذي الحجة، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمداً صلى الله عليه، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا، فزهدهم فيها، وذكر الآخرة فرغبهم إليها، ثم قال: "أما بعد: فإنه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فعمل بطريقه، ثم جعلها شورى بين ستة، فأفضى الأمر منهم إلى عثمان، فعمل ما أنكرتم وعرفتكم، ثم حصر وقتل، ثم جئتموني طائعين فطلبتم إلي وإنما أنا رجل منكم، لي ما لكم، وعلي ما عليكم، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، ولا يحمل هذا الأمر إلا أهل الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر، وإني حاملكم على منهج نبيكم صلى الله عليه وسلم، ومنفذ فيكم ما أمرت به إن استقمتم لي. وبالله المستعان. ألا إن موضعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كموضعي منه أيام حياته، فامضوا لما تؤمرون به، وقفوا عند ما تنهون عنه، ولا تعجلوا في أمر حتى نبينه لكم فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذراً. ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أي كنت كارهاً للولاية على أمة محمد حتى اجتمع رأيكم على ذلك، لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أيما وال ولي الأمر من بعدي، أقيم على حد الصراط ونشرت الملائكة صحيفته فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزائل مفاصله، ثم يهوي إلى النار فيكون أول ما يتقيها به أنفه وحر وجهه، ولكني لما اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم.

ثم التفت رضي الله عنه يميناً وشمالاً، فقال: ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارحة، واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً إذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك، ويستنكرون ويقولون: حرمانا ابن أبي طالب حقوقنا ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النيرغداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدق ملتناً، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء، وأفضل الثواب لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار.

وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا، فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن إلا حضر إذا كان مسلماً حراً. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. ثم نزل.

قال شيخنا أبو جعفر: وكان هذا أول ما أنكروه من كلامه رضي الله عنه، وأورثهم الضغن عليه وكرهوا إعطاءه وقسمه بالسوية. فلما كان من الغد، غداً وغدا الناس لقبض المال فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: أبدأ بالمهاجرين فنأدهم، وأعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير ثم ثن بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك ومن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم فقال: نعطيكم كما نعطيكم، فأعطى كل واحد

منهما ثلاثة دنائير ولم يفضل أحداً على أحد وتخلف عن هذا القسم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ورجال من قريش وغيرها.

قال: وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبد الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد: ما خفي علينا أمس من كلام علي ما يريد فقال سعيد بن العاص والتفت إلى زيد بن ثابت: إياك أعني واسمعي يا جارة فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله بن الزبير: إن الله يقول في كتابه: "ولكن أكثرهم للحق كارهون".

ثم إن عبيد الله بن أبي رافع أخبر علياً رضي الله عنه بذلك، فقال: والله إن بقيت وسلمت لهم لأقيمهم على المحجة البيضاء، والطريق الواضح، قاتل الله ابن العاص! لقد عرف من كلامي ونظري إليه أمس أي أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هلك. قال: فبينما الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة، فجلسا ناحية عن علي رضي الله عنه، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير فجلسوا إليهما، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم، فتحدثوا نجياً ساعة ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فجاء إلى علي رضي الله عنه فقال: يا أبا الحسن إنك قد وترتنا جميعاً أما أنا فقتلت أبي يوم بدر صبراً، وخذلت أخي يوم الدار بالأمس وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب وكان ثور قريش وأما مروان فسحفت أباه عند عثمان إذ ضمه إليه ونحن إخوانك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبائعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال في أيام عثمان، وأن تقتل قتلته وإنا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام.

فقال: أما ما ذكرتم من وترتي إياكم فالحق وتركم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلتهم أمس ولكن لكم علي إن خفتموني أن أومنكم لان خفتكم أن أسيركم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحدثهم، واftرقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف فلما ظهر ذلك من أمرهم، قال عمار بن ياسر لأصحابه: قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف، والطعن على إمامهم وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق يعني طلحة.

فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم، فدخلوا على علي رضي الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، انظر في أمرك، وعاتب قومك، هذا الحي من قريش فإنهم قد نقضوا عهدك، وأخلفوا وعدك، وقد دعونا في السر إلى رفضك، هداك الله لرشدك! وذاك لأنهم كرهوا الأسوة، وفقدوا الأثرة، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوك عظموه، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة، وتآلفاً لأهل الضلالة. فرأيتك! فخرج علي رضي الله عنه، فدخل المسجد، وصعد المنبر مرتدياً بطاق، مؤتزرًا ببرد قطري، متقلداً سيفاً، متوكتاً على قوس، فقال: أما بعد، فإننا نحمد الله ربنا وإلهنا وولينا، وولي النعم علينا، الذي أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة، امتناناً منه بغير حول منا ولا قوة، ليلولنا أنشكر أم نكفر فمن شكر زاده ومن كفر عذبه فأفضل الناس عند الله منزلة، وأقربهم من الله وسيلة، أطوعهم لأمره، وأعلمهم بطاعته وأتبعهم لسنة رسوله، وأحياهم لكتابه ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول. هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهل ذلك إلا جاهل عاند عن الحق منكراً، قال تعالى: "يا أيها

الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

ثم صاح بأعلى صوته: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين.

ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار: أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين.

ثم قال: أنا أبو الحسن وكان يقولها إذا غضب ثم قال: "ألا إن هذه الدنيا التي أصبحت تمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتكم له فلا تغرنكم فقد حذرتكموها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله، والذل لحكمه جل ثناؤه، فأما هذا الفياء فليس لأحد على أحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فمن لم يرض به فليتول كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه.

ثم نزل عن المنبر، فصلى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبد الرحمن بن حسل القرشي إلى طلحة والزبير، وهما في ناحية المسجد، فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه رضي الله عنه، فقال لهما: نشدتكما الله، هل جئتما طائعين للبيعة، ودعوتماي إليها، وأنا كاره لها! قالوا: نعم، فقال: غير مجبرين ولا مقسورين، فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما! قالوا: نعم، قال: فما دعاكما بعد إلى ما أرى قالوا: أعطيناك بيعتنا على ألا تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبد بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر، وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

فقال: لقد نعمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً فاستغفرا الله يغفر لكم. ألا تخبراني، أدفعتكما عن حق وجب لكما فظلمتكما إياه؟ قالوا: معاذ الله! قال: فهل استأثرت من هذا المال لنفسي بشيء؟ قالوا: معاذ الله! قال: أفوق حكم أو حق لأحد من المسلمين فجعلته أو ضعفت عنه قالوا: معاذ الله! قال: فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟ قالوا: خلافتك عمر بن الخطاب في القسم أنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافا ورماحنا، وأوقفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً. فقال: فأنا ما ذكرتماه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة ولكنكم دعوتوني إليها، وجعلتموني عليها فخفت أن أردكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إلي نظرت في كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلاني عليه واتبعته، ولم أحتج إلى آرائكم فيه ولا رأي غيركم، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة برهانه، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاررتكما فيه وأما القسم والأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء! قد وجدت أنا وأنتما رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وأما قولكما: جعلت فينا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا، سواء بيننا وبين غيرنا، فقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيفهم ورماحهم، فلم يفضلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في القسم، ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه موف السابِق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى

الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. ثم قال: رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه.

قال شيخنا أبو جعفر: وقد روي أنهما قالاً له وقت البيعة: نبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر، فقال لهما: لا، ولكنكما شريكاي في الفیء، لا أستاذ عليكما ولا على عبد حبشي مجدع بدرهم فما دونه، لا أنا ولا ولداي هذان، فإن أبيتما إلا لفظ الشركة، فأنتما عونان لي عند العجز والفاقة، لا عند القوة والاستقامة.

قال أبو جعفر فاشترط ما لا يجوز في عقد الأمانة، وشرط رضي الله عنه لهما ما يجب في الدين والشریعة. قال رحمه الله تعالى: وقد روي أيضاً أن الزبير قال في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من علي! قمنا له في أمر عثمان حتى قتل، فلما بلغ بنا ما أراد جعل فوقنا من كنا فوقه.

وقال طلحة: ما اللوم إلا علينا، كنا معه أهل الشورى ثلاثة، فكرهه أحدنا يعني سعداً وبايعناه، فأعطيناه ما في أيدينا، ومنعنا ما في يده، فأصبحنا قد أخطأنا اليوم ما رجوناه أمس، ولا نرجو غداً ما أخطأنا اليوم. فإن قلت: فإن أبا بكر قسم بالسواء، كما قسمه أمير المؤمنين رضي الله عنه، ولم ينكروا ذلك، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين، فما الفرق بين الحالتين؟ قلت: إن أبا بكر قسم محتدياً لقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ولي عمر الخلافة، وفضل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر، وأشربت قلوبهم حب المال، وكثرة العطاء. وأما الذين اهتضموا ففنعوا ومرنوا على القناعة، ولم يخطر لأحد من الفريقين له أن هذه الحال تنتقض أو تتغير بوجه ما، فلما ولي عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلك، ومن ألف أمراً أشق عليه فراقه، وتغيير العادة فيه، فلما ولي أمير المؤمنين رضي الله عنه أراد أن يرد الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، وقد نسي ذلك ورفض وتحلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشق ذلك عليهم، وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعة، ومفارقة الطاعة، والله أمر هو بالغه!

يذكر ما كان من تغلبه على الخوارج

الأصل: أما بعد حمد الله، والثناء عليه أيها الناس، فإني فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليحترىء عليها أحد غيري بعد أن ماج غيبتها، وأشدت كلبها.

فأسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركاها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً، ومن يموت منهم موتاً.

ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور، وحواذب الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين وذلك إذا قلصت حربكم، وثمرت عن ساق وكانت الدنيا عليكم ضيقاً، تستطيلون أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم.

إن الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت ينكرون مقبلات، ويعرفن مدبرات، يحمن حوم الرياح يصبن بلداً، ويخططن بلداً. ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة عمت خطتها، وخصت بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها.

وأيّم الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس، تعذب بفيها، وتخطب بيدها، وتزين برجلها، وتمنع درها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم.

ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون أنتصار أحدكم منهم إلا مثل انتصار العبد من ربه، والصاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنهم شوهاً مخشية، وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار هدى، ولا علم يرى، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة، ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم، بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مصبرة لا يعطيهم إلا السيف، ولا يحلسهم إلا الخوف، فعند ذلك تود قریش بالدنيا وما فيها لو يروني مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزور، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطوني.

الشرح: فقأت عينه، أي بحقتها، وتفقات السحابة عن مائها: تشققت، وتفقا الدم والقرح، ومعنى فقته رضي الله عنه عين الفتنة، إقدامه عليها حتى أطفأ نارها، كأنه جعل للفتنة عيناً محدقة يهاجمها الناس، فأقدم هو عليها، فقفاً عينها، فسكنت بعد حركتها وهي جالها. وهذا من باب الاستعارة، وإنما قال: "ولم يكن ليحترىء عليها أحد غيري"، لأن الناس كلهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعون مولاهم أم لا؟ وهل يجهزون على جريحهم أم لا؟ وهل يقسمون فيهم أم لا؟ وكانوا يستعظمون قتال من يؤذن كأذاننا، ويصلي كصلاتنا، واستعظموا أيضاً حرب عائشة وحرب طلحة والزبير، لمكانهم في الإسلام، وتوقف جماعتهم عن الدخول في تلك الحرب، كالأحنف بن قيس وغيره، فلولا أن علياً احترأ على سل السيف فيها ما أقدم أحد عليها، حتى الحسن رضي الله عنه ابنه، أشار عليه ألا يبرح عرصه المدينة، ونهاه عن المسير إلى البصرة، حتى قال له منكرراً عليه إنكاره: ولا تزال تخن خنين الأمة! وقد روى ابن هلال صاحب كتاب الغارات أنه كلم أباه في قتال أهل البصرة بكلام أغضبه، فرماه ببيضة حديد عقرت ساقه، فعولج منها شهرين.

والغيهب: الظلمة، والجمع غياهب. وإنما قال: "بعد ما ماج غيهبها"، لأنه أراد: بعد ما عم ضلالها فشمل، فكنى عن الضلال بالغيهب، وكنى عن العموم والشمول بالتموج، لأن الظلمة إذا تموجت شملت أماكن كثيرة غير الأماكن التي نشملها لو كانت ساكنة. واشتد كلبها، أي شرها وأذاها، ويقال للقحط الشديد: كلب، وكذلك للقر الشديد. ثم قال رضي الله عنه: "سلوني قبل أن تفقدوني"، روى صاحب كتاب الاستيعاب وهو أبو عمر محمد بن عبد البر عن جماعة من الرواة والمحدثين، قالوا: لم يقل أحد من الصحابة رضي الله عنهم: "سلوني" إلا علي بن أبي طالب. وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافي في كتاب نقض العثمانية عن علي بن الجعد، عن ابن شبرمة، قال: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر: سلوني إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والفتنة: الطائفة، والهاء عوض من الياء التي نقصت من وسطه، وأصله فيء مثال فيع لأنه من فاء، ويجمع على فئات مثل شيات وهبات ولدات.

وناعقها: الداعي إليها، من نعيق الراعي بغنمه، وهو صوته نعيق بالكسر نعيقاً ونعاقاً، أي صاح بها وزجرها.
قال الأخطل:

فانعيق بضأنك يا جرير فإنما

منتك نفسك في الخلاء ضلالاً

فأما الغراب، فيقال: نعيق، بالغين المعجمة ينعيق بالكسر أيضاً، وحكى ابن كيسان نعيق الغراب أيضاً بعين غير معجمة والركاب: الإبل، واحدها راحلة، ولا واحد لها من لفظها، وجمعها ركب، مثل كتاب وكتب. ويقال: زيت ركابي، لأنه يحمل من الشام عليها.

والمناخ: بضم الميم، ومحط بفتحها، يجوز أن يكونا مصدرين، وأن يكونا مكانين، أما كون المناخ مصدرًا، فلأنه كالمقام الذي بمعنى الإقامة، وأما كون المحط مصدرًا فلأنه كالمرد في قوله سبحانه: "وأن مردنا إلى الله"، وأما كونهما موضعين فلأن المناخ من أخت الجمل، لا من ناخ الجمل، لأنه لم يأت، والفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع منه يأتي مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج، وهذا مدحرجنا، ومن قال: هذا مقام بني فلان، أي موضع مقامهم جعله كما جعلناه نحن، من أقام يقيم، لا من قام يقوم، وأما المحط، فإنه كالمقتل موضع القتل، مقتل الرجل بين فكيه، ويقال للأعضاء التي إذا أصيب الإنسان فيها هلك: مقاتل، ووجه المماثلة كونهما مضمومي العين.

الإمام علي وإخباره بأمر غيبية،

واعلم أنه رضي الله عنه قد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده، أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلا أخبرهم به، وأنه ما صح من طائفة من الناس يهتدي بها مائة وتضل بها مائة، إلا وهو مخبر لهم - إن سألوه - برعاثها وقائدها وسائقها ومواقع نزول ركبها وخيولها، ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت منها موتاً، وهذه الدعوى ليست منه رضي الله عنه ادعاء الربوبية، ولا ادعاء النبوة، ولكنه كان يقول: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بذلك، ولقد امتحنا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كإخباره عن الضربة يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه، وما قاله في كربلاء حيث مر بها، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شخص رضي الله عنه إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزبير، وقوله فيه: "حب ضب، يروم أمراً ولا يدركه، ينصب حباله الدين لاصطياد الدنيا، وهو بعد مصلوب قريش" وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق، وهلاكها تارة أخرى بالزنج، وهو الذي صحفه قوم فقالوا: بالريح، وكإخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان، وتنصيبه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق - بتقديم المهملة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم، وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية، وكإخباره عن الأئمة الذين ظهوروا من ولده بطبرستان، كالناصر والداعي وغيرهما، في قوله رضي الله عنه: "وإن لآل محمد بالطالقان لكثرًا سيظهره الله إذا شاء دعاؤه

حق يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله"، وكإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة، وقوله: "إنه يقتل عند أحجار الزيت" وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة: "يقتل بعد أن يظهر ويقهر بعد أن يقهر"، وقوله فيه أيضاً: "يأتيه سهم غرب يكون فيه منيته فيا يؤساً للرامي! شلت يده، ووهن عضده"، وكإخباره عن قتلى وج، وقوله فيهم: هم خير أهل الأرض" وكإخباره عن المملكة العلوية بالغرب، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصرُوا أبا عبد الله الداعي المعلم. وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي: وهو أولهم ثم يظهر صاحب القيروان الغض البض. ذو النسب المحض، المنتجب من سلالة ذي البداء، المسجى بالرداء، وكان عبيد الله المهدي أبيض مترفاً مشرباً بحمرة، رخص البدن، تار الأطراف. وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد رضي الله عنهم، وهو المسجى بالرداء، لأن أباه أبا عبد الله جعفرًا سجاه بردائه لما مات، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه، ليعلموا موته، وتزول عنهم الشبهة في أمره.

وكإخباره عن بني بويه وقوله فيهم: "ويخرج من ديلمان بنو الصياد"، إشارة إليهم. وكان أبوهم صياد السمك يصيد منه بيده ما يتقوت هو وعياله بثمانه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة، ونشر ذريتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم. وكقوله رضي الله عنه فيهم: "ثم يستشري أمرهم حتى يملكوا الزوراء، ويخلعوا الخلفاء" فقال له قائل: فكم مدقم يا أمير المؤمنين فقال: "مائة أو تزيد قليلاً". وكقوله فيهم: "والمترف ابن الأجدم، يقتله ابن عمه على دجلة، وهو إشارة إلى عز الدولة بختيار بن معز الدولة أبي الحسين، وكان معز الدولة أقطع اليد، قطعت يده للنكوص في الحرب، وكان ابنه عز الدولة بختيار مترفاً، صاحب لهو وشرب، وقتله عضد الدولة فناخسرو، ابن عمه بقصر الحص على دجلة في الحرب، وسلبه ملكه. فأما خلعه للخلفاء فإن معز الدولة خلع المستكفي، ورتب عوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما أخبره رضي الله عنه. وكإخباره رضي الله عنه لعبد الله بن العباس رحمه تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده، فإن علي بن عبد الله لما ولد، أخرجه أبوه عبد الله إلى علي رضي الله عنه، فأخذه وتفل في فيه وحنكه بتمر قد لأكها، ودفعه إليه، وقال: خذ إليك أبا الأملاك. هكذا الرواية الصحيحة، وهي التي ذكرها أبو العباس المبرد في كتاب الكامل، وليست الرواية التي يذكر فيها العدد بصحيفة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه.

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا الجري، مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا له كراديس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة.

فإن قلت: لماذا غلا الناس في أمير المؤمنين رضي الله عنه، فاذعوا فيه الإلهية لإخباره عن الغيوب التي شاهدوا صدقها عياناً، ولم يغلو في رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعوا له الإلهية، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوها وعلموها يقيناً، وهو كان أولى بذلك، لأنه الأصل المتبوع، ومعجزاته أعظم، وأخباره عن الغيوب أكثر قلت: إن الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشاهدوا معجزاته، وسمعوها إخباره عن الغيوب الصادقة عياناً، كانوا أشد آراء، وأعظم أحلاماً، وأوفر عقولاً من تلك الطائفة الضعيفة العقول، السخيفة الأحلام، الذين رأوا أمير المؤمنين رضي الله عنه في آخر أيامه، كعبد الله بن سبأ وأصحابه، فإنهم كانوا من ركافة البصائر وضعفها على حال مشهورة، فلا عجب عن مثلهم أن

تستخفهم المعجزات، فيعتقدوا في صاحبها أن الجوهر الإلهي قد حله، لا اعتقادهم أنه لا يصح من البشر هذا إلا بالحلول، وقد قيل: إن جماعة من هؤلاء كانوا من نسل النصارى واليهود، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول في أنبيائهم ورؤسائهم، فاعتقدوا فيه رضي الله عنه مثل ذلك. ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم ملحدين أرادوا إدخال الإلحاد في دين الإسلام، فذهبوا إلى ذلك، ولو كانوا في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم لقالوا فيه مثل هذه المقالة، إضلالاً لأهل الإسلام، وقصدًا لإيقاع الشبهة في قلوبهم، ولم يكن في الصحابة مثل هؤلاء، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة، ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة.

ومما ينقدح لي من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن هؤلاء من العراق وساكني الكوفة، وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة، وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدقيق ونظر، وبحث عن الآراء والعقائد، وشبه معترضة في المذاهب، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني وديصان ومزدك وغيرهم، وليست طينة الحجاز هذه الطينة، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعجرفة وخشونة الطبع، ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف فطباعهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة، ولم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل، ولا موقع شبهة، ولا مبتدع نحلة، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة ناشئة من حيث سكن علي رضي الله عنه بالعراق والكوفة، لا في أيام مقامه بالمدينة، وهي أكثر عمره. فهذا ما لاح لي من الفرق بين الرجلين في المعنى المقدم ذكره.

فإن قلت: لماذا قال عن فئة تهدي مائة وما فائدة التقييد بهذا العدد قلت: لأن ما دون المائة حقير تافه لا يعتد به ليذكر ويخبر عنه، فكأنه قال: مائة فصاعداً.

قوله رضي الله عنه: "كرائه الأمور" جمع كرية وهي الشدة في الحرب. وحوازب الخطوب: جمع حازب، وحزبه الأمر، أي دهمه. وفشل: جبن فإن قلت: أما فشل المسؤول فمعلوم، فما الوجه في إطراق السائل قلت: لشدة الأمر وصعوبته، حتى إن السائل لييهت ويدهش فيطرق، ولا يستطيع السؤال.

قوله رضي الله عنه: إذا قلصت حربكم يروى بالتشديد وبالتخفيف، ويروى: عن حربكم، فمن رواه مشدداً أراد انضمت واجتمعت، وذلك لأنه يكون أشد لها وأصعب من أن تتفرق في مواطن متباعدة، ألا ترى أن الجيوش إذا اجتمعت كلها واصطدم الفيلقان، كان الأمر أصعب وأفزع من أن تكون كل كتيبة من تلك الجيوش تحارب كتيبة أخرى في بلاد متفرقة متباعدة! وذلك لأن اصطدام الفيلقين بأجمعهما هو الاستئصال الذي لا شوى له ولا بقيا بعده. ومن رواها بالتخفيف أراد كثرت وتزايدت، من قولهم: قلصت البئر، أي ارتفع ماؤها إلى رأسها أو دونه، وهو ماء قالص وقليص، ومن روى: إذا قلصت عن حربكم أراد إذا قلصت كرائه الأمور وحوازب الخطوب عن حربكم، أي انكشفت عنها، والمضارع من قلص يقلص، بالكسر.

قوله: "وشمرت عن ساق"، استعارة وكناية، يقال للجداد في أمره: قد شمر عن ساق، وذلك لأن سبوغ الذيل معثرة.

ويمكن أن يجري اللفظ على حقيقته، وذلك أن قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق" فسروه فقالوا: الساق: الشدة، فيكون قد أراد بقوله: "وشمرت عن ساق"، أي كشفت عن شدة ومشقة. ثم قال: "تستطيّلون أيام البلاء"، وذلك لأن أيام البؤس طويلة، قال الشاعر:

فأيّام الهموم مقصصات

وأيّام السرور تطير طيرا

وقال أبوتمام:

ثم انبرت أيام هجر أردفت

بجوى أسى فكأنها أعوام

قوله رضي الله عنه: "إن الفتن إذا أقبلت شبهت"، معناه أن الفتن عند إقبالها وابتداء حدوثها، يلتبس أمرها ولا يعلم الحق منها من الباطل، إلى أن تنقضي وتدبر، فحينئذ ينكشف حالها، ويعلم ما كان مشتبهاً منها. ثم أكد رضي الله عنه هذا المعنى بقوله: "ينكرن مقبلات، ويعرفن مدبرات"، ومثال ذلك فتنة الحمل، وفتنة الخوارج، كان كثير من الناس فيها في مبدأ الأمر متوقفين، واشتباه عليهم الحال، ولم يعلموا موضع الحق إلى أن انقضت الفتنة. ووضعت الحرب أوزارها، وبان لهم صاحب الضلالة من صاحب الهداية.

ثم وصف الفتن، فقال: إنها تخوم حوم الرياح، يصبن بلداً، ويخطئن بلداً. حام الطائر وغيره حول الشيء، يحوم حوماً وحوماناً، أي دار.

ثم ذكر أن أخوف ما يخاف عليهم فتنة بني أمية. ومعنى قوله "عمت خطتها وخصت بليتها"، أنها عمت الناس كافة من حيث كانت رياسة شاملة لكل أحد، ولكن حظ أهل البيت رضي الله عنه وشيعتهم من بليتها أعظم، ونصيبهم فيها أوفر.

ومعنى قوله: "وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها"، أن العالم بارتكابهم المنكر مأثوم إذا لم ينكر، والجاهل بذلك لا إثم عليه إذا لم ينههم عن المنكر لأن من لا يعلم المنكر منكراً لا يلزمه إنكاره، ولا يعنى بالمنكر ههنا ما كان منكراً من الاعتقادات، ولا ما يتعلق بالأمانة، بل الزنا وشرب الخمر ونحوهما من الأفعال القبيحة.

فإن قلت: أي فرق بين الأمرين قلت: لأن تلك يلحق الإثم من لا يعلمها إذا كان متمكناً من العلم بها، وهذه يجب إنكارها إلا مع العلم بها، ومن لا يعلمها لا يلحقه الإثم إذا كان متمكناً من العلم بها، فافترق الموضوعان.

ثم أقسم رضي الله عنه فقال: "وايم الله"، وأصله: وإيم الله، واختلف النحويون في هذه الكلمة فعند الأكثرين منهم أن ألفها ألف وصل، وأن "إيم" اسم وضع للقسم هكذا بألف وصل، وبضم الميم والنون، قالوا: ولم يأت في الأسماء وصل مفتوحة غيرها، وتدخل عليها اللام لتأكيد الابتداء، فتقول: ليمن الله فتذهب الألف قال الشاعر:

فقال فريق القوم لمانشدتهم

نعم، وفريق ليمن الله ما ندري

وهذا الاسم مرفوع بالابتداء وخبره محذوف، والتقدير ليمن الله قسمي فإذا خاطبت قلت ليمنك وفي حديث عروة بن الزبير: "ليمنك لمن كنت ابتليت، لقد عافيت، ولئن كنت أخذت لقد أبقيت". وتحذف نونه فيصير "إيم الله" بألف وصل

مفتوحة، وقد تكسر، وربما حذفوا الياء، فقالوا: ام الله وربما أبقوا الميم وحدها مضمومة، فقالوا: م الله، وقد يكسرونها لما صارت حرفاً شبهوها بالباء وربما قالوا من الله بضم الميم والنون: ومن الله بكسرهما: ومن الله بفتحهما، وذهب أبو عبيد وابن كيسان وابن درستويه إلى أن أيمن جمع يمين، والألف همزة قطع، وإنما خففت وطرحت في الوصل لكثرة الاستعمال، قالوا: وكانت العرب تحلف باليمين فتقول: يمين الله لا أفعل، قال امرؤ القيس:

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

فقلت يمين الله أبرح قاعداً

قالوا: واليمين تجمع على أيمن، قال زهير:

بمقسمة تمر بها الدماء

فتجمع أيمن منا ومنكم

ثم حلفوا به، فقالوا: أيمن الله ثم كثر في كلامهم وخف على ألسنتهم حتى حذفوا منه النون كما حذفوا في قوله لم يكن فقالوا: لم يك فأقسم رضي الله عنه لأصحابه أنهم سيجدون بني أمية بعده لهم أرباب سوء، وصدق صلوات الله عليه فيما قال، فإنهم ساموهم سوء العذاب قتلاً وصلباً، وحبساً وتشريداً في البلاد.

ثم شبه بني أمية بالناب الضروس، والناب: الناقة المسنة، والجمع نيب تقول: لا أفعله ما حنت النيب، والضروس: السيئة الخلق تعض حالبها.

وتعذب بفيها: تكدم، والعذب: الأكل بجفاء، وفرس عذوم: يعض بأسنانه.

والزبن: الدفع زبنت الناقة تزبن، إذا ضربت بثفناها عند الحلب، تدفع الحالب عنها، والدر: اللبن، وفي المثل: لا در دره الأصل لبنه. ثم قيل لكل خير، وناقة درور، أي كثيرة اللبن.

ثم قال: لا يزالون بكم قتلاً وإفناء لكم حتى لا يتركوا منكم إلا من ينفعهم إبقاؤه، أو لا يضرهم ولا ينفعهم، قال: حتى يكون انتصار أحدكم منهم كانتصار العبد من مولاه، أي لا انتصار لكم منهم، لأن العبد لا ينتصر من مولاه أبداً، وقد جاء في كلامه رضي الله عنه في غير هذا الموضع تتممة هذا المعنى: "إن حضر أطاعه، وإن غاب سبعه"، أي ثلبه وشتمه، وهذه أمانة الذل، كما قال أبو الطيب:

ولا أعاتبه صفحاً وإهواناً

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني

إن النفيس نفيس أينما كانا

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني

قال رضي الله عنه: والصاحب من مستصحبه، أي والتابع من متبوعه.

والشوه: جمع شوهاء، وهي القبيحة الوجه، شامت الوجوه تشوه شوهاً، قبحت، وشوّه الله فهو مشوه، وهي شوهاء، ولا يقال للذكر: أشوه. ومحشية: مخوفة.

وقطعاً جاهلية، شبهها بقطع السحاب لتراكمها على الناس، وجعلها جاهلية لأنها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم، ويروى: شوهاء وقطعاء، أي نكراء، كالمقطوعة اليد.

قوله: نحن أهل البيت منها بمنجاة، أي بمعزل، والنجاة والنجوة: المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاك، ولا يعلوه السيل.

ولسنا فيها بدعاة، أي لسنا من أنصار تلك الدعوة. وأهل البيت منصوب على الاختصاص، كقولهم: نحن معشر العرب

نفعل كذا، ونحن آل فلان كرماء.

قوله: كتفريج الأديم: الأديم الجلد، وجمعه آدم مثل أفق وأفق ويجمع أيضاً على آدمة، كـرغيف وأرغفة، ووجه التشبيه أن الجلد ينكشف عما تحته، فوعدهم رضي الله عنه بأن الله تعالى يكشف تلك الغماء كانكشف الجلد عن اللحم بمن يسومهم خسفاً، ويوليهم ذلاً.

والعنف، بالضم: ضد الرفق. وكأس مصبرة ممزوجة بالصبر لهذا المر، ويجوز أن يكون مصبرة مملوءة إلى أصبارها وهي جوانبها، وفي المثل: أخذها بأصبارها أي تامة، الواحد صبر، بالضم. ويجلسهم: يلبسهم، أحلست البعير ألبسته الحلس وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة، يقال له حلس وحلس، مثل شبه وشبه. والجزور من الإبل: يقع على الذكر والأنثى، وجزرها: ذبحها.

وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسودة، وانقراض ملك بني أمية. ووقع الأمر بموجب إخباره رضي الله عنه صدق قوله: "لقد تود قريش" الكلام إلى آخره، فإن أرباب السير كلهم نقلوا أن مروان بن محمد قال يوم الزاب لما شاهد عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بإزائه في صف خراسان: لوددت أن علي بن أبي طالب تحت هذه الراية بدلاً من هذا الفتى والقصة طويلة وهي مشهورة.

وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير، وهي متداولة منقولة مستفيضة، خطب بها علي رضي الله عنه بعد انقضاء أمر النهروان، وفيها ألفاظ لم يوردها رضي الله عنه، من ذلك قوله رضي الله عنه: "و لم يكن ليحترىء عليها غيري، ولو لم أك فيكم ما قوتل أصحاب الجمل والنهروان. وإيم الله لولا أن تتكلوا فتدعوا العمل لحدثكم بما قضى الله عز وجل على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم لمن قاتلهم مبصراً لضلالتهم، عارفاً للهدى الذي نحن عليه، سلوبي قبل أن تفقدوني، فإني ميت عن قريب أو مقتول، بل قتلاً ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه بدم. وضرب بيده إلى لحيته. ومنها في ذكر بني أمية: "يظهر أهل باطلها على أهل حقها، حتى تملأ الأرض عدواناً وظلماً وبدعاً إلى أن يضع الله عز وجل جبروتها، ويكسر عمدتها، ويتزع أوتادها. ألا وإنكم مدركوها فانصروا قوماً كانوا أصحاب رايات بدر وحنين تؤجروا ولا تمالئوا عليهم عدوهم، فتصرعكم البلية، وتحل بكم النعمة.

ومنها: "إلا مثل انتصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه، وإن توارى عنه شتمه، وإيم الله لو فرقوكم تحت كل حجر لجمعكم الله لشر يوم لهم".

ومنها: "فانظروا أهل بيت نبيكم، فإن لبدوا فالبدوا، وإن استنصروكم فانصروهم، فليفرجن الله الفتنة برجل منا أهل البيت، بأبي ابن خيرة الإماء، لا يعطيهم إلا السيف، هرجاً هرجاً، موضوعاً على عاتقه ثمانية أشهر حتى تقول قريش: لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا، يغريه الله ببني أمية حتى يجعلهم حطاماً ورفاتاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً. سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً".

فإن قيل: لماذا قال: "ولو لم أك فيكم لما قوتل أهل الجمل وأهل النهروان" ولم يذكر صفين قيل: لأن الشبهة كانت في أهل الجمل وأهل النهروان ظاهرة الالتباس، لأن الزبير وطلحة موعودان بالجنة، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول

الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة كما هي زوجته في الدنيا، وحال طلحة والزبير في السبق والجهاد والهجرة معلومة، وحال عائشة في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لها وثنائه عليها ونزول القرآن فيها معلومة وأما أهل النهروان فكانوا أهل قرآن وعبادة واجتهاد وعزوف عن الدنيا وإقبال على أمور الآخرة، وهم كانوا قراء أهل العراق وزهادهم وأما معاوية فكان فاسقاً، مشهوراً بقله الدين والانحراف عن الإسلام، وكذلك ناصرهم ومظاهره على أمره عمرو بن العاص ومن اتبعهما من طعام أهل الشام وأجلافهم وجهال الأعراب، فلم يكن أمرهم خافياً في جواز محاربتهم واستحلال قتالهم بخلاف حال من تقدم ذكره.

فإن قيل: ومن هذا الرجل الموعود به الذي قال رضي الله عنه: "بأي ابن خيرة الإمام" قيل: أما الإمامية فيزعمون أنه إمامهم الثاني عشر، وأنه ابن أمة اسمها نرجس، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطمي يولد في مستقبل الزمان، لأم ولد، وليس بموجود الآن.

فإن قيل: فمن يكون من بني أمية في ذلك الوقت موجوداً، حتى يقول رضي الله عنه في أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم، حتى يودوا لو أن علياً رضي الله عنه، كان المتولي لأمرهم عوضاً عنه قيل: أما الإمامية فيقولون بالرجعة، ويزعمون أنه سيعاد قوم بأعيانهم من بني أمية وغيرهم، إذا ظهر إمامهم المنتظر، وأنه يقطع أيدي أقوام وأرجلهم، ويسمل عيون بعضهم، ويصلب قوماً آخرين، وينتقم من أعداء آل محمد صلى الله عليه وسلم المتقدمين والمتأخرين. وأما أصحابنا فيزعمون أنه سيخلق تعالى في آخر الزمان رجلاً من ولد فاطمة رضي الله عنها ليس بموجوداً الآن، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وينتقم من الظالمين

وينكل بهم أشد النكال، وأنه لأم ولد، كما قد ورد في هذا الأمر وفي غيره من الآثار، وأن اسمه محمد، كاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه إنما يظهر بعد أن يستولي على كثير من الإسلام ملك من أعقاب بني أمية، وهو السفياي الموعود به في الخبر الصحيح، من ولد أبي سفياي بن حرب بن أمية، وأن الإمام الفاطمي يقتله ويقتل أشياعه من بني أمية وغيرهم، وحينئذ ينزل المسيح عليه السلام من السماء، وتبدو أشراط الساعة، وتظهر دابة الأرض، ويطل التكليف، ويتحقق قيام الأجساد عند نفخ الصور، كما نطق به الكتاب العزيز.

فإن قيل: فإنكم قلتم فيما تقدم: إن الوعد إنما هو بالسفاح وبعمه عبد الله بن علي، والمسودة، وما قلمتموه الآن مخالف لذلك قيل: إن ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضي رحمه الله تعالى من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في نهج البلاغة وهذا التفسير هو تفسير الزيادة التي لم يذكرها الرضي، وهي قوله بأي ابن خيرة الإمام. وقوله: لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا، فلا مناقضة بين التفسيرين.

يصف فيها حال الأنبياء

الأصل: فتبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله حدس الفطن الأول الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي. الشرح: البركة: كثرة الخير وزيادته، وتبارك الله منه، وبركت، أي دعوت بالبركة، وطعام بريك أي مبارك. ويقال: بارك الله لزيد وفي زيد وعلى زيد وبارك الله زيدا، يتعدى بنفسه، ومنه قوله تعالى: "أن بورك من في النار". ويحتمل تبارك الله

معنيين: أحدهما أن يراد: تبارك خيره وزادت نعمته وإحسانه، وهذا دعاء. وثانيهما أن يراد به: تزايد وتعالى في ذاته وصفاته عن أن يقاس به غيره، وهذا تمجيد.

قرله رضي الله عنه: "لا يبلغه بعد الهمم" أي بعد الأفكار والأنظار، عبر عنها بالهمم لمشاهقتها إياها. وحسب الفطن: ظنها وتخمينها، حدثت أحس، بالكسر.

ويسأل عن قوله: "لا غاية له فينتهي"، ولا آخر له فينقضي، فيقال: إنما تدخل الفاء فيما إذا كان الثاني غير الأول، وكقولهم: ما تأتينا فتحدثنا، وليس الثاني ههنا غير الأول، لأن الانقضاء هو الآخرة بعينها، فكأنه قال: لا آخر له، فيكون له آخر، وهذا لغو، وكذلك القول في اللفظة الأولى.

وينبغي أن يقال في الجواب: إن المراد: لا آخر له بالإمكان والقوة فينقضي بالفعل فيما لا يزال، ولا هو أيضاً ممكن الوجود فيما مضى، فيلزم أن يكون وجوده مسبوقاً بالعدم، وهو معنى قوله: "فينتهي" بل هو واجب الوجود في حالين: فيما مضى وفي المستقبل، وهذان مفهومان متغايران، وهما العدم وإمكان العدم، فاندفع الإشكال.

الأصل: ومنها: فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام كلما مض منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف، حتى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالى إلى محمد! صلى الله عليه وآله وسلم فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات مغرساً من الشجرة التي صدع منها أنبياءه وانتجب منها أمناءه، عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمر لا ينال فهو إمام من اتقى، وبصيرة من أهدى.

سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم.

الشرح: تناسختهم، أي تناقلتهم، والتناسخ في الميراث: أن يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم لم يقسم، كأن ذلك تناقل من واحد إلى آخر، ومنه: نسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته، أي نقلت ما فيه. ويروى: تناسلتهم. والسلف: المتقدمون، والخلف: الباقون، ويقال: خلف صدق بالتحريك، وخلف سوء بالتسكين، وأفضت كرامة الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، أي انتهت. والأرومات: جمع أرومة وهي الأصل، ويقال أروم بغير هاء وصدع: شق، وانتجب: اصطفى. والأسرة: رهط الرجل.

وقوله: "نبتت في حرم" يجوز أن يعني به مكة، ويجوز أن يعني به المنعة والعز.

وبسقت: طالت. ومعنى قوله: "وثمر لا ينال" ليس على أن يريد به أن ثمرها لا ينتفع به، لأن ذلك ليس بمدح بل يريد به أن ثمرها لا ينال قهراً، ولا يجنى غصباً. ويجوز أن يريد بثمرها نفسه رضي الله عنه، ومن يجري مجراه من أهل البيت رضي الله عنهم، لأنهم ثمرة تلك الشجرة.

ولا ينال، أي لا ينال مساعيهم ومآثرهم ولا يباريهم أحد، وقد روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل قريش وبني هاشم الكثير المستفيض، نحو قوله رضي الله عنه: قدموا قريشاً ولا تقدموها، وقوله: الأئمة من قريش، وقوله:

إن الله اصطفى من العرب معدا واصطفى من معد بني النضر بن كنانة، واصطفى هاشماً من بني النضر، واصطفاني من بني هاشم!، وقوله: "إن جبرائيل عليه السلام قال لي: يا محمد قد طفت الأرض شرقاً وغرباً فلم أجد فيها أكرم منك، ولا بيتاً أكرم من بني هاشم"، وقوله: "نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية"، وقوله رضي الله عنه: "إن الله تعالى لم يمسنني بسفاح في أرومي منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبد الله بن عبد المطلب"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "سادة أهل محشر، سادة أهل الدنيا: أنا وعلي وحسن وحسين وحمزة وجعفر"، وقوله وقد سمع رجلاً ينشد:

يا أيها الرجل المحول رحله

أهكذا قال يا أبا بكر؟ منكرأ لما سمع، فقال أبو بكر: لا يا رسول الله، إنه لم يقل هكذا ولكنه قال:

يا أيها الرجل المحول رحله

هلا نزلت بآل عبد مناف؟

عمر العلاء هشم الثريد لقومه

ورجال مكة مستنون عجاف

فسر صلى الله عليه وسلم بذلك، وقوله: "أذل الله من أذل قريشاً"، قالها ثلاثاً، وكقوله "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"، وكقوله: "الناس تبع لقريش، برهم لبرهم، وفاجرهم لفاجرهم"، وكقوله: "أنا ابن الأكرمين"، وقوله لبني هاشم: "والله لا ييغضكم أحد إلا أكبه الله على منخريه في النار"، وقوله: "ما بال رجال يزعمون أن قرابتي غير نافعة! بلى إنها لنافعة، وإنه لا ييغض أحد أهلي إلا حرمه الله الجنة".

والأخبار الواردة في فضائل قريش وبني هاشم وشرفهم كثيرة جداً، ولا نرى الإطالة ههنا باستقصائها. وسطع الصبح يسطع سطوعاً، أي ارتفع، والسطيع: الصبح. والزند: العود تقدح به النار، وهو الأعلى والزندة: السفك فيها ثقب، وهي الأنتى، فإذا اجتمعاً قيل: زندان ولم يقل: "زندتان"، تلياً للتذكير، والجمع زند وأزند وأزند. والقصد: الاعتدال. وكلامه الفصل، أي الفاصل، والفارق بين الحق والباطل وهو مصدر بمعنى الفاعل، كقولك: رجل عدل، أي عادل.

والهفوة: الزلة، هفا يهفو. والغاوة: الجهل وقلة الفطنة، يقال: غبيت عن الشيء وغبيت الشيء أيضاً، أغبى غباوة إذا لم يفظن له، وغبى علي الشيء، إذا لم تعرفه، وفلان غبي على فاعيل، أي قليل الفطنة.

الأصل: اعملوا رحمكم الله على أعلام بينة، فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام، وأنتم في دار مستعتب على مهل وفراغ والصحف منشورة، والأقلام جارية والأبدان صحيحة، والألسن مطلقة، والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة.

الشرح: الطريق: يذكر ويؤنث، يقال: هذا الطريق الأعظم، وهذه الطريق العظمى، والجمع أطرقة وطرق، وأعلام بينة، أي منار واضح. ونهج، أي واضح، ودار السلام: الجنة، ويروى: "والطريق نهج" بالواو، وأو الحال. وأنتم في دار مستعتب، أي في دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه، واستعتابه.

ثم شرح ذلك فقال: أنتم ممهلون متفرغون، وصحف أعمالكم لم تطو بعد، وأقلام الحفظة عليكم لم تحف بعد، وأبدانكم صحيحة، وألستكم ما اعتقلت كما تعتقل ألسنة المحتضرين عند الموت، وتوبتكم مسموعة وأعمالكم مقبولة، لأنكم في دار التكليف لم تخرجوا منها.

يذكر فيها حال الناس عند البعثة

الأصل: بعثه والناس ضلال في حيرة، وحاطبون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء واستزلتهم لكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل، فبالغ صلى الله عليه في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة.

الشرح: حاطبون في فتنة: جمع حاطب وهو الذي يجمع الخطب، ويقال لمن يجمع بين الصواب والخطأ، أو يتكلم بالغش والسمين: حاطب ليل، لأنه لا يبصر ما يجمع في حبله. ويروى: حاطبون واستهوتهم الأهواء: دعته إلى نفسها، واستزلتهم الكبرياء: جعلتهم ذوي زلل وخطأ. واستخفتهم الجاهلية: جعلتهم ذوي خفة وطيش وخرق، والزلال، بالفتح، الاسم، وبالكسر: المصدر، والزلازل: الشدائد، ومثله في الكسر عند الإسمية والفتح عند المصدر القلقال.

ومن خطبة له في تمجيد الله وتعظيمه

الأصل: الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه. الشرح: تقدير الكلام: والظاهر فلا شيء أجلى منه، والباطن فلا شيء أخفى منه فلما كان الجلاء يستلزم العلو والفوقية، والخفاء يستلزم الانخفاض والتحتية، عبر عنهما بما يلازمهما، وقد تقدم الكلام في معنى الأول والآخر والظاهر والباطن. وذهب أكثر المتكلمين إلى أن الله تعالى يعدم أجزاء العالم ثم يعيدها، وذهب قوم منهم إلى أن الإعادة إنما هي جمع الأجزاء بعد تفريقها لا غير.

واحتج الأولون بقوله تعالى: "هو الأول والآخر"، قالوا: لما كان أولاً بمعنى أنه الموجود ولا موجود معه، وجب أن يكون آخراً بمعنى أنه سيؤول الأمر إلى عدم كل شيء إلا ذاته تعالى، كما كان أولاً، والبحث المستقصى في هذا الباب مشروح في كتبنا الكلامية.

الأصل: ومنها في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله: "مستقره خير مستقر، ومنبته أشرف منبت في معادن الكرامة، ومماهد السلامة قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار وثبتت إليه أزمة الأبصار دفن الله به الضغائن وأطفأ به النواثر ألف به إخواناً، وفرق به أقراناً، وأعز به الذلة، وأذل به العزة، كلامه بيان، وصمته لسان.

الشرح: المهاد: الفراش، ولما قال: في معادن، وهي جمع معدن، قال بحكم القرينة والإزدواج: ومماهد وإن لم يكن الواحد منها لاممهداً، كما قالوا: الغدايا والعشايا، ومأجورات ومأزوات، ونحو ذلك. ويعني بالسلامة ههنا البراءة من العيوب، أي في نسب طاهر غير مأفون ولا معيب.

ثم قال: قد صرفت نحوه، أي نحو الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يقل من صرفها، بل جعله فعلاً لم يسم فاعله، فإن شئت قلت: الصارف لها هو الله تعالى لا بالجبر كما يقوله الأشعرية، بل بالتوفيق واللفظ، كان يقوله أصحابنا، وإن شئت قلت: صرفها أربابها.

والضعائن: جمع ضعينة، وهي الحقد. ضغنت على فلان بالكسر ضعناً والضعن الاسم، كالضعينة، وقد تضاعفوا واضطغفوا: انطوا على الأحقاد. ودفنها: أكنمها وأخفاها. وألف به إخواناً، لأن الإسلام قد ألف بين المتباعدين، وفرق بين المتقاربين، وقال تعالى: "فأصبحتم بنعمته إخواناً"، قطع ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما، وألف بين علي رضي الله عنه وعمار مع تباعدهما.

قوله رضي الله عنه: وصمته لسان، لا يعني باللسان ههنا الجارحة نفسها، بل الكلام الصادر عنها، كقول الأعشى: إني أتني لسان لا أسر بها.

قالوا في تفسيره: أراد الكلمة، وجمعه على هذا السن، لأنه مؤنث، كقولك: ذراع وأذرع، فأما جمع لسان للجارحة فألسنة، لأنه مذكر، كقولك: حمار وأحمرة، يقول رضي الله عنه: إن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بيان، والبيان إخراج الشيء من حيز الخفاء إلى حيز الوضوح، وصمته صلى الله عليه وسلم كلام وقول مفيد، أي أن صمته لا يخلو من فائدة، فكأنه كلام، وهذا من باب التشبيه المحذوف الأداة، كقولهم: يده بحر، ووجهه بدر.

ومن كلام له في توبيخ أصحابه

الأصل: ولئن أمهل الله الظالم فلن يفوت أخذه، وهو له بالمرصاد، على مجاز طريقه، وبموضع الشجا من مساع ريقه. أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لأهم أولى بالحق منكم ولكن لإسراعهم إلى باطلهم، وإبطائكم عن حقي، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعايها، وأبحت أخاف ظلم رعيي. أستنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سراً وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا.

شهود كغياب، وعبيد كأرباب. أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سباً. ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم. أقومكم غدوة وترجعون إلى عشية، كظهر الحنية عجز المقوم وأعضل المقوم.

أيها القوم، الشاهدة أبدأهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث وأثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء.

تربت أيديكم يا أشباه الإبل غاب عنها رعايها كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر. والله لكأني بكم فيما إخالكم ألو خمس الوغى، وحمي الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها. وإني لعلى بينة من ربي ومنهاج من نبي، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً.

الشرح: أمهله: أخره، وأخذه فاعل، والمفعول محذوف تقديره: فلن يفوته. والمرصاد: الطريق، وهي من ألفاظ الكتاب العزيز.

ومجاز طريقه مسلكه وموضع جوازه. والشجا: ما ينشب في الحلق من عظم أو غيره، وموضع الشجا: هو الحلق نفسه.

ومساع ريقه: موضع الإساغة، أسغت الشراب: أوصلته إلى المعدة. ويجوز: سغت الشراب أسوغه وأسيغه، وساع الشراب نفسه يسوغ سوغاً، أي سهل مدخله في الحلق، يتعدى ولا يتعدى. وهذا الكلام من باب التوسع والمجاز، لأن الله تعالى لا يجوز عليه الحصول في الجهات، ولكنه كقوله تعالى: "وهو معكم أينما كنتم". وقوله: "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد".

ثم أقسم رضي الله عنه أن أهل الشام لا بد أن يظهرُوا على أهل العراق، وأن ذلك ليس لأنهم على الحق وأهل العراق على الباطل، بل لأنهم أطوع لأمرهم، ومدار النصر في الحرب إنما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره، لا على اعتقاد الحق، فإنه ليس يغني في الحرب أن يكون الجيش محقاً في العقيدة إذا كان مختلف الآراء، غير مطيع لأمر المدبر له، ولهذا تجد أهل الشرك كثيراً ما ينتصرون على أهل التوحيد.

ثم ذكر رضي الله عنه نكتة لطيفة في هذا المعنى، فقال: "العادة أن الرعية تخاف ظلم الوالي، وأنا أخاف ظلم رعيتي، ومن تأمل أحواله رضي الله عنه في خلافته، علم أنه كان كالحجور عليه، لا يتمكن من بلوغ ما في نفسه، وذلك لأن العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين، وكان السواد الأعظم، لا يعتقدون فيه الأمر الذي يجب اعتقاده فيه، ويرون تفضيل من تقدمه من الخلفاء عليه، ويظنون أن الأفضلية إنما هي الخلافة، ويقلد أخلافهم أسلافهم، ويقولون: لولا أن الأوائل علموا فضل المتقدمين عليه لما قدموهم، ولا يرونه إلا بعين التبعية لمن سبقه، وأنه كان رعية لهم، وأكثرهم إنما يجارب معه بالحمية وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة، وكان رضي الله عنه مدفوعاً إلى مداراتهم ومقاربتهم ولم يكن قادراً على إظهار ما عنده، ألا ترى إلى كتابه إلى قضاته في الأمصار. وقوله: "فافضوا كما كنتم تقضون، حتى تكون للناس جماعة، وأموت كما مات أصحابي" وهذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير، ومعناه واضح، وهو أنه قال لهم: اتبعوا عادتكم الآن بعاجل الحال في الأحكام والقضايا التي كنتم تقضون بها إلى أن يكون للناس جماعة أي إلى أن تسفر هذه الأمور والخطوب عن الاجتماع وزوال الفرقة وسكون الفتنة، وحينئذ أعرفكم ما عندي في هذه القضايا والأحكام التي قد استمررت عليها.

ثم قال: "أو أموت كما مات أصحابي"، فمن قائل يقول: عني بأصحابه الخلفاء المتقدمين ومن قائل يقول: عني بأصحابه شيعته كسلمان، وأبي ذر، وعمار، ونحوهم، ألا ترى إلى قوله على المنبر في أمهات الأولاد: "كان رأي ورأي عمر ألا يبعن، وأنا أرى الآن يبعن" فقام عليه عبيدة السلماني فقال له: رأيك مع الجماعة أحب إلينا من رأيك وحدك، فما أعاد عليه حرفاً، فهل يدل هذا على القوة والقهر، أم على الضعف في السلطان والرخاوة! وهل كانت المصلحة والحكمة تقتضي في ذلك الوقت غير السكوت والإمساك ألا ترى أنه كان يقرأ في صلاة الصبح وخلفه جماعة من أصحابه، فقرأ واحد منهم رافعاً صوته، معارضاً قراءة أمير المؤمنين رضي الله عنه: "إن الحكم إلا لله يقضي بالحق وهو خير الفاضلين". فلم يضطرب رضي الله عنه، و يقطع صلاته ولم يلتفت وراءه، ولكنه قرأ معارضاً له على البديهة: "فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون" وهذا صبر عظيم وأناة عجيبة وتوفيق بين. وبهذا ونحوه استدل أصحابنا المتكلمون على حسن سياسته وصحة تدبيره، لأن من مني بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصي له، المتمرد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه، ولا يقدر أحد قدره، وقد

قال بعض المتكلمين من أصحابنا: إن سياسة علي رضي الله عنه إذا تأملها المنصف متدبراً لها بالإضافة إلى أحواله التي دفع إليها مع أصحابه، جرت مجرى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذره فإن أصحابه كانوا فرقتين: إحداهما تذهب إلى أن عثمان قتل مظلوماً وتتولاه وتبرأ من أعدائه، وأخرى وهم جمهور أصحاب الحرب وأهل الغناء والبأس يعتقدون أن عثمان قتل لأحداث أوجبت عليه القتل، وقد كان منهم من يصرح بتكفيره، وكل من هاتين الفرقتين يزعم أن علياً رضي الله عنه موافق لها على رأيها، وتطالبه في كل وقت بأن ييدي مذهبه في عثمان، وتسأله أن يجيب بجواب واضح في أمره، وكان رضي الله عنه، يعلم أنه متى وافق إحدى الطائفتين باينته الأخرى، وأسلمته وتولت عنه وخذلت، فأخذ رضي الله عنه يعتمد في جوابه ويستعمل في كلامه ما تظن به كل واحدة من الفرقتين أنه يوافق رأيها وبماثل اعتقادها، فتارة يقول: الله قتله وأنا معه، وتذهب الطائفة الموالية لعثمان إلى أنه أراد أن الله أماته وسيميتني كما أماته وتذهب الطائفة الأخرى إلى أنه أراد أنه قتل عثمان مع قتل الله له أيضاً، وكذلك قوله تارة أخرى: ما أمرت به ولا نهيت عنه، وقوله: "لو أمرت به لكنت قاتلاً، ولو نهيت عنه لكنت ناصراً"، وأشياء من هذا الجنس مذكورة مروية عنه، فلم يزل على هذه الوتيرة حتى قبض رضي الله عنه، وكل من الطائفتين موالية معتقدة أن رأيها في عثمان كرايها، فلو لم يكن له من السياسة إلا هذا القدر مع كثرة خوض الناس حينئذ في أمر عثمان والحاجة إلى ذكره في كل مقام لكفاه في الدلالة على أنه أعرف الناس بها، وأحذقهم فيها، وأعلمهم بوجوه مخارج الكلام، وتدبير أحوال الرجال.

ثم نعود إلى الشرح: قوله رضي الله عنه: "ونصحت لكم"، هو الأوضح، وعليه ورد لفظ القرآن، وقول العامة: "نصحتك" ليس بالأوضح، وقوله: أوعبيد كأرباب" يصفهم بالكبر والته.

فإن قلت: كيف قال عنهم إنهم عبيد وكانوا عرباً صليبة قلت: يريد أن أخلاقهم كأخلاق العبيد من الغدر والخلاف ودناءة الأنفس وفيهم مع ذلك كبر السادات والأرباب وتيههم فقد جمعوا خصال السوء كلها.

وأيادي سباً مثل يضرب للمتفرقين، وأصله قوله تعالى: عن أهل سباً: "ومزقناهم كل ممزق" وسباً مهموز وهو سباً بن يشجب بن يعرب بن قحطان ويقال: ذهبوا أيدي سباً وأيادي سباً، والياء ساكنة وكذلك الألف وهكذا نقل المثل، أي ذهبوا متفرقين، وهما اسمان جعلاً واحداً مثل معدي كرب.

قوله: "يتخادعون عن مواعظكم"، أي تمسكون عن الاتعاض والانزجار، وتقلعون عن ذلك من قولهم: كان فلان يعطي ثم خدع، أي أمسك وأقلع، ويجوز أن يريد: تتلونون وتختلفون في قبول الموعظة من قولهم: خلق فلان خلق خادع، أي متلون، وسوق خادعة أي مختلفة متلونة، ولا يجوز أن يريد باللفظة المعنى المشهور منها لأنه إنما يقال: فلان يتخادع لفلان إذا كان يريه أنه منخدع له وليس بمنخدع في الحقيقة وهذا لا يطابق معنى الكلام.

والحنية: القوس. وقوله: "كظهر الحنية"، يريد اعوجاجهم كما أن ظهر القوس معوج. وأعضل المقوم، أي أعضل داؤه، أي أعيا. ويروى: "أيها الشاهدة أبدأهم". بحذف الموصوف.

ثم أقسم أنه يود أن معاوية صارفه بهم، فأعطاه من أهل الشام واحداً، وأخذ منه عشرة، صرف الدينار بالدرهم أخذ هذا اللفظ عبد الله بن الزبير لما وفد إليه هل البصرة وفيهم الأحنف، فتكلم منهم أبو حنيفة الأسدي، وكان خطيباً جميلاً،

فقال له عبد الله بن الزبير: اسكت فوالله لوددت أن لي بكل عشرة من أهل العراق واحداً من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم، فقال: يا أمير المؤمنين، إن لنا ولك مثلاً، أفأذن في ذكره قال: نعم. قال: مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعشى:

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري، وعلق أخرى غيرها الرجل

أحبك أهل العراق وأحببت أهل الشام وأحب أهل الشام عبد الملك فما تصنع ثم ذكر رضي الله عنه أنه مني، أي بلي منهم بثلاث واثنتين، إنما لم يقل بخمس، لأن الثلاث إيجابية، والاثنتين سلبية، فأحب أن يفرق بين الإثبات والنفي. ويروى: "لا أحرار صدق عند اللقاء" جمع صادق. ولا إخوان ثقة عند البلاء، أي موثوق بهم، تربت أيديكم، كلمة يدعى على الإنسان بها، أي لا أصبتم خيراً، وأصل ترب أصابه التراب، فكأنه يدعو عليه بأن يفتقر حتى يلتصق بالتراب. قوله: فيما إحالكم أي فيما أظنكم، والأفصح كسر الألف وهو السماع وبنو أسد يفتحونها وهو القياس. قوله: ألو أصله أن لو ثم أدغمت النون في الألف فصارت كلمة واحدة.

وحمس الوغى، بكسر الميم: اشتد وعظم، فهو حمس وأحمس بين الحمس والحماسة. والوغى في الأصل: الأصوات والجلبة، وسميت الحرب نفسها وغى لما فيها من ذلك، وقوله: انفراج المرأة عن قبلها، أي وقت الولادة. قوله: ألقطه لقطاً يريد أن الضلال غالب على الهدى فأنا ألتقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لقطاً من ههنا وههنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة، قد اكتنفها الشوك والعوسج من جانبيها كليهما، فهو يلتقط النهج التقاطاً. الأصل: انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا. لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فما أرى أحداً يشبههم منكم، لقد كانوا يصبحون شعناً غبراً وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم ركب المعزى، من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاءاً للثواب.

الشرح: السميت: الطريق، ولبد الشيء بالأرض، يلبد بالضم لبوداً: التصق بها ويصبحون شعناً غبراً، من قشف العبادة وقيام الليل وصوم النهار وهجر الملاذ، فيراوون بين جباههم وخدودهم، تارة يسجدون على الجباه، وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة تذلاً وخضوعاً. والمراوحة بين العمل: أن يعمل هذا مرة وهذا مرة، ويرواح بين رجله إذا قام على هذه تارة وعلى هذه أخرى.

ويقال معزى لهذا الجنس من الغنم ومعز ومعيز وأمعوز ومعز، بالتسكين، وواحد المعز ماعز، كصحب وصاحب، والأنثى ماعزة والجمع ماعز، وهملت أعينهم: سالت، تمهل وتمهل.

ويروى حتى تبل جباههم، أي يبل موضع السجود فتبتل الجبهة بملاقاته. وماذوا: تحركوا واضطربوا، إما خوفاً من العقاب

كما يتحرك الرجل ويضطرب أو رجاء للثواب كما يتحرك النشوان من الطرب، وكما يتحرك الجذل المسرور من الفرح.

ومن كلام له رضي الله عنه في وصف بني أمية

الأصل: والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه، ولا عقداً إلا حلوه، وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم، ونبا به سوء رعتهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكي لدينه وباك يبكي لديناه، وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه، وحتى يكون أعظمكم فيها غناء أحسنكم بالله ظناً، فإن أتاكم الله بعافية، فاقبلوا، وإن أبتليت فاصبروا، فإن العاقبة للمتقين.

الشرح: تقدير الكلام: لا يزالون ظالمين فحذف الخبر وهو مراد، وسدت حتى وما بعدها مسد الخبر ولا يصح ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن زال بمعنى تحرك وانتقل فلا تكون محتاجة إلى خبر، بل تكون تامة في نفسها، لأن تلك مستقبلها يزول بالواو، وههنا بالألف لا يزالون فهي الناقصة التي لم تأت تامة قط ومثلها في أنها لا تزال ناقصة: ظل وما فتئ وليس.

والحرم: ما لا يحل انتهاكه وكذلك المحرمة بفتح الراء وضمها.

وبيوت المدر: هي البيوت المبنية في القرى، وبيوت الوبر: ما يتخذ في البادية من وبر الإبل والوبر لها كالصوف للضأن، وكالشعر للمعز، وقد وبر البعير بالكسر، فهو وبر، وأوبر، إذا كثر وبره. ونبا به مترله: إذا ضربه ولم يوافق، وكذلك نبا به فراشه، فالفعل لازم، فإذا أردت تعديته بالهمزة قلت: قد أنبى فلان على مترلي، أي جعله نايياً، وإن عديته بحرف الجر قلت: قد نبا بمترلي فلان، أي أنباه علي، وهو في هذا الموضع معدى بحرف الجر.

وسوء رعتهم أي سوء ورعهم، أي تقواهم. والورع بكسر الراء: الرجل التقى، ورع يرع بالكسر فيهما ورعاً ورعة، ويروى: سوء رعيهم، أي سوء سياستهم وإمرتهم. ونصرة أحدكم من أحدهم أي انتصاره منه وانتقامه، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل وقد تقدم شرح هذا المعنى وقد حمل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول وكذلك نصرة العبد وتقدير الكلام: حتى يكون نصرة أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيد العبد السيء الطريقة إياه، ومن في الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره من جانب أحدهم ومن جانب سيده وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله: ذا شهد أطاعه وهو الكلام الذي إذا استمر المعنى جعل حالاً من العبد بقوله: من سيده. والضمير في قوله: فيها يرجع إلى غير مذكور لفظاً ولكنه كالمذكور يعني الفتنة، أي حتى يكون أعظمكم في الفتنة غناء، ويروى برفع أعظمكم ونصب أحسنكم والأول أليق وهذا الكلام كله إشارة إلى بني أمية.

ومن خطبة له رضي الله عنه في وصف الدنيا

الأصل: نحمده على ما كان، ونستعينه من أمرنا على ما يكون، ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان. أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدكم فيها مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلاً فكأنهم قد قطعوه، وأموا علماً فكأنهم قد بلغوه وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث من الموت يحدوه، ومزعج في الدنيا عن الدنيا حتى يفارقها رغباً فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزيتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها، فإن عزها وفخرها إلى أقطاع، وزيتها ونعيمها إلى زوال، وضرائها وبؤسها إلى نفاد، وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء.

أو ليس لكم في آثار الأولين مزدجر، وفي أبائكم الأولين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون! أو لم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقي لا يبقون أو لستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتى: فميت ييكي، وآخر يعزى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه وعلى أثر الماضي ما يمضي لباقي ألا فاذكروا هاذم اللذات، ومنغص الشهوات، وقاطع الأمنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة، و ستعينوا الله على أداء واجب حقه، وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه.

الشرح: لما كان الماضي معلوماً جعل الحمد بإزائه لأن المجهول لا يحمد عليه ولما كان المستقبل غير معلوم جعل الاستعانة بإزائه لأن الماضي لا يستعان عليه، ولقد ظرف وأباع رضي الله عنه في قوله: ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان، وذلك أن للأديان سقماً وطباً وشفاء كما أن للأبدان سقماً وطباً وشفاء، قال محمود الوراق:

بالذكر إن الذكر خير دواء

وإذا مرضت من الذنوب فداوها

والسقم في الأديان شر بلاء

والسقم في الأبدان ليس بضائر

وقيل لأعرابي: ما تشتهي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي؟ قال: الجنة، قيل: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضي.

سمعت عفيرة بنت الوليد البصرية العابده رجلاً يقول: ما أشد العمى على من كان بصيراً فقالت: عبد الله! غفلت عن مرض الذنوب، واهتممت بمرض الأجساد عمى القلوب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا، وددت أن الله وهب لي كنه محبته، ولم يبق مني جارحة إلا تبليها.

قيل لحسان بن أبي سنان قى مرضه: ما مرضك؟ قال: مرض لا يفهمه الأطباء قيل: وما هو؟ قال: مرض الذنوب فقيل: كيف تحذرك الآن قال: بخير إن نخوت من النار، قيل: فما تشتهي قال: ليلة طويلة بعيدة ما بين الطرفين أحبيها بذكر الله. ابن شبرمة: عجبت ممن يحتمي من الطعام مخافة الداء، كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار. قوله رضي الله عنه: "الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها" معنى حسن ومنه قول أبي الطيب:

وبفك اليدين عنها تخلي

كل دمع يسيل منها عليها

والرفض: الترك و. إيل رفض: متروكة ترعى حيث شاءت، وقوم سفر، أي مسافرون: وأموا: قصدوا، والعلم: الجبل أو المنار في الطريق يهتدى به.

وكأن في هذه المواضع كهفي في قوله: "كأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل، ما أقرب ذلك وأسرع، وتقدير الكلام ههنا: كأنهم في حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له، وكأنهم في حال كونهم غير بالغين له بالغون له، لأنه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شبهوا وهم في الحال الأولى بهم أنفسهم وهم على الحال الثانية. قوله رضي الله عنه: "وكم عسى المجري" أجرى فلان فرسه إلى الغاية، إذا أرسلها ثم نقل ذلك إلى كل من يقصد بكلامه معنى أو بفعله غرضاً، فقل: فلان يجري بقوله إلى كذا، أو يجري بركته الفلانية إلى كذا، أي يقصد وينتهي بإرادته وأغراضه ولا يعدوه: لا يتجاوزوه، والحديث: السريع. ويحدوه: يسوقه. والمنافسة: المحاسدة، ونفست عليه بكذا، أي ضننت، والبؤس: الشدة والنفاد: الفناء.

وما في قوله: "على أثر الماضي ما يمضي الباقي" إما زائدة أو مصدرية، وقد أخذ هذا اللفظ الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم مات مسلمة بن عبد الملك قيل: لما مات مسلمة بن عبد الملك، واجتمع بنو أمية ورؤساء العرب ينظرون جنازته، خرج الوليد بن يزيد على الناس وهو نشوان ثمل يجر مطرف خز وهو يندب مسلمة ومواليه حوله، فوقف على هشام، فقال: يا أمير المؤمنين إن عقبى من بقي لحوق من مضى وقد أفقر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واحتل الثغر فوهى، وارتج الطود فهوى وعلى أثر من سلف ما يمضي من خلف، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

قوله رضي الله عنه: "عند مساورة الأعمال القبيحة" العامل في عند قوله: "اذكروا" أي ليكن ذكركم الموت وقت مساورتكم، والمساورة: الموائمة، وسار إليه يسور سورا: وثب، قال الأخطل يصف خمرأ له:

سارت إليهم سؤور الأبلج الضاري

لما أتوها بمصباح ومبزلهم

أي كوئوب العرق الذي فصد أو قطع فلا يكاد ينقطع دمه ويقال: إن لغضبه لسورة، وهو سوار، أي وثاب معربد.

يذكر محمداً صلى الله عليه وسلم وما تركه في أصحابه

الأصل: الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجوهر يده. نحمده في جميع أموره، ونستعينه على رعاية حقوقه، ونشهد أن لا إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، فأدى أميناً، ومضى رشيداً، وخلف فينا راية الحق من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق. دليلها مكث الكلام، بطيء القيام، سريع إذا قام، فإذا أنتم أنتم له رقابكم، وأشرتم إليه بأصابعكم جاء الموت فذهب به فلبثتم بعده ما شاء الله حتى يطلع الله لكم من يجمعكم ويضم نشركم، فلا تطمعوا في غير مقبل، ولا تيمسوا من مدبر، فإن المدبر عسى أن تزل به إحدى قائمته، وتثبت الأخرى فترجعا حتى تثبتا جميعاً.

ألا إن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله وصحبه كمثل نجوم السماء، إذا حوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع، وأراكم ما كنتم تأملون.

الشرح: يده ههنا: نعمته، يقال: لفلان عندي يد أي نعمة وإحسان، قال الشاعر:

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

فإن ترجع الأيام بيني وبينها

فإن لها عندي يداً لا أضيعها

وصادعاً، أي مظهرًا ومجاهراً للمشركين، قال تعالى: "فاصدع بما تؤمر".

وراية الحق: الثقلان المخلفان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما الكتاب والعترة، ومرق: خرج، أي فارق الحق، ومرق السهم عن الرمية. خرج من جانبها الآخر وبه سميت الخوارج مارقة، وزهقت نفسه، بالفتح زهوqاً، أي خرجت، قال تعالى: "أوتزهق أنفسهم وهم كافرون". وزهقت الناقة إذا سبقت وتقدمت أمام الركاب، وزهق الباطل: اضمحل، يقول رضي الله عنه: من خالفها متقدماً لها أو متأخراً عنها فقد خرج عن الحق، ومن لازمها فقد أصاب الحق. ثم قال: "دليلها مكث الكلام"، يعني نفسه رضي الله عنه، لأنه المشار إليه من العترة، وأعلم الناس بالكتاب. ومكث الكلام: بطيئه، ورجل مكث أي رزين، والمكث: اللبث والانتظار، مكث ومكث بالفتح والضم، والاسم المكث والمكثنة بالضم وكسرهما يعني أنه ذو أناة وتؤدة، ثم أكد ذلك بقوله: "بطيء القيام".

ثم قال: "سريع إذا قام"، أي هو متأن متثبت في أحواله فإذا نهض جد وبالع وهذا المعنى كثير جداً قال أبو الطيب:

وما قلت للبدر أنت اللجين

ولا قلت للشمس أنت الذهب

فيقلق منه البعيد الأناة

ويغضب منه البطيء الغضب

يعني سيف الدولة.

مدح الأناة وذم العجلة

ومن أمثالهم: "يريك الهويني والأمور تطير"، يضرب لمن ظاهره الأناة وباطنه إبرام الأمور وتنفيذها والحاضرون لا يشعرون ويقولون لمن هو كذلك: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب". ووقع ذو الرياستين إلى عامل له: إن أسرع النار التهاباً أسرعها خموداً، فتأن في أمرك. ويقال: إن آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته فقال: "كل عمل تريدون أن تعملوه فتوقفوا فيه ساعة، فإني لتوقفت لم يصبني ما أصابني. بعض الأعراب يوصي ولده: إياكم والعجلة، فإن أبي كان يكتنيتها: أم الندم. وكان يقال: من ورد عجلًا صدر حجلًا، وقال ابن هاني المغربي:

وكل أناة في المواطن سؤدد

ولا كأناة من قدير محكم

ومن يتبين أن للصفح موضعاً

من السيف يصفح عن كثير ويحلم

وما الرأي إلا بعد طول تثبت

ولا الحزم إلا بعد طول تلوم

وقوله رضي الله عنه: بطيء القيام، سريع إذا قام" فيه شبه من قول الشنفرى:

مسبل في الحي أحوى رفل

وإذا يغزو فسمع أزل

ومن أمثالهم في مدح الأناة وذم العجلة: أخطأ مستعجل أو كاد، وأصاب متثبت أو كاد. ومنها:

وقد يكون مع

المستعجل الزلل

ومخها: رب عجلة تهب ريثاً. وقال البحري:

حليم إذا القوم استخفت حلومهم

وقور إذا ما حادث الدهر أجلبا

قال الأحنف لرجل سبه فأفرط: يا هذا، إنك منذ اليوم تحذو بجمل ثقال، وقال الشاعر:

أحلامنا تزن الجبال رجاجة

وتخالنا جنأ إذا ما نجهل

مدح المقل من الكلام وذم المكثر

فأما قوله رضي الله عنه: "مكيث الكلام"، فإن قلة الكلام من صفات المدح وكثرته من صفات الذم. قالت جارية ابن السماك له: ما أحسن كلامك لولا أنك تكثر ترداده، فقال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه، قالت: فيلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه.

بعث عبد العزيز بن مروان بن الحكم إلى ابن أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفة حمراء، وكتب إليه، أما بعد، فقد بعثت إليك بقطيفة حمراء، حمراء فكتب إليه الوليد: أما بعد، فقد وصلت القطيفة، وأنت يا عم أحقق، أحقق، وأحمق. وقال المعتضد لأحمد بن الطيب السرخسي: طول لسانك دليل على قصر عقلك. قيل للعتابي: ما البلاغة قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا خلسة ولا استعانة فهو بليغ. قيل له: ما الاستعانة قال: ألا ترى الرجل إذا حدث قال: يا هناء، واستمع إلي، وافهم، وألست تفهم؟. هذا كله عي وفساد. دخل على المأمون جماعة من بني العباس فاستنطقهم فوجدهم لكنأ، مع يسار وهيئة، ومن تكلم منهم أكثر وهذر، فكانت حاله أفحش من حال الساكتين، فقال: ما أئين الخلّة في هؤلاء، لا خلّة الأيدي بل خلّة الألسنة والأحلام. وسئل علي رضي الله عنه عن اللسان فقال: معيار أطاشه الجهل، وأرجحه العقل. سمع خالد بن صفوان مكثراً يتكلم، فقال له: يا هذا، ليست البلاغة بخفة اللسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجة.

تال أبو سفيان بن حرب لعبد الله بن الزبيري: ما لك لا تسهب في شعرك؟ قال: حسبك من الشعر غرة لائحة، أو وصمة فاضحة.

وفي خطبة كتاب البيان والتبيين لشيخنا أبي عثمان: "ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر، قال أحيحة بن الجلاح:

والصمت أجمل بالفتى

مالم يكن عي يشينه

والقول ذو خطر إذا

مالم يكن لب يعينه

وقال الشاعر يرثي رجلاً:

لقد وارى المقابر من شريك

كثير تحلم وقليل عاب

صموتاً في المجالس غير عي

جديراً حين ينطق بالصواب

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التشادق والاطالة والهذر، وقال: "إياك والتشادق"، وقال صلى الله عليه وسلم: "أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون" وروى عمرو بن عبيد رحمه تعالى، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إننا معاشر الأنبياء بكاؤون قليلو الكلام"، رجل بكى على فعيل، قال: وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. وقيل للخليل، وقد اجتمع بابين المقفع: كيف رأيتك فقال: لسانه أرحج من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل قال: عقله أرحج من لسانه. فكان عاقبتهم أن عاش الخليل مصوناً مكرماً، وقتل ابن المقفع تلك القتلة. وسأل حفص بن سالم عمرو بن عبيد عن البلاغة فقال: ما بلغك الجنة، وباعدك عن النار، وبصرك مواقع رشدك، وعواقب غيك. قال: ليس عن هذا أسأل، فقال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الكلام، ولا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت.

قال أبو عثمان الجاحظ: وكان عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى لا يكاد يتكلم، فإن تكلم لم يكذب، وكان يقول: عليه السلام خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شاهده دون نفسه، وإذا أطل المتكلم الكلام عرضت له أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك بالتكلف، وقال بعض الشعراء:

وإذا خطبت على الرجال فلا تكن

خطل الكلام تقوله مختالاً

واعلم بأن من السكوت إبانة

ومن التكلف ما يكون خبالاً

وكان يقال: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل من وراء لسانه، فإن هم بالكلام تكلم به.

وقال سعد بن أبي وقاص لعمرو ابنه حين نطق مع القوم فبذهم، وقد كان غضب عليه، فكلموه في الرضا عنه: هذا الذي أغضبني عليه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرض البقر بألسنتها".

وقال معاوية لعمرو بن العاص في أبي موسى: قد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأجد الحز، وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله.

وكان يقال: لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب، وكان يقال: مقتل الرجل بين فكيه، وقيل: بين لحييه، وكان يقال: ما شيء بأحق بسجن من لسان، وقالوا: اللسان سبع عقور، وأخذ أبو بكر بطرف لسانه، وقال: هذا الذي أوردني الموارد.

لما أنكح ضرار بن عمرو ابنته من معبد بن زرارة، أوصاها حين أخرجها إليه فقال: أمسكي عليك الفضلين، قالت: وما هما قال: فضل الغلظة، وفضل الكلام.

وسئل أعراي كان يجالس الشعبي عن طول صمته، فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم" تكلم رجل في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم: فخطل في كلامه، فقال صلى الله عليه وسلم: "ما أعطي العبد شراً من ذلاقة لسان". قال عمر بن عبد العزيز يوم بويع بالخلافة لخالد بن عبد الله القسري، وقد أنشده متمثلاً:

كان للدر حسن نحرك زينا

وإذا الدر زان حسن نحور

إن صاحبكم أعطي مقولاً، وحرّم معقولاً.

وقيل لإياس بن عمر: ادع لنا، فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا، فقالوا: زدنا يا أبا عبد الرحمن، فقال: أعوذ بالله من الإسهاب.

وكان القباع وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، مسهباً سريع الحديث كثيره، فقال فيه أبو الأسود الدؤلي:

أرحنا من قباع بني المغيرة

أمير المؤمنين جزيت خيراً

علينا ما يمر لنا مريره

بلونه ولمناه فأعيا

ومسهب، مذهب كثيره

على أن الفتى نكح أكل

وقال أبو العتاهية:

أعلى وأشرف من قرينه

كل امرئ في نفسه

من منطق في غير حينه

والصمت أجمل بالفتى

وقال الشاعر:

إلى الشر دعاء وللشر جالب

وإياك إياك المراء فإنه

وكان يقال: العجلة قيد الكلام.

أطال خطيب بين يدي الإسكندر فزبره ، قال: ليس حسن الخطبة على حسب طاقة الخاطب ولكن على حسب طاقة السامع.

محمد الباقر رضي الله عنه: إني لأكره أن يكون مقدار لسان الرجل فاضلاً على مقدار علمه كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله.

أطال ربيعة الرأي الكلام، وعنده أعرابي، فلما فرغ من كلامه، قال للأعراب: ما تعدون العي والفهاة فيكم قال: ما كنت فيه أصلحك الله منذ اليوم.

ومن كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام.

واصل بن عطاء: لأن يقول الله لي يوم القيامة: هلا قلت، أحب إلي، من أن يقول لي: لم قلت؟ لأني إذا قلت طالبني بالبرهان وإذا سكت لم يطالبني بشيء.

نزل النعمان بن المنذر براية، فقال له رجل من أصحابه: أبيت اللعن، لو ذبح رجل على رأس هذه الراية، إلى أين كان

يبلغ دمه؟ فقال النعمان: المذبوح والله أنت، ولأنظرن إلى أين يبلغ دمك، فذبجه. فقال رجل: رب كلمة تقول: دعني. أعرابي: رب منطق صدع جمعاً، ورب سكوت شعب صدعاً. قالت امرأة لبعولها: مالك إذا خرجت تطلقت وتحديث، وإذا دخلت قعدت وسكت قال: لأني أدق عن جليلك، وتجلين عن دقيقي.

النخعي: كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلمون الكلام. علي بن هشام:

لعمرك إن الحلم زين لأهله
وما الحلم إلا عادة وتحلم
إذا لم يكن صمت الفتى من بلادة
وعى، فإن الصمت أهدى وأسلم

وهيب بن الورد: إن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، والعاشرة العزلة عن الناس. مكث الربيع بن خيثم عشرين سنة لا يتكلم إلى أن قتل الحسين رضي الله عنه، فسمعت منه كلمة واحدة، قال لما بلغه ذلك: أوقد فعلوها، ثم قال: "اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون". ثم عاد إلى السكوت حتى مات. الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

زعم ابن سلمى أن حلمي ضرني
ما ضر قبلي أهله الحلم
إنا أناس من سجيبتهم
صدق الحديث ورأيهم حتم
لبسوا الحياء فإن نظرت حسبتهم
سقموا ولم يمسسهم سقم
إني وجدت العدم أكبره
عدم العقول وذلك العدم
والمرء أكثر عيبه ضرراً
خطل اللسان وصمته حكم

جاء في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم المؤمن صموتاً فادنوا منه، فإنه يلقي الحكمة".

سفيان بن عيينة: من حرم العلم فليصمت، فإن حرمهما فالموت خير له.

وكان يقال: إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك.

واعلم أن هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين رضي الله عنه و الجمعة الثالثة من خلافته، وكنى فيها عن حال نفسه،

وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه، وطاعتهم له وهكذا وقع الأمر، فإنه نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشد اجتماعاً عليه من الشهر الذي قتل فيه رضي الله عنه.

وجاء في الأخبار أنه عقد للحسن ابنه رضي الله عنه على عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري على عشرة آلاف، ولفلان

وفلان حتى اجتمع له مائة ألف سيف، وأخرج مقدمته أمامه يريد الشام فضربه اللعين ابن ملجم وكان من أمره ما كان،

وانفضت تلك الجموع، وكانت كالغنم فقد راعيها.

ومعنى قوله: "ألنتم له رقابكم" أطعتموه ومعنى "أشترتم إليه بأصابعكم" أعظمتموه وأجللتموه، كالمملك الذي يشار إليه

بالإصبع، ولا يخاطب باللسان. ثم أخبرهم أنهم يلبثون بعده ما شاء الله ولم يحدد ذلك بوقت معين ثم يطلع الله لهم من يجمعهم ويضمهم، يعني من أهل البيت رضي الله عنهم، وهذا إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الوقت. وعند أصحابنا أنه غير موجود الآن وسيوجد، وعند الإمامية أنه موجود الآن.

قوله رضي الله عنه: "فلا تطمعوا في غيرمقبل، ولا تيأسوا من مدبر" ظاهر هذا الكلام متناقض وتأويله أنه نهاهم عن أن يطمعوا في صلاح أمورهم على يد رئيس غير مستأنف الرياسة وهو معنى مقبل، أي قادم تقول: سوف أفعل كذا في الشهر المقبل، وفي السنة المقبلة، أي القادمة يقول: كل الرياسات التي تشاهدونها فلا تطمعوا في صلاح أموركم بشيء منها، وإنما تنصلح أموركم على يد رئيس يقدم عليكم، مستأنف الرياسة حامل الذكر، ليس أبوه بخليفة، ولا كان هو ولا أبوه مشهورين بينكم برياسة. بل يتبع ويعلو أمره ولم يكن قبل معروفاً هو ولا أهله الأدنون، وهذه صفة المهدي الموعود به.

ومعنى قوله: "ولا تيأسوا من مدبر"، أي وإذا مات هذا المهدي وخلفه بنوه بعده، فاضطرب أمر أحدهم فلا تيأسوا وتشككوا وتقولوا: لعننا أخطأنا في اتباع هؤلاء فإن المضطرب الأمر منا ستثبت دعائمه وتنظم أمورهم، وإذا زلت إحدى رجليه ثبتت الأخرى فثبتت الأولى أيضاً. ويروى: "فلا تطعنوا في عين مقبل"، أي لا تحاربوا أحداً منا ولا تيأسوا من إقبال من يدبر أمره منا.

ثم ذكر رضي الله عنه: أنهم كنجوم السماء، كلما خوى نجم طلع نجم. خوى: مال للمغيب. ثم وعدهم بقرب الفرج، فقال: إن تكامل صنائع الله عندكم، ورؤية ما تأملونه أمر قد قرب وقته، وكأنكم به وقد حضر وكان، وهذا على نمط المواعيد الإلهية بقيام الساعة، فإن الكتب المتزلة كلها صرحت بقربها، وإن كانت بعيدة عندنا، لأن البعيد في معلوم الله قريب، وقد قال سبحانه وتعالى: "إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً".

ومن خطبة له عليه السلام

وهي من الخطب التي تشتمل على ذكر الملاحم الأصل: الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، وبأوليته وجب أن لا أول له، وبآخرية وجب أن لا آخر له.

الشرح: يقول: البارئ تعالى موجود قبل كل شيء، يشير العقل إليه ويفرضه أول الموجودات وكذلك هو موجود بعد كل شيء، يشير العقل إليه ويفرضه آخر ما يبقى من جميع الموجودات فإن البارئ سبحانه بالاعتبار الأول يكون أولاً قبل كل ما يفرض أولاً، وباعتبار الثاني يكون آخراً بعد كل ما يفرض آخراً.

فأما قوله: "بأوليته وجب أن لا أول له..."، إلى آخر الكلام، فيمكن أن يفسر على وجهين: أحدهما أنه تعالى لما فرضناه أولاً مطلقاً، تبع هذا الفرض أن يكون قديماً أزلياً، وهو المعنى بقوله: "وجب أن لا أول" وإنما تبعه ذلك، لأنه لو لم يكن أزلياً لكان محدثاً فكان له محدث والمحدث متقدم على المحدث لكننا فرضناه أولاً مطلقاً، أي لا يتقدم عليه شيء، فيلزم المحال والخلف. وهكذا القول في آخريته، لأننا إذا فرضناه آخراً مطلقاً تبع هذا الفرض أن يكون مستحيل العدم، وهو

المعني بقوله: أوجب أن لا آخر له ". وإنما تبعه ذلك لأنه لو لم يستحل عدمه لصح عدمه لكن كل صحيح وممكن فليفرض وقوعه، لأنه لا يلزم من فرض وقوعه محال، مع فرضنا إياه صحيحاً وممكناً لكن فرض تحقق عدمه محال، لأنه لو عدم لما عدم بعد استمرار الوجودية إلا بضد، لكن الضد المعدم يبقى بعد تحقق عدم الضد المعدوم لاستحالة أن يعدمه، ويعدم معه في وقت واحد لأنه لو كان وقت عدم الطارئ هو وقت عدم الضد المطروء عليه، لامتنع عدم الضد المطروء عليه لأن حال عدمه الذي هو الأثر المتجدد تكون العلة الموجبة للأثر معدومة، والمعدوم يستحيل أن يكون مؤثراً البتة فثبت أن الضد الطارئ لا بد أن يبقى بعد عدم المطروء عليه ولو وقتاً واحداً، لكن بقاءه بعده ولو وقتاً واحداً يناقض فرضنا كون المطروء عليه آخراً مطلقاً، لأن الضد الطارئ قد بقي بعده، فيلزم من الخلف والمحال ما لزم في المسألة الأولى. والتفسير الثاني: ألا تكون الضمائر الأربعة راجعة إلى الباري سبحانه، بل يكون منها ضميران راجعين إلى غيره، ويكون تقدير الكلام بأولية الأول الذي فرضنا كون الباري سابقاً عليه، علمنا أن الباري لا أول له، وبآخريته الآخر الذي فرضنا أن الباري متأخر عنه علمنا أن الباري لا آخر له، وإنما علمنا ذلك لأنه لو كان سبحانه أولاً لأول الموجودات وله مع ذلك أول لزم التسلسل، وإثبات محدثين ومحدثين إلى غير نهاية، وهذا محال، ولو كان سبحانه آخراً لآخر الموجودات وله مع ذلك آخر لزم التسلسل، وإثبات أضداد تعدم ويعدمها غيرها إلى غير نهاية، وهذا أيضاً محال.

الأصل: وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة يوافق فيها السر الإعلان، والقلب اللسان. أيها الناس لا يجز منكم شقاقي، ولا يستهوينكم عصياني، ولا تتراموا بالأبصار عند ما تسمعون مني، فو الذي نلق الحبة، وبرأ النسمة، إن الذي أنبئكم به عن النبي الأمي صلى الله عليه وآله وصحبه، والله ما كذب المبلغ، ولا جهل السامع. لكأنني أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام، وفحص براياته في ضواحي كوفان، فإذا فغرت فاغرت، واشتدت شكيمته، وثقلت في الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بأنيابها، وماجت الحرب بأمواجها، وبدا من الأيام كلوحها، ومن الليالي كدوحها، فإذا أينع زرعه، وقام على ينعه، وهدرت شقاشقه، وبرقت بوارقه، عقدت رايات الفتن المعضلة، وأقبلن كالليل المظلم، والبحر المنتظم.

هذا وكم يخرق الكوفة من قاصف، ويفر عليها من عاصف، وعن قليل تلتف القرون بالقرون، ويحصد القائم، ويحطم المحصود.

الشرح: في الكلام محذوف وتقديره: "لا يجرمنكم شقاقي على أن تكذبوني"، والمفعول فضلة وحذفه كثير نحو قوله تعالى: "الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر"، فحذف العائد إلى الموصول ومنها قوله سبحانه: "لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم"، أي من رحمه، ولا بد من تقدير العائد إلى الموصول وقد قرئ قوله: "وما عملته أيديهم"، "وما عملت أيديهم" بحذف المفعول.

لا يجرمنكم: لا يجرمنكم، وقيل: لا يكسبنكم. وهو من الألفاظ القرآنية .

ولا يستهوينكم، أي لا يستهوينكم يجعلكم هائمين، ولا تتراموا بالأبصار، أي لا يلحظ بعضكم بعضاً فعل المنكر المكذب.

ثم أقسم بالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، فلق الحبة من البر، أي شقها وأخرج منها الورق الأخضر، قال تعالى: "إن الله فالف الحب والنوى".

وبرأ النسمة: أي خلق الإنسان، وهذا القسم لا يزال أمير المؤمنين يقسم به، وهو من مبتكراته ومبتدعاته. والمبلغ والسامع هو نفسه رضي الله عنه، يقول: ما كذبت على الرسول تعمدًا، ولا جهلت ما قاله فأنقل عنه غلطًا، والضليل: الكثير الضلال، كالشريب والفسيق ونحوهما.

وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان، لأن هذه الصفات والأمارات فيه أتم منها في غيره، لأنه قام بالشام حين دعا إلى نفسه، وهو معنى نعيقه، وفحصت راياته بالكوفة، تارة حين شخص بنفسه إلى العراق، وقتل مصعبًا، وتارة لما استخلف الأمراء على الكوفة كبشر بن مروان أخيه وغيره، حتى انتهى الأمر إلى الحجاج، وهو زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثقل وطأته، وحينئذ صعب الأمر جدًّا، وتفاقت الفتن مع الخوارج وعبد الرحمن بن الأشعث، فلما كمل أمر عبد الملك، وهو معنى "أينع زرعه" هلك، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده، كحروب أولاده مع بني المهلب، وكحروبهم مع زيد بن علي رضي الله عنه، وكالفتن الكائنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسري وعمر بن هبيرة وغيرهم، وما جرى فيها من الظلم واستتصال الأموال، وذهاب النفوس.

وقد قيل: إنه كنى عن معاوية وما حدث في أيامه من الفتن، وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيد الله بن زياد، وواقعة الحسين رضي الله عنه، والأول أرجح، لأن معاوية في أيام أمير المؤمنين رضي الله عنه كان قد نعق بالشام، ودعاهم إلى نفسه، والكلام يدل على إنسان ينعق فيما بعد، ألا تراه يقول: لكأني أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام، ثم نعود إلى تفسير الألفاظ والغريب.

النعيق: صوت الراعي بغنمه. وفحص براياته. من قولهم: ما له مفحص قطاة، أي بمحتمها، كأنهم جعلوا ضواحي الكوفة مفحصًا ومجثمًا لراياتهم.

وكوفان: اسم الكوفة، والكوفة في الأصل اسم الرملة الحمراء وبها سميت الكوفة. وضواحيها: نواحيها القريبة منها البارزة عنها يريد رستاقها.

وفغرت فاغرت: فتح فاه، وهذا من باب الاستعارة، أي إذا فتك فتح فاه وقتل كما يفتح الأسد فاه عند الافتراس والتأنيث للفتنة.

والشكيمة في الأصل: حديدة معترضة في اللجام في فم الدابة، ثم قالوا: فلان شديد الشكيمة، إذا كان شديد المراس شديد النفس عسر الانقياد.

وثقلت وطأته: عظم جوره وظلمه. وكلوح الأيام: عبوسها، والكدوح: الآثار من الجراحات والقروح، الواحد الكدح، أي الخدش.

والمراد من قوله: "من الأيام"، ثم قال: "ومن الليالي" أن هذه الفتنة مستمرة الزمان كله لأن الزمان ليس إلا النهار والليل.

وأينع الزرع: أدرك ونضج: وهو الينع والينع، بالفتح والضم مثل النضج والنضج ويجوز ينع الزرع بغير همز، ينع ينوعاً، ولم تسقط الياء في المضارع لأنها تقوت بأختها، وزرع ينيع ويانع مثل نضيج وناضج. وقد روي أيضاً هذا الموضع بحذف الهمز.

وقوله رضي الله عنه: "وقام على ينع" الأحسن أن يكون "ينع" ههنا جمع يانع كصاحب وصحب، ذكر ذلك ابن كيسان ويجوز أن يكون أراد المصدر، أي وقام على صفة وحالة هي نضجه وإدراكه. وهدرت شقاشقه، قد مر تفسيره في الشقشقية وبرقت بوارقه: سيوفه ورماحه. والمعضلة: العسرة العلاج داء معضل، ويخرق الكوفة: يقطعها. والقاصف: الريح القوية تكسر كل ما تمر عليه وتقصفه. ثم وعد رضي الله عنه بظهور دولة أخرى فقال: "وعن قليل تلتف القرون بالقرون". وهذا كناية عن الدولة العباسية التي ظهرت على دولة بني أمية. والقرون: الأجيال من الناس، واحدها قرن، بالفتح. ويحصد القائم، ويحطم المحصود: كناية عن قتل الأمراء من بني أمية في الحرب، ثم قتل المأسورين منهم صبراً، فحصد القائم قتل المحاربة، وحطم الحصيد: القتل صبراً وهكذا وقعت الحال مع عبد الله بن علي، وأبي العباس السفاح.

ومن خطبة له تجري هذا المجري

الأصل: وذلك يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب وجزاء الأعمال، خضوعاً قياماً قد أجمعهم العرق، ورجفت بهم الأرض، فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً، ولنفسه متسعاً. الشرح: هذا شرح حال يوم القيامة والنقاش: مصدر ناقش، أي استقصى في الحساب وفي الحديث: "من نوقش الحساب عذب".

وأجمعهم العرق: سال منهم حتى بلغ إلى موضع اللجام من الدابة وهو الفم. ورجفت بهم: تحركت واضطربت، رجف يرجف بالضم والرجفة: الزلزلة والرجاف من أسماء البحر سمي بذلك لاضطربه.

ثم وصف الزحام الشديد الذي يكون هناك، فقال: أحسن الناس حالاً هناك من وجد لقدميه موضعاً، ومن وجد مكاناً يسعه.

الأصل: ومنها: فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزومةً مرحولةً يحفزها قائدها، ويجهدا راكبها أهلها قوم شديد كلبهم، قليل سلبهم، يجاهدكم في الله قوم أذلة عند المتكبرين، في الأرض مجهولون وفي السماء معروفون، فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حس، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر، والجوع الأغبر.

الشرح: قطع الليل: جمع قطع وهو الظلمة، قال تعالى: "فأسر بأهلك بقطع من الليل". قوله: "لا تقوم لها قائمة"، أي لا تنهض بحرها فئة ناهضة، أو لا تقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل، يعني لا سبيل إلى قتال أهلها، ولا يقوم لها قلعة قائمة أو بنية قائمة بل تنهدم.

قوله: "ولا يرد لها راية" أي لا تنهزم ولا تفر، لأنها إذا فرت فقد ردت على أعقابها.

قوله: "مزمومة مرحولة"، أي تامة الأدوات كاملة الآلات، كالناقة التي عليها رحلها وزمامها قد استعدت لأن تتركب. يحفزها: يدفعها. ويجهدا: يحمل عليها في السير فوق طاقتها؛ جهدت دابتي؛ بالفتح، ويجوز: أجهدت؛ والمراد أن أرباب تلك الفتن يجتهدون ويجدون في إضرار نارها، رجلاً وفرساناً، فالرجل كنى عنهم بالقائد، والفرسان كنى عنهم بالراكب. والكلب: الشدة من البرد وغيره، ومثله الكلبة؛ وقد كلب الشتاء، وكلب القحط، وكلب العدو، والكلب أيضاً: الشر، دفعت عنك كلب فلان، أي شره وأذاه.

وقوله: قليل سلبهم، أي همهم القتل لا السلب، كما قال أبو تمام.

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ثم ذكر عليه السلام أن هؤلاء أرباب الفتن يجاهدوهم قوم أذلة، كما قال الله تعالى: "أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين"، وذلك من صفات المؤمنين.

ثم قال: هم مجهولون عند أهل الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد؛ ولكنهم معروفون عند أهل السماء، وهذا إنذار بملحمة تجري في آخر الزمان؛ وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ذلك، وقد فسر هذا الفصل قوم وقالوا إنه أشار به إلى الملائكة لأنهم مجهولون في الأرض، معروفون في السماء، واعتدروا عن لفظة قوم، فقالوا: يجوز أن يقال في الملائكة قوم كما قيل في الجن قوم؛ قال سبحانه: "فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين"؛ إلا أن لفظ أذلة عند المتكبرين يبعد هذا التفسير.

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من نعم الله لا رهج له ولا حس، الرهج: الغبار، وكنى بهذا الجيش عن جذب وطاعون يصيب أهلها حتى يبيدهم. والموت الأحمر، كناية عن الوباء والجوع.

الأعبر: كناية عن المحل، وسمي الموت الأحمر لشدته؛ ومنه الحديث: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ووصف الجوع بأنه أعبر، لأن الجائع يرى الآفاق كأن عليها غبرة وظلاماً؛ وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزنج؛ وهو بعيد، لأن جيشه كان ذا حس ورهج، ولأنه أنذر البصرة بهذا الجيش عند حدوث تلك الفتن؛ ألا تراه قال: فويل لك يا بصرة عند ذلك، ولم يكن قبل خروج صاحب الزنج فتن شديدة على الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

في وصف الناس في بعض الأزمان

الأصل: أنظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها؛ الصادقين عنها؛ فإنها والله عما قليل تزيل الثاوي الساكن؛ وتفجع المترف الآمن؛ لا يرجع ما تولى منها فادبر، ولا يدرى ما هو أت منها فينتظر.

سرورها مشوب بالحزن، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن؛ فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلة ما يصحبكم منها.

رحم الله أمراً تفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر، فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن؛ وكأن ما هو كائن من الآخرة

عما قليل لم يزل، وكل معدود منقض، وكل متوقع آت، وكل آت قريب دان.
الشرح: الصادفين عنها، أي المعرضين، وامرأة صدوف: التي تعرض وجهها عليك ثم تصدف عنك، وعما قليل: عن قليل، وما زائدة.

والثاوي: المقيم. ثوى يثوي ثواء وثوياً، مثل مضى يمضي مضاء ومضياً؛ ويجوز: ثويت بالبصرة وثويت البصرة، وجاء أثويت بالمكان، لغة في ثويت، قال الأعشى:

أنوى وقصر ليله ليزودا فمضت وأخلف من قتيلة موعدا

والمترف: الذي قد أترفته النعمة، أي أطغته؛ يقول عليه السلام: لا يعود على الناس ما أدبر وتولى عنهم من أحوالهم الماضية، كالشباب والقوة، ولا يعلم حال المستقبل من صحة أو مرض، أو حياة أو موت لينتظر، وينظر إلى هذا المعنى قول الشاعر:

وأضيع العمر، لا الماضي انتفعت به ولا حصلت على علم من الباقي

ومشوب: مخلوط، شبهته أشوبه فهو مشوب، وجاء مشيب في قول الشاعر:

وماء قدور في القصاع مشيب

فبناه على شيب لم يسم فاعله، وفي المثل: هو يشوب ويروب، يضرب لمن يخلط في القول والعمل.
والجلد: الصلابة والقوة. والوهن: الضعف نفسه، وإنما عطف للتأكيد، كقوله تعالى: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا"، وقوله: "لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب".

ثم نهي عن الاغترار بكثرة العجب من الدنيا، وعلل حسن هذا النهي، وقبح الاغترار بما نشاهده عياناً من قلة ما يصحب مفارقها منها. وقال الشاعر:

فما تزود مما كان يجمعه إلا حنوطاً غداة البين في خرق

و غير نفحة أعواد شبيب له وقل ذلك من زاد لمنطلق

ثم جعل التفكير علة الاعتبار، وجعل الاعتبار علة الإبصار؛ وهذا حق، لأن الفكر يوجب الاتعاظ، والاتعاظ يوجب الكشف، والمشاهدة بالبصيرة التي نورها الاتعاظ. ثم ذكر أن ما هو كائن موجود من الدنيا سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير - معدوماً، والزمان القصير ههنا: انقضاء الأجل وحضور الموت.

ثم قال: إن الذي هو كائن وموجود من الآخرة سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير أيضاً - كأنه لم يزل؛ والزمان القصير ههنا هو حضور القيامة؛ وهي وإن كانت تأتي بعد زمان طويل، إلا أن الميت لا يحس بطوله، ولا فرق بين ألف سنة عنده إذا عاد حياً، وبين يوم واحد، لأن الشعور بالبطء في الزمان مشروط بالعلم بالحركة، ويدل على ذلك حال النائم. ثم قال: كل معدود منقض، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظري على أن الدنيا زائلة ومنصرفة، وقد استدلل المتكلمون بهذا على أن حركات الفلك يستحيل ألا يكون لها أول، فقالوا لأنها داخلية تحت العدد، وكل معدود يستحيل أن يكون غير متناه، والكلام في هذا مذكور في كتبنا العقلية.

ثم ذكر أن كل ما يتوقع لا بد أن يأتي، وكل ما سيأتي فهو قريب وكأنه قد أتى، وهذا مثل قول قس بن ساعدة الإيادي: ما لي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون؛ أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا؛ أقسم قسى قسما، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعباً؛ سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. اسمعوا أيها الناس وعوا؛ من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت.

الأصل: ومنها: العالم من عرف قدره، وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره؛ وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبداً وكله الله إلى نفسه، جائراً عن قصد السبيل، سائراً بغير دليل؛ إن دعي إلى حرث الدنيا عمل، وإن دعي إلى حرث الآخرة كسل؛ كأن ما عمل له واجب عليه؛ وكأن ما وني فيه ساقط عنه.

الشرح: قوله عليه السلام: "العالم من عرف قدره"، من الأمثال المشهورة عنه عليه السلام، وقد قال الناس بعده في ذلك فأكثروا، نحو قولهم: إذا جهلت قدر نفسك فأنت لقدر غيرك أجهل. ونحو قولهم: من لم يعرف قدر نفسه، فالناس أعذر منه إذا لم يعرفوه، ونحو قول الشاعر أبي الطيب:

ومن جهلت نفسه قدره

رأى غيره منه مالا يرى

ثم عثر عن هذا المعنى بعبارة أخرى، فصارت مثلاً أيضاً، وهي قوله: كفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره، ومن الكلام المروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام مرفوعاً: ما هلك امرؤ عرف قدره، رواه أبو العباس المبرد عنه في الكامل. قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: وما اخل رجلاً يرفع نفسه فوق قدرها إلا من خلل في عقله.

وروى صاحب الكامل أيضاً عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: لما حضرت الوفاة علي بن الحسين عليه السلام أبي ضمني إلى صدره، ثم قال: يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي يوم قتل، وبما ذكر لي أن أباه علياً عليه السلام أوصاه به: يا بني عليك ببذل نفسك، فإنه لا يسر أباك بذل نفسه حمر النعم.

وكان يقال: من عرف قدره استراح. وفي الحديث المرفوع: "ما رفع امرؤ نفسه في الدنيا درجة إلا حطه الله تعالى في الآخرة درجات".

وكان يقال: من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه. ثم ذكر عليه السلام أن من أبغض البشر إلى الله عبداً وكله الله إلى نفسه، أي لم يمهده بمعونته الطافه، لعلمه أنه لا ينجع ذلك فيه، وأنه لا ينجذب إلى الخير والطاعة، ولا يؤثر شيء ما في تحريك دواعيه إليها، فيكله الله حينئذ إلى نفسه.

والجائر: العادل عن السميت، ولما كان هذا الشقي خابطاً فيما يعتقده ويذهب إليه مستنداً إلى الجهل وفساد النظر جعله كالسائر بغير دليل.

والحرث ههنا: كل ما يفعل ليثمر فائدة، فحرث الدنيا كالتجارة والزراعة، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب المقبحات والمعاصي، وسمي حرثاً على جهة المجاز، تشبيهاً بحرث الأرض، وهو من الألفاظ القرآنية.

وكسل الرجل بكسر السين، يكسل، أي يتشاغل عن الأمور، فهو كسلان، وقوم كسالى وكسالى بالفتح والضم.

قال عليه السلام: "حتى كأن ما عمله من أمور الدنيا هو الواجب عليه، لحرصه وجده فيه، وكأن ما وني عنه - أي فتر فيه

من أمور الآخرة - ساقط عنه، وغير واجب عليه لإهماله وتقصيره فيه.

الأصل: ومنها: وذلك زمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نومة، إن شهد لم يعرف، وإن غاب لم يفتقد؛ أولئك مصابيح الهدى وأعلام السرى، ليسوا بالمساييح ولا المذاييع البذر، أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته. أيها الناس: سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه.

أيها الناس؛ إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم؛ ولم يعذكم من أن يتليكم، وقد قال جل من قائل: "إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين" قال الرضي رحمه الله تعالى: أما قوله عليه السلام: "كل مؤمن نومة" فإنما أراد به الخامل الذكر القليل الشر، والمساييح: جمع مسياح؛ وهو الذي يسيح بين الناس بالفساد والنمائم، والمذاييع: جمع مذياع، وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها، ونوه بها. والبذر: جمع بذور، وهو الذي يكرز سفهه ويلغو منطقته.

الشرح: شهد: حضر، وكفأت الإناء أي قلبته وكببته. وقال ابن الأعرابي: يجوز أكفأته أيضاً، والبذر: جمع بذور مثل صبور وصبر؛ وهو الذي يذيع الأسرار، وليس كما قال الرضي رحمه الله تعالى، فقد يكون الإنسان بذورا وإن لم يكثر سفهه ولم يلغ منطقته؛ بأن يكون علنة مذياعاً من غير سفه ولا لغو. والضراء: الشدة، ومثلها البأساء؛ وهما اسمان مؤنثان من غير تذكير، وأجاز الفراء أن يجمع على آضر وأبوس، كما يجمع النعماء على أنعم.

واعلم أنه قد جاء في التواضع وهضم النفس شيء كثير؛ ومن ذلك الحديث المرفوع: "من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الله وضعه".

ويقال: إن الله تعالى قال لموسى: إنما كلمتك لأن في أخلاقك خلقاً أحبه الله، وهو التواضع. ورأى محمد بن واسع ابنه يمشي الخيلاء، فناده فقال: ويلك! أتمشي هذه المشية، وأبوك أبوك، وأملك أملك، أما أملك فأمة، ابتعتها بمائتي درهم؛ وأما أبوك فلا كثر الله في الناس مثله.

ومثل قوله عليه السلام: كل مؤمن نومة إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد، قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: رب أشعث أغر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبر قسمه".

وقال عمر لابنه عبد الله؛ التمس الرفعة بالتواضع والشرف بالدين، والعفو من الله بالعفو عن الناس، وإياك والخيلاء فتضع من نفسك، ولا تحقرن أحداً فإنك لا تدري لعل من تزدره عينك أقرب إلى الله وسيلة منك.

وقال الأحنف: عجيب لمن جرى في مجرى البول مرتين، من فرجين، كيف يتكبر وقد جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يناسب؛ كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا: إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا!، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة.

وأما إفشاء السر وإذاعته، فقد ورد فيه أيضاً ما يكرز، ولو لم يرد فيه إلا قوله سبحانه: "ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء بنميم" لكفى.

وفي الحديث المرفوع: "من أكل بأخيه أكلة أطعمه الله مثلها من نار جهنم" قيل في تفسيره: هو أن يسعى بأخيه ويجر نفعاً بسعائته.

الجنيد: ستر ما عانيت أحسن من إشاعة ما ظننت.

عبد الرحمن بن عوف: من سمع بفاحشة فأفشأها فهو كالذي أتاها.

قال رجل لعمر بن عبيد: إن علياً الأسواري لم يزل منذ اليوم يذكر بك بسوء ويقول: الضال. فقال عمرو: يا هذا، ما رعيت حق مجالسة الرجل حين نقلت إلينا حديثه، ولا وفيتني حقي حين أبلغتني عن أخي ما أكرهه، اعلم أن الموت يعمنا، والبعث يحشرنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا، وكان يقال، من نم إليك نم عليك، وقالوا في الساعة: يكفيك أن الصدق محمود إلا منهم، وإن أصدقهم أحبهم.

وشى واش برجل إلى الإسكندر، فقال له: أتحب أن أقبل منك ما قلت فيه، على أن أقبل منه ما قال فيك، قال: لا، قال: فكف عن الشر يكف عنك.

قال رجل لفيلسوف: عابك فلان بكذا، قال: لقيتني لقحتك بما لم يلقي به لحيائه.

عاب مصعب بن الزبير الأحنف عن شيء بلغه عنه، فأنكره، فقال: أخبرني بذلك الثقة، فقال: كلا أيها الأمير، إن الثقة لا ينم.

عرض بعض عمال الفضل بن سهل عليه رقعة ساع في طي كتاب كتبه إليه، فوقع الفضل: قبول السعاية شر من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة وليس من دل على قبيح كمن أحازه وعمل به، فاطرد هذا الساعي عن عملك، واقصه عن بابك، فإنه لو لم يكن في سعائته كاذباً لكان في صدقه لئيماً، إذ لم يرع الحزمة، ولم يستر العورة، والسلام. صالح بن عبد القدوس:

فهو الشاتم، لا من شتمك

إنما اللوم على من أعلمك

ذا حفاظ عند من ظلمك.

من يخبرك بشتم عن أخ

ذاك شيء لم يواجهك به

كيف لم ينصرك إن كان أخاً

طريح بن إسماعيل الثقفي:

شراً أذاعوا، وإن لم يعلموا كذبوا

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا

ومعنى قوله عليه السلام: وإن غاب لم يفتقد، أي لا يقال: ما صنع فلان، ولا أين هو؛ أي هو حامل لا يعرف.

وقوله: "أولئك يفتح الله بهم أبواب الرحمة، ويكشف بهم ضراء النعمة"؛ وروي: أولئك يفتح الله بهم أبواب رحمته، ويكشف بهم ضراء نعمته، أي ببركاتهم يكون الخير ويندفع الشر.

ثم ذكر عليه السلام أنه سيأتي على الناس زمان تنقلب فيه الأمور الدينية إلى أضدادها ونقائضها، وقد شهدنا ذلك عياناً.

ثم أخبر عليه السلام أن الله لا يجوز على العباد، لأنه تعالى عادل ولا يظلم ولكنه يتلى عباده أي يختبرهم، ثم تلا قوله

تعالى: "إن في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين"، والمراد أنه تعالى، إذا فسد الناس لا يلجئهم إلى الصلاح، لكن يتركهم

واختيارهم امتحاناً لهم، فمن أحسن أثيب، ومن أساء عوقب.

ومن خطبة له يصف فيها حال الناس

الأصل: أما بعد؛ فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله، وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدعي نبوة ولا وحياً؛ فقاتل بمن أطاعه من عصاه؛ يسوقهم إلى منجائهم؛ ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم؛ يحسر الحسير، ويقف الكسير؛ فيقيم عليه، حتى يلحقه غايته؛ إلا هالكاً لا خير فيه. حتى أراهم منجائهم، وبوأهم محلثهم، فاستدارت رحاهم، وأستقامت قناتهم. الله لقد كنت من ساقته حتى تولت بخذافيرها، وأستوسقت في قيادها، ما ضعفت ولا جبت، ولا خنت ولا وهنت. الله لأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وقد تقدم مختار هذه الخطبة؛ إلا أنني وجدتها في هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان؛ فأوجب الحال إثباتها ثانية.

الشرح: لقائل أن يقول: ألم يكن في العرب نبي قبل محمد؛ وسو خالد بن سنان العبسي؛ وأيضاً فقد كان فيها هود وصالح وشعيب.

ونجيب هذا القائل بأن مراده عليه السلام أنه لم يكن في زمان محمد صلى الله عليه وسلم وما قاربه من ادعى النبوة، فأما هود وصالح و شعيب، فكانوا في دهر قديم جداً، وأما خالد بن سنان فلم يقرأ كتاباً، ولا يدعي شريعة وإنما كانت نبوة مشابهة لنبوة جماعة من أنبياء بني إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع، وإنما ينهون عن الشرك، ويأمرون بالتوحيد. ومنجائهم: نجائهم، نجوت من كذا نجاءً، ممدود، ونجا مقصور. ومنجاة على مفعلة، ومنه قولهم: الصدق منجاة.

قوله عليه السلام: ويبادر بهم الساعة، كأنه كان يخاف أن تسبقه القيامة، فهو يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم، وهم على ضلالهم.

و الحسير: المعيا، حسر البعير بالفتح، يحسر بالكسر حسوراً، واستحسر مثله، وحسرته أنا، يتعدى ولا يتعدى، حسراً فهو حسير، ويجوز أحسرته، بالهمزة، والجمع حسرى، مثل قتيل وقتلى، ومنه حسر البصر، أي كل، يحسر، قال تعالى: "ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير". وهذا الكلام من باب الاستعارة والجاز، يقول عليه السلام: "كان النبي صلى الله عليه وسلم لحرصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين، ورأفته بهم، يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده، أو عرضت له شبهة، أو حدث عنده ريب، ولا يزال يوضح له ويرشده حتى يزيل ما خامر سره من وساوس الشيطان، ويلحقه بالخلصين من المؤمنين. ولم يكن ليقتصر في مراعاة أحد من المكلفين في هذا المعنى إلا من كان يعلم أنه لا خير فيه أصلاً، لعناده وإصراره على الباطل، ومكابرته للحق.

ومعنى قوله: حتى يلحقه غايته، حتى يوصله إلى الغاية التي هي الغرض بالتكليف، يعني اعتقاد الحق وسكون النفس إلى الإسلام، وهو أيضاً معنى قوله: وبوأهم محلثهم.

ومعنى قوله: فاستدارت رحاهم، انتظم أمرهم، لأن الرحا إنما تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلها، وهو أيضاً معنى قوله: واستقامت قناتهم، وكل هذا من باب الاستعارة.

ثم أقسم أنه عليه السلام كان من ساقته، الساقة: جمع سائق، كقادة جمع قائد، وحاكة جمع حائك، وهذا الضمير المؤنث يرجع إلى غير مذكور لفظاً، والمراد الجاهلية، كأنه جعلها مثل كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام، وجعل نفسه من الحاملين

عليها بسيفه، حتى فرت وأدبرت، واتبعها يسوقها سوقاً وهي مولية بين يديه.
 حتى أدبرت بخذافيها، أي كلها عن آخرها، ثم أتى بضمير آخر إلى غير مذكور لفظاً، وهو قوله: واستوسقت في قيادها،
 يعني الملة الإسلامية أو الدعوة، أو ما يجري هذا الجرى. واستوسقت: اجتمعت، يقول: لما ولت تلك الدعوة الجاهلية
 استوسقت هذه في قيادها كما تستوسق الإبل المقودة إلى أعطانها. ويجوز أن يعود هذا الضمير الثاني إلى المذكور الأول
 وهو الجاهلية، أي ولت بخذافيها واجتمعت كلها تحت ذل المقادة.
 ثم أقسم أنه ما ضعف يومئذ ولا وهن ولا جبن ولا خان، وليقرن الباطل الآن حتى يخرج الحق من خاصرته، كأنه جعل
 الباطل كالشيء المشتعل على الحق غالباً عليه، ومحيطاً به، فإذا بقر ظهر الحق الكامن فيه، وقد تقدم منا شرح ذلك.

ومن خطبة له في شأن أهل البيت؛

الأصل: حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طفلاً، وأنجها كهلاً، وأطهر المطهرين
 شيمه، وأجود المستمطرين دمه، فما أحلوت لكم الدنيا في لذتها، ولا تمكنتم من رضاع أحلافها، إلا من بعده.
 صادفتموها جائلاً خطامها، قلقاً وضينها؛ قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود، وحلالها بعيداً غير موجود،
 وصادفتموها والله ظلاً ممدوداً إلى أجل معدود.
 فالأرض لكم شاغرة، وأيديكم فيها مبسوطة؛ وأيدي القادة عنكم مكفوفة، وسيوفكم عليهم مسلطة، وسيوفهم عنكم
 مقبوضة.
 ألا وإن لكل دم ثائراً، ولكل حق طالباً، وإن الثائر في دماننا كالحاكم في حق نفسه، وهو الله الذي لا يعجزه من طلب،
 ولا يفوته من هرب. فأقسم بالله يا بني أمية عما قليل لتعرفنها في أيدي غيركم، وفي دار عدوكم.
 الشرح: معنى كون النبي صلى الله عليه وسلم شهيداً، أنه يشهد على الأمة بما فعلته من طاعة وعصيان.
 أنجها: أكرمها، ورجل نجيب؛ أي كريم بين النجابة، والنجبة مثل الهمزة؛ ويقال: هو نجبة القوم؛ أي النجيب منهم،
 وأنجب الرجل، أي ولد ولدًا نجيباً، وامرأة منجبة ومنجاب، تلد النجباء، ونسوة مناجيب.
 والشيمة: الخلق؛ والديمة: مطر يدوم. والمستمطرون: المستجدون والمستماحون. واحلوت: حلت، وقد عداه حميد بن ثور
 في قوله:

عن الضرع، واحلولى دماناً يرودها

فلما أتى عامان بعد انفصاله

ولم يحىء أفعول متعدياً إلا هذا الحرف وحرف آخر، وهو اعروريت الفرس. والرضاع، بفتح الراء: رضع الصبي أمه،
 بكسر الضاد يرضعها رضاعاً، مثل سمع يسمع سماعاً؛ وأهل نجد يقولون: رضع بالفتح يرضع بالكسر، مثل ضرب يضرب
 ضرباً. وقال الأصمعي: أخبرني عيسى بن عمر أنه سمع العرب تنشد هذا البيت:

أفاويق حتى مايدر لها ثعل

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها

بكسر الضاد. والأخلاف للناقة بمترلة الأطباء للكلبة، واحدها خلف بالكسر، وهو حلمة الضرع. والخطام: زمام الناقة، خطمت البعير زمته، وناقة مخطومة، ونوق مخطمة.

و الوضين للهودج؛ بمترلة البطان للقتب، والتصدير للرحل، والحزام للسرّج، وهو سيور تنسج مضاعفة بعضها على بعض، يشد بها الهودج منه إلى بطن البعير، والجمع وذن.

و المخضود: الذي خضد شوكة، أي قطع، وشاغرة: خالية، شجر المكان، أي خلا، وبلدة شاغرة، إذا لم تمتنع من غارة أحد، والثائر: طالب الثأر، لا يبقى على شيء حتى يدرك ثأره.

يقول عليه السلام مخاطباً لمن في عمره من بقايا الصحابة ولغيرهم من التابعين، الذين لم يدركوا عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله بعث محمداً، وهو أكرم الناس شيمة، وأنداهم يداً، وخيرهم طفلاً، وأنجبهم كهلاً، فصانه الله تعالى في أيام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا، وأكرمه عن ذلك فلم تفتح عليكم البلاد، ولا درت عليكم الأموال، ولا أقبلت الدنيا نحوكم، وما دالت الدولة لكم إلا بعده، فتمكنتم من أكلها والتمتع بها، كما يتمكن الحالب من احتلاب الناقة فيحلبها، وحلت لذاقها لكم، واستطبتم العيشة، ووجدتموها حلوة خضرة.

ثم ذكر أنهم صادفوها - يعني الدنيا - وقد صعبت على من يليها ولاية حق، كما تستصعب الناقة على راكبها إذا كانت جائلة الخطام، ليس زمامها. بممكن راكبها من نفسه، قلقه الوضين، لا يثبت هودجها تحت الراكب، حرامها سهل التناول على من يريده، كالسدر الذي خضد عنه شوكة، فصار ناعماً أملس، وحلالها غير موجود لغلبة الحرام عليه، وكونه صار مغموراً مستهلكاً بالنسبة إليه، وهذا إشارة إلى ما كان يقوله دائماً من استبداد الخلفاء قبله دونه بالأمر، وأنه كان الأولى والأحق.

فإن قلت: إذا كانت الدنيا قلقه الوضين، جائلة الخطام، فهي صعبة الركوب، وهذا ضد قوله: حرامها بمترلة السدر المخضود، لأنه من الأمثال المضروبة للسهولة؛

قلت: فحوى كلامه أن الدنيا جمحت به عليه السلام، فألقته عن ظهرها بعد أن كان راكباً لها أو كالراكب لها لاستحقاقه ركوبها، وأنها صارت بعده كالناقة التي خلعت زمامها، أو أجالته فلا يتمكن راكبها من قبضه، واسترخى وضيينها لشدة ما كان صدر عنها من النفار والتفحم، حتى أذرت راكبها، فصارت على حال لا يركبها إلا من هو موصوف بركوب غير طبيعي، لأنه ركب ما لا ينبغي أن يركب، فالذين ولوا أمرها ولوه على غير الوجه، كما أن راكب هذه الناقة يركبها على غير الوجه، ولهذا لم يقل: فصار حرامها بمترلة السدر المخضود بل قال عند أقوام، فخصص.

وهذا الكلام كله محمول عند أصحابنا على التألم من كون المتقدمين تركوا الأفضل، كما قدمناه في أول الكتاب. ثم ذكر عليه السلام أن الدنيا فانية، وأنها ظل ممدود إلى أجل معدود. ثم ذكر أن الأرض بهؤلاء السكان فيها صورة خالية من معنى، كما قال الشاعر:

الله يعلم أنني لم أقل فندا

على كثير، ولكن لا أرى أحداً

ما أكثر الناس، لا بل ما أقلهم

إنني لا ففتح عيني ثم اغمضها

ثم أعاد الشكوى والتألم فقال: أيديكم في الدنيا مبسوطة، وأيدي مستحقي الرياسة ومستوجبي الأمر مكفوفة، وسيوفكم مسلطة على أهل البيت الذين هم القادة والرؤساء، وسيوفهم مقبوضة عنكم، وكأنه كان يرمز إلى ما سيقع من قتل الحسين عليه السلام وأهله، وكأنه يشاهد ذلك عياناً، ويخطب عليه ويتكلم على الخاطر الذي سنح له، والأمر الذي كان أخبر به، ثم قال: إن لكل دم ثائراً يطلب القود، والثائر بدمائنا ليس إلا الله وحده، الذي لا يعجزه مطلوب، ولا يفوته هارب. ومعنى قوله عليه السلام: كالحاكم في حق نفسه، أنه تعالى لا يقصر في طلب دمائنا كالحاكم الذي يحكم لنفسه، فيكون هو القاضي وهو الخصم، فإنه إذا كان كذلك يكون مبالغاً جداً في استيفاء حقوقه.

ثم أقسم وخاطب بني أمية، وصرح بذكرهم أنهم ليعرفن الدنيا عن قليل في أيدي غيرهم وفي دورهم، وأن الملك سينتزع منهم أعداؤهم، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه السلام، فإن الأمر بقي في أيدي بني أمية قريباً من تسعين سنة؛ ثم عاد إلى البيت الهاشمي، وانتقم الله تعالى منهم على أيدي أشد الناس عداوة لهم.

نهاية مروان بن محمد الملقب بالحمار

سار عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس في جمع عظيم للقاء مروان بن محمد بن مروان، وهو آخر خلفاء الأمويين، فالتقيا بالزباب من أرض الموصل، ومروان في جموع عظيمة وأعداد كثيرة، فهزم مروان، واستولى عبد الله بن علي على عسكره، وقتل من أصحابه خلقاً عظيماً، وفر مروان هارباً حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه، فصار إلى مصر، فاتبه عبد الله بجنوده، فقتله ببوصير الأشمونين من صعيد مصر، وقتل خواصه وبطانته كلها، وقد كان عبد الله قتل من بني أمية على نهر أبي فطرس من بلاد فلسطين قريباً من ثمانين رجلاً، قتلهم مثله واحتذى أخوه داود بن علي بالحجاز فعله، فقتل منهم قريباً من هذه العدة بأنواع المثل.

وكان مع مروان حين قتل ابنه عبد الله وعبيد الله - وكانا ولي عهده - فهربا في خواصهما إلى أسوان من صعيد مصر ثم صارا إلى بلاد النوبة ونالهم جهد شديد وضر عظيم، فهلك عبد الله بن مروان في جماعة ممن كان معه قتلاً وعطشاً وضرراً، وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب المكاره، ووقع عبيد الله في عدة ممن نجا معه في أرض البجة وقطعوا البحر إلى ساحل جدة، وتنقل فيمن نجا معه من أهله ومواليه في البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً فظفر بعبد الله أيام السفاح، فحبس فلم يزل في السجن بقية أيام السفاح، وأيام المنصور، وأيام المهدي، وأيام الهادي وبعض أيام الرشيد، وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضير، فسأله عن خبره، فقال: يا أمير المؤمنين، حبست غلاماً بصيراً، وأخرجت شيخاً ضيراً، فقل: إنه هلك في أيام الرشيد، وقيل: عاش إلى أن أدرك خلافة الأمين.

شهد يوم الزاب مع مروان في إحدى الروايتين إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، الذي خطب له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فقتل فيمن قتل. وفي الرواية الثانية إن إبراهيم قتله مروان الحمار قبل ذلك.

لما انهزم مروان يوم الزاب مضى نحو الموصل، فمنعه أهلها من الدخول، فأتى حران، وكانت داره ومقامه، وكان أهل حران حين أزيل لعن أمير المؤمنين عن المنابر في أيام الجمع امتنعوا من إزالته، وقالوا: لا صلاة إلا بلعن أبي تراب، فاتبه

عبد الله بن علي بجنوده فلما شارفه خرج مروان عن حران هارباً بين يديه وعبر الفرات، ونزل عبد الله بن علي على حران، فهدم قصر مروان بها، وكان قد أنفق على بنائه عشرة آلاف درهم، واحتوى على خزائن مروان وأمواله، فسار مروان بأهلها وعترته من بني أمية، حتى نزل بنهر أبي فطرس، وسار عبد الله بن علي حتى نزل دمشق، فحاصرها وعليها من قبل مروان الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان في خمسين ألف مقاتل، فألقى الله تعالى بينهم العصبية في فضل نزار على اليمن، وفضل اليمن على نزار، فقتل الوليد - وقيل بل قتل في حرب عبد الله بن علي - وملك عبد الله دمشق، فأتى يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فحملهما مأسورين إلى أبي العباس السفاح، فقتلتهما وصلبهما بالحيرة، وقتل عبد الله بن علي بدمشق خلقاً كثيراً من أصحاب مروان وموالي بني أمية وأتباعهم، ونزل عبد الله على نهر أبي فطرس، فقتل من بني أمية هناك بضعاً وثمانين رجلاً، وذلك في ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وفي قتل نهر أبي فطرس وقتلى الزاب يقول أبو عدي عبد الله بن عمرو العبلي وكان أموي الرأي:

نشوزي عن المضجع الأملس

لدى هجعة الأعين النعس:

عرين أباك فلا تبلسي

من الذل في شرما محبس

سهائم من الحدث المبيس

و لا طائشات ولا نكس

س متى ما تصب مهجة تخلص

د فملقى بأرض ولم ير مس

من العيب والعار لم تدنس

و آخر طار فلم يحسس

و قتلى بكثرة لم تر مس

ن من يثرب خير ما أنفس

و قتلى بنهر أبي فطرس

نوائب من زمن متعس

ين وإن جلسوا زينة المجلس

أبوك، وأوحش في المأنس

و لا تسألني بامرئ متعس

تقول امامة لما رأت

وقلة نومي على مضجعي

أبي، ماعراك؛ فقلت: الهموم

عرين أباك فحبسنه

لفقد الأحبة إذ نالها

رمتها المنون بلا نكل

بأسهمها المتلفات النفو

فصرعتهم بنواحي البلا

نقي أصيبوا أثوابه

و آخر قد رس في حفرة

فاض المدامع قتلى كدى

وقتلى بوجوب اللابتي

و بالزابين نفوس ثوت

أولئك قومي أناخت بهم

إذا ركبوا زينوا الموكب

وإن عن ذكرهم لم ينم

فذاك الذي غالني فاعلمي

هم أضرعوني لريب الزما

ن وهم أَلصقوا الخد بالمعطس

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني، قال: نظر عبد الله بن علي في الحرب إلى فتى عليه أبهة الشرف، وهو يحارب مستقلاً، فناده: يا فتى، لك الأمان، ولو كنت مروان بن محمد! قال: إلا أكنه فلست بدونه! فقال ولك الأمان، ولو كنت من كنت، فأطرق، ثم أنشد:

لذل الحياة وكغ المما

ت وكلا أراه طعاماً وببلا

وإن لم يكن غير إحداهما

فسيراً إلى الموت سيراً جميلاً

ثم قاتل حتى قتل، فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك.

وروى أبو الفرج أيضاً، عن محمد بن خلف، قال: دخل سديف مولى آل أبي هب على أبي العباس بالحيرة، وأبو العباس جالس على سريره، وبنو هاشم دونه على الكراسي وبنو أمية حوله على وسائد قد ثنيت لهم، وكانوا في أيام دولتهم يجلسونهم والخليفة منهم على الأسرة، ويجلس بنو هاشم على الكراسي، فدخل الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين، بالباب رجل حجازي أسود راكب على نجيب مثلث، يستأذن ولا يخبر باسمه، ويحلف لا يحسر اللثام عن وجهه حتى يرى أمير المؤمنين! فقال: هذا سديف مولانا، أدخله؛ فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه، ثم أنشد:

أصبح الملك ثابت الأساس

بالبهاليل من بني العباس

بالصدور المقدمين قديماً

و البحور القماقم الرؤاس

يا إمام المطهرين من الذم

و يا رأس منتهى كل راس

أنت مهدي هاشموفتها

كم أناس رجوك بعد أناس

لا تقيلن عبد شمس عثراً

و اقطعن كل رقلة وغراس

أنزلوها بحيث أنزلها

الله بدار الهوان والإتعاس

خوفها أظهر التودد منها

و بها منكم كحز المواسي

أقصهم أيها الخليفة واحسم

عنك بالسيف الأرجاس

واذكرن مصرع الحسينوزيد

و قتيلاً بجانب المهراس

والقتيل الذي بحران أمسى

ثاويًا بين غربة وتناس

فلقد ساعني وساء سوائي

قربهم من نمارق وكراسي

نعم كلب الهراش مولاك شبل

لو نجا من حبائل الإفلاس

قال: فتغير لون أبي العباس، وأخذه زمعور عدة، فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك إلى آخر فيهم كان إلى جانبه، فقال: قتلنا والله العبد! فأقبل أبو العباس عليهم، فقال: يا بني الزواني؛ لا أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون في الدنيا، خذوهم؛ فأخذتهم الخراسانية بالكفر كوبات فاهمدوا، إلا ما كان من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فإنه استجار بدادود بن علي، وقال: إن أبي لم يكن كأبائهم، وقد علمت صنيعته إليكم فأجاره واستوهبه من السفاح وقال له: قد علمت صنيع أبيه إلينا؛ فوهبه له، وقال: لا يريني وجهه، وليكن بحيث نأمنه، وكتب إلى عماله في الآفاق بقتل بني أمية.

فأما أبو العباس المبرد، فإنه روى في الكامل هذا الشعر على غير هذا الوجه؛ ولم ينسبه إلى سديف، بل إلى شبل مولى بني هاشم.

قال أبو العباس: دخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي، وقد أجلس ثمانين من بني أمية على سمط الطعام، فأنشده:

أصبح الملك ثابت الأساس	بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشموشفوها	بعد ميل من الزمان وياس
لاتقيلن عبدشمس عثاراً	واقطعن كل رقلة وأواسي
ذلها أظهر التودد منها	وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظنيو غاظ	من نمارق وكراسي
أنزلوها حيث أنزلها	الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسينوزيد	وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أضحي	ثاوياً بين غربة وتناس
نعم شبل الهراش مولاك شبل	لو نجا من حبائل الإفلاس

فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعمد، وبسطت البسط عليهم، وجلس عليها، ودعا بالطعام، وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً. وقال لشبل: لولا أنك خلطت شعرك بالمسألة لأغنمتك أموالهم، ولعقدت لك على جميع موالي بني هاشم. قال أبو العباس: الرقلة: النخلة الطويلة، والأواسي: جمع آسية؛ وهي أصل البناء كالأساس. وقتيل المهراس: حمزة عليه السلام، والمهراس: ماء بأحد. وقتيل حران: إبراهيم الإمام.

قال أبو العباس: فأما سديف، فإنه لم يقم هذا المقام، وإنما قام مقاماً آخر، دخل على أبي العباس السفاح؛ وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أعطاه يده فقبلها وأدناه، فأقبل على السفاح، وقال له:

لا يغرنك ماترى من رجال	إن تحت الضلوع داءً دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى	لا يرى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان: مالي ولك أيها الشيخ! قتلتني قتلك الله! فقام أبو العباس، فدخل وإذا المنديل قد القي في عنق سليمان، ثم جر فقتل.

فأما سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فقتل بالبلقاء، وحمل رأسه إلى عبد الله بن علي.

انتقال الملك من بني أمية إلى بني العباس

وذكر صاحب مروج الذهب أنه أرسل عبد الله أخاه صالح بن علي ومعه عامر بن إسماعيل أحد الشيعة الخراسانية إلى مصر، فلحقوا مروان ببوصير، فقتلوه وقتلوا كل من كان معه من أهله وبطانته، وهجموا على الكنيسة التي فيها بناته ونساؤه، فوجدوا خادماً بيده سيف مشهور يسابقهم على الدخول، فأخذوه وسألوه عن أمره، فقال: إن أمير المؤمنين أمري إن هو قتل أن أقتل بناته ونساءه كلهن، قبل أن تصلوا إليهن، فأرادوا قتله، فقال: لا تقتلوني، فإنكم إن قتلتموني فقدتم ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: وما هو؛ فأخرجهم من القرية إلى كثبان من الرمل، فقال: اكشفوا ههنا، فإذا الردة والقضيوقعب مخضب قد دفنها مروان ضناً بها أن تصير إلى بني هاشم، فوجه به عامر بن إسماعيل إلى صالح بن علي، فوجه به صالح إلى أخيه عبد الله، فوجه به عبد الله إلى أبي العباس، وتداوله خلفاء بني العباس من بعد. وأدخل بنات مروان وحرمة ونساءه على صالح بن علي، فتكلمت ابنة مروان الكبرى، فقالت: يا عم أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه، وأسعدك في أحوالك كلها، وعمك بخواص نعمه، وشملك بالعافية في الدنيا والآخرة. نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك، فليسعنا من عدلكم ما وسعنا من جوركم. قال: إذا لا نستبقي منكم أحداً، لأنكم قد قتلتم إبراهيم الإمام، وزيد بن علي، ويحيى بن زيد، ومسلم بن عقيل؛ وقتلتم خير أهل الأرض: حسيناً وإخوته وبنيه وأهل بيته، وسقتم نساءه سبايا - كما يساق ذراري الروم - على الأقطاب إلى الشام. فقالت: يا عم أمير المؤمنين، فليسعنا عفوكم إذاً. قال: أما هذا فنعم؛ وإن أحببت زوجتك من ابني الفضل بن صالح، قالت: يا عم أمير المؤمنين، وأي ساعة عرس ترى! بل تلحقنا بحران، فحملهن إلى حران.

كان عبد الرحمن بن حبيب بن مسلمة الفهري، عامل إفريقية لمروان، فلما حدثت الحادثة، هرب عبد الله والعاص ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك إليه، فاعتصما به فخاف على نفسه منهما، ورأى ميل الناس إليهما فقتلهما؛ وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك يريد أن يقصده هو يلتجئ إليه، فلما علم ما جرى لابني الوليد بن يزيد، خاف منه، فقطع الحجاز بين إفريقية والأندلس، وركب البحر حتى حصل بالأندلس؛ فالأمراء الذين ولوها كانوا من ولده. ثم زال أمرهم ودولتهم على أيدي بني هاشم أيضاً، وهم بنو حمود الحسنيون، من ولد إدريس بن الحسن عليه السلام. لما قتل عامر بن إسماعيل مروان ببوصير، واحتوى على عسكره، دخل إلى الكنيسة التي كان فيها، فقعده على فراشه، وأكل من طعامه، فقالت له ابنة مروان الكبرى - وتعرف بأم مروان - يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها، تأكل من طعامه ليلة قتله، محتوياً على أمره حاكماً في ملكه وحرمة وأهله، لقادر أن يغير ذلك. فانهي هذا الكلام إلى أبي العباس السفاح، فاستهجن ما فعله عامر بن إسماعيل وكتب إليه: أما كان لك في أدب الله ما يزجرك أن

تقعّد في مثل تلك الساعة على مهّاد مروان، وتأكّل من طعامه! أما والله لولا أنّ أمير المؤمنين أنزل ما فعلته على غير اعتقاد منك لذلك ولا ضم على طعام، لمسك من غضبه وأليم أدبه، ما يكون لك زاجراً، ولغيرك واعظاً. فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين، فتقرب إلى الله بصدقة تطفئ بها غضبه، وصلاة تظهر فيها الخشوع والاستكانة له، وصم ثلاثة أيام، وتب إلى الله من جميع ما يسخطه ويغضبه، ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك.

ولما أتى أبو العباس برأس مروان، سجد فأطال، ثم رفع رأسه، وقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأرنا قبلك وقبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرنا بك، وأظهرنا عليك. ما أبالي متى طرقي الموت، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بني أمية، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي، كما أحرقوا شلوه، وتمثل:

و لا دماؤهم جمعاً ترويني

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم

ثم حول وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثم جلس، فتمثل:

قواطع في أيماننا تقطر الدما

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت

كبيض نعام في الثرى قد تحطما

إذا خالطت هام الرجال تركتها

ثم قال: أما مروان فقتلناه بأخي إبراهيم، وقتلنا سائر بني أمية بحسين، ومن قتل معه وبعده من بني عمنا أبي طالب.

وروى المسعودي في كتاب مروج الذهب عن الهيثم بن عدي، قال: حدثني عمرو بن هانئ الطائي، قال: خرجت مع عبد الله بن علي لنش قبور بني أمية في أيام أبي العباس السفاح، فانتبهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك، فاستخرجناه صحيحاً، ما فقدنا منه إلا عرنيين أنفه؛ فضربه عبد الله بن علي ثمانين سوطاً ثم أحرقه، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلا صلبه ورأسه وأضلاعه فأحرقناه، وفعلنا مثل ذلك بغيرهما من بني أمية، وكانت قبورهم بقنسرين، ثم انتهينا إلى دمشق، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك، فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فلم نجد منه إلا عظماً واحداً، ووجدنا من موضع نحره إلى قدمه خطأ واحداً أسود، كأنما خط بالرماد طول لحده، وتتبعنا قبورهم، في جميع البلدان، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم.

قلت: قرأت هذا الخبر على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد العلوي بن عبد الله في سنة خمس وستمئة، وقلت له: أما إحراق هشام بإحراق زيد فمفهوم، فما معنى جلده ثمانين سوطاً؟ فقال رحمه الله تعالى أظن عبد الله بن علي ذهب في ذلك إلى حد القذف، لأنه يقال: إنه قال لزيد: يا بن الزانية، لما سب أخاه محمداً الباقر عليه السلام، فسبه زيد، وقال له: سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الباقر وتسميه أنت البقرة! لشد ما اختلفتما! ولتخالفنه في الآخرة كما خالفته في الدنيا فيرد الجنة وترد النار. وهذا استنباط لطيف.

قال مروان لكاتبه عبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت إلى أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي! فإن أعجابهم ببلاغتك، وحاجتهم إلى كتابتك، تدعوهم إلى اصطناعك وتقريبك، فإن استطعت أن تسعى لتنفعني في حياتي،

وإلا فلن تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي. فقال عبد الحميد: إن الذي أشرت به هو أنفع الأمرين لي، وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر معك حتى يفتح الله لكأواقتل بين يديك، ثم أنشد:

**اسر وفاءً ثم اظهر غدرةً
فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره !**

فثبت على حاله، ولم يصبر إلى بني هاشم حتى قتل مروان، ثم قتل هو بعده صبراً.

وقال إسماعيل بن عبد الله القسري: دعاني مروان، وقد انتهت به الهزيمة إلى حران، فقال: يا أبا هاشم - وما كان يكتيني قبلها: قد ترى ما جاء من الأمر، وأنت الموثوق به، ولا عطر بعد عروس؛ ما الرأي عندك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، علام أجمعت؟ قال: أرتحل بموالي ومن تبغي حتى آتي الدرب، وأميل إلى بعض مدن الروم فأنزله، وأكاتب ملك الروم وأستوثق منه، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم، وليس هذا عاراً على الملوك، فلا يزال يأتيني من الأصحاب الخائف والهابط والطامع فيكز من معي، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري، وينصبرني على عدوي، فلما رأيت ما أجمع عليه من ذلك، وكان الرأي، ورأيت آثاره في قومه من نزار وعصبيته على قومي من قحطان، غششته، فقلت: أعيدك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي؛ أن تحكم أهل الشرك في بناتك وحرملك! وهم الروم لا وفاء لهم، ولا يدري ما تأتي به الأيام، وإن حدث عليك حدث من أرض النصرانية - ولا يحدثن الله عليك إلا خيراً - ضاع من بعدك؛ ولكن اقطع الفرات، واستنفر الشام جنداً جنداً، فإنك في كنف وعدة، ولك في كل جند صنائع وأصحاب، إلى أن تأتي مصر، فهي أكثر أرض الله مالاً وخيلاً ورجالاً، والشام أمامك، وإفريقية خلفك. فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية، فقال: صدقت وأستخير الله. فقطع الفرات والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان: ابن حديد السلمي - وكان أخاه من الرضاعة - والكوثر بن الأسود الغنوي، وغدر به سائر التزارية مع تعصبه لهم؛ فلما اجتاز ببلاد قنسرينو خناصره، أوقعوا بساقته، ووثب به أهل حمص، وصار إلى دمشق، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي ثم العقيلي، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو التميمي، ثم مر بفلسطين، فوثب به أهلها، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله قد غشه في الرأي ولم يحضه النصيحة، وأنه فرط في مشورته إياه إذ شاور رجلاً من قحطان موتوراً شائناً له، وأن الرأي كان أول الذي هم به من قطع الدرب والتزول ببعض مدن الروم ومكاتبته ملكها. والله أمر هو بالغه.

لما نزل مروان بالزاب، جرد من رجاله ممن اختاره من أهل الشام والجزيرة وغيرها مائة ألف فارس، على مائة ألف قارح، ثم نظر إليهم، وقال: إنها لعدة ولا تنفع العدة، إذا انقضت المدة.

لما أشرف عبد الله بن علي يوم الزاب في المسودة، وفي أوائلهم البنود السود، تحملها الرجال على الجمال البخت، وقد جعل لها بدلاً من القنا خشب الصفصاف والغرب قال مروان لمن قرب منه: أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظاً! أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع الغمام السود! فبينما هو ينظرها ويعجب، إذ طارت قطعة عظيمة من الغربان السود، فترلت على أول عسكر عبد الله بن علي، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود، ومروان ينظر، فازداد تعجبه، وقال: أما ترون إلى السواد قد اتصل بالسواد؛ حتى صار الكل كالسحب السود المتكاثفة! ثم أقبل على رجل إلى

جنبه فقال: ألا تعرفني من صاحب جيشهم؟ فقال: عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. قال: ويحك! أمن ولد العباس هو؟ قال: نعم، قال: والله لوددت أن علي بن أبي طالب عليه السلام مكانه في هذا الصف، قال: يا أمير المؤمنين، أتقول هذا لعلي مع شجاعته التي ملأ الدنيا ذكرها! قال: ويحك! إن علياً مع شجاعته صاحب دين، وإن الدين غير الملك، وإنا نروي عن قديمنا أنه لا شيء لعلي ولا لولده في هذا. ثم قال: من هو من ولد العباس، فإني لا أثبت شخصه؟ قال: هو الرجل الذي كان يخاصم بين يديك؛ عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. فقال أذكرني صورته وحليته، قال: هو الرجل الأقنى الحديد العضل، المعروق الوجه، الخفيف اللحية، الفصيح اللسان، الذي قلت لما سمعت كلامه يومئذ: يرزق الله البيان من يشاء، فقال: وانه لهُو! قال: نعم، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أتعلم لم صيرت الأمر بعدي لولدي عبد الله، وابني محمد أكبر سنّاً منه؟ قال: لا، قال: إن آباءنا أخبرونا أن الأمر صائر بعدي إلى رجل اسمه عبد الله فوليته دونه.

ثم بعث مروان بعد أن حدث صاحبه هذا الحديث إلى عبد الله بن علي سرّاً، فقال: يا بن عم، إن هذا الأمر صائر إليك، فاتق الله واحفظني في حرمي، فبعث إليه عبد الله إن الحق لنا في دمك، وإن الحق علينا في حرمك. قلت: إن مروان ظن أن الخلافة تكون لعبد الله بن علي، لأن اسمه عبد الله، ولم يعلم أنها تكون لآخر اسمه عبد الله، وهو أبو العباس السفاح.

كان العلاء بن رافع سبط ذي الكلاع الحميري مؤنساً لسليمان بن هشام بن عبد الملك لا يكاد يفارقه، وكان أمر المسودة بخراسان قد ظهر ودنوا من العراق، واشتد إرجاف الناس، ونطق العدو بما أحب في بني أمية وأوليائهم. قال العلاء: فإني لمع سليمان وهو يشرب تجاه رصافة أبيه، وذلك في آخر أيام يزيد الناقص، وعنده الحكم الوادي، وهو يغنيه بشعر العرجي:

أصلاً، فدمعك دائم إسباله

إن الحبيب تروحت أجماله

لو كان ينفع باكباً أعاله!

فاقن الحياء فقد بكيت بعولة

شخص هناك، وحبذا أمثاله!

يا حبذا تلك الحملوحبذا

فأجاد ما شاء، وشرب سليمان بن هشام بالرطل، وشربنا معه حتى توسدنا أيدينا، فلم أنتبه إلا بتحريك سليمان إياي، فقمتم مسرعاً، وقلت: ما شأن الأمير؟ فقال: علي رسلك، رأيت كأني في مسجد دمشق، وكأن رجلاً على يده حجر، وعلى رأسه تاج، أرى بصيص ما فيه من الجوهر، وهو رافع صوته بهذا الشعر:

و ذهاب ملككم وليس برابع

أبني أمية قد دنا تشيتنكم

كأساً لكم بسمام موت نافع

وينال صفوته عدو ظالم

فقلت: أعيد الأمير بالله من وساوس الشيطان الرجيم! هذا من أضغاث الأحلام، ومما يقتضيه ويجلبه الفكر، وسماع الأراجيف. فقال: الأمر كما قلت لك، ثم وجم ساعة، وقال: يا حميري، بعيد ما يأتي به الزمان قريب! قال العلاء: فو الله ما اجتمعنا على شراب بعد ذلك اليوم.

سئل بعض شيوخ بني أمية عقيب زوال الملك عنهم: ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عملنا على رعيتنا، فتمنوا

الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا، فأثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا، أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا، فرالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدونا؛ فظافروه على حربنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا. كان سعيد بن عمر بن جعدة بن هبيرة المخزومي، أحد وزراء مروان وسماره، فلما ظهر أمر أبي العباس السفاح، انحاز إلى بني هاشم، ومث إليهم بأمر هانيء بنت أبي طالب، وكانت تحت هبيرة بن أبي وهب، فأنت منه بجعدة، فصار من خواص السفاح وبطانته، فجلس السفاح يوماً، وأمر بإحضار رأس مروان وهو بالحيرة يومئذ، ثم قال للحاضرين: أيكم يعرف هذا؟ فقال سعيد: أنا أعرفه، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد بن مروان خليفتنا بالأمس، رحمه الله تعالى! قال سعيد: فحدقت إلي الشيعة، ورميتني بأبصارها، فقال لي أبو العباس: في أي سنة كان مولده؟ قلت: سنة ست وسبعين، فقام وقد تغير لونه غضباً علي، وتفرق الناس من المجلس، وتحدثوا به، فقلت: زلة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبداً! فأتيت منزلي، فلم أزل باقي يومي أعهد وأوصي، فلما كان الليل اغتسلت وتهيأت للصلاة - وكان أبو العباس إذا هم بأمر بعث فيه ليلاً - فلم أزل ساهراً حتى أصبحت وركبت بغلي، وأفكرت فيمن أقصد في أمري، فلم أجد أحداً أولى من سليمان بن مجالد مولى بني زهرة، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة، وكان من شيعة القوم، فأتيته، فقلت له: أذكرني أمير المؤمنين البارحة؟ قال: نعم، جرى ذكرك، فقال: هو ابن أختنا، وفي لصاحبه، ونحن لو أوليناها خيراً لكان لنا أشكر. فشكرت لسليمان بن مجالد ما أخبرني به، وحزيت به خيراً، وانصرفت. فلم أزل من أبي العباس على ما كنت عليه، لا أرى منه إلا خيراً. ونما ذلك المجلس إلى عبد الله بن علي وإلى أبي جعفر المنصور، فأما عبد الله بن علي فكتب إلى أبي العباس يغريه بي، ويعاتبه على الإمساك عني، ويقول له: إنه ليس مثل هذا مما يحتمل، وكتب إليه أبو جعفر يعذر لي، وضرب الدهر ضربه، فأتى ذات يوم عند أبي العباس، فنهض ونهضت، فقال لي: على رسلك يا بن هبيرة! فجلست، ورفع الستر، ودخل وثبت في مجلسه قليلاً، ثم خرج في ثوبي وشي ورداء وجبة، فما رأيت والله أحسن منه ولا مما عليه قط، فقال لي: يا بن هبيرة، إني ذاكر لك أمراً، فلا يخرجن من رأسك إلى أحد من الناس. قلت: نعم، قال: قد علمت ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتل مروان، وإنما قتله عمي عبد الله بجيشه وأصحابه ونفسه وتدييره، وأنا شديد الفكر في أمر أخي أبي جعفر، في فضله وعلمه وسنه وإيثاره لهذا الأمر، كيف أخرجه عنه! فقلت: أصلح الله أمير المؤمنين! إني أحدثك حديثاً تعتبر به، وتستغني بسماعه عن مشاورتي، قال: هاته، فقلت: كنا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليفة بالقسطنطينية، إذ ورد علينا كتاب عمر بن عبد العزيز ينعي سليمان، ومصير الأمر إليه، فدخلت إليه، فرمى الكتاب إلي فقرأته، واسترجعت، واندفع يبكي وأطال، فقلت: أصلح الله الأمير وأطال بقاءه! إن البكاء على الأمر الفات عجز، والموت منهل لا بد من ورده، فقال: ويحك! إني لست أبكي على أخي، لكني أبكي لخروج الأمر عن ولد أبي إلى ولد عمي! فقال أبو العباس: حسبك، فقد فهمت عنك، ثم قال: إذا شئت فانهض، فلما نهضت لم أمض بعيداً حتى قال لي: يا بن هبيرة! فالتفت إليه، فقال: أما إنك قد كافأت أحدهما، وأخذت بثأرك من الآخر، قال سعيد: فو الله ما أدري من أي

الأميرين أعجب! من فطنته أم من ذكره.

لما سائر عبد الله بن علي في آخر أيام بني أمية عبد الله بن حسن بن حسن؛ ومعهما داود بن علي، فقال داود لعبد الله بن الحسن: لم لا تأمر ابنك بالظهور؟ فقال عبد الله بن حسن: لم يأن لهما بعد؛ فالتفت إليه عبد الله بن علي، فقال: أظنك ترى أن ابنك قاتلاً مروان! فقال عبد الله بن حسن: إنه ذلك، قال: هيهات! ثم تمثل:

سيكفيك الجعالة مستميت

خفيف الحاذ من فتيان جرم

أنا والله أقتل مروان، وأسلمه ملكه؛ لا أنت ولا ولداك! وقد روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني رواية أخرى في سبب قتل السفاح لمن كان آمنه من بني أمية، قال:

حدث الزبير بن بكار، عن عمه، أن السفاح انشد يوماً قصيدة مدح بها، وعنده قوم من بني أمية آمنهم على أنفسهم، فأقبل على بعضهم، فقال: أين هذا مما مدحتم به! فقال: هيهات! لا يقول والله أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيات فينا:

مانقموا من بني أمية إل

أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم معدن الملوك فما

تصلح إلا عليهم العرب

فقال له: يا ماص كذا من أمه! وإن الخلافة لفي نفسك بعد! خذوهم. فأخذوا وقتلوا.

وروى أبو الفرج أيضاً أن أبا العباس دعا بالغداء حين قتلوا، وأمر ببساط فبسط عليهم، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته، فلما فرغ، قال: ما أعلم أبي أكلت أكلة قط كانت أطيب ولا أهنأ في نفسي من هذه. فلما فرغ من الأكل قال: جروهم بأرجلهم، وألقوهم في الطريق؛ ليلعنهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء.

قال: فلقد رأينا الكلاب تجرهم بأرجلهم، وعليهم سراويلات الوشي حتى أنتنوا، ثم حفرت لهم بئر فألقوا فيها.

قال أبو الفرج: وروى عمر بن شبة، قال: حدثني محمد بن معن الغفاري، عن معبد الأنباري، عن أبيه، قال: لما أقبل داود بن علي من مكة، أقبل معه بنو حسن جميعاً، وفيهم عبد الله بن حسن بن حسن، وأخوه حسن بن الحسن، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان - وهو أخو عبد الله بن الحسن لأمه - فعمل داود مجلساً ببعض الطريق، جلس فيه هو والهاشميون كلهم، وجلس الأمويون تحتهم، فجاء ابن هرمة فأنشده قصيدة يقول فيها:

فلا عفا الله عن مروان مظلمة

و لا أمية، بنس المجلس النادي!

كانوا كعاد فأمسى الله أهلكهم

بمثل ما أهلك الغاوين من عاد

فلن يكذبني من هاشم أحد

فيما أقول، ولو أكثر تعدادي

قال: فنبذ داود نحو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ضحكة كالكثرة، فلما قاموا قال عبد الله بن الحسن لأخيه الحسن بن الحسن: أما رأيت ضحك داود إلى ابن عنبسة! الحمد لله الذي صرفها عن أخي - يعني العثماني - قال: فما هو إلا أن قدم المدينة، حتى قتل ابن عنبسة.

قال أبو الفرج: وحدثني محمد بن معن، قال: حدثني محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، قال: استحلف أخي عبد الله

بن الحسن داود بن علي - وقد حج معه سنة اثنتين وثلاثين ومائة - بطلاق امرأته مليكة بنت داود بن الحسن، ألا يقتل أخويه محمداً والقاسم ابني عبد الله بن عمرو بن عثمان، فكنت أختلف إليه آمناً، وهو يقتل بني أمية، وكان يكره أن يراني أهل خراسان، ولا يستطيع إلي سبيلاً ليمينه، فاستدنانني يوماً، فدنوت منه، فقال: ما أكثر الغفلة، وأقل الحزمة! فأخبرت بها أخي عبد الله بن الحسن، فقال: يا بن أم، تغيب عن الرجل، وأقل عنه، فتغيب حتى مات.

قلت: إلا أن ذلك الدين الذي لم يقضه داود، قضاه أبو جعفر المنصور.

وروى أبو الفرج في الكتاب المذكور أن سديفاً أنشد أبا العباس، وعنده رجال من بني أمية، فقال:

يا بن عم النبي أنت

بك اليقين الجلبا

فلما بلغ قوله:

جرد السيف وارفع العفو حتى

لا ترى فوق ظهرها أمويا

قطن البغض في القديم أضحى

ثابتاً في قلوبهم مطويا

وهي طويلة، فقال أبو العباس: يا سديف، خلق الإنسان من عجل! ثم أنشد أبو العباس متمثلاً:

أحبا الضغائن آباء لنا سلفوا

فلن تنبذ وللآباء أبناء

ثم أمر بمن عنده فقتلوا.

وروى أبو الفرج أيضاً عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي، عن أبيه، عن عمومته، أنهم حضروا سليمان بن علي بالبصرة، وقد حضر جماعة من بني أمية عنده، عليهم الثياب الموشاة المرتفعة - قال أحد الرواة المذكورين: فكأنني أنظر إلى أحدهم وقد اسود شيب في عارضيه من الغالية - فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم، فalcقوا على الطريق، وإن عليهم لسراويلات الوشي والكلاب تجرهم بأرجلهم.

وروى أبو الفرج أيضاً عن طارق بن المبارك، عن أبيه، قال: جاءني رسول عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان، قال: يقول لك عمرو: قد جاءت هذه الدولة، وأنا حديث السن، كثير العيال، منتشر الأموال؛ فما أكون في قبيلة إلا شهر أمري وعرفت. وقد عزمت على أن أخرج من الاستار، وأفدي حرمي بنفسي، وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن علي، فصر إلي. فوافيته فإذا عليه طيلسان أبيض مطبق، وسراويل وشي مسدول، فقلت: يا سبحان الله! ما تصنع الحداثة بأهلها! أيهذا اللباس تلقى هؤلاء القوم لما تريد لقاءهم فيه! فقال: لا والله، ولكن ليس عندي ثوب إلا أشهر مما ترى. فأعطيته طيلساني وأخذت طيلسانه، ولويت سراويله إلى ركبتيه. فدخل إلى سليمان، ثم خرج مسروراً فقلت له: حدثني ما جرى بينك وبين الأمير، قال: دخلت عليه ولم يرني قط، فقلت: أصلح الله الأمير! لفظني البلاد إليك ودلني فضلك عليك؛ إما قتلتي غائماً وإما أمتني سالماً، فقال: ومن أنت حتى أعرفك؟ فانتسبت له، فقال: مرحباً بك! اقعد فتكلم سالماً آمناً، ثم أقبل علي فقال: حاجتك يا بن أخي؟ فقلت: إن الحرم اللواتي أنت أقرب الناس إليهن معنا، وأولى الناس بمن بعدنا، قد خفن لخوفنا، ومن خاف خيف عليه. فو الله ما أجابني إلا بدموعه على خدي، ثم قال: يا بن أخي، يحقن الله

دمك، ويحفظك في حرمك، ويوفر عليك مالك؛ فوالله لو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت، فكن متوارياً كظاهر، وامنأ كخائف، ولتأتني رقاعك. قال: فوالله لقد كنت أكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه. قال: فلما فرغ من الحديث، رددت عليه طيلسانه، فقال: مهلاً، فإن ثيابنا إذا فارقتنا لم ترجع إلينا. وروى أبو الفرج الأصفهاني، قال: أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهرى، عن عمر بن شبة، قال: قال سديف لأبي العباس يحضه على بني أمية، ويذكر من قتل مروان وبنو أمية من أهله:

كيف بالعفو عنهم قديماً

أين زيد وأين يحيى بن زيد!

والإمام الذي أصيب بحرا

قتلوا آل أحمد لا عفا الذنب لمروان غافر السيئات

قال أبو الفرج: وأخبرني علي بن سليمان الأحفش، قال: أنشدني محمد بن يزيد المبرد لرجل من شيعة بني العباس، يحضهم على بني أمية:

إياكم أن تلينوا لا اعتذارهم

لو أنهم أمنوا أبدوا عداوتهم

أليس في ألف شهر قد مضت لهم

حتى إذا ما انقضت أيام مدتهم

هيهات لا بد أن يسقوا بكأسهم

إنا وإخواننا الأنصار شيعتكم

قال أبو الفرج: وروى ابن المعتز في قصة سديف مثل ما ذكرناه من قبل؛ إلا أنه قال فيها: فلما أنشده ذلك التفت إليه أبو الغمر سليمان بن هشام، فقال: يا ماص بظر أمه؛ أتجهنا بمثل هذا ونحن لم سروا الناس! فغضب أبو العباس - وكان سليمان بن هشام صديقه قديماً وحديثاً، يقفي حوائجه في أيامهم ويبره - فلم يلتفت إلى ذلك، وصاح بالخراسانية: خذوهم! فقتلوهم جميعاً إلا سليمان بن هشام، فأقبل عليه أبو العباس، فقال: يا أبا الغمر، ما أرى لك في الحياة بعد هؤلاء خيراً. قال: لا والله، قال: فاقتلوه، وكان إلى جنبه فقتل وصلبوا في بستانه؛ حتى تأذى جلساؤه بريحهم، فكلموه في ذلك، فقال: والله إن ريحهم عندي لألذ وأطيب من ريح المسك والعنبر غيظاً عليهم وحنقاً.

قال أبو الفرج: وكان أبو سعيد مولى قائد من مواليهم يعد في موالي عثمان بن عفان واسم أبي سعيد إبراهيم؛ وهو من شعرائهم الذين رثوهم، وبكوا على دولتهم وأيامهم؛ فمن شعره بعد زوال أمرهم:

بكيت وماذا يريد البكاء

أصيبوا معاً فتولوا معاً

و قل البكاء لقتلى كداء

كذلك كانوا معاً في رخاء

بكت لهم الأرض من بعدهم

و ناحت عليهم نجوم السماء

وكانوا ضيياء فلما انقضى

الزمان بقومي تولى الضيياء

ومن شعره فيهم:

أثر الدهر في رجالي فقلوا

بعد جمع فراح عظمي مهيبضا

ما تذكرتهم فتملك عيني

فيض دمع، وحق لي أن تقيضا

ومن شعره فيهم:

أولئك قومي بعد عز وثررة

تداعوا فإلا تذرف العين أكمد

كأنهم لا ناس للموت غيرهم

و إن كان فيهم منصفاً غير معتد

وقال أبو الفرج: ركب المأمون بدمشق يتصيد؛ حتى بلغ جبل الثلج، فوقف في بعض الطريق على بركة عظيمة، في جوانبها أربع سروات، لم ير أحسن منها، فترل! هناك؛ وجعل ينظر إلى آثار بني أمية ويعجب منها، ويذكرهم. ثم دعا بطبق عليه طعام، فأكل، وأمر علويه فغنى:

أولئك قومي بعد عز ومنعة

تفانوا فإلا تذرف العين اكمد

وكان علويه من موالي بني أمية، فغضب المأمون. وقال: يا بن الفاعلة، ألم يكن لك وقت تبكي فيه على قومك إلا هذا الوقت! قال: كيف لا أبكي عليهم ومولاكم زرياب، كان في أيام دولتهم يركب معهم في مائة غلام، وأنا مولاهم معكم أموت جوعاً! فقام المأمون فركب وانصرف الناس، وغضب على علويه عشرين يوماً، وكلم فيه فرضي عنه، ووصله بعشرين ألف درهم.

لما ضرب عبد الله بن علي أعناق بني أمية، قال له قائل من أصحابه: هذا والله جهد البلاء، فقال عبد الله: كلا، ما هذا وشرطة حجام إلا سواء، إنما جهد البلاء فقر مدقع، بعد غنى موسع.

خطب سليمان بن علي لما قتل بني أمية بالبصرة، فقال: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" قضاء فصل، وقول مبرم، فالحمد لله الذي صدق عبده، وأنجز وعده، وبعداً للقوم الظالمين؛ الذين اتخذوا الكعبة غرضاً، والدين هزواً، والفياء إرثاً، والقرآن عضيئ؛ لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكأين ترى لهم من بئر معطلة وقصر مشيد، ذلك بما قدمت أيديهم. وما ربك بظلام للعبيد؛ أمهلهم حتى اضطهدوا العترة، ونبدوا السنة؛ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً! ضرب الوليد بن عبد الملك علي بن عبد الله بن العباس بالسياط. وشهره بين الناس يدار به على بعير، ووجهه مما يلي ذنب البعير، وصائح يصيح أمامه: هذا علي بن عبد الله الكذاب، فقال له قائل: وهو على تلك الحال: ما الذي نسبوك إليه من الكذب يا أبا محمد؟ قال: بلغهم قولي: إن هذا الأمر سيكون في ولدي؛ والله ليكونن فيهم حتى يملكه عبيدهم الصغار العيون، العراض الوجوه، الذين كأن وجوههم المحان المطرقة.

وروي أن علي بن عبد الله دخل على هشام ومعه ابنا ابنه: الخليفةان أبو العباس وأبو جعفر، فكلمه فيما أراد، ثم ولى فقال هشام: إن هذا الشيخ قد خرفوأهتر؛ يقول: إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده! فسمع علي بن عبد الله كلامه، فالتفت إليه، وقال: إي والله ليكونن ذلك، وليمكن هذان.

وقد روى أبو العباس المبرد في كتاب الكامل هذا الحديث، فقال: دخل علي بن عبد الله بن العباس على سليمان بن عبد الملك فيما رواه محمد بن شجاع البلخي، ومعه ابنا ابنه الخليفةان بعد: أبو العباس وأبو جعفر، فأوسع له على سريره وبره، وسأله عن حاجته، فقال: ثلاثون ألف درهم علي دين، فأمر بقضائها، قال: واستوص بابني هذين خيراً، ففعل، فشكره علي بن عبد الله، وقال: وصلتك رحم، فلما ولى قال سليمان لأصحابه: إن هذا الشيخ قد اختل وأسن وخلط، وصار يقول: إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده. فسمع ذلك علي بن عبد الله، فالتفت إليه، وقال: إي والله ليكونن ذلك، وليمكن هذان.

قال أبو العباس المبرد: وفي هذه الرواية غلط، لأن الخليفة في ذلك الوقت لم يكن سليمان، وإنما ينبغي أن يكون دخل على هشام؛ لأن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس كان يحاول التزويج في بني الحارث بن كعب، ولم يكن سليمان بن عبد الملك يأذن له، فلما قام عمر بن عبد العزيز جاء فقال: إني أردت أن أتزوج ابنة خالي من بني الحارث بن كعب، فتأذن لي! فقال عمر بن عبد العزيز: تزوج يرحمك الله من أحببت. فتزوجها فأولدها أبا العباس السفاح، وعمر بن عبد العزيز بعد سليمان، وأبو العباس ينبغي ألا يكون تقياً لمثله أن يدخل على خليفة حتى يترعرع، ولا يتم مثل هذا إلا في أيام هشام بن عبد الملك.

قال أبو العباس المبرد: وقد جاءت الرواية أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام لما ولد لعبد الله بن العباس مولود فقده وقت صلاة الظهر، فقال: ما بال ابن العباس لم يحضر! قالوا: ولد له ولد ذكر، يا أمير المؤمنين. قال: فامضوا بنا إليه، فأتاه فقال له: شكرت الوهاب، وبورك لك في الموهوب! ما سميت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أويحوز لي أن اسميه حتى تسميه! فقال: أخرج به إلي، فأخرجه، فأخذه فحنكه ودعا له ثم رده إليه، وقال: خذ إليك أبا الأملاك، قد سميت علياً، وكنيته أبا الحسن. قال: فلما قدم معاوية خليفة، قال لعبد الله بن العباس: لا أجمع لك بين الاسم والكنية، قد كنيته أبا محمد، فجرت عليه. قلت؛ سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى: فقلت له: من أي طريق عرف بنو أمية أن الأمر سينتقل عنهم، وأنه سيليه بنو هاشم، وأول من يلي منهم يكون اسمه عبد الله؛ ولم منعوهم عن مناكحة بني الحارث بن كعب لعلمهم أن أول من يلي الأمر من بني هاشم تكون أمه حارثية؛ وبأي طريق عرف بنو هاشم أن الأمر سيصير إليهم، ويملكه عبيد أولادهم؛ حتى عرفوا صاحب الأمر بعينه، كما قد جاء في هذا الخبر! فقال: أصل هذا كله محمد بن الحنفية، ثم ابنه عبد الله المكنى أبا هاشم.

قلت له: أفكان محمد بن الحنفية مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام بعلم يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام؟ قال: لا، ولكنهما كتما وأذاع، ثم قال: قد صحت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث، أن علياً عليه السلام لما قبض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسيناً عليهما السلام، فقال لهما: أعطياي ميراثي من أبي، فقلا

له: قد علمت أن أباك لم يترك صفراء ولا بيضاء، فقال: قد علمت ذلك، وليس ميراث المال أطلب، إنما أطلب ميراث العلم.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: فروى أبان بن عثمان عمن يروى له ذلك، عن جعفر بن محمد عليه، قال: فدفعنا إليه صحيفة، لو أطلعاه على أكثر منها لهلك، فيها ذكر دولة بني العباس.

قال أبو جعفر: وقد روى أبو الحسن علي بن محمد النوفلي، قال: حدثني عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس، قال: لما أردنا الهرب من مروان بن محمد، لما قبض على إبراهيم الإمام جعلنا نسخة الصحيفة التي دفعها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وهي التي كان آباؤنا يسمونها صحيفة الدولة، في صندوق من نحاس صغير، ثم دفناه تحت زيتونات بالشراة لم يكن بالشراة من الزيتون غيرهن، فلما أفضى السلطان إلينا، وملكننا الأمر، أرسلنا إلى ذلك الموضع فبحث وحفر، فلم يوجد فيه شيء، فأمرنا بحفر جريب من الأرض في ذلك الموضع؛ حتى بلغ الحفر الماء ولم نجد شيئاً.

قال أبو جعفر: وقد كان محمد بن الحنفية صرح بالأمر لعبد الله بن العباس وعرفه تفصيله، ولم يكن أمير المؤمنين عليه قد فصل لعبد الله بن العباس الأمر، وإنما أخبره به مجملًا، كقوله في هذا الخبر: خذ إليك أبا الأملاك، ونحو ذلك مما كان يعرض له به؛ ولكن الذي كشف القناع، وأبرز المستور عليه هو محمد بن الحنفية.

وكذلك أيضاً ما وصل إلى بني أمية من علم هذا الأمر، فإنه وصل من جهة محمد بن الحنفية، وأطلعهم على السر الذي علمه، ولكن لم يكشف لهم كشفه لبني العباس، فإن كشفه الأمر لبني العباس كان أكمل.

قال أبو جعفر: فأما أبو هاشم، فإنه قد كان أفضى بالأمر إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وأطلععه عليه، وأوضحه له، فلما حضرته الوفاة عقيب انصرافه من عند الوليد بن عبد الملك مر بالشراة؛ وهو مريض ومحمد بن علي بها، فدفع إليه كتبه، وجعله وصيه، وأمر الشيعة بالاختلاف إليه.

قال أبو جعفر: وحضر وفاة أبي هاشم ثلاثة نفر من بني هاشم: محمد بن علي هذا، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب؛ فلما مات خرج محمد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر من عنده، وكل واحد منهما يدعي وصايته، فأما عبد الله بن الحارث فلم يقل شيئاً.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: وصدق محمد بن علي، أنه إليه أوصى أبو هاشم، وإليه دفع كتاب الدولة، وكذب معاوية بن عبد الله بن جعفر، لكنه قرأ الكتاب، فوجد لهم فيه ذكراً يسيراً، فادعى الوصية بذلك، فمات وخرج ابنه عبد الله بن معاوية يدعي وصاية أبيه، ويدعي لأبيه وصاية أبي هاشم، ويظهر الإنكار على بني أمية، وكان له في ذلك شيعة يقولون بإمامته سراً حتى قتل.

دخلت إحدى نساء بني أمية على سليمان بن علي؛ وهو يقتل بني أمية بالبصرة، فقالت: أيها الأمير، إن العدل ليمل من الإكثار منه، والإسراف فيه، فكيف لا تمل أنت من الجور وقطيعة الرحم! فأطرق ثم قال لها:

ثم قال: يا أمة الله. وأول راض سنة من يسيرها ألم تحاربوا علياً وتدفعوا حقه؟ ألم تسموا حسناً وتنقضوا شرطه؟ ألم تقتلوا حسيناً وتسيروا رأسه؟ ألم تقتلوا زيدا وتصلبوا جسده؟ ألم تقتلوا يحيى وتمثلوا به؟ ألم تلعنوا علياً على منابركم؟ ألم تضربوا أبانا علي بن عبد الله بسياطكم؟ ألم تخنقوا الإمام بجراب النورة في حبسكم؟ ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: قبض عمالك أموالي، فأمر برد أموالها عليها.

لما سار مروان إلى الزاب، حفر خندقاً، فسار إليه أبو عون عبد الله بن يزيد الأزدي، وكان قحطبة بن شبيب قد وجهه وأمد أبو سلمة الخلال بأمداد كثيرة، فكان بإزاء مروان. ثم إن أبا العباس السفاح قال لأهله وهو بالكوفة حينئذ: من يسير إلى مروان من أهل بيتي وله ولاية العهد إن قتله؟ فقال عبد الله عمه: أنا، قال: سر على بركة الله، فسار فتقدم على أبي عون، فتحول له أبو عون عن سرادقه وخلاه له بما فيه. ثم سأل عبد الله عن مخاضة في الزاب، فدل عليها، فأمر قائداً من قواده فعبرها في خمسة الآف، فانتهى إلى عسكر مروان فقاتلهم؛ حتى أمسوا وتجاوزوا، ورجع القائد بأصحابه، فعبر المخاضة إلى عسكر عبد الله بن علي، وأصبح مروان، فعقد جسراً، وعبر بالجيش كله إلى عبد الله بن علي. فكان ابنه عبد الله بن مروان في مقدمته، وعلى الميمنة الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان، وعلى الميسرة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، وعباً عبد الله بن علي جيشه، وتراءى الجمعان، فقال مروان لعبد العزيز بن عمر، انظر، فإن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم؛ وإن قاتلونا قبل الزوال، فإننا للهوينا إليه راجعون! ثم أرسل إلى عبد الله بن علي يسأله الكف عن القتال نهار ذلك اليوم، فقال عبد الله: كذب ابن زربي إنما يريد المدافعة إلى الزوال؛ لا والله لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله. ثم حرك أصحابه للقتال، فنادى مروان في أهل الشام: لا تبدأوهم بالحرب؛ فلم يسمع الوليد بن معاوية منه، وحمل على ميسرة عبد الله بن علي. فغضب مروان وشمته. فلم يسمع له واضطربت الحرب، فأمر عبد الله الرماة أن يتزلوا، ونادى: الأرض الأرض! فتل الناس، ورمت الرماة، وأشرعت الرماح وجثوا على الركب، فاشتد القتال، فقال مروان لقضاة: انزلوا، قالوا: حتى تتزل كندة، فقال لكندة: انزلوا، فقالوا: حتى تتزل السكاسك، فقال لبني سليم: انزلوا، فقالوا: حتى تتزل عامر، فقال لتميم: احملوا، فقالوا: حتى تحمل بنو أسد، فقال طوازن: احملوا، قالوا: حتى تحمل غطفان، فقال لصاحب شرطته: احمِل ويحك! قال: ما كنت لأجعل نفسي غرضاً، قال: أما والله لأسوأئك، قال: وددت أن أمير المؤمنين يقدر على ذلك! فانهزم عسكر مروان وانهزم مروان معهم، وقطع الجسر، فكان من هلك غرقاً أكثر ممن هلك تحت السيف، واحتوى عبد الله بن علي على عسكر بما فيه، وكتب إلى أبي العباس يخبره الواقعة.

كان مروان سديد الرأي، ميمون النقيبة، حازماً، فلما ظهرت المسودة، ولقيهم كان ما يدبر أمراً إلا كان فيه خلل، ولقد وقف يوم الزاب، وأمر بالأموال فأخرجت، وقال للناس: اصبروا وقاتلوا، وهذه الأموال لكم، فجعل ناس يصيرون من ذلك المال ويشغلون به عن الحرب، فقال لابنه عبد الله: سر في أصحابك فامنع من يتعرض لأخذ المال، فمال عبد الله برايته، ومعه أصحابه، فتنادى الناس: الهزيمة! الهزيمة! فانهزموا، وركب أصحاب عبد الله بن علي أكتافهم.

لما قتل مروان ببوصير، قال الحسن بن قحطبة: أخرجوا إلي إحدى بنات مروان، فأخرجوها إليه وهي ترعد، قال: لا بأس عليك! قالت: وأي بأس أعظم من إخراجك إياي حاسرة، ولم أر رجلاً قبلك قط! فأجلسها، ووضع رأس مروان في حجرها، فصرخت واضطربت فقليل له: ما أردت بهذا؟ قال: فعلت بهم فعلهم يزيد بن علي لما قتلوه، جعلوا رأسه في حجر زينب بنت علي بن الحسين عليه السلام.

دخلت زوجة مروان بن محمد، وهي عجوز كبيرة، على الخيزران في خلافة المهدي، وعندها زينب بنت سليمان بن علي، فقالت لها زينب: الحمد لله الذي أزال نعمتك، وصيرك عبدة! أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك نساؤنا يسألنك أن تكلمي صاحبك في أمر إبراهيم بن محمد، فلقيتهن ذلك اللقاء، وأخرجتهن ذلك الإخراج! فضحكت، وقالت: أي بنت عمي! وأي شيء أعجبك من حسن صنيع الله بي عقيب ذلك؟ حتى أردت أن تتأسي بي فيه! ثم ولت خارجة.

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة يوم الجمعة، لثلاث عشرة ليلة خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فصعد المنبر بالكوفة فخطب، فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، وكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه، وحصنه والقوام به، والذايين عنه، والناصرين له؛ وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، وأنزل بذلك كتاباً يتلى، فقال سبحانه: "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القرب"، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، قام بالأمر أصحابه وأمرهم شورى بينهم فعدلوا، وخرجوا خصاصاً، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها، واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً؛ فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير.

وكان موعوكاً فاشتدت عليه الوعكة، فجلس على المنبر ولم يستطع الكلام فقام عمه داود بن علي وكان بين يديه، فقال: يا أهل العراق، إنا والله ما خرجنا لنحفر نهرًا، ولا لنكثر لجيناً ولا عقياناً؛ وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزاز الظالمين حقناً؛ ولقد كانت أموركم تتصل بنا فتمرضنا ونحن على فرشنا، لكم ذمة الله وذمة رسوله، وذمة العباس، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير فيكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. واعلموا أن هذا الأمر ليس لخارج عنا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم.

يا أهل الكوفة؟ إنه لم يخطب على منبركم هذا خليفة حق إلا علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا، فأحمد الله الذي رد إليكم أموركم. ثم نزل.

وقد روي حديث خطبة داود بن علي برواية أخرى؛ وهي الأشهر، قالوا: لما صعد أبو العباس منبر الكوفة، حصر فلم يتكلم، فقام داود بن علي، وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحتة بمرقاة، فاستقبل الناس، وقال: أيها الناس إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثر الفعل أجدى عليكم من تشقيق المقال، وحسبكم كتاب الله تمثلاً فيكم، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة عليكم؛ أقسم بالله قسماً براً ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق به من علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا فليهمس هامسكم، ولينطق ناطقكم. ثم نزل.

ومن خطب داود التي خطب بها بعد قتل مروان: شكراً شكرياً! أظن عدو الله أن لن يظفر به، أرخى له في زمامه، حتى

عشر في فضل خطامه؛ فالآن عاد الحق إلى نصابه، وطلعت الشمس من مطلعها؛ وأخذ القوس باريها؛ وصار الأمر إلى التزعة، ورجع الحق إلى مستقره؛ أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة.

وخطب عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس لما قتل مروان، فقال: الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت والله الأشقر نفسه، إذ ظن أن الله ممهله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون؛ فحتى متى؟ وإلى متى! أما والله لقد كرهتهم العيدان التي افترعوها، وأمسكت السماء درها، والأرض ريعها وقحل الضرع، و جفر الفنيق، وأسمل جلاباب الدين، وأبطلت الحدود، واهدرت الدماء؛ وكان ربك بالمرصاد، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها، ولا يخاف عقباها؛ وملكنا الله أمركم؛ عباد الله لينظر كيف تعملون، فالشكر الشكر، فإنه من دواعي المزيد؛ أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء، وبغتات الفتن فإنما نحن بهوله.

لما أمعن داود بن علي في قتل بني أمية بالحجاز قال له عبد الله بن الحسن عليه السلام: يا بن عمي، إذا أفرطت في قتل أكفائك فمن تباهي بسلطانك! وما يكفيك منهم أن يروك غادياً ورائحاً فيما يسرك ويسوءهم! كان داود بن علي يمثل ببني أمية؛ يسمل العيون، ويقرر البطون، ويجدع الأنوف ويصطلم الأذان. وكان عبد الله بن علي بنهر أبي فطرس يصلبهم منكسين، ويسقيهم النورة والصبر، والرماد والخل، ويقطع الأيدي والأرجل. وكان سليمان بن علي بالبصرة يضرب الأعناق.

خطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة فقال: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود؛ والله لا أعدكم شيئاً ولا أتوعدكم إلا وفيت بالوعد والوعيد، ولأعملن اللين حتى لا تنفع إلا الشدة، ولأغمدن السيف إلا في إقامة حد، أو بلوغ حق، ولأعطينكم حتى أرى العطية ضياعاً، إن أهل بيت اللعنة والشجرة الملعونة في القرآن، كانوا لكم أعداء لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشد منها، ولا يلي عليكم منهم وال إلا تمنيتم من كان قبله، وإن كان لا خير في جميعهم؛ منعوكم الصلاة في أوقاتها، وطالبوكم بأدائها في غير وقتها، وأخذوا المدبر بالمقبل، والجار بالجار، وسلطوا شراركم على خياركم، فقد محق الله جورهم، وأزهق باطلهم بأهل بيت نبيكم؛ فما نؤخر لكم عطاء، ولا نضيع لأحد منكم حقاً، ولا نجhezكم في بعث، ولا نخاطر بكم في قتال، ولا نبذلكم دون أنفسنا؛ والله على ما نقول وكيل بالوفاء والاجتهاد، وعليكم بالسمع والطاعة، ثم نزل.

كان يقال: لو ذهبت دولة بني أمية على يد غير مروان بن محمد، لقليل: لو كان لها لما ذهبت.

كان يقال: إن دولة بني أمية آخرها خليفة امه امه، فلذلك كانوا لا يعهدون إلى بني الإمام منهم، ولو عهدوا إلى ابن أمية لكان مسلمة بن عبد الملك أولاهم بها؛ وكان انقراض أمرهم على يد مروان وأمه أمية، كانت لمصعب بن الزبير، وهبها من إبراهيم بن الأشتر، فأصابها محمد بن مروان يوم قتل ابن الأشتر، فأخذها من ثقله، فقليل: إنها كانت حاملاً بمروان، فولدته على فراش محمد بن مروان؛ ولذلك كان أهل خراسان ينادونه في الحرب: يا بن الأشتر.

قليل أيضاً: إنها كانت حاملاً به من مصعب بن الزبير، وإنه لم تطل مدتها عند إبراهيم بن الأشتر؛ حتى قتل فوضعت حملها على فراش محمد بن مروان، ولذلك كانت المسودة تصيح به في الحرب: يا بن مصعب! ثم يقولون يا بن الأشتر! فيقول:

ما أبالي أي الفحلين غلب علي! لما بويع أبو العباس جاءه ابن عياش المنتوف، فقبل يده وبايعه، وقال: الحمد لله الذي أبدلنا بحمار الجزيرة، وابن أمة النخع، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عبد المطلب. لما صعد السفاح منبر الكوفة يوم بيعته، وخطب الناس، قام إليه السيد الحميري، فأنشده:

دونكموها يا بني هاشم	فجددوا من أيها الطامسا
دونكموها لا علا كعب من	أمسى عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لاتعدموا منكم له لابسا
خلافة اللهوسلطانه	و عنصر كان لكم دارسا
قد ساسها من قبلكم ساسة	لم يتركوا رطباً ولا يابسا
لو خير المنبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارسا
والملك لو شوو في سائس	لما أرتضى غيركم سائسا
لم يبق عبد الله بالشام من	آل أبي العاص امرأ عاطسا
فلست من أن تملكوها إلى	هبوط عيسى منكم آيسا

قال داود بن علي لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص بعد قتله من قتل من بني أمية: هل علمت ما فعلت بأصحابك؟ قال نعم، كانوا يداً فقطعتها، وعضداً ففتت فيها، ومرة فنقضتها، وجناحاً فحوصتها؛ قال: إني لخليق أن الحقك فيهم، قال: إني إذا لسعيد! لما استوثق الأمر لأبي العباس السفاح، وفد إليه عشرة من أمراء الشام، فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم، وبأيمان البيعة بأنهم لا يعلمون - إلى أن قتل مروان - أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهلاً ولا قرابة إلا بني أمية.

وروى أبو الحسن المدائني، قال: حدثني رجل قال: كنت بالشام، فجعلت لا أسمع أحداً يسمي أحداً أو يناديه: يا علياً أو يا حسن، أو يا حسين؛ وإنما أسمع: معاوية، والوليد، ويزيد، حتى مررت برجل، فاستسقيته ماء، فجعل ينادي: يا علي، يا حسن، يا حسين، فقلت: يا هذا، إن أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء! قال: صدقت، إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء، فإذا لعن أحدهم ولدها أو شتمه فقد لعن اسم بعض الخلفاء، وأنا سميت أولادي بأسماء أعداء الله، فإذا شتمت أحدهم أو لعنته، فإنما ألعن أعداء الله.

كانت أم إبراهيم بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أموية من ولد عثمان بن عفان. قال إبراهيم: فدخلت على جدي عيسى بن موسى مع أبي موسى، فقال لي جدي: أتحب بني أمية؟ فقال له موسى أبي: نعم، إنهم أخواله، فقال: والله لو رأيت جدك علي بن عبد الله بن العباس يضرب بالسياط ما أحببتهم؛ ولو رأيت إبراهيم بن محمد يكره علي إدخال رأسه في جراب النورة لما أحببتهم، وسأحدثك حديثاً إن شاء الله أن ينفعك به نفعك: لما وجه سليمان بن عبد الملك ابنه أيوب بن سليمان إلى الطائف وجهه معه جماعة، فكنت أنا ومحمد بن علي بن عبد الله جدي معهم، وأنا حينئذ حديث السن، وكان مع أيوب مؤدب له يؤدبه، فدخلنا عليه يوماً أنا وجدي، وذلك المؤدب يضربه،

فلما رأنا الغلام أقبل على مؤدبه فضربه فنظر بعضنا إلى بعض وقلنا: ما له قاتله الله! حين رأنا كره أن نشمت به، ثم التفت أيوب إلينا، فقال: ألا اخبركم يا بني هاشم بأعقلكم وأعقلنا، أعقلنا من نشأ منا ييغضكم، وأعقلكم من نشأ منكم ييغضنا؛ وعلاية ذلك أنكم لم تسموا بمروان، ولا الوليد، ولا عبد الملك، ولم نسم نحن بعلي ولا بحسن ولا بحسين. لما انتهى عامر بن إسماعيل - وكان صالح بن علي قد أنفذه لطلب مروان - إلى بوسير مصر، هرب مروان بين يديه في نفر يسير من أهله وأصحابه، ولم يكن قد تخلف معه كثير عدد، فانتهاوا في غبش الصبح إلى قنطرة هناك على نهر عميق، ليس للخيال عبور إلا على تلك القنطرة، وعامر بن إسماعيل من ورائهم، فصادف مروان على تلك القنطرة بغلاً قد استقبلته تعبر القنطرة، وعليها زقاق عسل، فحبسته عن العبور حتى أدركه عامر بن إسماعيل ورهقه، فلوى مروان دابته إليهم، وحارب فقتل، فلما بلغ صالح بن علي ذلك، قال: إن لله جنوداً من عسل. لما نقف رأس مروان ونفض مخه، قطع لسانه والقي مع لحم عنقه، فجاء كلب فأخذ اللسان، فقال قائل: إن من عبر الدنيا أن رأينا لسان مروان في فم كلب.

خطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حج فيها في خلافة السفاح، فقال: الحمد لله الذي حمد نفسه، واختار الإسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ما أوحى، واختاره من خلقه، نفسه من أنفسهم، وبيته من بيوتهم؛ ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على حقه، قوله: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً"، ثم جعل الحق بعد محمد عليه السلام في أهل بيته، فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على اللاؤاء والشدة، وأغضى على الاستبداد والأثرة. ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، جاهدوا على

ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، بين ظهري قوم آثروا العاجل على الآجل، والفاني على الباقي؛ إن رتق جور فتقوه، أوفتق حق رتقوه؛ أهل خمور وماخور، وطناير ومزامير، إن ذكروا لم يذكروا، أوقدموا إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات في الشبهات، والمغانم في المحارم؛ والفىء في الغي، هكذا كان زمامهم، وبه كان يعمل سلطانهم. وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم، فلم وهم أيها الناس؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوي القرابة، الشركاء في النسب، والورثة في السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم، وإطعامهم في الجذب جائعكم! والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط؛ وما زلتم بعد نبيه تختارون تيمناً مرة، وعدوياً مرة، وأمويماً مرة، وأسدياً مرة، وسفیانياً مرة، ومروانياً مرة حتى جائكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته، يضربكم بسيفه، فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون. ألا إن آل محمد أئمة الهدى، ومنار سبيل التقى، القادة الذادة السادة، بنو عم رسول الله، وممثل جبريل بالتزليل؛ كم قصم الله بهم من جبار طاغ، وفاسق باغ، شيد الله بهم الهدى، وجلا بهم العمى؛ لم يسمع بمثل العباس! وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حق الحرمة! أبو رسول الله بعد أبيه؛ وإحدى يديه، وجلدة بين عينيه. أمينه يوم العقبة وناصره بمكة، ورسوله إلى أهلها، وحاميه يوم حنين، عند ملتقى الفئتين؛ لا يخالف له رسماً، ولا يعمي له حكماً؛ الشافع يوم نيق العقاب، إلى رسول الله في الأحزاب ها إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولي الأبصار! قلت: الأسدي عبد الله بن الزبير. ومن لا يعرفون اسمه ولا بيته، يعني نفسه، لأنه لم يكن معلوم النسب؛ وقد اختلف فيه هل هو مولى أم عربي.

ويوم العقبة: يوم مبايعة الأنصار السبعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة. ويوم نيق العقاب يوم فتح مكة، شفع العباس ذلك اليوم في أبي سفيان وفي أهل مكة، فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم.

اجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه، منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما؛ فتذاكروا خلفاء بني أمية، والسبب الذي به سلبوا عزهم، فقال المنصور: كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما صنع؛ وكان الوليد لحناً مجنوناً، وكان سليمان همته بطنه وفرجه، وكان عمر أعور بين عميان، وكان هشام رجل القوم، ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه، ويحرسون ما وهب الله لهم منه، مع تسنمهم معالي الأمور، ورفضهم أذانيها، حتى أفضى أمرهم إلى أحداث مترفين من أبنائهم، فغمطوا النعمة، ولم يشكروا العافية، وأسأؤوا الرعاية، فابتدأت النعمة منهم، باستدراج الله إياهم آمين مكره، مطرحين صيانة الخلافة مستخفين بحق الرياسة، ضعيفين عن رسوم السياسة، فسلبهم الله العزة، وألبسهم الذلة، وأزال عنهم النعمة.

سأل المنصور ليلة عن عبد الله بن مروان بن محمد، فقال له الربيع: إنه في سجن أمير المؤمنين حياً، فقال المنصور: قد كان بلغني كلائم خاطبه به ملك النوبة؛ لما قدم دياره، وأنا أحب أن أسمع من فيه، فليؤمر بإحضاره. فأحضر، فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة فأمره المنصور بالجلوس، فجلس وللقيد في رجليه خشخشة. قال: أحب أن تسمعي كلاماً قاله لك ملك النوبة حيث غشيت بلاده، قال: نعم، قدمت إلى بلد النوبة، فأقمت أياماً، فاتصل خبرنا بالملك، فأرسل إلينا فرشاً وبسطاً وطعاماً كثيراً، وأفرد لنا منازل واسعة، ثم جاءني ومعه خمسون من أصحابه، بأيديهم الحراب، فقامت إليه فاستقبلته، وتنحيت له عن صدر المجلس، فلم يجلس فيه، وقعد على الأرض، فقلت له: ما منعك من القعود على الفرش؟ قال: إني ملك، وحق الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعمه متجددة عنده، ولما رأيت تجدد نعمة الله عندي بقصدكم بلادي، واستجارتكم بي، بعد عزكم وملككم، قابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع. ثم سكت وسكت، فلبثنا ما شاء الله؛ لا يتكلم ولا أتكلم، وأصحابه قيام بالحراب على رأسه. ثم قال لي: لماذا شربتم الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟

فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا بجهلهم، قال: فلم وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم ودينكم؟ قلت: فعل ذلك أتباعنا وعمالنا جهلاً منهم، قال: فلم لبستم الحرير والدياج والذهب، وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم؟ قلت: استعنا في أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتاب، دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك إتباعاً لسنة سلفهم، على كره منا. فأطرق ملياً إلى الأرض يقلب يده، وينكت الأرض. ثم قال: عبيدنا وأتباعنا وعمالنا وكتابنا! ما الأمر كما ذكرت، ولكنكم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وركبتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العز، وألبسكم الذل؛ وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد، وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم بأرضي فينالي معكم؛ والضيافة ثلاث، فاطلبوا ما احتجتم إليه، وارتحلوا عن أرضي.

فأخذنا منه ما تزودنا به، وارتحلنا عن بلده. فعجب المنصور لذلك وأمر بإعادته إلى الحبس.

وقد جاءنا في بعض الروايات أن السفاح لما أراد أن يقتل القوم الذين انضموا إليه من بني أمية جلس يوماً على سرير بهاشمية الكوفة وجاء بنو أمية وغيرهم من بني هاشم، والقواد والكتاب، فأجلسهم في دار تتصل بداره، وبينه وبينهم ستر

مسدول، ثم أخرج إليهم أبا الجهم بن عطية، وبيده كتاب ملصق، فنأدى بحيث يسمعون: أين رسول الحسين بن علي بن أبي طالب علي السلام؟ فلم يتكلم أحد، فدخل ثم خرج ثانية، فنأدى: أين رسول زيد بن علي بن الحسين؟ فلم يجبه أحد، فدخل ثم خرج ثالثة، فنأدى: أين رسول يحيى بن زيد بن علي؟ فلم يرد أحد عليه، فدخل ثم خرج رابعة، فنأدى: أين رسول إبراهيم بن محمد الإمام؟ والقوم ينظر بعضهم إلى بعض، وقد أيقنوا بالشر، ثم دخل وخرج، فقال لهم: إن أمير المؤمنين يقول لكم: هؤلاء أهلي ولحمي، فماذا صنعتهم بهم؟ ردوهم اليأوأقيدوني من أنفسكم. فلم ينطقوا بحرف، وخرجت الخراسانية بالأعمدة فشدخوهم عن آخرهم.

قلت: وهذا المعنى مأخوذ من قول الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما قتل زيد بن علي عليه السلام سنة اثنتين وعشرين ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك؛ وذلك أن هشاماً كتب إلى عامله بالبصرة - وهو القاسم بن محمد الثقفي - أن يشخص كل من بالعراق من بني هاشم إلى المدينة خوفاً من خروجهم؛ وكتب إلى عامل المدينة أن يحبس قوماً منهم، وأن يعرضهم في كل أسبوع مرة، ويقيم لهم الكفلاء؛ على ألا يخرجوا منها، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة له طويلة:

ضمنونا السجوناً وسيرونا

لا كفاهم ربي الذي يحذرونا

بالذي لا يحب، واستضعفونا

قاتل الله أمة قتلونا!

ناوصاة الإله بالأقربينا

فهم في دماننا يسبحونا

و على غير إحنة أبغضونا

لم نزل في صلاتهم راغبينا

نا، وكانوا عن الهدى ناكبيننا

منا وردوا نصيحة الناصحيننا

ي فلم يتبعهم الجاهلوننا

من أناس فيصبحوا ظاهريننا

قد أخافوا وقتلوا المؤمنيننا

الخيال عليها الكمأة مستلثميننا

ينصرون الإسلام مستنصريننا

ن، وكانوا لربهم ناصريننا

كلما حدثوا بأرض نقيقا

أشخصونا إلى المدينة أسرى

خلفوا أحمد المطهر فينا

قتلونا بغير ذنب إليهم

ما رعوأ حقناولا حفظوا في

جعلونا أدنى عدو إليهم

أنكروأ حقنا وجاروا علينا

غير ان النبي مناوأنا

إن دعونا إلى الهدى لم يجيبوا

أو أمرنا بالعرف لم يسمعوأ

و لقدماً ما رد نصح ذوي الرأ

فعسى الله أن يديل أناساً

فتقر العيون من قوم سوء

ليت شعري هل توجفن بي

من بني هاشم ومن كل حي

في أناس آباؤهم نصروأ الذي

بأكف المعاصر الثائرينا

ثم قتلتموهم ظالمينا

ظان وابن البديل في آخرينا

أنتم في قتالهم فاجرونا

يوم أنتم في قتلهم معتدونا

لي رشيداً وميثماً والذينا:

من بني هاشم، وردوا حسينا

معهم بالعراء ما يدفنونا!

ثم عثمان، فارجعوا عازمينا

قتلوا حين جاوزوا صفينا

مسلماً والرواع في آخرينا

كل من قد قتلتم أجمعينا

منكم غير ذلكم قابلينا

تحكم المرهفات في الهام منهم

أين قتلى منا بغيتهم عليهم

ارجعوا هاشماً وردوا أبا اليق

وارجعوا ذا الشهادتين و قتلى

ثم ردوا حجراً وأصحاب حجر

ثم ردوا أبا عمير و ردوا

قتلوا بالطفوف يوم حسين

أين عمرو؟ وأين بشروقتلى

ارجعوا عامراً وردوا زهيراً

وارجعوا الحر وابن قين وقوماً

وارجعوا هانئاً وردوا إلينا

ثم ردوا زيدا إلينا وردوا

لن تردوهم إلينا ولسنا

الأصل: ألا إن أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفه! ألا إن أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبلة! أيها الناس: أستصبحوا من شعلة مصباح واعظ فتعظ، وأمتاحوا من صفى عين قد روقت من الكدر. عباد الله، لا تركنوا إلى أهوائكم؛ فإن النازل بهذا المنزل نازل بشفا جرف هار؛ ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع، لرأي يحدثه بعد رأي، يريد أن يلصق ما لا يلتصق، ويقرب ما لا يتقارب! فالله الله أن تشكوا إلى من لا يشكي شجوكم، ولا ينقض برأيه ما قد أبرم لكم، إنه ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه: الإبلاغ في الموعدة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنة، وإقامة الحدود على مستحقيها، وإصدار السهمان على أهلها، فبادروا العلم من قبل تصويح نبته، ومن قبل أن تشغفوا بأنفسكم عن مستشار العلم من عند أهله، وأنهموا عن المنكروتنأهوا عنه، فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي! الشرح: هار الجرف يهور هوراً وهوراً فهو هائر؛ وقالوا: هار، خفضوه في موضع الرفع، كقاض، وأرادوا هائر، وهو مقلوب من الثلاثي إلى الرباعي؛ كما قلبوا شائك السلاح إلى شاكي السلاح. وهورته، فتهور وانهار؛ أي انهدم.

و أشكيت زيدا: أزلت شكايته. والشجو: الهم والحزن. وصوح النبت، أي جف أعلاه، قال:

و صوح نبتها رعي الهشيم

ولكن البلاد إذا اقشعرت

يقول عليه السلام: أشد العيون إدراكاً ما نفذ طرفها في الخير، وأشد الأسماع إدراكاً ما حفظ الموعدة وقبلها.

ثم أمر الناس أن يستصبحوا، أي يسرجوا مصابيحهم من شعلة سراج، متعظ في نفسه واعظ لغيره؛ وروي بالإضافة من شعلة مصباح واعظ بإضافة مصباح إلى واعظ؛ وإنما جعله متعظاً واعظاً، لأن من لم يتعظ في نفسه فبعيد أن يتعظ به

غيره؛ وذلك لأن القبول لا يحصل منه، والأنفس تكون نافرة عنه، ويكون داخلاً في حيز قوله تعالى: "اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم"، وفي قول الشاعر: لا تنه عن خلقوتاتي مثله وعن هذا المصباح نفسه عليه السلام، ثم أمرهم أن يمتاحوا من عين صافية قد انتفى عنها الكدر، كما يروق الشراب بالراوق فيزول عنه كدره؛ والامتياح: نزول البئر وملء الدلاء منها، ويكني بهذا أيضاً عن نفسه عليه السلام. ثم نهاهم عن الانقياد لأهوائهم والميل إلى جهالتهم، وقال: إن من يكون كذلك، فإنه على جانب خرف متهدم؛ ولفظة هار من الألفاظ القرآنية.

ثم قال: ومن يكون كذلك، فهو أيضاً ينقل الهلاك على ظهره من موضع إلى موضع؛ ليحدث رأياً فاسداً بعد رأي فاسد، أي هو ساع في ضلال يروم أن يحتج لما لا سبيل إلى إثباته، وينصر مذهباً لا انتصار له. ثم نهاهم وحذرهم أن يشكوا إلى من لا يزيل شكائهم ومن لا رأي له في الدين ولا بصيرة. لينقض ما قد أبرمه الشيطان في صدورهم لإغوائهم. ويروى: إلى من لا يشكي شجوكم. ومن ينقض برأيه ما قد أبرم لكم؛ وهذه الرواية أليق، أي لا تشكوا إلى من لا يدفع عنكم ما تشكون منه؛ وإنما ينقض برأيه الفاسد ما قد أبرمه الحق والشرع لكم. ثم ذكر أنه ليس على الإمام إلا ما قد أوضحه من الأمور الخمسة.

ثم أمرهم بمبادرة أخذ العلم من أهله - يعني نفسه عليه السلام - قبل أن يموت، فيذهب العلم. وتصويح النبت، كناية عن ذلك.

ثم قال: وقبل أن تشغلوا بالفتن وما يحدث عليكم من خطوب الدنيا عن استشارة العلم من معدنه واستنباطه من قرارته. ثم أمرهم بالنهي عن المنكر، وأن يتناهوا عنه قبل أن ينهوا عنه؛ وقال: إنما النهي بعد التناهي.

وفي هذا الموضع إشكال، وذلك أن لقائل أن يقول: النهي عن المنكر واجب على العدل والفاسق، فكيف قال: إنما أمرتم بالنهي بعد التناهي؛ وقد روي أن الحسن البصري قال للشعي: هلا نهيتم عن كذا؟ فقال: يا أبا سعيد، إني أكره أن أقول ما لا أفعل. قال الحسن: غفر الله لك! وأينا يقول ما يفعل! ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر! والجواب أنه عليه السلام لم يرد أن وجود النهي عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهي عن المنكر؛ وإنما أراد: إني لم آمركم بالنهي عن المنكر إلا بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر؛ فالترتيب إنما هو في أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين؛ لا في نهيهم وتناهيهم.

فإن قلت: فلماذا قدم أمرهم بالانتهاء على أمرهم بالنهي؟ قلت: لأن إصلاح المرء نفسه أهم من الاعتناء بإصلاحه لغيره.

ومن خطبة له في وصف الإسلام

الأصل: الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده. وأعز أركانه على من غالبه؛ فجعله أمناً لمن علقه، وسلاماً لمن دخله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم عنه، ونوراً لمن أستضاء به، وفهماً لمن عقل، ولباً لمن تدبر، وأية لمن توسم، وتبصرة لمن عزم، وعبرة لمن أتعظ، ونجاة لمن صدق، وثقة لمن توكل، وراحة لمن فوض، وجنة لمن صبر. فهو أبلج المناهج، وأوضح الولايج، مشرف المنار، مشرق الجواد، مضيء المصابيح، كريم المضمار، رفيع الغاية، جامع

الحلبة، متنافس السبقة، شريف الفرسان، التصديق منهاجه، والصالحات مناره، والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامة حليته، والجنة سبقتة.

الشرح: هذا باب من الخطابة شريف؛ وذلك لأنه ناط بكل واحدة من اللفظات لفظة تناسبها وتلائمها لو نيطت بغيرها لما انطبقت عليها، ولا استقرت في قرارها؛ ألا تراه قال: أماناً لمن علقه! فالأمن مرتب على الاعتلاق؛ وكذلك في سائر الفقر كالسلم المرتب على الدخول، والبرهان المرتب على الكلام، والشاهد المرتب على الخصام، والنور المرتب على الاستضاءة إلى آخرها؛ ألا ترى أنه لو قال: وبرهاناً لمن دخله، ونوراً لمن خاصم عنه، وشاهداً لمن استضاء به، لكان قد قرن باللفظة ما لا يناسبها، فكان قد خرج عن قانون الخطابة، ودخل في عيب ظاهر! وتوسم: تفرس: والولائج: جمعوليحة، وهو المدخل إلى الوادي وغيره.

والجنة: الترس. وأبلج المناهج: معروف الطريق، والحلبة: الخيل المجموعة للمسابقة، والمضمار: موضع تضمير الخيل، وزمان تضميرها، والغاية: الراية المنصوبة، وهو ههنا خرقة تجعل على قصبة وتنصب في آخر المدى الذي تنتهي إليه المسابقة؛ كأنه عليه السلام جعل الإسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم، وغايتها رفيعة عالية؛ وحلبتها جامعة حاوية، وسبقتها متنافس فيها، وفرسانها أشرف.

ثم وصفه بصفات أخرى، فقال: التصديق طريقه، والصالحات أعلامه، والموت غايته، أي إن الدنيا سجن المؤمن، وبالموت يخلص من ذلك السجن؛ ويحظى بالسعادة الأبدية.

قال: والدنيا مضماره، كأن الإنسان يجري إلى غاية هي الموت؛ وإنما جعلها مضمار الإسلام، لأن المسلم يقطع دنياه لا لدنياه بل لآخرتة، فالدنيا له كالمضمار للفرس إلى الغاية المعينة.

قال: والقيامة حليته، أي ذات حليته فحذف المضافي، كقوله تعالى: "هم درجات عند الله" أي ذوو درجات، ثم قال: والجنة سبقتة، أي جزاء سبقتة، فحذف أيضاً.

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: الأصل: حتى أوري قبساً لقابس، وأنار علماً لحابس، فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيئك نعمة، ورسولك بالحق رحمة.

اللهم أقسم له مقسماً من عدلك، واجزه مضعفات الخير من فضلك. اللهم وأعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك نزله، وشرف عندك منزله، وآته الوسيلة، وأعطه السناء والفضيلة، وأحشرنا في زمرة؛ غير خزايا ولا نادمين، ولا ناكبين، ولا ناكثين، ولا ضالين، ولا مضلين، ولا مفتونين! قال الرضي رحمه الله تعالى: وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم، إلا أننا كررناه ههنا لما في الروايتين من الاختلاف.

الشرح: قبساً، منصوب بالمفعولية، أي أوري رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً، والقبس: شعلة من النار، والقابس: طالب الاستصباح منها. والكلام مجاز، والمراد الهداية في الدين.

وعلماً، منصوب أيضاً بالمفعولية، أي وأنار رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً.

لحابس، أي نصب لمن قد حبس ناقته - ضلالاً، فهو يخط لا يدري كيف يهتدي إلى المنهج - علماً يهتدي به.

فإن قلت: فهل يجوز أن ينصب قيساً وعلماً على أن يكون كل واحد منهما حالاً، أي حتى أوري رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال كونه قيساً وأُنا في حال كونه علماً؛ قلت: لم أسمع أوري الزند وإنما المسموع وري ووري ولم يحىء أوري إلا متعدياً، أوري زيد زنده، فإن حمل ههنا على المتعدي احتيج إلى حذف المفعول، ويصير تقديره: حتى أوري رسول الله الزند حال كونه قيساً، فيكون فيه نوع تكلف واستهجان، والبعيث: المبعوث. ومقسماً: نصيباً، وإن جعلته مصدرًا جاز، والزل: طعام الضيف. والوسيلة: ما يتقرب به، وقد فسر قولهم في دعاء الأذان: اللهم آتِه الوسيلة، بأنها درجة رفيعة في الجنة. والسناء بالمد: الشرف. وزمرته: جماعته.

و خزايا: جمع خزيان، وهو الخجل المستحي، مثل سكرانو سكارى، وخيرانو حيارى، وغيرانو غيارى، وناكبين، أي عادلين عن الطريق. وناكثين، أي ناقضين للعهد.

قلت: سألت النقيب أبا جعفر رحمه الله - وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية عن هذا الموضع - فقلت له: قد وقفت على كلام الصحابة وخطبهم فلم أر فيها من يعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيم هذا الرجل، ولا يدعو كدعائه فإننا قد وقفنا من نهج البلاغة ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل، تدل على إجلال عظيم، وتسجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ومن أين لغيره من الصحابة كلام مدون يتعلم منه كيفية ذكرهم للنبي صلى الله عليه وسلم؟ وهل وجد لهم إلا كلمات مبتدرة، لا طائل تحتها! ثم قال: إن علياً عليه السلام كان قوي الإيمان برسول الله عليه السلام والتصديق له، ثابت اليقين؛ قاطعاً بالأمر، متحققاً له، وكان مع ذلك يحب رسول الله عليه السلام لنسبته منه، وتربيته له، واختصاصه به من دون أصحابه. وبعد؛ فشرفه له، لأنهما نفس واحدة في جسمين: الأب واحد، والدار واحدة، والأخلاق متناسبة؛ فإذا عظمه فقد عظم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه، ولقد كان يود أن تطبق دعوة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن جمال ذلك لاحق به، وعائد عليه، فكيف لا يعظمه ويجهده في ويحمله إعلاء

كلمته! فقلت له: قد كنت اليوم أنا وجعفر بن مكي الشاعر نتجاذب هذا الحديث، فقال جعفر: لم ينصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد نصره أبي طالب وبنيه له، أما أبو طالب فكفله ورباه، ثم حماه من قريش عند إظهار الدعوة، بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله، وأما ابنه جعفر فهاجر بجماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة، فنشر دعوته بها، وأما علي فإنه أقام عماد الملة بالمدينة؛ ثم لم يمن أحد من القتل والهوان والتشريد بما مني به بنو أبي طالب؛ أما جعفر فقتل يوم مؤتة، وأما علي فقتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الحنظل، وتمنى الموت، ولو تأخر قتل ابن ملجم له لمات أسفاً وكمداً، ثم قتل ابنه بالسهم والسيف، وقتل بنوه الباقون مع أخيههم بالطف، وحملت نساؤهم على الأقتاب سبايا إلى الشام، ولقيت ذريتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصلب والتشريد في البلاد والهوان والحبس والضرب ما لا يحيط الوصف بكنهه، فأبي خير أصاب هذا البيت من نصرته، ومحبتة وتعظيمه بالقول والفعل! فقال رحمه الله - وأصاب فيما قال - : فهلا قلت: "يمنون عليك إن اسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين". ثم قال: وهلا قلت له: فقد نصرته الأنصار، وبذلت مهجها دونه، وقتلت بين يديه في مواطن كثيرة، وخصوصاً يوم أحد ثم اهتمموا بعده، واستؤثر عليهم، ولقوا من المشاق والشدائد ما يطول شرحه؛ ولو لم يكن إلا يوم الحرة، فإنه اليوم الذي لم يكن في

العرب مثله، ولا أصيب قوم قط بمثل ما أصيب به الأنصار ذلك اليوم! ثم قال: إن الله تعالى زوى الدنيا عن صالحى عباده

وأهل الإخلاص له، لأنه لم يرها ثناً لعبادتهم، ولا كفواً لإخلاصهم، وأرجأ جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدار؛ في مثلها يتنافس المتنافسون.

الأصل: منها في خطاب أصحابه: وقد بلغتكم من كرامة الله تعالى لكم منزلة تكرم بها إمامكم، وتوصل بها جيرانكم ويعظمكم من لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده، ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة، ولا لكم عليه إمرة. وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون، وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون، وكانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، فكنتم الظلمة من منزلتكم، والقيتم إليهم أزمجتكم، وأسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات، ويسيروا في الشهوات. وأيم الله لو فرقوكم تحت كل كوكب، لمجمعكم الله لشر يوم لهم! الشرح: هذا خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدتهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية؛ التي كان يغير بها على أطراف أعمال علي عليه السلام كالأنبار وغيرها؛ مما تقدم ذكرنا له؛ قال لهم: إن الله أكرمكم بالإسلام بعد أن كنتم مجوساً وعباد أصنام، وبلغتم من كرامته إياكم بالإسلام منزلة عظيمة؛ أكرم بها إمامكم وعبيدكم؛ ومن كان مظنة المهنة والمذلة. ووصل بها جيرانكم، أي من التجأ إليكم من معاهد أو ذمي؛ فإن الله تعالى حفظ لهم ذمام المحاورة لكم؛ حتى عصم دماءهم وأموالهم، وصرت إلى حال يعظمكم بها من لا فضل لكم عليه، ولا نعمة لكم عنده؛ كالروم والحبشة، فإنهم عظموا مسلمي العرب لتقمصهم لباس الإسلام والدين، ولزومهم ناموسه، وإظهارهم شعاره. ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة، ولا لكم عليه إمرة؛ كالمملوك الذين في أقاصي البلاد؛ نحو الهند والصين وأمثالها؛ وذلك لأنهم هابوا دولة الإسلام؛ وإن لم يخافوا سطوة سيفها؛ لأنه شاع وذاع أنهم قوم صالحون، إذا دعوا الله استجاب لهم؛ وأنهم يقهرون الأمم بالنصر السماوي وبالملائكة؛ لا بسيوفهم ولا بأيديهم. قيل: إن العرب لما عبرت دجلة إلى القصر الأبيض الشرقي بالمدائن عبرتها في أيام مدها، وهي كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها، ولا دروع عليها ولا بيض؛ فهربت الفرس بعد رمي شديد منها للعرب بالسهم؛ وهم يقدمون ويحملون؛ ولا تهولهم السهام؛ فقال فلاح نبطي، بيده مسحاته وهو يفتح الماء إلى زرعه لاسوار من الأساورة معروف بالبأس وجودة الرماية: ويلكم! أمثلكم في سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين! ولذعه باللوم والتعنيف. فقال له: أقم مسحاتك، فأقامها فرماها، فخرق الحديد حتى عبر النصل إلى جانبها الآخر، ثم قال: انظر الآن، ثم رمى بعض العرب المارين عليه عشرين سهماً لم تصبه ولا فرسه منها بسهم واحد؛ وإنه لقريب منه غير بعيد. ولقد كان بعض السهام يسقط بين يدي الأسوار، فقال له بالفارسية: أعلمت أن القوم مصنوع لهم! قال: نعم.

ثم قال عليه السلام: ما لكم لا تغضبون، وأنتم ترون عهود الله منقوضة! وإن من العجب أن يغضب الإنسان ويأنف من نقض عهد أبيه، ولا يغضب ولا يأنف لنقض عهود إلهه وخالقه! ثم قال لهم: كانت الأحكام الشرعية إليكم ترد مني ومن تعليمي إياكم، وتثقيفي لكم، ثم تصدر عنكم إلى من تعلمونه إياها من أتباعكم وتلامذتكم، ثم يرجع إليكم بأن يتعلمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الأتباع والتلامذة؛ ففررتكم من الزحف لما أغارت جيوش الشام عليكم، وأسلمتم منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم، ومكنتم الظلمة من منزلتكم؛ حتى حكموا في دين الله بأهوائهم، وعملوا بالشبهة لا

بالحجة، واتسعوا في شهواتهم ومآرب أنفسهم.
ثم أقسم بالله: إن أهل الشام لو فرقوكم تحت كل كوكب ليجمعنكم الله ليوم، وهو شر يوم لهم؛ وكنتي بذلك عن ظهور المسودة وانتقامها من أهل الشام وبني أمية، وكانت المسودة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية.

ومن كلام له في بعفر أيام صفين

الأصل: وقد رأيت جولتكم، وأنحيازكم عن صفوفكم، تحوزكم الجفأة الطغام، وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب، ويأفخ الشرف، والأنف المقدم، والسنام الأعظم.
ولقد شفا وحاوح صدري أن رأيتكم بأخرة، تحوزوهم كما حازوكم، وتزيلوهم عن مواقفهم كما أزالوكم، حساً بالنصال، وشجراً بالرماح؛ تركب أولاهم أخراهم كالإبل الهيم المطرودة؛ ترمى عن حياضها؛ وتزداد عن مواردها! الشرح: جولتكم: هزيمتكم. فأجمل في اللفظ، وكنتي عن اللفظ المنفر، عادلاً عنه إلى لفظ لا تنفير فيه، كما قال تعالى: "كانا يأكلان الطعام"، قالوا: هو كناية عن إتيان الغائط، وإجمال في اللفظ.

وكذلك قوله: وأنحيازكم عن صفوفكم كناية عن الهرب أيضاً؛ وهو من قوله تعالى: "إلا متحرفاً لقتالاً ومتحيزاً إلى فئة". وهذا باب من أبواب البيان لطيف؛ وهو حسن التوصل بإيراد كلام غير مزعج؛ عوضاً عن لفظ يتضمن جهاً وتقريعاً. وتحوزكم: تعدل بكم عن مراكزكم. والجفأة: جمع جاف؛ وهو القدم الغليظ. والطغام: الأوغاد: واللهاميم: جمع لهموم وهو الجواد من الناس والخيل، قال الشاعر:

لاتحسبن بياضاً في منقصة إن اللهاميم في أقرابها بلق

واليافخ: جمع يافوخ وهو معظم الشيء، تقول: قد ذهب يافوخ الليل، أي أكثره، ويجوز أن يريد به اليافوخ، وهو أعلى الرأس، وجمعه يافوخ أيضاً. وأفخت الرجل: ضربت يافوخه، وهذا أليق، لأنه ذكر بعده الأنف والسنام، فحمل اليافوخ على العضو إذا أشبه.

والوحاوح: الحرق والحزازات ولقيته بأخرة على فعلة أي أخيراً.

والحس القتل، قال الله تعالى: "إذ تحسوفهم بإذنه".

وشجرت زيدا بالرمح: طعنته، والتأنيث في أولاهم وأخراهم للكتائب.

والهيم: العطاش: وتزداد تصد وتمنع، وقد روي: الطغاة عوض الطعام.

وروي حشاً بالهمز من حشأت الرجل أي أصبت حشاه.

وروي بالنضال بالضاد المعجمة، وهو المناضلة والمرامة.

وقد ذكرنا نحن هذا الكلام فيما اقتصصناه من أخبار صفين فيما تقدم من هذا الكتاب.

ومن خطبة له وهي من خطب الملاحم

الأصل: الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته؛ خلق الخلق من غير روية؛ إذ كانت الرويات لا تليق إلا بذوي الضمائر؛ وليس بذوي ضمير في نفسه. خرق علمه باطن كيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات. الشرح: الملاحم: جمع ملحمة: وهي الواقعة العظيمة في الحرب؛ ولما كانت دلائل إثبات الصانع ظاهرة ظهور الشمس؛ وصفه علي السلامه بكونه ظهر وتجلي لخلقه، ودلهم عليه بخلقه إياهم وإيجاده لهم. ثم أكد ذلك بقوله: والظاهر لقلوبهم بحجته ولم يقل لعيونهم لأنه غير مرئي؛ ولكنه ظاهر للقلوب بما أودعها من الحجج الدالة عليه.

ثم نفى عنه الروية والفكر والتمثيل بين خاطرين؛ ليعمل على أحدهما، لأن ذلك إنما يكون لأرباب الضمائر والقلوب أولي النوازع المختلفة والبواعث المتضادة.

ثم وصفه بأن علمه محيط بالظاهر والباطن والماضي والمستقبل، فقال: إن علمه خرق باطن الغيوب المستورة، وأحاط بالغامض من عقائد السرائر.

الأصل: منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: اختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسرة البطحاء، ومصاييح الظلمة، وينابيع الحكمة.

الشرح: شجرة الأنبياء أولاد إبراهيم عليه السلام لأن أكثر الأنبياء منهم. والمشكاة: كوة غير نافذة؛ يجعل فيها المصباح. والذؤابة؛ طائفة من شعر الرأس، وسرة البطحاء: وسطها، وبنو كعب بن لؤي يفخرون على بني عامر بن لؤي بأنهم سكنوا البطاح، وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكة، وسكن معها بنو فهر بن مالك، رهط أبي عبيدة بن الجراح وغيره، قال الشاعر:

ح وحل غيرك بالظواهر

فحللت منها بالبطا

وقال طريح بن إسماعيل:

تطرق عليك الحني والولج

أنت ابن مسلنطح البطاح ولم

وقال بعض الطالبين:

غيري، وراح على متون ظواهر

وأنا ابن معتلج البطاح إذا غدا

كالجفن يفتح عن سواد الناظر

يفترعني ركنها وحطيمها

خلقي، ومثل طبائهن مجاوري

كجبالها شرفي، ومثل سهولها

الأصل: ومنها: طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه؛ يضع ذلك حيث الحاجة إليه؛ من قلوب عمي؛ وأذان صم، وألسنة بكم؛ متتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة.

الشرح: إنما قال: دوار بطبه، لأن الطبيب الدوار أكثر تجربة، أو يكون عني به أنه يدور على من يعالجه؛ لأن الصالحين يدورون على مرضى القلوب، فيعالجونهم ويقال: إن المسيح رئي خارجاً من بيت مومسة، فقيل له: يا سيدنا، أمثلك يكون ههنا! فقال: إنما يأتي الطبيب المرضى، والمراهم: الأدوية المركبة للجراحات والقروح. والمواسم: حدائد يوسم بها

ثم ذكر أنه إنما يعالج بذلك من يحتاج إليه؛ وهم أولو القلوب العمي، والأذان الصم، والألسنة البكم، أي الخرس. وهذا تقسيم صحيح حاصر، لأن الضلال ومخالفة الحق يكون بثلاثة أمور: إما بجهل القلب، أو بعدم سماع المواعظ والحجج، أو بالإمساك عن شهادة التوحيد وتلاوة الذكر، فهذه أصول الضلال؛ وأما أفعال المعاصي ففروع عليها. التقسيم وهو من أبواب علم البيان وصحة التقسيم باب من أبواب علم البيان، ومنه قوله سبحانه: "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات". وهذه قسمة صحيحة، لأن المكلفين: إما كافر، أو مؤمن، أو ذو المتزلة بين المتزتين، هكذا قسم أصحابنا الآية على مذهبه في الوعيد. وغيرهم يقول: العباد إما عاص ظالم لنفسه، أو مطيع مبادر إلى الخير، أو مقتصد بينهما. ومن التقسيم أيضاً قوله: "وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون" ومثل ذلك، وقوله تعالى: "وهو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطماع.

ووقف سائل على مجلس الحسن البصري، فقال: رحم الله عبداً أعطى من سعة، أو واسى من كفاف، أو أثر من قلة! فقال الحسن: لم تترك لأحد عذراً. ومن التقسيمات الفاسدة في الشعر قول البحري:

مقصراً في ملامة أو مطيلاً

ذاك وادي الأراك فاحبس قليل

أومعياً، أو عاذراً، أو عذولاً

قف مشوقاً، أو مسعداً، أو حزيناً

فالتقسيم في البيت الأول صحيح، وفي الثاني غير صحيح، لأن المشوق يكون حزيناً، والمسعد يكون معيناً؛ فكذلك يكون عاذراً، ويكون مشوقاً، ويكون حزيناً، وقد وقع المتنبي في مثل ذلك، فقال:

مستعظم أوحاسد أوجاهل

فافخر، فإن الناس فيك ثلاثة

فإن المستعظم يكون حاسداً، والحاسد يكون مستعظماً، ومن الأبيات التي ليس تقسيمها بصحيح، ما ورد في شعر الحماسة:

فخنت، وإما قلت قولاً بلا علم

وأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً

بمنزلة بين الخيانة والإثم

فأنت من الأمر الذي قد أتيت

وذلك الآن الخيانة أخص من الإثم، والإثم شامل لها لأنه أعم منها فقد دخل أحد القسمين في الآخر. ويمكن أن يعتذر له، فيقال عني بالإثم الكذب نفسه، وكذلك هو المعنى أيضاً بقوله: قولاً بلا علم، كأنه قال له: إما أن أكون أفشيت سري إليك فخنتني، أو لم أفش فكذبت علي، فأنت فيما أتيت بين أن تكون حائناً أو كاذباً.

ومما جاء من ذلك في النثر قول بعضهم: من جريح مضرج بدمائه، أو هارب لا يلتفت إلى ورائه، وذلك أن الجريح قد يكون هارباً، والهارب قد يكون جريحاً، وقد أجاد البحري لما قسم هذا المعنى، وقال:

غادرتهم أيدي المنية صباحاً

للقنا بين ركع وسجود

فهم فرقتان: بين قتيل

قبضت نفسه بحد الحديد

أو أسير غدا له السجن لحداً

فهو حي في حالة الملحود

فرقة للسيوف ينفذ فيها ال

حكم قسراً وفرقة للقيود

ومن ذلك قول بعض الأعراب: النعم ثلاث: نعمة في حال كونها، ونعمة ترجى مستقبلية، ونعمة تأتي غير محتسبة، فأبقى الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترتجيه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه. وذلك أنه أغفل النعمة الماضية. وأيضاً فإن النعمة التي تأتي غير محتسبة داخلية في قسم النعمة المستقبلية، وقد صحح القسمة أبو تمام، فقال:

جمعت لنا فرق الأمانى منكم

بأبر من روح الحياة وأوصل

كالمزن من ماضى الرباب ومقبل

منتظر ومخيم متهلل

فصنيعة في يومها وصنيعة

قد احولت، وصنيعة لم تحول

فإن قلت: فإن ما عنيت به فساد التقسيم على البحري والمتني يلزمك مثله فيما شرحت، لأن الأعمى القلب تد يكون أبكم اللسان، أصم السمع.

قلت: إن الشاعرين ذكرا التقسيم بأو، وأمير المؤمنين عليه السلام قسم بالواو والواو للجمع، فغير منكر أن تجتمع الأقسام لواحد، أو أن تعطى معنى الانفراد فقط، فافترق الموضعان.

الأصل: لم يستضيئوا بأضواء الحكمة؛ لم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة؛ فهم في ذلك كالأنعام السائمة، والصخور القاسية؛ قد أنجابت السرائر لأهل البصائر؛ ووضحت محجة الحق للخابطها، وأسفرت الساعة عن وجهها، وظهرت العلامة لمتوشمها. ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح، وأرواحاً بلا أنسباح، ونساکاً بلا صلاح، وتجاراً بلا أرباح، وأيقاظاً نوماً، وشهوداً غيباً، وناظرة عمياء، وسامعة صماء، وناطقة بكماء! الشرح: انجابت: انكشفت. والمحجة: الطريق. والخابط: السائر على غير سبيل واضحة. وأسفرت الساعة: أضاءت وأشرقت، وعن متعلقة بمحذوف، وتقديره: كاشفة عن وجهها. والمتوسم: المتفرس. أشباحاً بلا أرواح، أي أشخاصاً لا أرواح لها ولا عقول، وأرواحاً بلا أشباح؛ يمكن أن يريد به الخفة والطيش، تشبيهاً بروح بلا جسد. ويمكن أن يعني به نقصهم، لأن الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الاعمال والتحريك اللذين كانا من فعلها حيث كانت تدبر الجسد، ونساکاً بلا صلاح: نسبهم إلى النفاق. وتجاراً بلا أرباح: نسبهم إلى الرياء وإيقاع الأعمال على غير وجهها.

ثم وصفهم بالأمر المتضادة ظاهراً، وهي مجتمعة في الحقيقة، فقال: أيقاظاً نوماً، لأنهم أولو يقظة؛ وهم غفول عن الحق كالنيام، وكذلك باقيها، قال تعالى: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور".

الأصل: راية ضلال قد قامت على قطبها، وتفرقت بشعبها، تكيلكم بصاعها، وتخبطكم بباعها، قائدتها خارج من الملة، قائم على الضلة؛ فلا يبقى يومئذ منكم إلا ثفالة كثفالة القدر، أو نفاضة كنفاضة العكم، تعرككم عرك الأديم، وتدوسكم

دوس الحصيد، وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبة البطينة من بين هزيل الحب.

الشرح: هذا كلام منقطع عما قبله، لأن الشريف الرضي رحمه الله كان يلتقط الفصول التي في الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرها، ويتخطى ما قبلها، وما بعدها، وهو عليه السلام يذكر ههنا ما يحدث في آخر الزمان من الفتن، كظهور السفيناني وغيره.

والقطب في قوله عليه السلام: قامت على قطبها: الرئيس الذي عليه يدور أمر الجيش. والشعب: القبيلة العظيمة، وليس التفرق للراية نفسها، بل لنصارها وأصحابها، فحذف المضاف، ومعنى تفرقهم، أنهم يدعون إلى تلك الدعوة المخصوصة في بلاد متفرقة، أي تفرق ذلك الجمع العظيم في الأقطار، داعين إلى أمر واحد ويروى بشعبها جمع شعبة.

وتقدير تكييلكم بصاعها تكييل لكم، فحذف اللام؛ كما في قوله تعالى: "وإذا كالوهم أو وزنوهم" أي كالوا لهم، أو وزنوا لهم؛ والمعنى تحملكم على دينها ودعوتها، وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها، ويجوز أن يريد بقوله: تكييلكم بصاعها يقهركم أربابها على الدخول في أمرهم، ويتلاعبون بكم، ويرفعونكم ويضعونكم كما يفعل كيال البر به إذا كاله بصاعه. وتخبطكم بباعها: تظلمكم وتعسفكم، قائدها ليس على ملة الإسلام بل مقيم على الضلالة، يقال: ضلة لك، وإنه ليلومني ضلة، إذا لم يوفق للرشاد في عذله، والثفالة: ما ثقل في القدر من الطيخ. والنفاضة: ما سقط من الشيء المنفوض، والعكم: العدل، والعكم أيضاً نمط تجعل فيه المرأة ذخيرتها، وعركت الشيء: دلكته بقوة. والحصيد: الزرع المحصود. ومعنى استخلاص الفتنة المؤمن أنها تخصه بنكايتها وأذاها؛ كما قيل: المؤمن ملقى والكافر موقى، وفي الخبر المرفوع: آفات الدنيا أسرع إلى المؤمن من النار في يبيس العرفج.

الأصل: أين تذهب بكم لمذاهب، وتتيه بكم الغياهب، وتخدعكم الكواذب؛ ومن أين توتون، وأنى تؤفكون! فلكل أجل كتاب، ولكل غيبة إياب.

فاستمعوا من ربانيكم، وأحضروه قلوبكم، وأستيقظوا إن هتف بكم. وليصدق رائد أهله، وليجمع شمله، وليحضر ذهنه، فلقد فلق لكم الأمر فلق الخرزة، وقرفه قرف الصمغة.

الشرح: الغياهب: الظلمات، الواحد غيهب. وتتيه بكم: تجعلكم تائهين، عدى الفعل اللازم بحرف الجر، كح تقول في ذهب: ذهب به. والتائه: المتحير.

والكواذب ههنا: الأماني، فحذف الموصوف وأبقى الصفة كقوله: إلا بكفي كان من أرمى البشر أي بكفي غلام هذه صفته.

وقوله: ولكل أجل كتاب أظنه منقطعاً أيضاً عن الأول مثل الفصل الذي تقدم؛ وقد كان قبله ما ينطبق عليه ويلتئم معه لا محالة. ويمكن على بعد أن يكون متصلاً بما هو مذكور ههنا.

وقوله ولكل غيبة إياب قد قاله عبيد بن الأبرص، واستثنى من العموم الموت، فقال:

وغائب الموت لا يؤوب

وكل ذي غيبة يؤوب

وهو رأي زنادقة العرب؛ فأما أمير المؤمنين، وهو ثاني صاحب الشريعة التي جاءت بعود الموتى، فإنه لا يستثنى، ويحتمق عبداً في استثنائه.

والرباني الذي أمرهم بالاستماع منه؛ إنما يعني به نفسه عليه السلام، ويقال: رجل رباني أي مثله عارف بالرب سبحانه، وفي وصف الحسن لأمر المؤمنين عليه السلام: كان والله رباني هذه الامة وذا فضلها، وذا قربتها، وذا سابقتها. ثم قال: وأحضروه قلوبكم، أي اجعلوا قلوبكم حاضرة عنده، أي لا تقنعوا لأنفسكم بحضور الأجساد وغيبية القلوب؛ فإنكم لا تنتفعون بذلك. وهتف بكم: صاح، والرائد: الذي يتقدم المنتجعين لينظر لهم الماء والكأ. وفي المثل: الرائد لا يكذب أهله.

وقوله: وليجمع شمله أي وليجمع عزائمه وأفكاره لينظر؛ فقد فلق هذا الرباني لكم الأمر، أي شق ما كان مبهماً، وفتح ما كان مغلقاً، كما تفلق الخرزة فيعرف باطنها.

وقرّفه، أي قشره، كما تقشر الصمغة عن عود الشجرة، وتقلع.

الأصل: فعند ذلك أخذ الباطل مأخذه، وركب الجهل مراكبه؛ وعظمت الطاكية، وقلت الداعية، وصال الدهر صيال السبع العقور، وهدر فيق الباطل بعد كظوم، وتواخى الناس على الفجور، وتهاجزوا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق. فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً؛ والمطر قيظاً، وتفيض اللثام فيضاً، وتغيض الكرام غيضاً، وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعاً، وأوساطه أكالاً، وفقراؤه أمواتاً، وغار الصدق، وفاض الكذب، واستعملت المودة باللسان، وتشاجر الناس بالقلوب، وصار الفسوق نسباً، والعفاف عجباً، ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً. الشرح: تقول: أخذ الباطل مأخذه، كما تقول عمل عمله؛ أي قوي سلطانه وقهر؛ ومثله ركب الجهل مراكبه. وعظمت الطاغية، أي الطغيان، فاعلة بمعنى المصدر، كقوله تعالى: "ليس لوقعتها كاذبة"، أي تكذيب، ويجوز أن تكون الطاغية ههنا صفة فاعل محذوف، أي عظمت الفئة الطاغية. وقلت الداعية مثله، أي الفرقة الداعية.

وصال: حمل ووثب، صولاً وصولاً، يقال: رب قول أشد من صول، والصيال والمصاولة هي المواثبة، صايله صيلاً وصيالة، والفحلان يتصاولان، أي يتواثبان.

والفنيق: فحل الإبل. وهدر: ردد صوته في حنجرتة، وإبل هوادر؛ وكذلك هدر بالتشديد تهديراً، وفي المثل: هو كالمهدر في العنة يضرب للرجل يصيح ويجلب وليس وراء ذلك شيء كالبعير الذي يجبس في العنة؛ وهي الحظيرة، ويمنع من الضراب، وهو يهدر، وقال الوليد بن عقبة لمعاوية:

تهدر في دمشق ولا تريم

قطعت الدهر كالسدم المعنى

والكظوم: الإمساك والسكوت، كظم البعير يكظم كظوماً، إذا أمسك الحرة؛ وهو كاظم، وإبل كظوم لا تجتر، وقوم كظم ساكتون.

وتواخى الناس: صاروا إخوة، والأصل تأخى الناس، فابدلت الهمزة واواً، كأزرتة أي أعنته، ووازرتة.

يقول: اصطلحوا على الفجور، وتهاجروا على الدين، أي تعادوا وتقاطعوا.

فإن قلت: فإن من شعار الصالحين أن يهجروا في الدين ويعادوا فيه! قلت: لم يذهب أمير المؤمنين حيث ظننت، وإنما أراد أن صاحب الدين مهجور عندهم، لأن صاحب الدين مهجور وصاحب الفجور جار عندهم مجرى الأخ في الحنو عليه؛ والحب له، لأنه صاحب فجور.

ثم قال: كان الولد غيظاً، أي لكثرة عقوق الأبناء للآباء، وصار المطر قيظاً يقال إنه من علامات الساعة وأشراؤها. وأوساطه أكالاً أي طعاماً؛ يقال: ما ذقت! أكالاً؛ وفي هذا الموضع إشكال؛ لأنه لم ينقل هذا الحرف إلا في الجحد خاصة، كقولهم: ما بها صافر، فالأجود الرواية الأخرى؛ وهي أكالاً بمد الهمزة على أفعال جمع أكل؛ وهو ما أكل، كقفل وأقفال. وقد روي أكالاً بضم الهمزة على فعال؛ وقالوا: إنه جمع أكل للمأكل كعرق وعراق، وظئر وظوار، إلا أنه شاذ عن القياس، ووزن واحدهما مخالف لوزن واحد أكال لو كان جمعاً؛ يقول: صار أوساط الناس طعمة للولة وأصحاب السلاطين، وكالفريسة للأسد. وغار الماء: سفلى لنقصه، وفاض: سال.

وتشاجر الناس: تنازعوا وهي المشاجرة، وشجر بين القوم؛ إذا اختلف الأمر بينهم، واشتجروا؛ مثل تشاجروا. وصار الفسوق نسباً يصير الفاسق صديق الفاسق؛ حتى يكون ذلك كالنسب بينهم، وحتى يعجب الناس من العفاف؛ لقلته وعدمه. وليس الإسلام لبس الفرو؛ وللعرب عادة بذلك؛ وهي أن تجعل الحمل إلى الجسد؛ وتظهر الجلد؛ والمراد انعكاس الأحكام الإسلامية في ذلك الزمان.

ومن خطبة له في تمجيد الله ووصف ملائكته

الأصل: كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به؛ غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف. من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه. لم ترك العيون فتخبر عنك؛ بل كنت قبل الواصفين من خلقك. لم تخلق الخلق لوحشة، ولا أستعملتهم لمنفعة، ولا يسبقك من طلبت، ولا يفلتلك من أخذت، ولا ينقص سلطانك من عصاك، ولا يزيد في ملكك من أطاعك، ولا يرد أمرك من سخط قضاءك، ولا يستغني عنك من تولى عن أمرك. كل شيء عندك علانية، وكل غيب عندك شهادة. أنت الأبد فلا أمد لك، وأنت المنتهى فلا محيص عنك، وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك. بيدك ناصية كل دابة، وإليك مصير كل نسمة.

سبحانك ما أعظم شأنك! سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك! وما أصغر عظيمة في جنب قدرتك! وما أهول ما نرى من ملكوتك! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك! وما أسبغ نعمك في الدنيا، وما أصغرها في نعم الآخرة! الشرح: قال: كل شيء خاضع لعظمة الله سبحانه، وكل شيء قائم به، وهذه هي صفته الخاصة، أعني كونه غنياً عن كل شيء، ولا شيء من الأشياء يغني عنه أصلاً.

ثم قال: غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف. جاء في الأثر: من اعتز بغير الله ذل، ومن

تكثر بغير الله قل؛ وكان يقال: ليس فقيراً من استغنى بالله. وقال الحسن: واعجباً للوط نبي الله! قال: "لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد"، أترأه أراد ركناً أشد وأقوى من الله! واستدل العلماء على ثبوت الصانع سبحانه بما دل عليه فحوى قوله عليه السلام: ومفزع كل ملهوف، وذلك أن النفوس ببدايتها تفزع عند الشدائد والخطوب الطارقة إلى الالتجاء إلى خالقها وبارئها، ألا ترى راكبي السفينة عند تلاطم الأمواج، كيف يجأرون إليه سبحانه اضطراراً لا اختياراً، فدل ذلك على أن العلم به مركز في النفس؛ قال سبحانه: "وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه".

ثم قال عليه السلام: من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، يعني أنه يعلم ما ظهر وما بطن، ثم قال: ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه أي هو مدبر الدنيا والآخرة، والحاكم فيهما، ثم انتقل عن الغيبة إلى الخطاب، فقال: لم ترك العيون.

الالتفات وهو من أبواب علم البيان أيضاً واعلم أن باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبير من أبواب علم البيان، وأكثر ما يقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلم بذلك المعنى المنتقل إليه، كقوله سبحانه: "الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين" فأخبر عن غائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال: "إياك نعبد وإياك نستعين" قالوا: لأن منزلة الحمد دون منزلة العبادة، فإنك تحمد نظيرك ولا تعبد، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة للحاضر يخاطب بالكاف؛ لأن كاف الخطاب أشد تصريحاً به سبحانه من الإخبار بلفظ الغيبة. قالوا: ولما انتهى إلى آخر السورة، قال: "صراط الذين أنعمت عليهم"، فأسند النعمة إلى مخاطب حاضر، وقال في الغضب: غير المغضوب عليهم، فأسنده إلى فاعل غير مسمى ولا معين، وهو أحسن من أن يكون قال: لم تغضب عليهم، وفي النعمة: الذين أنعم عليهم. ومن هذا الباب قوله تعالى: وقالوا أئخذ الرحمن ولداً" فأخبر بقالوا عن غائبين، ثم قال: "لقد جئتم شيئاً إدّاً"، فأتى بلفظ الخطاب استعظماً للأمر كالمنكر على قوم حاضرين عنده.

ومن الانتقال عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: "هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في لفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءهما ريح عاصف" الآية.

وفائدة ذلك أنه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخبار قوم آخرين بحالهم، كأنه يعدد على أولئك ذنوبهم ويشرح لهؤلاء بغيهم وعنادهم الحق، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا تعجبون من حالهم كيف دعونا، فلما رحمنهم، واستجبنا دعاءهم، عادوا إلى بغيهم! وهذه الفائدة لو كانت الآية كلها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة. قال عليه السلام: ما رأيتك العيون فتخبر عنك، كما يخبر الإنسان عما شاهده؛ بل أنت أزلي قدس موجود قبل الواصفين لك.

فإن قلت: فأبي منافاة بين هذين الأمرين، أليس من الممكن أن يكون سبحانه قبل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالأبصار إذا خلق خلقه، ثم يصفونه رأي عين! قلت: بل ههنا منافاة ظاهرة، وذلك لأنه إذا كان قديماً لم يكن جسماً ولا عرضاً، وما ليس بجسم ولا عرض تستحيل رؤيته، فيستحيل أن يخبر عنه على سبيل المشاهدة.

ثم ذكر علي السلام أنه لم يخلق الخلق لاستيحاشه وتفرد، ولا استعمالهم بالعبادة لنفسه؛ وقد تقدم شرح هذا.
ثم قال: لا تطلب أحداً فيسبقك، أي يفوتك، ولا يفلتك من أخذته.

فإن قلت: أي فائدة في قوله: ولا يفلتك من أخذته، لأن عدم الإفلات هو الأخذ، فكأنه قال: لا يفلتك من يفلتك! قلت: المراد أن من أخذت لا يستطيع أن يفلت، كما يستطيع المأخوذون مع ملوك الدنيا أن يفلتوا بحيلة من الحيل. فإن قلت: أفلت فعل لازم، فما باله عداه؟ قلت: تقدير الكلام: لا يفلت منك فحذف حرف الجر، كما قالوا: استجبتك أي استجبت لك، قال: فلم يستجبه عند ذاك مجيبو قالوا: استغفرت الله الذنوب، أي من الذنوب، وقال الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

قوله عليه السلام: ولا يرد أمرك من سخط قضاءك، ولا يستغني عنك من تولى عن أمرك، تحته سر عظيم، وهو قول أصحابنا في جواب قول المجبرة: لو وقع منا ما لا يريده لاقتضى ذلك نقصه: إنه لا نقص في ذلك، لأنه لا يريد الطاعات منا إرادة قهر وإلحاء، ولو أرادها إرادة قهر لوقعت وغلبت إرادته وإرادتنا، ولكنه تعالى أراد منا أن نفعل نحن الطاعة اختياراً، فلا يدل عدم وقوعها منا على نقصه وضعفه، كما لا يدل بالاتفاق بيننا وبينكم عدم وقوع ما أمر به على ضعفه ونقصه.

ثم قال عليه السلام: كل سر عندك علانية، أي لا يختلف الحال عليه في الإحاطة بالجهر والسر، لأنه عالم لذاته ونسبة ذاته إلى كل الأمور واحدة.

ثم قال: أنت الأبد فلا أمد لك، هذا كلام علوي شريف، لا يفهمه إلا الراسخون في العلم، وفيه سمة من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدهر، فإن الدهر هو الله"؛ وفي مناجاة الحكماء لمحّة منه أيضاً، وهو قولهم: أنت الأزل السرمد، وأنت الأبد الذي لا ينفد، بل قولهم: أنت الأبد الذي لا ينفد، هو قوله: أنت الأبد فلا أمد لك؛ بعينه، ونحن نشرحه ههنا على موضوع هذا الكتاب، فإنه كتاب أدب لا كتاب نظر، فنقول: إن له في العربية محملين: أحدهما أن المراد به: أنت ذو الأبد، كما قالوا: رجل حال، أي ذو حال؛ والخال الخيلاء، ورجل داء، أي به داء، ورجل مال، أي ذو مال، والمحمل الثاني، أنه لما كان الأزل والأبد لا ينفكان عن وجوده سبحانه جعله عليه السلام، كأنه أحد هما بعينه، كقولهم: أنت الطلاق؛ لما أراد المبالغة في البينونة جعلها كأنها الطلاق نفسه، ومثله قول الشاعر: فإن المندى رحلة فركوب وقال أبو الفتح في الدمشقيات استدل أبو علي على صرف منى للموضع المخصوص، بأنه مصدر منى يمين، قال: فقلت له: أستدل بهذا على أنه مذكر، لأن المصدر إلى التذكير! فقال: نعم، فقلت: فما تنكر ألا يكون فيه دلالة عليه، لأنه لا ينكر أن يكون مذكراً سمي به البقعة المؤنثة، فلا ينصرف، كامراً سميتها بحجر وجبل وشعب ومعى، فقال: إنما ذهبت إلى ذلك، لأنه جعل كأنه المصدر بعينه، لكثرة ما يعاني فيه ذلك. فقلت: الآن نعم. ومن هذا الباب قوله:

فإنما هي إقبال وإدبار

وقوله: وهن من الإخلاف قبلك والمطل.

وقوله: فلا منجى منك إلا إليك قد أخذه الفرزدق فقال لمعاوية:

ثم استعظم واستهول خلقه الذي يراه، وملكوته الذي يشاهده، واستصغر واستحققر ذلك، بالإضافة إلى قدرته تعالى، وإلى ما غاب عنا من سلطانه. ثم تعجب من سبوغ نعمه تعالى في الدنيا، واستصغر ذلك بالنسبة إلى نعم الآخرة، وهذا حق لأنه لا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي.

الأصل: منها: من ملائكة أسكنتهم سماواتك ورفعتهم عن أرضك، هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقربهم منك؛ لم يسكنوا الأصلاب، ولم يضمنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مهين، ولم يتشعبهم ريب المنون؛ وإنهم على مكائهم منك، ومزلتهم عندك؛ وأستجماع أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك؛ لحقروا أعمالهم، ولزروا على أنفسهم، ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك. سبحانه خالقاً ومعبوداً! بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً، وجعلت فيها مأدبة، مشرباً ومطعماً وأزواجاً، وخداماً وقصوراً، وأنهاراً وزروعاً وثماراً.

ثم أرسلت داعياً يدعو إليها، فلا الداعي أجابوا؛ ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلى ما شوقت إليه أشتاقوا. أقبلوا على جيفة قد أفتضحوا بأكلها، وأصطلحوا على حبها، ومن عشق شيئاً أعشى بصره، وأمراض قلبه؛ فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سمعية؛ قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولت عليها نفسه، فهو عبد لها، ولمن في يديه شيء منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها؛ لا يترجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ؛ وهو يرى المأخوذين على الغرة، حيث لا إقالة لهم ولا رجعة؛ كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون. فغير موصوف ما نزل بهم، اجتمعت عليهم سكرة الموت، وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم، وتغيرت لها ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقته؛ وإنه لبن أهله ينظر ببصره، ويسمع بأذنه على صحة من عقله، وبقاء من لبه، يفكر فيم أفنى عمره، وفيه أذهب دهره! ويتذكر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهناً لغيره، والعبء على ظهره، والمرء قد غلقت رهونه بها، فهو يعرض يده ندامة على ما أصح له عند الموت من أمره، ويذهب فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه، فلم يزل الموت يبالغ في جسده؛ حتى خالط سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه؛ ولا يسمع بسمعه، يردد طرفه بالنظر في وجوههم؛ يرى حركات ألسنتهم، ولا يسمع رجوع كلامهم، ثم ازداد الموت التباطؤ به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد أوحشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكيها، ولا يجيب داعياً؛ ثم حملوه إلى مخط في الأرض، فأسلموه فيه إلى عمله، وأنقطعوا عن زورته. حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريد من تجديد خلقه، أماد السماء وفطرها، وأرج الأرض وأرجفها، وقلع جبالها ونسفها، ودك بعضها بعضاً من هيبة جلالته، ومخوف سطوته،

وأخرج من فيها فجددهم بعد إخالقهم، وجمعهم بعد تفرقهم، ثم ميزهم لما يريده من مسألتهم عن خفايا الأعمال، وخبيا الأفعال وجعلهم فريقتين: أنعم على هؤلاء وأنتقم من هؤلاء. فأما أهل الطاعة فأنابهم بجواره، وخلدهم في داره، حيث لا يظعن التزل، ولا تتغير بهم الحال، ولا الأفزاع، ولا تنالهم الأسقام ولا تعرض لهم الأخطار، ولا تشخصهم الأسفار. وأما أهل المعصية، فأنزلهم شر دار، وغل الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سراويل القطران، ومقطعات النيران، في عذاب قد أشد حره، وباب قد أطبق على أهله، في نار لها كلب ولجب، ولهب ساطع، وقصيف هائل، لا يظعن مقيمها، ولا يفادى أسيرها، ولا تفصم كبولها، لا مدة للدار فتفى، ولا أجل للقوم فيقضى.

الشرح: هذا موضع المثل. في كل شجرة نار، واستمجد المرخ والعفار، الخطب الوعظية الحسان كثيرة؛ ولكن هذا حديث يأكل الأحاديث:

وماقصبات السبق إلالمعبد

محاسن أصناف المغنين جمة

من أراد أن يتعلم الفصاحة والبلاغة، ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض؛ فليتأمل هذه الخطبة؛ فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام - عدا كلام الله وسوله - نسبة الكواكب المنيرة الفلكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية؛ ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلالة والرواء، والديباجة، وما تحدثه من الروعة والرغبة، والمخافة والخشية؛ حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث والنشور لهدت قواه، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده؛ فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به ولياً من أوليائه! فما أبلغ نصرته له! تارةً بيده وسيفه، وتارةً بلسانه ونطقه، وتارةً بقلبه وفكره! إن قيل: جهاد وحرب فهو سيد المجاهدين والمحاربين، وإن قيل: وعظ وتذكير؛ فهو أبلغ الواعظين والمذكرين، وإن قيل: فقه وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين، وإن قيل: عدل وتوحيد، فهو إمام أهل العدل والموحدين:

أن يجمع العالم في واحد

ليس على الله بمستكر

ثم نعود إلى الشرح، فنقول: قوله عليه السلام: أسكنتهم سمواتك، لا يقتضي أن جميع الملائكة في السموات، فإنه قد ثبت أن الكرام الكاتبين في الأرض، وإنما لم يقتض ذلك؛ لأن قوله: من ملائكة ليس من صيغ العموم؛ فإنه نكرة في سياق الإثبات. وقد قيل أيضاً: إن ملائكة الأرض تعرج إلى السماء ومسكنها بها، ويتناوبون على أهل الأرض. قوله: هم أعلم خلقك بك، ليس يعني به أنهم يعلمون من ماهيته تعالى ما لا يعلمه البشر؛ أما على قول المتكلمين فلأن ذاته تعالى معلومة للبشر، والعلم لا يقبل الأشد والأضعف، وأما على قول الحكماء، فلأن ذاته تعالى غير معلومة للبشر ولا للملائكة؛ ويستحيل أن تكون معلومة لأحد منهم؛ فلم يبق وجه يحمل عليه قوله علي السلام: هم أعلم خلقك بك إلا أنهم يعلمون من تفاصيل مخلوقاته وتدابيره ما لا يعلمه غيرهم؛ كما يقال: وزير الملك أعلم بالملك من الرعية، ليس المراد أنه أعلم بذاته وماهيته، بل بأفعاله وتدابيره ومراده وغرضه.

قوله: وأخوفهم لك؛ لأن قوتي الشهوة والغضب مرفوعتان عنهم، وهما منبع الشر، وبهما يقع الطمع والإقدام على المعاصي. وأيضاً فإن منهم من يشاهد الجنة والنار عياناً، فيكون أخوف لأنه ليس الخير كالعيان.

قوله: وأقربهم منك لا يريد القرب المكاني لأنه تعالى مآثره عن المكان والجهة؛ بل المراد كثرة الثواب وزيادة التعظيم والتبجيل؛ وهذا يدل على صحة مذهب أصحابنا في أن الملائكة أفضل من الأنبياء.

ثم نبه على مزية لهم تقتضي أفضلية جنسهم على جنس البشر؛ بمعنى الأشرفية، لا بمعنى زيادة الثواب وهو قوله لم يسكنوا الأصلاب، ولم يضمّنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مهين، ولم يتشعبهم ريب المنون؛ وهذه خصائص أربع: فالأولى أنهم لم يسكنوا الأصلاب، والبشر سكنوا الأصلاب، ولا شبهة أن ما ارتفع عن مخالطة الصورة اللحمية والدموية أشرف مما خالطها ومازجها.

والثانية أنهم لم يصفنوا الأرحام، ولا شبهة أن من لم يخرج من ذلك الموضع المستقذر أشرف ممن خرج منه؛ وكان أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد كامكاو بن يزد جرد بن شهريار؛ يفخر على أبناء الملوك بأنه لم يخرج من بضع امرأة، لأن أمه ماتت وهي حامل به، فشق بطنها عنه وأخرج؛ قال أبو الريحان البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية عن هذا الرجل: إنه كان يتيه على الناس، وإذا شتم أحداً، قال: ابن البضع؛ قال أبو الريحان: وأول من اتفق له ذلك الملك المعروف بأغسطس ملك الروم، وهو أول من سمي فيهم قيصر، لأن تفسير قيصر بلغتهم، شق عنه، وأيامه تاريخ، كما أن أيام الإسكندر تاريخ لعظمه وجلالته عندهم.

والثالثة أنهم لم يخلقوا من ماء مهين، وقد نص القرآن العزيز على أنه مهين؛ وكفى ذلك في تحقيره وضعته؛ فهم لا محالة أشرف ممن خلق منه؛ لا سيما وقد ذهب كثير من العلماء إلى نجاسته. والرابعة أنهم لا يتشعبهم المنية، ولا ريب أن من لا تتطرق إليه الأسقام والأمراض ولا يموت، أشرف ممن هو في كل ساعة ولحظة معرض سقام، وبصدد موت وحمام.

واعلم أن مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء لها صورتان: إحداهما أن أفضل بمعنى كونهم أكثر ثواباً، والأخرى كونهم أفضل بمعنى أشرف؛ كما تقول: إن الفلك أفضل من الأرض، أي أن الجوهر الذي منه جسمية الفلك أشرف من الجوهر الذي منه جسمية الأرض.

وهذه المزايا الأربع دالة على تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار الثاني.

قوله علي السلام: يتشعبهم ريب المنون، أي يتقسمهم، والشعب: التفريق، ومنه قيل للمنية: شعوب، لأنها تفرق الجماعات، وريب المنون: حوادث الدهر، وأصل الريب ما راب الإنسان، أي جاءه بما يكره، والمنون الدهر نفسه، والمنون أيضاً المنية، لأنها تمن المدة أي تقطعها، والمن: القطع، ومنه قوله تعالى: "لهم أجر غير ممنون". وقال لبيد: عبس كواسب لا يمن طعامها.

ثم ذكر أنهم على كثرة عبادتهم وإخلاصهم لو عاينوا كنه ما خفي عليهم من الباري تعالى لحقروا أعمالهم. وزروا على أنفسهم، أي عابوها: تقول زريت على فلان، أي عبته وأزريت بفلان أي قصرت به.

فإن قلت: ما هذا الكنه الذي خفي عن الملائكة؟ حتى قال: لو عاينوه لحقروا عبادتهم، ولعلموا أنهم قد قصروا فيها؟ قلت: إن علوم الملائكة بالبارى تعالى نظرية كعلوم البشر، والعلوم النظرية دون العلوم الضرورية في الجلاء والوضوح، فأمير المؤمنين عليه السلام يقول: لو كانت علومهم بك وبصفاتك الإثباتية والسلبية والإضافية ضرورية، عوض علومهم هذه المتحققة الآن؛ التي هي نظرية لانكشف لهم ما ليس الآن على حد ذلك الكشف والوضوح. ولا شبهة أن العبادة والخدمة على قدر المعرفة بالمعبود، فكلمة كان العابد به أعرف، كانت عبادته له أعظم، ولا شبهة أن العظيم عند الأعظم حقير. فإن قلت: فما معنى قوله: واستجماع أهوائهم فيك، وهل للملائكة هوى؟ وهل تستعمل الأهواء إلا في الباطل؟ قلت: الهوى: الحب وميل النفس، وقد يكون في باطل وحق، وإنما يحمل على أحدهما بالقرينة، والأهواء تستعمل فيهما، ومعنى استجماع أهوائهم فيه: أن دواعيهم إلى طاعته وخدمته لا تنازعها الصوارف، وكانت مجتمعة مائلة إلى شق واحد. فإن قلت: الباء في قوله: بحسن بلائك بماذا تتعلق؟ قلت: الباء ههنا للتعليل بمعنى اللام، كقوله تعالى: "ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم"، أي لأنهم، فتكون متعلقة بما في سبحانك من معنى الفعل، أي أسبحك لحسن بلائك. ويجوز أن تتعلق بمعبود، أي يعبد لذلك.

ثم قال: خلقت داراً يعني الجنة. والمأدبة والمأدبة، بفتح الدال وضمها: الطعام الذي يدعى الإنسان إليه، أدب زيد القوم، يأدبهم بالكسر، أي دعاهم إلى طعامه، والآدب الداعي إلى طعامه، قال طرفة:

لا ترى الآدب فينا ينتقر

نحن في المشتاة ندعو الجفلى

وفي هذا الكلام دلالة على أن الجنة الآن مخلوقة، وهو مذهب أكثر أصحابنا. ومعنى قوله: وزروعاً أي وغروساً من الشجر، يقال: زرعت الشجر، كما يقال: زرعت البر والشعير، ويجوز أن يقال: الزروع: جمع زرع وهو الإنبات، يقال: زرعه الله أي أنبته، ومنه قوله تعالى: "أفأنتم ما تحرثون أ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون". ولو قال قائل: إن في الجنة زروعاً من البروالقطنية لم يبعد. قوله: ثم أرسلت داعياً يعني الأنبياء. وأقبلوا على حيفة، يعني الدنيا، ومن كلام الحسن رضي الله عنه: إنما يتهارشون على حيفة.

وإلى قوله: ومن عشق شيئاً أعشى بصره نظر الشاعر فقال:

كما أن عين السخط تبدي المساويا

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

وقيل لحكيم: ما بال الناس لا يرون عيب أنفسهم، كما يرون عيب غيرهم؟ قال: إن الإنسان عاشق لنفسه، والعاشق لا يرى عيوب المعشوق.

قد خرقت الشهوات عقله، أي أفسدته كما تحرق الثوب فيفسد.

وإلى قوله: فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها نظر ابن دريد، فقال:

من ماله في نغبة تشفي الصدا

عبيد ذي المالواين لم يطعموا

شاركهم فيما أفاد وحوى

وهم لمن ألق أعداء وإن

والى قوله: حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها نظر الشاعر، فقال:

فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها

يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

يعظمون أخوا الدنيا فإن وثبت

والغرة: الاغترار والغفلة؛ والغار: الغافل، وقد اغتررت بالرجل، واغتره زيد، أي أتاه على غرة منه، ويجوز أن يعني بقوله: المأخوذين على الغرة الحداثة والشبيبة، يقول: كان ذلك في غرارتيوغرتي، أي في حداثتي وصباي. قوله: سكرة الموت وحسرة الفوت، أي الحسرة على ما فاتكم من الدنيا ولذتها، والحسرة على ما فاتكم من التوبة والندم واستدراك فارط المعاصي، والولوج: الدخول، ولج يلج.

قوله: وبقاء من لبه أي لبه باق لم يعدم، ويروى ونقاء بالنون، والنقاء: النظافة، أي لبه غير مغمور. أغمض في مطالبها، أي تساهل في دينه في اكتسابه إياها، أي كان يفتي نفسه بتأويلات ضعيفة في استحلال تلك المطالب والمكاسب، فذاك هو الإغماض، قال تعالى: "ولستم بأخذه إلا أن تنمضوا فيه"، ويمكن أن يحمل على وجه آخر، وهو أنه قد كان يحتال بحيل غامضة دقيقة في تلك المطالب حتى حصلها واكتسبها. قوله علي السلام: وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، أي من وجوه مباحة وذوات شبهة، وهذا يؤكد المحمل الأول في أغمض، والتبعات: الأثام، الواحدة تبعة ومثلها التباعة، قال:

سوء العواقب والتباعة

لم يحذروا من ربهم

والمهناً: المصدر من هنىء الطعام وهنؤ بالكسر والضم، مثل فقه وفقه، فإن كسرت قلت: يهنأ، وإن ضمنت قلت: يهنؤ، والمصدر هناة ومهناً، أي صار هنيئاً، وهنأني الطعام يهنؤني ويهنئي - ولا نظير له في المهموز - هنأوهناء، وهنتت الطعام، أي تهنأت به، ومنه قوله تعالى: "فكلوه هنيئاً مريئاً". والعبة: الحمل، والجمع أعباء، وغلق الرهن، أي استحققه المرتهن، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت المشروط، قال زهير:

يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا

وفارقتك برهن لا فكاك له

فإن قلت: فما معنى قوله عليه السلام: قد غلقت رهونه بما في هذا الموضع؟ قلت: لما كان قد شارف الرحيل وأشفى على الفراق، وصارت تلك الأموال التي جمعها مستحقة لغيره، ولم يبق له فيها تصرف، أشبهت الرهن الذي غلق على صاحبه، فخرج عن كونه مستحقاً له، وصار مستحقاً لغيره وهو المرتهن.

و أصحر: انكشف؛ وأصله الخروج إلى الصحراء والبروز من المكن.

رجع كلامهم: ما يترجعونه بينهم من الكلام. ازداد الموت التباطؤ به؛ أي التصاقاً.

قد أوحشوا، أي جعلوا مستوحشين، والمستوحش: المهموم الفزع؛ ويروى أوحشوا من جانبه، أي خلوا منه وأقفروا، تقول: قد أوحش المنزل من أهله، أي أقفر.

وخلا إلى مخط في الأرض، أي إلى خط، سماه مخطاً أو خطاً لدقته؛ يعني اللحد.

ويروى: إلى محط بالحاء المهملة؛ وهو المنزل، وحط القوم، أي نزلوا.

وألحق آخر الخلق بأوله؛ أي تساوى الكل في شمول الموت والفناء لهم، فالتحق الآخر بالأول.

أماد السماء: حركها، ويروى: أمار؛ والموران: الحركة. وفطرها: شقها. وأرج الأرض: زلزلها، تقول: رجت الأرض، وأرجها الله، ويجوز رجها، وقد روي رج الأرض بغير همزة؛ وهو الأصح، وعليه ورد القرآن: "كلا إذا رجت الأرض رجاً".

أرجفها: جعلها راجفة أي مرتعدة متزلزلة، رجفت الأرض، ترجف، والرجفان: الاضطراب الشديد؛ وسمي البحر رجافاً لاضطرابه، قال الشاعر: حتى تغيب الشمس في الرجاف ونسفها: قلعها من أصولها. ودك بعضها بعضاً: صدمه ودقه حتى يكسره ويسويه بالأرض، ومنه قوله سبحانه: "وحملت الأرض والجبال فدكتا دكةً واحدةً".

ميزهم، أي فصل بينهم، فجعلهم فريقين: سعداء وأشقياء، ومنه قوله تعالى: "و أمتازوا اليوم أيها المجرمون"، أي انفصلوا من أهل الطاعة.

يظعن: يرحل. تنويهم الأفراع: تعاودهم، وتعرض لهم الأخطار: جمع خطر، وهو ما يشرف به على الهلكة. و تشخصهم الأسفار: تخرجهم من منزل إلى منزل، شخص الرجل وأشخصه غيره. وغل الأيدي: جعلها في الأغلال، جمع غل بالضم؛ وهو الميد. والقطران: الهناء، قطرت البعير أي طليته بالقطران، قال: كما قطر المهنوءة الرجل الطالي وبعير مقطور؛ وهذا من الألفاظ القرآنية، قال تعالى: "سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار"؛ والمعنى أن النار إلى القطران سريعة جداً.

ومقطعات النيران، أي ثياب من النيران، قد قطعت وفصلت لهم؛ وقيل: المقطعات: قصار الثياب. والكلب: الشدة.

والجلبواللجب: الصوت. والقصيف: الصوت الشديد.

لا يقصم كبولها: لا يكسر قيودها، الواحد كبل.

ثم ذكر أن عذابهم سرمدي، وأنه لا نهايه له، نعوذ بالله من عذاب ساعة واحدة، فكيف من العذاب الأبدي! الفرق بين كلام الإمام علي عليه السلام وخطب ابن نباتة ونحن نذكر في هذا الموضع فصولاً من خطب الفاضل عبد الرحيم بن نباتة رحمه الله؛ وهو الفائز بقصبات السبق من الخطباء؛ وللناس غرام عظيم بخطبه وكلامه؛ ليتأمل الناظر كلام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبه ومواعظه؛ وكلام هذا الخطيب المتأخر الذي قد وقع الإجماع على خطابته وحسنها، وأن مواعظه هي الغاية التي ليس بعدها غاية. من ذلك قوله: أيها الناس؛ تجهزوا فقد ضرب فيكم بوق الرحيل، وبرزوا فقد قربت لكم نوق التحويل، ودعوا التمسك بخدع الأباطيل، والركون إلى التسوييف والتعليل؛ فقد سمعتم ما كرر الله عليكم من قصص أبناء القرى، وما وعظكم به من مصارع من سلف من الورى، مما لا يعترض لذوي البصائر فيه شك ولا مرا؛ وأنتم معرضون عنه إعراضكم عما يحتلوقيفترى؛ حتى كأن ما تعلمون منه أضغاث أحلام الكرى، وأيدي المنايا قد فصمت من أعماركم أوثق العرا، وهجمت بكم على هول مطلع كرية القرى؛ فالقهقرى رحمكم الله عن حبات العطب القهقرى! واقطعوا مفاوز الهلكات بمواصلة السرى، وقفوا على أحداث المتزلين من شناسيب الذرا، المنجلين بوازع أم

حبوكرى، المشغولين بما عليهم من الموت جرى، واكشفوا عن الوجوه المنعمة أطباق الثرى، تجددوا ما بقي منها عبرة لمن يرى. فرحم الله امرأً رحم نفسه فبكاهها، وجعل منها إليها مشتكاها! قبل أن تعلق به خطاطيف المنون، وتصدق فيه أراجيف الظنون، وتشرق عليه بمائها مقل العيون؛ ويلحق بمن دثر من القرون، قبل أن يبدو على المناكب محمولاً، ويغدو إلى محل المصائب منقولاً، ويكون عن الواجب مسؤولاً، وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولاً. هناك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، وتقطع الأسباب، وتذهب الأحساب، ويمنع الإعتاب، ويجمع من حق عليه العقاب، ومن وجب له الثواب، فيضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

فلينظر المنصف هذا الكلام وما عليه من أثر التوليد؛ أولاً بالنسبة إلى ذلك الكلام العربي المحض، ثم لينظر فيما عليه من الكسل والرخاوة، والفتور والبلادة، حتى كأن ذلك الكلام لعامر بن الطفيل مستلماً شكته، راكباً جواده، وهذا الكلام للدلال المديني المخنث، آخذاً زمارته، متأبطاً دفة.

والمح ما في بوق الرحيل من السفسفة واللفظ العامي الغث. واعلم أنهم كلهم عابوا على أبي الطيب قوله:

ففي الناس بوقات لها وطبول

فإن كان بعض الناس سيفاً لدولة

وقالوا: لا تدخل لفظة بوق في كلام يفلح أبداً.

والمح ما على قوله: القهقرى القهقرى متكررة من المهجنة، وأهجن منها أم حبوكرى. وأين هذا اللفظ الحوشي الذي تفوح منه روائح الشيخ والقيصوم؛ وكأنه من أعرابي قح قد قدم من نجد لا يفهم محاورة أهل الحضر، ولا أهل الحضر يفهمون حوارته؛ من هذه الخطبة اللينة الألفاظ التي تكاد أن تتثنى من لينها، وتتساقط من ضعفها! ثم المح هذه الفقر والسجعات، التي أولها القرى ثم المرا ثم يفتري ثم الكرى إلى قوله: عبرة لمن يرى هل ترى تحت هذا الكلام معنى لطيفاً، أو مقصداً رشيقاً! أو هل تجد اللفظ نفسه لفظاً جزلاً فصيحاً، أو عذباً معسولاً! وإنما هي ألفاظ قد ضم بعضها إلى بعض، والطائل تحتها قليل جداً. وتأمل لفظة مرا فإنها ممدودة في اللغة، فإن كان قصرها فقد ركب ضرورة مستهجنة، وإن أراد جمع مرية فقد خرج عن الصناعة، لأنه يكون قد عطف الجمع على المفرد، فيصير مثل قول القائل: ما أخذت منه ديناراً ولا دراهم، في أنه ليس بالمستحسن في فن البيان.

ومن ذلك قوله: أيها الناس، حصص الحق، فما من الحق مناص، واشخص الخلق؛ فما لأحد من الخلق خلاص، وأنتم على ما يباعدكم من الله حراص، ولكم على موارد الهلكة اغتصاص؛ وفيكم عن مقاصد البركة انتكاص؛ كأن ليس أمامكم جزاء ولا قصاص، ولجوارح الموت في وحش نفوسكم اقتناص؛ ليس بها عليها تأب ولا اعتياص. فليتأمل أهل المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلام بعين الإنصاف، يعلموا أن سطرّاً واحداً من كلام نهج البلاغة يساوي ألف سطر منه، بل يزيد ويربي على ذلك؛ فإن هذا الكلام ملزق عليه آثار كلفة وهجنة ظاهرة، يعرفها العامي فضلاً عن العالم.

ومن هذه الخطبة: فاهجروا رحمكم الله وثير المراقد، وادخروا طيب المكتسب تخلصوا من انتقاد الناقد، واغتنموا فسحة

المهل قبل انسداد المقاصد، واقتحموا سبل الآخرة على قلة المرافق والمساعد.

فهل يجد متصفح الكلام لهذا الفصل عذوبة، أو معنى يمدح الكلام لأجله؟ وهل هو إلا ألفاظ مضموم بعضها إلى بعض، ليس لها حاصل؛ كما قيل في شعر ذي الرمة: بعر ظباء ونقط عروس ومن ذلك قوله: فيا له من واقع في كرب الحشارج، مصارع لسكرات الموت معالج! حتى درج على تلك المدارج، وقدم بصحيفته على ذي المعارج. وغير خاف ما في هذا الكلام من التكلف.

ومن ذلك قوله: فكأنهم بمنادي الرحيل قد نادى في أهل الإقامة، فاقتحموا بالصغار محجة القيامة، يتلو الأوائل منهم الأواخر، ويتبع الأكابر منهم الأصاغر، ويلتحق الغوامر من ديارهم بالغوامر، حتى تتلحج جميعهم الحفر والمقابر. فإن هذا الكلام ركيك جداً، لو قاله خطيب من خطباء قرى السواد لم يستحسن منه؛ بل ترك واسترذل. ولعل عائباً يعيب علينا فيقول: شرعتم في المقايسة والموازنة بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وبين كلام ابن نباتة؛ وهل هذا إلا بمثالة قول من يقول: السيف أمضى من العصا؛ وفي هذه غضاضة على السيف! فنقول: إنه قد اشتملت كتب المتكلمين على المقايسة بين كلام الله تعالى وبين كلام البشر، ليبينوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب؛ نحو مقايستهم بين قوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة" وبين قول القائل: القتل أنفى للقتل ونحو مقايستهم بين قول الله تعالى: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" وبين قول الشاعر:

فإن عرضوا بالشعر فاصفح تكرما وإن كنتموا عنك الحديث فلا تسل

ونحو إيرادهم كلام مسيلمة، وأحمد بن سليمان المعري، وعبد الله بن المقفع، فصلاً فصلاً، والموازنة والمقايسة بين ذلك وبين القرآن المجيد، وإيضاح أنه لا يبلغ ذلك إلى درجة القرآن العزيز، ولا يقار بها، فليس بمستنكر منا أن نذكر كلام ابن نباتة في معرض إيرادنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتظهر فضيلة كلامه عليه السلام، بالنسبة إلى هذا الخطيب الفاضل، الذي قد اتفق الناس على أنه أوحده عصره في فنه.

واعلم أنا لا ننكر فضل ابن نباتة وحسن أكثر خطبه، ولكن قوماً من أهل العصبية والعناد، يزعمون أن كلامه يساوي كلام أمير المؤمنين عليه السلام وبماثله، وقد ناظر بعضهم في ذلك، فأحببت أن أبين للناس في هذا الكتاب أنه لا نسبة لكلامه إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وأنه بمثالة شعر الأبله وابن المعلم بالإضافة إلى زهير والنابعة. واعلم أن معرفة الفصيح والأفصح، والرشيح والأرشق والحلو، والعالي والأعلى من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق؛ ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه؛ وهو بمثالة جاريتين: إحداهما بيضاء مشربة حمرة دقيقة الشفتين، نقية الثغر، كحلاء العينين، أسيلة الخد، دقيقة الأنف، معتدلة القامة، والأخرى دونها في هذه الصفات والحاسن؛ لكنها أحلى في العيون والقلوب منها، وأليق وأصلح، ولا يدري لأي سبب كان ذلك، ولكنه بالذوق والمشاهدة يعرف، ولا يمكن تعليله، وهكذا الكلام؛ نعم يبقى الفرق بين الموضعين، أن حسن الوجه هو ملاحظتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كل من له عين صحيحة، وأما الكلام فلا يعرفه إلا أهل الذوق، وليس كل من اشتغل بالنحو واللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق ومن يصلح لانتقاد الكلام؛ وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة

والشعر، وصارت لهم بذلك دربة ومملكة تامة، فإلى أولئك ينبغي أن ترجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض، إن كنت عادماً لذلك من نفسك.

الأصل: منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: قد حقر الدنيا وصغرها، وأهون بها وهونها، وعلم أن الله زواها عنه اختياراً، وبسطها لغيره أحتقاراً، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه؛ لكيلا يتخذ منها ريشاً، أو يرجو فيها مقاماً. بلغ عن ربه معذراً، ونصح لأئمة مندرراً، ودعا إلى الجنة مبشراً، وخوف من النار محذراً.

الشرح: فعل: مشدد، للتكثير، قتلت أكثر من قتلت؛ فيقتضي قوله عليه السلام: قد حقر الدنيا زيادة تحقير النبي صلى الله عليه وسلم لها، وذلك أبلغ في الثناء عليه وتقريضه.

قوله: وصغرها، أي وصغرها عند غيره، ليكون قوله: وأهون بها وهونها مطابقاً له، أي أهون هو بها وهونها عند غيره. وزواها: قبضها، قال عليه الصلاة والسلام: "زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها".

وقوله: اختياراً، أي قبض الدنيا عنه باختيار ورضا من النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وعلم بما فيه من رفعة قدره، ومترلته في الآخرة.

والرياش والريش بمعنى، وهو اللباس الفاخر كالحرير والحرام واللبس واللباس، وقرئ: "وريشاً ولباس التقوى ذلك خير" ويقال: الريش والرياش: المال والخصب والمعاش، وارتاش فلان: حسنت حاله. ومعذراً، أي مبالغاً، أعذر فلان في الأمر، أي بالغ فيه.

الأصل: نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينايع الحكم؛ ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة.

الشرح: هذا الكلام غير ملتصق بالأول كل الالتصاق، وهو من النمط الذي ذكرناه مراراً؛ لأن الرضي رحمه الله يقتضب فصلاً من خطبة طويلة، فيوردها إيراداً واحداً، وبعضها منقطع عن البعض.

قوله عليه السلام: نحن شجرة النبوة، كأنه جعل النبوة كثمرة أخرجتها شجرة بني هاشم. ومحط الرسالة: مترلها. ومختلف الملائكة: موضع اختلافها في صعودها ونزولها، وإلى هذا المعنى نظر بعض الطالبيين فقال: يفتخر على بني عم له ليسوا بفاطميين:

أم كان جبريل عليه ينزل

بالوحي: قم يا أيها المزمّل

ضجيعان بين يدي جبرئيل

هل كان يفتقد البراق أبوكم

أم هل يقول له الإله مشافهاً

وقال آخر يمدح قوما فاطميين:

ويطرقه الوحي وهنا وأنتم

يعني حسناً عليه السلام وحسيناً عليه السلام.

واعلم أنه إن أراد بقوله: نحن مختلف الملائكة جماعة من حملتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ريب في صحة القضية وصدقها، وإن أراد بما نفسه وابنيه فهي أيضاً صحيحة؛ ولكن مدلوله مستنبط، فقد جاء في الأخبار الصحيحة، أنه قال: يا جبريل، إنه مني وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكما. وروى أبو أيوب الأنصاري مرفوعاً: لقد صلت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين لم تصل على ثالث لنا؛ وذلك قبل أن يظهر أمر الإسلام ويتسامع الناس به.

وفي خطبة الحسن بن علي عليه السلام لما قبض أبوه: لقد فارقكم في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون، كان يبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره. وجاء في الحديث أنه سمع يوم أحد صوت من الهواء من جهة السماء، يقول: لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا صوت جبريل.

فأما قوله: ومعادن العلم، وينابيع الحكم يعني الحكمة أو الحكم الشرعي، فإنه وإن عني بها نفسه وذريته، فإن الأمر فيها ظاهر جداً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب"، وقال: "أقضاكم علي" والقضاء أمر يستلزم علوماً كثيرة.

وجاء في الخبر أنه بعثه إلى اليمن قاضياً، فقال: يا رسول الله، إنهم كهول وذوو أسنان، وأنا فتى، وربما لم أصب فيما أحكم به بينهم، فقال الله: إذهب فإن الله سيثبت قلبك ويهدي لسانك.

وجاء في تفسير قوله تعالى: "وتعيها اذن واعية": سألت الله أن يجعلها أذنك ففعل. وجاء في تفسير قوله تعالى: "ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله" أنها أنزلت في علي عليه السلام وما خص به من العلم. وجاء في تفسير قوله تعالى: "أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه": أن الشاهد علي عليه السلام.

وروى المحدثون أنه قال لفاطمة: زوجتك أقدمهم سلماً، وأعظمهم حملاً، وأعلمهم علماً. وروى المحدثون أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه، وموسى في علمه، وعيسى في ورعه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب". وبالجملة فحاله في العلم حال رفيعة جداً لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه. وحق له أن يصف نفسه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم، فلا أحد أحق بما منه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن قلت: كيف قال: عدونا ومبغضنا ينتظر السطوة، ونحن نشاهد أعداءه ومبغضيه، لا ينتظرونها قلت: لما كانت منتظرة لهم ومعلومات بيقين حلولها بهم، صاروا كالمنتظرين لها. وأيضاً فإنهم ينتظرون الموت لا محالة الذي كل إنسان ينتظره؛ ولما كان الموت مقدمة العقاب وطريقاً إليه جعل انتظاره انتظار ما يكون بعده.

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها فرائض الإسلام الأصل: إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله، فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص، فإنها الفطرة، وإقام الصلاة فإنها الملة، وإيتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة. وصوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب، وحج البيت واعتماره، فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب، وصلة الرحم فإنها مثرة في المال ومنسأة في الأجل، وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنها تدفع ميتة

السوء، وصنائع المعروف فإنها تقي مصارع الهوان.

أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر وأرغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد؛ واقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى، وأستنوا بسنته فإنها أهدى السنن، وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، وأستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص. وإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله؛ بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم؛ وهو عند الله أَلوم.

الشرح: ذكر عليه السلام ثمانية أشياء، كل منها واجب.

أولها: الإيمان بالله وبرسوله، ويعني بالإيمان ههنا مجرد التصديق بالقلب، مع قطع النظر عما عدا ذلك من التلفظ بالشهادة ومن الأعمال الواجبة، وترك القبائح. وقد ذهب إلى أن ماهية الإيمان هو مجرد التصديق القلبي جماعة من المتكلمين وهو وإن لم يكن مذهب أصحابنا، فإن لهم أن يقولوا: إن أمير المؤمنين رضي الله عنه جاء بهذا اللفظ على أصل الوضع اللغوي لأن الإيمان في أصل اللغة هو التصديق، قال سبحانه وتعالى: "وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين"، أي لست بمصدق لنا، لا إن كنا صادقين، ولا إن كنا كاذبين. وبجئته رضي الله عنه على أصل الوضع اللغوي لا يبطل مذهبنا في مسمى الإيمان لأننا نذهب إلى أن الشرع استجد لهذه اللفظة مسمى ثانياً، كما نذهب إليه في الصلاة والزكاة وغيرهما، فلا منافاة إذاً بين مذهبنا وبين ما أطلقه رضي الله عنه.

وثانيها: الجهاد في سبيل الله، وإنما قدمه على التلفظ بكلمتي الشهادة لأنه من باب دفع الضرر عن النفس، ودفع الضرر عن النفس مقدم على سائر الأعمال المتعلقة بالجوارح، والتلفظ بكلمتي الشهادة من أعمال الجوارح، وإنما أخره عن الإيمان، لأن الإيمان من أفعال القلوب فهو خارج عما يتقدم عليه، ودفع الضرر من الأفعال المختصة بالجوارح، وأيضاً فإن الإيمان أصل الجهاد، لأنه ما لم يعلم الإنسان على ماذا يجاهد لا يجاهد، وإنما جعله ذروة الإسلام، أي أعلاه، لأنه ما لم تحصن دار الإسلام بالجهاد لا يتمكن المسلمون من القيام بوظائف الإسلام فكان إذا من الإسلام بمثقلة الرأس من البدن. وثالثها: كلمة الإخلاص يعني شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، قال: فإنها الفطرة، يعني هي التي فطر الناس عليها والأصل الكلمة الأولى لأنها التوحيد، وعليها فطر البشر كلهم، والكلمة الثانية تبع لها فأجريت مجراها، وإنما أخرت هذه الخصلة عن الجهاد، لأن الجهاد كان هو السبب في إظهار الناس لها ونطقهم بها فصار كالأصل بالنسبة إليها. ورابعها: إقام الصلاة أي إدامتها، والأصل أقام إقاماً، فحذفوا عين الفعل، وتارة يعوضون عن العين المفتوحة هاء، فيقولون: إقامة، قال: فإنها الملة، وهذا مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الصلاة عماد الدين، فمن تركها فقد هدم الدين".

وخامسها: إيتاء الزكاة، وإنما أخرها عن الصلاة لأن الصلاة أكد افتراضاً منها وإنما قال في الزكاة فإنها فريضة واجبة، لأن الفريضة لفظ يطلق على الجزء المعين المقدر في السائمة، باعتبار غير الاعتبار الذي يطلق به على صلاة الظهر لفظ الفريضة والاعتبار الأول من القطع، والثاني من الوجوب، وقال: فإنها فريضة واجبة مثل أن يقول: فإنها مقتطع من المال موصوف بالوجوب.

وسادسها: صوم شهر رمضان وهو أضعف وجوباً من الزكاة، وجعله جنة من العقاب، أي ستره.
وسابعها: الحج والعمرة، وهما دون فريضة الصوم، وقال: لهما ينفيان الفقر، ويرحضان الذنب، أي يغسلانه رحضت
الثوب، وثوب رحيض. وهذا الكلام يدل على وجوب العمرة وقد ذهب إليه كثير من الفقهاء العلماء.
وثامنها: صلة الرحم وهي واجبة، وقطيعة الرحم محرمة، قال: فإنها مشرة في المال، أي تثرية وتكثره.
ومنسأة في الأجل، أي تنسؤه وتؤخره، ويقال: نسأ الله في أجلك. ويجوز أنسأه بالهمزة.
فإن قلت: فما الحجة على تقديم وجوب الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج؟ قلت: أما الصلاة، فلأن تاركها يقتل،
وإن لم يحدد وجوبها، وغيرها ليس كذلك وإنما قدمت الزكاة على الصوم لأن الله تعالى قرنهما بالصلاة في كثير من
الكتاب العزيز. ولم يذكر صوم شهر رمضان إلا في موضع واحد، وكثرة تأكيد الشيء وذكره دليل على أنه أهم، وإنما
قدم الصوم على الحج، لأنه يتكرر وجوبه، والحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة، فدل على أنه أهم عند الشارع من
الحج.

ثم قال رضي الله عنه: وصدقة السر، فخرج من الواجبات إلى النوافل. قال: فإنها تكفر الخطيئة، والتكفير هو إسقاط
عقاب مستحق بثواب أزيد منه أو توبة وأصله في اللغة الستر والتغطية، ومنه الكافر لأنه يغطي الحق، وسمي البحر كافراً
لتغطيته ما تحته، وسمي الفلاح كافراً لأنه يغطي الحب في الأرض المحروثة.
ثم قال: وصدقة العلانية، فإنها تدفع ميتة السوء كالغرق والمهدم وغيرها.
قال: وصنائع المعروف، فإنها تقي مصارع الهوان، كأسر الروم للمسلم، أو كأخذ الظلمة لغير المستحق للأخذ.
ثم شرع في وصايا آخر عددها. والمهدي: السيرة، وفي الحديث: واهدوا هدي عمار، يقال: هدي فلان هدي فلان، أي
سار سيرته.

وسمي القرآن حديثاً اتباعاً لقول الله تعالى: "نزل أحسن الحديث كتاباً فتشابهاً" واستدل أصحابنا بالآية على أنه محدث،
لأنه لا فرق بين حديث ومحدث في اللغة. فإن قالوا: إنما أراد أحسن الكلام، قلنا: لعمرى إنه كذلك، ولكنه لا يطلق على
الكلام القديم لفظة حديث لأنه إنما سمي الكلام والمخاطبة حديثاً لأنه أمر يتجدد حالاً فحالاً، والقديم ليس
كذلك.

ثم قال: تفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب من هذا أخذ ابن عباس قوله: إذا قرأت الآختم، وقعت في روضات دمثات، ثم قال:
فإنه شفاء الصدور، وهذا من الألفاظ القرآنية .

ثم سماه قصصاً، اتباعاً لما ورد في القرآن من قوله: "نحن نقص عليك أحسن القصص"، ثم ذكر أن العالم الذي لا يعمل
بعلمه كالجاهل الخائر الذي لا يستفيق من جهله.

ثم قال: بل الحجة عليه أعظم، لأنه يعلم الحق ولا يعمل به، فالحجة عليه أعظم من الحجة على الجاهل، وإن كانا جميعاً
محجوجين، أما أحدهما فبعلمه، وأما الآخر فبتمكنه من أن يعلم.

ثم قال: والحسرة له ألزم، لأنه عند الموت يتأسف ألا يكون عمل بما علم، والجاهل لا يأسف ذلك الأسف، ثم قال: وهو
عند الله ألوم، أي أحق أن يلام، لأن المتمكن عالم بالقوة، وهذا عالم بالفعل، فاستحقاقه اللوم والعقاب أشد.

ومن خطبة له في وصف الدنيا

الأصل: أما بعد، فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور. لا تدوم حيرتها، ولا تؤمن فجعتها. غرارة ضرارة، حائلة زائلة، نافذة بائدة، أكالة غوالة، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضاء بما أن تكون كما قال الله تعالى: "كساء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا".

لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً ولم تطله فيها ديمة رخاء، إلا هتنت عليه مزنة بلاء.

وحري إذا أصبحت له منتصرة، أن تمسي له متكررة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمر منها جانب فأوى لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً، إلا أرهقته من نوائبها تعباً، ولا يمسي منها في جناح أمن، إلا أصبح على قوادم خوف. غرارة، غرور ما فيها، فانية فان من عليها، لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى. من أقل منها أستكثر مما يؤمنه، ومن أستكثر منها أستكثر مما يوبقه، وزال عما قليل عنه.

كم من واثق بما قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته، وذي أهبة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردتة ذليلاً. سلطاتها دول، وعيشها رنق، وعذبا أحاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام. حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم. ملكها مسلوب، وغزيرها مغلوب، وموفرها منكوب، وجارها محروب. ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعد آمالاً، وأعد عديداً، وأكتف جنوداً. تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ، ولا ظفر قاطع. فهل بلغكم أن الدنيا سحت لهم نفساً بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحة! بل أرهقتهم بالفوادم، وأوهقتهم بالقوارع، وضععتهم بالنوائب، وعفرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ريب المنون. فقد رأيتم تنكرها لمن دان لها، وآثرها، وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد.

وهل زودتم إلا السغب، أو أحلتهم إلا الضنك، أو نورت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتم إلا الندامة! أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون! فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجل منها! فاعلموا وأنتم تعلمون بأنكم تاركوها، وظاعنون عنها. واتعظوا فيها بالذين قالوا: "من أشد منا قوة". حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبناً، وأنزلوا الأحداث فلا يدعون ضيفاناً، وجيل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران. فهم حيرة لا يجيئون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، ولا يبالون مندبة. إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قحطوا لم يقنطوا، جميع وهم آحاد، وحيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقربيون لا يتقاربون.

حلماء قد ذهب أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم، ولا يرجى دفعهم. استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فجاءوها كما فارقوها، حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم، إلى الحياة

الدائمة، والدار الباقية، كما قال سبحانه وتعالى: "كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين".

الشرح: حضرة، أي ناضرة، وهذه اللفظة من الألفاظ النبوية، قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون".

وحفت بالشهوات، كأن الشهوات مستديرة حولها، كما يحف الهودج بالثياب، وحفوا حوله يحفون حفاً، أطافوا به، قال الله تعالى: "وترى الملائكة حافين من حول العرش".

قوله: وتحببت بالعاجلة، أي تحببت إلى الناس بكونها لذة عاجلة، والنفوس مغرمة مولعة بحب العاجل، فحذف الجار والمجرور القائم مقام المفعول.

قوله: وراقت بالقليل، أي أعجبت أهلها وإنما أعجبتهم بأمر قليل ليس بدائم.

قوله: وتحلت بالآمال من الحلية، أي تزينت عند أهلها بما يؤملون منها.

قوله: وتزينت بالغرور، أي تزينت عند الناس بغرور لا حقيقة له.

والحبرة: السرور. وحائلة: متغيرة. ونافذة: فانية. وبائدة: منقضية. وأكالة: قتالة، وغوالة: مهلكة. والغول: ما غال، أي أهلك ومنه المثل: الغضب غول الحلم.

ثم قال: إنما إذا تناهت إلى أمنية ذوي الرغبات فيها لا تتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى به وهو قوله: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل مشيء مقتدراً".

فاختلط، أي فالتف بنبات الأرض، وتكاثف به، أي بسبب ذلك الماء وبتزوله عليه ويجوز أن يكون تقديره: فاختلط بنبات الأرض، لأنه لما غذاه وأنماه، فقد صار مختلطاً به، ولما كان كل واحد من المختلطين مشاركاً لصاحبه في مسمى الاختلاط جاز فاختلط به نبات الأرض، كما يجوز: فاختلط هو بنبات الأرض.

والهشيم: ما تهشم وتخطم، الواحد هشيمة. وتذروه الرياح: تطيره. وكان الله على ما يشاء، من الإنشاء والإفناء، مقتدراً.

قوله: إمن يلق من سرائها بطناً إنما خص السراء بالبطن، والضراء بالظهر، لأن الملاقى لك بالبطن ملاق بالوجه، فهو مقبل عليك، والمعطيك ظهره مدبر عنك. وقيل: لأن الترس بطنه إليك وظهره إلى عدوك، وقيل: لأن المشي في بطون الأودية أسهل من السير على الظراب والآكام.

وطله السحاب يطله، إذا أمطره مطراً قليلاً، يقول: إذا أعطت قليلاً من الخير أعقبت ذلك بكثير من الشر، لأن التهتان الكثير المطر، هتن يهتن بالكسر، هتنا وهتونا وتهتاناً.

توله: وحري، أي جدير وخليق، يقال: بالحرى أن يكون هذا الأمر كذا، وهذا الأمر محرقة لذلك، أي مقمنة، مثل محجاة، ويا أحراره مثل ما أحجاه، وأحر به، مثل أحج به، وتقول: هو حرى أن يفعل ذلك بالفتح، أي جدير وقمين، لا يشئ ولا يجمع، قال الشاعر:

وهن حرى ألا يثبلك نقرة

وأنت حرى بالنار حين تثيب

فإذا قلت: هو حر بكسر الراء وحري بتشديدها على فعيل ثنيت وجمعت، فقلت: هما حريان وحريان، وحرون مثل عمون، وأحرأ أيضاً، وفي المشدد حريون وأحرياء، وهي حرية وحرية وهن حريات وحريات وحرايا. فإن قلت: فهلا قال: وحرية إذا أصبحت، لأنه يخبر عن الدنيا قلت: أراد شأها، فذكر، أي وشأها خليك أن يفعل كذا. واعذوذ: صار عذباً. واحلولى: صار حلواً، ومن ههنا أخذ الشاعر قوله:

ألا إنما الدنيا غضارة أليكة

إذا اخضر منها جانب جف جانب

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة

على ذاهب منها فإنك ذاهب

وارتفع جانب المذكور بعد إن لأنه فاعل فعل مقدر يفسره الظاهر، أي وإن اعذوذ جانب منها، لأن إن لا تقتضي الفعل وتطلبه فهي إذا في قوله تعالى: "إذا السماء أنشقت". وأمر الشيء، أي صار مرأ، وأوبى: صار وبياً، ولين الهمز، لأجل السجع. والرغب: مصدر رغبت في الأمر رغبة ورغباً، أي أردته. يقول: لا ينال الإنسان منها إرادته إلا أرهقته تعباً، يقال: أرهقه إثماً، أي حملة وكلفه. فإن قلت: لم خص الأمن بالجنح والخوف بالقوادم؟ قلت: لأن القوادم مقاديم الريش، والراكب عليها بعرض خطر عظيم وسقوط قريب، والجنح يستر ويقي البرد والأذى، قال أبو نواس:

تغطيت من دهري بظل جناحه

فصرت أرى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما اسمي لما درت

وأين مكاني ما عرفن مكاني

والهاء في جناحه ترجع إلى الممدوح بهذا الشعر. وتوبقه: تهلكه، والأهبة: الكبر. والرنق، بفتح النون، مصدر رنق الماء، أي تكدر وبالكسر الكدر، وقد روي ههنا بالفتح والكسر، فالكسر ظاهر، والفتح على تقدير حذف المضاف، أي ذو رنق. وماء أجاج: قد جمع المرارة والملوحة، أج الماء أجاجاً. والصبر، بكسر الباء: هذا النبات المر نفسه، ثم سمي كل مر صبراً. والسمام: جمع سم لهذا القتال، يقال سم وسم، بالفتح والضم، والجمع سمام وسموم. ورمام: بالية وأسبالها: حبالها. ومفورها: ذو الوفرة والثروة منها، والحروب: المسلوب، أي لا تحمي جاراً ولا تمنعه. ثم أخذ قوله تعالى: "وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال" فقال: أستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً، نصب أطول بأنه خير كان، وقد دلنا الكتاب الصادق على أنهم كانوا أطول أعماراً بقوله: "قلبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً"، وثبت بالعيان أنهم أبقي آثاراً فإن من آثارهم الأهرام والإيوان ومنارة الإسكندرية وغير ذلك. وأما بعد الآمال فمرتب على طول الأعمار، فكلما كانت أطول كانت الآمال أبعد، وإن عني به علو الهمم، فلا ريب أنهم أعلى همماً من أهل هذا الزمان وقد كان فيهم من ملك معمورة الأرض كلها، وكذلك القول في أعد عديداً، وأكثف جنوداً، والعديد: العدو الكثير وأعد منهم، أي أكثر. قوله: ولا ظهر قاطع،

أي قاطع لمسافة الطريق.

والفوادح: المثقلات، فدحه الذين أثقله ويروى بالقوادح بالقاف وهي آفة تظهر في الشجر، وصدوع تظهر في الأسنان. وأوهقتهم: جعلتهم في الوهق، بفتح الهاء، وهو حبل كالطول ويجوز التسكين، مثل نهر ونهر. والقوارع: الحن والدواهي وسميت القيامة قارعة في الكتاب العزيز من هذا المعنى وضععتهم: أذلّتهم، قال أبو ذؤيب:

أنّي لريب الدهر لا أتضعضع

وضععت البناء: أهدمته.

وعفرتهم للمناخر: ألصقت أنوفهم بالعفر، وهو الزاب. والمناسم: جمع منسم، بكسر السين وهو خف البعير. ودان لها: أطاعها، ودان لها أيضاً: ذل. وأخلد إليها: مال، قال تعالى: "ولكنه أخلد إلى الأرض". والسغب: الجوع: يقول: إنما زودتهم الجوع، وهذا مثل، كما قال:

ومدحته فأجازني الحرمانا

ومعنى قوله: أو نورت لهم إلا الظلمة أي بالظلمة وهذا كقوله: هل زودتهم إلا السغب. وهو من باب إقامة الضد مقام الضد، أي لم تسمح لهم بالنور بل بالظلمة. والضنك: الضيق.

ثم قال: فبئست الدار، وحذف الضمير العائد إليها وتقديره هي كما قال تعالى: "نعم العبد"، وتقديره: ومن لم يهتمها: من لم يسؤ ظناً بها. والصفائح: الحجارة. والأجنان: القبور، الواحد جنن، والمجنون: المقبور، ومنه قول الأعرابية: لله درك من مجنون في جنن. والأكنان: جمع كن: وهو الستر، قال تعالى: "وجعل لكم من الجبال أكناناً". والرفات: العظام البالية. والمندبة: الندب على الميت. لا يبالون بذلك: لا يكثرثون به. وجيدوا: مطرواً. وقحطوا: انقطع المطر عنهم فأصابهم القحط، وهو الجذب وإلى معنى قوله رضي الله عنه: فهم جيرة لا يجيئون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقربيون لا يتقاربون نظر البحري، فقال:

ومهجورة في هجرها لم تعتب

وما قرب ثاؤ في التراب مغيب

بنا أنت من مجفوة لم تؤنب

ونازحة والدار منها قريبة

وقد قال الشعراء والخطباء في هذا المعنى كثيراً، فمن ذلك قول الرضي أبي الحسن رحمه الله في مراثيه لأبي إسحاق الصابي:

متشابه الأمجاد بالأوغاد

والدهر يعجلهم عن الإرواد

من غير أطناب ولا أوتاد

قصد لإتهام ولا إنجاز

للدهر نازلة بكل مقاد

أعزز علي بأن نزلت بمنزل

في عسبة جنبوا إلى آجالهم

ضربوا بمدرجة الفناء قبابهم

ركب أناخوا لا يرجى منهم

كرهوا النزول فأنزلتهم وقعة

فتهافتوا عن رحل كل مذل

وتطاوخوا عن سرج كل جواد

بادون في صور الجميع وإنهم

متفردون تفرد الآحاد

فقلوه: بادون في صور الجميع. البيت، هو قوله صلى الله عليه وسلم: "جميع وهم آحاد" بعينه. وقال الرضي رحمه الله تعالى أيضاً:

متوسدين على الخدود كأنما

كرعوا على ظمإ من الصهباء

صور ضننت على العيون بحسنها

أمسيت أوقرها من البوغاء

ونواظر كحل التراب جفونها

قد كنت أحرسها من الأقداء

قربت ضرائحهم على زوارها

ونأوا عن الطلاب أي تناء

قوله: قربت ضرائحهم البيت هو معنى قوله رضي الله عنه: وجيرة، وهم أبعاد بعينه. ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب:

لكل أناس مقبر في ديارهم

فهم ينقصون، والقبور تزيد

فكائن ترى من دار حي قد أخربت

وقبر بأكناف التراب جديد

هم جيرة الأحياء، أما مزارهم

فدان، وأما الملتقى فبعيد

ومن كلام ابن نباتة: وحيداً على كثرة الجيران، بعيداً على قرب المكان.

ومنه قوله: أسير وحشة الأنفراد، فقير إلى اليسير من الزاد، جار من لا يجير، وضيع من لا يمير، حملوا ولا يرون ركبناً، وانزلوا ولا يدعون ضيفاناً، واجتمعوا ولا يسمون جيراناً، واحتشدوا ولا يعدون أعواناً، وهذا كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه بعينه المذكور في هذه الخطبة، وقد أخذه مصالته.

ومنه قوله: طحتهم طحن الحصيد، وغيبتهم تحت الصعيد، فبطون الأرض لهم أوطان، وهم في خراجها قطان، عمروا فأخربوا، واقتربوا فاغتربوا، واصطحبوا وما اصطحبوا.

ومنه قوله: غيباً كأشهاد، عصباً كآحاد، هموداً في ظلم الأحاد، إلى يوم التناد.

واعلم أن هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ررواها لقطري بن الفجاءة، والناس يروونها لأمر المؤمنين رضي الله عنه، وقد رأيتها في كتاب المونق لأبي عبيد الله المرزباني مروية لأمر المؤمنين رضي الله عنه وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين رضي الله عنه، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره وقد لقي قطري أكثرهم.

يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس

الأصل: هل يحس به إذا دخل منزلاً، أم هل تراه إذا توفي أحداً! بل كيف يتوفى الجنين في بطن أمه. أيلج عليه من بعض جوارحها، أم الروح أحابته بإذن ربها، أم هو ساكن معه في أحشائها! كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله! الشرح: أما مذهب جمهور أصحابنا وهم النافون للنفس الناطقة فعندهم أن الروح جسم لطيف بخاري، يتكون من أطف

أجزاء الأغذية، ينفذ في العروق الضواري، والحياة عرض قائم بالروح وحال فيها، فللدماء روح دماغية وحياة حالة فيها وكذلك للقلب، وكذلك للكبد وعندهم أن الملك الموت أعواناً، تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه لولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد. قال أصحابنا: ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضين للأرواح عند انقضاء الأجل، قالوا: وكيفية القبض ولوج الملك من الفم إلى القلب، لأنه جسم لطيف هوائي لا يتعذر عليه النفوذ في المخارق الضيقة، فيخالط الروح التي هي كالشبيهة به، لأنها جسم لطيف بخاري، ثم يخرج من حيث دخل وهي معه، وإنما يكون ذلك في الوقت الذي يأذن الله تعالى له فيه وهو حضور الأجل، فألزموا على ذلك أن يغوص الملك في الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء فالتزموا ذلك، وقالوا: ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء في مسام الماء فإن فيه مسام ومنافذ، وفي كل جسم على قاعدتهم في إثبات الماء في الأجسام.

قالوا: ولو فرضنا أنه لا مسام فيه، لم يبعد أن يلجحه الملك فيوسع لنفسه مكاناً كما يلجحه الحجر والسمك وغيرهما، وكالريح الشديدة التي تفرغ ظاهر البحر فتقعره، وتحفره، وقوة الملك أشد من قوة الريح. ثم نعود إلى الشرح فنقول: الملك أصله مألوك بالهمز، ووزنه مفعول والميم زائدة، لأنه من الألوك والألوك وهي الرسالة، ثم قلبت الكلمة وقدمت اللام فقليل مألوك، قال الشاعر:

تتزل من جو السماء يصوب

فلست لإنسي ولكن لمألوك

ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقليل: ملك، فلما جمع ردت الهمزة إليه، فقالوا: ملائكة وملائك، قال أمية بن أبي الصلت:

سدر تواكله القوائم أجرد

وكان برقع والملائك حولها

والتوفي: الإماتة وقبض الأرواح، قال الله تعالى: "الله يتوفى الأنفس حين موتها". والتقسيم الذي قسمه في وفاة الجنين حاصر، لأنه مع فرضنا إياه جسماً يقبض الأرواح التي في الأجسام أما أن يكون مع الجنين في جوف أمه فيقبض روحه عند حضور أجله، أو خارجاً عنها. والقسم الثاني ينقسم قسمين: أحدهما أن يلج جوف أمه لقبض روحه فيقبضها، والثاني أن يقبضها من غير حاجة إلى الولوج إلى جوفها وذلك بأن تطيعه الروح وتكون مسخرة إذا أراد قبضها امتدت إليه فقبضها. وهذه القسمة لا يمكن الزيادة عليها، ولو قسمها واضع المنطق لما زاد. ثم خرج إلى أمر آخر أعظم وأشرف مما ابتداء به، فقال: كيف يصف إلهه من يعجز عن وصف مخلوق مثله وإلى هذا الغرض كان يترامى، وإياه كان يقصد وإنما مهد حديث الملك والجنين توطئة لهذا المعنى الشريف، والسر الدقيق.

بعض الأشعار في التخلص

وهذا الفن يسميه أرباب علم البيان التخلص، وأكثر ما يقع في الشعر، كقول أبي نواس:

عزيز علينا أن نراك تسير

تقول التي من بيتها خف مركبي

بلى، إن أسباب الغنى لكثير

جرت، فجرى في جريهن عبير :

إلى بلد فيه الخصيب أمير

أما دون مصر للغنى متطلب

فقلت لها واستعجلتها بواذر

ذريني أكثر حاسديك برحلة

ومن ذلك قول أبي تمام:

منا السرى وخطا المهرية القود

فقلت كلا ولكن مطلع الجود

يقول في قوس صحتي وقد أخذت

أطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا

ومنه قول البحتري:

أيامه لي في أعقاب أيامي

إذن تطلبتة عند ابن بسطام

هل الشباب ملم بي فراجعة

لو أنه نائل غمر يجاد به

ومنه قول المتنبي وهو يتغزل بأعرايبة، وبصف بخلها وجبنها وقلة مطعمها وهذه كلها من الصفات الممدوحة في النساء خاصة:

بدوية فتنت بها الحل

وصدودها، ومن الذي تصل !

تركته، وهو المسك والعسل

أعلمتني أن الهوى ثمل

وبرزت وحدك عاقه الغزل

في مقلتي رشاً تديرهما

تشكو المطاعم طول هجرتها

ما أسأرت في القعب من لبن

قالت :ألا تصحو فقلت لها

لو أن فناخسر صبحكم

إن الملاح خوادع قتل

ملك الملوك وشأنك البخل

أم تبذلين له الذي يسيل

بخل ولا جور ولا وجل

وتفرقت عنكم كتائبه

ما كنت فاعلة وضيغكم

أتمنعين قرى فتفتضحى

بل لا يحل بحيث حل به

وهذا من لطيف التخلص ورشيقة، والتخلص مذهب الشعراء، والمتأخرون يستعملونه كثيراً، ويتفاخرون فيه ويتناضلون، فأما التخلص في الكلام المشور فلا يكاد يظهر لتصفح الرسالة أو الخطبة إلا بعد تأمل شديد وقد وردت منه مواضع في القرآن العزيز فمن أينها وأظهرها أنه تعالى ذكر في سورة الأعراف الأمم الخالية والأنبياء الماضين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام، إلى أن انتهى إلى قصة موسى، فقال في آخرها بعد أن شرحها وأوضحها: "واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي في تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين؛ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي

الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون؛ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه. ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون". وهذا من التخلصات اللطيفة المستحسنة.

شواهد في الاستطراد

واعلم أن من أنواع علم البيان نوعاً يسمى الاستطراد، وقد يسمى الالتفات، وهو من جنس التخلص وشبيه به، إلا أن الاستطراد هو أن تخرج بعد أن تمهد ما تريد أن تمهده إلى الأمر الذي تروم ذكره فتذكره، وكأنك غير قاصد لذكره بالذات، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرض عن غير قصد، ثم تدعه وتتركه، وتعود إلى الأمر الذي كنت في تمهيده، كالمقبل عليه، وكالمغني عما استطردت بذكره، فمن ذلك قول البحري وهو يصف فرساً:

وأغر في الزمن البهيم محجل	قد رحت منه على أغر محجل
كالهيكل المبني إلا أنه	في الحسن جاء كصورة في هيكل
وافي الضلوع يشد عقد حزامه	يوم اللقاء على معم مخول
أخواله للرسامين بفارس	وجدوده للتبعين بموكل
يهوي كما هوت العقاب وقد رأت	صيдаً، وينتصب انتصاب الأجل
متوجس برقيقتين كأنما	تريان من ورق عليه مكل
ما إن يعاف قذى ولو أوردته	يوماً خلأثق حمدويه الأحول
ذنب كما سحب الرشاء يذب عن	عرف، وعرف كالقناع المسبل
جدلان ينفض عذرة في غرة	يقق تسيل حجولها في جنـدل
كالرائح النشوان أكثر مشيه	عرضاً على السنن البعيد الأطول
ذهب الأعالي حيث تذهب مقلة	فيه بناظرها حديد الأسفل
هزج الصهيل كأن في نغماته	نبرات معبد في الثقيل الأول
ملك القلوب، فإن بدا أعطيته	نظر المحب إلى الحبيب المقبل

ألا تراه كيف استطرذ بذكر حمدويه الأحول الكاتب، وكأنه لم يقصد ذلك ولا أرادته وإنما جرت القافية، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس ولو أقسم إنسان أنه ما بنى القصيدة منذ افتتحها إلا على ذكره، ولذلك أتى بها على روي اللام، لكان صادقاً. فهذا هو الاستطراد.

ومن الفرق بينه وبين التخلص أنك متى شرعت في ذكر الممدوح أو المهجو تركت ما كنت فيه من قبل بالكلية وأقبلت على ما تخلصت إليه من المديح والهجاء بيتاً بعد بيت حتى تنقضي القصيدة، وفي الاستطراد تمر على ذكر الأمر الذي استطردت به مروراً كالبرق الخاطف ثم تتركه وتنساه، وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصد قصد ذاك، وإنما عرض عروضاً. وإذا فهمت الفرق فاعلم أن الآيات التي تلونها إذا حققت وأمعنت النظر، من باب الاستطراد، لا من باب التخلص، وذلك لأنه تعالى قال بعد قوله: "وأتبِعُوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته وأتبِعُوا لعلكم تهتدون؛ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون؛ وقطعناهم أثني عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ أستمسقه قومه أن أضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشرهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون". فعاد إلى ما كان فيه أولاً، ثم مر في هذه القصة، وفي أحوال موسى وبني إسرائيل حتى قارب الفراغ من السورة. ومن لطيف التخلص الذي يكاد يكون استطراداً، لولا أنه أفسده بالخروج إلى المدح، قول أبي تمام في قصيدته التي يمدح بها محمد بن الهيثم التي أولها:

وغدت عليهم نضرة ونعيم

والظلم من ذي قدرة مضموم

منها طول باللوى ورسوم

صبر وأن أبا الحسين كريم

نفسى على إلف سواك تحوم

فلو أتم متغزلاً لكان مستطرداً لا محالة، ولكنه نقض الاستطراد، وغمس يده في المدح، فقال بعد هذا البيت:

مجد إلى جنب السماك مقيم

طرفيه فهو أخ له وحميم

أسقى طولهم أجش هزيم

ظلمتك ظالمة البرئ ظلوم

زعمت هواك عفا الغداة كما عفت

لا والذي هو عالم أن النوى

ما حلت عما تعهدين ولا غدت

لمحمد بن الهيثم بن شبانة

ملك إذا نسب الندى من ملتقى

ومضى على ذلك إلى آخرها.

ومن الإستطراد أن يحتال الشاعر لذكر ما يروم ذكره، بوصف أمر ليس من غرضه، ويدمج الغرض الأصلي في ضمن ذلك وفي غرضه وأحسن ما يكون ذلك إذا صرح بأنه قد استطرد ونص في شعره على ذلك، كما قال أبو إسحاق الصايي في أبيات كتبها إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة، كتبها إليه إلى شيراز وأبو إسحاق في بغداد، وكانت أخبار فتوح عضد الدولة بفارس وكرمان وما والاها متواصلة مترادفة إلى العراق، وكتب عبد العزيز واصله بها إلى عز الدولة بختيار والصايي يجيب عنها:

يطوي المهامه من سهل إلى جلد

يا راكب الجسرة العيرانة الأجد

أبلغ أبا قاسم نفسي الفداء له
 في كل يوم لكم فتح يشاد به
 وما لنا مثله لكننا أبدأ
 فأنت أكتب مني في الفتوح وما
 وما ذممت ابتدائي في مكاتبة
 لكنني رمت أن أثني على ملك
 مقالة من أخ للحق معتمد
 بين الأنام بذكر السيد العضد
 نجيبكم بجواب الحاسد الكمد
 تجري مجيباً إلى شأوي ولا أمدى
 ولا جوابكم في القرب والبعد
 مستطرد بمديح فيه مطرد

ولقد ظرف وملح أبو إسحاق في هذه الأبيات، ومتى خلا أو عرى عن الظرف والملاحاة، ولقد كان ظرفاً ولباقة كله.
 وليس من الاستطراد ما زعم ابن الأثير الموصلي في كتابه المسمى بالمثل السائر أنه استطرد وهو قول بعض شعراء الموصل
 يمدح قرواش بن المقلد، وقد أمره أن يعث بهجاء وزيره سليمان بن فهد، وحاجبه أبي جابر ومغنيه المعروف بالبرقيدي،
 في ليلة من ليالي الشتاء وأراد بذلك الدعابة والولع بهم، وهم في مجلس في شراب وأنس، فقال وأحسن فيما قال:

وليل كوجه البرقيدي ظلمة
 سریت ونومي فيه نوم مشرد
 وبرد أغانيه وطول قرونه
 كعقل سليمان بن فهد ودينه

على أولق فيه التفات كأنه
 إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه
 أبو جابر في خطبه وجنونه
 سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وذلك لأن الشاعر قصد إلى هجاء كل واحد منهم، ووضع الأبيات لذلك، وأمره قرواش رئيسهم وأميرهم بذلك،
 فهجاهم ومدحه ولم يستطرد، وهذه الأبيات تشبيهات كلها مقصود بها الهجاء، لم يأت بالعرض في الشعر كما يأتي
 الاستطراد، وهذا غلط من مصنف الكتاب.

ومن خطبة في التحذير من أمر الدنيا.

الأصل: وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة، وليست بدار نجعة، قد ترينت بغرورها، وغرت بزينتها. دار هانت على رها
 فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها. لم يصفها الله تعالى لأوليائه، ولم يرض بها عن
 أعدائه. خيرها زهيد، وشرها عتيد، وجمعها ينفد، وملكها يسلب. وعامرها يخرب. فما خير دار تنقض نقض البناء،
 وعمر يفنى فيها فناء الزاد، ومدة تنقطع أنقطاع السير اجعلوا ما افترض الله عليكم من طلبتكم، واسألوه من أداء حقه
 كما سألكم وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم.

إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، ويشتد حزنهم وإن فرحوا، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا،
 قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب
 بكم من الآجلة وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر، وسوء الضمائر فلا توازرون ولا

تناصحون، ولا تباذلون ولا توادون.

ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم، وقلة صبركم عما زوي منها عنكم كأنها دار مقامكم، وكأن متاعها باق عليكم، وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلا مخافة أن يستقبله بمثله، قد تصافيتم على رفض الآجل، وحب العاجل، وصار دين أحدكم لعقة على لسانه، صنيع من فرغ من عمله، وأحرز رضا سيده.

الشرح: قوله رضي الله عنه: فإنها منزل قلعة بضم القاف وسكون اللام، أي ليست بمستوطنة. ويقال: هذا مجلس قلعة، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة. ويقال: هم على قلعة، أي على رحلة، ومن هذا الباب قولهم: فلان قلعة، إذا كان ينقلع عن سرحه، ولا يثبت في البطش والصراع، والقلعة أيضاً: المال العارية، وفي الحديث: بئس المال القلعة. والنجعة: طلب الكلاء في موضعه، وفلان ينتجع الكلاء، ومنه انتجعت فلاناً، إذا أتيت تطلب معروفه.

ثم وصف هوان الدنيا على الله تعالى، فقال: من هوانها أنه خلط حلالها بحرامها. الكلام، مراده تفضيل الدار الآتية على هذه الحاضرة، فإن تلك صفو كلها وخير كلها وهذه مشوبة والكدر والشر فيها أغلب من الصفو والخير. ومن كلام بعض الصالحين: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها. ويروى: ولم يضمن بها على أعدائه، والرواية المشهورة عن أعدائه، وكلاهما مستعمل.

والزهيد: القليل، والعتيد: الحاضر. والسير: سير المسافر.

ثم أمرهم بأن يجعلوا الفرائض الواجبة عليهم من جملة مطلوباتهم، وأن يسألوا الله من الإعانة والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبة كما سألهم، أي كما ألزمهم وافترض عليهم، فسمى ذلك سؤالاً لأجل المقابلة بين اللفظين، كما قال سبحانه: "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يمل حتى تملوا" وكما قال الشاعر:

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ألا لا يجهلن أحد علينا

ثم أمرهم أن يسمعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحضر الموت، فيحل بهم. ومثل قوله: تبكي قلوبهم وإن ضحكوا قول الشاعر، وإن لم يكن هذا المقصد بعينه قصد:

وضرورة قد غطيت بتجمل

كم فاقة مستورة بمروءة

قد خامرته لوعة ما تنجلي

ومن ابتسام تحته قلب شج

والمقت: البغض: واغبطوا: فرحوا.

وقوله: أملك بكم مثل أولى بكم. وقوله: والعاجلة أذهب لكم من الآجلة أي ذهبت العاجلة بكم واستولت عليكم أكثر مما ذهبت بكم الآخرة، واستولت عليكم.

ثم ذكر أن الناس كلهم مخلوقون على فطرة واحدة، وهي دين الله وتوحيده وإنما اختلفوا وتفرقوا باعتبار أمر خارجي عن ذلك وهو خبث سرائرهم وسوء ضمائرهم، فصاروا إلى حال لا يتوازرون، أي لا يتعاونون، والأصل الهمز، آزرته، ثم

تقلب الهمزة واواً، وأصل قوله: فلا توازرون فلا تتوازرون فحذفت إحدى التاءين، كقوله تعالى: "مالكم لا تناصرون"، أي لا تتناصرون، والتبادل: أن يجود بعضهم على بعض بماله ويبدله له. ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: "ما بالكم تفرحون بكذا، ولا تحزنون لكذا، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم" من هذا قول الرضي رحمه الله:

ما ينقصان على الأيام من مالي

نقص الجديدين من عمري يزيد على

فما اهتمامي أن أودى بسر بالي

دهر تؤثر في جسمي نوائبه

والضمير في يخاف راجع إلى الأخ لا إلى المستقبل له أي ما يخافه الأخ من مواجهته بعينه. قوله: وصار دين أحدكم لعقة على لسانه أخذه الفرزدق. فقال للحسين بن علي رضي الله عنه، ولقد لقيه قادماً إلى العراق، وسأله عن الناس: أما قلوبهم فمعلك، وأما سيوفهم فعليك، والدين لعقة على ألسنتهم، فإذا امتحصوا قل الديانون، واللفظة مجاز، وأصل اللعقة شيء قليل يؤخذ بالملعقة من الإناء، يصف دينهم بالترارة والقلة كتلك اللعقة، ولم يقنع بأن جعله لعقة حتى جعله على ألسنتهم فقط، أي ليس في قلوبهم.

ومن خطبة له في الحفر على التقوى

الأصل: الحمد لله الواصل الحمد بالنعم، والنعم بالشكر نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه، ونستعينه على هذه النفوس البطاء عما أمرت به، السراع إلى ما نهيت عنه. ونستغفره مما أحاط به علمه، وأحصاه كتابه علم غير قاصر وكتاب غير مغادر. ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب، ووقف على الموعد إيماناً نفى إخلاصه الشرك، ويقينه الشك. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله، شهادتين تصعدان القول، وترفعان العمل لا يخف ميزان تواضعان فيه، ولا يثقل ميزان ترفعان منه. أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاد، زاد مبلغ، ومعاد منحج دعا إليها أسمع داع، ووعاها خير واع فأسمع داعيها، وفاز واعيها.

عباد الله؛ إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت ليلهم وأظلمات هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظم، وأستقربوا الأجل، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل. ثم إن الدنيا دار فناء وعناء، وغير وعبر فمن الفناء أن الدهر موتر قوسه، لا تخطئ سهامه، ولا تؤسى جراحه، يرمي الحي بالموت، والصحيح بالسقم، والناجي بالعطب أكل لا يشبع، وشارب لا ينقع، ومن العناء أن المرء يجمع ما لا يأكل، ويبي ما لا يسكن، ثم يخرج إلى الله تعالى، لا مالاً حمل، ولا بناء نقل. ومن غيرها أنك ترى المرحوم مغبوطاً، والمغبوط مرحوماً ليس ذلك إلا نعيماً زل، وبؤساً نزل.

ومن غيرها أن المرء يشرف على أملة، فيقتطعه حضور أجله، فلا أمل يدرك، ولا مؤمل يترك. فسبحان الله ما أعز سرورها، وأظماً ربيها، وأضحى فيئها لا جاء يرد، ولا ماض يرتد فسبحان الله، ما أقرب الحي من الميت للحاقه به، وأبعد

الميت من الحي لانقطاعه عنه! إنه ليس شيء بشر من الشر إلا عقابه، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه، وكل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه فليكنكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر.

واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة، خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح، ومزيد خاسر! إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتكم عنه، وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ما قل لما كثر، وما ضاق لما اتسع، قد تكفل لكم بالرزق، وأمرتم بالعمل، فلا يكونون المضمون لكم طلبه أولى من المفروض عليكم عمله، مع أنه والله لقد أعترض الشك، ودخل اليقين، حتى كأن الذي ضمن لكم قد فرض عليكم، وكأن الذي فرض عليكم قد وضع عنكم. فبادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل، فإنه لا يرجى من رجعة العمر، ما يرجى من رجعة الرزق.

ما فات اليوم من الرزق رجي غداً زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته. الرجاء مع الجائي، واليأس مع الماضي، فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون! الشرح: لقائل أن يقول: أما كونه واصل الحمد له من عباده بالنعم منه عليهم فمعلوم فكيف قال: إنه يصل النعم المذكورة بالشكر، والشكر من أفعال العباد وليس من أفعاله ليكون واصلًا للنعم به. وجواب هذا القائل، هو أنه لما وفق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه في عقولهم مقررًا، وبعد أن أقدرهم عليه، صار كأنه الفاعل له، فأضافه إلى نفسه توسعًا، كما يقال: أقام الأمير الحد، وقتل الوالي اللص؛ فأما حمده سبحانه على البلاء كحمده على الآلاء فقد تقدم القول فيه. ومن الكلام المشهور: سبحانه من لا يحمد على المكروه سواه، والسر فيه أنه تعالى إنما يفعل المكروه بنا لمصالحنا، فإذا حمدناه عليه فإنما حمدناه على نعمة أنعم بها، وإن كانت في الظاهر بلية وألمًا.

فإن قلت: فقد كان الأحسن في البيان أن يقول: نحمده على بلائه، كما نحمده على آلائه. قلت: إنما عكس لأنه جاء باللفظين في معرض ذكر النعم والشكر عليها، فاستهجن أن يلقبها بلفظة الحمد على البلاء للمنافرة التي تكون بينهما، فقال: نحمده على هذه الآلاء التي أشرنا إليها، التي هي آلاء في الحقيقة. وهذا ترتيب صحيح منتظم.

ثم سأل الله أن يعينه على النفس البطيئة عن المأمور به، السريعة إلى المنهي عنه ومن دعاء بعض الصالحين: اللهم إني أشكو إليك عدوًّا بين جنبي قد غلب علي.

وفسر قوم من أهل الطريقة والحقيقة قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة"، قالوا: أراد مجاهدة النفوس. ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبت الأنفس إلا حب المال والشرف، وإن حبهما لأذهب بدين أحدكم من ذئبين ضاريين باتا في زريبة غنم إلى الصباح، فماذا يقيان منها".

ثم شرع في استغفار الله سبحانه من كل ذنب، وعبر عن ذلك بقوله: مما أحاط به علمه، وأحصاه كتابه لأنه تعالى عالم بكل شيء، ومحيط بكل شيء وقد أوضح ذلك بقوله: عليم غير قاصر، وكتاب غير مغادر، أي غير مبق شيئًا لا يحصيه، قال تعالى: "ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها".

ثم قال: ونؤمن به إيمان من عاين وشاهد، لأن إيمان العيان أخلص وأوثق من إيمان الخبر، فإنه ليس الخبر كالعيان، وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو رضي الله عنه سيدهم ورئيسهم ولذلك قال: لو كشف الغطاء ما أزددت يقيناً. وقوله: تصعدان القول إشارة إلى قوله تعالى: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه"، وروى: تصعدان القول بالسين، أي هما شهادتان بالقلب يعاضدان الشهادة باللسان، ويسعدانها.

ثم ذكر أنهما شهادتان لا يخف ميزانهما فيه، ولا يثقل ميزان رفعا عنه، أما إنه لا يثقل ميزان رفعا عنه فهذا لا كلام فيه وإنما الشأن في القضية الأولى، لأن ظاهر هذا القول يشعر بمذهب المرجئة الخلق وهم أصحاب مقاتل بن سليمان، القائلون إنه لا يضر مع الشهادتين معصية أصلاً، وإنه لا يدخل النار من في قلبه ذرة من الإيمان، ولهم على ذلك احتجاج قد ذكرناه في كتبنا الكلامية، فنقول في تأويل ذلك إنه لم يحكم بهذا على مجرد الشهادتين، وإنما حكم بهذا على شهادتين مقيدتين، وقد وصفهما بأنهما يصعدان القول، ويرفعان العمل، وتأنك الشهادتان المقيدتان بذلك القيد، إنما هما الشهادتان اللتان يقارنهما فعل الواجب وتجنب القبيح، لأنه إن لم يقارنهما ذلك لم يرفعا العمل، وإذا كان حكمه رضي الله عنه بعد خفة ميزانهما فيه، إنما هو على شهادتين مقيدتين لا مطلقتين، فقد بطل قول من يجعل هذا الكلام حجة للمرجئة. ثم أخذ في الوصاة بالتقوى، وقال إنما الزاد في الدنيا الذي يزود منه لسفر الآخرة وبها المعاذ، مصدر من عذت بكذا، أي لجأت إليه واعتصمت به.

ثم وصفهما أعني الزاد والمعاذ فقال: زاد مبلغ، أي يبلغك المقصد والغاية التي تسافر إليها، ومعاذ منجح، أي يصادف عنده النجاح.

دعا إليها أسمع داع: يعني البارئ سبحانه لأنه أشد الأحياء إسماعاً لما يدعوهم إليه وبناء أفعال ههنا من الرباعي، كما جاء ما أعطاه للمال وما أولاه للمعروف! وأنت أكرم لي من زيد، أي أشد إكراماً وهذا المكان أفقر من غيره، أي أشد إفقاراً، وفي المثل أفلس من ابن المذلق، وروى: دعا إليها أحسن داع، أي أحسن داع دعا، ولا بد من تقدير هذا المميز لأنه تعالى لا توصف ذاته بالحسن، وإنما يوصف بالحسن أفعاله.

ووعاها خير واع، أي من وعاهها عنه تعالى وعقلها وأجاب تلك الدعوة، فهو خير واع.

وقيل: عني بقوله: أسمع داع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعني بقوله: خير واع نفسه، لأنه أنزل فيه: "وتعيها أذن واعية"، والأول أظهر.

ثم قال: فأسمع داعيها أي لم يبق أحداً من المكلفين إلا وقد أسمعته تلك الدعوة وفازوا عليها، أفلح من فهمها وأجاب إليها، لا بد من تقدير هذا، وإلا فأني فوز يحصل لمن فهم ولم يجب! والتقوى: خشية الله سبحانه ومراقبته في السر والعلن، والخشية أصل الطاعات، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، وقوله سبحانه: "ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب".

قوله: حتى أسهرت ليالهم، وأظمأت هواجرهم من قول العرب نهاره صائم وليله قائم، نقلوا الفعل إلى الظرف، وهو من باب الاتساع الذي يجرون فيه الظروف مجرى المفعول به، فيقولون: الذي سرته يوم الجمعة، أي سرت فيه، وقال:

ويوم شهدناه سليماً وعامراً

أي شهدنا فيه سليماً، وقد اتسعوا فأضافوا الى الظروف فقالوا:

يا سارق الليلة أهل الدار

وقال تعالى: "بل مكر الليل والنهار" فأخرجوهما بالإضافة عن الظرفية.

قوله رضي الله عنه: فأخذوا الراحة بالنصب يروى: فاستبدلوا الراحة والنصب: التعب. واستقربوا الأجل رأوه قريباً. فإن قلت: لماذا كرر لفظة الأجل، وفي تكرارها مخالفة لفن البيان؟ قلت: انه استعملها في الموضوعين بمعنيين مختلفين، فقوله: استقربوا الأجل يعني المدة. وقوله: فلاحظوا الأجل يعني الموت نفسه. ويروى: موتر وموتر بالتشديد. ولا تؤسى جراحه: لا تطب ولا تصلح، أسوت الجرح، أي أصلحته. ولا ينفع: لا يروى شرب حتى ينفع، أي شفى غليله، وماء نافع وهو كالناجع، وما رأيت شربة أنفع منها. وإلى قوله رضي الله عنه: يجمع ما لا يأكل، ويبيني ما لا يسكن نظر الشاعر، فقال:

ودورنا لخراب الدهر نبنينا

أموالنا لذوي الميراث نجمعها

وقال آخر:

بناء نفعه لبني بقبيله

ألم تر حوشباً أمسى يبني

وأمر الله يطرق كل ليله

يؤمل أن يعمر عمر نوح

قوله: ومن غيرها أنك ترى المرحوم مغبوطاً والمغبوط مرحوماً، أي يصير الفقير غنياً والغني فقيراً، وقد فسرهم قوم فقالوا: أراد أنك ترى من هو في باطن الأمر مرحوم، مغبوطاً، وترى من هو في باطن الأمر مغبوط، مرحوماً، أي تحسب ذاك وتتخيله وهذا التأويل غير صحيح، لأن قوله بعده: ليس ذلك إلا نعيماً زل، وبؤساً نزل، يكذبه ويصدق التفسير الأول. وأضحى فيئها، من أضحى الرجل إذا برز للشمس، ثم قال: لا جاء يرد ولا ماض يرتد أي يسترد ويسترجع، أخذه أبو العتاهية فقال:

ولا أنا دافع ما سوف يأتي

فلا أنا راجع ما قد مضى لي

وإلى قوله: ما أقرب الحي من الميت للحاقه به، وما أبعد الميت من الحي لانقطاعه عنه نظر الشاعر، فقال:

من لحاقي به سميع قريب

يا بعيداً عني وليس بعيداً

أنك تحت الثرى وحيد غريب

صرت بين الورى غريباً كما

فإن قلت: ما وجه تقسيمه رضي الله عنه الأمور التي عددها إلى الفناء والعناء، والغير والعبر قلت: لقد أصاب الثغرة وطبق المفصل ألا تراه ذكر في الفناء رمي الدهر الإنسان عن قوس الردى، وفي العناء جمع ما لا يأكل، وبناء ما لا يسكن، وفي الغير الفقر بعد الغنى والغنى بعد الفقر، وفي العبر اقتطاع الأجل الأمل فقد ناط بكل لفظة ما يناسبها.

وقد نظر بعض الشعراء إلى قوله رضي الله عنه: ليس شيء بشر من الشر إلا عقابه، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه فقال:

تتمي وتزكو إذا بارت بضائعه

والشر شر، وشر منه صانعه

خير البضائع للإنسان مكرمة

فالخير خير، وخير منه فاعله

إلا أن أمير المؤمنين رضي الله عنه استثنى العقاب والثواب، والشاعر جعل مكانهما فاعل الخير والشر. ثم ذكر أن كل شيء من أمور الدنيا المرغبة والمرهبة، سماعه أعظم من عيانه، والآخرة بالعكس وهذا حق أما القضية الأولى فظاهرة، وقد قال القائل:

ورب أمنية أحلى من الظفر

أهتز عند تمنني وصلها طربا

ولهذا يحرص الواحد منا على الأمر، فإذا بلغه برد وفتر، ولم يجده كما كان يظن في اللذة، ويوصف لنا البلد البعيد عنا بالخصب والأمن والعدل، وسماح أهله، وحسن نسائه، وظرف رجاله، فإذا سافرنا إليه لم نجد كما وصف بل ربما وجدنا القليل من ذلك، ويوصف لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحكم، ويبالغ الواصفون في ذلك. فإذا احتبرناه وجدناه دون ما وصف وكذلك قد يخاف الإنسان حبساً أو ضرباً أو نحوهما فإذا وقع فيهما هان ما كان يتخوفه، ووجد الأمر دون ذلك، وكذلك القتل والموت فإن ما يستعظمه الناس منهما دون أمرهما في الحقيقة، وقد قال أبو الطيب وهو حكيم الشعراء:

فس سهل فيها إذا هو كانا

كل ما لم يكن من الصعب في الآن

ويقال في المثل: لج الخوف تأمن. وأما أحوال الآخرة فلا ريب أن الأمر فيها بالضد من ذلك لأن الذي يتصوره الناس من الجنة، أنها أشجار وأنهار ومأكول ومشروب، وجماع، وأمرها في الحقيقة أعظم من هذا وأشرف، لأن ملاذها الروحانية المقارنة لهذه الملاذ المضادة لها أعظم من هذه الملاذ بطبقات عظيمة، وكذلك أكثر الناس يتوهمون أن عذاب النار يكون أياماً وينقضي كما يذهب إليه المرجئة، أو أنه لا عذاب بالنار لمسلم أصلاً كما هو قول الخلص من المرجئة، وأن أهل النار يألفون عذابها فلا يستضرون به إذا تطاول الأمد عليهم، وأمر العذاب أصعب مما يظنون خصوصاً على مذهبنا في الوعيد ولو لم يكن إلا آلام النفوس باستشعارها سخط الله تعالى عليها، فإن ذلك أعظم من ملاقة جرم النار لبدن الحي. وفي هذا الموضوع أبحاث شريفة دقيقة، ليس هذا الكتاب موضوعاً لها.

ثم أمرهم بأن يكتفوا من عيان الآخرة وغيبها بالسماع والخير، لأنه لا سبيل ونحن في هذه الدار إلى أكثر من ذلك. وإلى قوله: ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا نظر أبو الطيب، فقال، إلا أنه أخرجه في نخرج آخر:

فليس يفوتها إلا كرام

وكان لأهلها منها التمام

بلاد ما اشتهيت رأيت فيها

فهلا كان نقص الأهل فيها

ثم قال: فكم من منقوص في دنياه وهو رابح في آخرته، وكم من مزيد في دنياه وهو خاسر في آخرته. ثم قال: إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم الجملة الأولى هي الجملة الثانية بعينها، وإنما أتى بالثانية تأكيداً للأولى وإيضاحاً لها، ولأن فن الخطابة والكتابة هكذا هو، وينتظم كلتا الجملتين معنى واحداً، وهو أن فيما أحل الله غنى عما حرم، بل الحلال أوسع ألا ترى أن المباح من المأكول والمشروب أكثر عدداً وأجناساً من المحرمات فإن المحرم ليس إلا الكلب والخنزير وأشياء قليلة غيرهما، والمحرم من المشروب الخمر ونحوها من المسكر وما عدا ذلك حلال أكله وشربه، وكذلك القول في النكاح والتسري، فإنهما طريقان مهيعان إلى قضاء الوطر، والسفاح طريق واحد والطريقان أكثر من الطريق الواحد.

فإن قلت: فكيف قال: إن الذي أمرتم به فسمى المباح مأموراً به؟ قلت: سمي كثير من الأصوليين المباح مأموراً به، وذلك لاشتراكه مع المأمور به في أنه لا حرج في فعله، فأطلق عليه اسمه. وأيضاً فإنه لما كان كثير من الأمور التي عددناها مندوباً أطلق عليه لفظ الأمر، لأن المندوب مأمور به وذلك كالنكاح والتسري وأكل اللحوم التي هي سبب قوة البدن، وشرب ما يصلح المزاج من الأشربة التي لا حرج في استعمالها. وقال بعض العقلاء لبنيه: يا بني إنه ليس كل شيء من اللذة ناله أهل الخسارة بخسارتهم إلا ناله أهل المروءة والصيانة بمروءتهم وصيانتهم فاستتروا بستر الله، ودخل إنسان على علي بن موسى الرضا رضي الله عنه، وعليه ثياب مرتفعة القيمة فقال: يا بن رسول الله، أتلبس مثل هذا، فقال له: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

ثم أمر بالعمل والعبادة. ونهى عن الحرص على طلب الرزق، فقال: إنكم أمرتم بالأول وضمن لكم الثاني، فلا تجعلوا المضمون حصوله لكم هو المخصوص بالحرص والاجتهاد بل ينبغي أن يكون الحرص والاجتهاد فيما أمرتم بعمله وهو العبادة. وقد يتوهم قوم أنه ارتفع طلبه بالمضمون، كقولك: المضروب أخوه وهذا غلط لأنه لم يضمن طلبه، وإنما ضمن حصوله ولكنه ارتفع لأنه مبتدأ وخبره أولى وهذا المبتدأ والخبر في موضع نصب، لأنه خبر يكونن أو ارتفع لأنه بدل من المضمون وهذا أحسن وأولى من الوجه الأول وهو بدل الاشتمال.

ثم ذكر أن رجعة العمر غير مرجوة، ورجعة الرزق مرجوة أوضح ذلك بأن الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستعيضه أي يكسب عوضه في الغد ديناراً، وأما أمس نفسه فمستحيل أن يعود ولا مثله، لأن الغد وبعد الغد محسوب من عمره، وليس عوضاً من أمس الذاهب. وهذا الكلام يقتضي أن العمر مقدور، وأن المكاسب والأرزاق إنما هي بالاجتهاد، وليست محصورة مقدرة، وهذا يناقض في الظاهر ما تقدم من قوله: إن الرزق مضمون فلا تحرصوا عليه، فاحتاج الكلام إلى تأويل، وهو أن العمر هو الظرف الذي يوقع المكلف فيه الأعمال الموجبة له السعادة العظمى، المخلصة له من الشقاوة العظمى وليس له ظرف يوقعها فيه إلا هو خاصة، فكل جزء منه إذا فات من غير عمل لما بعد الموت، فقد فات على الإنسان بفواته ما لا سبيل له استدراكه بعينه ولا اغترام مثله، لأن المثل الذي له إنما هو زمان آخر، وليس ذلك في مقدور الإنسان، والزمان المستقبل الذي يعيش فيه الإنسان لم يكتسبه هو لينسب إليه، فيقال: إنه حصله عوضاً مما انقضى وذهب من عمره وإنما هو فعل غيره ومع ذلك فهو معد ومهيأ لأفعال من العبادة توقع فيه، كما كان الجزء الماضي معداً لأفعال

توقع فيه، فليس أحدهما عوضاً عن الآخر ولا قائماً مقامه، وأما المنافع الدنيوية كالمأكول والمشرب والأموال، فإن الإنسان إذا فاته شيء منها قدر على ارتجاعه بعينه، إن كانت عينه باقية، وما لا تبقى عينه يقدر على اكتساب مثله، والرزق وإن كان مضموناً من الله إلا أن للحركة فيه نصيباً، إما أن يكون شرطاً أو أن يكون هو بذاته من أثر قدرة الإنسان، كحركته واعتماده وسائر أفعاله، ويكون الأمر بالتوكل والنهي عن الاجتهاد في طلب الرزق على هذا القول، إنما هو نهي عن الحرص والجشع والتهالك في الطلب فإن ذلك قبيح يدل على دناءة الهمة وسقوطها.

ثم هذه الأغراض الدنيوية إذا حصلت أمثالها بعد ذهابها قامت مقام الذاهب، لأن الأمر الذي يراد الذهاب له يمكن حصوله بهذا المكتسب وليس كذلك الزمان الذاهب من العمر، لأن العبادات والأعمال التي كان أمس متعيناً لها، لا يمكن حصولها اليوم، على حد حصولها أمس، فافترق البابان: باب الأعمال، وباب الأرزاق. وقول: الرجاء مع الجائي، واليأس مع الماضي، كلام يجري مجرى المثل، وهو تأكيد للمعنى الأول، وجعل الجائي مرجواً لأنه لا يعلم غيبه، قال الشاعر:

ولك الساعة التي أنت فيها

ما مضى فات والمقدر غيب

وقوله: حق تقاته، أي حق تقيته، أي خوفه، اتقى يتقي تقيّة وتقاة، ووزنها فعلة وأصلها الياء، ومثلها أتحم تحمة: واتهم تحمة.

ومن خطبة له في الاستسقاء

الأصل: اللهم قد انصاحت جبالنا، واغبرت أرضنا، وهامت دوابنا، وتحيرت في مرايضها، وعجت عجيج الثكالي على أولادها، وملت التردد في مراتعها، والحنين إلى مواردها اللهم فارحم أين الآنة، وحنين الحانة. اللهم فارحم حيرتها في مذهبها، وأنينها في مواجلها اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حداير السنين، واخلفتنا مخايل الجود فكنت الرجاء للمبتمس، والبلاغ للملمتمس، ندعوك حين قنط الأنام، ومنع الغمام، وهلك السوام ألا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا وأنشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق، والربيع المغدق، والنبات المونق، سحاً وابلاً، تحيي به ما قد مات، وترد به ما قد فات.

اللهم سقيا منك محمية مروية، تامة عامة طيبة مباركة، مريئة مريعة، زاكياً نبتها، ثامراً فرعها، ناضراً ورقها، تنعش بها الضعيف من عبادك، وتحيي بها الميت من بلادك!

اللهم سقيا منك تعشب بها نجادنا، وتجري بها وهادنا، ويخصب بها جنابنا، وتقبل بها ثمارنا، وتعيش بها مواشينا، وتندى بها أقاصينا، وتستعين بها ضواحيننا من بركاتك الواسعة، وعطاياك الجزيلة، على بريتك المرملة، ووحشك المهملة. وأنزل علينا سماء مخضلة، مدراراً هاطلة، يدافع الودق منها الودق، ويحفز القطر منها القطر، غير خلب برقها، ولا جهام عارضهما، ولا قزع رباجها، ولا شفان ذهابها، حتى يخصب لإمراعها المجدبون، ويحيا ببركتها المستنون فإنك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا، وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد.

قال الشريف الرضي رحمه الله تعالى: قوله عليه السلام: انصاحت جبالنا، أي تشققت من الحول، يقال: انصاح الثوب،

إذا أنشق. ويقال أيضاً: انصاح النبت، وصاح وصوح، إذا جف وبيس كله بمعنى.

وقوله: وهامت دوابنا أي عطشت، والهيام: العطش.

وقوله: حدابير السنين، جمع حدبار، وهي الناقة التي أنضاهما السير فشبه بها السنة التي فشا فيها الجذب، قال ذو الرمة:

حدابير ما تنفك إلا مناخة **على الخسف أو نرمي بها بلداً قفراً**

وقوله: ولا قزع رباهما، القزع: القطع الصغار المتفرقة من السحاب.

وقوله: ولا شقان ذهاباً فإن تقديره: ولا ذات شقان ذهاباً، والشقان الريح الباردة، والذهاب: الأمطار اللينة، فحذف ذات لعلم السامع به.

الشرح: يجوز أن يريد بقوله: وهامت دوابنا معنى غير ما فسرهُ الشريف الرضي رحمه الله به، وهو ندودها وذهابها على وجوهها لشدة المحل، يقول: هام على وجهه، يهيم هيماً وهيماناً.

والمرباض: مبارك الغنم، وهي لها كالمواطن للإبل، واحدها مربض، بكسر الباء مثل مجلس. وعجت: صرخت: ويحتمل الضمير في أولادها أن يرجع إلى الثكالي، أي كعجيج الثكالي على أولادهم، ويحتمل أن يرجع إلى الدواب، أي وعجت على أولادها كعجيج الثكالي، وإنما وصفها بالتحير في مرباضها، لأنها لشدة المحل تتحير في مباركها، ولا تدري ماذا تصنع إن نهضت لترعى لم تجد رعيّاً، وإن أقامت كانت إلى انقطاع المادة أقرب! قوله: وملت التردد في مراتعها، والحنين إلى مواردها، وذلك لأنها أكثرت من التردد في الأماكن التي كانت تعهد مراتعها فيها فلم تجد مرتعاً، فملت التردد إليها، وكذلك ملت الحنين إلى الغدران والموارد التي كانت تعتادها للشرب، فإنها حنت إليها لما فقدتها، حتى ضجرت وبئست فملت مما لا فائدة لها فيه.

والآنة والحانة: الشاة والناقة، ويقال: ما له حانة ولا آنة. وأصل الأنين صوت المربض وشكواه من الوصب، يقال: أن يثن أنينا وأناناً وتأناناً.

والموالج: المداخل وإنما ابتدأ رضي الله عنه بذكر الأنعام وما أصابها من الجذب اقتفاء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعادة العرب، أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال: "لولا البهائم الرتع، والصبيان الرضع، والشيوخ الركع، لصب عليكم العذاب صباً"، وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى استحباب إخراج البهائم في صلاة الاستسقاء. وتقدير دعائه رضي الله عنه: اللهم إن كنت حرمتنا الغيث لسوء أعمالنا، فارحم هذه الحيوانات التي لا ذنب لها، ولا تؤاخذها بذنوبنا. وأما عادة العرب فإنهم كانوا إذا أصابهم المحل استسقوا بالبهائم، ودعوا الله بها واسترحموا لها ومنهم من كان يجعل في أذنان البقر السلع والعشر، ويصعد بها في الجبال والتلاع العالية، وكانوا يسقون بذلك وقال الشاعر:

أجعل أنت بيقوراً مسلعة **ذريعة لك بين الله والمطر**

فاعتكرت: ردف بعضها بعضاً، وأصل عكر عطف. والعكرة. الكرة، وفي الحديث: قال له قوم: يا رسول الله، نحن الفرارون. فقال: "بل أنتم العكارون إن شاء الله".

والبيت الذي ذكره الرضي رحمه الله لذي الرمة، لا أعرفه إلا حراجيج، وهكذا رأيته بخط ابن الخشاب رحمه الله،

والخرجوج: الناقة الضامرة في طول.

وفيه مسألة نحوية، وهي أنه كيف نقض النفي من ما تنفك وهو غير جائز، كما لا يجوز ما زال زيد إلا قائماً وجوابها أن تنفك ههنا تامة، أي ما تنفصل، ومناخة منصوب على الحال.

قوله: وأخلفتنا مخايل الجود، أي كلما شئنا برقاً، واختلنا سحاباً، أخلفنا ولم يخطر. والجود: المطر الغزير. ويروى: مخايل الجود بالضم.

والمبتئس: ذو البؤس: والبلاغ للملمس، أي الكفاية للطالب.

وتقول: قنط فلان، بالفتح، يقنط ويقنط، بالكسر والضم، فهو قانط. وفيه لغة أخرى قنط بالكسر، يقنط قنطاً، مثل تعب يتعب تعباً، وقناطة أيضاً، فهو قنط. وقرئ: "ولا تكن من القنطين".

وإنما قال: ومنع الغمام فبنى الفعل للمفعول به لأنه كره أن يضيف المنع إلى الله تعالى، وهو منبع النعم، فاقترضى حسن الأدب أنه لم يسم الفاعل. وروي منع الغمام، أي ومنع الغمام القطر، فحذف المفعول. والسوام: المال الراعي.

فإن قلت: ما الفرق بين تؤاخذنا وبين تأخذنا قلت: المؤاخذة دون الأخذ لأن الأخذ الاستئصال، والمؤاخذة عقوبة وإن قلت.

والسحاب المنبعق: المتبعج بالمطر، ومثله المتبعق، ومثله البعاق. والربيع المغدق: الكثير. والنبات المونق: المعجب، وانتصب سحا على المصدر. والوابل: المطر الشديد.

ثم قال: تحيي به ما قد مات، أي يكاد يتلف بها من الزرع. وترد به ما قد فات، أي يستدرك به الناس ما فاتهم من الزرع والحرث، والسقيا مؤنثة وهي الاسم من سقى. والمريعة: الخصيبة، وثامراً فرعها: ذو ثمر، كما قالوا: لابن وتامر، ذو لبن وتمر، وتنعش: ترفع. والنجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض. والوهاد: جمع وهد، وهو المطمئن منها وروي: نجادنا بالنصب على أنه مفعول.

قوله: وتندى بها أقاصينا، أي الأبعاد منا. ويندى بها: ينتفع، نديت بكذا، أي انتفعت.

والضواحي: النواحي القريبة من المدينة العظمى. والمرملة: الفقيرة، أرمل افتقر ونفد زاده. ووحشك المهملة: التي لا راعي لها ولا صاحب ولا مشفق.

وسماء مخضلة: تخضل النبات أي تبله، وروي: مخضلة أي ذات نبات وزروع مخضلة، يقال: اخضل النبات اخضلاً، أي ابتل: وإنما أنت السماء وهو المطر وهو مذكر، لأنه أراد الإمطار. والودق: المطر. ويجفز: يدفع بشدة وإذا دفع القطر القطر، كان أعظم وأغزر له.

وبرق خلب: لا مطر معه، وسحاب جهام: لا ماء فيه، والمجدبون: أهل الجذب. والمستنون الذين أصابتهم السنة وهي المحل والقحط الشديد.

رأي الفقهاء في صلاة الاستسقاء

واعلم أن صلاة الاستسقاء عند أكثر الفقهاء سنة.

وقال أبو حنيفة: لا صلاة للاستسقاء. قال أصحابه: يعني ليست سنة في جماعة، وإنما يجوز أن يصلي الناس وحدانا، قالوا: وإنما الاستسقاء هو الدعاء والاستغفار.

وقال باقي الفقهاء كالشافعي وأبي يوسف ومحمد وغيرهم لخلاف ذلك. قالوا: وقد روي أن رسول الله صلى بالناس جماعة في الاستسقاء، فصك ركعتين، جهر بالقراءة فيهما وحول رداءه ورفع يديه واستسقى. قالوا: والسنة أن يكون في المصلي، وإذا أراد الإمام الخروج لذلك وعظ الناس، وأمرهم بالخروج من المظالم والتوبة من المعاصي، لأن ذلك يمنع القطر. قالوا: وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إذا بحس المكيال حبس القطر.

وقال مجاهد في قوله تعالى: "ويلعنهم اللاعنون"، قال: دواب الأرض تلعنهم، يقولون: منعنا القطر بخطاياهم. قالوا: ويأمر الإمام الناس بصوم ثلاثة أيام قبل الخروج، ثم يخرج في اليوم الرابع وهم صيام ويأمرهم بالصدقة، ويستسقي بالصالحين من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعل عمر، ويحضر معه أهل الصلاح والخير، ويستسقي بالشيوخ والصبيان.

واختلفوا في إخراج البهائم، فمنهم من استحب ذلك، ومنهم من كرهه، ويكره إخراج أهل الدمة، فإن حضروا من عند أنفسهم لم يمنعوا. والغسل والسواك في صلاة الاستسقاء عندهم مسنونان، ولا يستحب فيهما التطيب، لأن الحال لا يقتضيه.

وينبغي أن يكون الخروج بتواضع وخشوع وإحبات، كما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستسقاء. قالوا: ولا يؤذن لهذه الصلاة ولا يقام، وإنما ينادى لها: الصلاة جامعة وهي ركعتان كصلاة العيد، يكبر في الأولى، سبع تكبيرات، وفي الثانية خمس تكبيرات.

قالوا: ويخطب بعد الصلاة خطبتين، ويكون دعاء الاستسقاء في الخطبة الأولى. قالوا: فيقول: اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، هنيئاً مريئاً مريعاً، غدقاً مجللاً طبقاً، سحاً دائماً. اللهم اسقنا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. اللهم إن بالعباد والبلاد من اللأواء، والضنك والجهد ما لا نشكوه إلا إليك. اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، واسقنا من بركات السماء. اللهم اكشف عنا الجهد والجوع والعري، واكشف عنا ما لا يكشفه غيرك. اللهم إنا نستغفرك، إنك كنت غفاراً، فأرسل السماء علينا مدراراً.

قالوا: ويستحب أن يستقبل القبلة في أثناء الخطبة الثانية، ويجول رداءه فيجعل ما على الأيمن على الأيسر، وما على الأيسر على الأيمن تفاعلاً بتحول الحال. وكذا روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل، ويستحب للناس أن يحولوا أرديتهم مثله، ويتركوها كما هي، ولا يعيدوها إلى حالها الأولى إلا إذا رجعوا إلى منازلهم.

ويستحب أن يدعو في الخطبة الثانية سراً فيجمع بين الجهر والسر، كما قال سبحانه وتعالى: "إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً"، وكقوله تعالى: "واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول". قالوا: ويستحب رفع اليد في هذا الدعاء، وأن يكثروا من الاستغفار لقوله تعالى: "استغفروا ربكم إنه كان غفاراً؛ يرسل السماء عليكم مدراراً" فإن

صلوا واستسقوا فلم يسقوا عادوا من الغد، وصلوا واستسقوا، وإن سقوا قبل الصلاة صلوا شكراً وطلباً للزيادة. قالوا: ويستحب أن يقفوا تحت المطر حتى يصيبهم، وأن يحسروا له عن رؤوسهم وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حسر عن رأسه حتى أصابه مطر الاستسقاء. ويستحب إذا سال الوادي أن يغتسلوا فيه، ويتوضأوا منه. وقد استحب قوم من الفقهاء أن يخرج الناس للاستسقاء حفاة حاسرين، والأكثر على خلاف ذلك. فأما مذهب الشيعة في هذه المسألة فإن يستقبل الإمام القبلة بعد صلاة الركعتين، فيكبر الله مائة تكبيرة، ويرفع بها صوته ويكبر من حضر معه، ثم يلتفت عن يمينه فيسبح الله مائة تسبيحة، يرفع بها صوته، ويسبح معه من حضر، ثم يلتفت عن يساره فيهلل الله مائة مرة يرفع بها صوته، ويقول من حضر مثل ذلك، ثم يستقبل الناس بوجهه، فيحمد الله مائة مرة، يرفع بها صوته ويقول من حضر مثل ذلك ثم يخطب بهذه الخطبة المروية عن أمير المؤمنين رضي الله عنه في الاستسقاء، فإن لم يتمكن منها اقتصر على الدعاء.

أحاديث في الاستسقاء

وجاء في الأخبار الصحيحة رؤيا رقيقة في الجاهلية وهي رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف، قالت رقيقة: تابعت على قريش سنون أقحلت الضرع وأرقت العظم، فبينما أنا راقدة اللهم أو مهومة ومعني صنوي، إذا أنا بهاتف صيت يصرخ بصوت صحل: يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث فيكم قد أظلتكم أيامه، وهذا إبان نجومه فحيها بالخصب والحياء. ألا فانظروا رجلاً منكم عظماً جساماً، أبيض بضاً، أو طف الأهداب سهل الخدين أشم العرنيين، له سنة تهدي إليه. ألا فليخلص هو وولده، وليدلف إليه من كل بطن رجل. ألا فليشئوا عليهم من الماء وليمسوا من الطيب، وليطوفوا بالبيت سبعاً وليكن فيهم الطيب الطاهر لداته. فليستق الرجل، وليؤمن القوم. ألا فغثم إذا ما شئتم. قالت: فأصبحت علم الله مذعورة قد قف جلدي، ووله عقلي، فاقتصصت رؤيائي على الناس، فذهبت في شعاب مكة فوالحرمة والحرم، إن بقي أبطحي إلا وقال: هذا شبيهة الحمد. فتتامت رجال قريش، وانقض إلى من كل بطن رجل، فشئوا عليهم ماء، ومسوا طيباً، واستلموا واطرقوا، ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يدفون حول عبد المطلب، ما إن يدرك سعيهم مهله حتى استقروا بذروة الجبل، واستكفوا جانيبه. فقام فاعتضد ابن ابنه محمداً صلى الله عليه وسلم، فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أفع أو كرب، ثم قال: اللهم ساد الخلّة، وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلم، ومسؤول غير مبخل، وهذه عبدائك وإماؤك بعذارات حرمك، يشكون إليك سنتهم التي أذهبت الخف والظلف، فاسمعن اللهم، وأمطرن علينا غيثاً مغدقاً مريعاً سحاً طيقاً دراكاً. قالت: فو رب الكعبة ما راموا حتى انفجرت السماء بمائها واكتظ الوادي بشجيجه وانصرف الناس يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك سيد البطحاء. وفي رواية أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: فسمعنا شيخان قريش وجلتها: عبد الله بن جدعان وحرب بن أمية وهشام بن المغيرة، يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك، أبا البطحاء. وفي ذلك قال الشاعر من قريش وقد روى هذا الشعر لرقيقة:

وقد فقدنا الحيا واجلوز المطر

بشبية الحمد أسقى الله بلدتنا

وفي الحديث من رواية أنس بن مالك: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام إليه رجل وهو يخطب يوم الجمعة، فقال: يا رسول الله، هلك الشاء، هلك الزرع، ادع الله لنا أن يسقينا، فمد رضي الله عنه يده، ودعا واستسقى.

وإن السماء كمثل الزحاجة، فهاجت ريح ثم أنشأت سحاباً، ثم اجتمع، ثم أرسلت عزاليها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، ودام القطر، فقام إليه الرجل في اليوم الثالث. فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت، ادع الله أن يحبس عنا، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رفع يده: وقال: "اللهم حوالينا ولا علينا".

قال أنس: فوالذي بعث محمداً بالحق، لقد نظرت إلى السحاب، وإنه لقد أنجب حول المدينة كالإكليل.

وفي حديث عائشة أنه رضي الله عنه استسقى حين بدأ قرن الشمس، فقع على المنبر، وحمد الله وكبره، ثم قال: إنكم شكيتم جذب دياركم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم فادعوه. ثم رفع صوته فقال: اللهم إنك أنت الغني، ونحن الفقراء، فأنزل علينا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. اللهم اجعل ما تنزله علينا قوة لنا، وبلاغاً إلى حين برحمتك يا أرحم الراحمين. فأنشأ الله سحاباً، فرعدت وبرقت، ثم أمطرت، فلم يأت رضي الله عنه منزله، حتى سألت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك حتى بدت نواجذه، وقال: أشهد أي عبد الله ورسوله، وأن الله على كل شيء قدير. ومن دعائه رضي الله عنه في الاستسقاء وقد رواه الفقهاء وغيرهم: اللهم اسقنا وأغثنا، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، وحيّاً ربيعاً، وجداً طبقاً، وغدقاً مغدقاً، مونقاً عاماً، هنيئاً مريئاً، مريعاً مربعاً مرتعاً، وابللاً سابلاً مسيلاً، مجللاً دراً، نافعاً غير ضار، عاجلاً غير راث. غيثاً اللهم تحمي به العباد، وتغيث به البلاد، وتجعله بلاغاً للحاضر منا والباد، اللهم أنزل علينا في أرضنا زيتها، وأنزل علينا في أرضنا سكنها، اللهم أنزل علينا ماء طهوراً، فأحي به بلدة ميتاً، واسقه مما خلقت لنا أنعاماً وأناسي كثيراً.

وروى عبد الله بن مسعود أن عمر بن الخطاب خرج يستسقي بالعباس، فقال: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وقفية آبائه وكبر رجاله، فإنك قلت، وقولك الحق: "وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة"، فحفظتهما لصالح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك في عمه فقد دلونا به إليك مستشفعين ومستغفرين. ثم أقبل على الناس، فقال: استغفروا ربكم إنه كان غفارا.

قال ابن مسعود: رأيت العباس يومئذ وقد طال عمره، وعيناه تنضحان، وسبابته تحول على صدره وهو يقول: اللهم أنت الراعي فلا تهمل الضالة، ولا تدع الكسير بدار مضیعة، فقد ضرع الصغير، ورق الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى. اللهم أغثهم بغياثك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون. قال: فنشأت طرية من سحاب، وقال الناس: ترون ترون ثم تلاءمت واستتمت ومشت فيها ريح، ثم هدت ودرت،

فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الأحذية، وقلصوا المآزر، وطفق الناس يلوذون بالعباس، يمسحون أركانهم ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين .

ومن خطبة له في تعظيم ما حجب عن الناس

الأصل: أرسله داعياً إلى الحق، وشاهداً على الخلق، فبلغ رسالات ربه، غير وان ولا مقصر، وجاهد في الله أعداءه، غير واهن ولا معذر، إمام من أتقى، وبصر من اهتدى.

الشرح: قوله: وشاهداً على الخلق، أي يشهد على القوم الذين بعث إليهم، وشهد لهم فيشهد على العصيان والخلاف، ويشهد للمطيع بالإطاعة والإسلام، وهذا من قوله سبحانه وتعالى: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً"، ومن قوله تعالى: "وكنتم عليهم شهداء ما دمت فيهم".

فإن قلت: إذا كان الله تعالى عالماً بكل شيء، ومالكاً لكل أحد، فأى حاجة إلى الشهادة؟ قلت: ليس بمنكر أن يكون في ذلك مصلحة للمكلفين في أديانهم، من حيث إنه قد تقرر في عقول الناس، أن من يقوم عليه شاهد بأمر منكر، قد فعله، فإنه يخزى ويحجل وتنقطع حجته، فإذا طرق أسماعهم أن الأنبياء تشهد عليهم، والملائكة الحافظين تكتب أعمالهم، كانوا عن مواجهة القبيح أبعد. والوأي: الفاتر الكال. والواهن: الضعيف، والمعذر: الذي يعتذر عن تقصيره بغير عذر قال تعالى: "وجاء المعذرون من الأعراب".

الأصل: منها: ولو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه إذا خرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم، وتلتمون على أنفسكم، ولتركتكم أموالكم لا حارس لها، ولا خالف عليها، ولهمت كل امرئ منكم نفسه، لا يلتفت إلى غيرها ولكنكم نسيتم ما ذكرتم، وأنتم ما حذرت، فتاه عنكم رأيكم، وتشتت عليكم أمركم، ولوددت أن الله فرق بيني وبينكم، وألحقني بمن هو أحق بي منكم قوم والله ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، متاريك للبغي، مضوا قدماً على الطريقة، وأوجفوا على المحجة، فظفروا بالعقبي الدائمة، والكرامة الباردة.

أما والله ليسلطن عليكم غلام ثقيف الذيال الميال، يأكل خضرتكم، ويذيب شحمتكم. إيه أبا وذحة. قال الرضي رحمه الله تعالى: الذحة: الخنفساء، وهذا القول يومئ به إلى الحجاج، وله مع الذحة حديث ليس هذا موضع ذكره.

الشرح: الصعيد: التراب، ويقال: وجه الأرض، والجمع صعد وصعدات، كطريق وطرق وطرقات. والالتدام: ضرب النساء صدورهن في النياحة. ولا خالف عليها، لا مستخلف.

قوله: ولهمت كل امرئ منكم نفسه، أي أذاخته وأخلته، همت الشحم، أي أذنته. ويروى: ولأهمت كل امرئ وهو أصح من الرواية الأولى، أهمني الأمر، أي أحزني، وتاه عن فلان رأيه، أي عزب وضل.

ثم ذكر أنه يود ويتمنى أن يفرق الله بينه وبينهم، ويلحقه بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالصالحين من أصحابه، كحمزة وجعفر رضي الله عنهما وأمثالهما ممن كان أمير المؤمنين يثني عليه. ويحمد طريقته من الصحابة. فمضوا قدماً، أي متقدمين غير معرجين ولا معردين.

وأوجفوا: أسرعوا. ويقال: غنيمة باردة وكرامة باردة، أي لم تؤخذ بحرب ولا عسف وذلك لأن المكتسب بالحرب جاري المعنى لما يلاقي ويعاني في حصوله من المشقة.

وغلام ثقيف المشار إليه، هو الحجاج بن يوسف. والذيل: النائه، وأصله من ذال أي تبختر، وجر ذيله على الأرض. والميال: الظالم.

ويأكل خضرتكم: يستأصل أموالكم. ويذيب شحمتكم مثله، وكلتا اللفظتين استعارة.

ثم قال له كالمخاطب لإنسان حاضر بين يديه: أيه أبا وذحة، إيه كلمة يستزاد بها من الفعل، تقديره: زد وهات أيضاً ما عندك، وضدها إيه، أي كف وأمسك.

قال الرضي رحمه الله: والوذحة الخنفساء ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب، ولا وجدته في كتاب من كتب اللغة، ولا أدري من أين نقل الرضي رحمه الله ذلك! ثم إن المفسرين بعد الرضي رحمه الله قالوا في قصة هذه الخنفساء وجوها: منها أن الحجاج رأى خنفساء تدب إلى مصلاه، فطردها فعادت، ثم طردها فعادت، فأخذها بيده، وحذف بها، فقرصته قرصاً ورمته يده منها وربما كان فيه حتفه، قالوا: وذلك لأن الله تعالى قتله بأهون مخلوقاته، كما قتل عمرو بن كنعان بالبقعة التي دخلت في أنفه، فكان فيها هلاكه.

ومنها أن الحجاج كان إذا رأى خنفساء تدب قريبة منه، يأمر غلماناً بإبعادها، ويقول: هذه وذحة من وذح الشيطان، تشبيهها لها بالبعرة، قالوا: وكان مغرى بهذا القول، والوذح: ما يتعلق بأذنان الشاة من أبعادها فيجف.

ومنها أن الحجاج قال وقد رأى خنفساوات مجتمعات: واعجباً لمن يقول إن الله خلق هذه قيل: فمن خلقها أيها الأمير؟ قال: الشيطان، إن ربكم لأعظم شأناً أن يخلق هذه الودح قالوا: فجمعها على فعل كبدة وبدن، فنقل قوله هذا إلى الفقهاء في عصره، فأكفروه.

ومنها أن الحجاج كان مثفراً، وكان يمسك الخنفساء حية ليشفي بجركتها في الموضع حكاكه. قالوا: ولا يكون صاحب هذا الداء إلا شائناً مبغضاً لأهل البيت. قالوا: ولسنا نقول كل مبغض فيه هذا الداء، وإنما قلنا: كل من فيه هذا الداء فهو مبغض.

قالوا: وقد روى أبو عمر الزاهد ولم يكن من رجال الشيعة في أماليه وأحاديثه عن السياري عن أبي خزيمة الكاتب، قال: ما فتننا أحداً فيه هذا الداء إلا وجدناه ناصباً.

قال أبو عمر: وأخبرني العطافي عن رجاله، قالوا: سئل جعفر بن محمد رضي الله عنه عن هذا الصنف من الناس، فقال: رحم منكوسة يؤتى ولا يأتي وما كانت هذه الخصلة في ولي الله تعالى قط ولا تكون أبداً، وإنما تكون في الكفار والفساق والناصب للطاهرين.

وكان أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي من القوم وكان أشد الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: ولذلك قال له عتبة بن ربيعة يوم بدر: يا مصفر استه.

فهذا مجموع ما ذكره المفسرون، وما سمعته من أفواه الناس في هذا الموضع، ويغلب على ظني أنه أراد معنى آخر وذلك أن

عادة العرب أن تكني الإنسان إذا أرادت تعظيمه بما هو مظنة التعظيم، كقولهم: أبو الهول، وأبو المقدام، وأبو المغوار، فإذا أرادت تحقيره والغض منه كنته بما يستحق ويستهان به، كقولهم في كنية يزيد بن معاوية: أبو زنة، يعنون القرد، وكقولهم في كنية سعيد بن حفص البخاري المحدث: أبو الفار، وكقولهم للطفيلي: أبو لقمة، وكقولهم لعبد الملك: أبو الذبان لبخره، وكقول ابن بسام لبعض الرؤساء:

فأنت لعمرى أبو جعفر

ولكننا نحذف الفاء منه

وقال أيضاً:

لئيم درن الثوب

نظيف القعب والقدر

أبو النتن، أبو الدفر،

أبو البعر، أبو الجعر

فلما كان أمير المؤمنين رضي الله عنه يعلم من حال الحجاج نجاسته بالمعاصي والذنوب التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصق بشعر الشاء، كناه أبو ودحة ويمكن أيضاً أن يكنيه بذلك لدمامته في نفسه، وحقارة منظره، وتشويه خلقته، فإنه كان قصيراً دميماً خيفاً، أخفض العينين معوج الساقين، قصير الساعدين، مجذور الوجه، أصلع الرأس، فكناه بأحقر الأشياء، وهو البعرة.

وقد روى قوم هذه اللفظة بصيغة أخرى، فقالوا: إيه أبا ودحة قالوا: واحدة الأوداج، كناه بذلك لأنه كان قتالاً يقطع الأوداج بالسيف، ورواه قوم أبا وحره وهي دوية تشبه الحرباء قصيرة الظهر، شبهه بها، وهذا وما قبله ضعيف، وما ذكرناه نحن أقرب إلى الصواب.

ومن كلام له في التوبيخ على البخل

الأصل: فلا أموال بذلتموها للذي رزقها، ولا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها، تكرمون بالله على عباده، ولا تكرمون الله في عباده. فاعتبروا بتزولكم منازل من كان قبلكم، وانقطاعكم عن أوصل إخوانكم.

الشرح: انتصاب الأموال بفعل مقدر دل عليه بذلتموها وكذلك أنفس، يقول: لم تبدلوا أموالكم في رضا من رزقكم إياها، ولم تخاطروا بأنفسكم في رضا الخالق لها، والأولى بكم أن تبدلوا المال، في رضا رازقه، والنفس في رضا خالقها، لأنه ليس أحد أحق منه بالمال والنفس وبذلها في رضا.

ثم قال: من العجب أنكم تطلبون من عباد الله أن يكرمواكم ويطيعواكم لأجل الله، وانتمائكم إلى طاعته، ثم إنكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه في نفع عباده، والإحسان إليهم.

ومحصل هذا القول: كيف تسيمون الناس أن يطيعواكم لأجل الله، ثم إنكم أنتم لا تطيعون الله، الذي تكلفون الناس أن يطيعواكم لأجله.

ثم أمرهم باعتبارهم بتزولهم منازل من كان قبلهم، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: "وسكنتم في مساكن الذين ظلموا

أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال".
وروي عن أصل إخوانكم وذلك بموت الأب، فإنه ينقطع أصل الأخ الواشح بينه وبين أخيه، والرواية الأولى أظهر.

في حث أصحابه على مناصحته

الأصل: أنتم الأنصار على الحق، والإخوان في الدين، والجنن يوم البأس، والبطانة دون الناس بكم أضرب المدير، وأرجو طاعة المقبل، فأعينوني بمناصحة خلية من الغش، سليمة من الريب فوالله إني لأولى الناس بالناس.
الشرح: الجنن: جمع جنة، وهي ما يستتر به. وبطانة الرجل: خواصه وخالصته الذين لا يطوي عنهم سره.
فإن قلت: أما ضربه بهم المدير فمعلوم يعني الحرب، فما معنى قوله رضي الله عنه: وأرجو طاعة المقبل؟ قلت: لأن من ينضوي إليه من المخالفين إذا رأى ما عليه شيعته وبطانته من الأخلاق الحميدة، والسيرة الحسنة، أطاعه بقلبه باطناً، بعد أن كان انضوى إليه ظاهراً.
واعلم أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين رضي الله عنه للأتصار بعد فراغه من حرب الجمل وقد ذكره المدائني والواقدي في كتابيهما.

ومن كلام له وقد جمع الناس، وحضهم

على الجهاد، فسكتوا ملياً، فقال عليه السلام

ما بالكم أخرسون أنتم؟ فقال قوم منهم: يا أمير المؤمنين، إن سرت سرنا معك.

الأصل: فقال عليه السلام: ما بالكم! لا سددم لرشد! ولا هديتم لقصد، أفى مثل هذا ينبغي لي أن أخرج وإنما يخرج في مثل هذا رجل ممن أرضاه من شجعانكم، وذوي بأسكم، ولا ينبغي لي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض، والقضاء بين المسلمين، والنظر في حقوق المطالبين، ثم أخرج في كتيبة أتبع أخرى أتقلقل تقلقل القدح في الجفير الفارغ. وإنما أنا قطب الرحا، تدور علي وأنا بمكاني، فإذا فارقتة أستحار مدارها، وأضطرب ثفالها. هذا لعمر الله الرأي السوء، والله لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو ولو قد حم لي لقاءه لقربت ركابي، ثم شخصت عنكم فلا أطلبكم، ما أختلف جنوب وشمال، طعانين عيايين، حيادين رواغين.

إنه لا غناء في كثرة عددكم، مع قلة اجتماع قلوبكم، لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلا هالك، من استقام فيلى الجنة، ومن زل فيلى النار! الشرح: سكتوا ملياً، أي ساعة طويلة، ومضى ملي من النهار كذلك، قال الله تعالى: "وأهجرني ملياً". وأقمت عند فلان ملاوة وملاوة وملاوة من الدهر، بالحركات الثلاث، أي حيناً وبرهة، وكذلك أقمت ملوة وملوة وملوة، بالحركات الثلاث.

وقوله: "أخرسون أنتم" اسم المفعول من أخرسه الله، وخرس الرجل، والخرس المصدر.

والكتيبة: قطعة من الجيش: والتقلقل: الحركة في اضطراب. والقدح: السهم. والجفير: الكنانة، وقيل وعاء للسهم أوسع

من الكنانة.

واستحار مدارها: اضطرب، والمدار ههنا مصدر. والثفال بكسر الشاء: جلد يسط وتوضع الرحا فوقه، فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق. وحـم: أي قدر، والركاب: الإبل، وشخصت عنكم: خرجت. ثم وصفهم بعيب الناس والطعن فيهم، وأنهم يحيدون عن الحق وعن الحرب، أي ينحرفون ويروغون كما يروغ الثعلب.

ثم قال: إنه لا غناء عندكم وإن اجتمعتم بالأبدان مع تفرق القلوب. والغناء، بالفتح والمد: النفع. وانتصب طعانين على الحال من الضمير المنصوب في أطلبكم.

وهذا كلام قاله أمير المؤمنين رضي الله عنه في بعض غارات أهل الشام على أطراف أعماله بالعراق بعد انقضاء أمر صفين والنهروان، وقد ذكرنا سببه ووقعته فيما تقدم.

فإن قلت: كيف قال: الطريق الواضح، فذكره، ثم قال: لا يهلك فيها فأنته؟ قلت: لأن الطريق يذكر ويؤنث، تقول: الطريق الأعظم والطريق العظمى، فاستعمل اللغتين معاً.

ومن كلام له في الحث على الإستقامة

الأصل: تالله لقد علمت تبليغ الرسالات، وإتمام العادات، وتتمام الكلمات وعندنا أهل البيت أبواب الحكم، وضيء الأمر. ألا وإن شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة من أخذ بها لحق وغنم ومن وقف عنها ضل وندم، أعملوا ليوم تذخر له الذخائر، وتبلى فيه السرائر، ومن لا ينفعه حاضر ليه فاعازبه عنه أعجز، وغائبه أعوز، واتقوا ناراً حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليتها حديد، وشرابها صديد.

ألا وإن اللسان الصالح يجعله الله تعالى للمرء في الناس، خير له من المال يورثه من لا يحمده.

الشرح: رواها قوم لقد علمت بالتخفيف وفتح العين، والرواية الأولى أحسن، فتبليغ الرسالات تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المكلفين، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: "يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله"، وإلى قول النبي صلى الله عليه وسلم في قصة براءة: "لا يؤدي عني إلا أنا ورجل مني".

وإتمام العادات إنجازها، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه"، وإلى قول النبي صلى الله عليه وسلم في حقه رضي الله عنه: قاضي ديني ومنجز موعدي".

وتتمام الكلمات: تأويل القرآن، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: "وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً"، وإلى قول النبي صلى الله عليه وسلم في حقه رضي الله عنه: "اللهم أهد قلبه، وثبت لسانه".

وخلاصة هذا، أنه أقسم بالله أنه قد علم، أو علم على اختلاف الروايتين أداء الشرائع إلى المكلفين، والحكم بينهم بما أنزله الله، وعلم مواعيد رسول الله التي وعد بها، فمنها ما هو وعد لواحد من الناس بأمر، نحو أن يقول له: سأعطيك كذا، ومنها ما هو وعد بأمر يحدث، كأخبار الملاحم والأمور المتجددة. وعلم تمام كلمات الله تعالى، أي تأويلها وبيانها الذي يتم به لأن في كلامه تعالى الجمل الذي لا يستغني عن متمم ومبين يوضحه.

ثم كشف الغطاء وأوضح المراد فقال: وعندنا أهل البيت أبواب الحكم، يعني الشرعيات والفتاوى. وضيء الأمر، يعني العقليات والعقائد، وهذا مقام عظيم لا يجسر أحد من المخلوقين أن يدعيه سواه رضي الله عنه، ولو أقدم أحد على ادعائه غيره لكذب وكذبه الناس.

وأهل البيت منصوب على الاختصاص، وسبله قاصدة، أي قريبة سهلة، ويقال: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة ورافهة، أي هينة المسير لا تعب فيها ولا بطة. وتبلى فيه السراق، أي تختبر.

ثم قال: من لا ينفعه له الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر ولا موجود من العقل عنده أولى وأحرى أي من لم يكن من نفسه ومن ذاته وازع وزاجر عن القبيح، فبعيد أن يتجر، وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة غيره له كما قيل: وزاجر من النفس خير من عتاب العواذل ثم ذكر النار فحذر منها. وقوله: حليتها حديد يعني القيود والأغلال.

ثم ذكر أن الذكر الطيب يخلفه الإنسان بين الناس خير له من مال يجمعه ويورثه من لا يحمد وجاء في الأثر أن أمير المؤمنين رضي الله عنه جاءه مخبر فأخبره أن مالا له قد انفجرت فيه عين حرارة، يبشره بذلك، فقال: بشر الوارث بشر الوارث، يكررها، ثم وقف ذلك المال على الفقراء، وكتب به كتاباً في تلك الساعة.

وقد قام إليه رجل من أصحابه

فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فما ندري أي الأمرين أرشد فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى، ثم قال: الأصل: هذا جزاء من ترك العقدة! أما والله لو أتي حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومتمكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكنت الوثقى، ولكن بمن وإلى من أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم أن ضلعها معها! اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي، وكلت التزعة بأشطان الركي! أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى الجهاد فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أعمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً، بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء ولا يعززون عن الموتى، مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظماً إليهم، ونعص الأيدي على فراقهم! إن الشيطان يسني لكم طريقه، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة، وبالفرقة الفتنة، فاصدقوا عن نزغاته ونفثاته، وأقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم، وأعقلوها على أنفسكم.

الشرح: هذه شبهة من شبهات الخوارج، ومعناها أنك نهيت عن الحكومة أولاً ثم أمرت بها ثانياً، فإن كانت قبيحة كنت بنهيك عنها مصيباً، وبأمرك بها مخطئاً، وإن كانت حسنة، كنت بنهيك عنها مخطئاً وبأمرك بها مصيباً، فلا بد من خطئك على كل حال.

وجوابها أن للإمام أن يعمل بموجب ما يغلب على ظنه من المصلحة، فهو رضي الله عنه لما نهاهم عنها كان نهيه عنها مصلحة حينئذ، ولما أمرهم بها كانت المصلحة في ظنه قد تغيرت، فأمرهم على حسب ما تبدل وتغير في ظنه، كالطبيب

الذي ينهى المريض اليوم عن أمر ويأمره بمثله غداً.

وقوله: هذا جزاء من ترك العقدة، يعني الرأي الوثيق، وفي هذا الكلام اعتراف بأنه بان له وظهر فيما بعد أن الرأي الأصح كان الإصرار والثبات على الحرب، وأن ذلك وإن كان مكروهاً، فإن الله تعالى كان يجعل الخيرة فيه، كما قال سبحانه: "فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً".

ثم قال: كنت أحملكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة معاوية وعمرو من رفع المصاحف، فإن استقمتم لي اهتديتم بي، وإن لم تستقيموا فذلك ينقسم إلى قسمين: أحدهما أن تعوجوا، أي يقع منكم بعض الالتواء، ويسير من العصيان، كفتور الهمة وقلة الجد في الحرب. والثاني التأني والامتناع المطلق من الحرب، فإن كان الأول قومتم بالتأديب والإرشاد وإرهاق الهمم والعزائم بالتبصير والوعظ والتحريض والتشجيع، وإن كان الثاني تداركت الأمر معكم: إما بالاستنجاد بغيركم من قبائل العرب وأهل خراسان والحجاز، فكلهم كانوا شيعة وقائلين بإمامته، أو بما أراه في ذلك الوقت من المصلحة التي تحكم بها الحال الحاضرة.

قال: لو فعلت ذلك لكانت هي العقدة الوثقى أي الرأي الأصوب الأحزم.

فإن قلت: أفتقولون إنه أخطأ بمعنى الإثم، لأنه إنما فعل ما تغلب على ظنه أنه المصلحة، وليس الواجب عليه إلا ذلك، ولكنه ترك الرأي الأصوب، كما قال الحسن: هلا مضيت قدماً لا أباً لك، ولا يلحق الإثم من غلب على ظنه في حكم السياسة أمر فاعتمده، ثم بان له أن الأصوب كان خلافه، وقد قيل إن قوله:

سوف أكيس بعدها واستمر

لقد عثرت عثرة لا تنجبر

وأجمع الرأي الشئيت المنتشر

إشارة إلى هذا المعنى وقيل فيه غير ذلك مما قدمنا ذكره قبل.

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رضي الله عنه: من عرفه عرف أنه غير ملوم في الانقياد معهم إلى التحكيم، فإنه مل من القتل وتجريد السيف ليلاً ونهاراً، حتى ملت الدماء من إراقته لها، وملت الخيل من تقحمه الأهوال بها، وضجر من دوام تلك الخطوب الجليلة والأرزاء العظيمة، واستلاب الأنفس، وتطايير الأيدي والأرجل بين يديه، وأكلت الحرب أصحابه وأعداءه، وعطلت السواعد، وخدرت الأيدي التي سلمت من وقائع السيوف بها، ولو أن أهل الشام لم يستعفوا من الحرب، ويستقبلوا من المقارعة والمصادمة، لأدت الحال إلى قعود الفيلقين معاً، ولزومهم الأرض وإلقائهم السلاح، فإن الحال أفضت بعظمها وهو لها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه.

واعلم أنه رضي الله عنه قال هذا القول، واستدرك بكلام آخر حذراً أن يثبت على نفسه الخطأ في الرأي، فقال: لقد كان هذا رأياً لو كان لي من يطيعني فيه، وشمل بموجبه، وأستعين به على فعله، ولكن بمن كنت أعمل ذلك، وإلى من أخلد في فعله! أما الحاضرون لنصري فأنتم وحالكم معلومة في الخلاف والشقاق والعصيان، وأما الغائبون من شيعتي كأهل البلاد النائية فيلإ أن يصلوا يكون قد بلغ العدو غرضه مني، ولم يبق من أخلد إليه في إصلاح الأمر وإبرام هذا الرأي الذي كان

صواباً اعتمد إلا أن أستعين ببعضكم على بعض، فأكون كناقش الشوكة بالشوكة، وهذا مثل مشهور: لا تنقش الشوكة بالشوكة. فإن ضلعها لها، والضلع الميل يقول: لا تستخرج الشوكة الناشبة في رجلك بشوكة مثلها، فإن إحداها في القوة والضعف كالأخرى، فكما أن الأولى انكسرت لما وطئتها فدخلت في لحمك، فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تنكسر، وتلج في لحمك.

ثم قال: اللهم إن هذا الداء الدوي، قد ملت أطباؤه، والدوي: الشديد، كما تقول: ليل أليل. وكلت التزعة: جمع نازع، وهو الذي يستقي الماء، والأشطان: جمع شطن، وهو الحبل. والركي: الآبار، جمع ركية، وتجمع أيضاً على ركايًا.

ثم قال: أين القوم! هذا كلام متأسف على أولئك، متحسر على فقدهم. والوله: شدة الحب حتى يذهب العقل، وله الرجل، واللقاح، بكسر اللام: الإبل، والواحدة لقوح، وهي الحلوب، مثل قلاص وقلوص.

قوله: وأخذوا بأطراف الأرض، أي أخذوا على الناس بأطراف الأرض، أي حصروهم، يقال لمن استولى على غيره وضيق عليه: قد أخذ عليه بأطراف الأرض، قال الفرزدق:

لنا قمرها والنجوم الطوالع

أخذنا بأطراف السماء عليكم

وزحفاً زحفاً، منصوب على المصدر المحذوف الفعل، أي يزحفون زحفاً، والكلمة الثانية تأكيد للأولى. وكذلك قوله: وصفاً صفاً.

ثم ذكر أن بعض هؤلاء المتأسف عليهم هلك، وبعض نجا، وهذا ينحى قوله تعالى: "فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر".

ثم ذكر أن هؤلاء قوم وقذتهم العبادة، وانقطعوا عن الناس، وتجردوا عن العلائق الدنيوية، فإذا ولد لأحدهم مولود لم يبشر به، وإذا مات له ميت لم يعز عنه.

ومرثت عين فلان، بكسر الراء، إذا فسدت لترك الكحل، لكن أمير المؤمنين رضي الله عنه جعل مره عيون هؤلاء من البكاء من خوف خالقهم سبحانه. وذكر أن بطونهما ضامرة من خصاص الصوم، وشفاههم ذابلة من الدعاء، ووجوههم مصفرة من السهر، لأنهم يقومون الليل وعلى وجوههم غبرة الخشوع.

ثم قال: أولئك إخواني الذاهبون. فإن قلت: من هؤلاء الذين يشير رضي الله عنه إليهم؟

قلت: هم قوم كانوا في نأنة الإسلام وفي زمان ضعفه وخموله أرباب زهد وعبادة وجهاد شديد في سبيل الله، كمصعب

بن عمير من بني عبد الدار، وكسعد بن معاذ من الأوس، وكجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم ممن استشهد من الصالحين أرباب الدين والعبادة والشجاعة في يوم أحد، وفي غيره من الأيام في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكعمار، وأبي ذر، والمقداد، وسلمان، وخباب، وجماعة من أصحاب الصفة وفقراء المسلمين أرباب العبادة، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة. وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الجنة لتشتاق

إلى أربعة: علي، وعمار، وأبي ذر، والمقداد، وجاء في الأخبار الصحيحة أيضاً، أن جماعة من أصحاب الصفة مر بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضوا أيديهم عليه، وقالوا: وا أسفاه كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عنق عدو الله! وكان معه أبو بكر، فقال لهم: أتقولون هذا لسيد البطحاء فرفع قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكره، وقال لأبي بكر: انظر لا تكون أغضبتهم، فتكون قد أغضبت ربك فجاء أبو بكر إليهم وترضاهم وسألهم أن يستغفروا له، فقالوا: غفر الله لك.

قوله: فحق لنا، يقال: حق له أن يفعل كذا، وهو حقيق به، وهو محقوق به، أي خليق له، والجمع أحقاء ومحقوقون. ويسني: يسهل. وصدف عن الأمر، يصدف، أي انصرف عنه. ونزغات الشيطان: ما يترغ به، بالفتح، أي يفسد ويغري. ونفثاته: ما ينث به وينث، بالضم والكسر أي يخيل ويسحر، واعقلوها على أنفسكم، أي اربطوها والزموها.

ومن كلام له قاله للخوارج

وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة.

الأصل: فقال عليه السلام: أكلكم شهد معنا صفين فقالوا: منا من شهد، ومنا من لم يشهد. قال: فامتازوا فرقتين فليكن من شهد صفين فرقة، ومن لم يشهدا فرقة، حتى أكلم كلاً منكم بكلامه. ونادى الناس، فقال: أمسكوا عن الكلام، وأنصتوا لقولي، وأقبلوا بأفئدتكم إلي، فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها. ثم كلمهم عليه السلام بكلام طويل، من جملة أن قال عليه السلام: ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة، ومكراً وخديعة: إخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه، فالرأي القبول منهم، والتنفيس عنهم، فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان، وباطنه عدوان، وأوله رحمة، وآخره ندامة، فأقيموا على شأنكم، وألزموا طريقتكم، وعضوا على الجهاد بنواجذكم، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق إن أجيب أضل، وإن ترك ذل. فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقربات، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ومضياً على الحق، وتسليماً للأمر، وصبراً على الجراح.

ولكننا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والأعوجاج، والشبهة والتأويل، فإذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعبنا، ونتداني بها إلى البقية فيما بيننا، ركبنا فيها، وامسكنا عما سواها! الشرح: هذا الكلام يتلو بعضه بعضاً ولكنه ثلاثة فصول لا يلتصق أحدها بالآخر وهذه عادة الرضي، تراه ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلمات فصيحة، يوردها على سبيل التتالي وليست متتالية حين تكلم بها صاحبها، وسنقطع كل فصل منها عن صاحبه إذا مررنا على متنها.

قوله: إلى معسكرهم الكاف مفتوحة، ولا يجوز كسرهما وهو موضع العسكر ومحطه، وشهد صفين: حضرهما، قال تعالى: "فمن شهد منكم الشهر".

قوله: فامتازوا أي انفردوا، قال تعالى: "وامتازوا اليوم أيها المجرمون".

قوله: حتى أكلم كلاً منكم بكلامه، أي بالكلام الذي يليق به.

والغيلة: الخداع. والناعق: المصوت.

قوله: إن أجيب ضل، وإن ترك ذل هو آخر الفصل الأول. وقوله: ضل، أي ازداد ضلالاً، لأنه قد ضل قبل أن يجاب. فأما قوله: فلقد كنا مع رسول الله علماً، فهو من كلام آخر، وهو قائم بنفسه، إلى قوله: وصبراً على مضض الجراح، فهذا آخر الفصل الثاني.

فأما قوله: لكننا إنما أصبحنا، فهو كلام ثالث غير منوط بالأولين ولا ملتصق بهما وهو في الظاهر مخالف ومناقض للفصل الأول لأن الفصل الأول فيه إنكار الإجابة إلى التحكيم وهذا يتضمن تصويها وظاهر الحال أنه بعد كلام طويل. وقد قال رضي الله عنه في أول الفصل: إنه من جملة كلام طويل، وإنه لما ذكر التحكيم، قال ما كان يقوله دائماً، وهو أي إنما حكمت على أن نعمل في هذه الواقعة بحكم الكتاب، وإن كنت أحارب قوماً أدخلوا في الإسلام زيغاً وأحدثوا به اعوجاجاً، فلما دعوني إلى تحكيم الكتاب أمسكت عن قتلهم، وأبقيت عليهم لأني طمعت في أمر يلم الله به شعث المسلمين، ويتقاربون بطريقه إلى البقية، وهي الإبقاء والكف.

فإن قلت: إنه قد قال: نقاتل إخواننا من المسلمين، وأنتم لا تطلقون على أهل الشام المحاربين له لفظة المسلمين قلت: إنا وإن كنا نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمناً ولا مسلماً، إنا نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة وعابدي الأصنام، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرج عنه أن يكون مقصوداً به التعظيم والثناء والمدح، فإن لفظة مسلم ومؤمن تستعمل في أكثر الأحوال كذلك، وأمير المؤمنين رضي الله عنه لم يقصد بذلك إلا تمييزهم من كفار العرب وغيرهم من أهل الشرك، ولم يقصد مدحهم بذلك، فلم ينكر مع هذا القصد إطلاق لفظ المسلمين عليهم.

ومن كلام له قاله لأصحابه في ساعة الحرب

الأصل: وأي امرئ منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء، ورأى من أحد من إخوانه فشلاً، فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها عليه، كما يذب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله، إن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، إن أكرم الموت القتل والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش في غير طاعة الله! الشرح: أحس: علم ووجد. ورباطة جأش، أي شدة قلب: والماضي ربط، كأنه يربط نفسه عن الفرار. والمروي: رباطة بالكسر، ولا أعرفه نقلاً وإنما القياس لا يأباه، مثل عمر عمار، وخلب خلاصة.

والفشل: الجبن. وذب الرجل عن صاحبه، أي أكثر الذب، وهو الدفع والمنع والنجدة: الشجاعة. والحثيث: السريع وفي بعض الروايات: فليذب عن صاحبه بالإدغام، وفي بعضها فليذب بفك الإدغام. والميتة، بالكسر: هيئة الميت كالحلقة والركبة هيئة الجالس والراكب، يقال: مات فلان ميتة حسنة، والمروي في نهج البلاغة بالكسر في أكثر الروايات، وقد روي: من مودة وهو الأليق، يعني المرة الواحدة، ليقع في مقابلة الألف.

واعلم أنه رضي الله عنه أقسم أن القتل أهون من الموت حتف الأنف وذلك على مقتضى ما منحه الله تعالى من الشجاعة

الخارقة لعادة البشر وهو رضي الله عنه يحاول أن يحض أصحابه، ويحرضهم ليجعل طباعهم مناسبة لطباعه، وإقدامهم على الحرب مماثلاً لإقدامه على عادة الأمراء في تحريض جندهم وعسكرهم وهيهات! إنما هو كما قال أبو الطيب:

وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

يكلف سيف الدولة الجيش همه

وذلك ما لا تدعيه الضرام

ويطلب عند الناس ما عند نفسه

ليست النفوس كلها من جوهر واحد، ولا الطباع والأمزجة كلها من نوع واحد، وهذه خاصية توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده، في الأوقات المتطاوله، والدهور المتباعدة وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان، فإن التواريخ من قبل الطوفان مجهولة عندنا أن أحداً أعطى من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها، من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم، والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرب على السلم، والموت على الحياة، والموت الذي كان يطلبه ويؤثره إنما هو القتل بالسيف، لا الموت على الفراش، كما قال الشاعر:

لمات إذ لم يمت من شدة الحزن

لو لم يمت بين أطراف الرماح إذاً

وكما قال الآخر:

لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

يستعذبون منايهم كأنهم

فإن قلت: فما قولك فيما أقسم عليه: هل ألف ضربة بالسيف أهون أماً على المقتول من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة، أم هذا قول قاله على سبيل المبالغة والتجوز ترغيباً لأصحابه في الجهاد؟ قلت: الحالف يحلف على أحد أمرين: أحدهما أن يحلف على ظنه واعتقاده نحو أن يحلف أن زيداً في الدار، أي أنا حالف ومقسم على أي أظن أن زيداً في الدار، أو أي أعتقد كون زيد في الدار. والثاني أن يحلف، لا على ظنه، بل يحلف على نفس الأمر في الخارج فإن حملنا قسم أمير المؤمنين رضي الله عنه على الحمل الأول فقد اندفع السؤال لأنه رضي الله عنه قد كان يعتقد ذلك فحلف أنه يعتقد وأنه يظن ذلك وهذا لا كلام فيه، وإن حملناه على الثاني فالأمر في الحقيقة يختلف، لأن المقتول بسيف صارم معجل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة ما يجده الميت دون الترع من المد والكف، نعم قد يجد المقتول قبل الضربة ألم التوقع لها، وليس كلامنا في ذلك، بل في ألم الضربة نفسها، وألف سيف صارم مثل سيف واحد، إذا فرضنا سرعة الزهوق. وأما في غير هذه الصورة، نحو أن يكون السيف كالاً، وتكرر الضربات به، والحياة باقية بعد وقايسنا بينه وبين ميت يموت حتف أنفه أنه موتاً سريعاً، إما بوقوف القوة الغازية كما يموت الشيوخ، أو بإسهال ذريع تسقط معه القوة، ويبقى العقل والذهن، إلى وقت الموت، فإن الموت ههنا أهون وأقل أماً، فالواجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه إما على جهة التحريض فيكون قد بالغ كعادة العرب والخطباء في المبالغات المجازية، وإما أن يكون أقسم على أنه يعتقد ذلك، وهو صادق فيما أقسم لأنه هكذا كان يعتقد بناء على ما هو مركز في طبعه من محبة القتال، وكراهية الموت على الفراش. وقد روي أنه قيل لأبي مسلم الخراساني: إن في بعض الكتب المثلثة: من قتل بالسيف فبالسيف يقتل، فقال: القتل أحب إلي من اختلاف الأطباء، والنظر في الماء، ومقاساة الدواء والداء، فذكر ذلك للمنصور بعد قتل أبي مسلم، فقال: قد أبلغناه محبته!

ومن كلام له في توبيخ أصحابه

ووصفهم بالجبن

الأصل: وكأني أنظر إليكم تكشون كشيش الضباب، لا تأخذون حقاً، ولا تمنعون ضيماً، قد خليتكم والطريق، فالنجاة للمقتحم، والهلكة للمتلوم.

الشرح: والكشيش: الصوت يشوبه خور، مثل الخشخشة، وكشيش الأفعى: صوتها من جلدها لا من فمها، وقد كشت تكش، قال الراجز:

كشيش أفعى أجمعت لعض وهي تحك بعضها ببعض

يقرع رضي الله عنه أصحابه بالجبن والفسل، ويقول لهم: لكأني أنظر إليكم وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذي قد اعتراكم فهي أشبه شيء بأصوات الضباب المجمعمة.

ثم أكد وصف جبنهم وخوفهم، فقال: لا تأخذون حقاً، ولا تمنعون ضيماً، وهذه غاية ما يكون من الذل. ثم ترك هذا الكلام وابتدأ فقال: قد خليتكم وطريق النجاة عند الحرب، ودلتهم عليها، وهي أن تقتحموا وتلجوا، ولا تهنوا فإنكم متى فعلتم ذلك نجوتم ومتى تلومتم وتثبطتم وأحجمتم هلكتم، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وقال قطري بن الفجاءة:

لا يركنن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفاً لحمام

فلقد أراني للرماح دريئة من عن يميني تارة وأمامي

حتى خضبت بما تحدر من دمي أكناف سرجي أو عنان لجامي

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الإقدام

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد: واعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو، فاحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد نور له يوم القيامة. وقال أبو الطيب:

يقتل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع بخنق المولود

ويوقى الفتى المخش وقد خوض في ماء لبة الصنديدا

ولهذا المعنى الذي أشار إليه رضي الله عنه سبب معقول. وهو أن المقدم على خصمه يرتاع له خصمه، وتنحذل عنه نفسه، فتكون النجاة والظفر للمقدم وأما المتلوم عن خصمه، المحجم المتهيب له فإن نفس خصمه تقوى عليه، ويزداد طمعه فيه، فيكون الظفر له، ويكون العطب والهلاك للمتلوم الهائب.

الجزء الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الواحد العدل

ومن كلام له وحث أصحابه على القتال

الأصل: فقدموا الدارع، وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس فإنه أنى للسيوف عن الهام، والتوا في أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة، وعضوا الأبصار فإنه أربط للجأش، وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرده للفشل. ورايتكم فلا تملوها ولا تخلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، والمانعين الذمار منكم فإن الصابرين على نزول الحقائق هم الذين يحفون براياتهم، ويكتنفونها: حفافيتها، ووراءها، وأمامها لا يتأخزون عنها فيسلموها، ولا يتقدمون عليها فيفردوها.

الشرح: الدارع: لابس الدرع، والحاسر: الذي لا درع عليه ولا مغفر، أمرهم رضي الله عنه بتقديم المستلثم على غير المستلثم، لأن سورة الحرب وشدتها تلقى وتصادف الأول فالأول فواجب أن يكون أول القوم مستلثماً. وأن يعضوا على الأضراس وقد تقدم شرح هذا، وقلنا: إنه يجوز أن يبدأوهم بالحق والجد ويجوز أن يريد أن العض على الأضراس يشد شئون الدماغ ورباطاته، فلا يبلغ السيف منه مبلغه لو صادفه رخواً. وأمرهم بأن يلتوا إذا طعنوا لأنهم إذا فعلوا ذلك، فبالحرى أن يمر السنان، أي يتحرك عن موضع الطعنة فيخرج زالقاً، وإذا لم يلتوا لم يمر السنان، ولم يتحرك عن موضعه فيحرق وينفذ، فيقتل.

وأمرهم بغض الأبصار في الحرب، فإنه أربط للجأش أي أثبت للقلب، لأن الغاض بصره في الحرب أخرى ألا يدهش ولا يرتاع لهول ما ينظر.

وأمرهم بإماتة الأصوات وإخفائها، فإنه أطرده للفشل وهو الجبن والخوف وذلك لأن الجبان يردد ويبرق، والشجاع صامت.

وأمرهم بحفظ رايتهم ألا يملوها، فإنها إذا مالت انكسر العسكر، لأنهم إنما ينظرون إليها وألا يخلوها من محام عنها، وألا يجعلوها بأيدي الجبناء وذوي المبع منهم كي لا يخيموا ويحينوا عن إمساكها.

والذمار: ما وراء الرجل مما يحق عليه أن يحميه، وسمي ذماراً لأنه يجب على أهله التذمر له، أي الغضب، والحقائق: جمع حاقة وهي الأمر الصعب الشديد ومنه قول الله تعالى: "الحاقة ما الحاقة"، يعني الساعة، ويكتنفونها: يحيطون بها. وحفافها: جانبها، ومنه قول طرفة:

كأن جناحي مضرحي تكنفاً

حفافيه شكاف في العسيب بمسرد

الأصل: أجزأ امرؤ قرنه، وآسى أخاه بنفسه ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه. وأيم الله لئن فررت من سيف العاجلة، لا تسلمون من سيف الآخرة، وأنتم لهاميم العرب، والسنام الأعظم.

إن في الفرار موحدة الله والذل اللازم، والعار الباقي. وإن الفار لغير مزيد في عمره، ولا محجوز بينه وبين يومه. من رائج إلى الله كالظمان يرد الماء! الجنة تحت أطراف العوالي اليوم تبلى الأخبار. والله لأننا أشوق إلى لقائهم منهم إلى ديارهم. اللهم فإن ردوا الحق فافضض جماعتهم، وشتت كلمتهم، وأبسلهم بخطاياهم.

الشرح: من الناس من يجعل هذه الصيغة وهي صيغة الإخبار بالفعل الماضي، في قوله: أجزأ امرؤ قرنه في معنى الأمر كأنه قال: ليجزئ كل امرئ قرنه، لأنه إذا جاز الأمر بصيغة الإخبار في المستقبل، جاز الأمر بصيغة الماضي، وقد جاز الأول، نحو قوله تعالى: "والوالدات يرضعن أولادهن"، فوجب أن يجوز الثاني. ومن الناس من قال: معنى ذلك: هلا أجزأ امرؤ قرنه! فيكون تحضيضاً محذوف الصيغة للعلم بها. وأجزأ بالهمزة، أي كفى. وقرنك: مقارنك في القتال أو نحوه. وآسى أخاه بنفسه مؤاساة، بالهمز، أي جعله أسوة نفسه، ويجوز: واسيت زيداً بالواو، وهي لغة ضعيفة. ولم يكل قرنه إلى أخيه، أي لم يدع قرنه ينضم إلى قرن أخيه، فيصيرا معاً في مقاومة الأخ المذكور، وذلك قبيح محرم، مثاله: زيد وعمرو مسلمان، ولهما قرنان كافران في الحرب لا يجوز لزيد أن ينكل عن قرنه فيجتمع قرنه وقرن عمرو على عمرو. ثم أقسم رضي الله عنه أنهم إن سلموا من الألم النازل بهم لو قتلوا بالسيف في الدنيا فإنهم لم يسلموا من عقاب الله تعالى في الآخرة على فرارهم وتخاذلهم، وسمى ذلك سيفاً على وجه الاستعارة وصناعة الكلام، لأنه قد ذكر سيف الدنيا، فجعل ذلك في مقابله.

واللهاميم: السادات الأجواد من الناس، والجياد من الخيل، الواحد لهموم. والسنام الأعظم، يريد شرفهم وعلو أنسابهم، لأن السنام أعلى أعضاء البعير. وموحدة الله: غضبه وسخطه.

ويروى: والذل اللازم بالذل المعجمة وهو بمعنى اللازم أيضاً، لذمت المكان بالكسر، أي لزمته. ثم ذكر أن الفرار لا يزيد في العمر، وقال الراجز:

أن الفرار لا يزيد في الأجل

قد علمت حسناء دعاء المقل

ثم قال لهم: أيكم يروح إلى الله فيكون كالظمان يرد الماء! ثم قال: الجنة تحت أطراف العوالي وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجنة تحت ظلال السيوف". وسمع بعض الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول يوم أحد: "الجنة تحت ظلال السيوف"، وفي يده تمرات يلوكها، فقال: بخ بخ! ليس بيني وبين الجنة إلا هذه التمرات! ثم قذفها من يده وكسر جفن سيفه، وحمل على قریش فقاتل حتى قتل.

ثم قال: اليوم تبلى الأخبار هذا من قول الله تعالى: "ونبلو أخباركم"، أي نختبر أفعالكم.

ثم دعا على أهل الشام إن ردوا الحق، بأن يفض الله جماعتهم، أي يهزمهم ويشتت، أي يفرق كلمتهم. وأن يبسلهم بخطاياهم، أي يبسلهم لأجل خطاياهم التي اقترفوها ولا ينصرهم، أبسلت فلاناً إذا أسلمته إلى الهلكة، فهو مبسل، قال تعالى: "أن تبسل نفس"، أي تسلم، وقال: "أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا"، أي أسلموا للهلاك لأجل ما اكتسبوه من الإثم وهذه الألفاظ كلها لا يتلو بعضها بعضاً، وإنما هي منتزعة من كلام طويل، انتزعها الرضي رحمه الله، واطرح ما

عداها.

الأصل: إنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك يخرج منه النسيم، وضرب يفلق الهام، ويطيح العظام، ويندر السواعد والأقدام. وحتى يرموا بالمناسر تتبعها المناسر، ويرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب. وحتى يجرب بلادهم الخميس يتلوه الخميس. وحتى تدعق الخيول في نواحر أرضهم، وبأعنان مساربهم ومسارحهم. قال الشريف الرضي رحمه الله تعالى: الدعق: الدق، أي تدق الخيول بحوافرها أرضهم. ونواحر أرضهم: متقابلاتها، ويقال: منازل بني فلان تتناحر أي تتقابل.

الشرح: طعن دراك، أي متتابع يتلو بعضه بعضاً. ويخرج منه النسيم، أي لسعته ومن هذا النحو قول الشاعر:

طعنت ابن عبد القيس طعنة نائر لها نفذ، لولا الشعاع أضاءها

ملكنت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

فهذا وصف الطعنة، بأنها لاتساعها يرى الإنسان المقابل لها ببصره ما وراءها، وأنه لولا شعاع الدم وهو ما تفرق منه لبان منها الضوء. وأمير المؤمنين رضي الله عنه أراد من أصحابه طعنات يخرج النسيم وهو الريح اللينة منهن. وفلقت الشيء، أفلقه بكسر اللام فلقاً، أي شققته. ويطيح العظام: يسقطها، طاح الشيء، أي سقط أو هلك أو تاه في الأرض، وأطاحه غيره، وطوحه.

ويندر السواعد: يسقطها أيضاً، ندر الشيء ينذر ندرأً، أي سقط، ومنه النوادر، وأندره غيره. والساعد: من الكوع إلى المرفق، وهو الذراع.

والمناسر: جمع منسر، وهو قطعة من الجيش تكون أمام الجيش الأعظم، بكسر السين وفتح الميم، ويجوز منسر بكسر الميم وفتح السين، وقيل إنها اللغة الفصحى.

ويرجموا، أي يغزوا بالكتائب، جمع كتيبة وهي طائفة من الجيش.

تقفوها الحلائب، أي تتبعها طوائف لنصرها والحاماة عنها، يقال: قد أحلبوا، إذا جاؤوا من كل أوب للنصرة، ورجل محلب، أي ناصر، وحالبت الرجل، إذا نصرته وأعنته وقال الشاعر:

ألها بقري سحبل حين أحلبت علينا الولايا والعدو المباسل

أي أعانت ونصرت. والخميس: الجيش. والدعق، قد فسر الرضي رحمه الله ويجوز أن يفسر بأمر آخر وهو الهيج والتنفير، دعق القوم يدعقهم دعقاً، أي هاج منهم ونفرهم.

ونواحر أرضهم، قد فسرهم رحمه الله أيضاً ويمكن أن يفسر بأمر آخر، وهو أن يراد به أقصى أرضهم وآخرها، من قولهم لآخر ليلة في الشهر: ناحرة.

وأعنان مساربهم ومسارحهم: جوانبها، والمسارب: ما يسرب فيه المال الراعي، والمسارح: ما يسرح فيه، والفرق بين سرح وسرب، أن السروح إنما يكون في أول النهار، وليس ذلك بشرط في السروب.

عود إلى أخبار صفين

واعلم أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين رضي الله عنه لأصحابه في صفين، يحرضهم به، وقد ذكرنا من حديث صفين فيما تقدم أكثره ونحن نذكر ههنا تنمة القصة ليكون من وقف على ما تقدم وعلى هذا المذكور آنفاً هنا، قد وقف على قصة صفين بأسرها.

اتفق الناس كلهم أن عماراً رضي الله عنه أصيب مع علي رضي الله عنه بصفين، وقال كثير منهم، بل الأكثر: إن أويساً القرني أصيب أيضاً مع علي رضي الله عنه بصفين. وذكر ذلك نصر بن مزاحم في كتاب صفين رواه عن حفص بن عمران البرجمي، عن عطاء بن السائب، عن أبي البخترى وفد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أويس ما قال، وقال الناس كلهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الجنة لتشتاق إلى عمار"، ورووا عنه صلى الله عليه وسلم أن عماراً جاء يستأذن عليه، فقال: "اأذنوا له، مرحباً بالطيب المطيب".

وروى سلمة بن كهيل، عن مجاهد، أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى عماراً وهو يحمل أحجار المسجد فقال: "ما لهم ولعمار! يدعوه إلى الجنة، ويدعونه إلى النار!". وروى الناس كافة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "تقتلك الفئة الباغية".

وروى نصر بن مزاحم في كتاب صفين، عن عمرو بن شمر، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب الجهني، أن عمار بن ياسر نادى في صفين يوماً قبل مقتله بيوم أو يومين: أين من يبغى رضوان الله عز وجل ولا يؤوب إلى مال ولا ولد فأتته عصابه من الناس، فقال: أيها الناس، اقصدوا بنا قصد هؤلاء القوم الذين يتبعون دم عثمان، ويزعمون أنه قتل مظلوماً، والله إن كان إلا ظالماً لنفسه، الحاكم بغير ما أنزل الله. ودفع علي رضي الله عنه الراية إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وكان عليه ذلك اليوم درعان فقال له علي رضي الله عنه كهيفة المازح: أيا هاشم، أما تخشى على نفسك أن تكون أعور جباناً قال: ستعلم يا أمير المؤمنين، والله لألفن بين جماجم العرب لف رجل ينوي الآخرة. فأخذ رمحاً فهزه فانكسر، ثم أخذ آخر فوجده جاسياً فألقاه، ثم دعا برمح لين فشده به اللواء.

قال نصر: وحدثنا عمرو قال: لما دفع علي رضي الله عنه الراية إلى هاشم بن عتبة، قال له رجل من أصحابه من بكر بن وائل: أقدم هاشم يكررها ثم قال: مالك يا هاشم قد انتفخ سحرك أعوراً وجبناً قال: من هذا قالوا: فلان، قال: أهلها وخير منها، إذا رأيته قد صرعت فخذها. ثم قال لأصحابه: شدوا شسوع نعالكم، وشدوا أزركم، فإذا رأيتموني قد هزرت الراية ثلاثاً، فاعلموا أن أحداً منكم لا يسبقني إلى الحملة. ثم نظر إلى عسكر معاوية، فرأى جمعاً عظيماً، فقال: من أولئك قيل: أصحاب ذي الكلاع، ثم نظر فرأى جنداً، فقال: من أولئك قيل: قريش وقوم من أهل المدينة، فقال: قومي، لا حاجة لي في قتالهم، من عند هذه القبة البيضاء قيل: معاوية وجنده، قال: فإني أرى دونهم أسودة، قيل: ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه، فأخذ الراية فهزها، فقال رجل من أصحابه: البث قليلاً ولا تعجل، فقال هاشم:

إني شريت النفس لن أعتلا

قد أكثرنا لومي وما أقلنا

قد عالج الحياة حتى ملا

أعور يبغى أهله محلاً

لا بد أن يفلا أو يفلا

أشلهم بذى الكعوب شلا

مع ابن عم أحمد المعلى

أول من صدقه وصلى

قال نصر: وحدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: لما تناول هاشم الراية، جعل عمار بن ياسر يحرضه على الحرب، ويقرعه بالرمح، ويقول: أقدم يا أعور:

لا خير في أعور لا يأتي الفزع

فيستحمي من عمار، ويتقدم، ويركز الراية فإذا ركزها عاوده عمار بالقول، فيتقدم أيضاً. فقال عمرو بن العاص: إني لأرى لصاحب الراية السوداء عملاً، لئن دام على هذا لتفنين العرب اليوم! فاقتتلوا قتلاً شديداً، وعمار ينادي: صبراً والله إن الجنة تحت ظلال البيض. فكان بإزاء هاشم وعمار أبو الأعور السلمي، ولم يزل عمار بهاشم ينخسه وهو يزحف بالراية، حتى اشتد القتال وعظم، والتقى الزحفان، واقتتلا قتلاً لم يسمع السامعون بمثله، وكثرت القتلى في الفريقين جميعاً. وروى نصر، عن عمرو بن شمر، قال: حدثني من أثق به من أهل العراق، قال: لما التقينا بالقوم في ذلك اليوم، وجدناهم خمسة صفوف قد قيدوا أنفسهم بالعمائم، فقتلنا صفّاً، ثم صفّاً، ثم خلصنا إلى الرابع، ما على الأرض شامي ولا عراقي يولي دبره، وأبو الأعور يقول:

إذا ما فررنا كان أسوا فرارنا

صدود الخدود وازورار المناكب

صدود الخدود والقنا متشاجر

ولا تبرح الأقدام عند التضارب

قال نصر: والتقت في هذا اليوم همدان العراق بعك الشام، فقال قائلهم:

همدان همدان وعك عك

ستعلم اليوم من الأرك

وكانت على عك الدروع، وليس عليهم رايات، فقالت همدان: خدموا القوم، أي اضربوا سوقهم فقالت عك: ابركوا برك الكمل، فبركوا كما يرك الحمل ثم رموا الحجر، وقالوا: لا نفر حتى يفر الحكر. قال نصر: واقتتل الناس من لدن اعتدال النهار إلى صلاة المغرب، ما كان صلاة القوم إلا التكبير عند مواقيت الصلاة. ثم إن أهل العراق كشفوا ميمنة أهل الشام، فطاروا في سواد الليل، وكشف أهل الشام ميسرة أهل العراق، فاختلطوا في سواد الليل، وتبدلت الرايات بعضها ببعض، فلما أصبح الناس وجد أهل الشام لواءهم وليس حوله إلا ألف رجل، فاقتلعوه وركزوه من وراء موضعه الأول وأحاطوا به، ووجد أهل العراق لواءهم مركوزاً وليس حوله إلا ربيعة وعلي رضي الله عنه بينها، وهم محيطون به، وهو لا يعلم من هم، ويظنهم غيرهم فلما أذن مؤذن علي رضي الله عنه الفجر، قال علي رضي الله عنه:

يا مرحباً بالقائلين عدلاً

وبالصلاة مرحباً وأهلاً

ثم وقف وصلى الفجر، فلما انفتل أبصر وجوها ليست بوجوه أصحابه بالأمس، وإذا مكانه الذي هو فيه ما بين الميسرة إلى القلب، فقال: من القوم قالوا: ربيعة، وإنك يا أمير المؤمنين لعندنا منذ الليلة! فقال:

فخر طويل لك يا ربيعه

ثم قال لهاشم بن عتبة: خذ اللواء فوالله ما رأيت مثل هذه الليلة. فخرج هاشم باللواء حتى ركزه في القلب. قال نصر: حدثنا عمرو بن شمر، عن الشعبي، قال: عبي معاوية تلك الليلة أربعة آلاف وثلاثمائة من فارس وراجل معلمين بالخرصرة، وأمرهم أن يأتوا علياً رضي الله عنه من ورائه. ففطنت لهم همدان، فواجهوهم وصمدوا إليهم، فباتوا تلك الليلة يتحارسون، وعلي رضي الله عنه قد أفضى به ذهابه ومجيئه إلى رايات ربيعة فوقف بينها وهو لا يعلم، ويظن أنه في عسكر الأشعث، فلما أصبح لم ير الأشعث ولا أصحابه، ورأى سعيد بن قيس الهمداني على مركزه، ف جاء إلى سعيد رجل من ربيعة، يقال له زفر فقال له: ألسنت القاتل بالأمس: لئن لم تنته ربيعة لتكونن ربيعة ربيعة، وحمدان همدان فما أغنت همدان البارحة! فنظر إليه علي رضي الله عنه نظر منكر، ونادى منادي علي رضي الله عنه: أن اتعدوا للقتال، واغدوا عليه، واهمدوا إلى عدوكم.

فكلهم تحرك إلا ربيعة لم تتحرك، فبعث إليهم علي رضي الله عنه: أن اهدوا إلى عدوكم، فبعث إليهم أبا ثروان، فقال: إن أمير المؤمنين رضي الله عنه يقرئكم السلام، ويقول لكم: يا معشر ربيعة، ما لكم لا تنهدون إلى عدوكم وقد نهد الناس! قالوا: كيف ننهد وهذه الخيل من وراء ظهرنا قل لأمر المؤمنين فليأمر همدان أو غيرها بمناجزتهم لننهد. فرجع أبو ثروان إلى علي رضي الله عنه، فأخبره، فبعث إليهم الأشتر، فقال: يا معشر ربيعة، ما منعكم أن تنهدوا وقد نهد الناس وكان جهير الصوت وأنتم أصحاب كذا، وأصحاب كذا؟! فجعل يعدد أيامهم. فقالوا: لسنا نفعل حتى ننظر ما تصنع هذه الخيل التي خلف ظهورنا! وهي أربعة آلاف، قل لأمر المؤمنين: فليبعث إليهم من يكفيه أمرهم. وراية ربيعة يومئذ مع الحضير بن المنذر. فقال لهم الأشتر: فإن أمير المؤمنين يقول لكم: اكفونيها، إنكم لو بعثتم إليهم طائفة منكم لتركوكم في هذه الفلاة، وفروا كاليعافير. فوجهت حينئذ ربيعة إليهم تيم الله والنمر بن قاسط وعترة. قالوا: فمشينا إليهم مستلثمين مقنعين في الحديد وكان عامة قتال صفين مشياً قال: فلما أتيناهم هربوا وانتشروا انتشار الجراد، فذكرت قوله: وفروا كاليعافير. ثم رجعنا إلى أصحابنا وقد نشب القتال بينهم وبين أهل الشام، وقد اقتطع أهل الشام طائفة من أهل العراق، بعضها من ربيعة، فأحاطوا بها، فلم نصل إليها حتى حملنا على أهل الشام، فعلوناهم بالأسياف حتى انفرجوا لنا، فأفطينا إلى أصحابنا فاستنقذناهم، وعرفناهم تحت النقع بسيماهم وعلامتهم. وكانت علامة أهل العراق بصفين الصوف الأبيض، قد جعلوه في رؤوسهم وعلى أكتافهم، وشعارهم: يا الله! يا أحد يا صمد يا رب محمد يا رحمن يا رحيم، وكانت علامة أهل الشام خرقاً صفراً، قد جعلوها على رؤوسهم وأكتافهم، وشعارهم:

نحن عباد الله حقاً حقاً

يا لثارات عثمان قال نصر: فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد، فلم يتحاجزوا حتى حجز بينهم الليل، وما يرى رجل من هؤلاء ومن هؤلاء مولياً.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، قال: كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية، وإنهم لحديثو عهد بها، فالتقوا في

الإسلام. وفيهم بقايا تلك الحمية، وعند بعضهم بصيرة الدين والإسلام، فتضاربوا واستحيوا من الفرار حتى كادت الحرب تبيدهم، وكانوا إذا تجاوزوا دخل هؤلاء عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم.

قال نصر: فحدثنا عمر بن سعد، قال: فبينما علي رضي الله عنه واقفاً بين جماعة من همدان وحمير وغيرهم من أفناء قحطان، إذ نادى رجل من أهل الشام: من دل على أبي نوح الحميري فليلقه: قد وجدته، فماذا تريد قال: فحسر عن لثامه، فإذا هو ذو الكلاع الحميري، ومعه جماعة من أهله ورهطه، فقال لأبي نوح: سر معي، قال: إلى أين قال: إلى أن نخرج عن الصف، قال: وما شأنك قال: إن لي إليك حاجة، فقال أبو نوح، معاذ الله أن أسير إليك إلا في كتيبة! قال ذو الكلاع: بلى فسر فلك ذمة الله وذمة رسوله وذمة ذي الكلاع، حتى ترجع إلى خيلك، فإنما أريد أن أسالك عن أمر فيكم تمارينا فيه. فسار أبو نوح، وسار ذو الكلاع، فقال له: إنما دعوتك أحدثك حديثاً حدثناه عمرو بن العاص قديماً في خلافة عمر بن الخطاب، ثم أذكرناه الآن به فأعاده إنه يزعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يلتقي أهل الشام وأهل العراق، وفي إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى، ومعه عمار بن ياسر". فقال أبو نوح: نعم والله إنه لفينا. قال: نشدتك الله، أجاد هو على قتالنا قال أبو نوح: نعم ورب الكعبة، لهو أشد على قتالكم مني، ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم، وأنت ابن عمي. قال ذو الكلاع: ويلك! علام تمني ذلك منا فوالله ما قطعتك فيما بيني وبينك قط، وإن رحمك لقريبة، وما يسرني أن أقتلك. قال أبو نوح: إن الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبة، ووصل به أرحاماً متباعدة، وإني قاتلك وأصحابك، لأننا على الحق وأنتم على الباطل. قال ذو الكلاع: فهل تستطيع أن تأتي معي صف أهل الشام، فأنا لك جاز منهم، حتى تلقى عمرو بن العاص، فتخبره بحال عمار وجده في قتالنا، لعله أن يكون صلح بين هذين الجندين! قلت: وأعجبه من قوم بعثتهم الشك في أمرهم لمكان عمار، ولا يعترهم الشك لمكان علي رضي الله عنه ويستدلون على أن الحق مع أهل العراق بكون عمار بين أظهرهم، ولا يعبأون بمكان علي رضي الله عنه ويحذرون من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "تقتلك الفئة الباغية"، ويرتاعون لذلك، ولا يرتاعون لقوله صلى الله عليه وسلم في علي رضي الله عنه "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه"، ولا لقوله: "لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق". وهذا يدل على أن علياً رضي الله عنه اجتهدت قريش كلها من مبدأ الأمر في إخمال ذكره وستر فضائله، وتغطية خصائصه حتى محي فضله ومرتبته من صدور الناس كافة إلا قليلاً منهم.

قال نصر: فقال له أبو نوح: إنك رجل غادر، وأنت في قوم غدر، وإن لم ترد الغدر أغدروك، وإني أن أموت أحب إلي من أن أدخل مع معاوية. فقال ذو الكلاع: أنا جار لك من ذلك ألا تقتل ولا تسلب ولا تكره على بيعة، ولا تحبس عن جندك وإنما هي كلمة تبلغها عمرو بن العاص، لعل الله أن يصلح بذلك بين هذين الجندين، ويضع عنهم الحرب. فقال أبو نوح: إني أخاف غدراتك وغدرات أصحابك. قال ذو الكلاع: أنا لك بما قلت زعيم، قال أبو نوح: اللهم إنك ترى ما أعطاني ذو الكلاع، وأنت تعلم ما في نفسي، فاعصمني واختر لي وانصري، وادفع عني.

ثم سار مع ذي الكلاع حتى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية وحوله الناس، وعبد الله بن عمر يحرض الناس على الحرب، فلما وقفا على القوم، قال ذو الكلاع لعمرو: يا أبا عبد الله، هل لك في رجل ناصح لبيب مشفق يخبرك عن

عمار بن ياسر فلا يكذبك قال: ومن هو قال: هو ابن عمي هذا، وهو من أهل الكوفة. فقال عمرو: أرى عليك سيما أبي تراب! فقال أبو نوح: علي سيما محمد وأصحابه، وعليك سيما أبي جهل وسيما فرعون! فقام أبو الأعور فسل سيفه، وقال: لا أرى هذا الكذاب اللئيم يسبنا بين أظهرنا وعليه سيما أبي تراب! فقال ذو الكلاع: أقسم بالله لئن بسطت يدك إليه لأحطمن أنفك بالسيف، ابن عمي وجاري، عقدت له ذمتي، وجئت به إليكم ليخبركم عما تماريتم فيه. فقال له عمرو بن العاص: يا أبا نوح، أذكرك بالله إلا ما صدقتنا ولم تكذبنا، أفيكم عمار بن ياسر قال أبو نوح: ما أنا بمخبرك حتى تخبر: لم نسأل عنه ومعنا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عدة غيره، وكلهم جاد على قتالكم فقال عمرو: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن عماراً تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس لعمار أن يفارق الحق، ولن تأكل النار من عمار شيئاً"، فقال أبو نوح: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله إنه لفينا جاد على قتالكم! فقال عمرو: والله الذي لا إله إلا هو إنه لجاد على قتالنا! قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو ولقد حدثني يوم الجمل أنا سنظهر على أهل البصرة، ولقد قال لي أمس: إنكم لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق، وأنكم على باطل ولكانت قتالنا في الجنة وقتالكم في النار.

قال عمرو: فهل تستطيع أن تجمع بيني وبينه قال: نعم، فركب عمرو بن العاص وابناه، وعتبة بن أبي سفيان وذو الكلاع، وأبو الأعور السلمي، وحوشب، والوليد بن عقبة وانطلقوا، وسار أبو نوح ومعه شرحبيل بن ذي الكلاع يحميه حتى انتهى إلى أصحابه، فذهب أبو نوح إلى عمار، فوجده قاعداً مع أصحاب له، منهم الأشتر وهاشم وابنا بديل، وخالد بن معمر، وعبد الله بن حجل، وعبد الله بن العباس. فقال لهم أبو نوح: إنه دعاني ذو الكلاع، وهو ذو رحم فقال: أخبرني عن عمار بن ياسر، أفيكم هو فقلت: لم تسأل فقال: أخبرني عمرو بن العاص في إمرة عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يلتقي أهل الشام وأهل العراق، وعمار مع أهل الحق، وتقتله الفئة الباغية"، فقلت: نعم، إن عماراً فينا، فسألني: أجاد هو على قتالنا فقلت: نعم والله، إنه لأجد مني في ذلك، ولوددت أنكم خلق واحد فدبحته وبدأت بك يا ذا الكلاع، فضحك عمار، وقال: أيسرك ذلك قال: نعم، ثم قال أبو نوح: أخبرني الساعة عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تقتل عماراً الفئة الباغية"، قال عمار: أقررت بذلك قال: نعم، لقد قررت بذلك فأقر، فقال عمار: صدق، وليضرنه ما سمع ولا ينفعه. قال أبو نوح: فإنه يريد أن يلقاك، فقال عمار لأصحابه: اركبوا، فركبوا وساروا.

قال: فبعثنا إليهم فارساً من عبد القيس يسمى عوف بن بشر فذهب، حتى إذا كان قريباً منهم، نادى: أين عمرو بن العاص قالوا: ههنا فأخبره بمكان عمار وخيله، قال عمرو: قل له: فليسر إلينا، قال عوف: إنه يخاف غدراتك وفجراتك، قال عمرو: ما أجراك علي وأنت على هذه الحال قال عوف: جرأني عليك بمري فيك وفي أصحابك، وإن شئت نابذتك الآن على سواء، وإن شئت التقيت أنت وخصماؤك، وأنت كنت غادراً فقال عمرو: إنك لسفيه، وإني باعث إليك رجلاً من أصحابي يواقفك، قال: ابعث من شئت، فليست بالمستوحش، وإنك لا تبعث إلا شقياً، فرجع عمرو، وأنفذ إليه أبا الأعور، فلما تواقفا تعارفا، فقال عوف: إني لأعرف الجسد وأنكر القلب، وإني لا أراك مؤمناً ولا أراك إلا من أهل النار، قال أبو الأعور: يا هذا لقد أعطيت لساناً يكبك الله به على وجهك في النار، قال عوف: كلا والله إني لأتكلم بالحق

وتتكلم بالباطل، وإني أدعوك إلى الهدى وأقاتلك على الضلال وأفر من النار، وأنت بنعمة الله ضال، تنطق بالكذب وتقاتل على ضلالة، وتشترى العقاب بالمغفرة، والضلالة بالهدى انظر إلى وجوهنا ووجوهكم وسيماننا وسيمانكم، واسمع دعوتنا ودعوتكم، فليس أحد منا إلا وهو أولى بالحق وبمحمد، وأقرب إليه منكم.

فقال أبو الأعور: لقد أكثرت الكلام، وذهب النهار، ويحك! ادع أصحابك وأدعو أصحابي، وليأت أصحابك في قلة إن شاءوا أو كثرة، فإني أجيء من أصحابي بعدكم، فإن شاء أصحابك فليقلوا، وإن شاءوا فليكثرُوا. فسار عمار في اثني عشر فارساً، حتى إذا كانوا بالمنصف سار عمرو بن العاص في اثني عشر فارساً حتى اختلفت أعناق الخيل خيل عمار وخيل عمرو، ونزل القوم واحتبوا بحمائل سيوفهم، فتشهد عمرو بن العاص، فقال له عمار: اسكت، فلقد تركتها وأنا أحق بها منك، فإن شئت كانت خصومة فيدفع حقنا باطلك، وإن شئت كانت خطبة فنحن أعلم بفصل الخطاب منك، وإن شئت أخبرتك بكلمة تفصل بيننا وبينك، وتكفرك قبل القيام، وتشهد بها على نفسك، ولا تستطيع أن تكذبي فيها. فقال عمرو: يا أبا اليقظان، ليس لهذا جئت إنما جئت لأني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم. أذكرك الله إلا كفت سلاحهم، وحقنت دماءهم، وحرصت على ذلك، فعلام تقاتلوننا! أولسنا نعبد إله واحداً، ونصلي إلى قبلتكم وندعو دعوتكم، ونقرأ كتابكم، ونؤمن بنبيكم! فقال عمار: الحمد لله الذي أخرجها من فيك، إنما لي ولأصحابي: القبلة، والدين، وعبادة الرحمن، والنبي والكتاب من دونك ودون أصحابك. الحمد لله الذي قررك لنا بذلك، وجعلك ضالاً مضلاً أعمى، وسأخبرك على ما أقاتلك عليه وأصحابك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أقاتل الناكثين فقد فعلت، وأمرني أن أقاتل القاسطين وأنتم هم، وأما المارقون فلا أدري إدركهم أو لا أيها الأبتى، أأنت تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه!" فأنا مولى الله ورسوله وعلي مولاي بعدهما.

قال عمرو: لم تشتمني يا أبا اليقظان ولست أشتمك! قال عمار: وم تشتمني أتستطيع أن تقول: إني عصيت الله ورسوله يوماً قط! قال عمرو: إن فيك لمساب سوى ذلك قال عمار: إن الكريم من أكرمه الله! كنت وضعياً فرفعني الله، ومملوكاً فأعتقني الله، وضعيفاً فقواني الله وفقيراً فأغناني الله! قال عمرو: فما ترى في قتل عثمان قال: فتح لكم باب كل سوء، قال عمرو: فعلي قتله قال عمار: بل الله رب علي قتله وعلي معه، قال عمرو: فكنت فيمن قتله قال: كنت مع من قتله، وأنا اليوم أقاتل معهم، قال عمرو: فلم تقتلتموه قال عمار: إنه أراد أن يغير ديننا فقتلناه، فقال عمرو: ألا تسمعون قد أعترف بقتل إمامكم! فقال عمار، قد قالها فرعون قبلك لقومه: "ألا تسمعون". فقام أهل الشام ولهم زجل فركبوا خيولهم ورجعوا، وقام عمار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا، وبلغ معاوية ما كان بينهم فقال: هلك العرب إن حركتهم خفة العبد الأسود يعني عماراً.

قال نصر: فحدثنا عمرو بن شمر، قال: فخرجت الخيول إلى القتال واصطفت بعضها لبعض، وتزاحف الناس، وعلى عمار درع بيضاء وهو يقول: أيها الناس، الرواح إلى الجنة، فقاتل القوم قتلاً شديداً لم يسمع السامعون بمثله، وكثرت القتلى حتى أن كان الرجل ليشد طنبا فسطاطه بيد الرجل أو برجله. وحكى الأشعث بعد ذلك، قال: لقد رأيت أحبية صفيين

وأروقتها، وما فيها خباء ولا رواق ولا فسطاط إلا مربوطاً بيد إنسان أو برجله.

قال نصر: وجعل أبو السماك الأسدي يأخذ إداوة من ماء وشفرة حديدية، فيطوف في القتلى، فإذا رأى رجلاً جريحاً وبه رمق أقعده، فيقول له: من أمير المؤمنين فإذا قال: علي غسل الدم عنه، وسقاه من الماء، وإن سكت وجأه بالسكين حتى يموت ولا يسقيه.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: سمعت الشعبي، يقول: قال الأحنف بن قيس: والله إني إلى جانب عمار بن ياسر، بيني وبينه رجل من بني الشعيرة.

فتقدمنا حتى دنونا من هاشم بن عتبة، فقال له عمار: احمل فداك أبي وأمي! فقال له هاشم: يرحمك الله يا أبا اليقظان! إنك رجل تأخذك خفة في الحرب، وإني إنما أزحف باللواء زحفاً، أرجو أن أنال بذلك حاجتي، وإن خففت لم آمن الهلكة. وقد كان قال معاوية لعمر: ويحك! إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة، وقد كان من قبل يرقل به إرقالاً، وإن زحف به اليوم زحفاً إنه لليوم الأطول على أهل الشام، فإن زحف في عنق من أصحابه إني لأطمع أن تقتطع. فلم يزل به عمار حتى حمل، فبصر به معاوية، فوجه إليه حماة أصحابه ومن يزن بالبأس والنجدة منهم في ناحية، وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو بن العاص، ومعه يومئذ سيفان قد تقلد بأحدهما، وهو يضرب بالآخر، فأطافت به خيول علي رضي الله عنه، وجعل عمرو يقول: يا الله، يا رحمن! ابني، ابني! فيقول معاوية: اصبر فلا بأس عليه. فقال عمرو: لو كان يزيد بن معاوية، أصبرت! فلم يزل حماة أهل الشام تذب عن عبد الله حتى نجا هارباً على فرسه ومن معه، وأصيب هاشم في المعركة.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر رضي الله عنه، أصيب في المعركة، وقد كان قال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص: والله إنها لراية قد قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدن، ثم قال:

كما ضربناكم على تنزيله

ويذهل الخليل عن خليله

نحن ضربناكم على تأويله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله

أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى وقد اشتد عطشه، فأنته امرأة طويلة اليدين، ما أدري أعس معها أم إداوة، فيها ضياح من لبن! فقال حين شرب: الجنة تحت الأسنن، اليوم ألقى الأحبه، محمداً وحزبه. والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق، وأنهم على الباطل. ثم حمل وحمل عليه ابن حوى السكسكي وأبو العادية، فأما أبو العادية فطعنه، وأما ابن حوى فاحتز رأسه، وقد كان ذو الكلاع يسمع عمرو بن العاص يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعمار: "تقتلك الفئة الباغية، وآخر شريك ضياح من لبن"، فقال ذو الكلاع لعمر: ويحك ما هذا! قال عمرو: إنه سيرجع إلينا، ويفارق أبا تراب، وذلك قبل أن يصاب عمار، فلما أصيب عمار في هذا اليوم أصيب ذو الكلاع، فقال عمرو لمعاوية: والله ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً والله لو بقي ذو الكلاع حتى يقتل عمار لمال بعامة قومه إلى علي، ولأفسد علينا أمرنا.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن سعد، قال: كان لا يزال رجل يجيء فيقول لمعاوية وعمرو: أنا قتلت عماراً، فيقول له عمرو: فما سمعته يقول فيخلط، حتى أقبل ابن حوى، فقال: أنا قتلته، فقال عمرو: فما كان آخر منطقه قال: سمعته يقول: اليوم ألقى الأحبه محمداً وحزبه. فقال: صدقت، أنت صاحبه، أما والله ما ظفرت يداك ولقد أسخطت ربك.

قال نصر: حدثنا عمرو بن شمر، قال: حدثني إسماعيل السدي، عن عبد خير الهمداني، قال: نظرت إلى عمار بن ياسر يوماً من أيام صفين، قد رمى رمية فأغمي عليه، فلم يصل الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ولا الفجر، ثم أفاق فقضاهن جميعاً، يبدأ بأول شيء فاته، ثم بالتي تليها.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن السدي، عن أبي حريث، قال: أقبل غلام لعمار بن ياسر، اسمه راشد، يحمل إليه يوم قتل بشربة من لبن، فقال عمار: أما إني سمعت خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن آخر زادك من الدنيا شربة لبن".

قال نصر: وروى عمرو بن شمر، عن السدي، أن رجلين بصفين اختصما في سلب عمار وفي قتله، فأتيا عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: ويحكمنا اخرجنا عني! فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما لقريش ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. قاتله وسالبه في النار".

قال السدي: فبلغني أن معاوية قال لما سمع ذلك: إنما قتله من أخرجه يخذع بذلك طغام أهل الشام .

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن جابر، عن أبي الزبير، قال: أتى حذيفة بن اليمان رهط من جهينة، فقالوا له: يا أبا عبد الله، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استجار من أن تصطلم أمته، فأجير من ذلك، واستجار من أن يذيق أمته بعضها بأس بعض، فمنع من ذلك، فقال حذيفة: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن ابن سمية لم يخير بين أمرين قط إلا اختار أشدهما يعني عماراً فالزموا سمته".

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: حمل عمار ذلك اليوم على صف أهل الشام وهو يرتجز:

حتى أموت أو أرى ما أشتهي

صهر الرسول ذي الأمانات الوفي

ويقطع الهام بحد المشرفي

ظلماً علينا جاهداً ما يأتلي

كلا ورب البيت لا أبرح أجي

لا أفتأ الدهر أحامي عن علي

ينصرنا رب السموات العلي

يمنحنا النصر على من يبتغي

قال: فضرب أهل الشام حتى اضطربهم إلى الفرار.

قال نصر: وقد كان عبد الله بن سويد الحميري من آل ذي الكلاع، قال لذي الكلاع: ما حديث سمعته من ابن العاص لا عمار فأخبره، فلما قتل عمار خرج عبد الله ليلاً يمشي، فأصبح في عسكر علي رضي الله عنه، وكان عبد الله من عباد أهل زمانه، وكاد أهل الشام أن يضطربوا لولا أن معاوية قال لهم: إن علياً قتل عماراً، لأنه أخرجه إلى الفتنة. ثم أرسل معاوية إلى عمرو: لقد أفسدت علي أهل الشام أكل ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم تقوله! فقال عمرو:

قلتها ولست أعلم الغيب، ولا أدري أن صفيين تكون قلتها وعمار يومئذ لك ولي، وقد رويت أنت فيه مثل ما رويت. فغضب معاوية وتنمر لعمره، وعزم على منعه خير، فقال عمرو لابنه وأصحابه: لا خير في جوار معاوية إن تجلت هذه الحرب عنه لأفارقته وكان عمرو حمي الأنف، قال:

تعاتبني أن قلت شيئاً سمعته	وقد قلت لو أنصفتني مثله قبلي
أنعلك فيما قلت نعل ثبينة	وتزلق بي في مثل ما قلت نعلي
وما كان لي علم بصفيين أنها	تكون وعمار يحث على قتلي
ولو كان لي بالغيب علم كتمتها	وكأيدت أقواماً مراجلهم تغلي
أبى الله إلا أن صدرك واغر	علي بلا ذنب جنيت ولا ذحل
سوى أنني والراقصات عشية	بنصرك مدخول الهوى ذاهل العقل
فلا وضعت عني حصان قناعها	ولا حملت وجناء ذعلبة رحلي
ولا زلت أدعى في لؤي بن غالب	قليلاً غنائي لا أمر ولا أحلي
إن الله أرخى من خناقك مرة	ونلت الذي رجيت إن لم أزر أهلي
وأترك لك الشام التي ضاق رحبها	عليك ولم يهنك بها العيش من أجلي

فأجابه معاوية:

ألآن لما ألفت الحرب بركها	وقام بنا الأمر الجليل على رجل
غمزت قناتي بعد ستين حجة	تباعاً كأني لا أمر ولا أحلي
أتيت بأمر فيه للشام فتنة	وفي دون ما أظهرته زلة النعل
فقلت لك القول الذي ليس ضائراً	ولو ضر لم يضررك حملك لي ثقلي
تعاتبني في كل يوم وليلة	كأن الذي أبليك ليس كما أبلي
فيا قبح الله العتاب وأهله	ألم ترما أصبحت فيه من الشغل
فدع ذا ولكن هل لك اليوم حيلة	نرد بها قوماً مراجلهم تغلي
دعاهم علي فاستجابوا لدعوة	أحب إليهم من ثرى المال والأهل
إذا قلت هابوا حومة الموت أرقلوا	إلى الموت إرقال الهلوك إلى الفحل

قال: فلما أتى عمراً شعر معاوية أتاه، فأعتبه وصار أمرهما واحداً.

قال نصر: ثم إن علياً رضي الله عنه دعا في هذا اليوم هاشم بن عتبة ومعه لوائه وكان أعور فقال له: يا هاشم حتى متى! فقال هاشم: لأجهدن ألا أرجع إليك أبداً. فقال علي رضي الله عنه: إن بإزائك ذا الكلاع، وعنده الموت الأحمر. فتقدم

هاشم فلما أقبل، قال معاوية: من هذا المقبل فقيل: هاشم المرقال، فقال: أعور بني زهرة قاتله الله فأقبل هاشم وهو يقول:

مثل الفنيق لأبساً دلأصا

أعور يبغي نفسه خلاصا

كل امرئ إن كبا وحاصا

لا دية يخشى ولا قصاصا

ليس يرى من يومه مناصا

فحمل صاحب لواء ذي الكلاع وهو رجل من عذرة فقال:

اثبت فإني لست من فرعي مضر

يا أعور العين وما بي من عور

كيف ترى وقع غلام من عذر

نحن اليمانون وما فينا خور

سيان عندي من سعى ومن أمر

ينعى ابن عفان ويلحى من عذر

فاختلفا طعنتين، فطعنه هاشم فقتله، وكثرت القتلى حول هاشم، وحمل ذو الكلاع، واختلط الناس واجتلدوا، فقتل هاشم وذو الكلاع جميعاً، وأخذ عبد الله بن هاشم اللواء وارتجز، فقال:

أعزز بشيخ من قريش هالك

يا هاشم بن عتبة بن مالك

في أسود من نفعهن حالك

تحيطه الخيلان بالسنايك

والروح والريحان عند ذلك

أبشر بحور العين في الأرائك

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: أخذ عبد الله بن هاشم بن عتبة راية أبيه، ثم قال: أيها الناس، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذي قدر أرزاقهم، وكتب آثارهم، وأحصى أعمالهم، وقضى آجالهم، فدعاه الله ربه فاستجاب له، وسلم لأمره، وجاهد في طاعة ابن عم رسوله. أول من آمن به، وأفقههم في دين الله، الشديد على أعداء الله، المستحلين حرم الله، الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد، واستحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله، وزين لهم الإثم والعدوان، فحق عليكم جهاد من خالف الله، وعطل حدوده، ونابد أوليائه. جودوا بمهجكم في طاعة الله في هذه الدنيا، تصيبوا الآخرة والمترل الأعلى، والأبد الذي لا يفنى. فوالله لو لم يكن ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، لكان القتال مع علي أفضل من القتال مع معاوية، فكيف وأنتم ترجون ما ترجون! قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: لما انقضى أمر صفين، وسلم الحسن عليه السلام الأمر إلى معاوية، ووفدت عليه الوفود، أشخص عبد الله بن هاشم إليه أسيراً، فلما مثل بين يديه، وعنده عمرو بن العاص، قال: يا أمير المؤمنين، هذا المختال ابن المرقال، فدونك الضب المضب ، المغر المفتون فاقتله، فإن العصا من العصية، وإنما تلد الحية حية، وجزاء السيئة سيئة مثلها.

فقال عبد الله: إن تقتلني فما أنا بأول رجل خذله قومه، وأسلمه يومه. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، أمكني منه أشخب أوداجه على أثباجه. فقال عبد الله: فهلا كانت هذه الشجاعة منك يا بن العاص في أيام صفين، ونحن ندعوك إلى التزال، وقد ابتلت أقدام الرجال من نقيع الجريال ، وقد تضايقت بك المسالك، وأشرفت منها على المهالك! وإيم الله لولا مكانك

منه لرميتك بأحد من وقع الأشافي فإنك لا تزال تكثر في هوسك، وتخبط في دهسك، وتنشب في مرسك، تخبط العشواء، في الليلة الحنسد الظلماء. فأمر معاوية به إلى الحبس، فكتب عمرو إلى معاوية:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني
وكان أبوه يا معاوية الذي
فقتلنا حتى جرت من دماننا
وهذا ابنه، والمرء يشبه أصله
وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
رماك على حرب بحز الغلاصم
بصفين أمثال البحور الخضارم
ستقرع إن أبقيته سن نادم

فبعث معاوية بالشعر إلى عبد الله بن هاشم، فكتب في جوابه من السجن:

معاوي إن المرء عمراً أبت له
يرى لك قتلي يا بن حرب، وإنما
على أنهم لا يقتلون أسيرهم
وقد كان منا يوم صفين نفرة
قضى الله فيها ما قضى ثمت انقضى
فإن تعف عني تعف عن ذي قرابة
ضغينة صدر ودها غير سالم
يرى ما يرى عمرو ملوك الأعاجم
إذا كان فيه منعة للمسالمة
عليك، جناها هاشم وابن هاشم
وما ما مضى إلا كأضغاث حالمة
وإن تر قتلي تستحل محارمي

هذه رواية نصر بن مزاحم.

وروى أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيد الله المرزباني، أن معاوية لما تم له الأمر بعد وفاة علي رضي الله عنه ، بعث زياداً على البصرة، ونادى منادي معاوية: أمن الأسود والأحمر بأمان الله إلا عبد الله بن هاشم بن عتبة فمكث معاوية يطلبه أشد الطلب، ولا يعرف له خبراً، حتى قدم عليه رجل من أهل البصرة، فقال له: أنا أدلك على عبد الله بن هاشم بن عتبة أكتب إلى زياد فإنه عند فلانة المخزومية فدعا كاتبه فكتب: من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان، أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فاعمد إلى حي بني مخزوم، ففتشه داراً داراً، حتى تأتي إلى دار فلانة المخزومية فاستخرج عبد الله بن هاشم المرقال منها فاحلق رأسه وألبسه حبة شعر، وقيده، وغل يده إلى عنقه، واحمله على قتب بغير بغير وطاء ولا غداء، وانفذ به إلي.

قال المرزباني: فأما الزبير بن بكار فإنه قال: إن معاوية قال لزياد لما بعثه إلى البصرة: إن عبد الله بن المرقال في بني ناجية بالبصرة، عند امرأة منهم يقال لها فلانة، وأنا أعزم عليك إلا حططت رحلك ببائهما، ثم اقتحمت الدار واستخرجته منها، وحملته إلي.

فلما دخل زياد إلى البصرة، سأل عن بني ناجية، وعن منزل المرأة فاقتحم الدار، واستخرج عبد الله منها، فأنفذه إلى معاوية فوصل إليه يوم الجمعة، وقد لاقى نصباً كثيراً، ومن المهجير ما غير جسمه، وكان معاوية يأمر بطعام فيتخذ في كل جمعة لأشراف قريش ولأشراف الشام ووفود العراق، فلم يشعر معاوية إلا وعبد الله بين يديه، وقد ذبل وسهم وجهه،

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص، فقال معاوية: يا أبا عبد الله، أتعرف هذا الفتى قال: لا، قال: هذا ابن الذي كان يقول في صفين:

أعور يبغي أهله محلاً

قد عالج الحياة حتى ملا

لا بد أن يفل أو يفلأ

قال عمرو: وإنه لهُو دونك الضب المضب، فاشخب أوداجه، ولا ترجعه إلى أهل العراق فإنهم أهل فتنة ونفاق، وله مع ذلك هوى يريده، وبطانة تغويه، فوالذي نفسي بيده لئن أفلت من حبائك، ليجهن إليك جيشاً تكثر صواهلته، لشري يوم لك. فقال عبد الله وهو في القيد: يا بن الأبر، هلا كانت هذه الحماسة عندك يوم صفين، ونحن ندعوك إلى البراز، وتلوذ بشمائل الخيل كالأمة السوداء والنعجة القوداء أما إنه إن قتلني قتل رجلاً كريم المخيرة، حميد المقدرة، ليس بالجبس المنكوس، ولا الثلب المركوس. فقال عمرو: دع كيت وكيت، فقد وقعت بين لحبي لهزم، فروس للأعداء، يسعطك إسعاط الكودن الملحم. قال عبد الله: أكثر إكتارك، فإني أعلمك بطراً في الرخاء، جباناً في اللقاء، هيابة عند كفاح الأعداء، ترى أن تقي مهجتك، بأن تبدي سوءتك. أنسيت يوم صفين وأنت تدعى إلى التزال، فتعيد عن القتال، خوفاً أن يغمرك رجال لهم أبدان شداد، وأسنة حداد، ينهبون السرح، ويدلون العزيز.

قال عمرو: لقد علم معاوية أي شهدت تلك المواطن، فكنت فيها كمدرّة الشوك، ولقد رأيت أباك في بعض تلك المواطن تخفق أحشاؤه، وتنق أوعاؤه. قال: أما والله لو لقيك أي في ذلك المقام، لارتعدت منه فرائصك، ولم تسلم منه مهجتك، ولكنه قاتل غيرك فقتل دونك.

فقال معاوية ألا تسكت لا أم لك! فقال: يا بن هند، أتقول لي هذا! والله لئن شئت لأعرقن جبينك، ولأقيمك وبين عينيك وسم يلين له أخدعاك. أبأكثر من الموت تخوفني! فقال معاوية: أو تكف يا بن أخي! وأمر به إلى السجن. فقال عمرو: وذكر الأبيات، فقال عبد الله: وذكر الأبيات أيضاً، وزاد: فأطرق معاوية طويلاً حتى ظن أنه لن يتكلم، ثم قال:

أرى العفو عن علياً قریش وسيلة

إلى الله في اليوم العبوس القماطر

ولست أرى قتلي فتى ذا قرابة

له نسب في حي كعب وعامر

بل العفو عنه بعد ما خاب قدحه

وزلت به إحدى الجدود العواثر

وكان أبوه يوم صفين محنقاً

علينا، فأردته رماح يحابر

ثم قال له: أترأى فاعلاً ما قال عمرو من الخروج علينا قال: لا تسل عن عقيدات الضمائر، لا سيما إذا أرادت جهاداً في طاعة الله. قال: إذن يقتلك الله كما قتل أباك، قال: ومن لي بالشهادة! قال: فأحسن معاوية جائزته، وأخذ عليه موثقاً ألا يساكنه بالشام فيفسد عليه أهله.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن السدي، عن عبد خير الهمداني، قال: قال هاشم بن عتبة يوم مقتله: أيها الناس، إني رجل ضخم، فلا يهولنكم مستطلي إذا سقطت، فإنه لا يفرغ مني أقل من نحر جزور، حتى يفرغ الجزار من جزرها. ثم

حمل فصرع، فمر عليه رجل وهو صريع بين القتلى، فناداه: اقرأ على أمير المؤمنين السلام، وقل له: بركات الله ورحمته عليك يا أمير المؤمنين، أنشدك الله إلا أصبحت وقد ربطت مقاود خيلك بأرجل القتلى، فإن الدبرة تصبح غداً لمن غلب على القتلى. فأخبر الرجل علياً رضي الله عنه بما قاله، فسار في الليل بكتائبه حتى جعل القتلى خلف ظهره، فأصبح والدبرة له على أهل الشام.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن السدي، عن عبد خير، قال: قاتل هاشم الحارث بن المنذر التنوخي، حمل عليه بعد أن أعيأ وكل، وقتل بيده، فطعنه بالرمح فشق بطنه فسقط، وبعث إليه علي رضي الله عنه وهو لا يعلم: أقدم بلوائك، فقال للرسول: انظر إلى بطني، فإذا هو قد انشق، فجاء علي رضي الله عنه حتى وقف عليه، وحوله عصاة من أسلم قد صرعوا معه، وقوم من القراء، فجزع عليه، وقال:

صباح الوجوه صرعوا حول هاشم

جزى الله خيراً عصابة أسلمية

وسفيان، وابننا معبد ذي المكارم

يزيد وسعدان وبشر ومعبد

إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم

وعروة لا يبعد ثناه وذكره

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، عن أبي سلمة، أن هاشم بن عتبة استصرخ الناس عند المساء: ألا من كان له إلى الله حاجة، ومن كان يريد الآخرة فليقبل. فأقبل إليه ناس كثير شد بهم على أهل الشام مراراً، ليس من وجه يحمل عليه إلا صبروا له، فقاتل قتالاً شديداً ثم قال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما ترون منهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها، وعند مراكزها وإنهم لعلى الضلال، وإنكم لعلى الحق يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا، وامشوا بنا إلى عدونا على تؤدة، رويداً، واذكروا الله، ولا يسلمن رجل أخاه، ولا تكثروا الالتفات، واصمدوا صمدهم، وجالدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين. قال أبو سلمة: فبينما هو وعصابة من القراء يجالدون أهل الشام، إذ طلع عليهم فتى شاب، وهو يقول:

والدائن اليوم بدين عثمان

أنا ابن أرباب ملوك غسان

أن علياً قتل ابن عفان

أنبانا قراؤنا بما كان

ثم شد لا ينثني حتى يضرب بسيفه، ثم جعل يلعن علياً ويشتمه ويسهب في ذمه، فقال له هاشم بن عتبة: يا هذا إن الكلام بعده الخصام، وإن لعنك سيد الأبرار، بعده عقاب النار. فأتق الله، فإنك راجع إلى ربك فيسألك عن هذا الموقف وعن هذا المقال. قال الفتى: إذا سألتني ربي قلت: قاتلت أهل العراق، لأن صاحبهم لا يصلي كما ذكر لي، وإنهم لا يصلون، وصاحبهم قتل خليفتنا، وهم آزره على قتله. فقال له هاشم: يا بني، وما أنت وعثمان! إنما قتله أصحاب محمد الذين هم أولى بالنظر في أمور المسلمين، وإن صاحبنا كان أبعد القوم عن دمه، وأما قولك: إنه لا يصلي، فهو أول من صلى مع رسول الله، وأول من آمن به. وأما قولك: إن أصحابه لا يصلون، فكل من ترى معه قراء الكتاب، لا ينامون الليل تمجداً، فأتق الله واحش عقابه، ولا يغرك من نفسك الأشقياء الضالون.

فقال! الفتى: يا عبد الله، لقد دخل قلبي وجل من كلامك، وإني لأظنك صادقاً صالحاً، وأظني مخطئاً أثماً، فهل لي من توبة

قال: نعم، ارجع إلى ربك وتب إليه، فإنه يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، ويحب التوايين ويحب المتطهرين. فرجع الفتى إلى صفه منكسراً نادماً، فقال له لوم من أهل الشام: خدعك العراقي! قال: لا، ولكن نصحني العراقي.
قال نصر: وفي قتل هاشم وعمار تقول امرأة من أهل الشام:

لا تعدموا قوماً أذاقوا ابن ياسر

شعوباً ولم يعطوكم بالخزائم

فنحن قتلنا البثري ابن محصن

خطيبكم وابني بديل وهاشم

قال نصر: أما البثري، فهو عمرو بن محصن الأنصاري، وقد رثاه النجاشي شاعر أهل العراق، فقال:

لنعم فتى الحيين عمرو بن محصن

إذا صارخ الحي المصبح ثوبا

إذا الخيل جالت بينها قصد القنا

يثرن عجاجاً ساطعاً منتصباً

لقد فجع الأنصار طراً بسيد

أخي ثقة في الصالحات مجرباً

فيا رب خير قد أهدت وجفنة

ملأت وقرن قد تركت مسلماً

ويا رب خصم قد رددت بغيطه

فآب ذليلاً بعد أن كان مغضباً

وراية مجد قد حملت وغزوة

شهدت إذا النكس الجبان تهيباً

حويطاً على جل العشيرة ماجداً

وما كنت في الأنصار نكساً مؤنباً

طويل عماد المجد رحباً فناؤه

خصيباً إذا ما رائد الحي أجداً

عظيم رماد النار لم يك فاحشاً

ولا فشلاً يوم النزال مغلباً

وكنت ربيعاً ينفع الناس سبيه

وسيفاً جرازاً باتك الحد مقضباً

فمن يك مسروراً بقتل ابن محصن

فعاش شقيماً ثم مات معذباً

وغودر منكباً فيه ووجهه

يعالج رمحاً ذا سنان وثعلباً

فإن يقتلوا الحر الكريم ابن محصن

فنحن قتلنا ذا الكلاع وحوشياً

وإن يقتلوا ابني بديل وهاشماً

فنحن تركنا منكم القرن أعضباً

ونحن تركنا حميراً في صفوفكم

لدى الحرب صرعى كالنخيل مشذباً

وأفلتت تحت الأسنة مرثد

وكان قديماً في الفرار مدرباً

ونحن تركنا عند مختلف القنا

أخاكم عبيد الله لحماً ملحباً

بصفين لما أرفض عنه رجالكم

ووجه ابن عتاب تركناه مغبياً

وطلحة من بعد الزبير ولم ندع

لضبة في الهيجا عريفاً ومنكباً

ونحن أحطنا بالبعير وأهله

ونحن سقيناكم سماماً مقشبا

قال نصر: وكان ابن محصن من أعلام أصحاب علي رضي الله عنه، قتل في المعركة، وجزع علي رضي الله عنه لقتله. قال: وفي قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني، وهو من الصحابة- وقيل إنه آخر من بقي من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد مع علي صفين، وكان من مخلصي الشيعة:

يا هاشم الخير جزيت الجنة

قانتلت في الله عدو السنه

والتاركي الحق وأهل الظنه

أعظم بما فزت به من منه!

صيرني الدهر كأني شنه

وسوف تعلق حول قبري رنه

من زوجةٍ وحبوةٍ وكنه

قال نصر: والحبوة القرابة، يقال: لي في بني فلان حوبة، أي قريب.

قال نصر: وقال رجل من عذرة، من أهل الشام:

لقد رأيت أموراً كلها عجب

وما رأيت كأيام بصفيها

لما غدوا وغدونا كلنا حنق

كما رأيت الجمال الجلة الجونا

خيل تجول وأخرى في أعنتها

وآخرون على غيظ يرامونا

ثم ابتذلنا سيوفاً في جماجمهم

وما نساقبهم من ذاك يجزونا

كأنها في أكف القوم لامعة

سلاسل البرق يجدهن العرائنا

ثم انصرفنا كأشلاء مقطعة

وكلهم عند قتلاهم يصلونا

قال نصر: وقال رجل لعدي بن حاتم الطائي - وكان من جملة أصحاب علي رضي الله عنه - يا أبا طريف، ألم أسمعك تقول يوم الدار: "والله لا تحب فيها عناق حولية" وقد رأيت ما كان فيها! وقد كان فقتت عين عدي، وقتل بنوه - فقال: أما والله لقد حبقت في قتله العناق والتيس الأعظم.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: بعث علي رضي الله عنه خيلاً ليحبسوا عن معاوية مادته، فبعث معاوية الضحاك بن قيس الفهري في خيل إلى تلك الخيل، فأزالوها، وجاءت عيون علي رضي الله عنه فأخبروه بما كان، فقال لأصحابه: ما ترون فيما هاهنا فقال بعضهم: نرى كذا، وقال بعضهم: نرى كذا، فلما زاد الاختلاف، قال علي رضي الله عنه: اغدوا إلى القتال، فغاداهم إلى القتال، فانهمزمت صفوف الشام من بين يديه ذلك اليوم، حتى فر عتبة بن أبي سفيان عشرين فرسخاً عن موضع المعركة، فقال النجاشي فيه من قصيدة أولها:

لقد أمعنت يا عتب الفرارا

وأورثك الوغى خزيّاً وعارا

فلا يحمد خصاك سوى طمر

إذا أجريته انهمر انهمارا

وقال كعب بن جعيل - وهو شاعر أهل الشام - بعد رفع المصاحف، يذكر أيام صفين ويحرض معاوية:

معاوي لا تنهض بغير وثيقة	فإنك بعد اليوم بالذل عارف
تركتكم عبيد الله بالقاع مسنداً	يمج نجيعاً والعروق نوازف
ألا إنما تبكي العيون لفارس	بصفين أجلت خيله وهو واقف
ينوء وتعلوه شآبيب من دم	كما لاح في جيب القميص اللفاف
تبدل من أسماء أسياف وائل	وأي فتى لو أخطأته المتالف!
ألا إن شر الناس في الناس كلهم	بنو أسد إني بما قلت عارف
وفرت تميم: سعدا وربابها	وخالفت الجعراء فيمن يخالف
وقد صبرت حول ابن عم محمد	على الموت شهباء المناكب شارف
فما برحوا حتى رأى الله صبرهم	وحتى أتيت بالأكف المصاحف

وقد تقدم ذكر هذه الأبيات بزيادة على مما ذكرناه الآن.

قال نصر: وهجا كعب بن جعيل عتبة بن أبي سفيان وغيره بالفرار، وكان كعب من شيعة معاوية، لكنه هجا عتبة تحريضاً له، فهجاه عتبة جواباً، فقال له:

وسميت كعباً بشر العضا	م وكان أبوك يسمى الجعل
وإن مكانك من وائل	مكان القراد من أست الجمل

قال نصر: ثم كانت بين الفريقين الوقعة المعروفة بوقعة الخميس، حدثنا بها عمر بن سعد، عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم النخعي، قال: حدثنا القعقاع بن الأبرد الطهوي، قال: والله إني لواقف قريباً من علي رضي الله عنه بصفين يوم وقعة الخميس، وقد التقت مذحج - وكانوا في ميمنة علي رضي الله عنه - وعك لخم وجذام والأشعريون، وكانوا مستبصرين في قتال علي رضي الله عنه، فلقد والله رأيت ذلك اليوم من قتالهم، وسمعت من وقع السيوف على الرؤوس وخبط الخيول بحوافرها في الأرض وفي القتلى ما الجبال تهد، ولا الصواعق تصعق، بأعظم من هؤلاء في الصدور من تلك الأصوات. ونظرت إلى علي رضي الله عنه وهو قائم، فدنوت منه فأسمعه يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم إليك الشكوى وأنت المستعان! ثم نهض حين قام قائم الظهيرة وهو يقول: "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين". وحمل على الناس بنفسه، وسيفه مجرد بيده، فلا والله ما حجز بين الناس ذلك اليوم إلا الله رب العالمين، في قريب من ثلث الليل الأول، وقتلت يومئذ أعلام العرب، وكان في رأس علي رضي الله عنه ثلاث ضربات، وفي وجهه ضربتان. قال نصر: وقد قيل: إن علياً رضي الله عنه لم يخرج قط، وقتل في هذا اليوم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقتل من أهل الشام عبد الله بن ذي الكلاع الحميري، فقال معقل بن نهيك بن يساف الأنصاري:

يا لهف نفسي ومن يشفي حزازتها
وأفلت الخيل عمرو وهي شاحبة
وافت منية عبد الله إذ لحقت
وانساب مروان في الظلماء مستتراً
إذ أفلت الفاسق الضليل منطلقاً
تحت العجاج تحت الركض والعنقا
قب الخيول به، أعجز بمن لحقا
تحت الدجى كلما خاف الردى أرقا

وقال مالك الأشتر:

نحن قتلنا حوشباً
وذا الكلاع قبله
إن تقتلوا منا أبا اليقظان شيخاً مسلماً
فقد قتلنا منكم
أضحوا بصفين وقد
سبعين كهلاً مجرماً
لاقوا نكالا مؤثماً

وقالت ضبيعة بنت خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ترثي أباهما رحمه الله:

عين جودي على خزيمة بالدمع
قتلوا ذا الشهادتين عتوا
قتلوه في فتية غير عزل
نمروا السيد الموفق ذا العد
لعن الله معشراً قتلوه
قنتيل الأحزاب يوم الفرات
أدرك الله منهم بالترات
يسرعون الركوب في الدعوات
ل، ودانوا بذاك حتى الممات
ورماهم بالخزي والآفات

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الأعمش، قال: كتب معاوية إلى أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان سيداً معظماً من سادات الأنصار، وكان من شيعة على رضي الله عنه - كتاباً، وكتب إلى زياد بن سمية - وكان عاملاً لعلي رضي الله عنه على بعض فارس - كتاباً ثانياً. فأما كتابه إلى أبي أيوب فكان سطرًا واحدًا: حاجيتك! "لا تنسى الشياء أبا عذرها، ولا قاتل بكرها"، فلم يدر أبو أيوب ما هو! قال فأتى به علياً رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إن معاوية كهف المنافقين، كتب إلي بكتاب لا أدري ما هو! قال علي رضي الله عنه: فأين الكتاب فدفعه إليه، فقرأه، وقال: نعم، هذا مثل ضربه لك، يقول: لا تنس الشياء أبا عذرها. والشياء: المرأة البكر ليلة افتضاها، لا تنسى بعلمها الذي افتزعها أبداً، ولا تنسى قاتل بكرها، وهو أول ولدها، كذلك لا أنسى أنا قتل عثمان.

وأما الكتاب الذي كتبه إلى زياد، فإنه كان وعيداً وتهديداً، فقال زياد: ويلي على معاوية، كهف المنافقين وبقية الأحزاب! يتهددني ويتوعدي، ويبيني وبينه ابن عم محمد معه سبعون ألفاً، سيوفهم على عواتقهم، يطيعونه في جميع ما يأمرهم به، لا

يلتفت رجل منهم وراءه حتى يموت! أما والله لو ظفر ثم خلص إلي ليجدني أحمر ضراباً بالسيف.
قال نصر: أحمر أي مولى. فلما ادعاه معاوية عاد عريياً منافياً.
قال نصر: وروى عمرو بن شمر أن معاوية كتب في أسفل كتابه إلى أبي أيوب:

أبلغ لديك أبا أيوب مألكة	أنا وقومك مثل الذئب والنقد
إما قتلتم أمير المؤمنين فلا	ترجوا الهوادة منا آخر الأبد
إن الذي نلتموه ظالمين له	أبقت حزازته صدعاً على كبدي
إنني حلفت يميناً غير كاذبة	لقد قتلتم إماماً غير ذي أود
لا تحسبوا أنني أنسى مصيبتهم	وفي البلاد من الأنصار من أحد
قد أبدل الله منكم خير ذي كلع	واليحصبين أهل الخوف والجند
إن العراق لنا فقع بقرقرة	أو شحمة بزها شاو ولم يكد
والشام ينزلها الأبرار، بلدتها	أمن، وبيضتها عريسة الأسد

فلما قرئ الكتاب على علي رضي الله عنه، قال: لشد ما شحذكم معاوية يا معشر الأنصار أجيوا الرجل فقال أبو أيوب: يا أمير المؤمنين، إني ما أشاء أن أقول شيئاً من الشعر يعيا به الرجال إلا قلته، فقال: فأنت إذا أنت. فكتب أبو أيوب إلى معاوية: أما بعد، فإنك كتبت: "لا تنسى الشياء أبا عذرهما، ولا قاتل بكرها"، فضربتها مثلاً بقتل عثمان، وما نحن وقتل عثمان! إن الذي تربص بعثمان وثبط يزيد بن أسد وأهل الشام عن نصرته لأنت، وإن الذين قتلوه لغير الأنصار وكتب في آخر كتابه:

لا توعدنا ابن حرب إننا نفر	لا نبتغي ود ذي البغضاء من أحد
واسعوا جميعاً بني الأحزاب كلكم	لسنا نريد رضاكم آخر الأبد
نحن الذين ضربنا الناس كلهم	حتى استقاموا وكانوا عرضة الأود
والعام قصرك منا إن ثبت لنا	ضرب يزيل بين الروح والجسد
أما علي فإننا لا نفارقه	ما رفراف الآل في الدوية الجرد
إما تبدلت منا بعد نصرتنا	دين الرسول أناساً ساكني الجند
لا يعرفون أضل الله سعيهم	إلا أتباعكم، يا راعي النقد
فقد بغى الحق هضماً شر ذي كلع	واليحصبين طراً بيضة البلد

قال: فلما أتى معاوية كتاب أبي أيوب كسره.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: حدثني مجالد، عن الشعبي، عن زياد بن النضر الحارثي، قال: شهدت مع علي

رضي الله عنه صفين، فاقتلنا مرة ثلاثة أيام، وثلاث ليال حتى تكسرت الرماح، ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايقة، فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث يعانق بعضنا بعضاً. ولقد قاتلت ليلتئذ بجميع السلاح، فلم يبق شيء من السلاح إلا قاتلت به حتى تحاثينا بالتراب، وتكادمننا بالأفواه حتى صرنا قياماً ينظر بعضنا إلى بعض ما يستطيع أحد من الفريقين أن ينهض إلى صاحبه، ولا يقاتل فلما كان نصف الليل من الليلة الثالثة، انحاز معاوية وخيله من الصف وغلب علي علنه على القتلى، فلما أصبح أقبل على أصحابه يدفنهم وقد قتل كثير منهم، وقتل من أصحاب معاوية أكثر، وقتل فيهم تلك الليلة شمر بن أبرهة.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن جابر عن تميم، قال: والله إني لمع علي رضي الله عنه إذ أتاه علقمة بن زهير الأنصاري، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمرو بن العاص يرتجز في الصف بشعر، أفأسمعه! قال: نعم، قال: إنه يقول:

إذا تخازرت وما بي من خزر
ثم كسرت العين من غير عور
ألفيتني ألوى بعيد المستمر
ذا صولة في المصملات الكبر
أحمل ما حملت من خير وشر كالحية
الصماء في أصل الحجر

فقال علي: اللهم العنه فإن رسولك لعنه، قال علقمة: وإنه يا أمير المؤمنين يرتجز برجز آخر، فأنشدك قال: قل، فقال:

أنا الغلام القرشي المؤتمن
ترضى بي الشام إلى أرض عدن
المجد الأبلج ليث كالشطن
يا قادة الكوفة، يا أهل الفتن
أضربكم ولا أرى أبا حسن
كفى بهذا حزناً من الحزن!

فضحك علي رضي الله عنه، وقال: إنه لكاذب، وإنه بمكاني لعالم، كما قال العربي: "غير الوهي ترقيع وأنت مبصرة"، ويحكم! أروني مكانه لله أبوكم وخلاكم ذم! وقال محمد بن عمرو بن العاص:

لو شهدت جمل مقامي مشهدي
بصفين يوماً شاب منها الذوائب
غداة غدا أهل العراق كأنهم
من البحر موج لجه مترالكب
وجئناهم نمشي صفوفاً كأننا
سحاب خريف صففته الجنائب
فطارت إلينا بالرماح كماتهم
وطرنا إليهم والسيوف قواضب
فدارت رحانا واستدارت رحاهم
سراة نهار ما تولى المناكب
إذا قلت يوماً قد ونوا برزت لنا
كتائب منهم وارجحت كتائب
وقالوا نرى من رأينا أن تبايعوا
علياً فقلنا بل نرى أن نضارباً
فأبنا وقد أردوا سراة رجالنا
فلم أر يوماً كان أكثر باكياً
وليس لما لاقوا سوى الله حاسب
كأن تلالي البيض فينا وفيهم
ولا عارضاً منهم كمياً يكالب
تألق برق في تهامة ثاقب

وقال النجاشي يذكر علياً، وجدته في الأمر:

إني إخال علياً غير مرتدع
أما ترى النقع معصوباً بلمته
غضبان يحرق نابه على حنق
حتى يزيل ابن حرب عن إمارته
حتى تقام حقوق الله والحرم
كأنه الصقر في عرنيه شمم
كما يغط الفنيق المصعب القطم
كما تتكب تيس الحبله الحلم

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن الشعبي، قال: بلغ النجاشي أن معاوية تهدده فقال:

يا أيها الرجل المبدي عداوته
لا تحسبني كأقوام ملكتهم
وما علمت بما أضمرت من حنق
إذا نفست على الأنجاد مجدهم
روى لنفسك أي الأمر تأتمر!
طوع الأعنة لما ترشح الغدر
حتى أتتني به الركبان والنذر
فابسط يديك، فإن الخير مبتدر
شم العرانيين لا يعلوهم بشر
ما دام بالحزن من صمائها حجر
كما تفاضل ضوء الشمس والقمر
نعم الفتى أنت إلا أن بينكما

ولا إخالك إلا لست منتهياً
لا تحمدن امرأ حتى تجربه
إني امرؤ قلما اثني على أحد
وإن طوى معشر عني عداوتهم
حتى يمस्क من أظفاره طفر
ولا تذن من لم يبيله الخبر
حتى أرى بعض ما يأتي وما يذر
في الصدر أو كان في أبصارهم خزر
أجمعت عزماً جراميزي بقافية
لا يبرح الدهر منها فيهم أثر

قال: فلما بلغ معاوية هذا الشعر، قال: ما أراه إلا قد قارب.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن محمد بن إسحاق، أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان يحمل على الخيل يوماً، فجاءه رجل، فقال: هل من فرس يا بن ذي الجناحين قال: تلك الخيل فخذ أيتها شئت، فلما ولى قال ابن جعفر: إن تصب أفضل الخيل تقتل، فما عثم أن أخذ أفضل الخيل، فركبه، ثم حمل على فارس قد كان دعاه إلى البراز، الشامي، وحمل غلامان آخران من أهل العراف حتى انتهيا إلى سراق معاوية، فقتلا عنده وأقبلت الكتائب بعضها بعض، فاقتتل قياماً في الركب، لا يسمع السامع إلا وقع السيوف على البيض والدرق. وقال عمرو بن العاص:

أجئتم إلينا تسفكون دماءنا
لعمري لما فيه يكون حجاجنا
وما رمتم وعر من الأمر أعسر
إلى الله أدهى لو عقلتم وأنكر

تعاورتم ضرباً بكل مهند

كتائبكم طوراً تشد وتارة

إذا ما التقوا يوماً تدارك

وقال رجل من كلب مع معاوية يهجو أهل العراق ويوئخهم:

إذا شد وردان تقدم قنبر

كتائبنا فيها القنا والسنور

بينهم طعان وموت في المعارك أحمر

لقد ضلت معاشر من نزار

وإنهم وبيعتهم علياً

تزين من سفاهتها يديها

فياكم وداهية نووداً

إذا ساروا سمعت لحافتيهم

يجيبون الصريخ إذا دعاهم

عليهم كل سابعة دلاص

إذا انقادوا لمثل أبي تراب

كواشمة التغضن بالخضاب

وتحسر باليدين عن النقاب

تسير إليكم تحت العقاب

دوياً مثل تصفيق السحاب

وقد طعن الفوارس بالحراب

وأبيض صارم مثل الشهاب

وقال أبو حية بن غزية الأنصاري وهو الذي عقر الجمل يوم البصرة، واسمه عمرو:

سائل حليلة معبد عن بعلمها

واسأل عبيد الله عن فرساننا

واسأل معاوية المولي هارباً

ماذا يخبرك المخبر منهم

إن يصدقوك يخبروك بأننا

إن يصدقوك يخبروك بأننا

ندعو إلى التقوى ونرعى أهلها

ونسن للأعداء كل مثقف

وحليلة اللخمي وابن كلاع

لما ثوى متجداً بالقاع

والخيل تمعج وهي جد سراع

عنهم وعنا عند كل وقاع

أهل الندى قدماً مجيبو الداعي

نحمي الحقيقة كل يوم مصاع

برعاية المأمون لا المضياح

لذن وكل مشطب قطاع

وقال عدي بن حاتم الطائي:

أقول لما أن رأيت المعمعه

هذا علي والهدى حقاً معه

فإنه يخشاك رب فارفعه

أو كاده بالبغي منك فاقمعه

واجتمع الجندان وسط البلقعه

يا رب فاحفظه ولا تضيعه

ومن أراد عيبه فضعضه

وقال النعمان بن جعلان الأنصاري:

سائل بصفين عنا عند غدوتنا
 وسل غداة لقينا الأزد قاطبة
 لولا الإله وعفو من أبي حسن
 لما تداعت لهم بالمصر داعية
 أم مقعص قد تركناه بمقفرة
 ما إن يؤوب ولا ترجوه أسرته
 قال عمرو بن الحمق الخزاعي:

تقول عرسي لما أن رأته أرقى
 ماذا يهيجك من أصحاب صفينا

ألست في عصابة يهدي الإله بهم
 فقلت إني على ما كان من رشد
 إدالة القوم في أمر يراد بنا
 وقال حجر بن عدي الكندي:

يا ربنا سلم لنا علياً
 المؤمن المسترشد الرضيا
 واحفظه رب حفظك النبيا
 فإنه كان لنا ولياً
 سلم لنا المذهب التقيا
 واجعله هادي أمة مهديا
 لا خطل الرأي ولا غيبا
 ثم ارتضيه بعده وصيا

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: قال الأحنف بن قيس في صفين لأصحابه: هلك العرب! قالوا له: وإن غلبنا يا أبا بحر قال: نعم، قالوا: وإن غلبنا قال: نعم، قالوا: والله ما جعلت لنا مخرجاً. فقال الأحنف: إنا إن غلبناهم لم نترك بالشام رئيساً إلا ضربنا عنقه، وإن غلبونا لم يعرج بعدها رئيس عن معصية الله أبداً.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: ذكر معاوية يوماً صفين بعد عام الجماعة، وتسليم الحسن رضي الله عنه الأمر إليه، فقال للوليد بن عتبة: أي بني عمك كان أفضل يوم صفين يا وليد، عند وقدان الحرب، واستشاعة لظاها حين قاتلت الرجال على الأحساب؟ قال: كلهم قد وصل كنفها عند انتشار وقعها، حتى ابتلت أثابج الرجال من الجريال، بكل لدن عسال، وبكل غضب قصال. فقال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: أما والله لقد رأيتنا يوماً من الأيام، وقد غشنا ثعبان في مثل الطود الأرعن، قد أثار قسطلاً حال بيننا وبين الأفق، وهو على أدهم شائل الغرة، - يعني علياً رضي الله عنه - يضربهم بسيفه ضرب غرائب الإبل كاشراً عن نابه كشر المخدر الحرب، فقال معاوية: نعم إنه كان يقاتل عن برة له وعليه.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: أرسل علي رضي الله عنه إلى معاوية أن ابرز إلي وأعف الفريقين من القتال، فأينا قتل صاحبه كان الأمر له. فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل، فقال معاوية: أنا أبارز الشجاع الأخرق! أظنك يا عمرو طمعت فيها. فلما لم يجب قال علي رضي الله عنه: وانفساه! أيطاع معاوية وأعصى! ما قاتلت أمة قط أهل بيت نبيا وهي مقرة بنبينا غير هذه الأمة! ثم إن علياً رضي الله عنه أمر الناس أن يحملوا على أهل الشام، فحملوا، فنقضوا صفوف الشام، فقال عمرو: على من هذا الرهج الساطع قالوا: على ابنك عبد الله ومحمد، فقال عمرو: يا وردان، قدم لوائي، فأرسل إليه معاوية: إنه ليس على ابنك بأس فلا تنقض الصف، والزم موقفك، فقال عمرو: هيهات هيهات.

الليث يحمي شبليته

ما خيره بعد ابنه !

ثم تقدم باللواء، فأدركه رسول معاوية فقال: إنه ليس على ابنك بأس فلا تحملن. فقال: قل له: إنك لم تلدهما، وإني أنا ولدتهما. وبلغ مقدم الصفوف، فقال له الناس: مكانك! إنه لا بأس على ابنك إنهما في مكان حريز. فقال: أسمعوني أصواتهما حتى أعلم أحيانهما أم قتيلا! ونادى: يا وردان، قدم لواءك قيد قوس، فقدم لواءه، فأرسل علي رضي الله عنه إلى أهل الكوفة: أن احملا، وإلى أهل البصرة: أن احملا. فحمل الناس من كل جانب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وخرج رجل من أهل الشام، فقال: من يبارز فيبرز إليه رجل من أهل العراق، فاقتتلا ساعة، وضرب العراقي الشامي على رجله، فأسقط قدمه، فقاتل ولم يسقط إلى الأرض، فضر به العراقي أخرى، فأسقط يده، فرمى الشامي سيفه إلى أهل الشام، وقال: دونكم سيفي هذا، فاستعينوا به على قتال عدوكم. فاشتره معاوية من أوليائه بعشرة آلاف درهم.

قال نصر: وحدثنا مالك الجهنبي، عن زيد بن وهب، أن علياً رضي الله عنه مر على جماعة من أهل الشام بصفين، منهم الوليد بن عقبة، وهم يشتمونه ويقصبونه، فاحبر بذلك، فوقف على ناس من أصحابه، وقال: اهدوا إليهم، وعليكم السكينة والوقار وسيما الصالحين، أقرب بقوم من الجهل، قائدهم ومؤدبهم معاوية، وابن النابغة، وأبو الأعور السلمي، وابن أبي معيط شارب الحرام، والمحدود في الإسلام! وهم أولاء، يقصبونني ويشتمونني، وقبل اليوم ما قاتلوني وشتموني، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، فالحمد لله، ولا إله إلا الله! لقد عدا بني الفاسقون، إن هذا هو الخطب الجلل إن فساقاً كانوا عندنا غير مرضيين، وعلى الإسلام وأهله متخوفين، أصبحوا وقد خدعوا شطر هذه الأمة، واشربوا في قلوبهم حب الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، ونصبوا لنا الحرب، وجدوا في إطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون. اللهم فإنهم قد ردوا الحق فافضض جمعهم، وشتت كلمتهم وأبلسهم بخطاياهم، فإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت.

قال نصر: وكان علي رضي الله عنه، إذا أراد الحملة هلل وكبر، ثم قال:

من أي يومي من الموت أفر

أيوم لم يقدر أو يوم قدر!

فجعل معاوية لواءه الأعظم مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأمر علي رضي الله عنه جارية بن قدامة السعدي أن يلقاه بأصحابه، وأقبل عمرو بن العاص بعده في خيل، ومعه لواء ثان، فتقدم حتى خالط صفوف العراق، فقال علي رضي الله عنه لابنه محمد: امش نحو هذا اللواء رويداً حتى إذا أشرعت الرماح في صدورهم فأمسك يدك حتى يأتيك أمري. ففعل - وقد كان أعد علي رضي الله عنه مثلهم مع الأشر - فلما أشرع محمد الرماح في صدور القوم، أمر علي رضي الله عنه الأشر أن يحمل فحمل، فأزالهم عن مواقفهم، وأصاب منهم رجالاً، واقتتل الناس قتالاً شديداً، فما صلى من أراد الصلاة إلا إيماء، فقال النجاشي في ذلك اليوم يذكر لأشتر:

يقحمه الشانئ الأخر

وأقبل في خيله الأبت

وقد أضمر الفشل العسكر

وفاز بحظوتها الأشر

إذا ناب معصوب منكر

فحظ العراق به الأوفر

فقد ذهب العرف والمنكر

كفقع تضمنه القرق

ولما رأينا اللواء العقاب

كليث العرين خلال العجاج

دعونا لها الكبش كبش العراق

فرد اللواء على عقبه

كما كان يفعل في مثلها

فإن يدفع الله عن نفسه

إذا الأشر الخير خلى العراق

وتلك العراق ومن عرفت

قال نصر: وحدثنا محمد بن عتبة الكندي، قال: حدثني شيخ من حضرموت شهد مع علي رضي الله عنه صفين، قال: كان منا رجل يعرف بهاني بن فهدي، وكان شجاعاً، فخرج رجل من أهل الشام يدعو إلى البراز فلم يخرج إليه أحد، فقال هاني: سبحان الله! ما يمنعكم أن يخرج منكم رجل إلى هذا! فوالله لولا أي موعوك، وأي أحد ضعفاً شديداً لخرجت إليه. فما رد أحد عليه، فقام وشد عليه سلاحه ليخرج، فقال له أصحابه: يا سبحان الله! أنت موعوك وعكة شديدة، فكيف تخرج! قال: والله لأخرجن ولو قتلتني، فخرج فلما رآه عرفه، وإذا الرجل من قومه من حضرموت، يقال له يعمر بن أسد الحضرمي، فقال: يا هاني، ارجع فإنه إن يخرج إلي رجل غيرك أحب إلي، فإني لا أحب قتلك. قال هاني: سبحان الله! أرجع وقد خرجت لا والله أقاتل اليوم حتى أقتل، ولا أبالي قتلتني أنت أو غيرك! ثم مشى نحوه، وقال: اللهم في سبيلك ونصراً لابن عم رسولك. واختلفا ضربتين، فقتله هاني، وشد أصحاب يعمر بن أسد على هاني، فشد أصحاب هاني عليهم، فاقتتلوا وانفجروا عن اثنين وثلاثين قتيلاً. ثم إن علياً رضي الله عنه أرسل إلى جميع العسكر: أن احملوا، فحمل الناس كلهم على أياقتهم، كل منهم يحمل على من يرازه، فتجالدوا بالسيوف، وعمد الحديد لا يسمع إلا صوت ضرب الهامات، كوقع المطارق على السنادين، ومرت الصلوات كلها، فلم يصل أحد إلا تكبيراً عند مواقيت الصلاة حتى تفانوا، ورق الناس، وخرج رجل من بين الصفين، لا يعلم من هو، فقال: أيها الناس، أخرج فيكم الملقون فقيل: لا، فقال: إنهم سيخرجون، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، لهم حمة كحمة الحيات. ثم غاب الرجل فلم يعلم من هو!

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن السدي، قال: اختلط أمر الناس تلك الليلة، وزال أهل الرايات عن مراكزهم، وتفرق أصحاب علي رضي الله عنه، فأتى ربيعة ليلاً فكان فيهم، وتعاضم الأمر جداً، وأقبل عدي بن حاتم يطلب علياً رضي الله عنه في موضعه الذي تركه فيه فلم يجده، فطاف يطلبه، فأصابه بين رماح ربيعة، فقال: يا أمير المؤمنين أما إذ كنت حياً، فالأمر أمم، ما مشيت إليك إلا على قتيل وما أبقت هذه الوقعة لهم عميداً، فقاتل حتى يفتح الله عليك، فإن في الناس بقية بعد. وأقبل الأشعث يلهث جزعاً، فلما رأى علياً رضي الله عنه هلل فكبر، وقال: يا أمير المؤمنين، خيل كخيل ورجال كرجال ولنا الفضل عليهم إلى ساعتنا هذه، فعد إلى مكانك الذي كنت فيه فإن الناس إنما يظنونك حيث تركوك. وأرسل سعيد بن قيس الهمداني إلى علي رضي الله عنه: إنا مشغلون بأمرنا مع القوم، وفيينا فضل، فإن أردت أن نمد أحداً أمددناه. فأقبل علي رضي الله عنه على ربيعة، فقال: أنتم درعي ورمحي - قال: فربيعة تفخر بهذا الكلام إلى اليوم - فقال عدي بن حاتم: يا أمير المؤمنين، إن قوماً أنست بهم وكنت في هذه الجولة فيهم، لعظيم حقهم والله إنهم لصبر عند الموت، أشداء عند القتال - فدعا علي رضي الله عنه لفرس رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يقال له المرتجز، فركبه، ثم تقدم أمام الصفوف، ثم قال: بل البغلة، بل البغلة، فقدمت له بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الشهباء، فركبها، ثم تعصب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت سوداء، ثم نادى: أيها الناس، من يشتر نفسه لله يربح، إن هذا ليوم له ما بعده، إن عدوكم قد مسه القرع كما مسكم، فانتدبوا لنصرة دين الله. فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً، قد وضعوا سيوفهم على عواتقهم، فشد بهم على أهل الشام، وهو يقول:

وأصبحوا في حربكم وبيتوا

أو لا فإني طالما عصيت

ليس لكم ما شئتم وشيت

دبوا دبیب النمل لا تفوتوا

حتى تتالوا الثأر أو تموتوا

قد قلت لو جئتنا فجيت

بل ما يريد المحيي المميت

وتبعه عدي بن حاتم بلوائه، وهو يقول:

وابن بديل فارس الملاحم

لقد عضضنا أمس بالأباهم !

ليس امرؤ من حنقه بسالم

أبعد عمار وبعد هاشم

نرجو البقاء ضل حلم الحالم

فاليوم لا نقرع سن نادم

وحمل وحمل الأشتر بعدهما في أهل العراق كافة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وأحمد أهل العراق ما أتوا عليه حتى أفضى الأمر إلى مضرب معاوية، وعلي رضي الله عنه يضرب الناس بسيفه قدماً قدماً، ويقول:

الأخزر العين العظيم الحاويه

أضربهم ولا أرى معاويه

هوت به في النار أم هاويه

فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه، فلما وضع رجله في الركاب توقف وتلوم قليلاً، ثم أنشد قول عمرو بن الإطنابة:

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

أُبت لي عفتي وأبى بلائي
وإقدامي على المكروه نفسي
وقولي كلما جشأت وجاشت
لأدفع عن مآثر صالحات
وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وضربي هامة البطل المشيح
مكانك تحمدي أو تستريحي
وأحمي بعد عن عرض صحيح
ونفس ما تقرر على القبيح
بذي شطب كلون الملح صاف

ثم قال: يا عمرو بن العاص، اليوم صبر وغداً فخر، قال: صدقت، إنك وما أنت فيه، كقول القائل:

ما علتي وأنا جلد نابل
تزل عن صفحتها المعابل
والقوس فيها وتر عنابل
الموت حق والحياة باطل

فثنى معاوية رجله من الركاب، ونزل واستصرخ بعك والأشعرين، فوقفوا دونه، وجالدوا عنه، حتى كره كل من الفريقين صاحبه، وتحاجز الناس.

قال نصر: جاء رجل إلى معاوية بعد انقضاء صفين وخلوص الأمر له، فقال: يا أمير المؤمنين إن لي عليك حقاً، قال: وما هو قال: حق عظيم! قال ويحك! ما هو قال: أتذكر يوماً قدمت فرسك لتفر، وقد غشيك أبو تراب والأشتر، فلما أردت أن تستوثبه وأنت على ظهره، أمسكت بعنانك وقلت لك: أن تذهب! إنه للؤم بك أن تسمح العرب بنفوسها لك شهرين، ولا تسمح لها بنفسك ساعة، وأنت ابن ستين! وكم عسى أن تعيش في الدنيا بعد هذه السن إذا نجوت! فتلومت في نفسك ساعة، ثم أنشدت شعراً لا أحفظه ثم نزلت! فقال: ويحك! فإنك لأنت هو! والله ما أحلني هذا الحل إلا أنت، وأمر له بثلاثين ألف درهم.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن النخعي، عن ابن عباس، قال: تعرض عمرو بن العاص لعلي رضي الله عنه يوماً من أيام صفين، وظن أنه يطعم منه في غرة فيصيبه، فحمل عليه علي رضي الله عنه فلما كاد أن يخالطه أذرى نفسه عن فرسه ورفع ثوبه وشعر برجله، فبدت عورته، فصرف رضي الله عنه وجهه عنه، وارث، وقام معفراً بالتراب، هارباً على رجله، معتصماً بصفوفه. فقال أهل العراق: يا أمير المؤمنين: أفلت الرجل! فقال أتدرون من هو قالوا: لا، قال: فإنه عمرو بن العاص، تلقاني بسوءته فصرفت وجهي عنه. ورجع عمرو إلى معاوية، فقال: ما صنعت يا أبا عبد الله فقال: لقيني علي فصرعني، قال: أحمد الله وعورتك، والله إني لأظنك لو عرفته لما أقحمت عليه، وقال معاوية في ذلك:

ألا الله من هفوات عمرو
فقد لاقى أبا حسن علياً
فلو لم يبد عورته لطارت
فإن تكن المنية أخطأته
يعاتبني على تركي برازي
فآب الوائلي مآب خازي
بمهجته قوادم أي بازي
فقد غنى بها أهل الحجاز!

فغضب عمرو وقال: ما أشد تعظيمك علياً أبا تراب في أمري! هل أنا إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه! أفترى السماء قاطرة لذلك دماً! قال: لا، ولكنها معقبة لك خزيًا.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: لما اشتد الأمر، وعظم على أهل الشام، قال معاوية لأخيه عتبة بن أبي سفيان: الق الأشعث، فإنه إن رضي رضيته العامة - وكان عتبة فصيحاً - فخرج فنأدى الأشعث، فقال الأشعث: سلوا من هو المنادي قالوا: عتبة بن أبي سفيان، قال: غلام مترف ولا يد من لقائه! فخرج إليه، فقال: ما عندك يا عتبة فقال: أيها الرجل، إن معاوية لو كان لاقياً رجلاً غير علي للقيك، إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، وقد سلف من عثمان إليك ما سلف من الصهر والعمل، ولست كأصحابك، أما الأشتر فقتل عثمان، وأما عدي فحرض عليه، وأما سعيد بن قيس فقتل علياً ديتة، وأما شريح وزحر بن قيس فلا يعرفان غير الهوى، وإنك حاميت عن أهل العراق تكرمًا، وحاربت أهل الشام حمية، وقد بلغنا منك وبلغت منا ما أردت وإنا لا ندعوك إلى ترك علي ونصرة معاوية، ولكننا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا. فتكلم الأشعث، فقال: يا عتبة، أما قولك: "إن معاوية لا يلقي إلا علياً"، فلو لقيني والله لما عظم عني، ولا صغرت عنه، وإن أحب أن أجمع بينه وبين علي فعلت. وأما قولك: "إني رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن" فإن الرأس المتبع والسيد المطاع، هو علي بن أبي طالب وأما ما سلف من عثمان إلي، فوالله ما زادني صهره شرفاً، ولا عمله عزاً. وأما عيبك أصحابي، فإنه لا يقربك مني، ولا يباعدي عنهم وأما محاماتي عن أهل العراق فمن نزل بيتاً حماه وأما البقية فلستم بأحوج إليها منا، وسنرى رأينا فيها.

فلما عاد عتبة إلى معاوية، وأبلغه قوله قال له: لا تلقه بعدها فإن الرجل عظيم عند نفسه وإن كان قد جنح للسلم وشاع في أهل العراق ما قاله عتبة للأشعث وما رده الأشعث عليه فقال النجاشي يمدحه:

أنت والله رأس أهل العراق

يابن قيس وحارث ويزيد

أنت والله حية تنفث السم قليل منها غناء الراقي

لا يرى ضوءها مع الإشراق

أنت كالشمس والرجال نجوم

ر وبالبيض كالبروق الرقاق

قد حميت العراق بالأسل السم

ض المواضي وبالرماح الدقاق

وسعرت القتال في الشام بالبي

ورؤوس بهامها أفلاق

لا ترى غير أذرع وأكف

جا سقيتهم بكأس دهاق

كلما قلت قد تصرمت الهي

وسارت به القلاص المناقي

قد قضيت الذي عليك من الحق

د وللشائنين مر المذاق

أنت حلو لمن تقرب بالو

إمتهلك في الناس عند ضيق الخناق

بئسما ظنه ابن هند هند ومن

قال نمر: فقال معاوية لما يئس من جهة الأشعث لعمر بن العاص: إن رأس الناس بعد علي هو عبد الله بن العباس، فلو كتبت إليه كتاباً لعلك ترققه، ولعله لو قال شيئاً لم يخرج علي رضي الله عنه وقد أكلتنا الحرب، ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام فقال عمرو: إن ابن عباس لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت في علي، قال معاوية: على ذلك فاكتب، فكتب عمرو إليه: أما بعد، فإن الذي نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء وأنت رأس هذا الجمع بعد علي، فانظر فيما بقي، ودع ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياةً ولا صبراً، فاعلم أن الشام لا تهلك إلا بهلاك العراق، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام فما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا! ولسنا نقول: ليت الحرب عادت ولكننا نقول: ليتها لم تكن وإن فينا من يكره اللقاء، كما أن فيكم من يكرهه وإنما هو أمير مطاع، ومأمور مطيع أو مؤتمن مشاور وهو أنت، فأما الأشتر الغليظ الطبع، القاسي القلب فليس بأهل أن يدعى في الشورى ولا في خواص أهل النجوى. وكتب في أسفل الكتاب:

طال البلاء وما يرجى له آسى	بعد الإله سوى رفق ابن عباس
قولاً له قول من يرجو مودته:	لا تنس حظك إن الخاسر الناسي
انظر فدى لك نفسي قبل قاصمة	للظهر ليس لها راق ولا آس
إن العراق وأهل الشام لن يجدوا	طعم الحياة مع المستغلق القاسي
يابن الذي زمزم سقيا الحجيح له	أعظم بذلك من فخر على الناس

إنني أرى الخير في سلم الشام لكم	والله يعلم ما بالسلم من باس
فيها التقى وأمور ليس يجهلها	إلا الجهول وما نوكى كأكياس

فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس، عرضه على أمير المؤمنين رضي الله عنه، فضحك، وقال: قاتل الله ابن العاص ما أغراه بك يا عبد الله. أجبته وليرد عليه شعره الفضل بن العباس، فإنه شاعر فكتب ابن عباس إلى عمرو: أما بعد، فإني لا أعلم أحداً من العرب أقل حياءً منك، إنه مال بك معاوية إلى الهوى فبعته دينك بالثمن اليسير، ثم خبطت الناس في عشوة طمعاً في الدنيا فأعظمتها إعظام أهل الدنيا، ثم تزعم أنك تتزهد عنها تزهد أهل الورع، فإن كنت صادقاً فارجع إلى بيتك، ودع الطمع في مصر والركون إلى الدنيا الفانية، واعلم أن هذه الحرب ما معاوية فيها كعلي بدأها علي بالحق، وانتهى فيها إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف وليس أهل العراق فيها كأهل الشام بايع أهل العراق علياً، وهو خير منهم، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه، ولست أنا وأنت فيها سواء، أردت الله وأردت مصر، وقد عرفت الشيء الذي باعدك مني، ولا أعرف الشيء الذي قربك من معاوية، فإن ترد شراً لا نسبك به، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه. والسلام.

ثم دعا أخاه الفضل، فقال: يا بن أم، أجب عمراً، فقال الفضل:

يا عمرو حسبك من مكر ووسواس	فاذهب فليس لداء الجهل من آس

إلا تواتر طعن في نحوركم

يشجي النفوس ويشفي نخوة الراس

أما علي فإن الله فضله

بفضل ذي شرف عال على الناس

إن تعقلوا الحرب نعقلها مخيسة

أو تبعثوها فإننا غير أنكاس

قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة

هذا بهذا وما بالحق من باس

ثم عرض الشعر والكتاب على علي رضي الله عنه، فقال: لا أراه يجيبك بعدها أبداً بشيء إن كان يعقل وإن عاد عدت عليه.

فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص عرضه على معاوية، فقال: إن قلب ابن عباس وقلب علي قلب واحد، وكلاهما ولد عبد المطلب، وإن كان قد خشن فلقد لان، وإن كان قد تعظم أو عظم صاحبه، فلقد قارب وجنح إلى السلم. قال نصر: وقال معاوية لأكتبن إلى ابن عباس كتاباً أستعرض فيه عقله، وأنظر ما في نفسه، فكتب إليه: أما بعد، فإنكم معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار ابن عفان حتى إنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه، واستعظامهما ما نيل منه، فإن كان ذلك منافسة لبني أمية في السلطان، فقد وليها عدي وتيم فلم تنافسوه، وأظهرتم لهم الطاعة، وقد وقع من الأمر ما ترى، وأكلت هذه الحروب بعضها بعضاً، حتى استويننا فيها، فما يطعمكم فينا يطمعنا فيكم، وما يؤيسنا منكم يؤيسكم منا ولقد رجونا غير ما كان، وخشيننا دون ما وقع، ولمست ملاقينا اليوم بأحد من حد أمس، ولا غداً بأحد من حد اليوم، وقد قنعنا بما في أيدينا من ملك الشام، فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق، وأبقوا على قریش، فإنما بقي من رجالها ستة: رجلان بالشام، ورجلان بالعراق، ورجلان بالحجاز، فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو، وأما اللذان بالعراق فأنت وعلي، وأما اللذان بالحجاز، فسعد وابن عمر فائنان من الستة ناصبان لك، واثنان واقفان فيك، وأنت رأس هذا الجمع ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى علي. فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس أسخطه، وقال: حتى متى يخطب ابن هند إلي عقلي وحتى متى أجمع على ما في نفسي! وكتب إليه:

أما بعد فقد أتاني كتابك، وقرأته، فأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة إلى أنصار ابن عفان، وكراحتنا لسلطان بني أمية، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره حتى صرت إلى ما صرت إليه. وبينك وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان، وهو الوليد بن عقبة. وأما طلحة والزبير، فإنهما أجلبا عليه وضيما خناقه، ثم خرجا ينقصان البيعة، ويطلبان الملك، فقاتلناهما على النكث، كما قاتلناك على البغي. وأما قولك: إنه لم يبق من قریش غير ستة، فما أكثر رجالها، وأحسن بقيتها! وقد قاتلك من خيارها من قاتلك، ولم يخذلنا إلا من خذلك. وأما إغراؤك إيانا بعدي وتيم، فإن أبا بكر وعمر خير من عثمان، كما أن عثمان خير منك، وقد بقي لك منا ما ينسبك ما قبله، وتخاف ما بعده. وأما قولك: لو بايع الناس لي لاستقاموا فقد بايع الناس علياً وهو خير مني فلم يستقيموا له. وما أنت والخلافة يا معاوية! وإنما أنت طليق وابن طليق! والخلافة للمهاجرين الأولين وليس الطلقاء منها في شيء! والسلام. فلما وصل الكتاب إلى معاوية، قال: هذا عملي بنفسي، لا أكتب والله إليه كتاباً سنة كاملة. وقال:

دعوت ابن عباس إلى جل حظه

وكان امراً أهدي إليه رسائله

فأخلف ظني والحوادث جمّة

وما زاد أن أغلي عليه مراجلي

فمل لابن عباس: أراك مخوفاً

بجهلك حلمي إنني غير غافل

فأبرق وأرعد ما استطعت فإنني

إليك بما يشجيك سبط الأنامل

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: عقد معاوية يوماً من أيام صفين الرياسة على اليمن من قریش، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم منهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد وعتبة ابنا أبي سفيان، وبسر بن أبي أرطاة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وذلك في الوقعات الأولى من صفين، فغم ذلك أهل اليمن، وأرادوا ألا يتأمر عليهم أحد إلا منهم. فقام إليه رجل من كندة، يقال له عبد الله بن الحارث السكوني، فقال: أيها الأمير، إني قد قلت شيئاً فأسمعه، وضعه مني على النصيحة، قال: هات، فأنشده:

معاوي أحييت فينا الإحن

وأحدثت بالشام ما لم يكن

عقدت لبسر وأصحابه

وما الناس حولك إلا اليمن

فلا تخلطن بنا غيرنا

كما شيب بالماء صفو اللبن

وإلا فدعنا على حالنا

فإنا وإنا إذا لم نهن

ستعلم إن جاش بحر العراق

وأبدى نواجهه في الفتن

وشد علي بأصحابه

ونفسك إذ ذاك عند الذقن

بأنا شعارك دون الدثار

وأنا الرماح وأنا الجنن

وأنا السيوف وأنا الحتوف

وأنا الدروع وأنا المجن

قال: فبكى لها معاوية، ونظر إلى وجوه أهل اليمن، فقال: أعن رضاكم يقول ما قال قالوا: لا مرحباً بما قال إنما الأمر إليك فاصنع ما أحببت. فقال معاوية: إنما خلطت بكم أهل ثقي، ومن كان لي فهو لكم ومن كان لكم فهو لي، فرضي القوم وسكتوا، فلما بلغ أهل الكوفة مقال عبد الله بن الحارث لمعاوية فيمن عقد له من رؤوس أهل الشام، قام الأعور الشني إلى علي رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لا نقول لك كما قال صاحب أهل الشام لمعاوية، ولكن نقول: زاد الله في سرورك وهداك! نظرت بنور الله، فقدمت رجلاً، وأخرت رجلاً. عليك أن تقول، وعلينا أن نفعل. أنت الإمام، فإن هلكت فهذان من بعدك - يعني حسناً وحسيناً رضي الله عنهما - وقد قلت شيئاً فاسمعه، قال: هات، فأنشده:

أبا حسن أنت شمس النهار وهذان في الحادثات القمر

وأنت وهذان حتى الممات بمنزلة السمع بعد البصر

تقصر عنها أكف البشر

وأنت أناس لكم سورة

وفضلكم اليوم فوق الخبر

يخبرنا الناس عن فضلكم

من أهل الحياء وأهل الخطر
ء منا وإخواننا من مضر
يقيمون في النائبات الصعر
ومن قال لا فبفيه الحجر
وطلحة إذ قيل أودى غدر

عقدت لقوم أولي نجدة
مساميح بالموت عند اللقاء
ومن حي ذي يمن جلة
فكل يسرك في قومه
ونحن الفوارس يوم الزبير

إلى الليل حتى قضينا الوطر
ولم يأخذ الطعن إلا الثغر
ونحن كذلك فيما غبر

ضربناهم قبل نصف النهار
ولم يأخذ الضرب إلا الرؤوس
فنحن أولئك في أمسنا

قال: فلم يبق أحد من الرؤساء إلا وأهدى إلى الشني، أو أتخفه.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: لما تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، دعا عمرو بن العاص، وبسر بن أبي أرطاة، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقال لهم: إنه قد غمني مقام رجال من أصحاب علي، منهم سعيد بن قيس الهمداني في قومه، والأشتر في قومه، والمرقال، وعدي بن حاتم، وقيس بن سعد في الأنصار، وقد علمتم أن يمانيتكم وقتكم بأنفسها أياماً كثيرة، حتى لقد استحييت لكم، وأنتم عدتكم من قريش، وأنا أحب أن يعلم الناس أنكم أهل غناء، وقد عبأت لكل رجل منهم رجلاً منكم، فاجعلوا ذلك إلي، قالوا: ذاك إليك، قال: فأنا أكفيكم غداً سعيد بن قيس وقومه، وأنت يا عمرو للمرقال أعور بني زهرة، وأنت يا بسر لقيس بن سعيد، وأنت يا عبيد الله للأشتر، وأنت يا عبد الرحمن لأعور طيئ- يعني عدي بن حاتم- وقد جعلتها نوباً في خمسة أيام، لكل رجل منكم يوم، فكونوا على رضي الله عنه الخيل، قالوا: نعم، فأصبح معاوية في غده، فلم يدع فارساً إلا حشده، ثم قصد لهمدان بنفسه، وارتجز فقال:

بين قتيل وجريح دام

لن تمنع الحرمة بعد العام

أنعى ابن عفان مدى الأيام

سأملك العراق بالشام

فطعن في أعراض الخيل ملياً. ثم إن همدان تنادت بشعارها، وأقحم سعيد بن قيس فرسه على معاوية، واشتد القتال حتى حجز بينهم الليل، فهمدان تذكر أن سعيداً كاد يقتنصه إلا أنه فاته ركضاً، وقال سعيد في ذلك:

فوق طمر كالعقاب هاويه

يا لهف نفسي فانتني معاويه

والراقصات لا يعود ثانيه

قال نصر: وانصرف معاوية ذلك اليوم، ولم يصنع شيئاً، وغدا عمرو بن العاص في اليوم الثاني في حماة الخيل، فقصد المرقال، ومع المرقال لواء علي رضي الله عنه الأعظم في حماة الناس، وكان عمرو من فرسان قريش، فارتجز عمرو، فقال:

ذاك الذي جشمني المجاشما
ذاك الذي إن ينج مني سالما

لا عيش إن لم ألق يوماً هاشماً
ذاك الذي يشتم عرضي ظالماً
يكن شجى حتى الممات لازماً

فطعن في أعراض الخيل مزبداً، وحمل المرقال عليه، وارتجز فقال:

ذاك الذي أحدث فينا الغدرا
لا تجزعي يا نفس صبراً صبرا
يا ليت ما تجني يكون القبرا!

لا عيش إن لم ألق يوماً عمراً
أو يبذل الله بأمر أمراً
ضرباً هذا ذيك وطعناً شزراً

فطاعن عمرا حتى رجع، وانصرف الفريقان بعد شدة القتال، ولم يسر معاوية ذلك، وغدا بسر بن أبي أرطاة في اليوم الثالث في حماة الخيل، فلقي قيس بن سعد بن عباد في كمة الأنصار، فاشتدت الحرب بينهما، وبرز قيس كأنه فنيق مكرم، وهو يقول:

والخزرجيون كمة سادة
إن الفرار للفتى قلاده
فالقتل خير من عناق غاده

أنا ابن سعد زانه عباده
ليس فراري في الوغى بعباده
يا رب أنت لقني الشهادة
حتى متى تنثني لي الوسادة
وطاعن خيل بسر، وبرز بسر فارتجز وقال:

مردد في غالب وفهر
إن أرجع اليوم بغير وتر
يا ليت شعري كم بقي من عمري

أنا ابن أرطاة العظيم القدر
ليس الفرار من طباع بسر
وقد قضيت في العدو نذري

ويطعن بسر قيساً، ويضربه قيس بالسيف، فردّه على عقبيه، ورجع القوم جميعاً، ولقيس الفضل، وتقدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في اليوم الرابع لم يترك فارساً مذكوراً إلا جمعه واستكثر ما استطاع، فقال له معاوية: إنك اليوم تلقى أفعى أهل العراق، فارق واتمد، فلقيه الأشتر أمام الخيل مزبداً - وكان الأشتر إذا أراد القتال أزد - وهو يقول:

واجعل وفاتي بأكف الفجره
لا تعدل الدنيا جميعاً وبره

يا رب قيض لي سيوف الكفره
فالقتل خير من ثياب الحبره
ولا بعوضاً في ثواب البرره

وشد على الخيل خيل الشام، فردّها. فاستحيا عبيد الله وبرز أمام الخيل - وكان فارساً شجاعاً، وقال:

ذاك الذي يخرجني من ذنبي
إن ابن عفان عظيم الخطب

أنعى ابن عفان وأرجو ربي
ذاك الذي يكشف عني كربتي

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

يأبى له حبي بكل قلبي

إلا طعاني دونه وضربي

حسبي الذي أنويه حسبي حسبي

فحمل عليه الأشر، وطعنه واشتد الأمر، وانصرف القوم، وللأشتر الفضل. فغم ذلك معاوية، وغدا عبد الرحمن بن خالد في اليوم الخامس، وكان رجاء معاوية أن ينال حاجته، فقواه بالخيـل والسلاح، وكان معاوية يعده ولداً، فلقبه عدي بن حاتم في كـمأة مذحج وقضاة، فبرز عبد الرحمن أمام الخيل، وقال:

قل لعدي ذهب الوعيد

أنا ابن سيف الله لا مزيد

وخالد يزيـنه الوليد

ذاك الذي قيل له الوحيد

ثم حمل فطعن الناس، فقصده عدي بن حاتم، وسدد إليه الرمح، وقال:

أرجو إلهي وأخاف ذنبي

ولست أرجو غير عفو ربي

يابن الوليد بغضكم في قلبي

كالهضب بل فوق قنان الهضب

فلما كاد أن يخالطه بالرمح، توارى عبد الرحمن في العجاج، واستتر بأسنة أصحابه واختلط القوم، ثم تجاوزوا، ورجع عبد الرحمن مقهوراً، وانكسر معاوية وبلغ أئمن بن خزيم ما لقي معاوية وأصحابه، فشمت بهم- وكان ناسكاً من أنسك أهل الشام وكان معتزلاً للحرب في ناحية عنها، فقال:

معاوي إن الأمر لله وحده

وإنك لا تستطيع ضراً ولا نفعاً

عبأت رجالاً من قریش لعصبة

يمانية لا تستطيع لها دفعا

فكيف رأيت الأمر إذ جد جده

لقد زادك الأمر الذي جئته جدعا

تعبي لقيس أو عدي بن حاتم

والأشتر، يا للناس أغمارك الجدعا

وتجعل للمرقال عمراً وإنه

لليث لقي من دون غايته ضبعا

وإن سعيداً إذ برزت لرمحه

لفارس همدان الذي يشعب الصدعا

ملي بضرب الدارين بسيفه

إذا الخيل أبدت من سنابكها نفعا

رجعت فلم تظفر بشيء تريده

سوى فرس أعيت وأبت بها ظلعا

فدعهم فلا والله لا تستطيعهم

مجاهرة فاعمل لقهرهم خدعا

قال: وإن معاوية أظهر لعمره شماتة، وجعل يقرعه ويوبخه، وقال: لقد أنصفتكم إذ لقيت سعيد بن قيس في همدان، وفررتهم. وإنك لجبان يا عمرو! فغضب عمرو، وقال: فهلا برزت إلى علي إذ دعاك إن كنت شجاعاً كما تزعم! وقال:

تسير إلى ابن ذي يزن سعيد

وتترك في العجاجة من دعاكا

نهل لك في أبي حسن علي

لعل الله يمكن من قفاكا!

دعاك إلى البراز فلم تجبه

ولو نازلته تربت يداكا

وكان سكوته عنها مناكا

بنجدته وما طحنت رحاكا

أتفرقه وتغضب من كفاكا

ولا أظهرت لي إلا هواكا

وكنت أصم، إذ ناداك عنها

فآب الكبش قد طحنت رحاه

فما أنصفت صحبك يابن هند

فلا والله ما أضمرت خيراً

قال: وإن القرشيين استحيوا ما صنعوا، وشمّت بهم اليمانية من أهل الشام، فقال معاوية: يا معشر قريش والله لقد قربكم لقاء القوم إلى الفتح ولكن لا مرد لأمر الله ومم تستحيون! إنما لقيتم كباش العراق، فقتلتم منهم وقتلوا منكم، وما لكم علي من حجة. لقد عبأت نفسي لسيدهم وشجاعهم سعيد بن قيس. فانقطعوا عن معاوية أياماً، فقال معاوية في ذلك:

وعاين طعناً في العجاج المعايين

وأن تغسلوا عاراً وعته الكنائن

ولكنما تحمي الملوك البطائن

لقيتم ليوثاً أصحرتها العرائن

إذا جاشت الهيجاء تحمي الطعائن

ولكنه ما قدر الله كائن

لعمري لقد أنصفت والنصف عادتي

ولولا رجائي أن تؤوبوا بنهزة

لناديت للهيجا رجالاً سواكم

أندرون من لاقيتهم، فل جيشكم

لقيتم صناديد العراق ومن بهم

وما كان منكم فارس دون فارس

فلما سمع القوم ما قاله معاوية، أتوه فاعتذروا إليه، واستقاموا إليه على ما يحب.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: لما اشتد القتال وعظم الخطب، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص: أن قدم عكا والأشعرين إلى من يرازهم. فبعث عمرو إليه أن يراز عك همدان. فبعث إليه معاوية: أن قدم عكا، فأتاهم عمرو، فقال: يا معشر عك، إن علياً قد عرف أنكم حي أهل الشام، فعباً لكم حي أهل العراق همدان، فاصبروا وهبوا إلي جماكم ساعة من النهار فقد بلغ الحق مقطعه. فقال ابن مسروق العكي: أمهلني حتى آتي معاوية، فأتاه فقال: يا معاوية، اجعل لنا فريضة ألفي رجل في ألفين ألفين، ومن هلك فابن عمه مكانه لنقر اليوم عينك. فقال: لك ذلك، فرجع ابن مسروق إلى أصحابه، فأخبرهم الخبر، فقالت عك: نحن لهمدان، ثم تقدمت عك، ونادى سعيد بن قيس: يا همدان، تقدموا! فشدت همدان على عك رجالة، فأخذت السيوف أرجل عك، فنادى ابن مسروق:

يا لعك بركاً كبرك الكمل

فبركوا تحت الحجف، فشجرتهم همدان بالرماح، وتقدم شيخ من همدان، وهو يقول:

نفسى فداكم طاعنوا وجالدوا

وأرجل يتبعها سواعد

يا لبكيل لخمها وحاشد

حتى تخر منكم القماحد

بذاك أوصى جدكم والوالد

وقام رجل من عك، فارتجز فقال:

بكوا الرجال يا لعك بكا

لا تدخلوا اليوم عليكم شكا

تدعون همدان وندعو عكا

إن خدم القوم فبركاً بركا

قد محك القوم فزیدوا محكا

قال: فالتقى القوم جميعاً بالرماح، وصاروا إلى السيوف، وتجالدوا حتى أدركهم الليل. فقالت همدان: يا معشر عك، نحن نقسم بالله إننا لا ننصرف حتى تنصرفوا. وقالت عك مثل ذلك، فأرسل معاوية إلى عك أن أبروا قسم إخوتكم وهلموا. فانصرفت عك، فلما انصرفت انصرفت همدان، فقال عمرو: يا معاوية، والله لقد لقيت أسد أسداً لم أر والله كهذا اليوم قط لو أن معك حياً كعك، أو مع علي حي كهمدان لكان الفناء، وقال عمرو في ذلك:

كأسود الضراء لاقت اسودا

بظباة السيوف موتاً عتيذا

وضرب المسمومين الخدودا

ن فراراً لكان ذاك سديدا

م ازوراراً، ولا رأيت صدودا

م وقرع الحديد يعلو الحديددا

ق فخرت هناك عك قعودا

فما تستنقل إلا ونيدا

إن عكا وحاشداً وبكيلاً

وجثا القوم بالقنا وتساقوا

ازورار المناكب الغلب بالشم

ليس يدرون ما الفرار ولو كا

يعلم الله ما رأيت من القو

غير ضرب فوق الطلى وعلى الها

ولقد قال قائل خدموا السو

كبروك الجمال أثقلها الحمل

قال: ولما اشترطت عك والأشعريون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء فأعطاهم، لم يبق من أهل العراق أحد في قلبه مرض إلا طمع في معاوية، وشخص ببصره إليه حتى فشا ذلك في الناس، وبلغ علياً رضي الله عنه، فسأه.. قال نصر: وجاء عدي بن حاتم يلتمس علياً رضي الله عنه، ما يظاً إلا على قتيل أو قدم أو ساعد، فوجده تحت رايات بكر بن وائل، فقال: يا أمير المؤمنين، ألا تقوم حتى نقاتل إلى أن نموت! فقال. له علي رضي الله عنه: ادن، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه، فقال: ويحك! إن عامة من معي اليوم يعصيني، وإن معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه! قال نصر: وجاء المنذر بن أبي حميصة الوداعي - وكان شاعر همدان وفارسها - علياً رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إن عكاً والأشعريين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم، فباعوا الدين بالدنيا وإننا قد رضينا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبك من معاوية والله لآخرتنا خير من دنياهم، ولعراقنا خير من شأهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم فاستفتحنا بالحرب، وثق منا بالنصر، واحملنا على الموت، وأنشده:

الأشعر سالوا جوائزاً بثنيه

ض فكانوا بذاك شر البريه

وصبراً على الجهاد ونيه

إن عكا سالوا الفرائض و

تركوا الدين للعطاء وللفر

وسألنا حسن الثواب من الله

فلكل ما ساله ونواه

كلنا يحسب الخلاف خطيه

ولأهل العراق أحسن في الحر

ب إذا ما تدانت السمهرية

ولأهل العراق أحمل للثقل

إذا عمت البلاد بليه

ليس منا من لم يكن في الل

ه ولياً يا ذا الولا والوصيه

فقال علي رضي الله عنه: حسبك الله! يرحمك الله! وأثنى عليه وعلى قومه خيراً. وانتهى شعره إلى معاوية، فقال: والله لأستميلن بالدينيا ثقات علي، ولأقسمن فيهم الأموال حتى تغلب دنيائي آخرته.

قال! نصر: فلما أصبح الناس غدواً على مصافهم، وأصبح معاوية يدور في أحياء اليمن، وقال: عبوا إلي كل فارس مذكور فيكم، أتقوى به على هذا الحي من همدان فخرجت خيل عظيمة، فلما رآها علي رضي الله عنه وعرف أنها عيون الرجال، فنادى: يا همدان! فأجابه سعيد بن قيس، فقال له علي رضي الله عنه: احمل، فحمل حتى خالط الخيل بالخيل، واشتد القتال، وحطمتهم همدان حتى ألحقتهم بمعاوية فقال معاوية: ما لقيت من همدان! وجزع جزعاً شديداً، وأسرع القتل في فرسان الشام، وجمع علي رضي الله عنه همدان، فقال لهم: يا معشر همدان، أنتم درعي ورمحي ومجني، يا همدان ما نصرتم إلا الله، ولا أجبتم غيره. فقال سعيد بن قيس: أجبننا الله وأجبنناك، ونصرنا رسول الله في قبره، وقاتلنا معك من ليس مثلك، فارمنا حيث شئت.

قال نصر: وفي هذا اليوم قال علي رضي الله عنه:

ولو كنت بواباً على باب جنة

لقلت لهمدان ادخلي بسلام

فقال علي رضي الله عنه لصاحب لواء همدان: اكفني أهل حمص، فإني لم ألق من أحد ما لقيت منهم. فتقدم وتقدمت همدان، وشدوا شدة واحدة على أهل حمص، فضربوهم ضرباً شديداً متداركاً، بالسيوف وعمد الحديد، حتى ألجأوهم إلا قبة معاوية، وارتجز من همدان رجل، عداة في أرحب، فقال:

قد قتل الله رجال حمص

غروا بقول كذب وخرص

حرصاً على المال وأي حرص

قد نكص القوم وأي نكص!

عن طاعة الله وفحوى النص

قال نصر: فحدثنا عمر بن سعد، قال: لما ردت خيول معاوية أسف فجرد سيفه وحمل في كماء أصحابه، فحملت عليه فوارس همدان، ففاز منها ركضاً، وانكسرت كماته ورجعت همدان إلى مراكزها، فقال حجر بن قحطان الهمداني، يخاطب سعيد بن قيس:

ألا يا بن قيس قرت العين إذ رأيت

فوارس همدان بن زيد بن مالك

على عارفات للقاء عوابس

طوال الهوادي مشرفات الحوارك

معوذة للطعن في ثغراتها

يجلن فيحطمن الحمى بالسنايك

عابها علي لابن هند وخيله
وكانت له في يومه عند ظنه
وكانت بحمد الله في كل كربة
فقل لأمير المؤمنين: أن ادعنا
ونحن حطمنا السمر في حي حمير
وعك ولخم شائلين سياطهم
فلو لم يفتها كان أول هالك
وفي كل يوم كالسف الشمس حالك
حصوناً وعزاً للرجال الصعالك
متى شئت إنا عرضة للمهالك
وكندة والحي الخفاف السكاسك
حذار العوالي كالإماء العوارك

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن رجاله، أن معاوية دعا يوماً بصفين مروان بن الحكم، فقال له: إن الأشتر قد غمني وأقلقني، فأخرج بهذه الخيل في يحصب والكلاعيين، فאלقه فقال مروان: ادع لهما عمراً، فإنه شعارك دون دثارك قال: فأنت نفسي دون وريدي. قال: لو كنت كذلك ألحقني به في العطاء وألحقته بي في الحرمان، ولكنك أعطيت ما في يدك، ومنيت ما في يد غيرك، فإن غلبت طاب له المقام، وإن غلبت خف عليه الهرب. فقال معاوية: سيغني الله عنك. قال: أما إلى اليوم فلم يغن. فدعا معاوية عمراً، فأمره بالخروج إلى الأشتر، فقال: أما إني لا أقول لك ما قال مروان، قال: وكيف تقول وقد قدمتك وأخرته، وأدخلتك وأخرجته! قال: أما والله إن كنت فعلت، لقد قدمتي كافياً، وأدخلتي ناصحاً وقد أكثر القوم عليك في أمر مصر، وإن كان لا يرضيهم إلا رجوعك فيما وتقت لي به منها فارجع فيه. ثم قام فخرج في تلك الخيل، فلقية الأشتر أمام القوم، وقد علم أنه سيلقاه، وهو يرتجز ويقول:

يا ليت شعري كيف لي بعمر
ذاك الذي أطلبه بوتري
من بائعي يوماً بكل عمري
أجعله فيه طعام النسر
ذاك الذي أوجب فيه نذري!
ذاك الذي فيه شفاء صدري
يعلي به عند اللقاء قدر
أو لا فربي عاذري بعذري

فلما سمع عمرو هذا الرجز، فشل وجبن، واستحيا أن يرجع، وأقبل نحو الصوت، وقال:

يا ليت شعري كيف لي بمالك؟
وفارس قتلته وفاتك ومقدم آب بوجه حالك
ما زلت دهري عرضة المهالك
كم كاهل جيبته وحارك!

فغشيه الأشتر بالرمح، فراغ عمرو عنه، فلم يصنع الرمح شيئاً، ولوى عمرو عنان فرسه، وجعل يده على وجهه، وجعل يرجع راکضاً نحو عسكره. فنادى غلام من يحصب: يا عمرو، عليك العفا ما هبت الصبا يا آل حمير إنا لكم ما كان معكم هاتوا اللواء، فأخذه وتقدم، وكان غلاماً حدثاً، فقال:

إن يك عمرو قد علاه الأشتر
بأسمر فيه سنان أزهر

فذاك والله لعمرى مفخر

يا عمرو تكفيك الطعان حمير

واليحصبى بالطعان أمهر

دون اللواء اليوم موت أحمر

فنادى الأشتر ابنه إبراهيم: خذ اللواء، فغلام لغلام. وتقدم فأخذ إبراهيم اللواء، وقال:

يا أيها السائل عني لا ترع

أقدم فأني من عرانيين النخع

كيف ترى طعن العراقي الجذع

أطير في يوم الوغى ولا أقع

ما ساءكم سر وما ضر نفع

أعددت ذا اليوم لهول المطلع

ويحمل على الحميري، فالتقاء الحميري بلوائه ورمحه، فلم يرحا يطعن كل واحد منهما صاحبه، حتى سقط الحميري قتيلًا، وشمّت مروان بعمرو، وغضب القحطانيون على معاوية، وقالوا: تولى علينا من لا يقاتل معنا. ول رجلًا منا، وإلا فلا حاجة لنا فيك. وقال شاعرهم:

معاوي إما تدعنا لعظيمة

يلبس من نكرائها الغرض بالحقب

فول علينا من يحوط دمارنا

من الحميريين الملوك على العرب

ولا تأمرنا بالتّي لا نريدها

ولا تجعلنا بالهوى موضع الذنب

ولا تغضبف والحوادث جمة

عليك، فيفشو اليوم في يحضب الغضب

فإن لنا حقاً عظيماً وطاعة

وحباً دخيلاً في المشاش وفي العصب

فقال لهم معاوية: والله لا أولي عليكم بعد هذا اليوم إلا رجلاً منكم.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: لما أسرع أهل العراق في أهل الشام، قال لهم معاوية: هذا يوم تمحيص، وإن لهذا اليوم ما بعده، وقد أسرعتم في القوم كما أسرعوا فيكم، فاصبروا وموتوا كراماً. وحرص علي رضي الله عنه أصحابه، فقام إليه الأصبغ بن نباتة، وقال: يا أمير المؤمنين، قدمي في البقية من الناس، فإنك لا تفقد لي اليوم صبراً ولا نصراً أما أهل الشام فقد أصبنا وأما نحن ففينا بعض البقية، ائذن لي فأتقدم، فقال له: تقدم على اسم الله والبركة، فتقدم وأخذ الراية ومضى بها، وهو يقول:

إن الرجاء بالقنوط يدمغ

حتى متى يرجو البقاء الأصبغ!

أما ترى أحداث دهر تتبغ

فادبغ هواك والأديم يدبغ

والرفق فيما قد تريد أبلغ

اليوم شغل وغداً لا تفرغ

فما رجع إلى علي رضي الله عنه حتى خضب سيفه دماً ورمحه. وكان شيخاً ناسكاً عابداً، وكان إذا لقي القوم بعضهم بعضاً يغمد سيفه، وكان من ذخائر علي رضي الله عنه ممن قد بايعه على الموت وكان علي رضي الله عنه يضمن به عن الحرب والقتال.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: نادى الأشتر يوماً أصحابه، فقال: أما من رجل يشري نفسه لله!

فخرج أثال بن حجل بن عامر المذحجي فنأدى بين العسكرين: هل من مبارز فدعا معاوية- وهو لا يعرفه- أباه حجل بن عامر المذحجي، فقال: دونك الرجل- قال: وكانا مستبصرين في رأيهما- فبرز كل واحد منهما إلى صاحبه، فبدره بطعنة، وطعنه الغلام، وانتسبا فإذا هو ابنه، فتزلا فاعتنق كل واحد منهما صاحبه، وبكيا. فقال له الأب: يا بني، هلم إلى الدنيا. فقال له الغلام: يا أباي هلم إلى الآخرة. ثم قال: يا أبت والله لو كان من رأي الانصراف إلى أهل الشام لوجب عليك أن يكون من رأيك لي أن تنهاني، واسوأته! فماذا أقول لعلي وللمؤمنين الصالحين! كن على ما أنت عليه، وأنا على ما أنا عليه. فانصرف حجل إلى صف الشام، وانصرف ابنه أثال إلى أهل العراق، فخير كل واحد منهما أصحابه، وقال في ذلك حجل:

إن حجل بن عامر وأثالا

أصبحا يضربان في الأمثال

أثال يدعو يريد نزالي

على ظهر هيكل ذبال

ل قليلاً في صحبه أمثالي

وأهوى بأسمر عسال

ر عظيم، فتى لشيوخ بجال

وعزيز علي طعن أثال

وأثال كذاك ليس بيبالي

والنفس يقبها مؤخر الآجال

من هداي على سبيل ضلال

أقبل الفارس المدجج في النقع

دون أهل العراق يخطر كالفضل

فدعاني له ابن هند وما زأ

فتناولته ببادة الرمح

فاطعنا وذاك من حدث الده

شاجرا بالقناة صدر أبيه

لا أبالي حين اعترضت أثالاً

فافترقنا على السلامة

لا يراني على الهدى وأراه

فلما انتهى شعره إلى أهل العراق، قال أثال ابنه مجيباً له:

إن طعني وسط العجاجة حجلاً

كنت أرجو به الثواب من الل

لم أزل أنصر العراق على الشا

قال أهل العراق إذ عظم الخط

من فتى يسلك الطريق إلى الل

حاسر الرأس لا أريد سوى المو

فإذا فارس تقحم في الرو

فبداني حجل ببادة الطع

لم يكن في الذي نويت عقوقا

ه وكوني مع النبي رفيقا

م أراني بفعل ذاك حقيقا

ب ونق المبارزون نقيقا:

ه، فكنت الذي سلكت الطريقا

ت أرى الأعظم الجليل دقيقا

ع خدباً مثل السحوق عتيقا

ن وما كنت قبلها مسبوقا

ح كلانا يطاول العيوقا

رة حمداً يزيدني توفيقا

ن قتيلاً منه ولا ثغروقا

ك لطيف الغذاء والتفنيقا

ر فلا تعصني وكن لي رفيقا

تغريباً وشرقت راجعاً تشريقا

فتلقيته بعالية الرم

أحمد الله ذا الجلالة والقدر

إذ كفت السنن عنه ولم أد

قلت للشيخ لست أكفر نعماً

غير أنني أخاف أن تدخل الننا

وكذا قال لي فغرب

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر بالإسناد المذكور، أن معاوية دعا النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، ومسلمة بن مخلد الأنصاري - ولم يكن معه من الأنصار غيرهما - فقال: يا هذان، لقد غمني ما لقيت من الأوس والخزرج، واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى التزال، حتى لقد جبنوا أصحابي الشجاع منهم والجبان وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلا قيل قتله الأنصار أما والله لألقينهم بحدي وحديدي، ولأعبين لكل فارس منهم فارساً ينشب في حلقة، ولأرمينهم بأعدادهم من قريش، رجال لم يغذهبهم التمر والطفيشل، يقولون: نحن الأنصار قد والله آووا ونصروا، ولكن أفسدوا حقهم بباطلهم! فغضب النعمان، وقال: يا معاوية لا تلومن الأنصار في حب الحرب والسرعة نحوها، فإنهم كذلك كانوا في الجاهلية.

وأما دعائهم إلى التزال فقد رأيتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون ذلك كثيراً. وأما لقاءك إياهم في أعدادهم من قريش فقد علمت ما لقيت قريش منهم قديماً، فإن أحببت أن ترى فيهم مثل ذلك آنفاً فافعل. وأما التمر والطفيشل، فإن التمر كان لنا فلما ذقتموه شاركتمونا فيه. وأما الطفيشل، فكان لليهود، فلما أكلناه غلبناهم عليه، كما غلبت قريش على السخينة.

ثم تكلم مسلمة بن مخلد، فقال: يا معاوية، إن الأنصار لا تعاب أحسائها ولا نجداها. وأما غمهم إياك فقد والله غمونا، ولو رضينا ما فارقونا ولا فارقنا جماعتهم، وإن في ذلك ما فيه من مباينة العشيرة ولكننا حملنا ذلك لك، ورجونا منك عوضه. وأما التمر والطفيشل فإنهما يجران عليك السخينة والخرنوب.

قال: وانتهى هذا الكلام إلى الأنصار، فجمع قيس بن سعد الأنصار، ثم قام فيهم خطيباً فقال: إن معاوية قال ما بلغكم، وأجابه عنكم صاحبكم، ولعمري إن غظتم معاوية اليوم لقد غظتموه أمس، وإن وترتموه في الإسلام فلقد وترتموه في الشرك وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين، فجدوا اليوم جداً تنسونه به ما كان أمس، وجدوا غداً جداً تنسونه به ما كان اليوم فأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبريل، وعن يساره ميكائيل والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب. فأما التمر فإننا لم نغرسه ولكن غلبنا عليه من غرسه، وأما الطفيشل، فلو كان طعامنا لسمينا به كما سميت قريش بسخينة، ثم قال سعد في ذلك:

ب إذا نحن بالجياد سرينا

يا بن هند دع التوثب في الحر

نحن من قد علمت فادن إذا

إن تشأ فارس له فارس منا

أي هذين بها أردت فخذ

ثم لا نسلخ العجاجة حتى

ليت ما تطلب الغداة أتاناً

شئت بمن شئت في العجاج إلينا

وإن شئت باللفيف التقينا

ليس منا وليس منك الهوينى

تتجلي حربنا لنا أو علينا

أنعم الله بالشهادة عينا

فلما أتى شعره وكلامه معاوية، دعا عمرو بن العاص، فقال: ما ترى في شتم الأنصار قال: أرى أن توعدهم، ولا تشتمهم. ما عسى أن تقول لهم إذا أردت ذمهم! فذم أبدانهم ولا تدم أحسابهم. فقال: إن قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيباً، وأظنه والله يفنينا غداً إن لم يحبسنا عنا حابس الفيل، فما الرأي قال: الصبر والتوكل، وأرسل إلى رؤوس الأنصار مع علي، فعاتبهم وأمرهم أن يعاتبوه، فأرسل معاوية إلى أبي مسعود والبراء بن عازب، وخزيمة بن ثابت، والحجاج بن غزية، وأبي أيوب، فعاتبهم فمشوا إلى قيس بن سعد، وقالوا له: إن معاوية لا يحب الشتم، فكف عن شتمه، فقال: إن مثلي لا يشتم، ولكني لا أكف عن حربه حتى ألقى الله. قال: وتحركت الخيل غدوة، فظن قيس أن فيها معاوية، فحمل على رجل يشبهه، فضربه بالسيف فإذا هو ليس به، ثم حمل على آخر يشبهه أيضاً فقتله بالسيف. فلما تحاجز الفريقان شتمه معاوية شتماً قبيحاً، وشتم الأنصار فغضب النعمان ومسلمة، فأرضاهما بعد أن هما أن ينصرفا إلى قومهما.

ثم إن معاوية سأل النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السلم. فخرج النعمان، فوقف بين الصفين، ونادى: يا قيس بن سعد، أنا النعمان بن بشير، فخرج إليه، وقال: هيه يا نعمان! ما حاجتك قال: يا قيس، إنه قد أنصفكم من دعاكم إلى ما رضي لنفسه. يا معشر الأنصار، إنكم أخطأتم في خذل عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وأقحمتكم خيولكم على أهل الشام بصفين، فلو كنتم إذ خذلتهم عثمان خذلتهم علياً لكانت واحدة بواحدة، ولكنكم لم ترضوا أن تكونوا كالناس حتى أعلمتم في الحرب، ودعوتهم إلى البراز. ثم لم يزل بعلي خطب قط إلا هونتهم عليه المصيبة، ووعدتموه الظفر. وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم فاتقوا الله في البقية.

فضحك قيس، وقال: ما كنت أظنك يا نعمان محتوياً على هذه المقالة، انه لا ينصح أخاه من غش نفسه، وأنت الغاش الضال المضل. أما ذكرك عثمان فإن كانت الأخبار تكفيك فخذ مني واحدة قتل عثمان من لست خيراً منه، وخذله من هو خير منك. وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكت. وأما معاوية فوالله لو اجتمعت عليه العرب قاطبة لقاتلته الأنصار وأما قولك إنا لسنا كالناس، فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله، نتقي السيوف بوجوهنا، والرماح بنحورنا حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً، أو أعرابياً، أو يمانياً مستدرجاً بغرور! انظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان الذين رضيهم الله عنهم ورضوا عنه! ثم انظر، هل ترى مع معاوية أنصارياً غيرك وغير صويحبك ولستما والله ببدرتين ولا عقبتين ولا الحديين، ولا لكما سابقة في الإسلام، ولا آية في القرآن. ولعمري لمن شغب علينا لقد شغب علينا أبوك!

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن مالك بن أعيين، عن زيد بن وهب، قال: كان فارس أهل الشام الذي لا ينازع عوف بن مجزأة المراد، المكنى أبا أحمر، وكان فارس أهل الكوفة العكبر بن جدير الأسدي، فقام العكبر إلى علي رضي الله عنه، وكان منطيقاً فقال: يا أمير المؤمنين، إن في أيدينا عهداً من الله لا نحتاج فيه إلى الناس قد ظننا بأهل الشام الصبر وظنوا بنا، فصبرنا وصبروا، وقد عجبت من صبر أهل الدنيا لأهل الآخرة، وصبر أهل الحق على أهل الباطل، ورغبة أهل الدنيا، ثم قرأت آية من كتاب الله فعلمت أنهم مفتونون: "ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون" ولقد فتننا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين". فقال له رضي الله عنه خيراً، وخرج الناس إلى مصافهم، وخرج عوف بن مجزأة المرادي نادراً من الناس، وكذا كان يصنع، وقد كان قتل نفراً من أهل العراق مبارزة، فنادى: يا أهل العراق هل من رجل عصاه سيفه يبارزني! ولا أغركم من نفسي! أنا عوف بن مجزأة. فنادى الناس بالعكبر، فخرج إليه منقطعاً عن أصحابه ليجارزه، فقال عوف:

بالشام أمن ليس فيه خوف

أنا ابن مجزأة واسمي عوف

يبرز لي وكيف لي وكيف

بالشام أمن ليس فيه خوف

بالشام جود ليس فيه سوف

هل من عراقي عصاه سيف

فقال له العكبر:

بها إمام طاهر مطهر

أنا العراقي واسمي عكبر

ادن، فإنني في البراز قسورا

الشام محل والعراق ممطر

والشام فيها أعور ومعور

ابن جدير وأبوه المنذر

فاطعنا، فصرعه العكبر وقتله، ومعاوية على التل في وجوه قريش ونفر قليل من الناس، فوجه العكبر فرسه، يملأ فروجه ركضاً ويضربه بالسوط مسرعاً نحو التل. فنظر معاوية إليه فقال: هذا الرجل مغلوب على عقله أو مستأمن فاسأله، فأتاه رجل وهو في حمو فرسه، فناداه فلم يجبه، ومضى مبادراً حتى انتهى إلى معاوية، فجعل يطعن في أعراض الخيل ورجا أن ينفرد. معاوية فيقتله، فاستقبله رجال قتل منهم قوماً، وحال الباقون بينه وبين معاوية بسيوفهم ورماحهم فلما لم يصل إليه قال: أولى لك يا بن هند! أنا الغلام الأسدي، ورجع إلى صف العراق ولم يكلم، فقال له علي رضي الله عنه: ما دعاك إلى ما صنعت لا تلق نفسك إلى التهلكة قال: يا أمير المؤمنين أردت غرة ابن هند فحيل بيني وبينه وكان العكبر شاعراً فقال:

ينادي وقد ثار العجاج: نزال

لقاء ابن مجزأة بيوم قتال

منيت بمشبوح اليدين طوال

ملأت بها رعباً صدور رجال

قتلت المرادي الذي كان باغياً

يقول: أنا عوف بن مجزأة والمنى

فقلت له لما علا القوم صوته:

فأوجرته في ملتقى الحرب صعدة

ينوء مراراً في مكر مجال

أصرفه في جريه بشمالي

معاوية الجاني لكل خبال

وقام رجال دونه بعوالي

وفزت بذكر صالح وفعال

لقلت إذا ما مت: لست أبالي

فغادرته يكبو صريعاً لوجهه

وقدمت مهري راكضاً نحو صفهم

أريد به التل الذي فوق رأسه

فقام رجال دونه بسيوفهم

فلو نلته نلت التي ليس بعدها

ولو مت في نيل المني ألف موة

قال: فانكسر أهل الشام لقتل عوف المرادي، وهدر معاوية دم العكبر، فقال العكبر: يد الله فوق يده، فأين الله جل جلاله ودفاعه عن المؤمنين!

قال نصر: وروى عمر بن سعد، عن الحارث بن حصين، عن أبي الكنود، قال: جزع أهل الشام على قتلاهم جزعاً شديداً، وقال معاوية بن خديج: قبح الله ملكاً يملكه المرء بعد حوشب وذئ الكلاع، والله لو ظفرنا بأهل الدنيا بعد قتلهما بغير مؤونة ما كان ظفراً. وقال يزيد بن أسد لمعاوية: لا خير في أمر لا يشبه آخره أوله، لا يدمى جريح ولا ييكي قتيل حتى تنجلي هذه الفتنة، فإن يكن الأمر لك أدميت وبكيت على قرار، وإن يكن لغيرك فما أصبت به أعظم. فقال معاوية: يا أهل الشام، ما جعلكم أحق بالجزع على قتلاك من أهل العراق على قتلاهم، والله ما ذو الكلاع فيكم بأعظم من عمار بن ياسر فيهم، ولا حوشب فيكم بأعظم من هاشم فيهم، وما عبید الله بن عمر فيكم بأعظم من ابن بديل فيهم، وما الرجال إلا أشباه، وما التمحيص إلا من عند الله فأبشروا فإن الله قد قتل من القوم ثلاثة: قتل عماراً وكان فتاهم، وقتل هاشماً وكان حمزتهم، وقتل ابن بديل وهو الذي فعل الأفاعيل وبقي الأشر، والأشعث، وعدي بن حاتم، فأما الأشعث فإنما حمى عنه مصره، وأما الأشر وعدي فغضباً للفتنة، والله قاتلهما غداً إن شاء الله تعالى، فقال معاوية بن خديج: إن يكن الرجال عندك أشباها فليست عندنا كذلك، وغضب. وقال شاعر اليمن يرثي ذا الكلاع وحوشباً:

وجدع أحياء الكلاع ويحصب

وكل يمان قد أصيب بحوشب

متى قلت كانا عصمة لا أكذب

فديتهما بالنفس والأم والأب

معاوي قد نلنا ونيلت سراتنا

فنو كلع لا يبعد الله داره

هما ما كانا معاوي عصمة

ولو قبلت في هالك بذل فدية

وروى نصر: عن عمر بن سعد، عن عبید الرحمن بن كعب، قال: لما قتل عبد الله بن بديل يوم صفين مر به الأسود بن طهمان الخزاعي، وهو بآخر رمق، فقال له: عز علي والله مصرعك! أما والله لو شهدتك لأسيئك، ولدافعت عنك، ولو رأيت الذي أشعرك لأحببت ألا أزيله ولا يزييلني حتى أقتله، أو يلحقني بك. ثم نزل إليه، فقال: رحمك الله يا عبد الله، والله إن كان جارك ليأمن بوائقك، وإن كنت لمن الذاكرين الله كثيراً. أوصني رحمك الله. قال: أوصيك بتقوى الله، وأن تناصح أمير المؤمنين، وتقاتل معه حتى يظهر الحق أو تلحق بالله، وأبلغ أمير المؤمنين عني السلام، وقل له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك، فإنه من أصبح والمعركة خلف ظهره، كان الغالب. ثم لم يلبث أن مات.

فأقبل أبو الأسود إلى علي رضي الله عنه، فأخبره، فقال: رحمه الله! جاهد معنا عدونا في الحياة، ونصح لنا في الوفاة.

قال نصر: وقد روي نحو هذا عن عبد الرحمن بن كلداء، حدثني محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بحر، عن عبد الرحمن بن حاطب، قال: خرجت ألتمس أخي سويداً لا قتلى صفيين، فإذا رجل صريع في القتلى، قد أخذ بثوبي فالتفت، فإذا هو عبد الرحمن بن كلداء، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! هل لك في الماء ومعني إداوة فقال: لا حاجة لي فيه، قد أنفذ في السلاح وخرقني، فلست أقدر على الشراب، هل أنت مبلغ عني أمير المؤمنين رسالة أرسلك بها قلت: نعم، قال: إذا رأيته فاقرأ عليه السلام، وقل له: يا أمير المؤمنين، احمِل جرحاك إلى عسكرك حتى تجعلهم من وراء ظهرك، فإن الغلبة لمن فعل ذلك ثم لم أبرح حتى مات فخرجت حتى أتيت أمير المؤمنين مبنه فقلت له: إن عبد الرحمن بن كلداء يقرأ عليك السلام، قال: وأين هو قلت: وجدته وقد أنفذه السلاح وخرقه، فلم يستطع شرب الماء، ولم أبرح حتى مات. فاسترجع رضي الله عنه، فقلت: قد أرسلني إليك برسالة، قال: وما هي قلت: إنه يقول: احمِل جرحاك إلى عسكرك، واجعلهم وراء ظهرك فإن الغلبة لمن فعل ذلك، فقال: صدق، فنادى مناديه في العسكر أن احمِلوا جرحاكم من بين القتلى إلى معسكركم، ففعلوا.

قال نصر: وحدثني عمرو بن شمر، عن جابر، عن عامر، عن صعصعة بن صوحان، أن أبرهة بن الصباح الحميري قام بصفين، فقال: ويحكم يا معشر أهل اليمن! إني لأظن الله قد أذن بفنائكم! ويحكم خلوا بين الرجلين، فليقتلا، فأيهما قتل صاحبه ملنا معه جميعاً- وكان أبرهة من رؤساء أصحاب معاوية- فبلغ قوله علياً رضي الله عنه، فقال: صدق أبرهة! والله ما سمعت بخطبة منذ وردت الشام أنا بها أشد سروراً مني بهذه الخطبة!

قال: وبلغ معاوية كلام أبرهة، فتأخر آخر الصفوف، وقال لمن حوله: إني لأظن أبرهة مصاباً في عقله. فأقبل أهل الشام يقولون: والله إن أبرهة لأكملنا ديناً وعقلاً، ورأياً وبأساً ولكن الأمير كره مبارزة علي، وسمع ما دار من الكلام أبو داود عروة بن داود العامري- وكان من فرسان معاوية- فقال: إن كان معاوية كره مبارزة أبي حسن، فأنا أبارزه، ثم خر بين الصفيين، فنادى: أنا أبو داود فابرز إلي يا أبا حسن، فتقدم علي رضي الله عنه نحوه، فناداه الناس: ارجع يا أمير المؤمنين عن هذا الكلب فليس لك بخطر، فقال: والله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه، دعوني وإياه، ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين، سقطت إحداها يمنية والأخرى شامية فارتج العسكران لهول الضربة، وصرخ ابن عم لأبي داود: وا سوء صباحاه! وقبح الله البقاء بعد أبي داود! وحمل على علي رضي الله عنه، فطعنه فضرب الرمح فبراه، ثم قنعه ضربة فألحقه بأبي داود، ومعاوية واقف على التل، يبصر ويشاهد، فقال: تباً لهذه الرجال وقبحاً، أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة، أو في اختلاط الفيلق وثوران النقع. فقال الوليد بن عقبة: ابرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته، فقال: والله لقد دعاني إلى البراز حتى لقد استحييت من قريش، وإني والله لا أبرز إليه، ما جعل العسكر بين يدي الرئيس إلا وقاية له. فقال عتبة بن أبي سفيان: الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه، فقد علمتم أنه قتل حريثاً، وفضح عمراً ولا أرى أحداً يتحكك به إلا قتله. فقال معاوية لبسر بن أرطاة: أتقوم لمبارزته فقال: ما أحد أحق بها منك، أما إذ بيتموه فأنا له، قال معاوية: إنك ستلقاه غداً في أول الخيل، وكان عند بسر ابن عم له، قدم من الحجاز يخطب ابنته، فأق بسر، فقال له: إني

سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز علياً، أما تعلم أن الوالي من بعد معاوية عتبة ثم بعده محمد أخوه، وكل من هؤلاء قرن علي، فما يدعوك إلى ما أرى! قال: الحياء، خرج مني كلام، فأنا أستحي أن أرجع عنه. فضحك الغلام، وقال:

تتنازله يا بسر إن كنت مثله
كأنك يا بسر بن أرطاة جاهل
معاوية الوالي وصنواه بعده
أولئك هم أولى به منك إنه
متى تلقه فالموت في رأس رمح
وما بعده في آخر الخيل عاطف
والأفان الليث للشاء أكل
بآثاره في الحرب أو متجاهل
وليس سواء مستعار وثاكل
علي فلا تقربه، أمك هابل
وفي سيفه شغل لنفسك شاغل
ولا قبله في أول الخيل حامل

فقال بسر: هل هو إلا الموت لا بد من لقاء الله فغدا علي رضي الله عنه منقطعاً من خيله، ويده في يد الأشر، وهما يتسايان رويداً، يطلبان التل ليقفا عليه إذ برز له بسر مقنعاً في الحديد، لا يعرف، فناداه: ابرز إلي أبا حسن، فأنحدر إليه على تودة غير مكترث به حتى إذا قاربه طعنه وهو دارع فألقاه إلى الأرض، ومنع الدرع السنان أن يصل إليه، فاتقاه بسر بعورته، وقصد أن يكشفها، يستدفع بأسه، فانصرف عنه رضي الله عنه مستدبراً له فعرفه الأشر حين سقط فقال: يا أمير المؤمنين، هذا بسر بن أرطاة، هذا عدو الله وعدوك، فقال: دعه عليه رضي الله عنه الله، أبعد أن فعلها فحمل ابن عم بسر من أهل الشام، شاب، على علي رضي الله عنه وقال:

أرديت بسراً والغلام ثائره
وكلنا حام لبسر واتره

فلم يلتفت إليه علي رضي الله عنه، وتلقاه الأشر فقال له:

في كل يوم رجل شيخ شاعره
تبرزها طعنة كف واتره
وعورة وسط العجاج ظاهره
عمرو وبسر منيا بالفاقره

فطعنه الأشر، فكسر صلبه، وقام بسر من طعنة علي رضي الله عنه مولياً، وفرت خيله، وناداه علي رضي الله عنه: يا بسر، معاوية كان أحق بها منك، فرجع بسر إلى معاوية، فقال له معاوية: ارفع طرفك، فقد أдал الله عمراً منك، قال الشاعر في ذلك:

أفي كل يوم فارس تندبونه
يكف بها عنه علي سنانه
بدت أمس من عمرو فقنع رأسه
له عورة تحت العجاجة باديه
ويضحك منها في الخلاء معاويه
وعورة بسر مثلها حذو حاذيه

فقولا لعمرو وابن أرطاة أبصرا
سبيليكما لا تلقيا الليث ثانيه

هما كانتا للنفس والله واقيه

وتلك بما فيها عن العود ناهيه

وفيهما علي فاتركا الخيل ناحيه

ونار الوغى، إن التجارب كافيه

فعودا إلى ما شئتما هي ماهيه

ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما

فلولا هما لم تتجوا من سنانه

متى تلقيا الخيل المغيرة صبحه

وكونا بعيداً حيث لا تبلغ القنا

وإن كان منه بعد للنفس حاجة

قال: فكان بسر بعد ذلك اليوم، إذا لقي الخيل التي فيها علي ينتحي ناحية، وتحامى فرسان الشام بعدها علياً رضي الله عنه.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الأجلح بن عبد الله الكندي، عن أبي جحيفة، قال: جمع معاوية كل قرشي بالشام، وقال لهم: العجب يا معشر قريش إنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعال يطول بها لسانه غداً ما عدأً عمراً، فما بالكُم! أين حمية قريش فغضب الوليد بن عقبة، وقال: أي فعال تريد والله ما نعرف في أكفائنا من قريش العراق من يغني غناءنا باللسان ولا باليد. فقال معاوية: بلى إن أولئك، وقوا علياً بأنفسهم. قال الوليد: كلا، بل وقاهم علي بنفسه. قال: ويحكم! أما فيكم من يقوم لقرنه منهم مبارزة ومفاخرة! فقال مروان: أما البراز فإن علياً لا يأذن لحسن ولا لحسين ولا لمحمد بنيه فيه، ولا لابن عباس وإخوته، ويصلى بالحرب دونهم، فلايهم نبارز! وأما المفاخرة فبماذا نفاخرهم! بالإسلام أم بالجاهلية! فإن كان الإسلام، فالفخر لهم بالنبوة، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن، فإن قلنا قريش، قالوا لنا: عبد المطلب.

فقال عتبة بن أبي سفيان: الهوا عن هذا، فإنني لاق بالغداة جعدة بن فبيرة، فقال معاوية: بخ بخ! قومه بنو مخزوم، وأمه أم هانئ بنت أبي طالب، كفء كريم! وكثر العتاب والخصام بين القوم، حتى أغلظوا لمروان وأغلظ لهم، فقال مروان: أما والله، لولا ما كان مني إلى علي رضي الله عنه في أيام عثمان، ومشهدي بالبصرة، لكان لي في علي رأي يكفي امرأ إذا حسب ودين ولكن ولعل. ونابد معاوية الوليد بن عقبة دون القوم، فأغلظ له الوليد، فقال معاوية: إنك إنما تجترئ علي بنسبك من عثمان، ولقد ضربك الحد وعزلك عن الكوفة.

ثم إنهم ما أمسوا حتى اصطلحوا، وأرضاهم معاوية من نفسه، ووصلهم بأموال جليلة. وبعث معاوية إلى عتبة، فقال: ما أنت صانع في جعدة! قال: ألقاه اليوم وأقاتله غداً، وكان لجعدة في قريش شرف عظيم، وكان له لسان، وكان من أحب الناس إلى علي رضي الله عنه، فغدا عليه عتبة، فنادى: أبا جعدة أبا جعدة! فاستأذن علياً رضي الله عنه في الخروج إليه، فأذن له، واجتمع الناس، فقال عتبة: يا جعدة، والله ما أخرجك علينا إلا حب خالك وعمك عامل البحرين وإنا والله ما نزعم أن معاوية أحق بالخلافة من علي، لولا أمره في عثمان ولكن معاوية أحق بالشام لرضا أهلها به، فاعفوا لنا عنها فوالله ما بالشام رجل به طرق إلا وهو أجد من معاوية في القتال وليس بالعراق رجل له مثل جد علي في الحرب، ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبكم، وما أقبح بعلي أن يكون في قلوب المسلمين أولى الناس بالناس، حتى إذا أصاب سلطاناً أفنى العرب. فقال جعدة: أما حيي لخالي، فلو كان لك خال مثله لنسيت أباك وأما ابن أبي سلمة فلم يصب أعظم من

قدره، والجهاد أحب إلي من العمل وأما فضل علي على معاوية فهذا ما لا يختلف فيه اثنان. وأما رضاكم اليوم بالشام فقد رضيتم بما أمس فلم نقبل. وأما قولك: "ليس بالشام أحد إلا وهو أحد من معاوية، وليس بالعراق رجل مثل جد علي" فهكذا ينبغي أن يكون، مضى بعلي يقينه، وقصر بمعاوية شكه، وقصد أهل الحق خير من جهد أهل الباطل. وأما قولك: "نحن أطوع لمعاوية منكم لعلني" فوالله ما نسأله إن سكت، ولا نرد عليه إن قال. وأما قتل العرب، فإن الله كتب القتل والقتال، فمن قتله الحق فيألي الله.

فغضب عتبة، وفحش على جعدة فلم يجبه، وأعرض عنه، فلما انصرف عنه، جمع خيله فلم يستبق منها شيئاً، وجل أصحابه السكون والأزد والصدف، وتهاى جعدة بما استطاع، والتقوا، فصبر القوم جميعاً، وياشر جعدة يومئذ القتال بنفسه، وجزع عتبة، فأسلم خيله، وأسرع هارباً إلى معاوية، فقال له: فضحك جعدة وهزمتك، لا تغسل رأسك منها أبداً! فقال: والله لقد أعذرت ولكن أبي الله أن يدلنا منهم فما أصنع وحظي جعدة بعدها عند علي رضي الله عنه! وقال النجاشي فيما كان من فحش عتبة على جعدة:

فاعلمنه من الخطوب عظيم

من معد ومن لؤي صميم

وهب أقرت بفضلته مخزوم

حين يلقي بها القروم القروم

هكذا تنبت الفروع الأروم

حسب ثاقب ودين قويم

جه يشجى به الألد الخصيم

وخفت من الرجال الحلوم

س إذا حل في الحروب الشكيم

إذا كان لا يصح الأديم

إذا عظم الصغير اللثيم

أعياً هيهات منك النجوم

وسوى ذلك كان وهو فطيم

إن شتم الكريم يا عتب خطب

أمه أم هانئ وأبوه

ذاك منها هبيرة بن أبي

كان في حربكم يعد بألف

وابنه جعدة الخليفة منه

كل شيء تريده فهو فيه

وخطيب إذا تمعرت الأو

وحليم إذا الحبى حلها الجهل

وشكيم الحروب قد علم الننا

وصحيح الأديم من نغل العيب

حامل للعظيم في طلب الحمد

ما عسى أن تقول للذهب الأحمر

كل هذا بحمد ربك فيه

وقال الأعور الشني في ذلك، يخاطب عتبة بن أبي سفيان:

لا يرفع الطرف منك التيه والصلف

أو شحمة بزها شاو لها نطف

ما زلت تظهر في عطفك أبهة

لا تحسب القوم إلا فقع قرقرة

حتى لقيت ابن مخزوم، وأي فتى
 إن كان رهط أبي وهب جاحجة
 أشجاك جعدة إذ نادى فوارسه
 هلا عطفت على قوم بمصرعة
 أحيا مآثر آباء له سلفوا
 في الأولين فهذا منهم خلف
 حاموا عن الدين والدنيا فما وقفوا
 فيها السكون وفيها الأزد والصدف

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن الشعبي، قال: كان رجل من أهل الشام، يقال له الأصبع بن ضرار الأزدي، من مسالح معاوية وطلّاعه، فندب له علي رضي الله عنه الأشر، فأخذه أسيراً من غير قتال، فجاء به ليلاً فشده وثاقاً، وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح وكان الأصبع شاعراً مفوهاً، فأيقن بالقتل، ونام أصحابه، فرفع صوته فأسمع الأشر، وقال:

ألا ليت هذا الليل أصبح سرمداً
 يكون كذا حتى القيامة إنني
 فيا ليل أطبق، إن في الليل راحة
 ولو كنت تحت الأرض ستين وادياً
 فيا نفس مهلاً إن للموت غاية فصبراً
 أخشى ولي في القوم رحم قريبة
 ولو أنه كان الأسير ببلدة
 ولو كنت جار الأشعث الخير فكني
 وجار سعيد أو عدي بن حاتم
 وجار المرادي الكريم وهانئ
 ولو أنني كنت الأسير لبعضهم
 أولئك قومي لا عدمت حياتهم
 على الناس لا يأتيهم بنهار
 أحاذر في الإصباح يوم بواري
 وفي الصبح قتلي أو فكاك أساري
 لما رد عني ما أخاف حذاري
 على ما ناب يابن ضرار
 أبى الله أن أخشى ومالك جاري
 أطاع بها شمريت ذيل إزاري
 وقل من الأمر المخوف فراري
 وجار شريح الخير قر قراري
 وزحر بن قيس ما كرهت نهاري
 دعوت فتى منهم ففك إسرائي
 وعفوه عني وستر عواري

قال: فغدا به الأشر إلى علي رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا رجل من مسالح معاوية، أصبته أمس، وبات عندنا الليل، فحركنا بشعره، وله رحم، فإن كان فيه القتل فاقتله وإن ساغ لك العفو عنه فهبه لنا فقال: هو لك يا مالك، وإذا أصبت منهم أسيراً فلا تقتله، فإن أسير أهل القبلة لا يقتل.

فرجع به الأشر إلى منزله وخلق سبيله.

ومن كلام له عليه السلام في الخوارج

لما أنكروا تحكيم الرجال ويذم فيه أصحابه في التحكيم

الأصل: إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن. هذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين، لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان وإنما ينطق عنه الرجال. ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن، لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله سبحانه وتعالى، وقد قال الله تعالى عز من قائل: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول"، فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه، وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنته فإذا حكم بالصدق في كتاب الله، فنحن أحق الناس به وإن حكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله فنحن أحق الناس وأولاهم بها.

وأما قولكم لم جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل، ويتثبت العالم؛ ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة، ولا تؤخذ بكظامها، فتعجل عن تبين الحق، وتنفذ لأول الغي.

إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه، وإن نقصة وكرثه، من الباطل، وإن جر إليه وزادة. فأين يتاه بكم! ومن أين أتيتم! استعدوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحق لا يصرونه، وموزعين بالجور لا يعدلون عنه، جفاة عن الكتاب، نكب عن الطريق.

ما أنتم بوثيقة يعلق بها، ولا زوافر عز يعتصم إليها، لبئس حشاش نار الحرب أنتم! أف لكم! لقد لقيت منكم برحاً يوماً أناديكم، ويوماً أناجيكم، فلا أحرار صدق عند النداء، ولا إخوان ثقة عند النجاء الشرح: دفنا المصحف: جانباه اللذان يكتفاه، وكان الناس يعملونهما قديماً من خشب، ويعملونهما الآن من جلد؛ يقول رضي الله عنه: لا اعتراض علي في التحكيم، وقول الخوارج: "حكمت الرجال" دعوى غير صحيحة وإنما حكمت القرآن ولكن القرآن لا ينطق بنفسه، ولا بد له ممن يترجم عنه. والترجمان بفتح التاء وضم الجيم، هو مفسر اللغة بلسان آخر، ويجوز ضم التاء لضم الجيم، قال الراجز:

كالترجمان لقي الأنباطا

ثم قال: لما دعينا إلى تحكيم الكتاب، لم نكن القوم الذين قال الله تعالى في حقهم: "وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون"، بل أجبنا إلى ذلك، وعملنا بقول الله تعالى: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول". وقال: معنى ذلك أن نحكم بالكتاب والسنة، فإذا عمل الناس بالحق في هذه الواقعة، واطرحوا الهوى والعصية، كنا أحق بتدبير الأمة وبولاية الخلافة من المنازع لنا عليها فإن قلت: إنه لم يقل هكذا؛ وإنما قال: إذا حكم بالصدق في كتاب الله، فنحن أولى به، وإذا حكم بالسنة فنحن أحق بها! قلت: إنه رفع نفسه رضي الله عنه أن يصرح بذكر الخلافة فكفى عنها، وقال: نحن إذا حكم بالكتاب والسنة أولى بالكتاب والسنة، ويلزم من كونه أولى بالكتاب والسنة من جميع الناس أن يكون أولى بالخلافة من جميع الناس، فدل على ما كنى عنه بالأمر المستلزم له.

فإن قلت: إذا كان الرجال! الذين يترجمون القرآن ويفسرونه، وقد كلفوا أن يحكموا في واقعة أهل العراق وأهل الشام، بما يدهم القرآن عليه يجوز أن يختلفوا في تفسير القرآن وتأويله، فيدعي صاحب أهل العراق من تفسيره ما يستدل به على مراده، ويدعي وكيل أهل الشام ما يقابل ذلك ويناقضه، بطريق الشبهة التي تمسكوا بها من دم عثمان، ومن كون الإجماع لم يحصل علىبيعة أمير المؤمنين رضي الله عنه، احتاج الحكماء حينئذ إلى أن يحكم بينهما حكمان آخران، والقول فيهما

كالقول في الأول إلى ما لا نهاية له وإنما كان يكون التحكيم قاطعاً للشغب لو كان القرآن ينص بالصريح الذي لا تأويل فيه، إما على أمير المؤمنين رضي الله عنه وإما على معاوية، ولا نص صريح فيه بل الذي فيه يحتمل التأويل والتجاذب فما الذي يفيد التحكيم والحال تعود لا محالة جذعة!

قلت: لو تأمل الحكمان الكتاب حق التأمل، لوجدا فيه النص الصريح على صحة خلافة أمير المؤمنين رضي الله عنه، لأن فيه النص الصريح على أن الإجماع حجة، ومعاوية لم يكن مخالفاً في هذه المقدمة ولا أهل الشام، وإذا كان الإجماع حجة، فقد وقع الإجماع لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن اختيار خمسة من صلحاء المسلمين لواحد منهم وبيعته توجب لزوم طاعته وصحة خلافته، وقد بايعتم أمير المؤمنين رضي الله عنه خمسة من صلحاء الصحابة بل خمسون فوجب أن تصح خلافته، وإذا صحت خلافته نفذت أحكامه، ولم يجب عليه أن يقيد بعثمان، إلا إن حفر أولياؤه عنده، طائعين له مبايعين، ملتزمين لأحكامه ثم بعد ذلك يطلبون القصاص من أقوام بأعيانهم، يدعون عليهم دم المقتول فقد ثبت أن الكتاب لو تؤمل حق التأمل، لكان الحق مع أهل العراق، ولم يكن لأهل الشام من الشبهة ما يقدر في استنباطهم المذكور.

ثم قال رضي الله عنه: فأما ضربي للأجل في التحكيم فإنما فعلته لأن الأناة والتثبت من الأمور الحمودة أما الجاهل فيعلم فيه ما جهله، وأما العالم فيثبت فيه على ما علمه، فرجوت أن يصلح الله في ذلك الأجل أمر هذه الأمة المفتونة. ولا تؤخذ بأكظامها: جمع كظم وهو مخرج النفس، يقول: كرهت أن أعجل القوم عن التبين والاهتداء، فيكون إرهابي لهم، وتركى للتنفيس عن خناقهم، وعدولي عن ضرب الأجل بيني وبينهم أدعى إلى استفسادهم، وأحرى أن يركبوا غيهم وضلالهم، ولا يقلعوا عن القبيح الصادر عنهم. ثم قال: أفضل الناس من أثر الحق وإن كرهه - أي اشتد عليه، وبلغ منه المشقة. ويجوز "أكرهه" بالألف - على الباطل وإن انتفع به وأورثه زيادة.

ثم قال: "فأين يتاه بكم؟"، أي أين تذهبون في التيه؟ يعني في الحيرة. وروي: "فأين يتاه بكم؟"، ومن أين أتيتم؟ أي كيف دخل عليكم الشيطان أو الشبهة، ومن أي المداخل دخل اللبس عليكم! ثم أمرهم بالاستعداد للمسير إلى حرب أهل الشام، وذكر أنهم موزعون بالجور، أي ملهمون، قال تعالى: "رب أوزعني أن أشكر نعمتك" أي ألهمني، أوزعته بكذا وهو موزع به، والاسم والمصدر جميعاً الوزع بالفتح، واستوزعت إليه تعالى شكره فأوزعني، أي استلهمته فألهمني. ولا يعدلون عنه لا يتركونه إلى غيره، وروي إلا يعدلون به "أي لا يعدلون بالجور شيئاً آخر، أي لا يرضون إلا بالظلم والجور ولا يختارون عليهما غيرهما.

قوله: "جفاة عن الكتاب": جمع جاف وهو النابي عن الشيء، أي قد نبوا عن الكتاب لا يلائمهم ولا يناسبونه، تقول: جفا السرج عن ظهر الفرس إذا نبا وارتفع، وأجفيته أنا، ويجوز أن يريد أنهم أعراب جفاة، أي أجلاف لا أفهام لهم. قوله: "نكب عن الطريق"، أي عادلون، جمع ناكب، نكب ينكب عن السبيل، بضم الكاف، نكوباً. قوله: "وما أنتم بوثيقة"، أي بذي وثيقة، فحذف المضاف، والوثيقة: الثقة، يقال: قد أخذت في أمر فلان بالوثيقة، أي بالثقة، والثقة مصدر.

والزوافر: العشيرة والأنصار، ويقال: هم زافرتهم عند السلطان، للذين يقومون بأمره عنده.

وقوله: "يعتصم إليها"، أي بها، فأنا بـ "إلى" مناب الباء، كقول طرفة:

إلى ذروة البيت الرفيع المصمد

وإن يلتق الحي الجميع تلاقني

وحشاش النار: ما تحش به، أي توقد، قال الشاعر:

ألام، وفي ألا أقر المخازيا!

أفي أن أحش الحرب فيمن يحشها

وروي "حشاش" بالفتح كالشيع، وهو الخطب الذي يلقي في النار قبل الجزل، وروي: "حشاش" بضم الحاء وتشديد الشين، جمع حاش، وهو الموقد للنار.

قوله: "أف لكم" من الألفاظ القرآنية، وفيها لغات "أف" بالكسر وبالضم وبالفتح و "أف" منوناً بالثلاث أيضاً، ويقال: أفأ وتفاً وهو إتباع له، وأفة وتفة، والمعنى استقذار المعنى بالتأفيف.

قوله: "لقد لقيت منكم برحاً"، أي شدة، يقال: لقيت منهم برحاً بارحاً، أي شدة وأذى، قال الشاعر:

دعاك الهوى برح لعينك بارح!

أجذك هذا عمرك الله كلما

ويروى: "ترحاً"، أي حزناً.

ثم ذكر أنه يناديهم جهاراً طوراً، ويناجيهم سراً طوراً، فلا يجدهم أحراراً عند ندائه، أي لا ينصرون ولا يجيبون، ولا يجدهم ثقاتاً وذوي أمانة عند المناجاة، أي لا يكتمون السر.

والنجاء: المناجاة، مصدر ناجيته نجاء، مثل ضاربه ضراباً، وصارعه صراعاً.

ومن كلام له لما عوتب كل التسوية في العطاء

وتصويره الناس أسوة في العطاء من غير تفضيل أولي السابقات والشرف

الأصل: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً! ولو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله! ثم قال عليه السلام: ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس، ويهينه عند الله ولم يضع أمرؤ ماله في غير حقه، وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودهم فإن زلت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل، وألام خدين.

الشرح: أصل "تأمروني": تأمروني، بنونين، فأسكن الأولى وأدغم، قال تعالى: "أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون". ولا أطور به: لا أقر به ولا تطر حولنا، أي لا تقرب ما حولنا، وأصله من طوار الدار، وهو ما كان ممتداً معها من الفناء. وقوله: "ما سمر سمير" يعني الدهر، أي ما أقام الدهر وما بقي، والأشهر في المثل: "ما سمر ابنا سمير"، قالوا: السمر الدهر،

وابناه الليل والنهار. وفيل: ابنا سمير الليل والنهار، لأنه يسمر فيهما، ويقولون: لا أفعله السمر والقمر، أي ما دام الناس يسكرون في ليلة قمراء ولا أفعله سمير الليالي، أي أبداً، قال الشنفرى:

سمير الليالي مبسلاً بالجرائر

هنالك لا أرجو حياة تسرني

قوله: "وما أم نجم في السماء نجماً"، أي قصد وتقدم، لأن النجوم تتبع بعضها بعضاً، فلا بد من تقدم وتأخر فلا يزال النجم يقصد نجماً غيره، ولا يزال النجم يتقدم نجماً غيره.

والخدين: الصديق يقول رضي الله عنه: كيف تأمروني أن أطلب النصر من الله بأن أجور على قوم وليت عليهم! يعني الذين لا سوابق لهم ولا شرف وكان عمر ينقصهم في العطاء عن غيرهم.

ثم قال رضي الله عنه: لو كان المال لي وأنا أفرقه بينهم لسويت، فكيف وإنما هو مال الله وفيه! ثم ذكر أن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وقد غمى الله عنه وأنه يرفع صاحبه عند الناس، ويضعه عند الله، وأنه لم يسلك أحد هذا المسلك إلا حرمه الله ود الذين يتحبب إليهم بالمال، ولو احتاج إليهم يوماً عند عشرة يعثرها لم يجدهم.

واعلم أن هذه مسألة فقهية ورأي في علنه وأبي بكر فيها واحد، وهو التسوية بين المسلمين في قسمة الفئ والصدقات، وإلى هذا ذهب الشافعي رحمه الله، وأما عمر فإنه لما ولي الخلافة فضل بعض الناس على بعض، ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم، وفضل الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبي بكر أيام خلافته بذلك، فلم يقبل، وقال: إن الله لم يفضل أحداً على أحد، ولكنه قال: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين"، ولم يخص قوماً دون قوم، فلما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان أشار به أولاً. وقد ذهب كثير من فقهاء المسلمين إلى قوله، والمسألة محل اجتهاد، وللإمام أن يعمل بما يؤديه إليه اجتهاده، وإن كان أتباع علي رضي الله عنه عندنا أولى، لا سيما إذا عضده موافقة أبي بكر على المسألة، وإن صح الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى، فقد صارت المسألة منصوصاً عليها، لأن فعله رضي الله عنه كقوله.

ومن كلام له قاله للخوارج أيضاً

الأصل: فإن أبيتم إلا أن تزعموا أي أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد - صلى الله عليه وآله - بضلالي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذن من لم يذنب وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه، ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع يد السارق وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفئ، ونكح المسلمات، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله. ثم أنتم شرار الناس، ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه. وسيهلك في صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق. وخير الناس في حالاً النمط الأوسط فالزموه، وألزموا السواد الأعظم فإن يد الله على الجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب.

ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه، فإنما حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، وإحياءه الاجتماع عليه، وإماتته الافتراق عنه فإن جرننا القرآن إليهم أتبعناهم وإن جرحهم إلينا أتبعونا فلم آت لا أبا لكم بجرأ، ولا ختلتكم عن أمركم، ولا لبسته عليكم.

إنما اجتمع رأي ملثكم على اختيار رجلين، أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن، فتاها عنه، وتركها الحق وهما يبصرانه وكان الجور هواهما، فمضيا عليه، وقد سبق استثنائنا عليهما في الحكومة بالعدل، والصمد للحق سوء رأيهما، وجور حكمهما.

الشرح: ليس لقائل أن يقول له رضي الله عنه معذراً عن الخوارج. إنهم إنما ضللوا عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وحكموا بخطئهم وكفرهم وقتلهم بالسيف خبطاً، لأنهم وافقوا في تصويب التحكيم وهو عندهم كفر فلم يأخذوهم بذنبك كما قلت لهم وذلك لأن أمير المؤمنين رضي الله عنه ما قال هذه المقالة إلا لمن رأى منهم استعراض العامة، وقتل الأطفال حتى البهائم، فقد كان منهم قوم فعلوا ذلك. وقد سبق منا شرح أفعالهم ووقائعهم بالناس، وقالوا: إن الدار دار كفر لا يجوز الكف عن أحد من أهلها، فهؤلاء هم الذين وجه أمير المؤمنين رضي الله عنه إليهم خطابه وإنكاره، دون غيرهم من فرق الخوارج.

الخوارج يكفرون أهل الكبائر

واعلم أن الخوارج كلها تذهب إلى تكفير أهل الكبائر، ولذلك كفروا علياً رضي الله عنه ومن اتبعه على تصويب التحكيم وهذا الاحتجاج الذي احتج به عليهم لازم وصحيح، لأنه لو كان صاحب الكبيرة كافراً لما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ورثه من المسلم، ولا مكنته من نكاح المسلمات، ولا قسم عليه من الفيء ولأخرجه عن لفظ الإسلام.

وقد احتجت الخوارج لمذهبها بوجوه: منها قوله تعالى: "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين"، قالوا: فجعل تارك الحج كافراً.

والجواب أن هذه الآية مجملة، لأنه تعالى لم يبين "ومن كفر". بماذا؟ فيحتمل أن يريد تارك الحج، ويحتمل أن يريد تارك اعتقاد وجوبه على من استطاع إليه سبيلاً، فلا بد من الرجوع إلى دلالة، والظاهر أنه أراد لزوم الكفر لمن كفر باعتقاد كون الحج غير واجب ألا تراه في أول الآية قال: "ولله على الناس حج البيت"، فأنبأ عن اللزوم، ثم قال: "ومن كفر" بلزوم ذلك! ونحن نقول: إن من لم يقل: لله على الناس حج البيت، فهو كافر.

ومنها قوله تعالى: "إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون"، قالوا: والفاسق لفسقه وإصراره عليه آيس من روح الله، فكان كافراً.

والجواب أنا لا نسلم أن الفاسق آيس من روح الله مع تجويزه تلافي أمره بالتوبة والإقلاع وإنما يكون اليأس مع القطع، وليس هذه صفة الفاسق، فأما الكافر الذي يجحد الثواب والعقاب، فإنه آيس من روح الله، لأنه لا تخطر له التوبة والإقلاع، ويقطع على حسن معتقده.

ومنها قوله تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" وكل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله.

و لم يحكم بما أنزل الله.

والجواب أن هذا مقصور على اليهود لأن ذكرهم هو المقدم في الآية قال سبحانه وتعالى: "سمعون للكذب أكالون للسحت" ثم قال عقيب قوله: "هم الكافرون": "وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم" فدل على أنها مقصورة على اليهود. ومنها قوله تعالى: "فأنذرتكم ناراً تلظى" لا يصلها إلا الأشتى الذي كذب وتولى"، قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزلة على أن الفاسق يصلى النار، فوجب أن يسمى كافراً.

والجواب، أن قوله تعالى: "ناراً" و نكرة في سياق الإثبات فلا تعم، وإنما تعم النكرة في سياق النفي نحو قولك: "ما في الدار من رجل" وغير ممتنع أن يكون في الآخرة نار مخصوصة لا يصلها إلا الذين كذبوا وتولوا، ويكون للفاسق نار أخرى غيرها.

ومنها قوله تعالى: "وإن جهنم لحيطه بالكافرين"، قالوا: والفاسق تحيط به جهنم، فوجب أن يكون كافراً. والجواب أنه لم يقل سبحانه: "وإن جهنم لا تحيط إلا بالكافرين" وليس يلزم من كونها محيطة بقوم ألا تحيط بقوم سواهم.

ومنها قوله سبحانه: "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون". قالوا: والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممن اسودت، ووجب أن يسمى كافراً، لقوله: "بما كنتم تكفرون".

والجواب أن هذه القسمة ليست متقابلة فيجوز أن يكون المكلفون ثلاثة أقسام: بيض الوجوه، وسود الوجوه، وصنف آخر ثالث بين اللونين وهم الفاسق.

ومنها قوله تعالى: "وجوه يومئذ مسفرة" ضاحكة مستبشرة" ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قفرة" أولئك هم الكفرة الفجرة". قالوا: والفاسق على وجهه غبرة، فوجب أن يكون من الكفرة والفجرة.

والجواب، أنه يجوز أن يكون الفاسق قسماً ثالثاً لا غبرة على وجوههم، ولا هي مسفرة ضاحكة، بل على ما كانت عليه في دار الدنيا.

ومنها قوله تعالى: "ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نحازي إلا الكفور". قالوا: والفاسق لا بد أن يجازى، فوجب أن يكون كفوراً.

والجواب، أن المراد بذلك: "وهل نحازي بعقاب الاستئصال إلا الكفور"! لأن الآية وردت في قصة أهل سبأ، لكونهم استؤصلوا بالعقوبة.

ومنها أنه تعالى قال: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين"، وقال في آية أخرى: "إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون"، فجعل الغاوي الذي يتبعه مشركاً.

والجواب أنا لا نسلم أن لفظة "إنما" تفيد الحصر وأيضاً فإنه عطف قوله: "والذين هم به مشركون" على قوله: "الذين يتولونه"، فوجب أن يثبت التغاير بين الفريقين، وهذا مذهبنا، لأن الذين يتولونه هم الفاسق، والذين هم به مشركون هم

الكفار.

ومنها قوله تعالى: "وأما الذين فسقوا فمأواهم النار" إلى قوله تعالى: "وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون" فجعل الفاسق مكذباً.

والجواب، أن المراد به الذين فسقوا عن الدين، أي خرجوا عنه بكفرهم، ولا شبهة أن من كان فسقه من هذا الوجه فهو كافر مكذب، ولا يلزم منه أن كل فاسق على الإطلاق فهو مكذب وكافر.

ومنها قوله تعالى: "ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"، قالوا: فأثبت الظالم جاحداً، وهذه صفة الكفار.

والجواب أن المكلف قد يكون ظالماً بالسرقة والزنا، وإن كان عارفاً بالله تعالى، وإذا جاز إثبات ظالم ليس بكافر ولا جاحد بآيات الله تعالى، جاز إثبات فاسق ليس بكافر.

ومنها قوله تعالى: "ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون".

والجواب، أن هذه الآية تدل على أن الكافر فاسق، ولا تدل على أن الفاسق كافر.

ومنها قوله تعالى: "فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون" ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون" تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون" ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون".

فنص سبحانه على أن من تخف موازينه يكون مكذباً، والفاسق تخف موازينه، فكان مكذباً، وكل مكذب كافر.

والجواب أن ذلك لا يمنع من قسم ثالث، وهم الذين لا تخف موازينهم ولا تثقل وهم الفساق، ولا يلزم من كون كل من خفت موازينه يدخل النار ألا يدخل النار إلا من خفت موازينه.

ومنها قوله تعالى: "هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن"، وهذا يقتضي أن من لا يكون مؤمناً فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافراً.

والجواب أن "من" هاهنا للتبعض، وليس في ذكر التبعض نفي الثالث، كما أن قوله: "فمنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع" لا ينفي وجود دابة تمشي على أكثر من أربعة كبعوض الحشرات.

ثم نعود إلى الشرح: قوله رضي الله عنه: "ومن رمى به الشيطان مراميه"، أي أضله كأنه رمى به مرمى بعيداً، فضل عن الطريق ولم يهتد إليها.

قوله: "وضرب به تيهه" أي حيره وجعله تائهاً.

ثم قال رضي الله عنه: يهلك في رجلان، فأحدهما من أفرط حبه له واعتقاده فيه حتى ادعى له الحلول كما ادعت النصراني ذلك في المسيح عليه السلام، والثاني من أفرط بغضه له، حتى حاربه، أو لعنه، أو برئ منه، أو أبغضه هذه المراتب الأربع والبغض أدناها، وهو موبق مهلك وفي الخبر الصحيح المتفق عليه أنه لا يحبه إلا مؤمن، لا يبغضه إلا منافق وحسبك بهذا الخبر، ففيه وحده كفاية.

غلاة الشيعة والنصيرية وغيرهم

فأما الغلاة فيه فهالكون كما هلك الغلاة في عيسى عليه السلام. وقد روى المحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له عليه السلام: "فيك مثل من عيسى بن مريم، أبغضته اليهود فبهتت أمه، وأحبته النصارى فرفعته فوق قدره"، وقد كان أمير المؤمنين عز على قوم من أصحابه خرجوا من حد محبته باستحواذ الشيطان عليهم أن كفروا بربهم، ووجدوا ما جاء به نبيهم، فاتخذوه رباً وادعوه إلهاً، وقالوا له: أنت خالقنا ورازقنا، فاستأجرتهم، واستأنى وتوعدهم فأقاموا على قولهم، فحفر لهم حفراً دخن عليهم فيها، طمعاً في رجوعهم، فأبوا فحرقهم، وقال:

ألا تروني قد حفرت حفراً

أوقدت ناري ودعوت قنبراً

إنني إذا رأيت أمراً منكراً

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الثقفي، عن محمد بن سليمان بن حبيب المصيصي، المعروف بنوين، وروى أيضاً عن علي بن محمد النوفلي عن مشيخته، أن علياً رضي الله عنه مر بقوم وهم يأكلون في شهر رمضان نهاراً، فقال: أسفر أم مرضى قالوا لا ولا واحدة منهما، قال: فمن أهل الكتاب أنتم فتعصمكم الذمة والجزية قالوا: لا، قال: فما بال الأكل في نهار رمضان! فقاموا إليه، فقالوا: أنت أنت! يومون إلى ربوبيته، فترل رضي الله عنه عن فرسه، فألصق خده بالأرض، وقال: ويلكم! إنما أنا عبد من عبيد الله، فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام. فأبوا فدعاهم مراراً، فأقاموا على كفرهم، فنهض إليهم، وقال شدوهم وثاقاً، وعلي بالفعلة والنار والخطب، ثم أمر بحفر بئرين فحفرتا، إحداها سرباً والأخرى مكشوفة، وألقى الخطب في المكشوفة، وفتح بينهما فتحاً، وألقى النار في الخطب، فدخن عليهم، وجعل يهتف بهم، ويناشدهم ليرجعوا إلى الإسلام، فأبوا، فأمر بالخطب والنار فألقى عليهم، فأحرقوا، فقال الشاعر:

لترم بي المنية حيث شئت

إذا ما حشناً حطباً بنار

إذا لم ترمني في الحفرتين

فذاك الموت نقداً غير دين

قال: فلم يرح رضي الله عنه حتى صاروا حمماً ثم استترت هذه المقالة سنة أو نحوها، ثم ظهر عبد الله بن سبأ وكان يهودياً يتستر بالإسلام بعد وفاة أمير المؤمنين رضي الله عنه فأظهرها، واتبعه قوم فسموا السبئية، وقالوا: إن علياً رضي الله عنه لم يمت، وإنه في السماء، والرعد صوته والبرق ضحكته وإذا سمعوا صوت الرعد، قالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين! وقالوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أغلظ قول، وافتروا عليه أعظم فرية، فقالوا: كتم تسعة أعشار الوحي، فنعى عليهم قولهم الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية رضي الله عنه في رسالته، التي يذكر فيها الإرجاء، رواها عنه سليمان بن أبي شيخ، عن الهيثم بن معاوية، عن عبد العزيز بن أبان، عن عبد الواحد بن أيمن المكي، قال: شهدت الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية يملئ هذه الرسالة، فذكرها وقال فيها: ومن قول هذه السبئية: هدينا لوهي ضل عنه الناس، وعلم خفي عنهم وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم تسعة أعشار الوحي ولو كتم عنه شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم شأن امرأة زيد، وقوله تعالى: "تبتغي مرضات أزواجك".

ثم ظهر المغيرة بن سعيد، مولى بجيلة، فأراد أن يحدث لنفسه مقالة يستهوي بها قوماً، وينال بها ما يريد الظفر به من الدنيا، فغلا في علي رضي الله عنه، وقال: لو شاء علي لأحيا عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً.

وروى علي بن محمد النوفلي، قال: جاء المغيرة بن سعيد، فاستأذن علي أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، وقال له: أخبر الناس أي أعلم الغيب، وأنا أطعمك العراق، فزجره أبو جعفر زجراً شديداً، وسمعته ما كره، فانصرف عنه، فأتى أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية رحمه الله، فقال له مثل ذلك - وكان أبو هاشم أيداً - فوثب عليه فضربه ضرباً شديداً أشفى به على الموت، فتعالج حتى برئ، ثم أتى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رحمه الله - وكان محمد سكيناً - فقال له كما قال للرجلين، فسكت محمد فلم يجبه، فخرج وقد طمع فيه بسكوته، وقال: أشهد أن هذا هو المهدي الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه قائم أهل البيت، وادعى أن علي بن الحسين رضي الله عنه أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن. ثم قدم المغيرة الكوفة، وكان مشعباً، فدعا الناس إلى قوله، واستهواهم واستغواهم، فاتبعه خلق كثير، وادعى علي محمد بن عبد الله أنه أذن له في خنق الناس وإسقايتهم السموم، وبث أصحابه في الأسفار يفعلون ذلك بالناس، فقال له بعض أصحابه: إنا نخنق من لا نعرف، فقال: لا عليكم! إن كان من أصحابكم عجلتموه إلى الجنة، وإن كان من عدوكم عجلتموه إلى النار ولهذا السبب كان المنصور يسمي محمد بن عبد الله الخناق، وينحله ما ادعاه عليه المغيرة.

ثم تفاقم أمر الغلاة بعد المزية، وأمعنوا في الغلو، فادعوا حلول الذات الإلهية المقدسة في قوم من سلالة أمير المؤمنين رضي الله عنه، وقالوا بالتناسخ، وجحدوا البعث والنشور، وأسقطوا الثواب والعقاب، وقال قوم منهم: إن الثواب والعقاب إنما هو ملاذ هذه الدنيا ومشاقها، وتولدت من هذه المذاهب القديمة التي قال بها سلفهم مذاهب أفحش منها قال بها خلفهم، حتى صاروا إلى المقالة المعروفة بالنصيرية، وهي التي أحدثها محمد بن نصير النميري، وكان من أصحاب الحسن العسكري رضي الله عنه، والمقالة المعروفة بالإسحاقية وهي التي أحدثها إسحاق بن زيد بن الحارث، وكان من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان يقول بالإباحة وإسقاط التكليف، وثبت لعلي رضي الله عنه شركة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في النبوة على وجه غير هذا الظاهر الذي يعرفه الناس وكان محمد بن نصير من أصحاب الحسن بن علي بن محمد بن الرضا، فلما مات ادعى وكالة لابن الحسن الذي تقول الإمامية بإمامته، ففضحه الله تعالى بما أظهره من الإلحاد والغلو والقول بتناسخ الأرواح، ثم ادعى أنه رسول الله وني من قبل الله تعالى، وأنه أرسله علي بن محمد بن الرضا، وجحد إمامة الحسن العسكري وإمامة ابنه، وادعى بعد ذلك الربوبية، وقال بإباحة المحارم. وللغلاة أقوال كثيرة طويلة عريضة وقد رأيت أنا جماعة منهم، وسمعت أقوالهم، ولم أر فيهم محصلاً، ولا من يستحق أن يخاطب وسوف أستقصي ذكر فرق الغلاة وأقوالهم في الكتاب الذي كنت متشاعلاً بجمعه، وقطعتني عنه اهتمامي بهذا الشرح، وهو الكتاب المسمى بمقالات الشيعة إن شاء الله تعالى.

قوله رضي الله عنه: "والزموا السواد الأعظم" وهو الجماعة، وقد جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه اللفظة التي ذكرها رضي الله عنه، وهي: "يد الله على الجماعة ولا يبالي بشذوذ من شذ"، وجاء في معناها كثير، نحو قوله رضي الله عنه: "الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد"، وقوله: "لا تجتمع أمي على خطأ"، وقوله: "سألت الله ألا تجتمع أمي على خطأ، فأعطانيها"، وقوله: "ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن"، وقوله: "لا تجتمع أمي على

ضلالة"، و "سألت ربي ألا تجتمع أمي على ضلالة فأعطينيها". و "لم يكن الله ليجمع أمي على ضلال ولا خطأ".
وقوله رضي الله عنه: "عليكم بالسواد الأعظم"، وقوله: "من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام عن عنقه"، وقوله: "من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية"، وقوله: "من سره بجموحه الجنة فليزلم الجماعة"، والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً.

ثم قال رضي الله عنه: "من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه"، يعني الخوارج، وكان شعارهم أنهم يخلقون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل.

قال: "ولو كان تحت عمامتي هذه - أي لو اعتصم واحتمى بأعظم الأشياء حرمة - فلا تكفوا عن قتله".

ثم ذكر أنه إنما حكم الحكمان ليحييا ما أحياه القرآن، أي ليجتمعا على ما شهد القرآن باستصوابه واستصلاحه، ويميتا ما أماته القرآن، أي ليفترقا ويصدا وينكلا عما كرهه القرآن، وشهدا بضلاله، والبحر، بضم الباء: السر العظيم، قال الراجز:

أرمي عليها وهي شيء بجر

أي داهية.

ولا تختلكم، أي خدعتكم، ختله وخاتله أي خدعه، والتخاتل: التخادع.

ولا لبسته عليكم أي جعلته مشتبهاً ملتبساً، ألبست عليهم الأمر ألبسه بالكسر، والملا: الجماعة من الناس.
والصمد: القصد.

قال: سبق شرطنا سوء رأيهما، لأننا اشترطنا عليهما في كتاب الحكومة ما لا مضرة علينا، مع تأمله فيما فعلاه من اتباع الهوى وترك النصيحة للمسلمين.

فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة

الأصل: يا أحنف، كأي به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لب، ولا قعقة لجم، ولا حممة خيل، يشيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام.

قال الشريف الرضي أبو الحسن رحمه الله تعالى: يومئذ بذلك إلى صاحب الزنج.

ثم قال عليه السلام: ويل لسكككم العامرة والدور المزخرفة، التي لها أجنحة كأجنحة النسور، وخراطيم كخراطيم الفيلة من أولئك الذين لا يندب قتيلهم، ولا يفقد غائبهم. أنا كاب الدنيا لوجهها، وقادرها بقدرها، وناظرها بعينها! الشرح: للجب: الصوت. والدور المزخرفة: المزيينة المموهة بالزخرف، وهو الذهب.

وأجنحة الدور التي شبهها بأجنحة النسور: رواشينها. والخراطيم: ميازيها.

وقوله: "لا يندب قتيلهم": ليس يريد به من يقتلونه، بل القتل منهم وذلك لأن أكثر الزنج الذين أشار إليهم كانوا عبيداً لدهاقين البصرة وبناتها، ولم يكونوا ذوي زوجات وأولاد، بل كانوا على هيئة الشطار عزاباً فلا نادبة لهم.
وقوله: "ولا يفقد غائبهم" يريد به كثرتهم وأهم كلما قتل منهم قتل سد مسده غيره، فلا يظهر أثر فقده.

وقوله: "أنا كاب الدنيا لوجهها"، مثل الكلمات المحكية عن عيسى عليه السلام: أنا الذي كبيت الدنيا على وجهها، ليس لي زوجة تموت، ولا بيت يخرب. وسادي الحجر وفراشي المدر، وسراجي القمر.

أخبار صاحب الزنج

فأما صاحب الزنج هذا فإنه ظهر في فرات البصرة في سنة خمس وخمسين ومائتين رجل زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فتبعه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ في البصرة.

وأكثر الناس يقدحون في نسبه وخصوصاً الطالبين.. وجمهور النساين اتفقوا على أنه من عبد القيس، وأنه علي بن محمد بن عبد الرحيم، وأمه أسدية من أسد بن خزيمه، جدها محمد بن حكيم الأسدي، من أهل الكوفة، أحد الخارجين مع زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه على هشام بن عبد الملك، فلما قتل زيد، هرب فلحق بالري وجاء إلى القرية التي يقال لها ورزنين، فأقام بها مدة، وبهذه القرية ولد علي بن محمد صاحب الزنج، وبها منشؤه، وكان أبو أبيه المسمى عبد الرحيم رجلاً من عبد القيس، كان مولده بالطايقان، فقدم العراق، واشترى جارية سنديّة، فأولدها محمداً أباه.

وكان علي هذا متصلاً بجماعة من حاشية السلطان وحول بني العباس، منهم غانم الشطرنجي، وسعيد الصغير، وبشير، خادم المنتصر وكان منهم معاشه ومن قوم من كتاب الدولة يمدحهم ويستمنحهم بشعره، ويعلم الصبيان الخط والنحو والنجوم، وكان حسن الشعر مطبوعاً عليه فصيح اللهجة بعيد الهمة، تسمو نفسه إلى معالي الأمور، ولا يجد إليها سبيلاً من شعره القصيدة المشهورة التي أولها:

قنوعاً به ذلة في العباد

رأيت المقام على الاقتصاد

ومن جملتها:

ففسحتها في فراق الزناد

إذا النار ضاق بها زندها

حوى غيره السبق يوم الجلال

إذا صارم قر في غمده

ومن الشعر المنسوب إليه:

إذا ما انتضين ليوم سفوك

وإنّا لتصبح أسيافا

وأغمادهن رؤوس الملوك

منابرهن بطون الأكف

ومن شعره في الغزل:

ولم أقض منها حاجة المتورد

ولما تبينت المنازل بالحمى

سراويل أبدان الحديد المسرد

زفرت إليها زفرة لو حشوتها

تلين كما لانت لداود في اليد

لرقت حواشيها، وثلت متونها

ومن شعره أيضاً:

وإذا تنازعني أقول لها قري

موت يريحك أو صعود المنبر

ما قد قضي سيكون فاصطبري له

ولك الأمان من الذي لم يقدر

وقد ذكر المسعودي في كتابه المسمى "مروج الذهب"، أن أفعال علي بن محمد صاحب الزنج، تدل على أنه لم يكن طالبياً، وتصديق ما رمي به من دعوته في النسب لأن ظاهر حاله كان ذهابه إلى مذهب الأزارقة، في قتل النساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض، وقد روي أنه خطب مرة، فقال في أول خطبته: لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر لا حكم إلا لله. وكان يرى الذنوب كلها شركاً.

ومن الناس من يطعن في دينه ويرميه بالزندقة والإلحاد وهذا هو الظاهر من أمره، لأنه كان متشاغلاً في بدايته بالتنجيم والسحر والاصطرابات.

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، أن علي بن محمد شخص من سامراء وكان يعلم الصبيان بها، ويمدح الكتاب، ويستميح الناس، في سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين، فادعى بها أنه علي بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ودعا الناس بهجر إلى طاعته، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها، واتبعه جماعة أخرى فكانت بسببه بين الذين اتبعوه والذين أبوه عصبية، قتل فيها بينهم جماعة، فانتقل عنهم لما حدث ذلك إلى الأحساء، وضوى إلى حي من بني تميم، ثم من بني سعد يقال لهم بنو الشماس، فكان بينهم مقامه وقد كان أهل البحرين أحلوه من أنفسهم محل النبي صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر - حتى جئ له الخراج هنالك، ونفذ حكمه فيهم، وقتلوا أسباب السلطان لأجله، ووتر منهم جماعة كثيرة، فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية. ولما أنتقل إلى البادية صحبه جماعة من أهل البحرين، منهم رجل كيال من أهل الأحساء، يقال له يحمى بن محمد الأزرق، مولى بني دارم، ويحى بن أبي ثعلب، وكان تاجراً من أهل هجر، وبعض موالي بني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع، وكان قائد جيشه حيث كان بالبحرين.

ثم تنقل في البادية من حي إلى حي، فذكر عنه أنه كان يقول: أوتيت في تلك الأيام آيات من آيات إمامي، منها أني لقيت سوراً من القرآن لم أكن أحفظها، فجرى بها لسان في ساعة واحدة منها "سبحان" و "الكهف" و "صاد"، ومنها أني ألقيت نفسي على فراشي، وجعلت أفكر في الموضع الذي أقصد له، وأجعل فقامي به إذا نبت البادية بي. وضقت ذرعاً بسوء طاعة أهلها، فأظلمتني سحابة، فبرقت ورعدت، واتصل صوت الرعد منها بسمعي، فخطبت فقبل لي: أقصد البصرة فقلت لأصحابي وهم يكتنفوني: إني أمرت بصوت من هذا الرعد، بالمسير إلى البصرة.

وذكر عنه أنه عند مسيره إلى البادية أوهم أهلها أنه يحى بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة في أيام المستعين، فاختدع بذلك قوماً منهم، حتى اجتمع عليه منهم جماعة، فزحف بهم إلى موضع من البحرين، يقال له الردم، فكانت بينه وبين أهله وقعة عظيمة، كانت الدبرة فيها عليه وعلى أصحابه، قتلوا فيها قتلاً ذريعاً، ففرقت عنه العرب وكرهته، وتجنبت صحبته.

فلما تفرقت العرب عنه ونبت به البادية، شخّص عنها إلى البصرة، فترل بها في بني ضبيعة، فاتبعه بها جماعة، منهم علي بن أبان المعروف بالمهلي، من ولد المهلب بن أبي صفرة، وأخواه محمد والخليل وغيرهم وكان قدومه البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين وعامل السلطان بها يومئذ محمد بن رجاء، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبلالية والسعدية، فطمع في أحد الفريقين أن يميل إليه، فأرسل أربعة من أصد، به يدعون إليه وهم محمد بن سلم القصاب الهجري وبريش القريعي وعلي الخسراب، والحسين الصيدناني، وهم الذين كانوا صحبوه بالبحرين، فلم يستجب لهم أحد من أهل البلد، وثار عليهم الجند، فتفرقوا، وخرج علي بن محمد من البصرة هارباً، وطلبه ابن رجاء فلم يقدر عليه. وأخبر ابن رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه، فأخذهم فحبسهم، وحبس معهم زوجة علي بن محمد، وابنه الأكبر، وجارية له كانت حاملاً ومضى علي بن محمد لوجهه يريد بغداد ومعه قوم من خاصته منهم محمد بن سلم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، وبريش القريعي، فلما صاروا بالطيحة، نذر بهم بعض موالي الباهليين، كان يلي أمر البطيحة، فأخذهم وحملهم إلى محمد بن أبي عون وهو عامل السلطان بواسط، فاحتال لابن أبي عون حتى تخلص هو وأصحابه من يده ثم صار إلى بغداد فأقام بها سنة. وانتسب في هذه السنة إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، وكان يزعم أنه ظهر له أيام مقامه ببغداد في هذه السنة آيات، وعرف ما في ضمائر أصحابه وما يفعله كل واحد منهم، وأنه سأل ربه أن يعلمه حقيقة أمور كانت في نفسه، فرأى كتاباً يكتب له على حائط، ولا يرى شخص كاتبه.

قاد أبو جعفر: واستمال ببغداد جماعة، منهم جعفر بن محمد الصوحاني، من ولد زيد بن صوحان العبدي، ومحمد بن القاسم، وغلامان لبني خاقان، وهما مشرق ورفيق، فسمى مشرقاً حمزة وكناه أبا أحمد، وسمى رفيقاً جعفرأ وكناه أبا الفضل، فلما انقضى عامه ذلك ببغداد، عزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثبت رؤساء الفتنة بها من البلالية والسعدية، ففتحو الخابس، وأطلقوا من كان فيها، فتخلص أهله وولده فيمن تخلص، فلما بلغه ذلك شخّص عن بغداد، فكان رجوعه إلى البصرة في شهر رمضان من سنة خمس وخمسين ومائتين ومعه علي بن أبان المهلي، وقد كان لحق به وهو بمدينة السلام مشرق ورفيق، وأربعة آخر من خواصه وهم يحيى بن محمد، ومحمد بن سلم، وسليمان بن جامع، وأبو يعقوب المعروف بجربان فساروا جميعاً حتى نزلوا بالموضع المعروف ببرنخل من أرض البصرة في قصر هناك يعرف بقصر القرشي على نهر يعرف بعمود ابن المنجم كان بنو موسى بن المنجم احتفروه وأظهر أنه وكيل لولد الوثاق في بيع ما يملكونه هناك من السباخ .

قال أبو جعفر: فذكر عن ريجان بن صالح، أحد غلمان الشورجيين الزوج، وهو أول من صحبه منهم، قال: كنت موكلاً بغلمان مولاي، أنقل الدقيق إليهم، فمررت به وهو مقيم بقصر القرشي يظهر الوكالة لأولاد الوثاق، فأخذني أصحابه وصاروا بي إليه، وأمروني بالتسليم عليه بالإمرة، ففعلت ذلك، فسألني عن الموضع الذي جئت منه، فأخبرته أبي أقبلت من البصرة، فقال: هل سمعت ك بالبصرة خبراً قلت: لا، قال: فخير البلالية والسعدية قلت: لم أسمع لهم خبراً، فسألني عن غلمان الشورجيين وما يجري لكل جماعة منهم من الدقيق والسويق والتمر، وعمن يعمل في الشورج من الأحرار والعبيد، فأعلمته ذلك، فدعاني إلى ما هو عليه، فأجبته فقال لي: احتل فيمن قدرت عليه من الغلمان، فأقبل بهم

إلي. ووعدني أن يقودني على من آتية به منهم، وأن يحسن إلي، واستحلفني ألا أعلم أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه. فخلني سبيلي، فأتييت بالدقيق الذي معي إلى غلمان مولاي، وأخبرتهم خبره، وأخذت له البيعة عليهم، ووعدتهم عنه بالإحسان والغنى، ورجعت إليه من غد ذلك اليوم، وقد وافاه رفيق غلام الخاقانية وقد كان وجهه إلى البصرة، يدعو إليه غلمان الشورج، ووافي إليه صاحب له آخر يعرف بشبل بن سالم، قد كان دعا إليه قوماً منهم أيضاً، وأحضر معه حريرة كان أمره باتباعها، ليتخذها لواء، فكتب فيها بالحمرة: "إن الله أشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله"، وكتب اسمه واسم أبيه عليها، وعلقها في رأس مرددي، وخرج وقت السحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان فلما صار إلى مؤخر القصر الذي كان فيه، لقيه غلمان رجل من الشورجيين، يعرف بالعطار متوجهين إلى أعمالهم، فأمر بأخذ وكيلهم، فأخذ وكتف، واستصم غلماناً إلى غلمان، وكانوا خمسين غلاماً، ثم صار إلى الموضع المعروف بالسناي فاتبعه الغلمان الذين كانوا فيه، وهم خمسمائة غلام فيهم الغلام المعروف بأبي حديد، وأمر بأخذ وكيلهم، وكتفه ثم مضى إلى الموضع المعروف بالسيرافي، فاتبعه من كان فيه من غلمان، وهم مائة وخمسون غلاماً، منهم زريق وأبو الخنجر، ثم صار إلى الموضع المعروف بسبخة ابن عطاء، فأخذ طريقاً، وصباحاً الأعسر، وراشداً المغربي، وراشداً القرمطي وكل هؤلاء من وجوه الزنج وأعيانهم الذين صاروا قواداً وأمراء في جيوشهم، وأخذ معهم ثمانين غلاماً. ثم أتى إلى الموضع المعروف بغلام سهل الطحان، فاستضاف من كان به من الغلمان ثم لم يزل يفعل مثل ذلك في يومه حتى اجتمع إليه بشر كثير من الزنج، ثم قام فيهم آخر الليل خطيباً، فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرئيسهم ويملكهم الأموال والضياع، وحلف لهم بالأيمان الغليظة ألا يغدر بهم، ولا يخذلهم، ولا يدع شيئاً لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم، وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم، وكلفتموهم ما لا يطيقونه، فكلمني أصحابي فيكم، فرأيت إطلاقكم.

فقالوا له: أصلحك الله! إن هؤلاء الغلمان أباق، وإنهم سيهربون منك فلا يبقون عليك ولا علينا، فخذ من مواليتهم ما لا، وأطلقهم.

فأمر الغلمان فاحضروا شطوباً، ثم بطح كل قوم وكيلهم، فضرب كل رجل منهم خمسمائة شطبة، وأحلفهم بطلاق نسائهم ألا يعلموا أحداً بموضعه، ثم أطلقهم، فمضوا نحو البصرة ومضى رجل منهم حتى عبر دجيل الأهواز، فأندر الشورجيين ليحفظوا غلمانهم، وكان هناك خمسة عشر ألف غلام زنجي، ثم سار، وعبر دجيلاً، وسار إلى نهر ميمون بأصحابه، واجتمع إليه السودان من كل جهة.

فلما كان يوم الفطر، جمعهم وخطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله تعالى قد استنقذهم من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك. فلما فرغ من خطبته أمر الذين فهموا عنه قوله أن يفهموه من لا فهم له من عجمهم، لتطيب بذلك أنفسهم، ففعلوا ذلك.

قال أبو جعفر: فلما كان في اليوم الثالث من شوال، وافاه الحميري أحد عمال السلطان بتلك النواحي، في عدد كثير،

فخرج إليه صاحب الزنج في أصحابه، فطرده وهزم أصحابه، حتى صاروا في بطن دجلة، واستأمن إلى صاحب الزنج رجل من رؤساء السودان، يعرف بأبي صالح القصير في ثلاثمائة من الزنج، فلما كثر من اجتمع إليه من الزنج قود قواده، وقال لهم: من أتى منكم برجل من السودان فهو مضموم إليه.

قال أبو جعفر: وانتهى إليه أن قوماً من أعوان السلطان هناك، منهم خليفة بن أبي عون على الأبله، ومنهم الحميري قد أقبلوا نحوه، فأمر أصحابه بالاستعداد لهم، فاجتمعوا للحرب، وليس في عسكره يومئذ إلا ثلاثة أسياف: سيفه، وسيف علي بن أبان، وسيف محمد بن سلم، ولحقه القوم، ونادى الزنج، فبدر مفرج النوي والمكنى بأبي صالح، وريحان بن صالح، وفتح الحجام وقد كان فتح حينئذ يأكل وبين يديه طبق، فلما نهض تناول ذلك الطبق، وتقدم أمام أصحابه، فلقبه رجل من عسكر أصحاب السلطان، فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذي كان في يده، فرمى الرجل سلاحه، وولى هارباً، وانهمز القوم كلهم، وكانوا أربعة آلاف، فذهبوا على وجوههم، وقتل من قتل منهم، ومات بعضهم عطشاً، وأسر كثير منهم، فأتى بهم صاحب الزنج، فأمر بضرب أعناقهم، فضربت، وحملت الرؤوس على بغال كان أخذها من الشورجيين، كانت تنقل الشورج.

قال أبو جعفر: ومر في طريقه بالقرية المعروفة بالمحمدية فخرج منها رجل من موالي الهاشميين، فحمل على بعض السودان فقتله، ودخل القرية، فقال له أصحابه: ائذن لنا في انتهاب القرية وطلب قاتل صاحبنا، فقال: لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند أهلها، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم، ونسائلهم أن يدفعوه إلينا، فإن فعلوا وإلا حل لنا قتالهم، وعجل المسير من القرية، فتركها وسار.

قال أبو جعفر: ثم مر على القرية المعروفة بالكرخ، فأتاه كبارؤها، وأقاموا له الأنزال، وبات ليلته تلك عندهم، فلما أصبح أهدى له رجل من أهل القرية المسماة جى فرساً كميئاً، فلم يجد سراجاً ولا لجاماً، فركبه بجبل وسنقه بجبل ليف. قلت: هذا تصديق قول أمير المؤمنين رضي الله عنه: كأنه به قد سار في الجيش الذي ليس له غبار ولا لجم، ولا حممة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام.

قال أبو جعفر: وأول مال صار إليه مائتا دينار وألف درهم، لما نزل القرية المعروفة بالجعفرية، أحضر بعض رؤسائها، وسأله عن المال فجحد، فأمر بضرب عنقه، فلما خاف أحضر له هذا القدر، وأحضر له ثلاثة برازين: كميئاً وأشقر وأشهب، فدفع أحدها إلى محمد بن سلم، والآخر إلى يحيى بن محمد، والآخر إلى مشرق غلام الخاقانية. ووجدوا في دار لبعض الهاشميين سلاحاً فانتهبوه، فصار ذلك اليوم بأيدي بعض الزنج سيوف وآلات وأتراس.

قال أبو جعفر: ثم كانت بينه وبين من يليه من أعوان السلطان، كالحميري، ورميس وعقيل وكيرهم وقعات، كان الظفر فيها كلها له، وكان يأمر بقتل الأسرى، ويجمع الرؤوس معه، وينقلها من منزل إلى منزل، وينصبها أمامه إذا نزل، وأوقع الهيبة والرهبة في صدور الناس بكثرة القتلى، وقلة العفو، وعلى الخصوص المأسورين، فإنه كان يضرب أعناقهم ولا يستبقي منهم أحداً.

قال أبو جعفر: ثم كان له مع أهل البصرة وقعة بعد ذلك سار يريدوها في ستة آلاف زنجي، فاتبعه أهل الناحية المعروفة

بالجعفرية ليحاربوه، فعسكر عليهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، أكثر من خمسمائة رجل فلما فرغ منهم صمد نحو البصرة، واجتمع أهلها ومن بها من الجند، وحاربوه حرباً شديداً، فكانت الدائرة عليه، وانهمز أصحابه، ووقع كثير منهم في النهرين المعروفين بنهر كثير ونهر شيطان، وجعل يهتف بهم ويردهم ولا يرجعون، وغرق من أعيان جنده وقواده جماعة منهم أبو الجون، ومبارك البحراني، وعطاء البربري، وسلام الشامي، فلحقه قوم من جند البصرة، وهو على قنطرة فهر كثير فرجع إليهم بنفسه، وسيفه لا يده، فرجعوا عنه حتى صاروا إلى الأرض وهو يومئذ في ذراعة وعمامة ونعل وسيف، وفي يده اليسرى ترس، ونزل عن القنطرة، فصعد بها البصريون يطلبونه، فرجع إليهم، فقتل منهم رجلاً بيده على خمس مراق من القنطرة، وجعل يهتف بأصحابه، ويعرفهم مكانه، ولم يكن بقي معه في ذلك الموضع من أصحابه إلا أبو الشوك ومصلح ورفيق ومشرق غلاماً الخاقانية، وضل أصحابه عنه، وانحلت عمامته، فبقي على رأسه كور منها أو كوران، فجعل يسحبها من ورائه، ويعجله المشي من رفعها، وأسرع غلاماً الخاقانية في الانصراف، وقصر عنهما فغابا عنه، فاتبعه رجلان من أهل البصرة بسيفيهما، فرجع إليهما، فانصرفا عنه، وخرج إلى الموضع الذي فيه مجمع أصحابه، وقد كانوا تحيروا، فلما رأوه سكنوا.

قال أبو جعفر: ثم سأل عن رجاله وإذا قد هرب كثير منهم، ونظر فإذا هو من جميع أصحابه في مقدار خمسمائة رجل، فأمر بالنفخ في البوق الذي كانوا يجتمعون لصوته، فنفخ فيه فلم يرجع إليه أحد. قال: وانتهب أهل البصرة سفناً كانت معه، وظفروا بمتاع من متاعه، وكتب من كتبه واصطربلاب كان معه، ثم تلاحق به جماعة ممن كان هرب، فأصبح وإذا معه ألف رجل. فأرسل عمداً بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد إلى أهل البصرة يعظّمهم ويعلمهم أنه لم يخرج إلا غضباً لله وللدين، ونهيا عن المنكر. فعبر محمد بن سلم حتى توسط أهل البصرة، وجعل يكلمهم ويخاطبهم، فأروا منه غرة، فوثبوا عليه فقتلوه، ورجع سليمان ويحيى إلى صاحب الزنج، فأخبراه، فأمرهما بطي ذلك عن أصحابه حتى يكون هو الذي يخبرهم.

فلما صلى بهم العصر، نعى إليهم محمد بن سلم، وقال لهم: إنكم تقتلون به في غد عشرة آلاف من أهل البصرة. قال أبو جعفر: وكانت الوقعة التي كانت الدبرة عليه فيها يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلون من ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين، فلما كان يوم الاثنين جمع له أهل البصرة وحشدوا لما رأوا من ظهورهم عليه يوم الأحد، وانتدب لذلك رجل من أهل البصرة يعرف بحمد الساجي، وكان من غزاة البحر في الشدا، وله علم بركوبها، والحرب فيها، فجمع المطوعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خف معه من حزبي البلالية والسعدية، ومن غير هذه الأصناف من الهاشميين والقرشيين ومن يحب النظر ومشاهدة الحرب من سائر أصناف الناس، وشحن ثلاثة مراكب من الشدا بالرماة، وجعل الناس يزدحمون في الشدا حرصاً على حضور ذلك المشهد، ومضى جمهور الناس رجالة، منهم من معه سلاح ومنهم من لا سلاح معه بل نظارة، فدخلت السفن النهر المعروف بأب حبيب بعد زوال الشمس من ذلك اليوم في المد، ومرت الرجالة والنظارة على شاطئ النهر، قد سدوا ما ينفذ فيه البصر كثرة وتكاثفاً، فوجه صاحب الزنج صاحبه زريقاً وأبا الليث الأصبهاني، فجعلهم كميناً من الجانب الشرقي من نهر شيطان، وكان مقيماً بموضع منه، ووجه صاحبيه شبلاً وحسيناً الحمامي، فجعلهما كميناً في غربيه، ومع كل من الكمينين جماعة، وأمر علي بن أبان المهلي أن يتلقى القوم

فيمن بقي معه من جمعه، وأمره أن يستتر هو وأصحابه بتراسهم، ولا يثور إليهم منه ثائر، حتى يوافيهم القوم ويخاطبهم بأسياهم، فإذا فعلوا ذلك ثاروا إليهم وتقدم إلى الكمينين إذا جاوزهما الجمع، وأحسا بثورة أصحابهم إليهم أن يخرجوا من جني النهر، ويصيحا بالناس.

وكان يقول لأصحابه بعد ذلك: لما أقبل إلي جمع البصرة وعايته، رأيت أمراً هائلاً راعني، وملاً صدري رهبة وجزعاً، ففزعت إلى الدعاء، وليس معي من أصحابي إلا نفر يسير، منهم مصلح، وليس منا أحد إلا وقد خيل إليه مصرعه، فجعل مصلح يعجبي من كثرة ذلك الجمع، وجعل أومئ إليه أن اسكت، فلما قرب القوم مني قلت: اللهم إن هذه ساعة العسرة، فأعني، فرأيت طيوراً بيضاً أقبلت فتلقت ذلك الجمع، فلم أستتم دعائي حتى بصرت بسميرية من سفنهم قد انقلبت بمن فيها، فغرقوا، ثم تلتها الشذا فغرقت واحدة بعد واحدة، وثار أصحاب إلى القوم، وخرج الكمينان من جني النهر، وصاحوا وخبطوا الناس، فغرقت طائفة، وقتلت طائفة، وهربت طائفة نحو الشط طمعاً، فأدركها السيف، فمن ثبت قتل، ومن رجع إلى الماء غرق حتى أبيد أكثر ذلك الجمع، ولم ينج منهم إلا الشريد، وكز المفقودون بالبصرة، وعلا العويل من نسائهم.

قال أبو جعفر: وهذا يوم الشذا الذي ذكره الناس في أشعارهم، وعظموا ما فيه من القتل، فكان ممن قتل من بني هاشم، جماعة من ولد جعفر بن سليمان وانصرف صاحب الزنج وجمع الرؤوس وملاً بها سفناً، وأخرجها من النهر المعروف بأم حبيب في الجزر وأطلقها، فوافت البصرة، فوقفت في مشرعة تعرف بمشرعة القيار، فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس، فيأخذ رأس كل رجل أولياؤه، وقوي صاحب الزنج بعد هذا اليوم، وسكن الرعب قلوب أهل البصرة منه وأمسكوا عن حربه، وكتب إلى السلطان بخبره، فوجه جعلان التركي مدداً لأهل البصرة، في جيش ذوي عدة وأسلحة.

قال أبو جعفر: وقال أصحاب علي بن محمد له: إنا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة، ولم يبق فيها إلا ضعفاؤهم، ومن لا حراك به، فأذن لنا في تقحمها، فنهاهم وهجن آراءهم وقال: بل نبعد عنها، فقد رعبناهم وأخفناهم، ولتقحمها وقتاً آخر، وانصرف بأصحابه إلى سبخة في آخر أثمار البصرة، تعرف بسبخة أبي قرة، قرية من النهر المعروف بالحاجر فأقام هناك، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ، وهذه السبخة متوسطة النخل والقرى والعمارات، وبث أصحابه يميناً وشمالاً، يعيشون ويغيرون على القرى، ويقتلون الأكره، وينهبون أموالهم، ويسرقون مواشيهم.

وجاءه شخص من أهل الكتاب من اليهود، يعرف بمارويه، فقبل يده وسجد له، وسأله عن مسائل كثيرة، فأجابه عنها، فزعم اليهودي أنه يجد صفته في التوراة، وأنه يرى القتال معه، وسأله عن علامات في يده وجسده ذكر أنها مذكورة في الكتب فأقام معه.

قال أبو جعفر: ولما صار جعلان التركي إلى البصرة بعسكره، أقام ستة أشهر يحارب صاحب الزنج، فإذا التقوا لم يكن بينهم إلا الرمي بالحجارة والنشاب، ولم يجد جعلان إلى لقاءه سبيلاً، لضيق الموضع بما فيه من النخل والدغل عن بخال الخيل، ولأن صاحب الزنج قد كان خندق على نفسه وأصحابه.

ثم إن صاحب الزنج بيت جعلان، فقتل جماعة من أصحابه، وروع الباقون روعاً شديداً، فانصرف جعلان إلى البصرة

ووجه إليه مقاتلة السعدية والبلالية في جمع كثيف، فواقعهم صاحب الزنج، فقهرهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وانصرفوا مفلولين، ورجع جعلان بأصحابه إلى البصرة، فأقام بها معتصماً بجدرانها، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج، وأمر سعيد الحاجب بالشخص إلى البصرة لحربهم.

قال أبو جعفر: واتفق لصاحب الزنج من السعادة أن أربعاً وعشرين مركباً من مراكب البحر كانت اجتمعت تريد البصرة، وانتهى إلى أصحابها خبر الزنج وقطعهم السبل، وفيها أموال عظيمة للتجار، فاجتمعت آراؤهم على أن شدوا المراكب بعضها إلى بعض حتى صارت كالجزيرة، يتصل أولها بآخرها، وسارت في دجلة، فكان صاحب الزنج يقول: نهضت ليلة إلى الصلاة وأخذت في الدعاء والتضرع، فخطبت بأن قيل لي: قد أظلك فتح عظيم، فالتفت فلم ألبث أن طلعت المراكب، فنهض أصحابي إليها في شذاتها فلم يلبثوا أن حووها وقتلوا مقاتلتها، وسبوا ما فيها من الرقيق، وغنموا منها أموالاً لا تحصى ولا يعرف قدرها فأهبت ذلك أصحابي ثلاثة أيام وأمرت بما بقي منها فحيز لي.

قال أبو جعفر: ثم دخل الزنج الأبله في شهر رجب من سنة ست وخمسين ومائتين، وذلك أن جعلان لما تنحى إلى البصرة، ألح صاحب الزنج بالسرايا على أهل الأبله، فجعل يحاربهم من ناحية شط عثمان بالرجالة، وبما خف له من السفن من ناحية دجلة، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر معقل.

فذكر عن صاحب الزنج أنه قال: मिलت بين عبادان والأبله، فملت إلى التوجه إلى عبادان فنذبت الرجال إلى ذلك، فخطبت وقيل لي: إن أقرب عدو داراً، وأولاه ألا يتشاغل عنه بغيره أهل الأبله، فرددت بالجيش الذي كنت سيرته نحو عبادان إلى الأبله، ولم يزلوا يحاربون أهلها إلى أن اقتحموها وأضرموها ناراً، وكانت مبنية بالساج بناء متكاثراً، فأسرعت فيها النار، ونشأت ريح عاصف، فأطارت شرر ذلك الحريق إلى أن انتهى إلى شط عثمان، وقتل بالأبله خلق كثير، وحويت الأسلاب والأموال، على أن الذي أحرق منها كان أكثر مما انتهب، واستسلم أهل عبادان بعدها لصاحب الزنج، فإن قلوبهم ضعفت، وخافوه على أنفسهم وحرمتهم، فأعطوا بأيديهم، وسلموا إليه بلدهم، فدخلها أصحابه، فأخذوا من كان فيها من العبيد، وحملوا ما كان فيها من السلاح، وفرقه على أصحابه، وصانعه أهلها بمال كف به عنهم. قال أبو جعفر: ثم دخل الزنج بعد عبادان إلى الأهواز ولم يثبت لهم أهلها، فأحرقوا ما فيها، وقتلوا ونهبوا، وأخربوا، فكان بالأهواز إبراهيم بن محمد المدير الكاتب، وإليه خراجها وضياعتها، فأسروه بعد أن ضربوه ضربة على وجهه، وحووا كل ما كان يملكه من مال وأثاث ورقيق وكراع، واشتد خوف أهل البصرة، وانتقل كثير من أهلها عنها، وتفرقوا في بلاد شتى، وكثرت الأراجيف من عوامها.

قال أبو جعفر: فلما دخلت سنة سبع وخمسين أنفذ السلطان بغراج التركي على حرب البصرة وسعيد بن صالح الحاجب للقاء صاحب الزنج، وأمر بغراج بإمداده بالرجال، فلما صار سعيد إلى نهر معقل، وجد هناك جيشاً لصاحب الزنج في النهر المعروف بئر غاب، فأوقع بهم سعيد فهزمهم، واستنقذ ما في أيديهم من النساء والنهب، وأصاب سعيدياً في تلك الوقعة جراحات منها جراحة قبيحة.

ثم بلغه أن جيشاً لصاحب الزنج في الموضع المعروف بالفرات، فتوجه إليه فهزمه، واستأمن إليه بعض قواد صاحب الزنج

حتى لقد كانت المرأة من سكان ذلك الموضع تجرد الزنجي مستتراً بتلك الأدغال فتقبض عليه حتى تأتي به عسكر سعيد، ما به عنها امتناع.

ثم قصد سعيد حرب صاحب الزنج، فعبر إليه إلى غربي دجلة، فأوقع به وقعات متتالية، كلها يكون الظفر فيها لسعيد، إلى أن تهيأ لصاحب الزنج عليه أن وجه إلى يحيى بن محمد البحراني صاحبه وهو إذ ذاك مقيم بنهر معقل، في جيش من الزنج، فأمره بتوجيه ألف رجل من أصحابه، عليهم سليمان بن جامع وأبو الليث القائدان، ويأمرهما بقصد عسكر سعيد ليلاً حتى يوقعا به وقت طلوع الفجر، من ليلة عينها لهم، ففعلاً ذلك، وصارا إلى عسكر سعيد في ذلك الوقت، فصادفا منه غرة وغفلة، فأوقعا به وبأصحابه، وقت طلوع الفجر فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأصبح سعيد وقد ضعف أمره، واتصل بالسلطان خبره، فأمره بالانصراف إلى باب السلطان، وتسليم الجيش الذي معه إلى منصور بن جعفر الخياط، وكان إليه يومئذ حرب الأهواز وكتب بحرب صاحب الزنج، وأن يصمد له، فكانت بينهم وقعة كان الظفر فيها للزنج، فقتل من أصحاب منصور خلق كثير عظيم، وحمل من الرؤوس خمسمائة رأس إلى عسكر يحيى بن محمد البحراني القائد، فنصبت على نهر معقل. قال أبو جعفر: ثم كانت بين الزنج وبين أصحاب السلطان بالأهواز وقعات كثيرة، تولاهما علي بن أبان المهلي، فقتل شاهين بن بسطام، وكان من أكابر أصحاب السلطان، وهزم إبراهيم بن سيماء، وكان أيضاً من الأمراء المشهورين، واستولى الزنج على عسكره.

قال أبو جعفر: ثم كانت الواقعة العظمى بالبصرة في هذه السنة، وذلك أن صاحب الزنج قطع الميرة عنهم، فأضر ذلك بهم، وألح بجيوشه وزوجه عليهم بالحرب صباحاً ومساءً، فلما كان في شوال من هذه السنة، أزمع على جمع أصحابه للهجوم على البصرة، والجد في خراجها وذلك لعلمه بضعف أهلها وتفريقهم، وإضرار الحصار بهم، وخراب ما حولها من القرى. وكان قد نظر في حساب النجوم، ووقف على انكساف القمر، الليلة الرابعة عشرة من هذا الشهر، فذكر محمد بن الحسن بن سهل أنه قال: سمعته يقول: اجتهدت في الدعاء على أهل البصرة، وابتهلت إلى الله تعالى في تعجيل خرابها، فخطبت وقيل لي: إنما البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة. فأولت انكسار نصف الرغيف بانكساف نصف القمر المتوقع في هذه الليالي، وما أخلق أمر أهل البصرة أن يكون بعده!

قال: فكان يحدث بهذا حتى أفاض فيه أصحابه، وكثر تردده في أسماعهم وإجالتهم إياه بينهم.

ثم ندب محمد بن يزيد الدارمي - وهو أحد من كان صحبه بالبحرين للخروج إلى الأعراب واستنفار من قدر عليه منهم - فأتاه منهم بخلق كثير، ووجه إلى البصرة سليمان بن موسى الشعراني، فأمره بتطرق البصرة، والإيقاع بأهلها، وتقدم إلى سليمان بن موسى بتمرير الأعراب على ذلك. فلما وقع الكسوف، أنفض إليها علي بن أبان، وضم إليه جيشاً من الزنج وطائفة من الأعراب، وأمره بإتيان البصرة مما يلي بني سعد، وكتب إلى يحيى بن محمد البحراني في إتيانها مما يلي نهر عدي، وضم باقي الأعراب إليه فكان أول من واقع أهل البصرة علي بن أبان وبغراج التريز يومئذ بالبصرة في جماعة من الجند، فأقام يقاتلهم يومين، وأقبل يحيى بن محمد مما يلي قصر أنس، قاصداً نحو الجسر، فدخل علي بن أبان البلد وقت صلاة الجمعة، لثلاث عشرة بقين من شوال. فأقبل يقتل الناس، ويحرق المنازل والأسواق بالنار، فتلقاه بغراج وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان الهاشمي، المعروف ببريه وكان وجهاً مقدماً مطاعاً - في جمع عظيم، فرداه، فرجع فأقام

ليلته تلك. ثم غاداهم وقد تفرق جند البصرة فلم يكن في وجهه أحد يدافعه، وانحاز بغراج بمن معه، وهرب إبراهيم بن محمد الهاشمي المعروف ببريه، فوضع علي بن أبان السيف في الناس، وجاء إليه إبراهيم بن محمد المهلي - وهو ابن عمه - فاستأمنه لأهل البصرة، فحضر أهل البصرة قاطبة، فأمنهم، ونادى مناديه من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم بن محمد المهلي. فحضر أهل البصرة قاطبة، حتى ملأوا الأزقة. فلما رأى اجتماعهم انتهاز الفرصة، فأمر بأخذ السكك والطرق عليهم، وغدر بهم، وأمر الزنوج بوضع السيف فيهم، فقتل كل من شهد ذلك المشهد.

ثم انصرف آخر نهار يومه ذلك فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخرية.

وروى أبو جعفر، قال: حدثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: حدثني محمد بن سمعان، قال: كنت يومئذ بالبصرة، فمضيت مبادراً إلى متزلي لأتحصن به، وهو في سكة المربد، فلقيت أهل البصرة هاربين، يدعون بالويل والثبور، وفي آخرهم القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشمي على بغل، متقلداً سيفاً، يصيح بالناس: ويحكم! تسلمون بلدكم وحرمكم! هذا عدوكم قد دخل البلد. فلم يلووا عليه، ولم يسمعوا منه، فمضى هارباً، ودخلت أنا متزلي، وأغلقت بابي، وأشرفت فمر بي الأعراب ورجالة الزنج، يقدمهم رجل على حصان كمي، بيده رمح، وعليه عذبة صفراء، فسألت بعد ذلك عنه فقيل لي: إنه علي بن أبان.

قال: ونادى منادي علي بن أبان: من كان من آل المهلب فليدخل دار إبراهيم بن يحيى المهلي، فدخلت جماعة قليلة، وأغلق الباب دونهم، ثم قيل للزنج: دونكم الناس فاقتلوهم، ولا تبقوا منهم أحداً، وخرج إليهم أبو الليث الأصفهاني، أحد قواد الزنج، فقال للزنج: كيلوا وهي العلامة التي كانوا يعرفونها فيمن يؤمرون بقتله، فأخذ الناس السيف، قال: فوالله إني لأسمع تشهدهم وضجيجهم وهم يقتلون، وقد ارتفعت أصواتهم بالتشهد، حتى لسمعت بالطفافاة، وهو على بعد من الموضع الذي كانوا فيه.

قال: ثم انتشر الزنج في سكك البصرة وشوارعها، يقتلون من وجدوا. ودخل علي بن أبان يومئذ المسجد فأحرقه، وبلغ إلى الكلاء فأحرقه إلى الجسر، وأخذت النار كل ما مرت به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع، ثم ألحوا بالغدو والرواح على من وجدوه، ويسوقونهم إلى يحيى بن محمد البحراني، وهو نازل ببعض سكك البصرة، فمن كان ذا مال قرره حتى يستخرج ماله ثم يقتله، ومن كان محتلاً قتله معجلاً.

قال أبو جعفر: وقد كان علي بن أبان كف بعض الكف عن العيث بناحية بني سعد، وراقب قوما من المهلبين وأتباعهم، فانتهى ذلك إلى علي بن محمد صاحب الزنج، فصرفه عن البصرة، وأقر يحيى بن محمد البحراني بها لموافقته على رأيه في الإثخان في القتل، ووقوع ذلك بمحبته، وكتب إلى يحيى بن محمد يأمره بإظهار الكف ليسكن الناس، ويظهر المستخفي، ومن قد عرف باليسار والثروة، فإذا ظهر فليؤخذوا بالدلالة على ما دفعوه وأخفوه من أموالهم، ففعل يحيى بن محمد ذلك، وكان لا يخلو في اليوم من الأيام من جماعة يؤتى بهم، فمن عرف منهم باليسار استترف ما عنده ثم قتله، ومن ظهرت له خلته عاجله بالقتل حتى لم يدع أحداً ظهر له إلا قتله.

قال أبو جعفر: وحدثني محمد بن الحسن، قال: لما انتهى إلى علي بن محمد عظيم ما فعل أصحابه بالبصرة سمعته يقول:

دعوت على أهل البصرة في غداة اليوم الذي دخل فيه أصحابي إليها، واجتهدت في الدعاء، وسجدت وجعلت أدعو في سجودي، فرفعت إلي البصرة، فرأيته ورأيت أصحابي يقاتلون فيها، ورأيت بين السماء والأرض رجلاً واقفاً في صورة جعفر المغلوف كان المتولي للاستخراج في ديوان الخراج بسامراء، وهو قائم قد خفض يده اليسرى، ورفع يده اليمنى، يريد قلب البصرة، فعلمت أن الملائكة تولت إخراجها دون أصحابي، ولو كان أصحابي تولوا ذلك ما بلغوا هذا الأمر العظيم الذي يحكى عنها ولكن الله تعالى نصرني بالملائكة، وأيدي في حروبي، وثبت بهم من ضعف قتله من أصحابي. قال أبو جعفر وانتسب صاحب الزنج في هذه الأيام إلى محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين، بعد انتسابه الذي كان إلى أحمد بن عيسى بن زيد وذلك لأنه بعد إخراج البصرة، جاء إليه جماعة من العلوية الذين كانوا بالبصرة، وأتاه فيمن أتاه منهم قوم من ولد أحمد بن عيسى بن زيد، في جماعة من نسائهم وحرهم، فلما خافهم ترك الانتساب إلى أحمد بن عيسى، وانتسب إلى محمد بن محمد بن زيد.

قال أبو جعفر: فحدثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: كنت حاضراً عنده وقد حضر عنده وقد حضر جماعة من النوفليين، فقال له القاسم بن إسحاق النوفلي: إنه انتهى إلينا أن الأمير من ولد أحمد بن عيسى بن زيد، فقال: لست من ولد عيسى، أنا من ولد يحيى بن زيد.

قال محمد بن الحسن: فانتقل من أحمد بن عيسى بن زيد إلى محمد بن محمد بن زيد، ثم انتقل من محمد إلى يحيى بن زيد، وهو كاذب لأن الإجماع واقع على أن يحيى بن زيد مات ولم يعقب ولم يولد له إلا بنت واحدة ماتت وهي ترضع، فهذا ما ذكره أبو جعفر الطبري في "التاريخ الكبير".

وذكر علي بن الحسن المسعودي في "مروج الذهب" أن هذه الواقعة بالبصرة، هلك فيها من أهلها ثلاثمائة ألف إنسان، وأن علي بن أبان المهلي بعد فراغه من الواقعة، نصب منبراً في الموضع المعروف ببني يشكر، صلى فيه يوم الجمعة، وخطب لعلي بن محمد صاحب الزنج، وترحم بعد ذلك على أبي بكر وعمر، ولم يذكر عثمان ولا علياً رضي الله عنه في خطبته، ولعن أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، قال: وهذا يؤكد ما ذكرناه وحكيناه من رأيه، وأنه كان يذهب إلى قول الأزارقة.

قال: واستخفى من سلم من أهل البصرة في آبار الدور، فكانوا يظهرون ليلاً، فيطلبون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، والفار والسنانير، فأفندوها حتى لم يقدرُوا على شيء منها، فصاروا إذا مات الواحد منهم أكلوه، فكان يراعي بعضهم موت بعض، ومن قدر على صاحبه قتله وأكله، وعدموا مع ذلك الماء، وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة قد احتضرت، وعندها أختها وقد احتوشوها ينتظرون أن تموت فيأكلوا لحمها، قالت المرأة: فما ماتت حسناء حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها فأكلناه، ولقد حضرت أختها ونحن على شريعة عيسى بن حرب وهي تبكي ومعها رأس الميت، فقال لها قائل: ويحك! مالك تبكين! فقالت: اجتمع هؤلاء على أختي فما تركوها تموت حسناء حتى قطعوها، وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئاً إلا الرأس وإذا هي تبكي شاكية من ظلمهم لها في أختها.

قال: وكان مثل هذا وأكثر منه وأضعافه، وبلغ من أمر عسكره أنه ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من أشرف قريش، فكانت الجارية تباع منهم بدرهمين وبثلاثة دراهم، وينادى عليها بنسبها هذه ابنة فلان ابن

فلان، وأخذ كل زنجي منهم العشرين والثلاثين يطوّهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف، ولقد استغاثت إلى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن علي رضي الله عنه، وكانت عند بعض الزنج وسألته أن يعتقها مما هي فيه، أو ينقلها من عنده إلى غيره، فقال لها: هو مولاك، وهو أولى بك.

قال أبو جعفر: وأشخص السلطان لحرب صاحب الزنج محمداً المعروف بالمولد، في جيش كثيف، فجاء حتى نزل الأبلّة، وكتب صاحب الزنج إلى يحيى بن محمد البحراني يأمره بالمصير إليه، فصار إليه بز نوجه، وأقام على محاربتة عشرة أيام، ثم فتر المولد عن الحرب، وكتب علي بن محمد إلى يحيى، يأمره أن يبيت، فبيته فهزمه، ودخل الزنج عسكره فغنموا مافيه، وكتب يحيى إلى صاحب الزنج يخبره، فأمره باتباعه، فاتبعه إلى الحوانيت، ثم انصرف عنه، فمر بالجامدة، وأوقع بأهلها، وانتهب كل ما كان في تلك القرى، وسفك ما قدر على سفكه من الدماء، ثم عاد إلى نهر معقل.

قال أبو جعفر: واتصلت الأخبار بسامراء وبغداد وبالقواد والموالي وأهل الحضرة، بما جرى على أهل البصرة، فقامت عليهم القيامة، وعلم المعتمد أنه لا يرتق هذا الفتق إلا بأخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل - وكان منصوراً مؤيداً عارفاً بالحرب وقيادة الجيوش، وهو الذي أخذ بغداد للمعتز، وكسر جيوش المستعين، وخلعه من الخلافة، ولم يكن لبني العباس في هذا الباب مثله ومثل ابنه أبي العباس - فعقد له المعتمد على ديار مضر وقنسرين والعواصم، وجلس له مستهل شهر ربيع الآخر من سنة سبع وخمسين، فخلع عليه وعلى مفلح، وشخصا نحو البصرة لحرب علي بن محمد وأصلح ما أفسده من الأعمال، وركب المعتمد ركوباً ظاهراً يشيع أحاه أبا أحمد إلى القرية المعروفة ببركوارا، وعاد.

قال أبو جعفر: وأما صاحب الزنج فإنه بعد هزيمة محمد المولد أنفذ علي بن أبان المهلي إلى حرب منصور بن جعفر والي الأهواز، فكانت بينهما حروب كثيرة في أيام متفرقة حتى كان آخرها اليوم الذي انهزم فيه أصحاب منصور، وتفرقوا عنه، وأدركت منصوراً طائفة من الزنج، فلم يزل يكر عليهم حتى انقصف رحمة، ونفدت سهامه، ولم يبق معه سلاح، وانتهى إلى نهر يعرف بنهر ابن مروان، فصاح بحصان كان تحته ليعبر، فوثب فقصر فانغمس في الماء.

وقيل: إن الحصان لم يقصر في الوثبة، ولكن رجلاً من الزنج سبقه إلى النهر، فألقى نفسه فيه، لعلمه أنه لا محيص لمنصور عن النهر، فلما وثب الفرس تلقاه الأسود، فنكص فغاص الفرس ومنصور، ثم أطلع منصور رأسه، فتزل إليه غلام من السودان من عرفاء مصلح، يقال له ابرون، فاحتز رأسه، وأخذ سلبه، فولى يارجوخ التركي صاحب حرب خوزستان، ما كان مع منصور من العمل أصغجون التركي.

وقال أبو جعفر: وأما أبو أحمد، فإنه شخص عن سامراء في جيش لم يسمع السامعون بمثله، كثرة وعدة، قال: وقد عاينت أنا ذلك الجيش، وأنا يومئذ ببغداد بباب الطاق، فسمعت جماعة من مشايخ أهل بغداد يقولون: قد رأينا جيوشاً كثيرة للخلفاء، فما رأينا مثل هذا الجيش أحسن عدة وأكمل عتاداً وسلاحاً، وأكثر عدداً وجمعاً، واتبع ذلك الجيش من متسوقة أهل بغداد خلق كثير.

قال أبو جعفر: فحدثني محمد بن الحسن بن سهل، أن يحيى بن محمد البحراني كان مقيماً بنهر معقل قبل موافاة أبي أحمد، فاستأذن صاحب الزنج في المصير إلى نهر العباس، فكره ذلك، وخاف أن يوافيه جيش من قبل السلطان، وأصحابه

متفرقون، فألح عليه يحيى حتى أذن له، فخرج واتبعه أكثر أهل عسكر صاحب الزنج، وكان علي بن أبان مقيماً بجيى في جمع كثير من الزنج، والبصرة قد صارت مغنماً لأهل عسكر صاحب الزنج، يغادونها ويرأوحونها لنقل ما نالته أيديهم منها إلى منازلهم، فليس بمعسكر علي بن محمد يومئذ من أصحابه إلا القليل، فهو على ذلك من حاله، حتى وافى أبو أحمد في الجيش ومعه مفلح، فورد جيش عظيم لم يرد على الزنج مثله، فلما وصل إلى نهر معقل، انصرف من كان هناك من الزنج، فالتحقوا بصاحبهم مرعوبين، فراعه ذلك، ودعا برئيسين منهما، فسألهما عن السبب الذي له تركا موضعهما، فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد، وكثرة عدد أهله وإحكام عدتهم، وأن الذي عايناه من ذلك لم يكن في قوتها الوقوف له في العدة التي كانا فيها، فسألهما: هل علما من يقود هذا الجيش؟ فقالا: قد اجتهدنا في علم ذلك، فلم نجد من يصدقنا عنه.

فوجه صاحب الزنج طلائعه في سميريات ليعرف الخبر، فرجعت طلائعه إليه بتعظيم أمر الجيش وتفخيمه، ولم يقف أحد منهم على من يقوده، فزاد ذلك في جزعه وارتياحه، فأمر بالإرسال إلى علي بن أبان يعلمه خبر الجيش الوارد، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه، ووافى جيش أبي أحمد، فأناخ بإزاء صاحب الزنج فلما كان اليوم الذي كانت فيه الواقعة، خرج علي بن محمد يطوف في عسكره ماشياً، ويتأمل الحال فيمن هو من حربه ومن هو مقيم بإزائه على حربه، وقد كانت السماء مطرت ذلك اليوم مطراً خفيفاً، والأرض ثرية تزل عنها الأقدام، فطوف ساعة من أول النهار ورجع، فدعا بدواة وقرطاس ليكتب كتاباً إلى علي بن أبان، ليعلمه ما قد أظله من الجيش، ويأمره بتقديم من قدر على تقديمه من الرجال؟ فإنه لفي ذلك، إذ أتاه أبو دلف القائد أحد قواد الزنج، فقال له: إن القوم قد غشوك ورهقوك، وانهزم الزنج من بين أيديهم، وليس في وجوههم من يردهم، فانظر لنفسك، فإنهم قد انتهوا إليك. فصاح به وانتهره وقال: اغرب عني فإنك كاذب فيما حكيت، إنما ذلك جزع داخل قلبك لكثرة من رأيت من الجمع، فانخلع قلبك، فلست تدري ما تقول.

فخرج أبو دلف من بين يديه، وأقبل يكتب، وقال لجعفر بن إبراهيم السجان: ناد في الزنج، وحركهم للخروج إلى موضع الحرب، فقال له، إنهم قد خرجوا، وقد ظفروا بسميريتين من سفن أصحاب السلطان، فأمره بالرجوع لتحريك الرجالة، وكان من القضاء والقدر أن أصيب مفلح وهو القائد الجليل، المرشح لقيادة الجيش بعد أبي أحمد بسهم غرب لا يدرى من رماه، فمات لوقته، ووقعت الهزيمة على أصحاب أبي أحمد، وقوي الزنج على حربهم، فقتلوا منهم جمعاً كثيراً.

ووافى علي بن محمد زنجه بالرؤوس قابضين عليها بأسنانهم حتى ألقيوها بين يديه، فكثرت الرؤوس يومئذ حتى ملأت الفضاء، وجعل الزنج يقتسمون لحوم القتلى، ويتهادونها بينهم، وأتى بأسير من الجيش فسأله عن رأس العسكر، فذكر أبا أحمد ومفلحاً، فارتاع لذكر أبي أحمد، وكان إذا راعه أمر كذب به، وقال: ليس في الجيش إلا مفلح، لأني لست أسمع الذكر إلا له، ولو كان في الجيش من ذكر هذا الأسير لكان صوته أبعد، ولما كان مفلح إلا تابعاً له، ومضافاً إليه.

قال أبو جعفر: وقد كان قبل أن يصيب السهم مفلحاً، انهزم الزنج لما خرج عليهم جيش أبي أحمد، وجزعوا جزعاً شديداً، ولجأوا إلى النهر المعروف بنهر أبي الخصيب، ولا جسر يومئذ عليه، فغرق منهم خلق كثير، ولم يلبث صاحب الزنج إلا يسيراً حتى وافاه علي بن أبان في أصحابه، فوافاه وقد استغنى عنه بهزيمة الجيش السلطاني، وتحيز أبو أحمد بالجيش

إلى الأبله، ليجمع ما فرقت الهزيمة منه، ويجدد الاستعداد للحرب، ثم صار إلى نهر أبي الأسد فأقام به. قال أبو جعفر: فحدثني محمد بن الحسن، قال: فكان صاحب الزنج لا يدري كيف قتل مفلح، فلما لم ير أحداً ينتحل رمية ادعى أنه كان الرامي له، قال: فسمعتة يقول: سقط بين يدي سهم من السماء، فأتاني به راح خادمي، فدفعه إلي، فرميت به فأصاب مفلحاً فقتله، قال محمد: وكذب في ذلك، لأنني كنت حاضراً معه ذلك المشهد، ما زال عن فرسه حتى أتاه خبر الهزيمة.

قال أبو جعفر: ثم إن الله تعالى أصاب صاحب الزنج بمصيبة تعادل فرحه وسروره بقتل مفلح عقيب قتل مفلح، وذلك أن قائده الجليل يحيى بن محمد البحراني أسر وقتل، وصورة ذلك أن صاحب الزنج كان قد كتب إلى يحيى بن محمد، يعلمه ورود هذا الجيش عليه، ويأمره بالقدوم والتحرز في منصرفه من أن يلقاه أحد منهم وقد كان يحيى غنم سفناً فيها متاع وأموال، لتجار الأهواز جلييلة، وحامى عنها أصحاب أصغجون التركي فلم يغن، وهزمهم يحيى، ومضى الزنج بالسفن المذكورة يمدونها متوجهين نحو معسكر صاحب الزنج على سمت البطيحة المعروفة ببطيحة الصحناء، وهي طريقة متعسفة وعرة، فيها مشاق متعبة، وإنما سلكها يحيى وأصحابه، وتركوا الطريق الواضح، للتحاسد الذي كان بين يحيى بن محمد وعلي بن أبان، فإن أصحاب يحيى أشاروا عليه ألا يسلك الطريق التي يمر فيها على أصحاب علي بن أبان، فأصغى إلى مشورتهم فشرعوا له الطريق المؤدي إلى البطيحة المذكورة فسلكها، وهذه البطيحة ينتهي السائر فيها إلى نهر أبي الأسد، وقد كان أبو أحمد انحاز إليه، لأن أهل القرى والسواد كاتبوه يعرفونه خبر يحيى بن محمد البحراني، وشدة بأسه، وكثرة جمعه، وأنه ربما خرج من البطيحة إلى نهر أبي الأسد، فعسكر به، ومنع أبا أحمد الميرة، وحال بينه وبين من يأتيه من الأعراب وغيرهم، فسبقه أبو أحمد إلى نهر أبي الأسد، وسار يحيى حتى إذا قرب من نهر أبي الأسد، وافته طلائعه، فأخبرته بالجيش، وعظمت أمره، وخوفته منه، فرجع من الطريق الذي كان سلكه بمشقة شديدة نالته، ونالت أصحابه، وأصابهم مرض لترددهم في تلك البطيحة، وجعل يحيى على مقدمته سليمان بن جامع، وسار حتى وقف على قنطرة فورج نهر العباس، في موضع ضيق تشتد فيه جرية الماء، وهو مشرف ينظر أصحابه الزنج: كيف يجرون تلك السفن التي فيها الغنائم، فمنها ما يغرق وما يسلم.

قال أبو جعفر: فحدثني محمد بن سمعان قال: كنت في تلك الحال واقفاً مع يحيى على القنطرة، وقد أقبل علي متعجباً من شدة جرية الماء، وشدة ما يلقى أصحابه من تلقيه بالسفن، فقال: أرايت لو هجم علينا عدو في هذه الحال من كان يكون أسوأ حالاً منا! فوالله ما انقضى كلامه حتى وإنما كاشهم التركي في جيش، قد أنفذه معه أبواً حمد عند رجوعه من الأبله إلى نهر أبي الأسد، يتلقى به يحيى، فوقعت الصيحة، واضطربت الزنج، فنهضت متشوقاً للنظر، فإذا الأعلام الحمر قد أقبلت في الجانب الغربي من نهر العباس ويحيى به، فلما رآها الزنج ألقوا أنفسهم جملة في الماء، فعبروا إلى الجانب الشرقي وخلا الموضع الذي فيه يحيى، فلم يبق معه إلا بضعة عشر رجلاً منهم، فنهض عند ذلك فأخذ درقته وسيفه، واحتزم بمنديل، ثم تلقى القوم في النفر الذين تخلفوا معه، فرشقهم أصحاب كاشهم التركي بالسهم، حتى كثر فيهم الجراح، وجرح يحيى بأسهم ثلاثة في عضده اليمنى وساقه اليسرى، فلما رآه أصحابه جريحاً، تفرقوا عنه ولم يعرف فيقصد له،

فرجع حتى دخل بعض تلك السفن، وعبر به إلى الجانب الشرقي من النهر، وذلك وقت الضحى، وأثقلته الجراحات التي أصابته، فلما رأت الزنج شدة ما نزل به، اشتد جزعهم، وضعفت قلوبهم، فتركوا القتال، وكانت همتهم النجاة بأنفسهم، وحاز أصحاب السلطان تلك الغنائم التي كانت في السفن في الجانب الغربي من النهر، وانفض الزنج بالجانب الشرقي عن يحيى، فجعلوا يتسللون بقية نهارهم بعد قتل ذريع فيهم، وأسر كثير، فلما أمسوا وأسدف الليل، طاروا على وجوههم. فلما رأى يحيى تفرق أصحابه ركب سميرية كانت هناك، وأقعد معه فيها متطبباً، يقال له عباد، وطمع في الخلاص إلى معسكر صاحب الزنج، فسار حتى قرب من فوهة النهر، فأبصر سميريات وشذايات لأصحاب السلطان في فوهة النهر، فخاف أن تعترض سميريته، وجزع من المرور بها، فعبر به الملاح إلى الجانب الغربي من النهر، فألقاه وطيبه على الأرض في زرع هناك، فخرج يمشي وهو مثقل حتى ألقى نفسه في بعض تلك المواضع، فأقام هناك ليلته تلك. فلما أصبح نزفه الدم، ونهض عباد الطبيب، فجعل يمشي متشوّفاً أن يرى إنساناً، فرأى بعض أصحاب السلطان، فأشار لهم إلى موضع يحيى، فجاؤوا، حتى وقفوا عليه، فأخذوه، وانتهى خبره إلى الخبيث صاحب الزنج فجزع عليه جزعاً شديداً، وعظم عليه توجعه.

ثم حمل يحيى إلى أبي أحمد، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد، فأدخل إلى سامراء راكب جمل، والناس مجتمعون ينظرونه، ثم أمر المعتمد ببناء دكة عالية بحضرة مجرى الحلية، فبنيت، ورفع للناس عليها حتى أبصره الخلائق كافة، ثم ضرب بين يدي المعتمد وقد جلس له مائتي سوط بشمارها ثم قطعت يداه ورجلاه من خلاف، ثم خبط بالسيوف ثم ذبح وأحرق. قال أبو جعفر: فحدثني محمد بن الحسن، قال: لما قتل يحيى البحراني، فانتهى خبره إلى صاحب الزنج، قال لأصحابه. لما عظم علي قتله، واشتد اهتمامي به، خوطبت فقيلاً لي: قتله خير لك! إنه كان شرها. ثم أقبل على جماعة أنا فيهم، فقال: من شره أنا غنمنا غنيمة من بعض ما كنا نغنمه وكان فيها عقدان، فوقعا في يد يحيى، فأخفى عني أعظمهما خطراً، وعرض علي أحسهما، ثم استوهبه فوهبته له، فرفع إلي العقد الذي أخفاه حتى رأيته، فدعوته فقلت: أحضر لي العقد الذي أخفيته، فأتاني بالعقد الذي وهبته له، ووجد أن يكون أخذ غيره، فرفع إلي العقد ثانية، فجعلت أصفه له وأنا أراه وهو لا يراه، فبهت وذهب، فأتاني، ثم استوهبني فوهبته له، وأمرته بالاستغفار.

قال أبو جعفر: وذكر محمد بن الحسن، أن محمد بن سمعان حدثه أن صاحب الزنج، قال في بعض أيامه: لقد عرضت علي النبوة فأبيتها. فقيلاً له: ولم ذاك؟ قال: إن لها أعباء خفت ألا أطيق حملها.

قال أبو جعفر. فأما الأمير أبو أحمد، فإنه لما صار إلى نهر أبي الأسد وأقام به، كثرت العلل فيمن معه من جنده وغيرهم، وفشا فيهم الموت، فلم يزل مقيماً هنالك حتى أبل من نجا منهم من علته، ثم انصرف، راجعاً إلى باذورد، فعسكر به، وأمر بتجديد الآلات وإصلاح الشدوات والسميريات وإعطاء الجند أرزاقهم وشحن السفن بقواده ومواليه وغلماؤه، ونهض نحو عسكر الناجم، وأمر جماعة من قواده بقصد مواضع سماها لهم، من نهر أبي الخصيب وغيره، وأمر الباقيين بملازمته والمخاربة معه، في الموضع الذي يكون فيه، وهم الأقلون، وعرف الزنج تفرق أصحاب أبي أحمد عنه، فكثروا في جهته، واستعرت الحرب بينه وبينهم، وكثرت القتل والجراح بين الفريقين، وأحرق أصحاب أبي أحمد قصوراً ومنازل

كان الزنج ابتنوها، واستنقذوا من نساء أهل البصرة جمعاً كثيراً. ثم صرف الزنج سورتهم وشدة حملتهم إلى الموضع الذي به أبو أحمد، فجاءه منهم جمع لا يقاوم، يمثل العدة اليسيرة التي كان فيها، فرأى أن الحزم في محاربتهم، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على تودة وتمهل، ففعلوا، وبقيت طائفة من جنده ولجوا تلك الأدغال والمضايق، فخرج عليهم كمين للزنج فأوقعوا بهم، فحاموا عن أنفسهم، وقتلوا عدداً كثيراً من الزنج إلى أن قتلوا بأجمعهم، وحملت رؤوسهم إلى الناجم، فراد ذلك في قوته وعتوه وعجبه بنفسه، وانصرف أبو أحمد بالجيش إلى باذاورد، وأقام يعي أصحابه للرجوع إلى الزنج، فوقعت نار في طرف من أطراف عسكره، وذلك في أيام عصوف الرياح، فاحترق العسكر، ورحل أبو أحمد منصرفاً وذلك في شعبان من هذه السنة إلى واسط. فأقام بها إلى ربيع الأول، ثم انصرف عنها إلى سامراء، وذلك أن المعتمد كاتبه واستقدمه لحرب يعقوب بن الليث الصفار أمير خراسان، فاستخلف على حرب الناجم محمداً المولد، وأما الناجم فإنه لم يعلم خبر الحريق الذي وقع في عسكر أبي أحمد، حتى ورد عليه رجلا من أهل عبادان، فأخبراه، فأظهر أن ذلك من صنع الله تعالى له ونصره على أعدائه، وأنه دعا الله على أبي أحمد وجيشه، فترلت نار من السماء فأحرقتهم.

وعاد إلى العبث، واشتد طغيانه وعتوه، وأنقض علي بن أبان المهلي، وضم إليه أكثر الجيش، وجعل على مقدمته سليمان بن جامع، وأضاف إليه الجيش الذي كان مع يحيى بن محمد البحراني وسليمان بن موسى الشعراني، وأمرهم بأن يقصدوا الأهواز وبما حينئذ أصغجون التركي، ومعه نيزك القائد، فالتقى العسكران بصحراء تعرف بدشت. ميسان، واقتتلوا، فظهرت الزنج، وقتل نيزك في كثير من أصحابه، وغرق أصغجون التركي، وأسر كثير من قواد السلطان، منهم الحسن بن هرثمة المعروف بالشاري، والحسن بن جعفر. وكتب علي بن أبان بالخبر إلى الناجم، وحمل إليه أعلاماً ورؤوساً كثيرة وأسرى، ودخل علي بن أبان الأهواز، وأقام بها بزوجه يعيث وينهب القرى والسواد، إلى أن ندب المعتمد على الله موسى بن بغا لحربه، فشخص عن سامراء، في ذي القعدة من هذه السنة، وشيعة المعتمد بنفسه إلى خلف الحائطين، وخلع عليه هنالك فقدم أمامه عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز وإسحاق بن كنداخ إلى البصرة، وإبراهيم بن سيما إلى البذاورد.

قال أبو جعفر: فلما ورد عبد الرحمن بن مفلح على الأهواز أناخ بقنطرة أريق عشرة أيام، ثم مضى إلى علي بن أبان المهلي فواقعه فهزمه علي بن أبان، فانصرف فاستعد ثم عاد لمحاربتة، فأوقع به وقعة عظيمة، وقتل من الزنج قتلاً ذريعاً وأسر أسرى كثيرة، وانهمز علي بن أبان ومن معه من الزنج حتى أتوا الموضع المعروف ببيان، فأراد الناجم ردهم فلم يرجعوا، للذعر الذي خالط قلوبهم. فلما رأى ذلك أذن لهم في دخول عسكره، فدخلوا جميعاً، فأقاموا معه بالمدينة التي كان بناها، ووافى عبد الرحمن بن مفلح حصن مهدي ليعسكر به، فوجه إليه الناجم علي بن أبان فواقعه فلم يقدر عليه، ومضى علي بن أبان إلى قريب من البذاورد، وهناك إبراهيم بن سيما، فواقعه إبراهيم، فهزم علي بن أبان، فعاوده فهزمه إبراهيم، فمضى في الليل، وسلك الأدغال والآجام، حتى وافى نهر يحيى، فانتهى خبره إلى عبد الرحمن بن مفلح، فوجه إليه طاشتمر التركي في جمع من الموالي، فلم يصل إلى علي بن أبان ومن معه، لوعورة الموضع الذي كانوا فيه، وامتناعه بالقصب والحلافي فأضرمه عليهم ناراً، فخرجوا منه هارين، وأسر منهم أسرى، وانصرف إلى عبد الرحمن بن مفلح

بالأسرى والظفر، ومضى علي بن أبان، فأقام بأصحابه في الموضع المسمى بنسوخوا، وانتهى الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن مفلح، فصار إلى العمود، فأقام به، وصار علي بن أبان إلى نهر السدرة، وكتب إلى الناجم يستمده ويسأله التوجيه إليه بالشذا، فوجه إليه ثلاث عشرة شذاة، فيها جمع كثير من أصحابه، فسار علي بن أبان ومن معه في الشذا، ووافى عبد الرحمن بمن معه، فلم يكن بينهما قتال، وتواقف الجيشان يومهما ذلك.

فلما كان الليل انتخب علي بن أبان من أصحابه جماعة يثق بجلدهم وصبرهم، ومضى ومعه سليمان بن موسى المعروف بالشعراني، وترك سائر عسكره مكانه ليخفى أمره، فصار من وراء عبد الرحمن، ثم بيته وعسكره، فنال منه ومن أصحابه نيلاً ما، وانحاز عبد الرحمن عنه وترك أربع شذوات من شذواته، فغنمها علي بن أبان، وانصرف ومضى عبد الرحمن لوجهه، حتى وافى دولاب، فأقام بها، وأعد رجالاً من رجاله، وولى عليهم طاشتمر التركي، وأنفذهم إلى علي بن أبان، فوافوه وهو في الموضع المعروف بباب آزر، فأوقعوا به وقعة انهزم منها إلى نهر السدرة، وكتب طاشتمر إلى عبد الرحمن بالهزامة عنه، فأقبل عبد الرحمن بجيشه حتى وافى العمود، فأقام به واستعد أصحابه للحرب، وهياً شذواته، وولى عليها طاشتمر، وسار إلى فوهة نهر السدرة، فواقع علي بن أبان وقعة عظيمة، انهزم منها علي بن أبان، وأخذ منه عشر شذوات، ورجع علي بن أبان إلى الناجم مفلولاً مهزوماً، وسار عبد الرحمن من فوره، فعسكر ببيان، فكان عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما يتناوبان المصير إلى عسكر الناجم، فيوقعان به، ويخيفان من فيه وإسحاق بن كنداجيق يومئذ بالبصرة، وقد قطع الميرة عن عسكر الناجم، فكان الناجم يجمع أصحابه في اليوم الذي يخاف فيه موافاة عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما، حتى ينقضي الحرب، ثم يصرف فريقاً منهم إلى ناحية البصرة، فيواقع بهم إسحاق بن كنداجيق، فأقاموا على هذه الحال بضعة عشر شهراً إلى أن صرف موسى بن بغا عن حرب الزنج.

قال أبو جعفر: وسبب ذلك أن المعتمد رد أمر فارس والأهواز والبصرة وغيرها من النواحي والأقطار إلى أخيه أبي أحمد، بعد فراغه من حرب يعقوب بن الليث الصفار وهزيمته له، فاستخلف أبو أحمد على حرب صاحب الزنج مسرور البلخي، وصرف موسى بن بغا عن ذلك، واتفق أن ابن واصل حارب عبد الرحمن بن مفلح، فأسره وقتله، وقتل طاشتمر التركي أيضاً، وذلك بناحية رامهرمز، فاستخلف مسرور البلخي على الحرب أبا الساج وولي الأهواز، فكانت بينه وبين علي بن أبان المهلي وقعة بناحية دولاب، قتل فيها عبد الرحمن صهر أبي الساج، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرم، ودخل الزنج الأهواز، فقتلوا أهلها وسبوا وأحرقوا دورها.

قال أبو جعفر: ثم وجه صاحب الزنج جيوشه بعد هزيمة أبي الساج إلى ناحية البطيحة والخوانيت ودستميستان، قال: وذلك لأن واسطاً خلت من أكثر الجند في وقعة أبي أحمد ويعقوب بن الليث التي كانت عند دير العاقول، فطمع الزنج فيها، فتوجه إليها سليمان بن جامع في عسكر من الزنج، وأردفه الناجم بجيش آخر مع أحمد بن مهدي في سميريات، فيها رماة من أصحابه، أنفذه إلى نهر المراء، وأنفذ عسكراً آخر فيه سليمان بن موسى، فأمره أن يعسكر بالنهر المعروف باليهودي، فكانت بين هؤلاء وبين من تخلف بهذه الأعمال من عساكر السلطان حروب شديدة، وكانت سجلاً لهم وعليهم، حتى ملكوا البطيحة والخوانيت، وشارفوا واسطاً، وبها يومئذ محمد المولد من قبل السلطان فكانت بينه وبين

سليمان بن جامع حروب كثيرة يطول شرحها وتعدادها، وأمدته الناجم بالخليل بن أبان أخي علي بن أبان المهلي في ألف وخمسمائة فارس ومعه أبو عبد الله الزنجي المعروف بالمذوب، أحد قوادهم المشهورين، فقوي سليمان بهم، وأوقع بمحمد المولد، فهزمه، ودخل واسطاً في ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين بزوجه وقواده، فقتل منها خلقاً كثيراً، ونهبها وأحرق دورها وأسواقها، وأخرب كثيراً من منازل أهلها، وثبت للمحاماة عنها قائد كان بها من جانب محمد بن المولد، يقال له كنجور البخاري، فحامى يومه ذلك إلى العصر، ثم قتل. وكان الذي يقود الخيل يومئذ في عسكر سليمان بن جامع الخليل بن أبان وعبد الله المعروف بالمذوب، وكان أحمد بن مهدي الجبائي في السمريات، وكان مهربان الزنجي في الشذوات، وكان سليمان بن موسى الشعراني وأخوه في ميمنته وميسرته، وكان سليمان بن جامع، وهو الأمير على الجماعة في قواده السودان ورجالته منهم، وكان الجميع يداً واحدة، فلما قضوا وطهرهم من نهب واسط وقتل أهلها، خرجوا بأجمعهم عنها، فمضوا إلى جنبل، وأقاموا هناك يعيشون ويخربون.

وفي أوائل سنة خمس وستين، دخلوا إلى النعمانية، وجرجرايا وجبل، فنهبوا وأخربوا وقتلوا وأحرقوا، وهرب منهم أهل السواد فدخلوا إلى بغداد.

قال أبو جعفر: فأما علي بن أبان المهلي فإنه استولى على معظم أعمال الأهواز، وعاث هناك وأخرب وأحرق، وكانت بينه وبين عمال السلطان وقواده مثل أحمد بن ليثويه، ومحمد بن عبد الله الكردي، وتكين البخاري، ومطر بن جامع، وأغرتمش التركي وغيرهم، وبينه وبين عمال يعقوب بن الليث الصفار، مثل خضر بن العنبر وغيره حروب عظيمة، ووقعات كثيرة، وكانت سجالاً، تارة عليه، وهو في أكثرها المستظهر عليهم. وكثرت أموال الزنج والغنائم التي حووها من البلاد والنواحي، وعظم أمرهم، وأهم الناس شأنهم، وعظم على المعتمد وأخيه أبي أحمد خطبهم، واقتسموا الدنيا، فكان علي بن محمد الناجم صاحب الزنج وإمامهم مقيماً بنهر أبي الخصيب، قد بنى مدينة عظيمة سماها المختارة، وحصنها بالخنادق، واجتمع إليه فيها من الناس ما لا ينتهي العد والحصر إليه، رغبة ورهبة، وصارت مدينة تضاهي سامراء وبغداد، وتزيد عليهما، وأمرؤه وقواده بالبصرة وأعمالها يجبون الخراج على عادة السلطان لما كانت البصرة في يده، وكان علي بن أبان المهلي - وهو أكبر أمراءه وقواده - قد استولى على الأهواز وأعمالها، ودوخ بلادها كرامهرمز وتستر وغيرهما، ودان له الناس، وجبا الخراج، وملك أموالاً لا تحصى.

وكان سليمان بن جامع وسليمان بن موسى الشعراني، ومعهما أحمد بن مهدي الجبائي في الأعمال الواسطية، قد ملكوها وبنوا بها المدن الحصينة، وفازوا بأموالها وارتفاعها، وجبوا خراجها، ورتبوا عمالهم وقوادهم فيها، إلى أن دخلت سنة سبع وستين ومائتين، وقد عظم الخطب وجل، وخيف على ملك بني العباس أن يذهب وينقرض، فلم يجد أبو أحمد الموفق - وهو طلحة بن المتوكل على الله - بدا من التوجه بنفسه ومباشرته هذا الأمر الجليل برأيه وتدييره، وحضوره معارك الحرب، فندب أمامه ابنه أبا العباس، وركب أبو أحمد إلى بستان الهادي ببغداد، وعرض أصحاب أبي العباس، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة، فكانوا عشرة آلاف، فرساناً ورجالة في أحسن زي وأجمل هيئة، وأكمل عدة، ومعهم الشذوات والسمريات والمعابر برسم الرجالة، كل ذلك قد أحكمت صنعته. فركب أبو العباس من بستان الهادي،

وركب أبو أحمد مشيعاً له حتى نزل القرية المعروفة بالفرك، ثم عاد وأقام أبو العباس بالفرك أياماً، حتى تكامل عدده وتلاحق به أصحابه.

ثم رحل إلى المدائن، فأقام بها أياماً، ثم رحل إلى دير العاقول، فورد عليه كتاب نصير المعروف بأبي حمزة، وهو من جلة أصحابه، وكان صاحب الشذا والسميريات، وقد كان قدمه على مقدمته بدجلة يعلمه فيه أن سليمان بن جامع قد وافى لما علم بشخص أبي العباس، والجبايئي يقدمه، في خيلهما ورجالهما وسفنهما حتى نزلا الجزيرة التي بحضرة بردودا، فوق واسط بأربعة فراسخ، وأن سليمان بن موسى الشعراي قد وافى نهر أبان بعسكره، عسكر البروعسكر الماء، فرحل أبو العباس لما قرأ هذا الكتاب حتى وافى جرجرايا، ثم منها إلى فم الصلح، ثم ركب الظهر وسار حتى وافى الصلح، ووجه طلائعه ليتعرف الخبر، فأتاه منهم من أخبره بموافاة القوم، وأن أولهم قريب من الصلح، وآخرهم بيستان موسى بن بغا، أسفل واسط، فلما عرف ذلك عدل عن سنن الطريق، ولقي أصحابه أوائل القوم، فتطاردوا لهم عن وصية أوصاهم أبو العباس بها، حتى طمع الزنج فيهم، واغترروا وأمعنوا في اتباعهم، وجعلوا يصيحون بهم: اطلبوا أميراً للحرب، فإن أميركم مشغول بالصيد!

فلما قربوا من أبي العباس بالصلح، خرج إليهم فيمن معه من الخيل والرجل، وأمر فصيح بأبي حمزة: يا نصير، إلى أين تتأخر عن هؤلاء الكلاب! ارجع إليهم. فرجع نصير بشذواته وسميرياته، وفيها الرجال، وركب أبو العباس في سميرية، ومعه محمد بن شعيب، وحف أصحابه بالزنج من جميع جهاتهم، فانهمزوا، ومنح الله أبا العباس وأصحابه أكتافهم، يقتلونهم ويطردونهم، إلى أن وافوا قرية عبد الله، وهي على ستة فراسخ، من الموضع الذي لقوهم فيه، وأخذوا منهم خمس شذوات وعشر سميريات، واستأمن منهم قوم، وأسر منهم أسرى، وغرق من سفنهم كثير، فكان هذا اليوم أول الفتح على أبي العباس.

قال أبو جعفر: فلما انقضى هذا اليوم، أشار على أبي العباس قواده وأولياؤه، أن يجعل معسكره بالموضع الذي كان انتهى إليه، إشفافاً عليه من مقاربة القوم، فأبى إلا نزول واسط بنفسه، ولما انهزم سليمان بن جامع ومن معه، وضرب الله وجوههم، انهزم سليمان بن موسى الشعراي عن نهر أبان، حتى وافى سوق الخميس، ولحق سليمان بن جامع بنهر الأمير، وقد كان القوم حين لقوا أبا العباس، أجالوا الرأي بينهم فقالوا: هذا فتى حدث لم تطل ممارسته الحرب وتدربه بها، والرأي أن نرميه بجدنا كله، ونجتهد في أول لقية نلقاه في إزالته، فلعل ذلك أن يروعه، فيكون سبباً لانصرافه عنا ففعلوا ذلك وحشدوا واجتهدوا، فأوقع الله تعالى بهم بأسه ونقمته، ولم يتم لهم ما قدروه، وركب أبو العباس من غد يوم الوقعة، حتى دخل واسطاً في أحسن زي، وكان ذلك يوم جمعة، فأقام حتى صلى بها صلاة الجمعة، واستأمن إليه خلق كثير من أتباع الزنج وأصحابهم، ثم انحدر إلى الغمر، وهو على فرسخ واحد من واسط، فاتخذ معسكراً، وقد كان أبو حمزة نصير وغيره أشاروا عليه أن يجعل معسكره فوق واسط، حذراً عليه من الزنج فامتنع، وقال: لست نازلاً إلا العمر، وأمر أبا حمزة أن يتزل فوهة بردودا فوق واسط، وأعرض أبو العباس عن مشاورة أصحابه واستماع شيء من آرائهم، واستبد برأي نفسه، فزل العمر وأخذ في بناء الشذوات والسميريات، وجعل يراوح الزنج القتال ويغاديهم، وقد رتب خاصة غلمانته ومواليه في سميريات، فجعل في كل سميرية أميراً منهم.

ثم إن سليمان استعد وحشد وفرق أصحابه، فجعلهم في ثلاثة أوجه: فرقة أتت من نهر أبان، وفرقة من بر تمرتا، وفرقة من بردودا، فلقبهم أبو العباس، فلم يلبثوا أن انهزموا، فلحقت طائفة منهم بسوق الخميس، وطائفة بمارزوان، وطائفة ببر تمرتا، وسلك آخرون نهر الماذيان، واعتصم قوم منهم ببردودا، وتبعهم أصحاب أبي العباس، وجعل أبو العباس قصده القوم الذين سلكوا نهر الماذيان، فلم يرجع عنهم حتى وافى بهم بر مساور، ثم انصرف، فجعل يقف على القرى والمسالك ويسأل عنها ويتعرفها، ومعه الأدلاء وأرباب الخبرة، حتى عرف جميع تلك الأرض ومنافذها، وما ينتهي إليه من البطائح والآجام وغيرها، وعاد إلى معسكره بالعمر، فأقام به أياماً مريحاً نفسه وأصحابه.

ثم أتاه مخبر فأخبره أن الزنج قد اجتمعوا واستعدوا لكبس عسكره، وأنهم على إتيانه من ثلاثة أوجه، وأنهم قالوا: إن أبا العباس غلام يغرر بنفسه، وأجمع رأيهم على تكمين الكمناء، والمصير إليه من الجهات الثلاث، فحذر أبو العباس من ذلك واستعد له، وأقبلوا إليه وقد كمنوا زهاء عشرة آلاف في بر تمرتا، ونحوه من العدة في بئر هثا وتقدم منها عشرون سميرية إلى عسكر أبي العباس، على أن يخرج إليهم فيهربوا بعد مناوشة يسيرة، فيجيزوا أبا العباس وأصحابه إلى أن يجاوزوا الكمناء، ثم يخرج الكمين عليهم من ورائهم.

فمنع أبو العباس أصحابه من اتباعهم لما واقعهم، وأظهروا الكسرة والعود، فعلموا أن كيدهم لم ينفذ فيه، وخرج حينئذ سليمان والجبائي في الشذا والسميريات العظيمة، وقد كان أبو العباس أحسن تعبئة أصحابه، فأمر أبا حمزة نصيراً أن يخرج إليه في الشذا والسميريات المرتبة، فخرج إليهم، ونزل أبو العباس في شذاة من شذوات قد كان سماها الغزال، واختار لها جدافين، وأخذ معه محمد بن شعيب الاشتيام، واختار من خاصة أصحابه وغلمان جماعة، دفع إليهم الرماح، وأمر الخيالة بالمسير بإزائه على شاطئ النهر، وقال لهم: لا تدعوا المسير ما أمكنكم، إلى أن تقطعكم الأنهار. ونشبت الحرب بين الفريقين، فكانت معركة القتال من حد قرية الرمل إلى الرصافة، حتى أذن الله في هزيمة الزنج، فانهزموا، وحاز أصحاب أبي العباس منهم أربع عشرة شذاة، وأفلت سليمان والجبائي في ذلك اليوم بعد أن أشفيا على الهلاك راجلين، وأخذت دواجمها، ومضى جيش الزنج بأجمعه، لا ينثني أحد منهم حتى وافوا بطهيتا، وأسلموا ما كان معهم من أثاث وآلة، ورجع أبو العباس، فأقام بمعسكره بالعمر، وأصلح ما كان أخذ منهم من الشذا والسفن، ورتب الرجال فيها، وأقام الزنج بعد ذلك عشرين يوماً لا يظهر منهم أحد.

قال أبو جعفر: ثم إن الجبائي صار بعد ذلك يجيء في الطلائع كل ثلاثة أيام وينصرف، وحفر في طريق عسكر أبي العباس آباراً، وصير فيها سفايد حديد، وغشاها بالبواري، وأخفى مواضعها، وجعلها على سنن مسير الخيل ليتهور فيها المجتازون بها، وجعل بواقى طرف العسكر متعرضاً به، لتخرج الخيل طالبة له، فجاء يوماً وطلبت الخيل كما كانت تطلبه، فقطر فرس رجل من قواد الفراغنة في بعض تلك الآبار، فوقف أصحاب أبي العباس بما ناله من ذلك على ما كان دبره الجبائي، فحذروا ذلك، وتنكبوا سلوك تلك الطريق.

قال أبو جعفر: وألح الزنج في مغادة العسكر في كل يوم بالحرب، وعسكروا بنهر الأمير في جمع كثير، وكتب سليمان

إلى الناجم يسأله إمداده بسميريات، لكل واحدة منهن أربعون مجداً، فوافاه من ذلك في مقدار عشرين يوماً أربعون سميرية، فيها الرجال والسيوف والتراس والرماح، فكانت لأبي العباس معهم وقعات عظيمة، وفي أكثرها الظفر لأصحابه والخذلان على الزنج، ولج أبو العباس في دخول الأنهار والمضايق، حتى انتهى إلى مدينة سليمان بن موسى الشعراني بنهر الخميس التي بناها وسمّاها المنيعية، وخاطر أبو العباس بنفسه مراراً، وسلم بعد أن شارف العطب، واستأمن إليه جماعة من قواد الزنج فأمنهم، وخلع عليهم وضمهم إلى عسكره، وقتل من قواد الزنج جماعة، وتمادت الأيام بينه وبينهم، واتصل بأبي أحمد الموفق أن سليمان بن موسى الشعراني والجبائي ومن بالأعمال الواسطية من قواد صاحب الزنج، كاتبوا أصحابهم، وسألوه إمدادهم بعلي بن أبان المهلي، وهو المقيم حينئذ بأعمال الأهواز، والمستولي عليها، وكان علي بن أبان قائد القواد وأمير الامراء فيهم، فكتب الناجم إلى علي بن أبان يأمره بالمصير بجميع من معه إلى ناحية سليمان بن جامع، ليجتمعاً على حرب أبي العباس.

فصح عزم أبي أحمد على الشخوص إلى واسط وحضور الحرب بنفسه، فخرج عن بغداد في صفر من هذه السنة، وعسكر بالفرك وأقام بها أياماً، حتى تلاحق به عسكره، ومن أراد المسير معه، وقد أعد آلة الماء ورحل من الفرك إلى المدائن، ثم إلى دير العاقول، ثم إلى جرجرايا، ثم قنى، ثم جبل، ثم نزل الصلح، ثم نزل على فرسخ من واسط.

وتلقاه ابنه أبو العباس في جريدة خيل فيها وجوه قواده، فسأله أبوه عن خبرهم، فوصف له بلاءهم ونصحهم، فخلع أبو أحمد على أبي العباس، ثم على القواد الذين كانوا معه. وانصرف أبو العباس إلى معسكره بالعمر فبات به، فلما كان صبيحة الغد، رحل أبو أحمد منحدرًا في الماء، وتلقاه ابنه أبو العباس في آلات الماء بجميع العسكر في هيئة الحرب، على الوضع الذي كانوا يحاربون الزنج عليه، فاستحسن أبو أحمد هيئتهم، وسر بذلك، وسار أبو أحمد حتى نزل بإزاء القرية المعروفة بقرية عبد الله، ووضع العطاء، فأعطى الجيش كله أرزاقهم، وقدم ابنه أبا العباس أمامه في السفن، وسار وراءه. فتلقاه أبو العباس برؤوس وأسرى من أصحاب الشعراني، وكان لقيهم، فأمر أبو أحمد بالأسرى فضربت أعناقهم، ورحل يريد المدينة التي بناها الشعراني بسوق الخميس، وسمّاها المنيعية.

وإنما بدأ أبو أحمد بحرب الشعراني قبل حرب سليمان بن جامع، لأن الشعراني كان وراءه، فخاف إن بدأ بابن جامع، أن يأتيه الشعراني من ورائه، فيشغله عمن هو أمامه، فلما قرصه من المدينة، خرج إليه الزنج، فحاربوه حرباً ضعيفة، وانهمزوا، فعلاً أصحاب أبي العباس السور، ووضعوا السيف فيمن لقيهم، وتفرق الزنج، ودخل أبو العباس المدينة، فقتلوا وأسروا، وحووا ما كان فيها، وأفلت الشعراني هارباً ومعه خواصه، فاتبعهم أصحاب أبي العباس، حتى وافوا بهم البطائح، فغرق منهم خلق كثير، ولجأ الباقون إلى الآجام، وانصرف الناس، وقد استنقذ من المسلمين اللواتي كن بأيدي الزنج في هذه المدينة خاصه خمسة آلاف امرأة، سوى من ظفر به من الزنجيات.

فأمر أبو أحمد بحمل النساء اللواتي سباهن الزنج إلى واسط، وأن يدفعن إلى أوليائهن، وبات أبو أحمد بحيال المدينة، ثم باكرها، وأذن للناس في نهب ما فيها من أمتعة الزنج، فدخلت ونهب كل ما كان بها، وأمر بدم سورها، وطم خندقها وإحراق ما كان بقي منها، وظفر في تلك القرى التي كانت في يد الشعراني بما لا يحصى من الأرز والحنطة والشعير، وقد كان الشعراني استولى على ذلك كله، وقتل أصحابه، فأمر أبو أحمد ببيعه وصرف ثمنه في أعطيات مواليه وغلمانته وجنده.

وأما الشعراي فإنه التحق هو وأخوه بالمدار، وكتب إلى الناجم يعرفه ذلك وأنه معتصم بالمدار.

قال أبو جعفر: فحدثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: حدثني محمد بن هشام الكرنبائي المعروف بأبي واثلة، قال: كنت بين يدي الناجم ذلك اليوم وهو يتحدث، إذ ورد عليه كتاب سليمان بخبر الواقعة وما نزل به، وانهمزاه إلى المدار، فما كان إلا أن فض الكتاب، ووقعت عينه على ذكر الهزيمة، حتى انحل وكاء بطنه، فنهض لحاجته ثم عاد. فلما استوى به مجلسه، أخذ الكتاب وتأمله، فوقعت عينه على الموضوع الذي أهداه أولاً، فنهض لحاجته حتى فعل ذلك مراراً، فلم أشك في عظم المصيبة، وكرهت أن أسأله، فلما طال الأمر تجاسرت، فقلت: أليس هذا كتاب سليمان بن موسى؟ قال: بلى، ورد بقاصمة الظهر، ذكر أن الذين أناخوا عليه أوقعوا به وقعة لم تبق منه ولم تذر، فكتب كتابه هذا وهو بالمدار، ولم يسلم بشيء غير نفسه. قال: فأكبرت ذلك - والله أعلم ما أخفي من السرور الذي وصل إلى قلبي - قال: وصير علي بن محمد على مكروه ما وصل إليه، وجعل يظهر الجلد، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذره مثل الذي نزل بالشعراي، ويأمره بالتيقظ في أمره وحفظ ما قبله.

قال أبو جعفر: ثم لم يكن لأبي أحمد بعد ذلك هم إلا في طلب سليمان بن جامع، فأنته طلائعه، فأخبرته أنه بالخوانيت، فقدم أمامه ابنه أبا العباس في عشرة آلاف، فانتهى إلى الخوانيت، فلم يجد سليمان بن جامع بها، وألفى هناك من قواد السودان المشتهرين باللبأس والنجدة القائدين، المعروف أحدهما بشبل، والآخر بأبي الندى، وهما من قدماء أصحاب الناجم الذين كان قودهم في بدء مخرجه، وكان سليمان قد خلف هذين القائدين بالخوانيت، لحفظ غلات كثيرة كانوا قد أخذوها، فحاربهما أبو العباس، فقتل من رجالهما وجرح بالسهم خلقاً كثيراً - وكانوا أجلد رجال سليمان بن جامع ونخبته الذين يعتمد عليهم - ودامت الحرب بين أبي العباس وبينهم ذلك اليوم إلى أن حجز الليل بين الفريقين. ورمى أبو العباس في ذلك اليوم كركياً طائراً، فوقع بين الزنج والسهم فيه، فقالوا: هذا سهم أبي العباس، وأصابعهم منه ذعر، واستأمن في هذا اليوم بعضهم إلى أبي العباس فسأله عن الموضوع الذي فيه سليمان بن جامع، فأخبره أنه مقيم بمدينة التي بناها بطهيتا، فانصرف أبو العباس حينئذ إلى أبيه بحقيقة مقام سليمان، وأن معه هنالك جميع أصحابه إلا شبلاً وأبا الندى، فإنهما بالخوانيت لحفظ الغلات التي حووها. فأمر حينئذ أبو أحمد أصحابه بالتوجه إلى طهيتا، ووضع العطاء، فأعطى عسكره، وشخص مصاعداً إلى بردودا، ليخرج منها إلى طهيتا، إذ كان لا سبيل له إليها إلا بذلك، فظن عسكره أنه هارب، وكادوا ينفضون لولا أنهم عرفوا حقيقة الحال، فانتهى إلى القرية بالحوزية، وعقد جسراً على النهر المعروف بمهروذ، وعبر عليه الخيل، وسار إلى أن صار بينه وبين مدينة سليمان التي سماها المنصورة بطهيتا ميلان، فأقام هناك بعسكره، ومطرت السماء مطراً جوداً، واشتد البرد أيام مقامه هناك، فشغل بالمطر والبرد عن الحرب فلم يحارب، فلما فتر ركب في نفر من قواده ومواليه لارتياح موضع لجال الخيل، فانتهى إلى قريب من سور تلك المدينة، فتلقاه منهم خلق كثير وخرج عليه كمناء من مواضع شتى، ونشبت الحرب واشتدت، فترجل جماعة من الفرسان، ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التي كانوا أوغلوها، وأسر من غلمان أبي أحمد غلام يقال له وصيف العلمدار وعدة من قواد زيرك، وقتل في هذا اليوم أحمد بن مهدي الجبائي أحد القواد العظماء من الزنج، رماه أبو العباس بسهم فأصاب أحد منخريه حتى خالط

دماغه، فخر صريعاً، وحمل من المعركة وهو حي، فسأل أن يحمل إلى الناجم، فحمل من هناك إلى نهر أبي الخصيب إلى مدينة الناجم التي سماها المختارة، فوضع بين يديه، وهو على ما به، فعظمت المصيبة عليه به إذ كان من أعظم أصحابه غناء، وأشدهم تصبراً لإطاعته، فمكث الجبائي يعالج هنالك أياماً ثم هلك، فاشتد جزع الناجم عليه، وصار إليه، فولي غسله وتكفينه والصلاة عليه، والوقوف على قبره إلى أن دفن، ثم أقبل على أصحابه فوعظهم، وذكر موت الجبائي. وكانت وفاته في ليلة ذات رعود وبروق.

فقال فيما ذكر عنه: لقد سمعت وقت قبض روحه زجل الملائكة بالدعاء له، والترحم عليه. وانصرف من دفنه منكسراً، عليه الكآبة.

قال أبو جعفر: فلما انصرف أبو أحمد ذلك اليوم من الوقعة، غاداهم بكرة الغد، وعباً أصحابه كتائب فرساناً ورجالة، وأمر بالشذا والسميريات أن يسار بها معه في النهر الذي يشق مدينة طهيتا، وهو النهر المعروف بنهر المنذر، وسار نحو الزنج، حتى انتهى إلى سور المدينة فرتب قواد غلمانه في المواضع التي يخاف خروج الزنج عليه منها، وقدم الرجالة أمام الفرسان، ونزل فصلى أربع ركعات، وابتهل إلى الله تعالى في النصر والدعاء للمسلمين، ثم دعا بسلاحه فلبسه، وأمر ابنه أبا العباس أن يتقدم إلى السور ويحضر الغلمان على الحرب ففعل، وقد كان سليمان بن جامع أعد أمام سور المدينة التي سماها المنصورة خندقاً، فلما انتهى الغلمان إليه قهقروا عبوره، وأحجموا عنه، فحرضهم قوادهم، وترجلوا معهم فافتحموه متجاسرين عليه، فعبروه وانتهوا إلى الزنج وهم مشرفون من سور مدينتهم، فوضعوا السلاح فيهم، وعبرت شرذمة من الفرسان الخندق خوفاً، فلما رأى الزنج خبر هؤلاء الذين لقوهم وجراءتهم عليهم، ولوا منهزمين، واتبعهم أصحاب أبي أحمد، ودخلوا المدينة من جوانبها، وكان الزنج قد حصنها بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يمتنعون به، فجعلوا يقفون عند كل سور وخندق انتهوا إليه، وأصحاب أبي أحمد يكشفونهم في كل موقف وقفوه، ودخلت الشذا والسميريات مدينتهم مشحونة بالغلمان المقاتلة من النهر الذي يشقها بعد انهزامهم، فأغرقت كل ما مرت به لهم من شذاة أو سميرية، واتبعوا من تجافى النهر منهم، يقتلون ويأسرون، حتى أحلوه من المدينة وعما يتصل بها، وكان ذلك زهاء فرسخ، فحوى أبو أحمد ذلك كله، وأفلت سليمان بن جامع في نفر من أصحابه، واستحر القتل فيهم والأسر، واستنقذ من نساء أهل واسط وصبيانهم وما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة زهاء عشرة آلاف، فأمر أبو أحمد بحياتهم والإنفاق عليهم، وحملوا إلى واسط فدفعوا إلى أهلهم، واحتوى أبو أحمد على كل ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي، فكان شيئاً جليل القدر، فأمر ببيع الغلات وغيرها من العروض، وصرفه في أعطيات عسكره ومواليه وأسر من نساء سليمان وأولاده عدة، واستنقذ يومئذ وصيف العلمدار ومن كان أسره الزنج معه، فأخرجوا من الحبس، وقد كان الزنج أعجلهم الأمر عن قتله وقتلهم.

وأقام أبو أحمد بطهيتا سبعة عشر يوماً، وأمر بدم سور المدينة، وطم خنادقها، ففعل ذلك، وأمر بتتبع من لجأ منهم إلى الآجام، وجعل لكل من أتاه برجل منهم جعلاً، فسارع الناس إلى طلبهم، فكان إذا أتى بالواحد منهم خلع عليه وأحسن إليه، وضمه إلى قواد غلمانه لما دبر من استمالتهم، وصرفهم من طاعة صاحبهم، وندب نصيراً صاحب الماء في شذا

وسميريات لطلب سليمان بن جامع والهاريين معه من الزنج وغيرهم، وأمره بالجد في اتباعهم، حتى يجاوز البطائح، وحتى يلج دجلة المعروفة بالعوراء، وتقدم إليه في فتح السكور التي كان سليمان أحدثها ليقطع بها الشذا عن دجلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبي الخصيب، وتقدم إلى زيرك في المقام بطهيتا في جمع كثير من العسكر، ليراجع إليها الذين كان سليمان أجلاهم عنها من أهلها، فلما أحكم ما أراد إحكامه، تراجع بعسكره مزمعاً على التوجه إلى الأهواز ليصلحها، وقد كان قدم أمامه ابنه أبا العباس، وقد تقدم ذكر علي بن ابان المهلي، وكونه استولى على معظم كور الأهواز، ودوخ جيوش السلطان هناك، وأوقع بهم، وغلب على معظم تلك النواحي والأعمال.

فلما تراجع أبو أحمد وافي بردودا، فأقام بها أياماً، وأمر بإعداد ما يحتاج إليه للمسير على الظهر إلى الأهواز، وقدم أمامه من يصلح الطرق والمنازل، ويعد فيها الميرة للجيوش التي معه، ووافاه قبل أن يرحل عن واسط زيرك منصرفاً عن طهيتا، بعد أن تراجع إلى النواحي التي كان بها الزنج أهلها، وخلفهم آمين، فأمره أبو أحمد بالاستعداد والانحدار في الشذا والسميريات في نخبة عسكره وأنجادهم، فيصيرهم إلى دجلة العوراء، فتجتمع يده ويد نصير صاحب الماء على نقض دجلة، واتباع المنهزمين من الزنج والإيقاع بكل من لقوا من أصحاب سليمان إلى أن ينتهي بهم المسير إلى مدينة الناجم بنهر أبي الخصيب، فإن رأوا موضع حرب حاربوه في مدينته، وكتبوا بما يكون منهم إلى أبي أحمد، ليرد عليهم من أمره ما يعملون بحسبه.

واستخلف أبو أحمد على من خلفه من عسكره بواسط ابنه هارون، وأزمع على الشخصوس في خف من رجاله وأصحابه، ففعل ذلك بعد أن تقدم إلى ابنه هارون في أن يحذر الجيش الذي خلفه معه في السفن إلى مستقره بدجلة، إذا وافاه كتابه بذلك، وارتحل شاخصاً من واسط الأهواز وكورها، فتزل باذيين، إلى الطيب، إلى قرقوب إلى وادي السوس، وقد كان عقد له عليه جسر، فأقام به من أول النهار إلى وقت الظهر، حتى عبر عسكره أجمع. ثم سار حتى وافي السوس فترها، وقد كان أمر مسروراً بالبلخي وهو عامله على الأهواز بالقدوم عليه فوافاهم في جيشه وقواده من غد اليوم الذي نزل فيه السوس، فخلع عليه وعليهم، وأقام بالسوس ثلاثاً، وكان ممن أسر من الزنج بطهيتا أحمد بن موسم بن سعيد البصري المعروف بالقلوص، وكان قائداً جليلاً عندهم، وأحد عدد الناجم، ومن قدماء أصحابه، أسر بعد أن أنخن جراحات كانت فيها منيته، فأمر أبو أحمد باحتراز رأسه ونصبه على جسر واسط.

قال أبو جعفر: واتصل بالناجم خبر هذه الواقعة بطهيتا، وعلم ما نيل من أصحابه، فانتقض عليه تديره وضلت حيلته، فحملة الهلع إلى أن كتب إلى علي بن أبان المهلي، - وهو يومئذ مقيم بالأهواز في زهاء ثلاثين ألفاً - يأمره بترك كل ما كان قبله من الميرة والأثاث، والإقبال إليه بجميع جيوشه، فوصل الكتاب إلى المهلي، وقد أتاه الخبر بإقدام أبي أحمد إلى الأهواز وكورها، فهو لذلك طائر العقل. فقرأ الكتاب، وهو يحفره فيه حفراً بالمصير إليه، فترك جميع ما كان قبله، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكرنائي. فلما شخص المهلي عنه لم يثبت ولم يقم، لما عنده من الوجل وترادف الأخبار بوصول أبي أحمد إليه، فأخلى ما استخلف عليه، وتبع المهلي - وبالأهواز يومئذ ونواحيها من أصناف الحبوب والتمر والمواشي شيء عظيم - فخرجوا عن ذلك كله، وكتب الناجم أيضاً إلى بهبوذ بن عبد الوهاب القائد وإليه يومئذ

الأعمال التي بين الأهواز وفارس - يأمره بالقدوم عليه بعسكره، فترك بهبوذ ما كان قبله من الطعام والتمر والمواشي، فكان ذلك شيئاً عظيماً، فحوى جميع ذلك أبو أحمد، فكان قوة له على الناجم، وضعفاً للناجم.

ولما رحل المهلي عن الأهواز بث أصحابه في القرى التي بينه وبين مدينة الناجم، فانتهبوها وأجلوا عنها أهلها، وكانوا في سلمهم، وتختلف خلق كثير ممن كان مع المهلي من الفرسان والرجالة عن اللحاق به، وأقاموا بنواحي الأهواز، وكتبوا يسألون أبا أحمد الأمان لما انتهى عنه إليهم من عفوه عمن ظفر به من أصحاب الناجم، وكان الذي دعا الناجم إلى أمر المهلي وهبوذ بسرعة المصير إليه، خوفه موافاة أبي أحمد بجيوشه إليه، على الحالة التي كان الزنج عليها من الوجع وشدة الرعب، مع انقطاع المهلي وهبوذ فيمن كان معهما عنه. ولم يكن الأمر كما قدر، فإن أبا أحمد إنما كان قاصداً إلى الأهواز، فلو أقام المهلي بالأهواز وهبوذ بمكانه في جيوشهما، لكان أقرب إلى دفاع جيش أبي أحمد عن الأهواز، وأحفظ للأموال والغلات التي تركت بعد أن كانت اليد قابضة عليها.

قال أبو جعفر: وأقام أبو أحمد حتى أحرز الأموال التي كان المهلي وهبوذ وخلفاؤها تركوها، وفتحت السكور التي كان الناجم أحدثها في دجلة، وأصلحت له طرقه ومسالكه ورحل أبو أحمد عن السوس إلى جنديسابور فأقام بها ثلاثاً، وقد كانت الأعلاف ضاقت على أهل العسكر، فوجه في طلبها وحملها، ورحل عن جنديسابور إلى تستر، فأقام بها لجباية الأموال من كور الأهواز، وأنفذ إلى كل كورة قائداً ليروج بذلك حمل المال، ووجه أحمد بن أبي الأصبع إلى محمد بن عبد الله الكردي، صاحب رامهرمز وما يليها من القلاع والأعمال، وقد كان مالاً المهلي، وحمل إلى الناجم أموالاً كثيرة، وأمره بإيناسه وإعلامه ما عليه رأيه في العفو عنه، والتغمد لزلته، وأن يتقدم إليه في حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز بجميع من معه من الموالي والغلمان والجند، ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق، وينهضهم معه لحرب الناجم. ففعل وأحضرهم، وعرضوا رجلاً رجلاً، وأعطوا ثم رحل إلى عسكر مكرم، فجعله منزله أياماً، ثم رحل منه فوافي الأهواز وهو يرى أنه قد تقدمه إليها من الميرة ما يحمل عساكره، فلم يكن كذلك، وغلظ الأمر في ذلك اليوم، واضطرب الناس اضطراباً شديداً، فأقام ثلاثة أيام ينتظر ورود الميرة فلم ترد، فسألت أحوال الناس، وكاد ذلك يفرق جماعتهم، فبحث عن السبب المؤخر لورودها، فوجد الزنج قد كانوا قطعوا قنطرة قديمة أعجمية، كانت بين سوق الأهواز ورامهرمز، يقال لها قنطرة أربق، فامتنع التجار ومن كان يحمل الميرة من الورود، لقطع تلك القنطرة، فركب أبو أحمد إليها، وهي على فرسخين من سوق الأهواز، فجمع من كان في العسكر من السودان، وأخذهم بنقل الصخر والحجارة لإصلاح هذه القنطرة، وبذل لهم من أموال الرعية، فلم يرم حتى أصلحت في يومه ذلك، وردت إلى ما كانت عليه، فسلکها الناس، ووافت القوافل بالميرة، فحیی أهل العسكر، وحسنت أحوالهم، وأمر بجميع السفن لعقد الجسر على دجيل الأهواز، فجمعت من جميع الكور، وأقام بالأهواز أياماً حتى أصلح أصحابه أمورهم، وما احتاجوا إليه من آلاتهم، وحسنت أحوال دوابهم، وذهب عنها ما كان بها من الضر بتأخر الأعلاف، ووافت كتب القوم الذين تخففوا عن المهلي، وأقاموا بعده بسوق الأهواز يسألون أبا أحمد الأمان، فأمنهم، فأتاه منهم نحو ألف رجل، فأحسن إليهم، وضمهم إلى قواد غلمانه، وأجرى لهم الأرزاق، وعقد الجسر على دجيل الأهواز، ورحل بعد أن قدم جيوشه أمامه، وعبر دجيلاً، فأقام بالموضع

المعروف بقصر المأمون ثلاثاً، وقد كان قدم ابنه أبا العباس إلى شهر المبارك، من فرات البصرة، وكتب إلى ابنه هارون بالانحدار إليه ليجتمع العساكر هناك ورحل أبو أحمد عن قصر المأمون إلى قورج العباس، ووافاه أحمد بن أبي الأصغ هنالك بهدايا محمد بن عبد الله الكردي صاحب رامهرمز من دواب ومال. ثم رحل عن القورج فتزل الجعفرية، ولم يكن بها ماء، وقد كان أنفذ إليها وهو بعد في القورج من حفر آبارها، فأقام بها يوماً وليلة، وألقى بها ميراً بمجموعة، فاتسع الجند بها، وتزودوا منها، ثم رحل إلى المنزل المعروف بالبشير، فألقى فيه غديراً من ماء المطر، فأقام به يوماً وليلة، ورحل إلى المبارك وكان منزلاً بعيد المسافة، فتلقاه ابنه أبو العباس وهارون في طريقه، وسلموا عليه، وسارا بسيره، حتى ورد بهم المبارك، وذلك يوم السبت للنصف من رجب سنة سبع وستين.

قال أبو جعفر: فأما نصير وزيرك، فقد كانا اجتماعاً بدجلة العوراء، وانحدرا حتى وافيا الأبله بسفنهما وشذاهما، فاستأمن إليهما رجل من أصحاب الناجم، فأعلمهما أنه قد أنفذ عدداً كثيراً من السميريات والزواريق مشحونة بالزنج، يرأسهم قائد من قواده، يقال له محمد بن إبراهيم، ويكنى أبا عيسى.

قال أبو جعفر: ومحمد بن إبراهيم هذا، رجل من أهل البصرة، جاء به إلى الناجم صاحب شرطته المعروف بيسار، واستصلحه لكتابته فكان يكتب له حتى مات، وقد كانت ارتفعت حال أحمد بن مهدي الجبائي عند الناجم، وولاه أكثر أعماله، فضم محمد بن إبراهيم هذا إليه، فكان كاتبه، فلما قتل الجبائي في وقعة سليمان الشعرائي، طمع محمد بن إبراهيم هذا في مرتبته، وأن يحله الناجم محله، فنبذ القلم والدواة، ولبس آلة الحرب، وتجرّد للقتال، فأكفّضه الناجم في هذا الجيش، وأمره بالاعتراض في دجلة لمدافعة من يردّها من الجيوش، فكان يدخله أحياناً، وأحياناً يأتي بالجمع الذي معه إلى النهر المعروف بنهر يزيد، وكان معه في ذلك الجيش من قواد الزنج شبل بن سالم وعمرو المعروف بغلام بوذى وأحلاط من السودان وغيرهم، فاستأمن رجل منهم كان في ذلك الجيش إلى وزيرك ونصير - وأخبرهما خبره، وأعلمهما أنه على القصد لسواد عسكر نصير وكان نصير يومئذ معسكراً بنهر المراء وأنهم على أن يسلكوا الأنهار المعترضة على نهر معقل، وبتق شيرين حتى يوافوا الشرطة، ويخرجوا من وراء العسكر، فيكبوا على من فيه، فرجع نصير عند وصول هذا الخبر إليه من الأبله، مبارزاً إلى عسكره وسار وزيرك قاصداً بتق شيرين، معارضاً لمحمد بن إبراهيم، فلقيه في الطريق، فوهب الله له العلو عليه بعد صبر من الزنج له، ومجاهدة شديدة، فانهزموا ولجأوا إلى النهر الذي فيه كمينهم، وهو نهر يزيد، فدل لوزيرك عليهم، فتوغلت إليهم سميرياته، فقتل منهم طائفة وأسر طائفة، فكان محمد بن إبراهيم فيمن أسر، وعمرو وغلام بوذى، وأخذ ما كان معهم من السميريات، وهي نحو ثلاثين سميرية، وأفلت شبل بن سالم في الذين نجوا معه، فلحق بعسكر الناجم، وخرج وزيرك في بتق شيرين سالماً ظافراً، ومعه الأسارى ورؤوس القتلى، مع ما حوى من السميريات والسفن، وانصرف من دجلة العوراء إلى واسط، وكتب إلى أبي أحمد بالفتح، وعظم الجزع على كل من كان بدجلة وكورها من أتباع الناجم، فاستأمن إلى نصير صاحب الماء، وهو مقيم حينئذ بنهر المراء زهاء ألفي رجل من الزنج وأتباعهم. فكتب إلى أبي أحمد يخبرهم، فأمره بقبولهم وإقرارهم على الأمان، وإجراء الأرزاق عليهم، وخلطهم بأصحابه، ومناهضة العدو بهم، ثم كتب إلى نصير يأمره بالإقبال إليه إلى نهر المبارك، فوافاه هناك.

وقد كان أبو العباس منصرفه إلى نهر المبارك، انحدر إلى عسكر الناجم في الشذا، فأوقع بهم في مدينته بنهر أبي الخصيب، فكانت الحرب بينهما من أول النهار إلى آخر وقت الظهر.

واستأمن إليه قائد جليل من قواد الناجم من المضمومين، كانوا إلى سليمان بن جامع، يقال له منتاب، ومعه جماعة من أصحابه، فكان ذلك مما كسر من الناجم وانصرف أبو العباس بالظفر، وخلع على منتاب الزنجي، ووصله وحمله. فلما لقي أباه أخبره خبره، وذكر إليه خروجه إليه في الأمان، فأمر أبو أحمد له بخلع وصلة وحمالان، وكان منتاب أول من استأمن من جملة قواد الناجم.

قال أبو جعفر: ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك كان أول ما عمل به في أمر الناجم أن كتب إليه كتاباً يدعو فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، مما ارتكب من سفك الدماء، وانتهاك المحارم، وإخراب البلدان والأمصار، واستحلال الفروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوة والإمامة، ويعلمه أن التوبة له مبسوطة، والأمان له موجود، فإن نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخطها الله تعالى، ودخل في جماعة المسلمين، في ذلك ما سلف من عظيم جرائمه، وكان له به الحظ الجزيل في دنياه وآخرته، وأنفذ ذلك إليه مع رسول، فالتمس الرسول إيصاله إليه، فامتنع الزنج من قبول الكتاب، ومن إيصاله إلى صاحبهم، فألقى الرسول الكتاب إليهم إلقاءً، فأخذوه وأتوا به صاحبهم، فقرأه ولم يجب عنه بشيء، ورجع الرسول إلى أبي أحمد، فأخبره. فأقام خمسة أيام متشاغلاً بعرض السفن، وترتيب القواد والموالي والغلمان فيها، وتخير الرماة، وانتخابهم للمسير بها.

ثم سار في اليوم السادس في أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة الناجم التي سماها المختارة، من نهر أبي الخصيب فأشرف عليها، وتأملها فرأى منعها وحصانتها بالسور والخنادق الحبيطة بها، وغور الطريق المؤدي إليها، وما قد أعد من المجانيق والعرادات والقسي الناوكية، وسائر الآلات على سورها، فرأى ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعي السلطان. ورأى من كثيرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغظ أمره.

ولما عاين الزنج أبا أحمد وأصحابه، ارتفعت أصواتهم بما ارتجت له الأرض، فأمر أبو أحمد عند ذلك ابنه أبا العباس بالتقدم إلى سور المدينة، ورشق من عليه بالسهم، ففعل ودنا، حتى ألصق شذواته بمسناة قصر الناجم، وانحاز الزنج بأسرهم إلى الموضع الذي دنت منه الشذا، وتحاشدوا، وتتابع سهامهم وحجارة منجنيقاتهم وعراداتهم ومقاليعهم، ورمى عوامهم بالحجارة عن أيديهم، حتى ما يقع طرف ناظر على موضع إلا رأى فيه سهماً أو حجراً.

وثبت أبو العباس، فرأى الناجم وأشياعه من جهدهم واجتهادهم وصبرهم ما لا عهد لهم بمثله من أحد ممن حاربهم، وحينئذ أمر أبو أحمد ابنه أبا العباس بالرجوع. بمن معه إلى مواقفهم ليروحووا عن أنفسهم، ويداؤوا جروحهم، ففعلوا ذلك، واستأمن في هذه الحال إلى أبي أحمد مقاتلان من مقاتلة السميريات من الزنج، فأتياه بسميرياتهما وما فيها من الملاحين والآلات، فأمر لهما بخلع ديباج ومناطق محلاة بالذهب، ووصلهما بمال، وأمر للملاحين بخلع من الحرير الأحمر والأخضر الذي حسن موقعه منهم، وعمهم جميعاً بصلاته، وأمر بإدنائهم من الموضع الذي يراهم فيه نظراؤهم، فكان ذلك من أنجع المكائد التي كيد بها صاحب الزنج، فلما رأى الباكون ما صار إليه أصحابهم من العفو عنهم والإحسان إليهم رغبوا في

الأمان، وتنافسوا فيه، فابتدر منهم جمع كثير مسرعين نحوه، راغبين فيما شرع لهم منه. فأمر أبو أحمد لهم بمثل ما أمر به لأصحابه، فلما رأى الناجم ركون أصحاب السمريرات إلى الأمان، ورغبتهم فيه، أمر برد من كان منهم في دجلة إلى نهر أبي الخصيب، ووكل بفوهة النهر من يمنعهم الخروج، وأمر بإظهار شدواته الخاصة، وندب لهم بهبوذ بن عبد الوهاب - وهو من أشد كماته بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة - فانتدب بهبوذ لذلك، وخرج في جمع كثيف من الزنج فكانت بينه وبين أبي حمزة نصير صاحب الماء وبين أبي العباس بن أبي أحمد وقعات شديدة، في كلها يظهر عليه أصحاب السلطان، ثم يعود فيرتاش ويحتشد، فيخرج فيواقعهم، حتى صدقوه الحرب، وهزموه والجأوه إلى فناء قصر الناجم، وأصابته طعنتان، وجرح بالسهم، وأوهنت أعضائه الحجارة، وأولجوه نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت، وقتل قائد جليل معه من قواد الزنج ذو بأس ونجدة، وتقدم في الحرب، يقال له عميرة.

واستأمن إلى أبي أحمد جماعة أخرى، فوصلهم وحباهم وخلع عليهم، وركب أبو أحمد في جميع جيشه وهو يومئذ في خمسين ألف رجل، والناجم في ثلاثمائة ألف رجل، كلهم يقاتل ويدافع، فمن ضارب بسيف، وطاعن برمح، ورام بقوس، وقاذف بمقلاع، ورام بعراة ومنجنيق، وأضعفهم أمر الرماة بالحجارة عن أيديهم، وهم النظارة المكثرون للسواد، والمعينون بالنعير والصياح، والنساء يشركنهم في ذلك أيضاً، فأقام أبو أحمد بإزاء عسكر الناجم إلى أن أضحى، وأمر فنودي: الأمان مبسوط للناس: أسودهم وأحمرهم، إلا لعدو الله الداعي علي بن محمد. وأمر بسهم فعلق في رقايع مكنوب فيها من الأمان، مثل الذي نودي به، ووعد الناس فيها الإحسان ورمى بها إلى عسكر الناجم، فمالت إليه قلوب خلق كثير من أولئك، ممن لم يكن له بصيرة في اتباع الناجم، فأتاه في ذلك اليوم جمع كثير يحملهم الشدا والسمريرات، فوصلهم وحباهم، وقدم عليه قائدان من قواده، وكلاهما من مواليه ! ببغداد، أحدهما بكتمر والآخر بغرا في جمع من أصحابهما، فكان ورودهما زيادة في قوته. ثم رحل في غد هذا اليوم بجميع جيشه، فتزل متاخماً لمدينة الناجم في موضع كان تخيره للتزول، فأوطن هذا الموضع، وجعله معسكراً له وأقام به، ورتب قواده ورؤساء أصحابه مراتبهم، فجعل نصيراً صاحب الماء في أول العسكر، وجعل زيرك التركي في موضع آخر، وعلي بن جهشار حاجبه في موضع آخر، وراشداً مولاه في مواليه وغلماؤه الأتراك والخزر والروم والديلمة والطبرية والمغاربة والزنج والفراغنة والعجم والأكراد، محيطاً هو وأصحابه بمضارب أبي أحمد وفساطيطه وسراذقاته، وجعل صاعد بن مخلد وزيره وكتابه في جيش آخر من الموالى والغلمان، فوق عسكر راشد، وأنزل مسروراً البلخي القائد صاحب الأهواز في جيش آخر على جانب من جوانب عسكره، وأنزل الفضل ومحمداً ابني موسى بن بغا في جانب آخر بجيش آخر، وتلاههما القائد المعروف بموسى، ولجوا في جيشه وأصحابه، وجعل بغراج التركي على ساقته في جيش كثيف بعدة عظيمة، وعدد جم.

ورأى أبو أحمد من حال الناجم وحصانة موضعه وكثرة جمعه ما علم معه أنه لا بد له من الصبر عليه، وطول الأيام في محاصرته، وتفريق جموعه، وبذل الأمان لهم، والإحسان إلى من أناب منهم، والغلظة على من أقام على غيه منهم، واحتاج إلى الاستكثار من الشدا وما يحارب به في الماء، وشرع في بناء مدينة ماثلة لمدينة الناجم، وأمر بإنفاذ الرسل في حمل الآلات والصناع من البر والبحر، وإنفاذ المير والأزواد والأقوات وإيرادها إلى عسكره بالمدينة التي شرع فيها، وسماها

الموفقية. وكتب إلى عماله بالنواحي في حمل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة، وألا يحمل إلى بيت المال بالحضرة درهم واحد، وأنفذ رسلاً إلى سيراف وجنابة في بناء الشذا والإستكثار منها لحاجته إلى أن ييثها ويفرقها في المواضع التي يقطع بها الميرة عن الناجم وأصحابه، وأمر بالكتاب إلى عماله في إنفاذ كل من يصلح للإثبات والعرض في الدواوين، من الجند والمقاتلة، وأقام ينتظر ذلك شهراً أو نحوه، فوردت المير متتابعة، يتلو بعضها بعضاً، ووردت الآلات والصناع وبنيت المدينة، وجهاز التجار صنوف التجارات في الأمتعة، وحملوها إليها، واتخذت بها الأسواق، وكثر بها التجار والمجهزون من كل بلد، ووردت إليها مراكب من البحر، وقد كانت انقطعت لقطع الناجم وأصحابه سبلها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين، وبنى أبو أحمد في هذه المدينة المسجد الجامع، وصلى بالناس فيه واتخذ دور الضرب، فضرب بها الدنانير والدرهم، فجمعت هذه المدينة جميع المرافق وسبق إليها صنوف المنافع، حتى كان ساكنوها لا يفقدون فيها شيئاً، مما يوجد في الأمصار العظيمة القديمة، وحملت الأموال وأدر العطاء على الناس في أوقاته، فأتسعوا وحسنت أحوالهم، ورغب الناس جميعاً في المصير إلى هذه والمقام بها.

قال أبو جعفر: وأمر الناجم بهبوذ بن عبد الوهاب، فعبّر والناس غارون في سميريات إلى طرف عسكر أبي حمزة صاحب الماء، فأوقع به، وقتل جماعة من أصحابه، وأسر جماعة، وأحرق أكواخاً كانت لهم، وأرسل إبراهيم بن جعفر الهمداني - وهو من جملة قواد الناجم - في أربعة آلاف زنجي، ومحمد بن أبان المكئي أبا الحسين - أخا علي بن أبان المهلي - في ثلاثة آلاف والقائد المعروف بالدور في ألف وخمسمائة، ليغيروا على أطراف عسكر أبي أحمد ويوقعوا بهم. فنذر بهم أبو العباس، فنهذ إليهم في جمع كثيف من أصحابه، وكانت بينه وبينهم حروب كان الإستظهار فيها كلها له، واستأمن إليه جماعة منهم، فخلع عليهم، وأمر أن يوقفوا بإزاء مدينة الناجم ليعاينهم أصحابه، وأقام أبو أحمد يكايد الناجم، ويبدل الأموال لأصحابه تارة، ويوقعهم ويحاربهم تارة، ويقطع الميرة عنهم، فسرى بهبوذ الزنجي في الأجلاد المنتخبين من رجاله ليلة من الليالي، وقد تأدى إليه خبر قيروان ورد للتجار، فيه صنوف التجارات والأمتعة والمير، فكمن في النخل، فلما ورد القيروان، خرج إلى أهله وهم غارون، فقتل منهم وأسر، وأخذ ما شاء أن يأخذ من الأموال. وقد كان أبو أحمد علم بورود ذلك القيروان، وأنفذ قائداً من قواده لبذرته في جمع خفيف، فلم يكن لذلك القائد بهبوذ طاقة، فانصرف عنه منهزماً.

فلما انتهى إلى أبي أحمد ذلك، غلظ عليه ما نال الناس في أموالهم وتجاراتهم، فأمر بتعويضهم. وأخلف عليهم مثل الذي ذهب منهم، ورتب على فوهة النهر المعروف بنهر بيان، وهو الذي دخل القيروان فيه جيشاً قوياً لحراسته. قال أبو جعفر: ثم أنفذ الناجم جيشاً عليه القائد المعروف بصندل الزنجي، وكان صندل هذا - فيما ذكر - يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورؤوسهن ويقلبن تقليب الإماء، فإن امتنعت منهن امرأة لطم وجهها، ودفعها إلى بعض علوج الزنج يواقعها، ثم يخرجها بعد ذلك إلى سوق الرقيق فيبيعها بأوكس الثمن، فيسر الله تعالى قتله في وقعة جرت بينه وبين أبي العباس، أسر وأحضر بين يدي أبي أحمد، فشده كتافاً، ورماه بالسهم حتى هلك.

قال أبو جعفر: ثم ندب الناجم جيشاً آخر، وأمره أن يغير على طرف من أطراف عسكر أبي أحمد وهم غارون، فاستأمن

من ذلك الجيش زنخي مذكور، يقال له مهذب، كان من فرسان الزنج وشجعانهم، فأتي به إلى أبي أحمد وقت إفطاره، فأعلمه أنه جاء راجباً في الطاعة والأمان، وأن الزنج على العبور في ساعتهم تلك إلى عسكره للبيات، وأن المندوبين لذلك أنجأهم وأبطأهم، فأمر أبو أحمد أبا العباس ابنه أن ينهض إليهم في قواد عينهم له، فنهضوا، فلما أحس ذلك الجيش بأنهم قد نذروا بهم، وعرفوا استئمان صاحبهم، رجعوا إلى مدينتهم.

قال أبو جعفر: ثم أن الناجم ندب أجل قواده وأكبرهم قدراً عنده، وهو علي بن أبان المهلي، وانتخب له أهل البأس والجلد، وأمره أن يبيت عسكر أبي أحمد، فعبر في زهاء خمسة آلاف رجل، أكثرهم الزنج، وفيهم نحو مائتي قائد من مذكور يهم وعظمائهم، فعبر ليلاً إلى شرقي دجلة، وعزموا على أن يفترقوا قسمين: أحدهما خلف عسكر أبي أحمد والثاني أمامه، ويغير الذين أمامه على أصحاب أبي أحمد، فإذا ثاروا إليهم، واستعرت الحرب، أكب أولئك الذين من وراء العسكر على من يليهم، وهم مشاغيل بحرب من يزائهم. وقدر الناجم وعلي بن أبان أن يتهياً لهما من ذلك ما أحبا، فاستأمن منهم إلى أبي أحمد غلام كان معهم من الملاحين ليلاً، فأخبره خبرهم، وما اجتمعت عليه آراؤهم، فأمر ابنه أبا العباس والغلمان والقواد بالحذر والاحتياط والجد، وفرقهم في الجهتين المذكورتين.

فلما رأى الزنج أن تدبيرهم قد انتقض، وأنه قد فطن لهم ونذر بهم، كروا راجعين في الطريق الذي أقبلوا فيه، طالبين التخلص. فسبقهم أبو العباس وزيرك إلى فوهة النهر ليمنعوهم من عبوره، وأرسل أبو أحمد غلامه الأسود الزنخي الذي يقال له ثابت - وكان له قيادة على السودان الذين بعسكر الموفق - فأمره أن يعترضهم، ويقف لهم في طريقهم بأصحابه، فأدركهم وهو في خمسمائة رجل، فواقعهم وشد عضده أبو العباس وزيرك بمن معهم، فقتل من الزنج أصحاب الناجم خلق كثير، وأسر منهم كثير، وأفلت الباقيون فلحقوا بمدينتهم، وانصرف أبو العباس بالفتح وقد علق رؤوس الزنج في الشذا وصلب الأسارى أحياء فيها، فاعترضوا بهم مدينتهم ليرهبوا أصحابهم، فلما رأوهم رعبوا وانكسروا. واتصل بأبي أحمد أن الناجم موه على أصحابه، وأوهم أن الرؤوس المرفوعة مثل مثلها لهم أبو أحمد ليراعوا، وأن الأسارى من المستأمنة. فأمر أبو أحمد عند ذلك بجمع الرؤوس والمسير بها إلى إزاء قصر الناجم، والقذف بها في منحنق منصوب في سفينة إلى عسكره، ففعل ذلك، فلما سقطت الرؤوس في مدينتهم، عرف أولياء القتلى رؤوس أصحابهم، فظهر بكاؤهم وصراخهم.

قال أبو جعفر: وكانت لهم وقعات كثيرة بعد هذه، في أكثرها ينهزم الزنج ويظفر بهم، وطلب وجوههم الأمان، فكان ممن استأمن محمد بن الحارث القائد، وإليه كان حفظ النهر المعروف بمنكى، والسور الذي يلي عسكر أبي أحمد، كان خروجه ليلاً مع عدة من أصحابه، فوصله أبو أحمد بصلات كثيرة، وخلع عليه، وحمله على عدة دواب بحليتها وآلاتها، وأسنى له الرزق.

وكان محمد هذا حاول إخراج زوجته معه وهي إحدى بنات عمه فعجزت المرأة عن اللحاق به، فأخذها الزنج فردوها إلى الناجم، فحبسها مدة، ثم أمر بإخراجها والنداء عليها في السوق، فبيعت.

ومن استأمن، القائد المعروف بأحمد البرذعي كان من أشجع رجالهم، وكان يكون أبداً مع المهلي.

وكان ممن استأمن مريداً القائد وبنكوبة وبيلوليه، فخلعت عليهم الخلع ووصلوا بالصلوات الكثيرة، وحملوا على الخيول المحلاة، وأحسن إلى كل من جاء معهم من أصحابهم.

قال أبو جعفر: فضاقت المير على الناجم وأصحابه، فندب شبلاً القائد وأبا الندى وهما من رؤساء قواده، وقدماء أصحابه الذين يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم وأمرهما بالخروج في عشرة آلاف من الزنج وغيرهم، والقصد إلى نهر الدير ونهر المارة ونهر أبي الأسد، والخروج من هذه الأنهار إلى البطيحة، والغارة على المسلمين وأهل القرى وقطع الطرقات، وأخذ جميع ما يقدرون عليه من الطعام والميرة وحمله إلى مدينته، وقطعه عن الوصول إلى عسكر أبي أحمد. فندب أبو أحمد لقصدهم مولاه زيرك في جيش كثيف، بعضه في الماء، وبعضه على الظهر، فواقعهم في الموضع المعروف بنهر عمر، فكانت بينه وبينهم حرب شديدة، أسفرت عن انكسارهم وخذلان الله لهم، فأخذ منهم أربعمئة سفينة وأسرى كثيرين، وأقبل بها وبهم، وبالرؤوس إلى عسكر أبي أحمد.

قال أبو جعفر: وندب أبو أحمد ابنه أبا العباس لقصد مدينة الناجم، والعلو عليها، فقصدوها من النهر المعروف بالغربي، وقد أعد الناجم به علي بن أبان المهلي، فاستعرت الحرب بين الفريقين، فأمد الناجم علياً بسليمان بن جامع في جمع كثير من قواد الزنج، واتصلت الحرب، واستأمن كثير من قواد الزنج إلى أبي العباس وامتدت الحرب إلى بعد العصر، ثم انصرف أبو العباس، فاجتاز في منصرفه بمدينة الناجم، وقد انتهى إلى الموضع المعروف بنهر الأتراك، فرأى في ذلك النهر قلة من الزنج الذين يحرسونه، فطمع فيهم، فقصد نحوهم، وصعد جماعة من أصحابه سور المدينة، وعليه فريق من الزنج، فقتلوا من أصابوا هناك، ونذر الناجم بهم، فأنجدهم بقواد من قواده، فأرسل أبو العباس إلى أبيه يستمده، فوافى من عسكر أبي أحمد من خف من الغلمان، فقوي بهم عسكر أبي العباس.

وقد كان سليمان بن جامع لما رأى أن أبا العباس قد أوغل في نهر الأتراك، صعد في جمع كثير من الزنج، ثم استدبر أصحاب أبي العباس وهم متشاغلون بحرب من يازائهم على سور المدينة، فخرج عليهم من ورائهم وخفقت طبولهم، فانكشف أصحاب أبي العباس وحملت الزنج عليهم من أمامهم، فأصيب في هذه الوقعة جماعة من غلمان أبي أحمد وقواده، وصار في أيدي الزنج عدة أعلام ومطارد، وحامى أبو العباس عن نفسه حتى انصرف سالماً، فأطمعت هذه الوقعة الزنج وأتباعهم، وشدت قلوبهم، فأجمع أبو أحمد على العبور بجيشه أجمع، وأمر بالاستعداد والتأهب، فلما تهيأ له ذلك عبر في آخر ذي الحجة من سنة سبع وستين، في أكثف جمع، وأكمل عدة، وفرق قواده على أقطار مدينة الناجم، وقصد هو بنفسه ركناً من أركانها، وقد كان الناجم حصنه بابنه الذي يقال له أنكلاي، وكف به علي بن أبان، وسليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمداني وحفه بالجانيق والعرادات والقسي الناوكية، وأعد فيه الناشبة، وجمع فيه أكثر جيشه، فلما التقى الجمع أمر أبو أحمد غلمان الناشبة والراحة والسودان بالدنو من هذا الركن، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك، وهو نهر عريض غزير الماء، فلما انتهوا إليه أحجموا عنه، فصيح بهم، وحرصوا على العبور، فعبروه سباحة، والزنج ترميهم بالجانيق والعرادات والمقاليع والحجارة عن الأيدي، والسهم عن قسي اليد، وقسي الرجل، وصنوف الآلات التي يرمى عنها، فصبروا على جميع ذلك حتى جاوزوا النهر وانتهوا إلى السور، ولم يكن لحقهم من الفعلة من كان

أعدده لهدمه. فتولى الغلمان تشييع السور بما كان معهم من السلاح، وشر الله تعالى ذلك، وسهلوا لأنفسهم السبيل إلى علوه، وحضرهم بعض السلاطين التي كانت اتخذت لذلك، فعلوا الركن ونصبوا عليه علماً عليه مكتوب: الموفق بالله، وأكبت عليهم الزنج، فحاربوا أشد حرب، وقتل من قواد أبي أحمد القائد المعروف بثابت الأسود، رمي بسهم في بطنه فمات، وكان من جلة القواد، وأحرق أصحاب الموفق ما على ذلك الركن من المنجنيقات والعرادات. وقصد أبو العباس بأصحابه جهة أخرى من جهات المدينة ليدخلها من النهر المعروف بمنكى، فعارضه علي بن أبان في جمع من الزنج، فظهر أبو العباس عليه، وهزمه، وقتل قوماً من أصحابه، وأفلت علي بن أبان المهلي راجعاً، وانتهى أبو العباس إلى نهر منكى وهو يرى أن المدخل من ذلك الموضع سهل، فوصل إلى الخندق، فوجده عريضاً منيعاً، فحمل أصحابه أن يعبروه فعبروه، وعبرته الرجالة سباحة، ووافوا السور فثلموا منه ثلثة واتسع لهم دخولها فدخلوا، فلقى أولهم سليمان بن جامع وقد أقبل للمدافعة عن تلك الناحية، فحاربوه وكشفوه، وانتهوا إلى النهر المعروف بابن سمعان، وهو نهر سيق بالمدينة، وصارت الدار المعروفة بدار ابن سمعان في أيديهم، فأحرقوا ما كان فيها وهدموها.

فوقفت الزنج على نهر ابن سمعان، وقوفاً طويلاً ودافعوا مدافعة شديدة، وشد بعض موالي الموفق على علي بن أبان فأدبر عنه هارباً فقبض على مئزره، فحلى على المئزر ونبذه إلى الغلام، ونجا بعد أن أشرف على الهلكة، وحمل أصحاب أبي أحمد على الزنج، فكشفوهم عن نهر ابن سمعان، حتى وافوا بهم طرف المدينة، وركب الناجم بنفسه في جمع من خواصه، فتلقاه أصحاب الموفق، فعرفوه وحملوا عليه، وكشفوا من كان معه حتى أفرد، وقرب منه بعض الرجالة حتى ضرب وجهه فرسه بترسه، وكان ذلك وقت غروب الشمس، وحجز الليل بينهم وبينه وأظلم، وهبت ريح شمال عاصف، وقوي الجزر، فلصق أكثر سفن الموفق بالطين، وحرّض الناجم أصحابه، فتاب منهم جمع كثير، فشدوا على سفن الموفق، فنالوا منها نيلاً، وقتلوا نفرًا، وصمد بمبوذ الزنجي لمسروور البلخي بنهر الغربي، فأوقع به، وقتل جماعة من أصحابه، وأسر أسرى، وصار في يده دواب من دوابهم، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفق، وقد كان هرب في هذا اليوم كثير من قواد صاحب الزنج، وتفرقوا على وجوههم نحو نهر الأمير وعبادان وغيرهما، وكان ممن هرب ذلك اليوم منهم أخو سليمان بن موسى الشعراي ومحمد وعيسى. فمضيا يؤمان البادية، حتى انتهى إليهما رجوع أصحاب الموفق، وما نيل منهم، فرجعا، وهرب جماعة من العرب الذين كانوا في عسكر الناجم، وصاروا إلى البصرة، وبعثوا يطلبون الأمان من أبي أحمد، فأمنهم، ووجه إليهم السفن، وحملهم إلى الموقية وخلع عليهم، وأجرى لهم الأرزاق والأنزال.

وكان ممن رغب في الأمان من قواد الناجم المعروف بريحان بن صالح المغربي، وكانت له رئاسة وقيادة، وكان يتولى حجة أنكلاني بن الناجم. فكتب ريحان يطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه، فأجيب إلى ذلك، وأنفذ إليه عدد كثير من الشذا والسميريات والمعاير مع زيرك القائد، صاحب مقدمة أبي العباس، فسللك نهر اليهودي إلى آخره، فألفى به ريحان القائد ومن كان معه من أصحابه، وقد كان الموعد تقدم منه في موافاة ذلك الموضع. فسار زيرك به وبهم إلى دار الموفق، فأمر لريحان بخلع جليلة، وحمل على عدة أفراس بآلتها وحليتها، وأجيز بجائزة سنوية، وخلع على أصحابه، واجيزوا على أقدارهم ومراتبهم، وضم ريحان إلى أبي العباس، وأمر بحمله وحمل أصحابه والمصير بهم إلى إزاء دار الناجم، فوقفوا

هناك في الشذا، عليهم الخلع الملونة بصنوف الألوان والذهب حتى عاينوهم مشاهدة، فاستأمن في هذا اليوم من أصحاب ريحان الذين كانوا تخلفوا عنه ومن غيرهم جماعة، فألحقوا في البر والإحسان بأصحابهم.

ثم استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجان في أول يوم من سنة ثمان وستين ومائتين، وكان أحد ثقات الناجم، ففعل به من الخلع والإحسان ما فعل بريحان، وحمل في سميرية حتى وقف بإزاء قصر الناجم، حتى يراه أصحابه، وكلمهم وأخبرهم أنهم في غرور من صاحبهم، وأعلمهم ما وقف عليه من كذبه وفجوره، فاستأمن في هذا اليوم خلق كثير من قواد الزنج وغيرهم، وتتابع الناس في طلب الأمان، وأقام أبو أحمد يحجم أصحابه، ويداوي جراحهم، ولا يحارب ولا يعبر إلى الزنج إلى شهر ربيع الآخر.

ثم عبر جيشه في هذا الشهر المذكور مرتباً على ما استصلحه من تفريقه في جهات مختلفة، وأمرهم بهدم سور المدينة، وتقدم إليهم أن يقتصروا على الهدم، ولا يدخلوا المدينة، ووكل بكل ناحية من النواحي التي وجه إليها قواده سفناً فيها الرماة، وأمرهم أن يحمو بالسهم من يهدم السور من الفعل، فثلثت في هذا اليوم من السور ثلث كثيرة، واقتحم أصحاب أبي أحمد المدينة من جميع تلك الثلث وهزموا من كان عليها من الزنج، وأوغلوا في طلبهم، واختلف بهم طرق المدينة، وتفرقت بهم السكك والفجاج، وانتهوا إلى أبعد من المواضع التي كانوا وصلوا إليها في المرة التي قبلها، فتراجعت إليهم الزنج، وخرج عليهم كمنائهم من نواح يهتدون إليها، ولا يعرفها جيش أبي أحمد، فتحير جيش أبي أحمد، فقتل منهم خلق كثير، وأصاب الزنج منهم أسلحة وأسلاباً، وأقام ثلاثون دليماً من أصحاب أبي أحمد يدافعون عن الناس ويحمونهم، حتى خلص إلى السفن من خلص، وقتلت الديالة عن آخرها، وعظم على الناس ما أصابهم في هذا اليوم، وانصرف أبو أحمد إلى مدينته الموقية، فجمع قواده، وعذلم على ما كان منهم من مخالفة أمره، والإفساد عليه في رأيه وتدبيره، وتوعدهم بأغلظ العقوبة إن عادوا لمثل ذلك، وأمر بإحصاء المقتولين من أصحابه، فأتي بأسمائهم، فأقر ما كان جارياً لهم على أولادهم وأهاليهم، فحسن موقع ذلك، وزاد في صحة نيات أصحابه، لما رأوا من حياطته خلف من أصيب في طاعته.

قال أبو جعفر: وشرع أبو أحمد في قطع الميرة عن مدينة الناجم من جميع الجهات، وقد كان يجلب إليهم من السمك الشيء العظيم من مواضع كثيرة، فمنع ذلك عنهم، وقتل القوم الذين كانوا يجلبونه، وأخذت عليهم الطرق، وانسد عليهم كل مسلك كان لهم، وأضر بهم الحصار، وأضعف أبدانهم وطالت المدة، فكان الأسير منهم يؤسر، والمستأمن يستأمن، فيسأل عن عهده بالخبز، فيقول: مذ سنة أو سنتين، واحتاج من كان منهم مقيماً في مدينة الناجم إلى الحيلة لقوته، ففارقوا في الأنهار النائية عن عسكريهم طلباً للقوت، وكثرت الأسارى منهم في عسكري أبي أحمد، لأنه كان يلتقطهم بأصحابه يوماً فيوماً، فأمر باعتراضهم لما رأى كثرتهم، فمن كان منهم ذا قوة وجلد ونهوض بالسلاح من عليه، وأحسن إليه، وخلطه بغلمان السودان، وعرفهم ما لهم عنده من البر والإحسان ومن كان منهم ضعيفاً لا حراك به، أو شيخاً فانياً لا يطيق حمل السلاح، أو مجروحاً جراحة قد أزمنت، أمر بأن يكسى ثوبين، ويوصل بدراهم، ويزود ويحمل إلى عسكري الناجم، فيلقى هناك بعد أن يوصى بوصف ما عاين من إحسان أبي أحمد إلى كل من يصير إليه، وأن ذلك رأيه في جميع

من يأتيه مستأمناً، أو يأسره، فتهدى له بذلك ما أراد من استمالة الزنج، حتى استشعروا الميل إلى ناحيته، والدخول في سلمه وطاعته.

قال أبو جعفر: ثم كانت الوقعة التي قتل فيها بهبوذ الزنجي القائد وجرح أبو العباس، وذلك أن بهبوذ كان أكثر أصحاب الناجم غارات، وأشدّهم تعرضاً لقطع السبل، وأخذ الأموال، وكان قد جمع من ذلك لنفسه مالاً جليلاً، وكان كثير الخروج في السميريات الخفاف، فيحترق بها الأنهار المؤدية إلى دجلة، فإذا صادف سفينة لأصحاب أبي أحمد أخذها واستولى على أهلها، وأدخلها النهر الذي خرج منه، فإن تبعه تابع حتى توغل في طلبه، خرج عليه من ذلك النهر قوم من أصحابه، قد أعدهم لذلك، فأقطعوه وأوقعوا به. فوقع التحرز حينئذ منه، والاستعداد لغاراته، فركب شذاة، وشبهها بشذوات أبي أحمد، ونصب عليها علماً مثل أعلامه، وسار بها ومعه كثير من الزنج، فأوقع بكثير من أصحاب أبي أحمد، وقتل وأسر. فندب له أبو أحمد ابنه أبا العباس في جمع كثير، فكانت بينهما وقعة شديدة، ورمى فيها أبو العباس بسهم فأصابه، وأصاب بهبوذ طعنة في بطنه من يد غلام من بعض سميريات أبي العباس، فهوى إلى الماء، فابتدره أصحابه، فحملوه ورجعوا به إلى عسكر الناجم، فلم يصلوا به إلا وهو ميت، فعظمت الفجيعة به على الناجم وأوليائه، واشتد عليه جزعهم، وخفي موته على أبي أحمد، حتى استأمن إليه رجل من الملاحين، فأخبره بذلك، فسر، وأمر بإحضار الغلام الذي طعنه، فوصله وكساه وطوقه، وزاد في رزقه. وأمر لجميع من كان في تلك السميرية بصلات وخلع، وعولج أبو العباس من جرحه مدة حتى برأ، وأقام أبو أحمد في مدينته الموقية ممسكاً عن حرب الزنج، محاصراً لهم بسد الأنهار وسكرها، واعترض من يخرج منهم لجلب الميرة، ومنتظراً براء ولده، حتى كمل بعد شهور كثيرة، وانقضت سنة ثمان وستين. ونقل إسحاق بن كنداجيق عن البصرة وأعمالها، فولي الموصل والجزيرة وديار ربيعة وديار مضر. ودخلت سنة تسع وستين وأبو أحمد مقيم على الحصار، فلما أمن على أبي العباس، وركب على عادته، عاود النهوض إلى حرب الناجم.

قال أبو جعفر: وقد كان بهبوذ لما هلك طمع الناجم في أمواله لكثرتها ووفورها، وصح عنده أنه ترك مائتي ألف ديف عينا، ومن الجواهر وغيرها بمثل ذلك، فطلب المال المذكور بكل حيلة، وحبس أولياء بهبوذ وقرابته وأصحابه، وضربهم بالسياط، وأثار دوراً من دورهم، وهدم أبنية من أبنيتهم، طمعاً في أن يجد في شيء منها دفيناً، فلم يجد من ذلك شيئاً، فكان فعله هذا أحد ما أفسد قلوب أصحابه عليه، ودعاهم إلى الهرب منه، والزهد في صحبتته، فاستأمن منهم إلى أبي أحمد خلق كثير، فوصلهم وخلع عليهم، ورأى أن يعبر دجلة من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي، فيجعل لنفسه هناك معسكراً، ويبني به مدينة أخرى، ويضيق خناق الناجم، ويتمكن من مغاداته ومراوحتة بالحرب، فقد كانت الريح العاصف تحول بينه وبين عبور دجلة في كثير من الأيام بالجيش، فأمر بقطع النخل المقارب لمدينة الناجم لذلك، وإصلاح موضع يتخذه معسكراً، وأن يحف بالخنادق، ويحصر بالسور ليأمن بيات الزنج، وجعل على قواده نواب لذلك، ومعهم الفعلة والرجال، فقابل الناجم ذلك، بأن جعل علي بن أبان المهلي وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمداني نواباً للحرب والمدافعة عن ذلك، وكان أنكلاني بن الناجم ربما حضر في نوبة أيضاً، وضم إليه سليمان بن موسى بن الشعراي، وقد

كان صار إليه من المذار بعد الوقعة التي انهزم فيها، وعلم الناجم أن أبا أحمد إذا جاوره صعب أمره، وقرب على من يريد اللحاق به من الزنج المسافة مع ما يدخل قلوب أصحابه بمجاورته من الرعب والرغبة، وفي ذلك انتقاض تدبيره، وفساد جميع أموره، فكانت الحرب بين قواد أبي أحمد وقواد الناجم متصلة، على إصلاح هذا الموضع، ومدافعة الزنج عنه.

واتفق أن عصفت الرياح يوماً وجماعة من قواد أبي أحمد بالجانب الغربي للعمل الذي يريدونه، فانتهاز الناجم الفرصة في امتناع العبور بدجلة، لعصف الرياح، فرماهم بجميع جيشه، وكاثرهم برجله، فلم تجد الشدوات التي مع قواد أبي أحمد سبيلاً إلى الوقوف بحيث كانت واقفة به، لحمل الرياح إياها على الحجارة، وخوف أصحابها عليها من التكسر، ولم يجدوا سبيلاً إلى العبور في دجلة، لشدة الرياح واضطراب الأمواج، فأوقعت الزنج بهم، فقتلوه عن آخرهم، وأفلت منهم نفر، فعبروا إلى الموقية، فاشتد جزع أبي أحمد وأصحابه لما نالهم ولما تقيأ للزنج عليهم، وعظم بذلك اهتمامهم. وتعقب أبو أحمد الرأي، فرأى أن نزوله ومقامه بالجانب الغربي، مجاور مدينة الناجم خطأ، وأنه لا يؤمن منه حيلة، وانتهاز فرصة فيوقع بالعسكر بيئاتاً، أو يجد مساعاً إلى ما يكون له قوة، لكثيرة الأدغال في ذلك الموضع، وصعوبة المسالك، وإن الزنج على التوغل في تلك المواضع الوعرة الموحشة أقدر وهو عليهم أسهل من أصحابه، فانصرف عن رأيه في نزول الجانب الغربي، وصرف همه وقصده إلى هدم سور مدينة الناجم، وتوسعة الطريق والمسالك لأصحابه في دخولها، فندب القواد لذلك، وندب الناجم قواده للمدافعة عنها، وطال الأمد، وتمادت الأيام.

فلما رأى أبو أحمد تحاشد الزنج وتعاونهم على المنع من هدم السور، أزمع على مباشرة ذلك بنفسه، وحضوره إياه، ليستدعي بذلك جد أصحابه واجتهادهم، ويزيد في عنايتهم وهمهم، فحضر بنفسه، واتصلت الحرب، وغلظت على الفريقين، وكثر القتل والجراح في الحزبين، وأقام أبو أحمد أياماً كثيرة يغاديهما الحرب ويرأوهم، فكانوا لا يفترون يوماً من الأيام، وصعب على أصحاب أبي أحمد ما كانوا يرومونه، واشتدت حماية الزنج عن مدينتهم، وباشر الناجم الحرب بنفسه، ومعه نخبة أصحابه وأبطالهم، والمؤمنون أنفسهم على الصبر معه، فحاموا جهدهم، حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحداً منهم السهم أو الطعنة أو الضربة فيسقط، فيجذبه الذي إلى جانبه، فينحيه، ويقف موقفه إشفاقاً من أن يخلو موقف رجل منهم، فيدخل الخلل عليهم.

واتفق في بعض الأيام شدة ضباب ستر بعض الناس عن بعض، فما يكاد الرجل يبصر صاحبه، وظهر أصحاب أبي أحمد، ولاحت تباشير الفتح، ودخل الجند إلى المدينة وولجوها، وملكوا مواضع منها، وإنهم لعلى ذلك، حتى وصل سهم من سهام الزنج إلى أبي أحمد، رماه به رومي كان مع الناجم، يقال له قرطاس، فأصابه في صدره وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين. فستر أبو أحمد وخواصه ما ناله من ذلك عن الناس، وانصرف إلى الموقية آخر نهار يومه هذا، فعولج في ليلته تلك وشدت الجراحة، وغدا على الحرب على ما ناله من ألمها ليشد بذلك قلوب أصحابه من أن يدخلها وهن أو ضعف، فزاد في قوة علته، بما حمل على نفسه من الحركة، فغلظت وعظم أمرها، حتى خيف عليه العطب، واحتاج إلى علاج نفسه بأعظم ما يعالج به الجراح، واضطرب لذلك العسكر والجند والرعية، وخافوا قوة الزنج عليهم، حتى خرج عن الموقية جماعة من التجار كانوا مقيمين بها لما وصل إلى قلوبهم من الرعبة.

قال أبو جعفر: وحدثت على أبي أحمد في حال صعوبة علقته، حادثة في سلطانه وأمر متعلقة بما بينه وبين أخيه المعتمد، فأشار عليه مشيرون من أصحابه وثقاته بالرحلة عن معسكره إلى بغداد، وأن يخلف من يقوم مقامه، فأبى ذلك، وحاذر أن يكون فيه تلافي ما قد فرق من شمل صاحب الزنج، فأقام على صعوبة علقته، وغلظ الأمر الحادث في سلطانه وصبر إلى أن عوفي، فظهر لقواده وخاصته، وقد كان أطال الاحتجاج عنهم، فقويت برؤيته منتهم، وأقام متماثلاً مودعاً نفسه إلى شعبان من هذه السنة، فلما أبل وقوي على الركوب والنهوض، نهض وعاود ما كان مواظباً عليه من الحرب، وجعل الناجم لما صح عنده الخبر بما أصاب أبا أحمد يعد أصحابه العدا، ويمنيهم الأمان، واشتدت شوكتهم، وقويت آمالهم، فلما اتصل به ظهور أبي أحمد، جعل يخلف للزنج على منبره، أن ذلك باطل لا أصل له، وأن الذي رأوه في الشذا مثال موه وشبه عليهم.

قلت: الحادث الذي حدث على أبي أحمد من جهة سلطانه، أن أخاه المعتمد، وهو الخليفة يومئذ، فارق دار ملكه، ومستقر خلافته مغاضباً له متجنياً عليه، زاعماً أنه مستبد بأموال المملكة وجبايتها، مضطهد له مستأثر عليه، فكاتب ابن طولون صاحب مصر، وسأله أن يأذن له في اللحاق به، فأجاب ابن طولون إلى ذلك، فخرج من سامراء في جماعة من قواده ومواليه، قاصداً مصر. وكان أبو أحمد هو الخليفة في المعنى، وإنما المعتمد صورة خالية من معاني الخلافة، لا أمر له ولا نهي، ولا حل ولا عقد، وأبو أحمد هو الذي يرتب الوزراء والكتاب، ويقود القواد، ويقطع الأقطاع، ولا يراجع المعتمد في شيء من الأمور أصلاً، فاتصل به خبر المعتمد في شخوصه عن سامراء، وقصده ابن طولون، فكاتب إسحاق بن كنداجيق وهو يومئذ على الموصل والجزيرة، فأمره أن يعترض المعتمد، ويقبض عليه وعلى القواد والموالي الذين معه ويعيدهم إلى سامراء، وكتب لإسحاق بإقطاعه ضياع أولئك القواد والموالي بأجمعهم، فاعترضهم إسحاق، وقد قربوا من الرقة، فأخذهم وقبض عليهم، وقيدهم بالقيود الثقيلة، ودخل على المعتمد فعنفه، وهجنه وعذله في شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه، ومفارقة أخيه على الحال التي هو بها، وحرب من يحاول قتله، وقتل أهل بيته وزوال ملكهم. ثم حملهم في قيودهم حتى وافى بهم سامراء، فأقر المعتمد على خلافته، ومنعه عن الخروج، وأرسل أبو أحمد ابنه هارون، وكاتبه صاعد بن مخلد من الموفقية إلى سامراء فخلعوا على ابن كنداجيق، خلعاً جليلاً، وقلد بسيفين من ذهب، ولقب ذا السيفين، وهو أول من قلد بسيفين، ثم خلع عليه بعد ذلك بيوم قباء ديباج أسود، ووشاحين مرصعين بالجواهر الثمين، وتوج بتاج من ذهب مرصع بنفيس الجواهر، وقلد سيفاً من ذهب مرصع بالجواهر العظيمة، وشيعة إلى منزله هارون وصاعد، وقعدا على طعامه، كل ذلك مكافأة له عن صنيعه في أمر المعتمد. فليعجب المتعجب من همة الموفق أبي أحمد، وقوة نفسه، وشدة شكيمته! أن يكون بإزاء ذلك العدو، ويقتل من أصحابه كل وقت من يقتل، ثم يصاب ولده بسهم، ويصاب هو بسهم آخر في صدره يشارف منه على الموت، ويحدث من أخيه وهو الخليفة ما يحدث، ولا تنكسر نفسه ولا يهي عزمه، ولا تضعف قوته. وبحق ما سمي المنصور الثاني! ولولا قيامه في حرب الزنج، لانقرض ملك أهل بيته، ولكن الله تعالى ثبته لما يريده من بقاء هذه الدولة.

قال أبو جعفر: ثم جد الموفق في تخريب السور، وإحراق المدينة، وجد الناجم في إعداد المقاتلة والمحاطة عن سور ومدينته،

فكانت بين الفريقين حروب عظيمة تجل عن الوصف، ورمى الناجم سفن الموفق المقاربة لسور مدينته بالرصاص المذاب، والجانيق والعرادات، وأمر أبو أحمد بإعداد ظلة من خثب للشذا وإلباسها جلود الجواميس، وتغطية ذلك بالخيوش المطلية بصنوف العقاقير والأدوية التي تمنع النار من الإحراق، ففعل ذلك، وحورب صاحب الزنج من تحتها، فلم تعمل ناره ورصاصه المذاب فيها شيئاً، واستأمن إلى أبي أحمد محمد بن سمعان، كاتب الناجم ووزيره في شعبان من هذه السنة، فهدى باستثمانه أركان الناجم، وأضعف قوته، وانتدب أبو العباس لقصد دار محمد بن يحيى الكرنبائي، وكانت بإزاء دار الناجم، وشرع في الحيلة في إحراقها، وأحرق الموفق كثيراً من الرواشين المظلة على سور المدينة وشعثها، وعلا غلمان أبي أحمد على دار الناجم وولجوها وانتهبوها، وأضرمو النار فيها، وفعل أبو العباس بدار الكرنبائي مثل ذلك، وجرح أنكلاني بن الناجم في بطنه جراحة شديدة، أشفى منها على التلف، واتفق مع هذا الظفر العظيم أن غرق أبو حمزة نصير صاحب جيش الماء عند ازدحام الشذوات وإكباب الزنج كلى الحرب، فصعب ذلك على أبي أحمد، وقوي بغرقه أمر الزنج، وانصرف أبو أحمد آخر نهار هذا اليوم، وعرضت له علة أقام فيها بقية شعبان وشهر رمضان، وأياماً من شوال ممسكاً عن حرب الزنج، إلى أن استبل من علته.

قال أبو جعفر: فلما أحرقت دار الناجم ودور أصحابه، وشارف أن يؤخذ، وعرضت لأبي أحمد هذه العلة، فأمسك فيها عن الحرب، انتقل الناجم من مدينته التي بناها بغربي نهر أبي الخصيب إلى شرقيه إلى منزل وعمر لا يخلص إليه أحد لاشتباك القصب والأدغال والأحطاب فيه، وعليه خنادق من أنهار قاطعة معترضة، فقطن هناك في خواصه ومن تخلف معه من جلة أصحابه وثقاته، ومن بقي في نصرته من الزنج، وهم حدود عشرين ألف مقاتل، وانقطعت الميرة عنهم، وبان للناس ضعف أمرهم، فتأخر الجلب الذي كان يصل إليهم، فبلغ الرطل من خبز البر عندهم عشرة دراهم، فأكلوا الشعير، ثم أكلوا أصناف الحبوب، ثم لم يزل الأمر كذلك إلى أن كانوا يتبعون الناس، فإذا خلا أحد منهم بصبي أو امرأة أو رجل ذبحوه وأكلوه. ثم صار قوي الزنج يعدو على ضعيفهم، فإذا خلا به ذبحه وأكل لحمه، ثم ذبحوا أولادهم، فأكلوا لحومهم، وكان الناجم لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئاً من ذلك إلا بالحبس، وإذا تطاول حبسه أطلقه.

ولما أبل الموفق من علته، وعلم انتقال الناجم إلى شرقي نهر أبي الخصيب واعتصامه به، أعمل فكره في تخريب الجانب الشرقي عليه، كما فعل بالجانب الغربي، ليتمكن من قتله أو أسره، فكانت له آثار عظيمة من قطع الأدغال والدحال وسد الأنهار، وطم الخنادق، وتوسيع المسالك وإحراق الأسوار المبنية، وإدخال الشذا، وفيها المقاتلة إلى حریم الناجم، وفي كل ذلك يدافع الزنج عن أنفسهم بحرب شديدة، وقتال عظيم تذهب فيها النفوس، وتراق فيها الدماء، وكان الظفر في ذلك كله لأبي أحمد، وأمر الزنج يزداد ضعفاً وطالت الأيام على ذلك، إلى أن استأمن سليمان بن موسى الشعرائي، وهو من عظمائهم، وقد تقدم ذكره، فوجه يطلب الأمان من أبي أحمد، فمنعه ذلك لما كان لسلف منه من العيث وسفك الدماء بنواحي واسط.

ثم اتصل بأبي أحمد أن جماعة من رؤساء الزنج قد استوحشوا لمنعه الشعرائي من الأمان، فأجاب إلى إعطائه الأمان استصلاحاً بذلك غيره من رؤساء الزنج، وأمر بتوجيه الشذا إلى موضع وقع الميعاد عليه، فخرج سليمان الشعرائي وأخوه،

وجماعة من قواده، فزلوا الشذا، فصاروا إلى أبي العباس، فحملهم إلى أبي أحمد، فخلع على سليمان ومن معه، وحمله على عدة أفراس بسروجها وآلتها، وأنزل له ولأصحابه أنزلاً سنياً، ووصله بمال جليل، ووصل أصحابه، وضمه وضمهم إلى أبي العباس، وأمر بإظهاره وإظهارهم في الشذا لأصحاب الناجم، ليزدادوا ثقة بأمانته، فلم ترح الشذا ذلك اليوم من وضعها، حتى استأمن جمع كثير من قواد الزنج، فوصلوا والحقوا بإخوانهم في الحباء والبر والخلع، والجوائز، فلما استأمن الشعراي اختل ما كان الناجم قد ضبطه به من مؤخر عسكره، وقد كان جعله على مؤخر نهر أبي الخصيب، فوهى أمره وضعف، وقلد ما كان سليمان يتولاه القائد المعروف بشبل بن سالم وهو من قواده المشهورين فلم يمس أبو أحمد حتى وافاه رسول شبل بن سالم يطلب الأمان، ويسأل أن يوقف له شذوات عند دار ابن سمعان، ليكون قصده في الليل إليها، ومعه من يثق به من أصحابه، فأجيب إلى سؤاله، ووافى آخر الليل ومعه عياله وولده، وجماعة من قواده، فصاروا إلى أبي أحمد، فوصله بصلة جلييلة، وخلع عليه خلعاً كثيرة، وحمله على عدة أفراس بسروجها وآلتها، ووصل أصحابه، وخلع عليهم، وأحسن اليهم، وأرسله في الشذوات، فوقفوا بحيث يراهم الناجم وأصحابه نهاراً، فعظم ذلك عليه وعلى أوليائه، وأخلص شبل في مناصحة أبي أحمد، فسأل أن يضم إليه عسكرياً يبيت به عسكر الناجم، ويسلك إليه من مسالك يعرفها هو ولا يعرفها أصحاب أبي أحمد، ففعل وكبس عسكر الناجم سحراً، فأوقع بهم وهم غارون، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر جمعاً من قواد الزنج وانصرف بهم إلى الموفق، وذعر الزنج من شبل وما فعله، فامتنعوا من النوم، وخافوا خوفاً شديداً، فكانوا يتحارسون بعد ذلك في كل ليلة، ولا تزال النفرة تقع في عسكرهم، لما استشعروا من الخوف، ووصل إلى قلوبهم من الوحشة، حتى لقد كان ضجيجهم وتحارسهم يسمع بالموفقية.

وصح عزم الموفق على العبور لمحاربة الناجم في الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، فجلس مجلساً عاماً، وأمر بإحضار قواد المستأمنة ووجوه فرسانهم ورجالهم من الزنج والبيضان فأدخلوا إليه، فخطبهم وعرفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل، وانتهاك المحارم، وما كان صاحبهم زينه لهم من معاصي الله سبحانه، وأن ذلك قد كان أحل له دماءهم، وأنه قد غفر الزلة وعفا عن العقوبة، وبذل الأمان، وعاد على من لجأ إليه بالفضل والإحسان. فأجزل الصلات، وأسنى الأرزاق، وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة، وأن ما كان منه من ذلك يوجب عليهم حقه وطاعته، وأهم لن يأتوا بشيء يتعرضون به لطاعة ربهم، والاستدعاء لرضا سلطانهم أولى بهم من الجد في مجاهدة الناجم وأصحابه، وأهم من الخبرة بمسالك عسكر الناجم ومضاييق طرق مدينته، والمعقل التي أعدها للحرب على ما ليس عليه من غيرهم، فهم أخرى أن يحضوه نصحتهم، ويجهدوا على الولوج إلى الناجم، والتوغل إليه في حصونه، حتى يمكنهم الله منه ومن أشياعه، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد، ومن قصر منهم استدعى من سلطانه إسقاط حاله، وتصغير منزلته ووضع مرتبته. فارتفعت أصواتهم جميعاً بالدعاء للموفق والإقرار بإحسانه، وبما هم عليه من صحة الضمائر من السمع والطاعة والجد في مجاهدة عدوه، وبذل دمائهم ومهجهم في كل ما يقربهم منه، وأن ما دعاهم إليه قد قوى منهم، ودلهم على ثقته بهم، وإحلاله إياهم محل أوليائه، وسألوه أن يفردهم ناحية، ولا يخلطهم بعسكره، ليظهر من حسن جهادهم بين يديه، وخلوص نياتهم في الحرب، ونكايتهم في العدو ما يعرف به طاعتهم، وإقلاعهم عما كانوا عليه من جهلهم.

فأجابهم إلى ذلك، وعرفهم حسن ما ظهر له من طاعتهم فخرجوا من عنده مبتهجين بما اجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد.

قال أبو جعفر: ثم استعد أبو أحمد ورتب جيشه، ودخل إلى عسكر الناجم بشرقي نهر أبي الخصيب في خمسين ألف مقاتل، من البر والبحر، فرساناً ورجالة، يكبرون ويهللون ويقرأون القرآن، ولهم ضجيج وأصوات هائلة. فرأى الناجم منهم ما هاله وتلقاهم بنفسه وجيشه، وذلك في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين. واشتبكت الحرب، وكثر القتل والجراح، وحامى الزنج عن صاحبهم وأنفسهم أشد محاماة، واستماتوا، وصبر أصحاب أبي أحمد، وصدقوا القتال، فمن الله عليهم بالنصر، وانهم الزنج، وقتل منهم خلق عظيم، وأسر منهم أسرى كثيرة، فضرب أبو أحمد أعناق الأسارى في المعركة، وقصد بنفسه دار الناجم، فوافاها وقد لجأ الناجم إليها، ومعه أجماد أصحابه للمدافعة عنه.

فلما لم يغنوا شيئاً أسلموها، وتفرقوا عنها، ودخلها غلمان الموفق، وبها بقايا ما كان سلم له من مال وأثاث، فأخذوه وانتهبوه، وأخذوا حرمه وولده الذكور والإناث، وتخلص الناجم بنفسه، ومضى هارباً نحو دار علي بن أبان المهلي، لا يلوي على أهل ولا ولد ولا مال، وأحرق داره، وحمل أولاده ونساؤه إلى الموفقية في التوكيل، وقصد أصحاب أبي أحمد دار المهلي، وقد لجأ إليهم الناجم وأكثر الزنج، وتشاغل أصحاب أبي أحمد بنهب الأموال من دور الزنج، فاغتنم الناجم تشاغلهم بالنهب، فأمر قواده بانتهاز الفرصة، والإكباب عليهم، فخرجوا عليهم من عدة مواضع، وخرج عليهم كمناة أيضاً قد كانوا كمنوهم لهم، فكشفوهم واتبعوهم حتى وافوا بهم نهر أبي الخصيب، فقتلوا من فرسانهم ورجالتهم جماعة، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوه من المال والمتاع.

ثم تراجع الناس، ودامت الحرب إلى وقت العصر، فرأى أبو أحمد عند ذلك أن يصرف أصحابه، فأمرهم بالرجوع فرجعوا على هدوء وسكون، كي لا تكون هزيمة، حتى دخلوا سفنهم، وأحجم الزنج عن اتباعهم، وعاد أبو أحمد بالجيش إلى مراكزهم.

قال أبو جعفر: ووافى إلى أبي أحمد في هذا الشهر كاتبه صاعد بن مخلد من سامراء في عشرة آلاف، ووافى إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون وكان إليه أمر الرقة وديار مصر في عشرة آلاف من نخبة الفرسان وأنجادهم، فأمر أبو أحمد لؤلؤاً أن يخرج في عسكره فيحارب الزنج، فخرج بهم ومعه من أصحاب أبي أحمد من يدلّه على الطرق والمضايق، فكانت بين لؤلؤ وبين الزنج حرب شديدة في ذي الحجة من هذه السنة، استظهر فيها لؤلؤ عليهم، وبان من نجدته وشجاعته وإقدام أصحابه، وصبرهم على ألم الجراح وثبات قلوبهم ماسر أبا أحمد وملاً قلبه.

قال أبو جعفر: فلما دخلت سنة سبعين ومائتين، تتابعت الأمداد إلى أبي أحمد من سائر الجهات، فوصل إليه أحمد بن دينار في جمع عظيم من المطوعة، من كور الأهواز ونواحيها، وقدم بعده من أهل البحرين جمع كثير من المطوعة زهاء ألفي رجل، يقودهم رجل من عبد القيس، وورد بعد ذلك زهاء ألف رجل من فارس، ورئيسهم شيخ من المطوعة يكنى أبا سلمة، وكان أبو أحمد يجلس لكل من يرد ويخلع عليه، ويقيم لأصحابه الأنزال الكثيرة، ويصلهم بالصلوات، فعظم

جيشه جداً، وامتألت بهم الأرض، وصح عزمه على لقاء الناجم بجميع عسكره، فرتب جيوشه، وقسمهم على القواد، وأمر كل واحد من القواد أن يقصد جهة من جهات معسكر الناجم عينها له، وركب بنفسه، وركب جيشه، وتوغلوا في مسالك شرقي نهر أبي الخصيب، ولقيهم الزنج، وقد حشدوا واستقبلوا، فكانت بينهم وقعة شديدة، منحهم الله تعالى فيها أكتاف الزنج، فولوا منهزمين، فاتبعهم أصحاب أبي أحمد يقتلون ويأسرون، فقتل منهم كثير، وغرق كثير، وحوى أصحاب أبي أحمد معسكر الناجم ومدينته، وظفروا بعيال علي بن أبان المهلي وداره وأمواله، فاحتوا عليها، وعبر أهله وأولاده إلى الموفقية مع كلابهم، ومضى الناجم ومعه المهلي وابنه أنكلاني، وسليمان بن جامع، والهمداني وجماعة من أكابر القواد، عامدين إلى موضع كان الناجم قد أعدده لنفسه ملجأ إذا غلب على مدينته وداره في النهر المعروف بالسفلياني. فتقدم أبو أحمد ومعه لؤلؤ قاصدين هذا النهر، لأن أبا أحمد دل عليه، فأوغل في الدخول وفقده أصحابه، فظنوا أنه رجع، فرجعوا كلهم، وعبروا دجلة في الشذا ظانين أنه عبر راجعاً، وانتهى أبو أحمد ومعه لؤلؤ، قاصدين هذا النهر، فاقتحمه لؤلؤ بفرسه، وعبر أصحاب لؤلؤ خلفه. ووقف أبو أحمد في جماعة من أصحابه عند النهر، ومضى الناجم هارباً، ولؤلؤ يتبعه في أصحابه، حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريري، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه، فأوقعوا به وبمن معه فكشفوهم، فولوا هاربين حتى عبروا النهر المذكور، ولؤلؤ وأصحابه يطردونهم من ورائهم، حتى الجأوهم إلى نهر آخر، فعبروه واعتصموا بدحال وراءه، فولوجوا، وأشرف لؤلؤ وأصحابه عليها فأرسل إليه الموفق ينهاه عن اقتحامها، ويشكر سعيه، ويأمره بالانصراف، فانفرد لؤلؤ هذا اليوم وأصحابه بهذا الفعل، دون أصحاب الموفق، فانصرف لؤلؤ محمود الفعل، فحمله الموفق معه في شذاته وجدد له من البر والكرامة ورفع المتزلة لما كان منه في أمر الناجم، حسبما كان مستحقاً له، ولهذا نادى أهل بغداد لما أدخل إليهم رأس الناجم بين يدي أبي العباس: ما شئتم قولوا، كان الفتح للؤلؤ.

قال أبو جعفر: فجمع الموفق في غد هذا اليوم قواده وهو حنق عليهم لانصرافهم عنه، وإفرادهم إياه، وكان لؤلؤ وأصحابه تولوا طلب الناجم دونهم، فعنفهم وعذلم ووبخهم على ما كان منهم، وعجزهم وأغلظ لهم، فاعتذروا إليه بما توهموه من انصرافه، وأنهم لم يعلموا أنه قد لجج وأوغل في طلب الناجم، وأنهم لو علموا ذلك لأسرعوا نحوه.

ثم تحالفوا بين يديه، وتعاهدوا ألا يبرحوا في غد موضعهم إذا توجهوا نحو الزنج، حتى يظفرهم الله تعالى به، فإن أعياهم ذلك أقاموا حيث انتهى بهم النهار في أي موضع كان حتى يحكم الله بينهم وبينه. وسألوا الموفق أن يرد السفن إلى الموفقية، بحيث لا يطمع طامع من العسكر في الالتجاء إليها والعبور فيها.

فقبل أبو أحمد عذرهم،. وجزاهم الخير عن تنصلهم، ووعدهم بالإحسان، وأمرهم بالتأهب للعبور، ثم عبر بهم على ترتيب ونظام قد أحكمه وقرره، وذلك في يوم السبت لليلتين خلتا من صفر من سنة سبعين ومائتين، وقد كان الناجم عاد من تلك الأنهار إلى معسكره بعد انصراف الجيش عنه، فأقام به، وأمل أن تتناول به وبهم الأيام، وتندفع عنه المناجزة، فلقى في هذا اليوم سرعان العسكر، وهم مغيطون محنقون من التقرع والتوبيخ اللاحقين بهم بالأمس، فأوقعوا به وبأصحابه وقعة شديدة، أزالوهم عن مواقعهم، ففرقوا لا يلوي بعضهم على بعض، واتبعهم الجيش يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم، وانقطع الناجم في جماعة من كماته من قواد الزنج، منهم المهلي، وفارقه ابنه أنكلاني وسليمان بن جامع،

فكانا في أول الأمر مجتمعين، ثم افترقا في الهزيمة، فصادف سليمان بن جامع قوم من قواد الموفق، فحاربوه وهو في جمع كثيف من الزنج، فقتل جماعة من كماته، وظفر به فأسر، وحمل إلى الموفق بغير عهد ولا عقد، فاستبشر الناس بأسر سليمان، وكثر التكبير والضجيج، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثر أصحابه غناء، وأسر بعده إبراهيم بن جعفر الهمداني، وكان من عظماء قواده وأكابر امراء جيوشه، وأسر نادر الأسود المعروف بالحفار، وهو من قدماء قواد الناجم، فأمر الموفق بتقييدهم بالحديد، وتصييرهم في شدة لأبي العباس، ومعهم الرجال بالسلاح، وجد الموفق في طلب الناجم، وأمعن في نهر أبي الخصب، حتى انتهى إلى آخره.

فبينما هو كذلك، أتاه البشير بقتل الناجم فلم يصدق، فوافاه بشير آخر، ومعه كف زعم أنهما كفه، فقوي الخبر عنده بعض القوة، فلم يلبث أن أتاه غلام من غلمان لؤلؤ يركض ومعه رأس الناجم، فوضعه بين يديه، فعرضه الموفق على من كان حاضراً تلك الحال معه من قواد المستأمنة، فعرفوه وشهدوا أنه رأس صاحبه، فخر ساجداً، وسجد ابنه أبو العباس، وسجد القواد كلهم شكراً لله تعالى، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، وأمر برفع الرأس على قناة، ونصبه بين يديه فرآه الناس، وارتفعت الأصوات والضجيج.

قال أبو جعفر: وقد قيل: إنه لما أحيط بالناجم، لم يبق معه من رؤساء أصحابه إلا المهلي، فلما علما أنهما مقتولان افترقا، فوقف الناجم حتى وصل إليه هذا الغلام ومعه جماعة من غلمان لؤلؤ، فمانع عن نفسه بسيفه حتى عجز عن الممانعة، فأحاطوا به وضربوه بسيوفهم حتى سقط، ونزل هذا الغلام فاحتز رأسه، وأما المهلي فإنه قصد النهر المعروف بنهر الأمير، فقذف بنفسه يروم النجاة، وقبل ذلك كان ابن الناجم وهو المعروف بأنكلاي فارق أباه، ومضى يؤم النهر المعروف بالديناري، متحصناً فيه بالأدغال والآجام، فلم يظفر بهما ذلك اليوم، ودل الموفق عليهما بعد ذلك.

وقيل له: إن معهما جمعاً من الزنج وجماعة من حلة قوادهم، فأرسل غلماناً في طلبهما، وأمرهم بالتضييق عليهما، فلما أحاطت الغلمان بهم أيقنوا أن لا ملجأ لهم، وأعطوا بأيديهم. فظفر بهم الغلمان، وحملوهم إلى الموفق، فقتل منهم جماعة، وأمر بالاستيثاق من المهلي وأنكلاي بالحديد والرجال الموكلين بهما.

قال أبو جعفر: وانصرف في هذا اليوم وهو يوم السبت، لليلتين خلتا من صفر أبو أحمد من نهر أبي الخصب، ورأس الناجم منصوب بين يديه على قناة في شدة يخرق به في النهر، والناس من جانبي النهر ينظرون إليه حتى وافى دجلة، فخرج إليها، والرأس بين يديه، وسليمان بن جامع والهمداني مصلوبان أحياء في شداتين عن جانبيه، حتى وافى قصره بالموفقية. هذه رواية أبي جعفر وأكثر الناس عليها.

وذكر المسعودي في كتاب مروج الذهب أن الناجم ارتث، وحمل إلى أبي أحمد وهو حي، فسلمه إلى ابنه أبي العباس، وأمر بتعذيبه، فجعله كردناجاً على النار وجلده ينتفخ، ويتفرقع حتى هلك.

والرواية الأولى هي الصحيحة، والذي جعل كردناجاً هو قرطاس الذي رمى أبا أحمد بالسهم، ذكر ذلك التنوخي في نشوار المحاضرة، قال: كان الزنج يصيحون لما رمى أبو أحمد بالسهم، وتأخر لعلاج جراحته عن الحرب، ملحوه ملحوه، أي قد مات وأنتم تكتمون موته، فاجعلوه كاللحم المكسود.

قال: وكان قرطاس الرامي لأبي أحمد يصيح بأبي العباس في الحرب إذا أخذتني فاجعلني كردناجاً، يهزأ به.

قال: فلما ظفر به أدخل في دبره سيخاً من حديد، فأخرجه من فيه، وجعله على النار كدناجاً.

قال أبو جعفر: ثم تتابع مجيء الزنج إلى أبي أحمد في الأمان، فحضر منهم في ثلاثة أيام نحو سبعة آلاف زنجي، لما عرفوا قتل صاحبهم، ورأى أبو أحمد بذل الأمان لهم، كي لا يبقى منهم بقية يخاف معرفتها في الإسلام وأهله، وانقطعت منهم قطعة نحو ألف زنجي مالت نحو البر، فمات أكثرها عطشاً، وظفر الأعراب بمن سلم منهم، فاستزلوهم، وأقام الموفق بالموفقية، بعد قتل الناجم مدة، ليزداد الناس بمقامه أنساً وأماناً، وبتراجع أهل البلاد إليها، فقد كان الناجم أجلاهم عنها. وقدم ابنه أبو العباس إلى بغداد، ومعه رأس الناجم، فدخلها يوم السبت لاثني عشرة ليلة بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، ورأس الناجم بين يديه على قناة، والناس مجتمعون يشاهدونه.

وقد روى غير أبي جعفر، وذكره الآبي في مجموعته المسمى نثر الدرر عن العلاء بن صاعد بن مخلد، قال: لما حمل رأس صاحب الزنج ودخل به المعتضد إلى بغداد دخل في جيش لم ير مثله، واشتق أسواق بغداد، والرأس بين يديه، فلما صرنا بباب الطاق، صاح قوم من درب من تلك الدروب: رحم الله معاوية وزاد حتى علت أصوات العامة بذلك فتغير وجه المعتضد، وقال: ألا تسمع يا أبا عيسى! ما أعجب هذا! وما الذي اقتضى ذكر معاوية في هذا الوقت! والله لقد بلغ أبي إلى الموت وما أفلت أنا إلا بعد مشارفته، ولقينا كل جهد وبلاء، حتى أنجينا هؤلاء الكلاب من عدوهم، وحصنا حرمهم وأولادهم، فتركوا أن يترحموا على العباس وعبد الله ابنه ومن ولد من الخلفاء، وتركوا الترحم على علي بن أبي طالب، وحمزة وجعفر، والحسن والحسين، والله لا برحت أو أؤثر في تأديب هؤلاء أثراً لا يعاودون بعد هذا الفعل مثله! ثم أمر بجمع النفاطين ليحرق الناحية، فقلت له: أيها الأمير، أطال الله بقاءك! إن هذا اليوم من أشرف أيام الإسلام فلا تفسده بجهل عامة لا أخلاق لهم. ولم أزل أداريه وأرفق به حتى سار.

فأما الذي يرويه الناس من أن صاحب الزنج ملك سواد بغداد، ونزل بالمدائن، وأن الموفق أرسل إليه من بغداد عسكرياً، وأصبحهم دنان النبيذ، وأمرهم أن ينهزموا من بين يدي الزنج عند اللقاء، ويتركوا خيامهم وأثقالهم ليتنهبا الزنج وأنهم فعلوا ذلك، فظفر الزنج فيما ظفروا به من أمتعتهم بتلك الدنان، وكانت كثيرة جداً، فشربوا تلك الليلة وسكروا، وباتوا على غرة، فكبسهم الموفق وبيتهم ليلاً وهم سكارى، فأصاب منهم ما أراد فباطل موضوع لا أصل له، والذي بيتهم وهم سكارى فنال منهم نيلاً تكين البخاري، وكان على الأهواز بيت أصحاب علي بن أبان في سنة خمس وستين ومائتين، وقد أتاه الخبر بأنهم تلك الليلة قد عمل النبيذ فيهم، والصحيح أنه لم يتجاوز نهبهم ودخولهم البلاد النعمانية. هكذا رواه الناس كلهم.

قال أبو جعفر: فأما علي بن أبان وأنكلاي بن الناجم ومن أسر معهم، فإنهم حملوا إلى بغداد في الحديد والقيد، فجعلوا بيد محمد بن عبد الله بن طاهر، ومعهم غلام للموفق يقال له فتح السعيد، فكانوا كذلك إلى شوال من سنة اثنتين وسبعين ومائتين فكانت للزنج حركة بواسط، وصاحوا: أنكلاي، يامنصور! وكان الموفق يومئذ بواسط! فكتب إلى محمد بن عبد الله، وإلى فتح السعيد يأمرهما بتوجيه رؤوس الزنج الذين في الأسر إليه، فدخل فتح السعيد إليهم، فجعل يخرج الأول فالأول فيذبجه على البالوعة كما تذبج الشاة، وكانوا خمسة: أنكلاي بن الناجم، وعلي بن أبان المهلي،

وسليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمداني، ونادر الأسدي، وقلع رأس البالوعة وطرحت فيها أبدانهم، وسد رأسها، ووجه برؤوسهم إلى الموفق فنصبها بواسط، وانقطعت حركة الزنج، ويئس منهم.

ثم كتب الموفق إلى محمد بن عبد الله بن طاهر في جثث هؤلاء الخمسة، فأمر بصلبهم بحضرة الجسر، فأخرجوا من البالوعة، وقد انتفخوا وتغيرت روائحهم، وتقشرت جلودهم، فصلب اثنان منهم على جانب الجسر الشرقي وثلاثة على الجانب الغربي، وذاك لسبع بقين من شوال من هذه السنة، وركب محمد بن عبد الله بن طاهر، وهو أمير بغداد يومئذ بنفسه حتى صلبوا بحضرته.

وقد قال الشعراء في وقائع الزنج فأكثرُوا كالبحتري وابن الرومي وغيرهما، فمن أراد ذلك فليأخذه من مظانه.

الأصل: منها في وصف الأتراك: كأني أراهم قوماً كأن وجوههم المحان المطرقة، يلبسون السرق والدياج، ويعتقبون الخيل العتاق، ويكون هناك استحرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول، ويكون المفلت أقل من المأسور.

فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب! فضحك رضي الله عنه وقال للرجل وكان كلبياً: يا أخا كلب، ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم، وإنما علم الغيب علم الساعة، وما عدده الله سبحانه بقوله: "إن الله عنده علم الساعة ويزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت" الآية، فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام، من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل، وسخي أو بخيل، وشقي أو سعيد، ومن يكون للنار حطباً أو في الجنان للنبين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأله فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتضطم عليه جوانحي.

الشرح: المجان: جمع مجن بكسر الميم، وهو الترس، وإنما سمي مجناً، لأنه يستتر به، والجنة: السترة والجمع جنن، يقال استجن بجنة، أي استتر بسترته.

والمطرقة، بسكون الطاء: التي قد أطرق بعضها إلى بعض، أي ضمت طبقاتها، فجعل بعضها يتلو بعضاً، يقال: جاءت الإبل مطاريق، أي يتلو بعضها بعضاً. والنعل المطرقة: المخصوفة، وأطرقت بالجلد والعصب، أي ألبست، وترس مطرق، وطراق النعل: ما أطرقت وخرزت به. وریش طراق، إذا كان بعضه فوق بعض، وطارق الرجل بين الثوبين، إذا لبس أحدهما على الآخر، وكل هذا يرجع إلى مفهوم واحد وهو مظاهره الشيء بعضه بعضاً، ويروى، المجان المطرقة، بتشديد الراء، أي كالترسة المتخذة من حديد مطرق بالمطرقة.

والسرق: شقق الحرير، وقيل: لا تسمى سرقة إلا إذا كانت بيضاً، الواحدة سرقة.

ويعتقبون الخيل، أي يجنبونها لينتقلوا من غيرها إليها. واستحرار القتل: شدته، استحر وحر بمعنى، قال ابن الزبيري:

واستحر القتل في عبد الأشل

حيث ألفت بقاء بركها

والمفلت: الهارب.

يقول رضي الله عنه: إن الأمور المستقبلية على قسمين: أحدهما ما تفرد الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه،

وهي أمور الخمسة المعدودة في الآية المذكورة: "إن الله عنده علم الساعة ويزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت".

والقسم الثاني ما يعلمه بعض البشر بإعلام الله تعالى إياه، وهو ما عدا هذه الخمسة، والإخبار بملحمة الأتراك من جملة ذلك.

وتضطم عليه جوانحي: تفتعل من الضم، وهو الجمع، أي يجتمع عليه جوانح صدري، ويروى: جوارحي، وقد روي أن إنساناً قال لموسى بن جعفر رضي الله عنه: "إني رأيت الليلة في منامي أني سألتك: كم بقي من عمري، فرفعت يدك اليمنى، وفتحت أصابعها في وجهي مشيراً إلي، فلم أعلم خمس سنين، أم خمسة أشهر، أم خمسة أيام! فقال: ولا واحدة منهن، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التي استأثر الله تعالى بها في قوله: "إن الله عنده علم الساعة..." الآية. فإن قلت: لم ضحك رضي الله عنه لما قال له الرجل: "لقد أوتيت علم الغيب"، وهل هذا إلا زهو في النفس، وعجب بالحال!.

قلت: قد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك في مناسب هذه الحال، لما استسقى فسقى وأشرف درور المطر، فقام إليه الناس، فسألوه أن يسأل الله تعالى أن يحبس عنهم، فدعا، وأشار بيده إلى السحاب، فانجباب حول المدينة كالإكليل، وهو رضي الله عنه يخطب على المنبر، فضحك حتى بدت نواجذه، وقال: أشهد أني رسول الله، وسر هذا الأمر أن النبي أو الولي إذا تحدث عنده نعمة الله سبحانه، أو عرف الناس وجاهته عند الله، فلا بد أن يسر بذلك. وقد يحدث الضحك من السرور، وليس ذلك بمذموم إذا خلا من التيه والعجب، وكان محض السرور والابتهاج، وقد قال تعالى في صفة أوليائه: فرحين بما آتاهم الله من فضله".

فإن قلت: فإن من جملة الخمسة: "وما تدري نفس ماذا تكسب غداً"، وقد أعلم الله تعالى نبيه بأمر يكسبها في غده، نحو قوله ستفتح مكة، وأعلم نبيه وصيه رضي الله عنه بما يكسبه في غده، نحو قوله له: "ستقاتل بعدي الناكثين"، الخبر.

قلت: المراد بالآية أنه لا تدري نفس جميع ما تكسبه في مستقبل زمانها، وذلك لا ينفي جواز أن يعلم الإنسان بعض ما يكسبه في مستقبل زمانه.

جنكيز خان وفتنة التتر،

واعلم أن هذا الغيب الذي أخبر رضي الله عنه عنه قد رأيناه نحن عياناً، ووقع في زماننا، وكان الناس ينتظرونه من أول الإسلام، حتى ساقه القضاء والقدر إلى عصرنا، وهم التتار الذين خرجوا من أقاصي المشرق، حتى وردت خيلهم العراق والشام، وفعلوا بملوك الخطا وقفجاق، وبلاد ما وراء النهر وبخراسان وما والاها من بلاد العجم، ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله آدم إلى عصرنا هذا على مثله، فإن بابك الخرمي لم تكن نكايته وإن طالت مدته نحو عشرين سنة إلا في إقليم واحد وهو أذربيجان، وهؤلاء دوخوا المشرق كله، وتعدت نكايتهم إلى بلاد إرمينية وإلى الشام، ووردت خيلهم إلى العراق، وبخت نصر الذي قتل اليهود إنما أخرب بيت المقدس، وقتل من كان بالشام من بني إسرائيل، وأي نسبة بين من

كان بالبيت المقدس من بني اسرائيل إلى البلاد والأمصار التي أخرجها هؤلاء، وإلى الناس الذين قتلوهم من المسلمين وغيرهم!.

ونحن نذكر طرفاً من أخبارهم وابتداء ظهورهم على سبيل الاختصار، فنقول: إنا على كثرة اشتغالنا بالتواريخ وبالكتب المتضمنة أصناف الأمم، لم نجد ذكر هذه الأمة أصلاً، ولكننا وجدنا ذكر أصناف الترك، من القفجاق، واليمك، والبرلو، والتفريه، واليتبه، والروس، والخطا، والقرغز، والتركمان، ولم يمر بنا في كتاب ذكر هذه الأمة سوى كتاب واحد، وهو كتاب مروج الذهب للمسعودي فإنه ذكرهم هكذا بهذا اللفظ التتر، والناس اليوم يقولون: التتار بألف، وهذه الأمة كانت في أقاصي بلاد المشرق في جبال طمغاج من حدود الصين، وبينهم وبين بلاد الإسلام التي ما وراء النهر ما يزيد على مسير ستة أشهر، وقد كان خوارزمشاه، وهو محمد بن تكش استولى على بلاد ما وراء النهر، وقتل ملوكها من الخطا الذين كانوا ببخارى وسمرقند وبلاد تركستان، نحو كاشغر، وبلاساغون، وأفناهم، وكانوا حجاباً بينه وبين هذه الأمة، وشحن هذه البلاد بقواده وجنوده، وكان في ذلك غلطاً، لأن ملوك الخطا كانوا وقاية له ومجناً من هؤلاء، فلما أفناهم، صار هو المتوفي لحرب هؤلاء أو سلمهم، فأساء قواده وامراؤه الذين بتركستان السيرة معهم، وسدوا طرق التجارة عنهم، فانتدبت منهم طائفة نحو عشرين ألفاً مجتمعة، كل بيت منها له رئيس مفرد، فهم متساندون، وخرجوا إلى بلاد تركستان، فأوقعوا بقواد خوارزمشاه وعماله هناك، وملكوا البلاد، وتراجع من بقي من عسكر خوارزمشاه، وسلم من سيف التتار إلى خوارزمشاه، فأغضى على ذلك، ورأى أن سعة ملكه تمنعه عن مباشرة حربه بنفسه، وأن غيره من قواده لا يقوم مقامه في ذلك، وترك بلاد تركستان لهم، واستمر الأمر على أن تركستان لهم، وما عداها من بلاد ما وراء النهر كسمرقند وبخارى وغيرهما لخوارزمشاه، فمكثوا كذلك نحو أربع سنين.

ثم إن المعروف بجنكزخان والناس يلفظونه بالراء، وذكر لي جماعة من أهل المعرفة بأحوال التتر أنه جنكز بالزاي المعجمة عن له رأي في النهوض إلى بلاد تركستان، وذلك أن جنكز خان هذا هو رئيس التتار الأقصى في المشرق، وابن رئيسهم، وما زال سلفه رؤساء تلك الجهة، وكان شجاعاً عاقلاً موقفاً منصوراً في الحرب، وإنما عن له هذا الرأي، لأنه رأى أن طائفة من التتار لا ملك لهم، وإنما يقوم بكل فرقة منهم مدير لها من أنفسهم قد نهضت فملكوا بلاد تركستان على جلالته، غار من ذلك، وأراد الرياسة العامة لنفسه، وأحب الملك، وطمع في البلاد، فنهض بمن معه من أقاصي الصين، حتى صار إلى حدود أعمال تركستان، فحاربه التتار الذين هناك، ومنعوه عن تطرق البلاد، فلم يكن لهم به طاقة، وهزمهم وقتل كثيراً منهم، وملك بلاد تركستان بأجمعها، وصار كالجوار لبلاد خوارزمشاه، وإن كان بينهما مسافة بعيدة، وصار بينه وبين خوارزمشاه سلم ومهادنة، إلا أنها هدنة على دخن .

فمكثت الحال على ذلك يسيراً، ثم فسدت بما كان يصل إلى خوارزمشاه على ألسنة التجار من الأخبار، وأن جنكز خان على عزم النهوض إلى سمرقند وما يليها، وأنه في التأهب والاستعداد، فلو داراه لكان أولى له، لكنه شرع فسد طرق التجار القاصدين إليهم، فتعذرت عليهم الكسوات، ومنع عنهم الميرة والأقوات التي تجلب وتحمل من أعمال ما وراء النهر إلى تركستان، فلو اقتنع بذلك لكان قريباً، لكنه أنهى إليه نائبه بالمدينة المعروفة بأوتران، وهي آخر ولايته بما وراء النهر،

أن جنكزخان قد سير جماعة من تجار التتار، ومعهم شيء عظيم من الفضة إلى سمرقند، ليشتروا له ولأهله وبني عمه كسوة وثياباً وغير ذلك.

فبعث إليه خوارزمشاه يأمره بقتل أولئك التجار، وأخذ ما معهم من الفضة وإنفاذها إليه، فقتلهم وسير إليه الفضة. وكان ذلك شيئاً كثيراً جداً، ففرقه خوارزمشاه على تجار سمرقند وبخارى، وأخذ ثمنه منهم لنفسه. ثم علم أنه قد أخطأ، فأرسل إلى نائبه بأوتران، يأمره أن ينفذ جواسيس من عنده إليهم، ليخبروه بعدتهم، فمضت الجواسيس، وسلكت مفاوز وجبالاً كثيرة، وعادوا إليه بعد مدة، فأخبروه، بكثرة عددهم، وأنهم لا يبلغهم الإحصاء ولا يدرკهم، وأنهم من أصبر الناس على القتال، لا يعرفون الفرار، ويعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، وأن خيلهم لا تحتاج إلى الشعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعي، وأن عندهم من الخيل والبقر ما لا يحصى، وأنهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير، وهم أصبر خلق الله على الجوع والعطش والشقاء، وثيابهم من أحسن الثياب مساً، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والدواب الميتة، وأنهم أشبه شيء بالوحش والسباع.

فأنهى ذلك كله إلى خوارزمشاه، فندم على قتل أصحابهم، وعلى خرق الحجاب بينه وبينهم، وأخذ أموالهم، وغلب عليه الفكر والوجل، فأحضر الشهاب الخيوي، وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده، لا يخالف ما يشير به، فقال له: قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه، وإجالة الرأي فيما نفعل، وذلك أنه قد تحرك إلينا خصم من الترك في عدد لا يحصى، فقال له: عساكر كثيرة، وتكاتب الأطراف، وتجمع الجنود، ويكون من ذلك نفير عام، فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالأموال والرجال، ثم تذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون، وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبين بلاد خوارزمشاه، فتكون هناك، فإذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة. لقيناه ونحن جامون مستريحون، وقد مسه وعساكره النصب واللغوب.

فجمع خوارزمشاه أمراءه، ومن عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم فقالوا: لا بل الرأي أن نتركهم ليعبروا سيحون إلينا، ويسلكوا هذه الجبال والمضايق، فإنهم جاهلون بطرقها، ونحن عارفون بها، فنظهر عليهم، ونهلكهم عن آخرهم. فكانوا على ذلك حتى وصل رسول من جنكزخان ومعه جماعة، يتهدد خوارزمشاه، ويقول: تقتل أصحابي وتجاري، وتأخذ مالي منهم! استعد للحرب، فإنني واصل إليك بجمع لا قبل لك به.

فلما أدى هذه الرسالة إلى خوارزمشاه أمر بقتل الرسول فقتل، وحلق لحي الجماعة الذين كانوا معه، وأعادهم إلى صاحبهم جنكز خان ليخبروه بما فعل بالرسول، ويقولوا له: إن خوارزمشاه يقول لك: إني سائر إليك، فلا حاجة لك أن تسير إلي، فلو كنت في آخر الدنيا لطلبتك حتى أقتلك، وأفعل بك وبأصحابك ما فعلت برسلك. وتجهز خوارزمشاه، وسار بعد نفوذ الرسول، مبادراً لسبق خبره، ويكبس التتار على غرة، فقطع مسيرة أربعة أشهر في شهر واحد، ووصل إلى بيوتهم وخركاواتهم فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأثقال، فأوقع بهم، وغنم الجميع، وسبي النساء والذرية.

وكان سبب غيوبة التتار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك، يقال له كشلوخان، فقاتلوه فهزموه، وغنموا أمواله، وعادوا، فلقيهم الخبر في طريقهم بما فعل خوارزمشاه بمخلفيهم، فأغذوا السير فأدركوه، وهو على الخروج

من بيوتهم، بعد فراغه من الغنيمة، فواقعوه وتصافوا للحرب ثلاثة أيام بلياليها، لا يفترّون نهاراً ولا ليلاً، فقتل من الفريقين ما لا يعد، ولم ينهزم منهم أحد.

أما المسلمون فصبروا حمية للدين، وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للإسلام باقية، ثم إنهم لا ينجون، بل يؤخذون ويؤسرون لبعدهم عن بلاد يمتنعون بها، وأما التتار فصبروا لاستنقاذ أموالهم وأهلهم، واشتد الخطب بين الطائفتين، حتى إن أحدهم كان يتزل عن فرسه، ويقا تل قرنه راجلاً، مضاربة بالسكاكين، وجرى الدم على الأرض، حتى كانت الخيل تزلق فيه لكثرة، ولم يحضر جنكزخان بنفسه هذه الواقعة، وإنما كان فيها قاً آن ولده، فأحصي من قتل من المسلمين فكانوا عشرين ألفاً، ولم يحص عدة من قتل من التتار.

فلما جاءت الليلة الرابعة افترقوا، فتل بعضهم مقابل بعض، فلما أظلم الليل، أوقد التتار نيرانهم، وتركوها بحالها، وساروا راجعين إلى جنكز خان ملكهم، وأما المسلمون فرجعوا ومعهم محمد خوارزمشاه، فلم يزالوا سائرين حتى وافوا بخارى، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له بجنكزخان، لأن طائفة من عسكره لم يلقوا خوارزمشاه بجميع عساكره بهم، فكيف إذا حشدوا وجاؤوا على بكرة أبيهم، وملكهم جنكزخان بينهم.

فاستعد للحصار، وأرسل إلى سمرقند يأمر قواده المقيمين بها بالاستعداد للحصار، وجمع الذخائر للامتناع والمقام من وراء الأسوار، وجعل في بخارى عشرين ألف فارس يحمونها، وفي سمرقند خمسين ألفاً، وتقدم إليهم بحفظ البلاد حتى يعبر هو إلى خوارزم وخراسان، فيجمع العساكر، ويستنجد بالمسلمين والغزاة المطوعة ويعود إليهم. ثم رحل إلى خراسان، فعبر جيحون، وكانت هذه الواقعة في سنة ست عشرة وستمائة فتزل بالقرب من بلخ، فعسكر هناك، واستنفر الناس.

وأما التتار فإنهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون بلاد ما وراء النهر، فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من رحيل خوارزمشاه عنها، وحصروها، فقاتلوا العسكر المرباط بها ثلاثة أيام قتالاً متتابعاً، فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة، ففتحو أبواب المدينة ليلاً، وخرجوا بأجمعهم عائدين إلى خراسان، فأصبح أهل بخارى وليس عندهم من العسكر أحد أصلاً، فضعفت نفوسهم، فأرسلوا قاضي بخاري ليطلب الأمان للرعية، فأعطاه التتار الأمان، وقد كان بقي في قلعة بخارى خاصة طائفة من عسكر خوارزمشاه معتصمون بها.

فلما رأى أهل بخارى بذلهم للأمان، فتحو أبواب المدينة، وذلك في رابع ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل التتار بخارى، ولم يتعرضوا لأحد من الرعية، بل قالوا لهم: كل ما لخوارزمشاه عندكم من وديعة أو ذخيرة أخرجوه إلينا، وساعدونا على قتال من بالقلعة، ولا بأس عليكم. وأظهروا فيهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكزخان بنفسه إلى البلد، وأحاط بالقلعة، ونادى مناديه في البلدان، لا يتخلف أحد، ومن تخلف قتل. فحضر الناس بأسرهم، فأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والأحطاب والتراب، ثم زحفوا نحو القلعة، وكان عدة من بها من الجند الخوارزمية أربعمائة إنسان، فبدلوا جهدهم، ومنعوا القلعة عشرة أيام إلى أن وصل النقيبون إلى سور القلعة، فنقبوه ودخلوا القلعة، فقتلوا كل من بها من الجند وغيرهم.

فلما فرغوا منها أمر جنكزخان أن يكتب له وجوه البلد ورؤساؤهم، ففعل ذلك، فلما عرضوا عليه أمر بإحضارهم،

فأحضروا، فقال لهم: أريد منكم الفضة النقرة التي باعها إياكم خوارزمشاه، فإنها لي، ومن أصحابي أخذت. فكان كل من عنده شيء منها يحضره، فلما فرغ من ذلك أمرهم بالخروج عن البلد بأنفسهم خاصة، فخرجوا مجردين عن أموالهم، ليس مع كل واحد منهم إلا ثيابه التي على جسده، فأمر بقتلهم، فقتلوا عن آخرهم، وأمر حينئذ بنهب البلد، فنهب كل ما فيه، وسبيت النساء والأطفال، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال. ثم رحلوا عنه نحو سمرقند، وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى، أسارى مشاة على أقبح صورة، وكل من أعيأ وعجز عن المشي قتلوه.

فلما قاربوا سمرقند، قدموا الخيالة، وتركوا الرجال والأسارى والأثقال وراءهم، حتى يلتحقوا بهم شيئاً فشيئاً، ليرعبوا قلوب أهل البلد، فلما رأى أهل سمرقند سوادهم، استعظموهم، فلما كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرجال والأثقال، ومع كل عشرة من الأسارى علم، فظن أهل البلد أن الجميع عسكر مقاتلة، فأحاطوا بسمرقند، وفيها خمسون ألفاً من الخوارزمية، وما لا يحصى كثرة من عوام البلد، فأحجم العسكر الخوارزمي عن الخروج إليهم، وخرجت العامة بالسلاح، فأطمعهم التتار في أنفسهم، وقهقروا عنهم، وقد كمنوا لهم كمناء، فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم من ورائهم، وشد عليهم من ورائهم جمهور التتار، فقتلوه عن آخرهم.

فلما رأى من تخلف بالبلد ذلك، ضعفت قلوبهم، وخيلت للجند الخوارزمي أنفسهم أنهم إن استأمنوا إلى التتار أبقوا عليهم للمشاركة في جنسية التركيّة، فخرجوا بأموالهم وأهلبيهم إليهم مستأمنين، فأخذوا سلاحهم وخيلهم، ثم وضعوا السيف فيهم، فقتلوههم كلهم، ثم نادوا في البلد: برئت الذمة ممن لم يخرج، ومن خرج فهو آمن. فخرج الناس إليهم بأجمعهم، فاختلطوا عليهم، ووضعوا فيهم السيف، وعذبوا الأغنياء منهم، واستصفوا أموالهم، ودخلوا سمرقند، فأخربوها، ونقضوا دورها، وكانت هذه الواقعة في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة.

وكان خوارزمشاه مقيماً بمترله الأول، كلما اجتمع له جيش سيره إلى سمرقند، فيرجع ولا يقدم على الوصول إليها، فلما قضوا وطراً من سمرقند، سير جنكرخان عشرين ألف فارس، وقال لهم: اطلبوا خوارزمشاه أين كان، ولو تعلق بالسماء، حتى تدركوه وتأخذوه! وهذه الطائفة تسميها التتار المغربية، لأنها سارت نحو غرب خراسان، وهم الذين أوغلوا في البلاد، ومقدمهم جرماغون، نسيب جنكرخان.

وحكي أن جنكرخان كان قد أمر على هذا الجيش ابن عم له شديد الاختصاص به، يقال له متكلي نوية، وأمره بالجد وسرعة المسير، فلما ودعه، عطف متكلي نوية هذا، فدخل إلى خركاة، فيها امرأة له كان يهاها ليودعها، فاتصل ذلك بجنكرخان، فصرفه في تلك الساعة عن إمارة الجيش، وقال: من يثني عزمه امرأة لا يصلح لقيادة الجيوش. ورتب مكانه جرماغون، فساروا وقصدوا من جيحون موضعاً يسمى بنج آب أي خمسة مياه، وهو يمنع العبور، فلم يجدوا به سفناً، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، ولبسوه جلود البقر، ووضعوا فيه أسلحتهم، وأقحموا خيولهم الماء، وأمسكوا بأذناهم، وتلك الأحواض مشدودة إليها، فكان الفرس يجذب الرجل، والرجل يجذب الخوض، فعبروا كلهم ذلك الماء دفعة واحدة، فلم يشعر خوارزمشاه بهم إلا وهم معه على أرض واحدة، وكان جيشه قد ملئ رعباً منهم، فلم يقدرُوا على

الثبات، فتفرقوا أيدي سبا، وطلب كل فريق منهم جهة، ورحل خوارزمشاه في نفر من خواصه، لا يلوي على شيء، وقصد نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض عسكره فلم يستقر، حتى وصل جرماغون إليه، وكان لا يتعرض في مسيره بنهب ولا قتل، بل يطوي المنازل طياً، يطلب خوارزمشاه ولا يمهله ليجمع عسكراً. فلما عرف قرب التتار منه، هرب من نيسابور إلى مازندران، فدخلها ورحل جرماغون خلفه، ولم يعرج على نيسابور، بل قصد مازندران، فخرج خوارزم شاه عنها، فكان كلما رحل عن منزل نزل التتار، حتى وصل إلى بحر طبرستان، فترل هو وأصحابه في سفن، ووصل التتار، فلما عرفوا نزوله البحر، رجعوا وأيسوا منه.

وهؤلاء الذين ملكوا عراق العجم وأذربيجان، فأقاموا بناحية تبريز إلى يومنا هذا. ثم اختلف في أمر خوارزمشاه، فقوم يحكون أنه أقام بقلعة له في بحر طبرستان منيعة، فتوفي بها، وقوم يحكون أنه غرق في البحر، وقوم يحكون أنه غرق ونجا عرياناً، فصعد إلى قرية من قرى طبرستان، فعرفه أهلها، فجاؤوا وقبلوا الأرض بين يديه، وأعلموا عاملهم به، فجاء إليه وخدمه، فقال له خوارزم شاه: احملني في مركب إلى الهند، فحملة إلى شمس الدين أنليمش ملك الهند، وهو نسيبه من جهة زوجته والدته منكبوني بن خوارزم شاه الملك جلال الدين، فإنها هندية من أهل بيت الملك، فيقال إنه وصل إلى أنليمش، وقد تغير عقله مما اعتراه من خوف التتار، أو لأمر سلطه الله تعالى عليه، فكان يهذي بالتتار بكرة وعشية، وكل وقت وكل ساعة، ويقول: هو ذا هم قد خرجوا من هذا الباب، وقد هجموا من هذه الدرجة، ويرعد ويحول لونه، ويختل كلامه وحركاته.

وحكى لي فقيه خراساني وصل إلى بغداد يعرف بالبرهان، قال: كان أخي معه، وكان ممن يثق خوارزمشاه به، ويختصه، قال: لهج خوارزمشاه لما تغير عقله بكلمة كان يقولها: قراتر كلدي يكررها، وتفسيرها: التتر السود قد جاؤوا، وفي التتر صنف سود يشبهون الزنج، لهم سيوف عريضة جداً على غير صورة هذه السيوف، يأكلون لحوم الناس، فكان خوارزم شاه قد أهرت وأغري بذكرهم.

وحدثني البرهان، قال: رقي به شمس الدين أنليمش إلى قلعة من قلاع الهند، حصينة عالية شاهقة لا يعلوها الغيم أبداً، وإنما تمطر السحب من تحتها. وقال له: هذه القلعة لك وذخائرها أموالك، فكن فيها وادعاً آمناً إلى أن يستقيم طالعك، فالملوك ما زالوا هكذا، يدبر طالعهم ثم يقبل، فقال له: لا أقدر على الثبات فيها، والمقام بها، لأن التتر سوف يطلبوني، ويقدمون إلى ههنا، ولو شاؤوا لوضعوا سروج خيلهم واحداً على واحد تحت القلعة، فبلغت إلى ذروتها، وصعدوا عليها، فأخذوني قبضاً باليد، فعلم أنليمش أن عقله قد تغير، وأن الله تعالى قد بدل ما به من نعمة، فقال: فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تحملني في البحر المعروف ببحر المعبر إلى كرمان، فحملة في نفر يسير من مماليكه إلى كرمان، ثم خرج منها إلى أطراف بلاد فارس، فمات هناك في قرية من قرى فارس، وأخفي موته، لئلا يقصده التتر، وتطلب جثته. وجملة الأمر أن حاله مشتبهة ملتبسة لم يتحقق على يقين، وبقي الناس بعد هلاكه نحو سبع سنين ينتظرونه. ويذهب كثير منهم إلى أنه حي مستتر، إلى أن ثبت عند الناس كافة أنه هلك.

فأما جرماغون فإنه لما ينس من الظفر بخوارزم شاه، عاد من ساحل البحر إلى مازندران، فملكها في أسرع وقت، مع

حصانيتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها، فإنها لم تزل ممتعة على قديم الوقت، حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة من العراق إلى أقصى خراسان، بقيت أعمال مازندران بحالها تؤدي الخراج، ولا يقدر المسلمون على دخولها، إلى أيام سليمان بن عبد الملك.

ولما ملك التتار مازندران، قتلوا فيها ونهبوا وسلبوا، ثم سلكوا نحو الري فصادفوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه، ومعهم أموال بيت خوارزم شاه وذخائرهم، التي ما لا يسمع بمثلها من الأعلام النفيسة، وهن قاصدات نحو الري، ليعتصمن ببعض القلاع المنيع، فاستولى التتار عليهن وعلى ما معهن بأسره، وسيروه كله إلى جنكزخان بسمرقند وصمدوا صمد الري، وقد كان اتصل بهم أن محمداً خوارزم شاه قصدها كما يتسامع الناس بالأراجيف الصحيحة والباطلة، فوصلوها على حين غفلة من أهلها، فلم يشعر بهم عسكر الري إلا وقد ملكوها ونهبوها، وسبوا الحرم، واسترقوا الغلمان، وفعلوا كل قبيح منكر فيها، ولم يقيموا بها، ومضوا مسرعين في طلب خوارزم شاه، فنهبوا في طريقهم ما مروا به من المدن والقرى، وأحرقوا وخربوا، وقتلوا الذكران والإناث، ولم يبقوا على شيء، وقصدوا نحو همدان، فخرج إليهم رئيسها، ومعه أموال جلييلة قد جمعها من أهل همدان، عيناً وعروضاً وخيلاً، وطلب منهم الأمان لأهل البلد، فأمنوهم، ولم يعرضوا لهم وساروا إلى زنجان، واستباحوها، وإلى قزوین فاعتصم أهلها منهم بقصبة مدينتهم، فدخلوها بالسيف عنوة، وقتلهم أهلها قتلاً شديداً بالسكاكين وهم معتادون بقتال السكين من حروبهم مع الإسماعيلية فقتل من الفريقين ما لا يحصى. ويقال: إن القتلى بلغت أربعين ألفاً من أهل قزوین خاصة.

ثم هجم على التتار البرد الشديد والثلج المتراكم، فساروا إلى أذربيجان، فنهبوا القرى، وقتلوا من وقف بين أيديهم، وأخربوا وأحرقوا، حتى وصلوا إلى تبريز، وبها صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان بن أيلدكر، فلم يخرج إليهم، ولا حدث نفسه بقتالهم، لاشتغاله بما كان عليه من اللهو وإدمان الشرب ليلاً ونهاراً. فأرسل إليهم، وصالح لهم على مال وثياب ودواب، وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يطلبون ساحل البحر، لأنه مشى صالح لهم، والمراعي به كثيرة، فوصلوا إلى موقان، وهي المنزل الذي نزلته الخرمية في أيام المعتصم، وقد ذكره الطائيان في أشعارهما في غير موضع، والناس اليوم يقولون بالغين المعجمة عوض القاف، وقد كانوا تطرقوا في طريقهم بعض أعمال الكرج، فخرج إليهم منهم عشرة آلاف مقاتل، فحاربوهم وهزموهم، وقتلوا أكثرهم.

فلما استقروا بموقان، راسلت الكرج أزبك بن البهلوان في الاتفاق على حربهم، وراسلوا موسى بن أيوب المعروف بالأشرف، وكان صاحب خلاط وإرمينية بمثل ذلك، وظنوا أنهم يصبرون إلى أيام الربيع وانحسار الثلوج، فلم يصبروا، وصاروا من موقان في صميم الشتاء نحو بلاد الكرج، فخرجت إليهم الكرج، واقتتلوا قتلاً شديداً، فلم يثبتوا للتتار، وانهمزوا أقبح هزيمة، وقتل منهم من لا يحصى، فكانت هذه الواقعة في ذي الحجة من سنة سبع عشرة وستمائة.

ثم توجهوا إلى المراغة في أول سنة ثمان عشرة، فملكوها في صفر، وكانت لامرأة من بقايا ملوك المراغة تدبرها هي ووزراؤها، فنصبوا عليها الجانيق، وقدموا أسارى المسلمين بين أيديهم، وهذه عادتهم يتترسون بهم في الحروب، فيصيبهم حدها، ويسلمون هم من مضرتها، فملكوها عنوة، ووضعوا السيف في أهلها، ونهبوا ما يصلح لهم، وأحرقوا ما لا يصلح

لهم، وخذل الناس عنهم، حتى كان الواحد منهم يقتل بيده مائة إنسان، والسيوف في أيديهم لا يقدر أحد منهم أن يحرك يده بسيفه نحو ذلك التتري، خذلان صب على الناس، وأمر سمائي اقتضاه.

ثم عادوا إلى همدان، فطالبوا أهلها بمثل المال الذي بذلوه لهم في الدفعة الأولى، فلم يكن في الناس فضل لذلك، لأنه كان عظيماً جداً، فقام إلى رئيس همدان جماعة من أهلها، وأسمعوه كلاماً غليظاً، فقالوا: أفقرتنا أولاً، وتريد أن تستصفينا دفعة ثانية! ثم لا بد للتتار أن يقتلونا، فدعنا نجاهدكم بالسيف، ونموت كراماً. ثم وثبوا على شحنة كان للتتار بهمدان فقتلوه، واعتصموا بالبلد فحصرهم التتار فيه، فقلت عليهم الميرة، وعدمت الأقوات. وأضر ذلك بأهل همدان، ولم ينل التتار مضرة من عدم القوت، لأنهم لا يأكلون إلا اللحم، والخيول معهم كثيرة، ومعهم غنم عظيمة يسوقونها حيث شاؤوا، وخيلهم لا تأكل الشعير، ولا تأكل إلا نبات الأرض، تحفر بحوافرها الأرض عن العروق، فتأكلها.

فاضطر رئيس همدان وأهلها إلى الخروج إليهم، فخرجوا، والتحمت الحرب بينهم أياماً، وفقد رئيس همدان، هرب في سرب قد كان أعده إلى موضع اعتصم به ظاهر البلد، ولم يعلم حقيقة حاله، فتحير أهل همدان بعد فقدده ودخلوا المدينة، واجتمعت كلمتهم على القتال في قصبة البلد إلى أن يموتوا. وكان التتار قد عزموا على الرحيل عنهم لكثرة من قتل منهم. فلما لم يروا أحداً يخرج إليهم من البلد، طمعوا واستدلوا على ضعف أهلهم، فقصدهم وقاتلوههم وذلك في شهر رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة، ودخلوا المدينة بالسيف، وقاتلهم الناس في الدروب، وبطل السلاح للزدحام، واقتتلوا بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يحصى، وظهر التتار على المسلمين فأفنوهم قتلاً، ولم يسلم منهم إلا من كان له نفق في الأرض يستخفي فيه. ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوها، ورحلوا إلى مدينة أربيل وأعمال أذربيجان، فملكوا أربيل، وقتلوا فيها، فأكثرُوا. ثم ساروا إلى تبريز، وكان بها شمس الدين عثمان الطغرائي، قد جمع كلمة أهلها بعد مفارقة صاحب أذربيجان أربك بن البهلوان للبلاد، خوفاً من التتار، ومقامه بنقجوان، فقوى الطغرائي نفوس الناس على الامتناع، وحذرهم عاقبة التخاذل، وحصن البلد. فلما وصل التتار، ورأوا اجتماع كلمة المسلمين وحصانة البلد، طلبوا منهم مالاً وثياباً، فاستقر الأمر بينهم على شيء معلوم، فسيروه إليهم، فلما أخذوه رحلوا إلى بيلقان. فقاتلهم أهلها. فملكها التتار في شهر رمضان من هذه السنة، ووضعوا فيهم السيف حتى أفنوهم أجمعين.

ثم ساروا إلى مدينة كنجة، وهي أم بلاد أران، وأهلها ذوو شجاعة وبأس وجلد، لمقاومتهم الكرج، وتدرجهم بالحرب، فلم يقدر التتار عليهم وأرسلوا إليهم يطلبون مالاً وثياباً، فأرسلوه إليهم، فساروا عنهم، فقصدوا الكرج، وقد أعدوا لهم، فلما صافوهم هرب الكرج، وأخذهم السيف، فلم يسلم إلا الشريد، ونهبت بلادهم وأحربت ولم يوغل التتار في بلاد الكرج، لكثرة مضايقتها ودربنداتها، فقصدوا دربند شروان فحاصروا مدينة شماخي، وصعدوا سورها في السلايم، وملكوا البلد بعد حرب شديدة، وقتلوا فيه فأكثرُوا.

فلما فرغوا، أرادوا عبور الدربند، فلم يقدموا عليه، فأرسلوا إلى شروان شاه ملك الدربند، فطالبوه بإنفاذ رسول يسعى بينه وبينهم في الصلح، فأرسل إليهم عشرة من ثقاته، فلما وصلوا إليهم جمعوهم، ثم قتلوا واحداً منهم بحضور الباقيين، وقالوا للتسعة: إن أنتم عرفتمونا طريقاً نعبّر فيه فلكم الأمان، وإلا قتلناكم كما قتلنا صاحبكم، فقالوا لهم: لا طريق في

هذا الدربند، ولكن نعرفكم موضعاً هو أسهل المواضع لعبور الخيل.

وساروا بين أيديهم إليه، فعبروا الدربند، وتركوه وراء ظهورهم، وساروا في تلك البلاد، وهي مملوءة من طرائق مختلفة منهم اللان واللكر وأصناف من الترك، فنهبوا وقتلوا الكثير من ساكنيها، ورحلوا إلى اللان وهم أمم كثيرة وقد وصلهم خبرهم، وجمعوا وحذروا، وانضاف إليهم جموع من قفجاق، فقاتلوه فلم يظفر أحد العسكرين بالآخر، فأرسل التتار إلى قفجاق: أنتم إخواننا، وجنسنا واحد، واللان ليسوا من جنسكم لتنصروهم، ولا دينهم دينكم، ونحن نعاهدكم ألا نعرض لكم، ونحمل إليكم من المال والثياب ما يستقر بيننا وبينكم، على أن تنصرفوا إلى بلادكم.

فاستقر الأمر بينهم على مال وثياب حملها التتار إليهم، وفارقت قفجاق اللان، فأوقع التتار باللان، فقتلوه، ونهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم. فلما فرغوا منهم ساروا إلى بلاد قفجاق وهم آمنون متفرقون، لما استقر بينهم وبين التتار من الصلح، فلم يشعروا بهم إلا وقد طرقتهم، ودخلوا بلادهم، فأوقعوا بهم الأول فالأول، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم.

وسمع ما كان بعيد الدار من قفجاق بما جرى. ففروا عن غير قتال، فأبعدوا، فبعضهم بالغياض وبعضهم بالجبال، وبعضهم لحقوا ببلاد الروس. وأقام التتار في بلاد قفجاق، وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء، وفيها أيضاً أماكن باردة في الصيف، كثيرة المراعي، وهي غياض على ساحل البحر.

ثم سارت طائفة منهم إلى بلاد الروس، وهي بلاد كثيرة عظيمة، وأهلها نصارى، وذلك في سنة عشرين وستمائة. فاجتمع الروس وقفجاق عن منعهم عن البلاد، فلما قاربهم التتار، وعرفوا اجتماعهم، رجعوا القهقري إيهاماً للروس أن ذلك عن خوف وحذر، فجدوا في اتباعهم، ولم يزل التتار راجعين، واولئك يقفون آثارهم اثني عشر يوماً. ثم رجعت التتار على الروس وقفجاق، فأثنخوا فيهم قتلاً وأسراً، ولم يسلم منهم إلا القليل، ومن سلم نزل في المراكب، وخرج في البحر إلى الساحل الشامي، وغرق بعض المراكب.

وهذه الوقائع كلها تولها التتار المغربة، الذين قادمهم جرماغون، فأما ملكهم الأكبر جنكرخان، فإنه كان في هذه المدة بسمرقند ما وراء النهر، فقسم أصحابه أقساماً، فبعث قسماً منهم إلى فرغانة وأعمالها، فملكوها، وبعث قسماً آخر إلى ترمذ وما يليها فملكوها، وبعث قسماً آخر إلى بلخ وما يليها من أعمال خراسان.

فأما بلخ، فإنهم أمنوا أهلها، ولم يتعرضوا لها بنهب ولا قتل، وجعلوا فيها شحنة وكذلك فاريات وكثير من المدن، إلا أنهم أخذوا أهلها، يقاتلون بهم من يمتنع عليهم، حتى وصلوا إلى الطالقان، وهي عدة بلاد، وفيها قلعة حصينة، وبها رجال أنجاد، فأقاموا على حصارها شهوراً فلم يفتحوها، فأرسلوا إلى جنكرخان يعرفونه عجزهم عنها، فسار بنفسه، وعبر جيحون، ومعه من الخلائق ما لا يحصى، فزل على هذه القلعة، وبني حولها شبه قلعة أخرى من طين وتراب وخشب وخطب، ونصب عليها المنجنيقات، ورمى القلعة بها، فلما رأى أهلها ذلك فتحوها، وخرجوا وحملوا حملة واحدة، فقتل منهم من قتل، وسلم من سلم، وخرج السالمون فسلخوا تلك الجبال والشعاب، ناجين بأنفسهم، ودخل التتار القلعة، فنهبوا الأموال والأمتعة، وسبوا النساء والأطفال.

ثم سير جنكرخان جيشاً عظيماً مع أحد أولاده إلى مدينة مرو، وبها مائتا ألف من المسلمين، فكانت بين التتار وبينهم

حروب عظيمة شديدة، صبر فيها المسلمون ثم انهزموا، ودخلوا البلد، وأغلقوا أبوابه، فحاصره التتار حصاراً طويلاً، ثم أمنوا متقدم البلد، فلما خرج إليهم في الأمان، خلع عليه ابن جنكزخان وأكرمه، وعاهده ألا يتعرض لأحد من أهل مرو، ففتح الناس الأبواب فلما تمكنوا منهم استعرضوهم بالسيف عن آخرهم، فلم يبقوا منهم باقية، بعد أن استصفوا أرباب الأموال عقيب عذاب شديد عذبوهم به.

ثم ساروا إلى نيسابور، ففعلوا به ما فعلوا بمرو من القتل والاستئصال، ثم عمدوا إلى طوس، فنهبوا وقتلوا أهلها، وأخرجوا المشهد الذي به علي بن موسى الرضا رضي الله عنه والرشيد هارون بن المهدي، وساروا إلى هراة فحاصروها، ثم أمنوا، أهلها، فلما فتحوها قتلوا بعضهم، وجعلوا على الباقين شحنة، فلما بعدوا وثب أهل هراة على الشحنة فقتلوه، فعاد عليهم عسكر من التتار، فاستعرضوهم بالسيف، فقتلوه عن آخرهم.

ثم عادوا إلى طالقان، وبها ملكهم الأكبر جنكزخان، فسير طائفة منهم إلى خوارزم، وجعل فيها مقدم أصحابه وكبراءهم، لأن خوارزم حينئذ كانت مدينة الملك، وبها عسكر كثير من الخوارزمية، وعوام البلد معروفون بالبأس والشجاعة، فساروا ووصلوا إليها، فالتقى الفئتان، واقتتلوا أشد قتال سمع به، ودخل المسلمون البلد، وحصرتهم التتار خمسة أشهر، وأرسل التتار إلى جنكزخان يطلبون المدد، فأمدتهم بجيش من جيوشه، فلما وصل قويت منتهم به وزحفوا إلى البلد زحفاً متتابعاً، فملكوا طرفاً منه، وولجوا المدينة، فقاتلهم المسلمون داخل البلد، فلم يكن لهم به طاقة، فملكوه وقتلوا كل من فيه، فلما فرغوا منه وقضوا وطهرهم من القتل والنهب، فتحوا السكر الذي يجمع ماء جيحون عن خوارزم، فدخل الماء البلد، فغرق كله، وانهدمت الأبنية، فبقي بحراً، ولم يسلم من أهل خوارزم أحد البتة، فإن غيره من البلاد كان يسلم نفز يسير من أهلها، وأما خوارزم فمن وقف للسيف قتل، ومن استخفى غرقه الماء أو أهلكه الهدم، فأصبحت خوارزم ياباً.

فلما فرغ التتار من هذه البلاد، سيروا جيشاً إلى غزنة، وبها حينئذ جلال الدين منكبري بن محمد خوارزم شاه مالکها، وقد اجتمع إليه من سلم من عسكر أبيه وغيرهم، فكانوا نحو ستين ألفاً، وكان الجيش الذي سار إليهم التتار اثني عشر ألفاً، فالتقوا في حدود غزنة، واقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام، ثم أنزل الله النصر على المسلمين، فانهزم التتار وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا وتحيز الناجون منهم إلى الطالقان، وبها جنكزخان، وأرسل جلال الدين إليه رسلاً يطلب منه أن يعين موضعاً للحرب، فاتفقوا على أن يكون الحرب بكابل، فأرسل جنكزخان إليها جيشاً، وسار جلال الدين إليها بنفسه، وتضافوا هناك، فكان الظفر للمسلمين، وهرب التتار فالتجأوا إلى الطالقان، وجنكزخان مقيم بها أيضاً، وغنم المسلمون منهم غنائم عظيمة، فجرت بينهم فتنة عظيمة في الغنائم، وذلك لأن أميراً من امرائهم اسمه بغراق، كان قد أبلى في حرب التتر هذه، جرت بينه وبين أمير يعرف بملك خان نسيب خوارزم شاه مقابلة أفضت إلى أن قتل أخ لبغراق، فغضب وفارق جلال الدين في ثلاثين ألفاً، ف تبعه جلال الدين واسترضاه واستعطفه، فلم يرجع، فغضب جانب جلال الدين بذلك، فبينما هو كذلك وصله الخبر أن جنكزخان قد سار إليه من الطالقان بنفسه وجيوشه، فعجز عن مقاومته، وعلم أنه لا طاقة له به، فسار نحو بلاد الهند وعبر نهر السند، وترك غزنة شاغرة كالفريسة للأسد، فوصل إليها جنكزخان فملكها، وقتل أهلها وسبى نساءها، وأخرب القصور، وتركها كأمس الغابر.

ثم كانت لهم بعد ملك غزنة واستباحتها وقائع كثيرة مع ملوك الروم بني قلع أرسلان لم يوغلوا فيها، في البلاد وإنما كانوا يتطرقونها وينهبون ما تاحهم منها، وأذعن لهم ملوك فارس وكرمان والتيز ومكران بالطاعة، وحملوا إليهم الإتاوة، ولم يبق في البلاد الناطقة باللسان الأعجمي بلد إلا حكم فيه سيفهم أو كتابهم، فأكثر البلاد قتلوا أهلها، وسبق السيف فيهم العذل، والباقي أدى الإتاوة إليهم رغماً، وأعطى الطاعة صاغراً، ورجع جنكزخان إلى ما وراء النهر، وتوفي هناك.

وقام بعده ابنه قا آن مقامه، وثبت جرماغون في مكانه باذريجان. ولم يبق لهم إلا أصبهان، فإلهم نزلوا عليها مراراً في سنة سبع وعشرين وستمائة. وحاربهم أهلها. وقتل من الفريقين مقتلة عظيمة، ولم يبلغوا منها غرضاً، حتى اختلف أهل أصبهان في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهم طائفتان: حنفية وشافعية، وبينهم حروب متصلة وعصبية ظاهرة فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلى من يجاورهم ويتأخهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتى نسلّمه إليكم، فنقل ذلك إلى قا آن بن جنكزخان بعد وفاة أبيه، والملك يومئذ منوط بتدبيره، فأرسل جيوشاً من المدينة المستجدة التي بنوها وسموها قراهرم، فعبرت جيحون مغربة، وانضم إليها قوم ممن أرسله جرماغون على هيئة المدد لهم، فتلوا على أصفهان في سنة ثلاث وثلاثين المذكورة وحاصروها، فاختلف سيفا الشافعية والحنفية في المدينة، حتى قتل كثير منهم، وفتحت أبواب المدينة، وفتحها الشافعية على عهد بينهم وبين التتار أن يقتلوا الحنفية، ويعفوا عن الشافعية، فلما دخلوا البلد بدأوا بالشافعية، فقتلواهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفية، ثم قتلوا سائر الناس، وسبوا النساء، وشقوا بطون الحبالى، ونهبوا الأموال، وصادروا الأغنياء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا أصبهان، حتى صارت تلولاً من الرماد. فلما لم يبق لهم بلد من بلاد العجم إلا وقد دوحوه، صمدوا نحو إربل في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وقد كانوا طرقوها مراراً، وتحيفوا بعض نواحيها فلم يوغلوا فيها، والأمير المرتب بها يومئذ باتكين الرومي، فتل عليها في ذي القعدة من هذه السنة منهم نحو ثلاثين ألف فارس، أرسلهم جرماغون، وعليهم مقدم كبير من رؤسائهم يعرف بجكتاي، فغادها القتال وراوحها، وبها عسكر جم من عساكر الإسلام، فقتل من، الفريقين خلق كثير، واستظهر التتار، ودخلوا المدينة، وهرب الناس إلى القلعة، فاعتصموا بها، وحصرهم التتار، وطال الحصار حتى هلك الناس في القلعة عطشاً، وطلب باتكين منهم أن يصالحوه عن المسلمين بمال يؤديه إليهم، فأظهروا الإجابة، فلما أرسل إليهم ما تقرر بينهم وبينه، أخذوا المال وغدروا به، وحملوا على القلعة بعد ذلك حملات عظيمة، وزحفوا إليها زحفاً متتابعاً، وعلقوا عليها المنجنقات الكثيرة، وسير المستنصر بالله الخليفة جيوشه مع مملوكه وخادم حضرته وأخص مماليكه به شرف الدين إقبال الشرامي، فساروا إلى تكريت، فلما عرف التتار شخوصهم رحلوا عن إربل، بعد أن قتلوا منها ما لا يحصى، وأخربوها وتركوها كجوف حمار، وعادوا إلى تبريز، وبها مقام جرماغون، وقد جعلها دار ملكه.

فلما رحلوا عن إربل، عاد العسكر البغدادي إلى بغداد، وكانت للتتار بعد ذلك نهضات وسرايا كثيرة إلى بلاد الشام، قتلوا ونهبوا وسبوا فيها، حتى انتهت خيولهم إلى حلب، فأوقعوا بها، وصانعهم عنها أهلها وسلطانها، ثم عمدوا إلى بلاد كي خسرو صاحب الروم، وذلك بعد أن هلك جرماغون، وقام عوضه المعروف ببايايسيجو، وكان قد جمع لهم ملك الروم قضه وقضيضه، وجيشه ولفيفه، واستكثر من الأكراد العتمرية، ومن عساكر الشام وجند حلب، فيقال: إنه جمع

مائة ألف فارس وراجل، فلقية التتار في عشرين ألفاً، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة، قتلوا فيها مقدمته، وكانت المقدمة كلها أو أكثرها من رجال حلب، وهم أنجاد أبطال، فقتلوا عن آخرهم، وانكسر العسكر الرومي، وهرب صاحب الروم حتى انتهى إلى قلعة له على البحر تعرف بأنطاكية، فاعتصم بها وتمزقت جموعه، وقتل منهم عدد لا يحصى، ودخلت التتار إلى المدينة المعروفة بقيسارية، ففعلوا فيها أفاعيل منكراً من القتل والنهب والتحريق، وكذلك بالمدينة المعروفة بسيواس وغيرها من كبار المدن الرومية، ونجح لهم صاحب الروم بالطاعة، وأرسل إليهم يسألهم قبول المال والمصانعة، فضربوا عليه ضريبة يؤديها إليهم كل سنة، ورجعوا عن بلاده.

وأقاموا على جملة السكون والموادعة للبلاد الإسلامية كلها، إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة. فاتفق أن بعض امراء بغداد وهو سليمان بن برجم، وهو مقدم الطائفة المعروفة بالإيواء، وهي من التركمان، قتل شحنة من شحنهم في بعض قلاع الجبل يعرف بخليل بن بدر، فأثار قتله أن سار من تبريز عشرة آلاف غلام منهم، يطوون المنازل، ويسبقون خبرهم، ومقدمهم المعروف بيجكتاي الصغير، فلم يشعر الناس ببغداد إلا وهم على البلد، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة في فصل الخريف، وقد كان الخليفة المستعصم بالله، أخرج عسكره إلى ظاهر سور بغداد على سبيل الاحتياط، وكان التتر قد بلغهم ذلك، إلا أن جواسيسهم غرهم، وأوقعت في أذهانهم أنه ليس خارج السور إلا خيام مضروبة وفساطيط مضروبة، لا رجال تحتها، وأنكم متى أشرفتم عليهم ملكتم سوادهم وثقلهم، ويكون قصارى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزفوا إلى البلد، ويعتصموا بجدرانه، فأقبلت التتر على هذا الظن، وسارت على هذا الوهم، فلما قربوا من بغداد، وشارفوا الوصول إلى المعسكر، أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشه شرف الدين إقبالاً الشراي إلى ظاهر السور، وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين، فإن التتار لو وصلوا وهو بعد لم يخرج، لاضطرب العسكر، لأنهم كانوا يكونون بغير قائد ولا زعيم، بل كل واحد منهم أمير نفسه، وآراؤهم مختلفة، لا يجمعهم رأي واحد، ولا يحكم عليها حاكم واحد، فكانوا في مظنة الاختلاف والفرق، والاضطراب والتشتت، فكان خروج شرف الدين إقبال الشراي في اليوم السادس عشر من هذا الشهر المذكور، ووصلت التتر إلى سور البلد في اليوم السابع عشر، فوقفوا بإزاء عساكر بغداد صفّاً واحداً، وترتب العسكر البغدادي ترتيباً منتظماً، ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعددهم وحيولهم، ما لم يكونوا يظنونونه ولا يحسبونونه، وانكشف ذلك الوهم الذي أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان.

وكان مدبر أمر الدولة والوزارة في هذا الوقت، هو الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي، ولم يحضر الحرب، بل كان ملازماً ديوان الخلافة بالحضرة، لكنه كان يمد العسكر الإسلامي من آرائه وتدابيره بما ينتهون إليه ويقفون عنده، فحملت التتار على عسكر بغداد حملات متتابعة، ظنوا أن واحدة منها تهمهم، لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم، وأن الرعب والخوف منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم، فثبت لهم عسكر بغداد أحسن ثبوت، ورشقوهم بالسهم، ورشقت التتار أيضاً بسهامها، وأنزل الله سكينته على عسكر بغداد، وأنزل بعد السكينة نصره، فما زال العسكر البغدادي تظهر عليه أمارات القوة، وتظهر على التتار أمارات الضعف والخذلان إلى أن

حجز الليل بين الفريقين، ولم يصطدم الفيلقان وإنما كانت مناوشات وحملات خفيفة لا تقتضي الاتصال والممازجة، ورشق بالنشاب شديد.

فلما أظلم الليل، أوقد التتار نيراناً عظيمة، وأوهموا أنهم مقيمون عندها، وارتحلوا في الليل راجعين إلى جهة بلادهم، فأصبح العسكر البغدادي، فلم ير منهم عيناً ولا أثراً، وما زالوا يطوون المنازل، ويقطعون القرى عائدين حتى دخلوا الدربند، ولحقوا ببلادهم.

وكان ما جرى من دلائل النبوة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وعد هذه الملة بالظهور والبقاء إلى يوم القيامة، ولو حدث على بغداد منهم حادثة، كما جرى على غيرها من البلاد، لانقرضت ملة الإسلام، ولم يبق لها باقية. وإلى أن بلغنا من هذا الشرح إلى هذا الموضع، لم يذعر العراق منهم ذاعر بعد تلك النبوة التي قدمنا ذكرها. قلت: وقد لاح لي من فحوى كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه أنه لا بأس على بغداد والعراق منهم، وأن الله تعالى يكفي هذه المملكة شرهم، ويرد عنها كيدهم، وذلك من قوله رضي الله عنه: "ويكون هناك استحرار قتل"، فأتى بالكاف، وهي إذا وقعت عقيب الإشارة أفادت البعد، تقول للقريب: هنا، وللبعيد هناك، وهذا منصوب عليه في العربية، ولو كان لهم استحرار قتل في العراق لما قال: هناك بل كان يقول: هنا، لأنه رضي الله عنه خطب بهذه الخطبة في البصرة، ومعلوم أن البصرة وبغداد شيء واحد وبلد واحد، لأنهما جميعاً من إقليم العراق، وملكهما ملك واحد، فيلمح هذا الموضع، فإنه لطيف.

وكتبت إلى مؤيد الدين الوزير عقيب هذه الوقعة التي نصر فيها الإسلام، ورجع التتر مخذولين ناكسين على أعقابهم أبياتاً أنسب إليه الفتح، واشير إلى أنه هو الذي قام بذلك وإن لم يكن حاضراً له بنفسه، وأعتذر إليه عن الإغباب بمدحيه، فقد كانت الشواغل والقواطع تصد عن الانتصاب لذلك:

بكتائب من نصره ومقانب

وصفت متون غديره للشارب

فرغاء تشهق بالنجيع السالب

لايهتدي فيها السليك اللاحب

بساس جلس لا تدر لعاصب

في حملة ذعري ورأي ثاقب

كم حاضر يعصى بسيف الغائب !

سعد حسام في يمين الضارب

وأجيد فيك المدح غير مراقب

متقادماً، ولرب حب كاذب

أبقى لنا الله الوزير وحاطه

وامتد وارف ظله لنزيله

يا كاليء الإسلام إذ نزلت به

في خطة بهماء ديمومية

لا يمتطي سلساتها مرهوبة الإ

فرجت غمرتها بقلب ثابت

ما غبت ذاك اليوم عن تدبيرها

غمر الذي فتح العراق وإنما

أنتي عليك ثناء غير موارد

وأنا الذي يهواك حباً صادقاً

يفعاً، وها أنا ذو عذار شائب
بكم، ورب مجانب كمواظب
يمنى بود مماذق متقارب
بالفكر حتى لا يبيض لحالب
يبغي مغالبة القضاء الغالب

حباً ملأت به شعاب جوانحي
إن القريض وإن أغب متيم
ولقد يخالضك القصي وربما
سدت مسالكه هموم جعجت
ومن العناء مغلب في حظه

وهي طويلة، وإنما ذكرنا منها ما اقتضته الحال.

ومن خطبة له في ذكر المكاييل والموازين

الأصل: عباد الله، إنكم وما تأملون من هذه الدنيا أثوياء مؤجلون، ومدينون مقتضون، أجل منقوص، وعمل محفوظ، قرب دائب مضيع، ورب كادح خاسر، وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدياراً، والشر إلا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً، فهذا أوان قويت عدته، وعمت مكيدته، وأمكنت فريسته. اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً، أو متمرداً كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقرأ أين أخياركم وصلحاءكم، وأين أحراركم وسمحاؤكم، وأين المتورعون في مكاسبهم، والمتترهون في مذاهبهم! أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدنية، والعاجلة المنغصة! وهل خلقتكم إلا في حثالة لا تلتقي بدمهم الشفتان، استصغاراً لقدرهم، وذهاباً عن ذكرهم! إنا لله وإنا إليه راجعون! ظهر الفساد فلا منكر مغير، ولا زاجر مزدجر. أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، وتكونوا أعز أوليائه عنده! هيهات لا يخذع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به! الشرح: أثوياء: جمع ثوي، وهو الضيف، كقوي وأقوياء. ومؤجلون: مؤخرون إلى أجل، أي وقت معلوم. ومدينون: مقرضون، دنت الرجل أقرضته، فهو مدين ومديون، ودنت أيضاً، اذا استقرضت، وصار علي دين، فأنا دائن، وأنشد:

مصارع قوم لا يدينون ضيعا

ندين ويقضي الله عنا، وقد نرى

ومقتضون: جمع مقتضى، أي مطالب بأداء الدين، كمرتضون جمع مرتضى، ومصطفون جمع مصطفى. وقوله: أجل منقوص، أي عمر، وقد جاء عنهم: أطال الله أجلك، أي عمرك وبقاءك. والدائب: المجتهد ذو الجد والتعب. والكادح: الساعي.

ومثل قوله: "قرب دائب مضيع، ورب كادح خاسر"، قول الشاعر:

فأكثر ما يجني عليه اجتهداه

إذا لم يكن عون من الله للفتى

ومثله:

إذا لم يكن عون من الله للفتى

أنته الرزايا من وجوه الفوائد

وهو كثير: والأصل فيه قوله تعالى: "وجوه يومئذ خاشعة، عاملة ناصبة، تصلى ناراً حامية" ويروى: قرب دائب مضيع، بغير تشديد.

وقوله: وأمكنك فريسته، أي وأمكنته، فحذف المفعول.

وقوله: فاضرب بطرفك لفظة فصيحة، وقد أخذها الشاعر فقال:

فاضرب بطرفك حيث شئت فلن ترى

إلا بخيلاً.....

والوفر: المال الكثير، أي بخل ولم يؤد حق الله سبحانه، فكثر ماله.

والوقر، بفتح الواو: الثقل في الأذن، وروي المنغصة، بفتح الغين.

الحثالة: الساقط الرديء من كل شيء.

وقوله: "لا تلتقي بدمهم الشفتان"، أي يأنف الإنسان أن يذمهم، لأنه لا بد في الذم من إطباق إحدى الشفتين على أخرى، وكذلك في كل الكلام.

وذهاباً عن ذكرهم، أي ترفعاً، يقال: فلان يذهب بنفسه عن كذا، أي يرفعها.

ولا زاجر مزدجر، أي ليس في الناس من يزجر عن القبيح ويتزجر هو عنه.

ودار القدس: هي الجنة. ولا يخدع الله عنها، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يجوز عليه النفاق والتمويه. ثم لعن الأمر

بالمعروف ولا يفعله، والناهي عن المنكر ويرتكبه، وهذا من قوله تعالى: "أأأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم".

ولست أرى في هذه الخطبة ذكراً للموازن والمكايل، التي أشار إليها رضي الله عنه، اللهم إلا أن يكون قوله رضي الله عنه: "وأين المتورعون في مكاسبهم"، أو قوله: "ظهر الفساد"، ودلالتهما على الموازين والمكايل بعيدة.

من أقوال الحكماء والصالحين،

واعلم أن هذه الخطبة قد اشتملت على كلام فصيح، وموعظة بالغة من ذكر الدنيا وذكر أهلها، ونحن نذكر كلمات

وردت عن الحكماء والصالحين تناسبها، على عادتنا في إيراد الأشباه والنظائر.

قال بعض الصالحين: ما أدري كيف أعجب من الدنيا! أمن حسن منظرها وقبح مخبرها، أم من ذم الناس لها، وتناحرهم

عليها! قيل لبعضهم: كيف أصبحت؟ قال: أسفاً على أمسي، كارهاً ليومي، متهماً لغدي.

قيل لأعرابي: كيف ترى الدهر؟ قال: خدوعاً خلوباً، وثوباً غلوباً.

قيل لصوفي: لم تركت الدنيا؟ قال: لأني منعت صفوها، وامتنعت من كدرها.

وقيل لآخر: لم تركت الدنيا؟ قال: لأني عدت الوسيلة إليها إلا بعشقها، وأعشق ما أكون لها أغدر ما تكون بي. وأنشد

لبشر الحافي:

قريب العين لا ولد يموت
رخي البال ليس له عيال
قضى وطر الصبا وأفاد علماً
وأكبر همه مما عليه تذابح
ولا حذر يبادر ما يفوت
خلي من حربيت ومن دهيت
فعاتبه التفرد والسكوت
من ترى خلق وقوت

قال أبو حيان: سمعت ابن القصاب الصوفي، يقول: اسمع واسكت، وانظر واعجب، قال ابن المعتز:

مل سقامي عوده
وضاع من ليلي غده
قلنت من الدهر يده
والموت ضار أسده
وخان دمعى مسعده
طوبى لعين تجده
يفنى ويبقى أبده
وقاتل من يلده

ومن الشعر القديم المختلف في قائله:

قصر الجديد إلى بلى
أي اجتماع لم يعد
أم أي شعب ذي التئام لم يبده انصداعه
أم أي منتفع بشيء
يا بؤس للدهر الذي
قد قيل في مثل خلا:
والوصل في الدنيا انقطاعه
بتفرق منها اجتماعه
ثم تم له انتفاعه
ما زال مختلفاً طباعه
"يكفيك من شر سماعه"

قيل لصوفي كيف ترى الدنيا؟ قال: وما الدنيا، لا أعرف لها وجوداً، قيل له: فأين قلبك؟ قال: عند ري، قيل: فأين ربك؟ قال: وأين ليس هو! قال ابن عائشة: كان يقال: مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلوب صدأ الذنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدل على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تركي النفوس.

ومن كلام بعض الحكماء الفصحاء: كن لنفسك نصيحاً، واستقبل توبة نصوحاً، وازهد في دار سمها ناعم، وطائرها واقع، وارغب في دار طالبها منجح، وصاحبها مفلح. ومتى حققت وآثرت الصدق، بان لك أنهما لا يجتمعان، وأنهما كالضدين لا يصطلحان، فجرد همك في تحصيل الباقية، فإن الآخرة أنت فان عنها وهي فانية عنك، وقد عرفت آثارها في أصحابها ورفقائها، وصنعها بطلانها وعشقائها معرفة عيان، فأى حجة تبقى لك، وأي حجة لا تثبت عليك! ومن كلام هذا الحكيم: "إننا قد أصبحنا في دار راجحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزيزها ذليل، وصحيحها عليل، والداخل إليها مخرج، والمطمئن فيها مزعج، والذائق من شرابها سكران، والوائق بسرابها ظمآن، ظاهرها غرور، وباطنها شرور، وطالبها مكدود، وعاشقها مجهود، وتاركها محمود. العاقل من قلاها وسلا عنها، والظريف من عافها وأنف منها، والسعيد من

غمض بصره عن زهرتها، وصرفه عن نضرتها، وليس لها فضيلة إلا دلالتها على نفسها، وإشارتها إلى نقصها، ولعمري إنها لفضيلة لو صادفت قلباً عقولاً، لا لساناً قوولاً، وعملاً مقبولاً، لا لفظاً منقولاً، فإلى الله الشكوى من هوى مطاع، وعمر مضاع، فيبده الداء والدواء، والمرض والشفاء.

قال أبو حرة: أتينا بكر بن عبد الله المري نعوذه، فدخلنا عليه وقد قام لحاجته، فجلسنا ننتظره، فأقبل إلينا يتهادى بين رجلين، فلما نظر إلينا سلم علينا، ثم قال: رحم الله عبداً أعطي قوة فعمل بما في طاعة الله، أو قصر به ضعف فكف عن محارم الله.

وقال بكر بن عبد الله: مثل الرجل في الدنيا مثل رجل له ثلاثة خلان، قال له أحدهم: أنا خازنك خذ مني ما شئت، فاعمل به ما شئت، وقال الآخر: أنا معك أحملك وأضعك، فإذا مت تركتك، وقال الآخر: أنا أصحابك أبداً، حياتك وموتك. فأما الأول فماله، وأما الثاني فعشيرته، وأما الثالث فعمله.

قيل للزهري: من الزاهد في الدنيا؟ قال: من لم يمنع الحلال شكره، ومن لم يمنع الحرام صبره.

وقال سفيان الثوري: ما عبد الله بمثل العقل، ولا يكون الرجل عاقلاً حتى تكون فيه عشر خصال: يكون الكبر منه مأموناً، والخير منه مأمولاً، يقتدي بمن قبله، ويكون إماماً لمن بعده، وحتى يكون الذل في طاعة الله أحب إليه من العز في معصية الله، وحتى يكون الفقر في الحلال، أحب إليه من الغنى في الحرام، وحتى يكون عيشه القوت، وحتى يستقل الكثير من عمله، ويستكثر القليل من عمل غيره، وحتى لا يتبرم بطلب الحوائج قبله، والعاشرة وما العاشرة! بما شاد مجده، وعلا ذكره، أن يخرج من بيته فلا يستقبله أحد من الناس إلا رأى أنه دونه.

قال يونس بن حبيب: كان عندنا بالبصرة جندي عابد، فأحب الغزو، فلما خرج شيعته، فقلت: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله، وأوصيك بالقرآن، فإنه نور الليل المظلم، وهدى النهار المشرق، فاعمل به على ما كان من جهد وفاقه، فإن عرض بلاء فقدم مالك دون نفسك، فإن تجاوز البلاء فقدم مالك ونفسك دون دينك. واعلم أن المحروب من حرب دينه، والمسلوب من سلب يقينه. إنه لا غنى مع النار، ولا فقر مع الجنة، وإن جهنم لا يفك أسيرها، ولا يستغني فقيرها. ابن المبارك، كان فيما مضى جبار يقتل الناس على أكل لحوم الخنازير، فلم يزل الأمر يترقى حتى بلغ إلى عابد مشهور، فأراد على أكلها، وهدده بالقتل، فشق ذلك على الناس. فقال له صاحب شرطته: إني ذابح لك غداً جدياً، فإذا دعاك هذا الجبار لتأكل، فكل فإنما هو جدي، فلما دعاه ليأكل أبي أن يأكل، فقال: أخرجوه واضربوا عنقه. فقال له الشرطي: ما منعك أن تأكل من لحم جدي؟ قال: إني رجل منظور إلي، وإني كرهت أن يتأسى بي الناس في معاصي الله. فقدمه فقتله. سفيان الثوري، كان رجل يبكي كثيراً، فقال له أهله: لو قتلت قتيلاً ثم أتيت وليه فرآك تبكي هذا البكاء لعفا عنك، فقال: قد قتلت نفسي، فلعل وليها يعفو عني.

وكان أيوب السخيتاني كثير البكاء، وكان يغالط الناس عن بكائه، يبكي مرة فيأخذ أنفه، ويقول: الزكمة ربما عرضت لي، ويبكي مرة فإذا استبان من حوله بكاءه، قال: إن الشيخ إذا كبر معج.

ومن كلام أبي حيان التوحيدي في البصائر: ما أقول في عالم! الساكن فيه وجل، والصاحي بين أهله ثمل، والمقيم على

ذنبه حجل، والراحل عنه مع تهاديه عجل. وإن داراً هذه من آفاتنا وصروفها لحقوقة يجرأها وتركها، والصدوف منها خاصة، ولا سبيل لساكنها إلى دار القرار إلا بالزهد فيها، والرضا بالطفيف منها، كبلغة الثاوي، وزاد المنطلق.

ومن كلام له لأبي ذر رحمه الله

لما أخرج إلى الربذة

الأصل: يا أبا ذر، إنك غضبت لله فارح من غضبت له. إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعهم، وأغناك عما منوك! وستعلم من الراح غداً، وأكثر حسداً، ولو أن السموات والأرضين كانتا على عبد رتقاً، ثم اتقى الله، لجعل الله له منهما مخرجاً. لا يؤسبك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمنوك.

أخبار أبي ذر الغفاري حين خروجه إلى الربذة،

الشرح: واقعة أبي ذر رحمه الله وإخراجه إلى الربذة، أحد الأحداث التي نقت على عثمان: وقد روى هذا الكلام أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى في كتاب السقيفة عن عبد الرزاق، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما أخرج أبو ذر إلى الربذة، أمر عثمان، فنودي في الناس، ألا يكلم أحد أبا ذر ولا يشيعه. وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به. فخرج به، وتحاماه الناس إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعقيلاً أخاه، وحسناً وحسيناً رضي الله عنهما، وعماراً، فإنهم خرجوا معه يشيعونه، فجعل الحسن رضي الله عنه يكلم أبا ذر، فقال له مروان: إيها يا حسن! ألا تعلم أن أمير المؤمنين قد نهي عن كلام هذا الرجل! فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل علي رضي الله عنه على مروان، فضرب بالسوط بين أذني راحلته، وقال: تنح لحاك الله إلى النار! فرجع مروان مغضباً إلى عثمان، فأخبره الخبر، فتلظى على علي رضي الله عنه، ووقف أبو ذر فودعه القوم، ومعه ذكوان مولى أم هانئ بنت أبي طالب.

قال ذكوان: فحفظت كلام القوم وكان حافظاً فقال علي رضي الله عنه: يا أبا ذر، إنك غضبت لله، إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك. فامتنحوك بالقلبي، ونفوك إلى الفلا، والله لو كانت السموات والأرض على عبد رتقاً، ثم اتقى الله لجعل الله له منها مخرجاً. يا أبا ذر لا يؤسبك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل. ثم قال لأصحابه: ودعوا عمكم، وقال لعقيل: ودع أخاك.

فتكلم عقيل، فقال: ما عسى أن نقول يا أبا ذر، وأنت تعلم أنا نحبك، وأنت تحبنا! فاتق الله، فإن التقوى نجاة، واصبر فإن الصبر كرم. واعلم أن استثقالك الصبر من الجزع، واستبطائك العافية من اليأس، فدع اليأس والجزع.

ثم تكلم الحسن، فقال: يا عماه، لولا أنه لا ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشييع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها. واصبر حتى تلقى نبيك صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض.

ثم تكلم الحسين رضي الله عنه، فقال: يا عماه، إن الله تعالى قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم هو في شأن، وقد

منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عما منعوك، وأحوجهم إلى ما منعتهم! فاسأل الله الصبر والنصر، واستعد به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لا يقدم رزقاً، والجزع لا يؤخر أجلاً. ثم تكلم عمار رحمه الله مغضباً، فقال: لا أنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت. مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والمملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والأخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين!

فبكى أبو ذر رحمه الله - وكان شيخاً كبيراً - وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة! إذا رأيتمكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم، إني ثقلت على عثمان بالحجاز، كما ثقلت على معاوية بالشام، وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين، فأفسد الناس عليهما، فسيرني إلى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله، والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة.

ورجع القوم إلى المدينة، فجاء علي رضي الله عنه إلى عثمان، فقال له: ما حملك على رد رسولي، وتصغير أمري! فقال علي رضي الله عنه: أما رسولك، فأراد أن يرد وجهي فرددته، وأما أمرك فلم أصغره. قال: أما بلغك نهيي عن كلام أبي ذر! قال: أو كلما أمرت بأمر معصية أطعناك فيه! قال عثمان: أقد مروان من نفسك، قال: مم ذا؟ قال: من شتمه وجذب راحلته، قال: أما راحلته فراحلي بها، وأما شتمه إياي، فوالله لا يشتمني شتمة إلا شتمتك مثلها، لا أكذب عليك.

فغضب عثمان، وقال: لم لا يشتمك! كأنك خير منه! قال علي: إي والله ومنك! ثم قام فخرج. فأرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين والأنصار وإلى بني أمية، يشكو إليهم علياً رضي الله عنه، فقال القوم: أنت الوالي عليه، وإصلاحه أجمل. قال: وددت ذاك، فأتوا علياً رضي الله عنه، فقالوا: لو اعتذرت إلى مروان وأتيته! فقال: كلا، أما مروان فلا آتية ولا أعتذر منه، ولكن إن أحب عثمان أتيته. فرجعوا إلى عثمان، فأخبروه، فأرسل عثمان إليه، فأثاه ومعه بنو هاشم، فتكلم علي رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما ما وجدت علي فيه من كلام أبي ذر ووداعه، فوالله ما أردت مساءتك ولا الخلاف عليك، ولكن أردت به قضاء حقه. وأما مروان فإنه اعترض، يريد ردي عن قضاء حق الله عز وجل، فرددته رد مثلي مثله، وأما ما كان مني إليك، فإنك أغضبتي، فأخرج الغضب مني ما لم أرد.

فتكلم عثمان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما ما كان منك إلي فقد وهبته لك، وأما ما كان منك إلى مروان، فقد عفا الله عنك، وأما ما حلفت عليه فأنت البر الصادق، فأذن يدك، فأخذ يده فضمها إلى صدره. فلما نهض قالت قريش وبنو أمية لمروان: أنت رجل! جبهك علي، وضرب راحلتك، وقد تفانت وائل في ضرع ناقة، وذبيان وعبس في لطمة فرس، والأوس والخزرج في نسعة! أفتحمل لعلي رضي الله عنه ما آتاه إليك! فقال مروان: والله لو أردت ذلك لما قدرت عليه.

واعلم أن الذي عليه أكثر أرباب السيرة وعلماء الأخبار والنقل، أن عثمان نفى أبا ذر أولاً إلى الشام، ثم استقدمه إلى

المدينة لما شكاه منه معاوية، ثم نفاه من المدينة إلى الربذة لما عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام. أصل هذه الواقعة، أن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوت الأموال، واختص زيد بن ثابت بشيء منها، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: بشر الكافرين بعذاب أليم، ويرفع بذلك صوته، ويتلو قوله تعالى: "والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم"، فرفع ذلك إلى عثمان مراراً وهو ساكت.

ثم إنه أرسل إليه مولى من مواليه: أن انته عما بلغني عنك، فقال أبو ذر: أو ينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى، وعيب من ترك أمر الله تعالى! فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي وخير لي من أن اسخط الله برضا عثمان. فأغضب عثمان ذلك وأحفظه، فتصابر وتماسك، إلى إن قال عثمان يوماً، والناس حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً، فإذا أيسر قضى، فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذر: يا بن اليهوديين، أتعلمنا ديننا! فقال عثمان: قد كنت أذاك لي وتولعك بأصحابي، الحق بالشام. فأخرجه إليها. فكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه معاوية يوماً ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذر لرسوله إن كانت من عطائي الذي حرمتونه عامي هذا أقبلها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها، وردّها عليه.

ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق، فقال أبو ذر: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الاسراف. وكان أبو ذر يقول بالشام: والله لقد حدثت أعماد ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والله إنى لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقى، وصالحاً مستأثراً عليه. قال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام، فندارك أهله إن كان لك فيه حاجة. وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب السفينانية عن جلام بن جندل الغفاري، قال: كنت غلاماً لمعاوية على قنسرين والعواصم، في خلافة عثمان، فجئت إليه يوماً أسأله عن حال عملي، إذ سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار تحمل النار! اللهم العن الأمرين المعروف، التاركين له. اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له. فازبأر معاوية وتغير لونه وقال: يا جلام أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللهم لا. قال: من عذيري من جندب بن جنادة يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت! ثم قال!: أدخلوه علي، فجيء بأبي ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية: يا عدو الله وعدو رسوله! تأتينا في كل يوم فتصنع ما تصنع! أما إنى لو كنت قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكني أستأذن فيك.

قال جلام: وكنت أحب أن أرى أبا ذر، لأنه رجل من قومي، فالتفت إليه فإذا رجل أسمر ضرب من الرجال، خفيف العارضين، في ظهره جناً، فأقبل على معاوية، وقال: ما أنا بعدو الله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الاسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعا عليك مرات ألا تشبع. سمعت رسول صلى الله عليه وسلم، يقول: "إذا ولي الأمة الأعين، الواسع البلعوم، الذي يأكل ولا يشبع، فلتأخذ الأمة حذرهما منه". فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل، قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل، أخبرني بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمعت

يقول وقد مررت به: "اللهم العنه ولا تشبعه إلا بالتراب، وسمعتة صلى الله عليه وسلم يقول: "است معاوية في النار".

فضحك معاوية وأمر بحبسه، وكتب إلى عثمان فيه.

فكتب عثمان إلى معاوية: أن احمل جندباً إلي، على أغلظ مركب وأوعره. فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلا قتب، حتى قدم به المدينة، وقد سقط لحم فخذه من الجهد.

فلما قدم بعث إليه عثمان: الحق بأي أرض شئت. قال: بمكة؟ قال: لا، قال: بيت المقدس، قال: لا، قال: بأحد المصرين؟ قال: لا، ولكني مسيرك إلى ربذة، فسيره إليها، فلم يزل بها حتى مات.

وفي رواية الواقدي، أن أبا ذر لما دخل على عثمان، قال له:

لا أنعم الله بقين عينا

نعم ولا لقاء يوماً زينا

تحية السخط إذا التقينا

فقال أبو ذر: ما عرفت اسمي قينا قط. وفي رواية أخرى: لا أنعم الله بك عينا يا جنيدب! فقال أبو ذر: أنا جندب، وسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، فاخترت اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي سماني به على اسمي. فقال له عثمان: أنت الذي تزعم أنا نقول: يد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء! فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده، ولكني أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً، جعلوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، ودينه دخلاً. فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله؟ قالوا: لا، قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله! فقال أبو ذر لمن حضر: أما تدرون أني صدقت! قالوا: لا والله ما ندري، فقال عثمان: ادعوا لي علياً، فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي رضي الله عنه: أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، وقد صدق أبو ذر. فقال: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر"، فقال من حضر: أما هذا فسمعناه كلنا من رسول الله، فقال أبو ذر: احدثكم أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فتتهموني! ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده، عن صهبان، مولى الأسلميين، قال: رأيت أبا ذر يوم دخل به على عثمان، فقال له: أنت الذي فعلت وفعلت! فقال أبو ذر: نصحتك فاستغششتني، ونصحت صاحبك فاستغشني! قال عثمان: كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبها، قد أغلقت الشام علينا، فقال له أبو ذر: اتبع سنة صاحبك لا يكن لأحد عليك كلام، فقال عثمان: مالك وذلك لا أم لك! قال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فغضب عثمان، وقال: أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب، إما أن أضربه، أو أحبسه، أو أقتله، فإنه قد فرق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام. فتكلم علي رضي الله عنه وكان حاضراً فقال أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون: "إن يك

كاذباً فعلية كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب"، فأجابه عثمان بجواب غليظ، وأجابه علي رضي الله عنه بمثله، ولم نذكر الجوابين تذكماً منهما.

قال الواقدي: ثم إن عثمان حضر على الناس أن يقاعدوا أبا ذر، أو يكلموه. فمكث كذلك أياماً، ثم أتى فوقف بين يديه، فقال أبو ذر: ويحك يا عثمان! أما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأيت أبا بكر وعمر! هل هديك كهديهم! أما إنك لتبسط بي بطش جبار، فقال عثمان: أخرج عنا من بلادنا، فقال أبو ذر: ما أبغض إلي جوارك! فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئت، قال: أخرج إلى الشام أرض الجهاد؟ قال: إنما جلبتك من الشام لما قد أفسدتها، فأردك إليها! قال: فأخرج إلى العراق؟ قال: لا، إنك إن تخرج إليها تقدم على قوم أولي شبه وطعن على الأئمة والولاة، قال: فأخرج إلى مصر؟ قال: لا، قال: فإلى أين أخرج؟ قال: إلى البادية، قال أبو ذر: أصير بعد الهجرة أعرابياً! قال: نعم، قال أبو ذر: فأخرج إلى بادية نجد، قال عثمان: بل إلى الشرق الأبعد، أقصى فأقصى، امض على وجهك هذا فلا تعدون الربذة. فخرج إليها.

وروى الواقدي أيضاً عن مالك بن أبي الرجال، عن موسى بن ميسرة، أن أبا الأسود الدؤلي، قال: كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب خروجه إلى الربذة، فجئته فقلت له: ألا تخبرني، أخرجت من المدينة طائعاً، أم أخرجت كرهاً؟ فقال: كنت في ثغر من ثغور المسلمين اغني عنهم، فأخرجت إلى المدينة، فقلت: دار هجري وأصحابي، فأخرجت من المدينة إلى ما ترى. ثم قال: بينا أنا ذات ليلة نائم في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ مر بي رضي الله عنه، فضربني برجله، وقال: لا أراك نائماً في المسجد، فقلت: بأي أنت وأمي! غلبتني عيني، فمت فيه. قال: فكيف تصنع إذا أخرجوك منه، قلت: إذا ألحق بالشام، فإنها أرض مقدسة، وأرض الجهاد. قال: فكيف تصنع إذا أخرجت منها، قلت: أرجع إلى المسجد، قال: فكيف تصنع إذا أخرجوك منه، قلت: آخذ سيفي فأضربهم به. فقال: ألا أدلك على خير من ذلك، انسق معهم حيث ساقوك، وتسمع وتطيع. فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع، والله ليلقي الله عثمان وهو آثم في جني.

واعلم أن أصحابنا رحمهم الله قد رووا أخباراً كثيرة، معناها أنه أخرج إلى الربذة باختياره. وحكى قاضي القضاة رحمه الله في المغني عن شيخنا أبي علي رحمه الله، أن الناس اختلفوا في أمر أبي ذر، وأن الرواية وردت بأنه قيل له: أعثمان أنزلك الربذة، فقال: لا بل أنا اخترت لنفسي ذلك. وروى أبو علي أيضاً أن معاوية كتب يشكوه وهو بالشام، فكتب إليه عثمان: أن صر إلى المدينة. فلما صار إليها، قال له: ما أخرجك إلى الشام؟ قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا بلغت عمارة المدينة موضع كذا فأخرج منها، فلذلك خرجت. فقال: أي البلاد أحب إليك بعد الشام، قال الربذة، فقال: صر إليها. وروى الشيخ أبو علي أيضاً عن زيد بن وهب، قال: قلت لأبي ذر وهو بالربذة: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: أخبرك أي كنت بالشام، فذكرت قوله تعالى: "والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها". فقال لي معاوية: هذه نزلت في أهل الكتاب، فقلت: فيهم وفينا. فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك، فكتب إلي: أن أقدم، فقدمت عليه، فاثال الناس إلي

كأنهم لم يعرفوني، فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيرني وقال: انزل حيث شئت، فترلت الربذة. ونحن نقول: هذه الأخبار لان كانت قد رويت، لكنها ليست في الاشتهار والكثرة كتلك الأخبار، والوجه أن يقال في الاعتذار عن عثمان وحسن الظن بفعله: إنه خاف الفتنة واختلاف كلمة المسلمين، فغلب على ظنه أن إخراج أبي ذر إلى الربذة أحسم للشغب، وأقطع لأطماع من يشرب إلى شق العصا، فأخرجه مراعاة للمصلحة، ومثل ذلك يجوز للإمام. هكذا يقول أصحابنا المعتزلة، وهو الأليق بمكارم الأخلاق، فقد قال الشاعر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكأن أنت محتالاً لزلته عذرا

وإنما يتأول أصحابنا لمن يحتمل حاله التأويل كعثمان، فأما من لم يحتمل حاله التأويل، - وإن كانت له صحبة سالفة - ك معاوية وأضرابه، فإنهم لا يتأولون لهم إذا كانت أفعالهم وأحوالهم لا وجه لتأويلها، ولا تقبل العلاج والإصلاح.

ومن كلام له في حال نفسه أوصاف الإمام

الأصل: أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المتشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد! هيهات أن أطلع بكم سرار العدل، أو أقيم أعوجاج الحق. اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الخطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك. اللهم إني أول من أنا، وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بالصلاة؛ وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته. ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم، فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة، فيهلك الأمة.

الشرح: أظأركم: أعطفكم، ظأرت الناقة ظأراً، وهي ناقة مظلورة، إذا عطفتها على ولد غيرها، وفي المثل: الطعن يظأر أي يعطف على الصلح، وظأرت الناقة أيضاً إذا عطفت على البو، يتعدى ولا يتعدى، فهي ظؤور، والوعوعة: الصوت، والوعواع مثله.

وقوله: "هيهات أن أطلع بكم سرار العدل"، يفسره الناس بمعنى هيهات أن اطلعكم مضيئين ومنورين لسرار العدل. والسرار: آخر ليلة في الشهر، وتكون مظلمة، ويمكن عندي أن يفسر على وجه آخر، وهو أن يكون السرار ههنا بمعنى السرور، وهي خطوط مضيئة في الجبهة، وقد نص أهل اللغة على أنه يجوز فيها سرر وسرار، وقالوا: ويجمع سرار على أسرة، مثل حمار وأحمر، قال عنترة:

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال مقدم

يصف الكأس، ويقول: إن فيها خطوطاً بيضاً، وهي زجاج أصفر. ويقولون: برقت أسرة وجهه وأسارير وجهه، فيكون معنى كلامه رضي الله عنه: هيهات أن تلمع بكم لوامع العدل، وتنجلي أوضاعه، ويبرق وجهه. ويمكن فيه أيضاً وجه آخر وهو أن ينصب "سرار" ههنا على الظرفية، ويكون التقدير: هيهات أن أطلع بكم الحق زمان استسرار العدل واستخفائه، فيكون قد حذف المفعول، وحذفه كثير.

ثم ذكر أن الحروب التي كانت منه لم تكن طلباً للملك، ولا منافسة على الدنيا، ولكن لتقام حدود الله على وجهها، ويجري أمر الشريعة والرعية على ما كان يجري عليه أيام النبوة.

ثم ذكر أنه سبق المسلمين كلهم إلى التوحيد والمعرفة، ولم يسبقه بالصلاة أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا روى جمهور المحدثين، وقد تقدم ذكر ذلك.

فإن قلت: أي وجه لإدخال هذا الكلام في غرضه مقصده في هذه الخطبة، فإنها مبنية على ذم أصحابه، وتقرير قاعدة الإمامة، وأنه لا يجوز أن يليها الفاسق، وأنه لا بد للإمام من صفات مخصوصة، عددها رضي الله عنه، وكل هذا لا تعلق لسبقه إلى الإسلام! قلت: بل الكلام متعلق ببعضه ببعض من وجهين: أحدهما أنه لما قال: اللهم إنك تعلم أي ما سللت السيف طلباً للملك، أراد أن يؤكد هذا القول في نفوس السامعين، فقال: أنا أول من أسلم، ولم يكن الإسلام حينئذ معروفاً أصلاً، ومن يكون إسلامه هكذا لا يكون قد قصد بإسلامه إلا وجه الله تعالى والقربة إليه، فمن تكون هذه حاله في مبدأ أمره، كيف يخطر ببال عاقل أنه يطلب الدنيا وحطامها، ويجرد عليها السيف في آخر عمره، ووقت انقضاء مدة عمره! والوجه الثاني أنه إذا كان أول السابقين، وجب أن يكون أقرب المقربين، لأنه تعالى قال: "والسابقون السابقون أولئك المقربون"، ألا ترى أنه إذا قال الملك: "العالمون العالمون هم المختصون بنا"، وجب أن يكون أعلمهم أشدهم به اختصاصاً، وإذا كان رضي الله عنه أقرب المقربين، وجب أن تنتفي عنه الموانع الستة، التي جعل كل واحد منها صاعداً عن الإمامة، وقاطعاً عن استحقاقها، وهي البخل والجهل والجفاء أي الغلظة، والعصبية في دولته أي تقديم قوم على قوم، والارتشاء في الحكم، والتعطيل للسنة، وإذا انتفت عنه هذه الموانع الستة تعين أن يكون هو الإمام، لأن شروط الإمامة موجودة فيه بالاتفاق، فإذا كانت موانعها عنه منتفية ولم يحصل لغيره اجتماع الشروط، وارتفاع الموانع، وجب أن يكون هو الإمام، لأنه لا يجوز خلو العصر من إمام، سواء كانت هذه القضية عقلية أو سمعية.

فإن قلت: أفتراه عني بهذا قوماً بأعيانهم؟ قلت، الإمامية تزعم أنه رمز في الجفاء والعصبية لقوم دون قوم إلى عمر، ورمز بالجهل إلى من كان قبله، ورمز بتعطيل السنة إلى عثمان ومعاوية، وأما نحن فنقول: إنه رضي الله عنه لم يعن ذلك، وإنما قال قولاً كلياً غير مخصوص، وهذا هو اللائق بشرفه رضي الله عنه، وقول الإمامية دعوى لا دليل عليها، ولا يعدم كل أحد أن يستنبط من كل كلام ما يوافق غرضه وإن غمض، ولا يجوز أن تبني العقائد على مثل هذه الاستنباطات الدقيقة. والنهمة: المهمة الشديدة بالأمر، قد نهم بكذا بالضم، فهو منهوم، أي موله به حريص عليه، يقول: إذا كان الإمام بخيلاً كان حرصه وجشعه على أموال رعيته، ومن رواها نهمته، بالتحريك فهي إفراط الشهوة في الطعام، والماضي نهم، بالكسر.

قوله رضي الله عنه. فيقطعهم بجفائه أي يقطعهم عن حاجاتهم لغلظته عليهم، لأن الوالي إذا كان غليظاً جافياً أتعب الرعية وقطعهم عن مراجعته في حاجاتهم خوفاً من بادرته، ومعرفته.

قوله: "ولا الحائف للدول"، أي الظالم لها، والجائر عليها. والدول: جمع دولة بالضم وهي اسم المال المتداول به، ويقال: هذا الفيء دولة بينهم، أي يتداولونه، والمعنى أنه يجب أن يكون الإمام يقسم بالسوية، ولا يخص قوماً دون قوم على وجه العصية لقبيلة دون قبيلة، أو لإنسان من المسلمين دون غيره، فيتخذ بذلك بطانة.

قوله: "فيقف بها دون المقاطع"، المقاطع: جمع مقطع، وهو ما ينتهي الحق إليه، أي لا تصل الحقوق إلى أربابها لأجل ما أخذ من الرشوة عليها.

فإن قلت: فما باله قال في المانع السادس: "فيهلك الأمة" وكل واحد من الموانع قبله يفضي إلى هلاك الأمة قلت: كل واحد من الموانع الخمسة يفضي إلى هلاك بعض الأمة، وأما من يعطل السنة أصلاً، فإنه لا محالة مهلك للأمة كلها، لأنه إذا عطل السنة مطلقاً، عادت الجاهلية الجهلاء كما كانت.

وقد روي: "ولا الحائف الدول" بالخاء المعجمة. ونصب الدول أي من يخاف دور، الأيام وتقلبات الدهر فيتخذ قوماً دون قوم ظهيراً، وهذا معنى لا بأس به.

ومن خطبة له عنه في تمجيد الله تعالى

الأصل: نحمده على ما أخذ وأعطى، وعلى ما أبلى وأبتلى، الباطن لكل خفية، والحاضر لكل سرير، العالم بما تكن الصدور، وما تخون العيون. ونشهد أن لا إله غيره، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم وآله نجييه وبعيثة، شهادة يوافق فيها السر الإعلان، والقلب اللسان.

الشرح: على ما أبلى، أي ما أعطى، يقال: قد أبلاه الله بلاء حسناً، أي أعطاه، قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلى

وأما قوله: "وابتلى" فلا ابتلاء انزال مضرة بالإنسان على سبيل الاختبار، كالمرض والفقر والمصيبة. وقد يكون الابتلاء بمعنى الاختبار في الخير، إلا أنه أكثر ما يستعمل في الشر.

والباطن: العالم، يقال: بطن الأمر، أي خبرته. وتكن الصدور: لستر، وما تخون العيون: ما تسترق من اللحظات والرمزات على غير الوجه الشرعي. والنجيب: المنجب. والبعيث: المبعوث.

الأصل: منها: فإنه والله الجد لا اللعب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت أسمع داعيه، وأعجل حاديه. فلا يفرنك سواد الناس من نفسك، وقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال وحذر الإقلال، وأمن العواقب طول أمل واستبعاد أجل، كيف نزل به الموت فأزعجه عن وطنه، وأخذه من مأمنه، محمولاً على أعواد المنايا، يتعاطى به الرجال الرجال، حملاً على المناكب، وإمساكاً بالأنامل.

أما رأيتم الذين يأملون بعيداً، ويننون مشيداً، ويجمعون كثيراً، أصبحت بيوتهم قبوراً، وما جمعوا بوراً، وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين، لا في حسنة يزيدون، ولا من سيئة يستعتبون. فمن أشعر التقوى قلبه، برز مهله، وفاز

عمله. فاهتبلوا هبلها، واعملوا للجنة عملها، فإن لدنيا لم تخلق لكم دار مقام، بل خلقت لكم مجازاً، لتزودوا منها الأعمال إلى دار القرار. فكونوا منها على أوفاز، وقربوا الظهور للزئال.

الشرح: قوله رضي الله عنه: "فإنه والله الجدل"، الضمير للأمر والشأن الذي خاض معهم في ذكره ووعظهم بتروله. ثم أوضحه بعد إجماله، فقال: إنه الموت الذي دعا فأسمع، وحدا فأعجل.

وسواد الناس: عامتهم، ومن ههنا، إما بمعنى الباء، أي لا يغرنك الناس بنفسك وصحتك وشبابك، فتستبعد الموت اغتراراً بذلك، فتكون متعلقة بالظاهر، وما أن تكون متعلقة بمحذوف، تقديره: متمكناً من نفسك، وراكناً إليها، والإقلال: الفقر. وطول أمل، منصوب على أنه مفعول.

فإن قلت: المفعول له ينبغي أن يكون الفعل علة في المصدر وههنا ليس الأمن علة طول الأمل، بل طول الأمل علة الأمن؟

قلت: كما يجوز أن يكون طول الأمل علة الأمن، يجوز أن يكون الأمن علة طول الأمل، ألا ترى أن الإنسان قد يأمن المصائب فيطول أمله في البقاء ووجوه المكاسب، لأجل ما عنده من الأمن. ويجوز أن ينصب طول أمل على البدل من المفعول المنصوب ب رأيت، وهو من، ويكون التقدير: قد رأيت طول! أمل من كان. وهذا بدل الاشتمال، وقد حذف منه الضمير العائد كما حذف من قوله تعالى: "قتل أصحاب الأخدود، النار..." وأعواد المنايا: النعش. ويتعاطى به الرجال الرجال: يتداولونه: تارة على أكتاف هؤلاء، وتارة على أكتاف هؤلاء، وقد فسر ذلك بقوله: حملاً على المناكب، وإمساكاً بالأنامل، والمشيّد: المبني بالشيد، وهو الحص، البور: الفاسد المالك، وقوم بور، أي هلكى، قال سبحانه: "وكنتم قوماً بوراً"، وهو جمع، واحده بائر كحائل وحول.

ويستعقبون ههنا يفسر بتفسيرين، على اختلاف الروايتين: فمن رواه بالضم على فعل ما لم يسم فاعله، فمعناه لا يعاتبون على فعل سيئة صدرت منهم كما كانوا في أيام حياتهم، أي لا يعاتبهم الناس أو لا يستطيعون وهم موتى أن يسيئوا إلى أحد إساءة عليها، ومن رواه يستعقبون بفتح حرف المضارعة، فهو من استعقب فلان، أي طلب أن يعتب، أي يرضى، تقول: استعقبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني.

وأشعر فلان التقوى قلبه: جعله كالشعار له، أي يلازمه ملازمه شعار الجسد.

وبرز مهله، ويروى بالرفع والنصب، فمن رواه بالرفع جعله فاعل برز، أي من فاق شوطه برز الرجل على أقرانه، أي فاقهم، والمهل شوط الفرس، ومن رواه بالنصب جعل برز بمعنى أبرز، أي أظهر وأبان؟ فنصب حينئذ على المفعولية. واهتبلت غرة زيد، أي اغتتمتها؟ والهبال: الصياد الذي يهتبل الصيد أن يغره وذئب هبل أي محتال، هبلها منصوب على المصدر كأنه من هبل، مثل غضب غضباً، أي اغتتموا وانتهزوا الفرصة؟ الانتهاز الذي يصلح لهذه الحال؟ أي ليكن هذا الاهتيال بجد وهمة عظيمة، فإن هذه الحال، حال عظيمة لا يليق بها إلا الاجتهاد العظيم.

وكذا قوله: "واعملوا للجنة عملها"؟ أي العمل الذي يصلح أن يكون ثمرته الجنة، ودار مقام، أي دار إقامة. والمجاز: الطريق يجاز عليه إلى المقصد.

والأوفاز: جمع وفز يسكون الفاء؟ وهو العجلة. والظهور: الركاب، جمع ظهر. وبنو فلان مظهرون، أي لهم ظهور ينقلون عليها الأثقال، كما يقال: منجبون؟ إذا كانوا أصحاب نجائب. والزبال: المفارقة؟ زايله مزايلة، وزبالاً، أي فارقه.

ومن كلام له عليه السلام في أوصاف الدنيا

الأصل: وانقادت له الدنيا والآخرة بأزمتهما، وقذفت إليه السموات والأرضون مقاليدها، وسجدت له بالغدو والآصال الأشجار الناضرة، وقدحت له من قضبانها النيران المضئئة، وآتت أكلها بكلماته الثمار اليانعة.

الشرح: الضمير في له يرجع إلى الله تعالى؟ وقد كان تقدم ذكره سبحانه في أول الخطبة؟ وإن لم يذكره رضي رحمه الله، ومعنى انقياد الدنيا والآخرة له نفوذ حكمه فيهما، وشياع قدرته وعمومها.

وأزمتهما: لفظة مستعارة من انقياد الإبل بأزمتهما مع قائدتها. والمقاليد: المفاتيح.

ومعنى سجود الأشجار الناضرة له تصرفها حسب إرادته، وكونها مسخرة له محكوماً عليها بنفوذ قدرته فيها، فجعل رضي الله عنه لك خضوعاً منها لمشيئته، واستعار لها ما هو أدل على خضوع الإنسان من جميع أفعاله، وهو السجود ومنه قوله تعالى: "ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس".

وقوله: "وقدحت له من قضبانها" بالضم، جمع قضيب، وهو الغصن، والمعنى أنه بقدرته أخرج من الشجر الأخضر ناراً، والنار ضد هذا الجسم المخصوص، وهذا هو قوله تعالى: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون" بعينه.

وآتت أكلها: أعطت ما يؤكل منها، وهو أيضاً من الألفاظ القرآنية.

واليانعة: الناضجة. وبكلماته، أي بقدرته ومشئته، وهذه اللفظة من الألفاظ المنقولة على أحد الأقسام الأربعة المذكورة في كتبنا في أصول الفقه، وهو استعمال لفظة متعارفة في اللغة العربية في معنى لم يستعملها أهل اللغة فيه، كنقل لفظة الصلاة، الذي هو في أصل اللغة للدعاء إلى هيئات وأوضاع مخصوصة، ولم تستعمل العرب تلك اللفظة فيها. ولا يصح قول من قال: المراد بذلك قوله كن، لأنه تعالى لا يجوز أن يخاطب المعلوم وقوله تعالى: "إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون" من باب التوسع والاستعارة المملوء من القراء، والمراد سرعة المؤاتاة، وعجلة الإيجاد، وأنه إذا أراد من أفعاله أمراً كان.

الأصل: منها: وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعز لا تهزم أعوانه.

الشرح: يقال: هو نازل بين أظهرهم، وبين ظهريهم، وبين ظهراينهم، بفتح النون، أي نازل بينهم. فإن قلت: لماذا قالت العرب بين أظهرهم، ولم تقل: بين صدورهم؟ قلت: أرادت بذلك الإشعار بشدة الحاماة عنه، والمراماة من دونه، لأن التزليل إذا حامى القوم عنه استقبلوا شبا الأسنة، وأطراف السيوف عنه بصدورهم، وكان هو محروساً مصوناً عن مباشرة ذلك وراء ظهورهم.

ولا يعيا لسانه: لا يكل، عييت بالمنطق، فأنا عيي، على فعيل، ويجوز: عي الرجل في منطقته، بالتشديد، فهو عي على، فعل .

الأصل: منها: أرسله على حين فترة من الرسل، وتنازع من الألسن، فقفى به الرسل، وختم به الوحي، فجاهد في الله المدبرين عنه، والعادلين به.

الشرح: الضمير في أرسله، راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مذكور في كلام لم يحكه جامع الكتاب. والفترة: زمان انقطاع الوحي، والتنازع من الألسن، أن قوماً في الجاهلية كانوا يعبدون الصنم، وقوماً يعبدون الشمس، وقوماً يعبدون الشيطان، وقوماً يعبدون المسيح، فكل طائفة تجادل مخالفيها بألستها لتقودها إلى معتقدها. وقفى به الرسل: أتبعها به، قال سبحانه: "ثم قفينا على آثارهم برسلنا"، ومنه الكلام المقفى، وسميت قوافي الشعر، لأن بعضها يتبع بعضاً.

والعادلين به: الجاعلين له عديلاً، أي مثلاً، وهو من الألفاظ القرآنية أيضاً، قال الله تعالى: "برهم يعدلون". الأصل: منها: وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود. الشرح: شبه الدنيا وما بعدها بما يتصوره الأعمى، من الظلمة التي يتخيلها، وكأنها محسوسة له، وليست بمحسوسة على الحقيقة، وإنما هي عدم الضوء، كمن يطلع في جب ضيق، فيتخيل ظلاماً، فإنه لم ير شيئاً، ولكن لما عدم الضوء فلم ينفذ البصر تخيل أنه يرى الظلمة، فأما من يرى المبصرات في الضياء، فإن بصره ينفذ فيشاهد المحسوسات يقيناً، وهذه حال الدنيا والآخرة، أهل الدنيا منتهى بصرهم دنياهم، ويظنون أنهم يبصرون شيئاً وليسوا بمبصرين على الحقيقة، ولا حواسهم نافذة في شيء، وأهل الآخرة قد نفذت أبصارهم، فرأوا الآخرة، ولم يقف إحساسهم على الدنيا خاصة، فأولئك هم أصحاب الأبصار على الحقيقة، وهذا معنى شريف من معاني أصحاب الطريقة والحقيقة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: "أم لهم أعين يبصرون بها" فأما قوله: فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، فمن مستحسن التجنيس، وهذا هو الذي يسميه أرباب الصناعة الجنس التام، فالشاخص الأول الراحل، والشاخص الثاني من شخص بصره، بالفتح، إذا فتح عينه نحو الشيء مقابلاً له وجعل لا يطرّف.

الجناس وأنواعه

واعلم أن الجنس على سبعة أضرب: أولها: الجنس التام كهذا اللفظ، وحده أن تتساوى حروف ألفاظ الكلمتين في تركيبها وفي وزنها، قالوا: ولم يرد في القرآن العزيز منه إلا موضع واحد، وهو قوله: "ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة".

وعندي أن هذا ليس بتجنيس أصلاً، وقد ذكرته في كتابي المسمى بـ "الفلك الدائر على المثل السائر" وقلت: إن الساعة في الموضعين بمعنى واحد، والتجنيس أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ولا يكون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً، بل يكونان

حقيقتين، وإن زمان القيامة وإن طال، لكنه عند الله في حكم الساعة الواحدة، لأن قدرته لا يعجزها أمر، ولا يطول عندها زمان، فيكون إطلاق لفظ الساعة على أحد الموضوعين حقيقة، وعلى الآخر مجازاً، وذلك يخرج الكلام عن حد التجنيس، كما لو قلت: ركبت حماراً، ولقيت حماراً، وأردت بالثاني البليد. وأيضاً، فلم لا يجوز أن يكون أراد بقوله: "ويوم تقوم الساعة"، الأولى خاصة من زمان البعث، فيكون لفظ الساعة مستعملاً في الموضوعين حقيقة بمعنى واحد، فيخرج عن التجنيس، وعن مشابهة التجنيس بالكلية. قالوا: وورد في السنة من التجنيس التام خبر واحد، وهو قوله صلى الله عليه وسلم لقوم من الصحابة، كانوا يتنازعون جرير بن عبد الله البجلي في زمام ناقتة: "خلوا بين جرير والجرير"، فالجرير الثاني الحبل. وجاء من ذلك في الشعر لأي تمام قوله:

فأصبحت غرر الإسلام مشرقةً بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

فالغرر الأولى مستعارة من غرة الوجه، والغرر الثانية من غرة الشيء، وهي أكرمه. وكذلك قوله:

من القوم جعد أبيض الوجه والندى وليس بنان يجتدى منه بالجعد

فالجعد الأول السيد، والثاني ضد السبط، وهو من صفات البخيل. وكذلك قوله:

بكل فتىً ضرب يعرض للقنا محياً محلى حليه الطعن والضرب

فالضرب الأول الرجل الخفيف، والثاني مصدر ضرب. وكذلك قوله:

عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب

فأحدهما جمع ثغر وهو ما يتأخم العدو من بلاد الحرب، والثاني للأسنان. ومن هذه القصيدة:

كم أحرزت قضب الهندي مصلتةً تهتز من قضب تهتز في كذب

بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت أحق بالبيض أبداناً من الحجب

وقد أكثر الناس في استحسان هذا التجنيس وأطنبوا، وعندي أنه ليس بتجنيس أصلاً، لأن تسمية السيوف قضباً وتسمية الأغصان قضباً كله بمعنى واحد، وهو القطع، فلا تجنيس إذا. وكذلك البيض للسيوف، والبيض للنساء، كله بمعنى البياض، فبطل معنى التجنيس، وأظني ذكرت هذا أيضاً في كتاب الفلك الدائر". قالوا: ومن هذا القسم قوله أيضاً:

إذا الخيل جابت قسطل الخيل صدعوا صدور العوالي في صدور الكتائب

وهذا عندي أيضاً ليسى بتجنيس، لأن الصدور في الموضوعين بمعنى واحد، وهو جزء الشيء المتقدم البارز عن سائرته، فأما قوله أيضاً:

عامي وعام العيس بين وديقة

مسجورة، وتتوفة صيخود

حتى أغادر كل يوم بالفلا

للطير عيداً من بنات العيد

فإنه من التجنيس التام، لا شبهة في ذلك لاختلاف المعنى، فالعيد الأول هو اليوم المعروف من الأعياد، والعيد الثاني فحل من فحول الإبل. ونحو هذا قول أبي نواس:

عباس عباس إذا احتدم الوغى

والفضل فضل والربيع ربيع

وقول البحتري:

إذا العين راحت وهي عين على الهوى

فليس بسر ما تسر الأضالع

فالعين الثانية الجاسوس، والأولى العين المبصرة. وللغزي المتأخر قصيدة أكثر من التجنيس التام فيها، أولها:

لوزارنا طيف ذات الخال أحياناً

ونحن، حفر الأجداث أحياناً

وقال في أثنائها:

تقول أنت امرؤ جاف مغالطة

فقلت لا هومت أجفان أجفانا

وقال في مديحها:

لم يبق غيرك إنسان يلاذ به

فلا برحت لعين الدهر إنساناً

وقد ذكر الغامي في كتابه من صناعة الشعر باباً سماه رد الأعجاز على الصدور، ذكر أنه خارج عن باب التجنيس، قال: مثل قول الشاعر:

ونشري بجميل الصن

ع ذكراً طيب النشر

ونفري بسبون الهن

د من أسرف في النفر

وبحري في شرى الحمد

على شاكلة البحر

وهذا من التجنيس، وليس بخارج عنه ولكنه تجنيس مخصوص، وهو الإتيان به في طرفي البيت.

وعد ابن الأثير الموصلي لا كتابه من التجنيس قول الشاعر في الشيب:

يا بياضاً أذرى دموعي حتى

عاد منها سواد عيني بياضاً

وكذلك قول البحتري:

وأغر في الزمن البهيم محجل

قد رحت منه على أغر محجل

وهذا عندي ليس بتجنيس، لاتفاق المعنى. والعجب منه أنه بعد إirاده هذا أنكر على من قال: إن قول أبي تمام:

أظن الدمع في خدي سيبقى

رسوماً من بكائي في الرسوم

من التجنيس، وقال: أي تجنيس ههنا والمعنى متفق، ولو أمعن النظر لرأى هذا مثل البيتين السابقين.

قالوا: فأما الأجناس الستة الباقية، فإنها خارجة عن التجنيس التام ومشبهة به.

فمنها أن تكون الحروف متساوية في تركيبها، مختلفة في وزنها، فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي، وقول بعضهم: لن تنالوا غرر المعالي إلا بركوب الغرر، واهتيال الغرر"، وقول البحري:

أماناً، أي ساعة ما أمان

وفر الخائن المغرور يرجو

للحظة طرفه طرف السنان

يهاب الالتفات وقد تصدى

وقال آخر:

ما بين حر هوى وحر هواء

قد ذبت بين حشاشة وذماء

ومنها: أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير، فإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس، وذلك نحو قوله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة". وكذلك قوله سبحانه وتعالى: "وهم ينهون عنه وينأون عنه"، وقوله تعالى: "ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون". ونحو هذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله: "الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة"، وقال بعضهم: "لا تنال المكارم إلا بالمكاره". وقال أبو تمام:

تصول بأسياف قواض قواضب

يمدون من أيد عواص عواصم

وقال البحري:

ومهفهف الكشحين أحوى أحور

من كل ساجي الطرف أغيد أجيد

وقال أيضاً:

شواجن أرحام ملوم قطوعها

شواجر أرماع تقطع بينهم

وهذا البيت حسن الصنعة، لأنه قد جمع بين التجنيس الناقص وبين المقلوب، وهو أرماع، وأرحام. ومنها: أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، كقوله تعالى: "وألفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق"، وكقوله تعالى: "وهم يحسون أنهم يحسون صنعا"، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده" وقول بعضهم: "الصديق لا يحاسب، والعدو لا يحتسب له، هكذا ذكر ابن الأثير هذه الأمثلة. قال: ومن هذا القسم قول أبي تمام:

حسناً وتقمر لبه الأقمار

أيام تدمي عينه تلك الدمى

صور وهن إذا رمقن صوار

بيض فهن إذا رمقن سوافراً

وكذلك قوله أيضاً:

ولعاً وشمس، أولعت بشماس

بدر أطاعت فيك بادرة النوى

وقوله أيضاً:

معروفة بعمارة الأعمار

جهلوا فلم يستكثروا من طاعة

وقوله أيضاً:

فجنى العوالي في ذراه معال

إن الرماح إذا غرسن بمشهد

وقوله أيضاً:

بلا نعمة أحسنت أن تتطولا

إذا أحسن الأقسام أن يتطاولوا

وقوله أيضاً:

الأطعان حتى استهل صوب العزالي

شد ما استنزلتك عن دمعك

وهو ملقى على طريق الليالي

أي ريع يكذب الدهر عنه

فهو نضو الأحوال والأحوال

بين حال جنت عليه وحول

وجمال على ظهور الجمال

أي حسن في الذاهبين تولى

وحجل مقصر في الحجال

ودلال مخيم في ذرى الخيم

فالبيت الثالث والخامس هما المقصودان بالتمثيل.

ومن ذلك قول علي بن جبلة:

بذات جفون، أو بذات جفان

وكم لك من يوم رفعت عماده

وكتقول البحري:

وصوب المزن في راح شمول

نسيم الروض في ريح شمال

وكت قوله أيضاً:

ضبابية نقع تحتها الموت ناقع

جدير بأن تنشق عن ضوء وجهه

واعلم أن هذه الأمثلة لهذا القسم، ذكرها ابن الأثير في كتابه، وهو عندي مستدرک، لأنه حد هذا القسم بما يختلف تركيبه، يعني حروفه الأصلية، ويختلف أيضاً وزنه، ويكون اختلاف تركيبه بحرف واحد. هكذا قال في تحديده لهذا القسم، وليس بقمر والأقمار تختلف بحرف واحد، وكذلك عمارة والأعمار، وكذلك العوالي والمعالى. وأما قوله تعالى: "وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"، فخارج عن هذا بالكلية، لأن جميع أمثلة هذا القسم يختلف فيه الكلمات بالحروف الزائدة، وهذه الآية اختلاف كلمتيها بحروف أصلية، فليست من التجنيس الذي نحن بصدد، بل هي من باب تجنيس التصحيف، كقول البحري:

ليعجز والمعتز بالله طالبه

ولم يكن المعتز بالله إذ سرى

ثم قال ابن الأثير في هذا القسم أيضاً: ومن ذلك قول محمد بن وهيب الحميري:

فمالك موتور وسيفك واتر

قسمت صروف الدهر بأساً ونائلاً

وهذا أيضاً عندي مستدرک، لأن اللفظین کلّیهما من الوتر، ويرجعان إلى أصل واحد، إلا أن أحد اللفظین مفعول والآخر فاعل، وليس أحد یقول إن شاعراً لو قال فی شعره: ضارب ومضروب، لکان قد جانس. ومنها القسم المکنى بالمعکوس، وهو على ضربین: عکس لفظ وعکس حرف، فالأول کقولهم: عادات السادات، سادات العادات، وکقولهم: شیم الأحرار أحرار الشیم، ومن ذلك قول الأضبط بن قریع:

ويأکل المال غیر من جمعه

قد یجمع المال غیر آکله

ويلبس الثوب غیر من قطعه

ويقطع الثوب غیر لابسه

ومثله قول المتنبي:

ولا مال فی الدنيا لمن قل مجده

فلا مجد فی الدنيا لمن قل ماله

ومثله قول الرضي رحمه الله من أبيات یذم فیها الزمان:

وطار بمن یسف إلى الدنيا

أسف بمن یطیر إلى المعالي

ومثله قول آخر:

تطوى وتنشر بینها الأعمار

إن اللیالي للأنام مناهل

وطوالهن مع السرور قصار

فقصارهن مع الهموم طويلة

ولبعض شعراء الأندلس یذكر غلامه:

ان فقد شبت والتحي

غيرتنا ید الزم

واستحال الدجى ضحى

فاستحال الضحى دجى

ويسمى هذا الضرب التبدیل، وقد مثله قدامة بن جعفر الكاتب بقولهم: اشکر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شکرك. ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم: "جار الدار أحق بدار الجار". قالوا: ومنه قوله تعالى: "یخرج الحي من الميت ویخرج الميت من الحي"، ولا أراه منه، بل هو من باب الموازنة. ومثله أيضاً بقول أمير المؤمنین رضي الله عنه: أما بعد، فإن الإنسان یسره درك ما لم یکن لیفوته، ویسوءه فوت ما لم یکن لیدرکه. وبقول أبي تمام لأبي العمیث وأبي سعید الضریر، فإنهما قالاً: لما امتدح عبد الله بن طاهر بقصيدة، وفي افتتاحها تكلف وتعجرف: لم لا تقول ما یفهم، فقال لهما: لم لا تفهما ما یقال.

والضرب الثاني من هذا القسم عکس الحروف، وهو کقول بعضهم، وقد أهدى لصديق له کرسياً:

أحدثه الفال والتبرک

أهدیت شیئاً یقل لولا

رأیت مقلوبه یسرک

کرسی تفاعلت فیہ لما

وکقول الآخر:

إذا تأملتہ مقلوب إقبال

کیف السرور بإقبال وآخره

أي لا بقاء. وكقول الآخر:

جاذبتها والريح تجذب عقرباً
من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتمنعت
وتحجبت عني بقلب العقرب
ير يد بها برقعاً.

ومنها النوع المسمى المجنب، وهو أن يجمع بين كلمتين إحداهما، كالجنيبة التابعة للأخرى، مثل قول بعضهم:

أبا الفياض لا تحسب بأني
لفقري من حلى الأشعار عار
فلي طبع كسلسال معين
زلال من ذرا الأحجار جار

وهذا في التحقيق هو الباب المسمى لزوم ما لا يلزم، وليس من باب التجنيس.

ومنها المقلوب، وهو ما يتساوى وزنه وتركيبه إلا أن حروفه تتقدم وتتأخر، مثل قول أبي تمام:

بيض الصفائح لاسود الصفائف في
متونهن جلاء الشك والريب

وقد ورد مثل ذلك في المنثور، نحو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه يقال يوم القيامة، لصاحب القرآن: "اقرأ وارق".

وقد تكلمت في كتابي المسمى بالعقري الحسان، على أقسام الصناعة البديعة نثراً ونظماً، وبينت أن كثيراً منها يتداخل، ويقوم البعض من ذلك مقام بعض، فليلمح من هناك.

الأصل: منها: واعلموا أنه ليس من شيء إلا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملّه، إلا الحياة فإنه لا يجد في الموت راحة، وإنما ذلك بمثالة الحكمة التي هي حياة للقلب الميت، وبصر للعين العمياء، وسمع للأذن الصماء، وري للظمآن، وفيها الغنى كله والسلامة.

كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله.

قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم، ونبت المرعى على دمنكم، وتصافيتم على حب الآمال، وتعاذيتم في كسب الأموال. لقد استهام يكم الخبيث، وتاه بكم الغرور، والله المستعان على نفسي وأنفسكم.

الشرح: هذا الفصل ليس بمنظم من أوله إلى آخره، بل هو فصول متفرقة التقطها الرضي من خطبة طويلة على عادته في التقاط ما يستفصحه من كلامه رضي الله عنه، وإن كان كل كلامه فصيحاً، ولكن كل واحد له هوى ومحبة لشيء مخصوص، وضروب الناس عشاق ضروباً.

أما قوله: كل شيء مملول إلا الحياة، فهو معنى قد طرقه الناس قديماً وحديثاً، وقال أبو الطيب:

ولذيذ الحياة أنفس في النفس
وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مل
حياة ولكن الضعف ملا

وقال أيضاً:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه
فحب الجبان النفس أوردته البقا
حريصاً عليها مستهماً بها صبا
وحب الشجاع النفس أوردته الحربا

وقال أبو العلاء:

فما رغبت في الموت كدر مسيرها
يصادفن صقراً كل يوم وليلة
ولا قلقات الليل باتت كأنها
ضربن مليعاً بالسنايك أربعاً
وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله
وما استعذبت به روح موسى وآدم
ولي من قصيدة، أحاطب رجلين فرا في حرب:
عذرتكما إن الحمام لمبغض
ويكره طعم الموت والموت طالب
وقال أبو الطيب أيضاً:

طيب هذا النسيم أوفر
والأسى قبل فرقة الروح عجز
في الأنفس أن الحمام مر المذاق
والأسى لا يكون بعد الفراق

البحثري:

ما أطيب الأيام إلا أنها

وقال آخر:

أوفى يصفق بالجنح مغلسا
ياطيب لذة هذه الدنيا لنا
ويصيح من طرب إلى الندمان
لو أنها بقيت على الإنسان

وقال آخر:

أرى الناس يهون البقاء سفاهةً
ومن يأمن الأيام، أما بلاؤها
وذلك شيء ما إليه سبيل
فجم، وأما خيرها فقليل

وقال محمد بن وهيب الحميري:

ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها
وما كنت منه فهو شيء محبب

وهذا مأخوذ من قول أمير المؤمنين رضي الله عنه، وقد قيل له: ما أكثر حب الناس للدنيا، فقال: هم أبناؤها، أيلام الإنسان على حب أمه.
وقال آخر:

تنزل بالمرء على رغمه

ياموت ما أفجأك من نازل

وتأخذ الواحد من أمه

تستلب العذراء من خدرها

أبو الطيب:

ا تحفظ عهداً ولا تتمم وصلاً

وهي معشوقة على الغدر ل

وبفك اليدين عنها نخلى

كل دمع يسيل منها عليها

لذا أنت اسمها الناس أم لا

شيم الغانيات فيها فلا أدري

فإن قلت: كيف يقول: إنه لا يجد في الموت راحة، وأين هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر"، ومن قوله رضي الله عنه: والله ما أرجو الراحة إلا بعد الموت، وماذا يعمل بالصالحين الذين آثروا فراق هذه العاجلة، واختاروا الآخرة، وهو رضي الله عنه سيدهم وأميرهم.
قلت: لا منافاة، فإن الصالحين، إنما طلبوا أيضاً الحياة المستمرة بعد الموت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قال: "إن الدنيا سجن المؤمن"، لأن الموت غير مطلوب للمؤمن لذاته، إنما يطلبه للحياة المتعقبة له، وكذلك قوله رضي الله عنه: والله ما أرجو الراحة إلا بعد الموت، تصريح بأن الراحة في الحياة التي تتعقب الموت، وهي حياة الأبد، فلا منافاة إذا بين هذه الوجوه وبين ما قاله رضي الله عنه، لأنه ما نفى إلا الراحة في الموت نفسه، لا في الحياة الحاصلة بعده.
فإن قلت: فقد تطرأ على الإنسان حالة يستصعبها فيود الموت لنفسه، ولا يفكر فيما يتعقبه من الحياة التي تشير إليها ولا يخطر بباله.

قلت: ذاك شاذ نادر فلا يلتفت إليه، وإنما الحكم للأعم الأغلب. وأيضاً فإن ذاك لا يلتذ بالموت، وإنما يتخلص به من الألم، وأمير المؤمنين قال: ما من شيء من الملمات إلا وهو مملول، إلا الحياة، وبين المملد والمخلص من الألم فرق واضح، فلا يكون نقضاً على كلامه.

فإن قلت: قد ذكرت ما قيل في حب الحياة وكرهية الموت، فهل قيل في عكس ذلك ونقيضه شيء، قلت: نعم، فمن ذلك قول أبي الطيب:

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا

صديقاً فأعيا، أوعداً مداجيا

تمنياتها لما تمنيت أن ترى

وقال آخر:

في الموت ألف فضيلة لا تعرف

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

منها أمان لقائه بلقائه

وفراق كل معاشر لا ينصف

وقيل لأعرابي وقد احتضر: إنك ميت، قال: إلى أين يذهب بي، قيل: إلى الله، قال: ما أكره أن أذهب إلى من لم أر الخير إلا منه.

إبراهيم بن مهدي:

وإني وإن قدمت قبلي لعالم

بأنني وإن أبطأت عنك قريب

وإن صباحاً نلتقي في مسائه

صباح إلى قلبي الغداة حبيب

وقال بعض السلف: ما من مؤمن إلا والموت خير له من الحياة، لأنه إن كان محسناً فالله تعالى يقول: "وما عند الله خير وأبقى للذين اتقوا"، وإن كان مسيئاً فالله تعالى يقول: "ولا يحسن الذين كفروا أما غلي لهم خير لأنفسهم إنما غلي لهم ليزدادوا إثماً".

وقال ميمون بن مهران: بت ليلةً عند عمر بن عبد العزيز، فرأيته يبكي ويكثر من ثمني الموت، فقلت له: إنك أحيت سنناً، وأمت بدعاً، وفي بقائك خير للمسلمين، فما بالك تتمنى الموت، فقال: ألا أكون كالعبد الصالح حين أقر الله له عينه، وجمع له أمر، قال تعالى: "رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين".

وقالت الفلاسفة: لا يستكمل الإنسان حد الإنسانية إلا بالموت، لأن الإنسان هو الحي الناطق الميت.

وقال بعضهم: الصالح إذا مات استراح، والطالح إذا مات استريح منه، وقال الشاعر:

جزى الله عنا الموت خيراً فإنه

أبر بنا من كل بر وأرأف

يعجل تخليص النفوس من الأذى

ويدني من الدار التي هي أشرف

وقال آخر:

من كان يرجو أن يعيش فإنني

أصبحت أرجو أن أموت لأعتقا

في الموت ألف فضيلة لو أنها

عرفت لكان سبيله أن يعشقا

وقال أبو العلاء:

جسمي ونفسي لما استجمعا صنعا

شراً إلي، فجل الواحد الصمد

فالجسم يعذل فيه النفس مجتهداً

وتلك تزعم أن الظالم الجسد

إذا هما بعد طول الصحبة افترقا

فإن ذاك لأحداث الزمان يد

وقال أبو العتاهية:

المرء يأمل أن يعيش

وطول عمر قد يضره

تقنى بشاشته ويبقى

بعد خلو العيش مره

وتخونه الأيام حتى

لا يرى شيئاً يسره

كم شامت بي إن

هلكت وقائل: الله دره

وقال ابن المعتز:

ألست ترى يا صاح ما أعجب الدهرا

فدماً له.. لكن للخالق الشكرا

لقد حبيب الموت البقاء الذي أرى

فيا حسداً مني لمن يسكن القبرا

فأما قوله رضي الله عنه: وإنما ذلك بمثالة الحكمة، إلى قوله "وفيها الغنى كله والسلامة، ففصل آخر غير ملتزم بما قبله، وهو إشارة إلى كلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه لهم، ثم حضهم على التمسك به، والانتفاع بمواعظه، وقال: إنه بمثالة الحكمة التي هي حياة القلوب، ونور الأبصار، وسمع الآذان الصم، ووري الأكباد الحرى، وفيها الغنى كله، والسلامة، والحكمة المشبه كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما هي المذكورة في قوله تعالى: "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً"، وفي قوله: "ولقد آتينا لقمان الحكمة"، وفي قوله: "وأتينا الحكم صبيّاً"، وهي عبارة عن المعرفة بالله تعالى، وبما في مبدعاته من الأحكام الدالة على علمه، كتركيب الأفلاك، ووضع العناصر مواضعها، ولطائف صنعة الإنسان وغيره من الحيوان، وكيفية إنشاء النبات والمعادن، وما في العالم من القوى المختلفة، والتأثيرات المتنوعة، الراجع ذلك كله إلى حكمة الصانع وقدرته وعلمه، تبارك اسمه.

فأما قوله: وكتاب الله، إلى قوله: ولا يخالف بصاحبه عن الله، ففصل آخر مقطوع عما قبله، ومتصل بما لم يذكره جامع نهج البلاغة.

فإن قلت: ما معنى قوله: ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله، وهل بين هاتين الحملتين فرق. قلت: نعم، أما قوله: ولا يختلف في الله، فهو أنه لا يختلف في الدلالة على الله وصفاته، أي لا يتناقض، أي ليس في القرآن آيات مختلفة يدل بعضها على أنه يعلم كل المعلومات مثلاً، وتدل الآخرة على أنه لا يعلم كل المعلومات، أو يدل بعضها على أنه لا يرى، وبعضها على أنه يرى، وليس وجودنا للآيات المشتبهة بقادح في هذا القول، لأن آيات الجبر والتشبيه لا تدل، وإنما توهم، ونحن إنما نفينا أن يكون فيه ما يدل على الشيء ونقيضه.

وأما قوله: ولا يخالف بصاحبه عن الله، فهو أنه لا يأخذ بالإنسان المعتمد عليه إلى غير الله، أي لا يهديه إلا إلى جناب الحق سبحانه، ولا يعرج به إلى جناب الشيطان، يقال: خالفت بفلان عن فلان، إذا أخذت به غير نحوه، وسلكت به غير جهته.

فأما قوله: قد اصطلمحتم على الغل ... إلى آخر الفصل، فكلام مقطوع أيضاً عما قبله، والغل: الحقد.

والدمن: جمع دمنة، وهي الحقد أيضاً، وقد دمنت قلوبهم بالكسر، أي ضغنت. ونبت المرعى عليها، أي دامت وطال الزمان عليها، حتى صارت بمثالة الأرض الجامدة الثابتة التي تنبت النبات. ويجوز أن يريد بالدمن ههنا جمع دمن وهو البعر المجتمع كالمزبلة، أو جمع دمنة وهي آثار الناس وما سودوا من الأرض، يقال: قد دمن الشاء الماء، وقد دمن القوم الأرض،

فشبه ما في قلوبهم من الغل والحقد والضغائن بالمزيلة المجتمعة من البعر وغيره، من سقطة الديار التي قد طال مكثها حتى نبت عليها المرعى، قال الشاعر:

وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى

قوله رضي الله عنه: لقد استهام بكم الخبيث، يعني الشيطان. واستهام بكم: جعلكم هائمين، أي استهامكم، فعدها بحرف الجر، كما تقول في استنفرت القوم إلى الحرب: استنفرت بهم، أي جعلتهم نافرين. ويمكن أن يكون بمعنى الطلب والاستدعاء، كقولك: استعلمت منه حال كذا، أي استدعيت أن يعلمني، واستمنحت فلاناً، أي طلبت واستدعيت أن يعطيني، فيكون قوله: واستهام بكم الخبيث، أي استدعى منكم أن تهيموا وتقعوا في التيه والضلال والحيرة. قوله: وتاه بكم الغرور هو الشيطان أيضاً، قال سبحانه: "وغركم بالله الغرور"، وتاه بكم: جعلكم تائهين حائرين. ثم سأل الله أن يعينه على نفسه وعليهم. ومن كلام بعض الصالحين: اللهم انصربي على أقرب الأعداء إلي داراً، وأدناهم مني حواراً، وهي نفسي.

ومن كلام له وقد شاوره عمر بن الخطاب

في الخروج إلى غزو الروم

الأصل: وقد توكل الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة، وستر العورة، والذي نصرهم، وهم قليل لا ينتصرون، ومنعهم وفم قليل لا يمتنعون، حي لا يموت.

إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، لا يكن للمسلمين كهف دون أقصى بلادهم. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين.

الشرح: توكل لهم: صار وكيلاً، ويروى: وقد تكفل، أي صار كفيلاً.

والحوزة: الناحية، وحوزة الملك بيضته، ويقول: إنما الذي نصرهم في الابتداء على ضعفهم هو الله تعالى، وهو حي لا يموت، فأجدر به أن ينصرهم ثانياً، كما نصرهم أولاً.

وقوله: فتنكب مجزوم لأنه عطف على تسر.

وكهف، أي وكهف يلجأ إليه. ويروى كانفة أي جهة عاصمة، من قولك: كنفت الإبل، جعلت لها كنيفاً من الشجر تستتر به وتعتصم.

ورجل محرب، أي صاحب حروب، وحفرت الرجل أحفره: دفعته من خلفه وسقته سوقاً شديداً، وكنت رداءً، أي عوناً، قال سبحانه: "فأرسله معي رداءً يصدقني".

ومثابة، أي مرجعاً، ومنه قوله تعالى: "مثابة للناس وأمناً"، أشار رضي الله عنه ألا يشخص بنفسه، حذراً أن يصاب،

فيذهب المسلمون كلهم لذهاب الرأس، بل يبعث أميراً من جانبه على الناس، ويقيم هو بالمدينة، فإن هزموا كان مرجعهم إليه.

فان قلت: فما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشاهد الحروب بنفسه، ويأشرها لشخصه، قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موعوداً بالنصر، وآمناً على نفسه بالوعد الإلهي في قوله سبحانه: "والله يعصمك من الناس"، وليس عمر كذلك.

فإن قلت: فما بال أمير المؤمنين رضي الله عنه شهد حرب الجمل وصفين والنهروان بنفسه، فهلا بعث أميراً محرباً، وأقام بالمدينة ردءاً ومثابة.

قلت: عن هذا جوابان: أحدهما أنه كان عالماً من جهة النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يقتل في هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتفق عليه بين الناس كافة: يقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين. وثانيهما، يجوز أن يكون غلب على ظنه أن غيره لا يقوم مقامه في حرب هذه الفرق الخارجة عليه، ولم يجد أميراً محرباً من أهل البلاء والنصيحة، لأنه رضي الله عنه هكذا قال لعمر، واعتبر هذه القيود والشروط، فمن كان من أصحابه رضي الله عنه محرباً لم يكن من أهل النصيحة له، ومن كان من أهل النصيحة له لم يكن محرباً، فدعته الضرورة إلى مباشرة الحرب بنفسه.

غزوة فلسطين وفتح بيت المقدس

واعلم أن هذه الغزاة هي غزاة فلسطين، التي فتح فيها بيت المقدس، وقد ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، وقال: إن علياً رضي الله عنه هو كان المستخلف على المدينة لما شخص عمر إلى الشام، وإن علياً رضي الله عنه قال له: لا تخرج بنفسك، إنك تريد عدواً كلباً، فقال عمر: إني أبادر بجهاد العدو موت العباس بن عبد المطلب، إنكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل. فمات العباس لست سنين خلت من إمارة عثمان وانتقض بالناس الشر.

قال أبو جعفر: وقد كان الروم عرفوا من كتبهم أن صاحب فتح مدينة إيلياء وهي بيت المقدس رجل، اسمه على ثلاثة أحرف، فكان من حضر من امراء المسلمين يسألون عن اسمه، فيعلمون أنه ليس بصاحبهم، فلما طال عليهم الأمر في حرب الروم، استمدوا عمر، وقالوا: إن لم تحضر بنفسك لم يفتح علينا، فكتب إليهم أن يلقوه برأس الجابية، ليوم سماه لهم، فلقوه وهو راكب حمراً، وكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة بن الجراح، ثم خالد بن الوليد، على الخيول وعليهم الدياج والحرير، فترل عمر عن حماره، وأخذ الحجارة، ورماهم بها، وقال: سرعان ما لقتم عن رأيكم، إياي تستقبلون في هذا الزي، وإنما شبعتم منذ سنتين، سرع ما ترت بكم البطنة، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين، لاستبدلت بكم غيركم.

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنما هي يلامقة، وتحتها السلاح، فقال: فنعم إذاً.

قال أبو جعفر: فلما علم الروم مقدم عمر نفسه، سألوه الصلح، فصالحهم، وكتب لهم كتاباً على أن يؤدوا الجزية، ثم سار إلى بيت المقدس، فقصر فرسه عن المشي، فأتي بيرذون فركبه، فهزه وهملج تحته، فترل عنه، وضرب وجهه بردائه، وقال:

قبح الله من علمك هذا، ردوا علي فرسي، فركبه وسار حتى انتهى إلى بيت المقدس.
قال: ولم يركب برزوناً قبله ولا بعده، وقال: أعوذ بالله من الخيلاء.

قال أبو جعفر: ولقيه معاوية، وعليه ثياب ديباج، وحوله جماعة من الغلمان والخول، فدنا منه فقبل يده، فقال: ما هذا يا بن هند، وإنك لعلی هذه الحال، مترف صاحب لبوس وتنعم، وقد بلغني أن ذوي الحاجات يقفون ببابك، فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللباس فإننا ببلاد عدو، ونحب أن يرى أثر نعمة الله علينا، وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة جرأة الرعية. فقال: ما سألتك عن شيء إلا تركتني منه في أضيق من الرواجب، إن كنت صادقاً فإنه رأي لبيب، وإن كنت كاذباً، فإنها خدعة أريب.

وقد روى الناس كلام معاوية لعمر على وجه آخر، قيل: لما قدم عمر الشام قدمها، وهو راكب حماراً قريباً من الأرض، ومعه عبد الرحمن بن عوف راكب حمار قريب أيضاً، فتلقاهما معاوية في كوكبة حشناء، فثنى وركه، ونزل وسلم بالخلافة فلم يرد عليه.

فقال له عبد الرحمن: أحصرت الفتى يا أمير المؤمنين، فلو كلمته، قال: إنك لصاحب الجيش الذي أرى، قال: نعم، قال: مع شدة احتجاجك، ووقوف ذوي الحاجات ببابك، قال: أجل، قال: لم ويحك، قال لأننا ببلاد عدو كثير فيها جواسيسهم، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا، وهجم على عوراتنا، وأنا بعد عاملك، فإن استنقصتني نقصت، وإن استزدتني زدت، وإن استوقفتني وقفت. فقال: إن كنت كاذباً إنه لرأي أريب، وإن كنت صادقاً إنه لتدبير لبيب، ما سألتك عن شيء قط إلا تركتني منه في أضيق من رواجب الضرس، لا أمرك ولا أنهاك. فلما انصرف، قال عبد الرحمن: لقد أحسن الفتى في إصدار ما أردت عليه، فقال: لحسن إirاده وإصداره جشمناه ما جشمناه.

قال أبو جعفر: شخص عمر من المدينة إلى الشام أربع مرات، ودخلها مرة راكب فرس، ومرة راكب بعير، ومرة راكب بغل، ومرة راكب حمار، وكان لا يعرف، وربما استخبره الواحد: أين أمير المؤمنين، فيسكت، أو يقول: سل الناس، وكان يدخل الشام وعليه سحق فرو مقلوب، وإذا حضر الناس طعاهم رأوا أحسن الطعام.
قال أبو جعفر: وقدم الشام في إحدى هذه المرات الأربع، فصادف الطاعون بها فاشياً، فاستشار الناس، فكل أشار عليه بالرجوع وألا يدخلها، إلا أبا عبيدة بن الجراح، فإنه قال: أتفر من قدر الله، قال نعم، أفر من قدر الله بقدر الله إلى قدر الله، لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، فما لبث أن جاء عبد الرحمن بن عوف، فروى لهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إذا كنتم ببلاد الطاعون فلا تخرجوا منها، وإذا قدمتم إلى بلاد الطاعون فلا تدخلوها"، فحمد الله على موافقة الخبر لما كان في نفسه، وما أشار به الناس، وانصرف راجعاً إلى المدينة، ومات أبو عبيدة في ذلك الطاعون وهو الطاعون المعروف بطاعون عمواس، وكان في سنة سبع عشرة من الهجرة.

من كلام له وقد وقع بينه وبين عثمان مشاجرة

فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة.

الأصل: يابن اللعين الأبتري، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفييني، فو الله ما أعز الله من أنت ناصره، ولا قام من أنت منهضه، أخرج عنا أبعد الله نواك، ثم أبلغ جهدك، فلا أبقي الله عليك إن أبقيت.

الشرح: هو المغيرة بن الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة الثقفي، حليف بني زهرة، وإنما قال له أمير المؤمنين رضي الله عنه: يابن اللعين، لأن الأخنس بن شريق كان من أكابر المنافقين، ذكره أصحاب الحديث كلهم في المؤلفات الذين أسلموا يوم الفتح بألسنتهم دون قلوبهم، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة من الإبل، من غنائم حنين يتألف بها قلبه، وابنه أبو الحكم بن الأخنس، قتله أمير المؤمنين رضي الله عنه يوم أحد كافرًا في الحرب، وهو أخو المغيرة هذا. والحق الذي في قلب المغيرة عليه من هذه الجهة. وإنما قال له: يابن الأبتري، لأن من كان عقبه ضالاً خبيثاً، فهو كمن لا عقب له بل من لا عقب له خير منه ويروى: ولا أقام من أنت منهضه بالهمزة.

ويروى أبعد الله نوءك، من أنواء النجوم التي كانت العرب تنسب المطر إليها، وكانوا إذا دعوا على إنسان قالوا: أبعد الله نوءك، أي خيرك.

والجهد بالفتح: الغاية، ويقال: قد جهد فلان جهده بالفتح، لا يجوز غير ذلك، أي انتهى إلى غايته. وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن ثقيفاً. وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لولا عروة بن مسعود لعنت ثقيفاً".

وروي الحسن البصري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن ثلاث بيوت: بيتان من مكة، وهما بنو أمية وبنو المغيرة، وبيت من الطائف وهم ثقيف.

وفي الخبر المشهور المرفوع وقد ذكر ثقيفاً. بثست القبيلة، يخرج منها كذاب ومبير، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم والكذاب المختار، والمبير الحجاج.

واعلم أن هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان، ولكن عوانة روى عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، أن عثمان لما كثرت شكايته من علي رضي الله عنه، أقبل لا يدخل إليه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد إلا شكاه إليه علياً، فقال له زيد بن ثابت الأنصاري وكان من شيعته وخاصته: أفلا أمشي إليه فآخبره بموجدتك فيما يأتي إليك، قال: بلى: فأتاه زيد ومعه المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي، وعداده في بني زهرة، وأمه عمة عثمان بن عفان، في جماعة، فدخلوا عليه، فحمد زيد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن الله قدم لك سلفاً صالحاً في الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمك، ووالي هذه الأمة، فله عليك حقان: حق الولاية وحق القرابة، وقد شكنا إلينا أن علياً يعرض لي، ويرد أمري علي، وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهية أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما.

قال: فحمد علي رضي الله عنه الله، وأثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد، فوالله ما أحب الاعتراض، ولا الرد عليه، إلا أن يأبى حقاً لله لا يسعني أن أقول فيه إلا بالحق، ووالله لأكفن عنه ما وسعني الكف.

فقال المغيرة بن الأخنس، وكان رجلاً وقاحاً، وكان من شيعة عثمان وخلصائه: إنك والله لتكفن عنه أو لتكفن، فإنه

أقدر عليك منك عليه، وإنما أرسل هؤلاء القوم من المسلمين إعزازاً لتكون له الحجة عندهم عليك. فقال له علي رضي الله عنه: يا بن اللعين الأتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفي، فوالله ما أعز الله امرأ أنت ناصره، أخرج أبعد الله نواك، ثم اجهد جهدك، فلا أبقي الله عليك ولا على أصحابك إن أبقيتم. فقال له زيد: إنا والله ما جئناك لنكون عليك شهوداً، ولا ليكون ممشاناً إليك حجة، ولكن مشينا فيما بينكما التماس الأجر أن يصلح الله ذات بينكما، ويجمع كلمتكما. ثم دعا له ولعثمان، وقام فقاموا معه. وهذا الخبر يدل على أن اللفظة أنت تكفي، وليست كما ذكره الرضي رحمه الله أنت تكفي، لكن الرضي طبق هذه اللفظة على ما قبلها، وهو قوله: أنا أكفيك، ولا شبهة أنهما رواية أخرى.

نبذ من أخبار ثقيف

وإنما قال له: والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، لأن ثقيفاً في نسبها طعن، فقال قوم من النسابين: إنهم من هوازن، وهو القول الذي تزعمه الثقيفيون، قالوا: هو ثقيف، واسمه قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر. وعلى هذا القول جمهور الناس. ويزعم آخرون أن ثقيفاً من إياد بن نزار بن معد بن عدنان، وأن النخع أخوه لأبيه وأمه، ثم افترقا، فصار أحدهما في عداد هوازن، والآخر في عداد مذحج بن مالك بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقد روى أبو العباس المبرد في الكامل لأخت الأشتر مالك بن الحارث النخعي تبكيه:

مكاثرةً ونقطع بطن واد

وإن ننسب فنحن ذرا إياد

ولخوتنا نزار أولو السداد

أبعد الأشتر النخعي نرجو

ونصحب مذحجا بإخاء صدق

ثقيف عمنا وأبو أبينا

قال أبو العباس: وهجا يحيى بن نوفل، وكان هجاء خبيث اللسان، العريان بن الهيثم بن الأسود النخعي، وقد كان العريان تزوج امرأة اسمها زباد، مبني على الكسر، والزاي مفتوحة بعدها باء منقوطة بواحدة وهي من ولد هانيء بن قبيصة الشيباني، وكانت قبله تحت الوليد بن عبد الملك بن مروان، فطلقها، فأنكحها إياه أخ لها يقال له زياد، فقال يحيى بن نوفل:

أمن مذحج تدعون أم من إياد

لببيض الوجوه غير جد جعاد

وجوهكم مطلية بمداد

وناصرنا في كل يوم جلال

أغريان ما يدري امرؤ سيل عنكم

فإن قلتم من مذحج إن مذحجاً

وأنتم صغار الهام حدل كأنما

وإن قلتم الحي اليمانون أصلنا

نزت بإياد خلف دار مراد

فأطول بأير من معد ونزوة

ولا لهم بين القبائل هاد

زباد لقد ما قصرُوا بزباد

كمنزلة عيراً خلف جواد

زياد، أضل الله سعي زياد

ضللتكم كما ضللت ثقيف فما لكم

لعمري بني شيبان إذ ينكحونه

أبعد وليد أنكحوا عبد مذحج

وأنكحها لا في كفاء ولا غنى

قال أبو العباس: وكان المغيرة بن شعبة، وهو والي الكوفة صار إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر، وهي فيه عمياء مترهبة، فاستأذن عليها، فقبل لها: أمير هذه المدرة بالباب. قالت: قولوا له: من ولد جبلة بن الأيهم أنت، قال: لا، قالت: أفمن ولد المنذر بن ماء السماء أنت، قال: لا، قالت: فمن أنت، قال: أنا المغيرة بن شعبة الثقفي، قالت: فما حاجتك، قال: جئت خاطباً، قالت: لو كنت جئتني لجمال أو مال بطلبتك، ولكن أردت أن تتشرف بي في محافل العرب، فتقول: نكحت ابنة النعمان بن المنذر، وإلا فأني خير في اجتماع أعور وعمياء.

فبعث إليها: كيف كان أمركم، قالت: سأختصر لك الجواب، أمسينا وليس في الأرض عربي إلا وهو يرهبننا أو يرغب إلينا، وأصبحنا وليس في الأرض عربي إلا ونحن نرهبه ونرغب إليه. قال: فما كان أبوك يقول كما ثقيف، قالت: أذكر، وقد اختصم إليه رجلان منهم، أحدهما ينتهي إلى إياد، والآخر إلى هوازن، فقضى للإيادي وقال:

ولم تتاسب عامراً أو مازنا

إن ثقيفاً لم تكن هوازنا

فقال المغيرة: أما نحن فمن بكر بن هوازن، فليقل أبوك ما شاء، ثم انصرف. وقال قوم آخرون: إن ثقيفاً من بقايا ثمود، من العرب القديمة التي بادت وانقرضت. قال أبو العباس: وقد قال الحجاج على المنبر: يزعمون أنا من بقايا ثمود، فقد كذبهم الله بقوله: "وثمودا فما أبقى". وقال مرة أخرى: ولئن كنا من بقايا ثمود، لما نجا مع صالح إلا خيارهم. وقال الحجاج يوماً لأبي العسوس الطائي: أي أقدم، أنزول ثقيف الطائف، أم نزول طيء الجبلين، فقال له أبو العسوس: إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فتزول طيء الجبلين قبلها، وإن كانت من بقايا ثمود، فهي أقدم، فقال، الحجاج: اتقني فإني سريع الخطفة للأحقق المتهور، فقال أبو العسوس قال أبو العباس، وكان أعرابياً قحاً إلا أنه لطيف الطبع، وكان الحجاج يمازحه:

فلو كنت من أولاد يوسف ماعدا

يقد بها ممن عصاه المقلدا

إذا قيل يوماً قد عصى المرء واعتدى

يؤدبني الحجاج تأديب أهله

وإني لأخشى ضربة ثقيفة

على أنني مما أحاذر آمن

وقتل المغيرة بن الأخنس مع عثمان يوم الدار، وقد ذكرنا مقتله فيما تقدم.

٨

الجزء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

نذكر ما شجر بين علي وعثمان

واعلم أن هذا الكتاب يستدعي منا أن نذكر أطرافاً مما شجر بين أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان أيام خلافته؟ إذ كان هذا الكلام الذي شرحناه من ذلك النمط، والشيء يذكر بنظيره، وعادتنا في هذا الشرح أن نذكر الشيء مع ما يناسبه ويقتضي ذكره.

قال أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب أخبار السقيفة حدثني محمد بن منصور الرمادي، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن زياد بن جبل، عن أبي كعب الحارثي وهو ذو الإداوة، قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وإنما سمي ذا الإداوة لأنه قال: إني خرجت في طلب إبل ضوال، فتزودت لبناً في إداوة، ثم قلت في نفسي: ما أنصفت ربي! فأين الضوء؟ فأرقت اللبن وملأته ماء، فقلت: هذا ضوء وشراب، وطفقت أبغي إبلي، فلما أردت الضوء اصططبت من الإداوة ماء فتوضأت، ثم أردت الشرب، فلما اصططبتها إذا لبن فشربت، فمكثت بذلك ثلاثاً؟ فقالت له أسماء النحرانية: يا أبا كعب، أحقينا كان أم حليلاً؟ قال: إنك لبطالة! كان يعصم من الجوع ويروي من الظمأ، أما إني حدثت بهذا نفرأ من قومي، منهم علي بن الحارث سيد بني قنان، فلم يصدقني، وقال: ما أظن الذي تقول كما قلت! فقلت: الله أعلم بذلك. ورجعت الى منزلي، فبت ليلتي تلك، فإذا به صلاة الصبح على بابي، فخرجت اليه، فقلت: رحمك الله! لم تعنيت؟ الا أرسلت الي فاتيك، فإني لأحق بذلك منك قال: ما نمت الليلة الا أتاني آت فقال: أنت الذي تكذب من يحدث بما أنعم الله عليه قال أبو كعب: ثم خرجت حتى أتيت المدينة، فأتيت عثمان بن عفان وهو الخليفة يومئذ فسألته عن شيء من أمر ديني، وقلت: يا أمير المؤمنين، إني رجل من أهل اليمن من بني الحارث بن كعب، وإني أريد أن أسالك فأمر حاجبك الا يحجبني، فقال: يا وثاب، إذا جاءك هذا الحارثي فأذن له. قال: فكنت إذا جئت، فقرعت الباب، قال: من ذا؟ فقلت: الحارثي. فيقول: ادخل، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس، وحوله نفر سكوت لا يتكلمون، كأن على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم جلست، فلم أساله عن شيء لما رأيته من حالهم وحاله، فبينما أنا كذلك إذ جاء نفر، فقالوا: إنه أبي أن يجيء. قال: فغضب وقال: أي أن يجيء! إذهبوا فجيئوا به، فإن أبي فحروه جراً.

قال: فمكثت قليلاً، فجاؤوا ومعهم رجل آدم طوال أصلع، في مقدم رأسه شعرات، وفي قفاه شعرات، فقلت: من هذا؟ قالوا: عمار بن ياسر، فقال له عثمان: أنت الذي تأتيك رسلنا فتأبى أن تجيء! قال: فكلمه بشيء لم أدر ما هو، ثم خرج. فما زالوا ينفضون من عنده حتى ما بقي غيري فقام، فقلت: والله لا أسال عن هذا الأمر أحداً أقول حدثني فلان حتى أدري ما يصنع. فتبعته حتى دخل المسجد، فإذا عمار جالس الى سارية، وحوله نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم ييكون، فقال عثمان: يا وثاب علي بالشرط ، فجاؤوا، فقال: فرقوا بين هؤلاء، ففرقوا بينهم.
ثم أقيمت الصلاة، فتقدم عثمان فصلى بهم، فلما كبر قالت امرأة من حجرهما: يا أيها الناس. ثم تكلمت، وذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما بعثه الله له، ثم قالت: تركتم أمر الله، وخالفتم عهده... ونحو هذا، ثم صمتت وتكلمت امرأة أخرى بمثل ذلك، فإذا هما عائشة وحفصة.

قال: فسلم عثمان، ثم أقبل على الناس، وقال: إن هاتين لفتانتان، يحل لي سبهما، وأنا بأصلهما عالم، فقال له سعد بن أبي وقاص: أتقول هذا لحبائب رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال: وفيهم أنت! وما ههنا، ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربه، فانسل سعد، فخرج من المسجد، فاتبعه عثمان، فلقي علياً رضي الله عنه بباب المسجد، فقال له رضي الله عنه: أين تريد؟ قال: أريد هذا الذي كذا وكذا يعني سعداً يشتمه - فقال له علي رضي الله عنه: أيها الرجل، دع عنك هذا. قال: فلم يزل بينهما كلام، حتى غضباً، فقال عثمان: الست الذي خلفك رسول الله صلى الله عليه وسلم له يوم تبوك! فقال علي: الست الفار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد! قال: ثم حجز الناس بينهما. قال: ثم خرجت من المدينة حتى انتهيت الى الكوفة، فوجدت أهلها أيضاً وقع بينهم شر، ونشبوا في الفتنة، وردوا سعيد بن العاص فلم يدعوه يدخل اليهم. فلما رأيت ذلك رجعت حتى أتيت بلاد قومي.

وروى الزبير بن بكار في كتاب الموفقيات عن عمه، عن عيسى بن داود، عن رجاله، قال: قال ابن عباس رحمه الله: لما بنى عثمان داره بالمدينة، أكثر الناس عليه في ذلك فبلغه، فخطبنا في يوم الجمعة، ثم صلى بنا، ثم عاد الى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد؟ فإن النعمة إذا حدثت حدث لها حساد حسبها، وأعداء قدرها؟ وإن الله لم يحدث لنا نعماً ليحدث لها حساد عليها، ومنافسون فيها، ولكنه قد كان من بناء منزلنا هذا ما كان إرادة جمع المال فيه، وضم القاصية اليه، فأتانا عن أناس منكم أنهم يقولون: أخذ فيئنا، وأنفق شيئنا، واستأثر بأموالنا، يمشون حمرا ، وينطقون سرا، كأنا غيب عنهم، وكأنهم يهابون مواجهتنا؟ معرفة منهم بدحوض حجتهم؟ فإذا غابوا عنا يروح بعضهم الى بعض يذكرنا. وقد وجدوا على ذلك أعواناً من نظرائهم، ومؤازرين من شباهم، فبعداً بعداً ورغماً رغباً. ثم أنشد بيتين كأنه يومى فيهما الى علي رضي الله عنه:

فلست ترى مماتعالج شافيا

توقد بنار أينما كنت واشتعل

وشيكا، ولاتدعى إذاكنت نائيا

تشط فيقضي الأمر دونك أهله

مالي ولفيئكم وأخذ مالكم. الست من أكثر قريش مالاً، وأظهرهم من الله نعمة. ألم أكن على ذلك قبل الإسلام وبعده. وهبوني بنيت منزلاً من بيت المال، اليس هو لي ولكم. ألم أقم أموركم، وإني من وراء حاجاتكم! فما تفقدون من حقوقكم شيئاً، فلم لا أصنع في الفضل ما أحببت؟ فلم كنت إماماً إذاً. الا وإن من أعجب العجب، أنه بلغني عنكم أنكم تقولون: لنفعلن به ولنفعلن. فبمن تفعلون، لله آباؤكم. أبنتد البقاع، أم بققع القاع! الست أحراركم إن دعا أن يجاب؟ وأقمنكم إن أمر أن يطاع. لهفي على بقائي فيكم بعد أصحابي، وحياتي فيكم بعد أترابي! يا ليتني تقدمت قبل هذا، لكني

لا أحب خلاف ما أحبه الله لي عز وجل؟ إذا شئتم فإن الصادق المصدق محمداً صلى الله عليه وسلم قد حدثني بما هو كائن من أمري وأمركم، وهذا بدء ذلك وأوله، فكيف الهرب مما حتم وقدر أما إنه صلى الله عليه وسلم قد بشرني في آخر حديثه بالجنة دونكم، إذا شئتم فلا أفلح من ندم! قال: ثم هم بالتزول فبصر بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعه عمار بن ياسر رضي الله عنه، وناس من أهل هواه يتناجون فقال: إيهأ إيهأ! أسراراً لا جهاراً أما والذي نفسي بيده ما أحق على جرة، ولا أوتى من ضعف مرة، ولولا النظر لي ولكم والرفق بي وبكم، لعاجلتكم، فقد اغتررتكم، وأقلتم من أنفسكم، ثم رفع يديه يدعو ويقول: اللهم قد تعلم حيي للعافية فالبسنيها، وإيثاري للسلامة فآتنيها.

قال: فتفرق القوم عن علي رضي الله عنه، وقام عدي بن الخيار، فقال: أتم الله عليك يا أمير المؤمنين النعمة، وزادك في الكرامة، والله لأن تحسد أفضل من أن تحسد؟ ولأن تنافس أجل من أن تنافس! أنت والله في حسنا الصميم، ومنصبنا الكريم، إن دعوت أجبت، وإن أمرت أطعت، فقل نفعل، وادع تحب، جعلت الخيرة والشورى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليختاروا لهم ولغيرهم، وإنهم ليرون مكانك، ويعرفون مكان غيرك، فاختاروك منيبين طائعين، غير مكرهين ولا مجبرين، مما غيرت ولا فارقت، ولا بدلت ولا خالفت، فعلام يقدمون عليك وهذا رأيهم فيك! أنت والله كما قال الأول:

إذهب، اليك فما للحسو

د الا طلبئك تحت العثار

حكمت فما جرت في خلة

فحكمتك بالحق بادي المنار

فإن يسبعوك فسرأ وقد

جهرت بسيفك كل الجهار

قال: ونزل عثمان فأتى منزله، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس، فلما أخذوا مجالسهم، أقبل على ابن عباس، فقال: مالي ولكم يا ابن عباس! ما أغراكم بي، وأولعكم بتعقب أمري! أنتقمون علي أمر العامة، أتيت من وراء حقوقهم، أم أمركم؟ فقد جعلتهم يتمنون منزلتكم! لا والله لكن الحسد والبغي وتثوير الشر وإحياء الفتن! والله لقد القى النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، وأخبرني به عن أهله واحداً واحداً، والله ما كذبت ولا أنا بمكذوب.

فقال ابن عباس: على رسلك يا أمير المؤمنين، فوالله ما عهدتك جهراً بسر، ولا مظهراً ما في نفسك، فما الذي هيجك وثورك! إنا لم يولعنا بك أمر، ولم نتعقب أمرك بشيء، أتيت بالكذب، وتسوق عليك بالباطل. والله ما نقمنا عليك لنا ولا للعامة، قد أوتيت من وراء حقوقنا وحقوقهم، وقضيت ما يلزمك لنا ولهم، فأما الحسد والبغي وتثوير الفتن، وإحياء الشر فمتى رضيت به عترة النبي وأهل بيته! وكيف وهم منه واليه! على دين الله يثورون الشر، أم على الله يحيون الفتن، كلا ليس البغي ولا الحسد من طباعهم. فأتد يا أمير المؤمنين وأبصر أمرك، وأمسك عليك؟ فإن حالتك الأولى خير من حالتك الأخرى! لعمرى أن كنت لأثيراً عند رسول الله، وأن كان ليفضي اليك بسر ما يطويه عن غيرك، ولا كذبت ولا أنت بمكذوب؟ أخسأ الشيطان عنك ولا يركبك، واغلب غضبك ولا يغلبك، فما دعاك إلى هذا الأمر الذي كان منك! قال: دعاني إليه ابن عمك علي بن أبي طالب، فقال ابن عباس: وعسى أن يكذب مبلغك! قال عثمان: إنه ثقة،

قال ابن عباس: إنه ليس بثقة من بلغ وأغرى. قال عثمان: يا بن عباس، الله إنك ما تعلم من علي ما شكوت منه؟ قال: اللهم لا، إلا أن يقول كما يقول الناس، وينقم كما ينقمون؟ فمن أغراك به وأولعك بذكره دونهم! فقال عثمان: إنما آفتي من أعظم الداء الذي ينصب نفسه لرأس الأمر، وهو علي ابن عمك، وهذا والله كله من نكده وشؤمه. قال ابن عباس: مهلاً، استثن يا أمير المؤمنين، قل: إن شاء الله، فقال: إن شاء الله. ثم قال: إني أنشدك يا بن عباس الإسلام والرحم فقد والله غلبت وابتليت بكم، والله لوددت أن هذا الأمر كان صار اليكم دوني فحملتموه عني، وكنت أحد أعوانكم عليه، إذا والله لو جدموني لكم خيراً مما وجدتم لي، ولقد علمت أن الأمر لكم، ولكن قومكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم، فوالله ما أدري أذفعوه عنكم أم دفعوكم عنه! قال ابن عباس: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإننا ننشدك الله والإسلام والرحم، مثل ما نشدتنا، أن تطمع فينا وفيك عدواً، وتشمت بنا وبك حسوداً! إن أملك اليك ما كان قولاً، فإذا صار فعلاً فليس اليك ولا في يديك. وإنا والله لنخالفن إن خولفنا، ولننازعن إن نوزعنا، وما تمنيك أن يكون الأمر صار إلينا دونك إلا أن يقول قائل منا ما يقوله الناس، ويعيب كما عابوا! فأما صرف قومنا عنا الأمر فعن حسد قد والله عرفته، وبغي قد والله علمته، فالله بيننا وبين قومنا! وأما قولك: إنك لا تدري أذفعوه عنا أم دفعونا عنه! فلعمري إنك لتعرف أنه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلاً إلى فضلنا، ولا قدرأ إلى قدرنا، وإنا لأهل الفضل وأهل القدر، وما فضل فاضل إلا بفضلنا، ولا سبق سابق إلا بسبقنا، ولولا هدينا ما اهتدى أحد، ولا أبصروا من عمى، ولا قصدوا من جور.

فقال عثمان: حتى متى يا بن عباس، يأتييني عنكم ما يأتييني! هبوني كنت بعيداً، أما كان لي من الحق عليكم أن أراقب وأن انظر! بلى ورب الكعبة، ولكن الفرقة سهلت لكم القول في، وتقدمت بكم إلى الإسراع الي. والله المستعان.

قال ابن عباس: مهلاً، حتى القى علياً ثم أحمل اليك على قدر ما رأى. قال عثمان: افعل فقد فعلت، وطالما طلبت فلا أطلب، ولا أجاب ولا أعتب.

قال ابن عباس: فخرجت فلقيت علياً، وإذا به من الغضب والتلطي أضعاف ما بعثمان، فأردت تسكينه فامتنع، فأتيت منري وأغلقت بابي، واعتزلتهما.

فبلغ ذلك عثمان، فأرسل الي، فأتيته وقد هدأ غضبه، فنظر الي ثم ضحك، وقال: يا بن عباس، ما أبطأ بك عنا! إن تركك العود إلينا لدليل على ما رأيت عند صاحبك، وعرفت من حاله، فالله بيننا وبينه! خذ بنا في غير ذلك.

قال ابن عباس: فكان عثمان بعد ذلك إذا أتاه عن علي شيء، فأردت التكذيب عنه يقول: ولا يوم الجمعة حين أبطأت عنا وتركت العود إلينا! فلا أدري كيف أرد عليه.

وروى الزبير بن بكار أيضاً في الموفقيات، عن ابن عباس رحمه الله، قال: خرجت من منزلي سحراً أسابق إلى المسجد، وأطلب الفضيلة، فسمعت خلفي حساً وكلاماً، فتسمعت فإذا حس عثمان وهو يدعو ولا يرى أن أحداً يسمعه، ويقول: اللهم قد تعلم نيّتي فأعني عليهم، وتعلم الذين ابتليت بهم من ذوي رحمي وقرايتي، فأصلحني لهم، وأصلحهم لي. قال: فقصرت من خطوتي وأسرع في مشيتي، فالتقينا فسلم، فرددت عليه، فقال: إني خرجت ليلتنا هذه أطلب الفضل والمسابقة إلى المسجد، فقلت: إنه أخرجني ما أخرجك، فقال: والله لئن سابقت إلى الخير، إنك لمن سابقين مباركين، وإني؟ لأحبكم

وأقرب الى الله بحبكم، فقلت: يرحمك الله يا أمير المؤمنين! إنا لنحبك ونعرف سابقتك وسنك وقرابتك وصهرك. قال: يا بن عباس، فما لي ولا بن عمك وابن خالي! قلت: أي بني عمومتي وبني أحوالك؟ قال: اللهم اغفر! أتسال مسألة الجاهل! قلت: إن بني عمومتي من بني خؤولتك كثير، فأيهم تعني؟ قال: أعني علياً لا غيره، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم منه الا خيراً، ولا أعرف له الا حسناً. قال: والله بالحرى أن يستردونك ما يظهره لغيرك، ويقبض عنك ما ينبسط به الى سواك.

قال: ورمينا بعمار بن ياسر، فسلم، فرددت عليه سلامه، ثم قال: من معك؟ قلت: أمير المؤمنين عثمان، قال: نعم، وسلم بكنيته، ولم يسلم عليه بالخلافة، فرد عليه، ثم قال عمار: ما الذي كنتم فيه، فقد سمعت ذرواً منه؟ قلت: هو ما سمعت، فقال عمار: رب مظلوم غافل، وظالم متجاهل! قال عثمان: أما إنك من شنائنا وأتباعهم، وإيم الله، إن اليد عليك لمنسطة، وإن السبيل اليك لسهلة، ولولا إيثار العافية؟ ولم الشعث لزجرتك زجرة تكفي ما مضى، وتمنع ما بقي. فقال عمار: والله ما أعتذر من حيي علياً، وما اليد بمنسطة، ولا السبيل بسهلة؟ إني لازم حجة، ومقيم على سنة، وأما إيثارك العافية ولم الشعث، فلازم ذلك. وأما زجري فأمسك عنه، فقد كفأك معلمي تعليمي فقال عثمان: أما والله إنك ما علمت من أعوان الشر الحاضين عليه، الخذلة عند الخير، والمبطين عنه. فقال عمار: مهلاً يا عثمان، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفي بغير ذلك، قال عثمان: ومتى؟ قال: يوم دخلت عليه منصرفه عن الجمعة، وليس عنده غيرك، وقد القى ثيابه، وقعد في فضله، فقبلت صدره ونحره وجبهته، فقال: "يا عمار، إنك لتحبنا وانا لنحبك، وإنك لمن الأعوان على الخير المبطين عن الشر"، فقال عثمان: أجل ولكنك غيرت وبدلت، قال: فرفع عمار يده يدعو، وقال: أمن يا بن عباس، اللهم من غيرغيره! ثلاث مرات قال: ودخلنا المسجد، فأهوى عمار الى مصلاه، ومضيت مع عثمان الى القبلة، فدخل الحراب، وقال: تلبث علي إذا انصرفنا، فلما رأي عمار وحدي أتاني، فقال: أما رأيت ما بلغ بي آنفاً؟ قلت: أما والله لقد أصعبت به واصعب بك، وإن له لسنه وفضله وقرابته، قال: إن له لذلك، ولكن لا حق لمن لا حق عليه. وانصرف.

وصلى عثمان، وانصرفت معه يتوكأ علي، فقال: هل سمعت ما قال عمار؟ قلت: نعم، فسرني ذلك وسأني، أما مسأته إياي فما بلغ بك، وأما مسرته لي فحللمك واحتمالك. فقال: إن علياً فارقي منذ أيام على المقاربة، وإن عماراً آتیه فقائل له وقائل، فابدره اليه، فإنك أوثق عنده منه وأصدق قولاً، فالتق الأمر اليه على وجهه، فقلت: نعم.

وانصرفت اريد علياً رضي الله عنه في المسجد، فإذا هو خارج منه، فلما رأي تفجع لي من فوت الصلاة، وقال: ما أدركتها! قلت: بلى؟ ولكني خرجت مع أمير المؤمنين، ثم اقتصصت عليه القصة، فقال: أما والله يا بن عباس، إنه ليقر فرحة، ليحورن عليه المها. فقلت: إن له سنه وسابقته، وقرابته وصهره، قال: إن ذلك له؟ ولكن لا حق لمن لا حق عليه.

قال: ثم رهقنا عمار، فبش به علي، وتبسم في وجهه، وساله، فقال عمار: يا بن عباس، هل القيت اليه ما كنا فيه؟ قلت: نعم، قال: أما والله إذاً لقد قلت بلسان عثمان، ونطقت بهواه! قلت: ما عدوت الحق جهدي؟ ولا ذلك من فعلي؟ وإنك لتعلم أي الحظين أحب الي، وأي الحقين أوجب علي! قال: فظن علي أن عند عمار غير ما القيت اليه، فأخذ بيده وترك

يدي، فعلمت أنه يكره مكاني، فتخلفت عنهما، وانشعب بنا الطريق، فسلكاه ولم يدعني، فانطلقت الى منزلي، فإذا رسول عثمان يدعوني، فأتيته، فأجد ببابه مروان وسعيد بن العاص، في رجال من بني أمية، فأذن لي والطفني، وقربني وأدنى مجلسي، ثم قال: ما صنعت؟ فأخبرته بالخبر على وجهه وما قال الرجل، وقلت له وكتمته قوله: إنه ليقرف قرحة ليحورن عليه المها إبقاء عليه، وإجلالاً له؟ وذكرت مجيء عمار، وبش علي له، وظن علي أن قبله غيرما القيت عليه، وسلوكهما حيث سلكا. قال: وفعلاً؟ قلت: نعم. فاستقبل القبلة، ثم قال: اللهم رب السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم أصلح لي علياً، وأصلحني له! أمن يا بن عباس، فأمنت. ثم تحدثنا طويلاً، وفارقت وأتيت منزلي. وروى الزبير بن بكار أيضاً في الكتاب المذكور، عن عبد الله بن عباس، قال: ما سمعت من أبي شيثاً قط في أمر عثمان يلومه فيه ولا يعذره، ولا سألته عن شيء من ذلك مخافة أن أهجم منه على ما لا يوافقه؟ فإننا عنده ليلة ونحن نتعشى، إذ قيل: هذا أمير المؤمنين عثمان بالباب، فقال: ائذنوا له، فدخل فأوسع له على فراشه، وأصاب من العشاء معه، فلما رفع قام من كان هناك، وثبت أنا. فحمد عثمان الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا خال، فإني قد جئتكم أستعذركم من ابن أخيك علي، سبني، وشهر أمري، وقطع رحمي، وطعن في ديني؟ وإني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب! إن كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه، فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم، وأنا أقرب اليكم رحماً منه! وما لمت منكم أحداً الا علياً، ولقد دعيت أن أبسط عليه، فتركته الله والرحم، وأنا أخاف الا يتركني فلا أتركه.

قال ابن عباس: فحمد أبي الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا بن أخي، فإن كنت لا تحمد علياً لنفسك فإني لا أحمدك لعلي، وما علي وحده قال فيك، بل غيره، فلو أنك اهتمت نفسك للناس، اهتم الناس أنفسهم لك، ولو أنك نزلت مما رقيت وارتقوا مما نزلوا، فأخذت منهم وأخذوا منك، ما كان بذلك بأس. قال عثمان: فذلك اليك يا خال، وأنت بيني وبينهم. قال: أفأذكر لهم ذلك عنك؟ قال: نعم، وانصرف، فما لبثنا أن قيل: هذا أمير المؤمنين قد رجع بالباب، قال أبي: ائذنوا له، فدخل فقام قائماً، ولم يجلس، وقال: لا تعجل يا خال حتى أؤذنك، فنظرنا فإذا مروان بن الحكم كان جالساً بالباب ينتظره حتى خرج، فهو الذي ثناه عن رأيه الأول، فأقبل علي أبي، وقال: يا بني، ما الى هذا من أمره شيء، ثم قال: يا بني، املك عليك لسانك حتى ترى ما لا بد منه؟ ثم رفع يديه، فقال: اللهم اسبق بي ما لا خير لي في إدراكه. فما مرت جمعة حتى مات رحمه الله.

وروى أبو العباس المبرد في الكامل عن قنبر مولى علي رضي الله عنه قال: دخلت مع علي على عثمان، فأحبا الخلوة، فأومأ الي علي رضي الله عنه بالتنحي، فتنحيت غير بعيد، فجعل عثمان يعاتبه وعلي مطرق، فأقبل عليه عثمان، وقال: ما لك لا تقول! قال: إن قلت لم أقل الا ما تكره، وليس لك عندي الا ما تحب.

قال أبو العباس: تأويل ذلك: إن قلت اعتددت عليك بمثل ما اعتددت به علي، فلذعك عتابي، وعقدي الا أفعل وإن كنت عاتباً الا ما تحب. وعندني فيه تأويل آخر، وهو: أي إن قلت واعتذرت فأني شيء حسنته من الأعدار لم يكن ذلك عندك مصدقاً، ولم يكن الا مكروهاً غير مقبول؟ والله تعالى يعلم أنه ليس لك عندي في باطني وما أطوي عليه جوانحي الا ما تحب، وإن كنت لا تقبل المعاذير التي أذكرها، بل تكرها وتنبو نفسك عنها.

وروى الواقدي في كتاب الشورى عن ابن عباس رحمه الله، قال: "شهدت عتاب عثمان لعلي رضي الله عنه يوماً، فقال له في بعض ما قاله: نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً! فلعهدي لك وأنت تطيع عتيقاً وابن الخطاب طاعتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولست بدون واحد منهما، وأنا أمس بك رحماً، وأقرب اليك صهراً، فإن كنت تزعم أن هذا الأمر جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لك، فقد رأيناك حين توفي نازعت ثم أقررت، فإن كانا لم يركبا من الأمر جدداً، فكيف أذعنت لهما بالبيعة، وبجعت بالطاعة! وإن كانا أحسنا فيما وليا، ولم أقصر عنهما في ديني وحسي وقرابتي، فكن لي كما كنت لهما.

فقال علي رضي الله عنه: أما الفرقة، فمعاذ الله أن أفتح لها باباً، وأسهل اليها سبيلاً، ولكني أهلك عما ينهك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك، وأما عتيق وابن الخطاب فإن كانا أخذنا ما جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لي، فأنت أعلم بذلك والمسلمون، وما لي ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين فأما ألا يكون حقي بل المسلمون فيه شرع فقد أصاب السهم الثغرة، وأما أن يكون حقي دونهم فقد تركته لهم، طبت به نفساً، ونفضت يدي عنه استصلاحاً. وأما التسوية بينك وبينهما، فلست كأحدهما، إنهما وليا هذا الأمر، فظلفا أنفسهما وأهلهما عنه، وعمت فيه وقومك عوم السابح في اللجة، فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل بقي من عمرك إلا كظمء الحمار! فحتى متى وإلى متى! ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأمواهم! والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك العتي، وأفعل وأعزل من عمالي كل من تكرهه ويكرهه المسلمون؟ ثم افترقا. فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك، وقال: يجترى عليك الناس، فلا تعزل أحداً منهم! وروى الزبير بن بكار أيضاً في كتابه، عن رجال أسند بعضهم عن بعض، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: أرسل إلى عثمان في الهجرة، فتقنعت بثوبي، وأتيتها، فدخلت عليه وهو على سريره، وفي يده قضيب، وبين يديه مال دثر: صبرتان من ورق وذهب، فقال: دونك خذ من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتني. فقلت: وصلتك رحم إن كان هذا المال ورثته، أو أعطاكه معط، أو اكتسبته من تجارة، كنت أحد رجلين، إما آخذ وأشكر، أو أوفر وأجهد، وإن كان من مال الله وفيه حق المسلمين واليتيم وابن السبيل، فوالله ما لك أن تعطينيه ولا لي أن آخذه. فقال: آيت والله إلا ما آيت. ثم قام إلى بالقضيب فضربني، والله ما أرد يده، حتى قضى حاجته، فتقنعت بثوبي، ورجعت إلى منزلي، وقلت: الله بيني وبينك إن كنت أمرتك بمعروف أو نهيت عن منكر! وروى الزبير بن بكار، عن الزهري، قال: لما أتى عمر بجوهر كسرى، وضع في المسجد، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمر، فقال لخازن بيت المال: ويحك! ارحني من هذا، واقسمه بين المسلمين، فإن نفسي تحذني أنه سيكون في هذا بلاء وفتنة بين الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قسمته بين المسلمين لم يسعهم، وليس أحد يشتره لأن ثمنه عظيم، ولكن ندعه إلى قابل، فعسى الله أن يفتح على المسلمين بمال فيشتريه منهم من يشتره. قال: ارفعه فأدخله بيت المال. وقتل عمر وهو بحاله، فأخذه عثمان لما ولي الخلافة فحلى به بناته.

قال الزبير: فقال الزهري: كل قد أحسن، عمر حين حرم نفسه وأقاربه، وعثمان حين وصل أقاربه. قال الزبير. وحدثنا محمد بن حرب، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: جاء رجل إلى علي رضي الله عنه يستشفع

به الى عثمان، فقال: حمال الخطايا! لا والله لا أعود اليه أبداً. فأيسه منه.

وروى الزبير أيضاً، عن شداد بن عثمان، قال: سمعت عوف بن مالك في أيام عمر، يقول: يا طاعون خذي، فقلنا له: لم تقول هذا؟ وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن المؤمن لا يزيده طول العمر الا خيراً" قال: إني أخاف ستاً: خلافة بني أمية، وإمارة السفهاء من أحداثهم، والرشوة في الحكم، وسفك الدم الحرام، وكثرة الشرط، ونشأ ينشأ، يتخذون القرآن مزامير.

وروى الزبير عن أبي غسان، عن عمر بن زياد، عن الأسود بن قيس، عن عبيد بن حارثة، قال: سمعت عثمان وهو يخطب، فأكب الناس حوله، فقال: اجلسوا يا أعداء الله! فصاح به طلحة: إنهم ليسوا بأعداء الله؟ لكنهم عباده؟ وقد قرأوا كتابه.

وروى الزبير، عن سفيان بن عيينة، عن إسرائيل عن الحسن، قال: شهدت المسجد يوم الجمعة، فخرج عثمان، فقام رجل، فقال: أنشد كتاب الله! فقال عثمان: اجلس؟ أما لكتاب الله ناشد غيرك! فجلس، ثم قام آخر فقال مثل مقالته، فقال: اجلس، فأبى أن يجلس، فبعث الى الشرط ليجلسوه، فقام الناس فحالوا بينهم وبينه، قال: ثم تراموا بالبطحاء، حتى يقول القائل: ما أكاد أرى أديم السماء من البطحاء. فترل عثمان، فدخل داره ولم يصل الجمعة.

بين عثمان وابن عباس بحضور علي

وروى الزبير أيضاً في الموفقيات عن ابن عباس رحمه الله، قال: صليت العمر يوماً، ثم خرجت فإذا أنا بعثمان بن عفان في أيام خلافته في بعض أزقة المدينة وحده، فأتيته إجلالاً وتوقيراً لمكانه، فقال لي: هل رأيت علياً؟ قلت: خلفته في المسجد، فإن لم يكن الآن فيه فهو في منزله؟ قال: أما منزله فليس فيه فابغه لنا في المسجد. فتوجهنا الى المسجد، وإذا علي رضي الله عنه يخرج منه؟ قال ابن عباس: وقد كنت أمس ذلك اليوم عند علي، فذكر عثمان وتجرمه عليه، وقال: أما والله يا بن عباس، إن من دوائه لقطع كلامه، وترك لقائه. فقلت له: يرحمك الله! كيف لك بهذا! فإن تركته ثم أرسل اليك فما أنت صانع؟ قال: أعتل، وأعتل؟ فمن يقسري! قال: لا أحد. قال ابن عباس: فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد، ظهر منه من التفلت والطلب للانصراف ما استبان لعثمان، فنظر الي عثمان، وقال: يا بن عباس، أما ترى ابن خالنا يكره لقاءنا! فقلت: ولم وحقك الزم، وهو بالفضل أعلم! فلما تقاربا رماه عثمان بالسلام، فرد عليه، فقال عثمان: إن تدخل فيايك أردنا، وإن تمض فيايك طلبنا. فقال علي: أي ذلك أحببت؟ قال: تدخل، فدخل وأخذ عثمان بيده، فأهوى به الى القبلية، فقصر عنها، وجلس قبالتها، فجلس عثمان الى جانبه، فنكصت عنهما، فدعواني جميعاً، فأتيتهما، فحمد عثمان الله، وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد يا بني خالي وابني عمي، فإذا جمعتكما في النداء فسأجمعكما في الشكاية، عن رضاي على أحدكما، ووجدي على الآخر. إني أستعذركما من أنفسكما، وأسالكما فيئتكما، وأستوهبكما رجعتكما؟ فوالله لو غالبني الناس ما انتصرت الا بكمما، ولو هضموني ما تعزرت الا بعزكما. ولقد طال هذا الأمر بيننا حتى تخوفت أن يجوز قدره، ويعظم الخطر فيه، ولقد هاجني العدو عليكمما، وأغراي بكمما؟ فمنعني الله والرحم مما أراد، وقد خلونا في

مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والى جانب قبره، وقد أحببت ان تظهرها لي رأيكما في، وما تنطويان لي عليه
وتصدقا، فإن الصدق أنجي وأسلم؟ وأستغفر الله لي ولكما.

قال ابن عباس: فأطرق علي رضي الله عنه، وأطرقت معه طويلاً؟ أما أنا فأجللته أن أتكلم قبله، وأما هو فأراد أن أجيب
عني وعنه. ثم قلت له: أتتكلم ام أتكلم عنك؟ قال: بل تكلم عني وعنك. فحمدت الله وأثنيت عليه، وصليت على
رسوله، ثم قلت: أما بعد يا بن عمنا وعمتنا، فقد سمعنا كلامك لنا، وخلطك في الشكاية بيننا على رضا- زعمت- عن
أحدنا ووجدك على الآخر، وسنفعل في ذلك، فنذمك ونحمدك، اقتداء منك بفعلك فينا؟ فإننا نذم مثل قهمتك إيانا على
ما اقممتنا عليه بلا ثقة الا ظناً، ونحمد منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتك، ثم نستعذر من نفسك استعذارك إيانا من
أنفسنا، ونستوهبك فيئتك، استيهابك إيانا فيئتنا ونسالك رجعتك مسالتك إيانا رجعتنا، فإننا معاً أيما حمدت وذممت منا،
كمثلك في أمر نفسك، ليس بيننا فرق ولا اختلاف، بل كلانا شريك صاحبه في رأيه وقوله، فوالله ما تعلمنا غير معذرين
فيما بيننا وبينك، ولا تعرفنا كيرقانتين عليك، ولا تجدنا غير راجعين اليك، فنحن نسالك من نفسك مثل ما سالتنا من
أنفسنا. وأما قولك: لو غالبتي الناس ما انتصرت الا بكما، أو تهضموني ما تعززت الا بعزكما، فأين بنا وبك عن ذلك،
ونحن وأنت كما قال أخو كنانة:

يخض دونه غمراً من الغررائمه

مراتب عز مصعدات سلالمه

بدا بحتر ما رام نال، وان يرم

لنا ولهم منا ومنهم على العدا

وأما قولك في هيج العدو وإياك علينا، وإغرائه لك بنا، فوالله ما أتاك العدو من ذلك شيئاً الا وقد أتاننا بأعظم منه، فمنعنا
مما أراد ما منعك من مراقبة الله والرحم، وما أبقيت أنت ونحن الا على أدياننا وأعراضنا ومروءاتنا، ولقد لعمرى طال بنا
وبك هذا الأمر حتى تخوفنا منه على أنفسنا، وراقبنا منه ما راقبت.

وأما مساءلتك إيانا عن رأينا فيك، وما ننطوي عليه لك، فإننا نخبرك أن ذلك الى ما تحب، لا يعلم واحد منا من صاحبة،
الا ذلك، ولا يقبل منه غيره، وكلانا ضامن على صاحبه ذلك وكفيل به، وقد برأت أحدنا وزكيت، وأنطقت الآخر
وأسكته، وليس السقيم منا مما كرهت بأنطق من البريء فيما ذكرت، ولا البريء منا مما سخطت بأظهر من السقيم فيما
وصفت، فإما جمعنا في الرضا، وإما جمعنا في السخط، لنجازيك بمثل ما تفعل بنا في ذلك؟ مكايلة الصاع بالصاع؟ فقد
أعلمناك رأينا، وأظهرنا لك ذات أنفسنا، وصدقناك، والصدق كما ذكرت أنجي وأسلم، فأجب الى ما دعوت اليه،
وأجلل عن النقض والغدر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع قبره، واصدق تنج وتسلم، ونستغفر الله لنا
ولك.

قال ابن عباس: فنظر الي علي رضي الله عنه نظر هيبة، وقال: دعه حتى يبلغ رضاه فيما هو فيه، فوالله لو ظهرت له
قلوبنا، وبدت له سرائرنا، حتى رآها بعينه كما يسمع الخبر عنها بأذنه، ما زال متجرماً منتقماً، والله ما أنا ملقى على
وضمة، وإني لمانع ما وراء ظهري، وإن هذا الكلام لمخالفة منه وسوء عشرة.

فقال عثمان: مهلاً أبا حسن، فوالله إنك لتعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفني بغير ذلك يوم يقول وأنت عنده: "إن من أصحابي لقوماً سالمين لهم، وإن عثمان لمنهم، إنه لأحسنهم بهم ظناً، وأنصحهم لهم حباً". فقال علي رضي الله عنه: فتصدق قوله صلى الله عليه وسلم بفعلك، وخالف ما أنت الآن عليه، فقد قيل لك ما سمعت، وهو كاف إن قبلت. قال عثمان: فتشق يا أبا الحسن؟ قال: نعم أثق ولا أظنك إلا فاعلاً، قال عثمان: قد وثقت وأنت ممن لا يخفر صاحبه، لا يكذب لقليله.

قال ابن عباس: فأخذت بأيديهما، حتى تصافحا وتصالحا وتمازحا، ونهضت عنهما، فتشاورا وتآمرا وتذاكرا، ثم افترقا، فوالله ما مرت ثالثة حتى لقيني كل واحد منهما، يذكر من صاحبه ما لا تبرك عليه الإبل. فعلمت أن لا سبيل إلى صلحهما بعدها.

وروى أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب أخبار السقيفة عن محمد بن قيس الأسدي، عن المعروف بن سويد قال: كنت بالمدينة أيام بويع عثمان، فرأيت رجلاً في المسجد جالساً، وهو يصفق بإحدى يديه على الأخرى، والناس حوله، ويقول: واعجبا من قریش واستثثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت، معدن الفضل، ونجوم الأرض، ونور البلاد! والله إن فيهم لرجلاً ما رأيت رجلاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى منه بالحق، ولا أقضى بالعدل، ولا آمر بالمعروف، ولا أنهي عن المنكر، فسالت عنه فقيل: هذا المقداد، فتقدمت إليه، وقلت: أصلحك الله! من الرجل الذي تذكر؟ فقال: ابن عم نبيك رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب قال: فلبثت ما شاء الله ثم إني لقيت أبا ذر رحمه الله، فحدثته ما قال المقداد، فقال: صدق، قلت: فما يمنعكم أن تجعلوا هذا الأمر فيهم! قال: أبي ذلك قومهم، قلت: فما يمنعكم أن تعينوهم! قال: مه لا تقل هذا، إياكم والفرقة والاختلاف! قال: فسكت عنه، ثم كان من الأمر بعد ما كان.

وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ في الكتاب الذي أورد فيه المعاذير عن أحداث عثمان، أن علياً اشتكى، فعاده عثمان من شكايته، فقال علي رضي الله عنه:

تود لو أن ذا دنف يموت

وعائدة تعود لغير ود

فقال عثمان: والله ما أدري أحياتك أحب إلي أم موتك! إن مت هاضني فقدك، وإن حييت فتنتني حياتك، لا أعدم ما بقيت طاعنا يتخذك دريئة يلجأ إليها.

فقال علي رضي الله عنه: ما الذي جعلني دريئة للطاعنين العائنين! إنما سوء ظنك بي أحلني من قلبك هذا المحل، فإن كنت تخاف جانبي فلك علي عهد الله وميثاقه أن لا بأس عليك مني، ما بل بحر صوفة، وإني لك لراع، وإني عنك لمحام، ولكن لا ينفعني ذلك عندك. وأما قولك: "إن فقدي يهيضك"، فكلا أن تماض لفقدي، ما بقي لك الوليد ومروان، فقام عثمان فخرج.

وقد روي أن عثمان هو الذي أنشد هذا البيت، وقد كان اشتكى، فعاده علي رضي الله عنه فقال عثمان:

وعائدة تعودبغير نصح

تود لو أن ذا دنف يموت

وروى أبو سعد الآبي في كتابه عن ابن عباس، قال: وقع بين عثمان وعلي رضي الله عنه كلام، فقال عثمان: ما أصنع، إن كانت قريش لا تحبكم، وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين، كأن وجوههم شنوف الذهب، تصرع أنفهم قبل شفاههم! وروى المذكور أيضاً أن عثمان لما نقم الناس عليه ما نقموا، قام متوكئاً على مروان فخطب الناس، فقال: إن لكل أمة آفة، ولكل نعمة عاهة، وإن آفة هذه الأمة، وعاهة هذه النعمة، قوم عيابون طعانون، يظهرن لكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون، طغام مثل النعام، يتبعون أول ناعق، ولقد نقموا علي ما نقموا على عمر مثله، فقمعهم ووقمهم وإني لأقرب ناصر، وأعز نفر، فما لي لا أفعل في فضول الأموال! ما أشاء! وروى المذكور أيضاً أن علياً عفته اشتكى، فعاده عثمان، فقال: ما أراك أصبحت الا ثقيلاً! قال: أجل، قال: والله ما أدري أموتك أحب الي أم حياتك! إني لأحب موتك، وأكره أن أعيش بعدك، فلو شئت جعلت لنا من نفسك مخرجاً، إما صديقاً مسالماً وإما عدواً مغالباً، وإنك لكما قال أخو إباد:

جرت لما بيننا حبل الشمس فلا

يأساً مبيناً نرى منها ولاطمعاً

فقال علي رضي الله عنه: ليس لك عندي ما تخافه، وإن أجبتك لم أجبك الا بما تكرهه. وكتب عثمان الى علي رضي الله عنه حين أحيط به، أما بعد: فقد جاوز الماء الزبي، وبلغ الحزام الطبيين وتجاوز الأمر في قدره، فطمع في من لا يدفع عن نفسه.

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل

والا فأدركني ولما أمزق

وروى الزبير خبر العيادة على وجه آخر قال: مرض علي رضي الله عنه، فعاده عثمان ومعه مروان بن الحكم، فجعل عثمان يسال علياً عن حاله، وعلي ساكت لا يجيبه، فقال عثمان: لقد أصبحت يا أبا الحسن مني بمزلة الولد العاق لأبيه! إن عاش عقه، وإن مات فجعه، فلو جعلت لنا من أمرك فرجاً، إما عدواً أو صديقاً، ولم تجعلنا بين السماء والماء! أما والله لأنا خير لك من فلان وفلان، وإن قتلت لا تجد مثلي، فقال مروان: أما والله لا يرام ما وراءنا حتى تتواصل سيوفنا، وتقطع أرحامنا. فالتفت اليه عثمان، وقال: اسكت لا سكت! وما يدخلك فيما بيننا! وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ، عن زيد بن أرقم، قال: سمعت عثمان وهو يقول لعلي رضي الله عنه: أنكرت علي استعمال معاوبة، وأنت تعلم أن عمر استعمله! قال علي رضي الله عنه: نشدتك الله! الا تعلم أن معاوبة كان أطوع لعمر من يرفأ غلامه! إن عمر كان إذا استعمل عاملاً وطىء على صماخه، وإن القوم ركبوك وغلبوك، واستبدوا بالأمر دونك. فسكت عثمان.

أسباب المنافسة بين علي رضي الله عنه وعثمان.

قلت: حدثني جعفر بن مكي الحاجب رحمه الله، قال: سألت محمد بن سليمان حاجب الحجاب وقد رأيت أنا محمداً هذا، وكانت لي به معرفة غير مستحكمة، وكان ظريفاً أديباً، وقد اشتغل بالرياضيات من الفلسفة، ولم يكن يتعصب لمذهب يعينه قال جعفر: سألت عما عنده في أمر علي وعثمان، فقال: هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني

هاشم، وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم، وكان أبو سفيان يحسد محمداً وحاربه، ولم تزل الثنتان متباغضتين وإن جمعتهما المنافية. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج علياً بابنته، وزوج عثمان بابنته الأخرى، وكان اختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة أكثر من اختصاصه للبنت الأخرى، وللثانية التي تزوجها عثمان بعد وفاة الأولى، واختصاصه أيضاً لعلي وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه إياه لنفسه، أكثر وأعظم من اختصاصه لعثمان. فنفس عثمان ذلك عليه، فتباعد ما بين قلوبهما، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الأخنتين من مباغضة أو مشاجرة أو كلام ينقل من إحدهما إلى الأخرى، فيتكدر قلبها على أختها، ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين البعيلين أيضاً، كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الأعصار، وقد قيل: ما قطع من الأخوين كالزوجتين. ثم اتفق أن علياً رضي الله عنه قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتأكد الشنآن، وإذا استوحش الإنسان من صاحبه استوحش صاحبه منه. ثم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصبا إلى علي جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم، ولا حضر في دار فاطمة مع من حضر من المخلفين عن البيعة، وكانت في نفس علي رضي الله عنه أمور من الخلافة لم يمكنه إظهارها في أيام أبي بكر وعمر، لقوة عمر وشدته، وانبساط يده ولسانه، فلما قتل عمر وجعل الأمر شورى بين الستة، وعدل عبد الرحمن بها عن علي إلى عثمان، لم يملك علي نفسه، فأظهر ما كان كامناً، وأبدى ما كان مستوراً، ولم يزل الأمر يتراد بينهما، حتى شرف وتفاقم، ومع ذلك فلم يكن علي رضي الله عنه لينكر من أمره إلا منكراً، ولا ينهيه إلا كما تقتضي الشريعة نهيها عنه، وكان عثمان مستضعفاً في نفسه، رخواً قليل الحزم، واهي العقدة، وسلم عنانه إلى مروان يصرفه كيف شاء، الخلافة له في المعنى ولعثمان في الاسم. فلما انتقض على عثمان أمره، استصرخ علياً ولاذ به، والقي زمام أمره إليه، فدافع عنه حيث لا ينفع الدفاع، وذبح عنه حين لا يغني الذبح، فقد كان الأمر فسد فساداً لا يرجى صلاحه.

قال جعفر: فقلت له: أتقول إن علياً وجد من خلافة عثمان أعظم مما وجده من خلافة أبي بكر وعمر؟ فقال: كيف يكون ذلك؟ وهوفرع لهما، ولولا هما لم يصل إلى الخلافة، ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل، ولا يخطر له ببال! ولكن ههنا أمر يقتضي في عثمان زيادة المنافسة، وهو اجتماعهما في النسب، وكونهما من بني عبد مناف، والإنسان ينافس ابن عمه الأدق أكثر من منافسة الأبعد، ويهون عليه من الأبعد ما لا يهون عليه من الأقرب. قال جعفر: فقلت له: أفقول: لو أن عثمان خلع ولم يقتل، أكان الأمر يستقيم لعلي رضي الله عنه إذا بويع بعد خلعه؟ فقال: لا، وكيف يتوهم ذلك بل يكون انتقاض الأمور عليه وعثمان حي مخلوع أكثر من انتقاضها عليه بعد قتله، لأنه موجود يرجى ويتوقع عوده، فإن كان محبوباً عظم البلاء والخطب، وهتف الناس باسمه في كل يوم، بل في كل ساعة، وإن كان مخلى سربه، وممكناً من نفسه، وغير محمول بينه وبين اختياره، لجأ إلى بعض الأطراف، وذكر أنه مظلوم غصبت خلافته، وقهر على خلع نفسه، فكان اجتماع الناس عليه أعظم، والفتنة به أشد وأغلظ.

قال جعفر: فقلت له: فما تقول في هذا الاختلاف الواقع في أمر الإمامة من مبدأ الحال، وما الذي تظنه أصله ومنبعه؟ فقال: لا أعلم لهذا أصلاً إلا أمرين: أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمل أمر الإمامة فلم يصرح فيه بأحد

بعينه، وإنما كان هناك رمز وإيماء، وكناية وتعريض، لو أراد صاحبه أن يحتج به وقت الاختلاف وحال المنازعة لم يقم منه صورة حجة تغني، ولا دلالة تحسب وتكفي، ولذلك لم يحتج علي رضي الله عنه يوم السقيفة بما ورد فيه، لأنه لم يكن نصاً جلياً يقطع العذر، ويوجب الحجة، وعادة الملوك إذا تمهد ملكهم، وأرادوا العقد لولد من أولادهم، أو ثقة من ثقاتهم، أن يصرحوا بذكره، ويخطبوا باسمه على أعناق المنابر، وبين فواصل الخطب، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم، والأقطار النائية منهم، ومن كان منهم ذا سرير وحسن ومدن كثيرة، ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك، بحيث تزول الشبهة في أمره، ويسقط الارتياب بحاله، فليس أمر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصير في مظنة الاشتباه واللبس، ولعله كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك عذر لا نعلمه نحن، إما خشية من فساد الأمر، أو إرجاف المنافقين، وقولهم: إنها ليس بنبوة وإنما هي ملك أوصى به. من بعده لذريته وسلالته، ولما لم يكن أحد من تلك الذرية في تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصغر السن، جعله لأبيهم، ليكون في الحقيقة لزوجه التي هي ابنته ولأولاده منها من بعده. وأما ما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل العدل: إن الله تعالى علم أن المكلفين يكونون على ترك الأمر مهملاً غير معين أقرب إلى فعل الواجب وتجنب القبيح. قال: ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم في مرضه أنه يموت في ذلك المرض، وكان يرجو. البقاء فيمهد للإمامة قاعدة واضحة. ومما يدل على ذلك أنه لما نوزع في إحضار الدواة والكتف ليكتب لهم ما لا يضلون بعده، غضب وقال: اخرجوا عني، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرفهم رشدهم، ويهديهم إلى مصالحهم، بل أرجأ الأمر إرجاء من يرتقب الإفاقة، وينتظر العافية. قال: فبتلك الأقوال المحجمة، والكنائيات المحتملة، والرموز المشتبهة، مثل حديث خصف النعل، ومثلة هارون من موسى، ومن كنت مولاه، وهذا يعسوب الدين، ولا فتى إلا علي، وأحب خلقك إليك... وما جرى هذا المجرى، مما لا يفصل الأمر، ويقطع العذر ويسكت الخصم، ويفحم المنازع، وثبت الأنصار فادعتها، ووثب بنو هاشم فادعوها، وقال أبو بكر: بايعوا عمر أو أبا عبيدة، وقال العباس لعلي: امدد يدك لأبيك، وقال قوم ممن رعف به الدهر فيما بعد؟ ولم يكن موجوداً حينئذ: إن الأمر كان للعباس لأنه العم الوارث، وإن أبا بكر وعمر غصباه حقه؟ فهذا أحدهما.

وأما السبب الثاني للاختلاف، فهو جعل عمر الأمر شورى في الستة، ولم ينص على واحد بعينه، إما منهم أو من غيرهم، فبقي في نفس كل واحد منهم أنه قد رشح للخلافة وأهل للملك والسلطنة، فلم يزل ذلك لى نفوسهم وأذهانهم مصوراً بين أعينهم، مرتسماً في خيالهم، منازعة إليه نفوسهم، طامحة نحوه عيونهم، حتى كان من الشقاق بين علي وعثمان ما كان، وحتى أفضى الأمر إلى قتل عثمان. وكان أعظم الأسباب في قتله طلحة، وكان لا يشك أن الأمر له من بعده لوجوه، منها سابقته، ومنها أنه ابن عم لأبي بكر وكان لأبي بكر في نفوس أهل ذلك العصر مثلة عظيمة، أعظم منها الآن. ومنها أنه كان سمحاً جواداً وقد كان نازع عمر في حياة أبي بكر، وأحب أن يفوض أبو بكر الأمر إليه من بعده، فما زال يفتل في الذروة والغارب في أمر عثمان، وينكر له القلوب، ويكدر عليه النفوس، ويغري أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به. وساعده الزبير، وكان أيضاً يرجو الأمر لنفسه، ولم يكن رجاؤهما الأمر بدون رجاء علي، بل رجاؤهما كان أقوى، لأن علياً دحضه الأولان، وأسقطاه، وكسرا ناموسه بين الناس، فصار نسياً منسياً، ومات الأكثر من يعرف

خصائصه التي كانت في أيام النبوة وفضله، ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه الا رجلاً من عرض المسلمين، ولم يبق له مما يمت به الا أنه ابن عم الرسول، وزوج ابنته، وأبو سبطيه، ونسي ما وراء ذلك كله، واتفق له من بغض قريش وانحرافها ما لم يتفق لأحد، وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحب طلحة والزبير، لأن الأسباب الموجبة لبغضهم لم تكن موجودة فيهما، وكانا يتالفان قريشاً في أواخر أيام عثمان، وبعداهم بالعطاء والإفضال، وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوة لا بالفعل، لأن عمر نص عليهما وارتضاهما للخلافة، وعمر متبع القول ومرضي الفعل، موفق مؤيد مطاع، نافذ الحكم في حياته وبعد وفاته، فلما قتل عثمان، أرادها طلحة، وحرص عليها، فلولا الأشرور قوم معه من شجعان العرب جعلوها في علي لم تصل اليه أبداً، فلما فاتت طلحة والزبير، فتقا ذلك الفتق العظيم على علي، وأخرجوا أم المؤمنين معهما، وقصدا العراق، وأثارا الفتنة، وكان من حرب الجمل ما قد علم وعرف، ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين، فإن معاوية لم يكن ليفعل ما فعل، لولا طمعه بما جرى في البصرة، ثم أوهم أهل الشام أن علياً قد فسق بمحاربة أم المؤمنين، ومحاربة المسلمين، وأنه قتل طلحة والزبير، وهما من أهل الجنة، ومن يقتل مؤمناً من أهل الجنة فهو من أهل النار، فهل كان الفساد المتولد في صفين الا فرعاً للفساد الكائن يوم الجمل! ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ما جرى من الفساد والقبيح في أيام بني امية، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاً من فروع يوم الدار، لأن عبد الله كان يقول: إن عثمان لما أيقن بالقتل نص علي بالخلافة، ولي بذلك شهود، ومنهم مروان بن الحكم أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعاً على أصل، وغصناً من شجرة، وجذوة من ضرام! هكذا يدور بعضه على بعض، وكله من الشورى في الستة.

قال: واعجب من ذلك قول عمر وقد قيل له: إنك استعملت يزيد بن أبي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وأبناء الطلقاء، وتركت أن تستعمل علياً والعباس والزبير وطلحة! فقال: أما علي فأنبه من ذلك، وأما هؤلاء نفر من قريش، فإني أخاف أن ينتشروا في البلاد، فيكثروا فيها الفساد، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك، ويدعيه كل واحد منهم لنفسه، كيف لم يخف من جعلهم ستة متساوين في الشورى، مرشحين للخلافة! وهل شيء أقرب الى الفساد من هذا! وقد روي أن الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان، فسر بذلك، فلما غابا عن عينه بكى، فقال له الفضل بن الربيع: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، وهذا مقام جدل لا مقام حزن، فقال: أما رأيت لعبهما ومودة بينهما، أما والله ليتبدلن ذلك بغضاً وشنفاً وليختلسن كل واحد منهما نفس صاحبه عن قريب، فإن الملك عقيم. وكان الرشيد قد عقد الأمر لهما على ترتيب، هذا بعد هذا، فكيف من لم يرتبوا في الخلافة، بل جعلوا فيها كأسنان المشط! فقلت أنا لجعفر: هذا كله تحكيه عن محمد بن سليمان، فما تقول أنت، فقال:

فإن القول ما قالت حذام

إذا قالت حذام فصدقوها

ومن كلام له عنه في أمر البيعة

الأصل: لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم الله وأنتم تريدوني لأنفسكم. أيها الناس أعينوني على أنفسكم، وإيم الله لأنصفن المظلوم ولأقودن الظالم بخزائمه، حتى أوردته منهل الحق وإن كان كارهاً.

الشرح: الفلتة: الأمر يقع عن غير تدبير ولا روية، وفي الكلام. تعريض بيعة أبي بكر، وقد تقدم لنا في معنى قول عمر: "كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها" كلام.

والخزامة: حلقة من شعر تجعل في أنف البعير، ويجعل الزمام فيها.

وأعينوني على أنفسكم: خذوها بالعدل، واقنعوها عن اتباع الهوى، وادعوها بعقولكم عن المسالك التي تدرئها وتوبقها، فإنكم إذا فعلتم ذلك أعنتموني عليها، لأنني أعظكم وأمركم بالمعروف، وأنهاكم عن المنكر، فإذا كبحتم أنفسكم بلجام العقل الداعي إلى ما أدعو إليه، فقد أعنتموني عليها. فإن قلت: ما معنى قوله: "أريدكم الله وتريدوني لأنفسكم"، قلت: لأنه لا يريد من طاعتهم له إلا نصرة دين الله والقيام بمجوده وحقوقه، ولا يريد منهم لحظ نفسه، وأما هم فإنهم يريدونه لحظوظ أنفسهم من العطاء والتقريب، والأسباب الموصلة إلى منافع الدنيا. وهذا الخطاب رضي الله عنه لجمهور أصحابه، فأما الخواص منهم فإنهم كانوا يريدونه للأمر الذي يريدونه له من إقامة شرائع الدين وإحياء معاملة.

في شأن طلحة والزبير

الأصل: "والله ما أنكروا علي منكرًا، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه، ودماً هم سفكوه، فإن كنت شريكهم فيه، فإن لهم نصيبهم منه، وإن كانوا ولوه دوني فما الطلبة إلا قبلهم. وإن أول عدلهم للحكم على أنفسهم، وإن معي لبصيرتي، ما لبست ولا لبس علي.

وإنها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمدة، والشبهة المغدفة. وإن الأمر لواضح، وقد زاح الباطل عن نصابه، وانقطع لسانه عن شغبه. وإيم الله لأفرطن لهم حوضاً أنا ماتحه، لا يصدرون عنه بري، ولا يعبون بعده في حسي.

الشرح: النصف: الإنصاف، قال الفرزدق:

ولكن نصفاً لوسببت وسبني بنوعبد شمس من قريش وهاشم

وهو على حذف المضاف، أي ذا نصف، أي حكماً منصفاً عادلاً يحكم بيني وبينهم.

والطلبة: بكسر اللام: ما طلبته من شيء. ولبست على فلان الأمر، ولبس عليه الأمر، كلاهما بالتخفيف.

والحمأ: الطين الأسود، قال سبحانه: "من صلصال من حمإ مسنون".

وحمة العقرب: سمها، أي في هذه الفئة الباغية الضلال والفساد والضرر، وإذا أرادت العرب أن تعبر عن الضلال والفساد قالت: الحمء، مثله الحمأة بالياء، ومن أمثالهم: "ثأطة مدت بماء"، يضرب للرجل يشد موقه وجهله، والثأطة: الحمأة، وإذا أصابها الماء ازدادت فساداً ورطوبة.

ويروى فيها: "الحمأ" بالف مقصورة. وهو كناية عن الزبير، لأن كل ما كان بسبب الرجل فهم الأحماء، واحدهم "حما" مثل قفا وأفقاء، وما كان بسبب المرأة فهم الأخاتن، فأما الأصهار فيجمع الجهتين جمعاً. وكان الزبير ابن عمه رسول الله

صلى الله عليه وسلم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم علياً بأن فئة من المسلمين تبغي عليه أيام خلافته، فيها بعض زوجاته وبعض أحمائه، فكنى علي رضي الله عنه عن الزوجة بالحمة وهي سم العقرب، ويروى: "والحمء" يضرب مثلاً لغير الطيب ولغير الصافي، وظهر أن الحمء الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخروجه مع هؤلاء البغاة هو الزبير بن عتمه. وفي الحمأ أربع لغات: حمأ مثل قفا، وحمء مثل كمء، وحمو مثل أبو، وحم مثل أب. قوله رضي الله عنه: "والشبهة المغدفة" أي الخنيفة، وأصله المرأة تغدف وجهها بقناعها، أي تستره. وروى: المغدفة بكسر الدال، من أغدف الليل، أي أظلم. وزاح الباطل، أي بعد وذهب، وأزاحه غيره. وعن نصابه: عن مركزه ومقره، ومنه قول بعض المحدثين:

قد رجع الحق الى نصابه وأنت من دون الورى أولى به

والشغب، بالتسكين: تهيج الشر، شغب الحقد بالفتح شغباً، وقد جاء بالتحرك في لغة ضعيفة، وماضيها شغب، بالكسر. ولافرطن لهم حوضاً، أي لأملاًن، يقال: أفرطت المزادة أي ملأتها، وغدير مفرط، أي ملآن، والماتح، بنقطتين من فوق: المستقي من فوق، وبالياء: مالىء الدلاء من تحت، والعب: الشرب بلا مص كما تشرب الدابة: وفي الحديث: "الكباد من العب، والحسي: ماء كامن في رمل يحفر عنه فيستخرج، وجمعه أحساء. يقول رضي الله عنه: "والله ما أنكروا علي أمراً هو منكر في الحقيقة، وإنما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم، وحملهم على ذلك الحسد وحب الاستئثار بالدنيا والتفضيل في العطاء، وغير ذلك مما لم يكن أمير المؤمنين رضي الله عنه يراه ولا يستحيزه في الدين. قال: ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، يعني وسيطاً يحكم وينصف، بل خرجوا عن الطاعة بغتة، وإنهم ليطلبون حقاً تركوه، أي يظهرون أنهم يطلبون حقاً بخروجهم الى البصرة وقد تركوا الحق بالمدينة. قال: ودماً هم سفكوه، يعني دم عثمان، وكان طلحة من أشد الناس تحريضاً عليه، وكان الزبير دونه في ذلك. روي أن عثمان قال: ويلي على ابن الحضرمية - يعني طلحة - أعطيته كذا وكذا بهاراً ذهباً، وهو يروم دمي يحرض على! نفسي، اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه.

وروى الناس الذين صنفوا في واقعة الدار أن طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس، يرمي الدار بالسهم. ورووا أيضاً أنه لما امتنع على الذين حصروه الدخول من باب الدار، حملهم طلحة الى دار لبعض الأنصار، فأصعدهم الى سطحها، وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه.

وروا أيضاً أن الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدل دينكم. فقالوا: إن ابنك يحامي عنه بالباب، فقال: ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدىء بابني، إن عثمان لجيفة على الصراط غدأ.

وقال مروان بن الحكم يوم الجمل: والله لا أترك تأري وأنا أراه، ولأقتلن طلحة بعثمان، فإنه قتله. ثم رماه بسهم فأصاب مأبضه، فترف الدم حتى مات.

ثم قال رضي الله عنه: إن كنت شريكهم في دم عثمان، فإن لهم نصيبهم منه، فلا يجوز لهم أن يطلبوا بدمه وهم شركاء فيه، وإن كانوا ولوه دوني، فهم المطلوبون إذن به لا غيرهم.

وإنما لم يذكر القسم الثالث، وهو أن يكون هو رضي الله عنه وليه دونهم، لأنه لم يقل به قائل، فإن الناس كانوا على قولين في ذلك: أحدهما أن علياً وطلحة والزبير مسهم لطلح من عثمان، لا بمعنى أنهم باشروا قتله، بل بمعنى الإغراء والتحريض، وثانيهما أن علياً رضي الله عنه بريء من ذلك، وأن طلحة والزبير غير بريئين منه.

ثم قال: وإن أول عدلهم للحكم على أنفسهم، يقول: إن هؤلاء خرجوا ونقضوا البيعة، وقالوا: إنما خرجنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإظهار العدل وإحياء الحق وإمالة الباطل، وأول العدل أن يحكموا على أنفسهم، فإنه يجب على الإنسان أن يقضي على نفسه ثم على غيره، وإذا كان دم عثمان قبلهم، فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم.

قال: وإن معي لبصيرتي، أي عقلي، ما لبست على الناس أمرهم ولا لبس الأمر علي، أي لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بل أوضحه لي وعرفنيه. ثم قال: وإنما للفئة الباغية، لام التعريف في الفئة تشعر بأن نصاً قد كان عنده: أنه ستخرج عليه فئة باغية، ولم يعين له وقتها ولا كل صفاتها، بل بعض علاماتها، فلما خرج أصحاب الجمل ورأى تلك العلامات موجودة فيهم، قال: وإنما للفئة الباغية، أي وإن هذه الفئة، أي الفئة التي وعدت بخروجها علي، ولولا هذا لقال: "وإنما لفئة باغية"، على التنكير.

ثم ذكر بعض العلامات، فقال: إن الأمر لواضح، كل هذا يؤكد به عند نفسه وعند غيره أن هذه الجماعة هي تلك الفئة الموعود بخروجها، وقد ذهب الباطل وزاح، وخرس لسانه بعد شغبه.

ثم أقسم ليملأن لهم حوضاً هو ماتحه، وهذه كناية عن الحرب والهيء وما يتعقبهما من القتل والهلاك. لا يصدر عن غيره، أي ليس كهذه الحياض الحقيقية التي إذا ورد بها الظمان صدر عن ري ونقع غليله، بل لا يصدر عن غيره إلا وهم جزر السيوف، ولا يعبون بعده في حسي لأنهم هلكوا، فلا يشربون بعده البارد العذب.

وكان عمرو بن الليث الصفار أمير خراسان أنفذ جيشاً لمحاربة إسماعيل بن أحمد الساماني، فانكسر ذلك الجيش وعادوا إلى عمرو بن الليث، فغضب ولقي القواد بكلام غليظ، فقال له بعضهم: أيها الأمير، إنه قد طبخ لك مرجل عظيم، وإنما نلنا منه لهمة يسيرة والباقي مذخور لك، فعلام تتركه! اذهب اليهم فكله. فسكت عمرو بن الليث عنه ولم يجب. ومرادنا من هذه المشابهة والمناسبة بين الكنايتين.

الأصل: منه: فأقبلتم إلى إقبال الغوذ المطافيل على أولادها، تقولون: البيعة البيعة! قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فجاذبتموها.

"اللهم إنهما قطعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، والبا الناس علي. فاحلل ما عقداء، ولا تحكم لهما ما أبرما، وأرهما المساءة فيما أملا وعملا ولقد أستثبتهما قبل القتال، واستأنيت بهما أمام الوقاع، فغمطنا النعمة وردا العافية".

الشرح: العوذ: النوق الحديثات النتاج، الواحدة عائد، مثل حائل وحول، وقد يقال ذلك للخيل والظباء، ويجمع أيضاً

على "عوذان" مثل راع ورعيان، وهذه عائذة بينة العوذ، وذلك إذا ولدت عن قريب، وهي في عيادها، أي بحدثان نتاجها.

والمطافيل: جمع مطفل، وهي التي زال عنها اسم العياد ومعها طفلها، وقد تسمى المطافيل عوداً إلى أن يبعد العهد بالنتاج مجازاً، وعلى هذا الوجه قال أمير المؤمنين: "إقبال العوذ المطافيل"، والا فالإسمان معاً لا يجتمعان حقيقة، وإذا زال الأول ثبت الثاني.

قوله: "والبا الناس علي" أي حرصاً، يقال: حسود مؤلب.

واستبتهما، بالثاء المعجمة بثلاث: طلبت منهما أن يتوبا أي يرجعا، وسمي المتزل مثابة لأن أهله ينصرفون في أمورهم ثم يتوبون إليه، ويروى: ولقد استبتهما، أي طلبت منهما أن يتوبا إلى الله من ذنبهما في نقض البيعة، واستأنيت بهما، من الأناة والانتظار، والوقاع، بكسر الواو: مصدر واقعتهم في الحرب وقاعاً، مثل نازلتهم نزلاً، وقتلتهم قتلاً، وغمط فلان النعمة، إذا حقرها وأزرى بها غمطاً، ويجوز غمط النعمة بالكسر والمصدر غير محرك ويقال: إن الكسر أفصح من الفتح. يقول رضي الله عنه: "إنكم أقبلتم مزدحمين كما تقبل النوق إلى أولادها، تسألوني البيعة فامتنعت عليكم حتى علمت اجتماعكم فبايعتكم". ثم دعا علي على طلحة والزبير بعد أن وصفهما بالقطيعة والنكت والتاليب عليه، بأن يحل الله تعالى ما عقدا، والا يحكم لهما ما أبرما، وأن يريهما المساء فيما أملا وعملا.

فأما الوصف لهما بما وصفهما به، فقد صدق رضي الله عنه فيه، وأما دعاؤه فاستجيب له، والمساءة التي دعا بها هي مساءة الدنيا لا مساءة الآخرة، فإن الله تعالى قد وعدهما على لسان رسوله بالجنة، وإنما استوجبها بالتوبة التي ينقلها أصحابنا رحمهم الله في كتبهم عنهما، ولولاها لكانا من الهالكين.

ومن خطبة له يومئذ فيها إلى ذكر الملاحم

الأصل: يعطف الهوى على الهدى، إذا عطفوا الهدى على الهوى، ويعطف الرأي على القرآن، إذا عطفوا القرآن على الرأي.

الشرح: هذا إشارة إلى إمام يخلفه الله تعالى في آخر الزمان، وهو الموعود به في الأخبار والآثار، ومعنى يعطف الهوى يقهره ويشيه عن جانب الإيثار والإرادة، عاملاً عمل الهدى، فيجعل الهدى قاهراً له، وظاهراً عليه، وكذلك قوله: ويعطف الرأي على القرآن، أي يقهر حكم الرأي والقياس والعمل بغلبة الظن عاملاً عمل القرآن.

وقوله: إذا عطفوا الهدى وإذا عطفوا القرآن إشارة إلى الفرق المخالفين لهذا الإمام، المشايقين له، الذين لا يعملون بالهدى بل بالهوى، ولا يحكمون بالقرآن بل بالرأي.

الأصل: منها: حتى تقوم الحرب بكم على ساق، بادياً نواجذها، مملوءة أخلافها، حلواً رضاعها، علقماً عاقبتها، الا وفي غد- وسيأتي غد بما لا تعرفون- يأخذ الوالي من غيرها عمالها على مساوئ أعمالها وتخرج له الأرض أفايلد كبدها، وتلقي إليه سلماً مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة، ويحيي ميت الكتاب والسنة.

الشرح: الساق: الشدة، ومنه قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق"، والنواجذ: أقصى الأضراس، والكلام كناية عن بلوغ

الحرب غايتها، كما أن غاية الضحك أن تبدو النواجد. وكذلك قوله: "مملوءة أخلافها"، والأخلاف للناقة حلمات الضرع، واحدها خلف.

وقوله: "حلوا رضاعها، علقماً عاقبتها" قد أحذه الشاعر، فقال:

تسعى بزينتها لكل جهول

الحرب أول ما تكون فتية

عادت عجوزاً غير ذات حليل

حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها

مكروهة للشم والتقبيل

شمطاء جزت رأسها وتكرت

وهو الرضاع بالفتح، والماضي رضع بالكسر، مثل سمع سماعاً، وأهل نجد يقولون: رضع بالفتح يرضع بالكسر رضعاً، مثل ضرب يضرب ضرباً، وأنشدوا:

أفاويق حتى ما يدربها ثعل

وذفوا لنا الدنيا وهم يرضعونها

بكسر الضاد.

فصل في الاعتراض،

وقوله: "الا وفي غد تمامه يأخذ الوالي وبين الكلام جملة اعتراضية، وهي قوله: وسيأتي غد بما لا تعرفون والمراد تعظيم شأن الغد الموعود بمجيئه، ومثل ذلك في القرآن كثير، نحو قوله تعالى: "فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم"، فقوله تعالى: "إنه لقرآن كريم" هو الجواب المتلقى به قوله: "فلا أقسم"، وقد اعترض بينهما قوله: "وإنه لقسم لو تعلمون عظيم" واعترض بين هذا الاعتراض قوله: "لو تعلمون"، لأنك لو حذفته لبقى الكلام على إفادته، وهو قوله: "وإنه لقسم عظيم"، والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم، وتأكيد إحلاله في النفوس، ولا سيما بقوله: "لو تعلمون عظيم".

ومن ذلك قوله تعالى: "ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون"، فقوله، سبحانه اعتراض، والمراد التثنية. وكذلك قوله: "تالله - لقد علمتم - ما جئنا لنفسد في الأرض"، ف- "لقد علمتم" اعتراض، والمراد به تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة.

وكذلك قوله: "وإذا بدلنا آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - قالوا إنما أنت مفتر" فاعترض بين إذا وجوابها بقوله: "والله أعلم بما ينزل"، فكأنه أراد أن يجيبهم عن دعواهم، فجعل الجواب اعتراضاً. ومن ذلك هوله: "ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك" فاعترض بقوله: "حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين" بين وصينا وبين الموصى به، وفائدة ذلك إذكاري الولد بما كابدته أمه من المشقة في حمله وفصاله. من ذلك قوله: "وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا اضربوه ببعضها" فقوله: "والله مخرج ما كنتم تكتمون" اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، والمراد أن يقرر في أنفس السامعين أنه لا ينفع البشر كتمانهم وإخفاؤهم لما يريد الله إظهاره، ومن الاعتراض في الشعر قول جرير:

ولقد أراني والجديد الى بلى

في موكب بيض الوجوه كرام

فقوله: والجديد الى بلى اعتراض، والمراد تعزيتة نفسه عما مضى من تلك اللذات، وكذلك قول كثير:

لو أن الباخلين وأنت منهم

رأوك تعلموا منك المطالا

فقوله: وأنت منهم اعتراض، وفائدته الا تظن أنها ليست باخلة.

ومن ذلك قول الشاعر:

فلوسالت سراة الحي سلمى

على أن قد تلون بي زماني

لخبرها ذوو أحساب قومي

وأعدائي فكل قد بلاني

بذبي الذم عن حسبي ومالي

وزبونات أشوس تيحان

وإني لا أزال أذا حروب

إذا لم أجن كنت مجن جاني

فقوله: على أن قد تلون بي زماني.

اعتراض، وفائدته الإخبار عن أن السن قد أخذت منه وتغيرت بطول العمر أوصافه.

ومن ذلك قول أبي تمام:

رددت رونق وجهي في صحيفته

رد الصقال بهاء الصارم الخدم "د"

وما ابالي وخير القول أصدقه

حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي

فقوله: وخير القول أصدقه اعتراض، وفائدته إثبات صدقه في دعواه أنه لا يبالي أيهما حقن، فأما قول أبي تمام أيضاً:

وإن الغنى لي إن لحظت مطالبي

من الشعر الا في مديحك أطوع

فإن الإعتراض فيه هو قوله: الا في مديحك وليس قوله: إن لحظت مطالبي إعتراضاً كما زعم ابن الأثير الموصلي، لأن فائدة البيت معلقة عليه، لأنه لا يريد أن الغنى لي على كل حال أطوع من الشعر، وكيف يريد هذا وهو كلام فاسد محتل! بل مراده أن الغنى لي بشرط أن تلحظ مطالبي من الشعر أطوع لي، الا في مديحك، فإن الشعر في مديحك أطوع لي منه، وإذا كانت الفائدة معلقة بالشرط المذكور لم يكن اعتراضاً. وكذلك وهم ابن الأثير أيضاً في قول امرئ القيس:!

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة

كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثّل

وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي

فقال: إن قوله: ولم أطلب اعتراض، وليس بصحيح، لأن فائدة البيت مرتبطة به، وتقديره: لو سعت لأن أكل وأشرب لكفاني القليل، ولم أطلب الملك، فكيف يكون قوله: ولم أطلب الملك اعتراضاً، ومن شأن الاعتراض أن يكون فضلة ترد لتحسين وتكملة، وليست فائدته أصلية! وقد يأتي الاعتراض ولا فائدة فيه، وهو غير مستحسن، نحو قول النابغة:

يقول رجال يجهلون خليقتي

لعل زياداً لا أبا لك غافل

فقله: لا أبا لك، اعتراض لا معنى تحته ههنا، ومثله قول زهير:

ثمانين حولاً لا أباك يسأم

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش

فإن جاءت لا أبا لك تعطي معنى يليق بالموضع فهي اعتراض جيد، نحو قول أبي تمام:

عتابك عني لا أبا لك واقصدي

فإنه أراد زجرها وذمها لما أسرفت في عتابه.

وقد يأتي الاعتراض على غاية من القبح والاستهجان، وهو على سبيل التقديم والتأخير، نحو قول الشاعر:

بوشك فراقهم صرد فصيح

فقد والشك بين لي عناء

تقديره: فقد بين لي صرد يصيح بوشك فراقهم، والشك عناء، فلأجل قوله: والشك عناء بين قد والفعل الماضي، وهو بين عد اعتراضاً مستهجناً، وأمثال هذا للعرب كثير.

قوله رضي الله عنه: يأخذ الوالي من غيرها عما لها على مساوىء أعمالها كلام منقطع عما قبله، وقد كان تقدم ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمرة، فذكر رضي الله عنه أن الوالي - يعني الإمام الذي يخلقه الله تعالى في آخر الزمان - يأخذ عمال هذه الطائفة على سوء أعمالهم. وعلى ههنا متعلقة ب يأخذ التي هي بمعنى يؤاخذ من قولك: أخذته بذنبه، وأخذته، والهمز أفصح. والأفاليد: جمع أفلاذ، وأفلاذ جمع فلذ، وهي القطعة من الكبد، وهذا كناية عن الكنوز التي تظهر للقائم بالأمر، وقد جاء ذكر ذلك في خبر مرفوع في لفظة: "وقاءت له الأرض أفلاذ كبدها"، وقد فسر قوله تعالى: "وأخرجت الأرض أثقالها" بذلك في بعض التفاسير، والمقاليد: المفاتيح.

الأصل: منها: كأني به قد نعق بالشام، وفحص براياته في ضواحي كوفان، فعطف عليها عطف الضروس، وفرش الأرض بالرؤوس. قد فغرت فاغرته، وثقلت في الأرض وطأته، بعيد الجولة، عظيم الصولة.

"والله ليشردنكم في أطراف الأرض حتى لا يبقى منكم الا قليل كالكحل في العين، فلا تزالون كذلك حتى تؤوب الى العرب عواذب أحلامها، فالزموا السنن القائمة، والآثار البينة، والعهد القريب الذي عليه باقي النبوة، واعلموا أن الشيطان إنما يسي لك طرقه لتتبعوا عقبه".

الشرح: هذا إخبار عن عبد الملك بن مروان وظهوره بالشام وملكه بعد ذلك العراق، وما قتل من العرب فيها أيام عبد الرحمن بن الأشعث، وقتله أيام مصعب بن الزبير.

ونعق الراعي بغنمه، بالعين المهملة، ونعق الغراب بالغين المعجمة. وفحص براياته ههنا: مفعول محذوف تقديره: وفحص الناس براياته، أي نحاهم وقلبههم يميناً وشمالاً.

وكوفان: اسم الكوفة. وضواحيها: ما قرب منها من القرى. والضروس: الناقة السيئة الخلق تعض حالبها، قال بشر بن أبي خازم:

بشهباء لايمشي الضراء رقيبها

عطفنا لهم عطف الضروس من الملا

وقوله: "وفرش الأرض بالرؤوس": غطاها بها كما يغطي المكان بالفرش.
وفغرت فاغرتها، كأنه يقول: فتح فاه، والكلام استعارة، وفغر فعل يتعدى ولا يتعدى. وثقلت في الأرض وطأته، كناية عن الجور والظلم.
بعيد الجولة: استعارة أيضاً، والمعنى أن تطواف خيوله وجيوشه في البلاد، أو جولان رجاله في الحرب على الأقران طويل جداً لا يتعقبه السكون الا نادراً.
وبعيد منصوب على الحال، وإضافته غير محضة.
وعواذب أحلامها: ما ذهب من عقولها، عزب عنه الرأي، أي بعد.
ويسني لكم طريقه، أي يسهل. والعقب، بكسر القاف: مؤخر القدم، وهي مؤنثة.
فإن قلت: فإن قوله: "حتى تؤوب" يدل على أن غاية ملكه أن تؤوب الى العرب عواذب أحلامها، وعبد الملك مات في ملكه ولم يزل الملك عنه بأوبة أحلام العرب إليها فإن فائدة حتى الى، وهي موضوعة للغاية.

قلت: إن ملك أولاده ملكه أيضاً، وما زال الملك عن بني مروان حتى آبت الى العرب عواذب أحلامها، والعرب ههنا: بنو العباس ومن اتبعهم من العرب أيام ظهور الدولة، كقحطبة بن شبيب الطائي وابنيه: حميد والحسن، وكبني رزتنى، بتقدسيم الرءاء المهمة، الذين منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبي، وعدادهم في خزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بني العباس. وقد قيل: إن أبا مسلم أيضاً عربي أصله، وكل هؤلاء وآبائهم كانوا مستضعفين مقهورين مغمورين في دولة بني أمية، لم ينهض منهم ناهض، ولا وثب الى الملك واثب، الى أن أفاء الله تعالى الى هؤلاء ما كان عزب عنهم من إباءهم وحميتهم، فغاروا للدين والمسلمين من جور بني مروان وظلمهم، وقاموا بالأمر، وأزالوا تلك الدولة التي كرهها الله تعالى، وأذن في انتقالها.

ثم أمرهم رضي الله عنه بأن يلزموا بعد زوال تلك الدولة الكتاب والسنة، والعهد القريب الذي عليه باقي النبوة يعني عهده وأيامه رضي الله عنه. وكأنه خاف من أن يكون بإخباره لهم بأن دولة هذا الجبار ستنتضي إذا آبت الى العرب عواذب أحلامها، كالأمر لهم باتباع ولادة الدولة الجديدة في كل ما تفعله، فاستظهر عليهم بهذه الوصية، وقال لهم: إذا ابتذلت الدولة، فالزموا الكتاب والسنة، والعهد الذي فارقتكم عليه.

ومن كلام له في وقت الشورى

الأصل: لن يسرع أحد قبلي الى دعوة حق، وصلة رحم، وعائدة كرم، فاسمعوا قولي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم، تنتضي فيه السيوف، وتخان فيه العهود، حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجهالة.

الشرح: هذا من جملة كلام قاله رضي الله عنه لأهل الشورى بعد وفاة عمر.

تكملة حديث الشورى

وقد ذكرنا من حديث الشورى فيما تقدم ما فيه كفاية، ونحن نذكر ههنا ما لم نذكره هناك، وهو عن رواية عوانة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي في كتاب الشورى، ومقتل عثمان، وقد رواه أيضاً أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في زيادات كتاب السقيفة، قال: لما طعن عمر جعل الأمر شورى بين ستة نفر: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن مالك، وكان طلحة يومئذ بالشام، وقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو عن هؤلاء راض، فهم أحق بهذا الأمر من غيرهم، وأوصى صهيب بن سنان، مولى عبد الله بن جدعان ويقال: إن أصله من حي من ربيعة بن نزار، يقال لهم عترة- فأمره أن يصلي بالناس حتى يرضى هؤلاء القوم رجلاً منهم، وكان عمر لا يشك أن هذا الأمر صائر إلى أحد الرجلين: علي وعثمان، وقال: إن قدم طلحة فهو معهم، والا فلتختر الخمسة واحداً منها. وروي أن عمر قبل موته أخرج سعد بن مالك من أهل الشورى، وقال: الأمر في هؤلاء الأربعة، ودعوا سعداً على حاله أميراً بين يدي الإمام. ثم قال: ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لما تخالجتني فيه الشكوك، فإن اجتمع ثلاثة على واحد، فكونوا مع الثلاثة، وإن اختلفوا فكونوا مع الجانب الذي فيه عبد الرحمن.

وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، فوالله لطالما أعز الله بكم الدين، ونصر بكم الإسلام، اختر من المسلمين خمسين رجلاً، فانت بهم هؤلاء القوم في كل يوم مرة، فاستحثوهم حتى يختاروا لأنفسهم وللأمة رجلاً منهم. ثم جمع قوماً من المهاجرين والأنصار- فأعلمهم ما أوصى به، وكتب في وصيته أن يولي الإمام سعد بن مالك الكوفة، وأبا موسى الأشعري، لأنه كان عزل سعداً عن سخطه فأحب أن يطلب ذلك إلى من يقوم بالأمر من بعده استرضاء لسعد.

قال الشعبي: فحدثني من لا أتهمه من الأنصار- وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهري: هو سهل بن سعد الأنصاري-قال: مشيت وراء علي بن أبي طالب حيث انصرف من عند عمر، والعباس بن عبد المطلب يمشي في جانبه، فسمعت يقول للعباس: ذهبت منا والله! فقال: كيف علمت، قال: الا تسمعه يقول: كونوا في الجانب الذي فيه عبد الرحمن، لأنه ابن عمه، وعبد الرحمن نظير عثمان وهو صهره، فإذا اجتمع هؤلاء! فلو أن الرجلين الباقيين كانا معي لم يغنيا عني شيئاً، مع أني لست أرجو الا أحدهما، ومع ذلك فقد أحب عمر أن يعلمنا أن لعبد الرحمن عنده فضلاً علينا. لعمر الله ما جعل الله ذلك لهم علينا، كما لم يجعله لأولادهم على أولادنا. أما والله لئن عمر لم يمت لأذكرته ما أتى إلينا قديماً، ولأعلمته سوء رأيه فينا، وما أتى إلينا حديثاً، ولئن مات وليموتن ليجتمعن هؤلاء القوم على أن يصرفوا هذا الأمر عنا، ولئن فعلوها وليفعلن ليروني حيث يكرهون، والله ما بي رغبة في السلطان، ولا حب الدنيا، ولكن لإظهار العدل، والقيام بالكتاب والسنة.

قال: ثم التفت فرآني وراءه، فعرفت أنه قد ساء ذلك، فقلت: لا ترع أبا حسن! لا والله لا يستمع أحد الذي سمعت

منك في الدنيا ما اصطحبنا فيها، فوالله ما سمعه مني مخلوق حتى قبض الله علياً الى رحمته. قال عوانة: فحدثنا إسماعيل، قال: حدثني الشعبي، قال: فلما مات عمر، وأدرج في أكفانه، ثم وضع ليصلى عليه، تقدم علي بن أبي طالب، فقام عند رأسه، وتقدم عثمان فقام عند رجله، فقال علي رضي الله عنه: هكذا ينبغي أن تكون الصلاة، فقال عثمان: بل هكذا، فقال عبد الرحمن: ما أسرع ما اختلفتم يا صهيب، صل على عمر كما رضي أن تصلي بهم المكتوبة، فتقدم صهيب فصلى على عمر.

قال الشعبي: وادخل أهل الشورى داراً، فأقبلوا يتجادلون عليها، وكلهم بما ضنين، وعليها حريص، إما لدنيا وإما لآخرة، فلما طال ذلك قال عبد الرحمن: من رجل منكم يخرج نفسه عن هذا الأمر، ويختار لهذه الأمة رجلاً منكم، فأني طيبة نفسي أن أخرج منها، وأختار لكم؟ قالوا: قد رضينا، الا علي بن أبي طالب فإنه أقمه وقال: أنظر وأرى. فأقبل أبو طلحة عليه، وقال: يا أبا الحسن، إرض برأي عبد الرحمن، كان الأمر لك أو لغيرك، فقال علي: أعطني يا عبد الرحمن موثقاً من الله لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تمل الى صهر ولا ذي قرابة، ولا تعمل الا لله، ولا تالو هذه الأمة أن تختار لها خيرها. قال: فحلف له عبد الرحمن بالله الذي لا اله الا هو، لأجتهدن لنفسي ولكم وللأمة، ولا أميل الى هوى ولا الى صهر ولا ذي قرابة.

قال: فخرج عبد الرحمن، فمكث ثلاثة أيام يشاور الناس، ثم رجع واجتمع الناس، وكثروا على الباب لا يشكون أنه يبايع علي بن أبي طالب، وكان هوى قريش كافة ما عدا بني هاشم في عثمان، وهوى طائفة من الأنصار مع علي وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي أقل الطائفتين، وطائفة لا يبالون: أيهما بويع. قال: فأقبل المقداد بن عمرو، والناس مجتمعون، فقال: أيها الناس، اسمعوا ما أقول، أنا المقداد بن عمرو إنك إن بايعتم علياً سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا، فقام عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، فنادى: أيها الناس، إنكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم علياً سمعنا وعصينا. فقال له المقداد: يا عدو الله وعدو رسوله وعدو كتابه، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون! فقال له عبد الله: يا بن الحليف العسيف، ومتى كان مثلك يجترىء على الدخول في أمر قريش! فقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح: أيها الملاء، إن أردتم الا تختلف قريش فيما بينها، فبايعوا عثمان، فقال عمار بن ياسر: إن أردتم الا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً، ثم أقبل على عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فقال: يا فاسق يا بن الفاسق، أأنت ممن يستنصحه المسلمون، أو يستشيرونه في أمورهم! وارتفعت الأصوات، ونادى مناد لا يدري من هو! - فقريش تزعم أنه رجل من بني مخزوم، والأنصار تزعم أنه رجل طوال آدم مشرف على الناس - لا يعرفه أحد منهم: يا عبد الرحمن، افرغ من أمرك، وامض على ما في نفسك فإنه الصواب.

قال الشعبي: فأقبل عبد الرحمن على علي بن أبي طالب، فقال: عليك عهد الله وميثاقه، وأشد ما أخذ الله على النبيين من عهد وميثاق: إن بايعتك لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة أبي بكر وعمر! فقال علي رضي الله عنه: طاقتي ومبلغ علمي وجهد رأيي، والناس يسمعون.

فأقبل على عثمان، فقال له مثل ذلك، فقال: نعم لا أزول عنه ولا أدع شيئاً منه.

ثم أقبل على علي فقال له ذلك ثلاث مرات، ولعثمان ثلاث مرات، في كل ذلك يجيب علي مثل ما كان أجاب به، ويجيب عثمان بمثل ما كان أجاب به.

فقال: ابسط يدك يا عثمان، فبسط يده فبايعه، وقام القوم فخرجوا، وقد بايعوا الا علي بن أبي طالب، فإنه لم يبايع. قال: فخرج عثمان على الناس ووجهه متهلل، وخرج علي وهو كاسف البال مظلم، وهو يقول: يا بن عوف، ليس هذا بأول يوم تظاهرتم علينا، من دفعنا عن حقنا والاستثثار علينا! وإنما لسنة علينا، وطريقة تركتموها. فقال المغيرة بن شعبة لعثمان: أما والله لو بويغ غيرك لما بايعناه، فقال عبد الرحمن بن عوف: كذبت، والله لو بويغ غيره لبايعته، وما أنت وذاك يا بن الدباغة! والله لو وليها غيره لقلت له مثل ما قلت الآن، تقرباً إليه وطمعاً في الدنيا، فاذهب لا أبا لك!.

فقال المغيرة: لولا مكان أمير المؤمنين لأسمعتك ما تكره. ومضيا.

قال الشعبي، فلما دخل عثمان رحله دخل اليه بنو أمية حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم، قالوا: لا، قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة! قال: فانتهره عثمان، وساء بما قال، وأمر بإخراجه. قال الشعبي: فدخل عبد الرحمن بن عوف على عثمان، فقال له: ما صنعت! فوالله ما وفقت حيث تدخل رحلك قبل أن تصعد المنبر، فتحمد الله وتثني عليه، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعد الناس خيراً. قال: فخرج عثمان، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هذا مقام لم نكن نقومه، ولم نعد له من الكلام الذي يقام به في مثله، وسأهيه ذلك إن شاء الله، ولن الو أمة محمد خيراً، والله المستعان. ثم نزل. قال عوانة: فحدثني! يزيد بن جرير، عن الشعبي، عن شقيق بن مسلمة، أن علي بن أبي طالب، لما انصرف الى رحله، قال لبني أبيه: يا بني عبد المطلب، إن قومكم عادوكم بعد وفاة النبي كعداوتهم النبي في حياته، وإن يطع قومكم لا تؤمروا أبداً، والله لا ينبى هؤلاء الى الحق الا بالسيف. قال: وعبد الله بن عمر بن الخطاب، داخل اليهم، قد سمع الكلام كله فدخل، وقال: يا أبا الحسن، أتريد أن تضرب بعضهم ببعض! فقال: اسكت ويحك! فوالله لولا أبوك وما ركب مني قديماً وحديثاً، ما نازعني ابن عفان ولا ابن عوف. فقام عبد الله فخرج.

قال: وأكثر الناس في أمر الهرمزان وعبيد الله بن عمر، وقتله إياه، وبلغ ما قال فيه علي بن أبي طالب. فقام عثمان فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه كان من قضاء الله أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب أصاب الهرمزان، وهو رجل من المسلمين، وليس له وارث الا الله والمسلمون، وأنا إمامكم وقد عفوت، أفتعفون عن عبيد الله ابن خليفتمكم بالأمس؟ قالوا: نعم، فعفا عنه، فلما بلغ ذلك علياً تضاحك، وقال: سبحان الله! لقد بدا بها عثمان! أيعفو عن حق امرئ ليس بواليه! تالله إن هذا هو العجب! قالوا: فكان ذلك أول ما بدا من عثمان مما نقم عليه. قال الشعبي: وخرج المقداد من الغد، فلقي عبد الرحمن بن عوف، فأخذ بيده، وقال: إن كنت أردت بما صنعت وجه الله، فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة، وإن كنت إنما أردت الدنيا فأكثر الله مالك. فقال عبد الرحمن: إسمع، رحمك الله، إسمع! قال: لا أسمع والله،

وجذب يده من يده، ومضى حتى دخل على علي رضي الله عنه، فقال: قم فقاتل حتى نقاتل معك، قال علي: فبمن اقاتل
رحمك الله! وأقبل عمار بن ياسر ينادي:

ياناعي الإسلام قم فانعه

قد مات عرف وبدا نكر

أما والله لو أن لي أعواناً لقاتلتهم، والله لمن قاتلهم واحد لأكونن له ثانياً. فقال علي: يا أبا اليقظان، والله لا أجد عليهم
أعواناً، ولا أحب أن أعرضكم لما لا تطيقون. وبقي رضي الله عنه في داره، وعنده نفر من أهل بيته، وليس يدخل اليه
أحد مخافة عثمان.

قال الشعبي: واجتمع أهل الشورى على أن تكون كلمتهم واحدة على من لم يبايع، فقاموا الى علي، فقالوا: قم فبايع
عثمان، قال: فإن لم أفعل، قالوا: نجاهدك، قال: فمشى الى عثمان حتى بايعه، وهو يقول: صدق الله ورسوله. فلما بايع
أتاه عبد الرحمن بن عوف، فاعتذر اليه، وقال: إن عثمان أعطانا يده ويمينه، ولم تفعل أنت، فأحببت أن أتوثق للمسلمين،
فجعلتها فيه، فقال: إيهأ عنك! إنما آثرته بما لتناها بعده، دق الله بينكما عطر منشم .

قال الشعبي: وقدم طلحة من الشام بعدما بويع عثمان، فقبل له: رد هذا الأمر حتى ترى فيه رأيك، فقال: والله لو بايعتم
شركم لرضيت، فكيف وقد بايعتم خيركم! قال: ثم عدا عليه بعد ذلك وصاحبه حتى قتلاه، ثم زعما أنهما يطلبان بدمه.
قال الشعبي: فأما ما يذكره الناس من المناشدة، وقول علي رضي الله عنه لأهل الشورى: أفيكم أحد قال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم كذا، فإنه لم يكن يوم البيعة، وإنما كان بعد ذلك بقليل، دخل علي رضي الله عنه على عثمان وعنده
جماعة من الناس، منهم أهل الشورى، وقد كان بلغه عنهم هنات وقوارص، فقال لهم: أفيكم أفيكم! كل ذلك يقولون
لا، قال: لكني اخبركم عن أنفسكم، أما أنت يا عثمان ففررت يوم حنين، وتوليت يوم التقى الجمعان، وأما أنت يا
طلحة فقلت: إن مات محمد لتركضن بين خلاخيل نسائنا كما ركض بين خلاخيل نسائنا، وأما أنت يا عبد الرحمن،
فصاحب قراريط، وأما أنت يا سعد فتدق عن أن تذكر.

قال: ثم خرج فقال عثمان: أما كان فيكم أحد يرد عليه! قالوا، وما منعك من ذلك وأنت أمير المؤمنين! وتفرقوا. قال
عوانة: قال إسماعيل: قال الشعبي: فحدثني عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه جندب بن عبد الله الأزدي، قال: كنت
جالساً بالمدينة حيث بويع عثمان، فجئت فجلست الى المقداد بن عمرو، فسمعتة يقول: والله ما رأيت مثل ما أتى الى أهل
هذا البيت! وكان عبد الرحمن بن عوف جالساً، فقال: وما أنت وذاك يا مقداد! قال المقداد: إني والله احبهم لحب رسول
الله صلى الله عليه وسلم وإني لأعجب من قريش وتطاوهم على الناس بفضل رسول الله، ثم انتزعهم سلطانه من أهله.
قال عبد الرحمن: أما والله لقد أجهدت نفسي لكم. قال المقداد: أما والله لقد تركت رجلاً من الذين يأمرون بالحق وبه
يعدلون! أما والله لو أن لي على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالي إياهم ببدر واحد. فقال عبد الرحمن: ثكلتك أمك، لا يسمعن
هذا الكلام الناس، فإني أخاف أن تكون صاحب فتنة وفرقة.

قال المقداد: إن من دعا الى الحق وأهله وولاة الأمر لا يكون صاحب فتنة، ولكن من أقحم الناس في الباطل، وأثر الهوى

على الحق، فذلك صاحب الفتنة والفرقة.

قال: فتربد وجه عبد الرحمن، ثم قال: لو أعلم أنك إياي تعني لكان لي ولك شأن.

قال المقداد: إياي تهدد يا بن ام عبد الرحمن! ثم قام عن عبد الرحمن، فانصرف.

قال جندب بن عبد الله: فاتبعته، وقلت له: يا عبد الله، أنا من أعوانك، فقال: رحمك الله! إن هذا الأمر لا يغني فيه الرجال ولا الثلاثة، قال: فدخلت من فوري ذلك على علي رضي الله عنه، فلما جلست إليه، قلت: يا أبا الحسن، والله ما أصاب قومك بصرف هذا الأمر عنك، فقال: صبر جميل والله المستعان.

فقلت: والله إنك لصبور! قال: فإن لم أصبر فماذا أصنع، قلت: إني جلست إلى المقداد بن عمرو آنفاً وعبد الرحمن بن عوف، فقالا كذا وكذا، ثم قام المقداد فاتبعته، فقلت له كذا، فقال لي كذا. فقال علي رضي الله عنه: لقد صدق المقداد، فما أصنع، فقلت: تقوم في الناس فتدعوهم إلى نفسك، وتخبرهم أنك أولى بالني، صلى الله عليه وسلم وتسلم وتساهم النصر على هؤلاء المظاهرين عليك، فإن أجابك عشرة من مائة شددت بهم على الباقيين، فإن دانوا لك فذاك، والا قاتلتهم وكنت أولى بالعدو، قتلت أو بقيت، وكنت أعلى عند الله حجة.

فقال: أترجو يا جندب أن يبايعني من كل عشرة واحد، قلت أرجو ذلك، قال: لكني لا أرجو ذلك، لا والله ولا من المائة واحد، وسأخبرك، إن الناس إنما ينظرون إلى قريش فيقولون: هم قوم محمد وقبيله. وأما قريش بينها فتقول: إن آل محمد يرون لهم على الناس بنوته فضلاً، ويرون أنهم أولياء هذا الأمر دون قريش، ودون غيرهم من الناس، وهم إن ولوه لم يخرج السلطان منهم إلى أحد أبداً، ومتى كان في غيرهم تداولته قريش بينها، لا والله لا يدفع الناس إلينا هذا الأمر طائعين أبداً! فقلت: جعلت فداك يا بن عم رسول الله! لقد صدعت قلبي بهذا القول، أفلا أرجع إلى مصر، فأوذن الناس بمقاتلتك، وأدعو الناس إليك، فقال: يا جندب ليس هذا زمان ذاك.

قال: فانصرفت إلى العراق، فكنت أذكر فضل علي على الناس فلا أعدم رجلاً يقول لي ما أكره، وأحسن ما أسمع قول من يقول: دع عنك هذا وخذ فيما ينفعك، فأقول: إن هذا مما ينفعني وينفعك، فيقوم عني ويدعني.

وزاد أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري: حتى رفع ذلك من قولي إلى الوليد بن عقبة، أيام ولينا فبعث إلي فحبسني حتى كلم في، فخلني سبيلي.

وروى الجوهري، قال: نادى عمار بن ياسر ذلك اليوم: يا معشر المسلمين، إنا قد كنا وما كنا نستطيع الكلام، قلة وذلة، فأعزنا الله بدينه، وأكرمنا برسوله، فالحمد لله رب العالمين. يا معشر قريش، إلى متى تصرفون هذا المفر عن أهل بيت نبيكم! تحولونه ههنا مرة، وههنا مرة! ما أنا آمن أن يترعه الله منكم ويضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله! فقال له هاشم بن الوليد بن المغيرة: يا بن سمية، لقد عدوت طورك وما عرفت قدرك، ما أنت وما رأيت قريش لأنفسها! إنك لست في شيء من أمرها وإمارتها، فتنح عنها.

وتكلمت قريش بأجمعها، فصاحوا بعمار وانتهروه، فقال: الحمد لله رب العالمين، ما زال أعوان الحق أذلاء! ثم قام فانصرف.

ومن كلام له في النهي عن غيبة الناس

الأصل: وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع اليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم، فكيف بالعائب الذي عاب أخاه، وعيره ببلواه. أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به! وكيف يذمه بذنوب قد ركب مثله! فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه فقد عصى الله فيما سواه، مما هو أعظم منه، وإيم الله لئن لم يكن عصاه في الكبير، وعصاه في الصغير، لجرأته على عيب الناس أكبر، يا عبد الله، لا تعجل في عيب أحد بذنبه، فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية، فلعلك معذب عليه. فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلاً له على فعافاته مما أبتلي غيره به. الشرح: ليس في هذا الفصل من غريب اللغة ما نشرح.

في ذم الغيبة والاستماع الى المغتابين

ونحن نذكر مما ورد في الغيبة لمعاً نافعة على عادتنا في ذكر الشيء عند مرورنا على ما يقتضيه ويستدعيه. وقد ورد في الكتاب العزيز ذم الغيبة. قال سبحانه: "ولا يغتب بعضكم بعضاً". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضاً، وكونوا عباد الله إخواناً". وروى جابر وأبو سعيد عنه صلى الله عليه وسلم: "إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا، إن الرجل يزني فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه". وروى أنس عنه صلى الله عليه وسلم: "مررت ليلة أسري بي، فرأيت قوماً يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فسالت جبريل عنهم، فقال: "هؤلاء الذين يغتابون الناس". وفي حديث سلمان، قلت: يا رسول الله، علمني خيراً ينفعني الله به، قال: "لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أرفضت من دلوك في إناء المستقي، والقي أحاك ببشر حسن، ولا تغتابنه إذا أدبر". وفي حديث البراء بن عازب: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن، فقال: "الا لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته". وفي حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في يوم صوم: "إن فلانة وفلانة كانتا تأكلان اليوم شحم امرأة مسلمة - يعني الغيبة - فمرهما فليتقيا، فقاءت كل واحدة منهما علقه دم". وفي الصحاح المجمع عليها أنه صلى الله عليه وسلم مر بقيرين حديدتين، فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان كبير، أما أحدهما، فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يتتره من البول، ودعا بجريدة رطبة فكسرها اثنتين - وقال: دعا بجريدتين - ثم غرسهما في القيرين - وقال: "أما إنه سيهون من عذابهما ما دامتا رطبتين". وفي حديث ابن عباس أن رجلين من أصحابه اغتابا بحضرته رجلاً، وهو يمشي صلى الله عليه وسلم، وهما يمشيان معه، فمر على جيفة، فقال: "اهشأ منها"، فقالا: يا رسول الله، أونهنش الجيفة! فقال: "ما أصبتما من أخيكما أتن من هذه".

وفي حديث أبي هريرة: "من أكل لحم أخيه حياً قرب اليه لحمه في الآخرة، فقليل له: كله ميتاً كما أكلته حياً، فيأكله ويضج ويكلج".

وروي أن رجلين كانا عند باب المسجد، فمر بهما رجل كان مخنثاً، فترك ذلك، فقالا: لقد بقي عنده منه شيء، فأقيمت الصلاة، فصليا مع الناس، وذلك يجول في أنفسهما فأتيا عطاء بن أبي رباح، فسالا، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، وإن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك اليوم.

وعن مجاهد: "ويل لكل همزة لمزة"، الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: النمام.

وعن الحسن: والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في الجسد.

بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس.

ابن عباس: "إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك، فاذكر عيوبك". وهذا مشتق من كلام أمير المؤمنين علنه.

أبو هريرة: "يبصر أحدهما القذى في عين أخيه، ولا يبصر الجذع في عين نفسه! وهذا كالأول".

الحسن: يا بن آدم، إنك إن قضيت حقيقة الإيمان فلا تعب الناس بعيب هو فيك حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب من

نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك. وأحب العباد إلى الله من كان هكذا. ويروى أن المسيح عليه

السلام مر على جيفة كلب، فقال بعض التلامذة: ما أشد نتته! فقال المسيح: ما أشد بياض أسنانه! كأنه نهاهم عن غيبة

الكلب ونبههم إلى أنه لا ينبغي أن يذكر من كل شيء إلا أحسنه.

وسمع علي بن الحسين رضي الله عنه رجلاً يغتاب آخر، فقال: إن لكل شيء إداماً، وإدام كلاب الناس الغيبة.

وفي خطبة حجة الوداع: "أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم

هذا، في بلدكم هذا. إن الله حرم الغيبة كما حرم المال والدم".

عمر: ما يمنعكم إذا رأيتم من يخرق أعراض الناس أن تعربوا عليه، أي تقبحوا! قالوا: نخاف سفهه وشره، قال: ذلك أدق

إلا تكونوا شهداء.

أنس يرفعه: من مات على الغيبة حشر يوم القيامة مزقة عيناه، ينادي بالويل والندامة، يعرف أهله ولا يعرفونه".

وقال هشام بن عبد الملك في بعض ولد الوليد بن عقبة:

بأنك شر الناس غيباً لصاحب

أبلغ أبا وهب إذا مالم يقية

وتلسه بالغيب لسع العقارب

فتبدي له بشراً إذا ما لقينه

مر الشعبي بقوم يغتابونه في المسجد، وفيهم بعض أصدقائه، فأخذ بعضا دق الباب، وقال:

لعزة من أعراضنا ما استحل

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر

ومن كلام بعض الحكماء: أبصر الناس بالعوار المعوار، هذا مثل قول الشاعر:

على عيب الرجال ذوو العيوب

وأجرأ من رأيت بظهر غيب

قيل لشبيب بن شبة بن عقال: ما بال عبد الله بن الأهتم يغتابك ويتقصصك! قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصنعة.

دخل أبو العيئة على المتوكل، وعنده جلساؤه، فقال له: يا محمد كلهم كانوا في غيبتك منذ اليوم، ولم يبق أحد لم يذمك غيري، فقال:

فلا زال غضباناً علي لئامها

إذا رضيت عني كرام عشيرتي

قال بعضهم: بت بالبصرة ليلة مع المسجدين، فلما كان وقت السحر، حركهم واحد، فقال: الى كم هذا النوم عن أعراض الناس! وقيل لشاعر وصله بعض الرؤساء، وأنعم عليه: ما صنع بك فلان، قال: ما وفيت نعمته بإساءته، منعي لذة الثلب، وحلاوة الشكوى.

أعرابي: من عاب سفلة فقد رفعه، ومن عاب شريفاً فقد وضع نفسه.

نظر بعض السلف الى رجل يغتاب رجلاً، وقال: يا هذا، إنك تملي على حافظيك كتاباً، فانظر ماذا تقول! ابن عباس: ما الأسد الضاري على فريسة بأسرع من الديء في عرض السري.

بعضهم:

فإن لاح عيب من أخيه تبصرا

ومطروفة عيناه عن عيب نفسه

وقالت رابعة العدوية: إذا نصح الإنسان لله أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله، فتشاغل بها عن ذكر مساوئ خلقه. قال عبد الله بن عروة بن الزبير لابنه: يا بني، عليك بالدين، فإن الدنيا ما بنت شيئاً الا هدمه الدين، وإذا بنى الدين شيئاً لم تستطع الدنيا هدمه، الا ترى علي بن أبي طالب وما يقول فيه خطباء بني أمية من ذمه وعييه وغييته! والله لكأنما يأخذون بناصيته الى السماء! الا تراهم كيف يندبون موتاهم، ويرثيهم شعراؤهم، والله لكأنما يندبون جيف الحمر! ومن كلام بعض الصالحين: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، لأنك إذا استودعك أخوك مالاً لم تجد بك نفسك لخيائته فيه، وقد استودعك عرضه وأنت تغتابه، ولا تبالي.

كان محمد بن سيرين قد جعل على نفسه، كلما اغتاب أحداً أن يتصدق بدينار، وكان إذا مدح أحداً قال: هو كما يشاء الله، وإذا ذمه قال: هو كما يعلم الله.

الأحنف: في خلتان: لا أغتاب جليسي إذا قام عني، ولا أدخل بين القوم فيما لم يدخلوني فيه.

قيل لرجل من العرب: من السيد فيكم، قال: الذي إذا أقبل هبناه، وإذا أدبر اغتبناه.

قيل للربيع بن خيثم: ما نراك تعيب أحداً! فقال: لست راضياً على نفسي، فأتفرغ لذكر عيوب الناس! ثم قال:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها

عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان: ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة! ما سمعته يغتاب عدواً، قال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها.

سئل فضيل عن غيبة الفاسق، فقال: لا تشتغل بذكره، ولا تعود لسانك الغيبة، أشغل لسانك بذكر الله، وإياك ذكر الناس، فإن، ذكر الناس داء، وذكر الله دواء، قال بعض الشعراء:

خؤون العشيرة سبابها

أضاع القبيلة واغتابها

ولا أتعلم القابها

ولست بذى نيرب في الصديق

ولا من إذا كان في مجلس

ولكن ابجل ساداتها

وكان يقال: الغيبة فاكهة القراء.

وقيل لإسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: أي اللحمان أطيب، قال: لحوم الناس، هي والله أطيب من لحوم الدجاج والدراج - يعني الغيبة.

ابن المغيرة: لا تذكر الميت بسوء، فتكون الأرض أكنم عليه منك.

وكان عبد الملك بن صالح الهاشمي إذا ذكر عنده الميت بسوء، يقول: كفوا عن أسارى الثرى.

وفي الأثر: سامع الغيبة أحد المغتابين.

أبونواس:

عندي وما ضرك مغتاب

عليك عندي بالذي عابوا

ماحطك الواشون من رتبة

كأنهم أثنوا ولم يعلموا

الحسن: ذم الرجل في السر، مدح له في العلانية.

علي رضي الله عنه : الغيبة جهد العاجز، أخذه المتنبى فقال:

وكل اغتيال جهد من ماله جهد

وأكبر نفسي عن جزاء بغية

بلغ الحسن أن رجلاً اغتابه، فأهدى إليه طبقاً من رطب ، فجاءه الرجل معتذراً، وقال: أصلحك الله! اغتبتك فأهديت لي! قال: إنك أهديت الي حسناتك، فأردت أن أكافئك.

أتى رجل عمرو بن عبيد الله، فقال له: إن الأسواري لم يزل أمس يذكرك ويقول: عمرو الضال، فقال له: يا هذا، والله ما رعيت حق مجالسة الرجل حين نقلت إلينا حديثه، ولا رعيت حقي حين بلغت عن أخي ما أكرهه. أعلمه أن الموت يعمننا، والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا.

الغيبة وحكمها في الشرع الاسلامي.

واعلم أن العلماء ذكروا في حد الغيبة: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرت نقصاً في بدنه، مثل أن تقول: الأقرع، أو الأعور، أو في نسبه نحو أن تقول: ابن النبطي وابن الإسكاف أو الزبال أو الحائك أو خلقه، نحو سيء الخلق أو بخيل أو متكبر، أو في أفعاله الدنيئة نحو قولك: كذاب وظالم ومتهاون بالصلاة، أو الدنيوية نحو قولك: قليل الأدب متهاون بالناس، كثير الكلام، كثير الأكل، أو في ثوبه كقولك: وسخ الثياب، كبير العمامة، طويل الأذيل.

وقد قال قوم: لا غيبة في أمور الدين، لأن المغتاب إنما ذم ما ذمه الله تعالى، واحتجوا بما روي أنه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وكزة صومها وصلاتها، ولكنها تؤذي جارها، فقال: "هي في النار، ولم ينكر عليهما غيبتهما إياها.

وروي أن امرأة ذكرت عنده صلى الله عليه وسلم بأنها بخيلة، فقال: "فما خيرها إذن!" وأكثر العلماء على أن الغيبة في أمور الدين محرمة أيضاً، وادعوا الإجماع على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب، سواء أكان في الدين أو في غيره قالوا: والمخالف مسبوق بهذا الإجماع، وقالوا: وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "هل تدرون ما الغيبة" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "ذكرك أخاك بما يكرهه، ففائل قال: رأيت يا رسول الله، إن كان ذلك في أخي، قال: إن كان فيه فقد اغتبتته، وإن لم يكن فقد بهته".

قالوا: وروي معاذ بن جبل أن رجلاً ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال قوم: ما أعجزه! فقال صلى الله عليه وسلم: "اغتبتم صاحبكم، فقالوا: قلنا ما فيه، فقال: إن قلت ما ليس فيه فقد بهتموه". قالوا: وما احتج به الزاعمون أن لا غيبة في الدين، ليس بحجة، لأن الصحابة إنما ذكرت ذلك في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجتها إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضها التنقص.

واعلم أن الغيبة ليست مقصورة على اللسان فقط، بل كل ما عرفت به صاحبك نقص أخيك فهو غيبة، فقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وبالحكاية، نحو أن تمشي خلف الأعرج متعرجاً، وبالكتاب، فإن القلم أحد اللسانين. وإذا ذكر المصنف شخصاً في تصنيفه، وهجن كلامه، فهو غيبة. فأما قوله: قال قوم كذا، فليس بغيبة، لأنه لم يعين شخصاً بعينه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما بال أقوام يقولون كذا! فكان لا يعين، ويكون مقصوده واحداً بعينه. وأحدث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين، وذلك نحو أن يذكر عندهم إنسان، فيقول قائلهم: الحمد لله الذي لم يلنا بدخول أبواب السلطان، والتبذل في طلب الخطام، وقصده أن يفهم الغير عيب ذلك الشخص، فتخرج الغيبة في مخرج الحمد والشكر لله تعالى، فيحصل من ذلك غيبة المسلم، ويحصل منه الرياء، وإظهار التعفف عن الغيبة وهو واقع فيها، وكذلك يقول: لقد ساءني ما يذكر به فلان، نسال الله أن يعصمه، ويكون كاذباً في دعوى أنه ساءه، وفي إظهار الدعاء له، بل لو قصد الدعاء له لأخفاه في خلوة عقب صلواته، ولو كان قد ساءه لساءه أيضاً إظهار ما يكرهه ذلك الإنسان. واعلم أن الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب كالغيبة، بل أشد، لأنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيندفع فيها حكاية، يستخرج الغيبة منه بذلك، وإذا كان السامع الساكت شريك المغتاب، فما ظنك بالمتحدث في حصول الغيبة، والباعث على الاستزادة منها! وقد روي أن أبا بكر وعمر ذكرا إنساناً عند رسول الله، فقال: أحدهما: إنه لنؤوم، ثم أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً قفارا، فطلبا منه أداماً، فقال: فد ائتمتما، قالوا: ما نعلمه، قال: بلى بما أكلتما من لحم صاحبكما"، فجمعهما في الإثم، وقد كان أحدهما قائلاً والآخر مستمعاً، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه، فإن خاف بقلبه، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك، فإن قال بلسانه: اسكت وهو يريد للغيبة بقلبه، فذلك نفاق، ولا يخرج عن الإثم إلا أن يكرهه بقلبه. ولا يكفي أن يشير باليد، أي

أكفف، أو بالحاجب والعين، فإن ذلك استحقاق للمذكور، بل ينبغي أن يذب عنه صريحاً، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره، أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق."

الأسباب الباعثة على الغيبة

واعلم أن الأسباب الباعثة على الغيبة على أمور: منها شفاء الغيظ، وذلك أن يجري من الإنسان سبب يغضب به عليه آخر، فإذا هاج غضبه تشفى بذكر مساوئه، وسبق إليها لسانه بالطبع إن لم يكن هناك دين وازع، وقد يجمع تشفي الغيظ عند الغضب، فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حقداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوئ. ومنها موافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا اجتمعوا ربما أخذوا يتفكهون بذكر الأعراض، فيرى أنه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه، ونفروا عنه فيساعدتهم، ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظن أنه مجاملة في الصحة. وقد يغضب رفقاؤه من أمر فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم، إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوئ.

ومنها أن يستشعر من إنسان أنه سيذمه ويطول لسانه فيه، ويقبح حاله عند بعض الرؤساء، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح حاله، فيطعن فيه ليسقط أثر شهادته عليه. وقد يتبدى بذكر بعض ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعد ذلك، فيروج كذبه بالصدق الأول.

ومنها أن ينسب إلى أمر فيريد التبرؤ منه، فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يرى نفسه، ولا يذكر الذي فعله، لكنه إنما يذكر غيره تأكيداً لبراءة نفسه، وكيلاً يكون تبرؤاً مبتوراً، وربما يعتذر بأن يقول: فلان فعله، وكنت شريكاً في بعض الأمر ليرى نفسه بعض البراءة.

ومنها المباهاة وحب الرياسة، مثل أن يقول: كلام فلان ركيك، ومعرفته بالفن الفلاني ناقصة، وغرضه إظهار فضله عليه. ومنها الحسد وإرادة إسقاط قدر من يمدحه الناس بذكر مساوئه، لأنه يشق عليه ثناء الناس عليه، ولا يجد سبيلاً إلى سد باب الثناء عليه إلا بذكر عيوبه.

ومنها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك والسخرية، فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين على سبيل الهزء والمحاكاة.

واعلم أن الذي يقوي في نفسي أن الغيبة لا تكون محرمة إلا إذا كانت على سبيل القصد إلى تنقص الإنسان فقط وغرض قدره، فأما إذا خرجت محرراً آخر، فليست بحرام، كمن يظلمه القاضي ويأخذ الرشوة على إسقاط حقوقه، فإن له أن يذكر حاله للسلطان متظلماً من حيف الحاكم عليه، إذ لا يمكنه استيفاء حقوقه إلا بذلك، فقد قال صلى الله عليه وسلم "مطل الغني ظلم"، وقال صلى الله عليه وسلم "لي الواحد يحل عقوبته وعرضه".

وكذلك النهي عن المنكر واجب، وقد يحتاج الإنسان إلى الاستعانة بالغير على تغييره ورد القاضي إلى منهج الصلاح فلا بد له أن يشرح للغير حال ذلك الإنسان المرتكب المنكر، ومن ذكر الإنسان بلقب مشهور فعرف عن عيبه، كالأعرج

والأعمش المحدئين، لم يكن مغتاباً إذا لم يقصد الغض والنقص.

والصحيح أن المجاهر بالفسق لا غيبة له، كصاحب الماخور والمخنث، ومن يدعو الناس الى نفسه ابنة، وكالعشار والمستخرج بالضرب، فإن هؤلاء غير كارهين لما يذكرون به، وربما تفاخروا بذلك، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من القى جلباب الحياء عن وجهه، فلا غيبة له"، وقال عمر: ليس لفاجر حرمة، وأراد المجاهر بالفسق، دون المستتر. وقال الصلت بن طريف: قلت للحسن رحمه الله: الرجل الفاجر المعلن بالفجور غير مراقب، هل ذكري له بما فيه غيبة، فقال: لا، ولا كرامة له! واعلم أن التوبة من الغيبة تكفر عقابها، والتوبة منها هي الندم عليها، والعزم على الا يعود، فإن لم يكن الشخص المذكور قد بلغته الغيبة، فلا حاجة الى الاستحلال منه، بل لا يجوز إعلامه بذلك، هكذا قال شيخنا أبو الحسين رحمه الله، لأنه لم يؤلمه فيحتاج الى أن يستوهب منه إثم ذلك الإيلاء، وفي إعلامه تضيق صدره، وإدخال مشقة عليه، وإن كان الشخص المذكور قد بلغته الغيبة، وجب عليه أن يستحله وششوهبه، فإن كان قد مات سقط بالتوبة عقاب ما يختص بالبارئ سبحانه من ذلك الوقت، وبقي ما يختص بذلك الميت لا يسقط حتى يؤخذ العوض له من المذنب يوم القصاص.

ومن كلام له في النهي عن سوء الظن

الأصل: أيها الناس، من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال. أما إنه قد يرمي الرامي، وتخطيء السهام، ويحيل الكلام، وباطل ذلك يبور، والله سميع وشهيد. أما إنه ليس بين الحق والباطل الا أربع أصابع. فستل رضي الله عنه عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ثم قال: الباطل أن تقول: سمعت، والحق أن تقول: رأيت.

الشرح: هذا الكلام هو نهي عن التسرع الى التصديق بما يقال من العيب والقدح في حق الإنسان المستور الظاهر، المشتبه بالصلاح والخير، وهو خلاصة قوله سبحانه: "إن جاءكم فاسق ببناء فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين". ثم ضرب رضي الله عنه لذلك مثلاً، فقال: قد يرمي الرامي فلا يصيب الغرض، وكذلك قد يطعن الطاعن فلا يكون طعنه صحيحاً، وربما كان لغرض فاسد أو سمعه ممن له غرض فاسد، كالعدو والحسود، وقد يشتهب الأمر فيظن المعروف منكراً، فيعجل الإنسان بقول لا يتحققه، كمن يرى غلام زيد يحمل في إناء مستور مغطى خلاً، فيظنه خمرأً.

قال رضي الله عنه: "ويحيل الكلام"، أي يكون باطلاً، أحال الرجل، في منطق، إذا تكلم الذي لا حقيقة له، ومن الناس من يرويه: ويحك الكلام بالكاف، من قولك: ما حاك فيه السيف، ويجوز أحاك بالهمزة، أي ما أثر، يعني أن القول يؤثر في العرض وإن كان باطلاً، والرواية الأولى أشهر وأظهر.

ويبور: يفسد. وقوله: "وباطل ذلك يبور"، مثل قولهم: للباطل جولة، وللحق دولة، وهذا من قوله تعالى: "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً".

والإصبع مؤنثة، ولذلك، قال: أربع أصابع فحذف الهاء.

فإن قلت كيف يقول رضي الله عنه : الباطل ما يسمع والحق ما يرى، وأكثر المعلومات إنما هي من طريق السماع، كعلمنا الآن بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بما بلغنا من معجزاته التي لم نرها، وإنما سمعناها! قلت: ليسى كلامه في المتواتر من الأخبار، وإنما كلامه في الأقوال الشاذة الواردة من طريق الآحاد، التي تتضمن القدح فيمن قد غلبت نزاهته، فلا يجوز العدول عن المعلوم بالمشكوك.

ومن كلام له عنه في وضع المعروف في غير أهله

الأصل: وليس لواضع المعروف في غير حقه، وعند غير أهله من الحظ فيما أتى الا محمداً اللثام، وثناء الأشرار، ومقالة الجهال، ما دام منعماً عليهم: ما أجود يده! وهو عن ذات الله بخيل. فمن أتاه الله مالاً فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفك به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب، ابتغاء الثواب، فإن فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا، ودرك فضائل الآخرة، إن شاء الله.

الشرح: هذا الكلام يتضمن ذم من يخرج ماله الى الفتيان والأقران والشعراء، ونحوهم، ويبتغي به المدح والسمعة، ويعدل عن إخراجه في وجوه البر وابتغاء الثواب، قال رضي الله عنه: ليس له من الحظ الا محمداً اللثام وثناء الأشرار، وقولهم: ما أجود يده! أي ما أسمى! وهو بخيل بما يرجع الى ذات الله يعني الصدقات وما يجري مجراها من صلة الرحم والضيافة وفك الأسير والعاني، وهو الأسير بعينه، وإنما اختلف اللفظ.

والغارم: من عليه الديون ويقال: صبر فلان نفسه على كذا مخففاً، أي حبسها، قال تعالى: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم"، وقال عنترة يذكر حرباً:

فصبرت عارفةً لذلك حرةً

ترسوإذا نفس الجبان تطلع

وفي الحديث النبوي في رجل أمسك رجلاً، وقتله آخر فقال رضي الله عنه: "اقتلوا القتال واصبروا الصابر"، أي احبسوا الذي حبسه للقتل الى أن يموت.

وقوله: "فإن فوزاً": أفصح من أن يقول: فإن الفوز أو فإن في الفوز كما قال الشاعر:

إن شواءً ونشوةً

وخبب البازل الأمون

من لذة العيش، والفتى

للدهر، والدهر ذو شؤون

ولم يقل: إن الشواء والنشوة، والسر في هذا أنه كأنه يجعل هذا الشواء شخصاً من جملة أشخاص، داخلة تحت نوع واحد، ويقول: إن واحداً منها أيها كان فهو من لذة العيش، وإن لم يحصل له كل أشخاص ذلك النوع، ومراده تقرير فضيلة هذه الخصال في النفوس، أي متى حصل للإنسان فوز ما بها، فقد حصل له الشرف، وهذا المعنى وإن أعطاه لفظة الفوز بالالف واللام إذا قصد بها الجنسية الا أنه قد يسبق الى الذهن منها الاستغراق لا الجنسية، فأتى بلفظة لا توهم الاستغراق، وهي اللفظة المنكرة، وهذا دقيق، وهو من لباب علم البيان.

ومن خطبة عنه فى الاستسقاء

الأص! ألا وإن الأرض التي تحملكم، والسماء التي تظلكم، مطيعتان لربكم، وما أصبحتا تجودان لكم ببركتيهما توجعاً لكم، ولا زلفةً إليكم، ولا خیر ترجوانه منكم، ولكن أمرتا بمنافعكم فأطاعتا، وأقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا. إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكر متذكر، ويزدجر مزدجر، وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق، فقال سبحانه: "استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً"، فرحم الله أمراً استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيته!

اللهم إنا خرجنا اليك من تحت الأستار والأكنان، وبعد عجيج البهائم والولدان، راغبين في رحمتك، وراجين فضل نعمتك، وخائفين من عذابك ونقمته.

اللهم فاسقنا غيثك، ولا تجعلنا من القانطين، ولا تهلكننا بالسنين، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، يا أرحم الراحمين! اللهم إنا خرجنا اليك نشكو إليك ما لا يخفى عليك، ألبأتنا المضايق الوعرة، وأجأتنا المقاحط المجدبة، وأعيتنا المطالب المتعسرة، وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة.

اللهم إنا نسالك ألا تردنا خائبين، ولا تقلبنا واهمين، ولا تخاطبنا بذنوبنا، ولا تقايسنا بأعمالنا.

اللهم أنشر علينا غيثك وبركتك، ورزقك ورحمتك، وأسقنا سقياً ناعمةً مرويةً معشبةً، تنبت بها ما قد فات، وتحيي بها ما قد مات، نافعة الحيا، كثيرة المحتنى، تروي بها القيعان، وتسيل البطنان، وتستورق الأشجار، وترخص الأسعار، إنك على ما تشاء قدير.

الشرح: تظلكم: تعلو عليكم، وقد أظلتني الشجرة واستظلت بها. والزلفة: القرية، يقول: إن السماء والأرض إذا جاءتا بمنافعكم أما السماء فبالمطر، وأما الأرض فبالنبات فإنهما لم تأتيا بذلك تقريباً إليكم، ولا رحمةً لكم، ولكنهما أمرتا بنفعكم فامتثلتا الأمر، لأنه أمر من تحب طاعته، ولو أمرتا بغير ذلك لفعلناه. والكلام مجاز واستعارة، لأن الجهاد لا يؤمر، والمعنى أن الكل مسخر تحت القدرة الإلهية، ومراده تمهيد قاعدة الاستسقاء، كأنه يقول: إذا كانت السماء والأرض أيام الخصب والمطر والنبات لم يكن ما كان منهما محبة لكم، ولا رجاء منفعة منكم، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخرهما له، فكذلك السماء والأرض أيام الجذب وانقطاع المطر وعدم الكأ، ليس ما كان منهما بغضاً لكم، ولا استدفاع ضرر يخاف منكم، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخرهما له، وإذا كان كذلك فبالحري ألا نأمل السماء ولا الأرض، وأن نجعل آمالنا معلقة بالملك الحق المدير لهما، وأن نسترحمه وندعوه ونستغفره، لا كما كانت العرب في الجاهلية يقولون: مطرنا بنوء كذا، وقد سخط النوء الفلاني على بني فلان فأمحلوا.

ثم ذكر رضي الله عنه أن الله تعالى يبتلي عباده عند الذنوب بتضييق الأرزاق عليهم، وحبس مطر السماء عنهم، وهذا الكلام مطابق للقواعد الكلامية، لأن أصحابنا يذهبون إلى أن الغلاء قد يكون عقوبة على ذنب، وقد يكون لطفاً للمكلفين في الواجبات العقلية وهو معنى قوله: "ليتوب تائب..."، إلى آخر الكلمات. ويقلع: يكف ويمسك.

ثم ذكر أن الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً في درور الرزق، واستدل عليه بالآية التي أمر نوح رضي الله عنه فيها قومه بالاستغفار، يعني التوبة عن الذنوب، وقدم إليهم الموعد بما هو واقع في نفوسهم، وأحب إليهم من الأمور الآجلة، فمناهم الفوائد العاجلة، ترغيباً في الإيمان وبركاته، والطاعة ونتائجها، كما قال سبحانه للمسلمين: "وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب"، فوعدهم بحسب الألفاظ الذي يروونه في العاجل عياناً ونقداً لا جزاءً ونسيئة. وقال تعالى في موضع آخر: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض"، وقال سبحانه: "ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم" وقال تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً".

الثواب والعقاب عند أهل الكتاب

وكل ما في التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدنيا ومضارها، أما منافعها فمثل أن يقول: إن أطعتم باركت فيكم، وكثرت من أولادكم وأطلت أعماركم، وأوسعت أرزاقكم، واستبقيت اتصال نسلكم، ونصرتكم على أعدائكم، وإن عصيتم وخالفتم احترامتكم ونقصت من آجالكم، وشتت شملكم، ورميتكم بالجوع والحل، وأذلت أولادكم، وأشمت بكم أعداءكم، ونصرت عليكم خصومكم، وشردتكم في البلاد، وابتليتكم بالمرض والذل، ونحو ذلك.

ولم يأت في التوراة وعد ووعد بأمر يتعلق بما بعد الموت. وأما المسيح عليها السلام، فإنه صرح بالقيامة وبعث الأبدان، ولكن جعل العقاب روحانياً، وكذلك الثواب، أما العقاب فالوحشة والفزع وتخيل الظلمة وخبث النفس وكدرها وخوف شديد، وأما الثواب فما زاد على أن قال: إنهم يكونون كالملائكة، وربما قال: يصعدون إلى ملكوت السماء، وربما قال أصحابه وعلماء ملته: الضوء واللذة والسرور والأمن من زوال اللذة الحاصلة لهم. هذا هو قول المحققين منهم، وقد أثبت بعضهم ناراً حقيقية، لأن لفظة النار وردت في الإنجيل، فقال محققوهم: نار قلبية، أي نفسية روحانية، وقال الأقلون: نار كهذه النار. ومنهم من أثبت عقاباً غير النار وهو بدني، فقال: الرعدة وصرير الأسنان، فأما الجنة بمعنى الأكل والشرب والجماع، فإنه لم يقل منهم قائل به أصلاً، والإنجيل صرح بانتفاء ذلك في القيامة تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب، وجاء خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم فأثبت المعاد على وجه محقق كامل، أكمل مما ذكره الأولان، فقال: إن البدن والنفس معاً مبعوثان، ولكل منهما منهما حظ في الثواب والعقاب.

وقد شرح الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا هذا الموضع في رسالة له في المعاد، تعرف بالرسالة الأصحوبة شرحاً جيداً، فقال: إن الشريعة الحمديدية أثبتت في القيامة رد النفس إلى البدن، وجعلت للمثاب والمعاقب ثواباً وعقاباً بحسب البدن والنفس جميعاً، فكان للمثاب لذات بدنية من حور عين وولدان مخلصين وفاكهة مما يشتهون، وكأس لا يصدعون عنها ولا يترفون، وجنات تجري من تحتها الأنهار، من لبن وعسل وخمر وماء زلال، وسرر وأرائك وخيام وقباب، فرشها من سندس وإستبرق، وما جرى مجرى ذلك. ولذات نفسانية من السرور ومشاهدة الملكوت والأمن من العذاب والعلم اليقيني بدوام ما هم فيه، وأنه لا يتعقبه عدم ولا زوال، والخلو عن الأحزان والمخاوف، وللمعاقب عقاب

بدني، وهو المقامع من الحديد، والسلاسل، والحريق والحميم والغسلين والصراخ والجلود التي كلما نضجت بدلوا جلوداً غيرها، وعقاب نفساني من اللعن والخزي والحجل والندم والخوف الدائم واليأس من الفرج، والعلم اليقيني بدوام الأحوال السيئة التي هم عليها. قال: فوفت الشريعة الحكمة حقها من الوعد الكامل، والوعيد الكامل، وبهما ينتظم الأمر، وتقوم الملة، فأما النصرارى وما ذهبوا اليه من أمر بعث الأبدان، ثم خلوها في الدار الآخرة من المطعم والملبس والمشرب والمنكح، فهو أرك ما ذهب اليه أرباب الشرائع وأسخفه، وذلك أنه إن كان السبب في البعث، هو أن الإنسان هو البدن، أو أن البدن شريك النفس في الأعمال الحسنة والسيئة، فوجب أن يبعث، فهذا القول بعينه إن أوجب ذلك، فإنه يوجب أن يثاب البدن، ويعاقب بالثواب والعقاب البدني المفهوم عند العالم، وإن كان الثواب والعقاب روحانياً، فما الغرض في بعث الجسد؟ ثم ما ذلك الثواب والعقاب الروحانيان! وكيف تصور العامة ذلك حتى يرغبوا ويرهبوا! كلا بل لم تصور لهم الشريعة النصرانية من ذلك شيئاً، غير أنهم يكونون في الآخرة كالملائكة، وهذا لا يفي بالترغيب التام، ولا ما ذكره من العقاب الروحاني وهو الظلمة وخبث النفس كاف في الترهيب والذي جاءت به شريعة الإسلام حسن لا زيادة عليه. انقضى كلام هذا الحكيم.

فأما كون الاستغفار سبباً لتزول القطر ودور الرزق، فإن الآية بصريحها ناطقة به، لأنها أمر وجوابه، قال: "استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً" كما تقول: قم أكرمك، أي إن قمت أكرمتك. وعن عمر أنه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقليل له: ما رأيك استسقيت! فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستزل بها المطر.

وعن الحسن أن رجلاً شكاه إليه الجذب، فقال: استغفر الله، فشكا آخر إليه الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: رجال أتوك يشكون أبواباً، ويشكون أنواعاً فأمرهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية.

قوله: استقبل توبته أي استأنفها وجددها. واستقال خطيئته: طلب الإقالة منها والرحمة. وبادر منيته: سابق الموت قبل أن يدهمه.

قوله رضي الله عنه: "لا تهلكن بالسنين" جمع: سنة، وهي الجذب والخل، قال تعالى: "ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين"، وقال النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على المشركين: "اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف"، والسنة لفظ محذوف منه حرف، قيل إنه الهاء، وقيل الواو، فمن قال: المحذوف هاء، قال: أصله سنهة مثل جبهة، لأنهم قالوا: نخلة سنهاء، أي تحمل سنة ولا تحمل أخرى، وقال بعض الأنصار:

ولكن عرايا في السنين الجوائح

فليست بسنهاء ولا رجبية

ومن قال أصلها الواو، احتج بقولهم: أسنى القوم يسنون إساءة، إذا لبثوا في المواضع سنة، فأما التصغير فلا يدل على أحد المذهبين بعينه، لأنه يجوز سنية وسنيهة، والأكثر في جمعها بالواو والنون سنون بكسر السين كما في هذه الخطبة، وبعضهم

يقول: سنون بالضم.

والمضايق الوعرة، بالتسكين، ولا يجوز التحريك، وقد وعر هذا الشيء بالضم وعورة، وكذلك توعر، أي صار وعراً، واستوعرت الشيء: استصعبته.

وأجاءتنا: ألبأتنا، قال تعالى: "فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة".

والمقاحط المجدبة: السنون المحملة، جمع مقحطة.

وتلاحمت: اتصلت، والواجم: الذي قد اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام، والماضي وجم بالفتح يجم وجوماً.

قوله: ولا تخاطبنا بذنوبنا، ولا تقايسنا بأعمالنا، أي لا تجعل جواب دعائنا لك ما تقتضيه ذنوبنا، كأنه يجعله كالمخاطب لهم، والمجيب عما سألوه إياه، كما يفاوض الواحد منا صاحبه ويستعطفه، فقد يجيبه ويخاطبه بما يقتضيه ذنبه إذا اشتدت موجدته عليه ونحوه ولا تقايسنا بأعمالنا، قست الشيء بالشيء إذا حدوته ومثلته به، أي لا تجعل ما تديننا به مقياساً وممثلاً لأعمالنا السيئة.

قوله: سقيا ناقة هي فعلى مؤنثة غير مصروفة، والحيا: المطر. وناقعة مروية: مسكنة للعطش، نقع الماء العطش نقعاً ونقوعاً سكنه، وفي المثل: الرشف أنقع أي أن الشراب الذي يرشف قليلاً قليلاً أنجع وأقطع للعطش، وإن كان فيه بطاء، وكثيرة المجتنى، أي كثيرة الكلاء، والكلاء: الذي يجتنى ويرعى. والقيعان: جمع قاع، وهو الفلاة، والبطنان: جمع بطن، وهو الغامض من الأرض، مثل ظهر وظهران وعبد وعبدان

قال في بعثة الأنبياء

الأصل: بعث رسله بما خصهم به من وحيه، وجعلهم حجة لة على خلقه، لئلا تحب الحجة لهم بترك الإغذار اليهم، فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحق.

ألا إن الله تعالى قد كشف الخلق كشفة، لا أنه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم، ولكن ليلوهم أيهم أحسن عملاً، فيكون الثواب جزاءً والعقاب بواءً.

أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطي الهدى، ويستجلى العمى، إن الأئمة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاية من غيرهم.

الشرح: أول الكلام مأخوذ من قوله سبحانه: "رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"، وقوله تعالى: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً".

فإن قلت: فهذا يناقض مذهب المعتزلة في قولهم بالواجبات عقلاً، ولو لم تبعث الرسل! قلت: صحة مذهبهم تقتضي أن تحمل عموم الالفاظ على أن المراد بها الخصوص، فيكون التأويل: لئلا يكون للناس على الله حجة فيما لم يدل العقل على وجوبه ولا قبحه، كالشرعيات، وكذلك: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً" على ما لم يكن العقل دليلاً عليه حتى نبعث رسولاً.

الإعذار: تقديم العذر. ثم قال: إن الله تعالى كشف الخلق بما تعبدتهم به من الشرعيات على السنة الأنبياء، ولم يكن أمرهم خافياً عنه، فيحتاج الى أن يكشفهم بذلك، ولكنه أراد ابتلاءهم واختبارهم، ليعلم أيهم أحسن عملاً، فيعاقب المسيء، ويشيب المحسن.

فإن قلت: الإشكال قائم، لأنه إذا كان يعلم أيهم يحسن، وأيهم يسيء، فما فائدة الابتلاء؟ وهل هو الا محض العبث! قلت: فائدة الابتلاء إيصال نفع الى زيد لم يكن ليصح إيصاله إليه إلا بواسطة هذا الابتلاء، وهو ما يقوله أصحابنا: إن الابتلاء بالثواب قبيح، والله تعالى يستحيل أن يفعل القبيح. قوله: والعقاب بواء أي مكافأة، قالت ليلي الأخيلية :

فتى ماقتلتم آل عوف بن عامر

فإن تكن القتل بواء فإنكم

وأبأت القاتل بالقتيل واستبأته أيضاً، إذا قتلته به، وقد باء الرجل بصاحبه، أي قتل به وفي المثل: باءت عراز بكحل وهما بقرتان، قتلت إحداهما بالأخرى وقال مهلهل لبجير لما قتل: بؤشع نعل كليب .

قوله رضي الله عنه أين الذين زعموا، هذا الكلام كناية وإشارة الى قوم من الصحابة كانوا ينازعونه الفضل، فمنهم من كان يدعي له أنه أفض، ومنهم من كان يدعي له أنه أقرأ، ومنهم من كان يدعي له أنه أعلم بالحلال والحرام. هذا مع تسليم هؤلاء له أنه رضي الله عنه أفضى الأمة، وأن القضاء يحتاج الى كل هذه الفضائل، وكل واحدة منها لا تحتاج الى غيرها، فهو إذن أجمع للفقهاء وأكثرهم احتواء عليه، الا أنه رضي الله عنه لم يرض بذلك ولم يصدق الخبر الذي قيل: أفرضكم فلان الى آخره فقال: إنه كذب وافتراء حمل قوماً على وضعه الحسد والبغي والمنافسة لهذا الحي من بني هاشم، أن رفعهم الله على غيرهم، واختصهم دون من سواهم.

وأن ههنا للتعليل، أي لأن فحذف اللام التي هي أداة التعليل على الحقيقة، قال سبحانه: "بئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم": وقال بعض النحاة لبعض الفقهاء الزاعمين أن لا حاجة للفقهاء الى النحو: ما تقول لرجل قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار، فقال: لا يقع إلا بالدخول، فقال: فإن فتح الهمزة، قال: كذلك. فعرفه أن العربية نافعة في الفقه، وأن الطلاق منجز لا معلق، إن كان مراده تعليل الطلاق بوقوع الدخول لاشتراطه به. ثم قال: بنا يستعطي الهدى، أي يطلب أن يعطى، وكذلك يستجلى أي يطلب جلاؤه، ثم قال: إن الأئمة من قريش... الى آخر الفصل.

أهل يتوجب أن يكون الأئمة من قريش؟

وقد اختلف الناس في اشتراط النسب في الإمامة، فقال صوم من قدماء أصحابنا: إن النسب ليس بشرط فيها أصلاً، وإنها تصلح في القرشي وغير القرشي إذا كان فاضلاً مستجمعاً للشرائط المعتبرة، واجتمعت الكلمة عليه، وهو قول الخوارج. وقال أكثر أصحابنا وأكثر الناس: إن النسب شرط فيها، وإنها لا تصلح إلا في العرب خاصة، ومن العرب لا قريش خاصة. وقال أكثر أصحابنا: معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الأئمة من قريش" إن القرشية لشرط إذا وجد في

قريش من يصلح للإمامة، فإن لم يكن فيها من يصلح، فليست القرشية شرطاً فيها.

وقال بعض أصحابنا: معنى الخبر أنه لا تخلو قريش أبداً ممن يصلح للإمامة، فأوجبوا بهذا الخبر وجود من يصلح من قريش لها في كل عصر وزمان.

وقال معظم الزيدية: إنما في الفاطميين خاصة من الطالبين، لا تصلح في غير البطينين، ولا تصح إلا بشرط أن يقوم بها ويدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس. وبعض الزيدية يميز الإمامة في غير الفاطميين من ولد علي رضي الله عنه، وهو من أقوالهم الشاذة.

وأما الراوندية فإنهم خصصوها بالعباس رحمه الله وولده من بين بطون قريش كلها، وهذا القول هو الذي ظهر في أيام المنصور والمهدي، وأما الإمامية فإنهم جعلوها سارية في ولد الحسين رضي الله عنه في أشخاص محصوين، ولا تصلح عندهم لغيرهم.

وجعلها الكيسانية في محمد بن الحنفية وولده، ومنهم من نقلها منه إلى ولد غيره.

فإن قلت: إنك شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة وأصولهم، فما قولك في هذا الكلام وهو تصريح بأن الإمامة لا تصلح من قريش إلا في بني هاشم خاصة، وليس ذلك بمذهب للمعتزلة، لا متقدميهم ولا متأخريهم! قلت: هذا الموضع مشكل، ولي فيه نظر، وإن صح أن علياً رضي الله عنه قاله، قلت كما قال: لأنه ثبت عندي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنه مع الحق، وإن الحق يدور معه حيثما دار"، ويمكن أن يتأول ويطبق على مذهب المعتزلة، فيحمل على أن المراد به كمال الإمامة كما حمل قوله صلى الله عليه وسلم: "لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد"، على نفي الكمال، لا على نفي الصحة.

الأصل: منها: أثروا عاجلاً، وأخروا أجلاً، وتركوا صافياً، وشر بوا آجناً، كأني أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه، وبسئ به ووافقه، حتى شابت عليه مفارقة، وصبغت به خلائقه، ثم أقبل مزبداً كالتيار لا يبالي ما غرق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق.

أين العقول المستصبحة بمصايح الهدى، والأبصار اللامحة إلى منازل التقوى! أين القلوب التي وهبت لله، وعوقدت على طاعة الله! أزدحموا على الخطام، وتشاحوا على الحرام، ورفع لهم علم الجنة والنار، فصرفوا عن الجنة وجوههم، وأقبلوا إلى النار بأعمالهم، ودعاهم ر بهم فنفروا وولوا، ودعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا! الشرح: أثروا: اختاروا. وأخروا: تركوا. الآجن: الماء المتغير. أجن الماء يأجن ويأجن.

وبسئ به: الفه، وناقاة بسوء: الفت الحالب ولا تمنعه. وشابت عليه مفارقة: طال عهده به منذ زمن الصبا حتى صار شيخاً. وصبغت به خلائقه صارت طبعاً لأن العادة طبيعة ثانية، مزبداً، أي ذو زبد، وهو ما يخرج من الفم كالرغوة، يضرب مثلاً للرجل الصائل المقتحم، والتيار: معظم اللجة، والمراد به ههنا السيل. والهشيم: دقاق الحطب. ولا يحفل، بفتح حرف المضارعة، لأن الماضي ثلاثي، أي لا يبالي.

والأبصار اللامحة: الناظرة. وتشاحوا: تضايقوا، كل منهم يريد ألا يفوته ذلك، وأصله الشح وهو البخل.

فإن قلت: هذا الكلام يرجع إلى الصحابة الذين تقدم ذكرهم في أول الخطبة! قلت: لا، وإن زعم قوم أنه عناهم، بل هو إشارة إلى قوم ممن يأتي من الخلف بعد السلف، ألا تراه قال: كأني أنظر إلى فاسقهم قد سحب المنكر فألفه، وهذا اللفظ إنما يقال في حق من لم يوجد بعد، كما قال في حق الأتراك: كأني أنظر إليهم قوما كأن وجوههم المجان، وكما قال في حق صاحب الزنج: كأني به يا أحنف قد سار في الجيش، وكما قال في الخطبة التي ذكرناها آنفاً: كأني به قد نعق بالشام يعني به عبد الملك. وحوشين رضي الله عنه أن يعني بهذا الكلام الصحابة، لأنهم ما آثروا العاجل، ولا آخروا الآجل، ولا صحبوا المنكر، ولا أقبلوا كالتيار، لا يبالي ما غرق، ولا كالنار لا تبالي ما أحرقت، ولا ازدحموا على الحطام، ولا تشاحوا على الحرام، ولا صرفوا عن الجنة وجوههم، ولا أقبلوا إلى النار بأعمالهم، ولا دعاهم الرحمن فولوا، ولا دعاهم الشيطان فاستجابوا. وقد علم كل أحد حسن سيرتهم، وسداد طريقتهم وإعراضهم عن الدنيا وقد ملكوها، وزهدهم فيها وقد تمكنوا منها، ولولا قوله: كأني أنظر إلى فاسقهم لم أبعد أن يعني بذلك قوماً ممن عليه اسم الصحابة وهو رديء الطريقة، كالغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، ومعاوية، وجماعة معدودة أحبوا الدنيا واستغواهم الشيطان، وهم معدودون في كتب أصحابنا ومن اشتغل بعلوم السيرة والتواريخ عرفهم بأعيانهم.

ومن خطبة له عنه في شؤون الدنيا والناس

الأصل: أيها الناصق، إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا، مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنالون منها نعمة: إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكله، إلا بنفاد ما قبلها من رزقه، ولا يحيا له أثر، إلا مات له أثر، ولا يتجدد له جديد، إلا بعد أن يخلق له جديد، لا تقوم له نابتة، إلا وتسقط منة محصودة وقد مضت أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله! الشرح: الغرض: ما ينصب ليرمى، وهو الهدف وتنتضل فيه المنايا: تتراعى فيه للسبق، ومنه الانتضال بالكلام وبالشعر، كأنه يجعل المنايا أشخاصاً تتناضل بالسهم، من الناس من يموت قتلاً، ومنهم من يموت غرقاً، أو يتردى في بئر، أو يسقط عليه حائط، أو يموت على فراشه.

ثم قال: مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص: بفتح العين، مصدر قولك: غصصت يا فلان بالطعام، وروي: غصص جمع غصة، وهي الشجاء، وهذا مثل قول بعضهم: المنحة فيها مقرونة بالحنة، والنعمة مشفوعة بالنقمة. وقد بالغ بعض الشعراء في الشكوى، فأتى بهذه الألفاظ، لكنه أسرف، فقال:

مر المذاق، وشرب كله شرق

حظي من العيش أكل كله غصص

ومراد أمير المؤمنين رضي الله عنه بكلامه أن نعيم الدنيا لا يدوم، فإذا أحسنت أساءت، إذا أنعمت أنقمت. ثم قال: لا ينالون منها نعمة إلا بفراق أخرى، هذا معنى لطيف، وذلك أن الإنسان لا يتهياً له أن يجمع بين الملاذ الجسمانية كلها في وقت، فحال ما يكون أكلاً لا يكون مجامعاً، وحال ما يشرب لا يأكل، وحال ما يركب للنقص والرياضة، لا يكون جالساً على فراش وثير ممهد، وعلى هذا القياس لا يأخذ في ضرب من ضروب الملاذ إلا وهوتارك لغيره منها.

ثم قال: ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، وهذا أيضاً لطيف، لأن المسرور ببقائه إلى يوم الأحد لم يصل إليه إلا بعد أن قضى يوم السبت وقطعه، ويوم السبت من أيام عمره، فإذا قد هدم من عمره يوماً، فيكون قد قرب الى الموت، لأنه قد قطع من المسافة جزءاً.

ثم قال: ولا تجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه ، وهذا صحيح فإن فسرنا الرزق بما وصل الى البطن على أحد تفسيرات المتكلمين، فإن الإنسان لا يأكل لقمة إلا وقد فرغ من اللقمة التي قبلها، فهو إذا لا يتجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه.

ثم قال: ولا يحيا له أثر، إلا مات له أثر، وذلك أن الإنسان في الأعم الأغلب لا ينتشر صيته ويشيع فضله إلا عند الشيخوخة، وكذلك لا تعرف أولاده ويصير لهم اسم في الدنيا إلا بعد كبره وعلو سنه، فإذا ما حمي له أثر إلا بعد أن مات له أثر، وهو قوته ونشاطه وشيبيته، ومثله قوله: ولا يتجدد له جديد، إلا بعد أن يخلق له جديد.

ثم قال: ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محسودة، هذه إشارة الى ذهاب الآباء عند حدوث أبنائهم في الأعم الأغلب، ولهذا قال: وقد مضت أصول نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله، وقد نظر الشعراء إلى هذا المعنى، فقالوا فيه وأكثروا، نحو قول الشاعر:

لعلك تهديك القرون الأوائل

ودون معد فلتنزعك العواذل

فإن أنت لم تصدقك نفسك فاننسب

فإن لم تجد من دون عدنان والداً

وقال الشاعر:

فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا

أبأرض قومك أم بأخرى تصرع !

فعددت آبائي الى عرق الثرى

لا بد من تلف مصيب فانتظر

وقد صرح أبو العتاهية بالمعنى، فقال:

وكل ذي جدة يحول

وقد ذوت قبلها الأصول !

كل حياة الى ممات

كيف بقاء الفروع يوماً

الأصل: منها: وما أحدثت بدعة إلا ترك بهاسنة، فاتقوا البدع، والزموا المهييع.

إن عوازم الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها.

الشرح: البدعة: كل ما أحدث مما لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنها الحسن كصلاة التراويح، ومنها القبيح كالمنكرات التي ظهرت في أواخر الخلافة العثمانية، وإن كانت قد تكلفت الأعداء عنها.

ومعنى قوله رضي الله عنه: ما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنة، أن من السنة ألا تحدث البدعة، فوجود البدعة عدم للسنة لا محالة.

والمهيئ: الطريق الواضح، من قولهم: أرض هبعة، أي مبسوطة واسعة، والميم مفتوحة وهي زائدة، وعوازم الأمور: ما تقادم منها، من قولهم: عجوز عوزم أي مسنة، قال الراجز:

لقد غدوت خلق الثياب

أحمل عدلين من التراب

لعوزم وصبية سقاب

فأكل ولا حس وآبي

ويجمع فوعل على فواعل، كدورق، وهو جل، ويجوز أن يكون عوازم جمع عازمة، ويكون فاعل بمعنى مفعول، أي معزوم عليها، أي مقطوع معلوم بيقين صحتها، ومجيء فاعلة بمعنى مفعولة كثير، كقولهم: عيشة راضية بمعنى مرضية، والأول أظهر عندي، لأن في مقابله قوله: وإن محدثاتها شرارها، والمحدث في مقابلة القديم.

ومن كلام له وقد استشاره عمر

في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

الأصلي: إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقله، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعده وأمده، حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيثما طلع، ونحن على موعود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز، يجمعه ويضمه، فإن انقطع النظام تفرق وذهب، ثم لم يجتمع بخذافيه أبداً. والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكن قطباً واستدر الرحي بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم، فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة.

الشرح: نظام العقد: الخيط الجامع له، وتقول: أخذته كله بخذافيه، أي بأصله، وأصل الخذافير أعالي الشيء ونواحيه، الواحد خذفار، وأصلهم نار الحرب: اجعلهم صالين لها، يقال: صليت اللحم وغيره أصلية صلياً، مثل رميته أرميه رمياً، إذا شويته، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أتى بشاة مصلية، أي مشوية ويقال أيضاً: صليت الرجل ناراً إذا أدخلته النار وجعلته يصلها، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت: أصلية بالألف، وصليته تصلية، وقرئ "ويصلي سعيراً" ومن خفف فهو من قولهم: صلي فلان بالنار - بالكسر - يصلي صلياً احترق، قال الله تعالى: "هم أولى بها صلياً" ويقال أيضاً: صلي فلان بالأمر، إذا قاسى حره وشدته، قال الطهوي:

ولا تبلى بسالتهم وإن هم

صلوا بالحرب حيناً بعد حين

وعلى هذا الوجه يحمل كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو مجاز من الإحراق، والشيء الموضوع لها هذا اللفظ حقيقة. والعورات: الأحوال التي يخاف انتقاضها في ثغر أو حرب، قال تعالى: "يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة". والكلب: الشر والأذى.

وقعة القادسية

واعلم أن هذا الكلام قد اختلف في الحال التي قاله فيها لعمر، فقليل: قاله له في غزاة القادسية، وقيل في غزاة نهاوند. وإلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبري في "التاريخ الكبير". وإلى القول الأول ذهب المدائني في كتاب "الفتوح"، ونحن نشير إلى ما جرى في هاتين الوقعتين إشارة خفيفة على مذهبنا في ذكر السير والأيام.

فأما وقعة القادسية فكانت في سنة أربع عشرة للهجرة، استشار عمر المسلمين في أمر القادسية، فأشار عليه علي بن أبي طالب في رواية أبي الحسن علي بن محمد بن سيف المدائني ألا يخرج بنفسه، وقال: إنك إن تخرج لا يكن للعجم همة إلا استتصالك، لعلمهم أنك قطب رحا العرب، فلا يكون للإسلام بعدها دولة. وأشار عليه غيره من الناس أن يخرج بنفسه، فأخذ برأي علي رضي الله عنه.

وروى غير المدائني أن هذا الرأي أشار به عبد الرحمن بن عوف، قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: لما بدا لعمر في المقام بعد أن كان عزم على الشخص بنفسه، أمر سعد بن أبي وقاص على المسلمين، وبعث يزيد جرد رستم الأرمني أميراً على الفرس، فأرسل سعد النعمان بن مقرن رسولاً إلى يزيد جرد، فدخل عليه، وكلمه بكلام غليظ، فقال يزيد جرد: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك، ثم حمله وقرأ من تراب على رأسه، وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن، وقال: ارجع إلى صاحبك، فقد كتبت إلى رستم أن يدفنه وجنده من العرب في خندق القادسية، ثم لأشغلن العرب بعدها بأنفسهم، ولأصينهم بأشد مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف. فرجع النعمان إلى سعد فأخبره، فقال: لا تخف، فإن الله قد ملكنا أرضهم تفاؤلاً بالتراب.

قال أبو جعفر: وتبسط رستم عن القتال وكرهه، وآثر المسالمة، واستعجله يزيد جرد مراراً، واستحثه على الحرب، وهو يدافع بها، ويرى المطاولة. وكان عسكره مائة وعشرين ألفاً وكان عسكر سعد بضعاً وثلاثين ألفاً، وأقام رستم بريداً من الرجال، الواحد منهم إلى جانب الآخر، من القادسية إلى المدائن، كلما تكلم رستم كلمة أداها بعضهم إلى بعض، حتى تصل إلى سمع يزيد جرد في وقتها، وشهد وقعة القادسية مع المسلمين طليحة بن خويلد، وعمر بن معد يكرب، والشماخ بن ضرار، وعبد بن الطبيب الشاعر، وأوس بن معن الشاعر، وقاموا في الناس ينشدونهم الشعر ويجرضونهم، وقرن أهل فارس أنفسهم بالسلاسل لئلا يهربوا، فكان المقرنون منهم نحو ثلاثين ألفاً، والتحم الفريقان في اليوم الأول، فحملت الفيلة التي مع رستم على الخيل فطحنتها، وثبت لها جمع من الرجال، وكانت ثلاثة وثلاثين فيلاً، منها فيل الملك، وكان أبيض عظيمًا، فضربت الرجال خراطيم الفيلة بالسيوف فقطعتها، وارتفع عواؤها، وأصيب في هذا اليوم وهو اليوم الأول خمسمائة من المسلمين، وألفان من الفرس. ووصل في الثاني أبو عبيدة بن الجراح من الشام في عساكر من المسلمين، فكان

مدداً لسعد، وكان هذا اليوم على الفرس أشد من اليوم الأول، قتل من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف. وأصبحوا في اليوم الثالث على القتال، وكان عظيمًا على العرب والعجم معاً، وصبر الفريقان، وقامت الحرب ذلك اليوم: وتلك الليلة جمعاء لا ينطقون، كلامهم الهرير، فسميت ليلة الهرير.

وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم، وانقطع سعد إلى الصلاة والدعاء والبكاء، وأصبح الناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها، والحرب قائمة بعد إلى وقت الظهر، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفاً في اليوم الرابع، أمالت الغبار والنقع على العجم، فانكسروا، ووصلت العرب إلى سرير رستم، وقد قام عنه ليركب جملًا وعلى رأسه العلم، فضرب هلال بن علقمة الحمل الذي رستم فوقه، فقطع حباله، ووقع على هلال أحد العدلين، فأزال فقار ظهره، ومضى رستم نحو العتيق، فرمى نفسه فيه، واقتحم هلال عليه، فأخذ برجله، وخرج به يجره حتى ألقاه تحت أرجل الخيل، وقد قتله وصعد السرير، فنادى: أنا هلال، أنا قاتل رستم، فاهزمت الفرس، وتهاقتوا في العتيق، فقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونهبت أموالهم وأسلانهم، وكانت عزيمة جداً، وأخذت العرب منهم كافوراً كثيراً، فلم يعبأوا به، لأنهم لم يعرفوه، وباعوه من قوم بلح، كيلاً بكيل، وسروا بذلك وقالوا: أخذنا منهم ملحاً طيباً، ودفعنا إليهم ملحاً غير طيب، وأصابوا من الحمامات من الذهب والفضة ما لا يقع عليه العد لكثرتهم، فكان الرجل منهم يعرض جامين من ذهب على صاحبه، ليأخذ منه جاماً واحداً من فضة يعجبه بياضها ويقول: من يأخذ صفراوين ببيضاء! وبعث سعد بالأنفال والغنائم إلى عمر، فكتب إلى سعد: لا تتبع الفرس، وقف مكانك واتخذته منزلاً. فترل موضع الكوفة اليوم واختط مسجدها، وبني فيها الخطط للعرب.

وقعة نهاوند

فأما وقعة نهاوند، فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري ذكر في كتاب التاريخ، أن عمر لما أراد أن يغزو العجم وجيوش كسرى وهي مجتمعة بنهاوند، استشار الصحابة، فقام عثمان فتشهد، فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصريين: البصرة والكوفة، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرت بمن معك ومن عندك، قل في نفسك ما تكاثر من عدد القوم، وكنت أعز عزاً وأكثر، إنك لا تستبقي من نفسك بعد اليوم باقية، ولا تمتع من الدنيا بعزير، ولا تكون منها في حرز حريز. إن هذا اليوم له ما بعده، فاشهد بنفسك ورأيك وأعوانك، ولا تغب عنه. قال أبو جعفر: وقام طلحة، فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلايا، وحكمتك التجارب، وأنت وشأنك، وأنت ورأيك، لا ننبو في يدك، ولا نكل أمرنا إلا إليك، فأمرنا نجب، وادعنا نطع، واحملنا نركب، وقدنا ننقد، فإنك ولي هذا الأمر، وقد بلوت وجربت واختبرت، فلم ينكشف شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار.

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أما بعد، فإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، إنما هو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعزه وأمدّه بالملائكة، حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده، وإن مكانك منهم مكان النظام من الخرز، يجمعه وبمسكه، فإن انحل تفرق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره

أبدًا، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً، فإنهم كثير عزيز بالإسلام، أقم مكانك، واكتب إلى أهل الكوفة، فإنهم أعلام العرب ورؤساؤهم، وليشخص منهم الثلثان، وليقم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم، ولا تشخص الشام ولا اليمن، إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم، سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، ومتى شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها وأطرافها، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير العرب وأصلهم، فكان ذلك أشد لكلبهم عليك. وأما ما ذكرت من مسير القوم، فإن الله هو أكره لسييرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالصبر والنصر. فقال عمر: أجل! هذا الرأي، وقد كنت أحب أن أتابع عليه، فأشيروا علي برجل أوليه ذلك الثغر. قالوا: أنت أفضل رأياً، فقال: أشيروا علي به، واجعلوه عراقياً قالوا: أنت أعلم بأهل العراق، وقد وفدوا عليك، فرأيتهم وكلمتهم. قال: أما والله لأولين أمرهم رجلاً يكون عمداً لأول الأُسنة، قيل: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن، قالوا: هو لها. وكان النعمان يومئذ بالبصرة، فكتب إليه عمر، فولاه أمر الجيش.

قال أبو جعفر: كتب إليه عمر: سر إلى نهاوند، فقد وليتك حرب الفيروزان وكان المقدم على جيوش كسرى فإن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن حدث به حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن، فإن فتح الله عليكم فاقسم على الناس ما أفاء الله عليهم، ولا ترفع إلي منه شيئاً، وإن نكت القوم فلا تراني ولا أراك، وقد جعلت معك طليحة بن خويلد، وعمر بن معد يكرب، لعلمهما بالحرب، فاستشرهما ولا تولهما شيئاً. قال أبو جعفر: فسار النعمان بالعرب حتى وافى نهاوند، وذلك في السنة السابعة من خلافة عمر، وتراءى الجمعان، ونشب القتال، وحجزهم المسلمون في خنادقهم، واعتصموا بالحصون والمدن، وشق على المسلمين ذلك، فأشار طليحة عليه، فقال: أرى أن تبعث خيلاً ببعض القوم وتحمشهم، فإذا استحمشوا خرج بعضهم، واختلطوا بكم فاستطردوا لهم، فإنهم يطمعون بذلك، ثم تعطف عليهم حتى يقضي الله بيننا وبينهم بما يجب.

ف فعل النعمان ذلك، فكان كما ظن طليحة، وانقطع العجم عن حصونهم بعض الانقطاع، فلما أمعنوا في الانكشاف للمسلمين حمل النعمان بالناس، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون مثله، وزلق بالنعمان فرسه فصرع وأصيب، وتناول الراية نعيم أخوه، فأق حذيفة لها فدفعها إليه، وكتم المسلمون مصاب أميرهم، واقتتلوا حتى أظلم الليل، ورجعوا والمسلمون وراءهم، فعمي عليهم قصدهم فتركوه، وغشيه المسلمون بالسيوف، فقتلوا منهم ما لا يحصى، وأدرك المسلمون الفيروزان وهو هارب، وقد انتهى إلى ثنية مشحونة ببغال موقرة عسلاً، فحبسته على أجله، فقتل، فقال المسلمون: إن لله جنوداً من عسل.

ودخل المسلمون نهاوند فاحتوا على ما فيها، وكانت أنفال هذا اليوم عظيمة، فحملت إلى عمر، فلما رآها بكى، فقال له المسلمون: إن هذا اليوم يوم سرور وجدل، فما بكاءؤك؟ قال: ما أظن أن الله تعالى زوى هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر إلا لخير أراد بهما، ولا أراه فتحه علي إلا لشئ أريد بي، إن هذا المال لا يلبث أن يفتن الناس. ثم رفع يده إلى السماء يدعو ويقول: اللهم اعصمني ولا تكلني إلى نفسي، يقولها مراراً، ثم قسمه بين المسلمين عن آخره.

ومن خطبة له رضي الله عنه في الغاية من بعثة الرسول

الأصل: فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وآله بالحق، ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بينه وأحكمه، ليعلم العباد ربهما إذ جهلوه، وليقرأوا به بعد إذ جحدوه، وليشتبهوا به بعد إذ أنكروه، فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته، وخوفهم من سطوته. وكيف محق من محق بالمثلات، واحتصد من احتصد بالنقمات! الشرح: الأوثان: جمع وثن، وهو الصنم، ويجمع أيضاً على وثن، مثل أسد وآساد واسد، وسمى وثناً لانتصابه وبقائه على حال واحدة، من قولك: وثن فلان بالمكان، فهو واثن، وهو الثابت الدائم. قوله: "فتجلى سبحانه لهم"، أي ظهر من غير أن يرى بالبصر، بل بما نبههم عليه في القرآن من قصص الأولين، وما حل بهم من النعمة عند مخالفة الرسل، والمثلات، بضم الثاء: العقوبات.

فإن قلت: ظاهر هذا الكلام أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث إلى الناس ليقروا بالصانع ويشبهوه، وهذا خلاف قول المعتزلة، لأن فائدة الرسالة عندهم هي إطفاء المكلفين بالأحكام الشرعية المقربة إلى الواجبات العقلية، والمبعدة من المقبحات العقلية، ولا مدخل للرسول في معرفة الباري سبحانه، لأن العقل يوجبها، وإن لم يبعث الرسل! قلت: إن كثيراً من شيوخنا أوجبوا بعثة الرسل، إذا كان في حثهم المكلفين على ما في العقول فائدة، وهو مذهب شيخنا أبي علي رحمه الله، فلا يمتنع أن يكون إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إلى العرب وغيرهم، لأن الله تعالى علم أنهم مع تنبيهه إياهم على ما هو واجب في عقولهم من المعرفة أقرب إلى حصول المعرفة، فحينئذ يكون بعثه لطفاً، ويستقيم كلام أمير المؤمنين. الأصل: وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان، في طريق واحد لا يؤويهما مؤو، فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسوا فيهم، ومعهم وليسوا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعوا. فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه وزبره، ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثله، وسموا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة، وإنما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم، وتغيب أجالهم، حتى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المَعذرة، وترفع عنه التوبة، وتحل معه القارعة والنقمة. الشرح: أخبر رضي الله عنه أنه سيأتي على الناس زمان من صفته كذا وكذا، وقد رأيناه ورآه من كان قبلنا أيضاً، قال شعبة إمام المحدثين: تسعة أعشار الحديث كذب. وقال الدارقطني: ما الحديث الصحيح في الحديث إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود. وأما غلبة الباطل على الحق حتى يخفى الحق عنده، فظاهرة.

وأبور: أفسد، من بار الشيء، أي هلك. والسلعة: المتاع، ونبذ الكتاب: ألقاه ولا يؤويهما: لا يضمهما إليه، ويتزلهما عنده.

والزبر: مصدر زبرت أزبر بالضم، أي كتبت، وجاء يزبر بالكسر، والزبر بالكسر: الكتاب وجمعه زبور، مثل قدر وقدور، وقرأ بعضهم: "وآتينا داود زبوراً"، أي كتباً. والزبور، بفتح الزاي: الكتاب المزبور، فغول بمعنى مفعول، وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: أنا أعرف بزبرتي أي خطي وكتابتي. ومثلوا بالصالحين، بالتخفيف: نكلوا بهم، مثلت بفلان أمثل بالضم مثلاً بالفتح وسكون الثاء، والاسم المثلة بالضم، ومن روى "مثلوا" بالتشديد، أراد جدعوهم بعد قتلهم. "وعلى" في قوله: "وسموا صدقهم على الله فرية"، ليست متعلقة بصدقهم، بل بفرية، أي وسموا صدقهم فرية على الله، فإن امتنع أن يتعلق حرف الجر به لتقدمه عليه، وهو مصدر، فليكن متعلقاً بفعل مقدر دل عليه هذا المصدر الظاهر وروي: "وجعلوا في الحسنة العقوبة السيئة" والرواية الأولى بالإضافة أكثر وأحسن. والموعود ههنا: الموت. والقارعة: المصيبة تفرع، أي تلقى بشدة وقوة.

الأصل: أيها الناس، إنه من استنصح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلاً هدي للتي هي أقوم، فإن جار الله آمن، وعدوه خائف، وإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم، فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمت أن يتواضعوا له، وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له. فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب، والباريء من ذي السقم. واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشده حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقصه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه. فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق.

الشرح: من استنصح الله: من أطاع أوامره وعلم أنه يهديه إلى مصالحه، ويرده عن مفسده ويرشده إلى ما فيه نجاته، ويصرفه عما فيه عطبه.

والتي هي أقوم: يعني الحالة والخلة التي اتباعها أقوم، وهذا من الألفاظ القرآنية، قال سبحانه: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم". والمراد بتلك الحالة المعرفة بالله وتوحيده وعدله.

ثم نهي رضي الله عنه عن التكبر والتعظم وقال: "إن رفعة القوم الذين يعرفون عظمة الله أن يتواضعوا له. وما ههنا، بمعنى أي شيء، ومن روى بالنصب جعلها زائدة. وقد ورد في ذم التعظم والتكبر ما يطول استقصاؤه، وهو مذموم على العباد، فكيف بمن يتعظم على الخالق سبحانه وإنه لمن الهالكين! وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما افتخر: "أنا سيد ولد آدم"، ثم قال: "ولا فخر"، فجهر بلفظة الافتخار، ثم أسقط استطالة الكبر، وإنما جهر بما جهر به، لأنه أقامه مقام شكر النعمة والتحدث بها، وفي الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم، وآدم من تراب، مؤمن تقي، وفاجر شقي. لينتهين أقوام يفتخرون برجال، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من جعلان تدفع النتن بأنفها".

قوله: "واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشده حتى تعرفوا الذي تركه"، فيه تنبيه على أنه يجب البراءة من أهل الضلال، وهو

قول أصحابنا جميعهم، فإنهم بين مكفر لمن خالف أصول التوحيد والعدل وهم الأكثرون أو مفسق، وهم الأقلون، وليس أحد منهم معذوراً عند أصحابنا وإن ضل بعد النظر، كما لا تعذر اليهود والنصارى إذا ضلوا بعد النظر. ثم قال رضي الله عنه: "فالتمسوا ذلك عند أهله"، هذا كناية عنه رضي الله عنه، وكثيراً ما يسلك هذا المسلك، ويعرض هذا التعريض، وهو الصادق الأمين العارف بأسرار الإلهية.

ثم ذكر أن هؤلاء الذين أمر باتباعهم يبنى حكمهم عن علمهم، وذلك لأن الامتحان يظهر خبيثة الإنسان. ثم قال: "وصمتهم عن نطقهم"، صمت العارف أبلغ من نطق غيره، ولا يخفى فضل الفاضل وإن كان صامتاً. ثم ذكر أنهم لا يخالفون الدين لأنهم قوامه وأربابه، ولا يختلفون فيه، لأن الحق في التوحيد والعدل واحد، فالدين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه، كما يؤخذ بحكم الشاهد الصادق، وصامت ناطق، لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بد له من مترجم، فهو صامت في الصورة، وهو في المعنى أنطق الناطقين، لأن الأوامر والنواهي والآداب كلها مبنية عليه، ومتفرعة عليه.

ومن كلام له رضي الله عنه في ذكر أهل البصرة

الأصل: كل واحد منهما يرجو الأمر له، ويعطفه عليه دون صاحبه، لا يمتنان إلى الله بحبل، ولا يمدان إليه بسبب، كل واحد منهما حامل ضب لصاحبه، وعمّا قليل يكشف قناعه به، والله لئن أصابوا الذي يريدون عن هذا نفس هذا، وليأتين هذا على هذا، قد قامت الفئة الباكية فأين المحتسبون! قد سنت لهم السنن، وقدم لهم الخبر، ولكل ضلة علة، ولكل ناكث شبهة، والله لا أكون كمستمع اللدم، يسمع الناعي، ويحضر الباكي، ثم لا يعتبر.

الشرح: ضمير التثنية راجع إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما. ويمتان: يتوسلان، الماضي ثلاثي، مت يمت بالضم والضب: الحقد والمحتسبون: طالبو الحسبة، وهي الأجر. ومستمع اللدم كناية عن الضيع، تسمع وقع الحجر بباب جحرها من يد الصائد فتتخذل وتكف جوارحها إليها حتى يدخل عليها فيربطها، يقول: لا أكون مقراً بالضمير راغناً، أسمع الناعي المخبر عن قتل عسكر الجمل لحكيم بن جبلة وأتباعه، فلا يكون عندي من التغيير والإنكار لذلك، إلا أن أسمع وأحضر الباكين على قتلاهم.

وقوله: "لكل ضلة علة، ولكل ناكث شبهة" هو جواب سؤال مقدر، كأنه يقول: إن قيل: لأي سبب خرج هؤلاء؟ فإنه لا بد أن يكون لهم تأويل في خروجهم، وقد قيل: إنهم يطالبون بدم عثمان، فهو رضي الله عنه قال: كل ضلالة فلا بد لها من علة اقتضتها، وكل ناكث فلا بد له من شبهة يستند إليها.

وقوله: "لينتزعن هذا نفس هذا" قول صحيح لا ريب فيه، لأن الرياسة لا يمكن أن يدبرها اثنان معاً، فلو صح لهما ما أراداه لوثب أحدهما على الآخر فقتله، فإن الملك عقيم، وقد ذكر أرباب السيرة أن الرجلين اختلفا من قبل وقوع الحرب، فإنهما اختلفا في الصلاة، فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير، يصلي هذا يوماً، وهذا يوماً، إلى أن تنقضي الحرب.

ثم إن عبد الله بن الزبير ادعى أن عثمان نص عليه بالخلافة يوم الدار، واحتج في ذلك بأنه استخلفه على الصلاة، واحتج

تارة أخرى بنص صريح زعمه وادعاه، وطلب طلحة من عائشة أن يسلم الناس عليه بالإمرة، وأدلى إليها بالتيمة، وأدلى الزبير إليها بأسماء اختها، فأمرت الناس أن يسلموا عليهما معاً بالإمرة. واختلفا في تولي القتال، فطلبه كل منهما أولاً، ثم نكل كل منهما عنه وتفادى منه. وقد ذكرنا في الأجزاء المتقدمة قطعة صالحة من أخبار الجمل.

وقعة يوم الجمل.

وروى أبو مخنف، قال: لما تراحف الناس يوم الجمل والتقوا، قال علي رضي الله عنه لأصحابه: لا يرمين رجل منكم بسهم، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح، حتى أحدث إليكم، وحتى يبدأوكم بالقتال وبالقتل. فرمى أصحاب الجمل عسكر علي رضي الله عنه بالنبل رمياً شديداً متتابعاً، فضج إليه أصحابه، وقالوا: عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين. وحيء برجل إليه، وإنه لفي فسطاط له صغير، فقيل له: هذا فلان قد قتل. فقال: اللهم اشهد، ثم قال: أعذروا إلى القوم، فأتي برجل آخر فقيل: وهذا قد قتل: فقال: اللهم اشهد، أعذروا إلى القوم، ثم أقبل عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحمل أخاه عبد الرحمن بن بديل، قد أصابه سهم فقتله، فوضعه بين يدي علي رضي الله عنه، وقال: يا أمير المؤمنين، هذا أخي قد قتل، فعند ذلك استرجع علي رضي الله عنه، ودعا بدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات الفضول فلبسها، فتدلت بطنه فرفعها ليد، وقال لبعض أهله، فحزم وسطه بعمامة، وتقلد ذا الفقار، ودفع إلى ابنه محمد راية رسول الله صلى الله عليه وسلم السوداء، وتعرف بالعقاب، وقال لحسن وحسين رضي الله عنهما: إنما دفعت الراية إلى أخيكما. وترككما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أبو مخنف: وطاف علي رضي الله عنه على أصحابه، وهو يقرأ: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب".

ثم قال: أفرغ الله علينا وعليكم الصبر، وأعز لنا ولكم النصر، وكان لنا ولكم ظهيراً في كل أمر. ثم رفع مصحفاً بيده، فقال: من يأخذ هذا المصحف، فيدعوهم إلى ما فيه، وله الجنة؟ فقام غلام شاب اسمه مسلم، عليه قباء أبيض، فقال: أنا أخذه، فنظر إليه علي وقال: يا فتى، إن أخذته، فإن يدك اليمنى تقطع، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل فقال: لا صبر لي على ذلك، فنادى علي ثانية، فقام الغلام، وأعاد عليه القول، وأعاد الغلام القول مراراً، حتى قال الغلام: أنا أخذه، وهذا الذي ذكرت في الله قليل، فأخذه وانطلق، فلما خالطهم ناداهم: هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فضربه رجل فقطع يده اليمنى، فتناوله باليسرى فضربه أخرى فقطع اليسرى، فاحتضنه فضربوه بأسياهم، حتى قتل فقالت أم ذريح العبدية في ذلك:

بمصحف أرسله مولا هم

يتلو كتاب الله لا يخشاهم

يا رب إن مسلماً أتاهم

للعدل والإيمان قد دعاهم

فخضبوا من دمه ظباهم

وأهمهم واقفة تراهم

تأمرهم بالغى لا تنهاهم

قال أبو مخنف: فعند ذلك أمر علي رضي الله عنه ولده محمداً أن يحمل الراية، فحمل وحمل معه الناس، واستحضر القتل في الفريقين وقامت الحرب على ساق.

مقتل طلحة والزبير.

قال: فأما طلحة، فإن أهل الجمل لما تضعضوا قال مروان: لا أطلب ثأر عثمان من طلحة بعد اليوم! فانتحى له بسهم فأصاب ساقه، ففقطع أكحله، فجعل الدم يبيض، فاستدعى من مولى له بغلة، فركبها وأدبر، وقال لمولاه: ويحك! أما من مكان أقدر فيه على التزول، فقد قتلتني الدم! فيقول له مولاه: انج، وإلا لحقك القوم، فقال: بالله ما رأيت مصرع شيخ أضيع من مصرعي هذا! حتى انتهى إلى دار من دور البصرة، فترها ومات بها. وقد روي أنه رمي قبل أن يرميه مروان، وجرح في غير موضع من جسده. وروى أبو الحسن المدائني أن علياً رضي الله عنه مر بطلحة، وهو يكيد بنفسه، فوقف عليه وقال: أما والله إن كنت لأبغض أن أراكم مصرعين في البلاد، ولكن ما حتم واقع، ثم تمثل:

وما تدري إذا أزمنت أمراً

بأي الأرض يدركك المقييل

وما يدري الفقير متى غناه

ولا يدري الغني متى يعيل!

وما تدري إذا ألقت شولاً

أنتنتج بعد ذلك أم تحيل

وأما الزبير فقتله ابن جرموز غيلة بوادي السباع، وهو منصرف عن الحرب، نادم على ما فرط منه، وتقدم ذكر كيفية قتله فيما سبق.

وروى الكلبي، قال: كان العرق الذي أصابه السهم إذا أمسكه طلحة بيده استمسك، وإذا رفع يده عنه سال، فقال طلحة: هذا سهم أرسله الله تعالى، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ما رأيت كاليوم دم قرشي اضيع! قال: وكان الحسن البصري إذا سمع هذا وحكي له، يقول: ذي عقق! وروى أبو مخنف، عن عبد الله بن عون، عن نافع، قال: سمعت مروان بن الحكم يقول: أنا قتلت طلحة.

وقال أبو مخنف: وقد قال عبد الملك بن مروان: لولا أن أبي أخبرني أنه رمى طلحة فقتله، ما تركت تيمناً إلا قتلته بعثمان قال: يعني أن محمد بن أبي بكر وطلحة قتلاه، وكانا تميميين.

قال أبو مخنف: وحدثنا عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه جندب بن عبد الله، قال: مررت بطلحة، وإن معه عصاة يقاتل بهم، وقد فشت فيهم الجراح، وكثرهم الناس، فرأيتهم جريماً، والسيوف في يده، وأصحابه يتصدعون عنه رجلاً فرجلاً، واثنين فائنين، وأنا أسمعهم، وهو يقول: عباد الله، الصبر الصبر، فإن بعد الصبر النصر والأجر، فقلت له: النجاء النجاء! ثكلتك أمك! فوالله ما أجرت ولا نصرت، ولكنك وزرت وخسرت، ثم صحت بأصحابه، فانذعروا عنه، ولو شئت أن

أطعنه لطعنته، فقلت له: أما والله لو شئت لجدلتك في هذا الصعيد ، فقال: والله هلكك الدنيا والآخرة إذن! فقلت له: والله لقد أمسيت وإن دمك لحلال، وإنك لمن النادمين. فانصرف ومعه ثلاثة نفر، وما أدري كيف كان أمره إلا أنني أعلم أنه قد هلك.

وروي أن طلحة قال ذلك اليوم: ما كنت أظن أن هذه الآية نزلت فينا: "وأتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة".

وروي المدائني، قال: لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكاناً يترله، جعل يقول لمن يمر به من أصحاب علي رضي الله عنه: أنا طلحة، من يجيرني! يكررها. قال: فكان الحسن البصري إذا ذكر ذلك يقول: لقد كان في جوار عريض.

ومن كلام له رضي الله عنه قبل موته.

الأصل: أيها الناس، كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره. الأجل مساق النفس، والهرب منه موافاته، كم أطردت الأيام أبجثها عن مكنون هذا الأمر، فأبى الله إلا إخفاءه. هيهات! علم مخزون.

أما وصيبي، فالله لا تشرکوا به شيئاً، ومحمداً صلى الله عليه وآله فلا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخلاكم ذم ما لم تشردوا. حمل كل امرئ منكم بمجهوده، وخفف عن الجهلة. رب رحيم، ودين قويم، وإمام عليم. أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عبرة لكم، وغداً مفارقكم! غفر الله لي ولكم! إن ثبتت الوطأة في هذه المرة فذاك، وإن تدحض القدم، فإننا كنا في أفياء أغصان، ومهب رياح، وتحت ظل غمام. اضمحل في الجو متلفقها، وعفا في الأرض مخطها، وإنما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً، وستعقبون مني جثة خلاء، ساكنة بعد حراك، وصامتة بعد نطق. ليعظكم هدوئي، وخفوت إطراقي، وسكون أطرافي، فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ، والقول المسموع. وداعي لكم وداع امرئ مرصد للتلاقي! غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفوني بعد خلو مكاني، وقيام غيري مقامي.

الشرح: أطردت الرجل، إذا أمرت بإخراجه وطرده، وطرده إذا نفيت وأخرجته، فالإطراد أدل على العز والقهر من الطرد، وكأنه رضي الله عنه جعل الأيام أشخاصاً يأمر بإخراجهم وإبعادهم عنه، أي ما زلت أبحث عن كيفية قتلي، وأي وقت يكون بعينه، وفي أي أرض يكون، يوماً يوماً، فإذا لم أحده في اليوم أطرده واستقبلت غده، فأبحث فيه أيضاً فلا أعلم، فبعده وأطرده، وأستأنف يوماً آخر، هكذا حتى وقع المقدور. وهذا الكلام يدل على أنه لم يكن يعرف حال قتله معرفة مفصلة من جميع الوجوه، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بذلك علماً محملاً، لأنه قد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال له: "ستضرب على هذه وأشار إلى هامته فتخضب منها هذه وأشار إلى لحيته"، وثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال له: "أتعلم من أشقى الأولين؟" قال: نعم، عاقر الناقة، فقال له: "أتعلم من أشقى الآخرين؟" قال: لا، قال: "من يضربك ههنا، فيخضب هذه".

وكلام أمير المؤمنين رضي الله عنه يدل على أنه بعد ضرب ابن ملجم له لا يقطع على أنه يموت من ضربته، ألا تراه

يقول: "إن ثبتت الوطأة في هذه المزلة فذاك، وإن تدحض فإنما كنا في أفياء أغصان، ومهاب رياح، أي إن سلمت فذاك الذي تطلبونه، يخاطب أهله وأولاده، ولا ينبغي أن يقال: "فذاك ما أطلبه"، لأنه رضي الله عنه كان يطلب الآخرة، أكثر من الدنيا. وفي كلامه المنقول عنه ما يؤكد ما قلناه، وهو قوله: "إن عشت فأنا ولي دمي، وإن مت فضربة بضربة". وليس قوله رضي الله عنه: "وأنا اليوم عبرة لكم، وغداً مفارقكم" وما يجري مجراه من ألفاظ الفصل بناقض لما قلناه، وذلك لأنه لا يعني غداً بعينه، بل ما يستقبل من الزمان، كما يقول الإنسان الصحيح: أنا غداً ميت، فما لي أحرص على الدنيا! ولأن الإنسان قد يقول في مرضه الشديد لأهله وولده: ودعتكم وأنا مفارقكم، وسوف يخلو متزلي مني، وتأسفون على فراقني، وتعرفون موضعي بعدي، كله على غلبة الظن، وقد يقصد الصالحون به العظة والاعتبار وجذب السامعين إلى جانب التقوى، وردعهم عن الهوى وحب الدنيا.

فإن قلت: فما تصنع بقوله رضي الله عنه لابن ملجم:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

وقول الخالص من شيعته: فهلا تقتله! فقال: فكيف أقتل قاتلي! وتارة قال: إنه لم يقتلني، فكيف أقتل من لم يقتل! وكيف قال في البط الصائح خلفه في المسجد، ليلة ضربه ابن ملجم: دعوهن، فإنهن نوائح. وكيف قال تلك الليلة: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشكوت إليه، وقلت: ما لقيت من أمتك من الأود واللد! فقال: ادع الله عليهم، فقلت: "اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني! وكيف قال: إني لا أقتل محارباً، وإنما أقتل فتكاً وغيلة، يقتلني رجل حامل الذكر. وقد جاء عنه رضي الله عنه من هذا الباب آثار كثيرة.

قلت: كل هذا لا يدل على أنه كان يعلم الأمر مفصلاً من جميع الوجوه، ألا ترى أنه ليس في الأخبار والآثار ما يدل على الوقت الذي يقتل فيه بعينه، ولا على المكان الذي يقتل فيه بعينه! وأما ابن ملجم، فمن الجائز أن يكون علم أنه هو الذي يقتله، ولم يعلم علماً محققاً أن هذه الضربة ترهق نفسه الشريفة منها، بل قد كان يجوز أن يبل ويفيق منها، ثم يكون قتله فيما بعد على يد ابن ملجم، وإن طال الأمد. وليس هذا بمستحيل، وقد وقع مثله، فإن عبد الملك جرح عمرو بن سعيد الأشدق في أيام معاوية على منافرة كانت بينهما فعفا عمرو عنه، ثم كان من القضاء والقدر أن عبد الملك قتل عمراً أيضاً بيده ذبحاً، كما تذبح الشاة.

وأما قوله في البط: "دعوهن فإنهن نوائح" فلعله علم أنه تلك الليلة يصاب ويجرح، وإن لم يعلم أنه يموت منه، والنوائح قد ينحن على المقتول وقد ينحن على المجروح، والنام والدعاء لا يدل على العلم بالوقت بعينه، ولا يدل على أن إجابة دعائه تكون على الفور لا محالة.

ثم نعود إلى الشرح: أما قوله: "كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره"، أي إذا كان مقدوراً، وإلا فقد رأينا من يفر من الشيء ويسلم، لأنه لم يقدر، وهذا من قوله تعالى: "ولو كنتم في بروج مشيدة"، وقوله: "ليرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم" ومن قوله تعالى: "قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم"، وفي القرآن العزيز مثل هذا كثير.

قوله: "والأجل مساق النفس " أي الأمر الذي تساق إليه، وتنتهي عنده، وتقف إذا بلغت فلا يبقى له حينئذ أكلة في الدنيا.

قوله: "والهرب منه موافاته"، هذا كلام خارج مخرج المبالغة في عدم النجاة، وكون الفرار غير مغن ولا عاصم من الموت، يقول: الهرب بعينه من الموت موافاة للموت، أي إتيان إليه، كأنه لم يرتض بأن يقول: الهارب لا بد أن ينتهي إلى الموت، بل جعل نفس الهرب هو ملاقة الموت. قوله: "أبحثها" أي أكشفها، وأكثر ما يستعمل "بحث" معدى بحرف الجر، وقد عداه ههنا إلى "الأيام" بنفسه وإلى "مكنون الأمر" بحرف الجر، وقد جاء: بحثت الدجاجة التراب، أي نبشته. قوله: "فأبى الله إلا إخفاءه، هيهات علم مخزون" ! تقديره: هيهات ذلك! مبتدأ وخبره، هيهات اسم للفعل، معناها بعد، أي علم هذا الغيب علم مخزون مصون، لم أطلع عليه.

فإن قلت: ما معنى قوله، "كم أطردت الأيام أبحثها"؟ وهل علم الإنسان بموته كيف يكون، وفي أي وقت يكون، وفي أي أرض يكون، مما يمكن استدراكه بالنظر والفكر والبحث؟ قلت: مراده رضي الله عنه أي كنت في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله كثيراً عن هذا الغيب، فما أنبأني منه إلا بأمور إجمالية غير مفصلة، ولم يأذن الله تعالى في إطلاعي على تفاصيل ذلك.

قوله: "فالله لا تشركوا به شيئاً" الرواية المشهورة "فالله" بالنصب، وكذلك "محمدًا" بتقدير فعل، لأن الوصية تستدعي الفعل بعدها، أي وحدوا الله، وقد روي بالرفع، وهو جائز على المبتدأ والخبر.

قوله: "أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخلاكم ذم ما لم تشرّدوا"، كلام داخل في باب الاستعارة، شبه الكتاب والسنة بعمودي الخيمة، وبمصباحين يستضاء بهما. وخلاكم ذم: كلمة جارية مجرى المثل، معناها: ولا ذم عليكم، فقد أعذرتكم. وذم، مرفوع بالفاعلية، معناه: عداكم وسقط عنكم.

فإن قلت: إذا لم يشركوا بالله ولم يضيعوا سنة محمد صلى الله عليه وسلم فقد قاموا بكل ما يجب، وانتهوا عن كل ما يقبح، فأبي حاجة له إلى أن يستثني ويقول: "ما لم تشرّدوا"، وإنما كان يحتاج إلى هذه اللفظة لو قال: وصيتي إليكم أن توحّدوا الله، وتؤمنوا بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، كان حينئذ يحتاج إلى قوله: "ما لم تشرّدوا" ويكون مراده بها فعل الواجبات، وتجنب المقبحات، لأنه ليس في الإقرار بالوحدانية والرسالة العمل، بل العمل خارج عن ذلك، فوجب إذا أوصى أن يوصي بالاعتقاد والعمل، كما قال عمر لأبي بكر في واقعة أهل الردة: كيف تقاتلهم وهم مقرون بالشهادتين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمرت بأن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله"، فقال أبو بكر: إنه قال تنمة هذا: "فإذا هم قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها" وأداء الزكاة من حقها! قلت: مراده بقوله: "ما لم تشرّدوا" ما لم ترجعوا عن ذلك فكأنه قال: خلاكم ذم إن وحدتم الله واتبعتم سنة رسوله، ودمتم على ذلك ولا شبهة أن هذا الكلام منتظم، وأن اللفظتين الأوليين ليستا بمغنيين عن اللفظة الثالثة وبتقدير أن يغنيا عنه، فإن في ذكره مزيد تأكيد وإيضاح غير موجودين لو لم يذكر، وهذا كقوله تعالى: "ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون"، وليس لقائل أن يقول: من لا يخشى الله لا يكون مطيعاً لله والرسول، وأي حاجة به إلى ذكر ما قد أغنى

اللفظ الأول عنه! قوله: "حمل كل امرئ مجهوده، وخفف عن الجهلة"، هذا كلام متصل بما قبله، لأنه لما قال: "ما لم تشردوا" أنبأ عن تكليفهم كل ما وردت به السنة النبوية: وأن يدوموا عليه، وهذا في الظاهر تكليف أمور شاقة، فاستدرك بكلام يدل على التخفيف، فقال: إن التكليف على قدر المكلفين، فالعلماء تكليفهم غير تكليف العامة، وأرباب الجهل والمبادئ كالنساء وأهل البادية وطوائف من الناس، الغالب عليهم البلادة وقلة الفهم، كأقاصي الحبشة والترك ونحوهم، وهؤلاء عند المكلفين غير مكلفين، إلا بحمل التوحيد والعدل، بخلاف العلماء الذين تكليفهم الأمور المفصلة وحل المشكلات الغامضة. وقد روي "حمل" على صيغة الماضي، و "بجهوده" بالنصب، و "خفف" على صيغة الماضي أيضاً، ويكون الفاعل هو الله تعالى المقدم ذكره، والرواية الأولى أكثر وأليق.

ثم قال: "رب رحيم" أي ربكم رب رحيم. ودين قويم، أي مستقيم. وإمام عليم، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن الناس من يجعل "رب رحيم" فاعل "خفف" على رواية من رواها فعلاً ماضياً وليس بمستحسن لأن عطف "الدين" عليه يقتضي أن يكون الدين أيضاً مخففاً، وهذا لا يصح، ثم دعا لنفسه ولهم بالغفران.

ثم قسم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبلية قسمه حسنة، فقال: "أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عبرة لكم، وغداً مفارقكم" إنما كان عبرة لهم لأنهم يرونه بين أيديهم ملقى صريعاً بعد أن صرع الأبطال، وقتل الأقران، فهو كما قال الشاعر:

أكال أشلاء الفوارس بالقنا

أضحى بهن وشلوه مأكول

ويقال: دحضت قدم فلان، أي زلت وزلقت، ثم شبه وجوده في الدنيا بأفياء الأغصان ومهاب الرياح وظلال الغمام، لأن ذلك كله سريع الانقضاء لإثبات له.

قوله: "اضمحل في الجو متلفقها، وعفا في الأرض مخطها"، اضمحل ذهب، والميم زائدة، ومنه الضحل وهو الماء القليل "واضمحل السحاب: تقشع وذهب، وفي لغة الكلايين امضحل الشيء بتقديم الميم. ومتلفقها: مجتمعتها، أي ما اجتمع من الغيوم في الجو، والتلفيق: الجمع: وعفا: درس، ومخطها: أثرها، كالخطة. قوله: "وإنما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً"، في هذا الكلام إشعار بما يذهب إليه أكثر العقلاء من أمر النفس، وأن هوية الإنسان شيء غير هذا البدن.

وقوله: "ستعقبون مني" أي إنما تجدون عقيب فقدي جثة، يعني بدنًا خلاء، أي لا روح فيه، بل قد أقفر من تلك المعاني التي كنتم تعرفونها وهي العقل والنطق والقوة وغير ذلك. ثم وصف تلك الجثة فقال: "ساكنة بعد حراك" بالفتح، أي بعد حركة "وصامتة بعد نطق". وهذا الكلام أيضاً يشعر بما قلناه من أمر النفس، بل يصرح بذلك، ألا تراه قال: "ستعقبون مني جثة"، أي تستبدلون بي جثة صفتها كذا، وتلك الجثة جثته رضي الله عنه، ومحال أن يكون العوض والمعوض عنه واحداً، فدل على أن هويته رضي الله عنه التي أعقبنا منها الجثة غير الجثة. قوله: "ليعظكم هدوي"، أي سكوبي، وخفوت إطراقي، مثله خفت خفوتاً سكن، وخفت خفاتاً مات فجأة، وإطراقه:

إرخاؤه عينيه ينظر إلى الأرض، لضعفه عن رفع جفنه، وسكون أطرافه: يدها ورجلاه ورأسه رضي الله عنه. قال: "فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ، والقول المسموع"، وصدق رضي الله عنه! فإن خطباً آخرس ذلك اللسان، وهد تلك القوى لخطب جليل، ويجب أن يتعظ العقلاء به. وما عسى يبلغ قول الواعظين بالإضافة إلى من شاهد تلك الحال، بل بالإضافة إلى من سمعها، وأفكر فيها، فضلاً عن مشاهدتها عياناً! وفي هذا الكلام شبه من كلام الحكماء الذين تكلموا عند تابوت الإسكندر فقال أحدهم: حركنا بسكونه.

وقال الآخر: قد كان سيفك لا يجف، وكانت مراقبك لا ترام، وكانت نقماتك لا تؤمن، وكانت عطايك يفرح بها، وكان ضياؤك لا ينكشف، فأصبح ضوءك قد خمد، وأصبحت نقماتك لا تخشى، وعطايك لا ترجى، ومراقبك لا تمنع، وسيفك لا يقطع.

وقال الآخر: انظروا إلى حلم المنام كيف انجلي، وإلى ظل الغمام كيف انسلى! وقال آخر: ما كان أحوجه إلى هذا الحلم، وإلى هذا الصبر والسكون أيام حياته! وقال آخر: القدرة العظيمة التي ملأت الدنيا العريضة الطويلة، طويت في ذراعين. وقال الآخر: أصبح أسر الأسراء أسيراً، وقاهر الملوك مقهوراً. كان بالأمس مالكا، فصار اليوم هالكا. ثم قال رضي الله عنه: "ودعتكم وداع امرئ مرصداً للتلاقي"، أرصدته لكذا، أي أعددته له، وفي الحديث: "إلا أن أرصده لدين علي". والتلاقي ههنا: لقاء الله. ويروى: "وداعيكم" أي وداعي إياكم، والوداع مفتوح الواو. ثم قال: "غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفوني بعد خلو مكاني، وقيام غيري مقامي"، هذا معنى قد تداوله الناس قديماً وحديثاً، قال أبو تمام:

فارغة الأيدي ملاء القلوب

راحت وفود الأرض عن قبره

يعرف قدر الشمس بعد الغروب

قد علمت ما رزئت إنما

وقال أبو الطيب:

وبضدها تتبين الأشياء

ونذمهم وبهم عرفنا فضله

ومن أمثالهم: "الضد يظهر حسنه الضد".

ومنها أيضاً: "لولا مرارة المرض لم تعرف حلاوة العافية".

وإنما قال رضي الله عنه: "ويكشف لكم عن سرائري"، لأنهم بعد فقدته وموته يظهر لهم ويثبت عندهم إذا رأوا وشاهدوا إمرة من بعده، أنه إنما كان يريد بتلك الحروب العظيمة وجه الله تعالى، وألا يظهر المنكر في الأرض، وإن ظن قوم في حياته أنه كان يريد الملك والدنيا.

ومن خطبة له رضي الله عنه ويومئذ فيها إلى الملاحم

الأصل: وأخذوا يميناً وشمالاً ظعنوا في مسالك الغي، وتركوا لمذاهب الرشد، فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصداً، ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد، فكم من مستعجل بما إن أدركه ود أنه لم يدركه. وما أقرب اليوم من تبشير غد! يا قوم، هذا

إبان ورود كل موعود، ودنو من طلعة ما لا تعرفون. ألا وإن من أدركها منا يسري فيها بسراج منير، ويجذو فيها على مثال الصالحين، ليحل فيها ربكاً، وعتق فيها ربكاً، ويصدع شعباً، ويشعب صدعاً، في ستره عن الناس، لا يبصر القائف أثره، ولو تابع نظره، ثم ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل، تجلى بالتزليل أبصارهم، ويرمى بالتفسير في مسامعهم، ويغبقون كأس الحكمة بعد الصبح.

الشرح: يذكر رضي الله عنه قوماً من فرق الضلال أخذوا يميناً وشمالاً، أي ضلوا عن الطريق الوسطى التي هي منهاج لكتاب والسنة، وذلك لأن كل فضيلة وحق فهو محبوس بطرفين خارجين عن العدالة، وهما جانب الإفراط والتفريط، كالفتانة التي هي محبوسة بالجزيرة والغاوة، والشجاعة التي هي محبوسة بالتهور والجبن، والجلود المحبوس بالتبذير والشح، فمن لم يقع على الطريق الوسطى وأخذ يميناً وشمالاً فقد ضل. ثم فسر قوله: "أخذ يميناً وشمالاً"، فقال، "ظعنوا ظعنًا في مسالك الغي، وتركوا مذاهب الرشد تركاً". ونصب "تركا" و "ظعنًا" على المصدرية، والعامل فيهما من غير لفظهما، وهو قوله: "أخذوا". ثم نهاهم عن استعجال ما هو معد، ولا بد من كونه ووجوده، وإنما سماه كائناً لقرب كونه، كما قال تعالى: إنك ميت وإنهم ميتون، ونهاهم أن يستبطنوا ما يحيى في الغد لقرب وقوعه، كما قال: وإن غداً للناظرين قريب.

وقال الآخر: غد ما غد ما أقرب اليوم من غد.

وقال تعالى: "إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب".

ثم قال: "كم من مستعجل أمراً" ويحرص عليه، فإذا حصل ود أنه لم يحصل! قال أبو العتاهية:

ء من الأمور وما يسر

من عاش لاقى مايسو

ذهب وياقوت ودر

ولرب حتف فوقه

وقال آخر:

فكم أمنية جلبت منيه

فل تتمنين الدهر شيئاً

وقال تعالى: "وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون". وتباشير الصبح: أوائله. ثم قال: "يا قوم قد دنا وقت القيامة، وظهور الفتن التي تظهر أمامها.

وإبان الشيء، بالكسر والتشديد: وقته وزمانه، وكنى عن تلك الأهوال بقوله: "ودنو من طلعة ما لا تعرفون"، لأن تلك الملاحم والأشراط الهائلة غير معهود مثلها، نحو دابة الأرض، والدجال وفتنته، وما يظهر على يده من المخاريق والأمور الموهمة، وواقعة السفياي وما يقتل فيها من الخلائق الذين لا يحصى عددهم.

ثم ذكر أن مهدي آل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي عني لقوله، "وإن من أدركها منا يسري في ظلمات هذه الفتن بسراج منير"، وهو المهدي، وأتباع الكتاب والسنة، ويجذو فيها: يقتفي ويتبع مثال الصالحين، ليحل في هذه الفتن وربكاً: أي حبلاً معقوداً، ويعتق رقاً، أي يستفك أسرى، وينقذ مظلومين من أيدي ظالمين، ويصدع شعباً، أي يفرق

جماعة من جماعات الضلال. ويشعب صدعاً: يجمع ما تفرق من كلمة أهل الهدى والإيمان.

قوله رضي الله عنه: "في سترة عن الناس"، هذا الكلام يدل على استتار هذا الإنسان المشار إليه، وليس ذلك بنافع للإمامية في مذهبهم، وإن ظنوا أنه تصريح بقولهم وذلك لأنه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله تعالى في آخر الزمان، ويكون مستتراً مدة، وله دعاة يدعون إليه، ويقررون أمره، ثم يظهر بعد ذلك الاستتار ويملك الممالك ويقهر الدول ويمهد الأرض كما ورد في قوله: "لا يبصر القائف"، أي هو في استتار شديد لا يدركه القائف، وهو الذي يعرف الآثار، والجمع "قافة"، ولا يعرف أثره ولو استقصى في الطلب وتابع النظر والتأمل.

ويقال: شحذت السكين أشحذه شحذاً، أي حدته، يريد: ليحرضن في هذه الملاحم قوم على الحرب وقتل أهل الضلال، ولتشحذن عزائمهم كما يشحذ الصيقل السيف، ويرقق حده.

ثم وصف هؤلاء القوم المشحوزي العزائم فقال: تجلى بصائرهم بالتريل، أي يكشف الرين والغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن وإلهامهم تأويله ومعرفة أسرارهم.

ثم صرح بذلك فقال: "ويرمى بالتفسير في مسامعهم"، أي يكشف لهم الغطاء، وتخلق المعارف في قلوبهم، ويلهمون فهم الغوامض والأسرار الباطنة، ويغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح، أي لا تزال المعارف الربانية والأسرار الإلهية تفيض عليهم صباحاً ومساءً، فالغبوق كناية عن الفيض الحاصل لهم في الآصال، والصبوح كناية عما يحصل لهم منه في الغدوات، وهؤلاء هم العارفون الذين جمعوا بين الزهد والحكمة والشجاعة، وحقيق بمثلهم أن يكونوا أنصاراً لولي الله الذي يجتبيه ويخلقه في آخر أوقات الدنيا، فيكون خاتمة أوليائه، والذي يلقي عصا التكليف عنده.

الأصل: منها: وطال الأمد بهم ليستكملوا الخزي، ويستوجبوا الغير، حتى إذا اخلوق الأجل، واستراح قوم إلى الفتن، واشتالوا عن لقاح حربهم، لم يمنوا على الله بالصبر، ولم يستعظموا بذل أنفسهم في الحق، حتى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدة البلاء، حملوا بصائرهم على أسياهم، ودانوا لرهم بأمر واعظهم.

الشرح: هذا الكلام يتصل بكلام قبله، لم يذكره رضي رحمه الله، وهو وصف فئة ضالة قد استولت وملكت، وأملى لها الله سبحانه. قال رضي الله عنه: وطال الأمد بهم ليستكملوا الخزي، ويستوجبوا الغير، أي النعم التي يغيرها بهم من نعم الله سبحانه، كما قال: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً"، وكما قال تعالى: "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون".

حتى إذا اخلوق الأجل، أي قارب أمرهم الانقضاء، من قولك: اخلوق السحاب، أي استوى، وصار خليقاً بأن يعطر، واخلوق الرسم: استوى مع الأرض.

واستراح قوم إلى الفتن، أي صبا قوم من شيعتنا وأوليائنا إلى هذه الفتنة، واستراحوا إلى ضلالها وفتنتها، واتبعوها.

واشتالوا عن لقاح حربهم، أي رفعوا أيديهم وسيوفهم عن أن يشبوا الحرب بينهم وبين هذه الفتنة، مهادة لها وسلاماً وكرامية للقتال، يقال: شال فلان كذا، أي رفعه، واشتال "افتعل" هو في نفسه، كقولك: حجم زيد عمراً، واحتجم هو نفسه. ولقاح حربهم: هو بفتح اللام، مصدر من لقحت الناقة.

قوله: "لم يمنوا"، هذا جواب قوله: "حتى إذا"، والضمير في "يمنوا" راجع إلى العارفين الذين تقدم ذكرهم في الفصل السابق ذكره، يقول: حتى إذا ألقى هؤلاء السلام إلى هذه الفئة عجزاً عن القتال، واستراحوا من منابذهم بدخولهم في ضلالتهم وفتنتهم، إما تقية منهم، أو لشبهة دخلت عليهم، أنفض الله تعالى هؤلاء العارفين الشجعان الذين خصهم بحكمته، وأطلعهم على أسرار ملكوته فنهضوا، ولم يمنوا على الله تعالى بصبرهم، ولم يستعظموا أن ييذلوا في الحق نفوسهم، قال: حتى إذا وافق قضاء الله تعالى وقدره كي ينهض هؤلاء بقضاء الله وقدره في انقضاء مدة تلك الفئة، وارتفاع ما كان شمل الخلق من البلاء بملكها وإمرتها، حمل هؤلاء العارفون بصائرهم على أسيافهم. وهذا معنى لطيف، يعني أنهم أظهروا بصائرهم وعقائدهم وقلوبهم للناس، وكشفوها وجردوها من أجفائها، مع تجريد السيوف من أجفائها، فكأنها شيء محمول على السيوف يصره من يصير السيوف، ولا ريب أن السيوف المجردة من أجلى الأجسام للأبصار، فكذلك ما يكون محمولاً عليها، ومن الناس من فسر هذا الكلام، فقال: أراد بالبصائر جمع بصيرة، وهو الدم، فكأنه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التي سفكتها هذه الفئة، وكأن تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم التي جردوها للحرب، وهذا اللفظ قد قاله بعض الشعراء المتقدمين بعينه:

وبصيرتي يعدو بها عتد وأى

راحوا بصائرهم على أكتافهم

فسره أبو عمرو بن العلاء، فقال: يريد أنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم، أي لم يتأروا به، وأنا طلبت ثأري. وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يقول في هذا البيت: البصيرة: الترس أو الدرع، ويرويه: "حملوا بصائرهم". الأصل: حتى إذا قبض الله رسوله رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السبل، واتكلوا على الولايج، ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي أمروا بمودته، ونقلوا البناء عن رص أساسه، فبنوه في غير موضعه. معادن كل خطيئة، وأبواب كل ضارب في غمرة. قد ماروا في الحيرة، وذهلوا في السكر، على سنة من آل فرعون، من منقطع إلى الدنيا راكن، أو مفارق للدين مباين.

الشرح: رجعوا على الأعقاب: تركوا ما كانوا عليه، قال سبحانه: "ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً". وغالتهم السبل: أهلكهم اختلاف الآراء والأهواء، غاله كذا، أي أهلكه، والسبل: الطرق، والولايج: جمع وليجة، وهي البطانة يتخذها الإنسان لنفسه، قال سبحانه: "و لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة". ووصلوا غير الرحم، أي غير رحم رسول صلى الله عليه وسلم، فذكرها رضي الله عنه ذكراً مطلقاً غير مضاف للعلم بها، كما يقول القائل: "أهل البيت"، فيعلم السامع أنه أراد أهل بيت الرسول.

وهجروا السبب، يعني أهل البيت أيضاً، وهذه إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "خلفت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض، لا يفترقان حتى يردا علي الحوض"، فعبير أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ "السبب" لما كان النبي صلى الله عليه وسلم قال: "حبلان"، والسبب في اللغة: الحبل. عني بقوله: "أمروا بمودته" قول الله تعالى: "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى".

قوله "ونقلوا البناء عن رص أساسه"، الرص مصدر رصت الشيء أرصه، أي ألصقت بعضه ببعض، ومنه قوله تعالى: "كأنهم بنيان مرصوص وتراص القوم في الصف، أي تلاصقوا. فبنوه في غير موضعه! ونقلوا الأمر عن أهله إلى غير أهله. ثم ذمهم رضي الله عنه، وقال: "إنهم معادن كل خطيئة، وأبواب كل ضارب في غمرة"، الغمرة: الضلال والجهل. والضارب فيها: الداخل المعتقد لها.

قد ماروا في الحيرة، مار يمر إذا ذهب وجاء، فكأنهم يسبحون في الحيرة كما يسبح الإنسان في الماء، وذهل فلان بالفتح، يذهل. على سنة من آل فرعون، أي على طريقة، وآل فرعون: أتباعه، قال تعالى: "أدخلوا آل فرعون أشد العذاب". من منقطع إلى الدنيا: لا هم له غيرها. راكن: مخلص إليها، قال الله تعالى: "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا". أو مفارق للدين مباين: مزابل.

فإن قلت: أي فرق بين الرجلين؟ وهل يكون المنقطع إلى الدنيا إلا مفارقاً للدين؟ قلت: قد يكون في أهل الضلال من هو مفارق للدين مباين، وليس براكن إلى الدنيا ولا منقطع إليها، كما نرى كثيراً من أحبار النصارى ورهبانهم. فإن قلت: أليس هذا الفصل صريحاً في تحقيق مذهب الإمامية؟ قلت: لا، بل نحمله على أنه عن رضي الله عنه أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم من أفناء العرب، في أيام صفين، وهم الذين نقلوا البناء وهجروا السبب ووصلوا غير الرحم واتكلوا على اللواتج وغالتهم السبل ورجعوا على الأعقاب، كعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة، وحبيب بن مسلمة، وبسر بن أرطاة، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وحوشب، وذو الكلاع، وشرحبيل بن السمط، وأبي الأعور السلمي، وغيرهم ممن تقدم ذكرنا له في الفصول المتعلقة بصفين وأخبارها، فإن هؤلاء نقلوا الإمامة عنه رضي الله عنه إلى معاوية، فنقلوا البناء عن رص أصله إلى غير موضعه.

فإن قلت: لفظ الفصل يشهد بخلاف ما تأولته، لأنه قال رضي الله عنه: "حتى إذا قبض الله رسوله رجع قوم على الأعقاب، فجعل رجوعهم على الأعقاب عقيب قبض الرسول صلى الله عليه وسلم، وما ذكرته أنت كان بعد قبض الرسول بنيف وعشرين سنة! قلت: ليس يمتنع أن يكون هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب، لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأضمرُوا في أنفسهم مشاقة أمير المؤمنين وأذاه، وقد كان فيهم من يتحرك به في أيام أبي بكر وعمر وعثمان، ويتعرض له، ولم يكن أحد منهم ولا من غيرهم يقدم على ذلك في حياة رسول الله. ولا يمتنع أيضاً أن يريد رجوعهم على الأعقاب ارتدادهم عن الإسلام بالكلية، فإن كثيراً من أصحابنا يطعنون في إيمان بعض من ذكرناه ويعدونهم من المنافقين، وقد كان سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمعهم ويردعهم عن إظهار ما في أنفسهم من النفاق، فأظهر قوم منهم بعده ما كانوا يضمرونه من ذلك، خصوصاً فيما يتعلق بأمر المؤمنين، الذي ورد في حقه: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله إلا ببعض علي بن أبي طالب"، وهو خير محقق مذكور في الصحاح.

فإن قلت: يمتنعك من هذا التأويل قوله: "ونقلوا البناء عن رص أساسه، فجعلوه في غير موضعه"، وذلك لأن "إذا" ظرف والعامل فيها قوله: "رجع قوم على الأعقاب" وقد عطف عليه قوله: "ونقلوا البناء" فإذا كان الرجوع على الأعقاب واقعاً في الظرف المذكور، وهو وقت قبض الرسول، وجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في ذلك الوقت أيضاً، لأن

أحد الفعلين معطوف على الآخر، ولم ينقل أحد وقت قبض الرسول صلى الله عليه وسلم البناء إلى معاوية عن أمير المؤمنين رضي الله عنه وإنما نقل عنه إلى شخص آخر، وفي إعطاء العطف حقه إثبات مذهب الإمامية صريحاً! قلت: إذا كان الرجوع على الأعقاب واقعاً وقت قبض النبي صلى الله عليه وسلم فقد قمنا بما يجب من وجود عامل في الظرف، ولا يجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في تلك الحال أيضاً، بل يجوز أن يكون واقعاً في زمان آخر إما بأن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، أو بأن تكون للعطف في مطلق الحدث لا في وقوع الحدث في عين ذلك الزمان المخصوص، كقوله تعالى: "حتى إذا أتيا أهل قرية أستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه فالعامل في الظرف "استطعما" ويجب أن يكون استطعماهما وقت إتيانهما أهلها لا محالة. ولا يجب أن تكون جميع الأفعال المذكورة المعطوفة واقعة حال الإتيان أيضاً ألا ترى أن من جملتها "فأقامه" ولم يكن إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراحياً عنه بزمان ما اللهم إلا أن يقول قائل: أشار بيده إلى الجدار فقام، أو قال له: قم فقام، لأنه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارناً للإتيان إلا على هذا الوجه وهذا لم يكن، ولا قاله مفسر ولو كان قد وقع على هذا الوجه لما قال له: "لو شئت لاتخذت عليه اجراً لأن الأجر إنما يكون على اعتمال عمل فيه مشقة وإنما يكون فيه مشقة إذا بناه بيده، وبأشره بجوارحه وأعضائه.

واعلم أنا نحمل كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه على ما يقتضيه سؤده الجليل، ومنصبه العظيم، ودينه القويم، من الإغضاء عما سلف ممن سلف، فقد كان صاحبهم بالمعروف برهة من الدهر، فإذا أن يكون ما كانوا فيه حقهم أو حقه، فتركه لهم رفعاً لنفسه عن المنازعة، أو لما رآه من المصلحة، وعلى كلا التقديرين فالواجب علينا أن نطبق بين آخر أفعاله وأقواله بالنسبة إليهم وبين أولها، فإن بعد تأويل ما يتأوله من كلامه، ليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد والعدل الآيات المتشابهة في القرآن، ولم يجمع بعدها من الخوض في تأويلها محافظة على الأصول المقررة، فكذلك ههنا.

ومن خطبة له رضي الله عنه في التحذير من الفتن

الأصل: وأستعينه على مدارح الشيطان ومزاجه، والاعتصام من حباله ومخائله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ونجييه وصفوته، لا يؤازري فضله، ولا يجير فقده، أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة، والجفوة الحافية والناس يستحلون الحريم، ويستذلون الحكيم يحيون على فترة، ويموتون على كفرة. ثم إنكم معشر العرب أغراض بلايا قد اقتربت، فاتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النعمة، وتثبتوا في قتام العشوة، واعوجاج الفتنة، عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قطبها، ومدار رحاها، تبدأ في مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جليلة، شباها كشباب الغلام، وآثارها كأثار السلام، يتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأولهم، يتنافسون في دنيا دنية، ويتكالبون على جيفة مريخة، وعن قليل يترأ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللقاء. ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، والقاصمة الزخوف، فترغ قلوب بعد استقامة، وتضل رجال بعد سلامة، وتختلف الأهواء عند هجومها، وتلبس الآراء عند نجومها.

من أشرف لها قصمته، ومن سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة. قد اضطرب معقود الحبل وعمي وجه الأمر، تغيض فيها الحكمة، وتنطق فيها الظلمة، وتدق أهل البدو. عمسحلها، وترضهم بكلكلها، يضيع في غبارها ألوحدان، ويهلك في طريقها الركبان، ترد بحر القضاء، وتحلب عبيط الدماء، وتثلم منار الدين، وتنقض عقد اليقين، يهرب منها الأكياس، ويدبرها الأرجاس. مرعاد مبراق، كاشفة عن ساق، تقطع فيها الأرحام، ويفارق عليها الإسلام، بريئها سقيم، وظاعنها مقيم.

الشرح: مداحر الشيطان: الأمور التي يدحر بها. أي يطرد ويبعد، دحرته أدره دحوراً، قال تعالى: "دحوراً ولهم عذاب واصب"، وقال سبحانه: "أخرج منها مذءوماً مدحوراً"، أي مقصي. ومزاجره: الأمور يزجر بها، جمع مزجر ومزجرة، وكثيراً ما يبيي رضي الله عنه من الأفعال "مفعلاً" و "مفعلة" ويجمعه، وإذا تأملت كلامه عرفت ذلك.

وحبائل الشيطان: مكائده وأشراكه التي يضل بها البشر. ومخاتله: الأمور التي يختل بها بالكسر، أي يخدع، لا يؤازي فضله: لا يساوي، واللفظة مهموزة، آزيت فلاناً، حاذيته، ولا يجوز "وازيته". ولا يجبر فقده: لا يسد أحد مسده بعده. والجفوة الجافية: غلظ الطبع وبلادة الفهم، ويستدلون الحكيم: يستضيئون لعقلاء، واللام ههنا للجنس، كقوله: "وجاء ربك والملك صفاً صفاً"، يحيون على فترة: على انقطاع الوحي ما بين نبوتين، ويموتون على كفرة بالفتح، واحدة الكفريات، كالضربة واحدة الضربات. ويروى: "ثم إنكم معشر الناس". والأغراض: الأهداف. وسكرات النعمة: ما تحدثه النعم عند أربابها من الغفلة المشاهدة للسكر، قال الشاعر:

ء بها صار عرضة للزمان

خمس سكرات إذا مني المر

وسكر الشراب والسلطان

سكرة المال والحدائث والعشق

ومن كلام الحكماء: "للوالى سكرة لا يفيق منها إلا بالعزل. والبوائق: الدواهي، جمع بائقة، يقال: باقتهم الداهية بوقاً، أي أصابتهم، وكذلك: باقتهم بؤوق على "فعل"، وابتاقت عليهم بائقة شر، مثل انباحث، أي انفتقت، وانباق عليهم الدهر: هجم بالداهية، كما يخرج الصوت من البوق، وفي الحديث: "لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه"، أي غوائله وشره.

والقتام، بفتح القاف: الغبار. والأقتم: الذي يعلوه قتمة، وهو لون فيه غبرة وخمرة، والعشوة، بكسر العين: ركوب الأمر على غير بيان ووضوح. ويروى: "وتبينوا في قتام العشوة" كما قرئ: "إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" و "فتثبتوا". واعوجاج الفتنة: أخذها في غير القصد، وعدولها عن المنهج.

ثم كنى عن ظهور المستور المخفي منها بقوله: "عند طلوع جبينها، وظهور كمينها"، والجنين: الولد ما دام في البطن، والجمع أجنة، ويجوز ألا يكون الكلام كناية بل صريحاً، أي عند طلوع ما استجن منها، أي استتر وظهور ما كمن، أي

ما بطن.

وكنى عن استحكام أمر الفتنة بقوله: "وانتصاب قطبها، ومدار رحاها".

ثم قال: إنها تبدو يسيرة، ثم تصير كثيرة.

والفضاعة. مصدر فطع بالضم، فهو فطيع أي شديد شنيع تجاوز المقدار، وكذلك أفضع الرجل فهو مفضع، وافطع الرجل على ما لم يسم فاعله: نزل به أمر عظيم، وأفضعت الشيء: وجدته فطيحاً، ومثله استفضعته، وهذا المعنى كما قال الشاعر:

ر من الأمور لك الصغير

ولربما هاج الكبي

وفي المثل: "والشر تبدو صغاره"، وقال الشاعر:

وإن الحرب أولها كلام

فإن النار بالعودين تذكى

وقال أبو تمام:

كم مطر بدؤه مطير

رب قليل جدا كثيراً

وقال أيضاً:

كم بذى الأسل دوحة من قضيب

لا تذلين صغير همك وانظر

قوله: "شبابها كشباب الغلام" بالكسر، مصدر شب الفرس والغلام يشب ويشب شباباً وشبيهاً، إذا قمص ولعب، وأشبيته أنا، أي هيئته.

والسلام: الحجارة جمع واحدة سلمة بكسر اللام، يذكر الفتنة، ويقول: إنها تبدو في أول الأمر وأربابها يمرحون ويشبون كما يشب الغلام ويمرح، ثم تؤول إلى أن تعقب فيهم آثاراً، كآثار الحجارة في الأبدان، قال الشاعر:

أولها التخيل والنشاط

والحب مثل الحرب

ق النكر والضرب القطار

وختامها أم الربى

ثم ذكر أن هذه الفتنة يتوارثها قوم من قوم، وكلهم ظالم، أولهم يقود آخرهم كما يقود الإنسان القطار من الإبل وهو أمامها وهي تتبعه. وآخرهم يقتدي بأولهم، أي يفعل فعله ويجزو حذوه.

وجيفة مريجة: منتنة، أراحت: ظهر ريجها. ويجوز أن تكون من أراح البعير، أي مات، وقد جاء في أراح بمعنى أنتن راح بلا همز.

ثم ذكر تبرؤ التابع من المتبوع، يعني يوم القيامة.

فإن قلت: إن الكتاب العزيز إنما ذكر تبرؤ المتبوع من التابع في قوله: "إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب"، وههنا قد عكس ذلك، فقال: إن التابع يتبرأ من المتبوع! قلت: إنه قد ورد في الكتاب العزيز مثل ذلك، في قوله: "أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون". قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً"، فقولهم: "لم نكن ندعو من قبل شيئاً" هو التبرؤ، وهو قوله حكاية عنهم: "والله ربنا ما كنا مشركين"، وهذا هو التبرؤ.

ثم ذكر رضي الله عنه أن القائد يتبرأ من المقود، أي يتبرأ المتبوع من التابع فيكون كل من الفريقين تبرأ من صاحبه، كما قال سبحانه: "ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً"، ويتزايلون: يتفرقون.

قوله: "ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف". طالعها: مقدماتها وأوائلها وسماها رجوفاً، لشدة الاضطراب فيها.

فإن قلت: ألم تكن قلت: إن قوله: "عن قليل يتبرأ التابع من المتبوع" يعني به يوم القيامة، فكيف يقول: ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة" وهذا إنما يكون قبل القيامة! قلت: إنه لما ذكر تنافس الناس على الجيفة المنتنة وهي الدنيا، أراد أن يقول بعده بلا فصل: "ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف"، لكنه لما تعجب من تراحم الناس وتكالبهم على تلك الجيفة، أراد أن يؤكد ذلك التعجب، فأتى بجملة معترضة بين الكلامين. تؤكد معنى تعجبه منهم، فقال: إنهم على ما قد ذكرنا من تكالبهم عليها، عن قليل يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وذلك أدعى لهم لو كانوا يعقلون إلى أن يتركوا التكالب والتهاresh على هذه الجيفة الخسيسة. ثم عاد إلى نظام الكلام، فقال: ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، ومثل هذا الاعتراض في الكلام كثير، وخصوصاً في القرآن، وقد ذكرنا منه فيما تقدم طرفاً.

قوله: والقاصمة الرخوف القاصمة: الكاسرة، وسماها زحوفاً تشبيهاً لمشيتها قدماً بمشي الدب الذي يهلك الزروع ويبيدها، والزحف: السير على تؤدة كسير الجيوش بعضها إلى بعض.

قوله: وتزيغ قلوب أي تميل، وهذه اللفظة والتي بعدها دالتان على خلاف ما تذهب إليه الإمامية من أن المؤمن لا يكفر، وناصرتان لمذهب أصحابنا، ونجومها: مصدر نجم إذا ظهر.

من أشرف لها: من صادمها وقابلها. ومن سعى فيها، أي في تسكينها وإطفائها، وهذا كله إشارة إلى الملحمة الكائنة في آخر الزمان، والتكادم: التعاض بأدق الفم، كما يكدم الحمار، ويقال: كدم يكدم، والمكدم: المعض، والعانة: القطيع من حمر الوحش، والجمع عون، تغيض فيها الحكمة: تنقص.

فإن قلت: ليس قوله: وتنطق فيها الظلمة واقعاً في نقيض قوله: تغيض فيها الحكمة، فأين هذا من الخطابة التي وفيها نسيج وحده! قلت: بل المناقضة ظاهرة، لأن الحكمة إذا غاضت فيها لم ينطق بها أحد ولا بد من نطق ما، فإذا لم تنطق الحكماء وجب أن يكون النطق لمن ليس من الحكماء فهو من الظلمة، فقد ثبت التناقض.

والمسحل: المبرد. يقول: تحت أهل البدو وتسحتهم كما يسحت الحديد أو الخشب بالمبرد. وأهل البدو: أهل البادية، ويجوز أن يريد بالمسحل الحلقة التي في طرف شكيم اللجام المعترضة بإزاء حلقة أخرى في الطرف الآخر، وتدخل إحدهما في الأخرى، بمعنى أن هذه الفتنة تصدم أهل البدو بمقدمة جيشها كما يصدم الفارس الراحل أمامه بمسحل لجام فرسه، والكلكل: الصدر. وترضهم: تدقهم دقاً جريشاً.

قوله: تضيع في غبارها الوجدان، جمع واحد، مثل شاب وشبان، وراع ورعيان، ويجوز الأحدان بالهمز، أي من كان يسير وحده فإنه يهلك بالكلية في غبارها، وأما إذا كانوا جماعة ركباناً فإنهم يضلون، وهو أقرب من الهلاك، ويجوز أن يكون الوجدان جمع أوجد، يقال: فلان أوجد الدهر، وهؤلاء الوجدان أو الأحدان، مثل أسود وسودان، أي يضل في هذه الفتنة، وضلالها الذي كنى عنه بالغبار فضلاء عصرها وعلماء عهدها، لغموض الشبهة واستيلاء الباطل على أهل وقتها.

ويكون معنى الفقرة الثانية على هذا التفسير أن الراكب الذي هو بمظنة النجاة لا ينجو. والركبان: جمع راكب، ولا

يكون إلا ذا بعير. قوله: ترد بمر القضاء، أي بالبور والهلاك والاستئصال.

فإن قلت: أيجوز أن يقال للفتنة القبيحة: إنها من القضاء؟

قلت: نعم، لا بمعنى الخلق بل بمعنى الإعلام، كما قال سبحانه: "وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن"، أي أعلمناهم، أي ترد هذه الفتنة بإعلام الله تعالى لمن يشاء إعلامه من المكلفين أنها أم اللهيم التي لا تبقي ولا تذر، فذلك الإعلام هو المر الذي لا يبلغ الوصف مرارته، لأن الإخبار عن حلول المكروه الذي لا مدفع عنه ولا محيص منه، مرجداً. قوله: وتحلب عبيط الدماء، أي هذه الفتنة يحلبها الحالب دماً عبيطاً، وهذه كناية عن الحرب، وقد قال رضي الله عنه في موضع آخر: أما والله ليحلبنها دماً، ولتبعنهن ندماً، والعبيط: الدم الطري الخالص، وثلمت الإناء، أثلمه بالكسر، والأكياس: العقلاء، والأرجاس: جمع رجس، وهو القذر والنجس، والمراد ههنا الفاسقون، فإما أن يكون على حذف المضاف، أي ويدبرها ذوو الأرجاس، أو أن يكون جعلهم الأرجاس أنفسهم، لما كانوا قد أسرفوا في الفسق، فصاروا كأهم الفسق والنجاسة نفسها كما يقال: رجل عدل، ورجل رضا.

قوله: مرعاد مبراق، أي ذات وعيد وتهدد، ويجوز أن يعني بالرعد صوت السلاح وقعته، وبالبرق لونه وضوءه، وكاشفة عن ساق: عن شدة ومشقة.

قوله: بريئها سقيم، يمكن أن يعني بها أنها لشدها لا يكاد الذي يبرأ منها وينفض يده عنها يبرأ بالحقيقة، بل لا بد أن يستثني شيئاً من الفسق والضلال، أي لشدة التباس الأمر واشتباه الحال على المكلفين حينئذ.

ويمكن أن يعني به أن المارب منها غير ناج، بل لا بد أن يصيبه بعض معرته ومضرته، وظاعنها مقيم، أي ما يفارق الإنسان من أذاها وشرها، فكأنه غير مفارق له، لأنه قد أبقي عنده ندوباً وعقاييل من شرورها وغوائلها.

الأصل: منها: بين قتيل مطلول، وخائف مستجير، يحتلون بعقد الأيمان، وبغور الإيمان، فلا تكونوا أنصاب ألفتين، وأعلام البدع.

وألزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة. وأقدموا على الله مظلومين، ولا تقدموا عليه ظالمين، وأتقوا مدارج الشيطان، ومهابط العدوان، ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام، فإنكم بعين من حرم عليكم المعصية، وسهل لكم سبل الطاعة.

الشرح: يقال دم فلان فهو مطلول، أي مهدر لا يطلب به، ويجوز أطل دمه، وطله الله وأطله: أهدره، ولا يقال: طل دم فلان بالفتح، وأبو عبيدة والكسائي يقولانه.

ويحتلون: يخدعون بالأيمان التي يعقدونها ويقسمون بها، وبالإيمان الذي يظهرونه ويقولون به.

ثم قال: فلا تكونوا أنصار الفتن، وأعلام البدع، أي لا تكونوا ممن يشار إليكم في البدع كما يشار إلى الأعلام المبنية القائمة، وجاء في الخبر المرفوع: كن في الفتنة كابن البون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب، وهذه اللفظة يرونها كثير من الناس لأمر المؤمنين رضي الله عنه .

قوله: واقدموا على الله مظلومين، جاء في الخبر: كن عبد الله المقتول.

ومدارج الشيطان: جمع مدرجة، وهي السبيل التي يدرج فيها. ومهابط العدوان: محاله التي يهبط فيها! ولعق الحرام: جمع

لعقة، بالضم، وهي اسم لما تأخذه الملعقة، واللعقة، بالفتح: المرة الواحدة.
قوله: فإنكم بعين من حرم، يقال: أنت بعين فلان، أي أنت بمرأى منه، وقد قال رضي الله عنه موضع آخر بصفين:
فإنكم لمحجن الله، ومع ابن عم رسول الله، وهذا من باب الاستعارة، قال! سبحانه: "ولتصنع على عيني"، وقال: "تجري بأعيننا".

ومن خطبة له رضي الله عنه في صفات الله وأئمة الدين

الأصل: الحمد لله الدال على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليته، وباشتباههم على أن لا شبه له، لا تستلمه المشاعر، ولا تحجبه السواتر، لا افتراق الصانع والمصنوع، والحاد والمحدود، والرب والمربوب، الأحد بلا تأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصب، والسميع لا بأداة، والبصير لا بتفريق آلة، والشاهد لا بمماساة، والبائن لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة.

بان من الأشياء بالقهر لها، والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له، والرجوع إليه. من وصفه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن عدة فقد أبطل أزله، ومن قال: كيف فقد أستوصفه، ومن قال: أين، فقد حيزه، عالم إذ لا معلوم، ورب إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور.

الشرح: في هذا الفصل أبحاث: أولها في وجوده تعالى، وإثبات أن للعالم صانعاً، وهاتان طريقتان في الدلالة على وجود الأول سبحانه:

إحدهما: الطريقة المذكورة في هذا الفصل، وهي طريقة المتكلمين، وهي إثبات أن الأجسام محدثة، ولا بد للمحدث من محدث.

والثانية: إثبات وجوده تعالى من النظر في نفس الوجود.

وذلك لأن الوجود ينقسم بالاعتبار الأول إلى قسمين: واجب وممكن، وكل ممكن لا بد أن ينتهي إلى الواجب، لأن طبيعة الممكن يمتنع من أن يستقل بنفسه في قوامه، فلا بد من واجب يستند إليه، وذلك الواجب الوجود الضروري الذي لا بد منه، هو الله تعالى.

وثانيها: إثبات أزليته، وبيانه ما ذكره في هذا الفصل، وهو أن العالم مخلوق له سبحانه حادث من جهته، والمحدث لا بد له من محدث، فإن كان ذلك المحدث محدثاً، عاد القول فيه كالقول في الأول، ويتسلسل، فلا بد من محدث قديم، وذلك هو الله تعالى.

وثالثها: أنه لا شبيه له، أي ليس بجسم كهذه الأجسام، وبيانه ما ذكر أيضاً أن مخلوقاته متشابهة، يعني بذلك ما يريده المتكلمون من قولهم: الأجسام متماثلة في الجسمية، وأن نوع الجسمية واحد، أي لا يخالف جسم جسماً بذاته، وإذا كانت متماثلة صح على كل واحد منها ما صح على الآخر، فلو كان له سبحانه شبيه منها أي لو كان جسماً مثلها لوجب أن يكون محدثاً كمثليها، أو تكون قديمة مثله، وكلا الأمرين محال.

ورابعها: أن المشاعر لا تستلمه، وروي لا تلمسه، والمشاعر الحواس، وبيانه أنه تعالى ليس جسم لما سبق، وماليس بجسم

استحال أن تكون المشاعر لامسةً له، لأن إدراك المشاعر مدركاته مقصور على الأجسام وهيئاتها. والاستلام في اللغة: لمس الحجر باليد وتقيله، ولا يهزم، لأن أصله من السلام وهي الحجارة، كما يقال: استنوق الحمل، وبعضهم يهزمه. وخامسها: أن السواتر لا تحجبه، وبيانه أن السواتر والحجب، إنما تحجب ما كان في جهة، وذلك لأنها ذوات أين ووضع فلا نسبة لها، إلى ما ليس من ذوات الأين والوضع.

ثم قال رضي الله عنه: "لافتراق الصانع والمصنوع" إشارة إلى أن المصنوع من ذوات الجهة والصانع متركب عن ذلك، بريء عن المواد، فلا يلزم فيه ما يلزم في ذوات المادة والجهة.

وسادسها: معنى قولنا: إنه أحد، أنه ليس بمعنى العدد كما يقوله الناس: أول العدد أحد وواحد، بل المراد بأحديته كونه لا يقبل التجزؤ، وباعتبار آخر كونه لا ثاني له في الربوبية.

وسابعها: أنه خالق، لا بمعنى الحركة والنصب، وهو التعب، وذلك لأن الخالقين منا يحتاجون إلى الحركة من حيث كانوا أجساماً تفعل بالآلات، والبارئ سبحانه ليس بجسم، ولا يفعل بالآلة، بل كونه قادراً إنما هو لذاته المقدسة، لا لأمر زائد عليها، فلم يكن فاعلاً بالحركة.

وثامنها: أنه سميع، لا بأداة، وذلك لأن حاجتنا إلى الحواس، إنما كانت لأمر يخصنا، وهو كوننا أحياء بحياة حالة في أبعاضنا، والبارئ تعالى حي لذاته، فلم يحتاج في كونه مدركاً إلى الأداة والجارحة.

وتاسعها: أنه بصير لا بتفريق آلة، والمراد بتفريق الآلة ههنا الشعاع الذي باعتباره يكون الواحد منا مبصراً، فإن القائلين بالشعاع يقولون: إنه يخرج من العين أجسام لطيفة هي الأشعة، وتكون آلة للحي في إبصار المبصرات، فيتفرق عليها، فكل جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصراً، والبارئ تعالى بصير لا بشعاع يجعله آلة في الإدراك، ويتفرق على المراتب فيدركها به، وذلك لما قدمناه من أنه حي لذاته، لا بمعنى، فلا يحتاج إلى آلة وأداة ووصلة تكون كالواسطة بينه وبين المدركات.

وعاشرها: أنه الشاهد لا بمماسة، وذلك لأن الشاهد منا هو الحاضر بحسبه عند المشهود، ألا ترى أن من في الصين لا يكون شاهداً من في المغرب، لأن الحضور الجسماني يفتقر إلى القرب، والقرب من لوازم الجسمية، فما ليس بجسم وهو عالم بكل شي - يكون شاهداً من غير قرب ولا مماسة، ولا أين مطلوب.

وحادي عشرها: أنه البائن لا بتراخي مسافة بينونة المفارق عن المادة بينونة ليست أيانية، لأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر بالجهة، فلا جرم كان البارئ تعالى مبايناً عن العالم، لا بمسافة بين الذاتين.

وثاني عشرها: أنه الظاهر لا برؤيه، والباطن لا بلطافة، وذلك لأن الظاهر من الأجسام ما كان مرئياً بالبصر، والباطن منها ما كان لطيفاً جداً، إما لصغره أو لشفافيته، والبارئ تعالى ظاهر للبصائر لا للأبصار، باطن، أي غير مدرك بالحواس لأن ذاته لا تقبل المدركة إلا من حيث كان لطيف الحجم أو شفاف الجرم.

وثالث عشرها: أنه قال: بان من الأشياء بالقهر لها، والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له، والرجوع إليه، هذا هو معنى قول المتكلمين والحكماء، والفرق بينه وبين الموجودات كلها أنه واجب الوجود لذاته، والأشياء كلها ممكنة

الوجود بذواتها، فكلها محتاجة إليه، لأنها لا وجود له إلا به، وهذا هو معنى خضوعها له، ورجوعها إليه. وهو سبحانه غني عن كل شيء، ومؤثر في كل شيء، إما بنفسه، أو بأن يكون مؤثراً فيما هو مؤثر في ذلك الشيء، كأفعالنا، فإنه يؤثر فينا، ونحن نؤثر فيها، فإذا هو قاهر لكل شيء، وقادر على كل شيء. فهذه هي البينونة بينه وبين الأشياء كلها. ورابع محشرها: أنه لا صفة له زائدة على ذاته، ونعني بالصفة ذاتاً موجودة قائمة بذاته، وذلك لأن من أثبت هذه الصفة له فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن عده فقد أبطل أزله، وهذا كلام غامض، وتفسيره أن من أثبت له علماً قديماً أو قدرة قديمة، فقد أوجب أن يعلم بذلك العلم معلومات محدودة، أي محصورة، وكذلك قد أوجب أن يقدر بتلك القدرة على مقدرات محدودة، وهذه المقدمة في كتب أصحابنا المتكلمين مما يذكرونه في تقرير أن العلم الواحد لا يتعلق بمعلومين، وأن القدرة الواحدة لا يمكن أن تتعلق في الوقت الواحد من الجنس الواحد في الحل الواحد إلا بجزء واحد، وسواء فرض هذان المعنيان قديمين أو محدثين، فإن هذا الحكم لازم لهما، فقد ثبت أن من أثبت المعاني القديمة فقد أثبت البارئ تعالى محدود العالمية والقادرية، ومن قال بذلك فقد عده، أي جعله من جملة الجثة المعدودة فيما بيننا كسائر البشر والحيوانات، ومن قال بذلك، فقد أبطل أزله، لأن كل ذات مماثلة لهذه الذوات المحدثة، فإنها محدثة مثلها، والمحدث لا يكون أزلياً.

وخامس عشرها: أن من قال: كيف، فقد استوصفه، أي من قال لزيد: كيف الله؟ فقد استدعى أن يوصف الله بكيفية من الكيفيات، والبارئ تعالى لا تجوز الكيفيات عليه، والكيفيات هي الألوان والطعوم ونحوها، والأشكال والمعاني وما يجري مجرى ذلك، وكل هذا لا يجوز إلا على الأجسام.

فإن قلت: ينبغي أن يقول: فقد وصفه، ولا يقال: فقد استوصفه، لأن السائل لم يستوصف الله، وإنما استوصف صاحبه الذي سأل عن كيفية الله.

قلت: استوصف فهنا بمعنى وصف، كقولك: استغنى زيد عن عمرو، أي غني عنه، واستعلى عليه، أي علا، ومثله كثير. وسادس عشرها: أن من قال: أين فقد حيزه، لأن أين سؤال عن المكان، وليس الله تعالى في مكان، ويأتي أنه في كل مكان. بمعنى العلم والإحاطة.

وسابع عشرها: أنه عالم إذ لا معلوم، ورث إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور، وكل هذا صحيح ومدلول عليه، لأنه عالم فيما لم يزل وليس شيء من الأشياء بموجود، وهو رب كل شيء قبل أن يخلقه، كما تقول إنه سميع بصير قبل أن يدرك المسموعات والمبصرات، أي قبل أن يخلقها، وقادر على الأشياء قبل كونها، لأنه يستحيل حال كونها أن تكون مقدورة، لاستحالة إيجاد الموجود، وقد شرحنا كل هذه المسائل التوحيدية. في كتبنا المصنفة في علم الكلام.

الأصل: منها: قد طلع طالع، ولمع لامع، ولا ح لائح، وأعتدل مائل، وأستبدل الله بقوم قوماً، ويوم يوماً، وانظرنا الغير، انتظر المجدب المطر وإنما الأئمة قوام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده، ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه. إن الله تعالى خصكم بالإسلام، واستخلصكم له، وذلك لأنه أسم سلامة، وجماع كرامة، أصطفى الله تعالى منهجه وبين حججه، من ظاهر علم، وباطن حكم، لا تفنى غرائبه، ولا تنقضي عجائبه، فيه مرايع النعم، ومصابيح الظلم، لا تفتح الخيرات إلا بمفاتيحه، ولا تكشف الظلمات إلا بمصابيحه، قد أحى حماه، وأرعى

مرعاه، فيه شفاء المشتفي، وكفاية المكتفي.

الشرح: هذه خطبة خطب بها بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه، قد طلع طالع، يعني عود الخلافة إليه، وكذلك قوله: "ولمع لامع، ولاح لائح"، كل هذا يراد به معنى واحد، واعتدل مائل، إشارة إلى ما كانت الأمور عليه من الاعوجاج في أواخر أيام عثمان، واستبدل الله بعثمان وشيعته علياً وشيعته، وبأيام ذاك أيام هذا. ثم قال: وانتظرنا الغير انتظار المجدب المطر، وهذا الكلام يدل على أنه قد كان يترصد بعثمان الدوائر، ويرتقب حلول الخطوب بساحته، ليلي الخلافة.

فإن قلت: أليس هو الذي طفق الدنيا، فأين هذا القول من طلاقها؟ قلت: إنه طلق الدنيا أن يقبل منها حظاً دنيوياً، ولم يطلقها، أن ينهى فيها عن المنكرات التي أمره الله تعالى بالنهي عنها، ويقيم فيها الدين الذي أمره الله بإقامته، ولا سبيل له إلى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف إلا بولاية الخلافة.

هل الإمام إذا عمي استحق الخلع،

فإن قلت: أيجوز على مذهب المعتزلة أن يقال: إنه رضي الله عنه كان ينتظر قتل عثمان، انتظار المجدب المطر، وهل هذا إلا محض مذهب الشيعة قلت: إنه رضي الله عنه لم يقل: وانتظرنا قتله وإنما انتظر الغير، فيجوز أن يكون أراد انتظار خلعه وعزله عن الخلافة، فإن علياً رضي الله عنه عند أصحابنا كان يذهب إلى أن عثمان استحق الخلع بإحداثه، ولم يستحق القتل، وهذا الكلام إذا حمل على انتظار الخلع كان موافقاً لمذهب أصحابنا. فإن قلت: أتقول المعتزلة إن علياً كان يذهب إلى فسق عثمان المستوجب لأجله الخلع؟ قلت: كلا! حاشا لله أن تقول المعتزلة ذلك! وإنما تقول إن علياً كان يرى أن عثمان يضعف عن تدبير الخلافة، وأن أهله غلبوا عليه، واستبدوا بالأمر دونه، واستعجزه المسلمون، واستسقطوا رأيه، فصار حكمه حكم الإمام إذا عمي، أو أسره العدو، فإنه ينخلع من الإمامة.

ثم قال رضي الله عنه: "الأئمة قوام الله على خلقه"، أي يقومون بمصالحهم، وقيم المتزل: هو المدير له. قال: "وعرفاؤه على عبادته": جمع عريف، وهو النقيب والرئيس، يقال: عرف فلان بالضم عرافة بالضم، مثل خطب خطابة أي صار عريفاً، وإذا أردت أنه عمل ذلك قلت: عرف فلان علينا سنين، يعرف عرافة بالكسر، مثل كتب يكتب كتابة. قال: "ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه"، هذا إشارة إلى قوله تعالى: "يوم ندعو كل أناس بإمامهم، قال المفسرون: ينادى في الموقف: يا أتباع فلان، ويا أصحاب فلان، فينادى كل قوم بإسم إمامهم، يقول أمير المؤمنين رضي الله عنه: لا يدخل الجنة يومئذ! إلا من كان في الدنيا عارفاً بإمامه، ومن عرفه إمامه في الآخرة، فإن الأئمة تعرف أتباعها يوم القيامة، وإن لم يكونوا رؤوهم في الدنيا، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم يشهد للمسلمين وعليهم، وإن لم يكن رأى أكثرهم، قال سبحانه: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً" وجاء في الخبر المرفوع: "من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية"، وأصحابنا كافة قائلون بصحة هذه القضية، وهي

أنه لا يدخل الجنة إلا من عرف الأئمة، ألا ترى أنهم يقولون: الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان وفلان، ويعدونهم واحداً واحداً، فلو أن إنساناً لا يقول بذلك، لكان عندهم فاسقاً، والفاسق لا يدخل الجنة عندهم أبداً، أعني من مات على فسقه. فقد ثبت أن هذه القضية، وهي قوله رضي الله عنه: "لا يدخل الجنة إلا من عرفهم" قضية صحيحة على مذهب المعتزلة، وليس قوله: "وعرفوه" بمنكر عند أصحابنا، إذا فسرنا قوله تعالى: "يوم ندعو كل أناس بإمامهم" على ما هو الأظهر والأشهر من التفسيرات، وهو ما ذكرناه. وبقيت القضية الثانية ففيها الإشكال، وهي قوله رضي الله عنه: "ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه"، وذلك أن لقائل أن يقول: قد يدخل النار من لم ينكرهم، مثل أن يكون إنسان يعتقد صحة إمامة القوم الذين يذهب أنهم أئمة عند المعتزلة، ثم يزني أو يشرب الخمر من غير توبة، فإنه يدخل النار، وليس بمنكر للأئمة، فكيف يمكن الجمع بين هذه القضية وبين الاعتزال! فالجواب أن الواو في قوله "وأنكروه" بمعنى "أو" كما في قوله تعالى: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع" فالإنسان المفروض في السؤال وإن كان لا ينكر الأئمة إلا أنهم ينكرونها، أي يسخطون يوم القيامة أفعاله، يقال: أنكرت فعل فلان أي كرهته، فهذا هو تأويل الكلام على مذهبننا، فأما الإمامية فإنهم يحملون ذلك على تأويل آخر، ويفسرون قوله: "ولا يدخل النار"، فيقولون: أراد ولا يدخل النار دخولا مؤبداً إلا من ينكرهم وينكرونها. ثم ذكر رضي الله عنه شرف الإسلام، وقال: "إنه مشتق من السلامة، وإنه جامع للكرامة، وإن الله قد بين حججه، أي الأدلة على صحته.

ثم بين ما هذه الأدلة، فقال: "من ظاهر علم، وباطن حكم" أي حكمة، ف "من" ههنا للتبيين والتفسير، كما تقول: دفعت إليه سلاحاً من سيف ورمح وسهم، ويعني بظاهر علم وباطن حكم، القرآن، ألا تراه كيف أتى بعده بصفات ونعوت لا تكون إلا للقرآن، من قوله: "لا تغني عزائمه أي آياته المحكمة و "براهينه العازمة" أي القاطعة ولا تنقضي عجائبه، لأنه مهما تأمله الإنسان استخرج منه بفكره غرائب وعجائب لم تكن عنده من قبل. "فيه مرايع النعم"، المرايع الأمطار التي تجيء في أول الربيع فتكون سبباً لظهور الكلاء، وكذلك تدبر القرآن سبب للنعم الدينية وحصولها.

قوله: "قد أحى حماه، وأرعى مرعاه"، الضمير في "أحى" يرجع إلى الله تعالى، أي قد أحى الله حماه، أي عرضه لأن يحى، كما تقول: أقتلت الرجل، أي عرضه لأن يقتل. وأضرته، أي عرضه لأن يضرب، أي قد عرض الله تعالى حمى القرآن ومحارمه لأن يجتنب ومكن منها، وعرض مرعاه لأن يرعى، أي مكن من الانتفاع بما فيه من الزواجر والمواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربي مبين، ولم يقنع ببيان ما لا نعلم إلا بالشرع حتى نبه في أكثره على أدلة العقل.

ومن خطبة له رضي الله عنه في تحذير الناس من الغفلة

الأصل: وهو في مهلة من الله يهوي مع الغافلين، ويغدو مع المذنبين، بلا سبيل قاصد، ولا إمام قائد. الشرح: يصف إنساناً من أهل الضلال غير معين، بل كما تقول: رحم الله امرأ اتقى ربه وخاف ذنبه، وبئس الرجل رجل قل حياؤه، وعدم وفاءه، ولست تعني رجلاً بعينه، ويهوي: يسقط. والسبيل القاصد: الطريق المؤدية إلى المطلوب،

والإمام: إما الخليفة، وإما الأستاذ، أو الدين، أو الكتاب على كل من هؤلاء تطلق هذه اللفظة.

الأصل: منها: حتى إذا كشف لهم عن جزاء معصيتهم، واستخرجهم من جلايب غفلتهم، استقبلوا مديراً، واستدبروا مقبلاً، فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم، ولا بما قضوا من وطهرهم.

وإني أحذركم ونفسي هذه المترلة، فلينتفع امرؤ بنفسه، فإنما البصير من سمع فتفكر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعبر، ثم سلك جديداً واضحاً يتجنب فيه الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي، ولا يعين على نفسه الغواة بتعسف في حق، أو تحريف في نطق، أو تخوف من صدق. فأفق أيها السامع من سكرتك، واستيقظ من غفلتك، واختصر من عجلتك، وأنعم الفكر فيما جاءك على لسان النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم مما لا بد منه، ولا محيص عنه. وخالف من خالف ذلك إلى غيره، ودعه وما رضي لنفسه، وضع فخرك، واحطط كبرك، واذكر قبرك، فإن عليه ممرك، وكما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، وما قدمت اليوم تقدم عليه غداً، فامهد لقدمك، وقدم ليومك. فالحذر الحذر أيها المستمع! والجد الجد أيها الغافل، "ولا يبنئك مثل خبير".

الشرح: فاعل "كشف" هو الله تعالى، وقد كان سبق ذكره في الكلام، وإنما كشف لهم عن جزاء معصيتهم بما أراهم حال الموت من دلائل الشقوة والعذاب، فقد ورد في الخبر الصحيح أنه: "لا يموت ميت حتى يرى مقره من جنة أو نار". ولما انفتحت أعين أبصارهم عند مفارقة الدنيا، سمى ذلك رضي الله عنه استخراجاً لهم من جلايب غفلتهم، كأهم كانوا من الغفلة والذهول في لباس نزع عنهم.

قال: "استقبلوا مديراً"، أي استقبلوا أمراً كان في ظنهم واعتقادهم مديراً عنهم، وهو الشقاء والعذاب. "واستدبروا مقبلاً" تركوا وراء ظهورهم ما كانوا حولوه من الأولاد والأموال والنعم، وفي قوة هذا الكلام أن يقول: عرفوا ما أنكروه وأنكروا ما عرفوه.

وروي: "أحذركم ونفسي هذه المزلة" مفعلة، من الزلل، وفي قوله: "ونفسي" لطافة رشيقة وذلك لأنه طيب قلوبهم بأن جعل نفسه شريكة لهم في هذا التحذير، ليكونوا إلى الانقياد له أقرب، وعن الإباء والنفرة أبعد، بطريق جدد لاجب. والمهاوي: جمع مهواة، وهي الهوة يتردى فيها، والمغاوي: جمع مغواة، وهي الشبهة التي يغوى بها الناس، أي يضلون. ثم يصف الأمور التي يعين بها الإنسان أرباب الضلال على نفسه، وهي أن يتعسف في، حق يقوله، أو يأمر به، فإن الرفق أنجح، وأن يحرف المنطق فإن الكذب لا يثمر خيراً، وأن يتخوف من الصدق في ذات الله، قال سبحانه: "إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله"، فذم من لا يصدق ويجاهد في الحق. قوله: "واختصر من عجلتك"، أي لا تكن عجلتك كثيرة، بل إذا كانت لك عجلة فلتكن شيئاً يسيراً.

وتقول: أنعمت النظر في كذا، أي دققته، من قولك: أنعمت سحق الحجر، وقيل: إنه مقلوب "أمعن". والنبي الأمي: إما الذي لا يحسن الكتابة، أو المنسوب إلى أم القرى، وهي مكة، ولا محيص عنه: لا مفر ولا مهرب تخلص من أمر أي ليس القبر بدار مقام، وإنما هو ممر وطريق إلى الآخرة. وكما تدين تدان، أي كما تجازي غيرك تجازي بفعلك

ربحسب ما عملت، ومنه قوله سبحانه: "إن المدينون" أي مجزيون، ومنه الديان في صفة الله تعالى.

قوله: "وكما تزرع تحصد" معنى قد قاله الناس بعده كثيراً، قال الشاعر:

إذا أتت لم تزرع وأدركت حاصداً ندمت على التقصير في زمن البذر

ومن أمثالهم: "من زرع شراً حصد ندماً"، فامهد لنفسك: أي سو ووطىء.

"ولا ينبئك مثل خبير" من القرآن العزيز، أي ولا يخبرك بالأمر أحد على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها.

الأصل: إن مق عزائم الله في الذكر الحكيم، التي عليها ويعاقب، ولها يرضى ويسخ، أنه لا ينف عبداً وإن أجهد نفسه، وأخلص فعله أن يخرج من الدنيا لاقياً ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها: أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يعر بأمر فعله غيره، أو يستنجد حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه، أو يلقي الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين. اعقل ذلك، فإن المثل دليل على شبهه.

إنا البهائم همها بطونها، وإن السباع همها العدوان على غيرها، وإن النساء همهن زينة الحياة الدنيا و الفساد فيها، إن المؤمنين مستكينون، إن المؤمنين مشفقون، إن المؤمنين خائفون.

الشرح: عزائم الله، هي موجباته والأمر المقطوع عليه، الذي لا ريب فيه ولا شبهة، قال رضي الله عنه: إن من الأمور التي نص الله تعالى عليها نصاً لا يحتمل التأويل وهي من العزائم التي يقطع بها، ولا رجوع فيها ولا نسخ لها أن من مات وهو على ذنب من هذه الذنوب المذكورة ولو اكتفى بذلك رضي الله عنه لأغناه عن قوله: لم يتب إلا أنه ذكر ذلك تأكيداً وزيادة في الإيضاح فإنه لا ينفعه فعل شيء بن الأفعال الحسنة ولا الواجبة، ولا تفيد العباداة، ولو أجهد نفسه فيها، بل يكون من أهل النار. والذنوب المذكورة هي أن يتخذ مع الله إلهاً آخر فيشركه في العباداة، أو يقتل إنساناً بغير حق، بل ليشفي غيظه، أو يقذف كبره بأمر قد فعله هو.

عره بكذا يعزه عزاء، أي عابه ولطخه، أو يروم بلوغ حاجة من أحد بإظهار بدعة في الدين كما يفعل أكثر الناس في زماننا أو يكون ذا وجهين وهو أيضاً قوله: أو يمشي فيهم بلسانين، وإنما أعادة تأكيداً.

لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد، أقعده في قبة حمراء، وأدخل الناس يسلمون على معاوية، ثم يميلون إلى قبة يزيد، فيسلمون عليه بولاية العهد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، أما إنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، وكان الأحنف جالساً، فلما خف الناس، قال معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر! قال: أخاف الله إن كذبتك، وأخافك إن صدقتك، فماذا أقول؟ فقال: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بصلة جزيلة. فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال: يا أبا بحر، إني لأعلم أن شر من خلق الله هذا الرجل، ولكن هؤلاء قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلنسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعت فقال: يا هذا أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون وجهياً عند الله غداً.

ثم أمر رضي الله عنه بأن يعقل ما قاله، ويعلم باطن خطابه، وإنما رمز بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل، لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم وإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين، وعروه رضي الله عنه بأمر هم فعلوه، وهو التأليب على

عثمان وحصره، واستنجدوا حاجتهم إلى أهل البصرة بإظهار البدعة والفتنة، ولقوا الناس بوجهين ولسانين، لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به، ثم دبوا له الخمر، فجعل ذنوبهم هذه مماثلة للشرك بالله سبحانه، في أنها لا تغفر إلا بالتوبة، وهذا هو معنى قوله: اعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه. وروي فإن المثل واحد الأمثال، أي هذا الحكم بعدم المغفرة لمن أتى شيئاً من هذه الأشياء عام، والواحد منها دليل على ما يماثله ويشابهه. فإن قلت: فهذا تصريح بمذهب الإمامية في طلحة والزبير وعائشة.

قلت: كلا، فإن هذه الخطبة خطب بها وهو سائر إلى البصرة، ولم تقع الحرب إلا بعد تعدد الكبائر، ورمز فيها إلى المذكورين، وقال: إن لم يتوبوا، وقد ثبت أنهم تابوا، والأخبار عنهم بالتوبة كثيرة مستفيضة. ثم أراد رضي الله عنه أن يرمي إلى ذكر النساء للحال التي كان وقع إليها من استنجد أعدائه بامرأة، فذكر قبل ذكر النساء أنواعاً من الحيوان، تمهيداً لقاعدة ذكر النساء، فقال: إن البهائم همها بطونها، كالحمير والبقر والإبل والغنم، وإن السباع همها العدوان على غيرها، كالأسود الضارية والنمور والفهود والبزاة والصقور. ثم قال: وإن النساء همهن زينة الحياة الدنيا والفساد فيها. نظر حكيم إلى امرأة مصلوبة على شجرة، فقال: ليت كل شجرة تحمل مثل هذه الثمرة. ومرت امرأة بسقراط وهو يتشرق في الشمس، فقالت: ما أقبحك أيها الشيخ! فقال: لو أنكن من المرائي الصدئة لغمني ما بان من قبح صورتي فيكن.

ورأى حكيم امرأة تعلم الكتابة، فقال: سهم يسقى سماً ليرمى به يوماً ما. ورأى بعضهم جاريةً تحمل ناراً، فقال: نار على نار والحامل شر من المحمول. وقيل لسقراط: أي السباع أحسن؟ قال: المرأة. وتزوج بعضهم امرأة نحيفة، فقليل له في ذلك، فقال: اخترت من الشر أقله. ورأى بعض الحكماء امرأة غريقة قد احتملها السيل، فقال: زادت الكدر كدراً، والشر بالشر يهلك. ثم ذكر رضي الله عنه خصائص المؤمن، فقال: إن المؤمنين مستكينون، استكان الرجل، أي خضع وذل، إن المؤمنين مشفقون، التقوى رأس الإيمان كما ورد في الخبر. ثم قال: "إن المؤمنين خائفون" هو الأول وإنما أكد، والتأكيد مطلوب في باب الخطابة.

ومن خطبة له في فضائل أهل البيت

الأصل: وناظر قلب اللبيب به يبصر أمده، ويعرف غوره ونجده، داع دعا، وراع رعى، فاستحيوا للداعي واتبعوا الراعي. الشرح: يقول: إن قلب اللبيب له عين يبصر بها غايته التي يجري إليها، ويعرف من أحواله المستقبلية ما كان مرتفعاً أو منخفضاً ساقطاً. والنجد: المرتفع من الأرض، ومنه قولهم للعالم بالأمور: طلاع أنجد.

ثم قال: داع دعا، موضع داع رفع، لأنه مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: في الوجود داع دعا وراع رعى، ويعنى بالداعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالراعي نفسه رضي الله عنه.

الأصل: قد خاضوا بحار الفتن، وأخذوا بالبدع دون السنن، وأرز المؤمنون، ونطق الضالون المكذبون، نحن الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سارقاً. الشرح: هذا كلام متصل بكلام لم يحكه الرضي رحمه الله، وهو ذكر قوم من أهل الضلال قد كان أخذ في ذمهم، ونعى عليهم عيوبهم.

وأرز المؤمنون: أي انقبضوا، والمضارع يأرز بالكسر أرزاً وأروزاً، ورجل أروز أي منقبض، وفي الحديث: إن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها، أي ينضم إليها ويجتمع.

ثم قال: نحن الشعار والأصحاب، يشير إلى نفسه، وهو أبداً يأتي بلفظ الجمع ومراده الواحد. والشعار: ما يلي الجسد من الثياب، فهو أقرب من سائرها إليه، ومراده الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم. والخزنة والأبواب، يمكن أن يعني به خزانة العلم وأبواب العلم، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد الحكمة فليأت الباب". وقوله فيه: "خازن علمي" وقال تارة أخرى: "عيبة علمي". ويمكن أن يريد خزانة الجنة وأبواب الجنة، أي لا يدخل الجنة إلا من وافى بولايتنا، فقد جاء في حقه الخبر الشائع المستفيض: إنه قسيم النار والجنة، وذكر أبو عبيد الهروي في "الجمع بين الغريبين"، أن قوماً من أئمة العربية فسروه فقالوا: لأنه لما كان محبة من أهل الجنة، ومبغضة من أهل النار، كأنه بهذا الاعتبار قسيم النار والجنة. قال أبو عبيد: وقال غير هؤلاء: بل هو قسيمها بنفسه في الحقيقة يدخل قوماً إلى الجنة، وقوماً إلى النار، وهذا الذي ذكره أبو عبيد أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه، يقول للنار: هذا لي فدعيه، وهذا لك فخذيه.

ثم ذكر أن البيوت لا تؤتى إلا من أبوابها، قال الله تعالى: "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها".

ثم قال: من أتاها من غير أبوابها سارقاً، وهذا حق ظاهراً وباطناً، أما الظاهر فلا أن من يتصور البيوت من غير أبوابها هو السارق، وأما الباطن فلا أن من طلب العلم من غير أستاذ محقق فلم يأت من بابه، فهو أشبه شيء بالسارق.

في فضائل الامام علي رضي الله عنه،

واعلم أن أمير المؤمنين رضي الله عنه لو فخر بنفسه، وبالع في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته، التي آتاه الله تعالى إياها واختصه بها وساعده على ذلك فصحاء العرب كافة، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره، ولست أعني بذلك الأخبار العامة الشائعة التي يحتج بها الإمامية على إمامته، كخبر الغدير، والمترلة، وقصة براءة، وخبر المناجاة، وقصة خيبر، وخبر الدار بمكة في ابتداء الدعوة، ونحو ذلك، بل الأخبار الخاصة التي رواها فيه أئمة الحديث، التي لم يحصل أقل القليل منها لغيره، وأنا أذكر من ذلك شيئاً يسيراً مما رواه علماء الحديث الذين لا يهتمون فيه،

وجلهم قائلون بتفضيل غيره عليه، فروايتهم فضائله توجب من سكون النفس ما لا يوجبه رواية غيرهم.
الخبر الأول: يا علي، إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إليه منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى، الزهد في الدنيا، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك إماماً.

رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه المعروف بحلية الأولياء وزاد فيه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في المسند: "فطوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك!".

الخبر الثاني: قال لوفد ثقيف: لتسلمن، أو لأبعثن إليكم رجلاً مني أو قال: عدل نفسي فليضربن أعناقكم، وليسبين ذرايكم، وليأخذن أموالكم. قال عمر: فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، وجعلت أنصب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا. فالتفت فأخذ بيد علي وقال: هو هذا، مرتين.

رواه أحمد في المسند ورواه في كتاب فضائل علي رضي الله عنه، أنه قال: لتنتهن يا بني وليعة، أو لأبعثن إليكم رجلاً كنفسى، يمضي فيكم أمري. يقتل المقاتلة، ويسبي الذرية. قال أبو ذر: فما راعني إلا برد كف عمر في حجرتي من خلفي، يقول: من تراه يعني؟ فقلت: إنه لا يعينك، وإنما يعني خاصف النعل، وإنه قال: هو هذا.

الخبر الثالث: وإن الله عهد إلي في علي عهداً، فقلت: يا رب بينه لي، قال: اسمع، إن علياً راية الهدى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، من أحبه فقد أحبني، ومن أطاعه فقد أطاعني، فبشره بذلك. فقلت: قد بشرته يا رب فقال: أنا عبد الله وفي قبضته، فإن يعذبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً، وإن يتم لي ما وعدني فهو أولى، وقد دعوت له فقلت: اللهم اجل قلبه، واجعل ربيعته الإيمان بك. قال: قد فعلت ذلك، غير أني مختصه بشيء من البلاء لم أختص به أحداً من أوليائي، فقلت: رب، أخي وصاحبي! قال: إنه سبق في علمي: إنه لمبتل ومبتلى.

ذكره أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء عن أبي برزة الأسلمي، ثم رواه بإسناد آخر بلفظ آخر، عن أنس بن مالك: إن رب العالمين عهد في علي إلي عهداً، إنه راية الهدى، ومنار الإيمان، وإمام أوليائي، ونور جميع من أطاعني. إن علياً أمني غداً في القيامة، وصاحب رايتي، بيد علي مفاتيح خزائن رحمة ربي.

الخبر الرابع: من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه، وإلى آدم في علمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى موسى في فطنته، وإلى عيسى في زهده، فلينظر إلى علي بن أبي طالب.

رواه أحمد بن حنبل في المسند، ورواه أحمد البيهقي في صحيحه.

الخبر الخامس: من سره أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويتمسك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده، ثم قال لها: كوني فكانت، فليتمسك بولاء علي بن أبي طالب.

ذكره أبو نعيم الحافظ في كتاب حلية الأولياء ورواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في المسند، في كتاب فضائل علي بن أبي طالب، وحكاية لفظ أحمد رضي الله عنه: من أحب أن يتمسك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جنة عدن بيمينه، فليتمسك بحب علي بن أبي طالب.

الخبر السادس: "والذي نفسي بيده، لولا أن تقول طوائف من أمتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً، لا تمر بعلماً من المسلمين إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة، ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل في المسند. الخبر السابع: خرج صلى الله عليه وسلم على الحجيج عشية عرفة، فقال لهم: إن الله قدباهى بكم الملائكة عامة، وغفر لكم عامة، وباهى بعلي خاصة، وغفر له خاصة. إني قائل لكم قولاً غير محاب فيه لقرايتي، إن السعيد كل السعيد حق السعيد من أحب علياً في حياته وبعد موته، رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائل علي رضي الله عنه، وفي المسند أيضاً.

الخبر الثامن: رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين: أنا أول من يدعى به يوم القيامة، فأقوم عن يمين العرش في ظله، ثم أكسى حلة، ثم يدعى بالنبيين بعضهم على أثر بعض فيقومون عن يمين العرش ويكسون حلاً، ثم يدعى بعلي بن أبي طالب لقرايته مني ومزلته عندي، ويدفع إليه لوائي لواء الحمد، آدم ومن دونه تحت ذلك اللواء. ثم قال لعلي: "تسير به حتى تقف بيني وبين إبراهيم الخليل، ثم تكسى حلة، وينادي مناد من العرش: نعم العبد أبوك إبراهيم! ونعم الأخ أخوك علي! أبشر فإنك تدعى إذا دعيت، وتكسى إذا كسيت، وتحا إذا حييت.

الخبر التاسع: يا أنس، اسكب لي وضوءاً، ثم قام فصلى ركعتين، ثم قال: أول من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتقين، وسيد المسلمين، ويعسوب الدين، وخاتم الوصيين وقائد الغر المحجلين. قال أنس: فقلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، وكتبته دعوتي، فجاء علي، فقال صلى الله عليه وسلم: من جاء يا أنس؟ فقلت: علي، فقام إليه مستبشراً، فاعتنقه، ثم جعل يمسح عرق وجهه. فقال علي: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد رأيت منك اليوم تصنع بي شيئاً ما صنعت به بي قبل! قال: وما يمنعني وأنت تؤذي عني، وتسمعهم صوتي، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي! "، رواه أبو نعيم الحافظ في الحلية الأولياء.

الخبر العاشر: ادعوا لي سيد العرب علياً، فقالت عائشة: أليست سيد العرب؟ فقال: أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب فلما جاء أرسل إلى الأنصار، فأتوه، فقال لهم: يا معشر الأنصار، ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "هذا علي، فأحبهوه بحبي، وأكرموا بكرامتي، فإن جبرائيل أمرني بالذي قلت لكم عن الله عز وجل "، رواه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء.

الخبر الحادي عشر: "مرحباً بسيد المؤمنين، وإمام المتقين! فليل لعلي رضي الله عنه: كيف شكرت؟ فقال: أحمد الله على ما آتاني، وأسأله الشكر على ما أولاني، وأن يزيدني مما أعطاني، ذكره صاحب الحلية أيضاً.

الخبر الثاني عشر: من سره أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن التي غرسها ربي، فليوال علياً من بعدي، وليوال وليه، وليقتد بالأئمة من بعدي، فإنهم عترتي، خلّقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعِلماً فويل للمكذّبين من أمّتي! القاطعين فيهم صلي، لا أنا لهم الله شفاعتي، ذكره صاحب الحلية أيضاً.

الخبر الثالث عشر: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في سرية، وبعث علياً رضي الله عنه في سرية أخرى، وكلاهما إلى اليمن، وقال: "إن اجتمعتما فعلي على الناس، وإن افترقتما فكل واحد منكما على جنده"، فاجتمعا وأغارا وسببا نساء، وأخذوا أموالاً، وقتلوا ناساً، وأخذ علي جارية فاخصبها لنفسه، فقال خالد لأربعة من المسلمين، منهم

بريدة الأسلمي: اسبقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاذكروا له كذا، واذكروا له كذا، لأمر عددها على علي، فسبقوا إليه، فجاء واحد من جانبه، فقال: إن علياً فعل كذا، فأعرض عنه، فجاء الآخر من الجانب الآخر، فقال: إن علياً فعل كذا، فأعرض عنه فجاء بريدة الأسلمي فقال: يا رسول الله، إن علياً فعل ذلك، فأخذ جاريةً لنفسه، فغضب صلى الله عليه وسلم، حتى احمر وجهه، وقال: "دعوا لي علياً!"، يكررها، "إن علياً مني وأنا من علي، وإن حظه في الخمس أكثر مما أخذ، وهو ولي كل مؤمن من بعدي"، رواه أبو عبد الله أحمد في المسند غير مرة، ورواه في كتاب فضائل علي، ورواه أكثر المحدثين.

الخبر الرابع عشر: "كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عز وجل قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق آدم قسم ذلك فيه وجعله جزأين، فجاء أنا وجزء علي".

رواه أحمد في المسند وفي كتاب فضائل علي رضي الله عنه، وذكره صاحب كتاب الفردوس، وزاد فيه: ثم انتقلنا حتى صرنا في عبد المطلب، فكان لي النبوة ولعلي الوصية.

الخبر الخامس عشر: "النظر إلى وجهك يا علي عبادة، أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، من أحبك أحبني، وحببي حبيب الله، وعدوك عدوي وعدوي عدو الله، الوليل لمن أبغضك!"، رواه أحمد في المسند، قال: وكان ابن عباس يفسره، ويقول: إن من ينظر إليه يقول: سبحان الله! ما أعلم هذا الفتى! سبحان الله ما أشجع هذا الفتى! سبحان الله، ما أفصح هذا الفتى! الحديث السادس عشر: لما كانت ليلة بدر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يستقي لنا ماء؟"، فأحجم الناس، فقام علي رضي الله عنه فاحتضن قربة، ثم أتى بئراً بعيدة القعر مظلمة، فانحدر فيها، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل: أن تأهبوا لنصر محمد وأخيه وحزبه، فهبطوا من السماء، لهم لغط يذعر من يسمعه، فلما حاذوا البئر، سلموا عليه من عند آخرهم إكراماً له إجلالاً.

رواه أحمد في كتاب فضائل علي رضي الله عنه، وزاد فيه في طريق أخرى عن أنس بن مالك: "التؤتين يا علي يوم القيامة بناقة من نوق الجنة فتركبها، وركبتك مع ركبتي، وفخذك مع فخذي حتى تدخل الجنة".

الحديث السابع عشر: خطب صلى الله عليه وسلم الناس يوم الجمعة، فقال، "أيها الناس: قدموا قريشاً ولا تقدموها، وتعلموا منها ولا تعلموها، قوة رجل من قريش تعدل قوة رجلين من غيرهم، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجلين من غيرهم. أيها الناس أوصيكم بحب ذي قرباها، أخي وابن عمي علي بن أبي طالب، لا يحبه إلا مؤمن، ولا يبغضه إلا منافق، من أحبه فقد أحبني، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني عذبه الله بالنار"، رواه أحمد رضي الله عنه في كتاب فضائل علي رضي الله عنه. الحديث الثامن عشر: "الصديقون ثلاثة: حبيب النجار، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ومؤمن آل فرعون الذي كان يكتُم إيمانه، وعلي بن أبي طالب، وهو أفضلهم"، رواه أحمد في كتاب فضائل علي رضي الله عنه.

الحديث التاسع عشر: "أعطيت في علي خمساً، هن أحب إلي من الدنيا وما فيها، أما واحدة فهو كتاب بين يدي الله عز وجل حتى يفرغ من حساب الخلائق، وأما الثانية فلواء الحمد بيده، آدم ومن ولد تحته، وأما الثالثة فواقف على عقر

حوضي يستقي من عرف من أمي، وأما الرابعة فساطر عورتي ومسلمي إلى ربي، وأما الخامسة فإني لست أخشى عليه أن يعود كافراً بعد إيمان، ولا زانياً بعد إحصان"، رواه أحمد في كتاب الفضائل.

الحديث العشرون: كانت لجماعة من الصحابة أبواب شائعة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام يوماً: "سدوا كل باب في المسجد إلا باب علي"، فسدت، فقال في ذلك قوم، حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فيهم، فقال: "إن قوماً قالوا في سد الأبواب وتركوا باب علي، إني ما سددت ولا فتحت، ولكني أمرت بأمر فاتبعته"، رواه أحمد في المسند مراراً، وفي كتاب الفضائل.

الحديث الحادي والعشرون: دعا صلى الله عليه وسلم علياً في غزاة الطائف، فانتجاه، وأطال نجواه حتى كره قوم من الصحابة، ذلك، فقال قائل منهم: لقد أطال اليوم نجوى ابن عمه، فبلغه عليه الصلاة والسلام ذلك فجمع منهم قوماً، ثم قال: "إن قاتلاً قال: لقد أطال اليوم نجوى ابن عمه، أما إني ما انتجيتك ولكن الله انتجاه"، رواه أحمد رحمه الله في المسند. الحديث الثاني والعشرون: "أخصمك يا علي بالنبوة فلا نبوة بعدي، وتخصم الناس بسبع، لا يجاهد فيها أحد من قريش: أنت أولهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم في الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزية، رواه أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء.

الخبر الثالث والعشرون: قالت فاطمة: إنك زوجتي فقيراً لا مال له فقال: زوجتك أقدمهم سلماً، وأعظمهم حليماً، وأكثرهم علماً ألا تعلمين أن الله اطلع إلى الأرض اطلاعةً، فاختر منها أباك، ثم اطلع إليها ثانية فاختر منها بعلك!، رواه أحمد في المسند.

الحديث الرابع والعشرون: لما أنزل: "إذا جاء نصر الله والفتح" بعد انصرافه رضي الله عنه من غزاة حنين، جعل يكثر من "سبحان الله أستغفر الله"، ثم قال: يا علي إنه قد جاء ما وعدت به، جاء الفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وإنه ليس أحد أحق منك بمقامي لقدمك في الإسلام وقربك مني، وصهرك وعندك سيدة نساء العالمين وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب عندي حين نزل القرآن، فأنا حريص على أن اراعي ذلك لولده، رواه أبو إسحاق الثعلبي في تفسير القرآن.

واعلم أنا إنما ذكرنا هذه الأخبار ههنا، لأن كثيراً من المنحرفين عنه رضي الله عنه إذا مروا على كلامه في نهج البلاغة وغيره المتضمن التحدث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول له صلى الله عليه وسلم، وتمييزه إياه عن غيره، ينسبونه إلى التيه والزهو والفخر، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة، قيل لعمر: ول علياً أمر الجيش والحرب، فقال: هو أتيه من ذلك! وقال زيد لن ثابت: ما رأينا أزهى من علي وأسامة.

فأردنا بإيراد هذه الأخبار ههنا عند تفسير قوله: "نحن الشعار والأصحاب، ونحن الخزنة والأبواب، أن ننبه على عظم منزلته عند الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن من قيل في حقه ما قيل لو رقى إلى السماء، وعرج في الهواء، وفخر على الملائكة والأنبياء، تعظماً وتبجحاً لم يكن ملوماً، بل كان بذلك جديراً فكيف وهو رضي الله عنه لم يسلك قط مسلك التعظيم والتكبر في شيء من أقواله ولا من أفعاله، وكان أطف البش خلقاً، وأكرمهم طبعاً، وأشدهم تواضعاً، وأكثرهم

احتمالاً، وأحسنهم بشراً، وأطلقهم وجهاً، حتى نسبه من نسبه إلى الدعاية والمزاح، وهما خلقان ينافيان التكبر والاستطالة وإنما كان يذكر أحياناً ما يذكره من هذا النوع، نفثة مصدور، وشكوى مكروب، وتنفس مهموم، ولا يقصد به إذا ذكره إلا شكر النعمة، وتنبيه الغافل على ما خصه الله به من الفضيلة، فإن ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحض على اعتقاد الحق والصواب في أمره والنهي عن المنكر الذي هو تقديم غيره عليه في الفضل، فقد نهي الله سبحانه عن ذلك فقال: "أفمن يهدي إلى الحق أحسن أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون".

الأصل: منها: فيهم كرائم الإيمان، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا.

فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة، فإنه منها قدم، وإليها ينقلب، فالناظر بالقلب، العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم: أعمله عليه أم له! فإن كان له مضى فيه، وإن كان عليه وقف عنه، فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق الواضح إلا بعداً من حاجته، والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح، فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع! الشرح قوله: فيهم يرجع إلى آل محمد صلى الله عليه وسلم الذين عناهم بقوله: "نحن الشعار والأصحاب"، وهو يطلق دائماً هذه الصيغ الجمعية، ويعني لمسه، وفي القرآن كثير من ذلك، نحو قوله تعالى: "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل".

وكرائم الإيمان: جمع كريمة وهي المنفسات منه، قال الشاعر:

ماض من العيش لو يفدى بذلت له كرائم المال من خيل ومن نعم

فإن قلت: أيكون في الإيمان كرائم وغير كرائم؟ قلت: نعم لأن الإيمان عند أكثر أصحابنا اسم للطاعات كلها واجبتها ونفلها، فمن كانت نوافله أكثر كانت كرائم الإيمان عنده أكثر، ومن قام بالواجبات فقط من غير نوافل، كان عنده الإيمان، ولم يكن عنده كرائم الإيمان.

فإن قلت: فعلى هذا تكون النوافل أكرم من الواجبات؟ قلت: هي أكرم منها باعتبار، والواجبات أكرم منها باعتبار آخر، أما الأول فلأن صاحبها إذا كان قد قام بالواجبات كان لى أعلى مرتبة في الجنة ممن اقتصر على الواجبات فقط، وأما الثاني فلأن المخل بها لا يعاقب، والمخل بالواجبات يعاقب.

قوله: "وهم كنوز الرحمن" لأن الكثر مال يدخر لشديدة أو ملمة تلم بالإنسان، وكذلك هؤلاء قد ذكروا لإيضاح المشكلات الدينية على المكلفين.

ثم قال: إن نطقوا صدقوا، وإن سكتوا لم يكن سكوتهم عن عي يوجب كونهم مسبوقين، لكنهم ينطقون حكماً، ويصمتون حلاًماً.

ثم أمر رضي الله عنه بالتقوى والعمل الصالح، وقال: ليصدق رائد أهله، الرائد: الذهاب من الحي يرتاد لهم المرعى، وفي أمثالهم: "الرائد لا يكذب أهله"، والمعنى أنه رضي الله عنه أمر الإنسان بأن يصدق نفسه ولا يكذبها بالتسويق والتعليل، قال الشاعر:

وفي المثل: "المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور".

فإنه منها قدم، قد قيل: إن الله تعالى خلق أرواح البشر قبل أحسادهم، والخبر في ذلك مشهور والآية أيضاً، وهي قوله: "وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . ويمكن أن يفسر على وجه آخر، وذلك أن الآخرة اليوم عدم محض، والإنسان قدم من العدم، وإلى العدم ينقلب، فقد صح أنه قدم من الآخرة ويرجع إلى الآخرة.

وروي: أن العالم بالبصر أي بالبصيرة، فيكون هو وقوله: "فالناظر بالقلب سواء وإنما قاله تأكيداً، وعلى هذا الوجه لا يحتاج إلى تفسير وتأويل، فأما الرواية المشهورة فالوجه في تفسيرها أن يكون قوله: فالناظر مبتدأ والعامل صفة له، وقوله: بالبصر يكون مبتدأ عمله جملة مركبة من مبتدأ وخبر، موضعها رفع، لأنها خبر المبتدأ الذي هو فالناظر، وهذه الجملة المذكورة قد دخلت عليها كان، فالجار والمجرور وهو الكلمة الأولى منها منصوبة الموضع لأنها خبر كان، ويكون قوله فيما بعد: أن يعلم منصوب الموضع، لأنه بدل من البصر الذي هو خبر يكون والمراد بالبصر ههنا البصيرة، فيصير تقدير الكلام: فالناظر بقلبه، العامل بجوارحه يكون مبتدأ عمله بالفكر والبصيرة، بأن يعلم: أعمله له أم عليه ويروى: كالسابل على غير طريق، والسابل: طالب السبيل، وقد جاء في الخبر المرفوع: من عمل بغير هدى، لم يزد من الله إلا بعداً، وفي كلام الحكماء: العامل بغير علم كالرامي من غير وتر.

الأصل: وأعلم أن لكل ظاهر باطناً على مثاله، فما طاب ظاهره، طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه، وقد قال الرسول الصادق صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: "إن الله يحب العبد ويغض عمله، ويحب العمل ويغض بدنه". الشرح هذا الكلام مشتق من قوله تعالى: "والبلد الطيب يخربخ نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً"، وهو تمثيل ضربه الله تعالى لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من البشر، ولمن لا يؤثر ذلك فيه مثله بالأرض العذبة الطيبة تخرج النبت، والأرض السبخة الخبيثة لا تنبت، وكلام أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى هذا المعنى يومئ. يقول: إن لكلنا حالتي الإنسان الظاهرة أمراً باطناً يناسبها من أحواله، والحالتان الظاهرتان: ميله إلى العقل وميله إلى الهوى، والمتبع لمقتضى عقله يرزق السعادة والفوز، فهذا هو الذي طاب ظاهره، وطاب باطنه، والمتبع لمقتضى هواه وعاداته ودين أسلافه يرزق الشقاوة والعطب، وهذا هو الذي خبث ظاهره وخبث باطنه.

فإن قلت: فلم قال: فما طاب؟ وهلا قال: فمن طاب، وكذلك في خبث.

قلت: كلامه في الأخلاق والعقائد وما تنطوي عليه الضمائر، يقول: ما طاب من هذه الأخلاق والملكات، وهي خلق النفس الربانية المريدة للحق، من حيث هو حن، سواء كان ذلك مذهب الآباء والأجداد أو لم يكن، وسواء كان ذلك مستقبلاً مستهجناً عند العامة أو لم يكن، وسواء نال به من الدنيا حظاً أو لم ينل. يستطيب باطنه يعني ثمرته، وهي السعادة، وهذا المعنى من مواضع ما، لا من مواضع من.

فأما الخبر المروي، فإنه مذكور في كتب المحدثين، وقد فسره أصحابنا المتكلمون، فقالوا: إن الله تعالى قد يحب المؤمن ومحبه له إرادة إثابته، ويغض عملاً من أعماله وهو ارتكاب صغيرة من الصغائر، فإنها مكروهة عند الله، وليست قاذحة

في إيمان المؤمن، لأنها تقع مكفرة، وكذلك قد يبغض العبد بأن يريد عقابه، نحو أن يكون فاسقاً لم يتب، ويجب عملاً من أعماله، نحو أن يطيع ببعض الطاعات، وحبه لتلك الطاعة، هي إرادته تعالى أن يسقط عنه بما بعض ما يستحقه من العقاب المتقدم.

الأصل: وأعلم أن لكل عمل نباتاً، وكل نبات لا غنى به عن الماء. والمياة مختلفة، فما طاب سقيه، طاب غرسه وحلت ثمرته، وما خبث سقيه، خبث غرسه وأمرت ثمرته.

الشرح: السقي: مصدر سقيت، والسقي، بالكسر: النصيب من الماء، وأمر الشيء، أي صار مرأً.

وهذا الكلام مثل في الإخلاص وضده وهو الرياء وحب السمعة، فكل عمل يكون مدده الإخلاص لوجهه تعالى لا غير فإنه زاك حلو الجنى، وكل عمل يكون الرياء وحب الشهرة مدده فليس بزاك، وتكون ثمرته مرة المذاق.

ومن خطبة له يذكر فيها بديع خلقه الخفاش

الأصل: الحمد لله الذي أنحسرت الأوصاف عن كنه معرفته، وردعت عظمتة العقول فلم تجد مساعاً إلى بلوغ غاية ملكوته، هو الله الحق المبين، أحق وأبين مما ترى العيون. لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً. خلق الخلق على غير تمثيل ولا مشورة مشير، ولا معونة معين فتم خلقه بأمره، وأذن لطاعته فأجاب ولم يدافع، وأنقاد ولم ينازع.

ومن لطائف صنعه، وعجائب خلقته، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويسطها الظلام القابض لكل حي. وكيف عشت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذهبها، وتتصل بعلائية برهان الشمس إلى معارفها، وردعها بتلاؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها، وأكنها في مكانها عن الذهاب في بلج اثلاقها. وهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها، وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها، فلا يرد أبصارها إسداف ظلمته، ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته، فإذا ألتقت الشمس قناعها، وبدت أوضاع نهارها، ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها أطبقت الأجناف على مآقيها، وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم لياليها.

فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً! وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران، كأها شظايا الآذان، غير ذوات ريش ولا قصب، إلا أنك ترى مواضع العروق بينةً أعلاماً. لها جناحان لما يرقا فينشقا، ولم يغلظا فيثقلتا. تطير وولدها لاصق بها، لاجيء إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانها، ويحملة للنهوض جناحه، ويعرف مذهب عيشه، ومصالح نفسه، فسبحان الباري لكل شيء، على غير مثال خلا من غيره! الشرح: الخفاش، واحد جمعه خفافيش، وهو هذا الطائر الذي يطير ليلاً ولا يطير نهاراً، وهو مأخوذ من الخفش، وهو ضعف في البصر خلقة، والرجل أخفش، وقد يكون علة، وهو الذي يبصر بالليل لا بالنهار، أو في يوم غيم لا في يوم صحو.

وانحسرت الأوصاف: كلت وأعيت. وردعت: كفت. والمساغ: المسلك.

قال: أحق وأبين مما ترى العيون، وذلك لأن العلوم العقلية إذا كانت ضرورية أو قريبة من الضرورية، كانت أوثق من المحسوسات، لأن الحس يغلط دائماً، فيرى الكبير صغيراً كالبعيد، والصغير كبيراً، كالعنب في الماء ترى كالأجاصة، ويرى الساكن متحركاً كحرف الشط إذا رآه راكب السفينة متصاعداً، ويرى المتحرك ساكناً كالظل، إلى غير ذلك من الأغاليط والقضايا العقلية الموثوق بها لأنها بديهية أو تكاد، فالغلط غير داخل عليها. قوله: يقبضها الضياء، أي يقبض أعينها. قوله: وتتصل بعلائية برهان الشمس، كلام جيد في مذاهب الاستعارة. وسبحات إشراقها: جلاله وبهاؤه. وأكنها: سترها، وبلج اثتلاقها: جمع بلجة، وهي أول الصبح، وجاء بلجة أيضاً بالفتح. والحداق: جمع حدقة العين. والأسداف: مصدر أسدف الليل، أظلم، وغسق الدجنة: ظلام الليل. فإذا ألفت الشمس قناعها، أي سفرت عن وجهها وأشرقت.

والأوضح: جمع وضح، وقد يراد به حلي يعمل من الدراهم الصحاح، وقد يراد به الدراهم الصحاح نفسها وإن لم يكن حلياً. والضباب، جمع ضب. ووجارها: بيتها. وشظايا الآذان: أقطاع منها. والقصب ههنا: الغضروف. وخلاصة الخطبة، التعجب من أعين الخفافيش التي تبصر ليلاً ولا تبصر نهاراً، وكل الحيوانات بخلاف ذلك، فقد صار الليل لها معاشاً، والنهار لها سكناً بعكس الحال فيما عداها. ثم من أحنحتها التي تطير بها وهي لحم لا ريش عليه ولا غضروف وليست رقيقة فتتشق ولا كثيفة فتثقلها عن الطيران. ثم من ولدها إذا طارت احتملته وهو لاصق بها، فإذا وقعت وقع ملتصقاً بها هكذا، إلى أن يشتد ويقوى على النهوض فيفارقها.

أخبار غرائب الطيور وصفاتها،

واعلم أنه رضي الله عنه قد أتى بالعلة الطبيعية في عدم إبصارها نهاراً وهو انفعال حاسة بصرها عن الضوء الشديد، وقد يعرض مثل ذلك لبعض الناس وهو المرض المسمى "روز كور" أي أعمى النهار، ويكون ذلك عن إفراط التحلل لا الروح النوري، فإذا لقي حر النهار أصابه قمر، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيزول، فيعود الإبصار. وأما طيراتها من غير ريش، فإنه ليس بذلك الطيران الشديد، وإنما هو نفوس وخفة، أفادها الله تعالى إياه بواسطة الطبيعة، والتصاق الولد بها، لأنها تضمه إليها بالطبع، وينضم إليها كذلك، وتستعين على ضمه برجليها، وبقصر المسافة. وجملة الأمر أنه تعجب من عجيب. وفي الأحاديث العامة: قيل للخفافيش: لماذا لا جناح لك؟ قال: لأني تصوير مخلوق، قيل: فلما لا تخرج نهاراً؟ قال: حياء من الطيور، يعنون أن المسيح عليه السلام صورته، وأن إليه الإشارة بقوله تعالى: "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني".

في الطير عجائب وغرائب لا تهتدي العقول إليها، ويقال: إن ضريين من الحيوان أصمان لا يسمعان، وهما النعام والأفاعي.

وتقول العرب: إن الظليم يسمع بعينه وأنفه لا يحتاج معهما إلى حاسة أخرى. والكراكي يجمعها أمير لها كيغسوب

النحل، ولا يجمعها إلا أزواجاً والعصافير آلفة للناس آنسة بهم، لا تسكن داراً حتى يسكنها إنسان ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج الإنسان منها بفراقه تفارق وبسكنه تسكن. ويذكر أهل البصرة أنه إذا كان زمن الخروج إلى البساتين لم يبق في البصرة عصفور إلا خرج إليها، إلا ما أقام على بيضه وفراخه، وقد يدرّب العصفور فيستجيب من المكان البعيد ويرجع.

وقال شيخنا أبو عثمان: بلغني أنه درب فيرجع من ميل. وليس في الأرض رأس أشبه برأس الحية من رأس العصفور، وليس في الحيوان الذي يعايش الناس أقصر عمراً منه، قيل لأجل السفاد الذي يستكثر منه. ويتميز الذكر من الأنثى في العصافير تميز الديك من الدجاجة لأن له لحية ولا شيء أحنى على ولده منه، وإذا عرض له شيء صاح فأقبلت إليه العصافير يساعده وليس لشيء في مثل جسم العصفور من شدة وطئه إذا مشى على السطح ما للعصفور فإنك إذا كنت تحت السطح ووقع حسبت وقعته وقعة حجر، وذكر العصفور لا تعيش إلا سنة، وكثيراً ما تجلب الحيات إلى المنازل، لأن الحيات تتبعها حرصاً على ابتلاع بيضها وفراخها.

ويقال: إن الدجاجة إذا باضت بيضتين في يوم واحد وتكرر ذلك ماتت، وإذا هرمت الدجاجة لم يكن لأواخر ما تبيضه صفرة وإذا لم يكن للبيضة مح لم يخلق فيها فروج لأن غذاءه المح ما دام في البيضة، وقد يكون للبيضة محان فتنفق عن فروجين يخلقان من البياض، ويغذيان بالحين، لأن الفرائج تخلق من البياض وتغذي بالصفرة. وكل ديك فإنه يلتقط الحبة فيحذف بها إلى الدجاجة سماحاً وإيثاراً ولهذا قالوا: أسمع من لاقطة، يعنون الديكة، إلا ديكة مرو بخراسان، فإنها تطرد دجاجها عن الحب وتترعه من أفواهها فتبتلعها.

والحمامة بلهاء، وفي أمثالهم: "أحمق من حمامة"، وهي مع حبقها مهتدية إلى مصالح نفسها وفراخها. قال ابن الأعرابي: قلت لشيخ من العرب: من علمك هذا؟ قال: علمني الذي علم الحمامة على بلهها تقلب بيضها، كي تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من الحزن.

والهداية في الحمام لا تكون: إلا في الخضر والسمر، فأما الأسود الشديد السواد فهو كالزنجي القليل المعرفة، والأبيض ضعيف القوة. وإذا خرج الجوزل عن بيضته علم أبواه أن حلقة لا يتسع للغذاء، فلا يكون لهما هم إلا أن ينفخا في حلقة الريح لتتسع حوصلته بعد التحامها، ثم يعلمان أنه لا يحتمل في أول اغتدائه أن يزق بالطعم فيزقانه باللعب المختلط بقواهما وقوى الطعم ثم يعلمان أن حوصلته تحتاج إلى دباغ، فيأكلان من شورج، أصول الحيطان، وهو شيء من الملح الخالص والتراب فيزقانه به. فإذا علما أنه قد اندبغ زقاه بالحب الذي قد غب في حواصلهما، ثم بالذي هو أطرى فأطرى، حتى يتعود فإذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع، ليحتاج ويتشوف، فتطلبه نفسه، ويحرص عليه فإذا فطماه وبلغا منتهى حاجته إليهما، نزع الله تلك الرحمة منهما، وأقبل بهما على طلب نسل آخر.

ويقال: إن حية أكلت بيض مكاء فجعل المكاء يشرشر على رأسها، ويدنو منها حتى دلعت الحية لسائها، وفتحت فاهها تريده وتهم به، فألقى فيها حسكة فأخذت بحلقها حتى ماتت!.

ومن دعاء الصالحين: يا رزاق النعاب في عشه! وذلك أن الغراب إذا فقص عن فراخه، فقص عنها بيض الألوان، فينفر

عنها ولا يزقها فتفتتح أفواهها، فيأتيها ذباب يتساقط في أفواهها، فيكون غذاءها إلى أن تسود، فينقطع الذباب عنها، ويعود الغراب إليها فيأنس بها ويغذيها.

والحبارى تدبج جناح الصقر بذرقها، ثم يجتمع عليه الحباريات، فينتفن ريشه طاقةً طاقةً حتى يموت ولذلك يحاول الحبارى العلو عليه، ويحاول هو العلو عليها، ولا يتجاسر أن يدنو منها متسفلًا عنها. ويقال: إن الحبارى تموت كمدًا إذا انحسر عنها ريشها، ورأت صويحبًا تطير.

وكل الطير يتسافد بالأستاه، إلا الحجل، فإن الحجلة تكون في سفالة الريح، واليعقوب في علاوتها، فتلقح منه كما تلقح النخلة من الفحال بالريح.

والحبارى شديد الحمق، يقال: إنها أحمق الطير وهي أشده حيطةً لبيضها وفراخها، والعقعق مع كونه أخبث الطير وأصدقها خبثًا، وأشدّها حذرًا، ليس في الأرض طائر أشدّ تضييعاً لبيضه وفراخه منه.

ومن الطير ما يؤثر التفرد كالعقاب ومنه ما يتعايش زوجاً كالقطا، والظليم يتلع الحديد الحمى، ثم يميعة في قانصته حتى يحيله كالماء الجاري وفي ذلك أعجوبتان: التغذي بما لا يغذى به، واستمراؤه وهضمه شيئاً لو طبخ بالنار أبداً لما انحل. وكما سخر الحديد لجوف الظليم فأحاله، سخر الصخر الأصم لأذنان الجراد، إذا أراد أن يلقي بيضه غرس ذنبه في أشد الأرض صلابة، فانصدع له وذلك من فعل الطبيعة بتسخير الصانع القديم سبحانه، كما إن عود الحلفاء الرخو الدقيق المنبت، يلقي في نباته الآجر والخزف الغليظ، فيثقبه.

وقد رأيت في مسناة سور بغداد، لا حجر صلد نبعة نبات قد شقت وخرجت من موضع لو حاول جماعة أن يضربوه بالبيارم الشديدة مدة طويلة لم يؤثر فيه أثراً. وقد قيل: إن إبرة العقرب أنفذ في الطنجير والطست.

وفي الظليم شبه من البعير من جهة المنسم والوظيف والعنق والخزامة التي في أنفه، وشبه من الطائر من جهة الريش والجناحين والذنب والمنقار. ثم إن ما فيه من شبه الطير جذبه إلى البيض، وما فيه من شبه البعير لم يجذبه إلى الولادة. ويقال: إن النعامة مع عظم عظامها وشدة عدوها لا مخ فيها، وأشد ما يكون عدوها أن تستقبل الريح، فكلما كان أشد لعصوفها كان أشد لحضرها، تضع عنقها على ظهرها ثم تحرق الريح، ومن أعاجيبها أن الصيف إذا دخل وابتدأ البسر في الحمرة ابتدأ لون وظيفها في الحمرة فلا يزالان يزدادان حمرةً إلى أن تنتهي حمرة البسر، ولذلك قيل للظليم: خاضب، ومن العجب أنهما لا تأنس بالطيور ولا بالإبل مع مشاكلتها للتوعين، ولا يكاد يرى بيضها مبدداً البتة، بل تصفه طولاً صفاً مستويًا، على غاية الاستواء، حتى لو مددت عليه خيط المسطر لما وجدت لبعضه خروجاً عن البعض، ثم تعطي لكل واحدة نصيبها من الحضن.

والذئب لا يعرض لبيض النعام ما دام الأبوان حاضرين، فإنهما متى نقفاه ركه الذكر فطحره وأدرسته الأنثى فركضته، ثم أسلمته إلى الذكر وركبته عوضه، فلا يزالان يفعلان به ذلك حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً. والنعام قد يتخذ في الدور، وضرره شديد، لأن النعامة ربما رأت في أذن الجارية قرطاً فيه حجر أو حبة لؤلؤ، فخطفته وأكلته، وخرمت الأذن، أو رأت ذلك في لبثها فضربت بمنقارها اللبة فخرقتها.

ومن كلام له خاطب به أهل البصرة

على جهة اقتصاص الملاحم

الأصل: فمن أستطاع عند ذلك أن يعتقل نفسه على الله فليفعل، وإن أطعتموني، فأني حاملكم إن شاء الله على سبيل الجنة وإن كان ذا مشقة شديدة، ومذاقة مريرة. وأما فلانة فأدركها رأي النساء، وضغن غلا في صدرها كمرجل القين، ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إلي لم تفعل. ولها بعد حرمتها الأولى، والحساب على الله!.

الشرح: يعتقل نفسه على الله: يحبسها على طاعته. ثم ذكر أن السبيل التي حملهم عليها وهي سبيل الرشاد ذات مشقة شديدة ومذاقة مريرة لأن الباطل محبوب النفوس فإنه اللهو واللذة، وسقوط التكليف، وأما الحق فمكروه النفس لأن التكليف صعب وترك الملاذ العاجلة شاق شديد المشقة، والضغن: الحقد. والمرجل: قدر كبيرة. والقين: الحداد، أي كغليان قدر من حديد.

عائشة وبعض أخبارها

وفلانة كناية عن أم المؤمنين عائشة، أبوها أبو بكر، وقد تقدم ذكر نسبه، وأمها أم رومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة. تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بستين، بعد وفاة خديجة وهي بنت سبع سنين، وبني عليها بالمدينة وهي بنت تسع سنين وعشرة أشهر، وكانت قبله تذكر لجبرين مطعم، وتسمى له، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام عائشة في سرقة من حرير عند متوفى خديجة، فقال: "إن يكن هذا من عند الله يمضه" روي هذا الخبر في المسانيد الصحيحة، وكان نكاحه إياها في شوال، وبنائه عليها في شوال أيضاً، فكانت تحب أن تدخل النساء من أهلها وأحبتهن على أزواجهن في شوال وتقول: هل كان في نسائه أحظى مني! وقد نكحتني، وبني علي في شوال، رداً بذلك على من يزعم من النساء أن دخول الرجل بالمرأة بين العيدين مكروه.

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وهي بنت عشرين سنة. واستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكنية، فقال لها: "اكتني بابنك عبد الله بن الزبير" يعني ابن اختها، فكانت تكنى أم عبد الله. وكانت فقيهة راوية للشعر، ذات حظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وميل ظاهر إليها، وكانت لها عليه جرأة وإدلال لم يزل ينمي ويستشري، حتى كان منها في أمره في قصة مارية، ما كان من الحديث الذي أسره إلى الزوجة الأخرى، وأدى إلى تظاهرها عليه، وأنزل فيهما قرآناً يتلى في المحاريب، يتضمن وعيداً غليظاً عقيب تصريح بوقوع الذنب، وصغو القلب، وأعقبته تلك الجرأة، وذلك الإنبساط وحدث منها في أيام الخلافة العلوية ما حدث ولقد عفا الله تعاك عنها، وهي من أهل الجنة عندنا بسابق الوعد، وما صح من أمر التوبة.

وروى أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب في باب عائشة، عن سعيد بن نصر، عن قاسم بن أصبغ، عن محمد بن

وضاح عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع عن عصام بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنسائه: "أيتكن صاحبة الجمل الأدب، يقتل حولها قتلى كثير، وتنحو بعدما كادت ؟". قال أبو عمر بن عبد البر: وهذا الحديث من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، قال: وعصام بن قدامة ثقة وسائر الإسناد، ثقة رجاله أشهر من أن تذكر.

ولم تحمل عائشة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ولد له ولد من مهيرة إلا من خديجة، ومن السراري إلا من مارية.

وقد دفنت عائشة في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفوان بن المعطل السلمي، والقصة مشهورة، فأنزل الله تعالى براءتها في قرآن يتلى وينقل، وجلد قاذفوها الحد، وتوفيت في سنة سبع وخمسين للهجرة، وعمرها أربع وستون سنة ودفنت بالبقيع في ملك معاوية، وصلى عليها المسلمون ليلاً، وأمههم أبو هريرة، ونزل في قبرها خمسة من أهلها: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة المذكورة.

فأما قوله: فأدركها رأي النساء، أي ضعف آرائهن. وقد جاء في الخبر: لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة وجاء: إنهن قليلات عقل ودين، أو قال: ضعيفات، ولذلك جعل شهادة المراتين بشهادة الرجل الواحد والمرأة في أصل الخلقة سريعة الإنخداع سريعة الغضب، سيئة الظن فاسدة التدبير، والشجاعة فيهن مفقودة أو قليلة وكذلك السخاء.

وأما الضغن، فاعلم أن هذا الكلام يحتاج إلى شرح وقد كنت قرأته على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعاني رحمه الله أيام اشتغالي عليه بعلم الكلام، وسألته عما عنده فيه، فأجابني بجواب طويل، أنا أذكر محصوله، بعضه بلفظه رحمه الله، وبعضه بلفظي، فقد شذ عني الآن لفظه كله بعينه، قال: أول بدء الضغن كان بينها وبين فاطمة عليها السلام وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها عقيب موت خديجة، فأقامها مقامها، وفاطمة هي ابنة خديجة، ومن المعلوم أن ابنة الرجل إذا ماتت أمها، وتزوج أبوها أخرى، كان بين الابنة وبين المرأة كدر وشنآن، وهذا لا بد منه، لأن الزوجة تنفس عليها ميل الأب، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة. كالضرة لأمها، بل هي ضرة على الحقيقة، وإن كانت الأم ميتة. ولأننا لو قدرنا الأم حية، لكانت العداوة مضطربة متسعة، فإذا كانت قد ماتت ورثت ابنتها تلك العداوة، وفي المثل: عداوة الحماة والكنة. وقال الرازي:

إن الحماة أولعت بالكنة

وأولعت كنتها بالظنه

ثم اتفق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مال إليها وأحبها، فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله، وأكرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة إكراماً عظيماً أكثر مما كان الناس يظنونونه وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم، حتى خرج بها عن حد حب الآباء للأولاد، فقال بمحضر الخاص والعام مراراً لا مرة واحدة، وفي مقامات مختلفة لا في مقام واحد: إنها سيدة نساء العالمين، وإنها عديلة مريم بنت عمران، وإنها إذا مرت في الموقف نادى مناد من جهة العرش: يا أهل الموقف، غضوا

أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد. وهذا من الأحاديث الصحيحة، وليس من الأخبار المستضعفة وإن إنكاحه علياً إياها ما كان إلا بعد أن أنكحه الله تعالى إياها في السماء بشهادة الملائكة. وكم قال لا مرة: يؤذيني ما يؤذيها، ويغضبني ما يغضبها، وإنما بضعة مني، يرييني ما راها، فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضغن عند الزوجة حسب زيادة هذا التعظيم والتبجيل، والنفوس البشرية تغيظ على ما هو دون هذا، فكيف هذا! ثم حصل عند بعلاها ما هو حاصل عندها أعني علياً عليه السلام فإن النساء كثيراً ما يجعلن الأحقاد في قلوب الرجال لا سيما وهن محدثات الليل، كما قيل في المثل، وكانت تكثر الشكوى من عائشة، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلن إليها كلمات عن عائشة، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلاها، كانت عائشة تشكو إلى أبيها، لعلمها أن بعلاها لا يشكيها على ابنته، فحصل في نفس أبي بكر من ذلك أثر ما، ثم ترايد تقرير رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه وتقريبه واختصاصه فأحدث ذلك حسداً له وغبطة في نفس أبي بكر عنه وهو أبوها، وفي نفس طلحة وهو ابن عمها، وهي تجلس إليهما وتسمع كلامهما وهما يجلسان إليها ويحدثانها، فأعدى إليها منهما كما أعتدتهما. قال: ولست أبرئ علياً عليه السلام من مثل ذلك فإنه كان ينفس على أبي بكر سكون النبي صلى الله عليه وسلم إليه وثنائه عليه، ويحب أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين، ومن انحراف عن إنسان انحراف عن أهله وأولاده، فتأكدت البغضة بين هذين الفريقين. ثم كان من أمر القذف ما كان ولم يكن علي عليه السلام من القاذفين، ولكنه كان من المشيرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاقها، تزيهاً لعرضه عن أقوال الشناة والمنافقين.

قال له لما استشاره: إن هي إلا شسع نعلك، وقال له: سل الخادم وخوفها وإن أقامت على الجحود فاضربها. وبلغ عائشة هذا الكلام كله، وسمعت أضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه في مثل هذه الواقعة، ونقل النساء إليها كلاماً كثيراً عن علي وفاطمة، وأنها قد أظهرت الشماتة جهاراً وسراً بوقوع هذه الحادثة لها، فتفاقم الأمر وغلظ.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالحها ورجع إليها، ونزل القرآن ببراءتها فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قهر، ويستظهر بعد أن غلب، ويبرأ بعد أن اتهم من بسط اللسان، وفتات القول، وبلغ ذلك كله علياً رضي الله عنه وفاطمة عليها السلام، فاشتدت الحال وغلظت، وطوى كل من الفريقين قلبه على الشنآن لصاحبه. ثم كان بينها وبين علي رضي الله عنه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحوال وأقوال كلها تقتضي تهيج ما في النفوس، نحو قولها له وقد استدناه رسول الله، فجاء حتى قعد بينه وبينها وهما متلاصقان: أما وجدت مقعداً لكذا لا تكني عنه إلا فخذني! ونحو ما روي أنه سايره يوماً وأطال مناجاته فجاءت وهي سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما، وقالت: فيم أنتما فقد أطلتما! فيقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب ذلك اليوم. وما روي من حديث الجفنة من الثريد التي أمرت الخادم فوقفت لها فأكفأتهما ونحو ذلك مما يكون بين الأهل وبين المرأة وأحمائها.

ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولاداً كثيرة بنين وبنات ولم تلد هي ولداً، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقيم ابني فاطمة مقام بنيه، وسمي الواحد منهما ابني ويقول: دعوا لي ابني ولا ترموا علي ابني، وما فعل ابني؟ فما ظنك بالزوجة

إذا حرمت الولد من البعل، ثم رأت البعل يتبنى بني ابنته من غيرها، ويحنو عليهم حنو الوالد المشفق! هل تكون محبة أولئك البنين ولأمهم ولأبيهم، أم مبغضة! وهل تود دوام ذلك واستمراره، أم زواله وانقضاءه.

ثم اتفق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سد باب أبيها إلى المسجد، وفتح باب صهره ثم بعث أباه براءة إلى مكة، ثم عزله عنها بصهره، فقدح ذلك أيضاً في نفسها، وولد لرسول الله إبراهيم من مارية، فأظهر علي عليه السلام بذلك سروراً كثيراً، وكان يتعصب لمارية، ويقوم بأمرها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ميلاً على غيرها، وجرت لمارية نكبة مناسبة لنكبة عائشة، فبرأها علي رضي الله عنه منها، وكشف بطلانها، أو كشفه الله تعالى على يده، وكان ذلك كشفاً محسناً بالبصر، لا يتهياً للمنافقين أن يقولوا فيه ما قالوه في القرآن المتزل براءة عائشة، وكل ذلك مما كان يوغر صدر عائشة عليه، ويؤكد ما في نفسها منه، ثم مات إبراهيم فأبطنت شماتة، وإن أظهرت كآبة، ووجع علي عليه السلام من ذلك وكذلك فاطمة، وكانا يؤثران، ويريدان أن تتميز مارية عليها بالولد، فلم يقدر لهما ولا لمارية ذلك وبقيت الأمور على ما هي عليه، وفي النفوس ما فيها، حتى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم المرض الذي توفي فيه، وكانت فاطمة عليها السلام وعلي رضي الله عنه يريدان أن يمرضاه في بيتهما، وكذلك كان أزواجه كلهن، فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبة القلبية التي كانت لها دون نساءه، وكره أن يزاحم فاطمة ويعلها في بيتهما، فلا يكون عنده من الإنسباط لوجودهما ما يكون إذا خلا بنفسه في بيت من يميل إليه بطبعه، وعلم أن المريض يحتاج إلى فضل مداراة، ونوم وبقظة وانكشاف، وخروج حدث، فكانت نفسه إلى بيته أسكن منها إلى بيت صهره وبنته، فإنه إذا تصور حياءهما منه استحيا هو أيضاً منهما وكل أحد يحب أن يخلو بنفسه، ويحتشم الصهر والبنات، ولم يكن له إلى غيرها من الزوجات مثل ذلك الميل إليها، فتمرض في بيتهما، فغطت على ذلك، ولم يمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة مثل هذا المرض وإنما كان مرضه الشقيقة يوماً أو بعض يوم ثم يبرأ، فتناول هذا المرض وكان علي عليه السلام لا يشك أن الأمر له، وأنه لا ينازعه فيه أحد من الناس، ولهذا قال له عمه وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم: امدد يدك بأبيك، فيقول الناس: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يختلف عليك اثنان. قال: يا عم، وهل يطمع فيها طامع غيري! قال: ستعلم، قال: فإني لا أحب هذا الأمر من وراء رتاج، وأحب أن أصحر به. فسكت عنه، فلما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه، أنفذ جيش أسامة، وجعل فيه أبا بكر وغيره من أعلام المهاجرين والأنصار فكان علي رضي الله عنه حينئذ بوصوله إلى الأمر إن حدث برسول الله صلى الله عليه وسلم حدث أوثق، وتغلب على ظنه أن المدينة لو مات لخلت من منازع ينازعه الأمر بالكلية فيأخذه صفواً عفواً، وتتم له البيعة، فلا يتهياً فسخها لو رام ضد منازعته عليها، فكان من عود أبي بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه، وإعلامه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت ما كان، ومن حديث الصلاة بالناس ما عرف، فنسب علي رضي الله عنه عائشة أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فليصل بالناس لأن رسول الله كما روي، قال: ليصل بهم أحدهم، ولم يعين، وكانت صلاة الصبح، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في آخر رمق يتهادى بين علي والفضل بن العباس حتى قام في المحراب كما ورد في الخبر، ثم دخل فمات ارتفاع الضحى، فجعل يوم صلاته حجة في صرف الأمر إليه. وقال: أيكم يطيب نفساً

أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله في الصلاة؟ ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة لصرفه عنها، بل لمحافظة على الصلاة مهما أمكن فبويج على هذه النكتة التي اهتمها علي رضي الله عنه على أنها ابتدأت منها.

وكان علي عليه السلام يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ويقول: إنه لم يقل صلى الله عليه وسلم: "إنكن لصويحبات يوسف" إلا إنكاراً لهذه الحال وغضباً منها، لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبيهما وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب فلم يجد ذلك ولا أثر، مع قوة الداعي الذي كان يدعو إلى أبي بكر ويمهد له قاعدة الأمر وتقرر حاله في نفوس الناس ومن اتبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار. ولما ساعد على ذلك من الحظ الفلكي والأمر السماوي الذي جمع عليه القلوب والأهواء، فكانت هذه الحال عند علي أعظم من كل عظيم وهي الطامة الكبرى، والمصيبة العظمى ولم ينسبها إلا إلى عائشة وحدها، ولا علق الأمر الواقع إلا بما فدعا عليها في خلواته وبين خواصه، وتظلم إلى الله منها، وجرى له في تحلفه عن البيعة ما هو مشهور حتى بايع وكان يبلغه وفاطمة عنها كل ما يكرهانه منذ مات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن توفيت فاطمة، وهما صابران على مضض ورمض واستظهرت بولاية أبيها، واستطالت وعظم شأنها، وانخذل علي وفاطمة وقهراً وأخذت فذك وخرجت فاطمة تجادل في ذلك مراراً فلم تظفر بشيء، وفي ذلك تبلغها النساء والداخلات والخارجات عن عائشة كل كلام يسوءها، ويبلغن عائشة عنها وعن بعلمها مثل ذلك، إلا أنه شتان ما بين الحالين، وبعد ما بين الفريقين، هذه غالبية وهذه مغلوقة، وهذه آمرة وهذه مأمورة، وظهر التشفي والشماتة، ولا شيء أعظم مرارة ومشقة من شماتة العدو.

فقلت له، رحمه الله: أفتقول أنت: إن عائشة عينت أباهما للصلاة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعينه! فقال: أما أنا فلا أقول ذلك، ولكن علياً كان يقوله: وتكليف غير تكليفه، كان حاضراً ولم أكن حاضراً، فأنا محجوج بالأخبار التي اتصلت بي، وهي تتضمن تعيين النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في الصلاة، وهو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب على ظنه من الحال التي كان حضرها.

قال: ثم ماتت فاطمة، فجاء نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهن إلى بني هاشم في العزاء إلا عائشة، فإنها لم تأت، وأظهرت مرضاً، ونقل إلى علي رضي الله عنه عنها كلام يدل على السرور.

ثم بايع علي أباهما فسرت بذلك، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثرُوا، واستمرت الأمور على هذا مدة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان، والقلوب تغلي، والأحقاد تذيب الحجارة، وكلما طال الزمان على علي تضاعفت همومه، وباح بما في نفسه، إلى أن قتل عثمان وقد كانت عائشة فيها أشد الناس عليه تأليباً وتحريضاً، فقالت: أبعد الله! لما سمعت قتله، وأملت أن تكون الخلافة في طلحة، فتعود الإمرة تيمية كما كانت أولاً، فعدل الناس عنه إلى علي بن أبي طالب، فلما سمعت ذلك صرخت: واعثماناه! قتل عثمان مظلوماً، وثار ما في الأنفس، حتى تولد من ذلك يوم الجمل وما بعده.

هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب رحمه الله، ولم يكن يتشيع وكان شديداً في الاعتزال إلا أنه في التفضيل كان بغدادياً.

فأما قوله رضي الله عنه: ولو دعيت لئنال من غيري مثك ما أتت إلي، لم تفعل فإنما يعني به عمر، يقول: لو أن عمر ولي الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الذي قتل عليه، والوجه الذي أنا وليت الخلافة عليه، ونسب إلى عمر أنه كان يؤثر قتله، أو يحرض عليه، ودعيت عائشة إلى أن تخرج عليه في عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الإسلام، تثير فتنة وتنقض البيعة لم تفعل، وهذا حق، لأنها لم تكن تجد على عمر ما تجده على علي رضي الله عنه، ولا الحال الحال.

فأما قوله: ولها بعد حرمتها الأولى، والحساب على الله، فإنه يعني لذلك حرمتها بنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم لها وحبها إياها. وحسابها على الله، لأنه غفور رحيم لا يتعاضم عفوه زلة، ولا يضيق عن رحمته ذنب.

فإن قلت: هذا الكلام يدل على توقفه رضي الله عنه في أمرها، وأنتم تقولون: إنها من أهل الجنة، فكيف تجمعون بين مذهبكم وهذا الكلام؟.

قلت: يجوز أن يكون قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبر عنده بتوبتها، فإن أصحابنا يقولون: إنها تابت بعد قتل أمير المؤمنين وندمت، وقالت: لوددت أن لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر بنين كلهم ماتوا، ولم يكن يوم الحمل. وأنها كانت بعد قتله تثنى عليه وتنشر مناقبه مع أهم رويوا أيضاً أنها عقيب الحمل كانت تبكي حتى تبل خمارها، وأنها استغفرت الله وندمت ولكن لم يبلغ أمير المؤمنين رضي الله عنه حديث توبتها عقيب الحمل بلاغاً يقطع العذر ويثبت الحجة، والذي شاع عنها من أمر الندم والتوبة شياً مستفيضاً، إنما كان بعد قتله رضي الله عنه إلى أن ماتت وهي على ذلك، والتائب مغفور له، ويجب قبول التوبة عندنا في العدل، وقد أكدوا وقوع التوبة، منها ما روي في الأخبار المشهورة أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة كما كانت زوجته في الدنيا، ومثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أن نتكلف إثبات توبتها ولو لم ينقل، فكيف والنقل لها يكاد أن يبلغ حد التواتر!.

الأصل: منه: سبيل أبلغ المنهاج، أنور السراج، فبالإيمان يستدل على الصالحات، بالصالحات يستدل على الإيمان، وبالإيمان يعمر العلم، وبالعلم يهرب الموت، وبالموت تحتم الدنيا، وبالدنيا تحرز الآخرة، وبالقيامة تزلف الجنة، وتبرز الجحيم للغاوين. وإن الخلق لا مقصر لهم عن القيامة، مرقلين في مضمارها إلى الغاية القصوى.

الشرح: هو الآن في ذكر الإيمان، وعنه قال: سبيل أبلغ المنهاج، أي واضح الطريق.

ثم قال: فبالإيمان يستدل على الصالحات، يريد بالإيمان ههنا مسماه اللغوي لا الشرعي لأن الإيمان في اللغة هو التصديق، قال سبحانه: "وما أنت بمؤمن لنا" أي مصدق، والمعنى أن من حصل عنده التصديق، بالوحدانية والرسالة وهما كلمتا الشهادة، استدل بهما على وجوب الأعمال الصالحة عليه أو ندبه إليها، لأن المسلم يعلم من دين نبيه صلى الله عليه وسلم أنه أوجب عليه أعمالاً صالحة، وندبه إلى أعمال صالحة فقد ثبت أن بالإيمان يستدل على الصالحات.

ثم قال: وبالصالحات يستدل على الإيمان، فالإيمان ههنا مستعمل في مسماه الشرعي لا في مسماه اللغوي، ومسماه الشرعي هو العقد بالقلب والقول باللسان، والعمل بالجوارح، فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يستكمل فعل كل واجب، ويجتنب كل قبيح ولا شبهة أنا متى علمنا أو ظننا من مكلف أنه يفعل الأفعال الصالحة، ويجتنب الأفعال القبيحة استدللنا بذلك على حسن إطلاق لفظ المؤمن عليه، وبهذا التفسير الذي فسرناه نسلم من إشكال الدور، لأن لقائل أن يقول: من

شرط الدليل أن يعلم قبل العلم بالمدلول فلو كان كل واحد من الإيمان والصالحات يستدل به على الآخر، لزم تقدم العلم بكل واحد منهما على العلم بكل واحد منهما، فيؤدي إلى الدور ولا شبهة أن هذا الدور غير لازم على التفسير الذي فسرناه نحن.

ثم قال رضي الله عنه: وبالإيمان يعمر العلم وذلك لأن العالم وهو غير عامل بعلمه، غير منتفع بما علم، بل مستضر به غاية الضرر، فكأن علمه خراب غير معمر، وإنما يعمر بالإيمان وهو فعل الواجب وتجنب القبيح على مذهبنا، أو الاعتقاد والمعرفة على مذهب غيرنا أو القول اللساني على قول آخرين ومذهبنا أرجح، لأن عمارة العلم إنما تكون بالعمل من الأعضاء والجوارح وبدون ذلك يبقى العلم على خرابه كما كان.

ثم قال: وبالعلم يهرب الموت، هذا من قول الله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء".

ثم قال: وبالموت تحتّم الدنيا، وهذا حق لأنه انقطاع التكليف.

ثم قال: وبالدنيا تحرز الآخرة هذا كقول بعض الحكماء: الدنيا متجر، والآخرة ربح، ونفسك رأس المال.

ثم قال: وبالقيامة تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين، هذا من القرآن العزيز. وتزلف لهم: تقدم لهم وتقرب إليهم. ولا مقصر لي عن كذا، لا محبس ولا غاية لي دونه. وأرقل: أسرع. والمضمار: حيث تستيق الخيل.

الأصل: منها: قد شخصوا من مستقر الأحداث، وصاروا إلى مصائر الغايات، لكل دار أهلها، لا يستبدلون بها، ولا ينقلون عنها وإن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، خلقتان من خلق الله سبحانه، وإلهما لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق.

وعليكم بكتاب الله، فإنه الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والري النافع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستعتب، ولا يخلقه كثرة الرد، وولوج السمع، من قال به صدق، ومن عمل به سبق. الشرح: شخصوا من بلد كذا: خرجوا. ومستقر الأحداث: مكان استقرارهم بالقبور وهي جمع حدث، ومصائر الغايات: جمع مصير، والغايات: جمع غاية وهي ما ينتهي إليه، قال الكميت:

فالآن صرت إلى أمية والأمر إلى مصاير

ثم ذكر أن أهل الثواب والعقاب، كل من الفريقين يقيم بدار لا يتحول منها، وهذا كما ورد في الخبر: إنه ينادي مناد: يا أهل الجنة سعادة لا فناء لها، ويا أهل النار شقاوة لا فناء لها.

ثم ذكر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقتان من خلق الله سبحانه وذلك لأنه تعالى ما أمر إلا بمعروف، وما نهى إلا عن منكر، ويبقى الفرق بيننا وبينه أنا يجب علينا النهي عن المنكر بالمنع منه، وهو سبحانه لا يجب عليه ذلك لأنه لو منع من إتيان المنكر لبطل التكليف.

ثم قال: إلهما لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق، وإنما قال رضي الله عنه ذلك، لأن كثيراً من الناس يكف عن هي الظلمة عن المناكير توهماً منه أنهم إما أن يبطشوا به فيقتلوه، أو يقطعوا رزقه ويحرموه، فقال رضي الله عنه: إن ذلك ليس

مما يقرب من الأجل، ولا يقطع الرزق. وينبغي أن يحمل كلامه رضي الله عنه على حال السلامة وغلبة الظن بعدم تطرق الضرر الموفي على مصلحة النهي عن المنكر.

ثم أمر باتباع الكتاب العزيز، ووصفه بما وصفه به.

وماء نافع، ينقع الغلة، أي يقطعها ويروي منها. ولا يزيغ: يميل فيستعيب: يطلب منه العتي هي الرضا كما يطلب من الظالم يميل فيسترضى.

قال: ولا يخلقه كثرة الرد وولوج السمع، هذا من خصائص القرآن المجيد شرفه الله تعالى، وذلك أن كل كلام منشور أو منظوم إذا تكررت تلاوته وتردد ولوجه الأسماع مل وسمج واستهجن إلا القرآن فإنه لا يزال غصاً طرياً محبوباً غير مملول.

وقام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة

وهل سألت عنها رسول الله

صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام

الأصل: إنه لما أنزل الله سبحانه قوله: "آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون" علمت أن الفتنة لا تتزل بنا، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرنا، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها؟ فقال: يا علي، إن أمتي سيفتنون بعدي.

فقلت: يا رسول الله، أو ليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة، فشق ذلك علي فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك؟ فقال لي: إن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذا؟ فقلت: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشري والشكر، وقال: يا علي إن القوم سيفتنون بأموالهم، ويمنون بدينهم على ربه، ويتمنون رحمته، ويأمنون سطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة، والأهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية، والربا بالبيع. فقلت: يا رسول الله، فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك؟ أم بمزلة فتنة؟ فقال: بمزلة فتنة.

الشرح: قد كان رضي الله عنه يتكلم في الفتنة ولذلك ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولذلك قال: فعليكم بكتاب الله، أي إذا وقع الأمر واحتلظ الناس، فعليكم بكتاب الله، فلذلك قام إليه من سألته عن الفتنة. وهذا الخبر مروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قد رواه كثير من الحديثين عن علي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: "إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين، كما كتب علي جهاد المشركين"، قال: فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي كتب علي فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وهم مخالفون للسنة. فقلت: يا رسول الله، فعلاهم أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: على الإحداث في الدين، ومخالفة الأمر، فقلت: يا رسول الله، إنك كنت وعدتني الشهادة، فاسأل الله أن يعجلها لي بين يديك، قال: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين! أما إني

وعدتك الشهادة وستستشهد، تضرب على هذه فتخضب هذه، فكيف صبرك إذاً! قلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبر، هذا موطن شكر، قال: أجل، أصبت، فأعد للخصومة فإنك محاصم، فقلت: يا رسول الله، لو بينت لي قليلاً فقال: إن أمي ستفتن من بعدي، فتأول القرآن وتعمل بالرأي وتستحل الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية، والربا بالبيع، وتحرف الكتاب عن مواضعه، وتغلب كلمة الضلال، فكن جليس بيتك حتى تقلدها، فإذا قلدها جاشت عليك الصدور، وقلبت لك الأمور، تقاتل حينئذ على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله، فليست حالهم الثانية بدون حالهم الأولى. فقلت: يا رسول الله، فبأي المنازل! أنزل هؤلاء المفتونين من بعدك؟ أمثلة فتنة أم بمثلة ردة؟ فقال: بمثلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل. فقلت: يا رسول الله، أيدركهم العدل منا أم من غيرنا؟ قال: بل منا، بنا فتح وبنا يحتم، وبنا ألف الله بين القلوب بعد الشرك، وبنا يؤلف بين القلوب بعد الفتنة. فقلت: الحمد لله على ما وهب لنا من فضله.

واعلم أن لفظه رضي الله عنه المروي في نهج البلاغة يدل على أن الآية المذكورة وهي قوله رضي الله عنه: "آلم أحسب الناس" أنزلت بعد أحد، وهذا خلاف قول أرباب التفسير، لأن هذه الآية هي أول سورة العنكبوت وهي عندهم بالاتفاق مكية، ويوم أحد كان بالمدينة، وينبغي أن يقال في هذا: إن هذه الآية خاصة أنزلت بالمدينة، وأضيفت إلى السورة المكية فصارتا واحدة، وغلب عليها نسب المكي لأن الأكثر كان بمكة، وفي القرآن مثل هذا كثير، كسورة النحل، فإنها مكية بالإجماع، وآخرها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة بعد يوم أحد، وهي قوله تعالى: "وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وأصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون". فإن قلت: فلم قال: علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله بين أظهرنا؟ قلت: لقوله تعالى "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم".

وقوله: حيزت عني الشهادة، أي منعت، وقوله: ليس هذا من مواطن الصبر كلام عال جداً يدل على يقين عظيم، وعرفان تام، ونحوه قوله وقد ضربه ابن ملجم: فزت ورب الكعبة. قوله: سيفتنون بعدي بأموالهم من قوله تعالى: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة". قوله: ويمنون بدينهم على ربهم، من قوله تعالى: "يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان".

قوله: ويتمنون رحمته من قوله: أحقق الحمقى من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله. قوله: ويأمنون سطوته من قوله تعالى: "أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون". والأهواء الساهية: الغافلة. والسحت: الحرام، ويجوز ضم الحاء، وقد أسحت الرجل في تجارتها، إذا اكتسب السحت. وفي قوله: بل بمثلة فتنة تصديق لمذهبنا في أهل البغي، وأنهم لم يدخلوا في الكفر بالكلية، بل هم فساق، والفساق عندنا في منزلة بين المنزلتين، خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر.

قال في صف الدهر

الأصل: الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره، وسبباً للمزيد من فضله، ودليلاً على آلائه وعظمته. عباد الله إن الدهر يجري بالباقيين كجريه بالماضين، لا يعود ما قد ولى منه، ولا يبقى سرمداً ما فيه.

آخر فعاله كأوله، متشابهة أموره، متظاهرة أعلامه فكأنكم بالساعة تحذوكم حدو الزاجر بشوله، فمن شغل نفسه بغير نفسه تحير في الظلمات، وارتبك في الهلكات ومدت به شياطينه في طغيانه وزينت له سيئ أعماله. فالجنة غاية السابقين، والنار غاية المفرطين.

اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله، ولا يحرز من لجأ إليه. ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا، وباليقين تدرك الغاية القصوى.

عباد الله، الله الله في أعز الأنفس عليكم، وأحبها إليكم، فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأثار طرقه: فشقوة لازمة، أو سعادة دائمة. فتزودوا في أيام الفناء، لأيام البقاء. قد دللتهم على الزاد، وأمرتهم بالظعن، وحثتهم على المسير فإنما أنتم كركب وقوف لا يدرون متى يؤمرون بالسير. ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة! وما يصنع بالمال من عما قليل يسلبه، وتبقى عليه تبعته وحسابه! عباد الله، إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، ولا فيما نهي عنه من الشر مرغّب. عباد الله، أحذروا يوماً تفحص فيه الأعمال، ويكثر فيه الزلزال، وتشيب فيه الأطفال.

اعلموا عباد الله أن عليكم رسداً من أنفسكم، وغيوناً من جوارحكم، وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم، لا تستركم منهم ظلمة ليل داج، ولا يكنكم منهم باب ذو رتاج، وإن غداً من اليوم قريب، يذهب اليوم بما فيه، ويحيى الغد لاحقاً به، فكأن كل أمرئ منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته، ومخط حفرة. فيا له من بيت وحدة، ومنزل وحشة، ومفرد غربة! وكأن الصيحة قد أتتكم، والساعة قد غشيتكم، وبرزتم لفصل القضاء، قد زاحت عنكم الأباطيل، واضمحلت عنكم العلل، وأستحقت بكم الحقائق، وصدرت بكم الأمور مصادرها، فاتعظوا بالعبر، وأعتبروا بالغير، وانتفعوا بالنذر.

الشرح: جعل الحمد مفتاحاً لذكره لأن أول الكتاب العزيز: "الحمد لله رب العالمين" والقرآن هو الذكر، قال سبحانه: "إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون"، وسبباً للمزيد، لأنه تعالى قال: "لئن شكرتم لأزيدنكم"، والحمد ههنا هو الشكر، ومعنى جعله الحمد دليلاً على عظمته وآلائه أنه إذا كان سبباً للمزيد، فقد دل ذلك على عظمة الصانع وآلائه، أما دلالة على عظمته، فلأنه دال على أن قدرته لا تنتهي أبداً، بل كلما ازداد الشكر ازدادت النعمة، وأما دلالة على آلائه، فلأنه لا جود أعظم من جود من يعطي من يحمد، لا حمداً متطوعاً، بل حمداً واجباً عليه.

قوله: يجري بالباقيين كجريه بالماضين، من هذا أخذ الشعراء وغيرهم ما نظموه في هذا المعنى، قال بعضهم:

والسماك السماك والنسر نسر

كيف تبقى من بعدنا ونمر!

مات من مات والثريا الثريا

ونجوم السماء تضحك منا

وقال آخر:

فما الدهر إلا كالزمان الذي مضى

ولا نحن إلا كالقرون الأوائل

قوله: لا يعود ما قد ولى منه، كقول الشاعر:

ما أحسن الأيام إلا أنها

يا صاحبي إذا مضت لم ترجع

قوله: ولا يبقى سرمداً ما فيه، كلام مطروق المعنى، قال عدي:

ليس شيء على المنون بباق

غير وجه المهيمن الخلاق

قوله: آخر أفعاله كأوله، يروى: كأولها، ومن رواه: كأوله أعاد الضمير إلى الدهر، أي آخر أفعال الدهر كأول الدهر، فحذف المضاف.

متشابهة أموره، لأنه كما كان من قبل يرفع ويضع، ويغني ويفقر، ويوجد ويعدم، فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة. وروي: متسابقة أي شيء منها قبل شيء، كأنها خيل تتسابق في مضمار.

متظاهرة أعلامه، أي دلالاته على سجيته التي عامل الناس بها قديماً وحديثاً. متظاهرة، يقوي بعضها بعضاً. وهذا الكلام جار منه رضي الله عنه على عادة العرب في ذكر الدهر، وإنما الفاعل على الحقيقة رب الدهر. والشول: النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها، وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية، الواحدة شائلة، وهي جمع على غير القياس. وشولت الناقة، أي صارت شائلة، فأما الشائل بغير هاء فهي الناقة تشول بذنبها للقاح ولا لبن لها أصلاً، والجمع شول، مثل راعع وركع، قال أبو النجم:

كأن في أذناهن الشول

والزاجر: الذي يزجر الإبل بسوقها، ويقال: حدوت إبلي وحدوت بإبلي، والحدو سوقها والغناء لها، وكذلك الحداء، ويقال للشمال: حدواء، لأنها تحدو السحاب، أي تسوقه، قال العجاج:

حدواء جاءت من بلاد الطور

ولا يقال للمذكر: أحدى، وربما قيل للحمار إذا قدم أتنه: حاد، قال ذو الرمة:

حادي ثلاث من الحقب السماحيج

والمعنى أن سائق الشول يعسف بها، ولا يتقي سوقها ولا يدارك كما يسوق العشار .

ثم قال رضي الله عنه: من شغل نفسه بغير نفسه هلك، وذلك أن من لا يوفي النظر حقه، ويميل إلى الأهواء ونصرة الأسلاف، والحجاج عما ربي عليه بين الأهل والأستاذين الذين زرعو في قلبه العقائد يكون قد شغل نفسه بغير نفسه لأنه لم ينظر لها، ولا قصد الحق من حيث هو حق، وإنما قصد نصرته مذهب معين يشق عليه فراقه، ويصعب عنده الانتقال منه ويسوءه أن يرد عليه حجة تبطله، فيسهر عينه، ويتعب قلبه في تمويس تلك الحجة والقدح فيها بالغث والسمين، لا لأنه يقصد الحق، بل يقصد نصرته المذهب المعين وتشبيد دليله، لا جرم أنه متحير في ظلمات لا نهاية لها! والارتباك: الاختلاط، ربكت الشيء أربكه ربكاً، خلطته فارتبك، أي اختلط، وارتبك الرجل في الأمر، أي نشب فيه

و لم يكذ يتخلص منه.

قوله: ومدت به شياطينه في طغيانه، مأخوذ من قوله تعالى: "وإخوانهم يعدونهم في الغي ثم لا يقصرون".

وروي: ومدت له شياطينه باللام، ومعناه الإمهال، مد له في الغي، أي طول له، وقال تعالى: "قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً".

قوله: وزينت له سئ أعماله، مأخوذ من قوله تعالى: "أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً".

قوله: التقوى دار حصن عزيز، معناه دار حصانة عزيزة، فأقام الاسم مقام المصدر، وكذلك في الفجور، ويجرز من لجأ إليه: يحفظ من اعتصم به.

وحمة الخطايا: سمها، وتقطع الحمة، كما تقول: قطعت سريان السم في بدن الملسوع بالبتريهيات والترياقات، فكأنه جعل سم الخطايا ساريا في الأبدان، والتقوى تقطع شريانه.

قوله: وباليقين تدرك الغاية القصوى وذلك لأن أقصى درجات العرفان الكشف، وهو المراد ههنا بلفظ اليقين.

وانتصب الله الله على الإغراء. وفي متعلقة بالفعل المقدر وتقديره: راقبوا. وأعز الأنفس عليهم، أنفسهم.

قوله: فشقوة لازمة، مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره، فغائتكم، أو فجزاؤكم، أو فشأنكم وهذا يدل على مذهبنا في الوعيد، لأنه قسم الجزاء إلى قسمين، إما العذاب أبداً، أو النعيم أبداً وفي هذا بطلان قول المرجئة: إن ناساً يخرجون من النار فيدخلون الجنة، لأن هذا لو صح لكان قسماً ثالثاً.

قوله: فقد دلتم على الزاد، أي الطاعة.

وأمرتم بالظعن، أي أمرتم بهجر الدنيا، وأن تظعنوا عنها بقلوبكم. ويجوز: الظعن بالتسكين، وحشتم على المسير لأن الليل والنهار سائقان عنيفان.

قوله: وإنما أنتم كركب وقوف لا يدرون متى يؤمرون بالسير، السير ههنا، هو الخروج من الدنيا إلى الآخرة بالموت جعل الناس ومقامهم في الدنيا كركب وقوف لا يدرون متى يقال لهم: سيروا فيسيرون، لأن الناس لا يعلمون الوقت الذي يموتون فيه.

فإن قلت: كيف سمى الموت والمفارقة سيراً؟ قلت: لأن الأرواح يعرج بها إما إلى عالمها وهم السعداء، أو تهوي إلى أسفل السافلين وهم الأشقياء، وهذا هو السير الحقيقي، لا حركة الرجل بالمشي، ومن أثبت الأنفس المجردة، قال: سيرها خلوصها من عالم الحس، واتصالها المعنوي لا الأبدي ببارئها، فهو سير في المعنى لا في الصورة ومن لم يقل بهذا ولا بهذا قال: إن الأبدان بعد الموت تأخذ في التحلل والتزائل، فيعود كل شيء منها إلى عنصره، فذاك هو السير. وما في عما قليل زائدة. وتبعته: إثمه وعقوبته.

قوله: إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، أي ليس الثواب فيما ينبغي للمرء أن يتركه، ولا الشر فيما ينبغي أن يرغب المرء فيه.

وتفحص فيه الأعمال: تكشف. والزلال، بالفتح: اسم للحركة الشديدة والاضطراب، والزلال بالكسر المصدر، قال تعالى: "وزلزلوا زلزالاً شديداً".

قوله: ويشيب فيه الأطفال كلام جار مجرى المثل، يقال في اليوم الشديد: إنه ليشيب نواصي الأطفال وقال تعالى: "فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً" ، وليس ذلك على حقيقته، لأن الأمة مجمعة على أن الأطفال لا تتغير حالهم في الآخرة إلى الشيب، والأصل في هذا أن الهموم والأحزان إذا توالى على الإنسان شاب سريعاً، قال أبو الطيب:

ويشيب ناصية الصبي ويهرم

والهم يخترم الجسيم نحافة

قوله: إن عليكم رسداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، لأن الأعضاء تنطق في القيامة بأعمال المكلفين، وتشهد عليهم.

والرصد: جمع راصد، كالحرص جمع حارس.

قوله: وحفاظ صدق يعني الملائكة الكاتبين، لا يعتصم منهم بستره ولا ظلام ليل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

خلوت ولكن قل: علي رقيب

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل

قوله: وإن غداً من اليوم قريب، ومنه قول القائل:

فإن غداً لناظره قريب

ومنه قوله: غد ما غد ما أقرب اليوم من غد.

ومنه قول الله تعالى: "إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب" .

والصيحة: نفخة الصور، وزاحت الأباطيل: بعدت. واضمحلت: تلاشت وذهبت.

قوله: واستحقت، أي حقت ووقعت، استفعل بمعنى فعل، كقولك: استمر على باطله، أي مر عليه، وصدرت بكم الأمور مصادرها، كل وارد فله صدر عن مورده، وصدر الإنسان عن موارد الدنيا: الموت ثم البعث.

ومن خطبة له في فضل الرسول والقرآن

الأصل: أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم، وانتقاض من المبرم، فجاءهم بتصديق الذي بين يديه، والنور المقتدى به ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه، ألا إن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء داءكم، ونظم ما بينكم.

الشرح: الهجعة: النومة الخفيفة وقد تستعمل في النوم المستغرق أيضاً والمبرم: الحبل المفتول. والذي بين يديه: التوراة والإنجيل.

فإن قلت: التوراة والإنجيل قبله، فكيف جعلهما بين يديه؟ قلت: أحد جزأي الصلة محذوف وهو المتبدأ، والتقدير:

بتصديق الذي هو بين يديه وهو ضمير القرآن، أي بتصديق الذي القرآن بين يديه، وحذف أحد جزأي الصلة ههنا، ثم حذفه في قوله تعالى: "تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً" ، في قراءة من جعله اسماً مرفوعاً، وأيضاً فإن العرب تستعمل بين يديه بمعنى قبل، قال تعالى: "بين يدي عذاب شديد" ، أي قبله.

الأصل: منها: فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا وأدخله الظلمة ترحه، وأولجوا فيه نعمة، فيومئذ لا يبقى لهم في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر.

أصفيتم بالأمر غير أهله، وأوردتموه غير مورده، وسينتقم الله ممن ظلم مأكلاً ومأكلاً ومشرباً ومشرباً. معشرب من مطاعم العلقم ومشارب الصبر والمقر، ولباس شعار الخوف، ودثار السيف وإنما هم مطايا الخطيئات، وزوامل الآثام.

فأقسم ثم أقسم، لتنخمنها أمية من بعدي كما تلفظ النخامة، ثم لا تذوقها ولا تتطعم بطعمها أبداً، ما كر الجديدان! الشرح: الترحه: الحزن، قال: فحينئذ لا يبقى لهم، أي يحيق بهم العذاب ويبعث الله عليهم من ينتقم، وهذا إخبار عن ملك بني أمية بعده وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم في الأرض.

ثم خاطب أولياء هؤلاء الظلمة، ومن كان يؤثر ملكهم، فقال: أصفيتم بالأمر غير أهله، أصفيت فلاناً بكذا: خصصته به، وصفية المغنم: شيء كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة.

وأوردتموه غير ورده: أنزلتموه عند غير مستحقه.

ثم قال: سيبدل الله ماكلهم اللذيذة الشهية بماكل مريرة علقمية. والمقر: المر. ومأكلاً منصوب بفعل مقدر أي يأكلون مأكلاً والباء ههنا للمجازاة الدالة على الصلة، كقوله تعالى: "فبما نقضهم ميثاقهم" وكقول أبي تمام:

المعاني من كل حسن وطيب

فبما قد أراه ريان مكسو

وقال سبحانه: "قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين". وجعل شعارهم الخوف، لأنه باطن في القلوب، ودثارهم السيف لأنه ظاهر في البدن كما أن الشعار ما كان إلى الجسد والدثار ما كان فوقه. ومطايا الخطيئات: حوامل الذنوب. وزوامل الآثام: جمع زاملة، وهي بعير يستظهر به الإنسان يحمل متاعه عليه، قال الشاعر:

بجيدها إلا كعلم الأباغر

زوامل أشعار ولا علم عندهم

وتنخمت النخامة: إذا تنخعتها، والنخامة: النخاعة.

والجديدان: الليل والنهار وقد جاء في الأخبار الشائعة المستفيضة في كتب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر أن بني أمية تملك الخلافة بعده، مع ذم منه عليه السلام لهم، نحو ما روي عنه في تفسير قوله تعالى: "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن" فإن المفسرين قالوا: إنه رأى بني أمية يتزودون على منبره نزو القردة، هذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فسر لهم الآية به، فسأه ذلك ثم قال: الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة ونحو قوله صلى الله عليه وسلم: إذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباده حولاً ونحو قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى: "ليلة القدر خير من ألف شهر" قال: ألف شهر يملك فيها بنو أمية. وورد عنه صلى الله عليه وسلم من ذمهم الكثير المشهور نحو قوله: "أبغض الأسماء إلى الله الحكم وهشام والوليد"، وفي خبر آخر: اسمان ييغضهما الله: مروان والمغيرة ونحو قوله: إن ربكم يحب ويغض، كما يحب أحدكم ويغض وإنه ييغض بني أمية ويحب

بني عبد المطلب.

فإن قلت: كيف قال: ثم لا تذوقها أبداً وقد ملكوا بعد قيام الدولة الهاشمية بالمغرب مدة طويلة؟ قلت: الاعتبار بملك العراق والحجاز وما عداهما من الأقاليم لا اعتداد به.

ومن خطبة له في وصف حاله مع أصحابه

الأصل: ولقد أحسنت جواركم، وأحطت بجهدي من ورائكم، وأعتقتكم من ربك الذل وحلق الضيم شكراً مني للبر القليل، وإطراقاً عما أدركه البصر، وشهده البدن من المنكر الكثير. الشرح: أحطت بجهدي من ورائكم: حميتكم وحضنتكم. والجهد بالضم الطاقة. الربق جمع ربة، وهي الحبل يربق به البهم.

وحلق الضيم: جع حلقة، بالتسكين، ويجوز: حلق بكسر الحاء وحلاق.

فإن قلت: كيف يجوز له أن يطرق ويغضي عن المنكر؟ قلت: يجوز له ذلك إذا علم أو غلب على ظنه أنه إن نأهم عنه لم يرتدعوا وأضافوا إليه منكراً آخر، فحينئذ يخرج الإطراق والإغضاء عن حد الجواز إلى حد الوجوب، لأن النهي عن المنكر يكون والحالة هذه مفسدة.

ومن خطبة له في عظمة الله تعالى

الأصل: أمره قضاء وحكمة، ورضاه أمان ورحمة يقضي بعلم، ويعفو بحلم.

اللهم لك الحمد على ما تأخذ وتعطي وعلى ما تعافي وتبتلي حمداً يكون أرضى الحمد لك، وأحب الحمد إليك وأفضل الحمد عندك حمداً يملأ ما خلقت، ويبلغ ما أردت، حمداً لا يحجب عنك، ولا يقصر دونك، حمداً لا ينقطع عدده، ولا يفنى مدده، فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا أنا نعلم أنك حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم لم ينته إليك نظر، ولم يدركك بصر، أدركت الأبصار، وأحصيت الأعمال، وأخذت بالنواصي والأقدام.

وما الذي نرى من خلقك، ونعجب له من قدرتك، ونصفه من عظيم سلطانك وما تغيب عنا منه، وقصرت أبصارنا عنه، انتهت عقولنا دونه، وحالت سواثر الغيوب بيننا وبينه، أعظم. فمن فرغ قلبه، وأعمل فكره، ليعلم كيف أقمت عرشك، وكيف ذرأت خلقك، وكيف علقت في الهواء سمواتك، وكيف مددت على مور الماء أرضك، رجع طرفه حسيراً، وعقله مبهوراً، وسمعه والهاً، وفكره حائراً.

الشرح: يجوز أن يكون أمره ههنا هو الأمر الفعلي لا الأمر القولي، كما يقال: أمر فلان مستقيم، وما أمر كذا، وقال تعالى: "وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر"، "وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب"، فيكون المعنى أن شأنه تعالى ليس إلا أحد شيئين وهما أن يقول، وأن يفعل، فعبر عن أن يقول بقوله: قضاء لأن القضاء الحكم، وعبر عن أن يفعل بقوله: وحكمة لأن أفعاله كلها تتبع دواعي الحكمة. ويجوز أن يكون أمره هو الأمر القولي، وهو المصدر من أمر له بكذا أمراً فيكون المعنى أن أوامره إيجاب وإلزام بما فيه حكمة ومصلحة، وقد جاء القضاء بمعنى الإلزام والإيجاب في القرآن

العزير في قوله: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه"، أي أوجب وألزم.

قوله: ورضاه أمان ورحمة لأن من فاز بدرجة الرضا فقد أمن وحصلت له الرحمة لأن الرضا رحمة وزيادة.

قوله: يقضي بعلم، أي يحكم بما يحكم به لأنه عالم بحسن ذلك القضاء، أو وجوبه في العدل.

قوله: ويعفو بحلم، أي لا يعفو عن عجز وذل، كما يعفو الضعيف عن القوي، بل هو قادر على الانتقام ولكنه يحلم. ثم حمد الله تعالى على الإعطاء والأخذ، والعافية والبلاء لأن ذلك كله من عند الله لمصالح للمكلف، يعلمها وما يعلمها المكلف، والحمد على المصالح واجب.

ثم أخذ في تفخيم شأن ذلك الحمد وتعظيمه والمبالغة في وصفه، احتذاء بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحمد لله زنة عرشه، الحمد لله عدد خلقه، الحمد لله ملء سمائه وأرضه"، فقال رضي الله عنه: حمداً يكون أرضى الحمد لك، أي يكون رضاك له أوفى وأعظم من رضاك بغيره، وكذلك القول في: أحب وأفضل.

قوله: ويبلغ ما أردت، أي هو غاية ما تنتهي إليه الإرادة وهذا كقول الأعرابية في صفة المطر: غشيننا ما شئنا، وهو من فصيح الكلام.

قوله: لا يحجب عنك، لأن الإخلاص يقارنه، والرياء منتف عنه.

قوله: ولا يقصر دونك أي لا يحبس أي لا مانع عن وصوله إليك، وهذا من باب التوسع ومعناه، أنه بريء من الموانع عن إثماره الثواب واقتضائه إياه، وروي ولا يقصر من القصور، وروي ولا يقصر من التقصير.

ثم أخذ في بيان أن العقول قاصرة عن إدراك الباري سبحانه والعلم به، وأنا إنما نعلم منه صفات إضافية أو سلبية كالعلم بأنه حي، ومعنى ذلك أنه لا يستحيل على ذاته أن يعلم ويقدر وأنه قيوم. بمعنى أن ذاته لا يجوز عليها العدم، أي يقيم الأشياء ويمسكها وكل شيء يقيم الأشياء كلها ويمسكها فليس بمحتاج إلى من يقيمه ويمسكه، وإلا لم يكن مقيماً وممسكاً لكل شيء، وكل من ليس بمحتاج إلى من يقيمه ويمسكه، فذاته لا يجوز عليها العدم. وأنه تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم لأن هذا من صفات الأجسام وما لا يجوز عليه العدم لا يكون جسماً، ولا يوصف بخواص الأجسام ولوازمها، فإنه لا ينتهي إليه نظر، لأن انتهاء النظر إليه يستلزم مقابلته وهو تعالى منزّه عن الجهة، وإلا لم يكن ذاته مستحيلاً عليها العدم، وأنه لا يدركه بصر، لأن إبصار الأشياء بانطباع أمثلتها في الرطوبة الجليدية كانطباع أشباح المريئات في المرأة، والباري تعالى لا يتمثل، ولا يتشبه وإلا لم يكن قيوماً، وأنه يدرك الأبصار لأنه إما عالم لذاته، أو لأنه حي لا آفة به، وأنه يحمي الأعمال لأنه عالم لذاته، فيعلم كل شيء حاضراً وماضياً ومستقبلاً، وأنه يأخذ بالنواصي والأقدام لأنه قادر لذاته، فهو متمكن من كل مقدور.

ثم خرج إلى فن آخر فقال: وما الذي نعجب لأجله من قدرتك وعظيم ملكك، والغائب عنا من عظمتك أعظم من الحاضر! مثال ذلك أن جرم الشمس أعظم من جرم الأرض مائة وستين مرة. ولا نسبة لجرم الشمس إلى فلكها المائل، ولا نسبة لفلكها المائل إلى فلكها المميل، وفلك تدوير المريخ الذي فوقها أعظم من ميل الشمس، ولا نسبة لفلك تدوير المريخ إلى فلكه المميل، وفلك تدوير المشتري أعظم من ميل المريخ، ولا نسبة لفلك تدوير المشتري إلى فلكه المميل،

وفلك تدوير زحل أعظم من مميل المشتري، ولا نسبة لفلك تدوير زحل إلى مميل زحل، ولا نسبة لمميل زحل إلى كرة الثوابت، ولا نسبة لكرة الثوابت إلى الفلك الأطلس الأقصى، فانظر أي نسبة تكون الأرض بكليتها على هذا الترتيب إلى الفلك الأطلس، وهذا مما تقصر العقول عن فهمه وتنتهي دونه، وتحول سواثر الغيوب بينها وبينه، كما قال رضي الله عنه.

ثم ذكر أن من أعمل فكره ليعلم كيف أقام سبحانه العرش، وكيف ذرأ الخلق، وكيف علق السموات بغير علاقة ولا عمد، وكيف مد الأرض على الماء، رجع طرفه حسيراً، وعقله مبهوراً. وهذا كله حق، ومن تأمل كتبنا العقلية واعتراضنا على الفلاسفة الذين عللوا هذه الأمور، وزعموا أنهم استنبطوا لها أسباباً عقلية، وادعوا وقوفهم على كنهها وحقائقها، علم صحة ما ذكره رضي الله عنه، من أن من حاول تقدير ملك الله تعالى وعظيم مخلوقاته بمكيال عقله، فقد ضل ضلالاً مبيناً.

وروي: وفكره جائراً، بالجيم، أي عادلاً عن الصواب. والحسير: المتعب. والمبهور: المغلوب. والواله: المتحير. الأصل: منها: يدير بزعمه أنه يرجو الله، كذب والعظيم! ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله! فكل من رجا عرف رجاؤه في عمله إلا رجاء الله فإنه مدخول، وكل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول.

يرجو الله في الكبير، ويرجو العباد في الصغير فيعطي العبد ما لا يعطي الرب! فما بال الله جل ثناؤه يقصر به عما يصنع به لعباده! أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً، أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً! وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه ما لا يعطي ربه، فجعل خوفة من العباد نقداً، وخوفه من خالقه ضمارة ووعداً، وكذلك من عظمت الدنيا في عينه، وكبر موقعها من قلبه أثرها على الله فانقطع إليها، وصار عبداً لها. الشرح: يجوز بزعمه بالضم و بزعمه بالفتح، وبزعمه بالكسر، ثلاث لغات، أي بقوله فأما من زعمت، أي كفلت، فالمصدر الزعم بالفتح، والزعامة.

ثم أقسم على كذب هذا الزاعم، فقال: والعظيم، ولم يقل: والله العظيم، تأكيداً لعظمة الباري سبحانه، لأن الموصوف إذا ألقى وترك واعتمد على الصفة حتى صارت كالاسم، كان أدل على تحقق مفهوم الصفة، كالحارث والعباس. ثم بين مستند هذا التكذيب، فقال: ما بال هذا الزاعم! إنه يرجو ربه، ولا يظهر رجاؤه في عمله، فإننا نرى من يرجو واحداً من البشر يلزم بابه ويواظب على خدمته ويتحجب إليه، ويتقرب إلى قلبه بأنواع الوسائل والقرب ليظهر بمراده منه، ويتحقق رجاؤه فيه وهذا الإنسان الذي يزعم أنه يرجو الله تعالى لا يظهر من أعماله الدينية ما يدل على صدق دعواه، ومراده رضي الله عنه ههنا ليس شخصاً بعينه، بل كل إنسان هذه صفته، فالخطاب له والحديث معه. ثم قال: كل رجاء إلا رجاء الله فهو مدخول، أي معيب، والدخل، بالتسكين: العيب والريبة. ومن كلامهم: ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل، وجاء الدخل بالتحريك أيضاً، يقال: هذا الأمر فيه دخل ودغل، بمعنى قوله تعالى: "ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم" أي مكرراً وخديعة، وهو من هذا الباب أيضاً.

ثم قال: وكل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول: محقق، أي ثابت، أي كل خوف حاصل حقيقة فإنه مع هذا

الحصول والتحقق معلول ليس بالخوف الصريح إلا خوف الله وحده وتقواه، وهيبته وسطوته وسخطه، ذلك لأن الأمر الذي يخاف من العبد سريع الانقضاء والزوال، والأمر الذي يخاف من البارئ تعالى لا غاية له ولا انقضاء لمخدوره، كما قيل في الحديث المرفوع: فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة.

ثم عاد إلى الرجاء، فقال: يرجو هذا الإنسان الله في الكثير، أي يرجو رحمته في الآخرة، ولا يتعلق رجاءه بالله تعالى إلا في هذا الموضع، فأما ما عدا ذلك من أمور الدنيا كالمكاسب والأموال والجاه والسلطان واندفاع المضار والتوصل إلى الأغراض بالشفاعات والتوسلات، فإنه لا يخطر له الله تعالى ببال، بل يعتمد في ذلك على السفراء والوسطاء، ويرجو حصول هذه المنافع، ودفع هذه المضار من أبناء نوعه من البشر، فقد أعطى العباد من رجائه ما لم يعطه الخالق سبحانه، فهو مخطئ لأنه إما أن يكون هو في نفسه صالحاً لأن يرجوه سبحانه، وإما ألا يكون البارئ تعالى في نفسه صالحاً لأن يرجى، فإن كان الثاني فهو كفر صراح، وإن كان الأول فالعبد مخطئ حيث لم يجعل نفسه مستعداً لفعل الصالحات لأن يصلح لرجاء البارئ سبحانه.

ثم انتقل رضي الله عنه إلى الخوف، فقال: وكذلك إن خاف هذا الإنسان عبداً مثله خافه أكثر من خوفه البارئ سبحانه لأن كثيراً من الناس يخافون السلطان وسطوته أكثر من خوفهم مؤاخذه البارئ سبحانه وهذا مشاهد ومعلوم من الناس، فخوف بعضهم من بعض كالنقد المعجل، وخوفهم من خالقهم ضمائر ووعد. والضمائر: ما لا يرجى من الوعود والديون. قال الراعي:

عطاء لم يكن عدة ضميراً

حمدن مزاراة وأصبين منه

ثم قال: وكذلك من عظمت الدنيا في عينه يختارها على الله، ويستعبده حبها. ويقال: كبر بالضم، يكبر أي عظم فهو كبير وكبار بالتخفيف فإذا أفرط قيل: كبار بالتشديد، فأما كبر بالكسر فمعناه أسن والمصدر منهما كبيراً بفتح الباء. الأصل: ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كاف لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساوئها إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها.

وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير" والله ما سألته إلا خبزاً يأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاه وتشذب لحمه. وإن شئت ثلثت بدادود صلى الله عليه وسلم صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص الشعير من ثمنها.

وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراحه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يجزئه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه.

الشرح: يجوز أسوة وإسوة، وقرئ التزليل بهما، والمساوئ: العيوب، ساءه كذا يسوءه سوءاً بالفتح ومساءة ومسائية.

وسوته سواية ومساية، بالتخفيف، أي ساءه ما رآه مني. وسأل سيويو الخليل عن سوائية، فقال: هي فعالية بمترلة علانية، والذين قالوا: سواية حذفوا الهمزة تخفيفاً وهي في الأصل. قال: وسألته عن مسائية، فقال: هي مقلوبة وأصلها مساوئة فكهوا الواو مع الهمزة، والذين قالوا: مساية حذفوا الهمزة أيضاً تخفيفاً ومن أمثالهم: الخيل تجري في مساويها أي أهما وإن كانت بها عيوب وأوصاب، فإن كرمها يحملها على الجري، والمخازي: جمع مخرة وهي الأمر يستحي من ذكره لقبحه، وأكنافها: جوانبها. وزوى: قبض. وزخارف: جمع زخرف وهو الذهب، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "عرضت علي كنوز الأرض ودفعت إلي مفاتيح خزائنها، فكرهتها واخترت الدار الآخرة"، وجاء في الأخبار الصحيحة أنه كان يجوع ويشد حجراً على بطنه. وأنه ما شبع آل محمد من لحم قط، وأن فاطمة وبعلا وبنوها كانوا يأكلون خبز الشعير، وأنهم آثروا سائلاً بأربعة أقراص منه كانوا أعدوها لفظورهم، وباتوا جوعاً. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ملك قطعة واسعة من الدنيا، فلم يتدنس منها بقليل ولا كثير، ولقد كانت الإبل التي غنمها يوم حنين أكثر من عشرة آلاف بعير فلم يأخذ منها وبرة لنفسه، وفرقها كلها على الناس، وهكذا كانت شيمته وسيرته في جميع أحواله إلى أن توفي.

والصفاق: الجلد الباطن الذي فوقه الجلد الظاهر من البطن وشفيفه: رقيقه الذي يستشف ما وراءه، وبالتفسير الذي فسر صلى الله عليه وسلم الآية فسرهما المفسرون، وقالوا: إن حضرة البقل كانت ترى في بطنه من الهزال، وإنه ما سأل الله إلا أكلة من الخبز. وما في "أنزلت" ومعنى أي، أي إني لأي شيء أنزلت إلي قليل أو كثير، غث أو سمين فقير. فإن قلت: لم عدى فقيراً باللام، وإنما يقال: فقير إلى كذا؟ قلت: لأنه ضمن معنى سائل ومطالب. ومن فسر الآية بغير ما ذكره لم يحتج إلى الجواب عن هذا السؤال، فإن قوماً قالوا: أراد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلي من خير، أي من خير الدين وهو النجاة من الظالمين، فإن ذلك رضا بالبدل السني، وفرحاً به وشكراً له. وتشذب اللحم: تفرقه. والمزامير: جمع زممار، وهو الآلة التي يزمر فيها، ويقال: زمر يزمر بالضم والكسر، فهو زممار، ولا يكاد يقال: زامر، ويقال للمرأة: زامرة، ولا يقال زمارة، فأما الحديث أنه نهي عن كسب الزمارة، فقالوا: إنها الزانية ههنا. ويقال: إن داود أعطي من طيب النغم ولذة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو في محرابه، والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى، وقد سمعه يقرأ: "لقد أوتيت زمماراً من مزامير داود"، وكان أبو موسى شجي الصوت إذا قرأ. وورد في الخبر: داود قارئ أهل الجنة. وسفائف الخوص: جمع سفيفة، وهي النسيجة منه، سففت الخوص وأسففته بمعنى. وهذا الذي ذكره رضي الله عنه عن داود يجب أن يحمل على أنه شرح حاله قبل أن يملك فإنه كان فقيراً، فأما حيث ملك فإن المعلوم من سيرته غير ذلك.

فأما عيسى فحاله كما ذكرها رضي الله عنه، لا ريب في ذلك، على أنه أكل اللحم وشرب الخمر، وركب الحمار وخدمه التلامذة ولكن الأغلب من حاله هي الأمور التي عددها أمير المؤمنين رضي الله عنه.

ويقال: حزني الشيء يحزني بالضم، ويجوز: أحزني بالهمز يحزني، وقرئ بهما، وهو في كلامه رضي الله عنه في هذا

ويقال: لفته عن كذا، يلفته بالكسر، أي صرفه ولواه.

الأصل: فتأس بنبيك الأطيب الأطهر، صلى الله عليه وآله وسلم، فإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعزى. وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه، والمقتص لأثره. قضم الدنيا قضمًا، ولم يعرها طرفًا. أهضم أهل الدنيا كشحًا، وأخصهم من الدنيا بطنًا، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله تعالى أبغض شيئًا فأبغضه، وحقّر شيئًا فحقّره، وصغر شيئًا فصغره. ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله، لكفى به شقاقًا لله تعالى ومحادة عن أمر الله تعالى! ولقد كان صلى الله عليه وآله يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول: يا فلانة لإحدى أزواجه غيبه عني، فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها. فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشًا، ولا يعتقدها قرارًا، ولا يرحو فيها مقامًا، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيبها عن البصر.

وكذلك من أبغض شيئًا أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يدلّك على مساوئ الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته، فلينظر ناظر بعقله: أكرم الله محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم بذلك أم أهانه! فإن قال: أهانه فقد كذب والله العظيم بالإفك العظيم، وإن قال: أكرمه فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له، وزواها عن أقرب الناس منه، فتأسى متأس بنبيه، وأقتص أثره، وولج مولجه، وإلا فلا يأمن الهلكة، فإن الله جعل محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم علمًا للساعة، ومبشرًا بالجنة، ومنذرًا بالعقوبة خرج من الدنيا خميصًا، وورد الآخرة سليمًا، لم يضع حجرًا على حجر حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربه، فما أعظم منة الله عندنا حين أنعم علينا به سفاً نتبعه، وقائدًا نطأ عقبه! والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى أستحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك! فقلت: اعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى.

الشرح: المقتص لأثره: المتبع له، ومنه قوله تعالى: "وقالت لأخته قصيه".

وقضم الدنيا: تناول منها قدر الكفاف، وما تدعو إليه الضرورة من خشن العيشة، وقال أبو ذر رحمه الله: يخضمون ونقضم، والموعد الله. وأصل القضم، أكل الشيء اليابس بأطراف الأسنان، والخضم: أكل بكل الفم للأشياء الرطبة، وروي قصم بالصاد، أي كسر.

قوله: أهضم أهل الدنيا كشحًا الكشح: الخاصرة، ورجل أهضم: بين الهضم: إذا كان خميصًا لقلّة الأكل. وروي: وحقّر شيئًا فحقّره بالتخفيف والشقاق: الخلاف.

والمحادة: المعادة. وخصف النعل: خرزها. والرياش: الزينة، والمدرعة الدراعة.

وقوله: عند الصباح يحمد القوم السرى مثل يضرب لمحتمل المشقة العاجلة رجاء الراحة الآجلة.

الدنيا الفانية

جاء في الأخبار الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام، قال: "إنما أنا عبد أكل أكل العبيد، وأجلس جلسة العبيد وكان يأكل على الأرض، ويجلس جلوس العبيد، يضع قصبي ساقيه على الأرض، ويعتمد عليهما بباطني فخذي، وركوبه الحمار العاري آية التواضع وهضم النفس. وإرداف غيره خلفه أكد في الدلالة على ذلك.

وجاء في الأخبار الصحيحة النهي عن التصاوير وعن نصب الستور التي فيها التصاوير، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى سترًا فيه تصاوير أمر أن تقطع رأس تلك الصورة.

وجاء في الخبر: من صور صورة كلف في القيامة أن ينفخ فيها الروح، فإذا قال: لا أستطيع، عذب.

قوله: لم يضع حجرًا على حجر هو عين ما جاء في الأخبار الصحيحة، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يضع حجرًا على حجر.

وجاء في أخبار علي رضي الله عنه التي ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائله، وهو روايتي عن قريش بن السبيع بن المهنا العلوي، عن نقيب الطالبين أبي عبد الله أحمد بن علي بن المعمر، عن المبارك بن عبد الجبار أحمد بن القاسم الصيرفي المعروف بابن الطيوري، عن محمد بن علي بن محمد بن يوسف العلاف المزني، عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه أبي عبد الله أحمد رحمه الله، قال: قيل لعلي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، لم ترقع قميصك؟ قال: ليخشع القلب، ويقتدي بي المؤمنون.

وروى أحمد رحمه الله أن عليًا كان يطوف الأسواق مؤتزرًا بإزار، مرتدياً برداء، ومعه الدرة كأنه أعرابي بدوي، فطاف مرة حتى بلغ سوق الكرايس، فقال لواحد: يا شيخ، بعني قميصاً تكون قيمته ثلاثة دراهم، فلما عرفه الشيخ لم يشتر منه شيئاً، ثم أتى آخر، فلما عرفه لم يشتر منه شيئاً، فأتى غلاماً حدثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم، فلما جاء أبو الغلام أخبره، فأخذ درهماً. ثم جاء إلى علي رضي الله عنه ليدفعه إليه، فقال له: ما هذا؟ أو قال ما شابه هذا، فقال: يا مولاي، إن القميص الذي باعك ابني كان يساوي درهين، فلم يأخذ الدرهم، وقال: باعني رضاي وأخذ رضاه.

وروى أحمد رحمه الله عن أبي النوار بائع الخام بالكوفة، قال: جاءني علي بن أبي طالب إلى السوق ومعه غلام له وهو خليفة فاشترى مني قميصين، وقال لغلامه: اختر أيهما شئت، فأخذ أحدهما، وأخذ علي الآخر، ثم لبسه ومد يده، فوجد كمه فاضلة، فقال: اقطع الفاضل فقطعته ثم كفه وذهب.

وروى أحمد رحمه الله عن الصمال بن عمير، قال: رأيت قميص علي رضي الله عنه الذي أصيب فيه، وهو كرايس سبيلاني، ورأيت دمه قد سال عليه كالدردى .

وروى أحمد رحمه الله قال: لما أرسل عثمان إلى علي رضي الله عنه وجده مؤتزرًا بعباءة، محتجزاً بعقال، وهو يهنأ بغيراً له. والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

ومن خطبة له في أسرة الرسول وشرفه

الأصل: ابتعته بالنور المضيء، والبرهان الجلي، والمنهاج البادي، والكتاب الهادي.

أسرته خير أسرة، وشجرته خير شجرة أغصانها معتدلة، وثمارها متهدلة، مولده بمكة، وهجرته بطيبة علا بها ذكره، وامتد منها صوته، أرسله بحجة كافية، وموعظة شافية، ودعوة متلافية. أظهر به الشرائع المجهولة، وقمع به البدع المدخولة، وبين به الأحكام المفصولة، فمن يبتغ غير الإسلام دينا تتحقق شقوقه، وتنقص عروته، وتعظم كبوته، ويكن مآبه إلى الحزن الطويل والعذاب الويل، وأتوكل على الله توكل الإنابة إليه، وأسترشه السبيل المؤدية إلى جنته، القاصدة إلى محل رغبته.

الشرح: بالنور المضيء، أي بالدين أو بالقرآن. وأسرته: أهله. أغصانها معتدلة، كناية عن عدم الاختلاف بينهم في الأمور الدينية. وثمارها متهدلة أي متدلّية، كناية عن سهولة اجتناء العلم منها.

وطيبة اسم المدينة كان اسمها يثرب، فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة.

ومما أكفر الناس به يزيد بن معاوية أنه سمّاها خبيثة، مراغمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

علا بها ذكره لأنه صلى الله عليه وسلم إنما انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة.

ودعوة متلافية أي تتلافى ما فسد في الجاهلية من أديان البشر.

قوله: وبين به الأحكام المفصولة ليس يعني أنها كانت مفصولة قبل أن بينها، بل المراد: بين به الأحكام التي هي الآن مفصولة عندنا وواضحة لنا لأجل بيانه لها.

والكبوة: مصدر كبا الجواد، إذا عثر فوقع إلى الأرض، والمآب: المرجع. والعذاب الويل: ذو الوبال وهو الهلاك، والإنابة: الرجوع. والسبيل: الطريق، يذكر ويؤنث. والقاصدة: ضد الجائرة.

فإن قلت: لم عدى القاصدة بإلى؟.

قلت: لأنها لما كانت قاصدة، تضمنت معنى الإفضاء إلى المقصد، فعداها بإلى باعتبار المعنى.

الأصل: أوصيكم عباد الله بتقوى الله وطاعته، فإنها النجاة غداً، والمنجاة أبداً رهب فأبلغ، ورغب فأسبغ، ووصف لكم الدنيا وانقطاعها، وزوالها وانتقالها فأعرضوا عما يعجبكم فيها لقلة ما يصحبكم منها. أقرب دار من سخط الله، وأبعدها من رضوان الله. فعضوا عنكم عباد الله غمومها وأشغالها، لما أيقنتم به من فراقها، وتصرف حالها، فاحذروها حذر الشفيق الناصح، والمجد الكادح، اعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم قد تزايدت أوصالهم، وزالت أبصارهم وأسماعهم، وذهب شرفهم وعزهم، وأنقطع سرورهم ونعيمهم، فبدلوا بقرب الأولاد فقدها، وبصحبة الأزواج مفارقتها، لا يتفاخرون ولا يتناسلون، ولا يتزاوون ولا يتحاوون، فاحذروا عباد الله حذر الغالب لنفسه، المانع لشهوته، الناظر بعقله، فإن الأمر واضح، والعلم قائم، والطريق جدد، والسبيل قصد.

الشرح: المنجاة: مصدر من ينجو نجاة ومنجاة. والنجاة: الناقة ينجي عليها فاستعارها ههنا للطاعة والتقوى كأنها كالمطية المركوبة يخلص بها الإنسان من الهلكة.

قوله: رهب فأبلغ الضمير يرجع إلى الله سبحانه أي خوف المكلفين فأبلغ في التخويف، ورغبهم فأتى الترغيب وأسبغه.

ثم أمر بالإعراض عما يسر ويروق من أمر الدنيا لقلة ما يصحب الناس من ذلك.

ثم قال: إنها أقرب دار من سخط الله، وهذا نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم "حب الدنيا رأس كل خطيئة".
قوله: فغضوا عنكم عباد الله غمومها أي كفوا عن أنفسكم الغم لأجلها والاشتغال بها، يقال: غضضت فلاناً عن كذا أي كففته، قال تعالى: "وأغضض من صوتك".

قوله: فاحذروها حذر الشفيق الناصح أي فاحذروها على أنفسكم لأنفسكم كما يحذر الشفيق الناصح على صاحبه،
وكما يحذر المجد الكادح، أي الساعي من خيبة سعيه.

والأوصال: الأعضاء. والمحاور: المخاطبة والمناجاة، وروي: ولا يتجاوزون بالجميم.
والعلم: ما يستدل به في المفازة، وطريق جدد، أي سهل واضح. والسييل قصد، أي مستقيم.

قال لبعض أصحابه

وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به

فقال عليه السلام الأصل: يا أبا بني أسد، إنك لقلق الوضين ترسل في غير سدد ولك بعد ذمامة الصهر وحق المسألة،
وقد استعلمت فاعلم.

أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً، والأشدون بالرسول صلى الله عليه وآله نوطاً، فإنها كانت أثرة شحت
عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين والحكم الله والمعود إليه يوم القيامة.

ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

ودع عنك نهياً صريحاً في حجراته

وهلم الخطب في ابن أبي سفيان، فلقد أضحكي الدهر بعد إبكائه، ولا غرو والله فيا له خطباً يستفرغ العجب، ويكثر
الأود!

حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه، وسد فواره من ينبوعه وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً، فإن ترتفع عنا وعنهم
محن البلوى، أحملهم من الحق على محضه، وإن تكن الأخرى، "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما
يصنعون".

الشرح: الوضين: بطن القتب، وحزام السرج ويقال للرجل المضطرب في أموره: إنه لقلق الوضين، وذلك أن الوضين إذا
قلق اضطرب القتب أو الهودج أو السرج ومن عليه.

ويرسل في غير سدد، أي يتكلم في غير قصد وفي غير صواب والسدد والاستداد: الإستقامة والصواب، والسديد: الذي
يصيب السدد، وكذلك المسد. واستد الشيء أي استقام.

وذمامة الصهر، بالكسر، أي حرمة، هو الذمام، قال ذو الرمة:

بها الأجر أو تقضى ذمامة صاحب

تكن عوجة يجزيكها الله عنده

ويروى: مائة الصهر، أي حرمة ووسيلته، مت إليه بكذا، وإنما قال رضي الله عنه له: ولك بعد ذمامة الصهر لأن زينب
بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أسدية وهي زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة بن

مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمه. وأمها أمية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فهي بنت عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمصاهرة المشار إليها، هي هذه.

ولم يفهم القطب الراوندي ذلك، فقال في الشرح: كان أمير المؤمنين رضي الله عنه قد تزوج في بني أسد ولم يصب، فإن علياً رضي الله عنه لم يتزوج في بني أسد البتة. ونحن نذكر أولاده: أما الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى، فأمهم فاطمة بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما محمد فأمه خولة بنت إياس بن جعفر، من بني حنيفة، وأما أبو بكر وعبد الله، فأمهما ليلى بنت مسعود النهشلية، من تميم وأما عمر ورقية فأمهما سبية من بني تغلب، يقال لها: الصهباء، سبيت في خلافة أبي بكر وإمارة خالد بن الوليد بعين التمر. وأما يحيى وعون فأمهما أسماء بنت غميس الخثعمية. وأما جعفر والعباس وعبد الله وعبد الرحمن فأمهم أم البنين بنت حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد من بني كلاب. وأما رملة وأم الحسن فأمهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي، وأما أم كلثوم الصغرى وزينب الصغرى وجمانة وميمونة وخديجة وفاطمة وأم الكرام ونفيسة وأم سلمة وأم أبيها وأمامة بنت علي رضي الله عنه فهن لأمهات أولاد شتى، فهؤلاء أولاده، وليس فيهم أحد من أسدية، ولا بلغنا أنه تزوج في بني أسد ولم يولد له، ولكن الراوندي يقول ما يخطر له ولا يحقق.

وأما حق المسألة، فلأن للسائل على المسؤول حقاً حيث أهله لأن يستفيد منه. والاستبداد بالشئ: التفرد به. والنوط: الالتصاق. وكانت أثره، أي استشاراً بالأمر واستبداداً به، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ستلقون بعدي أثره".

وشحت: بخلت. وسخت: جادت، ويعني بالنفوس التي سخت نفسه، وبالنفوس التي شحت، أما على قولنا فإنه يعني نفوس أهل الشورى بعد مقتل عمر، وأما على قول الإمامية، فنفس أهل السقيفة. وليس في الخبر ما يقتضي صرف ذلك إليهم، فالأولى أن يحمل على ما ظهر عنه من تأله من عبد الرحمن بن عوف وميله إلى عثمان.

ثم قال: إن الحكم هو الله، وإن الوقت الذي يعود الناس كلهم إليه هو يوم القيامة. وروي: يوم بالنصب على أنه ظرف والعامل فيه المعود، على أن يكون مصدرًا.

وأما البيت فهو لامرئ القيس بن حجر الكندي، وروي أن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم يستشهد إلا بصدره فقط وأتمه الرواة.

حديث امرئ القيس

وكان من قصة هذا الشعر أن امرأ القيس، لما تنقل في أحياء العرب بعد قتل أبيه، نزل على رجل من جديلة طيب، يقال له طريف بن ملء، فأجاره وأكرمه، وأحسن إليه، فمدحه وأقام عنده. ثم إنه لم يوله نصيباً في الجبلين: أجاً وسلمى، فخاف ألا يكون له منعة، فتحول ونزل على خالد بن سدوس بن أصمع النبهاني، فأغارت بنو جديلة على امرئ القيس وهو في جوار خالد بن سدوس، فذهبوا بإبله، وكان الذي أغار عليه منهم باعث بن حويص، فلما أتى امرأ القيس الخبر، ذكر

ذلك لجاره، فقال له: أعطني رواحلك ألحق عليها القوم، فأرد عليك إبلك، ففعل. فركب خالد في إثر القوم حتى أدركهم، فقال: يا بني جديلة، أغرمت على إبل جاري! فقالوا: ما هو لك بجار، قال: بلى والله وهذه رواحله، قالوا: كذلك! قال: نعم، فرجعوا إليه فأنزلوه عنهن، وذهبوا بمن وبالإبل. وقيل: بل انطوى خالد على الإبل فذهب بها، فقال امرؤ القيس:

دع عنك نهباً صيح في حجراته	ولكن حديثاً ما حديث الرواحل
كان دثاراً حلقت بلبونه	عقاب تتوفى لا عقاب القواعل
تلعب باعث بذمة خالد	وأودى دثار في الخطوب الأوائل
وأعجبني مشي الحزقة خالد	كمشي أتان حلت بالمناهل
أبت أجاً أن تسلم العام جاراها	فمن شاء فلينهض لها من مقاتل
تببت لبوني بالقرية أمناً	وأسرحها غباً بأكناف حائل
بنو ثعل جيرانها وحماتها	وتمنع من رماة سعد ونائل
تلاعب أولاد الوعول رباعها	دوين السماء في رؤوس المجادل
مكللة حمراء ذات أسرة	لها حبك كأنها من وصائل

دثار: اسم راع كان لامرئ القيس. وتنوفى والقواعل جبال. والحزقة: القصير الضخم البطن، واللبون: الإبل ذوات الألبان. والقرية: موضع معروف بين الجبلين. وحائل اسم موضع أيضاً. وسعد ونائل حيان من طيء. والرباع: جمع ربع، وهو ما نتج في الربيع. والمجادل: القصور. ومكللة، يرجع إلى المجادل مكللة بالصخر. والأسرة: الطريق وكذلك الحبك. والوصائل: جمع وصيلة، وهو ثوب أمغر الغزل، فيه خطوط. والنهب: الغنيمة، والجمع النهاب، والانتهاج مصدر انتهت المال، إذا أبحته يأخذه من شاء، والنهي: اسم ما أُنهب. وحجراته: نواحيه، الواحدة حجرة، مثل جمرات وجمرة. وصيح في حجراته صياح الغارة. والرواحل: جمع راحلة، وهي الناقة التي تصلح أن ترحل، أي يشد الرحل على ظهرها، ويقال للبعير: راحلة وانتصب حديثاً بإضمّار فعل، أي هات حديثاً أو حدثني حديثاً. ويروى ولكن حديث، أي ولكن مرادي أو غرضي حديث فحذف المبتدأ، وما ههنا، يحتمل أن تكون إهامية وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة زادته إهاماً وشياعاً، كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد أي كتاب كان، ويحتمل أن تكون صلة مؤكدة كالتّي في قوله تعالى: "فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله". فأما حديث الثاني فقد ينصب وقد يرفع، فمن نصب أبدله من حديث الأول، ومن رفع جاز أن يجعل ما موصولة بمعنى الذي، وصلتها الجملة، أي الذي هو حديث الرواحل، ثم حذف صدر الجملة كما حذف في "تماماً على الذي أحسن" ويجوز أن تجعل ما استفهامية بمعنى أي.

ثم قال: وهلم الخطب، هذا يقوي رواية من روى عنه أنه رضي الله عنه لم يستشهد إلا بصدر البيت، كأنه قال: دع عنك ما مضى وهلم ما نحن الآن فيه من أمر معاوية، فجعل هلم ما نحن فيه من أمر معاوية قائماً مقام قول امرئ القيس:

ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

وهلم، لفظ يستعمل لازماً ومتعدياً، فاللازم بمعنى تعال، قال الخليل: أصله لم من قولهم؟ لم الله شعثه أي جمعه، كأنه أراد لم نفسك إلينا أي اجمعها واقرب منا، وجاءت ها للتثنية قبلها، وحذفت الألف لكثرة الاستعمال، وجعلت الكلمتان كلمة واحدة، يستوي فيها الواحد والاثنان والجمع والمؤنث والمذكر في لغة أهل الحجاز، قال سبحانه: "والقائلين لإخوانهم هلم إلينا"، وأهل نجد يصرفونها فيقولون للثنتين: هلما وللجمع: هلموا وعلى ذلك. وقد يوصل إذا كان لازماً باللام، فيقال: هلم لك، وهلم لكما، كما قالوا: هيت لك، وإذا قيل لك: هلم إلى كذا أي تعال إليه، قلت: لا أهلم مفتوحة الألف والهاء مضمومة الميم، فأما المتعدية فهي بمعنى هات، تقول: هلم كذا وكذا، قال الله تعالى: "هلم شهداءكم"، وتقول لمن قال لك ذلك: لا أهلمه، أي لا أعطيكه، يأتي بالهاء ضمير المفعول لتمييز من الأولى. يقول رضي الله عنه: ولكن هات ذكر الخطب، فحذف المضاف. والخطب: الحادث الجليل، يعني الأحوال التي أدت إلى أن صار معاوية منازعاً في الرئاسة، قائماً عند كثير من الناس مقامه، صالحاً لأن يقع في مقابلته، وأن يكون نداً له. ثم قال: فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه، يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدم من سلف عليه، فلم يقنع الدهر له بذلك حتى جعل معاوية نظيراً له فضحك رضي الله عنه مما تحكم به الأوقات، ويقتضيه تصرف الدهر وتقلبه وذلك ضحك تعجب واعتبار.

ثم قال: ولا غرو والله، أي ولا عجب والله.

ثم فسر ذلك فقال: يا له خطباً يستفرغ العجب! أي يستنفده ويفنيه، يقول: قد صار العجب لا عجب لأن هذا الخطب استغرق التعجب فلم يبق منه ما يطلق عليه لفظ التعجب وهذا من باب الإغراق والمبالغة في المبالغة، كما قال أبو الطيب:

عن علمه فبه علي خفاء

أسفي على أسفي الذي دلتهني

قد كان لما كان لي أعضاء

وشكيتي فقد السقام لأنه

وقال ابن هاني المغربي:

ف عجبت حتى كدت ألا أعجبا

قد سرت في الميدان يوم طرادهم

والأود: العوج، ثم ذكر تمالؤ قريش عليه، فقال: حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه، يعني ما تقدم من منابذة طلحة والزبير وأصحابهما له، وما شفع ذلك من معاوية وعمر و شيعتهما. وفوار الينوع: ثقب البئر. قوله: وجدحوا بيني وبينهم شرباً، أي خلطوه ومزجوه وأفسدوه.

والوبئ: ذو الوباء والمرض، وهذا استعارة كأنه جعل الحال التي كانت بينه وبينهم قد أفسدها القوم، وجعلوها مظنة الوباء والسقم، كالشرب الذي يخلط بالسم أو بالصبر فيفسد ويوبئ.

ثم قال: فإن كشف الله تعالى هذه الحن التي يحصل منها ابتلاء الصابرين والمجاهدين، وحصل لي التمكن من الأمر، حملتهم على الحق المحض الذي لا يمازجه باطل، كاللبن المخض الذي لا يخالطه شيء من الماء، وإن تكن الأخرى، أي وإن لم

يكشف الله تعالى هذه الغمة ومات أو قتلت والأمور على ما هي عليه من الفتنة ودولة الضلال فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، والآية من القرآن العزيز .

وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلوي نقيب البصرة، وقت قراءتي عليه، عن هذا الكلام، وكان رحمه الله على ما يذهب إليه من مذهب العلوية منصفاً وافر العقل، فقلت له: من يعني رضي الله عنه بقوله: كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين؟ ومن القوم الذين عناهم الأسدي بقوله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ هل المراد يوم السقيفة أو يوم الشورى؟ فقال: يوم السقيفة. فقلت: إن نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفع النص. فقال: وأنا فلا تسامحني أيضاً نفسي أن أنسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إهمال أمر الإمامة، وأن يترك الناس فوضى سدى مهملين وقد كان لا يغيب عن المدينة إلا ويؤمر عليها أميراً وهو حي ليس بالبعيد عنها، فكيف لا يؤمر وهو ميت لا يقدر على استدراك ما يحدث! ثم قال: ليس يشك أحد من الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاقلاً كاملاً العقل، أما المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم وأما اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تام الحكمة، سديد الرأي، أقام ملة، وشرع شريعة، فاستجد ملكاً عظيماً بعقله وتدبيره، وهذا الرجل العاقل الكامل يعرف طباع العرب وغرائزهم وطلبهم بالثارات والذحول ولو بعد الأزمان المتطاولة. ويقتل الرجل من القبيلة رجلاً من بيت آخر، فلا يزال أهل ذلك المقتول وأقاربه يتطلبون القاتل ليقتلوه حتى يدركوا ثأرهم منه فإن لم يظفروا به قتلوا بعض أقاربه وأهله، فإن لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحداً أو جماعة من تلك القبيلة به وإن لم يكونوا رهطه الأدين. والإسلام لم يحل طبائعهم، ولا غير هذه السجية المركوزة في أخلاقهم، والغرائز بحالها، فكيف يتوهم لبيب أن هذا العاقل الكامل وتر العرب، وعلى الخصوص قريشاً، وساعدة على سفك الدماء وإزهاق الأنفس وتقلد الضغائن ابن عمه الأدين وصهره، وهو يعلم أنه سيموت كما يموت الناس، ويتركه بعده وعنده ابنته، وله منها ابنان يجريان عنده بجري ابنين من ظهره حنواً عليهما، ومحبة لهما، ويعدل عنه في الأمر بعده، ولا ينص عليه ولا يستخلفه، فيحقن دمه ودم بنيه وأهله باستخلافه ألا يعلم هذا العاقل الكامل أنه إذا تركه وترك بنيه وأهله سوقة ورعية فقد عرض دماءهم للإراقة بعده، بل يكون هو رضي الله عنه هو الذي قتله، وأشاط بدمائهم، لأنهم لا يعتصمون بعده بأمر يحميهم وإنما يكونون مضغة للآكل، وفريسة للمفترس، يتخطفهم الناس، وتبلغ فيهم الأغراض! فأما إذا جعل السلطان فيهم، والأمر إليهم، فإنه يكون قد عصمهم وحقن دماءهم بالرياسة التي يصلون بها، ويرتدع الناس عنهم لأجلها. ومثل هذا معلوم بالتجربة. ألا ترى أن ملك بغداد أو غيرها من البلاد لو قتل الناس ووترهم، وأبقى في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه، ثم أهمل أمر ولده وذريته من بعده، وفسح للناس أن يقيموا ملكاً من عرضهم وواحد منهم، وجعل بنيه سوقة كبيع العامة، لكان بنوه بعده قليلاً بقاءهم، سريعاً هلاكهم، ولو ثبت عليهم الناس ذوو الأحقاد والترات من كل جهة، يقتلونهم ويشردونهم كل مشرد. ولو أنه عين ولداً من أولاده للملك، وقام خواصه وخدمه وخوله بأمره بعده، لحقنت دماء أهل بيته، ولم تطل يد أحد من الناس إليهم لناموس الملك، وأبهة السلطنة، وقوة الرياسة، وحرمة الإمارة! أفترى ذهب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى أم أحب أن يستأصل أهله وذريته من بعده! وأين موضع الشفقة على فاطمة العزيزة عنده، الحبيبة إلى قلبه!

أقول: إنه أحب أن يجعلها كواحدة من فقراء المدينة تتكفف الناس، وأن يجعل علياً المكرم المعظم عنده، الذي كانت حاله معه معلومة، كأبي هريرة الدوسي وأنس بن مالك الأنصاري، يحكم الأمراء في دمه وعرضه ونفسه وولده، فلا يستطيع الامتناع، وعلى رأسه مائة ألف سيف مسلول تتلظى أكباد أصحابها عليه، ويودون أن يشربوا دمه بأفواههم، ويأكلوا لحمه بأسنانهم قد قتل أبناءهم وإخوانهم وآباءهم وأعمامهم، والعهد لم يطل، والقروح لم تنقرف، والجروح لم تندمل! فقلت له: لقد أحسنت فيما قلت، إلا أن لفظه رضي الله عنه يدل على أنه لم يكن نص عليه، ألا تراه يقول: ونحن الأعلون نسباً، والأشدون بالرسول نوطاً، فجعل الاحتجاج بالنسب وشدة القرب، فلو كان عليه نص، لقال عوض ذلك: وأنا المنصوص علي، المخطوب باسمي.

فقال رحمه الله: إنما أتاه من حيث يعلم، لا من حيث يجهل، ألا ترى أنه سأله، فقال: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام، وأنتم أحق به؟ فهو إنما سأل عن دفعهم عنه، وهم أحق به من جهة اللحم والعثرة، ولم يكن الأسدي يتصور النص ولا يعتقده، ولا يخطر بباله لأنه لو كان هذا في نفسه، لقال له: لم دفعك الناس عن هذا المقام، وقد نص عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولم يقل له هذا، وإنما قال كلاماً عاماً لبني هاشم كافة: كيف دفعكم قومكم عن هذا وأنتم أحق به! أي باعتبار الهاشمية والقربى. فأجابه بجواب أعاد قبله المعنى الذي تعلق به الأسدي بعينه تمهيداً للجواب، فقال: إنما فعلوا ذلك مع أنا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غيرنا لأنهم استأثروا علينا، ولو قال له: أنا المنصوص علي، والمخطوب باسمي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما كان قد أجابه، لأنه ما سأله: هل أنت منصوص عليك أم لا؟ ولا هل نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلافة على أحد أم لا؟ وإنما قال: لم دفعكم قومكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه ومعدنه منهم؟ فأجابه جواباً ينطبق على السؤال ويلائمه أيضاً، فلو أخذ يصرح له بالنص، ويعرفه تفاصيل باطن الأمر لنفر عنه، واتهمه ولم يقبل قوله، ولم ينحذب إلى تصديقه فكان أولى الأمور في حكم السياسة وتدبير الناس، أن يجيب بما لا نفرة منه ولا مطعن عليه فيه.

ومن خطبة له في ذكر الخالق عز وجل.

الأصل: الحمد لله خالق العباد، وساطح المهاد، ومسيل الوهاد، فخصب النجاد ليس لأوليته ابتداء، ولا لأزليته انقضاء هو الأول ولم يزل، والباقي بلا أجل. خرت له الجباه، ووحدته الشفاه. حد الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها، لا تقدره الأوهام بالحدود والحركات، ولا بالجوارح والأدوات، لا يقال له: متى؟ ولا يضرب له أمد بحتى، الظاهر لا يقال: مم؟ والباطن لا يقال: فيم؟ لا شبح فيتقصى، ولا محجوب فيحوى لم يقرب من الأشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق، ولا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة، ولا كرور لفظة، ولا ازدلاف ربوة، ولا انبساط خطوة في ليل داج، ولا غسق ساج، يتفياً عليه القمر المنير، وتعقبه الشمس ذات النور في الأقول والكرور، وتقلب الأزمنة والذهور من إقبال ليل مقبل، وإدبار نهار مدير. قبل كل غاية ومدة، وكل إحصاء وعدة، تعالى عما ينحله المحددون من صفات الأقدار، ونهايات الأقطار، وتأنل المساكن، وتمكن الأماكن. فالحد لخلق مضرور، وإلى غيره منسوب، لم يخلق الأشياء من أصول أزلية، ولا من أوائل أبدية، بل خلق ما خلق فأقام حده، وصور فأحسن صورته. ليس لشيء منه امتناع، ولا له بطاعة شيء

انتفاع، علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السموات العلا، كعلمه بما في الأرضين السفلى.
الشرح: المهاد هنا: هو الأرض وأصله الفراش: وساطحه باسطه ومنه تسطیح القبور خلاف تسنيمها، ومنه أيضاً المسطح،
للموضع الذي يسط فيه التمر ليحفف.
والوهاد: جمع وهدة وهي المكان المطمئن. ومسيلها: مجرى السيل فيها. والنجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض.
ومخصبها: مروضها وجاعلها ذوات خصب.

بحث في علم التوحيد

واعلم أنه رضي الله عنه أورد في هذه الخطبة ضرورياً من علم التوحيد، وكلها مبنية على ثلاثة أصول: الأصل الأول: أنه تعالى واجب الوجود لذاته، وبتفرع على هذا الأصل فروع:
أولها: أنه ليس لأوليته ابتداء، لأنه لو كان لأوليته ابتداء لكان محدثاً، ولا شيء من المحدث بواجب الوجود، لأن معنى واجب الوجود، أن ذاته لا تقبل العدم، ويستحيل الجمع بين قولنا: هذه الذات محدثة، أي كانت معدومة من قبل، وهي في حقيقتها لا تقبل العدم.
وثانيها: أنه ليس لأزليته انقضاء، لأنه لو صح عليه العدم لكان لعدمه سبب، فكان وجوده موقوفاً على انتفاء سبب عدمه، والمتوقف على غيره، يكون ممكن الذات، فلا يكون واجب الوجود. وقوله رضي الله عنه: هو الأول لم يزل، والباقي بلا أجل! تكرار هذين المعنيين السابقين على سبيل التأكيد، ويدخل فيه أيضاً قوله: لا يقال له متى، ولا يضرب له أمد بحتى لأن متى للزمان وواجب الوجود يرتفع عن الزمان، وحتى للغاية وواجب الوجود لا غاية له. ويدخل أيضاً فيه قوله: قبل كل غاية ومدة، وكل احصاء وعدة.
وثالثها: أنه لا يشبه الأشياء البتة، لأن ما عداه إما جسم أو عرض أو مجرد، فلو أشبه الجسم أو العرض لكان إما جسماً أو عرضاً، ضرورة تساوي المتشابهين المتماثلين في حقائقهما. ولو شابه غيره من المجردات مع أن كل مجرد غير ممكن لكان ممكناً، وليس واجب الوجود بممكن، فيدخل في هذا المعنى قوله رضي الله عنه: حد الأشياء عند خلقه لها، إبانة له من شبهها، أي جعل المخلوقات ذوات حدود لتمييز هو سبحانه عنها، إذ لا حد له، فبطل أن يشبهه شيء منها. ودخل فيه قوله رضي الله عنه: "لا تقدره الأوهام بالحدود والحركات، ولا بالجوارح. والأدوات: جمع أداة وهي ما يعتمد به، ودخل فيه قوله: الظاهر فلا يقال: مم؟ أي لا يقال: من أي شيء ظهر، والباطن فلا يقال: فيم، أي لا يقال فيما ذا بطن؟
ويدخل فيه قوله: لا شبح فيتقصى والشبح: الشخص ويتقصى يطلب أقصاه. ويدخل فيه قوله: ولا محجوب فيحوى وقوله: لم يقرب من الأشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق لأن هذه الأمور كلها من خصائص الأجسام وواجب الوجود لا يشبه الأجسام ولا يماثلها. ويدخل فيه قوله رضي الله عنه: تعالى عما ينحله المحددون من صفات الأقدار أي مما ينسب إليه المشبهة والجسمة من صفات المقادير وذوات المقادير.
ونهايات الأقطار أي الجوانب. وتأثل المساكين، مجد مؤثل أي أصيل، وبيت مؤثل أي معمور، وكأن أصل الكلمة أن تبني الدار بالأثل، وهو شجر معروف. وتمكن الأماكن: ثبوتها واستقرارها. وقوله: فالحد لخلق مضروب، وإلى غيره منسوب،

وقوله: ولا له بطاعة شيء انتفاع، لأنه إنما ينتفع الجسم الذي يصح عليه الشهوة والنفرة، كل هذا داخل تحت هذا الوجه.

الأصل الثاني: أنه تعالى عالم لذاته، فيعلم كل معلوم، ويدخل تحت هذا الأصل قوله رضي الله عنه: لا تخفى عليه من عباده شخوص لحظة أن تسكن العين فلا تتحرك. ولا كرور لفظة، أي رجوعها. ولا ازدلاف ربوة، صعود إنسان أو حيوان ربوة من الأرض، وهي الموضع المرتفع ولا انبساط خطوة. في ليل داج أي مظلم ولا غسق ساج، أي ساكن. ثم قال: يتفياً عليه القمر المنير، هذا من صفات الغسق، ومن تنمة نعتة ومعنى: يتفياً عليه يتقلب ذاهباً وجائياً في حالتي أخذه في الضوء إلى التبدر، وأخذه في النقص إلى الحاق.

وقوله: وتعقبه، أي وتعقبه، فحذف إحدى التاءين، كما قال سبحانه: "الذين توفاهم الملائكة"، أي توفاهم، والهاء في وتعقبه ترجع إلى القمر، أي وتسير الشمس عقبه في كروره. وأفوله، أي غيبوبته، وفي تقلب الأزمنة والدهور من إقبال ليل وإدبار نهار.

فإن قلت: إذا كان قوله: يتفياً عليه القمر المنير في موضع جر، لأنه صفة غسق، فكيف تتعقب الشمس القمر مع وجود الغسق؟ وهل يمكن اجتماع الشمس والغسق؟ قلت: لا يلزم من تعقب الشمس للقمر ثبوت الغسق، بل قد يصدق تعقبها له ويكون الغسق معدوماً، كأنه رضي الله عنه قال: لا يخفى على الله حركة في نهار ولا ليل، يتفياً عليه القمر، وتعقبه الشمس، أي تظهر عقيبها، فيزول الغسق بظهورها.

وهذا التفسير الذي فسرناه يقتضي أن يكون حرف الجر وهو في التي في قوله: في الكرور متعلقاً بمحذوف، ويكون موضعه نصباً على الحال، أي وتعقبه كاراً وآفلاً. ويدخل تحته أيضاً قوله رضي الله عنه: علمه بالأموات الماضين، كعلمه بالآحياء الباقين، وعلمه بما في السموات العلا، كعلمه بما في الأرضين السفلى.

الأصل الثالث: أنه تعالى قادر لذاته، فكان قادراً على كل الممكنات، ويدخل تحته قوله: لم يخلق الأشياء من أصول أزلية، ولا من أوائل أبدية، بل خلق ما خلق فأقام حده، وصور ما صور فأحسن صورته، والرد في هذا على أصحاب الهوى والطينة التي يزعمون قدمها. ويدخل تحته قوله: ليس لشيء امتناع، لأنه متى أراد إيجاد شيء أوجده، ويدخل تحته قوله: خرت له الجباه، أي سجدت. ووحدته الشفاه، يعني الأفواه، فعبر بالجزء عن الكل مجازاً، وذلك لأن القادر لذاته هو المستحق للعبادة لخلقه أصول النعم. كالحياة والقدرة والشهوة.

واعلم أن هذا الفن هو الذي بان به أمير المؤمنين رضي الله عنه عن العرب في زمانه قاطبة واستحق به التقدم والفضل عليهم أجمعين وذلك لأن الخاصة التي يتميز بها الإنسان عن البهائم هي العقل والعلم، ألا ترى أنه يشاركه غيره من الحيوانات في اللحمية والدموية والقوة والقدرة، والحركة الكائنة على سبيل الإرادة والاختيار، فليس الامتياز إلا بالقوة الناطقة، أي العاقلة العالمة، فكلما كان الإنسان أكثر حظاً منها، كانت إنسانيته أتم، ومعلوم أن هذا الرجل انفرد بهذا الفن، وهو أشرف العلوم، لأن معلومه أشرف المعلومات، ولم ينقل عن أحد من العرب غيره في هذا الفن حرف واحد، ولا كانت أذهانهم تصل إلى هذا، ولا يفهمونه بهذا الفن فهو منفرد فيه، وبغيره من الفنون وهي العلوم الشرعية مشترك

لهم، وراجح عليهم، فكان أكمل منهم، لأننا قد بينا أن الأعلم أدخل في صورة الإنسانية، وهذا هو معنى الأفضلية. الأصل: منها: أيها المخلوق السوي، والمنشأ المرعي، في ظلمات الأرحام، ومضاعفات الأستار. بدئت من سلالة من طين، ووضعت في قرار مكين إلى قدر معلوم وأجل مقسوم تمور في بطن أمك جنيئاً لا تحير دعاء، ولا تسمع نداء. ثم أخرجت من مقرك إلى دار لم تشهدها ولم تعرف سبل منافعها، فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك، وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك! هيهات إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز، ومن تناوله بحدود المخلوفين أبعد.

الشرح: السوي: المستوي الحلقة غير ناقص، قال سبحانه: "فتمثل لها بشراً سوياً". والمنشأ، مفعول من أنشأ أي خلق وأوجد. والمرعي: المحوط المحفوظ.

وظلمات الأرحام، ومضاعفات الأستار: مستقر النطف، والرحم موضوعة فيما بين المثانة والمعى المستقيم وهي مربوطة برباطات على هيئة السلسلة، وجسمها عصبي ليتمكن امتدادها واتساعها وقت الحاجة إلى ذلك عند الولادة، وتنضم وتتقلص إذا استغني عن ذلك، ولها بطنان ينتهيان إلى فم واحد، وزائدتان يسميان قريبي الرحم وخلف هاتين الزائدتين بيضتا المرأة. وهما أصغر من بيضتي الرجل، وأشد تفرطحاً، ومنهما ينصب مني المرأة إلى تجويف الرحم، وللرحم رقبة منتهية إلى فرج المرأة، وتلك الرقبة من المرأة بمثلة الذكر من الرجل، فإذا امتزج مني الرجل بمنى المرأة في تجويف الرحم كان العلوق، ثم ينمي ويزيد من دم الطمث، ويتصل بالجنين عروق تأتي إلى الرحم فتغذوه، حتى يتم ويكمل، فإذا تم لم يكتف بما تحته من تلك العروق فيتحرك حركات قوية، طلباً للغذاء، فتنتهك أربطة الرحم التي قلنا إنها على هيئة السلسلة وتكون منها الولادة.

قوله: بدئت من سلالة من طين، أي كان ابتداء خلقتك من سلالة وهي خلاصة الطين، لأنها سلت من بين الكدر، وفعالة بناء للقلة، كالقلامة والقمامة. وقال الحسن: هي ما بين ظهراي الطين.

ثم قال: ووضعت في قرار مكين، الكلام الأول لآدم الذي هو أصل البشر، والثاني لذريته، والقرار المكين، الرحم متمكنة في موضعها برباطاتها، لأنها لو كانت متحركة لتعذر العلوق. ثم قال: إلى قدر معلوم، وأجل مقسوم، إلى: متعلقة بمحذوف، كأنه قال: منتهياً إلى قدر معلوم، أي مقدراً طوله وشكله إلى أجل مقسوم مدة حياته.

ثم قال: تمور في بطن أمك، أي تتحرك. لا تحير، أي لا ترجع جواباً، أحرار يحير.

إلى دار لم تشهدها، يعني الدنيا ويقال: أشبه شيء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التي بعد الموت انتقال الجنين من ظلمة الرحم إلى فضاء الدنيا، فلو كان الجنين يعقل ويتصور كان يظن أنه لا دار له إلا الدار التي هو فيها، ولا يشعر بما وراءها، ولا يحس بنفسه إلا وقد حصل في دار لم يعرفها، ولا تخطر بباله، فبقي هو كالحائر المبهوت وهكذا حالنا في الدنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت.

ولقد أحسن ابن الرومي في صفة خطوب الدنيا وصروفها بقوله:

يكون بكاء الطفل لساعة يولد

لما تؤذن الدنيا به من صروفها

لأوسع مما كان فيه وأرعد!

وإلا فما يبكيه منها وإنها

بما سوف يلقي من أذاها يهدد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه

قال: فمن هداك إلى اجترار الغذاء من ثدي أمك؟، اجترار: امتصاص اللبن من الثدي، وذلك بالإلهام الإلهي.

قال: وعرفك عند الحاجة، أي أعلمك بموضع الحلمة عند طلبك الرضاع فالتقمتها بفمك.

ثم قال: هيهات، أي بعد أن يحيط علماً بالخالق من عجز عن معرفة المخلوق! قال الشاعر:

وكم يدعي الحق خلق كثير

رأيت الورى يدعون الهدى

من العلم بالحق إلا اليسير

وما في البرايا امرؤ عنده

وما إن أشار إليه مشير

خفي فما ناله ناظر

وكيف يرى الشمس أعمى ضرير !

ولا شيء أظهر من ذاته

ومن كلام له لعثمان بن عفان

قالوا: لما اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وشكوا إليه ما نقومه على عثمان وسألوه مخاطبته واستعتابه لهم فدخل عليه السلام على عثمان، فقال: الأصل: إن الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم، ووالله ما أدري ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه! إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغك وقد رأيت كما رأينا، وسمعت كما سمعنا، وصحبت رسول الله صلى الله عليه وآله كما صحبنا. وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الخير منك، وأنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشيعة رحم منهما، وقد نلت من صهره ما لم ينال، فالله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمى، ولا تعلم من جهل، وإن الطرق لواضحة، وإن أعلام الدين لقائمة.

فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هدي وهدي، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة مجهولة، وإن السنن لنيرة لها أعلام، وإن البدع لظاهرة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به، فأمات سنة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة! وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر، وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في نار جهنم، فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتبط في قعرها.

وإني أنشدك الله أن تكون إمام هذه الأمة المقتول! فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أموراً عليها، ويث الفتن فيها، فلا يصرون الحق من الباطل يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً. فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن، وتقضي العمر.

فقال له عثمان رضي الله عنه: كلم الناس في أن يؤجلوني، حتى أخرج إليهم من مظالمهم.

فقال عليه السلام: ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه.

الشرح: نقت على زيد، بالفتح، أنقم فأنا ناقم، إذا عتبت عليه. وقال الكسائي: نقت بالكسر أيضاً، أنقم لغة وهذه اللفظة تجيء لازمة ومتعدية، قالوا: نقت الأمر أي كرهته.

واستعتبت فلاناً، طلبت العتي وهي الرضا، واستعتابهم عثمان: طلبهم منه ما يرضيهم عنه. واستسفروني: جعلوني سفيراً ووسيطاً بينك وبينهم.

ثم قال له وأقسم على ذلك: إنه لا يعلم ماذا يقول له! لأنه لا يعرف أمراً يجهره، أي من هذه الأحداث خاصة. وهذا حق، لأن علياً رضي الله عنه لم يكن يعلم منها ما يجهره عثمان، بل كان أحداث الصبيان فضلاً عن العقلاء المميزين يعلمون وجهي الصواب والخطأ فيها.

ثم شرع معه في مسلك الملاطفة والقول اللين، فقال: ما سبقنا إلى الصحبة، ولا انفردنا بالرسول دونك، وأنت مثلنا ونحن مثلك.

ثم خرج إلى ذكر الشيخين، فقال قولاً معناه أهما ليسا خيراً منك! فإنك مخصوص دونهما بقرب النسب، يعني المنافية وبالصهر، وهذا كلام هو موضع المثل: يسر حسواً في ارتغاء، ومراده تفضيل نفسه رضي الله عنه عليهما، لأن العلة التي باعتبارها فضل عثمان عليهما محققة فيه وزيادة لأن له مع المنافية الهاشمية، فهو أقرب.

والوشيجة: عروق الشجرة. ثم حذره جانب الله تعالى ونبهه على أن الطريق واضحة، وأعلام الهدى قائمة، وأن الإمام العادل أفضل الناس عند الله، وأن الإمام الجائر شر الناس عند الله.

ثم روى له الخبر المذكور، وروى: ثم يرتبك في قعرها، أي ينشب. وخوفه أن يكون الإمام المقتول الذي يفتح الفتن بقتله وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلاماً هو هذا، أو يشبه هذا.

ومرج الدين، أي فسد. والسيقة: ما استاقه العدو من الدواب، مثل الوسيقة، قال الشاعر:

فما أنا إلا مثل سيقة العدا **إن استقدمت بحر وإن جبأت عقر**

والجلال، بالضم: الجليل، كالطوال والطويل، أي بعد السن الجليل، أي العمر الطويل.

وقوله: ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه، كلام شريف فصيح، لأن الحاضر أي معنى لتأجيله! والغائب فلا عذر بعد وصول الأمر في تأخيره لأن السلطان لا يؤخر أمره.

وقد ذكرنا من الأحداث التي نقت على عثمان فيما تقدم ما فيه كفاية، وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

رحمه الله في التاريخ الكبير هذا الكلام، فقال: إن نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تكاتبوا، فكتب

بعضهم إلى بعض: أن أقدموا، فإن الجهاد بالمدينة لا بالروم، واستطال الناس على عثمان، ونالوا منه وذلك في سنة أربع

وثلاثين ولم يكن أحد من الصحابة يذب عنه ولا ينهى إلا نفر، منهم زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن

مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس فكلّموا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسألوه أن يكلم عثمان فدخل عليه،

وقال له إن الناس... وروى الكلام إلى آخره بألفاظه، فقال عثمان: وقد علمت أنك لتقولن ما قلت! أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولأعتبت عليك. ولم آت منكراً، إنما وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يوليه أنشدك الله يا علي، ألا تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك! قال: بلى، قال: أفلا تعلم أن عمر ولاه! قال: بلى، قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته! فقال علي رضي الله عنه: إن عمر كان يطاءً على صماخ من يوليه، ثم يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة، وأنت فلا تفعل، ضعفت ورققت على أقربائك. قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً، فقال علي: لعمرى إن رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم.

فقال عثمان: أفلا تعلم أن عمر ولي معاوية! فقد وليته. قال علي: أنشدك الله ألا تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ غلامه له؟ قال: بلى، قال: فإن معاوية يقطع الأمور دونك ويقول! للناس: هذا بأمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه! ثم قام علي، فخرج عثمان على أثره، فجلس على المنبر، فخطب الناس، وقال: أما بعد، فإن لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون، ويسرون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، أمثال النعام يتبع أول ناعق، أحب مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلا نغصاً، ولا يردون إلا عكراً. أما والله لقد عبتكم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتكم وكرهتم ولنت لكم، وأوطأتكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم علي. أما والله لأننا أقرب ناصراً وأعز نفراً وأكثر عدداً وأحرى إن قلت: هلم أن يجاب صوتي. ولقد أعددت لكم أقراناً وكشرت لكم عن نابي وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أكن أنطق به. فكفوا عني ألسنتكم وطعنكم وعيبيكم على ولاتكم فما الذي تفقدون من حقكم! والله ما قصرت عن بلوغ من كان قبلي يبلغ وما وجدتم تحتلفون عليه، فما بالكم! فقام مروان بن الحكم، فقال: وإن شئتم حكمنا بيننا وبينكم السيف.

فقال عثمان: اسكت لا سكت! دعني وأصحابي، ما منطقتك في هذا! ألم أقدم إليك ألا تنطق! فسكت مروان، ونزل عثمان.

يذكر فيها عجب خلقه الطاوس

الأصل: ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات، وساكن وذوي حركات، وأقام من شواهد البيئات على لطيف صنعته، وعظيم قدرته، ما أنقادت له العقول معترفة به، ومسلمة له، ونعقت في أسماعنا دلائلة على وحدانيته، وما ذراً من مختلف صور الأطيوار التي أسكنها أحاديث الأرض، وخروق فجاجها، ورواسي أعلامها من ذات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة، مصرفة في زمام التسخير، ومرفرفة بأجنتها في مخارق الجو المنفسح، والفضاء المنفرج.

كوفها بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهر، وركبها في حقائق مفاصل محتجة، ومنع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في الهواء خفوقاً وجعله يدف دفيماً ونسقتها على اختلافها في الأصابع بلطيف قدرته، ودقيق صنعته فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس فيه، ومنها مغموس في لون صبيغ قد طوق بخلاف ما صبيغ به.

الشرح: الموات، بالفتح: ما لا حياة فيه. وأرض موات، أي قفر، والسكن ههنا كالأرض والجبال. وذو الحركات: كالنار والماء الجاري والحيوان.

ونعقت في أسماعنا دلائله أي صاحت دلائله، لظهورها كالأصوات المسموعة التي تعلم يقيناً، وأحاديد الأرض: شقوقها، جمع أحدود. وفجاجها: جمع فج وهو الطريق بين الجبلين. ورواسي أعلامها: أثقال جبالها.

مصرفة في زمام التسخير، أي هي مسخرة تحت القدرة الإلهية، وحقاق المفاصل: جمع حق وهو مجمع المفصلين من الأعضاء كالركبة وجعلها محتجة لأنها مستورة بالجلد واللحم، وعبالة الحيوان: كثافة جسده. والخفوف: سرعة الحركة. والدفيف للطائر: طيرانه فوق الأرض يقال: عقاب دفوف. قال امرؤ القيس يصف فرسه ويشبهها بالعقاب:

كأنني بفتحاء الجناحين لقوة دفوف من العقبان طأطأت شماللي

ونسقها: رتبها. والأصايغ: جمع أصباغ، وأصباغ جمع صبغ. والمغموس الأول: هو ذو اللون الواحد كالأسود والأحمر. والمغموس الثاني: ذو اللونين، نحو أن يكون أحمر وعنقه خضراء.

وروي: قد طورق لون أي لون على لون، كما تقول: طارقت بين الثوين. فإن قلت: ما هذه الطيور التي يسكن بعضها الأحاديد وبعضها الفجاج، وبعضها رؤوس الجبال؟ قلت: أما الأول فكالقطا والصدأ، والثاني كالتبج والطيهوج، والثالث كالصقر والعقاب.

الأصل: ومن أعجبها خلقاً الطاوس الذي أقامه في أحسن تعديل، ونضد ألوانه في أحسن تنضيد، بجناح أشرح قصبه، وذنب أطال مسحبه إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه، وسما به مطلاً على رأسه كأنه قلع داري عنجه نوتيه. يختال بألوانه، ويميس بزيفانه. يفضي كإفضاء الديكة، ويؤر بملاقحه أر الفخول المغتلمة للضراب. أحيلك من ذلك على معاينة، لا كمن يحيل على ضعيف إسناده. ولو كان كزعم من يزعم أنه يلقي بدمعة تسفحها مدامعه، فتقف في ضفتي جفونه، وأن أنثاه تطعم ذلك، ثم تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب!

الشرح: الطاوس: فاعول، كالهاضوم، والكابوس، وترخيمه طويس: ونضد: رتب.

قوله: أشرح قصبه، القصب ههنا: عروق الجناح. وغضاريفه: عظامه الصغار، وأشرحها: ركب بعضها في بعض كما تشرح العيبة، أي يداخل بين أشرائحها وهي عراها واحدها، شرح بالتحريك.

ثم ذكر ذنب الطاوس وأنه طويل المسحب وأن الطاوس إذا درج إلى الأنثى للسفاد نشر ذنبه من طيه، وعلا به مرتفعاً على رأسه. والقلع: شراع السفينة، وجمعه قلاع. والداري: جالب العطر في البحر من دارين وهي فرضة بالبحرين فيها سوق يحمل إليها المسك من الهند، وفي الحديث: المجلس الصالح كالداري إن لم يحذك من عطره علقك من ريحه. قال الشاعر:

إذا التاجر الداري جاء بفأرة من المسك راحت في مفارقهم تجري

والنوتي: الملاح وجمعه نواتي، وعنجه: عطفه، وعنجت خطام البعير، رددته على رجله، أعنجه بالضم، والاسم العنج بالتحريك وفي المثل عوذ يعلم العنج يضرب مثلاً لتعليم الحاذق، ويختال من الخيلاء وهي العجب. ويميس: يتبخر، وزيفانه: تبخره، زاف يزيف، ومنه ناقة زيافة أي مختالة، قال عنتره:

زيافة مثل الفنيق المكدم

وكذلك ذكر الحمام عند الحمامة إذا جر الذنابي، ودفع مقدمه بمؤخره واستدار عليها. ويفضي: يسفد، والديكة جمع ديك كالقرطة والجررة جمع قرط وجر.

ويؤر: يسفد، والأر: الجماع، ورجل آر كثير الجماع، وملاقحه: أدوات اللقاح وأعضاؤه وهي آلات التناسل. قوله: أر الفحول، أي أراً مثل أر الفحول ذات الغلثة والشبق.

ثم ذكر أنه لم يقل ذلك عن إسناد قد يضعف ويتداخله الطعن، بل قال ذلك عن عيان ومشاهدة. فإن قلت: من أين للمدينة طواويس؟ وأين العرب وهذا الطائر حتى يقول أمير المؤمنين رضي الله عنه: أحيلك من ذلك على معاناة لا سيما وهو يعني السفاد، ورؤية ذلك لمن تكثر الطواويس في داره ويطول مكثها عنده نادرة! قلت: لم يشاهد أمير المؤمنين رضي الله عنه الطواويس بالمدينة بل بالكوفة، وكانت يومئذ تجي إليها ثمرات كل شيء، وتأتي إليها هدايا الملوك من الآفاق، ورؤية المسافدة مع وجود الذكر والأنثى غير مستبعدة.

واعلم أن قوماً زعموا أن الذكر تدمع عينه، فتقف الدمعة بين أجفانه، فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة، وأمير المؤمنين رضي الله عنه لم يحل ذلك، ولكنه قال: ليس بأعجب من مطاعمة الغراب، والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد ومن أمثالهم: أخفى من سفاد الغراب فيزعمون أن اللقاح من مطاعمة الذكر والأنثى منهما، وانتقال جزء من الماء الذي في قانصته إليها من منقاره. وأما الحكماء فقل أن يصدقوا بذلك على أنهم قد قالوا في كتبهم ما يقرب من هذا، قالوا في السمك البياض: إن سفاده خفي جداً، وإنه لم يظهر ظهوراً يعتد به ويحكم بسببه.

هذا لفظ ابن سينا في كتاب الشفاء ثم قال: والناس يقولون: إن الإناث تأخذ زرع الذكور في أفواهها إلى بطونها، ثم قال: وقد شوهدت الإناث منها تتبع الذكور مبتلعة للزرع، وأما عند الولادة فإن الذكور تتبع الإناث مبتلعة بيضها.

قال ابن سينا: والقبجة تحبلها ريح تهب من ناحية الحجل الذكر ومن سماع صوته. قال: والنوع المسمى مالاquia تتلاصق بأفواهها ثم تتشابك، فذاك سفادها، وسمعت أن الغراب يسفد وأنه قد شوهد سفاده، ويقول الناس: إن من شاهد سفاد الغراب يثري ولا يموت إلا وهو كثير المال موسر. والضفتان، بفتح الضاد: الجانبان، وهما ضفتا النهر، وقد جاء ذلك بالكسر أيضاً، والفتح أفصح.

والمنبجس: المنفجر. ويسفحها: يصبها، وروي: تنشجها مدامعه من النشيج، وهو صوت الماء وغليانه من زق أو حب أو قدر.

الأصل: تخال قصبه مداري من فضة، وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد. فإن

شبهته بما أنبتت الأرض قلت: جني جني من زهرة كل ربيع، وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشي الحلل، أو كمونق عصب اليمى. وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكمل. يمشي مشي المرح المختال، ويتصفح ذنبه وجناحه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله، وأصابعه وشاحه، فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا معولاً بصوت يكاد يبين عن أستغاثته، ويشهد بصادق توجعه لأن قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية.

الشرح: قصبه: عظام أجنحته، والمداري جمع مدرى وهو في الأصل القرن، قال النابغة يصف الثور والكلاب:

شك الفريضة بالمدرى فأنفذها شك المبيطر إذ يشفي من العضد

وكذلك المدراة، ويقال المدرى لشيء كالمسلة تصلح بها الماشطة شعور النساء، قال الشاعر:

تهلك المدراة في أكنافه وإذا ما أرسلته يعتفر

وتمدت المرأة، أي سرحت شعرها. شبه عظام أجنحة الطاوس بمدارى من فضة لبياضها وشبه ما أنبت الله عليها من تلك الدارات والشموس التي في الريش بخالص العقيان وهو الذهب.

وفلد الزبرجد: جمع فلذة، وهي القطعة. والزبرجد: هذا الجواهر الذي تسميه الناس البلخش.

ثم قال: إن شبهته بنبات الأرض قلت: إنه قد جني من زهرة كل ربيع في الأرض لاختلاف ألوانه وأصباغه.

وإن ضاهيته بالملابس، المضاهاة: المشاكلة، يهمز ولا يهمز، وقرئ: "يضاهون قول الذين كفروا"، ويضاهئون وهذا ضهي هذا على فعيل أي شبيهه.

وموشي الحلل: ما ذبح بالوشي وهو الأرقم الملون. والعصب: برود اليمى، والحلي: جمع حلي وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضة مثل ثدي وثدي ووزنه فعول وقد تكسر الحاء لمكان الياء مثل عمي، وقرئ: "من حليهم" بالضم والكسر.

ونطقت باللجين، جعلت الفضة كالنطاق لها. والمكمل: ذو الإكليل.

وزقا: صوت، يزقو زقوا وزقياً وزقاء، وكل صائح زاق. والزقية: الصيحة وهو أثقل من الزواقي أي الديكة، لأنهم كانوا يسمرون فإذا صاحت الديكة تفرقوا.

ومعولاً: صارخاً، أعولت الفرس صوتت، ومنه العويل والعولة.

وقوائمه حمش: دقاق وهو أحمش الساقين وحمش الساقين بالتسكين وقد حمشت قوائمه، أي دقت. وتقول العرب للغلام إذا كانت أمه بيضاء وأبوه عريياً: آدم، فجاء لونه بين لونيهما.

خلاسي، بالكسر والأنثى خلاسية وقال الليث: الديكة الخلاسية هي المتولدة من الدجاج الهندي والفارسي.

يقول رضي الله عنه: إن الطاوس يزهى بنفسه ويتيه إذا نظر في أعطافه، ورأى ألوانه المختلفة، فإذا نظر إلى ساقيه وجم لذلك وانكسر نشاطه وزهوه، فصاح صياح العويل لحزنه وذلك لدقة ساقيه ونتوء عرقوبيه.

الأصل: وقد نجمت من ظنبوب ساقه صيصية خفية، وله في موضع العرف قترعة خضراء موشاة، ومخرج عنقه كالإبريق،

ومغرزا إلى حيث بطنة كصبيغ الوسمة اليمانية أو كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال، وكأنه متلفع بمعجر أسحم إلا أنه يخيل لكثرة مائه وشدة بريقه أن الخضرة الناضرة ممتزجة به، ومع فتق سمعه خط كمستدق القلم في لون الأقحوان، أبيض يقق فهو بيباضه في سواد ما هنالك يأتلق، وقل صبيغ إلا وقد أخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صقاله وبريقه، وبصيص ديباجه ورونقه، فهو كالأزاهير المبتوثة لم ترها أمطار ربيع ولا شمس قيظ.

الشرح: نجمت: ظهرت. والظنوب: حرف الساق وهو هذا العظم اليابس.

والصيصية في الأصل: شوكة الحائك التي يسوي بها السداة واللحمة، ومنه قوله:

كوقع الصياصي في النسيج الممدد

ونقل إلى صيصية الديك لتلك الهيئة التي في رجله.

والعرف: الشعر المرتفع من عنقه على رأسه. والقزعة، واحدة القنازع وهي الشعر حوالي الرأس، وفي الحديث: غطي عنا قنازعك يا أم أيمن، وموشاة: ذات وشي، والوسمة بكسر السين: العظم الذي يخضب به ويجوز تسكين السين، والأسحم: الأسود. والمتلفع: الملتحف، ويروى: متقنع بمعجر وهو ما تشده المرأة على رأسها كالرداء، والأقحوان: البابونج الأبيض وجمعه أقاح.

وأبيض يقق: خالص البياض، وجاء: يقق بالكسر. ويأتلق: يلمع.

والبصيص: البريق، وبص الشيء: لمع، وترها الأمطار: تربيتها وتجمعها.

يقول رضي الله عنه: كأن هذا الطائر ملتحف بملحفة سوداء، إلا أنها لكثرة رونقها يتوهم أنه قد امتزج بها خضرة ناضرة، وقل أن يكون لون إلا وقد أخذ هذا الطائر منه بنصيب، فهو كأزاهير الربيع، إلا أن الأزهار تربيتها الأمطار والشموس، وهذا مستغن عن ذلك.

الأصل: وقد ينحسر من ريشه، ويعرى من لباسه، فيسقط تترى، وينبت تباعاً فينحت من قصبه انحنات أوراق الأغصان، ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه. لا يخالف مسالف ألوانه، ولا يقع لون في غير مكانه، وإذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية، وتارة خضرة زبرجدية، وأحياناً صفرة عسجدية، فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن، أو تبلغه قرائح العقول، أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين وأقل أجرائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه! فسبحان الذي يهر العقول عن وصف خلق جللاه للعيون فأدركته محدوداً مكوناً، ومؤلفاً ملوناً، وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعتة! وسبحان من أدمج قوائم الذرة والهمجة إلى ما فوقهما من خلق الحيتان والفيلة! ووأي على نفسه ألا يضطرب شبح مما أوج فيه الروح إلا وجعل الحمام موعده والفناء غايته.

الشرح: ينحسر من ريشه: ينكشف فيسقط، ويروى: يتحسر.

تترى، أي شيئاً بعد شيء وبينهما فترة، قال الله تعالى: "ثم أرسلنا رسلنا تترى" لأنه لم يرسلهم على تراسل، بل بعد فترات وهذا مما يغلط فيه قوم فيعتقدون أن تترى للمواصلة والالتصاق. وأصلها الواو من الوتر وهو الفرد وفيها لغتان، تنون ولا تنون، فمن ترك صرفها للمعرفة جعل ألفها ألف تأنيث، ومن نونها جعل ألفها للإلحاق.

قال رضي الله عنه: وينبت تباعاً أي لا فترات بينهما، وكذلك حال الريش الساقط، يسقط شيئاً بعد شيء، وينبت جميعاً. وينحت: يتساقط، وانحات الورق: تناثرها. ونامياً: زائداً. يقول رضي الله عنه: إذا عاد ريشه عاد مكان كل ريشة ريشة ملونة بلون الريشة أولى، فلا يتخالف الأوائل والأواخر.

والخضرة الزبرجدية: منسوبة إلى الزمرد، ولفظة الزبرجد تارة تستعمل له، وتارة لهذا الحجر الأحمر المسمى بلخش. والعسجد: الذهب. وعمائق الفطن: البعيدة القعر. والقريحة: الخاطر والذهن. وبهر: غلب، وجلاله: أظهره ويروى بالتخفيف. وأدمج القوائم: أحكمها: كالجليل المدمج الشديد القتل.

والذرة: النملة الصغيرة. والهمجة، واحدة الهمج، وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحرر وأعينها، ووأي: وعد، والوأي: الوعد.

واعلم أن الحكماء ذكروا في الطاوس أموراً، قالوا: إنه يعيش خمساً وعشرين سنة، وهي أقصى عمره، ويبيض في السنة الثالثة من عمره عندما ينتقش لونه، ويتم ريشه. ويبيض في السنة مرة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيام، ويحضرها ثلاثين يوماً، فيفرخ ويلقي ريشه مع سقوط ورق الشجر، وينبته مع ابتداء نبات الورق.

والدجاج قد يحضن بيض الطاوس، وإنما يختار الدجاج لحضنته وإن وجدت الطاوسة، لأن الطاوس الذكر يعيث بالأنثى، ويشغلها عن الحضانة، وربما انفقص البيض من تحتها، ولهذا العلة يخبأ كثير من الإناث محاضنها عن ذكرها، ولا تقوى الدجاجة على أكثر من بيضتي طاوس. وينبغي أن يتعهد الدجاجة حينئذ بتقريب العلف منها.

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله في كتاب الحيوان: إن الطاوسة قد تبيض من الريح، بأن يكون في سفالة الريح وفوقها طاوس ذكر، فيحمل ريحه فتبيض منه، وكذلك القبجة، قال: ويبيض الريح قل أن يفرخ.

الأصل: منها في صفة الجنة: فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها، لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاة أشجار غيب عروقها في كتيان المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليحها وأفنانها، وطلوع تلك الثمار مختلفة في كلف أكمامها، تجنى من غير تكلف فتأتي على منية مجتنيها، ويطاق على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة والخمور المروقة.

قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلوا دار القرار، وأمنوا نقلة الأسفار، فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً إليها، ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا الله وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته! قال رضي الله تعالى في تفسير بعض ما في هذه الخطبة من الغريب: قوله عليه السلام: يؤر بملاقحه الأز: كناية عن النكاح، يقال: أر الرجل المرأة يؤزها، إذا نكحها.

وقوله عليه السلام: كأنه قلع داري عنجه نوتي، القلع: شراع السفينة. وداري: منسوب إلى دارين وهي بلدة على البحر يجلب منها الطيب. وعنجه أي عطفه يقال: عنجت الناقة، أعنجه عنجاً إذا عطفته. والنوتي: الملاح.

وقوله عليه السلام: ضفتي جفونه أراد جانبي جفونه، والضفتان: الجانبان.

وقوله: وفلذ الزبرجد، الفلذ: بع فلذة وهي القطعة.

وقوله عليه السلام: كبائس اللؤلؤ الرطب الكباسة: العذق. والعساليح: الغصون، واحدها عسلوج.

الشرح: رميت ببصر قلبك، أي أفكرت وتأملت وعزفت نفسك: كرهت وزهدت. والزخارف: جمع زخرف وهو الذهب وكل مموه.

واصطفاف الأشجار: انتظامها صفاً، ويروى: في اصطفاف أغصان أي اضطرابها، ويأتي على منية مجتنيها: لا يترك له منية أصلاً لأنه يكون قد بلغ نهاية الأماني، والعسل المصفق: المصفى تحويلاً من إناء إلى إناء. والمونقة: المعجبة. وزهقت نفسه: مات.

واعلم أنه لا مزيد في التشويق إلى الجنة على ما ذكره الله تعالى في كتابه فكل الصيد في جانب الفرا.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك أخبار صحيحة، فروى أسامة بن زيد، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الجنة فقال: ألا مشير لها! هي ورب الكعبة ريحانة تهمز، ونور يتلألأ، ونهر يطرد، وزوجة لا تموت مع حبور ونعيم ومقام الأبد.

وروى أبو سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله سبحانه لما حوط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وغرس غرسها، قال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال: طوبى لك منزل الملوك!" وروى جابر بن عبد الله عنه عليه الصلاة والسلام: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال لهم ربهم تعالى: أتحبون أن أزيدكم؟ فيقولون: وهل خير مما أعطيتنا؟ فيقول: نعم، رضواني أكبر".

وعنه عليه الصلاة والسلام: "إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب"، فقليل له: فهل يكون منهم حدث أو قال حبت؟ قال: "عرق يفيض من أعراضهم كريح المسك يضر منه البطن".

روى الزمخشري في ربيع الأبرار ومذهبه في الاعتزال ونصره أصحابنا معلوم وكذلك في انحرافه عن الشيعة وتسخيفه لمقاتلهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "لما أسري بي، أخذني جبرائيل، فأقعدني على درنوك من درانيك الجنة ثم ناولني سفرجلة، فبينما أنا أقبلها انفلقت فخرجت منها جارية لم أر أحسن منها فسلمت فقلت: من أنت، قالت: أنا الراضية المرضية خلقي الجبار من ثلاثة أصناف: أعلاي من عنبر وأوسطي من كافور وأسفلي من مسك. ثم عجنني بماء الحيوان، وقال لي: كوني كذا، فكنت. خلقي لأخيك وابن عمك علي بن أبي طالب".

قلت: الدرناوك: ضرب من البسط ذو حمل، ويشبه به فروة البعير، قال الراجز:

جعد الدرانيك رفل الأجلاذ

ومن خطبة له في الحث على التألف

الأصل: ليتأس صغيركم بكبيركم، وليرأف كبيركم بصغيركم ولا تكونوا كجفأة الجاهلية لا في الدين يتفقهون ولا عن الله يعقلون كقيض بيض في أداخ، يكون كسرهما وزراً، ويخرج حضائهما شراً.

الشرح: أمرهم رضي الله عنه أن يتأسى الصغير منهم بالكبير في أخلاقه وآدابه فإن الكبير لكثرة التجربة أحزم وأكيس، وأن يرأف الكبير بالصغير. والرأفة: الرحمة لأن الصغير مظنة الضعف والرقعة.

ثم نهاهم عن خلق الجاهلية في الجفاء والقسوة، وقال: إنهم لا يتفقهون في دين ولا يعقلون عن الله ما يأمرهم به وهذا من قول الله سبحانه: "صم بكم عمي فهم لا يعقلون". وروي: تتفقهون بتاء الخطاب.

ثم شبههم ببيض الأفاعي في الأعشاش، يظن بيض القطا فلا يحل لمن رآه أن يكسره لأنه يظنه بيض القطا، وحضانه يخرج شراً لأنه يفقص عن أفعى.

واستعار لفظة الأداحي للأعشاش مجازاً لأن الأداحي لا تكون إلا للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها، ودحوها: توسيعها، من دحوت الأرض.

والقيض: الكسر والفلق، قضت القارورة والبيضة، وانقاضت هي، وانقاض الجدار انقياضاً أي تصدع من غير أن يسقط فإن سقط قيل: تقيض تقيضاً، وتقوض تقوضاً، وقوضته أنا. وتقول للبيضة إذا تكسرت فلماً: تقيضت تقيضاً، فإن تصدعت ولم تنفلق، قلت: انقاضت، فهي منقضة، والقارورة مثله.

الأصل: منها: افترقوا بعد ألفتهم، وتشتتوا عن أصلهم فمنهم أخذ بغصن أينما مال مال معه على أن الله تعالى سيجمعهم لشر يوم لبني أمية كما يجتمع قرع الخريف، يؤلف الله بينهم ثم يجمعهم زكاً كرام السحاب ثم يفتح الله لهم أبواباً.

يسيلون من مستشارهم كسيل الجنتين حيث لم تسلم عليه قارة، ولم تثبت عليه أكمة، ولم يرد سننه رص طود، ولا حداب أرض، يذعدعهم الله في بالون أوديته، ثم يسلكهم ينابيع في الأرض، يأخذ بهم من قوم حقوق قوم، ويمكن لقوم في ديار قوم، وأيم الله ليزوبن ما في أيديهم بعد العلو والتمكين كما تذوب الألية على النار.

أيها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقو من قوي عليكم، لكنكم تهتم متاه بني إسرائيل.

ولعمري ليضعفن لكم التيه من بعدي أضعافاً بما خلفتم الحق وراء ظهوركم، وقطعتم الأذن، ووصلتم الأبعد.

واعلموا أنكم إن اتبعتم الدابر لكم، سلك بكم منهاج الرسول، وكفيتهم مئونة الاعتساف، ونبذتم الثقل الفادح عن الأعناق.

الشرح: هو رضي الله عنه: يذكر حال أصحابه وشيعته بعده، فيقول: افترقوا بعد ألفتهم أي بعد اجتماعهم. وتشتتوا عن أصلهم، أي عني بعد مفارقتي فمنهم أخذ بغصن أي يكون منهم من يتمسك بمن أخلفه بعدي من ذرية الرسول، أينما سلكوا سلكوا معهم وتقدير الكلام: ومنهم من لا يكون هذه حاله لكنه لم يذكره رضي الله عنه اكتفاء بذكر القسم الأول لأنه دال على القسم الثاني.

ثم قال: على أن هؤلاء القوم من ثبت منهم على عقيدته فينا ومن لم يثبت لا بد أن يجمعهم الله تعالى لشر يوم لبني أمية، وكذا كان، فإن الشيعة الهاشمية اجتمعت على إزالة ملك بني مروان: من كان منهم ثابتاً على ولاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن حاد منهم عن ذلك وذلك في أواخر أيام مروان الحمار عند ظهور الدعوة الهاشمية.

وقزع الخريف: جمع قزعة، وهي سحب صغار تجتمع فتصير ركاماً وهو ما كثف من السحاب. وركمت الشيء أركمه إذا جمعته وألقيت بعضه على بعض.

ومستشارهم: موضع ثورتهم، والجتان: هما اللتان قال الله تعالى فيهما: "لقد كان لسبأ في مسكنهم أية جنتان عن يمين وشمال". وسلط الله عليهما السيل، قال الله تعالى: "فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم". فشبه رضي الله عنه سيلان الجيوش إلى بني أمية بالسيل المسلط على تينك الجنتين.

فإنه لم يسلم عليه قارة وهي الجليل الصغير. ولم تثبت له أكمة وهي التلعة من الأرض، ولم يرد سننه أي طريقه. طود مرصوص أي جبل شديد التصاق الأجزاء بعضها ببعض. ولا حداب أرض. جمع حدبة وهي الروابي والنجاد. ثم قال: يذعدعهم الله الذعذة بالذال المعجمة مرتين: التفريق، وذعذة الشر: إذاعته.

ثم يسلكهم ينابيع في الأرض، من ألفاظ القرآن، والمراد أنه كما أن الله تعالى يترل من السماء ماء فيستكن في أعماق الأرض، ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها، كذلك هؤلاء القوم يفرقهم الله تعالى في بطون الأودية وغوامض الأغوار، ثم يظهرهم بعد الاختفاء فيأخذ بهم من قوم حقوق آخرين ويمكن منهم قوماً من ملك قوم وديارهم.

ثم أقسم ليدوبن ما في أيدي بني أمية بعد علوهم وتمكينهم كما تذوب الألية على النار، وهزمة الألية مفتوحة وجمعها أليات بالتحريك والتثنية أليان بغير تاء قال الراجز: ترتج ألياه ارتجاج الوطب.

وجمع الألية ألاء على فعال وكبش آلى على أفعل ونعجة ألياء والجمع ألي على فعل، ويقال أيضاً: كبش أليان بالتحريك، وكباش أليانات، ورجل ألياً أي عظيم الألية، وامرأة عجاء ولا تقل: ألياء وقد قاله بعضهم. وقد ألي الرجل بالكسر يألى: عظمت أليته، ثم قال: لولا تخاذلكم لم يطمع فيكم من هو دونكم. وتهنوا، مضارع وهن، أي ضعف، وهو من ألفاظ القرآن أيضاً.

وتتهم متاه بني إسرائيل: حرتم وضللتم الطريق وقد جاء في المسانيد الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "لتركمن سنن من كان قبلكم حذو النعل النعل، والقذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه، فقليل: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذاً ومن الأخبار الصحيحة أيضاً: "أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى".

وفي صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله أنه سيء يوم القيامة بأناس من أمي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فإذا رأيتهم اختلجوا دوني، قلت: أي رب، أصحابي! فيقال لي: إنك لا تدري ما عملوا بعدك؟ فأقول ما قال العبد الصالح: "وكنتم عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد". الإسناد في هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه.

وفي الصحيحين أيضاً، عن زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من نومه محمراً وجهه وهو يقول: "لا إله إلا الله. ويل للعرب من شر قد اقترب"، فقلت: يا رسول الله، أهلك، وفينا الصالحون؟ فقال: "نعم، إذا كثر الخبث" وقي الصحيحين أيضاً: "يهلك أمي هذا الحي من قريش"، قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: "لو أن الناس اعتزلوهم" رواه أبو هريرة عنه رضي الله عنه.

ثم قال رضي الله عنه: ليضعفن لكم التيه من بعدي يعني الضلال، يضعفه لكم الشيطان وأنفسكم بما خلفتم الحق وراء

ظهوركم أي لأجل ترككم الحق. وقطعكم الأدنى يعني نفسه. ووصلكم الأبعد، يعني معاوية ويروى: إن اتبعتم الراعي لكم بالراء.

والاعتساف: سلوك غير الطريق. والفادح: الثقل، فدحه الدين: أثقله.

ومن خطبة له في أول خلافته

الأصل: إن الله تعالى سبحانه أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا نهج الخير تهتدوا، وأصدفوا عن سمت الشر تقصدوا.

الفرائض الفرائض! أدوها إلى الله تؤدكم إلى الجنة. إن الله حرم حراماً غير مجهول، وأحل حلالاً غير مدخول، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها. فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب. بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت فإن الناس أمامكم، وإن الساعة تحذوكم من خلفكم.

تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم: اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، وأطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه.

الشرح: واصدفوا عن سمت الشر، أي أعرضوا عن طريقه، تقصدوا، أي تعدلوا، والقصد: العدل، ثم أمر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها كالصلاة والزكاة وانتصب ذلك على الإغراء.

ثم ذكر أن الحرام غير مجهول للمكلف بل معلوم، والحلال غير مدخول، أي لا عيب ولا نقص فيه وأن حرمة المسلم أفضل من جميع الحرمات. وهذا لفظ الخبر النبوي: حرمة المسلم فوق كل حرمة، دمه وعرضه وماله.

قال رضي الله عنه: وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها لأن الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.

قال: فالمسلم من سلم الناس هذا لفظ الخبر النبوي بعينه.

قوله: ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، أي إلا بحق وهو الكلام الأول وإنما أعاده تأكيداً.

ثم أمر بمبادرة الموت، وسماء الواقعة العامة لأنه يعم الحيوان كله، ثم سماه خاصة أحدكم لأنه وإن كان عاماً إلا أن له مع كل إنسان بعينه خصوصية زائدة على ذلك العموم.

قوله: فإن الناس أمامكم أي قد سبقوكم، والساعة تسوقكم من خلفكم.

ثم أمر بالتخفف وهو القناعة من الدنيا باليسير، وترك الحرص عليها، فإن المسافر الخفيف أحرى بالنجاة ولحاق أصحابه وبلوغ المنزل من الثقل.

وقوله: فإنما ينتظر بأولكم آخركم لا أي إنما ينتظر يبعث الموتى المتقدمين أن يموت الأواخر أيضاً، فيبعث الكل جميعاً في وقت واحد.

ثم ذكر أنهم مسؤولون عن كل شيء حتى عن البقاع: لم استوطنتم هذه، وزهدتم في هذه؟ ولم أخربتم هذه الدار وعمرتم هذه الدار؟ وحتى عن البهائم: لم ضربتموها؟ لم أجعتموها؟ وروي: فإن البأس أمامكم يعني الفتنة، والرواية الأولى أظهر. وقد ورد في الأخبار النبوية لينتصفن للجماء من القرناء وجاء في الخبر الصحيح: إن الله تعالى عذب إنساناً بهر، حبسه في بيت وأجاعه حتى هلك.

ومن كلام له بعد ما بويع له بالخلافة

وقد قال له قوم من الصحابة: لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان فقال عليه السلام الأصل: يا إخوانه! إني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف لي بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم! وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه! إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن هؤلاء القوم مادة. إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا. فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة. فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة، وتسقط منة، وتورث وهناً وذلة. وسأمسك الأمر ما استمسك وإذا لم أجد بداً فأخر الدواء الكي.

الشرح: أجلب عليه: أعان عليه، وأجلبه: أعانه. والألف في يا إخوانه بدل من ياء الإضافة، والهاء للسكت. وعلى حد شوكتهم، شدتهم أي لم تنكسر سورتهم. والعبدان جمع عبد بالكسر: مثل جحش وجحشان، وجاء عبدان بالضم مثل تمر وتمران، وجاء عبيد مثل كلب وكنيب، وهو جمع عزيز، وجاء أعبد وعباد وعبدان مشددة الدال، وعبداء بالمد، وعبدى بالقصر، ومعبوداء بالمد، وعبد بالضم مثل سقف وكسقف، وأنشدوا:

أسود الجلدة من قوم عبد

انسب العبد إلى آبائه

ومنه قرأ بعضهم: "وعبد الطاغوت" وأضافه. قوله: "والتفت إليهم أعرابكم": انضمت واختلطت بهم. وهم خلالكم أي بينكم يسومونكم ما شاؤوا: يكلفونكم، قال تعالى: "يسومونكم سوء العذاب"، وتؤخذ الحقوق مسمحة، من أسمح، أي ذل وانقاد، فاهدأوا عني أي فاسكنوا. هدأ الرجل هدأً وهدوءاً أي سكن، وأهدأه غيره. وتضعضع قوة: تضعف وتهد: تضععت البناء: هددته. والمنة: القوة. والوهن: الضعف. وآخر الدواء الكي، مثل مشهور ويقال: آخر الطب ويغلط فيه العامة فتقول: آخر الدواء، والكي ليس من الداء ليكون آخره.

موقف الإمام علي من قتلة عثمان

واعلم أن هذا الكلام يدل على أنه رضي الله عنه كان في نفسه عقاب الذين حصروا عثمان والاقتصاص ممن قتله، إن

كان بقي ممن باشر قتله أحد ولهذا قال: إني لست أجهل ما تعلمون فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك، واعتذر بعدم التمكن كما ينبغي وصدق رضي الله عنه فإن أكثر أهل المدينة أجلبوا عليه، وكان من أهل مصر ومن الكوفة عالم عظيم حضروا من بلادهم، وطووا المسالك البعيدة لذلك، وانضم إليهم أعراب أجلاف من البادية، وكان الأمر أمر جاهلية كما قال رضي الله عنه ولو حرك ساكناً لاختلف الناس واضطربوا، فقوم يقولون: أصاب، وقوم يقولون: أخطأ، وقوم لا يحكمون بصواب ولا خطأ. بل يتوقفون، ولا يأمن- لو شرع في عقوبة الناس والقبض عليهم- من تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم فكان الأصوب في التدبير، والذي يوجبه الشرع والعقل الإمساك إلى حين سكون الفتنة، وتفرق تلك الشعوب وعود كل قوم إلى بلادهم وكان رضي الله عنه يؤمل أن يطيعه معاوية وغيره، وأن يحضر بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم، ويعينون قوماً بأعيانهم، بعضهم للقتل، وبعضهم للحصار، وبعضهم للتسور، كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضي فحينئذ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى فلم يقع الأمر بموجب ذلك، وعمى معاوية وأهل الشام، والتجأ ورثة عثمان إليه، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين رضي الله عنه، ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعياً، وإنما طلبوه مغالبة، وجعلها معاوية عصبية الجاهلية، ولم يأت أحد منهم الأمر من بابه وقبل ذلك ما كان من أمير طلحة والزبير، ونقضهما البيعة، ونهبهما أموال المسلمين بالبصرة وقتلهما الصالحين من أهلها، وجرت أمور كلها تمنع الإمام عن التصدي للقصاص، واعتماد ما يجب اعتماده لو كان الأمر وقع على القاعدة الصحيحة من المطالبة بذلك على وجه السكون والحكومة، وقد قال هو رضي الله عنه لمعاوية: "فأما طلبك قتلة عثمان، فادخل في الطاعة، وحاكم القوم إلي، أحملك وإياهم على كتاب الله وسنة رسوله".

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله: وهذا عين الحق، ومحض الصواب، لأنه يجب دخول الناس في طاعة الإمام، ثم تقع المحاكمة إليه، فإن حكم بالحق استديمت إمامته، وإن حكم بالجور انتقض أمره وتعين خلعه. فإن قلت: فما معنى قوله: "وسأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي". قلت: ليس معناه: وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكن الصبر، فإذا لم أجد بداً عاقبتهم، ولكنه كلام قاله أول مسير طلحة والزبير إلى البصرة، فإنه حينئذ أشار عليه قوم بمعاينة الجلبين، فاعتذر بما قد ذكر، ثم قال: "وسأمسك الأمر ما استمسك، أي أمسك نفسي عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكنني، وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم، وأجتهد في ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب، فإذا لم أجد بداً من الحرب، فآخر الدواء الكي، أي الحرب لأنها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها.

عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة

الأصل: إن الله بعث رسولاً هادياً بكتاب ناطق وأمر قائم لا يهلك عنه إلا هالك. وإن المبتدعات المشبهات هن المهلكات إلا ما حفظ الله منها. وإن في سلطان الله عصمة لأمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها. والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إلى غيركم. إن هؤلاء قد تماأوا على سخطة إمارتي، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم فإنهم إن تمموا على فيالة هذا الرأي، انقطع

نظام المسلمين، وإنما طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن أفاءها الله عليه، فأرادوا رد الأمور على أدبارها، ولكم علينا العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والقيام بحقه والنعمش لسنته.

الشرح: وأمر قائم، أي مستقيم ليس بذي عوج. لا يهلك عنه إلا هالك، تقديره: لا يهلك عادلاً عنه إلا هالك، وهذا كما تقول: لا يعلم هذا الفن إلا عالم أي من قد بلغ الغاية في العلم واستحق أن يوصف بذلك ويشار إليه فيه، كذلك لا يهلك بعدوله عنه إلا من هو أعظم الهالكين، ومن يشار إليه بالهلاك وقد بلغ الغاية في الهلاك.

ثم قال: "إن المبتدعات المشبهات هن المهلكات"، المبتدعات: ما أحدث ولم يكن على عهد الرسول. والمشبهات: التي تشبه السنن وليست منها، أي المشبهات بالسنن. وروي: المشبهات بالكسر، أي المشبهات على الناس، يقال: قد شبه عليه الأمر، أي ألبس عليه، ويروى: لا المشتبهات أي الملتبسات، لا يعرف حقها من باطلها. قال: "إلا من حفظ الله"، أي من عصمه الله بالطفاء يتمتع لأجلها عن الخطأ. ثم أمرهم بلزوم الطاعة، واتباع السلطان، وقال: إن فيه عصمة لأمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملومة، أي مخلصين ذوي طاعة محضة لا يلام باذلاً، أي لا ينسب إلى النفاق. ولا مستكره بها، أي ليست عن استكراه، بل يبدلونها اختياراً ومحبة، ويروى: غير ملوية أي معوجة، من لويت العود.

ثم أقسم إنهم إن لم يفعلوا وإلا نقل الله عنهم سلطان الإسلام- يعني الخلافة- ثم لا يعيده إليهم أبداً، حتى يأرأ الأمر إلى غيرهم، أي حتى ينقبض وينضم ويجتمع، وفي الحديث: "إن الإسلام ليأرأ إلى المدينة كما تأرأ الحية إلى جحرها". فإن قلت: كيف قال: إنه لا يعيده إليهم أبداً، وقد عاد إليهم بالخلافة العباسية؟ قلت: لأن الشرط لم يقع، وهو عدم الطاعة، فإن أكثرهم أطاعوه طاعة غير ملومة ولا مستكره بها، وإذا لم يتحقق الشرط لم يتحقق المشروط. وقد أجاب قوم عن هذا، فقالوا: خاطب الشيعة الطالبية، فقال: إن لم تعطوني الطاعة المحضة نقل الله الخلافة عن هذا البيت حتى يأرأ وينضم إلى بيت آخر وهكذا وقع فإنها انضمت إلى بيت آخر من بني هاشم. وأجاب قوم آخرون، فقالوا: أراد بقوله: "أبداً" المبالغة كما تقول: احبس هذا الغريم أبداً، والمراد بالقوم الذين يأرأ الأمر إليهم بنو أمية كأنه قال: إن لم تفعلوا نقل الله الخلافة عنكم حتى يجعلها في قوم آخرين وهم أعداؤكم من أهل الشام وبني أمية، ولا يعيده إليكم إلى مدة طويلة، وهكذا وقع.

وقد تمالأوا: قد اجتمعوا. وتساعدوا على سخطة إمارتي: على كراهيتها وبغضها. ثم وعد بالصبر عليهم ما لم يخف من فرقة الجماعة وانتشار حبل الإسلام.

وفيلة الرأي: ضعفه، وكذلك فيولته، ورجل فيل الرأي: أي ضعيفه، قال:

فما أنتم فنعدركم لفيل

بنى رب الجواد فلا تقيلوا

أي لستم على رجل ضعيف الرأي. والجمع أفيال، ويقال أيضاً: رجل فال، قال:

وجربت الفراسة كنت فالاً

رأيتك يا أخيطل إذ جرينا

قال: إن تموا على هذا الرأي الضعيف قطعوا نظام المسلمين وفرقوا جماعتهم.

ثم ذكر أن الحسد دعاهم إلى ذلك، وأفاءها عليه: ردها عليه، فاء يفيء: رجع. وفلان سريع الفيء من غضبه، أي سريع الرجوع. وإنه لحسن الفئنة بالكسر مثال الفiece أي حسن الرجوع وهذا الكلام لا يشعر بأنه رضي الله عنه كان يعتقد أن الأمر له وأنه غلب عليه ثم رجع إليه، ولكنه محمول على أنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الجزء من الكل، وأنهما من جوهر واحد، فلما كان الوالي قدماً وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تخلل بين ولايته صلى الله عليه وسلم وولاية أمير المؤمنين رضي الله عنه ولايات غريبة، سمى ولايته فيئاً ورجوعاً لأنها رجعت إلى الدوحة الهاشمية وبهذا يجب أن يتأول قوله: "فأرادوا رد الأمور على أديبارها" أي أرادوا انتزاع الخلافة من بني هاشم كما انتزعت أولاً وإقرارها في بيوت بعيدة عن هذا البيت، أسوة بما وقع من قبل. والنعش: مصدر نعش أي رفع، ولا يجوز: "أنعش".

ومن كلام له كلم به بعض العرب

وقد أرسله قوم من أهل البصرة لما قرب عليه السلام منها ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم فبين له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنه على الحق ثم قال له بايع فقال إني رسول قوم ولا أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم فقال عليه السلام الأصل: أرايت لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً، تبتغي لهم مساقط الغيث، فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكأ والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب ما كنت صانعاً؟ قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكأ والماء، فقال عليه السلام: فامدد إذا يدك. فقال الرجل: فوالله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي فبايعته عليه السلام، والرجل يعرف بكليب الجرهمي.

الشرخ: الجرهمي: منسوب إلى بني جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، من حمير. وكان هذا الرجل بعثه قوم من أهل البصرة إليه رضي الله عنه يستعلم حاله: أهو على حجة أم على شبهة؟ فلما رآه رضي الله عنه، وسمع لفظه، علم صدقه وبرهانه فكان بينهما ما قد شرحه رضي الله عنه.

ولا شيء أطف ولا أوقع ولا أوضح من المثال الذي ضربه رضي الله عنه، وهو حجة لازمة لا مدفع لها. قوله: "ولا أحدث حدثاً" أي لا أفعل ما لم يأمرني به، إنما أمرت باستعلام حالك فقط، فأما المبايعة لك فإن أحدثتها كنت فاعلاً ما لم أندب له.

ومساقط الغيث: المواضع التي يسقط الغيث فيها. والكأ: النبات إذا طال وأمكن أن يرعى، وأول ما يظهر يسمى الرطب، فإذا طال قليلاً فهو الخلا، فإذا طال شيئاً آخر فهو الكأ، فإذا يبس فهو الحشيش، والمعاطش والمجادب: مواضع العطش والجذب، وهو الحل.

لما عزم علي لقاء القوم بصفين

الأصل: اللهم رب السقف المرفوع، والجو المكفوف الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار، ومجرى للشمس والقمر، ومختلفاً للنجوم السيارة، وجعلت سكانه سبطاً من ملائكتك، لا يسأمون من عبادتك.

ورب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام، ومدرجاً للهوام والأنعام، وما لا يحصى مما يرى وما لا يرى.

ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق اعتماداً، إن أظهرتنا على عدونا، فجنبنا البغي، وسددنا للحق، وإن أظهرهم علينا فارزقنا الشهادة، وأعصمنا من الفتنة، أين المانع للذمار، والغائر عند نزول الحقائق من أهل الحفاظ! العار وراءكم، واللجنة أمامكم! الشرح: السقف المرفوع: السماء. والجو المكفوف: السماء أيضاً، كفه أي جمعه وضم بعضه إلى بعض، ويمر في كلامه نحو هذا، وأن السماء هواء جامد أو ماء جامد.

وجعلته مغيضاً لليل والنهار، أي غيضة لهما وهي في الأصل الأجمة يجتمع إليها الماء، فتسمى غيضة ومغيضاً وينبت فيها الشجر كأنه جعل الفلك كالغيضة، والليل والنهار كالشجر النابت فيها.

ووجه المشاركة أن المغيض أو الغيضة يتولد منهما الشجر وكذلك الليل والنهار يتولدان من جريان الفلك.

ثم عاد فقال: "ومجرى للشمس والقمر"، أي موضعاً لجريانهما. ومختلفاً للنجوم السيارة أي موضعاً لاختلافها، واللام مفتوحة.

ثم قال: "جعلت سكانه سبطاً من ملائكتك" أي قبيلة، قال تعالى: "اثني عشرة أسباطاً أمماً" لا يسأمون: لا يملون. وقراراً للأنام، أي موضع استقرارهم وسكونهم. ومدرجاً للهوام، أي موضع دروجهم وسيرهم وحركاتهم، والهوام: الحشرات والخوف من الأحناش، وما لا يحصى، أي لا يضبط بالإحصاء والعد مما نراه ونعرفه وما لا نراه ولا نعرفه. وقال بعض العلماء: إن أردت أن تعرف حقيقة قوله: "مما يرى وما لا يرى" فأوقد ناراً صغيرة في فلاة في ليلة صيفية وانظر ما يجتمع عليها من الأنواع الغريبة العجيبة الخلق التي لم تشاهدها أنت ولا غيرك قط.

قوله: "وللخلق اعتماداً" لأنهم يجعلونها كالمساكن لهم، فينتفعون بها وينون منازل إلى جانبها، فيقوم مقام جدار قد استغنوا عن بنيانه، ولأنها أمهات العيون ومنابع المياه باعتماد الخلق على مرافقهم ومنافعهم ومصالحهم عليها. قوله: "وسددنا للحق" أي صوبنا إليه، من قولك: "سهم سديد" أي مصيب، وسدد السنن إلى القرن أي صوبه نحوه. والذمار: ما يحامي عنه. والغائر: ذو الغيرة. ونزول الحقائق: نزول الأمور الشديدة كالحرب ونحوها. ثم قال: "العار وراءكم"، أي إن رجعتم القهقري هارين. واللجنة أمامكم أي إن أقدمتم على العدو مجاهدين. وهذا الكلام شريف جداً.

ومن خطبة له في من رماه بالحرص

الأصل: الحمد لله الذي لا توارى عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً.

الشرح: هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضها فوق بعض، كما أن السموات كذلك، ولم يأت في الكتاب العزيز ما يدل على هذا إلا قوله تعالى: "الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن"، وهو قول كثير من المسلمين.

وقد تأول ذلك أرباب المذهب الآخر القائلون بأنها أرض واحدة، فقالوا: إنها سبعة أقاليم، فالمثلثة هي من هذا الوجه لا

ويمكن أن يتأول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه، فيقال: إنها وإن كانت أرضاً واحدة، لكنها أقاليم وأقطار مختلفة، وهي كرية الشكل، فمن على حدة الكرة لا يرى من تحته، ومن تحته لا يراه، ومن على أحد جانبيها لا يرى من على الجانب الآخر، والله تعالى يدرك ذلك كله أجمع، ولا يحجب عنه شيء منها بشيء منها.

فأما قوله رضي الله عنه: "لا توارى عنه سماء سماء"، فلقال أن يقول: ولا يتوارى شيء من السموات عن المدركين منا لأنها شفافة، فأى حصيصة للباري تعالى في ذلك؟ فينبغي أن يقال هذا الكلام على قاعدة غير القاعدة الفلسفية، بل هو على قاعدة الشريعة الإسلامية التي تقتضي أن السموات تحجب ما وراءها عن المدركين بالحاسة وأنها ليست طباقاً متراصة، بل بينها خلق من خلق الله تعالى لا يعلمهم غيره. واتباع هذا القول واعتقاده أولى.

الأصل: منها: وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا بن أبي طالب لحريص، فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد وأنا أخص وأقرب، وإنما طلبت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه، فلما قرعته بالحجة في الملاء الحاضرين، هب كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به! اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، ثم قالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تتركه.

الشرح: هذا من خطبة يذكر فيها رضي الله عنه ما جرى يوم الشورى بعد مقتل عمر. والذي قال له: "إنك على هذا الأمر لحريص" سعد بن أبي وقاص، مع روايته فيه: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى"، وهذا عجب، فقال لهم: بل أنتم والله أحرص وأبعد.... الكلام المذكور. وقد رواه الناس كافة.

وقالت الإمامية: هذا الكلام يوم السقيفة، والذي قال له: إنك على هذا الأمر لحريص، أبو عبيدة بن الجراح، والرواية الأولى أظهر وأشهر.

وروي: "فلما قرعته" بالتحفيف، أي صدمته بها.

وروي: "هب لا يدري ما يجيبني"، كما تقول: استيقظ وانتبه، كأنه كان غافلاً ذاهلاً عن الحجة فهب لما ذكرتها.

أستعديك: أطلب أن تعديني عليهم وأن تنتصف لي منهم، قطعوا رحمي: لم يرعوا قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصغروا عظيم منزلتي: لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، أي بالأفضلية أنا أحق به منهم، هكذا ينبغي أن يتأول كلامه.

وكذلك قوله: "إنما أطلب حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه".

قال: "ثم قالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تتركه"، قال: لم يقتصروا على أخذ حقي ساكتين عن الدعوى ولكنهم أخذوه وادعوا أن الحق لهم وأنه يجب علي أن أترك المنازعة فيه، فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقي، فكانت المصيبة به أخف وأهون.

واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه رضي الله عنه بنحو من هذا القول، نحو قوله: "ما زلت مظلوماً منذ قبض الله رسوله حتى يوم الناس هذا".

وقوله: "اللهم أخز قريشاً فإنها منعني حقي وغصبتني أمري".

وقوله: "فجزى قريشاً عني الجوازي، فإنهم ظلموني حقي، واغتصبوني سلطان ابن أمي".

وقوله وقد سمع صارخاً ينادي: أنا مظلوم، فقال: "هلم فلنصرخ معاً، فإنني ما زلت مظلوماً".

وقوله: "وإنه ليعلم أن في منها محل القطب من الرحي" وقوله: "أرى تراثي نهباً" وقوله: "أصغيا بإنائنا، وحملا الناس على

رقابنا"، وقوله: "إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى" وقوله: "ما زلت مستأثراً

علي، مدفوعاً عما أستحقه وأستوجبه".

وأصحابنا يحملون ذلك كله على ادعائه الأمر بالأفضلية والأحقية وهو الحق والصواب فإن حمله على الاستحقاق بالنص

تكفير أو تفسير لوجوه المهاجرين والأنصار، ولكن الإمامية والزيدية حملوا هذه الأقوال على ظواهرها، وارتكبوا بها

مركباً صعباً. ولعمري إن هذه الألفاظ موهمة مغلبة على الظن ما يقوله القوم، ولكن تصفح الأحوال يبطل ذلك الظن،

ويدراً ذلك الوهم، فوجب أن يجري مجرى الآيات المتشابهات الموهمة ما لا يجوز على البارئ، فإنه لا نعمل بها، ولا نعمل

على ظواهرها، لأننا لما تصفحنا أدلة العقول اقتضت العدول عن ظاهر اللفظ، وأن تحمل على التأويلات المذكورة في

الكتب.

وحدثني يحيى بن سعيد بن علي الحنبلي المعروف بابن عالية، من ساكني قطفتا بالجانب الغربي من بغداد وأحد الشهود

المعدلين بها، قال: كنت حاضراً مجلس الفخر إسماعيل بن علي الحنبلي الفقيه المعروف بغلام ابن المني، وكان الفخر

إسماعيل بن علي هذا مقدم الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف ويشغل بشيء في علم المنطق، وكان حلو العبارة، وقد رأيته

أنا وحضرت عنده، وسمعت كلامه، وتوفي سنة عشر وستمائة.

قال ابن عالية: ونحن عنده نتحدث إذ دخل شخص من الحنابلة، قد كان له دين على بعض أهل الكوفة، فانحدر إليه

يطالبه به، واتفق أن حضرت زيارة يوم الغدير، والحنبلي المذكور بالكوفة وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي

الحجة، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين رضي الله عنه من الخلائق جموع عظيمة تتجاوز حد الإحصاء.

قال ابن عالية: فجعل الشيخ الفخر يسأل ذلك الشخص: ما فعلت؟ ما رأيته؟ هل وصل مالك إليك؟ هل بقي لك منه

بقية عند غريمك؟ وذلك يجاوبه حتى قال له: يا سيدي لو شاهدت يوم الزيارة يوم الغدير، وما يجري عند قبر علي بن أبي

طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسب الصحابة جهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة! فقال إسماعيل: أي

ذنب لهم! والله ما جرأهم على ذلك، ولا فتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر. فقال ذلك الشخص: ومن صاحب

القبر؟ قال: علي بن أبي طالب! قال: يا سيدي، هو الذي سن لهم ذلك، وعلمهم إياه وطرقهم إليه! قال: نعم والله، قال:

يا سيدي فإن كان محققاً فمالنا أن نتولى فلاناً وفلاناً! وإن كان مبطلاً فمالنا نتولاه! ينبغي أن نبرأ إما منه أو منهما.

قال ابن عالية: فقام إسماعيل مسرعاً فلبس نعليه وقال: لعن الله إسماعيل الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة، ودخل

دار حرمة، وقمنا نحن وانصرفنا.

الأصل: منها في ذكر أصحاب الجمل: فخرجوا يجرون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كما تجر الأمة

عند شرائها متوجهين بها إلى البصرة. فحبسا نساءهما في بيوتهما، وأبرز حبيس رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لهما ولغيرهما في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره، فقدموا على عاملي بها، وخزان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها، فقتلوا طائفة صبراً وطائفة غدرًا. فوالله إن لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جرّه، لحل لي قتل ذلك الجيش كله إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد، دع ما إنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم! الشرح: حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كناية عن الزوجة، وأصله الأهل والحرم وكذلك حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم كناية عنها. وقتلوهم صبراً، أي بعد الأسر. وقوله: "فوالله إن لو لم يصيبوا" إن هاهنا زائدة، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة. ويسأل عن قوله رضي الله عنه: "لو لم يصيبوا إلا رجلاً واحداً لحل لي قتل ذلك الجيش بأسره، لأنهم حضروه فلم ينكروا"، فيقال: أيجوز قتل من لم ينكر المنكر مع تمكنه من إنكاره؟ والجواب، أنه يجوز قتلهم لأنهم اعتقدوا ذلك القتل مباحاً، فإنهم إذا اعتقدوا إباحتها، فقد اعتقدوا إباحتها ما حرم الله، فيكون حالهم حال من اعتقد أن الزنا مباح، أو أن شرب الخمر مباح.

وقال القطب الراوندي: يريد أنهم داخلون في عموم قوله تعالى: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا".

ولقائل أن يقول: الإشكال إنما وقع في قوله: "لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً لحل لي قتل ذلك الجيش بأسره" لأنهم حضروا المنكر ولم يدفعوه بلسان ولا يد، فهو علل استحلاله قتلهم بأنهم لم ينكروا المنكر، ولم يعمل ذلك بعموم الآية.

وأما معنى قوله: "دع ما إنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم"، فهو أنه لو كان المقتول واحداً لحل لي قتلهم كلهم، فكيف وقد قتلوا من المسلمين عدة مثل عدتهم التي دخلوا بها البصرة! وما هاهنا زائدة. وصدق رضي الله عنه، فإنهم قتلوا من أوليائه وخزان بيت المال بالبصرة خلقاً كثيراً بعضهم غدرًا وبعضهم صبراً، كما خطب به رضي الله عنه.

خروج عائشة ومسيرها إلى القتال

وروى أبو مخنف، قال: حدثنا إسماعيل بن خالد، عن قيس بن أبي حازم. وروى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس. وروى جرير بن يزيد، عن عامر الشعبي، وروى محمد بن إسحاق، عن حبيب بن عمير، قالوا جميعاً: لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة، طرقت ماء الحوآب - وهو ماء لبني عامر بن صعصعة - فنبحتهم الكلاب، فنفرت صعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لعن الله الحوآب فما أكثر كلابها! فلما سمعت عائشة ذكر الحوآب، قالت: أهذا ماء الحوآب؟ قالوا: نعم، فقالت: ردوني ردوني فسألوها ما شأنها؟ ما بدا لها؟ فقالت: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كأني بكلاب ماء يدعى الحوآب، قد نبحت بعض نسائي"، ثم قال لي: "إياك يا حميراء أن تكونيها" فقال

لها الزبير: مهلاً يرحمك الله، فإننا قد جزنا ماء الحوآب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك من يشهد بأن هذه الكلاب الناجحة ليست على ماء الحوآب؟ فلفق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابياً جعلاً لهم جعلاً، فحلفوا لها، وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوآب، فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام.

فسارت عائشة لوجهها.

قال أبو مخنف: وحدثنا عصام بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لنسائه، وهن عنده جميعاً: "ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدب، تنبجها كلاب الحوآب، يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة، كلهم في النار وتنجو بعد ما كادت" قلت: وأصحابنا المعتزلة رحمهم الله، يحملون قوله رضي الله عنه: "وتنجو" على نجاتها من النار، والإمامية يحملون ذلك على نجاتها، من القتل، ومحملنا أرجح، لأن لفظة "في النار" أقرب إليه من لفظة "القتلى"، والقرب معتبر في هذا الباب، ألا ترى أن نحاة البصريين أعملوا أقرب العاملين، نظراً إلى القرب! قال أبو مخنف: وحدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أن الزبير وطلحة أغذا السير بعائشة، حتى انتهوا إلى حفر أبي موسى الأشعري، وهو قريب من البصرة، وكتبوا إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وهو عامل علي رضي الله عنه على البصرة: أن أحل لنا دار الإمارة، فلما وصل كتابهما إليه بعث الأحنف بن قيس، فقال له: إن هؤلاء القوم قدموا علينا ومعهم زوجة رسول الله، والناس إليها سراع كما ترى فقال الأحنف: إنهم جاؤوك بما للطلب بدم عثمان وهم الذين ألبوا على عثمان الناس، وسفكوا دمه وأراهم والله لا يزايلون حتى يلقوا العداوة بيننا، ويسفكوا دماءنا، وأظنهم والله سيركبون منك خاصة ما لا قبل لك به إن لم تتأهب لهم بالنهوض إليهم فيمن معك من أهل البصرة، فإنك اليوم الوالي عليهم وأنت فيهم مطاع فسر إليهم بالناس وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة، فيكون الناس لهم أطوع منهم لك؟ فقال عثمان بن حنيف: الرأي ما رأيت لكنني أكره الشر وأن أبدأهم به وأرجو العافية والسلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به. ثم أتاه بعد الأحنف حكيم بن جبلة العبدى من بني عمرو بن وداعة، فأقرأه كتاب طلحة والزبير، فقال له مثل قول الأحنف، وأجابه عثمان بمثل جوابه للأحنف، فقال له حكيم: فأذن لي حتى أسير إليهم بالناس، فإن دخلوا في طاعة أمير المؤمنين وإلا نابذهم على سواء.

فقال عثمان: لو كان ذلك رأيي لسرت إليهم بنفسى، قال حكيم: أما والله إن دخلوا عليك هذا المصر ليتقلن قلوب كثير من الناس إليهم، وليزيلنك عن مجلسك هذا، وأنت أعلم. فأبى عليه عثمان.

قال: وكتب علي إلى عثمان لما بلغه مشاركة القوم البصرة، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف، أما بعد: فإن البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا، وتوجهوا إلى مصر، وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به. والله أشد بأساً، وأشد تنكيلاً، فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه، فإن أجابوا فأحسن جوارهم ما داموا عندك، وإن أبوا إلا التمسك بجبل النكت والخلاف، فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين وكتبت كتابي هذا إليك من الربرة، وأنا معجل المسير إليك إن شاء الله، وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة ست وثلاثين.

قال: فلما وصل كتاب علي رضي الله عنه إلى عثمان، أرسل إلى أبي الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين الخزاعي، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم، وما الذي أقدمهم! فانطلقا حتى إذا أتيا حفر أبي موسى، وبه معسكر القوم، فدخلا على عائشة، فنالاها ووعظاها، وأذكراها وناشداها الله، فقالت لهما: القيا طلحة والزبير. فقاما من عندها، ولقيا الزبير فكلماه، فقال لهما: إنا جئنا للطلب بدم عثمان، وندعو الناس إلى أن يردوا أمر الخلافة شورى، ليختار الناس لأنفسهم. فقالا له: إن عثمان لم يقتل بالبصرة ليطلب دمه فيها، وأنت تعلم قتلة عثمان من هم، وأين هم! وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشد الناس عليه، وأعظمهم إغراء بدمه، فأقيدوا من أنفسكم. وأما إعادة أمر الخلافة شورى، فكيف وقد بايعتم علياً طائعين غير مكرهين! وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت آخذ قائم سيفك، تقول: ما أخذ أحق بالخلافة منه ولا أولى بها منه! وامتنعت من بيعه أبي بكر. فأين ذلك الفعل من هذا القول! فقال لهما: اذهبا فالقيا طلحة، فقاما إلى طلحة فوجداه أخشن الملمس، شديد العريكة، قوي العزم في إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف، فأخبراه وقال له أبو الأسود:

وطاعن القوم وجالد واصبر

يابن حنيف قد أتيت فانفر

وابرز لها مستلئماً وشمر

فقال ابن حنيف: إي والحرمين لأفعلن. وأمر مناديه فنادى في الناس: السلاح السلاح! فاجتمعوا إليه، وقال أبو الأسود:

وطلحة كالنجم أو أبعد

أتينا الزبير فدانى الكلام

يضيق به الخطب مستنكد

وأحسن قوليهما فادح

فأهون علينا بما أوعدوا

وقد أوعدونا بجهد الوعيد

وأصدرتم قبل أن توردوا

فقلنا ركضتم ولم ترملوا

فملقحها حده الأنكد

فإن تلحقوا الحرب بين الرجال

ألا إنه الأسد الأسود

وإن عليا لكم مصحر

بمكة والله لا يعبد

أما إنه ثالث العابدين

فإن غداً لكم موعد

فرخوا الخناق ولا تعجلوا

قال: وأقبل القوم، فلما انتهوا إلى المبرد، قام رجل من بني جشم فقال: أيها الناس، أنا فلان الجشمي، وقد أتاكم هؤلاء القوم، فإن كانوا أتوكم خائفين، لقد أتوكم من المكان الذي يأمن فيه الطير والوحش والسباع، وإن كانوا إنما أتوكم بطلب دم عثمان، فغيرنا ولي قتله. فأطيعوني أيها الناس وردوهم من حيث أقبلوا فإنكم إن لم تفعلوا لم تسلموا من الحرب الضروس والفتنة الصماء التي لا تبقي ولا تذر.

قال: فحصبه ناس من أهل البصرة، فأمسك.

قال: واجتمع أهل البصرة إلى المبرد حتى ملأوه مشاة وركباً، فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكون ليخطب، فسكتوا بعد جهد. فقال: أما بعد، فإن عثمان بن عفان كان من أهل السابقة والفضيلة، ومن المهاجرين الأولين الذين رضي الله

عنهم ورضوا عنه ونزل القرآن ناطقاً بفضلهم، وأحد أئمة المسلمين الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان أحدث أحداثاً نقمناها عليه، فأتيناه فاستعتبناه فأعتبنا، فعدا عليه امرؤ ابتز هذه الأمة أمرها غصباً بغير رضا منها ولا مشورة فقتله وساعده على ذلك قوم غير أتقياء ولا أبرار، فقتل محرماً بريئاً تائباً. وقد جئناكم أيها الناس نطلب بدم عثمان، وندعوكم إلى الطلب بدمه فإن نحن أمكننا الله من قتلته قتلناهم به، وجعلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين، وكانت خلافة رحمة للأمة جميعاً، فإن كل من أخذ الأمر من غير رضا من العامة ولا مشورة منها ابتزازاً، كان ملكه ملكاً عضوياً وحدثاً كثيراً. ثم قام الزبير، فتكلم بمثل كلام طلحة. فقام إليهما ناس من أهل البصرة، فقالوا لهما: ألم تبايعا علياً فيمن بايعه؟ فقيم بايعتما ثم نكثتما! فقالا: ما بايعنا، وما لأحد في أعناقنا بيعه وإنما استكرهنا على بيعه. فقال ناس: قد صدقا وأحسننا القول، وقطعا بالثواب. وقال ناس: ما صدقا ولا أصابا في القول حتى ارتفعت الأصوات.

قال: ثم أقبلت عائشة على جملها، فنادت بصوت مرتفع: أيها الناس، أقلوا الكلام واسكتوا، فأسكت الناس لها، فقالت: إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غير وبدل، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوماً تائباً، وإنما نعموا عليه ضربه بالسوط، وتأميره الشبان، وحمائته موضع الغمامة، فقتلوه محرماً في حرمة الشهر وحرمة البلد ذبحاً كما يذبح الجمل. ألا وإن قريشاً رمت غرضها بنبالها، وأدمت أفواهاها بأيديها، وما نالت بقتلها إياه شيئاً، ولا سلكت به سبيلاً قاصداً، أما والله ليروئها بلالاً عقيمة تنبئ النائم، وتقيم الجالس، وليسلمن عليهم قوم لا يرحمونهم وسيومونهم سوء العذاب. أيها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل به دمه! مصتموه كما يماص الثوب الرخيص، ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه، وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة، ابتزازاً وغصباً. تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم! ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرت بهم فاقتلوه، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان. قال: فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل يقول: وما هي وهذا الأمر، إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها! وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط حتى تضاربوا بالنعال، وتراموا بالحصى.

ثم إن الناس تمايزوا فصاروا فريقين: فريق مع عثمان بن حنيف، وفريق مع عائشة وأصحابها. قال: وحدثنا الأشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، عن أبي الخليل، قال: لما نزل طلحة والزبير المربد، أتيتهما فوجدتهما مجتمعين، فقلت لهما: ناشدتكما الله وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم! ما الذي أقدمكما أرضنا هذه؟ فلم يتكلمتا، فأعدت عليهما، فقالا: بلغنا أن بأرضكم هذه دنيا، فجئنا نطلبها.

قال: وقد روى محمد بن سيرين، عن الأحنف بن قيس أنه لقيهما، فقالا له مثل مقالتهما الأولى: إنما جئنا لطلب الدنيا. وقد روى المدائني أيضاً نحوه مما روى أبو مخنف، قال: بعث علي رضي الله عنه ابن عباس يوم الجمل إلى الزبير قبل الحرب، فقال له: إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام، ويقول لكم: ألم تبايعني طائعاً غير مكره، فما الذي رابك مني، فاستحللت به قتالي؟ قال: فلم يكن له جواب إلا أنه قال لي: إنا مع الخوف الشديد لنطمع، لم يقل غير ذلك.

قال أبو إسحاق: فسألت محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم: ما تراه يعني بقوله هذا؟ فقال: أما والله ما تركت ابن عباس حتى سألته عن هذا، فقال: يقول: إنا مع الخوف الشديد مما نحن عليه، نطمع أن نلي مثل الذي وليتم. وقال محمد بن إسحاق: حدثني جعفر بن محمد رضي الله عنه، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: بعثني علي رضي الله عنه يوم الجمل إلى طلحة والزبير، وبعث معي بمصحف منشور، وإن الريح لتصفق ورقه، فقال لي: قل لهما: هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فما تريدان؟ فلم يكن لهما جواب إلا أن قالوا: نريد ما أراد، كأنتما تقولان: الملك. فرجعت إلى علي فأخبرته.

وقد روى قاضي القضاة رحمه الله في كتاب المغني عن وهب بن جرير، قال: قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير: إن لكما فضلاً وصحبة فأخبراني عن مسيركما هذا وقتالكما شيء أمركما له رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم رأي رأيتماه؟ فأما طلحة فسكت وجعل ينكت في الأرض، وأما الزبير، فقال: ويحك! حدثنا أن هاهنا دراهم كثيرة، فجئنا لنأخذ منها.

وجعل قاضي القضاة هذا الخبر حجة في أن طلحة تاب، وأن الزبير لم يكن مصرّاً على الحرب. والاحتجاج بهذا الخبر على هذا المعنى ضعيف، وإن صح هو وما قبله إنه للدليل على حق شديد، وضعف عظيم، ونقص ظاهر. وليت شعري ما الذي أحوجهما إلى هذا القول! وإذا كان هذا في أنفسهما، فهلا كتماه!

ثم نعود إلى خبرهما: قال أبو مخنف: فلما أقبل طلحة والزبير من المريد يريدان عثمان بن حنيف، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السكك، فمضوا حتى انتهوا إلى موضع الدباغين، فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف فشجرهم طلحة والزبير وأصحابهما بالرماح، فحمل عليهم حكيم بن جبلة، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك، ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة، فأخذوا إلى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها ملياً حتى ثابت إليهم خيلهم، ثم أخذوا على مسناة البصرة حتى انتهوا إلى الرابوقة ثم أتوا سبخة دار الرزق، فزّلوها.

قال: وأتاهما عبد الله بن حكيم التميمي لما نزلوا السبخة بكتب كانا كتبها إليه، فقال لطلحة: يا أبا محمد، أما هذا كتبك إلينا؟ قال: بلى، قال: فكتبت أمس تدعوننا إلى خلع عثمان وقتله حتى إذا قتلته أتيتنا ثائراً بدمه! فلعمري ما هذا رأيك لا تريد إلا هذه الدنيا. مهلاً! إذا كان هذا رأيك فلم قبلت من علي ما عرض عليك من البيعة، فبايعته طائعاً راضياً، ثم نكثت بيعتك، ثم جئت لتدخلنا في فتنتك! فقال: إن علياً دعاني إلى بيعته بعد ما بايع الناس، فعلمت لو لم أقبل ما عرضه علي لم يتم لي، ثم يغري بي من معه.

قال: ثم أصبحا من غد فصفا للحرب، وخرج عثمان بن حنيف إليهما في أصحابه، فناشدهما الله والإسلام، وأذكرهما بيعتهما علياً منمه، فقالا: نطلب بدم عثمان، فقال لهما: وما أنتما وذاك أين بنوه؟ أين بنو عمه الذين هم أحق به منكم! كلا والله ولكنكما حسدتماه حيث اجتمع الناس عليه، وكنتما ترجوان هذا الأمر، وتعملان له! وهل كان أحد أشد على عثمان قولاً منكما! فشتماه شتماً قبيحاً، وذكر أمه، فقال للزبير: أما والله لولا صفية ومكانها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها أدنتك إلى الظل، وأن الأمر بيني وبينك - يا بن الصعبة - يعني طلحة - أعظم من القول، لأعلمتكما من أمركما ما يسوءكما. اللهم إني قد أعذرت إلى هذين الرجلين! ثم حمل عليهم، واقتتل الناس قتالاً شديداً، ثم تاحزوا

واصطلحوا على أن يكتب بينهم كتاب صلح فكتب: هذا ما اصطلاح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومن معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وطلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما، أن لعثمان بن حنيف دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأن لطلحة والزبير ومن معهما أن يتزلوا حيث شاؤوا من البصرة، ولا يضار بعضهم بعضاً في طريق ولا فرضة ولا سوق ولا شرعة ولا مرفق، حتى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فإن أحبوا دخلوا فيما دخلت فيه أمة، وإن أحبوا لحق كل قوم بمواهم وما أحبوا من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه، وأشد ما أخذه على نبي من أنبيائه من عهد وختم الكتاب، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه: ألحقوا رحمكم الله بأهلكم، وضعوا سلاحكم، وداووا جرحاكم. فمكثوا كذلك أياماً.

ثم إن طلحة والزبير قالوا: إن قدم علي ونحن على هذه الحال من القلة والضعف ليأخذن بأعناقنا، فأجمعاً على مراسلة القبائل واستمالة العرب، فأرسلوا إلى وجوه الناس وأهل الرياسة والشرف، يدعواهم إلى الطلب بدم عثمان وخلع علي وإخراج ابن حنيف من البصرة. فبايعهم على ذلك الأزد وضبة وقيس بن عيلان كلها إلا الرجل والرجلين من القبيلة، كرهوا أمرهم فتواروا عنهم، وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمي فلم يأثم فجاءه طلحة والزبير إلى داره، فتوارى عنهما، فقالت له أمه: ما رأيت مثلك! أتاك شيخاً قريش فتواريت عنهما! فلم تزل به حتى ظهر لهما، وبايعهما ومعه بنو عمرو بن تميم كلهم وبنو حنظلة إلا بني يربوع فإن عامتهم كانوا شيعة لعلي رضي الله عنه، وبايعهم بنو دارم كلهم إلا نفرًا من بني مجاشع ذوي دين وفضل.

فلما استوسق لطلحة والزبير أمرهما خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ومعهما أصحابهما قد ألبسوهم الدروع، وظاهروا فوقها بالثياب، فانتھوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر، وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه، وأقيمت الصلاة، فتقدم عثمان ليصلي بهم، فأخره أصحاب طلحة والزبير، وقدموا الزبير فجاءت السباجة - وهم الشرط حرس بيت المال - فأخرجوا الزبير، وقدموا عثمان، فغلبهم أصحاب الزبير، فقدموا الزبير وأخروا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع، وصاح بهم أهل المسجد: ألا تتقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس! فغلب الزبير فصلى بالناس، فلما انصرف من صلاته، صاح بأصحابه المستسلحين: أن خذوا عثمان بن حنيف، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفيهما، فلما أسر ضرب ضرب الموت، وנתف حاجباه وأشفار عينيه، وكل شعرة في رأسه ووجهه، وأخذوا السباجة وهم سبعون رجلاً فانطلقوا بهم وبعثوا عثمان بن حنيف إلى عائشة، فقالت لأبان بن عثمان: أخرج إليه فاضرب عنقه، فإن الأنصار قتلت أباك، وأعانت على قتله. فنادى عثمان: يا عائشة، يا طلحة، يا زبير إن أخي سهل بن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة وأقسم بالله إن قتلتموني ليضعن السيف في بني أبيكم وأهلكم ورهطكم فلا يبقى أحداً منكم. فكفوا عنه وخافوا أن يقع سهل بن حنيف بعيالهم وأهلهم بالمدينة، فتركوه.

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتل السباجة، فإنه قد بلغني الذي صنعوا بك. قال: فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم، ولي ذلك منهم عبد الله ابنه، وهم سبعون رجلاً، وبقيت منهم طائفة مستمسكين ببيت المال!. قالوا: لا ندفعه إليكم حتى

يقدم أمير المؤمنين فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً فأوقع بهم وأخذ منهم خمسين أسيراً فقتلهم صبراً.
قال أبو مخنف: فحدثنا الصقعب بن زهير، قال: كانت السباجة القتلى يومئذ أربعمئة رجل، قال: فكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف أول غدر كان في الإسلام، وكان السباجة أول قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبراً. قال: وخيروا عثمان بن حنيف بين أن يقيم أو يلحق بعلي، فاخترار الرحيل فخلوا سبيله، فلحق بعلي رضي الله عنه، فلما رآه بكى وقال له: فارقتك شيخاً وجئتك أمرد، فقال علي: إنا لله وإنا إليه راجعون! قالها ثلاثاً.
قلت: السباجة لفظة معربة، قد ذكرها الجوهري في كتاب الصحاح قال: هم قوم من السند، كانوا بالبصرة جلاوزة وحراس السجن، والهاء للعجمة والنسب، قال يزيد بن مفرغ الحميري:

يلبسوني مع الصباح القيودا

وطماطيم من سبابيج خزر

قال: فلما بلغ حكيم بن جبلة ما صنع القوم بعثمان بن حنيف، خرج في ثلاثمئة من عبد القيس مخالفاً لهم ومنازلاً فخرجوا إليه، وحملوا عائشة على جمل فسمي ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر، ويوم علي يوم الجمل الأكبر.
وتجالد الفريقان بالسيوف فشد رجل من الأزدي من عسكر عائشة على حكيم بن جبلة فضرب رجله فقطعها ووقع الأزدي عن فرسه فجثا حكيم فأخذ رجله فرمى بها الأزدي فصرعه، ثم دب إليه فقتله متكئاً عليه خائفاً له حتى زهقت نفسه، فمر بحكيم إنسان وهو يجود بنفسه، فقال: من فعل بك؟ قال: وسادي، فنظر فإذا الأزدي تحته، وكان حكيم شجاعاً مذكوراً. قال: وقتل مع حكيم إخوة له ثلاثة، وقتل أصحابه كلهم، وهم ثلاثمئة من عبد القيس، والقليل منهم من بكر بن وائل، فلما صفت البصرة لطلحة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه وطرده ابن حنيف عنهما اختلفاً في الصلاة، وأراد كل منهما أن يؤم بالناس، وخاف أن تكون صلاته خلف صاحبه تسليماً له ورضاً بتقدمه فأصلحت بينهما عائشة، بأن جعلت عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة يصليان بالناس، هذا يوماً وهذا يوماً.
قال أبو مخنف: ثم دخلا بيت المال بالبصرة، فلما رأوا ما فيه من الأموال، قال الزبير: "وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه"، فنحن أحق بها من أهل البصرة، فأخذوا ذلك المال كله، فلما غلب علي عقله رد تلك الأموال إلى بيت المال، وقسمها في المسلمين.

وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الوقعة، ومقتل الزبير فاراً عن الحرب خوفاً أو توبةً - ونحن نقول: إنها توبة - وذكرنا مقتل طلحة والاستيلاء على أم المؤمنين وإحسان علي رضي الله عنه إليها وإلى من أسر في الحرب، أو ظفر به بعدها.

منافرة بين ولدي علي عليه السلام وطلحة

كان القاسم بن محمد بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمي - يلقب أبا بكرة، ولي شرطة الكوفة لعيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس - كلم إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه بكلام خرجا فيه إلى المنافسة، فقال القاسم بن محمد: لم يزل فضلنا وإحساننا سابغاً عليكم يا بني هاشم وعلى بني عبد مناف كافة، فقال إسماعيل: أي فضل وإحسان أسديتموه إلى بني عبد مناف؟ أغضب أبوك جدي بقوله: ليموتن محمد ولنجولن بين خلاخيل نساءه

كما جال بين خلاجيل نساءنا. فأنزل الله تعالى مراغمة لأبيك: "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً" ومنع ابن عمك أمي حقها من فذك وغيرها من ميراث أبيها وأجلب أبوك على عثمان وحصره حتى قتل، ونكث بيعة علي وشام السيف في وجهه، وأفسد قلوب المسلمين عليه، فإن كان لبني عبد مناف قوم غير هؤلاء أسديتم إليهم إحساناً فعرفني من هم جعلت فداك!

منافرة بين ابن الزبير وابن عباس

وتزوج عبد الله بن الزبير أم عمرو ابنة منظور بن زبان الفزارية، فلما دخل بها قال لها تلك الليلة: أتدرين من معك في حجلتك؟ قالت: نعم، عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى.

قال: ليس غير هذا! قالت: فما الذي تريد؟ قال: معك من أصبح في قريش بمثلة الرأس من الجسد، لا بل بمثلة العينين من الرأس. قالت: أما والله لو أن بعض بني عبد مناف حضرك لقال لك خلاف قولك. فغضب، وقال: الطعام والشراب علي حرام حتى أحضرك الهاشميين وغيرهم من بني عبد مناف، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً. قالت: إن أطعني لم تفعل، وأنت أعلم وشأنك.

فخرج إلى المسجد فرأى حلقة فيها قوم من قريش، منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال لهم ابن الزبير: أحب أن تنطلقوا معي إلى متري، فقام القوم بأجمعهم حتى وقفوا على باب بيته فقال ابن الزبير: يا هذه اطرحي عليك سترك، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة، فتغدى القوم، فلما فرغوا قال لهم: إنما جمعتكم لحديث رده علي صاحبة الستر، وزعمت أنه لو كان بعض بني عبد مناف حضري لما أقر لي بما قلت، وقد حضرتم جميعاً. وأنت يا بن عباس، ما تقول؟ إني أخبرتكم أن معها في خدرها من أصبح في قريش بمثلة الرأس من الجسد، لا بل بمثلة العينين من الرأس! فردت علي مقالتي، فقال ابن عباس: أراك قصدت قصدي، فإن شئت أن أقول قلت، وإن شئت أن أكف كففت، قال: بل قل، وما عسى أن تقول! أأست تعلم أي ابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين، وأن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي، وأن عائشة أم المؤمنين خالتي! فهل تستطيع لهذا إنكاراً! قال ابن عباس: لقد ذكرت شرفاً شريفاً، وفخراً فاخراً، غير أنك تفاخر من بفخره فخرت، وبفضله سموت. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أولى بالفخر له منك. قال ابن الزبير: لو شئت لفخرت عليك بما كان قبل النبوة، قال ابن عباس: قد انصف القارة من رامها نشدتكم الله أيها الحاضرون! أعبد المطلب أشرف أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطلب، قال: أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا: بل هاشم، قال: أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى؟ قالوا: عبد مناف، فقال ابن عباس:

عليك رسول الله لا قول هازل

ولكنما ساميت شمس الأصائل

تتافرنى يابن الزبير وقد قضى

ولو غيرنا يابن الزبير فخرفته

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل في قوله: "ما افترقت فرقتان إلا كنت في خيرهما"، فقد فارقناك من بعد قصي بن كلاب، أفنحن في فرقة الخير أم لا؟ إن قلت: نعم خصمت، وإن قلت: لا كفرت! فضحك بعض القوم، فقال ابن الزبير: أما والله لولا تحرمك بطعامنا يا بن عباس لأعرت جبينك قبل أن تقوم من مجلسك، قال ابن عباس: ولم؟ أباطل فالباطل لا يغلب الحق، أم بحق؟ فالحق لا يخشى من الباطل! فقالت المرأة من وراء الستر: إني والله لقد نهيته عن هذا المجلس، فأبي إلا ما ترون.

فقال ابن عباس: مه أيتها المرأة! اقنعي ببعلك، فما أعظم الخطر، وما أكرم الخبر! فأخذ القوم بيد ابن عباس -وكان قد عمي- فقالوا: انهض أيها الرجل فقد أفحمته غير مرة، فنهض وقال:

فلو ترك القطا لغفا وناما

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا

فقال ابن الزبير: يا صاحب القطا، أقبل علي، فما كنت لتدعني حتى أقول، وإيم الله لقد عرف الأقوام أبي سابق غير مسبوق، وابن حواري وصديق، متبجح في الشرف الأنيق، خير من طليق.

فقال ابن عباس: دسعت بجرتك فلم تبق شيئاً؟ هذا الكلام مردود، من امرئ حسود، فإن كنت سابقاً فأبى من سبقت؟ وإن كنت فاحراً فبمن فخرت؟ فإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا، فالفخر لك علينا، وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك، والكثكث في فمك ويديك. وأما ما ذكرت من الطليق، فوالله لقد ابتلي فصبر، وأنعم عليه فشكر وإن كان والله لوفياً كريماً غير ناقض بيعه بعد توكيدها، ولا مسلم كتيبة بعد التآمر عليها.

فقال ابن الزبير: أتعير الزبير بالجن، والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك! قال ابن عباس: والله إني لا أعلم إلا أنه فر وما كر، وحارب فما صبر، وباع فما تم، وقطع الرحم، وأنكر الفضل، ورام ما ليس له بأهل.

وقمر عن جري الكرام وبلدا

وأدرك منها بعض ما كان يرتجي

عناق فجاراه العناق فأجهدا

وما كان إلا كالهجين أمامه

فقال ابن الزبير: لم يبق يا بني هاشم غير المشاة والمضاربة.

فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث: أقمناه عنك يا بن الزبير، وتأبى إلا منازعته! والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسغب الظمان، يفتح فاه يستريد من الريح، فلا يشبع من سغب، ولا يروى من عطش فقل إن شئت، أو فدع، وانصرف القوم.

ومن خطبة له في الرسول ومن أجدر بالخلافة بعده

الأصل: أمين وحيه، وخاتم رسله، وبشير رحمته، ونذير نقمته.

أيها الناس، إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه، فإن شغب شاغب أستعجب، فإن أبي قوتل، ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى تحضرها عامة الناس ما إلى ذلك سبيل ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها

ثم ليس للشاهد أن يرجع، ولا للغائب أن يختار.

ألا وإني أقاتل رجلين: رجلاً ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه.

الشرح: صدر الكلام في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتلوه فصول: أولها: أن أحق الناس بالإمامة أقواهم عليها، وأعلمهم بحكم الله فيها، وهذا لا ينافي مذهب أصحابنا البغداديين في صحة إمامة المفضل، لأنه ما قال: إن إمامة غير الأقوى فاسدة، ولكنه قال: إن الأقوى أحق وأصحابنا لا ينكرون أنه رضي الله عنه أحق ممن تقدمه بالإمامة مع قولهم بصحة إمامة المتقدمين لأنه لا منافاة بين كونه أحق، وبين صحة إمامة غيره.

فإن قلت: أي فرق بين أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه؟ قلت: أقواهم أحسنهم سياسة، وأعلمهم بأمر الله أكثرهم علماً وإجراء للتدبير بمقتضى العلم، وبين الأمرين فرق واضح، فقد يكون سائساً حاذقاً، ولا يكون عالماً بالفقه، وقد يكون سائساً فقيهاً، ولا يجري التدبير على مقتضى علمه وفقهه.

وثانيها: أن الإمامة لا يشترط في صحة انعقادها أن يحضرها الناس كافة، لأنه لو كان ذلك مشروطاً لأدى إلى ألا تنعقد إمامة أبداً لتعذر اجتماع المسلمين من أطراف الأرض، ولكنها تنعقد بعقد العلماء وأهل الحل والعقد الحاضرين، ثم لا يجوز بعد عقدها لحاضريها أن يرجعوا من غير سبب يقتضي رجوعهم، ولا يجوز لمن غاب عنها أن يختار غير من عقد له، بل يكون محجوجاً بعقد الحاضرين مكلفاً طاعة الإمام المعقود له، وعلى هذا جرت الحال في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وانعقد إجماع المسلمين عليه، وهذا الكلام تصريح بصحة مذهب أصحابنا في أن الاختيار طريق إلى الإمامة، ومبطل لما تقوله الإمامية من دعوى النص عليه ومن قولهم: لا طريق إلى الإمامة سوى النص أو المعجز. وثالثها: أن الخارج على الإمام يستعيب أولاً بالكلام والمراسلة، فإن أبي قوتل وهذا هو نص الكتاب العزيز: "وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا فأصلحا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله".

ورابعها: أنه يقاتل أحد رجلين: إما رجلاً ادعى ما ليس له نحو أن يخرج على الإمام من يدعي الخلافة لنفسه، وإما رجلاً منع ما عليه، نحو أن يخرج على الإمام رجل لا يدعي الخلافة ولكنه يتمتع من الطاعة فقط. فإن قلت: الخارج على الإمام مدعي الخلافة لنفسه، مانع ما عليه أيضاً لأنه قد امتنع من الطاعة، فقد دخل أحد القسمين في الآخر! قلت: لما كان مدعي الخلافة قد اجتمع له أمران: إيجابي وسلبي، فالإيجابي دعواه الخلافة، والسلبي امتناعه من الطاعة، كان متميزاً ممن لم يحصل له إلا القسم السلبي فقط، وهو مانع الطاعة لا غير، فكان الأحسن في فن علم البيان أن يشتمل اللفظ على التقسيم الحاصر للإيجاب والسلب، فلذلك قال: "إما مدعياً ما ليس له، أو مانعاً ما هو عليه الأصل: أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله فإنها خير ما تواسى العباد به وخير عواقب الأمور عند الله وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة، ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر والعلم بمواقع الحق، فامضوا لما تؤمرون به، وقفوا عند ما تنهون عنه، ولا تعجلوا في أمر حتى تتبينوا، فإن لنا مع كل أمر تنكرونيه غيراً. ألا وإن هذه الدنيا التي أصبحت تمنونها، وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتكم له ولا الذي دعيتم إليه.

ألا وإنها ليست بباقية لكم، ولا تبقون عليها، وهي وإن غرتكم منها فقد حذرتكم شرها، فدعوا غرورها لتحذيرها، وأطماعها لتخويفها وسابقوا فيها إلى الدار التي دعيتم إليها، وانصرفوا بقلوبكم عنها ولا يخنن أحدكم خنين الأمة على ما زوي عنه منها، واستتموا نعمة الله عليكم بالصبر على طاعة الله، والمحافظة على ما استحفظكم من كتابه. ألا وإنه لا يضركم تضييع شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم. ألا وإنه لا ينفعكم بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم.

أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر! الشرح: لم يكن المسلمون قبل حرب الجمل يعرفون كيفية قتال أهل القبلة، وإنما تعلموا فقه ذلك من أمير المؤمنين رضي الله عنه.

وقال الشافعي: لولا علي لما عرف شيء من أحكام أهل البغي.

قوله رضي الله عنه: "ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر"، وذلك لأن المسلمين عظم عندهم حرب أهل القبلة، وأكبروه، ومن أقدم عندهم عليه أقدم على خوف وحذر، فقال رضي الله عنه: إن هذا العلم ليس يدركه كل أحد، وإنما له قوم مخصوصون.

ثم أمرهم بالمضي عندما يأمرهم به، وبالانتهاء عما ينهاهم عنه. ونهاهم عن أن يعجلوا بالحكم على أمر ملتبس حتى يتبين ويتضح.

ثم قال: إن عندنا تغييراً لكل ما تنكروه من الأمور حتى يثبت أنه يجب إنكارها وتغييرها، أي لست كعثمان أصر على ارتكاب ما أنهى عنه، بل أغير كل ما ينكره المسلمون، ويقتفي الحال والشرع تغييره.

ثم ذكر أن الدنيا التي تغضب الناس وترضيهم، وهي منتهى أمانيتهم ورغبتهم، ليست دراهم، وإنما هي طريق إلى الدار الآخرة، ومدة اللبث في ذلك الطريق يسيرة جداً.

وقال: إنها وإن كانت غرارة فإنها منذرة ومحذرة لأبنائها بما رأوه من آثارها في سلفهم وإخوانهم وأحبائهم، ومناداتها على نفسها بأنها فاعلة بهم ما فعلت بأولئك من الفناء، وفراق المألوف.

قال: فدعوا غرورها لتحذيرها، وذلك لأن جانب تحذيرها أولى بأن يعمل عليه من جانب غرورها لأن غرورها إنما هو بأمر سريع مع التصرم والانقضاء، وتحذيرها إنما هو لأمر جليل عظيم، فإن الفناء المعجل محسوس، وقد دل العقل والشرائع كافة على أن بعد ذلك الفناء سعادة وشقاوة، فينبغي للعاقل أن يحذر من تلك الشقاوة، ويرغب في تلك السعادة، ولا سبيل إلى ذلك إلا برفض غرور الدنيا، على أنه لو لم يكن ذلك لكان الواجب على أهل اللب والبصيرة رفضها، لأن الموجود منها خيال، فإنه أشبه شيء بأحلام المنام، فالتمسك به والإخلال إليه حمق.

والخنين: صوت يخرج من الأنف عند البكاء، وأضافه إلى الأمة، لأن الإماء كثيراً ما يضربن فيكيكين، ويسمع الخنين منهن، ولأن الحرة تأنف من البكاء والخنين.

و زوي: قبض.

ثم ذكر أنه لا يضر المكلف فوات قسط من الدنيا إذا حفظ قائمة دينه، يعني القيام بالواجبات والانتفاء عن المحظورات،

ولا ينفعه حصول الدنيا كلها بعد تضييعه دينه، لأن ابتياع لذة متناهية بلذة غير متناهية يخرج اللذة المتناهية من باب كونها نفعاً، ويدخلها في باب المضار، فكيف إذا انضاف إلى عدم اللذة غير المتناهية حصول مضار وعقوبات غير متناهية، أعاذنا الله منها.

الجزء العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

ومن كلام له في شأن طلحة بن عبيد الله

الأصل: قد كنت وما أهدد بالحرب، ولا أُرهب بالضرب، وأنا على ما وعدني ربي من النصر، والله ما أستعجل متجرداً للطلب بدم عثمان إلا خوفاً من أن يطالب بدمه، لأنه مظنته، ولم يكن في القوم أحرص عليه منه، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلتبس الأمر، ويقع الشك.

ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث: لئن كان ابن عفان ظالماً - كما كان يزعم - لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه، وأن يباذ نصره، ولئن كان مظلوماً، لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهين عنه، والمعذرين فيه، ولئن كان في شك من الخصلتين، لقد كان ينبغي له أن يعتزله، ويركد جانباً، ويدع الناس معه، فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه، ولم تسلم معاذيره.

الشرح: كان هاهنا تامة، والواو واو الحال، أي خلقت ووجدت وأنا بهذه الصفة، كما تقول: خلقتني الله وأنا شجاع، ويجوز أن تكون الواو زائدة، وتكون كان ناقصة، وخبرها ما أهدد، كما في المثل: "لقد كنت وما أخشى بالذئب". فإن قلت: إذا كانت ناقصة، لزم أن تكون الآن بخلاف ما مضى، فيكون الآن يهدد ويرهب.

قلت: لا يلزم ذلك، لأن "كان" الناقصة للماضي من حيث هو ماض، وليس يشترط في ذلك أن يكون منقطعاً، بل قد يكون دائماً، كقوله تعالى: "وكان الله عليماً حكيماً".

ثم ذكر رضي الله عنه أنه على ما وعده ربه من النصر، وأنه واثق بالظفر والغلبة الآن، كما كانت عادته فيما سبق. ثم شرح حال طلحة، وقال: إنه تجرد للطلب بدم عثمان، مغالطة للناس، إيهاماً لهم أنه بريء من دمه، فيلتبس الأمر ويقع الشك.

وقد كان طلحة أجهد نفسه في أمر عثمان والإجلاب عليه والحصر له والإغراء به ومنته نفسه الخلافة، بل نلبس بها، وتسلم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها وقاتل الناس وأحدقوا به ولم يبق إلا أن يصفق بالخلافة على يده.

ما جرى بين طلحة وعثمان

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب "التاريخ" قال: حدثني عمر بن شبة، عن علي بن محمد، عن عبد ربه، عن نافع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حكيم بن جابر، قال: قال علي رضي الله عنه لطلحة وعثمان محصور: أنشدك الله إلا رددت الناس عن عثمان! قال: لا والله حتى تعطي بنو أمية الحق من أنفسها.

وروى الطبري أن عثمان كان له على طلحة خمسون ألفاً، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد، فقال له طلحة: قد هنيأ مالك

فأقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك.

قال: فكان عثمان يقول وهو محصور: جزاء سنمار! وروى الطبري أيضاً أن طلحة باع أرضاً من عثمان بسبعمئة ألف، فحملها إليه، فقال طلحة: إن رجلاً يبيت وهذه عنده وفي بيته، لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله؟ فبات ورسله تختلف بها في سكك المدينة يقسمها حتى أصبح وما عنده منها درهم واحد.

قال الطبري: روى ذلك الحسن البصري، وكان إذا روى ذلك يقول: ثم جاء إلينا يطلب الدينار والدرهم - أو قال: والصفراء البيضاء.

وروى الطبري أيضاً، قال: قال ابن عباس رحمه الله: لما حججت بالناس نيابة عن عثمان وهو محصور، مررت بعائشة بالصلصل، فقالت: يا بن عباس، أنشدك الله فإنك قد أعطيت لساناً وعقلاً، أن تخذل الناس عن طلحة، فقد بانت لهم بصائرهم في عثمان وأهيجت، ورفعت لهم المنار، وتحلبوا من البلدان لأمر قد حم، وإن طلحة - فيما بلغني - قد اتخذ رجلاً على بيوت الأموال، وأخذ مفاتيح الخزائن وأظنه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمه أبي بكر، فقال: يا أمه، لو حدث بالرجل حدث ما فرغ الناس إلا إلى صاحبنا، فقالت: إيهأ عنك يا بن عباس، إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك.

وروى المدائني في كتاب "مقتل عثمان" أن طلحة منع من دفنه ثلاثة أيام، وأن علياً رضي الله عنه لم يبايع الناس إلا بعد قتل عثمان بخمسة أيام، وأن حكيم بن حزام أحد بني أسد بن عبد العزي، وجبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجدا بعلي رضي الله عنه على دفنه، فأقعد طلحة لهم في الطريق ناساً بالحجارة، فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يعرف بحش كوكب. كانت اليهود تدفن فيه موتاهم، فلما صار هناك رجم سريه، وهموا بطرحه، فأرسل علي رضي الله عنه إلى الناس يعزم عليهم ليكفوا عنه فكفوا، فانطلقوا به حتى دفنوه في حش كوكب.

وروى الطبري نحو ذلك، إلا أنه لم يذكر طلحة بعينه، وزاد فيه أن معاوية لما ظهر على الناس، أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البقيع، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين.

وروى المدائني في هذا الكتاب، قال: دفن عثمان بين المغرب والعتمة، ولم يشهد جنازته إلا مروان بن الحكم وابنه عثمان وثلاثة من مواليه، فرفعت ابنته صوتها تندبه، وقد جعل طلحة ناساً هناك أكرمهم كميناً، فأخذتهم الحجارة، وصاحوا: نعتل نعتل! فقالوا: الحائط الحائط! فدفن في حائط هناك.

وروى الواقدي، قال: لما قتل عثمان، تكلموا في دفنه، فقال طلحة: يدفن بدير سلع - يعني مقابر اليهود.

وذكر الطبري في تاريخه هذا، إلا أنه روى عن طلحة فقال: قال رجل: يدفن بدير سلع - فقال حكيم بن حزام: والله لا يكون هذا أبداً وأحد من ولد قصي حي حتى كاد الشر يلتحم، فقال ابن عديس البلوي: أيها الشيخ، وما يضرك أين دفن! قال: لا يدفن إلا ببقيع الغرقد، حيث دفن سلفه ورهطه، فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلاً، منهم الزبير بن العوام، فمنعهم الناس عن البقيع، فدفنوه بحش كوكب.

وروى الطبري في التاريخ أن عثمان لما حصر، كان علي رضي الله عنه بخير في أمواله، فلما قدم أرسل إليه يدعوه، فلما دخل عليه قال له: إن لي عليك حقوقاً: حق الإسلام، وحق النسب، وحق ما لي عليك من العهد والميثاق، ووالله أن لو لم

يكن من هذا كله شيء وكنا في جاهلية، لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتزهم أخو تيم ملكهم - يعني طلحة - فقال له رضي الله عنه: سيأتيك الخبر، ثم قام فدخل المسجد، فرأى أسامة بن زيد جالساً، فدعاه فاعتمد على يده، وخرج يمشي إلى طلحة، فدخل داره، وهي دحاس من الناس، فقام رضي الله عنه، فقال: يا طلحة، ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟ فقال: يا أبا حسن، أبعد ما مس الحزام الطبيين ! فانصرف علي رضي الله عنه ولم يجر إليه شيئاً حتى أتى بيت المال، فنادى: افتحوا هذا الباب، فلم يقدروا على فتحه، فقال: اكسروه، فكسر فقال: أخرجوا هذا المال، فجعلوا يخرجونه وهو يعطي الناس، وبلغ الذين في دار طلحة ما صنع علي رضي الله عنه، فجعلوا يتسللون إليه حتى بقي طلحة وحده، وبلغ الخبر عثمان، فسر بذلك، ثم أقبل طلحة يمشي عامداً إلى دار عثمان، فاستأذن عليه، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، أستغفر الله وأتوب إليه، لقد رمت أمراً حال الله بيني وبينه. فقال عثمان: إنك والله ما جئت تائباً، ولكن جئت مغلوباً، والله حسيبك يا طلحة! ثم قسم رضي الله عنه مال طلحة، فقال: لا يخلو إما أن يكون معتقداً حل دم عثمان، أو حرمة، أو يكون شاكاً في الأمرين، فإن كان يعتقد حله لم يجز له أن ينقض البيعة لنصرة إنسان حلال الدم، وإن كان يعتقد حرمة، فقد كان يجب عليه أن ينهه عنه الناس، أي يكفهم.

وأن يعذر فيه، بالتشديد أي يقصر ولم يفعل ذلك، وإن كان شاكاً، فقد كان يجب عليه أن يعتزل الأمر، ويركد جانباً، ولم يعتزل وإنما صلي بنار الفتنة، وأصلاها غيره.

فإن قلت: يمكن أن يكون طلحة اعتقد إباحة دم عثمان أولاً، ثم تبدل ذلك الاعتقاد بعد قتله، فاعتقد أن قتله حرام، وأنه يجب أن يقتص من قاتليه! قلت: لو اعترف بذلك لم يقسم علي رضي الله عنه هذا التقسيم، وإنما قسمه لبقائه على اعتقاد واحد، وهذا التقسيم مع فرض بقاءه على اعتقاد واحد صحيح لا مطعن فيه، وكذا كان حال طلحة فإنه لم ينقل عنه أنه قال!: ندمت على ما فعلت بعثمان.

فإن قلت: كيف قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: "فما فعل واحدة من الثلاث"، وقد فعل واحدة منها، لأنه وازر قاتليه حيث كان محصوراً!

قلت: مراده رضي الله عنه أنه إن كان عثمان ظالماً، وجب أن يوازر قاتليه بعد قتله، يحامي عنهم، ويمنعهم ممن يروم دماءهم، ومعلوم أنه لم يفعل ذلك، وإنما وازرهم وعثمان حي، وذلك غير داخل في التقسيم.

من خطبة له عليه السلام في ذم الغافلين

الأصل: أيها الناس غير المغفول عنهم، والتاركون، والمأخوذ منهم، مالي أراكم عن الله ذاهبين، وإلى غيره راغبين! كأنكم نعم أراح بها سائم إلى مرعى وي، ومشرب دوي، وإنما هي كالمغفولة للمدى، لا تعرف ماذا يراد بها! إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها، وشبعها أمرها.

والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. ألا وإني مفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه. والذي بعثه بالحق، واصطفاه على الخلق، ما أنطق إلا صادقاً، ولقد عهد إلي بذلك كله ومهلك من يهلك، ومنجى من ينجو، ومآل هذا الأمر، وما أبقي

شيئاً يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني، وأفضى به إلي.

أيها الناس، إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهيكم عن معصية إلا وأتأهي قبلكم عنها. الشرح: خاطب المكلفين كافة، وقال: إنهم غافلون عما يراهم ومنهم، وليسوا بمغفول عنهم، بل أعمالهم محفوظة مكتوبة.

ثم قال: والتاركون: أي يتركون الواجبات، ثم قابل ذلك بقوله: "والمأخوذ منهم"، لأن الأخذ في مقابلة الترك، ومعنى الأخذ منهم انتقاص أعمارهم، وانتقاص قواهم، واستلاب أحبابهم وأموالهم، ثم شبههم بالنعم التي تتبع نعماً أخرى. سائمة، أي راعية، وإنما قال ذلك لأنها إذا اتبعت أمثالها كان أبلغ في ضرب المثل بجهلها من الإبل التي يسميها راعيها والمرعى الوبي: ذو الوباء والمرض. والمشرّب الدوي ذو الداء، وأصل "الوبي" اللين الوبيء المهموز، ولكنه لينه، يقال: أرض وبيئة على فعيلة، ووبئة على فعلة، ويجوز أوبأت فهي موبئة. والأصل في الدوي دو بالتخفيف، ولكنه شدده للازدواج.

ثم ذكر أن هذه النعم الجاهلة التي أوقعت أنفسها في هذا المرتع والمشرّب المذمومين كالغنم وغيرها من النعم المعلوفة. المدى: جمع مدية، وهي السكين، لا تعرف ماذا يراد بها، وتظن أن ذلك العلف إحسان إليها على الحقيقة. ومعنى قوله: "تحسب يومها دهرها"، أي تظن أن ذلك العلف والإطعام كما هو حاصل لها ذلك اليوم، يكون حاصلها أبداً.

و "شبعها أمرها"، مثل ذلك، أي تظن أنه ليس أمرها وشأنها إلا أن يطعمها أربابها لتشبع وتحسن وتسمن، ليس يريدون بها غير ذلك.

ثم خرج رضي الله عنه من هذا الفن إلى فن آخر، فأقسم أنه لو شاء أن يخبر كل واحد منهم من أين خرج، وكيفية خروجه من منزله، وأين يلج، وكيفية ولوجه، وجميع شأنه من مطعمه ومشربه، وما عزم عليه من أفعاله، وما أكله، وما ادخره في بيته، وغير ذلك من شؤون وأحواله، لفعل.

وهذا كقول المسيح عليه السلام: "وانبيئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم".

قال: إلا أنا أخاف أن تكفروا في برسول الله صلى الله عليه وسلم، أي أخاف عليكم الغلو في أمري، وأن تفضلوني على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أخاف عليكم أن تدعوا في الإلهية، كما ادعت النصارى ذلك في المسيح لما أخبرهم بالأمور الغائبة.

ثم قال: "ألا وإني مفضيه إلى الخاصة" أي مفض به ومودع إياه خواص أصحابي وثقاتي الذين آمن منهم الغلو، وأعلم أنهم لا يكفرون في بالرسول صلى الله عليه وسلم لعلمهم أن ذلك من أعلام نبوته، إذ يكون تابع من أتباعه، وصاحب من أصحابه بلغ إلى هذه المنزلة الجليلة.

ثم أقسم قسمًا ثانيًا إنه ما ينطق إلا صادقاً، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد بذلك كله إليه، وأخبره بمهلك من يهلك من الصحابة وغيرهم من الناس، وبنجاة من ينجو، وبمآل هذا الأمر - يعني ما يفضي إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة - وأنه ما ترك شيئاً يمر على رأسه رضي الله عنه إلا وأخبره به وأسرّه إليه.

رأي بعض الغلاة في أمير المؤمنين

واعلم أنه غير مستحيل أن تكون بعض الأنفس مختصة بخاصية تدرك بها المغيبات، وقد تقدم من الكلام في ذلك ما فيه كفاية، ولكن لا يمكن أن تكون نفس تدرك كل المغيبات، لأن القوة المتناهية لا تحيط بأمر غير متناهية، وكل قوة في نفس حادثة فهي متناهية، فوجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه، لا على أن يريد به عموم العالمية بل يعلم أموراً محدودة من المغيبات، مما اقتضت حكمة الباري سبحانه أن يؤهله لعلمه، وكذلك القول في رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه إنما كان يعلم أموراً معدودة لا أموراً غير متناهية، ومع أنه رضي الله عنه قد كتم ما علمه حذراً من أن يكفروا فيه برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كفر كثير منهم، وادعوا فيه النبوة، وادعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة، وادعوا فيه أنه هو كان الرسول، ولكن الملك غلط فيه، وادعوا أنه هو الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس، وادعوا فيه الحلول، وادعوا فيه الاتحاد، ولم يتركوا نوعاً من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه، وقال شاعرهم فيه من أبيات:

ثموداً بدواهيته

ق طورٍ إذ يناديه

بر يوماً وهو راقيه :

فحاروا في معانيه

ومن أهلك عاداً و

ومن كلم موسى فو

ومن قال على المن

سلوني أيها الناس

وقال بعض شعرائهم:

زع أركان حصن خير جذبا

وسجدنا له إلهاً وربا

إنما خالق الخلائق من زع

قد رضينا به إماماً ومولى

أمير المؤمنين وإخباره بالأمور الغيبية

وقد ذكرنا فيما تقدم من إخباره رضي الله عنه عن الغيوب طرفاً صالحاً، ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قوله في الخطبة التي يذكر فيها الملاحم، وهو يشير إلى القرامطة: "ينتحلون لنا الحب والهوى، ويضمرون لنا البغض والقلبي، وآية ذلك قتلهم وراثنا، وهجرهم أحداثنا".

وصح ما أخبر به، لأن القرامطة قتلت من آل أبي طالب رضي الله عنه خلقاً كثيراً، وأسماؤهم مذكورة في كتاب مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني.

ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي في جيشه بالغري وبالخير، فلم يعرج على واحد منهما ولا دخل ولا وقف. وفي هذه الخطبة قال وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة: كأني بالحجر الأسود منصوباً هاهنا. ويجهم. إن فضيلته ليست في نفسه، بل في موضعه وأسسها، يمكث هاهنا برهة، ثم هاهنا برهة - وأشار إلى البحرين - ثم

يعود إلى مأواه، وأم مثواه.

ووقع الأمر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به رضي الله عنه.

وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم، فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه، ووجدت في كثير منها اختلافاً ظاهراً، وهذه المواضع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة، بل من كلام له وجدته متفرقاً في كتب مختلفة، ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه، وهو يخطب على المنبر ويقول: سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة، أو تهدي مائة إلا نباتكم بناعقها وسائقها، ولو شئت لأخبرت كل واحد منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه". فقال: فكم في رأسي طاقة شعر؟ فقال له: أما والله إني لأعلم ذلك، ولكن أين برهانه لو أخبرتك به! ولقد أخبرتك بقيامك ومقالك. وقيل لي إن على كل شعرة من شعر رأسك ملكاً يلعنك وشيطاناً يستفزك، وآية ذلك أن في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحضر على قتله.

فكان الأمر بموجب ما أخبر به رضي الله عنه، كان ابنه حصين - بالصاد المهملة - يومئذ طفلاً صغيراً يرضع اللبن، ثم عاش إلى أن صار على شرطة عبيد الله بن زياد، وأخرجته عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين رضي الله عنه ويتوعده على لسانه إن أرجأ ذلك، فقتل رضي الله عنه صبيحة اليوم الذي ورد فيه الحصين بالرسالة في ليلته. ومن ذلك قوله رضي الله عنه للبراء بن عازب يوماً: يا براء، أيقتل الحسين وأنت حي فلا تنصره! فقال البراء: لا كان ذلك يا أمير المؤمنين! فلما قتل الحسين رضي الله عنه كان البراء يذكر ذلك، ويقول: أعظم بها حسرة! إذ لم أشهده واقتل دونه!

وسنذكر من هذا النمط - فيما بعد إذا مررنا بما يقتضي ذكره - ما يحضرنا إن شاء الله.

ومن خطبة له في التحذير من متابعة الهوى .

الأصل: انتفعوا ببيان الله، واتعظوا بمواعظ الله، اقبلوا نصيحة الله، فإن الله قد أعذر إليكم بالجلية، وأخذ عليكم الحجة، وبين لكم محابه من الأعمال، ومكارهه منها، لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: إن الجنة حفت بالمكاره، وإن النار حفت بالشهوات.

واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة، فرحم الله امرءاً نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء مترعاً، وإنها لا تزال تترع إلى معصية في هوى.

واعلموا عباد الله أن المؤمن لا يمسي ولا يصبح إلا ونفسه ظنون عنده، فلا يزال زارياً عليها، ومستزيداً لها. فكونوا كالسابقين قبلكم، والماضين أمامكم، قوضوا من الدنيا تقويض الراحل، وطووها طي المنازل.

الشرح: أعذر إليكم، أوضح عذره في عقابكم إذا خالفتم أوامره. والجلية: اليقين، وإنما أعذر إليهم بذلك، لأنه مكنهم من العلم اليقيني بتوحيده وعدله، وأوجب عليهم ذلك في عقولهم، فإذا تركوه ساغ في الحكمة تعذيبهم وعقوبتهم، فكأنه قد أبان لهم عذره أن لو قالوا: لم تعاقبنا؟ ومحابه من الأعمال، هي الطاعات التي يحبها. وحبها لها إرادة وقوعها من

المكلفين. ومكافره من الأعمال: القبائح التي يكرهها منهم، وهذا الكلام حجة لأصحابنا على المجبرة. والخبر الذي رواه رضي الله عنه مروي في كتب المحدثين، وهو قول رسول الله رضي الله عنه: "حجمت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"، ومن المحدثين من يرويه: "حفت" فيهما، وليس منهم من وال وسلم. يرويه: "حجبت" في النار، وذلك لأن لفظ "الحجاب" إنما يستعمل فيما يرام دخوله وولوجه لمكان النفع فيه، ويقال: حجب زيد عن مأدبة الأمير، ولا يقال: حجب زيد عن الحبس. ثم ذكر رضي الله عنه أنه لا طاعة إلا في أمر تكرهه النفس، ولا معصية إلا بمواقعة أمر تحبه النفس، وهذا حق، لأن الإنسان ما لم يكن متردد الدواعي لا يصح التكليف، وإنما تتردد الدواعي إذا أمر بما فيه مشقة، أو نهي عما فيه لذة ومنفعة.

فإن قلت: أليس قد أمر الإنسان بالنكاح وهو لذة؟ قلت: ما فيه من ضرر الإنفاق ومعالجة أخلاق النساء يربي على اللذة الحاصلة فيه مراراً.

ثم قال رضي الله عنه: "رحم الله امرأ نزع عن شهوته"، أي أفلح، وقمع هوى نفسه، أي قهره. ثم قال: فإن هذه النفس أبعد شيء مترعاً، أي مذهباً، قال أبو ذؤيب:

وإذا ترد إلى قليل تقنع

والنفس راغبة إذا رغبتها

ومن الكلام المروي عنه رضي الله عنه - ويروى أيضاً عن غيره: "أيها الناس، إن هذه النفوس طلعة فإذا تقدعوها تترع بكم إلى شر غاية". وقال! الشاعر:

الفتى فإن أطمعت تاقط وإلا تسلت

وما النفس إلا حيث يجعلها

ثم قال رضي الله عنه: "نفس المؤمن ظنون عنده"، الظنون: البئر التي لا يدرى أفيها ماء أم لا، فالمؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا وهو على حذر من نفسه، معتقداً فيها التقصير والتضييع في الطاعة، غير قاطع على صلاحها وسلامة عاقبتها، وزارياً عليها: عائياً، زريت عليه: عبت.

ثم أمرهم بالتأسي بمن كان قبلهم، وهم الذين قوضوا من الدنيا خيامهم، أي نقضوها، وطووا أيام العمر كما يطوي المسافر منازل طريقه.

الأصل: وأعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى.

وأعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، وأستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغى والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله.

وأعلموا أنه شافع مشفع، وقائل مصدق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة: ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم. الشرح: غشه يغشه، بالضم، غشاً، خلاف نصحه. والأواء: الشدة.

وشفع له القرآن شفاعاً، بالفتح، وهو مما يغلط فيه العامة فيكسرونه، وكذلك شفعت كذا بكذا، أتبعته، مفتوح أيضاً. ومحل به إلى السلطان، قال عنه ما يضره، كأنه جعل القرآن يحل يوم القيامة عند الله يقوم، أي يقول عنهم شراً، ويشفع عند الله لقوم، أي يثني عليهم خيراً.

والحارث: المكتسب: والحارث: الكسب. وحرثة القرآن: المتاجرون به الله. واستنصحوه على أنفسكم، أي إذا أشار عليكم بأمر وأشارت عليكم أنفسكم بأمر يخالفه، فاقبلوا مشورة القرآن دون مشورة أنفسكم، وكذلك معنى قوله: "واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم".

القرآن الكريم وفضله

واعلم أن هذا الفصل من أحسن ما ورد في تعظيم القرآن وإجلاله وقد قال الناس في هذا الباب فأكثر. ومن الكلام المروي عن أمير المؤمنين رضي الله عنه في ذكر القرآن أيضاً، ما رواه ابن قتيبة في كتاب "عيون الأخبار" عنه رضي الله عنه أيضاً، وهو: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب، وطعمها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها. ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر. ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر، وريحها متنتة".

وقال الحسن رحمه الله: قراء القرآن ثلاثة: رجل اتخذه بضاعة فنقله من مصر إلى مصر، يطلب به ما عند الناس، ورجل حفظ حروفه، وضيع حدوده، واستدر به الولاة واستطال به على أهل بلاده، وقد كثر الله هذا الضرب من حملة القرآن - لا أكثرهم الله - ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن، فوضعه على داء قلبه، فسهر ليله، وانهملت عيناه، وتسربل بالخشوع، وارتدى بالحزن، فبذاك وأمثاله يسقى الناس الغيث، ويتزل النصر، ويدفع البلاء. والله لهذا الضرب من حملة القرآن أعز وأقل من الكبريت الأحمر.

وفي الحديث المرفوع: "إن من تعظيم جلال الله إكرام ذي الشبهة في الإسلام، وإكرام الإمام العادل، وإكرام حملة القرآن".

وفي الخبر المرفوع أيضاً: "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو، فإني أخاف أن يناله العدو". وكانت الصحابة تكره بيع المصاحف وتراه عظيماً، وكانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعليم القرآن أجراً. وكان ابن عباس يقول: إذا وقعت في آل حم، وقعت في روضات دمثات أتأثق فيهن. وقال ابن مسعود: لكل شيء دياحة، ودياحة القرآن آل حم.

قيل لابن عباس: أيجوز أن يحلى المصحف بالذهب والفضة؟ فقال: حليته في جوفه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أصفر البيوت جوف صفر من كتاب الله".
وقال الشعبي: "إياكم وتفسير القرآن، فإن الذي يفسره إنما يحدث عن الله".
الحسن رحمه الله: رحم الله امرأً عرض نفسه وعمله على كتاب الله، فإن وافق، حمد الله وسأله الزيادة، وإن خالف، أعتب وراجع من قريب.

حفظ عمر بن الخطاب سورة البقرة، فنحر وأطعم.
وفد غالب بن صعصعة على علي رضي الله عنه ومعه ابنه الفرزدق، فقال له: من أنت؟ فقال غالب بن صعصعة المجاشعي، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: ما فعلت إبلك؟ قال: أذهبتها النواشب، وذعدعتها الحقوق. قال: ذاك خير سبلها. ثم قال: يا أبا الأخطل: من هذا الغلام معك؟ قال: ابني وهو شاعر، قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر، فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيد نفسه، وآلى ألا يحل قيده حتى يحفظ القرآن، فما حله حتى حفظه، وذلك قوله:

وما صب رجلي في حديد مجاشع مع القد إلا حاجة لي أريدها

قلت: تحت قوله رضي الله عنه: "يا أبا الأخطل"، قبل أن يعلم أن ذلك الغلام ولده وأنه شاعر، سر غامض، ويكاد يكون إخباراً عن غيب، فليلمح.

الفضيل بن عياض: بلغني أن صاحب القرآن إذا وقف على معصية، خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية وقال: ألهذا حملتني!

قلت: وهذا القول على سبيل المثل والتخويف من مواجهة المعاصي لمن يحفظ القرآن.

أنس: قال: قال لي رسول الله رضي الله عنه: "يا بن أم سليم، لا تغفل عن قراءة القرآن صباحاً ومساءً، فإن القرآن يحيي القلب الميت، وينهي عن الفحشاء والمنكر".

كان سفيان الثوري إذا دخل شهر رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن من المصحف.
كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: مثل كتاب محمد في الكتب مثل سقاء فيه لبن، كلما مخضته استخرجت منه زبدًا.

أسلم الخواص: كنت أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، فقلت لنفسي: يا أسلم، اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءت حلاوة قليلة، فقلت: اقرأه كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام، فازدادت الحلاوة، فقلت: اقرأه كأنك تسمعه من الله عز وجل حين تكلم به، فجاءت الحلاوة كلها.

بعض أرباب القلوب: إن الناس يجمزون في قراءة القرآن ما خلا المحبين، فإن لهم خان إشارات، إذا مروا به نزلوا. يريد آيات من القرآن يقفون عندها فيفكرون فيها.

في الحديث المرفوع: "ما من شفيع، من ملك ولا نبي ولا غيرهما، أفضل من القرآن".

في الحديث المرفوع أيضاً: "من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر عظمة الله".

وجاء في بعض الآثار: إن الله تعالى خلق بعض القرآن قبل أن يخلق آدم، وقرأه على الملائكة، فقالوا: طوبى لأمة يتزل

عليها هذا! وطوبى لأجواف تحمل هذا! وطوبى لألسنة تنطق بهذا! وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد"، قيل: يا رسول الله، وما جلاؤها؟ قال: "قراءة القرآن وذكر الموت".

وعنه رضي الله عنه: "ما أذن الله لشيء أذن لني حسن الترمم بالقرآن".

وعنه رضي الله عنه: "إن ربكم لأشد أذنًا إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته".

وعنه رضي الله عنه: "أنت تقرأ القرآن ما هناك، فإذا لم ينهك فلست تقرأه".

ابن مسعود رحمه الله: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبجزئه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبخشوعه إذ الناس يخالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون سكيناً زميناً ليناً، ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا مमारياً، ولا صياحاً ولا حديداً ولا صحاباً.

بعض السلف: إن العبد ليفتح سورة فتصلي عليه حتى يفرغ منها. وإن العبد ليفتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها، قيل: كيف ذاك؟ قال: إذا أحل حلالها، وحرم حرامها، صلت عليه وإلا لعنته.

ابن مسعود: أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به.

ابن عباس: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة.

ثابت البناني: كابدت في القرآن عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة.

الأصل: العمل العمل، ثم النهاية النهاية، والاستقامة الاستقامة، ثم الصبر الصبر والورع الورع! إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم، وإن لكم علماً فاهتدوا بعلمكم، وإن للإسلام غاية فانتهاوا إلى غايته، وأخرجوا إلى الله مما افترض عليكم من حقه، وبين لكم من وظائفه، أنا شاهد لكم، وحجيج يوم القيامة عنكم. ألا وإن القدر السابق قد وقع، والقضاء الماضي قد تورّد، وإني متكلم بعدة الله وحجته، قال الله جل ذكره: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون"، وقد قلتم: "ربنا الله"، فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تمرقوا منها، ولا تبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها، فإن أهل الفروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة.

الشرح: النصب على الإغراء، وحقيقته فعل مقدر، أي الزموا العمل، وكرر الاسم لينوب أحد اللفظين عن الفعل المقدر، والأشبه أن يكون اللفظ الأول هو القائم مقام الفعل، لأنه في رتبته. أمرهم بلزوم العمل ثم أمرهم بمراعاة العاقبة والخاتمة، وعبر عنها بالنهاية، وهي آخر أحوال المكلف التي يفارق الدنيا عليها، إما مؤمناً أو كافراً، أو فاسقاً، والفعل المقدر هاهنا: راعوا وأحسنوا وأصلحوا، ونحو ذلك، ثم أمرهم بالاستقامة وأن يلزموها، وهي أداء الفرائض، ثم أمرهم بالصبر عليها وملازمتها، وبملازمة الورع، ثم شرع بعد هذا الكلام الجمل في تفصيله فقال: "إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم"، وهذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس، إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم، وإن لكم غاية فانتهاوا إلى غايتكم"، والمراد بالنهاية والغاية أن يموت الإنسان على توبة من فعل القبيح والإخلال بالواجب، ثم أمرهم بالاهتداء بالعلم المنصوب

لهم، وإنما يعني نفسه رضي الله عنه.

ثم ذكر أن للإسلام غاية، وأمرهم بالانتهاء إليها، وهي أداء الواجبات، واجتناب المقبحات، ثم أوضح ذلك بقوله: "واخرجوا إلى الله مما افترض عليكم من حقه، وبين لكم من وظائفه"، فكشف بهذا الكلام معنى الغاية التي أجمعها أولاً. ثم ذكر أنه شاهد لهم، ومحتاج يوم القيامة عنهم، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: "يوم ندعو كل أناس بإمامهم".

وحجيج: فعيل بمعنى فاعل، وإنما سمي نفسه حجيجاً عنهم، وإن لم يكن ذلك الموقف موقف محاسبة، لأنه إذا شهد لهم، فكأنه أثبت لهم الحجة، فصار محاجاً عنهم.

قوله رضي الله عنه: "ألا وإن القدر السابق قد وقع"، يشير به إلى خلافته.

وهذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويغ بعد قتل عثمان، وفي هذا إشارة إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبره أن الأمر سيفضي إليه منتهى عمره، وعند انقضاء أجله.

ثم أخبرهم أنه سيتكلم بوعده الله تعالى ومحجته على عباده في قوله: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا... الآية"، ومعنى الآية أن الله تعالى وعد الذين أقروا بالربوبية، ولم يقتصروا على الإقرار، بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى، ولفتة ثم للتراخي، والاستقامة مفضلة على الإقرار باللسان، لأن الشأن كله في الاستقامة، ونحوها قوله تعالى: "إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا"، أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، والاستقامة هاهنا، هي الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية. وقد اختلف فيه قول أمير المؤمنين رضي الله عنه وأبي بكر، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه: أدوا الفرائض، وقال أبو بكر: استمروا على التوحيد.

وروي أن أبا بكر تلاها، وقال: ما تقولون فيها؟ فقالوا: لم يذنبوا، فقال: حملتم الأمر على أشده، فقالوا: قل، قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. ورأي أبي بكر في هذا الموضع - إن ثبت عنه - يؤكد مذهب الإرجاء، وقول أمير المؤمنين رضي الله عنه يؤكد مذهب أصحابنا.

وروي سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت يا رسول الله، أخبرني بأمر أعتصم به، فقال: قل: لا إله إلا الله، ثم استقم، فقلت: ما أخوف ما تخافه علي؟ فقال: هذا، وأخذ بلسان نفسه صلى الله عليه وسلم. وتتزل عليهم الملائكة، عند الموت، أو في القبر، أو عند النشور.

وأن لا تخافوا، "أن" بمعنى "أي"، أو تكون خفيفة من الثقلية، وأصله "أنه لا تخافوا" والهاء ضمير الشأن.

وقد فسر أمير المؤمنين الاستقامة المشترطة في الآية، فقال: قد أقررتم بأن الله ربكم فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته.

لا تترقوا منها، مرق السهم، إذا خرج من الرمية مروقاً، ولا تبتدعوا: لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة، ولا تخالفوا عنها، تقول: خالفت عن الطريق، أي عدلت عنها.

قال: فإن أهل المروق منقطع بهم، بفتح الطاء، انقطع يزيد بضم الهمزة، فهو منقطع به، إذا لم يجد بلاغاً ووصولاً إلى المقصد.

الأصل: ثم إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها، واجعلوا اللسان واحداً، وليخزن الرجل لسانه، فإن هذا اللسان جموح بصاحبه، والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يحتزن لسانه، وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه، وإن كان شراً واره، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له، وماذا عليه. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، فمن استطاع منكم أن يلقي الله سبحانه، وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم، فليفعل.

الشرح: تهزيع الأخلاق: تغييرها، وأصل الهزيع: الكسر، أسد مهزج: يكسر الأعناق ويرض العظام، ولما كان المتصرف بخلقه، الناقل له من حال قد أعدم سمته الأولى كما يعدم الكاسر صورة المكسور، اشتركا في مسمى شامل لهما، فاستعمل التهزيع في الخلق للتغيير والتبديل مجازاً.

قوله: "واجعلوا اللسان واحداً"، نهي عن النفاق واستعمال الوجهين.

قال: "ول يخزن الرجل لسانه"، أي ليحبسه، فإن اللسان يجمع بصاحبه فيلقيه في الهلكة.

ثم ذكر أنه لا يرى التقوى نافعة إلا مع حبس اللسان، قال: فإن لسان المؤمن وراء قلبه، وقلب الأحق وراء لسانه، وشرح ذلك وبينه.

فإن قلت: المسموع المعروف: "السان العاقل من وراء قلبه، وقلب الأحق وراء لسانه"، كيف نقله إلى المؤمن والمنافق؟ قلت: لأنه قل أن يكون المنافق إلا أحق، وقل أن يكون العاقل إلا مؤمناً فلاكثرية ذلك، استعمل لفظ "المؤمن"، وأراد العاقل، ولفظ "المنافق" وأراد الأحق.

ثم روى الخبر المذكور عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشهور.

ثم أمرهم بالاجتهاد في أن يلقوا الله تعالى وكل منهم نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، فسلامتهم من لسانه سلامته أعراضهم، وسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم، وانتصاب "تهزيع" على التحذير، وحقيقته تقدير فعل، وصورته: جنبوا أنفسكم تهزيع الأخلاق، ف "إياكم" قائم مقام أنفسكم، والواو عوض عن الفعل المقدر، وأكثر ما يجيء بالواو، وقد جاء بغير واو في قول الشاعر:

إياك إياك المراء فإنه

إلى الشر دعاء وللشر جالب

وكان يقال: ينبغي للعاقل أن يتمسك بست خصال، فإنها من المروءة: أن يحفظ دينه، ويصون عرضه، ويصل رحمه، ويحمي جاره، ويرعى حقوق إخوانه، ويخزن عن البذاء لسانه.

وفي الخبر المرفوع: "من كفي شر قبحه وذبحه، ولقلقه، دخل الجنة". فالقبح البطن: والذبح: الفرج، والقلق: اللسان.

وقال بعض الحكماء: من علم أن لسانه جارحة من جوارحه أقل من اعتماها، واستقبح تحريكها، كما يستقبح تحريك

رأسه أو منكبه دائماً.

الأصل: وأعلموا عباد الله أن المؤمن يستحل العام ما أستحل عاماً أول، وتحرم العام ما حرم عاماً أول، وأن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئاً مما حرم عليكم، ولكن الحلال ما أحل الله، والحرام ما حرم الله، فقد جريتم الأمور وضرستموها، ووعظتم بمن كان قبلكم، وضربت الأمثال لكم، ودعيتكم إلى الأمر الواضح فلا يصم عن ذلك إلا أصم، ولا يعمى عنه إلا أعمى.

ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب، لم ينتفع بشيء من العظة، وأتاه التقصير من أمامه، حتى يعرف ما أنكر، وينكر ما عرف، فإن الناس رجالان: متبع شرعة، ومبتدع بدعة، ليس معه من الله سبحانه برهان سنة، ولا ضياء حجة. الشرح: يقول: إن الأحكام الشرعية لا يجوز بعد ثبوت الأدلة عليها من طريق النص أن تنقض باجتهاد وقياس، بل كل ما ورد به النص تتبع مورد النص فيه، فما استحللته عاماً أول، فهو في هذا العام حلال لك، وكذلك القول في التحريم، وهذا هو مذهب أكثر أصحابنا، أن النص مقدم على القياس، وقد ذكرناه لا كتبتنا في أصول الفقه. وأول هاهنا، لا ينصرف، لأنه صفة على وزن "أفعل".

وقال: "إن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئاً مما حرم عليكم"، أي ما أحدثوه من القياس والاجتهاد، وليس هذا بقادح في القياس، ولكنه مانع من تقديمه على النص، وهكذا يقول أصحابنا.

قوله: "وضرستموها" بالتشديد أي أحكمتموها تجربة وممارسة، يقال: قد ضرسته الحرب، ورجل مضرس.

قوله: "فلا يصم عن ذلك إلا أصم" أي لا يصم عنه إلا من هو حقيق أن يقال عنه: إنه أصم، كما تقول: ما يجهل هذا الأمر إلا جاهل، أي بالغ في الجهل.

ثم قال: "من لم ينفعه الله بالبلاء" أي بالامتحان والتجربة، لم تنفعه المواعظ، وجاءه النقص من بين يديه حتى يتخيل فيما أنكره أنه قد عرفه، وينكر ما قد كان عارفاً به. وسمي اعتقاد العرفان وتخيله "عرفاناً" على المجاز.

ثم قسم الناس إلى رجلين: إما متبع طريقة ومنهاجاً، أو مبتدع ما لا يعرف، وليس بيده حجة، فالأول الحق والثاني المبتطل، والشرعة: المنهاج. والبرهان: الحجة.

الأصل: فإن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينايع العلم، وما للقلب جلاء غيره، مع أنه قد ذهب المتذكرون، وبقي الناسون أو المتناسون، فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه، وإذا رأيتم شراً فاذهبوا عنه، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: يابن آدم، أعمل الخير، ودع الشر، فإذا أنت جواد قاصد.

الشرح: إنما جعله حبل الله، لأن الحبل ينجو من تعلق به من هوة، والقرآن ينجو من الضلال من يتعلق به. وجعله متيناً، أي قوياً، لأنه لا انقطاع له أبداً، وهذه غاية المتانة والقوة.

ومتن الشيء، بالضم، أي صلب وقوي. وسببه الأمين، مثل حبله المتين، وإنما خالف بين اللفظتين على قاعدة الخطابة، وفيه ربيع القلب، لأن القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برعي الربيع، وينايع العلم، لأن العلم منه يتفرع كما يخرج الماء من

الينبوع ويتفرع إلى الجداول. والجلاء، بالكسر: مصدر جلوت السيف، يقول: لا جلاء لصدأ القلوب من الشبهات والغفلات إلا القرآن.

ثم قال: إن المتذكرين قد ذهبوا وماتوا، وبقي الناسون الذين لا علوم لهم، أو المتناسون الذين عندهم العلوم، ويتكلفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم وروي: المتناسون بالواو.

ثم قال: أعينوا على الخير إذا رأيتموه، بتحسينه عند فاعله، وبدفع الأمور المانعة عنه، وبتسهيل أسبابه وتسنية سبله، وإذا رأيتم الشر فادهبوا عنه، ولا تقاربوه ولا تقيموا أنفسكم في مقام الراضي به، الموافق على فعله، ثم روى لهم الخبر. والجواد القاصد: السهل السير، لا سريع يتعب بسرعته، ولا بطيء يفوت الغرض ببطئه.

الأصل: ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر، فالشرك بالله، قال الله سبحانه: "إن الله لا يغفر أن يشرك به".

وأما الظلم الذي يغفر، فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات.

وأما الظلم الذي لا يترك، فظلم العباد بعضهم بعضاً.

القصاص هناك شديد، ليس هو جرحاً بالمدى، ولا ضرباً بالسياط، ولكنه ما يستصغر ذلك معه، فإياكم والتلون في دين الله، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق، خير من فرقة فيما تحبون من الباطل، وإن الله سبحانه لم يعط أحداً بفرقة خيراً ممن مضى، ولا ممن بقي.

يا أيها الناس، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس! وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعة ربه، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة! الشرح: قسم رضي الله عنه الظلم ثلاثة أقسام: أحدها: ظلم لا يغفر، وهو الشرك بالله، أي أن يموت الإنسان مصراً على الشرك، ويجب عند أصحابنا أن يكون أراد الكبائر، وإن لم يذكرها، لأن حكمها حكم الشرك عندهم.

وثانيها: الهنات المغفورة، وهي صغائر الذنوب، هكذا يفسر أصحابنا كلامه رضي الله عنه.

وثالثها: ما يتعلق بحقوق البشر بعضهم على بعض، فإن ذلك لا يتركه الله هماً، بل لا بد من عقاب فاعله، وإنما أفرد هذا القسم مع دخوله في القسم الأول لتمييزه بكونه متعلقاً بحقوق بني آدم بعضهم على بعض، وليس الأول كذلك.

فإن قلت: لفظه رضي الله عنه مطابق للآية، وهي قوله تعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" والآية ولفظه رضي الله عنه صريحان في مذهب المرجئة، لأنكم إذا فسرتم قوله: "لمن يشاء" بأن المراد به أرباب التوبة قيل لكم: فالمشركون هكذا حالهم يقبل الله توبتهم، ويسقط عقاب شركهم بها، فلاي معنى خصص المشيئة بالقسم الثاني وهو ما دون الشرك! وهل هذا إلا تصريح بأن الشرك لا يغفر لمن مات عليه، وما دونه من المعاصي إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب، ولا لغيره بل أمره إلى الله! قلت: الأصوب في هذا الموضع ألا يجعل قوله: "لمن يشاء" معنياً به التائبون، بل نقول: المراد أن الله لا يستر في موقف القيامة من مات مشركاً، بل يفضحه على رؤوس الأشهاد كما قال تعالى: "ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم".

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

وأما من مات على كبيرة من أهل الإسلام، فإن الله تعالى يستره في الموقف، ولا يفضحه بين الخلائق، وإن كان من أهل النار، ويكون معنى المغفرة في هذه الآية الستر وتغطية حال العاصي في موقف الحشر، وقد يكون من أهل الكبائر ممن يقر بالإسلام لعظيم كبائره جداً، فيفضحه الله تعالى في الموقف كما يفضح المشرك، فهذا معنى قوله: "ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء".

فأما الكلام المطول في تأويلات هذه الآية فمذكور في كتبنا الكلامية.

واعلم أنه لا تعلق للمرجئة ولا جدوى عليهم من عموم لفظ الآية، لأنهم قد وافقونا على أن الفلسفي غير مغفور له وليس بمشرك، فإذا أراد بقوله تعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به" ومن جرى مجرى المشركين قيل لهم: ونحن نقول: إن الزاني والقاتل يجريان مجرى المشركين كما أجريتم الفلاسفة مجرى المشركين، فلا تنكروا علينا ما لم تنكروه على أنفسكم. ثم ذكر رضي الله عنه أن القصاص في الآخرة شديد، ليس كما يعهده الناس من عقاب الدنيا الذي هو ضرب السوط، وغايته أن يذوق الإنسان طعم الحديد، وهو معنى قوله: "جرحاً بالمدى"، جمع مدية وهي السكين، بل هو شيء آخر عظيم لا يعبر النطق عن كنهه وشدة نكاله وألمه.

في عذاب جهنم

قال الأوزاعي في مواعظه للمنصور: "روي لي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأحرق أهل الأرض قاطبة، فكيف بمن يتقمصه! ولو أن ذنباً من حميم جهنم صب على ماء الأرض كله لأجنه حتى لا يستطيع مخلوق شربه، فكيف بمن يتجرعه! ولو أن حلقة من سلاسل النار وضعت على جبل لذاب كما يذوب الرصاص، فكيف بمن يسلك فيها، ويرد فضلها على عاتقه!" وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وأخرج إليهم رجل من النار فتنفس وأصابهم نفسه لأحرق المسجد ومن فيه".

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: مالي لا أرى ميكائيل ضاحكاً! قال: إن ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النار ورآها.

وعنه صلى الله عليه وسلم: "لما أسري بي سمعت هدة، فسألت جبريل عنها، فقال: حجر أرسله الله من شفيع جهنم، فهو يهوي منذ سبعين خريفاً حتى بلغ الآن فيه".

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون". قال: "تتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تقرب سرتة وروى عبيد بن عمير الليثي عنه رضي الله عنه: "التفرن جهنم زفرة لا يبقى ملك ولا نبي إلا خر مرتعدة فرائضه، حتى إن إبراهيم الخليل، ليحثو على ركبتيه، فيقول: يا رب إني لا أسألك إلا نفسي".

أبو سعيد الخدري مرفوعاً: "لو ضربت جبال الدنيا بمقمع من تلك المقامع الحديد لصارت غباراً".

الحسن البصري: قال: الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الرب، ولكن إذا أصابهم اللهب أرسبتهم في

النار- ثم خر الحسن صعقاً، وقال- ودموعه تتحادر: يابن آدم، نفسك نفسك! فإنما هي نفس واحدة إن نجت نجات، وإن هلك لم ينفعك من نجا.

طاوس: أيها الناس، إن النار لما خلقت طارت أفئدة الملائكة، فلما خلقت سكنت. مطرف بن الشخير: إنكم لتذكرون الجنة، وإن ذكر النار قد حال بيني وبين أن أسأل الله الجنة.

منصور بن عمار: يا من البعوضة تقلقه، والبقة تسهره، أمثلك يقوى على وهج السعير، أو تطبيق صفحة خده لفح سمومها، ورقة أحشائه خشونة ضريعها، ورطوبة كبده تجرع غساقها!. قيل لعطاء السلمي: أيسرك أن يقال لك، قع في جهنم فتحرق فتذهب فلا تبعث أبداً لا إليها ولا إلى غيرها؟ فقال: والله الذي لا إله إلا هو، لو سمعت أن يقال لي، لظننت أني أموت فرحاً قبل أن يقال لي ذلك. الحسن: والله ما يقدر العباد قدر حرها، رويننا: لو أن رجلاً كان بالشرق، وجهنم بالمغرب، ثم كشف عن غطاء واحد منها لغلت حجمته، ولو أن دلوا من صديدها صب في الأرض ما بقي على وجهها شيء فيه روح إلا مات. كان الأحنف يصلي صلاة الليل، وبضع المصباح قريباً منه، فيضع أصبعه عليه، ويقول: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا! حتى يصبح.

في الاجتماع والعزلة

ثم نهاهم رضي الله عنه عن التفرق في دين الله، وهو الاختلاف والفرقة، ثم أمرهم باجتماع الكلمة، وقال: إن الجماعة في الحق المكروه إليكم، خير لكم من الفرقة في الباطل المحبوب عندكم، فإن الله لم يعط أحداً خيراً بالفرقة، لا ممن مضى، ولا ممن بقي.

وقد تقدم ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر بلزوم الجماعة، والنهي عن الاختلاف والفرقة، ثم أمر رضي الله عنه بالعزلة، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة، ومجانبة الناس ومتاركتهم واشتغال الإنسان بعبادته عن عيوبهم.

وقد ورد في العزلة أخبار آثار كثيرة، واختلف الناس قديماً وحديثاً فيها، ففضلها قوم على المخالطة، وفضل قوم المخالطة عليها.

فممن فضل العزلة سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل بن عياض، وسليمان الخواص، ويوسف بن أسباط، وبشر الحافي، وحذيفة المرعشي، وجمع كثير من الصوفية، وهو مذهب أكثر العارفين، وقول المتألهين من الفلاسفة.

وممن فضل المخالطة على العزلة ابن المسيب، والشعبي، وابن أبي ليلى، وهشام بن عروة، وابن شبرمة، والقاضي شريح، وشريك بن عبد الله، وابن عيينة، وابن المبارك.

فأما كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه فيقتضي عند إمعان النظر فيه أن العزلة خير لقوم، وأن المخالطة خير لقوم آخرين

على حسب أحوال الناس واختلافهم.

وقد احتج أرباب المخالطة بقول الله تعالى: "فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً"، ويقول: "ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا" وهذا ضعيف، لأن المراد بالآية تفرق الآراء واختلاف المذاهب في أصول الدين، والمراد بتأليف القلوب وبالأخوة عدم الإحن والأحقاد بينهم، بعد استعار نارها في الجاهلية، وهذا أمر خارج عن حديث العزلة. واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يآلف ولا يؤلف"، وهذا أيضاً ضعيف، لأن المراد منه ذم سوء الخلق والأمر بالرفق والبشر، فلا يدخل تحته الإنسان الحسن الخلق الذي لو خولط لألف وألف، وإنما يمنعه من المخالطة طلب السلامة من الناس.

واحتجوا بقوله: "من شق عصا المسلمين فقد خلع ربة الإسلام عن عنقه"، وهذا ضعيف أيضاً لأنه يحتمى بالبغاة والمارقين عن طاعة الإمام، فلا يتناول أهل العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة، إلا أنهم لا يخالطون الناس. واحتجوا بنهيهم رضي الله عنه عن هجر الإنسان أخاه فوق ثلاث، وهذا ضعيف لأن المراد منه النهي عن الغضب، واللجاج، وقطع الكلام والسلام لثوران الغيظ، فهذا أمر خارج عن الباب الذي نحن فيه. واحتجوا بأن رجلاً أتى جبلاً يعمد فيه، فجاء أهله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه، وقال له: "إن صبر المسلم في بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خير له من عبادة أربعين سنة".

وهذا ضعيف، لأنه إنما كان ذلك في ابتداء الإسلام والحث على جهاد المشركين. واحتجوا بما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الشیطان ذئب، والناس كالغنم يأخذ القاصية والشاذة، إياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد". وهذا ضعيف لأن المراد به من اعتزل الجماعة وخالفها. واحتج من رجع العزلة وآثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة في ذلك، نحو قول عمر: خذوا بحظكم من العزلة. وقول ابن سيرين: العزلة عبادة.

وقول الفضيل: كفى بالله محبوباً، وبالقرآن مؤنساً، وبالموت واعظاً، اتخذ الله صاحباً، ودع الناس جانباً.

وقال ابن الربيع الزاهد لداود الطائي: عظمي، فقال: صم عن الدنيا واجعل فطرك للآخرة، وفر من الناس فرارك من الأسد.

وقال الحسن: كلمات أحفظهن من التوراة: قنع ابن آدم فاستغنى، واعتزل الناس فسلم، ترك الشهوات فصار حراً، ترك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلاً فتمتع طويلاً.

وقال وهب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها الصمت، والعاشر في العزلة عن الناس.

وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار: ما أصبرك على الوحدة! وكان قد لزم البيت - فقال: كنت وأنا شاب أصبر على أشد من هذا، كنت أجالس الناس ولا أكلهم.

وقال الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت.

وقال بعضهم: كنت في سفينة، ومعنا شاب علوي، فمكث معنا سبعة لا نسمع له كلاماً، فقلنا له: قد جمعنا الله وإياك منذ سبع، ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا! فأنشد:

وليس بخائف أمراً يفوت

قليل الهم لا ولد يموت

فغايبته التفرد والسكوت

قضى وطر الصبا وأفاد علماً

تتاجز من ترى خلق وقوت

وأكبر همه مما عليه

قال النخعي لصاحب له: تفقه ثم اعتزل.

وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز، ويعود المرضى ويعطي الإخوان حقوقهم، ثم ترك واحداً واحداً من ذلك، إلى أن ترك الجميع. وقال: ليس يتهياً للإنسان أن يخبر بكل عذر له.

وقيل لعمر بن عبد العزيز: لو تفرغت لنا! فقال: ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى.

وقال الفضيل بن عياض: إني لأجد للرجل عندي يداً، إذا لقيني ألا يسلم علي، وإذا مرضت ألا يعودني.

وقال الداراني: بينا ابن خيثم جالس على باب داره، إذ جاء حجر فصك وجهه، فسجد، وجعل يمسح الدم، ويقول: لقد وعظت يا ربيع! ثم قام فدخل الدار، فما جلس بعد ذلك على بابه حتى مات.

وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد قد لزموا بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتیان المدينة لا لحاجة لهما ولا لغيرهما، حتى ماتا بالعقيق.

قال بشر: أقلل من معرفة الناس، فإنك لا تدري ما تكون يوم القيامة! فإن تكن فضيحة كان من يعرفك أقل.

وأحضر بعض الأمراء حاتماً الأصم فكلمه، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، ألا تراني ولا أراك! وقيل للفضيل: إن ابنك يقول: لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يرونني! فبكى الفضيل: وقال: يا ويح علي، ألا أتمها فقال: ولا أراهم! ومن كلام الفضيل أيضاً: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه.

وقد جاء في الأحاديث المرفوعة ذكر العزلة وفضلها: نحو قوله رضي الله عنه لعبد الله بن عامر الجهني، لما سأله عن طريق النجاة، فقال له: "ليسعك بيتك، أمسك عليك دينك، وابك على خطيئتك".

وقيل له صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ فقال: "رجل معتزل في شعب من الشعاب، يعبد ربه، ويدع الناس من شره".

وقال رضي الله عنه: "إن الله يحب التقى النقي الخفي".

في فوائد العزلة

وفي العزلة فوائد: منها الفراغ للعبادة، والذكر والإستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخلق، فيتفرغ لاستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملوكوت السموات والأرض، لأن ذلك لا يمكن إلا بفراغ، ولا فراغ مع المخالطة، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء، ويعتزل فيه، حتى أتته النبوة.

قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة والعزلة؟ فقال: دوام الفكر وثبات العلوم في قلوبهم، وليحيوا حياة طيبة ويموتوا موتاً طيباً.

وقيل لبعضهم: ما أصبرك على الوحدة؟ فقال: لست وحدي، أنا جليس ربي، إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صليت.

وقال سفيان بن عيينة: لقيت إبراهيم بن أدهم في بلاد الشام، فقلت له: يا إبراهيم، تركت خراسان! فقال: ما تهنأت بالعيش إلا هاهنا، أفر بديني من شاهق إلى شاهق، فمن رأيي قال: موسوس أو حمال.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد، هاهنا رجل لم نره قط جالساً إلا وحده خلف سارية، فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني، فنظروا إليه ذات يوم، فقالوا للحسن - وأشاروا إليه، فمضى نحوه، وقال له: يا عبد الله، لقد حببت إليك العزلة، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: أمر شغلي عنهم، قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن، فتجلس إليه؟ قال: أمر شغلي عن الناس وعن الحسن، قال: وما ذلك الشغل يرحمك الله؟ قال: إني أمسي وأصبح بين نعمة وذنب، فأشغل نفسي بشكر الله على نعمه، والاستغفار من الذنب، فقال الحسن: أنت أفقه عندي يا عبد الله من الحسن، فالزم ما أنت عليه.

وجاء هرم بن حيان إلى أويس، فقال له: ما حاجتك؟ قال: جئت لآنس بك، قال: ما كنت أعرف أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره! وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت به، وقلت: أحلو بري، وإذا رأيت الصبح أدركني، استرجعت كراهية لقاء الناس، وأن يجيء إلي من يشغلي عن ربي.

وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد قل علمه، وعمي قلبه، وضاع عمره. وقال بعض الصالحين: بينا أنا أسير في بعض بلاد الشام، إذا أنا بعباد خارج من بعض تلك الجبال، فلما نظر إلي تنحى إلى أصل شجرة، وتستر بها: فقلت: سبحان الله! أتبخل علي بالنظر إليك؟ فقال: يا هذا، إني أقمت في هذا الجبل دهرًا طويلاً، أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها، فطال في ذلك تعبي، وفي عمري، ثم سألت الله تعالى ألا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي فقط، فسكنه الله عن الاضطراب، وآلفه الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك وتريدني خفت أن أقع في الأمر الأول فأعود إلى إلف المخلوقين، فإليك عني فإني أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب التائبين. ثم صاح: واغماء من طول المكث في الدنيا! ثم حول وجهه عني، ثم نفص يده، وقال: إليك عني يا دنيا، لغيري فتريني، وأهلك فغري! ثم قال: سبحان من أذاق العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهم قلوبهم عن ذكر الجنان، والخور الحسان، فإني في الخلوة آنس بذكر الله، وأستلذ بالانقطاع إلى الله، ثم أنشد:

لعل خيالاً منك يلقي خيالها

أحدث عنك النفس في السر خاليا

وإني لأستغشي وما بي نعسة

وأخرج من البيوت لعلني

وقال بعض العلماء: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة، فيتكثر حينئذ بملاقاة الناس، ويطرده الوحشة عن نفسه بهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة، وكان يقال: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

ومنها التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة، وهي الغيبة والرياء، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسرقة الطبع بعض الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من الغير.

أما الغيبة فإن التحرز منها مع مخالطة الناس صعب شديد لا ينجو من ذلك إلا الصديقون، فإن عادة أكثر الناس التمضمض بأعراض من يعرفونه، والتنقل بلذة ذلك، فهي أنسهم الذي يستريحون إليه في الجلوة والمفاوضة، فإن خالطتهم ووافقت أئمت، وإن سكت كنت شريكاً، فالمستمع أحد المعتابين، وإن أنكرت تركوا ذلك المغتاب واغتابوك، فازدادوا إثم على إثمهم.

فأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من خالط الناس لا يخلو عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عمى الله، وإن أنكرت تعرض بأنواع من الضرر، وفي العزلة خلاص عن ذلك، وفي الأمر بالمعروف إثارة للخصام، وتحريك لكوامن ما في الصدور. وقال الشاعر:

وكم سقت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد الظنة المنتصح

ومن تجرد للأمر بالمعروف ندم عليه في الأكثر، كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه وحده، فيوشك أن يقع عليه، فإذا سقط قال: يا ليتني تركته مائلاً! نعم لو وجد الأعوان حتى يحكم ذلك الحائط ويدعمه استقام، ولكنك لا تجد القوم أعواناً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدع الناس وانج بنفسك.

وأما الرياء فلا شبهة أن من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم كان منافقاً، وأنت تعلم أنك إذا خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتهم كنت من شرار الناس، وصرت ذا وجهين، وأقل ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه، وليس يخلو ذلك عن كذب، إما في الأصل وإما في الزيادة بإظهار الشفق بالسؤال عن الأحوال، فقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب عن همومه، نفاق محض.

قال السري السقطي: لو دخل علي أخ فسويت لحيتي بيدي بدخوله، خشيت أن اكتب في جريدة المنافقين. كان الفضيل جالساً وحده في المسجد، فجاء إليه أخ له، فقال: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة، قال: هي والله بالمواحشة أشبه، هل تريد إلا أن تتزين لي وأتزين لك، وتكذب لي وأكذب لك! إما أن تقوم عني، وإما أن أقوم عنك. وقال بعض العلماء: ما أحب الله عبداً إلا أحب ألا يشعر به خلقه.

ودخل طاوس على هشام بن عبد الملك، فقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب، وقال: لم لم تخاطبني بإمرة المؤمنين؟ قال: لأن جميع الناس ما اتفقوا على خلافتك، فخشيت أن أكون كاذباً.

فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز، فليخالط الناس، وإلا فليبرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين إن خالطهم، ولا نجاة من ذلك إلا بالعزلة.

وأما سرقة الطبع من الغير، فالتجربة تشهد بذلك، لأن من خالط الأشرار اكتسب من شرهم، وكلما طالت صحبة الإنسان لأصحاب الكبائر، هانت الكبائر عنده وفي المثل: "إن القرين بالمقارن يقتدي".

ومنها الخلاص من الفتن والحروب بين الملوك والأمراء على الدنيا.

روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنيمة يتبع بها شعاف الجبال، ومواضع القطر، يفر بدينه من الفتن".

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال: "إذا رأيت الناس قد مرحت عهودهم، وخفت أمانتهم، وكانوا هكذا- وشبك بأصابعه- فقلت ما تأمرني؟ فقال: "الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة".

وروى ابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، كالثعلب الرواغ" قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: "إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي الله سبحانه، فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فان لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده، وإن لم يكن فعلى يد قرابته"، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: "يعيرونه بالفقر وضيق اليد، فيكلفونه ما لا يطيقه حتى يورده ذلك موارد الهلكة. وروى ابن مسعود أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم ذكر الفتنة، فقال: "الهرج" فقلت: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: "حين لا يأمن المرء جليسه"، قلت: فبم تأمرني يا رسول الله، إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: "كف نفسك ويدك، وادخل دارك أ، قلت: رأيت إن دخل علي داري! قال: "ادخل بيتك"، قلت: إن دخل علي البيت، قال: "ادخل مسجدك، واصنع هكذا- وقبض على الكوع- وقل: ربي الله، حتى تموت".

ومنها الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك تارة بالغيبة، وتارة بسوء الظن والتهمة وتارة بالافتراحت والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة والكذب مما يروونه منك من الأعمال والأقوال مما لا تبلغ عقولهم كنهه، فيدخرون ذلك في نفوسهم عدة، لوقت ينتهزون فيه فرصة الشر، ومن يعتزلهم يستغن عن التحفظ لذلك. وقال بعض الحكماء لصاحبه: أعلمك شعراً هو خير لك من عشرة آلاف درهم! وهو:

والنفت بالنهار قبل المقال

بقبيح يكون أو بجمال

اخفض الصوت إن نطقت بليل

ليس للقول رجعة حين يبدو

ومن خالط الناس لا ينفك من حاسد وطاعن، ومن جرب ذلك عرف.

ومن الكلام المأثور عن علي رضي الله عنه: "أخبر تقله" قال الشاعر:

ثم بلاهم ذم من يحمد

يوحشه الأقرب والأبعد

من حمد الناس ولم يبلهم

وصار بالوحدة مستأنساً

وقيل لسعد بن أبي وقاص: ألا تأتي المدينة؟ قال: ما بقي فيها إلا حاسد نعمة، أو فرح بنقمة.

وقال ابن السماك: كتب إلينا صاحب لنا: أما بعد، فإن الناس كانوا دواء يتداوى به، فصاروا داء لا دواء لهم، ففر منهم فرارك من الأسد.

وكان بعض الأعراب يلزم شجرة ويقول: هذه نديمي، وهو نديم فيه ثلاثة خصال: إن سمع لم ينم في، وإن تغلت في وجهه احتمل، وإن عربدت عليه لم يغضب- فسمع الرشيد هذا الخبر، فقال: قد زهدي سماعه في الندماء. وكان بعضهم يلزم الدفاتر والمقابر، فقليل له في ذلك، قال: لم أر أسلم من الوحدة ولا أوعظ من قبر، ولا أمتع من دفتر. وقال الحسن مرة: إني أريد الحج، فجاء إلي ثابت البناني، وقال: بلغني أنك تريد الحج، فأحببت أن نصطحب، فقال الحسن: دعنا نتعاشر بستر الله، إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما تتماقت عليه. وقال بعض الصالحين: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فالناس اليوم شوك لا ورق فيه.

وقال سفيان بن عيينة: قال لي سفيان الثوري، في اليقظة في حياته، وفي المنام بعد وفاته: أقلل معرفة الناس، فإن التخلص منهم شديد. ولا أحسبني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت.

وقال بعضهم: جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده وعنده كلب رابض قريباً منه، فذهبت أطرده فقال: دعه فإنه لا يضر ولا يؤذي، وهو خير من الجليس السوء.

وقال أبو الدرداء: اتقوا الله واحذروا الناس، فإنهم ما ركبوا ظهر بغير إلا أدبروه ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا أخربوه.

وقال بعضهم: أقلل المعارف، فإنه أسلم لدينك وقلبك وأخف لظهرك، وأدعى إلى سقوط الحقوق عنك، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق، وعسر القيام بالجميع.

وقال بعضهم: إذا أردت النجاة فأنكر من تعرف، ولا تتعرف إلى من لا تعرف.

ومنها: إن في العزلة بقاء الستر على المروءة والخلق والفقر وسائر العورات، وقد مدح الله تعالى المستترين فقال: "يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف".

وقال الشاعر:

ولا عار أن زالت عن الحر نعمة ولكن عاراً أن يزول التجميل

وليس يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأفعاله عن عورات يتقين ويجب سترها، ولا تبقى السلامة مع انكشافها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بترك المخالطة.

ومنها أن ينقطع طمع الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس، أما انقطاع طمع الناس عنك ففيه نفع عظيم، فإن رضا الخلق غاية لا تدرك، لأن أهون حقوق الناس وأيسرها حضور الجنابة، وعيادة المريض وحضور الولائم، والإملاكات، وفي ذلك تضييع الأوقات، والتعرض للآفات، ثم يعوق عن بعضها العوائق، وتستثقل فيها المعاذير، ولا يمكن إظهار كل

الأعذار فيقول لك قائل: إنك قمت بحق فلان، وقصرت في حقي ويصير ذلك سبب عداوة، فقد قيل: إن من لم يعد مريضاً في وقت العيادة، يشتهي موته خيفة من تحجيلة إياه إذا برئ من تقصيره، فأما من يعم الناس كلهم بالحرمان فإنهم يرضون كلهم عنه، ومتى خصص وقع الاستيحاش والعتاب، وتعميمهم بالقيام بجميع الحقوق، مما لا قدرة عليه للمتجرد ليله ونهاره، فكيف من له مهم يشغله ديني أو دنيوي! ومن كلام بعضهم: كثرة الأصدقاء زيادة الغرماء، وقال الشاعر:

عدوك من صديقك مستفاد

فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه

يكون من الطعام أو الشراب

وأما انقطاع طمعك عنهم، ففيه أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزخرفها، تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، وأكثر الأطماع يتعقبها الخيبة، فيتأذى الإنسان بذلك، وإذا اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا".

وقال رضي الله عنه: "انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم". وقال عون بن عبد الله: كنت أجالس الأغنياء، فلا أزال مغموماً أرى ثوباً أحسن من ثوبي، ودابة أفره من دابتي، فجالست الفقراء فاسترحت.

وخرج المزني صاحب الشافعي من باب جامع الفسطاط بمصر، وكان فقيراً مقللاً، فصادف ابن عبد الحكم قد أقبل في موكبه، فبهره ما رأى من حاله، وحسن هيأته، فتلا قوله تعالى: "وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون" ثم قال: نعم أصبر وأرضى.

فالمعتزل عن الناس في بيته لا يتلى بمثل هذه الفتن، فإن من شاهد زينة الدنيا، إما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرع مرارة الصبر، وهو أمر من الصبر، أو تنبعث رغبته فيحتاج إلى طلب الدنيا فيهلك دنيا وآخرة، أما في الدنيا فبالطمع الذي في أكثر الأوقات يتضمن الذل المعجل، وأما في الآخرة فلا يثاره متاع الدنيا على ذكر الله، والتقرب إليه، ولذلك قال الشاعر:

إذا كان باب الذل من جانب الغنى

سموت إلى العلياء من جانب الفقر

أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلاً.

ومنها الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومعاناة أخلاقهم، فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر، قيل للأعمش: بم عمشت عيناك؟ قال: بالنظر إلى الثقلاء.

ودخل على أبي حنيفة رحمه الله، فقال له: رويانا في الخبر أن من سلب كريمته عوضه الله ما هو خير منهما، فما الذي عوضك؟ قال: كفاني رؤية ثقل مثلك يمازحه.

وقال الشافعي رحمه الله: ما جالست ثقيلاً إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل علي من الجانب الآخر.

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دنيوياً، إلا أنها تضرب في الدين بنصيب، وذلك لأن من تأذى برؤية ثقيل لم يلبث أن يغتابه ويثلبه، وذلك فساد في الدين، وفي العزلة السلامة عن جميع ذلك.

واعلم أن كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه تختلف مناهجه، فقد رجع العزلة في هذا الفصل على المخالطة، ونهى عن العزلة في موضع آخر سيأتي ذكره في الفصل الذي أوله "أنه دخل على العلاء بن زياد الحارثي عائداً"، ويجب أن يحمل ذلك على أن من الناس من العزلة خير له من المخالطة، ومنهم من هو بالضد من ذلك، وقد قال الشافعي قريباً من ذلك، قال ليونس بن عبد الأعلى صاحبه: يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

فإذا أردت العزلة فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس أولاً، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثاً، ثم التجرد بكنه الهمة بعبادة الله تعالى رابعاً، فهذه آداب نيته. ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل، والذكر والفكر، ليجتني ثمرة العزلة. ويجب أن يمنع الناس عن أن يكثرُوا غشيانَه وزيارته، فيتشوش وقته، وأن يكف نفسه عن السؤال عن أخبارهم وأحوالهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف الناس وما الناس مشغولون به، فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث على الخاطر والبال وقت الصلاة ووقت الحاجة إلى إحضار القلب، فإن وقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، لا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه، وإحدى مهمات المعتزل قطع الوسوس الصارفة عن ذكر الله، ولا ريب أن الأخبار ينابيع الوسوس وأصولها. ويجب أن يقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى الناس، واحتاج إلى مخالطتهم.

وليكن صبوراً على ما يلقيه من أذى الجيران إذ يسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقول فيه من أثني عليه بالعزلة، وقدح فيه بترك المخالطة، فإن ذلك لا بد أن يؤثر في القلب، ولو مدة يسيرة، وحال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفاً عن سيره في طريق الآخرة، فإن السير فيها إما يكون بالمواظبة على ورد أو ذكر مع حضور قلب، وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوته سماواته، وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفاسدات القلب وطلب طرق التخلص منها، وكل ذلك يستدعي الفراغ، ولا ريب أن الإصغاء إلى ما ذكرناه يشوش القلب.

ويجب أن يكون للمعتزل أهل صالح أو جليس صالح، لتستريح نفسه إليه ساعة عن كد المواظبة، ففي ذلك عون له على بقية الساعات. وليس يتم للإنسان الصبر على العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، وما الناس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل، وألا يقدر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي على أنه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم، ولا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدر تراخي أجله، وليكن كثير الذكر للموت ووحدرة القبر، مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، فإنه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فإن الموت لا يزيل أنسه، لأن الموت ليس يهدم محل الأنس والمعرفة، بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه، قال سبحانه: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون" فرحين مما أتاهم الله من فضله".

وكل من يجرد نفسه في ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت، فالجهد من جاهد نفسه وهواه، كما صرح به رضي الله عنه، وقال لأصحابه: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، فالجهاد الأصغر محاربة المشركين، والجهاد الأكبر جهاد النفس.

وهذا الفصل في العزلة نقلناه على طوله من كلام أبي حامد الغزالي في إحياء علوم الدين وهذبنا منه ما اقتضت الحال تهذيبه.

قال في معنى الحكيمين

الأصل: فأجمع رأي ملتكم على أن اختاروا رجلين، فأخذنا عليهما أن يجمعجا عند القرآن، ولا يجاوزاه، وتكون ألسنتهما معه وقلوبهما تبعه، فتأها عنه، وتركها الحق وهما يبصرانه، وكان الجور هوهما، والاعوجاج دأهما، وقد سبق استثناءنا عليهما في الحكم بالعدل والعمل بالحق سوء رأيهما، وجور حكمهما، والثقة في أيدينا لأنفسنا، حين خالفا سبيل الحق، وأتيا بما لا يعرف من معكوس الحكم.

الشرح: الملاء: الجماعة: ويجمعجا: يحبسنا نفوسهما وآراءهما عند القرآن، جمعجت، أي جست، أخذت العهد والميثاق أن يعملوا بما في القرآن ولا يتجاوزاه.

فتأها عنه، أي عدلا، وتركها الحق على علم منهما به.

والدأب: العادة، و "سوء رأيهما" منصوب، لأنه مفعول "سبق"، والفاعل "استثناءنا".

ثم قال: "والثقة في أيدينا"، أي نحن على برهان وثقة من أمرنا، وليس بضائر لنا ما فعلاه لأنهما خالفا الحق، وعدلا عن الشرط وعكسا الحكم.

وروى الثوري، عن أبي عبيدة، قال: أمر بلال بن أبي بردة وكان قاضياً بتفريق بين رجل وامرأته، فقال الرجل: يا آل أبي موسى، إنما خلقكم الله للتفريق بين المسلمين! أكتب معاوية إلى ابن العاص واليه في مصر، كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر، قد قبضها بالشرط الذي اشترط على معاوية: "أما بعد، فإن سؤال أهل الحجاز وزوار أهل العراق كثروا علي، وليس عندي فضل عن أعطيات الحجاز، فأعني بخراج مصر هذه السنة". فكتب عمرو إليه:

معاوي إن تدركك نفس شحيحة

وما نلتها عفواً ولكن شرطتها

ولولا دفاعي الأشعري ورهطه

ثم كتب في ظاهر الكتاب - ورأيت أنا هذه الأبيات بخط أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي رحمه الله -:

معاوي حظي لا تغفل

أنتسى مخادعتي الأشعري

ألين فيطمع في غرتي

وعن سنن الحق لا تعدل

وما كان في دومة الجندل

وسهمي قد خاض في المقتل

وأخبأ من تحته حنظلي

كرجع الحسام إلى المفصل

كخلع النعال من الأرخل

ثبوت الخواتم في الانمل

وأعطيتني زنة الخردل

سيحتج بالله والمرسل

فليس عن الحق من مزخل

فألمظه عسلاً بارداً

وأعليته المنبر المشمخر

فأضحى لصاحبه خالعا

وأثبتها فيك موروثة

وهبت لغيري وزن الجبال

وإن عليا غدا خصمنا

وما دام عثمان منج لنا

فلما بلغ الجواب إلى معاوية لم يعاوده في شيء من أمر مصر بعدها.

بعث عبد الملك روح بن زنباع وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى، إلى زفر بن الحارث الكلابي بكلام وحذرهما من كيدته، وخص بالتحذير روحا. فقال: يا أمير المؤمنين، إن أباه كان المخدوع يوم دومة الجندل لا أبي، فعلام تخوفني الخداع والكيد؟ فغضب بلال وضحك عبد الملك.

ومن خطبة له رضي الله عنه يذكر أن زوال النعم من سوء الفعال

لا يشغله شأن، ولا يغيره زمان، ولا يحويه مكان، ولا يصفه لسان، لا يعزب عنه عدد قطر الماء، ولا نجوم السماء، ولا سواي الرياح في الهواء، ولا دبيب النمل على الصفا ولا مقيل الذر في الليلة الظلماء. يعلم مساقط الأوراق، وخفي طرف الأحداق.

وأشهد أن لا إله إلا الله غير معدول به، ولا مشكوك فيه، ولا مكفور دينه، ولا مجحود تكوينه، شهادة من صدقت نيته، وصفت دخلته، وخلص يقينه، وثقلت موازينه. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المجتبي من خلائقه، والمعتمد لشرح حقائقه، والمختص بعقائل كراماته والمصطفى لكرائم رسالاته، والموضحة به أشراف الهدى، والمجلو به غريب العمى. الشرح: لا يشغله أمر، لأن الحي الذي تشغله الأشياء هو الحي العالم ببعض دون البعض، والقادر على البعض دون البعض، فأما من لا يغيب عنه شيء أصلا، ولا يعجز عن شيء أصلا، ولا يمنعه من إيجاد مقدوره - إذا أراد - مانع أصلا، فكيف يشغله شأن! وكذلك لا يغيره زمان، لأنه واجب الوجود، ولا يحويه مكان، لأنه ليس بجسم، ولا يصفه لسان، لأن كنه ذاته غير معلوم، وإنما المعلوم منه إضافات أو شلوب.

ولا يعزب عنه أمر من الأمور، أي لا يفوته علم شيء أصلا، والسواقي: التي تسفي التراب، أي تذروه، والصفا، مقصور: الصخر الأملس، ولا وقف عليها ههنا، لأن المقصور لا يكون يحا مقابلة الممدود، وإنما الفقرة المقابلة للهواء هي الظلماء، ويكون الصفا في أدراج الكلام أسوة بكلمة من الكلمات. والذر: صغار النمل.

ويعلم مساقط الأوراق، من قوله تعالى: "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها". وطرف الأحداق: مصدر طرف البصر يطرف

طرفا، إذا انطبق أحد الجفنين على الآخر، ولكونه مصدرا وقع على الجماعة كما وقع على الواحد، فقال صتنه: طرف الأحداق، كما قال سبحانه: لا يرتد إليهم طرفهم ! .

وغير معدول به: غير مسوى بينه وبين أحد، والدخلة، بكسر الدال: باطن الأمر، ويجوز الدخلة بالضم، والمعتم: المختار. والعيمة بالكسر: خيار المال، اعتم الرجل، إذا أخذ العيمة.

فإن قلت: لفظة معتم ومختار" تصلح للفاعل والمفعول، فماذا يفصل بينهما؟ قلت: بما يقترن باللفظ من الكلام قبله وبعده. فإن قلت: فهل يختلفان في التقدير في صناعة النحو، وإن اتفقا في اللفظ؟ قلت: نعم، فإن عين الكلمة ياء مفتوح ما قبلها، فإن أردت الفاعل فهي مكسورة، وتقديره المختير" مثلمخترع، وإن كان مفعولا فهي مفتوحة، وتقديرهمختر" مثلمخترع وعلى كلا التقديرين لا بد من انقلاب الياء ألفا، واللفظ واحد ولكن يقدر على الألف كسرة للفاعل وفتحة للمفعول، وكذلك القول فيمعتم ومضطر" ونحوهما.

وخكي أن بعض المتكلمين من المجرة، قال: أسمى العبد مضطرا إلى الفعل إذا فعله، ولا أسمى الله تعالى مضطرا إليه. قيل: فكيف تقول؟ قال: مضطر" بكسر الطاء، فضحك أهل المجلس منه.

والعقائل: جمع عقيلة، وهي كريمة كل شيء من الناس والإبل وغير ذلك، ويقال للذرة عقيلة البحر. وأشرط الهدى: علاماته، ومنه أشرط الساعة قال تعالى: !فقد جاء أشرطها! .

والغريب: الأسود الشديد السواد. ويجلى به غريب العمى: تكشف به ظلم الضلال، وتستنير بهدايته. وقوله تعالى: "وغرابيب سود! ، ليسى على أن الصفة قد تقدمت على الموصوف، بل يجعل السود بدلا من الغرابيب.

فإن قلت: الهاء فيحقائقه إلى ماذا ترجع؟ قلت: إلى البارئ سبحانه، وحقائقه حقائق توحيدة وعدله، فالمضاف محذوف، ومعنى حقائق توحيدة الأمور المحققة اليقينية التي لا تعتربها الشكوك، ولا تتخالجها الشبه، وهي أدلة أصحابنا المعتزلة التي استنبطوها بعقولهم بعد أن دلهم إليها. ونبههم على طرق استنباطها رسول الله مفة بواسطة أمير المؤمنين عتته، لأنه إمام المتكلمين الذي لم يعرف علم الكلام من وأد وسم أحد قبله.

الأصل: أيها الناس، إن الدنيا تغر المؤمل لها، والمخلد إليها، ولا تنفس بمن نافس فيها، وتغلب من غلب عليها.

وايم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذئوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد. ولو أن الناس حين تترذ بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزعوا إلى رهم بصدق من نياتهم، ووله من قلوبهم، لرد عليهم كل شارد، وألح لهم كل فاسد.

وإني لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة، وقد كانت أمور مضت ملتبم فيها ميلة، كنتم فيها عندي غير محمودين، ولئن رد عليكم أمركم إنكم لسعداء. وما علي إلا الجهد، ولو اشاء أن أقول لقلت: عفا الله عما سلف! الشرخ: المخلد: المائل إليها، قال تعالى: "ولكنة أخلد إلما الأب!ض ! .

ولا تنفس بمن نافس فيها: لا تضن به، أي من نافس في الدنيا فإن الدنيا تهينه ولا تضن به، كما يضن بالعلق النفيس. ثم قال: وتغلب من غلب عليها"، أي من غلب على اسدنيا مقاهرة فسوف تغلبه الدنيا وتهلكه.

ثم أقسم إنه ما كان قوم في غض نعمة أي في نعمة غضة، أي طرية ناضرة، فرالت عنهم الا بذنوب اجترحوها، أي اكتسبوها، وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ، ومن قال: "ن الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه وتعالى بالحيوانات الا مستحقا، فأما مذهب أصحابنا فلا يتخرج هذا الكلام عليه، لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لضرب من اللطف مضاف إلى عوض يعوضهم الله تعاك به في الآخرة، فيجب أن يحمل هذا الكلام لا على عمومته، بل على الأكثر والأغلب.

ثم قال عفنه: لو أن الناس عند حلول النقم بهم وزوال النعم عنهم يلتجئون إلى الله تعالى تائبين من ذنوبهم، لرفع عنهم النقمة، وأعاد إليهم النعمة.

والوله: كالتحير يحدث عند الخوف أو الوجد. والشارد: الذاهب.

قوله: إواني لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة"، أي في أمر جاهلية لغلبة الضلال والجهل على الأكثرين منهم. وهذه الخطبة خطب بها ملنه بعد قتل عثمان في أول خلافته ملنه، وقد تقدم ذكر بعضها، والأمور التي مالوا فيها عليه: اختياريهم عثمان وعدوهم عنه يوم الشورى.

وقال: لئن رد عليكم أمركم أي أحوالكم التي كانت أيام رسول الله ع! ه من صلاح القلوب والنيات إنكم سعداء. والجهد بالضم: الطاقة.

ثم قال: لو أشاء أن أقول لقلت، أي لو شئت لذكرت سبب التحامل علي وتأخري عن غيري، ولكني لا أشاء ذلك، ولا أستصلح ذكره.

ثم قال: عفا الله عما سلف لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز: "عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الذ منه والله عزيز ذو انتقام ! .

وهذا الكلام يدل على مذهب أصحابنا في أن ما جرى من عبد الرحمن وغيره في يوم الشورى، وء"ن كان لم يقع على الوجه الأفضل، فإنه معفو عنه مغفور لفاعله، لأنه لو كان فسقا غير مغفور، لم يقل أمير المؤمنين ع: عفا الله عما سلف.

ومن كلام له رضي الله عنه

وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه أفأعبد ما لا أرى! فقال: وكيف تراه، قال "مم لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين، فتكلم بلا روية، مرید لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يو!ف بالرقعة، تعنو الونجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته.

اف خ: الذعلب في الأصل، الناقة السريعة، وكذلك الذعلبة ثم نقل فسمي به إنسان، وصار علما، كما نقلوا "بكر" عن فتي الإبل إلى بكر بن وائل.

واليماني مخفف النون، ولا يجوز تشديدها، جعلوا الألف عوضا عن الياء الثانية، وكذلك فعلوا في الشام والاصل "يماني وشامي.

وقوله عنته: أفأعبد ما لا أرى؟، مقام رفيع جدا لا يصلح أن يقوله غيره عنته.

ثم ذكر ماهية هذه الرؤية، قال: إنها رؤية البصيرة، لا رؤية البصر.

ثم شرح ذلك، فقال: إنه تعاك قريب من الأشياء، غير ملامس لها، لأنه ليس بجسم، وإنما قرينه منها علمه بها، كما قال تعالى: "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا فو رابعهم ! .

قوله: بعيد منها غير مباين، لأنه أيضاً ليس بجسم فلا يطلق عليه البينونة، وتعدده منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها، وذلك كما يصدق على البعيد بالوضع، يصدق أفضل الصدق على البعيد بالذات الذي لا يصح الوضع والأين أصلاً عليه.

قوله: متكلم بلا روية، "الروية": الفكرة يرتقي الإنسان بما ليصدر عنه ألفاً! سديدة دالة على مقصده، والبارىء.

تعالى متكلم لا بهذا الاعتبار، بل لأنه إذا أراد تعريف خلقه من جهة الحروف والأصوات، وكان في ذلك مصلحة ولطف لهم، خلق الأصوات والحروف في جسم جمادي، فيسمعها من يسمعها، ويكون ذلك كلامه، لأن المتكلم في اللغة العربية فاعل الكلام لا من حله الكلام. وقد شرحنا هذا في كتبنا الكلامية.

قوله: مريد بلا همة" أي بلا عزم، فالعزم عبارة عن إرادة متقدمة للفعل، تفعل توطينا للنفس على الفعل، وتمهيدا للإرادة المقارنة له، وإنما يصح ذلك على الجسم الذي يتردد فيها، تدعوه إليه الدواعي، فأما العالم لذاته، فلا يصح ذلك فيه. قوله: صانع لا بجارحة"، أي لا بعضو، لأنه ليس بجسم.

قوله: لطيف لا يوصف بالخفاء"، لأن العرب إذا قالوا لشيء: إنه لطيف، أرادوا أنه صغير الحجم، والبار 3 طء تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين: أحدهما: أنه لا يرى لعدم صحة رؤية ذاته، فلما شابه اللطيف من الأجسام في استحالة رؤيته، أطلق عليه لفظاً لللطيف إطلاقاً للفظ السبب على المسبب.

وثانيهما: أنه لطيف بعباده، كما قال في الكتاب العزيز، أي يفعل الألفاظ المقربة لهم من الطاعة، المبعدة لهم من القبيح. أو لطيف بهم بمعنى أنه يرحمهم ويرفق بهم.

قوله: كبير لا يوصف بالجفاء"، لما كان لفظ كبير" إذا استعمل في الجسم أفاد تباعد أقطاره، ثم لما وصف البارىء بأنه كبير أراد أن يتره عما يدل لفظ كبير" عليه، إذا استعمل في الأجسام، والمراد من وصفه تعاك بأنه كبير، عظمة شأنه وجلالة سلطانه.

قوله: بصير لا يوصف بالحاسة"، لأنه تعاك يدرك إما لأنه حي لذاته، أو أن يكون إدراكه هو علمه، ولا جارحة له ولا حاسة على كل واحد من القولين.

قوله: رحيم لا يوصف بالركة"، لأن لفظة الرحمة في صفاته تعاك تطلق مجازاً على إنعامه على عباده، لأن الملك إذا رق على رعيته وعطف، أصابهم بإنعامه ومعروفه.

قوله: تعنو الوجوه، أي تخضع، قال تعالى: مالووعنت الوجوه للحي القيوم مهو .

قوله: وتجب القلوب، أي تخفق، وأصله من وجب الحائط: سقط. ويروى: توجل القلوب أي تخاف، وجل: خاف.

وروي:صانع لا بحاسة"، وروى لا تراه العيون. بمشاهدة العيان عوضا عنلا تدركه.

81 ا- ومن كلام له رضي الله عنه في ذم أصحابه الأصلي: أحمد الله على ما قضى من أمر، وقدر من فعل، وعلى ابتلائي بكم أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب.

إن أهملتكم خضتم، وإن حوربتم حرتم، وإن 2 جتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجتتم إلى فشافة نكصتم. لا أبا لغيركم! ما تنتظرون بنصركم، وألجها على حقكم! الموت أو الذل لكم! فوالله لئن جاء يومي - وليأتيني - لثفرن بيني وبينكم، وأنا لصحبكم قال، وبكم كبير كثير.

لله أنتم! أما دين يجمعكم، ولا حمية تشحذكم! أو ليس عجبا أن معاوية يدعو ألفتاة الطغام فيتبعونه على كبير معونة ولا عطاء، وأنا أدعوكم - وأنتم تريكة 2 لإسلام وبقية الناس - إلى المعونة أو طائفة من ألعطاء، فتفرقوا على عني، وتختلفون علي! إنه لا يخرفني إليكم من أمري رضا فترضونه، ولا سحق فتجتمعون عليه، وإن أحب ما أنا لاق إلى الموت. قد دارستكم الكتاب، وفتحتكم أالحجاج، وعرفتكم ما أنكرتم، وسوغتكم ما مجتتم، لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم يستيقظ! وأقرب يقوم من أجهل بالله قائدهم معاوية، وفؤدهم أبن النابغة! الخ: قضى وقدر في هذا الموضع واحد، ويروي: على ما ابتلاني، وأهملتكم: خليتم وتركتكم، ويروي: أهملتكم، أي أحرمتكم، وخرتم: ضعفتكم، والخور: الضعف، رجل خوار، ورمح خوار، وأرض خوارة، والجمع خور. ويجوز أن يكون خرتكم أي! حتم، كما يخور الثور، ومنه قوله تعالى: "عجلا جسدا له خوار! . ويروي: جرتكم أي عدلتكم عن الحرب فرارا.

واجتتم: الجئتم، قال تعالى: "فجاءها المخاض إلى جذع النخلة! ، والمشاقة: المقاطعة والمصارمة، ونكصتم: أحمتم، قال تعالى: !فلما تراءى الجمعان نكص على عقبه!" 3"، أي رجع محجما، أي دعيتكم إلى كشف القناع مع العدو وجبتكم وهبتموه.

قوله: لا أبا لغيركم، الأفضحلا أب، بحذف الألف، كما قال الشاعر: أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيقس أوتيم

وأما قولهم: لا أبا لك، بإثباته فدون الأول في الفصاحة، كأنهم قصدوا الإضافة، وأقحموا اللام مزيدة مؤكدة، كما قالوا: يا تيم تيم عدي، وهو غريب، لأن حكما "أن تعمل في النكرة فقط، وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة، والإضافة تعرف فاجتمع فيها حكمان متنافيان، فصار من الشواذ كالملاح والمذاكير ولدن غدوة.

وقال الشيخ أبو البقاء رحمه الله: يجوز فيها وجهان آخران: أحدهما أنه أشبع فتحة الباء، فنشأت الألف والاسم باق على تنكيره، والثاني أن يكون اس! عملا "أبا" على لغة من قالها "أبا" في جميع أحوالها مثل "عصا"، ومنه: إن اباه وابا اباه قوله: الموت أو الذل لكم، دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين، كأنه شرع داعيا عليهم بالفناء الكلي، وهو الموت، ثم استدرك فقال: أو الذل، لأنه نظير الموت في المعنى، ولكنه في الصورة دونه، ولقد اجيب دعاؤه علذ بالدعوة الثانية، فإن شيعته ذلوا بعد في الأيام الأموية، حتى كانوا كفقع قرقر.

ثم أقسم أنه إذا جاء يومه لتكونن مفارقتهم لهم عن قلى، وهو البغض، وأدخل حشوة بين أثناء الكلام، وهيلأيني وهي حشوة لطيفة، لأن لفظة إن أكرما تستعمل لما لا يعلم حصوله، ولفظة إذا" لما تعلم أو يغلب على الظن حصوله، تقول: إذا

طلعت الشمس جئت إليك، ولا تقول: إن طلعت الشمس جئت إليك، وتقول: إذا احمر البسما" جئتكم، ولا تقول: إن احمر البسر جئتكم، فلما قال: لئن جاء يومي، أ! بلفظة دالة على أن الموضع موضعاً لا موضعين، فقال: وليأتيني. والواو في قوله: وأنا لصحبتيكم، واو الحال، وكذلك الواو في قوله: وبكم غير كثير"، وقوله: غير كثير" لفظ فصيح، وقال الشاعر: لي خمسون صديقاً بين قاض وأمير لبسوا الوفر فلم اخلع بهم ثوب النفير لكثيرهم ولكني بهم غير كثير قوله: لثه أنتم لله، في موضع رفع، لأنه خبر عن المبتدأ الذي هو أنتم، ومثله: لثه در فلان! والله بلاد فلان! والله أبوك! واللام ههنا فيها معنى التعجب، والمراد بقوله: لله أنتم الله سعيكم، أو لله عملكم، كما قالوا: لثه درك!، أي عملك، فحذف المضاف، وأقيم الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه.

فإن قلت: أفجاءت هذه اللام بمعنى التعجب في غير لفظ الله؟ قلت: لا، كما أن تاء القسم لم تأت إلا في اسم الله تعالى. قوله علز: أما دين يجمعكم! ارتفاع دين على أنه فاعل فعل مقدر له، أي أما يجمعكم دين يجمعكم! اللفظ الثاني مفسر للأول كما قدرناه بعد إذا" في قوله سبحانه: "إذا السماء أنشقت"، ويجوز أن يكون نحمة" مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: أما لكم حمية! والحمية: الأنفة. وشحذت النصل: أعددته.

فإن قلت: كيف قال: إن معاوية لم يكن يعطي جنده وأنه هو منذ كان يعطيهم، والمشهور أن معاوية كان يمد أصحابه بالأموال والراغب! قلت: إن معاوية لم يكن يعطي جنده على وجه المعونة والعطاء، وإنما كان يعطي رؤساء القبائل من اليمن وساكني الشام الأموال الجليلة، يستعبدون بها، ويدعو أولئك الرؤساء أتباعهم من العرب فيطيعونهم، فمنهم من يطيعهم حمية، ومنهم من يطيعهم لأبياد وعوارف من أولئك الرؤساء عندهم، ومنهم من يطيعهم ديناً، زعموا للطلب بدم عثمان، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير. وأما أمير المؤمنين ع، فإنه كان يقسم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرزق، ولا يرى لشريف على مشروف فضلاً، فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكر من ينصره ويقوم بأمره، وذلك لأن الرؤساء من أصحابه كانوا يجدون في أنفسهم من ذلك - أعني المساواة بينهم وبين الأتباع - فيخذلونه علنه باطناً، وإن أظهروا له النصر، وإذا أحس أتباعهم بتخاذلهم وتواكلهم تخاذلوا أيضاً وتواكلوا أيضاً، ولم يجد عليه صلوات الله عليه ما أعطى الأتباع من الرزق، لأن انتصار الأتباع له وقتالهم دونه لا يتصور وقوعه، والرؤساء متخاذلون، فكان يذهب ما يرزقهم ضياعاً.

فإن قلت: فأبي فرق بين المعونة والعطاء؟ قلت: المعونة إلى الجند شيء يسير من المال برسم ترميم أسلحتهم، وإصلاح دوابهم، ويكون ذلك خارجاً عن العطاء المفروض شهراً فشراً، والعطاء المفروض شهراً فشراً يكون شيئاً له مقدار يصرف في أثمان الأقوات، ومؤنة العيال، وقضاء الدين.

والتريغة: بيضة النعام تتركها في مجثمها، يقول: أنتم خلف الإسلام وبقيته كالبيضة التي تتركها النعامة.

فإن قلت: ما معنى قوله: لا يخرج إليكم من أمري رضا فترضونه، ولا سخط فتجتمعون عليه؟ قلت: معناه أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئاً، سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم، بل لا بد لكم من المخالفة والافتراق عنه.

ثم ذكر أن أحب الأشياء إليه أن يلقي الموت، وهذه الحال التي ذكرها أبو الطيب فقال: كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسبست المنايا أن تكن أمانيا تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقا فاعيا، أوعدوا مداحيا قوله: قد دارستكم الكتاب، أي درسته عليكم، دارست الكتب وتدارستها، وأدرستها ودرستها، بمعنى، وهي من الألفاظ القرآنية .
وفاتحتكم الحجاج، أي حاكمتكم بالحاجة والمجادلة، وقوله تعالى: "ربنا افتح بيننا! و أي احكم، والفتاح: الحاكم.
وعرفتكم ما أنكرتم: بصرتكم ما عمي عنكم.

وسوغتكم ما مجحتم، يقال!: مجحت الشراب من فمي، أي رميت به، وشيخ ماج، يمج ريقه، ولا يستطيع حبسه من كبره، وأحمق ماج: أي يسيل لعابه، يقول: ما كانت عقولكم وأذهانكم تنفر عنه من الأمور الدينية أوضحت لكم حتى عرفتكموه واعتقدتموه وانطوت قلوبكم عليه.

ولم يجزم ملنه بحصول ذلك لهم، لأنه قال: لو كان الأعمى يلحظ، والنائم يستيقظ! أي أي قد فعلت معكم ما يقتضي حصول الاعتقادات الحقيقية في أذهانكم لو أزلتم عن قلوبكم ما يمنع من حصولها لكم، والمانع المشار إليه هو الهوى والعصية والإصرار على اللجاج، ومحبة نعره عقيدة قد سبقت إلى القلب، وزرعها التعصب، ومشقة مفارقة الأسلاف الذين قد انغرس لا النفس تعظيمهم، ومالت القلوب إلى تقليدهم لحسن الظن بهم.

ثم قال: أقرب بقوم! أي ما أقرهم من الجهل! كما قال تعالى: مالوا سمع بهم وأبصر! أي ما أسمعهم وأبصرهم! فإن قلت: قد كان يجب أن يقول: وأقرب يقوم قائلهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة من الجهل، فلا يحول بين النكرة الموصوفة وصفتها بفصل غريب، ولم يقل ذلك، بل فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما! قلت: قد جاء كثير من ذلك، نحو قوله تعالى: !ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق! في قول من لم يجعلمردوا" صفة أقيمت مقام الموصوف، لأنه يجعلمردوا" صفة القوم المخدوفين المقدرين بعد الأعراب وقد حال بين ذلك وبين مردوا" قوله: ومن أهل المدينة".

ونحوه قوله: "أنزل عك عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما! و .

فإنقيما" حال من الكتاب وقد توسط بين الحال وذو الحال لم يجعل له عوجا" والحالط كالصفة، ولأنهم قد أجازوا: مررت برجل - أيها الناس - طويل، والنداء أجنبي، على أنا لا نسلم أن قوله: من الجهل أجنبي، لأنه متعلق بأقرب، والأجنبي ما لا تعلق له بالكلام.

182- ومن كلا أله رضي الله عنه وقد أرسل رجلا من أصحابه يعلم له علم احوال قوم من جند الكوفة قد هموا باللحاق بالخوارج، وكانوا علي! و! منه- رضي الله عنه، فلما عاد إليه الرجل قال له: أ أمنوا فقطنوا، أم جنبوا فظعنوا! فقال الرجل: بل ظعنوا يا أ! ر المؤمنين، فقال رضي الله عنه إم! الأصل: بعدا لهم كما بعدت ثمود! أما لو أشرعت الأسنة إليهم، و! بت السيوف على هاماتهم، لقد ندموا على ما كان منهم.

إن الشيطان اليوم قد أستفلهم، وهو غدا متبرئ منهم، ومتخل عنهم، فحسبهم من الهدى، وارتكاسهم في الضلال والعمى، وصدهم عن الحق، وجماحهم في التيه.

اث خ: قد ذكرنا قصة هؤلاء القوم فيما تقدم عند شرحنا قصة مصقلة بن هبيرة الشيباني.

وقطن الرجل بالمكان، يقطن بالضم: أقام به وتوطنه، فهو قاطن، والجمع قطان وقاطنة وقطين أيضاً، مثل غاز وغزي،

وعازب للكأل البعيد وعزيب.

وظعن صار الرجل ظعنا وظعنا، وقرىء بهما، "يوم ظعنكم مهو"، وأظعنه: سيره، وانتصبيعدا" على المصدر. وثمرود، إذا أردت القبيلة غير مصروف، وإذا أردت الحي أو اسم الأب مصروف، ويقال: إنه ثمود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح، قيل سميت ثمود لقلة مائها، من الثمد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى.

وأشرعت الرمح إلى زيد، أي سدده نحوه، وشرع الرمح نفسه وصبت السيوف على هاماتهم: استعارة من صببت الماء، شبه وقع السيوف وسرعة اعتوارها الرؤوس بصب الماء، واستفلهم الشيطان: وجدهم مفلولين، فاستزلهم، هكذا فسروه.

ويمكن عندي أن يريد أنه وجدهم فلا، لا خير فيهم، والفل في الأصل: الأرض لا نبات بها لأنها لم تمطر، قال حسان يصف العزى:

ومن دانها فل من الخير معزل

وإن التي بالجذع من بطن نخلة

أي خال من الخير. ويروى استفزهم، أي استخفهم، والارتكاس في الضلال: الرجوع، كأنه جعلهم في تردددهم في طبقات الضلال كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان تخلص منه، والجماح في التيه: الغلو والإفراط، مستعار من جماح الفرس، وهو أن يعتز صاحبه ويغلبه، جمع فهو جموح.

ومن خطبة له في تنزيه الله وذكر آثار قدرته

الأصل: روي عن نوف البكالي، قال خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بالكوفة، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي، وعليه مدرعة من صوف، وحماثل سيفه ليف، وفي رجليه نعلان من ليف، وكأن جبينه ثفنة بعير، فقال رضي الله عنه: الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق، وعواقب الأمر! نحمده على عظيم إحسانه، ونير برهانه، ونوامي فضله وامتنانه، حمدا يكون لحقه قضاء، ولشكره أداء، وإلى ثوابه مقربا، ولحسن مزیده موجبا، ونستعين به استعانة راج لفضله، مؤمل لنفعه، واثق بدفعه، معترف له بالطول، مدعن له بالعمل والقول، ونؤمن به إيمان من رجاه موقنا، وأناوب إليه مؤمنا، وخنع له مدعنا، وأخلص له موحدا، وعظمه ممجدا، ولاذ به راغبا مجتهدا.

الشرح: قال الجوهرى في الصحاح: نوف البكالي، بفتح الباء، كان حاجب علي رضي الله عنه، ثم قال: وقال ثعلب: هو منسوب إلى بكالة، قبيلة.

وقال القطب الراوندي في شرح "نهج البلاغة": بكال وبكيل شيء واحد، وهو اسم حي من همدان، وبكيل أكثر، قال الكميت: "فقد شركت فيه بكيل وأرحب" والصواب غير ما قالاه، وإنما بنو بكال، بكسر الباء، حي من حمير، منهم هذا الشخص، هو نوف بن فضالة، صاحب علي رضي الله عنه والرواية الصحيحة الكسر، لأن نوف بن فضالة بكالي، بالكسر، من حمير، وقد ذكر ابن الكلبي نسب بني بكال الحميريين، فقال: هو بكال بن دعي بن غوث بن سعد بن

عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن المميسع بن حمير.

نسب جعدة بن هبيرة،

وأما جعدة بن هبيرة، فهو ابن أخت أمير المؤمنين رضي الله عنه، أمه أم هانئ بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وأبوه هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب. وكان جعدة فارساً شجاعاً، فقيهاً وولي خراسان لأمر المؤمنين رضي الله عنه، وهو من الصحابة الذين أدرکوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، مع أمه أم هانئ بنت أبي طالب، وهرب أبو هبيرة بن أبي وهب ذلك اليوم هو وعبد الله بن الزبير إلى نجران.

وروى أهل الحديث أن أم هانئ كانت يوم الفتح في بيتها، فدخل عليها هبيرة بن أبي وهب بعلمها، ورجل من بني عمه هارين من علي رضي الله عنه، وهويتبعهما ويده السيف، فقامت أم هانئ في وجهه دونهما، وقالت: ما تريده منهما! ولم تكن رآته من ثماني سنين، فدفع في صدرها، فلم تزل عن موضعها، وقالت: أتدخل يا علي بيتي، وتهتك حرمتي، وتقتل بعلي، ولا تستحي مني بعد ثماني سنين! فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمهما، فلا بد أن أقتلهما. فقبضت على يده التي فيها السيف، فدخل بيتاً ثم خرجا منه إلى غيره، ففاتاه، وجاءت أم هانئ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بشوفا، فوقفت حتى أخذ ثوبه، فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف، فقال: مرحباً وأهلاً بأم هانئ! ما جاء بك؟ فأخبرته خبر بعلمها وابن عمه، ودخول علي رضي الله عنه بيتها بالسيف. فجاء علي رضي الله عنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، فقال له: ما صنعت بأم هانئ؟ فقال: سلها يا رسول الله ما صنعت بي! والذي بعثك بالحق لقد قبضت على يدي وفيها السيف، فما استطعت أن اخلصها إلا بعد لأي، وفاتني الرجلان. فقال صلى الله عليه وسلم: "لو ولد ألب طالب! الناس كلهم لكانوا شجعاناً، قد أجرنا من أجات أم هانئ، وأمنا من أمنت، فلا سبيل لك عليها". فأما هبيرة فلم يرجع، وأما الرجل الآخر، فرجع فلم يعرض له.

قالوا: وأقام هبيرة بن أبي وهب بنجران حتى مات بها كافراً، وروى له محمد بن إسحاق في كتاب المغازي شعراً أوله:

كذلك النوى أسبابها وانفتالها

أشافتك هند أم أتك سؤلها

يذكر فيه أم هانئ وإسلامها، وأنه مهاجر لها إذ صبت إلى الإسلام، ومن جملته:

وقطعت الأرحام منك حبالها

فإن كنت قد تابعت دين محمد

مللمة غبراء ببس قلالها

فكوني على أعلى سحق بهضبة

وقال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب: ولدت أم هانء لهبيرة بن أبي وهب بنين أربعة: جعدة، وعمرأ، وهانئاً، ويوسف، قال: وجعدة الذي يقول:

أبي من بني مخزوم إن كنت سائلاً
ومن هاشم أمي، لخير قبيل

فمن ذا الذي ينأى علي بخاله
كخالي يئ ذي الندى وعقيل!

المدرعة: الجبة، وتدرع: لبسها. وربما قالوا: تدرع، وثفنة البعير، واحدة ثفناته، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ ويكثف، كالركبتين وغيرهما، ويقال: ذو الثفنتان الثلاثة لعلي بن الحسين، وعلي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، ولعبد الله بن وهب الراسبي، رئيس الخوارج، لأن طول السجود كان قد أثر في ثفناهم، قال دعبل:

ديار علي والحسين وجعفر
وحمزة والسجاد ذي الثفنتان

ومصائر الأمور: جمع مصير، وهو مصدر صار إلى كذا، ومعناه المرجع، قال تعالى: "وإلى الله المصير" فأما المصدر من "صار الشيء كذا" فمصير وصيرورة، والقياس في مصدر صار إليه أي رجع مصاراً، كمعاش، وإنما جمع المصدر ههنا لأن الخلاق يرجعون إلى الله تعالى في أحوال مختلفة في الدنيا وفي الدار الآخرة، فجمع المصدر، وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير، لاختلاف وجوهه، كقوله تعالى: "ويظنون بالله الظنون"، وعواقب الأمر: جمع عاقبة، وهي آخر الشيء. ثم قسم الحمد، فجعله على ثلاثة أقسام: أحدها: الحمد على عظيم إحسانه وهو أصول نعمه تعالى، كالحياة والقدرة والشهوة وغيرها مما لا يدخل جنسه تحت مقدور القادر.

وثانيها: الحمد على نير برهانه، وهو ما نصبه في العقول من العلوم البديهية المفضية إلى العلوم النظرية بتوحيده وعدله. وثالثها: الحمد على أرزاقه النامية، أي الزائدة وما يجري مجراها من إطالة الأعمار، وكثرة الأرزاق، وسائر ضروب الإحسان الداخلة في هذا القسم.

ثم بالغ في الحمد حمداً يكون لحقه قضاء، ولشكره أداء، وذلك لأن الحمد والشكر ولو بلغ أقصى غاياته لم يصل إلى أن يكون قاضياً لحق الله تعالى، ولا مؤدياً لشكره، ولكنه قال ذلك على سبيل المبالغة.

ثم قال: "وإلى ثوابه مقرباً، ولحسن مزيده موجباً"، وذلك لأن الشكر يوجب الثواب والمزيد، قال الله تعالى: فاذكروني أذكركم"، أي أثبتكم، وقال: "لئن شكرتم لأزيدنكم".

ثم شرع في الاستعانة بالله فصلها أحسن تفصيل، فذكر أنه يستعين به استعانة راج لفضله في الآخرة، مؤمل لنفعه في الدنيا، واثق بدفعه المضار عنه، وذلك لأنه أراد أن يحتوي على وجوه ما يستعان به تعالى لأجله، فذكر الأمور الإيجابية، وأعقبها بالأمور السلبية، فالأولى جلب المنافع، والثانية دفع المضار.

والطول: الإفضال. والإذعان: الانقياد والطاعة.

وأناب إليه: أقبل وتاب. وخنع: خضع، والمصدر الخنوع. ولاذ به: لجأ إليه.

الأصل: لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركاً، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً. ولم يتقدمه وقت ولا زمان، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، بل ظهر للعقول بما أَرانا من علامات التدبير المتقن، والقضاء المبرم. فمن شواهد خلقه خلق السموات

موطدات بلا عمد، قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن طائعات مدعنات، غير متلكنات ولا مبطنات. ولولا إقرارهن له بالربوبية، وإذعانهن له بالطوعية، لما جعلهن موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته، ولا مصعداً للكلم الطيب، والعمل الصالح من خلقه.

الشرح: نفى رضي الله عنه أن يكون الباري سبحانه مولوداً فيكون له شريك في العز والإلهية، وهو أبوه الذي ولده، وإنما قال ذلك جرياً على عادة ملوك البشر فإن الأكثر أن الملك يكون ابن ملك قبله، ونفى أن يكون له ولد، جرياً أيضاً على عادة البشر، في أن كل والد في الأكثر، فإنه يهلك قبل هلاك الولد، ويرثه الولد، وهذا النمط من الاحتجاج يسمى خطابة، وهو نافع في مواجهة العرب به، وأراد من الاحتجاج إثبات العقيدة، فتارة تثبت في نفوس العلماء بالبرهان، وتارة تثبت في نفوس العوام بالخطابة والجدل.

ثم نفى أن يتقدمه وقت أو زمان، والوقت هو الزمان، وإنما خالف بين اللفظين، وأتى بحرف العطف، كقوله تعالى: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً".

ونفى أن يتعاوره، أي تختلف عليه زيادة أو نقصان، يقال: عاورت زيدا ضرباً، أي فعلت به من الضرب مثل ما فعل بي، واعتوروا الشيء، أي تداولوه فيما بينهم، وكذلك تعوروه وتعاوروه، وإنما ظهرت الواو في اعتوروا، لأنه في معنى تعاوروا فبني عليه ولو لم يكن في معناه لاعتلت، كما قالوا: اجتوروا لما كان في معنى: "تجاوزوا" التي لا بد من صحة الواو فيها لسكون الألف قبلها. واعتورت الرياح رسم الدار: اختلفت عليه.

فإن قلت: هذا يقتضي أن يقول: "ولم يتعاوره زيادة ونقصان"، لأن التعاور يستدعي الضدين معاً، ولا ينبغي أن يقول: ولا نقصان، كما لا يجوز أن تقول: لم يختلف زيد ولا عمرو.

قلت: لما كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال: لا يعتوره الزيادة، فكذلك القول في جانب النقصان، وجرى كل واحد من النوعين مجرى أشياء متنافية، تختلف على الموضع الموصوف بها.

قوله رضي الله عنه: "موطدات"، أي ممهدات مثبتات، والعمد: جمع عماد، نحو إهاب وأهب، وإدام وأدم، وهو على خلاف القياس، ومنه قوله تعالى: "في عمد ممددة"، وقوله تعالى: "خلق السماوات بغير عمد ترونها". والسند ما يستند إليه.

ثم قال: "دعاهن فأجبن طائعات"، هذا من باب المجاز والتوسع، لأن الجماد لا يدعى، وأما من قال: إن السموات أحياء ناطقة، فإنه لم يجعلهن مكلفات ليقال: ولولا إقرارهن له بالربوبية لما فعل كذا، بل يقول ذلك على وجه آخر، ولكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المجاز، نحو قول الراجز:

مهلاً رويداً قد ملأت بطني

امتلاً ألحوض وقال قطني

ومنه قوله تعالى: "أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين".

ومنه قول مكاتب لبني منقر التميميين، كان قد ظلع بمكاتبته، فأتى قبر غالب بن صعصعة، فاستجار به، وأخذ منه حصيات فشدهن في عمامته، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره، وقال: إني قد قلت شعراً، قال: هاته، فأنشده:

خشيت الردى أو أن أرد على قسر

بقبر ابن ليلى غالب عذت بعدما

ولم يك إلا غالباً ميت يقري

بقبر امرئ يقري المئين عظامه

فكأكك أن تلقى الفرزدق بالمصر

فقال لي استقدم أمامك إنما

فقال: ما اسمك؟ فقال: لهزم، قال: يا لهزم حكمتك مسمطاً، قال: ناقة كوماء سوداء الحديقة، قال: يا جارية اطرحي لنا حبلاً، ثم قال: يا لهزم اخرج بنا إلى المريد فألقه في عنق ما شئت من إبل الناس. فتخير لهزم على عينه ناقة، ورمى بالحبل في عنقها، وجاء صاحبها، فقال له الفرزدق: اغد علي أوفك ثمنها، فجعل لهزم يقودها، والفرزدق يسوقها، حتى أخرجها من البيوت إلى الصحراء، فصاح به الفرزدق: يا لهزم، قبح الله أحسننا! فخير الشاعر عن القبر، بقوله: فقال لي استقدم أمامك والقبر والميت الذي فيه لا يخبران، ولكن العرب وأهل الحكمة من العجم يجعلون كل دليل قولاً وجواباً، ألا ترى إلى قول زهير:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

وإنما كلامها عنده أن تبين ما يرى من الآثار فيها عن قدم العهد بأهلها.

ومن كلام بعض الحكماء: هلا وقفت على تلك الجنان والحيطان، فقلت: أيتها الجنان، أين من شق أنمارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تحبك حواراً، أجابتك اعتباراً! وقال النعمان بن المنذر ومعه عدي بن زيد، في ظل شجرات مونقات يشرب، فقال عدي: أبيت اللعن! وأراد أن يعظه، أتدري ما تقول هذه الشجرات؟ قال: ما تقول؟ قال:

يشربون الخمر بالماء الزلال

رب ركب قد أناخوا حولنا

وكذاك الدهر يودي بالرجال

ثم أضحوا عصف الدهر بهم

فتنغص النعمان يومه ذلك.

والمدعن: المنقاد المطيع. والمتوكىء: المتوقف، والكلم الطيب: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسوله. والعمل الصالح: أداء الواجبات والنوافل، واللفظات من القرآن العزيز، والمصعد: موضع الصعود، ولا شبهة أن السماء أشرف من الأرض على رأي المليون وعلى رأي الحكماء، أما أهل الملة، فلأن السماء مصعد الأعمال الصالحة، ومحل الأنوار، ومكان الملائكة، وفيها العرش والكرسي، والكواكب المدثرات أمراً، وأما الحكماء فلأمور أخرى تقتضيها أصولهم.

الأصل: جعل نجومها أعلاماً يستدل بها الخيران في مختلف فجاج الأقطار، لم يمنع ضوء نورها ادلهمام سحف الليل المظلم،

ولا استطاعت جلايب سواد الحنادس أن ترد ما شاع في السموات من تألؤ نور القمر، فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج، ولا ليل ساج، في بقاع الأرضين المتطأطات، ولا في يفاع السفح المتجاورات، وما يتجلجل به الرعد في أفق السماء، وما تلاشت عنه بروق النمام، وما تسقط من ورقة تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهاطال الماء! ويعلم مسقط القطرة ومقرها، ومسحب الذرة ومجرها، وما يكفي البعوضة من قوتها وما تحمل الأنتى في بطنها.

الشرح: أعلاماً، أي يستدل بها. والفجاج: جمع فج، وهو الطريق في الجبل.

ثم قال: إن ادلهمام سواد الليل - أي شدة ظلمته - لم يمنع الكواكب من الإضاءة، وكذلك أيضاً لم يمنع ظلام الليل القمر من تألؤ نوره، وإنما خص القمر بالذكر وإن كان من جملة الكواكب، لشرفه بما يظهر للأبصار من عظم حجمه، وشدة إضاءته، فصار كقوله تعالى: "فيهما فاكهة ونخل ورمان". وقد روى بعض الرواة ادلهمام بالنصب، وجعله مفعولاً، وضوء نورها بالرفع وجعله فاعلاً، وهذه الرواية أحسن في صناعة الكتابة لمكان الازدواج، أي لا القمر ولا الكواكب تمنع الليل من الظلمة، ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة.

والسجف: جمع سحف، وهو الستر، ويجوز فتح السين، وشاع: تفرق، والتألؤ: اللمعان. والجلايب، الثياب. والغسق: الظلمة، والساجي: الساكن. والداجي: المظلم، والمتطأطىء: المنخفض. والسفع المتجاورات ههنا: الجبال، وسماها سفعاً لأن السفحة سواد مشرب بحمرة، وكذلك لوها في الأكثر.

واليفاع: الأرض المرتفعة. والتجلجل: صوت الرعد.

وما تلاشت عنه بروق الغمام، هذه الكلمة أهمل بناءها كثير من أئمة اللغة، وهي صحيحة وقد جاءت ووردت. قال ابن الأعرابي: لشا الرجل، إذا اتضع، وخسر بعد رفعة، وإذا صح أصلها صح استعمال الناس، تلاشى الشيء، بمعنى اضمحل. وقال القطب الراوندي: تلاشى مركب من "لا شيء"، ولم يقف على أصل الكلمة، وقد ظهر الآن أن معنى كلامه رضي الله عنه أنه سبحانه يعلم ما يصوت به الرعد، ويعلم ما يضمحل عنه البرق.

فإن قلت: وهل يقصد الرعد بجلجلته معنى معقولاً ليقال: إن الباري يعلمه! ثم ما المراد بكونه عالماً بما يضمحل البرق عنه؟ قلت: قد يكون تعالى يحدث في الرعد جلجلة، أي صوتاً ليهلك به قوماً، أو لينفع به قوماً، فعلمه بما تتضمنه تلك الجلجلة هو معنى قولنا: يعلم ما يصوت به الرعد، ولا ريب أن البرق يلمع فيضيء أقطاراً مخصوصة، ثم يتلاشى عنها، فالباري سبحانه عالم بتلك الأقطار التي يتلاشى البرق عنها.

فإن قلت: هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق، وبما لا يضيئه، فلماذا خص بالعالمية ما يتلاشى عنه البرق؟ قلت: لأن علمه بما ليس بمضيء بالبرق أعجب وأغرب، لأن ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأبصار الصحيحة، فأراد رضي الله عنه أن يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر، ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتم وأكمل. والعواصف: الرياح الشديدة، وأضافها إلى الأنواء، لأن أكثر ما يكون عصفاتها في الأنواء، وهي جمع نوء، وهو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب مع الفجر وطلوع رقبه من المشرق مقابلاً له من ساعته، ومدة النوء ثلاثة عشر يوماً، إلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً.

قال أبو عبيد: ولم يسمع في النوء أنه المسقوط إلا في هذا الموضع، وكانت العرب تضيف الرياح والأمطار والحر والبرد

إلى الساقط منها.

وقال الأصمعي: بل إلى الطالع في سلطانه، فتقول: مطرنا بنوء كذا وكذا، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، والجمع أنواء ونوآن أيضاً، مثل بطن وبطنان وعبد وعبدان، قال حسان بن ثابت:

ويثرب تعلم أنا بها

إذا قحط القطر نوأنها

والانهاطال: الانصباب: ومسقط القطرة من المطر: موضع سقوطها، ومقرها: موضع قرارها، ومسحب الذرة الصغيرة من النمل ومجرها: موضع سحبها وجرها.

وهذا الفصل من فصيح الكلام ونادره، ويتضمن من توحيد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه ما يشهد لنفسه. الأصل: والحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسي أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو إنس، لا يدرك بوهم، ولا يقدر بفهم، ولا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا ينظر بعين، ولا يجد بأين، ولا يوصف بالأزواج، ولا يخفق بعلاج، ولا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس.

الذي كلم فوسى تكليماً، وأراه من آياته عظيماً، بلا جوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات، بل إن كنت صادقاً أيها المتكلف لوصف ربك، فصف جبريل وميكائيل، وحنود الملائكة المقربين، في حجرات القدس مرجحين، متولّة عقولهم أن يجدوا أحسن الخالقين، وإنما يدرك بالصفات ذوو الهيئات والأدوات، ومن ينقضي إذا بلغ أمد حده بالفناء، فلا إله إلا هو أضاء بنوره كل ظلام، وأظلم بظلمته كل نور.

الشرح: ليس يعني بالكائن ههنا ما يعنيه الحكماء والمتكلمون، بل مراده الموجود، أي هو الموجود قبل أن يكون الكرسي والعرش وغيرهما. والأوائل يزعمون أن فوق السموات السبع سماء ثامنة، وسماء تاسعة، ويقولون: إن الثامنة هي الكرسي، وإن التاسعة هي العرش.

قوله رضي الله عنه: "لا يدرك بوهم"، الوهم ههنا: الفكرة والتوهم.

ولا يقدر بفهم، أي لا تستطيع الأفهام أن تقدره وتحده، ولا يشغله سائل كما يشغل السؤال منا من يسألونه، ولا ينقصه العطاء، كما ينقص العطاء خزائن الملوك.

ولا يبصر بجارحة، ولا يجد بأين، ولفظة "أين" في الأصل مبنية على الفتح، فإذا نكرتها صارت اسماً متمكناً، كما قال الشاعر:

ليت شعري وأين مني ليت

إن "ليتاً" وإن "لوا" عناء

وإن شئت قلت: إنه تكلم بالاصطلاح الحكمي، والأين عندهم، حصول الجسم في المكان وهو أحد المقولات العشر. قوله رضي الله عنه ولا يوصف بالأزواج، أي صفات الأزواج، وهي الأصناف، قال سبحانه: "وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج".

قوله: "ولا يخلق بعلاج"، أي لا يحتاج إلى إيجاد المخلوقات إلى معالجة ومزاولة.

قوله: "وكلم موسى تكليماً" من الألفاظ القرآنية، والمراد ههنا من ذكر المصدر تأكيد الأمر وإزالة لبس عساه يصلح للسامع، فيعتقد أنه أراد المجاز، وأنه لم يكن كئثم على الحقيقة.

قوله "وأراه من آياته عظيماً"، ليس يريد به الآيات الخارجة عن التكليم، كانشقاق البحر، وقلب العصا، لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله: تكليماً، وقوله: بلا جوارح ولا أدوات، ولا نطق ولا لهوات، مستهجنًا، وإنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيماً من آياته، وذلك أنه كان يسمع الصوت من جهاته الست، ليس على حد سماع كلام البشر من جهة مخصوصه وله دوي وصلصلة كوقع السلاسل العظيمة على الحصا الأصم.

فإن قلت: أتقول إن الكلام حل أجساماً مختلفة من الجهات الست؟ قلت: لا وإنما حل الشجرة فقط، وكان يسمع من كل جهة، والدليل على حلوله في الشجرة قوله تعالى: "فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى"، فلا يخلو إما أن يكون النداء حل الشجرة، أو المنادي حلها، والثاني باطل، فثبت الأول. ثم قال رضي الله عنه لمن يتكلف أن يصف ربه: إن كنت صادقاً، أنك قد وصلت إلى معرفة صفته، فصف لنا الملائكة، فإن معرفة ذات الملك أهون من معرفة ذات الأول سبحانه.

وحجرات القدس: جمع حجرة. ومرجحين: مائلين إلى جهة تحت خضوعاً لجلال الباري سبحانه، أرجحن الحجر، إذا مال هاوياً. متولها عقولهم، أي حائرة. ثم قال: إنما يدرك بالصفات، ويعرف كنه ما كان ذا هيئة وأداة وجارحة، وما ينقضي ويفنى ويتطرق إليه العدم، وواجب الوجود سبحانه بخلاف ذلك.

وتحت قوله: "أضاء بنوره كل ظلام.. إلى آخر الفصل، معنى دقيق وسر خفي، وهو أن كل رذيلة في الخلق البشري مع معرفته بالأدلة البرهانية غير مؤثرة ولا قادحة في جلاله المقام الذي قد بلغ إليه، وذلك نحو أن يكون العارف بخيلاً أو جباناً، أو حريصاً أو نحو ذلك، وكل فضيلة في الخلق البشري مع الجهل به سبحانه، فليست بفضيلة في الحقيقة ولا معتد بها، لأن نقیصة الجهل به تكسف تلك الأنوار، وتمحق فضلها، وذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جواداً، أو شجاعاً، أو عفيفاً، أو نحو ذلك، وهذا يطابق ما يقوله الأوائل، من أن العارف المذنب يشقى بعد الموت قليلاً، ثم يعود إلى النعيم السرمدي، وأن الجاهل ذا العبادة والإحسان يشقى بعد الموت شقاء مؤبداً ومذهب الخلف من مرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات، ويقال: إنه مذهب أبي حنيفة رحمه الله. ويمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأن يقال: كل ظلام من المعاصي الصغائر، فإنه ينجلي بضياء معرفته وطاعته، وكل طاعة يفعلها المكلف مع الكفر به سبحانه، فإنها غير نافعة ولا موجبة ثواباً، ويكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومته إلى خصوصه.

الأصل: أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياش، وأسبغ عليكم المعاش، فلو أن أحداً يجد إلى البقاء! سلماً، أو لدفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داود رضي الله عنه، الذي سخر له ملائ الجن والإنس، مع النبوة وعظيم الزلفة، فلما استوفى طعمته، واستكمل مدته، رمته قسي الفناء بنبال القوت، وأصبحت الديار منه خالية، والمسكن معطلة، وورثها قوم آخرون.

وإن لكم في القرون السالفة لعبرة! أين العمالقة وأبناء العمالقة! أين الفراعنة وأبناء الفراعنة! أين أصحاب مدائن الرس
الذين قتلوا النبيين، وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألو، وعسكروا
العسكر، ومدنوا المدائن! الشرح: الرياش: اللباس. وأسغ: أوسع، وإنما ضرب المثل بسليمان رضي الله عنه، لأنه كان
ملك الإنس والجن، ولم يحصل لغيره ذلك، ومن الناس من أنكر هذا، لأن اليهود والنصارى يقولون: إنه لم يتعد ملكه
حدود الشام، بل بعض الشام، وينكرون حديث الجن والطير والريح، ويحملون ما ورد من ذلك على وجوه وتأويلات
عقلية معنوية، ليس هذا موضع ذكرها.
والزلفة: القرب. والطعمة، بضم الطاء: المأكلة، يقال: قد جعلت هذه الضيعة طعمة لزيد، والقسي: جمع قوس، وأصلها
"قووس" على فاعول، كضرب وضروب، إلا أنهم قدموا اللام، فقالوا "قسو" على "فلوع"، ثم قلبت الواو ياء، وكسروا
القاف كما كسروا عين "عصي" فصار "قسي".

نسب العمالقة وعاد وثمود والفراعنة وأصحاب الرس،

والعمالقة أولاد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، كان الملك باليمن والحجاز وما تاحم ذلك من الأقاليم، فمنهم عملاق بن
لاوذ بن سام، ومنهم طسم بن لاوذ أخوه.
ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما، وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم، فلما ملكهم عملاق بن طسم، بغى
وأكثر الفساد في الأرض، حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بعلها، وإن كانت بكرًا افتضها قبل وصولها إلى البعل،
ففعل ذلك بامرأة من جديس، يقال لها غفيرة بنت غفار، فخرجت إلى قومها، وهي تقول:

أهكذا يفعل بالعروس !

لا أحد أذل من جديس

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار، وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته، فصنع الأسود طعاماً، ودعا
عملاق الملك إليه، ثم وثب به وبطسم، فأق على رؤسائهم، ونجا منهم رياح بن مر، فصار إلى ذي جيشان بن تبع
الحميري ملك اليمن، فاستغاث به، واستنجد به على جديس، فسار ذو جيشان في حمير، فأق بلاد جو، وهي قصبة
اليمامة، فاستأصل جديساً كلها، وأخرب اليمامة فلم يبق لجديس باقية، ولا لطسم إلا اليسير منهم.
ثم ملك بعد طسم وجديس وبار بن أميم بن لاوذ بن إرم، فسار بولده وأهله، فتزل بأرض وبار، وهي المعروفة الآن برمل
عالج، فبغوا في الأرض حيناً حتى أفناهم الله. ثم ملك الأرض بعد وبار عبد ضخم بن أثيف بن لاوذ، فتزلوا بالطائف
حيناً، ثم بادوا.

ومن يعد مع العمالقة عاد وثمود، فأما عاد فهو عاد بن عويس بن إرم بن سام بن نوح، كان يعبد القمر، ويقال: إنه رأى
من صلبه أولاد أولاد أربعة آلاف، وإنه نكح ألف جارية، وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن، وهي من
شحر عمان إلى حضرموت، ومن أولاده شداد بن عاد، صاحب المدينة المذكورة.
وأما ثمود، فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانت دياره بين الشام والحجاز إلى ساحل نهر الحبشة.

قوله رضي الله عنه: أين الفراعنة، وأبناء الفراعنة"، جمع فرعون، وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن الريان فرعون يوسف، ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى.

ومنهم فرعون بن الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأحرب بيت المقدس.

قوله رضي الله عنه: أين أصحاب مدائن الرس؟، قيل: إنهم أصحاب شعيب النبي عليه السلام، وكانوا عبدة أصنام، ولهم مواش وآبار يسقون منها.

والرس: بئر عظيمة جداً انخسفت بهم، وهم حولها، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلها وديارهم، وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة، كان بها قوم من بقايا ثمود بغوا، فأهلكوا.

وقيل: قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز، وكانت العنقاء تحتطف صبيانهم فتقتلهم، فدعوا الله أن ينقذهم منها، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان، فدعاهم إلى الذين على أن يقتل العنقاء، فشارطوه على ذلك فدعا عليها، فأصابتها الصاعقة، فلم يفوا له وقتلوه، فأهلكوا.

وقيل: هم أصحاب الأخدود، والرس، هو الأخدود. وقيل: الرس أرض بأنطاكية قتل فيها حبيب النجار.

وقيل: بل كذب أهلها نبيهم ورسوه في بئر، أي رموه فيها.

وقيل: إن الرس نهر في إقليم الباب، والأبواب مبدؤه من مدينة طراز، وينتهي إلى نهر الكر، فيختلط به حتى يصب في بحر الحزر، كان هناك ملوك أولو بأس وقدر، فأهلكهم الله بغيهم.

الأصل: منها: قد لبس للحكمة جنتها، وأخذها بجميع أدبها، من الإقبال عليها، والمعرفة بها، والتفرغ لها، فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، وحاجته التي يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، وضرب بعسيب ذنبه، وألصق الأرض بجرائنه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبيائه.

الشرح: هذا الكلام فسرته كل طائفة على حسب اعتقادها، فالشيعة الإمامية، تزعم أن المراد به المهدي المنتظر عندهم، والصوفية يزعمون أنه يعني به ولي الله في الأرض، وعندهم أن الدنيا لا تخلو عن الأبدال، وهم أربعون، وعن الأوتاد، وهم سبعة، وعن القطب وهو واحد، فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطباً عوضه، وصار أحد الأربعين وتداً، عوض الوتد، وصار بعض الأولياء الذين يصطفاهم الله تعالى أبدالاً عوض ذلك البدل.

وأصحابنا يزعمون أن الله تعالى لا يخلي الأمة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدل والتوحيد، وأن الإجماع إنما يكون حجة باعتبار أقوال أولئك العلماء، لكنه لما تعذرت معرفتهم بأعيانهم، اعتبر إجماع سائر العلماء، وإنما الأصل قول أولئك.

قالوا: وكلام أمير المؤمنين رضي الله عنه ليس يشير فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة، ولكنه يصف حال كل واحد منهم، فيقول: من صفته كذا، ومن صفته كذا.

والفلاسفة يزعمون أن مراده رضي الله عنه بهذا الكلام العارف، ولهم في العرفان وصفات أربابه كلام يعرفه من له أنس بأقوالهم. وليس يبعد عندي أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الوقت، إذا خلقه الله تعالى، وإن لم يكن الآن موجوداً، فليس في الكلام ما يدل على وجوده الآن، وقد وقع اتفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أن

الدنيا والتكليف لا ينقضي إلا عليه.

قوله رضي الله عنه: قد لبس للحكمة جنتها، الجنة: ما يستتره من السلاح كالدرع ونحوها، وليس جنة الحكمة قمع النفس عن المشتبهات، وقطع علائق النفس عن المحسوسات، فإن ذلك مانع للنفس عن أن يصيبها سهام الهوى، كما تمنع الدرع الدارع عن أن يصيبه سهام الرماية.

ثم عاد إلى صفة هذا الشخص، فقال: وأخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها، أي شدة الحرص والهمة.

ثم قال: والمعرفة بها، أي المعرفة بشرفها ونفاستها.

ثم قال: لا والتفرغ لها، لأن الذهن متى وجهته نحو معلومين تحبط وفسد، وإنما يدرك الحكمة بتخلية السر من كل ما مر سواها.

قال: فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، هذا مثل قوله رضي الله عنه: الحكمة ضالة المؤمن ومن كلام الحكماء، لا يمنعك من الانتفاع بالحكمة حقارة من وجدتها عنده، كما لا يمنعك خبث تراب المعدن من التقاط الذهب.

ووجدت بخط أبي محمد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمه الله في تعاليق مسودة أبياتاً للعطوي، وهي:

بين شمس الضحى وبدر التمام

قد رأينا الغزال والغصن والنجم

هان في مأقط شديد الخصام

فوحق البيان يعضده البر

جمع الحسن كفه في نظام

مارأينا سوى المليحة شيئاً

ي ومجرى الأرواح في الأجسام

هي تجري مجرى الأصالة في الرأ

وقد كتب ابن الخشاب بخطه تحت المليحة: ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة.

قوله رضي الله عنه: وحاجته التي يسأل عنها، هو مثل قوله: ضالته التي يطلبها.

ثم قال: هو مغترب إذا اغترب الإسلام، يقول هذا الشخص يخفي نفسه ويحملها إذا اغترب الإسلام، واغتراب الإسلام أن يظهر الفسق والجور على الصلاح والعدل، قال رضي الله عنه: بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ.

قال: وضرب بعسيب ذنبه، وألصق الأرض بجرائه، هذا من تمام قوله: إذا اغترب الإسلام، أي إذا صار الإسلام غريباً مقهوراً، وصار الإسلام كالبعير المبارك يضرب الأرض بعسيبه، وهو أصل الذنب، ويلصق جرائه - وهو صدره - في الأرض، فلا يكون له تصرف ولا نهوض.

ثم عاد إلى صفة الشخص المذكور، وقال: بقية من بقايا حججه، خليفة من خلائف أنبيائه، الضمير ههنا يرجع إلى الله سبحانه وإن لم يجر ذكره، للعلم به، كما قال: "حتى توارت بالحجاب"، ويمكن أن يقال: إن الضمير راجع إلى مذكور وهو الإسلام، أي من بقايا حجج الإسلام وخليفة من خلائف أنبياء الإسلام.

فإن قلت: ليس للإسلام إلا نبي واحد. قلت: بل له أنبياء كثير، قال تعالى: "ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل"، وقال سبحانه: "ثم أوحينا إليك أن أتبع ملة إبراهيم حنيفاً"، وكل الأنبياء دعوا إلى ما دعا إليه محمد صلى الله عليه

وسلم من التوحيد والعدل، فكلهم أنبياء للإسلام.

فإن قلت: أليس لفظ الحجة ولفظ الخليفة مشعراً بما تقوله الإمامية؟ قلت: لا، فإن أهل التصوف يسمون صاحبهم حجة وخليفة، وكذلك الفلاسفة.

وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كل عصر، لأنهم حجج الله، أي إجماعهم حجة، وقد استخلفهم الله في أرضه ليحكموا بحكمه.

وعلى ما اخترناه نحن فالجواب ظاهر.

الأصل: ثم قال رضي الله عنه: أيها الناس، إني قد بثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أممهم، وأدبت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم، وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا، وحدوتكم بالزواج فلم تستوسقوا.

لله أنتم، أتنوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق، ويرشدكم السبيل إلا إنة قد أدبر من الدنيا ما كان مدبراً، وأقبل منها ما كان مدبراً، وأزمر الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى، بكثير من الآخرة لا يبقى، ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم بصفين ألا يكونوا اليوم أحياء، يسيغون الغصص، ويشربون الرنق، قد والله لقوا الله فوفافم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم.

أين إخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق، أين عمار، وأين ابن التيهان، وأين ذو الشهادتين، وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاهدوا على المنية وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة.

قال: ثم ضرب رضي الله عنه بيده إلى لحيته الشريفة الكريمة، فأطال البكاء، ثم قال رضي الله عنه: أوه على إخواني الذين قرأوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة، وأماتوا البدعة، دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه.

ثم نادى بأعلى صوته: الجهاد الجهاد عباد الله، ألا وإني معسكر في يومي هذا فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج.

قال نوف: وعقد للحسين رضي الله عنه في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد رحمه الله في عشرة آلاف، ولأي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر، وهو يريد الرجعة إلى صفين فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن الملجم لعنه الله، فتراجعت العساكر، فكنا كأغنام فقدت راعيها، تختطفها الذئاب من كل مكان.

الشرح: بثت لكم المواعظ: فرقها ونشرها. والأوصياء: الذين يأتهمهم الأنبياء على الأسرار الإلهية، وقد يمكن ألا يكونوا خلفاء بمعنى الإمرة والولاية، فإن مرتبتهم أعلى من مراتب الخلفاء، وحدوتكم: سقتكم كما تحدى الإبل. فلم تستوسقوا، أي لم تجتمعوا، قال:

مستوسقات لم يجدن سائقاً

قوله: يطأ بكم الطريق، أي يحملكم على المنهاج الشرعي، ويسلك بكم مسلك الحق، كأنه جعلهم ضالين عن الطريق التي يطلبونها.

وقال: أتريدون إماماً غيري يوقفكم على الطريق التي تطلبونها حتى تطأوها وتسلكوها.

ثم ذكر أنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً، وهو الهدى والرشاد، فإنه كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه مقبلاً، ثم أدبر عند استيلاء معاوية وأتباعه، وأقبل منها ما كان مدبراً، وهو الضلال والفساد، ومعاوية عند أصحابنا مطعون في دينه، منسوب إلى الإلحاد، قد طعن فيه صلى الله عليه وسلم، وروى فيه شيخنا أبو عبد الله البصري في كتاب نقض السفينانية على الجاحظ، وروى عنه أخباراً كثيرة تدل على ذلك، وقد ذكرناها في كتابنا في مناقضة السفينانية.

وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب أخبار الملوك أن معاوية سمع المؤذن يقول أشهد أن لا إله إلا الله، فقالها ثلاثاً: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: لله أبوك يابن عبد الله، لقد كنت عالي الهمة، ما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين.

قوله رضي الله عنه: وأزمع الترحال أي ثبت عزمهم عليه، يقال: أزمت الأمر، ولا يقال: أزمت على الأمر، هكذا يقول الكسائي، وأجازه الخليل والفراء.

ثم قال رضي الله عنه: إنه لم يضر إخواننا القتلى بصفين كوفهم اليوم ليسوا بأحياء حياتنا المشوبة بالنقص والغصص. ويقال: ماء رنق، بالتسكين، أي كدر، رنق الماء بالكسر، يرنق رنقاً فهو رنق، وأرنقته، أي كدرته، وعيش رنق بالكسر، أي كدر.

ثم أقسم إنهم لقوا الله فوفاهم أجورهم، وهذا يدل على ما يذهب إليه جمهور أصحابنا من نعيم القبر وعذابه. ثم قال رضي الله عنه: أين إخواني؟ ثم عددهم، فقال: أين عمار.

أخبار عمار بن ياسر

وهم عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسي - بالنون - المذحجي، يكنى أبا اليقظان، حليف بني مخزوم. ونحن نذكر طرفاً من أمره من كتاب الاستيعاب لأبي عمر بن عبد البر المحدث. قال أبو عمر: كان ياسر والد عمار عربياً قحطانياً، من عنس في مذحج، إلا أن ابنه عماراً كان مولى لبني مخزوم، لأن أباه ياسراً قدم مكة مع أخوين له، يقال لهما: مالك والحارث، في طلب أخ لهم رابع، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فزوجه أبو حذيفة أمةً يقال لها سمية، فأولدها عماراً، فأعتقه أبو حذيفة، فمن ههنا كان عمار مولى لبني مخزوم. وأبوه عربي، لا يختلفون في ذلك، وللحلف والولاء الذي بين بني مخزوم وعمار وأبيه ياسر كان احتمال بني مخزوم على عثمان، حين نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب، حتى انفتق له فتق في بطنه، زعموا، وكسروا ضلعاً من أضلاعه، فاجتمعت بنو مخزوم، فقالوا: والله لئن مات لا قتلنا به أحداً غير عثمان. قال أبو عمر: كان عمار بن ياسر ممن عذب في الله ثم أعطاهم عمار ما أرادوا بلسانه، واطمأن الإيمان بقلبه، فترل فيه: "إلا من أكره وقلبة مطمئن بالإيمان"، وهذا مما أجمع عليه أهل التفسير.

وهاجر إلى أرض الحبشة، وصلى إلى القبلتين، وهو من المهاجرين الأولين، ثم شهد بدرًا والمشاهد كلها، وأبلى بلاء

حسناً، ثم شهد الإمامة، فأبلى فيها أيضاً يومئذ، وقطعت أذنه.

قال أبو عمر: وقد روى الواقدي، عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر، قال: رأيت عماراً يوم الإمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرون؟ أنا عمار بن ياسر، هلموا إلي، وأنا أنظر إلى أذنه لد قطعته، فهي تذبذب، وهو يقاتل أشد القتال.

قال أبو عمر: وكان عمار آدم طوالاً مضطرباً أشهل العينين، بعيد ما بين المنكبين، لا يغير شيبه. قال: وبلغنا أن عماراً قال: كنت ترباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في سنه، لم يكن أحد أقرب إليه مني سناً.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: "أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يحشي به في الناس": إنه عمار بن ياسر، "كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها"، إنه أبوجهل بن هشام.

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن عماراً ملئ إيماناً إلى مشاشه". ويروى إلى أخمص قدميه". وروى أبو عمر عن عائشة، قالت: ما من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشاء أن أقول فيه إلا قلت إلا عمار لن ياسر، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنه ملئ إيماناً إلى أخمص قدميه". قال أبو عمر: وقال عبد الرحمن بن أبيز: شهدنا مع علي رضي الله عنه صفين ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان: قتل منا ثلاثة وستون، منهم عمار بن ياسر.

قال أبو عمر: ومن حديث خالد بن الوليد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أبغض عماراً أبغضه الله"، فما زلت أحبه من يومئذ.

قال أبو عمر: ومن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن عماراً جاء يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فعرف صوته، فقال: "مرحباً بالطيب المطيب - يعني عماراً - ائذنوا له".

قال أبو عمر: ومن حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: اشتاقت الجنة إلى أربعة: علي، وعمار، وسلمان، وبلال". قال أبو عمر: وفضائل عمار كثيرة جداً يطول ذكرها.

قال: وروى الأعمش، عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: شهدنا مع علي رضي الله عنه صفين، فرأيت عمار بن ياسر لا لأخذ في ناحية ولا واد من أودية صفين، إلا رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتبعونه، كأنه علم لهم. وسمعتة يقول يومئذ لهاشم بن عتبة: يا هاشم، تقدم، الجنة تحت البارقة.

محمداً وحزبه

اليوم ألقى الأحبه

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعات هجر لعلمنا أنا على الحق، وأنهم على الباطل، ثم قال:

فاليوم نضربكم على تأويله

نحن ضربناكم على تنزيله

ويذهل الخليل عن خليله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله

أو يرجع الحق على سبيله

فلم أرا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قتلوا في موطن، ما قتلوا يومئذ.
قال: وقد قال أبو مسعود البدرى وطائفة لحذيفة حين احتضر، وقد ذكر الفتنة: إذا اختلف الناس فبمن تأمرنا؟ قال:
عليكم بابن سمية، فإنه لن يفارق الحق حتى يموت - أو قال: فإنه يزول مع الحق حيث زال.
قال أبو عمر: وبعضهم يجعل هذا الحديث عن حذيفة مرفوعاً.
قال أبو عمر: وروى الشعبي، عن الأحنف، أن عماراً حمل يوم صفين، فحمل عليه ابن جزء السكسكي، وأبو الغادية
الفزاري، فأما أبو الغادية فطعنه، وأما ابن جزء فاحتز رأسه.
قلت: هذا الموضع مما اختلف فيه قول أبي عمر رحمه الله، فإنه ذكر في كتاب الكنى من الاستيعاب أبا الغادية - بالغين
المعجمة - وقال: إنه جهني من جهينة، وجهينة من قضاة، وقد نسبته ههنا فزارياً.
وقال في كتاب الكنى: إن اسم أبي الغادية يسار، وقيل مسلم.
وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف عن أبي الغادية أنه كان يحدث عن نفسه بقتل عمار، ويقول: إن رجلاً طعنه
لأنكشف المغفر عن رأسه، فضربت رأسه فإذا رأس عمار قد ندر .
وكيفية هذا القتل تخالف الكيفية التي رواها ابن عبد البر.
قال أبو عمر: وقد روى وكيع، عن شعبة، عن عبد بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، قال: لكأني أنظر إلى عمار يوم صفين
وهو صريع، فاستسقى، فأتي بشربة من لبن فشرب، فقال:

اليوم ألقى الأحبه

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي أن آخر شربة أشربها في الدنيا شربة من لبن، ثم استسقى ثانية فأنته امرأة
طويلة اليدين يناء، فيه ضياح من لبن، فقال حين شربه: الحمد لله، الجنة تحت الأسنه، والله لو ضربونا حتى يبلغونا
سعات هجر لعلمنا أنا على الحق، وأنهم على الباطل، ثم قاتل حتى قتل.
قال أبو عمر: وقد روى حارثة بن المضارب: قرأت كتاب عمر إلى أهل الكوفة: أما بعد، فإني بعثت إليكم عماراً أميراً،
وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء، من أصحاب محمد، فاسمعوا لهما، واقتدوا كما، فإني قد آثرتكم
بعبد الله على نفسي أثرة.

قال أبو عمر: إنما قال عمر: هما من النجباء، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم. "إنه لم يكن نبي إلا أعطي سبعة من
أصحابه نجباء وزراء فقهاء، وإني قد أعطيت أربعة عشر: حمزة، وجعفر، وعلياً، وحسنًا، وحسيًا، وأبا بكر، وعمر، وعبد
الله بن مسعود، وسلمان، وعماراً، وأبا ذر، وحذيفة، والمقداد، وبلالا".
قال أبو عمر: وتواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تقتل عماراً الفئته الباغية"، وهذا من إخباره
بالغيب، وأعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، وهو من أصح الأحاديث.
وكانت صفين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين، ودفنه علي رضي الله عنه في ثيابه ولم يغسله.

وروى أهل الكوفة أنه صلى عليه، وهو مذهبهم في الشهداء، أنهم لا يغسلون ولكن يصلى عليهم.
قال أبو عمر: وكانت سن عمار يوم قتل نيفاً وتسعين سنة، وقيل: إحدى وتسعين، وقيل: اثنتين وتسعين، وقيل: ثلاثاً وتسعين.

أخبار أبي الهيثم بن التيهان

ثم قال صلى الله عليه وسلم: وأين ابن التيهان، هو أبو الهيثم بن التيهان، بالياء المنقوطة، باثنتين تحتها، المشددة المكسورة، وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها، واسمه مالك، واسم أبيه مالك أيضاً، ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصاري، أحد النقباء ليلة العقبة. وقيل: إنه لم يكن من أنفسهم، وإنه من بلي بن أبي الحارث بن قضاة، وإنه حليف لبني عبد الأشهل، كان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدرًا.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب: اختلف في وقت وفاته، فذكر خليفة، عن الأصمعي، قال: سألت قومه، فقالوا: مات في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال أبو عمر: وهذا لم يتابع عليه قائله، وقيل: إنه توفي سنة عشرين، أو إحدى وعشرين. وقيل: إنه أدرك صفين، وشهداها مع علي رضي الله عنه، وهو الأكثر، وقيل: إنه قتل بها.

ثم قال أبو عمر: حدثنا خلف بن قاسم، قال: حدثنا الحسن بن رشيقي، قال: حدثنا الدولابي، قال: حدثنا أبو بكر الوجيهي، عن أبيه، عن صالح بن الوجيه، قال: وممن قتل بصفين عمار، وأبو الهيثم بن التيهان، وعبد الله بن بديل، وجماعة من البدرين رحمهم الله.

ثم روى أبو عمر رواية أخرى، فقال: حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال: حدثنا عثمان بن أحمد بن السماك، قال: حدثنا حنبل بن إسحاق بن علي، قال: قال أبو نعيم: أبو الهيثم بن التيهان، اسمه مالك، واسم التيهان عمرو بن الحارث، أصيب أبو الهيثم مع علي يوم صفين، قال أبو عمر: هذا قول أبي نعيم وغيره.

قلت: وهذه الرواية أصح من قول ابن قتيبة في كتاب المعارف، وذكر قوم أن أبا الهيثم شهد صفين مع علي رضي الله عنه، ولا يعرف ذلك أهل العلم ولا يشتونه، فإن تعصب ابن قتيبة معلوم، وكيف يقول: لا يعرفه أهل العلم، وقد قاله أبو نعيم، وقاله صالح ابن الوجيه، ورواه ابن عبد البر وهؤلاء شيوخ المحدثين.

ذوالشهادتين خزيمة بن ثابت

ثم قال رضي الله عنه: وأين ذو الشهادتين، هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمي الأنصاري من بني خطمة، من الأوس جعل رسول الله رضي الله عنه شهادته كشهادة رجلين، لقصة مشهورة، يكنى أبا عمار، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وكانت راية بني خطمة بيده يوم الفتح.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب: وشهد صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما قتل عمار قاتل حتى قتل.

قال أبو عمر: وقد روي حديث مقتله بصفين من وجوه كثيرة، ذكرناها في كتاب الاستيعاب عن ولد ولده، وهو محمد بن عمار بن خزيمة ذى الشهادة، وأنه كان يقول في صفين: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قتل عماراً الفئة الباغية"، ثم قاتل حتى قتل.

قلت: ومن غريب ما وقعت عليه من العصبية القبيحة، أن أبا حيان التوحيدي قال في كتاب لبصائر: إن خزيمة بن ثبث المقتول مع علي عفض بصفين، ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، بل آخر من الأنصار صحابي اسمه خزيمة بن ثابت، وهذا خطأ، لأن كتب الحديث والنسب تنطق بأنه لم يكن في الصحابة من الأنصار، ولا من غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين، وإنما الهوى لا دواء له، على أن الطبري صاحب التاريخ قد سبق أبا حيان بهذا القول، ومن كتابه نقل أبو حيان، والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكره، ثم أي حاجة لناصري أمير المؤمنين أن يتكثروا بخزيمة، وأبي الهيثم، وعمار وغيرهم، لو أنصف الناس هذا الرجل ورأوه بالعين الصحيحة، لعلموا أنه لو كان وحده، وحاربه الناس كلهم أجمعون، لكان على الحق، وكانوا على الباطل.

ثم قال رضي الله عنه: وأين نظراؤهم من إخوانهم، يعني الذين قتلوا بصفين معه من الصحابة، كابن بديل، وهاشم بن عتبة، وغيرهما ممن ذكرناه في أخبار صفين.

وتعاقدوا على المنية: جعلوا بينهم عقداً، وروي تعاقدوا.

وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة: حملت رؤوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها، والفجرة ههنا: أمراء عسكر الشام، تقول: قد أبردت إلى الأمير، فأنا مبرد، والرسول بريد، ويقال للفرانق البريد، لأنه ينذر قدام الأسد.

قوله: "وه على إخواني، ساكنة الواو مكسورة الهاء، كلمة شكوى وتوجع، وقال الشاعر:

ومن بعد أرض دونها وسماء

فأوه لذكرها إذا ما ذكرتها

وربما قلبوا الواو ألفاً، فقالوا: آه من كذا، آه على كذا، وربما شددوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء، فقالوا: أوه من كذا، وربما حذفوا الهاء مع التشديد، وكسروا الواو، فقالوا: أو من كذا بلا مد، وقد يقولون: آوه، بالمد والتشديد وفتح الألف وسكون الهاء، لتطويل الصوت بالشكاية، وربما أدخلوا فيه الياء تارة يمدونه، وتارة لا يمدونه، فيقولون: أوياء و آوياء وقد أوه الرجل تأويهاً، وتأوه تأوهاً إذ قال أوه، والاسم منه الآهة بالمد، قال المثقب العبدى:

تأوه آهة الرجل الحزين

إذا ما قمت أرحلها بليل

قوله رضي الله عنه: ووثقوا بالقائد فاتبعوه، يعني نفسه، أي وثقوا بأي على الحق، وتيقنوا ذلك، فاتبعوني في حرب من حاربت، وسلم من سلمت.

قوله: الجهاد الجهاد، منصوب بفعل مقدر.

وإني معسكر في يومي، أي خارج بالعسكر الى منزل يكون لهم معسكراً.

أخبار سعد بن عبادة

وقيس بن سعد بن عبادة بن دليم الخزرجي، صحابي، يكنى أبا عبد الملك، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث، وكان طوالاً جداً سبطاً شجاعاً، جواداً، وأبوه سعد رئيس الخزرج، وهو الذي حاولت الأنصار إقامته في الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يبايع أبا بكر حين بويع، وخرج إلى حوران، فمات بها، قيل: قتلته الجن لأنه بال قائماً في الصحراء ليلاً، ورووا بيتين من شعر، قيل إلهما سمعا ليلة قتله، ولم ير قائلهما:

نحن قتلنا سيد الخز

رج سعد بن عباده

ورميناه بسهمين

فلم نخطيء فؤاده

ويقول قوم: إن أمير الشام يومئذ كمن له من رماه ليلاً، وهو خارج إلى الصحراء بسهمين، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام، وقد قال بعض المتأخرين في ذلك:

يقولون سعد شكت الجن قلبه

ألا ربما صحت دينك بالغدر

وما ذنب سعد أنه بال قائماً

ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر

وقد صبرت من لذة العيش أنفس

وما صبرت عن لذة النهي والأمر

وكان قيس بن سعد من كبار شيعة أمير المؤمنين رضي الله عنه، وقائل بمحبته وولائه، وشهد معه حروبه كلها، وكان مع الحسن رضي الله عنه، ونقم عليه صلحه معاوية، وكان طالبي الرأي، مخلصاً في اعتقاده وودده، وأكد ذلك عنده فوات الأمر أباه وما نيل يوم السقيفة وبعده منه، فوجد من ذلك في نفسه وأضره، حتى تمكن من إظهاره في خلافه أمير المؤمنين، وكما قيل: "عدو عدوك صديق لك".

أبو أيوب الأنصاري

وأما أبو أيوب الأنصاري، فهو خالد بن يزيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجي، من بني النجار، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج عن بني عمرو بن عوف، حين قدم المدينة مهاجراً من مكة، فلم يزل عنده حتى بنى مسجده ومسأكنه، ثم انتقل إليها، ويوم المؤاخاة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين مصعب بن عمير.

وقال أبو عمر في كتاب الاستيعاب: إن أبا أيوب شهد مع علي رضي الله عنه مشاهدته كلها، وروى ذلك عن الكلبي وابن إسحاق، قالوا: شهد معه يوم الجمل وصفين، وكان مقدمته يوم النهروان. قوله تختطفها الذئاب، الاختطاف: أخذك الشيء بسرعة، ويروى أئتختطفها، قال تعالى: "تخافون أن يتخطفكم الناس". ويقال: إن هذه الخطبة آخر خطبة أمير المؤمنين رضي الله عنه قائماً.

من خطبة له في قدرة الله وفضل القرآن

الأصل: احمد لله المعروف من غير رؤية، الخالق من غير منصبه، خلق الخلائق بقدرته، وأستعبد الأرباب بعزته، وساد العظماء بجوده، وهو الذي أسكن الدنيا خلقة، وبعث إلى الجن والإنس رسله، ليكشفوا لهم عن غطائها، وليحذروهم من ضرائها، وليضربوا لهم أمثالها، وليصروهم عيوبها، وليهجموا عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها، وحلالها وحرامها، وما أعد الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة، من جنة ونار، وكرامة وهوان. أحمده إلى نفسه، كما أستحمد إلى خلقه، جعل لكل شيء قدراً، ولكل قدر أجلاً، ولكل أجل كتاباً.

الشرح: المنصب، بالفتح والنصب: التعب، والماضي نصب بالكسرة، وهم ناصب في قول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب

ذو نصب، مثل رجل تامر ولابن، ويقال: هوفاعل بمعنى مفعول فيه لأنه ينصب فيه ويتعب، كقولهم: ليل نائم، أي ينام فيه، ويوم عاصف، أي تعصف فيه الريح.

واستعبدت فلاناً: اتخذته عبداً. والضراء: الشدة.

ومعتبر: مصدر بمعنى الاعتبار. ومصاحها: جمع مصحة مفعلة من الصحة، كمضار جمع مضرة. وصفه سبحانه بأنه معروف بالأدلة لا من طريق الرؤية كما تعرف المرثيات، وبأنه يخلق الأشياء ولا يتعب كما يتعب الواحد منا فيما يزاوله ويياشر من أفعاله. خلق الخلائق بقدرته على خلقهم، لا بحركة واعتماد. وأسبغ النعمة عليهم: أوسعها. واستعبد الذين يدعون في الدنيا أرباباً بعزه وقهره.

وساد كل عظيم بسعة جوده، وأسكن الدنيا خلقه، كما ورد في الكتاب العزيز: "إني جاعل في الأرض خليفة".

وبعث رسله إلى الجن والإنس، كما ورد في الكتاب العزيز: "يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا".

قال: "ليكشفوا لهم عن غطاء الدنيا" أي عن عوراتها وعيوبها المستورة، وليخوفوهم من مضرتها وغرورها المفضي إلى عذاب الأبد.

وليضربوا لهم أمثالها، كالأمثال الواردة في الكتاب العزيز، نحو قوله تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض".

قوله: "وليهجموا عليهم"، هجمت على الرجل: دخلت عليه بغتةً، يقول: ليدخلوا عليهم بما في تصريف الدنيا من الصحة والسقم، وما أحل وما حرم على طريق الابتلاء.

ثم قال: وما أعد الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة، يجوز أن تكون ما معطوفة على عيوبها، فيكون موضعها نصاً، ويجوز أن يكون موضعها جرأً، ويكون من تنمة أقسام ما يعتبر به، والأول أحسن.

ثم قال رضي الله عنه: إني أحمده الله كما استحمد إلى خلقه، استحمد إليهم فعل ما يوجب عليهم حمده.

ثم قال: إنه سبحانه جعل لكل شيء من أفعاله قدراً، أي فعله مقدراً محدود الغرض، اقتضى ذلك القدر وتلك الكيفية، كما قال سبحانه: "وكل شيء عنده بمقدار"، وجعل لكل شيء مقدر وقتاً ينتهي إليه وينقطع عنده، وهو الأجل.

ولكل أجل كتاباً، أي رقوماً تعرفها الملائكة، فتعلم انقضاء عمر من ينقضي عمره، وعدم ما أظافهم في معرفة عدمه. الأصل: منها في ذكر القرآن: فالقرآن أمر زاجر، وصامت ناطق، حجة الله على خلقه، أخذ عليه ميثاقهم، وأرهن عليهم أنفسهم، أتم نوره، وأكرم به دينه، وقبض نبيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به.

فعظموا منه سبحانه ما عظم من نفسه، فإنه لم يخف عنكم شيئاً من دينه، ولم يترك شيئاً رضيهِ أو كرهه إلا وجعل له علماً بادياً، وأية محكمة، تزجر عنه، أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحداً، وسخطه فيما بقي واحداً. وأعلموا أنه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم، ولن يسخط عليكم بشيء رضيهِ ممن كان قبلكم. وإنما تسيرون في أثر بين، وتتكلمون برجوع قول قد قاله الرجال من تحكم، قد كفاكم مؤونة دينكم، وحثكم على الشكر، وأفترض من ألسنتكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى، وجعلها منتهى رضاه، وحاجته من خلقه. فاتقوا الله الذي أنتم بعينه، ونواصيكم بيده، وتقبلكم في قبضته، إن أسرتم علمه، وإن أعلنتم كتبه، قد وكل بذلك حفظة كراماً، لا يسقطون حقاً، ولا يشتون باطلاً.

وأعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن، ونوراً من الظلم، ويخلده فيما أشتتت نفسه، ويتزله منزل الكرامة عنده، في دار أصطنعها لنفسه، ظلها عرشه، ونورها بهجته، وزوارها ملائكته، ورفقاؤها رسله، فبادروا المعاد، وسابقوا الآجال، فإن الناس يوشك أن ينقطع بهم الأمل ويهرقهم الأجل، ويسد عنهم باب التوبة، فقد أصبحتم في مثل ما سأل إليه الرجعة من كان قبلكم، وأنتم بنو سبيل، على سفر من دار ليست من بداركم، وقد أؤذنتم منها بالارتحال، وأمرتم فيها بالزاد. الشرح: جعل القرآن أمراً وزاجراً، لما كان خالقه - وهو الله سبحانه - آمراً زاجراً به، فأسند الأمر والزجر إليه، كما تقول: سيف قاتل، وإنما القاتل الضارب به، وجعله صامتاً ناطقاً، لأنه من حيث هو حروف وأصوات صامت: إذ كان العرض يستحيل أن يكون ناطقاً لأن النطق حركة الأداة بالكلام، والكلام يستحيل أن يكون ذا أداة ينطق بالكلام بها، وهو من حيث يتضمن الإخبار والأمر والنهي والنداء وغير ذلك من أقسام الكلام، كالناطق، لأن الفهم يقع عنده، وهذا من باب المجاز كما تقول: هذه الربوع الناطقة، وأخبرتني الديار بعد رحيلهم بكذا. ثم وصفه بأنه حجة الله على خلقه، لأنه المعجزة الأصلية.

أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقه، وأرهن عليه أنفسهم، لما كان سبحانه قد قرر في عقول المكلفين أدلة التوحيد والعدل، ومن جملة مسائل العدل النبوة، ويثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عقلاً، كان سبحانه بذلك كالأخذ ميثاق المكلفين بتصديق دعوته، وقبول القرآن الذي جاء، وجعل به أنفسهم رهناً على الوفاء بذلك، فمن خالف خسر نفسه، وهلك هلاك الأبد.

هذا تفسير المحققين، ومن الناس من يقول: المراد بذلك قصة الذرية قبل خلق آدم عليه السلام، كما ورد في الأخبار، وكما فسر قوم عليه الآية.

ثم ذكر رضي الله عنه أن الله تعالى قبض رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد فرغ إلى الخلق بالقرآن من الإكمال والإتمام، كقوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي"، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه.

قال: فعظموا من الله ما عظم من نفسه، لأنه سبحانه وصف نفسه بالعظمة والجلال في أكثر القرآن، فالواجب علينا أن نعظمه على حسب ما عظم نفسه سبحانه.

ثم علل وجوب تعظيمه، وحسن أمره لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يخف عنا شيئاً من أمر ديننا، وذلك لأن الشرعيات مصالح المكلفين، وإذا فعل الحكيم سبحانه بنا ما فيه صلاحنا، فقد أحسن إلينا، ومن جملة صلاحنا تعريفنا من الشرعيات ما فعله لطف ومفض بنا إلى الثواب، وهذا أبلغ ما يكون من الإحسان، والمحسن يجب تعظيمه وشكره.

قال: لم يترك شيئاً إلا وجعل له نصاً ظاهراً يدل عليه، أو علماً يستدل به عليه، أي إما منصوص عليه صريحاً، أو يمكن أن يستنبط حكمه من القرآن إما بذكره أو بتركه فيبقى على البراءة الأصلية، وحكم العقل.

قوله: فرضاه فيما بقي واحد، معناه أن ما لم ينص عليه صريحاً، بل هو في محل النظر، ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه، فيحله بعضهم، ويحرمه بعضهم، بل رضا الله سبحانه أمر واحد، وكذلك سخطه، فليس يجوز أن يكون شيء من الأشياء يفتي فيه قوم بالحل وقوم بالحرمة، وهذا قول منه رضي الله عنه بتحريم الاجتهاد، وقد سبق منه رضي الله عنه مثل هذا الكلام مراراً. قوله: واعلموا أنه ليس يرضى عنكم... الكلام إلى منتهاه، معناه أنه ليس يرضى عنكم بالاختلاف في الفتاوى والأحكام، كما اختلف الأئمة من قبلكم، فسخط اختلافهم قال سبحانه: "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء".

وكذلك ليس يسخط عليكم بالاتفاق والاجتماع الذي رضيه ممن كان قبلكم من القرون.

ويجوز أن يفسر هذا الكلام بأنه لا يرضى عنكم بما سخطه على الذين من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة في التوحيد والعدل، ولا يسخط عليكم بما تعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التي رضيها ممن كان قبلكم في التوحيد والعدل، فيكون الكلام مصروحاً إلى الأصول لا إلى الفروع.

قال: وإنما تسيرون في أثر بين، أي أن الأدلة واضحة، وليس مراده الأمر بالتقليد، وكذلك قوله وتكلمون برجع فول قد قاله الرجال من قبلكم، يعني كلمة التوحيد لا إله إلا الله، قد قالها الموحدون من قبل هذه الملة، لا تقليداً، بل بالنظر والدليل، فقولوها أنتم كذلك ثم ذكر أنه سبحانه قد كفى الخلق مؤونة دنياهم، قال الحسن البصري: إن الله تعالى كفانا مؤونة دنيانا، وحثنا على القيام بوظائف ديننا، فليته كفانا مؤونة ديننا، وحثنا على القيام بوظائف دنيانا.

قوله: وافترض من ألسنتكم الذكر، افترض عليكم أن تذكروه وتشكروه بألسنتكم، ومن متعلقة بمحذوف دل عليه المصدر المتأخر، تقديره: وافترض عليكم الذكر من ألسنتكم الذكر.

ثم ذكر أن التقوى المفترضة هي رضا الله وحاجته من خلقه، لفظة حاجته مجاز، لأن الله تعالى غني غير محتاج، ولكنه لما بالغ في الحث والحض عليها، وتوعد على تركها جعله كالاحتاج إلى الشيء، ووجه المشاركة أن المحتاج يحث ويحض على حاجته. وكذلك الأمر المكلف إذا أكد الأمر.

قوله: أنتم بعينه، أي يعلم أحوالكم، ونواصيكم بيده، الناصية: مقدم شعر الرأس: أي هو قادر عليكم قاهر لكم، متمكن من التصرف فيكم، كالإنسان القابض على ناصية غيره.

وتقلبكم في قبضته، أي تصرفكم تحت حكمه، لو شاء أن يمنعكم منعكم، فهو كالشيء في قبضة الإنسان، إن شاء استدأ القبض عليه، وإن شاء تركه.

ثم قال: إن أرتم أمراً علمه، وإن أظهرتموه كتبه، ليس على أن الكتابة غير العلم، بل هما شيء واحد، ولكن اللفظ مختلف. ثم ذكر أن الملائكة موكلة بالمكلف، وهذا هو نص الكتاب العزيز، وقد تقدم القول في ذلك.

ثم انتقل إلى ذكر الجنة، والكلام يدل على أنها في السماء، وأن العرش فوقها.

ومعنى قوله اصطنعها لنفسه إعظامها وإجلالها، كما قال لموسى: "وأصطنعتك لنفسى"، ولأنه لما تعارف الناس في تعظيم ما يصنعونه، أن يقول الواحد منهم لصاحبه: قد وهبتك هذه الدار التي اصطنعتها لنفسى، أي أحكمتها، ولم أكن في بنائها متكلفاً بأن أبنيتها لغيري، صح وحسن من البليغ الفصيح أن يستعير مثل ذلك فيما لم يصطنعه في الحقيقة لنفسه، وإنما هو عظيم جليل عنده.

قوله: ونورها بمجته، هذا أيضاً مستعار، كأنه لما كان إشراق نورها عظيماً جداً نسبه إلى بهجة الباري، وليس هناك بهجة على الحقيقة، لأن البهجة حسن الخلقة، قال تعالى: "وأنبئتنا فيها من كل زوج بهيج"، أي من كل صنف حسن. قوله: وزوارها ملائكته، قد ورد في هذا من الأخبار كثير جداً، ورفقاؤها: رسله، من قوله تعالى: "وحسن أولئك رفيقاً". ويوشك، بكسر الشين، فعل مستقبل، ماضيه أوشك، أي أسرع، ورهقه الأمر بالكسر: فاجأه، ويسد عنهم باب التوبة، لأنه لا تقبل عند نزول الموت بالإنسان من حيث كان يفعلها خوفاً فقط، لا لقبح القبيح، قال تعالى: "وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن".

وإنما قال: في مثل ما سأل إليه الرجعة من كان قبلكم، كقوله سبحانه: "حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون".

وبنو سبيل: أرباب طريق مسافرون، وأوذن فلان بكذا: أعلم. وآذنته: أعلمته، وقد تقدم لنا كلام بالغ في التقوى وماهيتها وتأكيد وصاة الخالق سبحانه والرسول عليه الصلاة والسلام بها.

جاء في التقوى من أخبار

روى الميرد في الكامل أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: اتق الله يا أمير المؤمنين فقال له رجل: أتألت على أمير المؤمنين أي أتنتقصه فقال عمر: دعه، فلا خير فيهم إذا لم يقولوها، ولا خير فينا إذا لم تقل لنا.

وكتب أبو العتاهية إلى سهل بن صالح وكان مقيماً بمكة: أما بعد، فأنا أوصيك بتقوى الله الذي لا غناء بك عن تقاته، وأتقدم إليك عن الله، ونذكرك مكر الله فيما دبت به إليك ساعات الليل والنهار، فلا تخدعن عن دينك، فإن ساعاتك وأوقاتك إن ظفرت بذلك منك، وجدت الله فيك أسرع مكرًا، وأنفذ فيك أمرًا، ووجدت ما سكرت به في غير ذات الله غير راد عنك يد الله، ولا مانع لك من أمر الله، ولعمري لقد ملأت عينك الفكر واضطربت في سمعك أصوات العبر، ورأيت آثار نعم الله نسختها آثار نقمه حين استهزىء بأمره، وجوهر بمعاندته. ألا إن في حكم الله أنه من أكرمه الله،

فاستهان بأمره، أهانه الله. السعيد من وعظ بغيره، لا وعظك الله في نفسك وجعل عظتك في غيرك، ولا جعل النيا عليك حسرة وندامة، برحمته.

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا كرم كالتقوى، ولا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عقل كالتدبير، ولا قرين كحسن الخلق، ولا ميراث كالأدب، ولا فائدة كالتوفيق، ولا تجارة كالعمل الصالح ولا ربح كثواب الله، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزهد في الحرام، ولا علم كالتفكر ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حسب كالتواضع، ولا شرف كالعلم، ولا مظاهرة أوفق من المشورة، فاحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، واذكر الموت وطول البلى".

الأصل: وأعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار، فارجحوا نفوسكم، فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا، فرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه، والعثرة تدميه، والرمضاء تحرقه. فكيف إذا كان بين طابقيين من نار، ضجيع حجر، وقرين شيطان.

أعلمتم أن مالكا إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه، وإذا زجرها توثبت بين أباها جزعاً من، زجرته. أيها اليفن الكبير، الذي قد لهنه القتير، كيف أنت إذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق، ونشبت لجوامع، حتى أكلت لحوم السواعد.

فالله الله معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفسحة قبل الضيق، فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تغلق رهائنها.

أسهروا عيونكم، وأضمروا بطونكم، وأستعملوا أقدامكم، وأنفقوا أموالكم، وخذوا من أحسادكم فجودوا بها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها، فقد قال الله سبحانه: "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"، وقال تعالى: "من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم".

فلم يستنصركم من ذل، ولم يستقرضكم من قل، أستنصركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، وأستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً. فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره، رافق بهم رسله، وأزارهم ملائكته، وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبداً، وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم"، أقول ما تسمعون، والله المستعان على نفسي وأنفسكم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الشرح: الرمضاء: الأرض الشديدة الحرارة، والرمض، بالتحريك: شدة وقع الشمس على الرمل وغيره، وقد رمضى يومنا بالكسر، يرمض رمضاً، اشتد حره، وأرض رمضة الحجارة، ورمضت قدمه من الرمضاء: احترقت. والطابق، بالفتح: الآجرة الكبيرة، وهو فارسي معرب.

وضجيع حجر: يومئ فيه إلى قوله تعالى: "وقودها الناس والحجارة"، قيل: إنها حجارة الكبريت.

وقرين شيطان: يومئ فيه إلى قوله تعاك: "قال قرينه ربنا ما أطغيته".

وحطم بعضها بعضاً: كسره أو أكله، والخطمة من أسماء النار، لأنها تحطم ما تلقى، ومنه سمي الرجل الكثير الأكل:

حطمة.

واليفن: الشيخ الكبير. ولهزه: خالطه، ويقال له حينئذ: ملهوز، ثم أشمط، ثم أشيب، ولهزت القوم: خالطتهم ودخلت بينهم.

والقتير: الشيب، وأصله رؤوس المسامير في الدروع تسمى قتيراً، والتحمت أطواق النار بالعظام: التفت عليها، وانضمت إليها، والتصقت بها، والجوامع: جمع جامعة، وهي الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق. ونشبت: علقت. والسواعد: جمع ساعد، وهو الذراع. وفي من قوله: في الصحة قبل السقم، متعلقة بالخذوف الناصب لله، وهو اتقوا، أي اتقوه سبحانه في زمان صحتكم، قبل أن يتزل بكم السقم، وفي فسحة أعماركم قبل أن تبدل بالضيق. وفكاك الرقاب: بفتح الفاء: عتقها قبل أن تغلق رهائنها، يقال غلق الرهن، بالكسر، إذا استحققه المرتهن بألا يفكه الراهن في الوقت المشروط، وكان ذلك من شرع الجاهلية، فنهى عنه النبوة، وقال: لا يغلق الرهن. وخذوا من أجسادكم، أي أتعبوها بالعبادة حتى تنحل. والقل: القلة. والذل: الذلة. وحسيس النار: صوئها. واللغوب: النصب.

أخبار وطرف

ونظير قوله صلى الله عليه وسلم: "استقرضكم وله خزائن السموات والأرض"، ما رواه المبرد في الكامل عن أبي عثمان المازني، عن أبي زيد الأنصاري، قال: وقف علينا أعرابي في حلقة يونس النحوي، فقال: الحمد لله كما هو أهله، وأعوذ بالله أن اذكر به وأنساه، خرجنا من المدينة، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثلاثين رجلاً ممن أخرجته الحاجة، وحمل على المكروه، ولا يمرضون مرضاهم، ولا يدفنون ميتهم، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه، والله يا قوم لقد خعت حتى أكلت النوى المحرق، ولقد مشيت حتى انتعلت الدم، وحتى خرج من قدمي بخص ولحم كثير، أفلا رجل يرحم ابن سبيل وفل طريق، ونضو سفر فإنه لا قليل من الأجر، ولا غنى عن ثواب الله، ولا عمل بعد الموت، وهو سبحانه يقول: "من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً"، ملي وفب ماجد واجد، جواد لا يستقرض من عوز، ولكنه يبلو الأخيار. قال المازني: فبلغني أنه لم يبرح حتى أخذ ستين ديناراً.

ومن كلام علي بن عبيدة الرياحي: الأيام مستودعات الأعمال، ونعم الأرضون هي لمن بذر فيها الخير والعمل الصالح. وخطب الحجاج: فقال: أيها الناس، إنكم أغراض حمام وفرص هلكة. قد أنذركم القرآن، ونادى برحيلكم الجديدان. ها إن لكم موعداً لا تؤخر ساعته، ولا تدفع هجمته، وكأن قد دلفت إليكم نازلته، فتعلق بكم ريب المنون، وعلقت بكم أم اللهيم الحيزبون، فماذا هيأتم للرحيل؟ وماذا أعددتُم للتريل؟ من لم يأخذ أهبة الحذر، نزل به مرهوب القدر.

خطبة لأبي الشخباء العسقلاني

قلت: وقد شغف الناس في المواعظ بكلام كاتب محدث، يعرف بابن أبي الشخباء العسقلاني وأنا أورد ههنا خطبة من مواعظه، هي أحسن ما وجدته له، ليعلم الفرق بين الكلام الأصيل والمولد: أيها الناس، فكلوا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقة، ولا تسيموا أطماعكم في رياض الأمان المتشعبة، ولا تميلوا صغواكم إلى زبارج الدنيا المحيبة، فتظل أجسامكم في هشائمها عاملة نصبة، أما علمتم أن طباعها على الغدر مركبة، وأنها لأعمار أهلها منتهية، ولما ساءهم منتظرة مرتقبة، في هبتها راجعة متعقبة، فانضوا رحمكم الله ركائب الاعتبار مشرقة ومغربة، وأجروا خيول التفكير مصعدة ومصوبة، هل تجدون إلا قصوراً على عروشها خربة، ودياراً معطشة من أهلها مجذبة أين الأمم السالفة المتشعبة، والجبارة الماضية المتغلبة، والملوك المعظمة المرجبة، أولو الحفدة والحجة، والزخارف المعجبة، والجيوش الجارة اللجة والخيام الفضفاضة المطنية، والجياد الأعوجية المجنبة، والمصاعب الشدقمية المصحبة، واللدان المثقفة المدرية، والماذية الحصينة المنتخبة، طرقت والله خيامهم غير منتبهة، وأزارهم من الأسقام سيوفاً معطبة، وسيرت إليهم الأيام من نوبها كتائب مكتبة، فأصبحت أظفار المنية من فهجهم قانية محتضبة، وغدت أصوات الندابات عليهم مجلبة، وأكلت لحومهم هوام الأرض السغبة. ثم إنهم مجموعون ليوم لا يقبل فيه عذر ولا معتبة، وتجازى كل نفس بما كانت مكتسبة، فسعيدة مقربة تجري من تحتها الأنهار مثوبة، وشقية معذبة في النار مكبكة.

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب، وهي كما تراها ظاهرة التكلف، بينة التوليد، تخطب على نفسها، وإنما ذكرت هذا، لأن كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إن كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث، صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره، وهؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم، فضلوا عن النهج الواضح وركبوا بنايات الطريق، ضالاً وقلة معرفة بأساليب الكلام، وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول.

رأي للمؤلف في كتاب نهج البلاغة

لا يخلو إما أن يكون كل نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً، أو بعضه. والأول باطل بالضرورة لأننا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين صلى الله عليه وسلم، وقد نقل المحدثون كلهم أو جلهم، والمؤرخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك. والثاني يدل على ما قلناه، لأن من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب لا بد أن يفرق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولد، وإذا وقف على كراس واحد يتضمن كلاماً لجماعة من الخطباء، أو لاثنتين منهم فقط، فلا بد أن يفرق بين الكلامين، ويميز بين الطريقتين، ألا ترى أنا مع معرفتنا بالشعر ونقده، لو تصفحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونفسه، وطريقته ومذهبه في القريض، ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئاً

كثيراً، لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه، ولا من شعره، وكذلك غيرهما من الشعراء ولم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة.

وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماءً واحداً، ونفساً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكل سورة منه، وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً وبعضه صحيحاً، لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن قائل هذا القول يطرق على نفسه ما لا قبل له به، لأننا متى فتحنا هذا الباب، وسلطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو، لم نثق بصحة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول: هذا الخبر منقول، وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والأدب وغير ذلك، وكل أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم، والأئمة الراشدين، والصحابة والتابعين، والشعراء والمترسلين، والخطباء، فلناصر أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره، وهذا واضح.

ومن كلام له قاله للبرج بن مسهر الطائي

وقد قال له بحيث يسمعه: "لا حكم إلا لله"، وكان من الخوارج: الأصل: أسكت قبحك الله يا أئرم، فو الله لقد ظهر الحق فكنت فيه ضئيلاً شخصك، خفياً صوتك، حتى إذا نعر الباطل، نجمت بنجوم قرن الماعز.

الشرح: البرج بن مسهر - بضم الميم وكسر الهاء - بن الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طي بن داود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. شاعر مشهور من شعراء الخوارج، نادى بشعارهم بحيث يسمعه أمير المؤمنين رضي الله عنه، فزجره.

وقبحك الله، لفظة معناها كسرك، يقال: قبحت الجوزة، أي كسرتها، وقيل: قبحه: نحاه عن الخير. وكان البرج ساقط الثنية، فأهانته بأن دعاه به، كما يهان الأعور بأن يقال له: يا أعور.

والضئيل: الدقيق الخفي، ضؤل الرجل، بالضم ضالة: نحف، وضؤل رأيه: صغر، ورجل متضائل، أي شخت، وكذلك: ضؤلة.

ونعر الباطل: صاح، والمراد أهل الباطل، ونعر فلان في الفتنة: نهض فيها.

ونجم: طلع، أي طلع بلا شرف ولا شجاعة، ولا قدم، بل على غفلة، كما ينبت قرن الماعز. وهذا من باب البديع، وهو

أن يشبه الأمر يراد إهانتته بالمهين، ويشبه الأمر يراد إعظامه بالعظيم، ولو كان قد تكلم في شأن ناجم يريد تعظيمه، لقال: نجم بنجوم الكوكب من تحت الغمام، بنجوم نور الربيع من الأكمام، ونحو ذلك.

ومن خطبة له في وصف المتقين

الأصل: روي أن صاحباً لأمر المؤمنين رضي الله عنه يقال له همام، كان رجلاً عابداً، فقال له: يا أمير المؤمنين: صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم، فتناقل رضي الله عنه عن جوابه، ثم قال: يا همام أتق الله وأحسن: ف "إن الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون".

فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي لى الله عليه وآله وصحبه. ثم قال عليه السلام: أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق - حين خلقهم - غنياً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معاشهم، ووضعهم من الدنيا مواضعهم، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطلقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيمهم التواضع. غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم نزلت أنفسهم منهم في البلاء، كالذي نزلت في الرخاء لولا الأجل الذي كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة، وشروهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة. تجارة مربحة، يسرها لهم ربحهم. أرادهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها.

أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلوها ترتيباً، يحزنون به أنفسهم، ويستشيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصيب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول أذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم.

وأما النهار فحلما علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم فشفقون، إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وري أعلم بي مني بنفسي.

اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، وأجعلني أفضل مما يظنون، وأغفر لي ما لا يعلمون.

الشرح: همام المذكور في هذه الخطبة: هو همام بن شريح بن يزيد بن مرة بن عمرو بن جابر بن يحيى بن الأصهب بن

كعب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذهل بن مران بن صيفي بن سعد العشيرة.

وكان همام هذا من شيعة أمير المؤمنين رضي الله عنه وأوليائه، وكان ناسكاً عابداً، قال له: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين

حتى أصير بوصفك إياهم، كالناظر إليهم.

فتثاقل عن جوابه، أي أبطأ فعزم عليه، أي أقسم عليه، وتقول لمن يكرر عليك الطلب والسؤال: قد عزم علي، أي أصر وقطع، وكذلك تقول في الأمر تريد فعله وتقطع عليه: عزمت عزمًا وعزمًا وعزيمة وعزيمة.

فإن قلت: كيف جاز له رضي الله عنه أن يتثاقل عن جواب المسترشد؟ قلت: يجوز أن يكون تثاقل عن جوابه، لأنه علم أن المصلحة في تأخير الجواب، ولعله كان حضر المجلس من لا يجب أن يجيب وهو حاضر، فلما انصرف أجاب، ولعله رأى أن تثاقله عن الجواب يشد تشوق همam إلى سماعه، فيكون أنجع في موعظته، ولعله كان من باب تأخير البيان إلى وقت الحاجة، لا من باب تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولعله تثاقل عن الجواب ليرتب المعاني التي خطرت له في ألفاظ مناسبة لها، ثم ينطق بها كما يفعله المتروى في الخطبة والقريض.

فإن قلت: فما معنى إجابته له أولاً بقوله: يا همam، اتق الله وأحسن ف "إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ؟ وأي جواب في هذا عن سؤال همam؟

قلت: كأنه لم ير في بادئ الحال شرح صفات المتقين على التفصيل، فقال لهمam: ماهية التقوى معلومة في الجملة، فاتق الله وأحسن، فإن الله قد وعد في كتابه أن يكون ولياً وناصرًا لأهل التقوى والإحسان، وهذا كما يقول لك قائل: ما صفات الله الذي أعبدته أنا والناس؟ فتقول له: لا عليك ألا تعرف صفاته مفصلة، بعد أن تعلم أنه خالق العالم، وأنه واحد لا شريك له فلما أبى همam إلا الخوض فيما سأله على وجه التفصيل، قال له: إن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم، ويروى، حيث خلقهم وهو غني عن طاعتهم: لأنه ليس بجسم فيستضر بأمر أو ينتفع به، وقسم بين الخلق معاشهم، كما قال سبحانه: "نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا".

وفي قوله: وضعهم مواضعهم معنى قوله: "ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً"، فكأنه رضي الله عنه أخذ الألفاظ، فألغاها وأتى بمعناها، فلما فرغ من هذه المقدمة شرع في ذكر صفات المتقين، فقال: إنهم أهل الفضائل ثم بين ما هذه الفضائل، فقال: منطقتهم الصواب.

فإن قلت: أي فائدة في تقديم تلك المقدمة، وهي كون البارئ سبحانه غنياً لا تضره المعصية، ولا تنفعه الطاعة. قلت: لأنه لما تضمنت الخطبة مدح الله تعالى للمتقين وما أعده لهم من الثواب، وذم للعاصين وما أعده لهم من العقاب العظيم، فرما يتوهم متوهم أن الله تعالى ما رغب في الطاعة هذا الترغيب البالغ، وخوف من المعصية هذا التخويف البالغ، إلا وهو منتفع بالأولى، مستضر بالثانية، فقدم رضي الله عنه تلك المقدمة نفياً لهذا الوهم.

في فضل الصمت وآفات اللسان

واعلم أن القول في خطر الكلام وفضل الاقتصار في المنطق وسيع جداً، وقد ذكرنا منه طرفاً فيما تقدم، ونذكر الآن منه طرفاً آخر.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من صمت نجاً"، وقال أيضاً: "الصمت حكم وقليل فاعله"، وقال له صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه: أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك، فقال: قل: آمنت بالله ثم استقم قال: فما أتقي؟ فأوماً

بيده إلى لسانه.

وقال له رضي الله عنه عقبة بن عامر: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: املك عليك لسانك، وابك على خطيئتك، وليسعك بيتك.

وروى سهل بن سعد الساعدي، عنه صلى الله عليه وسلم: من يتوكل لي بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة".

وقال: "من وقى شر قبحه وذنبه ولقلقه فقد وقى".

وروى سعيد بن جبير مرفوعاً: إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تشكو اللسان، تقول: أي بني آدم، اتق الله فينا، فإنك إن استقممت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا".

وقد روي أن عمر رأى أبا بكر وهو يمد لسانه، فقال: ما تصنع؟ قال: هذا الذي أوردني الموارد، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "ليس شيء في الجسد إلا يشكو إلى الله تعالى اللسان على حدته".

وسمع ابن مسعود يلبى على الصفا، ويقول يا لسان، قل خيراً تغنم، أو اصمت تسلم من قبل أن تندم. ف قيل له: يا أبا عبد الرحمن، أهذا شيء سمعته، أم تقوله من تلقاء نفسك؟ قال: بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أكثر خطايا ابن آدم من لسانه".

وروى الحسن مرفوعاً: "رحم الله عبداً تكلم فغنم، أو سكت فسلم".

وقالت التلامذة لعيسى عليه السلام: دلنا على عمل ندخل به الجنة، قال: لا تنطقوا أبداً، قالوا: لا نستطيع ذلك، قال: فلا تنطقوا إلا بخير.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله عند لسان كل قائل، فاتق الله امرؤ علم ما يقول".

وكان يقول: لا شيء أحق بطول سجن من لسان، وكان يقال: لسانك سبع، إن أطلقت أكلك.

في حكمة آل داود: حقيق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه، مقبلاً على شأنه. وكان يقال: من علم أن كلامه من عمله، أقل كلامه فيما لا ينفعه.

وقال محمد بن واسع: حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم.

اجتمع أربعة حكماء: من الروم، والفرس، والهند، والصين، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إذا تكلمت بالكلمة ملكتي، ولم أملكها، وإذا لم أتكلم ملكتها ولم تملكني. وقال الآخر: عجبت للمتكلم، إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت.

واعلم أن آفات اللسان كثيرة:

فمنها الكلام فيما لا يعينك، وهو أهون آفات اللسان، ومع ذلك فهو عيب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

وروي أنه رضي الله عنه مر بشهيد يوم أحد، فقال أصحابه: هنيئاً له الجنة! قال: وما يدريكم لعله كان يتكلم فيما لا

يعنيه وقال ابن عباس: خمس هي أحسن وأنفع من حمر النعم: لا تتكلم فيما لا يعينك، فإنه فضل لا آمن عليه الوزر.

ولا تتكلم فيما يعينك حتى تجد له موضعاً، فرب متكلم في أمريعنيه قد وضعه في غير موضعه فأساء. ولا تمار حليماً ولا

سفيهاً، فإن الحليم يقلبك ، والسفيه يؤذيك. واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفه عما تحب أن يعفبك عنه. واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالجرائم.

ومنها: فضول الكلام وكثرته، وترك الاقتصار، وكان يقال: فضول المنطق وزيادته نقص في العقل، وهما ضدان متنافيان، كلما زاد أحدهما نقص الآخر.

وقال عبد الله بن مسعود: إياكم وفضول الكلام، حسب امرئ ما بلغ به حاجته.

وكان يقال: من كثر كلامه كثر سقطه.

وقال الحسن: فضول الكلام كفضول المال، كلاهما مهلك.

ومنها الخوض في الباطل، والحديث فيما لا يحل، كحديث النساء ومجالس الخمر. ومقامات الفساق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: "وكننا نخوض مع الخائضين".

ومنها المراء والجدال، قال رضي الله عنه: "دع المراء وإن كنت محقاً".

وقال مالك بن أنس: "المراء يقسي القلب، ويورث الضغائن".

وقال سفيان الثوري: لو خالفت أخي في رمانة فقال: حلوة، وقلت: حامضة لسعي بي إلى السلطان.

وكان يقال: صاف من شئت ثم أغضبه بالجدال والمراء، فليرمينك بداهية تمنعك العيش.

وقيل لميمون بن مهران: مالك لا تفارق أحبا لك عن قلبي؟ قال: لأني لا اشاريه، ولا أماريه.

ومنها التقعر في الكلام بالتشدد، والتكلف في الألفاظ، قال النبي صلى الله عليه وسلم "أبغضكم إلي، وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون المتشدقون".

وقال رضي الله عنه: "هلك المتنطعون... ثلاث مرات، والتنطع: هو التعمق والاستقصاء"، وقال عمر: "إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان".

ومنها الفحش والسب والبذاء قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش، ولا يرضى الفحش".

وقال رضي الله عنه: "ليس المؤمن بالطعان، ولا باللعان، ولا بالسباب، ولا البذى".

وقال رضي الله عنه: "لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء".

ومنها المزاح الخارج عن قانون الشريعة، وكان يقال: "من مزح استخف به".

وكان يقال: "المزاح فحل لا ينتج إلا الشر".

ومنها الوعد الكاذب، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "العدة دين، وقد أثني الله سبحانه على إسماعيل، فقال: "إنه كان صادق الوعد، وقال سبحانه: "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود" ومنها: الكذب في القول واليمين، والأمر فيهما مشهور.

ومنها الغيبة، وقد تقدم القول فيها.

قوله رضي الله عنه: "وملبسهم الاقتصاد"، أي ليس بالثمين جداً، ولا بالحقير جداً، كالخرق التي تؤخذ من على المزابل،

ولكنه أمر بين أمرين، وكان رضي الله عنه يلبس الكرايس، وهو الخام الغليظ، وكذلك كان عمر رضي الله عنه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس اللين تارة، والخشن أخرى.

قوله رضي الله عنه: "ومشيهم التواضع، تقديره، وصفة مشيهم التواضع، فحذف المضاف، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: "وأقصد في مشيك وأغضض من صوتك".

رأى محمد بن واسع ابناً له يمشي، وهو يتبختر ويميس في مشيته، فصاح به، فأقبل، فقال له: ويلك لو عرفت نفسك لقصدت في مشيك، أما امك فأمة ابتعتها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في الناس من أمثاله والأصل في هذا الباب، قوله تعالى: "ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً".

وقوله: غضوا أبصارهم أي خفضوها وغمضوها، وغضضت طرفي عن كذا: احتملت مكروهه.

وقوله: وقفوا أسمعهم على العلم النافع لهم أي لم يشغلوا سمعهم بشيء غير العلوم النافعة، أي لم يشتغلوا بسماع شعر ولا غناء ولا أحاديث أهل الدنيا.

قوله: "نزلت أنفسهم منهم في البلاء، كالذي نزلت في الرخاء"، يعني أنهم قد طابوا نفساً في البلاء والشدة كطيب أنفسهم بأحوالهم في الرخاء والنعمة، وذلك لقلة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها، وتقدير الكلام من جهة الإعراب: نزلت أنفسهم منهم في حال البلاء نزولاً كالنزول الذي نزلته منهم في حال الرخاء، فموضع كالذي نصب، لأنه صفة مصدر محذوف، والموصول قد حذف العائد إليه، وهو الهاء في نزلته كقولك: ضربت الذي ضربت، أي ضربت الذي ضربته. ثم قال رضي الله عنه: "إنهم من شدة شوقهم إلى الجنة، ومن شدة خوفهم من النار تكاد أرواحهم أن تفارق أجسادهم، لولا أن الله تعالى ضرب لهم آجالاً ينتهون إليها.

ثم ذكر أن الخالق لما عظم لا أعينهم استصغروا كل شيء دونه، وصاروا لشدة يقينهم ومكاشفتهم، كمن رأى الجنة فهو يتنعم فيها، وكمن رأى النار وهو يعذب فيها، ولا ريب أن من يشاهد هاتين الحالتين، يكون على قدم عظيمة من العبادة والخوف والرجاء، وهذا مقام جليل، ومثله قوله رضي الله عنه في حق نفسه: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً". والواو في "الجنة" واو مع، وقد روي بالعطف بالرفع على أنه معطوف على هم، والأول أحسن.

ثم وصفهم بحزن القلوب، ونخافة الأجسام، وعفة الأنفس وخفة الحوائج، وأن شرورهم مأمونة على الناس، وأنهم صبروا صبراً يسيراً أعقبهم نعيماً طويلاً.

ثم ابتدأهم فقال: تجارة مربحة، أي تجارهم تجارة مربحة، فحذف المبتدأ. وروي: تجارة مربحة"، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل.

قوله: أما الليل بالنصب على الظرفية، وروي "أما الليل" على الابتداء.

قوله: تالين، منصوب على أنه حال، إما من الضمير المرفوع بالفاعلية فيصافون أو من الضمير المحرور بالإضافة في أقدم أمهم.

والترتيل: التبين والإيضاح، وهو ضد الإسراع والعجل ويروى: يرتلونه على أن الضمير يعود إلى القرآن، والرواية الأولى

يعود الضمير فيها إلى أجزاء القرآن.

قوله: يحزنون به أنفسهم، أي يستجلبون لها الحزن به، ويستشيرون به دواء دائهم، إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

به يشتفي من ظن أن لاتلاقيا

فقلت لها إن البكاء لراحة

وقال آخر:

فالدمع من عينيك مسدول

شجاك من ليلتك الطول

حزن على الخدين محلول

وهو إذا أنت تأملتته

ثم ذكر أنهم إذا مروا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها، واطمأنوا بها، طمعاً في نيله، وتطلعت أنفسهم إليها شوقاً، أي اشرأبت.

و"نصب أعينهم منصوب على الظرفية، وروي بالرفع، على أنه خبر إن، والظن ههنا يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يكون بمعنى العلم، كقوله تعالى: "ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون". وأصغى إلى الكلام: مال إليه بسمعه. وزفير النار: صوتها.

وقد جاء في فضل قراءة القرآن شيء كثير، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغرها عظمه الله".

وقال صلى الله عليه وسلم: "لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار"، وقال: أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن.

وقال: أهل القرآن أهل الله وخاصته. وقال: "إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها؟ قال: "تلاوة القرآن وذكر الموت، وقال رضي الله عنه: "إن الله سبحانه لأشد أذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته، وقال الحسن رحمه الله: ما دون القرآن من غنى، ولا بعد القرآن من فاقة.

ثم ذكر رضي الله عنه صورة صلاحهم وركوعهم، فقال: "حانون على أوساطهم، حنيت العود: عطفته، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم في الصلاة.

مفترشون لجباههم، باسطون لها على الأرض.

ثم ذكر الأعضاء السبعة التي مباشرتها بالأرض فروض في الصلاة وهي: الجبهة، والكفان، والركبتان، والقدمان.

قوله رضي الله عنه: "يطلبون إلى الله"، أي يسألونه، يقال: طلبت إليك في كذا، أي سألتك، والكلام على الحقيقة، مقدر فيه حال محذوفة يتعلق بها حرف الجر، أي يطلبون سائلين إلى الله في فكأك رقايمهم، لأن طلب لا يتعدى بحرف الجر.

ثم لما فرغ من ذكر الليل، قال: وأما النهار فحلما، علماء، أبرار أتقياء، هذه الصفات هي التي يطالع عليها الناظرون لهم نهاراً، وتلك الصفات المتقدمة من وظائف الليل.

ثم ذكر ما هم عليه من الخوف، فقال رضي الله عنه: إن خوفهم قد براهم بري القداح، وهي السهام، وأحدها قدح، فينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بهم من مرض، نظير هذا قول الشاعر:

بين البيوت من الحياء سقيما

ومخرق عنه القميص تخاله

تحت اللواء على الخميس زعيما

حتى إذا رفع اللواء رأيته

ويقال للمتقين لشدة خوفهم: كأنهم مرضى، ولا مرض بهم. وتقول العرب للكرام من الناس، القليلي المأكَل والمشرب، رافضي اللباس الرفيع، ذوي الأجسام النحيفة: مرض من غير مرض، ويقولون أيضاً للمرأة ذات الطرف الغضبيض الفاتر، ذات الكسل: مريضة من غير مرض، قال الشاعر:

حديثه عهد بالإقاقة من سقم

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها

ما قيل في الخوف،

واعلم أن الخوف مقام جليل من مقامات العارفين، وهو أحد الأركان التي هي أصول هذا الفن، وهو التقوى التي حث الله تعالى عليها، وقال: إن أكرم الناس عنده أشدهم خوفاً له، وفي هذه الآية وحدها كفاية، وإذا نظرت القرآن العزيز وجدت أكثره ذكر المتقين، وهم الخائفون، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء".

وقال رضي الله عنه: "أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً، وأحسنكم فيما أمر به ونهى عنه نظراً".

وقال يحيى بن معاذ: "مسكين ابن آدم، لو خاف النار كما يخاف الفقر، دخل الجنة".

وقال ذو النون المصري: ينبغي أن يكون الخوف أغلب من الرجاء، فإن الرجاء إذا غلب تشوش القلب.

وقيل لبعض الصالحين: من آمن الخلق غدا؟ قال: أشدهم خوفاً اليوم.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام من أصحابك، يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: إنك والله

لأن تصحب قوماً يخوفونك حتى يدركك الأمن، خير لك من أن تصحب قوماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: "والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة: هم الذين يعصون ويخافون المعصية؟

قال: لا، بل الرجل يصوم، ويتصدق، ويخاف ألا يقبل منه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله، أو قطرة دم أريقت في سبيل

الله.

وقال رضي الله عنه: "سبعة يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم رجلاً ذكر الله في خلوة، ففاضت عيناه.

قوله رضي الله عنه: "ويقول قد خولطوا"، أي أصابتهم جنة.

ثم قال: "ولقد خالطهم أمر عظيم"، أي مازجهم خوف عظيم تولهوا لأجله، فصاروا كالجنانين.

ثم ذكر أنهم لا يستكثرون في كثير من أعمالهم، ولا يرضيهم اجتهدهم؟ وأنهم يتهمون أنفسهم، وينسبونها إلى التقصير في العبادة، وإلى هذا نظر المتنبّي، فقال:

ويظن دجلة ليس تكفي شاربا

يستصغر الخطر الكبير لنفسه

ثم قال: ومن أعمالهم مشفقون، أي مشفقون من عباداتهم ألا تقبل، وإلى هذا نظر أبو تمام، فقال:

فكأنما حسناته آثام

يتجنب الآثام ثم يخافها

ومثل قوله: "أنا أعلم بنفسي من غيري". قوله رضي الله عنه لمن زكاه نفاقاً: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك. وقوله: "اللهم لا تؤاخذني بما يقولون..." إلى آخر الكلام مفرد مستقل بنفسه منقول عنه رضي الله عنه، أنه قال لقوم مر عليهم وهم مختلفون في أمره، فمنهم الحامد له، ومنهم الذام، فقال: اللهم لا تؤاخذني... الكلمات إلى آخرها، ومعناه: اللهم إن كان ما ينسبه الذامون إلي من الأفعال الموجبة للذم حقاً، فلا تؤاخذني بذلك، واغفر لي ما لا يعلمونه من أفعالي، وإن كان ما يقوله الحامدون حقاً، فاجعلي أفضل مما يظنون في.

الأصل: فمن علامة أحدهم، أنك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتحملاً في فاقة، وبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتخرجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر. يبيت حذراً، ويصبح فرحاً، حذراً لما حذر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة. إن أستصعبت عليه نفسه فيما تكرهه، لم يعطها سؤلها فيما تحب.

قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمل، قليلاً زلفه، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، متزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان فيم الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين. يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكروه، حاضراً معروفه، مقبلاً خير، مدبراً شره.

في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من ييغض، ولا يأثم فيمن يحب. يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا يناز بالالقباب، ولا يضار بالجوار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق. إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة.

قال: فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه: "أما والله لقد كنت أخافها عليه".

ثم قال: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين فقال رضي الله عنه: ويحك إن لكل أجل وقتاً لا يعدوه، وسبباً لا يتجاوزوه، فمهلاً لا تعد لمثلها، فإنما نفث الشيطان على لسانك.

الشرح: هذه الألفاظ التي أولها: قوة في دين، بعضها يتعلق حرف الجر فيه بالظاهر، فيكون موضعه نصباً بالمفعولية، وبعضها يتعلق بمحذوف، فيكون موضعه نصباً أيضاً على الصفة، ونحن نفصلها.

فقوله: قوة في دين حرف الجر ههنا متعلق بالظاهر، وهو "قوة"، تقول: فلان قوي في كذا وعلى كذا، كما تقول: مررت بكذا، وبلغت إلى كذا.

و"وحزماً في لين، ههنا لا يتعلق حرف الجر بالظاهر، لأنه لا معنى له، ألا ترى أنك لا تقول: فلان حازم في اللين، لأن اللين ليس أمراً يحزم الإنسان فيه، وليس كما تقول: فلان حازم في رأيه أو في تدبيره فوجب أن يكون حرف الجر متعلقاً بمحذوف، تقديره: وحزماً كائناً في لين.

وكذلك قوله: وإيماناً في يقين، حرف الجر متعلق بمحذوف: أي كائناً في يقين، أي مع يقين.

فإن قلت: الإيمان هو اليقين فكيف قال: وإيماناً في يقين؟ قلت: الإيمان هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل، واليقين هو سكون القلب فقط، فأحدهما غير الآخر.

قوله: "وحرصاً في علم، حرف الجر ههنا يتعلق بالظاهر، و"في بمعنى "على" كقوله تعالى: "ولأصلبنيكم في جذوع النخل". قوله: وقصداً في "غنى" حرف الجر متعلق بمحذوف، أي هو مقصد مع كونه غنياً، وليس يجوز أن يكون متعلقاً بالظاهر، لأنه لا معنى لقولك: اقتصد في الغنى، إنما يقال: اقتصد في النفقة، وذلك الاقتصاد موصوف بأنه مقارن للغنى وبجامع له.

قوله: وخشوعاً في عبادة حرف الجر ههنا يحتمل الأمرين معاً.

قوله: وتجملاً في فاقة، حرف الجر ههنا متعلق بمحذوف، ولا يصح تعلقه بالظاهر، لأنه إنما يقال: فلان يتجمل في لباسه ومروءته، مع كونه ذا فاقة، ولا يقال: يتجمل في الفاقة، على أن يكون التجمل متعدياً إلى الفاقة. قوله: وصبراً في شدة حرف الجر ههنا يحتمل الأمرين.

قوله: "وطلباً في حلال حرف الجر ههنا يتعلق بالظاهر وفي بمعنى اللام.. قوله: ونشاطاً في هدى" حرف الجر يحتمل الأمرين.

قوله: "وتخرجاً عن طمع، حرف الجر ههنا يتعلق بالظاهر لا غير.

قوله: يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل قد تقدم مثله.

قوله: بمسي وهمه الشكر، هذه درجة عظيمة من درجات العارفين، وقد أثنى الله تعالى على الشكر والشاكرين في كتابه في مواضع كثيرة، نحو قوله: "فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفروني" فقرن الشكر بالذكر. وقال تعالى: "ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم".

وقال تعالى: "وسيجزي الله الشاكرين".

ولعلو مرتبة الشكر طعن إبليس في بني آدم، فقال: ولا تجد أكثرهم شاكرين، وقد صدقه الله تعالى في هذا القول فقال:

"وقليل من عبادي الشكور".

وقال بعض أصحاب المعاني: قد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن، فقال: "لئن شكرتم لأزيدنكم".

واستثنى في خمسة أمور: "وهي الإغناء، والإجابة، والرزق، والمغفرة، والتوبة.

فقال: "فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء".

وقال: "بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء".

وقال: "يرزق من يشاء"، وقال: "ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"، وقال: "ويتوب الله على من يشاء"، وقال بعضهم:

كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلاً، وهو خلق من أخلاق الربوبية، قال تعالى في صفة نفسه: "والله شكور حلیم".

وقد جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الجنة، فقال: "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده"، وجعله خاتمة كلامهم

أيضاً فقال: "وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين".

وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فلم تقوم الليل، وتتعبد نفسك؟ قال: أفلا

أكون عبداً شكوراً قوله رضي الله عنه: ويصبح وهمه الذكر"، هذه أيضاً درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين، قال

تعالى: "فاذكروني أذكركم" قال بعض العارفين لأصحابه: أنا أعلم متى يذكركني ربي. ففزعوا منه فقال: إذا ذكرته ذكرني،

وتلا الآية، فسكتوا.

وقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً".

وقال: "فاذكروا الله عند المشعر الحرام"، وقال: فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، وقال: "فإذا قضيتُم الصلاة

فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم"، وقال: "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم"، وقال في ذم المنافقين:

"ولا يذكرون الله إلا قليلاً". وقال: "واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة، وقال: "ولذكر الله أكبر.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط المهشيم".

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أحب أن يرتع في رياض الجنة، فليكثر من ذكر الله".

وسئل عليه السلام: أي الأعمال أفضل؟ قال: "أن تموت ولسانك رطب بذكر الله".

وقال صلى الله عليه وسلم، حكاية عن الله تعالى: "إذا ذكرني عبدي في نفسه، ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملاء

ذكرته في ملاء خيرٍ من ملته، وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، إذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا مشى إلي

هرولت إليه". وقال صلى الله عليه وسلم "ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم

الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده" قوله صلى الله عليه وسلم: "يبيت حذراً ويصبح فرحاً، حذراً لما خذر من الغفلة، وفرحاً

بما أصاب من الفضل والرحمة". وقد تقدم ذكر الخوف.

وقد عرض صلى الله عليه وسلم ههنا بالرجاء المقابل للخوف، فإن فرح العارف بما أصاب من الفضل والرحمة يمكن أن

يحمل على أنه فرح بمجرد ما أصاب من فضل الله ورحمته. ويمكن أن يحمل على أنه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه،

لذا استدل على وصوله إليه وقوي ظنه بظفره به، بما عجل الله تعالى له من الفضل والرحمة في الدنيا، ومقام الرجاء

للعارفين مقام شريف، وهو في مقابلة مقام الخوف، وهو المقام الذي يوجد العارف فيه فرحاً، قال الله تعالى: "إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً يرجون تجارةً لن تبور". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: حكايةً عن الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء". ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل من أصحابه، وهو يجود بنفسه، فقال: كيف تجددك؟ قال: أجدي أخاف ذنوبي، وأرجو رحمة ربي. فقال صلى الله عليه وسلم: "ما اجتماعي في قلب عبد في هذا الوطن إلا أعطاه الله ما رجاه، وأمنه مما خافه".

قوله صلى الله عليه وسلم: "إن استصعبت عليه نفسه"، أي صارت صعبة غير منقادة، يقول: إذا لم تطاوعه نفسه إلى ما هي كارهة له لم يعطها مرادها فيما تحبه. قوله صلى الله عليه وسلم: "قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى"، يقال للفرح المسرور: إنه لقرير العين، وقرت عينه تقرر، والمراد بردها، لأن دمة السرور باردة ودمة الحزن حارة. وهذا الكلام يحتمل أمرين: أحدهما أن يعني بما لا يزول الباريء سبحانه، وهذا مقام شريف جداً أعظم من سائر المقامات، وهو حب العارف لله سبحانه، وقد أنكره قومٌ فقالوا: لا معنى لمحبة الباريء إلا المواظبة على طاعته، ونحوه قول أصحابنا المتكلمين: إن محبة الله تعاك للعبد هي إرادته لثوابه، ومحبة العبد للباريء هي إرادته لطاعته، فليست المحبة عندهم شيئاً زائداً على الإرادة ولا يجوز أن تتعلق بذات الله سبحانه، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالحدوث، وخالفهم شيخنا أبو الحسن، فقال: إن الإرادة يمكن أن تتعلق بالباقي، ذكر ذلك في الكلام في الأكوان في أول التصفح، فأما إثبات الحب في الجملة فقد نطق به القرآن قال سبحانه: "يحبهم ويحبونه". وقال أيضاً: "والذين آمنوا أشد حبا لله" وقال: "إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله". وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبشٍ قد تمنطق به، فقال: "انظروا إلى الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون". ويقال: إن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم، وتغيرت ألوانهم، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الخوف من النار، قال: حق على الله أن يؤمن من يخافه، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطي من رجاه. ثم مر إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشد نحولاً، وعلى وجوههم، مثل المرائي من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حب الله عز وجل، فقال: أنتم المقربون، ثلاثاً. وقال بعض العارفين:

وحباً لأنك أهلٌ لذاكا

فشغلي بذكرك عن سواكا

فكشفك لي الحجب حتى أراكا

ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

أحبك حبين: حب الهوى

فأما الذي هو حب الهوى

وأما الذي أنت أهلٌ له

فلا الحمد من ذا ولا ذاك لي

ليس يريد بكشف الحجب والرؤية ما يظنه الظاهريون من أنها الإبصار بالعين، بل المعرفة التامة، وذلك لأن المعارف النظرية يصح أن تصير ضرورية عند جمهور أصحابنا، فهذا أحد محملي الكلام. وثانيهما: أن يريد بما لا يزول، نعيم الجنة، وهذا أدون المقامين، لأن الخالص من العارفين يحبونه ويعشقونه سبحانه لذاته، لا خوفاً من النار، ولا شوقاً إلى الجنة، وقد قال بعضهم: لست أَرْضَى لنفسي أن أكون كأجير السوء، إن دفعت إليه الأجرة رضي وفرح، وإن منعها سخط وحزن، إنما أحبه لذاته. وقال بعض شعرائهم شعراً من جملته:

فهجره أعظم من ناره

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه، من هذا الكثير، نحو قوله: "لم أعبدته خوفاً ولا طمعاً، لكنني وجدته أهلاً للعبادة فعبدته" قوله صلى الله عليه وسلم: "يمزج الحلم بالعلم"، أي لا يحلم إلا عن علم بفضل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون. قوله: "والقول بالعمل"، أي لا يقتصر على القول، ومثل هذا قول الأحوص:

وأراك تفعل ماتقول وبعضهم

قوله صلى الله عليه وسلم: "تراه قريباً أمله"، أي ليست نفسه متعلقة بما عظم من آمال الدنيا، وإنما قصارى أمره أن يؤمل القوت والملبس. قليلاً زلله: أي خطؤه. قوله: "متزوراً أكله"، أي قليلاً، ويحمد من الإنسان الأكل التز، قال أعشى باهلة:

تكفيه حزة فلذ إن ألم بها

وقال متمم بن نويرة:

لقد كفن المنهال تحت رداءه

قوله صلى الله عليه وسلم: "مكظوماً غيظه" كظم الغيظ من الأخلاق الشريفة، قال زيد بن علي رضي الله عنه: "ما سري بجرعة غيظٍ أبجرعها وأصبر عليها حمر النعم".

فتى غير مبطن العشيات أروعا

وجاء رجل إلى الربيع بن زياد الحارثي، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن فلاناً يغتتابك وينال منك، فقال: والله لأغيظن من أمره بذلك، قال الرجل: ومن أمره؟ قال: الشيطان عدو الله، استغواه ليؤثمه، وأراد أن يغضبني عليه فأكافئه، والله لا أعطيه ما أحب من ذلك. غفر الله لنا وله. وجهل إنسان على عمر بن عبد العزيز، فقال: أظنك أردت أن يستفزي الشيطان بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً انصرف عافاك الله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الغضب يفسد الإيمان، كما يفسد الصبر العسل". وقال إنسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني، فقال: "لا تغضب"، فأعاد عليه السؤال، فقال: "لا تغضب"، فقال: زدي، فقال: "لا أجد مزيداً". ومن كلام بعض الحكماء لا يفي عز الغضب بذلة الاعتذار. قوله: "إن كان في الغافلين"، معناه أنه لا يزال ذاكر الله تعالى، سواء كان جالساً مع الغافلين أو مع الذاكرين، أما إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلبه، وأما إذا كان مع الذاكرين فإنه يذكره بقلبه ولسانه. قوله صلى الله عليه وسلم: "يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه"، من كلام المسيح عليه السلام في الإنجيل: "أحبوا أعداءكم، وصلوا

قاطعيكم، واعفوا عن ظالميكم، وباركوا علي لأعينكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء، الذي تشرق شمسهُ على الصالحين والفجرة، ويترل مطره على المطيعين والأئمة". قوله صلى الله عليه وسلم: "بعيداً فحشه"، ليس يعني به أنه قد يفحش تارة، ويترك الفحش تارات، بل لا فحش له أصلاً، فكفى عن العدم بالبعد، لأنه قريب منه. قوله: "ليناً قوله"، العارف بسام طلق الوجه، لين القول، وفي صفات النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس بفظ ولا صحاب". قوله: "في الزلازل وقور"، أي لا تحركه الخطوب الطارقة، ويقال: إن علي بن الحسين رضي الله عنه كان يصلي، فوقعت عليه حية، فلم يتحرك لها، ثم انسابت بين قدميه فما حرك إحدهما عن مكانه، ولا تغيرلونه. قوله: "لا يحيف على من يبغض"، هذا من الأخلاق الشريفة النبوية، وفي كلام أبي بكر في صفات من يصلح للإمامة: إن رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإن غضب لم يخرج غضبه عن الحق. قوله: "يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه"، لأنه إن أنكر ثم شهد عليه فقد ثبت كذبه، وإن سكت ثم شهد عليه فقد أقام نفسه في مقام الرية. قوله: "أولاً يناز الألقاب"، هذا من قوله تعالى: "ولا تنازوا بالألقاب". قوله: "ولا يضار بالجار"، في الحديث المرفوع: "أوصاني ربي بالجار حتى ظننت أن يورثه". قوله: "ولا يشمت بالمصائب"، نظير قول الشاعر:

ولا جزعاً من طارق الحدثان

فلست تراه شامتاً بمصيبةٍ

قوله: "إن صمت لم يغمه صمته"، أي لا يحزن لفوات الكلام، لأنه يرى الصمت مغتماً لا مغماً. قوله: "وإن ضحك لم يعل صوته"، هكذا كان يضحك وسول الله صلى الله عليه وسلم، أكثره التبسم، وقد يفر أحياناً، ولم يكن من أهل القهقهة والكركرة. قوله: "وإن بغي عليه صبر"، هذا من قول الله تعالى: "ثم بغي عليه لينصرنه الله". قوله: "نفسه منه في عناء" لأنه يتعبها بالعبادة، والناس لا يلقون منه عنتاً ولا أذى فحالمهم بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه. قوله: "فصعق همام"، أغشى عليه ومات، قال الله تعالى: "فصعق في لي السموات ومن في الأرض".

بعض أحوال العارفين

واعلم أن الوجد أمرٌ شريف، قد اختلف الناس فيه، فقالت الحكماء فيه أقوالاً، وقالت الصوفية فيه أقوالاً، أما الحكماء فقالوا: الوجد هو حالة تحدث للنفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة، إذا كان قد ورد عليها وارد مشوق. وقال بعضهم: الوجد هو اتصال النفس بمبادئها المجردة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتصال. وأما الصوفية فقد قال بعضهم: الوجد رفع الحجاب، ومشاهدة المحبوب. وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السر، وهو فناؤك من حيث أنت أنت. وقال بعضهم: الوجد سر الله عند العارفين ومكاشفة من الحق توجب الفناء عن الحق. والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت العبارة، وقد مات كثير من الناس بالوجد عند سماع وعظ، أو صفقة مطرب، والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً، وقد رأينا نحن في زماننا من مات بذلك فجأة. قوله: "كانت نفسه فيها"، أي مات. ونفث الشيطان على لسانك، أي تكلم بلسانك، وأصله النفخ بالفم، وهو أقل من التفل، وإنما نفى أمير المؤمنين القائل: "فهلاً أنت يا أمير المؤمنين" لأنه اعترض في غير موضع الاعتراض، وذلك أنه لا يلزم من موت العامي عند وعظ العارف أن يموت العارف عند وعظ

نفسه، لأن انفعال العامي ذي الاستعداد التام للموت عند سماع المواعظ البالغة أتم من استعداد العارف عند سماع كلام نفسه، أو الفكر في كلام نفسه، لأن نفس العارف قوية جداً، والآلة التي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجر. فإن قلت: فإن جواب أمير المؤمنين صلى الله عليه وسلم للسائل غير هذا الجواب قلت: صدقت، إنما أجابه من حيث يعلم هو والسامعون، وتصل أفهامهم إليه، فخرج معه إلى حديث الآجال، وأما أوقات مقدرة لا تتعدها، وما كان يمكنه صلى الله عليه وسلم أن يذكر الفرق بين نفسه ونفوسهم، ولا كانت الحال تقتضيه، فأجابه بجواب مسكت، وهو مع إسكاته الخصم حق وعدل عن جواب يحصل منه اضطراب، ويقع فيه تشويش، وهذا نهاية ال! داد وصحة القول.

ومن خطبة له يصف فيها المنافقين

الأصل: نحمده على ما وفق له من الطاعة، وذاد عنه من المعصية، ونسأله لمنتته تماماً، ولحبله اعتصاماً. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، خاض إلى رضوان الله كل غمرة، وتجرع فيه كل غصة، وقد تلون له الأدنون، وتألب عليه الأقصون، وخلعت عليه العرب أعنتها، وضربت إلى محاربتة بطون رواحله، حتى أنزلت بساحته عداوتها، من أبعد الدار، وأسحق المزار. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلون، والزالون المزلون، يتلونون ألواناً، ويفتنون افتناناً، ويعمدونكم بكل عماد، ويرصدونكم بكل مرصاد، قلوبهم دوية، وصفاحهم نقية. يمشون الخفاء، ويدبون الضراء، وصفهم دواء، وقولهم شفاء، وفعلهم الداء العياء، حسدة الرخاء، ومؤكدو البلاء، ومقنطو الرجاء. لهم بكل طريق صريع، وإلى كل قلب شفيع، ولكل شجر دموع، يتقارضون الثناء، ويتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا، وإن عدلوا كشفوا، وإن حكموا اسرفوا. قد أعدوا لكل حق باطلاً، ولكل قائم مائلاً، ولكل حي قاتلاً، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليل مصباحاً، يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلامهم، يقولون فيشبهون، ويصفون فيموهون. قد هونوا الطريق، وأضلوا المضيق، فهم لمة الشيطان، وحمة النيران: "أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون". الشرح: الضمير في "له" وهو الهاء راجع إلى "ما" التي بمعنى "الذي"، وقيل: بل هو. راجع إلى الله سبحانه، كأنه قال: "نحمده على ما وفق من طاعته"، والصحيح هو الأول، لأن "له" في الفقرة الأولى بإزاء "عنه" في الفقرة الثانية. والهاء في "عنه" ليست عائدة إلى "الله" وذاد: طرد، والمصدر الزيادة. وخاض كل غمرة، مثل قولك: ارتكب كل مهلكة، وتفحم كل هول. والغمرة: ما ازدحم وكثر من الماء، وكذلك من الناس، والجمع غمار. والغصة: الشجاء، والجمع غصص، وتلون له الأدنون: تغير عليه أقاربه ألواناً، وتألب عليه الأقصون: تجمع عليه الأبعدون عنه نسباً، وخلعت إليه العرب أعنتها، مثل، معناه أوجفوا إليه مسرعين لمحاربتة، لأن الخيل إذا خلعت أعنتها كان أسرع لجريها. وضربت إلى محاربتة بطون رواحله، كناية عن إسراع العرب نحوه للحرب، لأن الرواحل إذا ضربت بطونها لتساق كان أوحى لها، ومراده أنهم كانوا فرساناً وركباناً. قوله: "حتى أنزلت بساحته عداوتها"، أي حربها، فعبر عنها بالعداوة، لأن العداوة سبب الحرب، فعبر بالسبب عن المسبب، ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناك، يعنون الماء، لما كان اعتقادهم أن السماء سبب الماء.

وأسحق المزار، أبعدده، مكان سحيق، أي بعيد، والسحق بصم السين: البعد، يقال: "سحقاً له"، ويجوز ضم الحاء، كما قالوا: عسر وعسر، وسحق الشيء، بالضم، أي بعد وأسحقه الله أبعدده. والمزار: المكان الذي يزار منه، أو المكان الذي يزار فيه، والمراد ههنا هو الأول ومن قرأ كتب السيرة علم ما لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذات الله سبحانه من المشقة، واستهزاء قريش به في أول الدعوة، ورميهم إياه بالحجارة، حتى أدموا عقبيه، وصياح الصبيان به، وفرث الكرش على رأسه، وقتل الثوب في عنقه وحصره وحصر أهله في شعب بني هاشم سنين عدة، محرمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم، حتى كادوا يموتون جوعاً، لولا أن بعض من كان يحنو لرحم أو لسبب غيره، فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً، ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق في الشمس، وطردهم إياهم عن شعاب مكة، حتى خرج من خرج منهم إلى الحبشة، وخرج علنه مستجيراً منهم تارة بثقيف، وتارة ببني عامر، وتارة بريعة الفرس، وبغيرهم. ثم أجمعوا على قتله والفتك به ليلاً، حتى هرب منهم لائذاً بالأوس والخزرج، تاركاً أهله وأولاده، وما حوته يده، ناجياً بحشاشة نفسه، حتى وصل إلى المدينة، فناصره الحرب ورموه بالمناسر والكتائب، وضربوا إليه آباط الإبل، ولم يزل منهم في عناء شديد، وحروب متصلة، حتى أكرمه الله تعالى ونصره، وأيد دينه وأظهره. ومن له أنسٌ بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه.

سمي النفاق نفاقاً من النافقاء، وهي بيت اليربوع، له بابان يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر، وكذلك الذي يظهر ديناً ويطن غيره. والضالون المضلون: الذين يضلون أنفسهم ويضلون غيرهم، وكذلك الزالون المزلون، زل فلان عن الأمر، أي أخطأ، وأزله غيره.

قوله: "يفتنون" يتشعبون فنوناً، أي ضروباً. ويعمدونكم، أي يهدونكم ويفدحونكم، يقال: عمده المرض يعمده، أي هده، ومنه قولهم للعاشق: عميد القلب. قوله: "بعماد"، أي بأمر فادح وخطب مؤلم، وأصل العمد انشداخ سنام البعير، وماضيه: عمد السنام بالكسر، عمداً فهو عمد.

ويرصدونكم: يعدون المكائد لكم، أرصدت: أعددت، ومنه في الحديث: "إلا أن أرصده لدين علي". وقلب دوى، بالتخفيف، أي فاسد، من داء أصابه، وامرأة دوية، فإذا قلت: رجل دوى، بالفتح، استوى فيه المذكر والمؤنث والجماعة، لأنه مصدر في الأصل، ومن روى: "دوية" بالتشديد، على بعده، وإنما شدده ليقابل "نقية". والصفاح: جمع صفحة الوجه وهي ظاهره، يقول: باطنهم عليل، وظاهرهم صحيح. يمشون الخفاء، أي في الخفاء، ثم حذف الجار فنصب، وكذلك يدبون الضراء، والضراء: شجر الوادي الملتف، وهذا مثل يضرب لمن يختل صاحبه، يقال: هويدب له الضراء ويمشي له الخمر، وهو جرف الوادي. ثم قال: "وصفهم داء، وقولهم شفاء، وفعلهم الداء العياء"، أي أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين، وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين. والداء العياء: الذي يعيي الأساة.

ثم قال: "حسدة الرخاء" يحسدون على النعم. "ومؤكدو البلاء"، إذا وقع واحد من الناس في بلاء أكدوه عليه بالسعيايات والنمائم، وإغراء السلطان به، ولقد أحسن أبو الطيب في قوله يذم البشر:

"ومقنطو الرجاء"، أي أهل الرجاء، أي يبدلون بشروهم وأذاهم رجاء الراحي قنوطاً. قوله: "وإلى كل قلب شفيح"، يصف خلابة ألسنتهم وشدة ملقهم، فقد استحوذوا على قلوب الناس بالرياء والتصنع. قوله: "ولكل شجودموع"، الشجود: الحزن، أي يكون تباكياً وتعملاً لا حقاً، عند أهل كل حزن ومصاب. يتقارضون الثناء: أي يثني زيد على عمرو، لثني عمرو عليه في ذلك المجلس، أو يبلغه فيثني عليه في مجلس آخر، مأخوذ من القرض. ويتراقبون الجزاء: يرتقب كل واحد منهم على ثنائه ومدحه لصاحبه جزاءً منه. إما بالمال أو بأمر آخر، نحو ثناء يثني عليه، أو شفاعته يشفع له، أو نحو ذلك. والإلحاف في السؤال: الاستقصاء فيه، وهو مذموم، قال الله تعالى: "لا يسألون الناس إلحافاً". قوله: "وإن عدلوا كشفوا"، أي إذا عدلوا أحدهم كشف عيوبك في ذلك اللوم والعدل، وجبهك بها، وربما لا يستحي أن يذكرها لك. محضر ممن لا تحب ذكرها بحضرته، وليسوا كالناصحين على الحقيقة، الذين يعرضون عند العتاب بالذنب تعريضاً لطيفاً ليقنع الإنسان عنه. وإن حكموا أسرفوا، إذا سألك أحدهم ففوضته في مالك أسرف ولم يقنع بشيء، وأحب الاستئصال. قد أعدوا لكل حق باطلاً، يقيمون الباطل في معارضة الحق، والشبهة في مصادمة الحجة. ولكل دليل قائم وقول صحيح ثابت، احتجاجاً مائلاً مضاداً لذلك الدليل، وكلاماً مضطرباً لذلك القول. ولكل باب مفتاحاً، أي ألسنتهم ذلقة قادرة على فتح المغلقات، للطف توصلهم، وظرف منطقهم. ولكل ليل مصباحاً، أي كل أمر مظلم فقد أعدوا له كلاماً ينيره ويضيئه، ويجعله كالمصباح الطارد لليل. ويتوصلون إلى مطامعهم بإظهار اليأس عما في أيدي الناس، وبالزهد في الدنيا. وفي الأثر: شركم من أخذ الدنيا بالدين. ثم قال: إنما فعلوا ذلك ليقيموا به أسواقهم، أي لتنفق لسعتهم. والأعلاق: جمع علق، وهو السلعة الثمينة، يقولون فيشبهون، يوقعون الشبه في القلوب، ويصفون فيموهون، التمين، وأصله أن تطلي الحديد بذهب يحسنها. قد هيأوا الطريق، أي الطريق الباطل قد هيأوها بتمويهاتهم. وأضلعوا المضيق: أمالوه، وجعلوه ضلعاً، أي معوجاً، أي جعلوا المسلك الضيق معوجاً بكلامهم وتلبيسهم، فإذا أسلكوه إنساناً اعوج لاعوجاجه. واللمة: بالتخفيف: الجماعة، والحة: بالتخفيف أيضاً: السم، وكنى عن إحراق النار بالحة للمشابهة في المضرة.

ومن خطبة له في ذكر بعض صفات الله

الأصل: الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه، وجلال كبريائه، ما حير مقل العقول من عجائب قدرته، وردع خطرات همهم النفوس عن عرفان كنه صفته. وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة إيمان وإيقان، وإخلاص وإذعان. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله وأعلام الهدى دارسة، ومناهج الدين طامسة، فصاع بالحق، ونصح للخلق، وهدى إلى الرشد، وأمر بالقصد، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم واعلموا عباد الله، أنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يرسلكم هملاً، علم مبلغ نعمه

عليكم، وأحصى إحسانه إليكم، فاستفتحوه وأستنجحوه، وأطلبوا إليه وأستمحوه، فما قطعكم عنه حجاب، ولا أغلق عنكم دونه باب. وإنه لبكل مكان، وفي كل حين وأوان، ومع كل إنس وجان، لا يثلمه العطاء، ولا ينقصه الحباء، ولا يستنفده سائل، ولا يستقصيه نائل، ولا يلويه شخص عن شخص، ولا يلهيه صوت عن صوت، ولا تحجزه هبة عن سلب، ولا يشغله غضب عن رحمة، ولا توله رحمة عن عقاب، ولا يجنه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون. قرب فنأى، وعلا فدنا، وظهر فبطن، وبطن فعلن، ودان ولم يدن.

لم يذر الخلق باحتيال، ولا أستعان بهم لكلال. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها الزمام والقوام، فتمسكوا بوثائقها، واعتصموا بحقائقها، تؤل بكم إلى أكنان الدعة، وأوطان السعة، ومعافل الحرز، ومنازل العز، في يوم تشخص فيه الأصار، وتظلم له الأقطار، وتعطل فيه صرور العشار، وينفخ في الصور، فتزهق كل مهجة، وتبكم كل لهجة، وتذل الشم الشوامخ، والصم الرواسخ، فيصير صلدها سراباً رقيقاً، ومعهدا قاعاً سملقاً، فلا شفيغ يشفع، ولا حميم ينفع، ولا معذرة تدفع. الشرح: أظهر سبحانه من آثار سلطانه، نحو خلق الأفلاك ودخول بعضها في بعض، كالميل الذي يشتمل على المائل، وفلك التدوير وغيرهما، ونحو خلق الإنسان وما تدل كتب التشريح من عجيب الحكمة فيه، ونحو خلق النبات والمعادن، وترتيب العناصر وعلاماتها، والآثار العلوية المتجددة، حسب تجدد أسبابها، ما حير عقول هؤلاء، وأشعر بأنها إذا لم تحط بتفاصيل تلك الحكم مع أنها مصنوعة، فالأولى ألا تحيط بالصانع الذي هو بريء عن المادة وعلائق الحس. والمقل: جمع مقلّة: وهي شحمة العين التي تجمع السواد والبياض، ومقلت الشيء: نظرت إليه بمقلتي، وأضاف المقل إلى "العقول" مجازاً، ومراده البصائر. وردع: زجر ودفع. وهماهم النفوس: أفكارها وما يهتمهم به عند التمثيل والروية في الأمر، وأصل المهمة، صوتٌ يسمع، لا يفهم محصولة. والعرفان: المعرفة، وكنه الشيء: نهايته وأقصاه. والإيقان: العلم القطعي وإذعان: الانقياد. والأعلام: المنار والجبال يستدل بها في الطرقات. والمناهج: السبل الواضحة والطامسة كالدارسة. وصدع بالحق: بين، وأصله الشق يظهر ما تحته، ويقال: نصحت لزيد، وهو أفصح من قولك: نصحت زيداً.

والقصد: العدل، والعبث: ما لا غرض فيه، أو ما ليس فيه غرض مثله، والهمل: الإبل بلا راع، وقد أهملت الإبل: أرسلتها سدى. قوله: "علم مبلغ نعمه عليكم، وأحصى إحسانه إليكم"، أي هو عالم بكمية إنعامه عليكم علماً مفصلاً، وكل من علم وقدر نعمته على غيره كان أخرى أن تشتد نعمته عليه عند عصيانه له وجرأته عليه، بخلاف من يجهل قدر نعمته على الغير، فإنه لا يشتد غضبه لأنه لا يعلم قدر نعمته المكفورة. قوله: "فاستفتحوه"، أي اطلبوا منه الفتح عليكم والنصر لكم، واستنجحوه: اطلبوا منه النجاح والظفر، واطلبوا إليه، أي اسألوه، يقال: طلبت إلى زيد كذا وفي كذا، واستمحوه، بكسر النون: اطلبوا منه المنحة، وهي العطية. ويروى: "واستمحوه" بالياء، استمحت الرجل: طلبت عطاءه، ومحت بالرجل: أعطيته.

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم أنه لا حجاب يمنع عنه، ولا دونه باب يغلق، وأنه بكل مكان موجود، وفي كل حين وأوان، والمراد بوجوده في كل مكان إحاطة علمه، وهو معنى قوله تعالى: "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم"، وقوله سبحانه: "وهو معكم أينما كنتم".

قوله: "لا يثلمه العطاء" بالكسر: لا ينقص قدرته. والحباء: النوال ولا يستنفده، أي لا يفنيه، ولا يستقصيه: لا يبلغ الجود

أقضى مقدوره وإن عظم الجود، لأنه قادر على ما لا نهاية له.

ولا يلويه شخص عن شخص: لا يوجب ما يفعله لشخص أو مع شخص إعراضاً وذهولاً عن شخص آخر، بل هو عالم بالجميع، لا يشغله شأن عن شأن. لوى الرجل وجهه، أي أعرض وانحرف، ومثل هذا أراد بقوله: "ولا يلهيه صوت عن صوت"، ألهاه كذا، أي شغله.

ولا تحززه بالضم هبة عن سلب، أي لا تمنعه، أي ليس كالقادرين بالقدرة مثلنا، فإن الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطية زيد عن سلب مال عمرو، حالما يكون مهتماً بتلك العطية، لأن اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر. ومثل هذا قوله: "ولا يشغله غضب عن رحمة، ولا توله رحمة عن عقاب"، أي لا تحدث الرحمة لمستحقها عنده ولهاً، وهو التحير والتردد، وتصرفه عن عقاب المستحق، وذلك لأن الواحد منا إذا رحم إنساناً حدث عنده رقة، خصوصاً إذا توالى منه الرحمة لقوم متعددين، فإنه تصير الرحمة كالمملكة عنده فلا يطيق مع تلك الحال أن ينتقم، والبارئ تعالى بخلاف ذلك، لأنه ليس بذئ مزاج سبحانه. ولا يجنه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون، هذه كلها مصادر، بطن بالوناً أي خفي، وظهر ظهوراً، أي تجلى، يقول: لا يمنعه خفاؤه عن العقول أن تدركه عند ظهوره بأفعاله وإن لم يكن ظاهراً بذاته، وكذلك لا يقطعه ظهوره بأفعاله عن أن يخفى كنهه عن إِبصار العقول وإدراكها له، ويقال: اجتننت كذا، أي سترته، ومنه الجنين، والجنة للترس، وسمي الجن جنناً لاستتارهم.

ثم زاد المعنى تأكيداً فقال: "قرب فئأى"، أي قرب فعلاً فئأى ذاتاً، أي أفعاله قد تعلم، ولكن ذاته لا تعلم. ثم قال: "وعلا فدنا": أي لما علا عن أن تحيط به العقول عرفته العقول، لا أنها عرفت ذاته، لكن عرفت أنه شيء لا يصح أن يعرف، وذلك خاصته سبحانه، فإن ماهيته يستحيل أن تتصور للعقل لا في الدنيا ولا في الآخرة، بخلاف غيره من الممكنات. ثم أكد المعنى بعبارة أخرى، قال: "وظهر فبطن، وبطن فعلم"، وهذا مثل الأول. ودان: غلب وقهر، ولم يدن: لم يقهر ولم يغلب. ثم قال: "لم يذراً الخلق باحتيال" أي لم يخلقهم بحيلة توصل بها إلى إيجادهم، بل أوجدتهم على حسب علمه

بالمصلحة خلقاً مخترعاً من غير سبب ولا واسطة. قال: "ولا استعان بهم لكال"، أي لإعياء، أي لم يأمر المكلفين بالجهاد لحاجته في قهر أعدائه، وجاحدي نعمته إليهم، وليس بكال ولا عاجز عن إهلاكهم، ولكن الحكمة اقتضت ذلك، قال سبحانه: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"، أي لبطل التكليف. ثم ذكر أن التقوى قوام الطاعات التي تقوم بها، وزمام العبادات لأنها تمسك وتحضن، كزمام الناقة المانع لها من الخبط. والوثائق جمع وثيقة، وهي ما يوثق به. وحقائقها جمع حقيقة، وهي الراية، يقال: فلان حامى الحقيقة. قوله: "تؤل" بالجرم، لأنه جواب الأمر، أي ترجع. والأكنان: جمع كن وهو الستر. والدعة. الراحة. السعة: الجدة. والمعاقل: جمع معقل، وهو الملجأ. والحرز: الحفظ.

وتشخص الأبصار: تبقى مفتوحة لا تطرف. والأقطار: الجوانب. والصروم: جمع صرم وصرمة، وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين. والعشار: النوق أتى عليها من يوم أرسل الفحل فيها عشرة أشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع، والواحدة عشراء، وهذا من قوله تعالى: "وإذا العشار عطلت"، أي تركت مسيبة مهملة لا يلتفت إليها أربابها، ولا يحلبونها لاشتغالهم بأنفسهم. وترهق كل مهجة: تهلك وتبكم كل لهجة، أي تحرس، رجل أبكم وبكيم،

والماضي بكم بالكسر. والشم الشوامخ: الجبال العالية، وذلها: تدكدكها، وهي أيضا الصم الرواسخ. فيصير صلدتها وهو الصلب الشديد انصلابه سراباً، وهو ما يترأى في النهار فيظن ماءً، والرقراق: الخفيف. ومعهدها: ما جعل منها منزلاً للناس. قاعاً: أرضاً خالية، والسملق: الصفصف المستوي، ليس بعضه أرفع وبعضه أخفض.

ومن خطبة له عليه السلام يحث على العمل الصالح

الأصل: بعثه حين لا علم قائم، ولا منارٌ ساطع، ولا منهجٌ واضح. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحذركم الدنيا، فإنها دار شخوص، ومحلة تنغيص، ساكنها ظاعن، وقاطنها بائن، تميد بأهلها ميدان السفينة، تقصفها العواصف في لجج البحار، فمنهم الغرق الوبق، ومنهم الناجي على بطون الأمواج، تحفزه الرياح بأذيالها، وتحمله على أهوالها، فما غرق منها فليس بمستدرِك، وما نجا منها فإلى مهلك. عباد الله، الآن فاعلموا، والألسن مطلقة، والأبدان صحيحة، والأعضاء لدنة، والمنقلب فسيح، والمجال عريض، قبل إرهاب الفوت، وحلول الموت، فحققوا عليكم نزوله، ولا تنتظروا قدومه. الشرح: يقول: بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم لما لم يبق علمٌ يهتدي له المكلفون، لأنه كان زمان الفترة وتبدل المصلحة، واقتضاء وجوب اللطف عليه سبحانه تجديداً لبعثته، ليعرف المبعوث المكلفين الأفعال التي تقرهم من فعل الواجبات العقلية، وتبعدهم عن المقبحات الفعلية. والمنار الساطع: المرتفع. سطع الصبح سطوعاً: ارتفع، ودار شخوص: دار رحلة شخص عن البلد: رحل عنه، والظاعن: المسافر. والقاطن: المقيم. والبائن: البعيد. يقول: ساكن الدنيا ليس بساكن على الحقيقة، بل هو ظاعن في المعنى وإن كان في الصورة ساكناً، والمقيم بها مفارق، وإن ظن أنه مقيم، وتميد بأهلها: تتحرك وتميل. والميدان: حركة واضطراب، وتصفقاها العواصف: تضربها بشدة، ضرباً بعد ضرب. والعواصف: الرياح القوية. اللجج: جمع لجة، وهي معظم البحر.

الوبق: الهالك، وبق الرجل بالفتح، يبق وبوقاً: هلك، والموبق منه كالموعد "مفعول" من وعد يعد، ومنه قوله تعالى: "وجعلنا بينهم موبقاً"، وفيه لغة أخرى: وبق الرجل يوبق وبقاً، وفيه لغة ثالثة: وبق الرجل، بالكسر يبق بالكسر أيضاً، وأوبقه الله، أي أهلكه. وتحفزه الرياح، تدفعه. ضرب صلى الله عليه وسلم لأهل الدنيا مثلاً براكبي السفينة في البحر، وقد مادت بهم، فمنهم الهالك على الفور، ومنهم من لا يتعجل هلاكه، وتحمله الرياح ساعة أو ساعات، ثم ماله إلى الهلاك أيضاً. ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالعمل وقت الإمكان قبل ألا يمكن العمل، فكفى عن ذلك بقوله: والألسن منطلقة، لأن المحتضر يعتقل لسانه، والأبدان صحيحة، لأن المحتضر سقيم البدن. والأعضاء لدنة، أي لينة، أي قبل الشيوخوخة والهزم ويس الأعضاء والأعصاب. المنقلب فسيح، والمجال عريض، أي أيام الشبيبة وفي الوقت والأجل مهلة، قبل أن يضيق الوقت عليكم. قبل إرهاب الفوت، أي قبل أن يجعلكم الفوت وهو فوات الأمر وتعذر استدراكه عليكم مرهقين، والمرهق: الذي أدرك ليقتل، قال الكميت:

تندى أكفهم وفي أبياتهم

ثقة المجاور والمضاف المرهق

قوله: "فحققوا عليكم نزوله، ولا تنتظروا قدومه"، أي اعملوا عمل من يشاهد الموت حقيقة، لا عمل من ينتظره انتظاراً ويطاول الأوقات مطاولة، فإن التسويف داعية التقصير.

ومن خطبة له موافقه من الرسول

الأصل: ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وصحبه، أي لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخر الأقدام، بنجدة أكرمني الله بها. ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وإن رأسه لعلى صدري، ولقد سألت نفسه في كفي، فأمرتها على وجهي. ولقد وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعوان، فضجت الدار والأفنية: ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم، تصلون عليه، حتى واريناه في ضريحه، فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً فأنفذوا على بصائركم، ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم، فوالذي لا إله إلا هو إني لعلى جادة الحق، وإنهم لعلى مزلة الباطل. أقول ما تسمعون، استغفر الله لي ولكم. الشرح: يمكن أن يعني بالمستحفظين الخلفاء الذين تقدموا، لأنهم الذين استحفظوا الإسلام، أي جعلوا حافظين له وحارسين لشريعته ولحوزته، ويجوز أن يعني به العلماء والفضلاء من الصحابة، لأنهم استحفظوا الكتاب، أي كفوا حفظه وحراسته. والظاهر أنه يرمز في قوله صلى الله عليه وسلم: "لم أرد على الله، ولا على رسوله ساعة قط" إلى أمور وقعت من غيره، كما جرى يوم الحديبية عند سطر كتاب الصلح، فإن بعض الصحابة أنكر ذلك، وقال: يا رسول الله، ألسنا المسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا الكافرين؟ قال: بلى، قال: فكيف نعطي الدنية في ديننا فقال صلى الله عليه وسلم "إنما أعمل مما أومر له" فقال قوم من الصحابة: ألم يكن قد وعدنا بدخول مكة وما نحن قد صددنا عنها ثم ننصرف بعد أن اعطينا الدنية في ديننا، والله لو أجد أعواناً لم اعط الدنية أبداً، فقال أبو بكر لهذا القائل: ويحك الزم غرزه، فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الله لا يضيعه. ثم قال له: أقال لك: إنه سيدخلها هذا العام؟ قال: لا، قال: فسيدخلها. فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة، وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال: هذا الذي وعدتم به. واعلم أن هذا الخبر صحيح لا ريب فيه، والناس كلهم روه، وليس عندي بقبيح ولا مستهجن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما سأله عنه على سبيل الاسترشاد، والتماساً لطمأنينة النفس، فقد قال تعالى لخليله إبراهيم: "أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي". وقد كانت الصحابة تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمور، وتسأله عما يستبهم عليها وتقول له: أهذا منك أم من الله؟ وقال له السعدان، رحمهما الله يوم الخندق، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعض تمر المدينة: أهذا من الله أم رأي رأيته من نفسك؟ قال: بل من نفسي، قال: لا، والله لا نعطيهم منها ثمرة واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا وقالت الأنصار له يوم بدر، وقد نزل بمثل لم يستصلحوه، أنزلت هذا المتزل عن رأي رأيته أم بوحي أو حي إليك؟ قال: بل عن رأي رأيته، قالوا: إنه ليس لنا بمثل، أرحل عنه فانزل بموضع كذا. وأما قول أبي بكر له: "الزم غرزه، فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم"، فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه، ولا يدل ذلك على الشك، فقد قال الله تعالى لنبيه: "ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً"، وكل أحد لا يستغني عن زيادة اليقين والطمأنينة. وقد كانت وقعت من هذا القائل أمورٌ دون هذه القصة، كقوله: دعني أضرب عنق أبي سفيان. وقوله: دعني أضرب عنق عبد الله بن أبي، وقوله: دعني أضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة. ونهي النبي صلى الله

عليه وسلم عن التسرع إلى ذلك، وجذبه ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قام على جنازة ابن سلول يصلي، وقوله: كيف نستغفر لرأس المنافقين وليس في ذلك جميعه ما يدل على وقوع القبيح منه، وإنما الرجل كان مطبوعاً على الشدة والشراسة والخشونة، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجية التي طبع عليها. وعلى أي حال كان، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيراً. قوله صلى الله عليه وسلم: "ولقد واسيته بنفسي"، يقال: واسيته وآسيته، وبالهمة أفصح، وهذا مما اختص محمد صلى الله عليه وسلم بفضيلته غير مدافع، ثبت معه يوم أحد وفر الناس، وثبت معه يوم حنين وفر الناس، وثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحها وفر من كان بعث بها من قبله. وروى المحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ارتث يوم

أحد، قال الناس: قتل محمد، رآته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى، إلا أنه حي، فصمدت له، فقال لعلي رضي الله عنه: اكفني هذه، فحمل عليها رضي الله عنه وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة أخرى، فقال: يا علي اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة ثالثة، فكذاك، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقول: قال لي جبريل: يا محمد، إن هذه للمواساة، فقلت: وما يمنعه وهو مني وأنا منه فقال جبريل: وأنا منكما. وروى المحدثون أيضاً أن المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي: "لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حضره: "ألا تسمعون هذا صوت جبريل". وأما يوم حنين فثبت معه في نفر يسير من بني هاشم، بعد أن ولي المسلمون الأدبار، وحامى عنه، وقتل قوماً من هوازن بين يديه، حتى ثابت إليه الأنصار، وانهمزمت هوازن وغنمت أموالها، وأما يوم خيبر فقصته مشهورة. قوله صلى الله عليه وسلم: "نجدة أكرمني الله سبحانه بها"، النجدة، الشجاعة، وانتصاها ههنا على أهما مصدر، والعامل فيه محذوف. ثم ذكر رضي الله عنه وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "لقد قبض وإن رأسه لعلى صدري، ولقد سالت نفسه في كفي، فأمرتها على وجهي"، يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاء دماً يسيراً وقت موته، وإن علياً رضي الله عنه مسح لذلك الدم وجهه. وقد روي أن أبا طيبة الحجام شرب دمه رضي الله عنه وهو حي، فقال له: إذن لا يجع بطنك. قوله رضي الله عنه: "فضجت الدار والأفنية"، أي النازلون في الدار من الملائكة، أي ارتفع ضجيجهم ولججهم، يعني أي سمعت ذلك ولم يسمعه غيري من أهل الدار. والملا الجماعة، يهبط قوم من الملائكة ويصعد قوم. والعروج: الصعود. والهيمنة: الصوت الخفي. والضريح: الشق في القبر.

خبر موت الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم

وقد روي من قصة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عرضت له الشكاة التي عرضت، في أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة، فجهز جيش أسامة بن زيد، فأمرهم بالمسير إلى البلقاء حيث أصيب زيد وجعفر رضي الله عنهما من الروم، وخرج في تلك الليلة إلى البقيع، وقال: إني قد أمرت بالاستغفار عليهم، فقال رضي الله عنه: السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنكم ما أصبحتم فيه مما الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها، ثم استغفر لأهل

البقيع طويلاً، ثم قال لأصحابه: إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرة، وقد عارضني به العام مرتين، فلا أراه إلا لحضور أجلي. ثم انصرف إلى بيته، فخطب الناس في غده، فقال: معاشر الناس، قد حان مني حقوق من بين أظهركم، فمن كان له عندي عدة، فليأتني أعطه إياها، ومن كان له علي دين، فليأتني أقضه. أيها الناس، إنه ليس بين الله وبين أحد نسب ولا أمر يؤتیه به خيراً، أو يصرف عنه شراً إلا العمل، ألا لا يدعين مدح ولا يتمنين متمن. والذي بعثني بالحق لا ينجي إلا عملٌ مع رحمة، ولو عصيت لهويت. اللهم قد بلغت. ثم نزل فصلى بالناس صلاة خفيفة، ثم دخل بيت أم سلمة، ثم انتقل إلى بيت عائشة يعلله النساء والرجال، أما النساء فأزواجه وبنته رضي الله عنها، وأما الرجال فعلي رضي الله عنه والعباس والحسن والحسين رضي الله عنهما، وكانا غلامين يومئذ، وكان الفضل بن العباس يدخل أحياناً إليهم، ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مرضه، فأول ذلك التنازع الواقع يوم قال صلى الله عليه وسلم: "أتتوني بدواة وقرطاس"، وتلا ذاك حديث التخلف عن جيش أسامة، وقول عياش بن أبي ربيعة: أيولى هذا الغلام على جلة المهاجرين والأنصار ثم اشتد به المرض، وكان عند خفة مرضه يصلي بالناس بنفسه، فلما اشتد به المرض أمر أبا بكر أن يصلي بالناس. وقد اختلف في صلاته بهم، فالشيعة تزعم أنه لم يصل بهم إلا صلاة واحدة، وهي الصلاة التي خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يتهدى بين علي رضي الله عنه والفضل فقام في الحراب مقامه، وتأخر أبو بكر. والصحيح عندي وهو الأكثر الأشهر أنها لم تكن آخر صلاة في حياته صلى الله عليه وسلم بالناس جماعة، وأن أبا بكر صلى بالناس بعد ذلك يومين، ثم مات صلى الله عليه وسلم، فمن قائل يقول: إنه توفي لليلتين بقيتا من صفر، وهو القول الذي تقوله الشيعة، والأكثر أن توفي في شهر ربيع الأول بعد مضي أيام منه.

وقد اختلفت الرواية في موته، فأنكر عمر ذلك، وقال: إنه لم يمت، وإنه غاب وسيعود، فشاه أبو بكر عن هذا القول، وتلا عليه الآيات المتضمنة أنه سيموت، فرجع إلى قوله. ثم اختلفوا في موضع دفنه، فرأى قوم أن يدفنه بمكة لأنها مسقط رأسه، وقال من قال: بل بالمدينة، ندفنه بالبقيع عند شهداء أحد. ثم اتفقوا على دفنه في البيت الذي قبض فيه، وصلوا عليه أرسالاً لا يؤمهم أحد. وقيل: إن علياً رضي الله عنه أشار بذلك فقبلوه. وأنا أعجب من ذلك، لأن الصلاة عليه كانت بعد بيعة أبي بكر، فما الذي منع من أن يتقدم أبو بكر فيصل عليه إماماً وتنازعوا في تلحيده وتضريحه، فأرسل العباس عمه إلى أبي عبيدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكة ويضرح على عادتهم رجلاً، وأرسل علي رجلاً إلى أبي طلحة الأنصاري وكان يلحد لأهل المدينة على عادتهم وقال: اللهم اختر لنبيك، فجاء أبو طلحة فلحد له، وأدخل في اللحد.

وتنازعوا فيمن يتزل معه القبر، فمنع علي رضي الله عنه الناس أن يتزلوا معه، وقال: لا يتزل قبره غيري وغير العباس، ثم أذن في نزول الفضل وأسامة بن زيد مولاهم، ثم ضجت الأنصار، وسألت أن يتزل منها رجل في قبره، فأنزّلوا أوس بن حولي وكان بدرياً. فأما الغسل فإن علياً رضي الله عنه تولاه بيده، وكان الفضل بن العباس يصب عليه الماء. وروى المحدثون عن علي رضي الله عنه، أنه قال: ما قلبت منه عضواً إلا وانقلب، لا أجد له ثقلاً، كأن معي من يساعدي عليه، وما ذلك إلا الملائكة. وأما حديث الهينمة وسماع الصوت، فقد رواه خلق كثير من المحدثين، عن علي رضي الله عنه، وتروي الشيعة أن علياً رضي الله عنه عصب عيني الفضل بن العباس، حين صب عليه الماء، وأن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أوصاه بذلك، وقال: إنه لا يصبر عورتي أحدٌ غيرك إلا عمي. قوله رضي الله عنه: "فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً" انتصاهما على الحال من الضمير الجرور في "به"، أي أي شخص أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم حال حياته وحال وفاته مني ومراده من هذا الكلام، أنه أحق بالخلافة بعده وأحق الناس بالمرتلة منه حيث كان بتلك المرتلة منه في الدنيا، وليس يجوز أن يكونا حالين من الضمير الجرور في "مني" لأنه لا يحسن أن يقول: أنا أحق به إذا كنت حياً من كل أحد، وأحق به إذا كنت ميتاً من كل أحد، لأن الميت لا يوصف بمثل ذلك، ولأنه لا حال ثبتت له من الأحقية إذا كان حياً إلا وهي ثابتة له إذا كان ميتاً، وإن كان الميت يوصف بالأحقية، فلا فائدة في قوله. "وميتاً" على هذا الفرض، ولا يبقى في تقسيم الكلام إلى قسمين فائدة، وأما إذا كان حالاً من الضمير في "به"، فإنه لا يلزم من كونه أحق بالمرتلة الرفيعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حي أن يكون أحق بالخلافة بعد وفاته، أي ليس أحدهما يلزم الآخر، فاحتاج إلى أن يبين أنه أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم من كل أحد إن كان الرسول صلى الله عليه وسلم حياً، وإن كان ميتاً، ولم يستهجن أن يقسم الكلام إلى القسمين المذكورين. قوله صلى الله عليه وسلم: "فانفذوا إلى بصائرهم"، أي أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التي أنتم عليها، ولا يدخلن الشك والريفي قلوبكم. قوله صلى الله عليه وسلم: "إني لعلى جادة الحق، وإنهم لعلى مزلة الباطل"، كلام عجيب على قاعدة الصناعة المعنوية، لأنه لا يحسن أن يقول: وإنهم لعلى جادة الباطل، لأن الباطل لا يوصف بالجادة، ولهذا يقال لمن ضل: وقع في بنيات الطريق، فتعوض عنها بلفظ "المزلة"، وهي الموضع الذي يزل فيه الإنسان، كالمزلة: موضع الزلق، والمغرقة: موضع الغرق، والمهلكة: موضع الهلاك.

ومن خطبة له في حث الناس على التقوى

الأصل: يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ومعاصي العباد في الخلوات. واختلاف النينان في البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح التعاصفات. وأشهد أن محمداً نجيب الله، وسفير وحيه، ورسول رحمته. أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله الذي ابتداء خلقكم، وإليه يكون معادكم، وبه نجاح طلبتكم، وإليه منتهى رغبتكم، ونحوه قصد سبيلكم وإليه مرامي مفزعكم، فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمي أفندتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أحماركم، وأمن فرع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم.

الشرح: العجيج: رفع الصوت، وكذلك العج، وفي الحديث: "أفضل الحج العج والثج"، أي التلبية وإراقة الدم، وعجيج، أي صوت، ومضاعفة اللفظ دليل على تكرير التصويت. والنينان: جمع نون، وهو الحوت، واختلافها ههنا: هو إصعادها وانحدارها. ونجيب الله: منتجبه ومختاره، وسفير وحيه: رسول وحيه، والجمع سفراء، مثل فقيه وفقهاء. وإليه مرامي مفزعكم: إليه تفرعون وتلجأون، ويقال: فلان مرمى قصدي، أي هو الموضع الذي أنحوه وأقصده.

ويروى: "وجلاء عشي أبصاركم"، بالعين المهملة والألف المقصورة، والجأش: القلب، وتقدير الكلام: وضياء سواد ظلمة عقائدكم، ولكنه حذف المضاف للعلم به. الأصل: فاجعلوا طاعة الله شعاراً دون دثاركم، ودخياً دون شعاركم، ولطيفاً بين أضلاعكم، وأميراً فوق أموركم، ومنهلاً لحين وزودكم، وشفيعاً لدرك طلبتكم، وجنة ليوم فرعكم، ومصاييح

لبطون قبوركم، وسكننا لطول وحشتكم، ونفساً لكرب مواطنكم، فإن طاعة الله حرز من متالف مكتنفة، ومخاوف متوقعة، وأوار نيران موقدة. فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها، واحلوت له الأمور بعد مرارتها، وانفجرت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد إنصائها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها. وتحذبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها. فاتقوا الله الذي نفعمكم بموعظته، ووعظكم برسالته، وامتن عليكم بنعمته. فعبدوا أنفسكم لعبادته، وأخرجوا إليه من حق طاعته. الشرخ: الشعار: أقرب إلى الجسد من الدثار. والدخيل: ما خالط باطن الجسد، وهو أقرب من الشعار، ثم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يجعل التقوى لطيفاً بين الأضلاع، أي في القلب، وذلك أمس بالإنسان من الدخيل، فقد يكون الدخيل في الجسد وإن لم يخامر القلب. ثم قال: "وأميراً فوق أموركم"، أي يحكم على أموركم كما يحكم الأمير في رعيته. والمنهل: الماء يرده الوارد من الناس وغيرهم. وقوله: "الحين ورودكم"، أي لوقت ورودكم، والطلبية بكسر اللام: ما طلبته من شيء. قوله: "ومصاييح لبطون قبوركم"، جاء في الخبر: إن العمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء المصباح الظلمة، والسكن: ما يسكن إليه. قوله: "ونفساً لكرب مواطنكم"، أي سعة وروحاً، ومكتنفة: محيطة. ولأوار: حر النار والشمس، وعزبت: بعدت. واحلوت: صارت حلوة. وتراكمها: اجتماعها وتكاثفها. وأسهلت: صارت سهلة. بعد إنصائها، أي بعد إتعاها

لكم، أنصبته: أتعبته. وهطلت: سالت. وقحوطها: قتلها ووتاحتها، وتحذبت عليه: عطفت وحتت، نضوبها: انقطاعها. كنضوب الماء: ذهابه. ووبل المطر: صار وابلاً، وهو أشد المطر وأكثره. وإرذاذها: إتيانها بالرداذ وهو ضعيف المطر. قوله: "فعبدوا أنفسكم"، أي ذللوها. ومنه طريق معبد. وأخرجوا إليه من حق طاعته، أي أدوا المفترض عليكم من العبادة، يقال: خرجت إلى فلان من دينه، أي قضيته إياه. الأصل: ثم إن هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وأصطنعه على عينه، وأصفاه خيرة خلقه، وأقام دعائمه على محبته. أذل الأديان بعزته، وضع الملل برفعه، وأهان أعداء بكرامته، وخذل محاديي بنصره، وهدم أركان الضلالة بركنه، وسقى من عطش من حياضه، وأتأق الحياض بمواتحه. ثم جعله لا انفصام لغروته، ولا فك لحلقته، ولا انهدام لأساسه، ولا زوال لدعائمه، ولا أنقلاع لشجرتة، ولا أنقطاع لمدته، ولا عفاء لشرائعه، ولا جذ لفروعه، ولا ضنك لالرقه، ولا وعوثة لسهولته، ولا سواد لوضحه، ولا عوج لانتصابه، ولا عصي في عوده، ولا وعث لفجحه، ولا انطفاء لمصاييحه، ولا مرارة لحلاوته. فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها، وثبت لها أساسها، وينابيع غزرت عيونها، ومصاييح شبت نيرانها، ومناراً أفندى بها سفارها، وأعلام قصد بها فجاجها، ومناهل روي بها ورادها. جعل الله فيه منتهى رضوانه، وذروة دعائمه، وسنام طاعته، فهو عند الله وثيق الأركان، رفيع البنيان منير البرهان، مضيء النيران، عزيز السلطان، مشرف المنار، معوذ المثار، فشرفه واتبعوه، وأدوا إليه حقه، وضعوه مواضعه. الشرخ: اصططنه على عينه، كلمة تقال لمن يشتد الاهتمام به، تقول للصانع: اصنع لي كذا على عيني، أي اصنعه صنعة كاملة كالصناعة التي تصنعها وأنا حاضر أشاهدها بعيني، قال تعالى: "ولتصنع على عيني" وأصفاه خيرة خلقه، أي أثر به خيرة خلقه، وهم المسلمون، وياء: "خيرة" مفتوحة. قال: وأقام الله دعائم الإسلام على حب الله وطاعته. والمخاد: المخالف، قال تعالى: "من يحادد الله"، أي من يعاد الله كأنه يكون في حد وجهه، وذلك الإنسان في حد آخر وجهة

أخرى، وكذلك المشاق، يكون في شق والآخر في شق آخر. وأتاق الحياض: ملأها، وتثق السقاء نفسه يتأق تاقاً، وكذلك الرجل، إذا امتلأ غضباً. قوله: "بمواته"، وهي الدلاء يمتح بها، أي يسقى بها، والانفصام: الانكسار. والعفاء: الدروس، والجد: القطع، ويروى بالبدال المهملة، وهو القطع أيضاً، والضنك: الضيق. والوعوثة: كثرة في السهولة توجب صعوبة المشي، لأن الأقدام تعيث في الأرض، والوضح: البياض، والعوج، بفتح العين: فيما ينتصب كالنخلة والرمح، والعوج بكسرهما: فيما لا ينتصب، كالأرض والرأي والدين. والعصل: الالتواء والاعوجاج، ناب أعصل وشجرة عصلة، وسهام عصل. والفج: الطريق الواسع بين الجبلين، يقول: لا وعث فيه، أي ليس طريق لإسلام بوعث، وقد ذكرنا أن الوعوثة ما هي. قوله: "فهو دعائم أساخ في الحق أسناحها"، الأسناخ: جمع سنخ، وهو الأصل، وأساخها في الأرض: أدخلها فيها، وساخت قوائم فرسه في الأرض تسوخ وتسيخ: دخلت وغابت. والآساس بالمد: جمع أسى، مثل سبب وأسباب، والأسى والأس والأساس واحد، وهو أصل البناء. وغررت عيونها، بضم الزاي: كثرت. وشبت نيرانها بضم الشين: أوقدت، والمنار: الأعلام في الفلاة. قوله: "قصد بما فجاجها"، أي قصد بنصب تلك الأعلام اهتداءً للمسافرين في تلك الفجاج، فأضاف القصد إلى الفجاج. وروي: "روادها" جمع رائد، وهو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم الكأ والماء. والذروة: أعلى السنام والرأس وغيرهما.

قوله: "معوذ المثار"، أي يعجز الناس إثارتة وإزعاجه لقوته ومثانته. الأصل: ثم إن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه بالحق، حين دنا من الدنيا الانقطاع، وأقبل من الآخرة الاطلاع، وأظلمت بهجتها بعد إشراق، وقامت بأهلها على ساق، وخشن منها مهأد، وأزف منها قياد، في انقطاع من مدتها، واقتراب من أشراطها، وتصرم من أهلها، وانفصام من حلقتها وانتشار من سببها، وعفاء من أعلامها، وتكشف من عوراتها، وقصر من طولها، جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته، وكرامة لأمته، وربيعاً لأهل زمانه، ورفعةً لأعوانه، وشرفاً لأنصاره.

ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحها، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه، وفرقناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تحذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبجوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيناه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا يترفه المستترفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها الساترون، وإكأم لا يخوز عنها القاصدون.

ما قيل في عمر الدنيا

الشرح: قوله صلى الله عليه وسلم: "حين دنا من الدنيا الانقطاع"، أي أزفت الآخرة وقرب وقتها. وقد اختلف الناس في ذلك اختلافاً شديداً فذهب قوم إلى أن عمر الدنيا خمسون ألف سنة، قد ذهب بعضها وبقي بعضها. واختلفوا في مقدار الذاهب والباقي، واحتجوا لقولهم بقوله تعالى: "تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة"، قالوا: اليوم هو إشارة إلى الدنيا، وفيها يكون عروج الملائكة والروح إليه، واختلفوا في الأمر من عنده إلى خلقه، وإلى

رسله، قالوا: وليس قول بعض المفسرين أنه عنى يوم القيامة بمستحسن، لأن يوم القيامة لا يكون للملائكة والروح عروج إليه سبحانه، لانقطاع التكليف، ولأن المؤمنين إما أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة، أو يكون هذا مختصاً بالكافرين فقط، ويكون قصيراً على المؤمنين، والأول باطل، لأنه أشد من عذاب جهنم، ولا يجوز أن يلقي المؤمن هذه المشقة، والثاني باطل، لأنه لا يجوز أن يكون الزمان الواحد طويلاً قصيراً بالنسبة إلى شخصين، اللهم الا أن يكون أحدهما نائماً، أو ممنواً بعلّة تجري مجرى النوم، فلا يحس بالحركة، ومعلوم أن حال المؤمنين بعد بعثتهم، ليست هذه الحال. قالوا: وليست هذه الآية مناقضة للآية الأخرى، وهي قوله تعالى: "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ثمة تعدون"، وذلك لأن سياق الكلام يدل على أنه أراد به الدنيا، وذلك لأنه قد ورد في الخبر أن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام، فإذا نزل الملك إلى الأرض، ثم عاد إلى السماء، فقد قطع في ذلك اليوم مسيرة ألف عام، ألا ترى إلى قوله: "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض"، أي يتزل الملك بالوحي والأمر والحكم من السماء إلى الأرض، ثم يعود راجعاً إليه وعارجاً صاعداً إلى السماء، فيجتمع من نزوله وصعوده مقدار مسير ألف سنة. وذكر حمزة بن الحسن الأصفهاني في كتابه المسمى "تواريخ الأمم" أن اليهود تذهب إلى أن عدد السنين من ابتداء التناسل إلى سنة الهجرة لمحمد صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف واثنان وأربعون سنة وثلاثة أشهر. والنصارى تذهب إلى أن عدد ذلك خمسة آلاف وتسعمائة وتسعون سنة وثلاثة أشهر. وأن الفرس تذهب إلى أن من عهد كيومرت والد البشر عندهم إلى هلاك يزدجرد بن شهريار الملك أربعة آلاف ومائة واثنين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً، ويسندون ذلك إلى كتابهم الذي جاء به زردشت، وهو الكتاب المعروف بأبستا.

فأما اليهود والنصارى فيسندون ذلك إلى التوراة ويختلفون في كيفية استنباط المدة، وترغم النصارى واليهود أن مدة الدنيا كلها سبعة آلاف سنة، قد ذهب منها ما ذهب وبقي ما بقي.

وقيل: إن اليهود إنما قصرت المدة لأنهم يزعمون أن شيخهم الذي هو منتظرهم، يخرج في أول الألف السابع، فلولا تنقيصهم المدة وتقصيرهم أيامها لتعجل افتضاحهم، ولكن سيفتضحون فيما بعد عند من يأتي بعدنا من البشر. قال حمزة: وأما المنجمون فقد أتوا بما يغمز هذا كله، فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارت فيه الكواكب، من رأس الحمل إلى اليوم الذي خرج فيه المتوكل بن معتمد بن الرشيد من سامراء إلى دمشق، ليجعلها دار الملك، وهو أول يوم من المحرم سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة الحمديّة، أربعة آلاف ألف ألف ثلاث لفظات وثلاثمائة ألف وعشرون ألف سنة، بسني الشمس. قالوا: والذي مضى من الطوفان إلى صبيحة اليوم الذي خرج فيه المتوكل إلى دمشق ثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوماً. وذكر أبو الريحان البيروني في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" أن الفرس والمجوس يزعمون أن عمر الدنيا اثنا عشر ألف سنة، على عدد البروج وعدد الشهور، وأن الماضي منها إلى وقت ظهور زردشت صاحب شريعتهم ثلاثة آلاف سنة، وبين ابتداء ظهور زردشت وبين أول تاريخ الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة، وبين تاريخ الإسكندر وبين سنته التي كتبنا فيها شرح هذا الفصل وهي سنة سبع وأربعين وستمائة للهجرة النبوية ألف وخمسمائة وسبعون سنة، فعلى هذا يكون الماضي إلى يومنا هذا من أصل اثني عشر

ألف سنة أربعة آلاف وثمانمائة وثمانين سنة، فيكون الباقي من الدنيا على قولهم أكثر من الماضي. وحكى أبو الريحان عن الهند في بعض كتبه، أن مدة عمر الدنيا مقدار تضعيف الواحد من أول بيت في رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت. فأما الأخباريون من المسلمين، فأكثرهم يقولون: إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ويقولون إننا في السابع، والحق أنه لا يعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده، كما قال سبحانه: "يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها"، وقال: "لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله". ونقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز: "اقتربت الساعة" و "اقترب للناس حساهم"، وأتى أمر الله فلا تستعجلوه". ولا نعلم كمية الماضي ولا كمية الباقي، ولكننا نقول كما أمرنا، ونسمع ونطيع كما أدينا، ومن الممكن أن يكون ما بقي قريباً عند الله، وغير قريب عندنا، كما قال سبحانه: "إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً"، وبالجمله هذا موضع غامض يجب السكوت عنه. قوله صلى الله عليه وسلم: "وقامت بأهلها على ساق"، الضمير للدنيا، والساق الشدة، أي انكشفت عن شدة عظيمة. وقوله تعالى: "والتفت الساق بالساق" أي التفت آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة، والمهاد: الفراش. وأزف منها قياد، أي قرب انقيادها إلى التقصي والزوال، وأشراط الساعة: علاماتها، وإضافتها إلى الدنيا لأما في الدنيا تحدث، وإن كانت علامات لاخرى. والعفاء: الدروس. وروي: "من طولها" والطول: الحبل.

ثم عاد إلى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته: أي ذا بلاغ، والبلاغ: التبليغ، فحذف المضاف. ولا تحبو: لا تنطفئ. والفرقان: ما يفرق به بين الحق والباطل، وأثافي الإسلام، جمع أنفية، وهي الأحجار توضع عليها القدر، شكل مثلث، والغيطان: جمع غائط، وهو المطمئن من الأرض، ولا يغيضها، بفتح حرف المضارعة، غاض الماء وغضته أنا، يتعدى ولا يتعدى، وروي "لا يغيضها" بالضم على قول من قال: أغضت الماء، وهي لغة ليست بالمشهورة. والإكام: جمع أكم، مثل جبال جمع جبل، والأكم جمع إكمة، مثل عنب جمع عنبه، والأكمة: ما علا من الأرض، وهي دون الكثيب". الأصل: جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليسر معه ظلمة، وحبالاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذراً لمن افتحله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفليحاً لمن حاج به، وحاملاً لمن حملة، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسم، وجنة لمن استلأ، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى. الشرح: الضمير يرجع إلى القرآن، جعله الله رياً لعطش العلماء، إذا ضل العلماء في أمر والتبس عليهم رجعوا إليه، فسقاهم كما يسقي الماء العطش، وكذا القول في "ربيعاً لقلوب الفقهاء"، والربيع ههنا: الجدول، ويجوز أن يريد المطر في الربيع، يقال: ربعت الأرض فهي مربعة، والمحاج: جمع محجة، وهي جادة الطريق. والمعقل: الملجأ، وسلماً لمن دخله، أي مأمناً، وانتحله: دان به، وجعله نخلته. والبرهان: الحجة، والفليح: الظفر والفوز. وحاج به: خاصم. قوله صلى الله عليه وسلم: "وحاملاً لمن حملة"، أي أن القرآن ينجي يوم القيامة من كان حافظاً له في الدنيا، بشرط أن يعمل به. قوله صلى الله عليه وسلم: "ومطية لمن أعمله"، استعارة، يقول: كما أن المطية تنجي صاحبها إذا أعملها وبعثها على النجاء، فكذلك القرآن إذا أعمله صاحبه أنجاه، ومعنى إعماله، اتباع قوانينه والوقوف عند حدوده. قوله: "وآية لمن توسم"، أي لمن تفرس، قال

تعالى: "إن في ذلك لآيات للمتوسمين"، والجنة: ما يستتر به: واستلأم: لبس لأمة الحرب، وهي الدرع، ووعى: حفظ. قوله: "وحديثاً لمن روى"، قد سماه الله تعالى حديثاً فقال: "الله نزل أحسن الحديث كتاباً مشاهراً"، وأصحابنا يحتجون بهذه اللفظة على أن القرآن ليس بقديم، لأن الحديث ضد القديم.

وليس للمخالف أن يقول: ليس المراد بقوله: "أحسن الحديث" ما ذكرتم، بل المراد أحسن القول، وأحسن الكلام، لأن العرب تسمي الكلام والقول حديثاً، لأننا نقول: لعمري إنه هكذا، ولكن العرب ما سمت القول والكلام حديثاً إلا أنه مستحدث متجدد حالاً فحالاً، ألا ترى إلى قول عمرو لمعاوية: "قد مللت كل شيء إلا الحديث"، فقال: إنما يمل العتيق، فدل ذلك على أنه فهم معنى تسميتهم الكلام والقول حديثاً، وفطن لمغزاهم ومقصدهم في هذه التسمية، وإذا كنا قد كلفنا أن نحري على ذاته وصفاته وأفعاله ما أجراه سبحانه في كتابه، ونطلق ما أطلقه على سبيل الوضع والكيفية التي أطلقها وكان قد وصف كلامه بأنه حديث وكان القرآن في عرف اللغة إنما سمي حديثاً لحدوثه وتجده فقد ساغ لنا أن نطلق على كلامه أنه محدث ومتجدد، وهذا هو المقصود.

قال كان يوصي به أصحابه

الأصل: تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها واستكثروا منها، وتقربوا بها، فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً. ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا: "ما سلككم في سقر"، قالوا لم نك من المصلين"، وإنها لتحت الذنوب حت الورق، وتطلقها إطلاق الربق. وشبهها رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالحمة تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرعة عين، من ولد ولا مال، يقول الله سبحانه: "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة". وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنة لقول الله سبحانه: "وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها"، فكان يأمر أهله، ويصبر نفسه ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام، فمن أعطاه طيب النفس بها، فإنها تجعل له كفارة، ومن النار حجازاً ووقايةً، فلا يتبعنها أحدٌ نفسه، ولا يكثرن عليها لهفه، فإن من أعطاه غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهلٌ بالسنة، مغبون الأجر، ضال العمل، طويل الندم. ثم أداء الأمانة، فقد خاب من ليس من أهلها، إنها عرضت على السموات المبنية، والأرضين المدحوة، والجبال ذات الطول المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض، ولا أعلى ولا أعظم منها. ولو أمتنع شيء بطول، أو عرض، أو قوة، أو عز، لا تمتنع، ولكن أشفقن من العقوبة، وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن، وهو الإنسان، "إنه كان ظلوماً جهولاً". إن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهارهم، لطف به خيراً، وأحاط به علماً، أعضاءكم شهوده، وجوارحكم جنوده، وضمائركم عيونه، وخلواتكم عيانه. الشرح: هذه الآية يستدل بها الأصوليون من أصحابنا على أن الكفار يعاقبون في الآخرة على ترك الواجبات الشرعية، وعلى فعل القبائح، لأنها في الكفار وردت، ألا ترى إلى قوله: "في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر". فليس يجوز أن يعني بالمجرمين

ههنا الفاسقين من أهل القبلة، لأنه قال: "قالوا لم نك من أتصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين". قالوا: وليس لقائل أن يقول: معنى قوله: "لم نك من المصلين" لم نكن من القائلين بوجوب الصلاة، لأنه قد أعنى عن هذا التعليل قوله: "وكنا نكذب بيوم الدين" لأن أحد الأمرين هو الآخر، وحمل الكلام على ما يفيد فائدة جديدة أولى من حمله على التكرار والإعادة، فقد ثبت بهذا التقرير صحة احتجاج أمير المؤمنين رضي الله عنه على تأكيد أمر الصلاة، وأنها من العبادات المهمة في نظر الشارع. قوله صلى الله عليه وسلم: "وإنها لتحت الذنوب"، الحت: نثر الورق من الغصن، وانحات، أي تناثر، وقد جاء هذا اللفظ في الخبر النبوي بعينه. والريق: جمع ربة، وهي الحبل، أي تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحبال المعقدة، أي تحل ما انعقد على المكلف من ذنوبه، وهذا من باب الاستعارة. ويروى: "تعهدوا أمر الصلاة" بالتضعيف، وهو لغة، يقال: تعاهدت ضيعتي وتعهدتها وهو القيام عليها، وأصله من تجديد العهد بالشيء، والمراد المحافظة عليه، وقوله تعالى: "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً"، أي واجباً، وقيل موقوتاً، أي منجماً كل وقت لصلاة معينة، وتؤدي هذه الصلاة في نجومها. وقوله: "كتاباً" أي فرضاً واجباً، كقوله تعالى: "كتب ربكم على نفسه الرحمة" أي أوجب. والهمة: الحفيرة فيها الحميم، وهو الماء الحار، وهذا الخبر من الأحاديث الصحاح، قال صلى الله عليه وسلم: "أيسر أحدكم أن تكون على بابه حمة يغتسل منها كل يوم خمس مرات، فلا يبقى عليه من درنه شيء قالوا: نعم، قال: فإنها الصلوات الخمس". والدرن: الوسخ.

والتجارة في الآية، إما أن يراد بها: لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر الله. ثم أفرد البيع بالذكر، وخصه وعطفه على التجارة العامة، لأنه ادخل في الإلهاء، لأن الربح في البيع بالكسب معلوم، والربح في الشراء مظنون، وإما أن يريد بالتجارة الشراء خاصة إطلاقاً لاسم الجنس الأعم على النوع الأخص، كما تقول: رزق فلان تجارة رابحة، إذا اتجه له شراء صالح، فأما إقام الصلاة فإن التاء "إقامة" عوض من العين الساقطة للإعلال، فإن أصله "إقوام" مصدر أقام، كقولك: أعرض إعراضاً، فلما اضيفت اقيمت الإضافة مقام حرف التعويض، فأسقطت التاء. قوله رضي الله عنه: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نصباً بالصلاة، أي تعباً، قال تعالى: "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى". وروي أنه متنه قام حتى تورمت قدماه مع التبشير له بالجنة. وروي أنه قيل له في ذلك فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً". ويصبر نفسه: من الصبر، ويروى: "ويصبر عليها نفسه" أي يجبس، قال سبكانه: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم". وقال عنترة يذكر حرباً كان فيها:

فصبرت عارفةً لذلك حرةً

ترسو إذا نفس الجبان تطلغ

في الصلاة وفضلها

واعلم أن الصلاة قد جاء في فضلها الكثير الذي يعجزنا حصره، ولو لم يكن إلا ما ورد في الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأکید الوصاة بها والمحافظة عليها، لكان بعضه كافياً. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الصلاة عمود الدين، فمن تركها فقد هدم الدين". وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم:

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

"علم الإيمان الصلاة، فمن فرغ لها قلبه، وقام بحدودها، فهو المؤمن".

وقالت أم سلمة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه. وقيل للحسن رحمه الله: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم نوراً من نوره. وقال عمر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام ما أكمل الله له صلاة، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على ربه فيها. وقال بعض الصالحين: إن العبد ليسجد السجدة عنده أنه متقرب بها إلى الله، ولو قسم ذنبه في تلك السجدة على أهل مدينة هلكوا، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يكون ساجداً وقلبه عند غير الله، إنما هو مصغ إلى هوى أو دنيا. صلى أعرابي في المسجد صلاة خفيفة، وعمر بن الخطاب يراه، فلما قضاها قال: اللهم زوجني الحور العين. فقال عمر: يا هذا لقد أسأت النقد، وأعظمت الخطبة وقال علي رضي الله عنه: لا يزال الشيطان ذعراً من المؤمن ما حافظ على الخمس فإذا ضيعهن تجرأ عليه، وأوقعه في العظائم. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، ما اجتنب الكبائر". وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. وقال هشام بن عروة: كان أبي يطيل المكتوبة ويقول: هي رأس المال. قال يونس بن عبيد: ما استخف أحد بالنوافل إلا استخف بالفرائض. يقال: إن محمد بن المنكدر جزأ الليل عليه وعلى أمه وأخته أثلاثاً، فماتت أخته، فجزأه عليه وعلى أمه نصفين، فماتت أمه فقام الليل كله. كان مسلم بن يسار لا يسمع الحديث إذا قام يصلي، ولا يفهمه، وكان إذا دخل بيته سكت أهله فلا يسمع لهم كلام

حتى يقوم إلى الصلاة، فيتحدثون ويلغطون، فهو لا يشعر بهم. ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة، فلم يشعر به حتى حرق. كان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب إذا وقع على وجهه وهو في الصلاة في بلاد كثيرة الذباب، فقيل له: كيف تصبر؟ فقال: بلغني أن الشطار يصبرون تحت السياط ليقال: فلان صبور، أفلا أصبر وأنا بين يدي ربي على أذى ذباب يقع علي. قال ابن مسعود: الصلاة مكيال، فمن وفى وفي له، ومن طفف، فويل للمطففين. قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ادع لي أن يرزقني الله مرافقتك في الجنة، فقال: "أعني على إجابة الدعوة بكثرة السجود". قوله صلى الله عليه وسلم؟ "قرباناً لأهل الإسلام"، القربان: اسم لما يتقرب به من نسيكة أو صدقة. وروي: "ومن النار حجازاً" بالزاي أي مانعاً. واللهف: الحسرة، ينهى صلى الله عليه وسلم عن إخراج الزكاة مع التسخط لإخراجها والتلهف والتحسر على دفعها إلى أربابها، ويقول: إن من يفعل ذلك يرجو بها نيل الثواب ضال مضيع لماله، غير ظافر بما رجاه من المثوبة.

في فضل الزكاة والتصدق

وقد جاء في فضل الزكاة الواجبة وفضل صدقة التطوع الكثير جداً، ولو لم يكن إلا أن الله تعالى قرنها بالصلاة في أكثر المواضع التي ذكر فيها الصلاة لكفى. وروى بريدة الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر".

وجاء في الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ما جاء في الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى: "يوم يحمى

عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم" الآية، قال المفسرون: إنفاقها في سبيل الله إخراج الزكاة منها. وروى الأحنف قال: قدمت المدينة، فبينما أنا في حلقة فيها ملاً من قريش، إذ جاء رجل خشن الجسد، خشن الثياب، فقام عليهم، فقال: بشر الكانزين برضف يحمى عليها في نار جهنم، فتوضع على حلمة ثدي الرجل حتى تخرج من نغض كتفه، ثم توضع على نغض كتفه حتى تخرج من حلمة ثديه، فسألت عنه فقيل: هذا أبو ذر الغفاري، وكان يذكره ويرفعه. ابن عباس يرفعه: من كان عنده ما يزكى فلم يزك، وكان عنده ما يحج فلم يحج سأل الرجعة، يعني قوله: "رب ارجعون". أبو هريرة: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الصدقة أفضل؟ فقال: أن تعطي وأنت صحيح، شحيح، تأمل البقاء، وتخشى الفقر، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا. وقيل للشيلي: ما يجب في مائتي درهم؟ قال: أما من جهة الشرع فخمسة، وأما من جهة الإخلاص فالكل. أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه أن تقسم شاة على الفقراء فقالت: يا رسول الله، لم يبق منها غير عنقها، فقال صلى الله عليه وسلم: كلها بقي غير عنقها. أخذ شاعر هذا المعنى فقال:

وإنما يبقى الذي يذهب

يبكي على الذاهب من ماله

السائب: كان الرجل من السلف يضع الصدقة، ويمثل قائماً بين يدي السائل الفقير وسأله قبولها؛ حتى يصير هو في صورة السائل. وكان بعضهم ييسط كفه ويجعلها تحت يد الفقير، لتكون يد الفقير العليا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله إليه في مخلفيه". وعنه صلى الله عليه وسلم: "الصدقة تسد سبعين باباً من الشر". وعنه صلى الله عليه وسلم: "أذهبوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام". كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يكل خصلتين إلى غيره: لا يوضئه أحد، ولا يعطي السائل إلا بيده. بعض الصالحين: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن.

الشعبي: من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب الصدقة من الفقير إلى صدقته، فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه. كان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه، فإن لم يكن، أعطاه زيتاً أو سمناً أو نحوهما مما ينتفع به، فإن لم يكن، أعطاه كحلاً، أو خرج بإبرة وخاط بها ثوب السائل، أو بخرقه يرقع بها ما تخرق من ثوبه. ووقف مرة على باب سائل ليلاً، ولم يكن عنده ما يدفعه إليه، فخرج إليه بقصبة في رأسها شعلة، وقال: خذ هذه وتبلغ بها إلى أبواب ناس لعلهم يعطونك. قوله صلى الله عليه وسلم: "ثم أداء الأمانة"، هي العقد الذي يلزم الوفاء به، وأصح ما قيل في تفسير الآية أن الأمانة ثقيلة المحمل، لأن حاملها معرض لخطر عظيم. فهي بالغة من الثقل وصعوبة المحمل ما لو أنها عرضت على السموات والأرض والجبال لامتنت من حملها. فأما الإنسان فإنه حملها وألزم القيام بها. وليس المراد بقولنا: إنها عرضت على السموات والأرض أي لو عرضت عليها وهي جمادات، بل المراد تعظيم شأن الأمانة، كما تقول: هذا الكلام لا يحمله الجبال، وقوله: امتلأ الحوض وقال قطني وقوله تعالى: "فالتأينا طائعين". ومذهب العرب في هذا الباب. وتوسعها ومجازاتها مشهور شائع.

قال في شأن معاوية

الأصل: وألله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة، وكل فجرة كفر، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة. والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا أستغمر بالشديدة. الشرح: الغدر، على "فعلة" الكثير الغدر، والفجرة والكفرة: الكثير الفجور والكفر، وكل ما كان على هذا البناء فهو للفاعل، فإن سكنت العين فهو للمفعول، تقول: رجل ضحكة أي يضحك، وضحكة يضحك منه، وسخرة يسخر، وسخرة يسخر به، يقول صلى الله عليه وسلم: كل غادر فاجر، وكل فاجر كافر. ويروى: "ولكن كل غدره فجرة، وكل فجرة كفر" على "فعلة" للمرة الواحدة. وقوله: "لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة"، حديث صحيح مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أقسم صلى الله عليه وسلم أنه لا يستغفل بالمكيدة، أي لا تجوز المكيدة علي، كما تجوز على ذوي الغفلة، وأنه لا يستغمر بالشديدة، أي لا أهين وألين للخطب الشديد.

حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام

واعلم أن قوماً ممن لم يعرف حقيقة فضل أمير المؤمنين صلى الله عليه وسلم، زعموا أن عمر كان أسوس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح الرئيس أبو علي بن سينا بذلك في "الشفاء" في الحكمة، وكان شيخنا أبو الحسين يميل إلى هذا، وقد عرض به في كتاب "الغرر"، ثم زعم أعداؤه ومباغضوه أن معاوية كان أسوس منه وأصح تدبيراً، وقد سبق لنا بحث قديم في هذا الكتاب في بيان حسن سياسة أمير المؤمنين رضي الله عنه وصحة تدبيره، ونحن نذكر ههنا ما لم نذكره هناك مما يليق بهذا الفصل الذي نحن في شرحه. اعلم أن السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه، وتمهيد أمره، وتوطيد قاعدته، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه، فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتباعها ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب، ولا ناسبين إليه ما هو متره عنه، ولكنه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدب بالدرة والسوط من يتغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اجترأوا ما يستحقون به التأديب، كل ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره، ولم يكن أمير المؤمنين رضي الله عنه يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر، ولا يتعدها إلى الاجتهاد والأقيسة، ويطبق أمور الدنيا على أمور الدين، ويسوق الكل مساقاً واحداً، ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنص، فاختلفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة، وكان عمر مع ذلك شديد الغلظة والسياسة، وكان علي رضي الله عنه كثير الحلم والصفح والتجاوز، فازدادت خلافة ذاك قوة، وخلافة هذا ليناً، ولم يمن عمر رضي الله عنه بما مني به علي

رضي الله عنه من فتنة عثمان، التي أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده ومقاربتهم، للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة. ثم تلا ذلك فتنة الحمل، وفتنة صفيين ثم فتنة النهروان، وكل هذه الأمور مؤثرة في اضطراب أمر الوالي واخلال معاهد ملكه، ولم يتفق لعمر رضي الله عنه شيء من ذلك، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة وصحة تدبير الخلافة. فإن قلت: فما قولك في سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم وتدييره؟ أليس كان منتظماً سديداً لمجوع أنه كان لا يعمل إلا بالنصوص والتوقيف من الوحي فهلا كان تدبير علي رضي الله عنه وسياسته كذلك إذا قلت: إنه كان لا يعمل إلا بالنص، قلت: أما سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم وتدييره فخارج عما نحن فيه، لأنه معصوم لا تتطرق الغفلة إلى أفعاله، ولا واحد من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا. وأيضاً فإن كثيراً من الناس ذهبوا إلى أن الله تعالى أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم في الشرعيات وغيرها برأيه، وقال له: احكم بما تراه، فإنك لا تحكم إلا بالحق، وهذا مذهب يونس بن عمران، وعلى هذا فقد سقط السؤال، لأنه صلى الله عليه وسلم يعمل بما يراه من المصلحة، ولا ينتظر الوحي. وأيضاً فبتقدير فساد هذا المذهب، أليس قد ذهب خلق كثير من علماء أصول الفقه إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجوز له أن يجتهد في الأحكام والتدبير، كما يجتهد الواحد من العلماء، وإليه ذهب القاضي أبو يوسف رحمه الله، واحتج بقوله تعالى: "لتحكم بين الناس بما أراك الله". والسؤال أيضاً ساقط على هذا المذهب، لأن اجتهد علي رضي الله عنه لا يساوي اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم، وبين الاجتهادين كما بين المترئين. وكان أبو جعفر بن أبي زيد الحسيني نقيب البصرة رحمه الله إذا حدثناه في هذا يقول: إنه لا فرق عند من قرأ السيرتين: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسياسة أصحابه أيام حياته، وبين سيرة أمير المؤمنين رضي الله عنه وسياسة أصحابه أيام حياته، فكما أن علياً رضي الله عنه لم يزل أمره مضطرباً معهم بالمخالفة والعصيان والهرب إلى أعدائه، وكثرة الفتن والحروب، فكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل ممنواً

بنفاق المنافقين وأذاهم، وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه، وكثرة الحروب والفتن. وكان يقول: ألسنت ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم، والتألم من أذاهم له، كما أن كلام علي رضي الله عنه مملوء بالشكوى من منافقي أصحابه والتألم من أذاهم له، والتوائهم عليه وذلك نحو قوله تعالى: "ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير".

وقوله: "إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا". وقوله تعالى: "إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، اتخذوا أيمانهم جنةً فصودوا عن سبيل الله إثمهم ساء ما كانوا يعملون". وقوله تعالى: "ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم". وقوله تعالى: "رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المعشي عليه من الموت فأولى لهم، طاعةٌ وقولٌ معروفٌ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم". وقوله تعالى: "أم حسب الذين في قلوبهم مرضٌ أن لن يخرج الله أضغانهم، ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم

أعمالكم". وقوله تعالى: "سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً". وقوله تعالى: "سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون أن يدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً". وقوله: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم". قال: وأصحابه هم الذين نازعوا في الأنفال وطلبوها لأنفسهم، حتى أنزل الله تعالى: "قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين". وهم الذين اتوا عليه في الحرب يوم بدر، وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم، وذلك قبل أن تترأى الفتتان، وأنزل فيهم: "يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون". وهم الذين كانوا يتمنون لقاء العير دون لقاء العدو، حتى إنهم ظفروا برجلين في الطريق، فسألوهما عن العير، فقالا لا علم لنا بها، وإنما رأينا جيش قريش من وراء ذلك الكثيب، فضرلوهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فلما ذاقا مس الضرب قالوا: بل العير أمامكم فاطلبوها، فلما رفعوا الضرب عنهما، قالوا: والله ما رأينا العير ولا رأينا إلا الخيل والسلاح والجيش، فأعادوا الضرب عليهما مرة ثانية، فقالا وهما يضربان: العير أمامكم، فخلوا عنا، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة، وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم خليتم عنهما دعوهما، فما رأيا إلا جيش أهل مكة، وأنزل قوله تعالى: "وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين". قال المفسرون: الطائفتان: العير ذات اللطيمة الواصلة إلى مكة من الشام صحبة أبي سفيان بن حرب، وإليها كان خروج المسلمين، والأخرى: الجيش ذو الشوكة، وكان صلى الله عليه وسلم قد وعدهم بإحدى الطائفتين، فكرهوا الحرب، وأحبوا الغنيمة.

قال: وهم الذين فروا عنه صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وأسلموه وأصعدوه في الجبل، وتركوه حتى شج الأعداء وجهه، وكسروا ثنيته، وضربوه على ببيضته، حتى دخل جماجمه، ووقع من فرسه إلى الأرض بين القتلى، وهو يستصرخ بهم، ويدعوهم فلا يجيبه أحدٌ منهم إلا من كان جاريّاً مجرى نفسه، وشديد الاختصاص به، وذلك قوله تعالى: "إذ تصعدون ولا تلوون على أحدٍ والرسول يدعوكم في أخراكم"، أي ينادي فيسمع نداءه آخر الهاربين لا أولهم، لأن أولهم أوغلوا في الفرار، وبعثوا عن أن يسمعو صوته، وكان قصارى الأمر أن يبلغ صوته واستصراخه من كان على ساق الهاربين منهم. قال: ومنهم الذين عصوا أمره في ذلك اليوم، حيث أقامهم على الشعب في الجبل، وهو الموضع الذي خاف أن تكرر عليه منه خيل العدو من ورائه، وهم أصحاب عبد الله بن جبير، فإنهم خالفوا أمره وعصوه فيما تقدم به إليهم، ورغبوا في الغنيمة، ففارقوا مركزهم، حتى دخل الوهن على الإسلام بطريقهم، لأن خالد بن الوليد كر في عصابة من الخيل، فدخل من الشعب الذي كانوا يجرسونه، فما أحس المسلمون بهم إلا وقد غشوه بالسيوف من خلفهم، فكانت الهزيمة، وذلك قوله تعالى: "حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تمحبون منكم من يريد الدنيا

ومنكم من يريد الآخرة" . قال: وهم الذين عصوا أمره في غزاة تبوك، بعد أن أكد عليهم الأوامر، وخذلوه وتركوه ولم يشخصوا معه، فأنزل فيهم: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير" ، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين، وفيها أوضح دليل على أن أصحابه وأولياءه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه، ويخالفون أمره، وأكد عتابهم وتقريعهم وتوبيخهم بقوله تعالى: "لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو أستطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون" .

ثم عاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كونه أذن لهم في التخلف، وإنما أذن لهم لعلمه أنهم لا يجيبونه في الخروج، فرأى أن يجعل المنة له عليهم في الإذن لهم، وإلا قعدوا عنه ولم تصل له المنة، فقال له: "عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين" ، أي هلا أمسكت عن الإذن لهم حتى يتبين لك قعود من يقعد، وخروج من يخرج، صادقهم من كاذبهم لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه كلهم، وكان بعضهم ينوي الغدر، وبعضهم يعزم على أن يخيس بذلك الوعد، فلو لم يأذن لهم لعلم من يتخلف ومن لا يتخلف، فعرف الصادق منهم والكاذب. ثم بين سبحانه وتعالى أن الذين يستأذنونهم في التخلف خارجون من الإيمان، فقال له: "لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن تحاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون" . ولا حاجة إلى التطويل بذكر الآيات المفصلة فيما يناسب هذا المعنى، فمن تأقل الكتاب العزيز علم حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت، ولم ينقله الله تعالى إلى جواره إلا وهو مع المنافقين له والمظهرين خلافه ما يضمرون من تصديقه في جهادٍ شديد، حتى لقد كاشفوه مراراً، فقال لهم يوم الحديبية: احلقوا وانحروا مراراً، ولم يحلقوا ولم ينحروا، ولى يتحرك أحد منهم عند قوله، وقال له بعضهم وهو يقسم الغنائم: "أعدل يا محمد فإنك لم تعدل". وقالت الأنصار له مواجهة يوم حنين: أتأخذ ما أفاء الله علينا بسيوفنا فتدفعه إلى أقاربك من أهل مكة حتى أفضى الأمر إلى أن قال لهم في مرض موته: "اتنوني بدواة وكتب أكتب لكم ما لا تضلون بعده"، فعصوه ولم يأتوه بذلك، وليتهم اقتصروا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا، وهو يسمع وكان أبو جعفر رحمه الله يقول من هذا ما يطول شرحه، والقليل منه ينبيء عن الكثير، وكان يقول: إن الإسلام ما حلا عندهم ولا ثبت في قلوبهم إلا بعد موته، حين فتحت عليهم الفتوح، وجاءتهم الغنائم والأموال، وكثرت عليهم المكاسب، وذاقوا طعم الحياة، وعرفوا لذة الدنيا، ولبسوا الناعم، وأكلوا الطيب، وتمتعوا بنساء الروم، وملكوا خزائن كسرى، وتبدلوا بذلك القشف والشظف والعيش الحشن وأكل الضباب والقنافذ واليرابيع ولبس الصوف والكرايس ، أكل اللوزينجات والفالوذجات ولبس الحرير والدياج، فاستدلوا بما فتحه الله عليهم، وأتاحه لهم على صحة الدعوة، وصدق الرسالة، وقد كان صلى الله عليه وسلم وعدهم بأنه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر، فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظموه وبجلوه، وانقلبت تلك الشكوك وذاك النفاق وذلك الاستهزاء إيماناً و يقيناً وإخلاصاً، وطاب لهم العيش، وتمسكوا بالدين، لأنه زادهم طريقاً إلى نيل الدنيا،

فعظموا ناموسه، وبالغوا في إجلاله وإجلال الرسول الذي جاء به، ثم انقرض الأسلاف وجاء الأخلاف على عقيدة ممهدة، وأمر أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين ربوا في حجورهم، ثم انقرض ذلك القرن، وجاء من بعدهم كذلك، وهلم جراً.

قال: ولولا الفتوح والنصر والظفر الذي منحهم الله تعالى إياه، والدولة التي ساقها إليهم، لانقرض دين الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يذكر في التواريخ، كما تذكر الآن غوة خالد بن سنان العبسي، حيث ظهر ودعا إلى الدين. وكان الناس يعجبون من ذلك ويتذكرونه كما يعجبون ويتذكرون أخبار من نبغ من الرؤساء والملوك والدعاة الذين انقرض أمرهم، وبقيت أخبارهم. وكان يقول: من تأمل حال الرجلين وجدتهما متشابهتين في جميع أمورهما أو في أكثرها، وذلك لأن حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين كانت سجلاً، انتصر يوم بدر، وانتصر المشركون عليه يوم أحد، وكان يوم الخندق كفافاً خرج هو وهم سواء، لا عليه ولا له، لأنهم قتلوا رئيس الأوس وهو سعد بن معاذ، وقتل منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبد ود، وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت، ثم حارب بعدها قريشاً يوم الفتح، فكان الظفر له. وهكذا كانت حروب علي رضي الله عنه، انتصر يوم الجمل، وخرج الأمر بينه وبين معاوية على سواء، قتل من أصحابه رؤساء، ومن أصحاب معاوية رؤساء، وانصرف كل واحد من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه، ثم حارب بعد صفين أهل النهروان، فكان الظفر له. قال: ومن العجب أن أول حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بدرًا، وكان هو المنصور فيها، وأول حروب علي رضي الله عنه الجمل، وكان هو المنصور فيها. ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية. ثم دعا معاوية في آخر أيام علي رضي الله عنه إلى نفسه وتسمى بالنبوة. واشتد على علي رضي الله عنه ذلك، كما دعوا إلى أنفسهما في آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسمى بالنبوة. واشتد على علي رضي الله عنه ذلك، كما اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الأسود ومسيلمة، وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك أبطل أمر معاوية وبني أمية بعد وفاة علي رضي الله عنه. ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد من العرب إلا قريش ما عدا يوم حنين، ولم يحارب علياً رضي الله عنه من العرب أحدًا إلا قريش ما عدا يوم النهروان ومات علي رضي الله عنه شهيداً بالسيف، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيداً بالسهم. وهذا لم يتزوج صلى الله عليه وسلم خديجة أم أولاده حتى ماتت، وهذا لم يتزوج علي فاطمة أم أشرف أولاده حتى ماتت. ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثلاث وستين سنة، ومات علي رضي الله عنه عن مثلها. وكان يقول: انظروا إلى أخلاقهما وخصائصهما، هذا شجاع وهذا شجاع، وهذا فصيح وهذا فصيح، وهذا سخي جواد وهذا سخي جواد، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلهية، وهذا عالم بالفقه والشريعة والأمور الإلهية الدقيقة الغامضة، وهذا زاهد لا الدنيا غيرهم ولا مستكثر منها، وهذا زاهد في الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها. وهذا مذهب نفسه في الصلاة والعبادة، وهذا مثله. وهذا غير محبب إليه شيء من الأمور العاجلة إلا النساء وهذا مثله، وهذا ابن عبد المطلب بن هاشم. وهذا في قعده، وأبواهما أخوان لأب واحد دون غيرهما من بني عبد المطلب، وربي محمد صلى الله عليه وسلم في حجر والد هذا وهو أبو طالب، فكان جارياً عنده مجرى

أحد أولاده. ثم لما صلى الله عليه وسلم وكبر استخلصه من بني أبي طالب وهو غلام، فرباه في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به، فامتزج الخلقان، وتمثلت السجيتان، وإذا كان القرين مقتدياً بالقرين، فما ظنك بالتربية والتثقيف الدهر الطويل فواجب أن تكون أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم كأخلاق أبي طالب، وتكون أخلاق علي رضي الله عنه كأخلاق أبي طالب أبيه، ومحمد صلى الله عليه وسلم مربيه، وأن يكون الكل شيمة واحدة وسوساً واحداً، وطينة مشتركة، ونفساً غير منقسمة ولا متجزئة، وألا يكون بين بعض هؤلاء وبعض فرق ولا فضلاً، لولا أن الله تعالى اختص محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته، واصطفاه لوحيه، لما تعلمه من مصالح البرية في ذلك، ومن أن اللطف به أكمل، والنفع بمكانه أتم وأعم، فامتاز رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك عمن سواه، وبقي ما عدا الرسالة على أمر الاتحاد، وإلى هذا المعنى أشار صلى الله عليه وسلم بقوله: "أخصمك بالنبوة فلا نبوة بعدي، وتخصم الناس بسبع"، وقال له أيضاً: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"، فأبان نفسه منه بالنبوة، وأثبت له ما عداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما. وكان النقيب أبو جعفر رحمه الله، غزير العلم، صحيح العقل، منصفاً في الجدل، غير متعصب للمذهب وإن كان علوياً وكان يعترف بفضائل الصحابة، ويشي على الشيخين. ويقول: إنهما مهذا دين الإسلام وأرسيها قواعده، ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما مهدها بما تيسر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما. وكان يقول في عثمان: إن الدولة في أيامه كانت على إقبالها وعلو جدها، بل كانت الفتوح في أيامه أكثر، والغنائم أعظم، لولا أنه لم يراع ناموس الشميخين، ولم يستطع أن يسلك مسلكهما، وكان مضجعاً في أصل القاعدة، مغلوباً عليه، وكثير الحب لأهله، واتيح له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه، وحمل الناس على خلعه وقتله.

الأسباب التي أوجبت محبة الناس لعلي

وكان أبو جعفر رحمه الله لا يجحد الفاضل فضله، والحديث شجون. قلت له مرة: ما سبب حب الناس لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعشقهم له، وتهالكهم في هواه؟ ودعني في الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة، وغير ذلك من الخصائص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيب منها فضحك وقال لي: كم تجمع جراميك علي ثم قال: ههنا مقدمة ينبغي أن تعلم، وهي أن أكثر الناس موتورون من الدنيا، أما المستحقون فلا ريب في أن أكثرهم محرومون، نحو عالم يرى أنه لاحظ له في الدنيا، ويرى جاهلاً غيره مرزوقاً وموسعاً عليه. وشجاعاً قد أبلى في الحرب، وانتفع بموضعه، ليس له عطاء يكفيه، ويقوم بضروراته، ويرى غيره وهو جبان فشل، يفرق من ظله، مالكاً لقطر عظيم من الدنيا، وقطعة وافرة من المال والرزق. وعاقلٍ شديد التدبير، صحيح العقل، قد قدر عليه رزقه، وهو يرى غيره أحمق مائقاً تدر عليه الخيرات، وتتحلب عليه أخلاف الرزق. وذو دين قويم، وعبادة حسنة، وإخلاص وتوحيد، وهو محروم ضيق الرزق وبرى غيره يهودياً أو نصرانياً أو زنديقاً، كثير المال حسن الحال، حتى إن هذه الطبقات المستحقة يحتاجون في أكثر الوقت إلى الطبقات التي لا استحقاق لها، وتدعوهم الضرورة إلى الذل لهم، والخضوع بين أيديهم، إما لدفع ضرر، أو

لاستجلاب نفع، ودون هذه الطبقات من ذوي الاستحقاق أيضاً، ما نشاهده عياناً من نجار حاذق أو بناء عالم، أو نقاش بارع، أو مصور لطيف، على غاية ما يكون من ضيق رزقهم، ووقود الوقت بهم، وقلة الحيلة لهم، ويرى غيرهم ممن ليس يجري مجراهم، ولا يلحق طبقتهم، مرزوقاً مرغوباً فيه، كثير المكسب طيب العيش، واسع الرزق. فهذا حال ذوي الاستحقاق والاستعداد. وأما الذين ليسوا من أهل الفضائل، كحشو العامة، فإنهم أيضاً لا يخلون من الحقد على الدنيا والدم لها، والحنق والغیظ منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم وجيرانهم، ولا يرى أحد منهم قانعاً بعيشه، ولا راضياً بحاله، بل يستزید ويطلب حالاً فوق حاله. قال: فإذا عرفت هذه المقدمة، فمعلوم أن علياً رضي الله عنه كان مستحقاً محروماً، بل هو أمير المستحقين المحرومين، وسيدهم وكبيرهم، ومعلوم أن الذين ينالهم الضيم، وتلحقهم المذلة والهزيمة، يتعصب بعضهم لبعض، ويكونون إلباً ويداً واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا، ونالوا مآربهم منها، لا شراكم في الأمر الذي آلمهم وساءهم، وعرضهم ومضهم، واشتراكم في الأنفة والحمية والغضب والمنافسة لمن علا عليهم، وقهرهم، وبلغ من الدنيا ما لم يبلغوه، فإذا كان هؤلاء أعني المحرومين متساوين في المتزلة والمرتبة، وتعصب بعضهم لبعض، فما ظنك بما إذا كان منهم رجلٌ عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف، جامع للفضائل محتوٍ على الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محروم محدود، وقد جرعت الدنيا علاقمها، وعلته عللاً بعد نهل من صابها وصبرها، ولقي منها برحاً بارحاً، وجهداً جهيداً، وعلا عليه من هو دونه، وحكم فيه وفي بنيه وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان في حسابه، ولا دائراً في خلده، ولا خاطراً بباله، ولا كان أحدٌ من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له. ثم كان في آخر الأمر أن قتل هذا الرجل الجليل في محرابه، وقتل بنوه بعده، وسي حريمه ونساؤه، وتبع أهله وبنو عمه بالقتل والطرود والتشريد والسجون، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم، وانتفاع الخلق بهم. فهل يمكن ألا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص وهل تستطيع القلوب ألا تحبه وتهواه، وتذوب فيه وتفتى في عشقه، انتصاراً له، وحمية من أجله، وأنفة مما ناله، وامتعاضاً مما جرى عليه وهذا أمر مركوز في الطبائع، ومخلوق في الغرائز، كما يشاهد الناس على الجرف إنساناً قد وقع في الماء العميق، وهو لا يحسن السباحة، فإنهم بالطبع البشري يرقون عليه رقة شديدة، وقد يلقي قومٌ منهم أنفسهم في الماء نحوه، يطلبون تخليصه، لا يتوقعون على ذلك مجازاة منه بمالٍ أو شكر، ولا ثواباً في الآخرة، فقد يكون منهم من لا يعتقد أمر الآخرة، ولكنها رقة بشرية، وكأن الواحد منهم يتخيل في نفسه أنه ذلك الغريق، فكما يطلب خلاص نفسه لو كان هذا الغريق، كذلك يطلب تخليص من هو في تلك الحال الصعبة، للمشاركة الجنسية. وكذلك لو أن ملكاً ظلم أهل بلد من بلاده ظلماً عنيفاً، لكان أهل ذلك البلد يتعصب بعضهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك، والاستعداد عليه، فلو كان من جملتهم رجلٌ عظيم القدر، جليل الشأن، قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إياهم، وأخذ أمواله وضياعه، وقتل أولاده وأهله، كان لياذهم به، وانضواؤهم إليه، واجتماعهم والتفافهم به أعظم وأعظم، لأن الطبيعة البشرية تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطراري، ولا يستطيع الإنسان منه امتناعاً. وهذا محصول قول النقيب أبي جعفر رحمه الله، قد حكيت والألفاظ لي والمعنى له، لأني لا أحفظ الآن ألفاظه بعينها، إلا أن هذا هو كان معنى قوله وفحواه، رحمه الله. وكان لا يعتقد في الصحابة ما يعتقد أكثر الإمامية فيهم، ويسفه رأي من يذهب فيهم إلى النفاق والتكفير. وكان يقول: حكمهم حكم مسلم مؤمن، عمى في بعض الأفعال وخالف الأمر، فحكمه إلى الله، إن شاء

آخذه، وإن شاء غفر له. قلت له مرة: أفتقول إنهما من أهل الجنة؟ فقال: إي والله أعتقد ذلك، لأنهما إما أن يعفو الله تعالى عنهما ابتداءً أو بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو يؤاخذهما بعقاب أو عتاب، ثم ينقلهما إلى الجنة، لا أستريب في ذلك أصلاً، ولا أشك في إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحة عقيدتهما. فقلت له: فعثمان؟ قال: وكذلك عثمان. ثم قال: رحم الله عثمان وهل كان إلا واحداً منا، وغصناً من شجرة عبد مناف ولكن أهله كدروه علينا، وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا. قلت له: فيلزمك على ما تراه في أمر هؤلاء أن تجوز دخول معاوية الجنة، لأنه لم تكن منه إلا المخالفة وترك امتثال الأمر النبوي فقال: كلا، إن معاوية من أهل النار، لا لمخالفته علياً، ولا بمحاربتة إياه، ولكن عقيدته لم تكن صحيحة، ولا إيمانه حقاً، وكان من رؤوس المنافقين هو وأبوه، ولم يسلم قلبه قط، وإنما أسلم لسانه، وكان يذكر من حديث معاوية ومن فلتات قوله، وما حفظ عنه من كلام يقتضي فساد العقيدة شيئاً كثيراً، ليس هذا موضعه فأذكره. وقال لي مرة: حاش لئه أن يثبت معاوية في جريدة الشيخين الفاضلين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والله ما هما إلا كالذهب الإبريز، ولا معاوية إلا كالدرهم الزائف "أو قال: كالدرهم القسي" ثم قال لي: فما يقول أصحابكم فيهما؟ قلت: أما الذي استقر عليه رأي المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم في التفضيل وغيره، أن علياً رضي الله عنه أفضل الجماعة، وأهم تركوا الأفضل لمصلحة رأوها، وأنه لم يكن هناك نص يقطع العذر، وإنما كانت إشارة وإيماء لا يتضمن شيء منها صريح النص، وأن علياً رضي الله عنه نازع ثم بايع، وجمع ثم استجاب. ولو أقام على الامتناع لم نقل بصحة البيعة ولا بلزومها، ولو جرد السيف كما جرده في آخر الأمر لقلنا بفسق كل من خالفه على الإطلاق كائناً من كان، ولكنه رضي بالبيعة أخيراً، ودخل في الطاعة. وبالجملة، أصحابنا يقولون: إن الأمر كان له، وكان هو المستحق والمتعين، فإن شاء أخذه لنفسه، وإن شاء ولأه غيره، فلما رأيناه قد وافق على ولاية غيره، اتبعناه ورضينا بما رضي. فقال: قد بقي بيني وبينكم قليل، أنا أذهب إلى النص وأنتم لا تذهبون إليه فقلت له: إنه لم يثبت النص عندنا بطريق يوجب العلم، وما تذكرونه أنتم صريحاً فأنتم تنفردون بنقله، وما عدا ذلك من الأخبار التي نشارككم فيها، فلها تأويلات معلومة. فقال لي وهو ضجر: يا فلان، لو فتحنا باب التأويلات، لجاز أن يتناول قولنا: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، دعني من التأويلات الباردة التي تعلم القلوب والنفوس أنها غير مرادة، وأن المتكلمين تكلفوها وتعسفوها، فإنما أنا وأنت في الدار ولا ثالث لنا، فيستحي أحدنا من صاحبه أو يحافه. فلما بلغنا إلى هذا الموضع، دخل قوم ممن كان يخشاه، فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث، وخضنا في غيره.

سياسة الإمام علي عليه السلام ومعاوية

فأما القول في سياسة معاوية، وأن شناعة علي رضي الله عنه ومبغضيه زعموا أنها خير من سياسة أمير المؤمنين، فيكفيها في الكلام على ذلك ما قاله شيخنا أبو عثمان، ونحن نحكيه بألفاظه.

قال أبو عثمان: وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز - وهو من العامة ويظن أنه من

الخاصة - يزعم أن معاوية كان أبعد غوراً، وأصح فكراً، وأجود رؤية، وأبعد غاية، وأدق مسلكاً، وليس الأمر كذلك، وسأرمي إليك بجملة تعرف بها موضع غلظه. والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله. كان علي رضي الله عنه لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكاييد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى رتبيل. وعلي رضي الله عنه يقول: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مغلقاً، هذه سيرته في ذي الكلاع، وفي أبي الأعور السلمي، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مسلمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية والحشو والأتباع والسفلة. وأصحاب الحروب، إن قدروا على البيات بيتوا، وإن قدروا على رضح الجميع بالجنديل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه إلى ساعة، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا الحصار، ولم يدعوا أن ينصبوا المجانيق، والعرادات، والنقب، والتسريب، والدبابات، والكمين، ولم يدعوا دس السموم، ولا التضريب بين الناس بالكذب، وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات، وتوهم الأمور، وإحاش بعض من بعض، وقتلهم بكل آلة وحيلة، كيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال فمن اقتصر - حفظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير، وما لا يتناهى من المكاييد. والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق، والحرام أكثر عدداً من الحلال، ولو سمي إنسان إنساناً باسمه لكان قد صدق، وليس له اسم غيره، ولو قال: هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بغير أو كل ما خطر على البال، لكان كاذباً في ذلك، وكذلك الإيمان والكفر، وكذلك الطاعة والمعصية، وكذلك الحق والباطل، وكذلك السقم والصحة، وكذلك الخطأ والصواب، فعلي رضي الله عنه كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو الله عز وجل رضاء، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو الله رضاء، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة، دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والنكراء والمكاييد والأراء، فلما أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية في المكاييد، وكثرة غرائبه في الخداع، وما اتفق له وقياً على يده، ولم يروا ذلك من علي رضي الله عنه، ظنوا - بقصر عقولهم، وقلة علومهم - أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند علي رضي الله عنه. فانظر بعد هذا كله، هل يعد له من الخدع إلا رفع المصاحف ثم انظر هل خدع بها إلا من عصى رأي علي رضي الله عنه، وخالف أمره فإن زعمت أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت، وليس في هذا اختلافنا، ولا عن غرارة أصحاب علي رضي الله عنه، وعجلتهم وتسرعهم وتنازعهم دفعنا، وإنما كان قولنا في التميز بينهما في الدهاء والنكراء وصحة العقل والرأي والبزلاء، على أنا لا نصف الصالحين بالدهاء والنكراء، لا نقول: ما كان أنكر أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه وما كان أنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولا يقول أحدٌ عنده شيء من الخير: كان رسول الله رضي الله عنه أدهى العرب والعجم، وأنكر قریش وأمكر كنانة، لأن هذه الكلمة إنما وضعت في مديح أصحاب الأرب ومن يتعمق في الرأي في توكيد أمر الدنيا وزبرجها وتشديد أركانها، فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر، وإنما يصلحون على تدبير خالق البشر، فإن هؤلاء لا يمدحون بالدهاء والنكراء، ولم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه. ألا ترى أن المغيرة بن شعبه - وكان أحد الدهاة - حين رد على عمرو بن العاص قوله

في عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وعمرو بن العاص أحد الدهاة أيضاً: أأنت كنت تفعل، أو توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك ما رأيت عمر مستخلياً بأحد إلا رحمته كائناً من كان ذلك الرجل، كان عمر والله أعقل من أن يخدع، وأفضل من أن يخدع. ولم يذكره بالدهاء والنكراء وهذا مع عجبه بإضافة الناس ذلك إليه، ولكنه قد علم أنه إذا أطلق على الأئمة الألفاظ التي

لاتصلح في أهل الطهارة، كان ذلك غير مقبول منه، فهذا هذا. وكذلك كان حكم قول معاوية للجميع: أخرجوا إلينا قتلة عثمان، ونحن لكم سلم. فاجهد كل جهدك، واستعن بمن شايئك إلى أن تتخلص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله علي، حتى تعلم أن معاوية خادع، وأن علياً رضي الله عنه كان المخدوع. فإن قلت: فقد بلغ ما أراد، ونال ما أحب، فهل رأيت كتابنا وضع الا على أن علياً كان قد امتحن في أصحابه وفي دهره، بما لم يمتحن إمام قبله من الاختلاف والمنازعة، والتشاح من الرياسة والتسرع والعجلة وهل أتى رضي الله عنه إلا من هذا المكان أو لسنا قد فرغنا من هذا الأمر، وقد علمنا أن ثلاثة نفر تواطأوا على قتل ثلاثة نفر، فانفرد ابن ملجم بالتماس ذلك من علي رضي الله عنه، وانفرد البرك الصريمي بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد الآخر - وهو عمرو بن بكر التميمي - بالتماس ذلك من معاوية، فكان من الاتفاق أو من الامتحان، أن كان علي من بينهم هو المقتول. وفي قياس مذهبكم أن تزعموا أن سلامة عمرو ومعاوية إنما كانت بحزم منهما، وأن قتل علي رضي الله عنه إنما هو من تضييع منه، فإذا قد تبين لكم أنه من الابتلاء والامتحان في نفسه بخلاف الذي قد شاهدتموه في عدوه، فكل شيء سوى ذلك، فإنما هو تبع للنفس. هذا آخر كلام أبي عثمان في هذا الموضع، ومن تأمله بعين الإنصاف، ولم يتبع الهوى علم صحة جميع ما ذكره، وأن أمير المؤمنين دفع - من اختلاف أصحابه، وسوء طاعتهم له، ولزومه سنن الشريعة، ومنهج العدل، وخروج معاوية وعمرو بن العاص عن قاعدة الشرع في استمالة الناس إليهم بالرغبة والرهبة - إلى ما لم يدفع إليه غيره. فلولا أنه رضي الله عنه كان عارفاً بوجوه السياسة وتدبير أمر السلطان والخلافة، حاذقاً في ذلك، لم يجتمع عليه إلا القليل من الناس، وهم أهل الآخرة خاصة، الذين لا ميل لهم إلى الدنيا، فلما وجدناه دبر الأمر حين وليه، واجتمع عليه من العساكر والأتباع ما يتجاوز العد والحصر، وقاتل بهم أعداءه الذين حالم حالهم، فظفر في أكثر حروبه، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء، وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار - علمنا أنه من معرفة تدبير الدول والسلطان بمكان مكين.

أقوال من طعن في سياسة علي والرد عليها

وقد تعلق من طعن في سياسته بأمور: منها قولهم: لو كان حين بويع له بالخلافة في المدينة أقر معاوية على الشام إلى أن يستقر الأمر له ويتوطد، ويبيعه معاوية وأهل الشام ثم يعزله بعد ذلك، لكان قد كفي ما جرى بينهما من الحرب. والجواب: أن قرائن الأحوال حينئذ، قد كان علم أمير المؤمنين رضي الله عنه منها أن معاوية لا يبيع له وإن أقره على ولاية الشام، بل كان إقراره له على إمرة الشام، أقوى لحال معاوية، وأكد في الامتناع من البيعة، لأنه لا يخلو صاحب السؤال إما أن يقول: كان ينبغي أن يطالبه بالبيعة وبقرب إلى ذلك تقليده بالشام، فيكون الأمران معاً، أو يتقدم منه رضي

الله عنه المطالبة بالبيعة. أو يتقدم منه إقراره على الشام وتتأخر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان. فإن كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاوية على أهل الشام تقليده بالإمرة، فيؤكد حاله عندهم ويقرر في أنفسهم، لولا أنه أهل لذلك لما اعتمده علي رضي الله عنه معه، ثم يماطله بالبيعة، ويحاجزه عنها. وإن كان الثاني فهو الذي فعله أمير المؤمنين رضي الله عنه. وإن كان الثالث فهو كالقسم الأول، بل هو أكد فيما يريد معاوية من الخلاف والعصيان. وكيف يتوهم من يعرف السير أن معاوية كان يبايع له، لو أقره على الشام وبينه وبينه ما لا تترك الإبل عليه، من الترات القديمة، والأحقاد، وهو الذي قتل حنظلة أخاه والوليد خاله، وعتبة جده في مقام واحد، ثم ما جرى بينهما في أيام عثمان، حتى أغلظ كل واحد منهما لصاحبه، وحتى تهدده معاوية، وقال له: إني شاخص إلى الشام وتارك عندك هذا الشيخ - يعني عثمان - والله لئن انحصت منه شعرة واحدة لأضربنك بمائة ألف سيف. وقد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم. وأما قول ابن عباس له رضي الله عنه: وله شهراً واعزله دهرًا، وما أشار به المغيرة بن شعبة، فإنهما ما توهماه، وما غلب على ظنونهما وخطر بقلوبهما، وعلي رضي الله عنه كان أعلم بحاله مع معاوية، وأنها لا تقبل العلاج والتدبير. وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكره ودهائه، وما كان في نفسه من علي رضي الله عنه من قتل عثمان ومن قبل قتل عثمان، أنه يقبل إقراره علي رضي الله عنه له على الشام، وينخدع بذلك، ويبايع ويعطي صفقة يمينه إن معاوية لأدهى من أن يكاد بذلك، وإن علياً رضي الله عنه لأعرف بمعاوية ممن ظن أنه لو استماله بإقراره لبايع له، ولم يكن عند علي رضي الله عنه دواء لهذا المرض إلا السيف، لأن الحال إليه كانت تؤول لا محالة، فجعل الآخر أولاً. وأنا أذكر في هذا الموضوع خبراً رواه الزبير بن بكار في "الموفقيات" ليعلم من يقف عليه، أن معاوية لم يكن لينجذب إلى طاعة علي رضي الله عنه أبداً، ولا يعطيه البيعة، وأن مضادته له، ومباينته إياه كمضادة السواد للبياض، لا يجتمعان أبداً وكمباينة السلب للإيجاب، فإنها مباينة لا يمكن زوالها أصلاً. قال الزبير: حدثني محمد بن محمد بن زكريا بن بسطام، قال: حدثني محمد بن يعقوب بن أبي الليث، قال: حدثني أحمد بن محمد بن الفضل بن يحسى المكي، عن أبيه، عن جده الفضل بن يحيى عن الحسن بن عبد الصمد، عن قيس بن عرفة، قال: لما حصر عثمان أبرد مروان بن الحكم بخبره يريدان: أحدهما إلى الشام، والآخر إلى اليمن - وبها يومئذ يعلى بن منية - ومع كل واحد منهما كتاب، فيه أن بني أمية في الناس كالشامة الحمراء، وأن الناس قد قعدوا لهم برأس كل محجة، وعلى كل طريق، فجعلوهم مرمى العر والعضيهة، ومقذف القشب والأفيكة، وقد علمتم أنها لم تأت عثمان إلا كرهاً، تجذب من ورائها. وإني خائف إن قتل أن تكون من بني أمية بمنأى الثريا، إن لم نصر كرصيف الأساس المحكم، ولئن وهى عمود البيت لتنداعين جدرانها، والذي عيب عليه إطعامكما الشام واليمن، ولا شك أنكما تابعا إن لم تحذرا، وأما أنا فمساعفٌ كل مستشير، ومعين كل مستصرخ، ومجيب كل داع، أتوقع الفرصة فأثب وثبة الفهد أبصر غفلة مقتنصه، ولولا مخافة عطب البريد، وضياح الكتب، لشرحت لكما من الأمر ما لا تفزعان معه إلى أن يحدث الأمر، فجدا في طلب ما أنتما ولياه وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله. وكتب في آخره:

رجال ودانت للصغار رجال

وما بلغت عثمان حتى تخطمت

لقد رجعت عوداً على بدء كونها

وإن لم بحداً فالمصير زوال

سيبديء مكنون الضمائر قولهم

ويظهر منهم بعد ذلك فعال

فإن تقعدا لا تطلبا ما ورثتما

فليس لنا طول الحياة مقال

نعيش بدار الذل في كل بلدة

وتظهر منا كابة وهزال

فلما ورد الكتاب على معاوية، أذن في الناس: الصلاة جامعة ثم خطبهم خطبة المستنصر المستصرخ. وفي أثناء ذلك ورد عليه قبل أن يكتب الجواب، كتاب مروان بقتل عثمان، وكانت نسخته: وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوة العزم، وصلاح النية، ومن عليك بمعرفة الحق واتباعه، فإني كتبت إليك هذا الكتاب بعد قتل عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه وأي قتلة قتل نحر كما ينحر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بالحمل، بعد أن نقتب صفحته بطي المراحل وسير الهجير، وإني معلمك من خبره غير مقصر ولا مطيل: إن القوم استطالوا مدته، واستقلوا ناصره، واستضعفوه في بدنه، وأملوا بقتله بسط أيديهم فيما كان قبضه عنهم، واعصوبوا عليه، فظل محاصراً، قد منع من صلاة الجماعة، ورد المظالم، والنظر في أمور الرعية، حتى كأنه هو فاعل لما فعلوه. فلما دام ذلك أشرف عليهم، فخوفهم الله وناشدهم، وذكرهم مواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم له، وقوله فيه، فلم يجحدوا فضله، ولم ينكروه، ثم رموه بأباطيل اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعة إلى قتله، فوعدهم التوبة مما كرهوا، ووعدهم الرجعة إلى ما أحبوا. فلم يقبلوا ذلك، ونهبوا داره، وانتهكوا حرمة، ووثبوا عليه، فسفكوا دمه، وانقشعوا عنه انقشاع سحابة قد أفرغت ماءها منكفئين قبل ابن أبي طالب، انكفاء الجراد إذا أبصر المرعى. فأخلق بيبي أمية أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العيوق إن لم يثأره ثائر، فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكنه، والسلام.

فلما ورد الكتاب على معاوية، أمر بجمع الناس، ثم خطبهم خطبة أبكى منها العيون، وقلقل القلوب، حتى علت الرنة، وارتفع الضجيج، وهم النساء أن يتسلحن، ثم كتب إلى طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر بن كريز، والوليد بن عقبة، ويعلى بن فنية - وهو اسم أمه - وإنما اسم أبيه أمية. فكان كتاب طلحة: أما بعد، فإنك أقل قريش من قريش وتراً، مع صباحة وجهك وسماحة كفك، وفصاحة لسانك. فأنت بإزاء من تقدمك في السابقة، وخامس المبشرين بالجنة، ولك يوم أحد وشرفه وفضله، فسارع رحمك الله إلى ما تقلدك الرعية من أمرها مما لا يسعك التخلف عنه، ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به، فقد أحكمت لك الأمر قبلي، والزبير فغير متقدم عليك بفضل، وأيكما قدم صاحبه فالمقدم الإمام، والأمر من بعده للمقدم له، سلك الله بك قصد المهتدين، وهب لك رشد الموفقين. والسلام. وكتب إلى الزبير: أما بعد، فإنك الزبير بن العوام، ابن أبي خديجة وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وسلفه، وصهر أبي بكر، وفارس المسلمين، وأنت الباذل في الله مهجته بمكة عند صيحة الشيطان، بعثك المنبعث، فخرجت كالثعبان المنسلخ. بالسيف المنصلت، تحبب خطب الجمل الرديع، كل ذلك قوة إيمان، وصدق يقين، وسبقت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم البشارة بالجنة، وجعلك عمر أحد المستخلفين على الأمة. واعلم يا أبا عبد الله، أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغية الراعي، فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولم الشعث، وجمع الكلمة،

وصلاح ذات البين، قبل تفاقم الأمر وانتشار الأمة، فقد أصبح الناس على شفا جرفٍ هارٍ عما قليل ينهار إن لم يراب. فشمّر لتأليف الأمة، وابتغى إلى ربك سبيلاً، فقد أحكمت الأمر على من قبلي لك ولصاحبك على أن الأمر للمقدم، ثم لصاحبه من بعده. جعلك الله من أئمة الهدى، وبغاة الخير والتقوى. والسلام.

وكتب إلى مروان بن الحكم: أما بعد، فقد وصل إلي كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين، وما ركبه به، ونالوه منه، جهلاً بالله وجراءة عليه، واستخفافاً بحقه، ولأمانى لوح الشيطان بما في شرك الباطل ليدهدهما في أهويات الفتن، ووهيدات الضلال، ولعمري لقد صدق عليهم ظنه، ولقد اقتضتهم بأنشطة فحاه، فعك رسلك أبا عبد الله، بمشي الهوينى ويكون أولاً، فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالفهد لا يصطاد إلا غيلةً، ولا يتشازر إلا عن حيلة، وكالثعلب لا يفلت إلا روغاناً، وأخف نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف، وامتهن نفسك امتهان من يئس القوم من نصره وانتصاره، واجتث عن أمورهم بحث الدجاجة عن حب الدخن عند فقاسها، وأنغل الحجاز فيني منغل الشام. والسلام. وكتب إلى سعيد بن العاص: أما بعد، فإن كتاب مروان ورد علي من ساعة وقعت النازلة، تقبل به البرد بسير المطي الوجيف، تتوجس توخس الحية الذكر خوف ضربة الفأس، وقبضة الحاوي، ومروان الرائد لا يكذب أهله، فعلام الإفكاك يا بن العاص، ولات حين مناص ذلك أنكم يا بني أمية عما قليل تسألون أدق العيش من أبعد المسافة، فينكركم من كان منكم عارفاً، ويصد عنكم من كان لكم واصلاً، متفرقين في الشعاب تتمنون لمظة المعاش. إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم، وقتل في سبيلكم، فميم القعود عن نصرته، والطلب بدمه، وأنتم بنو أبيه، ذوو رحمه وأقربوه، وطلاب ثأره أصبحتم متمسكين بشظف معاش زهيد، عما قليل يتزع منكم عند التخاذل وضعف القوى. فإذا قرأت كتابي هذا فدب ديب البرء في الجسد النحيف، وسر سير النجوم تحت الغمام، واحشد حشد الذرة في الصيف لانجحارها في الصرد، فقد أيدتكم بأسد وتيم. وكتب في الكتاب:

حتى أبير مالكا وكاهلا

خير معد حسبا ونائلا

تالله لا يذهب شيخي باطلا

القاتلين الملك الحلاحلا

وكتب إلى عبد الله بن عامر: أما بعد، فإن المنبر مركبٌ ذلول، سهل الرياضة، لا ينازعك اللحام. وهيئات ذلك الا بعد ركوب أثباج المهالك، واقتحام أمواج المعاطب. وكأني بكم يا بني أمية شعارير كالأوارك، تقودها الحداة، أو كرخم الخندمة تذرق خوف العقاب، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشري الفساد وندب السوط جديد، والجرح لما يندمل، ومن قبل استضراء الأسد، والتقاء لحييه على فريسته. وساور الأمر مساورة الذئب الأطلس كسيرة القطيع. ونازل الرأي، وانصب الشوك، وارم عن تمكّن، وضع الهناء مواضع النقب، واجعل أكبر عدتك الحذر، وأحد سلاحك التحريض. واغض عن العوراء، وسامح اللجوج، واستعطف الشارد، ولاين الأشوس، وقو عزم المريد، وبادر العقبة، وازحف زحف الحية. واسبق قبل أن تسبق، وقم قبل أن يقام لك. واعلم أنك غير متروك ولا مهمل، فيني لكم ناصح أمين. والسلام. وكتب في أسفل الكتاب:

ورحمته ماشاء أن يترحمنا

إذا شط داراً عن مزارك سلماً

ولكنه بنيان قوم تهدما

عليك سلام الله قيس بن عاصم

تحية من أهدى السلام لأهله

فما كان قيسق هلكه هلك واحد

وكتب إلى الوليد بن عقبة: يا بن عقبة كن الجيش، وطيب العيش أطيب من سفع سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس في أفقها، إن عثمان أحاك أصبح بعيداً منك فاطلب لنفسك ظلاً تستكن به، إني أراك على التراب رقوداً، وكيف بالرقاد بك لا رقاد لك، فلو قد استتب هذا الأمر لمريده ألفت كشريد النعام، يفرع من ظل الطائر، وعن قليل تشرب الرنق، وتستشعر الخوف. أراك فسيح الصدر، مسترخي اللب، رخو الحزام، قليل الاكتراث، وعن قليل يجتث أصلك. والسلام. وكتب في آخر الكتاب:

عند الهجير وشرباً بالعشيات

هيهات من راقد طلاب ثارات

اخترت نومك أن هبت شامية

على طلابك ثاراً من بني حكم

وكتب إلى يعلى بن أمية: حاطك الله بكلاءته، وأيدك بتوقيفه. كتبت إليك صبيحة ورد علي كتاب مروان بخبر قتل أمير المؤمنين، وشرح الحال فيه. وإن أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصت قواه، وثقلت نهضته، وظهرت الرعشة في أعضائه، فلما رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعاً للإمامة والأمانة وتقليد الولاية، وثبوا به، وألبوا عليه، فكان أعظم ما نقموا عليه وعابوه به، ولايتك اليمن وطول مدتك عليها. ثم ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال، حتى ذبحوه ذبح النطيحة مبادراً بها الفوت، وهو مع ذلك صائم معانق المصحف، يتلو كتاب الله. فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرسول، والإمام المقتول. على غير جرم سفكوا دمه، وانتهكوا حرمة، وأنت تعلم أن بيعته في أعناقنا، وطلب ثأره لازم لنا، فلا خير في دنيا تعدل بنا عن الحق، ولا في إمرة توردنا النار. وإن الله جل ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه، فشمرد لدخول العراق. فأما الشام فقد كفيته أهلها، وأحكمت أمرها، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكة، حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهد لكم العراق، ويسهل لكم حزونة عقابها. واعلم يا بن أمية أن القوم قاصدوك باديء بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال، فاعلم ذلك واعمل على حسبه إن شاء الله وكتب في أسفل الكتاب:

بالله طوراً، وبالقرآن أحياناً

عن غير جرم وقالوا فيه بهتاناً

وقوله فيه إسراً وإعلاناً

وصارف عنكم يعلى ومروانا

من حاض لبته ظلماً عدواناً

ظل الخليفة محصوراً يناشدهم

وقد تألف أقوام على حنق

فقام يذكرهم وعد الرسول له

فقال كفوا فإني معتب لكم

فكذبوا ذاك منه ثم ساوره

قال: فكتب إليه مروان جواباً عن كتابه: أما بعد، فقد وصل كتابك، فنعم كتاب زعيم العشيرة، وحامي الذمار وأخبرك أن القوم على سنن استقامةٍ إلا شظايا شعب، شتت بينهم مقولي على غير مجاهدة، حسب ما تقدم من أمرك، وإنما كان ذلك رسيس العصاة، ورمى أخدر من أغصان الدوحة، ولقد طويت أديمهم على نغل يحلم منه الجلد. كذبت نفس الظان بنا ترك المظلمة، وحب الهجوع، إلا تهوية الراكب العجل، حتى تجذ جماجم وجماجم، جذ العراجين المهذلة حين إيناعها، وأنا على صحة نيتي، وقوة عزمي وتحريك الرحم لي، وغليان الدم مني، غير سابقك بقول، ولا متقدمك بفعل، وأنت ابن حرب، طلاب الترات، وآبي الضيم. وكتيabi إليك وأنا كحرباء السبب في الهجير ترقب عين الغزالة، وكالسبع المفلت من الشوك يفرق من صوت نفسه، منتظراً لما تصح به عزيتمك، ويرد به أمرك، فيكون العمل به، واحتذى عليه، وكتب في أسفل الكتاب:

ونرقد هذا الليل لا نتفرع	أيقنل عثمان وترقا دموعنا
على ظمأ يتلو القرآن ويركع	ونشرب برد الماء رياً وقد مضى
وطافوا به سعيًا، وذو العرش يسمع	فإني ومن حج الملبون بيته
من العيش حتى لا يرى فيه مطمع	سأمنع نفسي كل ما فيه لذة
وذلك حكم الله ما عنه مدفع	وأقتل بالمظلوم من كان ظالماً

وكتب إليه عبد الله بن عامر: أما بعد، فإن أمير المؤمنين كان له الجناح الحاضنة تأوي إليها فراخها تحتها، فلما أقصده السهم صرنا كالنعام الشارد، ولقد كنت مشترك الفكر، ضال الفهم، ألتمس دريئةً أستجن بها من خطأ الحوادث، حتى وقع إلي كتابك، فانتبهت من غفلة طال فيها رقادي، فأنا كواجد المحجة كان إلى جانبها حائراً، وكأني أعاين ما وصفت من تصرف الأحوال.

والذي أخبرك به أن الناس في هذا الأمر، تسعة لك وواحد عليك، ووالله للموت في طلب العز أحسن من الحياة في الذلة، وأنت ابن حرب فتى الحروب، ونضار بني عبد شمس، والههم بك منوطة وأنت منهضها، فإذا نهضت فليس حين قعود، وأنا اليوم على خلاف ما كانت عليه عزمي من طلب العافية، وحب السلامة قبل قرعك سويداء القلب بسوط الملام، ولنعم مؤدب العشيرة أنت وإنا لنرجوك بعد عثمان، وها أنا متوقع ما يكون منك لأمثله، وأعمل عليه إن شاء الله، وكتب في أسفل الكتاب:

والموت أحسن من ضيمٍ، ومن عار	لا خير في العيش في ذل ومنقصه
غر جحاجة طلاب أوتار	إنا بنو عبد شمس معشر أنف
ليطلب العز لم نقعد عن الجار	والله لو كان ذمياً مجاورنا
على القمامة مطروحاً بها عار	فكيف عثمان لم يدفن بمزبلة
بكل أبيض ماضي الحد بتار	فازحف إلي فإني زاحف لهم

وكتب إليه الوليد بن عقبة: أما بعد فإنك أسد قريش عقلاً، وأحسنهم فهماً، وأصوبهم رأياً، معك حسن السياسة، وأنت موضع الرياسة، تورّد بمعرفة، وتصدر عن منهل روي. مناوئك كالمنقلب من العيوق يهوي به عاصف الشمال إلى لجة البحر. كتبت إلي تذكّر طيب الخيش، ولين العيش، فملاء بطني علي حرام إلا مسكة الرمح حتى أفري أوداج قتلة عثمان فري الأهب بشبابة الشفار. وأما اللين فهيّئات إلا خيفة المرتقب يرتقب غفلة الطالب، إنا على مداجاة، ولما تبد صفحاتنا بعد، وليس دون الدم بالدم مزحل. إن العار منقصة، والضعف ذل. أيخبط قتلة عثمان زهرة الحياة الدنيا، ويسقون برد المعين، ولما يمتطوا الخوف، ويستحسوا الحذر، بعد مسافة الطرد وامتطاء العقبة الكؤود في الرحلة لا دعيت لعقبة إن كان ذلك حتى أنصب لهم حرباً تضع الحوامل لها أطفالها قد ألوت بنا المسافة، ووردنا حياض المنايا، وقد عقلت نفسي على الموت عقل البعير، واحتسبت أي ثاني عثمان أو أقتل قاتله فعجل على ما يكون من رأيك، فإنا منوطون بك، متبعون عقبك، ولم أحسب الحال تتراخى بك إلى هذه الغاية، لما أخافه من إحكام القوم أمرهم، وكتب في أسفل الكتاب:

نومي علي محرّم إن لم أقم

بدم ابن أُمي من بني العلات

قامت علي إذا قعدت ولم أقم

عذبت حياض الموت عندي بعدما

كانت كريهة مورد النهلات

وكتب إليه يعلى بن أمية: إنا وأنتم يا بني أمية كالحجر لا يبنى بغير مدر، وكالسيف لا يقطع إلا بضاربه. وصل كتابك بخير القوم وحالهم، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النطيحة بودر بها الموت لينحرن ذابحه نحر البدنة وافى بها الهدي الأجل ثكلتني من أنا ابنها إن نمت عن طلب وتر عثمان، أو يقال: لم يبق فيه رمق إني أرى العيش بعد قتل عثمان مرأً، إن أدلج القوم فإني مدلج. وأما قصدهم ما حوته يدي من المال، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان، وإن أبوا ذلك أنفقنا المال على قتالهم، وإن لنا ولهم لمعركة تتناحر فيها نحر القدار النقائص، عن قليل تصل لحومها. وكتب في أسفل الكتاب:

لمثل هذا اليوم أوصى الناس

لا تعط ضيماً أو يخر الراس

قال: فكل هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرضونه، ويغرونه، ويحركونه، ويهيجونه، إلا سعيد بن العاص، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء، كان كتابه: أما بعد، فإن الحزم في الثبوت، والخطأ في العجلة، والشؤم في البدار، والسهم سهمك ما لم ينبض به الوتر، ولن يرد الحالب في الضرع اللبن، ذكرت حق أمير المؤمنين علينا، وقرابتنا منه، وأنه قتل فينا. فخصلتان ذكرهما نقص، والثالثة تكذب، وأمرتنا بطلب دم عثمان، فأني جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن ردمت الفجاج، واحكم الأمر عليك، وولي زمامه غيرك، فدع مناوأة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره، وقلت: كأنا عن قليل لا نتعارف، فهل نحن إلاحى من قريش، إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنا الحق، إنها خلافة منافية، وبالله أقسم قسماً مبروراً، لئن صحت عزيمتك على ما ورد به كتابك، لألفيتك بين الحالين، طليحاً. وهبني إخالك بعد خوض الدماء تنال الظفر، هل في ذلك عوض من ركوب المأثم ونقص الدين أما أنا فلا على بني أمية ولا لهم، أجعل الحزم داري، والبيت سجلي، وأتوسد الإسلام. وأستشعر العافية. فاعدل أبا عبد الرحمن زمام راحلتك إلى محجة الحق، واستوهب العافية لأهلك،

واستعطف الناس على قومك، وهيهات من قبولك ما أقول حتى يفخر مروان يناييع الفتن تاجح في البلاد، وكأني بكما عند ملاقة الأبطال تعتذران بالقدر، ولبئس العاقبة الندامة وعما قليل يضح لك الأمر. والسلام. هذا آخر ما تكتب القوم به، ومن وقف عليه علم أن الحال لم يكن حالاً يقبل العلاج والتدبير، وأنه لم يكن بد من السيف، وأن علياً رضي الله عنه كان أعرف بما عمل. وقد أجاب ابن سنان في كتابه الذي سماه "العدل" عن هذا السؤال، فقال: قد علم الناس كافة أنه رضي الله عنه في قصة الشورى عرض عليه عبد الرحمن بن عوف، أن يعقد له الخلافة على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ولمسيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلم يستجب إلى ذلك، وقال: بل علي أن أعمل بكتاب الله وسنة رسوله، وأجتهد رأيي. وقد اختلف الناس في ذلك، فقالت الشيعة: إنما لم يدخل تحت الشرط، لأنه لم يستصوب سيرهما. وقال غيرهم: إنما امتنع لأنه مجتهد، والمجتهد لا يقلد المجتهد، فأيهما أقرب على القولين جميعاً إن شاء الله، وأيسر وزراً أن يقر معاوية على ولاية الشام مدة إلى أن تتوطد خلافته، مع ما ظهر من جور معاوية وعداوته، ومد يده إلى الأموال والدماء أيام سلطانه، أو أن يعاهد عبد الرحمن على العمل بسيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم يخالف بعض أحكامها إذا استقر الأمر له، ووقع العقد ولا ريب أن أحداً لا يخفى عليه فضل ما بين الموضعين، وفضل ما بين الإثنين، فمن لا يجيب إلى الخلافة والاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمح بلفظة يتلفظ بها، يجوز أن يتاولها أو يوري فيها، كيف يستجيب إلى إقرار الجائر، وتقوية يده مع تمكينه في سلطانه، لتحصل له طاعة أهل الشام واستضافة طرف من الأطراف وكأن معنى قول القائل: هلا أقر معاوية على الشام، هو هلا كان رضي الله عنه متهاوناً بأمر الدين راغباً في تشديد أمر الدنيا والجواب عن هذا ظاهر، وجهل السائل عنه واضح. واعلم أن حقيقة الجواب هو أن علياً، كان لا يرى مخالفة الشرع، لأجل السياسة، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيوية، أما الدنيوية فنحو أن يتوهم الإمام في إنسان أنه يروم فساد خلافته من غير أن يثبت ذلك عليه يقيناً، فإن علياً رضي الله عنه لم يكن يستحل قتله، ولا حبسه، ولا يعمل بالتوهم وبالقول غير المحقق، وأما الدنيوية فنحو ضرب المتهم بالسرقة، فإنه أيضاً لم يكن يعمل به، بل يقول: إن يثبت عليه بإقرار أو بينة، أقمت عليه الحد، وإلا لم أعترضه. وغير علي رضي الله عنه قد كان منهم من يرى خلاف هذا الرأي، ومذهب مالك بن أنس العمل على المصالح المرسلة، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمة لإصلاح الثلثين، ومذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأي وبغالب الظن، وإذا كان مذهبه رضي الله عنه ما قلناه، وكان معاوية عنده فاسقاً، وقد سبق عنده مقدمة أخرى يقينية، هي أن استعمال الفاسق لا يجوز ولم يكن ممن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة، فقد تعين مجاهرته بالعزل، وإن أفضى ذلك إلى الحرب.

فهذا هو الجواب الحقيقي، ولو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقي، لكان لقائل أن يقول لابن سنان القول في عدوله عن الدخول تحت شرط عبد الرحمن، كالقول في عدوله عن إقرار معاوية على الشام، فإن من ذهب إلى تغليظه في أحد الموضعين، له أن يذهب إلى تغليظه في الموضع الآخر.

قال ابن سنان: وجواب آخر، وهوانا قد علمنا أن أحد الأحداث التي نقصت على عثمان، وأفضت بالمسلمين إلى حصاره وقتله، تولية معاوية الشام، مع ما ظهر من جوره وعدوانه، ومخالفة أحكام الدين في سلطانه، وقد خوطب عثمان في

ذلك، فاعتذر بأن عمر رضي الله عنه ولاه قبله، فلم يقبل المسلمون عذره، ولا قنعوا منه إلا بعزله، حتى أفضى الأمر إلى ما أفضى، وكان علي رضي الله عنه من أكثر المسلمين لذلك كراهية، وأعرفهم بما فيه من الفساد في الدين. فلو أنه رضي الله عنه افتتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشام، وإقراره فيه، أليس كان يتبدى في أول أمره بما انتهى إليه عثمان في آخره، فأفضى إلى خلعه وقتله ولو كان ذلك في حكم الشريعة سائغاً، والوزر فيه مأموناً، لكان غلطاً قبيحاً في السياسة، وسبباً قوياً للعصيان والمخالفة، ولم يكن يمكنه رضي الله عنه أن يقول للمسلمين: إن حقيقة رأي عزل معاوية عند استقرار الأمر وطاعة الجمهور لي، وإن قصدي بإقراره على الولاية مخادعته، وتعجيل طاعته، ومبايعة الأجناد الذين قبله، ثم أستاذف بعد ذلك فيه ما يستحقه من العزل، وأعمل فيه بموجب العدل، لأن إظهاره رضي الله عنه لهذا العزم كان يتصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذي شرع فيه وينتقض الرأي الذي عول عليه. ومنها قولهم: إنه ترك طلحة والزبير حتى خرجا إلى مكة، وأذن لهما في العمرة، وذهب عنه الرأي في ارتباطهما قبله، ومنعهما من البعد عنه. والجواب عنه، أنه قد اختلفت الرواة في خروج طلحة والزبير من المدينة: هل كان بإذن علي رضي الله عنه أم لا فمن قال: إنهما خرجا عن غير إذنه ولا علمه، فسؤاله ساقط، ومن قال: إنهما استأذناه في العمرة، وأذن لهما، فقد روي أنه قال: والله ما تريدان العمرة، وإنما تريدان الغدرة وخوفهما بالله من التسرع إلى الفتنة. وما كان يجوز له في الشرع أن يحبسهما، ولا في السياسة. أما في الشرع فلا أنه محذور أن يعاقب الإنسان بما لم يفعل، وعلى ما يظن منه، ويجوز ألا يقع. وأما في السياسة فلا أنه لو أظهر التهمة لهما - وهما من أفاضل السابقين، وجلة المهاجرين - لكان في ذلك من التنفير عنه ما لا يخفى، ومن الطعن عليه ما هو معلوم، بأن يقال: إنه ليس من إمامته على ثقة، فلذلك يتهم الرؤساء، ولا يأمن الفضلاء، لا سيما وطلحة كان أول من بايعه، والزبير لم يزل مشتهراً بنصرتهم، فلو حبسهما، وأظهر الشك فيهما لم يسكن أحد إلى جهته، ولنفر الناس كلهم عن طاعته فإن قالوا: فهلا استصلحهما وولأهما، وارتبطهما بالإجابة إلى أغراضهما؟ قيل لهم: فحوى هذا أنكم تطلبون من أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يكون في الإمامة مغلوباً على رأيه، مفتاتاً عليه في تدييره، فيقر معاوية على ولاية الشام غصباً، ويولي طلحة والزبير مصر والعراق كرهاً، وهذا شيء ما دخل تحته أحد ممن قبله، ولا رضوا أن يكون لهم من الإمامة الاسم، ومن الخلافة اللفظ، ولقد حورب عثمان وحصر على أن يعزل بعض ولاته فلم يجب إلى ذلك، فكيف تسومون علياً رضي الله عنه أن يفتتح أمره بهذه الدنية ويرضى بالدخول تحت هذه الخطة وهذا ظاهر. ومنها تعلقهم بتولية أمير المؤمنين رضي الله عنه محمد بن أبي بكر مصر، وعزله قيس بن سعد عنها، حتى قتل محمد بها، واستولى معاوية عليها. والجواب أنه ليس يمكن أن يقال: إن محمداً رحمه الله لم يكن بأهل لولاية مصر، لأنه كان شجاعاً زاهداً فاضلاً، صحيح العقل والرأي، وكان مع ذلك من المخلصين في محبة أمير المؤمنين رضي الله عنه، والمجتهدين في طاعته، ومن لا يتهم عليه، ولا يرتاب بنصحه، وهو ربيبه وخريجه، ويجري مجرى أحد أولاده رضي الله عنهما، لتربيته له، وإشفاقه عليه. ثم كان المصريون على غاية المحبة له، والإيثار لولايته، ولما حاصروا عثمان وطلبوه بعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عنهم، اقترحوا تأمير محمد بن أبي عثمان بالعهد على مصر وصار مع بكر عليهم. فكتب له المصريون حتى تعقبه كتاب عثمان إلى عبد الله بن سعد في أمره وأمر المصريين بما هو معروف. فعادوا جميعاً، وكان من قتل عثمان ما كان، فلم يكن ظاهر الرأي ووجه التدبير إلا تولية محمد بن أبي بكر على مصر، لما ظهر من ميل المصريين إليه، وإيثارهم

له، واستحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه، فكان الظن قوياً باتفاق الرعية على طاعته، وانقيادهم إلى نصرته، واجتماعهم على محبته، فكان من فساد الأمر واضطرابه عليه حتى كان ما كان، وليس ذلك بعيب على أمير المؤمنين رضي الله عنه، فإن الأمور إنما يعتمد عليها الإمام على حسب ما يظن فيها من المصلحة، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مؤتة جعفرًا فقتل، وولى زيداً فقتل، وولى عبد الله بن رواحة فقتل، وهزم الجيش، وعاد من عاد منهم إلى المدينة، بأسوأ حال، فهل لأحد أن يعيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا، ويطعن في تدبيره ومنها قولهم: إن جماعة من أصحابه رضي الله عنه فارقوه، وصاروا إلى معاوية، كعقيل بن أبي طالب أخيه، والنجاشي شاعره، ورقبة بن مصقلة أحد الوجوه من أصحابه، ولو لا أنه كان يوحشهم ولا يستميلهم لم يفارقوه ويصيروا إلى عدوه، وهذا يخالف حكم السياسة، وما يجب من تألف قلوب الأصحاب والرعية.

والجواب: إنا أولاً لا ننكر أن يكون كل من رغب في حطام الدنيا وزخرفها، وأحب العاجل من ملاذها وزينتها يميل إلى معاوية الذي يبذل منها كل مطلوب، ويسمح بكل مأمول، ويطعم خراج مصر عمرو بن العاص، ويضمن لذي الكلاع وحبيب بن مسلمة ما يوفي على الرجاء والاقتراح، وعلي رضي الله عنه يعدل فيما هو أمينٌ عليه من مال المسلمين عن قضية الشريعة وحكم الملة، حتى يقول خالد بن معمر السدوسي لعلاء بن المهيشم، وهو يحمله على مفارقة علي رضي الله عنه، واللاحق بمعاوية: اتق الله يا علياء في عشيرتك، وانظر لنفسك ولرحمك، ماذا تؤمل عند رجل أردته على أن يزيد في عطاء الحسن والحسين دربهما يسيرة ريشما يرأبان بها ظلف عيشهما، فأبي وغضب فلم يفعل. فأما عقيل، فالصحيح الذي اجتمع ثقات الرواة عليه أنه لم يجتمع مع معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين رضي الله عنه، ولكنه لازم المدينة، ولم يحضر حرب الجمل وصفين، وكان ذلك بإذن أمير المؤمنين رضي الله عنه، وقد كتب عقيل إليه بعد الحكمين يستأذنه في القدوم عليه الكوفة بولده وبقية أهله، فأمره رضي الله عنه بالمقام، وقد روي في خبر مشهور، أن معاوية وبخ سعيد بن العاص على تأخيريه عنه في صفين، فقال سعيد: لو دعوتني لوجدتني قريباً، ولكني جلست مجلس عقيل وغيره من بني هاشم، ولو أوعبنا لأوعبوا. وأما النجاشي، فإنه شرب الخمر في شهر رمضان، فأقام علي رضي الله عنه الحد عليه، وزاده عشرين جلدة فقال النجاشي: ما هذه العلاوة؟ قال: لجرائك على الله في شهر رمضان. فهرب النجاشي إلى معاوية. وأما رقبة بن مصقلة، فإنه ابتاع سبي بني ناجية وأعتقهم، وألط بالمال وهرب إلى معاوية، فقال رضي الله عنه؟ فعل فعل السادة، وأبق إباق العبيد، وليس تعطيل الحدود وإباحة حكم الدين وإضاعة مال المسلمين من التألف والسياسة لمن يريد وجه الله تعالى، والتلزم بالدين، ولا يظن بعلي رضي الله عنه التساهل والتسامح في صغير من ذلك ولا كبير. ومنها شبهة الخوارج وهي التحكيم، وقد يحتج به على أنه اعتمد ما لا يجوز في الشرع، وقد يحتج به على أنه اعتمد ما ليس بصواب في تدبير الأمر. أما الأول فقولهم: إنه حكم الرجال في دين الله، والله سبحانه يقول: "إن الحكم إلا لله" وأما الثاني فقولهم: إنه كان قد لاح له النصر، وظهرت أمارات الظفر بمعاوية، ولم يبق إلا أن يؤخذ برقبته فترك التصميم على ذلك، وأخلد إلى التحكيم. وربما قالوا: إن تحكيمه يدل على شك منه في أمره، وربما قالوا: كيف رضي بحكومة أبي موسى وهو فاسق عنده بتشيطه أهل الكوفة عنه في حرب البصرة؟ وكيف رضي بتحكيم عمرو بن العاص وهو أفسق الفاسقين؟ والجواب:

أما تحكيم الرجال في الدين فليس بمحظور، فقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين المرأة وزوجها، فقال: "وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها". وقال في جزاء الصيد: "يحكم به ذوا عدل منكم". وأما قولهم: كيف ترك التصميم بعد ظهور أمارات النصر؟ فقد تواتر الخبر بأن أصحابه لما رفع أهل الشام المصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم، ومشاركة هلاك معاوية وأصحابه، انخدعوا برفع المصاحف، وقالوا: لا يحل لنا التصميم على حربهم، ولا يجوز لنا إلا وضع السلاح ورفع الحرب والرجوع إلى المصاحف وحكمها. فقال لهم: إنها خديعة، وإنها كلمة حق يراد بها باطل، وأمرهم بالصبر ولو ساعة واحدة، فأبوا ذلك، وقالوا: أرسل إلى الأشتر فليعد، فأرسل إليه، فقال: كيف أعود وقد لاحت أمارات النصر والظفر فقالوا له: ابعث إليه مرة أخرى، فبعث إليه، فأعاد الجواب بنحو قوله الأول وسأل أن يمهل ساعة من النهار، فقالوا: إن بينك وبينه وصية ألا يقبل، فإن لم تبعث إليه من يعيده، وإلا قتلناك بسيوفنا كما قتلنا عثمان، أو قبضنا عليك وأسلمناك إلى معاوية فعاد الرسول إلى الأشتر فقال أتحب أن تظفر أنت ههنا وتكسر جنود الشام، ويقتل أمير المؤمنين رضي الله عنه في مضر به قال: أوقد فعلوها لا بارك الله فيهم أبعد أن أخذت بمخنق معاوية، ورأى الموت عياناً أرجع ثم عاد فشتهم أهل العراق وسبهم، وقال لهم وقالوا له، ما هو منقول مشهور، وقد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم. فإذا كانت الحال وقعت هكذا، فأني تقصير وقع من أمير المؤمنين رضي الله عنه وهل ينسب المغلوب على أمره، المقهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير وبهذا نجيب عن

قولهم: إن التحكيم يدل على الشك في أمره. لأنه إنما يدل على ذلك لو ابتداء هو به، فأما إذا دعاه إلى ذلك غيره، واستجاب إليه أصحابه، فمنعهم وأمرهم أن يبروا على وتيرتهم وشأنهم، فلم يفعلوا، وبين لهم أنها مكيدة فلم يتبينوا، وخاف أن يقتل أو يسلم إلى عدوه، فإنه لا يدل تحكيمه على شكه، بل يدل على أنه قد دفع بذلك ضرراً عظيماً عن نفسه، ورجا أن يحكم الحكماء بالكتاب، فتزول الشبهة عمن طلب التحكيم من أصحابه.

وأما تحكيمه عمراً مع ظهور فسقه، فإنه لم يرض به، وإنما رضي به مخالفه، وكرهه هو فلم يقبل منه. وقد قيل: إنه أجاب ابن عباس رحمه الله عن هذا، فقال للخوارج: أليس قد قال الله تعالى: "فاعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها" أرأيتم لو كانت المرأة يهودية فبعثت حكماً من أهلها، أكنا نسخط ذلك وأما أبو موسى فقد كرهه أمير المؤمنين رضي الله عنه، وأراد أن يجعل بدله عبد الله بن عباس، فمال أصحابه: لا يكون الحكماء من مضر، فقال: فلاأشتر. فقالوا: وهل أضرم النار إلا الأشتر وهل جر ما ترى إلا حكومة الأشتر ولكن أبا موسى، فأباه فلم يقبلوا منه، وأثنوا عليه، وقالوا: لا نرضى إلا به، فحكمه على مضض. ومنها قولهم: ترك الرأي لما دعاه العباس وقت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البيعة، وقال له: امدد يدك أبايعك، فيقول الناس: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عمه، فلا يختلف عليك اثنان، فلم يفعل، وقال: وهل يطمع فيها طامع غيري فما راعه إلا الضوضاء واللغط في باب الدار، يقولون: قد بويع أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه. الجواب: إن صواب الرأي فساد فيه مما يرجع إلى مثل هذه الواقعة، يستندان إلى ما قد غلب على الظن، ولا ريب أنه صلى الله عليه وسلم لم يغلب على ظنه أن أحداً يستأثر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهدها له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما توهم إلا أنه ينتظر ويرتقب خروجه من البيت وحضوره، ولعله قد كان يخطر له أنه

إما أن يكون هو الخليفة أو يشاور في الخلافة إلى من يفوض. وما كان يتوهم أنه يجري الأمر على ما جرى من الفتنة عند ثوران تلك الفتنة، ولا يشاور هو ولا العباس ولا أحد من بني هاشم، وإنما كان يكون تديره فاسداً لو كان يحاذر خروج الأمر عنه، ويتوهم ذلك، ويغلب على ظنه إن لم يبادر تحصيله بالبيعة المعجلة في الدار من وراء الأبواب والأغلق، وإلا فاته، ثم يهمل ذلك ولا يفعل. وقد صرح هو بما عنده، فقال: وهل يطمع فيها طامع غيري ثم قال: إني أكره البيعة ههنا وأحب أن أصحر بها، فبين أنه يستهجن أن يبايع سراً خلف الحجب والجدران، ويجب أن يبايع جهره بمحضر من الناس كما قال، حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبايعهم في داره، فقال: لا، بل في المسجد، ولا يعلم ولا خطر له ما في ضمير الأيام، وما يحدث الوقت من وقوع ما لا يتوهم العقلاء وأرباب الأفكار وقوعه. ومنها قولهم: إنه قصر في طلب الخلافة عند بيعة أبي بكر رضي الله عنه، وقد كان اجتمع له من بني هاشم وبني أمية وغيرهم من أفناء الناس من يتمكن بهم من المنازعة وطلب الخلافة، فقصر عن ذلك، لا جبناً، لأنه كان أشجع البشر، ولكن قصور تدبير وضعف رأي، ولهذا أكفرته الكاملية وأكفرت الصحابة، فقالوا: كفرت الصحابة لتركهم بيعته، وكفر هو بترك المنازعة لهم والجواب: أما على مذهبننا، فإنه لم يكن رضي الله عنه منصوباً عليه، وإنما كان يدعيها بالأفضلية والقراية والسابقة والجهاد ونحو ذلك من الخصائص، فلما وقعت بيعة أبي بكر رضي الله عنه رأى هو علي رضي الله عنه أن الأصلح للإسلام ترك التراع، وأنه يخاف من التراع حدوث فتنة تحل معاقد الملة وترزع أركانها، فحضر وبايع طوعاً، ووجب علينا بعد مبايعته ورضاه أن نرضى بمن رضي هو رضي الله عنه، ونطيع من أطاعه، لأنه القدوة، وأفضل من تركه صلى الله عليه وسلم بعده. وأما الإمامية، فلهم عن ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم. ومنها قولهم: إنه قصر في الرأي حيث دخل في الشورى، لأنه جعل نفسه بدخوله فيها نظيراً لعثمان وغيره من الخمسة، وقد كان الله تعالى رفعه عنهم وعلى من كان قبلهم، فوهن بذلك قدره، وطأطأ من جلالتة، ألا ترى أنه يستهجن ويقبح من أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله أن يجعل أنفسهما نظراء لبعض من بدا طرفاً من الفقه، ويستهجن ويقبح من سيبويه والأخفش أن يوازيا أنفسهما بمن يعلم أبواباً يسيرة من النحو الجواب: أنه رضي الله عنه وإن كان أفضل من أصحاب الشورى، فإنه كان يظن أن ولي الأمر أحدهم بعد عمر رضي الله عنه، لا يسير سيرة صالحة، وأن تضطرب بعض أمور الإسلام، وقد كان يثني على سيرة عمر ويحمدها، فوجب عليه بمقتضى ظنه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر رضي الله عنه فيه، توقعاً لأن يفضي الأمر إليه، فيعمل بالكتاب والسنة، ويحيي معالم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس اعتماد ما يقتضيه الشرع مما يوجب نقصاً في الرأي، فلا تدبير أصح ولا أسد من تدبير الشرع. ومنها قولهم: إنه ما أصاب حيث أقام بالمدينة وعثمان رضي الله عنه محصور، وقد كان يجب في الرأي أن يخرج عنها بحيث لا تنوط بنو أمية به دم عثمان رضي الله عنه، فإنه لو كان بعيداً عن المدينة لكان من قذفهم إياه بذلك أبعد، وعنه أنزه.

والجواب: أنه لم يكن يخطر له مع براءته من دم عثمان رضي الله عنه، أن أهل الفساد من بني أمية يرمونه بأمره، والغيب لا يعلمه إلا الله، وكان يرى مقامه بالمدينة أدعى إلى انتصار عثمان رضي الله عنه على المحاصرين له، فقد حضر هو بنفسه مراراً، وطرده الناس عنه، وأنفذ إليه ولديه وابن أخيه عبد الله، ولو لا حضور علي رضي الله عنه بالمدينة لقتل عثمان قبل

أن يقتل بمدة، وما تراخى أمره وتأخر قتله، إلا لمراقبة الناس له حيث شاهدوه ينتصر له، ويحامي عنه. ومنها قولهم: كان يجب في مقتضى الرأي حيث قتل عثمان رضي الله عنه، أن يغلق بابه، ويمنع الناس من الدخول إليه، فإن العرب كانت تضطرب اضطراباً ثم تقول إليه، لأنه تعين للأمر بحكم الحال الحاضرة فلم يفعل، وفتح بابه، وترشح للأمر، وبسط له يده، فلذلك انتقضت عليه العرب من أقطارها. والجواب: إنه رضي الله عنه كان يرى أن القيام بالأمر يومئذ فرض عليه لا يجوز له الإخلال به، لعدم من يصلح في ظنه للخلافة، فما كان يجوز له أن يغلق بابه ويمتنع. وما الذي كان يؤمنه أن يبايع الناس طلحة أو الزبير أو غيرهما ممن لا يراه أهلاً للأمر فقد كان عبد الله بن الزبير يومئذ يزعم أن عثمان رضي الله عنه عهد إليه بالخلافة وهو محصور. وكان مروان يطمع أن ينحاز إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة، وله من بني أمية شيعة وأصحاب، بشبهة أنه ابن عم عثمان رضي الله عنه، وأنه كان يدبر أمر الخلافة على عهده. وكان معاوية يرجو أن ينال الخلافة، لأنه من بني أمية وابن عم عثمان رضي الله عنه، وأمير الشام عشرين سنة، وقد كان قوم من بني أمية يتعصبون لأولاد عثمان المقتول، ويرومون إعادة الخلافة فيهم وما كان يسوغ لعلي رضي الله عنه في الدين إذا طلبه المسلمون للخلافة أن يمتنع عنها، وبعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء، فلذلك فتح بابه، وامتنع امتناع من يحاول أن يعلم ما في قلوب الناس، هل لرغبتهم إليه حقيقة أم لا فلما رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه، وقد قال في خطبته: "لو لا حضور الحاضر ووجوب الحجة بوجود الناصر لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها"، وهذا تصريح بما قلناه. ومنها قولهم: هلا إذ ملك شريعة الفرات على معاوية، بعد أن كان معاوية ملكها عليه، ومنعه وأهل العراق منها، منع معاوية وأهل الشام منها، فكان يأخذهم قبضاً بالأيدي فإنه لم يصبر على منعهم عن الماء، بل فسح لهم في الورود، وهذا يخالف ما يقتضيه تدبير الحرب. الجواب، أنه رضي الله عنه لم يكن يستحل ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعطش، فإن الله تعالى ما أمر في أحد من العصاة الذين أباح دماءهم بذلك، ولا فسح فيه في نحو القصاص أو حد الزاني المحصن أو قتل قاطع الطريق، أو قتال البغاة والخوارج، وما كان أمير المؤمنين ممن يترك حكم الله وشريعته، ويعتمد ما هو محرم فيها لأجل الغلبة والقهر والظفر بالعدو، ولذلك لم يكن يستحل البيات ولا الغدر ولا النكث. وأيضاً فمن الجائز أن يكون رضي الله عنه غلب على ظنه أن أهل الشام إن منعوا من الماء كان ذلك أدعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكرة على عسكره، وأن يضعوا فيهم السيوف، فيأتوا عليهم ويكسروهم بشدة حنقهم وقوة داعيهم إلى ورود الماء، فإن ذلك من أشد الدواعي إلى أن يستमित القوم ويستقتلوا. ومن الذي يقف بين يدي جيش عظيم عرمم حنقٍ قد اشتد بهم العطش، وهم يرون الماء كبطون الحيات، لا يحول بينهم وبينه إلا قوم مثلهم، بل أقل منهم عدة وأضعف عدة، ولذلك لما حال معاوية بين أهل العراق وبين الماء وقال: لأمنعهم وروده فأقتلهم بشفار الظمأ، قال له عمرو بن العاص: خل بين القوم وبين الماء، فليسوا ممن يرى الماء ويصبر عنه. فقال: لا والله لا اخلي لهم عنه. فسفه رأيهم وقال: أتظن أن ابن أبي طالب وأهل العراق يموتون بإزائك عطشاً، والماء بمعقد الأزر، وسيوفهم في أيديهم فلج معاوية، وقال: لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عثمان رضي الله عنه عطشاً. فلما مس أهل العراق العطش، أشار علي رضي الله عنه إلى الأشعث أن يحمل، وإلى الأشر أن يحمل، فحملاً بمن معهما فضربا أهل الشام ضرباً أشاب الوليد، وفر معاوية ومن رأى رأيه وتابعه على قوله عن الماء كما تفر الغنم خالطتها السباع، وكان قصارى أمره، ومنتهى همته أن يحفظ

رأسه، وينجو بنفسه. وملك أهل

العراق عليهم الماء ودفعوهم عنه، فصاروا في البر القفر، وصار علي رضي الله عنه وأصحابه على شريعة الفرات، مالكين لها، فما الذي كان يؤمن علياً رضي الله عنه لو أعطش القوم أن يذوق هو وأصحابه منهم مثل ما أذاقهم وهل بعد الموت بالعطش أمر يخافه الإنسان وهل يبقى له ملجأ إلا السيف يحمل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما ومنها قولهم: أخطأ حيث مح اسم بالخلافة من صحيفة الحكومة، فإن ذلك مما وهنه عند أهل العراق، وقوى الشبهة في نفوس أهل الشام. والجواب، أنه رضي الله عنه احتذى في ذلك - لما دعى إليه واقترحه الخصم عليه - فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيفة الحديدية، حيث مح اسم من النبوة لما قال له سهيل بن عمرو: لو علمنا أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حاربناك، ولا منعناك عن البيت، وقد قال له صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ كاتب تلك الصحيفة: ستدعى إلى مثلها فتجب. وهذا من أعلام نبوته صلوات الله عليه، ومن دلائل صدقه، ومثله جرى له حذو القذة بالقذة. ومنها قولهم: إنه كان غير مصيب في ترك الاحتراس، فقد كان يعلم كثرة أعدائه، ولم يكن يجترس منهم، وكان يخرج ليلاً في قميص ورداء وحده، حتى كمن له ابن ملجم في المسجد فقتله، ولو كان احترس وحفظ نفسه ولم يخرج إلا في جماعة، ولو خرج ليلاً كانت معه أضواء وشرطة، لم يوصل إليه.

والجواب، أن هذا إن كان قادحاً في السياسة والتدبير، فليكن قادحاً في تدبير عمر رضي الله عنه وسياسته، وهو عند الناس في الطبقة العليا في السياسة وصحة التدبير، وليكن قادحاً في تدبير معاوية، فقد ضربه الخارجي بالسيف ليلة ضرب أمير المؤمنين رضي الله عنه فجرحه ولم يأت على نفسه، ومعاوية عند هؤلاء شديد التدبير وليكن قادحاً في صحة تدبير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان يخرج وحده في المدينة ليلاً ونهاراً مع كثرة أعدائه، وقد كان يأكل ما دعى إليه ولا يجترس، حتى أكل من يهودية شاة مشوبة قد سمته فيها فمرض، وخيف عليه التلف، ولما برا لم تزل تنتقص عليه حتى مات منها وقال عند موته: إني ميت من تلك الأكلة، ولم تكن العرب في ذلك الزمان تجترس، ولا تعرف الغيلة والفتك، وكان ذلك عندهم قبيحاً يعير به فاعله، لأن الشجاعة غير ذلك، والغيلة فعل العجزة من الرجال، ولأن علياً رضي الله عنه كانت هيئته قد تمكنت في صدور الناس، فلم يكن يظن أن أحداً يقدم عليه غيلة أو مبارزة في حرب، فقد كان بلغ من الذكر بالشجاعة مبلغاً عظيماً لم يبلغه أحد من الناس، لا من تقدم ولا من تأخر، حتى كانت أبطال العرب تفرع باسمه، ألا ترى إلى عمر بن معد يكرب وهو شجاع العرب، الذي تضرب به الأمثال، كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمر أنكره عليه، وغدر تخوفه منه: أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه، لأبعثن إليك رجالاً تستصغر معه نفسك، يضع سيفه على هامتك فيخرجه من بين فخذيك فقال عمرو لما وقف على الكتاب: هددني بعلي والله ولهذا قال شبيب بن بكرة لابن ملجم، لما رآه يشد الحرير على بطنه وصدره: ويلك ما تريد أن تصنع قال: أقتل علياً، قال هبلك الهبول، لقد جئت شيئاً إداً كيف تقدر على ذلك فاستبعد أن يتم لابن ملجم ما عزم عليه، ورآه مرأماً وعراً. والأمر في هذا وأمثاله مسند إلى غلبات الظنون، فمن غلبت على ظنه السلامة مع الاسترسال لم يجب عليه الاحتراس، وإنما يجب

الاحتباس على من يغلب على ظنه العطب إن لم يحتسب. فقد بان بما أوضحناه فساد قول من قال: إن تديره صلى الله عليه وسلم وسياسته لم تكن صالحة، وبان أنه أصح الناس تدبيراً وأحسنهم سياسة، وإنما الهوى والعصبية لا حيلة فيهما

قال في الوعظ

الأصل: أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله، فإن الناس اجتمعوا على مائدةٍ شبعها قصيرٌ، وجوعها طويلٌ. أيها الناس، إنما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجلاً واحداً فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا، فقال سبحانه: "فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ"، فما كان إلا أن حارت أرضهم بالخسفة حوار السكة المحماة في الأرض الخوارة. أيها الناس: من سلك الطريق ألواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه الشرح: الاستيحاش: ضد الاستئناس، وكثيراً ما يحدثه التوحد وعدم الرفيق، فنهى رضي الله عنه عن الاستيحاش في طريق الهدى لأجل قلة أهله، فإن المهتدي ينبغي أن يأنس بالهداية، فلا وحشة مع الحق.

وعنى بالمائدة: الدنيا، لذتها قليلة، ونغصتها كثيرة، والوجود فيها زمان قصير جداً، والعدم عنها زمان طويل جداً. ثم قال: ليست العقوبة لمن اجترم ذلك الجرم بعينه، بل لمن اجترمه ومن رضي به، وإن لم يباشره بنفسه، فإن عاقر ناقة صالح إنما كان إنساناً واحداً، فعم الله ثمود بالسخط لما كانوا راضين بذلك الفعل كلهم، واسم "كان" مضمراً فيها، أي ما كان الانتقام منهم إلا كذا. وخارت أرضهم بالخسفة: صوتت كما يخور الثور، وشبه رضي الله عنه ذلك بصوت السكة المحماة في الأرض الخوارة، وهي اللينة، و- إنما جعلها محماة لتكون أبلغ في ذهابها في الأرض. ومن كلامه رضي الله عنه يوم خير، يقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بعثه بالراية: أكون في أمرك كالسكة المحماة في الأرض، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال له: بل يرى الشاهد ما لا يرى الغائب. وقال له أيضاً هذه اللفظة لما بعثه في شأن مارية القبطية، وما كانت اهتمت به من أمر الأسود القبطي، ولهذا علة في العلم الطبيعي، وذلك أن السكة المحماة تحرق الأرض بشيئين: أحدهما تحدد رأسها، والثاني حرارتها، فإن الجسم المحدد الحار إذا اعتمد عليه في الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدد على النفوذ بتحليلها ما تلاقي من صلابة الأرض، لأن شأن الحرارة التحليل، فيكون غوص ذلك الجسم المحدد في الأرض أوحى وأسهل، والتهية: المفازة يتحير سالكها.

قصة ثمود وصالح

قال المفسرون: إن عاداً لما اهلكت عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طوالاً، حتى إن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، ففتحوا البيوت في الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش فعتوا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فما آمن به إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنذرهم، فسألوه آية، فقال: آية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا - في يوم معلوم لهم من السنة - فتدعو إلهك وتدعو إلهنا، فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعنا قال: نعم، فخرج

معهم، ودعوا أوثانهم، وسألوها الاستجابة فلم تجب، فقال سيدهم جندع بن عمرو - وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يسمونها الكاثبة: اخرج لنا في هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء - والمخترجة: التي شاكلت البخت ، فإن فعلت صدقناك وأجبتناك. فأخذ عليهم الموائيق، لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن؟ قالوا: نعم، فصك ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض التوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله، وعظماؤهم ينظرون. ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فأمن به جندع ورهط من قومه، ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غبًا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر، فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها ثم تتفجح، فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدخرون، فإذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي، فتهرب منها أنعامهم، فتبهط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غنم وصدفة بنت المختار، لما أضرت به من مواشيهما، وكانتا كثيرتي المواشي، فعقروها، عقروها قدار الأحمر، واقتسموا لحمها وطبخوه. فانطلق سقبها حتى رقى جبلاً اسمه قارة، فرغا ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدرُوا عليه، وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غداً وجوهكم مصفرة، وبعد غدٍ وجوهكم حمرة، واليوم الثالث وجوهكم مسودة، ثم يغشاكم العذاب. فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله سبحانه إلى أرض فلسطين، فلما كان اليوم الرابع، وارتفعت الضحوة، تحنطوا بالصبر وتكفونوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء وخسف شديد وزلزال، فتقطعت قلوبهم فهلكوا. وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالحجر في غزوة تبوك، فقال لأصحابه: لا يدخلن أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تمروا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

وروى المحدثون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: أتدري من أشقى الأولين؟ قال: نعم، عاقر ناقة صالح، قال: أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: من يضربك على هذه، حتى تخضب هذه.

ومن كلام له عند دفن السيدة فاطمة رضي الله عنها

الأصل: روي عنه أنه قاله عند دفن سيدة النساء فاطمة رضي الله عنها، كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عند قبره. السلام عليك يا رسول الله عني، وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك قل يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي، إلا أن في التأسي لي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضع تعز. فلقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك، فإننا لله وإنا إليه راجعون فلقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة أما حزني فسرمدٌ، وأما ليلي فمسهدٌ، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيمٌ. وستنبئك ابنتك بتضايف أمتك على هضمها. فأحفظها السؤال، واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر. والسلام عليكما سلام مودعٍ، لا قالٍ ولا سئمٍ، فإن أنصرف فلا عن ملالةٍ، وإن أقم فلا عن سوء ظنٍ بما وعد الله الصابرين.

الشرح: أما قول الرضي رحمه الله: "عند دفن سيدة النساء"، فلأنه قد تواتر الخبر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "فاطمة سيدة نساء العالمين" إما هذا اللفظ بعينه، أو لفظ يؤدي هذا المعنى، روي أنه قال وقد رآها تبكي عند موته: "ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة" وروي أنه قال: "سادات نساء العالمين أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران". قوله رضي الله عنه: "وسريعة اللحاق بك" جاء في الحديث؟ أنه رآها تبكي عند موته فأسر إليها: "أنت أسع أهلي لحوقاً بي"، فضحكت. قوله: "عن صفيتك" أجله صلى الله عليه وسلم عن أن يقول: "عن ابتك"، فقال: "صفيتك"، وهذا من لطيف عبارته، ومحاسن كنايته، يقول رضي الله عنه: ضعف جلدي وصبري عن فراقها، لكنني أتأسى بفراقي لك فأقول: كل عظيم بعد فراقك جلل، وكل خطب بعد موتك يسير. ثم ذكر حاله معه وقت انتقاله صلوات الله عليه إلى جوار ربه، فقال: لقد وسدتك في ملحودة قبرك، أي في الجهة المشقوقة من قبرك، واللحد: الشق في جانب القبر، وجاء بضم اللام في لغة غير مشهورة. قال: "وفاضت بين نخري وصدري نفسك"، يروي أنه صلى الله عليه وسلم قذف دماً يسيراً وقت موته، ومن قال بهذا القول زعم أن مرضه كان ذات الجنب، وأن القرحة التي كانت في الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت في تلك الحال، وكانت فيها نفسه صلى الله عليه وسلم. وذهب قومٌ إلى أن مرضه إنما كان الحمى والسرسام الحار، وأن أهل داره ظنوا أن به ذات الجنب فلدوه وهو مغمى عليه، وكانت العرب تداوي باللدود من به ذات الجنب، فلما أفاق علم أنهم قد لدوه، فقال: "لم يكن الله ليسلطها علي، لدوا كل من في الدار"، فجعل بعضهم يلد بعضاً.

واحتج الزاهبون إلى أن مرضه كان ذات الجنب بما روي من انتصابه وتعذر الاضطجاع والنوم عليه، قال سلمان الفارسي: دخلت عليه صبيحه يوم قبل اليوم الذي مات فيه، فقال لي: يا سلمان، ألا تسال عما كابدته الليلة من الألم والسهر أنا وعلي فقلت: يا رسول الله، ألا أسهر الليلة معك بدله؟ فقال: لا هو أحق بذلك منك. وزعم آخرون أن مرضه كان أثراً لأكلة السم التي أكلها رضي الله عنه، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم: "ما زالت أكلة خبير تعاودني"،

فهذا أوان قطعت أبهري". ومن لم يذهب إلى ذات الجنب، فاولوا قول علي رضي الله عنه: "فاضت بين نخري وصدري نفسك" فقالوا: أراد بذلك آخر الأنفاس التي يخرجها الميت ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنها، ولا بد لكل ميت من نفخة تكون آخر حركاته. ويقول قوم: إنها الروح، وعبر علي رضي الله عنه عنها بالنفس، لما كانت العرب لا ترى بين الروح والنفس فرقاً. واعلم أن الأخبار تختلف في هذا المعنى، فقد روى كثير من الحديثين عن عائشة أنها قالت: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونخري. وروى كثير منهم هذا اللفظ عن علي رضي الله عنه، أنه قال عن نفسه، وقال في رواية أخرى: "ففاضت نفسه في يدي، فأمررتها على وجهي". والله أعلم لحقيقة هذه الحال، ولا يبعد عندي أن يصدق الخزان معاً، لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الوفاة مستنداً إلى علي وعائشة جميعاً، فقد وقع الاتفاق على أنه مات وهو حاضر لموته، وهو الذي كان يقبله بعد موته، وهو الذي كان يعلله ليالي مرضه، فيجوز أن يكون مستنداً إلى زوجته وابن عمه، ومثل هذا لا يبعد وقوعه لا زماناً هذا، فكيف في ذلك الزمان الذي كان النساء فيه والرجال مختلطين، لا يستتر البعض عن البعض. فإن قلت: فكيف تعمل بآية الحجاب، وما صح من استتار أزواج

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الناس بعد نزولها؟ قلت: قد وقع اتفاق المحدثين كلهم على أن العباس كان ملازماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيام مرضه في بيت عائشة، وهذا لا ينكره أحد، فعلى القاعدة التي كان العباس ملازمه صلى الله عليه وسلم كان علي رضي الله عنه ملازمه، وذلك يكون بأحد الأمرين: إما بأن نساءه لا يستترن من العباس وعلي لكونهما أهل الرجل وجزءاً منه، أو لعل النساء كن يحتمرن بأخمرتهن، ويخالطن الرجال فلا يرون وجوههن، وما كانت عائشة وحدها في البيت عند موته، بل كان نسائه كلهن في البيت، وكانت ابنته فاطمة عند رأسه صلى الله عليه وسلم. فأما حديث مرضه صلوات الله عليه ووفاته، فقد ذكرناه فيما تقدم. قوله: "إنا لله" إلى آخره، أي عبيده، كما تقول: هذا الشيء لزيد، أي يملكه.

ثم عقب الاعتراف بالملكية بالإقرار بالرجعة والبعث، وهذه الكلمة تقال عند المصيبة، كما أدب الله تعالى خلقه وعباده. والوديعة والرهينة، عبارة عن فاطمة، ومن هذا الموضع أخذ ابن ثوبة الكاتب قوله عن قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما حملت من مصر إلى المعتضد أحمد بن طلحة بن المتوكل: "وقد وصلت الوديعة سالمة، والله المحمود، وكيف يوصى الناظر بنوره أم كيف يحض القلب على حفظ سروره" وأخذ الصابي هذه اللفظة أيضاً، فكتب عن عز الدولة بختيار بن بويه، إلى عدة الدولة أبي تغلب بن حمدان، وقد نقل إليه ابنته: "قد وجهت الوديعة يا سيدي، وإنما تقلب من وطن إلى سكن، ومن مغرس إلى مغرس، ومن مأوى بر وانعطاف، إلى مثنوى كرامة وألطاف". فأما الرهينة فهي المرتقة، يقال للمذكر: هذا رهين عندي على كذا، وللأنثى هذه رهينة عندي على كذا، كأنها رضي الله عنها كانت عنده عوضاً من رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تكون الرهينة عوضاً عن الأمر الذي أخذت رهينة عليه. ثم ذكر منه أن حزنه دائم، وأنه يسهر ليله ولا ينام إلى أن يلتحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاوره في الدار الآخرة، وهذا من باب المبالغة، كما يبالغ الخطباء والكتاب والشعراء في المعاني، لأنه رضي الله عنه ما سهر منذ ماتت فاطمة ودام سهره إلى أن قتل رضي الله عنه وإنما سهر ليلة أو شهراً أو سنة، ثم استمر مريده، وارعوى رسنه، فأما الحزن فإنه لم يزل حزينا إذا ذكرت فاطمة، هكذا وردت الرواية عنه. قوله رضي الله عنه: "وستنبئك ابتك"، أي ستعلمك. فأحفظها السؤال: أي استقص في مسائلها، واستخبرها الحال، أحفيت إحقافاً في السؤال: استقصيت، وكذلك في الحجاج والمنازعة، قال الحارث بن حلزة:

ن علينا في قيلهم إحقاف

إن إخواننا الأرقام يغلو

ورجل حفي، أي مستقص في السؤال. واستخبرها الحال، أي عن الحال، فحذف الجار، كقولك: اخترت الرجال زيدا أي من الرجال، أي سلها عما جرى بعدك من الاستبداد بعقد الأمر دون مشاورتنا ولا يدل هذا على وجود النص، لأنه يجوز أن تكون الشكوى والتألم من اطراحهم وترك إدخالهم في المشاورة، فإن ذلك مما تكرهه النفوس وتتألم منه، وهجا الشاعر قوماً، فقال:

ولا يستأذنون وهم شهود

ويقضى الأمر حين تغيب تيم

قوله: "هذا ولم يطل العهد، ولم يخلق الذكر"، أي لم ينس. فإن قلت: فما هذا الأمر الذي لم ينس ولم يخلق، إن لم يكن هناك نص؟ قلت: قوله صلى الله عليه وسلم: "إني مخلف فيكم الثقلين"، وقوله: "اللهم أدر الحق معه حيث دار"، وأمثال ذلك من النصوص الدالة على تعظيمه وتبجيله ومترئته في الإسلام، فهو رضي الله عنه كان يريد أن يؤخر عقد البيعة إلى أن يحضر ويستشار، ويقع الوفاق بينه وبينهم، على أن يكون العقد لواحد من المسلمين بموجبه، إما له أو لأبي بكر رضي الله عنه، أو لغيرهما، ولم يكن ليليق أن يبرم الأمر وهو غير حاضر له، مع جلالته في الإسلام، وعظيم أثره، وما ورد في حقه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله، فهذا هو الذي كان ينقم رضي الله عنه، ومنه كان يتألم ويظلم الشكوى، وكان ذلك في موضعه وما أنكر إلا منكرًا، فأما النص فإنه لم يذكره رضي الله عنه، ولا احتج به، ولما طال الزمان صفح عن ذلك الاستبداد الذي وقع منهم، وحضر عندهم فبايعهم، وزال ما كان في نفسه. فإن قلت: فهل كان يسوغ لأبي بكر رضي الله عنه، وقد رأى وثوب الأنصار على الأمر أن يؤخره إلى أن يخرج رضي الله عنه ويحضر المشورة؟ قلت: إنه لم يلم أبا بكر رضي الله عنه بعينه، وإنما تألم من استبداد الصحابة بالأمر، دون حضوره ومشاورته. ويجوز أن يكون أكثر تألمه وعتابه مصروفًا إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبداد، والتغلب.

كلام مصنوع لأبي حيان في حديث السقيفة

وروى القاضي أبو حامد أحمد بن بشير المروزي العامري فيما حكاه عنه أبو حيان التوحيدي، قال أبو حيان: سمرنا عند القاضي أبي حامد ليلة ببغداد بدار ابن جيشان، في شارع الماذيان، فتصرف الحديث بنا كل متصرف، وكان والله معنا مزيلاً مخلطاً عزيز الرواية، لطيف الدراية له في كل جو متنفس، وفي كل نار مقتبس، فجرى حديث السقيفة، وتنازع القوم الخلافة، فركب كل منا فناً، وقال قولاً، وعرض بشيء ونزع إلى مذهب، فقال أبو حامد: هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر رضي الله عنه إلى علي، وجواب علي له ومبايعته إياه عقيب تلك الرسالة؟ فقالت الجماعة: لا والله، فقال: هي والله من درر الحقائق المصونة، ومخبات الصناديق في الخزائن المحوطة، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلي في وزارته، فكتبها عني في خلوة بيده، وقال: لا أعرف في الأرض رسالة أعقل منها، ولا أئين، وإنما لتدل على علم وحكم، وفصاحة وفقاهة، في دين ودهاء وبعد غور، وشدة غوص. فقال له واحد من القوم: أيها القاضي، فلو أتممت المنة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك، فنحن أوعى لها من المهلي، وأوجب ذماماً عليك. فقال: هذه الرسالة رواها عيسى بن دأب، عن صالح بن كيسان عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، عن أبي عبيدة بن الجراح. قال أبو عبيدة: لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه بين المهاجرين والأنصار، ولحظ بعين الوقار والهيبة - بعد هنة كاد لشیطان بها يسر فدفع الله شرها، وأدحض عسرهما، فركد كيدها، وتيسر خيرها، وقصم ظهر النفاق والفسق بين أهلها - بلغ أبا بكر رضي الله عنه عن علي رضي الله عنه تلكؤ وشماس، وتهمهم ونفاس، فكره أن يتمادى الحال وتبدو له العورة، وتنفرج ذات البين، ويصير ذلك دريئة لجاهل مغرور، أو عاقل ذي دفاء، أو صاحب سلامة ضعيف القلب، خوار العنان، دعاني في خلوة فحضرتة، وعنده عمر رضي الله عنه وحده - وكان عمر رضي الله عنه قبساً له وظهيراً معه، يستضيء بناره، ويستلمني

من لسانه - فقال لي: يا أبا عبيدة، ما أئمن ناصيتك، وأبين الخير بين عارضيك، لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: "أبو عبيدة أمين هذه الأمة"، وطالما أعز الله الإسلام بك، وأصلح ثلمه على يديك، ولم تزل للدين ناصراً وللمؤمنين روحاً، ولأهلك ركناً، ولإخوانك مرداً قد أردتك لأمر له ما بعده، خطره مخوف، وصلاحه معروف، ولئن لم يندمل جرحه بمسبارك ورفقك، ولم تجب حيته برقيتك، لقد وقع اليأس، وأعضل اليأس، واحتيج بعدك إلى ما هو أمر من ذلك وأعلق، وأعسر منه وأغلق، والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يدك. فئات له يا أبا عبيدة، وتلطف فيه، وانصح لله ولرسوله، ولهذه العصاية، غير آل جهداً، ولا قال حمداً، والله كالثك وناصرك، وهاديك ومبصرك.

امض إلى علي، واحفض جناحك له، واغضض من صوتك عنده، واعلم أنه سلالة أبي طالب، ومكانه ممن فقدناه بالأمس مكانه، وقل له: البحر مغرقة، والبر مفرقة، والجو أكلف، والليل أغلف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رؤوف، والباطل نسوف عصوف، والعجب مقدحة الشر، والضغن رائد البوار، والتعريض شجار الفتنة، والقحة مفتاح العداوة، والشيطان متكئ على شماله، باسط ليمينه، نافج حضنيه لأهله، ينتظر الشتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عناداً لله ولرسوله ولدينه، يوسوس بالفجور، ويدلي بالغرور، ويمني أهل الشرور، ويوحي إلى أوليائه بالباطل، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم، وعادة منه منذ أهانه الله في سالف الدهر، لا ينجي منه إلا بعض الناجذ على الحق، وغض الطرف عن الباطل، ووطء هامة عدو الله والدين، بالأشد فلاشد، والأجد فالأجد، وإسلام النفس لله فيما حاز رضاه، وجنب سخطه. ولا بد من قول ينفع إذ قد أضر السكوت وخيف غبه، ولقد أرشدك من أفاء ضالتك، وصافاك من أحيا مودته لك بعتابك، وأراد الخير بك من أثر البقيا معك. ما هذا الذي تسؤل لك نفسك، ويدوى به قلبك، ويلتوي عليه رأيك ويتخاوص دونه طرفك، ويستشري به ضغتك، ويتراد معه نفسك، وتكثر لأجله صعداؤك، ولا يفيض به لسانك أعجمة بعد إفصاح، ألبساً بعد إيضاح أديناً غير دين الله أخلاقاً غير خلق القرآن أهدياً غير هدي محمد أمثلي يمشى له الضراء ويدب له الخمر أم مثلك يغص عليه الفضاء، ويكسف في عينه القمر ما هذه القعقة بالشنان، والوعوة باللسان إنك لجد عارف باستجابتنا لله ولرسوله، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبتنا، هجرةً إلى الله ونصرةً لدينه، في زمان أنت منه في كن الصبا وخدر الغرارة غافل، تشب وتربب. لا تعي ما يشاد ويراد، ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه من أخلاق الصبيان أمثالك، وسجايا الفتيان أشكالك، حتى بلغت إلى غايتك هذه التي إليها أحرقت، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر ولا محدود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيل الرواسي، ونقاسي أهوالاً تشيب النواصي، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجرع صابها، ونشرح عيائها، ونحكم آساسها، ونبرم أمراسها، والعيون تحدج بالحسد، والأنوف تعطس بالكبر، والصدور تستعر بالغيط، والأعناق تتطاول بالفخر، والأسنة تشحذ بالمكر، والأرض تميد بالخوف، لا ننتظر عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساءً، ولا ندفع في نحر أمر إلا بعد أن نحسو الموت دونه، ولا نبليغ إلى شيء إلا بعد تجرع العذاب قبله، ولا نقوم مناداً إلا بعد اليأس من الحياة عنده، فادين في كل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم، والخال والعم،

والمال والنشب، والسبد والبلد، والهلة والبله، بطيب أنفوس وقرّة أعين، ورحب أعطان، وثبات عزائم، وصحة عقول، وطلاقة أوجه، وذلاقة ألسن. هذا إلى خبيثات أسرار، ومكنونات أخبار، كنت عنها غافلاً، ولولا سنك لم تك عن شيء منها ناكلاً، كيف وفؤادك مشفوم وعودك معجوم، وغيبك مخبور، والخير منك كثير فالآن قد بلغ الله بك، وأرهص الخير لك، وجعل مرادك بين يديك، فاسمع ما أقول لك، واقبل ما يعود قبوله عليك، ودع التحبس، والتعبس لمن لا يضلع لك إذا خطا، ولا يترحزح عنك إذا عطا، فالأمر غص، وفي النفوس مض، وأنت أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجاً، وسيفها العضب فلا تنب اعوجاجاً، وماؤها العذب فلا تحل أجاً، والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا لمن هو؟ فقال هو لمن يرغب عنه، لا لمن يجاحش عليه، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمخ إليه، وهو لمن يقال له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي. ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصهر، فذكر فتیاناً من قريش، فقلت له: أين أنت من علي! فقال: إني لأكره لفاطمة ميعة شبابه، وحدة سنه. فقلت: متى كنفته يدك، ورعته عينك، حفت بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة، مع كلام كثير خطبت به رغبته فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء ولا لوجاء، ولكني قلت ما قلت، وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنت لك إذ ذاك خيراً منك الآن لي. ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، فقد كنى عن غيرك، وإن قال فيك، فما سكت عن سواك، وإن اختلج في نفسك شيء، فهلم فالحكم مرضي، والصواب

مسموع، والحق مطاع. ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما عند الله وهو عن هذه العصابة راض وعليها حذب، يسره ما سرها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويسخطه ما أسخطها. ألم تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وخلطائه وأقاربه وسجرائه، إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة، لو أصفقت الأمة عليه لأجلها لكان عنده إيالتها وكفالتها. أتظن أنه رضي الله عنه ترك الأمة سدىً بدياً، عدداً مباهل عباهل طلاحى مفتونة بالباطل، ملوية عن الحق، لا ذائد ولا رائد، ولا ضابط ولا خابط ولا رابط، ولا ساقى ولا واقى، ولا حادي ولا هادي، كلا والله ما اشتاق إلى ربه، ولا سألته المصير إلى رضوانه، إلا بعد أن أقام الصوى، وأوضح الهدى، وأمن المهالك، وحمى المطارح وال مبارك. وإلا بعد أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله، وشرم وجه النفاق لوجه الله، وجدع أنف الفتنة في دين الله، وتفل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله. وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة جامعة، ودار واحدة، إن استقادوا لك وأشاروا بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى، فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفتاح لمغالقهم، والمرشد لضالهم، والرادع لغاويهم، فقد أمر الله التعاون على البر، وأهاب إلى التناصر على الحق. ودعنا نقض هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله بقلوب سليمة من الضغن. وإنما الناس ثمانية فارق بهم، واحن عليهم، ولن لهم، ولا تسول لك نفسك فرقتهم، واختلاف كلمتهم، واترك ناجم الشر حصيداً، وطائر الحقد واقعاً، وباب الفتنة مغلقاً، لا قال ولا قيل، ولا لوم ولا تعنيف، ولا عتاب ولا تثريب، والله على ما أقول وكيل، وبما نحن عليه بصير. قال أبو عبيدة: فلما تهيأت للنهوض، قال لي عمر: كن على الباب هنيئاً فلي معك ذرو من الكلام. فوقفت وما أدري ما كان بعدي، إلا أنه لحقني بوجه يندى قهلاً، وقال لي: قل لعلي: الرقاد محلمة، واللحاج ملحمة، والهوى مقحمة، وما منا أحد إلا له مقام معلوم، وحق

مشاع أو مقسوم، وبناء ظاهر أو مكتوم، وإن أكيس الكيسى من منح الشارد تألفاً، وقارب البعيد تلطفاً، ووزن. كل أمر بميزانه، ولم يجعل خبره كعيانه، ولا قاسى فتره بشيره، دينا كان أو دنياً، وضلالاً كان أو هدى، ولا خير في علم معتمل في جهل، ولا في معرفة مشوبة بنكر.

ولسنا كجلدة رفع البعير

بين العجان وبين الذنب

وكل صال فبناره يصلى، وكل سيل فىلى قراره يجري. وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعي، وحصر، ولا كلامها اليوم لفرق أو حذر، فقد جاع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل متكبر، وقصم به ظهر كل جبار، وسل لسان كل كذوب، فماذا بعد الحق إلا الضلال

ما هذه الخنزوانة التي في فراش رأسك؟ وما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك، وما هذه الوحرة التي أكلت شراسيفك، والقذاة التي أعشت ناظرك؟ وما هذا الدحس والدس اللذان يدلان على ضيق الباع، وخور الطباع! وما هذا الذي لبست بسببه جلد النمر، واشتملت عليه بالشحناء والنكر لشد ما استسعيت لها، وسريت سرى ابن أنقد إليها، إن العوان لا تعلم الخمرة. ما أحوج الفرعاء إلى فالية، وما أفقر الصلعاء إلى حالية، ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر معبد مخيس، ليس لأحد فيه ملمس، لم يسير فيك قولاً، ولم يستزل لك قرآناً، ولم يجزم في شأنك حكماً، لسنا في كسروية كسرى، ولا قيصرية قيصر، تأمل إخوان فارس وأبناء الأصفر، قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ودرية لرماحنا، ومرمى لطعاننا بل، نحن في نور نبوة، وضياء رسالة، وثمره حكمة وأثر رحمة، وعنوان نعمة، وظل عصمة، بين أمة مهدية بالحق والصدق، مأمونة على الرتق والفتق، لها من الله تعالى قلب أبي، وساعد قوي، ويد ناصرة، وعين ناظرة. أتظن ظناً أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتاتاً على الأمة، خادعاً لها، ومتسلطاً عليها! أتراها امتلخ أحلامها، وأزاغ أبصارها، وحل عقودها، وأحال عقولها واستل من صدورهم حميتها وانتكث رشاها، وانتضب ماءها، وأضلها عن هداها، وساقها إلى رداها، وجعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويقظتها رقاداً، وصلاحها فساداً! إن كان هكذا، إن سحره لمبين، وإن كيده لمئين. كلا والله، بأي خيل ورجل، وبأي سنان ونصل، وبأي منة وقوة، وبأي مال وعدة، وبأي أيد وشدة، وبأي عشيرة وأسرة، وبأي قدرة ومكنة، وبأي تدرع وبسطة! لقد أصبح بما وسمته منيع الرقبة، رفيع العتبة. لا والله لكن سلا عنها فولت نحوه، وتطامن لها فالتفت به، ومال عنها، فمالت إليه واشتأز دونها فاشتملت عليه، حبة حباه الله بها، وغاية بلغه الله إليها، ونعمة سربله جمالها، ويد الله أوجب عليه شكرها، وأمة نظر الله به لها. وطالما حلقت فوقه قي أيام النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لفتتها، ولا يرتصد وقتها، والله أعلم بخلقها، وأرف بعبادها، يختار ما كان لهم الخيرة. وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، وكهف الحكمة، ولا يجحد حقك فيما آتاك ربك من العلم، ومنحك من الفقه في الدين، هذا إلى مزايا خصصت بها، وفضائل اشتملت عليها، ولكن لك من يراحمك بمنكب أضخم من منكبك، وقربى أمس من قرباك، وسن أعلى من سنك، وشيبة أروع من شيبتك، وسيادة معروفة في الإسلام والجاهلية، ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة، ولا تذكر فيها في مقدمة ولا ساقية، ولا تضرب فيها بذراع ولا

إصبع، ولا تعد منها بيازل ولا هبع . إن أبا بكر كان حبة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلاقة همه، وعيبة سره ومثوى حزنه، وراحة باله، ومرمى طرفه، شهرته مغنية عن الدلالة عليه. ولعمري إنك لأقرب منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنه أقرب منك قرابة، والقرابة لحم ودم، والقرابة روح ونفس، وهذا فرق يعرفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون. ومهما شككت فلا تشك في أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فادخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع غداً، والفظ من فيك ما هو متعلق بلهاتك ، وانفت سخيمة صدرك، فإن يكن في الأمد طول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريضاً أو غير مريء، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء، حين لا راد لقولك إلا من كان آيساً منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك، حين يعض إهابك ، ويفري أديمك، ويزري على هديك، هناك تقرر السن من ندم، وتشرب الماء ممزوجاً بدم، حين تأسى على ما مضى من عمرك، وانقضى وانقرض من دارج قومك، وتود أن لوسقيت بالكأس التي سقيتها غيرك، ورددت إلى الحال التي كنت تكرهها في أمسك، والله فينا وفيك أمر هو بالغه، وعاقبة هو المرجو لسرائها وضرائها، وهو الولي الحميد الغفور الودود. قال أبو عبيدة: فمشيت إلى علي مثبطاً متباطئاً، كأنما أخطو على أم رأسي فرقاً من الفتنة، وإشفاقاً على الأمة، وحذراً من الفرقة، حتى وصلت إليه في خلاء فأبشثته بشي كله، وبرئت إليه منه، ودفعته له. فلما سمعها ووعاها، وسرت في أوصاله حمياها قال: حلت معلوطة ، وولت مخروطة ، ثم قال:

لا تنعمي الليلة بالنعريس

إحدى لياليك فهبسي هبسي

يا أبا عبيدة، أهذا كله في أنفس القوم يستبطنونه ويضطغنون عليه! فقلت: لا جواب عندي، إنما جئتكم قاضياً حق الدين، وراتقاً فتق الإسلام، وساداً ثلثة الأمة؟ يعلم الله ذلك من خلجلان قلبي، وقرارة نفسي. فقال: ما كان قعودي في كسر هذا البيت قصداً لخلاف، ولا إنكاراً لمعروف، ولا زراية على فسلم، بل لما وقذني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه، وأودعني من الحزن لفقده، فأني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد علي حزناً، وذكرني شجناً، وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره، وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرق منه، رجاء ثواب معد لمن أخلص الله عمله، وسلم لعلمه ومشيتته أمره، على أبي أعلم أن التظاهر علي واقع، ولي عن الحق الذي سيق إلي دافع، وإذ قد افعم الوادي لي، وحشد النادي علي، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين، وفي النفس كلام لولا سابق قول، وسالف عهد، لشفيت غيظي بخصري وبنصري، وخضت لجته بأخصي ومفرقي، ولكني ملجم إلى أن ألقى الله تعالى، عنده أحتسب ما نزل بي، وأنا غاد إن شاء الله إلى جماعتكم، ومبايع لصاحبكم، وصابر على ما ساءني وسركم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وكان الله على كل شيء شهيداً.

قال أبو عبيدة؟ فعدت إلى أبي بكر وعمر، فقصصت القول على غره، ولم أترك شيئاً من حلوه ومره، ذكرت غدوه إلى المسجد، فلما كان صباح يومئذ وافى علي فخرج الجماعة إلى أبي بكر وبايعه، وقال خيراً، ووصف جميلاً، وجلس زميناً، واستأذن للقيام ونهض، فتبعه عمر إكراماً له، وإجلالاً لموضعه، واستنباطاً لما في نفسه، وقام أبو بكر إليه فاخذ بيده، وقال: إن عصابة أنت منها يا أبا الحسن. لمعصومة، وإن أمة أنت فيها لمرحومة، ولقد أصبحت عزيزاً علينا، كريماً لدينا،

نخاف الله إن سخطت، ونرجوه إذا رضيت، ولولا أي شذهت لما أجبت إلى ما دعيت إليه، ولكني خفت الفرقة، واستشار الأنصار بالأمر على قريش، وأعجلت عن حضورك ومشاورتك، ولو كنت حاضراً لبايعتك ولم أعدل بك، ولقد حط الله عن ظهرك ما أثقل كاهلي به، وما أسعد من ينظر الله إليه بالكفاية وإنا إليك محتاجون، وبفضلك عالمون، وإلى رأيك وهديك في جميع الأحوال راغبون، وعلى حمايتك وحفيظتك معولون. ثم انصرف وتركه مع عمر. فالتفت علي إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أبا حفص، والله ما قعدت عن صاحبك جزعاً على ما صار إليه، ولا أتيت خائفاً منه، ولا أقول ما أقول بعلّة، وإني لأعرف مسمى طرفي ومخطي قدمي، ومترع قوسي، وموقع سهمي ولكني تخلفت إعداراً إلى الله، وإلى من يعلم الأمر الذي جعله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتيت فبايعت، حفظاً للدين، وخوفاً من انتشار أمر الله. فقال له عمر رضي الله عنه: يا أبا الحسن، كفكف من غربك، ونهه من شرتك، ودع العصا بلحائها، والدلو برشائها، فإنا من خلفها وورائها. إن قدحنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن قرحنا أدمينا، وقد سمعت أمثالك التي ألغزت بها صادرة عن صدر دو، وقلب جو. زعمت أنك قعدت في كسر بيتك لما وقدك به فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم. أفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدك وحدك ولم يقد سواك، إن مصابه لأعز وأعظم من ذاك، وإن من حق مصابه ألا تصدع شمل الجماعة بكلمة لا عصام لها، فإنك لترى الأعراب حول المدينة لو تداعست علينا في صبح يوم لم نلتق في ممساة. وزعمت أن الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، فمن الشوق إليه نصرته دينه، وموازرة المسلمين عليه، ومعاونتهم فيه. وزعمت أنك مكبٌ على عهد الله تجمع ما تفرق منه، فمن العكوف على عهده النصيحة لعباده، والرفقة على خلقه، وأن تبذل من نفسك ما يصلحون به ويجمعون عليه.

وزعمت أن التظاهر عليك واقع، وأي تظاهر وقع عليك، أي حق استؤثر به دونك، لقد علمت ما قالت الأنصار أمس سراً وجهراً، وما تقلبت عليه ظهراً وبطناً، فهل ذكرتك أو أشارت بك، أو طلبت رضاها من عندك، وهؤلاء المهاجرون، من الذي قال منهم إنك صاحب هذا الأمر، أو أوماً إليك، أو همهم بك في نفسه، أتظن أن الناس ضلوا من أجلك، أو عادوا كفاراً زهداً فيك، أو باعوا الله تعالى بهوهم بغضاً لك، ولقد جاءني قوم من الأنصار، فقالوا: إن علياً ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولى بها من أبي بكر رضي الله عنه، فأنكرت عليهم ورددت القول في نخورهم، حتى قالوا: إنه ينتظر الوحي ويتوكف مناجاة الملك، فقلت: ذاك أمر طواه الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم. ومن أعجب شأنك قولك: "لولا سابق قول لشفيت غيظي بخنصري وبنصري"، وهل ترك الدين لأحد أن يشفي غيظه بيده أو لسانه، تلك جاهلية استأصل الله شأفتها واقتلع جرثومتها، ونور ليلها وغور سيلها، وأبدل منها الروح والريحان، والهدى والبرهان، وزعمت أنك ملجم، فلعمري إن من اتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه، وأطبق فاه، وغلب عقله ودينه على هواه. وأما قولك: "إني لأعرف مترع قوسي"، فإذا عرفت مترع قوسك عرف غيرك مضرب سيفه، ومطعن رمحه. وأما ما تزعمه من الأمر الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لك، فتخلفت إعداراً إلى الله، وإلى العارفة به من المسلمين، فلو عرفه المسلمون لجنحوا إليه، وأصفقوا عليه، وما كان الله ليجمعهم على العمى، ولا ليضربهم بالصبا بعد الهدى، ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيك رأي، وعليك عزم، ثم بعثه الله، فرأى اجتماع أمته على أبي بكر

رضي الله عنه، لما سغه آراءهم، ولا ضلل أحلامهم، ولا آثر عليهم، ولا أرضاك بسخطهم، ولأمرك باتباعهم، والدخول معهم فيما ارتضوه لدينهم. فقال علي: مهلاً أبا حفص أرشدك الله، خفض عليك، ما بذلت ما بذلت وأنا أريد عنه حولاً، وإن أخسر الناس صفقة عند الله من استبطن النفاق، واحتضن الشقاق، وفي الله خلف عن كل فائت، وعوض من كل ذاهب، وسلوة عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث. ارجع أبا حفص إلى مجلسك نافع القلب. مبرود الغليل، فصيح اللسان، رحب الصدر، متهلل الوجه، فليس وراء ما سمعته مني إلا ما يشد الأزر، ويحبط الوزر، ويضع الإصر، ويجمع الألفة، ويرفع الكلفة، إن شاء الله، فانصرف عمر إلى مجلسه. قال أبو عبيدة: فلم أسمع ولم أر كلاماً ولا مجلساً كان أصعب من ذلك الكلام والمجلس. قلت: الذي يغلب على ظني أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع، وأنه من كلام أبي حيان التوحيدي، لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبه، وقد حفظنا كلام عمر رضي الله عنه ورسائله، وكلام أبي بكر رضي الله عنه وخطبه، فلم نجد هذا المذهب، ولا يسلكان هذا السبيل في كلامهما، وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى، وأين أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من البديع وصناعة المحدثين، ومن تأمل كلام أبي حيان عرف أن هذا الكلام من ذلك المعدن خرج، ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد المروروذي، وهذه عادته في كتاب "البصائر" يسند إلى القاضي أبي حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه، إذا كان كارهاً لأن ينسب إليه، وإنما ذكرناه نحن في هذا الكتاب، لأنه وإن كان عندنا موضوعاً منحولاً، فإنه صورة ما جرت عليه حال القوم، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال، فقد نطقوا به بلسان الحال. ومما يوضح لك أنه مصنوع، أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث، وكل من صنف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقط من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه اللفظة الشاذة، والكلمة المفردة الصادرة عنه رضي الله عنه، في معرض التألم والتظلم، فيحتج بها، ويعتمد عليها، نحو قوله: "ما زلت مظلوماً مذ قبض رسول الله حتى يوم الناس هذا". وقوله: "لقد ظلمت عدد الحجر والمدر". وقوله: "إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل، وإن طال السرى". وقوله: "فصبرت وفي الحلق شجاً"، وفي العين قذى".

وقوله: "اللهم إني أستعديك على قريش فإنهم ظلموني حقي، وغصبوني إرثي". وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه، فكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه، فأين كان المرتضى عن هذا الحديث، وهلا ذكر في كتاب "الشافي في الإمامة" كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه هذا، وكذلك من قبله من الإمامية كابن النعمان، وبني نوبخت، وبني بابويه وغيرهم، وكذلك من جاء بعده من متأخري متكلمي الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا، وأين كان أصحابنا عن كلام أبي بكر وعمر رضي الله عنه له رضي الله عنه وهلا ذكره قاضي القضاة في "المغني" مع احتوائه على كل ما جرى بينهم، حتى إنه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد في أخبار السقيفة، وهلا ذكره من كان قبل قاضي القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومن جاء بعده من متكلمينا ورجالنا، وكذلك القول في متكلمي الأشعرية وأصحاب الحديث كابن الباقلاني وغيره، وكان ابن الباقلاني شديداً على الشيعة، عظيم العصبية على أمير المؤمنين رضي الله عنه،

فلو ظفر بكلمة من كلام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في هذا الحديث لمألت الكتب والتصانيف بها، وجعلها هجيراً ودأبه. والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدق ذوق من علم البيان، ومعرفة كلام الرجال، ولمن عنده أدق معرفة بعلم السير، وأقل أنس بالتواريخ. قوله رضي الله عنه: "مودع لا قال ولا مبغض ولا سئم"، أي لا ملول، سئمت من الشيء أسأماً وسأماً وسأمة، سئمته إذا مللته، ورجل سؤوم. ثم أكد رضي الله عنه هذا المعنى، فقال: "إن انصرفت فلا عن ملالة، وإن أقمت فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين"، أي ليست إقامتي على قبرك وجزعي عليك، إنكاراً مني لفضيلة الصبر والتجلد والتعزي والتأسي، وما وعد الله به الصابرين من الثواب، بل أنا عالم بذلك، ولكن يغلبني بالطبع البشري. وروي أن فاطمة بنت الحسين رضي الله عنهما ضربت فسطاطاً على قبر بعلمها الحسن بن الحسن رضي الله عنه سنة، فلما انقضت السنة قوضت الفسطاط راجعة إلى بيتها، فسمعت هاتفاً يقول: هل بلغوا ما طلبوا، فأجاب هاتف آخر، بل يئسوا فانصرفوا. وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه "الكامل" أن رضي الله عنه تمثل عند قبر فاطمة:

برد الهموم الماضيات وكيل

وكل الذي دون الفراق قليل

دليلٌ على ألا يدوم خليل

ذكرت أبا أروى فبت كأُنني

لكل اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ

وإن افتقادي واحداً بعد واحدٍ

والناس يروونه: وإن افتقادي فاطماً بعد أحمدٍ

الجزء الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

ومن كلام له في صفة الدنيا والآخرة

الأصل: أيها الناس، إنما الدنيا دار مجازٍ، والآخرة دار قرارٍ، فخذوا من ممركم لمقركم؛ ولا تهتكوا أستاركم، عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها أختبرتم، ولغيرها خلقتكم، إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك، وقالت الملائكة: ما قدم، لله أبأؤكم، فقدموا بعضاً يكن لكم، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضاً عليكم.

الشرح: ذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في "الكامل" عن الأصمعي، قال: خطبنا أعرابي بالبادية، فحمد الله واستغفره، ووحده وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فأبلغ في إيجاز، ثم قال: أيها الناس، إن الدنيا دار بلاع، والآخرة دار قرار، فخذوا لمقركم من ممركم، ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفى عليه أسراركم. في الدنيا أنتم، ولغيرها خلقتكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والمصلى عليه رسول الله، والمدعو له الخليفة، والأمير جعفر بن سليمان. وذكر غيره الزيادة التي في كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهي: "إن المرء إذا هلك"، إلى آخر الكلام، وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمر المؤمنين رضي الله عنه، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم. قوله رضي الله عنه: "دار مجاز"، أي يجاز فيها إلى الآخرة، ومنه سمي المجاز في الكلام مجازاً، لأن المتكلم قد عبر الحقيقة إلى غيرها، كما يعبر الإنسان من موضع إلى موضع، ودار القرار: دار الاستقرار الذي لا آخر له، فخذوا من ممركم، أي من الدنيا. لمقركم؟ وهو الآخرة. قوله رضي الله عنه: "قال الناس: ما ترك"، يريد أن بني آدم مشغولون بالعاجلة، لا يفكرون في غيرها، ولا يتساءلون إلا عنها، فإذا هلك أحدكم، فإنما قولهم بعضهم لبعض: ما الذي ترك فلان من المال؟ ما الذي خلف من الولد؟ وأما الملائكة فإنهم يعرفون الآخرة، ولا تستهويهم شهوات الدنيا، وإنما هم مشغولون بالذكر والتسبيح، فإذا هلك الإنسان، قالوا: ما قدم؟ أي شيء قدم من الأعمال؟ ثم أمرهم رضي الله عنه، بأن يقدموا من أموالهم بعضها صدقة، فإنها تبقى لهم، ونهاهم أن يخلفوا أموالهم كلها بعد موتهم، فتكون وبلاً عليهم في الآخرة.

ومن كلام له عليه السلام كان كثيراً ما ينادي به أصحابه

الأصل: تجهزوا رحمكم الله، فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقفوا العرجة على الدنيا، وأنقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد؟ فإن أمانكم عقبة كئوداً، ومنازل مخوفة مهولة، لا بد من الورود عليها، والوقوف عندها. وأعلموا أن ملاحظ المنية نحوكم دأبة، وكأنكم بمخالبها وقد نشبت فيكم، وقد دهمتكم منها مفضعات الأمور، ومضلعات المحذور، فقطعوا علائق الدنيا، وأستظفروا بزاد التقوى. "وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدم يخالف هذه الرواية".

الشرح: تجهزوا لكذا، أي تهيأوا له، والعرجة: التعرّيج، وهو الإقامة، تقول: مالي على ربك عرجة، أي إقامة، وعرج فلان على المنزل، إذا حبس عليه مطيته. والعقبة الكؤود: الشاقة المصعد. ودائبة: جادة. والمخلب للسبع بمزلة الظفر للإنسان. وأفطع الأمر، فهو مفطع، إذا جاوز المقدار شدة، ومضلعات المحذور: الخطوب التي تضلع، أي تجعل الإنسان ضليعاً، أي معوجاً، والماضي ضلع بالكسر يضلّع ضلعاً. ومن رواها بالطاء، أراد الخطوب التي تجعل الإنسان ظالماً، أي يغمز في مشيه لثقلها عليه، والماضي ظلع بالفتح، يظلع ظلعاً، فهو ظالع.

ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه من ترك مشورتها والاستعانة في الأمور بهما

الأصل: لقد نعمتما يسيراً، وأرجأتما كثيراً. ألا تخبراني أي شيء كان لكما فيه حقٌ دفعتما عنه، أم أي قسمٍ استأثرت عليكما به، أو أي حق رفعه إلي أحدٌ من المسلمين ضعفت عنه، أم جهلته، أم أخطأت بابه، والله ما كانت لي في الخلافة رغبةٌ، ولا في الولاية إربةٌ، ولكنكم دعوتوني إليها، وحملتوني عليها، فلما أفضت إلي نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما أستن النبي إلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فاقتديته. فلم أحتج إلى رأيكما، ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني من المسلمين. ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما. وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي، ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمه، وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبي، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر، ثم قال عليه السلام: رحم الله رجلاً رأى حقاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فردّه، وكان عوناً بالحق على صاحبه. الشرح: نعمت عليه، بالفتح أنقم، هذه اللغة الفصيحة، وجاءت نعمت بالكسر، أنقم. وأرجأتما: أخرتما، أي نعمتما من أحوالي اليسير، وتركتما الكثير الذي ليس لكما ولا لغيركما فيه مطعن، فلم تذكراه، فهلا اغتفرتما اليسير للكثير، وليس هذا اعترافاً بأن ما نعماه موضع الطعن والعيب، ولكنه على جهة الجدل والاحتجاج، تقول لمن يطعن في بيت من شعر شاعر مشهور: لقد ظلمته إذ تعلق عليه بهذا البيت، وتنسى ما له من المحاسن الكثيرة في غيره، ثم ذكر وجوه العتاب والاسترداد، وهي أقسام: إما أن يكون لهما حقٌ يدفعهما عنه، أو استأثر عليهما في قسم، أو ضعف عن السياسة، أو جهل حكماً من أحكام الشريعة، أو أخطأ بابه. فإن قلت: أي فرق بين الأول والثاني؟ قلت: أما دفعهما عن حقهما، فمنعهما عنه؟ سواء صار إليه رضي الله عنه أو إلى غيره، أو لم يصر إلى أحد، بل بقي بحاله في بيت المال.

وأما القسم الثاني فهو أن يأخذ حقهما لنفسه، وبين القسمين فرق ظاهر، والثاني أفحش من الأول. فإن قلت: فأبي فرق بين قوله: "أم جهلته"، أو "أخطأت بابه"، قلت: جهل الحكم أن يكون الله تعالى قد حكم بجرمة شيء، فأحله الإمام أو المفتي، وكونه يخطئ بابه؟ هو أن يصيب في الحكم ويخطئ في الاستدلال عليه. ثم أقسم أنه لم يكن له في الخلافة رغبة ولا إربة، بكسر الهمزة، وهي الحاجة. وصدق رضي الله عنه فهكذا نقل أصحاب التواريخ وأرباب علم السير كلهم،

وروى الطبري في التاريخ ورواه غيره أيضاً أن الناس غشوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته، وهو يأبى ذلك ويقول: دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تثبت عليه العقول، ولا تقوم له القلوب قالوا: ننشدك الله، ألا ترى الفتنة، ألا ترى إلى ما حدث في الإسلام، ألا تخاف الله، فقال: قد أجبتكم لما أرى منكم، واعلموا أي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم إليه. فقالوا: ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك. قال: إن كان لا بد من ذلك ففي المسجد؟ فإن بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين، وفي ملاء وجماعة. فقام والناس حوله، فدخل المسجد، واثال عليه المسلمون فبايعوه، وفيهم طلحة والزبير. قلت: قوله: "إن بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلا في المسجد بمحضر من جمهور الناس"، يشابه قوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس لما سامه مد يده للبيعة: إني أحب أن أصحر بها، وأكره أن أبايع من وراء رتاج. ثم ذكر رضي الله عنه أنه لما بويع عمل بكتاب الله وسنة رسوله، ولم يحتج إلى رأيهما ولا رأي غيرهما، ولم يقع حكم يجله فيستشيرهما، ولو وقع ذلك لاستشارهما وغيرهما، ولم يأنف من ذلك. ثم تكلم في معنى التنفيل في العطاء، فقال: إني عملت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. وصدق رضي الله عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى في العطاء بين الناس، وهو مذهب أبي بكر رضي الله عنه. والعنبي: الرضا، أي لست ارضيكمما بارتكاب ما لا يحل لي في الشرع ارتكابه. والضمير في "صاحبه"، وهو الهاء المحرورة يرجع إلى الجور، أي وكان عوناً بالعمل على صاحب الجور.

طلحة والزبير وبعض من أخبارهما

قد تقدم منا ذكر ما عتب به طلحة والزبير على أمير المؤمنين رضي الله عنه، وأنهما قالوا: ما نراه يستشيرنا في أمر، ولا يفاوضنا في رأي، ويقطع الأمر دوننا، ويستبد بالحكم عنا، وكانا يرجوان غير ذلك، وأراد طلحة أن يوليه البصرة، وأراد الزبير أن يوليه الكوفة، فلما شاهدا صلابته في الدين، وقوته في العزم، وهجره الإدهان والمراقبة، ورفضه المدالسة والمواربة، وسلوكه في جميع مسالكه منهج الكتاب والسنة، وقد كانا يعلمان ذلك قديماً من طبعه وسجيته، وكان عمر رضي الله عنه قال لهما ولغيرهما: إن الأجلح إن وليها ليحملنكم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل قال: "وإن تولوها علياً، تجدوه هادياً مهدياً"، إلا أنه ليس الخبر كالعيان، ولا القول كالفعل، ولا الوعد كالإنجاز. وحالا عنه، وتنكرا له، ووقعاه فيه، وعاباه وغمصاه، وتطلبا له العلل والتأويلات، وتنقما عليه الاستبداد وترك المشاورة، وانتقلا من ذلك إلى الوقعة فيه بمساواة الناس في قسمة المال، وأثنيا على عمر رضي الله عنه، وحدا سيرته، وصوبا رأيه، وقالوا: إنه كان يفضل أهل السوابق، وضللاً علياً رضي الله عنه فيما رآه، وقالوا: إنه أخطأ، وإنه خالف سيرة عمر رضي الله عنه، وهي السيرة الحمودة التي لم تفضحها النبوة، مع قرب عهدهما منها، واتصالها بها. واستنجداً عليه بالرؤساء من المسلمين، كان عمر رضي الله عنه يفضلهم وينفلهم في القسم على غيرهم - والناس أبناء الدنيا، ويحبون المال حباً جماً - فتكرت على أمير المؤمنين رضي الله عنه بتكرهما قلوب كثيرة، ونغلت عليه نيات كانت من قبل سليمة، ولقد كان عمر رضي الله عنه موقفاً حيث منع قريشاً والمهاجرين وذوي السوابق من الخروج من المدينة، ونهاهم عن مخالطة الناس، ونهى الناس عن مخالطتهم، ورأى أن ذلك أس الفساد في الأرض، وأن الفتوح والغنائم قد

أبطرت المسلمين، ومتى بعد الرؤوس والكبراء منهم عن دار الهجرة، وانفردوا بأنفسهم، وخالطهم الناس في البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسنوا لهم الوثوب، وطلب الإمرة ومفارقة الجماعة، وحل نظام الألفة، ولكنه رضي الله عنه نقض هذا الرأي السديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من أمر الشورى، فإن ذلك كان سبب كل فتنة وقعت، وتقع إلى أن تنقضي الدنيا. وقد قدمنا ذكر ذلك، وشرحنا ما أدى إليه أمر الشورى من الفساد بما حصل في نفس كل من الستة من ترشيحه للخلافة. وروى أبو جعفر الطبري في تاريخه، قال: كان عمر رضي الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بأذن وأجل، فشكوه، فبلغه، فقام فخطب، فقال: ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثنياً، ثم يكون رباعياً، ثم سدسياً، ثم بازلاً. ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الإسلام قد صار بازلاً، وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات على ما في أنفسهم. ألا إن في قريش من يضمم الفرقة، ويروم خلع الربة. أما وابن الخطاب حي فلا؛ إني قائم دون شعب الحرة، آخذ بحلقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار. وقال أبو جعفر الطبري في التاريخ أيضاً: فلما وفي عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به، فخرجوا إلى البلاد، فلما نزلوها ورأوا الدنيا، ورآهم الناس، خمل من لم يكن له طول ولا قدم في الإسلام، ونبه أصحاب السوابق والفضل، فانقطع إليهم الناس، وصاروا أوزاعاً معهم، وأملوهم، وتقربوا إليهم، وقالوا: يملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة، فكان ذلك أول وهن على الإسلام، وأول فتنة كانت في العامة. وروى أبو جعفر الطبري، عن الشعبي، قال: لم يمض عمر رضي الله عنه حتى ملته قريش، وقد كان حصرهم بالمدينة، وسأله أن يأذن لهم في الخروج إلى البلاد، فامتنع عليهم، وقال: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد، حتى إن الرجل كان يستأذنه في غزو الروم أو الفرس، وهو ممن حبسه بالمدينة من قريش، ولا سيما من المهاجرين فيقول له: إن لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكفيك ويبلغك ويحبسك، وهو خير لك من الغزو اليوم، وإن خيراً لك ألا ترى الدنيا ولا تراك. فلما مات عمر وولي عثمان خلى عنهم فانتشروا في البلاد واضطربوا، وانقطع إليهم الناس وخالطوهم، فلذلك كان عثمان رضي الله عنه أحب إلى قريش من عمر رضي الله عنه. فقد بان لك حسن رأي عمر رضي الله عنه في منع المهاجرين وأهل السابقة من قريش من مخالطة الناس والخروج من المدينة، وبان لك أن عثمان رضي الله عنه أرحى لهم في الطول، فخالطهم الناس، وأفسدوهم، وحببوا إليهم الملك والإمرة والرئاسة، لا سيما مع الثروة العظيمة التي حصلت لهم، والثراء مفسدة وأي مفسدة، وحصل لطلحة والزبير من ذلك ما لم يحصل لغيرهما ثروة ويساراً، وقدماً في الإسلام، وصار لهما لقيف عظيم من المسلمين يمنوهم بالخلافة، ويحسنون لهما طلب الإمرة، لا سيما وقد رشحهما عمر رضي الله عنه لها، وأقامهما مقام نفسه في تحملها، وأي امرئ مني بما قط نفسه ففارقها حتى يغيب في اللحد، ولا سيما طلحة، قد كان يحدث بها نفسه وأبو بكر رضي الله عنه حي، ويروم أن يجعلها فيه، بشبهة أنه ابن عمه، وسخط خلافة عمر رضي الله عنه، وقال لأبي بكر رضي الله عنه: ما تقول لربك وقد وليت علينا فظاً غليظاً، وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه، ويحدثونه سرّاً في معنى الخلافة، ويقولون له: لو مات عمر رضي الله عنه لباعناك بغتة، جلب الدهر علينا ما جلب، وبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فخطب الناس بالكلام المشهور، إن قوماً يقولون: إن بيعة أبي بكر رضي الله عنه كانت فلتة، وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا، أما إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، إلا أن الله وقى شرها، وليس فيكم من تقطع إليه الرقاب كأبي بكر، فأبي

امرىء بايع امرأ من غير مشورة من المسلمين، فإنهما بغرة أن يقتلا، فلما صارت إلى عثمان سخطها طلحة بعد أن كان رضىها، وأظهر ما في نفسه، وألب عليه حتى قتل، ولم يشك أن الأمر له، فلما صارت إلى علي رضي الله عنه، حدث منه ما حدث، وآخر الدواء الكي. وأما الزبير فلم يكن إلا علوي الرأي، شديد الولاء، جاريًا من الرجل مجرى نفسه. ويقال: إنه رضي الله عنه لما استنجد بالمسلمين عقيب يوم السقيفة وما جرى فيه، وكان يحمل فاطمة رضي الله عنها ليلاً على حمار، وابناها بين يدي الحمار، وهو رضي الله عنه يسوقه فيطرق بيوت الأنصار وغيرهم، ويسألهم النصرة والمعونة، أجابه أربعون رجلاً، فبايعهم على الموت، وأمرهم أن يصبحوا بكرة محلقي رؤوسهم ومعهم سلاحهم، فاصبح لم يوافه منهم إلا أربعة: الزبير، والمقداد، وأبو ذر، وسلمان. ثم أتاهم من الليل، فناشدهم، فقالوا: نصبحك غدوة؟ فما جاءه منهم إلا أربعة، وكذلك في الليلة الثالثة، وكان الزبير أشدهم له نصرة، وأنفذهم في طاعته بصيرة، حلق رأسه، وجاء مراراً وفي عنقه سيفه، وكذلك الثلاثة الباقيون، إلا أن الزبير هو كان الرأس فيهم. وقد نقل الناس خبر الزبير لما هجم عليه بيت فاطمة رضي الله عنها، وكسر سيفه في صخرة ضربت به، ونقلوا اختصاصه بعلي رضي الله عنه، وخلواته به. ولم يزل موالياً له، متمسكاً بحبه ومودته، حتى نشأ ابنه عبد الله وشب، فترع به عرق من الأم، ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه، ومحبة الوالد للولد معروفة، فانحرف الزبير لانحرافه؟ على أنه قد كانت جرت بين علي رضي الله عنه والزبير هنات في أيام عمر رضي الله عنه كدورت القلوب بعض التكدير، وكان سببها قصة موالي صفية ومنازعة علي للزبير في الميراث، فقضى عمر رضي الله عنه للزبير، فأذعن علي رضي الله عنه لقضائه

بحكم سلطانه، لا رجوعاً عما كان يذهب إليه من حكم الشرع في هذه المسألة وبقيت في نفس الزبير، على أن شيخنا أبا جعفر الإسكافي رحمه الله ذكر في كتاب "نقض العثمانية" عن الزبير كلاماً، إن صح، فإنه يدل على انحراف شديد، ورجوع عن موالة أمير المؤمنين رضي الله عنه قال: تفاخر علي رضي الله عنه والزبير، فقال الزبير: أسلمت بالغاً، وأسلمت طفلاً، وكنت أول من سل سيفاً في سبيل الله بمكة وأنت مستخف في الشعب، يكفلك الرجال، ويمونك الأقارب من بني هاشم. وكنت فارساً، وكنت راجلاً، وفي هيتي نزلت الملائكة، وأنا حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال شيخنا أبو جعفر: وهذا الخبر مفتعل مكذوب، ولم يجز بين علي والزبير شيء من هذا الكلام، ولكنه من وضع العثمانية، ولم يسمع به في أحاديث الحشوية، ولا في كتب أصحاب السيرة. ولعلي رضي الله عنه أن يقول: طفلٌ مسلم خير من بالغ كافر، وأما سل السيف بمكة، فلم يكن في موضعه، وفي ذلك قال الله تعالى: "ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم"، وأنا على منهاج الرسول في الكف والإقدام، وليس كفالة الرجال والأقارب بالشعب عاراً علي، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعب يكفله الرجال والأقارب. وأما حربك فارساً، وحربي راجلاً، فهلا أغنت فروسيك يوم عمرو بن عبدود في الخندق، وهلا أغنت فروسيك يوم طلحة بن أبي طلحة في أحد، وهلا أغنت فروسيك يوم مرحب بخيبر، ما كانت فرسك التي تحارب عليها في هذه الأيام إلا أذل من العز الجرباء، ومن سلمت عليه الملائكة أفضل ممن نزلت في هيتته، وقد نزلت الملائكة في صورة دحية الكلبي، أفيجب من ذلك أن يكون دحية أفضل مني، وأما كونك حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو عددت خصائمي في مقابلة هذه اللفظة الواحدة لك، لاستغرقت الوقت، وأفنيت الزمان، ورب صمتٍ أبلغ من نطق. ثم نرجع إلى الحديث الأول، فنقول: إن طلحة والزبير لما

أيضا من جهة علي رضي الله عنه، ومن حصول الدنيا من قبله، قلبا له ظهر الجحش، فكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتاباً لاذعاً، روى شيخنا أبو عثمان قال: أرسل طلحة والزبير إلى علي رضي الله عنه قبل خروجهما إلى مكة مع محمد بن طلحة، وقالوا: لا تقل له: "يا أمير المؤمنين"، ولكن قل له: "يا أبا الحسن"، لقد قال فيك رأينا، وخاب ظننا. أصلحنا لك الأمر، ووطننا لك الإمرة، وأجلبنا على عثمان حتى قتل، فلما طلبك الناس لأمرهم، أسرعنا إليك، وبايعناك، وقدنا إليك أعناق العرب، ووطئ المهاجرون والأنصار أعقابنا في بيعتك حتى إذا ملكت عنانك، استبددت برأيك عنا، ورفضتنا رفض التريكة، وأذلتنا إذالة الإماء، وملكك أمرك الأشر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب ونزاع الأمصار، فكنا فيما رجوناك منك، وأملناه من ناحيتك، كما قال الأول:

لرقراق آل فوق رابية صلد

فكنت كمحريق الذي في سقائه

فلما جاء محمد بن طلحة، أبلغه ذاك، فقال: اذهب إليهما، فقل لهما: فما الذي يرضيكما؟ فذهب وجاءه، فقال: إنهما يقولان: ول أحدنا البصرة والآخر الكوفة، فقال: لاها الله، إذن يحلم الأديم، ويشترى الفساد، وتنتقض علي البلاد من أقطارها، والله إني لا آمنهما وهما عندي بالمدينة، فكيف آمنهما وقد وليتهما العراقيين اذهب إليهما فقل: أيها الشيخان، احذرا من سطوة الله ونقمته، ولا تبغيا للمسلمين غائلة وكيدا، وقد سمعنا قول الله تعالى: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين". فقام محمد بن طلحة فأتاهما، ولم يعد إليه، وتأخرا عنه أياماً، ثم جاءه فاستأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة، فأذن لهما بعد أن أحلفهما ألا ينقضا بيعته، ولا يغدرا به، ولا يشقا عصا المسلمين، ولا يوقعا الفرقة بينهم، وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة، فحلفا على ذلك كله ثم خرجا ففعلا ما فعلا.

وروى شيخنا أبو عثمان، قال: لما خرج طلحة والزبير إلى مكة، وأوهما الناس أنهما خرجا للعمرة، قال علي رضي الله عنه لأصحابه: والله ما يريدان العمرة، وإنما يريدان الغدرة "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً". وروى الطبري في التاريخ، قال: لما بايع طلحة والزبير علياً رضي الله عنه، سألاه أن يؤمرهما على الكوفة والبصرة، فقال: بل تكونان عندي أتجمل بكما، فإنني أستوحش لفرأقكما. قال الطبري: وقد كان قال لهما قبل بيعتهما له: إن أحببتهما أن تبايعاني، وإن أحببتهما بايعتكما؟ فقالا: لا؟ بل نبايعك؟ ثم قال بعد ذلك: إنما بايعناه خشية على أنفسنا، وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا. ثم ظهرا إلى مكة، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر. وروى الطبري أيضاً في التاريخ قال: لما بايع الناس علياً، وتم له الأمر، قال طلحة للزبير: ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلا كحسة أنف الكلب. وروى الطبري أيضاً في التاريخ، قال: لما بايع الناس علياً رضي الله عنه بعد قتل عثمان رضي الله عنه، جاء علي إلى الزبير، فاستأذن عليه. قال أبو حبيبة مولى الزبير: فأعلمته به، فسل السيف، ووضعته تحت فراشه، وقال: ائذن له، فأذنت له، فدخل فسلم على الزبير وهو واقف. ثم خرج، فقال الزبير: لقد دخل لأمر ما قضاه، قم مقامه وانظر: هل ترى من السيف شيئاً، فقممت في مقامه، فرأيت ذباب السيف، فأخبرته وقلت: إن ذباب السيف ليظهر لمن قام في هذا الموضع،

فقال: ذاك أعجل الرجل. وروى شيخنا أبو عثمان، قال: كتب فصعب بن الزبير إلى عبد الملك: من مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

سأهتك عن حلائك الحجابا

ستعلم يا فتى الزرقاء أني

تهور من جوانبها خرابا

وأترك بلدةً أصبحت فيها

أما إن لله علي الوفاء بذلك؟ إلا أن تتراجع أو تتوب، ولعمري ما أنت كعبد الله بن الزبير، ولا مروان كالزبير بن العوام، حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته. فسلم الأمر إلى أهله، فإن نجاتك بنفسك أعظم الغنيمتين. والسلام. فكتب إليه عبد الملك: من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إلى الذلول الذي أخطأ من سماه المصعب؟ سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

خشاش الطير يوعدن العقابا

أتوعدني ولم أر مثل يومي

يهتك عن مقاتلها الحجابا

متى تلق العقاب خشاش طير

وأسد الغاب تلتهم الذئابا

أتوعد بالذئاب أسور غاب

أما ما ذكرت من وفائك، فلعمري لقد وفي أبوك لتيمة وعدي بعداء قريش وزعانفها، حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان، الشريف النسب، الكريم الحسب، بغاه الغوائل، وأعد له المخاتل، حتى نال منه حاجته، ثم دعا الناس إلى علي وبايعه، فلما دانت له أمور الأمة، وأجمعت له الكلمة، وأدركه الحسد القديم لبني عبد مناف، فنقض عهده، ونكث بيعته بعد توكيدها، ف"فكر وقدر، فقتل كيف قدر"؛ وتمزقت لحمه الضباع بوادي السباع. ولعمري إنك تعلم يا أبا بني عبد العزى بن قصي؟ أنا بنو عبد مناف لم نزل سادتكم وقادتكم في الجاهلية والإسلام، ولكن الحسد دعاك إلى ما ذكرت، ولم ترث ذلك عن كلاله، بل عن أبيك، ولا أظن حسدك وحسد أخيك يؤول بكما إلا إلى ما آل إليه حسد أبيكما من قبل "ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله"؛ "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون". وروى أبو عثمان أيضاً، قال: دخل الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية، وعنده عبد الله بن الزبير - وكان معاوية يحب أن يغري بين قريش - فقال: يا أبا محمد، أيهما كان أكبر سنًا؟ علي أم الزبير؟ فقال الحسن: ما أقرب ما بينهما، وعلي أسن من الزبير، رحم الله علياً، فقال ابن الزبير رحم الله الزبير - وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب، فقال: يا عبد الله، وما يهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه، قال: وأنا أيضاً ترحمت على أبي، قال: أتظنه ندًا له وكفوًا؟ قال: وما يعدل به عن ذلك، كلاهما من قريش، وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتم له. قال: دع ذاك عنك يا عبد الله؟ إن علياً من قريش ومن الرسول صلى الله عليه وسلم حيث تعلم، ولما دعا إلى نفسه اتبع فيه، وكان رأساً، ودعا الزبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة، ولما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وولى مدبراً قبل أن يظهر الحق فيأخذه، أو يدحض الباطل فيتركه، فأدركه رجل لو قيس ببعض أعضائه لكان أصغر، فضرب عنقه، وأخذ سلبه، وجاء برأسه، ومضى في قدماً كعادته مع ابن عمه، رحم الله علياً، فقال ابن الزبير: أما لو أن غيرك تكلم بهذا يا أبا سعيد، لعلم، فقال: إن الذي تعرض به يرغب عنك. وكفه معاوية،

فسكتوا. وأخبرت عائشة بمقاتلتهم، ومر أبو سعيد بفنائها، فنادته: يا أبا سعيد، أنت القائل لابن أخي كذا؟ فالتفت أبو سعيد، فلم ير شيئاً، فقال: إن الشيطان يرانا ولا نراه، فضحكت عائشة، وقالت: لله أبوك، ما أذلقت لسانك.

ومن كلام له وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون

أهل الشام أيام حربهم بصفين

الأصل: إني أكره لكم أن تكونوا سبائين، ولكنكم لو وصفتم أفعالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقتلتم مكان سبكم إياهم: اللهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به، الشرح: السب: الشتم، سبه يسبه بالضم، والتساب: التشاتم، ورجل مسب بكسر الميم: كثير السباب، ورجل سبة، أي يسبه الناس، ورجل سبية، أي يسب الناس، ورجل سب: كثير السباب، وسبك: الذي يسابك، قال:

إن سبي من الرجال الكريم

لا تسبني فلست بسبي

والذي كرهه رضي الله عنه منهم، أنهم كانوا يشتمون أهل الشام، ولم يكن يكره منهم لعنهم إياهم، والبذاءة منهم، لا كما يتوهمه قومٌ من الحشوية، فيقولون: لا يجوز لعن أحدٍ ممن عليه اسم الإسلام، وينكرون على من يلعن، ومنهم من يغالي في ذلك، فيقول: لا العن الكافر، ولا العن إبليس، وإن الله تعالى لا يقول لأحد يوم القيامة: لم لم تلعن؟ وإنما يقول: لم لعنت؟

واعلم أن هذا خلاف نص الكتاب، لأنه تعالى قال: "إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً"، وقال: "أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون". وقال في إبليس: "وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين"، وقال: "ملعونين أينما ثقفوا"، وفي الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع. وكيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرؤ ممن يجب التبرؤ منه، ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى: "لقد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برأ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً"، وإنما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله؛ فإن كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحق بها اللعن والبراءة؛ فلا ضير على من يلعنه ويبرأ منه، وإن لم يكن قد قارف كبيرة لم يجز لعنه، ولا البراءة منه. ومما يدل على أن من عليه اسم الإسلام إذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنه، بل يجب في وقت، قول الله تعالى في قصة اللعان: "فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين"، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين". وقال تعالى في القاذف: "إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم". فهاتان الآيتان في المكلفين من أهل القبلة، والآيات قبلهما في الكافرين والمنافقين؛ ولهذا قتت أمير المؤمنين رضي الله عنه على معاوية وجماعة من أصحابه، ولعنهم في أدبار الصلوات. فإن قلت: فما صورة السب الذي نهى أمير المؤمنين رضي الله عنه عنه؟ قلت: كانوا يشتمونهم بالآباء والأمهات، ومنهم من يطعن في نسب قوم منهم، ومنهم من يذكرهم باللؤم، ومنهم من يعيرهم بالجن والبخل وبأنواع الأهاجي التي يتهاجى بها الشعراء، وأساليبها معلومة، فنهاهم رضي الله عنه عن ذلك، وقال: إني

أكره لكم أن تكونوا سبابين؛ ولكن الأصوب أن تصفوا لهم أعمالهم، وتذكروا حالهم؛ أي أن تقولوا: إنهم فساق؛ وإنهم أهل ضلال وباطل. ثم قال: اجعلوا عوض سبهم أن تقولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، حقنت الدم أحقته، بالضم: منعت أن يسفك، أي ألهمهم الإنابة إلى الحق والعدول عن الباطل؛ فإن ذلك إذا تم حقنت دماء الفريقين. فإن قلت: كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يفعله؟ أليس من أصولكم أن الله تعالى لا يضطر المكلف إلى اعتقاد الحق، وإنما يكله إلى نظره؟ قلت: الأمر وإن كان كذلك، إلا أن المكلفين قد تعبدوا بأن يدعو الله تعالى بذلك، لأن في دعائهم إياه بذلك لطفاً لهم ومصالح في أديانهم؟ كالدعاء بزيادة الرزق وتأخير الأجل.

قوله: "وأصلح ذات بيننا وبينهم"؛ يعني أحوالنا وأحوالهم. ولما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها: "ذات البين"؛ كما أنه لما كانت الضمائر ملابسة للصدور قيل: "ذات الصدور"، وكذلك قولهم: اسقني ذا إنائك لما كان ما فيه من الشراب ملابساً له، ويقولون للمتبرز قد وضع ذا بطنه؛ وللحبلى تضع: ألقت ذا بطنها. وارعوى عن الغي: رجع وكف، لهج به بالكسر، يلهج: أغرى به وثابر عليه.

ومن كلام له في بعض أيام صفين

وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرع إلى الحرب

الأصل: املكوا عني هذا الغلام لا يهديني، فإني أنفس بهذين - يعني الحسن والحسين عليهما السلام - على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. قال الرضي أبو الحسن رحمه الله: قوله عليه السلام: "املكوا عني هذا الغلام" من أعلى الكلام وأفصحه. الشرح: الألف في "املكوا" ألف وصل، لأن الماضي ثلاثي، من ملكت الفرس والعبد والدار، أملك بالكسر، أي احجروا عليه كما يحجر المالك على مملوكه. وعن، متعلقة بمحذوف تقديره: استولوا عليه وأبعدوه عني. ولما كان الملك سبب الحجر على المملوك عبر بالسبب عن المسبب، كما عبر بالنكاح عن العقد، وهو في الحقيقة اسم الوطء، لما كان العقد طريقاً إلى الوطء، وسبباً له. ووجه علو هذا الكلام وفصاحته أنه لما كان في: "املكوا" معنى البعد، أعقبه بعن، وذلك أنهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين رضي الله عنه إلا وقد أبعده عنه؛ ألا ترى أنك إذا حجرت على زيد دون عمرو، فقد باعدت زيدا عن عمرو، فلذلك قال: املكوا عني هذا الغلام، واستفصح الشارحون قول أبي الطيب:

فلا برحتني روضةً وقبول

إذا كان شم الروح أدق إليكم

قالوا: ولما كان في "فلا برحتني" معنى "فارقطني" عدى اللفظة، وإن كانت لازمة، نظراً إلى المعنى. قوله: "لا يهديني" أي لئلا يهديني، فحذف كما حذف طرفه في قوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

أي لأن أحضر. وأنفس: أبخل، نفست عليه بكذا، بالكسر. فإن قلت: أيجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما: أبناء رسول الله وولد رسول الله، وذرية رسول الله، ونسل رسول الله؟ قلت: نعم؟ لأن الله تعالى سماهم "أبناءه" في قوله تعالى: "ندع أبناءنا وأبناءكم"، وإنما عني الحسن والحسين، ولو أوصى لولد فلان بمال دخل فيه أولاد البنات، وسمى الله تعالى عيسى ذرية إبراهيم في قوله: "ومن ذريته داود وسليمان" إلى أن قال: "ويحيى وعيسى"؛ ولم يختلف أهل اللغة في أن ولد البنات من نسل الرجل. فإن قلت: فما تصنع بقوله تعالى: "ما كان محمدٌ أباً أحدٍ من رجالكم"؟ قلت: أسألك عن أبوته لإبراهيم بن مارية؛ فكما تجيب به عن ذلك؛ فهو جوابي عن الحسن والحسين رضي الله عنه. والجواب الشامل للجميع أنه عني زيد بن حارثة؛ لأن العرب كانت تقول: "زيد بن محمد" على عادتهم في تبني العبيد، فأبطل الله تعالى ذلك، ونهى عن سنة الجاهلية، وقال: إن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس أباً لواحدٍ من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتري إليه بالنبوة، وذلك لا ينفي كونه أباً لأطفال، لم تطلق عليهم لفظة الرجال، كإبراهيم وحسن وحسين رضي الله عنهم. فإن قلت: أتقول إن ابن البنت ابنٌ على الحقيقة الأصلية أم على سبيل المجاز؟ قلت: لذاذهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصلية؛ لأن أصل الإطلاق الحقيقة، وقد يكون اللفظ مشتركاً بين مفهومين وهو في أحدهما أشهر، ولا يلزم من كونه أشهر في أحدهما ألا يكون حقيقة في الآخر. ولذاذهب أن يذهب إلى أنه حقيقة عرفية، وهي التي كثر استعمالها؛ وهي في الأكثر مجاز؛ حتى صارت حقيقة في العرف، كالراوية للمزادة، والسماء للمطر. ولذاذهب أن يذهب إلى كونه مجازاً قد استعمله الشارع، فجاز إطلاقه في كل حال؛ واستعماله كسائر المجازات المستعملة. ومما يدل على اختصاص ولد فاطمة دون بني هاشم كافة بالنبي صلى الله عليه وسلم، أنه ما كان يحل له رضي الله عنه أن ينكح بنات الحسن والحسين رضي الله عنهما ولا بنات ذريتهما، وإن بعدن وطال الزمان، ويحل له نكاح بنات غيرهم من بني هاشم من الطالبين وغيرهم؛ وهذا يدل على مزيد الأقرية، وهي كونهم أولاده، لأنه ليس هناك من القربى غير هذا الوجه، لأنهم ليسوا أولاد أخيه ولا أولاد أخته، ولا هناك وجه يقتضي حرمتهم عليه إلا كونه والدائهم، وكونهم أولاداً له، فإن قلت قد قال الشاعر:

بنوهن أبناء الرجال الأبعد

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا

وقال حكيم العرب أكثم بن صيفي في البنات يذمهن؛ إهن يلدن الأعداء، ويورثن البعداء. قلت: إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر، وليس في قول أكثم ما يدل على نفي بنوتهم، وإنما ذكر إهن يلدن الأعداء؛ وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدواً، قال الله تعالى: "إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم"، ولا ينفي كونه عدواً كونه ابناً. قيل لمحمد بن الحنفية رضي الله عنه: لم يغرب بك أبوك في الحرب، ولم لا يغرب بالحسن والحسين؟ فقال: لأنهما عيناها؛ وأنا يمينة، فهو يذب عن عينيه بيمينه.

قال لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة

الأصل: أيها الناس، إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب، حتى هكتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وهي لعدوكم أهلك. لقد كنت أمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت أمس ناهياً، فأصبحت اليوم منهيماً. وقد أحببتهم

البقاء، وليس لي أن أحملك على ما تكرهون،

الشرح: نهكتكم، بكسر الهاء: أدنفتكم وأذابتكم، ويجوز فتح الهاء، وقد نهك الرجل أي دنف وضني، فهو منهوك. وعليه نهكة المرض، أي أثرة الحرب، مؤنثة. وقد أخذت منكم وتركت، أي لم تستأصلكم، بل فيكم بعد بقية، وهي لعدوكم أنهك، لأن القتل في أهل الشام كان أشد استحراراً، والوهن فيهم أظهر، ولو لا فساد أهل العراق برفع المصاحف، لاستوصل الشام، وخلص الأشر إلى معاوية، فأخذه بعنقه، ولم يكن قد بقي من قوة الشام إلا كحركة ذنب الوزغة عند قتلها، يضطرب يميناً وشمالاً؛ ولكن الأمور السماوية لا تغالب. فأما قوله: "كنت أمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً"، فقد قدمنا شرح حالهم من قبل، وأن أهل العراق لما رفع عمرو بن العاص ومن معه المصاحف على وجه المكيدة حين أحس بالعطب وعلو كلمة أهل الحق، ألزموا أمير المؤمنين رضي الله عنه . بوضع أوزار الحرب، وكف الأيدي عن القتال، وكانوا في ذلك على أقسام: فمنهم من دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف، وغلب على ظنه أن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خدعة وحيلة، بل حقاً ودعاء إلى الدين وموجب الكتاب، فرأى أن الاستسلام للحجة أولى من الإصرار على الحرب. ومنهم من كان قد مل الحرب، وآثر السلم، فلما رأى شبهة ما يسوغ التعلق بها في رفض المحاربة وحب العافية أخلد إليهم. ومنهم من كان ييغض علياً رضي الله عنه بباطنه، ويطيعه بظاهره، كما يطيع كثير من الناس السلطان في الظاهر ويغضه بقلبه، فلما وجدوا طريقاً إلى خذلانه وترك نصرته، أسرعوا نحوها، فاجتمع جمهور عسكره عليه، وطالبوه بالكف وترك القتال، فامتنع امتناع عالم بالمكيدة، وقال لهم: إنها حيلة وخديعة، وإني أعرف بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب قرآن ولا دين، قد صحبتهم وعرفتهم صغيراً وكبيراً، فعرفت منهم الإعراض عن الدين، والركون إلى الدنيا، فلا تراعوا برفع المصاحف، وصمموا على الحرب، وقد ملكتموهم، فلم يبق منهم إلا حشاشة ضعيفة، وذمء قليل. فأبوا عليه، وألحوا وأصروا على القعود والخذلان، وأمروه بالإنفاذ إلى المحاربين من أصحابه، وعليهم الأشر أن يأمرهم بالرجوع، وتهددوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية. فأرسل إلى الأشر يأمره بالرجوع وترك الحرب، فأبى عليه فقال: كيف أرجع وقد لاحت أمارات الظفر، فقولوا له: "ليمهلي ساعة واحدة"، ولم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت. فلما عاد إليه الرسول بذلك، غضبوا ونفروا وشغبوا، وقالوا: أنفذت إلى الأشر سراً وباطناً، تأمره بالتصميم، وتنهاه عن الكف، وإن لم تعد الساعة، وإلا قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرسل إلى الأشر فقالوا له: أئحب أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سل عليه خمسون ألف سيف، فقال: ما الخير؟ قال: إن الجيش بأسره قد أحرق به، وهو قاعد بينهم على الأرض، تحته نطع، وهو مطرق، والبارقة تلمع على رأسه، يقولون: لئن لم تعد الأشر قتلناك، قال: ويحكم؛ فما سبب ذلك؟ قالوا: رفع المصاحف، قال: والله لقد ظننت حين رأيتهما رفعت أنهما ستوقع فرقةً وفتنة. ثم كر راجعاً على عقبه، فوجد أمير المؤمنين رضي الله عنه تحت الخطر، قد رددته أصحابه بين أمرين: إما أن يسلموه إلى معاوية، أو يقتلوه، ولا ناصر له منهم إلا ولداه وابن عمه ونفر قليل لا يبلغون عشرة، فلما رأهم الأشر سبهم وشتمهم، وقال: ويحكم؛ أبعد الظفر والنصر صب عليكم الخذلان والفرقة، يا ضعاف الأحلام؛ يا أشباه النساء؛ يا سفهاء العقول؛ فشتموه وسبوه، وقهروه وقالوا: المصاحف المصاحف؛ والرجوع إليها، لا نرى غير ذلك؛ فأجاب أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى التحكيم،

دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحذور الأضعف، فلذلك قال: "كنت أميراً فأصبحت مأموراً؛ وكنت ناهياً فصرت منهيّاً". وقد سبق من شرح حال التحكيم وما جرى فيه ما يغني عن إعادته.

قال بالبصرة

وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعود فلما رأى سعة داره قال الأصل: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار ي الدنيا، أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوم، وبلى إن شئت لغت بها الآخرة: تقرّي فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أت قد بلغت بها الآخرة؛ قال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد.

قال: وماله؟ قال: لبس العباء، وتخلّى من الدنيا. قال: علي به. فلما جاء، قال: يا عدي نفسه؛ لقد استهام بك الخبيث؛ أما رحمت أهلك وولدتك؛ أترى الله أحل لك الطيبات، وهو يكره أن تخذها؛ أنت أهون على الله من ذلك؛ قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك؛ قال: ويحك إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس، كيلا يتبيغ بالفقر فقره. الشرح: كنت ههنا زائدة، مثل قوله تعالى: "كيف نكلم من كان في المهد صبياً". وقوله: "وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة"، لفظ فصيح، كأنه استدرك، وقال: وبلى على أنك قد تحتاج إليها في الدنيا لتجعلها وصلة إلى نيل الآخرة. بأن تقرّي فيها الضيف؛ والضيف لفظ يقع على الواحد والجمع، وقد يجمع فيقال: ضيوف وأضياف. والرحم: القرابة. وتطلع منها الحقوق مطالعها: توقعها في مظان استحقاقها. والعباء جمع عباءة، وهي الكساء وقد تلين، كما قالوا: عطاءة وعظاية، وصلاة وصلاية. وتقول: علي بفلان، أي أحضره، والأصل أعجل به علي، فحذف فعل الأمر، ودل الباقي عليه.

ويا عدي نفسه، تصغير "عدو"، وقد يمكن أن يراد به التحقير المحض ههنا. ويمكن أن يراد به الإستعظام لعداوته لها، ويمكن أن يخرج مخرج التحنن والشفقة، كقولك: يا بني. واستهام بك الخبيث، يعني الشيطان، أي جعلك هائماً ضالاً، والباء زائدة. فإن قيل: ما معنى قوله رضي الله عنه: "أنت أهون على الله من ذلك"؟ قلت: لأن في المشاهد قد يحل الواحد منا لصاحبه فعلاً مخصوصاً، محاباة ومراقبة له، وهو يكره أن يفعله، والبشر أهون على الله تعالى من أن يحل لهم أمراً مجاملة واستصلاحاً للحال معهم، وهو يكره منهم فعله. وقوله: "هذا أنت"، أي فما بالنّا نراك خشن الملبس؛ والتقدير: "فها أنت تفعل كذا، فكيف تنهى عنه". وطعام جشِب، أي غليظ، وكذلك مجشوب، وقيل: إنه الذي لا آدم معه. قوله رضي الله عنه: "أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس"، أي يشبهوا ويمثلوا. وتبيغ الدم بصاحبه، وتبوغ به، أي هاج به، وفي الحديث: "عليكم بالحجارة لا يتيبيغ بأحدكم الدم فيقتله"، وقيل: أصل "يتبيغ" يتبغى، فقلب، مثل جذب وحبد، أي يجب على الإمام العادل أن يشبه نفسه في لباسه وطعامه بضعة الناس - جمع ضعيف - لكيلا يهلك الفقراء من الناس، فإنهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطعم، كان أدعى لهم إلى سلوان لذات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس.

وروي أن قوماً من المتصوفة دخلوا خراسان على علي بن موسى الرضى، فقالوا له: إن أمير المؤمنين فكر فيما ولاه الله من الأمور، فأركم - أهل البيت - أولى الناس أن تؤموا الناس، ونظر فيك من أهل البيت، فأرك أولى الناس بالناس، فرأى أن يرد هذا الأمر إليك، والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشب، ويلبس الخشن، ويركب الحمار، ويعود المريض. فقال لهم: إن يوسف كان نبياً، يلبس أقبية الديباج المزرة بالذهب، ويجلس على متكآت آل فرعون، ويحكم؛ إنما يراد من الإمام قسطه وعدله؛ إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز. إن الله لم يجرم لبوساً ولا مطعماً، ثم قرأ: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق". وهذا القول مخالف للقانون الذي أشار أمير المؤمنين إليه، وللغلاسة في هذا الباب كلام لا بأس به، وقد أشار إليه أبو علي بن سينا في كتاب "الإشارات" وعليه يتخرج قولاً أمير المؤمنين وعلي بن موسى الرضى رضي الله عنهما. قال أبو علي في مقامات العارفين: "العارفون قد يختلفون في الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العبر، فرما استوى عند العارف القشف والترف، بل ربما أثر القشف، وكذلك ربما سوي عنده التفل والعطر، بل ربما أثر التفل، وذلك عندما يكون الهاجس بباله، استحقار ما عدا الحق، وربما صغا إلى الزينة، وأحب من كل شيء عقيلته، وكره الخداج والسقط، وذلك عندما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة، فهو يرتاد إليها لا كل شيء، لأنه مزية خطوة من العناية الأولى، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه، وقد يختلف هذا في عارفين، وقد يختلف في عارف بحسب وقتين. واعلم أن الذي رويته عن الشيوخ، ورأيت به بخط عبد الله بن أحمد بن الخشاب رحمه الله، أن الربيع بن زياد الحارثي، أصابته نشابة في جبينه، فكانت تنتقض عليه في كل عام، فأتاه علي رضي الله عنه عائداً، فقال: كيف تجددك أبا عبد الرحمن؟ قال: أجدني يا أمير المؤمنين لو كان لا يذهب ما بي إلا بذهاب بصري لتمنيت ذهابه، قال: وما قيمة بصرك عندك؟ قال: لو كانت لي الدنيا لفديته بها، قال: لا جرم ليعطينك الله على قدر ذلك. إن الله تعالى يعطي على قدر الألم والمصيبة، وعنده تضعيف كثير. قال الربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخي؟ قال: ما له، قال: لبس العباء، وترك الملاء، وغم أهله، وحزن ولده. فقال علي: ادعوا لي عاصماً، فلما أتاه عبس في وجهه، وقال: ويحك يا عاصم؛ أترى الله أباح لك اللذات، وهو يكره ما أخذت منها؛ لأنت أهون على الله من ذلك. أو ما سمعته يقول: "مرج البحرين يلتقيان"، ثم يقول: "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان" وقال: "ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها"، أما والله إن ابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال، وقد سمعته الله يقول: "وأما بنعمة ربك فحدث"، وقوله: "من حزم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق"، إن الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين، فقال: "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم"، وقال: "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نسائه: "مالي أراك شعثناء مرهء سلتاء". قال عاصم: فلم اقتصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن، وأكل الجشب؟ قال: إن الله تعالى افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام، كيلا يتبيغ بالفقر فقره. فما قام علي رضي الله عنه حتى نزع عاصم

العباء، وليس ملاءة.

والربيع بن زياد هو الذي افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر: دلوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنه ليس بأمير، وإذا كان في القوم ليس بأمير فكأنه الأمير بعينه؛ وكان خيراً متواضعاً، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحش له الربيع، وتكشف وأكل معه الجشب من الطعام، فأقره على عمله، وصرف الباقي، وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم.

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلي يأمرك أن تحرز الصفراء والبيضاء وتقسم الخرثي وما أشبهه على أهل الحرب. فقال له الربيع: إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، ثم نادى في الناس: أن اغدوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين، ثم دعا الله أن يميتة؛ فما جمع حتى مات. وهو الربيع بن زياد بن أنس بن ديان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وعلة بن خالد بن هالك بن أدد، وأما العلاء بن زياد الذي ذكره الرضي رحمه الله فلا أعرفه، لعل غيري يعرفه.

قال وقد سألته سائل عن أحاديث البدع

وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر فقال عليه السلام

الأصل: إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً. وقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على عهده، حتى قام خطيباً، فقال: "من كذب علي متعمداً فليتبوا مقعده من النار". وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال، لي لهم خامس: رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، رآه وسمع منه، ولقف عنه؛ فيأخذون بقوله، وقد أحرك الله عن المنافقين بما أحرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة الضلالة، والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا، إلا من عصم الله. فهذا أحد الأربعة. ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذباً فهو في يديه، ويرويه ويعمل به، ويقول: أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه. ورجل ثالث، سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم شيئاً، يأمر به، ثم إنه نهي عنه، وهو لا يعلم، أو سمعه ينهي عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه. وآخر رابع، لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ولم يهتم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على سمعه، لم يزد فيه ولم ينقص منه، فهو حفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام، والمحكم والمتشابه، فوضع كل شيء موضعه، وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الكلام، له وجهان، فكلاماً خاصاً، وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عني الله سبحانه به، ولا ما عني رسول الله إلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فيحمله السامع، ويوجهه على غير معرفة بمعناه، وما قصد به، وما خرج من أجله، وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من كان يسأله، ويستفهمه، حتى إن كانوا ليحبون أن يجيء الأعراي والطاريء، فيسأله عليه السلام، حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته عنه، وحفظته. فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم.

الشرح: الكلام في تفسير الألفاظ الأصولية؛ وهي العام والخاص، والناسخ والمنسوخ، والصدق والكذب، والمحكم والمتشابه، موكل إلى فن أصول الفقه، وقد ذكرناه فيما أمليناه من الكتب الأصولية، والإطالة بشرح ذلك في هذا الموضع مستهجنة. قوله رضي الله عنه: "وحفظاً ووهماً" الهاء مفتوحة، وهي مصدر وهمت، بالكسر، أوهم، أي غلطت وسهوت، وقد روي:

"وهماً" بالتسكين، وهو مصدر وهمت بالفتح أوهم، إذا ذهب وهمك إلى شيء وأنت تريد غيره، والمعنى متقارب. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "فليتبوا مقعده من النار" كلام صيغته الأمر، ومعناه الخبر، كقوله تعالى: "قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً"، وتبوات المنزل: نزلته، وبواته منزلاً: أنزلته فيه. والتأثم: الكف عن موجب الإثم، والتخرج مثله، وأصله الضيق، كأنه يضيق على نفسه، ولقف عنه: تناول عنه، وجنب عنه: أخذ عنه جانباً، و"إن" في قوله: "حتى إن كانوا ليحبون" مخففة من الثقيلة، ولذلك جاءت اللام في الخبر، والطاريء، بالهمز: الطالع عليهم، طراً أي طلع، وقد روي: "عللهم"، بالرفع عطفاً على "وجوه" وروي بالجر عطفاً على "اختلافهم".

النفاق لم يمت بموت الرسول عليه السلام

واعلم أن هذا التقسيم صحيح، وقد كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم منافقون، وبقوا بعده، وليس يمكن أن يقال: إن النفاق مات بموته، والسبب في استتار حالهم بعده أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يذكرهم بما يتزل عليه من القرآن، فإنه مشحون بذكرهم، ألا ترى أن أكثر ما نزل بالمدينة من القرآن مملوء بذكر المنافقين، فكان السبب في انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن، فلما انقطع الوحي بموته صلى الله عليه وسلم لم يبق من ينعي عليهم سقطاتهم ويوبخهم على أفعالهم، ويأمر بالحذر منهم، ويجاهرهم تارةً، ويعاملهم تارةً، وصار المتولي للأمر بعده يحمل الناس كلهم على كاهل المحاملة، ويعاملهم بالظاهر، وهو الواجب في حكم الشرع والسياسة الدنيوية، لخلاف حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان تكليفه معهم غير هذا التكليف، ألا ترى أنه قيل له: "ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً"؛ فهذا يدل على أنه كان يعرفهم بأعيانهم، وإلا كان النهي له عن الصلاة عليهم تكليف ما لا يطاق، والوالي بعده لا يعرفهم بأعيانهم، فليس مخاطباً بما خوطب به صلى الله عليه وسلم في أمرهم، ولسكوت الخلفاء عنهم بعده حمل

ذكرهم، فكان قصارى أمر المنافق أن يسر ما في قلبه، ويعامل المسلمين بظاهره، ويعاملونه بحسب ذلك. ثم فتحت عليهم البلاد، وكثرت الغنائم، فاشتغلوا بها عن الحركات التي كانوا يعتمدونها أيام رسول الله، وبعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والروم، فألهتهم الدنيا عن الأمور التي كانت تنقم منهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من استقام اعتقاده، وخلصت نيته، لما رأوا الفتوح وإلقاء الدنيا أفلاذ كبدها من الأموال العظيمة، والكنوز الجليلة إليهم، فقالوا: لو لم يكن هذا الدين حقاً لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه. وبالجملية لما تركوا تركوا، وحيث سكت عنهم سكتوا عن الإسلام وأهله، إلا في دسيسة خفية يعملونها، نحو الكذب، الذي أشار إليه أمير المؤمنين رضي الله عنه، فإنه خالط الحديث كذباً كثيراً، صدر عن قوم غير صحيحي العقيدة، قصدوا به الإضلال وتخييط القلوب والعقائد، وقصد به بعضهم التنويه بذكر قوم كان لهم في التنويه بذكرهم غرض دنيوي. وقد قيل: إنه افتعل في أيام معاوية خاصة حديث كثير على هذا الوجه، ولم يسكت المحدثون الراسخون في علم الحديث عن هذا، بل ذكروا كثيراً من هذه الأحاديث الموضوعة، وبينوا وضعها؛ وأن رواها غير موثوق بهم، إلا أن المحدثين إنما يطعنون فيما دون طبقة الصحابة، ولا يتجاسرون في الطعن على أحد من الصحابة؛ لأن عليه لفظ "الصحبة"، على أنهم قد طعنوا في قوم لهم صحبة كبسر بن أرطاة وغيره. فإن قلت: من هم أئمة الضلالة، الذين يتقرب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبوه للزور والبهتان؟ وهل هذا إلا تصريح بما تذكره الإمامية، وتعتقده قلت: ليس الأمر كما ظننت وظنوا، وإنما يعني معاوية وعمرو بن العاص ومن شايعهما على الضلال، كالخبر الذي رواه من رواه في حق معاوية: "اللهم قه العذاب والحساب، وعلمه الكتاب"، وكرواية عمرو بن العاص تقرباً إلى قلب معاوية: "إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين" وكرواية قوم في أيام معاوية أخباراً كثيرة من فضائل عثمان، تقرباً إلى معاوية بها، ولسنا نجحد فضل عثمان وسابقته، ولكننا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيه موضوع، كخبر عمرو بن مرة فيه وهو مشهور، وعمرو بن مرة ممن له صحبة، وهو شامي.

آل البيت عليهم السلام وبعض ما نالهم من الأذى

وليس يجب من قولنا: إن بعض الأخبار الواردة في حق شخص فاضل مفتعلة أن تكون قاذحة في فضل ذلك الفاضل؛ فإننا مع اعتقادنا أن علياً أفضل الناس، نعتقد أن بعض الأخبار الواردة في فضائله مفتعلة ومختلق. وقد روي أن أبا جعفر محمد بن علي الباقر رضي الله عنه، قال لبعض أصحابه: يا فلان، ما لقينا من ظلم قريش إيانا، وتظاهروا بهم علينا، وما لقي شيعتنا ومحبوينا من الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وقد أحرأنا أولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه، واحتجت على الأنصار بحقنا وحجتنا. ثم تداولتها قريش، واحداً بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنكثت بيعتنا، ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كؤود، حتى قتل، فبويع الحسن ابنه وعوهد ثم غدر به، وأسلم، ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه، ونهبت عسكره، وعولجت خلاخيل أمهات أولاده، فوادع معاوية وحقن دمه وذمأ أهل بيته، وهم قليل حق قليل. ثم بايع الحسين رضي الله عنه من أهل العراق عشرون ألفاً، ثم

غدرُوا به، وخرجوا عليه، وبيعه في أعناقهم وقتلوه، ثم لم نزل - أهل البيت - نستذل ونستضام، ونقمى ونمتن، ونحرم ونقتل، ونخاف ولا نأمن على دمانا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلدة، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله، ليعضونا إلى الناس، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن رضي الله عنه، فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد، إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين رضي الله عنه، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظنة وtheme، حتى إن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحب إليه من أن يقال: شيعة علي، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير - ولعله يكون ورعاً صدوقاً - يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حق لكثرة من قد رواها ممن لم يعرف بكذب ولا بقلة ورع. وروى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدايني في كتاب "الأحداث" قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبراون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته؛ وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة؛ لكثرة من بها من شيعة علي رضي الله عنه، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنه كان منهم أيام علي رضي الله عنه؛ فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأحافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق؛ فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته؛ والذين يروون فضائله ومناقبه؛ فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعّلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضة في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه. فلبثوا بذلك حيناً. ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية؛ فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة؛ فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، والقي إلى معلمي الكتاتيب؛ فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله. ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيعة أنه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان،

وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من أهتمموه بموالاته هؤلاء القوم، فنكلوا به، واهدفوا داره. فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق؛ ولا سيما بالكوفة، حتى إن الرجل من شيعة علي رضي الله عنه ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقي إليه سره، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة؛ وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراءون، والمستضعفون، الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولائهم، ويقربوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل؛ حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان؛ فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما روهها، ولا تدينوا بها.

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي رضي الله عنهما، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه؛ أو طريد في الأرض. ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين رضي الله عنه، وولي عبد الملك بن مروان، فاشتد على الشيعة، وولي عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه أهل النسك والصالح والدين ببعض علي وموالاته أعدائه، وموالاته من يدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغرض من علي رضي الله عنه وعييه، والطنع فيه، والشنآن له، حتى إن إنساناً وقف للحجاج - ويقال إنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب - فصاح به: أيها الأمير إن أهلي عقوبي فسموني علياً، وإني فقير بائس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج. فتضاحك له الحجاج، وقال: للطف ما توصلت به قد وليتك موضع كذا. وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية، تقريباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم. قلت: ولا يلزم من هذا أن يكون علي رضي الله عنه يسوءه أن يذكر الصحابة والمتقدمون عليه بالخير والفضل، إلا أن معاوية وبني أمية كانوا يبنون الأمر من هذا على ما يظنونهم في علي رضي الله عنه من أنه عدو من تقدم عليه، ولم يكن الأمر في الحقيقة كما يظنونهم، ولكنه كان يرى أنه أفضل منهم، وأنهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيق منه لهم، ولا براءة منهم. فأما قوله رضي الله عنه: "ورجل سمع من رسول الله شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوهم فيه"، فقد وقع ذلك. وقال أصحابنا في الخبر الذي رواه عبد الله بن عمر: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه": إن ابن عباس لما روي له هذا الخبر، قال: ذهل ابن عمر، إنما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر يهودي، فقال: إن أهله ليبكون عليه، وإنه ليعذب. وقالوا أيضاً: إن عائشة أنكرت ذلك، وقالت: ذهل أبو عبد الرحمن، كما ذهل في خبر قليب بدر، إنما قال رضي الله عنه: "إنهم ليبكون عليه، وإنه ليعذب بجرمه". قالوا: وموضع غلظه في خبر القليب أنه روى أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر، فقال: "هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟" ثم قال: "إنهم يسمعون ما أقول لهم"، فأنكرت عائشة ذلك، وقالت: إنما قال: "إنهم يعلمون أن الذي كنت أقوله لهم هو الحق"، واستشهد بقوله تعالى: "إنك لا تسمع الموتى". فأما الرجل الثالث، وهو الذي يسمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ، فقد وقع كثيراً، وكتب الحديث والفقهاء مشحونة بذلك، كالذين أباحوا لحوم الحمر الأهلية لخبر روهه في ذلك، ولم يرووا الخبر الناسخ. وأما الرجل الرابع فهم العلماء الراسخون في العلم. وأما قوله

رضي الله عنه: "وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام له وجهان"، فهذا داخل في القسم الثاني وغير خارج وألا وسلم عنه، ولكنه كالنوع من الجنس، لأن الوهم والغلط جنس تحت أنواع. واعلم أن أمير المؤمنين رضي الله عنه كان مخصوصاً من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا لطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وسلم عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وسلم، وإذا لم يسأل ابتداء النبي صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتثقيف ولم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، بل كانوا أقساماً: فمنهم من يهابه أن يسأله، وهم الذين يجبون أن يجيء الأعرابي أو الطاريء فيسأله وهم يسمعون، ومنهم من كان بليداً بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث، ومنهم من كان مشغولاً عن طلب العلم وفهم المعاني، إما بعبادة أو دنيا، ومنهم المقلد يرى أن فرضه السكوت وترك السؤال، ومنهم المبغض الشائء الذي ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه؛ وانضاف إلى الأمر الخاص بعلي رضي الله عنه ذكاؤه وفطنته، وطهارة طينته، وإشراق نفسه وضوءها، وإذا كان الحل قابلاً متهيئاً، وكان الفاعل المؤثر موجوداً، والموانع مرتفعة، حصل الأثر على أتم ما يمكن؛ فلذلك كان علي رضي الله عنه - كما قال الحسن البصري - رباني هذه الأمة وذا فضلها؛ ولذا تسميه الفلاسفة: إمام الأئمة وحكيم العرب.

أفصل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث

واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم، حملهم على وضعها عداوة خصومهم، نحو حديث "السطل" وحديث "الرمانة" وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين، وتعرف كما زعموا ب "ذات العلم"، وحديث غسل سلمان الفارسي، وطبي الأرض، وحديث الجمجمة، ونحو ذلك. فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة، وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث، نحو "لو كنت متخذاً خليلاً"، فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء، ونحو سد الأبواب؛ فإنه كان لعلي رضي الله عنه قلبته البكرية إلى أبي بكر رضي الله عنه، ونحو "أئتوني بدواة وياض أكتب فيه لأبي بكر كتاباً لا يخلتف عليه اثنان". ثم قال: "يا أباي الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر"، فإنهم وضعوه في مقابلة الحديث المروي عنه في مرضه: "أئتوني بدواة وياض أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً"، فاختلفوا عنده. وقال قوم منهم: لقد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله ونحو حديث: "أنا راضٍ عنك فهل أنت عني راضٍ"، ونحو ذلك. فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث، فوضعوا حديث الطوف الحديد الذي زعموا أنه قتله في عنق خالد، وحديث اللوح الذي زعموا أنه كان في غدائر الحنفية أم محمد، وحديث: "لا يفعلن خالد ما أمر به"، وحديث الصحيفة التي علق عام الفتح بالكعبة، وحديث الشيخ الذي صعد المنبر يوم بويع أبو بكر رضي الله عنه، فسبق الناس إلى بيعته، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم، وعليّ أدون الطبقات فيهم، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في علي وفي ولديه، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل، وتارة إلى ضعف السياسة، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها. ولقد كان الفريقان في

غنية عما اكتسباه واجترحاه، ولقد كان في فضائل علي رضي الله عنه الثابتة الصحيحة، وفضائل أبي بكر رضي الله عنه المحققة المعلومة ما يغني عن تكلف العصبية لهما، فإن العصبية لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساويء والمقابح. ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصبية، وأن يجربنا على ما عودنا من حب الحق أين وجد وحيث كان؛ سخط ذلك من سخط، ورضي به من رضي بمنه ولطفه.

ومن خطبة له في عجب صنعة الكون

الأصل: وكان من اقتدار جبروته، وبديع لطائف صنعته، أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف، ييساً جامداً، ثم فطر منه أطباقاً، ففتقها سبع سمواتٍ بعد ارتفاقها، فاستمسكت بأمره، وقامت على حده يحملها الأخضر المنعرج، والقمام المسخر. قد ذل لأمره، وأذعن لهيبته، ووقف الجاري منه لخشيته. وجبل جلاميدها، ونشوز فتونها، وأطواذها؛ فأرسلها في مراسيها، وألزمها قرارها، فمضت رؤوسها في الهواء، ورست أصولها في الماء، فأخذ جبالها عن سهولها، وأساخ قواعدها في متون أقطارها، ومواضع أنصائها، فأشهب قلالها، وأطال أنشازها، وجعلها للأرض عماداً، وأرزها فيها أوتاداً، فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تسيخ بجملها، أو تزول عن مواضعها. فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها، وأجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مهاداً، وبسطها لهم فراشاً، فوق بحر لحي راكد لا يجري، وقائم لا يسري، تكرر الرياح العواصف، وتمخضه الغمام الذوارف، إن في ذلك لعلبة لمن يخشى. الشرح: أراد أن يقول: "وكان من اقتداره" فقال: "وكان من اقتدار جبروته"، تعظيماً وتفخيماً، كما يقال للملك: أمرت الحضرة الشريفة بكذا. والبحر الزاخر: الذي قد امتد جداً وارتفع، والمتراكم: المجتمع بعضه على بعض، والمتقاصف: الشديد الصوت، قصف الرعد وغيره قصيفاً، واليبس، بالتحريك: المكان يكون رطباً ثم ييبس، ومنه قوله تعالى: "فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً"، واليبس بالسكون: اليابس خلقة، حطب ييبس، هكذا يقوله أهل اللغة وفيه كلام، لأن الحطب ليس يابساً خلقة بل كان رطباً من قبل، فالأصوب أن يقال: لا تكون هذه اللفظة محركة إلا في المكان خاصة. وفطر: خلق، والمضارع يفطر بالضم، فطراً. الأطباق: جمع طبق، وهو أجزاء مجتمعة من جراد أو غيم أو ناس أو غير ذلك من حيوان أو جماد، يقول: خلق منه أجساماً مجتمعة مرتتقة، ثم فتقها سبع سموات. وروي: "ثم فطر منه طباقاً" أي أجساماً منفصلة في الحقيقة متصلة في الصورة بعضها فوق بعض، وهي من ألفاظ القرآن المجيد. والضمير في "منه" يرجع إلى ماء البحر في أظهر النظر، وقد يمكن أن يرجع إلى اليبس. واعلم أنه قد تكرر في كلام أمير المؤمنين ما يماثل هذا القول ويناسبه، وهو مذهب كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء، منهم ثاليس الملطي، قالوا: أصل الأجسام الماء، وخلقت الأرض من زبده، والسماء من بخاره، وقد جاء القرآن العزيز بنحو هذا، قال سبحانه: "الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام" وكان عرشه على الماء" قال شيخنا أبو علي وأبو القاسم رحمهما الله في تفسيريهما: هذه الآية دالة على أن الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والأرض، قالوا: وكان الماء على الهواء، قالوا: وهذا يدل أيضاً على أن الملائكة كانوا موجودين قبل خلق السموات والأرض، لأن الحكيم سبحانه لا يجوز أن يقدم خلق الجماد على خلق

المكلفين، لأنه يكون عبثاً. وقال علي بن عيسى الرماني من مشايخنا: إنه غير ممتنع أن يخلق الجماد قبل الحيوان، إذا علم أن في إخبار المكلفين بذلك لطفاً لهم، ولا يصح أن يخبرهم إلا وهو صادق فيما أخبر به، وإنما يكون صادقاً إذا كان المخبر خبره على ما أخبر عنه، وفي ذلك حسن تقديم خلق الجماد على خلق الحيوان. وكلام أمير المؤمنين رضي الله عنه يدل على أنه كان يذهب إلى أن الأرض موضوعة على ماء البحر، وأن البحر حامل لها بقدره الله تعالى، وهو معنى قوله: "يحملها الأخضر المتعجر، والقمام المسخر"، وأن البحر الحامل لها قد كان جارياً فوقف تحتها، وأنه تعالى خلق الجبال؛ في الأرض، فجعل أصولها راسخة في ماء البحر الحامل للأرض وأعاليتها شامخة في الهواء، وأنه سبحانه جعل هذه الجبال عماداً للأرض، وأوتاداً تمنعها من الحركة والاضطراب، ولولاها لماحت واضطربت، وأن هذا البحر الحامل للأرض تصعد فيه الرياح الشديدة فتحركه حركة عنيفة، وتموج السحب التي تغترف الماء منه لتمطر الأرض به، وهذا كله مطابق لما في الكتاب العزيز، والسنة النبوية، والنظر الحكمي، ألا ترى إلى قوله تعالى: "أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما"، وهذا هو صريح قوله رضي الله عنه: "فتفتقها سبع سموات بعد ارتقاقها"، وإلى قوله تعالى: "وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم"، وإلى ما ورد في الخبر من أن الأرض مدحوة على الماء، وأن الرياح تسوق السحب إلى الماء نازلة، ثم تسوقها عنه صاعدة بعد امتلائها، ثم تمطر. وأما النظر الحكمي فمطابق لكلامه إذا تأمله المتأمل، وحمله على المحمل العقلي، وذلك لأن الأرض هي آخر طبقات العناصر، وقبلها عنصر الماء، وهو محيط بالأرض كلها إلا ما برز منها، وهو مقدار الربع من كرة الأرض، على ما ذكره علماء هذا الفن وبرهنوا عليه، فهذا تفسير قوله رضي الله عنه: "يحملها الأخضر المتعجر". وأما قوله: "ووقف الجاري منه لخشيته"، فلا يدل دلالة قاطعة على أنه كان جارياً ووقف، ولكن ذلك كلامٌ خرج مخرج التعظيم والتبجيل، ومعناه أن الماء طبعه الجريان والسيلان، فهو جار بالقوة، وإن لم يكن جارياً بالفعل، وإنما وقف ولم يجر بالفعل بقدره الله تعالى، المانعة له من السيلان، وليس قوله: "ورست أصولها في الماء" مما ينافي النظر العقلي، لأنه لم يقل: "ورست أصولها في ماء البحر"، ولكنه قال: "في الماء"، ولا شبهة في أن أصول الجبال راسية في الماء المتخلخل بين أجزاء الأرض، فإن الأرض كلها يتخلخل الماء بين أجزائها على طريق استحالة البخار من الصورة الهوائية إلى الصورة المائية. وليس ذكره للجبال وكونها مانعة للأرض من الحركة بمناف أيضاً للنظر الحكمي لأن الجبال في الحقيقة قد تمنع من الزلزلة إذا وجدت أسبابها الفاعلة، فيكون ثقلها مانعاً من الهدة والرجفة. وليس قوله: "تكرره الرياح" منافياً للنظر الحكمي أيضاً، لأن كرة الهواء محيطة بكرة الماء، وقد تعصف الرياح في كرة الهواء للأسباب المذكورة في موضعها من هذا العلم، فيتموج كثير من الكرة المائية لعصف الرياح. وليس قوله رضي الله عنه: "وتمخضه الغمام الذوارف" صريحاً في أن السحب تتزل في البحر، فتغترف منه، كما قد يعتقد في المشهور العامي، نحو قول الشاعر:

فضلٌ عليه لأنها من مائه

كالبحر تمطره السحاب وما لها

بل يجوز أن تكون الغمام الذوارف تمخضه وتحركه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها، فقد ثبت أن كلام أمير

المؤمنين رضي الله عنه موجه؛ إن شئت فسرته بما يقوله أهل الظاهر، وإن شئت فسرته بما يعتقده الحكماء. فإن قلت: فكيف قال الله تعالى: "أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففقتناهما"؛ وهل كان الذين كفروا رائيين لذلك؛ حتى يقول لهم "أو لم ير الذين كفروا"؛ قلت: هذا في قوة قوله: "اعلموا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففقتناهما"، كما يقول الإنسان لصاحبه: ألم تعلم أن الأمير صرف حاجبه الليلة عن بابه؟ أي اعلم ذلك إن كنت غير عالم؛ والرؤية هنا بمعنى العلم. واعلم أنه قد ذهب قوم من قدماء الحكماء - ويقال: إنه مذهب سقراط - إلى تفسير القيامة وجهنم بما ييتني على وضح الأرض على الماء، فقالوا: الأرض موضوعة على الماء، والماء على الهواء، والهواء على النار، والنار في حشو الأفلاك؛ ولما كان العنصران الخفيفان - وهما الهواء والنار - يقتضيان صعود ما يحيطان به، والعنصران الثقيلان اللذان في وسطهما، وهما الماء والأرض؛ يقتضيان التزول والهبوط، وقعت الممانعة والمدافعة، فلزم من ذلك وقوف الماء والأرض في الوسط. قالوا: ثم إن النار لا تزال يتزايد تأثيرها في إسخان الماء، وينضاف إلى ذلك حر الشمس والكواكب إلى أن تبلغ البحار والعنصر المائي غايتهما في الغليان والفقوران، فيتصاعد بخاز عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة، وينضاف إلى ذلك حر فلك الأثير الملاصق للأفلاك فنذوب الأفلاك كما يذوب الرصاص، وتتهافت وتتساقط وتصير كالمهل الشديد الحرارة. ونفوس البشر على قسمين: أحدهما ما تجوهر وصار مجرداً بطريق العلوم والمعارف وقطع العلائق الجسمانية حيث كان مدبراً للبدن، والآخر ما بقي على جسمانيته بطريق خلوه من العلوم والمعارف، وانغماسه في اللذات والشهوات الجسمانية، فأما الأول فإنه يلتحق بالنفس الكلية المجردة، ويخلص من دائرة هذا العالم بالكلية. وأما الثاني فإنه تنصب عليه تلك الأجسام الفلكية الدائبة، فيحترق بالكلية، ويتعذب ويلقى آلاماً شديدة. قالوا: هذا هو باطن ما وردت به الرواية من العذاب عليها، وخراب العالم والأفلاك وانهدامها. ثم نعود إلى شرح الألفاظ: قوله رضي الله عنه: "فاستمسكت"، أي وقفت وثبتت، والهاء في "حده" تعود إلى أمره، أي قامت على حد ما أمرت به؛ أي لم تتجاوز ولا تعدته، والأخضر: البحر، ويسمى أيضاً "خضارة" معرفة غير مصروف، والعرب تسميه بذلك؛ إما لأنه يصف لون السماء فيرى أخضر، أو لأنه يرى أسود لصفائه فيطلقون عليه لفظ الأخضر؛ كما سمو الأخضر أسود، نحو قوله: "مدهامتان"، ونحو تسميتهم قرى العراق سواداً لخضرتها وكثرة شجرها، ونحو قولهم للديزج من الدواب أخضر.

المتعرج: السائل، ثعجرت الدم وغيره فاثعجرج، أي صبيته فانصب، وتصغير المتعرج مثيرعج ومثيرعج، والقمقام، بالفتح: من أسماء البحر، ويقال لمن وقع في أمر عظيم: وقع في قمقام من الأمر، تشبيهاً بالبحر. قوله رضي الله عنه: "وجبل جلاميدها"، أي وخلق صخورها؛ جمع جلمود. والنشوز: جمع نشز، وهو المرتفع من الأرض. ويجوز فتح الشين. ومتونها: جوانبها. وأطواها: جبالها: "ويروى": "وأطواها" بالجر عطفاً على متونها. فأرساها في مراسيها، أثبتها في مواضعها، رسا الشيء يرسو: ثبت. ورسا أقدامهم في الحرب: ثبتت، ورسا السفينة ترسو رسوا ورسواً، أي وقفت في البحر. وقوله تعالى: "بسم الله مجراها ومرساها"؛ بالضم من أجريت وأرسيته، ومن قرأ بالفتح فهو من "رست" هي، "وجرت" هي، وألزمها قاراتها: أمسكها حيث استقرت. قوله "فأهد جبالها"، أي أعلاها. هُد ثدي الجارية ينهد بالضم، إذا أشرف وكعب، فهي ناهد وناهدة، وسهولها: ما تطامن منها عن الجبال. وأساخ قواعدها، أي غيب قواعد الجبال في جوانب

أقطار الأرض، ساخت قوائم الفرس في الأرض تسوخ وتسيخ، أي دخلت فيها وغابت، مثل ثاغت، وأسختها أنا مثل أثختها. والأنصاب: الأجسام المنصوبة، الواحد نصب بضم النون والصاد، ومنه سميت الأصنام نصباً في قوله تعالى: "وما ذبح على النصب" ؛ لأنها نصبت فعبدت من دون الله، قال الأعشى:

لعاقبة، والله ربك فاعبدا

وذا النصب المنسوب لا تتسكنه

أي وأساخ قواعد الجبال في متون أقطار الأرض؛ وفي المواضع الصالحة لأن تكون فيها الأنصاب المماثلة، وهي الجبال أنفسها. قوله: "فأشهب قلالها"، جمع قلة وهي ما علا من رأس الجبل، أشهبها: جعلها شاهقة، أي عالية. وأرزها: أثبتتها فيها، رزت الجرادة ترز رزاً، وهو أن تدخل ذنبها في الأرض فتلقي بيضها، وأرزها الله: أثبت ذلك منها في الأرض، ويجوز "أرزت"، لازماً غير متعدٍ، مثل رزت، وارتر السهم في القرطاس: ثبت فيه. وروي "وأرزها" بالمد من قولهم: شجرة أرزة، أي ثابتة في الأرض، أرزت بالفتح، تآرز بالكسر، أي ثبتت، وأرزها - بالمد - غيرها، أي أثبتتها، وتميد: تتحرك. وتسيخ: تتزل وتهوي. فإن قلت: ما الفرق بين الثلاثة: تميد بأهلها، أو تسيخ بحملها، أو تزول عن مواضعها؛ قلت: لأنها لو تحركت لكانت إما أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها، والأول هو المراد بقوله: "تميد بأهلها"، والثاني تنقسم إلى أن تتزل إلى تحت أو لا تتزل إلى تحت، فالتزول إلى تحت هو المراد بقوله: "أو تسيخ بحملها" والقسم الثاني هو المراد بقوله: "أو تزول عن مواضعها". فإن قلت: ما المراد بـ "على" في قوله: "فسكنت على حركتها"؟ قلت: هي لهيئة الحال، كما تقول عفوت عنه على سوء أدبه، ودخلت إليه على شربه، أي سكنت، على أن من شأنها الحركة؛ لأنها محمولة على سائل متموج. قوله: "موجان مياهاها"، بناء "فعلان" لما فيه اضطراب وحركة كالغليان والتزوان والخفقان، ونحو ذلك. وأجمدها، أي جعلها جامدة. وأكنافها: جوانبها. والمهاد: الفراش. فوق بحر لحي: كثير الماء، منسوب إلى اللجة، وهي معظم البحر. قوله: "يكرره الرياح"، الكركرة: تصريف الريح السحاب إذا جمعت بعد تفريق وأصله "يكرر" من التكرير، فأعادوا الكاف، كركرت الفارس عني أي دفعته ورددته. والرياح العواصف: الشديدة الهبوب. وتمخضه، يجوز فتح الخاء وضمها وكسرها، والفتح أفصح؛ لمكان حرف الحلق، من مخضت اللبن، إذا حركته لتأخذ زبده. والغمام: جمع، والواحدة غمامة، ولذلك قال: "الذوارف"، لأن "فواعل" أكثر ما يكون لجمع المؤنث، ذرفت عينه أي دمعت، أي السحب الماطر، والمضارع من "ذرفت" عينه "تذرف" بالكسر، ذرفاً وذرفاً. والمذارف: المدامع.

في استنهاض أصحابه إلى الجهاد

الأصل: اللهم أيما عبدٍ من عبادك سمع مقاتلتنا العادلة غير الجائرة، والمصلحة في الدين والدنيا غير المفسدة، فأبى بعد سماعه لها إلا النكوص عن نصرتك، والإبطاء عن إعزاز دينك، فإننا نستشهدك عليه يا أكبر الشاهدين شهادة، ونستشهد عليه جميع ما أسكنته أرضك وسمواتك. ثم أنت بعده المغني عن نصره، والآخذ له بذنبه. الشرح: ما في "أيما" زائدة مؤكدة، ومعنى الفصل وعيد من استنصره فقعد عن نصره، ووصف المقالة بأنها عادلة، إما تأكيد، كما قالوا: شعر شاعر، وإما

ذات عدل، كما قالوا: رجل تأمر ولابن، أي ذو ثمر ولبن، ويجوز أيضاً أن يريد بالعدالة المستقيمة التي ليست كاذبة ولا محرفة عن جهتها، والجائرة نقيضها وهي المنحرفة، جار فلان عن الطريق، أي انحرف وعدل، والنكوص: التآخر. قوله رضي الله عنه: "نستشهدك عليه"، أي نسألك أن تشهد عليه، ووصفه تعالى بأنه أكبر الشاهدين شهادة، لقوله تعالى: "قل أي شيء أكبر شهادة قل الله"، يقول: اللهم إنا نستشهدك على خذلان من استنصرناه، واستنصرناه إلى نصرتك، والجهاد عن دينك فأبى النهوض، ونكث عن القيام بواجب الجهاد، ونستشهد عبادك، من البشر في أرضك، وعبادك من الملائكة في سمواتك عليه أيضاً، ثم أنت بعد ذلك المغني لنا عن نصرته ونهضته، بما تتيحه لنا من النصر، وتؤيدنا به من الإعزاز والقوة، والآخذ له بذنبه في القعود والتخلف. وهذا قريب من قوله تعالى: "وإن تتولوا قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

قال في تمجيد الله وتعظيمه

الأصل: الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين، الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تديره للناظرين؛ والباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين. العالم بلا اكتساب ولا أزدیاد، ولا علم مستفاد، المقدر لجميع الأمور بلا روية ولا ضمير، الذي لا تغشاه الظلم، ولا يستضيء بالأنوار، ولا يرهقه ليل ولا يجري عليه نهار ليس إدراكه بالأبصار، ولا علمه بالإخبار.

الشرح: يجوز شبه وشبهه، والرواية ههنا بالفتح، وتعالیه سبحانه عن شبه المخلوقين؛ كونه قديماً واجب الوجود، وكل مخلوق محدث ممكن الوجود. قوله: "الغالب لمقال الواصفين"، أي إن كنه جلاله وعظمته، لا يستطيع الواصفون وصفه وإن أطنبوا وأسهبوا، فهو كالأغالب لأقوالهم لعجزها عن إيضاحه وبلوغ منتهاه، والظاهر بأفعاله، والباطن بذاته، لأنه إنما يعلم منه أفعاله، وأما ذاته فغير معلومة. ثم وصف علمه تعالى فقال: إنه غير مكتسب كما يكتسب الواحد منا علومه بالاستدلال والنظر، ولا هو علم يزداد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منا ومعارفه، وتكثر لكثرة الطرق التي يتطرق بها إليها. ثم قال: "ولا علم مستفاد"، أي ليس يعلم الأشياء بعلم محدث مجدد كما يذهب إليه جهنم وأتباعه وهشام بن الحكم، ومن قال بقوله. ثم ذكر أنه تعالى قدر الأمور كلها بغير روية، أي بغير فكر ولا ضمير، وهو ما يطويه الإنسان من الرأي والاعتقاد والعزم في قلبه. ثم وصفه تعالى بأنه لا يغشاه ظلام، لأنه ليس بجسم، ولا يستضيء بالأنوار؛ كالأجسام ذوات البصر. ولا يرهقه ليل، أي لا يغشاه. ولا يجري عليه نهار، لأنه ليس بزمان. ولا قابل للحركة، ليس إدراكه بالإبصار، لأن ذلك يستدعي المقابلة. ولا علمه بالإخبار مصدر أخير، أي ليس علمه مقصوراً على أن تخبره الملائكة بأحوال المكلفين، بل هو يعلم كل شيء، لأن ذاته ذات واجب لها أن تعلم كل شيء مجرد ذاتها المخصوصة، من غير زيادة أمر على ذاتها. الأصل: منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه: أرسله بالضياء، وقدمه في الاصطفاء، فرتق به المفاتيح، وساور به المغالب، وذلل به الصعوبة، وسهل به الحزونة، حتى سرح الضلال، عن يمين وشمال. الشرح: أرسله بالضياء، أي بالحق، وسمى الحق ضياءً، لأنه يهتدى به، أو أرسله بالضياء أي بالقرآن. وقدمه في الإصطفاء، أي قدمه في الاصطفاء على غيره من العرب والعجم، قالت قريش: "لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين"، أي على

رجل من رجلين من القرينتين عظيم؛ أي إما على الوليد بن المغيرة من مكة، أو على عروة بن مسعود الثقفي من الطائف ثم قال تعالى: أهم يقسمون رحمة ربك"، أي هو سبحانه العالم بالمصلحة في إرسال الرسل، وتقديم من يرى في الاصطفاء على غيره. فترق به المفاتق، أي أصلح به المفاسد، والرتق ضد الفتق، والمفاتق: جمع مفتق، وهو مصدر؛ كالمضرب والمقتل. وساور به المغالب: ساورت زيدا أي واثبته، ورجل سوار، أي وثاب، وسورة الخمر: وثوبها في الرأس. والحزونة ضد السهولة، والحزن: ما غلظ من الأرض. والسهل: ما لان منها، واستعير لغير الأرض كالأخلاق ونحوها. قوله: "حتى سرح الضلال"، أي طرده وأسرع به ذهاباً. عن يمين وشمال، من قولهم: ناقة كسرح ومنسرحة، أي سريعة. ومنه تسريح المرأة، أي تطليقها.

قال في صفة الرسول والعلماء

الأصل: وأشهد أنه عدلٌ عدلٌ، وحكمٌ فصلٌ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وسيد عباده، كلما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما، لم يسهم فيه عاهرٌ، ولا ضرب فيه فاجرٌ. ألا وإن الله سبحانه قد جعل للخير أهلاً، وللحق دعائم، وللطاعة عصماً، وإن لكم عند كل طاعة عوناً من الله سبحانه، يقول على ألسنة؛ ويثبت به الأفئدة؛ فيه كفاءٌ لمكتفٍ، وشفاءٌ لمشتفٍ.

وأعلموا أن عباد الله المستحفظين علمه، يصونون مصونه، ويفجرون عيونه؛ يتواصلون بالولاية، ويتلاقون بالحبّة، ويتساقون بكأسٍ رويةٍ، ويصدرون بريةٍ. لا تشوبهم الريّة، ولا تسمرع فيهم الغيبة؛ على ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم، فعليه يتحابون، وبه يتواصلون، فكانوا كتفاضل البذر ينتقى، فيؤخذ منه ويلقى، قد ميزه التخليص، وهذبه التمهيص. فليقبل أمرؤ كرامةً بقبولها، وليحذر قارعةً قبل حقلها، ولينظر أمرؤ في قصير أتامه وقليل مقامه في منزل، حتى يستبدل به منزلاً؛ فليصنع لمثوله، ومعارف منتقله. فطوبى لذي قلبٍ سليمٍ، أطاع من يهديه، وتجنب من يريده، وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصره، وطاعة هادٍ أمره، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه. واستفتح التوبة، وأماط الحوبة، فقد أقيم على الطريق، وهدى نهج السبيل. الشرح: الضمير في "أنه" يرجع إلى القضاء والقدر المذكور في صدر هذه الخطبة، ولم يذكره رضي رحمه الله؛ يقول. أشهد أن قضاءه تعالى عدلٌ عدلٌ وحكمٌ بالحق، فإنه حكمٌ فصل بين العباد بالإنصاف، ونسب العدل والفصل إلى القضاء على طريق المجاز، وهو بالحقيقة منسوب إلى ذي القضاء، والقاضي به هو الله تعالى. قوله: "وسيد عباده"، هذا كالمجمع عليه بين المسلمين، وإن كان قد خالف فيه شذوذٌ منهم، واحتج الجمهور بقوله: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"، وبقوله: "ادعوا لي سيد العرب علياً"، فقالت عائشة -: أأنت سيد العرب؛ فقال: "أنا سيد البشر، وعلي سيد العرب"، وبقوله: "آدم ومن دونه تحت لوائي".

واحتج المخالف بقوله رضي الله عنه: "لا تفضلوني على أخي يونس بن متى". وأجاب الأولون تارةً بالطعن في إسناد الخبر، وتارةً بأنه حكاية كلام حكاه صلى الله عليه وسلم عن عيسى بن مريم، وتارةً لأن النهي إنما كان عن الغلو فيه كما غلت الأمم في أنبيائها، فهو كما ينهى الطبيب المريض فيقول: لا تأكل من الخبز ولا درهماً، وليس مراده تحريم أكل

الدرهم والدرهمين، بل تحريم ما يستضر بأكله منه. قوله رضي الله عنه: "كلما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما"، النسخ: النقل، ومنه نسخ الكتاب، ومنه نسخت الريح آثار القوم، ونسخت الشمس الظل، يقول: كلما قسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين، جعل خيرهما وأفضلهما لولادة محمد صلى الله عليه وسلم، وسمى ذلك نسخاً، لأن البطن الأول يزول، ويخلفه البطن الثاني، ومنه مسائل المناسخت في الفرائض. وهذا المعنى قد ورد مرفوعاً في عدة أحاديث، نحو قوله صلى الله عليه وسلم: "ما افترقت فرقتان منذ نسل آدم ولده إلا كنت في خيرهما". ونحو قوله: "إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل مضر، واصطفى من مضر كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش هاشماً، واصطفاني من بني هاشم". قوله: "لم يسهم فيه عاهر، ولا ضرب فيه فاجر"، لم يسهم: لم يضرب فيه عاهر بسهم، أي بنصيب، وجمعه سهمان، والعاهر: ذو العهر، بالتحريك وهو الفجور والزنا، ويجوز تسكين الهاء، مثل نهر ونهر، وهذا هو المصدر، والماضي عهر بالفتح، والاسم العهر، بكسر العين وسكون الهاء، والمرأة عاهرة ومعاهرة وعبهرة، وتعيهر الرجل إذا زنى، والفاجر كالعاهر ههنا، وأصل الفجور: الميل، قال لبيد:

غليظاً، وإن أخرجت فالكفل فاجر

فإن تتقدم تغش منها مقدماً

يقول: مقعد الرديف مائل.

كلام الجاحظ حول المطاعن في النسب

وفي الكلام رمز إلى جماعة من الصحابة في أنسابهم طعن، كما يقال: إن آل سعد بن أبي وقاص ليسوا من بني زهرة بن كلاب، وإنهم من بني عذرة من قحطان، وكما قالوا: إن آل الزبير بن العوام من أرض مصر من القبط، وليسوا من بني أسد بن عبد العزى. قال الهيثم بن عدي في كتاب "مثالب العرب": إن خويلد بن أسد بن عبد العزى، كان أتى مصر ثم انصرف منها بالعوام، فتنهه، فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خويلد:

يحنون شوقاً كل يوم إلى القبط

بني أسد ما بال آل خويلد

وللرمث المقرون والسلك الرقط

متى يذكروا قهقى يحنوا لذكرها

تخالف كعباً في لحى كثة ثط

عيون كأمثال الزجاج وضبعة

مبيناً وفي الأطفال والجلة الشمط

يرى ذاك في الشبان والشيب منهم

غداة تبناه ليوثق في الشرط

لعمر أبي العوام إن خويلداً

وكما يقال في قوم آخرين، نرفع هذا الكتاب عن ذكر ما يطعن به في أنسابهم، كي لا يظن بنا أننا نحب المقالة في الناس. قال شيخنا أبو عثمان في كتاب "مفاخرات قريش": لا خير في ذي العيوب إلا من ضرورة، ولا نجد كتاب مثالب قط إلا لدعي أو شعوبي، ولست واجده لصحيح النسب، ولا لقليل الحسد، وربما كانت حكاية الفحش أفحش من الفحش، ونقل الكذب أقبح من الكذب. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اعف عن ذي قبر"، وقال: "لا تؤذوا الأحياء بسب

الأموات"، وقيل في المثل: "يكفيك من شر سماعه". وقالوا: أسمعك من أبلغك، وقالوا: من طلب عيباً وجده، وقال النابغة:

ولست بمستبق أخاً لاتلمه

على شعث، أي الرجال المهذب

قال أبو عثمان: وبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اناساً من رواة الأشعار وحملة الآثار يعيرون الناس، ويثلبونهم في أسلافهم، فقام على المنبر، وقال: إياكم وذكر العيوب، والبحث عن الأصول، فلو قلت: لا يخرج اليوم من هذه الأبواب إلا من لا وصمة فيه لم يخرج منكم أحد. فقام رجل من قريش - نكره أن نذكره - فقال: إذا كنت أنا وأنت يا أمير المؤمنين نخرج؛ فقال: كذبت، بل كان يقال لك، ياقين ابن قين، اقعد؛ قلت: الرجل الذي قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، كان عمر يبعثه لبغضه أباه خالداً، ولأن المهاجر كان علوي الرأي جداً، وكان أخوه عبد الرحمن بخلافه، شهد المهاجر صفين مع علي رضي الله عنه، وشهدا عبد الرحمن مع معاوية، وكان المهاجر مع علي رضي الله عنه في يوم الجمل، وفقت ذلك اليوم عينه. ولأن الكلام الذي بلغ عمر بلغه عن المهاجر، وكان الوليد بن المغيرة مع جلالته في قريش - وكونه يسمى ريحانة قريش، ويسمى العدل، ويسمى الوحيد - حداداً يصنع الدروع وغيرها بيده، ذكر ذلك عنه عبد الله بن قتيبة في كتاب "المعارف". وروى أبو الحسن المدائني هذا الخبر في كتاب "أمهات الخلفاء" وقال: إنه روى عند جعفر بن محمد رضي الله عنه بالمدينة، فقال: لا تلمه يا بن أخي، إنه أشفق أن يحدج بقضية نفيل بن عبد العزى وصهاك أمة الزبير بن عبد المطلب. ثم قال: رحم الله عمر فإنه لم يعد السنة، وتلا: "إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ". أما قول ابن جرير الآملي الطبرستاني في كتاب "المسترشد": إن عثمان والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان ناكحاً أم الخير ابنة أخته، فليس بصحيح، ولكنها ابنة عمه، لأنها ابنة صخر بن عامر، وعثمان هو ابن عمرو بن عامر؛ والعجب لمن اتبعه من فضلاء الإمامية على هذه المقالة من غير تحقيق لها من كتب الأنساب، وكيف تتصور هذه الواقعة في قريش، ولم يكن أحد منهم مجوسياً ولا يهودياً، ولا كان من مذهبهم حل نكاح بنات الأخ ولا بنات الاخت ثم نعود لإتمام حكاية كلام شيخنا أبي عثمان، قال: ومتى يقدر الناس - حفظك الله - على رجل مسلم من كل ابنة،

ومبرأ من كل آفة؛ في جميع آبائه وأمهاته وأسلافه وأصهاره، حتى تسلم له أحواله وأعمامه، وخالاته وعماته، وأخواته وبناته، وأمهات نسائه، وجميع من يناسبه من قبل جداته وأجداده، وأصهاره وأختانه؛ ولو كان ذلك موجوداً لما كان لنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضيلة في النقاء والتهذيب، وفي التصفية والتنقيح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما مسني عرق سفاح قط، وما زلت انقل من الأصلاب السليمة من الصوم، والأرحام البريئة من العيوب"، فلنسا نقضي لأحد بالنقاء من جميع الوجوه، إلا لنسب من صدقه القرآن، واختاره الله على جميع الأنام، وإلا فلا بد من شيء يكون في نفس الرجل أو في طرفه، أو في بعض أسلافه، أو في بعض أصهاره؛ ولكنه يكون مغطى بالصالح، ومحجوباً بالفضائل، ومغموراً بالمناقب. ولو تأملت أحوال الناس، لوجدت أكثرهم عيوباً أشدهم تعيباً، قال الزبير بن بدر: ما استب رجلان إلا غلب الأملهما. وقال: خصلتان كثيرتان في امرئ سوء: كثرة اللطام، وشدة السباب، ولو

كان ما يقوله أصحاب المثالب حقاً، لما كان على ظهرها عربي، كما قال عبد الملك بن صالح الهاشمي: إن كان ما يقول بعض في بعض حقاً، فما فيهم صحيح، وإن كان ما يقول بعض المتكلمين في بعض حقاً، فما فيهم مسلم قوله رضي الله عنه: "ألا وإن الله قد جعل للخير أهلاً، وللحق دعائم، وللطاعة عصماً". الدعائم: ما يدعم بها البيت لئلا يسقط، والعصم: جمع عصمة، وهو ما يحفظ به الشيء ويمنع، فأهل الخير هم المتقون. ودعائم الحق: الأدلة الموصلة إليه المثبتة له في القلوب. وعصم الطاعة: هي الإدمان على فعلها، والتمرن على الإتيان بها، لأن المرون على الفعل يكسب الفاعل ملكة تقتضي سهولته عليه. والعون ههنا: هو اللطف المقرب من الطاعة، المبعد من القبيح. ثم قال رضي الله عنه: "إنه يقول على الألسنة، ويثبت الأفئدة"، وهذا من باب التوسع والمجاز، لأنه لما كان مسهلاً للقول أطلق عليه أنه يقول على الألسنة، ولما كان الله تعالى هو الذي يثبت الأفئدة، كما قال: "يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت"، نسب التثبيت إلى اللطف، لأنه من فعل الله تعالى، كما ينسب الإنبات إلى المطر، وإنما المنبت للزرع هو الله تعالى، والمطر فعله. ثم قال رضي الله عنه: "فيه كفاء لمكتفٍ، وشفاء لمشتفٍ"، والوجه فيه "كفاية"، فإن الهمز لا وجه له ههنا، لأنه من باب آخر؛ ولكنه أتى بالهمزة للازدواج بين "كفاء" و "شفاء" كما قالوا: الغدايا والعشايا، وكما قال رضي الله عنه: "مأزورات غير مأجورات"، فأق بالهمز، والوجه الواو، للازدواج.

كلام حول العارفين والأولياء

ثم ذكر العارفين، فقال: "واعلموا أن عباد الله المستحفظين علمه"، إلى قوله: "وهذه التمحيص". واعلم أن الكلام في العرفان لم يأخذه أهل الملة الإسلامية إلا عن هذا الرجل، ولعمري لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات، وأبعد النهايات. والعارفون هم القوم الذين اصطفاهم الله تعالى، وانتخبهم لنفسه، واختصهم بأنسه، أحبوه فأحبهم، وقربوا منه فقرب منهم. قد تكلم أرباب هذا الشأن في المعرفة والعرفان، فكل نطق بما وقع له، وأشار إلى ما وجدته في وقته. وإن أبو علي الدقاق يقول: من أمارات المعرفة حصول الهيبة من الله، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيئته، وكان يقول: المعرفة توجب السكينة في القلب، كما أن العلم يوجب السكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته. وسئل الشبلي عن علامات العارف، فقال: ليس لعارف علامة، ولا لحب سكون، ولا لخائف قرار، وسئل مرة أخرى عن المعرفة، فقال: أولها الله، وآخرها ما لا نهاية له. وقال أبو حفص الحداد: منذ عرفت الله ما دخل قلبي حق ولا باطل. وقد أشكل هذا الكلام على أرباب هذا الشأن، وتأوله بعضهم، فقال: عند القوم أن المعرفة توجب غيبة العبد عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق عليه، فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلا إليه، وكما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتذكره فيما يسبح له من أمر، أو يستقبله من حال، فالعارف رجوعه إلى ربه، لا إلى قلبه، وكيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له، وسئل أبو يزيد البسطامي عن العرفان، فقال: "إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً"، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفص الحداد. وقال أبو يزيد أيضاً: للخلق أحوال، ولا حال للعارف، لأنه محيت رسومه وفيه هو، وصارت هويته هوية غيره، وغيت آثاره في آثار غيره. قلت: وهذا هو القول بالاتحاد الذي يبحث فيه أهل النظر. وقال الواسطي: لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله، أو افتقار إليه. وفسر بعضهم هذا الكلام، فقال: إن الافتقار

والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه على ما كانت عليه، والعارف لا يصح ذلك عليه، لأنه لاستهلاكه في وجوده، أو لاستغراقه في شهوده؛ إن لم يبلغ درجة الاستهلاك في الوجود مختطف عن إحساسه بالغي والفقر وغيرهما من الصفات، ولهذا قال الواسطي: من عرف الله انقطع وخرس وانقمع، قال صلى الله عليه وسلم: "لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك". وقال الحسين بن منصور الحلاج: علامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة. وقال سهل بن عبد الله التستري: غاية العرفان شيئان: الدهش والحيرة. وقال ذو النون: أعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه. وقيل لأبي يزيد: بماذا وصلت إلى المعرفة؟ قال: ببدن عارٍ، وبطن جائع. وقيل لأبي يعقوب السوسني: هل يتأسف العارف على شيء غير الله؟ فقال: وهل يرى شيئاً غيره، ليتأسف عليه، وقال أبو يزيد: العارف طيار، والزاهد سيار. وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب تظل كل شيء، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت. وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا، ولا يقضي وطره من شيئين: بكائه على نفسه، وحبه لربه. وكان ابن عطاء يقول: أركان المعرفة ثلاثة: الهيبة، والحياء، والأنس. وقال بعضهم: العارف أنس بالله فأوحشه من خلقه، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه. وذل لله فأعزه في خلقه، وقال بعضهم: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول. وقال أبو سليمان الداراني: إن الله يفتح للعارف على فراشه، ما لا يفتح للعباد وهو قائم يصلي، وكان رويم يقول: رياء العارفين أفضل من إخلاص العابدين. وسئل أبو تراب النخشي عن العارف، فقال: هو الذي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء، وقال بعضهم: المعرفة أمواج ترفع وتخط. وسئل يحيى بن معاذ عن العارف، فقال: الكائن البائن.

وقيل: ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا؛ وقال محمد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله. وسئل أبو سعيد الخراز: هل يصير العارف إلى حال يحفو عليه البكاء؟ قال نعم، إنما البكاء في أوقات سيرهم إلى الله، فإذا صاروا إلى حقائق القرب، وذاقوا طعم الوصول، زال عنهم ذلك. واعلم أن إطلاق أمير المؤمنين رضي الله عنه عليهم لفظة "الولاية"، في قوله: "يتواصلون بالولاية، ويتلاقون بالحب" يستدعي الخوض في مقامين جليلين من مقامات العارفين: المقام الأول الولاية، وهو مقام جليل، قال الله تعالى: "ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون". وجاء في الخبر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى: "من آذى لي ولياً فقد استحل محارمي، وما تقرب إلي العبد بمثل أداء ما فرضت عليه، ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، ولا ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه".

واعلم أن الولي له معنيان: أحدهما "فعل" بمعنى "مفعول"، كقتيل وجريح، وهو من يتولى الله أمره كما قال الله تعالى: "إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين"، فلا يكله إلى نفسه لحظة عين، بل يتولى رعايته. وثانيهما "فعل" بمعنى "فاعل" كنذير وعليم؛ وهو الذي يتولى طاعة الله وعبادته فلا يعصيه، ومن شرط كون الولي ولياً ألا يعصي مولاه وسيدته، كما أن من شرط كون النبي نبياً العصمة، فمن ظن فيه أنه من الأولياء، ويصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض، فليس بولي عند أصحاب هذا العلم. بل هو مغرور مخادع. ويقال: إن أبا يزيد البسطامي قصد بعض من يوصف بالولاية، فلما وافى مسجده، قعد ينتظر خروجه، فخرج الرجل وتنخم في المسجد، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا رجل غير

مأمون على أدب من آداب الشريعة، كيف يكون أميناً على أسرار الحق؛ وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أتحب أن تكون لله ولياً؟ قال: نعم، قال: لا ترغب في شيء من الدنيا ولا من الآخرة، وفرغ نفسك لله، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك. وقال يحيى بن معاذ في صفة الأولياء: هم عبادٌ تسربلوا بالأنس بعد المكابدة، وادرعوا بالروح بعد المجاهدة، بوصولهم إلى مقام الولاية.

وكان أبو يزيد يقول: أولياء الله عرائس الله، ولا يرى العرائس إلا المحارم، فهم مخدرون عنده في حجاب الأنس، لا يراهم أحدٌ في الدنيا ولا في الآخرة. وقال أبو بكر الصيدلاني: كنت أصلح لقبر أبي بكر الطمستاني لوحاً أنقر فيه اسمه، فيسرق ذلك اللوح، فأنقر له لوحاً آخر وأنصبه على قبره، فيسرق، وتكرر ذلك كثيراً دون غيره من ألواح القبور، فكنت أتعجب منه. فسألت أبا علي الدقاق عن ذلك، فقال: إن ذلك الشيخ أثر الخفاء في الدنيا، وأنت تريد أن تشهره باللوح الذي تنصبه على قبره فالله سبحانه يأبى ألا إخفاء قبره، كما أثر هو ستر نفسه. وقال بعضهم: إنما سمي الولي ولياً، لأنه توالى أفعاله على الموافقة. وقال يحيى بن معاذ: الولي لا يراني ولا ينافق، وما أقل صديق من يكون هذا خلقه؛ المقام الثاني المحبة قال الله سبحانه: "من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه"، والمحبة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة. قال أبو يزيد البسطامي: المحبة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وقال أبو عبد الله القرشي: المحبة أن تهب كفك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وأكثرهم على نفي صفة العشق، لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة، والباريء سبحانه أجل من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحد الحد في محبته. سئل الشبلي عن المحبة، فقال: هي أن تغار على المحبوب أن يحبه أحدٌ غيرك. وقال سمنون: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المرء مع من أحب"، فهم مع الله تعالى. وقال يحيى بن معاذ: حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء، ولا يزيد بالبر. وقال: ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده. وقال الجنيد: إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب، وأنشد في معناه:

ودام ودادهم سمح الثناء

إذا صفت المودة بين قوم

وكان أبو علي الدقاق يقول: ألسنت ترى الأب الشفيق لا يبجل ولده في الخطاب، والناس يتكلفون في مخاطبته، والأب يقول له: يا فلان، باسمه. وقال أبو يعقوب السوسى: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله، وينسى حوائجه إليه. قيل للنصر أباذي: يقولون: إنه ليس لك من المحبة شيء. قال: صدقوا، ولكن لي حسراتهم، فهو ذو احتراق فيه. وقال النصر أباذي أيضاً: المحبة مجانبة السلو على كل حال، ثم أنشد:

فإني من ليلى لها غير ذائق

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة

أماني لم تصدق كلمحة بارق

وأكثر شيء نلته في وصالها

وكان يقال: الحب أوله خبل، وآخره قتل. وقال أبو علي الدقاق في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "حبك الشيء يعمي ويصم"، قال: يعمي ويصم عن الغير إعراضاً وعن المحبوب هيبة، ثم أنشد:

فأصدر في حال من لم يره

إذا ما بدا لي تعاضمته

وقال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي، يقول: الحبة إقبالك على المحبوب بكليتك، ثم إثارك له على نفسك، ومالك وولدك، ثم موافقتك له في جميع الأمور سراً وجهراً، ثم اعتقادك بعد ذلك أنك مقصر في محبته. وقال الجنيد: سمعت السري يقول: لا تصلح الحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا. وقال الشبلي: الحب إذا سكت هلك، والعارف إذا لم يسكت هلك.

وقيل: الحبة نار في القلب تحرق ما سوى ود المحبوب. وقيل: الحبة بذل الجهد، والحبيب يفعل ما يشاء. وقال الثوري: الحبة هتك الأسرار، وكشف الأسرار. حبس الشبلي في المارستان بين المجانين، فدخل عليه جماعة، فقال: من أنتم؟ قالوا: محبوبك أيها الشيخ. فأقبل يرميهم بالحجارة، ففروا، فقال: إذا ادعيتكم محبتي فاصبروا على بلائي. كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي: قد سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته. فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روي بعد، ولسانه خارج، ويقول: هل من مزيد؟ ومن شعرهم في هذا المعنى:

وهل أنسى فأذكر ما نسيت

عجبت لمن يقول ذكرت ربي

فما نفذ الشراب ولا رويت

شربت الحب كأساً بعد كأسٍ

ويقال: إن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء: إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة، ملأته من حيي. وقال أبو علي الدقاق: إن في بعض الكتب المأثورة: عدي، أنا وحقك لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً. وقال عبد الله بن المبارك: من أعطي قسطاً من الحبة، ولم يعط مثله من الخشية، فهو مخدوع. وقيل: الحبة ما تمحو أثرك، وتسلبك عن وجودك. وقيل: الحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم إن السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف. وأنشد:

وكان لسكري من المدير

فأسكر القوم دور كأسٍ

وكان أبو علي الدقاق ينشد كثيراً:

شيء خصصت به من بينهم وحدي

لي سكرتان وللندمان واحدة

وكان يحيى بن معاذ يقول: مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب. وقال بعضهم: من أراد أن يكون محباً، فليكن كما حكى عن بعض الهند أنه أحب جاريةً، فرحلت عن ذلك البلد، فخرج الفتى في وداعها، فدمعت إحدى عينيه دون الأخرى، فغمض التي لم تدمع أربعاً وثمانين سنة ولم يفتحها، عقوبة لأنها لم تبك على فراق حبيبته، وأنشدوا في هذا المعنى:

وأخرى بالبكا بخلت علينا

بكت عيني غداة البين دمعاً

بأن غمضتها يوم التقينا

فعاقبت التي بخلت علينا

وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: إني حرمت على القلوب أن يدخلها حيي وحب غيري. وقيل: الحبة إثارة المحبوب على النفس، كامرأة العزيز لما أفرط بها الحب، قالت: "أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين"، وفي الابتداء،

قالت: "ما جزاة من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن" فوركت الذنب في الابتداء عليه، ونادت في الانتهاء على نفسها بالحيانة.

وقال أبو سعيد الخراز: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقلت: يا رسول الله، أعذرني، فإن محبة الله شغلني عن حبك، فقال: يا مبارك، من أحب الله فقد أحبني. ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل: قوله رضي الله عنه: "يصنونون مصونه"؛ أي يكتمون من العلم الذي استحفظوه ما يجب أن يكتم. ويفجرون عيونه: يظهرون منه ما ينبغي إظهاره؛ وذلك أنه ليس ينبغي إظهار كل ما استودع العارف من الأسرار؛ وأهل هذا الفن يزعمون أن قوماً منهم عجزوا عن أن يحملوا بما حملوه، فباحوا به فهلكوا، منهم الحسين بن منصور الحلاج. ولأبي الفتوح الجارودي المتأخر أتباعٌ يعتقدون فيه مثل ذلك. والولاية، بفتح الواو: المحبة والنصرة، ومعنى "يتواصلون بالولاية" يتواصلون وهم أولياء، ومثله: "ويتلاقون بالحبة" كما تقول: خرجت بسلاحي، أي خرجت وأنا متسلح، فيكون موضع الجار والمجرور نصباً بالحال، أو يكون المعنى أَدق وألطف من هذا، وهو أن يتواصلوا بالولاية، أي بالقلوب لا بالأجسام، كما تقول: أنا أراك بقلبي، وأزورك بخاطري، وأواصلك بضميري. قوله: "ويتساقون بكأس روية"، أي بكأس المعرفة، والأنس بالله، يأخذ بعضهم عن بعض العلوم والأسرار، فكأنهم شربٌ يتساقون بكأس من الخمر. قال: "ويصدرون برية" يقال: من أين ريتكم؟ مفتوحة الراء، أي من أين ترتنون الماء؟ قال: "لا تشويههم الرية"، أي لا تخالطهم الظنة والتهمة، ولا تسرع فيهم الغيبة، لأن أسرارهم مشغولة بالحق على الخلق. قال: "على ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم"، الضمير في "عقد" يرجع إلى الله تعالى، أي على هذه الصفات والطبائع عقد الخالق تعالى، خلقتهم وخلقهم، أي هم متهيئون لما صاروا إليه، كما قال رضي الله عنه: "إذا أَرَادَكَ لأمر هياًك له". وقال رضي الله عنه: "كلٌ ميسرٌ لما خلق له". قال: "فعليه يتحابون، وبه يتواصلون"، أي ليس حبهم بعضهم بعضاً إلا في الله، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلا لله، لا للهوى، ولا لغرض من أغراض الدنيا، أنشد منشدٌ عند عمر قول طرفة:

وجدك لم أحفل متى قام عودي

كميت متى ما تعل بالماء تزبد

كسيد الغضا نبهته المتورد

ببهكنة تحت الطراف المعمد

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى

فمنهن سبقي العاذلات بشربة

وكري إذا نادى المضاف محنباً

وتقصير يوم الدجن والدجن معجبٌ

فقال عمر: وأنا لولا ثلاث هن من عيشة الفتى، لم أحفل متى قام عودي؟ حي في الله، وبغضي في الله، وجهادي في سبيل الله. قوله رضي الله عنه: "فكانوا كتفاضل البذر"، أي مثلهم مثل الحب الذي ينتقى للبذر، يستصلح بعضه، ويسقط بعضه. قد ميزه التخليص: قد فرق الانتقاء بين جيده ورديته. وهذبه التصحيح، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن المرض ليمحص الخطايا كما تمحص النار الذهب"، أي كما تخلص النار الذهب مما يشوبه. ثم أمر رضي الله عنه المكلفين بقبول كرامة الله ونصحه، ووعظه وتذكيره، وبالخذر من نزول القارعة بهم، وهي ههنا الموت، وسميت الداهية قارعة لأنها

تقرع، أي تصيب بشدة. قوله: "فليصنع لمتحوله"؛ أي فليعد ما يجب إعداده للموضع الذي يتحول إليه، تقول: اصنع لنفسك، أي اعمل لها. قوله: "ومعارف منتقله" معارف الدار: ما يعرفها المتوسم بها واحداً معرف، مثل معاهد الدار، ومعارف الدار، ومنه معارف المرأة، وهو ما يظهر منها، كالوجه واليد. والمنتقل، بالفتح: موضع الانتقال. قوله: "فطوبى" هي "فعلى" من الطيب، قلبوا الباء واواً للضممة قبلها، ويقال: طوبى لك، وطوباك؛ بالإضافة، وقول العامة: "طوبيك" بالياء غير جائز.

قوله: "لذي قلب سليم"، هو من ألفاظ الكتاب العزيز، أي سليم من الغل والشك. قوله: "أطاع من يهديه"، أي قبل مشورة الناصح الأمر له بالمعروف، والنهي له عن المنكر، وتجنب من يهديه، أي يهلكه بإغوائه وتحسين القبيح له، والباء في قوله: "ببصر من بصره"، متعلقة بـ "أصاب". قوله: "قبل أن تغلق أبوابه"، أي قبل أن يحضره الموت فلا تقبل توبته. والخبوة: الإثم. وإماطته: إزالته، ويجوز أمطت الأذى عنه، ومطت الأذى عنه، أي نحيته، ومنع الأصمعي منه إلا بالهمزة.

ومن دعاء له عليه السلام كان يدعو به كثيراً

الأصل: الحمد لله الذي لم يصح بي ميتاً ولا سقيماً، ولا مضروباً على عروقي بسوء؛ ولا مأخوذاً بأسوأ عملي، ولا مقطوعاً دابري، ولا مرتداً عن ديني، ولا منكراً لربي، ولا مستوحشاً من إيماني، ولا ملتبساً عقلي، ولا معذباً بعذاب الأمم من قبلي، أصبحت عبداً مملوكاً، ظالماً لنفسي؛ لك الحجة علي - ولا حجة لي - ولا أستطيع أن أخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتقي إلا ما وقيتني. اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك، أو أضل في هداك، أو أضام في سلطانك، أو أضطهد والأمر لك؛ اللهم أجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائمي، وأول وديعة ترتجعها من ودائع نعمك عندي؛ اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك، أو أن نفتتن عن دينك، أو نتتابع بنا أهواؤنا دون الهدى الذي جاء من عندك؛ الشرح: قوله: "كثيراً" منصوب بأنه صفة مصدر محذوف، أي دعاء كثيراً. وميتاً منصوب على الحال، أي لم يفلق الصباح علي ميتاً، ولا يجوز أن تكون "يصبح" ناقصة، ويكون "ميتاً" خبرها، كما قال الراوندي؛ لأن خبر "كان" وأخواتها، يجب أن يكون هو الاسم، ألا ترى أنهما مبتدأ وخبر في الأصل واسم "يصبح" ضمير "الله" تعالى، و "ميتاً" ليس هو الله سبحانه. قوله: "ولا مضروباً على عروقي بسوء"، أي ولا أبرص، والعرب تكني عن البرص بالسوء، ومن أمثالهم: ما أنكرت من سوء، أي ليس إنكاري لك عن برص حدث بك فغير صورتك. وأراد بعروقه أعضاءه، ويجوز أن يريد: ولا مطعوناً في نسي، والتفسير الأول أظهر، "ولا مأخوذاً بأسوأ عملي"، أي ولا معاقباً بأفحش ذنوبي، ولا مقطوعاً دابري، أي عقبي ونسلي. والدابر في الأصل: التابع، لأنه يأتي دبراً، ويقال للهلك: قد قطع الله دابره، كأنه يراد أنه عفا أثره، ومحا اسمه، قال سبحانه: "أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين". ولا مستوحشاً، أي ولا شاكاً في الإيمان، لأن من شك في عقيدة استوحش منها.

ولا ملتبساً عقلي، أي ولا مختلطاً عقلي، لبست عليهم الأمر بالفتح، أي خلطته. وعذاب الأمم من قبل المسخ والزلزلة والظلمة ونحو ذلك. قوله: "لك الحجة علي، ولا حجة لي"، لأن الله سبحانه قد كلفه بعد تمكينه وإقداره وإعلامه قبح

القبیح ووجوب الواجب وترديد دواعيه إلى الفعل وتركه، وهذه حجة الله تعالى على عباده، ولا حجة للعباد عليه، لأنه ما كلفهم إلا بما يطبقونه، ولا كان لهم لطف في أمر إلا وفعله. قوله: "لا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتقي إلا ما وقيتني"، أي لا أستطيع أن أرزق نفسي أمراً، ولكنك الرزاق، ولا أدفع عن نفسي محذوراً من المرض والموت إلا ما دفعته أنت عني. وقال الشاعر:

نوائب هذا الدهر أم كيف يحذر

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي

وما لا يرى مما بقي الله أكثر

يرى الشيء مما يتقى فيخافه

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب:

وعادة الله في الأعداء تكفينا

كفاية الله أجدى من توقينا

عيباً وطعناً وتقيحاً وتهجيناً

كاد الأعداء فما أبقوا ولا تركوا

على مقاتلتنا: الله يكفينا

ولم نزد نحن في سر وفي علن

لم ينل مأموله فينا بغیظه

وكان ذاك ورد الله حاسداً

قوله رضي الله عنه: "أن أفترق في غناك"، موضع الجار والمجرور نصب على الحال، و"في" متعلقة بمحذوف، والمعنى أن أفترق وأنت الموصوف بالغي الفائض على الخلق. وكذلك قوله: "أو أضل في هداك"، معناه: أو أضل وأنت ذو الهداية العامة للبشر كافة، وكذلك: "أو أضام في سلطانك"، كما يقول المستغيث إلى السلطان: كيف أظلم في عدلك وكذلك قوله: "أو اضطهد والأمر لك"، أي وأنت الحاكم صاحب الأمر، والطاء في "اضطهد" هي تاء الافتعال، وأصل الفعل ضهدت فلاناً، فهو مضهود، أي قهرته وفلان ضهدة لكل أحد، أي كل من شاء أن يقهره فعل. قوله: "اللهم اجعل نفسي"، هذه الدعوة مثل دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي قوله: "اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا، واجعله الوارث منا"، أي لا تجعل موثناً متأخراً عن ذهاب حواسنا. وكان علي بن الحسين يقول في دعائه: اللهم احفظ علي سمعي وبصري، إلى انتهاء أجلي. وفسروا قوله رضي الله عنه: "واجعله الوارث منا"، فقالوا: الضمير في "واجعله" يرجع إلى الإمتاع. فإن قلت: كيف يتقي الإمتاع بالسع والبصر، بعد خروج الروح؟. قلت: هذا توسع في الكلام، والمراد: لا تبلنا بالعمى ولا الصمم، فنكون أحياء في الصورة ولسنا بأحياء في المعنى، لأن من فقدهما لا خير له في الحياة، فحملته المبالغة على أن طلب بقاءهما بعد ذهاب النفس، إيداناً وإشعاراً بحبه ألا يبلى بفقدتهما ونفتن، على ما لم يسم فاعله: نصاب بفتنة تضلنا عن الدين، وروي: "نفتن" بفتح حرف المضارعة على "نفتل"، افتتن الرجل أي فتن، ولا يجوز أن يكون الافتتان متعدياً كما ذكره الراوندي، ولكنه قرأ في "الصحيح" للجوهري: "والفتون: الافتتان، يتعدى ولا يتعدى"، فظن أن ذلك للافتتان وليس كما ظن، وإنما ذلك راجع إلى الفتون. والتتابع: التهافت في اللجاج والشر، ولا يكون إلا في مثل ذلك، وروي "أو تتابع" بطرح إحدى التاءات.

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين

الأصل: أما بعد، فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم، والحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقتها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له. ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه، لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرة على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه ظروف قضائه؛ ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب، تفضلاً منه، وتوسعاً بما هو من المزيّد أهله. الشرح: الذي له عليهم من الحق هو وجوب طاعته، والذي لهم عليه من الحق هو وجوب معدلته فيهم. والحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقتها في التناصف؛ معناه أن كل أحد يصف الحق والعدل، ويذكر حسنه ووجوبه، ويقول: لو وليت لعدلت، فهو بالوصف باللسان وسيع، وبالفعل ضيق، لأن ذلك العالم العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه، ويعدون أن لو ولوا باعتماده وفعله، لا تجد في الألف منهم واحداً لو ولي لعدل. ولكنه قول بغير عمل. ثم عاد إلى تقرير الكلام الأول، وهو وجوب الحق له وعليه، فقال: إنه لا يجري لأحد إلا وجرى عليه، وكذلك لا يجري عليه إلا وجرى له، أي ليس ولا واحد من الموجودين بمرتفع عن أن يجري الحق عليه، ولو كان أحد من الموجودين كذلك لكان أحقهم بذلك البارئ سبحانه، لأنه غاية الشرف، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والتمام، وهو مالك الكل، وسيد الكل، فلو كان لجواز هذه القضية وجه، ولصحتها مساغ، لكان البارئ تعالى أولى بها، وهي ألا يستحق عليه شيء، وتقدير الكلام: لكنه يستحق عليه أمور، فهو في هذا الباب كالواحد منا يستحق ويستحق عليه، ولكنه رضي الله عنه حذف هذا الكلام المقدر، أدباً وإجلالاً لله تعالى أن يقول: إنه يستحق عليه شيء. فإن قلت: فما بال المتكلمين لا يتأدبون بأدبه رضي الله عنه وكيف يطلقون عليه تعالى الوجوب والاستحقاق، قلت: ليست وظيفة المتكلمين وظيفة أمير المؤمنين رضي الله عنه في عباراتهم، هؤلاء أرباب صناعة، وعلم يحتاج إلى ألفاظ واصطلاح لا بد لهم من استعماله، للإفهام والجدل بينهم، وأمير المؤمنين إمام يخطب على منبره، يخاطب عرباً ورعية ليسوا من أهل النظر، ولا نخاطبته لهم لتعليم هذا العلم، بل لاستنفارهم إلى حرب عدوه، فوجب عليه بمقتضى الأدب أن يتوقى كل لفظة توهم ما يستهجنه السامع في الأمور الإلهية وفي غيرها. فإن قلت: فما هذه الأمور التي زعمت أنها تستحق على البارئ سبحانه، وأن أمير المؤمنين رضي الله عنه حذفها من اللفظ، واللفظ يقتضيها؟ قلت: الثواب، والعوض، وقبول التوبة، واللطف، والوفاء بالوعد، والوعيد، وغير ذلك مما يذكره أهل العدل. فإن قلت: فما معنى قوله: "لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرة على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه ظروف قضائه؟" وهب أن تعليل عدم استحقاق شيء على الله تعالى بقدرته على عباده صحيح، كيف يصح تعليل ذلك بعدله في كل ما جرت عليه ظروف قضائه؟ ألا ترى أنه ليس بمستقيم أن تقول لا يستحق على البارئ شيء، لأنه عادل، وإنما المستقيم أن تقول لا يستحق عليه شيء، لأنه مالك، ولذلك عللت الأشعرية هذا الحكم بأنه مالك الكل، والاستحقاق إنما يكون على من دونه.

قلت: التعليل صحيح، وهو أيضاً مما عللت به الأشعرية مذهبها، وذلك لأنه إنما يتصور الاستحقاق على الفاعل المختار إذا كان ممن يتوقع منه أو يصح منه أن يظلم، فيمكن حينئذ أن يقال: قد وجب عليه كذا، واستحق عليه كذا، فأما من لا يمكن أن يظلم، ولا يتصور وقوع الظلم منه، ولا الكذب، ولا خلف الوعد والوعيد، فلا معنى لإطلاق الوجوب

والاستحقاق عليه، كما لا يقال: كذا الداعي الخالص يستحق عليه أن يفعل ما دعاه إليه الداعي، ويجب عليه أن يفعل ما دعاه إليه الداعي، مثل الهارب من الأسد، والشديد العطش إذا وجد الماء، ونحو ذلك.

فإن قلت: أليس يشعر قوله عليه السلام: "وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه" بمذهب البغداديين من أصحابكم، وهو قولهم: إن الثواب تفضل من الله سبحانه، وليس بواجب!

قلت: لا، وذلك لأنه جعل المتفضل به، هو مضاعفة الثواب، لا أصل الثواب، وليس ذلك بمستنكر عندنا. فإن قلت: أيجوز عندكم أن يستحق المكلف عشرة أجزاء من الثواب فيعطى عشرين جزءاً منه؟ أليس من مذهبكم أن التعظيم والتبجيل لا يجوز من البارئ سبحانه أن يفعلهما في الجنة إلا على قدر الاستحقاق، والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل؟ فكيف قلت: إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة؟ قلت: مراده عليه السلام بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقة من النعيم واللذة الجسمانية خاصة في الجنة، فسمى تلك اللذة الجسمانية ثواباً لأنها جزء من الثواب، فأما اللذة العقلية فلا يجوز مضاعفتها. قوله عليه السلام: "بما هو من المزيّد أهله"، أي بما هو أهله من المزيّد، فقدّم الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال، وفيه دلالة على أن حال المجرور تتقدم عليه، كما قال الشاعر:

لئن كان برد الماء حرّان صادياً إليّ حبيباً إنها لحبيب

الأصل: ثم نجعل سبحانه من حقوقه حقاً أفترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تكافاً في وجوهها، ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض. وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية، وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل، فجعلها نظاماً لألفتهم، وعزاً لدينهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاية، ولا تصلح الولاية إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عزّ الحقّ بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وحرّص على أدلاها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليهما، أو أجحف الوالي برعيته؛ اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال في الدين، وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالك تذلل الأبرار، وتعرّ الأشرار، وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد. فعليكم بالنصاح في ذلك، وحسن التعاون عليه، فليس أحدٌ وإن أشدّ على رضا الله حرصه، وطال في العمل اجتهاده، ببالح حقيقة ما الله سبحانه أهله؛ من الطاعة له. ولكن من واجب حقوق الله سبحانه على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدمت في الدين فضيلته، بفوق أن يعان على ما حمّله من حقه؛ ولا امرؤ وإن صغرت النفوس، واقتحمته العيون، بدون أن يعين على ذلك، أو يعان عليه.

الشرح: تتكافأ في وجوهها: تتساوى وهي حق الوالي على الرعية، وحق الرعية على الوالي. وفريضة، قد روي بالنصب والرفع، فمن رفع فخير مبتدأ محذوف، ومن نصب فياضمار فعل، أو على الحال. وجرت على أدلاها السنن، بفتح الهمزة، أي على مجاريها وطرقها، وأجحف الوالي برعيته: ظلمهم، والإدغال في الدين: الفساد. ومحاج السنن: جمع محجة، وهي

جادة الطريق. قوله: "وكثر علة النفوس"، أي تعللها بالباطل. ومن كلام الحجاج: إياكم وعلل النفوس، فإنها أدوى لكم من علة الأجساد. واقتحمته العيون: احتقرته وازدرته، قال ابن دريد:

ذقت جناح لساغ عذاباً في الله

ومنه ماتتحم العين فإن

ومثل قوله رضي الله عنه: "ليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته"، قول زيد بن علي رضي الله عنه لهشام بن عبد الملك: إنه ليس أحدٌ وإن عظمت منزلته بفوق أن يذكر بالله، ويحذر من سطوته، وليس أحد وإن صغر بدون أن يذكر بالله ويخوف من نعمته. وعمل قوله رضي الله عنه: "وإذا غلبت الرعية واليهما" قول الحكماء: إذا علا صوت بعض الرعية على الملك فالملك مخلوع، فإن قال: نعم، فقال أحد من الرعية: لا، فالملك مقتول.

ما ورد من الأخبار فيما يصلح الملك

وقد جاء في وجوب الطاعة أولي الأمر الكثير الواسع، قال الله سبحانه: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بما فلا سمع ولا طاعة". وعنه صلى الله عليه وسلم: "إن أمر عليكم عبدٌ أسود مجدع فاسمعوا له وأطيعوا". ومن كلام علي رضي الله عنه: "إن الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفجرة". بعث سعد بن أبي وقاص جريز بن عبد الله البجلي من العراق إلى عمر بن الخطاب بالمدينة، فقال له عمر: كيف تركت الناس؟ قال: تركتهم كقداح الجعبة، منها الأعصل الطائش، ومنها القائم الرائش. قال: فكيف سعدٌ لهم؟ قال: هو ثقافها، الذي يقيم أودها، ويغمز عصيها. قال: فكيف طاعتهم؟ قال: يصلون الصلاة لأوقاتها، ويؤدون الطاعة إلى ولائها. قال: الله أكبر إذا أقيمت الصلاة، أدت الزكاة؛ وإذا كانت الطاعة، كانت الجماعة. ومن كلام ابرويز الملك: أطع من فوقك يطعك من دونك. ومن كلام الحكماء: قلوب الرعية خزائن واليهما، فما أودعه فيها وجده. وكان يقال: صنفان متباغضان متنافيان: السلطان والرعية؛ وهما مع ذلك متلازمان، أن صلح أحدهما صلح الآخر، وإن فسد فسد الآخر. وكان يقال: محل الملك من رعيته محل الروح من الجسد، ومحل الرعية منه محل الجسد من الروح، فالروح تألم بألم كل عضو من أعضاء البدن، وليس كل واحدٍ من الأعضاء يألم بألم غيره، وفساد الروح فساد جميع البدن، وقد يفسد بعض البدن وغيره من سائر البدن صحيح. وكان يقال: ظلم الرعية استجلاب البلية. وكان يقال: العجب ممن استفسد رعيته، وهو يعلم أن عزه بطاعتهم وكان يقال: موت الملك الجائر خصب شامل. وكان يقال: لا قحط أشد من جور السلطان. وكان يقال: قد تعامل الرعية المشمئزة بالرفق؛ فتزول أحقادها، ويذل قيادها، وقد تعامل بالخرق فتكاشف بما غيبت، وتقدم على ما عيبت؛ حتى يعود نفاقها شفاقاً، ورذاذها سيلاً بعاقاً. ثم إن غلبت وقهرت فهو الدمار، وإن غلبت وقهرت لم يكن بغلبها افتخار، ولم يدرك بقهرها ثار. وكان يقال: الرعية وإن كانت ثماراً مجتناة؛ وذخائر ممتناة، وسيوفاً منتضاة، وأحراساً مرتضاة؛ فإن لها نفاقاً كنفاً الوحوش، وطغياناً كطغيان السيول؛ ومتى قدرت أن تقول، قدرت على أن تصول. وكان يقال: أيدي الرعية تبع ألسنتها؛ فلن يملك الملك ألسنتها حتى يملك جسومها ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه،

ولن تحبه حتى يعدل عليها في أحكامه عدلاً يتساوى فيه الخاصة والعامة؛ وحتى يخفف عنها المؤن والكلف، وحتى يعفيها من رفع أوضاعها وأرذلها عليها؛ وهذه الثالثة تحقد على الملك العلية من الرعية، وتطمع السفلة في الرتب السنية. وكان يقال: الرعية ثلاثة أصناف: صنف فضلاء مرتاضون بحكم الرياسة والسياسة، يعلمون فضيلة الملك وعظيم غناؤه، ويرثون له من ثقل أعبائه، فهؤلاء يحصل الملك موداتهم بالبشر عند اللقاء، ويلقى أحاديثهم بحسن الإصغاء. وصنف فيهم خير وشر ظاهران، فصلاحيهم يكتسب من معاملتهم بالترغيب والترهيب؛ وصنف من السفلة الرعاع أتباع لكل داع؛ لا يمتحنون في أقوالهم وأعمالهم بنقد، ولا يرجعون في الموالة إلى عقد. وكان يقال: ترك المعاقبة للسفلة على صغار الجرائم تدعوهم إلى ارتكاب الكبائر العظام؛ ألا ترى أول نشوز المرأة كلمة سوحت بها، وأول حران الدابة حيدة سوعدت عليها. ويقال: إن عثمان قال يوماً لجلسائه، وهو محصور في الفتنة: وددت أن رجلاً صدوقاً أخبرني عن نفسي وعن هؤلاء فقام

إليه فتى فقال: إني أخبرك؛ تطأطأت لهم فركبوك، وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك. قال: صدقت، فهل تعلم ما يشب نيران الفتن قال: نعم، سألت عن ذلك شيخاً من تنوخ كان باقعة، قد نقب في الأرض وعلم علماً جماً، فقال: الفتنة يثيرها أمران: أثره تضغن على الملك الخاصة، وحلم يجزىء عليه العامة. قال: فهل سألتها عما يخدمها؟ قال: نعم، زعم أن الذي يخدمها في ابتدائها استقالة العثرة وتعميم الخاصة بالأثرة، فإذا استحكمت الفتنة أحمدها الصبر. قال عثمان: صدقت؛ وإني لصابر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. ويقال: إن يزدجرد بن بهرام سأل حكيماً: ما صلاح الملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منها بغير عنف والتودد إليها بالعدل وأمن السبل وإنصاف المظلوم. قال: فما صلاح الملك؟ قال: وزراؤه؛ إذا صلحوا صلح. قال: فما الذي يثير الفتن؟ قال: ضغائن يظهرها جرأة عامة، واستخفاف خاصة، وانبساط الألسن بضمائر القلوب، وإشفاق موسر، وأمن معسر، وغفلة مرزوق، وبقظة محروم. قال: وما يسكنها؟ قال: أخذ العدة لما يخاف، وإيثار الجد حين يلتذ الهزل، والعمل بالحزم، وإدراع الصبر، والرضا بالقضاء. وكان يقال: خير الملوك من أشرب قلوب رعيته محبته، كما أشعرها هيئته، ولن ينال ذلك منها حتى تظفر منه بخمسة أشياء: إكرام شريفها، ورحمة ضعيفها، وإغاثة لحيها، وكف عدوان عدوها، وتأمين سبل رواحها وغدوها، فمضى أعدمها شيئاً من ذلك، فقد أحقدتها بقدر ما أفقدتها. وكان يقال: الأسباب التي تجر الهلك إلى الملك ثلاثة: أحدها من جهة الملك، وهو أن تتأمر شهواته على عقله، فتستهويه نشوات الشهوات فلا تسنح له لذة إلا اقتنصها، ولا راحة إلا افترصها. والثاني من جهة الوزراء، وهو تحاسدهم المقتضي تعارض الآراء، فلا يسبق أحدهم إلى حق إلا كويد وعورض وعوند. والثالث من جهة الجند المؤهلين لحراسة الملك والدين، وتوهين المعاندين، وهو نكولهم عن الجلال، وتضجيعهم في المناصحة والجهاد، وهم صنفان: صنف ولسع الملك عليهم فأبطرهم الإتراف، وضنوا بنفوسهم عن التعريض للإتلاف، وصنف قدر عليهم الأرزاق، فاضطغنوا الأحقاد واستشعروا النفاق.

أخبار في العدل والانصاف

قوله رضي الله عنه: "أو أجحف الوالي برعيته"، قد جاء من نظائره الكثير جداً، وقد ذكرنا فيما تقدم نكتاً حسنة في مدح العدل والإنصاف، وذم الظلم والإجحاف. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "زين الله السماء بثلاثة: الشمس، والقمر، والكواكب. وزين الأرض بثلاثة: العلماء، والمطر، والسلطان العادل". وكان يقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بإنصاف الرعية خرب ملكه بعصيان الرعية. وقيل لأنوشروان: أي الجنن أوقى؟ قال: الدين، قيل: فأى العدد أقوى؟ قال: العدل. وقع جعفر بن يحيى إلى عامل من عماله: كثر شاكوك، وقل حامدوك، فإما عدلت، وإما اعتزلت. وجد لا خزانة بعض الأكاسرة سفت، ففتح فوجد فيه حب الرمان، كل حبة كالنواة الكبيرة من نوى المشمش، وفي السفط رقعة فيها: هذا حب رمان عملنا في خراجه بالعدل. جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب متظلماً، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مكان العائد بك. قال له: عدت بمعاذ، ما شأنك؟ قال: سابقت ولد عمرو بن العاص بمصر فسبقتة، فجعل يعنفني بسوطه، ويقول: أنا ابن الأكرمين وبلغ أباه ذلك، فحبسني خشية أن أقدم عليك؟ فكتب إلى عمرو: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وابنك. فلما قدم عمرو وابنه، دفع الدرة إلى المصري، وقال: اضربه كما ضربك، فجعل يضربه وعمر يقول: اضرب ابن الأمير، اضرب ابن الأمير يرددها، حتى قال: يا أمير المؤمنين قد استقدت منه، فقال - وأشار إلى عمرو: ضعها على صلعتة، فقال المصري: يا أمير المؤمنين، إنما أضرب من ضربني، فقال: إنما ضربك بقوة أبيه وسلطانته، فاضربه إن شئت؟ فوالله لو فعلت لما منعك أحد منه، حتى تكون أنت الذي تتبرع بالكف عنه ثم قال: يا بن العاص، متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً خطب الإسكندر جنده، فقال لهم بالرومية كلاماً تفسيره: يا عباد الله، إنما لكم الله الذي في السماء، الذي نصرنا بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب. والله لا يبلغني أن الله أحب شيئاً إلا أحببته وعملت به إلى يوم أجلي، ولا يبلغني أنه أبغض شيئاً إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي. وقد انبئت أن الله يحب العدل في عباده، ويبغض الجور، فويل للظالم من سوطي وسيفي ومن ظهر منه العدل من عمالي فليتكىء في مجلسي كيف شاء؛ وليتمن علي ما شاء، فلن تخطئه أمنيته والله المجازي كلاً بعمله.

قال رجل لسليمان بن عبد الملك وهو جالس للمظالم: يا أمير المؤمنين، ألم تسمع قول الله تعالى: "فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين" قال: ما خطبك؟ قال: وكيلك اغتصبني ضيعتي وضمها إلى ضيعتك الفلانية. قال: فإن ضيعتي لك، وضيعتك مردودة إليك. ثم كتب إلى الوكيل بذلك، وبصرفه عن عمله. ورقى إلى كسرى قباد أن في بطانة الملك قوماً قد فسدت نياتهم، وخبثت ضمائرهم، لأن أحكام الملك جرت على بعضهم لبعضهم، فوقع في الجواب: أنا أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالهوى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر. وتظلم أهل الكوفة إلى المأمون من واليهم، فقال: ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية، ولا أعود عليهم بالرفق منه. فقال له منهم واحد: فلا أحد أولى منك يا أمير المؤمنين بالعدل والإنصاف، وإذا كان بهذه الصفة فمن عدل أمير المؤمنين أن يوليه بلداً بلداً، حتى يلحق أهل كل بلد من عدله، مثل ما لحقنا منه، ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذ منه سواهم، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثر من ثلاث سنين. فضحك وعزله. كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن قبلنا قوماً

لا يؤدون الخراج إلا أن يمسه من العذاب، فكتب إلى أمير المؤمنين برأيك. فكتب: أما بعد، فالعجب لك كل العجب تكتب إلي تستأذني في عذاب البشر، كأن إذني لك جنة من عذاب الله، أو كأن رضاي ينجيك من سخط الله فمن أعطاك ما عليه عفواً فخذ منه، ومن أبي فاستحلفه، وكله إلى الله، فلأن يلقوا الله بجرائمهم أحب إلي من أن ألقاه بعذابهم. فضيل بن عياض: ما ينبغي أن تتكلم بفيك كله أتدري من كان يتكلم بفيه كله عمر بن الخطاب كان يعدل في رعيته، ويجور على نفسه، ويطعمهم الطيب، ويأكل الغليظ، ويكسوهم اللين ويلبس الخشن، ويعطيهم الحق ويزيدهم، السفط: ما يعبأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء، والسفط أيضاً: وعاء كالقفة استقدت منه: أي اصصته بما فعل بي الكرب: الثدة النصب: أشد التعب الجنة: الستر الدرة: السوط سورة الأعراف.

ويمنع ولده وأهله، أعطى رجلاً عطائه أربعة آلاف درهم، ثم زاده ألفاً، فقيل له: إلا تزيد ابنك عبد الله كما تزيد هذا؟ فقال: إن هذا ثبت أبوه يوم أحد، وإن عبد الله فر أبوه ولم يثبت.

وكان يقال: لا يكون العمران، إلا حيث يعدل السلطان.

وكان يقال: العدل حصن وثيق، في رأس نيق، لا يحطمه سيل، ولا يهدمه منجنيق.

وقع المأمون إلى عامل كثر التظلم منه: أنصف من وليت أمرهم، وإلا أنصفهم منك من ولي أمرك.

بعض السلف: العدل ميزان الله، والجور مكيال الشيطان.

ومن كلام له رضي الله عنه

رد علي رجل أكثر الثناء عليه الأصل: فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه، ويذكر سمعه وطاعته له، فقال عليه السلام: إن من حق من عظم جلال الله سبحانه في نفسه، وجل موضعه من قلبه، أن يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه، وإن أحق من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه، ولطف إحسانه إليه، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد، إلا أزداد حق الله عليه عظماً.

وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس، أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر.

وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أنني أحب الإطراء، واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء.

وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تتنوا علي بجميل ثناء، لإخراجي نفسي إلى الله سبحانه وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لا بد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبارة، ولا تتحفظوا بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقلاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من أستثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه.

فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطيء، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره؟ يملك منا ما لا نملك من أنفسنا وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى.

الشرح: هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلها أن تشرح، ففيه معان مختلفة سبيلها أن تذكر وتوضح، وتذكر نظائرها وما يناسبها.

فمنها قوله رضي الله عنه: إن من حق من عظمت نعمة الله عليه أن تعظم عليه حقوق الله تعالى، وأن يعظم جلال الله تعالى في نفسه، ومن حق من كان كذلك، أن يصغر عنده كل ما سوى الله.

وهذه مقام جليل من مقامات العارفين، وهو استحقاق كل ما سوى الله تعالى، وذلك أن من عرف الله تعالى فقد عرف ما هو أعظم من كل عظيم، بل لا نسبة لشيء من الأشياء أصلاً إليه سبحانه، فلا يظهر عند العارف عظمة غيره البتة، كما أن من شاهد الشمس المنيرة يستحق ضوء القمر والسراج الموضوع في ضوء الشمس، حال مشاهدته جرم الشمس، بل لا تظهر له في تلك الحال صنوبرة السراج، ولا تنطبع صورتها في بصره.

ومنها قوله رضي الله عنه: من أسخف حالات الولاية أن يظن بهم حب الفخر ويوضع أمرهم على الكبر. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر".

وقال صلى الله عليه وسلم: "لولا ثلاث مهلكات لصلح الناس: شح مطاع. وهوى متمع، وإعجاب المرء بنفسه". وكان يقال: ليس لمعجب رأي، ولا لمتكبر صديق.

وكان أبو مسلم صاحب الدولة يقول: ما تاه إلا وضيع، ولا فاخر إلا لقيط، ولا تعصب إلا دخيل.

وقال عمر لبعض ولده: التمس الرفعة بالتواضع، والشرف بالدين، والعفو من الله بالعفو عن الناس، وإياك والخيلاء فتضع من نفسك، ولا تحقرن أحداً، لأنك لا تدري لعل من تزدرية عينك أقرب إلى الله وسيلة منك.

ومنها قوله رضي الله عنه: قد كرهت أن تظنوا بي حب الإطراء واستماع الثناء. قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "احثوا في وجوه المداحين التراب". وقال عمر: المدح هو الذبح.

وكان يقال: إذا سمعت الرجل يقول فيك من الخير ما ليس فيك، فلا تأمن أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك.

ويقال: إن في بعض الكتب المتزلة القديمة: عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح! ولمن قيل فيه الشر وليس فيه كيف يغضب! وأعجب من ذلك من أحب نفسه على اليقين، وأبغض الناس على الظن.

وكان يقال: لا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك.

وقال رجل لعبد الملك: إني أريد أن أسر إليك يا أمير المؤمنين شيئاً، فقال لمن حوله: إذا شئتم فانهضوا! فتقدم الرجل يريد الكلام، فقال له عبد الملك: قف، لا تمدحني فإني أعلم بنفسك منك، ولا تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب، ولا تغتب عندي أحداً، فإني أكره الغيبة، قال: أفيأذن أمير المؤمنين في الانصراف! قال: إذا شئت.

ونظر المأمون محمد بن القاسم النوشجاني في مسألة كلامية، فجعل النوشجاني يخضع في الكلام، ويستخذي له، فقال: يا

محمد، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجة لي عليك. وقد ساءني منك ذلك، ولو شئت أن أفسر الأمور بعزة

الخلافة، وهيبة الرئاسة لصدقت وإن كنت كاذباً، وعدلت وإن كنت جائراً، وصوبت وإن كنت مخطئاً، ولكني لا أقنع إلا بإقامة الحجة، وإزالة الشبهة؟ وإن أنقص الملوك عقلاً، وأسخفهم رأياً من رضي بقولهم: صدق الأمير! وقال عبد الله بن

المقفع في اليتيمة: إياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتركية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلثة من الثلم يقتحمون عليك منها، وباباً يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها، ويسخرون منك لها. وأعلم أن قابل المدح كمداح نفسه، وأن المرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده، فإن الراد له ممدوح، والقابل له معيب. وقال معاوية لرجل: من سيد قومك؟ قال: أنا، قال: لو كنت كذلك لم تقله.

وقال الحسن: ذم الرجل نفسه في العلانية مدح لها في السر.

كان يقال: من أظهر عيب نفسه فقد زكاها.

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: لو كنت كذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ما هو أحق به من الكبرياء. في الحديث المرفوع: "من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله".

وفيه أيضاً: العظمة إزارى، والكبرياء ردائي، فمن نازعي فيهما قصمته.

ومنها قوله رضي الله عنه: "فلا تكلموني بما تكلم به الجابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة".

أحسن ما سمعته في سلطان لا تخاف الرعية بادرته، ولا يتلجلج المتحاكمون عنده؟ مع سطوته وقوته، لإيثاره العدل، قول أبي تمام في محمد بن عبد الملك:

ديوان ملك، وشيعي، ومحتسب

والوخد والملع والتقريب والخبب

من مسه وبه من مسها جلب

في رحله ألسن الأقوام والركب

يوماً، ولا حجة الملهوف تستلب

لا القلب يهفو ولا الأحشاء تضطرب

وزير حق، ووالي شرطة ورحا

كالأرحبي المذكي لسيره المرطى

عود تساجله أيامه فيها

ثبت الخطاب إذا اصطكت بمظلمة

لا المنطق اللغو يزكو في مقاومه

كأنما هو في نادي قبيلته

ومن هذا المعنى قول أبي الجهم العدوي، في معاوية:

فنخبر منهما كرمًا ولينا

إذا ملنا نميل على أبينا

نقلبه لنخبر حالتيه

نميل على جوانبه كأننا

ومنها قوله رضي الله عنه: لا تظنوا بي استئصال رفع الحق إلي، فإنه من استئصل الحق أن يقال له، كان العمل به عليه أثقل، هذا معنى لطيف، ولم أسمع فيه شيئاً منشوراً ولا منظوماً.

ومنها قوله رضي الله عنه: ولا تكفوا عن قول بحق أو مشورة بعدل.

قد ورد في المشورة شيء كثير: قال الله تعالى: "وشاورهم في الأمر".

وكان يقال: إذا استشرت إنساناً صار عقله لك.

وقال أعرابي: ما غبت قط حتى يغيب قومي، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم.

وكان يقال: من أعطي الاستشارة لم يمنع الصواب، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخير، ومن أعطي التوبة لم يمنع

القبول، ومن أعطي الشكر لم يمنع المزيد.

وفي آداب ابن المقفع: لا يقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر منك للناس حاجتك إلى رأي غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة، فإنك لا تريد الرأي للفخر، ولكن للانتفاع به؟ ولو أنك أردته للذكر لكان أحسن الذكر عند العقلاء أن يقال: إنه لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله رضي الله عنه: وربما استحلّ الناس الثناء بعد البلاء... إلى قوله: لا بد من إمضائها؟ فنقول: إن معناه أن بعض من يكره الإطراء والثناء، قد يحب ذلك بعد البلاء والاختبار، كما قال مرداس بن أدوية لزياد: إنما الثناء بعد البلاء، وإنما نثني بعد أن نبتلي؟ فقال: لو فرضنا أن ذلك سائع وجائر وغير قبيح، لم يجوز لكم أن تنثوا علي في وجهي، ولا جاز لي أن أسمع منكم؟ لأنه قد بقيت علي بقية لم أفرغ من أدائها، وفرائض لم أمضها بعد، ولا بد لي من إمضائها؟ وإذا لم يتم البلاء الذي قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده، لم يحسن الثناء.

ومعنى قوله: لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم، أي لاعتراضي بين يدي الله ومحضر منكم أن علي حقوقاً في إيايالكُم، ورياسي عليكم، لم أقم بها بعد، وأرجو من الله القيام بها.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله: فلا تخالطوني بالمصانعة؟ فنقول: إن معناه لا تصانعوني بالمدح والإطراء عن عمل الحق، كما يصانع به كثير من الولاة الذين يستفزههم المدح ويستخفهم الإطراء والثناء، فيغمضون عن اعتماد كثير من الحق مكافأة لما صونعوا به من التقريظ والتركية والنفاق.

ومنها قوله رضي الله عنه: فإني لبست بفوق أن أخطئ؟ هذا اعتراف منه رضي الله عنه بعدم العصمة، فإما أن يكون الكلام على ظاهره، أو يكون قاله على سبيل هضم النفس، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولا أنا إلا أن يتداركني الله لرحمته".

ومنها قوله رضي الله عنه: أخرجنا مما كنا فيه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى. ليس هذا إشارة إلى خاص نفسه رضي الله عنه، لأنه لم يكن كافراً فأسلم، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفناء الناس، فيأتي بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسعاً، ويجوز أن يكون معناه: لولا ألطاف الله تعالى ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم لكنت أنا وغيري على أصل مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام، كما قال تعالى لنبيه: "ووجدك ضالاً فهدى" ليس معناه أنه كان كافراً، بل معناه: لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحد من قومك. ومعنى "ووجدك ضالاً"، أي ووجدك بعرضة للضلال، فكأنه ضال بالقوة لا بالفعل.

قال يشكو فيه أمر قريش

الأصل: اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قد قطعوا رحمي؟ وأكفئوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: ألا إن في الحق أن تأخذ، وفي الحق أن تمنعه، فاصبر مغموماً، أو مت متأسفاً. فنظرت فإذا ليس لي رافد، ولا ذاب ولا مساعد، إلا أهل بيتي؟ فضننت بهم عن المنية، فأغضيت على القذى، وجرعت

ريقي على الشجاء، وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم، وآلم للقلب من وخز الشفار.

قال الرضي رحمه الله: وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدمة، إلا أي ذكرته ههنا لاختلاف الروايتين.

الشرح: العدو: طلبك إلى وال ليعديك على من ظلمك، أي ينتقم لك منه، يقال: استعديت الأمير على فلان فأعداني، أي استعنت به عليه فأعاني.

وقطعوا رحمي: وقطعوا قرابتي، أي أجروني مجرى الأجانب ويجوز أن يريد أنهم عدوني كالأجنبي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجوز أن يريد أنهم جعلوني كالأجنبي منهم؟ لا ينصرونه، ولا يقومون بأمره.

وأكفأوا إنائي: قلبوه وكبوه، وحذف الهمزة من أول الكلمة أفصح وأكثر، وقد روي كذلك، ويقال لمن قد اضيعت حقوقه: قد أكفأ إناءه، تشبيهاً بإضاعة اللبن من الإناء.

وقد اختلفت الرواية في قوله: "ألا إن في الحق أن تأخذه، فرواها قوم بالنون، وقوم بالتاء. وقال الراوندي: إنها في خط الرضي بالتاء. ومعنى ذلك أنك إن وليت أنت كانت ولايتك حقاً، وإن ولي غيرك كانت ولايته حقاً، على مذهب أهل الاجتهاد. ومن رواها بالنون، فالمعنى ظاهر.

والرافد: المعين. والذاب: الناصر، وضننت بهم: بخلت بهم. وأغضيت على كذا: صبرت، وجرعت بالكسر. والشجا: ما يعترض في الحلق، والوخز: الطعن الخفيف، وروي من حز الشفار والحز: القطع، والشفار: جمع شفرة، وهي حد السيف والسكين.

واعلم أن هذا الكلام قد نقل عن أمير المؤمنين رضي الله عنه ما يناسبه، ويجري مجراه، ولم يؤرخ الوقت الذي قاله فيه، ولا الحال التي عنها به، وأصحابنا يحملون ذلك على أنه رضي الله عنه قاله عقيب الشورى وبيعة عثمان، فإنه ليس يرتاب أحد من أصحابنا على أنه تظلم وتألم حينئذ.

ويكره أكثر أصحابنا حمل أمثال هذا الكلام على التألم من يوم السقيفة.

ولقائل أن يقول لهم: أتقولون إن بيعة عثمان لم تكن صحيحة؟ فيقولون: لا، فيقال لهم: فعلى ماذا تحملون كلامه رضي الله عنه، مع تعظيمكم له وتصديقكم لأقواله؟ فيقولون: نحمل ذلك على تألمه وتظلمه منهم إذ تركوا الأولى والأفضل.

فيقال لهم: فلا تكرهوا قول من يقول من الشيعة وغيرهم: إن هذا الكلام وأمثاله صدر عنه عقيب السقيفة، وحملوه على أنه تألم وتظلم من كونهم تركوا الأولى والأفضل، فإنكم لستم تنكرون أنه كان الأفضل والأحق بالأمر، بل تعترفون

بذلك، وتقولون: ساءت إمامة غيره، وصحت لما منع كان فيه رضي الله عنه، وهو ما غلب على ظنون العقادين للأمر من أن العرب لا تطيعه، فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولي الخلافة لأسباب يذكرونها، ويعدونها، وقد روى كثير من المحدثين أنه عقيب يوم السقيفة تألم وتظلم، واستنجد واستصرخ، حيث ساموه الحضور والبيعة، وأنه قال وهو يشير إلى القبر: "يا بن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني" وأنه قال: واجعفر! ولا جعفر لي اليوم! واحمزتاه ولا حمزة لي اليوم! اليوم!

وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدم، وكل ذلك محمول عندنا على أنه طلب الأمر من جهة الفضل والقربة، وليس بدال عندنا على وجود النص، لأنه لو كان هناك نص لكان أقل كلفة وأسهل طريقاً، وأيسر لما يريد تناولا أن

يقول: يا هؤلاء إن العهد لم يطل، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمركم لطاعتي، واستخلفني عليكم بعده، ولم يقع منه رضي الله عنه بعد ما علمتموه نص ينسخ ذلك، ولا يرفعه، فما الموجب لتركي، والعدول عني!
 فإن قالت الإمامية: كان يخاف القتل لو ذكر ذلك، قيل لهم: فهلا يخاف القتل وهو يعتل ويدفع لبياع، وهو يمتنع، ويستصرخ تارة بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتارة بعمه حمزة وأخيه جعفر وهما ميتان وتارة بالأنصار، وتارة ببني عبد مناف، ويجمع الجموع في داره، ويث الرسل والدعاة ليلاً ونهاراً إلى الناس، يذكرهم فضله وقرابته، ويقول للمهاجرين: خصمتم الأنصار بكونكم أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أخصمكم بما خصمتم به الأنصار، لأن القرابة إن كانت هي المعتبرة، فأنا أقرب منكم.

وهلا خاف من هذا الامتناع، ومن هذا الاحتجاج، ومن الخلوة في داره بأصحابه، ومن تنفير الناس عن البيعة التي عقدت حينئذ لمن عقدت له، وكل هذا إذا تأمله المنصف علم أن الشيعة أصابت في أمر، وأخطأت في أمر، أما الأمر الذي أصابت فيه فقولها: إنه امتنع وتلكأ، وأراد الأمر لنفسه، وأما الأمر الذي أخطأت فيه، فقولها: إنه كان منصوباً عليه نصاً جلياً بالخلافة، تعلمه الصحابة كلها أو أكثرها، وإن ذلك النص خولف طلباً للرئاسة الدنيوية، وإثارة للعاجلة. وإن حال المخالفين للنص لا تعدو أحد أمرين: إما الكفر أو الفسق، فإن قرائن الأحوال وأماراتها لا تدل على ذلك، وإنما تدل وتشهد بخلافه، وهذا يقتضي أن أمير المؤمنين رضي الله عنه كان في مبدأ الأمر يظن أن العقد لغيره كان عن غير نظر في المصلحة، وأنه لم يقصد به إلا صرف الأمر عنه، والاستئثار عليه، فظهر منه ما ظهر من الامتناع والقيود في بيته، إلى أن صح عنده، وثبت في نفسه، أنهم أصابوا فيما فعلوه، وأنهم لم يميلوا إلى هوى، ولا أرادوا الدنيا، وإنما فعلوا الأصلح في ظنونهم، لأنه رأى من بغض الناس له، وانحرافهم عنه، وميلهم عليه، وثوران الأحقاد التي كانت في أنفسهم، واحتدام النيران التي كانت في قلوبهم، وتذكروا الترات التي وترهم فيما قبل بها، والدماء التي سفكها منهم، وأراقها. وتعلل طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغر سنه، واستهجانهم تقديم الشباب على الكهول والشيخوخ.

وتعلل طائفة أخرى منهم بكرهية الجمع بين النبوة والخلافة في بيت واحد، فيجفخون على الناس كما قاله من قاله. واستصعاب قوم منهم شكيمته وخوفهم تعديده وشدته، وعلمهم بأنه لا يداجي ولا يحابي، ولا يراقب ولا يجامل في الدين، وأن الخلافة تحتاج إلى من يجتهد برأيه، ويعمل بموجب استصلاحه، وانحراف قوم آخرين عنه، للحسد الذي كان عندهم له في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لشدة اختصاصه له، وتعظيمه إياه، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالة على رفعة شأنه وعلو مكانه، وما اختص به من مصاهرته وأخوته، ونحو ذلك من أحواله معه، وتنكر قوم آخرين له لنسبتهم إليه العجب والته، كما زعموا، واحتقاره العرب، واستصغاره الناس كما عدوه عليه، وإن كانوا عندنا كاذبين، ولكنه قول قيل، وأمر ذكر، وحال نسبت إليه، وأعانهم عليها ما كان يصدر عنه من أقوال توهم مثل هذا، نحو قوله: إنا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا، وما صح به عنده أن الأمر لم يكن ليستقيم له يوماً واحداً، ولا ينتظم ولا يستمر، وأنه لو ولي الأمر لفتقت العرب عليه فتقاً يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه، فأذعن بالبيعة، وجنح إلى الطاعة وأمسك عن طلب الإمرة، وإن كان على مضض ورمض.

وقد روي عنه رضي الله عنه: أن فاطمة رضي الله عنه حرضته يوماً على النهوض والوثوب فسمع صوت المؤذن: "أشهد

أن محمداً رسول الله"، فقال لها: أيسرك زوال هذا النداء من الأرض! قالت: لا، قال: فإنه ما أقول لك. وهذا المذهب هو أقصد المذاهب وأصحها، وإليه يذهب أصحابنا المتأخرون من البغداديين، وبه نقول.

واعلم أن حال علي رضي الله عنه في هذا المعنى أشهر من أن يحتاج في الدلالة عليها إلى الإسهاب والإطناب، فقد رأيت انتقاض العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة، وفي دون هذه المدة تنسى الأحقاد، وتموت الترات، وتبرد الأكباد الحامية، وتسلب القلوب الواجدة، ويعدم قرن من الناس، ويوجد قرن، ولا يبقى من أرباب تلك الشحنة والبغضاء إلا الأقل، فكانت حاله بعد هذه المدة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه صلى الله عليه وسلم، من إظهار ما في النفوس، وهيجان ما في القلوب، حتى إن الأخلاف من قريش، والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعهم وفتكاتهم في أسلافهم وآبائهم، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله، وتقاعست عن بلوغ شأوه، فكيف كانت تكون حاله لو جلس على منبر الخلافة، وسيفه بعد يقطر دماً من مهج العرب، لا سيما قريش الذين بهم كان ينبغي لو دهمه خطب أن يعتضد، وعليهم كان يجب أن يعتمد! إذن كانت تدرس أعلام الملة وتنغي رسوم الشريعة، وتعود الجاهلية الجهلاء على حالها، ويفسد ما أصلحه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة في شهر واحد، فكان من عناية الله تعالى بهذا الدين أن ألهم الصحابة ما فعلوه، والله متم نوره ولو كره المشركون.

لو كان جعفر وحمزة حيين لباعا علياً رضي الله عنه

وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي يزيد رحمه الله، قلت له: أقول: إن حمزة وجعفر لو كانا حين يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكانا يبايعانه بالخلافة؟ فقال: نعم، كانا أسرع إلى بيعته من النار في ييس العرفج. فقلت له: أظن أن جعفر كان يبايعه ويتابعه، وما أظن حمزة كذلك، وأراه جباراً، قوي النفس، شديد الشكيمة، ذاهباً بنفسه، شجاعاً بهمة، وهو العم والأعلى سناً، وآثاره في الجهاد معروفة، وأظنه كان يطلب الخلافة لنفسه! فقال: الأمر في أخلاقه وسجايه كما ذكرت، ولكنه كان صاحب دين متين، وتصديق خالص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولو عاش لرأى من أحوال علي رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوجب أن يكسر له نخوته، وأن يقيم له صعره، وأن يقدمه على نفسه، وأن يتوخى رضا الله ورضا رسوله فيه، وإن كان بخلاف إثارة.

ثم قال: أين خفق حمزة السبعي من خلق علي الروحاني اللطيف، الذي جمع بينه وبين خلق حمزة، فاتصفت بهما نفس واحدة! وأين هيولانية نفس حمزة، وخلوها من العلوم من نفس علي القدسية التي أدركت بالفطرة لا بالقوة التعليمية ما لم تدركه نفوس مدققي الفلاسفة الإلهيين! لو أن حمزة حي حتى رأى من علي ما رآه غيره، لكان أتبع له من ظله، وأطوع له من أبي ذر والمقداد! وأما قولك: هو العم والأعلى سناً، فقد كان العباس العم والأعلى سناً، وقد عرفت ما بذله له وندبه إليه، وكان أبو سفيان كالعم، وكان أعلى سناً، وقد عرفت ما عرضه عليه. ثم قال: ما زالت الأعمام تخدم أبناء الأخوة، وتكون أتباعاً لهم، ألسنت ترى داود بن علي، وعبد الله بن علي، وصالح بن علي، وسليمان بن علي،

وعيسى بن علي، وإسماعيل بن علي، وعبد الصمد بن علي خدموا ابن أخيهم وهو عبد الله السفاح بن محمد بن علي وبايعوه وتابعوه، وكانوا أمراء جيوشه وأنصاره وأعوانه! ألست ترى حمزة والعباس اتبعا ابن أخيهم صلوات الله عليه، وأطاعاه ورضيا برياسته، وصدقا دعوته! ألست تعلم أن أبا طالب! كان رئيس بني هاشم وشيخهم، والمطاع فيهم، وكان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمة ومكفولة، وجارياً مجرى أحد أولاده عنده، ثم خضع له، واعترف بصدقه، ودان لأمره، حتى مدحه بالشعر كما يمدح الأدنى الأعلى، فقال فيه:

ثمال اليتامى عصصة للأرامل

فهم عنده في نعمة وفواضل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

يطيف به الهالك من آل هاشم

وإن سرّاً اختص به محمد صلى الله عليه وسلم، حتى أقام أبا طالب - وحاله معه حاله - مقام المادح له، لسر عظيم وخاصية شريفة، وإن في هذا لمعتبر عبرة أن يكون هذا الإنسان الفقير الذي لا أنصار له ولا أعوان معه، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، فضلاً عن أن يقهر غيره، تعمل دعوته وأقواله في الأنفس ما تعمله الخمر في الأبدان المعتدلة المزاج، حتى تطيعه أعمامه ويعظمه مربيه وكافله، ومن هو إلى آخر عمره القيم بنفخته، وغذاء بدنه، وكسوة جسده، حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشعراء الملوك والرؤساء! وهذا في باب المعجزات عند المنصف أعظم من انشقاق القمر، وانقلاب العصا، ومن إنباء القوم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

ثم قال رحمه الله: كيف قلت: أظن أن جعفرأ كان يبايعه ويتابعه، ولا أظن في حمزة ذلك! إن كنت قلت ذلك لأنه أخوه، فإنه أعلى منه سناً، هو أكبر من علي بعشر سنين، وقد كانت له خصائص ومناقب كثيرة، وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم قولاً شريفاً اتفق عليه المحدثون، قال له لما افتخر هو وعلي وزيد لن حارثة، وتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشبهت خلقي وخلقي" فخجل فرحاً، ثم قال لزيد: "أنت مولانا وصاحبنا، فخجل أيضاً، ثم قال لعلي: "أنت أخي وخالصتي"، قالوا: فلم يخجل، قالوا: كأن ترادف التعظيم له وتكرره عليه لم يجعل عنده للقول ذلك الموضع، وكان غيره إذا عظم عظم نادراً، فيحسن موقعه عنده. واختلف الناس في أي المدحيتين أعظم.

فقلت له: قد وقفت لأبي حيان التوحيدي في كتاب البصائر على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه، قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب: سمعت قاضي القضاة أبا سعد بشر بن الحسين - وما رأيت رجلاً أقوى منه في الجدل - في مناظرة جرت بينه وبين أبي عبد الله الطبري وقد جرى حديث جعفر بن أبي طالب، وحديث إسلامه، والتفاضل بينه وبين أخيه علي، فقال القاضي أبو سعد: إذا أنعم النظر علم أن إسلام جعفر كان بعد بلوغ، وإسلام البالغ لا يكون إلا بعد استبصار وتبين ومعرفة بقبح ما يخرج منه، وحسن ما يدخل فيه، وإن إسلام علي مختلف في حاله، وذلك أنه قد ظن أنه كان عن تلقين لا تبين إلى حين بلوغه، وأوان تعقبه ونظره. وقد علم أيضاً أنهما قتلاً، وإن قتلة جعفر شهادة بالإجماع، وقتلة علي فيها أشد الاختلاف. ثم خص الله جعفرأ بأن قبضه إلى الجنة قبل ظهور التباين، واضطراب الجبل، وكثرة الهرج، وعلى أنه لو انعقد الإجماع، وتظاهر جميع الناس على أن القتلين شهادة، لكانت الحال في الذي رفع إليها جعفر

أغلظ وأعظم، وذلك أنه قتل مقبلاً غير مدبر، وأما علي فإنه اغتيل اغتيالاً، وقصد من حيث لا يعلم، وشتان ما بين من فوجئ بالموت وبين من عاين مخايل الموت! وتلقاه بالحر والصدر، وعجل إلى الله بالإيمان والصدق! ألا تعلم أن جعفرًا قطعت يمناه، فأمسك اللواء بيسراه، وقطعت يسراه، فضم اللواء إلى حشاه، ثم قاتله ظاهر الشرك بالله وقاتل علي ممن صلى إلى القبلة، وشهد الشهادة، وأقدم عليه بتأويل، وقاتل جعفر كافر بالنص الذي لا خلاف فيه! أما تعلم أن جعفرًا ذو الجناحين، وذو الهجرتين إلى الحبشة والمدينة! قال النقيب رحمه الله: اعلم - فذاك شيخك - أن أبا حيان رجل ملحد زنديق، يحب التلاعب بالدين، ويخرج ما في نفسه فيعزوه إلى قوم لم يقولوه. واقسم بالله إن القاضي أبا سعد لم يقل من هذا الكلام لفظة واحدة، ولكنها من موضوعات أبي حيان وأكاذيبه وترهاته، كما يسند إلى القاضي أبي حامد المروزي كل منكر، ويروي عنه كل فاقرة.

ثم قال: يا أبا حيان! مقصودك أن تجعلها مسألة خلاف تشريها فتنة بين الطالبين، لتجعل بأسهم بينهم! وكيف تقلبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم!

ثم ضحك رحمة الله حتى استلقى ومد رجله، وقال: هذا كلام يستغنى عن الإطالة في إبطاله بإجماع المسلمين، فإنه لا خلاف بين المسلمين في أن علياً أفضل من جعفر، وإنما سرق أبو حيان هذا المعنى الذي أشار إليه من رسالة المنصور أبي جعفر إلى محمد بن عبد الله، النفس الزكية، قال له: وكانت بنو أمية يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبات، كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرناهم، وبيننا فضله وأشدنا بذكره، فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنه لما ذكرناه من فضله أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، أولئك مضوا سالمين مسلمين منهم، وابتلى أبوك بالدماء! فقلت له رحمه الله: وإذا لا إجماع في المسألة؟ لأن المنصور لم يقل بتفضيله عليهم، وأنت ادعيت الإجماع، فقال: إن الإجماع قد سبق هذا القائل، وكل قول قد سبقه الإجماع لا يعتد به.

فلما خرجت من عند النقيب أبي جعفر بحثت في ذلك اليوم في هذا الموضوع مع أحمد بن جعفر الواسطي رحمه الله - وكان ذا فضل وعقل، وكان إمامي المذهب - فقال لي: صدق النقيب فيما قال! ألسنت تعلم أن أصحابكم المعتزلة على قولين: أحدهما أن أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر، والآخر أن أكثرهم ثواباً علي، وأصحابنا يقولون: إن أكثر المسلمين ثواباً علي، وكذلك الزيدية. وأما الأشعرية والكرامية وأهل الحديث، فيقولون: أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر، فقد خلص من مجموع هذه الأقوال أن ثواب حمزة وجعفر دون ثواب علي رضي الله عنه، أما على قول الإمامية والزيدية والبغداديين كافة، وكثير من البصريين من المعتزلة، فالأمر ظاهر، وأما الباقيون فعندهم أن أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ولم يذهب ذاهب إلى أن ثواب حمزة وجعفر أكثر من ثواب علي من جميع الفرق. فقد ثبت الإجماع الذي ذكره النقيب، إذا فسرنا الأفضلية بالأكثرية ثواباً، وهو التفسير الذي يقع الحجاج والجدال في إثباته لأحد الرجلين. وأما إذا فسرنا الأفضلية بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النصوص الدالة على التعظيم، فمعلوم أن أحداً من الناس لا يقارب علياً رضي الله عنه في ذلك، لا جعفر، ولا حمزة ولا غيرهما.

ثم وقع بيدي بعد ذلك كتاب لشيخنا أبي جعفر الإسكافي، ذكر فيه أن مذهب بشر بن المعتمر، وأبي موسى، وجعفر بن مبشر، وسائر قدماء البغداديين أن أفضل المسلمين علي بن أبي طالب، ثم ابنه الحسن، ثم ابنه الحسين، ثم حمزة بن عبد

المطلب، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم أبو بكر بن أبي قحافة، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان.

قال: والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله، وأكثرهم ثواباً، وأرفعهم في دار الجزاء منزلةً.

ثم وقفت بعد ذلك على كتاب لشيخنا أبي عبد الله البصري يذكر فيه هذه المقالة، وينسبها إلى البغداديين، وقال: إن الشيخ أبا القاسم البلخي، كان يقول بها، وقبله الشيخ أبو الحسين الخياط، وهو شيخ المتأخرين من البغداديين، قالوا كلهم بها، فأعجبني هذا المذهب، وسررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا إليه، ونظمته في الأرجوزة التي شرحت فيها عقيدة المعتزلة، فقلت:

أعظمهم يوم الفخار شرفاً

بعل البتول المرتضى علي

ثم عتيق بعدهم لا ينكر

فاروق دين الله ذاك القصور

هذا هو الحق بغير مين

وخير خلق الله بعد المصطفى

السيد المعظم الوصي

وابناه ثم حمزة وجعفر

المخلص الصديق ثم عمر

وبعده عثمان ذو النورين

في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه رضي الله عنه

الأصل: فقدموا على عمالي وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل مصر كلهم في طاعتي، وعلى بيعتي، فشتوا كلمتهم، وأفسدوا علي جماعتهم، ووثبوا على شيعتي فقتلوا طائفةً منهم غدرًا، وطائفةً عضوا على أسياфهم، فضاربوا بها، حتى لقوا الله صادقين.

الشرح: عضوا على أسياфهم، كناية عن الصبر في الحرب وترك الاستسلام، وهي كناية فصيحة، شبه قبضهم على السيوف بالعض، وقد قدمنا ذكر ما جرى، وأن عسكر الجمل قتلوا طائفةً من شيعة أمير المؤمنين رضي الله عنه بالبصرة بعد أن أمنوهم غدرًا، وأن بعض الشيعة صبر في الحرب ولم يستسلم، وقاتل حتى قتل، مثل حكيم بن جبلة العبدي وغيره. وروي: وطائفة عضوا على أسياфهم بالرفع، تقديره: ومنهم طائفة.

قرأت في كتاب غريب الحديث لأبي محمد عبد الله بن قتيبة في حديث حذيفة بن اليمان، أنه ذكر خروج عائشة، فقال: تقاتل معها مضر، مضرها الله في النار، وأزد عمان سلت الله أقدامها، وإن قيساً لن تنفك تبغي دين الله شراً، حتى يركبها الله بالملائكة، فلا يمنعوا ذنب تلعة.

قلت: هذا الحديث من أعلام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه إخبار عن غيب تلقاه حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم وحذيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات في الأيام التي قتل عثمان فيها أتاه نعيه وهو مريض، فمات وعلي رضي الله عنه لم يتكامل بيعة الناس، ولم يدرك الجمل.

وهذا الحديث يؤكد مذهب أصحابنا في فسق أصحاب الجمل، إلا من ثبتت توبته منهم، وهم الثلاثة.

ومن كلام له رضي الله عنه

لما مر بطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل الأصل: لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً! أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب! أدركت وتري من بني عبد مناف، وأفلتني أعيار بني جمح، لقد أتلعوا أعناقهم إلى أمر لم يكونوا أهلهم فوقصوا دونه!

عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد

الشرح: هو عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس. ليس بصحابي، ولكنه من التابعين، وأبوه عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، من مسلمة الفتح، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة . إلى حنين، استعمله عليها، فلم يزل أميرها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقي على حاله خلافة أبي بكر الصديق، ومات هو وأبو بكر في يوم واحد، لم يعلم أحدهما بموت الآخر، وعبد الرحمن هذا هو الذي قال أمير المؤمنين فيه، وقد مر به قتيلاً يوم الجمل: لهفي عليك يعسوب قريش! هذا فتى الفتان، هذا اللباب المحض من بني عبد مناف، شفيت نفسي، وقتلت معشري، إلى الله أشكو عجري ويجري! فقال له قائل: لشد ما أطريت الفتى يا أمير المؤمنين منذ اليوم! قال: إنه قام عني ورضي الله عنه نسوة لم يقمن عنك. وعبد الرحمن هذا هو الذي احتملت العقاب كفه يوم الجمل وفيها خاتمه، فالقتها باليمامة فعرفت بخاتمه، وعلم أهل اليمامة بالوقعة.

ورأيت في شرح نهج البلاغة للقطب الراوندي في هذا الفصل عجائب وطرائف، فأحببت أن أورها ههنا. منها أنه قال في تفسير قوله رضي الله عنه أدركت وتري من بني عبد مناف، قال: يعني طلحة والزبير، كانا من بني عبد مناف، وهذا غلط قبيح، لأن طلحة من تيم بن مرة، والزبير من أسد بن عبد العزى بن قصي، وليس أحد منهما من بني عبد مناف، وولد عبد مناف أربعة: هاشم، وعبد شمس، ونوفل، وعبد المطلب، فكل من لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة، فليس من ولد عبد مناف.

ومنها أنه قال: إن مروان بن الحكم، من بني جمح، ولقد كان هذا الفقيه رحمه الله بعيداً عن معرفة الأنساب! مروان من بني أمية بن عبد شمس، وبنو جمح من بني هصيصة بن كعب بن لؤي بن غالب، واسم جمح تيم بن عمرو بن هصيصة، وأخوه سهم بن عمرو بن هصيصة رهط عمرو بن العاص، فأين هؤلاء، وأين مروان بن الحكم! ومنها أنه قال: وأفلتني أغيار بني جمح، بالغين المعجمة، قال: هو جمع غير الذي بمعنى سوى، وهذا لم يرو، ولا مثله مما يتكلم به أمير المؤمنين لركته وبعده عن طريقته، فإنه يكون قد عدل عن أن يقول: ولم يفلتني إلا بنو جمح، إلى مثل هذه العبارة الركيكة المتعسفة.

بنو جمح

واعلم أنه رضي الله عنه أخرج هذا الكلام مخرج الذم لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم من بني جمح، فقال: وأفلتتني أعيار بني جمح، جمع غير وهو الحمار، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا، ولم يقتل منهم إلا اثنان، فمنهم هرب ونجا بنفسه: عبد الله الطويل بن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وكان شريفاً وابن شريف، وعاش حتى قتل مع ابن الزبير بمكة.

ومنهم يحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية بن خلف، عاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكة، لما جمع له بين مكة والمدينة، فأقام عمرو بالمدينة، ويحيى بمكة.

ومنهم عامر بن مسعود بن أمية بن خلف، كان يسمى دحروجة الجعل، لقصره وسواده، وعاش حتى ولاه زياد صدقات بكر بن وائل، وولاه عبد الله بن الزبير بن العوام الكوفة.

ومنهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعة بن الأعور بن أهيب بن حذافة بن جمح، عاش حتى قتل بقديد، قتله الخوارج.

فهؤلاء الذين أعرف حضورهم الجمل مع عائشة من بني جمح، وقتل من بني جمح مع عائشة عبد الرحمن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وعبد الله بن ربيعة بن دراج العنيس بن وهبان بن وهب بن حذافة بن جمح، لا أعرف أنه قتل من بني جمح ذلك اليوم غيرهما، فإن صحت الرواية: وأفلتتني أعيان بني جمح، بالنون، فالمراد رؤساءهم وسادتهم.

وأتلعوا أعناقهم: رفعوها، ورجل أتلع: بين التلع، أي طويل العنق، وجيد تليع أي طويل، قال الأعشى:

دِ تليع تزينه الأطواق

يوم تبدي لنا قتيلة عن جي

ووقص الرجل، إذا اندقت عنقه، فهو موقوص، ووقصت عنق الرجل أقصها وقصاً، أي كسرتها، ولا يجوز وقصت العنق نفسها.

والضمير في قوله رضي الله عنه: لقد أتلعوا يرجع إلى قريش، أي راموا الخلافة فقتلوا دونها.

فإن قلت: أتقول إن طلحة والزبير لم يكونا من أهل الخلافة؟ إن قلت ذلك تركت مذهب أصحابك، وإن لم تقله خالفت قول أمير المؤمنين لم يكونوا أهله!

قلت: هما أهل للخلافة ما لم يطلبها أمير المؤمنين، فإذا طلبها لم يكونا أهلاً لها، لا هما ولا غيرهما، ولولا طاعته لمن تقدم وما ظهر من رضاه به لم نحكم بصحة خلافته.

يصف أحوال تقى عارف بالله

الأصل: قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدفعت الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما أستعمل قلبه، وأرضى ربه.

الشرح: يصف العارف، يقول: قد أحيا قلبه بمعرفة الحق سبحانه، وأمات نفسه بالمجاهدة ورياضة القوة البدنية بالجوع والعطش، والسهر، والصبر على مشاق السفر، والسياسة. حتى دق جليله، أي حتى نحل بدنه الكثيف. ولطف غليظه، تلطف أخلاقه وصفت نفسه، فإن كدر النفس في الأكثر إنما يكون من كدر الجسد، والبطنة - كما قيل - تذهب الفطنة.

فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار

ويقول أرباب هذه الطريقة: من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شئمة. وقال عثمان المغربي الصوفي: من ظن أنه يفتح عليه شيء من هذه الطريقة، أو يكشف له عن سر من أسرارها من غير لزوم المجاهدة، فهو غالط. وقال أبو علي الدقاق: من لم يكن في بدايته قومة، لم يكن في نهايته جلسة. ومن كلامهم: الحركة بركة. حركات الظواهر، توجب بركات السرائر. ومن كلامهم: من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة. وقال الحسن الفراهيدي: هذا الأمر على ثلاثة أشياء: ألا تأكل إلا عند الفاقة، ولا تنام إلا عند الغلبة، ولا تتكلم إلا عند الضرورة. وقال إبراهيم بن أدهم: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يغلق عن نفسه باب النعمة، ويفتح عليها باب الشدة. ومن كلامهم: من كرمتم عليه نفسه، هان عليه دينه. وقال أبو علي الروذباري: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: أنا جائع، فألزمه السوق، ومروه بالكسب. وقال حبيب بن أوس أبو تمام؟ وهو يقصد غير ما نحن فيه، ولكنه يصلح أن يستعمل فيما نحن فيه:

وصوني ما أزلت من القناع	خذي عبرات عينك عن زماعي
وما ضاقت بنازلة ذراعي	أقلي قد أضاق بكاك ذرعي
أظل فكان داعيةً اجتماع!	أ ألفة النحيب كم افتراق
لموقوف على ترح الوداع	فليست فرحة الأوبات إلا
كأن المجد يدرك بالصراع!	تعجب أن رأيت جسمي نحيلاً
أطفن به إلى خلق وساع	أخو النكبات من يأوي إذما
يهيم به عدي بن الرقاع	يثير عجاجةً في كل فج
لخالته السباع من السباع	أبن مع السباع الماء حتى

وقال أيضاً:

وجاء في الحديث أن فاطمة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسرة خبز، فقال: ما هذه؟ قالت: قرص خبزته، فلم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة، فأكلها، وقال: "أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث". وكان يقال: ينابيع الحكمة من الجوع، وكسر عادية النفس بالمجاهدة.

وقال يحيى بن معاذ: "لو أن الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره.

وقال سهل بن عبد الله: "لما خلق الله الدنيا جعل في الشيع المعصية والجهل، وجعل في الجوع الطاعة والحكمة".

وقال يحيى بن معاذ: "الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين تكرمة".

وقال أبو سليمان الداراني: "مفتاح الدنيا الشيع، ومفتاح الآخرة الجوع".

وقال بعضهم: "أدب الجوع ألا ينقص من عادتك إلا مثل أذن السنور، هكذا على التدرج، حتى تصل إلى ما تريد".

ويقال: إن أبا تراب النخشي خرج من البصرة إلى مكة، فوصل إليها على أكلتين: أكلة بالنجاج، وأكلة بذات عرق. قالوا: "وكان سهل بن عبد الله التستري إذا جاع قوي، وإذا أكل ضعف".

وكان منهم من يأكل كل أربعين يوماً أكلة واحدة، ومنهم من يأكل كل ثمانين يوماً أكلة واحدة.

قالوا: واشتهى أبو الخير العسقلاني السمك سنين كثيرة، ثم تمياً له أكله من وجه حلال، فلما مد يده ليأكل أصابت إصبعه شوكة من شوك السمك، فقام وترك الأكل، وقال: يا رب، هذا لمن مد يده بشهوة إلى الحلال، فكيف بمن مد يده بشهوة إلى الحرام! وفي الكتاب العزيز: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى" فالجملة الأولى هي التقوى، والثانية هي المجاهدة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أخوف ما أخاف على أمي اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة".

وسئل بعض الصوفية عن المجاهدة، فقال: ذبح النفس بسيف المخالفة.

وقال: من نجمت طوارق نفسه، أفلت شوارق أنسه.

وقال إبراهيم بن شيبان: ما بت تحت سقف ولا في موضع عليه غلق أربعين سنة. وكنت أشتهي في أوقات أن أتناول شبعة عدس فلم يتفق، ثم حملت إلي وأنا بالشام غضارة فيها عدسية، فتناولت منها وخرجت، فرأيت قوارير معلقة فيها شبه أنموذجات، فظننتها خلاً، فقال بعض الناس: أنتظر إلى هذه وتظنها خلاً! وإنما هي خمر، وهي أنموذجات هذه الدنان لدنان هناك فقلت: قد لزمني فرض الإنكار، فدخلت حانوت ذلك الخمار لأكسر الدنان والجرار، فحملت إلى ابن طولون، فأمر بضربي مائي خشبة، وطرحني في السجن، فبقيت مدة، حتى دخل أبو عبد الله الوباني المغربي أستاذ ذلك البلد، فعلم أني محبوس، فشفع في، فأخرجت إليه، فلما وقع بصره علي قال: أي شيء فعلت؟ فقلت: شبعة عدس ومائي

خشبة، فقال: لقد نجوت مجاناً.

وقال إبراهيم الخواص: كنت في جبل، فرأيت رماناً فاشتهيته، فدنوت فأخذت منه واحدة، فشققتها فوجدتها حامضة، فمضيت وتركت الرمان، فرأيت رجلاً مطروحاً قد اجتمع عليه الزنابير، فسلمت عليه، فرد علي باسمي، فقلت: كيف عرفتني؟ قال: من عرف الله لم يخف عليه شيء، فقلت له: أرى لك حالاً مع الله، فلو سألتك أن يحملك ويقيك من أذى هذه الزنابير! فقال: وأرى لك حالاً مع الله، فلو سألتك أن يقيك من شهوة الرمان، فإن لدع الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولدع الزنابير يجد الإنسان ألمه في الدنيا، فتركته ومضيت على وجهي.

وقال يوسف بن أسباط: لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق.

وقال الخواص: من ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها.

وقال أبو علي الرباطي: صحبت عبد الله المروزي، وكان يدخل البادية قبل أن أصبح به بلا زاد؟ فلما صحبتته قال لي: أيما أحب إليك؟ تكون أنت الأمير، أم أنا؟ قلت: بل أنت، فقال: وعليك الطاعة؟ قلت: نعم، فأخذ مخلاة ووضع فيها زاداً، وحملها على ظهره، فكنت إذا قلت له: أعطني حتى أحملها، قال: الأمير أنا، وعليك الطاعة، قال: فأخذنا المطر ليلة، فوقف إلى الصباح على رأسي، وعليه كساء يمنع عني المطر، فكنت أقول في نفسي: يا ليتني مت ولم أقل له: أنت الأمير! ثم قال لي: إذا صحبت إنساناً فاصحبه كما رأيته صحبتك، قال أبو الطيب المتنبي:

نريني أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

تريدون إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وله أيضاً:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

ومن أمثال العامة: من لم يغل دماغه في الصيف لم تغل قدره في الشتاء.

من لم يركب الأخطار، لم ينل الأوطار .

إدراك السؤل وبلوغ المأمول، بالصبر على الجوع، وفقد الهجوع، وسيلان الدموع.

واعلم أن تقليل المأكول لا ريب في أنه نافع للنفس والأخلاق، والتجربة قد دلت عليه، لأننا نرى الكثير من الأكل يغلبه النوم والكسل وبلادة الحواس وتبخر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة، فتتصاعد إلى الدماغ فتفسد القوى النفسانية. وأيضاً فإن كثرة المأكول تزيد الرقة، وتورث القساوة والسبعية، والقياس أيضاً يقتضي ذلك، لأن كثرة المزاوالات، سبب لحصول الملكات، فالنفس إذا توفرت على تدبير الغذاء وتصريفه، كان ذلك شغلاً شاغلاً لها، وعائقاً عظيماً عن انصبابها إلى الجهة الروحانية العالية، ولكن ينبغي أن يكون تقليل الغذاء إلى حد يوجب جوعاً قليلاً، فإن الجوع المفرط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها، واختلال قواها، وذلك يقتضي تشويش النفس واضطراب الفكر، واختلال العقل، ولذلك تعرض الأخلاط السوداوية لمن أفرط عليه الجوع، فإذا لا بد من إصلاح أمر الغذاء، بأن يكون قليل الكمية، كثير الكيفية، فتؤثر قلة كميته في أنه لا يشغل النفس بتدبير الهضم عن التوجه إلى الجهة العالية الروحانية، وتؤثر كثرة كميته

في تدارك الخلل الحاصل له من قلة الكمية، ويجب أن يكون الغذاء شديد الإمداد للأعضاء الرئيسة، لأنها هي المهمة من أعضاء البدن وما دامت باقية على كمال حالها لا يظهر كثير خلل من ضعف غيرها من الأعضاء.

في الرياضة النفسية وأثر الجوع،

واعلم أن الرياضة والجوع هو أمر يحتاج إليه المريد الذي هو بعد في طريق السلوك إلى الله. وينقسم طالبو هذا الأمر الجليل الشاق إلى أقسام أربعة: أحدها: الذين مارسوا العلوم الإلهية، وأجهدوا أنفسهم في طلبها والوصول إلى كنهها، بالنظر الدقيق، في الزمان الطويل، فهو لا يحصل لهم شوق شديد، وميل عظيم إلى الجهة العالية الشريفة، فيحملهم حب الكمال على الرياضة.

وثانيها: الأنفس التي هي بأصل الفطرة والجوهر مائلة إلى الروحانية من غير ممارسة علم ولا دربة بنظر وبحث، وقد رأينا مثلهم كثيراً، وشاهدنا قوماً من العامة متى سنع لهم سائح مشوق، مثل صوت مطرب، أو إنشاد بيت يقع في النفس، أو سماع كلمة توافق أمراً في بواطنهم، فإنه يستولي عليهم الوجد، ويشد الحنين، وتغشاهم غواش لطيفة روحانية، يغيبون بها عن المحسوسات والجسمانيات.

وثالثها: نفوس حصل لها الأمان معاً: الاستعداد الأصلي، والاشتغال بالعلوم النظرية الإلهية. ورابعها: النفوس التي لا استعداد لها في الأصل ولا ارتاضت بالعلوم الإلهية، ولكنهم قوم سمعوا كمال هذه الطريقة، وأن السعادة الإنسانية ليست إلا بالوصول إليها، فمالت نحوها، وحصل لها اعتقاد فيها.

فهذه أقسام المريدين؟ والرياضة التي تليق بكل واحد من هذه الأقسام غير الرياضة اللائقة بالقسم الآخر. ونحتاج قبل الخوض في ذلك إلى تقديم أمرين: أحدهما: أن النفحات الإلهية دائمة مستمرة، وأنه كل من توصل إليها وصل، قال سبحانه وتعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن لربكم في أيام عصركم نفحات، ألا فتعرضوا لنفحاته" وثانيهما: أن النفوس البشرية في الأكثر مختلفة بالنوع، فقد تكون بعض النفوس مستعدة غاية الاستعداد لهذا المطلب، وربما لم تكن البتة مستعدة له، وبين هذين الطرفين أوساط مختلفة بالضعف والقوة. وإذا تقرر ذلك فاعلم أن القسمين الأولين لما اختلفا فيما ذكرناه لا جرم، اختلفا في الكسب والمكتسب.

أما الكسب فإن صاحب العلم الأولى به في الأكثر الغزلة والانقطاع عن الخلق، لأنه قد حصلت له الهداية والرشاد، فلا حاجة له إلى مخالطة أحد يستعين به على حصول ما هو حاصل. وأما صاحب الفطرة الأصلية من غير علم فإنه لا يليق به العزلة، لأنه يحتاج إلى المعلم والمرشد، فإنه ليس يكفي الفطرة الأصلية في الوصول إلى المعالم الإلهية والحقائق الربانية، ولا بد من موقف ومرشد في مبدأ الحال، هذا هو القول في الكسب بالنظر إليهما.

وأما المكتسب، فإن صاحب العلم إذا اشتغل بالرياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كمية، وأقل كيفية مما لصاحب الفطرة المجردة، أما كثرة الكمية، فلأن قوته النظرية تعينه على ذلك، وأما قلة الكيفية، فلأن القوة النفسانية تتوزع على تلك الكثرة، وكلما كانت الكثرة أكثر، كان توزع القوة إلى أقسام أكثر، وكان كل واحد منها أضعف مما لو كانت

الأقسام أقل عدداً، وإذا عرفت ذلك عرفت أن الأمر في جانب صاحب الفطرة الأصلية بالعكس من ذلك، وهو أن مشاهداته ومكاشفاته تكون أقل كمية، وأكثر كيفية.

وأما الإستعداد الثالث، وهو النفس التي قد جمعت الفطرة الأصلية والعلوم الإلهية النظرية بالنظر، فهي النفس الشريفة الجليلة الكاملة.

وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة في أن رياضتها القلبية يجب أن تكون زائدة في الكم والكيف على رياضتها البدنية، لأن الغرض الأصلي هو رياضة القلب وطهارة النفس، وإنما شرعت الرياضات البدنية، والعبادات الجسمانية، لتكون طريقاً إلى تلك الرياضة الباطنة، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرياضة البدنية عبثاً، لأن الوسيلة بعد حصول المتوصل إليه فضلة مستغنى عنها، بل ربما كانت عائقة عن المقصود. نعم لا بد من المحافظة على الفرائض خاصة، لئلا تعتاد النفس الكسل، وربما أفضى ذلك إلى خلل في الرياضة النفسانية، ولهذا حكى عن كثير من كبراء القوم قلة الاشتغال بنوافل العبادات. وأما القسم الرابع، وهو النفس التي خلت عن الوصفين معاً، فهذه النفس يجب ألا تكون رياضتها في مبدأ الحال إلا بتهديب الأخلاق بما هو مذكور في كتب الحكمة الخلقية، فإذا لانت ومرنت واستعدت للنفحات الإلهية حصل لها ذوق ما، فأوجب ذلك الذوق شوقاً، فأقبلت بكليتها على مطلوبها.

واعلم أن السبب الطبيعي في كون الجوع مؤثراً في صفاء النفس، أن البلغم الغالب على مزاج البدن يوجب بطبعه البلادة، وإبطاء الفهم لكثرة الأرضية فيه، وثقل جوهره، وكثرة ما يتولد عنه من البخارات التي تسد المجاري، وتمنع نفوذ الأرواح، ولا ريب أن الجوع يقتضي تقليل البلغم، لأن القوة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه، عملت في الرطوبة الغريبة الكائنة في الجسد، فكلما انقطع الغذاء استمر عملها في البلغم الموجود في البدن، فلا تزال تعمل فيه وتزيد به الحرارة الكائنة في البدن، حتى يفنى كل ما في البدن من الرطوبات الغريبة، ولا يبقى إلا الرطوبات الأصلية، فإن استمر انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوة الهاضمة في تنقيص الرطوبات الأصلية من جوهر البدن، فإن كان ذلك يسيراً وإلى حد ليس بمفرط، لم يضر ذلك بالبدن كل الأضرار، وكان ذلك هو غاية الرياضة التي أشار أمير المؤمنين رضي الله عنه إليها بقوله: "حتى دق جليله، ولطف غليظه"، وإن أفرط وقع الحيف والأجحاف على الرطوبة الأصلية، وعطب البدن ووقع صاحبه في الدق والذبول، وذلك منهى عنه، لأنه قتل للنفس، فهو كمن يقتل نفسه بالسيف أو بالسكين.

واعلم أن قوله رضي الله عنه: "وبرق له لامع كثير البرق"، هو حقيقة مذهب الحكماء، وحقيقة قول الصوفية أصحاب الطريقة والحقيقة، وقد صرح به الرئيس أبو علي بن سينا في كتاب "الإشارات فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان: ثم إنه إذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما عنت له جلسات من اطلاع نور الحق إليه لذيدة كأنها بروق تومض إليه ثم تحمد عنه، وهي التي تسمى عندهم أوقاتاً، وكل وقت يكتنفه وجد إليه، ووجد عليه. ثم إنه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعن في الارتياض، ثم إنه ليتوغل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض، فكلما لمح شيئاً عاج منه إلى جانب القدس، فتذكر من أمره أمراً فغشيه غاش، فيكاد يرى الحق في كل شيء، ولعله إلى هذا الحد تستولي عليه غواشيه، ويزول هو عن سكينته، ويتنبه جلسه لاستنفاره عن قراره، فإذا طالت عليه الرياضة لم تستنفره غاشية، وهدي للتأنس بما هو فيه. ثم إنه لتبلغ به

الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكية فيصير المخطوب مألوفاً، والوميض شهاباً بيناً، ويحصل له معارف مستقرة، كأنها صحبة مستمرة، ويستمتع فيها ببهجته، فإذا انقلب عنها انقلب حيران أسفاً.

فهذه ألفاظ الحكيم أبي علي بن سينا في "الإشارات"، وهي كما نراها مصرح فيها بذكر البروق اللامعة للعارف.

وقال القشيري في الرسالة لما ذكر الحال والأمور الواردة على العارفين، قال: هي بروق تلمع ثم تخدم، وأنوار تبدو ثم تخفى، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها! ثم تمثل بقول البحري:

خطرة البرق بدا ثم اضمحل

وملم بك لوحقاً فعل!

خطرت في النوم منها خطرة

أي زور لك لو قصداً سرى

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حسبما ذكره الحكيم، وكلاهما يتبع ألفاظ أمير المؤمنين رضي الله عنه، لأنه حكيم الحكماء وعارف العارفين، ومعلم الصوفية، ولولا أخلاقه وكلامه وتعليمه للناس هذا الفن تارة بقوله، وتارة بفعله، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة، ولا علم كيف يورد، ولا كيف يصدر.

وقال القشيري أيضاً في الرسالة: المحاضرة قبل المكاشفة، فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة. وقال: وهي أرفع الدرجات. قال: فالمحاضرة حضور القلب، وقد تكون بتواتر البرهان، والإنسان بعد وراء الستر، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر.

وأما المكاشفة فهي حضور البين غير مفتقر إلى تأمل الدليل، وتطلب السبيل، ثم المشاهدة، وهي وجود الحق من غير بقاء تهمة.

وأحسن ما ذكر في المشاهدة قول الجنيد: "هي وجود الحق مع فقدانك.

وقال عمرو بن عثمان المكي: "المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلي على القلب من غير أن يتخللها ستر ولا انقطاع، كما لو قدر اتصال البروق في الليلة المظلمة، فكما أنها تصير من ذلك بضوء النهار، فكذلك القلب إذا دام له التجلي مع النهار فلا ليل، وأنشدوا شعراً:

وظلامه في الناس سار

م ونحن في ضوء النهار

ليلي بوجهك مشرق

فالناس في سدف الظلا

وقال الثوري: "لا تصح للعبد المشاهدة وقد بقي له عرق قائم". وقالوا: إذا طلع الصباح، استغنى عن المصباح، وأنشدوا أيضاً:

بأنواره أنوار ضوء الكواكب

بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

فلما استنار الصبح طوح ضوءه

فجرعهم كأساً لو ابتليت لظى

كأس وأي كأس، تصطلمهم عنهم، وتفنهم وتخطفهم منهم ولا تبقهم، كأس لا تبقي ولا تذر، تمحو بالكلية، ولا تبقي شظية من آثار البشرية، كما قال قائلهم:

ساروا فلم يبق لا عين ولا أثر

وقال القشيري أيضاً: هي ثلاث مراتب: اللوائح، ثم اللوامع، ثم الطوالع. فاللوائح كالبروق، ما ظهرت حتى استترت، كما قال القائل:

كان تسليمه علي وداعاً

فافترقنا حولاً فلما التقينا

وأنشدوا:

كأنه مقتبس ناراً

ياذا الذي زار وما زاراً

ما ضره لو دخل الداراً!

مر بباب الدار مستعجلاً

ثم اللوامع، وهي أظهر من اللوائح، وليس زوالها بتلك السرعة، فقد تبقى وقتين وثلاثة، ولكن كما قيل: العين باكية لم تشبع النظراً. أو كما قالوا:

وجيب مني بعيد قريب

وبلائي من مشهد ومغيب

شرقت قبل ريبها برقيب

لم تر دماء وجهه العين حتى

فأصحاب هذا المقام بين روح وفوح، لأنهم بين كشف وستر يلمع ثم يقطع، لا يستقر لهم نور النهار، حتى تكرر عليه عساكر الليل، فهم كما قيل:

والصبح يلحفنا رداء مذهباً

والليل يشملنا بفاضل برده

ثم الطوالع، وهي أبقي وقتاً، وأقوى سلطاناً، وأدوم مكثاً، وأذهب للظلمة، وأنفى للهمة.

أفلا ترى كلام القوم كله مشحون بالبروق واللمعان! وكان مما نقم حامد بن العباس وزير المقتدر وعلي بن عيسى الجراح وزيره أيضاً على الحلاج أنهما وجدا في كتبه لفظ "النور الشعشعاني"، وذلك لجهالتهما مراد القوم واصطلاحهم، ومن جهل أمراً عاداه.

ثم قال رضي الله عنه "وتدافعت الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة"، أي لم يزل ينتقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه، حتى وصل، وتلك المقامات معروفة عند أهلها، ومن له أنس بها، وسندكرها فيما بعد.

ثم قال: "وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه"، أي كانت الراحة الكافية والسعادة الأبدية مستثمرة من ذلك التعب الذي تحمله لما استعمل قلبه، وراض جوارحه ونفسه، حتى وصل، كما قيل:

وتتجلي عناغيابات الكرى

عند الصباح يحمد القوم السرى

وقال الشاعر:

ولم تدر أني للمقام أطوف

تقول سليمي لو أقمت بأرضنا

وقال آخر:

ما ابيض وجه المرء في طلب العلا

حتى يسود وجهه في البيد

وقال:

فاطلب هدوءاً بالتقلقل واستثر

بالعيس من تحت السهاد هجودا

ما إن ترى الأحساب بيضاً وضاً

إلا بحيث ترى المنايا سودا

ومن كلام له يحث فيه أصحابه على الجهاد

الأصل: والله مستأديكم شكره، ومورثكم أمره، وممهلكم في مضمار ممدود لتتنازعوا سبقه. فشددوا عقد المآزر، واطووا فضول الخواصر، لا تجتمع عزيمة ووليمة. ما أنقض النوم، لعزائم اليوم! وأحى الظلم، لتذاكير الهمم! الشرح: مستأديكم شكره، أي طالب منكم أداء ذلك والقيام به، استأديت ديني عند فلان، أي طلبته. وقوله: "ومورثكم أمره"، أي سيرجع أمر الدولة إليكم، ويزول أمر بني أمية. ثم شبه الآجال التي ضربت للمكلفين ليقوموا فيها بالواجبات، ويتسابقوا فيها إلى الخيرات، بالمضمار الممدود لخليل تتنازع فيه سبق.

ثم قال: "فشددوا عقد المآزر"، أي شتموا عن ساق الاجتهاد. ويقال لمن يوصى بالجد والتشمير: اشدد عقدة إزارك، لأنه إذا شدها كان أبعد عن العثار، وأسرع للمشي.

قوله: "واطووا فضول الخواصر"، نهي عن كثرة الأكل، لأن الكثير الأكل لا يطوي فضول خواصره لامتلائها، والقليل الأكل يأكل في بعضها ويطوي بعضها، قال الشاعر:

كلوا في بعض بطنكم وعفوا

فإن زمانكم زمن خميص

وقال أعشى باهلة:

طاوي المصير على العزاء منصلت

بالقوم ليلة لا ماء ولا شجر

وقال الشنفرى:

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت

خيوطه ماري تغار وتفتل

ثم أتى رضي الله عنه بثلاثة أمثال مختصرة له لم يسبق بها، وإن كان قد سبق بمعناها، وهي قوله: "لا تجتمع عزيمة ووليمة". وقوله: "ما أنقض النوم لعزائم اليوم!". وقوله: "وأحى الظلم لتذاكير الهمم!". فمما جاء للمحدثين من ذلك ما كتبه بعض الكتاب إلى ولده:

خدمة السلطان والكا سا

ت في أيدي الملاح

ليس يلتامان فاطلب

رفعة أو شرب راح

ومثله قول آخر لولده:

ما للمطيع هواه

من الملام ملاذ

فاختر لنفسك هذا

مجد، وهذا التذاذ

وقال آخر:

وليس فتى الفتیان من راح واغتنى

لشرب صبوح أو لشرب غبوق

ولكن فتى الفتیان من راح واغتنى

لضرر عدو أو لنفع صديق

وهذا كثير جداً يناسب قوله: "لا تجتمع عزيمة ووليمة".

ومثل قوله: "ما أنقض النوم لعزائم اليوم" قول الشاعر:

فتى لا ينام على عزمه

ومن صمم العزم لم يرقد

وقوله: "وأحمى الظلم لتذاكير الهمم"، أي الظلم التي ينام فيها، لا كل الظلم، ألا ترى أنه إذا لم ينم في الظلمة بل كان عنده من شدة العزم وقوة التصميم ما لا ينام معه، فإن الظلمة لا تمحو تذاكيرهممه. والتذاكير: جمع تذكار. والمثالان الأولان أحسن من الثالث، وكأن الثالث من تنمة الثاني.

وقد قالت العرب في الجاهلية هذا المعنى، وجاء في القرآن العزيز: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب". وهذا مثل قوله: "لا تجتمع عزيمة ووليمة"، أي لا يجتمع لكم دخول الجنة والدعة، والقفود عن مشقه الحرب.

قال بعد تلاوته ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر

الأصل: يا له مراماً ما أبعد! وزوراً ما أغفله! وخطراً ما أفضعه! لقد استخلوا منهم أي مدكر، وتناوشوهم من مكان بعيد، أقبمصارع آبائهم يفخرون! أم بعدد الهلكى يتكاثرون! الشرح: قد اختلف المفسرون في تأويل هاتين الآيتين، فقال قوم: المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم في التكاثر بالأموال والأولاد، حتى أتاكم الموت، فكفى عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر.

وقال قوم: بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم، وتعدى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات، فقالوا: منا فلان وفلان لقوم كانوا وانقضوا.

وهذا هو التفسير الذي يدل عليه كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه، قال: "يا له مراماً"، منصوب على التمييز. ما أبعد! أي لا فخر في ذلك، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد، وإنما الفخر بتقوى الله وطاعته.

وزوراً ما أغفله! إشارة إلى القوم الذين افتخروا، جعلهم بتذكر الأموات السالفين كالزائر لقبورهم. والزور: اسم للواحد والجمع، كالخصم والضيف. قال: ما أغفلهم عما يراودهم! لأنهم تركوا العبادة والطاعة، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى.

ثم قال: "وخطراً ما أفضعه!" إشارة إلى الموت أي: ما أشده! فضع الشيء بالضم، فهو فطيع، أي شديد شنيع مجاوز للمقدار.

قوله: "لقد استخلوا منهم أي مدكر"، قال الراوندي: أي وجدوا موضع التذكر حالياً من الفائدة، وهذا غير صحيح، وكيف يقول ذلك وقد قال: "وخطراً ما أفضعه"! وهل يكون أمر أعظم تذكيراً من الاعتبار بالموتى والصحيح أنه أراد بـ "استخلوا" ذكر من خلا من آبائهم، أي من مضى، يقال: هذا الأمر من الأمور الحالية، وهذا القرن من القرون الحالية، أي الماضية.

واستخلى فلان في حديثه، أي حدث عن أمور خالية، والمعنى أنه استعظم ما يوجبه حديثهم عما خلا وعمن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير، فقال: أي مدكر وواعظ في ذلك! وروي أي مدكر بمعنى المصدر، كالمعتقد بمعنى الاعتقاد، والمعتبر بمعنى الاعتبار.

"وتناوشوهم من مكان بعيد" أي تناولوهم، والمراد ذكرهم وتحدثوا عنهم، فكأنهم تناولوهم، وهذه اللفظة من الفاظ القرآن العزيز: "وقالوا آمنا به وأن لهم التناوش من مكان بعيد" وأن لهم تناول الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر! الأصل: يرتجعون منهم أجساداً خوت، وحركات سكنت. ولأن يكونوا عبراً، أحق من أن يكونوا مفتخراً، ولأن يهبطوا بهم جناب ذلة، أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة. لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة، وضربوا منهم في غمرة جهالة. ولو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية، والربوع الحالية، لقاتل: ذهبوا في الأرض ضلالاً، وذهبتهم في أعقابهم جهالاً، تطعمون في هامهم، وتستنبتون في أجسادهم، وترتعون فيما لفظوا، وتسكنون فيما خربوا، وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح عليكم.

أولئك سلف غايتكم، وفراط مناهلكم، الذين كانت لهم مقاوم العز، وحلبات الفخر ملوكاً وشوقاً. الشرح: "يرتجعون منهم أجساداً"، أي يذكرون آبائهم، فكأنهم ردوهم إلى الدنيا، وارتجعوهم من القبور. وخوت: حلت.

قال: وهؤلاء الموتى أحق بأن يكونوا عبرة وعظة من أن يكونوا فخراً وشرفاً، والمفتخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الذلة منهم بالقيام مقام العز.

وتقول: هذا أحجى من فلان، أي أولى وأجدر. والجناب: الفناء.

ثم قال: "لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة"، أي لم ينظروا النظر المفضي إلى الرؤية، لأن أبصارهم ذات عشوة، وهو مرض في العين ينقص به الأبصار، وفي عين فلان عشاء وعشوة بمعنى، ومنه قيل لكل أمر ملتبس يركبه الراكب على غريبان أمر عشوة، ومنه أوطأني عشوة، ويجوز بالضم والفتح.

قال: "وضربوا بهم في غمرة جهالة"، أي. وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى في بحر جهل. والضرب ههنا: استعارة، أو يكون من الضرب بمعنى السير، كقوله تعالى: "وإذا ضربتم في الأرض"، أي خاضوا وسبحوا من ذكرهم في غمرة جهالة، وكل هذا يرجع إلى معنى واحد، وهو تسفيه رأي المفتخرين بالموتى، والقاطعين الوقت بالتكاثر بهم، إعراضاً عما يجب إنفاقه

من العمر في الطاعة والعبادة.

ثم قال: "لو سألوا عنهم ديارهم التي خلت منهم"، ويمكن أن يريد بالديار والربوع القبور، "لقاتل زهبا في الأرض ضلالاً"، أي هالكين، ومنه قوله تعالى: "وقالوا أئذاً ضللنا في الأرض أننا لفي خلق جديد".
وزهبتم في أعقابهم، أي بعدهم "جهالاً"، لغفلتكم وغروركم.
قوله رضي الله عنه: "تطأون في هامهم"، أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعري؟ فقال:

أرض إلا من هذه الأجساد	خفف الوطء ما أظن أديم ال
ضاحك من تراحم الأضداد	رب لحد قد صار لحداً مراراً
من عهود الأباء والأجداد	ودفين على بقايا دفين
ض، فأين القبور من عهد عاد!	صاح هذي قبورنا تملأ الأر
لا اختيالاً على رفات العباد	سر إن اسطعت في الهواء رويداً

قوله: "وتستنبتون قي أجسادهم"، أي تزرعون النبات في أجسادهم، وذلك لأن أديم الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى، فالزرع لا محالة يكون نابتاً في الأجزاء الترابية التي هي أبدان الحيوانات. وروي: "وتستنبتون"، بالشاء؟ أي وتنصبون الأشياء الثابتة كالعمد والأساطين للأوطان في أجساد الموتى.

ثم قال: "وترتعون فيما لفظوا"، لفظت الشيء بالفتح: رميته من فمي، الفظه بالكسر، ويجوز أن يريد بذلك أنكم تأكلون ما خلفوه وتركوه. ويجوز أن يريد أنكم تأكلون الفواكه التي تنبت في أجزاء ترابية خالطها الصديد الجاري من أفواههم.
ثم قال: "وتسكنون فيما خربوا"، أي تسكنون في المساكن التي لم يعمروها بالذكر والعبادة، فكأنهم أخربوها في المعنى، ثم سكنتم أنتم فيها بعدهم. ويجوز أن يريد أن كل دار عامرة قد كانت من قبل خربة، وإنما أخربها قوم بادوا وماتوا، فإذا لا ساكن منا في عمارة إلا ويصدق عليه أنه ساكن فيما قد كان خراباً من قبل، والذين أخربوه الآن موتى. ويجوز أن يريد بقوله: "وتسكنون فيما خربوا" وتسكنون في دور فارقوها وأخلوها، فأطلق على الخلو والفراغ لفظ "الخراب" مجازاً.

قوله: "وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح عليكم"، يريد أن الأيام والليالي تشيع رائحاً إلى المقابر وتبكي وتنوح على الباقين الذين سيلتحقون به عن قريب.

قوله: "أولئكم سلف غايتكم"، السلف: المتقدمون. والغاية: الحد الذي ينتهي إليه. إما حسياً أو معنوياً، والمراد ههنا الموت.

والفرط: القوم يسبقون الحي إلى المنهل.

ومقاوم العز: دعائمه، جمع مقوم، وأصلها الحشبة التي يمسكها الحراث. وحلبات الفخر: جمع حلبة، وهي الخيل تجمع للسباق.

والسوق، بفتح الواو: جمع سوقة، وهو من دون الملك.

الأصل: سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم، فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون، وضماراً لا يوجدون، لا يفزعهم ورود الأهوال، ولا يجزئهم تنكر الأحوال، ولا يحفلون بالرواحف، ولا يأذنون للقصاف. غيباً لا ينتظرون، وشهوداً لا يحضرون، وإنما كانوا جميعاً فتشتوا، وآلاًفاً فافترقوا. وما عن طول عهدهم، ولا بعد محلهم، عميت أخبارهم، وصمت ديارهم، ولكنهم سقوا كأساً بدلتهم بالنطق خرساً، وبالسمع صمماً، وبالحركات سكوناً، فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات. جيران لا يتآنسون، وأحباش لا يتزاوون. بليت بينهم عرا التعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء؟ فكلهم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجر وهم أخلاء.

لا يتعارفون ليل صباحاً، ولا لنهار مساءً. أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً، شاهدوا من أخطار دارهم أفضع مما خافوا، ورأوا من آياتها أعظم مما قدروا، فكلا الغائيتين مدت لهم إلى مباءة فاتت مبالغ الخوف والرجاء. فلو كانوا ينطقون بما لعيوا بصفة ما شاهدوا وما عاينوا. ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم، لقد رجعت فيهم أبصار العبر، وسمعت عنهم آذان العقول، وتكلموا من غير جهات النطق، فقالوا: كلحت الوجوه النواضر، وخوت الأجسام النواعم، ولبسنا أهدام البلى، وتكأدنا ضيق المضجع، وتوارثنا الوحشة، وتهدمت علينا الربوع الصموت، فأنمحت محاسن أجسادنا، وتنكرت معارف صورنا، وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا، ولم نجد من كرب فرجاً، ولا من ضيق متسعاً.

فلو مثلتهم بعقلك، أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك، وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكت، واكتحلت أبصارهم بالتراب فحسفت، وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وهمدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها، وعاث في كل جارحة منهم جديد بلى سمجها، وسهل طرق الأفة إليها، مستسلمات فلا أيد تدفع، ولا قلوب تجزع - لرأيت أشجان قلوب، وأقذاء عيون، لهم في كل فظاعة صفة حال لا تنتقل، وغمرة لا تنجلي.

فكم أكلت الأرض من عزيز جسد، وأنيق لون؟ كان في الدنيا غذي ترف وريب شرف! يتعلل بالسرور في ساعة حزنه، ويفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به، ضناً بغضارة عيشه، وشحاحة بلهوه ولعبه، فبينما هو يضحك إلى الدنيا وتضحك إليه، في ظل عيش غفول، إذ وطىء الدهر به حسكه، ونقضت الأيام قواه، ونظرت إليه الختوف من كذب، فخالطه بث لا يعرفه، ونحي هم ما كان يجده، وتولدت فيه فترات علل، آنس ما كان بصحته. ففزع إلى ما كان عوده الأطباء من تسكين الحار بالقار، وتحريك البارد بالحار، فلم يطفئ ببارد إلا ثور حرارة، ولا حرك بحار إلا هيج برودة، ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلا أمد منها كل ذات داء، حتى فتر معله، وذهل فمرضه، وتعايا أهله بصفة دائه، وخرسوا عن جواب السائلين عنه، وتنازعوا دونه شجى خبر يكتمونونه، فقائل: هو لما به، ومن لهم إياب عافيته، ومصبر لهم على فقدته، يذكرهم أسى الماضين من قبله. فبينما هو كذلك على جناح من فراق الدنيا، وترك الأحبة، إذ عرض له عارض من غصبه، فتحيرت نوافذ فطنته، وبيست رطوبة لسانه.

فكم من مهم من جوابه عرفه فعي عن رده! ودعاء مؤلم بقلبه سمعه فتصام عنه! من كبير كان يعظمه، أو صغير كان

وإن للموت لغمرات هي أفضغ من أن تستغرق بصفة، أو تعتدل على عقول أهل الدنيا.
 الشرح: هذا موضع المثل: "ملعاً يا ظليم وإلا فالتخوية"، من أراد أن يعظ ويخوف، ويقرع صفاة القلب، ويعرف الناس قدر الدنيا وتصرفها بأهلها، فليأت بمثل هذه الموعظة في مثل هذا الكلام الفصيح وإلا فليمسك، فإن السكوت أستر، والعبي خير من منطلق يفصح صاحبه. ومن تأمل هذا الفصل، علم صدق معاوية في قوله فيه: "والله ما سن الفصاحة لقريش غيره". وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس، وتلي عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرقاع:

قلم أصاب من الدواة مدادها

فلما قيل لهم في ذلك، قالوا: إنا نعرف مواضع السجود في الشعر، كما تعرفون مواضع السجود في القرآن. وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أن طبعه مناسب لطباع الأسود والنمور وأمثالهما من السباع الضارية، ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه، إذا أراد الموعظة بكلام يدل على أن طبعه مشاكل لطباع الرهبان لابس المسوح الذين لم يأكلوا لحماً، ولم يريقوا دماً، فتارة يكون في صورة بسطام بن قيس الشيباني وعتيبة بن الحارث اليربوعي، وعامر بن الطفيل العامري، وتارة يكون في صورة لسقراط الحبر اليوناني، ويوحنا المعمدان الإسرائيلي، والمسيح بن مريم الإلهي.

وأقسم. عن تقسم الأمم كلها به، لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظة، وأثرت في قلبي وجيئاً، وفي أعضائي رعدة، ولا تأملتها إلا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي، وأرباب ودي، وخيلت في نفسي أني أنا ذلك الشخص الذي وصف رضي الله عنه حاله.

وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى! وكم وقفت على ما قالوه وتكرر وقوفي عليه! فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي، فإما أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله، أو كانت نية القائل صالحة، ويقينه كان ثابتاً، وإخلاصه كان محضاً خالصاً، فكان تأثير قوله في النفوس أعظم، وسر يان موعظته في القلوب أبلغ.

ثم نعود إلى تفسير الفصل: فالبرزخ: الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع القبر، لأنه حاجز بين الميت وبين أهل الدنيا، كالحائط المبني بين اثنين، فإنه برزخ بينهما، ويجوز أن يريد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور، والأول أقرب إلى مراده رضي الله عنه، لأنه قال: "في بطون البرزخ" ولفظة "البطون" تدل على التفسير الأول. ولفظنا "أكلت الأرض من لحومهم وشربت من دمائهم" مستعارتان. والفجوات: جمع فجوة وهي الفرجة المتسعة بين الشيئين، قال سبحانه: "وهم في فجوة منه" وقد تفاجى الشيء، إذا صارت له فجوة.

وجماداً لا ينمون، أي خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجماد الذي لا ينمي ولا يزيد. ويروى: "لا ينمون" بتشديد

الميم، من النميمة وهي الهمس والحركة، ومنه قولهم: أسكت الله نامته، في قول من شدد ولم يهمز. وضماراً، يقال لكل ما لا يرجى من الدين والوعد، وكل ما لا تكون منه على ثقة: ضمار. ثم ذكر أن الأهوال الحادثة في الدنيا لا تفزعهم، وأن تنكر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لا يحزنهم. ويروى "يحزنهم" على أن الماضي رباعي.

ومثله قوله: "لا يحفلون بالرواجف" أي لا يكثرثون بالزلازل. وقوله: "ولا يأذنون للقواصف" أي لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لكذا، أي سمعته. وجمع الغائب غيب وغيب، وكلاهما مروي ههنا، وأراد أنهم شهود في الصورة، وغير حاضرين في المعنى، وآلاف، على فعال: جمع ألف؟ كالطراق جمع طارق، والسمار: جمع سامر، والكفار جمع كافر. ثم ذكر أنه لم تعم أخبارهم، أي لم تستبهم أخبارهم وتنقطع عن بعد عهد بهم، ولا عن بعد منزل لهم، وإنما سقوا كأس المنون التي أحرستهم بعد النطق، وأصمتهم بعد السمع، وأسكنتهم بعد الحركة. وقوله: "وبالسمع صمما"، أي لم يسمعوا فيها نداء المنادي، ولا نوح النائح، أو لم يسمع في قبورهم صوت منهم. وقوله: "فكأنهم في ارتجال الصفة"، أي إذا وصفهم الواصف مرتجلاً غير مترو في الصفة، ولا متهيئ للقول. قال: "كأنهم صرعى سبات"، وهو نوم، لأنه لا فرق في الصورة بين الميت حال موته والنائم المسبوت. ثم وصفهم بأنهم جيران إلا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا، وأنهم أحياء إلا أنهم لا يتزاوون كالأحباب من أهل الدنيا.

وقوله "أحياء" جمع حبيب، كخليل وأخلاء، وصديق وأصدقاء. ثم ذكر أن عرا التعارف قد بليت منهم وانقطعت بينهم أسباب الإخاء، وهذه كلها استعارات لطيفة مستحسنة. ثم وصفهم بصفة أخرى، فقال: كل واحد منهم موصوف بالوحدة، وهم مع ذلك مجتمعون، بخلاف الأحياء الذين إذا انضم بعضهم إلى بعض انتفى عنه وصف الوحدة. ثم قال: "وبجانب الهجر وهم أخلاء" أي وكل منهم في جانب الهجر وهم مع ذلك أهل حلة ومودة، أي كانوا كذلك. وهذا كله من باب الصناعة المعنوية، والمجاز الرشيق. ثم قال: إنهم لا يعرفون للنهار ليلاً ولا لليل نهاراً، وذلك لأن الواحد من البشر إذا مات نهاراً لم يعرف لذلك النهار ليلاً أبداً، وإن مات ليلاً لم يعرف لذلك الليل صباحاً أبداً. وقال الشاعر:

أو ليلة تأتي بلا يوم

لا بد من يوم بلا ليلة

وليس المراد بقوله: "أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً" أنهم وهم موتى يشعرون بالوقت الذي ماتوا فيه ولا يشعرون بما يتعقبه من الأوقات، بل المراد أن صورة ذلك الوقت لو بقيت عندهم لبقيت أبداً من غير أن يزيلها وقت آخر يطرأ عليها. ويجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقاء الأنفس، فيقال: إن النفس التي تفارق ليلاً تبقى الصورة الليلية

والظلمة حاصلة عندها أبداً لا تزول بظلمة نهار عليها، لأنهما قد فارقت الحواس، فلا سبيل لها إلى أن يرسم فيها شيء من المحسوسات بعد المفارقة، وإنما حصل ما حصل من غير زيادة عليه، وكذلك الأنفس التي تفارق نهاراً.

بعض الأشعار والحكايات في وصف القبور والموتى

واعلم أن الناس قد قالوا في حال الموتى فأكثروا، فمن ذلك قول الرضي أبي الحسن رحمه الله تعالى:

أعزز علي بأن نزلت بمنزل	متشابه الأمجاد بالأوغاد!
في عصابة جنبوا إلى آجالهم	والدهر يعجلهم عن الأرواد
ضربوا بمدرجة الفناء قبائهم	من غير أطناب ولا أعماد
ركب أناخوا لا يرجى منهم	قصد لإتهام ولا إنجاز
كرهوا النزول فأنزلتهم وقعة	للدهر بركة بكل مفاد
فتهافتوا عن رحل كل مذل	وتطاوخوا عن سرج كل جواد
بادون في صور الجميع وإنهم	متفردون تفرد الأحاد

قوله: "بادون في صور الجميع" مأخوذ من قول أمير المؤمنين رضي الله عنه: "فكلهم وحيد وهم جميع". وقال أيضاً:

ولقد حفظت له فأين حافظه	ولقد وفيت له فأين وفاؤه؟
أوعى الدعاء فلم يجبه قطيعة	أم ضل عنه من البعاد دعاؤه
هيهات أصبح سمعه وعيانه	في الترب قد حجبتهما أقذاؤه
يمسي ولين مهاده حصباؤه	فيه، ومؤنس ليله ظلماؤه
قد قلبت أعيانه وتكررت	أعلامه، وتكسفت أضواؤه
مغف وليس للذة إغفاؤه،	مغض وليس لفكرة إغضاؤه
وجه كلمع البرق غاض وميضه	قلب كصدر العضب فل مضائه
حكم البلى فيه فلو تلقى به	أعداءه لرثى له أعدائه

وقال أبو العلاء:

أستغفر الله ما عندي لكم خبر	وما خطابي إلا معشراً قبروا
أصبحتم في البلى غبراً ملابسكم	من الهباء، فأين البرد والقطر !
كنتم على كل خطب فادح صبراً	فهل شعرتكم، وقد جادتكم الصبر

وما درى يوم أحد بالذين ثووا

فيه، ولا يوم بدر أنهم نصروا

وقال أبو عارم الكلابي:

أجازعة ردينة أن أتاها

نعبي أم يكون لها اضطبار

إذا ما أهل قبري ودعوني

وراحوا والأكف بها غبار

وغودر أعظمي في لحد قبر

تراوحه الجنائب والقطار

تهب الريح فوق محط قبري

!ويرعى حوله اللهق النواو

مقيم لا يكلمه صديق

بقبر، لا أزور ولا أزار

فذاك النأي لا الهجران حولاً

وحولاً ثم تجتمع الديار!

مر الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا، فسأل: هل بقي من نسلهم أحد؟ قالوا: بقي واحد، وهو يلزم المقابر، فدعا به فسأله: لم تلزم المقابر؟ قال: أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدتها سواء، قال: هل لك أن تلزمني حتى أنيلك بغيتك؟ قال: لو علمت أنك تقدر على ذلك للزمتك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت معها، قال: لن أقدر على ذلك، قال: فدعني أطلبه ممن يقدر عليه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفضح منه". وقال صلى الله عليه وسلم: "القبر أول منزل من منازل الآخرة، فمن نجا منه فما بعده أيسر، ومن لم ينج فما بعده شر له".

ومر عبد الله بن عمر رضي الله عنه بمقبرة فصلى فيها ركعتين، وقال: ذكرت أهل القبور وأنه حيل بينهم وبين هذا، فأحببت أن أتقرب بهما إلى الله.

فإن قلت: ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "وبجانب الهجر"؟ وأي فائدة في لفظة "جانب" في هذا الموضع؟ قلت: لأنهم يقولون: فلان في جانب الهجر، وفي جانب القطيعة، ولا يقولون: "في جانب الوصل"، وفي "جانب المصافاة"، وذلك أن لفظة "جنب" في الأصل موضوعة للمباعدة، ومنه قولهم: "الجار الجنب"، وهو جارك من قوم غرباء. يقال: جنبت الرجل، وأجنبته، وتجنبته، وتجانسته، كله بمعنى، ورجل أجنبي، وأجنب، وجنب، وجانب، كله بمعنى. قوله رضي الله عنه: "شاهدوا من أخطار دارهم"، المعنى أنه شاهد المتقون من آثار الرحمة وأماراتها، وشاهد المجرمون من آثار النعمة وأماراتها عند الموت، والحصول في القبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنون أيام كونهم في الدنيا.

ثم قال: "فكلا الغائتين مدت لهم"، المعنى مدت الغائتان: غاية الشقي منهم وغاية السعيد. إلى مباءة، أي إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف، أو رجاء راج؟ وتلك المباءة هي النار أو الجنة. وتقول: قد استبأ الرجل أي اتخذ مباءة، وأبات الإبل: رددتها إلى مباءتها؟ وهي معاطنها. ثم قال: "فلو كانوا ينطقون بها لعيوا"، بتشديد الياء، قال الشاعر:

عيوا بأمرهم كما

عيت ببيضتها الحمامه

جعلت لها عودين من

نشم وآخر من ثمامه

وروي "لعيوا" بالتخفيف، كما تقول: "حيوا" قالوا: ذهب اليباء الثانية لالتقاء الساكنين لأن الواو ساكنة، وضمت الياء الأولى لأجل الواو، قال الشاعر:

وكنا حسبناهم فوارس كهمس

حيوا بعدما ماتوا من الدهر أعصرا

قوله: "لقد رجعت فيهم" يقال: رجع البصر نفسه، ورجع زيد بصره، يتعدى ولا يتعدى، يقول: تكلموا معنى لا صورة، فأدركت حالهم بالأبصار والأسماع العقلية لا الحسية. وكلحت الوجوه كلوحاً وكلاحاً، وهو تكشر في عبوس، والنواضر: النواغم، والنضرة: الحسن والرونق، وخوت الأجساد النواغم: خلت من دمها ورطوبتها وحشوها. ويجوز أن يكون خوت أي سقطت. قال تعالى: "فهي خاوية على عروشها"، والأهدام: جمع هدم، وهو الثوب البالي، قال أوس:

وذات هدم عار نواشرها

تصمت بالماء تولباً جذعاً

وتكأءنا: شق علينا، ومنه: عقبة كؤود. ويجوز تكأءنا، جاءت هذه الكلمة في أخوات لها "تفعل وتفاعل" بمعنى، ومثله تعهد الضيعة، وتعاهدها.

ويقال: قوله: "وتوارثنا الوحشة". كأنه لما مات الأب فاستوحش أهله منه، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضاً، صار كأن الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تورث الأموال، وهذا من باب الاستعارة.

قوله: "وتهدمت علينا الربوع"، يقال: تهدم فلان على فلان غضباً، إذا اشتد غضبه، ويجوز أن يكون تهدمت أي تساقطت.

وروي "وتهمكت" بالكاف، وهو كقولك: "تهدمت" بالتفسيرين جميعاً، ويعني بالربوع الصموت، القبور، وجعلها

صموتاً لأنه لا نطق فيها، كما تقول: ليل قائم ونهار صائم، أي يقام ويصام فيهما، وهذا كله على طريق الهز والتحريك وإخراج الكلام في معرض غير المعرض المعهود، جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم لأتوا بما وصفه من أحوالهم.

وورد في الحديث أن عمر حضر جنازة رجل، فلما دفن قال لأصحابه: قفوا، ثم ضرب فأمعن في القبور، واستبطأه الناس جداً ثم رجع وقد احمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، فقيل: أبطأت يا أمير المؤمنين، فما الذي حبسك؟ قال: أتيت قبور

الأحبة، فسلمت فلم يردوا علي السلام، فلما ذهبت أقفي ناداني التراب، فقال: ألا تسألني يا عمر ما فعلت باليدين؟

قلت: ما فعلت بهما؟ قال: قطعت الكفين من الرسغين، وقطعت الرسغين من الذراعين، وقطعت الذراعين من المرفقين،

وقطعت المرفقين من العضدين، وقطعت العضدين من المنكبين، وقطعت المنكبين من الكتفين، فلما ذهبت أقفي ناداني

التراب، فقال: ألا تسألني يا عمر ما فعلت بالأبدان والرجلين؟ قلت: ما فعلت؟ قال: قطعت الكتفين من الجنبين، وقطعت

الجنبين من الصلب، وقطعت الصلب من الوركين، وقطعت الوركين من الفخذين، وقطعت الفخذين من الركبتين،

وقطعت الركبتين من الساقين، وقطعت الساقين من القدمين، فلما ذهبت أقفي ناداني التراب، فقال: يا عمر، عليك

بأكفان لا تبلى، فقلت: وما أكفان لا تبلى؟ قال: تقوى الله، والعمل بطاعته. وهذا من الباب الذي نحن بصدد، نسب

الأقوال المذكورة إلى التراب وهو جماد، ولم يكن ذلك، ولكنه اعتبر فانقدحت في نفسه هذه المواعظ الحكيمة، فأفرغها في

قالب الحكاية، ورتبها على قانون المسألة والإجابة، وأضافها إلى جماد موات، لأنه أهز لسامعها إلى تدبرها، ولو قال: نظرت فاعتبرت في حال الموتى فوجدت التراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عظته المبلغ الذي بلغته حيث أودعها في الصورة التي اخترعها.

قوله رضي الله عنه: "فلو مثلتهم بعقلك، أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك" إلى آخر جواب "لو". هذا الكلام أخذه ابن نباتة بعينه فقال: فلو كشفتم عنهم أغطية الأجداث، بعد ليلتين أو ثلاث، لوجدتم الأحداق على الحدود سائلة، والألوان من ضيق اللحد حائلة، وهوام الأرض في نواعم الأبدان جائلة، والرؤوس الموسدة على الإيمان زائلة، ينكرها من كان لها عارفاً، ويفر عنها من لم يزل لها آلفاً.

قوله رضي الله عنه: "ارتسخت أسماعهم" ليس معناه ثبتت كما زعمه الراوندي، لأنها لم تثبت، وإنما ثبتت الهوام فيها، بل الصحيح أنه من رسخ الغدير إذا نش ماؤه ونضب، ويقال: قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلعت حتى يلتقي الثريان، واستكت، أي ضاقت وانسدت، قال النابغة:

ونبتت خير الناس أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

قوله: "واكتحلت أبصارهم بالتراب فحسفت"، أي غارت وذهبت في الرأس.

وأخذ المتنبي قوله: "واكتحلت أبصارهم بالتراب"، فقال:

يدفن بعضنا بعضاً ويمشي وأاخرنا على هام الأوالي

وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال!

ومغض كان لا يغضي لخطب وبال كان يفكر في الهزال

وذلاقة الألسن: حدتها، ذلق اللسان والسنان يذلق ذلقاً، أي ذرب، فهو ذلق، وأذلق.

وهمدت، بالفتح: سكنت وخمدت. وعاث: أفسد. وقوله: "جديد بلى"، من فن البديع، لأن الجدة ضد البلى، وقد أخذ الشاعر هذه اللفظة فقال:

يا دار غادرني جديد بلاك رث الجديد فهل رثيت لذاك!

وسمجها: قبح صورتها، وقد سمج الشيء بالضم فهو سمج، بالسكون، مثل ضخم فهو ضخم، ويجوز: فهو سمج، بالكسر، مثل خشن فهو خشن.

قوله: "وسهل طرق الأفة إليها؟" وذلك أنه إذا استولى العنصر الترابي على الأعضاء، قوي استعدادها، للإستحالة من صورتها الأولى إلى غيرها.

ومستسلمات، أي منقاد طائفة غير عاصية، فليس لها أيد تدفع عنها، ولا لها قلوب تجزع وتحزن لما نزل بها، والأشجان: جمع شجن، وهو الحزن، والأقذاء: جمع قذى، وهو ما يسقط في العين فيؤذيها.

قوله: "صفة حال لا تنتقل"، أي لا تنتقل إلى حسن وصلاح، وليس يريد: لا تنتقل مطلقاً، لأنها تنتقل إلى فساد

واضحلال.

ورجل عزيز، أي حدث، وعزيز الجسد، أي طري، وأنيق اللون: معجب اللون. وغذي ترف: قد غذي بالترف، وهو التنعم المطغي.

وربيب شرف، أي قد ربي في الشرف والعز. ويقال: رب فلان ولده يربه ربا، ورباه يربيه تربية. ويتعلل بالسرور: يتلهى به عن غيره. ويفزع إلى السلوة: يلتجئ إليها. وضناً، أي بخلاً. وغضارة العيش: نعيمه ولينه. وشحاحة، أي بخلاً، شححت بالكسر أشح. وشححت أيضاً بالفتح، أشح وأشح، بالضم والكسر، شحا وشحاحة. ورجل شحيح وشحاح بالفتح. وقوم شحاح وأشحة. ويضحك إلى الدنيا وتضحك إليه، كناية عن الفرح بالعمر والعيشة، وكذا كل واحد منهما يضحك إلى صاحبه لشدة الصفاء، كأن الدنيا تحبه وهو يحبها.

وعيش غفول: قد غفل عن صاحبه، فهو مستغرق في العيش لم ينتبه له الدهر، فيكدر عليه وقته، قال الشاعر:

وكان المرء في غفلات عيش كأن الدهر عنها في وثاق

وقال آخر:

ألا إن أحلى العيش ما سمحت به صروف الليالي، والحوادث نوم

قوله: "إذ وطىء الدهر به حسكه"، أي إذ أوطأه الدهر حسكه. والهاء في "حسكه" ترجع إلى الدهر، عدى الفعل بحرف الجر، كما تقول: قام زيد بعمره، أي أقامه. وقواه: جمع قوة وهي المرة من مرائر الحبل. وهذا الكلام استعارة. ومن كتب: من قرب. والبث: الحزن. والبث أيضاً: الأمر الباطن الدخيل. ونحي المهم: ما يناجيك وسمارك. والفترات: أوائل المرض. وأنس ما كان بصحته، منصوب على الحال. وقال الراوندي في الشرح: هذا من باب: "أخطب ما يكون الأمير قائماً". ثم ذكر أن العامل في الحال "فترات"، قال: تقديره: "فترات آنس ما كان". وما ذكره الراوندي فاسد، فإنه ليس هذا من باب: "أخطب ما يكون الأمير قائماً" لأن ذلك حال سد مسد خبر المبتدأ، وليس ههنا مبتدأ. وأيضاً فليس العامل في الحال "فترات" ولا "فتر"، بل العامل: "تولدت". والقار: البارد.

فإن قلت: لم قال: "تسكين الحار بالقار، وتحريك البارد بالحار"؟ ولأي معنى جعل الأول التسكين والثاني التحريك؟ قلت: لأن من شأن الحرارة التهيج والتشوير، فاستعمل في قهرها بالبارد لفظة "التسكين"، ومن شأن البرودة التخدير والتجميد، فاستعمل في قهرها بالحار لفظة "التحريك".

قوله: "ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلا أمد منها كل ذات داء"، أي ولا استعمل دواء مفرداً معتدلاً المزاج أو مركباً كذلك إلا وأمد كل طبيعة منها ذات مرض بمرض زائد على الأول.

وينبغي أن يكون قوله: "ولا اعتدل بممازج"، أي ولا رام الاعتدال لممتزج، لأنه لو حصل له الاعتدال لكان قد برىء من مرضه، فسمى محاولة الاعتدال اعتدالاً، لأنه باستدلال المعتدلات قد تهيأ للاعتدال، فكان قد اعتدل بالقوة. وينبغي أيضاً أن يكون قد حذف مفعول "أمد"، وتقديره "بمرض" كما قدرناه نحن، وحذف المفعولات كثير واسع. قوله: "حتى فتر معلله"، لأن معللي المرض في أوائل المرض يكون عندهم نشاط، لأنهم يرجون البرء، فإذا رأوا أمارات الهلاك فترت همته.

قوله: "وذهل مرضه"، ذهل بالفتح، وهذا كالأول، لأن الممرض إذا أعيا عليه المرض، وانسدت عليه أبواب التدبير يذهل. قوله: "وتعايا أهله بصفة دائه"، أي تعاطوا العي وتساكنوا إذا سئلوا عنه، وهذه عادة أهل المريض المثقل، يجمعون إذا سئلوا عن حاله.

قوله: "وتنازعوا دونه شجى خبر يكتمونونه"، أي تخاصموا في خبر ذي شجى، أي خبر ذي غصة يتنازعونه وهم حول المريض سترًا دونه، وهو لا يعلم بنجواهم، وما يفيضون فيه من أمره.

فقتل منهم: هو لما به، أي قد أشفى على الموت. وآخر يمينهم إياب عافيته، أي عودها، آب فلان إلى أهله، أي عاد. وآخر يقول: قد رأينا مثل هذا، ومن بلغ إلى أعظم من هذا ثم عوفي، فيمني أهله عود عافيته. وآخر يصبر أهله على فقده، ويذكر فضيلة الصبر، وينهاهم عن الجزع، ويروي لهم أخبار الماضين. وأسى أهليهم، والأسى: جمع أسوة، وهو ما يتأسى به الإنسان. قالت الخنساء:

أسلي النفس عنه بالتأسي

وما يبكون مثل أخي ولكن

قوله: "على جناح من فراق الدنيا"، أي سرعان ما يفارقها، لأن من كان على جناح طائر، فأوشك به أن يسقط! قوله: "إذ عرض له عارض" يعني الموت. ومن غصصه: جمع غصة. وهو ما يعترض مجرى الأنفاس. ويقال: إن كل ميت من الحيوان لا يموت إلا خنقاً، وذلك لأنه من النفس يدخل، فلا يخرج عوضه، أو يخرج فلا يدخل عوضه، ويلزم من ذلك الإختناق، لأن الرئة لا تبقى حينئذ مروحة للقلب، وإذا لم تروحه اختنق.

قوله: "فتحيرت نوافذ فطنته"، أي تلك الفطنة النافذة الثابتة تحيرت عند الموت، وتبلدت.

قوله: "ويست رطوبة لسانه، لأن الرطوبة اللعابية التي بها يكون الذوق تنشف حينئذ، ويطل الإحساس باللسان تبعاً لسقوط القوة.

قوله: "فكم من مهم من جوابه عرفه فعي عن رده"! نحو أن يكون له مال مدفون يسأل عنه حال ما يكون محتضراً، فيحاول أن يعرف أهله به فلا يستطيع، ويعجز عن رد جوابهم، وقد رأينا من عجز عن الكلام فأشار إشارة فهموا معناها، وهي الدواة والكاغد، فلما حضر ذلك أخذ القلم وكتب في الكاغد ما لم يفهم، ويده ترعد. ثم مات. قوله: "ودعاء مؤلم لقلبه سمعه فتصام عنه"، أظهر الصمم، لأنه لا حيلة له.

ثم وصف ذلك الدعاء فقال: "من كبير كان يعظمه"، نحو صراخ الوالد على الولد والولد يسمح ولا يستطيع الكلام. "وصغير كان يرحمه"، نحو صراخ الولد على الوالد، وهو يسمح ولا قدرة له على جوابه.

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال: إنها أفضع من أن تحيط الصفات بها. وتستغرقها، أي تأتي على كنهها، وتعبر عن حقائقها. قوله: "أو تعتدل على عقول أهل الدنيا"، هذا كلام لطيف فصيح غامض، ومعناه أن غمرات الموت وأحواله عظيمة جداً لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شرحت لها ووصفت كما هي على الحقيقة، بل تنبو عنها، ولا تصدق بما يقال فيها، فعبر عن عدم استقامتها على العقول بقوله: "أو يعتدل"، كأنه جعلها كالشيء المعوج عند العقل، فهو غير مصدق به.

الموت وأحوال الموتى في شعر الشعراء

ومما يناسب ما ذكر، من حال الإنسان قول الشاعر:

بينما الفتى مرح الخطا فرحاً بما يسعى له إذ قيل قد مرض الفتى

إذ قيل بات بليلة ما نامها إذ قيل أصبح مثقلاً ما يرتجى
إذ قيل أمسى شاخصاً وموجهاً إذ قيل فارقهم وحل به الردى

وقال أبو النجم العجلي:

والمرء كالحالم في المنام يقول إني مدرك أملي
في قابل مافاتني في العام والمرء يذنيه إلى الحمام
مر الليالي السود والأيام إن الفتى يصبح للأسقام
كالغرض المنسوب للسهام أخطأ رام، وأصاب رام

وقال عمران بن حطان:

أفي كل عام مرضة ثم نقهة وينعى، ولا ينعى، متى ذا؟ إلى متى !
ولا بد من يوم يجيء وليلة يسوقان حتفاً راح نحوك أو غدا

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بمقبرة فنادى: يا أهل القبور الموحشة، والربوع المعطلة، ألا أخبركم بما حدث بعدكم؟ تزوج نساؤكم، وتبوئت مساكنكم، وقسمت أموالكم. هل أنتم مخبرون بما عايينتم! ثم قال: ألا إهم لو أذن لهم في الجواب لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى. ونظر الحسن إلى رجل يجود بنفسه فقال: إن أمراً هذا آخره، لجدير أن يزهد في أوله، وإن أمراً هذا أوله لجدير أن يخاف آخره.

وقال عبدة بن الطبيب - ويعجبني قوله على الحال التي كان عليها، فإنه كان أسود لصاً من لصوص بني سعد بن زيد مناة بن تميم -:

ولقد علمت بأن قصري حفرة غبراء يحملني إليها شرجع

والأقربون إلي، ثم تصدعوا
تسفي علي الريح ثم اودع
عمر الفتى في أهله مستودع

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي
وتركت في غبراء يكره وردها
إن الحوادث يخترمن وإنما

ونظير هذه الأبيات في رويها وعروضها قول متمم بن نويرة اليربوعي:

للحادثات، فهل تريني أجزع!
فتركنهم بلداً وما قد جمعوا
ولهن كان أخو المصانع تبع
فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا
غول أتوها والطريق المهيح
أبارض قومك أم بأخرى تصرع!
يبكى عليك مقنعاً لا تسمع

ولقد علمت ولا محالة أنني
أهلكن عاداً ثم آل محرق
ولهن كان الحارثان كلاهما
فعددت آبائي إلى عرق الثرى
ذهبوا فلم أدركهم ودعتهم
لا بد من تلف مصيب فانتظر
وليأتين عليك يوم مرة

لما فتح خالد بن الوليد عين التمر ، سأل عن الحرقة بنت النعمان بن المنذر، فدل عليها، فأثاها- وكانت عمياء- فسألها عن حالها، فقالت: لقد طلعت علينا الشمس ما شيء يدب تحت الخورنق آلا تحت أيدينا، ثم غربت وقد رحمنا كل من يدور به، وما بيت دخلته حبرة، إلا دخلته عبرة، ثم قالت:

إذا نحن فيه سوقة نتتصف
تقلب تارات بنا وتصرف!

وبينا نسوس الناس والأمر أمرنا
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها

فقال قائل ممن كان حول خالد: قاتل الله عدي بن زيد! لكأنه ينظر إليها حين يقول:

لاتبيتن قدأمنت الدهورا
ولقد كان آمناً مسرورا

إن للدهر صرعة فاحذرنها
قد يبيت الفتى معافى فيردى

دخل عبد الله بن العباس على عبد الملك بن مروان يوم قر ، وهو على فرش يكاد يغيب فيها، فقال: يا بن عباس، إني لأحسب اليوم بارداً! قال: أجل، وإن ابن هند عاش في مثل ما ترى، عشرين أميراً، وعشرين خليفة، ثم هوذاك على قبره ثمامة تمتر، فيقال: إن عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابته. كان محمد بن عبد الله بن طاهر في قمره ببغداد على دجلة، فإذا بحشيش على وجه الماء في وسطه قصبه على رأسها رقعة، فأمر بما فوجد هذا:

فقل له خير ما استعملته الحذر
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

تاه الأعيرج واستولى به البطر
أحسن ظنك بالأيام إنحسن
وسالمتك الليالي فاغتررت بها

فلم ينتفع بنفسه أياماً.

عدي بن زيد:

أيها الشامت المعير بالدّه
أم لديك العهد الوثيق من الأيام،
رأنت المبرأ الموفور!
بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر
ذاً عليه من أن يضام خفير!
وان أم أين قبله سابور!
وبنو الأصفر الكرام ملوك ال
وأخو الحضر إذ بناه وإذ
لم يهبه ريب المنون فباد ال
شاده مرمرأ وجلله كل
وتبين رب الخورنق إذ أش
سره حاله وكثرة ما يملك
فارعوى قلبه وقال: فما غب
ثم بعد الفلاح والملك وال
ثم أضحوا كأنهم ورق ج

قد اتفق الناس على أن هذه الأبيات أحسن ما قيل من القريض في هذا المعنى، وأن الشعراء كلهم أخذوا منها، واحتذوا في هذا المعنى حذوها.

وقال الرضي أبو الحسن رضي الله عنه:

انظر إلى هذا الأنام بعبرة
فتراه كالورق النضيرتقصفت
أنى تحاماه المنون، وإنما
أم كيف تأمل فلتة أجساده
لاتعجبين فما العجيب فناؤه
إنالنعجب كيف حم حمامه
من طاح في سبل الردى آباؤه
لا يعجبنيك خلقه ورواؤه
أغصانه، وتسلبت شجراؤه
خلقت مراعي للردى خضراؤه
من ذا الزمان وحشوها أدواؤه!
بيد المنون، بل العجيب بقاؤه
عن صحة، ويغيب عناداؤه
فليسكن طريقهم أبناؤه

ومؤمرنزلوا به في سوقه
قد كان يفرق ظله أقرانه
ومحجب ضربت عليه مهابة

قال أيضاً:

لاشكله فيهم ولا نظرأوه
ويغض دون جلاله أكفأوه
يعشي العيون بهأوه وضياؤه

نادته من خلف الحجاب منية
شقت إليه سيوفه ورماحه
لم يغنه من كان ود لو أنه
حرم عليه الذل آلا أنه
متخشع بعد الأنيس جنابه
عريان تطرد كل ريح تربه
ولقد مررت ببرزخ فسألته
مثل المطي بواركاً أجداته
ناديته فخفى علي جوابه
من ناظر مطروفة ألحظه
أو واجد مكظومة زفراته
ومسندين على الجنوب كأنهم
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى
أكلتهم الأرض التي ولدتهم
وتفرق البعداء بعد تجمع
وخلائق الدنيا خلائق مومس،
طوراً تبادلك الصفاء وتارة
وتداول الأيام بيلينا كما
وكان طول العمر روحة راكب
لهفي على القوم الأولى غادرتهم
متوسدين على الخدود كأنما
صورضننت على العيون بلحظها

أمم فكان جوابها حوباؤه
وأميط عنه عبيده وإماؤه
قبل المنون من المنون فداؤه
أبدأليشهد بالجلال بناؤه
متضائل بعد القطين فناؤه
ويطيع أول أمرها حصباؤه
أين الألى ضمتهم أرجاؤه
تسفي على جنباتها بوغاؤه
بالقول إلا ما زقت أصداؤه
أو خاطر مطلولة سوداؤه
أو حاقد منسية شحناؤه
شرب تخاذل بالطلا أعضاؤه
يوم العاد يضمهم أحشاؤه
أكل الضروس حلت له أكلاؤه
صعب، فكيف تفرق القرباء!
للمنع آونة، وللإعطاء
تلقاك تنكرها من البغضاء
يبلي الرشاء تطاوح الأرجاء
قضى اللغوب وجد في الإسراء
وعليهم طبق من البيداء
كرعوا على ظمإ من الصهباء
أمسيت أوقرها من البوغاء

قد كنت أحرسها من الأعداء

ونأوا عن الطلاب أي تناء

ونواظر كحل التراب جفونها

قربت ضرائحهم على زوارها

أذن المصيخ بها وعين الرائي

ولبئس ما يلقي بعقر ديارهم

قال عند تلاوته "رجال لا تلهيهم"

الأصل: قاله عند تلاوته: "يسبح له فيها بالغدو والأصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله": إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة. وما برح الله - عزت آلاؤه، في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات - عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصحبوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفتدة، يذكرون بأيام الله، ويخوفون مقامه، بمتزلة الأدلة في الفلوات. من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق، وحذروه من الهلكة، وكانوا كذلك مصاييح تلك الظلمات، وأدلة تلك الشبهات.

وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواج عن محارم الله، في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأثمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنهم قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون.

فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم الحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة، أمروا بها فقصرها عنها، أو نهوا عنها ففرطوا فيها، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال بها، فنشجوا نشيجاً، وتجاوبوا نخيباً، يعجون إلى رهم من مقام ندم واعتراف - لرايت أعلام هدى، ومصاييح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات، في مقعد اطلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم، وحمد مقامهم، يتنسمون بدعائه روح التجاوز، رهائن فاقة إلى فضله، وأسارى ذلة لعظمته، جرح طول الأسى قلوبهم، وطول البكاء عيونهم.

لكل باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة، يسألون من لا تضيق لديه المنادح، ولا يخيب عليه الراغبون، فحاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك.

الشرح: من قرأ "يسبح له فيها" بفتح الباء ارتفع "رجال" عنده بوجهين: أحدهما أن يضمر له فعل يكون هو فاعله، تقديره "يسبحه رجال"، ودل على "يسبحه" يسبح، كما قال الشاعر:

ومختبط مماتطيح الطوائح

ليبك يزيد ضارع لخصومة

أي يكيه ضارع، ودل على "يكيه" "لييك".

والثاني أن يكون خبرمبتدأ محذوف، تقديره: "المسيحون رجال". ومن قرأ: "يسبح له فيها" بكسر الباء، ف "رجال" فاعل، وأوقع لفظ "التجارة" في مقابلة لفظ "البيع" إما لأنه أراد بالتجارة ههنا الشراء خاصة، أو لأنه عمم بالتجارة المشتعلة على البيع والشراء، ثم حص البيع، لأنه أدخل في باب الإلهاء، لأن البيع يحصل ربحه بيقين، وليس كذلك الشراء، والذكر يكون تارة باللسان، وتارة بالقلب، فالذي باللسان نحو التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والدعاء، والذي بالقلب، فهو التعظيم والتبجيل والإعتراف والطاعة.

وجلوت السيف والقلب جلاء، بالكسر، وجلوت اليهود عن المدينة جلاء بالفتح.

والوقرة: الثقل في الأذن. والعشوة: بالفتح: فعلة، من العشا في العين. وآلؤه: نعمه.

فإن قلت: أي معنى تحت قوله: "عزت آلؤه" وعزت بمعنى. "قلت"، وهل يجوز مثل ذلك في تعظيم الله؟ قلت: عزت ههنا ليس بمعنى "قلت" ولكن بمعنى: "كرمت وعظمت"، تقول منه: عززت على فلان بالفتح، أي كرمته عليه، وعظمت عنده، وفلان عزيز علينا، أي كريم معظم.

والبرهة من الدهر: المدة الطويلة، ويجوز فتح الباء.

وأزمان الفترات: ما يكون منها بين النوبتين.

وناجاهم في فكرهم: اهتمهم، بخلاف مناجاة الرسل ببعث الملائكة إليهم، وكذلك "وكلمهم في ذات عقولهم"، "فاستصبحوا بنور يقظة": صار ذلك النور مصباحاً لهم يستضيئون به.

قوله: "من أخذ القصد حمدوا إليهم طريقه"، إلى ههنا: هي التي في قولهم: أحمد الله إليك، أي منهياً ذلك إليك، أو مفضياً به إليك، ونحو ذلك، وطريقة العرب في الحذف في مثل هذا معلومة، قال سبحانه: "ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة" أي لجعلنا بدلاً منكم ملائكة. وقال الشاعر:

فليس لنا من ماء زمزم شربة

مبردة باتت على طهيان

أي عوضاً من ماء زمزم.

قوله: "ومن أخذ يميناً وشمالاً"، أي ضل عن الجادة.

و "إلى" في قوله: "ذموا إليه الطريق" مثل "إلى" الأولى.

ويهتفون بالزواج: يصوتون بها، هتفت الحمامة تحتف هتفاً، وهتف زيد بالغنم هتفاً بالكسر، وقوس هتافة وهتفى، أي ذات صوت، والقسط: العدل. ويأتمرون به: يمثلون الأمر.

وقوله: "فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة"، إلى قوله: "ويسمعون ما لا يسمعون"، هو شرح قوله عن نفسه رضي الله عنه: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً".

والأوزار: الذنوب. والنشيج: صوت البكاء. والمقعد: موضع القعود.

ويد قارعة: تطرق باب الرحمة، وهذا الكلام مجاز، والمنادح: المواضع الواسعة.

و "على" في قوله، "ولا يخيب عليه الراغبون" متعلقة بمحذوف مثل "إلى" المتقدم ذكرها، والتقدير "نادمين عليه"، الحسيب: المحاسب.

واعلم أن هذا الكلام في الظاهر صفة حال القصاص والمتصددين لإنكار المنكرات، ألا تراه يقول: "يذكرون بأيام الله"! أي بالأيام التي كانت فيها النعمة بالعصاة، ويخوفون مقامه من قوله تعالى: ولمن خاف مقام ربه جنتان " ثم قال: فمن سلك القصد حمدوه، ومن عدل عن الطريق ذموا طريقه، وخوفوه الهلاك. ثم قال: يهتفون بالزواجر عن المحارم في أسمع الغافلين، ويأمرون بالقسط وينهون عن المنكر.

وهذا كله إيضاح لما قلناه أولاً، إن ظاهر الكلام شرح حال القصاص وأرباب المواعظ في الجامع والطرقا، والمتصددين لإنكار القبائح، وباطن الكلام شرح حال العارفين، الذين هم صفوة الله تعالى من خلقه، وهو رضي الله عنه دائماً يكني عنهم، ويرمز إليهم، على أنه في هذا الموضع قد صرح بهم في قوله: "حتى كأهم يرون ما لا يرى الناس، ويسعون ما لا يسمعون".

وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل الذكر، ومحاسبة النفس، والبكاء والنحيب، والندم والتوبة، والدعاء والفاقة، والذلة، والحزن، وهو الأسى الذي ذكر أنه جرح قلوبهم بطوله.

في مقامات العارفين

وقد كنا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدم، وهذا موضعه، فنقول: إن أول مقام من مقامات العارفين، وأول منزل من منازل السالكين التوبة، قال الله تعالى: "وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون".

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له".

وقال علي رضي الله عنه: "ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب".

والتوبة في عرف أرباب هذه الطريقة الندم على ما عمل من المخالفة وترك الزلة في الحال والعزم على ألا يعود إلى ارتكاب معصية، وليس الندم وحده عند هؤلاء توبة، وإن جاء في الخبر: "الندم توبة"، لأنه على وزن قوله رضي الله عنه: "الحج عرفة"، ليس على معنى أن غيرها ليس من الأركان، بل المراد أنه أكبر الأركان وأهمها. ومنهم من قال: يكفي الندم وحده، لأنه يستتبع الركنين الآخرين لاستحالة كونه نادماً على ما هو مصر على مثله، أو ما هو عازم على الإتيان بمثله. قالوا: وللتوبة شروط وترتيبات: فأول ذلك انتباه القلب من رقدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة، وإنما يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يحظر بباله من زواجر الحق سبحانه، بسمع قلبه، فإن في الخبر النبوي عنه صلى الله عليه وسلم: "واعظ كل حال الله في قلب كل امرئ مسلم".

وفي الخبر: "إن في بدن المرء لمضغة إذا صلحت صلح جميع البدن، ألا وهي القلب، وإذا فسدت فسد جميع البدن، ألا وهي القلب".

وإذا أفكر العبد بقلبه في سوء صنيعه، وأبصر ما هو عليه من ذميم الأفعال، سنحت في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح

المعاملة، فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة، والأخذ في طرق الرجوع والتأهب لأسباب التوبة.

وأول ذلك هجران إخوان السوء، فإنهم الذين يحملونه على رد هذا القصد، وعكس هذا العزم، ويشوشون عليه صحة هذه الإرادة، ولا يتم ذلك له إلا بالمواظبة على المشاهد والمجالس التي تزيده رغبة في التوبة، وتوفر دواعيه إلى إتمام ما عزم عليه، مما يقوي خوفه ورجاءه، فعند ذلك تنحل عن قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعال، فيقف عن تعاطي المحظورات، ويكبح نفسه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات، فيفارق الزلة في الحال، ويلزم العزيمة على ألا يعود إلى مثلها في الاستقبال، فإن مضى على موجب قصده، ونفذ على مقتضى عزمه، فهو الموفق حقاً، وإن نقض التوبة مرة أو مرات، ثم حملته إرادته على تجديدها، فقد يكون مثل هذا كثيراً، فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء، فإن لكل أجل كتاباً. وقد حكى عن أبي سليمان الداراني أنه قال: اختلفت إلى مجلس قاص، فأثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي شيء، فعدت تائباً، فسمعت كلامه، فبقي من كلامه في قلبي أثر في الطريق ثم زال، ثم عدت ثالثاً فوقر كلامه في قلبي، وثبت حتى رجعت إلى منزلي، وكسرت الأت المخالفة، ولزمت الطريق.

وحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ، فقال: عصفور اصطاد كركياً - يعني بالعصفور القاص، وبالكركي أبا سليمان. ويحكى أن أبا حفص الحداد ذكر بدايته، فقال: تركت ذلك العمل - يعني المعصية - كذا وكذا مرة، ثم عدت إليها، ثم تركني العمل، فلم أعد إليه.

وقيل إن بعض المريدين تاب، ثم وقعت له فترة، وكان يفكر ويقول: أترى لو عدت إلى التوبة كيف كان يكون حكمي! فهتف به هاتف: يا فلان، أطعنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلتناك، وإن عدت إلينا قبلناك، فعاد الفتى إلى الإرادة. وقال أبو علي الدقاق: التوبة على ثلاثة أقسام. فأولها التوبة، وأوسطها الأنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية، والأوبة نهاية، والأنابة واسطة بينهما. والمعنى أن من تاب خوفاً من العقاب فهو صاحب التوبة، ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب الأنابة، ومن تاب مراعاة للأمر فقط، فهو صاحب الأوبة.

وقال أبو علي أيضاً: التوبة صفة المؤمنين، قال سبحانه: "وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون". والأنابة صفة الأولياء، قال سبحانه: "وجاء بقلب منيب"، والأوبة صفة الأنبياء، قال سبحانه: "نعم العبد إنه أواب".

وقال الجنيد: دخلت على السري يوماً، فوجدته متغيراً، فسألته فقال: دخل علي شاب، فسألني عن التوبة، فقلت: ألا تنسى ذنبك! فقال: بل التوبة ألا تذكر ذنبك. قال الجنيد: فقلت له: إن الأمر عندي ما قاله الشاب، قال: كيف؟ قلت: لأنني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الصفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء. فسكت السري. وقال ذو النون المصري: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين.

وسئل البوشنجي عن التوبة، فقال: "إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره، فذاك حقيقة التوبة.

وقال ذو النون: "حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، حتى لا يكون لك فرار، ثم تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله: "حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم".

وقيل لأبي حفص الحداد: لم تبغض الدنيا؟ فقال: لأني باشرت فيها الذنوب، قيل: فهلا أحببتها لأنك وفقت فيها للتوبة! فقال: أنا من الذنب على يقين، ومن هذه التوبة على ظن.

وقال رجل لرابعة العدوية: إني قد أكثر من الذنوب والمعاصي، فهل يتوب علي إن تبت؟ قالت: لا بل لوتاب عليك لتبت.

قالوا: ولما كان الله تعالى يقول في كتابه العزيز: "إن الله يحب التوابين" دلنا ذلك على محبته لمن صحت له حقيقة التوبة، ولا شبهة أن من قارف الزلة فهو من خطئه على يقين، فإذا ثاب فإنه من القبول! على شك، لا سيما إذا كان من شرط القبول محبة الحق سبحانه له، وإلى أن يبلغ العاصي محلاً يجد في أوصافه أمانة محبة الله تعالى إياه مسافة بعيدة، فالواجب إذا على العبد إذا علم أنه ارتكب ما يجب عنه التوبة دوام الانكسار، وملازمة التنصل والاستغفار، كما قيل استشعار الوجع إلى الأجل. وكان من سنته رضي الله عنه دوام الاستغفار. وقال: "إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة". وقال يحيى بن معاذ: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها.

ويحكى أن علي بن عيسى الوزير ركب في موكب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: من هذا؟ من هذا؟ فقالت امرأة قائمة على السطح: إلى متى تقولون: من هذا، من هذا! هذا عبد سقط من عين الله، فابتلاه بما ترون. فسمع علي بن عيسى كلامها، فرجع إلى منزله ولم يزل يتوصل في الاستغفار من الوزارة حتى أعفي، وذهب إلى مكة فجاور بها. ومنها المجاهدة، وقد قلنا فيها ما يكفي فيما تقدم.

ومنها العزلة والخلوة، وقد ذكرنا في جزء قبل هذا الجزء مما جاء في ذلك طرفاً صالحاً.

ومنها التقوى، وهي الخوف من معصية الله، ومن مظالم العباد، قال سبحانه: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، وقيل: إن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أوصني، فقال: "عليك بتقوى الله، فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله، فإنه نور لك." وقيل في تفسير قوله تعالى: "اتقوا الله حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال النصراباذي: من لزم التقوى بادر إلى مفارقة الدنيا، لأن الله تعالى يقول: "وللدار الآخرة خير للذين، يتقون".

وقيل: يستدل على تقوى الرجل بثلاث: التوكل فيما لم ينل، والرضا بما قد نال، وحسن الصبر على ما فات.

وكان يقال: من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربه.

وقد حكوا من حكايات المتقين شيئاً كثيراً، مثل ما يحكى عن ابن سيرين، أنه اشترى أربعين حباً سمناً، فأخرج غلامه فأرة من حب، فسأله: من أي حب أخرجها؟ قال: لا أدري، فصبتها كلها.

وحكى أن أبا يزيد البسطامي غسل ثوبه في الصحراء ومعه مصاحب له، فقال صاحبه: تضرب هذا الود في جدار هذا البستان، ونبسط الثوب عليه، فقال: لا يجوز ضرب الود في جدار الناس قال: فنعلقه على شجرة حتى يجف، قال: يكسر الأغصان، فقال: نبسطه على الإذخر قال: إنه علف الدواب لا يجوز أن نستره منها. فولى ظهره قبل الشمس، وجعل القميص على ظهره حتى جف أحد جانبيه، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر.

ومنها الورع، وهو اجتناب الشبهات، قال صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: "كن ورعاً تكن أعبد الناس".

وقال أبو بكر: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب واحد من الحرام.

وكان يقال: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة، لأنك تبذلها في طلب الرياسة.

وقال أبو عبد الله الجلاء: أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه بركوته ورشائه.

وقال بشر بن الحارث: أشد الأعمال ثلاثة: الجود في القلة، والورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى.

ويقال: إن أخت بشر بن الحارث جاءت إلى أحمد بن حنبل، فقالت: إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الطاهرية، فيقع شعاعها علينا، أفيجوز لنا الغزل في ضوئها؟ فقال أحمد: من أنت يا أمة الله؟ قالت: أخت بشر الحافي، فبكى أحمد،

وقال: من بيتكم خرج الورع، لا تغزلي في ضوء مشاعلهم.

وحكى بعضهم، قال: مررت بالبصرة في بعض الشوارع، فإذا بمشايع قعود وصبيان يلعبون، فقلت: أما تستحيون من

هؤلاء المشايخ؟ فقال غلام من بينهم: هؤلاء المشايخ قل ورعهم، فقلت هيبتهم.

ويقال: إن مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة، ما صح له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رطبها حتى مات ولم يذقه. وكان إذا انقضى أوان الرطب يقول: يا أهل البصرة، هذا بطني ما نقص منه شيء، سواء عليّ أكلت من رطبكم أو

لم أكل! وقال الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

ودخل الحسن مكة، فرأى غلاماً من ولد علي بن أبي طالب، قد أسند ظهره إلى الكعبة وهو يعظ الناس، فقال له الحسن: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما آفته؟ قال: الطمع، فجعل الحسن يتعجب منه.

وقال سهل بن عبد الله: من لم يصحبه الورع، أكل رأس الفيل ولم يشبع.

وحمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنائم، فقبض على مشمه، وقال: إنما ينتفع من هذا بريجه، وأنا أكره أن أجد ريجه دون المسلمين.

وسئل أبو عثمان الحريري عن الورع فقال: كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو في الترع، فمات الرجل، فنفت

أبو صالح في السراج فأطفأه، فقيل له في ذلك، فقال: إلى الآن كان الدهن الذي في المسرحة له، فلما مات صار إلى

الورثة. ومنها الزهد، وقد تكلموا في حقيقته، فقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل.

وقال الخواص: الزهد أن تترك الدنيا فلا تبالي من أخذها.

وقال أبو سليمان الداراني: الزهد ترك كل ما يشغل عن الله.

وقيل: الزهد تحت كلمتين من القرآن العزيز: "الكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم". وكان يقال: من صدق

في زهده أته الدنيا وهي راغمة، ولهذا قيل: لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريدها.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يسعطك الخل والخردل، والعرفان يشمك المسك والعنبر.

وقيل لبعضهم: ما الزهد في الدنيا؟ قال: ترك ما فيها على من فيها.

وقال رجل لذي النون المصري: متى تراني أزهد في الدنيا؟ قال: إذا زهدت في نفسك.

وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى تراني أدخل حانوت التوكل، وألبس رداء الزهد، وأقعد بين الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ولا في يقينك، فأما ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة فعودك على بساط الزاهدين جهل، ثم لا آمن أن تفتضح.

وقال أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام، وهو زهد العوام، وترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص، وترك كل ما يشغلك عن الله، وهو زهد العارفين.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس، فطالبها كماشطتها تحسن وجهها وتعطر ثوبها، والزاهد فيها كضرتها تسخم وجهها، وتنتف شعرها، وتحرق ثوبها. والعارف مشغل بالله، لا يلتفت إليها، ولا يشعر بها.

وكان النصراباذي يقول في مناجاته. يا من حقن دماء الزاهدين، وسفك دماء العارفين! وكان يقال: إن الله تعالى جعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد، وجعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا.

ومنها الصمت، وقدمنا فيما سبق من الأجزاء نكتاً نافعة في هذا المعنى، ونذكر الآن شيئاً آخر.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذني جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت".

وقال أصحاب هذا العلم: الصمت من آداب الحضرة، قال الله تعالى: "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا".

وقال مخبراً عن الجن: "فلما حضروه قالوا أنصتوا".

وقال الله تعالى مخبراً عن يوم القيامة: "وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً".

وقالوا: كم بين عبد سكت تصوناً عن الكذب والغيبة، وعبد سكت لاستيلاء سلطان الهيبة! وأنشدوا:

وأحكم دائماً حجج المقال

وأنطق حين أنطق بالمحال

أرتب ما أقول إذا افترقنا

فأنساها إذا نحن التقينا

وأنشدوا:

إذا جننتكم لم أدر بالليل ماهيا!

فيا ليل كم من حاجة لي مهمة

قالوا: وربما كان سبب الصمت والسكوت حيرة البديهة؟ فإنه إذا ورد كشف بغتة، خرست العبارات عند ذلك، فلا بيان ولا نطق، وطمست الشواهد فلا علم ولا حس، قال الله تعالى: "يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب"، فأما إثارة أرباب المجاهدة الصمت فلما علموا في الكلام من الآفات، ثم ما فيه من حط النفس وإظهار صفات المدح، والميل إلى أن يتميز من بين أشكاله بحسن النطق، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام. وهذا نعت أرباب الرياضة، وهو أحد أركانهم في حكم مجاهدة النفس ومنازلتها وتهذيب الأخلاق.

ويقال: إن داود الطائي لما أراد أن يقعد في بيته، اعتقد أن يحضر مجلس أبي حنيفة، لأنه كان تلميذاً له ويقعد بين أضرابه من العلماء، ولا يتكلم في مسألة على سبيل رياضته نفسه، فلما قويت نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة، قعد في

بيته عند ذلك، وآثر العزلة.

ويقال: إن عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتاباً فاستحسن لفظه، مزق الكتاب وغيره.

وقال بشر بن الحارث: إذا أعجبك الكلام فاصمت، فإذا أعجبك الصمت فتكلم.

وقال سهل بن عبد الله: لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة، ولا يصح لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت. ومنها الخوف، قال الله تعالى: "يدعون ربهم خوفاً وطمعاً"، وقال تعالى: "وإياي فارهبون". وقال: "يخافون ربهم من فوقهم".

وقال أبو علي الدقاق: الخوف على مراتب: خوف، وخشية، وهيبة.

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه، قال الله تعالى: "فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين".

والخشية من شروط العلم، قال الله تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء".

والهيبة من شروط المعرفة، قال سبحانه: "ويحذركم الله نفسه".

وقال أبو عمر الدمشقي: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال بعضهم: من خاف من شيء هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه.

وقال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

ومنها الرجاء، وقد قدمنا فيما قبل من ذكر الخوف والرجاء طرفاً صالحاً، قال سبحانه: "من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت".

والفرق بين الرجاء والتمني، وكون أحدهما محموداً والآخر مذموماً، أن التمني ألا يسلك طريق الاجتهاد والجد، والرجاء بخلاف ذلك، فلهذا كان التمني يورث صاحبه الكسل.

وقال أبو علي الروذباري: الرجاء والخوف كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت.

وقال أبو عثمان المغربي: من حمل نفسه على الرجاء تعطل، ومن حمل نفسه على الخوف قنط، ولكن من هذا مرة ومن هذا مرة.

ومن كلام يحيى بن معاذ ويروى عن علي بن الحسين رضي الله عنه: يكاد رجائي لك مع الذنوب، يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك! وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

ومنها الحزن، وهو من أوصاف أهل السلوك.

وقال أبو علي الدقاق: صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد الحزن في سنتين.

وفي الخبر النبوي: "إن الله يحب كل قلب حزين".

وفي بعض كتب النبوات القديمة: إذا أحب الله عبداً نصب في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مزماراً.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان متواصل الأحزان، دائم الفكر. وقيل: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن خربت. وسمعت رابعة رجلاً يقول: واحزنناه! فقالت: قل واقله حزنناه! لو كنت محزوناً ما تهياً لك أن تتنفس! وقال سفيان بن عيينة: لو أن محزوناً بكى في أمة، لرحم الله تلك الأمة ببكائه. وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحد من أصحابه يقول: إذا رأيت محزوناً فأقرئه عني السلام.

وكان الحسن البصري لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة.

وقال وكيع يوم مات الفضيل: ذهب الحزن اليوم من الأرض.

وقال بعض السلف: أكثر ما يجده المؤمن في صحيفته من الحسنات الحزن والهم.

وقال الفضيل: أدركت السلف يقولون: إن لله في كل شيء زكاة، وزكاة العقل طول الحزن.

ومنها الجوع وترك الشهوات، وقد تقدم ذكر ذلك.

ومنها الخشوع والتواضع، قال سبحانه: "الذين هم في صلاتهم خاشعون".

وفي الخبر النبوي عنه صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه

مثقال ذرة من إيمان"، فقال رجل: يا رسول الله، إن المرء ليحب أن يكون ثوبه حسناً، فقال: "إن الله جميل يحب

الجمال، إنما المتكبر من بطر الحق، وغمص الناس".

وروي أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعود المريض، ويشيع الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب

دعوة العبد.

وكان يوم قريظة والنضير على حمار مخطوم بجبل من ليف، عليه إكاف من ليف.

ودخل مكة يوم فتحها راكب بعير، برحل خلق، وإن ذقنه لتمس وسط الرحل خضوعاً لله تعالى وخشوعاً، وجيشه

يومئذ عشرة آلاف.

قالوا في حد الخشوع: هو الانقياد للحق. وفي التواضع: هو الاستسلام وترك الاعتراض على الحكم.

وقال بعضهم: الخشوع قيام القلب بين يدي الحق بهم مجموع.

وقال حذيفة بن اليمان: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع.

وكان يقال: من علامات الخشوع أن العبد إذا أغضب أو خولف أو رد عليه استقبل ذلك بالقبول.

وقال محمد بن علي الترمذي: الخاشع من خمدت نيران شهوته، وسكن دخان صدره، وأشرق نور التعظيم في قلبه.

فماتت حواسه وحي قلبه، وتطامنت جوارحه.

وقال الحسن: الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب، قال الله تعالى: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً"، أي

خاشعون متواضعون.

ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر، منكسر الشاهد، قد زوى منكبيه، فقال: يا فلان، الخشوع ههنا وأشار إلى صدره،

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

لا ههنا وأشار إلى منكبيه.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه".

وقيل: شرط الخشوع في الصلاة ألا يعرف من على يمينه، ولا من على شماله.

وقال بعض الصوفية: الخشوع قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة.

وكان يقال: من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

وقيل: إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على التراب.

وكان عمر بن الخطاب يسرع في المشي، ويقول: هو أنجح للحاجة، وأبعد من الزهو.

كان رجاء بن حيوة ليلة عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فضعف المصباح، فقام رجل ليصلحه، فقال: اجلس، فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيفه، فقال: أنبه الغلام، قال: إنها أول نومة نامها، ثم قام بنفسه فأصلح السراج فقال رجاء: أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين! قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلف البعير ويقم البيت، ويخصف النعل ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم. ويطحن معها إذا أعت. وكان لا يمنع الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى منزل أهله، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئاً، ولا يحقر ما دعي إليه ولو إلى حشف التمر.

وكان هين المؤنة، لين الخلق، كريم السجية، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً لكل مسلم، ما تحشأ قط من شيع، ولا مد يده إلى طبع.

وقال الفضيل: أوحى الله إلى الجبال إني مكلم على واحد منكم نبياً، فتناولت الجبال، وتواضع طور سيناء، فكلم الله عليه موسى لتواضعه.

سئل الجنيد عن التواضع، فقال: خفض الجناح، ولين الجانب.

ابن المبارك: التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع.

وقيل لأبي يزيد: متى يكون الرجل متواضعاً، قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه.

وكان يقال: التواضع نعمة لا يحسد عليها، والتكبر محنة لا يرحم منها، والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر لم يجده.

وكان يقال: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة.

يحيى بن معاذ: التواضع حسن في كل أحد، لكنه في الأغنياء أحسن، والتكبر سمج في كل أحد، ولكنه في الفقراء أسمى.

وركب زيد بن ثابت، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه، فقال: مه يا بن عم رسول الله! فقال: إنا كذا أمرنا أن نفعل

بعلمائنا، فقال زيد: أربي يدك، فأخرجها فقبلها، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وقال عروة بن الزبير: رأيت عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وعلى عاتقه قرعة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين؟ إنه لا

ينبغي لمثلك هذا! فقال: إنه لما أئتني الوفود سامعة مهادنة، دخلت نفسي نخوة، فأحببت أن أكسرها. ومضى بالقرعة إلى

حجرة امرأة من الأنصار، فأفرغها في إنائها.

أبو سليمان الداراني: من رأى لنفسه قيمة، لم يذق حلاوة الخدمة.

يحيى بن معاذ: التكبر على من تكبر عليك تواضع.

بشر الحافي: سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم.

بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه: بلغني أنك اشتريت خاتماً وفصه بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم، وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتماً من درهمن، واجعل فصه حديداً صينياً، واكتب عليه: "رحم الله امرأ عرف قدره".

قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب أيام خلافته باثني عشر درهماً، وهي: قباء، وعمامة، وقميص، وسراويل، ورداء، وخفان، وقلنسوة.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما سررت قط سروري في أيام ثلاثة: كنت في سفينة، وفيها رجل مضحك، كان يلعب لأهل السفينة، فيقول: كنا نأخذ العليج من بلاد الترك هكذا، ويأخذ بشعر رأسي فيهزني، فسرت ذلك، لأنه لم يكن في تلك السفينة أحقر مني في عينه. وكنت عليلاً في مسجد، فدخل المؤذن وقال: اخرج، فلم أطق، فأخذ برجلي وجرتني إلى خارج المسجد. وكنت بالشام وعلي فرو، فنظرت إليه فلم أميز بين الشعر وبين القمل لكثرت.

عرض على بعض الأمراء مملوك بألف من الدراهم، فاستكثر الثمن، فقال العبد: اشتريني يا مولاي، ففي خصلة تساوي أكثر من هذا الثمن. قال: ما هي؟ قال: لو قدمتي على جميع ممالكك وخولتي بكل مالك لم أغلظ في نفسي، بل أعلم أني عبدك فاشتراه.

تشاجر أبو ذر وبلال، فعير أبو ذر بلالاً بالسواد، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أبا ذر، ما علمت أنه قد بقي في قلبك شيء من كبر الجاهلية. فألقى أبو ذر نفسه، وحلف ألا يحمل رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه، فما رفع رأسه حتى فعل بلال ذلك.

مر الحسن بن علي رضي الله عنه بصبيان يلعبون، وبين أيديهم كسر خبز يأكلونها، فدعوه فتزل وأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: الفضل لهم، لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر مما أطعمناهم. ومنها مخالفة النفس، وذكر عيوبها، وقد تقدم ذكر ذلك.

ومنها القناعة، قال الله تعالى: "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة"، قال كثير من المفسرين: هي القناعة.

وفي الحديث النبوي ويقال إنه من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه: القناعة كثر لا ينفد.

وفي الحديث النبوي أيضاً: "كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنوعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقل الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب". وكان يقال: الفقراء أموات إلا من أحياه الله تعالى بعر القناعة.

وقال أبو سليمان الداراني: القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد، هذا أول الرضا. وهذا أول الزهد.

وقيل: القناعة سكون النفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات.

وقيل في تفسير قوله تعالى: "ليرزقنهم الله رزقاً حسناً" : إنه القناعة.

وقال أبو بكر المراغي: العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسوية؟ وأنكر أبو عبد الله بن حنبل، فقال: القناعة ترك التسوية بالمفقود، والاستغناء بالموجود.

وكان يقال: خرج العز والغنى يجولان، فلقيا القناعة، فاستقرا.

وكان يقال: من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة.

مر أبو حازم الأعرج بقصاب، فقال له: خذ يا أبا حازم، فقال: ليس معي درهم، قال أنا أنظرك، قال: نفسي أحسن نظرة لي منك.

وقيل: وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع: العز في الطاعة، والذل في المعصية، والهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي. والغنى في القناعة.

وكان يقال: انتقم من فلان بالقناعة، كما تنتقم من قاتلك بالقصاص.

ذو النون المصري: من قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه، وأنشدوا:

ينال به الغنى، كرم وجوع

وأحسن بالفتى من يوم عار

ورأى رجل حكيماً يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء، فقال له: لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا فقال: وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان.

وقيل: العقاب عزيز في مطاره، لا تسمو إليه مطامع الصيادين، فإذا طمع في جيفة علقت على حباله، نزل من مطاره فنشب في الأحبولة.

وقيل: لما نطق موسى بذكر الطمع، فقال: "لو شئت لاتخذت عليه أجراً"، قال له الخضر: "هذا فراق بيني وبينك". وفسر بعضهم قوله: "هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي"، فقال: مقاماً في القناعة لا يبلغه أحد.

ومنها التوكل، قال الله تعالى: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه".

وقال سهل بن عبد الله: أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى، كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء، لا يكون له حركة، ولا تدبير.

وقال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: "ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون".

وقال أصحاب هذا الشأن: التوكل بالقلب، وليس ينافيه الحركة بالجسد، بعد أن يتحقق العبد أن التقدير من الله، فإن تعسر شيء فبتقديره، وإن تسهل فبتيسيره.

وفي الخبر النبوي أنه صلى الله عليه وسلم قال للأعرابي الذي ترك ناقته مهملة فندت، فلما قيل له، قال: توكلت فتركتها،

فقال صلى الله عليه وسلم: "إعقل وتوكل".

وقال ذو النون: التوكل الانخلاع من الحول والقوة، وترك تدبير الأسباب.

وقال بعضهم: التوكل رد العيش إلى يوم واحد بإسقاط هم غد.

وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات: التوكل وهو أدناها، ثم التسليم، ثم التفويض، فالأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص.

جاء رجل إلى الشبلي يشكو إليه كثرة العيال، فقال: ارجع إلى بيتك، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت.

وقال سهل بن عبد الله: من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، ومن طعن في الحركة، فقد طعن في السنة.

وكان يقال: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه.

ورأى أبو سليمان الداراني رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم، فمضت عليه أيام، فقال له يوماً: أرايت لو غارت أي زمزم أي شيء كنت تشرب! فقام وقبل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً حيث أرشدتني، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

وقيل: التوكل نفي الشكوك، والتفويض إلى مالك الملوك.

ودخل جماعة على الجنيد، فقالوا: نطلب الرزق! قال: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله ذلك، قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه، قالوا: لندخل البيت فتوكل، قال: التجربة شك، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة

وقيل: التوكل الثقة بالله واليأس عما في أيدي الناس.

ومنها الشكر، وقد تقدم منا ذكر كثير مما قيل فيه.

ومنها اليقين وهو مقام جليل، قال الله تعالى: "وبالآخرة هم يوقنون".

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

وقال سهل بن عبد الله: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه شكوى إلى غير الله.

وذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ما يقال عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه مشى على الماء، فقال: لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء.

وفي الخبر المرفوع عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال لعبد الله بن مسعود: "لا ترضين أحداً بسخط الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتكَ الله. واعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره، وأن الله جعل الروح والفرج في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط".

ومنها الصبر، قال الله تعالى: "وأصبر وما صبرك إلا بالله".

وقال علي رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وسئل الفضيل عن الصبر، قال: تجرع المرارة من غير تعبيس.

وقال رويم: الصبر ترك الشكوى.

وقال علي رضي الله عنه: الصبر مطية لا تكبو.

وقف رجل على الشبلي، فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ قال الشبلي: الصبر في الله تعالى، فقال: لا، قال: فالصبر لله، فقال: لا، قال: فالصبر مع الله تعالى، فقال: لا، قال: فأني شيء؟ قال الصبر عن الله. فصرخ الشبلي صرخة عظيمة، ووقع.

ويقال إن الشبلي حبس في المارستان، فدخل عليه قوم، فقال: من أنتم؟ قالوا: محبوبك جئناك زائرين، فرماهم بالحجارة فهربوا، فقال: لو كنتم أحبائي، لصبرتم على بلائي.

وجاء في بعض الأخبار، عن الله تعالى: بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي.

وقال عمر بن الخطاب: لو كان الصبر والشكر يعيرين لم أبال أيهما ركبت.

وفي الحديث المرفوع: "الإيمان الصبر والسخاء".

وفي الخبر: العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، والبر أخوه، والصبر أمير جنوده. قالوا: فناهيك بشرف خصلة تتأمر على هذه الخصال! والمعنى أن الثبات على هذه الخصال واستدامة التخلق بها إنما يكون بالصبر، فلذلك كان أمير الجنود.

ومنها المراقبة، جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن سائلاً سأله عن الإحسان، فقال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك".

وهذه إشارة إلى حال المراقبة، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب عليه، فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة للحق، وهو أصل كل خير، ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه عن المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف، وأصلح حاله في الوقت، ولازم طريق الحق، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس، راقبه تعالى في عموم أحواله، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه، يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله. ومن تغافل عن هذه الجملة، فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة! ويحكى أن ملكاً كان يتحظى جارية له، وكان لوزيريه ميل باطن إليها، فكان يسعى في مصالحتها، ويرجح جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه. فاتفق أن عرض عليها الملك حجرين من الياقوت الأحمر: أحدهما أنفس من الآخر، بمحضر من وزيره، فتحيرت أيهما تأخذ! فأوماً الوزير بعينه إلى الحجر الأنفس، وحانت من الملك التفاتة، فشاهد عين الوزير وهي ماثلة إلى ذلك الجانب، فبقي الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسراً عينه نحو الجانب الذي كان طرفه مائلاً إليه ذلك اليوم، أي كأن ذلك خلقة. وهذا عزم قوي في المراقبة، ومثله فليكن حال من يريد الوصول.

ويحكى أيضاً أن أميراً كان له غلام يقبل عليه أكثر من إقباله على غيره من مماليكه، ولم يكن أكثرهم قيمة، ولا أحسنهم صورة، فقيل له في ذلك، فأحب أن يبين لهم فضل الغلام في الخدمة على غيره، فكان يوماً راكباً، ومعه حشمه، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج فنظر الأمير إلى الثلج وأطرق، فركض الغلام فرسه، ولم يعلم الغلمان لماذا ركض! فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء ومعه شيء من الثلج، فقال الأمير: ما أدراك أني أردت الثلج! فقال: إنك نظرت إليه، ونظر السلطان إلى شيء

لا يكون إلا عن قصد. فقال الأمير لغلمانه: إنما أختصه بإكرامي وإقبالي، لأن لكل واحد منكم شغلاً، وشغله مراعاة لحظاتي، ومراقبة أحوالي.

وقال بعضهم: من راقب الله في خواطره، عصمه الله في جوارحه.

ومنها الرضا، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التي يقضيها الله تعالى عليه، وليس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصي والفواحش، أو نسبتها إلى الرب تعالى عنها، فإنه سبحانه لا يرضاها، كما قال جل جلاله: "ولا يرضى لعباده الكفر".

وقال: "كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً".

قال رويم: الرضا أن لو أدخلك جهنم لما سخطت عليه.

وقيل لبعضهم: متى يكون العبد راضياً؟ قال: إذا سرته المصيبة، كما سرته النعمة.

قال الشبلي مرة والجنيد حاضر: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال الجنيد: أرى أن قولك هذا ضيق صدر، وضيق الصدر يجيء من ترك الرضا بالقضاء.

وقال أبو سليمان الداراني: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيز به من النار.

وقال تعالى فيمن سخط قسمته: "ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون".

ثم نبه على ما حرموه من فضيلة الرضا، فقال: "ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سئوتنا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون"، وجواب لو ههنا محذوف لفهم المخاطب وعلمه به.

وفي حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره لرضي الله عنهم، ولما كان رضاه عن عباده مقاماً جليلاً جداً حذف ذكره، لأن الذكر له لا ينبئ عن كنهه، وحقيقة فضله، فكان الإضراب عن ذكره أبلغ في تعظيم مقامه.

ومن الأخبار المرفوعة أنه قال صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء"، قالوا: إنما قال: بعد القضاء لأن الرضا قبل القضاء لا يتصور، وإنما يتصور توطين النفس عليه، وإنما يتحقق الرضا بالشيء بعد وقوع ذلك الشيء.

وفي الحديث أنه قال لابن عباس يوصيه: اعمل لله باليقين والرضا، فإن لم يكن فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً.

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً من أصحابه، وقد أجهدته المرض والحاجة، فقال: ما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: المرض والحاجة، قال: أو لا أعلمك كلاماً إن أنت قلت أذهب الله عنك ما بك! قال: والذي نفسي بيده ما يسرني بحظي منهما أن شهدت معك بدرأً والحديبية! فقال صلى الله عليه وسلم: "وهل لأهل بدر والحديبية ما للراضي والقانع"! وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر والرضا.

قدم سعد بن أبي وقاص مكة بعد ما كف بصره، فانتال الناس عليه يسألونه الدعاء لهم، فقال له عبد الله بن السائب: يا عم إنك تدعو للناس فيستجاب لك، هلا دعوت أن يرد عليك بصرك! فقال: يا بن أخي، قضاء الله تعالى أحب إلي من

بصري.

عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر.
وكان يقال: الرضا اطراح الاقتراح على العالم بالصلاح. وكان يقال: إذا كان القدر حقاً كان سخطه حمقاً.
وكان يقال: من رضي حظي. ومن اطرح الاقتراح، أفلح واستراح.
وكان يقال: كن بالرضا عاملاً، قبل أن تكون له معمولاً، وسر إليه عادلاً وإلا سرت نحوه معدولاً.
وقيل للحسن: من أين أتى الخلق؟ قال: من قلة الرضا عن الله، فقليل: ومن أين دخلت عليهم قلة الرضا عن الله؟ قال: من قلة المعرفة بالله.

وقال صاحب سلوان المطاع في الرضا:

وراحمي فيما مضى

يرضيك من حسن الرضا

مصرحاً ومعرضاً

يا مفزعي فيما يجيء

عندي لما تقضيه ما

ومن القطيعة أستعيذ

وقال أيضاً:

علا وجلّ على وجل

حتم أجل، وله أجل

كن من مدبرك الحكيم

وارض القضاء فإنه

وقال أيضاً:

في غير قربي منه أوطار

ولا عليه لي أنصار

يهلك من أنت له جار

بكل ما تقضي وتختار

قلب كما أنعمت صبار

ما لم يكن سخطك والنار

يا من يرى حالي وأن ليس لي

وليس لي ملتحد دونه

حاشا لذاك العزو الفضل أن

وإن تشأ هلكت فهب لي رضاء

عندي لأحكامك يا مالكي

كل عذاب منك مستعذب

ومنها العبودية، وهي أمر وراء العبادة، معناها التبعيد والتذلل. قالوا: العبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص من السالكين.

وقال أبو علي الدقاق: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين.

وسئل محمد بن خفيف: متى تصح العبودية؟ فقال: إذا طرح كله على مولاه، وصبر معه على بلواه.

وقال بعضهم: العبودية معانقة ما أمرت به، ومفارقة ما زجرت عنه.

وقيل: العبودية أن تسلم إليه كلك، وتحمل عليه كلك.

وفي الحديث المرفوع: تعس عبد الدينار، وتعس عبد الخبيصة .

رأى أبو يزيد البسطامي رجلاً، فقال له: ما حرفتك؟ قال خربنده، قال: أمارت الله حمارك؟ لتكون عبداً لله، لا عبداً للحمار.

وكان ببغداد في رباط شيخ الشيوخ، صوفي كبير اللحية جداً، وكان مغري، ومعنى بها أكثر زمانه، يدهنها ويسرحها، ويجعلها ليلاً عند نومه في كيس، فقام بعض المريدين إليه في الليل، وهو نائم، فقصها من الأذن إلى الأذن، فأصبحت كالصريم. وأصبح الصوفي شاكياً إلى شيخ الرباط، فجمع الصوفية وسألهم، فقال المريد: أنا قصصتها، قال: وكيف فعلت، ويلك ذلك! قال: أيها الشيخ، إنها كانت صنمه، وكان يعبدها من دون الله، فأنكرت ذلك بقلبي، وأردت أن أجعله عبداً لله لا عبداً للحية.

قالوا: وليس لشيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من اسمه بالعبودية، ولذلك قال سبحانه في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وكان ذلك الوقت أشرف أوقاته في الدنيا: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً". وقال تعالى: "فأوحى إلى عبده ما أوحى"، فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به. وأنشدوا:

فإنه أشرف أسمائي

لا تدعني إلا بعبدها

ومنها الإرادة، قال تعالى: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه".

قالوا: الإرادة هي بدء طريق السالكين، وهي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله، وإنما سميت هذه الصفة إرادة، لأن الإرادة مقدمة كل أمر، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله، فلما كان هذا الشأن أول الأمر لمن يسلك طريق الله سمي إرادة، تشبيهاً له بالقصد إلى الأمور التي هو مقدمتها.

قالوا: والمريد على موجب الاشتقاق: من له إرادة، ولكن المريد في هذا الاصطلاح من لا إرادة له، فما لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً.

وقد اختلفوا في العبارات الدالة على ماهية الإرادة في اصطلاحهم، فقال بعضهم: الإرادة ترك ما عليه العادة، وعادة الناس في الغالب التعرّيج على أوطان الغفلة، والركون إلى اتباع الشهوة، والإخلاد إلى ما دعت إليه المنية، والمريد هو المنسلخ عن هذه الجملة.

وقال بعضهم: الإرادة نهوض القلب، في طلب الرب، ولهذا قيل: إنها لوعة تهون كل روعة.

وقال أبو في الدقاق: الإرادة لوعة في الفؤاد، ولذعة في القلب، وغرام في الضمير، وانزعاج في الباطن، ونيران تأجج في القلوب.

وقال ممشاذ الدينوري: مذ علمت أن أحوال الفقراء جد كلها لم أمارح فقيراً، وذلك أن فقيراً قدم علي، فقال: أيها الشيخ، أريد أن تتخذ لي عصيده، فجرى على لساني إرادة وعصيدة، فتأخر الفقير ولم أشعر، فأمرت باتخاذ عصيدة، وطلبت فلم أجده، فتعرفت خبره، فقيل: إنه انصرف من فوره، وهو يقول: إرادة وعصيدة، إرادة وعصيدة، وهام على

وجهه، حتى خرج إلى البادية، وهو يكرر هذه الكلمة، فما زال يقول ويرددها حتى مات.
 وحكى بعضهم، قال: كنت بالبادية وحدي فضاقت صدري، فصحت: يا إنس كلموني، يا جن كلموني! فهتف هاتف:
 أي شيء ناديت؟ فقلت: الله، فقال الهاتف: كذبت، لو أردته لما ناديت الإنس، ولا الجن.
 فالمرید هو الذي لا يشغله عن الله شيء، ولا يفتر آناء الليل وأطراف النهار، فهو في الظاهر بنعت المجاهدات، وفي الباطن
 بوصف المكابدات، فارق الفراش، ولازم الانكماش، وتحمل المصاعب، وركب المتاعب، وعالج الأخلاق، ومارس
 المشاق، وعانق الأهوال، وفارق الأشكال، فهو كما قيل:

لا أسداً أخشى ولا ذيباً

ثم قطعت الليل في مهمه

ولم يزل ذو الشوق مغلوباً

يغلبنى شوقي فأطوي السرى

وقيل: من صفات المريدين التحبب إليه بالتوكل، والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والصبر على مقاساة
 الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبته، والتعرض لكل سبب يوصل إليه، والقناعة بالحمول،
 وعدم الفرار من القلب، إلى أن يصل إلى الرب.

وقال بعضهم: آفة المريد ثلاثة أشياء: التزويج، وكتبه الحديث، والأسفار.

وقيل: من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة.

وقال بعضهم: نهاية الإرادة أن يشير إلى الله فيجده مع الإشارة، فقليل له: وأي شيء يستوعب الإرادة؟ فقال: أن يجد الله
 بلا إشارة.

وسئل الجنيد: ما للمريدين وسماع القصص والحكايات؟ فقال: الحكايات جند من جند الله تعالى، يقوي بها قلوب

المريدين. فقليل له: هل في ذلك شاهد؟ فتلا قوله تعالى: "وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك".

وقال أصحاب الطريقة: بين المريد والمراد فرق، فالمرید من سلك الرياضة طلباً للوصول، والمراد من فاضت عليه العناية
 الإلهية ابتداءً، فكان مخطوباً لا خاطباً، وبين الخاطب والمخطوب فرق عظيم.

قالوا: كان موسى عليه السلام مريداً، قال: "رب أشرح لي صدري" وكان محمد صلى الله عليه وسلم مراداً، قال له: "ألم

نشرح لك صدرك"، وسئل الجنيد عن المريد والمراد، فقال: المريد سائر، والمراد طائر، ومتى يلحق السائر الطائر! أرسل

ذو النون المصري رجلاً إلى أبي يزيد، وقال له: إلى متى النوم والراحة! قد سارت القافلة! فقال له أبو يزيد: قل لأخي:

الرجل من ينام الليل كله، ثم يصبح في المنزل قبل القافلة. فقال ذو النون: هنينا له! هذا الكلام لا تبلغه أحوالنا. وقد تكلم

الحكماء في هذا المقام، فقال أبو في بن سينا في كتاب الإشارات: أول درجات حركات العارفين ما يسمونه هم الإرادة،

وهو ما يعتري المستبصر باليقين البرهاني، أو الساكن النفس إلى العقد الإيماني، من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى،

فيتحرك سره إلى القدس، لينال من روح الاتصال، فما دامت درجته هذه، فهو مريد.

ثم إنه ليجتاج إلى الرياضة، والرياضة، موجهة إلى ثلاثة أغراض: الأول: تنحية ما دون الحق عن سنن الإيثار، والثاني:

تطويع النفس الأمانة للنفس المطمئنة، لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهيمات المناسبة للأمر القدسي، منصرفة من

التوهّمات المناسبة للأمر السفلي، والثالث: تلطيف السر لنفسه.

فالأول يعين عليه الزهد الحقيقي، والثاني يعين عليه عدة أشياء: العبادة المشفوعة بالفكرة، ثم الألحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القبول من الأوهام، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكي، بعبارة بليغة، ونعمة رخيصة، وسمت رشيد. والثالث يعين عليه الفكر اللطيف، والعشق العفيف، الذي تتأمر فيه شمائل المعشوق، دون سلطان الشهوة.

ومنها الاستقامة، وحقيقتها الدوام والاستمرار على الحال، قال تعالى: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا". وسئل بعضهم عن تارك الاستقامة، فقال: قد ذكر الله ذلك في كتابه، فقال: "ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً".

وفي الحديث المرفوع: شيتني هود، فقليل له في ذلك، فقال قوله: "فاستقم كما أمرت".

وقال تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً"، فلم يقل سقيناهم بل أسقيناهم أي جعلنا لهم سقياً دائمة، وذلك لأن من دام على الخدمة دامت عليه النعمة.

ومنها الإخلاص، وهو أفراد الحق خاصة في الطاعة بالقصد والتقرب إليه بذلك خاصة، من غير رياء ومن غير أن يمازجه شيء آخر من تصنع المخلوق، أو اكتساب محمدة بين الناس، أو محبة مدح، أو معنى من المعاني، ولذلك قال أرباب هذا الفن: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.

وقال الخواص من هؤلاء القوم: نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاص عبد أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلصاً لا مخلصاً.

وجاء في الأثر عن مكحول: ما أخلص عبد الله أربعين صباحاً، إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

ومنها الصدق، ويطلق على معنيين: تجنب الكذب، وتجنب الرياء، وقد تقدم القول فيهما.

ومنها الحياء، وفي الحديث الصحيح: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت.

وفي الحديث أيضاً: الحياء من الإيمان، وقال تعالى: "ألم يعلم بأن الله يرى"، قالوا: معناه ألم يستحي! وفي الحديث أنه قال لأصحابه: استحيوا من الله حق الحياء قالوا: إنا لنستحيي ونحمد الله. قال: ليس كذلك، من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت وطول البلى، وليترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء.

وقال ابن عطاء: العلم الأكبر الهيبة والحياء، فإذا ذهب لم يبق خير.

وقال ذو النون: الحب ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق.

وقال السري: الحياء والأنس يطرقان القلب، فإن وجدا فيه الزهد والورع خطا، وإلا رحلا.

وكان يقال: تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين حتى رق الدين، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب

الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فئت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قل الحياء، ثم صار الناس

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

يتعاملون بالرغبة والرغبة.

وقال الفضيل: خمس من علامات الشقاء: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل. وفسر بعضهم قوله تعالى: "ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه" إنها كان لها صنم في زاوية البيت، فمضت فألقت على وجهه ثوباً، فقال يوسف: ما هذا؟ قالت: أستحي منه، قال: فأنا أولى أن أستحي من الله! وفي بعض الكتب القديمة: ما أنصفتي عبدي! يدعوني فأستحيي أن أردّه، ويعصيني وأنا أراه، فلا يستحي مني. ومنها الحرية، وهو ألا يكون الإنسان بقلبه رق شيء من المخلوقات، لا من أغراض الدنيا، ولا من أغراض الآخرة، فيكون فرداً لفرد لا يسترقه عاجل دنيا، ولا آجل منى، ولا حاصل هوى، ولا سؤال، ولا قصد، ولا أرب. قال له صلى الله عليه وسلم بعض أصحاب الصفة: قد عرفت نفسي يا رسول الله عن الدنيا، فاستوى عندي ذهبها وحجرها. قال: صرت حراً. وكان بعضهم يقول: لو صحت صلاة بغير قرآن، لصحت بهذا البيت:

أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتي طلعة حر

وسئل الجنيد عمن لم يبق له من الدنيا إلا مقدار مص نواة! فقال: المكاتب عبد ما بقي عليه درهم. ومنها الذكر، قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً".

وروى أبو الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند خالقكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطائكم الذهب والفضة في سبيل الله، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟"، قالوا: ما ذلك يا رسول الله، قال: "ذكر الله". وفي الحديث المرفوع: لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله. وقال أبو علي الدقاق: الذكر منشور الولاية، فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل. وقيل: ذكر الله تعالى بالقلب سيف المريدين، به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وإن البلاء إذا أظلم العبد ففزع بقلبه إلى الله حاد عنه كل ما يكرهه. وفي الخبر المرفوع: إذا مررت برياض الجنة فارتعوا فيها، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر. وفي الخبر المرفوع: أنا جليس من ذكرني. وسمع الشبلي وهو ينشد:

وأيسر ما في الذكر ذكر لسانی

وهام في القلب بالخفقان

شهدتك موجوداً بكل مكان

ولاحظت معلوماً بغير عيان

ذكرتك لا أني نسينك لمحّة

فكدت بلا وجد أموت من الهوى

فلما أراني الوجد أنك حاضري

فخاطبت موجوداً بغير تكلم

ومنها الفتوة، قال سبحانه مخبراً عن أصحاب الأصنام: "قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم".
وقال تعالى في أصحاب الكهف: "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى".
وقد اختلفوا في التعبير عن الفتوة ما هي؟ فقال بعضهم: الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك.
وقال بعضهم: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان، وقالوا: إنما هتف الملك يوم أحد بقوله:

ر، ولا فتى إلا علي

لا سيف إلا ذو الفقار

لأنه كسر الأصنام، فسمي بما سمي به أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجعلها جذاً.
قالوا: وصنم كل إنسان نفسه، فمن خالف هواه فقد كسر صنمه، فاستحق أن يطلق عليه لفظ الفتوة.
وقال الحارث المحاسبي: الفتوة أن تنصف ولا تنتصف.
وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سئل أبي عن الفتوة، فقال: ترك ما تهوى لما تخشى. وقيل: الفتوة ألا تدخر ولا تعتذر.
سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد الصادق صلى الله عليه وسلم، عن الفتوة، فقال: ما تقول أنت؟ قال: إن أعطينا
شكرنا، وإن منعنا صبرنا. قال: إن الكلاب عندنا بالمدينة هذا شأنها، ولكن قل: إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا.
ومنها الفراسة، قيل في تفسير قوله تعالى: "إن في ذلك لآيات للمتوسمين". أي للمتفرسين. وقال النبي صلى الله عليه
وسلم: "اتقوا فراسة المؤمن، فإنها لا تخطئ".
قيل: الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب، حتى شهدت الأشياء من حيث أشهدا الحق إياها، وكل من كان أقوى
إيماناً كان أشد فراسة.

وكان يقال: إذا صحت الفراسة ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة.
ومنها حسن الخلق، وهو من صفات العارفين، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه، فقال: "وإنك لعلی خلق عظیم".
وقيل له صلى الله عليه وسلم: أي المؤمنين أفضل إيماناً، فقال: أحسنهم خلقاً، وبالخلق تظهر جواهر الرجال، والإنسان
مستور بخلقه مشهور بخلقه.

وقال بعضهم: حسن الخلق استصغار ما منك، واستعظام ما إليك.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم".
قيل لذي النون: من أكبر الناس همماً؟ قال: أسوأهم خلقاً.
وكان يقال: ما تخلق أحد أربعين صباحاً بخلق إلا صار ذلك طبيعة فيه.
قال الحسن في قوله تعالى: "وثيابك فطهر"، أي وخلقك فحسن.
شتم رجل الأحنف بن قيس، وجعل يتبعه ويشتمه، فلما قرب الحي وقف، وقال: يا فتى، إن كان قد بقي في قلبك شيء
فقله، كيلا يسمعك سفهاء الحي فيجيبوك.

ويقال: إن معروفاً الكرخي نزل دجلة ليسبح، ووضع ثيابه ومصحفه، فجاءت امرأة فاحتملتها، فتبعها، وقال: أنا
معروف الكرخي، فلا بأس عليك! ألك ابن يقرأ؟ قالت: لا، قال: أفلك بعل؟ قالت: لا، قال: فهاتي المصحف، وخذي

التياب.

قيل لبعضهم: ما أدب الخلق؟ قال: ما أدب الله به نبيه في قوله: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين".
يقال: إن في بعض كتب النبوات القديمة: يا عبدي اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب.

قالت امرأة لمالك بن دينار: يامرائي! فقال: لقد وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة.
قال بعضهم وقد سئل عن غلام سوء له: لم يمسه؟ قال: أتعلم عليه الحلم.
وكان يقال: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، والصديق عند الحاجة إليه.
وقيل في تفسير قوله تعالى: "وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة": الظاهرة تسوية الخلق، والباطنة تصفية الخلق. الفضيل:
لأن يصحبي فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبي عابد سيئ الخلق.
خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراري، فاستقبله جندي فسأله: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجه
وأدماه، فلما جاوزه قيل له: إن ذلك إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان! فرد إليه يعتذر. فقال إبراهيم: إنك لما ضربتني
سألت الله لك الجنة. قال: لم سألت ذلك؟ قال: علمت أي أوجر على ضربك لي، فلم أرد أن يكون نصيبي منك الخير،
ونصيبك مني الشر.

وقال بعض أصحاب الجنيد! قدمت من مكة، فبدأت بالشيخ كي لا يتعنى إلي، فسلمت عليه، ثم مضيت إلى منزلي، فلما
صليت الصبح في المسجد، إذا أنا به خلفي في الصف، فقلت: إنما جئتكم أمس لثلاثا تتعنى! فقال: ذلك فضلك، وهذا
حقك.

كان أبو ذر على حوض يسقي إبله، فزاحمه إنسان فكسر الحوض، فجلس أبو ذر ثم اضطجع فقبل له في ذلك، فقال:
أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا غضب الرجل وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه، وإلا فليضطجع".
دعا إنسان بعض مشاهير الصوفية إلى ضيافة، فلما حضر باب داره رده واعتذر إليه. ثم فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة،
والصوفي لا يغضب، ولا يضجر، فمدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخلق، فقال: إنما تمدحني على خلق تجد مثله في
الكلب، إن دعوته حضر، وإن زجرته انزجر.

مر بعضهم وقت الهاجرة بسكة. فألقى عليه من سطح طست رماد، فغضب من كان في صحبتته، فقال: لا تغضبوا، من
استحق أن يصب عليه النار فصولح على الرماد، لم يجز له أن يغضب.

كان لبعض الخياطين جار يدفع إليه ثياباً فيخيطها، ويدفع إليه أجرهما دراهم زيوفاً، فيأخذها، فقام يوماً من حانوته،
واستخلف ولده، فجاء الجار بالدراهم الزائفة، فدفعها إلى الولد فلم يقبلها، فابدها بدراهم جيدة، فلما جاء أبوه دفع إليه
الدراهم، فقال: ويحك! هل جرى بينك وبينه أمر؟ قال: نعم، إنه أحضر الدراهم زيوفاً، فرددتها فأحضر هذه، فقال: بئس
ما صنعت! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملني بالزائف وأصبر عليه، وألقيها في بئر، كي لا يغر غيري بها! وقيل: الخلق السيئ
هو أن يضيق قلب الإنسان عن أن يتسع لغير ما تحبه النفس وتؤثره، كالملك الضيق لا يسع غير صاحبه.
وكان يقال: من سوء الخلق أن تقف على سوء خلق غيرك وتعيبه به.

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله على المشركين، فقال: "إنما بعثت رحمة، ولم أبعث عذاباً".
دعا علي رضي الله عنه غلاماً له مراراً، وهو لا يجيبه، فقام إليه فقال: ألا تسمع يا غلام! قال: بلى، قال: فما حملك على ترك الجواب؟ قال: أمني لعقوبتك، قال: اذهب فأنت حر.
ومنها الكتمان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استعينوا على أموركم بالكتمان".
وقال السري: علامة الحب الصبر والكتمان، ومن باح بسرنا فليس منا. وقال الشاعر:

كتمت حبك حتى منك تكرمة
ثم استوى فيك إسراي وإعلاني
كأنه غاض حتى فاض عن جسدي
فصار سقمي به في جسم كتمانني

وهذا ضد ما يذهب إليه القوم من الكتمان، وهو عذر لأصحاب السر والإعلان.
وكان يقال: المحبة فاضحة، والدمع نمام. وقال الشاعر:

لا جزى الله دمع عيني خيراً
وجزى الله كل خير لساني
فاض دمعي فليس يكتنم شيئاً
ووجدت اللسان ذا كتمان

يقال: إن بعض العارفين، أوصى تلميذه بكتمان ما يطلع عليه من الحال، فلما شاهد الأمر غلب، فكان يطلع في بئر في موضع خال، فيحدثها بما يشاهد، فنبتت في تلك البئر شجرة سمع منها صوت يحكي كلام ذلك التلميذ، كما يحكي الصدا كلام المتكلم، فأسقط بذلك من ديوان الأولياء وأنشدوا:

أبدأ تحن إليكم الأرواح
ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشنقكم
وإلى لقاء جمالكم ترتاح

ورحمة للعاشقين تحملوا
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
ثقل المحبة والهوى فضاخ
وكذا دماء البائحين تباح

وقال الحسين بن منصور الحلاج:

إني لأكتنم من علمي جواهره
وقد تقدمني فيه أبو حسن
يا رب مكنون علم لو أبوح به
ولاستحل رجال صالحون دمي
كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا
إلى الحسين، وأوصى قبله الحسن
لقليل لي أنت ممن يعبد الوثناً!
يرون أقبح ما يأتونه حسناً

ومنها الجود والسخاء والإيثار، قال الله تعالى: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: السخي قريب من الله، قريب من الناس، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس. وإن الجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل.

قالوا: لا فرق بين الجود والسخاء في اصطلاح أهل العربية، إلا أن الباري سبحانه لا يوصف بالسخاء، لأنه يشعر بسماح النفس عقيب التردد في ذلك، وأما في اصطلاح أرباب هذه الطريقة، فالسخاء هو الرتبة الأولى، والجود بعده، ثم الإيثار، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب السخاء، ومن أعطى الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب الجود، والذي قاسى الضراء وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب الإيثار.

قال أسماء بن خارجة الفزاري: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة طلبها، إن كان كريماً صنت عرضه عن الناس، وإن كان لئيماً صنت عنه عرضي.

كان مؤرق العجلي يتلطف في بر إخوانه، يضع عندهم ألف درهم، ويقول: امسكوها حتى أعود إليكم، ثم يرسل إليهم: أنتم منها في حل، وكان يقال: الجود إجابة الخاطر الأول.

وكان أبو الحسن البوشنجي في الخلاء، فدعا تلميذاً له، فقال انزع عني هذا القميص وادفعه إلى فلان، فقبل له: هلا صبرت! فقال: لم آمن على نفسي أن تغير على ما وقع لي من التخلق معه بالقميص.

رئي علي رضي الله عنه يوماً باكياً، فقبل له: لم تبكي؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

أضاف عبد الله بن عامر رجلاً فأحسن قراه، فلما أراد أن يرتحل لم يعنه غلمانه. فسئل عن ذلك، فقال إنهم إنما يعينون من نزل علينا، لا من ارتحل عنا.

ومنها الغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أحد أغير من الله، إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن لغيرته".

وفي حديث أبي هريرة: "إن الله ليغار وإن المؤمن ليغار".

قال: والغيرة هي كراهية المشاركة فيما هو حقك. وقيل: الغيرة الأنفة والحمية.

وحكي عن السري أنه قرئ بين يديه: "وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً". فقال لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة، ولا أحد أغير من الله.

قالوا: ومعنى حجاب الغيرة، أنه لما أصر الكافرون على الجحود عاقبهم بأن لم يجعلهم أهلاً لمعرفة أسرار القرآن.

وقال أبو علي الدقاق: إن أصحاب الكسل عن عبادته، هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان، فاختار لهم البعد، وأخبرهم عن محل القرب، ولذلك تأخروا، وفي معناه أنشدوا فقالوا:

ما احتيالي في سوء رأي الموالي

أنا صب بمن هويت ولكن

وفي معناه قالوا: سقيم لا يعاد، ومريد لا يراد.

وكان أبو علي الدقاق إذا وقع شيء في خلال المجلس يشوش قلوب الحاضرين، يقول: هذا من غيرة الحق؟ يريد به ألا يتم ما أملناه من صفاء هذا الوقت، وأنشدوا في معناه:

إلى المرأة نهاها وجهها الحسن

همت بإتياننا حتى إذا نظرت

وقيل لبعضهم: أتريد أن تراه؟ قال: لا، قيل: لم؟ قال أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي. وفي معناه أنشدوا:

حتى أغض إذا نظرت إليك

هي فتنتي، فأغار منك عليك

إنني لأحسد ناظري عليك

وأراك تخطر في شمائلك التي

وسئل الشبلي: متى تستريح؟ قال: إذا لم أر له ذاكرةً.

وقال أبو علي الدقاق في قول النبي صلى الله عليه وسلم عند مبايعته فرساً من أعرابي وأنه استقاله فأقاله ، فقال الأعرابي: عمرك الله، فمن أنت؟ قال صلى الله عليه وسلم: أنا امرؤ من قريش، فقال بعض الصحابة من الحاضرين للأعرابي: كفأك جفاء ألا تعرف نبيك! فكان أبو علي يقول: إنما قال: امرؤ من قريش غيره ونوعاً من الأنفة، وإلا فقد كان الواجب عليه أن يتعرف لكل أحد أنه من هو، لكن الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي بقوله: كفأك جفاء ألا تعرف نبيك!.

وقال أصحاب الطريقة: مساكنة أحد من الخلق للحق في قلبك توجب الغيرة منه تعالى.

أذن الشبلي مرة، فلما انتهى إلى الشهادتين، قال: وحقك لولا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك.

وسمع رجل رجلاً يقول: جل الله! فقال له: أحب أن تجله عن هذا.

وكان بعض العارفين يقول: لا إله إلا الله من داخل القلب، محمد رسول الله من قرط الأذن.

وقيل لأبي الفتوح السهروردي وقد أخذ بحلب ليصلب على خشبة: ما الذي أباحهم هذا منك؟ قال: إن هؤلاء دعوني إلى أن أجعل محمداً شريكاً لله في الربوبية، فلم أفعل، فقتلوني.

ومنها التفويض ، قال الله تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون" ، فاستوقف من عقل أمره عن الاقتراح عليه، وأفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه، فالعاقل تارك للاقتراح، على العالم بالصالح.

وقال تعالى: "فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً" ، فبعث على تأكيد الرجاء بقوله: "خيراً كثيراً".

ولما فوض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله: "وقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب" ، كما ورد في الكتاب العزيز.

وحقيقة التفويض هي التسليم لأحكام الحق سبحانه، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون" ، فأس التفويض والباعث عليه هو اعتقاد العجز عن مغالبة القدر، وأنه لا يكون في الخير والشر أعني الرخص والصحة وسعة الرزق والبلايا، والأمراض والعلل وضيق الرزق، إلا ما أراد الله تعالى كونه، ولا يصح التفويض ممن لم يعتقد ذلك ولم يعلمه علم اليقين.

وقد بالغ النبي صلى الله عليه وسلم في التصريح به والنص عليه بقوله لعبد الله بن مسعود: ليقبل همك، ما قدر أتاك وما لم يقدر لم يأتك، ولو جهد الخلق أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدرُوا عليه، ولو جهدوا أن يضروك بشيء لم يكتبه

الله عليك لم يقدروا على ذلك".

وفي صحيح مسلم بن الحجاج أنه قال لأبي هريرة في كلام له: فإن أصابك شيء فلا تقل: لو فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان، ولكن قل: ما قدر الله وما شاء فعل.

وفي صحيح مسلم أيضاً عن البراء بن عازب: إذا أخذت مضجعتك فقل كذا... إلى أن قال: وجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك وكان يقال: معارضة المريض طبيبه، توجب تعذيبه. وكان يقال: إنما الكيس الماهر من أمسى في قبضة القاهر.

وكان يقال: إذا كانت مغالبة القدر مستحيلة، فما من أعوان تقوده إلى الحيلة.

وكان يقال: إذا التبست المصادر، ففوض إلى القادر.

وكان يقال: من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب، ومدير مربوب، أن يتبدل رأيه في بعض الخطوب، ويعمى عليه الصواب المطلوب.

وإذا كان كذلك، فرمما كان تدميره في تدميره، واغتياله من احتياله، وهلكته من حركته، وفي ذلك أنشدوا:

على ما رآه وما دبّره

إلى من يرى منه ما لم تره

ولطف يهون ما قدره

وما لك حول ولا مقدره

ومم الحذار، وفيم الشره!

أيا من يعول في المشكلات

إذا أعضل الأمر فافزع به

تكن بين عطف يقيّل الخطوب

إذا كنت تجهل عقبي الأمور

فلم ذا العناء، وعلام الأسى

وأنشدوا في هذا المعنى:

بأمر فيه هلكه

يشقيه في الدارين ملكه

ستر، وليس يرام هتكه

آراء سيء الحال ضنكه

يا رب مغتبط ومغبوط

ومنافس في ملك ما

علم العواقب دونه

ومعارض الأقدار بال

ن وزيف الشبهات سبكه

وعناده المقدار شركه

فكن امراً محض اليقي

تفويضه توحيده

ومنها الولاية والمعرفة، وقد تقدم القول فيهما.

ومنها الدعاء والمناجاة، قال الله تعالى: "أدعوني أستجب لكم".

وفي الحديث المرفوع: الدعاء مخ العبادة.

وقد اختلف أرباب هذا الشأن في الدعاء، فقال قوم: الدعاء مفتاح الحاجة، ومستروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين، ومتنفس ذوي المأرب.

وقد ذم الله تعالى قوماً فقال: "ويقبضون أيديهم" فسروه وقالوا: لا يمدونها إليه في السؤال.

وقال سهل بن عبد الله التستري: خلق الله الخلق، وقال: تاجروا في، فإن لم تفعلوا فاسمعوا مني، فإن لم تفعلوا فكونوا بباب، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي.

قالوا: وقد أثنى الله على نفسه، فقال: "أمن يجيب المضطر إذا دعاه"، قالوا: الدعاء إظهار فاقة العبودية.

وقال أبو حاتم الأعرج: لأن أحرم الدعاء أشد علي من أن أحرم الإجابة.

وقال قوم: بل السكوت والحمد تحت جريان الحكم والرضا بما سبق من اختيار الحكيم العالم بالمصالح أولى، ولهذا قال الواسطي: اختيار ما جرى لك في الأزل، خير لك من معارضة الوقت.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم إخباراً عن الله تعالى: "من شغله ذكرى عن مسألي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". وقال قوم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، وصاحب رضا بقلبه، ليأتي بالأمرين جميعاً.

وقال قوم: إن الأوقات تختلف، ففي بعض الأحوال يكون الدعاء أفضل من السكوت، وفي بعض الأحوال يكون بالعكس، وإنما يعرف هذا في الوقت، لأن علم الوقت يحصل في الوقت، فإذا وجد في قلبه الإشارة إلى الدعاء فالدعاء أولى، وإن وجد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم وأولى.

وجاء في الخبر: إن الله يبغض العبد فيسرع إجابته بغضاً لسماع صوته، وإنه يحب العبد فيؤخر إجابته حباً لسماع صوته. ومن أدب الدعاء حضور القلب، فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يستجيب دعاء قلب لاه".

ومن شروط الإجابة طيب الطعمة وحل المكسب، قال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: "أطب كسبك تستجب دعوتك".

وينبغي أن يكون الدعاء بعد المعرفة، قيل لجعفر بن محمد الصادق صلى الله عليه وسلم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا! قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه.

كان صالح المري يقول كثيراً: ادعوا: فمن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، فقالت له رابعة العدوية: ماذا تقول؟ أغلق هذا الباب حتى يستفتح! فقال صالح: شيخ جهل، وامرأة علمت.

وقيل: فائدة الدعاء إظهار الفاقة من الخلق، وإلا فالرب يفعل ما يشاء.

وقيل: دعاء العامة بالأقوال، ودعاء العابد بالأفعال، ودعاء العارف بالأحوال.

وقيل: خير الدعاء ما هيجه الأحران والوجد.

وقيل: أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الاضطراب، لقوله تعالى: "أمن يجيب المضطر إذا دعاه" قال أصحاب هذه الطريقة: ألسنة المبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدعاء، وألسنة المحققين الواصلين قد خرست عن ذلك.

وكان عبد الله بن المبارك يقول: ما دعوته منذ خمسين سنة، ولا أريد أن يدعو لي أحد. وقيل: الدعاء سلم المذنبين، وقال

من قال بنقيض هذا: الدعاء مراسلة، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد.

وقالوا: ألسنة المذنبين دموعهم. وكان أبو علي الدقاق يقول: إذا بكى المذنب فقد راسل الله، وفي معناه أنشدوا:

وأنفاسه تبدين ما القلب يكتم

دموع الفتى عما يجن تترجم

وقال بعضهم لبعض العارفين: ادع لي، فقال: كفك من الإجابة ألا تجعل بينك وبينه واسطة.

ومنها التأسى، قال سبحانه: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" أي في مصابه وما نيل منه في نفسه وفي أهله يوم أحد، فلا تجزعوا إن أصيب بعضكم.

وجاء في الحديث المرفوع: لا تنظروا إلى من فوقكم، وانظروا إلى من دونكم، فإنه أجدر ألا تزدروا نعم الله عليكم، وقالت الخنساء ترثي أباها:

على إخوانهم لقتلت نفسي

ولولا كثرة الباكين حولي

أعزي النفس عنه بالتأسي

وما يكون مثل أخي ولكن

وحقيقة التأسى تهوين المصائب والنوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك، ومن هو أرفع محلاً منك.

وقد فسر العلماء قوله تعالى: "ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون"، قال: إنه لا يهون على أحد من أهل النار عذابه، وإن تأسى بغيره من المعذنين، لأن الله تعالى جعل لهم التأسى نافعاً في الدنيا، ولم يجعله نافعاً لأهل النار مبالغة في تعذيبهم، ونفياً لراحة تصل إليهم.

ومنها الفقر، وهو شعار الصالحين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم أحييني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشني مع المساكين".

قال لعلي رضي الله عنه: "إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بأحسن منها، وهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك إماماً".

وجاء في الخبر المرفوع: الفقراء الصبر جلساء الله يوم القيامة.

وسئل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال: ألا تستغني إلا بالله.

وقال أبو الدرداء: لأن أقع من فوق قصر فأتخطم أحب إلي من مجالسة الغني لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إياكم ومجالسة الموتى، فقيل له: وما الموتى؟ قال: الأغنياء.

قيل للربيع بن خيثم: قد غلا السعر، قال: نحن أهون على الله من أن يجمعنا، إنما يجمع أوليائه. وقيل ليحيى بن معاذ: ما الفقر؟ قال: خوف الفقر.

وقال الشبلي: أدنى علامات الفقير أن لو كانت الدنيا بأسرها لواحد فأنفقها في يوم واحد، ثم خطر بباله: لو أمسكت منها قوت يوم آخر، لم يصدق في فقره.

سئل ابن الجلاء عن الفقر، فسكت ثم ذهب قليلاً، وعاد فقال: كانت عندي أربعة دوايق فضة، فاستحييت من الله أن

أتكلم في الفقر وهي عندي، فذهبت فأخرجتها، ثم قعد فتكلم في الفقر.
وقال أبو علي الدقاق في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم: "من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه، إن المرء بقلبه ولسانه وجوارحه، فمن تواضع لغني بلسانه وجوارحه، ذهب ثلثا دينه، فإن تواضع له مع ذلك بقلبه ذهب دينه كله".
ومنها الأدب، قالوا في تفسير قوله تعالى: "ما زاع البصر وما طغى": حفظ أدب الحضرة.
قيل إنه صلى الله عليه وسلم لم يمد نظره فوق المقام الذي أوصل إليه ليلة شاهد السدرة، وهي أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه البشريون.

وفي الحديث المرفوع: أدبني ربي فأحسن تأديبي.
وقيل: إن الجنيد لم يمد رجله في الخلوة عشرين سنة، وكان يقول: الأدب مع الله أولى من الأدب مع الخلق.
وقال أبو علي الدقاق: من صاحب الملوك بغير أدب، أسلمه الجهل إلى القتل.
ومن كلامه صلى الله عليه وسلم: ترك الأدب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط، رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب، رد إلى ساحة الدواب.
وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر الناس في الأدب، وعندي أن الأدب معرفة الإنسان بنفسه. وقال الثوري: من لم يتأدب للوقت، فوقته مقت.

وقال أبو علي الدقاق في قوله تعالى، حكاية عن أيوب: "إذ نادى ربه أي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين". قال: لم يقل: فارحمي لأنه حفظ آداب الخطاب، وكذلك قال في قول عيسى: "إن كنت قلتة فقد علمته"، قال: لم يقل: لم أقل رعاية لأدب الحضرة.

ومنها الحبة، وهي مقام جليل، قالوا: الحبة أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء.
قيل لبعض العرب: ما وجدت من حب فلانة؟ قال: أرى القمر على جدارها أحسن منه على جدران الناس.
وقال أبو عبد الرحمن السلمي: الحبة أن تغار على محبوبك أن يحبه غيرك.
وقال النصراباذي: الحبة نوعان: نوع يوجب حقن الدماء، ونوع يوجب سفك الدماء.
وقال يحيى بن معاذ: الحبة الخالصة ألا تنقص بالجفاء، ولا تزيد بالبر.
وقيل للنصراباذي: كيف حالك في الحبة؟ قال: عدمت وصال الحبين، ورزقت حسراتهم، فهو ذا أحترق فيها.
ثم قال: الحبة مجانبة السلو على كل حال، وأنشدوا:

فإني من ليلي لها غير ذائق

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة

أما لم تصدق كلمحة بارق

وأكثر شيء نلت من وصالها

وجاء في الحديث المرفوع: المرء مع من أحب، ولما سمع سمنون هذا الخبر، قال: فاز المحبون بشرف الدنيا والآخرة، لأنهم مع الله تعالى.

وفي الحديث المرفوع: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، وهذا يتجاوز حد الجلالة والشرف،

وكان يقال: الحب أوله ختل ، وآخره قتل.

قيل: كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد: سكرت من كثرة ما شربت من محبته، فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحور السموات والأرض، وما روي بعد، ولسانه خارج، وهو يقول: هل من مزيد وأنشد:

وهل أنسى فأذكر ما نسيت!

عجبت لمن يقول ذكرت حبي

فما نفذ الشراب، ولا رويت

شربت الحب كأساً بعد كأس

وقيل: الحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشدوا:

وكان سكري من المدير

فأسكر القوم دور كأس

ومنها الشوق، جاء في الخبر المرفوع: إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علي، وسلمان، وعمار.

الشوق مرتبة من مراتب القوم، ومقام من مقاماتهم. سئل ابن عطاء: الشوق أعلى أم المحبة؟ فقال: المحبة، لأن الشوق منها يتولد.

ومن الأدعية النبوية الماثورة الدعاء الذي كان يدعو به عمار بن ياسر رضي الله عنه: اللهم بعلمك بالغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفي ما كانت الوفاة خيراً لي. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت. وأسألك النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة. اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.

قالوا: الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبة يكون الشوق، وعلامة الشوق حب الموت.

وهذا هو السر في قوله تعالى: "فتمنوا الموت إن كنتم صادقين" أي أن من كان صاحب محبة يتمنى لقاء محبوبه، فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة.

قيل لبعض الصوفية: هل تشتاق إليه؟ فقال: إنما الشوق إلى غائب، وهو حاضر لا يغيب.

وقالوا في قوله تعالى: "من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت" : إنه تطيب لقلوب المشتاقين.

ويقال: إنه مكتوب في بعض كتب النبوات القديمة: شوقناكم فلم تشتاقوا، وزمرنا لكم فلم ترقصوا، وخوفناكم فلم ترهبوا، ونحنا لكم فلم تحزنوا.

وقيل: إن شعبياً بكى حتى عمي، فرد الله إليه بصره، ثم بكى حتى عمي، فرد عليه بصره، ثم كذلك ثلاثاً، فقال الله تعالى: "إن كان هذا البكاء شوقاً إلى الجنة فقد أجبته لك، وإن كان خوفاً من النار فقد أجرتك منها". فقال: وحقك لا هذا ولا هذا، ولكن شوقاً إليك، فقال له: "لأجل ذلك أخدمتك نبيي وكليمي عشر سنين".

ومنها الزهد ورفض الدنيا، قال سبحانه: "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا".

وجاء في الخبر أن يوسف عليه السلام كان يجوع في سني الجذب ، فقبل له: أتجوع وأنت على خزائن مصر! فقال:

أخاف أن أشبع فأنسى الجوع.

وكذلك قال علي رضي الله عنه، وقد قيل له: أهذا لباسك، وهذا مأكولك، وأنت أمير المؤمنين! فقال: نعم، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم كضعفة الناس، كيلا يتبغ بالفقر فقره.

ومنع عمر بن الخطاب نفسه عام الرمادة الدسم، وقال: لا أكله حتى يصيبه المسلمون جميعاً.

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس تنعماً، قبل أن يلي الخلافة، قومت ثيابه حينئذ بألف دينار، وقومت وهو يخطب الناس أيام خلافته بثلاثة دراهم.

واعلم أن بعض هذه المراتب والمقامات التي ذكرناها للقوم قد يكون متداخلاً في الظاهر، وله في الباطن عندهم فرق يعرفه من يأنس بكتبهم، وقد أتينا في تقسيم مراتبهم وتفصيل مقاماتهم في هذا الفصل بما فيه كفاية.

قال عند تلاوته "يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم"

الأصل: أدحض مسئول حجة، وأقطع مغتّر معذرة. لقد أبرح جهالة بنفسه. يا أيها الإنسان، ما جرأك على ذنبك، وما غرك بربك، وما أنسك بهلكة نفسك! أما من دائك بلول، أم ليس من نومك يقظة! أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك! فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يمض جسده فتبكي رحمة له!

فما صبرك على دائك، وجلدك على مصابك، وعزاك عن البكاء على نفسك، وهي أعز الأنفس عليك، وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة، وقد تورط بمعاصيه مدارج سطواته! فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة، وكن لله مطيعاً، وبذكره آنساً، وتمثل في حال توليك عنه، إقباله عليك، يدعوك إلى عفوه، ويتغمذك بفضلته، وأنت متول عنه إلى غيره.

فتعالى من قوي ما أكرمه! وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته! وأنت في كنف ستره مقيم، وفي سعة فضله متقلب! فلم يمنحك فضله، ولم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مطرف عين، في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته.

وأيم الله لو أن هذه الصفة كانت في متفقيين في القوة، متوازيين في القدرة، لكنت أول حاكم على نفسك بذييم الأخلاق، ومساوئ الأعمال.

وحقاً أقول! ما الدنيا غرتك، ولكن بها اغتررت، ولقد كاشفتك العظا، وأذنتك على سواء.

ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك، والنقض في قوتك، أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغرك.

ولرب ناصح لها عندك متهم، وصادق من خبرها مكذب، ولئن تعرفتها في الديار الخاوية، والربوع الخالية، لتجدتها من

حسن تذكيرك، وبلاغ موعظتك، بمحلة الشفيق عليك، والشحيح بك! ولنعم دار من لم يرض بها داراً، ومحل من لم يوطنها محلاً! وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها، إذا رجفت الراجفة، وحقت بجلائلها القيامة، ولحق بكل منسك أهله، وبكل معبود عبده، وبكل مطاع أهل طاعته، فلم يجر في عدله وقسطه يومئذ خرق بصر في الهواء، ولا همس قدم في الأرض إلا بحقه. فكم حجة يوم ذاك داحضة، وعلائق عذر منقطعة! فتحر من أمرك ما يقوم به عذر، وتثبت به

حجتك، وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له، وتيسر لسفرك، وشم برق النجاة، وارحل مطايا التشمير.
الشرح: لقائل أن يقول: لو قال: ما غرك بربك العزيز أو المنتقم أو نحو ذلك، لكان أولى لأن للإنسان المعاتب أن يقول: غرني كرمك الذي وصفت به نفسك! وجواب هذا أن يقال: إن مجموع الصفات صار كشيء واحد، وهو الكريم الذي خلقت فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك. والمعنى: ما غرك برب هذه صفته، وهذا شأنه، وهو قادر على أن يجعلك في أي صورة شاء! فما الذي يؤمنك من أن يمسحك في صورة القردة والخنازير ونحوها من الحيوانات العجم.
ومعنى الكريم ههنا: الفياض على المواد بالصور، ومن هذه صفته ينبغي أن يخاف منه تبديل الصورة.
قال صلى الله عليه وسلم: "أدحض مسؤول حجة" المبتدأ محذوف، والحجة الداحضة: الباطلة، والمعذرة بكسر الهمزة: العذر.

ويقال: لقد أبرح فلان جهالة، وأبرح لؤماً، وأبرح شجاعة، وأتى بالبرح من ذلك، أي بالشديد العظيم. ويقال: هذا الأمر أبرح من هذا، أي أشد، وقتلوه أبرح قتل. وجهالة منصوب على التمييز.
وقال القطب الراوندي: مفعول به، قال معناه: جلب جهالة إلى نفسه، وليس بصحيح، وأبرح لا يتعدى ههنا وإنما يتعدى أبرح في موضعين: أحدهما أبرحه الأمر، أي أعجبه، والآخر أبرح زيد عمراً، أي أكرمه وعظمه.
قوله: ما جرأك بالهمزة، وفلان جريء القوم، أي مقدمهم.
وما أنسك بالشديد، وروي: ما آنسك بالمد، وكلاهما من أصل واحد، وتأنست بفلان واستأنست بمعنى، وفلان أنيسي ومؤانسي، وقد أنسني وأنسني كله بمعنى، أي كيف لم تستوحش من الأمور التي تؤدي إلى هلكة نفسك.
والبلول: مصدر بل الرجل من مرضه، إذا برئ، ويجوز أبل، قال الشاعر:

إذا بل من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذي هو قاتله

والضاحي لحر الشمس: البارز. وهذا داء ممض، أي مؤلم، أمضني الجرح إمضاضاً، ويجوز مضني، وروي: وجلدك على مصائبك، بصيغة الجمع.

وبيات نقمة بفتح الباء: طروقها ليلاً، وهي من ألفاظ القرآن العزيز .
وتورط: وقع في الورطة، بتسكين الراء، وهي الهلاك، وأصل الورطة أرض مطمئة لا طريق فيها، وقد أورطه، وورطه توريطاً، أي أوقعه فيها.

والمدارج: الطرق والمسالك، ويجوز انتصاب مدارج ههنا، لأنها مفعول به صريح، ويجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض وحذفه، أي في مدارج سطواته.

قوله: وتمثل أي وتصور، ويتعمدك بفضل، أي يسترك بعفوه، وسمي العفو والصفح فضلاً، تسمية للنوع بالجنس.

قوله: مطرف عين بفتح الراء، أي زمان طرف العين، وطرفها: إطباق أحد جفنيها على الآخر، وانتصاب مطرف ههنا على الظرفية، كقولك: وردت مقدم الحاج أي وقت قدومهم.

قوله: متوازيين في القدرة، أي متساويين، وروي: متوازنين بالنون.

والعظات: جمع عظة، وهو منصوب على نزع الخافض، أي كاشفتك بالعظات، وروي العظات بالرفع على أنه فاعل. وروي: كاشفتك الغطاء، وأذنتك، أي أعلمتك.

وعلى سواء، أي على عدل وإنصاف، وهذا من الألفاظ القرآنية .

والراجفة: الصيحة الأولى، وحقت بجلالها القيامة، أي بأمورها العظام والمنسك: الموضع الذي تذبح فيه النساء، وهي ذبائح القربان ويجوز فتح السين، وقد قرئ بهما في قوله تعالى: "لكل أمة جعلنا منسكاً" .

فإن قلت: إذا كان يلحق بكل معبود عبده، فالنصارى إذن تلحق بعبسى، والغلاة من المسلمين بعلي، وكذلك الملائكة،

فما القول في ذلك؟ قلت: لا ضرر في التحاق هؤلاء بعبوديتهم، ومعنى الالتحاق أن يؤمر الأتباع في الموقف بالتحيز إلى

الجهة التي فيها الرؤساء، ثم يقال للرؤساء: أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم؟ فحينئذ يتبرأون منهم، فينجو الرؤساء، وتهلك

الأتباع، كما قال سبحانه: "أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن

أكثرهم بهمؤمنون" ، أي إنما كانوا يطيعون الشياطين المضلة لهم، فعبادتهم في الحقيقة للشياطين لا لنا، وإنهم ما أطاعونا،

ولو أطاعونا لكانوا مهتدين، وإنما أطاعوا شياطينهم.

ولا حاجة في هذا الجواب إلى أن يقال ما قيل في قوله تعالى: "إنكم وما تعبدون من دون الله" ، من تخصيص العموم بالآية

الأخرى، وهي قوله تعالى: "إن الذين سبقوا منكم وما تعبدون من دون الله" ، من تخصيص العموم بالآية .

فإن قلت: فما قولك في اعتراض ابن الزبير على الآية، هل هو وارد؟ قلت: لا، لأنه قال تعالى: "إنكم وما تعبدون" وما

لما لا يعقل، فلا يرد عليه الاعتراض بالمسيح والملائكة.

والذي قاله المفسرون من تخصيص العموم بالآية الثانية تكلف غير محتاج إليه.

فإن قلت: فما الفائدة في أن قرن القوم بأصنامهم في النار؟ وأي معنى لذلك في زيادة التعذيب والسخط؟ قلت: لأن النظر

إلى وجه العدو باب من أبواب العذاب، وإنما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التي ضلوا بها، فكلما رأوها معهم

زاد غمهم وحسرتهم.

وأيضاً فإنهم قدروا أن يستشفعوا بها في الآخرة، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شيء أبغض إليهم منها.

قوله: فلم يجر قد اختلف الرواة في هذه اللفظة، فرواها قوم فلم يجر وهو مضارع جرى يجري، تقول: ما الذي جرى

للقوم؟ فيقول من سألته: قدم الأمير من السفر، فيكون المعنى على هذا: فلم يكن ولم يتجدد في ديوان حسابه ذلك اليوم

صغير ولا حقير إلا بالحق والإنصاف. وهذا مثل قوله تعالى: "لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب" ، ورواها قوم فلم يجر،

مضارع جاز يجوز، أي لم يسغ ولم يرخص ذلك اليوم لأحد من المكلفين في حركة من الحركات المحقرات المستصغرات،

إلا إذا كانت قد فعلها بحق، وعلى هذا يجوز فعل مثلها. ورواها قوم: فلم يجر من جار، أي عدل عن الطريق، أي لم

يذهب عنه سبحانه، ولم يضل ولم يشذ عن حسابه شيء من أمر محقرات الأمور إلا بحقه، أي إلا ما لا فائدة في إثباته

والمحاسبة عليه، نحو الحركات المباحة والعبثية التي لا تدخل تحت التكليف.

وقال الراوندي: خرق بصر مرفوع لأنه اسم ما لم يسم فاعله، ولا أعرف لهذا الكلام معنى، والهمس: الصوت الخفي.

قوله: فتح من أمرك، تحرّيت كذا، أي توحّيته وقصدته واعتمدته.

قوله: وتيسر لسفرك، أي هيئ أسباب السفر، ولا تترك لذاك عائقاً، والشيم: النظر إلى البرق، ورحلت مطيبي، إذا شددت على ظهرها الرحل، قال الأعشى:

رحلت سمية غدوة أجمالها

غضبي عليك فما تقول بدا لها

والتشهير: الجد والانكماش في الأمر، ومعاني الفصل ظاهرة، وألفاظه الفصيحة تعطّيها وتدل عليها بما لو أراد المفسر أن يعبر عنه بعبارة غير عبارته صلى الله عليه وسلم لكان لفظه رضي الله عنه أولى أن يكون تفسيراً لكلام ذلك المفسر.

قال في التبرؤ من الظلم

الأصل: والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أجز في الأغلال مصفداً، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاضباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الشرى حلولها! والله لقد رأيت عقيباً وقد أملق حتى استماحييني من بركم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غير الألوان من فقرهم، كأنما سودت وجوههم بالعظم، وعاودني مؤكداً، وكرر علي القول مردداً، فأصغيت إليه سمعي، فظن أني أبيع ديني، وأتبع قياده مفارقاً طريقي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل! أئن من حديدة أحماها إنسانها للعبة، وتجري إلى نار سجرها جبارها لغضبه! أئن من الأذى ولا أئن من لظى! وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها، ومعجونة شنتها، كأنما عجت بريق حية أو قيئها، فقلت: أصلة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت! فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنها هدية. فقلت: هبلتك الهبول! أعن دين الله أتيتني لتخدعني! أئحتبط أم ذو جنة أم تاجر! والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها.

ما لعلّي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى! نعوذ بالله من سبات العقل، وقبح الزلل، وبه نستعين.

الشرح: السعدان: نبت ذو شوك، يقال له: حسك السعدان وحسكة السعدان، وتشبه به حلمة الثدي، فيقال: سعدانة الشندوة، وهذا النبت من أفضل مراعي الإبل، وفي المثل مرعى ولا كالسعدان، ونونه زائدة، لأنه ليس في الكلام فعال غير مضاعف، إلا خزعال وهو ظلع يلحق الناقة، وقهقار، وهو الحجر الصلب، وقسطال وهو الغبار، والمسهد: الممنوع النوم، وهو السهاد، والأغلال: القيود. والمصفد: المقيد. والحطام: عروض الدنيا ومتاعها، شبه لزواله وسرعة فناءه بما يتحطم من العيوان ويتكسر.

ثم قال: كيف أظلم الناس لأجل نفس تموت سريعاً يعني نفسه صلى الله عليه وسلم.

فإن قلت: أليس قوله: عن نفس يسرع إلى البلى قفولها يشعر بمذهب من قال بقدم الأنفس، لأن القفول الرجوع، ولا يقال في مذهبه للمسافرة: قافلة إلا إذا كانت راجعة.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

قلت: لا حاجة إلى القول بقدوم الأنفس محافظة على هذه اللفظة، وذلك لأن النفس إذا كانت حادثة فقد كان أصلها العدم، فإذا مات الإنسان عدمت نفسه فرجعت إلى العدم الأصلي، وهو المعبر عنه بالبلبي. وأملق: افتقر، قال تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق".

واستماحني: طلب مني أن أعطيه صاعاً من الخنطة، والصاع أربعة أمداد، والمد رطل وثلاث، فمجموع ذلك خمسة أرتال، وثلاث رطل، وجمع الصاع أصوع، وإن شئت همزت. والصواع لغة في الصاع، ويقال: هو إناء يشرب فيه. والعظم، بالكسرة في الحرفين: نبت يصيب به ما يراد اسوداده، ويقال: هو الوسمة. وشعث الألوان، أي غير، وأصغيت إليه: أملت سمعي نحوه، وأتبع قياده: أطيعه وأنقاد له، وأحميت الحديدية في النار، فهي حمأة، ولا يقال: حميت الحديدية، وذي دنف، أي ذي سقم مؤلم، ومن ميسمها: من أثرها في يده، وثكلتك الثواكل، دعاء عليه، وهو جمع ثاكلة، وفواعل لا يجيء إلا جمع المؤنث إلا فيما شذ، نحو فوارس، أي ثكلتك نساؤك. قوله: أحماها إنسانها، أي صاحبها، ولم يقل إنسان، لأنه يريد أن يقابل هذه اللفظة بقوله: جبارها. وسجرها، بالتخفيف: أوقدها وأحماها، والسجور ما يسجر به التنور.

قوله: بملفوفة في وعائها، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الحلواء تأنق فيه، وكان صلى الله عليه وسلم ييغض الأشعث لأن الأشعث كان ييغضه، وظن الأشعث أنه يستميله بالمهاداة لغرض دنيوي كان في نفس الأشعث، وكان أمير المؤمنين رضي الله عنه يفتن لذلك ويعلمه، ولذلك رد هدية الأشعث، ولولا ذلك لقبلها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهدية، وقد قبل علي رضي الله عنه هدايا جماعة من أصحابه، ودعاه بعض من كان يأنس إليه إلى حلواء عملها يوم نوروز فأكل وقال: لم عملت هذا؟ فقال: لأنه يوم نوروز، فضحك. وقال: نوروزا لنا في كل يوم إن استطعتم.

وكان صلى الله عليه وسلم من لطافة الأخلاق وسجاجة الشيم على قاعدة عجيبة جميلة، ولكنه كان ينفر عن قوم كان يعلم من حالهم الشنآن له، وعمن يحاول أن يصانعه بذلك عن مال المسلمين، وهيئات حتى يلين لضرس الماضغ الحجر! وقال: بملفوفة في وعائها، لأنه كان طبق مغطى.

ثم قال: ومعجونة شنتها، أي أبغضتها ونفرت عنها. كأنها عجنت بريق الحية أو بقيعتها، وذلك أعظم الأسباب للنفرة من المأكول.

وقال الراوندي: وصفها باللطافة فقال: كأنها عجنت بريق الحية، وهذا تفسير أبعد من الصحيح.

قوله: أصلة، أم زكاة أم صدقة، فذلك محرم علينا أهل البيت!، الصلة: العطية لا يراد بها الأجر، بل يراد وصلة التقرب إلى الموصول، وأكثر ما تفعل للذكر والصيت. والزكاة: هي ما تجب في النصاب من المال. والصدقة ههنا هي صدقة التطوع، وقد تسمى الزكاة الواجبة صدقة، إلا أنها هنا هي النافلة.

فإن قلت: كيف قال: فذلك محرم علينا أهل البيت، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة، ولا يحرم عليهم صدقة التطوع، ولا قبول الصلوات؟ قلت: أراد بقوله: أهل البيت الأشخاص الخمسة: محمداً، وعلياً، وفاطمة، وحسيناً، وعليهم السلام، فهؤلاء خاصة دون غيرهم من بني هاشم، محرم عليهم الصلة وقبول الصدقة، وأما غيرهم من بني هاشم فلا

يحرم عليهم إلا الزكاة الواجبة خاصة.

فإن قلت: كيف قلت: إن هؤلاء الخمسة يحرم عليهم قبول الصلوات، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صلة معاوية؟ قلت: كلا لم يقبلا صلته، ومعاذ الله أن يقبلاها! وإنما قبلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال، فإن سهم ذوي القربى منصوص عليه في الكتاب العزيز، ولهما غير سهم ذوي القربى سهم آخر للإسلام من الغنائم. قوله: هبلك الهبول أي ثكلتك أمك، والهبول التي لها عادة بثكل الولد.

فإن قلت: ما الفرق بين محتبط، وذئب جنة، ويهجر؟ قلت: المحتبط: المصروع من غلبة الأخلاط السوداوية أو غيرها عليه، وذئب الجنة من به مسر من الشيطان. والذي يهجر هو الذي يهذي في مرض ليس بصرع كالحموم والمبرسم ونحوهما. وجلب الشعيرة، بضم الجيم: قشرها، والجلب والجلبة أيضاً جلدة تعلو الجرح عند البرء، يقال منه: جلب الجرح يجلب ويجلب، وأجلب الجرح أيضاً، ويقال للجلدة التي تجعل على القتب جلبة أيضاً، وتقضمها بفتح الضاد، والماضي قضم بالكسر.

حياة عقيل بن أبي طالب عليه السلام

وعقيل، هو عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أخو أمير المؤمنين رضي الله عنه لأمه وأبيه، وكان بنو أبي طالب أربعة: طالب، وهو أسن من عقيل بعشر سنين، وعقيل وهو أسن من جعفر بعشر سنين، وجعفر وهو أسن من علي بعشر سنين، وعلي وهو أصغرهم سناً، وأعظمهم قدراً، بل وأعظم الناس بعد ابن عمه قدراً. وكان أبو طالب يحب عقيلاً أكثر من حبه سائر بنيهِ، فلذلك قال للنبي صلى الله عليه وسلم وللعباس حين أتياه ليقترسما بنيهِ عام المحل، فيخففا عنه ثقلهم: دعوا لي عقيلاً، وخذوا من شتّم فأخذ العباس جعفرأ، وأخذ محمد صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه.

وكان عقيل يكنى أبا يزيد، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا يزيد، إني أحبك حين: حباً لقربتك مني، وحباً لما كنت أعلم من حب عمي إياك".

أخرج عقيل إلى بدر مكرهاً كما أخرج العباس، فأسر وفدي، وعاد إلى مكة، ثم أقبل مسلماً مهاجراً قبل الحديبية، وشهد غزاة مؤتة مع أخيه جعفر رضي الله عنه، وتوفي في خلافة معاوية في سنة خمسين، وعمره ست وتسعون سنة.

وله دار بالمدينة معروفة، وخرج إلى العراق، ثم إلى الشام، ثم عاد إلى المدينة، ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين رضي الله عنه شيئاً من حروبه أيام خلافته، وعرض نفسه وولده عليه فأعفاه، ولم يكلفه حضور الحرب.

وكان أنسب قريش وأعلمهم بأيامها، وكان مبغضاً إليهم، لأنه كان يعد مساوئهم.

وكانت له طنفسة تطرح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصلي عليها، ويجتمع إليه الناس في علم النسب وأيام العرب، وكان حينئذ قد ذهب بصره، وكان أسرع الناس جواباً، وأشدّهم عارضة.

كان يقال: إن في قريش أربعة يتحاكم إليهم في علم النسب وأيام قريش، ويرجع إلى قولهم: عقيل بن أبي طالب، ومخرمة

بن نوفل الزهري، وأبو الجهم بن حذيفة العدوي، وحويط بن عبد العزى العامري. واختلف الناس في عقيل، هل التحق بمعاوية وأمير المؤمنين حي؟ فقال قوم: نعم، ورووا أن معاوية قال يوماً وعقيل عنده: هذا أبو يزيد، لولا علمه أي خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه. فقال عقيل: أخي خير لي في ديني، وأنت خير لي في دنياي، وقد آثرت دنياي، أسأل الله خاتمة خير.

وقال قوم: إنه لم يعد إلى معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين رضي الله عنه واستدلوا على ذلك بالكتاب الذي كتبه إليه في آخر خلافته، والجواب الذي أجابه صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرناه فيما تقدم، وسيأتي ذكره أيضاً في باب كتبه صلى الله عليه وسلم، وهذا القول هو الأظهر عندي. وروى المدائني، قال: قال معاوية يوماً لعقيل بن أبي طالب: هل من حاجة فأقضيها لك؟ قال: نعم جارية عرضت علي وأبي أصحابها أن يبيعوها إلا بأربعين ألفاً، فأحب معاوية أن يمازحه فقال: وما تصنع بجارية قيمتها أربعون ألفاً وأنت أعمى تجترئ بجارية قيمتها خمسون درهماً! قال: أرجو أن أطأها فتلد لي غلاماً إذا أغضبته يضرب عنقك بالسيف. فضحك معاوية: وقال: مازحناك يا أبا يزيد! وأمر فابتعت له الجارية التي أولد منها مسلماً، فلما أتت على مسلم ثمان عشرة سنة وقد مات عقيل أبوه قال لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إن لي أرضاً بمكان كذا من المدينة، وإني أعطيت بها مائة ألف، وقد أحببت أن أبيعك إياها، فأدفع إلي ثمنها، فأمر معاوية بقبض الأرض، ودفع الثمن إليه.

فبلغ ذلك الحسين رضي الله عنه، فكتب إلى معاوية: أما بعد، فإنك غررت غلاماً من بني هاشم، فابتعت منه أرضاً لا يملكها، فاقبض من الغلام ما دفعته إليه، واررد إلينا أرضنا. فبعث معاوية إلى مسلم، فأخبره ذلك، وأقرأه كتاب الحسين رضي الله عنه، وقال: اردد علينا مالنا، وخذ أرضك، فإنك بعت ما لا تملك، فقال مسلم: أما دون أن أضرب رأسك بالسيف فلا، فاستلقى معاوية ضاحكاً يضرب برجله، فقال: يا بني، هذا والله كلامه لي أبوك حين ابتعت له أملك.

ثم كتب إلى الحسين: إني قد رددت عليكم الأرض، وسوغت مسلماً ما أخذ. فقال الحسين رضي الله عنه: أبيت يا آل أبي سفيان إلا كرماء! وقال معاوية لعقيل: يا أبا يزيد، أين يكون عمك أبو لهب اليوم؟ قال: إذا دخلت جهنم، فاطلبه تجده مضاجعاً لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية.

وقالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة، يا بني هاشم، لا يحبك قلبي أبداً، أين عمي؟ أين أخي؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة، ترى أنافهم الماء قبل شفاههم، قال: إذا دخلت جهنم، فخذني على شمالك.

سأل معاوية عقيلاً عن قصة الحديد المحمّاة المذكورة، فبكى وقال: أنا أحدثك يا معاوية عنه، ثم أحدثك عما سألت، نزل بالحسين ابنه ضيف، فاستسلف درهماً اشترى به خبزاً، واحتاج إلى الإدام فطلب من قنبر خادمهم، أن يفتح له زقاً من زقاق غسل جاءهم من اليمن، فأخذ منه رطلاً، فلما طلبها رضي الله عنه ليقسمها، قال: يا قنبر، أظن أنه حدث بهذا الزق حدث! فأخبره، فغضب رضي الله عنه، وقال: علي بحسين! فرفع عليه الدرة، فقال: بحق عمي جعفر وكان إذا سئل بحق جعفر سكن فقال له: ما حملك أن أخذت منه قبل القسمة؟ قال: إن لنا فيه حقاً، فإذا أعطيناه رددناه، قال: فذاك أبوك! وإن كان لك فيه حق، فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم! أما لولا أني رأيت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقبل ثنيتك لأوجعتك ضرباً. ثم دفع إلى قنبر درهماً كان مصروراً في رداؤه، وقال: اشتر به خير غسل تقدر عليه.

قال عقيل: والله لكأني أنظر إلى يدي علي، وهي على فم الرق، وقنبر يقلب العسل فيه، ثم شده وجعل ييكى، ويقول: اللهم اغفر لحسين فإنه لم يعلم! فقال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله، رحم الله أبا حسن، فلقد سبق من كان قبله، وأعجز من يأتي بعده! هلم حديث الحديدة.

قال: نعم، أقويت وأصابني مخمصة شديدة، فسألته فلم تند صفاته، فجمعت صبياني وجئته بهم، والبؤس والضر ظهران عليهم، فقال: ائتني عشية لأدفع إليك شيئاً، فجئته يقودني أحد ولدي، فأمره بالتنحي، ثم قال: ألا فدونك، فأهويت حريضاً قد غلبني الجشع، أظنها صرة فوضعت يدي على حديدة تلتهب ناراً، فلما قبضتها نبذتها، وخرت كما يخور الثور تحت يد جازره، فقال لي: ثكلتك أمك! هذا من حديدة أوقدت لها نار الدنيا، فكيف بك وبى غداً إن سلطنا في سلاسل جهنم! ثم قرأ: "إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون".

ثم قال: ليس لك عندي فوق حقك الذي فرضه الله لك إلا ما ترى، فانصرف إلى أهلك. فجعل معاوية يتعجب، ويقول: هيهات هيهات! عقلت النساء أن يلدن مثله!

ومن دعاء له عليه السلام كان يدعو به

الأصل: اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، أستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وأفتن بدم من منعي، وأنت من وراء ذلك كله ولي الإعطاء والمنع، "إنك على كل شيء قدير".

الشرح: صن وجهي باليسار، أي استره بأن ترزقني يساراً وثروة، أستغني بهما عن مسألة الناس، ولا تبذل جاهي بالإقتار، أي لا تسقط مروءتي وحرمتي بين الناس بالفقر الذي أحتاج معه إلى تكفف الناس.

وروي أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد رقت حاله لا آخر عمره، لأن عبد الملك جفاه، فراح يوماً إلى الجمعة، فدعا فقال: اللهم إنك عودتني عادة جريت عليها، فإن كان ذلك قد انقضى فاقبضني إليك. فلم يلحق الجمعة الأخرى.

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يدعو فيقول: اللهم وسع علي فإنه لا يسعني إلا الكثير.

قوله: فأسترزق منصوب لأنه جواب الدعاء، كقولهم: ارزقني بغيراً فأحج عليه. بين رضي الله عنه كيفية تبذل جاهه بالإقتار، وفسره فقال: بأن أطلب الرزق ممن يطلب منك الرزق.

وأستعطف الأشرار من الناس، أي أطلب عاطفتهم وإفضالهم، ويلزم من ذلك أمران محذوران، أحدهما أن. أبتلى بحمد المعطي، والآخر أن أفتن بدم المانع.

قوله رضي الله عنه: أنت من وراء ذلك كله مثل يقال للمحيط بالأمر، القاهر له، القادر عليه، كما نقول للملك العظيم: هو من وراء وزرائه وكتابه، أي مستعد متهيب لتبعهم وتعقبهم، واعتبار حركاتهم، لإحاطته بها وإشرافه عليها.

وولي، مرفوع بأنه خير المبتدأ، ويكون خبراً بعد خبر، ويجوز أن يكون ولي هو الخبر، ويكون من وراء ذلك، جملة مركبة من جار ومجرور منصوبة الموضع، لأنه حال.

قال في التنفير من الدنيا

الأصل: دار بالبلاء مخوفة، وبالغدر معروفة. لا تدوم أحوالها، ولا يسلم نزالها. أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مدموم، والأمان منها معدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتغنيهم بحمامها. وأعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمار دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راکدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة الملحدة، التي قد بني على الخراب فناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فمحلها مقرب، وساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودنو الدار، وكيف يكون بينهم تزاور، وقد طحنهم بكلكلة البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى! وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، وارثنكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع.

فكيف بكم لو تنهات بكم الأمور، وبعثت القبور: "هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت، وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون".

الشرح: بالبلاء مخوفة: قد أحاط بها من كل جانب، وتارات: جمع تارة، وهي المرة الواحدة، ومتصرفة: منتقلة متحولة. ومستهدفة بكسر الدال: منتصبة مهياة للرمي، وروي: مستهدفة بفتح الدال على المفعولية، كأنها قد استهدفها غيرها، أي جعلها أهدافاً.

ورياحهم راکدة: ساكنة. وآثارهم عافية: مندرسة.

والقصور المشيدة. العالية، ومن روى: المشيدة بالتخفيف وكسر الشين، فمعناه المعمولة بالشيد، وهو الحص، والنمارق: الوسائد، والقبور الملحدة: ذوات اللحد، وروي: والأحجار المسندة بالتشديد.

قوله صلى الله عليه وسلم: "قد بني على الخراب فناؤها"، أي بنيت لا لتسكن الأحياء فيها كما تبنى منازل أهل الدنيا. والكلكل: الصدر، وهو ههنا استعارة، والجنادل: الحجارة. وبعثت القبور: أثرت.

وتبلو كل نفس ما أسلفت: تحير وتعلم جزاء أعمالها، وفيه حذف مضاف، ومن قرأ: تتلو بالتاء بنقطتين، أي تقرأ كل نفس كتابها. وضل عنهم ما كانوا يفترون: بطل عنهم ما كانوا يدعونه ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء.

ذم الدنيا في شعر بعض الشعراء

ومن كلام بعض البلغاء في ذم الدنيا: أما بعد، فإن الدنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت من تصرفها، وأنبات عن مساوئها بما أظهرت عن مصارع أهلها، ودلت على عورتها بتغير حالها، ونطقت ألسنة العبر فيها بزوالها، وشهد اختلاف شؤونها على فنائها، ولم يبق لمرتاب فيها ريب، ولا ناظر في عواقبها شك، بل عرفها جل من عرفها معرفة يقين، وكشفوها أوضح تكشيف، ثم اختلجتهم الأهواء عن منافع العلم، ودلتهم الآمال بغرور، فلججت بهم في غمرات العجز، فسبحوا في بحورها موقنين بالهلكة، ورتعوا في عراضها عارفين بالخدعة، فكان يقينهم شكاً، وعلمهم جهلاً، لا بالعلم انتفعوا، ولا بما عاينوا اعتبروا. قلوبهم عالمة جاهلة، وأبدانهم شاهدة غائبة، حتى طرقتهم المنية، فأعجلتهم عن الأمنية، فبغتتهم القيامة، وأورثتهم الندامة، وكذلك الهوى حلت مذاقته، وسمت عاقبته، والأمل ينسي طويلاً، ويأخذ وشيكاً، فانتفع امرؤ بعلمه، وجاهد هواه أن يضلّه، وجانب أمله أن يغره، وقوي يقينه على العمل، ونفى عنه الشك بقطع الأمل، فإن الهوى والأمل إذا استضعفا اليقين صرعا، وإذا تعاونوا على ذي غفلة خدعا، فصريعهما لا ينهض سالماً، وخديعهما لا يزال نادماً، والقوي من قوي عليهما، والحازم من احتسب منهما. ألبسنا الله وإياكم جنة السلامة، ووقانا وإياكم سوء العذاب! كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ: "أفرايت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغني عنهم ما كانوا يمتعون".

قال منصور بن عمار لأهل مجلسه: ما أرى إساءة تكبر على عفو الله فلا تيأس، وربما آخذ الله على الصغير فلا تأمن، وقد علمت أنك بطول عفو الله عنك عمرت مجالس الاغترار به، ورضيت لنفسك المقام على سخطه، ولو كنت تعاقب نفسك بقدر تجاوزه عن سيئاتك، ما استمر بك لجحاح فيما نهيت عنه، ولا قصرت دون المبالغة فيه، ولكنك رهين غفلتك، وأسير حيرتك. قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب: قدم علينا بعبادان راهب من الشام، ونزل دير ابن أبي كبشة، فذكروا حكمة كلامه، فحملني ذلك على لقائه، فأتيته وهو يقول: إن لله عبادةً سميت بهم همهم فهووا عظيم الذخائر، فالتمسوا من فضل سيدهم توفيقاً يبلغهم سمو الهمم فإن استطعتم أيها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا ببعض أمرهم، فإنهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبهم، فلم تجد الدنيا فيها ملبساً، فالخزن بثهم، والدمع راحتهم، والدؤوب وسيلتهم، وحسن الظن قربانهم، يحزنون بطول المكث في الدنيا إذا فرح أهلها، فهم فيها مسجونون، وإلى الآخرة منطلقون. فما سمعت موعظة كانت أنفع لي منها.

ومن جيد شعر أبي نواس في الزهد:

وبني الضعف والخور

ع على القرب في الصور

ين في الطول والقصر

من ذوي البأس والخطر

ئن واستبحثوا الخبر

ل وإننا لبالأثر

يا بني النقص والغير

وبني البعد في الطبا

والشكول التي تبا

أين من كان قبلكم

سائلوا عنهم المدا

سبقونا إلى الرحي

من مضى عبرة لنا
إن للموت أخذة
فكأنى بكم غداً
قد نقلتم من القصور
حيث لا تضرب القبا
حيث لا تطربون منه

وغداً نحن معتبر
تسبق الملح بالبصر
في ثياب من المدر
ر إلى ظلمة الحفر
ب عليكم ولا الحجر
للهو ولا سمر

رحم الله مسلماً
رحم الله مؤمناً

ذكر الموت فازدجر
خاف فاستشعر الحذر !

ومن جيد شعر الرضي أبي الحسن رحمه الله في ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها:

وهل نحن إلا مرامى السها
نسر إذا جازنا طائش
ففي يومنا قدر لا بد
طرائد تطردها النائبات
أرى المرء يفعل فعل الحد
عواري من سلب الهالكين
لنا بالردى موعد صادق
حبائل للدهر مبنوثة
وكيف نجاوز غاياتنا
نصبح بالكأس مجدوحة
وقال أيضاً، وهي من محاسن شعره:

م يحفرها نابل دائب
ونزع إن مسنا صائب
وعند غد قدر واثب
ولا بد أن يدرك الطالب
يد وهو غداً حمأ لازب
يمد يداً نحوها السالب
ونيل المنى موعد كاذب
يرد إلى جذبها الهارب
وقد بلغ المورد القارب
ذعافاً، ولا يعلم الشارب

ما أقل اعتبارنا بالزمان
وقفات على غرور، وإقدا
في حروب مع الردى فكأننا ال
وكفانا مذكراً بالمنايا
كل يوم رزية بفلان

وأشد اغترارنا بالأمانى!
م على مزلق من الحدثان
يوم في هدنة مع الأزمان
علمنا أننا من الحيوان
ووقع من الردى بفلان

فكأنّي وثقت بالوجدان
أو استتشيدي عن الأعطان
النهج، وغنى وراعى الحاديان
خلج البرى وجذب العران
ر ونرتاع للمنايا الرواني
ذع روعاً من عدوة الذوبان
ن رغبياً يا قرب ذا النسيان!
بالردى، أو تباعد من دان
عجولاً، أو ماطل العصران

ورأينا البناء، فأين الباني!
فذكرنا الأوطار بالأوطان
هل ترى اليوم غير قرن فان!
ضاء، أم أين صاحب الإيوان!
والقنا الصم من بني الريان
لع طرد السفاف عن نجران
طنبا ملكهم على الجولان
يز كرع الظماء في الغدران
ن بها في معاهد التيجان
ضاربين الصدور بالأنقان
وجبال من الحلوم رزان
الظمان برداً والنار للحيران
أظلم ليل النومة المبطان
ويرى في النزال غير جبان
كاء أطرافها من المران
بعد بعد الذرا قريب المجاني

كم تراني أضل نفساً وألهو
قل لهذي الهوامل استوقفي السير
واستقيمي قد ضمك اللقم
كم محيداً عن الطريق وقد ضرح
ننثني جازعين من عدوة الده
جفلة السرب في الظلام وقد ذع
ثم ننسى جرح الحمام وإن كا
كل يوم تزايل من خليط
وسواء مضى بنا القدر الجد
وأيضاً من هذه القصيدة:

قد مررنا على الديار خشوعاً
وجهلنا الرسوم ثم علمنا
التفاتاً إلى القرون الخوالي
أين رب السدير فالحيرة البي
والسيوف الحداد من آل بدر
طردتهم وقائع الدهر عن لع
والمواضي من آل جفنة أرسى
يكرعون العقار في فلق الإبر
من أبة اللعن الذين يحيو
تتراءهم الوفود بعيداً
في رياض من السماح حوال
وهم الماء لذ للناهل
كل مستيقظ الجنان إذا
يغتدي في السباب غير شجاع
ماثنت عنهم المنون يداً شو
عطف الدهر فرعهم فرآه

وثنتهم بعد الجماح المنايا
عطلت منهم المقاري وباخت
ليس يبقى على الزمان جريء
لا شوب من الصوار ولا أعنق

في عنان التسليم والإذعان
في حماهم موافد النيران
في إباء، أو عاجز في هوان
يرعى منابت العلجان

لا ولا خاضب من الربد يختا
يرتمي وجهة الرئال إذا آ
وعقاب الملاع تلحم فرخ
نائلاً في مطامح الجو هاتي

ل بريط أحم غير يمان
نس لون الإظلام والإدجان
يها بإزليقة زلول القنان
ك وذا في مهابط الغيطان

وهذا شعر فصيح نادر معرق في العربية.
ومن شعره الجيد أيضاً في ذكر الدنيا ومصائبها:

أو ما رأيت وقائع الدهر
بيننا الفتى كالطود تكنفه
يأبى الدنية في عشيرته
وإذا أشار إلى قبائله

أفلا تسيء الظن بالعمر!
هضباته، والعضب ذي الأثر
ويجاذب الأيدي على الفخر
حشدت عليه بأوجة غر

يترادفون على الرماح فهم
إن نههوا زادوا مقاربة
عدد النجوم إذا دعي بهم
عقدوا على الجلى مآزرهم
زل الزمان بوطء أخصمه
نزع الإباء وكان شملته

سيل يعب وعارض يسري
فكأنما يدعون بالزجر
يتزاحمون تزاخم الشعر
سبطى الأنامل طيبي النشر
ومواطئ الأقدام للعثر
وأقر إقراراً على صغر

صدع الردى، أعيا تلاحمه
جر الجياد على الوجى ومضى
حتى التقى بالشمس مغمدة
ثم انتنت كف المنون به
لم تشتجر عنه الرماح ولا

من ألحم الصدفين بالقطر
أمماً يدق السهل بالوعر
في قعر منقطع من البحر
كالضغث بين الناب والظفر
رد القضاء بماله الدثر

لاقتته وهو مضيع الظهر

أمسى بمضيعة وما يدري

لحمامه كان الذي يبيري

فدع القضاء يقدر أو يفري

الآجال ملء فزوجها تجري

كان الطبيب أحق بالعمر

سيان ما يوبي وما يمري

جمع الجنود وراءه فكأنما

وبنى الحصون تمنعاً فكأنما

وبرى المعابل للعدا فكأنما

إن التوقي فرط معجزة

وحمى المطاعم للبقا وذي

لو كان حفظ النفس ينفعنا

الموت داء لا دواء له

وهذا من حر الكلام وفصيحه ونادره، ولا عجب فهذه الورقة من تلك الشجرة، وهذا القبس من تلك النار! 222- ومن دعاء له عليه السلام يطلب فيه الرشاد الأصل: اللهم إنك آنس الأنسين لأوليائك، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك، تشاهدتهم في سرائرهم، وتطلع عليهم في ضمائرهم، وتعلم مبلغ بصائرهم، فأسرارهم لك مكشوفة، وقلوبهم إليك ملهوفة، إن أوحشتهم الغربة، أنسهم ذكرك، وإن صبت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك، علماً بأن أزمة الأمور بيدك، ومصادرها عن قضائك.

اللهم إن فهت عن مسألتي، أو عميت عن طلبتي، فدلني على مصالحتي، وخذ بقلبي إلى مراشدي، فليس ذلك بنكر من هداياتك، ولا بيع من كفاياتك، اللهم أحملني على عفوك، ولا تحملني على عدلك.

الشرح: أنست: ضد وحشت، والإيناس: ضد الإيحاش، وكان القياس أن يقول: إنك آنس المؤمنين، لأن الماضي أفعل وإنما الآنسون جمع آنس، وهو الفاعل من أنست بكذا، لا من آنست، فالرواية الصحيحة، اذن بأوليائك أي أنت أكثرهم أنساً بأوليائك وعطفاً وتحننا عليهم.

وأحضرهم بالكفاية، أي أبلغهم إحضاراً لكفاية المتوكلين عليهم، وأقومهم بذلك.

تشاهدتهم في سرائرهم، أي تطلع على غيبهم، والبصائر: العزائم، نفدت بصيرته في كذا، أي حق عزمه، وقلوبهم إليك ملهوفة، أي صارخة مستغيثة.

وفهت عن مسألتي، بالكسر: عيت، والفهة والفهاهة: العي، رجل أفه، ورجل فه أيضاً، وامرأة فههة، قال الشاعر:

ملجلة أبغي لها من يقيمها

فلم تلفني فهاً ولم تلف حاجتي

وقد فهت يا رجل فههاً، أي عيت، ويقال سفيه فيه، وفهه الله، وخرجت لحاجة فأفهي عنها فلان، أي أنسانيها. ويروى: أو عمهت بالهاء والميم المكسورة، والعمه: التحير والتردد، عمه الرجل، فهو عمه وعامه والجمع عمه، وأرض عمهاء: لا أعلام بها.

والنكر. العجب والبدهى المبتدع، ومنه قوله تعالى. "قل ما كنت بدعاً من الرسل"، أي لم آت بما لم أسبق إليه.

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم احملني على عفوك، ولا تحملني على عدلك" قول المروانية للهاشمية لما قتل مروان

في خبر قد اقتصصناه قديماً: ليسعنا عدلكم، قالت الهاشمية: إذن لا نبقي منكم أحداً، لأنكم حاربتم علياً رضي الله عنه، وسمتم الحسن رضي الله عنه قتلتم الحسين وزيداً وابنه، وضربتم علي بن عبد الله، وخنقتم إبراهيم الإمام في جراب النورة، قالت: قد يسعنا عفوكم، قالت: أما هذا فنعم.

أدعية أبي حيان التوحيدي

ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة فصول من كلام أبي حيان التوحيدي نقلتها.

فمنها: اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التفويض إلا إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك، ومن الذل إلا في طاعتك، ومن الصبر إلا على بلائك، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي، والشكر على نعمك شعاري ودياري، والنظر إلى ملكوتك دأبي وديني، والانقياد لك شأني وشغلي، الخوف منك أمني وإيماني، واللياذ بذكرك بهجتي وسروري.

اللهم تتابع برك، واتصل خيرك، وعظم رفدك، وتناهى إحسانك، وصدق وعدك، وبر قسمك، وعصت فواضلك، وتمت نوافلك، ولم تبق حاجة إلا وقد قضيتها، أو تكفلت بقضائها، فاحتم ذلك كله بالرضا والمغفرة، إنك أهل ذلك، والقادر عليه، والملي به.

ومنها: اللهم إني أسألك خفايا لطفك، وفواتح توفيقك، ومألوف برك، وعوائد إحسانك، وجاه المقدسين من ملائكتك، ومترلة المصطفين من رسلك، ومكاثرة الأولياء من خلقك، وعاقبة المتقين من عبادك.

وأسألك القناعة برزقك، والرضا بحكمك، والتزاهة عن محظورك، والورع في شبهاتك والقيام بحجتك، والاعتبار بما أبديت، والتسليم لما أخفيت، والإقبال على ما أمرت، والوقوف عما زجرت، حتى أتخذ الحق حجة عندما خف وثقل، والصدق سنة فيما عسر وصهل، وحتى أرى أن شعار الزهد أعز شعار، ومنظر الباطل أشوه منظر، فأتبخر في ملكوتك بفضفاض الرداء بالدعاء إليك، وأبلغ الغاية القصوى بين خلقك بالثناء عليك.

ومنها: اللهم إليك أرفع عجري وبجري، وبك أستعين في عسري وشري، وإياك أدعو رغباً ورهباً، فإنك العالم بتسويل النفس، وفتنة الشيطان، وزينة الهوى، وصرف الدهر، وتلون الصديق، وبائقة الثقة، وقنوط القلب، وضعف المنة، وسوء الجزع.

فقني اللهم ذلك كله، واجمع من أمري شمله، وانظم من شأني شتيته، واحرسني عند الغنى من البطر، وعند الفقر من الضجر، وعند الكفاية من الغفلة، وعند الحاجة من الحسرة، وعند الراحة من الفسولة، وعند الطلب من الخيبة، وعند المنازلة من الطغيان، وعند البحث من الاعتراض عليك، وعند التسليم من التهمة لك.

وأسألك أن تجعل صدري خزانة توحيدك، ولساني مفتاح تمجيدك، وجوارحي خدام طاعتك، فإنه لا عز إلا في الذل لك، ولا غنى إلا في الفقر إليك، ولا أمن إلا في الخوف منك، ولا قرار إلا في القلق نحوك، ولا روح إلا في الكرب لوجهك، ولا ثقة إلا في تهمة خلقك، ولا راحة إلا في الرضا بقسمك، ولا عيش إلا في جوار المقربين عندك.

ومنها: اللهم ببرهانك الصادع، وبنور وجهك الساطع، صل على محمد نبيك نبي الرحمة، وقائد الأمة، وإمام الأئمة،

واحرس علي إيماني بك بالتسليم لك، وخفف عني مؤنة الصبر على امتحانك، وواصل لي أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك، واجعل بقية عمري في غنى عن خلقك، ورضاً بالمقدم من رزقك.

اللهم إنك إن أخذتنا بذنوبنا خسفت الأرض بنا، وإن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابرنا، فإنك قلت: "فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين".

اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا، وغل صدورنا، وفتنة أنفسنا، وطموح أبصارنا، ورفث ألسنتنا، وسخف أحلامنا، وسوء أعمالنا، وفحش لجائنا، وقبح دعوانا، وتنن أشرارنا، وخبث أخيارنا، وتلذذ ظاهرينا، وتمزق باطننا.

اللهم فارحمنا، وارأف بنا، واعطف علينا، وأحسن إلينا، وتجاوز عنا، واقبل الميسور منا، فإننا أهل عقوبة، وأنت أهل مغفرة، وأنت بما وصفت به نفسك أحق منا بما وسمننا به أنفسنا، فإن في ذلك ما اقترن بكرمك، وأدى إلى عفوك. ومن قبل ذلك وبعده، فأطرب عيشنا بنعمتك، وأرح أرواحنا من كد الأمل في خلقك، وخذ بأزمئتنا إلى بابك، وأله قلوبنا عن هذه الدار الفانية، وازرع فيها محبة الدار الباقية، وقلبنا على بساط لطفك، وحثنا بالإحسان إلى كنفك، ورفهنا عن التماس ما عند غيرك، واغضض عيوننا عن ملاحظة ما حجب من غيرك، وصل بيننا وبين الرضا عنك، وارفع عنا مؤنة العرض عليك، وخفف علينا كل ما أوصلنا إليك، وأدقنا حلاوة قربك، واكشف عن سرائرنا سواتر حجبك، ووكل بنا الحفظة، وارزقنا اليقظة، حتى لا نقترف سيئة، ولا نفارق حسنة، إنك قائم على كل نفس بما كسبت، وأنت بما نخفي وما نعلن خبير بصير.

ومنها: اللهم أنت الحي القيوم، والأول الدائم، والإله القديم، والبارئ المصور، والخالق المقدس، والجبار الرفيع، والقهار المنيع، والملك الصفوح، والوهاب المنوح، والرحمن الرؤوف، والحنان العطوف، والمنان اللطيف، مالك الذوات والنواصي، وحافظ الأداني والأقاصي، ومصرف المطيع والعاصي.

اللهم أنت الظاهر الذي لا يحجرك جاحد إلا زایلته الطمأنينة، وأسلمه اليأس، وأوحشه القنوط، ورحلت عنه العصمة، وتردد بين رجاء قد نأى عنه التوفيق، وأمل قد حفت به الخيبة، وطمع يحوم على أرجاء التكذيب، وسر قد أطاف به الشقاء، وعلانية قد أناف عليها البلاء، موهون المنة، منسوخ العقدة، مسلوب العدة، تشنؤه العين، وتقلبه النفس، عقل طائر، ولبه لب حائر وحكمه حكم جائر، لا يروم قراراً إلا أزعج عنه، ولا يستفتح باباً إلا أرتج دونه، ولا يقتبس ضمراً إلا أجج عليه، عثرته موصولة بالعثرة، وحسرتة مقرونة إلى حسرة، إن سمع زيف، وإن قال حرف، وإن قضى حرف، وإن احتج زخرف، ولو فاء إلى الحق لوجد ظله ظليلاً، وأصاب تحته مثنوى ومقيلاً.

وأنت الباطن الذي لا يرومك رائم، ولا يحوم على حقيقتك حائم، إلا غشية من نور إلهيتك، وعز سلطانتك، وعجيب قدرتك، وباهر برهانك، وغرائب غيوبك، وخفي شأنك، ومخوف سطوتك، ومرجو إحسانك، ما يرده خاسئاً من مزحزحه عن الغاية، خجلاً مبهوراً، ويرده إلى عجزه، ملتحمفاً بالندم، مرتدياً بالاستكانة، راجعاً إلى الصغار، موقوفاً مع الذلة، فظاهرك يدعو إليك بلسان الاضطرار، وباطنك يحير فيك لسعة قضاء الاعتبار، وفعلك يدل عليك الأسماع والأبصار، وحكمتك تعجب منك الأبواب والأسرار. لك السلطان والملكة، ويديك النجاة والمهلكة، فإليك المفر، ومعك

المقر، ومنك صنوف الإحسان والبر، أسألك بأصح سر، وأكرم لفظ، وأفصح لغة، وأتم إخلاص، وأشرف همة، وأفضل نية، وأطهر عقيدة، وأثبت يقين، أن تصد عني كل ما يصد عنك، وتصلني بكل ما يصل بك، وتحبب إلي كل ما يحبب إليك، فإنك الأول والثاني، والمشار إليه في جميع المعاني، لا إله إلا أنت.

ومنها: اللهم إني أسألك جداً مقروناً بالتوفيق، وعلماً بريئاً من الجهل، وعملاً عرياً من الرياء، وقولاً موشحاً بالصواب، وحالاً دائرة مع الحق، وفطنة عقل مضروبة في سلامة صدور، وراحة جسم راجعة إلى روح بال، وسكون نفس موصولاً بثبات يقين، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة، حتى تكون غايي في هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل، وعاقبي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل، من حياة طيبة أنت الواعد بها، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه.

اللهم لا تخيب رجاء هو منوط بك، ولا تصفر كفاً هي ممدودة إليك، ولا تعذب عيناً فتحتها بنعمتك، ولا تذلل نفساً هي عزيزة بمعرفتك، ولا تسلب عقلاً هو مستضيء بنور هدايتك، ولا تحرس لساناً عودته الثناء عليك، فكما كنت أولاً بالفضل، فكن آخراً بالإحسان، الناصية بيدك، والوجه عان لك، والخير متوقع منك، والمصير على كل حال إليك.

ألبسني في هذه الحياة البائدة ثوب العصمة، وحلني في تلك الدار الباقية بزينة الأمن، وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائدة، وأجرني على العادة الفاضلة، ولا تجعلني ممن سها عن باطن ما لك عليه، بظاهر ما لك عنده، فالشقي من لم تأخذ بيده، ولم تؤمنه من غده، والسعيد من آوئته إلى كنف نعمتك، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك، غير مناقش في الحساب، ولا سائق له إلى العذاب، فإنك على ذلك قدير.

ومنها: اللهم اجعل، غدونا إليك مقروناً بالتوكل عليك، ورواحنا عنك موصولاً بالنجاح منك، وإجابتنا لك راجعة إلى التهالك فيك، وذكرنا إياك منوطاً بالسكون معك، وثقتنا بك هادية إلى التفويض إليك، ولا تخلنا من يد تستوعب الشكر، ومن شكر يمتري خلف المزيد، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترحين، وصنع يفوق ذرع الطالبين، حتى نلقاك مبشرين بالرضا، محكمين في المني، غير مناقشين ولا مطرودين.

اللهم أعذنا من جشع الفقير وريية المنافق، وتجليح المعاند، وطيشة العجول، وفترة الكسلان، وحيلة المستبد وفتور العقل، وحيرة المخرج، وحسرة المحوج، وفلتة الدهول، وحرقة النكول، ورقة الخائف، وطمأنينة المغرور، وغفلة الغرور. واكفنا مؤنة أخ يرصد مسكوناً إليه، ويمكر موثقاً به، ويخيس معتمداً عليه.

وصل الكفاية بالسلوة عن هذه الدنيا، واجعل التهافتا عليها حيناً إلى دار السلام، ومحل القرار، وغلب إيماننا بالغيب على يقيننا بالعيان، واحرسنا من أنفسنا، فإنها ينايغ الشهوة، ومفاتيح البلوى.

وأرنا من قدرتك ما يحفظ علينا هيبتك، وأوضح لنا من حكمتك ما يقلبنا في ملكوتك، وأسبغ علينا من نعمتك ما يكون لنا عوناً على طاعتك، وأشع في صدورنا من نورك ما تتجلى به حقائق توحيدك، واجعل ديدنا ذكرك، وعاداتنا الشوق إليك، وعلمنا النصح لخلقك، واجعل غايتنا الاتصال بك، واحجبنا عن قول يبرئ من رضاك، وعمل يعمي صاحبه عن هداك، وألف بيننا وبين الحق، وقربنا من معادن الصدق، واعصمنا من بوائق الخلق، وانقلنا من مضايق الرق، واهدنا إلى فوائد العتق.

اللهم إنك بدأت بالصنع وأنت أهله، فعد بالتوفيق فإنك أهله.

اللهم إنا نتضاءل لك عند مشاهدة عظمتك، ونذل عليك عند تواتر برك، ونذل لك عند ظهور آياتك، ونلج عليك عند علمنا بجودك.

ونسألك من فضلك ما لا يرزؤك ولا ينكؤك، وننوسل إليك بتوحيد لا ينتمي إليه خلق، ولا يفارقه حق.

ومنها: اللهم عليك أتوكل، وبك أستعين، وفيك أوالي، وبك أنتسب، ومنك أفرق، ومعك أستأنس، ولك أجد، وإياك أسأل: لساناً سمحاً بالصدق، وصدرأً قد ملئ من الحق، وأملاً منقطعاً عن الخلق، وحالاً مكنونها ييؤى الجنة، وظاهرها يحقق المنة، وعاقبة تنسي ما سلف، وتتصل بما يتمنى ويتوكل.

وأسألك اللهم كبدأً رجوفاً ختوفاً، ودمعاً نطوفاً شوقاً إليك، ونفساً عزوفاً إذعانا لك، وسراً ناقعاً ببرد الإيمان بك، ونهاراً مشتتلاً على ما كسب من مرضاتك، وليلاً مائلاً بما أزلف لديك.

أشكو إليك اللهم تلهفي على ما يفوتني من الدنيا، وأني في طاعة الهوى، جاهلاً بحقك، ساهياً عن واجبك، ناسياً ما تكرره من وعظك وإرشادك، وبيانك وتنبيهك حتى كأن حلاوة وعدك لم تلج أذني، ولم تباشر فؤادي، وحتى كأن مرارة عتابك ولائمتك لم تهتك حجاي، ولم تعرض علي أوصاي.

اللهم إليك المفر من دار منهومها لا يشبع، وحائمها لا ينقع، وطالبها لا يربح، وواجدها لا يقنع، والعيش عنك رقيق، وللأمل فيك تحقيق.

اللهم كما ابتليت بحكمتك الخفية التي أشكلت على العقول، وحارت معها البصائر، فعاف برحمتك اللطيفة التي تطاولت إليها الأعناق، وتشوفت نحوها السرائر، وخذ معنا بالفضل الذي إليك هو منسوب، وعنك هو مطلوب، وافطم نفوسنا من رضاع الدنيا، والطف بما أنت له أهل، إنك على كل شيء قدير.

اللهم قدنا بأزمة التوحيد إلى محاضر طاعتك، واخلطنا في زمرة المخلصين لذكرك، واجعل إجابتك من قبيل ما يتصل بكرم عفوك، ولا تجعل خيبتنا من قبل جهلنا بقدرك، وإضرابنا عن أمرك، فلا سائل أحوج منا، ولا مسؤول أجود منك.

اللهم احجر بيننا وبين كل ما دل على غيرك ببيانك، ودعا إلى سواك ببرهانك، وانقلنا عن مواطن العجز، مرتقياً بنا إلى شرفات العز، فقد استحوذ الشيطان، وخبثت النفس، وساءت العادة، وكثر الصادون عنك، وقل الداعون إليك، وذهب المراعون لأمرك، وفقد الواقفون عند حدودك، وخلت ديار الحق من سكانها، وبيع دينك بيع الخلق، واستهزئ بناشر بمجرك، واقى المتوسل بك.

اللهم فأعد نصارة دينك، وأفض بين خلقك بركات إحسانك، وامدد عليهم ظل توفيقك، واقمع ذوي الاعتراض عليك، واخسف بالمقتحمين في دقائق غيبك، واهتك أستار الهاتكين لستر دينك، والفارعين أبواب شرك، القائسين بينك وبين خلقك.

اللهم إني أسألك أن تخصني بإلهام أقتبس الحق منه، وتوفيق يصحبي وأصحبه، ولطف لا يغيب عني ولا أغيب عنه، حتى أقول إذا قلت لوجهك، وأسكت إذا سكت بإذنك، وأسأل إذا سألت بأمرك، وأبين إذا أبنت بمحبتك، وأبعد إذا بعدت

بإجلالك، وأقرب إذا قربت برحمتك، وأعبد إذا عبدت مخلصاً لك، وأموت إذا مت منتقلاً إليك.

اللهم فلا تكلني إلى غيرك، ولا تؤيسي من غيرك.

ومنها: اللهم إنا بك نعز كما أنا بغيرك نذل، وإياك نرجو كما أنا من غيرك نياس، وإليك نفوض، كما أنا من غيرك نعرض، أذنت لنا في دعائك، وأدبنا إلى فنائك، وهياتنا لعطائك، وخصصتنا بحبائك، ووسمتنا بولائك، وعممتنا بآلائك، وغمستنا في نعمائك، وناغيتنا بالسن ملكوتك عن دفائن ما في عالمك، ولاطفتنا بظاهر قولك وتوليتنا بباطن فعلك، فسمت نحوك أبصارنا، وشامت بروق جودك بصائرنا، فلما استقر ما بيننا وبينك، أرسلت علينا سماء فضلك مدراراً، وفتحت لنا منا أسماً وأبصاراً، فرأينا ما طاح معه تحصيلنا، وسمعنا ما فارقنا عنده تفضيلنا، فلما سرنا إلى خلقك من ذلك ذروا، اتخذونا من أجله لعباً وهزواً فبقدرتك على بلوانا بهم، أرنا بك الغنى عنهم.

اللهم قيض لنا فرجاً من عندك، وأتح لنا مخلصاً إليك، فإننا قد تعبنا بخلقك، وعجزنا عن تقويمهم لك، ونحن إلى مقاربتهم في مخالفتك أقرب منا إلى منابذهم في موافقتك، لأنه لا طاقة لنا بدهمائهم، ولا صبر لنا على بلوائهم ولا حيلة لنا في شفائهم، فنسألك بالضراعة التامة وبالإخلاص المرفود، إلا أخذت بأيدينا، وأرسلت رحمتك علينا، فما أقدرك على الإجابة، وما أجودك بكل مصون، يا ذا الجلال والإكرام! اللهم إنا قربنا بك فلا تنفنا عنك، وظهرنا لك فلا تبطننا دونك، ووجدناك بما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك، وعزفنا عن كل ما لوانا عن بابك، ووثقنا بكل ما وعدتنا في كتابك، وتوكلنا بالسر والعلن على لطيف صنعك.

اللهم إليك نظرت العيون فعادت خاسئة عبرى، وفيك تقسمت الظنون فانقلبت يائسة حسرى، وفي قدرتك حارت الأبصار، وفي حكمتك طاحت البصائر، وفي آلائك غرقت الأرواح، وعلى ما كان منك تقطعت الأنفاس، ومن أجل إعراضك التهب الصدور، ولذكر ما مضى منك هملت الدموع.

اللهم تولنا فيما وليتنا حتى لا نتولى عنك، وأمنا مما خوفنا حتى نقر معك، وأوسعنا رحمتك، حتى نظمئن إلى ما وعدتنا في كتابك، وفرق بيننا وبين الغل حتى لا نعامل به خلقك، وأغننا بك حتى لا نفتقر إلى عبادك، فإنك إذا يسرت أمراً تيسر، ومهما بلوتنا، فلا تبلىنا بهجر، ولا تجرنا مرارة لسخطك. قد اعترفنا بربوبيتك عبودية لك، فعرنا حقيقتها بالعفو عنا، والإقبال علينا، والرفق بنا، يا رحيم!

ومنها: اللهم إن الرغبات بك منوطة، والوسائل إليك متداركة، والحاجات ببابك مرفوعة، والثقة بك مستحصفة أي مستحكمة، والأخبار بجودك شائعة، والآمال نحوك نازعة، والأمانى وراءك منقطعة، والثناء عليك متصل، ووصفك بالكرم معروف، والخلائق إلى لطفك محتاجة، والرجاء فيك قوي، والظنون بك جميلة، والأعناق لعزك خاضعة، والنفوس إلى مواصلتك مشتاقة، والأرواح لعظمتك مبهوتة، لأنك الإله العظيم، والرب الرحيم، والجواد الكريم، والسميع العليم، تملك العالم كله، وما بعده وما قبله، ولك فيه تصارييف القدرة، وخفيات الحكمة، ونوافذ الإرادة، ولك فيه ما لا ندره مما تخفيه ولا تبديه، جللت عن الإجلال، وعظمت عن التعظيم، وقد أرف ورودنا عليك، ووقوفنا بين يديك، وظننا ما قد علمت، ورجاؤنا ما قد عرفت، فكن عند ظننا بك، وحقق رجاءنا فيك، فما خالفناك جرأة عليك، ولا عصيناك تقحماً في سخطك، ولا اتبعنا هواناً استهزاء بأمرك ونهيك، ولكن غلبت علينا جواذب الطينة التي عجنتنا بها، وبذور الفطرة التي

أنبتنا منها، فاسترخت قيودنا عن ضبط أنفسنا، وعزيت ألبابنا عن تحصيل حظوظنا، ولسنا ندعي حجة، ولكن نسألك
رأفة، فبسترك السابغ الذيال، وفضلك الذي يستوعب كل مقال، إلا تمت ما سلف منك إلينا، وعطفت بجودك الفياض
علينا، وجذبت بأضباعنا، وأقررت عيوننا، وحققت آمالنا، أنت أهل ذلك، وأنت على كل شيء قدير.

الجزء الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

قال يريد به بعض أصحابه

الأصل: لله بلاد فلان فلقد قوم الأود، وداوى العمد، وأقام السنة، وخلف الفتنة! ذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها.

أدى إلى الله طاعته، وأتقاه بحقه. رحل وتركهم في طرق متشعبة، لا يهتدي بها الضال، ولا يستيقن المهتدي. الشرح: العرب تقول: لله بلاد فلان، ولله دز فلان، ولله نادي فلان، ولله نائح فلان! والمراد بالأول: لله البلاد التي أنشأته وأنبتته، وبالثاني: لفه الثدي الذي أرضعه وبالثالث: لله المجلس الذي ربي فيه، والرابع: لله النائحة التي تنوح عليه وتندبه! ماذا تعهد من محاسنه.

ويروى: لله بلاء فلان، أي لله ما صنع! وفلان المكنى عنه عمر بن الخطاب، وقد وجدت النسخة التي بخط الرضي أبي الحسن جامع نهج البلاغة وتحت فلان عمر، حدثني بذلك فخار بن معد الموسوي الأودي الشاعر، وسألت عنه النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد العلوي، فقال لي: هو عمر، فقلت له: أثني عليه أمير المؤمنين رضي الله عنه هذا الشاء؟ فقال: نعم، أما الإمامية فيقولون: إن ذلك من التقية واستصلاح أصحابه، وأما الصالحيون من الزيدية فيقولون: إنه أثني عليه حق الشاء، ولم يضع المدح إلا في موضعه ونصابه، وأما الجارودية من الزيدية فيقولون: إنه كلام قاله في أمر عثمان أخرجه مخرج الدم له، والتقص لأعماله، كما يمدح الآن الأمير الميت في أيام الأمير الحي بعده، فيكون ذلك تعريضاً به. فقلت له: إلا أنه لا يجوز التعريض والاستزادة للحاضر بمدح الماضي، إلا إذا كان ذلك المدح صدقاً لا يخالطه ريب ولا شبهة. فإذا اعترف أمير المؤمنين بأنه أقام السنة، وذهب نقي الثوب، قليل العيب، وأنه أدى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه، فهذا غاية ما يكون من المدح. وفيه إبطال قول من طعن على عثمان بن عفان، فلم يجبي بشيء، وقال: هو ما قلت لك! فأما الراوندي، فإنه قال في الشرح: إنه رضي الله عنه مدح بعض أصحابه بحسن السيرة، وأن الفتنة هي التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختيار والأثرة.

وهذا بعيد، لأن لفظ أمير المؤمنين يشعر إشعاراً ظاهراً بأنه يمدح والياً ذا رعية وسيرة، ألا تراه كيف يقول: فلقد قوم الأود، وداوى العمد، وأقام السنة، وخلف الفتنة. وكيف يقول: أصاب خيرها وسبق شرها وكيف يقول: أدى إلى الله طاعته وكيف يقول: رحل وتركهم في طرق متشعبة.

وهذا الضمير، وهو الهاء والميم في قوله رضي الله عنه: وتركهم، هل يصح أن يعود إلا إلى الرعايا! وهل يسوغ أن يقال هذا الكلام لسوقة من عرض الناس! وكل من مات قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان سوقة لا سلطان له، فلا

يصح أن يحمل هذا الكلام على إرادة أحد من الذين قتلوا أو ماتوا قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كعثمان بن مظعون، أو مصعب بن عمير، أو حمزة بن عبد المطلب، أو عبيدة بن الحارث، وغيرهم من الناس. والتأويلات الباردة الغثة لا تعجبني، على أن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري قد صرح أو كاد يصرح بأن المعنى بهذا الكلام عمر، قال الطبري: لما مات عمر بكنه النساء، فقالت إحدى نوادبه: واحزنه على عمر! حزنا انتشر، حتى ملأ البشر. وقالت ابنة أبي حثمة: واعمراه! أقام الأود، وأبرأ العمد، وأمات الفتن، وأحيا السنن. خرج نقي الثوب، بريئاً من العيب.

قال الطبري: فروي صالح بن كيسان، عن المغيرة بن شعبة، قال: لما دفن عمر أتيت علياً رضي الله عنه، وأنا أحب أن أسمع منه في عمر شيئاً، فخرج ينفض رأسه ولحيته، وقد اغتسل، وهو ملتحف بثوب لا يشك أن الأمر يصير إليه، فقال: رحم الله ابن الخطاب! لقد صدقت ابنة أبي حثمة: ذهب بخيرها، ونجا من شرها، أما والله ما قالت، ولكن قولت! وهذا كما ترى يقوي الظن، أن المراد والمعنى بالكلام إنما هو عمر بن الخطاب.

قوله: فلقد قوم الأود، أي العوج، أود الشيء بالكسر يأود أوداً، أي اعوج، وتأود العود، يتأود. والعمد: انفضاخ سنام البعير، ومنه يقال للعاشق: عميد القلب ومعموده.

قوله: أصاب خيرها أي خير الولاية، وجاء بضميرها ولم يجر ذكرها لعادة العرب في أمثال ذلك، كقوله تعالى: "حتى توارت بالحجاب".

وسبق شرحها، أي مات أو قتل قبل الأحداث والاختلاط الذي جرى بين المسلمين.

قوله: واتقاه بحقه، أي بأداء حقه والقيام به.

فإن قلت: وأي معنى في قوله: أتلقيه بأداء حقه، وهل يتقي الإنسان الله بأداء الحق! إنما قد تكون التقوى علة في أداء الحق، فأما أن يتقي بأدائه فهو غير معقول.

قلت: أراد رضي الله عنه أنه اتقى الله، ودلنا على أنه اتقى الله بأدائه حقه، فأداء الحق علة في علمنا بأنه قد اتقى الله سبحانه.

ثم ذكر أنه رحل وترك الناس في طرق متشعبة متفرقة، فالضال لا يهتدي فيها، والمهتدي لا يعلم أنه على المنهج القويم، وهذه الصفات إذا تأملها المنصف، وأماط عن نفسه الهوى، علم أن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم يعن بها إلا عمر، لو لم يكن قد روي لنا توقيفاً ونقلًا أن المعنى بها عمر، فكيف وقد رويناه عن لا يتهم في هذا الباب!

سيرة عمر بن الخطاب

ونحن نذكر في هذا الموضع نكتاً من كلام عمر وسيرته وأخلاقه.

أتى عمر بمال، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، لو حبست من هذا المال في بيت المال لنائبة تكون، أو أمر يحدث! فقال: كلمة ما عرض بها إلا شيطان كفاني حجتها، ووقاني فتنها. أعصي الله العام مخافة قابل! أعد لهم تقوى الله، قال الله سبحانه: "ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب".

استكتب أبو موسى الأشعري نصرانياً، فكتب إليه عمر: اعزله واستعمل بدله حنيفياً، فكتب له أبو موسى: إن من غنائه

وخيره وخبرته كيت وكيت. فكتب له عمر: ليس لنا أن نأثمهم، وقد خوفهم الله، ولا أن نرفعهم وقد وضعهم الله، ولا أن نستنصحهم في الدين وقد وترهم الإسلام، ولا أن نعزهم وقد أمرنا بأن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. فكتب أبو موسى: إن البلد لا يصلح إلا به. فكتب إليه عمر: مات النصراني والسلام. وكتب إلى معاوية: إياك والاحتجاج دون الناس، واذن للضعيف، وأدنه حتى ينبسط لسانه، ويجترئ قلبه، وتعهده الغريب، فإنه إذا طال حبسه ودام إذنه ضعف قلبه، وترك حقه. عزل عمر زياداً عن كتابة أبي موسى الأشعري في بعض قدماته عليه، فقال له: عن عجز أم عن خيانة؟ فقال؟ لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك. وقال: إني والله لا أدع حقاً لله لشكاية تظهر، ولا لضب يحتمل، ولا محاباة لبشر، وإنك والله ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وكتب إلى سعد بن أبي وقاص: يا سعد سعد بني أهيب! إن الله إذا أحب عبداً حبه إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس. واعلم أن ما لك عند الله مثل ما لله عندك. وسأل رجلاً عن شيء، فقال: الله أعلم، فقال: قد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم! إذا سئل أحدكم عما لا يعلم، فليقل: لا أدري.

وقال عبد الملك على المنبر: أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كلاً على كل. ودخل عمر على ابنه عبد الله، فوجد عنده لحماً عبيطاً معلقاً، فقال: ما هذا اللحم؟ قال: اشتيت فاشتريت، فقال: أو كلما اشتيت شيئاً أكلته! كفى بالمرء سرفاً أن أكل كل ما اشتهاه.

مر عمر على مزبلة، فتأذى بريحتها أصحابه، فقال: هذه دنياكم التي تحرصون عليها. ومن كلامه للأحنف: يا أحنف، من كثر ضحكك قلت هيئته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه. وقال لابنه عبد الله: يا بني اتق الله يقلك، وأقرض الله يجزك، واشكره يزدك. واعلم أنه لا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خلق له، ولا عمل لمن لا نية له.

وخطب يوم استخلف، فقال: أيها الناس، إنه ليس فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى آخذ الحق منه.

وقال لابن عباس: يا عبد الله، أنتم أهل رسول الله وآله وبنو عمه، فما تقول منع قومكم منكم؟ قال: لا أدري علتها، والله ما أضمرنا لهم إلا خيراً. قال: اللهم غفرًا، إن قومكم كرهوا أن يجتمع لكم النبوة والخلافة، فتذهبوا في السماء شمخاً وبذخاً، ولعلكم تقولون: إن أبا بكر أول من أحركم، أما أنه لم يقصد ذلك، ولكن حضر أمر لم يكن بحضرته أحزم مما فعل، ولولا رأي أبي بكر في جعل لكم في الأمر نصيباً، ولو فعل ما هنأكم مع قومكم. إنهم ينظرون إليكم نظر الثور إلى

جازره.

وكان يقول: ليت شعري متى أشفى من غيظي! أحين أقدر فيقال لي: لو عفوت، أم حين أعجل فيقال: لو صبرت! ورأى أعرابياً يصلي صلاة خفيفة، فلما قضاها قال: اللهم زوجني الحور العين. فقال له: أسأت النقد، وأعظمت الخطبة! وقيل له: كان الناس في الجاهلية يدعون على من ظلمهم فيستجاب لهم، ولسنا نرى ذلك الآن. قال: لأن ذلك كان الحاجز بينهم وبين الظلم، وأما الآن فالساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر.

ومن كلامه: من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من ساء به الظن، ومن كتم سره كانت الخيرة بيده. وضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وعليك بإخوان الصدق وكيس أكياسهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعدة عند البلاء، ولا تتهاونن بالخلق فيهنك الله، ولا تعترض بما لا يعنيك، واعتزل عدوك، وتحفظ من خليلك إلا الأمين، فإن الأمين من الناس لا يعادله شيء، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، ولا تفش إليه سر، واستشر في أمرك أهل التقوى، وكفى بك عيباً أن يبدو لك من أخيك ما يخفى عليك من نفسك، وأن تؤذي جليسك بما تأتي مثله.

وقال: ثلاث يصفين لك الود في قلب أخيك: أن تبدأه بالسلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب أسمائه إليه، وأن توسع له في المجلس.

وقال: أحب أن يكون الرجل في أهله كالصبي، وإذا أصبح إليه كان رجلاً.

بينما عمر ذات يوم إذ رأى شاباً يخطر بيديه، فيقول: أنا ابن بطحاء مكة كديها وكداها. فناداه عمر، فجاء فقال: إن يكن لك دين فلك كرم، وإن يكن لك عقل فلك مروءة، وإن يكن لك مال فلك شرف، وإلا فأنت والحمار سواء. وقال: يا معشر المهاجرين، لا تكثروا الدخول على أهل الدنيا وأرباب الإمرة والولاية، فإنه مسخطة للرب، وإياكم والبطنة، فإنها مكسلة عن الصلاة، ومفسدة للجسد، مورثة للسقم، وإن الله ليبغض الخبر السمين، ولكن عليكم بالقصد في قوتكم، فإنه أدنى من الإصلاح، وأبعد من السرف، وأقوى على عبادة الله، ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه.

وقال: تعلموا أن الطمع فقر، وأن اليأس غنى، ومن يئس من شيء استغنى عنه، والتؤدة في كل شيء خير إلا ما كان من أمر الآخرة.

وقال: من اتقى الله لم يشف الله غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. وقال: إني لأعلم أجود الناس، وأحلم الناس، أجودهم من أعطى من حرمه وأحلفهم من عفا عمن ظلمه.

وكتب إلى ساكني الأمصار: أما بعد، فعلموا أولادكم العوم والفروسية، روههم ما سار من المثل وحسن من الشعر. وقال: لا تزال العرب أعزة ما نرعت في القوس، ونزت في ظهور الخيل.

وقال وهو يذكر النساء: أكثروا لمن قول: لا فإن نعم مفسدة تغريهن على المسألة.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وقال: ما بار أحدكم يثني الوسادة عند امرأة معزية ، إن المرأة لحم على وضم إلا ما ذب عنه. وكتب إلى أبي موسى: أما بعد، فإن للناس نفرة عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن يدركني وإياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواء متبعة، ودنيا مؤثرة، أقم الحدود؟ واجلس للمظالم ولو ساعة من نهار، وإذا عرض لك أمران: أحدهما لله، والآخر للدنيا، فابدأ بعمل الآخرة، فإن الدنيا تفنى، والآخرة تبقى، وكن من مال الله عز وجل على حذر، واجف الفساد، واجعلهم يداً ويدا، ورجلاً ورجلاً، وإذا كانت بين القبائل نائرة يا لفلان يا لفلان! فإنما تلك نجوى الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله، وتكون دعواهم إلى الله، وإلى الإسلام، وقد بلغني أن ضبة تدعو: يا لضبة! وإني والله أعلم أن ضبة ما ساق الله بها خيراً قط، ولا منع بها من سوء قط. فإذا جاءك كتابي هذا فاهكهم ضرباً وعقوبة، حتى يفرقوا إن لم يفقهوا، والصق بغيلان بن خرشة من بينهم. وعد مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وافتح لهم بابك، وباشر أمورهم بنفسك، فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله قد جعلك أثقلهم حملاً. وقد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك، ومركبك، ليس للمسلمين مثلها، إياك يا عبد الله بن قيس أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب، فلم يكن لها همة إلا السمن، وإنما حظها من السمن لغيرها، واعلم أن للعامل مرداً إلى الله، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به نفسه ورعيته. والسلام.

وخطب عمر، فقال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، والذي بطاعته ينفع أوليائه، ومعصيته يضر أعداءه. إنه ليس لهالك هلك عذر في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا ترك حق حسبها ضلالة. قد ثبتت الحجة، ووضحت الطرق، وانقطع العذر، ولا حجة لأحد على الله عز وجل. ألا إن أحق ما تعاهد به الراعي رعيته أن يتعاهدكم بالذي لله تعالى عليهم في وظائف دينهم الذي هداهم به، وإنما علينا أن نأمركم بالذي أمركم الله به من طاعته، وننهاكم عما نهاكم الله عنه من معصيته، وأن نقيم أمر الله في قريب الناس وبعيدهم، ولا نبالي على من قال الحق، ليتعلم الجاهل، ويتعظ المفرط، ويقتدي المقتدي.

وقد علمت أن أقواماً يتمنون في أنفسهم، ويقولون: نحن نصلي مع المصلين، ونجاهد مع المجاهدين. إلا إن الإيمان ليس بالتمني ولكنه بالحقائق ألا من قام على الفرائض، وسدد نيته، واتقى الله، فذلكم الناجي. ومن زاد اجتهاداً وجد عند الله مزيداً.

وإنما المجاهدون الذين جاهدوا أهواءهم، والجهاد اجتناب المحارم، ألا إن الأمر جد، وقد يقاتل أقوام لا يريدون إلا الذكر، وقد يقاتل أقوام لا يريدون إلا الأجر، وإن الله يرضى منكم باليسير، وأثابكم على اليسير الكثير.

الوظائف الوظائف! أدوها تؤدكم إلى الجنة. والسنة السنة! الزموها تنجكم من البدعة.

تعلموا ولا تعجزوا، فإن من عجز تكلف، وإن شرار الأمور محدثاتها. وإن الاقتصاد في السنة خير من الإجهاد في الضلالة، فافهموا ما توعظون به، فإن الحريب من حرب دينه، وإن السعيد من وعظ بغيره.

وقال: وعليكم بالسمع والطاعة، فإن الله قضى لهما بالعزة، وإياكم والتفرق والمعصية، فإن الله قضى لهما بالذلة، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسية إلى عمر قباء كسرى وسيفه، ومنطقته، وسراويله، وتاجه، وقميصه، وخفيه، فنظر عمر في وجوه القوم عنده، فكان أجسمهم وأمدهم قامته سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي. فقال: يا سراق، قم فالبس، قال سراق: طمعت فيه فقممت فلبست، فقال: أدبر فأدبرت، وقال: أقبل، فأقبلت، فقال: بخ بخ! أعراي من بني مدلج، عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه! رب يوم يا سراق لو كان فيه دون هذا من متاع كسرى وآل كسرى لكان شرفاً لك ولقومك. انزع! فترعت، فقال: اللهم إنك منعت هذا نبيك ورسولك، وكان أحب إليك مني وأكرم، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني وأكرم، ثم أعطيتني، فأعوذ بك، أن تكون أعطيتني لتمكري بي. ثم بكى حتى رحمه من كان عنده.

وقال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسي، فما أدركه المساء إلا وقد بيع وقسم ثمنه على المسلمين.

جاء بتاج كسرى إلى عمر، فاستعظم الناس قيمته، للجواهر التي كانت عليه، فقال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء! فقال علي رضي الله عنه: إنك عفت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا.

كان عمر يعس ليلاً، فترلت رفقة من التجار بالمصلى، فقال لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن تحرسهم الليلة من السرقة؟ فباتا يحرساهما، ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي، فأصغى نحوه، فطال بكأؤه، فتوجه إليه، فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه، فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فأتى أمه، فقال: ويحك! إني لأراك أم سوء! لا أرى ابنك يقر منذ الليلة! فقالت: يا عبد الله، لقد آذيتني منذ الليلة، إني أريغه على الفطام فيأبى، قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض لرضيع، وإنما يفرض للفتيم، قال: وكم له؟ قالت: اثنا عشر شهراً، قال: ويحك لا تعجله! فصلى الفجر وما يستين الناس قراءته من غلبة البكاء عليه، فلما سلم قال: يا بؤساً لعمركم! كم قتل من أولاد الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام. وكتب بذلك إلى سائر الآفاق.

مر عمر بشاب من الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاها، فخاض له عسلاً، فردده ولم يشرب وقال: إني سمعت الله سبحانه، يقول: "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها"، فقال الفتى: إنها والله ليست لك، فاقراً يا أمير المؤمنين ما قبلها: "ويوم يعرض الذين كفروا في النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا"، أفنحن منهم! فشرب، وقال: كل الناس أفقه من عمر! وأوصى عمر حين طعنه أبو لؤلؤة من يستخلفه المسلمون بعده من أهل الشورى، فقال: أوصيك بتقوى الله لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً، أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيراً، أقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم. وأوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم رداء العدو، وجبة الفيل، لا تحمل فيهم إلى غيرهم إلا عن فضل منهم، وأوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم، فيرد على فقرائهم، وأوصيك بأهل الذمة خيراً، أن تقاتل من ورائهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمسلمين طوعاً أو عن يد وهم صاغرون.

وأوصيك بتقوى الله، وشدة الحذر منه ومحافة مقتته، أن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى

الناس في الله، وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرع لحوائجهم وثغورهم، وألا تعين غنيهم على فقيرهم، فإن في ذلك بإذن الله سلامة لقلبك، وخطأً لذنوبك، وخيراً في عاقبة أمرك. وأوصيك أن تشتد في أمر الله وفي حدوده، والزجر عن معاصيه، على قريب الناس وبعيدهم، ولا تأخذك الرأفة والرحمة في أحد منهم، حتى تنتهك منه مثل جرمه، واجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، لا تأخذك في الله لومة لائم. وإياك والأثرة والمحابة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المسلمين، فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك، فإنك في منزلة من منازل الدنيا، وأنت إلى الآخرة جد قريب، فإن صدقت في دنياك عفة وعدلاً فيما بسط لك، اقترفت رضواناً وإيماناً، وإن غلبك الهوى، اقترفت فيه سخط الله ومقتته.

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة.

واعلم أي قد أوصيتك وخصصتك ونصحت لك، أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، ودللتك على ما كنت دالاً عليه نفسي، فإن عملت بالذي وعظمتك، وانتهيت إلى الذي أمرتك، أخذت منه نصيباً وافراً، وخطأً وافياً، وإن لم تقبل ذلك، ولم تعمل ولم تترك معاصم الأمور عند الذي يرضى الله به سبحانه عنك، يكن ذاك بك انتقاصاً، ويكن رأيك فيه مدخولاً، فالأهواء مشتركة، ورأس الخطيئة إبليس الداعي إلى كل هلكة، قد أضل القرون السالفة قبلك، وأوردتهم النار، وليبس الثمن أن يكون حظ امرئ من دنياه موالاة عدو الله، الداعي إلى معاصيه! اركب الحق، وخض إليه الغمرات، وكن واعظاً لنفسك.

وأنشدك لما ترحمت إلى جماعة المسلمين، وأجللت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، وقربت عالمهم، لا تضربهم فيذلوا، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم، ولا تجمرهم في البعوث فتقطع نسلهم، ولا تجعل الأموال دولة بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم، فيأكل قلوبهم ضعيفهم. هذه وصيتي إياك، وأشهد الله عليك. وأقرأ عليك السلام، والله على كل شيء شهيد. وخطب عمر فقال: لا يبلغني أن امرأة تحاوز صداقها صداق زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ارتجعت ذلك منها. فقامت إليه امرأة، فقالت: والله ما جعل الله ذلك لك، إنه تعالى يقول: "وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً". فقال عمر: ألا تعجبون من إمام أخطأ، وامرأة أصابت! ناضلت إمامكم فنضلت! وكان يعس ليلة، فمر بدار سمع فيها صوتاً، فارتاب وتسور، فرأى رجلاً عند امرأة وزق خمر، فقال: يا عدو الله، أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته! فقال: لا تعجل يا أمير المؤمنين، إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت في ثلاث: قال الله تعالى: "ولا تجسسوا" وقد تجسسست، وقال: "وأتوا البيوت من أبوابها". وقد تسورت، وقال: "إذا دخلتم بيوتاً فسلموا" وما سلمت. فقال: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، والله لا أعود، فقال: اذهب فقد عفوت عنك. وخطب يوماً، فقال: أيها الناس، ما الجزع مما لا بد منه! وما الطمع فيما لا يرجى! وما الحيلة فيما سيزول! وإنما الشيء من أصله، وقد مضت قبلكم الأصول ونحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله.

إنما الناس في هذه الدنيا أغراض تتبيل فيهم المنايا نصب المصائب، في كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنالون

نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل معمر من عمره يوماً إلا بهدم آخر من أجله، وهم أعوان الختوف على أنفسهم، فأين المهرب مما هو كائن! ما أصغر المصيبة اليوم، مع عظم الفائدة غداً! وما أعظم خيبة الخائب، وخسران الخاسر، "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" ! وأكثر الناس روى هذا الكلام لعلي رضي الله عنه، وقد ذكره صاحب نهج البلاغة وشرحناه فيما سبق.

حمل من العراق إلى عمر مال فخرج هو ومولى له؟ فنظر إلى الإبل فاستكثرها، فجعل يقول: الحمد لله؟ يكررها ويردها، وجعل مولاه يقول: هذا من فضل الله ورحمته. ويكررها ويردها.

فقال! عمر: كذبت لا أم لك! أظنك ذهبت إلى أن هذا هو ما عناه سبحانه، بقوله: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا" ، وإنما ذلك الهدى، أما تسمعه يقول: "هو خير مما يجمعون" ! وهذا مما يجمعون.

وروى الأحنف بن قيس، قال: قدمنا على عمر بفتح عظيم نبشره به، فقال: أين نزلتم؟ قلنا: في مكان كذا، فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ ركابنا ، وقد أضعفها الكلال، وجهدها السير، فقال: هلا اتقيتم الله في ركابكم هذه؟ أما علمتم أن لها عليكم حقاً! هلا أرحتموها؟ هلا حللتم بما فأكلت من نبات الأرض! فقلنا: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا بفتح عظيم، فأحببنا التسرع إليك وإلى المسلمين بما يسرهم.

فانصرف راجعاً ونحن معه، فأتى رجل فقال: يا أمير المؤمنين إن فلانا ظلمني، فأعدي

عليه، فرفع في السماء درته ، وضرب بها رأسه، وقال: تدعون عمر وهو معرض لكم، حتى إذا شغل في أمر المسلمين أتيتموه: أعدي أعدي! فانصرف الرجل يتذمر، فقال عمر: علي بالرجل، فجيء به فألقى إليه المخفقة ، فقال اقتص، قال: بل أدعه الله ولك، قال: ليس كذلك، بل تدعه إما لله إرادة ما عنده، وإما تدعه لي، قال: أدعه الله، قال: انصرف. ثم جاء حتى دخل منزله، ونحن معه، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم جلس فقال: يا بن الخطاب، كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس، فجاء رجل يستعديك على من ظلمه. فضربتته، ماذا تقول لربك غداً! فجعل يعاتب نفسه معاتبه ظننت أنه من خير أهل الأرض.

وذكر أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث أن رجلاً أتى عمر يسأله، ويشكو إليه الفقر، فقال: هلكت يا أمير المؤمنين، فقال: اهلكت وأنت تنث ثيث الحميت أعطوه، فأعطوه ربعة من مال الصدقة، تبعها ظفراها. ثم أنشأ يحدث عن نفسه، فقال: لقد رأيته وأختاً لي نرعى على أبويننا ناضحاً لنا، قد ألبستنا أماناً نقبتها ، وزودتنا يمتيتها هبيداً فنخرج بناضحنا، فإذا طلعت الشمس، ألقى النقرة إلى أختي، وخرجت أسعى عريان، فخرج إلى أمانا، وقد جعلت لنا لفيفة من ذلك الهبيد، فياخصباه! وروى ابن عباس رضي الله عنه، قال: دخلت على عمر في أول خلافته، وقد ألقى له صاع من تمر على خصفة ، فدعاني إلى الأكل، فأكلت ثمرة واحدة، وأقبل يأكل حتى أتى عليه، ثم شرب من جر كان عنده،

واستلقى على مرفقة له، وطفق يحمد الله يكرر ذلك، ثم قال: من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد، قال: كيف خلفت ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر، قلت: خلفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعن ذلك، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلفته يمتح بالغرب على نخیلات من فلان، وهو يقرأ القرآن، قال: يا عبد الله، عليك دماء البدن إن كتمتنيها! هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص عليه؟

قلت: نعم، وأزيدك، سألت أبي عما يدعيه، فقال: صدق، فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره ذرو من قول لا يثبت حجة، ولا يقطع عذراً، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك إشفافاً وحيلة على الإسلام، لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قريش أبداً! ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أي علمت ما في نفسه، فأمسك، وأبى الله إلا إمضاء ما حتم. ذكر هذا الخبر أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه، مسنداً.

ابتنى أبو سفيان داراً بمكة فأتى أهلها عمر، فقالوا: إنه قد ضيق علينا الوادي، وأسأل علينا الماء، فأتاه عمر فقال: خذ هذا الحجر فضعه هناك، وارفع هذا واحفض هذا، ففعل، فقال: الحمد لله الذي أذل أبا سفيان بأبطح مكة.

وقال عمر: والله لقد لان قلبي في الله حتى هو أليّن من الزبد، ولقد اشتد قلبي في الله حتى هو أشد من الحجر.

كان عمر إذا أتاه الخصمان برك على ركبتيه وقال: اللهم أعني عليهما. فإن كلاً منهما يريدني عن ديني.

وخطب عمر، فقال: أيها الناس، إنما كنا نعرفكم والني صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، إذ ينزل الوحي، وإذا ينبتنا الله من أخباركم، ألا وإن النبي صلى الله عليه وسلم قد انطلق، والوحي قد انقطع، وإنما نعرفكم بما يبدو منكم. من أظهر خيراً ظننا به خيراً، وأحببناه عليه، ومن أظهر شراً ظننا به شراً، وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم. ألا إنه قد أتى علي حين، وأنا أحسب أنه لا يقرأ القرآن أحد إلا يريد به وجه الله وما عند الله، وقد خيل إلي بأخرة، أن رجالاً قد قرأوه يريدون به ما عند الناس فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوا الله بأعمالكم.

ألا وإني لا أرسل عمالي إليكم أيها الناس ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستحكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي لأقتص له، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه.

ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتفقروهم، ولا تتزلّوهم الغياض فتضيعوهم.

وقال مرة: قد أعياني أهل الكوفة، إن استعملت عليهم ليناً استضعفوه، وإن استعملت عليهم شديداً شكوه! ولوددت أي وجدت رجلاً قوياً أميناً أستعمله عليهم، فقال له رجل: أنا أدلك يا أمير المؤمنين على الرجل القوي الأمين، قال: من هو؟ قال: عبد الله بن عمر، قال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بها، لاها الله! لا أستعمله عليها ولا على غيرها، وأنت فقم فاخرج، فمذ الآن لا أسمىك إلا المنافق. فقام الرجل وخرج.

وكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن شاوّر طليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب فإن كل صانع أعلم بصنعتة، ولا تولهما من أمر المسلمين شيئاً.

وغضب عمر على بعض عماله، فكلم امرأة من نساء عمر في أن تسترضيه له، فكلمته فيه، فغضب، وقال: وفيما أنت من هذا يا عدوة الله، إنما أنت لعبة نلعب بك وتفركين .

ومن كلامه: أشكو إلى الله جلد الخائن، وعجز الثقة.

قال عمرو بن ميمون: لقد رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بأيام واقفاً على حذيفة بن اليمان، وعثمان بن حنيف،

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وهو يقول لهما: أتخافان أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيقه؟ فقالا: لا، إنما حملناها أمراً هي له مطيقة، فأعاد عليهما القول: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيقه! فقالا: لا. فقال عمر: إن عشت لأدعن أرامل العراق لا يحتجن بعدي إلى رجل أبداً، فما أتت عليه رابعة حتى أصيب.

كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً، وأشهد عليه رهطاً من المسلمين ألا يركب برذوناً، ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين، ثم يقول: اللهم اشهد.

واستعمل عمر النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان، فبلغه عنه الشعر الذي قاله، وهو:

بميسان يسقى من زجاج وحنتم!

ومن مبلغ الحسناء أن حليلها

وصناجة تحدو على كل منسم

إذا شئت غننتي دهاقين قرية

ولا تسقني بالأصغر المتئلم

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني

تتادمننا بالجوسق المتهدم

لعل أمير المؤمنين يسوءه

فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم "حم تزييل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه الصير"، أما بعد، فقد بلغني قولك: لعل أمير المؤمنين يسوءه، البيت وائم الله إنه ليسوعي، فاقدم فقد عزلتك.

فلما قدم عليه، قال يا أمير المؤمنين، والله ما شربتها قط، وإنما هو شعر طفح على لساني وإني لشاعر، فقال عمر: أظن ذاك، ولكن لا تعمل لي على عمل أبداً.

استعمل عمر رجلاً من قريش على عمل، فبلغه عنه أنه قال:

واسق بالله مثلها ابن هشام

اسقني شربة تروي عظامي

فأشخصه إليه، وفطن القرشي، فضم إليه بيتاً آخر، فلما مثل بين يديه، قال له أنت القائل:

اسقني شربة تروي عظامي

قال: نعم يا أمير المؤمنين، فهلا أبلغك الواشي ما بعده؟ قال: ما الذي بعده؟ قال:

إنني لا أحب شرب المدام

عسلاً بارداً بماء غمام

قال: الله الله! ثم قال: ارجع إلى عملك.

قال عمر: أيما عامل من عمالي ظلم أحداً؟ ثم بلغتني مظلّمته، فلم أغيرها، فأنا الذي ظلمته.

وقال للأحنف بن قيس، وقد قدم عليه فاحتبسه عنده حولاً: يا أحنف، إني قد خبرتك وبلوتك فرأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، وإن كنا لنحدث أنه إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم.

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: إن مترس بالفارسية هو الأمان، فمن قلت له ذلك ممن لا يفقه لسانكم فقد أمتّموه.

وقال لأمير من أمراء الشام: كيف سيرتك؟ كيف تصنع في القرآن والأحكام؟ فأخبره، فقال: أحسنت، اذهب، فقد

أقررتك على عملك. فلما ولى رجع فقال: يا أمير المؤمنين، إني رأيت البارحة رؤيا أقصها عليك، رأيت الشمس والقمر

يقتتلان، ومع كل واحد منهما جنود من الكواكب، فقال: فمع أيهما كنت؟ قال: مع القمر، فقال: قد عزلتك، قال الله تعالى: "وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة".

كان عمر جالساً في المسجد، فمر به رجل، فقال: ويل لك يا عمر من النار! فقال: قربوه إلي، فدنا منه، فقال: لم قلت لي ما قلت؟ قال: تستعمل عمالك، وتشترط عليهم ثم لا تنظر هل وفوا لك بشروط أم لا؟ قال: وما ذاك؟ قال: عاملك على مصر اشترطت عليه، فترك ما أمرته به، وارتكب ما نهيته عنه، ثم شرح له كثيراً من أمره، فأرسل عمر رجلين من الأنصار، فقال لهما: انتهيا إليه، فاسألا عنه، فإن كان كذب عليه فأعلماني، وإن رأيتهما ما يسوءكما فلا تملكاه من أمره شيئاً حتى تأتيا به، فذهبا فسألا عنه، فوجداه قد صدق عليه، فجاءا إلى بابه، فاستأذنا عليه، فقال حاجبه: إنه ليس عليه اليوم إذن، قالوا: ليخرجن إلينا أو لنحرقن عليه بابه، وجاء أحدهما بشعلة من نار، فدخل الآذن، فأخبره فخرج إليهما، قالوا: إنا رسولا عمر إليك لتأتيه، قال: إن لنا حاجة؟ تمهلاني لأتزوّد، قالوا: إنه عزم علينا ألا نملكك، فاحتملاه، فأتيا به عمر، فلما أتاه سلم عليه فلم يعرفه، وقال: من أنت؟ - وكان رجلاً أسمر، فلما أصاب من ريف مصر ابيض وسمن - فقال: أنا عاملك على مصر، أنا فلان، قال: ويحك! ركب ما نهيت عنه، وتركت ما أمرت به! والله لأعاقبنك عقوبةً أبلغ إليك فيها، آتوني بكساء من صوف، وعصا وثلاثمائة شاة من غنم الصدقة، فقال: البس هذه الدراعة، فقد رأيت أباك وهذه خير من دراعته، وخذ هذه العصا فهي خير من عصا أبيك، واذهب بهذه الشياه فارعها في مكان كذا - وذلك في يوم صائف - ولا تمنع السابلة من ألبانها شيئاً إلا آل عمر، فإني لا أعلم أحداً من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئاً. فلما ذهب رده، وقال: أفهمت ما قلت! فضرب بنفسه الأرض، وقال يا أمير المؤمنين، لا أستطيع هذا، فإن شئت فاضرب عنقي، قال: فإن رددتك فأبي رجل تكون؟ قال: والله لا يبلغك بعدها إلا ما تحب. فردّه، فكان نعم الرجل. وقال عمر: والله لأنزعن فلاناً من القضاء حتى أستعمل عوضه رجلاً إذا رآه الفاجر فرق. وروى عبد الله بن بريدة، قال: بينا عمر يعس ذات ليلة انتهى إلى باب متجاف وامرأة تغني نسوة:

أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

هل من سبيل إلى خمر فأشربها

فقال عمر: أما ما عشت فلا. فلما أصبح دعا نصر بن حجاج - وهو نصر بن الحجاج بن علابط البهزي السلمي - فأبصره وهو من أحسن الناس وجهاً، وأصبحهم وأملحهم حسناً، فأمر أن يطم شعره، فخرجت جبهته فازداد حسناً، فقال له عمر: اذهب فاعتم، فاعتم فبدت وفرته فأمر بحلقها فازداد حسناً، فقال له: فتنت نساء المدينة يا بن حجاج! لا تجاورني في بلدة أنا مقيم بها، ثم سيره إلى البصرة.

فروى الأصمعي، قال: أبرد عمر بريداً، إلى عتبة بن أبي سفيان بالبصرة، فأقام بها أياماً، ثم نادى منادي عتبة: من أراد أن يكتب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً، فليكتب، فإن يريد المسلمين خارج. فكتب الناس، ودرس نصر بن حجاج كتاباً فيه: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصر بن حجاج، سلام عليك، أما بعد، يا أمير المؤمنين:

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني

أئن غنت الذلفاء يوماً بمنيةٍ

ظننت بي الظن الذي ليس بعده

وأصبحت منفياً على غير ريبةٍ

سيمنعني مما تظن تكرمي

ويمنعها مما تمننت صلاتها

فهاتان حالانا فهل أنت راجع

فقال عمر: أما ولي ولاية فلا. وأقطعه أرضاً بالبصرة وداراً.

فلما قتل عمر ركب راحلته ولحق بالمدينة.

وذكر المبرد محمد بن يزيد الشمالي، قال: كان عمر أصلع، فلما حلق وفرة نصر بن حجاج، قال نصر، وكان شاعراً:

تضن ابن خطاب علي بجمةٍ

فصلع رأساً لم يصلعه ربه

لقد حسد الفرعان أصلع لم يكن

إذا رجلت تهتز هز السلاسل

يرف رفيفاً بعد أسود جائل

إذا ما مشى بالفرع بالمتخايل

محمد بن سعيد، قال: بينا يطوف عمر في بعض سكك المدينة، إذ سمع امرأة تهتف من خدرها:

هل من سبيل إلى خمرٍ

إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل

تنميه أعراق صدق حين تنسبه

سامي النواظر من بهزٍ له قدم

فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

سهل المحيا كريم غير ملجأ

أخي قذاحٍ عن المكروب فراج

تفيء صورته في الحالك الداجي

فقال عمر: ألا لا أدري معي رجلاً يهتف به العواتق في خدورهن! علي بنصر بن حجاج، فأتي به، فإذا هو أحسن الناس

وجهاً وعيناً وشعراً، فأمر بشعره فجز، فخرجت له وجنتان كأنه قمر، فأمره أن يعتم فاعتم، ففتن النساء بعينه، فقال

عمر: لا والله لا تساكني بأرض أنا بها، قال: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: هو ما أقول لك، فسيره إلى البصرة.

وخافت المرأة التي سمع عمر منها ما سمع أن يبدر إليها منه شيء، فدلست إليه أبياتاً:

قل للأمير الذي تخشى بواده

إنني بليت أبا حفص بغيرهما

لا تجعل الظن حقاً أو تبينه

ما منية قلنتها عرضاً بضائرةٍ

إن الهوى رعية التقوى تقيده

مالي وللخمر أو نصر بن حجاج

شرب الحليب وطرفٍ فاترٍ ساج

إن السبيل سبيل الخائف الراجي

والناس من هالكٍ قدماً ومن ناج

حتى أقر بالجام وإسراج

فبكى عمر، وقال: الحمد لله الذي قيد الهوى بالتقوى.

وأنته يوماً أم نصر حين اشتدت عليها غيبة ابنها، فتعرضت لعمر بين الأذان والإقامة، فقعدت له على الطريق، فلما خرج يريد الصلاة هتفت به، وقالت: يا أمير المؤمنين لأجاثينك غداً بين يدي الله عز وجل، ولأخاصمنك إليه، يبيت عاصم وعبد الله إلى جانبك وبين ابني الفياثي والقفار، والمفاوز والجبال! قال: من هذه؟ قيل: أم نصر بن حجاج، فقال: يا أم نصر، إن عاصماً وعبد الله لم تهتف بهما العواتق من وراء الخدور.

ويروى أن نصر بن الحجاج لما سيره عمر إلى البصرة نزل بها على مجاشع بن مسعود السلمي، وكان خليفة أبي موسى عليها، وكانت له امرأة شابة جميلة فهويت نصرًا، وهويها فيينا الشيخ جالس ونصر عنده إذ كتب في الأرض شيئاً، فقرأته المرأة، فقالت: وأنا والله، فقال مجاشع: ما قال لك؟ قالت: إنه قال: ما أصفى لقتلكم هذه؟ فقال مجاشع: إن الكلمة التي قلت ليست أختاً لهذا الكلام، عزمت عليك لما أخبرتني! قالت: إنه قال: ما أحسن سوار ابتلكم هذه؟ قال: ولا هذه، فإنه كتب في الأرض، فرأى الخط فدعا بإناء فوضعه عليه، ثم أحضر غلاماً من غلمانها، فقال: اقرأ، فقرأه وإذا هو: أنا والله أحبك، فقال: هذه لهذه، اعتدي أيتها المرأة، وتزوجها يابن أخي إن أردت.

ثم غدا على أبي موسى، فأخبره، فقال أبو موسى: أقسم ما أخرجه عمر عن المدينة من خير، ثم طرده إلى فارس وعليها عثمان بن أبي العاص الثقفي، فترل على دهقانة فأعجبها فأرسلت إليه، فبلغ خبرها عثمان، فبعث إليه أن اخرج عن أرض فارس، فإنك لم تخرج عن المدينة والبصرة من خير، فقال: والله لئن أخرجتموني لألحقن ببلاد الشرك، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب أن جزوا شعره وشمروا قميصه، وألزموه المساجد.

وروى عبد الله بن بريدة أن عمر خرج ليلاً يعس، فإذا نسوة يتحدثن، وإذا هن يقلن: أي فتیان المدينة أصبح؟ فقالت امرأة منهن: أبو ذؤيب والله. فلما أصبح عمر سأل عنه، فإذا هو من بني سليم، وإذا هو ابن عم نصر بن حجاج، فأرسل إليه، فحضر، فإذا هو أجمل الناس وأملحهم، فلما نظر إليه قال: أنت والله ذئبها! يكررها ويردها، لا والذي نفسي بيده لا تجامعني بأرض أبداً.

فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت لا بد مسيري فسيرني حيث سيرت ابن عمي نصر بن حجاج، فأمر بتسييره إلى البصرة، فأشخص إليها.

خطب عمر في الليلة التي دفن فيها أبو بكر، فقال: إن الله تعالى نهج سبيله، وكفانا برسوله، فلم يبق إلا الدعاء والافتداء. الحمد لله الذي ابتلاني بكم وابتلاكُم بي، وأبقاني فيكم بعد صاحبي، وأعوذ بالله أن أزل أو أضل. فأعادي له ولياً، أو أوالي له عدواً. ألا إني وصاحبي كنفر ثلاثة قفلوا من طيبة، فأخذ أحدهم مهلة إلى داره وقراره فسلك أرضاً مضية متشابهة الأعلام، فلم يزل عن الطريق، ولم يحرم السبيل، حتى أسلمه إلى أهله، ثم تلاه الآخر فسلك سبيله، واتبع أثره، فأفضى إليه ولقي صاحبه، ثم تلاهما الثالث، فإن سلك سبيلهما واتبع أثرهما أفضى إليهما ولاقاهما، وإن زل يميناً أو شمالاً لم يجامعهما أبداً.

ألا وإن العرب جمل أنف قد أعطيت خطامه، ألا وإني حامله على الحجة ومستعين بالله عليه.

إلا وإني داع فأمنوا. اللهم إني شحيح فسخني. اللهم إني غليظ فليني. اللهم إني ضعيف فقوي. اللهم أوجب لي بمواليتك وموالاة أوليائك ولايتك ومعونتك، وأبرئي من الآفات بمعاداة أعدائك، وتوفني مع الأبرار، ولا تحشرنني في زمرة الأشقياء. اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغي، ولا تقلل لي فأشقى، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

وفد على عمر قوم من أهل العراق، ومنهم جرير بن عبد الله، فأتاهم بحفنة قد صبغت بخل وزيت، وقال: خذوا، فأخذوا أخذاً ضعيفاً، فقال: ما بالكم تقرمون قرم الشاة الكسيرة! أظنكم تريدون حلواً وحامضاً، وحراراً وبارداً، ثم قذفوا البطون، لو شئت أن أدهق لكم لفعلت، ولكننا نستبقي من ديانا ما نجده في آخرتنا، ولو شئنا أن نأمر بصغار الضأن فتسمط، ولبات الخبز فيخبز، ونأمر بالزبيب فينبذ لنا في الأسعان حتى إذا صار مثل عين اليعقوب، أكلنا هذا وشر بنا هذا لفعلت! والله إني ما أعجز عن كراكر وأسمنة وصلائق وصناب، لكن الله تعالى قال لقوم غيرهم أمراً فعلوه: "أذهبتم طبيباتكم في حياتكم الدنيا". وإني نظرت في هذا الأمر، فجعلت إن أردت الدنيا أضرت بالآخرة، وإن أردت الآخرة أضرت بالدنيا، وإذا كان الأمر هكذا؟ فأضروا بالفانية.

خرج عمر يوماً إلى المسجد، وعليه قميص في ظهره أربع رقاع، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: "وفاكهة وأبأ"، فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا هو التكلف! وما عليك يا بن الخطاب ألا تدري ما الأب! وجاء قوم من الصحابة إلى حفصة فقالوا: لو كلمت أباك في أن يلين من عيشه، ولعله أقوى له على النظر في أمور المسلمين! فجاءته فقالت: إن ناساً من قومك كلموني في أن أكلمك في أن تلين من عيشك. فقال: يا بنية، غششت أباك، ونصحت لقومك.

وروى سالم بن عبد الله بن عمر، قال: لما ولي عمر قعد على رزق أبي بكر الذي كان فرضه لنفسه، فاشتدت حاجته، فاجتمع نفر من المهاجرين، منهم علي وعثمان وطلحة والزبير، وقالوا: لو قلنا لعمر يزيد في رزقه! فقال عثمان: إنه عمر، فهلما فلنستبين ما عنده من وراء وراء، نأتي حفصة فنكلمها ونستكتمها أسمائنا. فدخلوا عليها، وسألوها أن تكلمه ولا تخبره بأسماء من أتاها إلا أن يقبل. فلقيت عمر في ذلك، فرأت الغضب في وجهه، وقال: من أتاك؟ قالت: لا سبيل إلى ذلك، فقال: لو علمت من هم لسؤت أوجههم، أنت بيني وبينهم! نشدتك الله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبان ممشقان، كان يلبسهما للوفد، ويخطب فيهما الجمع، قال: فأني طعام ناله عندك أرفع؟ قالت: خبزنا مرة خبزة شعير، فصببت عليها - وهي حارة أسفلها - عكة لنا كان فيها سمن وعسل، فجعلتها هشة حلوة دسمة، فأكل منها فاستطابها، قال: فأني مبسط كان يبسط عندك أوطأ؟ قالت: كساء ثخين كنا نرقعه في الصيف فنجعله ثخيناً، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه، وتدثرنا بنصفه، قال: فأبلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ ما أبر، وإني قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها، ولأبلغن ما أبر حبة.

وفد على عمر وفد فيه رجال الناس من الآفاق، فوضع لهم بسطاً من عباء، وقدم إليهم طعاماً غليظاً، فقالت له ابنته حفصة أم المؤمنين: إنهم وجوه الناس وكرام العرب، فأحسن كرامتهم. فقال: يا حفصة، أخبريني بألين فراش فرشته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأطيب طعام أكله عندك؟ قالت: أصبنا كساء ملبداً عام خبير، فكنت أفرشه له فينام عليه، وإني رفعت له ليلة، فلما أصبح قال: ما كان فراشي الليلة؟ قلت: فراشك كل ليلة؟ إلا أني الليلة رفعت له ليكون

أوطأ، فقال: أعيديه لحالته الأولى، فإن وطأته منعتني الليلة من الصلاة.

وكان لنا صاع من دقيق سلت ، فنخلته يوماً وطبخته له، وكان لنا قعب من سمن فصبيته عليه، فبينما هو صلى الله عليه وسلم يأكل إذ دخل أبو الدرداء، فقال: أرى سمنكم قليلاً، وإن لنا لقعباً من سمن، قال صلى الله عليه وسلم: فأرسل فأت به، فجاء به فصبه عليه فأكل، فهذا أطيب طعام أكله عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأرسل عمر عينية بالبكاء، وقال لها: والله لا أزيدهم على ذلك العباء وذلك الطعام شيئاً وهذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا طعامه.

لما قدم عتبة بن مرثد أذربيجان أتي بالخبيص ، فلما أكله وجد شيئاً حلواً طيباً، فقال: لو صنعت من هذا لأمر المؤمنين! فجعل له خبيصاً في منقلين عظيمين، وحملهما على بعيرين إلى المدينة، فقال عمر: ما هذا؟ قالوا الخبيص، فذاقه فوجده حلواً، فقال للرسول: ويحك! أكل المسلمين عندكم يشبع من هذا؟ قال: لا، قال: فأرددهما. ثم كتب إلى عتبة: أما بعد، فإن خبيصك الذي بعثته ليس من كد أبيك ولا من كد أمك، أشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك ولا تستأثر؟ فإن الأثرة شر والسلام.

وروى عتبة بن مرثد أيضاً، قال: قدمت على عمر بجلواء من بلاد فارس، في سلال عظام، فقال: ما هذه؟ قلت: طعام طيب، أتيتك به، قال: ويحك! ولم خصصتني به؟ قلت: أنت رجل تقضي حاجات الناس أول النهار، فأحببت إذا رجعت إلى منزلك أن ترجع إلى طعام طيب، فتصيب منه فتقوى على القيام بأمرك. فكشف عن سلة منها فذاق فاستطاب، فقال: عزمت عليك يا عتبة إذا رجعت إلا رزقت كل رجل من المسلمين مثله! قلت: والذي يصلحك يا أمير المؤمنين لو أنفقت عليه أموال قيس كلها لما وسع ذلك، قال: فلا حاجة لي فيه إذاً، ثم دعا بقصعة من ثريد، ولحم غليظ، وخبز خشن، فقال: كل، ثم جعل يأكل أكلاً شهياً. وجعلت أهوي إلى البضعة البيضاء أحسبها سناماً، وإذا هي عصبة، وأهوي إلى البضعة من اللحم أمضغها، فلا أسيغها، وإذا هي من علباء العنق ، فإذا غفل عني جعلتها بين الخوان والقصعة، فدعا بعس من نبيذ كاد يكون خلاً، فقال: اشرب، فلم أستطعه ولم أسغه أن أشرب، فشرب، ثم نظر إلي وقال: ويحك إنه ليس بدرمك العراق وودكه ، ولكن ما تأكله أنت وأصحابك.

ثم قال: اسمع إنا ننحر كل يوم جزوراً، فأما أوراكها وودكها وأطايبها فلمن حضرنا من المهاجرين والأنصار، وأما عنقها فلا ل عمر، وأما عظامها وأضلاعها فلفقراء المدينة، نأكل من هذا اللحم الغث، ونشرب من هذا النبيذ الخائر ، وندع لين لطعام ليوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها.

حضر عند عمر قوم من الصحابة، فأتنوا عليه، وقالوا: والله ما رأينا يا أمير المؤمنين رجلاً أقضى منك بالقسط، ولا أقول بالحق، ولا أشد على المنافقين منك! إنك لخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عوف بن مالك: كذبتهم والله، أبو بكر بعد رسول الله، خير أمته رأينا أبا بكر.

فقال عمر: صدق عوف والله وكذبتهم! لقد كان أبو بكر والله أطيب من ريح المسك، وأنا أضل من بعير أهلي.

لما أتى عمر الخبر بتزول رستم القادسية، كان يخرج فيستخير الركبان كل يوم عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله، فلما جاء البشير بالفتح، لقيه كما يلقي الركبان من قبل، فسأله فأخبره، فجعل يقول:

يا عبد الله، إيه! حدثني! فيقول له: هزم الله العدو، وعمر يحث معه، ويسأله وهو راجل، والبشير يسير على ناقته، ولا يعرفه، فلما دخل المدينة إذا الناس يسلمون عليه باسمه بامرة المؤمنين ويهتفون؟ فتزل الرجل، وقال: هلا أخبرتني يا أمير المؤمنين رحمك الله! وجعل عمر يقول: لا عليك يا بن أخي، لا عليك يا بن أخي!

وروى أبو العالية الشامي، قال: قدم عمر الجابية، على جمل أورك، تلوح صلته، ليس عليه قلنسوة، تصل رجلاه بين شعبي رحله، بغير ركاب، وطاؤه كساء أنبجاني كثير الصوف، وهو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، وحقيته نمره محشوة ليفاً، هي حقيته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرايس قد دسم وتخرق جيبه، فقال: ادعوا إلي رأس القرية. فدعوه له، فقال: اغسلوا قميصي هذا وخيطوه، وأعيروني قميصاً ريثما يحف قميمي، فأتوه بقميص كتان، فعجب منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: كتان. قال وما الكتان؟ فأخبروه، فلبسه ثم غسل قميصه، وأتى به فترع قميصهم ولبس قميصه، فقال له رأس القرية: أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا يصلح بها ركوب الإبل، فأتي برذون فطرحته عليه قطيفة بغير سرج فركبه، فهملج، تحته، فقال للناس: احبسوا، فحبسوه، فقال: ما كنت أظن الناس يركبون الشيطان قبل هذا! قدموا لي جملي. فجيء به فتزل عن البرذون وركبه.

قدم عمر الشام، فلقية أمراء الأجناد وعظماء تلك الأرض، فقال: وأين أخي؟ قالوا: من هو؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: سيأتيك الآن، فجاء أبو عبيدة على ناقة مخطومة بجبل، فسلم عليه، ورد له، ثم قال للناس: انصرفوا عنا، فسار معه حتى أتى منزله، فتزل عليه، فلم ير فيه إلا سيفاً وترساً، فقال له: لو أتخذت متاع البيت! قال: حسبي هذا يبلغني المقيـل. وروى طارق بن شهاب، أن عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فتزل عن بعيره، ونزع جرموقيه فأمسكهما بيده، وخاض الماء وزمام بعيره في يده الأخرى، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل هذه الأرض! فصك في صدره، وقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يرجعكم إلى الذل.

وروى محمد بن سعد صاحب الواقدي، أن عمر قال يوماً على المنبر: لقد رأيتني ومالي من أكال يأكله الناس، إلا أن لي حالات من بني مخزوم. فكنت أستعذب لهن الماء، فيقبضن لي القبضات من الزبيب، فلما نزل قيل له: ما أردت بهذا؟ قال: وجدت في نفسي بأوا؟ فأردت أن أطأطأ منها. ومن كلام عمر: رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي.

قدم عمرو بن العاص على عمر، وكان والياً لمصر، فقال له: في كم سرت؟ قال: في عشرين، قال: عمر: لقد سرت سير عاشق! فقال عمرو: إني والله ما تأبطتني الإمام، ولا حملتني في غبرات المآلي، فقال عمر: والله ما هذا بجواب الكلام الذي سألتك عنه! وإن الدجاجة لتفحص في الرماد فتضع لغير الفحل؟ وإنما تنسب البيضة إلى طرقتها. فقام عمرو مبرد الوجه. قلت: المآلي: حرق سود يحملها النوائح، ويسرن بها بأيديهن عند اللطم، وأراد حرق الحيز هاهنا، وشبهها بتلك، وأنكر عمر فخره بالأمهات، وقال: إن الفخر للأب الذي إليه النسب، وسألت النقيب أبا جعفر عن هذا الحديث في عمر، فقال: إن عمراً فخر على عمر، لأن أم الخطاب زنجية، وتعرف بباطحلى، تسمى صهاك. فقلت له: وأم عمرو النابغة أمة من سبايا العرب، فقال: أمه عربية من عترة، سبيت في بعض الغارات، فليس يلحقها من النقص عندهم ما يلحق الإمام

الزنجيات. فقلت له: أكان عمرو يقدم على عمر بمثل ما قلت؟ قال: قد يكون بلغه عنه قول قدح في نفسه فلم يحتمله له، ونفت بما في صدره منه، و"ن لم يكن جواباً مطابقاً للسؤال.

وقد كان عمر مع خشونته يحتمل نحو هذا، فقد جبهه الزبير مرة، وجعل يحكي كلامه يمططه، وجبهه سعد بن أبي وقاص أيضاً، فأغفى عنه ومر يوماً في السوق على ناقة له فوثب غلام من بني ضبة، فإذا هو خلفه، فالتفت إليه، فقال: فمن أنت؟ قال: ضبي، قال: جسر والله، فقال الغلام: على العدو، قال عمر: وعلى الصديق أيضاً، ما حاجتك؟ فقفي حاجته، ثم قال: دع الآن لنا ظهر راحلتنا.

ومن كلام عمر: اخشع عند القبور إذا نظرت إليها، واستعص عند المعصية، وذل عند الطاعة، ولا تبذلن كلامك إلا عند من يشتهي ويتخذه غنماً، ولا تستعن على حاجتك إلا بمن يجب نجاحها لك، وآخ الإخوان على التقوى، وشاور في أمرك كله، وإذا اشترى أحدكم بغيراً فليشتره جسيماً، فإن أخطأته النجاة لم يخطئه السوق.

أوفد بشر بن مروان وهو على العراق رجلاً إلى عبد الملك، فسأله عن بشر، فقال: يا أمير المؤمنين، هو اللين في غير ضعف، الشديد في غير عنف، فقال عبد الملك: ذاك الأحوذني ابن حنمة الذي كان يأمن عنده البريء، ويخافه السقيم، ويعاقب على الذنب، ويعرف موضع العقوبة، لا بشر بن مروان! أذن عمر يوماً للناس، فدخل شيخ كبير يعرج، وهو يقود ناقة رجيعاً يجاذبها، حتى وقف بين ظهري الناس، ثم قال:

وإنك مدعو بسيماك يا عمر

وإنك مسترعى وإنا رعية

وخير لمن كانت مؤانسه الخير

لدى يوم شر شره لشراره

فقال عمر: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ من أنت؟ قال: عمرو بن براق، قال: ويحك! فما منعك أن تقول: "وأعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول". ثم قرأها إلى آخرها؟ وأمر بناقته فقبضت، وحمله على غيرها، وكساه وزود بينا عمر يسير في طريق مكة يوماً إذا بالشيخ بين يديه يرتجز، ويقول:

أبر بالدين وبالأحساب

ما إن رأيت كفتي الخطاب

بعد النبي صاحب الكتاب

فطعنه عمر بالسوط في ظهره، فقال: ويلك! وأين الصديق! قال: ما لي بأمره علم يا أمير المؤمنين، قال: أما إنك لو كنت عالماً، ثم قلت هذا لأوجعت ظهرك.

قال زيد بن أسلم: كنت عند عمر، وقد كلمه عمرو بن العاص في الخطيئة، وكان محبوساً، فأخرجه من السجن، ثم أنشده:

زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ

فاغفر عليك سلام الله يا عمر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة

ألقت إليه مقاليد النهى البشر

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه

فبكى عمر لما قال له: ماذا تقول لأفراخ فكان عمرو بن العاص بعد ذلك يقول: ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أتقى من رجل يبكي خوفاً من حبس الخطيئة! ثم قال عمر لغلامه يرفاً: علي بالكربي، فجلس عليه، ثم قال: علي بالطست، فأتي بها، ثم قال: علي بالمخصف لا بل علي بالسكين، فأتي بها، فقال: لا بل علي بالموسى فإنها أوجى، فأتي بموسى، ثم قال: أشيروا علي في الشاعر، فإنه يقول الهجر، وينسب بالحرم، ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم، وما أراي إلا قاطعاً لسانه! فجعل الخطيئة يزيد خوفاً، فقال من حضر: إنه لا يعود يا أمير المؤمنين، وأشاروا إليه قل: لا أعود يا أمير المؤمنين، فقال: التجاء التجاء! فلما ولى ناداه: يا خطيئة! فرجع مرعوباً، فقال: كأني بك يا خطيئة عند فتى من قریش، قد بسط لك نمرقة، وكسر لك أخرى، ثم قال: غننا يا خطيئة، فطفقت تغنيه بأعراض الناس، قال: يا أمير المؤمنين، لا أعود، ولا يكون ذلك.

قال زيد بن أسلم: ثم رأيت الخطيئة يوماً بعد ذلك عند عبيد الله بن عمر، قد بسط له نمرقة وكسر له أخرى، ثم قال: تغنينا يا خطيئة، وهو يغنيه، فقلت: يا خطيئة، أما تذكر قول عمر لك! ففرع، وقال: رحم الله ذلك المرء! أما لو كان حياً ما فعلنا هذا. قال: فقلت لعبيد الله بن عمر: سمعت أباك يذكر كذا، فكنت أنت ذلك الفتى. كان عمر يصادر خونة العمال، فصادر أبا موسى الأشعري، وكان عامله على البصرة، وقال له: بلغني أن لك جاريتين، وأنتك تطعم الناس من جفنتين، وأعادته بعد المصادرة إلى عمله.

وصادر أبا هريرة، وأغلظ عليه، وكان عامله على البحرين، فقال له: ألا تعلم أبي استعملتك على البحرين، وأنت حافي لا نعل في رجلك! وقد بلغني أنك بعت أفراساً بألف وستمئة دينار. قال أبو هريرة: كانت لنا أفراس فتناجت، فقال: قد حبست لك رزقك ومؤنتك، وهذا فضل. قال أبو هريرة: ليس ذلك لك، قال: بك، والله وأوجع ظهره! ثم قام إليه بالدرة فضرب ظهره، حتى أدماه، ثم قال: ائت بها، فلما أحضرها، قال أبو هريرة: سوف أحسبها عند الله، قال عمر: ذاك لو أخذتها من حل، وأديتها طائعاً، أما والله ما رجحت فيك أمانة أن تجي أموال هجر واليامة وأقصى البحرين لنفسك؟ لا لله ولا للمسلمين، ولم ترج فيك أكثر من رعية الحفر. وعزله.

وصادر الحارث بن وهب أحد بني ليث بكر بن كنانة، وقال له: ما قلاص وأعبد بعتها بمائة دينار قال: خرجت بنفقة لي فاتجرت فيها، قال: وإنا والله ما بعثناك للتجارة، أدها، قال: أما والله لا أعمل لك بعدها. قال: أنا والله لا أستعملك بعدها. ثم صعد المنبر، فقال: يا معشر الأمراء، إن هذا المال لو رأينا أنه يحل لنا لأحللناه لكم، فأما إذ لم نره يحل لنا وظلنا أنفسنا عنه، فاضلّفوا عنه أنفسكم، فإني والله ما وجدت لكم مثلاً إلا عطشان ورد اللجة، ولم ينظر الماتح فلما روي غرق.

وكتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو عامله في مصر: أما بعد، فقد بلغني أنه قد ظهر لك مال من إبل وغنم وخدم وغلمان، ولم يكن لك قبله مال، ولا ذلك من رزقك، فأني لك هذا! ولقد كان لي من السابقين الأولين من هو خير

منك، ولكني استعملتك لغنائك، فإذا كان عملك لك وعلينا، بم نؤثرك على أنفسنا! فاكتب إلي من أين مالك؟ وعجل.
والسلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص: قرأت كتاب أمير المؤمنين، ولقد صدق، فأما ما ذكره من مالي، فإني قدمت بلدة؟ الأسعار فيها رخيصة، والغزو فيها كثير، فجعلت فضول ما حصل لي من ذلك فيما ذكره أمير المؤمنين. والله يا أمير المؤمنين، لو كانت خيانتك لنا حلالاً ما خناك؟ حيث ائتممتنا، فأقصر عنا عناك، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن العمل لك، وأما من كان لك من السابقين الأولين، فهلا استعملتهم! فوالله ما دقت لك باباً.

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني لست من تسطيرك وتشقيقك الكلام في شيء! إنكم معشر الأمراء أكلتم الأموال، وأخلدتم إلى الأعذار، فإنما تأكلون النار، وتورثون العار، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليشاطرك على ما في يديك.
والسلام.

فلما قدم إليه محمد اتخذ له طعاماً وقدمه إليه، فأبى أن يأكل، فقال: ما لك لا تأكل طعامنا؟ قال: إنك عملت لي طعاماً هو مقدمة للشر، ولو كنت عملت لي طعام الضيف لأكلته، فأبعد عني طعامك، وأحضر لي مالك. فلما كان الغد وأحضر ماله، جعل محمد يأخذ شطراً، ويعطي عمراً شطراً، فلما رأى عمرو ما حاز محمد من المال، قال: يا محمد، أقول؟ قال: قل ما تشاء، قال: لعن الله يوماً كنت فيه والياً لابن الخطاب! والله لقد رأيته ورأيت أباه، وإن على كل واحد منهما عباءة قطوانية، مؤتزرا بها، ما تبلغ مأبض ركبتيه، وعلى عنق كل واحد منهما حزمة من حطب، وإن العاص بن وائل لفي مزررات الدياج. فقال محمد: إيها يا عمرو! فعمرو! والله خير منك، وأما أبوك وأبوه ففي النار، ووالله لولا ما دخلت فيه من الإسلام لألفيت معتلفاً شاة يسرك غزرها، ويسوءك بكؤها. قال: صدقت؟ فاكتب علي. قال: أفعّل.

جاءت سرية لعبيد الله بن عمر إلى عمر تشكوه، فقالت: يا أمير المؤمنين، ألا تعذرني من أبي عيسى؟ قال: ومن أبو عيسى؟ قالت: ابنك عبيد الله، قال: ويحك! وقد تكنى بأبي عيسى! ودعاه، وقال: إيها اكنيت بأبي عيسى! فحذر وفرع، فأخذ يده فعضها حتى صاح، ثم ضربه وقال: ويلك! هل لعيسى أب! أما تدري ما كنى العرب؟ أبو سلمة، أبو حنظلة، أبو عرفة، أبو مرة.

كان عمر إذا غضب على بعض أهله لم يشتف حتى يعرض يده، وكان عبد الله بن الزبير كذلك يقال: إنه لم يل ولاية من ولد عمر وال عادل.

وقال مالك بن أنس: إن عمر بن الخطاب استفرغ كل عدل في ولده، فلم يعدل بعده أحد منهم في ولاية وليها. كان عمر ومن بعده من الولاة إذا أخذوا العصاة نزعوا عمائهم، وأقاموهم للناس، حتى جاء زياد فضرهم بالسياط، فجاء مصعب فحلق مع الضرب، فجاء بشر بن مروان، فكان يصلب تحت الإبطين، ويضرب الأكف بالمسامير. فكتب إلى بعض الجند قوم من أهله يستزيرونه، ويتشوقونه، وقد أخرج به بشر إلى الري فكتب إليهم:

أَوْ أَنْ يَرَى شَأْنِي كَفِي بِمَسْمَارٍ

إِنْ الْمَحَبَّ الْمَعْنَى جَدُّ زَوَارٍ

لَوْلَا مَخَافَةُ بَشَرٍ أَوْ عَقُوبَتُهُ

إِذَا لَعَطَلْتُ ثَغْرِي ثُمَّ زَرْتَكُمْ

فلما جاء الحجاج قال: كل هذا لعب، فقتل العصاة بالسيف.

زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: خلا عمر لبعض شأنه، وقال: أمسك علي الباب، فطلع الزبير، فكرهته حين رأيته، فأراد أن يدخل، فقلت: هو على حاجة، فلم يلتفت إلي، وأهوى ليدخل، فوضعت يدي في صدره، فضرب أنفي فأدماه، ثم رجع، فدخلت على عمر، فقال: ما بك؟ قلت: الزبير!

فأرسل إلى الزبير، فلما دخل جئت فقممت لأنظر ما يقول له، فقال: ما حملك على ما صنعت! أدميتني للناس. فقال الزبير يحكيه ويمشط في كلامه: أدميتني!، أحتجب عنا يابن الخطاب! فوالله ما احتجب مني رسول الله، ولا أبو بكر! فقال عمر كالمعتذر: إني كنت في بعض شأني! قال أسلم: فلما سمعته يعتذر إليه، يئست من أن يأخذ لي بحقي منه.

فخرج الزبير، فقال عمر: إنه الزبير وآثاره ما تعلم! فقلت: حقي حقك! وروى الزبير بن بكار في كتاب الموفقيات، عن عبد الله بن عباس قال: إني لأماشي عمر بن الخطاب في سكة من سكك المدينة، إذ قال لي: يابن عباس، ما أرى صاحبك إلا مظلوماً، فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، فاردد إليه ظلامته، فانتزع يده من يدي، ومضى يهمهم ساعة، ثم وقف فلحقته، فقال: يابن عباس! ما أظنهم منعهم عنه إلا أنه استصغره قومه! فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى! فقلت: والله ما استصغره الله ورسوله حين أمراه أن يأخذ براءة من صاحبك، فأعرض عني وأسرع، فرجعت عنه.

وقال ابن عباس: قلت لعمر لقد أكثر التمني للموت، حتى خشيت أن يكون عليك غير سهل عند أوانه! فماذا سئمت من رعبتك؟ أن تعين صالحاً، أو تقوم فاسداً! قال: يابن عباس، إني قائل قولاً فخذه إليك، كيف لا أحب فراقهم، وفيهم من هو فاتح فاه للشهوة من الدنيا، إما لحق لا ينوء به، وإما لباطل لا يناله! والله لولا أن أسأل عنكم لبرئت منكم فأصبحت الأرض مني بلاقع، ولم أقل: ما فعل فلان وفلان! جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب، فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وإني أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله فقال: نعم الزوج زوجك! فجعلت تكرر عليه القول، وهو يكرر عليها الجواب.

فقال له كعب بن سور: يا أمير المؤمنين، إنها تشكو زوجها في مباحثته إياها عن فراشه، ففطن عمر حينئذ، وقال له: قد وليتك الحكم بينهما! فقال كعب: علي بزوجه، فأتي به، فقال: إن زوجتك هذه تشكوك، قال: في طعام أو شراب؟ قال: لا، قالت المرأة:

ألهي خليلي عن فراشي مسجده

أيها القاضي الحكيم رشده

نهاره وليله ما يرقده

زهده في مضجعي تعبده

فلست في أمر النساء أحمده

فقال زوجها:

أنني امرؤ أذهلني ما قد نزل

زهدي في فرشها وفي الحجل

وفي كتاب الله تخويف جلل

في سورة النمل وفي السبع الطول

قال كعب:

تصيبها من أربع لمن عقل

إن لها حقاً عليك يا رجل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن الله أحل له من النساء مثنى وثلاث ورباع، فله ثلاثة أيام ولياليهن، يعبد فيها ربه، ولها يوم وليلة.

فقال عمر: والله ما أعلم من أي أمريك أعجب! أمن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما! اذهب فقد وليتك قضاء البصرة.

وروى زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: خرجت مع عمر بن الخطاب وهو يطوف بالليل، فنظر إلى نار شرقي حرة المدينة، فقال: إن هؤلاء الركب لم يزلوا هاهنا إلا الليلة! ثم أهوى لهم، فخرجت معه حتى دنونا، فسمعنا تضاغي الصبيان وبكاءهم.

فقال: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، هل ندنو منكم! واحتبسنا قليلاً، فقالت امرأة منهم: ادنوا بسلام! فأقبلنا حتى وقفنا عليها، فقال: ما يبكي هؤلاء الصبيان؟ قالت: الجوع، قال: فما هذا القدر على النار؟ قالت: ماء أعللهم به، قال: انتظريني فلاني بالغك إن شاء الله! ثم خرج يهرول وأنا معه، حتى جئنا دار الدقيق - وكانت داراً يطرح فيها ما يجيء من دقيق العراق ومصر. وقد كان كتب إلى عمرو بن العاص وأبي موسى حين أحملت السنة: الغوث! الغوث! احملوا إلى أحمال الدقيق، واجعلوا فيها جمائد الشحم. فجاء إلى عدلٍ منها، فطأطأ ظهره، ثم قال: احملة على ظهري يا أسلم! فقلت: أنا أحملة عنك! فنظر إلي وقال: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة؟ لا أبالك! قلت: لا، قال: فاحمله على ظهري إذاً، ففعلت، وخرج به يدج. وأنا معه؟ حتى ألقاه عند المرأة.

ثم قال لي: ذر علي ذرور الدقيق لا يتعرد وأنا أخزر، ثم أخذ المسواط يخزر، ثم جعل ينفخ تحت البرمة، وأنا أنظر إلى الدخان يخرج من خلل لحيته، ويقول: لا تعجل حتى ينضج، ثم قال: ألق علي من الشحم، فإن القفار يوجع البطن.

ثم أنزل القدر، وقال للمرأة: لا تعجلي، لا تعطيهما حاراً، وأنا أسطح لك، فجعل يسطح بالمسواط، ويبرد طعامهم، حتى إذا شبعوا ترك عندها الفضل، ثم قال لها: ائتي أمير المؤمنين غداً، فإنك عسيت أن تجديني قريباً منه، فأشفع لك بخير؟ وهي تقول: من أنت يرحمك الله! وتدعو له وتقول: أنت أولى بالخلافة من أمير المؤمنين؟ فيقول: قولي خيراً يرحمك الله! لا يزيد على هذا.

ثم انصرف حتى إذا كان قريباً جلس فأقعى، وجعل يسمع طويلاً، حتى سمع التضاحك منها ومن الصبيان، وأنا أقول: يا أمير المؤمنين، قد فرغت من هذه، ولك شغل في غيرها، ويقول: لا تكلمني، حتى إذا هدأ حسهم قام فتمطى وقال: ويحك! إني سمعت الجوع أسهرهم، فأحببت ألا أبرح حتى أسمع الشبع أنامهم! ومن كلامه: الرجال ثلاثة: الكامل، ودون الكامل، ولا شيء. فالكامل ذو الرأي يستشير الناس، فيأخذ من آراء الرجال إلى رأيه، ودون الكامل من يستبد به

ولا يستشير. ولا شيء من لا رأي له ولا يستشير.

والنساء ثلاث: تعين أهلها على الدهر ولا تعين الدهر على أهلها، وقلما تجدها. وامرأة وعاء للولد ليس فيها غيره.

والثالثة غل قمل يجعله الله في رقبة من يشاء، ويفكه إذا شاء.

لما أخرج عمر الخطيئة من حبسه قال له: إياك والشعر! قال: لا أقدر على تركه يا أمير المؤمنين؟ مأكلة عيالي، ونملة تدب على لساني. قال: فشيب بأهلك، وإياك وكل مدحة مجحفة. قال: وما المجحفة؟ قال: تقول: إن بني فلان خير من بني فلان، امدح ولا تفضل أحداً؟ قال: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر مني! وروى الزبير في الموفقيات عن عبد الله بن عباس، قال: خرجت أريد عمر بن الخطاب، فلقيته راكباً حماراً، وقد ارتسنه بجبل أسود، في رجليه نعلان مخصوفتان، وعليه إزار وقميص صغير، وقد انكشفت منه رجلاه إلى ركبتيه، فمشيت إلى جانبه، وجعلت أجذب الإزار وأسويه عليه، كلما سترت جانباً انكشف جانب، فيضحك ويقول: إنه لا يطيعك، حتى جئنا العالية، فصلينا، ثم قدم بعض القوم إلينا طعاماً من خبز ولحم، وإذا عمر صائم، فجعل ينبذ إلي طيب اللحم، ويقول: كل لي ولك، ثم دخلنا حائطاً فألقى إلي رداءه، وقال اكفنيه، وألقى قميصه بين يديه، وجلس يغسله، وأنا أغسل رداءه، ثم جففناهما وصلينا العصر، فركب ومشيت إلى جانبه، ولا ثالث لنا.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إني في خطبة فأشعر علي، قال: ومن خطبت؟ قلت: فلانة ابنة فلان، قال: النسب كما تحب، وكما قد علمت، ولكن في أخلاق أهلها دقة لا تعدمك أن تجدها في ولدك! قلت: فلا حاجة لي إذاً فيها، قال: فلم لا تخطب إلى ابن عمك - يعني علياً؟ قلت: ألم تسبني إليه؟ قال: فالأخرى، قلت: هي لابن أخيه. قال: يابن عباس، إن صاحبكم إن ولي هذا الأمر أخشى عجبه بنفسه أن يذهب به، فليتني أراكم بعدي! قلت: يا أمير المؤمنين، إن صاحبنا ما قد علمت؟ إنه ما غير ولا بدل، ولا أسخط رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام صحبته له.

قال: فقطع علي الكلام، فقال: ولا في ابنة أبي جهل، لما أراد أن يخطبها على فاطمة! قلت: قال الله تعالى: "ولم نجد له عزماً"، وصاحبنا لم يعزم على سخط رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الخواطر التي لا يقدر أحد على دفعها عن نفسه، وربما كان الفقيه في دين الله، العالم العامل بأمر الله.

فقال: يابن عباس، من ظن أنه يرد بحوركم فيغوص فيها معكم حتى يبلغ قعرها فقد ظن عجزاً! أستغفر الله لي ولك، خذ في غيرها.

ثم أنشأ يسألني عن شيء من أمور الفتيا وأجيبه فيقول: أصبت أصاب الله بك! أنت والله أحق أن تتبع! أشرف عبد الملك على أصحابه، وهم يتذاكرون سيرة عمر، فغاظه ذلك، وقال: إيهما عن ذكر سيرة عمر! فإنها مزرارة على الولاة، مفسدة للرعية.

قال ابن عباس: كنت عند عمر، فتنفس نفساً ظننت أن أضلاعه قد انفرجت، فقلت: ما أخرج هذا النفس منك يا أمير المؤمنين إلا هم شديد! قال: إي والله يا بن عباس! إني فكرت فلم أدر فيمن أجعل هذا الأمر بعدي! ثم قال: لعلك ترى صاحبك لها أهلاً! قلت: وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقتة وقربته وعلمه! قال: صدقت، ولكنه امرؤ فيه دعاة،

قلت: فأين أنت عن طلحة! قال: ذو البأو، بإصبعه المقطوعة! قلت: فعبد الرحمن؟ قال: رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه في يد امرأته. قلت: فالزبير؟ قال: شكس لقس يلاطم في النقيع في صاع من بر! قلت: فسعد بن أبي وقاص؟ قال: صاحب سلاح ومقنب، قلت: فعثمان؟ قال: أوه! ثلاثاً، والله لئن وليها ليحملن بني أبي فعيط على رقاب الناس، ثم لتنهض العرب إليه.

ثم قال: يابن عباس، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا خصيف العقدة، قليل الغرة، لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم يكون شديداً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، سخيّاً من غير سرف، ممسكاً من غير وكف. قال ابن عباس: وكانت والله هي صفات عمر.

قال: ثم أقبل علي بعد أن سكت هنيهة، وقال: أجرؤهم والله إن وليها أن يحملهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم لصاحبك! أما إن ولي أمرهم حملهم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم.

وروى عبد الله بن عمر قال: كنت عند أبي يوماً، وعنده نفر من الناس، فجرى ذلك الشعر، فقال: من أشعر العرب؟ فقالوا: فلان وفلان، فطلع عبد الله بن عباس، فسلم وجلس، فقال عمر: قد جاءكم الخير! من أشعر الناس يا عبد الله؟ قال: زهير بن أبي سلمى، قال: فأنشدني مما تستجده له. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه مدح قوماً من غطفان، يقال لهم بنو سنان، فقال:

قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

مرزؤون بهاليل إذا جهدوا

لا بنزع الله منهم ماله حسدوا

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم

إنس إذا أمنوا، جن إذا فزعوا

محسدون على ما كان من نعم

فقال عمر: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المدح يصلح إلا لهذا البيت من هاشم؟ لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس: وفقك الله يا أمير المؤمنين، فلم تزل موقفاً، فقال: يابن عباس، أتدري ما منع الناس منكم؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قاذ: لكني أدري، قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: كرهت قريش أن يجتمع لكم النبوة والخلافة، فيجحفوا جحفاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت فأصابت.

فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء، قال: أما قول أمير المؤمنين: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: "ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم".

وأما قولك: إنا كنا نجحف، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقراية، ولكننا قوم أخلاقنا مشتقة من خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى: "وإنك لعلی خلق عظیم"، وقال له: "واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين". وأما قولك: فإن قريشاً اختارت فإن الله تعالى يقول: "وربك يخلف ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة"، وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت قريش. فقال عمر: على رسلك يابن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلا غشاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول، فقال ابن

عباس: مهلاً يا أمير المؤمنين! لا تنسب هاشماً إلى الغش، فإن قلوبهم من قلب رسول الله الذي طهره الله وزكاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى لهم: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً"، وأما قولك: حقداً فكيف لا يحقد من غصب شيئه، ويراها في يد غيره! فقال عمر: أما أنت يابن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به، فتزول منزلتك عندي، قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ أخبرني به، فإن يك باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يك حقاً فإن منزلتي عندك لا تزول به.

قال؟ بلغني أنك لا تزال تقول: أخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً. قال: أما قولك يا أمير المؤمنين: حسداً، فقد حسد إبليس آدم، فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: ظلماً فأمر المؤمنين يعلم صاحب الحق من هو! ثم قال: يا أمير المؤمنين، ألم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله، واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أحق برسول الله من سائر قريش.

فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك. فقام، فلما ولى هتف به عمر: أيها المنصرف، إني على ما كان منك لراع حقك! فالتفت ابن عباس فقال: إن لي عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن حفظه فحق نفسه حفظ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع. ثم مضى.

فقال عمر لجلسائه: واهاً لابن عباس! ما رأيته لاحي أحداً قط إلا خصمه! لما توفي عبد الله بن أبي، رأس المنافقين في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء ابنه وأهله، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي عليه، فقام بين يدي الصف يريد ذلك، فجاء عمر فجذبه من خلفه، وقال: ألم ينهك الله أن تصلي على المنافقين! فقال: إني خيرت فاخترت، فقيل لي: "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم"، ولو أي أعلم أي إذا زدت على السبعين غفر له لزدت. ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشى معه، وقام على قبره.

فعجب الناس من جرأة عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يلبث الناس إلا أن نزل قوله تعالى: "ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره..." . فلم يصل صلى الله عليه وسلم بعدها على أحد من المنافقين.

وروى أبو هريرة، قال: كنا قعوداً حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر، فقام من بين أظهرنا، فأبطأ علينا، وخشينا أن يقطع دوننا فقمنا - وكنت أول من فرغ - فخرجت أبتغيه حتى أتيت حائطاً للأنصار لقوم من بني النجار، فلم أجد له باباً إلا ربيعاً، فدخلت في جوف الحائط - والربيع الجدول - فدخلت منه بعد أن احتفرت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أبو هريرة! قلت؟ نعم، قال: ما شأنك؟ قلت: كنت بين أظهرنا، فقممت فأبطأت عنا، فخشينا أن تقتطع دوننا، ففرغنا - وكنت أول من فرغ - فأتيت هذا الحائط فاحتفرت كما يحتفر الثعلب، والناس من ورائي.

فقال: يا أبا هريرة، اذهب بنعلي هاتين، فمن لقيته وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقناً به قلبه، فبشره بالجنة، فخرجت، فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هذان النعلان؟ قلت: نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني بهما، ومال: من لقيته يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة.

فضرب عمر في صدري فخررت لإسيتي، وقال: ارجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجهشت بالبكاء راجعاً، فقال رسول الله: ما بالك؟ قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثني به، فضرب صدري ضربة حررت لإسيتي، وقال: ارجع إلى رسول الله.

فخرج رسول الله، فإذا عمر، فقال: ما حملك يا عمر على ما فعلت؟ فقال عمر: أنت بعثت أبا هريرة بكذا؟ قال: نعم، قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فيتركوا العمل، خلهم يعملون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خلهم يعملون.

وروى أبو سعيد الخدري، قال: أصابت الناس مجاعة في غزاة تبوك، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فذبحنا نواضحنا، وأكلنا شحمها ولحمها! فقال: افعلوا، فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إنهم إن فعلوا قل الظهر، ولكن ادعهم - بفضلات أزوادهم فأجمعها، ثم ادع لهم عليها بالبركة، لعل الله يجعل في ذلك خيراً.

ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك؟ فأكل الخلق الكثير من طعام قليل، ولم تذبح النواضح.

وروى ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر له ذنباً أذنبه، فأنزل الله تعالى في أمره: "وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين". فقال: يا رسول الله، لي خاصة، أم للناس عامة! فضرب عمر صدره بيده وقال: لا، ولا تعمى عين! بل للناس عامة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل للناس عامة.

وكان عمر يقول: وافقني ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فترلت: "وأخذوا من مقام إبراهيم مصلى".

وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن! فترلت آية الحجاب.

ومثلاً عليه نساؤه غيره، فقلت له: "عسى ربه إن طلقكن إن تبدله أزواجاً خيراً منكن" فترلت بهذا اللفظ.

وقال عبد الله بن مسعود: فضل عمر الناس بأربع: برأيه في أسارى بدر، فترل القرآن بموافقته: "ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض"، وبرأيه في حجاب نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فترل قوله تعالى: "وإذا سألتموهن متاعاً فأسألوهن من وراء حجاب". وبدعوة النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم أيد الإسلام بأحد الرجلين"، وبرأيه في أبي بكر، كان أول من بايعه.

وروت عائشة قالت: كنت أكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيساً قبل أن تترل آية الحجاب، ومر عمر فدعاه فأكل، فأصابت يده إصبعي، فقال: حس لو أطاع فيكن ما رأتن عيني! فترلت آية الحجاب.

جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر، فقالا: يا خليفة رسول الله، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلاً ولا منفعة، فإن رأيت أن تقطعناها، لعلنا نحرثها أو نزرعها! ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم! فقال أبو بكر لمن حوله من الناس المسلمين: ما ترون؟ قالوا: لا بأس، فكتب لهما بها كتاباً، وأشهد فيه شهوداً. وعمر ما كان حاضراً. فانطلقا إليه ليشهد في الكتاب، فوجداه قائماً يهناً بعيراً، فقالا: إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لنا هذا الكتاب، وجئناك

لتشهد على ما فيه، أفترؤه أم نقرؤه عليك؟ قال: أعلى الحال التي تريان! إن شئتما فاقرآه، وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ، قالوا: بل نقرؤه عليك، فلما سمع ما فيه، أخذه منهما، ثم تغل فيه، فمحاها، فتدامرا وقالوا مقالة سيئة.

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل، وإن الله تعالى قد أعز الإسلام، فاذهبا فاجهدا جهدكما، لا رعى الله عليكما إن رعيتهما! فذهبا إلى أبي بكر، وهما يتذرمان، فقالا: والله ما ندري أنت أمير أم عمر؟ فقال: بل هو لو شاء كان.

وجاء عمر وهو مغضب، حتى وقف على أبي بكر، فقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين الرجلين، أهى لك خاصة، أم بين المسلمين عامة! فقال: بين المسلمين عامة، قال: فما حملك على أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين قال: استشرت الذين حولي، فأشاروا بذلك، فقال: أفكل المسلمين أوسعتهم مشورة ورضاً! فقال أبو بكر: فلقد كنت قلت لك: إنك أقوى على هذا الأمر مني، لكنك غلبتني! لما كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الصلح في الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو، كان في الكتاب أن من خرج من المسلمين إلى قريش لا يرد، ومن خرج من المشركين إلى النبي صلى الله عليه وسلم يرد عليهم، فغضب عمر وقال لأبي بكر: ما هذا يا أبا بكر! أيرد المسلمون إلى المشركين! ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس بين يديه، وقال يا رسول الله، أأست رسول الله حقاً! قال: بلى، قال: ونحن المسلمون حقاً! قال: نعم، قال: وهم الكافرون حقاً! قال: نعم، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا! فقال رسول الله: أنا رسول الله، أفعل ما يأمرني به، ولن يضيعني.

فقام عمر مغضباً، وقال: لو أجد أعواناً ما أعطيت الدنية أبداً. وجاء إلى أبي بكر فقال له: يا أبا بكر، ألم يكن وعدنا أننا سندخل مكة، فأين ما وعدنا به؟ فقال أبو بكر: أقال لك: إنه العام يدخلها؟ قال: لا، قال: فسيدخلها، فقال: فما هذه الصحيفة التي كتبت؟ وكيف نعطي الدنية من أنفسنا! فقال أبو بكر: يا هذا، الزم غرزه، فوالله إنه لرسول الله، وإن الله لا يضيعه.

فلما كان يوم الفتح وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة، قال: ادعوا لي عمر، فجاء فقال: هذا الذي كنت وعدتكم به!

لما قتل المشركون يوم بدر أسر منهم سبعون أسيراً، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبا بكر وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وأرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على المشركين، وعسى أن يهديهم الله بعد اليوم، فيكونوا لنا عذراً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقول أنت يا عمر؟ قال: أرى أن تمكيني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبهم هودة للمشركين. اقتلهم يا رسول الله، فإنهم صنديدتهم وقادتهم. فلم يهو رسول الله ما قاله عمر.

قال عمر: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدته قاعداً وأبو بكر، وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيكما؟ حدثاني، فإن وجدت بكاء بكيته وإلا تباكيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكي لأخذ الفداء، لقد عرض علي عذابكم أدق من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه.

قال عبد الله بن عمر: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كدنا أن يصيبنا شر في مخالفة عمر.

وقال عمر في خلافته: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقتطع دوني، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي. أسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا! وقال أسلم: بعثني عمر بإبل الصدقة إلى الحمى، فوضعت جهازي على ناقة منها كريمة، فلما أردت أن أصدرها قال: اعرضها علي، فعرضتها عليه، فرأى متاعي على ناقة حسناء، فقال: لا أم لك! عمدت إلى ناقة تغني أهل بيت من المسلمين! فهلا ابن لبون بوال، أو ناقة شصوص! وقيل لعمر: إن هاهنا رجلاً من الأحرار نصرانياً، له بصر بالديوان، لو اتخذته كاتباً! فقال: لقد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين! قال، وقد خطب الناس: والذي بعث محمداً بالحق لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني بآل الخطاب نفسه، ما يعني غيرها.

وكتب إلى أبي موسى: إنه لم يزل للناس وجوه من الأمر، فأكرم من قبلك من وجوه الناس، وبحسب المسلم الضعيف من بين القوم أن ينصف في الحكم وفي القسم.

أتى أعرابي عمر، فقال: إن ناقتي بها نقباً ودبراً، فاحملني، فقال له: والله ما بيعيرك من نقب ولا دبر، فقال:

ما مسها من نقب ولا دبر

أقسم بالله أبو حفص عمر

فاغفر له اللهم إن كان فجر

فقال عمر: اللهم اغفر لي، ثم دعاه فحمله.

جاء رجل إلى عمر وكانت بينهما قرابة يسأله، فزبره وأخرجه، فكلّم فيه، وقيل: يا أمير المؤمنين زبرته وأخرجته. قال:

إنه سألني من مال الله، فما معذرتي إذا لقينته ملكاً خائناً؟ فلو سألني من مالي! ثم بعث إليه بألف درهم من ماله.

وكان يقول في عماله: اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموال المسلمين، ولا ليضربوا أبشارهم، من ظلمه أمير فلا إمرة عليه دوني! بينا عمر ذات ليلة يعس، سمع صوت امرأة من سطح وهي تنشد:

وليس إلى جنبي خليل ألاعبه

تطاول هذا الليل وازور جانبه

لزعزع من هذا السرير جوانبه

فوالله لو لا الله تخشى عواقبه

وأكرم بعلي أن تتال مراكبه

مخافة ربي والحياء يصدني

بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

ولكنني أخشى رقيباً موكلاً

فقال عمر: لا حول ولا قوة إلا بالله! ماذا صنعت يا عمر بنساء المدينة! ثم جاء فقرب على حفصة ابنته، فقالت: ما جاء بك في هذه الساعة؟ قال: أخبريني كم تصبر المرأة المغيبة عن بعلها؟ قالت: أقصاه أربعة أشهر.

فلما أصبح كتب إلى امرأته في جميع النواحي ألا تحمر البعوث، وألا يغيب رجل عن أهله أكثر من أربعة أشهر.

وروى أسلم، قال: كنت مع عمر، وهو يعس بالمدينة، إذ سمع امرأة تقول لبنتها: قومي يا بنية إلى ذلك اللبن بعد المشرقين فامدقيه، قالت: أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين بالأمس؟ قالت: وما هو؟ قالت: إنه أمر منادياً ينادي ألا يشاب اللبن بالماء، قالت: فإنك بموضع لا يراك أمير المؤمنين ولا منادي أمير المؤمنين! قالت: والله ما كنت لأطيعه في الملاء، وأعصيه في الخلاء- وعمر يسمع ذلك- فقال: يا أسلم، اعرف الباب، ثم مضى في عسه، فلما أصبح، قال: يا أسلم، امض إلى الموضع، فانظر من القائلة ومن المقول لها؟ وهل لهما من بعل؟ قال أسلم: فأتيت الموضع، فنظرت فإذا الجارية أيم، وإذا المتكلمة بنت لها، ليس لهما رجل.

فجئت فأخبرته، فجمع عمر ولده، وقال: هل يريد أحد أن يتزوج فأزوجه امرأة صالحة فتاة، ولو كان في أبيكم حركة إلى النساء لم يسبقه أحد إليها؟ فقال عاصم ابنه: أنا، فبعث إلى الجارية فزوجها ابنه عاصماً، فولدت له بنتا هي المكناة أم عاصم، وهي أم عمر بن عبد العزيز بن مروان.

حج عمر فلما كان بضجنان قال: لا إله إلا الله العلي المعطي ما يشاء لمن يشاء، أذكر وأنا أرى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف - وكان فظاً يتعني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت - وقد أمسيت اليوم وليس بيني وبين الله أحد ثم تمثل:

لا شيء مما يرى تبقى بشاشته
لم تغن عن هرمر يوماً خزائنه
ولا سليمان إذ تجري الرياح له
أين الملوك التي كانت منازلها
حوض هنالك مورود بلا كذب
يبقى الإله، ويودي المال والولد
والخلد قد حاولت عاد فما خفدوا
والإنس والجن فيما بينهما يرد
من كل أوب إليها راكب يفد
لا بد من ورده يوماً كما وردوا

وروى محمد بن سيرين أن عمر في آخر أيامه اعتراه نسيان حتى كان ينسى عدد ركعات الصلاة، فجعل أمامه رجلاً يلقيه، فإذا أومى إليه أن يقوم أو يركع، فعل. وسمع عمر منشداً ينشد قول طرفة:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
فمنهن سبقي العاذلات بشربة
وكري إذا نادى المضاف محنباً
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
وجدك لم أحفل متى قام عودي
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
كسيد الغضا نبهته المتوسد
ببهكنة تحت الطراف الممدد

فقال: وأنا لولا ثلاث هن من عيشة الفتى، لم أحفل متى قام عودي؟ أن أجاهد في سبيل الله، وأن أضع وجهي في التراب لله، وأن أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر.

وروى عبد الله بن بريدة، قال: كان عمر ربما يأخذ بيد الصبي، فيقول: ادع لي، فإنك لم تذنّب بعد! وكان عمر كثير المشاورة، كان يشاور في أمور المسلمين حتى المرأة.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وروى يحيى بن سعيد، قال: أمر عمر الحسين بن علي رضي الله عنهما أن يأتيه في بعض الحاجة، فلقي الحسين رضي الله عنه عبد الله بن عمر، فسأله من أين جاء؟ قال: استأذنت على أبي فلم يأذن لي، فرجع الحسين ولقيه عمر من الغد، فقال: ما منعك يا حسين أن تأتيني؟ قال: قد أتيتك، ولكن أخبرني ابنك عبد الله أنه لم يؤذن له عليك، فرجعت، فقال عمر: وأنت عندي مثله! وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم! قال عمر يوماً، والناس حوله: والله ما أدري أ خليفة أنا أم ملك! فإن كنت ملكاً، فقد ورطت في أمر عظيم، فقال له قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً، وإنك إن شاء الله لعلي خير، قال: كيف؟ قال: إن الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق، وأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس ويأخذ مال هذا فيعطيه هذا. فسكت عمر وقال: أرجو أن أكونه.

وروى مالك عن نافع، عن ابن عمر، أن عمر تعلم سورة البقرة في اثني عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً .
وروى أنس، قال: كان يطرح لعمر كل يوم صاغ من تمر، فيأكله حتى حشفه.

وروى يوسف بن يعقوب الماحشون، قال: قال لي وابن شهاب ولأخ لي ابن عم لنا، ونحن صبيان أحداث: لا تحتقروا أنفسكم لحادثة أسنانكم، فإن عمر كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الصبيان فاستشارهم، يبتغي حدة عقولهم. وروى الحسن، قال: كان رجل لا يزال يؤخذ من لحية عمر شيئاً فأخذ يوماً من لحيته؟ فقبض على يده فإذا هو ليس فيها شيء، فقال: إن الملق من الكذب ثم علاه بالدرة .

انقطع شسع نعل عمر، فاسترجع وقال: كل ما ساءك فهو مصيبة.
وقف أعرابي على عمر، فقال له:

اكس بنياتي وأمهنة

يابن خطاب جزيت الجنة

أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر: إن لم أفعل، يكون ماذا؟ قال: إذا أبا حفص لأمضيه فقال: إذا مضيت يكون ماذا؟ قال:

يوم تكون الأعطيات جنة .

تكون عن حالي لتسألنه

إما إلى نار وإما جنة

والواقف المسؤول يبهتته

فبكى عمر، ثم قال لغلامه: أعطه قميصي هذا لذلك اليوم، لا لشعره، والله ما أملك ثوباً غيره.

وروى ابن عباس قال: قال لي عمر ليلة: أنشدني لشاعر الشعراء، قلت: ومن هو؟ قال: زهير الذي يقول:

من المجد من يسبى إليها يسود

إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية

فأنشدته حتى برق الفجر، فقال: إيهال الآن اقرأ يا عبد الله، قلت: ما أقرأ؟ قال: سورة الواقعة.

سمع عمر صوت بكاء في بيت، فدخل ويده الدرة، فمال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة، فضر بها حتى سقط خمارها، ثم قال لغلامه، اضرب النائحة، ويلك! اضربها فإنها نائحة لا حرمة لها، لأنها لا تبكي بشجوكم، إنها تهريق دموعها على أخذ دراهمكم، إنها تؤذي أمواتكم في قبورهم، وأحياءكم في دورهم، إنها تنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتأمر بالجزع وقد

نهي الله عنه.

ومن كلامه: من اتجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه؟ فليتحول عنه إلى غيره.

ومن كلامه: لو كنت تاجراً لما اخترت على العطر شيئاً، إن فاتي ربحه لم يفتني ربحه.

ومن كلامه: تفقهوا قبل أن تسودوا.

ومن كلامه: تعلموا المهنة، فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلى مهنته.

ومن كلامه: مكسبة فيها بعض الدناءة، خير من مسألة الناس.

ومن كلامه: أعقل الناس أعذرهم لهم.

رأى عمر ناساً يتبعون أبي بن كعب، فرفع عليه الدرة، فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله، قال: ما هذه الجموع خلفك يا بن كعب! أما علمت أنها فتنة للمتبوع، مذلة للتابع.

جاء رجل إلى عمر، فقال: إن بنتاً لي واريثها في الجاهلية، فاستخرجناها قبل أن تموت، فأدركت معنا الإسلام، فأسلمت، ثم قارفت حداً من حدود الله، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها، فداويناها حتى برئت وتابت توبة حسنة، وقد خطبها قوم، أفأخبرهم بالذي كان من شأنها؟ فقال عمر: أتعتمد إلى ما ستره الله فتبديه، والله لئن أخبرت بشأنها أحداً لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار! أنكحها نكاح العفيفة السليمة.

أسلم غيلان بن سلمة الثقفي عن عشر نسوة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: اختر منهن أربعاً، وطلق ستاً، فلما كان على عهد عمر طلق نساءه الأربع، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر، فأحضره فقال له: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع، سمع بموتك فقذفه في نفسك، ولعلك لا تمكث إلا قليلاً! وإيم الله لتراجعن نساءك، ولترجعن في مالك، أو لأورثهن منك، ولأمرن بقبرك فيرحم، كما رجم قبر أبي رغال .

وقال عمر: إن الحزف في المعيشة أخوف عندي عليكم من العيال، إنه لا يبقى مع الفساد شيء، ولا يقل مع الإصلاح شيء.

وكان عمر يقول: أدبوا الخيل، وانتضلوا، واقعدوا في الشمس، ولا يجاورنكم الخنازير، ولا تقعدوا على مائدة يشرب عليها الخمر، أو يرفع عليها الصليب، وإياكم وأخلاق العجم، ولا يحل لمؤمن أن يدخل الحمام إلا مؤتزرًا، ولا لامرأة أن تدخل الحمام إلا من سقم، فإذا وضعت المرأة خمارها في غير بيت زوجها، فقد هتكت الستر بينها وبين الله تعالى. وكان يكره أن يتزيا الرجال بزي النساء، وألا يزال الرجل يرى مكتحلاً مدهناً، وأن يحف لحيته وشاربه كما تحف المرأة.

سمع عمر سائلاً يقول: من يعشي السائل؟ فقال: عشوا سائلكم، ثم جاء إلى دار إبل الصدقة يعشيها، فسمع صوته مرة أخرى: من يعشي السائل؟ فقال: ألم آمركم أن تعشوه! فقالوا: قد عشناه، فأرسل إليه عمر، وإذا معه جراب مملوء خبزاً، فقال: إنك لست سائلاً، إنما أنت تاجر تجمع لأهلك، فأخذ بطرف الجراب فنبذه بين يدي الإبل.

وقال عمر: من مزح استخف به، وقال: أتدرون لم سمي المزاح مزاحاً؟ لأنه أزاح الناس عن الحق.

ومن كلامه: لن يعطى أحد بعد الكفر بالله شراً من زوجة حديدة اللسان، سيئة الخلق، عقيم. ولن يعطى أحد بعد الإيمان

بالله خيراً من زوجة كريمة ودود ولود، حسنة الخلق.

وكان يقول: إن شقاشق الكلام من شقاشق اللسان، فأقلوا ما استطعتم.

ونظر إلى شاب قد نكس رأسه خشوعاً، فقال: يا هذا، ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للخلق خشوعاً فوق ما في قلبه، فإنما أظهر نفاقاً.

ومن كلامه: إن أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم أسماء، فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم أخلاقاً، فإذا بلوناكم فأحبكم إلينا أعظمكم أمانة، وأصدقكم حديثاً.

وكان يقول: لا تنظروا إلى صلاة امرئ ولا صيامه، ولكن انظروا إلى عقله وصدقه.

ومن كلامه: إن العبد إذا تواضع لله رفع حكمته، وقال له: انتعش نعشك الله! فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس عظيم. وإذا تكبر وعتا وهضه الله إلى الأرض، وقال: احسأ، حسأك الله! فهو في نفسه عظيم، وفي أعين الناس حقير، حتى يكون عندهم أحقر من الخنزير.

وقال: الإنسان لا يتعلم العلم ثلاث، ولا يتركه ثلاث: لا يتعلمه ليماري به، ولا ليباهي به، ولا ليرائي به. ولا يتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل بدلاً منه. وقال: تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم. وقال: إني لا أخاف عليكم أحد الرجلين، مؤمناً قد تبين إيمانه، وكافراً قد تبين كفره، ولكن أخاف عليكم منافقاً يتعود بالإيمان ويعمل بغيره.

ومن كلامه: إن الرجف من كثرة الزنا، وإن قحوط المطر من قضاة السوء وأئمة الجور.

وقال في النساء: استعينوا عليهن بالعري، فإن إحداهن إذا كثرت ثيابها، وحسنت زينتها، أعجبها الخروج.

ومن كلامه: إن الجبت السحر، وإن الطاغوت الشيطان، وإن الجبن والشجاعة غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان عن أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسب الرجل خفقه، وإن كان فارسياً أو نبطياً.

وقال: تفهموا العربية، فإنها تشحذ العقل، وتزيد في المروءة.

وقال: النساء ثلاث: امرأة هينة لينة عفيفة، ودود ولود، تعين بعلها على الدهر، ولا تعين الدهر على بعلها، وقلما تجدها.

وأخرى وعاء للولد لا تريد على ذلك شيئاً، والثالثة غل قمل، يجعله الله في عنق من يشاء، ويترعه إذا شاء.

والرجال ثلاثة: رجل عاقل يورد الأمور ويصدرها، فيحسن إيراداً وإصداراً، وآخر يشاور الرجال، ويقف عند آرائهم، والثالث حائر بائر، لا يأتمر رشداً، ولا يطيع مرشداً.

وقال: ما يمنعكم إذا رأيتم السفهية يخرق أعراض النساء أن تعربوا عليه، قالوا: نخاف لسانه، قال!: ذاك أدق ألا تكونوا شهداء.

ورأى رجلاً عظيم البطن، فقال: ما هذا؟ قال: بركة من الله.

وقال: إذا رزقت مودة من أخيك فتشبث بها ما استطعت.

وقال لقوم يحصدون الزرع: إن الله جعل ما أخطأت أيديكم رحمة لفقرائكم، فلا تعودوا فيه.

وقال: ما ظهرت قط نعمة على أحد إلا وجدت له حاسداً، ولو أن امرأ كان أقوم من قدح، لوجدت له غامزاً، وقال:

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

إياكم والمدح، فإنه الذبح.

وقال لقبيصة بن ذؤيب: أنت رجل حديث السن، فصيح اللسان. وإنه يكون في الرجل تسعة أخلاق حسنة، وخلق واحد سعى، فيغلب الواحد التسعة، فتوق عزات السيئات.

وقال: بحسب امرئ من الغي أن يؤذي جليسه، أو يتكلف ما لا يعنيه، أو يعيب الناس بما يأتي مثله، ويظهر له منهم ما يخفى عليهم من نفسه، وقال: احترسوا من الناس بسوء الظن.

وقال في خطبة له: لا يعجبكم من الرجل طنطنته ولكن من أدى الأمانة، وكف عن أعراض الناس فهو الرجل. وقال: الراحة في مهاجرة خلطاء السوء.

وقال: إن لؤما بالرجل أن يرفع يديه من الطعام قبل أصحابه.

وأثنى رجل على رجل عند عمر، فقال له: أعاملته؟ قال: لا، قال: أصحبته في السفر؟ قال: لا، قال: فأنت إذاً القائل ما لا يعلم.

وقال: لأن أموت بين شعبي رحلي، أسعى في الأرض، أبتغي من فضل الله كفاف وجهي، أحب إلي من أن أموت غازياً. وكان عمر قاعداً والدرة معه، والناس حوله، إذ أقبل الجارود العامري، فقال رجل هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه، خفقه بالدرة! فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين! قال: ويلك! سمعتها، قال: وسمعتها فمه! قال: خشيت أن تخالط القوم ويقال: هذا أمير، فأحببت أن اطأطأ منك.

وقال: من أحب أن يصل أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه من بعده.

وقال: إن أخوف ما أخاف أن يكون، إعجاب المرء برأيه، فمن قال: إني عالم فهو جاهل، ومن قال: إني في الجنة فهو في النار.

وخرج للحج فسمع غناء راكب يغني وهو محرم، فقليل: يا أمير المؤمنين، ألا تنهاه عن الغناء وهو محرم؟ فقال: دعوه، فإن الغناء زاد الراكب.

وقال: يثغر الغلام لسبع، ويحتلم لأربع عشرة، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، ويكمل عمله لثمان وعشرين، ويصير رجلاً كاملاً لأربعين.

وروى سعيد بن المسيب، أن عمر لما صدر من الحج في الشهر الذي قتل فيه، كوم كومة من بطحاء، وألقى عليها طرف ثوبه، ثم استلقى عليها؟ ورفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط.

ثم قدم المدينة فخطب الناس، فقال: أيها الناس قد فرضت لكم الفرائض، وسنت لكم السنن، وتركتكم على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يميناً وشمالاً. إياكم أن تنتهوا عن آية الرجم، وأن يقول قائل: لا نجد ذلك حداً في كتاب الله، فقد رأيت رسول الله رجم ورجمنا بعده، ولولا أن يقول الناس: إن ابن الخطاب أحدث آية في كتاب الله لكتبته، ولقد كنا نقرؤها: "والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة"؟ فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن.

دفع إلى عمر صك محله في شعبان، فقال: أي شعبان؟ الذي مضى أم الذي نحن فيه؟ ثم جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: ضعوا للناس تاريخاً يرجعون إليه، فقال قائل منهم: اكتبوا على تاريخ الروم، ف قيل: إنه يطول، وإنه مكتوب من عهد ذي القرنين. وقال قائل: بل اكتبوا على تاريخ الفرس، ف قيل: إن الفرس كلما قام ملك طرحوا ما كان قبله، فقال علي رضي الله عنه: اكتبوا تاريخكم منذ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من دار الشرك إلى دار النصر، وهي دار الهجرة، فقال عمر: نعم ما أشرت به، فكتب للهجرة، بعد مضي سنتين ونصف من خلافة عمر. قال المؤرخون: إن عمر أول من سن قيام رمضان في جماعة، وكتب به إلى البلدان، وأقام الحد في الخمر ثمانين، وأحرق بيت رويشد الثقفي، وكان نباداً، وأقام في عمله بنفسه. وأول من حمل الدرة وأدب بها. وقيل بعده: كانت درة عمر أهيب من سيف الحجاج.

وهو أول من فتح الفتوح، فتح العراق كله: السواد والجلال وأذربيجان، وكور البصرة، وكور الكوفة والأهواز، وفارس، وفتح الشام كلها ما خلا أجنادين، فإنها فتحت في خلافة أبي بكر. وفتح كور الجزيرة والموصل ومصر والإسكندرية، وقتله أبو لؤلؤة وخيله على الري.

وهو أول من مسح السواد ووضع الخراج على الأرض، والجزية على جماجم أهل الذمة فيما فتحه من البلدان، وبلغ خراج السواد في أيامه مائة ألف ألف درهم وعشرين ألف ألف درهم بالوافية، وهي وزن الدينار من الذهب. وهو أول من مصر الأمصار، وكوف الكوفة، وبصر البصرة، وأنزلها العرب، أول من استقفى القضاة في الأمصار، وأول من دون الدواوين، وكتب الناس على قبائلهم، وفرض لهم الأعطية، وهو وأول من قاسم العمال وشاطرهم أموالهم، وكان يستعمل قوماً ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل، وقال: أكره أن أدنس هؤلاء بالعمل. وهو الذي هدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزاد فيه، وأدخل دار العباس فيما زاد. وهو الذي أخرج اليهود من الحجاز، وأجلاهم عن جزيرة العرب إلى الشام. وهو الذي فتح البيت المقدس، وحضر الفتح بنفسه. وهو الذي أخر المقام إلى موضعه اليوم، وكان ملصقاً بالبيت. وحج بنفسه خلافته كلها إلا السنة الأولى، فإنه استخلف على الحج عبد الرحمن ابن عوف. وهو الذي جاء بالحمى من العقيق فبسطه في مسجد المدينة، وكان الناس إذا رفعوا رؤوسهم من السجود نفضوا أيديهم.

وروى أبو هريرة، قال: قدمت على عمر من عند أبي موسى بثمانمائة ألف درهم؟ فقال لي: بماذا قدمت؟ قلت: بثمانمائة ألف درهم، فقال: ألم أقل لك إنك يمانٍ أحق، ويحك! إنما قدمت بثمانين ألف درهم، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما قدمت بثمانمائة ألف درهم، فجعل يعجب ويكررها، فقال: ويحك! وكم ثمانمائة ألف درهم؟ فعددت مائة ألف، ومائة ألف حتى بلغت ثمانية، فاستعظم ذلك، وقال: أطيب هو ويحك! قلت: نعم، فبات عمر ليلته تلك أرقاً حتى إذا نودي لصلاة الصبح، قالت له امرأته: ما نمت هذه الليلة، قال: وكيف أنام وقد جاء الناس ما لم يأتم مثله منذ قام الإسلام، فظنت المرأة أنها داهية، فسألته، فقال: مال جم، حمله أبو موسى، قالت: فما بالك؟ قال: ما يؤمني لو مت وهذا المال عندي لم أضعه في حقه! فخرج يصلي الصبح، واجتمع الناس إليه، فقال لهم: قد رأيت في هذا المال رأياً فأشيروا علي، رأيت أن أكيه للناس بالمكيال، قالوا: لا يا أمير المؤمنين، قال: لا بل أبدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأهله، ثم الأقرب فالأقرب، فبدأ ببني

هاشم، ثم بيني المطلب، ثم بعد شمس ونوفل، ثم بسائر بطون قريش.

قسم عمر مروطاً بين نساء المدينة فبقي مرط جيد له فقال بعض من عنده: أعط هذا يا أمير المؤمنين ابنة رسول الله التي عندك - يعنون أم كلثوم ابنة علي رضي الله عنه - فقال: أم سليط أحق به، فإنها ممن بايع رسول صلى الله عليه وسلم، وكانت تزفر لنا القرب يوم أحد. وروى زيد بن أسلم عن أبيه، قال: خرجت مع عمر إلى السوق، فلحقته امرأة شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي، وترك صبية صغاراً لا ينضحون كراعاً، لا زرع لهم ولا ضرع، وقد خشيت عليهم الضيعة، وأنا ابنة خفاف بن أسماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية. فوقف عمر معها ولم يمض، وقال: مرحباً بنسيب قريب! ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً، وجعل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها خطامه وقال: اقتاديه فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الله بخير. فقال له رجل: لقد أكثرت لها يا أمير المؤمنين! فقال: ثكلتك أمك! والله لكأني أرى أبا هذه وأخاها، وقد حاصراً حصناً فافتتحاه. فافترقنا، ثم أصبحنا نستقري سهراننا فيه.

وروى الأوزاعي أن طلحة تبع عمر ليلة، فرآه دخل بيتاً ثم خرج، فلما أصبح ذهب طلحة إلى ذلك البيت، فرأى امرأة عمياء مقعدة، فقال: لها: ما بال رجل أذاك الليلة؟ قالت: إنه رجل يتعاهدي منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! تريد تتبع عمر! خرج عمر إلى الشام، حتى إذا كان ببعض الطريق، لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فقال لابن عباس: ادع لي المهاجرين، فدعاهم فسألهم، فاختلفوا عليه، فقال بعضهم: خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال لابن عباس: ادع لي الأنصار، فدعاهم فاستشارهم، فاختلفوا عليه اختلاف المهاجرين، فقال لابن عباس: ادع لي من كان من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعاهم فقالوا بأجمعهم: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله تعالى! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان، إحداها خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله! فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متغيماً في بعض حاجته - فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه". فحمد عمر الله عز وجل وانصرف إلى المدينة.

وروى ابن عباس، قال: خرجت مع عمر إلى الشام في إحدى خرجاته، فانفرد يوماً يسير على بعيره فاتبعته، فقال لي: يا بن عباس، أشكو إليك ابن عمك، سألتني أن يخرج معي فلم يفعل، ولم أزل أراه واحداً، فيم تظن موجدته؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إنك لتعلم، قال: أظنه لا يزال كثيباً لفوت الخلافة، قلت: هو ذاك، إنه يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الأمر له، فقال: يا بن عباس، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر له فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أمراً، وأراد الله غيره، فنفذ مراد الله تعالى ولم ينفذ مراد رسوله، أو كلما أراد رسول

الله صلى الله عليه وسلم كان! إنه أراد إسلام عمه ولم يردده الله فلم يسلم! وقد روي معنى هذا الخبر بغير هذا اللفظ، وهو قوله: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يذكره للأمر في مرضه، فصددته عنه خوفاً من الفتنة، وانتشار أمر الإسلام، فعلم رسول الله ما في نفسي وأمسك، وأبى الله إلا إمضاء ما حتم.

وحدثني الحسين بن محمد السبيعي قال: قرأت على ظهر كتاب، أن عمر نزلت به نازلة، فقام لها وقعد، وترنح لها وتقطر، وقال لمن عنده: معشر الحاضرين، ما تقولون في هذا الأمر! فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت المفزع والمترع، فغضب وقال: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قولاً سديداً"، ثم قال: أما والله إني وإياكم لنعلم ابن بجدة والخبير بها، قالوا: كأنك أردت ابن أبي طالب! قال: وأني يعدل بي عنه، وهل طفحت حرة مثله! قالوا: فلو دعوت به يا أمير المؤمنين! قال: هيهات! إن هناك شمخاً من هاشم، وأثرة من علم، ولحمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يؤتى ولا يأتي، فامضوا بنا إليه، فانقصفوا نحوه وأفضوا إليه، فألفوه في حائط له، عليه تبان، وهو يترك على مسحاته، ويقراً: "أيحسب الإنسان أن يترك سدى" إلى آخر السورة، ودموعه تهمي على خديه، فأجهش الناس لبكائه فبكوا، ثم سكت وسكتوا، فسأله عمر عن تلك الواقعة فأصدر جوابها، فقال عمر: أما والله لقد أراذك الحق، ولكن أبي قومك، فقال: يا أبا حفص، خفض عليك من هنا ومن هنا "إن يوم الفصل كان ميقاتاً"، فوضع عمر إحدى يديه على الأخرى، وأطرق إلى الأرض، وخرج كأنما ينظر في رماد.

قلت: أحذر بهذا الخبر أن يكون موضوعاً، وفيه ما يدل على ذلك، من كون عمر أتى علياً يستفتيه في المسألة، والأخبار كثيرة بأنه ما زال يدعو به إلى منزله وإلى المسجد، وأيضاً فإن علياً لم يخاطب عمر منذ ولي الخلافة بالكنية، وإنما كان يخاطبه بأميرة المؤمنين، هكذا تنطق كتب الحديث وكتب السير والتواريخ كلها. وأيضاً فإن هذا الخبر لم يسند إلى كتاب معين، ولا إلى راوٍ معين، بل ذكر ذلك أنه قرأه على ظهر كتاب، فيكون مجهولاً، والحديث المجهول غير الصحيح.

فأما ثناء عمر على أمير المؤمنين فصحيح غير منكر، وفي الروايات منه الكثير الواسع، ولكننا أنكرنا هذا الخبر بعينه خاصة، وقد روي عن ابن عباس أيضاً، قال: دخلت على عمر يوماً فقال: يا ابن عباس، لقد أجهد هذا الرجل نفسه في العبادة حتى نخلته، رياء. قلت: من هو؟ فقال: هذا ابن عمك - يعني علياً - قلت: وما يقصد بالرياء يا أمير المؤمنين؟ قال: يرشح نفسه بين الناس للخلافة، قلت: وما يصنع بالترشيح! قد رشحه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرفت عنه. قال: إنه كان شاباً حذقاً، فاستصغرت العرب سنه، وقد كمل الآن، ألم تعلم أن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا بعد الأربعين! قلت: يا أمير المؤمنين، أما أهل الحجى والنهى فإنهم ما زالوا يعدونه كاملاً منذ رفع الله منار الإسلام، ولكنهم يعدونه محروماً مجدوداً، فقال: أما إنه سيليها بعد هياط ومياط، ثم تزل فيها قدمه، ولا يقضي منها أربه، ولتكونن شاهداً ذلك يا عبد الله، ثم يتبين الصبح لذي عينين، وتعلم العرب صحة رأي المهاجرين الأولين الذين صرفوها عنه بادئ بدء، فليتي أراكم بعدي يا عبد الله! إن الحرص محرمة، وإن دنياك كظلك، كلما هممت به ازداد عنك بعداً. نقلت هذا الخبر من أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب، رحمه الله.

ونقلت منه أيضاً ما رواه عن ابن عباس، قال: تبرم عمر بالخلافة في آخر أيامه، وخاف العجز، وضجر من سياسة الرعية، فكان لا يزال يدعو الله بأن يتوفاه. فقال لكعب الأحبار يوماً وأنا عنده: إني قد أحببت أن أعهد إلى من يقوم بهذا الأمر؟ وأظن وفاتي قد دنت، فما تقول في علي؟ أشر علي في رأيك وأذكرني ما تجدونه عندكم، فإنكم تزعمون أن أمرنا هذا مسطور في كتبكم، فقال: أما من طريق الرأي فإنه لا يصلح؟ إنه رجل متين الدين، لا يغضي على عورة، ولا يحلم عن زلة، ولا يعمل باجتهاد رأيه، وليس هذا من سياسة الرعية في شيء، وأما ما نجده في كتبنا فنجده لا يلي الأمر ولا ولده، وإن وليه كان هرج شديد، قال: كيف ذاك؟ قال: لأنه أراق الدماء، فحرمه الله الملك، إن داود لما أراد أن يبيي حيطان بيت المقدس أوحى الله إليه: إنك لا تبنيه، لأنك أرتقت الدماء، وإنما يبنيه سليمان. فقال عمر: أليس بحق أراقها؟ قال كعب: وداود بحق أراقها يا أمير المؤمنين. قال: فإلى من يفضي الأمر تجدونه عندكم؟ قال: نجده ينتقل بعد صاحب الشريعة والاثني من أصحابه، إلى أعدائه الذين حاربهم وحاربوه، وحاربهم على الدين. فاسترجع عمر مراراً، وقال: أتستمع يابن عباس! أما والله لقد سمعت من رسول الله ما يشابه هذا، سمعته يقول: "ليصعدن بنو أمية على منبري، ولقد أريتهم في منامي يتزرون عليه نزو القردة" وفيهم أنزل: "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملفونة في القرآن". وقد روى الزبير بن بكار في الموفقيات ما يناسب هذا عن المغيرة بن شعبة، قال: قال لي عمر يوماً: يا مغيرة، هل أبصرت بهذه عينك العوراء منذ أصيبت؟ قلت: لا، قال: أما والله ليعورن بنو أمية الإسلام كما أعورت عينك هذه، ثم ليعمينه حتى لا يدري أين يذهب ولا أين يجيء. قلت: ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم يبعث الله تعالى بعد مائة وأربعين أو بعد مائة وثلاثين وفداً كوفد الملوك، طيبة ریحهم، يعيدون إلى الإسلام بصره وشتاته. قلت: من هم يا أمير المؤمنين؟ قال: حجازي وعراقي، وقليلاً ما كان، وقليلاً ما دام.

وروى أبو بكر الأنباري في أماليه أن علياً رضي الله عنه جلس إلى عمر في المسجد، وعنده ناس، فلما قام عرض واحد بذكره، ونسبه إلى التيه والعجب، فقال عمر: حق لئله أن يتيه! والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد أقضى الأمة وذو سابقتها وذو شرفها؟ فقال له ذلك القائل: فما منعكم يا أمير المؤمنين عنه؟ قال: كرهناه على حداثة السن وحبه بني عبد المطلب.

قلت: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد - وقد قرأت عليه هذه الأخبار - فقلت له: ما أراها إلا تكاد تكون دالة على النص، ولكني أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على شخص بعينه، كما استبعدنا من الصحابة على رد نصه على الكعبة وشهر رمضان وغيرهما من معالم الدين، فقال لي رحمه الله: أبيت إلا ميلاً إلى المعتزلة! ثم قال: إن القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة إلى أنها من معالم الدين، وأنها جارية مجرى العبادات الشرعية، كالصلاة والصوم، ولكنهم كانوا يجرونها مجرى الأمور الدنيوية، ويذهبون لهذا، مثل تأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرعية، وما كانوا يبالون في أمثال هذا من مخالفة نصوصه إذا رأوا المصلحة في غيرها؟ ألا تراه كيف نص على إخراج أبي بكر وعمر في جيش أسامة، ولم يخرجهما لما رأيا أن في مقامهما مصلحة للدولة وللملة، وحفظاً للبيعة، ودفعاً للفتنة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف وهو حي في أمثال ذلك فلا ينكره، ولا يرى به

بأساً. أُلست تعلم أنه نزل في غزاة بدر متزلاً على أن يحارب قريشاً فيه، فخالفته الأنصار وقالت له: ليس الرأي في نزولك هذا المتزل فاتركه، وانزل في منزل كذا، فرجع إلى آرائهم وهو الذي قال للأنصار عام قدم إلى المدينة: "لا تؤبروا النخل"، فعملوا على قوله فحالت نخلهم في تلك السنة ولم تثمر حتى قال لهم: "أنتم أعرف بأمر دنياكم وأنا أعرف بأمر دينكم"، وهو الذي أخذ الفداء من أسارى بدر، فخالفه عمر، فرجع إلى تصويب رأيه بعد أن فات الأمر وخلص الأسرى ورجعوا إلى مكة، وهو الذي أراد أن يصالح الأحزاب على ثلث تمر المدينة ليرجعوا عنه، فأق سعد بن معاذ وسعد بن عباد فخالفاه، فرجع إلى قولهما، وقد كان قال لأبي هريرة: اخرج فناد في الناس: "من قال لا إله إلا الله مخلصاً بما قلبه دخل الجنة"، فخرج أبو هريرة فأخبر عمر بذلك فدفعه في صدره، حتى وقع على الأرض، فقال: لا تقلها، فإنك إن تقلها يتكلوا عليها، ويدعوا العمل، فأخبر أبو هريرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: "لا تقلها واخلهم يعملون". فرجع إلى قول عمر! وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك، كإسقاطهم سهم ذوي القربى وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم، وهذان الأمران أدخل في باب الدين منهما في باب الدنيا، وقد عملوا بآرائهم أموراً لم يكن لها ذكر في الكتاب والسنة، كحد الخمر فإنهم عملوه اجتهاداً، ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شارب الخمر، وقد شربها الجم الغفير في زمانه بعد نزول آية التحريم، ولقد كان أوصاهم في مرضه أن أخرجوا نصارى نجران من جزيرة العرب فلم يخرجوهم، حتى مضى صدر من خلافة عمر، وعملوا في أيام أبي بكر برأيهم في ذلك باستصلاحهم، وهم الذين هدموا المسجد بالمدينة، وحولوا المقام بمكة، وعملوا بمقتضى ما يغلب في ظنونهم من المصلحة، ولم يقفوا مع موارد النصوص، حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد، فرجح كثير منهم القياس على النص، حتى استحالت الشريعة، وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة.

قال النقيب: وأكثر ما يعملون بآرائهم، فيما يجري مجرى الولايات والتأشير والتدبير وتقرير قواعد الدولة، وما كانوا يقفون مع نصوص الرسول صلى الله عليه وسلم وتدابيره إذا رأوا المصلحة في خلافها، كأنهم كانوا يقيدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظاً، وكأنهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله، وتقدير ذلك القيد: "افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة".

قال: وأما مخالفتهم له فيما هو محض الشرع والدين، وليس بمتعلق بأمور الدنيا وتدابيرها، فإنه يقل جداً، نحو أن يقول: "الوضوء شرط في الصلاة" فيجمعوا على رد ذلك ويجيزوا الصلاة من غير وضوء، أو يقول: "صوم شهر رمضان واجب"، فيطبقوا على مخالفة ذلك ويجعلوا شوالاً عوضاً عنه، فإنه بعيد، إذ لا غرض لهم فيه، ولا يقدرّون على إظهار مصلحة عثروا عليها خفيت عنه. والقوم الذين كانوا قد غلب على ظنونهم أن العرب لا تطيع علياً رضي الله عنه، فبعضها للحسد، وبعضها للوتر والثأر، وبعضها لاستحاثهم سنه، وبعضها لاستطالته عليهم ورفعهم عنهم، وبعضها كراهة اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد، وبعضها للخوف من شدة وطأته وشدته في دين الله، وبعضها خوفاً لرجاء تداول قبائل العرب الخلافة إذا لم يقتصر بها على بيت مخصوص عليه، فيكون رجاء كل حي لوصولهم إليها ثابتاً مستمراً، وبعضها ببغضه، لغضبهم من قرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم -وهم المنافقون من الناس، ومن في قلبه زيغ من أمر

النبوة- فأصفق الكل إصفاً واحداً على صرف الأمر عنه لغيره، وقال رؤساؤهم: إنا خفنا الفتنة، وعلمنا أن العرب لا تطيعه ولا تتركه، وتأولوا عند أنفسهم النص، ولا ينكر النص، وقالوا: إنه النص، ولكن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، والغائب قد يترك لأجل المصلحة الكلية، وأعانهم على ذلك مسارعة الأنصار إلى ادعائهم الأمر، وإخراجهم سعد بن عباد من بيته وهو مريض، لينصبوه خليفة- فيما زعموا- واختلط الناس، وكثر الخبط، وكادت الفتنة أن تشتعل نارها، فوثب رؤساء المهاجرين، فبايعوا أبا بكر وكانت فلتة- كما قال قائلهم- وزعموا أنهم أطفأوا بها نائرة الأنصار، فمن سكت من المسلمين، وأغضى ولم يتعرض، فقد كفاهم أمر نفسه، ومن قال سرّاً أو جهراً: إن فلانا قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكره، أو نص عليه أو أشار إليه، أسكتوه في الجواب؟ بأنا بادرنا إلى عقد البيعة مخافة الفتنة، واعتذروا عنده ببعض ما تقدم، إما أنه حديث السن أو تبغضه العرب، لأنه وترها وسفك دماءها، أو لأنه صاحب زهو وتيه، أو كيف تجتمع النبوة والخلافة في مغرس واحد! بل قد قالوا في العذر ما هو أقوى من هذا وأوكد، قالوا: أبو بكر أقوى على هذا الأمر منه، لا سيما وعمر يعضده ويساعده، والعرب تحب أبا بكر ويعجبها لينة ورفقه، وهو شيخ مجرب للأمور لا يحسده أحد، ولا يحقد عليه أحد، ولا يبغضه أحد، وليس بذئ شرف في النسب فيشتمخ على الناس بشرفه، ولا بذئ قري من الرسول فيدل بقربه، ودع ذا كله، فإنه فضل مستغنى عنه. قالوا: لو نصبنا علياً رضي الله عنه، ارتد الناس عن الإسلام وعادت الجاهلية كما كانت، فأيا أصلح في الدين؟ الوقوف مع النص المفضي إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهلية أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدين، وإن كان فيه مخالفة النص! قال رحمه الله: وسكت الناس عن الإنكار، فإنهم كانوا متفرقين، فمنهم من هو مبغض شائئ لعلي رضي الله عنه، فالذي تم من صرف الأمر عنه هو قرّة عينه، وبرد فؤاده، ومنهم ذو الدين وصحة اليقين، إلا أنه لما رأى كبراء الصحابة قد اتفقوا على صرف الأمر عنه، ظن أنهم إنما فعلوا ذلك لنص سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسخ ما قد كان سمعه من النص على أمير المؤمنين، لا سيما ما رواه أبو بكر من قول النبي صلى الله عليه وسلم "الأئمة من قريش"، فإن كثيراً من الناس توهموا أنه ناسخ للنص الخاص، وأن معنى الخبر أنكم مباحون في نصب إمام من قريش، من أي بطون قريش كان، فإنه يكون إماماً.

وأكد أيضاً في نفوسهم رفض النص الخاص ما سمعوه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "سألت الله ألا يجمع أمي على ضلال، فأعطانيها، فأحسنوا الظن بعائدي البيعة".

وقالوا: هؤلاء أعرف بأعراض رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل أحد، فامسكوا وكفوا عن الإنكار، ومنهم فرقة أخرى- وهم الأكثرون- أعراب وجفاة، وطغام أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، فهؤلاء مقلدون لا يسألون ولا ينكرون، ولا يبحثون، وهم مع أمرائهم وولاتهم، لو أسقطوا عنهم الصلاة الواجبة لتركوها، فلذلك أحق النص، وخفي ودرس، وقويت كلمة العقادين لبيعة أبي لكر، وقواها زيادة على ذلك اشتغال علي وبني هاشم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإغلاق باهم عليهم، وتخليتهم الناس يعملون ما شاؤوا وأحبوا، من غير مشاركة لهم فيما هم فيه، لكنهم أرادوا

استدراك ذلك بعد ما فات، وهيئات الفئات لارجعة له! وأراد علي رضي الله عنه بعد ذلك نقض البيعة، فلم يتم له ذلك، وكانت العرب لا ترى الغدر، ولا تنقض البيعة صواباً كانت أو خطأ، وقد قالت له الأنصار وغيرها: أيها الرجل، لو دعوتنا إلى نفسك قبل البيعة لما عدلنا بك أحداً، ولكننا قد بايعنا، فكيف السبيل إلى نقض البيعة بعد وقوعها! قال النقيب: ومما جرأ عمر على بيعة أبي بكر والعدول عن علي - مع ما كان يسمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم في أمره - أنه أنكر مراراً على الرسول صلى الله عليه وسلم أموراً اعتمدها فلم ينكر عليه رسول الله إنكاره، بل رجع في كثير منها إليه، وأشار عليه بأمور كثيرة نزل القرآن فيها بموافقتها، فأطعمه ذلك في الإقدام على اعتماد كثير من الأمور التي كان يرى فيها المصلحة، مما هي خلاف النص، وذلك نحو إنكاره عليه في الصلاة على عبد الله بن أبي المنافق، وإنكاره فداء أسارى بدر، وإنكاره عليه تبرج نسائه للناس، وإنكاره قضية الحديبية، وإنكاره أمان العباس لأبي سفيان بن حرب، وإنكاره واقعة أبي حذيفة بن عتبة، وإنكاره أمره بالنداء: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة"، وإنكاره أمره لذبح النواضح، وإنكاره على النساء بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، هيتهن له دون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك من أمور كثيرة تشتمل عليها كتب الحديث، ولو لم يكن إلا إنكاره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه: "اتتوني بدواة وكتفٍ أكتب لكم ما لا تضلون بعدي"، وقوله ما قال، وسكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه. وأعجب الأشياء أنه قال ذلك اليوم: حسينا كتاب الله، فافترق الحاضرون من المسلمين في الدار، فبعضهم يقول: القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعضهم يقول: القول ما قال عمر، فقال رسول الله وقد كثر اللغط، وعلت الأصوات: "قوموا عني فما ينبغي لني أن يكون عنده هذا التنازع!" فهل بقي للنبوة مزية أو فضل إذا كان الاختلاف قد وقع بين القولين، وميل المسلمون بينهما، فرجح قوم هذا، وقوم هذا! فليس ذلك دالاً على أن القوم سوا بينه وبين عمر، وجعلوا القولين مسألة خلاف، ذهب كل فريق إلى نصرة واحد منهما، كما يختلف اثنان من غرض المسلمين في بعض الأحكام، فينصر قوم هذا وينصر ذاك آخرون، فمن بلغت قوته وهيمته إلى هذا، كيف ينكر منه أنه يبايع أبا بكر لمصلحة رآها، ويعدل عن النص! ومن الذي كان ينكر عليه ذلك، وهو في القول الذي قاله للرسول صلى الله عليه وسلم في وجهه غير خائف من الأنصار، ولا ينكر عليه أحد، لا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غيره، وهو أشد من مخالفة النص في الخلافة وأفظع وأشنع.

قال النقيب: على أن الرجل ما أهمل أمر نفسه، بل أعد أعذاراً وأجوبة، وذلك لأنه قال لقوم عرضوا له بحديث النص: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع عن ذلك بإقامته أبا بكر في الصلاة مقامه، وأوهمهم أن ذلك جار مجرى النص عليه بالخلافة، وقال يوم السقيفة: أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة! ثم أكد ذلك بأن قال لأبي بكر، وقد عرض عليه البيعة: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المواطن كلها، شدتها ورخائها، رضيك لدينا، أفلا نرضاك لدينا! ثم عاب علياً بخطبته بنت أبي جهل، فأوهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهه لذلك ووجد عليه، وأرضاه عمرو بن العاص، فروى حديثاً افتعله واختلقه على رسول الله، قال سمعته يقول: "إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين"، فجعلوا ذلك كالناسخ لقوله صلى الله عليه وسلم: "من كنت مولاه فهذا مولاه".

قلت للنقيب: أيصح النسخ في مثل هذا؟ أليس هذا نسخاً للشيء قبل تقضي وقت فعله؟ فقال: سبحان الله! من أين تعرف العرب هذا؟ وأني لها أن تتصوره فضلاً عن أن تحكم بعدم جوازه! فهل يفهم حذاق الأصوليين هذه المسألة، فضلاً عن حمقى العرب! هؤلاء قوم ينخدعون بأدنى شبهة، ويستمالون بأضعف سبب، وتبنى الأمور معهم على ظواهر النصوص وأوائل الأدلة، وهم أصحاب جهل وتقليد، لا أصحاب تفضيل ونظر! قال: ثم أكد حسن ظن الناس بهم أنهم أطلقوا أنفسهم عن الأموال، وزهدوا في متاع الدنيا وزخرفها، وسلكوا مسلك الرفض لزينتها، والرغبة عنها والقناعة بالطفيف التزر منها، وأكلوا الخشن، ولبسوا الكرايس، ولما ألفت إليهم الدنيا أفلاذ كبدها، وفرقوا الأموال على الناس، وقسموها بينهم، ولم يتدنسوا منها بقليل ولا كثير، فمالت إليهم القلوب، وأحببتهم النفوس، وحسنت فيهم الظنون، وقال من كان في نفسه شبهة منهم، أو وقفة في أمرهم: لو كان هؤلاء قد خالفوا النص لهوى أنفسهم لكانوا أهل الدنيا، ولظهر عليهم الميل إليها، والرغبة فيها، والاستئثار بها. وكيف يجمعون على أنفسهم مخالفة النص، وترك لذات الدنيا ومآربها، فيخسروا الدنيا والآخرة! وهذا لا يفعله عاقل، والقوم عقلاء ذوو ألباب وآراء صحيحة، فلم يبق عند أحد شك في أمرهم ولا ارتياب لفعلهم، وثبتت العقائد على ولايتهم، وتصوب أفعالهم، ونسوا لذة الرياسة، وإن أصحاب الهمم العالية لا يلتفتون إلى المأكول والمشرب والمنكح، وإنما يريدون الرياسة ونفوذ الأمر، كما قال الشاعر:

وقد رغبت عن لذة المال أنفس

ومارغبت عن لذة النهي والأمر

قال رحمه الله: والفرق بين الرجلين وبين الثالث، ما أصيب به الثالث، وقتل تلك القتلة، وخلعه الناس وحصلوه، وضيقوا عليه، بعد أن تواك إنكارهم أفعاله، وجهوه في وجهه وفسقوه، وذلك لأنه استأثر هو وأهله بالأموال، وانغمسوا فيها واستبدوا بها، فكانت طريقتهم وطريقتهم مخالفة لطريق الأولين، فلم تصبر العرب على ذلك، ولو كان عثمان سلك طريق عمر في الزهد، وجمع الناس، وردع الأمراء والولاة عن الأموال، وتجنب استعمال أهل بيته، ووفر أعراض الدنيا وملاذها وشهواتها على الناس، زاهداً فيها، تاركاً لها، محرضاً عنها، لما ضره شيء قط، ولا أنكر عليه أحد قط، ولو حول الصلاة من الكعبة إلى بيت المقدس، بل لو أسقط عن الناس إحدى الصلوات الخمس، واقتنع منهم بأربع، وذلك لأن هم الناس مصروفة إلى الدنيا والأموال، فإذا وجدوها سكتوا، وإذا فقدوها هاجوا واضطربوا، ألسنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف قسم غنائم هوازن على المنافقين، وعلى أعدائه الذين يتمنون قتله وموته، وزوال دولته، فلما أعطاهم أحبوه، إما كلهم أو أكثرهم، ومن لم يحبه منهم بقلبه جامله وداراه، وكف عن إظهار عداوته، والإجلاب عليه ولو أن علياً صانع أصحابه بالمال، وأعطاه الوجوه والرؤساء، لكان أمره إلى الانتظام والاطراد أقرب، ولكنه رفض جانب التدبير الدنيوي، وآثر لزوم الدين، وتمسك بأحكام الشريعة، والملك أمر آخر غير الدين، فاضطرب عليه أصحابه، وهرب كثير منهم إلى عدوه.

وقد ذكرت في هذا الفصل خلاصة ما حفظته عن النقيب أبي جعفر، ولم يكن إمامي المذهب، ولا كان يبرأ من السلف، ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني وبينه، على أن العلوي لو كان

كرامياً ، لا بد أن يكون عنده نوع من تعصب وميل على الصحابة وإن قل.

ولنرجع إلى ذكر كلام عمر من خطبته وسيرته.

كتب عمر إلى أبي موسى، لما استعمله قاضياً، وبعثه إلى العراق:

من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاد له. آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يئأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً، لا يمنعك قضاء قضيتته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله عز وجل، وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنياً في ولاء أو نسب، فإن الله عز وجل تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات والأيمان الشبهات. إياك والغلق والضرر والتأذي بالخصوم، والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله عز وجل منه أنه ليس من نفسه، شانه الله، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام.

ذكر هذه الرسالة أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتاب "الكامل" وأطراها، فقال: إنه جمع فيها جمل الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونه إماماً فلا يجد محق عنها معدلاً، ولا ظالم عن حدودها محيصاً. وكتب عمر إلى عماله يوصيهم، فقال في جملة الكتاب: ارتدوا، واتزروا، وانتعلوا وألقوا الخفاف والسراويلات وألقوا الركب، وانزوا نزواً على الخيل، واخشوشنوا، وعليكم بالمعدية - أو قال: وتمعدوا - وارموا الأغراض، وعلموا فتیانكم العوم والرماية، وذروا التنعم وزى العجم، وإياكم والحريز، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه، وقال: "لا تلبسوا من الحرير إلا ما كان هكذا"، وأشار بأصبعه.

وكتب إلى بعض عماله: إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيتته، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيتته، فإياك أن تزيع رعيتك، فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة رأت الخضرة في الأرض فرعت فيها تبغي السمن، وحتفها في سمنها. وكتب إلى أبي موسى وهو بالبصرة: بلغني أنك تأذن للناس الجماء الغفير، فإذا جاءك كتابي هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة، ولا تؤخر عمل اليوم لغد، فتتذاك عليك الأعمال فتضيع، وإياك واتباع الهوى، فإن للناس أهواء متبعة، ودنيا مؤثرة، وضغائن محمولة. وحاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة كان مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن أهله حياته، وشغلته أهواؤه، عاد أمره إلى الندامة والحسرة، إنه لا يقيم أمر الله في الناس إلا خصيف العقدة بعيد القرارة لا يحنق على جرة، ولا يطلع الناس منه على عورة، ولا يخاف في الحق لومة لائم. الزم أربع خصال يسلم لك دينك وتحيط بأفضل حظك:

إذا حضر الخصمان فعليك بالبينات العدول والأيمان القاطعة، ثم ائذن للضعيف حتى ينبسط لسانه، ويجترئ قلبه، وتعاهد الغريب، فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته وانصرف إلى أهله، واحرص على الصلح ما لم يبن لك القضاء، والسلام عليك. وكان رجل من الأنصار لا يزال يهدي لعمر فخذ جزور إلى أن جاء ذات يوم مع خصم له، فجعل في أثناء الكلام يقول: يا أمير المؤمنين، افصل القضاء بيني وبينه كما يفصل فخذ الجزور.

قال عمر: فما زال يرددها حتى خفت على نفسي. فقضيت عليه، وكتبت إلى عمالي: أما بعد فإياكم والهدايا، فإنها من الرشا. ثم لم أقبل له هدية فيما بعد، ولا لغيره.

وكان عمر يقول: اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا ما يقولون، فإن الله عز وجل وكل بهم ملائكة، واضعة أيديهم على أفواههم، فلا يتكلمون إلا بما هيأه الله لهم.

وروى أبو جعفر الطبري في تاريخه، قال: كان عمر يقول: جردوا القرآن ولا تفسروه، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا شريككم.

وقال أبو جعفر: وكان عمر إذا أراد أن ينهي الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إني عسيت أن أئهى الناس عن كذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، واقسم بالله لا أجد أحداً منكم يفعل إلا أضعفت عليه العقوبة. قال أبو جعفر: وكان عمر شديداً على أهل الريب، وفي حق الله، صلياً حتى يستخرجه، وليناً سهلاً فيما يلزمه حتى يؤديه، وبالضعيف رحيماً.

وروى زيد بن أسلم، عن أبيه أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف، فقالوا: كلم عمر بن الخطاب، فقد والله أحشانا حتى لا نستطيع أن نديم إليه أبصارنا، فذكر عبد الرحمن له ذلك، فقال: أو قد قالوا ذلك! والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في أمرهم، وقد تشددت عليهم حتى خفت الله في أمرهم، وأنا والله أشد فرقا لله منهم لي! وروى جابر بن عبد الله، قال: قال رجل لعمر: يا خليفة الله، قال: خالف الله بك، قال: جعلني الله فداك! قال: إذن يهينك الله.

وروى أبو جعفر، قال: استشار عمر في أمر المال كيف يقسمه، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تقسم كل سنة ما اجتمع معك من المال، ولا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان بن عفان: أرى مالا كثيراً يسع الناس، وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر. فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً، وجندوا جنوداً، وفرضوا لهم أرزاقاً. فأخذ بقوله؟ فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم - وكانوا نساب قريش - وقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا فبدأوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على ترتيب الخلافة؟ فلما نظر إليه قال: وددت أنه كان هكذا، لكن ابدأ بقرابة النبي عليه، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

قال أبو جعفر: جاءت بنو عدي إلى عمر، فقالوا: يا عمر، أنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: أو خليفة أبي بكر، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: وذاك، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم! فقال: بخ بخ يا بني عدي! أردتم الأكل على ظهري، وأن أذهب حسناتي لكم! لا والله ولو كتبتهم آخر الناس، إن لي صاحبين سلكا

طريقاً، فإن أنا خالفتها خولف بي، والله ما أدركنا الفضل في الدنيا إلا بمحمد، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة وثوابها إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فهو شرفنا، وقومه أشرف العرب ثم الأقرب منه فالأقرب، وما بيننا وبين أن نلقاه ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباء يسيرة، والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل فإنهم أولى بمحمد صلى الله عليه وسلم منا يوم القيامة. لا ينظرن رجل إلى قرابته، وليعمل بما عند الله؟ فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه. وروى السائب بن يزيد، قال: سمعت عمر بن الخطاب، يقول: والله ما من أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك، وما أنا فيه إلا كأحدكم، ولكننا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وغناؤه، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لياتين الراعي بجبل صنعاء، حظه من المال وهو مكانه.

وروى نافع مولى آل الزبير، قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله ابن حنتمة، لقد رأيت عام الرمادة، وإنه ليحمل على ظهره جرابين، وعكة زيت في يده، وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رأي قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً، فأخذت أعقبه، فحملناه حتى انتهينا إلى ضرار فإذا صرم من نحو عشرين بيتاً من محارب، فقال عمر: ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد، وأخرجوا لنا جلد الميتة مشوياً كانوا يأكلونه، ورمة العظام مسحوقة كانوا يستفونها، فرأيت عمر طرح رداءه ثم برز، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، وأرسل أسلم إلى المدينة، فجاء بأبصرة فحملهم عليها، ثم أنزلهم الجبانة، ثم كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى كفى الله ذلك.

وروى راشد بن سعد أن عمر أتى بمال، فجعل يقسم بين الناس، فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالذرة، وقال: إنك أقبلت، لا تهابن سلطان الله في الأرض، فأحببت بأن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك.

وقالت الشفاء ابنة عبد الله - ورأت فتیاناً من النساك يقتصدون في المشي، ويتكلمون رويداً: ما هؤلاء؟ فقيل: نساك، فقالت كان عمر بن الخطاب هو الناسك حقاً، وكان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع. أعان عمر رجلاً على حمل شيء، فدعا له الرجل، وقال: نفعلك بنوك يا أمير المؤمنين! قال: بل أغناني الله عنهم. ومن كلامه: القوة في العمل ألا يؤخر عمل اليوم لغد، والأمانة ألا تخالف سريرتك علانيتك، والتقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه.

وقال عمر: كنا نعد المقرض بخيلاً، إنما كانت المواساة.

أتى رهط إلى عمر، فقالوا: يا أمير المؤمنين، كثر العيال، واشتدت المؤونة، فردنا لا أعطينا، فقال: فعلتموها! جمعتم بين الضرائر، واتخذتم الخدم من مال الله! أما لوددت أني وإياكم في سفينتين في لجة البحر، تذهب بنا شرقاً وغرباً، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم، فإن استقام اتبعوه، وإن جنف قتلوه فقال طلحة: وما عليك لو قلت: وإن اعوج عزلوه! فقال: القتل أروع لمن بعده، احذروا فتى قريش، فإنه كريمها الذي لا ينام إلا على الرضا، ويضحك عند الغضب، ويتناول ما فوقه من تحته.

وكان يقول في آخر أيامه عند تبرمه بالأمر وضجره من الرعية: اللهم ملوني ومللتهم، وأحسست من نفسي وأحسوا مني! ولا أدري بأينا يكون اللوث ، وقد أعلم أن لهم قتيلاً منهم فاقبضني إليك.

وذكر قوم من الصحابة لعمر رجلاً، فقالوا: فاضل لا يعرف الشر، قال: ذاك أوقع له فيه.

وروى الطبري في التاريخ، أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على عمل فقدم منه بمال، فقال له: ما هذا يا عتبة؟ قال: مال خرجت به معي وتجرت فيه، قال: وما لك تخرج المال معك إلى هذا الوجه؟ فأخذ المال منه فصيره في بيت المال، فلما قام عثمان قال لأبي سفيان: إنك إن طلبت ما أخذه عمر من عتبة رددته عليك، فقال له أبو سفيان: إياك وما هممت به، إنك إن خالفت صاحبك قبلك ساء رأي الناس فيك. إياك أن ترد على من كان قبلك فيرد عليك من بعدك.

وروى الطبري أيضاً أن هنداً بنت عتبة بن ربيعة قامت إلى عمر، فسألته أن يقرضها من بيت المال أربعة آلاف درهم تتجر فيها وتضمنها. فخرجت بها إلى بلاد كلب، فباعت واشترت، وبلغها أن أبا سفيان قد أتى معاوية يستمحيه ومعه ابنه عمرو بن أبي سفيان، فعدلت إليه من بلاد كلب- وكان أبو سفيان قد طلقها- فقال معاوية: ما أقدمك يا أمه؟ قالت: النظر إليك يا بني، إنه عمر، وإنما يعمل لله، وقد أتاك أبوك فخشيت أن تخرج إليه من كل شيء، وأهل ذلك هو! ولكن لا يعلم عمر من أين اعطيته، فيؤنبوك ويؤنبك، ولا تستقبلها أبداً. فبعث معاوية إلى أبيه وأخيه مائة دينار، وكساهما وحملهما. فسخطها عمر، فقال أبو سفيان: لا تسخطها، فإنها عطاء لم تغب عنه هند، ورجع هو وابنه إلى المدينة، فسأله عمر: بكم أجازك معاوية؟ فقال: بمائة دينار، فسكت عمر.

وروى الأحنف، قال: أتى عبد الله بن عمير عمر، وهو يقرض الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، أقرض لي، فلم يلتفت إليه، فنخسه، فقال عمر: حس ، وأقبل عليه، فقال: من أنت؟ فقال: عبد الله بن عمير وكان أبوه استشهد يوم حنين- فقال: يا يرفأ ، أعطه ستمائة، فأعطاه ستمائة فلم يقبلها، ورجع إلى عمر فأخبره فقال: يا يرفأ، أعطه ستمائة وخلة، فأعطاه، فلبس الحلة التي كساه عمر، ورمى ما كان عليه، فقال له: خذ ثيابك هذه، فلتكن في مهنة أهللك، وهذه لزينتك. وروى إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: مر عمر في السوق، ومعه الدرة، فخفقي خفقة، فأصاب طرف ثوبي، وقال: أمط عن الطريق، فلما كان في العام المقبل لقيني، فقال: يا سلمة، أتريد الحج؟ قلت: نعم، فأخذ بيدي وانطلق بي إلى منزله، فأعطاني ستمائة درهم، وقال: استعن بها على حجك، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما ذكرتها، قال: وأنا ما نسيتها.

وخطب عمر: فقال: أيتها الرعية، إن لنا عليكم حقاً، النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير، إنه ليس من حلم أحب إلى الله ولا أعم نفعاً من حلم إمام ورفقه، وليس من جهل أبغض إلى الله من جهل إمام وخرفه ، أيتها الرعية إنه من يأخذ بالعافية من بين ظهرانيه فوته الله العافية من فوقه.

وروى الربيع بن زياد، قال: قدمت على عمر بمال من البحرين، فصليت معه العشاء ثم سلمت عليه، فقال: ما قدمت به؟ قلت: خمسمائة ألف، قال: ويحك! إنما قدمت بخمسين ألفاً، قلت: بل خمسمائة ألف، قال: كم يكون ذلك؟ قلت: مائة ألف ومائة ألف، حتى عددت خمساً، فقال: إنك ناعس؟ ارجع إلى بيتك، ثم اغد علي، فغدوت عليه. فقال:

ما جئت به؟ قلت: ما قلته لك، قال: كم هو؟ قلت: خمسمائة ألف، قال: أطيب هو؟ قلت: نعم، لا أعلم إلا ذلك، فاستشار الصحابة فيه، فأشير عليه بنصب الديوان فنصبه، وقسم المال بين المسلمين، ففضلت عنده فضلة، فأصبح فجمع المهاجرين والأنصار، وفيهم علي بن أبي طالب، وقال للناس: ما ترون في فضل عندنا من هذا المال؟ فقال الناس: يا أمير المؤمنين؟ إنا شغلناك بولاية أمورنا عن أهلِكَ وتجارتك وصنعتك، فهو لك. فالتفت إلى علي فقال: ما تقول أنت؟ قال: قد أشاروا عليك، قال: فقل أنت، فقال له: لم تجعل يقينك ظناً؟ فلم يفهم عمر قوله، فقال: لتخرجن مما قلت، قال: أجل والله، لأخرجن منه، أذكر حين بعثك رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعياً، فأتييت العباس بن عبد المطلب، فمنعك صدقته، فكان بينكما شيء، فجئتما إلي وقتلتما: إنطلق معنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئنا إليه، فوجدناه خائراً فرجعنا، ثم غدونا عليه، فوجدناه طيب النفس، فأخبرته بالذي صنع العباس، فقال لك: يا عمر، أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه! فذكرنا له ما رأينا، من خثوره في اليوم الأول، وطيب نفسه في اليوم الثاني، فقال: إنكم أتيتم في اليوم الأول، وقد بقي عندي من مال الصدقة ديناران، فكان ما رأيتم من خثوري لذلك، وأتيتم في اليوم الثاني وقد وجهتهما، فذاك الذي رأيتم من طيب نفسي. أشير عليك ألا تأخذ من هذا الفضل شيئاً، وأن تفضيه على فقراء المسلمين، فقال: صدقت والله لأشكرن لك الأولى والأخيرة.

وروى أبو سعيد الخدري قال: حججنا مع عمر أول حجة حجها في خلافته، فلما دخل المسجد الحرام، دنا من الحجر الأسود فقبله واستلمه، وقال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك واستلمك، لما قبلتك ولا استلمتك، فقال له علي: بلى يا أمير المؤمنين، إنه ليضر وينفع، ولو علمت تأويل ذلك من كتاب الله لعلمت أن الذي أقول لك كما أقول قال الله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى". فلما أشهدهم وأقروا له أنه الرب عز وجل، وأنهم العبيد، كتب ميثاقهم في رق، ثم ألقمه هذا الحجر، وإن له لعينين ولساناً وشفيتين، تشهد لمن وافاه بالموافاة، فهو أمين الله عز وجل في هذا المكان. فقال عمر: لا أبقاني الله بأرض الله لست بها يا أبا الحسن.

قلت: قد وجدنا في الآثار والأخبار في سيرة عمر أشياء تناسب قوله في هذا الحجر الأسود، كما أمر بقطع الشجرة التي بويج رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها بيعة الرضوان في عمرة الحديبية، لأن المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يأتونها، فيقبلون تحتها، فلما تكرر ذلك أوعدهم عمر فيها، ثم أمر بها فقطعت.

وروى المغيرة بن سويد، قال: خرجنا مع عمر في حجة حجها، فقرأ بنا في الفجر: "ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل"، و"إيلاف قريش"، فلما فرغ رأى الناس يبادرون إلى مسجد هناك، فقال: ما بالهم؟ قالوا: مسجد صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم والناس يبادرون إليه، فناداهم فقال: هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم! اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً من عرضت له صلاة في هذا المسجد فليصل، ومن لم تعرض له صلاة فليمض.

وأتى رجل من المسلمين إلى عمر، فقال: إنا لما فتحنا المدائن أصبنا كتاباً فيه علم من علوم الفرس، وكلام معجب، فدعا بالدرة فجعل يضربه بها، ثم قرأ: "نحن نقص عليك أحسن القصص"، ويقول: ويلك! أقصص أحسن من كتاب الله! إنما هلك من كان قبلكم، لأنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم، وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا، وذهب ما فيهما

وجاء رجل إلى عمر، فقال: إن ضبيعاً التميمي لقينا يا أمير المؤمنين، فجعل يسألنا عن تفسير حروف من القرآن، فقال: اللهم أمكني منه، فبينما عمر يوماً جالس يغدي الناس إذ جاءه الضبيع، وعليه ثياب وعمامة، فتقدم فأكل، حتى إذا فرغ، قال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: "والذاريات ذرواً" فالحاملات وقرأ؟ قال: ويحك أنت هو! فقام إليه فحسر عن ذراعيه، فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته، فإذا له صغيرتان، فقال: والذي نفس عمر بيده لو وجدتك مخلوقاً لضربت رأسك، ثم أمر به فجعل في بيت، ثم كان يخرج به كل يوم فيضربه مائة، فإذا برأ أخرجه فضربه مائة أخرى، ثم حمله على قطب وسيره إلى البصرة، وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحرم على الناس مجالسته، وأن يقوم في الناس خطيباً، ثم يقول: إن ضبيعاً قد ابتغى العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه وعند الناس حتى هلك، وقد كان من قبل سيد قومه. وقال عمر على المنبر: ألا إن أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فأفتوا بآرائهم، فضلوا وأضلوا إلا أن نفتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، إنه ما ضل متمسك بالأثر.

وروى زيد بن أسلم، عن أبيه قال: سمعت عمر يقول في الحج: فيم الرمضان الآن والكشف عن المناكب، وقد أظهر الله الاسلام، ونفى الكفر وأهله! ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مر عمر برجل فسلم عليه، فرد عليه، فقال: ما اسمك؟ قال: جرة، قال: أبو من؟ قال: أبو شهاب، قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: وأين مسكنك؟ قال: بحرة النار، قال: بأيها؟ قال: بذات لظى، فقال: ويحك! أدرك أهلك فقد احترقوا. فمضى إليهم فوجدتهم قد احترقوا.

وروى الليث بن سعد، قال: أتى عمر بفتى أمرد، قد وجد قتيلاً ملقى على وجه الطريق، فسأل عن أمره واجتهد، فلم يقف له على خبر، فشق عليه، فكان يدعو ويقول: اللهم أظفري بقاتله، حتى إذا كان رأس الحول أو قريباً من ذلك، وجد طفل مولود ملقى في موضع ذلك القتيل، فأتي به عمر، فقال: ظفرت بدم القتيل، إن شاء الله تعالى! فدفع الطفل إلى امرأة، وقال لها: قومي بشأنه، وخذي منا نفقته، وانظري من يأخذه منك، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلميني مكانها، فلما شب الصبي جاءت جارية، فقال للمرأة: إن سيدتي بعثني إليك لتبعني إليها بهذا الصبي، فتراه وترده إليك، قالت: نعم، اذهبي به إليها، وأنا معك، فذهبت بالصبي، حتى دخلت على امرأة شابة، فأخذت الصبي، فجعلت تقبله وتغديه وتضمه إليها، وإذا هي بنت شيخ من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءت المرأة وأخبرت عمر، فاشتغل على سيفه وأقبل إلى منزلها، فوجد أباهم متكئاً على الباب، فقال له: ما الذي تعلم من حال ابنتك؟ قال: أعرف الناس بحق الله وحق أبيها، مع حسن صلاحها وصيامها والقيام بدينها، فقال: إني أحب أن أدخل إليها وأزيدها رغبة في الخير، فدخل الشيخ، ثم خرج فقال: ادخل يا أمير المؤمنين، فدخل وأمر أن يخرج كل من في الدار إلا أباهم، ثم سألها عن الصبي، فلجلجت، فقال: لتصدقيني، ثم انتضى السيف، فقالت: على رسلك يا أمير المؤمنين! فوالله لأصدقنك! إن عجوزاً كانت تدخل علي فاتخذها أمماً، وكانت تقوم في أمري بما تقوم به الوالدة، وأنا لها بمنزلة البنت، فمكثت كذلك حيناً، ثم قالت: إنه قد عرض لي سفر، ولي بنت أتخوف عليها بعدي الضيعة، وأنا أحب أن أضمرها إليك

حتى أرجع من سفري، ثم عمدت إلى ابن لها أمرد فهيأته وزينته كما تزين المرأة وأتتني به، ولا أشك أنه جارية، فكان يرى مني ما ترى المرأة من المرأة، فاغتفلي يوماً وأنا نائمة فما شعرت به حتى علاني وخالطني، فمددت يدي إلى شفرة كانت عندي فقتلته، ثم أمرت به فآلتي حيث رأيت، فاشتملت منه على هذا الصبي، فلما وضعته ألقيته في موضع أبيه، هذا والله خبرهما على ما أعلمتك! فقال عمر: صدقت، بارك الله فيك! ثم أوصاها ووعظها وخرج.

وكان عمر يقول: لو أدركت عروة وعفراء لجمعت بينهما.

ذكر عمرو بن العاص يوماً عمر فترحم عليه، وقال: ما رأيت أحداً أتقى منه، ولا أعمل بالحق منه، لا يبالي على من وقع الحق، من ولد أو والد، إني لفي مترلي بمصر ضحى، إذ أتاني آت، فقال: قدم عبد الله وعبد الرحمن ابنا عمر غازيين، فقلت: أين نزلا؟ قال: في موضع كذا - لأقصى مصر - وقد كان عمر كتب إلي: إياك وأن يقدم عليك أحد من أهل بيتي فتجيزه أو تحبوه بأمر لا تصنعه بغيره، فأفعل بك ما أنت أهله. فضقت ذرعاً بقدميهما، ولا أستطيع أن أهدي لهما، ولا أن آتيهما في مترلهما، خوفاً من أبيهما، فوالله إني لعك ما أنا عليه، وإذا قاتل يقول: هذا عبد الرحمن بن عمر بالباب وأبو سرورة يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلوا وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حد الله، فإننا أصبنا الليلة شراباً فسكرنا، فزبرتهما وطردتهما، وقلت: ابن أمير المؤمنين وآخر معه من أهل بدر! فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت عليه أنك لم تفعل، فعلمت أي إن لم أقم عليهما الحد غضب عمر وعزلي، فنحن على ما نحن عليه، إذ دخل عبد الله بن عمر، فقصصت إليه ورحبت به، وأردت أن أجلسه في صدر مجلسي، فأبى علي وقال: إن أبي نهاني أن أدخل عليك إلا ألا أجد من الدخول بداً، وإني لم أجد من الدخول عليك بداً، إن أخي لا يخلق عك رؤوس الناس أبداً، فأما الضرب فاصنع ما بدا لك - قال: وكانوا يخلقون مع الحد - فأخرجتهما إلى صحن الدار وضربتهما الحد، ودخل عبد الله بن عمر بأخيه عبد الرحمن إلى بيت من الدار فحلق رأسه، وحلق أبا سرورة، والله ما كتبت إلى عمر بحرف مما كان، وإذا كتابه قد ورد: من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى العاصي ابن العاصي، عجبت لك يا ابن العاصي ولجراعتك علي ومخالفتك عهدي أما إني خالفت فيك أصحاب بدر ومن هو خير منك، واخترتك وأنت الحامل، وقدمتك وأنت المؤخر، وأخبرني الناس بجراعتك وخلافك، وأراك كما أخبروا، وما أراي إلا عازلك فمسيء عزلك. ويحك! تضرب عبد الرحمن بن عمر في داخل بيتك، وتحلق رأسه في داخل بيتك، وقد عرفت أن في هذا مخالفتي وإنما عبد الرحمن رجل من رعيته تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عز وجل، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عبادة على قتب، حتى يعرف سوء ما صنع. قال: فبعثت به كما قال أبوه، وأقرأت أخاه عبد الله كتاب أبيهما، وكتبت إلى عمر كتاباً أعذرت فيه وأخبرته أي ضربته في صحن الدار، وحلفت بالله الذي لا يحلف بأعظم منه، أنه الموضع الذي أقيم فيه الحدود على المسلم والذمي، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر. فذكر أسلم موك عمر قال: قدم عبد الله بأخيه عبد الرحمن على أبيهما، فدخل عليه في عبادة، وهو لا يقدر على المشي من مركبه، فقال: يا عبد الرحمن، فعلت وفعلت! السياط السياط! فكلمه عبد الرحمن بن عوف، وقال: يا أمير المؤمنين، قد أقيم عليه الحد مرة، فلم يلتفت إليه وزبره، فأخذته السياط، وجعل يصيح: أنا مريض وأنت والله قاتلي! فلم

يرق له، حتى استوفى الحد وحبسه. ثم مرض شهراً ومات.

وروى الزبير بن بكار، قال: خطب عمر أم كلثوم بنت علي رضي الله عنه، فقال له: إنها صغيرة، فقال زوجنيها يا أبا الحسن، فإني أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد، فقال: أنا أبعثها إليك، فإن رضيته زوجتكها. فبعث! إليه ببرد، وقال لها قولي: هذا البرد الذي ذكرته لك. فقالت له ذلك، فقال: قولي له: قد رضيته رضي الله عنك - ووضع يده على ساقها - فقالت له: أتفعل هذا! لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك، ثم جاءت أباهما فأخبرته الخبر، وقالت: بعثني إلى شيخ سوء قال: مهلاً يا بنية، إنه زوجك، فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين في الروضة، وكان يجلس فيها المهاجرون الأولون، فقال: رفثوني، رفثوني، قالوا: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: تزوجت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل سب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سبي ونسي وصهري".

وكتب عثمان إلى أبي موسى: إذا جاءك كتابي هذا فأعط الناس أعطيتهم، واحمل ما بقي إلي، وجاء زيد بن ثابت بالمال، فوضعه بين يدي عثمان، فجاء ابن لعثمان فأخذ منه أستاندانة من فضة، فمضى بها فبكى زيد، قال عثمان: ما يبكيك؟ قال: أتيت عمر مثل ما أتيتك به، فجاء ابن له فأخذ درهماً فأمر به فانترع منه، حتى أبكى الغلام، وإن ابنك قد أخذ هذه فلم أر أحداً قال شيئاً. فقال عثمان: إن عمر كان يمنع أهله وقربته ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي أهلي وأقاربي ابتغاء وجه الله، ولن تلقى مثل عمر.

وروى إسماعيل بن خالد، قال: قيل لعثمان: ألا تكون مثل عمر! قال: لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم. ذكرت عائشة عمر، فقالت: كان أجودنا، نسيج وحده، قد أعد للأمر أقرانها.

جاء عبد الله بن سلام بعد أن صلى الناس على عمر، فقال: إن كنتم سبقتوني بالصلاة عليه فلا تسبقوني بالثناء عليه، ثم قال: نعم أخو الإسلام كنت يا عمر! جواداً بالحق بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضا، وتسخط حين السخط، لم تكن مداحاً ولا معياباً، طيب الطرف، عفيف الطرف.

وروى جويرية بن قدامة، قال: دخلت مع أهل العراق على عمر حين أصيب، فرأيت أنه قد عصب بطنه بعمامة سوداء، والدم يسيل، فقال له الناس: أوصنا، فقال عليكم بكتاب الله، فإنكم لن تضلوا ما اتبعتموه. فأعدنا القول عليه ثانية: أوصنا، قال: أوصيكم بالمهاجرين، فإن الناس سيكثررون ويقلون، وأوصيكم بالأنصار، فإنهم شعب الإسلام الذي لجأ إليه، وأوصيكم بالأعراب، فإنهم أصلكم الذي لجأتم إليه ومأواكم. وأوصيكم بأهل الذمة، فإنهم عهد نبيكم ورزق عيالكم؟ قوموا عني.

فلم أحفظ من كلامه إلا هذه الكلمات.

وروى عمرو بن ميمون، قال: سمعت عمر وهو يقول - وقد أشار إلى الستة، ولم يكلم أحداً منهم إلا علي بن أبي طالب وعثمان، ثم أمرهم بالخروج، فقال لمن كان عنده: إذا اجتمعوا عك رجل فمن خالف فلتضرب رقبتة، ثم قال: إن يولوها الأجلح يسلك بهم الطريق، فقال له قائل: فما يمنعك من العهد إليه؟ قال: أكره أن أتحمّلها حياً وميتاً.

خطب لعمر بن الخطاب فيها بعض الطول

وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: لم يكن عمر من أهل الخطب الطوال، وكان كلامه قصيراً، وإنما صاحب الخطب الطوال علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد وجدت أنا لعمر خطباً فيها بعض الطول، ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ.

فمنها خطبة خطب بها حين ولي الخلافة، وهي بعد حمد الله والثناء عليه وعلى رسوله: أيها الناس، إني وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استئصالاً بما ينوب من مهم أموركم، ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر فيها مجزى العطاء موافقة الحساب، بأخذ حقوقكم كيف أخذها ووضعها أين أضعها، وبالسير فيكم كيف أسير! فربي المستعان، فإن عمر لم يصبح يثق بقوة ولا حيلة، إن لم يتداركه الله برحمته وعونه. أيها الناس إن الله قد ولاني أمركم، وقد علمت أنفع ما لكم، وأسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنده، كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به، فإني امرؤ مسلم، وعبد ضعيف إلا ما أعان الله، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله. إنما العظمة لله، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحدكم إن عمر تغير منذ ولي، وإني أعقل الحق من نفسي، وأتقدم وأبين لكم أمري، فأبما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق، فليؤذني، فإنما أنا رجل منكم. فعليكم بتقوى الله في سركم وعلايتكم وحرمتكم وأعراضكم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضاً علي ألا تتحاكموا إلي، فإنه ليس بيني وبين أحد هوادة، وأنا حبيب إلي صلاحكم، عزيز علي عنتكم، وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كبيرة، وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع عك ما يحضرن بنفسي إن شاء الله، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة، ولست أحمل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله.

وخطب عمر مرة أخرى، فقال بعد حمد الله والصلاة على رسول الله.

أيها الناس، إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون، وأنتم مؤجلون في دار غرور، وقد كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي، ومن أسر شيئاً أخذ بسريرته، ومن أعلن شيئاً أخذ بعلايته، فأظهروا لنا حسن أخلاقكم، والله أعلم بالسرائر، فإنه من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريره حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً. واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق، فأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

أيها الناس، أطيبوا ميثاكم، وأصلحوا أموركم، واتقوا الله ربكم، ولا تلبسوا نساءكم القباطي، فإنه إن لم يشف، فإنه يصف.

أيها الناس، إني لوددت أن أنجو كفافاً لا لي ولا علي، إني لأرجو إن عمرت فيكم يسيراً أو كثيراً، أن أعمل فيكم بالحق

إن شاء الله، وألا يبقى أحد من المسلمين - وإن كان في بيته - إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله، وإن لم يعمل إليه نفسه، ولم ينصب إليه بدنه، فأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله، فقليل في رفق خير من كثير في عنف. واعلموا أن القتل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر - والشهيد من احتسب نفسه، وإذا أراد أحدكم بعيداً فليعتمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه، فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره. وخطب عمر مرة أخرى فقال:

إن الله سبحانه قد استوجب عليكم الشكر، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الدنيا والآخرة من غير مسألة منكم، ولا رغبة منكم فيه إليه، فخلقكم - تبارك وتعالى - ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعلكم عامة خلقه، ولم يجعلكم لشيء غيره، وسخر لكم ما في السموات والأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وحملكم في البر والبحر، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون. ثم جعل لكم سمعاً وبصراً. ومن نعم الله عليكم نعم عم بما بني آدم منها نعم اختص بها أهل دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسمت ما وصل منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله، فأنتم مستخلفون في الأرض قاهرون لأهلها، قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمة نخالفة لدينكم، إلا أمتين أمة مستعبدة للإسلام وأهله، يتجرون لكم، تستصفون معاشهم وكدائحهم، وشرح جباههم، عليهم المؤنة، ولكم المنفعة، وأمه تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة، قد ملأ الله قلوبهم رعباً، فليس لهم معقل يلجئون إليه، ولا مهرب يتقون به، قد دهمتهم جنود الله ونزلت بساحتهم، مع رفاغة العيش واستفاضة المال، وتتابع البعوث وسد الثغور بإذن الله، في العافية الجليلة العامة التي لم تكن الأمة على أحسن منها منذ كان الإسلام، والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد، فما عسى أن يبلغ شكر الشاكرين، وذكر الذاكرين، واجتهاد المجتهدين، مع هذه النعم التي لا يحصى عددها، ولا يقدر قدرها، ولا يستطيع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه! فنسأل الله الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته، والمسارة إلى مرضاته. واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم، واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثني وفرادي، فإن الله تعالى قال لموسى: "أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله" وقال محمد صلى الله عليه وسلم: "وأذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض" فلو كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها، وتستريحون إليها، مع المعرفة بالله وبدينه، وترجون الخير فيما بعد الموت، ولكنكم كنتم أشد الناس عيشة وأعظم الناس جهالة، فلو كان هذا الذي ابتلاكم به لم يكن معه حظ في دنياكم غير أنه ثقة لكم في آخرتكم التي إليها المعاد والمنقلب، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه كنتم أحرى أن تشحوا على نصيبكم منه، وأن تظهروه على غيره قبله. أما إنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة، أو لمن شاء أن يجمع ذلك منكم، فأذكركم الله الحائل بينكم وبين قلوبكم إلا ما عرفتم حق الله وعملتم له، وسيرتم أنفسكم على طاعته، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لزوالها وانتقالها، ووجلاً من تحويلها، فإنه لا شيء أسلب للنعمة من كفرانها، وإن الشكر أمن للغير، ونماء للنعمة، واستجلاب للزيادة، وهذا علي في أمركم ونهيكم واجب إن شاء الله.

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب مقاتل الفرسان قال: كتب عمر إلى سلمان بن ربيعة الباهلي - أو إلى النعمان

بن مقرن: إن في جندك رجلين من العرب: عمرو بن معد يكرب وطلحة بن خويلد، فأحضرهما الناس وأدبهما وشاورهما في الحرب، وابعثهما في الطلائع، ولا تولهما عملاً من أعمال المسلمين، وإذا وضعت الحرب أوزارها، فضعهما حيث وضعا أنفسهما. قال: وكان عمرو ارتد، وطلحة تنبأ.

وروى أبو عبيدة أيضاً في هذا الكتاب، قال: قدم عمرو بن معد يكرب والأجلح بن وقاص الفهمي على عمر، فأتياه وبين يديه مال يوزن، فقال: متى قدمتما؟ قالوا: يوم الخميس، قال: فما حبكما عني؟ قالوا: شغلنا المنزل يوم قدمنا، ثم كانت الجمعة، ثم غدونا عليك اليوم. فلما فرغ من وزن المال نحاه، وأقبل عليهما، فقال: هيه! فقال عمرو بن معد يكرب: يا أمير المؤمنين، هذا الأجلح بن وقاص، الشديد المرة، البعيد الغرة، الوشيك الكرة، والله ما رأيت مثله حين الرجال صارع ومصروع! والله لكأنه لا يموت. فقال عمر للأجلح - وأقبل عليه، وقد عرف الغضب في وجهه: هيه يا أجلح! فقال الأجلح: يا أمير المؤمنين، تركت الناس خلفي صالحين، كثيراً نسلهم، دارة أرزاقهم، خصبة بلادهم، أجرياء على عدوهم، فاكلاً عدوهم عنهم، فسميت الله بك، فما رأينا مثلك إلا من سبقك، فقال: ما منعك أن تقول في صاحبك مثل ما قال فيك؟ قال: ما رأيت من وجهك، قال: أصبت، أما إنك لو قلت فيه مثل الذي قال فيك لأوجعتكما ضرباً وعقوبة، فإذا تركتك لنفسك فساتركه لك، والله لوددت لو سلمت لكم حالكم، ودامت عليكم أموركم. أما إنه سيأتي عليك يوم تعضه وينهشك، وقره وينحك، ولست له يومئذ وليس لك، فإن لا يكن بعهدكم، فما أقربه منكم! لما أسر الهرمزان صاحب الأهواز وتستر وحمل إلى عمر، حمل ومعه رجال من المسلمين، فيهم الأحنف بن قيس وأنس بن مالك، فأدخلوه في المدينة في هيئته، وعليه تاجه الذهب وكسوته، فوجدوا عمر نائماً في جانب المسجد، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هوذا، قال: وأين حراسه وحجابه؟ قالوا: لا حارس له ولا حاجب، قال: فينبغي أن يكون هذا نبياً! قالوا: إنه يعمل عمل الأنبياء.

فاستيقظ عمر، فقال: الهرمزان! قالوا: نعم، قال: لا أكلمه حتى لا يبقى عليه من حليته شيء، فرموا بالحلية وألبسوه ثوباً ضعيفاً، فقال عمر: يا هرمزان؟ كيف رأيت وبال الغدر؟ - وقد كان صالح المسلمين مرة ثم نكث - فقال: يا عمر، إنا وإياكم في الجاهلية كنا نغلبكم إذ لم يكن الله معكم ولا معنا، فلما كان الله معكم غلبتمونا، قال: فما عذرك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ قال: أخاف إن قلت أن تقتلني، قال: لا بأس عليك! فأخبرني، فاستقى ماء، فأخذه وجعلت يده ترعد، قال: مالك؟ قال: أخاف أن تقتلني وأنا أشرب، قال: لا بأس عليك حتى تشربه، فألقاه من يد؟ فقال: ما بالك! أعيدوا عليه الماء ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش، قال: كيف تقتلني وقد أمنتني؟ قال: كذبت! قال: لم أكذب، فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قال: ويحك يا أنس! أنا أؤمن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك! والله لتأتيني بالمرحج أو لأعاقبك! قال: إنك قلت: لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشرب! وقال له ناس من المسلمين مثل قول أنس، فأقبل على الهرمزان، فقال: تخدعني! والله لا تخدعني إلا أن تسلم، فأسلم، ففرض له ألفين، وأنزله المدينة. بعث عمر عمير بن سعيد الأنصاري عاملاً على حمص، فمكث حولاً لا يأتيه خبره، ثم كتب إليه بعد حول: إذا أتاك كتابي هذا فأقبل واحمل ما جبيت من مال المسلمين، فأخذ عمير جرابه، وجعل فيه زاده وقصعته، وعلق أذاته، وأخذ

عزته ، وأقبل ماشياً من حمص حتى دخل المدينة، وقد شحب لونه، واغبر وجهه، وطال شعره. فدخل على عمر فسلم، فقال عمر: ما شأنك يا عمير؟ قال: ما ترى من شأني، أليست تراني صحيح البدن، ظاهر الدم، معي الدنيا أجزأها بقرنيها؟ قال: وما معك - فظن عمر أنه قد جاء بمال، قال: معي جراي أجعل فيه زادي، وقصعتي أكل فيها وأغسل منها رأسي وثيابي، وأداتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعترتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن عرض لي. قال عمر: أفجئت ماشياً؟ قال: نعم، لم يكن لي دابة، قال: أفما كان في رعيك أحد يتبرع لك بدابة تركبها؟ قال: ما فعلوا، ولا سألتهم ذلك، قال عمر: ينس المسلمون خرجت من عندهم! قال عمير: اتق الله يا عمر، ولا تقل إلا خيراً، قد نهاك الله عن الغيبة، وقد رأيتهم يصلون! قال عمر: فماذا صنعت في إمارتك؟ قال: وما سؤالك؟ قال: سبحان الله! قال: أما إني لولا أخشى أن أعمل ما أخبرتك. أتيت البلد، فجمعت صلحاء أهله فوليتهم جبايته، ووضعته في مواضعه، ولو أصابك منه شيء لأتاك، قال: أفما جئت بشيء؟ قال: لا، فقال: جددوا لعمير عهداً، قال: إن ذلك لشيء لا أعمله بعد لك، ولا لأحد بعدك، والله ما كدت أسلم - بل لم أسلم، قلت لنصراني معاهد: أحزاك الله، فهذا ما عرضتني له يا عمر! إن أشقى أيامي ليوم صحبتك! ثم استأذنه في الانصراف، فأذن له، ومثله بقاء بعيداً عن المدينة، فأمهله عمر أياماً ثم بعث رجلاً يقال له الحارث، فقال: انطلق إلى عمير بن سعيد وهذه مائة دينار، فإن وجدت عليه أثراً فأقبل علي بها، وإن رأيت حالاً شديدة فادفع إليه هذه المائة، فانطلق الحارث فوجد عميراً جالساً يفلي قميصاً له إلى جانب حائط، فسلم عليه، فقال عمير: انزل رحمك الله! فترل فقال: من أين جئت؟ قال: من المدينة، قال: كيف تركت أمير المؤمنين؟ قال: صالحاً، قال: كيف تركت المسلمين؟ قال: صالحين، قال: أليس عمر يقيم الحدود؟ قال: بلى، ضرب ابنا له على فاحشة فمات من ضربه، فقال عمير: اللهم أعن عمر، فإنني لا أعلمه إلا شديداً حبه لك! قال: فترل به ثلاثة أيام، وليس لهم إلا قرص من شعير كانوا يخصونه كل يوم به ويطوون، حتى نالهم الجهد، فقال له عمير: إنك قد أجمعنا، فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل، فأخرج الحارث الدنانير فدفعها إليه، وقال: بعث بها أمير المؤمنين، فاستغن بها، فصاح وقال: ردها، لا حاجة لي فيها، فقالت المرأة: خذها ثم ضعها في موضعها، فقال: مالي شيء أجعلها فيه! فشقت أسفل درعها فأعطته خرقة فشدها فيها، ثم خرج فقسّمها كلها بين أبناء الشهداء والفقراء، فجاء الحارث إلى عمر فأخبره، فقال: رحم الله عميراً! ثم لم يلبث أن هلك، فعظم مهلكه على عمر، وخرج مع رهط من أصحابه ماشين إلى بقيع الغرقد، فقال لأصحابه: ليرتد كل واحد منا أمنيته، فكل واحد تمنى شيئاً، وانتهت الأمنية إلى عمر؟ فقال: وددت أن لي رجلاً مثل عمير بن سعيد أستعين به على أمور المسلمين!

بعض من كلام عمر

ومن كلام عمر: إياكم وهذه المحاوز، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر. وقال: إياكم والراحة فإنها غفلة. وقال: السمن غفلة. وقال: لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، واستعينوا عليهن بالعري، وعودوهن قول "لا"، فإن "نعم" تجرّهن على المسألة. وقال: تبين عقل المرء في كل شيء، حتى في علقته، فإذا رأيت يتوقى على نفسه الصبر عن شهوته، ويحتمي من مطعمه

ومشربه، عرفت ذلك في عقله؟ وما سألني رجل عن شيء قط إلا تبين لي عقله في ذلك.
وقال: إن للناس حدوداً ومنازل، فأنزلوا كل رجل منزله، وضعوا كل إنسان في حده، واحملوا كل امرئ بفعله على قدره.

وقال: اعتبروا عزيمة الرجل بحميته، وعقله بمتاع بيته. قال أبو عثمان الجاحظ: لأنه ليس من العقل أن يكون فرشه ليداً ومرفقته طبرية.

وقال: من يئس من شيء استغنى عنه، وعز المؤمن استغناؤه عن الناس.

وقال: لا يقوم بأمر الله إلا من يصانع، ولا يصارع، ولا يتبع المطامع.

وقال: لا تضعفوا همتكم، فإني لم أر شيئاً أقعد برجلٍ عن مكرمةٍ من ضعف همته.

ووعظ رجلاً فقال: لا تلهك الناس عن نفسك، فإن الأمور إليك تصل دونهم، ولا تقطع النهار سادراً، فإنه محفوظ

عليك، فإذا أسأت فأحسن، فإني لم أر شيئاً أشد طلباً، ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثه للذنوب قديم.

وقال: احذر من فلتات السباب، وكل ما أورثك النبز، وأعلقك اللقب، فإنه إن يعظم بعده شأنك يشتد على ذلك ندمك.

وقال: كل عمل كرهت من أجله الموت فاتركه، ثم لا يضرك متى مت.

وقال: أقلل من الدين تعش حراً، وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت، وانظر في أي نصاب تضع ولدك، فإن العرق دساس.

وقال: ترك الخطيئة أسهل من معالجة التوبة.

وقال: احذروا النعمة حذركم المعصية، وهي أخفهما عليكم عندي.

وقال: احذروا عاقبة الفراغ، فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر.

وقال: أجود الناس من يوجد على من يرجو ثوابه، وأحلمهم من عفا بعد القدرة، وأبخلهم من بخل بالسلام، وأعجزهم من عجز في دعائه.

وقال: رب نظرة زرعت شهوة، ورب شهوة أورثت حزناً دائماً.

وقال: ثلاث خصال من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان: حلم يرد به جهل الجاهل، وورع يحجزه عن المحارم، وخلق يداري به الناس.

عمر وعمر بن معد يكرب

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب "مقاتل الفرسان" أن سعد بن أبي وقاص أوفد عمرو بن معد يكرب بعد فتح القادسية إلى عمر، فسأله عمر عن سعد: كيف تركته، وكيف رضا الناس عنه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هو لهم كالأب يجمع لهم جمع الذرة، أعرابي في نمرته، أسد في تامورته، نبطي في جبايته، يقسم بالسوية، ويعدل في القضية، وينفر في

وكان سعد كتب يثني على عمرو، فقال عمر: لكأنا تعاوضتما الشاء! كتب يثني عليك، وقدمت تثني عليه! فقال: لم أثن إلا بما رأيت، قال: دع عنك سعداً، وأخبرني عن مذحج قومك.

قال: في كل فضل وخير، وقال: ما قولك في علة بن خالد؟ قال: أولئك فوارس أعراضنا، أحثنا طلباً، وأقلنا هرباً، قال: فسعد العشيرة؟ قال: أعظمنا خميساً، وأكبرنا رئيساً، وأشدنا شريساً، قال: فالحارث بن كعب؟ قال: حكمة لا ترام، قال: فمراد؟ قال: الأتقياء البررة، والمسايعير الفجرة، ألزمتنا قراراً، وأبعدنا آثاراً.

قال: فأخبرني عن الحرب، قال: مرة المذاق، إذا قلصت عن ساق، من صبر فيها عرف، ومن ضعف عنها تلف، وإنها لكما قال الشاعر:

تسعى بزينتها لكل جهول

عادت عجوزاً غير ذات حليل

مكروهة للشم والتقبيل

الحرب أول ما تكون فتية

حتى إذا استعرت وشب ضرامها

شمطاء جزت رأسها وتكرت

قال: فأخبرني عن السلاح، قال: سل عما شئت منه، قال: الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك، قال النبل؟ قال: منايا تخطئ وتصيب، قال: الترس؟ قال: ذاك المحن، وعليه تدور الدوائر، قال: الدرع؟ قال: مشغلة للراكب، متعبة للراجل، وإنها لحصن حصين. قال: السيف؟ قال: هناك قارعت أمك الهبل، قال: بل أمك، قال: بل أمي، والحمى أضرعتني لك.

عرض سليمان بن ربيعة الباهلي جنده بأرمينية، فكان لا يقبل من الخيل إلا عتيقاً فمر عمرو بن معد يكرب بفارس غليظ، فردده وقال: هذا هجين، قال عمرو: إنه ليس بهجين، ولكنه غليظ، قال: بل هو هجين، فقال عمرو: إن الهجين ليعرف الهجين. فكتب بكلمته إلى عمر، فكتب إليه: أما بعد يابن معد يكرب، فإنك القائل لأميرك ما قلت، فإنه بلغني أن عندك سيفاً تسميه الصمصامة، وإن عندي سيفاً أسميه مصمماً، واقسم بالله لئن وضعته بين أذنيك لا يقلع حتى يبلغ قحفك.

وكتب إلى سليمان بن ربيعة يلومه في حلمه عنه، فلما قرأ عمرو الكتاب، قال: من ترونيه يعني؟ قالوا: أنت أعلم، قال: هددني بعلي والله، وقد كان صلي بناره مرة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفلت من يده بجريعة الذقن، وذلك حين ارتدت مذحج، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليها فروة بن مسيك المرادي، فأساء السيرة، ونابد عمرو بن معد يكرب ففارقه في كثير من قبائل مذحج، فاستجاش فروة عليه وعليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل خالد بن سعيد بن العاص في سرية. وخالد بن الوليد بعده في سرية ثانية، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في سرية ثالثة، وكتب إليهم: كل واحد منكم أمير من معه، فإذا اجتمعتم فعلي أمير على الكل، فاجتمعوا بموضع من أرض اليمن يقال له "كسر"، فاقتتلوا هناك، وصمد عمرو بن معد يكرب لعلي رضي الله عنه - وكان يظن أن لا يثبت له أحد من شجعان العرب - فثبت له، فعلا عليه، وعابن منه ما لم يكن يحسبه، ففر من بين يديه هارباً ناجياً بحشاشة نفسه، بعد أن كاد يقتله، وفر معه رؤساء مذحج وفرسانهم، وغنم المسلمون أموالهم، وسبيت ذلك اليوم ريحانة بنت معد يكرب

أخت عمرو، فأدى خالد بن سعيد بن العاص فداءها من ماله، أصابه عمرو أخوها الصمصامة، فلم يزل ينتقل في بني أمية ويتداولونه واحداً بعد واحد حتى صار إلى بني العباس في أيام المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر.

كلمات عمر الغريبة وتفسيرها

فأما ما نقل عن عمر من الألفاظ الغريبة اللغوية التي شرحها المفسرون، فنحن نذكر من ذلك ما يليق بهذا الكتاب.

قال! أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه: روى عبد الرحمن بن أبي زيد، عن عمران بن سودة الليثي، قال: صليت الصبح مع عمر، فقرأ "سبحان" وسورة معها، ثم انصرف، فقمت معه، فقال: أحاجة؟ قلت: حاجة، قال: فالحق، فلحقت، فلما دخل أذن، فإذا هو على رمال سرير، ليس فوقه شيء، فقلت: نصيحة! قال: مرحبا بالناصح غدواً وعشيا، قلت: عابت أمتك - أو قال رعيتك - عليك أربعاً، قال: فوضع عود الدرة ثم ذقن عليها - هكذا روى ابن قتيبة - وقال أبو جعفر: "فوضع رأس درته في ذقنه" ووضع أسفلها على فخذه، وقال: هات - قال: ذكروا أنك حرمت المتعة في أشهر الحج - وزاد أبو جعفر: "وهي حلال" - ولم يحرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر، فقال: أجل إنكم إذا اعتمرتم في أشهر حركم رأيتموها مجزئة عن حركم، ففرع حركم، وكانت قابية قوب عامها والحج بهاء من بهاء الله، وقد أصبت. قال: وذكروا أنك حرمت متعة النساء، وقد كان رخصة من الله نستمتع بقبضة، ونفارق عن ثلاث، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلها في زمان ضرورة، ورجع الناس إلى السعة، ثم لم أعلم أحداً من المسلمين عاد إليها، ولا عمل بها، فالآن من شاء نكح بقبضة، وفارق عن ثلاث بطلاق وقد أصبت. وقال: ذكروا أنك أعتقت الأمة، إذا وضعت ذا بطنها بغير عتاقة سيدها. قال: ألحقت حرمة بجرمة، وما أردت إلا الخير، وأستغفر الله.

قال: وشكوا منك عنف السياق، ونهر الرعية. قال: فترع الدرة ثم مسحها حتى أتى على سيورها، وقال: وأنا زميل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة قرقرة الكدر، فوالله إني لأرتع فاشبع، وأسقي فأروي، وإني لأضرب العروض، وأزجر العجول، وأؤدب قدري، وأسوق خطوتي، وأرد اللفوت، وأضم العنود، وأكثر الضجر، وأقل الضرب، وأشهر بالعصا، وأدفع باليد، ولولا ذلك لأعذرت.

قال أبو جعفر: فكان معاوية إذا حدث بهذا الحديث يقول: كان والله عالماً برعيته.

قال ابن قتيبة: رملت السرير وأرملته، إذا نسجته بشريط من خوص أو ليف.

وذقن عليها، أي وضع عليها ذقنه يستمع الحديث.

وقوله: فقرع حركم، أي خلت أيام الحج من الناس، وكانوا يتعوذون من قرع الفناء، وذلك ألا يكون عليه غاشية وزوار، ومن قرع المراح، وذلك ألا يكون فيه إبل والقابية: قشر البيضة إذا خرج منها الفرخ، والقوب: الفرخ، قال الكميت:

من الأمثال قابية وقوب

لهن وللمشيب ومن علاه

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

أراد أن النساء ينفرن من ذي الشيب ويفارقنه كما يفارق الفرخ البيضة، فلا يعود إليها بعد خروجه منها أبداً، وروي عن عمر: إنكم إذا رأيتم العمرة في أشهر الحج كافية من الحج خلت مكة من الحجاج، فكانت كبيضة فارقتها فرحها. قوله: "إني لأرتع فأشبع، وأسقي فأروي" مثل مستعار من رعي الإبل، أي إذا أرتعت الإبل، أي أرسلتها ترعى تركتها حتى تشبع، وإذا سقيتها تركتها تروى.

وقوله: "أضرب العروض"، العروض: الناقة تأخذ يميناً وشمالاً، ولا تلزم المحجة، يقول: أضربها حتى تعود إلى الطريق. ومثله قوله: "وأضم العنود".

والعجول: البعير يند عن الإبل، يركب رأسه عجلًا ويستقبلها.

قوله: "وأؤدب قدري"، أي قدر طاقتي.

وقوله: "وأسوق خطوتي" أي قدر خطوتي.

واللفوت: البعير يلتفت يميناً وشمالاً ويروغ.

وقوله: وأكثر الزجر وأقل الضرب أي أنه يقتصر من التأديب في السياسة على ما يكتفي به، حتى يضطر إلى ما هو أشد منه وأغلظ.

وقوله: "وأشهر بالعصا وأدفع باليد"، يريد أنه يرفع العصا يرهب بها ولا يستعملها، ولكنه يدفع بيده.

قوله: "ولولا ذلك لأعذرت" أي لولا هذا التدبير وهذه السياسة لخلفت بعض ما أسوق، ويقال: أعذر الراعي الشاة والناقة إذا تركها، والشاة العذيرة وعذرت هي، إذا تخلفت عن الغنم.

قال ابن قتيبة، وهذه أمثال ضربها، وأصلها في رعية الإبل وسوقها، وإنما يريد بها حسن سياسته للناس في الغزاة التي ذكرها، يقول: فإذا كنت أفعل كذا في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم مع طاعة الناس له، وتعظيمهم إياه، فكيف لا أفعله بعده!

وعندي أن ابن قتيبة غلط في هذا التأويل، وليس في كلام عمر ما يدل على ذلك وليس عمر في غزاة قرقرة الكدر يسوس الناس ولا يأمرهم ولا ينههم، وكيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم حاضر بينهم! ولا كان في غزاة قرقرة الكدر حرب، ولا ما يحتاج فيه إلى السياسة، وهل كان لعمر أو لغير عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي أن يرتع فيشبع، ويسقي فيروي! وهل تكون هذه الصفات وما بعدها إلا للرئيس الأعظم! والذي أراد عمر ذكر حاله في خلافته راداً على عمران بن سودة في قوله: "إن الرعية يشكون منك عنف السياق وشدة النهر"، فقال: ليشكون! فوالله إني لرفيق بهم، ومستقص في سياستهم، ولا ناهك لهم عقوبة، وإني لأقعق بالهبة والتهويل عليهم، ولا أعمل العصا حيث يمكنني الاكتفاء باليد، وإني أرد الشارد منهم وأعدل المائل... إلى غير ذلك من الأمور، التي عددها وأحسن في تعديدها. وإنما ذكر قوله: "أنا زميل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة قرقرة الكدر"، على عادة العرب في الافتخار وقت المنافرة وعندما تجيش النفس ويحمى القلب، كما كان علي رضي الله عنه يقول وقت الحاجة: "أنا عبد الله وأخو رسوله"، فيذكر أشرف أحواله، والمزية التي اختص بها عن غيره، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة قرقرة الكدر أردف عمر معه على بعيره، فكان عمر يفخر بها ويذكرها وقت الحاجة إليها.

وفي حديث عمر أنه خرج من الخلاء، فدعا بطعام فقيل له: ألا تتوضأ؟ فقال: لولا التنطس ما باليت ألا أغسل يدي.
قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قال ابن علية: التنطس التقذر. وقال الأصمعي: هو المبالغة في التطهر، فكل من أدق النظر في الأمور واستقصى علمها فهو متنطس، ومنه قيل للطبيب: النطاسي والنطيس لدقة علمه بالطب.

وفي حديث عمر حين سأل الأسقف عن الخلفاء، فحدثه، حتى إذا انتهى إلى الرابع، فقال: صدع من حديد، وقال عمر: وادفراه! قال أبو عبيدة، قال الأصمعي: كان حماد بن سلمه يقول: "صدأ من حديد"، وهذا أشبه بالمعنى، لأن الصدأ له دفر وهو النتن، والصدع لا دفر له، وقيل للدنيا أم دفر، لما فيها من الدواهي والآفات، فأما الدفر بالذال المعجمة وفتح الفاء فهو الريح الذكية من طيب أو نتن.

وعندي في هذا الحديث كلام، والأظهر أن الرواية المشهورة هي الصحيحة، وهي قوله: "صدع من حديد"، ولكن بفتح الدال، وهو ما كان من الوعول؟ بين العظيم والشخت، فإن ثبتت الرواية بتسكين الدال فغير ممتنع أيضاً، يقال: رجل صدع، إذا كان ضرباً من الرجال، ليس برهل ولا غليظ.

ورابع الخلفاء هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأراد الأسقف مدحه.

وقول عمر: "وادفراه!" إشارة إلى نفسه، كأنه استصغر نفسه وعابها بالنسبة إلى ما وصفه الأسقف من مدح الرابع وإطرائه.

فأما تأويل أبي عبيدة فإنه ظن أن الرابع عثمان، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم معدوداً من الجملة ليصح كون عثمان رابعاً، وجعل الدفر والنتن له، وصرف اللفظ عن الرواية المشهورة إلى غيرها، فقال: "صدأ حديد"، ليطابق لفظة النتن على ما يليق بها، فغير خاف ما فيه من التعسف، ورفض الرواية المشهورة.

وأيضاً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجوز إدخاله فيا لفظ الخلفاء، لأنه ليس بخليفة، لأن الخليفة من يخلف غيره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مستخلف الناس كلهم وليس بخليفة لأحد.

وفي حديث عمر، قال عند موته: "لو أن لي ما في الأرض جميعاً لافتديت به من هول المطلع" قال أبو عبيد: هو موضع الإطلاع من إشراف إلى انحدار، أو من انحدار إلى إشراف، وهو من الأضداد، فشبه ما أشرف عليه من أمر الآخرة. وفي حديث عمر، حين بعث حذيفة وابن حنيف إلى السواد ففلجوا الجزية على أهله.

قال أبو عبيد: فلجاً أي قسماً بالفلج، وأصله من الفلج، وهو المكيال الذي يقال له الفلج لأن خراجهم كان طعاماً. وفي حديث عمر حين قال له حذيفة: إنك تستعين بالرجل الذي فيه - وبعضهم يرويه بالرجل الفاجر، فقال: "أستعمله لأستعين بقوته، ثم أكون على قفانه".

قال أبو عبيد في الأصمعي: قفان كل شيء جماعه واستقصاء معرفته، يقول: أكون على تتبع أمره حتى أستقصى عمله وأعرفه.

قال أبو عبيد: لا أحسب هذه الكلمة عربية، وإنما أصلها "قبان"، ومنه قول العامة: فلان قبان على فلان، إذا كان بمنزلة الأمين عليه والرئيس الذي يتتبع أمره ويحاسبه، وبه سمي هذا الميزان الذي يقال له القبان.

وفي حديث عمر حين قال لابن عباس وقد شاوره في شيء فأعجبه كلامه: نشنشة أعرفها من أحسن، هكذا الرواية، وأما أهل العلم فيقولون: "شنشنة أعرفها من أخزم".

والشنشنة في بعض الأحوال قد تكون بمعنى المضغة أو القطعة تقطع من اللحم، والقول المشهور أن الشنشنة مثل الطبيعة والسجية، فأراد عمر إني أعرف فيك مشابه من أهلك في رأيه، ويقال: إنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس. قال: وقد قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: يجوز "شنشنة" و "نششنة"، وغيره ينكر "نششنة".

وفي حديث عمر يوم السقيفة، قال: "وقد كنت زورت في نفسي قالة، أقوم بها بين يدي أبي بكر، فلم يترك أبو بكر شيئاً مما زورته إلا تكلم به".

قال أبو عبيد: التزوير إصلاح الكلام وهيئته كالتزويق.

وفي حديث عمر حين ضرب الرجل الذي أقسم على أم سلمة ثلاثين سوطاً كلها تبضع وتحذر، قال أبو عبيد: أي تشق وتورم، حذر الجلد يحدره وأحدره غيره.

وفي حديثه أنه قال لمؤذن بيت المقدس: "إذا أذنت فترسل، وإذا أقيمت فاحذم".

قال أبو عبيد: الحذم بالحاء المهملة الحذر في الإقامة، وقطع التطويل، وأصله في المشي، وهو الإسراع فيه، وأن يكون مع هذا كأنه يهوي بيده إلى خلفه، والجذم بالجيم أيضاً القطع، وكذلك الحذم بالحاء المعجمة.

وفي حديثه أنه قال: "لا يقر رجل أنه يطاءً جاريته إلا ألحقت به ولدها، فمن شاء فليمسكها ومن شاء فليرسلها".

قال أبو عبيد: هكذا الرواية بالسین المهملة والمعروف أنه: "الإرشال" بالشين المعجمة، ولعله حول الشين إلى السين كما يقال سميت العاطس، أي شمته.

وفي حديثه: "كذب عليكم الحج، كذب عليكم العمرة، كذب عليكم الجهاد، ثلاثة أسفار، كذبت عليكم".

قال أبو عبيد: معنى كذب عليكم الإغراء، أي عليكم به، وكان الأصل في هذا أن يكون نصباً، ولكنه جاء عنهم بالرفع شاذاً على غير قياس، ومما يحقق أنه مرفوع قول الشاعر:

كما قاف آثار الوثيقة قائف

كذبت عليك لا تزال تقوفني

فقوله: "كذبت عليك"، إنما أغراه بنفسه، أي عليك بي؟ فجعل نفسه في موضع رفع، ألا تراه قد جاء بالباء فجعلها اسمه. وقال معمر بن حمار البارقي:

بأن كذب القراطيف والقرووف

وذبيانية وصت بنبيها

فرفع، والشعر مرفوع، ومعناه عليكم بالقراطيف والقرووف، والقراطيف: القطف وأحدها قرطف. والقرووف: الأوعية.

ومما يحقق الرفع أيضاً قول عمر "كذبت عليكم"، قال أبو عبيد: ولم أسمع النصب في هذا إلا حرفاً، كان أبو عبيد يحكيه عن أعرابي نظر إلى ناقة نضو لرجل، فقال: كذب عليك البزر والنوى لم أسمع في هذا نصباً غير هذا الحرف.

قال: والعرب تقول للمريض: كذب عليك العسل، بالرفع، أي عليك به.

وفي حديثه: "ما يمنعكم إذا رأيتم الرجل يخرق أعراض الناس ألا تعربوا عليه؟" قالوا: نخاف لسانه، قال: "ذاك أدنى ألا

تكونوا شهداء".

قال أبو عبيد: "ألا تعربوا"، أي ألا تفسدوا عليه كلامه وتقبحوه له.

وفي حديثه: أنه نهي عن الفرس في الذبيحة.

قال أبو عبيد. قيل في تفسيره: أن ينتهي بالذبح إلى النخاع وهو عظم في الرقبة، وربما فسر النخاع، بأنه المخ الذي في فقار الصلب متصلاً بالقفا، فنهى أن ينتهي بالذبح إلى ذلك، وقيل في تفسيره أيضاً: أن يكسر رقبة الذبيحة قبل أن تبرد، ويؤكد هذا التفسير قوله في تمام الحديث: "ولا تعجلوا الأنفس حتى تزهق".

وفي حديثه حين أتاه رجل يسأله أيام الحبل، فقال له: هلكت وأهلك، فقال عمر: "أهلك وأنت تنث نثيث الحميت، أعطوه ربة من الصدقة"، فخرجت يتبعها ظئراها.

قال أبو عبيد: قد روي: "تمث"، بالميم والمحفوظ بالنون. وتث، أي ترشح وتعرق من سمنك وكثرة لحمك، والحميت: النحي وفيه الرب أو السمن أو نحوها. والربة: ما ولد في أول التاج، والذكر ربع.

وفي حديثه أنه خرج إلى المسجد للاستسقاء فصعد المنبر، فلم يزد على الاستغفار حتى نزل فقل: إنك لم تستسق، فقال: "لقد استسقيت بمجاديح السماء".

قال أبو عبيد: جعل الاستغفار استسقاء، تأول فيه قوله تعالى: "استغفروا ربكم إنه كان غفاراً" يرسل السماء عليكم مدراراً". والمجاديح: جمع مجدح وهو النجم الذي كانت العرب تزعم أنها تمطر به، ويقال: مجدح بضم الميم، وإنما قال عمر ذلك، على أنها كلمة جارية على السنة العرب، ليس على تحقيق الأنواء، ولا التصديق بها وهذا شبيهه بقول ابن عباس في رجل جعل أمر امرأته بيدها، فقالت له: أنت طالق ثلاثاً، فقال خطأ الله نوءها! ألا طلقت نفسها ثلاثاً! ليس هذا دعاء منه ألا تمطر، إنما ذلك على الكلام المقول.

ومما يبين أن عمر أراد إبطال الأنواء والتكذيب بما قوله: "لقد استسقيت بمجاديح السماء": التي يستسقى بها الغيث، فجعل الاستغفار هو المجادح لا الأنواء.

وفي حديثه، وهو يذكر حال صباه في الجاهلية: لقد رأيته مرة وأختا لي نرعى على أبويننا ناضحاً لنا، قد ألبستنا أمنا نقبتها، وزودتنا يمينتيها من الهبيد، فنخرج بناضحنا، فإذا طلعت الشمس، ألقيت النقبة إلى أختي، وخرجت أسعى عريان فنرجع إلى أمنا، وقد جعلت لنا لفيفة من ذلك الهبيد؟ فيا خصباه! قال أبو عبيد: الناضح: البعير الذي يسنى عليه فيسقى به الأرض، والأنثى ناضحة، وهي السانية أيضاً، والجمع سوان، وقد لست تسنو، ولا يقال: ناضخ لغير المستسقي. والنقبة أن تؤخذ القطعة من الثوب قدر السراويل فيجعل لها حجرة مخيطة من غير نيفق، وتشد كما تشد حجرة السراويل، فإن كان لها نيفق وساقان، فهي سراويل.

وقال: والذي وردت به الرواية "زودتنا يمينتيها"، والوجه في الكلام أن يكون "يمينتيها" بالتشديد، لأنه تصغير "يمين" بلا هاء، وإنما قال: "يمينتيها" ولم يقل: يديها ولا كفيها لأنه لم يرد أنها جمعت كفيها ثم أعطتنا بهما، وإنما أراد أنها أعطت كل واحد كفاً يمينها، فهاتان يمينان.

الهيبيد: حب الحنظل، زعموا أنه يعالج حتى يمكن أكله ويطيب.

واللفيفة: ضرب من الطبخ كالحساء.

وفي حديثه: "إذا مر أحدكم بحائط فليأكل منه، ولا يتخذ ثبناً".

قال أبو عبيد: هو الوعاء الذي يحمل فيه الشيء؟ فإن حملته بين يديك فهو ثبان، وإن جعلته في حضنك فهي حبة.

وفي حديثه: "لو أشاء لدعوت بصلاء وصناب وصلائق وكركرة وأسمنة وأفلاذ".

قال أبو عبيد: الصلاء: الشواء. والصناب: الخردل بالزبيب. والصلائق: الخبز الرقيق، ومن رواه سلائق بالسین أراد ما يسلق من البقول وغيرها. والكرراكر، كراكر الإبل. والأفلاذ: جمع فلذ وهو القطعة من الكبد.

وفي حديثه: "لو شئت أن يدهمق لي لفعلت".

قال أبو عبيد: ودهمقت الطعام، إذا لينته ورقفته وطيبته.

وفي حديثه: "لئن بقيت لأسوين بين الناس، حتى يأتي الراعي حقه في صفنه لم يعرق جبينه".

الصفن: خريطة للراعي فيها طعامه وما يحتاج إليه. وروي بفتح الصاد، ويقال أيضاً في صفينه.

وفي حديثه: "لئن بقيت إلى قابل، ليأتين كل مسلم حقه، حتى يأتي الراعي بسرو حمير، لم يعرق جبينه".

السرو مثل الخيف، وهو ما انحدر عن الجبل وارتفع عن المسيل.

وفي حديثه: "لئن عشت إلى قابل، لألحقن آخر الناس بأولهم، حتى يكونوا بئناً واحداً".

قال أبو عبيد: قال ابن مهدي: يعني شيئاً واحداً، ولا أحسب هذه الكلمة عربية، ولم أسمعها في غير هذا الحديث.

وفي حديثه: أنه خطب، فقال: "ألا إن الأسيفع - أسيفع جهينة - رضي من دينه وأمانته، بأن يقال: سابق الحاج - أو قال: سبق الحاج - فادان معرضاً فأصبح قد رين به؟ فمن كان له عليه دين فليغد بالغداة، فلنقسم ماله بينهم بالحصص". قوله: فادان معرضاً أي استدان معرضاً، وهو الذي يعترض الناس فيستدين ممن أمكنه، وكل شيء أمكنك من عرضه فهو معرض لك، كقوله: والبحر معرضاً والسدير، ورين بالرجل، إذا وقع فيما لا يمكنه الخروج منه.

وفي حديثه: أنه قال لمولاه أسلم - وراه يحمل متاعه على بعير من إبل الصدقة - فقال: "فهلا ناقة شصوصاً أو ابن لبون بوالاً".

الشصوص: التي قد ذهب لبنها، ووصف ابن اللبون بالبول، وإن كانت كلها تبول، إنما أراد: ليس عنده سوى البول، أي ليس عنده مما ينتفع به من ظهر ولا له ضرع فيحلب، لا يزيد على أنه بوال فقط.

وفي حديثه: حين قيل له: إن النساء قد اجتمعن يكيين على خالد بن الوليد، فقال: وما على نساء بني المغيرة أن يسفكن من دموعهن على أبي سليمان، ما لم يكن نفع ولا لقلقة".

قيل: النقع ههنا طعام المأتم، والأشبه أن النقع رفع الصوت، والقلقة مثله.

وفي حديثه: أن سلمان بن ربيعة الباهلي شكاً إليه عاملاً من عماله، فضربه بالدرة حتى انهج، قال أبو عبيد: أي أصابه النفس والبهر من الإعياء.

وفي حديثه حين قدم عليه أحد بني ثور، فقال له: هل من مغربة خير؟ فقال: نعم أخذنا رجلاً من العرب، كفر بعد إسلامه فقدمناه فضربنا عنقه، فقال: "فهلاً أدخلتموه جوف بيت فألقيتم إليه كل يوم رغيفاً ثلاثة أيام، لعله يتوب أو يراجع! اللهم لم أشهد ولم آمر، ولم أرض إذ بلغني .

يقال: هل من مغربة خير بكسر الراء، ويروى بفتحها، وأصله البعد، ومنه شأؤ مغرب.

وفي حديثه أنه قال: الله ليضربن أحدكم أخاه بمثل أكلة اللحم، ثم يرى أنه لا أقيده، والله لأقيده، قال أبو عبيد: أكلة اللحم: عصا محددة.

وفي حديثه "أعضل بي أهل الكوفة، ما يرضون بأمير، ولا يرضاهم أمير". هو من العضال، وهو الداء والأمر الشديد الذي لا يقوم له صاحبه.

وفي حديثه: أنه خطب فذكر الربا، فقال: "إن منه أبواباً لا تخفى على أحد، منها السلم في السن، وأن تباع الثمرة وهي مغضفة ولما تطب، وأن يباع الذهب بالورق نساء".

قال أبو عبيد: السلم في السن أن يسلف الرجل في الرقيق والدواب وغيرها من الحيوان، لأنه ليس له حد معلوم. والمغضفة: المتدلية في شجرها، وكل مسترخ أعصف، أي تكون غير مدركة.

وفي حديثه: أنه خطب، فقال: ألا لا تغالوا في صداق النساء، فإن الرجل يغالي بصداق المرأة، حتى يكون ذلك لها في قلبه عداوة، تقول: جشمت إليك عرق القربة.

قال: معناه تكلفت لك حتى عرقت عرق القربة، وعرقها: سيلان مائها.

وفي حديثه: أنه رفع إليه غلام ابتهر جارية في شعره، فقال: انظروا إليه، فلم يوجد أنبت، فدرأ عنه الحد.

قال أبو عبيد: ابتهرها، أي قذفها بنفسه، فقال: فعلت بها.

وفي حديثه: أنه قفى في الأرنب بحلان إذا قتلها الحرم، قال: الحلان: الجدي.

وفي حديثه: أنه قال: حجة هاهنا، ثم أحدج هاهنا حتى تفنى.

قال: يأمر بحجة الإسلام لا غير، ثم بعدها الغزو في سبيل الله، حتى تفنى أي حتى تهرم.

وفي حديثه: أنه سافر في عقب رمضان، وقال: "إن الشهر قد تسعسع، فلو صمنا بقيته".

قال أبو عبيد: السين مكررة مهملة، والعين مهملة، أي أدبر وفني.

وفي حديثه - وقد سمع رجلاً خطب فأكثر فقال "إن كثيراً من الخطب من شقاشق الشيطان".

الواحدة شقشقة، وهو ما يخرج من شديق الفحل عند نزوانه، شبيهة بالرثة. والشيطان لا شقشقة له، إنما هذا مثل لما يدخل في الخطب من الكلام المكذوب وتزوير الباطل.

وفي حديثه: أنه قدم مكة، فأذن أبو محذورة، فرفع صوته فقال له: "أما حشيت يا أبا محذورة أن ينشق مريطاؤك!" قال: المريطاء: ما بين السرة إلى العانة، ويروى بالقصر.

وفي حديثه: أنه سئل عن المذي، فقال هو الفطر، وفيه الوضوء.

قال: سماه فطراً من قولهم: فطرت الناقة فطراً، إذا حلبتها بأطراف الأصابع فلا يخرج اللبن إلا قليلاً، وكذلك المذي،

وليس المني كذلك، لأنه يخرج منه مقدار كثير.

وفي حديثه: أنه سئل عن حد الأمة الزانية، فقال: "إن الأمة ألفت فروة رأسها من وراء الدار".

قال: الفروة: جلدة الرأس، وهذا مثل، إنما أراد أنها ألفت القناع وتركت الحجاب، وخرجت إلى حيث لا يمكنها أن تمتنع من الفجور، نحو رعاية الغنم؟ فكأنه يرى أن لا حد عليها.

وفي حديثه: أنه أتى بشارب، فقال لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هودة، فبعث به إلى مطيع بن الأسود العدوي، فقال: إذا أصبحت غداً فاضربه الحد، فجاء عمر وهو يضربه ضرباً شديداً، فقال: قتلت الرجل! كم ضربته؟ قال: ستين قال: "اقص عنه بعشرين".

قال: معناه اجعل شدة هذا الضرب قصاصاً بالعشرين التي بقيت من الحد فلا تضربه إياها.

وفي حديثه أن رجلاً أتاه فذكر له أن شهادة الزور قد كثرت في أرضهم، فقال: "لا يؤسر أحد في الإسلام بشهادة الزور، فإننا لا نقبل إلا العدول".

قال: لا يؤسر: لا يحبس، ومنه الأسير: المسجون.

وفي حديثه: أنه جذب السمر بعد عتمة جذبه، أي عابه ووصمه.

ومثل هذا الحديث في كراهيته السمر حديثه الآخر؟ أنه كان ينش الناس بعد العشاء بالدره، ويقول: انصرفوا إلى بيوتكم.

قال: هكذا روي بالشين المعجمة، وقيل: إن الصحيح ينس بالسين المهملة، والأظهر أنه ينوش الناس بالواو، من التناوش، قال تعالى: "وأني لهم التناوش".

وفي حديثه: "هاجروا ولا تمجروا، واتقوا الأرنب أن يحذفها أحدكم بالعصا، ولكن ليذك لكم الأسل، الرماح والنبل".

قال: رواه زر بن حبيش، قال: قدمت المدينة، فخرجنا في يوم عيد، فإذا رجل متلبب أعسر أيسر، يمشي مع الناس كأنه راكب، وهو يقول: كذا وكذا، فإذا هو عمر، يقول: هاجروا وأخلصوا الهجرة ولا تمجروا.

ولا تشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم، كقولك: تحلم الرجل، وليس بحليم، وتشجع وليس بشجاع.

والذكاة: الذبح. والأسل أعم من الرماح، وأكثر ما يستعمل في الرماح خاصة.

والمتلبب: المتحزم بثيابه.

وفلان أعسر يسر: يعمل بكلتا يديه، والذي جاء في الرواية أيسر بالهمزة.

وفي حديثه: أنه أفطر في رمضان، وهو يرى أن الشمس قد غربت ثم نظر فإذا الشمس طالعة، فقال: لا نقضيه، ما تجانفنا فيه الإثم".

يقول: لم نتعمد فيه الإثم، ولا ملنا إليه، والجنف: الميل.

وفي حديثه: أنه قال لما مات عثمان بن مظعون على فراشه: "هبنة الموت عندي منزلة حين لم يمت شهيداً، فلما مات

رسول الله صلى الله عليه وسلم على فراشه وأبو بكر، علمت أن موت الأخيار على فرشهم.

هبنة، أي طأطأه وحط من قدره.

وفي حديثه: أن رجلاً من الجن لقيه، فقال: هل لك أن تصارعني، فإن صرعتني علمتكَ آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان. فصارعه فصصره عمر، وقال له: إني أراك ضئيلاً شحيتاً، كأن ذراعيك ذراعاً كلب، أفهكذا أنتم كلكم أيها الجن، أم أنت من بينهم؟ فقال: إني من بينهم لضليع، فعاودني، فص رعه فصصره الإنسي، فقال: أتقرأ آية الكرسي؟ فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان منه، وله خبيخ كخبيخ الحمار.

قال: رواه عبد الله بن مسعود، وقال: خرج رجل من الإنس، فلقيه رجل من الجن.. ثم ذكر الحديث، فقيل له: هو عمر، فقال: ومن عسى أن يكون إلا عمر! الشحيت: النحيف الجسم، ومثله الشخت، والضليع: العظيم الخلق، والخبيخ: الضراط.

وفيه حديثه: أنه كان يطوف بالبيت، وهو يقول: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"؟ قال: هجيرى الرجل: دأبه وديده وشأنه.

ومثلها من قول عمر: لو أطيقت الأذان مع الخليقي لأذنت.

ومثلها من قول عمر بن عبد العزيز: لا رديدي في الصدقة، أي لا ترد.

ومثلها قول العرب: كانت بينهم رمياً، أي مراماة، ثم حجزت بينهم حجيرى، أي محاجزة.

وفي حديثه حين قال للرجل الذي وجد منبوءاً فأتاه به، فقال: عسى الغوير أبؤساً! قال عريفه: يا أمير المؤمنين، إنه وإنه... فأثنى عليه خيراً، وقال: فهو حر، ولاؤه لك.

الأبؤس: جمع بأس والمثل قديم مشهور، ومراد عمر: لعلك أنت صاحب هذا المنبوء! كأنه اتهمه وساء ظنه فيه، فلما أثنى عليه عريفه - أي كفيله - قال له - هذا المنبوء حر وولاؤه لك، لأنه بإنقاذه إياه من المهلكة كأنه أعتقه. وفي حديثه: إن قريشاً تريد أن تكون مغويات لمال الله.

هكذا يروى بالتخفيف والكسر، والمعروف مغويات بتشديد الياء وفتحها، واحدها مغواة، وهي حفرة كالزبية تحفر للذئب، ويجعل فيها جدي، فإذا نظر إليها الذئب سقط يريده فيصاد، ولهذا قيل: لكل مهلكة مغواة.

وفي حديثه: فرقوا عن المنية، واجعلوا الرأس رأسين، ولا تلتوا بدار معجزة، وأصلحوا مثاويكم، وأخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم، واخشوشنوا، واخشوشبوا وتمعدوا.

قال: فرقوا عن المنية، واجعلوا الرأس رأسين، أي إذا أراد أحدكم أن يشتري شيئاً من الحيوان كمملوك أو دابة فلا يغالين به، فإنه لا يدري ما يحدث فيه، ولكن ليجعل ثمنه في رأسين، وإن كان كل واحد منهما دون الأول، فإن مات أحدهما بقي الآخر.

وقوله: "ولا تلتوا بدار معجزة"، فالإلثاثة الإقامة، أي لا تقيموا ببلد يعجزكم فيه الرزق، ولكن اضطربوا في البلاد للكسب.

وهذا شبيه بحديثه الآخر: إذا اتجر أحدكم في شيء ثلاث مرات فلم يرزق منه فليدعه"، والمثاوي: المنازل، جمع مثوى. وأخيفوا الهوام، أي اقتلوا ما يظهر في دوركم من الحيات والعقارب لتخافكم، فلا تظهر، واخشوشنوا: أمر بالخشونة في العيش، ومثله "اخشوشبوا" بالباء أراد ابتذال النفس في العمل والاحتفاء في المشي ليغلظ الجلد، ويجسو.

وتمعددوا، قيل إنه من الغلظ أيضاً، يقال للغلام إذا أنبت وغلظ: قد تمعدد.

وقيل: أراد تشبهوا بمعد بن عدنان، وكانوا أهل قشف وغلظ في المعاش، أي دعوا التمتع وزي العجم.

وقد جاء عنه في حديث آخر مثله: "إليكم باللبسة المعدية.

وفي حديثه: أنه كتب إلى خالد بن الوليد: إنه بلغني أنك دخلت حماماً بالشام، وأن من بها من الأعاجم أعدوا دلوفاً عجن بخمر، وإني أظنكم آل المغيرة ذرو النار.

الدلوفاً: ما يتدلك به كالسحور والفطور ونحوهما.

وذرو النار: خلق النار. ويروى: ذرو النار بالهمزة، من ذرأ الله الناس، أي صورهم وأوجدتهم.

وفي حديثه: "املكوا العجين، فإنه أحد الريعين.

ملككت العجين: أجدت عجنه، والريع: الزيادة، والريع الثاني ما يزيد عند خبزه في التنور.

وفي حديثه حين طعن، فدخل عليه ابن عباس فرآه مغتماً بمن يستخلف بعده، فذكر عثمان فقال: كلف بأقاربه، قال:

فعلي؟ قال: فيه دعاية، قال فطلحة؟ قال: لولا بأؤ فيه، قال: فالزبير؟ قال: وعقة لقس. قال: فعبد الرحمن؟ قال: أوه!

ذكرت رجلاً صالحاً ولكنه ضعيف، وهذا الأمر لا يصلح له إلا اللين من غير ضعف، والقوي من غير عنف، قال: فسعد؟ قال: ذاك يكون في مقنب من مقانبيكم. قوله: كلف بأقاربه أي شديد الحب لهم.

والدعاية: المزاح. والبأؤ: الكبر والعظمة.

وقوله: "وعقة لقس" ويروى "ضبيس"، ومعناه كفه الشراسة، وشدة الخلق وخبث النفس. والمقنب: جماعة من الفرسان.

وفي حديثه: أنه قال عام الرمادة: لقد هممت أن أجعل مع كل أهل بيت من المسلمين مثلهم، فإن الإنسان لا يهلك على نصف شعبه، فقال له رجل: لو فعلت يا أمير المؤمنين ما كنت فيها ابن ثاداء.

قال: يريد أن الإنسان إذا اقتصر على نصف شعبه، لم يهلك جوعاً. وابن ثاداء بفتح الهمزة: ابن الأمة.

وفي حديثه: أنه قرأ في صلاة الفجر بالناس سورة يوسف، فلما انتهى إلى قوله تعالى: "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون"، بكى حتى سمع نسيجه. النسيج: صوت البكاء، يردده الصبي في صدره ولا يخرج به. وفي حديثه أنه

أتى في نساء - أو إماء - ساعيات في الجاهلية، فأمر بأولادهن أن يقوموا على آبائهم، فلا يسترقوا.

المساعة: زنا الإماء خاصة. قضى عمر في أولادهن في الجاهلية أن يسومن على آبائهم بدفع الآباء قيمتهم إلى سادات

الإماء، ويصير الأولاد أحراراً لاحقي النسب بآبائهم.

وفي حديثه: "ليس على عربي ملك، ولسنا بنازعين من يد رجل شيئاً أسلم عليهم، ولكننا نقومهم الملة خمساً من الإبل!".

قال: كانت العرب تسيب بعضها بعضاً في الجاهلية، فيأتي الإسلام والمسي في يد الإنسان كالمملوك له؟ فقضى عمر في مثل هذا أن يرد حراً إلى نسبه، وتكون قيمته على نفسه يؤديها إلى الذي سباه، لأنه أسلم وهو في يده، وقيمته كائناً ما كان

خمس من الإبل. قوله: "والملة" أي تقوم ملة الإنسان وشرعها.

وفي حديثه لما ادعى الأشعث بن قيس رقاب أهل نجران، لأنه كان سباهم في الجاهلية واستعبدتهم تغلباً فصاروا

كمماليكه، فلما أسلموا أبوا عليه، فخاصموه عند عمر في رقابهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنما كنا له عبيد مملكة، ولم نكن عبيد قن. فتغيظ عمر عليه، وقال: أردت أن تتغفلي!، يعني أردت غفلي.

وعبد قن ملك وملك أبواه، وعبد مملكة بفتح اللام وضمها: من غلب عليه واستعبد، وكان في الأصل حراً، فقضى عمر فيهم أن صيرهم أحراراً بلا عوض، لأنه ليس بسبأ على الحقيقة.

وفي حديثه: أنه قضى في ولد المغرور بغرة.

قال: هو الرجل يزوج رجلاً آخر مملوكة لإنسان آخر على أنها حرة، فقضى عمر أن يغرم الزوج لمولى الأمة غرة أي عبداً أو أمة، ويكون ولده حراً، ثم يرجع الرجل الزوج على من غره بما غرم.

وفي حديثه: أنه رأى جارية متكemme، فسأل عنها فقالوا: أمة آل فلان، فضرها بالدرة ضربات، وقال: يالكعاء! أتشبهين بالحرائر! قال متكemme: لابسة قناع، أصله الكمة، وهي كالقننسة، والأصل مكemme، فأعاد الكاف، كما قالوا: كفكف فلان عن كذا، وتصر صر الباب.

ولكعاء ولكاع بالكسر والبناء: شتم للأمة، وللرجل يقال: يا لكع.

وفي حديثه: "ورع اللص ولا تراعه".

يقول: ادفعه إذا رأيته في متزك واكففه بما استطعت، ولا تنتظر فيه شيئاً، وكل شيء كففته فقد ورعته، وكل ما تنتظره فأنت تراعيه، والمعنى أنه رخص في الإقدام على اللص بالسلب، ونهى أن يمسك عنه نائماً.

وفي حديثه: أن رجلاً أتاه، فقال: إن ابن عمي شج موصحة، فقال: أمن أهل القرى أم من أهل البادية، قال: من أهل البادية، فقال: عمر: إنا لا نتعاقل المضغ بيننا.

قال: سماها مضغاً، استصغاراً لها ولأمثالها كالسن والإصبع.

قال: ومثل ذلك لا تحمله العاقلة عند كثير من الفقهاء، وكذلك كل ما كان دون الثلث.

وفي حديثه: أنه لما حصب المسجد، قال له فلان: لم فعلت، قال: هو أغفر للنخامة، وألين في الموطىء.

أغفر لها: أسترها، وحصب المسجد: فرش به الحصباء، وهي رمل فيه حصى صغار.

وفي حديثه: أن الحارث بن أوس سأل عن المرأة تطوف بالبيت، ثم تنفر من غير أن تطوف طواف الصدر إذا كانت حائضاً، فنهاه عمر عن ذلك، فقال الحارث: كذلك أفتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: أربت يداك!

أتسألني، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كي أخالفه! قال: دعا عليه بقطع اليدين: من قولك: قطعت الشاة إرباً إرباً.

وفي حديثه: أنه سمع رجلاً يتعوذ من الفتن، فقال عمر: اللهم إني أعوذ بك من الضفافة، أتسأل ربك ألا يرزقك مالاً وولداً! قال: أراد قوله تعالى: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة". والضفافة: الحمق وضعف العقل، رجل ضفيط، أي أحمق.

وفي حديثه: "ما بال رجال لا يزال أحدهم كاسراً وسادة عند امرأة مغزية، يتحدث إليها وتحدث إليه! عليكم بالجنبة فإنها عفاف، إنما النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه".

قال: مغزية، قد غزا زوجها، فهو غائب عنها، أغزت المرأة، إذا كان بعلها غائبا، وكذلك أغابت فهي مغيبة. وعليكم بالجنبه، أي الناحية، يقول تنحوا عنهن وكلموهن من خارج المنزل. والوضم: الخشبة أو البارية يجعل عليها اللحم.

قال: وهذا مثل حديثه الآخر: "ألا لا يدخلن رجل على امرأة وإن قيل حموها، ألا حموها الموت". قال: دعا عليها. فإذا كان هذا رأيه في أبي الزوج وهو محرم لها فكيف بالغريب! وفي حديثه: "إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، فلا بيعة إلا عن مشورة، وأبما رجل بايع رجلاً عن غير مشورة فلا يؤمر واحد منهما تغرة أن يقتلا. قال: التغرة: التغرير، غررت بالقوم تغريرا وتغرة، كقولك: حلت اليمين تحليلاً وتحلة، ومثله في المضاعف كثير، أي أن في ذلك تغريراً بأنفسهما وتعريضاً لهما أن يقتلا. وفي حديثه: "إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتعش نعشك الله، وإذا تكبر وعدا طوره وهسه الله إلى الأرض".

قال: وهسه أي كسره. وعدا طوره، أي قدره. وفي حديثه: "حجوا بالذرية، لا تأكلوا أرزاقها، وتذروا أرباقها في أعناقها". قال: أراد بالذرية هنا النساء ولم يرد الصبيان، لأنه لا حج عليهم. والأرباق: جمع ربق، وهو الحبل. وفي حديثه: أنه وقف بني الحرتين وهما داران لفلان فقال: "شوى أخوك، حتى إذا أنضج رمد". هذا مثل يضرب للرجل يصنع معروفاً ثم يفسده.

وفي حديثه: "السائبة والصدقة ليومهما". قال: السائبة: المعتق. وليومهما: ليوم القيامة الذي فعل ما فعله لأجله. وفي حديثه: "لا تشتروا رقيق أهل الذمة، فإنهم أهل خراج يؤدي بعضهم عن بعض. وأرضهم فلا تتنازعوها، ولا يقرن أحدكم بالصغار بعد إذ نجاه الله".

قال: كره أن يشتري أرضهم المسلمون وعليها خراج، فيصير الخراج منتقلاً إلى المسلم، وإنما منع من شراء رقيقهم، لأن جزيتهم تكثر على حسب رقيقهم، فإذا ابتيع رقيقهم قلت جزيتهم، وإذا قلت جزيت! يقل بيت المال. وفي حديثه في قنوت الفجر: "وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق". قال: حفد العبد مولاه يحفد أي خدم، ومنه قوله تعالى: "بنين وحفدة" أي خدماً. وملحق: اسم فاعل بمعنى لاحق من الحق، وهو لغة من لاحق، يقال: لحقت زيداً، وألحقته بمعنى. وفي حديثه: "لا تشتروا الذهب بالفضة إلا يداً بيد، هاء وهاء، إني أخاف عليكم الرماء". قال: الرماء: الزيادة وهو بمعنى الربا، يقال: أرميت على الخمسين، أي زدت عليها. وفي حديثه: من لبد أو عقص أو ضفر، فعليه الحلق.

قال: التلبيد أن تجعل في رأسك شيئاً من صمغ أو عسل يمنع من أن يقمل. والعقص والضفر: فتل الشعر ونسجه.

وفي حديثه: "ما تصعدتني خطبة كما تصعدتني خطبة النكاح".

قال: معناه ما شق علي، وأصله من الصعود، وهي العقبة المنكرة، قال تعالى: "سأرهقه صعوداً".

وفي حديثه: أنه قال لمالك بن أوس: "يا مالك، إنه قد دفت علينا من قومك دافة، وقد أمرنا لهم برضخ فاقسمه فيهم".
قال: الدافة: جماعة تسير سيراً ليس بالشديد.

وفي حديثه: أنه سأل جيشاً، فقال: "هل ثبت لكم العدو قدر حلب شاة بكيئة؟" قال: البكيئة: القليلة اللبن.

وفي حديثه أنه قال في متعة الحج: "قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلها وأصحابه، ولكن كرهت أن يظلموا بمن معرسين تحت الأراك، ثم يلبون بالحج تقطر رؤوسهم".

قال: المعرس: الذي يغشى امرأته. قال: كره أن يحل الرجل من عمرته، ثم يأتي النساء، ثم يهل بالحج.

وفي حديثه: "نعم المرء صهيبي، لو لم يخف الله لم يعصه".

قال: المعنى أنه لا يترك المعصية خوف العقاب، بل يتركها لقبحها، فلو كان لا يخاف عقوبة الله لترك المعصية.

وفي حديثه: أنه أتى بسكران في شهر رمضان، فقال: للمنخرين، للمنخرين أصبياننا صيام وأنت مفطر!

قال: معناه الدعاء عليه، كقولك: كبه الله للمنخرين! وكقولهم: لليدين وللهم! وفي حديثه: أنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قام أبو بكر فتلا هذه الآية في خطبته: "إنك ميت وإنهم ميتون". قال عمر: فعقرت حتى وقعت إلى الأرض.

قال: يقال للرجل إذا بهت وبقي متحيراً دهشاً: قد عقر، ومثله بعل وخرق.

وفي حديثه: أنه كتب إلى أبي عبيدة وهو بالشام حين وقع بها الطاعون: "إن الأردن أرض غمقة، وإن الجابية أرض نزهة، فأظهر بمن معك من المسلمين إلى الجابية".

قال: الغمقة: الكثيرة الأنداء والوباء، والنزهة: البعيدة من ذلك.

وفي حديثه: أنه قال لبعضهم في كلام كلمه به: "بل تحوسك فتنة".

قال: معناه تخالطك وتحثك على ركوبها. قال: وتحوس مثل: تجوس، بالجيم، قال تعالى: "فجاسوا خلال الديار".

وفي حديثه حين ذكر الجراد، فقال: "وددت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين".

قال: القفعة: شيء شبيه بالزنبيل ليس بالكبير يعمل من خوص ليس له عرى، وهو الذي يسمى القفة.

وفي حديثه: أن أذينة العبدى أتاه يسأله، فقال: إني حججت من رأس هزاً وخازك، أو بعض هذه المزالف، فمن أين

أعتمر؟ فقال: ائت علياً، فاسأله، فسأله، فقال: من حيث ابتدأت.

قال: رأس هزاً وخازك موضعان من ساحل فارس، والمزالف: كل قرية تكون بين البر وبلاد الريف، وهي المزارع أيضاً، كالأنبار وعين التمر والحيرة.

وفي حديثه: أنه نهي عن المكايلة. قال: معناه مكافأة الفعل القبيح بمثله! وفي حديثه: "ليس الفقير الذي لا مال له، إنما الفقير الأخلق الكسب".

قال: أراد الرجل الذي لا يرزأ في ماله، ولا يصاب بالمصائب، وأصله أن يقال للجبل المصمت الذي لا يؤثر فيه شيء:

أخلق. وصخرة خلقاء، إذا كانت كذلك، فأراد عمر أن الفقر الأكبر إنما هو فقر الآخرة، لمن لم يقدم من ماله لنفسه شيئاً يثاب عليه هناك. وهذا نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس الرقوب الذي لا يبقى له ولد، إنما الرقوب الذي لم يقدم من ولده أحداً، فهذا ما لخصته من غريب كلام عمر من كتاب أبي عبيد. فأما ما ذكره ابن قتيبة من غريب حديثه في كتابه، فأنا أخلص منه ما أنا ذاكره.

قال ابن قتيبة: فمن غريب حديث عمر أنه خطب، فقال: إن أخوف ما أخاف عليكم أن يؤخذ الرجل المسلم البريء عند الله فيد سر كما يدرس الجزور، ويشاط لحمه كما يشاط لحم الجزور، يقال: عاص وليس بعاص. فقال علي رضي الله عنه: فكيف ذاك ولما تشد البلية، وتظهر الحمية، وتسي الذرية، وتدقهم الفتن دق الرحي بنفاله! قال ابن قتيبة: يدرس أي يدفع، ومنه حديث ابن عباس: ليس في العنبر زكاة، إنما هو شيء يدرسه البحر.

ويشاط لحمه، أي يقطع ويضع، والأصل في الإشاطة الإحراق، فاستعير، وفي الحديث: "إن زيد بن حارثة قاتل يوم مؤتة حتى شاط في رماح القوم".

والثفال: جلدة تبسط تحت الرحي فيقع عليها الدقيق.

وفي حديث عمر: "القسمامة توجب العقل، ولا تشيط الدم".

قال ابن قتيبة: العقل: الدية، يقول: إذا حلفت فإنما تجب الدية لا القود، وقد روي عن ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز أنهما أقادا بالقسمامة.

وفي حديثه: "لا تفطروا حتى تروا الليل يغسق على الظراب".

قال: يغسق، أي يظلم، والظراب: جمع ظرب، وهو ما كان دون الجبل، وإنما خص الظراب بالذكر لقصرها، أراد أن ظلمة الليل تقرب من الأرض.

وفي حديثه: أن رجلاً كسر منه عظم فأتى عمريطلب القود، فأبى أن يقتص له، فقال الرجل: فكاسر عظمي إذن كالأرقم، إن يقتل ينقم، وإن يترك يلقم، فقال عمر: "هو كالأرقم".

قال: كانت الجاهلية تزعم أن الجن يتصور بعضهم في صورة الحيات، وأن من قتل حية منها طلبت الحية بالثأر، فرما مات أو أصابه حبل، فهذا معنى قوله: "إن يقتل ينقم". ومعنى "يلقم" يقول: إن تركته أكلك، وهذا مثل يضرب للرجل يجتمع عليه أمران من الشر لا يدري كيف يصنع فيهما، ونحوه قولهم: هو كالأشقر إن تقدم عقر وإن تأخر نحر.

قال!: وإنما لم يقده لأنه يخاف من القصاص في العظم الموت، ولكن فيه الدية.

وفي حديثه: أنه أتى مسجد قباء، فرأى فيه شيئاً من غبار وعنكبوت، فقال لرجل: اتني بجريدة واتق العواهن، قال: فجئته بها، فربط كميء بوذمة، ثم أخذ الجريدة، فجعل يتتبع بها الغبار.

قال: الجريدة: السعفة، وجمعها جريد.

والعواهن: السعفات التي يلين القلب، والقلبة جمع قلب، وأهل نجد يسمون العواهن الحواني، وإنما نهأ عنها إشفافاً على القلب أن يضربه قطعها.

والوذمة سير من سيور الدلو يكون بين آذان الدلو والعراقي.

وفي حديثه: "ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوا حقوقهم فتكفروهم، ولا تجمر بهم فتفتنواهم، قال: التجمير: ترك الجيش في مغازيهم لا يقفلون.

وفي حديثه: أنه أتى بمروط، فقسمها بين نساء المسلمين، ورفع مرطاً بقي إلى أم سليط الأنصارية، وقال: إنها كانت تزفر القرب يوم أحد تسقي المسلمين.

قال: تزفرها: تحملها، ومنه زفر، اسم رجل كان يحمل الأثقال.

وفي حديثه أنه قال: أعطوا من الصدقة من أبقث له السنة غنماً، ولا تعطوا من أبقث له السنة غنمين".

قال: السنة: ههنا الأزمة، ومنه قوله تعالى: "ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين".

قال: وكان عمر لا يميز نكاحاً في عام سنة، يقول: "لعل الضيعة تحملهم على أن ينكحوا غير الأكفاء"، وكان أيضاً لا يقطع سارقاً في عام سنة.

وقوله: غنماً أي قطعة من الغنم، يقال: لفلان غنمان، أي قطعتان من الغنم، وأراد عمر أن من له قطعتان غني لا يعطى من الصدقة شيئاً، لأنها لم تكن قطعتين إلا لكثرتها.

وفي حديثه: أنه انكفاً لونه في عام الرمادة حين قال: لا آكل سمناً ولا سميناً، وأنه اتخذ أيام كان يطعم الناس قدحاً فيه فرض، فكان يطوف على القصاع فيغمز القدح، فإن لم تبلغ الشريدة الفرض قال: فانظر ماذا يفعل بصاحب الطعام. قال: انكفاً: تغير عن حاله، وأصله الانقلاب، من كفأت الإناء.

وسمي عام الرمادة من قولهم: أرمد الناس، إذا جهدوا، والرمد: الهلاك.

والقدح: السهم. والفرض: الحز، جعل عمر هذا الحز علامة لعمق الثريد في الصحيفة.

وفي حديثه: أن عطاء بن يسار، قال: قلت للوليد بن عبد الملك: روي لي أن عمر بن الخطاب قال: وددت أني سلمت من الخلافة كفافاً لا علي ولا لي، فقال: كذبت! الخليفة يقول هذا! فقلت: أو كذبت؟ فأقلت منه بجريعة الذقن. قال يقال خلص من خصمه كفافاً، أي كف كل واحد منهما عن صاحبه، فلم ينل أحدهما من الآخر شيئاً، وأقلت فلان بجريعة ذقن، أي أن نفسه قد صارت في فيه، وجريعة: تصغير جرعة.

قلت: وإنما استعظم الوليد ذلك، لأن بني أمية كانوا يرون أن من ولي الخلافة فقد وجبت له الجنة، ولهذا خطب هشام يوم ولي، فقال: الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام.

وفي حديثه: أن سماك بن حرب، قال: رأيت عمر، فرأيت رجلاً أروح كأنه راكب، والناس يمشون كأنه من رجال بني سدوس.

قال: الأروح الذي تتدانى عقباه، وتتباعد صدور قدميه، يقال: أروح: بين الروح، والأفحج: الذي تتدانى صدور قدميه، وتتباعد عقباه وتتفحج ساقاه، والأوكدع: الذي يميل إهام رجله على أصابعه حتى يزول، فيرى شخص أصلها خارجاً، وهو الوكدع، ومنه أمة وكعاء، وبنو سدوس: فخذ من بني شيبان، والطول أغلب عليهم.

وفي حديثه عن ابن عباس، قال: دعاني فإذا حصير بين يديه، عليه الذهب منشور نثر الحثا، فأمرني بقسمه.

قال: الحثا: التبن مقصور، قال الراجز يهجو رجلاً:

ولا يوارى فرجه إذا اصطلى

ويأكل التمر ولا يلقي النوى

كأنه غرارة ملأى حثاً.

وفي حديثه أنه قال: "النساء ثلاث، فهينة لينة عفيفة مسلمة، تعين أهلها على العيش، ولا تعين العيش على أهلها، وأخرى وعاء للولد، وأخرى غل قمل يضعه الله في عنق من يشاء ويفكه عمن يشاء، والرجال ثلاثة: رجل ذو رأي وعقل، ورجل إذا حزبه أمر إذا رأي فاستشاره ورجل حائر بائر، لا يأتمر رشداً، ولا يطيع مرشداً. قال البائر: الهالك، قال تعالى: "وكنتم قوماً بوراً". والأصل في قوله: غل قمل، أنهم كانوا يغلون بالقدر وعليه الشعر، فيقمل على الرجال.

ولا يأتمر رشداً، أي لا يأتي برشد من ذات نفسه، يقال لمن فعل الشيء من غير مشاورة: قد ائتمر، وبئس ما ائتمرت لنفسك، قال النمر بن تولب:

مخطيء في الرأي أحياناً

واعلم أن كل مؤتمر

وفي حديثه أنه خرج ليلة في شهر رمضان، والناس أوزاع، فقال: "إني لأظن لو جمعناهم على قارىء واحد كان أفضل"، فأمر أبي بن كعب فأمهم، ثم خرج ليلة وهم يصلون بصلاته، فقال: "نعم البدعة هذه! والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون".

قال: الأوزاع: الفرق، يريد أنهم كانوا يصلون فرادى، يقال وزعت المال بينهم، أي فرقته.

وقوله: "والتي ينامون عنها أفضل"، يريد صلاة آخر الليل، فإنها خير من صلاة أوله.

وفي حديثه: أن أصحاب محمد تذاكروا الوتر، فقال أبو بكر: أما أنا فأبدأ بالوتر، وقال عمر: لكني أوتر حين ينام الضفطى.

قال: هو جمع ضفيط، وهو الرجل الجاهل الضعيف الرأي.

ومنه ما روي عن ابن عباس، أنه قال: لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء، فقليل: أقول هذا وأنت عامل لفلان؟ فقال: إن في ضفطات، وهذه إحدى ضفطاتي.

وفي حديثه: أنه قال في وصيته: "إن توفيت وفي يدي صرمة ابن الأكوع، فسنتها سنة ثغ.

قال: الصرمة ههنا: قطعة من النخل، ويقال للقطعة الخفيفة من الإبل: صرمة، ويقال لصاحبها مصرم، ولعله قيل للمقل، فصرم من هذا.

وثغ: مال كان لعمر، ووقفه.

وفي حديثه: أنه لما قدم الشام تفحل له أمراء الشام.

قال: أي احشوشنوا له في الزي واللباس والمطعم تشبهاً به، وأصله من الفحل، لأن التصنع في اللباس والقيام على النفس،

إنما هو عندهم للإناث لا للفحول.

وفي حديثه: أنه قدم مكة، فسأل من يعلم موضع المقام وكان السبل احتمله من مكانه فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي: يا أمير المؤمنين، قد كنت قدرته وذرعته بمقاط عندي، قال: المقاط: الجبل، وجمعه مقط.

وفي حديثه أنه قال للذي قتل الظبي وهو محرم: خذ شاة من الغنم فتصدق بلحمها، وأسق إهابها، قال: الإهاب: الجلد، وأسقه: أي اجعله لسقاء لغيرك، كما تقول: اسقني عسلاً، أي اجعله لي سقاء وأقد بي خيلاً، أي أعطني خيلاً أقودها، اسقني إبلأ: أعطني إبلأ أسوقها.

وقالت بنو تميم للحجاج: أقبرنا صالحاً، يعنون صالح بن عبد الرحمن، وكان قتله وصلبه، فسأله أن يمكنهم من دفنه. وفي حديثه: أنه ذكر عنده التمر والزبيب: أيهما أفضل؟ ويروى أنه قال لرجل من أهل الطائف: الحيلة أفضل أم النخلة؟ فأرسل إلى أبي حثمة الأنصاري، فقال: إن هؤلاء اختلفوا في التمر والزبيب أيهما أفضل.

وفي رواية أخرى: وجاء أبو عمرة عبد الرحمن بن محصن الأنصاري، فمال أبو حثمة: ليس الصقر في رؤوس الرقل، الراسخات في الوحل، المطاعم في المحل، تلة الصبي، وقرى الضيف، وبه تحتش الضب في الأرض الصلعاء، كزبيب إن أكلته ضرست، وإن تركته غرث.

وفي الرواية الأخرى: فقال أبو عمرة: الزبيب إن أكله أضرس، وإن أتركه أغرث، ليس كالصقر في رؤوس الرقل، الراسخات في الوحل، والمطعمات في المحل، خرفة الصائم، وتحفة الكبير، وصمته الصغير، وخرسه مريم، ويحتش به الضباب من الصلعاء.

دال: الحيلة، بفتح الحاء وتسكين الباء: الأصل من الكرم، وفي الحديث: إن نوحاً لما خرج من السفينة غرس الحيلة، وكانت لأنسى بن مالك حيلة تحمل كذا، وكان يسميها أم العيال، فأما الحيلة بالضم فثمر العضاه، ومنه الحديث: كنا نغزو مع رسول الله سنه وما لنا طعام إلا الحيلة، وورق السمر، والحيلة بالضم أيضاً: ضرب من الحلي يجعل في القلائد، شبه بورق العضاه، لأنه يصاغ على صورته.

وأغرث: أجوع، والغرث: الجوع.

والصقر: عسل الرطب، والرقل: جمع رقلة، وهي النخلة الطويلة.

وقوله: "خرفة الصائم! اسم لما يخترف، أي يجتنى، ونسبها إلى الصائم لأنهم كانوا يحبون أن يفطروا على التمر.

وقوله: "وصمته الصغير، لأن الصغير كان إذا بكى عندهم سكتوه به، وتلة الصبي نحوه، من التعليل.

وخرسه مريم، الخرسه ما تطعمه النفساء عند ولادتها، أشار إلى قوله تعالى: "وهزي إليك بجذع لنخلة تساقط عليك رطباً

جنيئاً"، فأما الخرس بغير هاء فهو الطعام الذي يصنع لأجل الولادة، كالإعذار للختان، والنقيعة للقدام، والوكيرة

للبناء. ويحتش به الضب أي يصطاد، يقال إن الضب يعجب بالتمر، والشارش: صائد الضباب، والصلعاء: الصحراء التي لا نبات بها كراس الأصلع.

وفي حديثه: أنه قال للسائب: "ورع عني بالدرهم والدرهمين".

قال: أي كف الخصوم عني في قدر الدرهم والدرهمين بأن تنظر في ذلك، وتقفي فيه بينهم، وتنوب عني. وكل من كفته

فقد ورعته، ومنه الورع في الدين، إنما هو الكف عن المعاصي. ومنه حديث عمر: لا تنظروا إلى صلاة الرجل وصيامه، ولكن من إذا حدث صدق، وإذا اتّمن أدى، وإذا أشفى ورع، أي إذا أشرف على المعصية كف عنها. وفي حديثه: أنه خطب الناس، فقال: "أيها الناس، لينكح الرجل منكم لمتة من النساء، ولتنكح المرأة لمتها من الرجال." قال: لمة الرجل من النساء مثله في السن، ومنه ما روي أن فاطمة رضي الله عنها خرجت في لمة من نسائها تتوطأ ذيلها، حتى دخلت على أبي بكر.

وأراد عمر بن الخطاب: لا تنكح الشابة الشيخ الكبير، ولا ينكح الشاب العجوز، وكان سبب هذه الخطبة أن شابة زوجها أهلها شيخاً فقتلته.

وفي حديثه: أن رجلاً أتاه يشكو إليه النقرس، فقال: كذبتك الظهائر.

قال: الظهائر: جمع ظهيرة، وهي الهاجرة، ووقت زوال الشمس.

وكذبتك، أي عليك بها، وهي كلمة معناها الإغراء، يقولون: كذبتك كذا، أي عليك به.

ومنه الحديث المرفوع: الحجاماة على الريق فيها شفاء وبركة، فمن احتجم في يوم الخميس ويوم الأحد، كذباك! أي عليك بهما، وإنما أمر عمر صاحب النقرس أن يبرز للحر في الهاجرة ويمشي حافياً، ويتنذل نفسه، لأن ذلك يذهب النقرس.

وفي حديثه: أنه قال: "من يدلني على نسيج وحده"، فقال أبو موسى: ما نعلمه غيرك، فقال: ما هي إلا إبل موقع ظهورها.

قال: معنى قولهم: نسيج وحده أي لا عيب فيه، ولا نظير له. أصله من الثوب النفيس، لا ينسج على منواله غيره. والبعير الموقع الذي يكثر آثار الدبر بظهره، لكثرة ما يركب، وأراد عمر أنا كلنا مثل ذلك في العيب.

وفي حديثه: إن الطبيب الأنصاري سقاه لبناً حين طعن، فخرج من الطعنة أبيض يصلد، قال: أي يبرق ولم يتغير لونه.

وفي حديثه: أن نادبة عمر، قالت: واعمرها! أقام الأود، وشفى العمد. فقال علي رضي الله عنه: أما والله ما قالته ولكن قولته.

والعمد: ورم ودبر يكون في ظهر البعير، وأراد علي رضي الله عنه أنه كأنما ألقى هذا الكلام على لسانها لصحته وصدقه. وفي حديثه: أنه استعمل رجلاً على اليمن، فوفد إليه، وعليه حلة مشهرة، وهو مرجل دهن، فقال: أهكذا بعثناك! ثم أمر بالحلة فترعت عنه، وألبس جبة صوف، ثم سأل عن ولايته فلم يذكر إلا خيراً فردّه على عمله، ثم وفد إليه بعد ذلك، فإذا أشعث مغبر عليه أطلاس، فقال: ولا كل هذا، إن عاملنا ليس بالشعث ولا العافي، كلوا واشربوا وادهنوا، إنكم لتعلمون الذي أكره من أمركم! قال: ثياب أطلاس، أي وسخة، ومنه قيل للذئب: أطلس.

والعافي: الطويل الشعر، يقال: عفى وبر البعير، إذا طال، ومنه الحديث المرفوع: "أمر أن تعفى اللحى وتحفى الشوارب".

وفي حديثه: أنه قال للرجل أما تراني لو شئت أمرت بشاة فتية سمينة أو قنية فالقي عنها صوفها، ثم أمرت بدقيق فنخل في خرقة، فجعل منه خبز مرقق، وأمرت بصاع من زبيب فجعل في سعن حتى يكون كدم الغزال. قال: السعن: قرية أو إداوة ينتبذ فيها وتعلق بجذع.

وفي حديثه: أنه رأى رجلاً يأنح ببطنه، فقال: ما هذا؟ قال: بركة من الله، قال: بل هو عذاب من الله يعذبك به. قال: يأنح: يصوت، وهو ما يعتري الإنسان السمين من البهر إذا مشى، أنح يأنح أنوحاً. وفي حديثه: أنه لما دنا من الشام ولقيه الناس، جعلوا يتراطنون، فأشكعه ذلك وقال لأسلم مولاه: إنهم لم يروا على صاحبك بزة قوم غضب الله عليهم.

قال: أشكعه: أغضبه، قال: أراد أنهم لم يتحاموا عنه اللغظ، والكلام بالفارسية والنبطية بحضرته، لأنهم لم يروه بعين الإمارة والسلطان، كما يرون أمراءهم، لأنهم لم يروا عليه بزة الأمراء وزيتهم.

وفي حديثه: أن عاملاً على الطائف كتب إليه: إن رجلاً منهم كلموني في خلایا لهم، أسلموا عليها، وسألوني أن أحميها لهم. فكتب إليه عمر: "إنها ذباب غيث، فإن أدوا زكاته فاحمه لهم".

قال: الخلايا موضع النحل التي تعسل، الواحدة خلية، وأراد بقوله: إنها ذباب غيث أنها تعيش بالمطر، لأنها تأكل ما ينبت عنه، فإذا لم يكن غيث فقدت ما تأكل، فشبهها بالسائم من النعم لا مؤنة على صاحبها منها، وأوجب فيها الزكاة. وفي حديثه: أن سعد بن الأخرم، قال: كان بين الحي وبين عدي بن حاتم تشاجر فأرسلوني إلى عمر فأتيته وهو يطعم الناس من كسور إبل، وهو قائم متوكئ على عصا، مؤتزر إلى أنصاف ساقيه، خذب من الرجال كأنه راعي غنم، وعلي حلة ابتعتها بخمسائة درهم، فسلمت عليه، فنظر إلي بذنب عينه، وقال لي: أما لك معوز؟ قلت: بلى، قال: فألقها، فألقيتها، وأخذت معوزاً، ثم لقيته فسلمت، فرد علي السلام.

قال: كسور الإبل: أعضاؤها، والخذب: العظيم الجافي وكأنه راعي غنم، يريد في الجفاء والبذاة وخشونة الهيئة واللبسة، والمعوز: الثوب الخلق، والميم مكسورة، وإنما ترك رد السلام عليه أولاً، لأنه أشهر الحلة، فأدبه بترك رد السلام، فلما خلعها وليس المعوز رده عليه.

وفي حديثه: أنه ذكر فتيان قريش وسرفهم في الإنفاق، فقال: لحرفة أحدهم أشد علي من عيلته. قال: الحرفة ههنا، أن يكون الرجل لا يتجر ولا يلتمس الرزق، فيكون محدوداً لا يرزق إذا طلب، ومنه قيل: فلان محارف. والعيلة: الفقر.

وفي حديثه: أنه قال لرجل: ما مالك؟ قال: أقرن لي وآدمة في المنية، قال: قومها وزكها. قال: الأقرن: جمع قرن، وهي جعبة من جلود تكون للصيادين يشق منها جانب ليدخلها الريح فلا يفسد الريش. وآدمة: جمع آدم، كحريب وأجربة.

والمنية: الدباغ، وإنما أمره بتزكيته، لأنها كانت للتجارة.

وفي حديثه: أن أبا وجزة السعدي، قال: شهدته يستسقي، فجعل يستغفر، فأقول: ألا يأخذ فيما خرج له! ولا أشعر أن الاستسقاء هو الاستغفار، فقلدنا السماء قلداً كل خمس عشرة ليلة، حتى رأيت الأرنبه يأكلها صغار الإبل من وراء حقائق العرظ.

قال: فقلدنا: مطرنا لوقت معين، ومنه قلد الحمى، وقلد الزرع، سقيه لوقت وهو وقت الحاجة.

وقال: رأيت الأرنب يحتملها السيل حتى تتعلق بالعرفط، وهو شجر ذو شوك وزاد في الأرنب هاء، كما قالوا: عقرب وعقربة، وحقاق العرفط: صغارها، وقيل: الأرنب ضرب من النبت، لا يكاد يطول، فأراد أنه طال بهذا المطر حتى أكلته صغار الإبل من وراء شجر العرفط.

وفي حديثه: أنه قال: ما ولي أحد إلا حامى على قرابته، وقرى في عيبته، ولن يلي الناس قرشي عض على ناجذه.

قال: حامى عليهم: عطف عليهم، وقرى في عيبته، أي اختان، وأصل قرى: جمع.

وفي حديثه: لن تخور قوى ما كان صاحبها يترع ويترو.

يخور: يضعف. والترع في القوس، والترؤ على الخيل.

وروي أن عمر كان يأخذ بيده اليمنى أذنه اليسرى، ثم يجمع جراميزه ويثب، فكأنما خلق على ظهر فرسه.

وفي حديثه: "تعلموا السنة والفرائض واللحن، كما تتعلمون القرآن".

قال: اللحن ههنا: اللغة والنحو.

وفي حديثه: "أنه مر على راع، فقال: يا راعي، عليك بالظلف من الأرض لا ترمض، فإنك راع وكل راع مسؤول".

قال: الظلف: المواضع الصلبة، أمره أن يرعى غنمه فيها، ونماه أن يرمض، وهو أن يرعى غنمه في الرمضاء وهي تشتد جداً في الدهاس والرمل، وتخف في الأرض الصلبة.

وفي حديثه: أن رجلاً قرأ عليه حرفاً، فأنكره، فقال: من أقرأك هذا، قال: أبو موسى، فقال: إن أبا موسى لم يكن من أهل البهش.

قال: البهش المقل الرطب، فإذا يبس فهو الخشل، وأراد أن أبا موسى ليس من أهل الحجاز، لأن المقل بالحجاز نبت، والقرآن نزل بلغة الحجاز.

وفي حديثه: أن عقبة بن أبي فعيظ، لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أأقتل من بين قريش؟ فقال عمر: حن قدح ليس منها.

قال: هذا مثل يضرب للرجل يدخل نفسه في القوم وليس منهم، والقدح: أحد قداح الميسر، وكانوا يستعيرون القدح يدخلونه في قداحهم يتيمينون به ويتقون بفوزه.

وفي حديثه: أن أهل الكوفة لما أوفدوا العلباء بن الهيثم السدوسي إليه، فرأى عمر هيئته رثة، وأعجبه كلامه وعمله، قال: لكل أناس في حميلهم خير.

قال: هذا مثل، والمراد أنهم سودوه على معرفة منهم بما فيه من الخلال المحمودة، والمعنى أن خبره فوق منظره. وفي حديثه: أنه أخذ من القطنية الزكاة.

قال: هي الحبوب كالعدس والحمص، وفي أخذ الزكاة منها خلاف بين الفقهاء.

وفي حديثه: أنه كان يقول للخارص: "إذا وجدت قوماً قد خرفوا في حائطهم، فانظر قدر ما ترى أنهم يأكلونه، فلا تخرصه".

قال: حرفوا فيه، أي نزلوا فيه أيام اختراق الثمرة.

وفي حديثه: "إذا أجزيت الماء على الماء جزى عنك".

قال: يريد صب الماء على البول في الأرض، فإنه يطهر المكان، ولا حاجة إلى غسله. وجزى: قضى وأغنى، من قوله تعالى: "لا تجزي نفس عن نفس شيئاً"، فإن أدخلت الألف قلت: أجزأك " وهمزت، ومعناه كفاك.

وفي حديثه: أنه قال: "لا يعطى من المغام شيء حتى تقسم، إلا لراع، والدليل غيرموليه".

قال: الراعي ههنا الطليعة، لأنه يرعى القوم، أي يحفظهم.

وقوله: غيرموليه، أي غير معطيه شيئاً لا يستحقه.

وفي حديثه: "إن من الناس من يقاتل رياء وسمعة، ومنهم من يقاتل وهو ينوي الدنيا، ومنهم من أجمه القتال فلم يجد بداً، ومنهم من يقاتل صابراً محتسباً، أولئك هم الشهداء".

قال: أجمه القتال، أي رهقه وغشيه، فلم يجد مخلصاً.

وفي حديثه: أنه أرسل إلى أبي عبيدة رسولاً فقال له حين رجع: فكيف رأيت أبا عبيدة؟ قال: رأيت بللاً من عيش فقصر من رزقه، ثم أرسل إليه، وقال للرسول حين قدم: كيف رأيته؟ قال: رأيته خفواً، قال: رحم الله أبا عبيدة، بسطنا له فبسط، وقبضنا له فقبض.

قال: الخفوف والحفف واحد، وهو ضيق العيش وشدته، يقال: ما عليهم حفف ولا ضعف، أي ما عليهم أثر عوز، والشظف: مثل الحفف.

وفي حديثه: أنه رئي في المنام، فسئل عن حاله، فقال: "ثل عرشي لولا أني صادفت ربي رحيماً". قال: ثل عرشه، أي هدم.

وفي حديثه: أنه قال لأبي مریم الحنفي: "لأنا أشد بغضاً لك من الأرض للدم"، قالوا: كان عمر غليظاً، كان قاتل زيد بن الخطاب أخيه، فقال: أينقصني ذلك من حقي شيئاً؟ قال: لا، قال: فلا ضير.

قال: هذا مثل، لأن الأرض لا يغوص فيها الدم كما يغوص الماء، فهذا بغض الأرض له، ويقال: إن دم البعير تنشفه الأرض وحده.

وفي حديثه: "إن اللبن يشبه عليه".

قال: معناه أن الطفل ربما نزع به الشبه إلى الظئر من أجل لبنها، فلا تسترضعوا إلا من ترضون أخلاقها.

وفي حديثه: "اغزوا، والغزو حلو خضر، قبل أن يكون ثماماً، ثم يكون رماماً، ثم يكون حطاماً". قال: هذا مثل، والثمام: نبت ضعيف، والرمام، بالضم والرميم واحد، مثل طوال وطويل، والحطام: بيس النبت إذا تكسر، ومعنى أنه أمرهم بالغزو حين عزائمهم قوية، وبواعثهم إليه شديدة، فإن مع ذلك يكون الظفر قبل أن يهي ويضعف، فيكون كالثمام الضعيف، ثم كالرميم، ثم يكون حطاماً فيذهب.

وفي حديثه: "إذا انتاطت المغازي، واشتدت العزائم، ومنعت الغنائم أنفسها، فخير غزوكم الرباط قال: انتاطت: بعدت، والنطىء: البعيد.

واشتدت العزائم، صعبت ومنعت الغنائم أنفسها، فخير غزوكم الرباط في سبيل الله.
وفي حديثه: أنه وضع يده في كشية ضب، وقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجرمه، ولكن قدره. قال: كشية الضب: شحم بطنه.

وقوله: وضع أي أكل منه.

وفي حديثه: "لا أوتي بأحد انتقص من سبيل المسلمين إلى مثاباته شيئاً إلا فعلت به كذا".

قال: المثابات ههنا: المنازل يثوب أهلها إليها، أي يرجعون، والمراد من اقتطع شيئاً من طريق المسلمين وأدخله في داره. وفي حديثه: أنه كره النير.

قال: هو علم الثوب، وأظنه كرهه إذا كان حريراً.

وفي حديثه: أنه انكسرت قلوب من إبل الصدقة فجففها.

قال: اتخذ منها جفنة من طعام، وأجمع عليه.

وفي حديثه: "عجبت لتاجر هجر، وراكب البحر" قال: "عجب كيف يختلف إلى هجر مع شدة وبائها، وكيف يركب البحر مع الخطار بالنفس! وفي حديثه: أنه قال ليلة لابن عباس في مسير له: "أنشدنا لشاعر الشعراء، قال: ومن هو؟ قال: الذي لم يعاظم بين القول، ولم يتبع حوشي الكلام، قال: ومن هو؟ قال: زهير، فجعل ينشد إلى أن برق الصبح.

قال: هو مأخوذ من تعاظم الجراد، إذا ركب بعضه بعضاً، وحوشي الكلام: وحشيه.

وفي حديثه: أن نائلاً مولى عثمان، قال: سافرت مع مولاي وعمر في حج أو عمرة، فكان عمر وعثمان وابن عمر لفاً، وكنت أنا وابن الزبير في شبة معنا لفاً، فكنا تمارح ونترامى بالحنظل، فما يزيدنا عمر على أن يقول لنا، كذا لا تدعروا علينا، فقلنا لرياح بن العترف: لو نصبت لنا نصب العرب! فقال: أقول مع عمر فقلنا: افعل وإن نراك فانت، ففعل ولم يقل عمر شيئاً، حتى إذا كان في وجه السحر ناداه، يا رياح، إيهأ، اكفف فإنها ساعة ذكر! قال: لفاً، أي حزباً وفرقة، وشبة: جمع شاب، مثل كاتب وكتبة، وكاذب وكذبة، وكافر وكفرة.

وقوله: كذا أي حسبكم، وقوله: لا تدعروا علينا، أي لا تنفروا إبلنا، ونصب العرب: غناء لهم يشبه الحداء، إلا أنه أرق منه.

وفي حديثه: أنه كتب في الصدقة إلى بعض عماله كتاباً فيه: "ولا تحبس الناس أولهم على آخرهم، فإن الرجن للماشية عليها شديد، ولها مهلك، وإذا وقف الرجل عليك غنمه فلا تعتم من غنمه، ولا تأخذ من أذناها، وخذ الصدفة من أوسطها، وإذا وجب على الرجل سن لم تجدها في إبله فلا تأخذ إلا تلك السن من شروى إبله أو قيمة عدل، وانظر ذوات الدر والماخض، فتتكب عنها، فإنها ثمال حاضريهم".

قال: الرجن: الحبس، رجن بالمكان: أقام به، ومثله دجن، بالبدال.

ولا تعتم: لا تختار، اعتام اعتيماً، أي اختار، من شروى إبله، أي من مثلها، وذوات الدر: ذوات اللبن، والماخض: الحامل، وثمان حاضريهم: عصمتهم وغيائهم، وحاضريهم: من يسكن الحضر.

وفي حديثه: أنه كان يلقط النوى من الطريق والنكت، فإذا مر بدار قوم ألقاها فيها، وقال: "ليأكل هذا داجنتكم وانتفعوا بباقيه".

قال: الداجنة ما يعلفه الناس في منازلهم، من الشاة والدجاج والطير.

والنكت: الخيوط الخلق من صوف أو شعر أو وبر.

وفي حديثه: "ثلاث من الفواقر: جار مقامة، إن رأى حسنة دفنها، وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لسنك، وإن غبت عنها لم تأمنها، وإمام إن أحسنت لم يرض عنك، وأن أسأت قتلك".

قال: الفواقر: الدواهي، واحدها فاقرة، لأنها تكسر فقار الظهر.

ولسنك: أخذتك بلسانها.

وفي حديثه: في خطبة له: "من أتى هذا البيت لا ينهره إليه غيره، رجع وقد غفر له".

قال: ينهره: يدفعه، يريد من حج لا ينوي بالحج إلا الطاعة غفر له.

وفي حديثه: "اللبن لا يموت".

قال: قيل في معناه: إن اللبن إذا أخذ من ميتة لم يحرم، وكل شيء أخذ من الحي فلم يحرم فإنه إن أخذ من الميت لم يحرم.

وقيل في معناه: إن رضع الطفل من امرأة ميتة حرم عليه من أولادها وقرابتها من يحرم عليه منها لو كانت حية.

وقيل: معناه: إن اللبن إذا انفصل من الضرع فأوجر به الصبي أو آدم به أو ديف له في دواء وشقيه، فإنه إن لم يسم في

اللغة رضاعاً، إلا أنه يحرم به ما يحرم بالرضاع، فقال: اللبن لا يموت، أي لا يبطل عمله بمفارقة الثدي.

وفي حديثه: "من حظ المرء نفاق أيمه وموضع خفه".

قال: الأيم التي لا بعل لها، والخف: الإبل، كما تسمى الحمر والبغال حافراً، والبقر والغنم ظلفاً، يريد من حظ الإنسان أن

يخطب إليه ويتزوج بناته وأخواته وأشباههن، فلا يبرن، ومن حظه أيضاً أن ينفق إبله، حتى ينتابه التجار وغيرهم فيبتاعوها

في مواضعها، يستطرقونه لا يحتاج أن يعرضها عليهم.

وفي حديثه: أن العباس بن عبد المطلب سأل عن الشعراء، فقال: امرؤ القيس سابقهم، خسف لهم عين الشعر، فافتقر عن

معان عور أصبح بصر قال: خسف لهم، من الخسيف، وهي البتر تحفر في حجارة، فيخرج منها ماء كثير، وجمعها خسف.

وقوله: افتقر أي فتح، وهو من الفقير، والفقير: فم القناة.

وقوله: عن معان عور يريد أن امرأ القيس من اليمن، واليمن ليست لهم فصاحة نزار، فجعل معانيهم عوراً، وفتح امرؤ

القيس عنها أصبح بصر.

أحاديث واردة في فضل عمر،

فأما الحديث الوارد في فضل عمر، فمنه ما هو مذكور في الصحاح، ومنه ما هو غير مذكور فيها. فمما ذكر في المسانيد

الصحيحة من ذلك، ما روت عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كان في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي

فعمر". أخرجاه في الصحيحين .

وروى سعد بن أبي وقاص، قال: استأذن عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنده نساء من قريش يكلمنه، عالية أصواتهن، فلما استأذن قمن يتدرون الحجاب، فدخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، قال: أضحك الله سنك يا رسول الله! قال: عجبت من هؤلاء اللواتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال عمر: أنت أحق أن يهين، ثم قال: أي عدوات أنفسهن، أقميني ولا تهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك"، أخرجاه في الصحيحين.

وقد روي في فضله من غير الصحاح أحاديث: منها: "إن السكينة لتتطرق على لسان عمر".

ومنها: "إن الله تعالى ضرب بالحق على لسان عمر وقلبه".

ومنها: "إن بين عيني عمر ملكاً يسدده ويوفقه".

ومنها: "لو لم أبعث فيكم لبعث عمر".

ومنها: "لو كان بعدي نبي لكان عمر".

ومنها: "لو نزل إلى الأرض عذاب لما نجا منه إلا عمر".

ومنها: "ما أبطأ عني جبريل إلا ظننت أنه بعث إلى عمر".

ومنها: سراج أهل الجنة عمر.

ومنها: أن شاعراً أنشد النبي صلى الله عليه وسلم شعراً، فدخل عمر، فأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشاعر أن اسكت، فلما خرج عمر، قال له: عد فعاد، فدخل عمر فأشار النبي صلى الله عليه وسلم بالسكوت مرة ثانية، فلما خرج عمر سأل الشاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل، فقال: "هذا عمر بن الخطاب، وهو رجل لا يحب الباطل". ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وزنت بأمتي فرجحت، ووزن أبو بكر بها فرجح، ووزن عمر بها فرجح، ثم رجح، ثم رجح".

وقد رووا في فضله حديثاً كثيراً غير هذا، ولكننا ذكرنا الأشهر. وقد طعن أعداؤه ومبغضوه في هذه الأحاديث، فقالوا: لو كان محدثاً وملهماً لما اختار معاوية ألفاسق لولاية الشام، ولكان الله تعالى قد ألهمه وحده بما يواقع من القبائح والمنكرات والبغي والتغلب على الخلافة، والاستئثار بمال الفيء، وغير ذلك من المعاصي الظاهرة.

قالوا: وكيف لا يزال الشيطان يسلك فجاً غير فج، وقد فر مراراً من الزحف في أحد وحين وخير، والفرار من الزحف من عمل الشيطان وإحدى الكبائر الموبقة قالوا: وكيف يدعى له أن السكينة تنطق على لسانه! أترى كانت السكينة تلاحي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، حتى أغضبه قالوا: ولو كان ينطق على لسانه ملك أو بين عينيه ملك يسدده ويوفقه، أو ضرب الله بالحق على لسانه وقلبه، لكان نظيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كان أفضل منه، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يؤدي الرسالة إلى الأمة عن ملك من الملائكة، وعمر قد كان ينطق على لسانه ملك، وزيد ملكاً آخر بين عينيه يسدده ويوفقه، فهذا الملك الثاني مما قد فضل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان

حكم في أشياء فيخطيء فيها حتى يفهمه إياها علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وغيرهما، حتى قال: لولا علي لهلك عمر، ولولا معاذ لهلك عمر. وكان يشكل عليه الحكم، فيقول لابن عباس: غص يا غواص، فيفرج عنه، فأين كان الملك الثاني المسدد له! وأين الحى الذي ضرب به على لسان عمر، ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظر في الوقائع نزول الوحي. وعمر على مقتضى هذه الأخبار لا حاجة به إلى نزول ملك عليه، لأن الملكين معه في كل وقت وكل حال، ملك ينطق على لسانه وملك آخر بين عينيه يسدده ويوفقه. وقد عززا بثالث وهي السكينة، فهو إذاً أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: والحديث الذي مضمونه: لو لم أبعث فيكم لبعث عمر، فيلزم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاباً على عمر، وأذى شديداً له، لأنه لو لم يبعث لبعث عمر نبياً ورسولاً، ولم تعلم رتبة أجل من رتبة الرسالة، فالنزول لعمر عن هذه الرتبة التي ليس وراءها رتبة، ينبغي ألا يكون في الأرض أحد أبغض إليه منه!

قالوا: وأما كونه سراج أهل الجنة، فيقتضي أنه لو لم يكن تجلى عمر لكانت الجنة مظلمة لا سراج لها. قالوا: وكيف يجوز أن يقال: لو نزل العذاب لم ينح منه إلا عمر، والله تعالى يقول: "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم". قالوا: وكيف يجوز أن يقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع الباطل ويحبه ويشهده، وعمر لا يسمع الباطل ولا يشهده ولا يحبه! أليس هذا تنزيهاً لعمر عما لم يتره عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: ومن العجب أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أرجح من الأمة سيراً، وكذلك أبو بكر، ويكون عمر أرجح منهما كثيراً! فإن هذا يقتضي أن يكون فضله أين وأظهر من فضل أبي بكر ومن فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم! والجواب أنه ليس يجب فيمن كان محدثاً ملهماً أن يكون محدثاً ملهماً في كل شيء بل الاعتبار بأكثر أفعاله وظنونه وآرائه، ولقد كان عمر كثير التوفيق، مصيب الرأي في جمهور أمره، ومن تأمل سيرته علم صحة ذلك، ولا يقدر في ذلك أن يختلف ظنه في القليل من الأمور. وأما الفرار من الزحف، فإنه لم يفر إلا متحيزاً إلى فئة، وقد استثنى الله تعالى ذلك فخرج به عن الإثم. وأما باقي الأخبار فالمراد بالملك فيها الإخبار عن صحة ظنه، وصدق فراسته، وهو كلام يجري مجرى المثل، فلا يقدر فيه ما ذكره.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "لو نزل إلى الأرض عذاب لما نجا منه إلا عمر"، فهو كلام قاله عقيب أخذ الفدية من أسارى بدر، فإن عمر لم يشر عليه، ونهاه عنه، فأنزل الله تعالى: "لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم". وإذا كان القرآن قد نطق بذلك وشهد، لم يلتفت إلى طعن من طعن في الخبر. وأما قوله رضي الله عنه: "سراج أهل الجنة عمر"، فمعناه سراج القوم الذين يستحقون الجنة من أهل الدنيا أيام كوفهم في الدنيا مع عمر، أي يستضيئون بعلمه، كما يستضاء بالسراج.

وأما حديث منع الشاعر، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاف أن يذكر في شعره ما يقتضي الإنكار فيعنف به عمر، وكان شديد الغلظة، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينكر هو على الشاعر إن قال في شعره ما يقتضي ذلك على وجه اللطف والرفق، وكان عليه السلام رؤوفاً رحيماً، كما قال الله تعالى. وأما حديث الرجحان، فالمراد به الفتوح وملك البلاد، وتأويله أنه رضي الله عنه أرى في منامه ما يدل على أنه يفتح الله

عليه بلاداً وعلى أبي بكر مثله، ويفتح على عمر أضعاف ذلك، وهكذا وقع.
واعلم أن من تصدى للعب وجده، ومن قصر همته على الطعن على الناس انفتحت له أبواب كثيرة، والسعيد من أنصف
من نفسه، ورفض الهوى، وتزود التقوى، وبالله التوفيق!

في إسلام عمر

وأما إسلام عمر، فإنه أسلم، فكان تمام أربعين إنساناً في أظهر الروايات، وذلك في السنة السادسة من النبوة، وسنه إذ
ذاك ست وعشرون سنة، وكان عمر ابنه عبد الله يومئذ ست سنين.

وأصح ما روي في إسلامه، رواية أنس بن مالك عنه، قال: خرجت متقلداً سيفي، فلقيت رجلاً من بني زهرة، فقال: أين
تعمد؟ قلت: أقتل محمداً، قال: وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة، فقلت: ما أراك إلا صبوت! قال: أفلا أدلك على
العجب! إن إحتك وزوجها قد صبوا. فمشى عمر فدخل عليهما ذامراً، وعندهما رجل من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم، يقال له: خباب بن الأرت، فلما سمع خباب حس عمر توارى، فقال عمر: ما هذه الهيمنة التي سمعتها
عندكم، وكانوا يقرأون! "طه" على خباب، فقال: ما عندنا شيء، إنما هو حديث كنا نتحدثه بيننا، قال: فلعلكما قد
صبوتما فقال له ختته: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك! فوثب عمر على ختته فوطئه وطئاً شديداً، فجاءت اخته
فدفعته عن زوجها، فنفحها بيده، فأدمى وجهها، فجاهرته، فقالت: إن الحق في غير دينك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله،
وأن محمداً رسول الله، فاصنع ما بدا لك! فلما يئس قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه وكان عمر يقرأ الخط
فقال له اخته: إنك رجس، وإن هذا الكتاب لا يمسه إلا المطهرون، فقم فتوضأ، فقام فأصاب ماء، ثم أخذ الكتاب، فقرأ
"طه" ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى" إلى قوله. "إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة
لذكرى"، فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع خباب قول عمر، ورأى منه الرقة، خرج من البيت، فقال: أبشر يا
عمر، فإني لأرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الخميس لك، سمعته يقول: "اللهم أعز الإسلام
بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام" قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار التي في أصل الصفا فانطلق عمر
حتى أتى الدار، وعلى الباب حمزة بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وناس من أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم،
فلما رأى الناس عمر قد أقبل، كأنهم وجدوا، وقالوا: قد جاء عمر، فقال: حمزة: قد جاء عمر، فإن يرد الله به خيراً
يسلم، وإن يرد غير ذلك كان قتله علينا هيناً، قال: والني صلى الله عليه وسلم من داخل البيت يوحى إليه، فسمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم كلام القوم، فخرج مسرعاً حتى انتهى إلى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: ما أنت
منتھياً يا عمر حتى يترل الله بك يعني من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة، ثم قال: "اللهم هذا عمر، اللهم أعز
الإسلام بعمر!" فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. فكبر أهل الدار، ومن كان على الباب، تكبيرة
سمعها من كان في المسجد من المشركين.

وقد روي أن عمر كان موعوداً ومبشراً بما وصل إليه من قبل أن يظهر أمر الإسلام. قرأت في كتاب من تصانيف أبي

أحمد العسكري رحمه الله، أن عمر خرج عسيفاً مع الوليد بن المغيرة إلى الشام في تجارة للوليد، وعمر يومئذ ابن ثماني عشرة سنة، فكان يرعى للوليد إبله، ويرفع أحماله، ويحفظ متاعه، فلما كان باللقاء لقيه رجل من علماء الروم، فجعل ينظر إليه، وبطيل النظر لعمر، ثم قال: أظن اسمك يا غلام عامراً أو عمران أو نحو ذلك، قال: اسمي عمر، قال: اكشف عن فخذيك، فكشف فإذا على أحدهما شامة سوداء في قدر راحة الكف، فسأله أن يكشف عن رأسه، فكشف فإذا هو أصلع، فسأله أن يعتمل بيده، فاعتمل فإذا أعسر أيسر، فقال له: أنت ملك العرب، وحق مريم البتول! قال: فضحك عمر مستهزئاً، قال: أو تضحك! وحق مريم البتول إنك ملك العرب، وملك الروم، وملك الفرس، فتركه عمر وانصرف مستهيناً بكلامه، وكان عمر يحدث بعد ذلك، ويقول: تبني ذلك الرومي وهو راكب حماراً.

فلم يزل معي حتى باع الوليد متاعه، وابتاع بثمنه عطراً وثياباً، وقفل إلى الحجاز، والرومي يتبعني، لا يسألني حاجة، ويقبل يدي كل يوم إذا أصبحت كما تقبل يد الملك، حتى خرجنا من حدود الشام، ودخلنا في أرض الحجاز راجعين إلى مكة، فودعني ورجع. وكان الوليد يسألني عنه فلا أخبره، ولا أراه إلا هلك، ولو كان حياً لشخص إلينا.

ما ورد في تاريخ موت عمر

فأما تاريخ موته، فإن أبا لؤلؤة طعنه يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة من سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر، وهو ابن ثلاث وستين في أظهر الأقوال، وقد كان قال على المنر يوم الجمعة، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر: "إني قد رأيت رؤيا، أظنها لحضور أجلي، رأيت كأن ديكاً نقرني نقرتين، فقصصتها على أسماء بنت عميس، فقالت: يقتلك رجل من العجم، وإني أفكرت فيمن أستخلف، ثم رأيت أن الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته التي بعث بها رسوله.

وروى ابن شهاب، قال: كان عمر لا يأذن لصبي قد احتلم في دخول المدينة، حتى كتب المغيرة، وهو على الكوفة، يذكر له غلاماً صنعاً عنده، ويستأذنه في دخول المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، إنه حداد نقاش نجار. فأذن له أن يرسل به إلى المدينة، وضرب عليه المغيرة مائة درهم في كل شهر، فجاء إلى عمر يوماً يشتكي إليه الخراج، فقال له عمر: ماذا تحسن من الأعمال، فعد له الأعمال التي يحسن، فقال له: ليس خراجك بكثير في كنه عملك.

هذا هو الذي رواه أكثر الناس من قوله له، ومن الناس من يقول: إنه جهر بكلام غليظ، واتفقوا كلهم على أن العبد انصرف ساخطاً يتذمر، فلبث أياماً ثم مر بعمر فدعاه، فقال: قد حدثت أنك تقول: لو أشاء لصنعت راحاً تطحن بالريح، فالتفت العبد عابساً ساخطاً إلى عمر، ومع عمر رهط من الناس، فقال: لأصنعن لك راحاً يتحدث الناس بها، فلما ولى أقبل عمر على الرهط، فقال: ألا تسمعون إلى العبد! ما أظنه إلا أوعدي آناً! فلبث ليالي، ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين، نصابه في وسطه، فكمن في زاوية من زوايا المسجد في غلس السحر، فلم يزل هنالك حتى جاء عمريوقظ الناس لصلاة الفجر، كما كان يفعل، فلما دنا منه وثب عليه، فطعنه ثلاث طعنات: إحداهن تحت السرة، قد خرقت الصفاق وهي التي قتلتها ثم انحاز إلى أهل المسجد، فطعن فيهم من يليه حتى طعن أحد عشر رجلاً سوى عمر، ثم انتحر

بخنجره، فقال عمر حين أدركه الترف: قولوا لعبد الرحمن بن عوف، فليصل بالناس، ثم غلبه الترف فأغمي عليه، فاحتمل حتى أدخل بيته، ثم صلى عبد الرحمن بالناس، قال ابن عباس: فلم أزل عند عمر وهو مغمى عليه لم يزل في غشية واحدة، حتى أسفر، فلما أسفر أفاق، فنظر في وجوه من حوله، وقال: أصلى الناس؟ فقيل: نعم، فقال: لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم دعا بوضوء فتوضأ وصلى، ثم قال: اخرج يا ابن عباس، فاسأل من قتلي، فجئت حتى فتحت باب الدار، فإذا الناس مجتمعون، فقلت: من طعن أمير المؤمنين، قالوا: طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة، قال ابن عباس: فدخلت فإذا عمر ينظر إلى الباب يستأني خبر ما بعثني له، فقلت: يا أمير المؤمنين، زعم الناس أنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وأنه طعن رهطاً ثم قتل نفسه، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط، ما كانت العرب لتقتلني، ثم قال: ارسلوا إلى طبيب ينظر جرحي، فارسلوا إلى طبيب من العرب، فسقاه نبيذاً فخرج من الجرح، فاشتبه عليهم الدم بالنبيذ، ثم دعوا طبيباً آخر فسقاه لبناً، فخرج اللبن من الطعنة صليداً أبيض، فقال الطبيب: اعهد يا أمير المؤمنين عهدك، فقال: لقد صدقني، ولو قال غير ذلك لكذب، فبكى عليه القوم حتى أسمعوا من خارج الدار، فقال: لا تبكوا علينا، ألا ومن كان باكياً فليخرج، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه". وروى عن عبد الله بن عمر، أنه قال: سمعت أبي يقول: لقد طعنني أبو لؤلؤة طعنتين، وما أظنه إلا كلباً حتى طعني الثالثة.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف طرح على أبي لؤلؤة بعد أن طعن الناس خميسة كانت عليه، فلما حصل فيها نحر نفسه، فاحتز عبد الرحمن رأسه واجتمع البديريون وأعيان المهاجرين والأنصار بالباب، فقال عمر لابن عباس: اخرج إليهم، فاسألهم أعن ملاً منكم كان هذا الذي أصابني؟ فخرج يسألهم، فقال القوم: لا والله ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا! وروى عبد الله بن عمر، قال: كان أبي يكتب إلى أمراء الجيوش: لا تجلبوا إلينا من العلوج أحداً جرت عليه المواسي، فلما طعنه أبو لؤلؤة، قال: من بي؟ قالوا: غلام المغيرة، قال: ألم أقل لكم: لا تجلبوا إلينا من العلوج أحداً، فغلبتموني! وروى محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون، قال: إني لقائم ما بيني وبين عمر إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مر الصفيين، قال: استووا حتى إذا لم ير بيننا خللاً تقدم فكير، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل في الركعة الأولى أو نحو ذلك في الركعة الثانية حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر، فسمعت يقول: قتلي أو أكلني الكلب، وذلك حين طعنه العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم ستة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر بيده عبد الرحمن بن عوف، فقدمه، فمن يلي عمر، فقد رأى الذي رأى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر، فهم يقولون: سبحان الله! فصلى عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلي؟ فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصنع! قال: نعم، قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام، وقد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج وكان العباس أكثرهم رقيقاً فقال: إن شئت فعلنا، أي قتلناهم، قال: كذبت بعد أن تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم، وحجوا حجكم! فاحتمل إلى بيته، وانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس عليه، وقائل

يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جوفه، فعلموا أنه ميت، فدخل الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب، فقال: أبشريا أمير المؤمنين ببشرى الله، لك صحبة برسول الله وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم الشهادة. فقال عمر: وددت أن ذلك كله كان كفافاً، لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا رداؤه بمس الأرض، فقال: ردوا علي الغلام، فردوه، فقال: يابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أبقي لثوبك، وأتقى لربك، يا عبد الله بن عمر، انظر ما علي من دين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، فقال: إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف به أموالهم، فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، وأدعني هذا المال، انطلق إلى عائشة، فقل لها: يقرأ عليك السلام عمر ولا تقل أمير المؤمنين، فإني اليوم لست للمؤمنين أميراً وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فمضى وسلم، واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي يعني الموضع ولأثرنه اليوم على نفسي. فلما أقبل قيل: هذا عبد الله قد جاء، قال: ارفعوني، فأسندوه إلى رجل منهم، قال: يا عبد الله ما لديك، قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، قد أذنت، قال: الحمد لله، ما كان شيء أهم إلي من ذلك، إذا أنا قبضت فاحملني، ثم سلم عليها، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فادخلوني، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين، وادفوني بين المسلمين.

وجاءت ابنته حفصة، والنساء معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت بيتاً داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من البيت الداخل فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين واستخلف، فقال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر أو قال: الرهط الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت الإمارة سعداً، فهو أهل لذلك، وإلا فليستعن به أيكم أمر، فإني لم أعزله عن عجز ولا عن خيانة، ثم قال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئتهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم رداء الإسلام وجباة الأموال، وغيظ العدو، ألا يأخذ منهم إلا فضلهم، عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، وألا يكلفوا إلا طاقتهم.

قال: فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلم عبد الله بن عمر، وقال: يستأذن عمر بن الخطاب، فقالت: أدخلوه، فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه.

وقال ابن عباس: أنا أول من أتى عمر حين طعن، فقال: احفظ عني ثلاثاً، فإني أخاف ألا يدركني الناس، أما أنا فلم أقض في الكلالة، ولم أستخلف على الناس، وكل مملوك لي عتيق، فقلت له: أبشر بالجنة، صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلت صحبتته، ووليت أمر المسلمين فقيوت عليه، وأديت الأمانة.

قال: أما تبشريك لي بالجنة، فوالله الذي لا إله إلا هو، لو أن لي الدنيا بما فيها لافتديت به من هول ما أمامي قبل أن أعلم

ما الخير، وأما ما ذكرت من أمر المسلمين فلوددت أن ذلك كان كفافاً لا علي ولا لي، وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ذلك.

وروى معمر، عن الزهري، عن سالم عن عبد الله، قال: دخلت على أبي، فقلت: سمعت الناس يقولون مقالة وآليت أن أقولها لك زعموا أنك غير مستخلف، وأنه لو كان لك راعي إبل أو غنم ثم جاءك وتركها رأيت أنه قد ضيع، فرعاية الناس أشد، فوضع رأسه ثم رفعه، فقال: إن الله تعالى يحفظ دينه، إن لم أستخلف فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف، وإن استخلفت فإن أبا بكر قد استخلف. فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر، فعلمت أنه لم يكن يعدل برسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً، وأنه غير مستخلف.

وروي أنه قال: وقد أذنت له عائشة في أن يدفن في بيتها: إذا مت فاستأذنها مرة ثانية، فإن أذنت، وإلا فاتركوها، فإني أخشى أن تكون أذنت لي لسلطاني، فاستأذنها بعد موته فأذنت.

وروى عمر بن ميمون. قال: لما طعن عمر، دخل عليه كعب الأحبار، فقال: "الحق من ربك فلا تكونن من الممترين"، قد أنبأتك أنك شهيد، فقال: من أين لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب! وروى ابن عباس، قال: لما طعن عمر وجئته بخبر أبي لؤلؤة أتيته والبيت ملآن. فكرهت أن أتخطي رقابهم وكنت حديث السن فجلست وهو مسجى، وجاء كعب الأحبار، وقال: لئن دعا أمير المؤمنين ليقبى الله لهذه الأمة حتى يفعل فيها كذا وكذا! حتى ذكر المنافقين فيمن ذكر، فقلت: ابلغه ما تقول، قال: ما قلت إلا وأنا أريد أن تبلغه، فتشجعت وقمت، فتخطيت رقابهم، حتى جلست عند رأسه، وقلت: إنك أرسلتني بكذا، إن عبد المغيرة قتل وأصاب معك ثلاثة عشر إنساناً، وإن كعباً ههنا وهو يحلف بكذا، فقال: ادعوا إلى كعباً، فدعي فقال: ما تقول، قال: أقول كذا، قال: لا والله لا أدعو، ولكن شقي عمر إن لم يغفر الله له.

وروى المسور بن مخرمة، أن عمر لما طعن أغمي عليه طويلاً، فقيل إنكم لم توقظوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة! فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، الصلاة قد صليت! فانتبه! فقال: الصلاة، لاها الله لا أتركها، لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة! فصلى، وإن جرحه لينتعب دماً.

وروى المسور بن مخرمة، أيضاً، قال: لما طعن عمر، جعل يألم ويجزع، فقال ابن عباس: ولا كل ذلك يا أمير المؤمنين، لقد صحبت رسول الله، فأحسنيت صحبتته، ثم فارقتة وهو عنك راض، وصحبت أبا بكر وأحسنيت صحبتته، وفارقتك وهو عنك راض، ثم صحبت المسلمين فأحسنيت إليهم وفارقتهم وهم عنك راضون.

قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فذلك مما من الله به علي، وأما ما ترى من جزعي فوالله لو أن لي بما في الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه وفي رواية لافتديت به من هول المطلع. وفي رواية: المغرور من غررتموه! لو أن لي ما على ظهرها من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع، وفي رواية: في الإمارة علي تخني يابن عباس! قلت: وفي غيرها، قال: والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما دخلت فيها، لا حرج ولا وزر. وفي رواية: لو كان لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من كرب ساعة يعني الموت كيف ولم أرد الناس بعد! وفي رواية: لو أن لي الدنيا، وما فيها لافتديت به من هول ما أمامي، قبل أن أعلم ما الخير.

قال ابن عباس: فسمعنا صوت أم كلثوم: واعمرها! وكان معها نسوة يبيكين، فارتج البيت بكاء، فقال عمر: ويلم عمر، إن الله لم يغفر له! فقلت: والله إني لأرجو ألا تراها إلا مقدار ما قال الله تعالى: "وإن منكم إلا واردها"، إن كنت ما علمنا لأمر المؤمنين، وسيد المسلمين، تقي بالكتاب، وتقسم بالسوية.

فأعجبه قولي، فاستوى جالساً فقال: أتشهد لي بهذا يا ابن عباس؟ فكععت أي جبت فضرب علي رضي الله عنه بين كتفي وقال: اشهد. وفي رواية لم تجزع يا أمير المؤمنين، فوالله لقد كان إسلامك عزاً وإمارتك فتحاً، ولقد ملأت الأرض عدلاً فقال: أتشهد لي بذلك يا ابن عباس، قال: فكأنه كره الشهادة، فتوقف، فقال له علي رضي الله عنه: قل: نعم، وأنا معك، فقال: نعم.

وفي رواية أنه قال: مسست جلده وهو ملقى، فقلت: جلد لا تمسه النار أبداً، فنظر إلي نظرة جعلت أرثي له منها، قال: وما علمك بذلك، قلت: صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسننت صحبتته... الحديث، فقال: لو أن لي ما في الأرض لافتديت به من عذاب الله قبل ألقاه أو أراه.

وفي رواية قال: فانكرنا الصوت، وإذا عبد الرحمن بن عوف، وقيل: طعن أمير المؤمنين. فانصرف الناس وهو دمه مسجى، لم يصل الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين، الصلاة! فرفع رأسه، وقال: لاها الله إذن، لاحظ لا مرى في الإسلام ضيع صلاته ثم وثب ليقوم فانتعب جرحه دمماً، فقال: هاتوا لي عمامة، فعصب بها جرحه، ثم صلى وذكر، ثم التفت إلى ابنه عبد الله، وقال: ضع خدي إلى الأرض يا عبد الله، قال عبد الله: فلم أعج بها، وظننت أنها اختلاس من عقله، فقالها مرة أخرى: ضع خدي إلى الأرض يا بني فلم أفعل، فقال! الثالثة: ضع خدي إلى الأرض، لا أم لك! فعرفت أنه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه هو إلا ما به من الغلبة، فوضعت خده إلى الأرض، حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجة من أضعاف التراب، وبكى حتى نظرت إلى الطين قد لصق بعينه، فأصغيت أذني لأسمع ما يقول: فسمعتة يقول: يا ويل عمر! وويل أم عمر، إن لم يتجاوز الله عنه! وقد جاء في رواية، أن علياً رضي الله عنه جاء حتى وقف عليه، فقال: ما أحد أحب إلي أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى.

وروي عن حفصة أم المؤمنين، قالت: سمعت أبي يقول في دعائه: اللهم قتلاً في سبيلك، ووفاة في بلد نبيك! قلت: وأن يكون هذا؟ قال: يأتي به الله إذا شاء.

ويروى أن كعباً كان يقول له: نجدك في كتبنا تموت شهيداً، فيقول: كيف لي بالشهادة وأنا في جزيرة العرب! وروى المقدام بن معد يكرب، قال: لما أصيب عمر دخلت عليه حفصة ابنته، فنادت يا صاحب رسول الله، ويا صهر رسول الله، ويا أمير المؤمنين! فقال لابنه عبد الله: أجلسني، فلا صبر لي على ما أسمع، فأسنده إلى صدره، فقال لها: إني أخرج عليك بمالي عليك من الحق أن تنديني بعد مجلسك هذا، فأما عينك فلن أملكها، إنه ليس من ميت يندب عليه بما ليس فيه، إلا الملائكة تمقته! وروى الأحنف، قال: سمعت عمر يقول: إن قريشاً رؤوس الناس، ليس أحد منهم يدخل من باب إلا دخل معه طائفة من الناس، فلما أصيب عمر أمر صهيياً أن يصلي بالناس ثلاثة أيام ويطعمهم!، حتى يجتمعوا على رجل، فلما وضعت الموائد كف الناس عن الطعام، فقال العباس بن عبد المطلب: أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات

فأكلنا بعده، ومات أبو بكر فأكلنا بعده، وإنه لا بد للناس من الأكل، ثم مد يده فأكل من الطعام، فعرفت قول عمر. ويروي كثير من الناس الشعر المذكور في الحماسة، ويزعم أن هاتفاً من الجن هتف به وهو:

جزيت عن الإسلام خيراً وباركت	يد الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أويركب جناحي نعامة	ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها	بوائق في أكمائها لم تفتق
أبعد قتيل بالمدينة أظلمت له	الأرض تهتز العضاء بأسواق!
وما كنت أخشى أن تكون وفاته	بكفي سبنتي أزرق العين مطرق
تظل الحصان البكر يلقي جنيها	نثا خبر فوق المطي معلق

والأكثر من يروونها لمزرد أخي الشماخ، ومنهم من يرويها للشماخ نفسه.

عشرة طعون في عمر والرد عليها،

ونذكر في هذا الموضع ما طعن به على عمر في المغني من المطاعن، وما اعترض به الشريف المرتضى على قاضي القضاة، وما أجاب به قاضي القضاة، في كتابه المعروف بالشافي، ونذكر ما عندنا في البعض من ذلك.

الطعن الأول: قال قاضي القضاة: أول ما طعن به عليه قول من قال: إنه بلغ من قلة علمه أنه لم يعلم أن الموت يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه أسوة الأنبياء في ذلك، حتى قال: والله ما مات محمد، ولا يموت حتى تقطع أيدي رجال وأرجلهم، فلما تلا عليه أبو بكر قوله تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون"، وقوله: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم" الآية، قال: أيقنت بوفاته، وكأني لم أسمع هذه الآية، فلو كان يحفظ القرآن أو يفكر فيه لما قال ذلك، وهذا يدل! على بعده من حفظ القرآن وتلاوته، ومن هذا حاله لا يجوز أن يكون إماماً.

قال قاضي القضاة: وهذا لا يصح لأنه قد روي عنه أنه قال: كيف يموت، وقد قال الله تعالى: "ليظهره على الدين كله" وقال: "وليبذلنهم من بعد خوفهم أمناً"، ولذلك نفى موته رضي الله عنه، لأنه حمل الآية على أنها خبر عنه في حال حياته حتى قال له أبو بكر: إن الله وعده بذلك وسيفعله، وتلا عليه ما تلا، فأيقن عند ذلك بموته، وإنما ظن أن موته يتأخر عن ذلك الوقت، لا أنه منع من موته.

ثم سأل قاضي القضاة نفسه، فقال: فإن قيل: فلم قال لأبي بكر عند قراءة الآية: كأني لم أسمعها، ووصف نفسه بأنه أيقن بالوفاة! وأجاب بأن قال: لما كان الوجه في ظنه ما أزال أبو بكر الشبهة فيه، جاز أن يتيقن.

ثم سأل نفسه عن سبب يقينه فيما لا يعلم إلا بالمشاهدة.

وأجاب بأن قرينة الحال عند سماع الخبر أفادته اليقين، ولو لم يكن في ذلك إلا خبر أبي بكر وادعاؤه لذلك، والناس مجتمعون، لحصل اليقين.

وقوله: كأني لم أقرأ هذه الآية، أو لم أسمعها، تنبيه على ذهوله عن الاستدلال بها، لا أنه على الحقيقة لم يقرأها ولم

يسمعه، ولا يجب فيمن ذهب عن بعض أحكام الكتاب ألا يعرف القرآن، لأن ذلك لو دل، لوجب ألا يحفظ القرآن إلا من يعرف جميع أحكامه. ثم ذكر أن حفظ القرآن كله غير واجب، ولا يقدح الإخلال به في الفضل.

وحكي عن الشيخ أبي علي أن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم يحط علمه بجميع الأحكام، ولم يمنع ذلك من فضله، واستدل بما روي من قوله: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعتني الله به ما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني غيره أحلفت، فإن حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر. وذكر أنه لم يعرف أي موضع يدفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رجع إلى ما رواه أبو بكر، وذكر قصة الزبير في موالي صفية، وأن أمير المؤمنين رضي الله عنه أراد أن يأخذ ميراثهم، كما أن عليه أن يحمل عقلهم حتى أخبره عمر بخلاف ذلك من أن الميراث للأب، والعقل على العصبة.

ثم سأل نفسه فقال: كيف يجوز ما ذكرت على أمير المؤمنين رضي الله عنه، مع قوله "سلوني قبل أن تفقدوني"، وقوله: "إن ههنا علماً جماً"، يومىء إلى قلبه، وقوله: "لوثنت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل القرآن بقرآنهم". وقوله: "كنت إذا سئلت أجبت وإذا سكت ابتديت". وأجاب عن ذلك بأن هذا إنما يدل على عظم المحل في العلم، من غير أن يدل على الإحاطة بالجميع.

وحكي عن أبي علي استبعاده ما روي من قوله: "لوثنت الوسادة"، قال: لأنه لا يجوز أن يصف نفسه بأنه يحكم بما لا يجوز، ومعلوم أنه رضي الله عنه لا يحكم بين الجميع إلا بالقرآن، ثنت له الوسادة أو لم تثن، وهذا يدل على أن الخبر موضوع. فاعترض الشريف المرتضى، فقال: ليس يخلو خلاف عمر في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كل حال، والاعتقاد بأن الموت لا يجوز عليه على كل وجه، أو يكون منكراً لموته في تلك الحال، من حيث لم يظهر دينه على الدين كله، وما أشبه ذلك مما قال صاحب الكتاب: إنها كانت شبهة في تأخر موته عن تلك الحال.

فإن كان الوجه الأول، فهو مما لا يجوز خلاف العقلاء في مثله، والعلم بجواز الموت على سائر البشر لا يشك فيه عاقل، والعلم من إظهار دينه صلى الله عليه وسلم بأنه سيموت كما مات من قبله ضروري، وليس يحتاج في مثل هذا إلى الآيات التي تلاها أبو بكر، من قوله تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون" وما أشبهها.

وإن كان خلافه على الوجه الثاني، تأول ما فيه أن هذا الخلاف لا يليق بما احتج به أبو بكر من قوله تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون"، لأنه لم ينكر على هذا جواز الموت، وإنما خالف في تقدمه، وقد كان يجب أن يقول له: وأي حجة في هذه الآيات على من جوز عليه صلى الله عليه وسلم الموت في المستقبل، وأنكره في هذه الحال! وبعد، فكيف دخلت الشبهة البعيدة على عمر من بين سائر الخلق! ومن أين زعم أنه لا يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم! وكيف حمل معنى قوله تعالى: "ليظهره على الدين كله" وقوله: "وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً" على أن ذلك لا يكون في المستقبل بعد الوفاة! وكيف لم يخطر هذا إلا لعمر وحده، ومعلوم أن ضعف الشبهة إنما يكون من ضعف الفكرة، وقلة التأمل والبصيرة! وكيف لم يوقن بموته لما رأى ما عليه أهل الإسلام من اعتقاد موته، وما ركبهم من الحزن والكآبة لفقده! وهلا دفع بهذا

اليقين ذلك التأويل البعيد، فلم يحتج إلى موقف ومعرف! وقد كان يجب إن كانت هذه شبهة أن يقول في حال مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى جزع أهله وأصحابه وخوفهم عليه من الوفاة، حتى يقول أسامة بن زيد معتذراً من تباطئه عن الخروج في الجيش الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر ويردد الأمر حينئذ بتنفيذه: لم أكن لأسأل عنك الركب: ما هذا الجزع والهلع، وقد أمنكم الله من موته بكذا في وجه كذا، وليس هذا من أحكام الكتاب التي يعذر من لا يعرفها على ما ظنه صاحب الكتاب.

قلت: الذي قرأناه ورويناه من كتب التواريخ، يدل على أن عمر أنكروا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوجهين المذكورين، أنكروا أولاً أن يموت إلى يوم القيامة، واعتقد عمر أنه يعمر كما يعتقد كثير من الناس في الخضر، فلما حاجه أبو بكر بقوله تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون"، وبقوله: "أفإن مات أو قتل". رجع عن ذلك الاعتقاد.

وليس يرد على هذا ما اعترض به المرتضى، لأن عمر ما كان يعتقد استحالة الموت عليه كاستحالة الموت على الباري تعالى أعني الاستحالة الذاتية بل اعتقد استمرار حياته إلى يوم القيامة، مع كون الموت جائزاً في العقل عليه، ولا تناقض في ذلك، فإن إبليس يبقى حياً إلى يوم القيامة، مع كون موته جائزاً في العقل، وما أورده أبو بكر عليه لازم على أن يكون نفيه للموت على هذا الوجه.

وأما الوجه الثاني، فهو أنه لما دفعه أبو بكر عن ذلك الاعتقاد وقف مع شبهة أخرى، اقتضت عنده أن موته يتأخر، وإن لم يكن إلى يوم القيامة، وذلك أنه تأول قوله تعالى: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله"، فجعل الضمير عائداً على الرسول لا على الدين، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يظهر بعد على سائر الأديان، فوجب أن تستمر حياته إلى أن يظهر على الأديان بمقتضى الوعد الذي لا يجوز عليه الخلف والكذب، فحاجه أبو بكر من هذا المقام، فقال له: إنما أراد: ليظهر دينه وسيظهره فيما بعد، ولم يقل: "ليظهره الآن"، فمن ثم قال له: "ولو أراد ليظهر الرسول صلى الله عليه وسلم على الدين كله لكان الجواب واحداً، لأنه إذا ظهر دينه فقد أظهره هو.

فأما قول المرتضى رحمه الله: "وكيف دخلت هذه الشبهة على عمر من بين الخلق"، فهكذا تكون الخواطر والشبه! والاعتقادات تسبق إلى ذهن واحد دون غيره، وكيف دخلت الشبهة على جماعة منعوا الركاة، واحتجوا بقوله تعالى: "وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم" دون غيرهم من قبائل العرب! وكيف دخلت الشبهة على أصحاب الجمل وصفين دون غيرهم! وكيف دخلت الشبهة على خوارج النهروان دون غيرهم! وهذا باب واسع.

فأما قوله: "ومن أين زعم أنه لا يموت حتى تقطع أيدي رجال وأرجلهم"، فإن الذي ذكره المؤرخون أنه قال: "ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما غاب عنا كما غاب موسى عن قومه، وسيعود فتقطع أيدي رجال وأرجلهم ممن أرجف بموته، وهذه الرواية تخالف ما ذكره المرتضى.

فأما قوله: وكيف حمل معنى قوله: "ليظهره على الدين كله"، وقوله: "وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً" على أن ذلك لا يكون في المستقبل! فقد بينا الشبهة الداخلة عليه في ذلك، وكونه ظن أن ذلك، يكون معجلاً على الفور، وكذلك قوله: "وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليبدلنهم من بعد

خوفهم أمناً"، فإنه ظن أن هذا العموم يدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه سيد المؤمنين، وسيد الصالحين، أو أنه لفظ عام، والمراد به رسول الله وحده، كما ورد في كثير من آيات القرآن مثل ذلك، فظن أن هذا الاستخلاف في جميع الأرض، وتبديل الخوف بالأمن إنما هو على الفور لا على التراخي، وليست هذه الشبهة بضعيفة جداً كما ظن المرتضى، بل هي موضع نظر.

فأما قوله: "كيف لم يؤمن بموته لما رأى من كآبة الناس وحزنهم"! فلأن الناس يبنون الأمر على الظاهر وعمر نظر في أمر باطن دقيق، فاعتقد أن الرسول لم يموت، وإنما ألقى شبهه على غيره. كما ألقى شبه عيسى على غيره، فصلب، وعيسى قد رفع ولم يصلب.

واعلم أن أول من سن لأهل الغيبة من الشيعة القول بأن الإمام لم يموت ولم يقتل، وإن كان الظاهر وفي مرأى العين قد قتل أو مات، إنما هو عمر، ولقد كان يجب على المرتضى وطائفته أن يشكروه على ما أسس لهم من هذا الاعتقاد. فأما قوله، فهلا قال في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى جزعهم لموته: "قد أمنكم الله من موته"! فغير لازم، لأن الشبهة لا تجب أن تخطر بالبال في كل الأوقات، فلعله قد كان في ذلك الوقت غافلاً عنها مشغول الذهن بغيرها، ولو صح للمرتضى هذا لوجب أن يدفع ويبطل كل ما يتجدد ويطرأ على الناس من الشبهة في المذاهب والآراء، فنقول: كيف طرأت عليهم هذه الشبهات الآن، ولم تطرأ عليهم من قبل، وهذا من اعتراضات المرتضى الضعيفة، على أننا قد ذكرنا نحن في الجزء الأول من هذا الكتاب ما قصده عمر بقوله: "إن رسول الله لم يموت"، وقلنا فيه قولاً شافياً لم نسبق إليه، فليعاود.

ثم قال المرتضى: فاما ما روي عن أمير المؤمنين رضي الله عنه من خبر الاستخلاف في الأخبار، فلا يدل على عدم علم أمير المؤمنين بالحكم، لأنه يجوز أن يكون استخلافه ليرهب المخبر ويخوفه من الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم لأن العلم بصحة الحكم الذي يتضمنه الخبر لا يقتضي صدق المخبر، وأيضاً فلا تاريخ لهذا الحديث، ويمكن أن يكون استخلافه رضي الله عنه للرواة إنما كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي تلك الحال لم يكن محيطاً بجميع الأحكام. فأما حديث الدفن وإدخاله في باب أحكام الدين التي يجب معرفتها فطريف، وقد يجوز أن يكون أمير المؤمنين رضي الله عنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم في باب الدفن مثل ما سمعه أبو بكر، وكان عازماً على العمل به، حتى روى أبو بكر ما رواه فعمل بما كان يعلمه لا من طريق أبي بكر، وظن الناس أن العمل لأجله. ويجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم خير وصيه رضي الله عنه في موضع دفنه، ولم يعين له موضعاً بعينه. فلما روى أبو بكر ما رواه رأى موافقته، فليس في هذا دلالة على أنه رضي الله عنه استفاد حكماً لم يكن عنده.

وأما موالي صفية فحكم الله فيهم، ما أفتى به أمير المؤمنين رضي الله عنه وليس سكوته حيث سكت عند عمر رجوعاً عما أفتى به، ولكنه كسكوته عن كثير من الحق تقية ومدارة للقوم.

وأما قوله رضي الله عنه: "سلوني قبل أن تفقدوني" وقوله: "إن ههنا لعلماً جماً"، إلى غير ذلك، فإنه لا يدل على عظم المحل في العلم فقط، على ما ظنه صاحب الكتاب، بل هو قول واثق بنفسه، آمن من أن يسأل عما لا يعلمه، وكيف يجوز أن

يقول مثله على رؤوس الأشهاد وظهور المنابر: "سلوني قبل أن تفقدوني"، وهو يعلم أن كثيراً من أحكام الدين يعزب عنه! وأين كان أعداؤه والمتهزون لفرسته وزلته عن سؤاله عن مشكل المسائل، وغوامض الأحكام! والأمر في هذا ظاهر. فأفا استبعاد أبي علي لما روي عنه رضي الله عنه من قوله: "لو ثبت لي الوسادة" للوجه الذي ظنه فهو البعيد، فإنه لم يفتن لغرضه رضي الله عنه، وإنما أراد: أي كنت اقاضيهم إلى كتبهم الدالة على البشارة بنبينا صلى الله عليه وسلم وصحة شرعه، فأكون حاكماً حينئذ عليهم بما تقتضيه كتبهم من هذه الشريعة وأحكام هذا القرآن، وهذا من جليل الأغراض وعظيمها.

الطعن الثاني: أنه أمر برجم حامل حتى نبهه معاذ، وقال: إن يكن لك عليها سبيل فلا سبيل لك على ما في بطنها، فرجع عن حكمه، وقال: لولا معاذ لهلك عمر. ومن يجهل هذا القدر لا يجوز أن يكون إماماً، لأنه يجري مجرى أصول الشرع، بل العقل يدل عليه، لأن الرجم عقوبة، ولا يجوز أن يعاقب من لا يستحق.

اعتذر قاضي القضاة عن هذا، فقال: إنه ليس في الخبر أنه أمر برجمها، مع علمه بأنها حامل، لأنه ليس ممن يخفى عليه هذا القدر، وهو أن الحامل لا ترحم حتى تضع، وإنما ثبت عنده زناها، فأمر برجمها على الظاهر، وإنما قال ما قال في معاذ لأنه نبهه على أنها حامل.

ثم سأل نفسه فقال: فإن قيل: إذا لم تكن منه معصية، فكيف يهلك لولا معاذ! وأجاب بأنه لم يرد: لهلك من جهة العذاب، وإنما أراد: أنه كان يجري بقوله قتل من لا يستحق القتل. ويجوز أن يريد بذلك تقصيره في تعرف حالها، لأن ذلك لا يمتنع أن يكون بخطيئة وإن صغرت.

اعترض المرتضى على هذا الاعتذار، فقال: لو كان الأمر على ما ظننته لم يكن تنبيه معاذ له على هذا الوجه، بل كان يجب أن ينبهه بأن يقول له: هي حامل، ولا يقول له: إن كان لك سبيل عليها فلا سبيل لك على ما في بطنها، لأن هذا قول من عنده أنه أمر برجمها مع العلم بحملها، وأقل ما يجب لو كان الأمر كما ظنه صاحب الكتاب أن يقول لمعاذ: ما ذهب علي أن الحامل لا ترحم، لأنما أمرت برجمها لفقد علمي بحملها، فكان ينفي بهذا القول عن نفسه الشبهة! وفي إمساكه عنه مع شدة الحاجة إليه دليل على صحة قولنا. وقد كان يجب أيضاً أن يسأل عن الحمل، لأنه أحد الموانع من الرجم، فإذا علم انتفاءه وارتفاعه أمر بالرحم، وصاحب الكتاب قد اعترف بأن ترك المسألة عن ذلك تقصير وخطيئة، وادعى أنها صغيرة، ومن أين له ذلك ولا دليل يدل عنده في غير الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أن معصية بعينها صغيرة.

فأما إقراره بالهلاك لولا تنبيه معاذ، فإنه يقتضي التعظيم والتفخيم لشأن الفعل، ولا يليق ذلك إلا بالتقصير الواقع، إما في الأمر برجمها مع العلم بأنها حامل، أو ترك البحث عن ذلك والمسألة عنه، وأي لوم عليه في أن يجري بقوله قتل من لا يستحق القتل إذا لم يكن ذلك عن تفريط منه ولا تقصير! قلت: أما ظاهر لفظ معاذ فيشعر بما قاله المرتضى، ولم يمتنع أن يكون عمر لم يعلم أنها حامل وأن معاذاً قد كان من الأدب أن يقول له: حامل يا أمير المؤمنين، فعدل عن هذا اللفظ بمقتضى أخلاق العرب وخشونتهم. فقال له: إن كان لك عليها سبيل فلا سبيل لك على ما في بطنها، فنبهه على العلة والحكم معاً، وكان الأدب أن يتببه على العلة فقط وأما عدول عمر عن أن يقول: أنا أعلم أن الحامل لا ترحم، وإنما

أمرت برجمها، لأني لم أعلم أنها حامل، فلأنه إنما يجب أن يقول مثل هذا من يخاف من اضطراب حاله، أو نقصان ناموسه وقاعدته إن لم يقله، وعمر كان أثبت قدماً في ولايته، وأشد تمكناً من أن يحتاج إلى الاعتذار بمثل هذا.

وأما قول المرتضى: كان يجب أن يسأل عن الحمل، لأنه أحد الموانع من الرجم، فكلام صحيح لازم، ولا ريب أن ترك السؤال عن ذلك نوع من الخطأ، ولكن المرتضى قد ظلم قاضي القضاة، لأنه زعم أنه ادعى أن ذلك صغيرة، ثم أنكر عليه ذلك، ومن أين له ذلك! وأي دليل دل على أن هذه المعصية صغيرة، وقاضي القضاة ما ادعى أن ذلك صغيرة! بل قال: لا يمتنع أن يكون ذلك خطيئة وإن صغرت. والعجب أنه حكى لفظ قاضي القضاة بهذه الصورة، ثم قال: إنه ادعى أنها صغيرة، وبين قول القائل: "لا يمتنع أن يكون صغيرة"، وقوله: "هي صغيرة" لا محالة فرق عظيم.

وأما قول عمر: لولا معاذ لهلك عمر، فإن ظاهر اللفظ يشعر بما يريده المرتضى، وينحو إليه، ولا يمتنع أن يكون المقصود ما ذكره قاضي القضاة وإن كان مرجوحاً، فإن القائل خطأ قد يقول: هلك، ليس يعني به العقاب يوم القيامة، بل لوم الناس وتعنيفهم إياه على ترك الاحتراس وإهمال التثبت.

الطعن الثالث: خبر المجنونة التي أمر برجمها، فنبهه أمير المؤمنين رضي الله عنه وقال: إن القلم مرفوع عن المجنون حتى يفيق. فقال: لولا علي لهلك عمر! وهذا يدل على أنه لم يكن يعرف الظاهر من الشريعة.

أجاب قاضي القضاة فقال: ليس في الخبر أنه عرف جنونها، فيجوز أن يكون الذي نبه عليه هو جنونها دون الحكم، لأنه كان يعلم أن الحد لا يقام في حال الجنون، وإنما قال: لولا علي لهلك عمر، لا من جهة المعصية والإثم، لكن لأن حكمه لو نفذ لعظم غمه، ويقال في شدة الغم: إنه هلاك، كما يقال في الفقر وغيره، وذلك مبالغة منه لما كان يلحقه من الغم الذي زال بهذا التنبيه. على أن هذا الوجه مما لا يمتنع في الشرع أن يكون صحيحاً، وأن يقال: إذا كانت مستحقة للحد، فيإقامته عليها تصح، إن لم يكن لها عقل، لأنه لا يخرج الحد من أن يكون واقعاً موقعه، ويكون قوله تجننه: "رفع القلم عن ثلاث"، يراد به زوال التكليف عنهم دون زوال إجراء الحكم عليهم، ومن هذه حاله لا يمتنع أن يكون مشتبهاً، فرجع فيه إلى غيره، ولا يكون الخطأ فيه مما يعظم فيمنع من صحة الإمامة.

اعترض الشريف المرتضى هذا فقال: لو كان أمر برجم المجنونة من غير علم بجنونها لما قال له أمير المؤمنين: أما علمت أن القلم مرفوع عن المجنون حتى يفيق! بل كان يقول له بدلاً من ذلك: هي مجنونة، وكان ينبغي أن يقول عمر متبرئاً من الشبهة: ما علمت بجنونها، ولست ممن يذهب عليه أن المجنون لا يرحم، فلما رأيناه استعظم ما أمر به، وقال: لولا علي لهلك عمر، دلنا على أنه كان تأثم وتخرج بوقوع الأمر بالرجم، وأنه مما لا يجوز ولا يحل، وإلا فلا معنى لهذا الكلام. وأما ذكر الغم، فأى غم كان يلحقه إذا فعل ما له أن يفعله! ولم يكن منه تفريط ولا تقصير، لأنه إذا كان جنونها لم يعلم به، فكانت المسألة عن حالها والبحث لا يجبان عليه، فأى وجه لتألمه وتوجعه واستعظامه لما فعله! وهل هذا إلا كرحم المشهود عليه بالزنا في أنه لو ظهر للإمام بعد ذلك براءة ساحته لم يجب أن يندم على فعله ويستعظمه، لأنه وقع صواباً مستحقاً.

وأما قوله: إنه كان لا يمتنع في الشرع أن يقام الحد على المجنون، وتأوله الخبر المروي على أنه يقتضي زوال التكليف دون

الأحكام، فإن أراد أنه لا يمتنع في العقل أن يقام على المجنون ما هو من جنس الحد بغير استخفاف ولا إهانة، فذلك صحيح، كما يقام على النائب وأما الحد في الحقيقة، وهو الذي تضمنه الاستخفاف والإهانة فلا يجوز إلا على المكلفين ومستحقي العقاب، وبالمجنون قد أزيل التكليف، فزال استحقاق العقاب الذي تبعه الحد.

وقوله: لا يمتنع أن يرجع فيما هذه حاله من المشتبه إلى غيره، فليس هذا من المشتبه الغامض، بل يجب أن يعرفه العوام فضلاً عن العلماء، على أنا قد بينا أنه لا يجوز أن يرجع الإمام في جلي ولا مشتبه من أحكام الدين إلى غيره. وقوله: إن الخطأ في ذلك لا يعظم فيمنع من صحة الإمامة، اقتراح بغير حجة لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيل للقطع على أنه صغير.

قلت: لو كان قد نقل أن أمير المؤمنين قال له: "أما علمت"، لكان قول المرتضى قويا ظاهراً، إلا أنه لم ينقل هذه الصيغة بعينها، والمعروف المنقول أنه قال له: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "رفع القلم عن ثلاث"، فرجع عن رجمها، ويجوز أن يكون أشعره بالعلة والحكم معاً، لأن هذا الموضع أكثر اشتباهاً من حديث رجم الحامل، فغلب على ظن أمير المؤمنين أنه لو اقتصر على قوله: إنها مجنونة لم يكن ذلك دافعاً لرجمها، فأكد به رواية الحديث. واعتذار قاضي القضاة بالغم جيد، وقول المرتضى: أي غم كان يلحقه إذا فعل ما له أن يفعله! ليس بإنصاف، ولا مثل هذا يقال فيه إنه فعل ما له أن يفعله، ولا يقال في العرف لمن قتل إنساناً خطأ: إنه فعل ما له أن يفعله، والمرجوم قي الزنا إذا ظهر للإمام بعد قتله براءة ساحته قد يغتم بقتله غماً كثيراً بالطبع البشري، ويتألم أن لم يكن أثماً، وليس من توابع الإثم ولوازمه. وقول المرتضى: لم يجب أن يندم على ما فعله كلام خارج عما هو بصدده، لأنه لم يجر ذكر للندم، وإنما الكلام في الغم ولا يلزم أن يكون كل مغتم نادماً.

وأما اعتراضه على قاضي القضاة في قوله: "لا يمتنع في الشرع أن ترحم المجنونة، فلما اشتبه على عمر الأمر سأل غيره عنه بقوله: "إن أردت الحد الحقيقي فمعلوم، وإن أردت ما هو جنس الحد فمسلم" فليس بجيد، لأن هذا إنما يكون طعنًا على عمر بتقدير ثلاثة أمور: أحدها أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: "أقيموا الحد على الزاني" بهذا اللفظ، أعني أن يكون في لفظ النص ذكر الحد، وثانيها أن يكون الحد في اللغة العربية أو في عرف الشرع الذي يتفاهمه الصحابة هو العقوبة المخصوصة التي يقارنها الاستخفاف والإهانة، وثالثها ألا يصح إهانة المجنون والاستخفاف به، وأن يعلم عمر ذلك، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة ثم أمر عمر بأن يقام الحد على المجنونة فقد توجه الطعن، ومعلوم أنه لم تجتمع هذه الأمور الثلاثة، فإنه ليس في القرآن ولا في السنة ذكر الحد بهذا اللفظ، ولا الحد في اللغة العربية هو العقوبة التي يقارنها الاستخفاف والإهانة ولا عرف الشرع ومواضع الصحابة يشتمل على ذلك، وإنما هذا شيء استنبطه المتكلمون

المتأخرون بأذهانهم وأفكارهم، ثم بتقدير تسليم هذين المقامين لم قال: إن المجنون لا يصح عليه الاستخفاف والإهانة فمن الجائز أن يصح ذلك عليه وإن لم يتألم بالاستخفاف والإهانة كما يتألم بالعقوبة وإذا صح عليه أن يألم بالعقوبة صح عليه أن يألم بالاستخفاف والإهانة، لأن المجنون لا يبلغ وإن عظم مبلغاً يبطل تصور الإنسان لإهنته ولاستخفافه، وبتقدير ألا يصح على المجنون الاستخفاف والإهانة، من أين لنا أن عمر علم أن ذلك لا يصح عليه! فمن الممكن أن يكون ظن أن ذلك يصح عليه، لأن هذا مقام اشتباه والتباس. فأما قوله: "قد بينا أنه لا يجوز أن يرجع الإمام أصلاً إلى غيره"، فهو مبني

على مذهبهم وقواعدهم. وقوله معترضاً على كلام قاضي القضاة: إن الخطأ في ذلك قد لا يعظم ليمنع من صحة الإمامة إن هذا اقتراح بغير حجة، لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيل إلى القطع على أنه صغير غير لازم، لأن قاضي القضاة لم يقطع بأنه صغير، بل قال: لا يمتنع وإذا جاز أن يكون صغيراً لم نكن قاطعين على فساد الإمامة به.

فإن قال المرتضى: كما أنكم لا تقطعون على أنه صغير، فتكون الإمامة مشكوكاً فيها، قيل له: الأصل عدم الكبير، فإذا حصل الشك في أمر: هل هو صغير أم كبير، تساقط التعارض، ورجعنا إلى الأصل، وهو عدم كون ذلك الخطأ كبيراً، فلا يمنع ذلك من صحة الإمامة.

الطعن الرابع: حديث أبي العجفاء، وأن عمر منع من المغالاة في صدقات النساء، اقتداء بما كان من النبي صلى الله عليه وسلم في صداق فاطمة، حتى قامت المرأة ونبهته بقوله تعالى: "وآتيتن إحداهن قنطاراً"، على جواز ذلك، فقال: كل النساء أفقه من عمر! وبما روي أنه تسور على قوم، ووجدتهم على منكر، فقالوا له: إنك أخطأت من جهات: تجسست، وقال الله تعالى: "ولا تجسسوا"، ودخلت بغير إذن، ولم تسلم.

أجاب قاضي القضاة، فقال: علمنا بتقدم عمر في العلم وفضله فيه ضروري، فلا يجوز أن يقدح فيه باخبار أحاديث غير مشهورة، وإنما أراد في المشهور أن المستحب الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأن المغالاة فيها ليس بمكرمة، ثم عند التنبيه، علم أن ذلك مبني على طيب النفس، فقال ما قاله على جهة التواضع، لأن من أظهر الاستفادة من غيره وإن قل علمه فقد تعاظم الخضوع، ونبه على أن طريقته أخذ الفائدة أينما وجدها، وصير نفسه قدوة في ذلك وأسوة، وذلك حسن من الفضلاء. وأما حديث التجسس فإن كان فعله فقد كان له ذلك، لأن للإمام أن يجتهد في إزالة المنكر بهذا الجنس من الفعل، وإنما لحقه على ما يروى في الخبر الخجل، لأنه لم يصادف الأمر على ما القي إليه في إقدامهم على المنكر.

اعترض المرتضى على هذا الجواب، فقال له: أما تعويلك على العلم الضروري بكونه من أهل العلم والاجتهاد، فذلك إذا صح لم ينفعك، لأنه قد يذهب على من هو بهذه الصفة كثير من الأحكام حتى ينبه عليها ويجتهد فيها، وليس العلم الضروري ثابتاً بأنه عالم بجميع أحكام الدين، فكيون قاضياً على هذه الأخبار. فأما تأوله الحديث وحمله على الاستحباب فهو دفع للعيان، لأن المروي أنه منع من ذلك وحظره حتى قالت المرأة ما قالت، ولو كان غير حاضراً للمغالاة لما كان في الآية حجة، ولا كان لكلام المرأة موقع، ولا كان يعترف لها بأنها أفقه منه، بل كان الواجب أن يرد عليها ويوبخها وشرفها أنه ما حظر لذلك، وإنما تكون الآية حجة عليه لو كان حاضراً مانعاً، فأما التواضع فلا يقتضي إظهار القبيح وتصويب الخطأ. ولو كان الأمر على ما توهمه صاحب الكتاب لكان هو المصيب والمرأة مخطئة، فكيف يتواضع بكلام يوهم أنه المخطيء، وهي المصيبة! فأما التجسس فهو محذور بالقرآن والسنة، وليس للإمام أن يجتهد فيما يؤدي إلى مخالفة الكتاب والسنة، وقد كان يجب إن كان هذا عذراً صحيحاً أن يعتذر به إلى من خطأه في وجهه وقال له: إنك أخطأت السنة من وجوه، فإنه بمعاذير نفسه أعلم من صاحب الكتاب، وتلك الحال حال تدعو إلى الاحتجاج وإقامة العذر. قلت: قصارى هذا الطعن أن عمر اجتهد في حكم أو أحكام فأخطأ، فلما نبه عليها رجع، وهذا عند المعتزلة وأكثر

المسلمين غيره منكر، وإنما ينكر أمثال هذا من يبطل الاجتهاد، ويوجب عصمة الإمام، فإذا هذا البحث ساقط على أصول المعتزلة، والجواب عنه غير لازم علينا.

الطعن الخامس: أنه كان يعطي من بيت المال ما لا يجوز، حتى إنه كان يعطي عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم في كل سنة، ومنع أهل الحيت خمسهم الذي يجري مجرى الواصل إليهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنه كان عليه ثمانون ألف درهم من بيت المال على سبيل القرض.

أجاب قاضي القضاة، بأن دفعه إلى الأزواج جائز من حيث إن لهن حقاً في بيت المال، ولالإمام أن يدفع ذلك على قدر ما يراه، وهذا الفعل قد فعله من قبله ومن بعده، ولو كان منكراً لما استمر عليه أمير المؤمنين رضي الله عنه، وقد ثبت استمراره عليه، ولو كان ذلك طعناً لوجب إذا كان يدفع إلى الحسن والحسين وإلى عبد الله بن جعفر وغيرهم من بيت المال شيئاً أن يكون في حكم الخائن، وكل ذلك يبطل ما قالوه، لأن بيت المال إنما يرد لوضع الأموال في حقوقها ثم إلى المتولي للأمر والاجتهاد في الكثرة والقلة.

فأما أمر الخمس فمن باب الاجتهاد، وقد اختلف الناس فيه، فمنهم من جعله حقاً لذوي القربى وسهماً مفرداً لهم على ما يقتضيه ظاهر الآية، ومنهم من جعله حقاً لهم من جهة الفقر، وأجراهم مجرى غيرهم، وإن كان قد خصوا بالذكر، كما أجرى الأيتام ون خصوا بالذكر مجرى غيرهم في أنهم يستحقون بالفقر. والكلام في ذلك يطول، فلم يخرج عمر بما حكم به عن طريقة الاجتهاد، ومن قدح في ذلك فإنما يقدح في الاجتهاد الذي هو طريقة الصحابة.

فأما اقتراضه من بيت المال، فإن صح فهو غير محظور، بل ربما كان أحوط، إذا كان على ثقة من رده، بمعرفة الوجه الذي يمكنه منه الرد، وقد ذكر الفقهاء ذلك، وقال أكثرهم: إن الاحتياط في مال الأيتام وغيرهم أن يجعل في ذمة الغني المأمون، لبعده عن الخطر، ولا فرق بين أن يقرض الغير أو يقترضه لنفسه. ومن بلغ في أمره أن يطعن على عمر بمثل هذه الأخبار مع ما يعلم من سريره وتشده في ذات الله واحتياطه فيما يتصل بملك الله، وتزهره عنه، حتى فعل بالصبي الذي أكل من ثمر الصدقة واحدة ما فعل، وحتى كان يرفع نفسه عن الأمر الحقير ويتشدد على كل أحد، حتى على ولده فقد أبعد في القول.

اعترض المرتضى، فقال: أما تفضيل الأزواج، فإنه لا يجوز، لأنه لا سبب فيهن يقتضي ذلك، وإنما يفضل الإمام في العطاء ذوي الأسباب المقتضية لذلك، مثل الجهاد وغيره من الأمور العام نفعها للمسلمين.

وقوله: إن لهن حقاً في بيت المال صحيح، إلا أنه لا يقتضي تفضيلهن على غيرهن، وما عيب بدفع حقهن إليهن، وإنما عيب بالزيادة عليه، وما يعلم أن أمير المؤمنين رضي الله عنه استمر على ذلك وإن كان صحيحاً كما ادعى فالسبب الداعي إلى الاستمرار عليه، هو السبب الداعي إلى الاستمرار على جميع الأحكام، فأما تعلقه بدفع أمير المؤمنين إلى الحسن والحسين وغيرهما شيئاً من بيت المال فعجب! لأنه لم يفضل هؤلاء في العطية فيشبه ما ذكرناه في الأزواج، وإنما أعطاهم حقوقهم، وسوى بينهم وبين غيرهم.

فأما الخمس، فهو للرسول ولأقربائه، على ما نطق به القرآن، وإنما عني تعالى بقوله: "ولذي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل" من كان من آل الرسول خاصة، لأدلة كثيرة لا حاجة بنا إلى ذكرها ههنا. وقد روى سليم بن قيس الهلالي، قال: سمعت أمير المؤمنين رضي الله عنه يقول: "نحن والله الذي عني الله بذئ القرب، قرهم الله بنبيه صلى الله عليه وسلم فقال: "ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذئ القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"، كل هؤلاء منا خاصة، ولم يجعل لنا سهماً في الصدقة، أكرم الله تعالى نبيه وأكرمنا أن يطعمنا أو ساع ما في أيدي الناس. وروى يزيد بن هرم، قال: كتب نبدة إلى ابن عباس، يسأله عن الخمس لمن هو؟ فكتب إليه: كتبت تسألني عن الخمس لمن هو؟ وإنا كنا نزعـم أنه لنا، فأبى قومنا علينا ذلك، فصبرنا عليه.

قال: وأما الاجتهاد الذي عول عليه، فليس عذراً في إخراج الخمس عن أهله فقد أبطلناه. وأما الاقتراض من بيت المال فهو مما يدعو إلى الرية، ومن كان من التشدد والتحفظ والتكشف على الحد الذي ذكره، كيف تطيب نفسه بالاقتراض من بيت المال، وفيه حقوق وربما مست الحاجة إلى الإخراج منها، وأي حاجة لمن كان جشسب المأكـل، حشن الملبس، يتبلغ بالقوت إلى اقتراض الأموال! فأما حكايته عن الفقهاء، أن الاحتياط أن يحفظ مال الأيتام في ذمة الغني المأمون، فذلك إذا صح لم يكن نافعاً له، لأن عمر لم يكن غنياً، ولو كان غنياً لما اقترض، فقد خرج اقتراضه عن أن يكون من باب الاحتياط، وإنما اشترط الفقهاء مع الأمانة الغنى، لئلا تمس الحاجة إليه، فلا يمكن ارتجاعه، ولهذا قلنا: إن اقتراضه لحاجته إلى المال لم يكن صواباً وحسن نظر للمسلمين.

قلت: أما قوله: "لا يجوز للإمام أن يفضل في العطاء إلا لسبب يقتضي ذلك كالجهد، فليست أسباب التفضيل مقصورة على الجهد وحده، فقد يستحق الإنسان التفضيل في العطاء على غيره لكثرة عبادته أو لكثرة علمه، أو انتفاع الناس به، فلم لا يجوز أن يكون عمر فضل الزوجات لذلك! وأيضاً: فإن الله تعالى فرض لذوي القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيباً في الفئ والغنيمة، ليس إلا لأهم ذوو قرابته فقط، فما المانع من أن يقيس عمر على ذلك ما فعله في العطاء، فيفضل ذوي قرابة رسول الله في ذلك على غيرهم، ليس إلا لأهم ذوو قرابته، والزوجات وإن لم يكن لهن قربى النسب فلهن قربى الزوجية! وكيف يقول المرتضى: ما جاز أن يفضل أحداً إلا بالجهد! وقد فضل الحسن والحسين على كثير من أكابر المهاجرين والأنصار وهما صبيان، ما جاهدوا ولا بلغا الحلم بعد، وأبوهما أمير المؤمنين موافق على ذلك، راض به، غير منكر له! وهل فعل عمر ذلك إلا لقربهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نذكر ما فعله في هذا الباب مختصراً نقلناه من كتاب أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي المحدث في "أخبار عمرو سيرته".

روى أبو الفرج، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: استشسار عمر الصحابة بمن يبدأ في القسم والفريضة، فقالوا: ابدأ بنفسك، فقال: بل ابدأ لنـل رسول الله صلى الله عليه وسلم وذوي قرابته، فبدأ بالعباس.

قال ابن الجوزي: وقد وقع الاتفاق على أنه لم يفرض لأحد أكثر مما فرض له.

وروي أنه فرض له اثني عشر ألفاً، وهو الأصح، ثم فرض لزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل واحدة عشرة آلاف، فضل عائشة عليهن بألفين فأبت، فقال: ذلك بفضل منزلتك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أخذت فشأنك. واستثنى من الزوجات جويرية وصفية وميمونة، ففرض لكل واحدة منهن ستة آلاف، فقالت عائشة: إن رسول

الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا، فعدل عمر بينهم، وألحق هؤلاء الثلاث بسائرهن، ثم فرض للمهاجرين الذين شهدوا بدرًا لكل واحد خمسة آلاف، ولمن شهدا من الأنصار لكل واحد أربعة آلاف.

وقد روي أنه فرض لكل واحد ممن شهد بدرًا من المهاجرين أو من الأنصار أو من غيرهم من القبائل خمسة آلاف، ثم فرض لمن شهد أحدًا وما بعدها إلى الحديبية أربعة آلاف، ثم فرض لكل من شهد المشاهد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ألفين وخمسمائة، وألفين، وألفًا وخمسمائة، وألفًا واحدًا إلى مائتين، وهم أهل هجر، ومات عمر على ذلك.

قال ابن الجوزي: وأدخل عمر في أهل بدر ممن لم يحضر بدرًا أربعة، وهم الحسن، والحسين، وأبو ذر، وسلمان، وفرض لكل واحد منهم خمسة آلاف.

قال ابن الجوزي: وروى السدي أن عمر كسا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرتض في الكسوة ما يستصلحه للحسن والحسين رضي الله عنهما، فبعث إلى اليمن، فأتي لهما بكسوة فاخرة، فلما كساهما قال: الآن طابت نفسي. قال ابن الجوزي: فأما ما اعتمده في النساء فإنه جعل نساء أهل بدر على خمسمائة، ونساء من بعد بدر إلى الحديبية على أربعمائة، ونساء من بعد ذلك على ثلاثمائة، وجعل نساء أهل القادسية على مائتين مائتين، ثم سوى بين النساء بعد ذلك. ولو لم يدل على تصوب عمر فيما فعله إلا إجماع الصحابة واتفاقهم عليه وترك الإنكار لذلك كان كافيًا.

فأما الخمس والخلاف فيه فإنها مسألة اجتهادية، والذي يظهر لنا فيه ويغلب عندنا من أمرها، أن الخمس حق صحيح ثابت، وأنه باق إلى الآن على ما يذهب إليه الشافعي، وأنه لم يسقط بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكننا لا نرى ما يعتقده المرتضى من أن الخمس لآل الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الأيتام أيتامهم، والمساكين مساكينهم وابن السبيل منهم، لأنه على خلاف ما يقتضيه ظاهر الآية والعطف، ويمكن أن يحتج على ذلك بأن قوله تعالى في سورة الحشر: "للفقراء المهاجرين" يبطل هذا القول، لأن هذه اللام لا بد أن تتعلق بشيء، وليس قبلها ما تتعلق به أصلاً، إلا أن تجعل بدلاً من اللام التي قبلها في قوله: "ما افاء الله على رسوله من أهل القرى" ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل". وليس يجوز أن تكون بدلاً من اللام في الله، ولا من اللام في قوله: وللرسول فبقية أن تكون بدلاً من اللام في قوله "ولذي القربى"، أما الأول فتعظيماً له سبحانه، وأما الثاني فلأنه تعالى قد أخرج رسوله من الفقراء بقوله: وينصرون الله ورسوله، ولأنه يجب أن يرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التسمية بالفقير. وأما الثالث، فإذا أن يفسر هذا البذل وما عطف عليه المبدل منه، أو يفسر هذا البذل وحده دون ما عطف عليه المبدل منه، والأول لا يصح لأن المعطوف على هذا البذل ليس من أهل القرى وهم الأنصار، ألا ترى كيف قال سبحانه: "للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم" الآية، ثم قال سبحانه: "والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم" وهم الأنصار. ون كان الثاني صار تقدير الآية أن الخمس لله وللرسول ولذي القربى الذين وصفهم الله ونعتهم بأنهم هاجروا وأخرجوا من ديارهم، وللأنصار، فيكون هذا مبطلاً لما يذهب إليه المرتضى لا قصر الخمس على ذوي القربى.

ويمكن أن يعترض هذا الاحتجاج، فيقال: لم لا يجوز أن يكون قوله: "والذين تبوءوا الدار والإيمان"، ليس بعطف، ولكنه

كلام مبتدأ، وموضع "الذين رفع بالابتداء وخبره يحبون، وأيضاً فإن هذه الحجة لا يمكن التمسك بها في آية الأنفال، وهو قوله تعالى : "واعلموا إنما غنمتم من شيء فأما رواية سليم بن قيس الهلالي، فليست بشيء، وسليم معروف المذهب، ويكفي في رد روايته كتابه المعروف بينهم المسمى "كتاب سليم".

على أني قد سمعت من بعضهم من يذكر أن هذا الاسم غير مسمى، وأنه لم يكن في الدنيا أحد يعرف بسليم بن قيس الهلالي، وأن الكتاب المنسوب إليه منحول موضوع لا أصل له، وإن كان بعضهم يذكره في اسم الرجال، والرواية المذكورة عن ابن عباس في كتابه إلى نجدة الحروري صحيحة ثابتة، وليس فيها ما يدل على مذهب المرتضى من أن الخمس كله لذوي القربى، لأن نجدة إنما سأله عن خمس لا عن الخمس كله.

وينبغي أن يذكر في هذا الموضوع اختلاف الفقهاء في الخمس: أما أبو حنيفة فعنده أن قسمة الخمس كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله وسهم لذوي قرباه من بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس ونوفل، استحقوه حينئذ بالنصرة والمظاهرة، لما روي عن عثمان وجبير بن مطعم أنهما قالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء إخوتك من بني هاشم لا ننكر فضلهم، لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا! وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة. فقال صلى الله عليه وسلم: "إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبني المطلب شيء واحد" وشبك بين أصابعه. وثلاثة أسهم ليتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء السبيل منهم، وأما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرهم، فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنيائهم، فيقسم الخمس إذن على ثلاثة أسهم: اليتامى، والمساكين وابن السبيل. وأما الشافعي فيقسم الخمس عنده بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام حياته من مصالح المسلمين، كعدة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك، وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين من بني هاشم وبني المطلب، والباقي للفرق الثلاث.

وأما مالك بن أنس، فعنده أن الأمر في هذه المسألة مفوض إلى اجتهاد الإمام. إن رأى قسمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض، وإن رأى الإمام غيرهم أولى وأهم، فغيرهم.

وبقي الآن البحث عن معنى قوله سبحانه وتعالى : "قلله وللرسول"، وما المراد بسهم الله سبحانه، وكيف يقول الفقهاء: الخمس مقسوم خمسة أقسام، وظاهر الآية يدل على ستة أقسام، فنقول: يحتمل أن يكون معنى قوله سبحانه: "لله وللرسول"، لرسول الله، كقوله: "والله ورسوله أحق أن يرضوه" أي ورسول الله أحق، ومذهب أبي حنيفة والشافعي يجيء على هذا الاحتمال.

ويحتمل أن يريد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القربى، ومذهب أبي العالية يجيء على هذا الاحتمال، لأنه يذهب إلى أن الخمس يقسم ستة أقسام: أحدها سهمه تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة، وقدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة، ويقول: "سهم الله تعالى،

ثم يقسم ما بقي على خمسة أقسام.

وقال قوم: سهم الله لبيت الله.

ويحتمل احتمالاً ثالثاً، وهو أن يراد بقوله: "فإن لله خمسة" أن من حق الخمس أن يكون متقرباً به إليه سبحانه لا غير، ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة، تفضيلاً لها على غيرها، كقوله: "وجبريل وميكال". ومذهب مالك يجيء على هذا الاحتمال.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان على ستة: لله وللرسول سهمان، وسهم لأقاربه، وثلاثة أسهم للثلاثة، حتى قبض رضي الله عنه، فأسقط أبو بكر ثلاثة أسهم، وقسم الخمس كله على ثلاثة أسهم، وكذلك فعل عمر. وروي أن أبا بكر منع بني هاشم الخمس، وقال: إنما لكم أن نعطي فقيركم، ونزوج أيمكم، ونخدم من لا خادم له منكم، وأما الغني منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غني، لا يعطى شيئاً، ولا يتيم موسر. وقد روي عن زيد بن علي رضي الله عنه مثل ذلك، قال: ليس لنا أن نبني منه القصور، ولا أن نركب منه البراذين. فأما مذهب الإمامية، فإن الخمس كله للقراية.

ويروون عن أمير المؤمنين رضي الله عنه، أنه قال: "أيتامنا ومساكيننا! فإن صح عنه ذلك، فقلوه عندنا أولى بالاتباع، وإنما الكلام في صحته.

فأما اقتراض عمر من بيت المال ثمانين ألفاً، فليس بمعروف، والمعروف المشهور أنه كان يظلف نفسه عن الدرهم الواحد وقد روى ابن سعد في كتاب الطبقات أن عمر خطب، فقال: إن قوماً يقولون: إن هذا المال حلال لعمر، وليس كما قالوا، لاها الله إذن! أنا أخبركم بما أستحل منه، يحل لي منه حلتان: حلة في الشتاء، وحلة في القيظ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش، ليس بأغناهم ولا أفقرهم، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم.

وروى ابن سعد أيضاً أن عمر كان إذا احتاج أتى إلى صاحب بيت المال فاستقرضه، فربما عسر عليه القضاء، فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه، فيحتال له، وربما خرج عطاؤه فقضاه، ولقد اشتكى مرة فوصف له الطبيب العسل، فخرج حتى صعد المنبر، وفي بيت المال عكة، فقال: إن أذنتم لي فيها أخذتها، وإلا فهي علي حرام، فأذنوا له فيها، ثم قال: إن مثلي ومثلكم كقوم سافروا، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم لينفق عليهم، فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء! وروى ابن سعد أيضاً، مال: مكث عمر زماناً لا يأكل من مال المسلمين شيئاً، حتى أصابته خصاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستشارهم فقال لهم: قد شغلت نفسي بأمركم، فما الذي يصلح أن أصيبه من مالكم، فقال عثمان: كل واطعم، وكذلك قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فتركهما وأقبل على علي، فقال: ما تقول أنت، قال: غداء وعشاء، قال: أصبت، وأخذ بقوله.

وروى أبو الفرج بن الجوزي في كتاب سيرة عمر عن نائلة عن ابن عمر، قال: جمع عمر الناس لما انتهى إليه فتح القادسية ودمشق، فقال: إني كنت امرأة تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني عن التجارة بأمركم، فما ترون أنه يحل لي من هذا المال، فقال القوم فأكثرُوا، وعلي رضي الله عنه ساكت، فقال عمر: ما تقول أنت يا أبا الحسن؟ قال: ما

أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، وليس لك من هذا المال غيره، فقال: القول ما قاله أبو الحسن، وأخذ به.

وروى عبد الله بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده أن عبد الله وعبيد الله ابني عمر مرا بأبي موسى، وهو على العراق وهما مقبلان من أرض فارس، فقال: مرحباً بابني أخي، لو كان عندي شيء، وبلى قد اجتمع هذا المال عندي، فخذاه واشتريا به متاعاً، فإذا قدمتما فبيعهما ولكما ربحه، وأديا إلى أمير المؤمنين رأس المال، ففعلا، فلما قدما على عمر بالمدينة أخبراه، فقال: أكل أولاد المهاجرين يصنع بهم أبو موسى مثل ذلك! فقالا: لا، قال: فإن عمر يأبى أن يجيز ذلك وجعله قراضاً. وروي عن قتادة، قال: كان معقيب على بيت المال لعمر، فكسح عمر بيت المال يوماً، وأخرجه إلى المسلمين، فوجد معقيب فيه درهماً، فدفعه إلى ابن عمر، قال معقيب: ثم انصرف إلى بيتي، فإذا رسول عمر قد جاء يدعوني، فجئت فإذا الدرهم في يده، فقال: ويحك يا معقيب! أوجدت علي في نفسك شيئاً! قلت: وما ذاك؟ قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد في هذا الدرهم يوم القيامة! وروى عمر بن شبة، عن عبد الله بن الأرقم وكان خازن عمر فقال: إن عندنا حلية من حلية جلولاء وآنية من فضة، فانظر ما تأمر فيها؟ قال: إذا رأيتني فارغاً فأذني، فجاءه يوماً فقال: إني أراك اليوم فارغاً، فما تأمر بتلك الحلية، قال: ابسط لي نطعاً، فبسطه ثم أتى بذلك المال، فصب عليه، ورفع يديه وقال: اللهم إنك ذكرت هذا المال، فقلت: "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة" ثم قلت: "لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم" اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا. اللهم إني أسألك أن تضعه في حقه، وأعوذ بك من شره، ثم ابتداءً فقسمه بين الناس، فجاءه ابن بنت له، فقال: يا أبتاه! هب لي منه خاتماً، فقال: اذهب إلى أمك تسقك سويقاً، فلم يعطه شيئاً.

وروى الطبري في تاريخه أن عمر خطب أم كلثوم بنت أبي بكر، فأرسل فيها إلى عائشة، فقالت: الأمر إليهما، فقالت أم كلثوم، لا حاجة لي فيه، قالت لها عائشة: ويلك! أترغبين عن أمير المؤمنين، قالت: نعم، إنه يغلق بابي، ويمنع خيريه، ويدخل عابساً، ويخرج عابساً، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص، فأخبرته، فقال: أنا أكفيك، فأتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني خبراً أعيدك بالله منه! قال: ما هو، قال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر؟ قال: نعم، أفرغب بي عنها أم ترغب بها عني؟ قال: لا واحدة، ولكنها حدثت، نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق، وفيك غلظة ونحن نهابك، ولا نستطيع أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها! كنت قد خلقت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك، قال: فكيف لي بعائشة وقد كلمتها فيها، قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها، أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، تعلق منها بسبب من رسول الله. فصرفه عنها إلى أم كلثوم بنت فاطمة.

وروى عاصم بن عمر، قال: بعث إلي عمر عند الهجرة أو قال عند صلاة الصبح فأتيته، فوجدته جالساً في المسجد فقال: يا بني، إني لم أكن أرى شيئاً من هذا المال يحل لي قبل أن ألي إلا بحقه، وما كان أحرم علي منه حين وليته، فعاد أمانتي، وإني كنت أنفقت عليك من مال الله شهراً، ولست بزائدك عليه، وقد أعطيتك ترمي بالعالية، فبعه وخذ ثمنه، ثم أتت رجلاً من تجار قومك، فكن إلى جانبه، فإذا ابتاع شيئاً فاستشره، وأنفق ما ترضاه عليك وعلى أهلِكَ. قال: فذهبت ففعلت.

وروى الحسن البصري أن عمر كان يمشي يوماً في سكة من سكك المدينة، إذ صبية تطيش على وجه الأرض، تقعد مرة، وتقوم أخرى من الضعف والجهد، فقال عمر: ما بال هذه، قال عبد الله ابنه: أما تعرف هذه، قال: لا، قال إنها إحدى بناتك، فأنكر عمر ذلك، فقال: هذه ابنتي من فلانة! قال: ويحك وما صيرها إلى ما أرى؟ قال: منعك ما عندك، قال: أنا منعتك ما عندي، فما الذي منعك أن تطلب لبناتك ما يكسب الأقوام لبناتهم! إنه والله ما لك عندي غير سهمك في المسلمين، وسعك أو عجز عنك، وكتاب الله بيني وبينك.

وروى سعيد بن المسيب، قال: كتب عمر لما قسم العطاء وفضل من فضل للمهاجرين الذين شهدوا بدرًا خمسة آلاف، وكتب لمن لم يشهد بدرًا أربعة آلاف، فكان منهم عمر بن أبي سلمة المخزومي، وأسامة بن زيد بن حارثة، ومحمد بن عبد الله بن جحش، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال عبد الرحمن بن عوف وهو الذي كان يكتب: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن عمر، ليس من هؤلاء، إنه وإنه... يطريه ويشي عليه، فقال له عمر: ليس له عندي إلا مثل واحد منهم، فتكلم عبد الله وطلب الزيادة، وعمر ساكت، فلما قضى كلامه، قال عمر لعبد الرحمن: اكتبه على خمسة آلاف، واكتبني على أربعة آلاف، فقال عبد الله: لا أريد هذا، فقال عمر: والله لا أجمع أنا وأنت على خمسة آلاف، قم إلى منزلك، فقام عبد الله كئيباً.

قال أبو وائل: استعملني ابن زياد على بيت المال بالكوفة، فأتاني رجل بصك يقول فيه: أعط صاحب المطبخ ثمانمائة درهم، فقلت له: مكانك. ودخلت على ابن زياد، فقلت له: إن عمر استعمل عبد الله بن مسعود بالكوفة على القضاء وبيت المال، واستعمل عثمان بن حنيف على سقي الفرات، واستعمل عمار بن ياسر على الصلاة والجند، فرزقهم كل يوم شاة واحدة، فجعل نصفها وسقطها وأكارعها لعمار، لأنه كان على الصلاة والجند، وجعل لابن مسعود ربعها، ولابن حنيف ربعها، ثم قال: إن مالاً يؤخذ منه كل يوم شاة، إن ذلك فيه لسريع، فقال ابن زياد: ضع المفتاح فاذهب حيث شئت. وروى أبو جعفر الطبري في التاريخ، أن عمر بعث سلمة بن قيس الأشجعي إلى طائفة من الأكراد، كانوا على الشرك، فخرج إليهم في جيش سرحه معه من المدينة، فلما انتهى إليهم، دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجزية، فأبوا، فقاتلهم، فنصره الله عليهم، فقتل المقاتلة وسبي الذرية، وجمع الرثة، ووجد حلية وفصوصاً وجواهر، فقال لأصحابه: أطلب أنفسكم أن تبعث بهذا إلى أمير المؤمنين، فإنه غير صالح لكم، وإن على أمير المؤمنين لمؤنة وأثقالاً، قالوا: نعم، قد طابت أنفسنا، فجعل تلك الجواهر في سبط، وبعث به مع واحد من أصحابه، وقال له: سر، فإذا أتيت البصرة فاشتر راحلتين فأوقرهما زاداً لك ولغلامك، وسر إلى أمير المؤمنين. قال: ففعلت، فأتيت عمر وهو يغدي الناس، قائماً متكئاً على عصا كما يصنع الراعي، وهويدور على القصاع، فيقول: يا يرفاً زد هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزاً، زد هؤلاء مرققة، فجلست في أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة، طعامي الذي معي أطيب منه، فلما فرغ أدبر فاتبعته، فدخل داراً

فاستأذنت، ولم أعلم حاجبه من أنا، فأذن لي، فوجدته في صفة جالساً على مسح، متكئاً على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً، وفي الصفة عليه ستر من صوف، فنبذ إلي إحدى الوسادتين، فجلست عليها، فقال: يا أم كلثوم، ألا تغدوننا، فأخرج

إليه خبزة زيت في عرضها ملح لم يدق، فقال: يا أم كلثوم، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا، فقالت: إني أسمع عندك حس رجل، قال: نعم، ولا أراه من أهل هذا البلد، قال: فذاك حين عرفت أنه لم يعرفني، فقالت: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتي كما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته، قال: أو ما يكفيك أنك أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب وزوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، قالت: إن ذاك عني لقليل الغناء، قال: كل، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا، فأكلت قليلاً، وطعامي الذي معي أطيب منه، وأكل، فما رأيت أحداً أحسن أكلاً منه، ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه، ثم قال: اسقونا، فجاؤوا بعس من سلت، فقال: أعط الرجل، فشربت قليلاً، وإن سويقي الذي معي لأطيب منه، ثم أخذه فشربه حتى قرع القدر جبهته، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا، إنك يا هذا لضعيف الأكل، ضعيف الشرب، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن لي حاجة، قال: ما حاجتك، قلت: أنا رسول سلمة بن قيس، فقال: مرحباً بسلمة ورسوله، فكأنما خرجت من صلبه، حدثني عن المهاجرين كيف هم، قلت: كما تحب يا أمير المؤمنين، من السلامة والظفر والنصر على عدوهم، قال: كيف أسعارهم، قلت: أرخص أسعار، قال: كيف اللحم فيهم، فإنه شجرة العرب، ولا تصلح العرب إلا على شجرهما، قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا، ثم سرنا يا أمير المؤمنين حتى لقينا عدونا من المشركين، فدعوناهم إلى الذي أمرت به من الإسلام فأبوا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم، فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية وجمعنا الرثة، فرأى سلمة في الرثة حلية، فقال للناس: إن هذا لا يبلغ فيكم شيئاً، أفتطيب أنفسكم أن أبعث به إلى أمير المؤمنين، قالوا: نعم، ثم استخرجت سفطي ففتحتة، فلما نظر إلى تلك الفصوص، من بين أحمر وأخضر وأصفر، وثب وجعل يده في خاصرته يصيح صياحاً عالياً، ويقول: لا أشبع الله إذن بطن عمر يكررها، فظن النساء أي جئت لأغتاله، فجئن إلى الستر فكشفنه، فسمعنه يقول: لف ما جئت به يا يرفاً جأ عنقه، قال: فأنا أصلح سفطي، ويرفأ يجأ عنقي، ثم قال: النجاء النجاء: قلت، يا أمير المؤمنين انزع بي فاحملني، فقال: يا يرفاً، أعطه راحلتين من إبل الصدقة، فإذا لقيت أفقر إليهما منك فادفعهما إليه، وقال أظنك ستبطيني، أما والله لنن تفرق

المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم، لأفعلن بك وبصاحبك الفاقة. قال: فارتحلت حتى أتيت إلى سلمة بن قيس، فقلت: ما بارك الله فيما اختصصتني به، أقسم هذا في الناس قبل أن تصيبي وإياك فاقة، فقسمة فيهم. فإن الفص ليبيع بخمسة دراهم وبسته، وهو خير من عشرين ألفاً. وجملة الأمر أن عمر لا يجوز أن يطعن فيه بمثل هذا، ولا ينسب إلى شره وحب للمال، فإن طريقته في التعفف والتقشف وخشونة العيش والزهد أظهر من كل ظاهر، وأوضح من كل واضح، وحاله في ذلك معلومة، وعلى كل تقدير، سواء كان يفعل ذلك ديناً أو ورعاً كما هو الظاهر من حاله، أو كان يفعل ذلك ناموساً وصناعة ورياء وحيلة، كما تزعم الشيعة فإنه عظيم، لأنه إما أن يكون على غاية الدين والتقوى، أو يكون أقوى الناس نفساً، وأشدهم عزمًا، وكلا الأمرين فضيلة.

والذي ذكره المحدثون وأرباب السير أن عمر لما طعن واحتمل في دمه إلى بيته، وأوصى بما أوصى، قال لابنه عبد الله: انظروا ما علي من دين، فحسبوه فوجدوه ستمائة وثمانين ألف درهم، هكذا ورد في الأخبار أنها كانت ديوناً للمسلمين،

ولم تكن من بيت المال. فقال عمر: انظر يا عبد الله، فإن وفي به مال آل عمر، فأداه من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف به أموالهم، فسل في قريش، ولا تعدهم إلى غيرهم. فهكذا وردت الرواية، فلذلك قال قاضي القضاة: فإن صح فالعذر كذا وكذا، لأنه لم يثبت عنده صحة اقتراضه هذا المقدار من بيت المال.

وقد روي أن عمر كان له نخل بالحجاز غلته كل سنة أربعون ألفاً، يخرجها في النوائب والحقوق، ويصرفها إلى بني عدي بن كعب إلى فقرائهم وأراملهم وأيتامهم، روى ذلك ابن جرير الطبري في التاريخ.

فأما قول المرتضى: أي حاجة بخشن العيش وجشب المأكل إلى اقتراض الأموال.

فجوابه أن المتزهد المتقشف قد يضيق على نفسه ويوسع على غيره، إما من باب التكرم والإحسان، أو من باب الصدقة وابتغاء الثواب، وقد يصل رحمه وإن قتر على نفسه.

وقد روى الطبري أن عمر دفع إلى أم كلثوم بنت أمير المؤمنين رضي الله عنه صداقها يوم تزوجها أربعين ألف درهم فلعل هذا الاقتراض من الناس كان لهذا الوجه ولغيره من الوجوه التي قل أن يخلو أحد منها.

الطعن السادس: إنه عطل حد الله في المغيرة بن شعبة، لما شهد عليه بالزنا، ولقن الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة، اتباعاً لهواه، فلما فعل ذلك عاد إلى الشهود فحدهم وضربهم، فتجنب أن يفضح المغيرة، وهو واحد، وفضح الثلاثة مع تعطيله لحكم الله، ووضعه في غير موضعه.

أجاب قاضي القضاة، فقال: إنه لم يعطل الحد إلا من حيث لم تكمل الشهادة وبارادة الرابع لئلا يشهد لا تكمل البينة، وإنما تكمل بالشهادة.

وقال: إن قوله: "أرى وجه رجل لا يفضح الله به رجلاً من المسلمين"، يجري في أنه سائغ صحيح مجرى ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه أتى بسارق، فقال: "لا تقر". وقال رضي الله عنه لصفوان بن أمية لما أتاه بالسارق، وأمر بقطعه، فقال: هو له، يعني ما سرق، هلا قبل أن تأتيني به، فلا يمتنع من عمر ألا يجب أن تكمل الشهادة وبينه الشاهد على ألا يشهد، وقال: إنه جلد الثلاثة من حيث صاروا قذفة، وإنه ليس حالهم، وقد شهدوا، كحال من لم تتكامل الشهادة عليه، لأن الحيلة في إزالة الحد عنه، ولما تتكامل الشهادة عليه، ممكنة بتلقين وتنبية غيره، ولا حيلة فيما قد وقع من الشهادة، فلذلك حدهم.

قال: وليس في إقامة الحد عليهم من الفضيحة ما في تكامل الشهادة على المغيرة، لأنه يتصور بأنه زان، ويحكم بذلك، ليس كذلك حال الشهود، لأنهم لا يتصورون بذلك، وإن وجب في الحكم أن يجعلوا قي حكم القذفة.

وحكي عن أبي علي أن الثلاثة، كان القذف قد تقدم منهم للمغيرة بالبصرة، لأنهم صاحوا به من نواحي المسجد: بأنا نشهد أنك زان، فلو لم يعيدوا الشهادة لكان يحدهم لا محالة، فلم يمكن في إزالة الحد عنهم ما أمكن في المغيرة.

وحكي عن أبي علي في جواب اعتراضه عن نفسه بما روي عن عمر أنه كان إذا رآه يقول: لقد خفت أن يرميني الله عز وجل بحجارة من السماء، أن هذا الخبر غير صحيح، ولو كان حقاً لكان تأويله التخويف، وإظهار قوة الظن، لصدق القوم الذين شهدوا عليه، ليكون ردعاً له. وذكر أنه غير ممتنع أن يجب ألا يفتضح لما كان متولياً للبصرة من قبله.

ثم أجاب عن سؤال من سألته عن امتناع زياد من الشهادة، وهل يقتضي الفسق أم لا، فإن قال: لا نعلم أنه كان يتمم الشهادة، ولو علمنا ذلك لكان حيث ثبت في الشرع أن له السكوت، لا يكون طعناً، ولو كان ذلك طعناً، وقد ظهر أمره لأمر المؤمنين رضي الله عنه لما ولاه فارس، ولما ائتمنه على أموال الناس ودمائهم.

اعترض المرتضى فقال: إنما نسب إلى تعطيل الحد من حيث كان في حكم الثابت، وإنما بتلقيه لم تكمل الشهادة، لأن زياداً ما حضر إلا ليشهد بما شهد به أصحابه، وقد صرح بذلك كما صرحوا قبل حضورهم، ولو لم يكن هذا لما شهد القوم قبله وهم لا يعلمون: هل حاله في ذلك الحكم كحالهم، لكنه أحجم في الشهادة لما رأى كراهية متولي الأمر لكما لها. وتصريحه بأنه لا يريد أن يعمل بموجبها.

ومن العجائب أن يطلب الحيلة في دفع الحد عن واحد، وهو لا يدفع إلا بانصرافه إلى ثلاثة، فإن كان درء الحد والاحتياط في دفعه من السنن المتبعة، فدرؤه عن ثلاثة أولى من درئه عن واحد.

وقوله: إن دفع الحد عن المغيرة ممكن ودفعه عن ثلاثة وقد شهدوا، غير ممكن، طريف، لأنه لو لم يلحق الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة لاندفع الحد عن الثلاثة، وكيف لا تكون الحيلة ممكنة فيما ذكره.

وقوله: إن المغيرة يتصور بصورة زان لو تكاملت الشهادة، وفي هذا من الفضيحة ما ليس في حد الثلاثة غير صحيح، لأن الحكم في الأمرين واحد، لأن الثلاثة إذا حدوا يظن بهم الكذب، وإن جوز أن يكونوا صادقين، والمغيرة لو تكاملت الشهادة عليه بالزنا لظن به ذلك مع التجويز لأن يكون الشهود كذبة، وليس في أحد إلا ما في الآخر.

وما روي عنه رضي الله عنه من أنه أتى بسارق، فقال له: "لا تقر" إن كان صحيحاً لا يشبه ما نحن فيه، لأنه ليس في دفع الحد عن السارق إيقاع غيره في المكروه.

وقصة المغيرة تخالف هذا لما ذكرناه.

فأما قوله رضي الله عنه: "هلا قبل أن تأتيني به"، فلا يشبه كل ما نحن فيه، لأنه بين أن ذلك القول يسقط الحد لو تقدم، وليس فيه تلقين يوجب إسقاط الحد.

فأما ما حكاه عن أبي علي من أن القذف من الثلاثة كان قد تقدم، وأنهم لو لم يعيدوا الشهادة لكان يحدهم لا محالة، فغير معروف، والظاهر المروي خلافه، وهو أنه حدهم عند نكول زياد عن الشهادة، وأن ذلك كان السبب في إيقاع الحد بهم. وتأوله عليه: لقد خفت أن يرميني الله بحجارة من السماء، لا يليق بظاهر الكلام لأنه يقتضي التندم، والتأسف على تفريط وقع، ولم يخاف أن يرمى بالحجارة وهو لم يدرأ الحد عن مستحق له، ولو أراد الرح والتخفيف للمغيرة لأتى بكلام يليق بذلك، ولا يقتضي إضافة التفريط إلى نفسه. وكونه والياً من قبله لا يقتضي أن يدرأ عنه الحد، ويعدل به إلى غيره.

وأما قوله: إنا ما كنا نعلم أن زياداً كان يتمم الشهادة، فقد بينا أن ذلك كان معلوماً بالظاهر، ومن قرأ ما روي في هذه القصة علم بلا شك أن حال زياد كحال الثلاثة، في أنه إنما حفر للشهادة، وإنما عدل عنها لكلام عمر.

وقوله: إن الشرع يبيح السكوت، ليس بصحيح، لأن الشرع قد حظر كتمان الشهادة.

فأما استدلاله على أن زياداً لم يفسق بالإمساك عن الشهادة بتولية أمير المؤمنين رضي الله عنه له فارس، فليس بشيء يعتمد، لأنه لا يمتنع أن يكون قد تاب بعد ذلك، وأظهر توبته لأمر المؤمنين رضي الله عنه، فجاز أن يوليه. وقد كان بعض أصحابنا يقول في قصة المغيرة شيئاً طيباً، وإن كان معتملاً في باب الحجة، كان يقول: إن زياداً إنما امتنع من التصريح بالشهادة المطلوبة في الزنا، وقد شهد بأنه شاهده بين شعبها الأربع، وسمع نفساً عالياً، فقد صح على المغيرة بشهادة الأربع جلوسه منها مجلس الفاحشة، إلى غير ذلك من مقدمات الزنا وأسبابه، فهلا ضم عمر إلى جلد الثلاثة تعزير هذا الذي قد صح عنده بشهادة الأربعة ماصح من الفاحشة، مثل تعريك أذنه، أو ما يجري مجراه من خفيف التعزير ويسيره، وهل في العدول عن ذلك حتى عن لومه وتوبيخه والاستخفاف به إلا ما ذكره من السبب الذي يشهد الحال به.

قلت: أما المغيرة فلا شك عندي أنه زنى بالمرأة، ولكني لست أخطيء عمر في درء الحد عنه، وإنما أذكر أولاً قصته من كتابي أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وأبي الفرج علي بن الحسن الأصفهاني، ليعلم أن الرجل زق بما لا محالة، ثم اعتذر لعمر في درء الحد عنه.

قال الطبري في تاريخه: وفي هذه السنة يعني سنة سبع عشرة ولى عمر أبا موسى البصرة، وأمره أن يشخص إليه المغيرة بن شعبة، وذلك لأمر بلغه عنه. قال الطبري: حدثني محمد بن يعقوب بن عتبة، قال: حدثني أبي، قال: كان المغيرة يخالف إلى أم جميل، امرأة من بني هلال بن عامر، وكان لها زوج من ثقيف هلك قبل ذلك، يقال له الحجاج بن عبيد، وكان المغيرة وكان أمير البصرة يختلف إليها سرّاً، فبلغ ذلك أهل البصرة، فأعظموه، فخرج المغيرة يوماً من الأيام إلى المرأة، فدخل عليها وقد وضعوا عليهما الرصداً، فانطلق القوم الذين شهدوا عند عمر فكشفوا الستر، فأروه قد واقعها، فكتبوا بذلك إلى عمر، وأوفدوا إليه بالكتاب أبا بكر. فأنهى أبو بكر إلى المدينة، وجاء إلى باب عمر فسمع صوته وبينه وبينه حجاب، فقال: أبوبكر، فقال: نعم، قال: لقد جئت لشر، قال: إنما جاء به المغيرة، ثم قص عليه القصة، وعرض عليه الكتاب، فبعث أبا موسى عاملاً، وأمره أن يبعث إليه المغيرة، فلما دخل أبو موسى البصرة، وقعد في الإمارة، أهدى إليه المغيرة عقيلة، وقال: إني قد رضيتها لك، فبعث أبو موسى بالمغيرة إلى عمر.

قال الطبري: وروى الواقدي، قال: حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن أبيه، عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: قدم المغيرة على عمر، فتزوج في طريقه امرأة من بني مرة، فقال له عمر: إنك لفارغ القلب، شديد الشبق، طويل الغرمول، ثم سأل عن المرأة فقيل له يقال لها الرقطاء: كان زوجها من ثقيف وهي من بني هلال.

قال الطبري: وكتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، أن المغيرة كان يبغض أبا بكر وكان أبو بكر يبغضه، وينبغي كل واحد منهما صاحبه وينافره عند كل ما يكون منه، وكانا متجاورين بالبصرة، بينهما طريق، وهما في مشرتين متقابلتين، فهما في داريهما في كل واحدة منهما كوة مقابلة الأخرى، فاجتمع إلى أبي بكر نفر يتحدثون في مشربته، فهبت ريح ففتحت باب الكوة، فقام أبو بكر ليصفقه، فبصر بالمغيرة وقد فتحت الريح باب الكوة التي في مشربته، وهو بين رجلي امرأة، فقال للنفر: قوموا فانظروا، فقاموا فنظروا، ثم قال: اشهدوا، قالوا: ومن هذه، قال: أم جميل، إحدى

نساء بني عامر بن صعصعة، فقالوا: إنما رأينا أعجازاً ولا ندري الوجوه، فلما قامت صمموا، وخرج المغيرة إلى الصلاة، فحال أبو بكره بينه وبين الصلاة، وقال: لا تصل بنا. وكتبوا إلى عمر بذلك، وكتب المغيرة إليه أيضاً، فأرسل عمر إلى أبي موسى، فقال: يا أبا موسى، إني مستعملك، وإني باعثك إلى الأرض التي قد باض بها الشيطان وفرخ، فالزم ما تعرف، ولا تستبدل فيستبدل الله بك، فقال: يا أمير المؤمنين، أعني بعدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، فإني وجدتهم في هذه

الأمة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلا به. قال عمر: فاستعن بمن أحببت، فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً، منهم أنس بن مالك، وعمران بن حصين، وهشام بن عامر. وخرج أبو موسى بهم حتى أناخ بالبصرة في المربد، وبلغ المغيرة أن أبا موسى قد أناخ بالمربد، فقال: والله، ما جاء أبو موسى زائراً، ولا تاجراً، ولكنه جاء أميراً. فإتهم لفي ذلك إذ جاء أبو موسى، حتى دخل عليهم، فدفع إلى المغيرة كتاباً من عمر، إنه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس، أربع كلم، عزل فيها وعاتب، واستحث وأمر: "أما بعد، فإنه بلغني نبأ عظيم، فبعثت أبا موسى، فسلم ما في يديك إليه، والعجل". وكتب إلى أهل البصرة: "أما بعد، فإني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم، ليأخذ لضعيفكم من قويكم، وليقاتل بكم عدوكم وليدفع عن ذمتكم، وليجي لكم فيئكم، وليقسم فيكم، وليحمي لكم طرقكم".

فأهدى إليه المغيرة وليدةً من مولدات الطائف تدعى عقيلة، وقال: إني قد رضيتها لك وكانت فارهة وارتحل المغيرة، وأبو بكره، ونافع بن كلدة، وزباد، وشبل بن معبد البجلي، حتى قدموا على عمر، فجمع بينهم وبين المغيرة، فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين، سل هؤلاء الأعداء: كيف رأوني، مستقبلهم أم مستدبرهم، وكيف رأوا المرأة وعرفوها فإن كانوا مستقبلني فكيف لم أستتر، وإن كانوا مستدبري فبأي شيء استحلوا النظر إلي في منزلي على امرأتي، والله ما أتيت إلا امرأتي، فبدأ بأبي بكره فشهد عليه أنه رآه بين رجلي أم جميل، وهو يدخله ويخرجه، قال عمر: كيف رأيتهما، قال: مستدبرهما، قال: كيف استثبت رأسها، قال: تخافيت فدعا بشبل بن معبد، فشهد مثل ذلك، وقال: استقبلتهما واستدبرتهما. وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكره، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم. قال: رأيته جالساً بين رجلي امرأة، ورأيت قدمين مرفوعتين تخفقان، واستين مكشوفتين، وسمعت حفزاً شديداً، قال عمر: فهل رأيته فيها كالليل في المكحلة، قال: لا، قال: فهل تعرف المرأة، قال: لا، ولكن أشبهها، فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا الحد، وقرأ: "إذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون"، فقال المغيرة: الحمد لله الذي أخزاكم، فصاح به عمر: اسكت أسكت الله نأمتك، أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك. فهذا ما ذكره الطبري.

وأما أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، فإنه ذكر في كتاب الأغاني أن أحمد بن عبد العزيز الجوهري، حدثه عن عمر بن شبة، عن علي بن محمد، عن قتادة، قال: كان المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة يختلف سراً إلى امرأة من ثقيف، يقال لها الرقطاء، فلقية أبو بكره يوماً، فقال له أين تريد، قال: أزور آل فلان، فأخذ بتلابيبه، وقال: إن الأمير يزار ولا يزور. قال أبو الفرج: وحدثني بحدِيثه جماعة ذكر أسماءهم بأسانيد مختلفة، لا نرى الإطالة بذكرها أن المغيرة كان يخرج من دار الإمارة وسط النهار، فكان أبو بكره يلقاه، فيقول له: أين يذهب الأمير، فيقول له: إلى حاجة، فيقول: حاجة ماذا، إن الأمير يزار ولا يزور.

قالوا: وكانت المرأة التي يأتيها جارة لأبي بكرة، فقال: فبينما أبو بكرة في غرفة له مع أخويه: نافع وزيد ورجل آخر يقال له شبل بن معبد وكانت غرفة جارة تلك محاذية غرفة أبي بكرة فضربت الريح باب غرفة المرأة، ففتحت، فنظر القوم فإذا هم بالمغيرة ينكحها، فقال أبو بكرة: هذه بلية قد ابتليت بها، فانظروا، فنظروا حتى أثبتوا، فترل أبو بكرة، فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة، فقال له أبو بكرة: إنه قد كان من أمرك ما قد علمت، فاعتزلنا. فذهب المغيرة وجاء ليصلي بالناس الظهر، فمنعه أبو بكرة وقال: لا والله لا تصلي بنا، وقد فعلت ما فعلت، فقال الناس: دعوه فليصل، إنه الأمير، واكتبوا إلى عمر، فكتبوا إليه، فورد كتابه أن يقدموا عليه جميعاً، المغيرة والشهود.

قال أبو الفرج: وقال المدائني في حديثه: فبعث عمر بأبي موسى، وعزم عليه ألا يضع كتابه من يده حتى يرحل المغيرة.

قال أبو الفرج: وقال علي بن هاشم في حديثه: إن أبا موسى قال لعمر لما أمره أن يرحل المغيرة من وقته: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين، نتركه فيتجهز ثلاثاً ثم يخرج.

قالوا: فخرج أبو موسى حتى صلى الغداة بظهر المبرد، وأقبل إنسان فدخل على المغيرة، فقال: إني رأيت أبا موسى قد دخل المسجد الغداة، وعليه برنس، وها هو في جانب المسجد، فقال المغيرة: إنه لم يأت زائراً ولا تاجراً.

قالوا: وجاء أبو موسى، حتى دخل على المغيرة ومعه صحيفة ملء يده، فلما رآه قال: أمير، فأعطاه أبو موسى الكتاب، فلما ذهب يتحرك عن سريره قال له: مكانك، تجهز ثلاثاً.

قال أبو الفرج: وقال آخرون: إن أبا موسى أمره أن يرحل من وقته، فقال المغيرة: قد علمت ما وجهت له، فألا تقدمت وصليت، فقال: ما أنا وأنت في هذا الأمر إلا سواء، فقال المغيرة: إني أحب أن أقيم ثلاثاً لأتجهز، فقال أبو موسى: قد عزم علي أمير المؤمنين ألا أضع عهدي من يدي، إذا قرأته حتى أرحلك إليه. قال: إن شئت شفعتني، وأبررت قسم أمير المؤمنين بأن تؤولني إلى الظهر، وتمسك الكتاب في يدك.

قالوا: فلقد رئي أبو موسى مقبلاً ومدبراً، وإن الكتاب في يده معلق بخيط، فتجهز المغيرة، وبعث إلى أبي موسى بعقيلة، جارية عربية من سبي اليمامة، من بني حنيفة، ويقال، إنها مولدة الطائف، ومعه خادم، وسار المغيرة حين صلى الظهر، حتى قدم على عمر.

قال أبو الفرج: فقال محمد بن عبد الله بن حزم في حديثه: إن عمر قال له لما قدم عليه: لقد شهد عليك بأمر، إن كان حقاً لأن تكون مت قبل ذلك كان خيراً لك.

قال أبو الفرج: قال أبو زيد عمر بن شبة: فجلس له عمر: ودعا به وبالشهود، فتقدم أبو بكرة، فقال: رأيته بين فخذيهما، قال: نعم والله، لكأنني أنظر إلى تشريم جدري بفخذيها، قال المغيرة: لقد ألطفت النظر. قال أبو بكرة: لم آل أن أثبت ما يخزيك الله به، فقال عمر: لا والله حتى تشهد: لقد رأيته يلج فيها كما يلج المروء في المكحلة، قال: نعم أشهد على ذلك، فقال عمر: اذهب عنك مغيرة، ذهب ربعك.

قال أبو الفرج: ويقال إن علياً رضي الله عنه هو قائل هذا القول. ثم دعا نافعاً فقال: علام تشهد، قال: على مثل شهادة أبي بكرة، فقال عمر: لا حتى تشهد أنك رأيته يلج فيها ولوج المروء في المكحلة، قال: نعم، حتى بلغ قذذه فقال: اذهب

عنك مغيرة، ذهب نصفك، ثم دعا الثالث وهو شبل بن معبد، فقال: علام تشهد، قال: على مثل شهادة صاحبي، فقال: اذهب عنك مغيرة، ذهب ثلاثة أرباعك. قال: فجعل المغيرة يبكي إلى المهاجرين، وبكى إلى أمهات المؤمنين حتى بكين معه، قال: ولم يكن زياد حضر ذلك المجلس، فأمر عمر أن ينحى الشهود الثلاثة، وألا يجالسهم أحد من أهل المدينة، وانتظر قدوم زياد، فلما قدم جلس في المسجد، واجتمع رؤوس المهاجرين والأنصار، قال المغيرة: وكنت قد أعددت كلمة أقولها، فلما رأى عمر زياداً مقبلاً، قال: إني لأرى رجلاً لن يخزي الله على لسانه رجلاً من المهاجرين. قال أبو الفرج: وفي حديث أبي زيد بن عمر بن شبة، عن السري، عن عبد الكريم بن رشيد، عن أبي عثمان النهدي، أنه لما شهد الشاهد الأول عند عمر، تغير لذلك لون عمر، ثم جاء الثاني فشهد، فانكسر لذلك انكساراً شديداً، ثم جاء الثالث فشهد، فكأن الرماد نثر على وجه عمر، فلما جاء زياد، جاء شاب يخطر ببديه، فرفع عمر رأسه إليه وقال: ما عندك أنت يا سلح العقاب، وصاح أبو عثمان النهدي صيحة تحكي صيحة عمر قال عبد الكريم بن رشيد: لقد كدت أن يغشى علي لصيحته.

قال أبو الفرج: فكان المغيرة يحدث، قال: فقممت إلى زياد، فقلت: لا مخبأ لعطر بعد عروس، يا زياد أذكرك الله، وأذكرك موقف القيامة وكتابه ورسوله، أن تتجاوز إلى ما لم تر، ثم صحت: يا أمير المؤمنين إن هؤلاء قد احتقروا دمي فאלله الله في دمي، قال: فترنقت عينا زياد واحمر وجهه، وقال: يا أمير المؤمنين، أما إن أحق ما حق القوم، فليس عندي، ولكني رأيت مجلساً قبيحاً، وسمعت نفساً حثيثاً، وانتهاراً، ورأيت متبطنها، فقال عمر: رأيتك يدخل ويخرج كالليل في المكحلة، قال: لا. قال أبو الفرج. وروى كثير من الرواة أنه قال: رأيت رافعاً برجليها، ورأيت خصيتيه متردتين بين فخذيها، وسمعت حفراً شديداً، وسمعت نفساً عالياً، فقال عمر: رأيتك يدخله ويخرجه كالليل في المكحلة، قال: لا، فقال عمر: الله أكبر، قم يا مغيرة إليهم فاضربهم، فجاء المغيرة إلى أبي بكره فضربه ثمانين وضرب الباقيين.

وروى قوم أن الضارب لهم الحد لم يكن المغيرة، وأعجب عمر قول زياد، ودرأ الحد عن المغيرة، فقال أبو بكره بعد أن ضرب: أشهد أن المغيرة فعل كذا وكذا، فهم عمر بضربه، فقال له علي رضي الله عنه: إن ضربته رجمت صاحبك، ونماه عن ذلك. قال أبو الفرج: يعني إن ضربه تصير شهادته شهادتين، فيوجب بذلك الرجم على المغيرة. قال: فاستتاب عمر أبا بكره، فقال: إنما تستبيني لتقبل شهادتي، قال: أجل، قال: فإني لا أشهد بين اثنين ما بقيت في الدنيا، قال: فلما ضربوا الحد قال المغيرة: الله أكبر، الحمد لله الذي أخزاكم، فقال عمر: اسكت أخزى الله مكاناً رأوك فيه.

قال: وأقام أبو بكره على قوله، وكان يقول: والله ما أنسى قط فخذيها، وتاب الاثنان فقبل شهادتهما، وكان أبو بكره بعد ذلك إذا طلب إلى شهادة قال: اطلبوا غيري، فإن زياداً أفسد علي شهادتي. وقال أبو الفرج: وروى إبراهيم بن سعيد، عن أبيه، عن جده، قال: لما ضرب أبو بكره أمرت أمه بشاة فذبحت وجعل جلدها على ظهره، قال إبراهيم: فكان أبي يقول: ما ذاك إلا من ضرب شديد.

قال أبو الفرج: فحدثنا الجوهري، عن عمر بن شبة، عن علي بن محمد عن يحيى بن زكريا، عن مجالد، عن الشعبي، قال:

كانت الرقطاء التي رمي بها المغيرة تختلف إليه في أيام إمارته الكوفة، في خلافة معاوية في حوائجها، فيقضيها لها. قال أبو الفرج: وحج عمر بعد ذلك مرة، فوافق الرقطاء بالمواسم، فرآها، وكان المغيرة يومئذ هناك، فقال، عمر للمغيرة: ويحك، أتعامل علي، والله ما أظن أبا بكرة كذب عليك، وما رأيته إلا خفت أن أرمى بحجارة من السماء. قال: وكان علي رضي الله عنه بعد ذلك يقول: إن ظفرت بالمغيرة لأتبعته الحجارة. قال أبو الفرج: فقال حسان بن ثابت يهجو المغيرة ويذكر هذه القصة:

قبيح الوجه أعور من ثقيف

بدت لك غدوة ذات النصيف

مع القينات في العمر اللطيف

لو ان اللؤم ينسب كان عبداً

تركت الدين والإسلام لما

وراجعت الصبا وذكرت لهواً

قال أبو الفرج: وروى المدائني أن المغيرة لما شخض إلى عمر في هذه الوقعة، رأى في طريقه جارية فأعجبته، فخطبها إلى أبيها، فقال له: وأنت على هذه الحال، قال: وما عليك، إن أبق فهو الذي تريد، وإن أقتل ترثني. فزوجه. وقال أبو الفرج: قال الواقدي: كانت امرأة من بني مرة، تزوجها بالرقم، فلما قدم بها على عمر، قال: إنك لفارغ القلب، طويل الشبق.

فهذه الأخبار كما تراها تدل متأملها على أن الرجل زنى بالمرأة لا محالة، وكل كتب التواريخ والسير تشهد بذلك، وإنما اقتصرنا نحن منها على ما في هذين الكتابين.

وقد روى المدائني أن المغيرة كان أزن الناس في الجاهلية، فلما دخل في الإسلام قيده الإسلام، وبقيت عنده منه بقية ظهرت في أيام ولايته البصرة.

وروى أبو الفرج في كتاب الأغاني عن الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، قال: كان المغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله البجلي يوماً متواقفين بالكناسة في نفر، وطلع عليهم أعرابي، فقال لهم المغيرة: دعوني أحركه، قالوا: لا تفعل، فإن للأعراب جواباً يؤثر، قال: لا بد، قالوا: فأنت أعلم، فقال له: يا أعرابي، أتعرف المغيرة بن شعبة، قال: نعم أعرفه، أعور زانياً، فوجم ثم تجلد، فقال: أتعرف الأشعث بن قيس، قال: نعم ذاك رجل لا يعرى قومه، قال: وكيف ذاك، قال: لأنهم حاكة. قال: فهل تعرف جرير بن عبد الله، قال: كيف لا أعرف رجلاً لولاه ما عرفت عشيرته، فقالوا: قبحك الله، فإنك شر جليس، هل تحب أن يوقر لك بعيرك هذا ملاً وتموت أكرم العرب موتة، قال: فمن يبلغه إذن أهلي، فانصرفوا عنه فتركوه.

قال أبو الفرج: وروى علي بن سليمان الأحمس، قال: خرج المغيرة بن شعبة وهو يومئذ على الكوفة، ومعه الهيثم بن التيهان النخعي غب مطر يسير، في ظهر الكوفة والنحف، فلقي ابن لسان الحمرة، أحد بني تيم الله بن ثعلبة، وهولا يعرف المغيرة ولا يعرفه المغيرة، فقال له: من أين أقبلت يا أعرابي، قال: من السماوة، قال: كيف تركت الأرض خلفك، قال: عريضة أريضة، قال: فكيف كان المطر، قال: عفى الأثر، وملاً الحفر، قال: فمن أنت، قال: من بكر بن وائل، قال:

كيف علمك بهم، قال: إن جهلتهم لم أعرف غيرهم، قال: فما تقول في بني شيبان، قال: سادتنا وسادة غيرنا، قال: فما تقول في بني ذهل، قال: سادة نوكي، قال: فقيس بن ثعلبة، قال: إن جاورتهم سرقوك، وإن ائتممتهم خانوك، قال: فبنو تيم الله بن ثعلبة، قال: رعاء النقد وعراقيب الكلاب، قال فبني يشكر، قال: صريح تحسبه مولى. قال هاشم بن الكلبي: لأن في ألوانهم حمرة. قال: فعجل، قال: أحلاس الخيل، قال: فعبد القيس، قال: يطعمون الطعام وبضربون الهام، قال: فعثرة، قال: لا تلتقي بهم الشفتان لؤماً، قال: فضبيعة أضجم، قال: جدعاً وعقراً، قال: فأخبرني عن النساء، قال: النساء أربع: ربيع مربع، وجميع مجمع، وشيطان سممع، وغل لا يخلع، قال فسر، قال: أما الربيع المربع، فالتى إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أقسمت عليها برتك، وأما التي هي جميع مجمع، فالمرأة تتزوجها ولها نسب فيجتمع نسبها إلى نسبك، وأما الشيطان السممع فالكاحلة في وجهك إذا دخلت، المولولة في أثرك إذا خرجت، وأما الغل الذي لا يخلع، فبنت عمك السوداء القصيرة، الفوهاء الدميمة، التي قد نثرت لك بطنها، إن طلقته ضاع ولدك، وإن أمسكتها فعلى جدع أنفك. قال المغيرة: بل أنفك. قال: فما تقول في أميرك المغيرة بن شعبة، قال: أعور زان، فقال الهيثم بن الأسود: فض الله فاك، ويملك إنه الأمير المغيرة، قال: إنها كلمة تقال. فانطلق به المغيرة إلى منزله، وعنده يومئذ أربع نسوة وستون أو سبعون أمة، وقال: ويحك، هل يزني الحر وعنده مثل هؤلاء، ثم قال لمن: ارمين إليه بحليكن، ففعلن، فخرج بملء كسائه ذهباً وفضة.

وإنما أوردنا هذين الخبرين ليعلم السامع أن الخبر بزناه كان شائعاً مشهوراً مستفيضاً بين الناس، ولأنهما يتضمنان أدباً، وكتابنا هذا موضوع للأدب.

وإنما قلنا: إن عمر لم يخطيء في درء الحد عنه، لأن الإمام يستحب له ذلك، وإن غلب على ظنه أنه مد وجب الحد عليه، روى المدائني أن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه أتى برجل قد وجب عليه الحد، فقال: أهاهنا شهود، قالوا: نعم، قال: فأتوني بهم إذا أمسيتم، ولا تأتوني إلا معتمين، فلما أعتموا جاؤوه، فقال لهم: نشدت الله رجلاً ما لي عنده مثل هذا الحد إلا انصرف، قال: فما بقي منهم أحد. فدرأ عنه الحد.

ذكر هذا الخبر أبو حيان في كتاب البصائر في الجزء السادس منه.

والخبر المشهور الذي كاد يكون متواتراً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ادرئوا الحدود بالشبهات". ومن تأمل المسائل الفقهية في باب الحدود، علم أنها بنيت على الإسقاط عند أدنى سبب وأضعفه، ألا ترى أنه لو أقر بالزنا ثم رجع عن إقراره قبل إقامة الحد، أو في وسطه قبل رجوعه وخلي سبيله.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: يستحب للإمام أن يلحق المقر الرجوع، ويقول له: تأمل ما تقول: لعلك مسستها، أو قبلتها. ويجب على الإمام أن يسأل الشهود: ما الزنا، وكيف هو، وأين زنى، وبمن زنى، ومتى زنى، وهل رأوه وطئها في فرجها كالميل في المكحلة فإذا ثبت كل ذلك سأل عنهم، فلا يقيم الحد حتى يعدلهم القاضي في السر والعلانية، ولا يقام الحد بإقرار الإنسان على نفسه، حق يقر أربع مرات في أربعة مجالس، كلما أقر رده القاضي، وإذا تم إقراره سأل القاضي عن الزنا، ما هو، وكيف هو، وأين زنى، وبمن زنى، ومتى زنى، قال الفقهاء: ويجب أن يبتدىء الشهود برجه إذا تكاملت الشهادة، فإن امتنعوا من الابتداء برجه سقط الحد.

قالوا: ولا حد على من وطئ جارية ولده، أو ولد ولده، وإن قال: علمت أنها علي حرام، وإن وطئ جارية أبيه أو أمه أو أخته، وقال: ظننت أنها تحل لي فلا حد عليه، ومن أقر أربع مرات في مجالس مختلفة بالزنا بفلانة، فقالت هي: بل تزوجني، فلا حد عليه، وكذلك إن أقرت المرأة بأنه زنى بها فلان، فقال الرجل: بل تزوجتها، فلا حد عليها، قالوا: وإذا شهد الشهود بحد متقادم من الزنا لم يمنعهم عن إقامته بعدهم عن الإمام، لم تقبل شهادتهم إذا كان حد الزنا، وإن شهدوا أنه زنى بامرأة ولا يعرفونها لم يحد، وإن شهد اثنان أنه زنى بامرأة بالكوفة، وآخرا أن زنى بالبصرة درى الحد عنهما جميعاً، وإن شهد أربعة على رجل أنه زنا بامرأة بالنخيلة عند طلوع الشمس من يوم كذا وكذا، وأربعة شهدوا بهذه المرأة عند طلوع الشمس ذلك اليوم بدير هند درى الحد عنه وعنهما وعنهم جميعاً، وإن شهد أربعة على شهادة أربعة بالزنا لم يحد المشهود عليه. وهذه المسائل كلها مذهب أبي حنيفة، ويوافقه الشافعي في كثير منها، ومن تأملها علم أن مبنى الحدود على الإسقاط بالشبهات، إن ضعفت.

فإن قلت: كل هذا لا يلزم المرتضى، لأن مذهبه في فروع الفقه مخالف لمذهب الفقهاء. قلت: ذكر محمد بن النعمان وهو شيخ المرتضى، الذي قرأ عليه فقه الإمامية في كتاب "المقنعة" أن الشهود الأربعة إن تفرقوا في الشهادة بالزنا ولم يأتوا بها مجتمعين في وقت في مكان واحد، سقط الحد عن المشهود عليه، ووجب عليهم حد القذف.

قال: وإذا أقر الإنسان على نفسه بالزنا أربع مرات على اختيار منه للإقرار وحب عليه الحد، وإن أقر مرة أو مرتين أو ثلاثاً لم يجب عليه الحد بهذا الإقرار، ولالإمام أن يؤديه بإقراره على نفسه حسب ما يراه، فإن كان أقر على امرأة بعينها جلد حد القذف.

قال وإن جعل في الحفرة ليرجم وهو مقرر على نفسه بالزنا ففر منها، ترك ولم يرد، لأن فراره رجوع عن الإقرار، وهو أعلم بنفسه.

قال: ولا يجب الرجم على المحصن الذي يعده الفقهاء محصناً، وهو من وطئ امرأة في نكاح صحيح، وإنما الإحصان عندنا من له زوجة أو ملك يمين يستغني بها عن غيرها، ويتمكن من وطئها، فإن كانت مريضة لا يصل إليها بنكاح، أو صغيرة لا يوطأ مثلها، أو غائبة عنه أو محبوسة لم يكن محصناً بها، ولا يجب عليه الرجم.

قال: ونكاح المتعة لا يحصن عندنا، وإذا كان هذا مذهب الإمامية، فقد اتفق قولهم وأقوال الفقهاء في سقوط الرجم بأدق سبب، والذي رواه أبو الفرج الأصفهاني: إن زياداً لم يحضر في المجلس الأول، وأنه حضر في مجلس ثان، فلعل إسقاط الحد كان لهذا.

ثم نعود إلى تصفح ما اعترض به المرتضى كلام قاضي القضاة.

أما قوله: كان الحد في حكم الثابت، فإن الله تعالى لم يوجب الحد إلا إذا كان ثابتاً، ولم يوجبه إذا كان في حكم الثابت، ويسأل عن معنى قوله: "في حكم الثابت": هل المراد بذلك أنه قريب من الثبوت، وإن لم يثبت حقيقة، أم المراد أنه قد ثبت وتحقق، فإن أراد الثاني، قيل له: لا نسلم أنه ثبت، لأن الشهادة لم تتم، وقد اعترف المرتضى بذلك، وأقر بأن الشهادة لم تكمل، ولكنه نسب ذلك إلى تلقين عمر، وإن أراد الأول قيل له: ليس يكفي في وجوب الحد أن يكون قريباً

إلى الثبوت، لأنه لو كفى ذلك لحد الإنسان بشهادة ثلاثة من الشهود.

وأما قوله: إن عمر لقنه وكره أن يشهد، فلا ريب أن الأمر وقع كذلك، وقد قلنا: إن هذا جائز بل مندوب إليه، وروينا عن أمير المؤمنين ما روينا، وذكرنا قول الفقهاء في ذلك وأنهم استحَبوا أن يقول القاضي للمقر بالزنا: تأمل ما تقوله، لعلك مسستها أو قبلتها.

فأما قول المرتضى: إنه درأ الحد عن واحد، وكان درؤه عن ثلاثة أولى، فقد أجاب قاضي القضاة عنه بأنه ما كان يمكن دفعه عنهم.

فأما قول المرتضى: بل قد كان يمكن دفعه عنهم، بالألا يلحق الرابع الامتناع من الشهادة، فقد أجاب قاضي القضاة عنه بأن الزنا ووسم الإنسان به أعظم وأشنع وأفحش من أن يوسم بالكذب والافتراء، وعقوبة الزاني أعظم من عقوبة الكاذب القاذف عند الله تعالى في دار التكليف، يبين ذلك أن الله تعالى أوجب جلد ثلاثة من المسلمين، لتخليص واحد شهد الثلاثة عليه بالزنا، فلو لم يكن هذا المعنى ملحوظاً في نظر الشارع لما أوجبه، فكيف يقول المرتضى: ليس لأحد الأمرين إلا ما في الآخر.

وأما خبر السارق الذي رواه قاضي القضاة، وقول المرتضى في الاعتراض عليه: ليس في دفع الحد عن السارق إيقاع غيره في المكروه، وقصة المغيرة تخالف هذا، فليس بجيد لأن في دفع الحد عن السارق إضاعة مال المسلم الذي سرق السارق في زمانه، وفيه أيضاً إغراء أهل الفساد بالسرقة، لأنهم إذا لم يقيم الحد عليهم لمكان الجحود أقدموا على سرقة الأموال، فلو لم يكن عناية الشارع بالدماء أكثر من عنايته بغيره من الأموال والأبشار لما قال للمكلف: لا تقر بالسرقة ولا بالزنا، ولما رجع واحداً على ثلاثة، وهان في نظره أن تضرب أبشارهم بالسياط، وهم ثلاثة حفظاً لدم واحد.

وأما حديث صفوان وقول المرتضى فلا يشبهه كل ما نحن فيه، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بين أن ذلك القول يسقط الحد لو تقدم، وليس فيه تلقين يوجب إسقاط الحد.

فجوابه أن قاضي القضاة لم يقصد بإيراد هذا الخبر إلا تشييد قول عمر: أرى وجه رجل لا يفضح الله به رجلاً من المسلمين، لأن عمر كره فضيحة المغيرة، كما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم فضيحة السارق الذي قال صفوان: "هو له"، وقال رضي الله عنه: "هلا قبل أن تأتيني به"، أي هلا قلت ذلك قبل أن تحضره، فلم يفتضح بين الناس، فإن قولك: "هو له"، وإن درأ الحد إلا أنه لا يدرأ الفضيحة.

فأما ما حكاه قاضي القضاة عن أبي علي، من أن القذف قد كان تقدم منهم وهم بالبصرة، فقد ذكرنا في الخبر ما يدل على ذلك، فبطل قول المرتضى: إن ذلك غير معروف، وإن الظاهر المروي خلافه.

وأما قول عمر للمغيرة: ما رأيتك إلا خفت أن يرميني الله بحجارة من السماء، فالظاهر أن مراده ما ذكره قاضي القضاة من التخويف وإظهار قوة الظن بصدق الشهود، ليكون ردعاً له، ولذلك ورد في الخبر: ما أظن أبا بكره كذب عليك، تقديره: أظنه لم يكذب، ولو كان كما قال المرتضى ندماً وتأسفاً على تفریط وقع، لأقام الحد عليه، ولو بعد حين، ومن الذي كان يمنعه من ذلك لو أراد.

وقوله: لم يخاف أن يرمى بالحجارة وهو لم يدرأ الحد عن مستحق له، جوابه أن هذا القول يجري مجرى التهويل والتخويف للمغيرة، كيلا يقدم على أن يعرض نفسه لشبهة فيما بعد.

فأما قول قاضي القضاة: إنه غير ممتنع أن يجب ألا يفتضح لما كان متولياً للبصرة من قبله، وقول المرتضى معترضاً عليه: إن كونه والياً من قبله لا يقتضي أن يدرأ عنه الحد، فغير لازم، لأن قاضي القضاة ما جعل كونه والياً من قبله مقتضياً أن يدرأ عنه الحد، وإنما قاله في جواب من أنكر على عمر محبته لدرء الحد عنه، فقال: إنه غير قبيح، ولا يجرم محبة درء الحد عنه لأنه وال من قبله فجعل الولاية للبصرة مسوغة لمحبة عمر لدفع الحد عنه، لا مسوغة لدفع الحد عنه، وبين الأمرين فرق واضح. وأما قول المرتضى: إن الشرع حظر كتمان الشهادة، فصحيح فيما عدا الحدود، فأما في الحدود فلا، وقد ورد في الخبر الصحيح: من رأى على أخيه شيئاً من هذه القاذورات وستر، ستره الله يوم يفتضح الجرمون.

فأما قول المرتضى: هب أن الحد سقط، أما اقتضت الحال تأديب المغيرة بنوع من أنواع التعزير وإن خف، فكلام لازم لا جواب عنه، ولو فعله عمر لبرئ من التهمة براءة الذئب من دم يوسف، وما أدري كيف فاتته ذلك مع تشدده في الدين وصلابته في السياسة، ولعله كان له مانع عن اعتماد ذلك لا نعلمه.

الطعن السابع: أنه كان يتلون في الأحكام، حتى روي أنه قضى في الحد بسبعين قضية. وروي مائة قضية وأنه كان يفضل في القسمة والعطاء وقد سوى الله تعالى بين الجميع، وأنه قال في الأحكام من جهة الرأي والحدس والظن. أجاب قاضي القضاة عن ذلك، فقال: مسائل الاجتهاد يسوغ فيها الاختلاف والرجوع عن رأي إلى رأي، بحسب الأمارات وغالب الظن، وقد ذكر أن ذلك طريقة أمير المؤمنين رضي الله عنه في أمهات الأولاد، ومقاسمة الجد مع الإخوة، ومسألة الحرام.

قال: وإنما الكلام في أصل القياس والاجتهاد، فإذا ثبت ذلك خرج من أن يكون طعنًا، وقد ثبت أن أمير المؤمنين رضي الله عنه كان يوفي من يرى خلاف رأيه، كابن عباس وشريح، ولا يمنع زياداً وابن مسعود من الفتيا مع الاختلاف بينه وبينهما.

فأما ما روي من السبعين قضية، فالمراد به في مسائل من الحد، لأن مسألة واحدة لا يوجد فيها سبعون قضية مختلفة، وليس في ذلك عيب، بل يدل على سعة علمه.

وقال: قد صح في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، لأنه لما شاور في أمر الأسرى أبا بكر أشار ألا يقتلهم، وأشار عمر بقتلهم، فمدحهما جميعاً، فما الذي يمنع من كون القولين صواباً من المجتهدين، ومن الواحد في حالين؟ وبعد، فقد ثبت أن اجتهاد الحسن رضي الله عنه في طلب الإمامة كان بخلاف اجتهاد الحسين رضي الله عنه، لأنه سلم الأمر وتمكنه أكثر من تمكن الحسين رضي الله عنه، ولم يمنع ذلك من كونهما رضي الله عنهما مصيبين.

اعترض المرتضى هذا الجواب، فقال: لا شك أن التلون في الأحكام والرجوع من قضاء إلى قضاء، إنما يكون عيباً وطعناً إذا ابطال الاجتهاد الذي يذهبون إليه فأما لو ثبت لم يكن ذلك عيباً، فأما الدعوى على أمير المؤمنين رضي الله عنه أنه تنقل في الأحكام ورجع من مذهب إلى آخر، فإنها غير صحيحة، ولا نسلمه، ونحن ننازعه فيها، وهو لا ينازعنا في تلون

صاحبه وتنقله، فلم يشتبه الأمران.

وأظهر ما روي في ذلك خبر أمهات الأولاد، وقد بينا فيما سلف من الكتاب ما فيه، وقلنا: إن مذهبه في بيعهن كان واحداً غير مختلف، وإن كان قد وافق عمر في بعض الأحوال لضرب من الرأي، فأما توليته لمن يرى خلاف رأيه، فليس ذلك لتسويغه الاجتهاد الذي يذهبون إليه، بل لما بيناه من قبل، أنه رضي الله عنه كان غير متمكن من اختياره، وأنه يجري أكثر الأمور مجراها المتقدم للسياسة والتدبير، وهذا السبب في أنه لم يمنع من خالفه في الفتيا.

فأما قوله: إن السبعين قضية لم تكن في مسألة واحدة، وإنما كانت في مسائل من الجد، فكلا الأمرين واحد فيما قصدناه، لأن حكم الله تعالى لا يختلف في المسألة الواحدة والمسائل، فأما أمر الأسارى فإن صح فإنه لا يشبه أحكام الدين المبنية على العلم واليقين، لأنه لا سبيل لأي بكر وعمر إلى المشورة في أمر الأسارى إلا من طريق الظن والحسبان، وأحكام الدين معلومة وإلى العلم بها سبيل.

وما ادعاه من اجتهاد الحسن بخلاف اجتهاد الحسين ليس على ما ظنه، لأن ذلك لم يكن عن اجتهاد وظن، بل كان عن علم ويقين فمن أين له أنهما عملاً على الظن، فما نراه أعتمد على حجة، ومن أين له أن تمكن الحسن كان أكثر من تمكن الحسين، على أن هذا لو كان على ما قاله لم يحسن من هذا التسليم ومن ذاك القتال، لأن المقاتل قد يكون مغرراً ملقياً بيديه إلى التهلكة، والمسلم مضيعاً للأمر مفرطاً، وإذا كان عند صاحب الكتاب التسليم والقتال إنما كانا عن ظن وأمارات فليس يجوز أن يغلب على الظن بأن الرأي في القتال مع ارتفاع أمارات التمكن، ولا أن يغلب في الظن المسألة مع قوة أمارات التمكن.

قلت: أما القول في صحة الاجتهاد وبطلانه، فله مواضع غير هذا الموضع، وكذلك القول في تقية الإمام واستصلاحه وفعله ما لا يمسوخ لضرب من السياسة والتدبير.

وأما مسائل الجد فلم يعترض المرتضى قول قاضي القضاة فيها، وأما قاضي القضاة فقد استبعد، بل أحال، أن تكون مسألة واحدة بعينها تحتل سبعين حكماً مختلفة، فحمل الحديث على أن عمر أفتى في باب ميراث الأجداد والجدات بسبعين فتياً في سبعين مسألة مختلفة الصور، وذلك دليل على علمه وفقهه، وتمكنه من البحث في تفاريع المسائل الشرعية. هذا هو جواب قاضي القضاة، فكيف يعترض بقوله: كلا الأمرين واحد فيما قصدناه، لأن حكم الله لا يختلف في المسألة الواحدة والمسائل المتعددة، أليس هذا اعتراض من ظن أن قاضي القضاة قد اعترض بتناقض أحكامه، ولكن لا في مسألة بعينها، بل في مسائل من باب ميراث الجد، ولم يقصد قاضي القضاة ما ظنه، والوجه أن يعترض قاضي القضاة فيقال: إن الرواة كلهم اتفقوا على أن عمر تلون تلوناً شديداً في الجد مع الإخوة كيف يقاسمهم، وهي مسألة واحدة، فقضى فيها بسبعين قضية، فأخرجوا الرواية مخرج التعجب من تناقض فتاويه، ولم يخرج أحد من المحدثين الرواية مخرج المدح له بسعة تفريعه في الفقه والمسائل، فلا يجوز صرف الرواية عن الوضع الذي وردت عليه.

وقول قاضي القضاة: كيف تحتل مسألة واحدة سبعين وجهاً، جوابه أنه لم يقع الأمر بموجب ما توهمه، بل المراد أن قوماً تحاكموا إليه في هذه المسألة مثلاً اليوم، فأفتى فيها بفتيا، نحو أن يقول في جد وبنت وأخت: للبننت النصف والباقي بين

الجد والأخت، للذكر مثل حظ الأنثيين، وهو قول زيد بن ثابت، ثم يتحاكم إليه بعد أيام في هذه المسألة بعينها، قد وقعت لقوم آخرين، فيقول: للبنت النصف وللجد السدس، والباقي للأخت، وهو المذهب المحكي عن علي رضي الله عنه، وذلك بأن يتغلب على ظنه ترجيح هذه الفتيا على ما كان أفتى به من قبل، ثم تقع هذه المسألة بعينها بعد شهر آخر، فيفتي فيها بفتيا أخرى، فيقول: للبنت النصف والباقي بين الجد والأخت نصفين، وهو مذهب ابن مسعود، ثم تقع المسألة بعينها بعد شهر آخر، فيفتي فيها بالفتيا الأولى، وهي مذهب زيد، بأن يعود ظنه مترجحاً متغلباً لمذهب زيد، ثم تقع المسألة بعينها بعد وقت آخر، فيفتي فيها بقول علي رضي الله عنه، وهكذا لا تزال المسألة بعينها تقع، وأقواله فيها تختلف، وهي ثلاثة لا مزيد عليها، إلا أنه لا يزال يفتي فيها فتاوى مختلفة، إلى أن توفي فأحصيت، فكانت سبعين فتياً.

فأما احتجاج في قاضي القضاة بقصة أسرى بدر فجيد، وأما ما اعترض به المرتضى فليس بجيد، لأن المسألة من باب الشرع، وهو قتل الأسرى أو تخليتهم بالفداء، والقتل وإراقة الدم من أهم المسائل الشرعية، وقد علم من الشارع شدة العناية بأمر الدنيا، فإن كانت أحكام الشرع لا يجوز أن تتلقى، وأن يفتي فيها إلا بطريق معلومة، وأن الظن والاجتهاد لا مدخل له في الشرع كما يذهب إليه المرتضى فكيف جاز من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشاور في أحكام شرعية من لا طريق له إلى العلم، وإنما قصارى أمره الظن والاجتهاد والحسبان، وكيف مدحهما جميعاً، وقد اختلفا، ولا بد أن يكون أحدهما مخطئاً.

وأما قول المرتضى: من أين لقاضي القضاة أن ما اعتمده الحسن والحسين من الكف والإقدام كان من الاجتهاد، فجيد، وجواب صحيح على أصول الإمامية، لأنه ليس بمستحيل أن يعتمد ذلك بوضعية سابقة من أبيهما رضي الله عنه. وأما قوله لقاضي القضاة: كلامك مضطرب، لأنك أسندت ما اعتمده إلى الاجتهاد، ثم قلت: وقد كان تمكن الحسن أكثر من تمكن الحسين رضي الله عنه، وهذا يؤدي إلى أن أحدهما غرر بنفسه والآخر فرط في تسليم حقه، فليس بجيد. والذي أراده قاضي القضاة الدلالة على جواز الاجتهاد، وأنه طريقة المسلمين كلهم، وأهل البيت رضي الله عنهم، وأوماً إلى ما اعتمده الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية، وما اعتمده الحسين من منازعة يزيد الخلافة، فعملاً فيها بموجب اجتهادهما، وما غلب على ظنونهما من المصلحة، وقد كان تمكن الحسن رضي الله عنه في الحال الحاضرة أكثر من تمكن الحسين رضي الله عنه في حاله الحاضرة، لأن جند الحسن كان حوله ومطيفاً به، وهم كما روي مائة ألف سيف ولم يكن مع الحسين رضي الله عنه ممن يحيط به ويسير بمسيره إلى العراق إلا دون مائة فارس، ولكن ظنهما في عاقبة الأمر ومستقبل الحال كان مختلفاً، فكان الحسن يظن خذلان أصحابه عند اللقاء والحرب، وكان الحسين رضي الله عنه يظن نصرة أصحابه عند اللقاء والحرب، فلذلك أحجم أحدهما وأقدم الآخر، فقد بان أن قول قاضي القضاة غير مضطرب ولا متناقض.

الطعن الثامن: ما روي عن عمر من قوله: "متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنا أنهى عنهما وأعافب عليهما"، وهذا اللفظ قبيح لو صح المعنى، فكيف إذا فسد، لأنه ليس ممن يشرع فيقول هذا القول، ولأنه يوهم مساواة الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر والنهي وأن أتباعه أولى من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أجاب قاضي القضاة، فقال: إنه إنما عني بقوله: "وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما" كراهته لذلك، وتشدده فيه، من حيث أنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما بعد أن كانتا في أيامه، منبهاً بذلك على حصول النسخ فيهما وتغيير الحكم، لأننا نعلم أنه كان متبعاً للرسول، متديناً بالإسلام، فلا يجوز أن نحمل قوله على خلاف ما تواتر من حاله. وحكي عن أبي علي أن ذلك بمنزلة أن يقول: إني أعاف من صلي إلى بيت المقدس، وإن كان صلي إلى بيت المقدس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. واعتمد في تصويبه على كف الصحابة عن النكير عنه. وادعى أن أمير المؤمنين رضي الله عنه أنكر على ابن عباس إحلال المتعة، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم تحريمهما، فأما متعة الحج فإنما أراد ما كانوا يفعلون من فسخ الحج، لأنه كان يحصل لهم عنده التمتع، ولم يرد بذلك التمتع الذي يجري مجرى تقدم العمرة وإضافة الحج إليها بعد ذلك. لأنه جائز لم يقع فيه قبح.

اعترض المرتض، هذا الكلام فقال: ظاهر الخبر المروي عن عمر في المتعتين يبطل هذا التأويل، لأنه قال: "متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما"، فأضاف النهي إلى نفسه. ولو كان الرسول أنهى عنهما لأضاف النهي إليه، فكان أكد وأولى، فكان يقول: فنهى عنهما أو نسخهما وأنا من بعده أنهى عنهما وأعاقب عليهما، وليس يشبه ما ذكره من الصلاة إلى بيت المقدس، لأن نسخ الصلاة إلى بيت المقدس معلوم ضرورة من دينه صلى الله عليه وسلم، وليس كذلك المتعة، على أنه لو قال: إن الصلاة إلى بيت المقدس كانت في أيام النبي صلى الله عليه وسلم جائزة وأنا الآن أنهى عنها لكان قبيحاً شنيعاً، مثل ما استقبلنا من القول الأول، وليس هذا القول منه رداً على الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه لا يمتنع أن يكون استحسَنَ حظرها في أيامه لوجه لم يكن فيما تقدم، واعتقد أن الإباحة في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لها شرط لم يوجد في أيامه، وقد روي عنه أنه صرح بهذا المعنى، فقال: إنما أحل الله المتعة للناس على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم والنساء يومئذ قليلة، ولذلك روي عنه في متعة الحج أنه قال: قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلها وأصحابه، ولكن كرهت أن يظللوا بها معرسين تحت الأراك، ثم يرجعوا بالحج تقطر رؤوسهم.

وأما اعتماده على الكف عن النكير، فقد تقدم أنه ليس بحجة إلا على شرائط شرحناها، على أنه قد روي أن عمر قال بعد نهيه عن المتعة: لا أوتى بأحد تزوج متعة إلا عذبتة بالحجارة، ولو كنت تقدمت فيها لرجمت، وما وجدنا أحداً أنكر عليه هذا القول، لأن الممتع عندهم لا يستحق الرجم، ولم يدل ترك النكير على صوابه. فأما ادعاؤه على أمير المؤمنين رضي الله عنه أنه أنهى عنهما، أنكر على ابن عباس إحلالها، فالأمر بخلافه وعكسه، فقد روي عنه رضي الله عنه من طرق كثيرة أنه كان يفتي بها، وينكر على محرماها والناهي عنها، وروى عمر بن سعد الحمداي، عن حبيش بن المعتمر، قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: لولا ما سبق من ابن الخطاب في المتعة ما زنى إلا شقي. وروى أبو بصير، قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر رضي الله عنه يروي عن جده أمير المؤمنين رضي الله عنه: لولا ما سبقني به ابن الخطاب ما زنى إلا شقي. وقد أفيت بالمتعة جماعة من الصحابة والتابعين كعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وسلمة بن الأكوع، وأبي سعيد الخدري، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وغير ما ذكرناه ممن يطول ذكره، فأما سادة أهل البيت رضي الله عنهم، وعلمائهم فأمرهم واضح في الفتيا بها، كعلي بن الحسين

زين العابدين، وأبي جعفر الباقر رضي الله عنه، وأبي عبد الله الصادق رضي الله عنه، وأبي الحسن موسى الكاظم، وعلي بن موسى الرضا رضي الله عنه. وما ذكرنا من فتيا من أشرنا إليه من الصحابة بما يدل على أوضح بطلان ما ذكره صاحب الكتاب من ارتفاع النكير لتحريمها، لأن مقامهم على الفتيا بما نكير. فأما متعة الحج فقد فعلها النبي صلى الله عليه وسلم والناس أجمع من بعده، والفقهاء في أعصارنا هذه لا يرونها خطأ بل صواباً.

فأما قول صاحب الكتاب: إن عمر إنما أنكر فسح الحج فباطل، لأن ذلك أولاً لا يسمى متعة، ولأن ذلك ما فعل في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا فعله أحد من المسلمين بعده، وإنما هو من سنن الجاهلية، فكيف يقول عمر: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف يغلظ ويشدد فيما لم يفعل، ولا فعل. قلت: لا شبهة أن الظاهر من كلام عمر إضافة النهي إلى نفسه، لكننا يجب علينا أن نترك ظاهر اللفظ إذا علمنا من قائله ما يوجب صرف اللفظ عن الظاهر كما يعتمد كل أحد في القرائن المقترنة بالألفاظ، والمعلوم من حال عمر أنه لم يكن يدعي أنه ناسخ لشريعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه كان متديناً بالإسلام وتابعاً للرسول الذي جاء به، فوجب أن يحمل كلامه على أنه أراد أنهما كانتا ثم حرمتا، ثم أنا الآن أعاقب من فعلهما، لأنه قد كان بلغه عن قوم من المسلمين بعد علمهم بالتحريم. وقول المرتضى: لعله كان يعتقد أن الإباحة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مشروطة بشرط لم يوجد في أيامه، قول يبطل طعنه في عمر، ويمهد له عذراً ويصير المسألة اجتهادية.

وأما طعنه في الاحتجاج على تصويب عمر بترك الإنكار عليه وقوله: فهلا أنكروا عليه قوله: لا أرى أحدا يستمتع إلا رحمته، فليس بطعن مستقيم، وإنما يكون طعناً صحيحاً لو كان أتى بمتمتع فأمر برجمه، فأما أن ينكروا عليه وعيده وتهديده. لا لإنسان معين، بل كلاماً مطلقاً، وقولاً كلياً يقصد به حسم المادة في المتعة، وتخويف فاعلها، فإنه ليس بمحل للإنكار عليه، وما زالت الأئمة والصالحون يتوعدون بأمر ليس في نفوسهم فعله، على طريق التأديب والتهذيب، على أن قوماً من الفقهاء قد أوجبوا إقامة الحد على المتمتع فلا يمتنع أن يكون عمر ذاهباً إلى هذا المذهب.

فأما ما رواه عن أمير المؤمنين رضي الله عنه وعن الطاهرين من أولاده، من تحليل المتعة، فلسنا في هذا المقام نناكره في ذلك وننازعه فيها، والمسألة فقهية من فروع الشريعة، وليس كتابنا موضوعاً لذكره، ولا الموضوع الذي نحن فيه يقتضي الحجاج فيها، والبحث في تحليلها وتحريمها، وإنما الموضوع موضع الكلام في حال عمر، وما نقل عنه من الكلمة، هل يقتضي ذلك الطعن في دينه أم لا؟ فأما متعة الحج فقد اعتذر لنفسه، وقال ما قدمنا ذكره، من أن الحج بهاء من بهاء الله، وأن التمتع يكسفه ويذهب نوره ورونقه، وأنهم يظنون معرسين تحت الأراك، ثم يهلون بالحج ورؤوسهم تقطر، وإذا كان قد اعتذر لنفسه فقد كفانا مؤونة الاعتذار.

الطعن التاسع: ما روي عنه من قصة الشورى، وكونه خرج بها عن الاختيار والنص جميعاً، وأنه ذم كل واحد، بأن ذكر فيه طعناً ثم أهله للخلافة بعد أن طعن فيه، وأنه جعل الأمر إلى ستة، ثم إلى أربعة، ثم إلى واحد، قد وصفه بالضعف والقصور، وقال: إن اجتمع علي وعثمان فالقول ما قالاه، وإن صاروا ثلاثة وثلاثة فالقول للذين فيهم عبد الرحمن،

وذلك لعلمه بأن علياً وعثمان لا يجتمعان، وأن عبد الرحمن لا يكاد يعدل الأمر عن ختنه وابن عمه، وأنه أمر بضرب أعناقهم إن تأخروا عن البيعة فوق ثلاثة أيام، وأنه أمر بقتل من يخالف الأربعة منهم أو الذين فيهم عبد الرحمن.

أجاب قاضي القضاة عن ذلك، فقال: الأمور الظاهرة لا يجوز أن يعترض عليها بأخبار غير صحيحة، والأمر في الشورى ظاهر، وإن الجماعة دخلت فيها بالرضا، ولا فرق بين من قال في أحدهم: إنه دخل فيها لا بالرضا وبين من قال ذلك في جميعهم، ولذلك جعلنا دخول أمير المؤمنين رضي الله عنه في الشورى أحد ما يعتمد عليه في أن لا نص يدل عليه، أنه المختص بالإمامة، لأنه قد كان يجب عليه أن يصرح بالنص على نفسه، بل يحتاج إلى ذكر فضائله، ومناقبه، لأن الحال حال مناظرة، ولم يكن الأمر مستقراً لواحد، فلا يمكن أن يتعلق بالتقية، والمتعالم من حاله أنه لو امتنع من هذا الأمر في الشورى أصلاً لم يلحقه الخوف فضلاً عن غيره، ومعلوم أن دلالة الفعل أحسن من دلالة القول، من حيث كان الاحتمال فيه أقل، والمروي أن عبد الرحمن أخذ الميثاق على الجماعة بالرضا بمن يختاره، ولا يجب القدح في الأفعال بالظنون، بل يجب حملها على ظاهر الصحة دون الاحتمال، كما يجب مثله في غيرها، ويجب إذا تقدمت للفاعل حالة تقتضي حسن الظن به، أن يحمل فعله على ما يطابقها، وقد علمنا أن حال عمر وما كان عليه من النصيحة للمسلمين، منع من صرف أمره في الشورى إلى الأغراض التي يظنها أعداؤه، فلا يصح لهم أن يقولوا: كان مراده في الشورى بأن يجعل الأمر إلى الفرقة التي فيها عبد الرحمن عند الخلاف، أن يتم الأمر لعثمان، لأنه لو كان هذا مراده لم يكن هناك ما يمنعه من النص على عثمان، كما لم يمنع ذلك أبا بكر، لأن أمره إن لم يكن أقوى من أمر أبا بكر لم ينقص عنه، وليس ذلك بدعة، لأنه إذا جاز في غير الإمام إذا اختار أن يفعل ذلك، بأن ينظر في أمثال القوم فيعلم أنهم عشرة، ثم ينظر في العشرة، فيعلم أن أمثلهم خمسة، ثم ينظر في واحد من الخمسة، فما الذي يمنع من مثله في الإمام، وهو في هذا الباب أقوى اختياراً، لأن له أن يختار واحداً بعينه.

ثم ذكر أنه إنما حصره لا الجماعة الذين انتهى إليهم الفضل، وجعله شورى بينهم، ثم بين أن الانتقال من الستة إلى الأربعة، ومن الأربعة إلى الثلاثة، لا يكون متناقضاً، لأن الأقوال مختلفة، وليست واحدة، ولو كانت أيضاً واحدة لكان كالرجوع، ولالإمام أن يرجع في مثل ذلك، لأنه في حكم الوصية.

قال: وقولهم: إنه كان يعلم أن عثمان وعلياً لا يجتمعان، وأن عبد الرحمن يميل إلى عثمان، قلة دين، لأن الأمور المستقبلية، لا تعلم وإنما يحصل فيها أمارات. قال: والأمارات توجب أنه لم يكن فيهم حرص شديد على الإمامة بل الغالب من حالهم طلب الاتفاق والاتلاف والاسترواح إلى قيام الغير بذلك. وإنما جعل عمر الأمر إلى عبد الرحمن عند الاختلاف، لعلمه بزهده في الأمر، وأنه لأجل ذلك أقرب أن يتثبت، لأن الراغب عن الشيء يحصل له من التثبت ما لا يحصل للراغب فيه، ومن كانت هذه حاله كان القوم إلى الرضا به أقرب.

وحكي عن أبي علي أن المخادعة إنما تظن بمن قصده في الأمور طريق الفساد، وعمر برىء من ذلك.

قال: والضعف الذي وصف به عبد الرحمن، إنما أراد به الضعف عن القيام بالإمامة، لا ضعف الرأي، ولذلك رد الاختيار والرأي إليه. وحكي عن أبي علي ضعف ما روي من أمره بضرب أعناق القوم إذا تأخروا عن البيعة، وأن ذلك لو صح

لأنكره القوم، ولم يدخلوا في الشورى بهذا الشرط، ثم تأوله إذا سلم صحته، على أنهم إن تأخروا عن البيعة على سبيل شق العصا وطلب الأمر من غير وجهه. وقال: ولا يمتنع أن يقول ذلك على طريق التهديد، وإن بعد عنده أن يقدموا عليه، كما قال تعالى: "لئن أشركت ليحبطن عملك".

اعترض المرتضى، هذا الكلام، فقال: إن الذي رتبته عمر في قصة الشورى، من ترتيب العدد واتفاقه واختلافه، يدل أولاً على بطلان مذهب أصحاب الاختيار في عدد العاقلين للإمامة، وأنه يتم بعقد واحد لغيره برضاً أربعة، وأنه لا يتم بدون ذلك، فإن قصة الشورى تصرح بخلاف هذا الاعتبار، فهذا أحد وجوه المطاعن فيها.

ومن جملتها أنه وصف كل واحد منهم بوصف زعم أنه يمنع من الإمامة، ثم جعل الأمر فيمن له تلك الأوصاف، وقد روى محمد بن سعد، عن الواقدي، عن محمد بن عبد الله الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس، قال: قال عمر: لا أدري ما أصنع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك قبل أن يطعن، فقلت: ولم تهتم وأنت تجد من تستخلفه عليهم، قال: أصحابكم، يعني علياً، قلت: نعم، هو لها أهل، في قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصهره وسابقتة وبلائه، قال: إن فيه بطالة وفكاهة، فقلت: فأين أنت من طلحة، قال: فأين الزهو والنخوة، قلت: عبد الرحمن، قال: هو رجل صالح على ضعف فيه، قلت: فسعد، قال: ذاك صاحب مقنب وقتال لا يقوم بقرية لو حمل أمرها، قلت: فالزبير، قال: وعقة لقس مؤمن الرضا، كافر الغضب، شحيح، وإن هذا الأمر لا يصلح إلا لقوي لا غير عنف، رفيق في غير ضعف، وجواد في غير سرف، قلت: فأين أنت من عثمان، قال: لو وليها لحمل بني أبي معيط على رقاب الناس، ولو فعلها لقتلوه.

وقد يروى من غير هذا الطريق أن عمر قال لأصحاب الشورى: روحوا إلي، فلما نظر إليهم قال: قد جاءني كل واحد منهم يهز عفريته، يرجو أن يكون خليفة، أما أنت يا طلحة، أفلست القائل: إن قبض النبي صلى الله عليه وسلم، أنكح أزواجه من بعده، فما جعل الله محمداً أحق بنات أعمامنا منا، فأنزل الله تعالى فيك: "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً"، وأما أنت يا زبير، فوالله ما لأن قلبك يوماً ولا ليلة. وما زلت جلفاً جافياً، وأما أنت يا عثمان، فوالله لروثة خير منك، وأما أنت يا عبد الرحمن، فإنك رجل عاجز تحب قومك جميعاً، وأما أنت يا سعد، فصاحب عصبية وفتنة، وأما أنت يا علي، فوالله لو وزن إيمانك بإيمان أهل الأرض لرححهم، فقام علي مولياً يخرج، فقال، عمر: والله إني لأعلم مكان رجل لو وليتموه أمركم لحملككم على المحجة البيضاء، قالوا: من هو، قال: هذا المولي من بينكم، قالوا: فما يمنعك من ذلك، قال: ليس إلى ذلك سبيل.

وفي خبر آخر، رواه البلاذري في تاريخه، أن عمر لما خرج أهل الشورى من عنده، قال: إن ولوها الأجلح سلك بهم الطريق، فقال عبد الله بن عمر: فما يمنعك منه يا أمير المؤمنين، قال: أكره أن أتحمّلها حياً وميتاً.

فوصف كما ترى كل واحد من القوم بوصف قبيح يمنع من الإمامة، ثم جعلها في جملتهم، حتى كأن تلك الأوصاف تزول في حال الاجتماع، ونحن نعلم أن الذي ذكره إن كان مانعاً من الإمامة في كل واحد على الانفراد، فهو مانع من الاجتماع، مع أنه وصف علياً رضي الله عنه بوصف لا يليق به، ولا ادعاه عدو قط، بل هو معروف بضده، من الركانة

والبعد عن المزاح والدعابة، وهذا معلوم ضرورة لمن سمع أخباره رضي الله عنه، وكيف يظن به ذلك، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: كان أمير المؤمنين علي صلي الله عليه وسلم إذا أتى هبنا أن نبتدئه بالكلام، وهذا لا يكون إلا من شدة التزمم والتوقر، وما يخالف الدعابة والفكاهة.

ومما تضمنته قصة الشورى من المطاعن، أنه قال: لا أتحملها حياً وميتاً، وهذا إن كان علة عدوله عن النص إلى واحد بعينه، فهو قول متلمس متخلص، لا يفتات على الناس في آرائهم، ثم نقض هذا بأن نص على ستة من بين العالم كله، ثم رتب العدد ترتيباً مخصوصاً، يؤول إلى أن اختيار عبد الرحمن هو المقدم، وأي شيء يكون من التحمل أكثر من هذا، وأي فرق بين أن يتحملها، بأن ينص على واحد بعينه، وبين أن يفعل ما فعله من الحصر والترتيب.

ومن جملة المطاعن أنه أمر بضرب الأعناق إن تأخروا عن البيعة أكثر من ثلاثة أيام، ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقون القتل، لأنهم إذا كانوا إنما كلفوا أن يجتهدوا آراءهم في اختيار الإمام، فرمما طال زمان الاجتهاد، وربما قصر بحسب ما يعرض فيه من العوارض، فأبي معنى للأمر بالقتل إذا تجاوزوا الأيام الثلاثة، ثم إنه أمر بقتل من يخالف الأربعة، ومن يخالف العدد الذي فيه عبد الرحمن، وكل ذلك مما لا يستحق به القتل.

فأما تضعيف أبي علي لذكر القتل فليس بحجة، مع أن جميع من روى قصة الشورى وروى ذلك، وقد روى الطبري ذلك في تاريخه وغيره.

فأما نأوله الأمر بالقتل على أن المراد به إذا تأخروا على طريق شق العصا، وطلب الأمر من غير وجهه، فبعيد من الصواب، لأنه ليس في ظاهر الخبر ذلك، ولأنهم إذا شقوا العصا، وطلبوا الأمر من غير وجهه من أول يوم، وجب أن يمتنعوا ويقاتلوا، فأبي معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً.

فأما تعلقه بالتهديد، فكيف يجوز أن يتهدد الإنسان على فعل بما لا يستحقه، وإن علم أنه لا يعزم عليه.

فأما قوله تعالى: "لئن أشركت ليحبطن عملك"، فيخالف ما ذكر، لأن الشرك يستحق به إحباط الأعمال، وليس يستحق بالتأخير عن البيعة القتل.

فأما ادعاء صاحب الكتاب أن الجماعة دخلوا في الشورى على سبيل الرضا، وأن عبد الرحمن أخذ عليهم العهد أن يرضوا بما يفعله، فمن قرأ قصة الشورى على وجهها، وعدل عما تسوله النفس من بناء الأخبار على المذاهب، علم أن الأمر بخلاف ما ذكر. وقد روى الطبري في تاريخه عن أشياخه من طرق مختلفة، أن أمير المؤمنين رضي الله عنه قال حين خرج من عند عمر بعد خطابه للجماعة بما تقدم ذكره لقوم كانوا معه من بني هاشم: إن طمع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً. وتلقاه العباس بن عبد المطلب، فقال: يا عم عدلت عنا، قال: وما علمك، قال: قرن بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، وإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان، فيوليها عبد الرحمن عثمان، أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخرون معي لم ينفعاني بله أبي لا أرجو إلا أحدهما. فقال له العباس: لم أدفعك عن شيء إلا رجعت إلي مستأخراً، أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر، فأبيت، وأشرت عليك عند وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت،

وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى ألا تدخل معهم، فأبيت، فاحفظ علي واحدة، كلما عرض عليك القوم فقل: لا، إلا أن يولوك، واحذر هؤلاء الرهط، فإنهم لا يرحون يدفعوننا عن هذا الأمر، حتى يقوم لنا به غيرنا وغيرهم، وإيم الله لا تناله إلا بشر لا ينفع معه خير. فقال علي رضي الله عنه: أما والله لئن بقي عمر لأذكرنه ما أتى إلينا، ولئن مات ليتداولنها بينهم، ولئن فعلوا ليجدنني حيث يكرهون، ثم تمثل:

غدون خفافاً فابتدرن المحصبا

حلفت برب الراقصات عشيةً

نجبياً، بنو الشداخ ورداً مصلبا

ليحتلبن رهط ابن يعمر مارئاً

فالتفت فرأى أبا طلحة الأنصاري فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لا ترع أبا حسن.

قال المرتضى: فإن قال قائل: أي معنى لقول العباس: إني دعوت إلى أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن هذا الأمر من قبل وفاته، أليس هذا مبطلاً لما تدعونه من النص.

قلنا: غير ممتنع أن يريد العباس سؤاله عما يصير الأمر إليه، وينتقل إلى يديه، لأنه قد يستحقه من لا يصل إليه، وقد يصل إليه من لا يستحقه، وليس يمتنع أن يريد: إنما كنا نسأله صلى الله عليه وسلم إعادة النص قبل الموت، ليتجدد ويتأكد، ويكون لقرب العهد إليه بعيداً من أن يطرح.

فإن قيل: أليس قد أنكرتم على صاحب الكتاب من التأويل بعينه فيما استعمله من الرواية عن أبي بكر من قوله: ليتني كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل للأنصار في هذا الأمر حق؟ قلنا: إنما أنكرناه في ذلك الخبر، لأنه لا يليق به من حيث قال: فكنا لا ننازعه أهله، وهذا قول من لا علم له بأنه ليس للأنصار حق في الإمامة، ومن كان يرجع في أن لهم حقاً في الأمر أو لا حق لهم فيه، إلى ما يسمعه مستأنفاً، وليس هذا في الخبر لذي ذكرناه.

وروى العباس بن هشام الكلبي، عن أبيه عن جده، في إسناده، أن أمير المؤمنين رضي الله عنه شكاً إلى العباس ما سمع من قول عمر: كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وقال: والله لقد ذهب الأمر منا، قال: وكيف قلت ذلك يا بن أخي، قال: إن سعداً لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن نظير عثمان وصهره، فأحدهما يختار لصاحبه لا محالة، وإن كان الزبير وطلحة معي، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابن عوف في الثلاثة الآخرين.

قال ابن الكلبي: عبد الرحمن زوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وأمها أروى بنت كرز، وأروى أم عثمان، فلذلك قال: صهره.

وفي رواية الطبري أن عبد الرحمن دعا علياً رضي الله عنه، فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الخلفيتين، فقال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي.

وفي خبر آخر عن أبي الطفيل، أن عبد الرحمن قال لعلي رضي الله عنه: هلم يدك خذها بما فيها، على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فقال: آخذها بما فيها، على أن أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه جهدي. فترك يده، وقال: هلم يدك يا عثمان، أتأخذها بما فيها على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، قال: نعم، قال: هي لك يا عثمان.

وفي رواية الطبري أنه قال لعثمان مثل قوله لعلي، فقال: نعم، فبايعه، فقال علي رضي الله عنه: ختونة حنت دهرًا. وفي خبر آخر: نفعت الختونة يابن عوف، ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا، "فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون"، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك، والله كل يوم هو في شأن. وفي غير رواية الطبري أن عبد الرحمن قال له: لقد قلت ذلك لعمر، فقال رضي الله عنه: أو لم يكن ذلك كما قلت وروى الطبري أن عبد الرحمن قال: لا تجعل يا علي على نفسك سبيلاً، فإني نظرت وشاورت الناس، فإذا هم لا يعدلون بعثمان، فقام علي رضي الله عنه، وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله. وفي رواية الطبري أن الناس لما بايعوا عثمان تلكاً علي رضي الله عنه، فقال عثمان: "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً". فرجع علي رضي الله عنه حتى بايعه، وهو يقول: خدعة وأي خدعة. وروى البلاذري في كتابه، عن ابن الكلبي، في أبيه، عن أبي مخنف، في إسناد له، أن علياً رضي الله عنه لما بايع عبد الرحمن عثمان كان قائماً، فقال له عبد الرحمن: بايع وإلا ضربت عنقك، ولم يكن يومئذ مع أحد سيف غيره، فخرج علي مغضباً، فلحقه أصحاب الشورى، فقالوا له: بايع وإلا جاهدناك. فأقبل معهم يمشي حتى بايع عثمان. قال المرتضى: فأى رضا ههنا، وأي إجماع، وكيف يكون مختاراً من تهدد بالقتل وبالجهاد، وهذا المعنى وهو حديث ضرب العنق لو روته الشيعة لتضاحك المخالفون منه وتغامزوا، وقالوا: هذا من جملة ما تدعونه من المحال، وتروونه من الأحاديث، وقد أنطق الله به رواهم، وأجراه على أفواه ثقاتهم، ولقد تكلم المقداد في ذلك اليوم بكلام طويل، يفند فيه ما فعلوه من بيعة عثمان، وعدولهم بالأمر عن أمير المؤمنين إلى أن قال له عبد الرحمن: يا مقداد، اتق الله، فإني خائف عليك الفتنة. ثم إن المقداد قام فأق علياً، فقال: أتقاتل فنقاتل معك، فقال علي: فبمن أقاتل، وتكلم أيضاً عمار فيما رواه أبو مخنف فقال: يا معشر قريش، أين تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيكم، تحولونه ههنا مرة وههنا مرة، أما والله ما أنا بآمن أن يترعه الله منكم فيضعه في غيركم كما انتزعتموه من أهله، ووضعتموه في غير أهله. فقال له هشام بن الوليد: يابن سمية، لقد عدوت طورك، وما عرفت قدرك، وما أنت وما رأته قريش لأنفسها إنك لست في شيء من أمرها وإمارتها، فتتح عنها. وتكلمت قريش بأجمعها. وصاحت بعمار وانتهرته، فقال: الحمد لله ما زال أعوان الحق قليلاً. روى أبو مخنف أن عماراً أيضاً قال هذا البيت ذلك اليوم:

يا ناعي الإسلام قم فأنعه

قدمات عرف وأتى منكر

أما والله لو أن لي أعواناً لقاتلتهم، وقال لأمر المؤمنين رضي الله عنه: لئن قاتلتهم بواحد لأكونن ثانياً، فقال: والله ما أجد عليهم أعواناً، ولا أحب أن أعرضكم لما لا تطيقون.

وروى أبو مخنف، عن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه، قال: دخلت على علي رضي الله عنه، وكنت حاضراً بالمدينة يوم بويع عثمان، فإذا هو واجم كئيب، فقلت: ما أصاب قوم صرفوا هذا الأمر عنكم، فقال صبر جميل، فقلت: سبحان الله، إنك لصبور، قال: فاصنع ماذا، قلت: تقوم في الناس خطيباً فتدعوهم إلى نفسك، وتخبرهم أنك أولى بالنبي صلى الله عليه

وسلم بالعمل والسابقة، وتسألهم النصر على هؤلاء المتظاهرين عليك، فإن أجابك عشرة من مائة شددت بالعشرة على المائة، فإن دانوا لك كان ما أحببت، وإن أبوا قاتلتهم، فإن ظهرت عليهم فهو سلطان الله آتاه نبيه صلى الله عليه وسلم، وكنت أولى به منهم إذ ذهبوا بذلك، فرده الله إليك، وإن قتلت في طلبه فقتلت شهيداً، وكنت أوك بالعذر عند الله تعالى في الدنيا والآخرة. فقال رضي الله عنه: أو تراه كان تابعي من كل مائة عشرة، قلت: لأرجو ذلك، قال: لكني لا أرجو ولا والله من المائة اثنين، وسأخبرك من أين ذلك، إن الناس إنما ينظرون إلى قريش، فيقولون: هم قوم محمد صلى الله عليه وسلم وقبيلته، وإن قريشاً تنظر إلينا فتقول: إن لهم بالنبوة فضلاً على سائر قريش، وإنهم أولياء هذا الأمر دون قريش والناس، وإنهم إن ولوه لم يخرج هذا السلطان منهم إلى أحد أبداً، ومتى كان في غيرهم تداولتموه بينكم، فلا والله، لا تدفع قريش إلينا هذا السلطان طائعة أبداً. قلت: أفلا أرجع إلى المصر فأخبر الناس بمقاتلتك هذه، وأدعو الناس إليك، فقال: يا جندب، ليس هذا زمان ذلك، فرجعت فكلما ذكرت للناس شيئاً من فضل علي زبروني وهروني، حتى رفع ذلك من أمري للوليد بن عقبة، فبعث إلي فحبسني.

قال: وهذه الجملة التي أوردناها قليل من كثير، في أن الخلاف كان واقماً، والرضا كان مرتفعاً، والأمر إنما تم بالحيلة والمكر والخداع، وأول شيء مكر به عبد الرحمن أنه ابتداء فأخرج نفسه من الأمر، ليتمكن من صرفه إلى من يريد، وليقال: إنه لولا إثارة الحق، وزهده في الولاية لما أخرج نفسه منها، ثم عرض على أمير المؤمنين رضي الله عنه ما يعلم أنه لا يجيب إليه، ولا تلزمه الإجابة إليه، من السير فيهم بسيرة الرجلين، وعلم أنه رضي الله عنه لا يتمكن من أن يقول: إن سيرتهما لا تلزمي، لثلا ينسب إلى الطعن عليهما. وكيف يلزم سيرتهما، وكل واحد منهما لم يسر بسيرة الآخر، بل اختلفا وتباينا في كثير من الأحكام، هذا بعد أن قال لأهل الشورى: وثقوا إلي من أنفسكم بأنكم ترضون باختياري إذا أخرجت نفسي، فأجابوه على ما رواه أبو مخنف بإسناده إلى ما عرض عليهم. إلا أمير المؤمنين رضي الله عنه، فإنه قال: أنظر، لعلمه بما يجز هذا المكر، حتى أتاهم أبو طلحة، فأخبره عبد الرحمن بما عرض وما جاء به القوم إياه إلا علياً، فأقبل أبو طلحة على علي رضي الله عنه، قال: يا أبا الحسن، إن أبا محمد ثقة لك وللمسلمين، فما بالك تخافه وقد عدل بالأمر عن نفسه، فلن يتحمل المأثم لغيره، فأحلف علي رضي الله عنه عبد الرحمن بما عرض ألا يميل إلى الهوى وأن يؤثر الحق ويجتهد للأمة، ولا يحابي ذا قرابة، فحلف له، وهذا غاية ما يتمكن منه أمير المؤمنين رضي الله عنه في الحال، لأن عبد الرحمن لما أخرج نفسه من الأمر، وظنت به الجماعة الخير، وفوضت إليه الاختيار لم يقدر أمير المؤمنين رضي الله عنه على أن يخالفهم وينقض ما اجتمعوا عليه، فكان أكثر ما تمكن منه أن أحلفه، وصرح بما يخافه من جهته، من الميل إلى الهوى، وإثارة القرابة، غير أن ذلك كله لم يغن شيئاً.

قال: وأما قول صاحب الكتاب: إن دخوله في الشورى دلالة على أنه لا نص عليه بالإمامة، ولو كان عليه نص لصرح به في تلك الحال، وكان ذكره أولى من ذكر الفضائل والمناقب، فإن المانع من ذكر النص كونه يقتضي تضليل من تقدم عليه وتفسيقهم، وليس كذلك تعدد المناقب والفضائل.

وأما دخوله رضي الله عنه في الشورى، فلو لم يدخل فيها إلا ليحتج بما احتج به من مقاماته وفضائله ودرايته ووسائله إلى الإمامة وبالأخبار الدالة عندنا عليها على النص والإشارة بالإمامة إليه، لكان غرضاً صحيحاً، وداعياً قوياً. وكيف لا

يدخل في الشورى وعندهم أن واضعها قد أحسن النظر للمسلمين، وفعل ما لم يسبق إليه من التحرز للدين.

فأول ما كان يقال له لو امتنع منها: إنك مصرح بالطعن على واضعها وعلى جماعة المسلمين بالرضا بها، وليس طعنك إلا لأنك ترى أن الأمر لك، وأنت أحق به، فيعود الأمر إلى ما كان رضي الله عنه يخافه، من تفرق الكلمة ووقوع الفتنة. قال: وفي أصحابنا القائلين بالنص من يقول: إنه رضي الله عنه إنما دخل في الشورى لتجويزه أن ينال الأمر منها، وعليه أن يتوصل إلى ما يلزمه القيام به من كل وجه يظن أن يوصله إليه.

قال: وقول صاحب الكتاب إن التقية لا يمكن أن يتعلق بها، لأن الأمر لم يكن استقر لواحد طريف، لأن الأمر وإن لم يكن في تلك الحال مستقراً لأحد، فمعلوم أن الإظهار بما يطعن في المتقدمين من ولاة الأمر لا يمكن منه، ولا يرضى به، وكذلك الخروج مما يتفق أكثرهم عليه، ويرضى جمهورهم به، ولا يقرون أحداً عليه، بل يعدونه شذوذاً عن الجماعة، وخلافاً على الأمة.

فأما قوله: إن الأفعال لا يقدح فيها بالظنون، بل يجب أن تحمل على ظاهر الصحة، وإن الفاعل إذا تقدمت له حالة تقتضي حسن الظن به، يجب أن تحمل أفعاله على ما يطابقها، فإنما متى سلمنا له بهذه المقدمة لم يتم قصده فيها، لأن الفعل إذا كان له ظاهر وجب أن يحمل على ظاهره، إلا بدليل يعدل بنا عن ظاهره، كما يجب مثله في الألفاظ، وقد بينا أن ظاهر الشورى وما جرى فيها، يقتضي ما ذكرناه للأمارات اللائحة، والوجوه الظاهرة، فما عدلنا عن ظاهر إلى محتمل، بل المخالف هو الذي يسومنا أن نعدل عن الظاهر، فأما الفاعل وما تقدم له من الأحوال، فمتى تقدم للفاعل حالة تقتضي أن يظن به الخير من غير علم ولا يقين، فلا بد أن يؤثر فيها، ويقدح أن يرى له حالة أخرى تقتضي ظن القبيح به، لدلالة ظاهرها على ذلك، وليس لنا أن نقضي بالأولى على الثانية، وهما جميعاً مظنونتان، لأن ذلك بمترلة أن يقول قائل: اقضوا بالثانية على الأولى، وليس كذلك إذا تقدمت للفاعل حالة تقتضي بالخير منه، ثم تليها حالة تقتضي ظن القبيح به، لأننا حينئذ نقضي بالعلم على الظن، ونبطل حكمه لمكان العلم، وإذا صحت هذه الجملة فما تقدمت لمن ذكر حالة تقتضي العلم بالخير، وإنما تقدم ما يقتضي حسن الظن، فليس لنا ألا نسيء الظن به عند ظهور أمارات سوء الظن، لأن كل ذلك مظنون غير معلوم.

وقوله: لو أراد ذلك ما منعه من أن ينص على عثمان مانع، كما لم يمنع ذلك أبا بكر من النص عليه، فليس بشيء، لأنه قد فعل ما يقوم مقام النص على من أراد إيصاله إليه، وصرفه عن من أراد أن يصرفه عنه، من غير شناعة التصريح، وحتى لا يقال فيه ما قيل في أبي بكر، ويراجع في قصته كما روجع أبو بكر، ولم يتعسف أبعد الطريقين وغرضه يتم من أقربهما. قال: فأما بيان صاحب الكتاب أن الانتقال من الستة إلى الأربعة في الشورى، ومن الأربعة إلى الثلاثة، لا يكون تناقضاً، فهوورد على من زعم أن ذلك تناقض، وليس من هذا الوجه طعنا، بل قد بينا وجوه المطاعن وفصلناها.

وأما قوله: إن الأمور المستقبلية لا تعلم، وإنما يحصل فيها أمارات رداً على من قال: إن عمر كان يعلم أن علياً رضي الله عنه وعثمان لا يجتمعان، وأن عبد الرحمن يميل إلى عثمان، فكلام في غير موضعه، لأن المراد بذلك الظن لا العلم، وإن عبر عن الظن بالعلم على طريقة في الاستعمال معروفة، لا يتناكرها المتكلمون. ولعل صاحب الكتاب قد استعمل العلم في موضع

الظن فيما لا يحصى كثرة من كتابه هذا وغيره، وقد بينا فيما ذكرناه من رواية الكلبي عن أبي مخنف، أن أمير المؤمنين رضي الله عنه أول من سبق إلى هذا المعنى في قوله للعباس شاكياً إليه: ذهب والله الأمر منا، لأن سعداً لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان، فأحدهما مختار لصاحبه لا محالة، وإن كان الزبير وطلحة معي، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابن عوف في الثلاثة الآخرين.

فأما قوله: إن عبد الرحمن كان زاهداً في الأمر والزاهد أقرب إلى الثبوت، فقد بينا وجه إظهاره الزهد فيه، وأنه جعله الذريعة إلى مراده.

فأما قول صاحب الكتاب: إن الضعف الذي وصفه به إنما أراد به الضعف عن القيام بالإمامة لا ضعف الرأي، فهب أن الأمر كذلك، أليس قد جعله أحد من يجوز أن يختار للإمامة، ويفوض إليه مع ضعفه عنها، وهذا بمنزلة أن يصفه بالفسق، ثم يدخله في جملة القوم، لأن الضعف عن الإمامة مانع منها، كما أن الفسق كذلك.

قلت: الكلام في الشورى والمطاعن فيها طويل جداً، وقد ذكرت من ذلك في كتبي الكلامية وتعليقاتي ما قاله الناس وما لم أسبق إليه، ولا يحتمل هذا الكتاب الإطالة باستقصاء ذلك، لأنه ليس بكتاب حجاج ونظر، ولكني أذكر منه نكتاً يسيرة، فأقول: إن كانت أفعال عمر وأقواله قد تناقضت في واقعة الشورى كما زعم المرتضى رحمه الله فكذلك أفعال أمير المؤمنين إن كان منصوباً عليه كما تقوله الإمامية قد تناقضت أيضاً. أما أولاً فإن كان منصوباً عليه، فكيف أدخل نفسه في الشورى المبنية على صحة الاختيار وعدم النص، أليس هذا إيهاماً ظاهر لأكثر المسلمين، خصوصاً الضعفة منهم، ومن لا نظر له في دقائق الأمور عنده أنه غير منصوب عليه فكيف يجوز له إضلال المكلفين وأن يوقع في نفوسهم عدم النص مع كون النص كان حاصلاً.

وأما عذر المرتضى عن هذا، بأنه دخل في الشورى، ليمكن من الاحتجاج على أهل الشورى بمقاماته وفضائله، فيقال له: قد كان الدهر الأطول مخالطاً لأهل الشورى وغيرهم، مجتمعاً معهم في المسجد وغيره من مواطن كل يوم بل كل ساعة، فلا يجوز أن يقال: دخل ليضمه وإياهم أو يظلمهم سقف، فيتمكن بذلك من ذكر مقاماته وفضائله بينهم، لأن العاقل لا يجوز أن يرتكب أمراً يوهم القبيح، ليفعل فعلاً قد كان من قبله بثلاث عشرة سنة متمكناً من أن يفعله من غير أن يرتكب ذلك الأمر الموهم للقبيح، وليت شعري من الذي كان يمنعه أيام أبي بكر وعمر من أن يذكر مقاماته وفضائله وبفتخر بها، ولم انفك رضي الله عنه من ذكر فضائله والفخر بمناقبه في تلك المدة الطويلة وقد كان عمر وهو المعروف المشهور بالغلظة والفظاظة يذكر فضائله ويعترف بها، فلست أرى لعذر المرتضى أصلاً بهذا الوجه أو معنى، فأما عذره الثاني عن دخوله في الشورى بقوله: لو لم يدخل فيها لقليل له: إنك قد طعنت على واضع الشورى، وليس ذلك إلا لأنك ترى الأمر لك، فليس بعذر جيد، لأنه لو امتنع من الدخول فيها على وجه الزهد وقلة الالتفات إلى الولاية والإعراض عن السلطان والإمرة لما نسبته أحد إلى ما ذكره المرتضى أصلاً، ولقال الناس: رجل زاهد لا يريد الدنيا، ولا يرغب في الرياسة، ثم ما المانع من أن يقول لعمر وهو حي: نشدتك الله لا تدخلني فيها، فإني لا أريدها ولا أوتريها، أتراه كان في جواب هذا الكلام يأمر بقتله، ويقول له: إنما امتناعك لأنك تدعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص عليك، فلا

ترى أخذ الأمر من جهتي وتولييه من طريقي، وإنما تريده بمحض النص الأول، لا غير، ما أظن أن عاقلاً يخطر له أن ذلك كان يكون، فهذا العذر بارد لا معنى له كالعذر الأول.

فأما عذره الثالث، وهو قوله: إنه كان يجب عليه أن يتوصل إلى القيام بالأمر بكل طريق، لأنه يلزمه القيام به. فعذر جيد لا بأس به.

وأما ثانياً فيقال للمرتضى: هب أنا نزلنا عن الدخول في الشورى، هلا عرض للجماعة وهم مجتمعون، وهو يعد لهم مناقبه وفضائله بذكر النص، وذلك بان يكتفي عنه كناية لطيفة، فيقول لهم: قد كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر في حقي ما تعلمون، أترأى أنهم كانوا في جواب هذه الكلمة يقتلون، ما أظن أنهم كانوا يجتمعون على ذلك. ولا بد لو عرض بشيء من ذلك كان من كلام يدور بينهم في المعنى، نحو أن يقولوا: إن ذلك النص رجع عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يقولوا: رأى المسلمون تركه للمصلحة، أو يجري بينه وبينهم جدال ونزاع، ولم يكن هناك خليفة يخاف جانبه، إنما كان مجلس مناظرة ومبحث، ولم يستقر الأمر لأحد.

وقول المرتضى: إنه وإن كان كذلك، إلا أنهم كانوا لا يرضون أن يطعن في المتقدمين منهم، ويكرهون منه ذلك، ولا يقرونه عليه، ويعدونه شذوذاً له عن الجماعة، وخلافاً للأمة قول صحيح، إذا كان القائل يقوله على وجه شق العصا والمناظرة، وكشف القناع، وإذا قاله على وجه الاستعطاف لهم، والادكار بما عساهم نسوه، وحسن التلطف والرفق بهم، والاستمالة لهم، وتذكيرهم حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وميثاقه الذي واثقهم به، فإنه لا يقع منهم في مقابلة ذلك قتله، ولا قطع عضو من أعضائه، ولا إقامة الحد عليه. وأقصى ما في الباب أنهم كانوا يردون ذلك عليه بكلام مثل كلامه، ويجيبونه بجواب يناسب جوابه، ويدفعونه عما يرومه بوجه من وجوه الدفع، إن كانوا مقيمين على الإصرار على غضب الحق منه.

وأما ثالثاً، فإن كان رضي الله عنه كما تقوله الإمامية منصوباً عليه، فما الذي منعه لما قال له عبد الرحمن: أبايعك على أن تسير فينا بسيرة الشيخين، أن يقول: نعم، فإنه لو قال: نعم، لبايعه عبد الرحمن، ووصل إلى الأمر الذي يلزمه القيام به، وإلى الحال التي كان يتوصل بكل طريق إلى الوصول إليها.

وقول المرتضى: إن سيرتهما كانت مختلفة، لأن أحدهما حكم بكثير مما حكم الآخر بضده ليس بجيد، لأن السيرة التي كان عبد الرحمن يطلبها ذلك اليوم. هو الأمر الكلي في إيالة الرعية وسياستهم، وجباية الفيء، وظلف الوالي نفسه وأهله عنه وصرفه إلى المسلمين، ورم الأمور، وجمع العمال، وقهر الظلمة وإنصاف المظلومين، وحماية البيضة، وتسريب الجيوش إلى بلاد الشرك، هذه هي السيرة التي كان عبد الرحمن يشترطها، وهي التي طلبها الناس بعد ذلك، فقالوا للمعاوية في آخر أيامه، ولعبد الملك ولغيرهما وصاحوا بهم تحت المنابر: نطلب سيرة العمرين، ولم يريدوا في الأحكام والفتاوى الشرعية، نحو القول في الجد مع الإخوة، والقول في الكلالة، والقول في أمهات الأولاد، فما أعلم الذي منع أمير المؤمنين رضي الله عنه من أن يقول لعبد الرحمن: نعم، فيأخذها، ثم كان إذا أخذها أقدر الناس على هذه السيرة، وأقواهم عليها. فواعجبا، بينا هو يطلب الخلافة أشد الطلب، فإذا هو ناكص عنها، وقد عرضت عليه على أمر هو قيم به، ولهذا كان الرأي عندي

أن يدخل فيها حينئذ، ومن الذي كان يناظره بعد ذلك ويجادله، فيقول: قد أخللت بشيء من سيرة أبي بكر وعمر، كلا إن السيف لضاربه، والأمر للملكه، والرعية أتباع، والحكم لصاحب السلطان منهم! ومن العجب أن يقول المرتضى: إنه لأجل التقية وافق على الرضا بالشورى، فهلا اتقى القوم، وقد ذكروا له سيرة الشيخين فأبأها وكرهها، ومن كان يخاف على نفسه أن لو أظهر الزهد في الخلافة والرغبة عن الدخول في أمر الشورى، كيف لم يخف على نفسه، وقد ذكرت له سيرة الشيخين فتركها، ولم يوافق عليها، وقال: لا بل علي أن أجتهد رأي! وأما قول المرتضى: إنه وصف القوم بصفات تمنع من الإمامة، ثم عينهم للإمامة، فنقول في جوابه: إن تلك الصفات لا تمنع من الإمامة بالكلية، بل هي صفات تنقص في الجملة، أي لو لم تكن هذه الصفات فيهم، لكانوا أكمل، ألا ترى أنه قال في عبد الرحمن: رجل صالح على ضعف فيه، فذكر أن فيه! سعفاً يسيراً، لأنه لو كان يرى ضعفه مانعاً من الإمامة لقال: ضعيف عنها جداً، أو لا يصلح لها لضعفه. وكذلك قوله في أمير المؤمنين: فيه فكاها، لأن ذلك لا يمنع من الإمامة، ولا زهو طلحة ونخوته، ولا ما وصف به الزبير من أنه شديد السخط وقت غضبه، وأنه بخيل، ولا تولية الأقارب على رقاب الناس إذا لم يكونوا فاسقاً. وأقوى عيب ذكره ما عاب به سعداً في قوله: صاحب مقنب وقتال، لا يقوم بقرية لو حمل أمرها، ويجوز أن يكون قال ذلك على سبيل المبالغة في استصلاحه لأن يكون صاحب جيش يقاتل به بين يدي الإمام، وأنه ليس له درية ونظر في تدبير البلاد والأطراف، وجباية أموالها، ألا تراه كيف قال: لا يقوم بقرية، ويجوز أن يلي الخلافة من هذه حاله، ويستعين في أمر العباد والبلاد وجباية الأموال بالكفاة الأمناء.

فأما الرواية الآخرة التي قال فيها لعثمان: لروثة خير منك، فهي من روايات الشيعة، ولسنا نعرفها من كتب غيرهم. فأما قوله: كيف قال: لا أتحملها حياً وميتاً، فحصر الخلافة في العدد المخصوص، ثم رتبها ذلك الترتيب، إلى أن آلت إلى إختيار عبد الرحمن وحده، فنقول في جوابه: إنه كان يجب ألا يستقل وحده بأمر الخلافة، وأن يشاركه في ذلك غيره من صلحاء المهاجرين، ليكون أعذر عند الله تعالى وعند الناس، وإذا كان قد وضع الشورى على ذلك الوضع المخصوص، فلم يتحملها استقلالاً، بل شركه فيها غيره، فهو أقل، لتحمله أمرها لو كان عين على واحد بعينه. وأما حديث القتل، فليس مراده إلا شق العصا، ومخالفة الجماعة، والثوب على الأمر مغالبة.

وقول المرتضى: لو كان ذلك من أول يوم لوجب أن يمنع فاعله ويقاتل، فأى معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً، فإنه يقال له: إن الأجل المذكور لم يضرب لقتل من يشق العصا، وإنما ضرب لإبرامهم الأمر وفصله قبل أن تتناول الأيام بهم، ويتسامع من بعد عن دار الهجرة أن الخليفة قد قتل، وأنهم مضطربون إلى الآن، لم يقيموا لأنفسهم خليفة بعده، فيطمع أهل الفساد والدعارة، ولا يؤمن وقوع الفتن، ولا يؤمن أيضاً أن يسترد الروم وفارس بلاداً قد كان الإسلام استولى عليها، لأن عدم الرئيس مطمع للعدو في ملكه ورعيته.

فأما الأخبار والآثار التي ذكرها المرتضى في مبايعة علي رضي الله عنه لعثمان، وأنه كان مكراً عليها أو كالمكره، وأن الرضا كان مرتفعاً، والخلاف كان واقعاً، فكلام في غير موضعه، لأن قاضي القضاة لم ينح بكلامه هذا النحو، ولا قصد هذا القصد، ليناقضه بما رواه وأسنده من الأخبار والآثار، ولا هذا الموضع من الكتاب المغني موضع الكلام فيبيعة عثمان

وصحتها ووقوع الرضا بها، فيطعن المرتضى في ذلك بما رواه من الأخبار والآثار الدالة على تهمضم القوم لأمر المؤمنين رضي الله عنه وأصحابه وشيعته وتهددهم، وإنما الرضا الذي أشار إليه قاضي القضاة، فهو رضا أمير المؤمنين رضي الله عنه بأن يكون في جملة أهل الشورى، لأن هذا الباب من كتاب المغني هو باب نفي المطاعن عن عمر، وقد تقدم ذكر كثير منها.

ثم انتهى إلى هذا الطعن، وهو حديث الشورى، فذكر قاضي القضاة أن الشورى مما طعن بها عليه، وادعي أنها كانت خطأ من أفعاله، لأنها لا نص ولا اختيار، ألا تراه كيف قال في أول الطعن: فخرج بها عن النص والاختيار، فنقول في الجواب: لو كانت خطأ لما دخل علي رضي الله عنه فيها، ولا رضي بها، فدخوله فيها ورضاه بها دليل على أنها لم تكن خطأ، وأين هذا من بيعة عثمان، حتى يخلط أحد الباين بالآخر! فأما دعواه أن عمر عمل هذا الفعل حيلة، ليصرف الأمر عن علي رضي الله عنه من حيث علم أن عبد الرحمن صهر عثمان، وأن سعداً ابن عم عبد الرحمن فلا يخالفه، فجعل الصواب في الثلاثة الذين يكون فيهم عبد الرحمن، فنقول في جوابه: إن عمر لو فعل ذلك وقصده لكان أحق الناس وأجهلهم، لأنه من الجائز ألا يوافق سعد ابن عمه لعداوة تكون بينهما، خصوصاً من بني العم، ويمكن أن يستميل علي رضي الله عنه سعداً إلى نفسه، بطريق آمنة بنت وهب، وبطريق حمزة بن عبد المطلب، وبطريق الدين والإسلام، وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن الجائز أن يعطف عبد الرحمن على علي رضي الله عنه لوجه من الوجوه، ويعرض عن عثمان، أو يبدو من عثمان في الأيام الثلاثة أمريكرهه عبد الرحمن، فيتركه ويميل إلى علي رضي الله عنه. ومن الجائز أن يموت عبد الرحمن في تلك الأيام، أو يموت سعد، أو يموت عثمان، أو يقتل واحد منهم فيخلص الأمر لعلي رضي الله عنه، ومن الجائز أن يخالف طلحة أمره أن يعتمد على الفرقة التي فيها عبد الرحمن، ولا يعمل بقوله، ويميل إلى جهة علي رضي الله عنه، فتبطل حيلته وتديبره! ثم هب أن هذا كله قد أسقطناه، من الذي أجبر عمر وأكرهه وقسره على إدخال علي رضي الله عنه في أهل الشورى، وإن كان مراده كما زعم المرتضى صرف الأمر بالحيلة، فقد كان يمكنه أن يجعل الشورى في خمسة، ولا يذكر علياً رضي الله عنه فيهم، أترأه كان يخاف أحداً لو فعل ذلك، ومن الذي كان يجسر أن يراجعه في هذا أو غيره، وحيث أدخله من الذي أجبره على أن يقول: إن وليها ذلك لحملهم على المحجة البيضاء، وحملهم على الصراط المستقيم، ونحو ذلك من المدح، قد كان قادراً ألا يقول ذلك، والكلام الغث البارد لا أحبه.

فأما قوله: إن عبد الرحمن فعل ما فعل من إخراج نفسه من الإمامة حيلة ليسلم الأمر إلى عثمان، ويصرفه عن علي رضي الله عنه، فكلام بعضه صحيح وبعضه غير صحيح. أما الصحيح منه فميل عبد الرحمن إلى جهة عثمان، وانحرافه عن علي رضي الله عنه قليلاً، وليس هذا بمخصوص بعبد الرحمن، بل قریش قاطبة كانت منحرفة عنه.

وأما الذي هو غير صحيح، فقوله: إنه أخرج نفسه منها لذلك، فإن هذا عندي غير صحيح، لأنه قد كان يمكنه ألا يخرج نفسه منها، ويبلغ غرضه، بأن يتجاوز هو وابن عمه إلى عثمان، ويدع علياً وطلحة والزبير طائفة أخرى، فيولي المسلمون الأمر الطائفة التي فيها عبد الرحمن، بمقتضى نص عمر على ذلك، ثم يعتمد عبد الرحمن بعد ذلك ما يشاء، إن شاء وليها هو أو أحد الرجلين، فأني حاجة كانت به إلى أن يخرج نفسه منها ليلبغ غرضاً قد كان يمكنه الوصول إليه بدون ذلك،

وأيضاً فإن كان غرضه ذلك، فإنه من رجال الدنيا قد كان لا محالة، ولم يكن من رجال الآخرة، ومن هو من رجال الدنيا ومحبيها كيف تسمح نفسه بترك الخلافة ليعطيها غيره، وهلا واطأ سعداً ابن عمه، وطلحة صديقه، على أن يولياه الخلافة، وقد قال عمر: كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن، لا سيما وطلحة منحرف عن عي رضي الله عنه وعثمان، لأنهما ابنا عبد مناف، وكذلك سعد وعبد الرحمن منحرفان عنهما لذلك أيضاً، ولما اختصا به من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم. والصحيح أن عبد الرحمن أخرج نفسه منها، لأنه استضعف نفسه عن تحمل أثقالها وكلفها، وكره أن يدخل فيها، فيقصر عن عمر، ويراه الناس بعين النقص، ولا يستطيع أن يقوم بما كان عمريقوم به، وكان عبد الرحمن غنياً موسراً كثير المال، وشيخاً قد ذهب عنه ترف الشباب، فنفض عنها يده، استغناء عنها، وكراهية للخلل يدخل عليه إن وليها.

وأما ميله عن علي رضي الله عنه، فقد كان منه بعض ذلك، والطباع لا تملك، والحسد مستقر في نفوس البشر، لا سيما إذا انضاف إليه ما يقتضي الإزدياد في الأمور.

فأما تنزيه المرتضى لعلي رضي الله عنه عن الفكاكة والدعابة فحق، ولقد كان رضي الله عنه على قدم عظيمة من الوقار والجد والسمت العظيم، والهدى الرصين، ولكنه كان طلق الوجه، سمح الأخلاق، وعمر كان يريد مثله من ذوي الفضاظة والحشونة، لأن كل واحد يستحسن طبع نفسه، ولا يستحسن طبع من يباينه في الخلق والطبع. وأنا أعجب من لفظة عمر إن كان قالها: إن فيه بطالة، وحاش لله أن يوصف علي رضي الله عنه بذلك، وإنما يوصف به أهل الدعابة واللهو، وما أظن عمر إن شاء الله قالها، وأظنها زيدت في كلامه، وإن الكلمة ههنا لدالة على انحراف شديد.

فأما قول أمير المؤمنين رضي الله عنه للعباس ولغيره: ذهب الأمر منا، إن عبد الرحمن لا يخالف ابن عمه، فليس معناه أن عمر قصد ذلك، وإنما معناه أن من سوء الاتفاق أن وقع الأمر هكذا، ويوشك ألا يصل إلينا حيث قد اتفق فيه هذه النكته.

فأما قول قاضي القضاة: إذا تقدمت للفاعل حالة تقتضي حسن الظن، وجب أن يحمل فعله على ما يطابقها، واعتراض المرتضى عليه بقوله: إن ذلك إنما يجب إذا كان الخير معلوماً منه فيما تقدم لا مظنوناً، ومتى كان مظنوناً ثم وجدنا له فعلاً يظن به القبيح لم يكن لنا أن نقضي بالسابق على اللاحق، فنقول في جوابه: إن الإنسان إذا كان مشهوراً بالصلاح والخير، وتكرر منه فعل ذلك مدة طويلة، ثم رأيناه قد وقعت منه حركة تنافي ذلك فيما بعد، فإنه يجب علينا أن نحملها على ما يطابق أحوالها الأولى ما وجدنا لها محملاً، لأن أحواله الأولى كثيرة، وهذه حالة مفردة شاذة، وإلحاق القليل بالكثير وحمله عليه أولى من نقض الكثير بالقليل، وقد كانت أحوال عمر مدة عشرين سنة منتظمة في إصلاح الرعية ومناصحة الدين، وهذا معلوم منه ضرورة أعني ظاهر أحواله فإذا وقعت عنه حالة واحدة، وهي قصة الشورى فيها شبهة ما، وجب أن نتاولها ما وجدنا لها في الخير محملاً، ونلحقها بتلك الأحوال الكثيرة التي تكررت منه في الأزمان الطويلة، ولا يجوز أن نضع اليد عليها ونقول: هذه لا غيرها، ونقبحها، ونسد أبواب هذه التأويلات عنها، ثم نحمل أفعاله الكثيرة المتقدمة كلها عليها في التقييح والتهجين، فهذا خلاف الواجب، فقد بان صحة ما ذكره قاضي القضاة، لأنه لا حاجة بنا في القضاء بالسابق على اللاحق، إلا أن يكون خيره معلوماً، وعلم علماً يقيناً، فإن الظن الغالب كاف في هذا

وأما قوله عن عمر: إنه بلغ ما في نفسه من إيصال الأمر إلى من أراد، وصرفه عمن أراد، من غير شناعة بالتصريح، وحتى لا يقال فيه ما قيل في أبي بكر، أو يراجع في نصه كما روجع أبو بكر، ولأي حال يتعسف أبعد الطريقين، وغرضه يتم من أقربهما، فقد قلنا في جوابه ما كفى، وبيننا أن عمر لو أراد ما ذكر لصرف الأمر عمن يريد صرفه عنه، ونص على من يريد إيصال الأمر إليه، ولم يبال بأحد، فقد عرف الناس كلهم كيف كانت هيئته وسطوته وطاعة الرعية له، حتى إن المسلمين أطاعوه أعظم من طاعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، ونفوذ أمره فيهم أعظم من نفوذ أمره رضي الله عنه، فمن الذي كان يجسروا أو يقدر أن يراجع في نصه، أو يراده، أو يلفظ عنده أو غائباً عنه بكلمة تنافي مراده، وأي شيء ضرر أبا بكر من مراجعة طلحة له حيث نص، ليقول المرتضى: خاف عمر من أن يراجع كما روجع أبو بكر، وقد سمع الناس ما قال أبو بكر لطلحة لما راجعه، فإنه أخزاه وجبهه، حتى دخل في الأرض، وقام من عنده وهو لا يهتدي إلى الطريق، وأين كانت هيبة الناس لأبي بكر من هيبتهم لعمر، فلقد كان أبو بكر وهو خليفة يهابه وهو رعية وسوقة بين يديه، وكل أفاضل الصحابة كان يهابه، وهو بعد لم يل الخلافة، حتى إن الشيعة تقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم يهابه، فمن كانت هذه حاله وهو رعية وسوقة، فكيف يكون وهو خليفة، قد ملك مشارق الأرض ومغاربها، وخطب له على مائة ألف منبر، ولو أراد عمر أن يخطب بالخلافة لأبي هريرة لما خالفه أحد من الناس أبداً، فكيف يقول المرتضى: لماذا يتعسف عمر أبعد الطريقين، وغرضه يتم من أقربهما! والعجب منه كيف يقول: خاف شناعة التصريح، فمن لم يخف عندهم شناعة المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعلم أن المسلمين يعلمون أنه مخالف لله تعالى ولرسوله قائم في مقام لم يجعله الله تعالى له، كيف يخاف شناعة التصريح باسم عثمان لو كان يريد استخلافه، إن هذا لأعجب من العجب.

الطعن العاشر: قولهم: إنه أبدع في الدين ما لا يجوز، كالترأويح، وما عمله في الخراج الذي وضعه على السواد، وفي ترتيب الجزية، وكل ذلك مخالف للقرآن والسنة، لأنه تعالى جعل الغنime للغنمين، والخمس منها لأهل الخمس، فخالف القرآن، وكذلك السنة تنطق في الجزية أن على كل حالم ديناراً، فخالف في ذلك السنة، وأن الجماعة لا تكون إلا في المكتوبات، فخالف السنة.

أجاب قاضي القضاة عن ذلك، بأن قيام شهر رمضان، قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عمله ثم تركه، وإذا علم أن الترك ليس بنسخ، صار سنة يجوز أن يعمل بها، وإذا كان ما لأجله تركه من التنبيه بذلك على أنه ليس بفرض، ومن تخفيف التعبد ليس بقائم في فعل عمر لم يمتنع أن يدوم عليه، وإذا كان فيه الدعاء إلى الصلاة والتشدد في حفظ القرآن، فما الذي يمنع أن يعمل به! فأما أمر الخراج، فأصله السنة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بين أن لمن يتولى الأمر ضرباً من الإختيار في الغنime، ولذلك فصل بين الرجال والأموال، فجعل الإختيار في الرجال إلى الإمام في القتل والاسترتاق والمفاداة، وفصل بينه وبين المال، وإن كان الجميع غنime.

ثم ذكر أن الغنime لم تضاف إلى الغنمين إضافه الملك، وإنما المراد أن لهم في ذلك من الإختصاص والحق ما ليس لغيرهم،

فإذا عرض ما يقتضي تقديم أمر آخر، جاز للإمام أن يفعله، ورأى عمر في أمر السواد الاحتياط للإسلام، بأن يقر في أيديهم على الخراج الذي وضعه، وإن كان في الناس من يقول: فعل ذلك برضا الغائبين، وبأن عوض. ويدل على صحة فعله إجماع الامة ورضاهم به، ولما أفضى الأمر إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه تركه على جملته، ولم يغيره. ثم ذكر في الجزية أن طريقها الاجتهاد، فإن الخبر المروي في هذا الباب ليس بمقطوع به، ولا معناه معلوم. اعترض المرتض، هذا الجواب، فقال: أما التراويح فلا شبهة أنها بدعة، وقد روي عن صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أيها الناس، إن الصلاة بالليل في شهر رمضان من النافلة جماعة بدعة وصلاة الضحى بدعة، ألا فلا تجتمعوا ليلاً في شهر رمضان في النافلة، ولا تصلوا صلاة الضحى فإن قليلاً في سنة خير من كثير في بدعة، ألا وإن كل بدعة ضلالة. وكل ضلالة سبيلها في النار".

وقد روي أن عمر خرج في شهر رمضان ليلاً، فرأى المصاييح في المسجد، فقال: ما هذا، ف قيل له: إن الناس قد اجتمعوا لصلاة التطوع، فقال: بدعة، فنعمت البدعة، فاعترف كما ترى بأنها بدعة، وقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن كل بدعة ضلالة.

وقد روي أن أمير المؤمنين رضي الله عنه لما اجتمعوا إليه بالكوفة، فسألوه أن ينصب لهم إماماً يصلي بهم نافلة شهر رمضان، زجرهم وعرفهم أن ذلك خلاف السنة، فتركوه واجتمعوا لأنفسهم، وقدموا بعضهم، فبعث إليهم ابنه الحسن رضي الله عنه، فدخل عليهم المسجد، ومعه الدرة، فلما رأوه تبادروا الأبواب، وصاحوا: واعمره! قال!: فأما ادعأوه أن قيام شهر رمضان كان في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تركه فمغالطة منه، لأننا لا ننكر قيام شهر رمضان بالنوافل على سبيل الانفراد، وإنما أنكرنا الاجتماع على ذلك، فإن ادعى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلاها جماعة في أيامه، فإنها مكابرة ما أقدم عليها أحد، ولو كان كذلك ما قال، عمر: إنها بدعة، وإن أراد غير ذلك فهو مما لا ينفعه، لأن الذي أنكرناه غيره. قال: والذي ذكره من أن فيه التشدد في حفظ القرآن، والمحافظة على الصلاة، ليس بشيء، لأن الله تعالى ورسوله بذلك أعلم، ولو كان كما قاله لكانا يسنان هذه الصلاة، ويأمران بها، وليس لنا أن نبدع في الدين بما نظن أن فيه مصلحة، لأنه لا خلاف في أن ذلك لا يسوغ ولا يحل.

وأما أمر الخراج فهو خلاف لنص، القرآن، لأن الله تعالى جعل الغنيمة في وجوه مخصوصة، فمن خالفها فقد أبدع، وليس للإمام ولا لغيره أن يجتهد فيخالف النص، فبطل قوله: إنه رأى من الاحتياط للإسلام أن يقر في أيديهم على الخراج، لأن خلاف النص لا يكون من الاحتياط ورسوله أعلم بالاحتياط منه، ولو كان لرضا الغائبين عن ذلك أو عوضهم منه على ما ادعاه صاحب الكتاب لوجب أن يظهر ذلك ويعلم، وما عرفنا في ذلك شيئاً، ولا نقله الناقلون.

وأما ما ادعاه من الإجماع، فمعموله فيه على ترك التكثير، وقد تقدم الكلام عليه وتكرر، وكذلك قد تقدم الكلام في وجه إقرار أمير المؤمنين رضي الله عنه ما أقر من أحكام القوم، وما ادعاه أن خبر الجزية غير معلوم ولا مقطوع به، فهب أن ذلك مسلم على ما فيه، أليس من مذهبه أن أخبار الآحاد في الشريعة يعمل بها، وإن لم تكن معلومة، فهلا عمل عمر بالخبر المروي في هذا الباب، وعدل عن اجتهاده الذي أداه إلى مخالفة الله تعالى! أما كون صلاة التراويح بدعة وإطلاق

عمر عليها هذا اللفظ، فإن لفظ البدعة يطلق على مفهومين: أحدهما ما خولف به الكتاب والسنة، مثل صوم يوم النحر وأيام التشريق، فإنه وإن كان صوماً إلا أنه منهي عنه.

والثاني ما لم يرد فيه نص، بل سكت عنه، ففعله المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن أريد بكون صلاة التراويح بدعة المفهوم الأول، فلا نسلم أنها بدعة بهذا التفسير، والخبر الذي رواه المرتضى غير معروف، ولا يمكنه أن يسنده إلى كتاب من كتب المحدثين، ولو قدر على ذلك لأسنده، ولعله من أخبار أصحابه من محدثي الإمامية والأخباريين منهم، والألفاظ التي في آخر الحديث، وهي: "كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار" مروية مشهورة، ولكن على تفسير البدعة بالمفهوم الأول. وقول عمر: "إنها لبدعة" خبر مروي مشهور، ولكن أراد به البدعة بالتفسير الثاني، والخبر الذي رواه أمير المؤمنين رضي الله عنه ينفرد هو وطائفته بنقله، والمحدثون لا يعرفون ذلك ولا يشبهونه.

فأما إنكاره أن تكون نافلة شهر رمضان صلاحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة، فإنكار لست أرخصه لمثله، فإن كتب المحدثين مشحونة برواية ذلك، وقد ذكره أحمد بن حنبل في مسنده غير مرة بعدة طرق، ورواه الفقهاء، ذكره الطحاوي في كتاب اختلاف الفقهاء، وذكره أبو الطيب الطبري الشافعي في شرحه كتاب المزني، وقد ذكره المتأخرون أيضاً، ذكره الغزالي في كتاب أحياء علوم الدين وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى التراويح في شهر رمضان في جماعة ليلتين أو ثلاثاً، ثم ترك، وقال: أخاف أن يوجب عليكم. وأجاز لي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، بروايته عن شيخه محمد بن ناصر، عن شيوخه ورجاله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نافلة شهر رمضان في جماعة يأتمون به ليالي ثم لم يخرج وقام في بيته، وصلى الناس فرادى بقية أيامه وأيام أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر، فخرج عمر ليلة، فرأى الناس أوزاعاً يصلون في المسجد، فقال: لو جمعتهم على إمام، فأمرابي بن كعب أن يصلي بهم. فصلى بهم تلك الليلة ثم خرج، فرآهم مجتمعين إلى أبي بن كعب يصلي بهم، فقال: بدعة ونعمت البدعة، أما إنها لفضل، والتي ينامون عنها أفضل. قال: يعني قيام آخر الليل، فإنه أفضل من قيام أوله.

وأما قول قاضي القضاة إن في التراويح فائدة وهي التشدد في حفظ القرآن والدعاء إلى الصلاة، واعتراض المرتضى إياه بقوله: الله أعلم بالمصلحة، وليس لنا أن نسن ما لم يسنه الله ورسوله، فإنه يقال له: أليس يجوز للإنسان أن يخترع من النوافل صلوات مخصوصة بكيفيات مخصوصة، وأعداد ركعات مخصوصة، ولا يكون ذلك مكروهاً ولا حراماً، نحو أن يصلي ثلاثين ركعة بتسليمة واحدة، ويقرأ في كل ركعة منها سورة من قصار المفصل، أفيقول أحد: إن هذا بدعة، لأنه لم يرد فيه نص ولا سبق إليه المسلمون من قبل، فإن قال: هذا يسوغ، فإنه داخل تحت عموم ما ورد في فضل صلاة النافلة، قيل له: والتراويح جائزة ومسنونة لأنها داخلية تحت عموم ما ورد في فضل صلاة الجماعة.

فإن قال: كيف تكون نافلة، وهي جماعة، قيل له: قد رأينا كثيراً من النوافل تصلى جماعة، نحو صلاة العيد، وصلاة الكسوف، وصلاة الاستسقاء، وصلاة الجنائز إذا لم يتعين للمصلي بأن يقوم غيره مقامه فيها.

فأما ما أشار إليه قاضي القضاة من التشدد في حفظ القرآن، فهو أنه روي أن عمر أتى بسارق، فأمر بقطعه، فقال: لم أعلم أن الله أوجب القطع في السرقة، ولو علمت لم أسرق، فأحلفه على ذلك. وسن التراويح جماعة ليتكرر سماع القرآن

على أسمع المسلمين.

وقد اختلف الفقهاء إما أفضل في نافلة شهر رمضان، الاجتماع عليها أم صلاتها فرادى، فقال قوم: الجماعة أفضل لأن الاجتماع بركة وله فضيلة، ولولا فضيلته لم يسن في المكتوبة، ولأنه ربما يكسل في الانفراد، وينشط عند مشاهدة الجمع. وقال قوم: الانفراد أفضل، لأنها سنة ليست من الشعائر كالعيدين فالحاقها بتحية المسجد أولى، وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معاً، ثم لم يصلوا التحية بالجماعة.

وروى القائلون بهذا القول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "فضل صلاة المتطوع في بيته على صلاة المتطوع في المسجد، كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت". وقد روي عنه رضي الله عنه، أن أفضل النوافل ركعتان يصليهما المسلم في زاوية بيته لا يعلمهما إلا الله وحده.

قالوا: ولأنها إذا صليت فرادى كانت الصلاة أبعد من الرياء والتصنع. وبالجملية الاختلاف في أيهما أفضل، فأما تحريم الصلاة ولزوم الإثم بفعلها، فمما لم يذهب إليه إلا الإمامية، وقد روى الرواة أن علياً رضي الله عنه خرج ليلاً في شهر رمضان في خلافة عثمان بن عفان، فرأى المصاييح في المساجد، والمسلمون يصلون التراويح، فقال: نور الله قبر عمر كما نور مساجدنا، والشيعنة يروون هذا الخبر، ولكن بحمل اللفظ على معنى آخر.

فأما حديث الخراج فقد ذكره أرباب علم الخراج والكتاب، وذكره الفقهاء أيضاً في كتبهم. وذكره أرباب السيرة وأصحاب التاريخ. قال قدامة بن جعفر في كتاب الخراج: اختلف الفقهاء في أرض العنوة، فقال بعضهم: تخمس، ثم تقسم أربعة أخماس على الذين افتتحوها، وقال بعضهم: ذلك إلى الإمام، إن رأى أن يجعلها غنيمة ليخمسها ويقسم الباقي كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فذلك إليه، وإن رأى أن يجعلها فلا يخمسها ولا يقسمها، بل تكون موقوفة على سائر المسلمين، كما فعل عمر بأرض السواد وأرض مصر وغيرها، مما افتتحه عنوة، فعلى الوجهين جميعاً فيهما قدوة ومتبع، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قسم خيبر وصيرها غنيمة، وأشار الزبير بن العوام على عمر في مصر وبلاد الشام بمثل ذلك، وهو مذهب مالك بن أنس، وجعل عمر السواد وغيره فيئاً موقوفاً على المسلمين، من كان منهم حاضراً في وقته، ومن أتى بعده ولم يقسمه، وهو رأي رآه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاذ بن جبل، وأشارا عليه، وبه كان يأخذ سفيان بن سعيد، وذلك رأي من جعل الخيار إلى الإمام في تصيير أرض العنوة غنيمة أو فيئاً راجعاً للمسلمين في كل سنة.

قال قدامة رحمه الله: فأما ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصديره خيبر غنيمة فإنه رضي الله عنه اتبع فيه آية محكمة، وهي قوله تعالى: "واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" فهذه آية الغنيمة وهي لأهلها دون الناس، وبها عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الآية التي عمل بها عمر وذهب إليها علي رضي الله عنه ومعاذ بن جبل فيما أشارا عليه به، فهي قوله تعالى: "ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" إلى قوله: "للفقراء المهاجرين"، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم" والذين جاءوا من بعدهم" انتهت الفاظ قدامة.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وروى محمد بن جرير الطبري في تاريخه، أن عمر هم أن يقسم أرض السواد بين الغانمين، كما يقسم الغنائم، ثم قال: فكيف بالآجام ومناقع المياه والغياض والهضب المرتفع والغائط المنخفض؟ وكيف يصنع هؤلاء بالماء وقسمته بينهم، أخاف أن يضرب بعضهم وجوه بعض، ثم جمع الغانمين فقال لهم ذلك، فرضوا أن تقرر الأرض حبيساً لهم يولونها من تراضوا عليه، ثم يقتسمون غلتها كل عام، فقال عمر: "اللهم إني قد اجتهدت، وقد قضيت ما علي، اللهم إني أشهدك عليهم فاشهد".

فأما قول قاضي القضاة: إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لمتولي أمر الأمة ضرباً من الاختيار في الغنيمة، وما ذكره من الفرق بين الرجال والأموال، وما ذكره من أن الغانمين ليسوا مالكي الغنيمة ملكاً صريحاً، وإنما هو ضرب من الاختصاص، فكله جيد لا كلام عليه، ولم يعترضه المرتضى بشيء ولا تعرض له.

وأما قول قاضي القضاة: إنه روي أن عمر فعل ما فعل برضا الغانمين، وبأن عوضهم عنه، وإنكار المرتضى وقوع ذلك، وقوله: إنه لم ينقل، فقد بينا أن الطبري ذكر في تاريخه أن عمر فعل ذلك برضا الغانمين، وبعد أن جمعهم وقال لهم ما استصلحه، وما أدى إليه اجتهداده، فرضوا به، وأشهدوا الله عليهم والحاضرين.

وقد ذكر كثير من الفقهاء أن عمر عوض الغانمين عن أرض السواد، ووقفه على مصالح المسلمين، وهذا ما رواه الشافعي، وذكر حديث التعويض أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي في كتاب الحاوي في الفقه، وذكره أيضاً أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري في شرح المزني.

وأما تعلق قاضي القضاة بإجماع المسلمين، فتعلق صحيح، وطعن المرتضى فيه بالتقية وموافقة الإمام المعصوم على الباطل طعن يسمح التعلق به، وللبحث فيه سبب طويل.

وأما أمر الجزية، فطريقه الاجتهاد، وللإمام أن يرى فيه رأيه بمشاورة الصلحاء والفقهاء، وقد قال قاضي القضاة: إن الخبر الذي ذكره المرتضى، وذكر أنه مرفوع، وهو على كل حال دينار خبر مظهر غير معلوم، واعتراض المرتضى عليه بقوله: هب أن الأمر كذلك، أستم تزعمون أن خبر الواحد معمول عليه في الفروع، فهلا عمل عمر بهذا الخبر، وإن كان خبر واحد اعتراض ليس بالآزم، لأنه إذا كان خبر واحد عندنا لم يلزم أن يكون أيضاً خبر واحد عند عمر، بل من الجائز أن يكون مفتعلاً بعد وفاة عمر، ولو كان قد ثبت أن عمر سمع هذا الخبر من واحد أو اثنين من الصحابة، ثم لم يعمل به، كان الاعتراض لازماً، ولكن ذلك مما لم يثبت.

٨

الجزء الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

قال في وصف بيعته بالخلافة وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة

الأصل: وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداكتم علي تذاك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها، حتى انقطع النعل، وسقط الرداء، ووطئ الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن أبتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب.

الشرح: التذاك: الازدحام الشديد. والإبل الهيم: العطاش، وهدج إليها الكبير: مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً، والمضارع يهدج، بالكسر، وتحامل نحوها العليل: تكلف المشي على مشقة.

وحسرت إليها الكعاب: كشفت عن وجهها حرصاً على حضور البيعة، والكعاب: الجارية التي قد نهد ثديها، كعبت تكعب، بالضم.

قوله: "حتى انقطع النعل وسقط الرداء"، شبيه بقوله في الخطبة الشقشقية: "حتى لقد وطئ الحسان وشق عطفائي".

وقد تقدم ذكر بيعته عليه السلام بعد قتل عثمان وإطباق الناس عليها، وكيفية الحال فيها وشرح شرحاً يستغنى عن إعادته.

قال في الوصية بالتقوى

الأصل: فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتنال الرغائب.

فاعملوا والعمل يرفع، والتوبة تنفع، والدعاء يسمع، والحال هادئة، والأقلام جارية.

وبادروا بالأعمال عمراً ناكساً، أو مرضاً حابساً، أو موتاً خالساً فإن الموت هادم لذاتكم، ومكدر شهواتكم، ومباعد طياتكم. زائر غير محبوب، وقرن غير مغلوب، وواتر غير مطلوب، قد أعلقتكم حباله، وتكنفتكم غوائله، وأقصدتكم معابله، وعظمت فيكم سطوته، وتتابع عليكم عدوته، وقلت عنكم نبوته، فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلله، واحتدام علله، وحنادس غمراته، وغواشي سكراته، وأليم إرهاقه، ودجو إطباقه، وخشونة مذاقه. فكأن قد أتاكم بغتة فأسكت نحيكم، وفرق نديكم، وعفى آثاركم، وعطل دياركم، وبعث وراثكم، يقتسمون تراثكم، بين حميم خاص لم ينفع، وقريب محزون لم يمنع، وآخر شامت لم يجزع.

فعليكم بالجد والاجتهاد، والتأهب والاستعداد، والتزود في منزل الزاد، ولا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرت من كان قبلكم من الأمم الماضية، والقرون الخالية، الذين احتلبوا درهماً، وأصابوا غرماً، وأفنوا عدتها، وأخلفوا جدتها، وأصبحت

مساكنهم أجدثاً، وأموالهم ميراثاً، لا يعرفون من أتاها، ولا يحفلون من بكاهم، ولا يجيبون من دعاهم، فاحذروا الدنيا فإنها غدارة غرارة خدوع، معطية منوع، ملبسة نزوع، لا يدوم رخاؤها، ولا ينقضي عناؤها، ولا يركد بلاؤها. الشرح: عتق من كل ملكة، هو مثل قوله عليه السلام: "التوبة تجب ما قبلها"، أي كل ذنب موبق بملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه، فإن تقوى الله تعتق منه، وتكفر عقابه، ومثله قوله: "ونجاة من كل هلكة". قوله عليه السلام: "والعمل ينفع"، أي اعملوا في دار التكليف، فإن العمل يوم القيامة غير نافع. قوله عليه السلام: "والحال هادئة"، أي ساكنه ليس فيها ما في أحوال الموقف من تلك الحركات الفظيعة، نحو تطاير الصحف، ونطق الجوارح، وعنف السياق إلى النار. قوله عليه السلام: "والأفلام جارية"، يعني أن التكليف باق، وأن الملائكة الحفظة تكتب أعمال العباد، بخلاف يوم القيامة، إنه يبطل ذلك، ويستغنى عن الحفظة لسقوط التكليف. قوله: "عمرأ ناكساً"، يعني الهرم، من قوله تعالى: "ومن نعمه ننكسه في الخلق"، لرجوع الشيخ الهرم إلى مثل حال الصبي الصغير في ضعف العقل والبنية.

والموت الخالس: المختطف. والطيات: جمع طية بالكسر، وهي منزل السفر. والواتر: القاتل، والوتر، بالكسر: الذحل. وأعلقتكم حباله: جعلتكم معتقلين فيها، ويروى: "قد علقتم" بغير همز. وتكنفتكم غوائله: أحاطت بكم دواهيته ومصائبه. وأقصدتكم: أصابتكم. والمعابل: نصال عراض، الواحدة معبل، بالكسر. وعدوته، بالفتح: ظلمه. ونبوته: مصدر نبا السيف، إذا لم يؤثر في الضريبة. ويوشك، بالكسر: يقرب. وتعشاكم: تحيط بكم. والدواحي: الظلم، الواحدة داحية. والظلل: جمع ظلة، وهي السحاب. والاحتدام: الاضطرام. والخنادس الظلمات. وإرهاقه: مصدر أرهقته، أي أعجلته، ويروى: "إزهاقه" بالزاي. والأطباق: جمع طبق، وهذا من باب الاستعارة أي تكاثف ظلماتها طبق فوق طبق. ويروى: "وحشوبة مذاقه" بالجيم والباء، وهي غلظ الطعام. والنحي: القوم يتناجون. والندي: القوم يجتمعون في النادي. واحتلبوا درهماً: فازوا بمنافعها، كما يحتلب الإنسان اللبن. وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر للمتأمل. الأصل: منها في صفة الزهاد: كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها، فكانوا فيها كمن ليس منها، عملوا فيها بما يبصرون، وبادروا فيها ما يحذرون، تقلب أبدانهم بين ظهري أهل الآخرة ويرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم وهم أشد إعظماً لموت قلوب أحيائهم.

الشرح: بين ظهري أهل الآخرة، بفتح النون، ولا يجوز كسرهما، ويجوز "بين ظهري أهل الآخرة"، لو روي، والمعنى في وسطهم.

قوله عليه السلام: "كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها"، أي هم من أهلها في ظاهر الأمر وفي مرأى العين وليسوا من أهلها، لأنه لا رغبة عندهم في ملازمتها ونعيمها، فكأنهم خارجون عنها.

قوله: "عملوا فيها بما يبصرون"، أي بما يرونه أصلح لهم، ويجوز أن يريد أنهم لشدة اجتهادهم قد أبصروا المال، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء، وهذا كقوله عليه السلام: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً".

قوله عليه السلام: "بادروا فيها ما يحذرون"، أي سابقوه، يعني الموت.

قوله عليه السلام: "تقلب أبدانهم"، هذا محمول تارة على الحقيقة، وتارة على المجاز، أما الأول فلاهم لا يخالطون إلا أهل الدين ولا يجالسون أهل الدنيا، وأما الثاني فلاهم لما استحقوا الثواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه، فأبدانهم تتقلب بين ظهري أهل الآخرة، أي بين ظهري قوم هم بمنزلة أهل الآخرة، لأن المستحق للشيء نظير لمن فعل به ذلك الشيء.

ثم قال: هؤلاء الزهاد يرون أهل الدنيا إنما يستعظمون موت الأبدان، وهم أشد استعظماً لموت القلوب، وقد تقدم من كلامنا في صفات الزهاد والعارفين ما فيه كفاية.

قال بذى قار، وهو متوجه إلى البصرة ذكرها الواقدي في كتاب الجمل.

الأصل: فصدع بما أمر به، وبلغ رسالات ربه، فلم الله به الصدع، ورتق به الفتق، وألف به الشمل بين ذوي الأرحام، بعد العداوة الواغرة في الصدور، والضغائن القادحة في القلوب.

الشرح: ذو قار: اسم موضع قريب من البصرة، وفيه كانت وقعة للعرب مع الفرس قبل الإسلام.

وصدع بما أمر به، أي جهر، وأصل الصدع الشق، ولم به: جمع. ورتق: خاط وألحم، والعداوة الواغرة: ذات الوغرة، وهي شدة الحر، والضغائن: الأحقاد، والقادحة في القلوب، كأنها تقدح النار فيها كما تقدح النار بالمقدحة.

ومن كلام له عبد الله بن زمعة وهو من شيعته، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالا،

فقال عليه السلام:

الأصل: إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء للمسلمين، وجلب أسيافهم، فإن شركتهم في حربهم، كان لك مثل حظهم، وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم.

نسب عبد الله بن زمعة: الشرح: هو عبد الله بن زمعة، بفتح الميم، لا كما ذكره الراوندي، وهو عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي.

كان الأسود من المستهزئين الذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل، وابنه زمعة بن الأسود، قتل يوم بدر كافراً، وكان يدعى زاد الركب، وقتل أخوه عقيل بن الأسود أيضاً كافراً يوم بدر، وقتل الحارث بن زمعة أيضاً يوم بدر كافراً، والأسود هو الذي سمع امرأة تبكي على بغير تضله بمكة بعد يوم بدر، فقال:

أَتُبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ

وَلَا تَبْكِي عَلَى بَدْرٍ وَلَكِنْ

أَلَا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمْ أَنَاسٌ

وَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّوْمِ الْهَجُودُ

عَلَى بَدْرٍ تَقَاصَرَتْ الْجُدُودُ

وَلَوْلَا يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَسُودُوا

وكان عبد الله بن زمعة شيعه لعلي عليه السلام. ومن أصحابه ومن ولد عبد الله هذا أبو البخترى القاضي، وهو وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زمعة، قاضي الرشيد هارون ابن محمد المهدي، وكان منحرفاً عن علي عليه السلام، وهو الذي أفتى الرشيد ببطلان الأمان الذي كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأخذه بيده فمزقه. وقال أمية بن أبي الصلت يرثي قتلى بدر، ويذكر زمعة بن الأسود:

عَيْنُ بَكِيٍّ لِنُوفَلٍ وَلِعَمْرُو

ثُمَّ لَا تَبْخُلِي عَلَى زَمْعَةٍ

نوفل بن خويلد من بني أسد بن عبد العزى، ويعرف بابن العدوية، قتله علي عليه السلام، وعمرو أبو جهل بن هشام، قتله عوف بن عفراء، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود. قوله عليه السلام: "وجلب أسياهم" أي ما جلبته أسياهم وساقته إليهم، والجلب: المال المجلوب. وجناة الثمر ما يجنى منه، وهذه استعارة فصيحة.

قال في إحجام اللسان عن الكلام

الأصل: ألا وإن اللسان بضعة من الإنسان، فلا يسعده القول إذا امتنع، ولا يجهله النطق إذا اتسع، وإنا لأمراء الكلام، وفينا تنشبت عروقه، وعلينا تهدلت غصونه.

واعلموا رحمكم الله أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق قليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الإدهان، فتاهم عارم، وشائبهم آثم، وعالمهم منافق، وقارئهم ممدق، لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم.

الشرح: بضعة من الإنسان: قطعة منه، والهاء في "يسعده" ترجع إلى اللسان، والضمير في "امتنع" يرجع إلى الإنسان، وكذلك الهاء في "لا يجهله" يرجع إلى اللسان، والضمير في "اتسع" يرجع إلى الإنسان، وتقديره: فلا يسعد اللسان القول إذا امتنع الإنسان عن أن يقول، ولا يجهل اللسان النطق إذا اتسع للإنسان القول، والمعنى، إن اللسان آلة للإنسان، فإذا صرفه صارف عن الكلام، لم يكن اللسان ناطقاً، وإذا دعاه داع إلى الكلام نطق اللسان بما في ضمير صاحبه.

وتنشبت عروقه، أي علقت، وروي: "انتشبت"، والرواية الأولى أدخل في صناعة الكلام، لأنها بإزاء تهدلت، والتهدل: التدلي، وقد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراساني، فخطب بها في خطبة مشهورة من خطبه.

ذكر من أرتج عليهم أو حصروا عند الكلام، واعلم أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة اقتضت أن يقول، وذلك أنه أمر ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي أن يخطب الناس يوماً، فصعد المنبر، فحصر ولم يستطع الكلام، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتسنم ذروة المنبر، وخطب خطبة طويلة، ذكر الرضي رحمه الله منها هذه الكلمات، وروى

شيخنا أبو عثمان في كتاب "البيان والتبيين" أن عثمان صعد المنبر فأرتج عليه فقال: "إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل، أحوج منكم إلى إمام خطيب، وستأتيكم الخطبة على وجهها". ثم نزل.

قال أبو عثمان: وروى أبو الحسن المدائني، قال: صعد ابن لعدي بن أرطاة المنبر، فلما رأى الناس حصر فقال: "الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويستقيهم".

وصعد روح بن حاتم المنبر، فلما رأى الناس قد رشقوه بأبصارهم، وصرفوا أسماعهم نحوه، قال: "نكسوا رؤوسكم، وغضوا أبصاركم، فإن أول مركب صعب، فإذا يسر الله عز وجل فتح قفل تيسر". ثم نزل.

وخطب مصعب بن حيان أخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح فحصر، فقال: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله"، فقالت أم الجارية: عجل الله موتك، ألهذا دعوناك!.

وخطب مروان بن الحكم فحصر، فقال: "اللهم إنا نحمدك ونستعينك، ولا نشرك بك".

ولما حصر عبد الله بن عامر بن كريز على المنبر بالبصرة - وكان خطيباً - شق عليه ذلك، فقال له زياد بن أبيه، وكان خليفته: أيها الأمير لا تجزع، فلو أقمت على المنبر عامة من ترى أصابهم أكثر مما أصابك. فلما كانت الجمعة تأخر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس: إن الأمير اليوم موعوك، فقليل لرجل من وجوه أمراء القبائل: قم فاصعد المنبر، فلما صعد حصر، فقال: الحمد لله الذي يرزق هؤلاء. وبقي ساكناً، فأنزلوه، وأصعدوا آخر من الوجوه، فلما استوى قائماً قابل بوجهه الناس، فوقع عينه على صلعة رجل، فقال: أيها الناس، إن هذا الأصلع قد منعني الكلام، اللهم فالعن هذه الصلعة. فأنزلوه. وقالوا لوازع اليشكري: قم إلى المنبر فتكلم، فلما صعد ورأى الناس قال: أيها الناس إني كنت اليوم كارهاً لحضور الجمعة، ولكن امرأتي حملتني على إتيانها، وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثاً، فأنزلوه، فقال زياد لعبد الله بن عامر: كيف رأيت؟ قم الآن فاخطب الناس.

وقال سهل بن هارون: دخل قطرب النحوي على المخلوع، فقال: يا أمير المؤمنين، كانت عدتك أرفع من جائزتك - وهو يتبسم - فاغتاظ الفضل بن الربيع فقلت له: إن هذا من الحصر والضعف، وليس من الجلد والقوة، أما تراه يقتل أصابعه ويرشح جبينه!.

ودخل معبد بن طوق العنبري على بعض الأمراء، فتكلم وهو قائم فأحسن، فلما جلس تلهيع في كلامه، فقال له: ما أظرفك قائماً، وأموقك قاعداً! قال: إني إذا قمت جدت، وإذا قعدت هزلت، فقال: ما أحسن ما خرجت منها!.

وكان عمرو بن الأهثم المنقري والزبرقان بن بدر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عليه السلام عمراً عن الزبرقان فقال: يا رسول الله، إنه لما منع لحوزته، مطاع في أذنيه، فقال الزبرقان: حسدني يا رسول الله! فقال عمرو: يا رسول الله، إنه لزم المرءة، ضيق العطن، لئيم الخال. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وجه عمرو، فقال: يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى. فقال عليه السلام: إن من البيان لسحراً.

وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة.

وقال ابن أبي الزناد: كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز، فكان يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيراجعها، فكتب إليه: إنه يخيل إلي أني لو كتبت إليك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إلي: أضائاً أم معزاً؟ فإذا كتبت إليك بأحدهما، كتبت إلي: أذكراً أم أنثى! وإذا كتبت إليك بأحدهما، كتبت إلي: صغيراً أم كبيراً! فإذا كتبت إليك في مظلمة، فلا تراجعني والسلام.

وأخذ المنصور هذا فكتب إلى مسلم بن كتيبة عامله بالبصرة يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعقر نخلهم، فكتب إليه: بأيهما أبدأ بالدور أم بالنخل يا أمير المؤمنين؟ فكتب إليه: لو قلت لك بالنخل لكتبت إلي بماذا أبدأ؟ بالشهريز أم بالبرني! وعزله، وولى محمد بن سليمان.

وخطب عبد الله بن عامر مرة فأرتج عليه، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى، فقال: لا أجمع عليكم عيماً ولؤماً: من أخذ شاة من السوق فهي له وثمرتها علي.

وخطب السفاح أول يوم صعد فيه المنبر فأرتج عليه، فقام عمه داود بن علي، فقال: أيها الناس إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فيكم فعله، ولأثر الأفعال أجدى عليكم من تشقيق المقال، وحسبكم كتاب الله علماً فيكم، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة عليكم.

قال الشاعر:

وإن مات لم يحزن عليه أقاربه

وفي بشر الأدنى حديد مخالبه

وما خير من لا ينفع الدهر عيشه

كهام على الأقصى قليل لسانه

وقال أحيحة بن الجلاح:

ما لم يكن عي يشينه

ما لم يكن لب يزينه

والصمت أجمل بالفتى

والقول ذو خطر إذا

قال عند اختلاف الناس

الأصل: روى ذعلب اليمامي عن أحمد بن قتيبة، عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية، قال: كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام، فقال وقد ذكر عنده اختلاف الناس:

إنما فرق بينهم مبادئ طينهم، وذلك أنهم كانوا فلقاً من سبخ أرض وعذبا، وحزن تربة وسهلها، فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون؟ وعلى قدر اختلافها يتفاوتون، فتام الرواء ناقص العقل، وماد القامة قصير الهمة. وزاكي العمل قبيح المنظر، وقريب القعر بعيد السبر، ومعروف الضريبة منكر الجليية، وتائه القلب متفرق اللب. وطليق اللسان حديد الجنان. الشرح: ذعلب وأحمد وعبد الله ومالك، رجال من رجال الشيعة ومحدثيهم. وهذا الفصل عندي لا يجوز أن يحمل على ظاهره، وما يتسارع إلى أفهام العامة منه، وذلك لأن قوله: "أنهم كانوا فلقاً من سبخ أرض وعذبا"، إما أن يريد به أن كل واحد من الناس ركب من طين، وجعل صورة بشرية طينية برأس وبطن ويدين ورجلين، ثم نفخت فيه الروح كما

فعل بآدم، أو يريد به أن الطين الذي ركبته منه صورة آدم فقط كان مختلطاً من سبخ وعذب، فإن أريد الأول فالواقع خلافه، لأن البشر الذين نشاهددهم، والذين بلغتنا أخبارهم لم يخلقوا من الطين كما خلق آدم، وإنما خلقوا من نطف آبائهم. وليس لقائل أن يقول: لعل تلك النطف افترقت لأنها تولدت من أغذية مختلفة المنبت من العذوبة والملوحة، وذلك لأن النطفة لا تتولد من غذاء بعينه، بل من مجموع الأغذية، وتلك الأغذية لا يمكن أن تكون كلها من أرض سبخة محضة في السبخية، لأن هذا من الاتفاقات التي يعلم عدم وقوعها، كما يعلم أنه لا يجوز أن يتفق أن يكون أهل بغداد في وقت بعينه على كثرتهم لا يأكلون ذلك اليوم إلا السكباغ خاصة، وأيضاً فإن الأرض السبخة، أو التي الغالب عليها السبخية، لا تنبت الأقوات أصلاً. وإن أريد الثاني، وهو أن يكون طين آدم عليه السلام مختلطاً في جوهره، مختلفاً في طباعته، فلم كان زيد الأحق يتولد من الجزء السبخي وعمرو العاقل يتولد من الجزء العذبي؟ وكيف يؤثر اختلاف طين آدم من ستة آلاف سنة في أقوام يتوالدون الآن.

والذي أراه أن لكلامه عليه السلام تأويلاً باطنياً، وهو أن يريد به اختلاف النفوس المدبرة للأبدان، وكفى عنها بقوله: "مبادئ طينهم"، وذلك ألما لما كانت الماسكة للبدن من الانحلال، العاصمة له من تفرق العناصر، صارت كالمبدأ وكالعلة له من حيث إنها كانت علة في بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض، ولذلك إذا فارتقت عند الموت افترقت العناصر، وانحلت الأجزاء، فرجع اللطيف منها إلى الهواء، والكثيف إلى الأرض. وقوله: "كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها، وحزن تربة وسهلها" تفسيره أن البارئ جل جلاله لما خلق النفوس، خلقها مختلفة في ماهيتها، فمنها الزكية ومنها الخبيثة، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة، ومنها القوية ومنها الضعيفة، ومنها الجريئة المقدمة، ومنها الفشلة الدليلة، إلى غير ذلك من أخلاق النفوس المختلفة المتضادة. ثم فسر عليه السلام وعلل تساوي قوم في الأخلاق وتفاوت آخرين فيها، فقال: إن نفس زيد قد تكون مشابهة أو قريبة من المشابهة لنفس عمرو، فإذا هما في الأخلاق متساويتان، أو متقاربتان، ونفس خالد قد تكون مضادة لنفس بكر أو قريبة من المضادة، فإذا هما في الأخلاق متباينتان أو قريبتان من المباينة. والقول باختلاف النفوس في ماهيتها هو مذهب أفلاطون، وقد اتبعه عليه جماعة من أعيان الحكماء، وقال به كثير من مشيبي النفوس من متكلمي الإسلام.

وأما أرسطو وأتباعه، فإنهم لا يذهبون إلى اختلاف النفوس في ماهيتها. والقول الأول عندي أمثل. ثم بين عليه السلام اختلاف آحاد الناس، فقال: منهم من هو تام الرواء، لكنه ناقص العقل. والرواء بالهمز والمد: المنظر الجميل، ومن أمثال العرب: "ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدحل"، وقال الشاعر:

وهو في خلقه الجميل

عقله عقل طائر

وقال أبو الطيب:

إذا لم يكن في فعله والخلاتق

وما الحسن في وجه الفتى شرف له

وقال الآخر:

وما ينفع الفتیان حسن وجوههم

إذا كانت الأخلاق غير حسان

فلا يغررنك المرء راق رواؤه

فما كل مصقول الغرار يمانی

ومن شعر الحماسة:

لقومي أرعى للعلا من عصابة

من الناس یا حار بن عمرو تسودها

وأنتم سماء يعجب الناس رزها

بآبدة تتحي شديد ونیدها

تقطع أطناب البيوت بحاصب

وأكذب شيء برقها ورعودها

فویل أمها خيلاً بهاءً وشارة

إذا لاقت الأعداء لولا صدودها !

ومنه أيضاً:

وكائن بسعد إن سعداً كثيرة

ولا ترج من لسعد وفاء ولا نصرا

يروعك من سعد بن زيد جسومها

وتزهد فيها حين تقتلها خبرا

قوله عليه السلام: "وماد القامة قصير المهمة"، قريب من المعنى الأول، إلا أنه خالف بين الألفاظ، فجعل الناقص بإزاء التام، والقصير بإزاء الماد. ويمكن أن يجعل المعنيين مختلفين، وذلك لأنه قد يكون الإنسان تام العقل، إلا أن همته قصيرة، وقد رأينا كثيراً من الناس كذلك، فإذاً هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأول.

قوله عليه السلام: "وزاكي العمل قبيح المنظر" يريد بركاء أعماله حسننها وطهارتها، فيكون قد أوقع الحسن بإزاء القبيح، وهذا القسم موجود فاش بين الناس.

قوله: "وقريب القعر بعيد السير"، أي قد يكون الإنسان قصير القامة، وهو مع ذلك داهية باقعة، والمراد بقرب قعره تقارب ما بين طرفيه، فليست بطنه عميقة ولا مستطيلة، وإذا سبرته واختبرت ما عنده وجدته ليبياً فطناً، لا يوقف على أسرارها، ولا يدرك باطنه، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

ترى الرجل النحيف فتزدریه

وفي أثوابه أسد مزير

ويعجبك الطير فتبتليه

فيخل ظنك الرجل الطيرير

وقيل لبعض الحكماء: ما بال القصار من الناس أدهى وأحذق؟ قال: لقرب قلوبهم من أدمغتهم، ومن شعر الحماسة:

إلا يكن عظمي طويلاً فإنني

له بالخصال الصالحات وصول

ولا خير في حسن الجسم وطولها

إذا لم تزن حسن الجسوم عقول

ومن شعر الحماسة أيضاً وهو تمام البيتين المقدم ذكرهما:

فما عظم الرجال لهم بفخر

ولكن فخرهم كرم وخير

ضعاف الطير أطولها جسوماً

ولم تطل البزاة ولا الصقور

بغات الطير أكثرها فراخاً

وأما الصقر مقلات نزور

لقد عظم البعير بغير لب

فلم يستغن بالعظم البعير

قوله عليه السلام: "ومعروف الضريبة، منكر الجلية"، الجلية هي الخلق الذي يتكلفه الإنسان ويستجلبه، مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلف الشجاعة، أو شحيحاً بالطبع فيتكلف الجود. وهذا القسم أيضاً عام في الناس. ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوي الأخلاق والطباع المتناسبة المتلائمة، فقال: "وتائه القلب متفرق اللب"، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادان. ثم قال: "وطليق اللسان حديد الجنان"، وهذان الوصفان أيضاً متناسبان، وهما متضادان للوصفين قبلهما، فالأولان ذم، والآخران مدح.

قال وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجهيزه

الأصل: بأي أنت وأمي يا رسول الله! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والإنباء وأخبار السماء. خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواءً، ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، لأنفذنا عليك ماء الشؤن، وكان الداء ممطلاً، والكمد محالفاً، وقلا لك! ولكنه ما لا يملك رده، ولا يستطيع دفعه، بأي أنت وأمي! اذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك!. الشرح: بأي أنت وأمي! أي بأي أنت مفدى وأمي، والإنباء: الإخبار، مصدر أنبأ ينبئ، وروي: "والأنباء" بفتح الهمزة جمع نبأ، وهو الخبر. وأخبار السماء: الوحي. قوله عليه السلام: "خصصت وعممت"، أي خصت مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم لا يكثرثون بما يصيبهم بعدك من المصائب، ولا بما أصابهم من قبل، وعمت هذه المصيبة أيضاً الناس، حتى استوى الخلائق كلهم فيها، فهي مصيبة خاصة بالنسبة، وعامة بالنسبة. ومثل قوله: "حتى صرت مسلياً عمن سواك" قول الشاعر:

رزئنا أبا عمر ولا حي مثله

فلله در الحادثات بمن تقع!

فإن نك قد فارقتنا وتركتنا

ذوي خلة ما في انسداد لها طمع

لقد جر نفعاً فقدنا لك أننا

أما على كل الرزايا من الجزع

وقال آخر:

أقول للموت حين نازله

والموت مقدمة على ألبهم

اظفر بمن شئت إذا ظفرت به

ما بعد يحيى للموت من ألم

ولي في هذا المعنى كتيبه إلى صديق غاب عني من جملة أبيات:

وقد كنت أخشى من خطوب غوائل

فلما نأى عني أمنت من الحذر

فاعجب لجسم عاش بعد حياته

واعجب لنفع حاصل جره ضرر

وقال إسحاق بن خلف يرثي بنتاً له:

أُمسّت أميمة معموراً بها الرجم

لقا صعيد عليها الترب مرتكم

يا شقة النفس إن النفس والهة

حرى عليك، وإن الدمع منسجم

قد كنت أخشى عليها أن تقدمني

إلى الحمام فييدي وجهها العدم

فالآن نمت، فلا هم يؤرقني

تهدا العيون إذا ما أودت الحرم

للموت عندي أياد لست أكفرها

أحيا سروراً وبى مما أتى ألم

وقال آخر:

فلو أنها إحدى يدي رزيتها

ولكن يدي باننت على إثرها يدي

فآليت لا آسى على إثر هالك

قدي الآن من حزن على هالك قدي

وقال آخر:

أجاري ما أزداد إلا صباية

عليك، وما تزداد إلا تنائيا

وقال آخر:

أجاري لو نفس فدت نفس ميت

فديتك مسروراً بنفسي وماليا

وقد كنت أرجو أن أملاك حقبة

فحال قضاء الله دون رجائيا

ألا أقليمت من شاء بعدك إنما

عليك من الأقدار كان حذاريا

وقال آخر:

لتغد المنايا حيث شاءت فإنها

محلة بعد الفتى ابن عقيل

فتى كان مولاه يحل بنجوة

فحل الموالى بعده بمسيل

قوله عليه السلام: "ولكن الداء ماطلاً" أي ماطلاً بالبرء، أي لا يجيب إلى الإقلاع، والإبلال: الإفاقة.

لمع من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عند موته فأما وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ذكره أرباب السيرة فيها فقد ذكرنا طرفاً منه فيما تقدم، ونذكر ههنا طرفاً آخر مما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه.

قال أبو جعفر: روى أبو مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوف الليل، فقال: "يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي"، فانطلقت معه، فلما وقف بين

أظهرهم، قال: "السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه! أقبلت الفتن كقطع الليل

المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى". ثم أقبل علي، فقال: "يا أبا مويهبة إني قد أوهبت مفاتيح خزائن الدنيا

والخلد فيها والجنة، فخيرت بينها وبين الجنة، فاخترت الجنة"، فقلت: بأبي أنت وأمي! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة جميعاً، فقال: "لا يا أبا مويهبة، اخترت لقاء ربي"، ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف، فبدأ بوجعه الذي قبضه الله فيه.

وروى محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة، قالت: رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأقول: وأرأساه! فقال: بل أنا وأرأساه! ثم قال: "ما ضرك لو مت قبلي، فممت عليك فكفتك، وصليت عليك ودفنتك!" فقلت: والله لكأني بك - لو كان ذلك - رجعت إلى منزلي، فأعرست ببعض نسائك! فتبسم صلى الله عليه وسلم، وتتام به وجعه، وهو مع ذلك يدور على نسائه، حتى استعز به، وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيته، فأذن له، فخرج بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر، تخط قدماه في الأرض، عاصباً رأسه حتى دخل بيته.

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: فحدثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث، فقال: أتدري من الرجل الآخر؟ قلت: لا، قال: علي بن أبي طالب، لكنها كانت لا تقدر أن تذكره بخير وهي تستطيع. قالت: ثم غمر رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد به الوجع، فقال: "أهريقوا علي سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم"، قالت: فأقعده في مخضب لحفصة بنت عمر، وصبينا عليه الماء حتى طفق يقول بيده: "حسبكم حسبكم" قلت: المخضب: المكن.

وروى عطاء، عن الفضل بن عباس رحمه الله: قال: جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ به مرضه، فقال: أخرج، فخرجت إليه، فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه، فقال: خذ بيدي، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس، فصحت فيهم فاجتمعوا إليه، فقال: "أيها الناس، إني أحمد إليكم الله، إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يقل رجل: إني أخاف الشحنة من قبل رسول الله. ألا وإن الشحنة ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً إن كان له، أو حللي فلقيت الله وأنا طيب النفس، وقد أراي أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم به مراراً". ثم نزل فصلى الظهر. ثم رجع فجلس على المنبر، فعاد لمقاتله الأولى في الشحنة وغيرها، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: إنا لا نكذب قاتلاً ولا نستحلفه على يمين، فيم كانت لك عندي؟ قال: أتذكر يا رسول الله يوم مر بك المسكين، فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم؟ قال: أعطه يا فضل، فأمرته فجلس، ثم قال: "أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل: فضوح الدنيا؟ فإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة". فقام رجل فقال: يا رسول الله، عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله، قال: ولم غللتها؟ قال: كنت محتاجاً إليها، قال: خذها منه يا فضل. ثم قال: "أيها الناس، من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدعو له"، فقام رجل فقال: يا رسول الله، إني لكذاب، وإني لفاحش، وإني لنؤوم. فقال: "اللهم ارزقه صدقاً وصلاً، وأذهب عنه النوم إذا أراد". ثم قام رجل، فقال: يا رسول الله، إني لكذاب، وإني لمنافق، وما شيء - أو قال: وإن من شيء - إلا وقد جنته. فقام عمر بن الخطاب فقال: فضحت نفسك أيها الرجل! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا بن الخطاب: فضوح

الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصبراً أمره إلى خير".

وروى عبد الله بن مسعود، قال: نعى إلينا نبينا وحبينا نفسه قبل موته بشهر، جمعنا في بيت أمتنا عائشة فنظر إلينا وشد ودمعت عينه، وقال: مرحباً بكم! حياكم الله، رحمكم الله، آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، رزقكم الله، هداكم الله، نصركم الله، سلمكم الله، تقبلكم الله! أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، إني لكم منه نذير وبشير، ألا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين". فقلنا: يا رسول الله، فمتى أجلك؟ قال: "قد دنا الفراق، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى، والرفيق الأعلى وجنة المأوى والعيش المهنأ"، قلنا: فمن يغسلك يا رسول الله؟ قال: "أهلي الأذن فالأذن"، قلنا: ففيم نكفئك؟ قال: "في ثيابي هذه إن شئتم، أو في بياض مصر، أو حلة يمنية"، قلنا: فمن يصلي عليك؟ فقال: "إذا غسلتموني وكفتموني فضعوني على سريرتي في بيتي هذا، على شفير قبوري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي جليسي وحببي وخليلي جبرائيل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنوده من الملائكة، ثم ادخلوا علي فوجاً فوجاً، فصلوا علي وسلموا ولا تؤذوني بتزكية ولا ضجة ولا رنة، وليبدأ بالصلاة علي رجال أهل بيتي ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد، وأقرئوا أنفسكم مني السلام، ومن غاب من أهلي فأقرئوه مني السلام، ومن تابعكم بعدي علي ديني فأقرئوه مني السلام، فإني أشهدكم أني قد سلمت علي من بايعني علي ديني من اليوم إلى يوم القيامة". قلنا: فمن يدخلك قبرك يا رسول الله؟ قال: "أهلي مع ملائكة كثيرة يرونكم ولا ترونهم". قلت: العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك الساعة: فمن يلي أمورنا بعدك! لأن ولاية الأمر أهم من السؤال عن الدفن، وعن كيفية الصلاة عليه، وما أعلم ما أقول في هذا المقام!.

قال أبو جعفر الطبري: وروى سعيد بن جبير، قال: كان ابن عباس رحمه الله يقول: يوم الخميس وما يوم الخميس! ثم يكي حتى تبل دموعه الحصباء، فقلنا له: وما يوم الخميس؟ قال: يوم اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه، فقال: اثنوني باللوح والدواة - أو قال: بالكتف والدواة - أكتب لكم ما لا تضلون بعدي، فتنازعوا، فقال: اخرجوا ولا ينبغي عندني أن يتنازع، قالوا: ما شأنه، أهجرك؟ استفهموه، فذهبوا يعيدون عليه، فقال: "دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه، ثم أوصي بثلاث؟ فقال: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم"، وسكت عن الثالثة عمداً، أو قالها ونسيتها.

وروى أبو جعفر، عن ابن عباس، قال: خرج علي بن أبي طالب عليه السلام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي توفي فيه، فقال له الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً. فأخذ العباس بيده، وقال: ألا ترى أنك بعد ثلاث عبد العصا! إني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله فيمن يكون هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا وصى بنا، فقال علي: أخشى أن أسأله فيمنعنا فلا يعطيناها الناس أبداً.

وروت عائشة قالت: أغمي علي رسول الله صلى الله عليه وسلم والدار مملوءة من النساء: أم سلمة، وميمونة، وأسماء

بنت عميس، وعندنا عمه العباس بن عبد المطلب، فأجمعوا على أن يلدوه، فقال العباس: لا ألدّه فلدوه، فلما أفاق قال: من صنع بي هذا؟ قالوا: عمك قال لنا: هذا دواء جاءنا من نحو هذه الأرض - وأشار إلى أرض الحبشة - قال: فلم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسول الله، أن يكون بك ذات الجنب، فقال: إن ذلك لداء ما كان الله ليقدّفي به، لا يبقى أحد في البيت إلا لد إلا عمي". قال: فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوبة لهم بما صنعوا.

قال أبو جعفر: وقد وردت رواية أخرى عن عائشة، قالت: لدّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه، فقال: لا تلدوني، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال: لا يبقى أحد إلا لد غير العباس عمي فإنه لم يشهدكم. قال أبو جعفر: والذي تولى اللدود بيده أسماء بنت عميس.

قلت: العجب من تناقض هذه الروايات! في إحداها أن العباس لم يشهد اللدود، فلذلك أعفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يلد ولد من كان حاضراً، وفي إحداها أن العباس حضر لده عليه السلام، وفي هذه الرواية التي تتضمن حضور العباس في لده كلام مختلف، فيها أن العباس قال: لا ألدّه، ثم قال: فلد فأفاق، فقال: من صنع بي هذا؟ قالوا: عمك، إنه قال: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لذات الجنب، فكيف يقول: لا ألدّه، ثم يكون هو الذي أشار بأن يلد، وقال: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لكذا!.

وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد البصري عن حديث اللدود، فقلت: ألد علي بن أبي طالب ذلك اليوم؟ فقال: معاذ الله! لو كان لد لذكرت عائشة ذلك فيما تذكره وتنعه عليه. قال!: وقد كانت فاطمة حاضرة في الدار، وابناها معها، أفترها لدت أيضاً، ولد الحسن والحسين! كلا، وهذا أمر لم يكن، وإنما هو حديث ولده من ولده تقرباً إلى بعض الناس، والذي كان أن أسماء بنت عميس أشارت بأن يلد، وقالت: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبي طالب، وكان بعلمها، وساعدتها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث، فلد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أفاق أنكره، وسأل عنه فذكر له كلام أسماء، وموافقة ميمونة لها، فأمر أن تلد الامرأتان لا غير، فلدتا ولم يجر غير ذلك. والباطل لا يكاد يخفى على مستبصر.

وروت عائشة، قالت: كثيراً ما كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره، فلما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمة سمعتها منه: "بل الرفيق الأعلى"، فقلت: إذاً والله لا يختارنا، وعلمت أن ذلك ما كان يقوله من قبل.

وروى الأرقم بن شرحبيل، قال: سألت ابن عباس رحمه الله: هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا، قلت: فكيف كان؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه: "ابعثوا إلى علي فادعوه"، فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبي بكر! وقالت حفصة: لو بعثت إلى عمر! فاجتمعوا عنده جميعاً - هكذا لفظ الخبر على ما أورده الطبري في التاريخ، ولم يقل: "فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما" - قال ابن عباس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انصرفوا، فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم" فانصرفوا. وقيل لرسول الله: الصلاة! فقال: "مروا أبا بكر أن يصلي

بالناس"، فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق فمر عمر، فقال: مروا عمر، فقال عمر: ما كنت لأتقدم وأبو بكر شاهد، فتقدم أبو بكر، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خفة، فخرج، فلما سمع أبو بكر حركته تأخر، فجذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبه فأقامه مكانه، وقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر.

قلت: عندي في هذه الواقعة كلام، ويعترضني فيها شكوك واشتباه؟ إذا كان قد أراد أن يبعث إلى علي ليوصي إليه، فنفس عائشة عليه، فسألت أن يحضر أبوها، ونفست حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها، ثم حضرا ولم يطلبها، فلا شبهة أن ابنتيهما طلبتاها. هذا هو الظاهر، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اجتمعوا كلهم عنده "انصرفوا فإن تكن لي حاجة بعثت إليكم"، قول من عنده ضرر وغضب باطن لحضورهما، وهمة للنساء في استدعائهما، فكيف يطابق هذا الفعل وهذا القول ما روي من أن عائشة قالت لما عين على أبيها في الصلاة: إن أبي رجل رقيق، فمر عمر! وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفاء والاستقالة! وهذا يوهم صحة ما تقوله الشيعة من أن صلاة أبي بكر كانت عن أمر عائشة، وإن كنت لا أقول بذلك، ولا أذهب إليه إلا أن تأمل هذا الخبر ولمح مضمونه يوهم ذلك، فلعل هذا الخبر غير صحيح. وأيضا ففي الخبر ما لا يميزه أهل العدل، وهو أن يقول: "مروا أبا بكر"، ثم يقول عقبيه: "مروا عمر"، لأن هذا نسخ الشيء قبل تقضي وقت فعله.

فإن قلت: قد مضى من الزمان مقدار ما يمكن الحاضرين فيه أن يأمرؤا أبا بكر، وليس في الخبر إلا أنه أمرهم أن يأمرؤه، ويكفي في صحة ذلك مضي زمان يسير جداً يمكن فيه أن يقال: يا أبا بكر صل بالناس.

قلت: الإشكال ما نشأ من هذا الأمر، بل من كون أبي بكر مأموراً بالصلاة، وإن كان بواسطة، ثم نسخ عنه الأمر بالصلاة قبل مضي وقت يمكن فيه أن يفعل الصلاة.

فإن قلت: لم قلت في صدر كلامك هذا: إنه أراد أن يبعث إلى علي ليوصي إليه؟ ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة له؟ قلت: لأن مخرج كلام ابن عباس هذا المخرج، ألا ترى أن الأرقم بن شرحبيل الراوي لهذا الخبر قال: سألت ابن عباس: هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا، فقلت: فكيف كان؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه: "ابعثوا إلى علي فادعوه"، فسألت المرأة أن يبعث إلى أبيها، وسألت الأخرى أن يبعث إلى أبيها، فلولا أن ابن عباس فهم من قوله صلى الله عليه وسلم: "ابعثوا إلى علي فادعوه أنه يريد الوصية إليه، لما كان لإخبار الأرقم بذلك متصلاً بسؤاله عن الوصية معنى.

وروى القاسم بن محمد بن أبي بكر، عن عائشة، قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت وعنده قدح فيه ماء يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء، ويقول: "اللهم أعني على سكرة الموت!".

وروى عروة عن عائشة، قالت: اضطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم موته في حجري، فدخل علي رجل من آل أبي بكر، في يده مسواك أخضر، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه نظراً عرف أنه يريد، فقلت له: أتحب أن أعطيك هذا المسواك؟ قال: نعم، فأخذته فمضغته حتى ألتته ثم أعطيته إياه، فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قبله، ثم وضعه، ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة! فقلت: لقد خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق! وقبض رسول الله صلى الله عليه

قال الطبري: وقد وقع الاتفاق على أنه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، واختلف في أي الاثنين كان؟ فقيل: لليتين خلنا من الشهر، وقيل: لاثني عشرة خلت من الشهر. واختلف في تجهيزه أي يوم كان! فقيل: يوم الثلاثاء الغد من وفاته، وقيل: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام، اشتغل القوم عنه بأمر البيعة.

وقد روى الطبري ما يدل على ذلك عن زياد بن كليب، عن إبراهيم النخعي أن أبا بكر جاء بعد ثلاث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أربد بطنه، فكشف عن وجهه، وقبل عينيه، وقال: بأبي أنت وأمي! طبت حياً وطبت ميتاً! قلت: وأنا أعجب من هذا! هب أن أبا بكر ومن معه اشتغلوا بأمر البيعة، فعلي بن أبي طالب والعباس وأهل البيت بماذا اشتغلوا حتى يبقى النبي صلى الله عليه وسلم مسجى بينهم ثلاثة أيام لباليهن لا يغسلونه ولا يمسونه!.

فإن قلت: الرواية التي رواها الطبري في حديث الأيام الثلاثة، إنما كانت قبل البيعة؟ لأن لفظ الخبر عن إبراهيم، وأنه لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث، ولم يجترئ أحد أن يكشف عن وجهه عليه السلام حتى أربد بطنه، فكشف عن وجهه وقبل عينيه، وقال: بأبي أنت وأمي! طبت حياً وطبت ميتاً، ثم خرج إلى الناس، فقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات... الحديث بطوله.

قلت: لعمرى، إن الرواية هكذا أوردتها، ولكنها مستحيلة، لأن أبا بكر فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حي، ومضى إلى منزله بالسنح في يوم الإثنين، وهو اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه رآه بارئاً صالح الحال. هكذا روى الطبري في كتابه، وبين السنح وبين المدينة نصف فرسخ، بل هو طائفة من المدينة، فكيف يبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتاً يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء لا يعلم به أبو بكر، وبينهما غلوة ثلاثة أسهم! وكيف يبقى طريقاً بين أهله ثلاثة أيام لا يجترئ أحد منهم أن يكشف عن وجهه، وفيهم علي بن أبي طالب وهو روحه بين جنبه، والعباس عمه القائم مقام أبيه، وابنا فاطمة، وهما كولديه، وفيهم فاطمة بضعة منه، أفما كان في هؤلاء من يكشف عن وجهه، ولا من يفكر في جهازه، ولا من يأنف له من انتفاخ بطنه واخضرارها ويتنظر بذلك حضور أبي بكر ليكشف عن وجهه!.

أنا لا أصدق ذلك، ولا يسكن قلبي إليه. والصحيح أن دخول أبي بكر إليه وكشفه عن وجهه، وقوله ما قال، إنما كان بعد الفراغ من البيعة، وأنهم كانوا مشغولين بها كما ذكر في الرواية الأخرى.

وبقي الإشكال في قعود علي عليه السلام عن تجهيزه. إذا كان أولئك مشغولين بالبيعة، فما الذي شغله هو؟.

فأقول: يغلب على ظني - إن صح ذلك - أن يكون قد فعله شناعة على أبي بكر وأصحابه، حيث فاته الأمر، واستؤثر عليه به، فأراد أن يتركه صلى الله عليه وسلم بحاله لا يحدث في جهازه أمراً ليثبت عند الناس أن الدنيا شغلهم عن نبينهم ثلاثة أيام، حتى آل أمره إلى ما ترون؟ وقد كان عليه السلام يتطلب الحيلة في تهجين أمر أبي بكر حيث وقع في السقيفة ما وقع بكل طريق، ويتعلق بأدق سبب من أمور كان يعتمد عليها، وأقوال كان يقولها، فلعل هذا من جملة ذلك، أو لعله إن صح ذلك، فإنما تركه صلى الله عليه وسلم بوصية منه إليه وسر كانا يعلمانه في ذلك.

فإن قلت: فلم لا يجوز أن يقال - إن صح ذلك: إنه آخر جهازه ليجتمع رأيه ورأي المهاجرين على كيفية غسله وتكفينه، ونحو ذلك من أموره؟.

قلت: لأن الرواية الأولى تبطل هذا الاحتمال، وهي قوله صلى الله عليه وسلم لهم قبل موته: "يغسلني أهلي الأدنى منهم فالأدنى، وأكفن في ثيابي أو في بياض مصر أو في حلة يمنية".

قال أبو جعفر: فأما الذين تولوا غسله فعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل ابن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحضر أوس بن خولي أحد الخزرج، فقال لعلي بن أبي طالب: أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله! وكان أوس من أصحاب بدر، فقال له: أدخل، فدخل فحضر غسله عليه الصلاة والسلام، وصب الماء عليه أسامة وشقران، وكان علي عليه السلام يغسله وقد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلّكه من ورائه، لا يفضي بيده إلى بدن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان العباس وابناه الفضل وقثم يساعدونه على قلبه من جانب إلى جانب.

قال أبو جعفر: وروى عائشة أنهم اختلفوا في غسله: هل يجرد أم لا؟ فألقى الله عليهم السنة حتى ما منهم رجل إلا وذقنه على صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يدرى من هو: غسلوا النبي وعليه ثيابه، فقاموا إليه فغسلوه، وعليه قميصه فكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه.

قلت: حضرت عند محمد بن معد العلوي في داره ببغداد، وعنده حسن بن معالي الحلبي المعروف بابن الباقلاوي وهما يقرآن هذا الخبر، وهذه الأحاديث من تاريخ الطبري فقال محمد بن معد لحسن بن معالي: ما تراها قصدت بهذا القول؟ قال: حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم! فضحك محمد، فقال: هبها استطاعت أن تراحه في الغسل، هل تستطيع أن تراحه في غيره من خصائصه!.

قال أبو جعفر الطبري: ثم كفن عليه الصلاة والسلام في ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين وبرد حبرة. أدرج فيها إدراجاً، ولحد له على عادة أهل المدينة، فلما فرغوا منه وضعوه على سريره.

واختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل: ندفنه في البقيع مع أصحابه، وقال أبو بكر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما قبض نبي إلا ودفن حيث قبض"، فرفع فراش رسول الله الذي توفي فيه، فحفر له تحته. قلت: كيف اختلفوا في موضع دفنه، وقد قال لهم: "فضعوني على سريري في بيتي هذا، على شفير قبري"، وهذا تصريح بأنه يدفن في البيت الذي جمعهم فيه، وهو بيت عائشة؟ فإما أن يكون ذلك الخبر غير صحيح، أو يكون الحديث الذي تضمن أنهم اختلفوا في موضع دفنه، وأن أبا بكر روى لهم أنه قال: "الأنبياء يدفنون حيث يموتون" غير صحيح، لأن الجمع بين هذين الخبرين لا يمكن.

وأيضاً، فهذا الخبر ينافي ما ورد في موت جماعة من الأنبياء نقلوا من موضع موتهم إلى مواضع أخرى، وقد ذكر الطبري بعضهم في أخبار أنبياء بني إسرائيل.

وأيضاً فلو صح هذا الخبر لم يكن مقتضياً إيجاب دفن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قبض، لأنه ليس بأمر بل هو إخبار

محض، اللهم إلا أن يكونوا فهموا من مخرج لفظه عليه السلام ومن مقصده أنه أراد الوصية لهم بذلك، والأمر بدفنه حيث يقبض.

قال أبو جعفر: ثم دخل الناس فصلوا عليه أرسالاً، حتى إذا فرغ الرجال أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ثم أدخل العبيد، ولم يؤمهم إمام، ثم دفن عليه السلام وسط الليل من ليلة الأربعاء. قال أبو جعفر: وقد روت عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن عائشة قالت: ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي في جوف الليل، ليلة الأربعاء. قلت: وهذا أيضاً من العجائب، لأنه إذا مات يوم الاثنين وقت ارتفاع الضحى - كما ذكر في الرواية - ودفن ليلة الأربعاء وسط الليل، فلم يمض عليه ثلاثة أيام كما ورد في تلك الرواية.

وأيضاً فمن العجب كون عائشة، وهو في بيتها لا تعلم بدفنه حتى سمعت صوت المساحي، أتراها أين كانت! وقد سألت عن هذا جماعة، فقالوا: لعلها كانت في بيت يجاور بيتها عندها نساء كما جرت عادة أهل الميت، وتكون قد اعتزلت بيتها وسكنت ذلك البيت، لأن بيتها مملوء بالرجال من أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم من الصحابة، وهذا قريب، ويحتمل أن يكون.

قال الطبري: ونزل في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب عليه السلام، والفضل بن عباس، وقثم أخوه، وشقران مولاهم. وقال أوس بن خولي لعلي عليه السلام: أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال له: إنزل، فتزل مع القوم، وأخذ شقران قطيفة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها، فقذفها معه في القبر، وقال: لا يلبسها أحد بعده.

قلت: من تأمل هذه الأخبار، علم أن علياً عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهازه، ألا ترى أن أوس بن خولي لا يخاطب أحداً من الجماعة غيره، ولا يسأل غيره في حضور الغسل والتزول في القبر! ثم انظر إلى كرم علي عليه السلام وسجاجة أخلاقه وطهارة شيمته، كيف لم يضمن بمثل هذه المقامات الشريفة عن أوس؟ وهو رجل غريب من الأنصار، فعرف له حقه وأطلبه بما طلبه! فكم بين هذه السجية الشريفة، وبين قول من قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نساؤه! ولو كان في ذلك المقام غيره من أولي الطباع الخشنة، وأرباب الفظاظة والغلظة، وقد سأل أوس ذلك - لزجر وانتهر ورجع خائباً!.

قال الطبري: وكان المغيرة بن شعبة يدعي أنه أحدث الناس عهداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول للناس: إني أخذت خاتمي فألقيته في القبر، وقلت: إن خاتمي قد سقط مني، وإنما طرحته عمداً، لأمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأكون آخر الناس به عهداً.

قال الطبري: فروى عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: اعتمرت مع علي بن أبي طالب عليه السلام في زمان عمر - أو عثمان - فتزل على أخته أم هانئ بنت أبي طالب، فلما فرغ من عمرته رجع وقد سكب له غسل، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفر من أهل العراق، فقالوا: يا أبا الحسن، جئناك نسألك عن أمر نحب أن نخبرنا به! فقال: أظن المغيرة يحدثكم

أنه أحدث الناس عهداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم! قالوا: أجل، عن ذا جئنا نسألك! قال: كذب! أحدث الناس عهداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قثم بن العباس، كان آخرنا خروجاً من قبره.

قلت: بحق ما عاب أصحابنا رحمهم الله المغيرة وذموه وانتقصوه! فإنه كان على طريقة غير محمود، وأبى الله إلا أن يكون كاذباً على كل حال، لأنه إن لم يكن أحدثهم بالنبي عهداً، فقد كذب في دعواه أنه أحدثهم به عهداً، وإن كان أحدثهم به عهداً كما يزعم فقد اعترف بأنه كذب في قوله لهم: "سقط خاتمي مني؟ وإنما ألقاه عمداً، وأين المغيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعي القرب منه، وأنه أحدث الناس عهداً به! وقد علم الله تعالى والمسلمون أنه لولا الحدث الذي أحدث، والقوم الذين صحبهم فقتلهم غدرًا، واتخذ أموالهم، ثم التجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعصمه لم يسلم، ولا وطىء حصاً المدينة.

قال الطبري: وقد اختلف في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالأكثر أنه كان ابن ثلاث وستين سنة، وقال قوم: ابن خمس وستين سنة، وقال قوم: ابن ستين. فهذا ما ذكره الطبري في تاريخه.

وروى محمد بن حبيب في "أماله" قال: تولى غسل النبي صلى الله عليه وسلم علي عليه السلام والعباس رضي الله عنه. وكان علي عليه السلام يقول بعد ذلك: ما شئمت أطيب من ريحه، ولا رأيت أضوأ من وجهه حينئذ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى.

قال محمد بن حبيب: فلما كشف الإزار عن وجهه بعد غسله انحنى عليه فقبله مراراً، وبكى طويلاً وقال: بأبي أنت وأمي! طبت حياً وطبت ميتاً! انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد سواك من النبوة والأنباء وأخبار السماء! خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك، وعممت حتى صارت المصيبة فيك سواء! ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤن، ولكن أتى ما لا يدفع! أشكو إليك كمداً وإدباراً مخالفين وداء الفتنة، فإنها قد استعرت نارها وداؤها الداء الأعظم! بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك وهمك!. ثم نظر إلى قذاة في عينه فلفظها بلسانه، ثم رد الإزار على وجهه.

وقد روى كثير من الناس ندبة فاطمة عليها السلام أباه يوم موته وبعد ذلك اليوم، وهي ألفاظ معدودة مشهورة، منها: "يا أبتاه! جنة الخلد مثواه، يا أبتاه! عند ذي العرش مأواه! يا أبتاه! كان جبرائيل يغشاه! يا أبتاه لست بعد اليوم أراه!.

من الناس من يذكر أنها كانت تشوب هذه الندبة بنوع من التظلم والتألم لأمر يغلبها. والله أعلم بصحة ذلك. والشيعه تروي أن قوماً من الصحابة أنكروا بكاءها الطويل، ونهوها عنه، وأمروها بالتنحي عن مجاورة المسجد إلى طرف من أطراف المدينة.

وأنا أستبعد ذلك، والحديث يدخله الزيادة والنقصان، ويتطرق إليه التحريف والافتعال، ولا أقول أنا في أعلام المهاجرين إلا خيراً!.

قال في صفة خلق بعض الحيوانات

الأصل: الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده، وباشتباههم على أن لا شبه له. الذي صدق في ميعاده، وارتفع عن ظلم عباد، وقام بالقسط في خلقه، وعدل عليهم في حكمه، مستشهد بحدوث الأشياء على أزليته، وبما وسمها به من العجز على قدرته، وبما أضطرها إليه من الفناء على دوامة. واحد لا بعدد، ودائم لا بآمد، وقائم لا بعمد، تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة، وتشهد له المرائي لا بمحاضرة. لم تحط به الأوهام، بل تجلى لها بما. وبها امتنع منها، وإليها حاكمها. ليس بذي كبر امتدت به النهايات فكبرته تجسيماً، ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً، بل كبر شأناً، وعظم سلطاناً. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصفي، وأمينه الرضي، صلى الله عليه وآله، أرسله بوجوب الحجج، وظهور الفلج، وإيضاح المنهج، فبلغ الرسالة صادعاً بها، وحمل على المحجة دالاً عليها، وأقام أعلام الاهتداء، ومانر الضياء، وجعل أمراس الإسلام متينة، وعرا الإيمان وثيقة.

الشرح: الشواهد ههنا، يريد بها الحواس، وسمها "شواهد" إما لحضورها، شهد فلان كذا أي حضره، أو لأنها تشهد على ما تدركه وتثبت عند العقل، كما يشهد الشاهد بالشيء ويثبته عند الحاكم، والمشاهد ههنا: المجالس والنوادي، يقال: حضرت مشهد بني فلان، أي ناديهم ومجتمعهم. ثم فسر اللفظة الأولى وأبان عن مراده بما بقوله: ولا تراه النواظر، وفسر اللفظة الثانية وأبان عن مرادها، فقال: ولا تحجبه السواتر.

ثم قال: "الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده، هذا مشكل، لأن لقائل أن يقول: إذا دل على قدمه بحدوث خلقه، فقد دخل في جملة المدلول كونه موجوداً، لأن القديم هو الموجود ولم يزل، فأبي حاجة إلى أن يعود فيقول: وبحدوث خلقه على وجوده!.

ولجيب أن يجيب على طريقة شيوخنا أصحاب أبي هاشم، فيقول: لا يلزم من الاستدلال بحدوث الأجسام على أنه لا بد من محدث قديم كونه موجوداً، لأن عندهم أن الذات المدعومة قد تتصف بصفات ذاتية، وهي معدومة، فلا يلزم من كون صانع العالم عندهم عالماً قادراً حياً أن يكون موجوداً، بل لا بد من دلالة زائدة، على أن له صفة الوجود وهي والدلالة التي يذكرونها، من أن كونه قادراً عالماً تقتضي تعلقه بالمقدور والمعلوم، وكل ذات متعلقة، فإن عدمها يخرجها عن التعلق كالإرادة، فلو كان تعالى معدوماً لم يجز أن يكون متعلقاً، فحدوث الأجسام إذاً قد دل على أمرين من وجهين مختلفين: أحدهما أنه لا بد من صانع له، وهذا هو المعنى بقدمه.

والثاني أن هذا الصانع له صفة، لأجلها يصح على ذاته أن تكون قادرة عالمة، وهذا هو المعنى بوجوده.

فإن قلت: أيقول أصحاب شيخكم أبي هاشم إن الذات المدعومة التي لا أول لها تسمى قديمة؟.

قلت: لا، والبحث في هذا بحث في اللفظ لا في المعنى، والمراد بقوله عليه السلام: "الدال بحدوث الأشياء على قدمه، أي على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل، وليس المراد بالقدم هنا الوجود لم يزل، بل مجرد الذاتية لم يزل.

ثم يستدل بعد ذلك بحدوث الأشياء على أن له صفة أخرى لم تزل زائدة على مجرد الذاتية، وتلك الصفة هي وجوده.

فإن قلت: فهل لهذا الكلام مساع على مذهب البغداديين؟ قلت: نعم، إذا حمل على منهج التأويل بأن يريد بقوله: وبحدوث خلقه على وجوده، أي على صحة إيجاده له فيما بعد، أي إعادته بعد العدم يوم القيامة، لأنه إذا صح منه تعالى إحداثه ابتداءً صح منه إيجاده ثانياً على وجه الإعادة، لأن الماهية قابلة للوجود والعدم، والقادر قادر لذاته، فأما من روى بحدوث خلقه على وجوده، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلها. والمعنى على هذا ظاهر، لأنه تعالى دل المكلفين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم، ومذهب أكثر المتكلمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاماً وإحساناً إليهم.

قوله عليه السلام: "وباشتباههم على أن لا شبه له". هذا دليل صحيح، وذلك لأنه إذا ثبت أن جسماً ما محدث، ثبت أن سائر الأجسام محدثة، لأن الأجسام متمثلة، وكل ما صح على الشيء صح على مثله، وكذلك إذا ثبت أن سواداً ما أو بياضاً ما محدث، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدثة، لأن حكم الشيء حكم مثله، والسواد في معنى كونه سواداً غير مختلف، وكذلك البياض، فصارت الدلالة هكذا الذوات التي عندنا يشبه بعضها بعضاً، وهي محدثة، فلو كان الباري سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها، ولكان محدثاً لأن حكم الشيء حكم مثله، لكنه تعالى ليس بمحدث، فليس بمشابه لشيء منها، فقد صح إذاً قوله عليه السلام: "وباشتباههم على أن لا شبه له".

قوله عليه السلام: "الذي صدق في ميعاده"، لا يجوز ألا يصدق، لأن الكذب قبيح عقلاً، والباري تعالى يستحيل منه من جهة الداعي والصارف أن يفعل القبيح.

قوله عليه السلام: "وارتفع عن ظلم عباده، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أخذوه، وهو أستاذهم وشيخهم في العدل والتوحيد، فأما الأشعرية، فإنها وإن كانت تتمتع عن إطلاق القول بأن الله تعالى يظلم العباد إلا أنها تعطي المعنى في الحقيقة، لأن الله عندهم يكلف العباد ما لا يطيقونه، بل هو سبحانه عندهم لا يكلفهم إلا ما لا يطيقونه، بل هو سبحانه عندهم لا يقدر على أن يكلفهم ما يطيقونه، وذلك لأن القدرة عندهم مع الفعل، فالقاعد غير قادر على القيام، وإنما يكون قادراً على القيام عند حصول القيام، ويستحيل عندهم أن يوصف الباري تعالى بإقدار العبد القاعد على القيام، وهو مع ذلك مكلف له أن يقوم، وهذا غاية ما يكون من الظلم سواء أطلقوا هذه اللفظة عليه أو لم يطلقوها.

ثم أعاد الكلام الأول في التوحيد تأكيداً، فقال: حدوث الأشياء دليل على قدمه، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته، وكونها فانية دليل على بقاءه.

فإن قلت: أما الاستدلال بحدوث الأشياء على قدمه فمعلوم، فكيف يكون الاستدلال على الأمرين الآخرين؟! قلت: إذا شاركه سبحانه بعض الموجودات في كونه موجوداً، وافترقا في أن أحدهما لا يصح منه فعل الجسم، ولا الكون، ولا الحياة، ولا الوجود المحدث - ويصح ذلك من الموجودات القديمة - دل على افتراقهما في أمر لأجله صح من القديم ذلك، وتعذر ذلك على المحدث، وذلك الأمر هو الذي يسمى من كان عليه قادراً، وينبغي أن تحمل لفظة العجز "ههنا على المفهوم اللغوي، وهو تعذر الإيجاد، لا على المفهوم الكلامي.

وأما الاستدلال الثاني، فينبغي أن يحمل الفناء ههنا على المفهوم اللغوي، وهو تغير الصفات وزوالها، لا على المفهوم الكلامي، فيصير تقدير الكلام: لما كانت الأشياء التي بيننا تتغير وتتحوّل وتنتقل من حال إلى حال، وعلمنا أن العلة المصححة لذلك كونها محدثة، علمنا أنه سبحانه لا يصح عليه التثقل والتغير، لأنه ليس بمحدث. ثم قال: "واحد لا بعدد" لأن وحدته ذاتية، وليست صفة زائدة عليه، وهذا من الأبحاث الدقيقة في علم الحكمة، وليس هذا الكتاب موضوعاً لبسط القول في أمثاله.

ثم قال: "دائم لا بأمَد"، لأنه تعالى ليس بزمان ولا داخل تحت الحركة والزمان، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهي، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفيض المقدس والأنوار الربانية.

ثم قال: "قائم لا بعمد"، لأنه لما كان في الشاهد كل قائم فله عماد يعتمد عليه، أبان عليه السلام تزيهه تعالى عن المكان، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنه مستقر على عرشه بهذه اللفظة. ومعنى القائم ههنا ليس ما يسبق إلى الذهن من أنه المنتصب، بل ما تفهمه من قولك: فلان قائم بتدبير البلد، وقائم بالقسط.

ثم قال: "تلقاه الأذهان لا بمشاعرة"، أي تتلقاه تلقياً عقلياً، ليس كما يتلقى الجسم الجسم بمشاعره وحواسه وجوارحه، وذلك لأن تعقل الأشياء وهو حصول صورها في العقل بريئة من المادة، والمراد بتلقيه سبحانه ههنا تلقي صفاته، لا تلقي ذاته تعالى، لأن ذاته تعالى لا تتصورها العقول، وسيأتي إيضاح أن هذا مذهبه عليه السلام.

ثم قال: "وتشهد له المراتي لا بمحاضرة"، المراتي: جمع مرئي، وهو الشيء المدرك بالبصر، يقول: المراتي تشهد بوجود الباري، لأنه لولا وجوده لما وجدت، ولو لم توجد لم تكن مرئيات، وهي شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود الأبصار، لأنها شهدت بوجود الأبصار لحضورها فيها. وأما شهادتها بوجود الباري فليست بهذه الطريق، بل بما ذكرناه. والأولى أن يكون "المراتي ههنا جمع" مرآة" بفتح الميم، من قولهم: هو حسن في مرآة عيني، يقول: إن جنس الرؤية يشهد بوجود الباري من غير محاضرة منه للحواس.

قوله عليه السلام: "لم تحط به الأوهام" إلى قوله عليه السلام وإليها حاكمها"، هذا الكلام دقيق ولطيف، والأوهام ههنا هي العقول، يقول: إنه سبحانه لم تحط به العقول، أي لم تتصور كنه ذاته، ولكنه تحلى للعقول بالعقول، وتحليه ههنا هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبية لا غير، وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته، فأما غير ذلك فلا، وذلك لأن البحث النظري قد دل على أننا لم نعلم منه سبحانه إلا الإضافة والسلب، أما الإضافة فكقولنا: عالم قادر، وأما السلب فكقولنا: ليس بجسم ولا عرض ولا يرى، فأما حقيقة الذات المقدسة المخصوصة من حيث هي هي، فإن العقل لا يتصورها، وهذا مذهب الحكماء وبعض المتكلمين من أصحابنا ومن غيرهم. ثم قال: "وبالعقول امتنع من العقول"، أي وبالعقول وبالنظر، علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول. ثم قال: "وإلى العقول حاكم العقول"، أي جعل العقول المدعية أنها أحاطت به وأدركته كالخصم له سبحانه، ثم حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة النظر، فحكمت له سبحانه على العقول المدعية لما ليست أهلاً له.

واعلم أن القول بالحيرة في جلال ذات الباري والوقوف عند حد محدود لا يتجاوز العقل قول ما زال فضلاء العقلاء

قائلين به .

شعر ابن أبي الحديد في المناجاة، ومن شعري الذي أسلك فيه مسلك المناجاة عند خلواتي وانقطاعي بالقلب إليه سبحانه قولي:

سى المسيح ولا محمد

والله لا موسى ولا عي

علموا ولا جبريل وهو إلى محل القدس يصعد

طة، لا ولا العقل المجرد

كلا ولا النفس البسي

من كنه ذاتك غير أنك واحدي الذات سرمد

باً والحقيقة ليس توجد

وجدوا إضافات وسل

يفنى الزمان وليس ينفد

ورأوا وجوداً واجباً

جرم له الأفلاك تسجد

فلتخسأ الحكماء عن

أفلاط قبلك يا مبلد!

من أنت يا رسطو ومن

ومن ابن سينا حين قرر ما بنيت له وشيد

ش رأى الشهاب وقد توقد

هل أنتم إلا الفرا

ولو اهتدى رشداً لأبعد!

فدنا فأحرق نفسه

ومما قلته أيضاً في قصور العقل عن معرفته سبحانه وتعالى:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلا

وبلبلت العقولا

أنت حيرت ذوي اللب

فيك شبراً فر ميلا

كلما أقدم فكري

ياء لا يهدى السبيلا

ناكصاً يخبط في عم

ولي في هذا المعنى:

تاه عقلي وانقضى عمري

فيك يا أغلوطه الفكر

ربحت إلا أذى السفر

سافرت فيك العقول فما

لا على عين ولا أثر

رجعت حسرى وما وقفت

أنك المعلوم بالنظر

فلحى الله الألى زعموا

خارج عن قوة البشر

كذبوا إن الذي طلبوا

وقلت أيضاً في المعنى:

أفنيبت خمسين عاماً معملاً نظري
من كان فوق عقول القايسين فما

ولي أيضاً:

فيه: فلم أدر ما آتي وما أذر
ذا يدرك الفكر أو ما يبلغ النظر

حبيبي أنت لا زيد وعمرو
طلبتك جاهداً خمسين عاماً
فهل بعد الممات بك اتصال
نوى كذف وكم قد مات قبلي

وإن حيرتني وفتنت ديني
فلم أحصل على برد اليقين
فأعلم غامض السر المصون!
بحسرتة عليك من القرون!

ومن شعري أيضاً في المعنى، وكنت أنادي به ليلاً في مواضع مقفرة خالية من الناس، بصوت رفيع، وأجدح قلبي أيام
كنت مالكاً أمري، مطلقاً من قيود الأهل والولد وعلائق الدنيا:

يا مدهش الأبواب والفتن

أفنيبت فيك العمر أنفقته

أتتبع العلماء أسألهم

وأخالط الملل التي اختلفت

وظننت أني بالغ غرضي

ومطهر من كل رجس هوى

فإذا الذي استكثرت منه هو ال

فضللت في تيه بلا علم

ورجعت صفر الكف مكتئباً

أبكي وأنكت في الثرى بيدي

وأصيح يا من ليس يعرفه

يا من له عنت الوجوه ومن

أمنت يا جذر الأصم من ال

أن ليس تدركك العيون وأن الرأي ذو أفن وذو غبن

والكل أنت فكيف يدركه

ومما قلته في هذا المعنى:

ناجيته ودعوته اكشف عن عشا

قلبي وعن بصري وأنت النور

وارفع حجاباً قد سدلت ستوره

دونى، وهل دون المحب ستور!

فأجابني: صه يا ضعيف فبعض ذا

قد رame فوشى فذك الطور

أعجبني هذا المعنى، فنقلته إلى لفظ آخر فقلت:

حبيبي أنت من دون البرايا

وإن لم أحظ منك بما أريد

قنعت من الوصال بكشف حال

فقل ارجع فمطلبها بعيد

ألم تسمع جواب سؤال موسى

وليس على مكانته مزيد

تعرض للذي حاولت يوماً

فذك الصخر واضطرم الصعيد

ولي في هذا المعنى أيضاً:

قد حار في النفس جميع الورى

والفكر فيها قد غدا ضائعا

وبرهن الكل على ما ادعوا

وليس برهانهم قاطعا

من جهل الصنعة عجزاً فما

أجدره أن يجهل الصانعا!

ولي أيضاً في الرد على الفلاسفة الذين عللوا حركة الفلك بأنه أراد استخراج الوضع أولاً، ليتشبه بالعقل المجرد في كماله، وأن كل ما له بالقوة فهو خارج إلى الفعل:

تحير أرباب النهى وتعجبوا

من الفلك الأقصى لماذا تحركا

فقل بطبع كالتقيل إذا هوى

وقيل اختياراً والمحقق شككا

فرد حديث الطبع إذ كان دائراً

وليس على سمت قويم فيسلكا

وقيل لمن قال اختياراً فما الذي

دعاه إلى أن دار ركضاً فأوشكا

فقالوا لوضع حادث يستجده

يعاقب منه مطلباً ثم متركا

فقل لهم: هذا الجنون بعينه

ولو رame منا امرؤ كان أعفكا

ولو أن إنساناً غدا ليس قصده

سوى الوضع واستخراجه عد مضحكا

ولي أيضاً في الرد على من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الله سبحانه بالعين، وهو الذي أنكرته عائشة، والعجب لقوم من أرباب النظر جهلوا ما أدركته امرأة من نساء العرب:

عجبت لقوم يزعمون نبي

هم رأى ربه بالعين تبا لهم تبا

وهل تدرك الأبصار غير مكيف

وكيف تبيح العين ما يمنع القلب!

إذا كان طرف القلب عن كنهه نبا

حسيراً، فطرف العين عن كنهه أنبى!

والمقطعات التي نظمها في إجلال البارئ سبحانه عن أن تحيط به العقول كثيرة، موجودة في كتي ومصنفاتي، فلتلمح من مظاهرها، وغرضنا بإيراد بعضها أن لها هنا تشبيهاً لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام علي في هذا الباب.

قوله عليه السلام: ليس بذي كبر" إلى قوله "وعظم سلطانه"، معناه أنه تعالى يطلق عليه من أسمائه الكبير والعظيم، وقد ورد بهما القرآن العزيز، وليس المراد بهما ما يستعمله الجمهور من قولهم: هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم، بل المراد عظم شأنه وجلالة سلطانه.

والفالج: النصرة، وأصله سكون العين، وإنما حركه ليوازن بين الألفاظ، وذلك لأن الماضي منه فلج الرجل على خصمه بالفتح، ومصدره الفلج بالسكون، فأما من روى: "وظهور الفلج" بضميتين فقد سقط عنه التأويل، لأن الاسم من هذا اللفظ: "الفلج" بضم أول الكلمة، فإذا استعملها الكاتب أو الخطيب جاز له ضم الحرف الثاني. وصادعاً بهما: مظهرًا مجاهدًا، وأصله الشق.

والأمراس: الحبال، والواحد مرس، بفتح الميم والراء.

الأصل: منها في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان: ولو فكروا في عظيم القدرة، وجسيم النعمة، لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب علية، والبصائر مدخولة. ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر، وسوى له العظم والبشر!

انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبّت على أرضها، وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها، وتعدّها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها، وفي وردها لصدرها، مكفول برزقها، مرزوقة بوفقها، لا يغفلها المنان، ولا يحرمها الديان، ولو في الصفا اليابس، والحجر الجامس! ولو فكرت في مجاري أكملها، وفي غلوها وسفلها، وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً!

فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبنّاها على دعائمها! لم يشركه في فطرهما فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر. ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة، لدقيق تفصيل كل شيء، وغامض اختلاف كل حي.

وما الجليل واللطيف، والثقل والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء.

وكذلك السماء والهواء، والرياح والماء. فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرق هذه اللغات، والألسن المختلفة. فالويل لمن أنكر المقدر، وححد المدير!

زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع، ولا لاختلاف صورهم صانع، ولم يلجأوا إلى حجة فيما ادعوا، ولا تحقيق لما دعوا، وهل يكون بناء من غير بان، أو جناية من غير جان!

الشرح: مدخولة: معيبة. وفلق: شق وخلق. والبشر: ظاهر الجلد.

قوله عليه السلام: "وصبت على رزقها، قيل: هو على العكس، أي صب رزقها عليها، والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا، والمراد: كيف همت حتى انصبت على رزقها انصباباً، أي انخطت عليه، ويروى: "وضنت على رزقها" بالضاد المعجمة والنون، أي بخلت. وجحرها: بيتها.

قوله عليه السلام: "وفي وردها لصدرها"، أي تجمع في أيام التمكن من الحركة لأيام العجز عنها، وذلك لأن النمل يظهر صيفاً ويخفى في شدة الشتاء لعجزه عن ملافاة البرد.

قوله عليه السلام: رزقها وفقها، أي بقدر كفايتها، ويروى "مكفول برزقها مرزوقة بوفقها".

والننان، من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية، أي هو كثير المن والإنعام على عباده، والديان: المجازي للعباد على أفعالهم، قال تعالى: إنا لمدنيون ! أي مجزيون.

والحجر الجامس: الجامد، والشراسيف: أطراف الأضلاع المشرفة على البطن.

في ميزات وصفات الذرة والنملة واعلم أن شيخنا أبا عثمان قد أورد في كتاب "الحيوان" في باب النملة والذرة - وهي الصغيرة جداً من النمل - كلاماً يصلح أن يكون كلام أمير المؤمنين عليه السلام أصله، ولكن أبا عثمان قد فرع عليه.

قال: الذرة تدخر في الصيف للشتاء، وتتقدم في حال المهلة، ولا تضيع أوقات إمكان الحزم، ثم يبلغ من تفقدها وصحة تمييزها، والنظر في عواقب أمورها، أنها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف، أن تعفن وتسوس في بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتنتشرها وتعيد إليها جفوفها، ويمر بها النسيم فينفي عنها اللخن والفساد.

ثم ربما - بل في الأكثر - تختار ذلك العمل ليلاً، لأن ذلك أخفى، وفي القمر لأنها فيه أبصر، فإن كان مكانها ندياً وخافت أن تنبت الحبة نقرت موضع القطمير من وسطها، لعلمها أنها من ذلك الموضع تنبت، وربما فلقت الحبة نصفين. فأما إن كان الحب من الكزبرة فإنها تغلقه أرباعاً، لأن أنصاف حب الكزبرة تنبت من بين جميع الحبوب، فهي من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوانات، حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس، ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها في الشم والاسترواح ما ليس لشيء، وربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد، فيسقط من يده الواحدة أو صدر واحدة، وليس بقربه ذرة ولا له عهد بالذر في ذلك المنزل، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة، فترومها وتحاول نقلها وجرحها إلى جرحها، فإذا أعجزتها بعد أن تبلي عذراً مضت إلى جرحها راجعة، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يجدها قد أقبلت وخلفها كالخييط الأسود الممدود، حتى يتعاون عليها فيحملنها. فاعجب من صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع! ثم انظر إلى بعد المهمة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة، وأكثر من مائة مرة، بل أضعاف أضعاف المائة، وليس شيء من الحيوان يحمل ما يكون أضعاف وزنه مراراً كثيرة غيرها.

فإن قال قائل: فمن أين علمتم أن التي حاولت نقل الجرادة فعجزت هي التي أخبرت صواحبتها من الذر، وأنها التي كانت على مقدمتهن؟.

قيل له: لطول التجربة، ولأننا لم نر قط ذرة حاولت جر جرادة فعجزت عنها، ثم رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك، وإن كنا لا نفصل في مرأى العين بينها وبين أخواتها، فإنه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا، فدلنا ذلك على أنها في رجوعها عن الجرادة أنها إنما كانت لأشباهاها كالرائد الذي لا يكذب أهله.

قال أبو عثمان: ولا ينكر قولنا: إن الذرة توحى إلى أخواتها بما أشرنا إليه إلا من يكذب القرآن، فإنه تعالى قال في قصة سليمان: "قالت نملة يأيتها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من

قولها!، فهل بعد هذا ريب أو شك في أن لها قولاً وبياناً وتميزاً!.

فإن قلت: فلعلها مكلفة، ومأمورة ومنهية، ومطبعة وعاصية!.

قيل: هذا سؤال جاهل، وذلك أنه لا يلزم أن يكون كل ذي حس، وتميز مكلفاً مأموراً منهياً، مطيعاً عاصياً، لأن الإنسان غير البالغ الحلم قد يحفظ القرآن وكثيراً من الآثار، وضروباً من الأخبار، ويشترى ويبيع، ويخدع الرجال ويسخر بالمعلمين، وهو غير مكلف ولا مأمور، لا منهى ولا عاص ولا مطيع، فلا يلزم مما قلناه في الذرة أن تكون مكلفة.

قال أبو عثمان: ومن عجيب ما سمعته من أمر النملة، ما حدثني به بعض المهندسين عن رجل معروف بصناعة الإسطرلابات، أنه أخرج طوقاً من صفر - أو قال من حديد - من الكير، وقد أحماه، فرمى به على الأرض ليبرد، فاشتعل الطوق على نملة، فأرادت أن تنفر بمنة فلقبها وهج النار، فأخذت يسرة فلقبها وهج النار، فمضت قدماً فكذلك، فرجعت إلى خلفها فكذلك، فرجعت إلى وسط الدائرة، فوجدها قد ماتت في موضع رجل البركار من الدائرة، وهذا من العجائب.

قال أبو عثمان: وحدثني أبو عبيد الله الأفوه، وما كنت أقدم عليه في زمانه من مشايخ المعتزلة إلا القليل، قال: قد كنت ألقي من الذر والنمل في الرطب يكون عندي وفي الطعام عنتاً كثيراً، وذلك لأني كنت لا أستقدر النملة ولا الذرة، ثم وجدت الواحدة منهما إذا وقعت في قارورة بان أو زئبق أو خيري، فسد ذلك الدهن وزنخ، فقذرتهما ونفرت منها، وقلت: أخلق بطبيعتها أن تكون فاسدة خبيثة، وكنت أرى لها عضاً منكراً، فأقول: إنها من ذوات السموم، ولو أن بدن النملة زيد في أجزائه حتى يلحق ببدن العقرب، ثم عضت إنساناً لكانت عضتها أضر عليه من لسعة العقرب.

قال: فاتخذت عند ذلك لطعامي منملة وقيرتها، وصببت في خندقها الماء، ووضعت سلة الطعام على رأسها، فغيرت أياماً أكشف رأس السلة بعد ذلك، وفيها ذر كثير، ووجدت الماء في الخندق على حاله، فقلت: عسى أن يكون بعض الصبيان أنزلها، وأكل مما فيها! وطال مكثها في الأرض، وقد دخلها الذر ثم أعيدت على تلك الحال، وتكلمت في ذلك وتعرفت الحال فيه، فعرفت البراءة في عذرهم، والصدق في خبرهم، فاشتد تعجبي، وذهبت بي الظنون والخواطر كل مذهب، فعزمت على أن أرصدها وأحرسها، وأثبتت في أمري، وأتعرف شأنها، فإذا هي بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانباً، وصعدت في الحائط، ثم مرت على جذع السقف، فلما صارت محاذية للسلة أرسلت نفسها فقلت في نفسي: انظر كيف اهتدت إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة!.

ثم قلت: وما عليها أن تبقى محصورة؟ بل أي حصار على ذرٍّ وقد وجدت ما تشتهي.

قال أبو عثمان: ومن أعاجيب الذرة أنها لا تعرض لجعل ولا لجرادة ولا لخنفساء ولا لبنت وردان، ما لم يكن بها حبل أو عقر أو قطع رجل أو يد، فإن وجدت بها من ذلك أدنى علة، وثبت عليها، حتى لو أن حية بها ضربة أو خرق أو خدش، ثم كانت من ثعابين مصر، لوثب عليها الذر حتى يأكلها، ولا تكاد الحية تسلم من الذر إذا كان بها أدق عقر.

قال أبو عثمان: وقد عذب الله بالذر والنمل أمماً وأمماً، وأخرج أهل قرى من قراهم، وأهل دروب من دروبهم.

وحدثني بعض من أصدق خبره، قال: سألت رجلاً كان يتزل ببغداد في بعض الدروب التي في ناحية باب الكوفة التي جلا

أهلها عنها، لغلبة النمل والذر عليها، فسألته عن ذلك، فقال: وما تصنع بالحديث! امض معي إلى داري التي أخرجني منها النمل.

قال، فدخلتها معه فبعث غلامه، فاشترى رؤوساً من الرأسين ليتغذى بها، فانتقلنا هرباً من النمل في أكثر من عشرين مكاناً، ثم دعا بطست ضخمة، وصب فيها ماء صالحاً، ثم فرق عظام الرؤوس في الدار، ومعه غلمانه، فكان كلما اسود منها عظم لكثرة النمل واجتماعه عليه - وذلك في أسرع الأوقات - أخذه الغلام ففرغه في الطست بعود ينثر به ما عليه في جوف الطست، فما لبثنا مقدار ساعة من النهار حتى فاضت الطست غملاً، فقال: كم تظن أني فعلت مثل هذا قبل الجلاء طمعاً في أن أقطع أصلها! فلما رأيت عددها إما زائداً، وإما ثابتاً، وجاءنا ما لا يصبر عليه أحد، ولا يمكن معه مقام، خرجت عنها.

قال أبو عثمان: وعذب عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي بأنواع العذاب، فقيل له: إن أردت ألا يفلح أبداً فمرهم فلينفخوا في دبره النمل، ففعلوا فلم يفلح بعدها.

قال أبو عثمان: ومن الحيوان أجناس يشبه الإنسان في العقل والروية والنظر في العواقب والفكر في الأمور، مثل النمل، والذر، والفأر، والجردان، والعنكبوت، والنحل، إلا أن النحل لا يدخر من الطعام إلا جنساً واحداً وهو العسل. قال: وزعم البقظري أنك لو أدخلت نملة في جحر ذر لأكلتها حتى تأتي على عامتها، وذكر أنه قد جرب ذلك. قال: وزعم صاحب المنطق أن الضبع تأكل النمل أكلاً ذريعاً، لأنها تأتي قرية النمل وقت اجتماع النمل على باب القرية، فتلحس ذلك النمل كله بلسانها، بشهوة شديدة وإرادة قوية.

قال: وربما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم، وأكلت كل شيء لهم، فلا تزال كذلك حتى ينشأ في تلك القرى النمل، فيسلط الله عز وجل ذلك النمل على تلك الأرضة، حتى تأتي على آخرها، على أن النمل بعد ذلك سيكون له أذى، إلا أنه دون أذى الأرضة بعيداً، وما أكثر ما يذهب النمل أيضاً من تلك القرى، حتى يتم لأهلها السلامة من النوعين جميعاً.

قال: وقد زعم بعضهم أن تلك الأرضة بأعيانها تستحيل غملاً، وليس فناؤها لأكل النمل لها، ولكن الأرضة نفسها تستحيل غملاً، فعلى قدر ما يستحيل منها يرى الناس النقصان في عددها ومضرتها على الأيام. قال أبو عثمان: وكان ثمامة يرى أن الذر صغار النمل، ونحن نراه نوعاً آخر كالبقرة والجواميس. قال: ومن أسباب هلاك النمل نبات أجنحته، وقال الشاعر:

حتى يطير فقد دنا عطبه

وإذا استوت للنمل أجنحة

وكان في كتاب عبد الحميد إلى أبي مسلم: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحاً، فيقال: إن أبا مسلم لما قرأ هذا الكلام في أول الكتاب لم يتم قراءته وألقاه في النار، وقال: أخاف إن قرأته أن ينخب قلبي.

قال أبو عثمان: ويقتل النمل بأن يصب في أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر، وأن يدس في أفواهها الشعر، على أنا

قد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً.

فأما الحكماء، فإنهم لا يثبتون للنمل شراسيف ولا أضلاعاً، ويجب إن صح قولهم أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على اعتقاد الجمهور ومخاطبة العرب بما تتخيله وتوهمه حقاً، وكذلك لا يثبت الحكماء للنمل آذاناً بارزة عن سطوح رؤوسها، ويجب إن صح ذلك أن نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على قوة الإحساس بالأصوات، فإنه لا يمكن الحكماء إنكار وجود هذه القوة للنمل، ولهذا إذا صحح عليهم هرين.

ويذكر الحكماء من عجائب النمل أشياء، منها أنه لا جلد له، وكذلك كل الحيوان المخرز.

ومنها أنه لا يوجد في صقلية نمل كبار أصلاً، ومنها أن النمل بعضه ماش وبعضه طائر، ومنها أن حراقة النمل إذا أضيف إليها شيء من قشور البيض وريش هدهد وعلقت على العضد منعت من النوم.

قوله عليه السلام: "ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، أي غايات فكرك، وضربت بمعنى سرت، والمذاهب: الطرق. قال تعالى: ! وإذا ضربتم في الأرض ! وهذا الكلام استعارة.

قال: لو أمعنت النظر لعلمت أن خالق النملة الحقيرة هو خالق النحلة الطويلة لأن كل شيء من الأشياء فتفصيل جسمه وهيئته تفصيل دقيق، واختلاف تلك الأجسام في أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلاف غامض السبب، فلا بد لكل من مدبر يحكم بذلك الاختلاف ويفعله، على حسب ما يعلمه من المصلحة.

ثم قال: وما الجليل والدقيق في خلقه إلا سواء! لأنه تعالى قادر لذاته، لا يعجزه شيء من الممكنات.

ثم قال: "فانظر الشمس والقمر" إلى قوله: "والألسن المختلفات، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع. والطرق إليه أربعة: أحدها الاستدلال بحدوث الأجسام، والثاني الاستدلال بإمكان الأعراض والأجسام، والثالث الاستدلال بحدوث الأعراض، والرابع الاستدلال بإمكان الأعراض.

وصورة الاستدلال هو أن كل جسم يقبل - للجسمية المشتركة بينه وبين سائر الأجسام - ما يقبله غيره من الأجسام، فإذا اختلفت الأجسام في الأعراض فلا بد من مخصص خصص هذا الجسم بهذا العرض دون أن يكون هذا العرض لجسم آخر، ويكون لهذا الجسم عرض غير هذا العرض، لأن الممكنات لا بد لها من مرجح يرجح أحد طرفيها على الآخر، فهذا هو معنى قوله: "فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرق هذه اللغات، والألسن المختلفات"، أي أنه يمكن أن تكون هيئة الشمس وضوءها ومقدارها حاصلاً لجرم القمر، ويمكن أن يكون النبات الذي لا ساق له شجراً، والشجر ذو الساق نباتاً، ويمكن أن يكون الماء صلباً والحجر مائعاً، ويمكن أن يكون زمان الليل مضيقاً وزمان النهار مظلماً، ويمكن ألا تكون هذه البحار متفجرة بل تكون جبلاً، ويمكن ألا تكون هذه الجبال الكبيرة كبيرة، ويمكن ألا تكون هذه القلال طويلة. وكذلك القول في اللغات واختلافها. وإذا كان كل هذا ممكناً فاختصاص الجسم المخصوص بالصفات والأعراض والصور المخصوصة لا يمكن أن يكون لمجرد الجسمية لتمائل الأجسام فيها، فلا بد من أمر زائد، وذلك الأمر الزائد هو المعنى بقولنا: صانع العالم.

ثم سفه آراء المعطلة، وقال: "إنهم لم يعتصموا بحجة، ولم يحققوا ما وعوه" أي لم يرتبوا العلوم الضرورية ترتيباً صحيحاً

يفضي بهم إلى النتيجة التي هي حق.

ثم أخذ في الرد عليهم من طريق أخرى، وهي دعوى الضرورة، وقد اعتمد عليها كثير من المتكلمين، فقال: نعلم ضرورة أن البناء لا بد له من بان.

ثم قال: "والجناية لا بد لها من جان"، وهذه كلمة ساقته إليها القرينة، والمراد عموم الفعلية لا خصوص الجناية، أي مستحيل أن يكون الفعل من غير فاعل، والذين ادعوا الضرورة في هذه المسألة من المتكلمين استغنوا عن الطرق الأربع التي ذكرناها، وأمير المؤمنين عليه السلام اعتمد أولاً على طريق واحدة، ثم جنح ثانياً إلى دعوى الضرورة، وكلا الطريقين صحيح. الأصل: وإن شئت قلت في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين، وأسرج لها حدقتين قمرأوين، وجعل لها السمع الخفي، وفتح لها الفم السوي، وجعل لها الحس القوي، ونايين بهما تقرض، ومنجلين بهما تقبض، يرهبها الزراع في زرعهم، ولا يستطيعون ذبحها ولو أجليبوا بجمعهم، حتى ترد الحرث في نزواتها، وتقضي منه شهواتها، وخلقها كله لا يكون إصبعا مستدقة.

فتبارك الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، ويعفر له خدأً ووجهاً، ويلقي بالطاعة إليه سلماً وضعفاً، ويعطي القياد رهبةً وخوفاً! فالطير مسخرة لأمره، أحصى عدد الريش منها والنفس، وأرسى قوائمها على الندى واليبس، وقدر أقواتها، وأحصى أجناسها، فهذا غراب، وهذا عقاب، وهذا حمام، وهذا نعام، دعا كل طائر باسمه، وكفل له برزقه. وأنشأ السحاب الثقال فأهطل ديمها، وعدد قسمها، فبل الأرض بعد جفوفها، وأخرج نبتها بعد جدوبها. الشرح: قوله: "وأسرج لها حدقتين" أي جعلهما مضيئتين كما يضيء السراج، ويقال: حدقة قمرأ أي منيرة، كما يقال: ليلة قمرأ أي نيرة بضوء القمر، و"بهما تقرض" أي تقطع، والرء مكسورة، والمنجلان: رجلاها، شبههما بالمنجل لعوجهما وخشونتهما، يرهبها: يخافها. ونزواتها: وثباتها. والجذب: المحل.

غرائب الجراد: قال شيخنا أبو عثمان في كتاب "الحيوان": من عجائب الجرادة التماسها لبيضها الموضع الصلد، والصخور الملس، ثقةً منها أنها إذا ضربت بأذناها فيها، انفرجت لها، ومعلوم أن ذنب الجرادة ليس في حلقة المنشار ولا طرف ذنبه كحد السنن، ولا لها من قوة الأسر، ولا لذنبها من الصلابة ما إذا اعتمدت به على الكدية خرج فيها، كيف وهي تتعدى إلى ما هو أصلب من ذلك، وليس في طرفها كإبرة العقرب. وعلى أن العقرب ليس تخرق القمقم، من جهد الأيد وقوة البدن، بل إنما ينفرج لها بطبع مجعول هناك، وكذا انفراج الصخور لأذنان الجراد.

ولو أن عقاباً أرادت أن تخرق جلد الجاموس لما انخرق لها إلا بالتكلف الشديد، والعقاب هي التي تنكدر على الذئب الأطلس، فتقد بدابرهما ما بين صلاه إلى موضع الكاهل.

فإذا غرزت الجرادة، وألقت بيضها، وانضمت عليها تلك الأخاديد التي هي أحدثتها، وصارت كالأفاحيص لها صارت حاضنة لها ومربية، وحافظة وصائنة وواقية، حتى إذا جاء وقت ديبب الروح فيها حدث عجب آخر، وذلك لأنه يخرج من بيضه أصهب إلى البياض، ثم يصفر وتتلون فيه خطوط إلى السواد، ثم يصير فيه خطوط سود وبيض، ثم يبدو حجم

جناحه، ثم يستقل فيموج بعضه في بعض.

قال أبو عثمان، ويزعم قوم أن الجراد قد يريد الخضرة ودونه النهر الجاري، فيصير بعضه جسراً لبعض حتى يعبر إلى الخضرة، وأن ذلك حيلة منها.

وليس كما زعموا، ولكن الزحف الأول من الدبا يريد الخضرة فلا يستطيعها إلا بالعبور إليها، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافية صارت لعمرى أرضاً للزحف الثاني الذي يريد الخضرة، فإن سموا ذلك جسراً استقام، فأما أن يكون الزحف الأول مهد للثاني ومكن له وآثره بالكفاية فهذا ما لا يعرف، ولو أن الزحفين جميعاً أشرفا على النهر، وأمسك أحدهما عن تكلف العبور حتى يمهد له الآخر لكان لما قالوه وجه.

قال أبو عثمان: ولعاب الجراد سم على الأشجار لا يقع على شيء إلا أحرقه.

فأما الحكماء فيذكرون في كتبهم أن أرجل الجراد تقلع الثآليل، وأنه إذا أخذت منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رؤوسها وأطرافها، وجعل معها قليل آس يابس، وشربت للاستسقاء كما هي، نفعت نفعا بيناً، وأن التبخر بالجراد ينفع من عسر البول، وخاصة في النساء، وأن أكله ينفع من تقطيره، وقد يبخر به للبواسير وينفع أكله من لسعة العقرب. ويقال: إن الجراد الطوال إذا علق على من به حمى الربيع نفعه.

قال في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة

من أصول العلم ما لا تجمع خطبة غيرها

الأصل: ما وحده من كيفه، ولا حقيقة أصاب من مثله، ولا إياه عني من شبهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه. كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول، فاعل لا باضطراب آلة، مقدر لا بجول فكرة، غني لا باستفادة، لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله.

الشرح: هذا الفصل يشتمل على مباحث متعددة: أولها قوله: "ما وحده من كيفه"، وهذا حق لأنه إذا جعله مكيفاً جعله ذا هيئة وشكل، أو ذا لون وضوء، إلى غيرهما من أقسام الكيف، ومتى كان كذلك كان جسماً ولم يكن واحداً، لأن كل جسم قابل للانقسام، والواحد حقاً لا يقبل الانقسام، فقد ثبت أنه ما وحده من كيفه.

وثانيها قوله: ولا حقيقته أصاب من مثله" وهذا حق، لأنه تعالى لا مثل له، وقد دلت الأدلة الكلامية والحكمية على ذلك، فمن أثبت له مثلاً، فإنه لم يصب حقيقته تعالى، والسجعة الأخرى تعطي هذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه، وهي قوله عليه السلام: "ولا إياه عني من شبهه" ولهذا قال شيوخنا: إن المشبه لا يعرف الله، ولا تتوجه عباداته وصلواته إلى الله تعالى، لأنه يعبد شيئاً يعتقد جسماء، أو يعتقد مشابهاً لبعض هذه الذوات المحدثه، والعبادة تنصرف إلى المعبود بالقصد، فإذا قصد بها غير الله تعالى لم يكن قد عبد الله سبحانه ولا عرفه، وإنما يتخيل ويتوهم أنه قد عرفه وعبد، وليس الأمر كما تخيل وتوهم. وثالثها قوله عليه السلام: "ولا صمده من أشار إليه" أي أثبتته في جهة، كما تقول الكرامية، الصمد في

اللغة العربية: السيد. والصمد أيضا الذي لا جوف له، وصار التصميد في الاصطلاح العرفي عبارة عن التزييه، والذي قال عليه السلام حق، لأن من أشار إليه - أي أثبتته في جهة كما تقوله الكرامية - فإنه ما صمده، لأنه ما نزّهه عن الجهات، بل حكم عليه بما هو من خواص الأجسام، وكذلك من توهمه سبحانه، أي من تخيل له في نفسه صورة أو هيئة أو شكلاً، فإنه لم يترهه عما يجب تزييه عنه.

ورابعها قوله: "كل معروف بنفسه مصنوع"، هذا الكلام يجب أن يتأول، ويحمل على أن كل معروف بالمشاهدة والحس فهو مصنوع، وذلك لأن الباري سبحانه معروف من طريقين: إحداهما من أفعاله، والأخرى بنفسه، وهي طريقة الحكماء الذين بحثوا في الوجود من حيث هو وجود، فعلموا أنه لا بد من موجود واجب الوجود، فلم يستدلوا عليه بأفعاله، بل أخرج لهم البحث في الوجود أنه لا بد من ذات يستحيل عدمها من حيث هي هي.

فإن قلت: كيف يحمل كلامه على أن كل معروف بالمشاهدة والحس فهو مصنوع وهذا يدخل فيه كثير من الأعراض كالألوان؟ وإذا دخل ذلك فسدت عليه الفقرة الثانية، وهي قوله عليه السلام: "وكل قائم فيما سواه معلول" لأنها للأعراض خاصة، فيدخل أحد مدلول الفقرتين في الأخرى، فيختل النظم!

قلت: يريد عليه السلام بالفقرة الأولى كل معروف بنفسه من طريق المشاهدة مستقلاً بذاته، غير مفتقر في تقومه إلى غيره فهو مصنوع، وهذا يختص بالأجسام خاصة، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه، لأنها متقومة بمحالتها. وخامسها قوله: "وكل قائم في سواه معلول"، أي وكل شيء يقوم بغيره فهو معلول، وهذا حق لا محالة، كالأعراض، لأنها لو كانت واجبة لاستغنت في تقومها عن سواها، لكنها مفتقرة إلى المحل الذي يقوم به ذواتها، فإذا هي معلولة، لأن كل مفتقر إلى الغير فهو ممكن فلا بد له من مؤثر.

وسادسها قوله: "فاعل لا باضطراب آلة" هذا لبيان الفرق بينه وبيننا، فإننا نفعل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة.

وسابعها قوله: "مقدر لا بجول فكرة"، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه، لأننا إذا قدرنا أجلنا أفكارنا، وترددت بنا الدواعي، وهو سبحانه يقدر الأشياء على خلاف ذلك.

وثامنها قوله: "غني لا باستفادة"، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه، لأن الغني منا من يستفيد الغنى بسبب خارجي، وهو سبحانه غني بذاته من غير استفادة أمر يصير به غنياً، والمراد بكونه غنياً أن كل شيء من الأشياء يحتاج إليه، وأنه سبحانه لا يحتاج إلى شيء من الأشياء أصلاً.

وتاسعها قوله: "لا تصحبه الأوقات"، هذا بحث شريف جداً، وذلك لأنه سبحانه ليس بزمان ولا قابل للحركة، فذاته فوق الزمان والدهر، أما المتكلمون فإنهم يقولون: إنه تعالى كان ولا زمان ولا وقت، وأما الحكماء فيقولون: إن الزمان عرض قائم بعرض آخر، وذلك العرض الآخر قائم بجسم معلول لبعض المعلولات الصادرة عنه سبحانه، فالزمان عندهم - وإن كان لم يزل - إلا أن العلة الأولى ليست واقعة تحته، وذلك هو المراد بقوله: "لا تصحبه الأوقات" إن فسرناه على قولهم، وتفسيره على قول المتكلمين أولى.

وعاشرها قوله: "ولا ترفده الأدوات"، ردت فلاناً إذا أعنته، والمراد الفرق بيننا وبينه، لأننا مرفودون بالأدوات، ولولاها لم يصح منا الفعل، وهو سبحانه بخلاف ذلك.

وحادي عشرها قوله: "سبق الأوقات كونه...." إلى آخر الفصل، هذا تمريح بحدوث العالم.

فإن قلت: ما معنى قوله: "والعدم وجوده"، وهل يسبق وجوده العدم مع كون عدم العالم في الأزل لا أول له؟.

قلت: ليس يعني بالعدم ههنا عدم العالم بل عدم ذاته سبحانه، أي غلب وجود ذاته عدمها وسبقها، فوجب له وجود يستحيل تطرق العدم إليه أزلاً وأبداً بخلاف الممكنات، فإن عدمها سابق بالذات على وجودها، وهذا دقيق! الأصل: بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له.

ضاد النور بالظلمة، والوضوح بالبهمة، والجمود بالبلل، والحرور بالبرد، مؤلف بين متعادياتها، مقارن بين متبايناتها، مقرب بين متباعاتها، مفرق بين متدانياتها، لا يشمل بحد، ولا يحسب بعد، وإنما تحد الأدوات أنفسها؟ وتشير الآلات إلى نظائرها.

الشرح: المشاعر الحواس، قال بلعاء بن قيس:

والرأس مرتفع فيه مشاعره

يهدي السبيل له سمع وعينان

قال: يجعله تعالى المشاعر عرف أن لا مشعر له، وذلك لأن الجسم لا يصح منه فعل الأجسام، وهذا هو الدليل الذي يعول عليه المتكلمون في أنه تعالى ليس بجسم.

ثم قال: "وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له"، وذلك لأنه تعالى لما دلنا بالعقل على أن الأمور المتضادة إنما تتضاد على موضوع تقوم به وتحله كان قد دلنا على أنه تعالى لا ضد له، لأنه يستحيل أن يكون قائماً بموضوع يحله كما تقوم المتضادات بموضوعاتها.

ثم قال: "وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له"، وذلك لأنه تعالى قرن بين العرض والجوهر، بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر، وقرن بين كثير من الأعراض، نحو ما يقوله أصحابنا في حياتي القلب والكبد، ونحو الإضافات التي يذكرها الحكماء كالبنوة والأبوة والفوقية والتحتية، ونحو كثير من العلل والمعلولات، والأسباب والمسببات، فيما ركه في العقول من وجوب هذه المقارنة واستحالة انفكاك أحد الأمرين عن الآخر، علمنا أنه لا قرين له سبحانه، لأنه لو قارن شيئاً على حسب هذه المقارنة لاستحال انفكاكه عنه، فكان محتاجاً في تحقيق ذاته تعالى إليه، وكل محتاج ممكن، فواجب الوجود ممكن! هذا محال.

ثم شرع في تفصيل المتضادات، فقال: "ضاد النور بالظلمة"، وهما عرضان عند كثير من الناس، وفيهم من يجعل الظلمة عدمية.

قال: "والوضوح بالبهمة" يعني البياض والسواد.

قال: "والجمود بالبلل"، يعني اليبوسة والرطوبة.

قال: "والحرور بالصدرد" يعني الحرارة والبرودة، والحرور ههنا مفتوح الحاء، يقال: إني لأجد لهذا الطعام حروراً وحرورة في فمي، أي حرارة، ويجوز أن يكون في الكلام مضاف محذوف، أي وحرارة الحرور بالصدرد، والحرور ههنا يكون الريح الحارة، وهي بالليل كالسموم بالنهار، والصدرد: البرد.

ثم قال: وإنه تعالى مؤلف بين هذه المتباعدات، المتعاديات، المتباينات، وليس المراد من تأليفه بينها جمعه إياها في مكان واحد، كيف وذلك مستحيل في نفسه، بل هو سبحانه مؤلف لها في الأجسام المركبة حتى خلع منها صورة مفردة، هي المزاج، ألا ترى أنه جمع الحار والبارد والرطب واليابس، فمزجه مزجاً مخصوصاً حتى انتزع منه طبيعة مفردة، ليست حارة مطلقة، ولا باردة مطلقة، ولا رطبة مطلقة، ولا يابسة مطلقة، وهي المزاج، وهو محدود عند الحكماء بأنه كيفية حاصلة من كيفيات متضادة، وهذا هو محصول كلامه عليه السلام بعينه.

والعجب من فصاحته في ضمن حكمته، كيف أعطى كل لفظة من هذه اللفظات ما يناسبها ويليق بها، فأعطى المتباعدات لفظة "مقرب"، لأن البعد بإزاء القرب، وأعطى المتباينات لفظة "مقارن"، لأن البينونة بإزاء المقارنة، وأعطى المتعاديات لفظة "مؤلف" لأن الائتلاف بإزاء التعادي.

ثم عاد عليه السلام فعكس المعنى، فقال: "مفرق بين متدانياتها"، فجعل الفساد بإزاء الكون، وهذا من دقيق حكمته عليه السلام وذلك لأن كل كائن فاسد، فلما أوضح ما أوضح في الكون والتركيب والإيجاد، أعقبه بذكر الفساد والعدم، فقال: "مفرق بين متدانياتها"، وذلك لأن كل جسم مركب من العناصر المختلفة الكيفيات المتضادة الطبائع، فإنه سيؤول إلى الانحلال والافتراق.

ثم قال: "لا يشمل بحد"، وذلك لأن الحد الشامل ما كان مركباً من جنس وفصل، والباري تعالى موزه عن ذلك، لأنه لو شمله الحد على هذا الوجه يكون مركباً، فلم يكن واجب الوجود، وقد ثبت أنه واجب الوجود، ويجوز أن يعني به أنه ليس بذئ نهاية، فتحويه الأقطار وتحدّه.

ثم قال: "ولا يحسب بعد"، يحتمل أن يريد: لا تحسب أزليته بعد، أي لا يقال له: منذ وجد كذا وكذا، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد، ويحتمل أن يريد به أنه ليس ممثالاً للأشياء فيدخل تحت العدد، كما تعدّ الجواهر، وكما تعدّ الأمور المحسوسة.

ثم قال: "وإنما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها"، هذا يؤكد معنى التفسير الثاني، وذلك لأن الأدوات كالجوارح، إنما تحدّ وتقدر ما كان مثلها من ذوات المقادير، وكذلك إنما تشير الآلات - وهي الحواس - إلى ما كان نظيراً لها في الجسمية ولوازمها، والباري تعالى ليس بذئ مقدار ولا جسم، ولا حال في جسم، فاستحال أن تحدّ الأدوات وتشير إليه الآلات.

الأصل: منعته منذ القدمة، وحتمتها قد الأزلية، وجنبتها لولا التكملة، بما تجلّى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون، ولا تجري عليه الحركة والسكون، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه!.

إذاً لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كنهه، ولا تمتنع من الأزل معناه، ولكان له وراء إذ وجد له أمام، ولا تمتس التمام إذ لزمه النقصان، وإذاً لقامت آية المصنوع فيه، ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه، وخرج بسُلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره.

الشرح: قد اختلف الرواة في هذا الموضع من وجهين: أحدهما قول من نصب "القدمة" و"الأزلية" و"التكملة" فيكون نصبها عنده على أنها مفعول ثان، والمفعول الأول الضمائر المتصلة بالأفعال، وتكون "منذ" وقد "ولولا" في موضع رفع بأنها فاعلة، وتقدير الكلام: إن إطلاق لفظة "منذ" على الآلات والأدوات يمنعها عن كونها قديمة، لأن لفظة "منذ" وضعت لا ابتداء الزمان كلفظة "من" لا ابتداء المكان، والقديم لا ابتداء له، وكذلك إطلاق لفظة قد على الآلات، والأدوات تحميها وتمنعها من كونها أزلية، لأن "قد" لتقريب الماضي من الحال، تقول: قد قام زيد، فقد دل على أن قيامه قريب من الحال التي أخبرت فيها بقيامه، والأزلي لا يصح ذلك فيه، وكذلك إطلاق لفظة "لولا" على الأدوات والآلات يجنبها التكملة، ويمنعها من التمام المطلق، لأن لفظة "لولا" وضعت لامتناع الشيء لوجود غيره، كقولك: لولا زيد لقام عمرو، فامتناع قيام عمرو إنما هو لوجود زيد، وأنت تقول في الأدوات والآلات وكل جسم: ما أحسنه لولا أنه فان! وما أتمه لولا كذا! فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أن الأدوات والآلات محدثة ناقصة، والمراد بالآلات والأدوات أربابها. الوجه الثاني: قول من رفع "القدمة" و"الأزلية" و"التكملة" فيكون كل واحد منها عنده فاعلاً، وتكون الضمائر المتصلة بالأفعال مفعولاً أولاً، ومنذ "وقد" و"لولا" مفعولاً ثانياً، ويكون المعنى أن قدم البارئ وأزليته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق لفظة "منذ" وقد و"لولا" عليه سبحانه، لأنه تعالى قديم كامل، ولفظتنا "منذ" وقد لا يطلقان إلا على محدث، لأن إحداهما لا ابتداء الزمان والأخرى لتقريب الماضي من الحال، ولفظة "لولا" لا تطلق إلا على ناقص، فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قدم البارئ تعالى وكماله، وأنه لا يصح أن يطلق عليه ألفاظ تدل على الحدوث والنقص.

قوله عليه السلام: "بما تجلّى صانعها للعقول، وبما امتنع عن نظر العيون"، أي بهذه الآلات والأدوات التي هي حواسنا ومشاعرنا، وبخلقه إياها، وتصويره لها، تجلّى للعقول وعرف، لأنه لو لم يخلقها لم يعرف، وبما امتنع عن نظر العيون، أي بما استنبطنا استحالة كونه مرئياً بالعيون، لأننا بالمشاعر والحواس كملت عقولنا، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنه لا تصح رؤيته، فإذاً بخلقه الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلاً، وبذلك أيضاً عرفنا أنه يستحيل أن يعرف بغير العقل، وأن قول من قال: إنا سنعرفه رؤيةً ومشافهة بالحاسة باطل.

قوله عليه السلام: "لا تجري عليه الحركة والسكون"، هذا دليل أخذه المتكلمون عنه عليه السلام فنظموه في كتبهم وقرروه، وهو أن الحركة والسكون معان محدثة، فلو حلت فيه لم يخل منها، وما لم يخل من المحدث فهو محدث. فإن قلت: إنه عليه السلام لم يخرج كلامه هذا المخرج، وإنما قال كيف يجري عليه ما هو أجراه، وهذا نط آخر غير ما يقرره المتكلمون!.

قلت: بل هو هو بعينه، لأنه إذا ثبت أنه هو الذي أجرى الحركة والسكون، أي أحدثهما لم يجز أن يجري عليه، لأنهما لو

جربا عليه لم يخل إما أن يجربا عليه على التعاقب، وليسوا ولا واحد منهما بقديم، أو يجربا عليه على أن أحدهما قديم ثم تلاه الآخر، والأول باطل بما يطل به حوادث لا أول لها، والثاني باطل بكلامه عليه السلام، وذلك لأنه لو كان أحدهما قديماً معه سبحانه لما كان أجراه، لكن قد قلنا: إنه أجراه، أي أحدثه، وهذا خلف محال. وأيضاً فإذا كان أحدهما قديماً معه لم يجز أن يتلوه الآخر، لأن القديم لا يزول بالحدث.

ثم قال عليه السلام: إذا لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كنهه، ولا تمتنع من الأزل معناه"، هذا تأكيد لبيان استحالة جريان الحركة والسكون عليه، تقول: لو صح عليه ذلك لكان محدثاً، وهو معنى قوله: "لا تمتنع من الأزل معناه"، وأيضاً كان ينبغي أن تكون ذاته منقسمة، لأن المتحرك الساكن لا بد أن يكون متحيزاً، وكل متحيز جسم، وكل جسم منقسم أبداً، وفي هذا إشارة إلى نفي الجوهر الفرد.

ثم قال عليه السلام: "ولكان له وراء إذا وجد له أمام" هذا يؤكد ما قلناه إنه إشارة إلى نفي الجوهر الفرد، يقول: لو حلتها الحركة لكان جرماً وحجماً، ولكان أحد وجهيه غير الوجه الآخر لا محالة، فكان منقسماً، وهذا الكلام لا يستقيم إلا مع نفي الجوهر الفرد، لأن من أثبتته يقول: يصح أن تحله الحركة، ولا يكون أحد وجهيه غير الآخر، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام.

ثم قال عليه السلام: "ولا التمس التمام إذ لزمه النقصان"، هذا إشارة إلى ما يقوله الحكماء، من أن الكون عدم ونقص، والحركة وجود وكمال، فلو كان سبحانه يتحرك ويسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كماله، فكان ملتصقاً بكماله بالحركة الطارئة على السكون، وواجب الوجود، يستحيل أن يكون له حالة نقصان، وأن يكون له حالة بالقوة وأخرى بالفعل.

قوله عليه السلام: "إذا لقامت آية المصنوع فيه"، وذلك لأن آية المصنوع كونه متغيراً منتقلاً من حال إلى حال، لأننا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام، فلو كان تعالى متغيراً متحركاً منتقلاً من حال إلى حال لتحقق فيه دليل الحدوث، فكان مصنوعاً، وقد ثبت أنه الصانع المطلق سبحانه.

قوله عليه السلام: ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه"، يقول: إنا وجدنا دليلاً على الباري سبحانه، إنما هو الأجسام المتحركة، فلو كان الباري متحركاً لكان دليلاً على غيره، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه، لكنه سبحانه لا صانع له ولا ذات فوق ذاته، فهو المدلول عليه والمنتهى إليه.

قوله عليه السلام: "وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره"، في هذا الكلام هم سامعه أنه عطف على قوله: "لتفاوتت" و"لتجزأ" و"لا تمتنع" و"لكان له" و"لا تلمس" و"لقامت" و"لتحول" وليس كذلك، لأنه لو كان معطوفاً عليها لاختل الكلام وفسد، لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى، والمراد لو تحرك لزم هذه المحالات كلها.

وقوله: "وخرج بسلطان الامتناع" ليس من المستحيلات عليه، بل هو واجب له، ومن الأمور الصادقة عليه، فإذا فسد أن يكون معطوفاً عليها وجب أن يكون معطوفاً على ما كان مدلولاً عليه، وتقدير الكلام: كان يلزم أن يتحول الباري دليلاً على غيره، بعد أن كان مدلولاً عليه، وبعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره، وخروجه بسلطان

الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز، فهذا هو سلطان الامتناع الذي به خرج عن أن يؤثر فيه مما أثر في غيره من الأجسام والممكنات.

الأصل: الذي لا يحول ولا يزول، ولا يجوز عليه الأفعال. لم يلد فيكون مولوداً، ولم يولد فيصير محدوداً. جل عن اتخاذ الأبناء، وطهر عن ملامسة النساء، لا تناله الأوهام فتقدره، ولا بتوهمه الفطن فتصوره، ولا تدركه الحواس فتحسه، ولا تلمسه الأيدي فتمسه، ولا يتغير بحال، ولا يتبدل في الأحوال، ولا تبليه الليالي والأيام، ولا يغيره الضياء والظلام. الشرح: هذا الفصل كله واضح مستغن عن الشرح، إلا قوله عليه السلام: "لم يلد فيكون مولوداً"، لأن لقائل أن يقول: كيف يلزم من فرض كونه والداً أن يكون مولوداً؟ في جوابه: إنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر، وكيف وآدم والد وليس بمولود! وإنما المراد أنه يلزم من فرض صحة كونه والداً صحة كونه مولوداً، والتالي محال والمقدم محال، وإنما قلنا: إنه يلزم من فرض صحة كونه والداً صحة كونه مولوداً، لأنه لو صح أن يكون والداً على التفسير المفهوم من الوالدية، وهو أن يتصور من بعض أجزائه حي آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نعقله في النطفة المنفصلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى، حتى يكون منها بشر آخر من نوع الأول لصح عليه أن يكون هو مولوداً من والد آخر قبله، وذلك لأن الأجسام متمثلة في الجسمية، وقد ثبت ذلك بدليل عقلي واضح في مواضعه التي هي أملك به، وكل مثلين فإن أحدهما يصح عليه ما يصح على الآخر، فلو صح كونه والداً يصح كونه مولوداً.

وأما بيان أنه لا يصح كونه مولوداً، فلأن كل مولود متأخر عن والده بالزمان، وكل متأخر عن غيره بالزمان محدث، فالمولود محدث والباري تعالى قد ثبت أنه قديم، وأن الحدوث عليه محال، فاستحال أن يكون مولوداً، وتم الدليل. الأصل: ولا يوصف بشيء من الأجزاء، ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرض من الأعراض، ولا بالغيرية والأبعاد، ولا يقال: له حد ولا نهاية، ولا انقطاع ولا غاية، ولا أن الأشياء تحويه، فتقله أو تهويه، أو أن شيئاً يحمله فيميله أو يعدله. ليس في الأشياء بواجب، ولا عنها بخارج.

يخبر لا بلسان ولهوات، ويسمع لا بخروق وأدوات. يقول ولا يلفظ، ويحفظ ولا يتحفظ، ويريد ولا يضم، يحب ويرضى من غير رقة، ويبغض ويبغض من غير مشقة، يقول لمن أراد كونه: كن فيكون، لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله، لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً.

الشرح: في هذا الفصل مباحث: أولها: أن الباري سبحانه لا يوصف بشيء من الأجزاء، أي ليس بمركب، لأنه لو كان مركباً لافتقر إلى أجزائه، وأجزاؤه ليست نفس هويته، وكل ذات تفتقر هويتها إلى أمر من الأمور فهي ممكنة، لكنه واجب الوجود، فاستحال أن يوصف بشيء من الأجزاء.

وثانيها: أنه لا يوصف بالجوارح والأعضاء كما يقول مثبتو الصورة، وذلك لأنه لو كان كذلك لكان جسماً، وكل جسم ممكن، وواجب الوجود غير ممكن.

وثالثها: أنه لا يوصف بعرض من الأعراض كما يقوله الكرامية، لأنه لو حله العرض لكان ذلك العرض ليس بأن يحل فيه أولى من أن يحل هو في العرض، لأن معنى الحلول حصول العرض في حيز المحل تبعاً لحصول المحل فيه، فما ليس بمتحيز لا

يتحقق فيه معنى الحلول، وليس بأن يجعل محلاً أولى من أن يجعل حالاً!

ورابعها: أنه لا يوصف بالغيرية والأبعاض، أي ليس له بعض، ولا هو ذو أقسام بعضها غيراً للبعض الآخر، وهذا يرجع إلى البحث الأول.

وخامسها: أنه لا حد له ولا نهاية، أي ليس ذا مقدار، ولذلك المقدار طرف ونهاية، لأنه لو كان ذا مقدار لكان جسماً، لأن المقدار من لوازم الجسمية، وقد ثبت أنه تعالى ليس بجسم.

وسادسها: أنه لا انقطاع لوجوده، ولا غاية، لأنه لو جاز عليه العدم في المستقبل لكان وجوده الآن متوقفاً على عدم سبب عدمه، وكل متوقف على الغير فهو ممكن في ذاته، والباري تعالى واجب الوجود، فاستحال عليه العدم، وأن يكون لوجوده انقطاع، أو ينتهي إلى غاية يعدم عندها.

وسابعها: أن الأشياء لا تحويه فتقله، أي ترفعه، أو تهويه: أي تجعله هاوياً إلى جهة تحت، لأنه لو كان كذلك لكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشيء الحاوي له، لكن قد بينا أنه يستحيل عليه المقادير، فاستحال كونه محوياً. وثامنها: أنه ليس يحمل شيء فيميله إلى جانب، أو يعدله بالنسبة إلى جميع الجوانب، لأن كل محمول مقدر، وكل مقدر جسم، وقد ثبت أنه ليس بجسم.

وتاسعها: أنه ليس في الأشياء بواجب، أي داخل. ولا عنها بخارج، هذا مذهب الموحدين، والخلاف فيه مع الكرامية والجسمة، وينبغي أن يفهم قوله عليه السلام: "ولا عنها بخارج أنه لا يريد سلب الولوج، فيكون قد خلا من النقيضين، لأن ذلك محال، بل المراد بكونه لشر خارجاً عنها أنه ليس كما يعتقد كثير من الناس، أن الفلك الأعلى المحيط لا يحتوي عليه، ولكنه ذات موجودة متميزة بنفسها، قائمة بذاتها، خارجة عن الفلك في الجهة العليا، بينها وبين الفلك بعد، إما غير متناه - على ما يحكى عن ابن الهيصم - أو متناه على ما يذهب إليه أصحابه، وذلك أن هذه القضية، وهي قولنا: الباري خارج عن الموجودات كلها على هذا التفسير ليست مناقضة للقضية الأولى، وهي قولنا: الباري داخل العالم، ليكون القول بخلوه عنهما قولاً بخلوه عن النقيضين، ألا ترى أنه يجوز أن تكون القضيتان كاذبتين معاً، ألا يكون الفلك المحيط محتوياً عليه، ولا يكون حاصلاً في جهة خارج الفلك، ولو كانت القضيتان متناقضتين لما استقام ذلك، وهذا كما تقول: زيد في الدار زيد في المسجد، فإن هاتين القضيتين ليستا متناقضتين، لجواز ألا يكون زيد في الدار، ولا في المسجد، فإن هاتين لو تناقضتا لاستحال الخروج عن النقيضين، لكن المتناقض: "زيد في الدار، زيد ليس في الدار"، والذي يستشعنه العوام من قولنا: "الباري لا داخل العالم ولا خارج العالم" غلط مبني على اعتقادهم وتصورهم أن القضيتين تتناقضان، وإذا فهم ما ذكرناه بان أنه ليس هذا القول بشنيع، بل هو سهل وحق أيضاً، فإنه تعالى لا متحيز ولا حال في المتحيز، وما كان كذلك استحال أن يحصل في جهة، لا داخل العالم ولا خارج العالم، وقد ثبت كونه غير متحيز ولا حال في المتحيز، من حيث كان واجب الوجود، فإذا القول بأنه ليس في الأشياء بواجب ولا عنها بخارج صواب وحق.

وعاشرها: أنه تعالى يخبر بلا لسان ولهوات، وذلك لأن كونه تعالى مخبراً هو كونه فاعلاً للخبر، كما أن كونه ضارباً هو كونه فاعلاً للضرب، فكما لا يحتاج في كونه ضارباً إلى أداة وجارحة يضرب بها كذلك لا يحتاج في كونه مخبراً إلى لسان

ولهوات يخبر بها.

وحادي عشرها: أنه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات، وذلك لأن الباري سبحانه حي لا آفة به، وكل حي لا آفة به، فواجب أن يسمع المسموعات، ويبصر المبصرات، ولا حاجة به سبحانه إلى حروف وأدوات، كما نحتاج نحن إلى ذلك، لأننا أحياء بحياة تحلنا، والباري تعالى حي لذاته، فلما افترقنا فيما به كان سامعاً ومبصراً، افترقنا في الحاجة إلى الأدوات والجوارح.

وثاني عشرها: أنه يقول ولا يتلفظ، هذا بحث لفظي، وذلك لأنه قد ورد السمع بتسميته قائلاً، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة، نحو قوله: "وإذ قال الله يا عيسى! وقال الله إني معكم!"، ولم يرد في السمع إطلاق كونه متلفظاً عليه، وفي إطلاقه إيهام كونه ذا جارحة، فوجب الاقتصار على ما ورد، وترك ما لم يرد. وثالث عشرها: أنه تعالى يحفظ ولا يتحفظ، أما كونه يحفظ فيطلق على وجهين: أحدهما أنه يحفظ بمعنى أنه يحمي أعمال عباده ويعلمها، والثاني كونه يحفظهم ويحرسهم من الآفات والدواهي. وأما كونه لا يتحفظ فيحتمل معنيين. أحدهما أنه لا يجوز أن يطلق عليه أنه يتحفظ الكلام، أي يتكلف كونه حافظاً له، ومحيطاً وعالمًا به، كالواحد منا يتحفظ الدرس ليحفظه، فهو سبحانه حافظ غير متحفظ. والثاني أنه ليس بمتحيز ولا مشفق على نفسه خوفاً أن تبدر إليه بادرة من غيره.

ورابع عشرها: أنه يريد ولا يضر، أما كونه مريداً فقد ثبت بالسمع نحو قوله تعالى: "يريد الله بكم اليسر!"، وبالعقل لاختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة، وكيفيات مخصوصة، جاز أن تقع على خلافها، فلا بد من مخصص لها بما اختصت به، وذلك كونه مريداً، وأما كونه لا يضر فهو إطلاق لفظي لم يأذن فيه الشرع، وفيه إيهام كونه ذا قلب، لأن الضمير في العرف اللغوي ما استكن في القلب، والباري ليس بجسم.

وخامس عشرها: أنه يحب ويرضى من غير رقة، ويغض ويغضب من غير مشقة، وذلك لأن محبته للعبد إرادته أن يشي به ورضاه عنه أن يحمد فعله، وهذا يصح ويطلق على الباري، لا كإطلاقه علينا، لأن هذه الأوصاف يقتضي إطلاقها علينا رقة القلب، والباري ليس بجسم، وأما بغضه للعبد فإرادة عقابه وغضبه كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به، وفي الأغلب إنما يطلق ذلك علينا ويصح منا مع مشقة تنالنا من إزعاج القلب وغليان دمه، والباري ليس بجسم.

وسادس عشرها: أنه يقول لما أراد كونه: كن، فيكون من غير صوت يقرع، ولا نداء يسمع، هذا مذهب شيخنا أبي الهذيل، وإليه يذهب الكرامية وأتباعها من الحنابلة وغيرهم، والظاهر أن أمير المؤمنين عليه السلام أطلقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن في مخاطبة الناس بما قد سمعوه وأنسوا به، وتكرر على أسماعهم وأذهانهم، فأما باطن الآية وتأويلها الحقيقي فغير ما يسبق إلى أذهان العوام، فليطلب من موضعه.

وسابع عشرها: أن كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً، هذا هو دليل المعتزلة على نفي المعاني القديمة التي منها القرآن، وذلك لأن القدم عندهم أحص صفات الباري تعالى، أو موجب عن الأخص، فلو أن في الوجود معنى قديماً قائماً بذات الباري، لكان ذلك المعنى مشاركاً للباري في أحص صفاته، وكان

يجب لذلك المعنى جميع ما وجب للباري من الصفات، نحو العالمية والقادرية وغيرهما، فكان إلهاً ثانياً.

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام "ومثله"؟

قلت: يقال: مثلت له كذا تمثيلاً، إذا صورت له مثاله بالكتابة أو غيرها، فالباري مثل القرآن لجبرائيل عليه السلام بالكتابة في اللوح المحفوظ فأنزله على محمد صلى الله عليه وسلم. وأيضاً يقال: مثل زيد بحضرتي إذا حضر قائماً، ومثله بين يدي زيد أي أحضرته منتصباً، فلما كان الله تعالى فعل القرآن واضحاً بيناً كان قد مثله للمكلفين.

الأصل: لا يقال كان بعد أن لم يكن، فتجري عليه الصفات المحدثات ولا يكون بينها وبينه فصل، ولا له عليها فضل، فيستوي الصانع والمصنوع، ويتكافأ المبتدع والبديع.

خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره، ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه، وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، وأرسلها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم، وحصلها من الأود والاعوجاج، ومنعها من التهافت والانفراج، أرسى أوتادها، وضرب أسدادها، واستفاض عيونها، وخذ أوديتها، فلم يهن ما بناه ولا ضعف ما قواه.

الشرح: عاد عليه السلام إلى تنزيه الباري تعالى عن الحدوث، فقال: لا يجوز أن يوصف به فتجري عليه الصفات المحدثات كما تجري على كل محدث، وروي: "فتجري عليه صفات المحدثات" وهو أليق، ليعود إلى المحدثات ذوات الصفات ما بعده، وهو قوله عليه السلام: "ولا يكون بينه وبينها فصل"، لأنه لا يحسن أن يعود الضمير في قوله: "وبينها" إلى "الصفات" بل إلى ذوات الصفات.

قال: لو كان محدثاً لجرت عليه صفات الأجسام المحدثه، فلم يكن بينه وبين الأجسام المحدثه فرق، فكان يستوي الصانع والمصنوع، وهذا محال.

ثم ذكر أنه خلق الخلق غير محتذ لمثال، ولا مستفيد من غيره كيفية الصنعة، بخلاف الواحد منا، فإن الواحد منا لا بد أن يتحذي في الصنعة، كالبناء والتجار والصانع وغيرها.

قال عليه السلام: "و لم يستعن على خلقها بأحد من خلقه"، لأنه تعالى قادر لذاته لا يعجزه شيء.

ثم ذكر إنشاءه تعالى الأرض، وأنه أمسكها من غير اشتغال منه بإمسакها، وغير ذلك من أفعاله ومخلوقاته، ليس كالواحد منا يمسك الثقيل فيشتغل بإمسأكه عن كثير من أموره.

قال: "وأرسلها"، جعلها راسية على غير قرار تتمكن عليه، بل واقفة بإرادته التي اقتضت وقوفها، ولأن الفلك يجذبها من جميع جهاتها - كما قيل - أو لأنه يدفعها من جميع جهاتها، أو لأن أحد نصفها صاعد بالطبع، والآخر هابط بالطبع، فاقتضى التعادل وقوفها، أو لأنها طالبة للمركز فوقفت.

والأود: الإعوجاج، وكرر لاختلاف اللفظ، والتهافت: التساقط. والأسداد: جمع سد، وهو الجبل، ويجوز ضم السين، واستفاض عيونها، بمعنى أفاض، أي جعلها فائضة، وخذ أوديتها، أي شققها. فلم يهن ما بناه، أي لم يضعف.

الأصل: هو الظاهر عليها بسلطانها وعظمتها، وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته، والعالي على كل شيء منها بجلاله وعزته، لا

يعجزه شيء منها طلبه، ولا يمتنع عليه فيغلبه، ولا يفوته السريع منها فيسبقه، ولا يحتاج إلى ذي مال فيرزقه. خضعت الأشياء له، وذلت مستكينة لعظمته، لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره، ولا كفء له فيكافئه، ولا نظير له فيساويه.

هو المفني لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها، وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها. وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها - من طيرها وبهائمها، وما كان من مراحها وسائمها، وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتبلدة أممها وأكياسها - على إحداث بعوضة، ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت، وعجزت قواها، ورجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنها مقفورة، مقرة بالعجز عن إنشائها، مدعنة بالضعف عن إفنائها.

الشرح: الظاهر: الغالب القاهر، والباطن: العالم الخبير، والمراح بضم الميم: النعم ترد إلى المراح، بالضم أيضاً، وهو الموضع الذي تأوي إليه النعم، وليس المراح ضد السائم على ما يظنه بعضهم، ويقول: إن عطف أحدهما على الآخر عطف على المختلف والمتضاد، بل أحدهما هو الآخر وضدهما المعلوفة، وإنما عطف أحدهما على الآخر على طريقة العرب في الخطابة، ومثله في القرآن كثير، نحو قوله سبحانه: لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب!، وأسناخها: جمع سنخ بالكسر، وهو الأصل.

وقوله: "لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة"، هو معنى قوله سبحانه: "إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له!.

فإن قلت: ما معنى قوله: "لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره"؟ وهلا قال: "من ضره"؟ ولم يذكر النفع، فإنه لا معنى لذكره ههنا!.

قلت: هذا كما يقول المعتصم بمعقل حصين عن غيره: ما يقدر اليوم فلان لي على نفع ولا ضرر، وليس غرضه إلا ذكر الضرر، وإنما يأتي بذكر النفع على سبيل سلب القدرة عن فلان على كل ما يتعلق بذلك المعتصم، وأيضاً فإن العفو عن المجرم نفع له، فهو عليه السلام يقول: إنه ليس شيء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى، ويستغني عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه.

الأصل: وإنه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها، بلا وقت ولا مكان، ولا حين ولا زمان.

عدمته عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات، فلا شيء إلا الله الواحد القهار، الذي إليه مصير جميع الأمور.

بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها، لم يتكأده صنع شيء منها إذ صنعه، ولم يؤده منها خلق ما برأه وخلقها، ولم يكون لها لتشديد سلطان، ولا لخوف من زوال ونقصان، ولا للاستعانة بها على ند مكاثراً، ولا للاحتراز بها من ضد مئاور، ولا للازدياد بها في ملكه، ولا لمكاثرة شريك في شركه، ولا لوحشة كانت منه، فأراد أن يستأنس إليها. ثم هو يفنيها بعد تكوينها، لا لسأم دخل عليه في تصريفها وتديرها، ولا

لراحة واصلة إليه، ولا لثقل شيء منها عليه، لا يمله طول بقائها فيدكوه إلى سرعة إفنائها، ولكنه سبحانه دبرها بلطفه، وأمسكها بأمره، وأتقنها بقدرته، ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها، ولا استعان بشيء منها عليها، ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استئناس، ولا من حال جهل وعمى إلى حال علم والتماس، ولا من فقر وحاجة، إلى غنى وكثرة، ولا من ذل وضعة، إلى عز وقدرة.

الشرح: شرع أولاً في ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها ويقوم بها من الأعراض قبل القيامة، وذلك لأن الكتاب العزيز قد ورد به، نحو قوله تعالى: "كما بدأنا أول خلق نعيده"، ومعلوم أنه بدأه عن عدم، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضاً. وقال تعالى: "هو الأول والآخر"، وإنما كان أولاً لأنه كان موجوداً، ولا شيء من الأشياء بموجود، فوجب أن يكون آخراً كذلك، هذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين.

ثم ذكر أنه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان، ولا حين ولا زمان، وذلك لأن المكان إما الجسم الذي يتمكن عليه جسم آخر، أو الجهة، وكلاهما لا وجود له بتقدير عدم الأفلاك وما في حشوها من الأجسام، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلأن الجهة لا تتحقق إلا بتقدير وجود الفلك، لأنها أمر إضافي بالنسبة إليه، فبتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقق أصلاً، وهذا هو القول في عدم المكان حينئذ، وأما الزمان والوقت والحين فكل هذه الألفاظ تعطي معنى واحداً، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك، لأن الزمان هو مقدار حركة الفلك، فإذا قدرنا عدم الفلك فلا حركة ولا زمان. ثم أوضح عليه السلام ذلك وأكدته، فقال: "عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات"، لأن الأجل هو الوقت الذي يحل فيه الدين أو تبطل فيه الحياة، وإذا ثبت أنه لا وقت، ثبت أنه لا أجل، وكذلك لا سنة ولا ساعة، لأنها أوقات مخصوصة.

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر الدنيا، فقال: "بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها"، يعني أنها مسخرة تحت الأمر الإلهي.

قال: "ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها"، لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه في مراده، وإنما تمناعه في مراده لو كانت قادرة لذاها، ولو كانت قادرة لذاها وأرادت البقاء لبقيت.

قوله عليه السلام: "ألم يتكأده" بالمد، أي لم يشق عليه، ويجوز "لم يتكأده" بالتشديد والهمزة، وأصله من العقبة الكؤود، وهي الشاقة.

قال: ولم يؤده"، أي لم يثقله.

ثم ذكر أنه تعالى لم يخلق الدنيا ليشد بها سلطانه، ولا لخوفه من زوال أو نقص يلحقه، ولا ليستعين بها على ند مماثل له، أو يجترز بها عن ضد محارب له، أو ليزداد بها ملكه ملكاً، أو ليكاثر بها شريكاً في شركته له، أو لأنه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بمن خلق.

ثم ذكر أنه تعالى: "سيفنيها بعد إيجادها" لا لضجر لحقه في تدبيرها، ولا لراحة تصله في إعدامها، ولا لثقل شيء منها عليه حال وجودها، ولا لملل أصابه فبعثه على إعدامها.

ثم عاد عليه السلام، فقال: إنه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء، لا لحاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض، ولا لأنه استوحش حال عدمها فأحب أن يستأنس بإعادتها، ولا لأنه فقد علماً عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم، ولا لأنه صار فقيراً عند إعدامها فأحب أن يتكثر ويثري بإعادتها، ولا لذل أصابه بإفنائها فأراد العز بإعادتها. فإن قلت: إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا، وكان من قبل أوجدها لا لكذا ولا لكذا، ثم قلت: إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا، فلا يـ حال أوجدها أولاً، ولأي حال أفناها ثانياً، ولأي حال أعادها ثالثاً؟ خبرونا عن ذلك، فإنكم قد حكيتـ عنه عليه السلام الحكم ولم تحكوا عنه العلة!

قلت: إنما أوجدها أولاً للإحسان إلى البشر ليعرفوه، فإنه لو لم يوجد لهم لبقـي مجهولاً لا يعرف، ثم كلف البشر ليعرضهم للمترلة الجليـلة التي لا يمكن وصولهم إليها إلا بالتكليف وهي الثواب، ثم يفنيهم لأنه لا بد من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاق التكليف، وإذا كان لا بد من انقطاعه فلا فرق بين انقطاعه بالعدم المطلق، أو بتفريق الأجزاء، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع، وفيه لطف زائد للمكلفين، لأنه أردع وأهيب في صدورهم من بقاء أجزائهم، واستمرار وجودها غير معدومة.

ثم إنه سبحانه يبعثهم ويعيدهم ليوصل إلى كل إنسان ما يستحقه من ثواب أو عقاب، ولا يمكن إيصال هذا المستحق إلا بالإعادة، وإنما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه التعليقات، لأنه قد أشار إليها فيما تقدم من كلامه، وهي موجودة في فرش خطبه، ولأن مقام الموعظة غير مقام التعليل، وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة يسلك مسلك الموعظة في ضمن تمجيد الباري سبحانه وتعظيمه، وليس ذلك بمظنة التعليل والحجاج.

ومن خطبة له تختص بذكر الملاحم

الأصل: ألا بآبي وأمي هم من عدة! أسماؤهم في السماء معروفة، وفي الأرض مجهولة ألا فتوقعوا ما يكون من إدار أموركم، وانقطاع وصلكم، واستعمال صغاركم. ذاك حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون من الدرهم من حله! ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي، ذاك حيث تسكرون من غير شراب، بل من النعمة والنعيم، وتحلفون من غير اضطرار، وتكذبون من غير إحراج، ذاك إذا عضكم البلاء، كما يعض القتب غارب البعير. ما أطول هذا العناء! وأبعد هذا الرجاء!. أيها الناس، ألقوا هذه الأزمة التي تحمل ظهورها الأثقال من أيديكم، ولا تصدعوا على سلطانكم فتدموا غب فعالكم، ولا تقتحموا ما استقبلتم من فور نار الفتنة، وأميطوا عن سنها، وخلوا قصد السبيل لها، فقد لعمرى يهلك في هبها المؤمن، ويسلم فيها غير المسلم. إنما مثلي بينكم كمثل السراج في الظلمة يستضيء به من ولجها، فامسمعوا أيها الناس وعوا وأحضروا آذان قلوبكم تفهموا. الشرح: الإمامية تقول: هذه العدة هم الأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام. وغيرهم يقول: إنه عنى الأبدال الذين هم أولياء الله في الأرض، وقد تقدم منا ذكر القطب والأبدال، وأوضحنا ذلك إيضاحاً جلياً.

قوله عليه السلام: "أسمأؤهم في السماء معروفة"، أي تعرفها الملائكة المعصومون، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم.

وفي الأرض مجهولة، أي عند الأكثرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشر.

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته في ذكر الملاحم والفتن الكائنة في آخر زمان الدنيا، فقال لهم: توقعوا ما يكون من إدبار أموركم، وانقطاع وصلكم - جمع وصلة - واستعمال صغاركم، أي يتقدم الصغار على الكبار، وهو من علامات الساعة، قال: ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقل مشقة من احتمال المشقة في اكتساب درهم حلال، وذلك لأن المكاسب تكون قد فسدت واختلطت، وغلب الحرام الحلال فيها.

قوله: "ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطى"، معناه أن أكثر من يعطي ويتصدق في ذلك الزمان يكون ماله حراماً فلا أجر له في التصديق به، ثم أكثرهم يقصد الرياء والسمعة بالصدقة أو لهوى نفسه، أو لخطرة من خطراته، ولا يفعل الحسن لأنه حسن، ولا الواجب لوجوبه، فتكون اليد السفلى خيراً من اليد العليا، عكس ما ورد في الأثر، وأما المعطى فإنه يكون فقيراً ذا عيال، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال! فإذا أخذه ليسد به خلته، ويصرفه في قوت عياله، كان أعظم أجراً ممن أعطاه.

وقد خطر لي فيه معنى آخر، وهو أن صاحب المال الحرام إنما يصرفه في أكثر الأحوال وأغلبها في الفساد وارتكاب المخطور، كما قال: !من اكتسب مالاً من نھاوش، أذهب الله في نھابر". فإذا أخذه الفقير منه على وجه الصدقة فقد فوت عليه صرفه في تلك القبائح والمخطورات التي كان بعرضته صرف ذلك القدر فيها لو لم يأخذه الفقير، فإذا قد أحسن الفقير إليه بكفه عن ارتكاب القبيح، ومن العصمة ألا يقدر فكان المعطى أعظم أجراً من المعطى.

قوله عليه السلام: "ذاك حيث تسكرون من غير شراب، بل من النعمة"، بفتح النون، وهي غضارة العيش، وقد قيل في المثل: سكر الهوى أشد من سكر الخمر.

قال: "تحلفون من غير اضطرار"، أي تنهانون باليمين وبذكر الله عز وجل.

قال: أو تكذبون من غير إحراج"، أي يصير الكذب لكم عادة ودربة، لا تفعلونه لأن آخر منكم قد أخرجكم واضطرركم بالغيب إلى الحلف. وروي من غير "إحواج" بالواو، أي من غير أن يحوجكم إليه أحد.

قال: ذلك إذا عضكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير. هذا الكلام غير متصل بما قبله، وهذه عادة الرضي رحمه الله يلتقط الكلام التقاطاً، ولا يتلو بعضه بعضاً، وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدم من الأجزاء الأول، وقبل هذا الكلام ذكر ما يناله شيعته من البؤس والقنوط ومشقة انتظار الفرج.

قوله عليه السلام: "ما أطول هذا العناء، وأبعد هذا الرجاء"! هذا حكاية كلام شيعته وأصحابه.

ثم قال مخاطباً أصحابه الموجودين حوله: أيها الناس، ألقوا هذه الأزمة التي تحمل ظهورها الأثقال عن أيديكم. هذه كناية عن النهي عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإثم والعقاب. والظهور ههنا: هي الإبل أنفسها. والأثقال: المآثم. وإلقاء الأزمة: ترك اعتماد القبيح، فهذا عموم، وأما خصوصه فتعريض بما كان عليه أصحابه من الغدر ومخامرة العدو عليه، وإضممار الغل والغش له، وعصيانه والتلوي عليه، وقد فسره بما بعده فقال: "ولا تصدعوا عن سلطانكم" أي لا

تفرقوا، افتدوا غب فعالكم"، أي عاقبته.

ثم نهاهم عن اقتحام ما استقبلوه من فور نار الفتنة وفور النار: غلباها واحتدامها، ويروى: "ما استقبلكم".

ثم قال: "وأميطوا عن سننها" أي تنحوا عن طريقها، وخلوا قصد السبيل لها، أي دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا حطباً لنارها.

ثم ذكر أنه قد يهلك المؤمن في لخبها، ويسلم فيه الكافر، كما قيل: المؤمن ملقى والكافر موقى.

ثم ذكر أن مثله فيهم كالسرج يستضيء بها من ولجها، أي دخل في ضوئها.

وآذان قلوبكم، كلمة مستعارة، جعل للقلب آذاناً كما جعل الشاعر للقلوب أبصاراً، فقال:

فتبصره بأبصار القلوب

يدق على النواظر ما أتاه

قال في الوصية بالتقوى

الأصل: أوصيكم أيها الناس بتقوى الله وكثرة حمده على آلائه إليكم، ونعمائه عليكم، وبلائه لديكم، فكم خصكم

بنعمة، وتداركم برحمة! أعورتم له فستركم، وتعرضتم لأخذه فأمهلكم!.

وأوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم، وطمعكم فيمن ليس يمهلكم، فكفى واعظاً

يموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين، وأنزلوا فيها غير نازلين، كأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً، وكأن الآخرة لم

تزل لهم داراً. أوحشوا ما كانوا يوطنون، وأوطنوا ما كانوا يوحشون، واشتغلوا بما فارقوا، وأضاعوا ما إليه انتقلوا، لا عن

قبيح يستطيعون انتقالاً، ولا في حسن يستطيعون ازدياداً، أنسوا بالدنيا فغرقتهم، ووثقوا بما فصرعتهم.

فسابقوا رحمكم الله إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها، والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر

على طاعته، والمجانبة لمعصيته، فإن غدا من اليوم قريب، ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع

الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر!.

الشرح: أعورتم، أي انكشفتهم وبدت عوراتكم، وهي المقاتل، تقول: أعور الفارس، إذا بدت مقاتله، وأعورك الصيد إذا

أمكنك منه.

قوله عليه السلام: أوحشوا ما كانوا يوطنون أي أوطنوا قبورهم التي كانوا يوحشونها.

قوله عليه السلام: "اشتغلوا بما فارقوا"، أي اشتغلوا وهم في القبور بما فارقوه من الأموال والقينات، لأنها أذى وعقاب

عليهم في قبورهم، ولولاها لكانوا في راحة. ويجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد في الدنيا، أي اشتغلوا أيام حياتهم من

الأموال والمنازل بما فارقوه، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه.

ثم ذكر أنهم لا يستطيعون فعل حسنة، ولا توبة من قبيح، لأن التكليف سقط، والمنازل التي أمروا بعمارها، المقابر،

وعمارها الأعمال الصالحة.

وقوله عليه السلام: "إن غداً من اليوم قريب" كلام يجري مجرى المثل، قال:

غد ما غد ما أقرب اليوم من غد

والأصل فيه قول الله تعالى: "إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب !. وقوله عليه السلام: "ما أسرع الساعات في اليوم..." إلى آخر الفصل، كلام شريف وجيز بالغ في معناه، والفصل كله نادر لا نظير له.

قال في الإيمان ووجوب الهجرة

الأصل: فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور، إلى أجل معلوم فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتى يحضره الموت، فعند ذلك يقع حد البراءة.

والهجرة قائمة على حدها الأول، ما كان لله في أهل الأرض حاجة من مستسر الأمة ومعلنها. لا يقع اسم الهجرة على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض، فمن عرفها وأقر بما فهو مهاجر، ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه، ووعاها قلبه.

إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة، وأحلام رزينة.

أيها الناس. سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها، وتذهب بأحلام قومها.

الشرح: هذا الفصل يحمل على عدة مباحث: أولها قوله عليه السلام: فمن الإيمان ما يكون كذا. فنقول: إنه قسم الإيمان إلى ثلاثة أقسام: أحدها: الإيمان الحقيقي، وهو الثابت المستقر في القلوب بالبرهان اليقيني.

الثاني: ما ليس ثابتاً بالبرهان اليقيني بل بالدليل الجدلي، كإيمان كثير ممن لم يحقق العلوم العقلية، ويعتقد ما يعتقده عن أقيسة جدلية لا تبلغ إلى درجة البرهان، وقد سمي عليه السلام هذا القسم باسم مفرد، فقال: إنه عواري في القلوب، والعواري: جمع عارية أي هو وإن كان في القلب وفي محل الإيمان الحقيقي إلا أن حكمه حكم العارية في البيت، فإنها بعرضة الخروج منه، لأنها ليست أصلية كائنة في بيت صاحبها.

والثالث: ما ليس مستنداً إلى برهان ولا إلى قياس جدلي، بل على سبيل التقليد وحسن الظن بالأسلاف، وبمن يحسن ظن الإنسان فيه من عابد أو زاهد أو ذي ورع، وقد جعله عليه السلام عواري بين القلوب والصدور لأنه دون الثاني، فلم يجعله حالاً في القلب، وجعله مع كونه عارية حالاً بين القلب والصدر. فيكون أضعف مما قبله.

فإن قلت: فما معنى قوله: "إلى أجل معلوم"؟

قلت: إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين، لأن من لا يكون إيمانه ثابتاً بالبرهان القطعي قد ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعياً، بأن ينعم النظر ويرتب البرهان ترتيباً مخصوصاً، فينتج له النتيجة اليقينية، وقد يصير إيمان المقلد إيماناً جدلياً فيرتقي إلى ما فوقه مرتبة، وقد يصير إيمان الجدلي إيماناً تقليدياً بأن يضعف في نظره ذلك القياس الجدلي، ولا يكون عالماً بالبرهان، فيؤول حال إيمانه إلى أن يصير تقليدياً، فهذا هو فائدة قوله: "إلى أجل معلوم" في هذين القسمين.

فأما صاحب القسم الأول فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم، لأن من ظفر بالبرهان استحالة أن ينتقل عن اعتقاده، لا صاعداً ولا هابطاً؟ أما لا صاعداً، فلأنه ليس فوق البرهان مقام آخر، وأما لا هابطاً، فلأن مادة البرهان هي المقدمات البديهية والمقدمات البديهية يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جديلاً أو تقليدياً.

وثانيها قوله عليه السلام: "إذا كانت لكم براءة"، فنقول: إنه عليه السلام نهي عن البراءة من أحد ما دام حياً، لأنه وإن كان مخطئاً في اعتقاده، لكن يجوز أن يعتقد الحق فيما بعد، وإن كان مخطئاً في أفعاله، لكن يجوز أن يتوب. فلا تحل البراءة من أحد حتى يموت على أمر، فإذا مات على اعتقاد قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه، لأنه لم يبق له بعد الموت حالة تنتظر، وينبغي أن تحمل هذه البراءة التي أشار إليها عليه السلام على البراءة المطلقة، لا على كل براءة، لأننا يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وهو حي، ومن الكافر وهو حي، لكن بشرط كونه فاسقاً، وبشرط كونه كافراً، فأما من مات ونعلم ما مات عليه فإننا نبرأ منه براءة مطلقة غير مشروطة.

وثالثها قوله: "والهجرة قائمة على حدها الأول"، فنقول: هذا كلام يختص به أمير المؤمنين عليه السلام، وهو من أسرار الوصية، لأن الناس يروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا هجرة بعد الفتح"، فشفع عمه العباس في نعيم بن مسعود الأشجعي أن يستثنيه، فاستثناه، وهذه الهجرة التي يشير إليها أمير المؤمنين عليه السلام ليست تلك الهجرة، بل هي الهجرة إلى الإمام، قال: إنها قائمة على حدها الأول ما دام التكليف باقياً، وهو معنى قوله: "ما كان الله تعالى في أهل الأرض حاجة". وقال الراوندي: ما ههنا نافية، أي لم يكن لله في أهل الأرض من حاجة، وهذا ليس بصحيح، لأنه إدخال كلام منقطع بين كلامين متصل أحدهما بالآخر.

ثم ذكر أنه لا يصح أن يعد الإنسان من المهاجرين إلا بمعرفة إمام زمانه، وهو معنى قوله: "إلا بمعرفة الحجة في الأرض". قال: "فمن عرف الإمام وأقر به فهو مهاجر".

قال: ولا يجوز أن يسمى من عرف الإمام مستضعفاً، يمكن أن يشير به إلى آيتين في القرآن: إحداهما قوله تعالى: "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم"، فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كما كان هؤلاء مستضعفين، وإن كان في بلده وأهله لم يخرج ولم يتجشم مشقة السفر.

ثانيهما قوله تعالى في الآية التي تلي الآية المذكورة: "إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم"، فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى من الظالمين، لأن أولئك كانت الهجرة بالبدن مفروضة عليهم، وعفي عن ذوي العجز عن الحركة منهم، وشيعة الإمام عليه السلام ليست الهجرة بالبدن مفروضة عليهم، بل تكفي معرفتهم به وإقرارهم بإمامته، فلا يقع اسم الاستضعاف عليهم.

فإن قلت: فما معنى قوله: "من مستسر الأمة ومعلنها"، وبماذا يتعلق حرف الجر؟.

قلت: معناه: ما دام الله في أهل الأرض المستسر منهم باعتقاده والمعلن حاجة، ف"من" على هذا زائدة، فلو حذف الجر

المستسر بدلاً من أهل الأرض، ومن إذا كانت زائدة لا تتعلق، نحو قولك: ما جاءني من أحد.
ورابعها: قوله عليه السلام: "إن أمرنا هذا صعب مستصعب" ويروى: مستصعب - بكسر العين - "لا يحتمله إلا عبد امتحن الله تعالى قلبه للإيمان"، هذه من ألفاظ القرآن العزيز، قال الله تعالى: "أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى"، وهو من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب ودرب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وان عنه، والمعنى أنهم صبر على التقوى أقوياء على احتمال مشاقها، ويجوز أن يكون وضع الامتحان موضع المعرفة، لأن تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة، فكأنه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى، فتعلق اللام بمحذوف، أي كائنه له، وهي اللام التي في قولك: أنت لهذا الأمر، أي مختص به كقوله: أعداء من للعمليات على الوجا وتكون مع معمولها منصوبة على الحال، ويجوز أن يكون المعنى: ضرب الله قلوبهم بأنواع الحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى، أي لتثبت فيظهر تقواها، ويعلم أنهم متقون، لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند الحن والشدائد والاصطبار عليها. ويجوز أن يكون المعنى أنه أخلص قلوبهم للتقوى، من قولهم: امتحن الذهب، إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاها.

وهذه الكلمة قد قالها عليه السلام مراراً، ووقفت في بعض الكتب على خطبة من جملتها: إن قريشاً طلبت السعادة فشقيت، وطلبت النجاة فهلكت، وطلبت الهدى فضلت، ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم!، فأين المعدل والمترع عن ذرية الرسول، الذين شيد الله بنيانهم فوق بنيانهم، وأعلى رؤوسهم فوق رؤوسهم، واختارهم عليهم! ألا إن الذرية أفنان أنا شجرتها، ودوحة أنا ساقها، وإني من أحمد بمثلة الضوء من الضوء، كنا ظلالاً تحت العرش قبل خلق البشر، وقبل خلق الطينة التي كان منها البشر، أشباحاً عالية، لا أجساماً نامية، إن أمرنا صعب مستصعب، لا يعرف كنهه إلا ثلاثة: ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فإذا انكشف لكم سر أو وضح لكم أمر فاقبلوه، وإلا فاسكتوا تسلموا، وردوا علمنا إلى الله فإنكم في أوسع مما بين السماء والأرض.

وخامسها: قوله: "سلوني قبل أن تفقدوني"، أجمع الناس كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة، ولا أحد من العلماء: "سلوني" غير علي بن أبي طالب عليه السلام، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدث في كتاب "الاستيعاب".
المراد بقوله: "فلأنا أعلم بطرق السماء مني بطرق الأرض"، ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور، ولا سيما في الملاحم والدول، وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكررة، لا مرة ولا مائة مرة، حتى زال الشك والريب في أنه إخبار عن علم، وأنه ليس على طريق الاتفاق، وقد ذكرنا كثيراً من ذلك فيما تقدم من هذا الكتاب.

وقد تأوله قوم على وجه آخر قالوا: أراد أنا بالأحكام الشرعية والفتاوى الفقهية أعلم مني بالأمور الدنيوية، فعبر عن تلك بطرق السماء، لأنها أحكام إلهية، وعبر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضية. والأول أظهر، لأن فحوى الكلام وأوله يدل على أنه المراد.

قصة واعظ مشهور ببغداد: وعلى ذكر قوله عليه السلام: "سلوني"، حدثني من أثق به من أهل العلم حديثاً، وإن كان فيه بعض الكلمات العامية، إلا أنه يتضمن ظرفاً ولطفاً، ويتضمن أيضاً أدباً.

قال: كان ببغداد في صدر أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بالله، واعظ مشهور بالحذق ومعرفة الحديث والرجال، وكان يجتمع إليه تحت منبره خلق عظيم من عوام بغداد ومن فضلائها أيضاً، وكان مشتهراً بدم أهل الكلام وخصوصاً المعتزلة وأهل النظر، على قاعدة الحشوية، ومبغضي أرباب العلوم العقلية، وكان أيضاً منحرفاً عن الشيعة برضا العامة بالميل عليهم فاتفق قوم من رؤساء الشيعة على أن يضعوا عليه من يكرهه ويسأله تحت منبره، ويخجله ويفضحه بين الناس في المجلس، وهذه عادة الوعاظ، يقوم إليهم قوم فيسألونهم مسائل يتكلفون الجواب عنها، وسألوا عمن ينتدب لهذا، فأشير عليهم بشخص كان ببغداد يعرف بأحمد بن عبد العزيز الكزي، كان له لسن، ويشغل بشيء يسير من كلام المعتزلة، ويتشيع، وعنده قحة، وقد شدا أطرافاً من الأدب، وقد رأيت أنا هذا الشخص في آخر عمره، وهو شيخ، والناس يختلفون إليه في تعبير الرؤيا، فأحضروه وطلبوا إليه أن يعتمد ذلك، وجلس ذلك الواعظ في يومه الذي جرت عاداته بالجلوس فيه، واجتمع الناس عنده على طبقاتهم، حتى امتلأت الدنيا بهم، وتكلم على عادته فأطال، فلما مر في ذكر صفات الباري سبحانه في أثناء الوعظ، قام إليه الكزي، فسأله أسئلة عقلية، على منهاج كلام المتكلمين من المعتزلة، فلم يكن للواعظ عنها جواب نظري، وإنما دفعه بالخطابة والجدل، وسجع الألفاظ، وتردد الكلام بينهما طويلاً، وقال الواعظ في آخر الكلام أعين المعتزلة حول، وصوتي في مسامعهم طبول، وكلامي في أفئدتهم نصول، يا من بالاعتزال يصول، ويحك كم تحوم وتجول، حول من لا تدركه العقول! كم أقول، كم أقول! خلوا هذا الفضول!

فارتج المجلس، وصرخ الناس، وعلت الأصوات، وطاب الواعظ وطرب، وخرج من هذا الفصل إلى غيره فشطط شطح الصوفية، وقال: سلوني قبل أن تفقدوني، وكررها، فقام إليه الكزي، فقال: يا سيدي ما سمعنا أنه قال هذه الكلمة إلا علي بن أبي طالب عليه السلام، وتمام الخبر معلوم. وأراد الكزي بتمام الخبر قوله عليه السلام: "لا يقولها بعدي إلا مدع". فقال الواعظ وهو في نشوة طربه، وأراد إظهار فضله ومعرفته برجال الحديث والرواة: من علي بن أبي طالب؟ أهو علي بن أبي طالب بن المبارك النيسابوري؟ أم علي بن أبي طالب بن إسحاق المروزي؟ أم علي بن أبي طالب بن عثمان القيرواني؟ أم علي بن أبي طالب بن سليمان الرازي؟ وعد سبعة أو ثمانية من أصحاب الحديث، كلهم علي بن أبي طالب. فقام الكزي، وقام من يمين المجلس آخر، ومن يسار المجلس ثالث، انتدبوا له، وبذلوا أنفسهم للحمية ووطنوها على القتل. فقال الكزي: أشا يا سيدي فلان الدين، أشا! صاحب هذا القول هو علي بن أبي طالب زوج فاطمة سيدة نساء العالمين عليها السلام، وإن كنت ما عرفته بعد بعينه، فهو الشخص الذي لما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الأتباع والأذنان آخى بينه وبين نفسه، وأسجل على أنه نظيره ومماثله، فهل نقل في جهازكم أنتم من هذا شيء؟ أو نبت تحت حبكم من هذا شيء؟ فأردا الواعظ أن يكلمه، فصاح عليه القائم من الجانب الأيمن، وقال: يا سيدي فلان الدين، محمد بن عبد الله كثير في الأسماء، ولكن ليس فيهم من قال له رب العزة: "ما ضل صاحبكم وما غوى" وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى!. وكذلك علي بن أبي طالب كثير في الأسماء، ولكن ليس فيهم من قال له صاحب الشريعة: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي".

كثيراً ولكن ميزوا في الخلائق

وقد تلتقي الأسماء في الناس والكنى

فالتفت إليه الواعظ ليكملهم، فصاح عليه القائم من الجانب الأيسر، وقال: يا سيدي فلان الدين، حقت تجهله، أنت معذور في كونك لا تعرفه:

وإذا خفيت على الغبي فعاذر

ألا تراني مقلة عمياء!

فاضطرب المجلس وماج كما يموج البحر، وافتتن الناس، وتواثبت العامة بعضها إلى بعض، وتكشفت الرؤوس، ومزقت الثياب، ونزل الواعظ، واحتمل حتى ادخل داراً أغلق عليه بابها. وحضر أعوان السلطان فسكنوا الفتنة، وصرفوا الناس إلى منازلهم وأشغالهم، وأنفذ الناصر لدين الله في آخر نهار ذلك اليوم، فأخذ أحمد بن عبد العزيز الكزي والرجلين اللذين قاما معه، فحبسهم أياماً لتطفأ نائرة الفتنة. ثم أطلقهم.

ومن خطبة له في الأمر بالتقوى

الأصل: . أحمدته شكراً لإنعامه، وأستعينه على وظائف حقوقه، عزيز الجند، عظيم الجحد. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، دعا إلى طاعته، وقاهر أعداءه، جهاداً عن دينه، لا يثنيه عن ذلك اجتماع على تكذيبه، والتماس لإطفاء نوره. فاعتصموا بتقوى الله، فإن لها حبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته. وبادروا الموت وكمراته، امهدوا له قبل حلوله، وأعدوا له قبل نزوله فإن الغاية القيامة، وكفى بذلك واعظاً لمن عقل، ومعتبراً لمن جهل. وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الألماس، وشدة الإبلاء، وهول المطلع، وروعاك الفزع، واختلاف الأضلاع، واشتكاك الأسماع، وظلمة اللحد، وخيفة الوعد، وغم الضريح، وردم الصفيح.

فالله الله عباد الله! فإن الدنيا ماضية بكم على سنن، وأنتم والساعة في قرن، وكأنها قد جاءت بإشراكها، وأزفت بإفراطها، ووقفت بكم على صراطا. وكأنها قد أشرفت بزلازلها، وأناخت بقلقلها، انصرفت الدنيا بأهلها، وأخرجتهم من حضنها، فكانت كيوم مضى، وشهر انقضى، وصار جديدها رثاً، وسمينها غثاً. في موقف ضنك المقام، وأمور مشبهة عظام، ونار شديد كلبها، عال أجبها، ساطع لهبها، تغيظ زفيرها، متأجج أتعيرها، بعيد خمودها، ذاك وقودها، مخوف وعيدها، عم قرارها، مظلمة أقطارها، حامية قدورها، فظيعة أمورها. "وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً". قد أمن العذاب، وانقطع العتاب، وزحزحوا عن النار، واطمأنت بهم الدار، ورضوا المشوى والقرار، الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، وأعينهم باكية، وكان ليلهم في دنياهم نهاراً، تخشعاً واستغفاراً، وكان نهارهم ليلاً، توحشاً وانقطاعاً، فجعل الله لهم الجنة مآباً، والجزاء ثواباً، وكانوا أحق بها وأهلها، في ملك دائم، ونعيم قائم.

فارعوا عباد الله ما برعايته يفوز فائزكم، وبإضاعته يخسر مبطلكم، وبادروا آجالكم بأعمالكم، فإنكم مرتقنون بما أسلفتم، ومدينون بما قدمتم، وكأن قد نزل بكم المخوف، فلا رجعة تنالون، ولا عثرة تقالون. استعملنا الله وإياكم بطاعته وطاعة رسوله، وعفا عنا وعنكم بفضل رحمته.

الزموا الأرض، واصبروا على البلاء، ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم، ولا تستعجلوا بما لم يعجله الله لكم، فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته مات شهيداً، ووقع أجره على الله،

واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاته لسيفه، فإن لكل شيء مدةً وأجلاً.

الشرح: وظائف حقوقه: الواجبات المؤقتة، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان، والوظيفة ما يجعل للإنسان في كل يوم، أو في كل شهر، أو في كل سنة، من طعام، أو رزق.

وعزيز منصوب، لأنه حال من الضمير في "أستعينه"، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المحرور في "حقوقه وإضافة"عزيز" إلى "الجند" إضافة في تقدير الانفصال، لا توجب تعريفه ليمتنع من كونه حالاً.

وقاهر أعداءه: حاربه، وروي "وقهر أعداءه"، والمعقل: ما يعتصم به. وذروته: أعلاه، وأمهدوا له: اتخذوا مهاداً، وهو الفراش، وهذه استعارة.

قوله عليه السلام: "إن الغاية القيامة"، أي فإن انتهى كل البشر إليها، ولا بد منها.

والإرماس: جمع رمس وهو القبر. والإبلاس مصدر "أبلس" أي خاب ويثس، والإبلاس أيضاً: الإنكسار والحزن، واستكاث الأسماع: صممها.

وغم الضريح: ضيق القبر وكربه. والصفيح: الحجر، وردف: سده.

والسنن: الطريق. والقرن: الحبل.

وأشراط الساعة: علاماتها. وأزلت: قربت. وأفراطها: جمع فرط، وهم المتقدمون السابقون من الموتى، ومن روى "بإفراطها" فهو مصدر أفراط في الشيء، أي قربت الساعة بشدة غلوائها وبلوغها غاية الهول والفظاعة، ويجوز أن تفسر الرواية الأولى بمقدماتها وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزعجة، كالدجال ودابة الأرض ونحوهما، ويرجع ذلك إلى اللفظة الأولى، وهي أشراطها، إنما يختلف اللفظ.

والكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر، ويقال للأمر الثقيل: "قد أناخ عليهم بكلكلة"، أي هدهم ورضهم كما يهد البعير المبارك من تحته إذا أنحى عليه بصدرة.

قوله عليه السلام: "وانصرفت الدنيا بأهلها" أي ولت، ويروى: "وانصرمت" أي انقضت.

والخضن، بكسر الحاء: ما دون الإبط إلى الكشح، والرث: الخلق، والغث: الهزيل، ومقام ضنك، أي ضيق.

وشديد كلبها، أي شرها وأذاها. واللجب: الصوت. ووقودها ها هنا، بضم الواو، وهو الحدث، ولا يجوز الفتح، لأنه ما يوقد به كالخطب ونحوه، وذاك لا يوصف بأنه ذاك.

قوله عليه السلام: "عم قرارها"، أي لا يهتدى فيه لظلمته، ولأنه عميق جداً، ويروى: "وكأن ليلهم نهار" وكذلك أختها على التشبيه.

والمآب: المرجع، ومدينون: مجزيون.

قوله عليه السلام: "فلا رجعة تنالون" الرواية بضم التاء، أي تعطون، يقال!: أنلت فلاناً مالا، أي منحتة، وقد روي: "تنالون" بفتح التاء.

ثم أمر أصحابه أن يثبتوا ولا يعجلوا في محاربة من كان مخالطاً لهم من ذوي العقائد الفاسدة كالخوارج، ومن كان يظن

هوى معاوية، وليس خطابه هذا تثبيطاً لهم عن حرب أهل الشام، كيف وهو لا يزال يقرعهم ويوبخهم عن التقاعد والإبطاء في ذلك! ولكن قوماً من خاصته كانوا يطلعون على ما عند قوم من أهل الكوفة، ويعرفون نفاقهم وفسادهم، ويرومون قتلهم وقتالهم، فنهاهم عن ذلك، وكان يخاف فرقة جنده وانتشار جبل عسكره، فأمرهم بلزوم الأرض، والصبر على البلاء.

وروي بإسقاط الباء من قوله: "بأيديكم" ومن روى الكلمة بالباء جعلها زائدة، ويجوز ألا تكون زائدة، ويكون المعنى: ولا تحركوا الفتنة بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم، فحذف المفعول، والإصلاص بالسيف: مصدر أصلت، أي سل. واعلم أن هذه الخطبة من أعيان خطبه عليه السلام، ومن ناصع كلامه ونادره، وفيها من صناعة البديع الرائقة المستحسنة البريئة من التكلف ما لا يخفى، وقد أخذ ابن نباتة الخطيب كثيراً من ألفاظها فأودعها خطبه، مثل قوله: "شديد كلبها، عال لجبها، ساطع لهبها، متغيظ زفيرها، متأجج سعيها، بعيد خمودها، ذاك وقودها، مخوف وعيدها، عم قرارها، مظلمة أقطارها حامية قدورها، فظيعة أمورها، فإن هذه الألفاظ كلها اختطفها، وأغار عليها واغتصبها، وسمط بها خطبه، وشذر بها كلامه.

ومثل قوله: "هول المطلع، وروعات الفرع، واختلاف الأضلاع، واستكاك الأسماك، وظلمة اللحد، وخيفة الوعد، وغم الضريح، وردم الصفيح". فإن هذه الألفاظ أيضاً تمضي في أثناء خطبه، وفي غضون مواعظه.

ومن خطبة له في وصيته بالزهد

الأصل: الحمد لله الفاشي في الخلق حمده، والغالب جنده، والمتعالي جده، أحمدته على نعمه التوأم، وآلائه العظام، الذي عظم حلمه فعفا، وعدل في كل ما قضى، وعلم بما يمضي وما مضى، مبتدع الخلائق بعلمه، ومنشئهم بحكمه، بلا اقتداء ولا تعليم، ولا احتذاء لمثال صانع حكيم، ولا إصابة خطأ، ولا حضرة مأل. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ابتعثه والناس يضربون في غمرة، ويموجون في حيرة، قد قادتهم أزمة الحين، واستغلت على أفئدتهم أقفال الرين.

عباد الله! أوصيكم بتقوى الله فإنها حق الله عليكم، والموجبة على الله حقكم، وأن تستعينوا عليها بالله. وتستعينوا بها على الله، فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة، وفي كد الطريق إلى الجنة، مسلكها واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ. لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين منكم، والغابرين لحاجتهم إليها غداً. إذا أعاد الله ما أبدى، وأخذ ما أعطى، وسأل عما أسدى. فما أقل من قبلها، وحملها حق حملها! أولئك الأقلون عدداً، وهم أهل صفة الله سبحانه إذ يقول: "وقليل من عبادي لشكور".

فأهطعوا بأسماعكم إليها، وألظوا بجدكم عليها، واعتاضوها من كل سلف خلفاً، ومن كل مخالف موافقاً.

أيقظوا بها نومكم، وأقطعوا بها يومكم، وأشعروها قلوبكم، وأرحضوا بها ذنوبكم، وداووا بها الأسقام، وبادروا بها الحمام، واعتبروا بمن أضاعها، ولا يعتبرن بكم من أطاعها.

ألا فسونوها وتصونوا بها، وكونوا عن الدنيا نراها، وإلى الآخرة ولاها، ولا تضعوا من رفعتها التقوى، ولا ترفعوا من رفعتها الدنيا، ولا تشيخوا بآرقها، ولا تسمعوا ناطقها، ولا تخبوا ناعقها، ولا تستضيئوا بإشراقها، ولا تفتنوا بأعلاقها، فإن برقها خالب، ونطقها كاذب، وأموالها محروبة، وأعلاقها مسلوكة.

ألا وهي المتصدية العنون، والجائحة الحرون، والمائة الخئون، والجحود الكنود، والعنود الصدود، والحيود الميود! حالها انتقال، ووطأها زلزال، وعزها ذل، وجدها هزل، وعلوها سفل.

دار حرب وسلب، ونهب وعطب، أهلها على ساق وسباق، ولحاق وفراق، قد تحيرت مذاهبها، وأعجزت مهاربها، وخابت مطالبها، فأسلمتهم المعازل، ولفظتهم المنازل، وأعيتهم المحاول، فمن ناج معقور، ولحم مجزور، وشلو مذبح، ودم مسفوح، وعاض على يديه، وصافق بكفيه، ومرتفق بخديه، وزار على رأيه، وراجع عن عزمه.

وقد أدبرت الحيلة، وأقبلت الغيلة، ولات حين مناص! هيهات هيهات! قد فات ما فات، وذهب ما ذهب، ومضت الدنيا لحال بالها، "فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين!.

الشرح: الفاشي: الذائع، فشا الخبر يفشو فشواً، أي ذاع، وأفشاه غيره. وتفشى الشيء، أي اتسع، والفواشي: كل منتشر من المال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرهما، ومنه الحديث: "ضموا فواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء"، فيجوز أن يكون عني بفشو حمده إطباق الأمم قاطبة على الاعتراف بنعمته، ويجوز أن يريد بالفاشي سبب حمده، وهو النعم التي لا يقدر قدرها، فحذف المضاف.

قوله: "والغالب جنده"، فيه معنى قوله تعالى: "ألا إن حزب الله هم الغالبون!.

قوله: "والمتمالي جده" فيه معنى قوله تعالى: "وأنة تعالى جد ربنا!، والجد في هذا الموضع وفي الآية: العظمة.

والتؤام: جمع توأم على فوعل، وهو الولد المقارن أخاه في بطن واحد، وقد أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك، فهي متمم، فإن كان ذلك عادتها فهي متأم، وكل واحد من الولدين توأم، وهما توأمان، وهذا توأم هذا، وهذه توأمته، والجمع توائم، مثل قشعم وقشاعم، وجاء في جمعه "تؤام" على فعال، وهي اللفظة التي وردت في هذه الخطبة، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلا في مواضع معدودة، وهي عرق للعظم يؤخذ عنه اللحم وعراق، وشاة ربى للحديث العهد بالولادة وغنم رباب، وظفر للمرضعة غير ولدها وظؤار، ورخل للأنتى من أولاد الضأن ورخال، وفريز لولد البقرة الوحشية، وفرار، والآلاء: النعم.

قوله عليه السلام: "مبدع الخلائق بعلمه"، ليس يريد أن العلم علة في الإبداع، كما تقول: هوى الحجر بثقله، بل المراد: أبدع الخلق وهو عالم، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، أي خرج متسلحاً، فموضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحالية، وكذلك القول في: "ومنشئهم بحكمه" والحكم ههنا: الحكمة.

ومنه قوله عليه السلام: "إن من الشعر لحكمة".

قوله: "بلا اقتداء، ولا تعليم ولا احتذاء" قد تكرر منه عليه السلام أمثاله مراراً.

قوله: "ولا إصابة خطأ" تحته معنى لطيف، وذلك لأن المتكلمين يوردون على أنفسهم سؤالاً في باب كونه عالماً بكل معلوم إذا استدلوا على ذلك فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلاً، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال، فوجب أن يعلم

سائرهما، لأنه لا مخصص، فقالوا لأنفسهم: لم زعمتم ذلك؟ ولم لا يجوز أن يكون فعل أفعاله مضطربة، فلما أدركها علم كيفية صنعها بطريق كونه مدركاً لها فأحكمها بعد اختلاها واضطرابها! وأجابوا عن ذلك بأنه لا بد أن يكون قبل أن فعلها عالماً بمفرداتها من غير إحساس، ويكفي ذلك في كونه عالماً بما لم يتطرق إليه، ثم يعود الاستدلال المذكور أولاً. قوله عليه السلام: "ولا حضره مأل"، المأل: الجماعة من الناس وفيه معنى قوله تعالى: "ما أشهدكم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم".

قوله: "يضيرون في غمرة"، أي يسيرون في جهل وضلالة، والضرب: السير السريع. والحين: الهلاك. والرين: الذنب على الذنب حتى يسود القلب، وقيل: الرين: الطبع والدنس، يقال. ران على قلبه ذنبه، يرين ريناً، أي دنسه ووسخه، واستغلقت أقفال الرين على قلوبهم: تعسر فتحها.

قوله: "فإنها حق الله عليكم، والموجبة على الله حقكم" يريد أنها واجبة عليكم، فإن فعلتموها وجب على الله أن يجازيكم عنها بالثواب، وهذا تصريح بمذهب المعتزلة في العدل، وأن من الأشياء ما يجب على الله تعالى من باب الحكمة. قوله: "وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله"، يريد: أوصيكم بأن تستعينوا بالله على التقوى بأن تدعوه وتبتهلوا إليه أن يعينكم عليها، ويوفقكم لها ويسرّها ويقوي دواعيكم إلى القيام بها، وأوصيكم أن تستعينوا بالتقوى على لقاء الله ومحامته وحسابه، فإنه تعالى يوم البعث والحساب كالحاكم بين المتخاصمين: "وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها"، فالسعيد من استعان على ذلك الحساب وتلك الحكومة والخصومة بالتقوى في دار التكليف، فإنها نعم المعونة "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى"، واللجنة: ما يستتر به.

قوله: "ومستودعها حافظ"، يعني الله سبحانه، لأنه مستودع الأعمال، ويدل عليه قوله تعالى: "إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً"، وليس ما قاله الراوندي من أنه أراد بالمستودع قلب الإنسان بشيء.

قوله: "لم تبرح عارضةً نفسها"، كلام فصيح لطيف، يقول: إن التقوى لم تزل عارضة نفسها على من سلف من القرون، فقبلها القليل منهم، شبهها بالمرأة العارضة نفسها نكاحاً على قوم، فرغب فيها من رغب، وزهد من زهد، وعلى الحقيقة ليست هي العارضة نفسها، ولكن المكلفين ممكنون من فعلها ومرغبون فيها، فصارت كالعارضة.

والغابر ههنا: الباقي، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباقي، وبمعنى الماضي.

قوله عليه السلام: "إذا أعاد الله ما أبدى"، يعني أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالك الملوك فلم يبق في الوجود من له تصرف في شيء غيره، كما قال: "لمن الملك اليوم لله الواحد القهار". وقيل في الأخبار والحديث: إن الله تعالى يجمع الذهب والفضة كل ما كان منه في الدنيا، فيجعله أمثال الجبال، ثم يقول: هذا فتنة بني آدم، ثم يسوقه إلى جهنم فيجعله مكايي لجباه المجرمين.

"وسأل عما أسدى" أي سأل أرباب الثروة عما أسدى إليهم من النعم فيم صرفوها؟ وفيهم أنفقوها؟.

قوله عليه السلام: "فما أقل من قبلها"، يعني ما أقل من قبل التقوى العارضة نفسها على الناس.

وإذا في قوله: "إذا أعاد الله" ظرف لحاجتهم إليها، لأن المعنى يقتضيه، أي لأنهم يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق، وليس

كما ظنه الراوندي أنه ظرف لقوله: "فما أقل من قبلها"، لأن المعنى على ما قلناه، ولأن ما بعد الفاء لا يجوز أن يكون عاملاً فيما قبلها.

قوله: "فأهبطوا بأسماعكم"، أي أسرعوا، أهبط في عدوه أي أسرع. ويروى: "فانقطعوا بأسماعكم إليها"، أي فانقطعوا إليها مصغيين بأسماعكم.

قوله: "وألظوا بجدكم"، أي ألحوا، والإلظاظ: الإلحاح في الأمر، ومنه قول ابن مسعود: ألظوا في الدعاء بيذا الجلال والإكرام، ومنه الملاظة في الحرب، ويقال: رجل ملظ وملظاظ، أي ملحاح، وألظ المطر، أي دام. وقوله: "بجدكم" أي باجتهادكم، جددت في الأمر جداً بالغت واجتهدت، ويروى: "وواكظوا بجدكم" والمواكظة: المداومة على الأمر. وقال مجاهد في قوله تعالى: "إلا ما دمت عليه قائماً" قال: أي مواكظاً.

قوله: "وأشعروا بما قلوبكم"، يجوز أن يريد: اجعلوها شعاراً لقلوبكم، وهو ما دون الدثار وألصق بالجسد منه. ويجوز أن يريد: اجعلوها علامة يعرف بها القلب التقى من القلب المذنب كالشعار في الحرب يعرف به قوم من قوم، ويجوز أن يريد أخرجوا قلوبكم بما من أشعار البدن، أي طهروا القلوب بما، وصفوها من دنس الذنوب، كما يصفى البدن بالفصاد من غلبة الدم الفاسد، ويجوز أن يريد الإشعار بمعنى الإعلام، من أشعرت زيدا بكذا، أي عرفته إياه، أي اجعلوها عالمة بجلالة موقعها وشرف محلها.

قوله: "وارحضوا بها" أي اغسلوا، وثوب رحيض ومرحوض، أي مغسول. قال: "وداؤوا بها الأسقام"، يعني أسقام الذنوب.

وبادروا بها الحمام: عجلوا واسبقوا الموت أن يدر ككم وأنتم غير متقين. واعتبروا بمن أضاع التقوى فهلك شقياً، ولا يعتبرن بكم أهل التقوى، أي لا تكونوا أنتم لهم معتبراً بشقاوتكم وسعادتهم. ثم قال: وصونوا التقوى عن أن تمازجها المعاصي، وتصونوا أنتم بها عن الدناءة وما ينافي العدالة.

والنزّه: جمع نزيه، وهو المتباعد عما يوجب الذم. والولاه: جمع وال، وهو المشتاق ذو الوجد حتى يكاد يذهب عقله. ثم شرع في ذكر الدنيا، فقال: "لا تشيموا بارقها"، الشيم: النظر إلى البرق انتظاراً للمطر. ولا تسمعوا ناطقها: لا تصغوا إليها سامعين، ولا تحيبوا مناديتها. والأعلاق: جمع علق وهو الشيء النفيس. وبرق خالب وخلب: لا مطر فيه. وأموالها محروبة، أي مسلوقة.

قوله عليه السلام: "ألا وهي المتصدية العنون"، شبهها بالمرأة المومس تتصدى للرجال تريد الفجور. وتتصدى لهم: تعرض. والعنون: المتعرضة أيضاً، عن لي كذا أي عرض.

ثم قال: "والجاحمة الحرون" شبهها بالدابة ذات الجماح، وهي التي لا يستطيع ركوبها لأنها تعثر بفارسها وتغلبه، وجعلها مع ذلك حروناً وهي التي لا تنقاد.

ثم قال: "والمائنة الخثون"، مان، أي كذب، شبهها بامرأة كاذبة خائنة.

والجحود الكنود، جحد الشيء أنكره، وكند النعمة: كفرها، جعلها كامراًة تجحد الصنيعة ولا تعترف بها وتكفر النعمة. ويجوز أن يكون الجحود من قولك: رجل جحد وجحد، أي قليل الخير، وعام جحد، أي قليل المطر، وقد جحد النبت إذا لم يطل.

قال: "والعنود الصدود"، العنود: الناقة تعدل عن مرعى الإبل وترعى ناحية، والصدود: المعرضة، صد عنه، أي أعرض شبهها في انحرافها وميلها عن القصد بتلك.

قال: "والحيود الميود، حادت الناقة عن كذا تحيد فهي حيود، إذا مالت عنه. ومادت تميد فهي ميود، أي مالت، فإن كانت عادتها ذلك سميت الحيود الميود في كل حال.

قال: "حالتها انتقال" يجوز أن يعني به أن شيمتها وسجيتها الانتقال والتغير، ويجوز أن يريد به معنى أدق وهو أن الزمان على ثلاثة أقسام: ماض، وحاضر، ومستقبل، فالماضي والمستقبل لا وجود لهما الآن، وإنما الموجود أبداً هو الحاضر، فلما أراد المبالغة في وصف الدنيا بالتغير والزوال قال: "حالتها انتقال"، أي أن الآن الذي يحكم العقلاء عليه بالحضور منها ليس بحاضر على الحقيقة، بل هو سيال متغير، فلا ثبوت إذاً لشيء منها مطلقاً. ويروى: "وحالتها افتعال"، أي كذب وزور، وهي رواية شاذة.

قال: "ووطأها زلزال"، الوطأة كالضغطة، ومنه قوله عليه السلام: "اللهم اشدّد وطأتك على مضر"، وأصلها موضع القدم. والزلزال: الشدة العظيمة، والجمع زلازل.

وقال الراوندي في شرحه: يريد أن سكونها حركة، من قولك: وطؤ الشيء، أي صار وطئاً ذا حال لينة، وموضع وطيء، أي وثير، وهذا خطأ، لأن المصدر من ذلك وطأة وطاء بالمد، وههنا وطأة ساكن الطاء، فأين أحدهما من الآخر!. قال: "وعلوها سفل"، يجوز ضم أولهما وكسره.

قال: "دار حرب" الأحسن في صناعة البديع أن تكون الرء ههنا ساكنة ليوازي السكون هاء "نهب" ومن فتح الرء، أراد السلب، حربته أي سلبت ماله.

قال: "أهلها على ساق وسياق" يقال: قامت الحرب على ساق، أي على شدة ومنه قوله سبحانه "يوم يكشف عن ساق"، والسياق: نزع الروح، يقال: رأيت فلاناً يسوق، أي يتزع عند الموت، أو يكون مصدر ساق الماشية سوقاً وسياقاً. وقال الراوندي في شرحه: يريد أن بعض أهلها في أثر بعض كقولهم: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق، وليس ما قاله بشيء، لأنهم يقولون ذلك للمرأة إذا لم يكن بين البنين أنثى، ولا يقال ذلك في مطلع التتابع أين كان.

قال عليه السلام: "ولحاق وفراق"، اللام مفتوحة، مصدر لحق به، وهذا كقولهم: "الدنيا مولود يولد، ومفقود يفقد".

قال عليه السلام: "قد تحيرت مذاهبها"، أي تحير أهلها في مذاهبهم، وليس يعني بالمذاهب ههنا الاعتقادات، بل المسالك. وأعجزت مهاربها: أي أعجزتهم جعلتهم عاجزين، فحذف المفعول، وأسلمتهم المعائل: لم تحصنهم، ولفظتهم، بفتح الفاء: رمت بهم وقذفتهم، وأعيتهم المحاول، أي المطالب.

ثم وصف أحوال الدنيا فقال: هم من ناج معقور، أي مجروح كالهارب من الحرب بمحاشاة نفسه، وقد جرح بدنه. ولحم مجزور، أي قتيل قد صار جزراً للسباع.

وشلو مذبوح: الشلو، العضو من أعضاء الحيوان، المذبوح أو الميت. وفي الحديث: "أئتوني بشلوها الأيمن".
ودم مسفوح، أي مسفوك. وعاض على يديه، أي ندماً، وصافق بكفيه، أي تعسفاً أو تعجباً، ومرتفق بخديه: جاعل لهما
على مرفقيه فكراً وهماً، وزار على رأيه، أي عائب، أي يرى الواحد منهم رأياً ويرجع عنه ويعيبه، وهو البداء الذي
يذكره المتكلمون. ثم فسره بقوله: "وراجع عن عزمه".

فإن قلت: فهل يمكن أن يفرق بينهما، ليكون الكلام أكثر فائدة؟
قلت: نعم، بأن يريد بالأول من رأى رأياً وكشفه لغيره، وجامعه عليه ثم بدا له وعابه، ويريد بالثاني من عزم نفسه عزمًا
ولم يظهر لغيره ثم رجع عنه، ويمكن أيضاً بأن يفرق بينهما بأن يعني بالرأي الاعتقاد، كما يقال: هذا رأي أبي حنيفة،
والعزم أمر مفرد خارج عن ذلك، وهو ما يعزم عليه الإنسان من أمور نفسه، ولا يقال: عزم في الاعتقادات.
ثم قال عليه السلام: "وقد أدبرت الحيلة" أي ولت، وأقبلت الغيلة، أي الشر، ومنه قولهم: فلان قليل الغائلة. أو يكون بمعنى
الاغتيال، يقال: قتله غيلة، أي خديعة. يذهب به إلى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله.
قال عليه السلام: "ولات حين مناص"، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز، قال الأخفش، شبهوا "لات" بليس، وأضمرُوا فيها
اسم الفاعل، قال: ولا تكون "لات" إلا مع "حين"، وقد جاء حذف "حين" في الشعر، ومنه المثل: "حنت ولات هنت"، أي
ولات حين حنت، والهاء بدل من الحاء، فحذف الحين وهو يريده، قال: وقرأ بعضهم "ولات حين مناص" بالرفع، وأضمر
الخبر. وقال أبو عبيد: هي لا، والتاء إنما زيدت في "حين"، لا في "لا"، وإن كتبت مفردة، والأصل "تحين" كما قال
في "الأن" "تلان". فرادوا التاء، وأنشد لأبي وجزة:

والمطعمون زمان أين المطعم

العاطفون تحين ما من عاطف

وقال المؤرخ: زيدت التاء في "لات" كما زيدت في "ربت" و"ثمت".
والمناص: المهرب، ناص عن قرنه ينوص نوصاً ومناصاً، أي ليس هذا وقت الهرب والفرار. ويكون المناص أيضاً بمعنى
الملجأ والمفرع، أي ليس هذا حين تجدد مفزعةً ومعقلاً تعتصم به.
هيهات: اسم للفعل ومعناه بعد، يقال: هيهات زيد فهو مبتدأ وخبر، والمعنى يعطي الفعلية، والتاء في "هيهات" مفتوحة
مثل كيف، وأصلها هاء، وناس يكسرونها على كل حال بمنزلة نون التشية، وقال الراجز:

هيهات حجر من صنيعات

هيهات من مصبحها هيهات

وقد تبدل الهاء همزة، فيقال "أيهات" مثل هراق وأراق، قال:

أيهات منك الحياة أيها

قال الكسائي: فمن كسر التاء وقف عليها بالهاء، فقال: "هيهاه"، ومن فتحها وقف إن شاء بالتاء وإن شاء بالهاء.
قوله عليه السلام: "ومضت الدنيا لحال بالها"، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره، ومعناها مضى. بما فيه إن كان خيراً،
وإن كان شراً.

قوله عيه السلام: فما بكت عليهم السماء"، هو من كلام الله تعالى، والمراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى أنهم لا يستحقون أن يتأسف عليهم، وقيل: أراد المبالغة في تحقير شأنهم، لأن العرب كانت تقول في العظيم القدر يموت: بكته السماء، وبكته النجوم، قال الشاعر:

تبكي عليك نجوم الليل والقمر

فالشمس طالعة ليست بكاسفة

فنفي عنهم ذلك، وقال: ليسوا من يقال فيه مثل هذا القول، وتأولها ابن عباس رضي الله عنه لما قيل له: أتبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال: نعم يبكيه مصلاه في الأرض ومصعد عمله في السماء، فيكون نفي البكاء عنهما كناية عن أنه لم يكن لهم في الأرض عمل صالح يرفع منها إلى السماء.

ومن خطبة له عليه السلام في ذم الكبير

الأصل: "ومن الناس من يسمي هذه الخطبة بالقاصعة، وهي تتضمن ذم إبليس لعنه الله، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام، وأنه أول من ظهر العصبية وتبع الحمية، وتحذير الناس من سلوك طريقته": الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحرماً على غيره، وأصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده.

ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه، وهو العالم بمضمورات القلوب ومحجوبات الغيوب: "إني خالق بشرًا من طين" فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس"، اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلق، وتعصب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادّرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل. ألا يرون كيف صغره الله بتكبره، ووضع بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعد له في الآخرة سعيراً.

الشرح: يجوز أن تسمى هذه الخطبة "القاصعة" من قولهم: قصعت الناقة بجرحها، وهو أن تردّها إلى جوفها، أو تخرجها من جوفها فتملاً فاهها، فلما كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مرددة من أولها إلى آخرها، شبهها بالناقّة التي تقصع الجرة. ويجوز أن تسمى القاصعة، لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبية، من قولهم: قصعت القملة، إذا هشمته وقتلتها. ويجوز أن تسمى القاصعة، لأن المستمع لها المعتر بها يذهب كبره ونخوته، فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه، أي أذهب وسكنه، قال ذو الرمة بيتاً في هذا المعنى:

وقد تشح فلا ري ولا هيم

فانصاعت الحقب لم تقصع صرائرها

الصرائر: جمع صريرة، وهي العطش، ويجوز أن تسمى القاصعة، لأنها تتضمن تحقير إبليس وأتباعه وتصغيرهم، من قولهم: قصعت الرجل إذا امتننته وحقرته، وغلّام مقصوع، أي قميء لا يشب ولا يزداد. والعصبية على قسمين: عصبية في الله وهي محمودة، وعصبية في الباطل وهي مذمومة: وهي التي نهى أمير المؤمنين عليه

السلام عنها، وكذلك الحمية. وجاء في الخبر: "العصية في الله تورث الجنة، والعصية في الشيطان تورث النار".

وجاء في الخبر: "العظمة إزارى، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته؟ وهذا معنى قوله عليه السلام: "اختارهما لنفسه دون خلقه...". إلى آخر قوله: "من عباده".

قال عليه السلام: "ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين" مع علمه بمضمراتهم، وذلك لأن اختباره سبحانه ليس ليعلم، بل ليعلم غيره من خلقه طاعة من يطيع وعصيان من يعصي، وكذلك، قوله سبحانه: "وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه"، النون في "لنعلم" نون الجمع لا نون العظمة، أي لتصير أنت وغيرك من المكلفين عالمين لمن يطيع ومن يعصي، كما أنا عالم بذلك، فتكونوا كلكم مشاركين لي في العلم بذلك. فإن قلت: وما فائدة وقوفهم على ذلك وعلمهم به؟.

قلت: ليس بممتنع أن يكون ظهور حال العاصي والمطيع وعلم المكلفين أو أكثرهم أو بعضهم به يتضمن لطفاً من التكليف!.

فإن قلت: إن الملائكة لم تكن تعلم ما البشر، ولا تتصور ماهيته، فكيف قال لهم "إني خالق بشراً من طين"؟. قلت: قد كان قال لهم: إني خالق جسماً من صفته كيت وكيت، فلما حكاها اقتصر على الاسم. ويجوز أن يكون عرفهم من قبل أن لفظة "بشر" على ماذا تقع، ثم قال لهم: إني خالق هذا الجسم المخصوص الذي أعلمتكم أن لفظة "بشر" واقعة عليه من طين.

قوله تعالى: "إذا سويته": أي إذا أكملت خلقه، ففعلوا له ساجدين: أمرهم بالسجود له. وقد اختلف في ذلك فقال قوم: كان قبلة، كما الكعبة اليوم قبلة، ولا يجوز السجود إلا لله. وقال آخرون: بل كان السجود له تكملة ومحنة، والسجود لغير الله غير قبيح في العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة.

وقوله تعالى: "ونفخت فيه من روحي، أي أحللت فيه الحياة، وأجريت الروح إليه في عروقه، وأضاف الروح إليه تبيحاً لها، وسمى ذلك نفخاً على وجه الاستعارة، لأن العرب تتصور من الروح معنى الريح، والنفخ يصدق على الريح، فاستعار لفظة "النفخ" توسعاً.

وقالت الحكماء: هذا عبارة عن النفس الناطقة.

فإن قلت: هل كان إبليس من الملائكة أم لا؟.

قلت: قد اختلف في ذلك، فمن جعله منهم احتج بالاستثناء، ومن جعله من غيرهم احتج بقوله تعالى: "كان من الجن"، وجعل الاستثناء منقطعاً، وبأن له نسلًا وذرية، قال تعالى: "أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني"، والملائكة لا نسل لهم ولا ذرية، وبأن أصله نار والملائكة أصلها نور، وقد مر لنا كلام في هذا في أول الكتاب.

قوله: "فافتخر على آدم بخلقته، وتعصب عليه لأصله"، كانت خلقته أهون من خلقه آدم عليه السلام، وكان أصله من نار وأصل آدم عليه السلام من طين.

فإن قلت: كيف حكم على إبليس بالكفر، ولم يكن منه إلا مخالفة الأمر، ومعلوم أن تارك الأمر فاسق لا كافر!.

قلت: إنه اعتقد أن الله أمره بالقبيح ولم ير أمره بالسجود لآدم عليه السلام حكمة وامتنع من السجود تكبراً، ورد على

الله أمره، واستخف بمن أوجب الله إجلاله، وظهر أن هذه المخالفة عن فساد عقيدة، فكان كافراً. فإن قلت: هل كان كافراً في الأصل أم كان مؤمناً ثم كفر؟.

قلت: أما المرجئة فأكثرهم يقول: كان في الأصل كافراً، لأن المؤمن عندهم لا يجوز أن يكفر، وأما أصحابنا فلما كان هذا الأصل عندهم باطلاً توقفوا في حال إبليس، وجوزوا كلا الأمرين. قوله عليه السلام: "رداء الجبرية" الباء مفتوحة، يقال: فيه جبرية، وجبروة، وجبروت، وجبورة، كفروجة، أي كبر، وأنشدوا:

فإنك إن عاديتني غضب الحصا عليك وذو الجبورة المتغترف

وجعله مدحوراً، أي مطروداً مبعداً، دحره الله دحوراً، أي أقصاه وطرده.

الأصل: ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويهر العقول رواؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه، لفعل، ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخت البلوى فيه على الملائكة، ولكن الله سبحانه يتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم، ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم، فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة، لا يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته!.

كلا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إن حكمه في أهل السماء والأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين.

الشرح: خطفت الشيء بكسر الطاء، أخطفه، إذا أخذته بسرعة استلاباً، وفيه لغة أخرى: خطف بالفتح، ويخطف بالفتح ويخطف بالكسر، وهي لغة رديئة قليلة لا تكاد تعرف، وقد قرأ بها يونس في قوله تعالى: !يكاد البرق يخطف أبصارهم". والرواء، بالهمزة والمد: المنظر الحسن. والعرف: الريح الطيبة.

والخيلاء، بضم الخاء وكسرها: الكبر.. وكذلك الخال والمخيلة، تقول: اختال الرجل وخال أيضاً، أي تكبر. وأحبط عمله: أبطل ثوابه، وقد حبط العمل حبطاً بالتسكين وحبوطاً. والمتكلمون يسمون إبطال الثواب إحباطاً وإبطال العقاب تكفيراً.

وجهده بفتح الجيم: اجتهداه وجده، ووصفه بقوله: "الجهيد" أي المستقصى، من قولهم: مرعى جهيد، أي قد جهده المال الراعي واستقصى رعيه.

وكلامه عليه السلام يدل أنه كان يذهب إلى أن إبليس من الملائكة لقوله: "أخرج منها ملكاً".

والهوادة: الموادة والمصالحة، يقول: إن الله تعالى خلق آدم من طين، ولو شاء أن يخلقه من النور الذي يخطف أو من الطيب الذي يعبق لفعل، ولو فعل لزال الملائكة أمره وخضعوا له، فصار الإبتلاء والامتحان والتكليف بالسجود له خفيفاً عليهم، لعظمته في نفوسه! فلم يستحقوا ثواب العمل الشاق، وهذا يدل على أن الملائكة تشم الرائحة كما نشمها نحن،

ولكن الله تعالى يتلي عباده بأمور يجهلون أصلها اختباراً لهم.

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام: "تميزاً بالاختبار لهم".

قلت: لأنه ميزهم عن غيرهم من مخلوقاته، كالحیوانات العجم، وأبائهم عنهم، وفضلهم عليهم بالتكليف والامتحان. قال: !ونفياً للإستكبار عنهم"، لأن العبادات خضوع وخشوع وذلة، ففيها نفي الخيلاء والتكبر عن فاعليها، فأمرهم بالاعتبار بحال إبليس الذي عبد الله ستة آلاف سنة، لا يدري أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة! وهذا يدل على أنه قد سمع فيه نصاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجملاً لم يفسره له، أو فسر له خاصة، ولم يفسره أمير المؤمنين عليه السلام للناس لما يعلمه في كتمانهم عنهم من المصلحة.

فإن قلت: قوله: لا يدري" على ما لم يسم فاعله يقتضي أنه هو لا يدري!.

قلت: إنه لا يقتضي ذلك، ويكفي في صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يجهله الأكثرون.

فأما القول في سني الآخرة كم هي؟ فاعلم أنه قد ورد في الكتاب العزيز آيات مختلفات: إحداها قوله: "تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة!.

والأخرى قوله: "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون".

والثالثة قوله: "وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون".

وأولى ما قيل فيها إن المراد بالآية الأولى مدة عمر الدنيا، وسمي ذلك يوماً، وقال: إن الملائكة لا تزال تعرج إليه بأعمال البشر طول هذه المدة حتى ينقضي التكليف، وينتقل الأمر إلى دار أخرى. وأما الآيتان الأخيرتان فمضمومهما بيان كمية أيام الآخرة، وهو أن كل يوم منها مثل ألف سنة من سني الدنيا.

فإن قلت: فعلى هذا كم تكون مدة عبادة إبليس إذا كانت ستة آلاف سنة من سني الآخرة؟.

قلت: يكون ما يرتفع من ضرب أحد المضروبين في الآخرة، وهو ألفا ألف ألف، ثلاث لفظات، الأولى منهن مثناة، ومائة ألف ألف لفظتان، وستون ألف ألف سنة لفظتان أيضاً من سني الدنيا. ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبلغ عظيماً جداً علم أن أذهان السامعين لا تحتمله، فلذلك أجهل القول عليهم، وقال: "لا يدري أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة".

فإن قلت: فإذا كنتم قد رجحتم قول من يقول: إن عمر الدنيا خمسون ألف سنة، فكيف يكون عمرها إن كان الله تعالى أراد خمسين ألف سنة من سني الآخرة؟ لأنه لا يؤمن أن يكون أراد ذلك إذا كانت السنة عنده عبارة عن مدة غير هذه المدة التي قد اصطلاح عليها الناس؟.

قلت: يكون ما يرتفع من ضرب خمسين ألفاً في ثلاثمائة وستين ألف سنة من سني الدنيا ومبلغ ذلك ثمانية عشر ألف ألف ألف سنة من سني الدنيا ثلاث لفظات، وهذا القول قريب من القول المحكي عن الهند.

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه روايات كثيرة بأسانيد أوردها عن جماعة من الصحابة أن إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سمو الجن لأنهم كانوا خزان الجنان،

وكان إبليس رئيسهم ومقدمهم. وكان أصل خلقهم من نار السموم، وكان اسمه الحارث، قال: وقد روي أن الجن كانت في الأرض، وأنهم أفسدوا فيها، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار، ثم تكبر في نفسه، ورأى أنه قد صنع شيئاً عظيماً لم يصنعه غيره. قال: وكان شديد الاجتهاد في العبادة. وقيل: كان اسمه عزازيل، وأن الله تعالى جعله حكماً وقاضياً بين سكان الأرض قبل خلق آدم، فدخله الكبر والعجب لعبادته واجتهاده وحكمه في سكان الأرض وقضائه بينهم، فانطوى على المعصية حتى كان من أمره مع آدم عليه السلام ما كان.

قلت: ولا ينبغي أن نصدق من هذه الأخبار وأمثالها إلا ما ورد في القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو في السنة، أو نقل عمن يجب الرجوع إلى قوله، وكل ما عدا ذلك فالكذب فيه أكثر من الصدق، والباب مفتوح، فليقل كل أحد في أمثال هذه القصص ما شاء.

واعلم أن كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل يطابق مذهب أصحابنا في أن الجنة لا يدخلها ذو معصية، ألا تسمع قوله: "فمن بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته! كلا، ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إن حكمه في أهل السماء والأرض لواحد".

فإن قلت: أليس من قولكم: إن صاحب الكبيرة إذا تاب دخل الجنة! فهذا صاحب معصية وقد حكمت له بالجنة! قلت: إن التوبة أحبطت معصيته فصار كأنه لم يعص.

فإن قلت: إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال: "فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته!"، ولم يقل: بالمعصية المطلقة، والمرجئة لا تخالف في أن من وافق القيامة بمثل معصية إبليس لم يكن من أهل الجنة.

قلت: كل معصية كبيرة فهي مثل معصيته، ولم يكن إخراجهم من الجنة لأنه كافر، بل لأنه عاص مخالف للأمر، ألا ترى أنه قال سبحانه: "قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها"، فعلى إخراجهم من الجنة بتكبره لا بكفره. فإن قلت: هذا مناقض لما قدمت في شرح الفصل الأول.

قلت: كلا، لأن في الفصل الأول عللت استحقاقه اسم الكفر بأمر زائد على المعصية المطلقة، وهو فساد اعتقاده، ولم أجعل ذلك علة في خروجه من الجنة، وههنا عللت خروجه من الجنة بنفس المعصية، فلا تناقض.

فإن قلت: ما معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: "ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً؟ وهل يظن أحد أو يقول: إن الله تعالى يدخل الجنة أحداً من البشر بالأمر الذي أخرج به ههنا إبليس! كلا، هذا ما لا يقوله أحد، وإنما الذي يقوله المرجئة: إنه يدخل الجنة من قد عمى وخالف الأمر - كما خالف الأمر إبليس - برحمته وعفوه، وكما يشاء، لا أنه يدخله الجنة بالمعصية، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي نفي دخول أحد الجنة بالمعصية لأن الباء للسببية؟".

قلت: الباء ههنا ليست للسببية كما يتوهمه هذا المعارض، بل هي كالباء في قولهم: خرج زيد بشيابه، ودخل زيد بسلاحه، أي خرج لابساً، ودخل متسلحاً، أي يصحبه الثياب ويصحبه السلاح، فكذلك قوله عليه السلام: "بأمر أخرج به منها

ملكاً"، معناه أن الله تعالى لا يدخل الجنة بشراً يصحبه أمر أخرج الله به ملكاً منها.

الأصل: فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالترع الشديد، ورماكم من مكان قريب، فقال: "رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين"، قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظن غير مصيب، صدقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجائحة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت فيه الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجأت الذل، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطئوكم إثنان الجراحة، طعنًا في عيونكم، وحرًا في حلوقكم، ودقًا لمناخركم، وقصدًا لمقاتلكم، وسوقًا بخزائم القهر، إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم حرجًا، وأورى في دنياكم قدحًا، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين. فاجعلوا عليه حدكم وله جدكم. فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبك، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم. يقتنصونكم بكل مكان، ويضربون منكم كل بنان، لا تمتنعون بجيلة، ولا تدفعون بعزيمة، في حومة ذل، وحلقة ضيق، وعرصه موت، وجولة بلاء.

فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته، ونزعاته ونفثاته. واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده، فإن له من كل أمة جنوداً وأعواناً، ورجلاً وفرساناً، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسب، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر، الذي أعقبه الله به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة.

الشرح: موضع "أن يعديكم" نصب على البدل من "عدو الله". وقال الراوندي: يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، وهذا ليس بصحيح لأن "حذر" لا يتعدى إلى المفعولين، والعدوى: ما يعدي من جرب أو غيره، أعدى فلان فلاناً من خلقه أو من علته، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره، وفي الحديث: "لا عدوى في الإسلام".

فإن قلت: فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبطل أمر العدوى، فكيف قال أمير المؤمنين: "فاحذروه أن يعديكم؟". قلت: إن النبي صلى الله عليه وسلم أبطل ما كانت العرب تزعمه من عدوى الجرب في الإبل وغيرها، وأمير المؤمنين عليه السلام حذر المكلفين من أن يتعلموا من إبليس الكبر والحمية، وشبه تعلمهم ذلك منه بالعدوى لاشتراك الأمرين في الانتقال من أحد الشخصين إلى الآخر.

قوله عليه السلام: "يستفزكم" أي يستخفكم، وهو من أَلْفَظ القرآن: "واستفز من استطعت منهم بصوتك"، أي أزعجه واستخفه وأطر قلبه. والخيال: الخيالة، ومنه الحديث: "يا خيل الله اركبي".

والرجل: اسم جمع لراحل كركب اسم جمع لراكب، وصحب اسم جمع لصاحب، وهذه أيضاً من أَلْفَظ القرآن العزيز: "واجلب عليهم بخيلك ورجلك"، وقرئ "ورجلك"، و بكسر الجيم على أن "فعلاً" بالكسر بمعنى فاعل نحو تعب وتاعب، ومعناه، وجمعك الرجل وقد تضم الجيم أيضاً، فيكون مثل قولك: رجل حدث وحدث وندس وندس.

فإن قلت: فهل لإبليس خيل تركبها جنده؟.

قلت: يجوز أن يكون ذلك، وقد فسر قوم بهذا. والصحيح أنه كلام خرج مخرج المثل، شبهت حاله في تسلطه على بني آدم بمن يغير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم. وقيل: بصوتك، أي بدعائك إلى القبيح. وخيله ورجله: كل ماش وراكب من أهل الفساد من بني آدم.

قوله: "وفوق السهم" جعلت له فوقاً، وهو موضع الوتر، وهذا كناية عن الاستعداد، ولا يجوز أن يفسر قوله: "فقد فوق لكم سهم الوعيد" بأنه وضع فوق في الوتر ليرمى به، لأن ذاك لا يقال فيه: قد فوق، بل يقال: أفقت السهم وأوفقته أيضاً ولا يقال: أفوقته، وهو من النوادر.

وقوله: "وأغرق إليكم بالترع"، أي استوفى مد القوس وبالع في نزعها ليكون مرماه أبعد، ووقع سهامه أشد. قوله: "ورماكم من مكان قريب"، لأنه كما جاء في الحديث: لا يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويخالط القلب"، ولا شيء أقرب من ذلك.

والباء في قوله: "بما أغويتني" متعلق بفعل محذوف تقديره: أجازيك بما أغويتني تزييني لهم القبيح، ف"ما" على هذا مصدرية، أي أجازيك بإغوائك لي تزييني لهم القبيح، فحذف المفعول. ويجوز أن تكون الباء قسمًا، كأنه أقسم بإغوائه إياه ليزين لهم.

فإن قلت: وأي معنى في أن يقسم بإغوائه؟ وهل هذا مما يقسم به!.

قلت: نعم، لأنه ليس إغواء الله تعالى إياه خلق الغي والضلال في قلبه، بل تكليفه إياه السجود الذي وقع الغي عنده من الشيطان، لا من الله، فصار حيث وقع عنده، كأنه موجب عنه، فنسب إلى البارئ، والتكليف تعريض للثواب ولذة الأبد، فكان جديرًا أن يقسم به، وقد أقسم في موضع آخر، فقال: "فبعتك لأغوينهم أجمعين"، فأقسم بالعزة، وههنا أقسم بالأمر والتكليف. ويجوز فيه وجه ثالث، وهو ألا تكون الباء قسمًا، ويقدر قسم محذوف، ويكون المعنى: بسبب ما كلفتني فأفضى إلى غوايتي، أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بي، وهو أن أزين لهم المعاصي التي تكون سبب هلاكهم. فإن قلت: ليس هذا نحو ما فعله البارئ به، لأن البارئ أمره بالحسن فأباه، وعدل عنه إلى القبيح، والشيطان لا يأمرنا بالحسن فنكرهه ونعدل عنه إلى القبيح، فكيف يكون ذلك نحو واقعته مع البارئ!.

قلت: المشابهة بين الواقعتين في أن كل واحدة منهما تقع عندها المعصية، لا على وجه الإجمار والقسر، بل على قصد الاختيار، لأن معصية إبليس كانت من نفسه، ووقعت عند الأمر بالسجود اختياراً منه لا فعلاً من البارئ، ومعصيتنا نحن عند التزيين والوسوسة تقع اختياراً منا لا اضطراراً يضطرنا إبليس إليه، فلما تشابهت صورتان في هذا المعنى حسن قوله: بما فعلت بي كذا لأفعلن بهم نحوه".

فإن قلت: ما معنى قوله: "في الأرض"؟ ومن أين كان يعلم إبليس أن آدم سيصير له ذرية في الأرض!.

قلت: أما علمه بذلك فمن قول الله تعالى له وللملائكة: "إني جاعل في الأرض خليفة! وأما لفظة "الأرض"، فالمراد بها ههنا الدنيا التي هي دار التكليف، كقوله تعالى: "ولكنه أدخل إلى الأرض!، ليس يريد به الأرض بعينها بل الدنيا وما فيها من

الملاذ وهوى الأنفس.

قوله عليه السلام: "قذفاً بغيب بعيد"، أي قال إبليس هذا القول قذفاً بغيب بعيد، والعرب تقول للشيء المتوهم على بعد: هذا قذف بغيب بعيد، والقذف في الأصل: رمي الحجر وأشباهه، والغيب الأمر الغائب، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية، قال الله تعالى في كفار قريش: "ويقذفون بالغيب من مكان بعيد"، أي يقولون: هذا سحر، أو هذا من تعليم أهل الكتاب، أو هذه كهانة، وغير ذلك مما كانوا يرمونه عليه الصلاة والسلام به. وانتصب "قذفاً" على المصدر الواقع موقع الحال، وكذلك "رجماً". وقال الراوندي: انتصبا لأنها مفعول له، وليس بصحيح، لأن المفعول له ما يكون عذراً وعلّة لوقوع الفعل، وإبليس ما قال ذلك الكلام لأجل القذف والرجم، فلا يكون مفعولاً له. فإن قلت: كيف قال عليه السلام: "قذفاً من مكان بعيد، ورجماً بظن غير مصيب"، وقد صح ما توهمه وأصاب في ظنه، فإن إغوائه وتزيينه تم على الناس كلهم إلا على المخلصين!.

قلت: أما أولاً فقد روي: "ورجماً بظن مصيب" بجذف "غير"، ويؤكد هذه الرواية قوله تعالى: "ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً"، وأما ثانياً على الرواية التي هي أشهر فنقول: أما قذفاً من مكان بعيد، فإنه قال ما قال على سبيل التوهم والحسبان لأمر مستبعد لا يعلم صحته ولا يظنها، وليس وقوع ما وقع من المعاصي وصحة ما توهمه بمخرج لكون قوله الأول: "قذفاً بغيب بعيد"، وأما "رجماً بظن غير مصيب"، فيجب أن يحمل قوله: "لأغوينهم أجمعين ! على الغواية بمعنى الشرك أو الكفر، ويكون الاستثناء وهو قوله: إلا عبادك منهم المخلصين ! معناه: إلا المعصومين من كل معصية، وهذا ظن غير مصيب لأنه ما أغوى كل البشر الغواية التي هي الكفر والشرك إلا المعصومين العصمة المطلقة، بل أغوى بعضهم كذلك، وبعضهم بأن زين له الفسق دون الكفر، فيكون ظنه أنه قادر على إغواء البشر كافة بمعنى الضلال بالكفر ظناً غير مصيب.

قوله: "صدقه به أبناء الحمية"، موضع "صدقه" جر، لأنه صفة "ظن"، وقد روي: "صدقه أبناء الحمية" من غير ذكر الجار والمجرور، ومن رواه بالجار والمجرور كان معناه: صدقه في ذلك الظن أبناء الحمية، فأقام الباء مقام "في". قوله: "حتى إذا انقادت له الجاحمة منكم"، أي الأنفس الجاحمة أو الأخلاق الجاحمة. قوله: "فنجمت فيه الحال" أي ظهرت، وقد روي: "فنجمت الحال من السر الخفي" من غير ذكر الجار والمجرور، ومن رواه بالجار والمجرور فالمعنى: فنجمت الحال في هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجلاء. واستفحل سلطانه: قوي واشتد وصار فحلاً، واستفحل جواب قوله: "حتى إذا". دلف بجنوده: تقدم بهم.

والولجات: جمع ولجة بالتحريك، وهي موضع، أو كهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره، وأقحموكم: أدخلوكم. والورطة: الهلكة.

قوله: "وأوطئوكم إثنان الجراحة"، أي جعلوكم واطئين لذلك، والإثنان: مصدر أثنى في القتل، أي أكثر منه وبالغ حتى كثف شأنه، وصار كالشيء الثخين، ومعنى إيصاء الشيطان ببني آدم ذلك إلقاؤه إياهم فيه، وتوريطهم وحمله لهم

عليه، فالإثخان على هذا منصوب لأنه مفعول ثان، لا كما زعم الراوندي أنه انتصب بحذف حرف الخفض. قوله عليه السلام: "طعناً في عيونكم"، انتصب "طعناً" على المصدر، وفعله محذوف، أي فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم في عيونكم طعناً، فأما من روى: "وأوطئوكم لإثخان الجراحة" باللام فإنه يجعل "طعناً منصوباً على أنه مفعول به، أي أوطئوكم طعناً وحزاً، كقولك: أوطأته ناراً، وأوطأته عشوةً، ويكون "إثخان الجراحة" مفعولاً له، أي أوطئوكم الطعن ليثخنوا جراحكم. وينبغي أن يكون "قصداً" و"سوقاً" خالصين للمصدرية، لأنه يبعد أن يكون مفعولاً به.

واعلم أنه لما ذكر الطعن نسبه إلى العيون، ولما ذكر الحز، وهو الذبح نسبه إلى الحلق، ولما ذكر الدق، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر، وهذا من صناعة الخطابة التي علمه الله إياها بلا تعليم، وتعلمها الناس كلهم بعده منه. والخزائم: جمع خزامة، وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير فيشد فيها الزمام.

وتقول: قد روى الزند، أي خرجت ناره، وهذا الزند أورى من هذا، أي أكثر إخراجاً للنار. يقول: فأصبح الشيطان أضر عليكم وأفسد لحالك من أعدائكم الذين أصبحتم مناصبين لهم، أي معادين، وعليهم متألين، أي مجتمعين. فإن قلت: أما أعظم في الدين حرجاً فمعلوم، فأني معنى لقوله: "وأورى في دنياكم قدحاً"، وهل يفسد إبليس أمر الدنيا كما يفسد أمر الدين!.

قلت: نعم، لأن أكثر القبائح الدينية مرتبطة بالمصالح والمفاسد الدنيوية، ألا ترى أنه إذا أغرى السارق بالسرقة أفسد حال السارق من جهة الدين وحال المسروق منه من جهة الدنيا، وكذلك القول في الغصب والقتل وما يحدث من مضار الشرور الدنيوية من اختلاط الأنساب واشتباه النسل، وما يتولد من شرب الخمر والسكر الحاصل عنها من أمور يحدثها السكران خبطاً بيده، وقذفاً بلسانه، إلى غير ذلك من أمثال هذه الأمور وأشباهها.

قوله عليه السلام: "فاجعلوا عليه حدكم"، أي شباتكم وبأسكم.

وله حدكم: من جددت في الأمر جداً، أي اجتهدت فيه وبالغت.

ثم ذكر أنه فخر على أصل بني آدم، يعني أباهم آدم عليه السلام حيث امتنع من السجود له، وقال، "أنا خير منه".

ووقع في حسبيكم، أي عاب حسبيكم وهو الطين، فقال: إن النار أفضل منه. ودفع في نسبكم مثله.

وأجلب بخيله عليكم، أي جمع خيالاته وفرسانه وألبها.

ويقتنصونكم: يتصيدونكم. والبنان: أطراف الأصابع، وهو جمع، واحدته بنانة، ويجمع في القلة على بنانات، ويقال: بنان مخضب، لأن كل جمع ليس بينه وبين واحد إلا الهاء فإنه يذكر ويوحد.

والخومة: معظم الماء والحرب وغيرهما، وموضع هذا الجار والمجرور نصب على الحال، أي يقتنصونكم في حومة ذل، والجولة: الموضع الذي تحول فيه.

وكمن في قلوبكم: استتر، ومنه الكمين في الحرب.

ونزغات الشيطان: وساوسه التي يفسد بها. ونفثاته مثله.

قوله: "واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم" كلام شريف جليل المحل، وكذلك قوله عليه

السلام: "واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده"، والمسلحة، خيل معدة للحماية والدفاع.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

ثم نهاهم أن يكونوا كقبايل الذي حسد أخاه هابيل فقتله، وهما أخوان لأب وأم، وإنما قال: "ابن فمه"، فذكر الأم دون الأب، لأن الأخوين من الأم أشد حنواً ومحبة والتصاقاً من الأخوين من الأب، لأن الأم هي ذات الحضانة والتربية. وقوله: "من غير ما فضل"، ما ههنا زائدة، وتعطي معنى التأكيد، نهاهم عليه السلام أن يحسدوا النعم، وأن ييغوا ويفسدوا في الأرض، فإن آدم لما أمر ولده بالقربان قرب قابيل شر ماله - وكان كافراً - وقرب هابيل خير ماله - وكان مؤمناً - فتقبل الله تعالى من هابيل، وأهبط من السماء ناراً فأكلته، قالوا: لأنه لم يكن في الأرض حينئذ فقير يصل القربان إليه، فحسده قابيل - وكان أكبر منه سناً - فقال: لأقتلنك، قال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين، أي بذنبك وجرمك كان عدم قبول قربانك لانسلاخك من التقوى، فقتله فأصبح نادماً، لا ندم التوبة بل ندم الحيرة ورقة الطبع البشري، ولأنه تعب في حمله كما ورد في التزييل أنه لم يفهم ماذا يصنع به حتى بعث الله الغراب.

قوله عليه السلام: "وألزمه آثام القتالين إلى يوم القيامة"، لأنه كان ابتداء بالقتل، ومن سن سنة شر كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما أن من سن سنة خير كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه، أن الروايات اختلفت في هذه الواقعة، فروى قوم أن الرجلين كانا من بني إسرائيل وليسا من ولد آدم لصلبه، والأكثرون خالفوا في ذلك.

ثم اختلف الأكثرون، فروى قوم أن القربان من قابيل وهابيل كان ابتداء، والأكثرون قالوا: بل أراد آدم عليه السلام أن يزوج هابيل أخت قابيل توءمته، ويزوج قابيل أخت هابيل توءمته، فأبى قابيل، لأن توءمته كانت أحسن، فأمرهما أبوهما بالقربان، فمن تقبل قربانه نكح الحسناء، فتقبل قربان هابيل، فقتله أخوه كما ورد في الكتاب العزيز. وروى الطبري مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم عليه السلام الأول كفل منها، وذلك بأنه أول من سن القتل"، وهذا يشيد قول أمير المؤمنين عليه السلام.

الأصل: ألا وقد أمتعتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناسبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة. فالله الله في كبر الحمية، وفخر الجاهلية! فإنه ملاقح الشنان، ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية، والقرون الحالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالتهم، ومهاوي ضلالتهم، ذلاً عن سياقه، سلساً في قياده، أمراً تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبراً تضايقت الصدور به.

ألا فالحذر الحذر من ساداتكم وكبرائكم! الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا المهجينة على ربه، وجاحدوا الله على ما صنع بهم؟ مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتراء الجاهلية.

فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً، ولا لفضله عندكم حساداً، ولا تطيعوا الأعداء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، وأحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجنداً بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقاً لعقولكم، ودخولاً في عيونكم، ونفشاً في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، وموطىء قدمه، ومأخذ يده. فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله

وصولاته، ووقائعه ومثالاته، واتعضوا بمثاوي حدودهم، ومصارع جنوبهم، واستعيدوا بالله من لواقح الكبر، كما تستعيدونه من طوارق الدهر.

الشرح: أمعنتم في البغي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض، أي ذهب فيها بعيداً. ومصارحة لله، أي مكاشفة، والمناسبة المعادة.

وملاقح الشنآن، قال الراوندي: الملاقح هي الفحول التي تلقح، وليس بصحيح، نص الجوهرى على أن الوجه لواقح كما جاء في القرآن: "وأرسلنا الرياح لواقح".

وقال: هو من النوادر، لأن الماضي رباعي. والصحيح أن ملاقح ههنا جمع ملقح وهو المصدر، من لقحت كضربت مضرباً وشربت مشرباً.

ويجوز فتح النون من الشنآن وتسكينها، وهو البغض.

ومنافخ الشيطان: جمع منفخ، وهو مصدر أيضاً، من نفخ، ونفخ الشيطان ونفثه واحد، وهو وسوسته وتسويله، ويقال للمتطاول إلى ما ليس له: قد نفخ الشيطان في أنفه. وفي كلامه عليه السلام، يقوله لطلحة وهو صريع، وقد وقف عليه، وأخذ سيفه: "سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الشيطان نفخ في أنفه!". قوله: وأعنفوا: أسرعوا، وفرس معناق، والسير العنق، قال الراجز:

إلى سليمان فنستريحا

ياناق سيري عنقاً فسيحاً

والحنادس: الظلم، والمهاوي: جمع مهواة بالفتح، وهي الهوة يتردى الصيد فيها، وقد تماوى الصيد في المهواة، إذا سقط بعضه في أثر بعض.

قوله عليه السلام: "ذلاً عن سياقه"، انتصب على الحال، جمع ذلول، وهو السهل المقادة، وهو حال من الضمير في "أعنفوا"، أي أسرعوا متقادين لسوقه إياهم.

وسلساً: جمع سلس، وهو السهل أيضاً، وإنما قسم "ذلاً" و"سلساً" بين "سياقه" و"قياده" لأن المستعمل في كلامهم: قدت الفرس فوجدته سلساً أو صعباً، ولا يستحسنون: سقته فوجدته سلساً أو صعباً، وإن المستحسن عندهم: سقته فوجدته ذلولاً أو شמושاً.

قوله عليه السلام: "أمراً" منصوب بتقدير فعل، أي اعتمدوا أمراً، و"كبراً"، معطوف عليه، أو ينصب "كبراً" على المصدر بأن يكون اسماً واقعاً موقعه، كالعطاء موضع الإعطاء.

وقال الراوندي: "أمراً" منصوب هنا لأنه مفعول به. وناصبه المصدر الذي هو سياقه وقياده، تقول: سقت سياقاً وقدت قياداً، وهذا غير صحيح لأن مفعول هذين المصدرين محذوف تقديره: عن سياقه إياهم وقياده إياهم، وهذا هو معنى الكلام، ولو فرضنا مفعول أحد هذين المصدرين "أمراً" لفسد معنى الكلام. وقال الراوندي أيضاً: ويجوز أن يكون "أمراً" حالاً. وهذا أيضاً ليس بشيء، لأن الحال وصف هيئة الفاعل أو المفعول، و"أمراً" ليس كذلك.

قوله عليه السلام: "تشابهت القلوب فيه"، أي أن الحمية والفخر والكبر والعصية ما زالت القلوب متشابهة متماثلة فيها. وتتبع القرون عليه: جمع قرن بالفتح، وهي الأمة من الناس.

وكبراً تضايقت الصدور به، أي كبر في الصدور حتى امتلأت به وضاحت عنه لكثرتة.

ثم أمر بالحذر من طاعة الرؤساء أرباب الحمية، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: "إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السيئاً!".

وقد كان أمر في الفصل الأول بالتواضع لله، ونهى ههنا عن التواضع للرؤساء، وقد جاء في الخبر المرفوع: "ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء! وأحسن منه تكبر الفقراء على الأغنياء".

الذين تكبروا عن حسبهم، أي جهلوا أنفسهم، ولم يفكروا في أصلهم من النطف المستقذرة من الطين المتنن، قال الشاعر:

وجيفة آخره يفخر

ما بال من أوله نطفة

يرجو ولا تأخير ما يحذر

يصبح لا يملك تقديم ما

قوله عليه السلام: "وألقوا المهجنة على ربه" روي "المهجنة" على "فعيلة"، كالطبيعة والخلقة، وروي "المهجنة" على "فعلة"، كالمضغة واللحمة، والمراد بهما الاستهجان، من قولك: هو يهجن كذا، أي يقبحه، ويستهنه أي يستقبحه. أي نسبوا ما في الأنساب من القبح بزعمهم إلى ربه، مثل أن يقولوا للرجل: أنت عجمي ونحن عرب، فإن هذا ليس إلى الإنسان، بل هو إلى الله تعالى، فأبي ذنب له فيه!.

قوله: "وجاحدوا الله"، أي كابروه وأنكروا صنعه إليهم، وآساس بالمد: جمع أساس.

واعترأ الجاهلية: قولهم: يا لفلان! وسمع أبي بن كعب رجلاً يقول: يا لفلان! فقال: عضضت بمن أبيك! فقليل له: يا أبا المنذر ما كنت فحاشاً، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بمن أبيه ولا تكنوا".

قوله: "فلا تكونوا لنعمة الله أضداداً"، لأن البغي والكبر يقتضيان زوال النعمة وتبدلها بالنقمة.

قوله: "ولا تطيعوا الأديعاء"، مراده ههنا بالأديعاء الذين ينتحلون الإسلام ويطنون النفاق.

ثم وصفهم فقال: "الذين شربتم بصفوكم كدرهم"، أي شربتم كدرهم مستبدلين ذلك بصفوكم. ويروى: "الذين ضربتم"، أي مزجتم. ويروى: "شربتم" أي بعتم واستبدلتم.

والأحلاس، جمع حلس، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، فليل لكل ملازم أمر: هو حلس ذلك الأمر، والترجمان: بفتح التاء: هو الذي يفسر لساناً بلسان غيره، وقد تضم التاء. ويروى: "ونثاً في أسماعكم" من نث الحديث، أي أفشاه.

الأصل: فلو رخص الله في الكبر لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة أنبيائه، ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا قوماً مستضعفين، قد أختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالجهد، وامتحنهم بالمخاوف، ومحصهم بالمكاره.

فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد، جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنى والإقتار، فقد قال سبحانه وتعالى: "أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون."

الشرح: التكبر: التعاضم، والغرض مقابلة لفظة "التواضع" لتكون الألفاظ مزدوجة. وعفر وجهه: ألصقه بالعفر، وخفضوا أجنحتهم: ألانوا جانبهم، والمخمصة: الجوع. والمجهد: المشقة، وأمير المؤمنين عليه السلام كثير الاستعمال لمفعول ومفعلة بمعنى المصدر، إذا تصفحت كلامه عرفت ذلك.

ومحصهم، أي طهرهم، وروي "مخضهم" بالخاء والضاد المعجمة، أي حركهم وزلزلهم.

ثم نهي أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالاً وولداً، فإن ذلك جهل بمواقع الفتنة والاختبار.

وقوله تعالى: "أيحسبون...!، الآية دليل على ما قاله عليه السلام، والأدلة العقلية أيضاً دلت على أن كثيراً من الآلام والغمو والبلوى إنما يفعله الله تعالى لللطاف والمصالح. وما الموصولة في الآية يعود إليها محذوف ومقدر لا بد منه، وإلا كان الكلام غير منتظم، وغير مرتبط بعبارة بعضه ببعض، وتقديره: نسارع لهم به في الخيرات.

الأصل: فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم، بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون - صلى الله عليهما - على فرعون وعليهما مدرع الصوف، وبأيديهما العصي، فشرطاً له - إن أسلم - بقاء ملكه، ودوام عزه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز، وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذل! فهلا ألقي عليهما أساورة من ذهب، إعظماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه!

ولو أراد الله سبحانه لأتبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء، ووحوش الأرضين، لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلت الأنبياء، ولما وجب للقابليين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمتم الأسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم، وضعفةً فيما ترى الأعين من حالهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً.

الشرح: مدرع الصوف: جمع مدرعة، بكسر الميم، وهي كالكساء، وتدرع الرجل وتدرع إذا لبسها. والعصي: جمع عصا.

وتقول: هذا سوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساورة، وقرئ: "فلولا القي عليه أسورة من ذهب".

وقد يكون جمع أساور، قال سبحانه: "يحلون فيها من أساور من ذهب!، قال أبو عمرو بن العلاء: أساور ههنا: جمع إسوار وهو السوار.

والذهبان: بكسر الهمزة: جمع ذهب، كخرب لذكر الحبارى وخربان. والعقيان: الذهب أيضاً.

قوله عليه السلام: "واضمحلت الأنبياء"، أي تلاشت وفيت. والأنبياء، جمع نبأ، وهو الخبر، أي لسقط الوعد والوعيد وبطلا.

قوله عليه السلام: ولا لزمتم الأسماء معانيها"، أي من يسمى مؤمناً أو مسلماً حينئذ، فإن تسميته مجاز لا حقيقة؟ لأنه ليس بمؤمن إيماناً من فعله وكسبه، بل يكون ملجأً إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة.

والمبتلين، بفتح اللام: جمع مبتلى، كالمعطين والمرتضين، جمع معطى ومرتضى. والخصاصة: الفقر. وهذا الكلام هو ما يقوله أصحابنا بعينه في تعليل أفعال الباري سبحانه بالحكمة والمصلحة، وأن الغرض بالتكليف هو التعريض للثواب، وأنه يجب أن يكون خالصاً من الإلحاء، ومن أن يفعل الواجب بوجه غير وجه وجوبه، ويرتدع عن القبيح لوجه غير وجه قبحه.

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، أن موسى قدم هو وأخوه هارون مصر على فرعون، لما بعثهما الله تعالى إليه حتى وقفا على بابه يلتمسان الإذن عليه، فمكثا سنين يغدوان على بابه ويروحان، لا يعلم بهما، ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأهما- وقد كانا قالا لمن بالبواب: إنا رسولا رب العالمين إلى فرعون- حتى دخل عليه بطل له يلاعبه ويضحكه، فقال له: أيها الملك إن على الباب رجلاً يقول قولاً عجيباً عظيماً، ويزعم أن له إلهاً غيرك، قال: بيبي! قال: نعم، قال: أدخلوه، فدخل ويده عصاه، ومعه هارون أخوه، فقال: أنا رسول رب العالمين إليك... وذكر تمام الخبر. فإن قلت: أي خاصية في الصوف ولبسه؟ ولم اختاره الصالحون على غيره؟ قلت: ورد في الخبر أن أول لباس لبسه آدم لما هبط إلى الأرض صوف كبش قيضه الله له، وأمره أن يذبحه فيأكل لحمه ويلبس صوفه، لأنه أهبط عريان من الجنة فذبحه، وغزلت حواء صوفه، فلبس آدم منه ثوباً، وألبس حواء ثوباً آخر، فلذلك صار شعار الأولياء وانتسبت إليه الصوفية. الأصل: ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام، وعزة لا تضام، وملك تمد نحوه أعناق الرجال، وتشد إليه عقد الرجال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة، والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصة، لا يشوبها من غيرها شائبة. الشرح: تمد نحوه أعناق الرجال، أي لعظمته، أي يؤمله المؤمنون ويرجوه الراجون، وكل من أمل شيئاً فقد طمح ببصره إليه معنى لا صورة، فكفى عن ذلك بمد العنق.

وتشد إليه عقد الرجال: يسافر أرباب الرغبات إليه، يقول!: لو كان الأنبياء ملوكاً ذوي بأس وقهر لم يمكن إيمان الخلق وانقيادهم إليهم، لأن الإيمان لا نفسه واجب عقلاً، بل كان لرهبة لهم أو رغبة فيهم، فكانت النيات مشتركة. هذا فرض سؤال وجواب عنه، كأنه قال لنفسه: لم لا يجوز أن يكون إيمانهم على هذا التقدير لوجوبه، وخوف ذلك النبي، أو لرجاء نفع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لأن النيات تكون حينئذ مشتركة، أي يكون المكلف قد فعل الإيمان لكلا الأمرين. وكذلك تفسير قوله "والحسنات مقتسمة": قال: ولا يجوز أن تكون طاعة الله تعالى تعلو إلا لكونها طاعة له لا غير، ولا يجوز أن يشوبها ويخالطها من غيرها شائبة.

فإن قلت: ما معنى قوله: "لأن ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار"؟ قلت: أي لو كان الأنبياء كالمملوك في السطوة والبطش، لكان المكلف لا يشق عليه الاعتبار والإنزجار عن القبائح مشقته عليه إذا تركه لقبحه لا لخوف السيف، وكان بعد المكلفين عن الاستكبار والبعي لخوف السيف والتأديب أعظم من بعدهم عنهما إذا تركوهما لوجه قبحهما، فكان يكون ثواب المكلف، إما ساقطاً، وإما ناقصاً.

الأصل: وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل، ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله الله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدرأً، وأضيّق بطون الأودية قطراً. بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تموي إليه ثمار الأفتدة، من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذلاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم، شعثاً غبراً له، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته، ووصلةً إلى جنته.

ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، جم الأشجار، داني الثمار، ملتف البني، متصل القرى، بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراض مغدقة، وزروع ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء، على حسب ضعف البلاء.

ولو كان الأساس المحمول عليها، والإحجاز المرفوع بها، من زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لحفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس.

ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبد لهم بأنواع المجاهد، ويتليهم بضروب المكار، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه.

الشرح: كانت المثوبة، أي الثواب، وأجزل: أكثر، والجزيل: العظيم، وعطاء جزل وجزيل والجمع جزال، وقد أجزلت له من العطاء، أي أكثرت وجعله للناس قياماً، أي عماداً، وفلان قيام أهله، أي يقيم شؤونهم، ومنه قوله تعالى: "ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً".

وأوعر بقاع الأرض حجراً، أي أصعبها، ومكان وعر، بالتسكين: صعب المسلك أو المقام.

وأقل نتائق الدنيا مدرأً، أصل هذه اللفظة من قولهم: "امرأة متناق"، أي كثيرة الحبل والولادة، ويقال: ضيعة متناق أي كثيرة الربيع، فجعل عليه السلام الضياع ذوات المدر التي تثار للحرث نتائق، وقال: إن مكة أقلها صلاحاً للزرع، لأن أرضها حجرية.

والقطر: الجانب، ورمال دمثة: سهلة، وكلما كان الرمل أسهل، كان أبعد عن أن ينبت، وعيون وشلة، أي قليل الماء، والوشل، بفتح الشين: الماء القليل، ويقال: وشل الماء وشلاناً، أي قطر.

قوله: "لا يزكو بها خف"، أي لا تزيد الإبل فيها أي لا تسمن، والخف ههنا هو الإبل، والحافر: الخيل والحميز، والظلف: الشاة، أي ليس حولها مرعى يرعاه الغنم فتسمن.

وأن يثنوا أعطافهم نحوه، أي يقصدوه ويحجوه، وعطفا الرجل: جانباه.

وصار مثابة، أي يثاب إليه ويرجع نحوه مرة بعد أخرى، وهذه من ألفاظ الكتاب العزيز.

قوله عليه السلام: "المنتجع أسفارهم"، أي لنجعتها، والنجعة: طلب الكلاء في الأصل، ثم سمي كل من قصد أمراً يروم النفع منه منتجعاً.

قوله: "وغاية الملقى رحالهم" أي صار البيت هو الغاية التي هي الغرض والمقصد، وعنده تلقى الرحال، أي تخط الإبل عن ظهورها، ويطل السفر، لأنهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة.

قوله: "تهوي إليه ثمار الأفئدة"، ثمة الفؤاد: هو سويداء القلب، ومنه قولهم للولد: هو ثمة الفؤاد، ومعنى "تهوي إليه" أي تتشوقه وتحن نحوه.

والمفاوز: هي جمع مفازة، الفلاة سميت مفازة، إما لأنها مهلكة، من قولهم: فوز الرجل، أي هلك، وإما تفاؤلاً بالسلامة والفوز، والرواية المشهورة: "من مفاوز قفار" بالإضافة. وقد روى قوم: "من مفاوز" بفتح الزاء، لأنه لا ينصرف، ولم يضيفوا، جعلوا "قفار" صفة، والسحيفة: البعيدة، والمهاوي: المساقط، والفجاج: جمع فج، وهو الطريق بين الجبلين. قوله عليه السلام: "حتى يهزوا مناكبهم"، أي يحركهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه، فثنى عن السفر بهز المناكب. وذلك، حال، إما منهم وإما من المناكب، وواحد المناكب، منكب بكسر الكاف، وهو مجمع عظم العضد والكتف. قوله: "ويهللون"، يقولون: لا إله إلا الله، وروي: "يهلون لله" أي يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها، ويرملون، الرمل: السعي فوق المشي قليلاً، شعثاً غيراً؟ لا يتعهدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم، قد نبذوا السراويل، ورموا ثيابهم وقمصانهم المخيطة.

وشوهوا بإعفاء الشعور، أي غيروا وقبحوا محاسن صورهم، بأن أعفوا شعورهم فلم يخلقوا ما فضل منها وسقط على الوجه وشت في غيره من الأعضاء التي جرت العادة بإزالتها عنها.

والتمحيص: التطهير، من محصت الذهب بالنار إذا صفيته مما يشوبه، والتمحيص أيضاً: الامتحان والاختبار. والمشاعر: معالم النسك.

قوله: "وسهل وقرار"، أي في مكان سهل يستقر فيه الناس ولا يناهم من المقام به مشقة.

وجم الأشجار، كثيرها. وداني الثمار: قريبها، وملتف البني: مشتبك العمارة، والبيرة: الواحدة من البر، وهو الحنطة، والأرياف. جمع ريف وهو الخصب والمرعى في الأصل، وهو ههنا السواد والمزارع، ومحدقة: محيطة. ومغدقة: غزيرة، والغدق: الماء الكثير.

وناضرة: ذات نضارة ورونق وحسن.

قوله: "ولو كانت الأساس"، يقول: لو كانت أساس البيت التي حمل البيت عليها وأحجاره التي رفع بها من زمردة وياقوتة فالحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان، لأنهما صفة اسم كان والخبر "من زمردة"، وروي: "بين زمردة"، ويجوز أن تحمل لفظتا المفعول وهما المحمول والمرفوع ضمير البيت، فيكون قائماً مقام اسم الفاعل، ويكون موضع الجار والمجرور نصباً، ويجوز ألا تحملهما ذلك الضمير، ويجعل الجار والمجرور هو الساد مسد الفاعل، فيكون موضعه رفعاً.

وروي: "مضارعة الشك" بالضاد المعجمة، ومعناه مقارنة الشك ودنوه من النفس، وأصله من مضارعة القدر إذا حان

إدراكها، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب.

وقال الراوندي في تفسير هذه الكلمة: من مضارعة الشك، أي مماثلته ومشابهته، وهذا بعيد، لأنه لا معنى للمماثلة والمشابهة ههنا، والرواية الصحيحة بالصاد المهملة.

قوله عليه السلام: "ولنفى معتلج الريب، أي اعتلاجه، أي ولنفي اضطراب الشك في القلوب. وروى "يستعبدهم" و"يتعبدهم"، والثانية أحسن.

والجاهد: جمع مجهدة، وهي المشقة، وأبواباً فتحاً، أي مفتوحة. وأسباباً ذلاً، أي سهلة.

واعلم أن محصول هذا الفصل أنه كلما كانت العبادة أشق كان الثواب عليها أعظم، ولو أن الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلفين لما استحقوا عليها من الثواب إلا قدرأ يسيراً، بحسب ما يكون فيها من المشقة اليسيرة.

فإن قلت: فهل كان البيت الحرام موجوداً أيام آدم عليه السلام، ثم أمر آدم وولده أن يثبوا أعطافهم نحوه؟

قلت: نعم هكذا روى أرباب السير وأصحاب التواريخ، روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في "تاريخه عن ابن عباس، أن الله تعالى أوحى إلى آدم لما أهبطه إلى الأرض: أن لي حرماً حيال عرشي، فانطلق فابن لي بيتاً فيه، ثم طف به كما رأيت ملائكتي تحف بعرشي، فهناك أستجيب دعاءك ودعاء من يحف به من ذريتك. فقال آدم: إني لست أقوى على بنائه، ولا أهتدي إليه، فقيض الله تعالى له ملكاً، فانطلق به نحو مكة - وكان آدم في طريقه كلما رأى روضة أو مكاناً يعجبه سأل الملك أن يتزل به هناك ليبني فيه، فيقول الملك: إنه ليس ههنا حتى أقدمه مكة - فبنى البيت من خمسة جبال، طور سيناء، وطور زيتون، ولبنان، والحدودي، وبنى قواعده من حراء. فلما فرغ خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسك كلها التي يفعلها الناس اليوم، ثم قدم به مكة وطاف بالبيت أسبوعاً، ثم رجع إلى أرض الهند فمات.

وروى الطبري في التاريخ أن آدم حج من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجة على رجليه.

وقد روي أن الكعبة أنزلت من السماء وهي ياقوتة أو لؤلؤة، على اختلاف الروايات وأنها بقيت على تلك الصورة إلى أن فسدت الأرض بالمعاصي أيام نوح، وجاء الطوفان فرفع البيت، وبنى إبراهيم هذه البنية على قواعده القديمة.

وروى أبو جعفر، عن وهب بن منبه أن آدم دعا ربه فقال: يا رب أما لأرضك هذه عامر يسبحك ويقدسك فيها غيري! فقال الله: إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدسني، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري، يسبحني فيها خلقي، ويذكر فيها اسمي، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصه بكرامتي، وأوثره باسمي، فاسميه بيتي، وعليه وضعت جلالتي وخصصته بعظمي، وأنا مع ذلك في كل شيء، اجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته من حوله، ومن تحته، ومن فوقه فمن حرمه بحرمتي استوجب كرامتي، ومن أخاف أهله فقد أباح حرمتي، واستحق سخطي، وأجعله بيتاً مباركاً يأتيه بنوك شعناً غبراً على كل ضامر من كل فج عميق، يرجون بالتلبية رجياً، ويعججون بالتكبير عجيماً، من اعتمده لا يريد غيره، ووفد إلي وزارني واستضاف بي، أسعفته بحاجته، وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، تعمه يا آدم ما دمت حياً، ثم تعمه الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن.

قال: ثم أمر آدم أن يأتي إلى البيت الحرام الذي أهبط له إلى الأرض فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول

العرش، وكان البيت حينئذ من درة أو من ياقوتة، فلما أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه، وبقي أساسه فبوأه الله لإبراهيم

الأصل: فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبداً، ولا تشوي أحداً، لا عالماً لعلمه، ولا مقلداً في طمره. وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، وبجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم، ولما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً، ولحق البطون بالمتون من الصيام تذلاً، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض، وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر. انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر، وقاع طوابع الكبر!.

الشرح: بلدة وخمة ووخيمة: بينة الوحامة، أي وبيئة، مصيدة إبليس، يسكون الصاد وفتح الياء: آله التي يصطاد بها، وتساور قلوب الرجال: توابتها، وسار إليه يسور، أي وثب، والمصدر السور، ومصدر "تساور" المساورة، ويقال: إن لغضبه سورة، وهو سوار، أي وثاب معربد، وسورة الشراب: وثوبه في الرأس، وكذلك مساورة السموم التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

وما تكدي: ما ترد عن تأثيرها، من قولك: أكدي حافر الفرس، إذا بلغ الكدية وهي الأرض الصلبة، فلا يمكنه أن يحفر ولا تشوي أحداً: لا تخطيء المقتل وتصيب غيره، وهو الشوى، والشوى: الأطراف، كاليد والرجل. قال: لا ترد مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه، ولا عن فقير لطمره، والطمر: الثوب الخلق. و"ما" في قوله: "وعن ذلك ما حرس الله" زائدة مؤكدة، أي عن هذه المكائد التي هي البغي والظلم والكبر حرس الله عباده، ف"عن" متعلقة ب"احرس". وقال الراوندي، يجوز أن تكون مصدرية، فيكون موضعها رفعاً بالابتداء، وخبر المبتدأ قوله: "لما في ذلك". وقال أيضاً: يجوز أن تكون نافية، أي لم يحرس الله عباده عن ذلك إلهاءً وقهراً، بل فعلوه اختياراً من أنفسهم، والوجه الأول باطل، لأن "عن" على هذا التقدير تكون من صلة المصدر، فلا يجوز تقديمها عليه، وأيضاً فإن "لما في ذلك" لو كان هو الخبر، لتعلق لام الجر بمحذوف، فيكون التقدير: حراسة الله لعباده عن ذلك كائناً لما في ذلك من تعفير الوجوه بالتراب، وهذا كلام غير مفيد ولا منتظم إلا على تأويل بعيد لا حاجة إلى تعسفه، والوجه الثاني باطل، لأن سياق الكلام تدل على فساده، ألا ترى قوله: "تسكيناً وتخشيعاً"، وقوله: "لما في ذلك من كذا"، وهذا كله تعليل الحاصل الثابت لا تعليل المنفي المعدوم.

ثم بين عليه السلام الحكمة في العبادات، فقال: إنه تعالى حرس عباده بالصلوات التي افترضها عليهم من تلك المكائد. وكذلك بالزكاة والصوم ليسكن أطرافهم، ويخشع أبصارهم، فجعل التسكين والتخشيع عذراً وعلة للحراسة، ونصب اللفظ على أنها مفعول له.

ثم علل السكون والخشوع الذي هو علة الحراسة لما في الصلاة من تعفير الوجه على التراب، فصار ذلك علة العلة. قال: وذلك لأن تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً يوجب هضم النفس وكسرها وتذليلها، وعتاق الوجوه: كرائمها.

وإصاقي كرائم الجوارح بالأرض كاليدنين والساقين تصاغراً يوجب الخشوع والإستسلام، والجوع في الصوم الذي يلحق البطن في المتن يقتضي زوال الأشر والبطر، ويوجب مذلة النفس وقمعها عن الاهتمام في الشهوات، وما في الزكاة من صرف فواضل المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجب تطهير النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمح به النفوس من الأموال، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات، ففي ذلك كله دفع مكائد الشيطان. وتخفيض القلوب: حطها عن الاعتلاء والتهيه، والخيلاء: التكبر. والمسكنة: أشد الفقر في أظهر الرأيين، والقمع: القهر، والنواجم: جمع ناجمة، وهي ما يظهر ويطلع من الكبر وغيره، والقدرع، بالبدال المهملة: الكف، قدعت الفرس وكبحته باللجام، أي كففته. والطوالع، كالنواجم.

الأصل: ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتل تمويه الجهلاء، أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة. أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته، فقال: أنا ناري وأنت طيني. وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا لآثار مواقع النعم، فقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذيين.

فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور، التي تفاضلت فيها المجدا والنجداء من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل، بالأخلاق الرغبية، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحموده. فتعصبوا لخلال الحمد، من الحفاظ للحوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيط، واجتناب الفساد في الأرض. الشرح: قد روي: "تحتل" بالتاء، وروي "تحمّل"، والمعنى واحد.

والتمويه: التلبيس من موهت النحاس، إذا طليته بالذهب ليخفى، ولاط الشيء بقلبي يلوط ويليط، أي التصق، والمترف: الذي أطغته النعمة، وتفاضلت فيها، أي تزايدت، والمجداء، جمع ماجد، والمجد الشرف في الآباء، والحسب والكرم يكونان في الرجل وإن لم يكونا في آباءه. هكذا قال ابن السكيت، وقد اعترض عليه بأن المجيد من صفات الله تعالى، قال سبحانه: "ذو العرش المجيد"، على قراءة من رفع، والله سبحانه يتعالى عن الآباء، وقد جاء في وصف القرآن المجيد، قال سبحانه: "بل هو قرآن مجيد".

والنجداء: الشجعان، وأحدهم نجيد، وأما نجد ونجد، بالكسر والضم، فجمعه أنجد، مثل يقظ وأيقاظ. وبيوتات العرب: قبائلها، ويعاسيب القبائل: رؤساؤها، واليعسوب في الأصل: ذكر النحل وأميرها، والرغبية: الخصلة يرغب فيها، والأحلام: العقول. والأخطار: الأقدار.

ثم أمرهم بأن يتعصبوا لخلال الحمد وعددها، وينبغي أن يحمل قوله عليه السلام: "فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة"، على أنه لا يعرف له سبب مناسب، فكيف يمكن أن يتعصبوا لغير سبب أصلاً!

وقيل: إن أصل هذه العصبية، وهذه الخطبة، أن أهل الكوفة كانوا قد فسدوا في آخر خلافة أمير المؤمنين، وكانوا قبائل في الكوفة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنزل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته: يالللنخع! مثلاً، أو يا لكندة!

نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشر، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون: يا لثميم! وبالريبعة! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها، فتسل السيوف وتثور الفتن، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلا تعرض الفتيان بعضهم ببعض.

الأصل: واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثالات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، وحذروا أن تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حالهم، فالزموا كل أمر لزم العزة به حالهم، وزاحت الأعداء له عنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلمهم، من الاجتناب للفرقة، وال لزوم للألفة، والتحااض عليها، والتواصي بها.

واجتنبوا كل أمر كسر فقرهم، وأوهن منتهم، من تضاغن القلوب، وتشاحن الصدور، وتدابير النفوس، وتخاذل الأيدي. الشرح: المثالات: العقوبات، وذميم الأفعال: ما يذم منها، وتفاوت حالهم: اختلافهما. وزاحت الأعداء: بعدت. وله، أي لأجله.

والتحااض عليها: تفاعل يستدعي وقوع الحضر، وهو الحث من الجهتين، أي يحث بعضهم بعضاً. والفقرة: واحدة فقر الظهر، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة: قد كسرت فقرته، والمنة: القوة. وتضاغن القلوب وتشاحنهما واحد. وتخاذل الأيدي: ألا ينصر الناس بعضهم بعضاً.

الأصل: وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء! ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً! اتخذهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب، وجرعوهم جرع المرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلاً إلى دفاع، حتى إذا رأى الله سبحانه جد الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، وأئمة أعلاماً، وقد بلغت الكرامة من الله لهم، ما لم تذهب الآمال إليه بهم.

الشرح: تدبروا، أي تأملوا. والتمحيص: التطهير والتصفية، والأعباء: الأثقال: واحدها عبء، وأجهد العباد: أتعبهم، والفراعنة: العتاة، وكل عات فرعون، وساموهم سوء العذاب: ألزموهم إياه، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: "يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم"، والمرار: بضم الميم: شجر مر في الأصل، واستعير شرب المرار لكل من يلقي شديد المشقة، ورأى الله منهم جد الصبر، أي أشده، وأئمة أعلاماً، أي يهتدى بهم، كالعلم في الفلاة.

الأصل: فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعاً، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة.

ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، ومفوكاً على رقاب العالمين!.

فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، تشعبوا

مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم.

الشرح: الأملاء: الجماعات، الواحد ملاء.

ومترافة: متعاونة. البصائر نافذة، يقال: نفذت بصيرتي في هذا الخبر، أي اجتمع همي عليه، ولم يبق عندي تردد فيه، لعلمي به وتحقيقي إياه.

وأقطار الأرضين: نواحيها، وتشتتت: تفرقت.

وتشعبوا: صاروا شعوباً وقبائل مختلفين.

وتفرقوا متحزبين: اختلفوا أحزاباً، وروي "متحازبين".

وغضارة النعمة: الطيب اللين منها، والقصص: الحديث.

يقول: انظروا في أخبار من قبلكم من الأمم، كيف كانت حالهم في العز والملك لما كانت كلمتهم واحدة، وإلى ماذا آلت حالهم حين اختلفت كلمتهم! فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وأن يحل بكم إن اختلفتم مثل ما حل بهم.

الأصل: فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام، فما أشد اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال!.

تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يحتازونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق، وخضرة الدنيا، إلى منابت الشيخ، ومهافي الريح، ونكد المعاش، فتركوهم عالية مساكين، إخوان دبر ووبر. أذل الأمم داراً، وأجذبهم قراراً، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها، فالأحوال مضطربة والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة، في بلاء أزل، وأطباق جهل، من بنات موءودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة.

الشرح: لقائل أن يقول: ما نعرف أحداً من بني إسحاق وبني إسرائيل احتازتهم الأكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشيخ، إلا أن يقال: يهود خيبر والنضير وبني قريظة وبني قينقاع، وهؤلاء نفر قليل لا يعتد بهم. ويعلم من فحوى الخطبة أنهم غير مرادين بالكلام، ولأنه عليه السلام قال: تركوهم إخوان دبر ووبر، وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوبر والدبر، بل من أهل المدر، لأنهم كانوا ذوي حصون وآطام. والحاصل أن الذين احتازتهم الأكاسرة والقياصرة من الريف إلى البادية، وصاروا أهل وبر ولد إسماعيل، لا بنو إسحاق وبني إسرائيل!.

والجواب أنه عليه السلام ذكر في هذه الكلمات، وهي قوله: "فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل المقهورين والقاهرين جميعاً"، أما المقهورون فبنو إسماعيل، وأما القاهرون فبنو إسحاق وبني إسرائيل، لأن الأكاسرة من بني إسحاق، ذكر كثير من أهل العلم أن فارس من ولد إسحاق، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً، لأن الروم بنو العيص بن إسحاق، وعلى هذا يكون الضمير في "أمرهم"، و"تشتتهم" و"تفرقهم" يرجع إلى بني إسماعيل خاصة. فإن قلت: فبنو إسرائيل، أي مدخل لهم ههنا؟

قلت: لأن بني إسرائيل لما كانوا ملوكاً بالشام في أيام أخاب الملك وغيره، حاربوا العرب من بني إسماعيل غير مرة، وطردهم عن الشام، وأجأوهم على المقام ببادية الحجاز. ويصير تقدير الكلام: فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بني إسحاق وبني إسرائيل، فجاء بهم في صدر الكلام على العموم، ثم خصص فقال: الأكاسرة والقياصرة، وهم داخلون في عموم ولد إسحاق، وإنما لم يخصص عموم بني إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك ولد يعقوب، فيذكر لهم أسماء لهم في الخطبة، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بني ساسان ومن بني الأصفر. قوله عليه السلام: "فما أشد اعتدال الأحوال!"، أي ما أشبه الأشياء بعضها ببعض! وإن حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم.

قوله: "يحتازوهم عن الريف" يبعدونهم عنه، والريف: الأرض ذات الخصب والزرع، والجمع أرياف، ورافت الماشية أي رعت الريف، وقد أرفنا أي صرنا إلى الريف، وأرافت الأرض أي أخصبت، وهي أرض ريفة، بتشديد الياء. وبحر العراق: دجلة والفرات، أما الأكاسرة فطردهم عن بحر العراق، وأما القياصرة فطردهم عن ريف الآفاق، أي عن الشام وما فيه من المرعى والمنتجع. قوله عليه السلام: "أرباباً لهم"، أي ملوكاً، وكانت العرب تسمى الأكاسرة أرباباً، ولما عظم أمر حذيفة بن بدر عندهم سموه رب معد.

ومنابت الشيخ: أرض العرب، والشيخ: نبت معروف. ومهافي الريح: المواضع التي تهفو فيها، أي تهب وهي الفيافي والصحاري. ونكد المعاش: ضيقه وقلته. وتركوهم عالة، أي فقراء، جمع عائل، والعائل ذو العيلة والعيلة: الفقر، قال تعالى: "وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله"، قال الشاعر:

صعاليك نحن وأنتم ملوك

تعيرنا أننا عالة

نظيره قائد وقادة، وسائس وساسة.

وقوله: "إخوان دبر ووبر"، الدبر مصدر دبر البعير، أي عقره القتب، والوبر للبعير بمتزلة الصوف للضأن والشعر للمعز. قوله: "أذل الأمم داراً، لعدم المعامل والحصون المنيعة فيها. وأجذبهم قراراً، لعدم الزرع والشجر والنخل بها. والجذب: المحل. ولا يأوون: لا يلتجئون ولا ينضمون، والأزل: الضيق. وأطباق جهل: جمع طبق، أي جهل متراكم بعضه فوق بعض، وغارات مشنونة: متفرقة، وهي أصعب الغارات.

أسباب وأد البنات من بنات مؤودة، كان قوم من العرب يعدون البنات، قيل: إنهم بنو تميم خاصة، وإنه استفاض منهم في جيرانهم، وقيل: بل كان ذلك في تميم، وقيس، وأسد، وهذيل، وبكر بن وائل، قالوا: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم، فقال: "اللهم اشد وطأتك على مضر، واجعل عليهم سنين كسني يوسف"، فأجذبوا سبع سنين

حتى أكلوا الوبر بالدم، وكانوا يسمونه العلهز، فوآدوا البنات لإملاقهم وفقرهم، وقد دل على ذلك بقوله: "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق"، قال: "ولا يقتلن أولادهن".

وقال قوم: بل وآدوا البنات أنفةً، وزعموا أن تميمًا منعت النعمان الإتاوة سنة من السنين، فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر، وجل من معه من بكر بن وائل، فاستاق النعم وسى الذراري، وفي ذلك يقول بعض بني يشكر:

لما رأوا راية النعمان مقبلةً	قالوا: ألا ليت أدق دارنا عدن!
يا ليت أم تميم لم تكن عرفت	مرأً، وكانت كمن أودى به الزمن
إن تقتلونا فأعيار مخدعة	أو تنعموا فقديماً منكم المنن
منكم زهير وعتاب ومحتضن	وابنا لقيط وأودى في الوغى قطن

فوفدت بنو تميم إلى النعمان، واستعطفوه، فرق عليهم، وأعاد عليهم السبي، وقال: كل امرأة اختارت أباهها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه، فكلهن اخترن آباءهن، إلا ابنة قيس بن عاصم، فإنها اختارت من سباهها، وهو عمرو بن المشمرخ الإشكري، فنذر قيس بن عاصم المنقري التميمي ألا يولد له بنت إلا وأدها، والوآد أن يخنقها في التراب ويثقل وجهها به حتى تموت. ثم اقتدى به كثير من بني تميم، قال سبحانه: "وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت"، أي على طريق التبكيك والتوبيخ لمن فعل ذلك أو أجازه، كما قال سبحانه: "يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله".

ومن جيد شعر الفرزدق قوله في هجاء جرير:

ألم تر أنا بني دارم	زرارة منا أبو معبد
ومنا الذي منع الوائدات	وأحيا الوليد فلم يوآد
ألсна بأصحاب يوم النصار	وأصحاب ألوية المربد
ألсна الذين تميم بهم	تسامى وتفخر في المشهد!
وناجية الخير والأقرعا	ن وقبر بكازمة المورد
إذا ما أتى قبره عائذ	أناخ على القبر بالأسعد
أطلب مجد بني دارم	عطية كالجعل الأسود!
قرنبي يحك قفا مقرف	لئيم مآثره قعد
ومجد بني دارم فوقه	مكان السماكين والفرقد

وفي الحديث: أن صعصة بن ناجية بن عقال لما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: يا رسول الله، إني كنت أعمل في الجاهلية عملاً صالحاً، فهل ينفعني ذلك اليوم؟ قال عليه السلام: وما عملت؟ قال: ضللت ناقتين عشراوين،

فركت جملًا ومضيت في بغائهما، فرفع لي بيت حريد، فقصدته، فإذا شيخ جالس بفنائيه فسألته عن الناقيتين، فقال: ما نارهما؟ قلت: ميسم بني دارم، قال: هما عندي، وقد أحيا الله بهما قومًا من أهلك من مضر، فجلست معه ليخرجهما إلي، فإذا عجوز قد خرجت من كسم البيت، فقال لها: ما وضعت، إن كان سقبًا شاركنا في أموالنا، وإن كان حائلًا وأدناها، فقالت العجوز: وضعت أنثى، فقلت له: أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادها! قلت: إنما أشتري حياتها، ولا أشتري رقها، قال: فبكم؟ قلت: احتكم، قال: بالناقيتين والجمل، قلت: ذاك لك على أن يبلغني الجمل وإياها! قال: بعثك، فاستنقذتها منه بالجمل والناقيتين، وآمنت بك يا رسول الله، وقد صارت لي سنة في العرب أن أشتري كل مؤودة بناقتين عشراوين وجمل، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا مؤودة قد أنقذتهن، فقال عليه السلام: "لا ينفعك ذاك لأنك لم تبغ به وجه الله، وإن تعمل في إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه".

وروى الزبير في "الموفقيات" أن أبا بكر قال في الجاهلية لقيس بن عاصم المنقري: ما حملك على أن وأدت، قال: مخافة أن يخلف عليهن مثلك.

الأصل: فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً، فعقد بملته طاعتهم، وجمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت لهم جداول نعيمها، والتفت الملة بهم في عوائد بركتها، فأصبحوا في نعمتها غرقين، وفي حضرة عيشها فاكهين، قد تربعت الأمور بهم، في ظل سلطان قاهر، وآوهم الحال إلى كنف عز غالب، وتعطفت الأمور عليهم في ذرى فلك ثابت، فهم حكام على العالمين، وملوك في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم، لا تغمر لهم قناة، ولا تفرع لهم صفاة.

الشرح: لما ذكر ما كانت العرب عليه من الذل والفحيم والجهل، عاد فذكر ما أبدل الله به حالهم، حين بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فعقد عليهم طاعتهم كالشيء المنتشر المحلول، فعقدتها بملة محمد صلى الله عليه وسلم. والجداول: الأنهر والتفت الملة بهم، أي كانوا متفرقين فالتفت ملة محمد بهم، أي جمعتهم، ويقال: التف الحبل بالخطب، أي جمعه، والتف الخطب بالحبل، أي اجتمع به.

و"في" في قوله: "في عوائد بركتها" متعلقة بمحذوف، وموضع الجار والمجرور نصب على الحال، أي جمعتهم الملة كائنة في عوائد بركتها، والعوائد، جمع عائدة، وهي المنفعة. تقول: هذا أعود عليك، أي أنفع لك. وروي: "والتفت الملة" بالقاف أي اجتمعت بهم، من اللقاء. والرواية الأولى أصح.

وأصبحوا في نعمتها غرقين، مبالغة في وصف ما هم فيه من النعمة.

وفاكهين: ناعمين. وروي "فكهين" أي أشرين وقد قرئ بهما في قوله تعالى: "ونعمة كانوا فيها فاكهين"، وقال الأصمعي: فاكهين: مازحين، والمفاكهة الممازحة، ومن أمثالهم: "لا تفاكه أمة، ولا تبلى على أكمة"، فأما قوله تعالى: "فظلمت تفكهون"، فقليل: تندمون، وقيل: تعجبون.

وعن "في قوله: "وعن حضرة عيشها"، متعلقة بمحذوف، تقديره: فأصبحوا فاكهين فكاهاة صادرة عن حضرة عيشها، أي حضرة عيش النعمة سبب لصدور الفكاهة والمزاح عنه.

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

وتربعت الأمور بهم، أي أقامت، من قولك. ربع بالمكان، أي أقام به، وآوهم الحال، بالمد أي ضمتهم وأنزلتهم، قال تعالى: "آوى إليه أخاه"، أي ضمه إليه وأنزله، ويجوز "أوهم" بغير مد. أفعلت في هذا المعنى وفعلت واحد، عن أبي زيد. والكنف: الجانب، وتعطفت الأمور عليهم: كناية عن السيادة والإقبال، يقال: قد تعطف الدهر على فلان، أي أقبل حظه وسعاده، بعد أن لم يكن كذلك.

وفي ذرا ملك: بضم الذال أي في أعاليه، جمع ذروة، ويكنى عن العزيز الذي لا يضام، فيقال: لا يغمر له قناة، أي هو صلب. والقناة إذا لم تلن في يد الغامر كانت أبعد عن الحطم والكسر. ولا تفرغ لهم صفاة، مثل يضرب لمن لا يطمع في جانبه لعزته وقوته.

الأصل: ألا وإنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، فإن الله سبحانه قد امتن على جماعة هذه الأمة، فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي يتقلبون في ظلها، وبأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر. واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلقون من الإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه، تقولون: النار ولا العار! كأنكم تريدون أن تكفثوا الإسلام على وجهه انتهاكاً لحريمه، ونقضاً لميثاقه الذي وضعه الله لكم حرماً في أرضه، وأمناً بين خلقه.

وإنكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر، ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل، ولا مهاجرين ولا أنصار ينصرونكم، إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم الله بينكم.

وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه، وأيامه ووقائعه، فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه، وتهاوناً ببطشه، ويأساً من بأسه، فإن الله سبحانه لم يلعن القرون الماضية بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي، والحملاء لترك التناهي.

الشرح: نفضتم أيديكم: كلمة تقال في إطراح الشيء وتركه، وهي أبلغ من أن تقول: تركتم حبل الطاعة، لأن من يخلي الشيء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشد تخلية له ممن لا ينفضها بل يقتصر على تخليته فقط، لأن نفضها إشعار وإيدان بشدة الإطراح والإعراض.

والباء في قوله: "بأحكام الجاهلية" متعلقة بـ "ثلمتم"، أي ثلمتم حصن الله بأحكام الجاهلية التي حكمتكم بها في ملة الإسلام.

والباء في قوله: "بنعمة لا يعرف"، متعلقة بـ "امتن". و"في" من قوله "فيما عقد" متعلقة بمحذوف، وموضعها نصب على الحال، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم". وقوله: "فأصبحتم بنعمته إخواناً"، وروي: "تتقلبون في ظلها".

قوله: "صرتم بعد الهجرة أعراباً، الأعراب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن به من أهل البادية، ولم يهاجر إليه، وهم ناقصو المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشئهم في بعد من مخالطة العلماء، وسماع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيهم أنزل: "الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله"،

وليست هذه الآية عامة في كل الأعراب بل خاصة ببعضهم، وهم الذين كانوا حول المدينة، وهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، وإليهم أشار سبحانه بقوله: "ومن حولكم من الأعراب منافقون"، وكيف يكون كل الأعراب مذموماً، وقد قال تعالى: "ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله"، وصارت هذه الكلمة جارية مجرى المثل.

وأنشد الحجاج على منبر الكوفة:

أروع خراج لهن الدوي

قد لفها الليل بعصلي

مهاجر ليس بأعرابي

وقال عثمان لأبي ذر: أحشى أن تصير بعد الهجرة أعرابياً.

وروي: "ولا يعقلون من الإيمان".

وقولهم: "النار ولا العار"، منصوبتان بإضمار فعل، أي ادخلوا النار ولا تلتزموا العار، وهي كلمة جارية مجرى المثل أيضاً، يقولها أرباب الحمية والإباء، فإذا قيلت في حق كانت صواباً، وإذا قيلت في باطل كانت خطأ. وأكفأت الإناء وكفأته: لغتان، أي كبيته.

قوله: "ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرين"، الرواية المشهورة هكذا بالنصب، وهو جائز على التشبيه بالنكرة، كقولهم: معضلة ولا أبا حسن لها. قال الرازي: لا هيثم الليلة للمطي وقد روي بالرفع في الجمع. والمقارعة منصوبة على المصدر. وقال الراوندي: هي استثناء منقطع، والصواب ما ذكرناه، وقد روي: "إلا المقارعة" بالرفع، تقديره: ولا نصير لكم بوجه من الوجوه إلا المقارعة.

والأمثال التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هي ما تضمنه القرآن من أيام الله ونقماته على أعدائه، وقال تعالى: "وضررنا لكم الأمثال".

والتناهي: مصدر تنهى القوم عن كذا، أي نهى بعضهم بعضاً، يقول: لعن الله الماضين من قبلكم، لأن سفهاءهم ارتكبوا المعصية، وحلماءهم لم ينهوه عنها، وهذا من قوله تعالى: "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون". الأصل: ألا وقد قطعتم قيد الإسلام، وعطلتم حدوده، وأتمم أحكامه.

ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض، فأما الناكثون فقد قاتلت، وأما القاسطون فقد جاهدت، وأما المارقة فقد دوخت، وأما شيطان الردهة فقد كفيت بصعقة شمت لها وجبة قلبه، ورجة صدره، وبقيت بقية من أهل البغي، ولن أذن الله في الكرة عليهم، لأدلين منهم إلا ما يتشذر في أطراف البلاد تشذراً.

الشرح: قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له عليه السلام: "ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين"،

فكان الناكثون أصحاب الجمل، لأنهم نكثوا بيعته عيه السلام، وكان القاسطون أهل الشام بصفين، وكان المارقون الخوارج في النهروان، وفي الفرق الثلاث قال الله تعالى: "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه"، وقال: "وأما القاسطون فكانوا

لجهنم حطباً"، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يخرج من ضئضىء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم في النصل فلا يجد شيئاً، فينظر في الفوق، فلا يجد شيئاً، سبق الفرث والدم". وهذا الخبر من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ومن أخباره المفصلة بالغيوب.

وأما شيطان الردهة، فقد قال قوم: إنه ذو الثدية صاحب النهروان، ورووا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذكر ذلك الجوهرى صاحب "الصحيح" وهؤلاء يقولون: إن ذا الثدية لم يقتل بسيف، ولكن الله رماه يوم النهروان بصاعقة، وإليها أشار عليه السلام بقوله: "فمد كفيته بصعقه سمعت لها وجبة قلبه"، وقال قوم: شيطان الردهة أحد الأبالسة المردة من أعوان عدو الله إبليس، ورووا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان يتعوذ منه. والردهة: شبه نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء، وهذا مثل قوله عليه السلام: "هذا أزب العقبة"، أي شيطانها، ولعل أزب العقبة هو شيطان الردهة بعينه، فتارة يرد بهذا اللفظ، وتارة يرد بذلك اللفظ. وقال قوم: شيطان الردهة مارد يتصور في صورة حية، ويكون على الردهة. وإنما أخذوا هذا من لفظة "الشيطان" لأن الشيطان الحية، ومنه قولهم: شيطان الحماسة، والحماسة شجرة مخصوصة، ويقال: إنها كثيرة الحيات.

قوله: "ويتشذر في أطراف الأرض"، يتمزق ويتبدد، ومنه قولهم: ذهبوا شذر مذر. والبقية التي بقيت من أهل البغي: معاوية وأصحابه، لأنه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم، وإنما وقفت الحرب بينه وبينهم بمكيدة التحكيم.

قوله عليه السلام: "ولئن أذن الله في الكرة عليهم"، أي إن مد لي في العمر لأدبلن منهم، أي لتكونن الدولة لي عليهم، أدلت من فلان أي غلبته وقهرته، وصرت ذا دولة عليه.

القول في إمامة أبي بكر والرد عليه

واعلم أن أصحابنا قد استدلوا على صحة إمامة أبي بكر بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم"، ثم قال قاضي القضاة في المعنى: وهذا خبر من الله تعالى، ولا بد من أن يكون كائناً على ما أخبر به، والذين قاتلوا المرتدين هم أبو بكر وأصحابه، فوجب أن يكونوا هم الذين عناهم سبحانه بقوله: "يحبهم ويحبونه"، وذلك يوجب أن يكونوا على صواب. واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج في "الشافي" فقال: من أين قلت: إن الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه؟ فإن قال: لأنهم الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحد قاتلهم سواهم، قيل له: ومن الذي سلم لك ذلك؟ أو ليس أمير المؤمنين عليه السلام قد قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وهؤلاء عندنا مرتدون عن الدين؟ ويشهد بصحة التأويل زائداً على احتمال القول له، ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة: والله ما قوتل أهل الآية حتى اليوم، وتلاها، وقد روي عن عمار وحذيفة وغيرهما مثل ذلك.

فإن قال: دليلي على أنها في أبي بكر وأصحابه قول أهل التفسير، قيل له: أو كل أهل التفسير قال ذلك؟ فإن قال: نعم، كابر لأنه قد روي عن جماعة التأويل الذي ذكرناه، ولو لم يكن إلا ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه

أصحابه الذين ذكرناهم لكفى، وإن قال: حجتي قول بعض المفسرين، قلنا: وأي حجة في قول البعض! ولم صار البعض الذي قال ما ذكرت أولى بالحق من البعض الذي قال ما ذكرنا!.

ثم يقال له: قد وجدنا الله تعالى قد نعت المذكورين في الآية بنعوت يجب أن نراعيها، لنعلم أي صاحبنا هي أم في صاحبك! وقد جعله الرسول صلى الله عليه وسلم في خير حين فر من فر من القوم عن العدو صاحب هذه الأوصاف، فقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار، فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم قوله تعالى: "أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين"، يقتضي ما ذكرنا، لأنه من المعلوم بلا خلاف حال أمير المؤمنين عليه السلام في التخاضع والتواضع، وذم نفسه، وقمع غضبه، وأنه ما رئي قط طائشاً ولا متطيراً في حال من الأحوال، ومعلوم حال صاحبكم في هذا الباب، أما أحدهما فإنه اعترف طوعاً بأن له شيطاناً يعتريه عند غضبه، وأما الآخر فكان معروفاً بالجد والعجلة، مشهوراً بالفظاظة والغلظة، وأما العزة على الكافرين، فإنما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم، وهذه حال لم يسبق أمير المؤمنين عليه السلام إليها سابق، ولا لحقه فيها لاحق.

ثم قال تعالى: "يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم"، وهذا وصف أمير المؤمنين المستحق له بالإجماع، وهو منتف عن أي بكر وصاحبه إجماعاً، لأنه لا قتل لهما في الإسلام، ولا جهاد بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، إذا كانت الأوصاف المراعاة لا الآية حاصلة لأمر المؤمنين عليه السلام، وغير حاصلة لمن ادعيتهم، لأنها فيهم على ضرب معلوم انتفاؤه كالجهاد، وضرب مختلف فيه كالأوصاف التي هي غير الجهاد، وعلى من أثبتها لهم الدلالة على حصولها، ولا بد أن يرجع في ذلك إلى غير ظاهر الآية، لم يبق في يده من الآية دليل.

هذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله، ولقد كان يمكنه التخلص من الاحتجاج بالآية على وجه اللطف وأحسن وأصح مما ذكره، فيقول: المراد بها من ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في واقعة الأسود العنسي باليمن، فإن كثيراً من المسلمين ضلوا به وارتدوا عن الإسلام، وادعوا له النبوة، واعتقدوا صدقه، والقوم الذين يجهم الله ويجبونه القوم الذين كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغراهم بقتله، والفتك به، وهم فيروز الديلمي وأصحابه. والقصة مشهورة.

وقد كان له أيضاً أن يقول: لم قلت: إن الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابه كانوا مرتدين! فإن المرتد من ينكر دين الإسلام بعد أن كان قد تدين به، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصل دين الإسلام، وإنما تأولوا فأخطأوا، لأنهم تأولوا قول الله تعالى: "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم"، فقالوا: إنما ندفع زكاة أموالنا إلى من صلاته سكن لنا، ولم يبق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من هو بهذه الصفة، فسقط عنا وجوب الزكاة، ليس هذا من الردة في شيء، وإنما سماهم الصحابة أهل الردة على سبيل المجاز، إعظاماً لما قالوه وتأولوه. فإن قيل: إنما الاعتماد على قتال أبي بكر وأصحابه لمسيمة وطليحة اللذين ادعيا النبوة، وارتد بطريقهما كثير من العرب، لا على قتال مانعي الزكاة!.

قيل: إن مسيمة وطليحة جاهدتهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بالكتب والرسول، وأنفذ لقتلهما جماعة من

المسلمين، وأمرهم أن يفتكوا بما غيلة إن أمكنهم ذلك، واستنفر عليهما قبائل من العرب، وكل ذلك مفصل مذكور في كتب السيرة والتواريخ، فلم لا يجوز أن يكون أولئك النفر الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للفتك بهما، هم المعنيون بقوله: "يحبهم ويحبونه، إلى آخر الآية! ولم يقل في الآية: "يجاهدون فيقتلون"، وإنما ذكر الجهاد فقط، وقد كان الجهاد من أولئك النفر حاصلاً وإن لم يبلغوا الغرض، كما كان الجهاد حاصلاً عند حصار الطائف وإن لم يبلغ فيه الغرض.

وقد كان له أيضاً أن يقول: سياق الآية لا يدل على ما ظنه المستدل بهما، من أنه من يرتدد عن الدين، فإن الله يأتي بقوم يحبهم ويحبونه يحاربونه لأجل رده، وإنما الذي يدل عليه سياق الآية أنه من يرتد منكم عن دينه بترك الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - وسماه ارتداداً على سبيل المجاز - فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، يجاهدون في سبيل الله معه عوضاً عنكم، وكذلك كان كل من خذل النبي صلى الله عليه وسلم وقعد عن النهوض معه في حروبه، أغناه الله تعالى عنه بطائفة أخرى من المسلمين جاهدوا بين يديه!.

وأما قول المرتضى رحمه الله: إنها أنزلت في الناكثين والقاسطين والمارقين الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام فبعيد، لأنهم لا يطلق عليهم لفظ "الردة" عندنا، ولا عند المرتضى وأصحابه، أما اللفظ فبالإتفاق، وإن سموهم كفاراً. وأما المعنى فلا أن في مذهبهم أن من ارتد - وكان قد ولد على فطرة الإسلام - بانت امرأته منه، وقسم ماله بين ورثته، وكان على زوجته عدة المتوفى عنها زوجها، ومعلوم أن أكثر محاربي أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد ولدوا في الإسلام، ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام. وقوله: "إن الصفات غير متحققة في صاحبكم"، فلعمري إن حظ أمير المؤمنين عليه السلام منها هو الحظ الأوفى، ولكن الآية ما خصت الرئيس بالصفات المذكورة، وإنما أطلقها على المجاهدين، وهم الذين يباشرون الحرب، فهب أن أبا بكر وعمر ما كانا بهذه الصفات، لم لا يجوز أن يكون مدحاً لمن جاهد بين أيديهما من المسلمين، وباشر الحرب، وهم شجعان المهاجرين والأنصار الذين فتحوا الفتوح، ونشروا الدعوة، وملكوا الأقاليم!.

وقد استدل قاضي القضاة أيضاً على صحة إمامة أبي بكر، - وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبي علي - بقوله تعالى: "سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم". وقال تعالى: "فإن رجعتك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالعودة أول مرة فاقعدوا مع الخالفين"، وقال تعالى: "سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل"، يعني قوله تعالى: "لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً". ثم قال سبحانه: "قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلوهم أو يسلمون. فإن طيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تنولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً"، فبين أن الذي يدعو هؤلاء المخلفين من الأعراب إلى قتال قوم أولي بأس شديد غير النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه تعالى قد بين أنهم لا يخرجون معه، ولا يقاتلون معه عدواً، بآية متقدمة، ولم يدعهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى قتال الكفار إلا أبو بكر وعمر وعثمان، لأن أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل، فقال بعضهم: عني بقوله: "ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد"، بني

حنيفة، وقال بعضهم: عنى فارس والروم، وأبو بكر هو الذي دعا إلى قتال بني حنيفة وقتال آل فارس والروم، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والروم عمر، فإذا كان الله تعالى قد بين أنهم بطاعتهم لهما يؤثم أجراً حسناً، وإن تولوا عن طاعتهم يعذبهم عذاباً أليماً، صح أنهما على حق، وأن طاعتهما طاعة لله تعالى، وهذا يوجب صحة إمامتهما. فإن قيل: إنما أراد الله بذلك أهل الجمل وصفين!.

قيل: هذا فاسد من وجهين: أحدهما قوله تعالى: "تقاتلوهم أو يسلمون"، والذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام، ولم يقاتلوا على الكفر. والوجه الثاني أنا لا نعرف من الذين عناهم الله تعالى بهذا من بقي إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام، كما علمنا أنهم كانوا باقين في أيام أبي بكر.

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين: أحدهما أنه نازع في اقتضاء الآية داعياً يدعو هؤلاء المخلفين غير النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن قوله تعالى: "سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً"، إنما أراد به سبحانه الذين تخلفوا عن الحديبية بشهادة جميع أهل النقل وإطباق المفسرين.

ثم قال تعالى: "سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً"، وإنما التمس هؤلاء المخلفون أن يخرجوا إلى غنيمة خير، فمنعهم الله تعالى من ذلك، وأمر نبيه أن يقول لهم: لن تتبعونا إلى هذه الغزاة، لأن الله تعالى كان حكم من قبل بأن غنيمة خير لمن شهد الحديبية، وأنه لاحظ لمن لم يشهدها، وهذا هو معنى قوله تعالى: "يريدون أن يبدلوا كلام الله"، وقوله: "كذلكم قال الله من قبل"، ثم قال تعالى: "قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلوهم أو يسلمون"، وإنما أراد أن الرسول سيدعوكم فيما بعد إلى قتال قوم أولي بأس شديد، وقد دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة، إلى قوم أولي بأس شديد، كمؤتة وحنين وتبوك وغيرها، فمن أين يجب أن يكون الداعي هؤلاء غير النبي صلى الله عليه وسلم، مع ما ذكرناه من الحروب التي كانت بعد خير!.

وقوله: إن معنى قوله تعالى: "كذلكم قال الله من قبل"، إنما أراد به ما بينه في قوله: "فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً"، بتبوك سنة تسع، وآية الفتح نزلت في سنة ست، فيكف يكون قبلها!.

وليس يجب أن يقال في القرآن بالإرادة، وما يحتمل من الوجوه في كل موضع دون الرجوع إلى تاريخ نزول الآي، والأسباب التي وردت عليها، وتعلقت بها.

ومما يبين لك أن هؤلاء المخلفين غير أولئك لو لم نرجع في ذلك إلى نقل وتاريخ، قوله تعالى في هؤلاء: "فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً"، فلم يقطع منهم على طاعة ولا معصية، بل ذكر الوعد والوعيد على ما يفعلونه من طاعة أو معصية، وحكم المذكورين في آية سورة التوبة بخلاف هذه لأنه تعالى بعد

قوله: "إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين. ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون. ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون"، واختلاف أحكامهم وصفاتهم يدل على اختلافهم، وأن المذكورين في آية سورة الفتح غير المذكورين في آية سورة التوبة.

وأما قوله: لأن أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل فذكرهما باطل، لأن أهل التأويل قد ذكروا شيئاً آخر لم يذكره، لأن المسيب روى عن أبي روق عن الضحاك في قوله تعالى: "ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد.."، الآية، قال: هم ثقيف. وروى هشيم عن أبي يسر، عن سعيد بن جبير، قال: هم هوازن يوم حنين.

وروى الواقدي، عن معمر، عن قتادة، قال: هم هوازن وثقيف، فكيف ذكر من أقوال المفسرين ما يوافقه مع اختلاف الرواية عنهم! على أنا لا نرجع في كل ما يحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسرين، فإنهم ربما تركوا مما يحتمله القول وجهاً صحيحاً، وكما استخرج جماعة من أهل العدل في متشابه القرآن من الوجوه الصحيحة التي ظاهر التزويل بها أشبه، ولها أشد احتمالاً، مما لم يسبق إليه المفسرون، ولا دخل في جملة تفسيرهم وتأويلهم.

والوجه الثاني سلم فيه أن الداعي هؤلاء المخلفين غير النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: لا يمتنع أن يعنى بهذا الداعي أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه قاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين. وبشره النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يقاتلهم، وقد كانوا أولي بأس شديد بلا شبهة.

قال: فأما تعلق صاحب الكتاب بقوله: "أو يسلمون!، وأن الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين، فأول ما فيه أنهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه، لأن الكبائر تخرج من الإسلام عندهم كما تخرج عن الإيمان إذا كان الإيمان هو الإسلام على مذهبهم. ثم إن مذهبنا في محاريب أمير المؤمنين عليه السلام معروف، لأنهم عندنا كانوا كفاراً بمحاربتهم لوجوه: الأول منها: أن من حاربه كان مستحلاً لقتاله، مظهراً أنه في ارتكابه على حق، ونحن نعلم أن من أظهر استحلال شرب جرعة خمر هو كافر بالإجماع، واستحلال دماء المؤمنين فضلاً عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم من شرب الخمر واستحلاله، فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفاراً.

الثاني: أنه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النقل: "حربك يا علي حربي، وسلمك سلمى!، ونحن نعلم أنه لم يرد إلا التشبيه بينهما في الأحكام، ومن أحكام محاريب النبي صلى الله عليه وسلم الكفر بلا خلاف.

الثالث: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له بلا خلاف أيضاً: "اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله"، وقد ثبت عندنا أن العداوة من الله لا تكون إلا للكفار الذين يعادونه دون فساق أهل الملة.

الرابع: قوله: إنا لا نعلم بقاء هؤلاء المخلفين إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام فليس بشيء، لأنه إذا لم يكن ذلك معلوماً ومقطوعاً عليه، فهو مجوز وغير معلوم خلافة، والجواز كاف لنا في هذا الموضع.

ولو قيل له: من أين علمت بقاء المخلفين المذكورين في الآية على سبيل القطع إلى أيام أبي بكر؟ لكان يفرع إلى أن يقول: حكم الآية يقتضي بقاءهم حتى يتم كونهم مدعويين إلى قتال أولي البأس الشديد على وجه يلزمهم فيه الطاعة، وهذا بعينه يمكن أن يقال له، ويعتمد في بقائهم إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يوجبه حكم الآية.

فإن قيل: كيف يكون أهل الجمل وصفين كفاراً ولم يسر أمير المؤمنين عليه السلام فيهم بسيرة الكفار، لأنه ما سباهم، ولا غنم أموالهم، ولا تبع موليتهم!.

قلنا: أحكام الكفر تختلف، وإن شملهم اسم "الكفر"، لأن في الكفار من يقتل ولا يستبقى، وفيهم من يؤخذ منه الجزية ولا يحل قتله إلا بسبب طارئ غير الكفر، ومنهم من لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين، فعلى هذا يجوز أن يكون أكثر هؤلاء القوم كفاراً، وإن لم يسر فيهم بجميع سيرة أهل الكفر، لأننا قد بينا اختلاف أحكام الكفار، ويرجع في أن حكمهم مخالف لأحكام الكفار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم. على أن لا نجد في الفساق من حكمه أن يقتل مقبلاً، ولا يقتل مولياً، ولا يجهز على جريحه، إلى غير ذلك من الأحكام التي سيرها في أهل البصرة وصفين.

فإذا قيل في جواب ذلك: أحكام الفسق مختلفة، وفعل أمير المؤمنين هو الحجة في أن حكم أهل البصرة وصفين ما فعله. قلنا مثل ذلك حرفاً مجروحاً، ويمكن مع تسليم أن الداعي لهؤلاء المخلفين أبو بكر، أن يقال: ليس في الآية دلالة على مدح الداعي ولا على إمامته، لأنه قد يجوز أن يدعو إلى الحق والصواب من ليس عليهما، فيلزم ذلك الفعل من حيث كان واجباً في نفسه، لا لدعاء الداعي إليه، وأبو بكر إنما دعا إلى دفع أهل الردة عن الإسلام، وهذا يجب على المسلمين بلا دعاء داع، والطاعة فيه طاعة لله تعالى، فمن أين له أن الداعي كان على حق وصواب! وليس في كون ما دعا إليه طاعة ما يدل على ذلك. ويمكن أيضاً أن يكون قوله تعالى: "ستدعون"، إنما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم، لأنه إذا دهم على وجوب قتال المرتدين، ورفعهم عن بيضة الإسلام، فقد دعاهم إلى القتال، ووجبت عليهم الطاعة، ووجب لهم الثواب إن أطاعوا، وهذا أيضاً تحتمله الآية.

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله في هذا الموضع، وأكثره جيد لا اعتراض عليه، وقد كان يمكنه أن يقول: لو سلمنا بكل هذا لكان ليس في قوله: "لن تخرجوا معي أبداً...! الآية ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون هو الداعي لهم إلى القوم أولي البأس الشديد، لأنه ليس فيها إلا محض الإخبار عنهم بأنهم لا يخرجون معه، ولا يقاتلون العدو معه، وليس في هذا ما ينفي كونه داعياً لهم، كما أنه عليه السلام قال: "أبو هب لا يؤمن بي"، لم يكن هذا القول نافياً لكونه يدعوه إلى الإسلام.

وقوله: "فاقعدوا مع الخالفين! ليس بأمر على الحقيقة، وإنما هو تهديد كقوله: "اعملوا ما شئتم! ولا بد للمرتضى ولقاضي القضاة جميعاً من أن يحملوا صيغة "افعل" على هذا الحمل، لأنه ليس لأحدهما بمسوغ أن يحمل الأمر على حقيقته، لأن الشارع لا يأمر بالقعود وترك الجهاد مع القدرة عليه، وكونه قد تعين وجوبه.

فإن قلت: لو قدرنا أن هذه الآية، وهي قوله تعالى: "قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد!، أنزلت بعد غزوة تبوك، وبعد نزول سورة "براءة"، التي تتضمن قوله تعالى: "لن تخرجوا معي أبداً!، وقدرنا أن قوله تعالى: "لن تخرجوا معي أبداً! ليس إخباراً محضاً كما تأولته أنت وحملت الآية عليه، بل معناه لا أخرجكم معي ولا أشهدكم حرب العدو، هل كان يتم الاستدلال؟.

قلت: لا، لأن للإمامية أن تقول: يجوز أن يكون الداعي إلى حرب القوم أولي البأس الشديد مع تسليم هذه المقدمات

كلها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه دعاهم إلى حرب الروم في سرية أسامة بن زيد في صفر من سنة إحدى عشرة، لما سيره إلى البلقاء، وقال له: سر إلى الروم مقتل أبيك فأوطئهم الخيول وحشد معه أكثر المسلمين، فهذا الجيش قد دعي فيه المخلفون من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد في غزوة تبوك إلى قوم أولي بأس شديد، ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حاربوا معه عدواً.

فإن قلت: إذا خرجوا مع أسامة، فكأنما خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا حاربوا مع أسامة العدو، فكأنما حاربوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان سبق أنهم لا يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحاربون معه عدواً.

قلت: وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره في أيام أبي بكر، ومع أبي عبيدة وسعد في أيام عمر، فكأنما خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاربوا العدو معه أيضاً. فإن اعتذرت بأنه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلا أنه على الحقيقة ليس معه، وإنما هو مع امرئ من قبل خلفائه.

قيل لك: وكذلك خروجهم مع أسامة ومحاربة العدو معه، وإن شابه الخروج مع النبي ومحاربة العدو معه، إلا أنه على الحقيقة ليس معه، وإنما هو مع بعض أمرائه.

ويمكن أن يعترض الاستدلال بالآية، فيقال: لا يجوز حملها على بني حنيفة، لأنهم كانوا مسلمين، وإنما منعوا الزكاة مع قولهم: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" صلى الله عليه وسلم، ومنع الزكاة لا يخرج به الإنسان عن الإسلام عند المرجئة، والإمامية مرجئة، ولا يجوز حملها على فارس والروم، لأنه تعالى أخبر أنه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم، كما تقول: إما كذا وإما كذا، فيقتضي ذلك نفي الواسطة، وقاتل فارس والروم بينه وبين إسلامهم واسطة، وهو دفع الجزية، وإنما تنتفي هذه الواسطة في قتال العرب، لأن مشركي العرب لا تؤخذ منهم الجزية، فالآية إذن دالة على أن المخلفين سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد الحكم فيهم، إما قتالهم وإما إسلامهم، وهؤلاء هم مشركو العرب، ولم يحارب مشركي العرب إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالداعي لهم إذاً هو رسول الله، وبطل الاستدلال بالآية.

الأصل: أنا وضعت بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر. وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله، بالقرابة القريبة، والمثلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرقه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره.

ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاعتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بجراء فأراه، ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة.

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا

الشيطان، قد آيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير، وإنك لعلی خير. الشرح: الباء في قوله: "بكلال العرب" زائدة. والكلال: الصدور، الواحد كلكل، والمعنى أي أذللتهم وصرعتهم إلى الأرض. ونواجه قرون ربيعة ومضر: من نجم منهم وظهر، وعلا قدره، وطار صيته. فإن قلت: أما قهره لمضر فمعلوم، فما حال ربيعة، ولم نعرف أنه قتل منهم أحداً؟ قلت: بلى قد قتل بيده وبجيشه كثيراً من رؤسائهم في صفين والجمل، فقد تقدم ذكر أسمائهم من قبل، وهذه الخطبة خطب بها بعد انقضاء أمر النهروان. والعرف بالفتح: الريح الطيبة، ومضغ الشيء يمضغه بفتح الضاد والخطلة في الفعل: الخطأ فيه، وإيقاعه على غير وجهه وحراء: اسم جبل بمكة معروف والرنة: الصوت. صلة علي برسول الله صلى الله عليه وسلم في صغره والقراة القرية بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأعمام، كونه رياه في حجره، ثم حامى عنه ونصره عند إظهار الدعوة دون غيره من بني هاشم، ثم ما كان بينهما من المصاهرة التي أفضت إلى النسل الأطهر دون غيره من الأصهار. ونحن نذكر ما ذكره أرباب السير من معاني هذا الفصل.

روى الطبري في تاريخه، قال: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن نجيح، عن مجاهد، قال: كان من نعمة الله عز وجل على علي بن أبي طالب عليه السلام، وما صنع الله له، وأراد به من الخير، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس - وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة، فانطلق بنا، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بيته واحداً، وتأخذ واحداً، فنكفيهما عنه. فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرأ رضي الله عنه، فضمه إليه، فلم يزل علي بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه علي عليه السلام، فأقر به وصدق، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

قال الطبري: وحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب عليه السلام مستخفياً من عمه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا. ثم إن أبا طالب عثر عليهما وهما يصليان، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بن أخي، ما هذا الذي أراك تدين به؟ قال: يا عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين آيينا إبراهيم - أو كما قال - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعاني عليه - أو كما قال - فقال أبو طالب: يا بن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي، وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخفص إليك شيء تكرهه ما بقيت.

قال الطبري: وقد روى هؤلاء المذكورون أن أبا طالب قال لعلي عليه السلام: يا بني، ما هذا الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت، إني آمنت بالله وبرسوله، وصدقته بما جاء به، وصليت لله معه، قال: فزعموا أنه قال له: أما إنه لا يدعو إلا إلى خير، فالزمه.

وروى الطبري في تاريخه أيضاً، قال: حدثنا أحمد بن الحسين الترمذي، قال: حدثنا عبد الله بن موسى، قال: أخبرنا العلاء، عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن عبد الله، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: أنا عبد الله، وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر، صليت قبل الناس بسبع سنين.

وفي غير رواية الطبري: أنا الصديق الأكبر وأنا الفاروق الأول، أسلمت قبل إسلام أبي بكر، وصليت قبل صلاته بسبع سنين. كأنه عليه السلام لم يرض أن يذكر عمر ولا رآه أهلاً للمقايضة بينه وبينه، وذلك لأن إسلام عمر كان متأخراً. وروى الفضل بن عباس رحمه الله، قال: سألت أبي عن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذكور، أيهم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم له أشد حباً؟ فقال: علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت له: سألتك عن بنيه، فقال: إنه كان أحب إليه من بنيه جميعاً وأرأف، ما رأيناه زائله يوماً من الدهر منذ كان طفلاً، إلا أن يكون في سفر لخديجة، وما رأينا أباً أبر بابن منه لعلي، ولا ابناً أطوع لأب من علي له.

وروى الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام، قال: سمعت زيدا أبي عليه السلام يقول: كان رسول الله بمضغ اللحم والتمر حتى تلبن، ويجعلهما في فم علي عليه السلام وهو صغير في حجره، وكذلك كان أبي علي بن الحسين عليه السلام يفعل بي، ولقد كان يأخذ الشيء من الورك وهو شديد الحرارة، فيبرده في الهواء، أو ينفخ عليه حتى يبرد، ثم يلقمنيه، أفيشفق علي من حرارة لقمة ولا يشفق علي من النار! لو كان أخي إماماً بالوصية كما يزعم هؤلاء، لكان أبي أفضى بذلك إلي ووقاني من حر جهنم.

وروى جبير بن مطعم، قال: قال أبي فطعم بن عدي لنا ونحن صبيان بمكة: ألا ترون حب هذا الغلام - يعني علياً - لحمد واتباعه له دون أبيه! واللوات والعزى، لوددت أنه ابني بفتيان بني نوفل جميعاً!

وروى سعيد بن جبير، قال: سألت أنس بن مالك، فقلت: رأيت قول عمر عن الستة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو عنهم راض؟ ألم يكن راضياً عن غيرهم من أصحابه؟ فقال: بلى، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عن كثير من المسلمين، ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضا، فقلت له: فأبي الصحابة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم له أحمد؟ أو كما قال - قال: ما فيهم أحد إلا وقد سخط منه فعلاً، وأنكر عليه أمراً، إلا اثنان: علي ابن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة، فإنهما لم يقتربا منذ أتى الله بالإسلام أمراً أسخطا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في بدء نشأته وينبغي أن نذكر الآن ما ورد في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصمته بالملائكة، ليكون ذلك تقريراً وإيضاحاً لقوله عليه السلام: "ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته"، وأن نذكر حديث مجاورته عليه السلام بحراء، وكون علي عليه السلام معه هناك، وأن نذكر ما ورد في أنه لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلياً وخديجة، وأن نذكر ما ورد في سماعه رنة

الشيطان، وأن نذكر ما ورد في كونه عليه السلام وزيراً للمصطفى صلوات الله عليه.

أما المقام الأول فروى محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب "السيرة النبوية"، ورواه أيضاً محمد بن جرير الطبري في تاريخه، قال: كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته تحدث أنها خرجت من بلدها ومعها زوجها وابن لها ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمس الرضاع بمكة، في سنة شهباء لم تبق شيئاً، قالت: فخرجت على أتان لنا قمرء عجفاء، ومعنا شارف لنا ما تبض بقطرة، ولا ننام ليلنا أجمع من بكاء صبينا الذي معنا من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، ولكننا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتاني تلك، ولقد أراثت بالركب ضعفاً وعجفاً، حتى شق ذلك عليهم، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضاع فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم، ما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة ذهبت معي إلا أخذت رضيعاً غيبي، فلما اجتمعنا للإنطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي لم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه، قال: لا عليك أن تفعل! وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبت إليه فأخذته، وما يحملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته رجعت إلى رجلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فوضع حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي، وما كنا ننام قبل ذلك من بكاء صبينا جوعاً، فنام، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنها حافل، فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: أتعلمين والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة، فقلت: والله إني لأرجو ذلك، ثم خرجنا وركبت أتاني تلك، وحملته معي عليها، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حميرهم حتى إن صواحي ليقطن لي: ويحك يا بنت أبي ذؤيب! اربعي علينا، أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها! فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي، فيقلن: والله إن لها لشأناً.

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد - وما أعلم أرضاً من أرض العرب أجذب منها - فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعاً ملأى لبناً، فكنا نحتلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى إن الحاضر من قومنا ليقولون لرعاثهم: ويلكم؟ اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب! فيفعلون، فتروح أغنامهم جيعاً ما تبض بقطرة، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير به حتى مضت سنتاه وفصلته، فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه، حتى كان غلاماً جفراً، فقدمنا به على أمه آمنة ابنة وهب، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلنا لها: لو تركته عندنا حتى يغلط! فإننا نخشى عليه وباء مكة، فلم نزل بها حتى رده معنا.

فرجعنا به إلى بلاد بني سعد، فوالله إنه لبعد ما قدمنا بأشهر مع أخيه في بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ها هو ذاك أخي القرشي، قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعا وشقا بطنه، فهما يسوطانه. قالت: فخرجت أنا وأبوه نشدت نحوه، فوجدناه قائماً ممتنعاً وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، وقلنا: مالك يا بني! قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاي ثم شقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو!.

قالت: فرجعنا به إلى خبائنا، وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألقيه بأهله.
قالت: فاحتملته حتى قدمت به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت لها: قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علي، وتخوفت عليه الأحداث وأديته إليك كما تحبين. قالت: أتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لابي شأنا، أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت له قصور بصرى من الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت حملاً قط كان أخف ولا أيسر منه، ثم وقع حين ولدته! انه لواضع يديه بالأرض، ورافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلق راشدة.
قال: وروى الطبري في "تاريخه" عن شداد بن أوس، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن نفسه، ويذكر ما جرى له وهو طفل في أرض بني سعد بن بكر، قال: لما ولدت استرضعت في بني سعد، فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان، نتقاذف بالجللة إذ أتاني رهط ثلاثة، معهم طشت من ذهب مملوءة ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هرباً حتى انتهوا إلى شفير الوادي، ثم عادوا إلى الرهط، فقالوا: ما أربكم إلى هذا الغلام، فإنه ليس منا! هذا ابن سيد قريش، وهو مسترضع فينا، غلام يتيم ليس له أب، فماذا يرد عليكم قتله، وماذا تصيبون من ذلك! ولكن إن كنتم لا بد قاتليه، فاختاروا منا أينما شئتم فاقتلوه مكانه، ودعوا هذا الغلام، فإنه يتيم.

فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحIRON لهم جواباً، انطلقوا هرباً مسرعين إلى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم، فعمد أحدهم، فأضجعي إضجاعاً لطيفاً، ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عاني، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حساً، ثم أخرج بطني فغسلها بذلك الثلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني منهم، فقال لصاحبه: تنح، فنحاه عني، ثم أدخل يده في جوفي، وأخرج قلبي، وأنا أنظر إليه، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرماها، ثم قال بيده: يمينه منه وكأنه يتناول شيئاً، فإذا في يده خاتم من نور، تحار أبصار الناظرين دونه، فختم به قلبي، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهنراً، ثم قال الثالث لصاحبه: تنح عنه، فأمر يده ما بين مفرق صدري إلى منتهى عاني، فالتأم ذلك الشق، ثم أخذ بيدي فأهضني من مكاني إهاضاً لطيفاً، وقال للأول الذي شق بطني: زنه بعشرة من أمته، فوزني بهم فرجحتهم، فقال: دعوه، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم، ثم ضموني إلى صدرهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا يا حبيب الله، لا ترع، إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك! فبينما أنا كذلك إذا أنا بالحي قد جاؤوا بحذافيرهم، وإذا أمي - وهي ظئري - أمام الحي تهتف بأعلى صوتها، وتقول: يا ضعيفاه! فانكب علي أولئك الرهط فقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا: حبذا أنت من ضعيف! ثم قالت ظئري: يا وحيداه! فانكبوا علي، وضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، ثم قالوا: حبذا أنت من وحيد! وما أنت بوحيد! إن الله وملائكته معك والمؤمنين من أهل الأرض، ثم قالت ظئري: يا يتيماه! استضعفت من بين أصحابك، فقتلت لضعفك، فانكبوا علي وضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا: حبذا أنت من يتيم! ما أكرمك على الله لو تعلم ما يراد بك من الخير! قال: فوصل الحي إلى شفير الوادي، فلما بصرت بي أمي - وهي ظئري - نادت: يا بني، ألا أراك حياً بعد! فجاءت حتى انكبت علي، وضممتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده، إنني لفي حجرها قد ضممتني إليها، وإن يدي لفي يد بعضهم، فجعلت ألتفت إليهم، وظننت

أن القوم يصبرونهم، فإذا هم لا يصبرونهم، فيقول بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لم، أو طائف من الجن، فانطلقوا به إلى كاهن بني فلان، حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت: ما بي شيء مما يذكرون، نفسي سليمة، وإن فؤادي صحيح، ليست بي قلبة. فقال أبي - وهو زوج ظئري -: ألا ترون كلامه صحيحاً! إني لأرجو ألا يكون على ابني بأس. فاتفق القوم على أن يذهبوا إلى الكاهن بي، فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه، فقصوا عليه قصتي، فقال: اسكنوا حتى أسمع من الغلام، فهو أعلم بأمره منكم، فسألني فقصصت عليه أمري، وأنا يومئذ ابن خمس سنين، فلما سمع قولي وثب وقال: يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام فهو اللات والعزى لئن عاش ليدلن دينكم، وليخالفن أمركم، وليأتينكم بما لم تسمعوا به قط، فانترعتني ظئري من حجره، وقالت: لو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به، ثم احتملوني فأصبحت وقد صار في جسدي أثر الشق، ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشراك.

وروي أن بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام سأل عن قول الله عز وجل: "إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً". فقال عليه السلام: يوكل الله تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدون إليه تبليغهم الرسالة، ووكل بمحمد صلى الله عليه وسلم ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصده عن الشر ومساوئ الأخلاق، وهو الذي كان يناديه: السلام عليك يا محمد يا رسول الله وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظن أن ذلك من الحجر والأرض، فيتأمل فلا يرى شيئاً.

وروى الطبري في "التاريخ" عن محمد بن الحنفية، عن أبيه علي عليه السلام، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله ببني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة، فأستمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت أريد ذلك، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفاً بالدف والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا فلان تزوج ابنة فلان، فجلست أنظر إليهم، فضرب الله على أذني فممت، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما صنعت شيئاً، ثم أخبرته الخبر، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، فقال: أفعل، فخرجت فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فأخبرته الخبر، ثم ما هممت بعدها بسوء، حتى أكرمني الله برسالته.

وروى محمد بن حبيب في "أماليه" قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أذكر وأنا غلام ابن سبع سنين، وقد بنى ابن جدعان داراً له بمكة، فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدر في حجورنا فننقله، فملأت حجري تراباً فانكشفت عورتي، فسمعت نداء من فوق رأسي: يا محمد، أرخ إزارك، فجعلت أرفع رأسي فلا أرى شيئاً، إلا أبي أسمع الصوت، فتماسكت ولم أرعه، فكأن إنساناً ضربني على ظهري، فخررت لوجهي، وانحل إزاري فسترني، وسقط التراب إلى الأرض، فقممت إلى دار أبي طالب عمي ولم أعد.

وأما حديث مجاورته عليه السلام بحراء فمشهور، وقد ورد في الكتب الصحاح أنه كان يجاور في حراء من كل سنة

شهراً، وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من حراء، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى جاءت السنة التي أكرمها الله فيها بالرسالة، فجاءه في حراء شهر رمضان، ومعه أهله: خديجة وعلي بن أبي طالب وخادم لهم، فجاور جبرائيل بالرسالة، وقال عليه الصلاة والسلام: جاءني وأنا نائم بنمط فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ، فغطني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق"، إلى قوله: "علم الإنسان ما لم يعلم". فقرأته، ثم انصرف عني فانتبهت من نومي، وكأنما كتب في قلبي كتاب، وذكر تمام الحديث.

وأما حديث أن الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحد يومئذ إلا النبي وهو - عليهما السلام - وخديجة، فخير عفيف الكندي مشهور، وقد ذكرناه من قبل، وأن أبا طالب قال له: أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وهذا ابني علي بن أبي طالب، وهذه المرأة خلفهما خديجة بنت خويلد، زوجة محمد ابن أخي، وأيم الله ما أعلم على الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

وأما رنة الشيطان، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل في مسنده، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي أسري به فيها، وهو بالحجر يصلي، فلما قفى صلاته، وقضيت صلاتي، سمعت رنة شديدة، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ قال: ألا تعلم! هذه رنة الشيطان، علم أني أسري بي الليلة إلى السماء، فأيس من أن يعبد في هذه الأرض.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يشابه هذا، لما بايعه الأنصار السبعون ليلة العقبة سمع من العقبة صوت عال في جوف الليل: يا أهل مكة، هذا مذمم والصبابة معه قد أجمعوا على حربكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: ألا تسمعون ما يقول! هذا أذب العقبة - يعني شيطانها، وقد روي: "أزب العقبة". ثم التفت إليه، فقال: استمع يا عدو الله، أما والله لأفرغن لك.

وروي عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: كان علي عليه السلام يرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقال له صلى الله عليه وسلم: "لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة، فإن لا تكن نبياً فإنك وصي نبي ووارثه، بل أنت سيد الأوصياء وإمام الأتقياء".

وأما خبر الوزارة، فقد ذكره الطبري في تاريخه، عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال لما أنزلت هذه الآية: "وأندر عشيرتك الأقربين"، على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاني، فقال: يا علي، إن الله أمرني أن أندر عشيرتك الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً، وعلمت أني متى أنادهم بهذا الأمر أر منهم ما أكره، فصمت حتى جاءني جبرائيل عليه السلام، فقال: يا محمد، إنك إن لم تفعل ما أمرت به يعذبك ربك، فاصنع لنا صاعاً من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عساً من لبن، ثم اجمع بني عبد المطلب حتى أكلمهم، وأبلغهم ما أمرت به. ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه: أبو طالب، وحمة، والعباس، وأبو لهب، فلما اجتمعوا إليه دعا بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة من

اللحم فشققها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصحيفة، ثم قال: كلوا باسم الله، فأكلوا حتى ما لهم إلى شيء من حاجة، وأيم الله الذي نفس علي بيده، إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمته لجميعهم، ثم قال: اسق القوم يا علي، فجئتهم بذلك العس فشربوا منه، حتى رويوا جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بדרه أبو لهب إلى الكلام، فقال: لشد ما سحركم صاحبكم! فتفرق القوم، ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال من الغد: يا علي، إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول، فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فعد لنا اليوم إلى مثل ما صنعت بالأمس، ثم اجمعهم لي. ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام، فقربته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة، ثم قال: اسقهم، فجئتهم بذلك العس، فشربوا منه جميعاً، حتى رويوا، ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم أن شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتهم به، إني قد جئتهم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنه جميعاً، وقلت أنا- وإني لأحدثهم سناً وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً: أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه، فأعاد القول، فأمسكوا وأعدت ما قلت، فأخذ برقبي، ثم قال لهم: هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

ويدل على أنه وزير رسول الله صلى الله عليه وسلم من نص الكتاب والسنة قول الله تعالى: "واجعل لي وزيراً من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري. وأشركه في أمري". وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"، فأثبت له جميع مراتب هارون من موسى، فإذا هو وزير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشاد أزره، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكاً في أمره.

وروى أبو جعفر الطبري أيضاً في "التاريخ" أن رجلاً قال لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، بم ورثت ابن عمك دون عمك؟ فقال علي عليه السلام: هاؤم ثلاث مرات، حتى اشرأب الناس، ونشروا آذانهم، ثم قال: جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب بمكة، وهم رهطه كلهم، يأكل الجذعة، ويشرب الفرق، فصنع مداً من طعام، حتى أكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر، فشربوا ورويوا وبقي الشراب كأنه لم يشرب، ثم قال: يا بني عبد المطلب، إني بعثت إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، فأياكم يباعدني على أن يكون أخي وصاحبي، ووارثي؟ فلم يقم إليه أحد، فقامت إليه، وكنت من أصغر القوم، فقال: اجلس، ثم قال ذلك ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه، فيقول: اجلس، حتى كان في الثالثة، فضرب بيده على يدي، فعند ذلك ورثت ابن عمي دون عمي.

الأصل: ولقد كنت معه صلى الله عليه وآله، لما أتاه الملاء من قريش، فقالوا له: يا محمد، إنك قد ادعيت عظيماً لم يدعه أبائك، ولا أحد من بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأرئتناه، علمنا أنك نبي ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذاب.

فقال صلى الله عليه وآله: وما تسألون؟ قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة، حتى تنقلع، بعروقها، وتقف بين يديك. فقال صلى

الله عليه وآله: إن الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك، أتؤمنون وتشهدون بالحق! قالوا: نعم، قال: فإني سأريكم ما تطلبون، وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وأن فيكم من يطرح في القلب، ومن يحزب الأحزاب. ثم قال صلى الله عليه وآله: يا أيها الشجرة، إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول الله، فانقلعي بعروقتك حتى تقفي بين يدي بإذن الله، والذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقتها، وجاءت ولها دوي شديد، وقصف كقصف أجنحة الطير، حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مرفرفة، وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وبعض أغصانها على منكبي، وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله، فلما نظر القوم إلى ذلك، قالوا علوا واستكباراً، فمرها فليأتك نصفها، ويبقى نصفها، فأمرها فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دويّاً، فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا كفراً وعتوّاً: فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره صلى الله عليه وآله فرجع، فقلت أنا: لا إله إلا الله، إني أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من أقر بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوتك، وإجلالاً لكلمتك. فقال القوم كلهم: بل ساحر كذاب، عجيب السحر خفيف فيه؟ وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا! يعنوني - وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمار الليل، ومنار النهار، متمسكون بجبل القرآن، يحيون سنن الله وسنن رسوله، لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغلون ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل.

الشرح: الملاء: الجماعة. ولا تفيئون، لا ترجعون. ومن يطرح في القلب، كعتبة وشيبة ابني ربيعة بن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة، المكنى أبا جهل وغيرهم، طرحوا في قلب بدر بعد انقضاء الحرب، ومن يحزب الأحزاب، أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية والقصف والقصيف: الصوت. وسيماهم: علامتهم، ومثله "سيماء". ومعنى قوله عليه السلام: "قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل"، أن قلوبهم ملتدة بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصبة بالعبادة.

وأما أمر الشجرة التي دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فالحديث الوارد فيها كثير مستفيض، قد ذكره المحدثون في كتبهم، وذكره المتكلمون في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، والأكثر روى الخبر فيها على الوضع الذي جاء في خطبة أمير المؤمنين، ومنهم من يروي ذلك مختصراً أنه دعا شجرة فأقبلت تحذ إليه الأرض خدّاً.

وقد ذكر البيهقي في كتاب "دلائل النبوة" حديث الشجرة، ورواه أيضاً محمد بن إسحق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي على وجه آخر، قال محمد بن إسحاق: كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريش كلها، فخلا يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ركانة، ألا تتقي الله، وتقبل ما أدعوك إليه؟ قال: لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعك، قال: أفرايت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول لك حق؟ قال: نعم، قال: فقم حتى أصارعك، فقام ركانة، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً، فقال: عد يا محمد، فعاد فصرعه، فقال: يا محمد، إن هذا لعجب حين تصرعني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأعجب من ذلك إن شئت أريتكه، إن اتقيت الله، واتبعت أمري، قال: ما هو؟ قال: أدعو لك هذه الشجرة التي تراها، فتأتي، قال فادعها: فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم، ثم قال: إرجعي إلى مكانك، فرجعت إلى مكانها، فرجع ركانة إلى قومه، وقال: يا بني عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض! فما رأيت أسحر منه قط، ثم أخبرهم بالذي رأى، والذي صنع.

في إسلام أبي بكر وعلي عليه السلام

وينبغي أن نذكر في هذا الموضوع ملخص ما ذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ في كتابه المعروف بكتاب "العثمانية" في تفضيل إسلام أبي بكر على إسلام علي عليه السلام، لأن هذا الموضوع يقتضيه، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا لأنهم استصغروا سنه، فاستحقروا أمر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث لم يصدقه في دعواه إلا غلام صغير السن، وشبهة العثمانية التي قررها الجاحظ من هذه الشبهة نشأت، ومن هذه الكلمة تفرعت، لأن خلاصتها أن أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة، وعلي أسلم ولم يبلغ الحلم، فكان إسلام أبي بكر أفضل.

ثم نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافي على الجاحظ في كتابه المعروف بـ "نقض العثمانية"، ويتشعب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث في الإسلاميين إلى البحث في أفضلية الرجلين وخصائصهما، فإن ذلك لا يخلو عن فائدة جلية، ونكتة لطيفة، لا يليق أن يخلو كتابنا هذا عنها، ولأن كلامهما بالرسائل والخطابة أشبه، وفي الكتابة أقصد وأدخل، وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله.

قال أبو عثمان: قالت العثمانية: أفضل الأمة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبي قحافة لإسلامه على الوجه الذي لم يسلم عليه أحد في عصره، وذلك أن الناس اختلفوا في أول الناس إسلاماً، فقال قوم: أبو بكر، وقال قوم: زيد بن حارثة، وقال قوم: خباب بن الارت.

وإذا تفقدنا أخبارهم، وأحصينا أحاديثهم، وعددنا رجالهم، ونظرنا في صحة أسانيدهم، كان الخبر في تقدم إسلام أبي بكر أعم ورجاله أكثر، وأسانيده أصح، وهو بذاك أشهر، واللفظ فيه أظهر، مع الأشعار الصحيحة، والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته، وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا امتنع في مجيئها، وأصل مخرجها التباعد والاتفاق والتواطؤ، ولكن ندع هذا المذهب جانباً، ونضرب عنه صفحاً، اقتداراً على الحجة، ووثوقاً بالفلج والقوة، ونقتصر على أدق نازل في أبي بكر، وننزل على حكم الخصم، فنقول: إنا وجدنا من يزعم أنه أسلم قبل زيد وخباب، ووجدنا من يزعم أنهما أسلما قبله، وأوسط الأمور أعدلها، وأقربها من محبة الجميع، ورضا المخالف، أن نجعل إسلامهم كان معاً، إذ الأخبار متكافئة، والآثار متساوية على ما تزعمون، وليست إحدى القضيتين أولى في صحة العقل من الأخرى، ثم نستدل على إمامة أبي بكر بما ورد فيه من الحديث، وبما أبانه به الرسول صلى الله عليه وسلم من غيره. قالوا: فمما روي من تقدم إسلامه ما حدث به أبو داود وابن مهدي عن شعبة، وابن عيينة، عن الجريري، عن أبي هريرة، قال أبو بكر: أنا أحقكم بهذا الأمر - يعني الخلافة - ألسنت أول من صلى!.

روى عباد بن صهيب، عن يحيى بن عمير، عن محمد بن المنكدر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله بعثني بالهدى ودين الحق إلى الناس كافة، فقالوا: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت".

وروى يعلى بن عبيد، قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فسأله: من كان أول الناس إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت:

فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

وأول الناس منهم صدق الرسلا

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة

الثاني التالي المحمود مشهده

وقال أبو محجن:

وكننت حبيباً بالعريش المشهر

سبقت إلى الإسلام والله شاهد

وقال كعب بن مالك:

وكننت لدى الغيران في الكهف صاحباً

سبقت أخا تيم إلى دين أحمد

وروى ابن أبي شيبة، عن عبد الله بن إدريس ووكيع، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: قال النخعي: أبو بكر أول من أسلم.

وروى هيثم عن يعلى بن عطاء، عن عمرو بن عبسة، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بعكاظ، فقلت: من بايعك على هذا الأمر؟ فقال: بايعني حر وعبد، فلقد رأيتني يومئذ وأنا رابع الإسلام. قال بعض أصحاب الحديث: يعني بالحر أبا بكر وبالعبد بلالاً.

وروى الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة، قال: حدثني عمرو بن عبسة، أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم وهو بعكاظ، فقال له: من تبعك؟ قال: تبعني حر وعبد: أبو بكر وبلال.

وروى عمرو بن إبراهيم الهاشمي، عن عبد الملك بن عمير، عن أسيد بن صفوان، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما قبض أبو بكر جاء علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: رحمك الله أبا بكر! كنت أول الناس إسلاماً.

وروى عباد، عن الحسن بن دينار، عن بشر بن أبي زنب، عن عكرمة مولى ابن عباس، قال: إذا لقيت الهاشميين قالوا: علي بن أبي طالب أول من أسلم، وإذا لقيت الذين يعلمون، قالوا: أبو بكر أول من أسلم.

قال أبو عثمان الجاحظ: قالت العثمانية: فإن قال قائل: فما بالكم لم تذكروا علي بن أبي طالب في هذه الطبقة، وقد تعلمون كثرة مقدميه والرواية فيه!.

قلنا: قد علمنا الرواية الصحيحة، والشهادة القائمة، أنه أسلم وهو حدث غدير، وطفل صغير، فلم نكذب الناقلين، ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين، لأن المقلل زعم أنه أسلم، وهو ابن خمس سنين، والمكثر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين، فالقياس أن يؤخذ بالأوسط بين الروایتين، وبالأمر بين الأمرين، وإنما يعرف حق ذلك من باطله، بأن نحصي سنه التي ولي فيها الخلافة، وسني عمر، وسني عثمان، وسني أبي بكر، ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة، فإذا فعلنا ذلك صح أنه أسلم وهو ابن سبع سنين، فالتاريخ الجمع عليه أنه قتل عليه السلام في شهر رمضان سنة أربعين.

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي: لولا ما غلب على الناس من الجهل وحب التقليد، لم نحتج إلى نقض ما احتجت به العثمانية، فقد علم الناس كافة، أن الدولة والسلطان لأرباب مقاتلتهم، وعرف كل أحد علو أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم، وظهور كلمتهم، وقهر سلطاتهم وارتفاع التقية عنهم والكرامة، والجائزة لمن روى الأخبار والأحاديث في فضل أبي بكر، وما كان من تأكيد بني أمية لذلك، وما ولده المحدثون من الأحاديث طلباً لما في أيديهم، فكانوا لا يألون جهداً في طول ما ملكوا أن يخلعوا ذكر علي عليه السلام وولده، ويطفئوا نورهم، ويكتموا فضائلهم ومناقبهم وسوابقهم، ويحملوا على شتمهم وسبهم ولعنهم على المنابر، فلم يزل السيف يقطر من دمائهم، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، فكانوا بين قتل وأسير، وشريد وهارب، ومستخف ذليل، وخائف مترقب، حتى إن الفقيه والمحدث والقاضي والمتكلم، ليتقدم إليه ويتوعد بغاية الإيعاد وأشد العقوبة، ألا يذكروا شيئاً من فضائلهم، ولا يرخصوا لأحد أن يطيف بهم، وحتى بلغ من تقية المحدث أنه إذا ذكر حديثاً عن علي عليه السلام كنى عن ذكره، فقال: قال رجل من قريش، وفعل رجل من قريش، ولا يذكر علياً عليه السلام، ولا يتفوه باسمه. ثم رأينا جميع المختلفين قد حاولوا نقض فضائله، ووجهوا الحيل والتأويلات نحوها، من خارجي مارق، وناصب حنق، وثابت مستبهم، وناشئ معاند، ومنافق مكذب، وعثماني حسود، يعترض فيها ويطعن، ومعتزلي قد نقض في الكلام، وأبصر علم الاختلاف، وعرف الشبه ومواضع الطعن وضروب التأويل، قد التمس الحيل في إبطال مناقبه وتناول مشهور فضائله، فمرة يتأولها بما لا يحتمل، ومرة يقصد أن يضع من قدرها بقياس منتقض، ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة، ووضوحاً واستنارة، وقد علمت أن معاوية يزيد ومن كان بعدهما من بني مروان أيام ملكهم - وذلك نحو ثمانين سنة - لم يدعوا جهداً في حمل الناس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله، وستر مناقبه وسوابقه.

روى خالد بن عبد الله الواسطي، عن حصين بن عبد الرحمن، عن هلال بن يساف، عن عبد الله بن ظالم، قال: لما بوع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون علياً عليه السلام، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة!

روى سليمان بن داود، عن شعبة، عن الحر بن الصباح، قال: سمعت عبد الرحمن بن الأحنس، يقول: شهدت المغيرة بن شعبة خطب فذكر علياً عليه السلام، فنال منه.

روى أبو كريب، قال: حدثنا أبو أسامة، قال: حدثنا صدقة بن المثنى النخعي عن رياح بن الحارث، قال: بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر، وعنده ناس إذ جاءه رجل يقال له: قيس بن علقمة، فاستقبل المغيرة، فسب علياً عليه السلام.

روى محمد بن سعيد الأصفهاني، عن شريك، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن علي بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين عليهما السلام، قال: قال لي مروان: ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم. قلت: فما بالكم تسبونني على المنابر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك.

روى مالك بن إسماعيل أبو غسان النهدي، عن ابن أبي سيف، قال: خطب مروان والحسن عليه السلام جالس فنال من علي مجد، فقال الحسن: ويلك يا مروان! أهذا الذي تشتم شر الناس! قال: لا، ولكنه خير الناس. وروى أبو غسان أيضاً،

قال: قال عمر بن عبد العزيز: كان أبي يخطب فلا يزال مستمراً في خطبته، حتى إذا صار إلى ذكر علي وسبه تقطع لسانه، واصفر وجهه، وتغيرت حاله، فقلت له في ذلك، فقال: أو قد فطنت لذلك؟ إن هؤلاء لو يعلمون من علي ما يعلمه أبوك ما تبعنا منهم رجل.

وروى أبو عثمان، قال: حدثنا أبو اليقظان، قال: قام رجل من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عرفة، فقال: إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب.

وروى عمرو بن الفناد، عن محمد بن فضيل، عن أشعث بن سوار، قال: سب عدي بن أرطاة علياً عليه السلام على المنبر، فبكى الحسن البصري وقال: لقد سب هذا اليوم رجل إنه لأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة. وروى عدي بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم، قال: كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة مما يلي أبواب كندة فخرج المغيرة فخطب، فحمد الله، ثم ذكر ما شاء أن يذكر، ثم وقع في علي عليه السلام، فضرب إبراهيم على فخذي أو ركبتي، ثم قال: أقبل علي، فحدثني فإننا لسنا في جمعة، ألا تسمع ما يقول هذا!.

وروى عبد الله بن عثمان الثقفي، قال: حدثنا ابن أبي سيف، قال: قال ابن لعامر بن عبد الله بن الزبير لولده: لا تذكر يا بني علياً إلا بخير، فإن بني أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة، فلم يزد الله بذلك إلا رفعة، إن الدنيا لم تكن شيئاً قط إلا رجعت على ما بنت فهدمته، وإن الدين لم يبن شيئاً قط وهدمه.

وروى عثمان بن سعيد، قال: حدثنا مطلب بن زياد، عن أبي بكر بن عبد الله الأصبهاني، قال: كان دعي لبني أمية يقال له خالد بن عبد الله، لا يزال يشتم علياً عليه السلام، فلما كان يوم جمعة، وهو يخطب الناس، قال: والله إن كان رسول الله ليستعمله، وإنه ليعلم ما هو! ولكنه كان ختنه، وقد نعى سعيد بن المسيب ففتح عينيه، ثم قال: ويحكم! ما قال هذا الخبيث! رأيت القبر انصاع ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كذبت يا عدو الله!.

وروى القناد، قال: حدثنا أسباط بن نصر الهمداني، عن السدي، قال: بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزيت، إذ أقبل راكب على بعير، فوقف فسب علياً عليه السلام، فخف به الناس ينظرون إليه، فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقاص، فقال: اللهم إن كان سب عبداً لك صالحاً، فأر المسلمين خزيه، فما لبث أن نفر به بعيره فسقط، فاندقت عنقه. وروى عثمان بن أبي شيبة، عن عبد الله بن موسى، عن فطر بن خليفة، عن أبي عبد الله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمة رحمها الله فقالت لي: أيسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكم وأنتم أحياء! قلت: وأنى يكون هذا؟ قالت: أليس يسب علي عليه السلام ومن يحبه!.

وروى العباس بن بكار الضبي، قال: حدثني أبو بكر الهذلي، عن الزهري، قال: قال ابن عباس لمعاوية، ألا تكف عن شتم هذا الرجل؟ قال: ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير. فلما ولي عمر بن عبد العزيز كف عن شتمه، فقال الناس: ترك السنة.

قال: وقد روي عن ابن مسعود إما موقوفاً عليه أو مرفوعاً، كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير، يجري عليها الناس فيتخذونها سنة، فإذا غير منها شيء قيل: غيرت السنة!.

قال أبو جعفر: وقد تعلمون أن بعض الملوك ربما أحدثوا قولاً، أو ديناً لهوى فيحملون الناس على ذلك؟ حتى لا يعرفوا غيره، كنعو ما أخذ الناس الحجاج بن يوسف بقراءة عثمان، وترك قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب، وتوعد على ذلك بدون ما صنع هو وجبابة بني أمية وطغاة مروان بولد علي عليه السلام وشيعته، وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة، فما مات الحجاج حتى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان، ونشأ أبناءهم ولا يعرفون غيرها، لإمساك الآباء عنها، وكف المعلمين عن تعليمها، حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبي ما عرفوها، ولظنوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان، لإلف العادة وطول الجهالة، لأنه إذا استولت على الرعية الغلبة، وطالت عليهم أيام التسلط، وشاعت فيهم المخافة، وشملتهم التقية، اتفقوا على التخاذل والتساکت، فلا تزال الأيام تأخذ من بصائرهم، وتنقص من ضمائرهم، وتنقص من مرائرهم، حتى تصير البدعة التي أحدثوها غامرة للسنة التي كانوا يعرفونها، ولقد كان الحجاج ومن ولده، كعبد الملك والوليد ومن كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بني أمية على إخفاء محاسن علي عليه السلام وفضائل ولده وشيعته، وإسقاط أقدارهم، أحرص منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأبي؟ لأن تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم، وفساد أمرهم، وانكشاف حالهم، وفي اشتهاه فضل علي عليه السلام وولده وإظهار محاسنهم بوارهم، وتبسيط حكم الكتاب المنبوذ عليهم، فحرصوا واجتهدوا في إخفاء فضائله، وحملوا الناس على كتمانها وسترها، وأبى الله أن يزيد أمره وأمر ولده إلا استنارة وإشراقاً، وحبهم إلا شغفاً وشدة، وذكرهم إلا انتشاراً وعزة، وحجتهم إلا وضوحاً وقوة، وفضلهم إلا ظهوراً، وشأنهم إلا علواً، وأقدارهم إلا إعظاماً، حتى أصبحوا بإهانتهم إياهم أعزاء، وبإماتتهم ذكرهم أحياء، وما أرادوا به وبهم من الشر تحول خيراً، فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه ما لم يتقدمه السابقون، ولا ساواه فيه القاصدون، ولا يلحقه الطالبون، ولولا أنها كانت كالقابلة المنصوبة في الشهرة، وكالسنن المحفوظة في الكثرة، لم يصل إلينا منها في دهرنا حرف واحد، إذا كان الأمر كما وصفناه.

قال: فأما ما احتج به الجاحظ بإمامة أبي بكر، بكونه أول الناس إسلاماً، فلو كان هذا احتجاجاً صحيحاً، لاحتج به أبو بكر يوم السقيفة، وما رأيناه صنع ذلك لأنه أخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح، وقال للناس: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا منهما من شئتم، ولو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لما قال عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها، ولو كان احتجاجاً صحيحاً لادعى واحد من الناس لأبي بكر الإمامة في عصره أو بعد عصره، بكونه سبق إلى الإسلام، وما عرفنا أحداً ادعى له ذلك، على أن جمهور المحدثين لم يذكروا أن أبا بكر أسلم إلا بعد عدة من الرجال، منهم علي بن أبي طالب، وجعفر أخوه، وزيد بن حارثة، وأبو ذر الغفاري، وعمر بن الخطاب، وخالد بن سعيد بن العاص، وخباب بن الأرت، وإذا تأملنا الروايات الصحيحة، والأسانيد القوية والوثيقة، وجدناها كلها ناطقة بأن علياً عليه السلام أول من أسلم.

فأما الرواية عن ابن عباس أن أبا بكر أولهم إسلاماً فقد روي عن ابن عباس خلاف ذلك، بأكثر مما روي وأشهر، فمن ذلك ما رواه يحيى بن حماد، عن أبي عوانة وسعيد بن عيسى، عن أبي داود الطيالسي، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس، أنه قال: أول من صلى من الرجال علي عليه السلام.

وروى الحسن البصري، قال: حدثنا عيسى بن راشد، عن أبي بصير، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: فرض الله تعالى

الاستغفار لعلي عليه السلام في القرآن على كل مسلم، بقوله تعالى: "ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان"، فكل من أسلم بعد علي فهو يستغفر لعلي عليه السلام.

وروى سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: السباق ثلاثة: سبق يوشع بن نون إلى موسى، وسبق صاحب "يس" إلى عيسى، وسبق علي بن أبي طالب إلى محمد عليه وعليهم السلام.

فهذا قول ابن عباس في سبق علي عليه السلام إلى الإسلام، وهو أثبت من حديث الشعبي وأشهر، على أنه قد روي عن الشعبي خلاف ذلك من حديث أبي بكر الهذلي وداود بن أبي هند عن الشعبي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي عليه السلام: "هذا أول من آمن بي وصدقني وصلى معي".

قال: فأما الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام المذكورة في الكتب الصحاح والأسانيد الموثوق بها، فمنها ما روى شريك بن عبد الله، عن سليمان بن المغيرة، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: أول شيء علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت مكة مع عمومة لي وناس من قومي، وكان من أنفسنا شراء عطر، فأرشدنا إلى العباس بن عبد المطلب، فانتبهنا إليه، وهو جالس إلى زمزم، فبينما نحن عنده جلوساً، إذ أقبل رجل من باب الصفا، وعليه ثوبان أبيضان، وله وفرة إلى أنصاف أذنيه جعدة، أشم أقي، أدعج العينين، كث اللحية، براق الثنايا، أبيض تعلوه حمرة، كأنه القمر ليلة البدر، وعلى يمينه غلام مراهق أو محتلم، حسن الوجه، تقفوههم امرأة، قد سترت محاسنها، حتى قصدوا نحو الحجر، فاستلمه واستلمه الغلام، ثم استلمته المرأة، ثم طاف بالبيت سبعاً، والغلام والمرأة يطوفان معه، ثم استقبل الحجر، فقام ورفع يديه وكبر، وقام الغلام إلى جانبه، وقامت المرأة خلفهما، فرفعت يديها، وكبرت، فأطال القنوت، ثم ركع وركع الغلام والمرأة، ثم رفع رأسه فأطال، ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل ما يصنع، فلما رأينا شيئاً نكره، لا نعرفه بمكة، أقبلنا على العباس، فقلنا: يا أبا الفضل، إن هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم، قال: أجل والله، قلنا: فمن هذا؟ قال: هذا ابن أخي، هذا محمد بن عبد الله، وهذا الغلام ابن أخي أيضاً؟ هذا علي بن أبي طالب، وهذه المرأة زوجة محمد، هذه خديجة بنت خويلد، والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة.

ومن حديث موسى بن داود، عن خالد بن نافع، عن عفيف بن قيس الكندي، وقد رواه عن عفيف أيضاً، مالك بن إسماعيل النهدي والحسن بن عنبسة الوراق وإبراهيم بن محمد بن ميمونة، قالوا جميعاً: حدثنا سعيد بن جشم، عن أسد بن عبد الله البجلي، عن يحيى بن عفيف بن قيس، عن أبيه، قال: كنت في الجاهلية عطاراً، فقدمت مكة، فزلت على العباس بن عبد المطلب، فبينما أنا جالس عنده، أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقت الشمس في السماء، أقبل شاب كأن في وجهه القمر، حتى رمى ببصره إلى السماء، فنظر إلى الشمس ساعة، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة، فصاف قدميه يصلي، فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية، فقام عن يمينه، فجاءت امرأة متلففة في ثيابها، فقامت خلفهما، فأهوى الشاب راکعاً، فركعا معه، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً، فسجداً معه، فقلت للعباس: يا أبا الفضل، أمر عظيم! فقال: أمر والله عظيم! أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا، قال هذا ابن أخي، هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، أتدري من هذا الفتى؟ قلت: لا، قال: هذا ابن أخي علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، أتدري من المرأة؟ قلت: لا، قال: هذه ابنة خويلد بن أسد بن

عبد العزى، هذه خديجة زوج محمد هذا، وإن محمداً هذا يذكر أن إلهه إله السماء والأرض، وأمره بهذا الدين، فهو عليه كما ترى، ويزعم أنه نبي، وقد صدقه على قوله علي ابن عمه هذا الفتى، وزوجته خديجة، هذه المرأة، والله ما أعلم على وجه الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة: قال عفيف: فقلت له: فما تقولون أنتم؟ قال: ننتظر الشيخ ما يصنع! يعني أبا طالب أخاه.

وروى عبيد الله بن موسى، والفضل بن دكين، والحسن بن عطية، قالوا: حدثنا خالد بن طهمان، عن نافع بن أبي نافع، عن معقل بن يسار، قال: كنت أوصي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: هل لك أن تعود فاطمة؟ قلت: نعم يا رسول الله، فقام يمشي متوكئاً علي، وقال: أما إنه سيحمل ثقلها غيرك، ويكون أجرها لك، قال: فوالله كأنه لم يكن علي من ثقل النبي صلى الله عليه وسلم شيء، فدخلنا على فاطمة عليها السلام، فقال لها صلى الله عليه وسلم: كيف تجدينك؟ قالت: لقد طال أسفي، واشتد حزني، وقال لي النساء: زوجك أبوك فقيراً لا مال له! فقال لها: أما ترضين أني زوجتك أقدم مّتي سلماً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم حِلماً! قالت: بلى رضيت يا رسول الله.

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد وعبد السلام بن صالح، عن قيس بن الربيع، عن أبي أيوب الأنصاري، بالفاظه أو نحوه.

وروى عبد السلام بن صالح، عن إسحاق الأزرق، عن جعفر بن محمد، عن آبائه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوج فاطمة، دخل النساء عليها، فقلن: يا بنت رسول الله، خطبك فلان وفلان، فردهم عنك، وزوجك فقيراً لا مال له، فلما دخل عليها أبوها صلى الله عليه وسلم رأى ذلك في وجهها، فسألها فذكرت له ذلك، فقال: يا فاطمة، إن الله أمرني فأنكحتك أقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حِلماً وما زوجتك إلا بأمر من السماء، أما علمت أنه أخي في الدنيا والآخرة!.

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظهير، عن السدي، أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة عليها السلام، فردهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: لم أؤمر بذلك، فخطبها علي عليه السلام، فزوجه إياها. وقال لها: زوجتك أقدم الأمة إسلاماً.. وذكر تمام الحديث. قال: وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة، منهم أسماء بنت عميس، وأم أيمن، وابن عباس وجابر بن عبد الله.

قال: وقد روى محمد بن عبد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن جده أبي رافع، قال: أتيت أبا ذر بالربذة أودعه، فلما أراد الانصراف، قال لي ولأناس معي: ستكون فتنة، فاتقوا الله، وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب، فاتبعوه، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: "أنت أول من آمن بي، وأول من يصادفني يوم القيامة، وأنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين، وأنت أخي ووزير، وخير من أترك بعدي، تقضي ديني وتنجز موعدي".

قال: وقد روى ابن أبي شيبه، عن عبد الله بن نمير، عن العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله الأسدي، قال: سمعت علي بن أبي طالب، يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها غيري إلا

كذاب، ولقد صليت قبل الناس سبع سنين.

وروت معاذة بنت عبد الله العدوية، قالت: سمعت علياً عليه السلام، يخطب على منبر البصرة، ويقول: أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم.

وروى حبة بن جوين العرني أنه سمع علياً عليه السلام، يقول: أنا أول رجل أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن حبة بن جوين.

وروى عثمان بن سعيد الخراز، عن علي بن حرار، عن علي بن عامر، عن أبي الحجاج، عن حكيم مولى زاذان، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: صليت قبل الناس سبع سنين، وكنا نسجد ولا نركع، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: أمرت به.

وروى إسماعيل بن عمرو، عن قيس بن الربيع، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله، قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء بعده. وفي الرواية الأخرى، عن أنس بن مالك: استنّى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين، وأسلم علي يوم الثلاثاء بعده.

وروى أبو رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول صلاة صلاها غداة الإثنين، وصلت خديجة آخر نهار يومها ذلك، وصلى علي عليه السلام يوم الثلاثاء غداة ذلك اليوم.

قال: وقد روي بروايات مختلفة كثيرة متعددة، عن زيد بن أرقم، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، أن علياً عليه السلام أول من أسلم، وذكر الروايات والرجال بأسمائهم.

وروى سلمة بن كهيل، عن رجاله الذين ذكرهم أبو جعفر في الكتاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أو لكم وروداً علي الحوض أولكم إسلاماً، علي بن أبي طالب!.

وروى ياسين بن محمد بن أيمن، عن أبي حازم، مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: سمعت عمر بن الخطاب وهو يقول: كفوا عن علي بن أبي طالب؟ فإني سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه حصلاً، لو أن خصلة منها في جميع آل الخطاب، كان أحب لي مما طلعت عليه الشمس، كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نطبه، فانتبهنا إلى باب أم سلمة، فوجدنا علياً متكئاً على نجاف الباب؟ فقلنا: أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هو في البيت، رويدكم! فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرنا حوله، فاتكأ على علي عليه السلام، وضرب بيد علي منكبه، فقال: "أبشر يا علي بن أبي طالب، إنك مخاصم، وإنك تخصم الناس بسبع لا يجاريك أحد في واحدة منهن، أنت أول الناس إسلاماً، وأعلمهم بأيام الله..". وذكر الحديث.

قال: وقد روى أبو سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذا الحديث.

قال: روى أبو أيوب الأنصاري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لقد صلت الملائكة علي وعلى علي عليه السلام، سبع سنين"، وذلك أنه لم يصل معي رجل فيها غيره.

قال أبو جعفر: فأما ما رواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما تبعني حر وعبد"، فإنه لم يسم في هذا الحديث أباً بكر وبلاً، وكيف وأبو بكر لم يشتر بلالاً إلا بعد ظهور الإسلام بمكة، فلما أظهر بلال إسلامه عذبه أمية بن خلف! ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة، ولا في ابتداء أمر الإسلام، وقد قيل: إنه عليه السلام إنما عني بالحر علي بن أبي طالب، وبالعبد زيد بن حارثة.

وروى ذلك محمد بن إسحاق، قال: وقد روى إسماعيل بن نصر الصفار، عن محمد بن ذكوان، عن الشعبي؟ قال: قال: الحجاج للحسن، وعنده جماعة من التابعين وذكر علي بن أبي طالب: ما تقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول! هو أول من صلى إلى القبلة، وأجاد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن لعلي منزلة من ربه، وقرابة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردها أحد. فغضب الحجاج غضباً شديداً، وقام عن سريرته، فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا. قال الشعبي: وكنا جماعة ما منا إلا من نال من علي عليه السلام مقاربة للحجاج، غير الحسن بن أبي الحسن رحمه الله. وروى محرز بن هشام، عن إبراهيم بن سلمة، عن محمد بن عبيد الله، قال: قال رجل للحسن: ما لنا لا نراك تثنى على علي وتقرظه! قال: كيف وسيف الحجاج يقطر دماً! إنه لأول من أسلم، وحسبكم بذلك!. قال: فهذه الأخبار.

وأما الأشعار المروية فمعروفة كثيرة منتشرة، فمنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيئاً للوليد بن عقبة بن أبي معيط:

علي وفي كل المواطن صاحبه
وأول من صلى ومن لان جانبه

وإن ولي الأمر بعد محمد
وصي رسول الله حقاً وصنوه

وقال خزيمة بن ثابت في هذا:

وفارسه مذ كان في سالف الزمن
سوى خيرة النسوان والله ذو منن

وصي رسول الله من دون أهله
وأول من صلى من الناس كلهم

وقال أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس، حين بويع أبو بكر:

عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
وأعلم الناس بالأحكام والسنن!

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف
ألين أول من صلى لقبلتهم

وقال أبو الأسود الدؤلي يهدد طلحة والزبير:

يمائله الأسد الأسود
بمكة والله لا يعبد!

وإن علياً لكم مصحر
أما إنه أول العابدين

وقال سعيد بن قيس الهمداني يرتجز بصفيين:

أول من أجابه فيما روى

هذا علي وابن عم المصطفى

هو الإمام لا يبالي من غوى

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدي:

وصي وفي الإسلام أول أول

فحوطوا علياً وانصروه فإنه

فليس لكم عن أرضكم متحول

وإن تخذلوه والحوادث جمة

قال: والأشعار كالأخبار، إذا امتنع في مجيء القبيلين التواطؤ والاتفاق، كان ورودهما حجة. فأما قول الجاحظ: فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معاً، فقد أبطل بهذا ما احتج به لإمامة أبي بكر، لأنه احتج بالسبق، وقد عدل الآن عنه.

قال أبو جعفر: ويقال لهم: لسنا نحتاج من ذكر سبق علي عليه السلام إلا بمجامعتكم إيانا على أنه أسلم قبل الناس، ودعواكم أنه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة إلا بحجة.

فإن قلتم: ودعوتكم أنه أسلم وهو بالغ دعوى غير مقبولة إلا بحجة!

قلنا: قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم، ولو كان طفلاً لكان في الحقيقة غير مسلم، لأن اسم الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين، وإذا أطلقتم وأطلقنا اسم الإسلام، فالأصل في الإطلاق الحقيقة، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنت أول من آمن بي، وأنت أول من صدقي". وقال لفاطمة: "زوجتك أقدمهم سلماً - أو قال: إسلاماً -" فإن قالوا: إنما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام على جهة العرض لا التكليف.

قلنا: قد وافقتمونا على الدعاء، وحكم الدعاء حكم الأمر والتكليف. ثم ادعيتم أن ذلك كان على وجه العرض، وليس لكم أن تقبلوا معنى الدعاء عن وجهه إلا لحجة.

فإن قالوا: لعله كان على وجه التأديب والتعليم، كما يعتمد مثل ذلك مع الأطفال!

قلنا: إن ذلك إنما يكون إذا تمكن الإسلام بأهله، أو عند النشوء عليه والولادة فيه، فأما في دار الشرك فلا يقع مثل ذلك، لا سيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم، على أنه ليس من سنة النبي صلى الله عليه وسلم دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم، قبل أن يبلغوا الحلم.

وأيضاً فمن شأن الطفل اتباع أهله وتقليد أبيه، والمضي على منشئه ومولده، وقد كانت مترلة النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ مترلة ضيق وشدة ووحدة، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلا من ثبت الإسلام عنده بحجة، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة.

فإن قالوا: إن علياً عليه السلام كان يألف النبي صلى الله عليه وسلم، فوافقه على طريق المساعدة له.

قلنا: إنه وإن كان يألفه أكثر من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته، ولم يكن الإلف ليخرجه عما نشأ عليه، ولم يكن الإسلام مما غذي به وكرر على سمعه، لأن الإسلام هو خلع الأنداد والبراءة ممن أشرك بالله، وهذا لا يجتمع في اعتقاد

طفل. ومن العجب قول العباس لعفيف بن قيس: ننتظر الشيخ وما يصنع! فإذا كان العباس وحمة ينتظران أبا طالب، ويصدران عن رأيه، فكيف يخالفه ابنه، ويؤثر القلة على الكثرة، ويفارق المحبوب إلى المكروه، والعز إلى الذل، والأمن إلى الخوف، عن غير معرفة ولا علم بما فيه!.

فأما قوله: إن المقلل يزعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين، والمكثر يزعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين، فأول ما يقال في ذلك: إن الأخبار جاءت في سنه عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناه في قسمين: القسم الأول: الذين قالوا: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، حدثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسدي، عن إسحاق بن بشر القرشي، عن الأوزاعي، عن حمزة بن حبيب، عن شداد بن أوس. قال: سألت خباب بن الأرت عن إسلام علي، فقال: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، ولقد رأيته يصلي قبل الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن، أن أول من أسلم علي بن أبي طالب، وهو ابن خمس عشرة سنة. القسم الثاني: الذين قالوا أنه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة، رواه أبو قتادة الحراني، عن أبي حازم الأعرج، عن حذيفة بن اليمان، قال: كنا نعبد الحجارة، ونشرب الخمر وعلي من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً ونهاراً، وقريش يومئذ تسافه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يذب عنه إلا علي عليه السلام، وروى ابن أبي شيبه عن جرير بن عبد الحميد، قال: أسلم علي وهو ابن أربع عشرة سنة.

القسم الثالث: الذين قالوا: أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة، رواه إسماعيل بن عبد الله الرقي، عن محمد بن عمر، عن عبد الله بن سمعان، عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عن محمد بن علي عليه السلام، أن علياً حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة. وروى عبد الله بن زياد المدني، عن محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال: أول من آمن بالله علي بن أبي طالب، وهو ابن إحدى عشرة سنة، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة.

القسم الرابع: الذين قالوا: إنه أسلم وهو ابن عشر سنين. رواه نوح بن دراج، عن محمد بن إسحاق، قال: أول ذكر آمن وصدق بالنبوة علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ابن عشر سنين، ثم أسلم زيد بن حارثة، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ست وثلاثين سنة فيما بلغنا.

القسم الخامس: الذين قالوا إنه أسلم وهو ابن تسع سنين، رواه الحسن بن عنبسة الوراق، عن سليم مولى الشعبي، عن الشعبي، قال: أول من أسلم من الرجال علي بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين، وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع وعشرون سنة.

قال شيخنا أبو جعفر: فهذه الأخبار كما تراها، إما أن يكون الجاحظ جهلها، أو قصد العناد.

فأما قوله: "القياس أن نأخذ بأوسط الأمرين من الروايتين"، فنقول: إنه أسلم وهو ابن سبع سنين. فإن هذا تحكم منه، ويلزمه مثله في رجل ادعى قبل رجل عشرة دراهم، فأنكر ذلك وقال: إنما يستحق قبلي أربعة دراهم، فينبغي أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم، ويلزمه في أبي بكر حيث قال قوم: كان كافراً، وقال قوم: كان إماماً عادلاً أن نقول: أعدل الأقاويل أوسطها وهو منزلة بين المنزلتين، فنقول: كان فاسقاً ظالماً، وكذلك في جميع الأمور المختلف فيها.

فأما قوله: وإنما يعرف حق ذلك من باطله، بأن نحصي سني ولاية عثمان وعمر وأبي بكر وسني الهجرة، ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الرسالة إلى أن هاجر، فيقال له: لو كانت الروايات متفقة على هذه التأريخات، لكان لهذا القول مساع، ولكن الناس قد اختلفوا في ذلك، فقليل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بعد الرسالة خمس عشرة سنة، رواه ابن عباس، وقيل ثلاث عشرة سنة، وروي عن ابن عباس أيضاً، وأكثر الناس يروونه. وقيل عشر سنين، رواه عروة بن الزبير، وهو قول الحسن البصري وسعيد بن المسيب. واختلفوا في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال قوم: كان ابن خمس وستين، وقيل كان ابن ثلاث وستين، وقيل: كان ابن ستين. واختلفوا في سن علي عليه السلام، فقليل: كان ابن سبع وستين، وقيل: كان ابن خمس وستين. وقيل ابن ثلاث وستين، وقيل: ابن ستين، وقيل ابن تسع وخمسين.

فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيق هذه الحال! وإنما الواجب أن يرجع إلى إطلاق قولهم: أسلم علي، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقاً إلا على البالغ، كما لا يطلق اسم الكافر إلا على البالغ، على أن ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً، ويولد له الأولاد، فقد روت الرواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسن من ابنه عبد الله إلا باثنتي عشرة سنة، وهذا يوجب أنه احتلم وبلغ في أقل من إحدى عشرة سنة.

وروي أيضاً أن محمد بن عبد الله بن العباس، كان أصغر من أبيه علي بن عبد الله بن العباس بإحدى عشرة سنة، فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العباس حين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مسلم على الحقيقة، ولا مثاب ولا مطيع بالإسلام، لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين. رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين. قال الجاحظ: فإن قالوا: فلعله وهو ابن سبع سنين أو ثماني سنين، قد بلغ من فطنته وذكائه وصحة لبه وصدق حدسه وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جرب الأمور، ولا فاتح الرجال، ولا نازع الخصوم، ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفته والإقرار به!.

قيل لهم: إنما نتكلم على ظواهر الأحوال، وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال، فإننا وجدنا حكم ابن سبع سنين أو ثمان - ما لم يعلم باطن أمره وخاصة طبعه - حكم الأطفال، وليس لنا أن نزيل ظاهر حكمه والذي نعرف من حال أبناء جنسه بلعل وعسى، لأننا وإن كنا لا ندري، لعله قد كان ذا فضيلة في الفطنة فلعله قد كان ذا نقص فيها!.

هذا على تجويز أن يكون علي عليه السلام في الغيب قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلام البالغ، غير أن الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الذين أسلموا وهم في مثل سنه إذا كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن، وتلقين القيم، ورياضة السائس.

فأما عند التحقيق، فإنه لا تجويز لمثل ذلك، لأنه لو كان أسلم، وهو ابن سبع أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة، وفرق ما بين الرسل والسحرة، وفرق ما بين خبر النبي والمنجم، وحتى عرف كيد الأريب، وموضع الحجة، وبعد غور المتنبئ، كيف يلبس على العقلاء، وتستمال عقول الدهماء، وعرف الممكن في الطبع من الممتنع، وما يحدث بالاتفاق مما يحدث بالأسباب، وعرف قدر القوى وغاية الحيلة ومنتهى التمويه والخديعة، وما لا يحتمل أن يحدثه إلا الخالق

سبحانه، وما يجوز على الله في حكمته مما لا يجوز، وكيف التحفظ من الهوى والاحتباس من الخداع، لكان كونه على هذه الحال وهذه مع فرط الصبا والحداثة وقلة التجارب والممارسة خروجاً من العادة. ومن المعروف مما عليه تركيب هذه الحلقة، وليس يصل أحد إلى معرفة نبي وكذب متنبئ، حتى يجتمع فيه هذه المعارف التي ذكرناها، والأسباب التي وصفناها وفصلناها، ولو كان علي عليه السلام على هذه الصفة ومعه هذه الخاصية لكان حجة على العامة، وآية تدل على النبوة، ولم يكن الله عز وجل ليخصه بمثل هذه الأعجوبة إلا وهو يريد أن يحتج بها، ويجعلها قاطعة لعذر الشاهد وحجة على الغائب. ولولا أن الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنه آتاه الحكم صبياً، وأنه أنطق عيسى في المهد ما كانا في الحكم ولا في الغيب، إلا كسائر الرسل، وما عليه جميع البشر. فإذا لم ينطق لعلي عليه السلام بذلك قرآن، ولا جاء الخبر به بحجة الحجة القاطعة والمشهد القائمة، فالمعلوم عندنا في الحكم أن طباعه كطباع عميه حمزة والعباس، وهما أمس بمعدن جماع الخير منه، أو كطباع جعفر وعقيل من رجال قومه، وسادة رهطه. ولو أن إنساناً ادعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعميه حمزة والعباس، ما كان عندنا في أمره إلا مثل ما عندنا فيه.

أجاب شيخنا أبو جعفر رحمه الله، فقال: هذا كله مبني على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، ونحن قد بينا أنه أسلم بالغاً ابن خمس عشرة سنة أو ابن أربع عشرة سنة، على أنا لو نزلنا على حكم الخصوم، وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية، وهو أنه أسلم وهو ابن عشر لم يلزم ما قاله الجاحظ، لأن ابن عشر قد يستجمع عقله، ويعلم من مبادئ المعارف ما يستخرج به كثيراً من الأمور المعقولة، ومتى كان الصبي عاقلاً مميّزاً كان مكلفاً بالعقلية، وإن كان تكليفه بالشرعيات موقوفاً على حد آخر وغاية أخرى، فليس بمنكر أن يكون علي عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة، فلزمه الإقرار بالنبوة، وأسلم إسلام عالم عارف، لا إسلام مقلد تابع، وإن كان ما نسقه الجاحظ وعدده من معرفة السحر والنجوم والفصل بينهما وبين النبوة، ومعرفة ما يجوز في الحكمة مما لا يجوز، وما لا يحدثه إلا الخالق، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقدرة، ومعرفة التمويه والخديعة، والتلبيس والمماكرة، شرطاً في صحة الإسلام لما صح إسلام أبي بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب، وإنما التكليف لهؤلاء بالجملة ومبادئ المعارف لا بدقائقيها والغامض منها، وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرجال وجرب الأمور ونازع الخصوم، وإنما يفتقر إلى صحة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطرة، ألا ترى أن طفلاً لو نشأ في دالي لم يعاشر الناس بها، ولا فاتح الرجال، ولا نازع الخصوم، ثم كمل عقله، وحصلت العلوم البديهيّة عنده، لكان مكلفاً بالعقلية.

فأما توهمه أن علياً عليه السلام أسلم عن تربية الحاضن، وتلقين القيم، ورياضة السائس، فلعمري إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان حاضنه وقيمه وسائسه، ولكن لم يكن منقطعاً عن أبيه أبي طالب، ولا عن إخوته طالب وعقيل وجعفر، ولا عن عمومته وأهل بيته، وما زال مخالطاً لهم، ممتزجاً بهم، مع خدمته لمحمد صلى الله عليه وسلم، فما باله لم يعمل إلى الشرك وعمادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله، وهم كثير ومحمد صلى الله عليه وسلم واحد! وأنت تعلم أن الصبي إذا كان له أهل ذوو كثرة، وفيهم واحد يذهب إلى رأي مفرد، لا يوافق عليه غيره منهم، فإنه إلى ذوي الكثرة أميل، وعن ذي الرأي الشاذ المنفرد أبعد، وعلى أن علياً عليه السلام لم يولد في دار الإسلام، وإنما ولد في دار الشرك

وربي بين المشركين، وشاهد الأصنام، وعاین بعینه أهله ورهطه يعبدونها، فلو كان في دار الإسلام لكان في القول مجال، ولقيل إنه ولد بين المسلمين، فإسلامه عن تلقين الظئر وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنه لم يسمع غيره، ولا خطر بباله سواه، فلما لم يكن ولد كذلك، ثبت أن إسلامه إسلام المميز العارف بما دخل عليه. ولولا أنه كذلك لما مدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك، ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجدت من تزويجه بقوله لها: زوجتك أقدمهم سلماً، ولا قرن إلى قوله: "وأكثرهم علماً، وأعظمهم حِلماً"، والحلم العقل، وهذان الأمران غاية الفضل، فلولا أنه أسلم إسلام عارف عالم مميز لما ضم إسلامه إلى العلم والحلم اللذين وصفه بهما! وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مثاباً عليه، ولا معاقباً به لو تركه، ولو كان إسلامه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام به على رؤوس الأشهاد، ولا خطب على المنبر، وهو بين عدو محارب، وخاذل منافق، فقال: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم، صليت قبل الناس سبع سنين، وأسلمت قبل إسلام أبي بكر، وآمنت قبل إيمانه! فهل بلغكم أن أحداً من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابه أو ادعاه لغيره، أو قال له: إنما كنت طفلاً أسلمت على تربية محمد صلى الله عليه وسلم ذلك، وتلقينه إياك، كما يعلم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعاً! فلا فخر له في تعلم ذلك، وخصوصاً في عصر قد حارب فيه أهل البصرة والشام والنهران، وقد اعتورته الأعداء وهجته الشعراء، فقال فيه النعمان بن بشير:

وسارع في الضلال أبو تراب

على وتح بمنقطع السراب

لقد طلب الخلافة من بعيد

معاوية الإمام وأنت منها

وقال فيه أيضاً بعض الخوارج:

جزاء إذا ما جاء نفساً كتابها

بكف كريم، بعد موت ثوابها

دسنا له تحت الظلام ابن ملجم

أبا حسن خذها على الرأس ضربة

وقال عمران بن حطان يمدح قاتله:

إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

أوفى البرية عند الله ميزانا

يا ضربة من تقي ما أراد بها

إنني لأذكره حيناً فأحسبه

فلو وجد هؤلاء سبيلاً إلى دحض حجة فيما كان يفخر به من تقدم إسلامه، لبدأوا بذلك، وتركوا ما لا معنى له.

وقد أوردنا ما مدحه الشعراء به من سبقه إلى الإسلام، فكيف لم يرد على هؤلاء الذين مدحوه بالسبق شاعر واحد من أهل حربه! ولقد قال في أمهات الأولاد قولاً خالف فيه عمر، فذكروه بذلك وعابوه، فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به مما لا فخر فيه عندهم، وعابوه بقوله في أمهات الأولاد.

ثم يقال له: خبرنا عن عبد الله بن عمر، وقد أحازه النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق، ولم يجزه يوم أحد، هل كان يميز ما ذكرته؟ وهل كان يعلم فرق ما بين النبي والمنتبي، ويفصل بين السحر والمعجزة، إلى غيره مما عدت وفصلت!.

فإن قال: نعم، وتجاسر على ذلك، قيل له: فعلي عليه السلام بذلك أولى من ابن عمر، لأنه أذكى وأفطن بلا خلاف بين

العقلاء، وأن يشك في ذلك، وقد رويتم أنه لم يميز بين الميزان والعود بعد طول السن، وكثرة التجارب، ولم يميز أيضاً بين إمام الرشد وإمام الغي، فإنه امتنع من بيعة علي عليه السلام. وطرق على الحجاج بابه ليلاً ليبياع لعبد الملك، كيلاً يبيت تلك الليلة بلا إمام، زعم. لأنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية"، وحتى بلغ من احتقار الحجاج له واسترذاله حاله، أن أخرج رجله من الفراش، فقال: أصفق بيدك عليها، فذلك تمييزه بين الميزان والعود، وهذا اختياره في الأئمة، وحال علي عليه السلام في ذكائه وفطنته، وتوقد حسه، وصدق حدسه، معلومة مشهورة، فإذا جاز أن يصح إسلام ابن عمر، ويقال عنه إنه عرف تلك الأمور التي سردها الجاحظ ونسقتها، وأظهر فصاحته وتشدقه فيها، فعلي بمعرفة ذلك أحق، وبصحة إسلامه أولى.

وإن قال: لم يكن ابن عمر يعلم ويعرف ذلك، فقد أبطل إسلامه، وطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق، لأنه عليه السلام كان قال: لا أجزى إلا البالغ العاقل، ولذلك لم يجزه يوم أحد. ثم يقال له: إن ما نقوله في بلوغ علي عليه السلام الحد الذي يحسن فيه التكليف العقلي بل يجب - وهو ابن عشر سنين - ليس بأعجب من مجيء الولد لستة أشهر، وقد صحح ذلك أهل العلم، واستنبطوه من الكتب، وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة. وكذلك مجيء الولد لستين خارج أيضاً عن التعارف والعادة، وقد صححه الفقهاء والناس. ويروى أن معاذاً لما نهي عمر عن رجم الحامل تركها حتى ولدت غلاماً قد نبتت ثنيتاه، فقال أبوه: ابني ورب الكعبة! فثبت ذلك سنة يعمل بها الفقهاء، وقد وجدنا العادة تقضي بأن الجارية تحيض لاثنتي عشرة سنة، وأنه أقل سن تحيض فيه المرأة، وقد يكون في الأقل نساء يحضن لعشر ولتسع، وقد ذكر ذلك الفقهاء، وقد قال الشافعي في اللعان: لو جاءت المرأة بحمل وزوجها صبي له دون عشر سنين، لم يكن ولداً له، لأن من لم يبلغ عشر سنين من الصبيان لا يولد له، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له، وكان بينهما لعان إذا لم يقر به. وقال الفقهاء أيضاً: إن نساء تهامة يحضن لتسع سنين، لشدة الحر ببلادهن.

قال الجاحظ: ولو لم يعرف باطل هذه الدعوى من أثر التقوى، وتحفظ من الهوى، إلا بترك علي عليه السلام ذكر ذلك لنفسه والإحتجاج به على خصمه، وقد نازع الرجال وناوى الأكفاء، وجامع أهل الشورى، لكان كافياً، ومتى لم تصح لعلي عليه السلام هذه الدعوى في أيامه، ولم يذكرها أهل عصره، فهي عن ولده أعجز، ومنهم أضعف!. ولم ينقل أن علياً عليه السلام احتج بذلك في موقف، ولا ذكره في مجلس، ولا قام به خطيباً، ولا أدلى به واثقاً، لا سيما وقد رضىه الرسول صلى الله عليه وسلم عندكم مفزِعاً ومعلماً، وجعله للناس إماماً. ولا ادعى له أحد ذلك في عصره، كما لم يدعه لنفسه، حتى يقول إنسان واحد: الدليل على إمامته أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام أو كلفه التصديق قبل بلوغه، ليكون ذلك آية للناس في عمره، وحجة له ولولده من بعده، فهذا كان أشد على طلحة والزبير وعائشة من كل ما ادعاه من فضائله وسوابقه وذكر قرابته.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إن مثل الجاحظ مع فضله وعلمه، لا يخفى عليه كذب هذه الدعوى وفسادها، ولكنه يقول ما يقوله تعصباً وعناداً، وقد روى الناس كافة، افتخار علي عليه السلام بالسبق إلى الإسلام، وأن النبي صلى الله عليه وسلم استنّى يوم الاثنين، وأسلم علي يوم الثلاثاء، وأنه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين، وأنه ما زال

يقول: أنا أول من أسلم، ويفتخر بذلك، ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه وشيعته في عصره وبعد وفاته. والأمر في ذلك أشهر من كل شهر، وقد قدمنا منه طرفاً، وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخف بإسلام علي عليه السلام، ولا تهاون به، ولا زعم أنه أسلم إسلام حدث غرير، وطفل صغير. ومن العجب أن يكون مثل العباس وحزمة ينتظران أبا طالب وفعله، ليصدرا عن رأيه، ثم يخالفه علي ابنه لغير رغبة ولا رهبة، يؤثر القلة على الكثرة، والذل على العزة، من غير علم ولا معرفة بالعاقبة.

وكيف ينكر الجاحظ والعثمانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام وكلفه التصديق! وقد روي في الخبر الصحيح أنه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاماً، وأن يدعو له بني عبد المطلب، فصنع له الطعام، ودعاهم له، فخرجوا ذلك اليوم، ولم ينذرهم صلى الله عليه وسلم لكلمة قالها عمه أبو لهب، فكلفه في اليوم الثاني أن يصنع مثل ذلك الطعام، وأن يدعوهم ثانية، فصنعه، ودعاهم فأكلوا، ثم كلمهم صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الدين، ودعاه معهم لأنه من بني عبد المطلب، ثم ضمن لمن يوازره منهم وينصره على قوله، أن يجعله أخاه في الدين، ووصيه بعد موته، وخليفته من بعده، فأمسكوا كلهم وأجابوه هو وحده، وقال: أنا أنصرك على ما جئت به، وأوازرك وأبايعك، فقال لهم لما رأى منهم الخذلان، ومنه النصر، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة، وعانين منهم الإباء ومنه الإجابة: هذا أخي ووصيي وخلفتي من بعدي، فقاموا يسخرون ويضحكون، ويقولون لأبي طالب: أطع ابنك، فقد أمره عليك، فهل يكلف عمل الطعام ودعاء القوم صغير غير مميز وغر غير عاقل! وهل يؤتمن على سر النبوة طفل ابن خمس سنين أو ابن سبع! وهل يدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب! وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في يده، ويعطيه صفقة يمينه، بالأخوة والوصية والخلافة إلا وهو أهل لذلك، بالغ حد التكليف، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه! وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه، ولم يلصق بأشكاله، ولم ير مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه، وهو كأحدهم في طبقته، كبعضهم في معرفته!

وكيف لم يترع إليهم في ساعة من ساعاته، فيقال: دعاه داعي الصبا وخاطر من خواطر الدنيا، وحملته الغرة والحادثة على حضور لهوهم والدخول في حالهم، بل ما رأيناه إلا ماضياً على إسلامه، مصمماً في أمره، محققاً لقوله بفعله، قد صدق إسلامه بعفاهه وزهده، ولصق برسول الله صلى الله عليه وسلم من بين جميع من بحضرته، فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته وقد قهر شهوته، وجاذب خواطره، صابراً على ذلك نفسه، لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة، وقد ذكر هو عليه السلام في كلامه وخطبه بدء حاله، وافتتاح أمره، حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشجرة، فأقبلت تحد الأرض، فقالت قريش: ساحر خفيف السحر! فقال علي عليه السلام: يا رسول الله، أنا أول من يؤمن بك، آمنت بالله ورسوله وصدقتك فيما جئت به، وأنا أشهد أن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تصديقاً لنبوتك، وبرهاناً على صحة دعوتك، فهل يكون إيمان قط أصح من هذا الإيمان وأوثق عقدة، وأحكم مرة! ولكن حنق العثمانية وغيظهم وعصبية الجاحظ وانحرافه مما لا حيلة فيه. ثم لينظر المنصف وليدع الهوى جانباً، ليعلم نعمة الله على علي عليه السلام بالإسلام حيث أسلم على الوضع الذي أسلم عليه، فإنه لولا الألفاف التي خص بها، والهداية التي منحها، لما كان إلا

كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وسلم وأهله، فقد كان ممازجاً له كممازجته، ومخالطاً له كمخالطة كثير من أهله ورهطه، ولم يستجب منهم أحد له إلا بعد حين. ومنهم من لم يستجب له أصلاً، فإن جعفرًا عليه السلام كان ملتصقاً به، ولم يسلم حينئذ، وكان عتبة بن أبي لهب ابن عمه وصهره زوج ابنته ولم يصدقها، بل كان شديداً عليه، وكان لخديجة بنون من غيره، ولم يسلموا حينئذ، وهم ربائبه ومعه في دار واحدة. وكان أبو طالب أباه في الحقيقة وكافله وناصره، والحامي عنه، ومن لولاه لم تقم له قائمة، ومع ذلك لم يسلم في أغلب الروايات، وكان العباس عمه وصنو أبيه، وكالقرين له في الولادة والمنشأ والتربية، ولم يستجب له إلا بعد حين طويل، وكان أبو لهب عمه، وكدمه ولحمه، ولم يسلم، وكان شديداً عليه، فيكف ينسب إسلام علي عليه السلام إلى الإلف والتربية والقرابة واللحمة والتلقين والحضانة، والدار الجامعة، وطول العشرة والأنس والخلوة! وقد كان كل ذلك حاصلاً لهؤلاء أو لكثير منهم، ولم يهتد أحد منهم إذ ذاك، بل كانوا بين من جحد وكفر ومات على كفره، ومن أبطأ وتأخر، وسبق بالإسلام وجاء سكيئاً وقد فاز بالمتزلة غيره.

وهل يدل تأمل حال علي عليه السلام مع الإنصاف إلا على أنه أسلم، لأنه شاهد الأعلام، ورأى المعجزات، وشم ريح النبوة، ورأى نور الرسالة، وثبت اليقين في قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح، لا بتقليد ولا حمية، ولا رغبة ولا رهبة، إلا فيما يتعلق بأمور الآخرة.

قال الجاحظ: فلو أن علياً عليه السلام كان بالغاً حيث أسلم، لكان إسلام أبي بكر وزيد بن حارثة وخباب بن الأرت أفضل من إسلامه، لأن إسلام المقتضب الذي لم يعتد به ولم يعود، ولم يمرن عليه، أفضل من إسلام الناشئ الذي ربي فيه، ونشأ وحبب إليه، وذلك لأن صاحب التربية يبلغ حيث يبلغ وقد أسقط إلفه عنه مؤنة الروية والخطر، وكفاه علاج القلب واضطراب النفس، وزيد وخباب وأبو بكر يعانون من كلفة النظر ومؤنة التأمل ومشقة الانتقال من الدين الذي قد طال إلفهم له ما هو غير خاف. ولو كان علي حيث أسلم بالغاً مقتضياً كغيره ممن عددنا، كان إسلامهم أفضل من إسلامه، لأن من أسلم وهو يعلم أن له ظهراً كأبي طالب، وردءاً كبني هاشم، وموضعاً في بني عبد المطلب، ليس كالحليف والمولى، والتابع والعسيف، وكالرجل من عرض قريش أو لست تعلم أن قريشاً خاصة وأهل مكة عامة لم يقدرُوا على أذى النبي صلى الله عليه وسلم، ما كان أبو طالب حياً! وأيضاً فإن أولئك اجتمع عليهم مع فراق الإلف ومشقة الخواطر، وعلي عليه السلام كان بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، يشاهد الأعلام في كل وقت، ويحضر منزل الوحي، فالبراهين له أشد انكشافاً، والخواطر على قلبه أقل اعتلاجاً، وعلى قدر الكلفة والمشقة يعظم الفضل ويكثر الأجر.

قال أبو جعفر رحمه الله: ينبغي أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصل، ويقفوا على قول الجاحظ والأصم في نصرة العثمانية واجتهادهما في القصد إلى فضائل هذا الرجل، وتمجنيها، فمرة ييطان معناها، ومرة يتوصلان إلى حط قدرها، فليُنظر في كل باب اعتراض فيه، أين بلغت حيلتهما، وما صنعا في احتيالهما في قصصهما وسجعهما! أليس إذا تأملتها علمت أنها ألفاظ ملفقة بلا معنى، وأنها عليها شحى وبلاء! وإلا فما دمي أن تبلغ حيلة الحاسد ويغني كيد الكائد الشائن لمن قد حل

قدره عن النقص، وأضاءت فضائله إضاءة الشمس! وأين قول الجاحظ، من دلائل السماء، وبراهين الأنبياء، وقد علم الصغير والكبير، والعالم والجاهل، ممن بلغه ذكر علي عليه السلام، وعلم مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أن علياً عليه السلام لم يولد في دار الإسلام، ولا غذي في حجر الإيمان، وإنما استضافه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نفسه سنة القحط والمجاعة، وعمره يومئذ ثمان سنين، فمكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرائيل بالرسالة، فدعاه وهو بالغ كامل العقل إلى الإسلام، فأسلم بعد مشاهدة المعجزة، وبعد إعمال النظر والفكرة، وإن كان قد ورد في كلامه أنه صلى سبع سنين قبل الناس كلهم، وإنما يعني ما بين الثمان والخمس عشرة، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة، ولا ادعاء نبوة، وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد على ملة إبراهيم ودين الحنيفية، ويتحنت ويجانب الناس، ويعتزل ويطلب الخلوة، وينقطع في جبل حراء، وكان علي عليه السلام معه كالتابع والتلميذ، فلما بلغ الحلم، وجاءت النبي صلى الله عليه وسلم الملائكة، وبشرته بالرسالة، دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة، فكيف يقول الجاحظ إن إسلامه لم يكن مقتضياً!

وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره في الفضيلة لما كان يمرن عليه من التعبد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الدعوة، لتكون طاعة كثير من المكلفين أفضل من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمثاله من المعصومين، لأن العصمة عند أهل العدل لطف يمنع من اختصاص به من ارتكاب القبيح، فمن اختص بذلك اللطف كانت الطاعة عليه أسهل، فوجب أن يكون ثوابه أنقص من ثواب من أطاع مع تلك الألفاظ! وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقص عن إسلام غيره، وقد جاء في الخبر أنه أسلم يوم الثلاثاء، واستناب النبي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين، فمن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه، ولا تواترت أعلام النبوة على مشاهدته، ولا تطاول الوقت عليه لتخف محنته، ويسقط ثقل تكليفه، بل بان فضله، وظهر حسن اختياره لنفسه، إذ أسلم في حال بلوغه، وعاق نوازع طبعه، ولم يؤخر ذلك بعد سماعه.

وقد غمر الجاحظ في كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكوراً، ورئيساً معروفاً، يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار، ويتذاكرون الأخبار، ويشربون الخمر، وقد كان سمع دلائل النبوة وحجج الرسل، وسافر إلى البلدان، ووصلت إليه الأخبار، وعرف دعوى الكهنة وحيل السحرة، ومن كان كذلك كان انكشاف الأمور له أظهر والإسلام عليه أسهل، والخواطر على قلبه أقل اعتلاجاً، وكل ذلك عون لأبي بكر على الإسلام، ومسهل إليه سبيله، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أتيت بيت المقدس" سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه، فصدقه وبان له أمره، وخفت مؤونته لما تقدم من معرفته بالبيت، فخرج إذا إسلام أبي بكر على قول الجاحظ من معنى المقتضب. وفي ذلك رويتم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا وكان له تردد ونبوة، إلا ما كان من أبي بكر، فإنه لم يتلثم حتى هجم به اليقين إلى المعرفة والإسلام، فأين هذا وإسلام من خلي وعقله، وألجى إلى نظره، مع صغر سنه، واعتلاج الخواطر على قلبه ونشأته، في ضد ما دخل فيه، والغالب على أمثاله وأقرانه حب اللعب واللهو، فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدعوة، ولم يتأخر إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصية، فقهر شهوته، وغالب خواطره، وخرج من عادته وما كان

غذي به لصحة نظره، ولطافة فكره وغامض فهمه، فعظم استنباطه، ورجح فضله، وشرف قدر إسلامه، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب، ولا تنعم فيها بنعيم حدثاً ولا كبيراً، وحصى نفسه عن الهوى، وكسر شره حدائته بالتقوى، واشتغل بهم الدين عن نعيم الدنيا، وأشغل هم الآخرة قلبه، ووجه إليه رغبته، فإسلامه هو السبيل الذي لم يسلم عليه أحد غيره، وما سبيله في ذلك إلا كسبيل الأنبياء، ليعلم أن منزلته من النبي صلى الله عليه وسلم كمنزلة هارون من موسى، وأنه وإن لم يكن نبياً، فقد كان في سبيل الأنبياء سالكاً، ولمنهاجهم متبعاً، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام؟ فإن أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيراً جعلته أمه في سرب لم يطلع عليه أحد، فلما نشأ ودرج وعقل قال لأمه: من ربي؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبي؟ فزبرته ونهرته؟ إلى أن طلع من شق السرب، فرأى كوكباً، فقال: هذا ربي، فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال: هذا ربي، فلما أفل قال: لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغاً قال: هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين"، وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر عليه السلام، لسنا نقول إنه كان مساوياً له في الفضيلة، ولكن كان مقتدياً بطريقه على ما قال الله تعالى: "إن أولى الناس لإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين"، وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبي طالب ورداً كابي هاشم، فإنه يوجب عليه أن تكون محنة أبي بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن أبا طالب ظهره، وبني هاشم ردؤه، وحسبك جهلاً من معاند لم يستطع حط قدر علي عليه السلام إلا بحطه من قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن أحد أشد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قراباته، الأدق منهم فالأدق، كأبي لهب عمه وامرأة أبي لهب، وهي أم جميل بنت حرب بن أمية وإحدى أولاد عبد مناف، ثم ما كان من عقبة بن أبي معيط، وهو ابن عمه، وما كان من النضر بن الحارث، وهو من بني عبد الدار بن قصي، وهو ابن عمه أيضاً، وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم، وكلهم كان يطرح الأذى في طريقه، وينقل أخباره، ويرمي بالحجارة، ويرمي الكرش والفرث عليه، وكانوا يؤذون علياً عليه السلام كأذاه، ويجهلون في غمه ويستتهزون به، وما كان لأبي بكر قرابة تؤذيه كقرابة علي، ولما كان بين علي وبين النبي صلى الله عليه وسلم من الإتحاد والإلف والاتفاق، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً من سيفه، ولأنه صاحب الدار والجيش، وأمره مطاع، وقوله نافذ، فخافوا على دمائهم منه، فاتقوه، وأمسكوا عن إظهار بغضه، وأظهروا بغض علي عليه السلام وشنآنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه في الخبر الذي روي في جميع الصحاح: "لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق". وقال كثير من أعلام الصحابة - كما روي في الخبر المشهور بين المحدثين: "ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغض علي بن أبي طالب". وأين كان ظهر أبي طالب عن جعفر، وقد أزعجه الأذى عن وطنه، حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر، أيتوهم الجاحظ أن أبا طالب نصر علياً، وخذل جعفرًا!.

قال الجاحظ: ولأبي بكر فضيلة في إسلامه أنه كان قبل إسلامه كثير الصديق، عريض الجاه، ذا يسار وغنى، يعظم لماله، ويستفاد من رأيه، فخرج من عز الغنى وكثرة الصديق إلى ذل الفاقة وعجز الوحدة، وهذا غير إسلام من لا حراك به، ولا

عز له، تابع غير متبوع، لأن من أشد ما يتلى الكريم به، السب بعد التحية، والضرب بعد الهيبة، والعسر بعد اليسر. ثم كان أبو بكر دعية من دعاة الرسول، وكان يتلوه في جميع أحواله، فكان الخوف إليه أشد، والمكروه نحوه أسرع، وكان ممن تحسن مطالبته، ولا يستحي من إدراك الثأر عنده، لنباهته وبعد ذكره، والحدث الصغير يزدرى ويحتقر لصغر سنه وخمول ذكره.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما ما ذكر من كثرة المال والصديق، واستفاضة الذكر وبعد الصيت وكبر السن، فكله عليه لا له، وذلك لأنه قد علم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظ الصديق والوفاء بالذمام والتهيب لذي الثروة واحترام ذي السن العالية، وفي كل هذا ظهر شديد، وسند وثقة يعتمد عليها عند المحن، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكن من صديقه أبقى عليه، واستحيا منه، وكان ذلك سبباً لنجاته والعفو عنه، على أن علي بن أبي طالب عليه السلام إن لم يكن شهره سنه، فقد شهره نسبه وموضعه من بني هاشم، وإن لم يستفص ذكره بقاء الرجال، وكثرة الأسفار استفاض بأبي طالب، فأنتم تعلمون أنه ليس تيم في بعض الصيت كهاشم، ولا أبو قحافة كأبي طالب، وعلى حسب ذلك يعلو ذكر الفتى على ذي السن ويعد صيت الحدث على الشيخ، ومعلوم أيضاً أن علياً على أعناق المشركين أثقل، إذ كان هاشمياً، وإن كان أبوه حامي رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمانع لحوزته، وعلي هو الذي فتح على العرب باب الخلاف، واستهان بهم، بما أظهر من الإسلام والصلاة، وخالف رهطه وعشيرته، وأطاع ابن عمه فيما لم يعرف من قبل، ولا عهد له نظير، كما قال تعالى: "لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون". ثم كان بعد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومشتكى حزنه، وأنيسه في خلوته، وجليسه وأليفه في أيامه كلها، وكل هذا يوجب التحريض عليه، ومعاداة العرب له، ثم أنتم معاصر العثمانية، تثبتون لأبي بكر فضيلة بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب، ودخوله معه في الغار، فقلتم: مرتبة شريفة وحالة جليلة، إذ كان شريكه في الهجرة، وأنيسه في الوحشة، فأين هذه من صحبة علي عليه السلام له في خلوته، وحيث لا يجد أنيساً غيره، ليله ونهاره، أيام مقامه بمكة يعبد الله معه سراً، ويتكلف له الحاجة جهراً، ويخدمه كالعبد يخدم مولاه، ويشفق عليه ويحوطه، وكالولد يبر والده، ويعطف عليه. ولما سئلت عائشة من كان أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: أما من الرجال فعلي، وأما من النساء ففاطمة.

قال الجاحظ: وكان أبو بكر من المفتونين المعدين بمكة قبل الهجرة، فضربه نوفل بن خويلد المعروف بابن العدوية مرتين، حتى أدماه وشده مع طلحة بن عبيد الله في قرن، وجعلهما في الهاجرة عمير بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، ولذلك كانا يدعيان القرينين، ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقه عسيراً، وبلوغ منزلته شديداً، ولو كان يوماً واحداً لكان عظيماً، وعلي بن أبي طالب رافه وادع، ليس بمطلوب ولا طالب، وليس أنه لم يكن في طبعه الشهامة والنجدة، وفي غريزته البسالة في الشجاعة، لكنه لم يكن قد تمت أداته، ولا استكملت آلتها، ورجال الطلب وأصحاب الثأر يغمصون ذا الحداثة ويزدرون بذي الصبا والغرارة، إلى أن يلحق بالرجال، ويخرج من طبع الأطفال.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما القول فمممكن والدعوى سهلة، سيما على مثل الجاحظ، فإنه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب، وهو من دعوى الباطل غير بعيد، فمعناه نزر، وقوله لغو، ومطلبه سجع، وكلامه لعب ولهو، يقول

الشيء وخلافه، ويجسن القول وضده، ليس له من نفسه واعظ ولا لدعواه حد قائم، وإلا فكيف تجاسر على القول بأن علياً حينئذ لم يكن مطلوباً ولا طالباً؟ وقد بينا بالأخبار الصحيحة، والحديث المرفوع المسند أنه كان يوم أسلم بالغاً كاملاً منابذاً بلسانه وقلبه لمشركي قريش، ثقيلاً على قلوبهم، وهو المخصوص دون أبي بكر بالحصار في الشعب، وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الظلمات، المتجرع لغصص المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما، والمصطلي لكل مكروه والشريك لنبيه في كل أذى، قد نهض بالحمل الثقيل، وبان بالأمر الجليل، ومن الذي كان يخرج ليلاً من الشعب على هيئة السارق، ويخفي نفسه، ويضائل شخصه، حتى يأتي إلى من يبعثه إليه أبو طالب من كبراء قريش، كمطعم بن عدي وغيره، فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح، وهو على أشد خوف من أعدائهم، كأبي جهل وغيره، لو ظفروا به لأراقوا دمه. أعلي كان يفعل ذلك أيام الحصار في الشعب، أم أبو بكر؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ، فقال في خطبة له مشهورة: فتعاقدوا ألا يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانها، واضطرونا إلى جبل وعر، مؤمننا يرجو الثواب، وكافرنا يحامي عن الأصل، ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المارة والميرة، فكانوا يتوقعون الموت جوعاً، صباحاً ومساءً، لا يرون وجهاً ولا فرجاً، قد اضمحل عزمهم، وانقطع رجاؤهم، فمن الذي خلص إليه مكروه تلك الحن بعد محمد صلى الله عليه وسلم إلا علي عليه السلام وحده! وما عسى أن يقول الواصف والمطنب في هذه الفضيلة، من تقصي معانيها، وبلوغ غاية كنهها، وفضيلة الصابر عندها! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين، حتى انفرجت عنهم بقصة الصحيفة، والقصة مشهورة. وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقول في علي عليه السلام: إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافهاً لم يكن مطلوباً ولا طالباً، وهو صاحب الفراش الذي فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، ووقاه بمهجته، واحتمل السيوف ورضخ الحجارة دونه. وهل ينتهي الواصف وإن أطنب، والمادح وإن أسهب، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة، والإيضاح بمزية هذه الخصيصة!

فأما قوله: إن أبا بكر عذب بمكة، فإننا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلا بعبد أو عسيف، أو لمن لا عشيرة له تمنعه، فأنتم في أبي بكر بين أمرين: تارة تجعلونه دخيلاً ساقطاً، وهجيناً رذيلاً مستضعفاً ذليلاً، وتارة تجعلونه رئيساً متبعاً، وكبيراً مطاعاً، فاعتمدوا على أحد القولين لنكلمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم. ولو كان الفضل في الفتنة والعذاب، لكان عمار وخباب وبلال وكل معذب بمكة أفضل من أبي بكر، لأنهم كانوا من العذاب في أكثر مما كان فيه، ونزل فيهم من القرآن ما لم يترل فيه، كقوله تعالى: "والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا". قالوا: نزلت في خباب وبلال، ونزل في عمار قوله: "إلا من أكره وقلبة مطمئن بالإيمان"، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على عمار وأبيه وأمه، وهم يعذبون، يعذبهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم، فيقول: "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة، وكان بلال يقلب على الرمضاء، وهو يقول: أحد أحد! وما سمعنا لأبي بكر في شيء من ذلك ذكراً، ولقد كان لعلي عليه السلام عنده يد غراء، إن صح ما رويتموه في تعذيبه، لأنه قتل نوفل بن خويلد وعمير بن عثمان يوم بدر، ضرب نوفلاً فقطع ساقه، فقال: أذكرك الله والرحم! فقال: قد قطع الله كل رحم وصهر إلا من كان تابعاً لمحمد، ثم ضربه أخرى ففاضت نفسه، وصمد

لعمير بن عثمان التميمي، فوجده يروم الهرب، وقد ارتج عليه المسلك، فضربه على شراسيف صدره، فصار نصفه الأعلى بين رجله، وليس أن أبا بكر لم يطلب بثأره منهما، ويجهتهد! لكنه لم يقدر على أن يفعل فعل علي عليه السلام، فبان علي عليه السلام بفعله دونه.

قال الجاحظ: ولأبي بكر مراتب لا يشركه فيها علي ولا غيره، وذلك قبل الهجرة فقد علم الناس أن علياً عليه السلام إنما ظهر فضله، وانتشر صيته، وامتنح ولقي المشاق منذ يوم بدر، وأنه إنما قاتل في الزمان الذي استوفى فيه أهل الإسلام، وأهل الشرك، وطمعوا في أن يكون الحرب بينهم سجلاً، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبة للمتقين، وأبو بكر كان قبل الهجرة معذباً ومطروداً مشرداً، في الزمان الذي ليس بالإسلام وأهله نموض ولا حركة، ولذلك قال أبو بكر في خلافته: طوبى لمن مات في فأفة الإسلام! يقول: في ضعفه.

قال أبو جعفر رحمه الله: لا أشك أن الباطل خان أبا عثمان، والخطأ أقعده، والخذلان أصاره إلى الحيرة، فما علم وعرف حتى قال ما قال، فزعم أن علياً عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاق، وأنه إنما قاسى مشاق التكليف ومحن الإبتلاء منذ يوم بدر، ونسي الحصار في الشعب، وما مني به منه، وأبو بكر وادع رافه، يأكل ما يريد، ويجلس مع من يحب، مخلى سربه، طيبة نفسه، ساكناً قلبه، وعلي يقامي الغمرات، ويكابد الأهوال، ويجوع ويظمأ، ويتوقع القتل صباحاً ومساءً، لأنه كان هو المتوصل المحتال في إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرّاً، ليقيم به رمق رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني هاشم، وهم في الحصار، ولا يأمن في كل وقت مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالقتل، كأبي جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرهما، ولقد كان يجيع نفسه ويطعم رسول الله صلى الله عليه وسلم زاده، ويظمئ نفسه ويسقيه ماء، وهو كان المعلل له إذا مرض، والمؤنس له إذا استوحش، وأبو بكر بنجوة عن ذلك لا يمسه مما يمسه ألم، ولم يلحقه مما يلحقهم مشقة، ولا يعلم بشيء من أخبارهم وأحوالهم، إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل، ثلاث سنين، محرمة معاملتهم ومناكحتهم ومحالستهم، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج والتصرف في أنفسهم، فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة، ونسي هذه الخصيصة، ولا نظير لها! ولكن لا يبالي الجاحظ بعد أن يسوغ له لفظه، وتنسق له خطابته، ما ضيع من المعنى، ورجع عليه من الخطأ!.

فأما قوله: واعلموا أن العاقبة للمتقين، ففيه إشارة إلى معنى غامض قصده الجاحظ - يعني أن لا فضيلة لعلي عليه السلام في الجهاد، لأن الرسول كان أعلمه أنه منصور، وأن العاقبة له - وهذا من دسائس الجاحظ وهمزاته ولمزاته، وليس بحق ما قاله، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم أصحابه جملة أن العاقبة لهم، ولم يعلم واحداً منهم بعينه أنه لا يقتل، لا علياً ولا غيره، وإن صح أنه كان أعلمه أنه لا يقتل، فلم يعلمه أنه لا يقطع عضو من أعضائه، ولم يعلمه أنه لا يمسه ألم الجراح في جسده، ولم يعلمه أنه لا يناله الضرب الشديد. وعلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر - وهو يومئذ بمكة - أن العاقبة لهم، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك، فإن لم يكن لعلي والمجاهدين فضيلة في الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إياهم ذلك، فلا فضيلة لأبي بكر وغيره في احتمال المشاق قبل الهجرة لإعلامه إياهم بذلك،

فقد جاء في الخبر أنه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنصر، وأنه قال له: أرسلت إلى هؤلاء بالذبح، وإن الله تعالى يغنمنا أموالهم، ويملكنا ديارهم، فالقول في الموضعين متساو ومتفق.

قال الجاحظ: وإن بين المحنة في الدهر الذي صار فيه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مقرنين لأهل مكة ومشركي قريش، ومعهم أهل يثرب أصحاب النخيل والآطام والشجاعة والصبر والمواساة، والإيثار والحاماة والعدد الدثر، والفعل الجزل، وبين الدهر الذي كانوا فيه بمكة يفتنون ويشتمون، ويضربون ويشردون، ويجوعون ويعطشون، مقهورين لا حراك بهم، وأذلاء لا عز لهم، وفقراء لا مال عندهم، ومستخفين لا يمكنهم إظهار دعوتهم، لفرقاً واضحاً، ولقد كانوا في حال أحوجت لوطاً وهو نبي إلى أن قال: "لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد"، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "عجبت من أخي لوط، كيف قال: أو آوي إلى ركن شديد، وهو يأوي إلى الله تعالى!" ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومين ولا شهراً ولا شهرين، ولا عاماً ولا عامين، ولكن السنين بعد السنين. وكان أغلظ القوم وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر، لأنه أقام بمكة ما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة، وهو أوسط ما قالوا في مقام النبي صلى الله عليه وسلم.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما نرى الجاحظ احتج لكون أبي بكر أغلظهم وأشدّهم محنة، إلا بقوله: لأنه أقام بمكة مدة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم بها، وهذه الحجة لا تخص أبا بكر وحده، لأن علياً عليه السلام أقام معه هذه المدة، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخباب وغيرهم، وقد كان الواجب عليه أن يخص أبا بكر وحده بحجة تدل على أنه كان أغلظ الجماعة، وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالاحتجاج في نفسه فاسد.

ثم يقال له: ما بالك أهملت أمر مبيت علي عليه السلام على الفراش بمكة ليلة الهجرة! هل نسيته أم تناسيته! فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة التي متى امتحنها الناظر، وأجال فكره فيها، رأى تحتها فضائل متفرقة ومناقب متغايرة، وذلك أنه لما استقر الخبر عند المشركين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مجمع على الخروج من بينهم للهجرة إلى غيرهم قصدوا إلى معاجلته، وتعاهدوا على أن يبيتوه في فراشه، وأن يضربوه بأسياف كثيرة، بيد كل صاحب قبيلة من قريش سيف منها، ليضيع دمه بين الشعوب، ويتفرق بين القبائل، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلة واحدة بعينها من بطون قريش، وتحالفوا على تلك الليلة، واجتمعوا عليها، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من أمرهم، دعا أوثق الناس عنده، وأمثلهم في نفسه، وأبدلهم في ذات الإله لمهجته، وأسرعهم إجابة إلى طاعته، فقال له: إن قريشاً تحالفت على أن تبيتني هذه الليلة، فامض إلى فراشي، ونم في مضجعي، والتف في بردي الحضرمي ليروا أي لم أخرج، وإني خارج إن شاء الله. فمنعه أولاً من التحرز وإعمال الحيلة، وصده عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكائد والجهات التي يحتاط بها الناس لنفوسهم، وأجأه إلى أن يعرض نفسه لضربات السيوف الشحيذة من أيدي أرباب الحنق والغیظة، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطيعاً طيبة بها نفسه، ونام على فراشه صابراً محتسباً، واقياً له بمهجته، ينتظر القتل، ولا نعلم فوق بذل النفس درجة يلتمسها صابر، ولا يبلغها طالب: "والجود بالنفس أقصى غاية الجود" ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أنه أهل لذلك، لما أهله، ولو كان عنده نقص في صبره أو في شجاعته أو في مناصحته لابن عمه، واختير لذلك، لكان من

اختاره صلى الله عليه وسلم منقوضاً في رأيه، مضرّاً في اختياره، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام، وكلهم مجمعون على أن الرسول صلى الله عليه وسلم عمل الصواب، وأحسن في الاختيار.

ثم في ذلك - إذا تأمله المتأمل - وجوه من الفضل: منها أنه وإن كان عنده في موضع الثقة، فإنه غير مأمون عليه ألا يضبط السر فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء.

ومنها أنه وإن كان ضابطاً للسر وثقة عند من اختاره، فغير مأمون عليه الجبن عند مفاجأة المكروه، ومباشرة الأهوال، فيفر من الفراش، فيفطن لموضع الحيلة، ويطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيظفر به.

ومنها أنه وإن كان ثقةً ضابطاً للسر، شجاعاً نجداً، فلعله غير محتمل للمبيت على الفراش، لأن هذا أمر خارج عن الشجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع، بل هو أشد مشقة من المكتوف الممنوع، لأن المكتوف الممنوع يعلم من نفسه أنه لا سبيل له إلى الهرب، وهذا يجد السبيل إلى الهرب وإلى الدفع عن نفسه، ولا يهرب ولا يدافع.

ومنها أنه وإن كان ثقةً عنده، ضابطاً للسر، شجاعاً محتملاً للمبيت على الفراش، فإنه غير مأمون أن يذهب صبره عند العقوبة الواقعة، والعذاب النازل بساحته، حتى ييوح بما عنده، ويصير إلى الإقرار بما يعلمه، وهو أنه أخذ طريق كذا فيطلب فيؤخذ، فلهذا قال علماء المسلمين، إن فضيلة علي عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها، إلا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذبح، ولولا أن الأنبياء لا يفضلهم غيرهم لقننا إن محنة علي أعظم، لأنه قد روي أن إسحاق تلكاً لما أمره أن يضطجع، وبكى على نفسه، وقد كان أبوه يعلم أن عنده في ذلك وقفة، ولذلك قال له: "فانظر ماذا ترى" وحال علي عليه السلام بخلاف ذلك، لأنه ما تلكاً ولا تتعتع، ولا تغير لونه ولا اضطربت أعضاؤه، ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يشيرون عليه بالرأي المخالف لما كان أمر به، وتقدم فيه، فيتركه ويعمل بما أشاروا به، كما جرى يوم الخندق في مصانعة الأحزاب بثلاث تمر المدينة، فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه، وهذه كانت قاعدته معهم، وعادته بينهم، وقد كان لعلي عليه السلام أن يعتل بعلّة، وأن يقف ويقول: يا رسول الله، أكون معك أحميك من العدو، وأذب بسيفي عنك، فلست مستغنياً في خروجك عن مثلي، ونجعل عبداً من عبيدنا في فراشك، قائماً مقامك، يتوهم القوم - برؤيته نائماً في بردك - أنك لم تخرج، ولم تفارق مركزك، فلم يقل ذلك، ولا تجس ولا توقف، ولا تلعنم، وذلك لعلم كل واحد منهما عليهما السلام أن أحداً لا يصبر على ثقل هذه المحنة، ولا يتورط هذه الهلكة إلا من خصه الله تعالى بالصبر على مشقتها، والفوز بفضيلتها، وله من جنس ذلك أفعال كثيرة، كيوم دعا عمرو بن عبد ود المسلمين إلى المبارزة، فأحجم الناس كلهم عنه، لما علموا من بأسه وشدته، ثم كرر النداء، فقام علي عليه السلام، فقال: أنا أبرز إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه عمرو! قال: نعم، وأنا علي! فأمره بالخروج إليه، فلما خرج قال صلى الله عليه وسلم: "برز الإيمان كله إلى الشرك كله"، وكيوم أحد حيث حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبطال قريش وهم يقصدون قتله، فقتلهم دونه، حتى قال جبرائيل عليه السلام: "يا محمد إن هذه هي المواساة"، فقال "إنه مني وأنا منه"، فقال جبرائيل: "وأنا منكما". ولو عددنا أيامه ومقاماته التي شرى فيها نفسه لله تعالى لأطلنا وأسهبنا.

قال الجاحظ: فإن احتج محتج علي عليه السلام بالمبيت على الفراش، فبين الغار والفراش فرق واضح، لأن الغار وصحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم قد نطق به القرآن، فصار كالصلاة والزكاة وغيرهما مما نطق به الكتاب، وأمر علي عليه السلام ونومه على الفراش، وإن كان ثابتاً صحيحاً، إلا أنه لم يذكر في القرآن، وإنما جاء مجيء الروايات والسير، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا فرق غير مؤثر، لأنه قد ثبت بالتواتر حديث الفراش، فلا فرق بينه وبين ما ذكر في نص الكتاب، ولا يحدده إلا مجنون أو غير مخالط لأهل الملة، أرأيت كون الصلوات خمساً، وكون زكاة الذهب ربع العشر، وكون خروج الريح ناقضاً للطهارة، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتر حكمه، هل هو مخالف لما نص في الكتاب عليه من الأحكام! هذا مما لا يقوله رشيد ولا عاقل، على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي بكر في الكتاب، وإنما قال: "إذ يقول لصاحبه"، وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد في السيرة، وقد قال أهل التفسير: إن قوله تعالى: "ويعمر الله والله خير الماكرين"، كناية عن علي عليه السلام، لأنه مكر بهم، وأول الآية: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"، أنزلت في ليلة الهجرة، ومكرهم كان توزيع السيوف على بطون قريش، ومكر الله تعالى هو منام علي عليه السلام على الفراش، فلا فرق بين الموضعين في أنهما مذكوران كناية لا تصريحاً. وقد روى المفسرون كلهم أن قول الله تعالى: "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله"، أنزلت في علي عليه السلام ليلة المبيت على الفراش، فهذه مثل قوله تعالى: "إذ يقول لصاحبه"، لا فرق بينهما.

قال الجاحظ: وفرق آخر، وهو أنه لو كان مبيت علي عليه السلام على الفراش، جاء مجيء كون أبي بكر في الغار، لم يكن له في ذلك كبير طاعة، لأن الناقلين نقلوا أنه عليه السلام قال له: "ثم فلن يخلص إليك شيء تكرهه"، ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في صحبته إياه وكونه معه في الغار مثل ذلك، ولا قال له: أنفق وأعتق، فإنك لن تفتقر، ولن يصل إليك مكروه.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا هو الكذب الصراح، والتحريف والإدخال في الرواية ما ليس منها، والمعروف المنقول أنه عليه السلام قال له: اذهب فاضطجع في مضجعي، وتغش ببردي الحضرمي، فإن القوم سيفقدوني، ولا يشهدون مضجعي، فلعلهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا، فإذا أصبحت فاغد في أداء أمانتي، ولم ينقل ما ذكره الجاحظ، وإنما ولده أبو بكر الأصم، وأخذه الجاحظ، ولا أصل له، ولو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه، وقد وقع الاتفاق على أنه ضرب ورمي بالحجارة قبل أن يعلموا من هو حتى تصور، وأنهم قالوا له: رأينا تصورك، فإننا كنا نرمي محمداً ولا يتصور، ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتل، فهب أنه أمن القتل، كيف يأمن من الضرب والهوان، ومن أن ينقطع بعض أعضائه، وبأن سلمت نفسه! أليس الله تعالى قال لنبيه: "بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس" ومع ذلك فقد كسرت رباعيته وشج وجهه، وأدميت ساقه، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة، وكذلك المكروه الذي أو من علي عليه السلام منه - وإن كان صح ذلك في الحديث - إنما هو مكروه القتل.

ثم يقال له: وأبو بكر لا فضيلة له أيضاً في كونه في الغار، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "لا تحزن إن الله معنا" ومن يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كل سوء، فكيف قلت: ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في الغار مثل ذلك! فكل ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عما أوردته، فنقول له: هذا ينقلب عليك في النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى وعده بظهور دينه، وعاقبة أمره فيجب على قولك ألا يكون مثاباً عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه، ولا ما يصيبه من الأذى إذ كان قد أيقن بالسلامة والفتح في عدته.

قال الجاحظ: ومن جحد كون أبي بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر، لأنه جحد نص الكتاب، ثم انظر إلى قوله تعالى: "إن الله معنا" من الفضيلة لأبي بكر، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وسلم في كون الله تعالى معه وإنزال السكينة، قال كثير من الناس: إنه في الآية مخصوص بأبي بكر، لأن كان محتاجاً إلى السكينة لما تداخله من رقة الطبع البشري، والنبي صلى الله عليه وسلم كان غير محتاج إليها، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى، فلا معنى لترول السكينة عليه، وهذه فضيلة ثالثة لأبي بكر.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إن أبا عثمان يجر على نفسه ما لا طاقة له به من مطاعن الشيعة، ولقد كان في غنية عن التعلق بما تعلق به، لأن الشيعة ترعم أن هذه الآية، بأن تكون طعناً وعباً على أبي بكر، أولى من أن تكون فضيلة ومنقبة له، لأنه لما قال له: "لا تحزن" دل على أنه قد كان حزن وقنط وأشفق على نفسه، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين، ولا يجوز أن يكون حزنه طاعة، لأن الله تعالى لا ينهى عن الطاعة، فلو لم يكن ذنباً لم ينه عنه، وقوله: "إن الله معنا" أي إن الله عالم بحالنا وما نضمه من اليقين أو الشك، كما يقول الرجل لصاحبه: لا تضمرن سوءاً ولا تنوين قبيحاً، فإن الله تعالى يعلم ما نسرّه وما نعلنه، وهذا مثل قوله تعالى: "ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا"، أي هو عالم بهم، وأما السكينة فكيف يقول: إنها ليست راجعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبعدها قوله: "وأيدته بجنود لم تروها"، أترى المؤيد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم!. وقوله: إنه مستغن عنها، ليس بصحيح ولا يستغني أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأيدته وتثبيت قلبه، وقد قال الله تعالى في قصة حنين: "وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكنته على رسوله".

وأما الصحبة فلا تدل إلا على المرافقة والاصطحاب لا غير، وقد يكون حيث لا إيمان، كما قال تعالى: "قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك"، ونحن وإن كنا نعتقد إخلاص أبي بكر وإيمانه الصحيح السليم وفضيلته التامة، إلا أنا لا نحتج له بمثل ما احتج به الجاحظ من الحجج الواهية، ولا نتعلق بما يجر علينا دواهي الشيعة ومطاعنها. قال الجاحظ: وإن كان المبيت على الفراش فضيلة، فأين هي من فضائل أبي بكر أيام مكة، من عتق المعذنين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين، مع فرق ما بين الطاعتين، لأن طاعة الشاب الغرير والحدث الصغير الذي في عز صاحبه عزه، ليست كطاعة الحليم الكبير الذي لا يرجع تسويد صاحبه إلى رهطه وعشيرته.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما كثرة المستجيبين، فالفضل فيها راجع إلى المحيب لا إلى المحاب، على أنا قد علمنا أن من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممن استجاب لنوح عليه السلام، وثواب نوح أكثر، لصبره على الأعداء، ومقاساة

خلافهم وعنتهم. وأما إنفاق المال، فأين محنة الغني من محنة الفقير! وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غني، إن جاع أكل، وإن أعيا ركب، وإن عري لبس، وقد وثق ببساره واستغنى بماله، واستعان على نوائب الدنيا بثروته، ممن لا يجد قوت يومه، وإن وجد لم يستأثر به، فكان الفقر شعاره، وفي ذلك قيل: الفقر شعار المؤمن. وقال الله تعالى لموسى: "يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين"، وفي الحديث: "إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام"، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم احشني في زمرة الفقراء"، ولذلك أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم فقيراً، وكان بالفقر سعيداً، فقاسى محنة الفقر ومكابدة الجوع، حتى شد الحجر على بطنه، وحسبك بالفقر فضيلة في دين الله لمن صبر عليه، فإنك لا تجد صاحب الدنيا يتمناه، لأنه مناف لحال الدنيا وأهلها، وإنما هو شعار أهل الآخرة. وأما طاعة علي عليه السلام، وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأن في عز محمد عزه وعز رهطه، بخلاف طاعة أبي بكر، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك، وجهاد عبيدة بن الحارث، وهجرة جعفر إلى الحبشة، بل لعل محاماة المهاجرين من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لأن في دولته دولتهم، وفي نصرته استجداد ملك لهم، وهذا يجر إلى الإلحاد، ويفتح باب الزندقة، ويفضي إلى الطعن في الإسلام والنبوة. قال الجاحظ: وعلى أنا لو نزلنا إلى ما يريدونه، جعلنا الفراش كالغار، وخلصت فضائل أبي بكر في غير ذلك عن معارض.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: قد بينا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الصحبة في الغار، بما هو واضح لمن أنصف، ونزيد هاهنا تأكيداً بما لم نذكره فيما تقدم، فنقول: إن فضيلة المبيت على الفراش على الصحبة في الغار لوجهين: أحدهما: أن علياً عليه السلام قد كان أنس بالنبي صلى الله عليه وسلم وحصل له بمصاحبته قديماً أنس عظيم، وإلف شديد، فلما فارقه عدم ذلك الأنس، وحصل به أبو بكر، فكان ما يجده علي عليه السلام من الوحشة وألم الفرقة موجباً لزيادة ثوابه، لأن الثواب على قدر المشقة.

وثانيهما: أن أبا بكر كان يؤثر الخروج من مكة، وقد كان خرج من قبل فرداً، فازداد كراهية للمقام، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وافق ذلك هوى قلبه، ومحبوب نفسه، فلم يكن له من الفضيلة ما يوازي فضيلة من احتمل المشقة العظيمة، وعرض نفسه لوقع السيوف، ورأسه لرضخ الحجارة، لأن على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثواب.

قال الجاحظ: ثم الذي لقي أبو بكر في مسجده الذي بناه على بابه في بني جمح، فقد كان بني مسجداً يصلي فيه، ويدعو الناس إلى الإسلام، وكان له صوت رقيق، ووجه عتيق، وكان إذا قرأ بكى، فيقف عليه المارة من الرجال والنساء والصبيان والعبيد، فلما أودى في الله، ومنع من ذلك المسجد، استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له، فأقبل يريد المدينة، فتلقاه الكنان، فعقد له حواراً، وقال: والله لا أدع مثلك يخرج من مكة، فرجع إليها وعاد لصنيعه في المسجد، فمشى قريش إلى جاره الكنان، وأجلبوا عليه، فقال له: دع المسجد وادخل بيتك، واصنع فيه ما بدا لك.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كيف كانت بنو جمح تؤذي عثمان بن مظعون وتضربه، وهو فيهم ذو سطوة وقدر،

وتترك أبا بكر يني مسجداً يفعل فيه ما ذكرتم، وأنتم الذين رويتم عن ابن مسعود أنه قال: "ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب"، والذي تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر، فكيف هذا!.

وأما ما ذكرتم من رقة صوته وعناق وجهه، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدي وغيره أن عائشة رأت رجلاً من العرب خفيف العارضين، معروق الخدين، غائر العينين، أجناً لا يمسك إزاره، فقالت: ما رأيت أشبه بأبي بكر من هذا؟ فلا نراها دلت على شيء من الجمال في صفته!.

قال الجاحظ: وحيث رد أبو بكر جوار الكنان، وقال: لا أريد جاراً سوى الله، لقي من الأذى والذل والاستخفاف والضرب ما بلغكم، وهذا موجود في جميع السير، وكان آخر ما لقي هو وأهله في أمر الغار، وقد طلبته قريش وجعلت فيه مائة بعير، كما جعلت في النبي صلى الله عليه وسلم، فلقي أبو جهل أسماء بنت أبي بكر، فسألها فكتمتها، فلطمها حتى رمت قرطاً كان في أذنها.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا الكلام وهجر السكران سواء، في تقارب المخرج، واضطراب المعنى، وذلك أن قريشاً لم تقدر على أذى النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب حي يمنعه، فلما مات طلبته لتقتله، فخرج تارَةً إلى بني عامر، وتارَةً إلى ثقيف، وتارَةً إلى بني شيبان، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكة إلا مستتراً، حتى أجاره مطعم بن عدي، ثم خرج إلى المدينة، فبذلت فيه مائة بعير لشدة حنقها عليه حين فاتها، فلم تقدر عليه، فما بالها بذلت في أبي بكر مائة بعير أخرى، وقد كان رد الجوار، وبقي بينهم فرداً لا ناصر له ولا دافع عنه، يصنعون به ما يريدون! إما أن يكونوا أجهل البرية كلها أو يكون العثمانية أكذب جيل في الأرض وأوقعه وجهاً! فهذا مما لم يذكر في سيرة ولا روي في أثر، ولا سمع به بشر، ولا سبق الجاحظ به أحداً!.

قال الجاحظ: ثم الذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه، حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن، لأنه ساعة أسلم دعا إلى الله وإلى رسوله.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما أعجب هذا القول، إذ تدعي العثمانية لأبي بكر الرفق في الدعاء وحسن الاحتجاج، وقد أسلم ومعه في منزله ابنه عبد الرحمن، فما قدر أن يدخله في الإسلام طوعاً برفقه ولطف احتجاجه، ولا كرهاً بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه عليه، ولا كان لأبي بكر عند ابنه عبد الرحمن من القدر ما يطيعه فيما يأمره به، ويدعوه إليه، كما روي أن أبا طالب فقد النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلبان النبي صلى الله عليه وسلم، فوجده قائماً في بعض شعاب مكة يصلي، وعلي عليه السلام معه عن يمينه، فلما رآهما أبو طالب، قال لجعفر: تقدم وصل جناح ابن عمك، فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وسلم، فلما صاروا ثلاثة تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأخر الأخوان، فبكى أبو طالب، وقال:

عند ملم الخطوب والنوب

أخي لأمي من بينهم وأبي

يخذه من بني ذو حسب

إن علياً وجعفرأ تقتي

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما

والله لا أخذل النبي ولا

فتذكر الرواة أن جعفرًا أسلم منذ ذلك اليوم، لأن أباه أمره بذلك وأطاع أمره، وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن في الإسلام حتى أقام بمكة على كفره ثلاث عشرة سنة، وخرج يوم أحد في عسكر المشركين ينادي: أنا عبد الرحمن بن عتيق، هل من مبارز؟ ثم مكث بعد ذلك على كفره، حتى أسلم عام الفتح، وهو اليوم الذي دخلت فيه قريش في الإسلام طوعاً وكرهاً، ولم يجد أحد منها إلى ترك ذلك سبيلاً! وأين كان رفق أبي بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبي قحافة وهما في دار واحدة! هلا رفق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم! وقد علمتم أنه بقي على الكفر إلى يوم الفتح، فأحضره ابنه عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو شيخ كبير رأسه كالثغامة، فنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، وقال: غيروا هذا، فخصبوه، ثم جاؤوا به

مرة أخرى، فأسلم. وكان أبو قحافة فقيراً مدقعاً سيء الحال، وأبو بكر عندهم مثيراً فائض المال، فلم يمكنه استمالاته إلى الإسلام بالنفقة والإحسان، وقد كانت امرأة أبي بكر أم عبد الله ابنه - واسمها ثملة بنت عبد العزى بن أسعد بن عبد بن ود العامرية - لم تسلم، وأقامت على شركها بمكة، وهاجر أبو بكر وهي كافرة، فلما نزل قوله تعالى: "ولا تمسكوا بعصم الكوافر"، فطلقها أبو بكر، فمن عجز عن ابنه وأبيه وامراته فهو عن غيرهم من الغرماء أعجز، ومن لم يقبل منه أبوه وابنهم وامراته لا يرفق واحتجاج، ولا خوفاً من قطع النفقة عنهم، وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقل قبولاً منه، وأكثر خلافاً عليه! قال الجاحظ: وقالت أسماء بنت أبي بكر: ما عرفت أبي إلا وهو يدين بالدين، ولقد رجع إلينا يوم أسلم، فدعانا إلى الإسلام، فما رمنا حتى أسلمنا، وأسلم أكثر جلسائه، ولذلك قالوا: من أسلم بدعاء أبي بكر أكثر ممن أسلم بالسيف، ولم يذهبوا في ذلك إلى العدد، بل عنوا الكثرة في القدر، لأنه أسلم على يديه خمسة من أهل الشورى، كلهم يصلح للخلافة، وهم أكفاء علي عليه السلام، ومنازعوه الرياسة والإمامة، فهؤلاء أكثر من جميع الناس.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أخبرونا من هذا الذي أسلم ذلك اليوم من أهل بيت أبي بكر؟ إذا كانت امرأته لم تسلم وابنهم عبد الرحمن لم يسلم، وأبو قحافة، وأخته أم فروة لم تسلم، وعائشة لم تكن قد ولدت في ذلك الوقت، لأنها ولدت بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنين، ومحمد بن أبي بكر ولد بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة، لأنه ولد في حجة الوداع، وأسماء بنت أبي بكر التي قد روى الجاحظ هذا الخبر عنها كانت يوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربع سنين - وفي رواية من يقول: بنت سنتين - فمن الذي أسلم من أهل بيته يوم أسلم! نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة! وكيف أسلم سعد والزبير وعبد الرحمن بدعاء أبي بكر وليسوا من رهطه ولا من أترابه ولا من جلسائه، ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدمة، ولا أنس وكيد! وكيف ترك أبو بكر عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، لم يدخلهما في الإسلام برفقه وحسن دعائه، وقد زعمتم أنهما كانا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه! وما باله لم يدخل جبير بن مطعم في الإسلام، وقد ذكرتم أنه أدبه وخرجه، ومنه أخذ جبير العلم بأنساب قريش ومآثرها! فكيف عجز عن هؤلاء الذين عددناهم، وهم منه بالحال التي وصفنا، ودعا من لم يكن بينه وبينه أنس ولا معرفة، إلا معرفة عيان! وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب، وقد كان شكله، وأقرب الناس شبهاً به في أغلب أخلاقه! ولئن رجعتكم إلى الإنصاف لتعلمن أن هؤلاء لم يكن إسلامهم إلا بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، وعلى

يديه أسلموا، ولو فكرتم في حسن التأتي في الدعاء، ليصحن لأبي طالب في ذلك على شركه أضعاف ما ذكرتموه لأبي بكر، لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعلي عليه السلام: يا بني الزمه، فإنه لن يدعوك إلا إلى خير، وقال لجعفر: صل جناح ابن عمك، فأسلم بقوله، ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نصره رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة من بني مخزوم، وبني سهم، وبني جمح، ولأجله صبر بنو هاشم على الحصار في الشعب، وبدعائه وإقباله على محمد صلى الله عليه وسلم أسلمت امرأته فاطمة بنت أسد، فهو أحسن رفقاء، وأيمن نقيباً من أبي بكر وغيره، وإنما منعه عن الإسلام أن ثبت أنه لم يسلم إلا تقيّة، وأبو بكر لم يكن له إلا ابن واحد، وهو عبد الرحمن، فلم يمكنه أن يدخله في الإسلام، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلة الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه أنزل: "والذي قال لوالديه أف لكما أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين"، وإنما يعرف حسن رفق الرجل وتأتيه بأن يصلح أولاً أمر بيته وأهله، ثم يدعو الأقرب فالأقرب، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث كان أول من دعا زوجته خديجة، ثم مكفوله وابن عمه علياً عليه السلام، ثم مولاه زيدا، ثم أم أيمن خادمتها، فهل رأيتم أحداً ممن كان يأوي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسارع! وهل التاث عليه أحد من هؤلاء! فهكذا يكون حسن التأتي والرفق في الدعاء! هذا ورسول الله مقل، وهو من جملة عيال خديجة حين بعثه الله تعالى، وأبو بكر عندكم كان موسراً، وكان أبوه مقترراً، وكذلك ابنه وامرأته أم عبد الله، والموسر في فطرة العقول أولى أن يتبع من المقتر، وإنما حسن التأتي والرفق في الدعاء ما صنعه مصعب بن عمير لسعد بن معاذ لما دعا، وما صنع سعد بن معاذ ببني عبد الأشهل لما دعاهم وما صنع بريدة بن الحصيب بأسلم لما دعاهم، قالوا: أسلم بدعائه ثمانون بيتاً من قومه، وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سعد في يوم واحد، وأما من لم يسلم ابنه ولا امرأته، ولا أبوه ولا أخته بدعائه فهيهات أن يوصف ويذكر بالرفق في الدعاء وحسن التأتي والأناة!.

قال الجاحظ: ثم أعتق أبو بكر بعد ذلك جماعة من المعذيين في الله، وهم ست رقاب، منهم بلال، وعامر بن فهيرة، وزنيرة النهديّة، وابنتها. ومر بجارية يعذبها عمر بن الخطاب فابتاعها منه، وأعتقها، وأعتق أبا عيسى فأنزل الله فيه: "فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى..."، إلى آخر السورة.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما بلال وعامر بن فهيرة، فإنما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، روى ذلك الواقدي وابن إسحاق وغيرهما، وأما باقي مواليتهم الأربعة، فإن ساعناكم في دعواكم لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال لشدة بغض مواليتهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها، فأى فخر في هذا! وأما الآية فإن ابن عباس قال في تفسيرها: "فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى"، أي لأن يعود.

وقال غيره: نزلت في مصعب بن عمير.

قال الجاحظ: وقد علمتم ما صنع أبو بكر في ماله، وكان ماله أربعين ألف درهم، فأنفقه في نوائب الإسلام وحقوقه، ولم يكن خفيف الطهر، قليل العيال والنسل، فيكون فاقد جميع اليسارين، بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم، ويعول والديه وما ولدا، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك عنده مشهوراً، فيخاف العار في ترك مواساته،

فكان إنفاقه على الوجه الذي لا نجد في غاية الفضل مثله، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما نفعني مال كما نفعني مال أبي بكر".

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أخبرونا على أي نوائب الإسلام أنفق هذا المال، وفي أي وجه وضعه؟ فإنه ليس بجائز أن يخفى ذلك ويدرس حتى يفوت حفظه، وينسى ذكره، وأنتم فلم تقفوا على شيء أكثر من عتقه بزعمكم ست رقاب لعلها لا يبلغ ثمنها في ذلك العصر مائة درهم. وكيف يدعى له الإنفاق الجليل، وقد باع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيرين عند خروجه إلى يثرب، وأخذ منه الثمن في مثل تلك الحال، وروى ذلك جميع المحدثين، وقد رويتم أيضاً أنه كان حيث كان بالمدينة غنياً موسراً، ورويت عن عائشة أنها قالت: هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم، وقتلتم إن الله تعالى أنزل فيه: "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى..."، قلت: هي في أبي بكر ومسطح بن أثاثه، فأين الفقر الذي زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة! ورويت أن الله تعالى في سمائه ملائكة قد تخللوا بالعباءة. وأن النبي صلى الله عليه وسلم رآهم ليلة الإسراء، فسأل جبرائيل عنهم فقال: هؤلاء ملائكة تأشوا بأبي بكر بن أبي قحافة صديقك في الأرض، فإنه سينفق عليك ماله، حتى يخلل عباءة في عنقه، وأنتم أيضاً رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى، فقال: "يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم..."، الآية لم يعمل بها إلا علي بن أبي طالب وحده، مع إقراركم بفقره وقلة ذات يده، وأبو بكر في الحال التي ذكرنا من السعة أمسك عن مناجاته، فعاتب الله المؤمنين في ذلك، فقال: "أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم..."، فجعله سبحانه ذنباً يتوب عليهم منه، وهو إمساكهم عن تقديم الصدقة، فكيف سحت نفسه بإنفاق أربعين ألفاً، وأمسك عن مناجاة الرسول، وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين!. وأما ما ذكر من كثرة عياله ونفقته عليهم، فليس في ذلك دليل على تفضيله، لأن نفقته على عياله واجبة، مع أن أرباب السيرة ذكروا أنه لم يكن ينفق على أبيه شيئاً، وأنه كان أجيراً لابن جدعان على مائدته يطرد عنها الذبان.

قال الجاحظ: وقد تعلمون ما كان يلقي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ببطن مكة من المشركين، وحسن صنيع كثير منهم، كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسه ففلق هامته، وأبو جهل يومئذ سيد البطحاء ورئيس الكفر، وأمنع أهل مكة، وقد عرفتم أن الزبير سل سيفه، واستقبل له المشركين، لما أرجف أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم: لا يعبد الله سراً بعد اليوم، وأن سعداً ضرب بعض المشركين بلحي جمل، فأراق دمه، فكل هذه الفضائل لم يكن لعلي بن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل، وقد قال الله تعالى: "لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا"، فإذا كان الله تعالى قد فضل من أنفق قبل الفتح، لأنه لا هجرة بعد الفتح، على من أنفق بعد الفتح، فما ظنكم بمن أنفق من قبل الهجرة، ومن لدن مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة وإلى بعد الهجرة.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم، ولسنا كالإمامية الذين يحملهم الهوى على جحد الأمور المعلومة، ولكننا ننكر تفضيل أحد من الصحابة على علي بن أبي طالب، ولسنا ننكر غير ذلك، وننكر تعصب

الجاحظ للعثمانية، وقصده إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والإبطال. وأما حمزة فهو عندنا ذو فضل عظيم، ومقام جليل، وهو سيد الشهداء الذين استشهدوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما فضل عمر فغير منكر، وكذلك الزبير وسعد، وليس فيما ذكر ما يقتضي كون علي عليه السلام مفضولاً لهم أو لغيرهم، إلا قوله: "وكل هذه الفضائل لم يكن لعل علي عليه السلام فيها ناقة ولا جمل"، فإن هذا من التعصب البارد، والحيث الفاحش، وقد قدمنا من آثار علي عليه السلام قبل الهجرة وما له إذ ذاك من المناقب والخصائص، ما هو أفضل وأعظم وأشرف من جميع ما ذكر هؤلاء، على أن أرباب السيرة يقولون: إن الشجة التي شجها سعد، وإن السيف الذي سله الزبير، هو الذي جلب الحصار في الشعب على النبي صلى الله عليه وسلم وبني هاشم، وهو الذي سير جعفر وأصحابه إلى الحبشة، وسل السيف في الوقت الذي لم يؤمر المسلمون فيه بسل السيف غير جائز، قال تعالى: "ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله"، فبين أن التكليف له أوقات، فمنها وقت لا يصلح فيه سل السيف، ومنها وقت يصلح فيه ويجب، فأما قوله تعالى: "لا يستوي منكم من أنفق"، فقد ذكرنا ما عندنا من دعواهم لأي بكر إنفاق المال. وأيضاً فإن الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفرداً، وإنما قرن به القتال، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحرب، فلا تشمله الآية، وكان علي عليه السلام صاحب قتال وإنفاق قبل الفتح، أما قتاله فمعلوم بالضرورة، وأما إنفاقه فقد كان على حسب حاله وفقره، وهو الذي أطعم الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وأنزلت فيه وفي زوجته وابنيه سورة كاملة من القرآن، وهو الذي ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهماً سرا ودرهماً علانية ليلاً، ثم أخرج منها في النهار درهماً سرا ودرهماً علانية، فأنزل فيه قوله تعالى: "الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية"، وهو الذي قدم بين يدي نجواه صدقة دون المسلمين كافة، وهو الذي تصدق بخاتمه وهو راعع، فأنزل الله فيه: "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راععون".

قال الجاحظ: والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علي عليه السلام قتله الأقران، وخوضه الحرب، وليس له في ذلك كبير فضيلة لأن كثرة القتل والمشي بالسيف إلى الأقران، لو كان من أشد الحن وأعظم الفضائل، وكان دليلاً على الرياسة والتقدم، لوجب أن يكون للزبير وأبي دحانة ومحمد بن مسلمة، وابن عفراء، والبراء بن مالك من الفضل ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ولم يحضر الحرب يوم بدر، ولا خالط الصفوف، وإنما كان معتزلاً عنهم في العريش ومعه أبو بكر، وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران، ويجندل الأبطال، وفوقه من العسكر من لا يقتل ولا يبارز، وهو الرئيس أو ذو الرأي، والمستشير في الحرب، لأن للرؤساء من الاكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة، وعليه مدار الأمور، وبه يستبصر المقاتل، ويستنصر، وباسمه ينهزم العدو، ولو لم يكن له إلا أن الجيش لو ثبت وفر هو لم يغن ثبوت الجيش كله، وكانت الدبرة عليه، ولو ضيع القوم جميعاً وحفظ هو لانتصر وكانت الدولة له، ولهذا لا يضاف النصر والهزيمة إلا إليه، ففضل أبي بكر بمقامه في العريش مع رسول الله يوم بدر أعظم من جهاد علي عليه السلام ذلك اليوم، وقتله أبطال قريش.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: لقد أعطي أبو عثمان مقولاً، وحرّم معقولاً، إن كان يقول هذا على اعتقاد وجد، ولم

يذهب به مذهب اللعب والهزل، أو على طريق التفاسيح والتشادق وإظهار القوة، والسلطة وذلاقة اللسان وحدة الخاطر والقوة على جدال الخصوم، ألم يعلم أبو عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أشجع البشر، وأنه خاض الحروب، وثبت في المواقف التي طاشت فيها الأبواب، وبلغت القلوب الحناجر، فمنها يوم أحد، ووقوفه بعد أن فر المسلمون بأجمعهم، ولم يبق معه إلا أربعة: علي، والزبير، وطلحة، وأبو دجانة، فقاتل ورمى بالنبل حتى فنيته نبله، وانكسرت سية قوسه، وانقطع وتره، فأمر عكاشة بن محصن أن يوترها، فقال: يا رسول الله: لا يبلغ الوتر، فقال: أوتر ما بلغ. قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق لقد أوترت حتى بلغ، وطويت منه شبراً على سية القوس، ثم أخذها فما زال يرميهم، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطمت. وبارز أبي بن خلف، فقال له أصحابه: إن شئت عطف عليه بعضنا! فأبى، وتناول الحرية من الحارث بن الصمة ثم انتقض بأصحابه، كما ينتقض البعير، قالوا: فتطايروا عنه تطاير الشعاري، فطعنه بالحرية، فجعل يخور كما يخور الثور، ولو لم يدل على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى: "إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم"، فكانه عليه السلام في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون، هاربين، دليل على أنه ثبت ولم يفر، وثبت يوم حنين في تسعة من أهله ورهطه الأذنين، وقد فر المسلمون كلهم والنفر التسعة محدقون به، العباس أخذ بحكمة بغلته، وعلي بين يديه مصلت سيفه، والباقون حول بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنة ويسرة، وقد انهزم المهاجرون والأنصار، وكلما فروا أقدم هو صلى الله عليه وسلم وصمم مستقديماً، يلقي السيوف والنبال بنحره وصدره، ثم أخذ كفاً من البطحاء، وحصب المشركين، وقال: شأته الوجوه! والخبر المشهور عن علي عليه السلام، وهو أشجع البشر: "كنا إذا اشتد البأس، وحمي الوطيس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ولذنا به"، فكيف يقول الجاحظ: إنه ما خاض الحرب، ولا خالط الصفوف! وأي فرية أعظم من فرية من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإحجام واعتزال الحرب! ثم أي مناسبة بين أبي بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى ليقبسه وينسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الجيش والدعوة، ورئيس الإسلام والملة، والملاحظ بين أصحابه وأعدائه بالسيادة، وإليه الإيماء والإشارة، وهو الذي أحق قريشاً والعرب، وورى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم، وعيب دينهم وتضليل أسلافهم، ثم وترهم فيما بعد بقتل رؤسائهم وأكابرهم! وحق لمثله إذا تنحى عن الحرب واعتزلها أن ينتحي ويعتزل، لأن ذلك شأن الملوك والرؤساء، إذا كان الجيش منوطاً بهم وبيقاتهم، فمتى هلك الملك هلك الجيش، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكه، وإن عطب جيشه فإنه يستجد جيشاً آخر، ولذلك ضهى الحكماء أن يياشر الملك الحرب بنفسه، وخطأوا الإسكندر لما بارز قوسراً ملك الهند، ونسبوه إلى مجانبة الحكمة ومفارقة الصواب والحزم، فليقل لنا الجاحظ: أي مدخل لأي بكر في هذا المعنى؟ ومن الذي كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل؟ وهل هو إلا واحد من عرض المهاجرين، حكمه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وغيرهما! بل كان عثمان أكثر منه صيتاً، وأشرف منه مركباً، والعيون إليه أطمح، والعدو إليه أحق وأكلب، ولو قتل أبو بكر في بعض تلك المعارك، هل كان يؤثر قتله في الإسلام ضعفاً، أو يحدث فيه وهناً! أو يخاف على الملة لو قتل أبو بكر في بعض تلك الحروب أن تدرس وتعفى آثارها، وينطمس منارها! ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجانبة الحروب واعتزالها، نعوذ بالله من الخذلان! وقد علم العقلاء كلهم ممن له بالسير معرفة، وبالأثار والأخبار ممارسة، حال

حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت، وحاله عليه السلام فيها كيف كان، ووقوفه حيث وقف، وحربه حيث حارب، وجلسه في العريش يوم جلس، وإن وقوفه صلى الله عليه وسلم وقوف رياسة وتديبر، ووقوف ظهر وسند، يتعرف أمور أصحابه، ويحرس صغيرهم وكبيرهم بوقوفه من ورائهم، وتخلفه عن التقدم في أوائلهم، لأنهم متى علموا أنه في أخراهم اطمأنت

قلوبهم، ولم تتعلق بأمره نفوسهم، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوهم، ولا يكون لهم فئة يلجأون إليها، وظهر يرجعون إليه، ويعلمون أنه متى كان خلفهم تفقد أمورهم، وعلم مواقفهم، وآوى كل إنسان مكانه في الحماية والنكاية وعند المنازلة في الكر والجملة، فكان وقوفه حيث وقف أصلح لأمرهم، وأحمى وأحرس لبيضتهم، ولأنه المطلوب من بينهم، إذ هو مدبر أمورهم، ووالي جماعتهم، ألا ترون أن موقف صاحب اللواء موقف شريف، وأن صلاح الحرب في وقوفه، وأن فضيلته في ترك التقدم في أكثر حالاته، فللرئيس حالات: الأولى: حالة يتخلف ويقف آخرًا ليكون سنداً وقوة، وردءاً وعدة، وليتولى تديبر الحرب، ويعرف مواضع الخلل.

والحالة الثانية: يتقدم فيها في وسط الصف ليقوي الضعيف، ويشجع الناكص.

وحالة ثالثة: وهي إذا اصطدم الفيلقان، وتكافح السيفان، اعتمد ما تقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح، أو من مباشرة الحرب بنفسه، فإنها آخر المنازل، وفيها تظهر شجاعة الشجاع النجد، وفسالة الجبان المموه.

فأين مقام الرئاسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأين منزلة أبي بكر ليسوي بين المتزلتين، ويناسب بين الحالتين!.

ولو كان أبو بكر شريكاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الرسالة، وممنوحاً من الله بفضيلة النبوة، وكانت قریش والعرب تطلبه كما تطلب محمداً صلى الله عليه وسلم، وكان يدبر من أمر الإسلام وتسريب العساكر وتجهيز السرايا، وقتل الأعداء، ما يدبره محمد صلى الله عليه وسلم، لكان للجاحظ أن يقول ذلك، فأما وحاله حاله، وهو أضعف المسلمين جناً، وأقلهم عند العرب ترةً، لم يرم قط بسهم، ولا سل سيفاً، ولا أراق دمًا، وهو أحد الأتباع، غير مشهور ولا معروف، ولا طالب ولا مطلوب، فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومزلة مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومزلة! ولقد خرج ابنه عبد الرحمن مع المشركين يوم أحد فرآه أبو بكر، فقام مغيطاً عليه، فسل من السيف مقدار أصبع، يريد البروز إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر، شمس سيفك وأمتعنا بنفسك"، ولم يقل له: "وأمتعنا بنفسك" إلا لعلمه بأنه ليس أهلاً للحرب وملاقة الرجال، وأنه لو بارز لقتل.

وكيف يقول الجاحظ: لا فضيلة لمباشرة الحرب، ولقاء الأقران، وقتل أبطال الشرك! وهل قامت عمد الإسلام إلا على ذلك! وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك! أترأه لم يسمع قول الله تعالى: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص"، والمحبة من الله تعالى هي إرادة الثواب، فكل من كان أشد ثبوتاً في هذا الصف، وأعظم قتالاً، كان أحب إلى الله، ومعنى الأفضل هو الأكثر ثواباً، فعلي عليه السلام إذاً هو أحب المسلمين إلى الله، لأنه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص، لم يفر قط بإجماع الأمة، ولا بارزه قرن إلا قتله.

أترأه لم يسمع قول الله تعالى: "وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً"، وقوله: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن!، ثم قال سبحانه مؤكداً لهذا البيع والشراء: "ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم"، وقال الله تعالى: "ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح".

فمواقف الناس في الجهاد على أحوال، وبعضهم في ذلك أفضل من بعض، فمن دلف إلى الأقران، واستقبل السيوف والأسنة، كان أثقل على أكتاف الأعداء، لشدة نكايته فيهم، ممن وقف في المعركة، وأعان ولم يقدم، وكذلك من وقف في المعركة، وأعان ولم يقدم، إلا أنه بحيث تناله سهام النبل أعظم عناء، وأفضل ممن وقف حيث لا يناله ذلك، ولو كان الضعيف والجبان يستحقان الرياسة بقله بسط الكف وترك الحرب، وأن ذلك يشاكل فعل النبي صلى الله عليه وسلم، لكان أوفر الناس حظاً في الرياسة، وأشدّهم لها استحقاقاً حسان بن ثابت، وإن بطل فضل علي عليه السلام في الجهاد، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أقلهم قتالاً، كما زعم الجاحظ ليبطلن على هذا القياس فضل أبي بكر في الإنفاق، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أقلهم مالاً!.

وأنت إذا تأملت، أمر العرب وقريش، ونظرت السير، وقرأت الأخبار، عرفت أنها كانت تطلب محمداً صلى الله عليه وسلم وتقصد قصده، وتروم قتله، فإن أعجزها وفاتها طلبت علياً عليه السلام، وأرادت قتله، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً، وأقربهم منه قرباً، وأشدّهم عنه دفعاً، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه أضعفوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكسروا شوكته، إذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة والشجاعة والنجدة والإقدام والبسالة. ألا ترى إلى قول عتبة بن ربيعة يوم بدر، وقد خرج هو وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة، فأخرج إليه الرسول نفرًا من الأنصار، فاستنصبوهم فانتصبوا لهم، فقالوا: ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا: يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأهله الأديين: قوموا يا بني هاشم، فانصروا حقكم الذي آتاكم الله على باطل هؤلاء، قم يا علي، قم يا حمزة، قم يا عبيدة، ألا ترى ما جعلت هند بنت عتبة لمن قتله يوم أحد، لأنه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر، ألم تسمع قول هند ترثي أهلها:

أبي وعمي وشقيق صدري

بهم كسرت يا علي ظهري

ما كان عن عتبة لي من صبر

أخي الذي كان كضوء البدر

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عتبة، وشرك في قتل أبيها عتبة، وأما عمها شيبة، فإن حمزة تفرد بقتله.

وقال جبير بن مطعم لوحشي مولاه يوم أحد: إن قتلت محمداً فأنت حر، وإن قتلت علياً فأنت حر وإن قتلت حمزة فأنت حر، فقال: أما محمد فسيمنعه أصحابه، وأما علي فرجل كثير الالتفات في الحرب، ولكني سأقتل حمزة، فقعد له وزرقه بالحربة فقتله.

ولما قلنا من مقارنة حال علي عليه السلام في هذا الباب لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناسبتها إياها ما وجدناه

في السير والأخبار، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذره عليه، ودعائه له بالحفظ والسلامة، قال صلى الله عليه وسلم يوم الخندق، وقد برز علي إلى عمرو، ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه: "اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم علي علياً: "رب لا تذر في فرداً وأنت خير الوارثين"، ولذلك ضن به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو الناس إلى نفسه مراراً، في كلها يجمعون ويقدم علي، فيسأل الإذن له في البراز حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه عمرو!"، فقال: "وأنا علي"، فأدناه وقبله وعممه بعمامته، وخرج معه خطوات كالمودع له، القلق لحاله، المنتظر لما يكون منه، ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم رافعاً يديه إلى السماء، مستقبلاً لها بوجهه، والمسلمون صموت حوله، كأنما على رؤوسهم الطير، حتى ثارت الغبرة، وسمعوا التكبير من تحتها، فعلموا أن علياً قتل عمرًا، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون تكبيرة سمعها من وراء الخندق من عساكر المشركين، ولذلك قال حذيفة بن اليمان: لو قسمت فضيلة علي عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم. وقال ابن عباس في قوله تعالى: "وكفى الله المؤمنين القتال" قال: بعلي بن أبي طالب.

قال الجاحظ: على أن مشي الشجاع بالسيف إلى الأقران ليس على ما توهمه من لا يعلم باطن الأمر، لأن معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرها الناس، وإنما يقضون على ظاهر ما يرون من إقدامه وشجاعته، وربما كان سبب ذلك الهوج، وربما كان الغرارة والحدائث، وربما كان الإحراج والحمية، وربما كان لحبة النفخ والأحدوثة، وربما كان طباعاً كطبائع القاسي والرحيم والسخي والبخيل.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال للجاحظ: فعلى أيها كان مشي علي بن أبي طالب إلى الأقران بالسيف؟ فأما قلت من ذلك بانت عداوتك لله تعالى ولرسوله، وإن كان مشيه ليس على وجه مما ذكرت، وإنما كان على وجه النصرة والقصد إلى، المسابقة إلى ثواب الآخرة، والجهاد في سبيل الله، وإعزاز الدين، كنت بجميع ما قلت معانداً، وعن سبيل الإنصاف خارجاً، وفي إمام المسلمين طاعناً، وإن تطرق مثل هذا الوهم على علي عليه السلام ليتطرقن مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال، الذين نصرخوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم ووقوه بمهجمهم، وفدوه بأبنائهم وآبائهم، فلعل ذلك كان لعله من العلل المذكورة، وفي ذلك الطعن في الدين، وفي جماعة المسلمين.

ولو جاز أن يتوهم هذا في علي عليه السلام وفي غيره، لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى لأهل بدر: "اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم"، ولا قال لعلي عليه السلام: "برز الإيمان كله إلى الشرك كله"، ولا قال: "أوجب طلحة".

وقد علمنا ضرورة من دين الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيمه لعلي عليه السلام تعظيماً دينياً، لأجل جهاده ونصرته، فالطاعن فيه طاعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ زعم أنه قد يمكن أن يكون جهاده لا لوجه الله تعالى بل لأمر آخر من الأمور التي عددها، وبعثه على التفوه بها إغواء الشيطان وكيد، والإفراط في عداوة من أمر الله بمحبته، ونهى عن بغضه وعداوته.

أترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خفي عليه من أمر علي عليه السلام ما لاح للجاحظ والعثمانية، فمدحه وهو غير

مستحق للمدح!

قال الجاحظ: فصاحب النفس المختارة المعتدلة يكون قتاله طاعة، وفراره معصية، لأن نفسه معتدلة، كالميزان في استقامة لسانه وكفتيه، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه طباعاً، وفراره طباعاً.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال له: فلعل إنفاق أبي بكر على ما تزعم أربعين ألف درهم لا ثواب له، لأن نفسه ربما تكون غير معتدلة، لأنه يكون مطبوعاً على الجود والسخاء، ولعل خروجه مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة إلى الغار لا ثواب له فيه، لأن أسبابه كانت له مهيجة، ودواعيه غالبية، محبة الخروج، وبغض المقام، ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصلوات الخمس في جوف الليل، وتدبيره أمر الأمة لا ثواب له فيه، لأنه قد تكون نفسه غير معتدلة، بل يكون في طباعه الرياسة وحبها، والعبادة والالتذاذ بها، ولقد كنا نعجب من مذهب أبي عثمان أن المعارف ضرورة، وأنها تقع طباعاً، وفي قوله بالتولد وحركة الحجر بالطبع! حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه، فزعم أنه ربما يكون جهاد علي عليه السلام وقتله المشركين لا ثواب له فيه، لأنه فعله طباعاً، وهذا أطرف من قوله في المعرفة وفي التولد.

قال الجاحظ: ووجه آخر أن علياً لو كان كما يزعم شيعة، ما كان له بقتل الأقران كبير فضيلة، ولا عظيم طاعة، لأنه قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له: "ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين"، فإذا كان قد وعده بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران، وعلم أنه منصور عليهم وقتلهم، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعة منه.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا راجع على الجاحظ في النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى قال له: "والله يعصمك من الناس"، فلم يكن له في جهاده كبير طاعة، وكثير طاعة، وكثير من الناس يروي عنه صلى الله عليه وسلم: "اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر" فوجب أن يبطل جهادهما، وقد قال للزبير: "ستقاتل علياً، وأنت ظالم له"، فأشعره بذلك أنه لا يموت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال في الكتاب العزيز لطلحة: "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده"، قالوا: نزلت في طلحة، فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده، فوجب ألا يكون لهما كبير ثواب في الجهاد، والذي صح عندنا من الخبر وهو قوله: "ستقاتل بعدي الناكثين"، أنه قال لما وضعت الحرب أوزارها، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ووضعت الجزية، ودانت العرب قاطبة.

قال الجاحظ: ثم قصد الناصرون لعلي، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم، وليسوا هناك! فمنهم عمرو بن عبد ود تركتموه أشجع من عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس، وقد سمعنا بأحاديث حروب الفجار وما كان بين قريش ودوس وحلف الفضول، فما سمعت لعمرو بن عبد ود ذكراً في ذلك. قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمر عمرو بن عبد ود أشهر وأكثر من أن يحتج له، فليتلمح كتب المغازي والسير، ولينظر ما رثته به شعراء قريش لما قتل، فمن ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في مغازيه، قال: وقال مسافع بن عبد مناف بن

زهرة بن حذافة بن جمح يكي عمرو بن عبد الله بن عبد ود حين قتله علي بن أبي طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاد أي قطع الخندق:

عمرو بن عبد كان أول فارس
سمح الخلائق ماجد ذو مرة
ولقد علمتم حين ولوا عنكم
حتى تكنفه الكماة وكلهم
ولقد تكنفت الفوارس فارساً
سال النزال هناك فارس غالب
فاذهب علي ماظفرت بمثلها
نفسى الفداء لفارس من غالب
أعني الذي جزع المذاد ولم يكن

وقال هبيرة بن أبي وهب المخزومي، يعتذر من فراره عن علي بن أبي طالب، وتركه عمراً يوم الخندق ويكيه:

لعمرك ما ولت ظهري محمداً
ولكنني قلبت أمري فلم أجد
وقفت فلما لم أجد لي مقدماً
ثنى عطفه عن قرنه حين لم يجد
فلا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً
ولا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً
فمن لطراد الخيل تقدع بالقنا
هنالك لو كان ابن عمرو لزارها
كفتك علي لن ترى مثل موقف
فما ظفرت كفاك يوماً بمثلها

وقال هبيرة بن أبي وهب أيضاً، يرثي عمراً ويكيه:

لقد علمت لؤي بن غالب
وفارسها عمرو إذا ما يسوقه
عشية يدعوهُ علي وإنه
لفارسها عمرو إذا ناب نائب
علي، وإن الموت لاشك طالب
لفارسها إذ خام عنه الكتائب

فيا لهف نفسي، إن عمراً لكائن

بيثرب، لا زالت هناك المصائب

لقد أحرز العليا علي بقتله

وللخير يوماً لا محالة جالب

وقال حسان بن ثابت الأنصاري يذكر عمراً:

أُمسى الفتى عمرو بن عبد ناظراً

كيف العبور وليته لم ينظر

ولقد وجدت سيوفنا مشهورة

ولقد وجدت جيادنا لم تقصر

ولقد لقيت غداة بدر عصابة

ضربوك ضرباً غير ضرب الحسر

أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة

ياعمرو أو لجسيم أمر منكر

وقال حسان أيضاً:

لقد شقيت بنو جمح بن عمرو

ومخزوم وتيم ما نقيـل

وعمرو كالحسام فتى قریش

كأن جبينه سيف صقيل

فتى من نسل عامر أريحي

تطاوله الأسنة والنصول

دعاه الفارس المقدام لما

تكشفت المقانب والخيول

أبو حسن فقتعه حساماً

جرازاً لا أقل ولا نكول

فغادره مكباً مسلحاً على عفراء، لا بعد القتل

فهذه الأشعار فيه بل بعض ما قيل فيه.

وأما الآثار والأخبار، فموجودة في كتب السير وأيام الفرسان ووقائعهم، وليس أحد من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال: كان فارس قریش وشجاعها، وإنما قال له حسان:

ولقد لقيت غداة بدر عصابة

لأنه شهد مع المشركين بدرًا، وقتل قومًا من المسلمين. ثم فر مع من فر، ولحق بمكة، وهو الذي كان قال وعاهد الله عند الكعبة ألا يدعوه أحد إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه. وآثاره في أيام الفجار مشهورة تنطق بما كتب الأيام والوقائع، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم: عتبة وبسطام وعامر، لأنهم كانوا أصحاب غارات ونهب، وأهل بادية، وقریش أهل مدينة وساكنو مدر وحجر، لا يرون الغارات، ولا ينيهون غيرهم من العرب، وهم مقتصرون على المقام ببلدكم وحماية حرمهم، فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء.

ويقال له: إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك، فما باله لما جزع الخندق في ستة فرسان هو أحدهم، فصار مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أرض واحدة، وهم ثلاثة آلاف، ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحد منهم للخروج إليه، ولا سمح منهم أحد بنفسه، حتى وبخهم وقرعهم، وناداهم: أستم ترعمون أنه من قتل منا فيل النار، ومن قتل منكم

فإلى الجنة! أفلا يشواق أحدكم إلى أن يذهب إلى الجنة، أو يقدم عدوه إلى النار! فجنبوا كلهم ونكلوا، وملكهم الرعب والوهل، فإما أن يكون هذا أشجع الناس كما قيل عنه، أو يكون المسلمون كلهم أجبن العرب وأذلهم وأفشلهم! وقد روى الناس كلهم الشعر الذي أنشده لما نكل القوم بجمعهم عنه، وأنه جال بفرسه واستدار وذهب يمنة، ثم ذهب يسرة، ثم وقف تجاه القوم، فقال:

ء بجمعهم: هل من مبارز!

ولقد بحثت من النداء

ووقفت إذ جبن المشيع وقفة القرن المناجز

متسرعاً نحو الهزاهز

وكذاك أني لم أزل

والجود من خير الغرائز

إن الشجاعة في الفتى

فلما برز إليه علي أجابه، فقال له:

ك مجيب صوتك غير عاجز

لا تعجلن فقد أتا

يرجو الغداة نجاة فائز

ذو نية وبصيرة

يم عليك نائحة الجنائز

إنني لأرجو أن أق

قى ذكرها عند الهزاهز

من ضربة تقنى ويب

ولعمري لقد سبق الجاحظ بما قاله بعض جهال الأنصار، لما رجع رسول الله من بدر، وقال فتى من الأنصار شهد معه بدرأ: إن قتلنا إلا عجائز صلعا! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقل ذلك يا بن أخ، أولئك الملاء!". قال الجاحظ: وقد أكثروا في الوليد بن عتبة بن ربيعة قتيله يوم بدر، وما علمنا الوليد حضر حرباً قط قبلها، ولا ذكر فيها.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كل من دون أخبار قريش وآثار رجالها، وصف الوليد بالشجاعة والبسالة، وكان مع شجاعته أنه يصارع الفتیان فيصرعهم، وليس لأنه لم يشهد حرباً قبلها ما يجب أن يكون بطلاً شجاعاً، فإن علياً عليه السلام لم يشهد قبل بدر حرباً، وقد رأى الناس آثاره فيها.

قال الجاحظ: وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، كما ثبت علي، فلا فخر لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما ثباته يوم أحد: فأكثر المؤرخين وأرباب السير ينكرونه، وجمهورهم يروي أنه لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا علي وطلحة والزبير، وأبو دجانة، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ولهم خامس وهو عبد الله بن مسعود، ومنهم من أثبت سادساً، وهو المقداد بن عمرو، وروي يحيى بن سلمة بن كهيل قال: قلت لأبي: كم ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد؟ فقال: اثنان، قلت: من هما؟ قال: علي وأبو دجانة. وهب أن أبا بكر ثبت يوم أحد كما يدعيه الجاحظ، أيجوز له أن يقول: ثبت كما ثبت علي، فلا فخر لأحدهما على

الآخر، وهو يعلم آثار علي صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم، وأنه قتل أصحاب الألوية من بني عبد الدار، منهم طلحة بن أبي طلحة، الذي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه أنه مردف كبشاً، فأوله وقال: كبش الكتيبة نقتله. فلما قتله علي عليه السلام مبارزة - وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم - كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "هذا كبش الكتيبة".

وما كان منه من المحاماة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فر الناس وأسلموه، فتصمد له كتيبة من قريش، فيقول: "يا علي، اكفني هذه" فيحمل عليها فيهزمها، ويقتل عميدها، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتاً من قبل السماء.

لا سيف إلا ذو الفقار

ولا فتى إلا علي

وحتى قال النبي صلى الله عليه وسلم عن جبرائيل ما قال.

أتكون هذه آثاره وأفعاله، ثم يقول الجاحظ: لا فخر لأحدهما على صاحبه! "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير لفاتحين".

قال الجاحظ: ولأبي بكر في ذلك اليوم مقام مشهور، خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفراً في الحديد، يسأل المبارزة، ويقول: أنا عبد الرحمن بن عتيق فنهض إليه أبو بكر يسعى بسيفه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "شم سيفك وارجع إلى مكانك، ومتعنا بنفسك".

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر، فإنه لو تسمعه الإمامية لأضافته إلى ما عندها من المثالب، لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ارجع" دليل على أنه لا يحتمل مبارزة أحد، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه، وأنت تعلم حنو الابن على الأب وتبجيله له، وإشفاقه عليه وكفه عنه، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبي.

وقوله له: "ومتعنا بنفسك"، إيذان له بأنه كان يقتل لو خرج، ورسول الله كان أعرف به من الجاحظ، فأين حال هذا الرجل من حال الرجل الذي صلي بالحرب، ومشى إلى السيف بالسيف، فقتل السادة والقادة والفرسان والرجالة! قال الجاحظ: على أن أبا بكر - وإن لم تكن آثاره في الحرب كآثار غيره - فقد بذل الجهد، وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوته، وإذا بذل المجهود فلا حال أشرف من حاله.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما قوله إنه بذل الجهد، فقد صدق، وأما قوله "لا حال أشرف من حاله"، فخطأ، لأن حال من بلغت قوته فأعملها في قتل المشركين أشرف من حال من نقصت قوته عن بلوغ الغاية، ألا ترى أن حال الرجل أشرف في الجهاد من حال المرأة، وحال البالغ الأيد أشرف من حال الصبي الضعيف!.

فهذه جملة ما ذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي رحمه الله في نقض العثمانية، اقتصرنا عليها ههنا، وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه، إذا اقتضت الحال ذكره.

قال لعبد الله بن عباس وقد جاءه برسالة من عثمان

وهو محصور يسأله الخروج إلى ماله يبيع، ليقبل هتف الناس باسمه للخلافة، بعد أن كان سألته مثل ذلك من قبل الأصل: فقال عليه السلام: يا بن عباس، ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جماً ناضجاً بالغرب، أقبل وأدبر! بعث إلي أن أخرج، ثم بعث إلي أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إلي أن أخرج! والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً. الشرح: يبيع على "يفعل" مثل يحلم ويحكم: اسم موضع، كان فيه نخل لعلي بن أبي طالب عليه السلام، ويبيع الآن بلد صغير من أعمال المدينة.

وهتف الناس باسمه: نداؤهم ودعاؤهم، وأصله الصوت، يقال: هتف الحمام يهتف هتفاً، وهتف زيد بعمره هتفاً، أي صاح به، وقوس هتافة وهتفى، أي ذات صوت، والناضح: البعير يستقى عليه، وقال معاوية لقيس بن سعد- وقد دخل عليه في رهط من الأنصار-: ما فعلت نواضحكم، يهزأ به، فقال: أنصبتها في طلب أبيك يوم بدر، والغرب: الدلو العظيمة.

قوله: "أقبل وأدبر"، أي يقول لي ذلك، كما يقال للناضح، وقد صرح العباس بن مرداس بهذه الألفاظ فقال:

أراك إذا أصبحت للقوم ناضحاً **يقال له بالغرب أدبر وأقبل**

قوله: "لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً"، يحتمل أن يريد بالغت واجتهدت في الدفاع عنه، حتى خشيت أن أكون آثماً في كثرة مبالغتي واجتهادي في ذلك، وإنه لا يستحق الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه، وهذا تأويل من ينحرف عن عثمان، ويحتمل أن يريد: لقد دفعت عنه حتى كدت أن القي نفسي في الهلكة، وأن يقتلني الناس الذين ثاروا به، فخفت الإثم في تغريبي بنفسي وتوريطها في تلك الورطة العظيمة، ويحتمل أن يريد: لقد جاهدت الناس دونه ودفعتهم عنه، حتى خشيت أن أكون آثماً بما نلت منهم من الضرب بالسوط، والدفع باليد، والإعانة بالقول، أي فعلت من ذلك أكثر مما يجب.

وصية العباس لعلي عليه السلام قبل موته قرأت في كتاب صنفه أبو حيان التوحيدي في تقرير الجاحظ، قال: نقلت من خط الصولي: قال الجاحظ: إن العباس بن عبد المطلب أوصى علي بن أبي طالب عليه السلام في علته التي مات فيها، فقال: أي بني إني مشف على الظعن عن الدنيا إلى الله، الذي فاقني إلى عفوه وتجوّزه أكثر من حاجتي إلى ما أنصحك فيه، وأشير عليك به، ولكن العرق نبوض، والرحم عروض، وإذا قضيت حق العمومة، فلا أبالي بعد إن هذا الرجل - يعني عثمان - قد جاءني مراراً بحديثك، وناظرني ملايناً ومخاشناً في أمرك، ولم أجد عليك إلا مثل ما أجد منك عليه، ولا رأيت منه لك إلا مثل ما أجد منك له، ولست تؤتى من قلة علم، ولكن من قلة قبول، ومع هذا كله فالرأي الذي أودعك به أن تمسك عنه لسانك وبدك، وهمزك وغمزك، فإنه لا يبدؤك ما لم تبدأه، ولا يجيبك عما لم يبلغه، وأنت المتحني وهو المتأني، وأنت العائب وهو الصامت. فإن قلت: كيف هذا وقد جلس مجلساً أنا به أحق، فقد قاربت! ولكن ذاك بما كسبت يداك، ونكص عنه عقبك، لأنك بالأمس الأدنى، هرولت إليهم تظن أنهم يحلون جيدك، ويختمون أصبعك، ويطئون عقبك، ويرون الرشد بك، ويقولون: لا بد لنا منك، لا معدل لنا عنك، وكان هذا من هفواتي الكبر، وهناتك

التي ليس لك منها عذر، والآن بعد ما ثلثت عرشك بيدك، ونبذت رأي عمك في البيداء يتدهده في السافياء خذ بأحزم مما يتوضح به وجه الأمر، لا تشار هذا الرجل ولا تماره، ولا يبلغه عنك ما يحققه عليك، فإنه إن كاشفك أصاب أنصاراً، وإن كاشفته لم تر إلا ضراراً، ولم تستلج إلا عثاراً، واعرف من هو بالشام له، ومن ههنا حوله من يطيع أمره، ويمثل قوله، لا تغترر بناس يطيفون بك، ويدعون الحنو عليك والحب لك، فإنهم بين مولى جاهل، وصاحب متمن، وجليس يرعى العين ويتندر المحضر، ولو ظن الناس بك ما تظن بنفسك لكان الأمر لك، والزمam في يدك، ولكن هذا حديث يوم مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فات، ثم حرم الكلام فيه حين مات، فعليك الآن بالعزوف عن شيء عرضك له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يتم، وتصدت له مرة بعد مرة فلم يستقم، ومن ساور الدهر غلب، ومن حرص على ممنوع تعب، فعلى ذلك فقد أوصيت عبد الله بطاعتك، وبعثته على متابعتك، وأوجرتة محبتك، ووجدت عنده من ذلك ظني به لك، لا توتر قوسك إلا بعد الثقة بها، وإذا أعجبتك فانظر إلى سيتها، ثم لا تفوق إلا بعد العلم ولا تغرق في الترع إلا لتصيب الرمية، وانظر لا تطرف يمينك عينك، ولا تجن شمالك شينك، ودعني بآيات من آخر سورة الكهف، وقم إذا بدا لك.

قلت: الناس يستحسنون رأي العباس لعل عليه السلام في ألا يدخل في أصحاب الشورى وأما أنا فإني أستحسنه إن قصد به معنى، ولا أستحسنه إن قصد به معنى آخر، وذلك لأنه إن أجرى بهذا الرأي إلى ترفعه عليهم، وعلو قدره عن أن يكون مماثلاً لهم، أو أجرى به إلى زهده في الإمارة، ورغبته عن الولاية، فكل هذا رأي حسن وصواب، وإن كان متزعجه في ذلك إلى أنك إن تركت الدخول معهم، وانفردت بنفسك في دارك، أو خرجت عن المدينة إلى بعض أموالك، فإنهم يطلبونك، ويضربون إليك آباط الإبل، حتى يولوك الخلافة، وهذا هو الظاهر من كلامه، فليس هذا الرأي عندي بمستحسن، لأنه لو فعل ذلك لولوا عثمان أو واحداً منهم غيره، ولم يكن عندهم من الرغبة فيه عليه السلام ما يبعثهم على طلبه، بل كان تأخره عنه قرّة أعينهم، وواقعاً يثيرهم، فإن قريشاً كلها كانت تبغضه أشد البغض، ولو عمر عمر نوح، وتوصل إلى الخلافة بجميع أنواع التوصل، كالزهد فيها تارة، والمناشدة بفضائله تارة، وبما فعله في ابتداء الأمر من إخراج زوجته وأطفاله ليلاً إلى بيوت الأنصار، وبما اعتمده إذ ذاك من تخلفه في بيته، وإظهار أنه قد انعكف على جمع القرآن، وبسائر أنواع الحيل فيها، لم تحصل له إلا بتجريد السيف، كما فعل في آخر الأمر، ولست ألوّم العرب، لا سيما قريشاً في بغضها له، وانحرافها عنه، فإنه وترها، وسفك دماءها، وكشف القناع في منابذتها، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم.

وليس الإسلام بمناع من بقاء الأحقاد في النفوس، كما نشاهده اليوم عياناً، والناس كالناس الأول، والطبائع واحدة، فاحسب أنك كنت من سنتين أو ثلاث جاهلياً أو من بعض الروم، وقد قتل واحد من المسلمين ابنك أو أخاك، ثم أسلمت، أكان إسلامك يذهب عنك ما تجده من بغض ذلك القاتل وشنآنه؟ كلا. إن ذلك لغير ذاهب، هذا إذا كان الإسلام صحيحاً، والعقيدة محققة، لا كإسلام كثير من العرب، فبعضهم أسلم تقليداً، وبعضهم للطمع والكسب، وبعضهم خوفاً من السيف، وبعضهم على طريق الحمية والانتصار، أو لعداوة قوم آخرين من أضداد الإسلام وأعدائه.

واعلم أن كل دم أراقه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيف علي عليه السلام وبسيف غيره، فإن العرب بعد وفاته عليه السلام عصبت تلك الدماء بعلي بن أبي طالب عليه السلام وحده، لأنه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعهم وسنتهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعلي وحده، وهذا عادة العرب إذا قتل منها قتلى طالبت بتلك الدماء القاتل، فإن مات، أو تعذرت عليها مطالبتها، طالبت بها أمثل الناس من أهله.

لما قتل قوم من بني تميم أخاً لعمر بن هند، قال بعض أعدائه يحرض عمراً عليهم:

المرء لم يخلق صباراً

يبقى لها إلا الحجارة

بالسيف أسفل من أواره

من مبلغ عمراً بأن

وحوادث الأيام لا

ها إن عجرة أمه

تسفي الرياح خلال كشحيه وقد سلبوا إزاره

في القوم أمثل من زراره

فاقتل زرارة لا أرى

فأمره أن يقتل زرارة بن عدس رئيس بني تميم، ولم يكن قاتلاً أخاً للملك ولا حاضراً قتله، ومن نظر في أيام العرب ووقائعها ومقاتلتها عرف ما ذكرناه.

سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد رحمه الله، فقلت له: إني لأعجب من علي عليه السلام كيف بقي تلك المدة الطويلة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف ما اغتيل وقتك به في جوف منزله، مع تلطي الأكباد عليه! فقال: لولا أنه أرغم أنفه بالتراب، ووضع حده في حضيض الأرض لقتل، ولكنه أخمل نفسه، واشتغل بالعبادة والصلاة والنظر في القرآن، وخرج عن ذلك الزي الأول، وذلك الشعر ونسي السيف، وصار كالفاتك يتوب ويصير سائحاً في الأرض، أو راهباً في الجبال، ولما أطاع القوم الذين ولوا الأمر، وصار أذل لهم من الحذاء، تركوه وسكتوا عنه، ولم تكن العرب لتقدم عليه إلا بمواطأة من متولي الأمر، وباطن في السر منه، فلما لم يكن لولاة الأمر باعث وداع إلى قتله وقع الإمساك عنه، ولولا ذلك لقتل، ثم أجل بعد معقل حصين.

فقلت له: أحق ما يقال في حديث خالد؟ فقال: إن قوماً من العلوية يذكرون ذلك.

ثم قال: وقد روي أن رجلاً جاء إلى زفر بن الهذيل، صاحب أبي حنيفة، فسأل عما يقول أبو حنيفة في جواز الخروج من الصلاة بأمر غير التسليم، نحو الكلام والفعل الكثير أو الحدث! فقال: إنه جائز، قد قال أبو بكر في تشهده ما قال، فقال الرجل: وما الذي قاله أبو بكر؟ قال: لا عليك، فأعاد عليه السؤال ثانية وثالثة، فقال: أخرجوه أخرجوه، قد كنت أحدث أنه من أصحاب أبي الخطاب.

قلت له: فما الذي تقوله أنت! قال: أنا أستبعد ذلك وإن روته الإمامية.

ثم قال: أما خالد فلا أستبعد منه الإقدام عليه بشجاعته في نفسه، ولبغضه إياه، ولكني أستبعده من أبي بكر، فإنه كان ذا ورع، ولم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة ومنع فذك، وإغضاب فاطمة وقتل علي عليه السلام، حاش لله من ذلك! فقلت

له: أكان خالد يقدر على قتله؟ قال: نعم؟ ولم لا يقدر على ذلك، والسيف في عنقه، وعلي أعزل غافل عما يراد به، قد قتله ابن ملجم غيلة، وخالد أشجع من ابن ملجم!.
فسألته عما ترويه الإمامية في ذلك، كيف ألفاظه؟ فضحك وقال:

كم عالم بالشيء وهو يسائل

ثم قال: دعنا من هذا، ما الذي تحفظ في هذا المعنى؟ قلت: قول أبي الطيب:

أطويل طريقنا أم يطول

نحن أدري وقد سألنا بنجد

وكثير من رده تعليل

وكثير من السؤال اشتياق

فاستحسن ذلك، وقال: لمن عجز البيت الذي استشهدت به؟ قلت: لحمد بن هانيء المغربي، وأوله:

كم عالم بالشيء وهو يسائل !

في كل يوم أستريز تجارياً

فبارك علي مراراً، ثم قال: نترك الآن هذا ونتمم ما كنا فيه، وكنت أقرأ عليه في ذلك الوقت "جمهرة النسب" لابن الكلبي، فعدنا إلى القراءة، وعدلنا عن الخوض عما كان اعترض الحديث فيه.

ومن كلام له عليه السلام اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم لحاقه به الأصل: فجعلت أتبع مأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله، فأطأ ذكره حتى انتهيت إلى العرج.

في كلام طويل قال رضي الله عنه: قوله عليه السلام: "فأطأ ذكره"، من الكلام الذي رمي به إلى غايته الإيجاز والفصاحة، أراد أي كنت أعطي خبره صلى الله عليه وآله من بدء خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع، فكفى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة.

الشرح: العرج: منزل بين مكة والمدينة، إليه ينسب العرجي الشاعر، وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.

قال محمد بن إسحاق في كتاب "المغازي": لم يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من المسلمين ما كان عزم عليه من الهجرة إلا علي بن أبي طالب وأبا بكر بن أبي قحافة، أما علي، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه، وأمره أن يبيت على فراشه، يخادع المشركين عنه ليروا أنه لم يبرح فلا يطلبوه، حتى تبعد المسافة بينهم وبينه، وأن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي عنده للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استودعه رجال مكة ودائع لهم، لما يعرفونه من أمانته، وأما أبو بكر فخرج معه.

وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد الحسيني، رحمه الله فقلت: إذا كانت قریش قد محصت رأيها، وألقى إليها إبليس - كما روي - ذلك الرأي، وهو أن يضربوه بأسياف من أيدي جماعة من بطون مختلفة، ليضيع دمه في بطون قریش فلا تطلبه بنو عبد مناف، فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصبح! فإن الرواية جاءت بأنهم كانوا تسوروا الدار، فعانوا فيها شخصاً مسحى بالبرد الحضرمي الأخضر، فلم يشكوا أنه هو، فرصدوه إلى أن أصبحوا، فوجدوه علياً. وهذا طريف، لأنهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك الليلة، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشخص المسحى، وانتظارهم به النهار دليل على أنهم

لم يكونوا أرادوا قتله تلك الليلة!

فقال في الجواب: لقد كانوا هموا من النهار بقتله تلك الليلة، وكان إجماعهم على ذلك، وعزمهم في حقنه من بني عبد مناف، لأن الذين محصوا هذا الرأي واتفقوا عليه: النفر بن الحارث من بني عبد الدار، وأبو البختری بن هشام، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، هؤلاء الثلاثة من بني أسد بن عبد العزی، وأبو جهل بن هشام، وأخوه الحارث، وخالد بن الوليد بن المغيرة، هؤلاء الثلاثة من بني مخزوم، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج، وعمرو بن العاص، هؤلاء الثلاثة من بني سهم، وأمیه بن خلف وأخوه أبي بن خلف، هذان من بني جمح، فمما هذا الخبر من الليل إلى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فلقى منهم قوماً، فنهاهم عنه، وقال: إن بني عبد مناف لا تمسك عن دمه، ولكن صفدوه في الحديد، واحبسوه في دار من دوركم، وتربصوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشعراء. وكان عتبة بن ربيعة سيد بني عبد شمس ورئيسهم، وهم من بني عبد مناف، وبنو عم الرجل ورهطه، فأحجم أبو جهل وأصحابه تلك الليلة عن قتله إحجاماً، ثم تسوروا عليه، وهم يظنون في الدار، فلما رأوا إنساناً مسجياً بالبرد الأخضر الحضرمي لم يشكوا أنه هو، واثتمروا في قتله، فكان أبو جهل يذمرهم عليه فيهمون ثم يحجمون. ثم قال بعضهم لبعض: ارموه بالحجارة، فرموه، فجعل علي يتضور منها، ويتقلب ويتأوه تأوها خفيفاً، فلم يزالوا كذلك في إقدام عليه وإحجام عنه، لما يريد الله تعالى من سلامته ونجاته. حتى أصبح وهو وقيد من رمي الحجارة، ولو لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأقام لينهم بمكة، ولم يقتلوه تلك الليلة، لقتلوه في الليلة التي تليها، وإن شئت الحرب بينهم وبين عبد مناف، فإن أبا جهل لم يكن بالذي ليمسك عن قتله، وكان فاقد البصيرة، شديد العزم على الولوغ في دمه!.

قلت للنقيب: أفعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي عليه السلام بما كان من نهي عتبة لهم؟ قال: لا، إنهما لم يعلما ذلك تلك الليلة، وإنما عرفاه من بعد، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، لما رأى عتبة وما كان منه: "إن يكن في القوم خير ففي صاحب الجمل الأحمر". ولو قدرنا أن علياً عليه السلام علم ما قال لهم عتبة لم يسقط ذلك فضيلته في المبيت، لأنه لم يكن على ثقة من أنهم يقبلون قول عتبة، بل كان ظن الهلاك والقتل أغلب. وأما حال علي عليه السلام، فلما أدى الودائع، خرج بعد ثلاث من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء إلى المدينة راجلاً قد تورمت قدماه، فصادف رسول الله صلى الله عليه وسلم نازلاً بقباء على كلثوم بن الهدم، فتزل معه في منزله. وكان أبو بكر نازلاً بقباء أيضاً في منزل حبيص بن يساف، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما معه من قباء، حتى نزل بالمدينة على أبي أيوب خالد بن يزيد الأنصاري، وابتنى المسجد.

قال في المسارعة إلى العمل

الأصل: فاعملوا وأنتم في نفس البقاء، والصحف منشورة، والتوبة مبسوطة، والمدير يدعى، والمسيء يرجى، قبل أن يخذم العمل، وينقطع المهل، وتنقضي المدة، ويسد باب التوبة، وتصدق الملائكة، فأخذ أمرؤ من نفسه لنفسه، وأخذ من حيلته، ومن فان لباق، ومن ذاهب لدائم، أمرؤ خاف الله. وهو معمر إلى أجله، ومنظور إلى عمله، أمرؤ ألجم نفسه

بلجامها، وزمها بزمامها، فأمسكها بلجامها عن معاصي الله، وقادها لزمامها إلى طاعة الله.
الشرح: في نفس البقاء، بفتح الفاء، أي في سעתه، تقول: أنت في نفس من أمرك، أي في سعة، والصحف منشورة، أي
وأنتم بعد أحياء، لأنه لا تطوى صحيفة الإنسان إلا إذا مات. والتوبة مبسوطة لكم غير مقبوضة عنكم، ولا مردودة
عليكم إن فعلتم، كما ترد على الإنسان توبته إذا احتضر. والمدبر يدعى، أي من يدبر منكم، ويولي عن الخير يدعى إليه،
وينادى: يا فلان أقبل على ما يصلحك! والمسيء يرجى، أي يرجى عوده وإقلاعه.
قبل أن يحمد العمل، استعارة مليحة، لأن الميت يحمد عمله ويقف، ويروى: "يحمد" بالخاء، من حمدت النار، والأول
أحسن، وينقطع المهل، أي العمر الذي أمهلت فيه، وتصعد الملائكة، لأن الإنسان عند موته تصعد حفظته إلى السماء،
لأنه لم يبق لهم شغل في الأرض.

قوله: "فأخذ امرؤ" ماض يقوم مقام الأمر، وقد تقدم شرح ذلك، والمعنى أن من يصوم ويصلي فإنما يأخذ بعض قوة نفسه
مما يلقي من المشقة لنفسه أي عدة وذخيرة لنفسه يوم القيامة، وكذلك من يتصدق، فإنه يأخذ من ماله، وهو جار مجرى
نفسه لنفسه.
وأخذ من حي لميت، أي من حال الحياة لحال الموت، ولو قال: من ميت لحي، كان جيداً أيضاً، لأن الحي في الدنيا ليس
بحي على الحقيقة، وإنما الحياة حياة الآخرة، كما قال الله تعالى: "وإن الدار الآخرة هي الحيوان"، وروي: "أمسكها
بلجامها" بغير فاء.

قال في شأن الحكمين وذم أهل الشام

الأصل: جفاة طغام، عبيد أقزام، جمعوا من كل أوب، وتلقطوا من كل شوب، ممن ينبغي أن يفقه ويؤدب، ويعلم
ويدرب، ويولى عليه، ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبوءوا الدار والإيمان.
ألا وإن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبون، وإنكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون. وإنما عهدكم
بعبد الله بن قيس، بالأمس يقول: إنها فتنة فقطعوا أوتاركم، وشيموا سيوفكم، فإن كان صادقاً فقد أخطأ بمسيره غير
مستكره، وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة.
فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس، وخذوا مهل الأيام، وحوطوا قواصي الإسلام، ألا ترون إلى
بلادكم تغزى، وإلى صفاتكم ترمى!.
الشرح: جفاة: جمع جاف، أي هم أعراب أجلاف. والطشام: أوغاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء، ويقال للأشرار
واللثام: عبيد، وإن كانوا أحراراً.
والأقزام، بالزاي: رذال الناس وسفلتهم، والمسموع قزم، الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء، لأنه في معنى المصدر،
قال الشاعر:

فوارس الخيل لا ميل ولا قزم

وهم إذا الخيل جالوا في كتائبها

ولكنه عليه السلام قال: "أقزام" ليوافق بها قوله: "طغام"، وقد روي: "قزام"، وهي رواية جيدة، وقد نطقت العرب هذه اللفظة وقال الشاعر:

أحصنوا أهم من عبدهم

تلك أفعال القزام الوكعة

وجمعوا من كل أوب، أي من كل ناحية، وتلقطوا من كل شوب، أي من فرق مختلطة. ثم وصف جهلهم وبعدهم عن العلم والدين، فقال: ممن ينبغي أن يفقه ويؤدب، أي يعلم الفقه والأدب. ويدرب، أي يعود اعتماد الأفعال الحسنة والأخلاق الجميلة. ويولى عليه، أي لا يستحقون أن يولوا أمراً، بل ينبغي أن يحجر عليهم كما يحجر على الصبي والسفيه لعدم رشده. وروي: "ويولى عليه"، بالتخفيف. ويؤخذ على يديه، أي يمنع من التصرف.

قوله عليه السلام: "ولا الذين تبوأوا الدار والإيمان"، ظاهر اللفظ يشعر بأن الأقسام ثلاثة وليست إلا اثنين، لأن الذين تبوأوا الدار والإيمان الأنصار، ولكنه عليه السلام كرر ذكرهم تأكيداً، وأيضاً فإن لفظة "الأنصار" واقعة على كل من كان من الأوس والخزرج، الذين أسلموا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين تبوأوا الدار والإيمان في الآخرة، قوم مخصوصون منهم، وهم أهل الإخلاص والإيمان التام فصار ذكر الخاص بعد العام، كذكره تعالى جبرائيل وميكائيل، ثم قال: "والملائكة بعد ذلك ظهير"، وهما من الملائكة. ومعنى قوله: "تبوأوا الدار والإيمان" سكنوهما، وإن كان الإيمان لا يسكن كما تسكن المنازل، لكنهم لما ثبتوا عليه، واطمأنوا سماه منزلاً لهم ومتبواً، ويجوز أن يكون مثل قوله:

ورأيت زوجك في الوغى

متقلداً سيفاً ورمحاً

ثم ذكر عليه السلام أن أهل الشام اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبونه، وهو عمرو بن العاص، وكرر لفظة "القوم"، وكان الأصل أن يقول: ألا وإن القوم اختاروا لأنفسهم أقربهم مما يحبون، فأخرجه مخرج قول الله تعالى: "واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور". والذي يحبه أهل الشام هو الانتصار على أهل العراق والظفر بهم، وكان عمرو بن العاص أقربهم إلى بلوغ ذلك، والوصول إليه بمكره وحيلته وخدائعه. والقوم في قوله ثانياً: "أقرب القوم"، بمعنى الناس كأنه قال: واخترتم لأنفسكم أقرب الناس، مما تكرهونه، وهو أبو موسى الأشعري، واسمه عبد الله بن قيس، والذي يكرهه أهل العراق هو ما يحبه أهل الشام، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم، واستيلاء أهل الشام عليهم، وكان أبو موسى أقرب الناس إلى وقوع ذلك، وهكذا وقع لبلهه وغفلته وفساد رأيه، وبغضه علماً عليه السلام من قبل.

ثم قال: أنتم بالأمس، يعني في واقعة الجمل، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة عن نصرتي، ويقول لهم: هذه هي الفتنة التي وعدنا بها، فقطعوا أوتار قسيكم. وشيموا سيوفكم، أي أعمدوها فإن كان صادقاً فما باله سار إلي، وصار معي معي الصف، وحضر حرب صفين، وكثر سواد أهل العراق وإن لم يحارب، ولم يسل السيف، فإن من حضر في إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب، وإن كان كاذباً فيما رواه من خبر الفتنة فقد لزمته التهمة وقبح الاختلاف إليه في الحكومة،

وهذا يؤكد صحة إحدى الروايتين في أمر أبي موسى، فإنه قد اختلفت الرواية: هل حضر حرب صفين مع أهل العراق أم لا؟ فمن قال: حضر، قال: حضر ولم يحارب، وما طلبه اليمانيون من أصحاب علي عليه السلام ليجعلوه حكماً كالأشعث بن قيس وغيره إلا وهو حاضر معهم في الصف، ولم يكن منهم على مسافة، ولو كان على مسافة لما طلبوه، ولكان لهم فيمن حضر غناء عنه، ولو كان على مسافة لما وافق علي عليه السلام على تحكيمه، ولا كان علي عليه السلام ممن يحكم من لم يحضر معه.

وقال الأكثرون: إنه كان معترلاً للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام.

فإن قلت: فلم لا يحمل قوله عليه السلام: "فإن كان صادقاً فقد أخطأ بسيره غير مستكره" على مسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام! وأهل العراق حيث طلبوه ليفوضوا إليه أمر الحكومة؟.

قلت: لو حملنا كلامه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبي موسى، وكان الجواب عنه هيناً، وذلك لأن أبا موسى يقول: إنما أنكرت الحرب وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب، ولا أغري بالحرب، وإنما سرت للإصلاح بين الناس، وإطفاء نائرة الفتنة، فليس يناقض ذلك ما رويته عن الرسول من خبر الفتنة، ولا ما قلته في الكوفة في واقعة الجمل: "قطعوا أوتار قسيكم".

قوله عليه السلام: "فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس"، يقال لمن يرام كفه عن أمر يتناول له: ادفع في صدره، وذلك لأن من يقدم على أمر ببدنه فيدفع دافع في صدره حقيقة، فإنه يرده أو يكاد، فنقل ذلك إلى الدفع المعنوي.

قوله عليه السلام: "وخذوا مهل الأيام"، أي اغتتموا سعة الوقت. وخذوه مناهبةً قبل أن يضيق بكم أو يفوت.

قوله عليه السلام: "وحوطوا قواصي الإسلام": ما بعد من الأطراف والنواحي.

ثم قال لهم: "ألا ترون إلى بلادكم تغزى!"، هذا يدل على أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمر التحكيم، لأن معاوية بعد أن تم على أبي موسى من الخديعة ما تم استعجل أمره، وبعث السرايا إلى أعمال أمير المؤمنين علي عليه السلام. وتقول: قد رمى فلان صفاة فلان، إذا دهاه بداهية، قال الشاعر:

والدهر يوتر قوسه

يرمي صفاتك بالمعابل

وأصل ذلك الصخرة الملساء، لا يؤثر فيها السهام ولا يرميها الرامي، إلا بعد أن مهل غيرها، يقول: قد بلغت غارات أهل الشام حدود الكوفة التي هي دار الملك وسرير الخلافة، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان في غيرها من الأطراف.

نسب أبي موسى الأشعري ونحن نذكر نسب أبي موسى وشيئاً من سيرته وحاله نقلاً من كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر المحدث، ونتبع ذلك بما نقلناه من غير الكتاب المذكور. قال ابن عبد البر: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضارة بن حرب بن عامر بن عتر بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر، وهو نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وأمه امرأة من عك، أسلمت وماتت بالمدينة، واختلف في أنه هل هو من مهاجرة الحبشة أم لا؟ والصحيح أنه ليس منهم، ولكنه أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه، فلم يزل

بما حتى قدم هو وناس من الأشعرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوافق قدومهم قدوم أهل السفيتين جعفر بن أبي طالب وأصحابه من أرض الحبشة، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، فظن قوم أن أبا موسى قدم من الحبشة مع جعفر.

وقيل إنه لم يهاجر إلى الحبشة، وإنما أقبل في سفينة مع قوم من الأشعرين، فرمت الريح سفينتهم إلى أرض الحبشة، وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه، فكان قدومهم معاً، فظن قوم أنه كان من مهاجرة الحبشة.

قال: وولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مخاليف اليمن زيد، وولاه عمر البصرة، لما عزل المغيرة عنها، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها، وولاهها عبد الله بن عامر بن كريز، فترل أبو موسى الكوفة حينئذ، وسكنها، فلما كره أهل الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها، ولوا أبا موسى، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يوليها، فأقره على الكوفة، فلما قتل عثمان عزله علي عليه السلام عنها، فلم يزل واجداً لذلك على علي عليه السلام، حتى جاء منه ما قال حذيفة فيه، فقد روى حذيفة فيه كلاماً كرهت ذكره والله يغفر له.

قلت: الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البر ولم يذكره قوله فيه، وقد ذكر عنده بالدين: أما أنتم فتقولون ذلك، وأما أنا فأشهد أنه عدو لله ولرسوله، وحرب لهما لا الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين، أسر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم، وأعلمه أسماءهم. وروي أن عماراً سئل عن أبي موسى، فقال: لقد سمعت فيه من حذيفة قولاً عظيماً، سمعته يقول: صاحب البرنس الأسود، ثم كلح كلوحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط.

وروي عن سويد بن غفلة: قال: كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات في خلافة عثمان، فروى لي خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: سمعته يقول: "إن بني إسرائيل اختلفوا، فلم يزل الاختلاف بينهم، حتى بعثوا حكمين ضالين ضالا وأضالا من اتبعهما، ولا ينفك أمر أمي حتى يبعثوا حكمين يضلان ويضلان من تبعهما"، فقلت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما! قال: فخلع قميصه، وقال: أبرأ إلى الله من ذلك، كما أبرأ من قميصي هذا. فأما ما تعتقده المعتزلة فيه، فأنا أذكر ما قاله أبو محمد بن متويه في كتاب "الكفاية" قال رحمه الله: أما أبو موسى فإنه عظم جرمه بما فعل، وأدى ذلك إلى الضرر الذي لم يخف حاله، وكان علي عليه السلام يقنت عليه وعلى غيره، فيقول: اللهم العن معاوية أولاً وعمرأ ثانياً، وأبا الأعور السلمي ثالثاً، وأبا موسى الأشعري رابعاً. روي عنه عليه السلام أنه كان يقول في أبي موسى: صبغ بالعلم صبغاً وسلخ منه سلخاً.

قال: وأبو موسى هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: كان في بني إسرائيل حكمان ضالان، وسيكون في أمي حكمان ضالان، ضال من اتبعهما. وأنه قيل له: ألا يجوز أن تكون أحدهما؟ فقال: لا - أو كلاماً، ما هذا معناه - فلما بلي به، قيل فيه: البلاء موكل بالمنطق، ولم يثبت في توبته ما ثبت في توبة غيره، وإن كان الشيخ أبو علي قد ذكر في آخر كتاب الحكمين أنه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام في مرض الحسن بن علي، فقال له: أجتئنا عائداً أم شامتا؟ فقال بل عائداً، وحدث بحديث في فضل العيادة.

قال ابن متويه: وهذه أمانة ضعيفة في توبته، انتهى كلام ابن متويه، وذكرته لك لتعلم أنه عند المعتزلة من أرباب الكبائر، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها.

قال أبو عمر بن عبد البر: واختلف في تاريخ موته، فقليل: سنة اثنتين وأربعين، وقيل: سنة أربع وأربعين، وقيل سنة خمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين.

واختلف في قبره، فقليل: مات بمكة ودفن بها، وقيل مات بالكوفة ودفن بها.

ومن خطبة له ذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله

الأصل: هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم. لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، وأنزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل.

الشرح: يقول: بهم يحيا العلم ويموت الجهل، فسماهم حياة ذاك، وموت هذا، نظراً إلى السببية، يدلكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم، ويدلکم ما ظهر منهم من الأفعال الحسنة على ما بطن من إخلاصهم، وبدلکم صمتهم وسكوتهما عما لا يغنيهم، عن حكمة منطقهم. ويروى: "ويدلکم صمتهم على منطقهم" وليس في هذه الرواية لفظة "حكم".

لا يخالفون الحق: لا يعدلون عنه، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب، فمنهم من له في المسألة قولان وأكثر، ومنهم من يقول قولاً ثم يرجع عنه، ومنهم من يرى في أصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه. ودعائم الإسلام: أركانه.

والولائج: جمع وليجة، وهي الموضع يدخل إليه ويستتر فيه، ويعتصم به.

وعاد الحق إلى نصابه: رجع إلى مستقره وموضعه، وأنزاح الباطل: زال. وانقطع لسانه: انقطعت حجته.

عقلوا الدين عقل رعاية، أي عرفوا الدين وعلموه معرفة من وعى الشيء وفهمه وأتقنه. ووعاية، أي وعوا الدين وحفظوه وحاطوه، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ورواية، فإن من يروي العلم ويسنده إلى الرجال يأخذه من أفواه الناس كثير، ومن يحفظ العلم حفظ فهم وإدراك، أصالة لا تقليداً قليل.

الجزء الرابع عشر

باب الكتب والرسائل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأولياء بلاده ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه. لما فرغ من إيراد المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه الجاري مجرى الخطب من المواعظ والزواجر، شرع في إيراد باب من مختار كلامه عليه السلام، وهو ما كان جارياً مجرى الرسائل والكتب، ويدخل في ذلك العهد والوصايا. وقد أورد في هذا الباب ما هو بالباب الأول أشبه، نحو كلامه عليه السلام لشريح القاضي لما اشترى داراً، وكلامه لشريح بن هانيء لما جعله على مقدمته إلى الشام. وسمي ما يكتب للولاة عهداً اشتقاقاً من قولهم: عهدت إلى فلان، أي أوصيته.

من كتاب له إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة

الأصل: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، جبهة الأنصار وسنام العرب. أما بعد، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه. إن الناس طعنوا عليه، فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه، وأقل عتابه. وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف، وأرفق حدائهما العنيف. وكان من عائشة فيه فلتة غضب، فأتيت له قوم قتلوه، وبايعني الناس غير مستكرهين، ولا مجبرين بل طائعين مخيرين. وأعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها، وجاشت جيش المرجل، وقامت الفتنة على القطب، فأسرعوا إلى أميركم، وبادروا جهاد عدوكم. إن شاء الله. الشرح: قوله: "جبهة الأنصار"، يمكن أن يريد جماعة الأنصار، فإن الجبهة في اللغة الجماعة ويمكن أن يريد به سادة الأنصار وأشرفهم، لأن جبهة الإنسان أعلى أعضائه، وليس يريد بالأنصار هاهنا بني قيلة، بل الأنصار هاهنا الأعوان. قوله عليه السلام: "وسنام العرب"، أي أهل الرفعة والعلو منهم، لأن السنام أعلى أعضاء البعير. قوله عليه السلام: "أكثر استعتابه وأقل عتابه"، الاستعتاب: طلب العتبي، وهي الرضا، قال: كنت أكثر طلب رضاه، وأقل عتابه وتعنيفه على الأمور، وأما طلحة والزبير فكانا شديدين عليه. والوجيف: سير سريع، وهذا مثل للمشمزين في الطعن عليه، حتى إن السير السريع أبطأ ما يسيران في أمره، والحداء العنيف أرفق ما يحرضان به عليه ودار الهجرة: المدينة. وقوله: "قد قلعت بأهلها وقلعوا بها"، الباء هاهنا زائدة في أحد الموضعين، وهو الأول، ومعنى "من" في الثاني، يقول: فارقت

أهلها وفارقوها، ومنه قولهم: "هذا منزل قلعة" أي ليس بمستوطن، وجاشت: اضطربت. والمرجل: القدر.
ومن لطيف الكلام قوله عليه السلام: "فكنت رجلاً من المهاجرين"، فإن في ذلك من التخلص والتبري ما لا يخفى على المتأمل، ألا ترى أنه لم يبق عليه في ذلك حجة لطاعن، حيث كان قد جعل نفسه كواحد من عرض المهاجرين، الذين بنفر يسير منهم انعقدت خلافة أبي بكر، وهم أهل الحل والعقد، وإنما كان الإجماع حجة لدخولهم فيه.
ومن لطيف الكلام أيضاً قوله: "فأتيت له قوم قتلوه"، ولم يقل: "أتاح الله له قوماً"، ولا قال: "أتاح له الشيطان قوماً"، وجعل الأمر مبهماً.

وقد ذكر أن خط الرضي رحمه الله "مستكرهين" بكسر الراء، والفتح أحسن وأصوب، وإن كان قد جاء: استكرهت الشيء. بمعنى كرهته.

وقال الراوندي: المراد بدار الهجرة هاهنا الكوفة التي هاجر أمير المؤمنين عليه السلام إليها، وليس بصحيح، بل المراد المدينة، وسياق الكلام يقتضي ذلك، ولأنه كان حين كتب هذا الكتاب إلى أهل الكوفة بعيداً عنهم، فكيف يكتب إليهم يخبرهم عن أنفسهم.

الإمام علي عليه السلام في طريقه إلى البصرة وروى محمد بن إسحاق عن عمه عبد الرحمن بن يسار القرشي، قال: لما نزل علي عليه السلام الربذة متوجهاً إلى البصرة بعث إلى الكوفة محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق، وكتب إليهم هذا الكتاب، وزاد في آخره: فحسي بكم إخواناً، وللدين أنصاراً، فانفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون !.

وروى أبو مخنف، قال: حدثني الصقعب، قال: سمعت عبد الله بن جنادة يحدث أن علياً عليه السلام لما نزل الربذة بعث هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى أبي موسى الأشعري، وهو الأمير يومئذ على الكوفة، لينفر إليه الناس، وكتب إليه معه: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. أما بعد، فإني قد بعثت إليك هاشم بن عتبة لتشخص إلي من قبلك من المسلمين ليتوجهوا إلى قوم نكثوا بيعتي، وقتلوا شيعتي، وأحدثوا في الإسلام هذا الحدث العظيم، فاشخص بالناس إلي معه حين يقدم عليك، فإني لم أولك المصير الذي أنت فيه، ولم أقرك عليه إلا لتكون من أعواني على الحق، وأنصاري على هذا الأمر، والسلام.

فأما رواية محمد بن إسحاق فإنه قال: لما قدم محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر الكوفة، استنفروا الناس، فدخل قوم منهم على أبي موسى ليلاً، فقالوا له: أشر علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى علي عليه السلام، فقال: أما سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم، وأما سبيل الدنيا فاشخصوا معهم. فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج. وبلغ ذلك محمد بن علي فأغلظا لأبي موسى، فقال أبو موسى: والله إن بيعة عثمان لفي عنق علي وعنقي وأعناقكم، ولو أردنا قتالاً ما كنا لنبدأ بأحد قبل قتلة عثمان، فخرجنا من عنده، فلحقنا بعلي عليه السلام، فأخبراه الخبر.

وأما رواية أبي مخنف، فإنه قال: إن هاشم بن عتبة لما قدم الكوفة، دعا أبو موسى السائب بن مالك الأشعري، فاستشاره، فقال: اتبع ما كتب به إليك. فأب ذلك، وحبس الكتاب، وبعث إلى هاشم يتوعده ويخوفه.

قال السائب: فأتيت هاشماً فأخبرته برأي أبي موسى، فكتب إلى علي عليه السلام: لعبد الله علي أمير المؤمنين من هاشم بن عتبة. أما بعد يا أمير المؤمنين، فإني قدمت بكتابك على امرئ مشاق بعيد الود، ظاهر الغل والشنآن، فتهددني بالسجن، وخوفني بالقتل، وقد كتبت إليك هذا الكتاب مع المحل بن خليفة، أخي طيء، وهو من شيعتك وأنصارك، وعنده علم ما قبلنا، فأسأله عما بدا لك، واكتب إلي برأيك والسلام.

قال: فلما قدم المحل بكتاب هاشم علي عليه السلام سلم عليه، ثم قال: الحمد لله الذي أدى الحق إلى أهله، ووضع موضعه، فكره ذلك قوم قد والله كرهوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بارزوه وجاهدوه، فرد الله عليهم كيدهم في نحورهم، وجعل دائرة السوء عليهم. والله يا أمير المؤمنين لنجاهدكم معك في كل موطن، حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل بيته، إذ صاروا أعداء لهم بعده.

فرحب به علي عليه السلام، وقال له خيراً، ثم أجلسه إلى جانبه، وقرأ كتاب هاشم، وسأله عن الناس وعن أبي موسى، فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما أثق به ولا آمنه على خلافك، إن وجد من يساعده على ذلك. فقال علي عليه السلام: والله ما كان عندي بمؤمن ولا ناصح، ولقد أردت عزله فأتاني الأشر، فسألني أن أقره، وذكر أن أهل الكوفة به راضون فأقرته.

وروى أبو مخنف، قال: وبعث علي عليه السلام من الربذة بعد وصول المحل بن خليفة، أخي طيء، عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى، وكتب معهما:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، أما بعد يا بن الحائك، يا عاض أير أبيه، فوالله إني كنت لأرى أن بعدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلاً، ولا جعل لك فيه نصيباً، سيمنعك من رد أمري والانتراء علي. وقد بعثت إليك ابن عباس وابن أبي بكر فخلهما والمصر وأهله، واعتزل عملنا مذموماً مدحوراً. فإن فعلت وإلا فإني قد أمرتهما أن يباذلك على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين. فإذا ظهرا عليك قطعك إرباً إرباً، والسلام على من شكر النعمة، ووفى بالبيعة، وعمل برجاء العاقبة.

قال أبو مخنف: فلما أبطأ ابن عباس وابن أبي بكر عن علي عليه السلام، ولم يدر ما صنعنا، رحل عن الربذة إلى ذي قار فترها، فلما نزل ذا قار، بعث إلى الكوفة الحسن ابنه عليه السلام وعمار بن ياسر وزيد بن صوحان وقيس بن سعد بن عباد، ومعهم كتاب إلى أهل الكوفة، فأقبلوا حتى كانوا بالقادسية، فتلقاهم الناس، فلما دخلوا الكوفة قرأوا كتاب علي، وهو: من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى من بالكوفة من المسلمين: أما بعد، فإني خرجت مخرجي هذا، إما ظالماً، وإما مظلوماً، وإما باغياً، وإما مبيعاً علي، فأنشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلا نفر إلي، فإن كنت مظلوماً أعاني، وإن كنت ظالماً استعيني. والسلام.

قال أبو مخنف: فحدثني موسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، قال: أقبلنا مع الحسن وعمار بن ياسر من ذي قار، حتى نزلنا القادسية، فترل الحسن وعمار، ونزلنا معهما، فاحتبي عمار بحمائل سيفه، ثم جعل يسأل الناس عن أهل الكوفة وعن حالهم، ثم سمعته يقول: ما تركت في نفسي حزة أهم إلي من ألا نكون نبشنا عثمان من قبره، ثم أحرقناه بالنار. قال: فلما دخل الحسن وعمار الكوفة، اجتمع إليهما الناس، فقام الحسن، فاستنفر الناس، فحمد الله وصلى على رسوله، ثم

قال: أيها الناس، إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين، وأعدل من تعدلون، وأفضل من تفضلون، وأوفى من تبايعون، من لم يعبه القرآن، ولم تجهله السنة ولم تقعد به السابقة، إلى من قرب الله تعالى إلى رسوله قرابتين: قرابة الدين وقرابة الرحم، إلى من سبق الناس إلى كل مآثرة، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون فقرب منه وهم متباعدون، وصلى معه وهم مشركون، وقاتل معه وهم منهزمون، وبارز معه وهم محجمون، وصدقه وهم يكذبون. إلى من لم ترد له رواية ولا تكافأ له سابقة، وهو يسألكم النصر، ويدعوكم إلى الحق، ويأمركم بالمسير إليه، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه، ومثلوا بعماله، وانتهبوا بيت ماله. فاشخصوا إليه رحمكم الله، فمروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر، واحضروا بما يحضر به الصالحون.

قال أبو مخنف: حدثني جابر بن يزيد، قال: حدثني تميم بن حذيم الناجي، قال: قدم علينا الحسن بن علي عليه السلام وعمار بن ياسر، يستنفران الناس إلى علي عليه السلام، ومعهما كتابه، فلما فرغا من قراءة كتابه، قام الحسن - وهو فتي حدث، والله إني لأرثي له من حداثة سنه وصعوبة مقامه - فرماه الناس بأبصارهم وهم يقولون: اللهم سدد منطق ابن نبينا! فوضع يده على عمود يتساند إليه، وكان علياً من شكوى به، فقال: الحمد لله العزيز الجبار، الواحد القهار، الكبير المتعال، "سواة منكم من أصر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار". أحمده على حسن البلاء، وتظاهر النعماء، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدة ورخاء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، امتن علينا بنبوته، واختصه برسالته، وأنزل عليه وحيه، واصطفاه على جميع خلقه، وأرسله إلى الإنس والجن، حين عبدت الأوثان وأطيع الشيطان، وجحد الرحمن، فصلى الله عليه وعلى آله وجزاه أفضل ما جزى المسلمين. أما بعد فإني لا أقول لكم إلا ما تعرفون، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - أرشد الله أمره، وأعز نصره - بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب، وإلى العمل بالكتاب، والجهاد في سبيل الله، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون، فإن في آجله ما تحبون إن شاء الله. ولقد علمتم أن علياً صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، وأنه يوم صدق به لفي عشرة من سنه، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع مشاهدته. وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم راضياً عنه، حتى غمضه بيده وغسله وحده، والملائكة أعوانه، والفضل ابن عمه ينقل إليه الماء، ثم أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دينه وعداته، وغير ذلك من أموره، كل ذلك من من الله عليه. ثم والله ما دعا إلى نفسه، ولقد تذاك الناس عليه تذاك الإبل الهيم عند ورودها، فبايعوه طائعين، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدث أحدثه، ولا خلاف أتاه حسداً له وبغياً عليه. فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته، والجد والصبر والاستعانة بالله والخوف إلى ما دعاكم إليه أمير المؤمنين. عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليائه وأهل طاعته، وألهمنا وإياكم تقواه، وأعاننا وإياكم على جهاد أعدائه. واستغفر الله العظيم لي ولكم. ثم مضى إلى الرحبة، فهيأ منزلاً لأبيه أمير المؤمنين.

قال جابر: فقلت لتميم: كيف أطاق هذا الغلام ما قد قصصته من كلامه؟ فقال: ولما سقط عني من قوله أكثر، ولقد حفظت بعض ما سمعت.

قال: ولما نزل علي عليه السلام ذا قار، كتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر: أما بعد، فإني أحبك أن علياً قد نزل ذا قار، وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا، فهو بمنزلة الأشقر، إن تقدم عقر، وإن تأخر نحر، فدعت حفصة جوارى لها يتغنين ويضربن بالدفوف، فأمرتهن أن يقلن في غنائهن: ما الخير ما الخير، علي في السفر، كالفرس الأشقر، إن تقدم عقر، وإن تأخر نحر.

وجعلت بنات الطلقاء يدخلن على حفصة، ويجمعن لسماع ذلك الغناء. فبلغ أم كلثوم بنت علي عليه السلام، فليست جلابيبها، ودخلت عليهن في نسوة متكرات، ثم أسفرت عن وجهها، فلما عرفتها حفصة خجلت، واسترجعت، فقالت أم كلثوم: لئن تظاهرتما عليه منذ اليوم، لقد تظاهرتما على أخيه من قبل، فأنزل الله فيكما ما أنزل! فقالت حفصة: كفى رحمك الله! وأمرت بالكتاب فمزق، واستغفرت الله.

قال أبو مخنف: روى هذا جرير بن يزيد، عن الحكم، ورواه الحسن بن دينار، عن الحسن البصري. وذكر الواقدي مثل ذلك، وذكر المدائني أيضاً مثله، قال: فقال سهل بن حنيف في ذلك هذه الأشعار:

فما للنساء وما للسباب!

لك الخير من هنك ذاك الحجاب

يعرفها الذنب نبج الكلاب

مشوم، فيا قبح ذاك الكتاب!

عذرا الرجال بحرب الرجال

أما حسبنا ما أتينا به

ومخرجها اليوم من بيتها

إلى أن أتانا كتاب لها

قال: فحدثنا الكلبي، عن أبي صالح أن علياً عليه السلام لما نزل ذا قار في قلة من عسكره، صعد الزبير منبر البصرة، فقال: ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي، فأبيته بياتاً، وأصبحه صباحاً، قبل أن يأتيه المدد! فلم يجبه أحد، فزل واجماً، وقال: هذه والله الفتنة التي كنا نحدث بها! فقال له بعض مواليه: رحمك الله يا أبا عبد الله! تسميها فتنة ثم نقاتل فيها! فقال: ويحك! والله إنا لنبصر ثم لا نصبر. فاسترجع المولى ثم خرج في الليل فاراً إلى علي عليه السلام فأخبره، فقال: اللهم عليك به! قال أبو مخنف: ولما فرغ الحسن بن علي عليه السلام من خطبته، قام بعده عمار، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أيها الناس، أخو نبيكم وابن عمه يستنفركم لنصر دين الله، وقد بلاكم الله بحق دينكم، وحرمة أمكم، فحق دينكم أوجب، وحرمة أعظم. أيها الناس، عليكم بإمام لا يؤدب، وفقه لا يعلم، وصاحب بأس لا ينكل، وذو سابقة في الإسلام ليست لأحد، وإنكم لو قد حضرتموه بين لكم أمركم إن شاء الله.

قال: فلما سمع أبو موسى خطبة الحسن وعمار، قام فصعد المنبر، وقال: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد، فجمعنا بعد الفرقة، وجعلنا إخواناً متحابين بعد العداوة، وحرّم علينا دماءنا وأموالنا، قال الله سبحانه: "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل".

وقال تعالى: "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها". فاتقوا الله عباد الله، وضعوا أسلحتكم، وكفوا عن قتال إخوانكم.

أما بعد يا أهل الكوفة، إن تطيعوا الله باديًا، وتطيعوني ثانيًا، تكونوا جرثومة من جراثيم العرب، يأوي إليكم المضطر، ويأمن فيكم الخائف. إن عليًا إنما يستنفركم لجهاد أمكم عائشة وطلحة والزبير حوارى رسول الله ومن معهم من المسلمين، وأنا أعلم بهذه الفتن أنها إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت أسفرت، إني أخاف عليكم أن يلتقي غاران منكم فيقتلا ثم يتركا كالأحلاس. الملقاة بنجوة من الأرض، ثم يبقى رجرجة من الناس، لا يأمرن بالمعروف، ولا ينهون عن منكر. إنما قد جاءتكم فتنة كافرة لا يدري من أين تؤتى! تترك الحليم حيران! كأني أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمس يذكر الفتن، فيقول: "أنت فيها نائمًا خير منك قاعدًا، وأنت فيها جالسًا خير منك قائمًا، وأنت فيها قائمًا خير منك ساعيًا". فثلموا سيوفكم وقصفوا رماحكم، وانصلوا سهامكم، وقطعوا أوتاركم، وخلوا قريشًا ترتق فتقها، وترأب صدعها، فإن فعلت فلأنففسها ما فعلت، وإن أبت فعلى أنفسها ما جنت، سمنها في أدبها. استنصحي ولا تستغشوني، وأطيعوني ولا تعصوني، يتبين لكم رشدكم، ويصلى هذه الفتنة من جناها.

فقام إليه عمار بن ياسر، فقال: أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك! قال: نعم هذه يدي مما قلت، فقال: إن كنت صادقًا فلنما عنك بذلك وحدك، واتخذ عليك الحجة، فالزم بيتك ولا تدخلن في الفتنة، أما إني أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليًا بقتال الناكثين، وسمى له فيهم من سمي، وأمره بقتال القاسطين، وإن شئت لأقيمن لك شهودًا يشهدون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما نكأك وحدك، وحذرنا من الدخول في الفتنة. ثم قال له: أعطني يدك على ما سمعت. فمد إليه يده، فقال له عمار: غلب الله من غالبه وجاهده! ثم جذبه فتزل عن المنبر. وروى محمد بن جرير الطبري في "التاريخ" قال: لما أتى عليًا عليه السلام الخبر وهو بالمدينة بأمر عائشة وطلحة والزبير، وأنهم قد توجهوا نحو العراق، خرج يبادر، وهو يرحو أن يدركهم ويردهم، فلما انتهى إلى الربرة أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا، فأقام بالربة أيامًا، وأتاه عنهم أنهم يريدون البصرة، فسر بذلك، وقال: إن أهل الكوفة أشد لي حبا، وفيهم رؤساء العرب وأعلامهم. فكتب إليهم: إني قد اخترتكم على الأمصار، وإني بالأثر. قال أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله: كتب علي عليه السلام من الربرة إلى أهل الكوفة: أما بعد، إني قد اخترتكم، وآثرت التزول بين أظهركم، لما أعرف من مودتكم وحبكم لله ورسوله، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق، وقفى الذي عليه.

قال أبو جعفر: فأول من بعثه علي عليه السلام من الربرة إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، فجاء أهل الكوفة إلى أبي موسى، وهو الأمير عليهم ليستشيروهم في الخروج إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال لهم: أما سبيل الآخرة فأن تقعدوا، وأما سبيل الدنيا فأن تخرجوا.

وبلغ المحمدين قول أبي موسى الأشعري، فأتياه وأغلظا له، فأغلظ لهما، وقال: لا يحل لك القتال مع علي حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان.

وقالت أخت علي بن عدي، من بني عبد العزى بن عبد شمس، وكان أخوها علي بن عدي من شيعة علي عليه السلام، وفي جملة عسكره:

لا هم فاعقر بعلي جملة

ولا تبارك في بعير حملة

ألا علي بن عدي ليس له

قال أبو جعفر: ثم أجمع علي عليه السلام على المسير من الريزة إلى البصرة، فقام إليه رفاعه ابن رافع، فقال: يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟ قال: أما الذي نريد وننوي فإصلاح، إن قبلوا منا وأجابوا إليه، قال، فإن لم يقبلوا، قال: ندعوهم ونعطيههم من الحق ما نرجو أن يرضوا به، قال: فإن لم يرضوا! قال: ندعهم ما تركونا: قال: فإن لم يتركونا، قال: نمتنع منهم، قال: فنعم إذاً.

وقام الحجاج بن غزيرة الأنصاري، فقال: والله يا أمير المؤمنين لأرضينك بالفعل، كما أرضيتني منذ اليوم بالقول. ثم قال:

دراكها دراكها قبل الفوت

وانفر بنا واسم بنا نحو الصوت

لا وألت نفسي إن خفت الموت

والله لننصرن الله عز وجل كما سمانا أنصاراً.

قال أبو جعفر رحمه الله: وسار علي عليه السلام نحو البصرة، ورايته مع ابنه محمد بن الحنفية، وعلى ميمته عبد الله بن عباس، وعلى ميسرته عمر بن أبي سلمة، وعلي عليه السلام في القلب على ناقة حمراء، يقود فرساً كميئاً. فتلقيه بغير غلام من بني سعد بن ثعلبة، يدعى مرة، فقال: من هؤلاء؟ قيل: هذا أمير المؤمنين، فقال: سفرة قانية، فيها دماء من نفوس قانية. فسمعها علي عليه السلام فدعاه، فقال: ما اسمك؟ قال: مرة، قال أمر الله عيشك! أكاهن سائر اليوم؟ قال: بل عائف، فخلى سبيله. ونزل بغير فأتته أسد وطىء، فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: الزموا قراركم، ففي المهاجرين كفاية. وقدم رجل من الكوفة فيداً، فأتى علياً عليه السلام، فقال له: من الرجل؟ قال: عامر بن مطرف، قال: الليثي؟ قال: الشيباني، قال: أخبرني عما وراءك؟ قال: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبك، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس لك بصاحب. فقال عليه السلام: ما أريد إلا الصلح إلا أن يرد علينا.

قال أبو جعفر: وقدم عليه عثمان بن حنيف، وقد نتف طلحة والزبير شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين، بعثني ذا الحية، وجئتكم أمرد، فقال: أصبت خيراً وأجراً. ثم قال: أيها الناس، إن طلحة والزبير بايعاني، ثم نكثاني بيعتي، وألبا علي الناس، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما علي، والله إنهما ليعلمان أني لست بدوئهما. اللهم فاحلل ما عقدا، ولا تبرم ما قد أحكما في أنفسهما، وأرهما المساءة فيما قد عملا.

قال أبو جعفر: وعاد محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى علي عليه السلام، فلقيه وقد انتهى إلى ذي قار، فأخبراه الخبر، فقال علي عليه السلام لعبد الله بن العباس: اذهب أنت إلى الكوفة، فادع أبا موسى إلى الطاعة، وحذره من العصيان والخلاف، واستنفر الناس. فذهب عبد الله بن العباس حتى قدم الكوفة، فلقي أبا موسى، واجتمع الرؤساء من أهل الكوفة. فقام أبو موسى فخطبهم، وقال: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبوه في مواطن كثيرة، فهم أعلم بالله ممن لم يصحبه، وإن لكم علي حقاً، وأنا مؤديه إليكم، أمر ألا تستخفوا بسلطان الله، وألا تجترئوا على الله أن تأخذوا كل من قدم عليكم من أهل المدينة في هذا الأمر، فتردوه إلى المدينة، حتى تجتمع الأمة على إمام ترتضي به، إنها

فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، أغمدوا سيوفكم، وأنصلوا أسيوفكم، واقطعوا أوتار قسيكم، حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة.

قال أبو جعفر رحمه الله: فرجع ابن عباس إلى علي عليه السلام، فأخبره، فدعا الحسن ابنه عليه السلام وعمار بن ياسر، وأرسلهما إلى الكوفة، فلما قدماها كان أول من أتاها مسروق بن الأجدع، فسلم عليهما، وأقبل على عمار، فقال: يا أبا اليقظان، علام قتلتم أمير المؤمنين، قال: على شتم أعراضنا، وضرب أبشارنا. قال: فوالله ما عاقبتكم بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين. ثم خرج أبو موسى فلقى الحسن عليه السلام فضمه إليه، وقال لعمار: يا أبا اليقظان، أغدوت فيمن غدا على أمير المؤمنين، وأحللت نفسك مع الفجار؟ قال: لم أفعل، ولم تسوعي؟ فقطع عليهما الحسن، وقال لأبي موسى: يا أبا موسى. لم تثبط الناس عنا، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، وما مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء، قال أبو موسى: صدقت بأبي وأمي! ولكن المستشار مؤتمن، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ستكون فتنة". وذكر تمام الحديث. فغضب عمار وساء ذلك، وقال: أيها الناس، إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك له خاصة، وقام رجل من بني تميم فقال لعمار: اسكت أيها العبد! أنت أمس مع الغوغاء، وتسافه أميرنا اليوم! وثار زيد بن صوحان وطبقته، فانتصروا لعمار، وجعل أبو موسى يكف الناس ويردعهم عن الفتنة. ثم انطلق حتى صعد المنبر، وأقبل زيد بن صوحان ومعه كتاب من عائشة إليه خاصة، وكتاب منها إلى أهل الكوفة عامة، تثبطهم عن نصرته علي، وتأمروهم بلزوم الأرض، وقال: أيها الناس، انظروا إلى هذه، أمرت أن تقر في بيتها، وأمرنا نحن أن نقاتل، حتى لا تكون فتنة، فأمرتنا بما أمرت به، وركبت ما أمرنا به، فقام إليه شيبث بن ربعي، فقال له: وما أنت وذاك أيها العماني الأحق! سرقت أمس بجلولاء فقطعك الله، وتسب أم المؤمنين! فقام زيد، وشال يده المقطوعة وأومأ بيده إلى أبي موسى وهو على المنبر، وقال له: يا عبد الله بن قيس، أترد الفرات عن أمواجه! دع عنك ما لست تدركه، ثم قرأ: "آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا... الآيةين، ثم نادى: سيروا إلى أمير المؤمنين وصراط سيد المرسلين، وانفروا إليه أجمعين. وقام الحسن بن علي عليه السلام، فقال: أيها الناس، أجيئوا دعوة إمامكم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة، وخير في العاقبة، فأجيئوا دعوتنا، وأعينونا على أمرنا، أصلحكم الله! وقام عبد خير فقال: يا أبا موسى، أخبرني عن هذين الرجلين، ألم يبايعا علياً؟ قال: بلى، قال: أفأحدث علي حدثاً يحل به نقض بيعته؟ قال: لا أدري، قال: لا دريت ولا أتيت! إذا كنت لا تدري فنحن تاركوك حتى تدري. أخبرني: هل تعلم أحداً خارجاً عن هذه الفرق الأربع: علي بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة رابعة بالحجاز قعود لا يجي بهم فيء، ولا يقاتل بهم عدو! فقال أبو موسى: أولئك خير الناس، قال عبد خير: اسكت يا أبا موسى، فقد غلب عليك غشك.

قال أبو جعفر: وأتت الأخبار علياً عليه السلام باختلاف الناس بالكوفة، فقال للأشتر: أنت شفعت في أبي موسى أن أقره على الكوفة، فاذهب فأصلح ما أفسدت، فقام الأشتر، فشخص نحو الكوفة، فأقبل حتى دخلها والناس في المسجد

الأعظم، فجعل لا يمر بقبيلة إلا دعاهم، وقال: اتبعوني إلى القصر، حتى وصل القصر، فاقتحمه وأبو موسى يومئذ يخطب الناس على المنبر، ويشبطهم، وعمار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول: اعتزل عملنا وتنح عن منبرنا، لا أم لك! قال أبو جعفر: فروى أبو مريم الثقفي، قال!: والله إني لفي المسجد يومئذ إذ دخل علينا غلمان أبي موسى يشتدون ويبادرون أبا موسى: أيها الأمير، هذا الأشر قد جاء، فدخل القصر، فضرنا وأخرجنا. فترل أبو موسى من المنبر، وجاء حتى دخل القصر، فصاح به الأشر: أخرج من قصرنا لا أم لك، أخرج الله نفسك! فوالله إنك لمن المنافقين قديماً. قال: أجلي هذه العشية، قال: قد أجلتك، ولا تبيتن في القصر الليلة. ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشر، وقال: إني قد أخرجته وعزلته عنكم. فكف الناس حينئذ عنه.

قال أبو جعفر: فروى الشعبي، عن أبي الطفيل، قال: قال! علي عليه السلام: يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل واحد، فوالله لقعدت على نجفة ذي قار، فأحصيتهم واحداً واحداً، فما زادوا رجلاً، ولا نقصوا رجلاً. نبذة من حياة عائشة ونسبها وينبغي أن نذكر في هذا الموضع طرفاً من نسب عائشة وأخبارها، وما يقوله أصحابنا المتكلمون فيها، جرياً على عادتنا في ذكر مثل ذلك كلما مررنا بذكر أحد من الصحابة. أما نسبها، فإنها ابنة أبي بكر، وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم، وأمها أم رومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن تميم بن مالك بن كنانة. تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين - وقيل بثلاث - وهي بنت ست سنين - وقيل بنت سبع سنين - وبني عليها بالمدينة وهي بنت تسع، لم يختلفوا في ذلك.

وكانت تذكر لجبير بن مطعم وتسمى له، وورد في الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري عائشة في المنام في سرقة حرير، متوفى خديجة رضي الله عنها، فقال: إن يكن هذا من عند الله يمضه، فتزوجها بعد موت خديجة بثلاث سنين، وتزوجها في شوال، وأعرس بها بالمدينة في شوال، على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره إلى المدينة. وقال ابن عبد البر في كتاب "الاستيعاب": كانت عائشة تحب أن تدخل النساء من أهلها وأحبته في شوال على أزواجهن، وتقول: هل كان في نسائه أحظى عنده مني وقد نكحني وبني علي في شوال! قلت: قرىء هذا الكلام على بعض الناس، فقال: كيف رأت الحال بينها وبين أحمائها وأهل بيت زوجها! وروى أبو عمر بن عبد البر، في الكتاب المذكور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة، فكان سنهما معه تسع سنين، ولم ينكح بكرة غيرها، واستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكنية، فقال لها: أكتني بابنك عبد الله بن الزبير - يعني ابن أختها - فكانت كنيته أم عبد الله، وكانت فقيهة عالمة بالفرائض والشعر والطب. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام"، وأصحابنا يحملون لفظة النساء في هذا الخبر على زوجاته، لأن فاطمة عليها السلام عندهم أفضل منها، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنها سيدة نساء العالمين".

وقدفت بصفوان بن المعطل السلمي في سنة ست، منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزاة بني المصطلق -

وكانت معه - فقال فيها أهل الإفك ما قالوا، ونزل القرآن ببراءتها.

وقوم من الشيعة زعموا أن الآيات التي في سورة النور لم تنزل فيها، وإنما أنزلت في مارية القبطية، وما قذفت به مع الأسود القبطي. وجحدهم لإنزال ذلك في عائشة جحد لما يعلم ضرورة من الأخبار المتواترة. ثم كان من أمرها وأمر حفصة وما جرى لهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر الذي أسره على إحداهما ما قد نطق الكتاب العزيز به. واعتزل! رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه كلهن، واعتزلهما معهن ثم صالحهن، وطلق حفصة ثم راجعها، وجرت بين عائشة وفاطمة إبلاغات، وحديث يوغر الصدور، فتولد بين عائشة وبين علي عليه السلام نوع ضغينة، وانضم إلى ذلك إشارته على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة الإفك بضرب الجارية وتقريرها وقوله: "إن النساء كثير". ثم جرى حديث صلاة أبي بكر للناس، فترجم الشيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك، وأنه إنما صلى بالناس عن أمر عائشة ابنته، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج متحاملاً وهو مثقل، فتحاه عن المحراب. وزعم معظم المحدثين أن ذلك كان عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله، ثم اختلفوا، فمنهم من قال: نحاه وصلى هو بالناس، ومنهم من قال: بل ائتم بأبي بكر كسائر الناس، ومنهم من قال: كان الناس يصلون بصلاة أبي بكر، وأبو بكر يصلي لصلاة رسول الله.

ثم كان منها في أمر عثمان، وتضريب الناس عليه، ما قد ذكرناه في مواضعه، ثم تلا ذلك يوم الجمل. واختلف المتكلمون في حالها وحال من حضر واقعة الجمل، فقالت الإمامية: كفر أصحاب الجمل كلهم، الرؤساء والأتباع. وقال قوم من الحشوية والعامية: اجتهدوا فلا إثم عليهم، ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ علي عليه السلام وأصحابه.

وقال قوم من هؤلاء: بل نقول: أصحاب الجمل أخطأوا، ولكنه خطأ مغفور، وكخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند من قال بالأشبه، وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية.

وقال أصحابنا المعتزلة: كل أهل الجمل هالكون إلا من ثبتت توبته منهم، قالوا: وعائشة ممن ثبتت توبتها، وكذلك طلحة والزبير، أما عائشة فإنها اعترفت لعلي عليه السلام يوم الجمل بالخطأ، وسألته العفو، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم، وأنها كانت تقول: ليتني كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة، كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - وثكلتهم - ولم يكن يوم الجمل! وأنها كانت تقول: ليتني مت قبل يوم الجمل، وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبل خمارها. وأما الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ لما أذكره علي عليه السلام ما أذكره. وأما طلحة فإنه مر به - وهو صريع - فارس، فقال له: قف، فوقف، قال: من أي الفريقين أنت؟ قال: من أصحاب أمير المؤمنين، قال: أقعدني، فأقعده، فقال: امدد يدك أبايعك لأمر المؤمنين، فبايعه.

وقال شيوخنا: ليس لقائل أن يقول: ما يروى من أخبار الآحاد بتوبتهم لا يعارض ما علم قطعاً من معصيتهم. قالوا: لأن التوبة إنما يحكم بها للمكلف على غالب الظن في جميع المواضع، لا على القطع، ألا ترى أنا نجوز أن يكون من أظهر التوبة منافقاً وكاذباً، فبان أن المرجع في قبولها في كل موضع إنما هو إلى الظن، فجاز أن يعارض ما علم من معصيتهم بما يظن من توبتهم.

ومن كتاب له إليهم بعد فتح البصرة

الأصل: وجزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيكم أحسن ما يجزي العاملين بطاعته، والشاكرين لنعمته، فقد سمعتم وأطعتم، ودعيتم فأجبتم.

الشرح: موضع قوله: "من أهل مصر" نصب على التمييز، ويجوز أن يكون حالاً. فإن قلت: كيف يكون تمييزاً وتقديره: وجزاكم الله متمدين أحسن ما يجزي المطيع، والتمييز لا يكون إلا جامداً، وهذا مشتق! قلت: إنهم أجازوا كون التمييز مشتقاً في نحو قولهم: "ما أنت جارة"، وقولهم: "يا سيداً ما أنت من سيد". وما يجوز أن تكون مصدرية، أي أحسن جزاء العاملين، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، ويكون قد حذف العائد إلى الموصول، وتقديره أحسن الذي يجزي به العاملين.

ومن كتاب له كتبه لشريح بن الحارث قاضيه

الأصل: روي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين عليه السلام اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك، فاستدعى شريحاً، وقال له: بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً، وأشهدت فيه شهوداً. فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فنظر إليه نظر المغضب، ثم قال له: يا شريح، أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك، ولا يسألك عن بينتك، حتى يخرجك منها شاخصاً، ويسلمك إلى قبرك خالصاً. فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك، فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة.

أما إنك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت، لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة، فلم تتركب في شراء هذه الدار بالدرهم فما فوق، والنسخة هذه: "هذا ما اشترى عبد ذليل، من ميت قد أزعج للرحيل. اشترى منه داراً من دار الغرور، من جانب الفانين، وخطة الهالكين. وتجمع هذه الدار حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردى، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي. وفيه يشرع باب هذه الدار. اشترى هذا المغتر بالأمل، من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عز القناعة، والدخول في ذل الطلب والضراعة، فما أدرك هذا المشتري فيما اشترى من درك. فعلى مبطل أجسام الملوك، وسالب نفوس الجبابرة، ومزيل ملك الفراعنة، مثل كسرى وقيصر، وتبع وحير، ومن جمع المال على المال فأكثر، ومن بنى وشيد، وزحرف ونجد، وادخر واعتقد، ونظر بزعمه للولد - إشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض والحساب، وموضع الثواب والعقاب، إذا وقع الأمر بفصل القضاء، "وخسر هنالك المبطلون".

شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى، وسلم من علائق الدنيا".

نبذة من حياة شريح ونسبه

الشرح: هو شريح بن الحارث بن المنتجع بن معاوية بن جهم بن ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد الكندي، وقيل إنه حليف لكندة من بني الرائش.

وقال ابن الكلبي: ليس اسم أبيه الحارث، وإنما هو شريح بن معاوية بن ثور.

وقال قوم: هو شريح بن هانيء.

وقال قوم: هو شريح بن شراحيل. والصحيح أنه شريح بن الحارث، ويكنى أبا أمية. استعمله عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة، فلم يزل قاضياً ستين سنة، لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين في فتنه ابن الزبير، امتنع فيها من القضاء، ثم استعفى الحجاج من المعمل فأعفاه، فلزم منزله إلى أن مات، وعمر عمراً طويلاً، قيل: إنه عاش مائة سنة وثمانياً وستين، وقيل مائة سنة، وتوفي سنة سبع وثمانين.

وكان خفيف الروح، مزاحاً، فقدم إليه رجلاً، فأقر أحدهما بما ادعى به خصمه، وهو لا يعلم فقضى عليه، فقال لشريح: من شهد عندك بهذا، قال: ابن أخت خالك.

وقيل: إنه جاءته امرأته تبكي وتتظلم على خصمها، فما رق لها حتى قال له إنسان كان بحضرته: ألا تنظر أيها القاضي إلى بكائها! فقال: إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يكون.

وأقر علي عليه السلام شريحاً على القضاء مع مخالفته في مسائل كثيرة من الفقه المذكورة في كتب الفقهاء.

واستأذنه شريح وغيره من قضاة عثمان في القضاء أول ما وقعت الفرقة، فقال: اقضوا كما كنتم تقضون حتى تكون للناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي.

وسخط علي عليه السلام مرة عليه فطرده عن الكوفة ولم يعزله عن القضاء، وأمره بالمقام ببانقيا - وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر ساكنها اليهود - فأقام بها مدة، - حتى رضي عنه وأعادته إلى الكوفة. وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب "الاستيعاب": أدرك شريح الجاهلية، ولا يعد من الصحابة، بل من التابعين، وكان شاعراً محسناً، وكان سناً لا شعر في وجهه.

قوله عليه السلام: "وخطة الهالكين" بكسر الخاء، وهي الأرض التي يختطها الإنسان، أي يعلم عليها علامة بالخط ليعمرها، ومنه خطط الكوفة والبصرة.

وزخرف البناء، أي ذهب جدرانه بالزخرف، وهو الذهب.

ونجد: فرش المنزل بالوسائد، والنجاد الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما، والتنجيد: التزيين بذلك، ويجوز أن يريد بقوله: "نجد" رفع وعلا، من النجد، وهو المرتفع من الأرض، واعتقد: جعل لنفسه عقدة كالضيعة أو الذخيرة من المال الصامت.

"وإشخاصهم" مرفوع بالابتداء وخبره الجار والجرور المقدم، وهو قوله: "فعلى مبلبل أجسام الملوك". وموضع الاستحسان من هذا الفصل - وإن كان كله حسناً - أمران: أحدهما: أنه عليه السلام نظر إليه نظر مغضب، إنكاراً لاتباعه داراً بثمانين ديناراً، وهذا يدل على زهد شديد في الدنيا واستكثار للقليل منها، ونسبه هذا المشتري إلى الإسراف، وخوف من أن يكون ابتاعها بمال حرام.

الثاني: أنه أملى عليه كتاباً زهدياً وعظيماً، مماثلاً لكتب الشروط التي تكتب في ابتياع الأملاك، فإنهم يكتبون: "هذا ما اشترى فلان من فلان، اشترى منه داراً من شارع كذا وخطة كذا، ويجمع هذه الدار حدود أربعة، فحد منها ينتهي إلى

دار فلان، وحد آخر ينتهي إلى ملك فلان، وحد آخر ينتهي إلى ما كان يعرف بفلان، وهو الآن معروف بفلان، وحد آخر ينتهي إلى كذا. ومنه شروع باب هذه الدار، وطريقها اشترى هذا المشتري المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمن مبلغه كذا وكذا ديناراً، أو درهماً، فما أدرك المشتري المذكور من درك فمرجوع به على من يوجب الشرع الرجوع به عليه". ثم تكتب الشهود في آخر الكتاب. شهد فلان ابن فلان بذلك، وشهد فلان ابن فلان به أيضاً، وهذا يدل على أن الشروط المكتوبة الآن قد كانت في زمن الصحابة تكتب مثلها أو نحوها، إلا أنا ما سمعنا عن أحد منهم أنه نقل صيغة الشرط الفقهي إلى معنى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام، ولا غرو فما زال سباقاً إلى العجائب والغرائب! فإن قلت: لم جعل الشيطان المغوي في الحد الرابع؟ قلت: ليقول: وفيه يشرع باب هذه الدار، لأنه إذا كان الحد إليه ينتهي كان أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيطنة والضلال.

ومن كتاب له كتبه إلى بعض أمراء جيشه

الأصل: فإن عادوا إلى ظل الطاعة، فذاك الذي ندب، وإن توافت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان فانهد بمن أطاعك إلى من عصاك، واستغن بمن انقاد معك، عمن تقاعس عنك، فإن المتكاره مغيبه خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه.

الشرح: انهد: أي انهض. وتقاسى، أي أبطأ وتأخر، والمتكاره: الذي يخرج إلى الجهاد من غير نية وبصيرة، وإنما يخرج كارهاً مرتاباً.

ومثل قوله عليه السلام: "إن المتكاره مغيبه خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه" قوله تعالى: "لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً".

ومن كتاب له إلى لأشعث

بن قيس وهو عامل أذربيجان

الأصل: وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك، ليس لك أن تفتت في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يديك مال من مال الله تعالى، وأنت من خزانته حتى تسلمه إلي، ولعلي ألا أكون شر ولاتك لك. والسلام.

الشرح: قد ذكرنا نسب أشعث بن قيس فيما تقدم، وأذربيجان: اسم أعجمي غير مصروف، الألف مقصورة، والذال ساكنة. قال حبيب:

كانت معرس عبدة ونكال

وأذربيجان احتيال، بعد ما

وقال الشماخ:

والنسبة إليه أذري بسكون الذال، هكذا القياس، ولكن المروي عن أبي بكر في الكلام الذي قاله عند موته: "ولتألم النوم على الصوف الأذري" بفتح الذال.

والطعمة بضم الطاء المهملة: المأكلة، ويقال: فلان خبيث الطعمة، أي رديء الكسب. والطعمة بالكسر لهيئة التطعم، يقول: إن عملك لم يسوغه الشرع والوالي من قبلي إياه، ولا جعله لك أكلاً، ولكنه أمانة في يدك وعنقك للمسلمين، وفوقك سلطان أنت له رعية فليس لك أن تفتت في الرعية الذين تحت يدك، يقال: افتات فلان على فلان، إذا فعل بغير إذنه ما سيئفه أن يستأذنه فيه، وأصله من الفوت وهو السبق، كأنه سبقه إلى ذلك الأمر.

وقوله: "ولا تخاطر إلا بوثيقة"، أي لا تقدم على أمر مخوف فيما يتعلق بالمال الذي تتولاه إلا بعد أن تتوثق لنفسك، يقال: أخذ فلان بالوثيقة في أمره، أي احتاط.

ثم قال له: "ولعلي لا أكون شر ولاتك"، وهو كلام يطيب به نفسه ويسكن به جأشه، لأن في أول الكلام إيحاشاً له، إذ كانت ألفاظه تدل على أنه لم يره أميناً على المال، فاستدرك ذلك بالكلمة الأخيرة، أي ربما تحمد خلافتي وولايتي عليك، وتصادف مني إحساناً إليك، أي عسى ألا يكون شكرك لعثمان ومن قبله أكثر من شكرك لي، وهذا من باب وعدك الخفي، وتسميه العرب الملت.

وأول هذا الكتاب: "من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى الأشعث بن قيس. أما بعد، فلولا هنات وهنات كانت منك، كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس، ولعل أمراً كان يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله عز وجل، وقد كان من بيعة الناس إياي ما قد علمت، وكان من أمر طلحة والزبير ما قد بلغك، فخرجت إليهما، فأبلغت في الدعاء، وأحسنيت في البقية، وإن عملك ليس لك بطعمة..."، إلى آخر الكلام، وهذا الكتاب كتبه إلى الأشعث بن قيس بعد انقضاء الجمل.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية الأصل: إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضاء، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى.

ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدي أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أي كنت في عزلة عنه، إلا أن تتجنى، فتجن ما بدا لك! والسلام.

الشرح: قد تقدم ذكر هذا الكلام في أثناء اقتصاص مراسلة أمير المؤمنين عليه السلام معاوية بجرير بن عبد الله البجلي، وقد ذكره أرباب السيرة كلهم، وأورده شيوخنا المتكلمون في كتبهم احتجاجاً على صحة الاختيار، وكونه طريقاً إلى الإمامة، وأول الكتاب: "أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا..." إلى آخر الفصل.

والمشهور المروي: "فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة"، أي رغبة عن ذلك الإمام الذي وقع الاختيار له.

والمروي بعد قوله: "ولاه الله بعد ما تولى"، وأصله جهنم وساءت مصيراً، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضوا بيعتي، فكان نقضهما كردتهما، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهما كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إلي فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك، واستعنت بالله عليك، وقد أكثر في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل الناس فيه، ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فخذعة الصبي عن اللبن، ولعمري يا معاوية إن نظرت بعقلك... إلى آخر الكلام.

وبعده: "واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعترض بهم الشورى، وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله البجلي، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع ولا قوة إلا بالله.

واعلم أن هذا الفصل دال بصريحه على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلمون، لأنه احتج على معاوية ببيعة أهل الحل والعقد له، ولم يراع في ذلك إجماع المسلمين كلهم، وقياسه علىبيعة أهل الحل والعقد لأبي بكر، فإنه ما روعي فيها إجماع المسلمين، لأن سعد بن عباد لم يبايع، ولا أحد من أهل بيته وولده، ولأن علياً وبني هاشم ومن انضوى إليهم لم يبايعوا في مبدأ الأمر، وامتنعوا، ولم يتوقف المسلمون في تصحيح إمامة أبي بكر وتنفيذ أحكامه على بيعتهم، وهذا دليل على صحة الاختيار وكونه طريقاً إلى الإمامة، وأنه لا يقدر في إمامته عليه السلام امتناع معاوية من البيعة وأهل الشام، فأما الإمامية فتحمل هذا الكتاب منه عليه السلام على التقية، وتقول: إنه ما كان يمكنه أن يصرح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال، ويقول له: أنا منصوص علي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعهود إلى المسلمين أن أكون خليفة فيهم بلا فصل، فيكون في ذلك طعن على الأئمة المتقدمين، وتفسد حاله مع الذين بايعوه من أهل المدينة، وهذا القول من الإمامية دعوى لو عضدها دليل لوجب أن يقال بها، ويصار إليها، ولكن لا دليل لهم على ما يذهبون إليه من الأصول التي تسوقهم إلى حمل هذا الكلام على التقية.

فأما قوله عليه السلام: "وقد أكثر في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله"، فيجب أن يذكر في شرحه ما يقول المتكلمون في هذه الواقعة..

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله: هذا الكلام حق وصواب، لأن أولياء الدم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته، ثم يرفعوا خصومهم إليه، فإن حكم بالحق استديمت إمامته، وإن حاد عن الحق انقضت خلافته، وأولياء عثمان الذين هم بنوه لم يبايعوا علياً عليه السلام، ولا دخلوا تحت طاعته، وكذلك معاوية ابن عم عثمان لم يبايع ولا أطاع، فمطالبتهم له بأن يقتص لهم من قاتلي عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان.

فإن قلت: هب أن القصاص من قتلة عثمان موقوف على ما ذكره عليه السلام أما كان يجب عليه لا من طريق القصاص أن ينهي عن المنكر! وأنتم تذهبون إلى أن النهي عن المنكر واجب على من هو سوقه، فكيف على الإمام الأعظم! قلت: هذا غير وارد هاهنا، لأن النهي عن المنكر إنما يجب قبل وقوع المنكر، لكيلا يقع، فإذا وقع المنكر، فأني يكون عنه! وقد نهي علي عليه السلام أهل مصر وغيرهم عن قتل عثمان قبل قتله مراراً، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغن شيئاً، وتفاقم الأمر حتى قتل، ولا يجب بعد القتل إلا القصاص، فإذا امتنع أولياء الدم من طاعة الإمام لم يجب عليه أن يقتص من

القاتلين، لأن القصاص حقهم، وقد سقط بغيهم على الإمام وخروجهم عن طاعته. وقد قلنا نحن فيما تقدم: إن القصاص إنما يجب على من باشر القتل، والذين باسروا قتل عثمان قتلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان، والذين كان معاوية يطالبهم بدم عثمان لم يباشروا القتل، وإنما كثروا السواد وحصروا عثمان في الدار، وأجلبوا عليه وشتموه وتوعدوه، ومنهم من تسور عليه داره ولم يترزل إليه، ومنهم من نزل فحضر محضر قتله ولم يشرك فيه، وكل هؤلاء لا يجب عليهم القصاص في الشرع.

إرسال علي عليه السلام جريراً إلى معاوية

وقد ذكرنا فيما تقدم شرح حال جرير بن عبد الله البجلي في إرسال علي عليه السلام إياه إلى معاوية مستقصى. وذكر الزبير بن بكار في "الموفقيات" أن علياً عليه السلام لما بعث جريراً إلى معاوية، خرج وهو لا يرى أحداً قد سبقه إليه، قال: فقدمت على معاوية فوجدته يخطب الناس وهم حوله ليكون حول قميص عثمان وهو معلق على رمح مخضوب بالدم، وعليه أصابع زوجته نائلة بنت الفرافصة مقطوعة، فدفعت إليه كتاب علي عليه السلام، وكان معي في الطريق رجل يسير بسيري، وقيم بمقامي، فمثل بين يديه في تلك الحال وأنشده:

هم قتلوا شيخكم غير كذب

إن بني عمك عبد المطلب

وأنت أولى الناس بالوثب فثب

وقد ذكرنا تمام هذه الأبيات فيما تقدم.

قال ثم دفع إليه كتاباً من الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وهو أخو عثمان لأمه، كتبه مع هذا الرجل من الكوفة سراً أولاً:

معاوي إن الملك قد جب غاربه

الأبيات التي ذكرنا فيما تقدم، قال: فقال لي معاوية: أقم فإن الناس قد نفروا عند قتل عثمان حتى يسكنوا. فأقمت أربعة أشهر، ثم جاءه كتاب آخر من الوليد بن عقبة، أولاً:

فإنك من أخي ثقة مليم

ألا أبلغ معاوية بن حرب

تهدر في دمشق ولا تريم

قطعت الدهر كالسدم المعنى

كدابغة وقد حلم الأديم

وإنك والكتاب إلى علي

لشمر لا ألف ولا سؤوم

فلو كنت القتل وكان حياً

قال: فلما جاءه هذا الكتاب وصل بين طومارين أبيضين، ثم طواهما وكتب عنوانهما.

"من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب".

ودفعهما إلي، لا أعلم ما فيهما، ولا أظنهما إلا جواباً، وبعث معي رجلاً من بني عيس لا أدري ما معه، فخرجنا حتى قدمنا إلى الكوفة، واجتمع الناس في المسجد، لا يشكون أنها بيعة أهل الشام، فلما فتح علي عليه السلام الكتاب لم يجد شيئاً، وقام العبسي، فقال من هاهنا من أحياء قيس، وأخص من قيس غطفان، وأخص من غطفان عبساً، إني أحلف بالله لقد تركت تحت قميص عثمان أكثر من خمسين ألف شيخ خاضي لحاهم بدموع أعينهم، متعاقدين متحالفين، ليقتلن

قتلته لا البر والبحر، وإني أحلف بالله ليقبحتمنها عليكم ابن أبي سفيان بأكثر من أربعين ألفاً من خصيان الخيل، فما ظنكم بعد بما فيها من الفحول. ثم دفع إلى علي عليه السلام كتاباً من معاوية ففتحه فوجد فيه:

وفيه اجتداع للأنوف أصيل

تكاد لها صم الجبال تزول

أتاني أمر فيه للنفس غمة

مصاب أمير المؤمنين وهدة

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم.

ومن كتاب منه عليه السلام إليه أيضاً الأصل: أما بعد فقد أتني منك موعظة موصلة، ورسالة محبرة، نمتها بضلالك، وأمضيتها بسوء رأيك. وكتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، قد دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتبعه، فهجر لاغطاً، وضل خابطاً.

الشرح: موعظة موصلة، أي مجموعة الألفاظ من هاهنا وهاهنا، وذلك عيب في الكتابة والخطابة، وإنما الكاتب من يرتجل فيقول قولاً فصلاً، أو يروي فيأتي بالبديع المستحسن، وهو في الحالين كليهما ينفق من كيسه، ولا يستعير كلام غيره. والرسالة المحبرة: المزينة الألفاظ، كأنه عليه السلام يشير إلى أنه قد كان يظهر عليها أثر التكلف والتصنع، والتنميق: التزيين أيضاً، وهجر الرجل، أي هذى، ومنه قوله تعالى في أحد التفسيرين: "إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً"، واللاغط: ذو اللغط، وهو الصوت والجلبة.

وخطب البعير فهو خابط، إذا مشى ضالاً فخطب بيديه كل ما يلقيه، ولا يتوقى شيئاً.

وهذا الكتاب كتبه علي عليه السلام جواباً عن كتاب كتبه معاوية إليه في أثناء حرب صفين بل في أواخرها، وكان كتاب معاوية:

"من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، أما بعد، فإن الله تعالى يقول في محكم كتابه: "ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين"، وإني أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها، فاتق الله واذكر موقف القيامة، وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لوتمالأ أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكبهم الله على مناخرهم في النار"، فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين، بله ما طحنت رحا حربه من أهل القرآن، وذوي العبادة والإيمان، من شيخ كبير، وشاب غرير، كلهم بالله تعالى مؤمن، وله مخلص، وبرسوله مقرر عارف! فإن كنت أبا حسن إنما تحارب على الإمرة والخلافة، فلعمري لو صحت خلافتك لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين، ولكنها ما صحت لك، أن بصحتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها، ولم يرتضوا بها! وخف الله وسطواته، واتق بأسه، ونكاله، وأغمد سيفك عن الناس، فقد والله أكلتهم الحرب، فلم يبق منهم إلا كالشمذ في قرارة الغدير. والله المستعان".

فكتب علي عليه السلام إليه جواباً عن كتابه: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: "أما بعد فقد أتني منك موعظة موصلة، ورسالة محبرة، نمتها بضلالك، وأمضيتها بسوء رأيك، وكتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد

يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتبعه، فهجر لاغطاً، وضل خابطاً، فأما أمرك لي بالتقوى فأرجو أن أكون من أهلها، وأستعيز بالله من أن أكون من الذين إذا أمروا بها أخذتهم العزة بالإثم. وأما تحذيرك إياي أن يحبط عملي وسابقي في الإسلام، فلعمري لو كنت الباغي عليك، لكان لك أن تحذرنى ذلك، ولكني وجدت الله تعالى يقول: "فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله"، فنظرنا إلى الفتنتين، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها، لأن بيعتي بالمدينة لزمته وأنت بالشام، كما لزمته بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام، وكما لزمته يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام، وأما شق عصا هذه الأمة، فأنا أحق أن أهلك عنه، فأما تخويفك لي من قتل أهل البغي، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني بقتلهم وقتلهم، وقال لأصحابه: "إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله"، وأشار إلي وأنا أولى من اتبع أمره.

وأما قولك: إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها! كيف وإنما هي بيعة واحدة، تلزم الحاضر والغائب، لا يثنى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار، الخارج منها طاعن، والمروي فيها مDAHن. فأربع على ظلك، وانزع سربال غيك، واترك ما لا جدوى له عليك، فليس لك عندي إلا السيف، حتى تفيء إلى أمر الله صاغراً، وتدخل في البيعة راعماً. والسلام".

الأصل: ومن هذا الكتاب: لأنها بيعة واحدة لا يثنى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار، الخارج منها طاعن، والمروي فيها مDAHن.

الشرح: لا يثنى فيها النظر، أي لا يعاود ولا يراجع ثانية. ولا يستأنف فيها الخيار: ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم، لأنها تلزم غير العاقدين كما تلزم العاقدين، فيسقط الخيار فيها، الخارج منها طاعن على الأمة، لأنهم اجمعوا على أن الاختيار طريق الإمامة.

والمروي فيها مDAHن، أي الذي يرتئي ويطيء عن الطاعة ويفكر، وأصله من الروية. والمDAHن: المنافق.

ومن كتاب له إلى جرير بن عبد الله

البحلي لما أرسله إلى معاوية

الأصل: أما بعد، فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم، ثم خيره بين حرب مجلية، أو سلم مخزية، فإن اختار الحرب فانبذ إليه، وإن اختار السلم فخذ بيعته. والسلام.

الشرح: قد تقدم ذكر نسب جرير بن عبد الله البجلي.

وقوله عليه السلام: فاحمل معاوية على الفصل"، أي لا تتركه متلکماً متردداً، يطمعلك تارة ويؤيسك أخرى، بل احمله على أمر فيصل، إما البيعة، أو أن يأذن بالحرب.

وكذلك قوله: "وخذه بالأمر الجزم"، أي الأمر المقطوع به، لا تكن ممن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وأصل الجزم القطع. وحرب مجلية: تحلي المقهورين فيها عن ديارهم، أي تخرجهم.

وسلم مخزية، أي فاضحة، وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولاً من البيعة، فإذا دخل في السلم فإنما يدخل فيها بالبيعة، وإذا بايع بعد الامتناع، فقد دخل تحت الهضم ورضي بالضميم، وذلك هو الخزي.

قوله: "فانبذ إليه" من قوله تعالى: "فانبذ إليهم على سواء" وأصله العهد والهدنة وعقد الحلف يكون بين الرجلين أو بين القبيلتين، ثم يبدو لهما في ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدهما إلى الآخر عهده، كأنه كتاب مكتوب بينهما قد نبذه أحدهما يوم الحرب وأبطله، فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة، ونسخ شريعة السلام السابقة بالحرب المعاقبة لها. ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية الأصل: فأراد قومنا قتل نبينا، واجتياح أصلنا، وهموا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، ومنعونا العذب، وأحلسونا الخوف، واضطرونا إلى جبل وعر، وأوقدوا لنا نار الحرب.

فعزم الله لنا على الذب عن حوزته، والرمي من وراء حومته، مؤمنا يبغي بذلك الأجر، وكافرا يحامي عن الأصل، ومن أسلم من قريش خلوا مما نحن فيه بحلف يمنعه، أو عشيرة تقوم دونه، فهو من القتل بمكان آمن.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا احمر البأس، وأحجم الناس، قدم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حر السيوف والأسنة، فقتل عبدة بن الحارث يوم بدر، وقتل حمزة يوم أحد، وقتل جعفر يوم مؤتة، وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة، ولكن آجالهم عجلت، ومنيته أخرت.

فيا عجباً للدهر! إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي، ولم تكن له كسابقي التي لا يدلي أحد بمثلها، إلا أن يدعي مدع ما لا أعرفه، ولا أظن الله يعرفه. والحمد لله على كل حال.

وأما ما سألت من دفع قتلة عثمان إليك، فإني نظرت في هذا الأمر، فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك، ولعمري لئن لم تترع عن غيك وشقاقك، لتعرفنهم عن قليل يطلبونك، لا يكلفونك طلبهم في بر ولا بحر، ولا جبل ولا سهل، إلا أنه طلب يسوءك وجدانه، وزور لا يسرك لقيانة. والسلام لأهله.

الشرح: قوله عليه السلام: "فأراد قومنا"، يعني قريشاً.

والاجتياح: الاستئصال، ومنه الجائحة وهي السنة، أو الفتنة التي تحتاج المال أو الأنفس.

قوله: "ومنعونا العذب"، أي العيش العذب. لا أنهم منعوهم الماء العذب، على أنه قد نقل أنهم منعوا أيام الحصار في شعب بني هاشم من الماء العذب، وسندكر ذلك.

قوله: "وأحلسونا الخوف"، أي ألزموناه. والجلس: كساء رقيق يكون تحت برذعة البعير. وأحلاس البيوت: ما ييسط تحت حر الثياب، وفي الحديث: "كن جلس بيتك"، أي لا تخالط الناس واعتزل عنهم، فلما كان المجلس ملازماً ظهر البعير، وأحلاس البيوت ملازمة لها، قال: "وأحلسونا الخوف"، أي جعلوه لنا كالحلس الملازم.

قوله: "واضطرونا إلى جبل وعر"، مثل ضربه عليه السلام لخشونة مقامهم وشظف متزلهم، أي كانت حالنا فيه كحال من اضطُر إلى ركوب جبل وعر، ويجوز أن يكون حقيقة لا مثلاً، لأن الشعب الذي حصروهم فيه مضيق بين جبلين.

قوله: "فعزم الله لنا"، أي قضى الله لنا، ووقفنا لذلك، وجعلنا عازمين عليه.

والحوزة: الناحية، وحوزة الملك، ببيضته.

وحومة الماء والرمل: معظمه.

والرمي عنها: المناضلة والمحامة، ويروى: "والرمي من وراء حرمة"، والضمير في "حوزته" و"حومته" راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سبق ذكره، وهو قوله: "نبينا" ويروى "والرميا".

وقال الراوندي: "وهو بنا الهموم"، أي هموا نزول الهم بنا، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وليس ما قاله بجيد بل "الهموم" منصوب هاهنا على المصدر، أي هموا بنا هموماً كثيرة، وهموا بنا أي أرادوا نهبنا، كقوله تعالى: "وهم بها"، على تفسير أصحابنا، وإنما أدخل لام التعريف في الهموم، أي هموا بنا تلك الهموم التي تعرفونها، فأتى باللام ليكون أعظم وأكبر في الصدور من تنكيرها، أي تلك الهموم معروفة مشهورة بين الناس لتكرر عزم المشركين في أوقات كثيرة مختلفة على الإيقاع.

وقوله: "وفعلوا بنا الأفاعيل"، يقال لمن أثروا آثاراً منكراً: فعلوا بنا الأفاعيل، وقل أن يقال ذلك في غير الضرر والأذى، ومنه قول أمية بن خلف لعبد الرحمن بن عوف وهو يذكر حمزة بن عبد المطلب يوم بدر: "ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل". قوله: "يحمي عن الأصل"، أي يدافع عن محمد ويذب عنه حميةً ومحافظة على النسب.

قوله: "خلو مما نحن فيه"، أي خال. والحلف: العهد.

واحمر البأس، كلمة مستعارة، أي اشتدت الحرب حتى احمرت الأرض من الدم، فجعل البأس هو الأحمر مجازاً، كقولهم: الموت الأحمر.

قوله: "وأحجم الناس"، أي كفوا عن الحرب وجبنوا عن الإقدام، يقال: حجمت فلاناً عن كذا أحجمه بالضم، فأحجم هو، وهذه اللفظة من النوادر، كقولهم: "كبيته فأكب"، ويوم مؤتة بالهمز، ومؤتة: أرض معروفة. وقوله: "وأراد من لو شئت لذكرت اسمه"، يعني به نفسه.

قوله: "إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي" إشارة إلى معاوية في الظاهر، وإلى من تقدم عليه من الخلفاء في الباطن، والدليل عليه قوله: "التي لا يدي أحد بمثلها"، فأطلق القول إطلاقاً عاماً مستغنياً لكل الناس أجمعين.

ثم قال: "إلا أن يدعي مدع ما لا أعرفه، ولا أظن الله يعرفه"، أي كل من ادعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب، لأنه لو كان صادقاً لكان علي عليه السلام يعرفه لا محالة، فإذا قال عن نفسه: إن كل دعوة تخالف ما ذكرت فإني لا أعرف صحتها، فمعناه أنها باطلة.

وقوله: "ولا أظن الله يعرفه"، فالظن هاهنا بمعنى العلم، كقوله تعالى: "ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها"، وأخرج هذه الكلمة مخرج قوله تعالى: "قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض"، وليس المراد سلب العلم بل العلم بالسلب، كذلك ليس مراده عليه السلام سلب الظن الذي هو بمعنى العلم، بل ظن السلب، أي علم السلب، أي واعلم أن الله سبحانه يعرف انتفاءه، وكل ما يعلم الله انتفاءه فليس بثابت.

وقال الراوندي: قوله عليه السلام: "ولا أظن الله يعرفه"، مثل قوله تعالى: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين".

والله يعلم كل شيء قبل وجوده، وإنما معناه: حتى نعلم جهادهم موجوداً، وليست هذه الكلمة من الآية بسبيل لتجعل مثلاً لها، ولكن الراوندي يتكلم بكل ما يخطر له من غير أن يميز ما يقول!.

وتقول: أدلى فلان بحجته، أي احتج بها، وفلان مدل برحمه، أي مت بها. وأدلى بماله إلى الحاكم: دفعه إليه ليجعله وسيلة إلى قضاء حاجته منه، فأما الشفاعة فلا يقال فيها: "أدليت"، ولكن "دلوت بفلان" أي استشفعت به، وقال عمر لما استسقى بالعباس رحمه الله: "اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وقفية آبائه، وكبر رجاله، دلونا به إليك مستشفعين". قوله عليه السلام: "فلم أره يسعني" أي لم أر أنه يحل لي دفعهم إليك. والضمير في "أره" ضمير الشأن والقصة، و"أره" من الرأي لا من الرؤية، كقولك: لم أر الرأي الفلاني.

ونزع فلان عن كذا، أي فارقه وتركه، يترع بالكسر، والغى: الجهل والضلال.

والشقاق: الخلاف.

والوجدان: مصدر وجدت كذا، أي أصبته. والزور: الزائر.

واللقيان: مصدر لقيت، تقول: لقيته لقاءً ولقياناً.

ثم قال: !والسلام لأهله" لم يستجز في الدين أن يقول له: "والسلام عليك" لأنه عنده فاسق لا يجوز إكرامه، فقال: والسلام لأهله"، أي على أهله.

ويجب أن نتكلم في هذا الفصل في مواضع: منها: ذكر ما جاء في السيرة من إجلاب قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني هاشم وحصرهم في الشعب.

ومنها: الكلام في المؤمنين والكافرين من بني هاشم الذين كانوا في الشعب محصورين معه صلى الله عليه وسلم من هم، ومنها: شرح قصة بدر، ومنها: شرح غزاة أحد، ومنها: شرح غزاة مؤتة.

قريش وبني هاشم فأما الكلام في الفصل الأول فنذكر منه ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب "السيرة" والمغازي، فإنه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرخين، ومصنفه شيخ الناس كلهم.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: لم يسبق علياً عليه السلام إلى الإيمان بالله ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم أحد من الناس، اللهم إلا أن تكون خديجة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وقد كان صلى الله عليه وسلم يخرج ومعه علي مستخفين من الناس، فيصليان الصلوات في بعض شعاب مكة، فإذا أمسيا رجعا فمكثنا بذلك ما شاء الله أن يمكثنا، لا ثالث لهما. ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: يا بن أخي، ما هذا الذي تفعله! فقال: "أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته ورسالته، ودين أبيينا إبراهيم - أو كما قال عليه السلام - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى

الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعاني عليه". أو كما قال. فقال أبو طالب: إني لا أستطيع يا ابن أخي أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت. فزعموا أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الذي تصنع؟ قال: يا أبتاه، آمنت بالله ورسوله وصدقته فيما جاء به، وصفيت إليه، واتبعت قول نبيه، فزعموا أنه قال له: أما إنه لا يدعوك - أو لن يدعوك - إلا إلى خير، فالزمه.

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

قال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أول من أسلم، وصلى معه بعد علي بن أبي طالب ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة، فكان ثالثاً لهما، ثم أسلم عثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد بن أبي وقاص، فصاروا ثمانية، فهم الثمانية الذين سبقوا الناس إلى الإسلام بمكة، ثم أسلم بعد هؤلاء الثمانية أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد وأرقم بن أبي أرقم، ثم انتشر الإسلام بمكة، وفشا ذكره، وتحدث الناس به، وأمر الله رسوله أن يصدع بما أمر به، فكانت مدة إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وشأنه إلى أن أمر بإظهار الدين ثلاث سنين - فيما بلغني.

قال محمد بن إسحاق: ولم تكن قريش تنكر أمره حيثئذ كل الإنكار، حتى ذكر آلهتهم وعابها، فأعظموا ذلك وأنكروه، وأجمعوا على عداوته وخلافه، وحذب عليه عمه أبو طالب فمنعه، وقام دونه حتى مضى مظهراً لأمر الله لا يرده عنه شيء. قال: فلما رأت قريش محاماة أبي طالب عنه وقيامه دونه، وامتناعه من أن يسلمه، مشى إليه رجال من أشراف قريش، منهم عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل عمرو بن هشام، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمثالهم من رؤساء قريش. فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آراءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلن بيننا وبينه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم شرق الأمر بينه وبينهم، تباعدوا وتضاغنوا، حتى أكثر قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها، وتذاثروا فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه، فمشوا إلى أبي طالب مرة ثانية، فقالوا: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومزلة فينا، وإنا قد استنهيئك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، فإما أن تكفه عنا أو ننزله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم تطب نفسه بإسلام ابن أخيه لهم وخذلانه، فبعث إليه ققال: يا بن أخي، إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا - للذي قالوا - فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملي من الأمر ما لا أطيقه. قال: فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام دونه، فقال: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك. ثم استعبر باكيًا وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب: أقبل يا بن أخي، فأقبل راجعاً، فقال له: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

قال ابن إسحاق: وقال أبو طالب يذكر ما أجمعت عليه قريش من حربه لما قام بنصر محمد عمه:

حتى أوسد في التراب دفينا

وابشر وقر بذاك منه عيونا

ولقد صدقت وكنت قبل أمينا

من خير أديان البرية دينا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم

فانفذ لأمرك ما عليك مخافة

ودعوتني وزعمت أنك عاصمي

وعرضت ديناً قد علمت بأنه

قال محمد بن إسحاق: ثم إن قريشاً حين عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه إليهم ورأوا إجماعه على مفارقتهم وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان أجمل فتى في قريش - فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أهبى فتى في قريش وأجمله، فخذ به إليك، فاتخذ ولداً فهو لك، وأسلم لنا هذا ابن أخيك الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك لنقتله، فإنما هو رجل برجل. فقال أبو طالب: والله ما أنصفتموني! تعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن نوفل - وكان له صديقاً مصافياً - والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً! لعمري قد جهدوا في التخلص مما تكره وأراك لا تنصفهم! فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني ولا أنصفتي، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم علي! فاصنع ما بدا لك! قال: فعند ذلك تنابذ القوم وصارت الأحقاد، ونادى بعضهم بعضاً، وتذاثروا بينهم على من في القبائل من المسلمين الذين اتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم. فوثبت كل قبيلة على من فيها منهم، يعذلوهم ويفتنوهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب، وقام في بني هاشم وبني عبد المطلب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما كان من أبي لهب، فإنه لم يجتمع معهم على ذلك، فكان أبو طالب يرسل إليه الأشعار، ويناشده النصر، منها القطعة التي أولها:

حديث عن أبي لهب أتانا

وكانفه على ذاكم رجال

ومنها القطعة التي أولها:

أظننت عني قد خذلت وغالني

منك الغوائل بعد شيب المكبر

ومنها القطعة التي أولها:

تستعرض الأقوام توسعهم

عذراً وما إن قلت من عذر

قال محمد بن إسحاق: فلم يؤثر عن أبي لهب خير قط إلا ما يروى أن أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، لما وثب عليه قومه ليعذبه ويفتنوه عن الإسلام هرب منهم، فاستجار بأبي طالب، وأم أبي طالب مخزومية، وهي أم عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاره، فمشى إليه رجال من بني مخزوم، وقالوا له: يا أبا طالب، هبك منعت منا ابن أخيك محمداً، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا! قال: إنه استجار بي وهو ابن أخي، وإن أنا لم أمنع ابن أخي لم أمنع ابن أخي، فارتفعت أصواتهم وأصواته، فقام أبو لهب ولم ينصر أبا طالب قبلها ولا بعدها، فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، لا تزالون تتوثبون عليه في جواره من بين قومه! أما والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما أراد. فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. فقاموا فانصرفوا، وكان ولياً لهم ومعيناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم وأبي طالب، فاتقوه وخافوا أن تحمله الحمية على الإسلام، فطمع فيه أبو طالب حيث سمعه قال ما قال، وأمل أن يقوم معه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يحرضه على ذلك:

وإن امرأ أبو عتبية عمه
ولا تقبلن الدهر ما عشت خطئة
أقول له وأين منه نصيحتي
وول سبيل العجز غيرك منهم
لفي معزل من أن يسام المظالما
وحارب فإن الحرب نصف ولن ترى
تسب بها إما هبطت المواسما
كذبتم وبيت الله نبزي محمداً
ولما تروا يوماً من الشعب قائماً
أبا عتبة ثبت سوادك قائماً
وقال يخاطب أبا لهب أيضاً:

عجبت لحلم يا بن شيبه عازب
يقولون شايع من أراد محمداً
وأحلام أقوام لديك سخاف
أضاميم إما حاسد ذو خيانة
بظلم وقم في أمره بخلاف
فلا تركبن الدهر منه ذمامة
وإما قريب عنك غير مصاف
ولا تتركه ما حييت لمعظم
وأنت امرؤ من خير عبد مناف
وكن رجلاً ذا نجدة وعفاف

يزود العدا عن ذروة هاشمية
فإن له قربى لديك قريبة
إلا فهم في الناس خير إلاف
ولكنه من هاشم ذي صميمها
وليس بذى حلف ولا بمضاف
وزاحم جميع الناس عنه وكن له
إلى أبحر فوق البحور طواف
وإن غضبت منه قريش فقل لها
وما بالكم تغشون منه ظلامه
وزيراً على الأعداء غير مجاف
وما قومنا بالقوم يخشون ظلمنا
بني عمنا ما قومكم بضعاف
ولكننا أهل الحفاظ والنهي
وما بال أحقاد هناك خوافي
وما نحن فيما ساءهم بخفاف
وعز ببطحاء المشاعر واف

قال محمد بن إسحاق: فلما طال البلاء على المسلمين والفتنة والعذاب، وارتد كثير عن الدين باللسان لا بالقلب، كانوا إذا عذبوهم يقولون: نشهد أن هذا الله. وأن اللات والعزى هي الآلهة، فإذا خلوا عنهم عادوا إلى الإسلام، فحبسوهم وأوثقوهم بالقد، وجعلوهم في حر الشمس على الصخر والصفاء، وامتدت أيام الشقاء عليهم ولم يصلوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم لقيام أبي طالب دونه، فأجمعت قريش على أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم صحيفة يتعاقدون فيها ألا

يناكحهم ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، فكتبوها وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم، وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي. فلما فعلوا ذلك انحازت هاشم والمطلب، فدخلوا كلهم مع أبي طالب في الشعب، فاجتمعوا إليه، وخرج منهم أبو لهب إلى قريش فظاهرها على قومه.

قال محمد بن إسحاق: فضاقت الأمور ببني هاشم وعدموا القوت، إلا ما كان يحمل إليهم سرّاً وخفية، وهو شيء قليل لا يمسك أرماقهم، وأخافتهم قريش، فلم يكن يظهر منهم أحد، ولا يدخل إليهم أحد، وذلك أشد ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته بمكة.

قال محمد بن إسحاق: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ألا يصل إليهم شيء إلا القليل سرّاً ممن يريد صلتهم من قريش، وقد كان أبو جهل بن هشام لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد - وهي عند رسول الله محاصرة في الشعب - فتعلق به، وقال: أتحمل الطعام إلى بني هاشم! والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة! فجاءه أبو البخترى العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، فقال: ما لك وله! قال: إنه يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال أبو البخترى: يا هذا، إن طعاماً كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها! خل سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال كل منهما من صاحبه، فأخذ له أبو البخترى قمي بعير ففر به به فشجه ووطئه وطأً شديداً. فانصرف وهو يكره أن يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني هاشم بذلك، فيشمتوا، فلما أراد الله تعالى من إبطال الصحيفة، والفرج عن بني هاشم من الضيق والأزل الذي كانوا فيه، قام هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي في ذلك أحسن قيام، وذلك أن أباه عمرو بن الحارث كان أخاً لنضلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصي من أمه، فكان هشام بن عمرو يحسب لذلك واصلًا ببني هاشم، وكان ذا شرف في قومه بني عامر بن لؤي، فكان يأتي بالبعير ليلاً وقد أوقره طعاماً، وبني هاشم وبني المطلب في الشعب، حتى إذا أقبل به فم الشعب فمنع بخطامه من رأسه، ثم يضربه على جنبه، فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به مرة أخرى، وقد أوقره تمرًا، فيصنع به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، فقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأحوالك حيث قد علمت لا يتتاعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، ولا يواصلون ولا يزارون! أما إني أحلف لو كان أحوال أبي الحكم بن هشام ودعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك أبداً قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع! إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقض هذه الصحيفة القاطعة. قال: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال زهير: ابغنا ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم، أرضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف جوعاً وجهداً وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتهموهم من هذا لتجدن قريشاً إلى مساءتكم في غيره سريعة. قال: ويحك! ماذا أصنع! إنما أنا رجل واحد، قال قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: ابغني ثالثاً، قال: قد وجدت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أمية، قال: ابغنا رابعاً، فذهب إلى أبي البخترى بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم، قال: وهل من أحد يعين على

هذا؟ قال: نعم وذكرهم، قال: فابغنا خامساً، فمضى إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فكلمه، فقال: وهل يعين على ذلك من أحد؟ قال: نعم، ثم سمي له القوم، فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم وأكون أولكم يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية، عليه حلة له. فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أناكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة! وكان أبو جهل في ناحية المسجد، فقال: كذبت والله لا تشق! فقال زمعة بن الأسود لأبي جهل: والله أنت أكذب، ما رضينا والله بما حين كتبت. فقال أبو البخترى معه: صدق والله زمعة، لا نرضى بما ولا نقر بما كتب فيها! فقال المطعم بن عدي: صدقا والله، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو مثل قولهم، فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، وقام مطعم بن عدي إلى الصحيفة فحطها وشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا ما كان من "باسمك اللهم" قالوا: وأما كاتبها منصور بن عكرمة فشلت يده فيما يذكرون. فلما مزقت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشعب.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل أبو طالب ثابتاً صابراً مستمراً على نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمانيته والقيام دونه، حتى مات في أول السنة الحادية العشرة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فطمعت فيه قريش حينئذ، ونالت منه، فخرج عن مكة خائفاً يطلب أحياء العرب، يعرض عليهم نفسه، فلم يزل كذلك حتى دخل مكة في جوار المطعم بن عدي، ثم كان من أمره مع الخزرج ما كان ليلة العقبة.

قال: ومن شعر أبي طالب الذي يذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيامه دونه:

وبت ولا تسالمك الهوم

وغب عقوقهم لهم وخيم

وكل فعالهم دنس ذميم

وبعض القول ذو جنف ملیم

بلاقع بطن مكة فالحطيم

بمظلمة لها خطب جسيم!

وليس بمفلح أبداً ظلوم

وليس بقتله منهم زعيم

هم العرنين والعضو الصميم

أرقت وقد تصوبت النجوم

لظلم عشيرة ظلموا وعقوا

هم انتهكوا المحارم من أخيه

وراموا خطة جوراً وظلماً

لتخرج هاشماً فتكون منها

فمهلاً قومنا لا تركبونا

فيندم بعضكم ويذل بعض

أرادوا قتل أحمد زاعميه

ودون محمد منا ندي

ومن ذلك قوله:

خلف الحديث، ضعيف السبب

وقالوا لأحمد أنت امرؤ

وإن كان أحمد قد جاءهم
فإننا ومن حج من راكب
تتالون أحمد أو تصطلوا
وتغترفوا بين أبياتكم
بصدق ولم يأتهم بالكذب
وكعبة مكة ذات الحجب
ظباة الرماح وحد القضب
صدور العوالي وخيلاً شرب

تراهن من بين ضافي السبيب
عليها صناديد من هاشم
قصير الحزام طويل اللب
هم الأنجبون مع المنتجب

وروى عبد الله بن مسعود، قال: لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتلى بدر، وأمر بطرحهم في القليب، جعل يتذكر من شعر أبي طالب بيتاً فلا يحضره، فقال له أبو بكر: لعله قوله يا رسول الله:

وإننا لعمر الله إن جد جدنا
لنتلبس أسيافنا بالأماتل

فسر بظفره بالبيت، وقال: إي لعمر الله، لقد التبست، ومن شعر أبي طالب قوله:

ألا أبلغا عني لؤياً رسالة
بني عمنا الأذنين فيما يخصهم
أظهروا قوماً علينا سفاهة
يقولون لو أنا قتلنا محمداً
كذبتم ورب الهدي تدمى نحوره
تتالونه، أوتصطلوا دون نيله
فمهلاً ولما تنتج الحرب بكرها
وتلقوا بيع الأبطحين محمداً
وتأوي إليه هاشم، إن هاشماً
فإن كنتم ترجون قتل محمد
فإننا سنحمله بكل طمرة
وكل رديني ظماء كعوبه
بحق وما تغني رسالة مرسل
وإخواننا من عبد شمس ونوفل
وأمرأ غوياً من غواة وجهل
أقربت نواصي هاشم بالتذلل
بمكة، والبيت العتيق المقبل
صوارم تفري كل عضو ومفصل
بخيل تمام، أو بآخر معجل
على ربوة في رأس عنقاء عيطل
عرانين كعب آخر بعد أول
فروموا بما جمعتم نقل يذبل
وذي ميعة نهد المراكل هيكل
وعضب كإيماض الغمامة مفصل

قلت: كان صديقنا علي بن يحيى البطريق رحمه الله، يقول: لولا خاصة النبوة وسرها لما كان مثل أبي طالب - وهو شيخ قريش ورئيسها وذو شرفها، يمدح ابن أخيه محمداً، وهو شاب قد ربي في حجره وهو يتيمة ومكفولة، وجار مجرى أولاده بمثل قوله:

على ربوة في رأس عنقاء عيطل
عرانين كعب آخر بعد أول

وتلقوا ربيع الأبطحين محمداً
وتأوي إليه هاشم، إن هاشماً

ومثل قوله:

ثمال اليتامى عصمة للأرامل
فهم عنده في نعمة وفواضل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
يطيف به الهلاك من آل هاشم

فإن هذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والذناي من الناس، وإنما هو من مديح الملوك والعظماء، فإذا تصورت أنه شعر أبي طالب، ذاك الشيخ المبجل العظيم في محمد صلى الله عليه وسلم، وهو شاب مستجير به، معتصم بظله من قريش، قد رباه في حجره غلاماً، وعلى عاتقه طفلاً، وبين يديه شاباً، يأكل من زاده، ويأوي إلى داره، علمت موضع خاصية النبوة وسرها، وأن أمره كان عظيماً، وأن الله تعالى أوقع في القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً. وقرأت في "أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب" رحمه الله، قال: كان أبو طالب إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحياناً يبكي ويقول: إذا رأيته ذكرت أخي، وكان عبد الله أخاه لأبويه، وكان شديد الحب والحنو عليه، وكذلك كان عبد المطلب شديد الحب له، وكان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم البيات إذا عرف مضجعه، يقيمه ليلاً من منامه، ويضع ابنه علياً مكانه، فقال له علي ليلة: يا أبت، إني مقتول، فقال له:

كل حي مصيره لشعوب

اصبرن يا بني فالصبر أحجى

لفداء الحبيب وابن الحبيب

قدر الله والبلاء شديد

قب والباع والكريم النجيب

لفداء الأغر ذي الحسب الثا

فمصيب منها، وغير مصيب

إن تصبك المنون فالنبل تبرى

أخذ من مذاقها بنصيب

كل حي وإن تملى بعمر

فأجاب علي عليه السلام، فقال له:

ووالله ما قلت الذي قلت جازعا

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد

وتعلم أنني لم أزل لك طائعا

ولكنني أحببت أن ترى نصرتي

نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعا

سأسعى لوجه الله في نصر أحمد

الفصل الثاني: في تفسير قوله عليه السلام "مؤمننا يبغى بذلك الأجر، وكافرنا يحامي عن الأصل، ومن أسلم من قريش خلو مما نحن فيه لحلف يمنعه، أو عشيرة تقوم دونه فهم من القتل بمكان آمن"، فنقول: إن بني هاشم لما حصروا في الشعب بعد أن منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش، كانوا صنفين: مسلمين وكفاراً، فكان علي عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب مسلمين.

واختلف في جعفر بن أبي طالب: هل حصر في الشعب معهم أم لا؟ فقيل: حصر في الشعب معهم، وقيل: بل كان قد هاجر إلى الحبشة، ولم يشهد حصار الشعب، وهذا هو القول الأصح. وكان من المسلمين المحصورين في الشعب مع بني هاشم إلا أنه يجري مجراهم، لأن بني المطلب وبني هاشم كانوا يداً واحدة، لم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام. وكان العباس رحمه الله في حصار الشعب معهم إلا أنه كان على دين قومه، وكذلك عقيل بن أبي طالب، وطالب بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وكان شديداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبغضه ويهجو بالأشعار، إلا أنه كان لا يرضى لقتله، ولا يقار قريشاً في دمه محافظة على النسب - وكان سيد المحصورين في الشعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطلب، وهو الكافل والحامي.

في إيمان أبي طالب واختلف الناس في إيمان أبي طالب، فقالت الإمامية وأكثر الزيدية: ما مات إلا مسلماً. وقال بعض شيوخنا المعتزلة بذلك، منهم الشيخ أبو القاسم البلخي وأبو جعفر الإسكافي وغيرهما. وقال أكثر الناس من أهل الحديث والعامة من شيوخنا البصريين وغيرهم: مات على دين قومه، ويروون في ذلك حديثاً مشهوراً، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له عند موته: قل يا عم كلمة أشهد لك بها غداً عند الله تعالى، فقال: لولا أن تقول العرب: إن أبا طالب جزع عند الموت لأقررت بها عينك. وروى أنه قال: أنا على دين الأسياف.

وقيل إنه قال: أنا على دين عبد المطلب. وقيل غير ذلك.

وروى كثير من المحدثين أن قوله تعالى: "ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قرب من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه..." الآية، أنزلت في أبي طالب. لأن رسول الله استغفر له بعد موته.

وروا أن قوله تعالى: "إنك لا تهدي من أحببت" نزلت في أبي طالب.

وروا أن علياً عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت أبي طالب، فقال له: إن عمك الضال قد قفى، فما الذي تأمرني فيه؟ واحتجوا بأنه لم ينقل أحد عنه أنه رآه يصلي، والصلاة هي المفرقة بين المسلم والكافر، وأن علياً وجعفرأ لم يأخذا من تركته شيئاً، ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "إن الله قد وعدني بتخفيف عذابه لما صنع في حقي، وإنه في ضحضاح من نار"، ورووا عنه أيضاً أنه قيل له: لو استغفرت لأبيك وأمك! فقال: "لو استغفرت لهما لاستغفرت لأبي طالب، فإنه صنع إلي ما لم يصنعا. وإن عبد الله وآمنة وأبا طالب جمرات من جمرات جهنم".

فأما الذين زعموا أنه كان مسلماً، فقد روا خلاف ذلك، وأسندوا خبراً إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال لي جبرائيل: إن الله مشفعك في ستة: بطن حملتك، آمنة بنت وهب، وصلب أنزلت، عبد الله بن عبد المطلب، وحجر كفلت، أبي طالب، وبيت آواك، عبد المطلب، وأخ كان لك في الجاهلية - قيل: يا رسول الله، وما كان فعله؟ قال: كان سخيّاً يطعم الطعام، ويجود بالنوال - وثدي أرضعتك، حليلة بنت أبي ذؤيب.

قلت: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد عن هذا الخبر، وقد قرأته عليه: هل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم

أخ من أبيه أو من أمه أو منهما في الجاهلية؟ فقال: لا، إنما يعني أcha له في المودة والصحة، قلت له: فمن هو؟ قال: لا أدري.

قالوا: وقد نقل الناس كافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية. فوجب بهذا أن يكون آباؤه كلهم مترهين عن الشرك، لأنهم لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين.

قالوا: وأما ما ذكر في القرآن من إبراهيم وأبيه آزر، وكونه كان ضالاً مشركاً، فلا يقدح في مذهبنا، لأن آزر كان عم إبراهيم، فأما أبوه فتارخ بن ناحور، وسمي العم أباً، كما قال: "أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك"، ثم عد فيهم إسماعيل وليس من آبائه، ولكنه عمه. قلت: وهذا الاحتجاج عندي ضعيف، لأن المراد من قوله: "نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية" تربيته آبائه وأجداده وأمهاته عن السفاح لا غير، هذا مقتضى سياق الكلام، لأن العرب كان يعيب بعضها بعضاً باختلاط المياه واشتباها الأنساب ونكاح الشبهة.

وقولهم: لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين؟ يقال لهم: لم قلتم: إنهم لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهري الأصلاب! فإنه لا منافاة بين طهارة الأصلاب وعبادة الصنم، ألا ترى أنه لو أراد ما زعموه لما ذكر الأصلاب والأرحام، بل جعل عوضها العقائد. واعتذارهم عن إبراهيم وأبيه يقدح في قولهم في أبي طالب، لأنه لم يكن أباً محمد صلى الله عليه وسلم، بل كان عمه، فإذا جاز عندهم أن يكون العم - وهو آزر - مشركاً كما قد اقترحوه في تأويلهم، لم يكن لهم حجة من هذا الوجه على إسلام أبي طالب.

واحتجوا في إسلام الآباء بما روي عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: يبعث الله عبد المطلب يوم القيامة وعليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك.

وروي أن العباس بن عبد المطلب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة: يا رسول الله، ما ترجو لأبي طالب؟ فقال: أرجو له كل خير من الله عز وجل.

وروي أن رجلاً من رجال الشيعة، وهو أبان بن محمود كتب إلى علي بن موسى الرضا عليه السلام: جعلت فداك! إني قد شككت في إسلام أبي طالب! فكتب إليه: "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين"، الآية، وبعدها إنك إن لم تقر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار.

وقد روي عن علي بن محمد الباقر عليه السلام أنه سئل عما يقوله الناس: إن أبا طالب في ضحضاح من نار، فقال: لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه. ثم قال: ألم تعلموا أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يحج عن عبد الله وأبيه أبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم! وروي أن أبا بكر جاء بأبي قحافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح يقوده، وهو شيخ كبير أعمى، فقال رسول الله: ألا تركت الشيخ حتى نأتيه! فقال: أردت يا رسول الله أن يأجره الله! أما والذي بعثك بالحق لأننا كنت أشد فرحاً بإسلام عمك أبي طالب مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرّة عينك، فقال: صدقت.

وروي أن علي بن الحسين عليه السلام سئل عن هذا، "فقال: واعجباً! إن الله تعالى نهي رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تنزل تحت أبي طالب حتى مات. ويروي قوم من الزيدية أن أبا طالب أسند المحدثون عنه حديثاً ينتهي إلى أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: سمعت أبا طالب يقول بمكة: حدثني محمد ابن أخي أن ربه بعثه بصلة الرحم، وأن يعبد وحده لا يعبد معه غيره، ومحمد عندي الصادق الأمين.

وقال قوم: إن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة" إنما عني به أبا طالب. وقالت الإمامية: إن ما يرويه العامة من أن علياً عليه السلام وجعفرأ لم يأخذا من تركه أبي طالب شيئاً حديث موضوع، ومذهب أهل البيت بخلاف ذلك، فإن المسلم عندهم يرث الكافر، ولا يرث الكافر المسلم، ولو كان أعلى درجة منه في النسب قالوا: وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا توارث بين أهل ملتين"، نقول بموجبه، لأن التوارث تفاعل، ولا تفاعل عندنا في ميراثهما، واللفظ يستدعي الطرفين، كالتضارب لا يكون إلا من اثنين، قالوا: وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب معلوم مشهور، ولو كان كافراً ما جاز له حبه، لقوله تعالى: "لا تجد قومأ يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله.... الآية.

قالوا: وقد اشتهر واستفاض الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم لعقيل: "أنا أحبك حبين: حباً لك وحباً لحب أبي طالب فإنه كان يحبك.

قالوا: وخطبة النكاح مشهورة، خطبها أبو طالب عند نكاح محمد صلى الله عليه وسلم خديجة، وهي قوله: "الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً، وحزماً وعقلاً، ورأياً ونبلاً، وإن كان في المال قل فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي، وله والله بعد نبأ شائع وخطب جليل".

قالوا: أفترأه يعلم نبأه الشائع وخطبه الجليل، ثم يعانده ويكذبه، وهو من أولي الأبواب! هذا غير سائغ في العقول. قالوا: وقد روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان، وأظهروا الكفر فأتاهم الله أجراً مرتين، وإن أبا طالب أسر الإيمان، وأظهر الشرك، فأتاه الله أجراً مرتين".

وفي الحديث المشهور: إن جبرائيل عليه السلام قال له ليلة مات أبو طالب: "أخرج منها فقد مات ناصرك".

قالوا: وأما حديث الضحضاح من النار، فإنما يرويه الناس كلهم عن رجل واحد، وهو المغيرة بن شعبة، وبغضه لبني هاشم وعلى الخصوص لعلي عليه السلام مشهور معلوم، وقصته وفسقه أمر غير خاف.

وقالوا: وقد روي بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب، وبعضها عن أبي بكر بن أبي قحافة، أن أبا طالب ما مات حتى قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. والخبر مشهور أن أبا طالب عند الموت قال كلاماً خفياً، فأصغى إليه أخوه

العباس، ثم رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا بن أخي، والله لقد قالها عمك، ولكنه ضعف عن أن يبلغك صوته. وروي عن علي عليه السلام أنه قال. ما مات أبوطالب حتى أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه الرضاء قالوا: وأشعار أبي طالب تدل على أنه كان مسلماً، ولا فرق بين الكلام المنظوم والمنثور إذا تضمننا إقراراً بالإسلام، ألا ترى أن يهودياً لو توسط جماعة من المسلمين، وأنشد شعراً قد ارتجله ونظمه يتضمن الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لكننا نحكم بإسلامه كما لو قال: أشهد أن محمداً رسول الله! فمن تلك الأشعار قوله:

ضراب وطعن بالوشيج المقوم

ولم تختضب سمر العوالي من الدم

جماجم تلقى بالحطيم وزمزم

حليلاً، ويغشى محرم بعد محرم

وغشيانكم في أمركم كل مأثم

وأمر أتى من عند ذي العرش قيم

إذا كان في قوم فليس بمسلم

يرجون مناخطةً دون نيلها

يرجون أن نسخى بقتل محمد

كذبتهم وبيت الله حتى تفلقوا

وتقطع أرحام وتنسى حليلة

على ما مضى من مقتكم وعقوقكم

وظلم نبي جاء يدعو إلى الهدى

فلا تحسبونا مسلميه فمثله

ومن شعر أبي طالب في أمر الصحيفة التي كتبها قريش في قطعة بني هاشم:

لؤياً وخصاً من لؤي بني كعب

رسولاً كموسى خط في أول الكتب

ولاحيف فيمن خصه الله بالحب

يكون لكم يوماً كراغية السقب

ويصبح من لم يجن ذنباً كذي ذنب

أواصرنا بعد المودة والقرب

أمر على من ذاقه حلب الحرب

لعزاء من عض الزمان ولاكرب

وأيد أترت بالمهدة الشهب

به والضباع العرج تعكف كالشرب

وغممة الأبطال معركة الحرب

وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب!

ولانشتكي مما ينوب من النكب

ألا أبلغا عني على ذات بينها

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً

وأن عليه في العباد محبة

وأن الذي رقشتم في كتابكم

أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الزبي

ولا تتبعوا أمر الغواة وتقطعوا

وتستجلبوا حرباً عواناً وربما

فلسنا وبيت الله نسلم أحمداً

ولما تبنا منا ومنكم سواف

بمعترك ضيق ترى قصد القنا

كأن مجال الخيل في حجراته

أليس أبونا هاشم شد أزره

ولسنا نمل الحرب حتى تملنا

ولكننا أهل الحفاظ والنهي

إذا طار أرواح الكمأة من الرعب

ومن ذلك قوله:

فلا تسفهوا أحلامكم في محمد

ولا تتبعوا أمر الغواة الأشائم

تمنيتم أن تقتلوه وإنما

أمانيكم هذي كأحلام نائم

وإنكم والله لا تقتلونه

ولما تر واقطف اللحي والجماجم

زعمتم بأنا مسلمون محمداً

ولما نقاذف دونه ونزاحم

من القوم مفضل أبي على العدا

تمكن في الفرعين من آل هاشم

أمين حبيب في العباد مسوم

بخاتم رب قاهر في الخواتم

يرى الناس برهاناً عليه وهيبة

وما جاهل في قومه مثل عالم

نبي أتاه الوحي من عند ربه

ومن قال لا يقرع بها سن نادم

ومن ذلك قوله: وقد غضب لعثمان بن مظعون الجمحي، حين عذبه قريش ونالت منه:

أمن تذكر دهر غير مأمون

أصبحت مكتئباً تبكي كمحزون

أم من تذكر أقوام ذوي سفه

يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين

ألا يرون أذل الله جمعهم

أنا غضبنا لعثمان بن مظعون

ونمنع الضيم من يبغي مضامتنا

بكل مطرد في الكف مسنون

ومرهفات كأن الملح خالطها

يشفى بها الداء من هام المجانين

حتى تقر رجال لا حلوم لها

بعد الصعوبة بالإسماح واللين

أو تؤمنوا بكتاب منزل عجب

على نبي كموسى أو كذي النون

قالوا: وقد جاء في الخبر أن أبا جهل بن هشام جاء مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ويديه حجر يريد أن يرضخ به رأسه، فلصق الحجر بكفه فلم يستطع ما أراد، فقال أبو طالب في ذلك من جملة أبيات:

أفيقوا بني عمنا وانتهوا

عن الغي من بعض ذا المنطق

وإلا فإنني إذا خائف

بوائق في داركم تلتقي

كما ذاق من كان من قبلكم

ثمود وعاد وماذا بقي!

ومنها:

وأعجب من ذاك في أمركم

عجائب في الحجر الملتصق

بكف الذي قام من حينه

إلى الصابر الصادق المتقي

فأثبتته الله في كفه

على رغبة الخائن الأحمق

قالوا: وقد اشتهر عن عبد الله المأمون رحمه الله أنه كان يقول: أسلم أبو طالب والله بقوله:

نصرت الرسول رسول الملك

ببيض تلالا كلمع البروق

أذب وأحمي رسول الإله

حماية حام عليه شفيق

وما إن أدب لأعدائه

دبيب البكار حذار الفنيق

ولكن أزيروهم سامياً كما زار ليث بغيل مضيق

قالوا: وقد جاء في السيرة، وذكره أكثر المؤرخين، أن عمرو بن العاص لما خرج إلى بلاد الحبشة ليؤكد جعفر بن أبي طالب وأصحابه عند النجاشي، قال:

تقول ابنتي: أين أين الرحيل؟

وما البين مني بمستنكر

فقلت: دعيني فإني امرؤ

أريد النجاشي في جعفر

لأكويه عنده كية

أقيم بها نخوة الأصعر

ولن أنثني عن بني هاشم

بما اسطعت في الغيب والمحضر

وعن عائب اللات في قوله

ولولا رضا اللات لم تمطر

وإني لأشنى قریش له

وإن كان كالذهب الأحمر

قالوا: فكان عمرو يسمى الشانء ابن الشانء، لأن أباه كان إذا مر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة يقول له: والله إني لأشئوك، وفيه أنزل: "إن شائنك هو الأبر". قالوا: فكتب أبو طالب إلى النجاشي شعراً يجرّضه فيه على إكرام جعفر وأصحابه والإعراض عما يقوله عمرو فيه وفيهم، من جملة:

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر

وعمرو وأعداء النبي الأقارب!

وهل نال إحسان النجاشي جعفرأ

وأصحابه، أم عاق عن ذاك شاغب!

في أبيات كثيرة.

قالوا: وروي عن علي عليه السلام أنه قال: قال لي أبي: يا بني الزم ابن عمك، فإنك تسلم به من كل بأس عاجل وآجل، ثم قال لي:

إن الوثيقة في لزوم محمد

فاشدد بصحبته على أيديكا

ومن شعره المناسب لهذا المعنى قوله:

إن علياً وجعفرأ تقتني

عند ملم الزمان والنوب

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما

أخي لأمي من بينهم وأبي

والله لا أخذل النبي ولا

يخذله من بني ذو حسب

قالوا: وقد جاءت الرواية أن أبا طالب لما مات جاء علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذنه بموته، فتوجع عظيماً وحزن شديداً، ثم قال له: امض فتول غسله، فإذا رفعتة على سريريه فأعلمني، ففعل، فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محمول على رؤوس الرجال، فقال: وصلتكم رحم يا عم، وجزيت خيراً! فلقد ربيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً، ثم تبعه إلى حفرتة، فوقف عليه، فقال: أما والله لأستغفرن لك ولأشفعن فيك شفاعة يعجب لها الثقلان.

قالوا: والمسلم لا يجوز أن يتولى كسل الكافر، ولا يجوز للنبي أن يرق لكافر، ولا أن يدعو له بخير، ولا أن يعده بالاستغفار والشفاعة، وإنما تولى علي عليه السلام غسله، لأن طالباً وعقياً لم يكونا أسلما بعد، وكان جعفر بالحيشة، ولم تكن صلاة الجنائز شرعت بعد، ولا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة، وإنما كان تشييع ورقة ودعاء. قالوا: ومن شعر أبي طالب يخاطب أخاه حمزة، وكان يكنى أبا يعلى:

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد	وكن مظهراً للدين وفقت صابرا
وحط من أتى بالحق من عند ربه	بصدق وعزم لاتكن حمز كافرا
فقد سرنى إذ قلت إنك مؤمن	فكن لرسول الله في الله ناصرا
وباد قريشاً بالذي قد أتيت	جهاراً وقل ما كان أحمد ساحرا

قالوا: ومن شعره المشهور:

أنت النبي محمد	قرم أعز مسود
لمسودين أكارم	طابوا وطاب المولد
نعم الأرومة أصلها	عمرو الخضم الأوحد
هشم الربيكة في الجفا	ن وعيش مكة أنكد
فجرت بذلك سنة	فيها الخبيزة تثرد
ولنا السقاية للحجيج بها يماث العنجد	
والمأزمان وما حوت	عرفاتها والمسجد
أنى تضام ولم أمت	وأنا الشجاع العربد
وبطاح مكة لا يرى فيها نجيع أسود	
وبنو أبيك كأنهم اسد العرين توقد	
ولقد عهدتك صادقاً	في القول لا تنزيرد
مازلت تنطق بالصوا	ب وأنت طفل أمرد

قالوا: ومن شعره المشهور أيضاً قوله يخاطب محمداً، ويسكن جأشه، ويأمره بإطهار الدعوة:

أيد تصول ولا سلق بأصوات
ودون نفسك نفسي في الملمات

لا يمنعنك من حق تقوم به
فإن كفك كفي ان بلّيت بهم
ومن ذلك قوله، ويقال إنها لطالب بن أبي طالب:

قبيلاً وأكرمهم أسره؟
وفضله هاشم العزه
مكان النعائم والنثره
رسول الإله على فتره

إذا قيل من خير هذا الوري
أناف لعبد مناف أب
لقد حل مجد بني هاشم
وخير بني هاشم أحمد

ومن ذلك قوله:

فأكرم خلق الله في الناس أحمد
فدو العرش محمود وهذا محمد

لقد أكرم الله النبي محمداً
وشق له من اسمه ليحله
وقوله أيضاً، وقد يروى لعلي عليه السلام:

أني على دين النبي أحمد

ياشاهد الله علي فاشهد
من ضل في الدين فإني مهتد

قالوا: فكل هذه الأشعار قد جاءت مجيء التواتر، لأنه إن لم تكن آحادها متواترة، فمجموعها يدل على أمر واحد مشترك، وهو تصديق محمد صلى الله عليه وسلم، ومجموعها متواتر، كما أن كل واحدة من قتلات علي عليه السلام الفرسان منقولة آحاداً، ومجموعها متواتر، يفيدنا العلم الضروري بشجاعته، وكذلك القول فيما روي من سخاء حاتم، وحلم الأحنف ومعاوية، وذكاء إياس وخلاعة أبي نواس، وغير ذلك، قالوا: واتركوا هذا كله جانباً، ما قولكم في القصيدة اللامية التي شهرتها كشهرة "قفا نبك" وإن جاز الشك فيها أو في شيء من أبياتها، جاز الشك في "قفا نبك" وفي بعض أبياتها، ونحن نذكر منها هاهنا قطعة وهي قوله:

علينا بسوء أو يلوح بباطل
ومن ملحق في الدين مالم نحاول
ولما نطاعن دونه ونناضل
ونذهل عن أبنائنا والحلائل
من الطعن فعل الأنكب المتحامل
نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
لتلتبس أسيافنا بالأماتل

أعوذ برب البيت من كل طاعن
ومن فاجر يغتابنا بمغيبة
كذبتهم وبيت الله يبزي محمد
وننصره حتى نصرع دونه
وحتى نرى ذا الردع يركب ردعه
وينهض قوم في الحديد إليكم
وإنا وبيت الله من جد جدنا

أخي ثقة عند الحفيظة باسل

يحوط الذمار غير نكس مواكل

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فهم عنده في نعمة وفواضل

ووزان صدق وزنه غير عائل

لدينا، ولا يعبا بقول الأباطل!

وأحبيته حب الحبيب المواصل

ودافعت عنه بالذرى والكواهل

وشيناً لمن عادى وزين المحافل

وأظهر ديناً حقه غير باطل

بكل فتى مثل الشهاب سميدع

وما ترك قوم لا أبالك سيداً

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

يلوذ به الهلاك من آل هاشم

وميزان صدق لا يخيس شعيرة

ألم تعلموا أن ابننا لا مكذب

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد

وجدت بنفسى دونه فحميته

فلا زال للدنيا جمالاً لأهلها

وأيده رب العباد بنصره

وورد في السيرة والمغازي أن عتبة بن ربيعة أو شيبه لما قطع رجل عبدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر أشبل عليه علي وحمزة فاستنقذه منه وخطبا عتبة بسيفيهما حتى قتلاه، واحتملا صاحبهما من المعركة إلى العريش، فألقياه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن مخ ساقه ليسيل، فقال: يا رسول الله، لو كان أبو طالب حياً لعلم أنه قد صدق في قوله:

ولما نطاعن دونه وんなضل

ونذهل عن أبنائنا والحلائل

كذبتهم وبيت الله نخلي محمداً

وننصره حتى نصرع حوله

فقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر له ولأبي طالب يومئذ، وبلغ عبدة مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصفراء فمات فدفن بها.

قالوا: وقد روى أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام جدب، فقال: أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبي يرتضع، ولا شارفاً يجتر ثم أنشده:

وقد شغلنت أم الرضيع عن الطفل

من الجوع حتى ما يمر ولا يحلي

سوى الحنظل العامي والعلهز الفسل

وأين فرار الناس إلا إلى الرسل!

أتيناك والعذراء تدمى لبانها

وألقى بكفيه الفتى لاستكانة

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا

وليس لنا إلا إليك فرارنا

فقام النبي صلى الله عليه وسلم يجر رداءه، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً هنيئاً، مريعاً سحاً سجالاً، غداً طبقاً قاطباً دائماً، دراً تحيي به الأرض، وتنبت به الزرع، وتدر به الضرع، واجعله سقياً نافعاً عاجلاً غير راث". فوالله، ما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده إلى نحره حتى ألقت السماء أرواقها، وجاء

الناس يضجون: الغرق الغرق يا رسول الله! فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فانجأنا السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل.

فضحك رسول الله حتى بدت نواحيه، ثم قال: لله در أبي طالب! لو كان حياً لقرت عينه. من ينشدنا قوله؟ فقام علي فقال: يا رسول الله، لعلك أردت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

قال: أجل، فأنشده أبياتاً من هذه القصيدة، ورسول الله يستغفر لأبي طالب على المنبر، ثم قام رجل من كنانة فأنشده:

سقيناً بوجه النبي المطر

لك الحمد والحمد ممن شكر

دعا الله خالقه دعوةً إليه، وأشخص منه البصر

أو أقصر حتى رأينا الدرر

فما كان إلا كما ساعة

أغاث به الله علياً مضراً

دفاق العزالي وجم البعاق

أبو طالب ذو رواء غرر

فكان كما قاله عمه

فهذا العيان وذاك الخبر

به يسر الله صوب الغمام

ومن يكفر الله يلق الغير

فمن يشكر الله يلق المزيد

فقال رسول الله: إن يكن شاعر أحسن فقد أحسنت.

قالوا: وإنما لم يظهر أبو طالب الإسلام ويجاهر به، لأنه لو أظهره لم يتهياً له من نصرة النبي صلى الله عليه وسلم ما تهيأ له، وكان كواحد من المسلمين الذين اتبعوه، نحو أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما ممن أسلم، ولم يتمكن من نصرته والقيام دونه حينئذ، وإنما تمكن أبو طالب من المحاماة عنه بالثبات في الظاهر على دين قريش وإن أبطن الإسلام، كما لو أن إنساناً كان يوطن التشيع مثلاً، وهو في بلد من بلاد الكرامية، وله في ذلك البلد وجاهة وقدم، وهو يظهر مذهب الكرامية، ويحفظ ناموسه بينهم بذلك، وكان في ذلك البلد نفر يسير من الشيعة لا يزالون ينالون بالأذى والضرر من أهل ذلك البلد ورؤسائه، فإنه ما دام قادراً على إظهار مذهب أهل البلد، يكون أشد تمكناً من المدافعة والمحاماة عن أولئك النفر، فلو أظهر ما يجوز من التشيع، وكاشف أهل البلد بذلك، صار حكمه حكم واحد من أولئك النفر، ولحقه من الأذى والضرر ما يلحقهم، ولم يتمكن من الدفاع أحياناً عنهم كما كان أولاً.

قلت: فأما أنا فإن الحال ملتبسة عندي، والأخبار متعارضة، والله أعلم بحقيقة حاله كيف كانت.

ويقف في صدري رسالة النفس الزكية إلى المنصور، وقوله فيها: "فأنا ابن خير الأخيار، وأنا ابن شر الأشرار، وأنا ابن سيد أهل الجنة، وأنا ابن سيد أهل النار".

فإن هذه شهادة منه على أبي طالب بالكفر، وهو ابنه وغير متهم عليه، وعهده قريب من عهد النبي صلى الله عليه وسلم، لم يطل الزمان فيكون الخبر مفتعلاً.

وجملة الأمر أنه قد روي في إسلامه أخبار كثيرة، وروي في موته على دين قومه أخبار كثيرة، فتعارض الجرح والتعديل، فكان كتعارض البيهقيين عند الحاكم، وذلك يقتضي التوقف، فأنا في أمره من المتوقفين.

فأما الصلاة وكونه لم ينقل عنه أنه صلى، فيجوز أن يكون لأن الصلاة لم تكن بعد قد فرضت، وإنما كانت نفلاً غير واجب، فمن شاء صلى، ومن شاء ترك، ولم تفرض إلا بالمدينة. ويمكن أن يقول أصحاب الحديث: إذا تعارض الجرح والتعديل كما قد أشرتم إليه، فالترجيح عند أصحاب أصول الفقه لجانب الجرح، لأن الجرح قد اطلع على زيادة لم يطلع عليها المعدل.

ولخصومهم أن يجيبوا عن هذا فنقول: إن هذا إنما يقال ويذكر في أصول الفقه في طعن مفصل في مقابلة تعديل مجمل، مثاله أن يروي شعبة مثلاً حديثاً عن رجل، فهو بروايته عنه قد وثقه، ويكفي في توثيقه له أن يكون مستور الحال، ظاهره العدالة، فيطعن فيه الدار قطني مثلاً بأن يقول: كان مدلساً، أو كان يرتكب الذنب الفلاني، فيكون قد طعن طعناً مفصلاً في مقابلة تعديل مجمل، وفيما نحن فيه وبصدده الروايتان متعارضتان تفصيلاً لا إجمالاً، لأن هؤلاء يروون أنه تلفظ بكلمتي الشهادة عند الموت، وهؤلاء يروون أنه قال عند الموت: أنا على دين الأشياخ.

وبمثل هذا يجاب على من يقول من الشيعة: روايتنا في إسلامه أرجح، لأننا نروي حكماً إيجابياً ونشهد على إثبات، وخصومنا يشهدون على النفي، ولا شهادة على النفي، وذلك أن الشهادة في الجانبين معا، إنما هي على إثبات، ولكنه إثبات متضاد.

وصنف بعض الطالبين في هذا العصر كتاباً في إسلام أبي طالب، وبعثه إلي، وسألني أن أكتب عليه بخطي نظماً أو نثراً، أشهد فيه بصحة ذلك، وبوثاقة الأدلة عليه، فتخرجت أن أحكم بذلك حكماً قاطعاً، لما عندي من التوقف فيه، ولم أستجز أن أقعد عن تعظيم أبي طالب، فإني أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دعامة. وأعلم أن حقه واجب على كل مسلم في الدنيا إلى أن تقوم الساعة، فكتبت على ظاهر المجلد:

لما مثل الدين شخصاً فقاما

وهذا بيثرب جس الحماما

وأودى فكان علي تماما

قضى ما قضاه وأبقى شماما

ولله ذا للمعالي ختاماً

جهول لغا أو بصير تعامى

ح من ظن ضوء النهار الظلاما

ولولا أبو طالب وابنه

فذاك بمكة آوى وحامى

تكفل عبد مناف بأمر

فقل في ثبير مضى بعدما

فله ذا فاتحاً للهدى

وما ضر مجد أبي طالب

كما لا يضر إياة الصبا

فوفيته حقه من التعظيم والإجلال، ولم أجزم بأمر عندي فيه وقفة.

في غزوة بدر الفصل الثالث: في شرح القصة في غزاة بدر، ونحن نذكر ذلك من كتاب "المغازي"، لحمد بن عمر الواقدي، ونذكر ما عساه زاده محمد بن إسحاق في كتاب "المغازي"، وما زاده أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في "تاريخ

قال الواقدي: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن غير قريش قد فصلت من مكة تريد الشام، وقد جمعت قريش فيها أموالها، فندب لها أصحابه، وخرج يعترضها على رأس ستة عشر شهراً من مهاجرة عليه السلام، فخرج في خمسين ومائة - ويقال في مائتين - فلم يلق العير، وفاتته ذاهبة إلى الشام.. وهذه غزاة ذي العشرة، رجع منها إلى المدينة فلم يلق حرباً، فلما تحين انصراف العير من الشام قافلة ندب أصحابه لها، وبعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال، يتجسسان خبر العير، حتى نزلا على كشد الجهني بالموضع المعروف بالنخبار، وهو من وراء ذي المروة على الساحل، فأجارهما وأنزلهما، فلم يزالا مقيمين في خباء وبر حتى مرت العير، فرفعهما على نشز من الأرض، فنظرا إلى القوم وإلى ما تحمل العير، وجعل أهل العير يقولون لكشد: يا كشد، هل رأيت أحداً من عيون محمد؟ فيقول: أعوذ بالله، وأنى لمحمد عيون بالنخبار! فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا، وخرج معهما كشد خفياً، حتى أوردتهما المروة، وساحت العير فأسرعت، وسار بها أصحابها ليلاً ونهاراً، فرقاً من الطلب، وقدم طلحة وسعيد المدينة في اليوم الذي لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً ببدر، فخرجا يعترضان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقيه بتربان - وتربان بين ملل والسالة على الحجة، وكانت متزل عروة بن أذينة الشاعر - وقدم كشد بعد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أخبر طلحة وسعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما صنع بهما، فحباه وأكرمه، وقال: ألا أقطع لك ينبع؟ قال: إني كبير، وقد نفذ عمري ولكن أقطعها لابن أخي، فأقطعها له. قالوا: وندس رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، وقال: هذه غير قريش، فيها أموالهم: لعل الله أن يغنمكموها. فأسرع من أسرع، حتى إن كان الرجل ليساهم أباه في الخروج، فكان ممن ساهم أباه سعد بن خيثمة، فقال سعد لأبيه: إنه لو كان غير الجنة آثرتك به، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا، فقال خيثمة: آثرتني وقر مع نسائك، فأبى سعد، فقال خيثمة: إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم، فاستهما، فخرج سهم سعد، فقتل ببدر. وأبطأ عن النبي صلى الله عليه وسلم بشر كثير من أصحابه، وكرهوا خروجه، وكان في ذلك كلام كثير واختلاف، وبعضهم تخلف من أهل النيات والبصائر، لم يظنوا أنه يكون قتال، إنما هو الخروج للغنيمة، ولو ظنوا أنه يكون قتال لما تخلفوا، منهم أسيد بن حضير، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أسيد: الحمد لله الذي سرك وأظهرك على عدوك، والذي بعثك بالحق ما تخلفت عنك رغبة بنفسك عن نفسك، ولا ظننت أنك تلاقى عدواً، ولا ظننت إلا أنها العير! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدقت.

قال: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إلى المكان المعروف بالبقع وهي بيوت السقيا، وهي متصلة ببيوت المدينة، فضرب عسكره هناك، وعرض المقاتلة، فعرض عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، فردهم ولم يجزهم.

قال الواقدي: فحدثني أبو بكر بن إسماعيل، عن أبيه، عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى، فيردني، وأنا أحب الخروج، لعل الله أن يرزقني الشهادة. قال: فعرض على رسول الله صلى

الله عليه وسلم، فاستصغره، فقال: ارجع، فبكى عمير، فأجازه.

قال: فكان سعد يقول: كنت أعقد له حمائل سيفه من صغره، فقتل بيدر وهو ابن ست عشرة سنة.

قال: فلما نزل عليه السلام بيوت السقيا أمر أصحابه أن يستقوا من بئرهم: وشرب عليه السلام منها، كان أول من شرب وصلى عندها، ودعا يومئذ لأهل المدينة، فقال: اللهم إن إبراهيم عبدك وخليتك ونبيك، دعاك لأهل مكة، وإني محمد عبدك ونبيك، أدعوك لأهل المدينة، أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة، واجعل ما بها من الوباء بجم. اللهم إني حرمت ما بين لابتيتها، كما حرم إبراهيم خليلك مكة.

قال الواقدي: وخم على ميلين من الجحفة.

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه عدي بن أبي الزغباء وبسيس بن عمرو، وجاء إليه عبد الله بن عمرو بن حزام، فقال: يا رسول الله، لقد سرتي متلك هذا، وعرضك فيه أصحابك، وتفاءلت به، إن هذا منزلنا في بني سلمة، حيث كان بيننا وبين أهل حسيكة ما كان.

قال الواقدي: هي حسيكة الذباب، والذباب: جبل بناحية المدينة، وكان بحسيكة يهود، وكان لهم بها منازل.

قال عبد الله بن عمرو بن حزام فعرضنا يا رسول الله هاهنا أصحابنا، فأجزنا من كان يطيق السلاح، ورددنا من صغر عن حمل السلاح، ثم سرنا إلى يهود حسيكة، وهم أعز يهود كانوا يومئذ، فقتلناهم كيف شئنا، فذلت لنا سائر يهود إلى اليوم، وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقي نحن وقريش، فيقر الله عينك منهم.

قال الواقدي: وكان خلاد بن عمرو بن الجموح لما كان من النهار رجع إلى أهله بخرباء، فقال له أبوه عمرو بن الجموح: ما ظننت إلا أنكم قد سرتي، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض الناس بالبقيع، فقال عمرو: نعم الفأل! والله إني لأرجو أن تغنموا وأن تظفروا بمشركي قريش، إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى حسيكة. قال: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غير اسمه، وسماه السقيا. قال: فكانت في نفسي أن أشتريها، حتى اشتراها سعد بن أبي وقاص ببيكرين، ويقال بسبع أواق، فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أن سعداً اشتراها، فقال: ربح البيع!

قال الواقدي: فراح رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا، لاثنتي عشرة ليلة مضت من رمضان، وخرج المسلمون معه ثلاثمائة وخمسة، وتحلف ثمانية، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم، فكانت الإبل سبعين بعيراً، وكانوا يتعاقبون الإبل: الاثنين، والثلاثة، والأربعة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام ومرثد بن أبي مرثد- ويقال زيد بن حارثة مكان مرثد- يتعاقبون بعيراً واحداً، وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة، موالي النبي صلى الله عليه وسلم على بعير، وكان عبدة بن الحارث والطفيل والحصين ابنا الحارث، ومسطح بن أثانة على بعير لعبدة بن الحارث ناضح ابتاعه من أبي داود المازني، وكان معاذ وعوف ومعوذ بنو عفراء ومولاهم أبو الحمراء على بعير، وكان أبي بن كعب وعمارة بن حزام وحارثة بن النعمان على بعير، وكان خراش بن الصمة وقطبة بن عامر بن حديدة وعبد الله بن عمرو بن حزام على بعير، وكان عتبة بن غزوان وطليب بن عمير على جمل لعبنة بن غزوان يقال له العبس، وكان مصعب بن عمير وسوييط بن حرملة ومسعود بن ربيع على جمل لمصعب، وكان عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود على بعير، وكان عبد الله بن كعب وأبو داود المازني وسليط بن قيس على جمل لعبد الله بن كعب،

وكان عثمان بن عفان وقدامة بن مظعون وعبد الله بن مظعون والسائب بن عثمان على بعير يتعاقبون، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف على بعير، وكان سعد بن معاذ وأخوه وابن أخيه الحارث بن أوس والحارث بن أنس على جمل لسعد بن معاذ ناضح يقال له الذيال، وكان سعيد بن زيد، وسلمة بن سلامة بن وقش وعباد بن بشر ورافع بن يزيد على ناضح لسعيد بن زيد، ما تزودوا إلا صاعاً من تمر.

قال الواقدي: فروى معاذ بن رفاع، عن أبيه، قال: خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر، وكان كل ثلاثة يتعاقبون بعيراً، فكنت أنا وأخي خلاد بن رافع على بكر لنا ومعنا عبيدة بن يزيد بن عامر، فكنا نتعاقب، فسرنا حتى إذا كنا بالروحاء إذ مر بنا بكرنا وبرك علينا وأعياء، فقال أخي: اللهم ان لك علي نذراً، لئن رددتنا إلى المدينة لأنحرنه، فمر بنا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن على تلك الحال، فقلنا: يا رسول الله، برك علينا بكرنا، فدعنا بماء فتمضمض وتوضأ في إناء، ثم قال: افتحاه، ففعلنا فصبه في فيه، ثم على رأسه ثم على عنقه ثم على حاركه، ثم على سنامه، ثم على عجزه، ثم على ذنبه، ثم قال: اركبا، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحقناه أسفل من المنصرف، وإن بكرنا لينفر بنا، حتى إذا كنا بالمصلى راجعين من بدر، برك علينا، فنحره أخي، فقسم لحمه وتصدق به.

قال الواقدي: وقد روي أن سعد بن عباداً حمل في بدر على عشرين جملاً.

قال: وروي عن سعد بن أبي وقاص، أنه قال: فخرجنا إلى بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا سبعون بعيراً، فكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة والاثنان على بعير، وكنت أنا من أعظم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عنه غناءً، وأرجلهم رجلة، وأرماهم لسهم، لم أركب خطوة ذاهباً ولا راجعاً.

قال الواقدي: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فصل من بيوت السقيا: اللهم إهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم، وعالة فأغنهم من فضلك، فما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلا وجد ظهراً، للرجل البعير والبعيران، واكتسى من كان عارياً، وأصابوا طعاماً من أزوادهم، وأصابوا فداء الأسرى، فأغنى به كل عائل.

قال: واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشاة قيس بن أبي صعصعة - واسم أبي صعصعة عمر بن يزيد بن عوف بن مبدول - وأمره النبي صلى الله عليه وسلم حين فصل من بيوت السقيا أن يعد المسلمين، فوقف لهم بيثر أبي عبيدة يعدهم، ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وخرج من بيوت السقيا، حتى سلك بطن العقيق، ثم سلك طريق المكيم حتى خرج على بطحاء بن أزهر، فتزل تحت شجرة هناك، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك، فبنى منها مسجداً، فصلى فيه رسول الله وأصبح يوم الاثنين وهو هناك؟ ثم صار إلى بطن ملل وتربان بين الحفيرة وملل.

قال الواقدي: فكان سعد بن أبي وقاص، يقول: لما كنا بتربان، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا سعد، انظر إلى الظبي، فأفوق له بسهم، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع رأسه بين منكي وأذني، ثم قال: اللهم سدد رميته - قال: فما أخطأ سهمي عن نحره، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرجت أعدو فأخذته وبه رمق فذكيته، فحملناه حتى نزلنا قريباً، وأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم بين أصحابه.

قال الواقدي: وكان معهم فرسان: فرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي، وفرس للمقداد بن عمرو البهراني، حليف بني زهرة،

ويقال فرس للزبير، ولم يكن إلا فرسان لاختلاف عندهم، أن المقداد له فرس، وقد روي عن ضباعة بنت الزبير عن المقداد، قال: كان معي يوم بدر فرس يقال له سبحة، وقد روى سعد بن مالك الغنوي عن آبائه أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي شهد بدرًا على فرس له يقال له السيل.

قال الواقدي: ولحقت قريش بالشام في غيرها، وكانت العير ألف بعير، وكان فيها أموال عظام، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير، حتى إن المرأة لتبعث بالشيء التافه، وكان يقال: إن فيها خمسين ألف دينار. وقالوا: أقل، وإن كان ليقال: إن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أحبيحة إما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف، وكان عامة العير لهم، ويقال: بل كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهباً، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفا مثقال.

قال الواقدي: وحدثني هشام بن عمار بن أبي الحويرث، قال: كان لبني عبد مناف فيها عشرة آلاف مثقال، وكان متجرهم إلى غزة من أرض الشام.

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن جعفر، عن أبي عون مولى المسور، عن مخزومة بن نوفل، قال: لما لحقنا بالشام أدركنا رجل من جذام، فأخبرنا أن محمداً قد كان عرض لعيرنا في بدأتنا، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجعتنا، قد حالف علينا أهل الطريق ووادعهم. قال مخزومة: فخرجنا خائفين نخاف الرصد، فبعثنا ضمضم بن عمرو حين فصلنا من الشام.

قال الواقدي: وكان عمرو بن العاص مع العير، وكان يحدث بعد ذلك يقول: لما كنا بالزرقاء - والزرقاء بالشام من اذرعَات على مرحلتين - ونحن منحدرين إلى مكة لقينا رجلاً من جذام، فقال: قد كان عرض محمد لكم في بدأتكم في أصحابه، فقلنا: ما شعرنا، قال: بلى، فأقام شهراً، ثم رجع إلى يثرب، وأنتم يوم عرض محمد لكم مخفون فهو الآن أخرى أن يعرض لكم، إنما يعد لكم الأيام عدداً، فاحذروا على عيركم، وارتأوا آراءكم، فوالله ما أرى من عدد ولا كراع ولا حلقة. فأجمع القوم أمرهم، فبعثوا ضمضم بن عمرو، وكان في العير، وقد كانت قريش مرت به وهو بالساحل، معه بكران، فاستأجروه بعشرين مثقالاً، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشاً أن محمداً قد عرض لعيرهم، وأمره أن يجدع بعيره إذا دخل، ويحول رحله، ويشق قميصه من قبله ودبره، ويصيح: الغوث الغوث! ويقال: إنما بعثوه من تبوك، وكان في العير ثلاثون رجلاً من قريش، فيهم عمرو بن العاص، ومخزومة بن نوفل.

قال الواقدي: وقد كانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت قبل مجيء ضمضم بن عمرو رؤيا أفزعته، وعظمت في صدرها، فأرسلت إلى أخيها العباس، فقالت: يا أخي، لقد والله رأيت رؤيا أفزعني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاکتم علي ما أحدثك منها، رأيت ركباً أقبل على بعير حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: يا آل غدر، انفروا إلى مصارعكم في ثلاث، فصرخ بها ثلاث مرات، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد، والناس يتبعونه إذ مثل به بعيره على ظهر الكعبة، فصرخ مثلها ثلاثاً، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ. مثلها ثلاثاً، ثم أخذ صخرة من أبي قبيس فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارفضت، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلته منها فلذة.

قال الواقدي: وكان عمرو بن العاص يحدث بعد ذلك فيقول: لقد رأيت كل هذا، ولقد رأيت في دارنا فلقة من الصخرة التي انفلقت من أبي قبيس، ولقد كان ذلك عبرة، ولكن الله لم يرد أن نسلم يومئذ، لكنه أخر إسلامنا إلى ما أراد. قلت: كان بعض أصحابنا يقول: لم يكف عمراً أن يقول: رأيت الصخرة في دور مكة عياناً، فيخرج ذلك مخرج الاستهزاء باطناً على وجه النفاق واستخفافه بعقول المسلمين زعم، حتى يضيف إلى ذلك القول بالخبر الصراح فيقول: إن الله تعالى لم يكن أراد منه الإسلام يومئذ.

قال الواقدي: قالوا: ولم يدخل داراً ولا بيتاً من دور بني هاشم ولا بني زهرة من تلك الصخرة شيء! قال: فقال العباس: إن هذه لرؤيا، فخرج مغتماً، حتى لقي الوليد بن عتبة بن ربيعة - وكان له صديقاً - فذكرها لى واستكتمه، ففشا الحديث في الناس، قال العباس: فغدوت أطوف بالبيت، وأبو جهل في رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة، فقال أبو جهل: ما رأيت عاتكة هذه؟ فقلت: وما ذاك؟ فقال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم بأن تتبأ رجالكم حتى تتبأ نساؤكم! زعمت عاتكة أنها رأت في المنام كذا وكذا للذي رأت - فستربص بكم ثلاثاً، فإن يكن ما قالت حقاً فسيكون، وإن مضت الثلاث ولم يكن، نكتب عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب! فقال له العباس: يا مصفر أسته، أنت أولى بالكذب واللؤم منا! فقال أبو جهل: إنا استبقنا المجد وأنتم، فقلتم: فينا السقاية، فقلنا: لا نبالي، "سقون الحجاج، ثم قلتم: فينا الحجابة، فقلنا: لا نبالي تحجبون البيت، ثم قلتم: فينا الندوة، قلنا: لا نبالي يكون الطعام فتطعمون الناس. ثم قلتم: فينا الرفادة، فقلنا: لا نبالي، تجمعون عندكم ما ترفدون به الضعيف، فلما أطعمنا الناس وأطعمتم، وازدحمت الركب واستبقنا المجد، فكنا كفرسي رهان، قلتم: منا نبي، ثم قلتم: منا نبية! فلا واللات والعزى لا كان هذا أبداً! قلت: لا أرى كلام أبي جهل منتظماً، لأنه إذا سلم للعباس أن هذه الخصال كلها فيهم، وهي الخصال التي تشرف بها القبائل بعضها على بعض، فكيف يقول: لا نبالي لا نبالي! وكيف يقول: فلما أطعمنا للناس وأطعمتم، وقد كان الكلام منتظماً، لو قال: ولنا بإزاء هذه المفاجر كذا وكذا، ثم يقول بعد ذلك: استبقنا المجد فكنا كفرسي رهان، وازدحمت الركب، ولم يقل شيئاً ولا عد مآثره، ولعل أبا جهل قد قال ما لم ينقل.

قال الواقدي: قال العباس: فوالله ما كان مني غير أني جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً، فلما أمسيت لم تبق امرأة أصابتها ولادة عبد المطلب إلا جاءت، فقلن لي: أرضيت بهذا الفاسق الخبيث يقع في رجالكم، ثم قد تناول نساءكم! ولم تكن لك عند ذلك غيرة! فقلت: والله ما قلت إلا لأبي لا أبالي به، ولأيم الله لأعرضن له غداً، فإن عاد كفيتكن إياه. فلما أصبحوا من ذلك اليوم الذي رأت فيه عاتكة ما رأت، قال أبو جهل: هذه ثلاثة أيام ما بقي. قال العباس: وغدوت في اليوم الثالث، وأنا حديد مغضب، أرى أن قد فاتني منه أمراً أحب أن أدركه، وأذكر ما أحفظني به النساء من مقاتلتهن، فوالله إني لأمشي نحوه - وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر - إذ خرج نحو باب بني سهم يشدد، فقلت: ما باله لعنه الله! أكل هذا فرقاً من أن أشاقه! فإذا هو قد سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يقول: يا معشر قريش، يا آل لؤي بن غالب، اللطيمة قد عرض لها محمد في أصحابه! الغوث الغوث! والله ما أرى أن تدركوها، وضمضم ينادي بذلك في بطن الوادي، وقد جدع أذني بغيره وشق قميصه قبلاً ودبراً، وحول رحله، وكان يقول: لقد رأيته قبل أن أدخل مكة وإني لأرى في النوم وأنا على راحلتي كأن وادي مكة يسيل من أسفله إلى أعلاه دماً،

فاستيقظت فزعاً مذعوراً، فكرهتها لقريش، ووقع في نفسي أنها مصيبة في أنفسهم.

قال الواقدي: وكان عمير بن وهب الجمحي يقول: ما رأيت أعجب من أمر ضمضم قط، وما صرح على لسانه إلا شيطان! كأنه لم يملكنا من أمورنا شيئاً، حتى نفرنا على الصعب والذل، وكان حكيم بن حزام يقول: ما كان الذي جاءنا فاستنفرنا إلى العير إنساناً! إن هو إلا شيطان، قيل: كيف يا أبا خالد؟ قال: إني لأعجب منه، ما ملكنا من أمرنا شيئاً.

قال الواقدي: فجهاز الناس وشغل بعضهم عن بعض، وكان الناس بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وأشفقت قريش لرؤيا عاتكة، وسر بنو هاشم.

وقال قائلهم: كلا، زعمتم أنا كذبنا وكذبت عاتكة! فأقامت قريش ثلاثاً تتجهز - ويقال: يومين - وأخرجت أسلحتها واشتروا سلاحاً، وأعان قويمهم ضعيفهم، وقام سهيل بن عمرو في رجال من قريش، فقال: يا معشر قريش، هذا محمد والضباة معه من شبانكم وأهل يثرب قد عرضوا لعيركم ولطيمنتكم، فمن أراد ظهراً فهذا ظهر، ومن أراد قوة فهذه قوة. وقام زمعة بن الأسود، فقال: إنه واللات والعزى ما نزل بكم أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لعيركم فيها خزائنكم، فأوعبوا ولا يتخلف منكم أحد، ومن كان لا قوة له فهذه قوة، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لا يروعكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم. وقال طعيمة بن عدي: يا معشر قريش، والله ما نزل بكم أمر أجل من هذه! أن يستباح عيركم، ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم، والله ما أعرف رجلاً ولا امرأة من بني عبد مناف له نش فصاعداً، إلا وهو في هذه العير، فمن كان لا قوة به فعندنا قوة نحمله ونقويه. فحمل على عشرين بغيراً وقوى بهم، وخلفهم في أهلهم بمعونة. وقام حنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فحضا الناس على الخروج، ولم يدعوا إلى قوة ولا حملان، فقيل لهما: ألا تدعوان إلى ما دعا إليه لومكما من الحملان؟ قالوا: والله ما لنا مال، وما المال إلا لأبي سفيان. ومشى نوفل بن معاوية الديلمي إلى أهل القوة من قريش، وكلمهم في بذل النفقة والحملان لمن خرج، فكلم عبد الله بن أبي ربيعة، فقال: هذه خمسمائة دينار تضعها حيث رأيت، وكلم حويطب بن عبد العزى، فأخذ منه مائتي دينار أو ثلاثمائة، ثم قوى بها في السلاح والظهر.

قال الواقدي: وذكروا أنه كان لا يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعثاً، فمشت قريش إلى أبي لهب، فقالوا له: إنك سيد من سادات قريش، وإنك إن تخلفت عن النفير يعتبر بك غيرك من قومك، فأخرج أو ابعث رجلاً، فقال: واللات والعزى لا أخرج ولا أبعث أحداً، فجاءه أبو جهل فقال: أقم يا أبا عتبة، فوالله ما خرجنا إلا غضباً لدينك ودين آبائك! وخاف أبو جهل أن يسلم أبو لهب، فسكت أبو لهب ولم يخرج ولم يبعث، وما منع أبو لهب أن يخرج إلا الإشفاق من رؤيا عاتكة، كان يقول: إنما رؤيا عاتكة أخذ باليد، ويقال إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان له عليه دين، فقال: أخرج وديني عليك لك، فخرج عنه.

وقال محمد بن إسحاق في المغازي: كان دين أبي لهب على العاص بن هشام أربعة آلاف درهم، فمطله بها وأفلس، فتركها له على أن يكون مكانه، فخرج مكانه.

قال الواقدي: وأخرج عتبة وشيبة دروعاً لهما، فنظر إليهما مولاهما عداس وهما يصلحان دروعهما وآلة حربهما، فقال: ما تريدان؟ فقالا: ألم تر إلى الرجل الذي أرسلناك إليه بالعنب في كرمنا بالطائف؟ قال: نعم، قالوا: نخرج فنقاتله، فبكى، وقال: لا تخرجاً؟ فوالله إنه لنبي، فأبيا فخرجا، وخرج معهما فقتل بيدر معهما.

قلت: حديث العنب في كرم ابني ربيعة بالطائف قد ذكره أرباب السيرة، وشرحه الطبري في التاريخ، قال: لما مات أبو طالب بمكة طمعت قريش في رسول الله صلى الله عليه وسلم ونالت منه ما لم تكن تناله في حياة أبي طالب، فخرج من مكة خائفاً على نفسه مهاجراً إلى ربه يؤم الطائف، راجياً أن يدعو أهلها إلى الإسلام فيجيئوه، وذلك في شوال من سنة عشر من النبوة، فأقام بالطائف عشرة أيام، وقيل شهراً، لا يدع أحداً من أشراف ثقيف إلا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه، وأشاروا عليه أن يخرج عن أرضهم، ويلحق بمجاهل الأرض وبحيث لا يعرف، وأغروا به سفهاءهم، فرموه بالحجارة، حتى إن رجله لتدميان، فكان معه زيد بن حارثة، فكان يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه.

والشيعة تروي أن علي بن أبي طالب كان معه أيضاً في هجرة الطائف، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثقيف وهو محزون، بعد أن مشى إلى عبد ياليل ومسعود وحبيب ابني عمرو بن عمير، وهم يومئذ سادة ثقيف، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله وإلى نصرته والقيام معه على قومه، فقال له أحدهم: أنا أمرط بباب الكعبة، إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: أما

وجد الله أحداً أرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبداً، لكن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت كاذباً على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، واجتمع عليه صبيانهم وسفهاؤهم، وصاحوا به وسبوه وطرده، حتى اجتمع عليه الناس يعجبون منه، والجأوه بالحجارة والطرده والشتم إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما يومئذ في الحائط، فلما دخل الحائط رجع عنه سفهاء ثقيف، فعمد إلى ظل حبله لم منه فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف.

قال الطبري: فلما اطمأن به قال - فيما ذكر لي: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني! إلى بعيد فيتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، فإن لم يكن منك غضب علي فلا أبالي! ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن يتزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتي حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك! فلما رأى عتبة وشيبة ما لقي تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً نصرانياً لهما، يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، وقل له فليأكل منه، ففعل وأقبل به حتى وضعه بين يديه، فوضع يده فيه، فقال: بسم الله، وأكل، فقال عداس: والله إن هذه الكلمة لا يقولها أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني من أهل نينوى، قال: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال: وما يدريك من يونس بن متى؟ قال: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على يديه ورجليه ورأسه يقبلها، قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما قالوا: ويلك يا عداس!

مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه! قال: يا سيدي، ما في الأرض خير من هذا، فقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي. قال الواقدي: واستقسمت قريش بالأزلام عند هبل للخروج، واستقسم أمية بن خلف وعتبة وشيبة بالآمر والناهي، فخرج القدح الناهي، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل، فقال: ما استقسمت ولا نتخلف عن غيرنا. قال الواقدي: لما توجه زمعة بن الأسود خارجاً، فكان بذي طوىً أخرج قداحه، واستقسم بها، فخرج الناهي عن الخروج، فلقي غيظاً، ثم أعادها الثانية فخرج مثل ذلك فكسرهما، وقال: ما رأيت كاليوم قدحاً أكذب! ومر به سهيل بن عمرو وهو على تلك الحال، فقال: ما لي أراك غضبان يا أبا حكيمة؟ فأخبره زمعة، فقال: امض عنك أيها الرجل، قد أخبرني عمير بن وهب أنه لقيه مثل الذي أخبرني، فمضوا على هذا الحديث. قال الواقدي: وحدثني موسى بن ضمرة بن سعيد، عن أبيه، قال: قال أبو سفيان بن حرب لضمضم: إذا قدمت على قريش فقل لها: لا تستقسم بالأزلام.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن أبي بكر بن سليم بن أبي خيثمة، قال: سمعت حكيماً بن حزام يقول: ما توجهت وجهاً قط كان أكره إلي من مسيري إلى بدر، ولا بان لي في وجه قط ما بان لي قبل أن أخرج، ثم قال: قدم ضمضم، فصاح بالنفير فاستقسمت بالأزلام، كل ذلك يخرج الذي أكره، ثم خرجت على ذلك حتى نزلنا مر الظهران، فنحر ابن الحنظلية جزوراً منها بما حياة، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها، فكان هذا بين، ثم هممت بالرجوع، ثم أذكر ابن الحنظلية وشؤمه، فيردني حتى مضيت لوجهي. وكان حكيماً يقول: لقد رأينا حين بلغنا الثنية البيضاء - وهي الثنية التي تهبطك على فخ وأنت مقبل من المدينة - إذا عداس جالس عليها، والناس يمرون، إذ مر علينا ابنا ربيعة، فوثب إليهما، فأخذ بأرجلهما في غرزهما، وهو يقول: بأبي أنتما وأمي! والله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وما تساقان إلا إلى مصارعكما! وإن عينيه لتسيل دمعاً على خديه، فأردت أن أرجع أيضاً، ثم مضيت. ومر به العاص بن منبه بن الحجاج، فوقف عليه حين ولي عتبة وشيبة، فقال: ما يكيك؟ قال: يكييني سيدي - أو سيداً أهل الوادي - يخرجان إلى مصارعهما، ويقاتلان رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال العاص: وإن محمداً لرسول الله! فانتفض عداس انتفاضة واقشعر جلده، ثم بكى، وقال: إي والله، إنه لرسول الله إلى الناس كافة. قال: فأسلم العاص بن منبه، ومضى وهو على الشك، حتى قتل مع المشركين على شك وارتياب. ويقال: رجع عداس ولم يشهد بدرًا، ويقال: شهد بدرًا وقتل.

قال الواقدي: والقول الأول أثبت عندنا.

قال الواقدي: وخرج سعد بن معاذ معتمراً قبل بدر، فزل على أمية بن خلف، فأثاه أبو جهل، وقال: أترك هذا وقد آوى محمداً وآذنا بالحرب! فقال سعد بن معاذ: قل ما شئت، أما إن طريق غيركم علينا، قال أمية بن خلف: مه! لا تقل هذا لأبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي. قال سعد بن معاذ: وأنت تقول ذلك يا أمية؟ أما والله لسمعت محمداً يقول: لأقتلن أمية بن خلف، قال أمية: أنت سمعته؟ قال سعد بن معاذ: فقلت: نعم، قال: فوقع في نفسه، فلما جاء النفير أبي أمية أن يخرج معهم إلى بدر، فأثاه عقبة بن أبي معيط وأبو جهل، ومع عقبة مجمرة فيها بخور، ومع أبي جهل مكحلة

ومرود، فأدخلها عقبة تحته، فقال: تبخر، فإنما أنت امرأة، وقال أبو جهل: اكتحل فإنما أنت امرأة. فقال أمية: ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي، فابتاعوا له جملاً بثلاثمائة دينار من نعم بني قشير، فغنمه المسلمون يوم بدر، فصار في سهم خبيب بن يساف.

قال الواقدي: وقالوا: ما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث بن عامر، وقال: ليت قريشاً تعزم على القعود وأن مالي في العير تلف ومال بني عبد مناف أيضاً. فيقال له: إنك سيد من ساداتها، أفلا تردعها عن الخروج؟ قال: إني أرى قريشاً قد أزمعت على الخروج، ولا أرى أحداً به طرق تخلف إلا من علة، وأنا أكره خلافها، وما أحب أن تعلم قريش ما أقول، على أن ابن الحنظلية رجل مشؤوم على قومه، ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب، ولقد قسم الحارث مالاً من ماله بين ولده، ووقع في نفسه أنه لا يرجع إلى مكة، وجاءه ضمضم بن عمرو، وكانت للحارث عنده أياد، فقال: أبا عامر، إني رأيت رؤياً كرهتها، وإني لكاليقظان على راحلي وأراكم أن واديكم يسيل دماً من أسفله إلى أعلاه، فقال الحارث: ما خرج أحد وجهاً من الوجوه أكره له من وجهي هذا، قال: يقول ضمضم: والله إني لأرى لك أن تجلس، فقال: لو سمعت هذا منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة، فاطو ذا الخبر أن تعلمه قريش، فإنها تتهم كل من عوقها عن المسير - وكان ضمضم قد ذكر هذا الحديث للحارث ببطن يأجج - قالوا: وكرهت قريش أهل الرأي منهم المسير، ومشى بعضهم إلى بعض، وكان ممن أبطأ بهم عن ذلك الحارث بن عامر، وأمие بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام وأبو البخترى، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه، حتى بكتهم أبو جهل بالجن، وأعانه عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بن كلدة، وحضوهم على الخروج، وقالوا: هذا فعل النساء. فأجمعوا المسير، وقالت قريش: لا تدعوا أحداً من عدوكم خلفكم.

قال الواقدي: ومما استدل به على كراهة الحارث بن عامر للخروج وعتبة وشيبة، أنه ما عرض رجل منهم حملاً، ولا حملوا أحداً من الناس، وإن كان الرجل ليأتيهم حليفاً أو عديداً، ولا قوة له، فيطلب الحملان منهم، فيقولون: إن كان لك مال وأحببت أن تخرج فافعل وإلا فأقم، حتى كانت قريش تعرف ذلك منهم.

قال الواقدي: فلما اجتمعت قريش إلى الخروج والمسير، ذكروا الذي بينهم وبين بني بكر من العداوة، وخافوهم على من يخلفونه، وكان أشدهم خوفاً عتبة بن ربيعة، وكان يقول: يا معشر قريش، إنكم وإن ظفرتم بالذي تريدون، فإننا لا نأمن على من نخلف، إنما نخلف نساء وذرية ومن لا طعم به فارتأوا آراءكم، فتصور لهم إبليس في صورة سراقه بن جعشم المدلجي فقال: يا معشر قريش، قد عرفتكم شرفي ومكاني في قومي، أنا لكم جار أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فطابت نفس عتبة، وقال له أبو جهل: فما تريد؟ هذا سيد كنانة، هو لنا جار على من نخلف، فقال عتبة: لا شيء، أنا خارج.

قال الواقدي: وكان الذي بين بني كنانة وقريش أن ابناً لحفص بن الأحنف أحد بني معيط بن عامر بن لؤي، خرج يبغى ضالة، وهو غلام في رأسه ذؤابة، وعليه حلة، وكان غلاماً وضيئاً، فمر بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوح بن يعمر، أحد رؤساء بني كنانة - وكان بضجنان - فقال: من أنت يا غلام؟ قال: ابن لحفص بن الأحنف، فقال: يا بني بكر، ألكم في قريش دم؟ قالوا: نعم، قال: ما كان رجل يقتل هذا برجله إلا استوفى، فاتبعه رجل من بني بكر فقتله بدم له في قريش؟

فتكلمت فيه قريش، فقال عامر بن يزيد: قد كانت لنا فيكم دماء، فإن شئتم فأدوا ما لنا قبلكم ونؤدي إليكم ما كان فينا، وإن شئتم فإنما هو الدم، رجل برجل، وإن شئتم فتجافوا عنا فيما قبلنا، ونتجافى عنكم فيما قبلكم. فهان ذلك الغلام على قريش، وقالوا: صدق! رجل برجل، فلهوا عنه أن يطلبوا بدمه، فبينما أخوه مكرز بن حفص يمر الظهران، إذ نظر عامر بن يزيد وهو سيد بني بكر على جمل له، فلما رآه قال: ما أطلب أثراً بعد عين! وأناخ بعيره، وهو متوشح سيفه، فعلاه به حتى قتله، ثم أتى مكة من الليل، فعلق سيف عامر بن يزيد بأستار الكعبة، فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر بن يزيد، فعرفوا أن مكرز بن حفص قتله، وقد كانت تسمع من مكرز في ذلك قولاً، وجزعت بنو بكر من قتل سيدها، فكانت معدة لقتل رجلين من قريش سيدين أو ثلاثة من ساداتها، فجاء النفيروهم على هذا الأمر، فخافوهم على من تخلف بمكة من ذراريهم، فلما قال سراقة ما قال، وهو ينطق بلسان إبليس شجع القوم.

قال الواقدي: وخرجت قريش سراعاً، وخرجوا بالقيان والدفوف، سارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب وعزة مولاة أسود بن المطلب، وفلانة مولاة أمية بن خلف، يغنين في كل منهل، وينحرون الجزر، وخرجوا بالجيش يتقاذفون بالحرايب، وخرجوا بتسعمائة وخمسين مقاتلاً، وقادوا مائة فرس، بطراً ورتاء الناس، كما ذكر الله تعالى في كتابه وأبو جهل يقول: أظن محمد أن يصيب منا ما أصاب بنخلة وأصحابه، سيعلم أئمنع غيرنا أم لا! قلت: سرية نخلة سرية قبل بدر، وكان أميرها عبد الله بن جحش قتل فيها عمرو بن الحضرمي، حليف بني عبد شمس، قتله واقد بن عبد الله التميمي، رماه بسهم فقتله، وأسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، واستاق المسلمون العير، وكانت خمسمائة بعير فخمسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقسم أربعمائة فيمن شهداها من المسلمين، وهم مائتا رجل، فأصاب كل رجل بعيران.

قال الواقدي: وكانت الخيل لأهل القوة منهم، وكان في بني مخزوم منها ثلاثون فرساً، وكانت الإبل سبعمائة بعير، وكان أهل الخيل كلهم دارع، وكانوا مائة، وكان في الرجال دروع سوى ذلك.

قال الواقدي: وأقبل أبو سفيان بالبعير، وخاف هو وأصحابه خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة، واستبطأوا ضمضاً والنفيروهم، فلما كانت الليلة التي يصبحون فيها على ماء بدر، جعلت العير تقبل بوجوهها إلى ماء بدر، وكانوا باتوا من وراء بدر آخر ليلتهم، وهم على أن يصبحوا بدرأً، إن لم يعترض لهم، فما أقرهم العير حتى ضربوها بالعقل على أن بعضها ليثني بعقالين، وهي ترجع الحنين، توارداً إلى ماء بدر، وما إن بها إلى الماء من حاجة، لقد شربت بالأمس، وجعل أهل العير يقولون: إن هذا شيء ما صنعت الإبل منذ خرجنا، قالوا: وغشينا تلك الليلة ظلمة شديدة حتى ما نبصر شيئاً. قال الواقدي: وكان بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء وردا على مجدي بدرأً يتجسسان الخبر، فلما نزلا ماء بدر، أناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء، ثم أخذتا أسقيتهما، يسقيان من الماء، فسمعا جاريتين من جواري جهينة، يقال لإحداهما برزة وهي تلزم صاحبتهما في درهم، كان لها عليها وصاحبتهما تقول: إنما العير غداً أو بعد غد قد نزلت، ومجدي بن عمر يسمعها، فقال: صدقت، فلما سمع ذلك بسبس وعدي انطلقا راجعين إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتياه بعرق الظبية، فأخبراه الخبر.

قال الواقدي: وحدثني كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده - وكان أحد البكائين - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد سلك فج الروحاء موسى النبي عليه السلام في سبعين ألفاً من بني إسرائيل وصلوا في المسجد الذي بعرق الظبية.

قال الواقدي: وهي من الروحاء على ميلين مما يلي المدينة، إذا خرجت على يسارك.

قال الواقدي: وأصبح أبو سفيان ببدر، قد تقدم العير وهو خائف من الرصد فقال: يا مجدي، هل أحسست أحداً! تعلم والله ما بمكة قرشي ولا قرشية له نش فصاعداً - والنش نصف أوقية وزن عشرين درهماً - إلا وقد بعث به معنا! ولئن كتمتنا شأن عدونا لا يصلحك رجل من قريش ما بل بحر صوفة. فقال مجدي: والله ما رأيت أحداً أنكره، ولا بينك وبين يثرب من عدو، ولو كان بينك وبينها عدو لم يخف علينا، وما كنت أخفيه عنك، إلا أي قد رأيت راكبين أتيا إلى هذا المكان - وأشار إلى مناخ عدي ويسبس - فأناخا به، ثم استقيا بأسقيتهما، ثم انصرفا. فجاء أبو سفيان مناخهما، فأخذ أبعاراً من أبعاد بعيريهما ففتنها، فإذا فيها نوى، فقال: هذه والله علائف يثرب! هذه والله عيون محمد وأصحابه، ما أرى القوم إلا قريياً، فضرب وجهه عيره، فساحل بها، وترك بدراناً يساراً وانطلق سريعاً، وأقبلت قريش من مكة يتزلون كل منهل يطعمون الطعام من أتاها، وينحرون الجزور، فبينما هم كذلك في مسيرهم إذ تخلف عتبة وشيبة، وهما يترددان، قال أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب! لقد خشيت منها، قال الآخر: فاذكرها، وذكرها، فأدركهما أبو جهل، فقال: ما تتحدثون به؟ قالوا: نذكر رؤيا عاتكة، قال يا عجباً من بني عبد المطلب! لم يرضوا أن تتنبأ علينا رجالهم حتى تنبأت علينا النساء! أما والله لئن رجعنا إلى مكة لنفعلن بهم ولنفعلن! قال عتبة: إن لهم أرحاماً وقراة قريبة. ثم قال أحدهما لصاحبه: هل لك أن ترجع؟ قال أبو جهل: أترجعان بعد ما سرنا فتخذلان قومكما، وتقطعان بهم بعد أن رأيتم تأركم بأعينكم! أظنن أن محمداً وأصحابه يلاقونكما! كلا والله، إن معي من قومي مائة وثمانين كلهم من أهل بيتي يحلون إذا أحللت، ويرحلون إذا رحلت، فارجعا إن شئتما. قالوا: والله لقد هلك وأهلك قومك. ثم قال عتبة لأخيه شيبة: إن هذا رجل مشؤوم - يعني أبا جهل - وإنه لا يمسه من قرابة محمد ما يمسن، مع أن محمداً معه الولد فارجع بنا ودع قوله.

قلت: مراده بقوله "مع أن محمداً معه الولد"، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، كان أسلم وشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: فقال شيبة: والله تكون علينا سبة يا أبا الوليد أن نرجع الآن بعد ما سرنا فمضينا. ثم انتهى إلى الجحفة عشاء، فنام جهيم بن الصلت بن مخزومة بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال: إني لأرى بين النائم واليقظان، أنظر إلى رجل أقبل على فرس معه بعير له، حتى وقف علي، فقال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وزمعة بن الأسود، وأميرة بن خلف، وأبو البختري، وأبو الحكم، ونوفل بن خويلد، في رجال سماهم من أشراف قريش! وأسر سهيل بن عمرو، وفر الحارث بن هشام عن أخيه، قال: وكأن قائلاً يقول: والله إني لأظنهم الذين يخرجون إلى مصارعهم. ثم قال: أراه ضرب في لبة بعيره فأرسله في العسكر، فقال أبو جهل: وهذا نبي آخر من بني عبد مناف! ستعلم غداً من المقتول، نحن أو

محمد وأصحابه! وقالت قريش لجهيم: إنما يلعب بك الشيطان في منامك، فسترى غداً خلاف ما رأيت! يقتل أشراف محمد ويؤسرون. قال: فخلأ عتبة بأخيه شيبه، فقال له: هل لك في الرجوع؟ فهذه الرؤيا مثل رؤيا عاتكة، ومثل قول عداس، والله ما كذبنا عداس، ولعمري لئن كان محمد كاذباً إن في العرب لمن يكفيناه، ولئن كان صادقاً إنا لأسعد العرب به للحمته. فقال شيبه: هو على ما تقول، أفترجع من بين أهل العسكر؟ فجاء أبو جهل وهما على ذلك فقال: ما تريدان؟ قالوا: الرجوع، ألا ترى إلى رؤيا عاتكة، وإلى رؤيا جهيم بن الصلت مع قول عداس لنا! فقال: لا تتخذلان والله قومكما وتقطعان بهم. قالوا: هلكت والله وأهلك قومك! فمضيا على ذلك.

قال الواقدي: فلما أفلت أبو سفيان بالغير، ورأى أن قد أحرزها وأمن عليها، أرسل إلى قريش قيس بن امرئ القيس - وكان مع أصحاب الغير - خرج معهم من مكة، فأرسله أبو سفيان يأمرهم بالرجوع، ويقول: قد نجت غيركم وأموالكم، فلا تحرزوا أنفسكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك، إنما خرجتم لتمنعوا غيركم وأموالكم، وقد نجهاها الله. فإن أبوا عليك فلا يأبون خصلة واحدة، يردون القيان. فعالج قيس بن امرئ القيس قريشاً، فأبى الرجوع. قالوا: أما القيان فسنردهن، فردوهن من الجحفة.

قلت: لا أعلم مراد أبي سفيان برد القيان، وهو الذي أخرجهن مع الجيش يوم أحد يحرضن قريشاً على إدراك الثأر، ويغنين، ويضربن الدفوف، فكيف نهي عن ذلك في بدر وفعله في أحد! وأقول: من تأمل الحال علم أن قريشاً لم يمكن أن تنتصر يوم بدر، لأن الذي خالطها من التخاذل والتواكل وكراهية الحرب وحب الرجوع وخوف اللقاء وخفوق الهمم وفتور العزائم، ورجوع بني زهرة وغيرهم من الطريق، واختلاف آرائهم في القتال، يكفي بعضه في هلاكهم وعدم فلاحهم، لو كانوا قد لقوا قوماً جنباء، فكيف وانما لقوا الأوس والخزرج، وهم أشجع العرب، وفيهم علي بن أبي طالب عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب، وهما أشجع البشر، وجماعة من المهاجرين أنجاد أبطال، ورئيسهم محمد بن عبد الله، رسول الله، الداعي إلى الحق والعدل والتوحيد، المؤيد بالقوة الإلهية، دع ما أضيف إلى ذلك من ملائكة السماء، كما نطق به الكتاب! قال الواقدي: ولحق الرسول أبا سفيان بالهدة - والهدة على سبعة أميال من عقبة عسفان، على نسعة وثلاثين ميلاً من مكة - فأخبره بمضي قريش، فقال: واقوماه! هذا عمل عمرو بن هشام، يكره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس وبغى، والبغى منقصة وشؤم، والله لئن أصاب أصحاب محمد النفير ذلنا إلى أن يدخل مكة علينا.

قال الواقدي: وقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرأً - وكانت بدر موسماً من مواسم العرب في الجاهلية، يجتمعون بها وفيها سوق - تسمع بنا العرب وبمسيرنا، فنقيم على بدر ثلاثاً، ننحر الجزر ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، فلن تزال العرب تهابنا أبداً.

قال الواقدي: وكان الفرات بن حيان العجلي أرسلته قريش حين فصلت من مكة إلى أبي سفيان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولها، وما قد حشدت. فحالف أبا سفيان في الطريق، وذلك أن أبا سفيان لصق بالبحر، ولزم الفرات بن حيان المحجة، فوافى المشركين بالجحفة، فسمع كلام أبي جهل، وهو يقول: لا نرجع، فقال: ما بأنفسهم عن نفسك رغبة! وإن الذي يرجع بعد أن رأى ثأره من كذب لضعيف، فمضى مع قريش، فترك أبا سفيان، وجرح يوم بدر جراحات كثيرة، وهرب على قدميه، وهو يقول: ما رأيت كالיום أمراً أنكد! إن ابن الحنظلية لغير مبارك الأمر.

قال الواقدي: وقال الأخنس بن شريق - واسمه أبي، وكان حليفاً لبني زهرة: يا بني زهرة، قد نجى الله غيركم، وخلص أموالكم، ونجى صاحبكم مخزومة بن نوفل، وإنما خرجتم لتمنعوه وماله، وإنما محمد رجل منكم، ابن أختكم، فإن يك نبياً فأنتم أسعد به، وإن يك كاذباً يلي قتله غيركم خير من أن تلووا قتل ابن أختكم، فارجعوا واجعلوا خبيثها لي، فلا حاجة لكم أن تخرجوا في غير ما يهكم، ودعوا ما يقوله هذا الرجل - يعني أبا جهل - فإنه مهلك قومه، سريع في فسادهم، فأطاعته بنو زهرة، وكان فيهم مطاعاً، وكانوا يتيمنون به، فقالوا: فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع؟ فقال الأخنس: نسير مع القوم، فإذا أمسيت سقطت عن بعيري، فيقولون: نحل الأخنس، فإذا أصبحوا فقالوا: سيروا، فقولوا: لا نفارق صاحبنا، حتى نعلم أحي هو أم ميت، فندفنه، فإذا مضوا رجعنا إلى مكة. ففعلت بنو زهرة ذلك، فلما أصبحوا بالأبواء راجعين تبين للناس أن بني زهرة رجعوا فلم يشهدوا زهري البتة، وكانوا مائة، وقيل: أقل من مائة وهو أثبت. وقال قوم: فزحف الأسود لير قسمه زعم، حتى وقف في الحوض فهدمه برجله الصحيحة، وشرب منه، وأتبعه حمزة، فضربه في الحوض فقتله، والمشركون ينظرون ذلك على صفوفهم.

قال الواقدي: ودنا الناس بعضهم من بعض، فخرج عتبة وشيبة والوليد حتى فصلوا من الصف، ثم دعوا إلى المبارزة، فخرج إليهم فتیان ثلاثة من الأنصار، وهم بنو عفراء: معاذ ومعوذ وعوف، بنو الحارث - ويقال: إن ثالثهم عبد الله بن رواحة، والثابت عندنا أنهم بنو عفراء - فاستحى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك، وكره أن يكون أول قتال لقي المسلمون فيه المشركين في الأنصار، وأحب أن تكون الشوكة لبني عمه وقومه، فأمرهم، فرجعوا إلى مصافهم، وقال لهم خيراً، ثم نادى منادي المشركين: يا محمد، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بني هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله. فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، فمشوا إليهم، فقال عتبة: تكلموا نعرفكم - وكان عليهم البيض، فأنكروهم - فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم.

وروى محمد بن إسحاق في كتاب "المغازي" خلاف هذه الرواية، قال: إن بني عفراء وعبد الله بن رواحة برزوا إلى عتبة وشيبة والوليد، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقالوا: ارجعوا فما لنا بكم من حاجة! ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان. قلت: وهذه الرواية أشهر من رواية الواقدي، وفي رواية الواقدي ما يؤكد صحة رواية محمد بن إسحاق، وهو قوله: إن منادي المشركين نادى: يا محمد، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا. فلو لم يكن قد كلمهم بنو عفراء وكلموهم وردوهم، لما نادى مناديهم بذلك. ويدل على ذلك قول بعض القرشيين لبعض الأنصار في فخر فخر به عليه: أنا من قوم لم يرض مشركوهم أن يقتلوا مؤمني قومك.

قال الواقدي: فقال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، فقال عتبة: كفاء كريم، وأنا أسد الحلفاء، من هذان معك؟ قال: علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب، فقال: كفآن كريمان.

قال الواقدي: قال ابن أبي الزناد: حدثني أبي، قال: لم أسمع لعبة كلمة قط أو هن من قوله: "أنا أسد الحلفاء يعني بالحلفاء

قلت: قد روي هذه الكلمة على صيغة أخرى: "وأنا أسد الحلفاء"، وروي: "أنا أسد الأحلاف".

قالوا في تفسيرهما: أراد أنا سيد أهل الحلف المطيبين، وكان الذين حضروه بني عبد مناف وبني أسد بن عبد العزى وبني تيم وبني زهرة وبني الحارث بن فهر، خمس قبائل. ورد قوم هذا التأويل، فقالوا: إن المطيبين لم يكن يقال لهم: الحلفاء ولا الأحلاف، وإنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الذين وقع التحالف لأجلهم، وهم بنو عبد الدار، وبنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي بن كعب، خمس قبائل. وقال قوم في تفسيرهما: إنما عني حلف الفضول، وكان بعد حلف المطيبين لزمان، وشهد حلف الفضول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صغير في دار ابن جدعان، وكان سببه أن رجلاً من اليمن قدم مكة بمتاع، فاشتراه العاص بن وائل السهمي ومطله بالثمن حتى أتعبه، فقام بالحجر وناشد قريشاً ظلامته، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة، وبنو تميم، في دار ابن جدعان، فتحالفوا، وغمسوا أيديهم في ماء زمزم، بعد أن غسلوا به أركان البيت، أن ينصروا كل مظلوم بمكة، ويردوا عليه ظلامته، ويأخذوا على يد الظالم، وينهوا عن كل منكر، ما بل بحر صوفة؟ فسفي حلف الفضول لفضله، وقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "شهدته وما أحب أن لي به حمر النعم، ولا يزيد الإسلام إلا شدة"، وهذا التفسير أيضاً غير صحيح، لأن بني عبد شمس لم يكونوا في حلف الفضول، فقد بان أن ما ذكره الواقدي أصح وأثبت.

قال الواقدي: ثم قال عتبة لابنه: قم يا وليد، فقام الوليد وقام إليه علي - وكانا أصغر نفر - فاختلفا ضربتين، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم قام عتبة، وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين، فقتله حمزة رضي الله عنه، ثم قام شيبة، وقام إليه عبيدة - وهو يومئذ أسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - فضرب شيبة رجل عبيدة بذياب السيف، فأصاب عضلة ساقه، فقطعها وكر حمزة وعلي على شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة فحازاه إلى الصف، ومخ ساقه يسيل، فقال عبيدة: يا رسول الله، ألسنت شهيداً؟ قال: بلى، قال: أما والله لو كان أبو طالب حياً لعلم أي أحق بما قال حين يقول:

ولما نطاعن دونه وんなضل

ونذهل عن أبنائنا والحلائل

كذبتهم وبيت الله نخلي محمداً

وننصره حتى نصرع حوله

ونزلت فيهم هذه الآية: "هذان خصمان اختصموا في ربهم".

وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارز عبيدة بن الحارث، وأن شيبة بارز حمزة بن عبد المطلب، فقتل حمزة شيبة، لم يمهل أن قتله، ولم يمهل علي الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي عليه السلام على عتبة بأسياهما، حتى وقعا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف.

قلت: وهذه الرواية توافق ما يذكره أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه، إذ يقول لمعاوية: وعندي السيف الذي أعضضت به أخاك وخالك وجدك يوم بدر. ويقول في موضع آخر: قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك، وما هي من الظالمين ببعيد.

واختار البلاذري رواية الواقدي: وقال: إن حمزة قتل عتبة، وإن علياً عليه السلام قتل الوليد، وشرك في قتل شيبة. وهذا هو المناسب لأحوالهم من طريق السن، لأن شيبة أسن الثلاثة، فجعل بإزاء عبيدة وهو أسن الثلاثة، والوليد أصغر الثلاثة سنّاً، فجعل بإزاء علي عليه السلام، وهو أصغر الثلاثة سنّاً، وعتبة أوسطهم سنّاً، فجعل بإزاء حمزة وهو أوسطهم سنّاً. وأيضاً فإن عتبة كان أمثل الثلاثة، فمقتضى القياس أن يكون قرنه أمثل الثلاثة، وهو حمزة إذ ذاك، لأن علياً عليه السلام لم يكن قد اشتهر أمره جداً، وإنما اشتهر الشهرة التامة بعد بدر. ولمن روى أن حمزة بارز شيبة - وهي رواية ابن إسحاق - أن ينتصر بشعر هند بنت عتبة ترثي أباهما:

على خير خندف لم ينقلب

بنو هاشم وبنو المطلب

يعلونه بعد ما قد عطب

أعيني جودا بدمع سرب

تداعى له رهطه قصره

يذيقونه حر أسيافهم

فإذا كانت قد قالت إن عتبة أباهما أذاقه بنو هاشم وبنو المطلب حر أسيافهم، فقد ثبت أن المبارز لعتبة إنما هو عبيدة لأنه من بني المطلب جرح عتبة، فأثبتته ثم ذفف عليه حمزة وعلي عليه السلام. فأما الشيعة، فإنها تروي أن حمزة بادر عتبة فقتله، وأن اشتراك علي وحمزة إنما هو في دم شيبة بعد أن جرحه عبيدة بن الحارث، هكذا ذكر محمد بن النعمان في كتاب "الإرشاد"، وهو خلاف ما تنطق به كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية، والأمر عندي مشتبه في هذا الموضع.

وروى محمد بن النعمان، عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه كان يذكر يوم بدر ويقول: أختلف أنا والوليد بن عتبة ضربتين، فأخطأني ضربته، وأضر به فاتقاني بيده اليسرى، فأبأها السيف، فكأني أنظر إلى وميض خاتم في شماله، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته، فرأيت به الردع من خلوق، فعلمت أنه قريب عهد بعرس. قال الواقدي: وقد روي أن عتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز، قام إليه ابنه أبو حذيفة بن عتبة يبارزه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: اجلس، فلما قام إليه نفر أعان أبو حذيفة على أبيه عتبة بضربة. قال الواقدي: وأخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: شيبة أكبر من عتبة بثلاث سنين، وحمزة أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بأربع سنين، والعباس أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين. قال الواقدي: واستفتح أبو جهل يوم بدر، فقال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعلم، فأحنه الغداة، فأنزل الله تعالى: "إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح..." الآية.

قال الواقدي: وروى عروة عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل شعار المهاجرين يوم بدر: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبد الله.

قال: وروى زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، أن شعار رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوم بدر: يا منصور أمت.

قال الواقدي: ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أبي البختری، وكان قد لبس السلاح بمكة يوماً قبل الهجرة في بعض ما كان ينال النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى، وقال: لا يعرض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح. فشكر ذلك له النبي صلى الله عليه وسلم. قال أبو داود المازني: فلحقته يوم بدر، فقلت له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهي عن قتلك إن أعطيت بيدك، قال: وما تريد إلي! إن كان قد نهي عن قتلي، فقد كنت أبليته ذلك، فأما أن أعطي بيدي، فواللوات والعزى لقد علمت نسوة بمكة أني لا أعطي بيدي، وقد عرفت أنك لا تدعني، فافعل الذي تريد. فرماه أبو داود بسهم، وقال: اللهم سهمك، وأبو البختری عبدك، فضعه في مقتله، وأبو البختری دارع، ففتق السهم الدرع فقتله.

قال الواقدي: ويقال إن المجذر بن زياد قتل أبا البختری ولا يعرفه، وقال المجذر في ذلك شعراً عرف منه أنه قاتله. وفي رواية محمد بن إسحاق، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي يوم بدر عن قتل أبي البختری، واسمه الوليد بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، لأنه كان أكف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم، فلقه المجذر بن زياد البلوي حليف الأنصار، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن قتلك، ومع أبي البختری زميل له خرج معه من مكة يقال له جنادة بن مليحة، فقال أبو البختری: وزميلي! قال المجذر: والله ما نحن لتاركي زميلك، ما نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عنك وحدك، قال: إذاً والله لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عني نساء أهل مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة، فنازله المجذر. وارتجز أبو البختری فقال:

حتى يموت أو يرى سبيله

لن يسلم ابن حرة زميله

ثم اقتتلا، فقتله المجذر، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره، وقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فأتيتك به، فأبى إلا القتال فقاتلته فقتلته.

قال الواقدي: ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل، وقال: اتسروه ولا تقتلوه، وكان كارهاً للخروج إلى بدر، فلقه خبيب بن يساف فقتله ولا يعرفه، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال: لو وجدته قبل أن يقتل لتركته لنسائه. ونهى عن قتل زمعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذع، ولا يعرفه. قال الواقدي: وارتجز عدي بن أبي الزغباء يوم بدر، فقال:

أمشي بها مشي الفحل

أنا عدي والسحل

يعني درعه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من عدي؟ فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، قال: وماذا؟ قال: ابن فلان، قال: لست أنت عدياً، فقال عدي بن أبي الزغباء: أنا يا رسول الله عدي، قال: وماذا؟ قال: "والسحل، أمشي بها مشي الفحل"، قال النبي صلى الله عليه وسلم: وما السحل، قال: درعي، فقال صلى الله عليه وسلم نعم العدي، عدي بن

أبي الزغباء".

قال الواقدي: وكان عقبة بن أبي معيط قال بمكة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة:

عما قليل تراني راكب الفرس

ياراكب الناقة القصواء هاجرنا

والسيف يأخذ منكم كل ملتبس

أعل رمحي فيكم ثم أنهله

فبلغ قوله النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "اللهم أكبه لمنخره واصرعه" فجمع به فرسه يوم بدر بعد أن ولى الناس، فأخذه عبد الله بن سلمة العجلاني أسيراً، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عاصم بن أبي الأفلح، فضرب عنقه صبراً. قال الواقدي: وكان عبد الرحمن يحدث يقول: إني لأجمع أدراعاً يوم بدر، بعد أن ولى الناس، فإذا أمية بن خلف - وكان لي صديقاً في الجاهلية، وكان اسمي عبد عمرو، فلما جاء الإسلام تسميت عبد الرحمن، فكان يلقياني بمكة فيقول: يا عبد عمرو، فلا أجيبه، فيقول: إني لا أقول لك عبد الرحمن، إن مسيلمة باليمامة تسمى بالرحمن، فأنا لا أدعوك إليه، فكان يدعوني عبد الإله، فلما كان يوم بدر رأيته وكأنه جمل يساق، ومعه ابنه علي، فناداني: يا عبد عمرو، فأبيت أن أجيبه، فناداني: يا عبد الإله، فأجبت، فقال: أما لكم حاجة في اللبن؟ نحن خير لك من أدركك هذه، فقلت: امضيا فجعلت أسوقهما أمامي، وقد رأى أمية أنه قد أمن بعض الأمن، فقال لي أمية: رأيت رجلاً فيكم اليوم معلماً في صدره بريشة نعامة، من هو؟ فقلت: حمزة بن عبد المطلب فقال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل! ثم قال: فمن رجل دحداح قصير معلم بعصاة حمراء؟ قلت: ذاك رجل من الأنصار، يقال له: سماك بن خرشة، قال: وبذاك أيضاً يا عبد الإله صرنا اليوم جزراً لكم! قال: فبينما هو معي أزجيه أمامي، ومعه ابنه، إذ بصر به بلال وهو يعجن عجينة له، فترك العجين، وجعل يقتل يديه منه فتلاً ذريعاً، وهو ينادي: يا معشر الأنصار، أمية بن خلف رأس الكفر! لا نجوت إن نجوت - قال: لأنه كان يعذبه بمكة، فأقبلت الأنصار كأنهم عوذ حنت إلى أولادها، حتى طرحوا أمية على ظهره، واضطجعت عليه أمية منهم، فأقبل الخباب بن المنذر، فأدخل سيفه، فاقتطع أرنبة أنفه، فلما فقد أمية أنفه، قال لي: إيها عنك! أي حل بيني وبينهم، قال عبد الرحمن فذكرت قول حسان:

أو عن ذلك الأنف جادع

قال: ويقبل إليه خبيب بن يساف، فضربه حتى قتله، وقد كان أمية ضرب خبيب بن يساف حتى قطع يده من المنكب، فأعادها النبي صلى الله عليه وسلم فالتحمت واستوت، فتزوج خبيب بن يساف بعد ذلك ابنة أمية بن خلف، فرأت تلك الضربة، فقالت: لا يشل الله يد رجل فعل هذا! فقال خبيب: وأنا والله قد أوردته شعوب، فكان خبيب يحدث يقول: فأضربه فوق العاتق، فأقطع عاتقه حتى بلغت مؤتره، وعليه الدرع، وأنا أقول: خذها وأنا ابن يساف! وأخذت سلاحه ودرعه، وأقبل علي بن أمية فتعرض له الخباب، فقطع رجله، فصاح صيحة ما سمع مثلها قط، ولقيه عمار فضربه ضربة فقتله. ويقال: إن عماراً لاقاه قبل ضربة الخباب، فاختلفا ضربات، فقتله عمار. والأولى أثبت، أنه ضربه بعد أن قطعت رجله.

قال الواقدي: وقد سمعنا في قتل أمية غير ذلك، حدثني عبيد بن يحيى، عن معاذ بن رفاعه، عن أبيه، قال: لما كان يوم بدر وأحدقنا بأمية بن خلف، وكان له فيهم شأن، ومعى رحى، ومعه رحمة، فتطاعنا حتى سقطت أرجحتها، ثم صرنا إلى السيفين فتضاربنا بهما حتى انثلما، ثم بصرت بفتق في درعه تحت إبطه، فحششت السيف فيه حتى قتلته، وخرج السيف عليه الودك.

قال الواقدي: وقد سمعنا وجهاً آخر: حدثني محمد بن قدامة بن موسى، عن أبيه، عن عائشة بنت قدامة، قالت: قال صفوان بن أمية بن خلف يوماً: يا قدام - لقدامة بن مظعون - أنت المشلي بأبي يوم بدر الناس! فقال قدامة: لا والله ما فعلت، ولو فعلت ما اعتذرت من قتل مشرك. قال صفوان: فمن يا قدام المشلي به يوم بدر؟ قال: رأيت فتية من الأنصار أقبلوا إليه، فيهم معمر بن حبيب بن عبيد الحارث، يرفع سيفه ويضعه فيه، فقال صفوان: أبو قرد! وكان معمر رجلاً دميماً، فسمع بذلك الحارث بن حاطب، فغضب له، فدخل على أم صفوان، فقال: ما يدعنا صفوان من الأذى في الجاهلية والإسلام! قالت: وما ذاك؟ فأخبرها بمقالة صفوان لمعمر حين قال: أبو قرد! فقالت أم صفوان: يا صفوان، أنتقص معمر بن حبيب من أهل بدر! والله لا أقبل لك كرامة سنة. قال صفوان: يا أمة، لا أعود والله أبداً، تكلمت بكلمة لم ألق لها بالاً.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن قدامة، عن أبيه، عن عائشة بنت قدامة، قالت: قيل أم صفوان بن أمية - ونظرت إلى الحباب بن المنذر بمكة: هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا عن ذكر من قتل على الشرك، قد أهان الله علياً بضربة الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربته علياً، ولقد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك.

فأما محمد بن إسحاق، فإنه قال: قال عبد الرحمن بن عوف: أخذت بيد أمية بن خلف ويد ابنه علي بن أمية أسيرين يوم بدر، فبينما أنا أمشي بينهما، رأنا بلال - وكان أمية هو الذي يعذب بلالاً بمكة، يخرج به إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع بجرارها على صدره، ويقول له: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد! فيقول بلال: أحد أحد! لا يزيد على ذلك - فلما رآه صاح: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجوت! قال عبد الرحمن: فقلت أي بلال، أسيري! فقال: لا نجوت إن نجأ، فقلت: استمع يا بن السوداء، قال: لا نجوت إن نجأ، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، أمية بن خلف رأس الكفر، لا نجوت إن نجأ، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة، وأنا أذب عنه، ويحذف عمار بن ياسر علياً ابنه بالسيف، فأصاب رجله، فوقع وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، فخليت عنه، وقلت: انج بنفسك ولا نجاء به! فوالله ما أغني عنك شيئاً، قال: فهبروهما بأسيا فهم حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن بن عوف، يقول: رحم الله بلالاً! أذهب أدري، وفجعي بأسيري! قال الواقدي: وكان الزبير بن العوام يحدث فيقول: لما كان يومئذ لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص على فرس، عليه لامة كاملة لا يرى منه إلا عيناه، وهو يقول - وكانت له صببية صغيرة، يحملها وكان لها بطين وكانت مقسمة: أنا أبو ذات الكرش، أنا أبو ذات الكرش. قال: وفي يدي عزة فأطعن بها في عينه ووقع، وأطوه برجلي على خده، حتى أخرجت العزة متعقفة، وأخرجت حدقته، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك العزة، فكانت تحمل بين يديه، ثم صارت تحمل بين يدي أبي بكر وعمر

وعثمان.

قال الواقدي: وأقبل عاصم بن أبي عوف بن صبيرة السهمي، لما جال الناس واختلطوا، وكأنه ذئب، وهو يقول: يا معشر قريش، عليكم بالقاطع مفرق الجماعة، الآتي بما لا يعرف، محمد، لا نجوت إن نجأ! ويعترضه أبو دجانة، فاختلفا ضربتين، ويضربه أبو دجانة فقتله، ووقف على سلبه يسلبه، فمر به عمر بن الخطاب، فقال: دع سلبه حتى يجهض العدو، وأنا أشهد لك به.

قال الواقدي: ويقبل معبد بن وهب، أحد بني عامر بن لؤي، فضرب أبا دجانة ضربة برك منها أبو دجانة كما يبرك الجمل، ثم انتهض، وأقبل على معبد، فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئاً، حتى يقع معبد بحفرة أمامه لا يراها، ونزل أبو دجانة عليه، فذبحه ذبحاً، وأخذ سلبه.

قال الواقدي: ولما كان يومئذ، ورأت بنو مخزوم مقتل من قتل، قالت: أبو الحكم! لا يخلص إليه، فإن ابني ربيعة عاجلاً وبطراً، ولم تحام عنهما عشيرتهما. فاجتمعت بنو مخزوم، فأحدقوا به، فجعلوه في مثل الحرجة، وأجمعوا أن يلبسوا لامة أبي جهل رجلاً منهم، فألبسوها عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، فصمد له علي عليه السلام، فقتله وهو يراه أبا جهل، ومضى عنه وهو يقول: أنا ابن عبد المطلب! ثم ألبسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة، فصمد له حمزة وهو يراه أبا جهل، فضربه فقتله وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب! ثم ألبسوها حرملة بن عمرو، فصمد له علي عليه السلام فقتله، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم، فأبى أن يلبسها، قال معاذ بن عمرو بن الجموح: فنظرت يومئذ إلى أبي جهل في مثل الحرجة، وهم يقولون: أبو الحكم! لا يخلص إليه، فعرفت أنه هو، فقلت: والله لأموتن دونه اليوم أو لأخلصن إليه، فصمدت له، حتى إذا أمكنتني منه غرة حملت عليه، فضربته ضربة طرحت رجله من الساق، فشبهتها النواة تترو من تحت المراضخ، فأقبل ابنه عكرمة علي فضربني على عاتقي، فطرح يدي من العاتق، إلا أنه بقيت جلدة، فذهبت أسحب يدي بتلك الجلدة خلفي، فلما آذتني وضعت عليها رجلي، ثم تمطيت عليها فقطعتها، ثم لاقيت عكرمة وهو يلوذ كل ملاذ، ولو كانت يدي معي لرحوت يومئذ أن أصيبه. ومات معاذ في زمن عثمان.

قال الواقدي: فروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقل معاذ بن عمرو بن الجموح سيف أبي جهل، وأنه عند آل معاذ بن عمرو اليوم وبه فل، بعد أن أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى عكرمة بن أبي جهل، يسأله: من قتل أباك؟ قال: الذي قطعت يده، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى معاذ بن عمرو، لأن عكرمة بن أبي جهل قطع يده يوم بدر.

قال الواقدي: وما كان بنو المغيرة يشكون أن سيف أبي الحكم صار إلى معاذ بن عمرو بن الجموح، وأنه قاتله يوم بدر. قال الواقدي: وقد سمعت في قتله وأخذ سلبه غير هذا، حدثني عبد الحميد بن جعفر، عن عمر بن الحكم بن ثوبان، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: عبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بليل، فأصبحنا ونحن على صفوفنا، فإذا بغلامين، ليس منهما واحد إلا قد ربطت حمائل سيفه في عنقه لصغره، فالتفت إلي أحدهما، فقال: يا عم، أيهم أبو جهل؟ قال: قلت: وما تصنع به يا بن أخي؟ قال: بلغني أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحلفت: لئن رأيته لأقتلنه أو لأموتن.

دونه. فأشرت إليه، فالتفت إلي الآخر، وقال لي مثل ذلك، فأشرت له إليه، وقلت له: من أنتما؟ قالوا: ابنا الحارث، قال: "فجعل لا يطرفان عن أبي جهل، حتى إذا كان القتال خلصا إليه فقتلاه وقتلهما.

قال الواقدي: فحدثني محمد بن عوف، عن ابراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت، قال: لما كان يومئذ، قال عبد الرحمن، ونظر إليهما عن يمينه وعن شماله: ليته كان إلى جنبي من هو أ بدن من هذين الصبيين! فلم أنشب أن التفت إلى عوف، فقال: أيهم أبو جهل؟ فقلت: ذاك حيث ترى، فخرج يعدو إليه كأنه سبع، ولحقه أخوه، فأنا أنظر إليهم يضطربون بالسيوف، ثم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بهم في القتلى، وهما إلى جانب أبي جهل.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن رفاعه بن ثعلبة، قال: سمعت أبي ينكر ما يقول الناس في ابني عفراء من صغرهما، ويقول: كانا يوم بدر أصغرهما ابن خمس وثلاثين سنة، فهذا يربط حمائل سيفه! قال الواقدي: والقول الأول أثبت.

وروى محمد بن عمار بن ياسر، عن ربيع بنت معوذ، قالت: دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء أم أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب، وكان ابنها عبد الله بن أبي ربيعة يبعث إليها بعطر من اليمن، فكانت تبيعه إلى الأعطية، فكنا نشترى منها، فلما جعلت لي في قواريري، ووزنت لي كما وزنت لصواحي" قال: اكتبن لي عليكن حقي، قلت: نعم، أكتب لها على الربيع بنت معوذ، فقالت أسماء خلفي: وإنك لابنة قاتل سيده! فقلت: لا، ولكن ابنة قاتل عبده، فقالت: والله لا أبيعك شيئاً أبداً، فقلت: أنا والله لا أشتري منك أبداً، فوالله ما هو بطيب ولا عرف، والله يا بني ما شمت عطرأ قط كان أطيب منه، ولكني يا بني غضبت.

قال الواقدي: فلما وضعت الحرب أوزارها، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتبس أبو جهل، قال ابن مسعود: فوجدته في آخر رمق، فوضعت رجلي على عنقه، فقلت: الحمد لله الذي أخزأك! قال: إنما أخزى الله العبد ابن أم عبد! لقد ارتقيت يا رويي الغنم مرتقى صعباً! لمن الدبرة؟ قلت: لله ولرسوله، قال ابن مسعود: فأقلع بيضته عن قفاه، وقلت: إني قاتلك، قال: لست بأول عبد قتل سيده، أما إن أشد ما لقيته اليوم لقتلك إياي، ألا يكون ولي قتلي رجل من الأحلاف أو من المطيبين! قال: فضربه عبد الله ضربة وقع رأسه بين يديه، ثم سلبه، وأقبل بسلاحه ودرعه وبيضته، فوضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أبشر يا نبي الله بقتل عدو الله أبي جهل! فقال رسول الله: أحقاً يا عبد الله! فوالذي نفسي بيده هو أحب إلي من حمر النعم! أو كما قال. ثم قال: إنه أصابه جحش من دفع دفعته في مأدبة ابن جدعان، فجحشت ركبته فالتمسوه، فوجدوا ذلك الأثر.

قال الواقدي: وروي أن أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تلك الساعة، فوجد في نفسه، وأقبل على ابن مسعود، وقال: أنت قتلتني؟ قال: نعم، الله قتله! قال أبو سلمة: أنت وليت قتله؟ قال: نعم، قال: لو شاء لجعلك في كمة! فقال ابن مسعود: فقد والله قتلتني وجردته، فقال أبو سلمة: فما علامته؟ قال: شامة سورا بيطن فخذها اليمنى، فعرف أبو سلمة النعت، فقال: أجردته، ولم يجرد قرشي غيره! فقال ابن مسعود: إنه والله لم يكن في قریش ولا في حلفائها أحد أعدى لله ولا لرسوله منه، وما أعتذر من شيء صنعت به. فأمسك أبو سلمة.

قال الواقدي: سمع أبو سلمة بعد ذلك يستغفر الله من كلامه في أبي جهل، وقال: اللهم إنك قد أبجرت ما وعدتني، فتمم

علي نعمتك. قال: وكان عبد الله بن عتبة بن مسعود، يقول: سيف أبي جهل عندنا محلى بفضة، غنمه عبد الله بن مسعود يومئذ.

قال الواقدي: اجتمع قول أصحابنا أن معاذ بن عمرو وابني عفراء أثبتوه، وضرب ابن مسعود عنقه في آخر رمق، فكل شرك في قتله.

قال الواقدي: وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مصرع ابني عفراء، فقال: يرحم الله ابني عفراء، فإنهما قد شركا في قتل فرعون هذه الأمة، ورأس أئمة الكفر، فقيل: يا رسول الله ومن قتله معهما؟ قال: الملائكة، وذفف عليه ابن مسعود، فكان قد شرك في قتله.

قال الواقدي: وحدثني معمر، عن الزهري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: اللهم اكفني نوفل بن العدوية-وهو نوفل بن خويلد، من بني أسد بن عبد العزى- وأقبل نوفل يومئذ يصيح وهو مرعوب، قد رأى قتل أصحابه، وكان في أول ما التقوا هم والمسلمون، يصيح بصوت له زجل، رافعا عقيرته: يا معشر قريش، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة. فلما رأى قريشاً قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار: ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون من تقتلون؟ أما لكم في اللبن من حاجة! فأسره جبار بن صخر، فهو يسوقه أمامه، فجعل نوفل يقول لجبار، ورأى علياً عليه السلام مقبلاً نحوه: يا أخا الأنصار، من هذا واللات والعزى! إني لأرى رجلاً، إنه ليريدني! قال جبار: هذا علي بن أبي طالب، قال نوفل: تالله ما رأيت كالיום رجلاً أسرع في قومه! فصمد له علي عليه السلام فيضربه فينشب سيف علي في حافته ساعة، ثم يترعه فيضرب به ساقه، ودرعه مشتمرة، فيقطعها، ثم أجهز عليه فقتله، فقال! رسول الله صلى الله عليه وسلم: من له علم بنوفل بن خويلد؟ قال علي عليه السلام: أنا قتلته، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه.

قال الواقدي: وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث للقتال، فالتقى هو وعلي عليه السلام، وقتله علي، فكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص: مالي أراك معرضاً، تظن أني قتلت أباك! فقال سعيد: لو قتلته لكان على الباطل وكنت على الحق، قال: فقال عمر: إن قريشاً أعظم الناس أحلاماً، وأكثرها أمانة، لا يغيهم أحد الغوائل إلا كبه الله لفيه.

قال الواقدي: وروي أن عمر قال لسعيد بن العاص: ما لي أراك معرضاً كأني قتلت أباك يوم بدر؟ وإن كنت لا أعتذر من قتل مشرك، لقد قتلت خالي بيدي العاص بن هاشم بن المغيرة.

ونقلت من غير كتاب الواقدي أن عثمان بن عفان وسعيد بن العاص حضرا عند عمر في أيام خلافته، فجلس سعيد بن العاص حجرة فنظر إليه عمر، فقال: ما لي أراك معرضاً كأني قتلت أباك! إني لم أقتله، ولكنه قتله أبو حسن! وكان علي عليه السلام حاضراً، فقال: اللهم غفرا! ذهب الشرك بما فيه، ومحا الإسلام ما قبله، فلماذا تهاج القلوب! فسكت عمر، وقال سعيد: لقد قتله كفاء كريم، وهو أحب إلي من أن يقتله من ليس من بني عبد مناف.

قال الواقدي: وكان علي عليه السلام يحدث، فيقول: إني يومئذ بعد ما متع النهار، ونحن والمشركون قد اختلطت صفوفنا

وصفوفهم، خرجت في إثر رجل منهم، فإذا رجل من المشركين على كثيب رمل وسعد بن خيشمة، وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيشمة، والمشرك مقنع في الحديد، وكان فارساً، فاقتحم عن فرسه، فعرني وهو معلم، فناداني: هلم يا ابن أبي طالب إلى البراز! فعطفت إلى البراز، فعطفت عليه، فانخط إلي مقبلاً، وكنت رجلاً قصيراً، فانخططت راجعاً لكي يتزل إلي، كرهت أن يعلوني، فقال: يا بن أبي طالب، فررت! فقلت: قريباً مفر ابن الشراء. فلما استقرت قدماي وثبت أقبل فاتقيت فلما دنا مني ضربني بالدركة، فوقع سيفه، فلحج فأضربه على عاتقه وهو دارع، فارتعش، ولقد قط سيفي درعه، فظننت أن سيفي سيقتله، فإذا بريق سيف من ورائي، فطأطأت رأسي، ويقع السيف، فأطن قحف رأسه بالبيضة، وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب، فالتفت من ورائي، فإذا هو حمزة عمي، والمقتول طعيمة بن عدي. قلت: في رواية محمد بن إسحاق بن يسار أن طعيمة بن عدي قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم قال: وقيل: قتله حمزة. وفي رواية الشيعة قتله علي بن أبي طالب، شجره بالرمح، فقال له: والله لا نخاصمنا في الله بعد اليوم أبداً، وهكذا روى محمد بن إسحاق.

وروى محمد بن إسحاق قال: وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من العريش إلى الناس ينظر القتال، فحرض المسلمين وقال: كل امرئ بما أصاب، وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل في جملة، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ! فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسه يده في العدو حاسراً. فترع عوف درعاً كانت عليه وقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

قال الواقدي وابن إسحاق: وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفاً من البطحاء، فرماهم بها، وقال: شأهت الوجوه! اللهم أرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم. فانهزم المشركون لا يلبون على شيء، والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون. قال الواقدي: وكان هبيرة بن أبي وهب المخزومي لما رأى الهزيمة انخرل ظهره فعقر، فلم يستطع أن يقوم، فأتاه أبو أسامة الجشمي حليفه، ففتق درعه واحتمله - ويقال: ضربه أبو داود المازني بالسيف فقطع درعه، ووقع لوجهه، وأخلد إلى الأرض، وجاوزه أبو داود وبصر به ابنا زهير الجشميان مالك، وأبو أسامة، وهما حليفاه، فذبا عنه حتى نجوا به، واحتمله أبو أسامة ومالك يذب عنه، حتى خلاصاه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حماه كلباه الحليفان.

قال الواقدي: وحدثني عمر بن عثمان عن عكاشة بن محصن، قال: انقطع سيفي يوم بدر، فأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً، فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين، ولم يزل ذلك السيف عند عكاشة حتى هلك.

قال: وقد روى رجال من بني عبد الأشهل عدة، قالوا: انكسر سيف سلمة بن أسلم بن حريش يوم بدر، فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضياً كان في يده من عراجين ابن طاب، فقال: اضرب به، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد.

قال الواقدي: وأصاب حارثة بن سراقه، وهو يكرع في الحوض سهم غرب من المشركين فوقه في نحره، فمات، فلقد شرب القوم آخر النهار من دمه، وبلغ أمه وأخته - وهما بالمدينة مقتله - فقالت أمه: والله لا أبكي عليه، حتى يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسأله، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإن كان في النار بكيته لعمر الله فأعولته! فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر جاءت أمه إليه، فقالت: يا رسول الله، قد عرفت موضع حارثة في قلبي، فأردت أن أبكي عليه، ثم قلت: لا أفعل حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، فإن كان في الجنة لم أبكه، وإن كان في النار بكيته فأعولته! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هبت: أجنة واحدة! إنها جنان كثيرة، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى"، قالت: فلا أبكي عليه أبداً.

قال الواقدي: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ بماء في إناء، فغمس يده فيه ومضمض فاه، ثم ناول أم حارثة بن سراقه، فشربت ثم ناولت ابنتها فشربت، ثم أمرهما فنضحتا في جيوبهما، ثم رجعتا من عند النبي صلى الله عليه وسلم، وما بالمدينة امرأتان أقر عيناً منهما ولا أسر.

قال الواقدي: وكان حكيم بن حزام يقول: انهزمتنا يوم بدر، فجعلت أسعى وأقول: قاتل الله ابن الحنظلية! يزعم أن النهار قد ذهب، والله إن النهار لكما هو، قال حكيم: وما ذاك بي إلا حباً أن يأتي الليل فيقصر عنا طلب القوم، فيدرك حكيم عبيد الله وعبد الرحمن بني العوام على جمل لهما، فقال عبد الرحمن لأخيه: انزل فاحمل أبا خالد، وكان عبيد الله رجلاً أعرج، لا رجلة به، فقال عبيد الله: إنه لا رجلة بي كما ترى. وقال عبد الرحمن: والله إن لا منه بد ألا نحمل رجلاً، إن متنا كفانا ما خلفنا من عيالنا، وإن عشنا حملنا كلنا! فترل عبد الرحمن وأخوه الأعرج، فحملاه، فكانوا يتعاقبون الحمل، فلما دنا من مكة وكان بمر الظهران، قال: والله "لقد رأيت هاهنا أمراً ما كان يخرج على مثله أحد له رأي، ولكنه شؤم ابن الحنظلية! إن جزوراً نحرت هاهنا فلم يبق خباء إلا أصابه من دمها. فقالا: قد رأينا ذلك، ولكن رأيناك وقومك قد مضيت فمضينا معكم، ولم يكن لنا معكم أمر.

قال الواقدي: فحدثني عبد الرحمن بن الحارث عن مخلد بن خفاف، عن أبيه، قال: كانت الدروع في قريش كثيرة يومئذ، فلما انهزموا جعلوا يلقيونها، وجعل المسلمون يتبعونها ويلقون ما طرحوا، ولقد رأيتني يومئذ التقطت ثلاث أدرع جئت بها أهلي، فكانت عندنا بعد، فزعم لي رجل من قريش - ورأى درعاً منها عندنا فعرفها - قال: هذه درع الحارث بن هشام.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن حميد، عن عبد الله بن عمرو بن أمية، قال: أخبرني من انكشف من قريش يومئذ منهزماً، وأنه ليقول في نفسه، ما رأيت مثل هذا فر منه إلا النساء!

قال الواقدي: كان قباث بن أشيم الكناي يقول: شهدت مع المشركين بدرًا، وإني لأنظر إلى قلة أصحاب محمد في عيني، وكثرة من معنا من الخيل والرجل، فانهزمت فيمن انهزم، فلقد رأيتني وإني لأنظر إلى المشركين في كل وجه، وإني لأقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا النساء! وصاحبني رجل، فبينما هو يسير معي إذ لحقنا من خلفنا، فقلت لصاحبي: أبك نموض؟ قال: لا والله ما بي! قال وعقر وترفعت، فلقد صبحت غيقة - قال: وغيقة عن يسار السقيا بينها

وبين الفرع ليلة وبين الفرع والمدينة ثمانية برد- قبل الشمس، كنت هادياً بالطريق، ولم أسلك الحاج، وخفت من الطلب فتكبت عنها، فلقيني رجل من قومي بغيقة، فقال: ما وراءك؟ قلت: لا شيء، قتلنا وأسرنا وانهمزنا، فهل عندك من حملاًن؟ قال: فحملني على بعير، وزودني زاداً، حتى لقيت الطريق بالجحفة، ثم مضيت حتى دخلت مكة، وإني لأنظر إلى الحيسمان بن حابس الخزاعي بالغميم، فعرفت أنه تقدم ينعي قريشاً بمكة، فلو أردت أن أسبقه لسبقته، فتكبت عنه حتى سبقني ببعض النهار، فقدمت وقد انتهى إلى مكة خبر قتلاهم، وهم يلعنون الخزاعي، ويقولون: ما جاءنا بخير! فمكثت بمكة، فلما كان بعد الخندق، قلت: لو قدمت المدينة، فنظرت ما يقول محمد! وقد وقع في قلبي الإسلام، فقدمت المدينة، فسألت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هو ذاك في ظل المسجد مع ملاء من أصحابه، فأتيته وأنا لا أعرفه من بينهم، فشلمت فقال: يا قباث بن أشيم، أنت القائل يوم بدر: ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا النساء! قلت: أشهد أنك رسول الله، وأن هذا الأمر ما خرج مني إلى أحد قط وما ترمزمت به، إلا شيئاً حدثت به نفسي، فلو لا أنك نبي ما أطلعك الله عليه، هلم حتى أبايحك فأسلمت.

قال الواقدي: وقد روي أنه لما توجه المشركون إلى بدر كان فتيان ممن تخلف عنهم بمكة سماراً يسمرون بذي طوى في القمر حتى يذهب الليل، يتناشدون الأشعار ويتحدثون، فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتاً قريباً منهم ولا يرون القائل، رافعاً صوته يتغى:

سينفض منها ركن كسرى وقيصر

أزاد الحنيفيون بدرأ مصيبة

قبائل ما بين الوتير فخيبر

أرنت لها صم الجبال وأفرعت

حرائر يضربن الترائب حسرا

أجازت جبال الأخشيين وجردت

قال الواقدي: أنشدني، ورواه لي عبد الله بن أبي عبيدة، عن محمد بن عمار بن ياسر، قال: فاستمعوا الصوت، فلا يرون أحداً، فخرجوا في طلبه، فلم يروا أحداً، فخرجوا فزعين، حتى جازوا الحجر، فوجدوا مشيخةً منهم حلةً سماراً، فأخبروهم الخبر، فقالوا لهم: إن كان ما تقولون، فإن محمداً وأصحابه يسمون الحنيفة. قال: فلم يبق أحد من الفتيان الذين كانوا بذي طوى إلا وعك، فما مكثوا إلا ليلتين أو ثلاثاً، حتى قدم الحيسمان الخزاعي بخبر أهل بدر، ومن قتل منهم، فجعل يخبرهم، فيقول: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وقتل ابنا الحجاج وأبو البختري، وزمعة بن الأسود- قال: وصفوان بن أمية في الحجر جالس يقول: لا يعقل هذا شيئاً مما يتكلم به! سلوه عني، فقالوا: صفوان بن أمية لك به علم؟ قال: نعم، هو ذاك في الحجر، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين، ورأيت سهيل بن عمرو والنفر بن الحارث أسيرين، رأيتهما مقرونين في الجبال.

قال الواقدي: وبلغ النجاشي مقتل قريش وما ظفر الله به رسوله، فخرج في ثوبين أبيضين، ثم جلس على الأرض، ودعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فقال: أيكم يعرف بدرأ؟ فأخبروه، فقال: أنا عارف بها، قد رعيت الغنم في جوانبها، هي من الساحل على بعض نهار، ولكني أردت أن أثبت منكم، قد نصر الله رسوله ببدر، فاحمدوا الله على ذلك. فقال بطارقه: أصلح الله الملك! إن هذا شيء لم تكن تصنعه، يريدون لبس البياض والجلوس على الأرض، فقال: إن عيسى بن

مریم كان إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعاً.

قال الواقدي: فلما رجعت قريش إلى مكة، قام فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال: يا معشر قريش، لا تبكوا على قتلاكم، ولا تنح عليهم نائحة، ولا يندبهم شاعر، وأظهروا الجلد والعزاء، فإنكم إذا نحتم عليهم وبكىتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فأكلكم ذلك عن عداوة محمد وأصحابه، مع أن محمداً إن بلغه وأصحابه ذلك شتموا بكم، فتكون أعظم المصيبتين، ولعلكم تدركون ثأركم، فالدهن والنساء علي حرام حتى أغزو محمداً. فمكثت قريش شهراً لا يبكيهم شاعر، ولا تنوح عليهم نائحة.

قال الواقدي: وكان الأسود بن المطلب قد ذهب بصره، وقد كمد على من قتل من ولده، وكان يجب أن يبكي عليهم فتأبى عليه قريش ذلك، فكان يقول لغلامه بين اليومين: ويلك! احمل معي خمرأً، واسلك بي الفج الذي سلكه أبو حكيمة - يعني زمعة ولده المقتول ببدر - فيأتي به غلامه على الطريق عند ذلك الفج فيجلس، فيسقيه الخمر حتى ينتشي، ثم يبكي على أبي حكيمة وإخوته، ثم يحثي التراب على رأسه، ويقول لغلامه: ويحك! اكتم علي، فإني أكره أن تعلم بي قريش، إني أراها لم تجمع البكاء على قتلاها.

قال الواقدي: حدثني مصعب بن ثابت عن عيسى بن معمر، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن عائشة قالت: قالت قريش حين رجعوا إلى مكة: لا تبكوا على قتلاكم، فيبلغ محمداً وأصحابه فيشتموا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم، فيأرب بكم القوم، إلا فأمسكوا عن البكاء.

قال: وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة وعقيل والحارث بن زمعة، فكان يجب أن يبكي على قتلاه، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلامه - وقد ذهب بصره -: انظر، هل بكت قريش على قتلاها! لعلني أبكي على أبي حكيمة - يعني زمعة - فإن جوفي قد احترق، فذهب الغلام ورجع إليه، فقال: إنما هي امرأة تبكي على بغيرها قد أضلته، فقال الأسود:

ويمنعها من النوم السهود

على بكر تصاغرت الخدود

وبكي حارثاً أسد الأسود

فما لأبي حكيمة من نديد

ومخزوم ورهط أبي الوليد

ولولا يوم بدر لم يسودوا

تبكي أن يضل لها بغير

فلا تبكي على بكر ولكن

فبكي إن بكيت على عقيل

وبكيهم ولا تسمي جميعاً

على بدر لمرأة بني هصييص

ألا قد ساد بعدهم رجال

قال الواقدي: ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة، فقلن: ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك! فقالت: حلأني أن أبكيهم، فيبلغ محمداً وأصحابه فيشتموا بنا ونساء بني الخزرج، لا والله حتى أثار محمداً وأصحابه، والدهن علي حرام إن دخل رأسي حتى نغزو محمداً! والله لو أعلم أن الحزن يذهب عن قلبي لبكيت، ولكن لا يذهبه إلا

أن أرى ثأري بعيني من قتلة الأحبة، فمكثت على حالها لا تقرب الدهن، ولا قربت فراش أبي سفيان من يوم حلفت حتى كانت وقعة أحد.

قال الواقدي: وبلغ نوفل بن معاوية الديلي وهو في أهله - وقد كان شهد معهم بدرًا - أن قريشاً بكت على قتلاها، فقدم مكة، فقال: يا معشر قريش، لقد خفت أحلامكم، وسفه رأيكم، وأطعتم نساءكم، أمثل قتلاكم ييكي عليهم! هم أجل من البكاء، مع أن ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه، فلا ينبغي أن يذهب الغيظ عنكم، إلا أن تدرکوا ثأركم من عدوكم. فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه، فقال. يا أبا معاوية، غلبت، والله ما ناحت امرأة من بني عبد شمس على قتيل لها إلى اليوم، ولا بكاهم شاعر إلا نهيته حتى ندرك ثأرنا من محمد وأصحابه، وإني لأنا الموتور الثائر، قتل ابني حنظلة، وسادة أهل هذا الوادي، أصبح هذا الوادي مقشعراً لفقدهم!

قال الواقدي: وحدثني معاذ بن محمد الأنصاري، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: لما رجع المشركون إلى مكة، وقد قتل صناديدهم وأشرفهم، أقبل عمير بن وهب بن عمير الجمحي حتى جلس إلى صفوان بن أمية في الحجر، فقال صفوان بن أمية: قبح العيش بعد قتلى بدر! قال عمير بن وهب: أحل والله، ما في العيش بعدهم خير، ولولا دين علي لا أجد له قضاء، وعيال لا أدع لهم شيئاً، لرحلت إلى محمد حتى أقتله إن ملأت عيني منه، فإنه بلغني أنه يطوف في الأسواق، فإن لي عندهم علة، أقول: قدمت على ابني هذا الأسير. ففرح صفوان بقوله، وقال: يا أبا أمية، وهل نراك فاعلاً؟ قال: إي ورب هذه البنية! قال صفوان: فعلي دينك، وعيالك أسوة عيالي، فأنت تعلم أنه ليس بمكة رجل أشد توسعاً على عياله مني. قال عمير: قد عرفت ذلك يا أبا وهب، قال صفوان: فإن عيالك مع عيالي، لا يسعني شيء ونعجز عنهم، ودينك علي. فحمله صفوان على بعيه، وجهزه وأجرى على عياله مثل ما يجري على عيال نفسه، وأمر عمير بسيفه فشحذ وسم، ثم خرج إلى المدينة، وقال لصفوان: اكتم علي أياماً حتى أقدمها، وخرج فلم يذكره صفوان، وقدم عمير، فزّل على باب المسجد، وعقل راحلته، وأخذ السيف فتقلده، ثم عمد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون، ويذكرون نعمة الله عليهم في بدر، فرأى عميراً وعليه السيف، ففرع عمر منه، وقال! لأصحابه: دونكم الكلب! هذا عمير بن وهب عدو الله الذي حرش بيننا يوم بدر، وحزرننا للقوم، وصعد فينا وصوب، يخبر قريشاً أنه لا عدد لنا ولا كمين. فقاموا إليه فأخذوه، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب، قد دخل المسجد ومعه السلاح، وهو الغادر الخبيث الذي لا يؤمن على شيء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أدخله علي، فخرج عمر فأخذ بحمائل سيفه، فقبض بيده عليها، وأخذ بيده الأخرى قائم السيف، ثم أدخله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه، قال: يا عمر، تأخر عنه، فلما دنا عمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنعم صباحاً، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: قد أكرمنا الله عن تحيتك، وجعل تحيتنا السلام، وهي تحية أهل الجنة. قال عمير: إن عهدك بها الحديث، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أبدلنا الله خيراً، فما أقدمك يا عمير؟ قال: قدمت في أسيري عندكم تفادونه وتقاربوننا فيه، فإنكم العشيرة والأصل! قال النبي صلى الله عليه وسلم: فما بال السيف! قال عمير: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت من شيء! إنما نسيت حين نزلت وهو في رقبتي، ولعمري إن لي لهما غيره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصدق يا عمير، ما الذي أقدمك؟ قال: ما قدمت إلا في أسيري، قال صلى الله عليه

وسلم: فما شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟ ففزع عمير، وقال: ماذا شرطت له؟ قال: تحملت بقتلي، على أن يقضي دينك، ويعول عيالك، والله حائل بينك وبين ذلك! قال عمير: أشهد أنك صادق، وأشهد أن لا إله إلا الله، كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان كما قلت، لم يطلع عليه غيره وغيري، وقد أمرته أن يكتمه ليالي، فأطلعك الله عليه، فأمنت بالله ورسوله، وشهدت أن ما جئت به حق. الحمد لله الذي ساقني هذا المساق! وفرح المسلمون حين هداه الله، وقال عمر بن الخطاب: لختير كان أحب إلي منه حين طلع، وهو الساعة أحب إلي من بعض ولدي. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "علموا أحاكم القرآن، واطلقوا له أسيره"، فقال عمير: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، فله الحمد أن هداني، فأذن لي فألحق قريشاً فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، فلعل الله يهديهم ويستنقذهم من الهلكة، فأذن له فخرج، فلحق بمكة. وكان صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من المدينة، يقول: هل حدث بالمدينة من حدث؟ ويقول لقريش: أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر، فقدم رجل من المدينة، فسأله صفوان عن عمير، فقال: أسلم، فلعنه صفوان ولعنه المشركون بمكة، وقالوا: صبأ عمير، وحلف صفوان ألا يكلمه أبداً، ولا ينفعه، وطرح عياله. وقدم عمير، فترل في أهله، ولم يأت صفوان، وأظهر الإسلام، فبلغ صفوان. فقال: قد عرفت حين لم يبدأ بي قبل منزله، وقد كان رجل أخبرني أنه ارتكس، لا أكلمه من رأسي

أبداً، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة أبداً، فوقع عليه عمير وهو في الحجر فقال: يا أبا وهب. فأعرض صفوان عنه، فقال عمير: أنت سيد من ساداتنا، أرايت الذي كنا عليه من عبادة حجر، والذبح له! أهذا دين! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فلم يجبه صفوان بكلمة، وأسلم مع عمير بشر كثير.

قال الواقدي: وكان فتية من قريش خمسة قد أسلموا، فاحتبسهم آباؤهم، فخرجوا مع أهلهم وقومهم إلى بدر، وهم على الشك والارتياب، لم يخلصوا إسلامهم، وهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، فلما قدموا بدرًا ورأوا قلة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: غر هؤلاء دينهم، ففيهم أنزل: "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم"، ثم أنزل فيهم: "إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها..." إلى تمام ثلاث آيات.

قال: فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من أقام بمكة مسلماً، فقال جندب بن ضمرة الخزافي: لا عذر لي ولا حجة في مقامي بمكة - وكان مريضاً - فقال لأهله: أخرجوني، لعلني أجد روحاً! قالوا: أي وجه أحب إليك؟ قال: نعم التنعيم! فخرجوا به إلى التنعيم، وبين التنعيم ومكة أربعة أميال من طريق المدينة - فقال: اللهم إني خرجت إليك مهاجراً، فأنزل الله تعالى: "ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله..." الآية، فلما رأى ذلك من كان بمكة ممن يطيق الخروج، خرجوا فطلبهم أبو سفيان في رجال من المشركين، فردوهم وسجنوهم، فافتتن منهم ناس، وكان الذين افتتنوا إنما افتتنوا حين أصابهم البلاء فأنزل الله تعالى فيهم: "ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله..." الآية وما بعدها. فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من كان بمكة مسلماً، فلما جاءهم الكتاب بما أنزل فيهم، قالوا: اللهم إن

لك علينا إن أفلتتنا ألا نعدل بك أحداً، فخرجوا الثانية، فطلبهم أبو سفيان والمشركون، فأعجزوهم هرباً في الجبال، حتى قدموا المدينة، واشتد البلاء على من ردوا من المسلمين، فضربوهم وأذوهم وأكروهوهم على ترك الإسلام، ورجع ابن أبي سرح مشركاً، فقال لقريش: ما كان يعلم محمداً إلا ابن قمطة، عبد نصراني، لقد كنت أكتب له فأحول ما أردت، فأنزل الله تعالى "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر... الآية".

القول في نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتها المشركين اختلف المسلمون في ذلك، فقال الجمهور منهم: نزلت الملائكة حقيقة، كما ينزل الحيوان والحجر من الموضع العالي إلى الموضع السافل. وقال قوم من أصحاب المعاني غير ذلك.

واختلف أرباب القوم الأول، فقال الأكثرون: نزلت وحاربت، وقال قوم منهم: نزلت ولم تحارب، وروى كل قوم في نصرة قولهم روايات.

فقال الواقدي في كتاب "المغازي": حدثني عمر بن عقبة، عن شعبة مولى ابن عباس، قال: سمعت ابن عباس يقول: لما توافق الناس أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة، ثم كشف عنه فيشر المؤمنين بجبرائيل في جند من الملائكة في ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر في ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر في ألف، وكان إبليس قد تصور للمشركين في صورة سراقه بن جعشم المدلجي، يذمر المشركين، ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه، وقال: "إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون"، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقه لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر، ورفع يديه قائلاً: يا رب موعذك الذي وعدتني! وأقبل أبو جهل على أصحابه يحضهم على القتال وقال: لا يغرنكم خذلان سراقه بن جعشم إياكم، فإنما كان على ميعاد من محمد وأصحابه، سيعلم إذا رجعنا إلى قديد ما نصنع بقومه! ولا يهولنكم مقتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم عجلوا وبطروا حين قاتلوا، وإيم الله لا نرجع اليوم حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال، فلا ألفين أحداً منكم قتل منهم أحداً، ولكن خذوهم أخذاً نعرفهم بالذي صنعوا، لفارقتهم دينكم ورغبتهم عما كان يعبد أباؤهم.

قال الواقدي: وحدثني عتبة بن يحيى، عن معاذ بن رفاع بن رافع، عن أبيه، قال: إن كنا لنسمع لإبليس يومئذ حواراً ودعاء بالثبور والويل، وتصور في صورة سراقه بن جعشم حتى هرب، فاقتحم البحر، ورفع يديه ماداً لهما، يقول: يا رب ما وعدتني! ولقد كانت قريش بعد ذلك تعير سراقه بما صنع يومئذ، فيقول: والله ما صنعت شيئاً! قال الواقدي: فحدثني أبو إسحاق الأسلمي، عن الحسن بن عبيد الله، مولى بني العباس، عن عمارة الليثي، قال: حدثني شيخ صياد من الحي - وكان يومئذ على ساحل البحر - قال: سمعت صياحاً: يا ويلاه! يا ويلاه! قد ملأ الوادي: يا حرباه يا حرباه! فنظرت فإذا سراقه بن جعشم، فدنوت منه، فقلت: ما لك فداك أبي وأمي! فلم يرجع إلي شيئاً، ثم أراه اقتحم البحر، ورفع يديه ماداً، يقول: يا رب ما وعدتني! فقلت في نفسي: جن وبيت الله سراقه! وذلك حين زاغت الشمس، وذلك عند انقراضهم يوم بدر.

قال الواقدي: قالوا: كانت سيماء الملائكة عمائم قد أرخوها بين أكتافهم، خضراء وصفراء وحمراء من نور، والصوف في نواصي خيلهم.

قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: "إن الملائكة قد سومت فسوموا"، فأعلم المسلمون بالصوف في مغافرهم وقلانسهم.

قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح قال: كان أربعة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يعلمون في الزحوف: حمزة بن عبد المطلب كان يوم بدر معلماً بريشة نعام، وكان علي عليه السلام معلماً بصوفة بيضاء، وكان الزبير معلماً بعصابة صفراء، وكان أبو دجانة يعلم بعصابة حمراء، وكان الزبير يحدث أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بلق عليها عمائم صفر فكانت على صورة الزبير.

قال الواقدي: فروي عن سهيل بن عمرو، قال: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين يقبلون ويأسرون.

قال الواقدي: وكان أبو أسيد الساعدي يحدث بعد أن ذهب بصره، ويقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعني بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أمتري! قال: وكان أبو أسيد يحدث عن رجل من بني غفار حدثه، قال: أقبلت أنا وابن عم لي يوم بدر، حتى صعدنا على جبل، ونحن يومئذ على الشرك ننظر الوقعة وعلى من تكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب إذ رأيت سحابة دنت منا، فسمعت منها همهمة الخيل، وقعقة الحديد، وسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم! فأما ابن عمي، فانكشف قناع قلبه، فمات، وأما أنا فكدت أهلك، فتماسكت وأتبع بصري حيث تذهب السحابة، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه: ثم رجعت، وليس فيها شيء مما كنت أسمع. قال الواقدي: وحدثني خارجة بن إبراهيم بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه، قال: سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبرائيل: من القاتل يوم بدر: أقبل حيزوم؟ فقال جبرائيل: يا محمد، ما كل أهل السماء أعرف.

قال الواقدي: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه، عن جده، عبيدة بن أبي عبيدة، عن أبي رهم الغفاري عن ابن عم له، قال: بينا أنا وابن عم لي على ماء بدر، فلما رأينا قلة من مع محمد وكثرة قريش، قلنا: إذا التقت الفتتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه فانتهبناه، فانطلقنا نحو الجنبه اليسرى من أصحاب محمد، ونحن نقول: هؤلاء ربع قريش، فبينما نحن نمشي في الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا، فرفعنا أبصارنا لها، فسمعنا أصوات الرجال والسلاح، وسمعنا قائلاً يقول لفرسه: "أقدم حيزوم"، وسمعناهم يقولون: "رويداً تتأتم أخراكم"، فزلوا على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاءت أخرى مثل تلك فكانت مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنظرنا إلى أصحاب محمد وإذا هم على الضعف من قريش، فمات ابن عمي، وأما أنا فتماسكت، وأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وأسلمت.

قال الواقدي: وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "ما رئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغضب منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من نزول الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام، إلا ما رأى يوم بدر". قيل: وما رأى يا رسول الله يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبرائيل يوزع الملائكة. قال: وقد روي عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أنه قال يومئذ: "هذا جبرائيل يسوق بريح، كأنه دحية الكلبي، إني نصرت بالصبا وأهلكك عاد بالدبور".

قال الواقدي: وكان عبد الرحمن بن عوف يقول: رأيت يوم بدر رجلين، أحدهما عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم، والآخر عن يساره، يقاتلان أشد القتال، ثم ثلثهما ثالث من خلفه، ثم ربعهما رابع أمامه.

قال: وقد روى سعد بن أبي وقاص مثل ذلك، قال: رأيت رجلين يوم بدر، يقاتلان عن النبي صلى الله عليه وسلم، أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، وإني لأراه ينظر إلى ذا مرة، وإلى ذا مرة، سروراً بما فتحه الله تعالى.

قال الواقدي: وحدثني إسحاق بن يحيى، عن حمزة بن صهيب، عن أبيه، قال: ما أدري كم يد مقطوعة وضربة جائفة لم يدم كلمها يوم بدر، قد رأيتها.

قال الواقدي: وروى أبو بردة بن نيار، قال: جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس فوضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فقتلتهم، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً طويلاً أبيض ضربه فتدهده أمامه، فأخذت رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك فلان من الملائكة".

قال الواقدي: وكان ابن عباس رحمه الله، يقول: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر.

قال: وحدثني ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان الملك يتصور في صورة من يعرفه المسلمون من الناس ليثبتهم، فيقول: إني قد دنوت من المشركين، فسمعتهم يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا لهم، وليسوا بشيء، فاحملوا عليهم، وذلك قول الله عز وجل: "إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا...." الآية.

قال الواقدي: وحدثني موسى بن محمد، عن أبيه، قال: كان السائب بن أبي حبيش الأسدي يحدث في زمن عمر بن الخطاب، فيقول: والله ما أسرني يوم بدر أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها فيدركني رجل أبيض طويل، على فرس أبلق بين السماء والأرض، فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً، وكان عبد الرحمن ينادي في العسكر: من أسر هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني، حتى انتهى بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي رسول الله: يا بن أبي حبيش، من أسرك؟ قلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أسره ملك من الملائكة كريم، اذهب يا بن عوف بأسيرك"، فذهب بي عبد الرحمن. قال السائب: وما زالت تلك الكلمة أحفظها، وتأخر إسلامي حتى كان من إسلامي ما كان.

قال الواقدي: وكان حكيم بن حزام، يقول: لمد رأيتنا يوم بدر، وقد وقع بوادي خلص بجاد من السماء قد سد الأفق - قال ووادي خلص ناحية الروثة - قال: فإذا الوادي يسيل نملاً، فوقع في نفسي أن هذا شيء من السماء أيد به محمد، فما كانت إلا الهزيمة، وهي الملائكة.

قال الواقدي: وقد قالوا: إنه لما التحم القتال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم رافع يديه يسأل الله النصر وما وعده، ويقول: اللهم إن ظهرت علي هذه العصابة، ظهر الشرك، ولا يقوم لك دين، وأبو بكر يقول: والله لينصرك الله

وليبضن وجهك، فأنزل الله تعالى ألفاً من الملائكة مردفين عند أكتاف العدو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر، أبشر، هذا جبرائيل معتمر بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض"، ثم قال: إنه لما نزل الأرض تغيب عني ساعة، ثم طلع على ثناياه النقع، يقول: أتاك النصر من الله إذ دعوته.

قال الواقدي: وحدثني موسى بن يعقوب، عن عمه، قال: سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، يقول: سمعت مروان بن الحكم يسأل حكيم بن حزام عن يوم بدر، فجعل الشيخ يكره ذلك، حتى ألح عليه، فقال حكيم: التقينا فاقتلنا، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقع الحصاة في الطست، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم القبضة، فرمى بها فاهزمنا.

قال الواقدي: وقد روى عبد الله بن ثعلبة بن صغير، قال: سمعت نوفل بن معاوية الدؤلي، يقول: اهزمنا يوم بدر، ونحن نسمع كوقع الحصا في الطساس بين أيدينا ومن خلفنا، فكان ذلك أشد الرعب علينا.

فأما الذين قالوا: نزلت الملائكة ولم تقاتل، فذكر الزمخشري في كتابه في تفسير القرآن المعروف "بالكشاف" أن قوماً أنكروا قتال الملائكة يوم بدر، وقالوا: لو قاتل واحد من الملائكة جميع البشر لم يثبتوا له ولا ستأصلهم بأجمعهم ببعض قوته، فإن جبرائيل عليه السلام رفع مدائن قوم لوط - كما جاء في الخبر - على خافقة من جناحه، حتى بلغ بها إلى السماء، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، فما عسى أن يبلغ قوة ألف رجل من قريش ليحتاج في مقاومتها وحرابها إلى ألف ملك من ملائكة السماء مضافين إلى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من بني آدم! وجعل هؤلاء قوله تعالى: "فاضربوا فوق الأعناق...." أمراً للمسلمين لا أمراً للملائكة.

ورروا في نصرة قولهم روايات، قالوا: وإنما كان نزول الملائكة ليكتسروا سواد المسلمين في أعين المشركين، فإنهم كانوا يرونهم في مبدأ الحال قليلين في أعينهم، كما قال تعالى: "ويقللهم..."، ليطمع المشركون فيهم ويجتروا على حربهم، فلما نشبت الحرب كثروهم الله تعالى بالملائكة في أعين المشركين ليفروا ولا يثبتوا. وأيضاً فإن الملائكة نزلت وتصورت بصور البشر الذين يعرفهم المسلمون، وقالوا لهم ما جرت العادة أن يقال مثله من تثبيت القلوب يوم الحرب، نحو قولهم: ليس المشركون بشيء، لا قوة عندهم، لا قلوب لهم، لو حملتم عليهم لهزمتهم... وأمثال ذلك.

ولقائل أن يقول: إذا كان قادراً على أن يقلل ثلاثمائة إنسان في أعين قريش حتى يظنهم مائة، فهو قادر على أن يكثروهم في أعين قريش بعد التقاء حلقتي البطان، فيظنهم ألفين وأكثر من غير حاجة إلى إنزال الملائكة.

فإن قلت: لعل في إنزالهم لطفاً للمكلفين، قلت: ولعل في محاربتهم لطفاً للمكلفين، وأما أصحاب المعاني فإنهم لم يحملوا الكلام على ظاهره، ولهم في تأويله قول ليس هذا موضع ذكره.

القول فيما جرى في الغنيمة والأسارى قال الواقدي: لما تصاف المشركون والمسلمون، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، فلما اهزم المشركون كان الناس ثلاث فرق، فرقة قامت عند خيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان أبو بكر معه في الخيمة - وفرقة أغارت على النهب تنتهب، وفرقة طلبت العدو فأسروا وغنموا، فتكلم سعد بن معاذ - وكان ممن أقام على خيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، ما منعنا أن نطلب العدو زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، ولكننا خفنا أن نعري موضعك، فيميل عليك خيل من

خيل المشركين ورجال من رجالهم، وقد أقام عند خيمتك وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، والناس كثير، ومتى تعط هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء، والقتلى والأسرى كثير، والغنيمة قليلة، فاختلفوا فأنزل الله عز وجل: "يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول..." الآية، فرجع المسلمون، وليس لهم من الغنيمة شيء ثم أنزل الله فيما بعد: "واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمس وللرسول...." فقسمه عليهم بينهم.

قال الواقدي: وقد روى عبادة بن الوليد بن عبادة عن جده عبادة بن الصامت، قال: سلمنا الأنفال يوم بدر لله وللرسول، ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا، ونزلت بعد: "واعلموا أنما غنمتم من شيء"، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين الخمس فيما كان من أول غنيمة بعد بدر، قال الواقدي: وقد روي عن أبي أسيد الساعدي مثله.

وروى عكرمة، قال: اختلف الناس في الغنائم يوم بدر، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغنائم أن ترد في المقسم فلم يبق منها شيء إلا رد. وظن أهل الشجاعة أنه صلى الله عليه وسلم يخصصهم بما دون غيرهم من أهل الضعف، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقسم بينهم على سواء، فقال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله تعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطي الضعيف؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "تكلتك أمك! وهل تنصرون إلا بضعفائكم!". قال الواقدي: فروى محمد بن سهل بن خيثمة، قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ترد الأسرى والأسلاب، وما أخذوا من المغنم، ثم أقرع بينهم في الأسرى، وقسم أسلاب المقتولين الذين يعرف قاتلوهم بين قاتليهم، وقسم ما وجده في العسكر بين جميع المسلمين عن فراق.

قال الواقدي: وحدثني عبد الحميد بن جعفر، قال: سألت موسى بن سعد بن زيد بن ثابت: كيف فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر في الأسرى والأسلاب والأنفال؟ فقال: نادى مناديه يومئذ: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له، وأمر بما وجد في العسكر وما أخذ بغير قتال، فقسمة بينهم عن فراق. فقلت لعبد الحميد: فلمن أعطى سلب أبي جهل؟ فقال: قد قيل: إنه أعطاه معاذ بن عمرو بن الجموح، وقيل: أعطاه ابن مسعود، قال: وأخذ علي عليه السلام درع الوليد بن عتبة وبيضته ومغفره، وأخذ حمزة سلاح عتبة، وأخذ عبيدة بن الحارث سلاح شيبه، ثم صار إلى ورثته.

قال الواقدي: فكانت القسمة على ثلاثمائة وسبعة عشر سهماً، لأن الرجال كانت ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان معهم فرسان لهما أربعة أسهم، وقسم أيضاً فوق ذلك لثمانية أسهم، لم يحضروا، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم، ثلاثة من المهاجرين لا خلاف فيهم، وهم: عثمان بن عفان خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته رقية وماتت يوم قدم زيد بن حارثة بالبشارة إلى المدينة، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل، بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يتجسسان خبر العير. وخمسة من الأنصار هم: أبو لبابة بن عبد المنذر، خلفه على المدينة وعاصم بن عدي، خلفه على قباء وأهل العالية، والحارث بن حاطب أمره بأمر في بني عمرو بن عوف، وخوات بن جبير كسر بالروحاء، والحارث بن الصمة مثله، فلا اختلاف في هؤلاء، واختلف في أربعة غيرهم، فروي أنه ضرب لسعد بن عبادة بسهمه وأجره، وقال: لئن لم يشهد لها لقد كان فيها راغباً، وذلك أنه كان يحض الناس على الخروج إلى بدر، فنهش فمنعه ذلك

من الخروج.

وروي أنه ضرب لسعد بن مالك الساعدي بسهمه وأجره، وكان تجهز إلى بدر، فمرض بالمدينة، فمات خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصى إليه عليه السلام.

وروي أنه ضرب لرجلين آخرين من الأنصار ولم يسمهما الواقدي وقال: هؤلاء الأربعة غير مجمع عليهم كإجماعهم على الثمانية.

قال: وقد اختلف: هل ضرب بسهم في الغنيمة لقتلى بدر؟ فقال الأكثرون: لم يضرب لهم، وقال بعضهم: بل ضرب لهم، حدثني ابن أبي سبرة، عن يعقوب بن زيد، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لشهداء بدر أربعة عشر رجلاً. قال: وقد قال عبد الله بن سعد بن خيثمة: أخذنا سهم أبي الذي ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قسم الغنائم، وحمله إلينا عويمر بن ساعدة. قال: وقد روى السائب بن أبي لبابة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم لمبشر بن عبد المنذر، قال: وقد قدم بسهمه علينا معن بن عدي.

قال الواقدي: وكانت الإبل التي أصابوا يومئذ مائة وخمسين بعيراً، وكان معه آدم كثير، حملوه للتجارة، فمنعه المسلمون يومئذ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء، فقال بعضهم: ما لنا لا نرى القطيفة! ما نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أخذها، فأنزل الله تعالى: "وما كان لني أن يغل". وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسول الله، إن فلاناً غل قطيفة، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل، فقال: لم أفعل، فقال الدال: يا رسول الله، احفروا هاهنا، فحفروا فاستخرجت القطيفة، فقال قائل: يا رسول الله، استغفر لفلان مرتين، أو مراراً، فقال صلى الله عليه وسلم: دعونا من أبي حر.

قال الواقدي: وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفراس، وكان جمل أبي جهل فيما غنموه، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يزل عنده يضرب في إبله ويغزو عليه حتى ساقه في هدي الحديدية، فسأله يومئذ المشركون الجمل بمائة بعير، فقال: لولا أنا سميناه في الهدى لفعلنا.

قال الواقدي: وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم صفى من الغنيمة قبل القسمة، فتنفل سيفه ذا الفقار، يومئذ، كان لمنبه بن الحجاج. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غزا إلى بدر بسيف وهبه له سعد بن عبادة يقال له العضب. قال: وسمعت ابن أبي سبرة، يقول: سمعت صالح بن كيسان، يقول: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وما معه سيف، وكان أول سيف قلده سيف منبه بن الحجاج غنمه يوم بدر.

وقال البلاذري: كان ذو الفقار للعاص بن منبه بن الحجاج، ويقال: لمنبه، ويقال لشيبة، والثبت عندنا أنه كان للعاص بن منبه.

قال الواقدي: وكان أبو أسيد الساعدي إذا ذكر الأرقم بن أبي الأرقم، يقول: ما يومى منه بواحد، فيقال: ما هذا هو؟ فيقول: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يردوا يوم بدر ما في أيديهم من المغنم، فرددت سيف أبي عائد المخزومي - واسم السيف المرزبان، وكان له قيمة وقدر - وأنا أطمع أن يرد إلي، فكلّم الأرقم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم فيه - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يسأله - فأعطاه السيف. وخرج بني له يفعة، فاحتمله الغول، فذهبت به متوركة ظهرًا، فقيلاً لأبي أسيد: وكانت الغيلان في ذلك الزمان؟ فقال: نعم، ولكنها قد هلكت، فلقي بني الأرقم بن أبي الأرقم، فبهش إليه باكيًا مستجيرًا به، فقال: من أنت؟ فأخبره، فقالت الغول: أنا حاضنته، فلها عنه والصبي يكذبها، فلم يعرج عليه حتى الساعة، فخرج من داري فرس لي، فقطع رسنه، فلقيه الأرقم بالغابة فركبه، حتى إذا دنا من المدينة أفلت منه فتعذر إلي أنه أفلت مني، فلم أقدر عليه حتى الساعة.

قال: وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر سيف العاص بن منبه، فأعطاه، قال: وأخذ عليه السلام ماليك حضروا بدرًا، ولم يسهم لهم وهم ثلاثة أعبد، غلام لحاطب بن أبي بلتعة، وغلام لعبد الرحمن بن عوف، وغلام لسعد بن معاذ، واستعمل صلى الله عليه وسلم شقران غلامه على الأسرى، فأخذوا من كل أسير ما لو كان حرًا ما أصابه في المقسم.

وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: رميت سهيل بن عمرو يوم بدر فقطعت نسأه، فاتبعت أثر الدم حتى وجدته قد أخذه مالك بن الدخشم، وهو ممسك بناصيته، فقلت: أسيري رميته! فقال: أسيري أخذته! فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه منا جميعًا، وأفلت سهيل بالروحاء، فصاح عليه السلام بالناس، فخرجوا في طلبه، فقال صلى الله عليه وسلم من وجده فليقتله، فوجده هو صلى الله عليه وسلم فلم يقتله.

قال الواقدي: وأصاب أبو بردة بن نيار أسيرًا من المشركين، يقال له معبد بن وهب، من بني سعد بن ليث فلقه عمر بن الخطاب وكان عمر يحض على قتل الأسرى، لا يرى أحدًا في يديه أسير إلا أمر بقتله، وذلك قبل أن يتفرق الناس، فلقه معبد وهو أسير مع أبي بردة، فقال: أترون يا عمر أنكم قد غلبتم! كلا واللات والعزى! فقال عمر: عباد الله المسلمين، أتتكلّم وأنت أسير في أيدينا! ثم أخذه من أبي بردة فضرب عنقه - ويقال: إن أبا بردة قتله.

قال الواقدي: وروى أبو بكر بن إسماعيل، عن أبيه، عن عامر بن سعد، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ: "لا تخبروا سعدًا بقتل أخيه، فيقتل كل أسير في أيديكم".

قال الواقدي: ولما جيء بالأسرى كره ذلك سعد بن معاذ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه شق عليك أن يؤسروا! قال: نعم يا رسول الله، كانت أول وقعة التقينا فيها بالمشركين فأحببت أن يذلم الله، وأن يتخن فيهم القتل. قال الواقدي: وكان النفر بن الحارث أسره المقداد يومئذ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر، فكان الأثيل عرض عليه الأسرى، فنظر إلى النضر بن الحارث فأبده البصر، فقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلي! لقد نظر إلي بعينين فيهما الموت! فقال الذي إلى جنبه: والله ما هذا منك إلا رعب، فقال النضر لمصعب بن عمير: يا مصعب، أنت أقرب من هاهنا بي رحمًا، كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي، هو والله قاتلي إن لم تفعل. قال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا، وتقول في نبيه كذا وكذا، قال: يا مصعب، فليجعلني كأحد أصحابي. إن قتلوا قتلت، وإن من عليهم من علي. قال مصعب: إنك كنت تعذب أصحابه، قال: أما والله لو أسرتك قريش ما قتلت أبدًا وأنا حي. قال مصعب: والله إني لأراك صادقًا، ولكن لست مثلك قطع الإسلام اليهود.

قال الواقدي: وعرضت الأسرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأى النضر بن الحارث، فقال: اضربوا عنقه، فقال المقداد: أسيري يا رسول الله! فقال اللهم أغن المقداد من فضلك، قم يا علي فاضرب عنقه، فقام علي فضرب عنقه بالسيف صبراً، وذلك بالأثيل، فقالت أخته:

ياراكبا إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق
بلغ به ميتاً فإن تحية	ما إن تزال بها الركائب تخفق
مني إليه وعبرة مسفوحة	جادت لمائجها، وأخرى تخنق
فليسمع النضر إن ناديته	إن كان يسمع ميت أو ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تتوشه	لله أرحام هناك تمزق!
صبراً يقاد إلى المدينة راغماً	رسف المقيد وهو عان موثق
أحمد ولأنت نجل نجبية	في قومها، والفحل فحل معرق
ماكان ضرك لومنتت وربما	من الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من قتلت وسيلة	وأحقهم إن كان عتق يعتق

قال الواقدي: وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إليه شعرها رق له، وقال: "لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلتها" قال الواقدي: ولما أسر سهيل بن عمرو، قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، انزع ثيابه يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهه". فقام سهيل بن عمرو بمكة حين جاءه وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بخطبة أبي بكر بالمدينة، كأنه كان يسمعها، فقال عمر حين بلغه كلام سهيل: أشهد أنك رسول الله - يريد قوله صلى الله عليه وسلم: "لعله يقوم مقاماً لا تكرهه".

قال الواقدي: وكان علي عليه السلام يحدث، فيقول: أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر، فخيره في "الأسرى أن يضرب أعناقهم، أو لأخذ منهم الفداء، ويستشهد من المسلمين في قابل عدتهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، وقال: هذا جبرائيل يخيركم في الأسرى، بين أن تضرب أعناقهم أو تؤخذ منهم الفدية ويستشهد منكم قابلاً عدتهم. قالوا: بل نأخذ الفدية ونستعين بها، ويستشهد منا من يدخل الجنة، فقبل منهم الفداء، وقتل من المسلمين قابلاً عدتهم بأحد.

قلت: لو كان هذا الحديث صحيحاً لما عوتبوا، فقليل لهم: "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة"، ثم قال: "لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم..."، لأنه إذا كان خيرهم، فقد أباحهم أخذ الفداء، وأخبرهم أنه حسن، فلا يجوز فيما بعد أن ينكره عليهم، ويقول إنه قبيح.

قال الواقدي: لما حبس الأسرى وجعل عليهم شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعوا في الحياة، فقالوا: لو

بعثنا إلى أبي بكر! فإنه أوصل قريش لأرحامنا! فبعثوا إلى أبي بكر، فأتاهم فقالوا: يا أبا بكر، إن فينا الآباء والأبناء والإخوان، والعمومة وبنو العم، وأبعدنا قريب، كلم صاحبك فليمن علينا ويفادنا، فقال: نعم إن شاء الله، لا ألوكم خيراً. ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالوا: وابعثوا إلى عمر بن الخطاب، فإنه من قد علمتم، ولا يؤمن أن يفسد عليكم لعله يكف عنكم! فأرسلوا إليه، فجاءهم فقالوا له مثل ما قالوا لأبي بكر، فقال: لا ألوكم شراً! ثم انصرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوجد أبا بكر عنده، والناس حوله، وأبو بكر يلينه ويغشاه، ويقول: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم، وأبعدهم عنك قريب! فامنن عليهم، من الله عليك، أو فادهم قوة للمسلمين، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك! ثم قام فتنحى ناحية، وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه، فجاء عمر فجلس مجلس أبي بكر، فقال يا رسول الله، هم أعداء الله، كذبوك وقتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم، فهم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة، يوطيء الله بهم الإسلام، ويذل بهم الشرك! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبه، وعاد أبو بكر إلى مقعده الأول، فقال: بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم، وأبعدهم منك قريب! فامنن عليهم أو فادهم. هم عشيرتك وقومك لا تكن أول من يستأصلهم، وأن يهديهم الله خير من أن يهلكهم. فسكت صلى الله عليه وسلم عنه فلم يرد عليه شيئاً، وقام ناحية. فقام عمر فجلس مجلسه، فقال: يا رسول الله، ما تنتظر بهم! اضرب أعناقهم، يوطيء الله بهم الإسلام، ويذل أهل الشرك، هم أعداء الله، كذبوك وأخرجوك يا رسول الله، اشف صدور المؤمنين، لو قدروا منا على مثل هذا ما أقالونا أبداً. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه، فقام ناحية، فجلس وعاد أبو بكر، فكلمه مثل كلامه الأول فلم يجبه، ثم تنحى، فجاء عمر فكلمه بمثل كلامه الأول فلم يجبه، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل قبه، فمكث فيها ساعة، ثم خرج، والناس يخوضون في شأنهم، يقول بعضهم: القول ما قال أبو بكر، وآخرون يقولون: القول ما قال عمر. فلما خرج قال للناس: ما تقولون في صاحبيكم هذين؟ دعوها فإن لهما مثلاً، مثل أبي بكر في الملائكة كميكايل يتزل برضا الله وعفوه على عباده، ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألين على قومه من العسل، أو قد له قومه النار فطرحوه فيها، فما زاد على أن قال: "أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون"، وقال: "فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم"، وكعيسى إذ يقول: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل يتزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله، ومثله في الأنبياء كمثل نوح، كان أشد على قومه من الحجارة، إذ يقول: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً" فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعاً، ومثل موسى إذ يقول: "ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم" وإن بكم عيلة، فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق. فقال عبد الله بن مسعود: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء.

قال الواقدي: هكذا روى ابن أبي حبيبة، وهذا وهم، سهيل بن بيضاء مسلم من مهاجرة الحبشة، وشهد بدرًا، وإنما هو أخ له. ويقال له سهيل. قال: قال عبد الله بن مسعود: فإني رأيته يظهر الإسلام بمكة - قال: فسكت النبي صلى الله عليه وسلم، قال عبد الله: فما مرت علي ساعة قط كانت أشد علي من تلك الساعة، جعلت أنظر إلى السماء أتخوف أن

تسقط علي الحجارة لتقدمي بين يدي الله ورسوله بالكلام، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه، فقال: "إلا لسهيل ابن بيضاء"، قال: فما مرت علي ساعة أقر لعيني منها، إذ قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال: "إن الله عز وجل ليشدد القلب حتى يكون أشد من الحجارة، وإنه ليلين القلب حتى يكون ألين من الزبد"، فقبل الفداء ثم قال بعد: "لو نزل عذاب يوم بدر لما نجا منه إلا عمر"، كان يقول: اقتل ولا تأخذ الفداء. وكان سعد بن معاذ يقول: اقتل ولا تأخذ الفداء. قلت: عندي في هذا كلام، أما في أصل الحديث فلأن فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، ومثله كعيسى إذ قال: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم"، وهذه الآية من المائدة والمائدة أنزلت في آخر عمره، ولم يزل بعدها إلا سورة براءة، وبدر كانت في السنة الثانية من الهجرة، فكيف هذا! اللهم إلا أن يكون قوله تعالى: "وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين..." الآيات، قد كانت أنزلت إما بمكة أو بالمدينة قبل بدر، فلما جمع عثمان القرآن ضمها إلى سورة المائدة، فلعله قد كان ذلك فينبغي أن ننظر في هذا، فهو مشكل! وأما حديث سهيل بن بيضاء فإنه يوهم مذهب موسى بن عمران في أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحكم في الوقائع بما يشاء، لأنه قيل له: احكم بما تشاء، فإنك لا تحكم إلا بالحق، وهو مذهب متروك إلا أنه يمكن أن يقال: لعله لما سكت صلى الله عليه وسلم عندما قال ابن مسعود ذلك القول، نزل عليه في تلك السكته الوحي وقيل له: إلا سهيل بن بيضاء، فقال حينئذ: "إلا سهيل بن بيضاء"، كما أوحى إليه.

وأما الحديث الذي فيه: "لو نزل عذاب لما نجا منه إلا عمر"، فالواقدي وغيره من المحدثين اتفقوا على أن سعد بن معاذ كان يقول مثل ما قاله عمر، بل هو المبتدئ بذلك الرأي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعد في العريش، والمشركون لم ينفذ جمعهم كل ذلك الانفضاض، فكيف خص عمر بالنجاة وحده دون سعد! ويمكن أن يقال: إنه كان شديد التأليب والتحريض عليهم، وكثير الإلحاح على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرهم، فنسب ذلك الرأي إليه لاشتهاره به، وإن شركه فيه غيره.

قال الواقدي: وحدثني معمر عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: "لو كان مطعم بن عدي حياً لوهبت له هؤلاء التني". قال وكانت لمطعم بن عدي عند النبي صلى الله عليه وسلم يد أجاره حين رجع من الطائف.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، قال: أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأسرى يوم بدر أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي - وكان شاعراً -، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: إن لي خمس بنات، ليس لهن شيء، فتصدق بي عليهن يا محمد، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. وقال أبو عزة: أعطيك موثقاً ألا اقاتلك، ولا أكثر عليك أبداً. فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما خرجت قريش إلى أحد، جاء صفوان بن أمية، فقال: اخرج معنا، قال: إني قد أعطيت محمداً موثقاً ألا أقاتله، ولا أكثر عليه أبداً. وقد من علي ولم يمن علي غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء. فضمن له صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل، وإن عاش أعطاه مالا كثيراً لا يأكله عياله. فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها، ثم خرج مع قريش يوم أحد، فأسر ولم يؤسر غيره من قريش، فقال: يا محمد، إنما خرجت كرهاً ولي بنات، فامنن علي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه

وسلم: "أين ما أعطيتني من العهد والميثاق! لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: سخرت بمحمد مرتين". فقتله.
قال: وروى سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ: "إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، يا عاصم بن ثابت، قدمه فاضرب عنقه"، فقدمه عاصم فضرب عنقه.

قال الواقدي: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر بالقلب أن تغور ثم أمر بالقتلى، فطرحوا فيها كلهم إلا. أمية بن خلف فإنه كان مسمناً انتفخ من يومه. فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اتركوه.
وقال ابن إسحاق: انتفخ أمية بن خلف في درعه حتى ملأها، فلما ذهبوا يحركونه تزايل، فأقروه وألقوا عليه التراب والحجارة ما غيبه.

قال الواقدي: ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتبة بن ربيعة يجر إلى القلب - وكان رجلاً جسيماً، وفي وجهه أثر الجدري - فتغير وجه ابنه أبي حذيفة بن عتبة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما لك! كأنك ساءك ما أصاب أباك! قال: لا والله يا رسول الله، ولكني رأيت لأي عقلاً وشرفاً، كنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما أخطأه ذلك، ورأيت ما أصابه غاظني. فقال أبو بكر: كان والله يا رسول الله أبقى في العشيرة من غيره، ولقد كان كارهاً لوجهه، ولكن الحين ومصارع السوء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحمد لله الذي جعل خد أبي جهل الأسفل وصرعه وشفانا منه". فلما توافوا في القلب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف عليهم وهم مصرعون، جعل أبو بكر يخبره بهم رجلاً رجلاً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحمد الله ويشكره ويقول: الحمد لله الذي أنجز لي ما وعدني! فقد وعدني إحدى الطائفتين، ثم وقف على أهل القلب فناداهم رجلاً رجلاً: "يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام! هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً! بئس القوم كنتم لبيكم! كذبتُموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فقالوا: يا رسول الله، أئنادي قوماً قد ماتوا! فقال: "لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق".

وقال ابن إسحاق في كتاب "الغازي": إن عائشة كانت تروي هذا الخبر، وتقول: فالناس يقولون: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لقد سمعوا ما قلت لهم"، وليس كذلك، إنما قال: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق".
قال محمد بن إسحاق: وحدثني حميد الطويل، عن أنس بن مالك. قال: لما ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له المسلمون: يا رسول الله، أئنادي قوماً قد أئتنا! فقال: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني لا. قلت: لئال أن يقول لعائشة: إذا جاز أن يعلموا وهم موتى، جاز أن يسمعوا وهم موتى، فإن قالت: ما أخبرت أن يعلموا وهم موتى، ولكن تعود الأرواح إلى أبدانهم، وهي في القلب، ويرون العذاب، فيعلمون أن ما وعدهم به الرسول حق! قيل لها: ولا مانع من أن تعود الأرواح إلى أبدانهم وهي في القلب، فيسمعون صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا لا وجه لإنكارها ما يقوله الناس! ويمكن أن ينتصر لقول عائشة على وجه حكمي، وهو أن الأنفس بعد المفارقة تعلم ولا تسمع، لأن الإحساس إنما يكون بواسطة الآلة، وبعد الموت تفسد الآلة، فأما العلم فإنه لا يحتاج إلى الآلة، لأن النفس تعلم بجوهرها فقط.

قال الواقدي: وكان انهزام قريش وتوليها حين زالت الشمس، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدراً، وأمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم وحملها وأمر نفرًا من أصحابه أن يعينوه، فصلى العصر بيدراً ثم راح فمر بالأنثيل قبل غروب الشمس فترل به، وبات به وبأصحابه جراح، وليست بالكثيرة، وقال: من رجل يحفظنا الليلة؟ فأسكت القوم، فقام رجل فقال: من أنت؟ قال: ذكوان بن عبد قيس، قال: اجلس، ثم أعاد القول الثانية، فقام رجل، فقال: من أنت؟ قال: ابن عبد القيس، فقال: اجلس، ثم مكث ساعة وأعاد القول: فقام رجل فقال: من أنت؟ قال: أبو سبيع، فسكت. ثم مكث ساعة، وقال: قوموا ثلاثكم. فقام ذكوان بن عبد قيس وحده، فقال له: وأين صاحبك؟ قال: يا رسول الله أنا الذي كنت أجيبك الليلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحفظك الله! فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة، حتى كان آخر الليل فارتحل.

قال الواقدي: وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى العصر بالأنثيل، فلما صلى ركعة تبسم، فلما سلم سئل عن تبسمه فقال: مر بي ميكائيل وعلى جناحه النقع، فتبسم إلي، وقال: إني كنت في طلب القوم، وأتاني جبريل على فرس أنثى معقود الناصية، قد عم ثنيتيه الغبار فقال: يا محمد إن ربي بعثني إليك، وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى، فهل رضيت؟ فقلت: نعم.

قال الواقدي: وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسرى، حتى إذا كان بعرق الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، وكان أسره عبد الله بن سلمة العجلاني، فجعل عقبة يقول: يا ويلي! علام أقتل يا معشر قريش من بين من هاهنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعداوتك لله ولرسوله، فقال: يا محمد، منك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت علي، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم، يا محمد من للصبيّة؟ فقال: النار، قدمه يا عاصم، فاضرب عنقه، فقدمه عاصم فاضرب عنقه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بئس الرجل كنت والله ما علمت كافراً بالله وبرسوله وبكتابه، مؤذياً لنبيه، فأحمد الله الذي قتلك وأقر عيني منك.

قال محمد بن إسحاق: وروى عكرمة مولى ابن عباس، عن أبي رافع، قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد فشا فينا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل زوجته، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، فكان يكتنم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش، كبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً.

قال: وكنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل الفداح، أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني جالس أنحت قداحي، وعندني أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجله بشر، حتى جلس إلى طنب الحجر، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال للناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم - وكان شهد مع المشركين بدراً - فقال أبو لهب: هلم يا بن أخي فعندك والله الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام حوله، فقال: يا بن

أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء، والله إن هو إلا أن لقيناهم فممنحناهم أكتافنا، فقتلونا كيف شاؤوا، وأسرونا كيف شاؤوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض. لا والله ما تبقي شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجر، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو هب يده، فضرب بي الأرض ثم بك علي يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجر، فأخذته فضربت على رأسه، فشجته شجة منكرة، وقالت: استضعفته إذ غاب سيده، فقام مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال، حتى رماه الله بالعدسة فقتلته.

ولقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثاً وما يدفنا، حتى أتنن في بيته - وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها، كما يتقي الناس الطاعون - حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكم! ألا تستحيان أن أبكما قد أتنن في بيته لا تغيبانه! قالوا: إنا نخشى هذه القرحة، قال: فانطلقا وأنا معكما، فوالله ما غسلوه إلا قذفاً عليه بالماء من بعيد، ما يمسونه، وأخرجوه فألقوه بأعلى مكة إلى كنان هناك، وقذفوا عليه بالحجارة حتى وارهوه.

قال محمد بن إسحاق: فحضر العباس بدرأ، فأسر فيمن أسره، وكان الذي أسره أبو اليسر كعب بن عمرو أحد بني سلمة، فلما أمسى القوم والأسارى محبوسون في الوثاق، وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ساهراً، فقال له أصحابه: ما لك لا تنام يا رسول الله؟ قال: "سمعت أنين العباس من وثاقه"، فقاموا إليه فأطلقوه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: وروى ابن عباس رحمه الله، قال: كان أبو اليسر رجلاً مجموعاً، وكان العباس طويلاً جسيماً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا اليسر، كيف أسرت العباس؟ قال: يا رسول الله، لقد أعاني عليه رجل ما رأيته من قبل، من هيئته كذا، قال صلى الله عليه وسلم: "لقد أعانك عليه ملك كريم".

قال محمد بن إسحاق: قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الواقعة، فنهى أن يقتل أحد من بني هاشم، قال: حدثني بذلك الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة حليف بني زهرة، قال: وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس رحمه الله، قال: وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لنا بقتلهم، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختری فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكراً، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرتنا ونترك العباس! والله لئن لقيته لالحمته السيف، فسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص. يقول عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي حفص - أضررت وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، قال: فكان أبو حذيفة يقول: والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً أبداً إلا أن يكفرها الله عني بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.

قال محمد بن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استشار أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ في أمر الأسارى،

غلظ عمر عليهم غلظة شديدة، فقال: يا رسول الله أطعني فيما أأشير به عليك، فإني لا آلوك نصحاً، قدم عمك العباس فاضرب عنقه بيدك، وقدم عقيلاً إلى علي أخيه يضرب عنقه، وقدم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله، قال: فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذلك ولم يعجبه.

قال محمد بن إسحاق: فلما قدم بالأسرى إلى المدينة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افد نفسك يا عباس وابني أخويك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عقبة بن عمرو، فإنك ذو مال، فقال العباس: يا رسول الله، إني كنت مسلماً، ولكن القوم استكروهوني، فقال صلى الله عليه وسلم: الله أعلم بإسلامك، إن يكن ما قلت حقاً فإن الله يجزيك به، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافتد نفسك، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسر، فقال العباس: يا رسول الله، احسبها لي من فدائي، فقال صلى الله عليه وسلم: ذاك شيء أعطانا الله منك، فقال: يا رسول الله، فإنه ليس لي مال، قال: فأين المال الذي وضعت بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث، وليس معكما أحد، ثم قلت: إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقتم كذا وكذا! فقال العباس: والذي بعثك بالحق يا رسول الله، ما علم بهذا أحد غيري وغيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله، ثم فدى نفسه وابني أخويه وحليفه.

قال الواقدي: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأثيل زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران الناس بالمدينة فجاء يوم الأحد في الضحى، وفارق عبد الله زيداً بالعقيق، فجعل عبد الله ينادي عوالي المدينة: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله وقاتل المشركين وأسره، قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وزمعة بن الأسود، وأميرة بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير. قال عاصم بن عدي: فقممت إليه فنحوته، فقلت: أحقاً ما تقول يا بن رواحة؟ قال: إي والله، وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله، ومعه الأسرى مقرنين، ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم، داراً داراً، والصبيان يشتدون معه، ويقولون: قتل أبو جهل الفاسق، حتى انتهوا إلى دور بني أمية بن زيد، وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي صلى الله عليه وسلم القصواء، يبشر أهل المدينة، فلما جاء المصلى صاح على راحلته: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج وأبو جهل، وأبو البختري وزمعة بن الأسود وأميرة بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة، فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة، ويقولون: ما جاء زيد إلا فلاً، حتى غاظ المسلمين ذلك، وخافوا، قال: وكان قدوم زيد حين سوا على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب بالبيع، فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد: قتل صاحبكم ومن معه، وقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر: قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون معه أبداً، وقد قتل عليه أصحابكم، وقتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب، وقد جاء فلاً، فقال أبو لبابة: كذب الله قولك، وقالت يهود: ما جاء زيد إلا فلاً. قال أسامة بن زيد: فحئت حتى خلوت بأبي، فقلت: يا أبت، أحق ما تقول؟ فقال إي والله حقاً يا بني، فقويت نفسي، فرجعت إلى ذلك المنافق، فقلت: أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين! لنقدمك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم، فليضربن عنقك، فقال: يا أبا محمد، إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه.

قال الواقدي: فقدم بالأسرى وعليهم شقران وهم تسعة وأربعون رجلاً الذين أحصوا، وهم سبعون في الأصل، مجمع عليه لا شك فيه، إلا أنهم لم يحص سائرهم، ولقي الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالروحاء يهتئون بهفتح الله عليه، فلقبه وجوه الخزرج، فقال سلمة بن سلامة بن وقش: ما الذي تهتئون به؟ فوالله ما قتلنا إلا عجائز صلعاً! فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا بن أخي، أولئك الملاء، لو رأيتهم لهبتهم، ولو أمروك لأطعتهم، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتها! وبئس القوم كانوا على ذلك لنبههم! فقال سلمة: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، إنك يا رسول الله لم تنزل عني معرضاً منذ كنا بالروحاء في بدأتنا، فقال صلى الله عليه وسلم: أما ما قلت للأعرابي: وقعت على ناقتك فهي حبل منك، ففحشت وقلت ما لا علم لك به، وأما ما قلت في القوم، فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهد بها، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معذرتي، وكان من علية أصحابه.

قال الواقدي: فروى الزهري، قال. لقي أبو هند البياضي مولى فروة بن عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حميت مملوء حيساً أهده له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أبو هند رجل من الأنصار فأنكحوه وأنكحو إياه".

قال الواقدي: ولقيه أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله، الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله، ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن بك أنك تلقى عدواً، ولكني ظننت أنها العير، ولو ظننت أنه عدو لما تخلفت، فقال رسول الله: صدقت.

قال: ولقيه عبد الله بن قيس بتربان، فقال: يا رسول الله الحمد لله على سلامتك وظفرك، كنت يا رسول الله ليالي خرجت موروداً - أي محموراً - فلم تفارقني حتى كان بالأمس، فأقبلت إليك، فقال: أجرك الله.

قال الواقدي: وكان سهيل بن عمرو لما كان بتنوكة بين السقيا وملل، كان مع مالك بن الدخشم الذي أسره، فقال له: حل سبيلي للغائط، فقام معه، فقال سهيل: إني أحتشم فاستأخر عني، فاستأخر عنه، فمضى سهيل على وجهه، انتزع يده من القران، ومضى، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم، أقبل فصاح في الناس، فخرجوا في طلبه، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه بنفسه، وقال: من وجده فليقتله، فوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه أخفى نفسه بين شجرات، فأمر به فربط يده إلى عنقه، ثم قرنه إلى راحلته، فلم يركب سهيل خطوة حتى قدم المدينة.

قال الواقدي: فحدثني إسحاق بن حازم بن عبد الله بن مقسم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته القصوى، فأجلسه بين يديه وسهيل بن عمرو محبوب، ويده إلى عنقه، فلما نظر إلى سهيل قالوا: يا رسول الله، أبو يزيد! قال: نعم، هذا الذي كان يطعم الخبز بمكة.

وقال البلاذري: قال أسامة - وهو يومئذ غلام - يا رسول الله، هذا الذي كان يطعم الناس بمكة السريد - يعني الثريد. قلت: هذه لثغة مقلوبة، لأن الألف بيدل السين ثاء، وهذا أبدل الثاء سيناً، ومن الناس من يرويه: "هذا الذي كان يطعم الناس بمكة الشريد" بالشين المعجمة.

قال البلاذري: وحدثني مصعب بن عبد الله الزبيري، عن أشياخه أن أسامة رأى سهيلاً يومئذ، فقال: يا رسول الله هذا الذي كان يطعم السريد بمكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أبو يزيد الذي يطعم الطعام، ولكنه سعى في إطفاء نور الله، فأمكن الله منه"، وقال: وفيه يقول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

وسماء جودك تستهل فتمطر

يا با يزيد رأيت سيبك واسعاً

قال: وفيه يقول مالك بن الدخشم، وهو الذي أسره يوم بدر:

به غيره من جميع الأمم

أسرت سهيلاً فلا أبتغي

سهيلاً فتأها اذا تظلم

وخندف تعلم أن الفتى

وأكرهت نفسي على ذي العلم

ضربت بذى الشفر حتى انتنى

أي على ذي العلم بسكون اللام، ولكنه حركه للضرورة.

وكان سهيل أعلم مشقوق الشفة العليا، فكانت أنياه، بادية، فلذلك قالوا: ذو الأنياب.

قال الواقدي: ولما قدم بالأسرى كانت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب، قالت سودة: فأتينا فقيل لنا: هؤلاء الأسرى قد أتى بهم، فخرجت إلى بيتي ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، وإذا أبو يزيد مجموعة يده إلى عنقه في ناحية البيت، فوالله ما ملكت نفسي حين رأيته مجموعة يده إلى عنقه أن قلت: أبا يزيد، أعطيتهم بأيديكم! ألا متم كراماً فوالله ما راعني إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت: "يا سودة، أعلى الله وعلى رسوله"، فقلت: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق إنني ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت.

قال الواقدي: وحدثني خالد بن إلياس، قال: حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي جهم، قال: دخل يومئذ خالد بن هشام بن المغيرة وأميه بن أبي حذيفة منزل أم سلمة وأم سلمة في مناحة آل عفراء، فقيل لها: أتى بالأسرى، فخرجت فدخلت عليهم فلم تكلمهم حتى رجعت، فتجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة، فقالت: يا رسول الله، إن بني عمي طلبوا أن يدخل بهم علي فأضيفهم، وأدهن رؤوسهم وألم من شعنتهم، ولم أحب أن أفعل شيئاً من ذلك حتى أستأمرك، فقال صلى الله عليه وسلم: "لست أكره شيئاً من ذلك، فافعلي من هذا ما بدا لك". قال الواقدي: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، قال: قال أبو العاص بن الربيع: كنت مستأسراً مع رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشينا أو تغدنا آثروني بالخبز، وأكلوا التمر، والخبز عندهم قليل والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إلي، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد. قال: وكانوا يحملوننا ويمشون.

وقال محمد بن إسحاق في كتابه: كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج ابنته زينب، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وكان ابناً لهالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد، وكان الربيع بن عبد العزى بعل هذه فكانت خديجة حالته، فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن يزوجه زينب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالف خديجة، وذلك قبل أن يتزل عليه الوحي، فزوجه إياها، فكان أبو العاص من خديجة بمنزلة ولدها، فلما أكرم الله رسوله بنبوته آمنت به خديجة وبناته كلهن وصدقته وشهدن أن ما جاء به حق وذن بدينه، وثبت أبو العاص على شركه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوج عتبة بن أبي لهب إحدى ابنتيه رقية أو أم كلثوم، وذلك من قبل أن يتزل عليه الوحي، فلما أنزل عليه ونادى قومه بأمر الله باعدوه، فقال بعضهم لبعض: إنكم قد فرغتم محمد من همه، أخذتم عنه بناته وأخرجتموهن من عياله، فردوا عليه بناته، فاشغلوه بمن فمشوا إلى أبي العاص بن الربيع، فقالوا: فارق صاحبك بنت محمد، ونحن نزوجك أي امرأة شئت من قريش، فقال: لاها الله! إذن لا أفارق صاحبتى، وما أحب أن لي بها امرأة من قريش! فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكره يثني عليه خيراً في صهره، ثم مشوا إلى الفاسق عتبة بن أبي لهب، فقالوا له: طلق بنت محمد، ونحن ننكحك أي امرأة شئت من قريش، فقال: إن أنتم زوجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص، ففارقها ولم يكن دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامة لها وهواناً له ثم خلف عليها عثمان بن عفان بعده، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مغلوباً على أمره بمكة لا يحل ولا يحرم، وكان الإسلام قد فرق بين زينب وأبي العاص، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر وهو بمكة أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبقيت زينب بمكة مع أبي العاص، فلما سارت قريش إلى بدر سار أبو العاص معهم، فصيب في الأسرى يوم بدر، فأتي به النبي صلى الله عليه وسلم، فكان عنده مع الأسارى، فلما بعث أهل مكة في فداء أسرارهم، بعثت زينب في فداء أبي العاص بعلها بمال، وكان فيما بعثت به قلادة كانت خديجة أمها أدخلتها بها على أبي العاص ليلة زفافها عليه، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، نفديك بأنفسنا وأموالنا، فردوا عليها ما بعثت به، وأطلقوا لها أبا العاص بغير فداء.

قلت: قرأت على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد البصري العلوي رحمه الله هذا الخبر، فقال: أترى أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا المشهد! أما كان يقتضي التكريم والإحسان أن يطيب قلب فاطمة بفدك، ويستوهب لها من المسلمين، أنقص مرزيتها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منزلة زينب أختها وهي سيدة نساء العالمين! هذا إذا لم يثبت لها حق، لا بالنحلة ولا بالإرث، فقلت له: فدك بموجب الخبر الذي رواه أبو بكر قد صار حقاً من حقوق المسلمين فلم يجز له أن يأخذه منهم، فقال: وفداء أبي العاص بن الربيع قد صار حقاً من حقوق المسلمين، وقد أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم! فقلت: رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الشريعة، والحكم حكمه، وليس أبو بكر كذلك، فقال: ما قلت: هلا أخذه أبو بكر من المسلمين قهراً فدفعه إلى فاطمة، وإنما قلت: هلا استترل المسلمين عنه واستوهبه منهم لها كما استوهب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين فداء أبي العاص! أترأه لو قال: هذه بنت نبيكم قد حضرت تطلب هذه النخلات، أفتطيبون عنها أنفساً؟ أكانوا منعوها ذلك! فقلت له: قد قال قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد نحو هذا، قال: إني لم يأتيا بحسن في شرع التكرم، وإن كان ما أتياه حسناً في الدين.

قال محمد بن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أطلق سبيل أبي العاص أخذ عليه فيما نرى أو شرط عليه في إطلاقه، أو أن أبا العاص وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء لأن يحمل زينب إليه إلى المدينة، ولم يظهر ذلك من أبي العاص، ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه لما خلى سبيله، وخرج إلى مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال لهما: كونا بمكان كذا حتى تمر بكما زينب فتصحبانها حتى تأتياي بها، فخرجنا نحو مكة، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعه، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها بالحق بأبيها، فأخذت تتجهز.

قال محمد بن إسحاق: فحدثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا أجهز للحقوق بأبي، لقيتني هند بنت عتبة، فقالت: ألم يبلغني يا بنت محمد أنك تريدين للحقوق بأبيك! فقلت: ما أردت ذلك، فقالت: أي بنت عم لا تفعلين إن كانت لك حاجة في متاع أو فيما يرفق بك في سفرك أو مال تبلغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك، فلا تضطني مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال، قالت: وإيم الله، إني لأظنها حينئذ صادقة، ما أظنها قالت حينئذ إلا لتفعل، ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك. قالت: وتجهزت حتى فرغت من جهازي، فحملني أخو بعلي وهو كنانة بن الربيع.

قال محمد بن إسحاق: قدم لها كنانة بن الربيع بغيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، وخرج بها نهاراً يقود بغيرها، وهي في هودج لها، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء، وتلاومت في ذلك، وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال، فخرجوا في طلبها سراعاً حتى أدركوها بذي طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، ونافع بن عبد القيس الفهري، فروعها هبار بالرمح وهي في الهودج، وكانت حاملاً، فلما رجعت طرحت ما في بطنها، وقد كانت من خوفها رأت دماً وهي في الهودج، فلذلك أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة دم هبار بن الأسود.

قلت: وهذا الخبر أيضاً قرأته على النقيب أبي جعفر رحمه الله، فقال: إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دم هبار بن الأسود لأنه روع زينب فألقت ذا بطنها، فظهر الحال أنه لو كان حياً لأباح دم من روع فاطمة حتى ألقت المحسن. فقلت: أروي عنك ما يقوله قوم إن فاطمة روعت فألقت المحسن، فقال: لا تروه عني ولا ترو عني بطلانه، فإني متوقف في هذا الموضوع لتعارض الأخبار عندي فيه.

قال الواقدي: فبرك حموها كنانة بن الربيع، ونزل كنانته بين يديه، ثم أخذ منها سهماً فوضعه في كبد قوسه، وقال: أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكر الناس عنه.

قال: وجاء أبو سفيان بن حرب في جلة من قريش، فقال: أيها الرجل، اكفف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف. فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تحسن ولم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية جهاراً، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد أبيها، فيظن الناس إذا أنت خرجت بابتنته إليه جهاراً أن ذلك عن ذل أصابنا، وأن ذلك منا وهن، ولعمري ما لنا في حبسها عن أبيها من حاجة، وما فيها من ثأر، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس بردها سلهماً خفياً، فالحقها بأبيها. فردها كنانة بن الربيع إلى مكة، فأقامت بها ليالي حتى إذا هدأ الصوت عنها حملها على بغيرها، وخرج بها ليلاً حتى سلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الله عليه وسلم.

قال محمد بن إسحاق: فروى سليمان بن يسار، عن أبي إسحاق الدوسي، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية أنا فيها إلى عير لقريش، فيها متاع لهم وناس منهم، فقال: إن ظفرتم بهار بن الأسود ونافع بن عبد قيس، فحرقوهما بالنار، حتى إذا كان الغد بعث فقال لنا: "إني كنت قد أمرتكم بتحريق الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله تعالى، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما ولا تحرقوهما".

قلت: لقائل من المجبرة أن يقول: أليس هذا نسخ الشيء قبل تقضي وقت فعله، وأهل العدل لا يجيزون ذلك! وهذا السؤال مشكل، ولا جواب عنه إلا بدفع الخبر إما بتضعيف أحد من رواه، أو إبطال الاحتجاج به لكونه خبر واحد، أو بوجه آخر، وهو أن نجيز للنبي الاجتهاد في الأحكام الشرعية كما يذهب إليه كثير من شيوخنا، وهو مذهب القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ومثل هذا الخبر حديث براءة وإنفاذها مع أبي بكر، وبعث علي عليه السلام، فأخذها منه في الطريق، وقرأها على أهل مكة بعد أن كان أبو بكر هو المأمور بقراءتها عليهم.

فأما البلاذري فإنه روى أن هبار بن الأسود كان ممن عرض لزينة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حملت من مكة إلى المدينة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر سراياه إن ظفروا له أن يحرقوه بالنار، ثم قال: لا يعذب بالنار إلا رب النار، وأمرهم إن ظفروا له أن يقطعوا يديه ورجليه ويقتلوه، فلم يظفروا به، حتى إذا كان يوم الفتح هرب هبار، ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة - ويقال: أتاه بالجرعانة - حين فرغ من أمر حنين، فمثل بين يديه، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقبل إسلامه وأمر ألا يعرض له، وخرجت سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: لا أنعم الله بك عينا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهلاً، فقد محاً الإسلام ما قبله!" قال البلاذري: فقال الزبير بن العوام: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غلظته على هبار بن الأسود يطأطئ رأسه استحياء منه وهبار يعتذر إليه، وهو يعتذر إلى هبار أيضاً.

قال محمد بن إسحاق: فأقام أبو العاص بمكة على شركه، وأقامت زينب عند أبيها صلى الله عليه وسلم بالمدينة، قد فرق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبل الفتح، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بحال له، وأموال لقريش أبضعوا بها معه، وكان رجلاً مأموناً، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصالوا ما معه وأعجزهم هو هارباً، فخرجت السرية بما أصابت من ماله، حتى قدمت به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج أبو العاص تحت الليل، حتى دخل على زينب - ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم - مترها، فاستجار بها فأجارتها، وإنما جاء في طلب ماله الذي أصابته تلك السرية، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح، وكبر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الصبح، فلما سلم من الصلاة، أقبل عليهم فقال: "أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟"، قالوا: نعم، قال: "أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعتم، إنه يجير على الناس أديانهم". ثم انصرف ودخل على ابنته زينب، فقال: "أي بنية، أكرمي مثواه، وأحسني قراه، ولا يصلن إليك، فإنك لا تحلين له". ثم بعث إلى تلك السرية الذين كانوا

أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: إن هذا الرجل منا بحيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، وأنتم أحق به. فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوا عليه ماله ومتاعه، حتى إن الرجل كان يأتي بالحبل، ويأتي الآخر بالإداوة، والآخر بالشظاظ، حتى ردوا ماله ومتاعه بأسره من عند آخره ولم يفقد منه شيئاً. ثم احتمل إلى مكة، فلما قدمها أدى إلى كل ذي مال من قريش ماله ممن كان أبضع معه بشيء، حتى إذا فرغ من ذلك، قال لهم: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا فجزاك الله خيراً، لقد وجدناك وفيّاً كريماً، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله ما منعني من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أنني أردت أن أكل أموالكم، وأذهب بها فإذا سلمها الله لكم، وأداها إليكم، فإني أشهدكم أنني قد أسلمت واتبعت دين محمد. ثم خرج سريعاً حتى قدم على رسول الله المدينة.

قال محمد بن إسحاق: فحدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد زينب بعد ست سنين على أبي العاص بالنكاح الأول لم يحدث شيئاً.

قال الواقدي: فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الأسارى، وفرق الله عز وجل بين الكفر والإيمان، أذل رقاب المشركين والمنافقين واليهود، ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق إلا خضعت عنقه.

وقال قوم من المنافقين: ليتنا خرجنا معه حتى نصيب غنيمة. وقالت يهود فيما بينها: هو الذي نجد نعتة في كتبنا، والله لا ترفع له راية بعد اليوم إلا ظهرت.

وقال كعب بن الأشرف: بطن الأرض اليوم خير من ظهرها، هؤلاء أشرف الناس وساداتهم، وملوك العرب وأهل الحرم والأمن قد أصيبوا. وخرج إلى مكة، فتزل على أبي وداعة بن ضبيرة، وجعله يرسل هجاء المسلمين، ورثى قتلى بدر من المشركين، فقال:

ولمئل بدر يستهل ويدمع

لا تبعدوا إن الملوك تصرع

إن ابن أشرف ظل كعباً يجزع

ظلت تسيخ بأهلها وتصاع

في الناس بيني الصالحات ويجمع

يسعى على الحسب القديم الأروع

طحنت رحا بدر لمهلك أهله

قتلت سراة الناس حول حياضه

ويقول أقوام أذل بعزهم:

صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا

نبئت أن الحارث بن هشامهم

ليزور يثرب بالجموع وإنما

قال الواقدي: أملاها علي عبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح وابن أبي الزناد. فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه، وأظهروا المراثي - وقد كانوا حرموها كيلا يشمت المسلمون بهم - وجعل الصبيان والجواري ينشدونها بمكة، فناحت بها قريش على قتلاها شهراً، ولم تبق دار بمكة إلا فيها النوح - وجز النساء شعورهن، وكان يؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه، فتوقف بين أظهرهم، فينوحون حولها، وخرجن إلى السكك، وضربن الستور في الأزقة، وقطعن فخرجن

إليها ينحن، وصدق أهل مكة رؤيا عاتكة وجهيم بن الصلت.

قال الواقدي: وكان الذين قدموا من قريش في فداء الأسرى أربعة عشر رجلاً، وقيل خمسة عشر رجلاً، وكان أول من قدم المطلب بن أبي وداعة، ثم قدم الباقون بعده بثلاث ليال.

قال: فحدثني إسحاق بن يحيى، قال: سألت نافع بن جبير: كيف كان الفداء؟ قال: أرفعهم أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف، إلا قوماً لا مال لهم من عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبي وداعة: إن له بمكة ابناً كيساً له مال، وهو مغل فداءه، فلما قدم افتد بأربعة آلاف، وكان أول أسير افتدي، وذلك أن قريشاً قالت لابن المطلب بن أبي وداعة - ورأته يتجهز، يخرج إليه - لا تعجل، فإننا نخاف أن تفسد علينا في أسارانا، ويرى محمد تهالكنا فيغلي علينا الفدية، فإن كنت تجد فإن كل قومك لا يجدون من السعة ما تجد. فقال: لا أخرج حتى تخرجوا، فخذعهم حتى إذا غفلوا خرج من الليل على راحلته، فسار أربعة ليال إلى المدينة فافتدى أباه بأربعة آلاف، فلامه قريش في ذلك، فقال: ما كنت لأترك ابناً أسيراً في أيدي القوم وأنتم مضجعون، فقال أبو سفيان بن حرب: إن هذا غلام حدث يعجب بنفسه وبرأيه، وهو مفسد عليكم، إني والله غير مفتد عمرو بن أبي سفيان، ولو مكث سنة أو يرسله محمد. والله ما أنا بأعوزكم، ولكني أكره أن أدخل عليكم ما يشق عليكم، ولكن يكون عمرو كأسوتكم.

قال الواقدي: فأما أسماء القوم الذين قدموا في الأسرى، فإنه قدم من بني عبد شمس الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعمرو بن الربيع أخو أبي العاص بن الربيع. ومن بني نوفل بن عبد مناف جبير بن مطعم. ومن بني عبد الدار بن قصي طلحة بن أبي طلحة، ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي عثمان بن أبي حبيش. ومن بني مخزوم عبد الله بن أبي ربيعة وخالد بن الوليد وهشام بن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبي جهل. ومن بني جمح أبي بن خلف وعمير بن وهب. ومن بني سهم المطلب بن أبي وداعة وعمرو بن قيس. ومن بني مالك بن حسل مكرز بن حفص بن الأحنف، كل هؤلاء قدموا المدينة في فداء أهلهم وعشائهم. وكان جبير بن مطعم يقول: دخل الإسلام في قلبي منذ قدمت المدينة في الفداء، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب: "والطور. وكتاب مسطور"، فاستمعت قراءته، فدخل الإسلام في قلبي منذ ذلك اليوم.

القول في تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم

قال الواقدي: أسر من بني هاشم العباس بن عبد المطلب، أسره أبو اليسر كعب بن عمرو، وعقيل بن أبي طالب أسره عبيد بن أوس الظفري، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب أسره جبار بن صخر، وأسر حليف لبني هاشم من بني فهر، اسمه عتبة فهؤلاء أربعة.

ومن بني المطلب بن عبد مناف السائب بن عبيد، وعبيد بن عمرو بن علقمة، رجلا أسرهما سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلي.

قال الواقدي: حدثني بذلك ابن أبي حبيبة، قال: ولم يقدم لهما أحد، وكانا لا مال لهما، ففك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما بغير فدية.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف عقبة بن أبي معيط المقتول صبراً، على يد عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بأمر رسول الله، أسره عبد الله بن أبي سلمة العجلاني، والحارث بن وبرة بن أبي عمرو بن أمية، أسره سعد بن أبي وقاص، فقدم في فدائه الوليد بن عقبة بن أبي معيط فافتداه بأربعة آلاف.

قال الواقدي: وقد كان الحارث هذا لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم برد الأسارى، ثم أفرع بين أصحابه عليهم، وقع في سهم سعد بن أبي وقاص الذي كان أسره أول مرة- وعمرو بن أبي سفيان، أسره علي بن أبي طالب عليه السلام، وصار بالقرعة في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأطلقه بغير فدية، أطلقه بسعد بن النعمان بن أكال من بني معاوية، خرج معتمراً، فحبس بمكة، فلم يطلقه المشركون حتى أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أبي سفيان. وروى محمد بن إسحاق في كتاب "المغازي": أن عمرو بن أبي سفيان أسره علي عليه السلام يوم بدر، وكانت أمه ابنة عقبة بن أبي معيط، فمكث في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبل لأبي سفيان: ألا تفتدي ابنك عمراً؟ قال: أجمع علي دمي ومالي! قتلوا حنظلة وأفتدي عمراً! دعوه في أيديهم فليمسكوه ما بدا لهم. فبينما هو محبوس بالمدينة، خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف معتمراً، ومعه امرأة له، وكان شيخاً كبيراً لا يخشى ما صنع به أبو سفيان، وقد عهد قريشاً ألا يعرض لحاج ولا معتمر، فعدا عليه أبو سفيان، فحبسه بمكة بابنه عمرو بن أبي سفيان، وأرسل إلى قوم بالمدينة هذا الشعر:

تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا

أر هط ابن أكال أجيبوا دعاءه

لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

فإن بني عمرو لنأمن أدلة لنن

فمشى بنو عمرو بن عوف حين بلغهم الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبروه بذلك، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ليفكوا به صاحبهم، فأعطاهم إياه، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد. وقال حسان بن ثابت يجيب أبا سفيان:

فيكم قبل أن يؤسر القتلى

ولو كان سعد يوم مكة مطلقاً لأكثر

تحن إذا ما انبضت تحفز النبلا

بعضب حسام أو بصفراء نبعة

وأبو العاص بن الربيع، أسره خراش بن الصمة، فقدم في فدائه عمرو بن أبي الربيع أخوه، وحليف لهم، يقال له أبو ريشة افتداه عمرو بن الربيع أيضاً. وعمرو بن الأزرق افتكه عمرو بن الربيع أيضاً، وكان قد صار في سهم تميم مولى خراش بن الصمة، وعقبة بن الحارث الحضرمي أسره عمارة بن حزم، فصار في القرعة لأبي بن كعب، افتداه عمرو بن أبي سفيان بن أمية، وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس، أسره عمار بن ياسر قدم في فدائه ابن عمه. فهؤلاء ثمانية.

ومن بني نوفل بن عبد مناف عدي بن الخيار، أسره خراش بن الصمة، وعثمان بن عبد شمس ابن أخي عتبة بن غزوان حليفهم، أسره حارثة بن النعمان، وأبو ثور، أسره أبو مرثد الغنوي، فهؤلاء ثلاثة افتداهم جبير بن مطعم.

ومن بني عبد الدار بن قصي أبو عزيز بن عمير، أسره أبو اليسر، ثم صار بالقرعة لحرز بن نضلة- قال الواقدي: أبو عزيز هذا هو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، وقال مصعب لحرز بن نضلة: اشد يدك به، فإن له أماً بمكة كثيرة المال، فقال

له أبو عزيز: هذه وصاتك بي يا أخي! فقال مصعب: إنه أخي دونك، فبعثت فيه أمه أربعة آلاف، وذلك بعد أن سألت: ما أغلى ما تفادي به قريش؟ فقبل لها: أربعة آلاف - والأسود بن عامر بن الحارث بن السباق، أسره حمزة بن عبد المطلب، فهذان اثنان قدم في فدائهما طلحة بن أبي طلحة.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي، السائب بن أبي حبيش بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، أسره عبد الرحمن بن عوف. وعثمان بن الحويرث بن عثمان بن أسد بن عبد العزى، أسره حاطب بن أبي بلتعة، وسالم بن شماخ أسره سعد بن أبي وقاص، فهؤلاء ثلاثة قدم في فدائهم عثمان بن أبي حبيش بأربعة آلاف لكل رجل منهم. ومن بني تميم بن مرة، مالك بن عبد الله بن عثمان، أسره قطبة بن عامر بن حديدة، فمات في المدينة أسيراً. ومن بني مخزوم خالد بن هشام بن المغيرة، أسره سواد بن غزية. وأميه بن أبي حذيفة بن المغيرة، أسره بلال. وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وكان أفلت يوم نخلة، أسره واقد بن عبد الله التميمي يوم بدر، فقال له: الحمد لله الذي أمكنني منك، فقد كنت أفلت يوم نخلة - وقدم في فداء هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبي ربيعة، افتدى كل واحد منهم بأربعة آلاف - والوليد بن الوليد بن المغيرة، أسره عبد الله بن جحش، فقدم في فدائه أخواه خالد بن الوليد وهشام بن الوليد، فتمنع عبد الله بن جحش حتى افتكاه بأربعة آلاف، فجعل هشام بن الوليد يريد ألا يبلغ ذلك - يريد ثلاثة آلاف فقال خالد لهشام: إنه ليس بابن أمك، والله لو أبي فيه إلا كذا وكذا لفعلت، فلما افتدياه خرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة، فأفلت، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، فقبل: ألا أسلمت قبل أن تفتدى! قال: كرهت أن أسلم حتى أكون أسوة بقومي. - قال الواقدي: ويقال إن الذي أسر الوليد بن الوليد سليط بن قيس المازني - وقيس بن السائب، أسره عبدة بن الحسحاس، فحبسه عنده حيناً، وهو يظن أن له مالاً، ثم قدم في فدائه أخوه فروة بن السائب، فأقام أيضاً حيناً، ثم افتداه بأربعة آلاف فيها عروض.

ومن بني أبي رفاعه صيفي بن أبي رفاعه بن عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، وكان لا مال له، أسره رجل من المسلمين، فمكث عندهم، ثم أرسله. وأبو المنذر بن أبي رفاعه بن عائذ افتدى بألفين - ولم يذكر الواقدي من أسره - وعبد الله، وهو أبو عطاء بن السائب بن عائذ بن عبد الله، افتدى بألف درهم، أسره سعد بن أبي وقاص، والمطلب بن حنظلة بن الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم، أسره أبو أيوب الأنصاري - ولم يكن له مال فأرسله بعد حين - وخالد بن الأعمى العقيلي، حليف لبني مخزوم، وهو الذي يقول:

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

وقال محمد بن إسحاق: روي أنه كان أول المنهزمين، أسره الخباب بن المنذر بن الجموح، وقدم في فدائه عكرمة بن أبي جهل، فهؤلاء عشرة.

ومن بني جمح عبد الله بن أبي بن خلف، أسره فروة بن أبي عمرو البياضي، قدم في فدائه أبوه أبي بن خلف فتمنع به فروة حيناً. وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن وهب، أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير فدية، وكان شاعراً خبيث

اللسان، ثم قتله يوم أحد، بعد أن أسره - ولم يذكر الواقدي الذي أسره يوم بدر - ووهب بن عمير بن وهب، أسره رفاعه بن رافع الزرقي، وقدم أبوه عمير بن وهب في فدائه، فأسلم فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم له ابنه بغير فداء، وربيعه بن دراج بن العنيس بن وهبان بن وهب بن حذافة بن جمح، وكان لا مال له، فأخذ منه بشيء يسير، وأرسل به - ولم يذكر الواقدي من أسره - والفاكه مولى أمية بن خلف، أسره سعد بن أبي وقاص، فهؤلاء خمسة. ومن بني سهم بن عمرو أبو وداعة بن صبرة وكان أول أسير افتدي، قدم في فدائه ابنه المطلب، فافتداه بأربعة آلاف - ولم يذكر الواقدي من أسره - وفروة بن قيس بن عدي بن حذافة بن سعيد بن سهم، أسره ثابت بن أقرم، وقدم في فدائه عمرو بن قيس، افتداه بأربعة آلاف، وحنظلة بن قبيصة بن حذافة بن سعد، أسره عثمان بن مظعون. والحجاج بن الحارث بن قيس بن سعد بن سهم، أسره عبد الرحمن بن عوف، فأقلت، فأخذه أبو داود المازني. فهؤلاء أربعة.

ومن بني مالك بن حسل سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نمر بن مالك، أسره مالك بن الدخشم، وقدم في فدائه مكرز بن حفص بن الأحنف، وانتهى في فدائه إلى إرضائهم بأربعة آلاف، فقالوا: هات المال، فقال: نعم، اجعلوا رجلاً مكان رجل، وقوم يروونها: "رجلاً مكان رجل"، فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرز بن حفص عندهم، حتى بعث سهيل بالمال من مكة. وعبد الله بن زمعة بن قيس بن نصر بن مالك، أسره عمير بن عوف، مولى سهيل بن عمرو. وعبد العزى بن مشنوء بن وقدان بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه عبد الرحمن، أسره النعمان بن مالك. فهؤلاء ثلاثة.

ومن بني فهر الطفيل بن أبي قنيح، فهؤلاء ستة وأربعون أسيراً. وفي كتاب الواقدي أنه كان الأسارى الذين أحصوا وعرفوا تسعة وأربعين، ولم نجد التفصيل يلحق هذه الجملة. وروى الواقدي عن سعيد بن المسيب، قال: كانت الأسارى سبعين، وإن القتلى كانت زيادة على سبعين إلا أن المعروفين من الأسرى هم الذين ذكرناهم، والباقي لم يذكر المؤرخون أسماءهم.

القول في المطعمين في بدر من المشركين قال الواقدي: المتفق عليه ولا خلاف بينهم فيه تسعة، فمن بني عبد مناف الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس.

ومن بني أسد بن عبد العزى، زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، ونوفل بن خويلد المعروف بابن العدوية. ومن بني مخزوم، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة.

ومن بني جمح، أمية بن خلف.

ومن بني سهم بن نبيه ومنبه ابنا الحجاج.

فهؤلاء تسعة.

قال الواقدي: وكان سعيد بن المسيب يقول: ما أطعم أحد ببدر إلا قتل.

قال الواقدي: قد ذكروا عدة من المطعمين، اختلف فيهم، كسهيل بن عمرو وأبي البختري وغيرهما.

قال: حدثني إسماعيل بن إبراهيم، عن موسى بن عتبة، قال: أول من نحر لهم أبو جهل. عمر الظهران عشراً، ثم أمية بن

خلف بعسفان تسعاً، ثم سهيل بن عمرو بقديد عشراً، ثم مالوا إلى مياه من نحو البحر ضلوا الطريق، فأقاموا بها يوماً، فنحر لهم شبيبة بن ربيعة تسعاً، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم قيس الجهمي تسعاً، ثم نحر عتبة عشراً، ونحر لهم الحارث بن عمرو تسعاً، ثم نحر لهم أبو البختری على ماء بدر عشراً، ونحر لهم مقيس بن ضبابة على ماء بدر تسعاً، ثم شغلتهم الحرب.

قال الواقدي: وقد كان ابن أبي الزناد يقول: والله ما أظن مقيساً كان يقدر على قلوب واحدة. قال الواقدي: وأما أنا فلا أعرف قيساً الجهمي. قال: وقد روت أم بكر، عن المسور بن مخرمة ابنها، قال: كان النفر يشتركون في الإطعام، فينسب إلى الرجل الواحد ويسكت عن سائرهم. وروى محمد بن إسحاق أن العباس بن عبد المطلب كان من المطعمين في بدر، وكذلك طعيمة بن عدي بن نوفل، كان يعتقب هو وحكيم والحارث بن عامر بن نوفل، وكان أبو البختری يعتقب هو وحكيم بن حزام في الإطعام، وكان النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار من المطعمين. قال: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره قتل الحارث بن عامر، قال يوم بدر: "من ظفر به منكم فليتركه لأيتام بني نوفل"، فقتل في المعركة. القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر قال الواقدي: حدثني عبد الله بن جعفر، قال: سألت الزهري: كم استشهد من المسلمين ببدر؟ قال: أربعة عشر، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. قال: فمن بني المطلب بن عبد مناف عبدة بن الحارث، قتله شبيبة بن ربيعة. وفي رواية الواقدي قتله عتبة، فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم بالصفراء. ومن بني زهرة عمير بن أبي وقاص، قتله عمرو بن عبد ود، فارس الأحزاب، وعمير بن عبد ود ذو الشمالين، حليف لبني زهرة بن خزاعة، قتله أبو أسامة الجشمي. ومن بني عدي بن كعب عاقل بن أبي البكير، حليف لهم من بني سعد بن بكر، قتله مالك بن زهير الجشمي، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، قتله عامر بن الحضرمي، ويقال: إن مهجعاً أول من قتل من المهاجرين. ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء، قتله طعيمة بن عدي. وهؤلاء الستة من المهاجرين.

ومن الأنصار، ثم من بني عمرو بن عوف، مبشر بن عبد المنذر، قتله أبو ثور. وسعد بن خيثمة، قتله عمرو بن عبد ود - ويقال طعيمة بن عدي - ومن بني عدي بن النجار حارثة بن سراقه رماه حبان بن العرقه بسهم فأصاب حنجرته، فقتله. ومن بني مالك بن النجار، عوف ومعوذ ابنا عفراء، قتلتهما أبو جهل. ومن بني سلمة بن حرام عمير بن الحمام بن الجموح، قتله خالد بن الأعلم العقيلي - ويقال إن عمير بن الحمام أول قتيل قتل من الأنصار، وقد روي أن أول قتيل منهم حارث بن سراقه. ومن بني زريق، رافع بن المعلى، قتله عكرمة بن أبي جهل. ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث بن قسح، قتله نوفل بن معاوية الديلي. فهؤلاء الثمانية من الأنصار.

قال الواقدي: وقد روي عن عكرمة، عن ابن عباس أن أنسة مولى النبي صلى الله عليه وسلم قتل ببدر. وروى أن معاذ بن معاص جرح ببدر، فمات من جراحته بالمدينة، وأن عبيد بن السكن جرح فاشتكى جرحه، فمات منه حين قدم.

القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم قال الواقدي: فمن بني عبد شمس بن عبد مناف حنظلة بن أبي سفيان بن حرب، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، والحارث بن الحضرمي قتله عمار بن ياسر، وعامر بن الحضرمي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وعمير بن أبي عمير وابنه، موليان لهم، قتل سالم مولى أبي حذيفة منهم عمير بن أبي عمير - ولم يذكر الواقدي من قتل ابنه - وعبيدة بن سعيد بن العاص، قتله الزبير بن العوام، والعاص بن سعيد بن العاص، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وعقبة بن أبي معيط، قتله عاصم بن ثابت صبراً بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى البلاذري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلبه بعد قتله، فكان أول مصلوب في الإسلام. قال: وفيه يقول ضرار بن الخطاب:

فرع فهر وفارس الفرسان

عين بكى لعقبة بن أبان

وعتبة بن ربيعة، قتله حمزة بن عبد المطلب. وشيبة بن ربيعة، قتله عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي، الثلاثة اشتركوا في قتله. والوليد بن عتبة بن ربيعة، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. وعامر بن عبد الله حليف لهم من أنمار، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله سعد بن معاذ، فهؤلاء اثنا عشر. ومن بني نوفل بن عبد مناف الحارث بن نوفل، قتله خبيب بن يساف، وطعيمة بن عدي، ويكنى أبا الريان، قتله حمزة بن عبد المطلب في رواية الواقدي، وقتله علي بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن إسحاق. وروى البلاذري رواية غريبة، أن طعيمة بن عدي أسر يوم بدر، فقتله النبي صلى الله عليه وسلم صبراً على يد حمزة، فهؤلاء اثنان. ومن بني أسد بن عبد العزى زمعة بن الأسود، قتله أبو دجانة، وقيل: قتله ثابت بن الجذع، والحارث بن زمعة بن الأسود، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. وعقيل بن الأسود بن المطلب، قتله علي وحمزة، شركا في قتله. قال الواقدي: وحدثني أبو معشر، قال: قتله علي بن أبي طالب عليه السلام وحده، وقيل: قتله أبو داود المازني وحده. وأبو البختري، وهو العاص بن هشام، قتله الجحدر بن زياد، وقيل: قتله أبو اليسر. ونوفل بن حويلد بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن العدوية، قتله علي عليه السلام، فهؤلاء خمسة.

ومن بني عبد الدار بن قصي، النضر بن الحارث بن كلدة، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام صبراً بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الذي أسره المقداد بن عمرو، فوعده المقداد - إن استنقذه - بفداء جليل، فلما قدم ليقتل، قال المقداد: يا رسول الله، إني ذو عيال، وأحب الدين، فقال: اللهم أغن المقداد من فضلك! يا علي، قم فاضرب عنقه. وزيد بن مليص مولى عمرو بن هاشم بن عبد مناف، من عبد الدار، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله بلال. فهؤلاء اثنان. ومن بني تميم بن مرة عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة، قتله علي بن أبي

طالب عليه السلام. وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان، قتله صهيب، فهؤلاء اثنان - ولم يذكر البلاذري عثمان بن مالك.

ومن بني مخزوم بن يقظة ثم من بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ وعوف ابنا عفراء، وذفف عليه عبد الله بن مسعود. والعاص بن هاشم بن المغيرة، خال عمر بن الخطاب، قتله عمرو بن يزيد بن تميم التميمي، حليف لهم، قتله عمار بن ياسر، وقيل: قتله علي عليه السلام. ومن بني الوليد بن المغيرة، أبو قيس بن الوليد بن الوليد، أخو خالد بن الوليد، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. ومن بني الفاكه بن المغيرة أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، قتله حمزة بن عبد المطلب، وقيل: قتله الحباب بن المنذر. ومن بني أمية بن المغيرة مسعود بن أبي أمية، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. ومن بني عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ثم من بني رفاعه، أمية بن عائذ بن رفاعه بن أبي رفاعه، قتله سعد بن الربيع. وأبو المنذر بن أبي رفاعه، قتله معن بن عدي العجلاني. وعبد الله بن أبي رفاعه، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. وزهير بن أبي رفاعه، قتله أبو أسيد الساعدي. والسائب بن أبي رفاعه، قتله عبد الرحمن بن عوف. ومن بني أبي السائب المخزومي - وهو صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - السائب بن السائب، قتله الزبير بن العوام. والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتله حمزة بن عبد المطلب. وحليف لهم من طيء، وهو عمرو بن شيبان، قتله يزيد بن قيس. وحليف آخر، وهو جبار بن سفيان، أخو عمرو بن سفيان المقدم ذكره، قتله أبو بردة بن نيار.

ومن بني عمران بن مخزوم حاجز بن السائب بن عويمر بن عائذ، قتله علي عليه السلام. وروى البلاذري أن حاجزاً هذا وأخاه عويمر بن السائب بن عويمر، قتلتهما علي بن أبي طالب عليه السلام - وعويمر بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، قتله النعمان بن أبي مالك، فهؤلاء تسعة عشر. ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص، أمية بن خلف قتله حبيب بن يساف وبلال، شركا فيه. قال الواقدي: وكان معاذ بن رفاعه بن رافع يقول: بل قتله أبو رفاعه بن رافع. وعلي بن أمية بن خلف، قتله عمار بن ياسر. وأوس بن المغيرة بن لوزان، قتله علي عليه السلام، وعثمان بن مظعون، شركا فيه، فهؤلاء ثلاثة. ومن بني سهم، منبه بن الحجاج، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله أبو أسيد الساعدي. ونبيه بن الحجاج قتله علي بن أبي طالب عليه السلام. والعاص بن منبه بن الحجاج، قتله علي عليه السلام. وأبو العاص بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم، قتله أبو دجانة - قال الواقدي: وحدثني أبو معشر عن أصحابه، قالوا: قتله علي عليه السلام - وعاص بن أبي عوف بن صيرة بن سعيد بن سعد، قتله أبو دجانة، فهؤلاء خمسة. ومن بني عامر بن لؤي، ثم من بني مالك بن حسل، معاوية بن عبد قيس حليف لهم، قتله عكاشة بن محصن. ومعبد بن وهب، حليف لهم من كلب، قتله أبو دجانة فهؤلاء اثنان.

فجميع من قتل ببدر في رواية الواقدي من المشركين في الحرب صبراً، اثنان وخمسون رجلاً، قتل علي عليه السلام منهم

مع الذين شرك في قتلهم أربعة وعشرين رجلاً. وقد كثرت الرواية أن المقتولين ببدر كانوا سبعين، ولكن الذين عرفوا وحفظت أسماءهم من ذكرناه، وفي رواية الشيعة أن زمعة بن الأسود بن المطلب قتله علي، والأشهر في الرواية أنه قتله الحارث بن زمعة، وأن زمعة قتله أبو دجانة.

القول فيمن شهد بدرًا قال الواقدي: كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً مع القوم الذين ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهامهم وهم غائبون وعدتهم ثمانية. قال: وهذا هو الأغلب في الرواية، قال: ولم يشهد بدرًا من المسلمين إلا قرشي أو حليف لقرشي أو أنصاري أو حليف لأنصاري أو مولى واحد منهما، وهكذا من جانب المشركين، فإنه لم يشهدا إلا قرشي أو حليف لقرشي أو مولى لهم. قال: فكانت قريش ومواليها وحلفاؤها ستة وثمانين رجلاً، وكانت الأنصار ومواليها وحلفاؤها مائتين وسبعة وعشرين رجلاً.

فأما تفصيل أسماء من شهدها من المسلمين فله موضع في كتب المحدثين أملك به من هذا الموضع. أخبار غزوة أحد الفصل الرابع: في شرح قصة غزاة أحد. ونحن نذكر ذلك من كتاب الواقدي رحمه الله على عادتنا في ذكر غزاة بدر، ونضيف إليه من الزيادات التي ذكرها ابن إسحاق والبلاذري ما يقتضي الحال ذكره.

قال الواقدي: لما رجع من حضر بدرًا من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحركها أبو سفيان ولم يفرقها لغيبة أهل العير، ومشت أشراف قريش إلى أبي سفيان: الأسود بن عبد المطلب بن أسد، وجبير بن مطعم، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة، وحويطب بن عبد العزى، فقالوا: يا أبا سفيان، انظر هذه العير التي قدمت بها فاحتبستها، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش، وهم طيبو الأنفس، يجهزون بهذه العير جيشاً كثيفاً إلى محمد، فقد ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرننا. فقال أبو سفيان: وقد طابت أنفس قريش بذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي، فأنا والله الموتور والثائر، وقد قتل ابني حنظلة ببدر وأشراف قومي. فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا للخروج، فباعوها فصارَتْ ذهباً عينا، ويقال: إنما قالوا: يا أبا سفيان، بع العير ثم اعزل أرباحها، فكانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكانوا يرجحون في تجارتهم للدينار ديناراً، وكان متجرهم من الشام غزاة، لا يعدونها إلى غيرها، وكان أبو سفيان، قد حبس عير بني زهرة، لأنهم رجعوا من طريق بدر، وسلم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبي أبيه وبني عبد مناف بن زهرة، فأبي مخرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بني زهرة جميعاً، وتكلم الأخنس، فقال: وما لعير بني زهرة من بين عيرات قريش! قال أبو سفيان: لأنهم رجعوا عن قريش، قال الأخنس: أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزنا العير، لا تخرجوا في غير شيء، فرجعنا، فأخذت بنو زهرة عيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة، كل ما كان لهم في العير.

قال الواقدي: وهذا يبين أنه إنما أخرج القوم أرباح العير. قال: وفيهم أنزل: "إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله..." الآية.

قال: فلما أجمعوا على المسير، قالوا: نسير في العرب فنستنصرهم، فإن عبد مناة غير متخلفين عنا، هم أوصل العرب

لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسبّرون في العرب، يدعوفهم إلى نصرهم، فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب وابن الزبعرى وأبا عزة الجمحي، فأبى أبو عزة أن يسير وقال: من علي محمد يوم بدر، وحلفت ألا أظاهر عليه عدوا أبداً. فصلى إليه صفوان بن أمية فقال: اخرج فأبى، وقال: عاهدت محمداً يوم بدر ألا أظاهر عليه عدوا أبداً، وأنا أفي له بما عاهدته عليه، من علي ولم يمن على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء. فقال صفوان: اخرج معنا، فإن تسلم أعطك من المال ما شئت، وإن تقتل تكن عيالك مع عيالي. فأبى أبو عزة، حتى كان الغد، وانصرف عنه صفوان بن أمية آيساً منه، فلما كان الغد جاءه صفوان وجبير بن مطعم، فقال له صفوان الكلام الأول فأبى، فقال جبير: ما كنت أظن أني أعيش حتى يمشي إليك أبو وهب في أمر تأبى عليه! فأحفظه، فقال: أنا أخرج، قال: فخرج إلى العرب يجمعها، ويقول:

أنتم حماة وأبوكم حام

إيه بني عبد مناة الرزام

لا يبعدوني نصركم بعد العام

لا تسلموني لا يحل إسلام

وخرج النفر مع أبي عزة فألبوا العرب وجمعوا، وبلغوا ثقيفاً فأوعبوا. فلما أجمعوا المسير وتألب من كان معهم من العرب وحضروا، واختلفت قريش في إخراج الظعن معهم، قال صفوان بن أمية: اخرجوا بالظعن فأنا أول من فعل، فإنه أقمن أن يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر، فإن العهد حديث، ونحن قوم موتورون مستميتون، لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه. فقال عكرمة بن أبي جهل: أنا أول من أجاب إلى ما دعوت إليه، وقال عمرو بن العاص مثل ذلك، فمشى في ذلك نوفل بن معاوية الديلي، فقال: يا معشر قريش، هذا ليس برأي، أن تعرضوا حرمكم لعدوكم، ولا آمن أن تكون الدبرة لهم فتفتضحوا في نسائكم. فقال صفوان: لا كان غير هذا أبداً! فجاء نوفل إلى أبي سفيان بن حرب، فقال له تلك المقالة، فصاحت هند بنت عتبة: إنك والله سلمت يوم بدر، فرجعت إلى نسائك، نعم نخرج فنشهد القتال، فقد ردت القيان من الجحفة في سفرهم إلى بدر، فقتلت الأحبة يومئذ. فقال أبو سفيان: لست أخالف قريشاً، أنا رجل منها، ما فعلت فعلت. فخرجوا بالظعن، فخرج أبو سفيان بن حرب بامراتين: هند بنت عتبة بن ربيعة وأميمة بنت سعد بن وهب بن أشيم بن كنانة، وخرج صفوان بن أمية بامراتين: برزة بنت مسعود الثقفي وهي أم عبد الله الأكبر والبعوم بنت المعدل من كنانة، وهي أم عبد الله الأصغر، وخرج طلحة بن أبي طلحة بامراته سلافة بنت سعد بن شهيد، وهي من الأوس، وهي أم بني: مسافع، والحارث، وكلاب والجلال بني طلحة بن أبي طلحة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بامراته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وخرج الحارث بن هشام بامراته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج عمرو بن العاص بامراته هند بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص - وقال محمد بن إسحاق: اسمها ريطة - وخرجت خناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بني مالك بن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير، أخي مصعب بن عمير من بني عبد الدار، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامراته رملة بنت طارق بن علقمة الكنانية، وخرج كنانة بن علي بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بامراته أم حكيم بنت طارق، وخرج سفيان

بن عوف بامرأته قتيلة بنت عمرو بن هلال، وخرج النعمان بن عمرو وجابر مسك الذئب أخوه، بأ"مهما الدغينة، وخرج غراب بن سفيان بن عوف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية، وهي التي رفعت لواء قريش حين سقط حتى تراجعت قريش إلى لوائها، وفيها يقول حسان:

يباعون في الأسواق بالثمن البخس

ولولاء الحارثية أصبحوا

قالوا: وخرج سفيان بن عوف بعشرة من ولده، وحشدت بنو كنانة. وكانت الألوية يوم خرجوا من مكة ثلاثة عقدوها في دار الندوة، لواء يحملها سفيان بن عوف لبني كنانة، ولواء الأحابيش يحمله رجل منهم، ولواء لقريش يحمله طلحة بن أبي طلحة قال الواقدي: ويقال خرجت قريش ولفها كلهم، من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحد، يحمله طلحة بن أبي طلحة. وهو الأثبت عندنا.

قال: وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضوى إليها، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل، وخرجوا بعدة وسلاح كثير، وقادوا مائتي فرس، وكان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير. فلما أجمعوا على المسير كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه، واستأجر رجلاً من بني غفار، وشرط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره أن قريشاً قد اجتمعت للمسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعه. وقد وجهوا وهم ثلاثة آلاف، وقادوا مائتي فرس، وفيهم سبعمائة دارع، وثلاثة آلاف بعير، وقد أوعبوا من السلاح. فقدم الغفاري فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وجده بقباء، فخرج حتى وجد رسول

الله صلى الله عليه وسلم على باب مسجد بقاء يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبي بن كعب، واستكنم أبا ما فيه، ودخل منزل سعد بن الربيع، فقال: أي البيت أحد؟ فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، فجعل سعد يقول: يا رسول الله، والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير، وأرجفت يهود المدينة والمنافقون، وقالوا: ما جاء محمداً شيء يحبه، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقد استكنم سعد بن الربيع الخبر. فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزله، خرجت امرأة سعد بن الربيع، فقالت: ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: ما لك ولذاك، لا أم لك! قالت: كنت أستمع عليكم، وأخبرت سعداً الخبر، فاسترجع سعد، وقال: لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: تكلم بحاجتك! ثم أخذ يجمع لمتها، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله علي بالجسر، وقد بلحت، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي سألتني عما قلت فكتمتها، فقالت: قد سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاءت بالحديث كله - فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك فتظن أبي أفشيت سرك -، فقال صلى الله عليه وسلم: حل سبيلها. وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش. وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة ساروا من مكة أربعاً فوافوا قريشاً وقد عسكروا بذي طوى فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، ثم انصرفوا ولقوا قريشاً ببطن رابغ، وهو أربع ليال من المدينة، فنكبوا عن قريش.

قال الواقدي: فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء اخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس ممسين إلى مكة، فقال أبو سفيان: أحلف بالله إنهم جاءوا محمداً فخبروه بمسيرنا وعددنا، وحذروه منا، فهم الآن يلزمون صياصيتهم، فما أرانا

نصيب شيئاً في وجهها فقال صفوان بن أمية: إن لم يصحروا لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم، فلا يختارونها أبداً، وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وتر عندهم ولا وتر لهم عندنا.

قال الواقدي: وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلاً من الأوس، حتى قدم بهم مكة حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم يحرضها ويعلمها أنها على الحق. وما جاء به محمد باطل، فسارت قريش إلى بدر، ولم يسر معها، فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها، وكان يقول لقريش: إني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان، وهؤلاء معي نفر منهم خمسون رجلاً. فصدقوه بما قال، وطمعوا في نصره.

قال الواقدي: وخرج النساء معهن الدفوف يحرضن الرجال ويذكرنهم قتلى بدر في كل منزل، وجعلت قريش تنزل كل منهل، ينحرون ما نحروا من الجزر مما كانوا جمعوا من العين، ويتقوون به في مسيرهم، ويأكلون من أزوادهم مما جمعوا من الأموال.

قال الواقدي: وكانت قريش لما مرت بالأبواء، قالت: إنكم قد خرجتم بالظعن معكم، ونحن نخاف على نسائنا، فتعالوا ننبش قبر أم محمد، فإن النساء عورة، فإن يصب من نسائكم أحداً قتلتم هذه رمة أمك، فإن كان براً لأمه - كما يزعم - فلعمري لنفادينكم برمة أمه، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمري ليفدين رمة أمه. بمال كثير إن كان بها براً. فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك، فقالوا: لاتذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا.

قال الواقدي: وكانت قريش لذي الحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرجهم من مكة، وذلك لخمس ليال مضين من شوال على رأس اثنين وثلاثين من الهجرة، فلما أصبحوا بذى الحليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوطاء، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم عينين له، أنساً ومؤنساً إني فضالة ليلة الخميس، فاعترضوا لقريش بالعقيق، فسارا معهم، حتى نزلوا الوطاء، وأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه، وكان المسلمون قد ازدرعوا العرض - والعرض ما بين الوطاء بأحد إلى الجرف إلى العرصة، عرصة البقل اليوم، وكان أهله بنو سلمة وحارثة وظفر وعبد الأشهل، وكان الماء يومئذ بالجرف نشطة لا يريم سائق الناضح مجلساً واحداً ينفتل الحمل في ساعته، حتى ذهبت بمياهه عيون الغابة التي حفرها معاوية بن أبي سفيان، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الخميس المدينة، فقدم المشركون على زرعهم فخلوا فيه إبلهم وحيولهم، وكان لأسيد بن حضير في العرض عشرون ناضحاً تسقي شعيراً، وكان المسلمون قد حذروا على جماهم وعمالهم وآلة حرثهم، وكان المشركون يرعون يوم الخميس، فلما أمسوا جمعوا الإبل وقصلوا عليها القصيل، وقصلوا على حيولهم ليلة الجمعة، فلما أصبحوا يوم الجمعة خلوا ظهرهم في الزرع وحيولهم، حتى تركوا العرض ليس به خضراء.

قال الواقدي: فلما نزلوا وحلوا العقد، واطمأنوا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم وحزر ونظر إلى جميع ما يريد، وكان قد بعثه سراً، وقال له: إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى في القوم قلة، فرجع إليه فأخبره خالياً، وقال له: رأيت عدداً حزرهم ثلاث آلاف يزيدون قليلاً أو

ينقصون قليلاً، والخيل مائتا فرس، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتهما سبعمائة درع. قال: هل رأيت ظعنًا؟ قال: نعم رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار - وهي الطبول - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أردن أن يحرضن القوم ويذكرهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم، لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل! اللهم بك أحول، وبك أصول! قال الواقدي: وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة، حتى إذا كان بأدنى العرض إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا في أثره، فوقف لهم على نشز من الحرة، فرشقهم بالنبل مرة، وبالحجارة أخرى حتى انكشفوا عنه، فلما ولوا جاء إلى مزرعته بأدنى العرض، فاستخرج سيفاً كان له، ودرع حديد كان له، دفنا في ناحية المزرعة، وخرج بهما يعدو، حتى بني عبد الأشهل، فخير قومه بما لقي.

قال الواقدي: وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلون من شوال، وكانت الوقعة يوم السبت لسبع خلون من شوال، وباتت وجوه الأوس والخزرج: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وسعد بن عباد، في عدة منهم ليلة الجمعة، عليهم السلاح في المسجد بباب النبي صلى الله عليه وسلم خوفاً من تبييت المشركين، وحرس المدينة تلك الليلة، حتى أصبحوا، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا ليلة الجمعة، فلما أصبح واجتمع المسلمون خطبهم. قال الواقدي: فحدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: ظهر النبي صلى الله عليه وسلم المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني رأيت في منامي رؤيا، رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انفصم من عند ظبته، ورأيت بقرأ تذبج، ورأيت كأني مردف كبشاً، فقال الناس: يا رسول الله، فما أولتها؟ قال: أما الدرع الحصينة فالمدينة، فامكنوا فيها، وأما انفصام سيفي عند ظبته فمصبية في نفسي، وأما البقر المذبج فقتلى في أصحابي، وأما أي مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله. قال الواقدي: وروى عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أما انفصام سيفي فقتل رجل من أهل بيتي".

قال الواقدي: وروى المسور بن مخرمة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ورأيت في سيفي فلا فكرهته، هو الذي أصاب وجهه عليه السلام.

قال الواقدي: وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أشيروا علي، ورأى صلى الله عليه وسلم ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوافق على مثل ما رأى، وعلى ما عبر عليه الرؤيا، فقام عبد الله بن أبي، فقال: يا رسول الله، كنا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة، والله لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة، إعداداً لعدونا، ونشيك المدينة بالبنين فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام، ونقاتل بأسيفنا في السكك. يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه، فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن رجعوا رجعوا خاسرين مغلوبين، لم ينالوا خيراً. يا رسول الله، أطعني في هذا الأمر، واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة.

قال الواقدي: فكان رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رأي ابن أبي، وكان ذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دخل علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بما منهم، ورموا من فوق الصياصي والآطام - وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فهي كالحصن - فقال فتیان أحداث لم يشهدوا بدرًا، وطلبوا من رسول الله الخروج إلى عدوهم، ورغبوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدو، وقالوا: اخرج بنا إلى عدونا، وقال رجال من أهل النبه وأهل السن، منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عباد، والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج: إنا نخشى يا رسول الله، أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج إليهم جنباً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل، فظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، وكنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم، يتساومون كأنهم الفحول. وقال مالك بن سنان أبو أي سعيدهم الخديري: يا رسول الله، نحن والله بين إحدى الحسينين، إما يظفرنا الله بهم، فهذا الذي نريد، فيذلم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله، ما نبالي أيهما كان، إن كلاً لفيه الخير. فلم يبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم رجع إليه قولاً، وسكت. وقال حمزة بن عبد المطلب: والذي أنزل عليه الكتاب، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة، وكان يقال: كان حمزة يوم الجمعة صائماً، ويوم السبت، فلاقاهم وهو صائم. وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم: يا رسول الله، أنا أشهد أن البقر المذبح قتلى من أصحابك، وأني منهم، فلم تحرمنا الجنة! فوالله الذي لا إله إلا هو لأدخلنها. قال رسول الله: بم؟ قال: إني أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف. فقال: صدقت، فاستشهد يومئذ.

وقال إياس بن أوس بن عتيك: يا رسول الله، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبح، نرجو يا رسول الله أن نذبح في القوم، ويذبح فينا، فنصير إلى الجنة، ويصيرون إلى النار، مع أي يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها، فتقول: حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها، فتكون هذه جرأة لقريش، وقد وطئوا سعفنا، فإذا لم نذب عن عرضنا، فلم ندرع؟ وقد كنا يا رسول الله في جاهليتنا، والعرب يأتوننا، فلا يطعمون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيفنا فنذبحهم عنا، فنحن اليوم أحق إذ أمدنا الله بك، وعرفنا مصيرنا، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا.

وقام خيشمة، أبو سعد بن خيشمة فقال: يا رسول الله، إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومن اتبعها من أحابيشها ثم جاؤونا قد قادوا الخيل، واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا، فيحصرونا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا، فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا، ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا، مع ما قد صنعوا بحروثنا، ويجترئ علينا العرب حولنا حتى يطعموا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم، فنذبحهم عن حريمنا، وعسى الله أن يظفرنا بهم، فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الأخرى، فهي الشهادة. لقد أخطأتني وقعة بدر، وقد كنت عليها حريضاً، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة وقد كنت حريضاً على

الشهادة، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأثمارها، وهو يقول الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني، ودق عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة، فدعا له رسول الله بذلك، فقتل بأحد شهيداً.

قال أنس بن قتادة: يا رسول الله، هي إحدى الحسينين، إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر يقتلهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أخاف عليكم الهزيمة.

فلما أبوا إلا الخروج والجهاد، صلى رسول الله يوم الجمعة بالناس، ثم وعظهم، وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم الصبر ما صبروا، وفرح الناس حيث أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشخص إلى عدوهم، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ثم صلى العصر بالناس، وقد حشد الناس، وحضر أهل العوالي، ورفعوا النساء إلى الآطام، فحضرت بنو عمرو بن عوف بلفها، والنبيت ولفها، وتلبسوا السلاح، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته ودخل معه أبو بكر وعمر فعماه ولبساه وصف الناس له ما بين حجرته إلى منبره، ينتظرون خروجه، فجاءهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، فقالا لهم: قتلتم لرسول الله ما قتلتم، واستكرهتموه على الخروج، والأمر يتزل عليه من السماء، فردوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم فيه له هوى أو أدباً فأطيعوه. فبينما القوم على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ما قال سعد، وبعضهم على البصيرة على الشخص، وبعضهم للخروج كاره، اذ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لبس لأمته، وقد لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من آدم كانت بعد عند آل أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتم، وتقلد السيف فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ندموا جميعاً على ما صنعوا، وقال الذين يلحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك، فقال: قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتهم، ولا ينبغي لني إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه - قال: وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبي لأمته لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه - ثم قال لهم: انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله، فلكم النصر ما صبرتم.

قلت: فمن تأمل أحوال المسلمين في هذه الغزاة، من فشلهم وخورهم واختلافهم في الخروج من المدينة والمقام بها، وكراهة النبي صلى الله عليه وسلم للخروج، ثم خروجه على مضض، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج، ثم انخزال طائفة كثيرة من الجيش عن الحرب، ورجوعهم إلى المدينة، علم أنه لا انتصار لهم على العدو أصلاً، فإن النصر معروف بالعزم والجد والبصيرة في الحرب، واتفاق الكلمة. ومن تأمل أيضاً هذه الأحوال، علم أنها ضد الأحوال التي كانت في غزاة بدر، وأن أحوال قريش لما خرجت إلى بدر كانت مماثلة لأحوال المسلمين لما خرجوا إلى أحد، ولذلك كانت الدبرة في بدر على قريش.

قال الواقدي: وكان مالك بن عمرو النجاري مات يوم الجمعة، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز، صلى عليه، ثم دعا بدابته، فركب إلى أحد.

قال الواقدي: وجاء جعيل بن سراقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى أحد، فقال: يا رسول الله، قيل لي: إنك تقتل غداً - وهو يتنفس مكروباً - فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيده إلى صدره، وقال: أليس الدهر كله غداً! قال: ثم دعا بثلاثة أرماح، فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوس إلى السيد بن حضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن الجموح - ويقال إلى سعد بن عباد - ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب عليه السلام - ويقال إلى مصعب بن عمير - ثم دعا بفرسه، فركبه، وتقلد القوس وأخذ بيده قناة - زج الرمح يومئذ من شبه - والمسلمون متلبسون السلاح، قد أظهروا الدروع، فهم مائة دارع، فلما ركب صلى الله عليه وسلم خرج السعدان أمامه يعدوان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، كل واحد منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله حتى سلك على البدائع، ثم زقاق الحسى، حتى أتى الشيخين - وهما أطمان كانا في الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان، فسمي الأطمان الشيخين - فلما انتهى إلى رأس الثنية، التفت فنظر إلى كتيبة خشنة لها زجل خلفه، فقال: ما هذه؟ قال: هذه خلفاء ابن أبي من اليهود فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك. ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض معسكره بالشيخين، فعرض عليه غلمان، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري، وسمرة بن جندب، ورافع بن خديج.

قال الواقدي: فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رافع بن خديج: فقال ظهير بن رافع: يا رسول الله، إنه رام يعيني. قال: وجعلت أبتاول، وعلي خفان لي، فأجازني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أجازني قال سمرة بن جندل لمري بن سنان الحارثي - وهو زوج أمه: يا أبة، أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم رافع بن خديج، وردني وأنا أصرع رافعاً! فقال مري: يا رسول الله، رددت ابني، وأجزت رافع بن خديج وابني يصصره! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تصارعا، فصرع سمرة رافعاً، فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: وأقبل ابن أبي، فزل ناحية العسكر، فجعل حلفاؤه ومن معه من المنافقين يقولون لابن أبي: أشرت عليه بالرأي، ونصحتته وأخبرته أن هذا رأي من مضى من آبائك، وكان ذلك رأي مع رأيك، فأبى أن يقبله، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه. قال: فصادفوا من ابن أبي نفاقاً وغشاً، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشيخين، وبات ابن أبي في أصحابه، وفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرض من عرض، وغابت الشمس، فأذن بلال بالمغرب، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه، ثم أذن بالعشاء، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم نازل في بني النجار، واستعمل على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يطيفون بالعسكر، حتى ادلج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المشركون قد رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث ادلج، ونزل بالشيخين، فجمعوا خيلهم وظهورهم، واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبي جهل في خيل من المشركين، وباتت صاهلة خيلهم لا تهدأ، تدنو طلائعهم، حتى تلصق بالحرّة، فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلهم، ويهابون موضع الحرّة، ومحمد بن مسلمة.

قال الواقدي: وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين صلى العشاء: من يحفظنا الليلة، فقال رجل: أنا يا رسول الله فقال: من أنت؟ قال: ذكوان بن عبد القيس، فقال: اجلس، ثم قال ثانية: من رجل يحفظنا الليلة؟ فقال رجل، فقال: من أنت؟ قال أبو سبيع، قال: اجلس، ثم قال الثالثة مثل ذلك، فقال رجل، فقال: من أنت؟ فقال: أنا ابن عبد قيس؟ فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة، ثم قال: قوموا ثلاثتكم، فقال ذكوان بن عبد قيس، فقال رسول الله: وأين صاحبك؟ فقال ذكوان: أنا الذي كنت أجيبك الليلة! قال: فاذهب حفظك الله.

قلت: قد تقدم هذا الحديث بذاته في غزوة بدر، وظاهر الحال أنه مكرر، وأنه إنما كان في غزاة واحدة، ويجوز أن يكون قد وقع في الغزاتين، ولكن على بعد.

قال الواقدي: فلبس ذكوان درعه، وأخذ درقته، فكان يطوف على العسكر تلك الليلة، ويقال: كان يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفارقه.

قال: ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ادلج، فلما كان السحر، قال رسول الله: أين الأدلاء؟ من رجل يدلنا على الطريق، ويخرجنا على القوم من كذب؟ فقال أبو خيثمة الحارثي، فقال: أنا يا رسول الله، ويقال: أوس بن قيثي ويقال: محيصة.

قال الواقدي: وأثبت ذلك عندنا أبو خيثمة خرج برسول الله صلى الله عليه وسلم، وركب فرسه، فسلك به في بني حارثة، ثم أخذ في الأموال حتى مر بمحائط مربع بن قيثي، وكان أعمى البصر منافقاً، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطه، قام يحثي التراب في وجوه المسلمين، ويقول: إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطي، فلا أحله لك.

قال محمد بن إسحاق: وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب، وقال: والله لو أعلم أي لا أصيب غيرك يا محمد لضربت بها وجهك.

قال الواقدي: فضربه سعد بن زيد الأشهلي بقوس في يده فشجحه في رأسه، فترل الدم، فغضب له بعض بني حارثة ممن هو على مثل رأيه، فقال: هي على عداوتكم يا بني عبد الأشهل، لا تدعوها أبداً لنا فقال أسيد بن حضير: لا والله، ولكن نفاقكم، والله لولا أني لا أدري ما يوافق النبي صلى الله عليه وسلم لضربت عنقه وعنق من هو على مثل رأيه.

قال: ونهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الكلام فأسكتوا.

وقال محمد بن إسحاق: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوه، فإنه أعمى البصر، أعمى القلب. يعني مربع بن قيثي.

قال الواقدي: ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هو في مسيره إذ ذب فرس أبي بردة بن نيار بذنبه فأصاها كلاب سيفه، فسل سيفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا صاحب السيف، شم سيفك، فإن أحال السيف ستسل اليوم فيكثر سلها. قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل، ويكره الطيرة، قال: ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشيخين درعاً واحدة، حتى انتهى إلى أحد، فلبس درعاً أخرى ومغفراً، وبيضة فوق المغفر، فلما نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشيخين، زحف المشركون على تعبئة حتى انتهوا إلى موضع أرض ابن عامر

اليوم، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع القنطرة اليوم جاءه وقد حانت الصلاة، وهو يرى المشركين، فأمر بلالاً فأذن، وأقام وصلى بأصحابه الصبح صفوفاً، وانخزل عبد الله بن أبي من ذلك المكان في كتيبته، كأنه هيق تقدمهم، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: أذكركم الله ودينكم ونبىكم، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم! فقال ابن أبي: ما أرى أنه يكون بينهم قتال، وإن أطعني يا أبا جابر لترجعن، فإن أهل الرأي والحجى قد رجعوا، ونحن ناصروه في مدينتنا، وقد خالفنا، وأشرت عليه بالرأي فأبى إلا طواعية الغلمان. فلما أبى على عبد الله بن عمرو أن يرجع، ودخل هو وأصحابه أزقة المدينة، قال لهم أبو جابر: أبعدكم الله! إن الله سيغني النبي والمؤمنين عن نصركم. فانصرف ابن أبي وهو يقول: أيعصيني ويطيع الولدان! وانصرف عبد الله بن عمرو يعدو حتى لحق رسول الله وهو يسوي الصفوف، فلما أصيب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سر ابن أبي، وأظهر الشماتة، وقال: عصاني وأطاع من لا رأي له! قال الواقدي: وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف أصحابه، وجعل الرماة خمسين رجلاً على عينين، عليهم عبد الله بن جبير - ويقال: سعد بن أبي وقاص، والثبت أنه عبد الله بن جبير - قال: وجعل أحداً خلف ظهره، واستقبل المدينة وجعل عينين عن يساره، وأقبل المشركون، واستدبروا المدينة في الوادي، واستقبلوا أحداً، ويقال: جعل عينين خلف ظهره، واستدبر الشمس، واستقبلها المشركون. قال: والقول الأول أثبت عندنا، إن أحداً كان خلف ظهره، وهو صلى الله عليه وسلم مستقبل المدينة.

قال: ونهى أن يقاتل أحد حتى يأمرهم بالقتال، فقال عمارة بن يزيد بن السكن: أنى نغير على زرع بني قيلة ولما نضارب! وأقبل المشركون قد صفوا صفوفهم، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ولهم مجنبتان، مائتا فرس، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية - ويقال عمرو بن العاص - وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رام، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة - واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي - وصاح أبو سفيان يومئذ: يا بني عبد الدار، نحن نعرف أنكم أحق باللواء منا، وأنا إنما أتينا يوم بدر من اللواء، وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم، فالزموا لواءكم، وحافظوا عليه، وخلوا بيننا وبينه، فإننا قوم مستميتون موتورون، نطلب ثأراً حديث العهد. وجعل يقول: إذا زالت الألوية، فما قوام الناس وبقاؤهم بعدها! فعضبت بنو عبد الدار، وقالوا: نحن نسلم لواءنا! لا كان هذا أبداً أ وأما المحافظة عليه فسترى. ثم أسندوا الرماح إليه، وأحدقت به بنو عبد الدار، وأغلظوا لأبي سفيان بعض الإغلاظ، فقال أبو سفيان: فنجعل لواء آخر، قالوا: نعم، ولا يحمل له إلا رجل من بني عبد الدار، لا كان غير ذلك أبداً.

قال الواقدي: وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي على رجليه، يسوي تلك الصفوف، ويؤىء أصحابه مقاعد للقتال، يقول: تقدم يا فلان، وتأخر يا فلان، حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخره، فهو يقومهم كأنما يقوم القداح، حتى إذا استوت الصفوف، سأل: من يحمل لواء المشركين؟ قيل: عبد الدار، قال: نحن أحق بالوفاء منهم، أين مصعب بن عمير؟ قال: ها أنذا. قال: خذ اللواء، فأخذه مصعب فتقدم به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال البلاذري: أخذه من علي عليه السلام، فدفعه إلى مصعب بن عمير، لأنه من بني عبد الدار.

قال الواقدي: ثم قام عليه السلام، فخطب الناس، فقال صلى الله عليه وسلم: أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه، من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه. ثم إنكم اليوم بمثل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كربه، قليل من يصبر عليه، إلا من عزم له على رشد. إن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أمركم به، فإني حريص على رشدكم. إن الاختلاف والتنازع والتشيط من أمر العجز والضعف، وهو مما لا يحبه الله، ولا يعطي عليه النصر والظفر. أيها الناس إنه قذف في قلبي أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه، ومن صلى على محمد صلى الله عليه وسلم وملائكته عشراً، ومن أحسن، من مسلم أو كافر وقع أجره على الله في عاجل دنياه أو في آجل آخرته، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة، إلا صبيّاً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غني حميد. ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث الروح الأمين في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم، وأكملوا في طلب الرزق، ولا يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته، قد بين لكم الحلال والحرام، غير أن بينهما شبيهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم، فمن تركها حفظ عرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى أو شك أن يقع فيه ويفعله، وليس ملك إلا وله حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده. والسلام عليكم.

قال الواقدي: فحدثني ابن أبي سيرة، عن خالد بن رباح، عن المطلب بن عبد الله، قال: أول من أنشب الحرب بينهم أبو عامر، طلع في خمسين من قومه، معه عبيد قریش فنادى أبو عامر - واسمه عبد عمرو - يا للأوس! أنا أبو عامر، قالوا: لا مرحباً بك ولا أهلاً، يا فاسق! فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر. قال: ومعه عبيد أهل مكة، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون، حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولى أبو عامر وأصحابه، ويقال: إن العبيد لم يقاتلوا، وإنهم أمروهم بحفظ عسكرهم.

قال الواقدي: وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقي الجمعان أمام صفوف المشركين يضربن بالأكبار والدفاف والغرايل، ثم يرجعن فيكن إلى مؤخر الصف، حتى إذا دنوا من المسلمين تأخر النساء، فقمّن خلف الصفوف، وجعل كلما ولى رجل حرصه، وذكرنه قتلى بدر.

وقال الواقدي: وكان قزمان من المنافقين، وكان قد تخلف عن أحد، فلما أصبح غيره نساء بني ظفر، فقلن: يا قزمان، قد خرج الرجال وبقيت! استحي يا قزمان، ألا تستحي مما صنعت! ما أنت إلا امرأة، خرج قومك وبقيت في الدار! فأحفظنه، فدخل بيته، فأخرج قوسه وجعبته وسيفه - وكان يعرف بالشجاعة - وخرج يعدو، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسوي صفوف المسلمين، فجاء من خلف الصف، حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان فيه، وكان أول من رمى بسهم من المسلمين، جعل يرسل نبلاً كأنها الرماح، وإنه ليكت كتيت الجمل ثم صار إلى السيف،

ففعّل الأفاعيل، حتى إذا كان آخر ذلك قتل نفسه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكره قال: من أهل النار. قال: فلما انكشف المسلمون، كسر جفن سيفه وجعل يقول: الموت أحسن من الفرار. يا للأوس! قاتلوا على الأحساب، واصنعوا مثل ما أصنع. قال: فیدخل بالسيف وسط المشركين، حتى يقال: قد قتل، ثم يطلع فيقول: أنا الغلام الظفري، حتى قتل منهم سبعة، وأصابته الجراحة، وكثرت فيه، فوقع فمر به قتادة بن النعمان، فقال له: أبا الغيداق، قال قرمان: لبيك؟ قال: هنيئاً لك الشهادة! قال قرمان: إني والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين، ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتطأ سعفنا، قال: فأذته الجراحة فقتل نفسه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر".

قال الواقدي: وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرماة، فقال: احموا لنا ظهورنا، فإننا نخاف أن نؤتى من ورائنا، والزموا مكانكم، لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نقتل، فلا تعينونا، ولا تدفعوا عنا. اللهم إني، شهدك عليهم، ارشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل، وكان للمشركين مجنبتان: ميمنة عليها خالد بن الوليد، وميسرة عليها عكرمة بن أبي جهل.

قال الواقدي: وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ميمنة وميسرة، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير، ولواء الخزرج إلى سعد بن عبادَة - وقيل: إلى الحباب بن المنذر - فجعلت الرماة تحمي ظهور المسلمين، وترشق خيل المشركين بالنبل، فولت هاربة، قال بعض المسلمين: والله لقد رمقت نبلنا يومئذ، ما رأيت سهماً واحداً مما يرمى به خيلهم يقع في الأرض، إما في فرس أو في رجل، ودنا القوم بعضهم من بعض، وقدموا طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم، وصفوا صفوفهم، وأقاموا النساء خلف الرجال يضربن بين أكتافهم بالأكبار والدفوف، وهند وصواحبها يخرضن ويذمرن الرجال، ويذكرن من أصيب ببدر، ويقلن:

نمشي على النمارق

أو تدبروا نفارق

نحن بنات طارق

إن تقبلوا نعانق

فراق غير وامق

قال الواقدي: وبرز طلحة، فصاح: من يبارز؟ فقال علي عليه السلام له: هل لك في مبارزتي؟ قال: نعم، فبرز بين الصنفين ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس تحت الراية، عليه درعان ومغفر وبيضته، فالتقيا، فبدره علي عليه السلام بضربة على رأسه، فمضى السيف حتى فلق هامته إلى أن انتهى إلى لحيته فوقع، وانصرف علي عليه السلام، فقليل له: هلا ذفت عليه! قال: إنه لما صرع استقبلني بعورته، فعطفتني عليه الرحم، وقد علمت أن الله سيقتله، هو كبش الكتيبة.

قال الواقدي: وروي أن طلحة حمل على علي عليه السلام، فضربه بالسيف، فاتقاه بالدرقة، فلم يصنع شيئاً، وحمل علي عليه السلام وعلى طلحة درع ومغفر، فضربه بالسيف، فقطع ساقه، ثم أراد أن يذفف عليه، فسأله طلحة بالرحم ألا يفعل، فتركه ولم يذفف عليه.

قال الواقدي: ويقال: إن علياً عليه السلام ذفف عليه، ويقال: إن بعض المسلمين مر به في المعركة فذفف عليه. قال: فلما قتل طلحة سر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر تكبيراً عالياً وكبر المسلمون، ثم شد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتائب المشركين، فجعلوا يضربون وجوههم، حتى انتقضت صفوفهم، ولم يقتل إلا طلحة بن أبي طلحة وحده.

قال الواقدي: ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبي طلحة، وهو أبو شيبه، فارتجز وقال:

إن علي رب اللواء حقا أن تخضب الصعدة أو تندقا

فتقدم باللواء والنسوة خلفه، يخرض ويضرب بالدفوف، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله، فضربه بالسيف على كاهله، فقطع يده وكتفه، حتى انتهى إلى مؤتزره فبدا سحره، ورجع، فقال: أنا ابن ساقى الحجيج، ثم حمل اللواء أخوهما أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرتة - وكان دارعاً، وعليه مغفر لا رفرف عليه، وعلى رأسه بيضته فأدلع لسانه إدلاع الكلب.

قال الواقدي: وقد روي أن أبا سعد لما حمل اللواء، قام النساء خلفه يقلن:

ضرباً بني عبد الدار ضرباً حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

قال سعد بن أبي وقاص: فأحمل عليه فأقطع يده اليمنى، فأخذ اللواء باليد اليسرى، فأضربه على يده اليسرى، فقطعتها، فأخذ اللواء بذراعيه جميعاً وضمه إلى صدره، وحنى عليه ظهره. قال سعد: فادخل سية القوس بين الدرع والمغفر، فأقلع المغفر، فأرمي به وراء ظهره، ثم ضربته حتى قتله، وأخذت أسلبه درعه، فنهض إلي سبيع بن عبد عوف ونفر معه فمنعوني سلبه، وكان سلبه أجود سلب رجل من المشركين: درع فضفاضة، ومغفر وسيف جيد، ولكن حيل بيني وبينه. قال الواقدي: وهذا أثبت القولين.

قلت: شتان بين علي وسعد! هذا يجاحش على السلب ويتأسف على فواته، وذلك يقتل عمرو بن عبد ود يوم الخندق، وهو فارس قریش وصنديدها ومبارزه، فيعرض عن سلبه، فيقال له: كيف تركت سلبه وهو أنفـس سلب! فيقول: كرهت أن أبز السبي ثيابه، فكأن حبيباً عناه بقوله:

إن الأسود أسود الغاب همته يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

قال الواقدي: ثم حمل لواء المشركين بعد أبي سعد بن أبي طلحة مسافع بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح فقتله، فحمل إلى أمه سلافة بنت سعد بن الشهيد، وهي مع النساء بأحد، فقالت: من أصابك؟ قال: لا أدري، سمعته يقول: خذها وأنا ابن الأفلح، فقالت: ألقني والله! أي هو من رهطي - وكانت من الأوس.

قال الواقدي: وروي أن عاصماً لما رماه، قال له: خذها وأنا ابن كسرة، وكانوا يقال لهم في الجاهلية: بنو كسر الذهب، فقال لأمه: لا أدري، إلا أني سمعته يقول: خذها وأنا ابن كسرة، فقالت سلافة: أوسي والله كسري، أي أنه منا، فيومئذ نذرت سلافة أن تشرب في قحف رأس عاصم بن ثابت الخمر، وجعلت لمن جاءها به مائة من الإبل.

قلت: فلما قتله المشركون في يوم الرجيع أرادوا أن يأخذوا رأسه، فيحملهوه إلى سلافة فحمته الدبر يومه ذلك، فلما جاء الليل فظنوا أن الدبر لا تحميه ليلاً، جاء الوادي بسيل عظيم، فذهب برأسه وبدنه. اتفق المؤرخون على ذلك.

قال الواقدي: ثم حمل اللواء بعد الحارث أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله الزبير بن العوام، ثم حمله أخوه الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله، ثم حمله أوطاة بن عبد شريح، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم حمله شريح بن قانت، فقتل لا يدري من قتله، ثم حمله صواب، غلام بني عبد الدار، فاختلف في قتله فقيل: قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل سعد بن أبي وقاص. وقيل: قزمان، وهو أثبت الأقوال.

قال الواقدي: انتهى قزمان إلى صواب، فحمل عليه، فقطع يده اليمنى، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى، فاحتضن اللواء بذراعيه وعضديه، وحتى عليه ظهره، وقال: يا بني عبد الدار، هل أعذرت؟ فحمل عليه قزمان فقتله.

قال الواقدي: وقالوا: ما ظفر الله تعالى نبيه في موطن قط ما ظفروه وأصحابه يوم أحد، حتى عصوا الرسول، وتنازعوا في الأمر، لقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهم لا يلوون، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدفاف والفرح.

قال الواقدي: وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أحداً، قال كل واحد منهم: والله إني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمت، ما دون أخذهن شيء لمن أراده، ولكن لا مرد لقضاء الله. قالوا: وكان خالد بن الوليد كلما أتى من قبل ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم ليجوز حتى يأتيهم من قبل السفح، ترده الرماة، حتى فعل وفعلوا ذلك مراراً، ولكن المسلمين أتوا من قبل الرماة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوعز إليهم فقال: قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا. فلما انهزم المشركون، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا حتى أجهزوه عن المعسكر، ووقعوا ينتهبونه. قال بعض الرماة لبعض: لم تقيمون هاهنا في غير شيء! قد هزم الله العدو، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين، فاغنموا مع إخوانكم، فقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكم: "احموا ظهورنا، وإن غنمنا فلا تشركونا"، فقال الآخرون: لم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا، وقد أذل الله المشركين وهزمهم، فادخلوا المعسكر، فانتهبوا مع إخوانكم. فلما اختلفوا خطبهم أميرهم عبد الله بن جبير، وكان يومئذ معلماً بثياب بيض، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله، وألا يخالف أمره، فعصوه، وانطلقوا فلم يبق معه إلا نفر ما يبلغون العشرة، منهم الحارث بن أنس بن رافع، يقول: يا قوم، اذكروا عهد نبيكم إليكم، وأطيعوا أميركم. فأبوا، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون، وخلوا الجبل، وانتقضت صفوف المشركين، واستدارت رحاهم، ودارت الرياح - وكانت إلى أن انتقض صفهم صباً، فصارت دبوراً - فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله، فكر بالخیل، وتبعه عكرمة بالخیل، فانطلقا إلى موضع الرماة، فحملوا عليهم فرماهم القوم حتى أصيبوا، ورمى عبد الله بن جبير حتى فئت نبه، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جفن سيفه، فقاتل حتى قتل، وأفلت جعيل بن سراقة وأبو بردة بن نيار بعد أن شاهدا قتل عبد الله بن جبير، وكان آخر من انصرف من الخيل، فلحقا بالمسلمين.

قال الواقدي: فروى رافع بن خديج، قال: لما قتل خالد الرماة أقبل بالخیل وعكرمة بن أبي جهل يتلوه، فخالطنا وقد

انتقضت صفوفنا، ونادى إبليس - وتصور في صورة جعيل بن سراقة: إن محمداً قد قتل ثلاث صرخات، فابتلي يومئذ جعيل بن سراقة ببليّة عظيمة حين تصور إبليس في صورته، وإن جعيلاً ليقاتل مع المسلمين أشد القتال، وإنه إلى جنب أبي بردة بن نيار وخوات بن جبير. قال رافع بن خديج: فوالله ما رأينا دولة كانت أسرع من دولة المشركين علينا، وأقبل المسلمون على جعيل بن سراقة يريدون قتله، يقولون: هذا الذي صاح أن محمداً قد قتل، فشهد له خوات بن جبير وأبو بردة، أنه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح، وأن الصائح غيره.

قال الواقدي: فروى رافع، قال: أتينا من قبل أنفسنا، ومعصية نبينا، واختلط المسلمون، وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً، وما يشعرون بما يصنعون من الدهش والعجل، وقد جرح يومئذ أسيد بن حضير جرحين، ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار، وما يدري، يقول: خذها وأنا الغلام الأنصاري، وكر أبو زعنة في حومة القتال، فضرب أبا بردة ضربتين، ما يشعر أنه هو، يقول: خذها وأنا أبو زعنة، حتى عرفه بعد، فكان إذا لقيه، قال: انظر ما صنعت بي، فيقول أبو زعنة: وأنت فقد ضربت أسيد بن حضير ولا تشعر! ولكن هذا الجرح في سبيل الله، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هو في سبيل الله يا أبا بردة، لك أجره، حتى كأنك ضربت أحد المشركين، ومن قتل فهو شهيد.

قال الواقدي: وكان الشيخان: حسيل بن جابر ورفاعة بن وقش شيخين كبيرين، قد رفعوا الآطام مع النساء، فقال أحدهما لصاحبه: لا أبالك! ما نستبقي من أنفسنا! فوالله ما نحن إلا هامة اليوم أو غد، وما بقي من أجلنا قدر ظمء دابة، فلو أخذنا أسيفنا فلحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقنا الشهادة! قال: فلحقا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما رفاعة فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر فالتفت عليه سيوف المسلمين، وهم لا يعرفونه حين اختلطوا، وابنه حذيفة يقول: أبي أبي! حتى قتل، فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، ما صنعتُم! فزاد له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، وأمر رسول الله بديته أن تخرج، ويقال: إن الذي أصابه عتبة بن مسعود، فتصدق حذيفة ابنه بدمه على المسلمين.

قال الواقدي: وأقبل يومئذ الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح: يا آل سلمة! فأقبلوا عنقاً واحداً: لبيك داعي الله، لبيك داعي الله! فيضرب يومئذ جبار بن صخر ضربة في رأسه مثقلة وما يدري، حتى أظهروا الشعار بينهم، فجعلوا يصيحون: أمت أمت! فكف بعضهم عن بعض.

قال الواقدي: وكان نسطاس مولى ضرار بن أمية ممن حضر أحداً مع المشركين، ثم أسلم بعد، وحسن إسلامه، فكان يحدث، قال: قد كنت ممن خلف في العسكر يومئذ، ولم يقاتل معهم عبد إلا وحشي وصواب غلام بني عبد الدار، فكان أبو سفيان صاح فيهم: يا معشر قريش، خلوا غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون. على رجالكم، فجمعنا بعضها إلى بعض، وعقلنا الإبل، وانطلق القوم على تعبيتهم، ميمنة وميسرة وألبسنا الرجال الأنطاع، ودنا القوم بعضهم من بعض، فاقتتلوا ساعة، وإذا أصحابنا منهزمون، فدخل المسلمون معسكرنا، ونحن في الرحال، فأحدقوا بنا، فكنت فيمن أسروا، وانهبوا المعسكر أقبح انتهاب، حتى إن رجلاً منهم قال: أين مال صفوان بن أمية؟ فقلت: ما حمل إلا نفقة في الرحل، فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العيبة خمسين ومائة مثقال ذهباً، وقد ولى أصحابنا وأيسنا منهما وانحاش

النساء، فهن في حجرهن سلم لمن أرادهن، فصار النهب في أيدي المسلمين. قال نسطاس: فإننا لعلى ما نحن عليه من الاستسلام، ونظرت إلى الجبل، فإذا خيل مقبلة تركض، فدخلوا العسكر، فلم يكن أحد يردهم، قد ضيعت الثغور التي كان بها الرماة وجاؤوا إلى النهب والرماة ينتهبون، وأنا أنظر إليهم متأبطي قسيهم وجعابهم، كل واحد منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه، فلما دخلت خيلنا دخلت على قوم غارين آمنين، فوضعوا فيهم السيوف، فقتلوه قتلًا ذريعًا، وتفرق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا، وأجلوا عن عسكرنا، فارتجعنا بعد، لم نفقد منه شيئًا، وخلوا أسرانا، ووجدنا الذهب في المعركة، ولقد رأيت يومئذ رجلاً من المسلمين ضم صفوان بن أمية إليه ضمةً ظننت أنه سيموت، حتى أدركته وبه رمق، فوجأت ذلك المسلم بخنجر معي، فوقع، فسألت عنه، فقيل: رجل من بني ساعدة. ثم هداني الله بعد للإسلام.

قال الواقدي: فحدثني ابن أبي سبرة، عن إسحاق بن عبد الله، عن عمر بن الحكم، قال: ما علمنا أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أغاروا على النهب فأخذوا ما أخذوا من الذهب لقي معه من ذلك شيء يرجع له حيث غشنا المشركون، واختلفوا إلا رجلين: أحدهما عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، جاء بمنطقة وجدها في العسكر، فيها خمسون ديناراً فشدها على حقوبه من تحت ثيابه، وجاء عباد بن بشر بصرة فيها ثلاثة عشر مثقالاً ألقتها في جيب قميصه، وفوقها الدرع وقد حزم وسطه، فأتيا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخمسه ونفلهما إياه. قال الواقدي: وروى يعقوب بن أبي صعصعة، عن موسى بن ضمرة، عن أبيه، قال: لما صاح الشيطان أزب العقبة، أن محمداً قد قتل لما أراد الله عز وجل من ذلك، سقط في أيدي المسلمين، وتفرقوا في كل وجه، وأصعدوا في الجبل، فكان أول من بشرهم بكون رسول الله صلى الله عليه وسلم سالماً كعب بن مالك. قال كعب: عرفته، فجعلت أصبح: هذا رسول الله! وهو يشير إلي بإصبعه على فيه: أن اسكت.

قال الواقدي: وروت عميرة بنت عبد الله عن كعب بن مالك، عن أبيها، قالت: قال أبي لما انكشف الناس: كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرت له المسلمين حياً سوياً، عرفت عينيه من تحت المغفر، فناديت: يا معشر الأنصار! أبشروا، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اصمت: قال: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكعب، فلبس لأمته، وألبس كعباً لأمة نفسه، وقاتل كعب يومئذ قتالاً شديداً، جرح سبعة عشر جرحاً.

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سبرة عن خالد بن رباح، عن الأعرج، قال: لما صاح الشيطان إن محمداً قد قتل، قال أبو سفيان بن حرب: يا معشر قريش، أيكم قتل محمداً؟ قال ابن قميئة: أنا قتلته. قال: نسورك كما تفعل الأعاجم بأبطالها. وجعل أبو سفيان يطوف بأبي عامر الفاسق في المعركة، هل يرى محمداً بين القتلى! فمر بخارجة بن زيد بن أبي زهير، فقال: يا أبا سفيان، هل تدري من هذا؟ قال: لا، قال: هذا خارجة بن زيد، هذا أسيد بني الحارث بن الخزرج، ومر بعباس بن عباد بن نضلة إلى جنبه، قال: أتعرفه؟ قال: لا، قال: هذا ابن قوقل؟ هذا الشريف في بيت الشرف، ثم مر بذكوان بن عبد قيس، فقال: وهذا من ساداتهم، ثم مر بابنه حنظلة بن أبي عامر، فوقف عليه، فقال أبو سفيان: من هذا؟

قال: هذا أعز من هاهنا علي، هذا ابني حنظلة. قال أبو سفيان: ما نرى مصرع محمد؟ ولو كان قتل لرأيناه، كذب ابن قميئة. ولقي خالد بن الوليد، فقال: هل تبين عندك قتل محمد؟ قال: لا، رأيته أقبل في نفر من أصحابه مصعدين في الجبل، فقال أبو سفيان: هذا حق، كذب ابن قميئة، زعم أنه قتله! قلت: قرأت على النقيب أبي يزيد رحمه الله هذه الغزاة من كتاب الواقدي، وقلت له: كيف جرى لهؤلاء في هذه الواقعة؟ فإني أستعظم ما جرى! فقال: وما في ذلك مما تستعظمه! حمل قلب المسلمين من بعد قتل أصحاب الألوية على قلب المشركين، فكسره فلو ثبتت مجنبتا رسول الله اللتان فيهما أسيد بن حضير والحباب بن المنذر بإزاء مجنبي المشركين، لم ينكسر عسكر الإسلام، ولكن مجنبتا المسلمين أطبقت إطباقاً واحداً على قلب المشركين، مضافاً إلى قلب المسلمين، فصار عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قلباً واحداً، وكتيبة واحدة، فحطمه قلب قريش حطمة شديدة. فلما رأت مجنبتا قريش أنه ليس بإزائها أحد، استدارت المجنبتان من وراء عسكر المسلمين، وصمد كثير منهم للرماة الذين كانوا يحمون ظهر المسلمين، فقتلوه عن آخرهم، لأنهم لم يكونوا ممن يقومون لخالد وعكرمة، وهما في ألفي رجل، وإنما كانوا خمسين رجلاً، لا سيما وقد ترك كثير منهم مركزه وشلى الغنيمة، فأكب على النهب.

قال رحمه الله: والذي كسر المسلمين يومئذ، ونال كل منال خالد بن الوليد، وكان فارساً شجاعاً، ومعه خيل كثيرة، ورجال أبطال موتورون، واستدار خلف الجبل، فدخل من الثغرة التي كان الرماة عليها، فأتاه من وراء المسلمين، وتراجع قلب المشركين بعد الهزيمة، فصار المسلمون بينهم في مثل الحلقة المستديرة، واختلط الناس، فلم يعرف المسلمون بعضهم بعضاً، وضرب الرجل منهم أخاه وأباه بالسيف وهو لا يعرفه لشدة النقع والغبار، ولما اعتراهم من الدهش والعجلة والخوف، فكانت الدبرة عليهم، بعد أن كانت لهم، ومثل هذا يجري دائماً في الحرب. فقلت له رحمه الله: فلما انكشف المسلمون، وفر منهم من فر، ما كانت حال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ثبت في نفر يسير من أصحابه يحامون عنه.

فقلت: ثم ماذا، قال: ثم ثابت إليه الأنصار، وردت إليه عنقاً واحداً بعد فرارهم وتفرقهم، وامتاز المسلمون عن المشركين وكانوا ناحية، ثم التحصت الحرب، واصطدم الفيلقان. قلت: ثم ماذا؟ قال: لم يزل المسلمون يحامون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمشركون يتكاثرون عليهم، ويقتلون فيهم حتى لم يبق من النهار إلا القليل، والدولة للمشركين. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم علم الذين بقوا من المسلمين أنه لا طاقة لهم بالمشركين فأصعدوا في الجبل فاعتصموا به. فقلت له: فرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذي صنع؟ فقال: أصعد في الجبل.

قلت له: أفيجوز أن يقال: إنه فر؟ فقال: إنما يكون الفرار ممن أمعن في الهرب في الصحراء والبيداء، فأما من الجبل مطل عليه وهو في سفحه، فلما رأى ما لا يعجبه أصعد في الجبل، فإنه لا يسمى فاراً. ثم سكت رحمه الله ساعة، ثم قال: هكذا وقعت الحال، فإن شئت أن تسمي ذلك فراراً فسمه، فقد خرج من مكة يوم الهجرة فاراً من المشركين، ولا وصمة عليه في ذلك.

فقلت له: قد روى الواقدي عن بعض الصحابة، قال: لم يبرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم شبراً واحداً، حتى تجاوزت الفتتان! فقال: دع صاحب هذه الرواية فليقل ما شاء، فالصحيح ما ذكرته لك، ثم قال: كيف يقال: لم يزل واقفاً حتى تجاوزت الفتتان! وإنما تجاوزا بعد أن ناداه أبو سفيان، وهو في أعلى الجبل بما ناداه، فلما عرف أنه حي وأنه في أعلى الجبل، وأن الخيل لا تستطيع الصعود إليه، وأن القوم إن صعدوا إليه رجالة لم يثقوا بالظفر به، لأن معه أكثر أصحابه وهم مستميتون إن صعد القوم إليهم، وأنهم لا يقتلون منهم واحداً حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة، لأنهم لا سبيل لهم إلى الهرب، لكونهم محصورين في ذرو واحد، فالرجل منهم يحامي عن خيط رقبته - كفوا عن الصعود وقنعوا بما وصلوا إليه من قتل من قتلوه في الحرب، وأملوا يوماً ثانياً يكون لهم فيه الظفر الكلي بالنبي صلى الله عليه وسلم، فرجعوا عنهم وطلبوا مكة.

وروى الواقدي عن أبي سيرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أبي الحويرث، عن نافع بن جبير، قال. سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً، فنظرت إلى النبيل يأتي من كل ناحية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، في وسطها كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا! وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، ولقي عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية، فقال له صفوان: ترحت! هلا ضربت محمداً، ففقطعت هذه الشأفة، فقد أمكنك الله منه! قال ابن شهاب: وهل رأيته؟ قال: نعم أنت إلى جنبه، قال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا لمنوع، خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاهدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك.

قال الواقدي: فروى نMLE - واسم أبي نMLE عبد الله بن معاذ، وكان أبوه معاذ أخا البراء بن معرور لأمه - قال: لما انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه أحد إلا نفيق قد أحدقوا به من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فانطلقوا به إلى الشعب وما للمسلمين لواء قائم ولا فئة ولا جمع، وإن كتائب المشركين لتحوشهم مقبلة ومدبرة في الوادي، يلتقون ويفترقون ما يرون أحداً يردهم.

قال الواقدي: وحدثني إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري، عن أبيه، قال: حمل مصعب اللواء، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب قبل ابن قميئة، وهو فارس، فضرب يد مصعب فقطعها، فقال مصعب: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل"، وأخذ اللواء بيده اليسرى، وحنى عليه فضربه فقطع اليسرى، فضمه بعضديه إلى صدره، وهو يقول: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل"، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه، واندق الرمح، ووقع مصعب وسقط اللواء، وابتدره رجلان من بني عبد الدار، سويبط بن حرملة وأبو الروم، فأخذه أبو الروم، فلم يزل بيده حتى دخل به المدينة، حين انصرف المسلمون.

قال الواقدي: وقالوا: إن رسول الله لما لحمه القتال، وخلص إليه وذب عنه مصعب بن عمير وأبو دجاجة، حتى كثرت به الجراحة، جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رجل يشري نفسه؟" فوثب فئة من الأنصار خمسة، منهم غمارة بن زياد بن السكن، فقاتل حتى أثبت، وفاءت فئة من المسلمين حتى أجهضوا أعداء الله، فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم، لعمارة بن زياد: ادن مني، حتى وسده رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمه، وإن به لأربعة عشر جرحاً حتى مات، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذمر الناس ويحضرهم على القتال، وكان رجال من المشركين قد أذلّقوا المسلمين بالرمي، منهم حيان بن العرقه وأبو أسامة الجشمي، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول لسعد: "ارم فذاك أبي وأمي"! فرمى حيان بن العرقه بسهم فأصاب ذيل أم أيمن، وكانت جاءت يومئذ تسقي الجرحى، فقلبها، وانكشف ذيلها عنها، فاستغرب حيان بن العرقه ضحكاً، وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصل له، وقال: ارم به، فرمى فوضع السهم في ثغرة نحر حيان، فوقع مستلقياً، وبدت عورته. قال سعد، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ضحك يومئذ حتى بدت نواجذه، وقال: استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتك، وسدد رميتك، ورمى يومئذ مالك بن زهير الجشمي أخو أبي أسامة الجشمي المسلمين رمياً شديداً، وكان هو وريان بن العرقه قد أسرعوا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثر فيهم القتل يستتران بالصخر، ويرميان، فبينما هم على ذلك أبصر سعد بن أبي وقاص مالك بن زهير يرمي من وراء صخرة قد رمى، وأطلع رأسه، فيرميه سعد، فأصاب السهم عينه، حتى خرج من قفاه، فترى في السماء قامة، ثم رجع فسقط، فقتله الله عز وجل.

قال الواقدي: ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوسه يومئذ حتى صارت شظايا، فأخذها قتادة بن النعمان، وكانت عنده، وأصيب يومئذ عين قتادة حتى وقعت على وجنته. قال قتادة: فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، إن تحتي امرأة شابة جميلة، أحبها وتحبني، وأنا أخشى أن تقذر مكان عيني، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها وانصرف بها، وعادت كما كانت، فلم تضرب عليه ساعة من ليل ونهار، وكان يقول بعد أن أسن: هي أقوى عيني - وكانت أحسنهما.

قال الواقدي: وباشر رسول الله صلى الله عليه وسلم القتال بنفسه، فرمى بالنبل حتى فنيت نبله، وانكسرت سية قوسه، وقبل ذلك انقطع وتره، وبقيت في يده قطعة تكون شبراً في سية القوس، فأخذ القوس عكاشة بن محصن يوتره له، فقال: يا رسول الله، لا يبلغ الوتر، فقال مده يبلغ، قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ، وطويت منه ليتين أو ثلاثة على سية القوس، ثم أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما زال يرامي القوم، وأبو طلحة أمامه يستره مترساً عنه، حتى نظرت إلى سية قوسه قد تحطمت، فأخذها قتادة بن النعمان.

قال الواقدي: وكان أبو طلحة يوم أحد قد نثل كنانته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رامياً، وكان صيتاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصوت أبي طلحة في الجيش خير من أربعين رجلاً، وكان في كنانته خمسون سهماً نثلها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل يصيح: نفسي دون نفسك يا رسول الله! فلم يزل يرمي بها سهماً سهماً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع رأسه من خلف أبي طلحة بين أذنه ومنكبه، ينظر إلى مواقع النبل حتى فنيت نبله، وهو يقول: نخري دون نحر! جعلني الله فداك! قالوا: إنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليأخذ العود من الأرض فيقول: ارم يا أبا طلحة، فيرمي به سهماً جيداً.

قال الواقدي: وكان الرماة المذكورون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة: منهم سعد بن أبي وقاص وأبو طلحة وعاصم بن ثابت، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمقداد بن عمرو، وزيد بن حارثة، وحاطب بن أبي بلتعة،

وعتبة بن غزوان، وخراش بن الصمة، وقطبة بن عامر بن حديدة، وبشر بن البراء بن معرور، وأبو نائلة ملكان بن سلامة، وقتادة بن النعمان.

قال الواقدي: ورمى أبو رهم الغفاري بسهم فأصاب نحره، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصق عليه، فبرأ، فكان أبو رهم بعد ذلك يسمى المنحور.

وروى أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد اللغوي، غلام ثعلب، ورواه أيضاً محمد بن حبيب في أماليه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فر معظم أصحابه عنه يوم أحد، كثرت عليه كتائب المشركين، وقصدته كتيبه من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن كنانة، فيها بنو سفيان بن عوف، وهم: خالد بن سفيان، وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان، وغراب بن سفيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي اكفني هذه الكتيبة، فحمل عليها وإنما لتقارب خمسين فارساً، وهو عليه السلام راجل، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرق عنه ثم تجتمع عليه، هكذا مراراً حتى قتل بني سفيان بن عوف الأربعة، وتنام العشرة منها، ممن لا يعرف بأسمائهم، فقال جبرئيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يمنعه وهو مني وأنا منه! فقال جبرائيل عليه السلام: وأنا منكما. قال: وسمع ذلك اليوم صوت من قبل السماء، لا يرى شخص الصارخ به، ينادي مراراً:

ر ولا فتى إلا علي

لا سيف إلا ذو الفقار

فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، فقال: هذا جبرائيل.

قلت: وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدثين وهو من الأخبار المشهورة، ووقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق، ورأيت بعضها خالياً عنه، وسألت شيخي عبد الوهاب بن سكينه رحمه الله عن هذا الخبر، فقال: خبر صحيح، فقلت: فما بال الصحاح لم تشتمل عليه؟ قال: أو كلما كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح؟ كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحة! قال الواقدي: وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي يحضر فرساً له أبلق، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، عليه لأمة كاملة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوجه إلى الشعب وهو يصيح: لا نحوت إن نحوت! فيقف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعثر لعثمان فرسه في بعض تلك الحفر التي حفرها أبو عامر الفاسق للمسلمين، فيقع الفرس لوجهه، وسقط عثمان عنه، وخرج الفرس غائراً، فبأخذه بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويمشي إليه الحارث بن الصمة، فاضطربا ساعة بالسيفين، ثم يضرب الحارث رجله، وكان درعه مشمرة فبرك، وذفف عليه، وأخذ الحارث يومئذ سلبه: درعاً جيداً، ومغفرأ، وسيفاً جيداً، ولم يسمع بأحد من المشركين سلب يومئذ غيره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى قتالهما، فسأل عن الرجل، قيل: عثمان بن عبد الله بن المغيرة، قال: الحمد لله الذي أحانه، وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل بطن نخلة، حتى قدم به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فافتدى ورجع إلى قريش، وغزا معهم أحداً، فقتل هناك، ويرى مصرع عثمان عميد بن حاجز العامري أحد

بني عامر بن لؤي، فأقبل يعدو كأنه سبيع، فيضرب حارث بن الصمة ضربة على عاتقه، فوقع الحارث جريحاً حتى احتمله أصحابه، ويقبل أبو دجانة على عبيد بن حاجر، فتناوشا ساعة من نهار، وكل واحد منهما يتقي بالدرقة سيف صاحبه، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه، ثم جلد به الأرض، وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة، ثم انصرف، فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: ويروى أن سهل بن حنيف، جعل ينضح بالنبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: نبلوا سهلاً فإنه سهل، ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي الدرداء، والناس منهزمون في كل وجه، فقال: نعم الفارس عويمر، غير أنه لم يشهد أحداً! قال الواقدي: وروى الحارث بن عبيد الله بن كعب بن مالك، قال: حدثني من نظر إلى أبي سبرة بن الحارث بن علقمة، ولقي أحد المشركين، فاختلفا ضربات، كل ذلك يروغ أحدهما عن الآخر، قال: فنظر الناس إليهما كأنهما سبعان ضاريان يقفان مرة ويقتلان أخرى، ثم تعانقا، فوقعا إلى الأرض جميعاً، فعلاه أبو سبرة فذبحه بسيفه كما تذبح الشاة، ونهض عنه فيقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغر محجل، يجر قناة طويلة، فطعن أبا سبرة من خلفه، فنظرت إلى سنان الرمح خرج من صدره، ووقع أبو سبرة ميتاً، وانصرف خالد بن الوليد، يقول: أنا أبو سليمان!

قال الواقدي: وقاتل طلحة بن عبيد الله يومئذ عن النبي صلى الله عليه وسلم قتالاً شديداً، وكان طلحة يقول: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث انهزم أصحابه، وكثر المشركون، فأحدقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من كل ناحية، فما أدري أقوم من بين يديه أو من ورائه؟ أم عن يمينه أم عن شماله؟ فأذب بالسيف عنه هاهنا وهاهنا حتى انكشفوا، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لطلحة: "لقد أوجب" وروي: "لقد أنحب" أي قضى نذره. قال الواقدي: وروي أن سعد بن أبي وقاص ذكر طلحة فقال: يرحمه الله! إنه كان أعظمنا غناء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، قيل: كيف يا أبا إسحاق؟ قال: لزم النبي صلى الله عليه وسلم وكنا نتفرق عنه، ثم نثوب إليه، لقد رأيته يدور حول النبي صلى الله عليه وسلم يترس بنفسه.

قال الواقدي: وسئل طلحة: يا أبا محمد، ما أصاب إصبعك؟ قال: رمى مالك بن زهير الجشمي بسهم يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان لا تخطي رميته - فاتقيت بيدي عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصاب خنصري فشل.

قال الواقدي، قالوا: إن طلحة قال لما رمى: حس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قال: "بسم الله" لدخل الجنة، والناس ينظرون إليه، من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله، طلحة ممن قضى نجه.

قال الواقدي: وكان طلحة يحدث يقول: لما جال المسلمون تلك الجولة، ثم تراجعوا أقبل رجل من بني عامر بن لؤي يدعى شيبه بن مالك بن المضرب، يجر رحمه، وهو على فرس أغر كميئ مدججاً في الحديد، يصيح: أنا أبو ذات الودع، دلوني على محمد، فأضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت به، ثم أتناول رحمه، فوالله ما أخطأت به عن حذقته، فخار كما يخور الثور، فما برحت به واضعاً رجلي على خده حتى أزرته شعوب.

قال الواقدي: وكان طلحة قد أصابته في رأسه المصلبة ضربه رجل من المشركين، ضربتين، ضربة وهو مقبل، ضربة وهو معرض عنه، وكان نزف منها الدم، قال أبو بكر: جئت النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فقال: عليك بابن عمك، فأتى طلحة بن عبيد الله، وقد نزف الدم، فجعلت أنضح في وجهه الماء وهو مغشي عليه، ثم أفاق، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: خيراً، هو أرسلني إليك، فقال: الحمد لله، كل مصيبة بعده جلل.

قال الواقدي: وكان ضرار بن الخطاب الفهري يقول: نظرت إلى طلحة بن عبيد الله قد حلق رأسه عند المروة في عمرة، فنظرت إلى المصلبة في رأسه، فكان ضرار يقول: أنا والله ضربته، هو استقبلني فضربته، ثم أكر عليه، وقد أعرض، فأضربه ضربة أخرى.

قال الواقدي: ولما كان يوم الجمل، وقتل علي عليه السلام من قتل من الناس، ودخل البصرة، جاءه رجل من العرب، فتكلم بين يديه، ونال من طلحة، فزبره علي عليه السلام، وقال: إنك لم تشهد يوم أحد، وعظم غناؤه عن الإسلام، مع مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانكسر الرجل وسكت، فقال له قائل من القوم: وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أحد؟ فقال علي عليه السلام: نعم، يرحمه الله، لقد رأيته وإنه ليترس بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن السيوف لتغشاه، والنبيل من كل ناحية، وما هو إلا جنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يقيه بنفسه، فقال رجل: لقد كان يوم أحد يوماً قتل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الجراحة، فقال علي عليه السلام: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ليت أي غودرت مع أصحابي بنحس الجبل، ثم قال علي عليه السلام: لقد رأيته يومئذ وإني لأذبحهم في ناحية، وإن أبا دحانة لفي ناحية يذب طائفة منهم، حتى فرج الله ذلك كله، ولقد رأيته وانفردت منهم يومئذ فرقة خشناء، فيها عكرمة بن أبي جهل، فدخلت وسطهم بالسيف، فضربت به، واشتملوا علي حتى أفضيت إلى آخرهم، ثم كررت فيهم الثانية، حتى رجعت من حيث جئت، ولكن الأجل استأخر، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً.

قال الواقدي: وحدثني جابر بن سليم عن عثمان بن صفوان، عن غمارة بن خزيمة، قال: حدثني من نظر إلى الحباب بن المنذر بن الجموح، وإنه ليحوشهم يومئذ كما تحاش الغنم، ولقد اشتملوا عليه حتى قيل: قد قتل، ثم برز والسيوف في يده، وافترقوا عنه، وجعل يحمل على فرقة منهم، وإنهم ليهربون منه إلى جمع منهم، وصار الحباب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الحباب يومئذ معلماً بعصابة خضراء في مغفره.

قال الواقدي: وطلع يومئذ عبد الرحمن بن أبي بكر على فرس مدحجاً لا يرى منه إلا عيناه، فقال: من يبارز؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق! فنهض إليه أبو بكر، وقال: أنا أبارزه، وجرد سيفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: شم سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتعنا بنفسك.

قال الواقدي: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما وجدت لشماس بن عثمان شبيهاً إلا الجنة، يعني مما يقاتل عن رسول الله يومئذ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ يميناً ولا شمالاً إلا رأى شماس بن عثمان في ذلك الوجه، يذب بسيفه عنه، حتى غشي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترس بنفسه دونه، حتى قتل، فذلك قول رسول الله صلى

الله عليه وسلم: "ما وجدت لشماس شبيهاً إلا الجنة".

قال الواقدي: ولما ولى المسلمون حين عطف عليهم خالد بن الوليد من خلفهم، كان أول من أقبل من المسلمين بعد التولية قيس بن محرز مع طائفة من الأنصار، وقد كانوا بلغوا بني حارثة فرجعوا سراعاً فصادفوا المشركين في كثرتهم، فدخلوا في حومتهم، فما أفلت منهم رجل حتى قتلوا كلهم، ولقد ضاربهم قيس بن محرز، فامتنع بسيفه حتى قتل منهم نفرًا، فما قتلوه إلا بالرماح، نظموه، ولقد وجد به أربع عشرة طعنة جائفة وعشر ضربات بالسيف.

قاله الواقدي: وكان عباس بن عباد بن نضلة المعروف بابن قوقل، وخارجة بن زيد بن أبي زهير، وأوس بن أرقم بن زيد، وعباس رافع صوته يقول: يا معشر المسلمين، الله ونيبكم! هذا الذي أصابكم بمعصية نبيكم، وعدكم النصر فما صبرتم. ثم نزع مغفره عن رأسه، وخلع درعه وقال لخارجة بن زيد: هل لك في درعي ومغفري؟ قال خارجة: لا، أنا أريد الذي تريد، فخالطوا القوم جميعاً، وعباس يقول: ما عذرنا عند ربنا إن أصيب نبينا ومنا عين تطرف! قال: فيقول خارجة: لا عذر لنا والله عند ربنا ولا حجة، فأما عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السلمي، ولقد ضربه عباس ضربتين، فجرحه جرحين عظيمين، فارتث يومئذ جريحاً، فمكث جريحاً سنة، ثم استبل. وأخذت خارجة بن زيد الرماح، فجرح بضعة عشر جرحاً، فمر به صفوان بن أمية، فعرفه فقال: هذا من أكابر أصحاب محمد، وبه رمق، فأجهز عليه. وقتل أوس بن أرقم، وقال صفوان: من رأى حبيب بن يساف؟ وهو يطلبه فلا يقدر عليه. ومثل يومئذ بخارجة، وقال: هذا ممن أغرى بأبي يوم بدر - يعني أمية بن خلف - وقال: الآن شفيت نفسي حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد، قتلت ابن قوقل، وقتلت ابن أبي زهير، وقتلت أوس بن أرقم.

قال الواقدي: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: من يأخذ هذا السيف لحقه؟ قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: ويضرب به العدو، فقال عمر: أنا يا رسول الله، فأعرض عنه، ثم عرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك الشرط، فقام الزبير، فقال: أنا، فأعرض عنه، حتى وجدا عمر والزبير في أنفسهما، ثم عرضه الثالثة، فقام أبو دجانة، وقال: أنا يا رسول الله آخذه بحقه، فدفعه إليه، فصدق حين لقي به العدو، وأعطى السيف حقه، فقال أحد الرجلين - إما عمر بن الخطاب أو الزبير: والله لأجعلن هذا الرجل الذي أعطاه السيف ومنعني من شأنه، قال: فاتبعته، فوالله ما رأيت أحداً قاتل أفضل من قتاله، لقد رأيته يضرب به حتى إذا كل عليه وخاف ألا يحيك عمد به إلى الحجارة، فشحذه، ثم يضرب به العدو، حتى يرده كأنه منجل، وكان حين أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف مشى بين الصفيين، واختال في مشيته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه يمشي تلك المشية: إن هذه لمشية يبغضها الله تعالى إلا في مثل هذا الموطن، قال: وكان أربعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعلمون في الزحوف، أحدهم أبو دجانة، كان يعصب رأسه بعصابة حمراء، وكان قومه يعلمون أنه إذا اعتصب بها أحسن القتال، وكان علي عليه السلام يعلم بصوفة بيضاء، وكان الزبير يعلم بعصابة صفراء، وكان حمزة يعلم بربيش نعام.

قال الواقدي: وكان أبو دجانة يحدث يقول: إني لأنظر يومئذ إلى امرأة تقذف الناس وتحوشهم حوشاً منكراً، فرفعت عليها السيف، وما أحسبها إلا رجلاً، حتى علمت أنها امرأة، وكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم

امراة- والمرأة عمرة بنت الحارث.

قال الواقدي: وكان كعب بن مالك يقول: أصابني الجراح يوم أحد، فلما رأيت المشركين يمثلون بالمسلمين أشد المثل وأقبحها، قمت فتنحيت عن القتلى، فإني لفي موضعي أقبل خالد بن الأعلم العقيلي جامع الامة يحوش المسلمين، يقول استوسقوا كما يستوسق جرب الغنم، وهو مدجج في الحديد، يصيح: يا معشر قريش، لا تقتلوا محمداً، ائسروه أسراً حتى نعرفه ما صنع، ويصمد له قرمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقه رأيت منها سحره، ثم أخذ سيفه وانصرف، فطلع عليه من المشركين فارس ما أرى منه إلا عينيه، فحمل عليه قرمان، فضربه ضربةً جزله اثنين، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام المخزومي، ثم يقول كعب: إني لأنظر يومئذ وأقول: ما رأيت مثل هذا الرجل أشجع بالسيف، ثم ختم له بما ختم له به! فقال له: فما ختم له به؟ فيقول: من أهل النار، قتل نفسه يومئذ.

قال الواقدي: وروى أبو النمر الكنائي، قال: أقبلت يوم أحد وأنا من المشركين، وقد انكشف المسلمون، وقد حضرت في عشرة من إخواني، فقتل منهم أربعة، وكان الريح للمسلمين أول ما التقينا، فلقد رأيتني وانكشفنا مولين، وأقبل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على فلب العسكر، حتى بلغت الجماء، ثم كرت خيلنا، فقلت: والله ما كرت الخيل إلا عن أمر رأته، فكررنا على أقدامنا كأننا الخيل، فنجد القوم قد أخذ بعضهم بعضاً، يقاتلون على غير صفوف، ما يدري بعضهم من يضرب، وما للمسلمين لواء قائم، ومع رجل من بني عبد الدار لواء المشركين، وأنا أسمع شعار أصحاب محمد بينهم: "أمت أمت"، فأقول في نفسي: ما "أمت"؟ وإني لأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن أصحابه محدقون به، وإن النبل ليمر عن يمينه ويساره، ويقع بين يديه، ويخرج من ورائه، ولقد رميت يومئذ بخمسين مرماة، فأصبت منها بأسهم بعض أصحابه، ثم هداي الله إلى الإسلام.

قال الواقدي: وكان عمرو بن ثابت بن وقش شاكاً في الإسلام، وكان قومه يكلمونه في الإسلام، فيقول: لو أعلم ما تقولون حقاً ما تأخرت عنه، حتى إذا كان يوم أحد بدا له الإسلام و رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد، وأخذ سيفه وأسلم، وخرج حتى دخل في القوم، فقاتل حتى أثبت، فوجد في القتلى جريحاً ميتاً، فدنوا منه وهو بأخر رمق، فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟ قال: الإسلام، آمنت بالله وبرسوله، وأخذت سيفي وحضرت فرزقي الله الشهادة، ومات في أيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه لمن أهل الجنة".

قال الواقدي: فكان أبو هريرة يقول، والناس حوله: أخبروني برجل يدخل الجنة لم يصل لله تعالى سجدة؟ فيسكت الناس، فيقول أبو هريرة: هو أخو بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش.

قال الواقدي: وكان مخيرق اليهودي من أحبار يهود، فقال يوم السبت و رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي، وأن نصره عليكم حق. فقالوا: ويحك! اليوم يوم السبت، فقال: لا سبت، ثم أخذ سلاحه وحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فصيب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مخيرق خير يهود" قال الواقدي: وكان مخيرق قال حين خرج إلى أحد: إن أصبت فأموالي لمحمد يضعها حيث أراد الله فيه، فهي عامة صدقات النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: وكان حاطب بن أمية منافقاً، وكان ابنه يزيد بن حاطب رجل صدق، شهد أحداً مع النبي صلى الله عليه وسلم فارتث جريحاً، فرجع به قومه إلى منزله، قال: يقول أبوه وهو يرى أهل الدار سيكون عنده: أنتم والله صنعتُم هذا به، قالوا: كيف؟ قال: أغرمتوه من نفسه حتى خرج فقتل، ثم صرتم معه إلى شيء آخر تعدونه جنة، يدخل فيها حبة من حرمل، قالوا: قاتلك الله! قال هو ذاك، ولم يقر بالإسلام.

قال الواقدي: وكان قزمان عسيفاً من بني ظفر، لا يدري ممن هو، وكان لهم محباً، وكان مقللاً ولا ولد له ولا زوجة، وكان شجاعاً يعرف بذلك في حروبه التي كانت تكون بينهم، فشهد أحداً، وقاتل قتالاً شديداً، فقتل ستة أو سبعة، فأصابته الجراح فقبل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن قزمان قد أصابته الجراح، فهو شهيد، فقال: بل من أهل النار، فجاؤوا إلى قزمان، فقالوا: هنيئاً لك أبا الغيداق الشهادة! فقال: بم تبشرونني! والله ما قاتلنا إلا على الأحساب، قالوا: بشرنك بالجنة، قال حبة والله من حرمل، إنا والله ما قاتلنا على جنة ولا على نار، إنما قاتلنا على أحسابنا، ثم أخرج سهماً من كنانته، فجعل يتوجأ به نفسه، فلما أبطأ عليه المشقص، أخذ السيف، فاتكأ عليه، حتى خرج من ظهره، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "هو من أهل النار".

قال الواقدي: وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج، فلما كان يوم أحد، وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهد أمثال الأسد، أراد قومه أن يجسوه، وقالوا: أنت رجل أعرج، ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبي صلى الله عليه وسلم قال: بخ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم! فقالت هند بنت عمرو بن حزام امرأته: كأني أنظر إليه مولياً قد أخذ درقته، وهو يقول: اللهم لا تردني إلى أهلي، فخرج ولحقه بعض قومه يكلمونه في القعود، فأبى وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن قومي يريدون أن يجسوني عن هذا الوجه والخروج معك، والله إنني لأرجو أن أطا بعرجتي هذه في الجنة، فقال له: أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك، فأبى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقومه وبنيه: لا عليكم أن تمنعوه، لعل الله يرزقه الشهادة، فخلوا عنه. فقتل يومئذ شهيداً. وكان أبو طلحة يحدث، يقول: نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون، ثم تابوا وهو في الرعيل الأول، لكأني أنظر إلى ظلعه وهو يعرج في مشيته، وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة، ثم أنظر إلى ابنه يعدو في أثره، حتى قتلا جميعاً.

قال الواقدي: وكانت عائشة خرجت في نسوة تستروح الخبر، ولم يكن قد ضرب الحجاب يومئذ، حتى كانت بمنقطع الحرة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي، لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام، أخت عبد الله بن عمرو بن حزام، تسوق بعيراً لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر بن عبد الله، فقالت لها عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خير، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالح، وكل مصيبة بعده جلل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء: "ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً".

قلت: هكذا وردت الرواية، وعندني أنها لم تقل كل ذلك، ولعلها قالت: "ورد الله الذين كفروا بغيظهم"، لا غير، وإلا فكيف يواطىء كلامها آية من كلام الله تعالى أنزلت بعد الخندق والخندق بعد أحد! هذا من البعيد جداً—

قال: فقالت لها عائشة: فمن هؤلاء؟ قالت: أخي وابني وزوجي قتلى، قالت: فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم

بها، !حل حل"، تزجر بعيرها، فبرك البعير، فقالت عائشة: لثقل ما حمل، قالت هند: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمله البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، فزجرته فقام، فلما وجهت به إلى المدينة برك، فوجهته راجعة إلى أحد، فأسرع!، فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك، فقال: إن الحمل لمأمور، هل قال عمرو شيئاً؟ قالت: نعم، إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة، ثم قال: اللهم لا تردني إلى أهلي، وارزقني الشهادة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: فلذلك الحمل لا يمضي، إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح، يا هند، ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة، ينظرون أين يدفن! ثم مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرهم، ثم قال: يا هند، قد ترافقوا في الجنة جميعاً، عمرو بن الجموح بعلك، وخلاد ابنك، وعبد الله أخوك. فقالت هند: يا رسول الله، فادع الله لي عسى أن يجعلني معهم! قال الواقدي: وكان جابر بن عبد الله، يقول: اصطبح ناس يوم أحد الخمر، منهم أبي، فقتلوا شهداء.

قال الواقدي: وكان جابر يقول: أول قتيل من المسلمين يوم أحد أبي، قتله سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمي، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهزيمة.

قال الواقدي: وكان جابر يحدث، ويقول: استشهد أبي، وجعلت عمي تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يكيها! ما زالت الملائكة تظل عليه بأجنحتها حتى دفن.

قال الواقدي: وقال عبيد الله بن عمرو بن حزام: رأيت في النوم قبل يوم أحد بأيام مبشر بن عبد المنذر، أحد الشهداء ببدر، يقول لي: أنت قادم علينا فتي أيام! فقلت: فأين أنت؟ قال: في الجنة نسرح منها حيث نشاء، فقلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى، ثم أحييت، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هذه الشهادة يا جابر".

قال الواقدي: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد: ادفنوا عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، ويقال: إنهما وجدا وقد مثل بهما كل مثله قطعت آراهما عضواً عضواً، فلا تعرف أبادهما. فقال النبي صلى الله عليه وسلم ادفنوهما في قبر واحد"، ويقال: إنما أمر بدفنهما في قبر واحد، لما كان بينهما من الصفاء، فقال: ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد. وكان عبد الله بن عمرو بن حزام رجلاً أحمر أصلع، ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح طويلاً، فعرفا ودخل السيل بعد عليهما، وكان قبرهما مما يلي السيل، فحفر عنهما، وعليهما نمرتان وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه، فيده على وجهه، فأميطت يده عن جرحه، فثعب الدم، فردت إلى مكانها فسكن الدم.

قال الواقدي: وكان جابر بن عبد الله يقول: رأيت أبي في حفرة، وكأنه نائم، وما تغير من حاله قليل ولا كثير، فقلت له: أفرأيت أكفانه؟ قال: إنما كفني في نمر خمر بها وجهه، وعلى رجله الحرمل فوجدنا النمرة كما هي، والحرمل على رجله كهيئته، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة، فشاورهم جابر في أن يطيبه بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: لا تحدثوا فيهم شيئاً.

قال: ويقال إن معاوية لما أراد أن يجري العين التي أحدثها بالمدينة، وهي كظامة نادى مناديه بالمدينة: من كان له قتيل بأحد فليشهد. فخرج الناس إلى قتلاهم فوجدوهم رطاباً يتشنون، فأصابته المسحاة رجل رجل منهم، فثعبت دماً، فقال أبو سعيد الخدري: لا ينكر بعد هذا منكر أبداً.

قال: ووجد عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، ووجد خارجة بن زيد بن أبي زهير وسعد بن الربيع في قبر واحد، فأما قبر عبد الله وعمرو فحول، وذلك أن القناة كانت تمر على قبرهما، وأما قبر خارجة وسعد فترك، وذلك لأن مكانه كان معتزلاً، وسوي عليهما التراب، ولقد كانوا يحفرون التراب، فكلما حفروا قترتة من تراب، فاح عليهما المسك.

قال: وقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجابر: يا جابر، ألا أبشرك؟ فقال: بلى، بأبي وأمي! قال: فإن الله أحيا أباك، ثم كلمه كلاماً، فقال له: تمن على ربك ما شئت! فقال: أتمنى أن أرجع فأقتل مع نبيك، ثم أحيا فأقتل مع نبيك، فقال: إني قد قضيت أهم لا يرجعون.

قال الواقدي: وكانت نسيبة بنت كعب أم عمارة بن غزية بن عمرو قد شهدت أحداً، وزوجها غزية وابناها عمارة بن غزية وعبد الله بن زيد، وخرجت ومعها شن لها في أول النهار تريد تسقي الجرحى، فقالت يومئذ وأبليت بلاء حسناً، فجرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف، فكانت أم سعد بنت سعد بن الربيع تحدث، فتقول: دخلت عليها، فقالت لها: يا خالة، حدثيني خبرك، فقالت: خرجت أول النهار إلى أحد، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعني سقاء فيه ماء، فانتبهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصحابة والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلت أبأشر القتال، وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف، وأرمي بالقوس، حتى خلصت إلى الجراح، فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت: يا أم عمارة، من أصابك بهذا؟ قالت: أقبل ابن قميئة، وقد ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيح: دلوني على محمد، لا نجوت إن نجاً! فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه، فكنت فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. فقلت لها: يدك ما أصابها؟ قالت: أصيبت يوم اليمامة، لما جعلت الأعراب تنهزم بالناس، نادى الأنصار: أخلصونا. فأخلصت الأنصار، فكنت معهم، حتى انتهينا إلى حديقة الموت، فاقتلنا عليها ساعة، حتى قتل أبو دجانة على باب الحديقة؟ ودخلتها وأنا أريد عدو الله مسيلمة، فيعرض لي رجل، فضرب يدي فقطعها، فوالله ما كانت ناهية، ولا عرجت عليها، حتى وقفت على الخبيث مقتولاً، وابني عبد الله بن زيد المازني يمسح سيفه بثيابه، فقلت: أقتلته؟ قال: نعم، فسجدت شكراً لله عز وجل وانصرفت.

قال الواقدي: وكان ضمرة بن سعيد يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحداً تسقي الماء، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يومئذ: لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان. وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً.

قلت: ليت الراوي لم يكن هذه الكناية، وكان يذكرهما باسمهما حتى لا تترامى الظنون إلى أمور مشتبهة! ومن أمانة المحدث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتنم منه شيئاً، فما باله كتم اسم هذين الرجلين! قال: وقالت: فلما حضرت نسيبة الوفاة، كنت فيمن غسلها فعددت جراحها جرحاً جرحاً فوجدتها ثلاثة عشر، وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها، وكان أعظم جراحها، لقد داوته سنة - ثم نادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم بعد

انقضء أحد: إلى حمراء الأسد! فشدت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم، ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح، حتى أصبحنا، فلما رجع رسول الله من حمراء الأسد، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه فأخبره بسلامتها، فسر بذلك.

قال الواقدي: وحدثني عبد الجبار بن عمار بن غزية، قال: قالت أم عمارة لقد رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بقي إلا نغير ما يتمون عشرة، وأنا وأبنائي وزوجي بين يديه نذب عنه، والناس يمرون عنه منهزمين، فرآني ولا ترس معي، ورأى رجلاً مولياً معه ترس، فقال: يا صاحب الترس، ألق ترسك إلى من يقاتل. فألقى ترسه فأخذته، فجعلت أترس به على النبي صلى الله عليه وسلم وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، ولو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم، فيقبل رجل على فرس، فضربي وترست له، فلم يصنع سيفه شيئاً، وولى وأضرب عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصيح: يابن عمارة، أمك أمك! قالت: فعاونني عليه حتى أوردته شعوب.

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سبرة، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن عبد الله بن زيد المازني، قال: جرحت يومئذ جرحاً في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرقل ولم يعرج علي، ومضى عني، وجعل الدم لا يرقاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعصب جرحك، فتقبل أُمي إلي، ومعها عصائب في حقويها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي والنبي صلى الله عليه وسلم واقف ينظر، ثم قالت: انهض يا بني، فضارب القوم، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة! قالت: وأقبل الرجل الذي ضربني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا ضارب ابنك، فاعترضت أُمي له، فضربت ساقه، فبرك، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تبسم حتى بدت نواجذه، ثم قال: استقدت يا أم عمارة. ثم أقبلنا نعلوه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك، وأراك تارك بعينك! قال الواقدي: وروى موسى بن ضمرة بن سعيد، عن أبيه، قال: أتى عمر بن الخطاب في أيام خلافته بمروط كان فيها مرط واسع جيد، فقال بعضهم: إن هذا المرط بثمن كذا، فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد، وذلك حدثان ما دخلت على ابن عمر، فقال: بل أبعث به إلى من هو أحق منها، أم عمارة نسيبة بنت كعب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد يقول: ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوي.

قال الواقدي: وروى مروان بن سعيد بن المعلى، قال: قيل لأم عمارة: يا أم عمارة، هل كن نساء قریش يومئذ يقاتلن مع أزواجهن؟ فقالت: أعوذ بالله، لا والله ما رأيت امرأة منهن رمت بسهم ولا حجر، ولكن رأيت معهن الدفاف والأكابر يضربن ويذكرن القوم قتلى بدر، ومعهن مكاحل ومراد، فكلما ولى رجل أو تكعكع ناولته إحداهن مروداً ومكحلة، ويقولن: إنما أنت امرأة، ولقد رأيتهن ولين منهزمات مشمرات، ولها عنهن الرجال أصحاب الخيل، ونخوا على متون خيلهم، وجعلن يتبعن الرجال على أقدامهن، فجعلن يسقطن في الطريق، ولقد رأيت هنداً ابنة عتبة، وكانت امرأة ثقيلة، ولها خلق، قاعدة خاشية من الخيل، ما بها مشي، ومعها امرأة أخرى، حتى كثر القوم علينا، فأصابوا منا ما أصابوا، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ من قبل الرماة ومعصيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سيرة، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة، عن الحارث بن عبد الله، قال: سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم، يقول: شهدت أحداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما تفرق الناس عنه، دنوت منه، وأمي تذب عنه، فقال: يا بن عمار، قلت: نعم، قال: ارم، فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر، وهو على فرس، فصبيت عين الفرس، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه، وجعلت أعلوه بالحجارة، حتى نضدت عليه منها وقرأ، والني صلى الله عليه وسلم ينظر إلي ويتبسم، فنظر إلى جرح بأمي على عاتقها، فقال: أمك أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت! لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان، ومقام ربيك - يعني زوج أمه - خير من مقام فلان، رحمكم الله مع أهل بيت! فقالت أُمي: ادع لنا الله يا رسول الله أن نرافقك في الجنة، فقال: "اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة" قالت: فما أبالي ما أصابني من الدنيا.

قال الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبيحتها قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيت عندها، فأذن له، فلما صلى الصبح غدا يريد النبي صلى الله عليه وسلم فلزمته جميلة، فعاد فكان معها، فأجنب منها، ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها، فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقبل لها بعد: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فرجت، فدخل فيها ثم أطبقت. فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بي، فعلقته منه بعبد الله بن حنظلة. ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد، فولدت له محمد بن ثابت بن قيس. وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه، فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد، وهو يسوي الصفوف، فلما

انكشف المشركون، اعترض حنظلة لأبي سفيان بن حرب، فضرب عرقوب فرسه، فاكسعت الفرس، ويقع أبو سفيان إلى الأرض، فجعل يصيح: يا معشر قريش، أنا أبو سفيان بن حرب! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فأسمع الصوت رجالاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة، حتى عاينه الأسود بن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح، فأنفذه، ومشى حنظلة إليه في الرمح فضربه ثانية فقتله، وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه، فلحق ببعض قريش، فترل عن صدر فرسه، وردف وراءه أبا سفيان، فذلك قول أبي سفيان يذكر صبره ووقوفه وأنه لم يفر، وذكره محمد بن إسحاق:

ولم أحمل النعماء لابن شعوب

لدن غدوة حتى دنت لغروب

وأدفعهم عني بركن صليب

ولا تسأمني من عبرة ونحيب

وحق لهم من حسرة بنصيب

أنني قتلته من النجار كل نحيب

وكان لدى الهيجاء غير هيبوب

لكانت شجا في الصدر ذات ندوب

ولوشئت نجتني كميت طمرة

وما زال مهري مزجر الكلب فيهم

أقاتلهم وأدعي يال غالب

فبكي ولا ترعي مقالة عاذل

إياك وإخواناً لنا قد تتابعوا

وسلي الذي قد كان في النفس

ومن هاشم قرماً كريماً ومصعباً

ولو أنني لم أشف نفسي منهم

فآبوا وقد أودى الجلابيب منهم

بهم كمدمن واجم وكئيب

أصابهم من لم يكن لدمائهم

كفاء ولا في سنخهم بضريب

قال الواقدي: مر أبو عامر الراهب على حنظلة ابنه وهو مقتول إلى جنب حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، فقال: إن كنت لأحذرك هذا الرجل - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - من قبل هذا المصرع، والله إن كنت لبراً بالوالد، شريف الخلق في حياتك، وإن مماتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم، إن جزى الله هذا القتيل - يعني حمزة - خيراً، أو جزى أحداً من أصحاب محمد خيراً، فليجزك، ثم نادى - يا معشر قريش، حنظلة لا يمثل به، وإن كان خالفي وخالفكم، فلم يأل لنفسه فيما يرى خيراً، فمثل بالناس وترك حنظلة فلم يمثل به.

وكانت هند بنت عتبة أول من مثل بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأمرت النساء بالمثل، ويجدع الأنوف والآذان، فلم تبق امرأة إلا عليها معضدان مسكتان وخدمتان إلا حنظلة لم يمثل به، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة"، قال أبو أسيد الساعدي: فذهبنا فنظرنا إليه، فإذا رأسه يقطر ماء، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فأرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته أنه خرج وهو جنب.

قال الواقدي: وأقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة، فوجد المدينة خلواً، فسألوا: أين الناس؟ قالوا: بأحد، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين من قريش، فقال: لا نبتغي أثراً بعد عين، فخرجنا حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم بأحد، فيجدان القوم يقتتلون، والدولة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأغاروا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من ورائهم، خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبي جهل، فاختلط الناس، فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لهذه الفرقة؟ فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا، ثم رجع فانفرقت فرقة أخرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لهذه الكتيبة؟ فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقام فذبحها بالسيف حتى ولت، ثم رجع فطلعت كتيبة أخرى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من يقوم لهؤلاء؟ فقال المزني: أنا يا رسول الله فقال: قم وأبشر بالجنة. فقام المزني مسروراً يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه والمسلمون، حتى خرج من أقصى الكتيبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم ارحمه ثم يرجع فيهم، فما زال كذلك وهم محدقون به، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم، فقتلوه فوجد به يومئذ عشرون طعنة بالرماح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومثل به أقبح المثل يومئذ. ثم قام ابن أخيه، فقاتل كنهو قتاله، حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحب ميتة أموت عليها لما مات عليها المزني.

قال الواقدي: وكان بلال بن الحارث المزني يحدث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا، وقسمت بيننا غنائمنا، أسقط فتى من آل قابوس من مزينة، فجئت سعداً حين فزع من نومه، فقال: بلال! قلت: بلال،

قال: مرحباً بك، من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي، قال: ما أنت يا فتى من المزني الذي قتل يوم أحد! قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحباً وأهلاً، أنعم الله بك عينا! لقد شهدت من ذلك الرجل يوم أحد مشهداً ما شهدت من أحد قط، لقد رأيتنا وقد أصدق المشركون بنا من كل ناحية، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسطنا، والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرمي ببصره في الناس يتوسمهم، ويقول: من لهذه الكتيبة؟ كل ذلك يقول المزني: أنا يا رسول الله، كل ذلك يرد الكتيبة، فما أنسى آخر مرة قالها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قم وأبشر بالجنة، فقام وقمت على أثره، يعلم الله أني أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة، فحطنا حومتهم، حتى رجعنا فيهم الثانية، فأصابوه رحمه الله، ووددت والله أني كنت أصبت يومئذ معه، ولكن أجل استأخر، ثم دعا من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله، وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجع.

قال الواقدي: وقال سعد بن أبي وقاص: أشهد لرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واقفاً على المزني، وهو مقتول، وهو يقول: رضي الله عنك، فإني عنك راض؛ ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قام على قدميه، وقد ناله عليه السلام ألم الجراح ما ناله، وإني لأعلم أن القيام يشق عليه على قبره؛ حتى وضع في لحده وعليه بردة، لها أعلام حمراء، فمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البردة على رأسه، فخمره وأدرجه فيها طويلاً، فبلغت نصف ساقيه، فأمرنا فجمعنا الحرمل، فجعلناه على رجله وهو في لحده، ثم انصرف فما حال أحب إلي من أن أموت عليها وألقى الله عليها من حال المزني.

قال الواقدي: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد قد خاصم إليه يتييم من الأنصار أبا لبابة بن عبد المنذر في عذق بينهما، ففضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي لبابة، فجزع اليتيم على العذق، فطلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العذق إلى أبي لبابة لليتييم، فأبى أن يدفعه إليه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأبي لبابة: ادفعه إليه ولك عذق في الجنة، فأبى أبو لبابة، وقال ثابت بن أبي الدحداحة: يا رسول الله؛ أرايت إن أعطيت اليتيم عذقه من مالي! قال: لك به عذق في الجنة، فذهب ثابت بن الدحداحة، فاشتري من أبي لبابة ذلك العذق بمحديقة نخل، ثم رد العذق إلى الغلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رب عذق مذلل لابن الدحداحة في الجنة، فكانت ترجى له الشهادة بذلك القول، فقتل يوم أحد.

قال الواقدي: ويقبل ضرار بن الخطاب فارساً يجر قناة له طويلة، فيطعن عمرو بن معاذ، فأنفذه، ويمشي عمرو إليه حتى غلب، فوقع لوجهه، قال: يقول ضرار: لا تعدمن رجلاً زوجك من الحور العين، وكان يقول: زوجت يوم أحد عشرة من أصحاب محمد الحور العين.

قال الواقدي: فسألت شيوخ الحديث: هل قتل عشرة؟ قالوا: ما بلغنا أنه قتل إلا ثلاثة، ولقد ضرب يومئذ عمر بن الخطاب حين حال المسلمون تلك الجولة بالقناة، وقال: يا بن الخطاب، إنها نعمة مشكورة، ما كنت لأقتلك. قال الواقدي: وكان ضرار يحدث بعد، ويذكر وقعة أحد، ويذكر الأنصار فيترحم عليهم، ويذكر غنائهم في الإسلام،

وشجاعتهم وإقدامهم على الموت، ثم يقول: لقد قتل أشراف قومي بدر، فأقول: من قتل أبا الحكم؟ فيقال: ابن عفرأ. من قتل أمية بن خلف؟ فيقال: حبيب بن يساف. من قتل عقبة بن أبي معيط؟ فيقال: عاصم بن ثابت. من قتل فلان بن فلان؟ فيسمى لي من الأنصار، من أسر سهيل بن عمرو؟ فيقال: مالك بن الدحشم. فلما خرجنا إلى أحد، وأنا أقول: إن قاموا في صياصيتهم فهي منيعة لا سبيل لنا إليهم نقيم أياماً ثم ننصرف، وإن خرجوا إلينا من صياصيتهم أصبنا منهم، فإن معنا عدداً أكثر من عددهم، ونحن قوم موتورون؛ خرجنا بالظعن يذكروننا قتلى بدر، ومعنا كراع ولا كراع معهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، فقضي لهم أن خرجوا، فالتقينا، فوالله ما قمنا لهم حتى هزمنا وانكشفنا مولين، فقلت في نفسي: هذه أشد من وقعة بدر، وجعلت أقول لخالد بن الوليد: كر على القوم، فيقول: وترى وجهاً نكر فيه! حتى نظرت إلى الجبل الذي كان عليه الرماة خالياً، فقلت: يا أبا سليمان، انظر وراءك، فعطف عنان فرسه، وكررنا معه، فانتبهنا إلى الجبل، فلم نجد عليه أحداً له بال، وجدنا نفيراً فأصبناهم، ثم دخلنا العسكر، والقوم غارون ينتهبون عسكرنا، فأقحمنا الخيل عليهم، فتطايروا في كل وجه، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة، فلا أرى أحداً، هربوا فما كان حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان، فصبرنا لهم وصبروا لنا، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسي، وترجلت فقتلت منهم عشرة؛ ولقيت من رجل منهم الموت الناقع، حتى وجدت ريح الدم، وهو معانقي ما يفارقي، حتى أخذته الرماح من كل ناحية، فوقع. فالحمد لله الذي أكرمهم بيدي، ولم يهني بأيديهم.

قال الواقدي: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد: من له علم بذكوان بن عبد قيس؟ فقال علي عليه السلام: أنا رأيت يا رسول الله فارساً يركض في أثره حتى لحقه، وهو يقول: لا نجوت إن نجوت! فحمل عليه فرسه وذكوان راجل، فضربه وهو يقول: خذها وأنا ابن علاج! فقتله، فأهويت إلى الفارس، فضربت رجله بالسيف، حتى قطعها من نصف الفخذ، ثم طرحته عن فرسه فذفت عليه، وإذا هو أبو الحكم بن أحنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفي.

قال الواقدي: وقال علي عليه السلام: لما كان يوم أحد وجال الناس تلك الجولة أقبل أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، وهو دارع مقنع في الحديد ما يرى منه إلا عيناه، وهو يقول: يوم بيوم بدر! فيعرض له رجل من المسلمين، فقتله أمية؟ قال علي عليه السلام: وأصمد له، فأضربه بالسيف على هامته، وعليه بيضة، وتحت البيضة مغفر، فبنا سيفي، وكنت رجلاً قصيراً، ويضربني بسيفه، فأتقي بالدرقة، فلحج سيفه، فأضربه، وكانت درعه مشمرة، فأقطع رجله، فوقع وجعل يعالج سيفه، حتى خلصه من الدرقة، وجعل يناوشني وهو بارك حتى نظرت إلى فتق تحت إبطه فأحش فيه بالسيف، فمال فمات، وانصرفت.

قال الواقدي: وفي يوم أحد انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: أنا ابن العواتك، وقال أيضاً:

أنا ابن عبد المطلب

أنا النبي لا كذب

قال الواقدي: بينا عمر بن الخطاب يومئذ في رهطٍ من المسلمين قعود، مر بهم أنس بن النضر بن ضمضم عم أنس بن مالك، فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم قام، فجالد بسيفه حتى قتل، فقال عمر بن الخطاب: إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده يوم القيامة، وجد به سبعون ضربةً في وجهه ما عرف حتى عرفته أخته.

قال الواقدي: وقالوا: إن مالك بن الدخشم مر على خارجة بن زيد بن زهير يومئذ وهو قاعد، وفي حشوته ثلاثة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل، فقال له مالك: أما علمت أن محمداً قد قتل! قال خارجة: فإن كان محمد قد قتل، فإن الله حي لا يقتل ولا يموت، وإن محمداً قد بلغ رسالة ربه، فاذهب أنت فقاتل عن دينك.

قال: ومر مالك بن الدخشم أيضاً على سعد بن الربيع، وبه اثنا عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل، فقال: أعلمت أن محمداً قد قتل! فقال سعد: أشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه، فقاتل أنت عن دينك، فإن الله حي لا يموت.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني، أخو بني النجار، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ: من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر يا رسول الله ما فعل، فنظر فوجده جريحاً في القتلى، وبه رمق، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات، قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله خيراً عنا ما جرى نبياً عن أمته وأبلغ قومك السلام عني، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف، قال: فلم أبرح عنده حتى مات، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته، فقال: اللهم ارض عن سعد بن الربيع.

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن عمار، عن الحارث بن الفضيل الخطمي، قال: أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع، قد سقط في أيديهم، فجعل يصيح: يا معشر الأنصار، إلي أنا ثابت بن الدحداحة! إن كان محمد قد قتل، فإن الله حي لا يموت! قاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم وناصركم؛ فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين، وقد وقفت لهم كتيبة خشناء فيها رؤساؤهم: خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وجعلوا يناوشونهم، ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه، فأنفذه فوق ميتاً، وقتل من كان معه من الأنصار، فيقال: إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين في ذلك اليوم.

وقال عبد الله بن الزبيري يذكر يوم أحد:

وقد بان في حبل الشباب قطوع

نوى الحي دار بالحبيب فجوع

وإن طال تذراف الدموع رجوع

أحاديث قومي والحديث يشيع!

عناجيج فيها ضامر وبديع

ألا ذرفت من مقلتيك دموع

وشط بمن تهوى المزار وفرقت

وليس لما ولى على ذي صباية

فدع ذا ولكن هل أتى أم مالك

ومجنبنا جرداً إلى أهل يثرب

عشية سرنا من كداء يقودها

ضرور الأعادي للصديق نفوع

يشد علينا كل زحف كأنها

غدير نضوح الجانيين نقيع

فلما رأونا خالطتهم مهابة

وخامرهم رعب هناك فظيع

فودوا لو أن الأرض ينشق ظهرها

بهم، وصبور القوم ثم جزوع

وقد عريت بيض كأن وميضها

حريق وشيك في الأباء سريع

بأيماننا نعلو بها كل هامة

وفيها سمام للعدو ذريع

فغادرن قتلى الأوس عاصبة بهم

ضباع وطير فوقهن وقوع

ومر بنو النجار في كل تلعة

بأثوابهم من وقعهن نجيع

ولولا علو الشعب غادرن أحمداً

ولكن علا والسمهري شروع

ولو غادرت في الكر حمزة ثاوياً

وفي صدره ماضي الشابة وقيع

وقال ابن الزبعرى أيضاً من قصيدة مشهورة، وهي:

يا غراب البين أسمعنت فقل

إنما تتدب أمراً قد فعل

إن للخير وللشر مدى

وسواء قبر مثر ومقل

كل خير ونعيم زائل

وبنات الدهر يلعبن بكل

أبلغا حسان عني آية

فقريض الشعر يشفي ذا الغلل

كم ترى بالجسر من جمجمة

وأكفاً قد أترت ورجل

وسراييل حسان شققت

عن كماء غودروا في المنتزل

كم قتلنا من كريم سيد

ماجد الجدين مقدم بطل

صادق النجدة قرم بارع

غير ملطاط لدى وقع الأسل

فسل المهراس من ساكنه؟

من كراديس وهام كالحجل

ليت أشياخي ببدرشهدوا

جزع الخزر ج من وقع الأسل

حين حطت بقاء برکها

واستحر القتل في عبد الأشل

ثم خفوا عند ذاكم رقصاً

رقص الحفان تعدو في الجبل

فقتلنا النصف من ساداتهم

وعدلنا ميل بدر فاعتدل

لا ألوم النفس إلا أننا

لو كررنا لفعلنا المفتعل

قلت: كثير من الناس يعتقدون أن هذا البيت ليزيد بن معاوية، وهو قوله: ليت أشياخي، وقال من أكره التصريح باسمه: هذا البيت ليزيد، فقلت له: إنما قاله يزيد متمثلاً لما حمل إليه رأس الحسين عليه السلام، وهو لابن الزبير، فلم تسكن نفسه إلى ذلك، حتى أوضحت له، فقلت ألا تراه يقول: جزع الخزرج من وقع الأسل، والحسين عليه السلام لم تحارب عنه الخزرج، وكان يليق أن يقول: جزع بني هاشم من وقع الأسل؛ فقال بعض من كان حاضراً: لعله قاله في يوم الحرة! فقلت: المنقول أنه أنشده لما حمل إليه رأس الحسين عليه السلام؛ والمنقول أنه شعر ابن الزبير، ولا يجوز أن يترك المنقول إلى ما ليس بمنقول.

وعلى ذكر هذا الشعر فإني حضرت وأنا غلام بالنظامية ببغداد في بيت عبد القادر بن داود الواسطي المعروف بالحب، حازن دار الكتب بها وعنده في البيت باتكين الرومي الذي ولي إربل أخيراً وعنده أيضاً جعفر بن مكي الحاجب، فجرى ذكر يوم أحد وشعر ابن الزبير هذا وغيره، وأن المسلمين اعتصموا بالجليل، فأصعدوا فيه، وأن الليل حال أيضاً بين المشركين وبينهم، فأنشد ابن مكي بيتين لأبي تمام متمثلاً:

لولا الظلام وقلة علقوا

بها باتت رقابهم بغير قلال

فليشكروا جنح الظلام ودروذاً

فهم لدردود والظلام موالى

فقال باتكين: لا تقل هذا؟ ولكن قل: "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين" وكان باتكين مسلماً، وكان جعفر سامحه الله مغموصاً عليه في دينه. تم الجزء الرابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ويليهِ

الجزء الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي الحمد لله الواحد العدل

القول في أسماء الذين تعاقدوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وما أصابوه به في المعركة يوم الحرب قال الواقدي: تعاقد من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن شهاب الزهر في وابن قمئة أحد بني الحارث بن فهر، وعتبة بن أبي وقاص الزهري، وأبي بن خلف الحمحي. فلما أتى خالد بن الوليد من وراء المسلمين، واختلطت الصفوف، ووضع المشركون السيف في المسلمين، رمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أحجار، فكسر ربايعته، وشججه في وجهه حتى غاب حلق المغفر في وجنتيه، وأدمى شفتيه.

قال الواقدي: وقد روي أن عتبة أشطى باطن ربايعته السفلى. قال: والثبت عندنا أن الذي رمى وجنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن قمئة، والذي رمى شفته وأصاب ربايعته عتبة بن أبي وقاص.

قال الواقدي: أقبل ابن قمئة يومئذ وهو يقول: دلوني على محمد، فوالذي يحلف به؛ لئن رأيته لأقتلنه، فوصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلاه بالسيف، ورماه عتبة بن أبي وقاص في الحال التي جلله ابن قمئة فيها السيف، وكان عليه السلام فارساً، وهو لابس درعين مثقل كما، فوقع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفرس في حفرة كانت أمامه.

قال الواقدي: أصيب ركبته، جحشتا لما وقع في تلك الحفرة، وكانت هناك حفر حفرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على بعضها وهو لا يشعر، فجحشت ركبته، ولم يصنع سيف ابن قمئة شيئاً إلا وهز الضربة بثقل السيف، فقد وقع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم انتفض وطلحة يحمله من ورائه، وعليه عليه السلام أخذ بيديه حتى استوى قائماً.

قال الواقدي: فحدثني الضحاك بن عثمان عن حمزة بن سعيد، عن أبي بشر المازني، قال: حضرت يوم أحد وأنا غلام، فرأيت ابن قمئة علا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على ركبته في حفرة أمامه حتى توارى في الحفرة، فجعلت أصيح وأنا غلام حتى رأيت الناس تابوا إليه. قال: فأنظر إلى طلحة بن عبيد الله أخذاً بحضنه حتى قام.

قال الواقدي: ويقال: إن الذي شج رسول الله صلى الله عليه وسلم في جبهته ابن شهاب، والذي أشطى ربايعته وأدمى شفتيه عتبة بن أبي وقاص، والذي أدمى وجنتيه حتى غاب الحلق فيهما ابن قمئة، وإنه سال الدم من الشجة التي في جبهته حتى أحضل لحيته. وكان سالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم عن وجهه ورسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى الله تعالى! فأنزل الله تعالى قوله: "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم" الآية.

قال الواقدي: وروى سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: اشتد غضب الله على قوم دموا ف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله، اشتد غضب الله على رجل قتله

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال سعد: فلقد شفاني من عتبة أخي دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولقد حرصت على قتله حرصاً ما حرصت على شيء قط، وإن كان ما علمت لعاقاً بالوالد، سيء الخلق، ولقد تحرقت صفوف المشركين مرتين أطلب أخي لأقتله، ولكنه راغ مني روغان الثعلب، فلما كان الثالثة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عبد الله ما تريد؟ أتريد أن تقتل نفسك؟ فكففت. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم لا تحولن الحول على أحد منهم. قال سعد: فوالله ما حال الحول على أحد ممن رماه أو جرحه. مات عتبة، وأما ابن قميئة فاختلف فيه، فقائل يقول: قتل في المعرك وقائل يقول: إنه رمى بسهم في ذلك اليوم فأصاب مصعب بن عمير فقتله، فقال: خذها وأنا ابن قميئة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أقمأه الله، فعمد إلى شاة يحتلبها فتنطحه لقرنها وهو معتلقها فقتلته. فوجد ميتاً بين الجبال لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عدو الله رجع إلى أصحابه فأخبرهم أنه قتل محمداً.

قال: وابن قميئة رجل من بني الأدرم من بني فهر.

وزاد البلاذري في الجماعة التي تعاهدت وتعاهدت على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي.

قال: وابن شهاب الذي شج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جبهته هو عبد الله بن شهاب الزهري، جد الفقيه المحدث محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، وكان ابن قميئة أدرم ناقص الذقن، ولم يذكر اسمه ولا ذكره الواقدي أيضاً.

قلت: سألت النقيب أبا جعفر عن اسمه فقال: عمرو، فقلت له: أهو عمرو بن قميئة الشاعر؟ قال: لا، هو غيره. فقلت له: ما بال بني زهرة في هذا اليوم فعلوا الأفاعيل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم أخواله، ابن شهاب وعتبة بن أبي وقاص! فقال: يا بن أخي، حركهم أبو سفيان وهاجهم على الشر لأنهم رجعوا يوم بدر من الطريق إلى مكة فلم يشهدوها، فاعترض غيرهم ومنعهم عنها، وأغرى بها سفهاء أهل مكة، فعيروهم برجوعهم، ونسبوهم إلى الجبن وإلى الإدهان في أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم، واتفق أنه كان فيهم مثل هذين الرجلين، فوقع منهما يوم أحد ما وقع. قال البلاذري: مات عتبة يوم أحد من وجع أليم أصابه، فتعذب به، وأصيب ابن قميئة في المعركة، وقيل: نطحته عتر فمات.

قال: ولم يذكر الواقدي ابن شهاب كيف مات، وأحسب ذلك بالوهم منه. قال: وحدثني بعض قریش أن أفعى نهشت عبد الله بن شهاب في طريقه إلى مكة فمات. قال: وسألت بعض بني زهرة عن خبره، فأنكروا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا عليه، أو يكون شج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقالوا: إن الذي شجحه في وجهه عبد الله بن حميد الأسدي.

فأما عبد الله بن حميد الفهري، فإن الواقدي وإن لم يذكره في الجماعة الذين تعاهدوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنه قد ذكر كيفية قتله.

قال الواقدي: ويقبل عبد الله بن حميد بن زهير حين رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على تلك الحال - يعني سقوطه من ضربة ابن قمئة - يركض فرسه مقنعاً في الحديد يقول: أنا ابن زهير، دلوني على محمد، فوالله لأقتلنه أو لأمتن دونه! فتعرض له أبو دجانة فقال: هلم إلى من يقي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بنفسه، فضرب فرسه فعرقبها، فاكتسعت، ثم علاه بالسيف وهو يقول: خذها وأنا ابن خرسة، حتى قتله، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إليه ويقول: اللهم ارض عن ابن خرسة كما أنا عنه راض.

هذه رواية الواقدي، وبها قال البلاذري: إن عبد الله بن حميد قتله أبو دجانة.

فأما محمد بن إسحاق فقال: إن الذي قتل عبد الله بن حميد علي بن أبي طالب عليه السلام.

وبه قالت الشيعة.

وروى الواقدي والبلاذري أن قوماً قالوا: إن عبد الله بن حميد هذا قتل يوم بدر. فالأول الصحيح أنه قتل يوم أحد.

وقد روى كثير من المحدثين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عليه السلام حين سقط ثم أقيم: اكفني هؤلاء - لجماعة قصدت نحوه - فحمل عليهم فهزمهم، وقتل منهم عبد الله بن حميد من بني أسد بن عبد العزى، ثم حملت عليه طائفة أخرى، فقال له: اكفني هؤلاء، فحمل عليهم فانهزموا من بين يديه، وقتل منهم أمية بن أبي حذيفة بن المعيرة المخزومي.

قال: فأما أبي بن خلف فروى الواقدي أنه أقبل يركض فرسه؛ حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، اعترض له ناس من أصحابه ليقتلوه، فقال لهم: استأخروا عنه. ثم قام إليه وحربته في يده، فرماه بها بين سابعة البيضة والدرع، قطعته هناك، فوقع عن فرسه، فانكسر ضلع من أضلعه، واحتمله قوم من المشركين ثقيلاً حتى ولوا قافلين، فمات في الطريق، وقال: وفيه أنزلت: "وما رميت إذ رميت ولكن الله"، قال: يعني قذفه إياه بالحربة.

قال الواقدي: وحدثني يونس بن محمد الظفري، عن عاصم بن عمر، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: كان أبي بن خلف قدم في فداء ابنه، وكان أسير يوم بدر، فقال: يا محمد، إن عندي فرساً لي أعلفها فرقاً من ذرة كل يوم لأقتلك عليها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله تعالى.

ويقال: إن أياً إنما قال ذلك بمكة، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة كلمته فقال: بل أنا أقتله عليها إن شاء الله.

قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القتال لا يلتفت وراءه، فكان يوم أحد يقول لأصحابه: إني أخشى أن يأتي أبي بن خلف من خلفي، فإذا رأيتموه فاذنوني، وإذا بأبي يركض على فرسه، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرفه، فجعل يصيح بأعلى صوته: يا محمد لا نجوت إن نجوت! فقال القوم: يا رسول الله ما كنت صانعاً حين يغشاك أبي؟ فاصنع، فقد جاءك، وإن شئت عطف عليه بعضنا، فأبى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودنا أبي، فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة، ثم انتفض كما ينتفض البعير. قال: فتطايرونا عنه تطائر الشعاري، ولم يكن أحد يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا جد الجد، ثم طعنه بالحربة في عنقه وهو على فرسه

لم يسقط، إلا أنه خار كما يخور الثور، فقال له أصحابه: أبا عامر، والله ما بك بأس، ولو كان هذا الذي بك يعين أحدنا ما ضره. قال: واللوات والعزى، لو كان الذي بي بأهل ذي الحجاز لماتوا كلهم أجمعون، أليس قال: لأقتلنه! فاحتملوه، وشغلهم ذلك عن طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله حتى التحق بعظم أصحابه في الشعب.

قال الواقدي: ويقال: إنه تناول الحربة من الزبير بن العوام. قال: ويقال إنه لما تناول الحربة من الزبير حمل أبي على رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وسلم ليضربه بالسيف، فاستقبله مصعب بن عمير حائلاً بنفسه بينهما، وإن مصعباً ضرب بالسيف أياً في وجهه، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجةً من بين سابعة البيضة والدرع، فطعنه هناك، فوقع وهو يخور.

قال الواقدي: وكان عبد الله بن عمر يقول: مات أبي بن خلف ببطن رابغ منصرفهم إلى مكة. قال: فإني لأسير ببطن رابغ بعد ذلك، وقد مضى هوي من الليل إذا نار تأجج، فهبتها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يصيح: العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هذا أبي بن خلف، فقلت: ألا سحقاً! ويقال: إنه مات بسرف

القول في الملائكة هل نزلت بأحد وقاتلت أم لا

قال الواقدي: حدثني الزبير بن سعيد، عن عبد الله بن الفضل، قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصعب بن عمير اللواء فقتل، فأخذه ملك في صورة مصعب فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له في آخر النهار: تقدم يا مصعب، فالتفت إليه الملك، فقال: لست بمصعب، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه ملك أيد به. قال الواقدي: سمعت أبا معشر يقول مثل ذلك.

قال: وحدثني عبيدة بنت نائل، عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، عنه، قال: لقد رأيتني أرمى بالسهم يومئذ، فبرده عني رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعد، فظننت أنه ملك.

قال الواقدي: وحدثني إبراهيم بن سعد، عن أبيه؛ عن جده سعد بن أبي وقاص، قال: رأيت ذلك اليوم رجلين عليهما ثياب بيض؛ أحدهما عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والآخر عن شماله يقاتلان أشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. قال: وحدثني عبد الملك بن سليمان، عن قطر بن وهب، عن عبيد بن عمير، قال: لما رجعت قريش من أحد جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا، يقولون: لم نر الخيل البلق ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم بدر.

قال: وقال عبيد بن عمير: لم تقاتل الملائكة يوم أحد.

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سيرة، عن عبد المجيد بن سهيل، عن عمر بن الحكم، قال: لم يمد رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وسلم يوم أحد بملك واحد، وإنما كانوا يوم بدر.

قال: ومثله عن عكرمة.

قال: وقال مجاهد: حضرت الملائكة يوم أحد ولم تقاتل، وإنما قاتلت يوم بدر.

قال: وروي عن أبي هريرة أنه قال: وعدهم الله أن يمدهم لو صبروا، فلما انكشفوا لم تقاتل الملائكة يومئذ.

القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

قال الواقدي: كان وحشي عبداً لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، ويقال: كان لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقالت له ابنة الحارث: إن أبي قتل يوم بدر، فإن أنت قتلت أحد الثلاثة فأنت حر: محمد، وعلي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، فإني لا أرى في القوم كفواً لأبي غيرهم. فقال وحشي: أما محمد فقد علمت أي لا أقدر عليه، وإن أصحابه لن يسلموه، وأما حمزة فوالله لو وجدته نائماً ما أيقظته من هيبته، وأما علي فألتمسه. قال وحشي: فكنت يوم أحد ألتمسه، فبينما أنا في طلبه طلع علي، فطلع رجل حذر مرس كثير الالتفات، فقلت: ما هذا بصاحبي الذي ألتمس، إذ رأيت حمزة يفري الناس فرياً، فكمنت له إلى صخرة وهو مكبس له كتيبت، فاعترض له سباع بن أم نيار، وكانت أمه ختانة بمكة، مولاة لشريف بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفي، وكان سباع يكنى أبا نيار، فقال له حمزة: وأنت أيضاً يا بن مقطعة البظور ممن يكثر علينا! هلم إلي، فاحتمله، حتى إذا برقت قدماه رمى به فبرك عليه، فشحطه شحط الشاة، ثم أقبل علي مكباً حين رأي، فلما بلغ المسيل، وطىء على جرف فرلت قدمه، فهزرت حربي حتى رضيت منها، فأضرب بها في خاصرته حتى خرجت من مثانته؛ وكر عليه طائفة من أصحابه فأسمعهم يقولون: أبا عمار، فلا يجيب، فقلت: قد والله مات الرجل، وذكرت هنداً وما لقيت على أبيها وعمها وأخيها، وانكشف عنه أصحابه حين أيقنوا بموته، ولا يروني، فأكر عليه فشقت بطنه، فاستخرجت كبده، فجئت بها إلى هند بنت عتبة، فقلت: ماذا لي إن قتلت قاتل أبيك؟ قالت: سلمي؛ فقلت: هذه كبد حمزة، فمضغتها ثم لفظتها، فلا أدري: لم تسغها أو قدرتها؛ فترعت ثيابها وحليها فأعطتني، ثم قالت: إذا جئت مكة فلك عشرة دنائير، ثم قالت: أربي مصرعه، فأريتها مصرعه، فقطعت مذاكيره، وجذعت أنفه، وقطعت أذنيه، ثم جعلت ذلك مسكين ومعضدين وخدمتين؛ حتى قدمت بذلك مكة وقدمت بكبده أيضاً معها.

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن جعفر، عن ابن أبي عون، عن الزهري، عن عبيد الله بن عدي بن الخيار، قال: غزونا الشام في زمن عثمان بن عفان، فمررنا بحمص بعد العصر، فقلنا: وحشي، فقيل: لا تقدرؤن عليه، هو الآن يشرب الخمر حتى يصبح، فبتنا من أجله؛ وإننا لثمانون رجلاً، فلما صلينا الصبح جئنا إلى منزله، فإذا شيخ كبير قد طرح له زربية قدر مجلسه، فقلنا له: أخبرنا عن قتل حمزة وعن قتل مسيلمة؛ فكره ذلك، وأعرض عنه، فقلنا: ما بتنا هذه الليلة إلا من أجلك. فقال: إني كنت عبداً لجبير بن مطعم بن عدي، فلما خرج الناس إلى أحد دعاني فقال: قد رأيت مقتل طعيمة بن عدي، قتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر، فلم تزل نساؤنا في حزن شديد إلى يومي هذا، فإن قتلت حمزة فأنت حر؛ فخرجت مع الناس ولي مزاريق كنت أمر بهند بنت عتبة فتقول: إيه أبا دسمة! اشف واشتف. فلما وردنا أحداً نظرت إلى حمزة يقدم الناس يهدهم هدأ، فرآني وقد كمنت له تحت شجرة، فأقبل نحوي، وتعرض له سباع الخزاعي، فأقبل إليه وقال: وأنت أيضاً يا بن مقطعة البظور ممن يكثر علينا هلم إلي، وأقبل نحوه حتى رأيت برقان رجله، ثم ضرب به الأرض وقتله، وأقبل نحوي سريعاً، فيعرض له جرف فيقع فيه، وأزرقه بمزراق فيقع في لبته حتى خرج من بين رجله. فقتله،

ومررت بهند بنت عتبة فأذنتها، فأعطتني ثيابها وحليها، وكان في ساقبها خدمتان من جزع ظفار ومسكتان من ورق، وخواتيم من ورق كن في أصابع رجلها، فأعطتني بكل ذلك؛ وأما مسيلمه فإننا دخلنا حديقة الموت يوم اليمامة فلما رأيته زرقته بالمزراق، وضربه رجل من الأنصار بالسيف؛ فربك أعلم أينما قتله! إلا أنني سمعت امرأة تصيح فوق جدار: قتله العبد الحبشي. قال عبيد الله: فقلت: أتعرفني؟ فأكر بصره علي وقال: ابن عدي لعاتكة بنت العيص؟ قلت: نعم، قال: أما والله ما لي بك عهد بعد أن دفعتك إلى أمك في محفتك التي كانت ترضعك فيها، ونظرت إلى برقان قدميك حتى كأنه الآن.

وروى محمد بن إسحاق في كتاب المغازي؛ قال: علت هند يومئذ صخرة مشرفة، وصرخت بأعلى صوتها:

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر
ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري
شفيت وحشي غليل صدري

فشكر وحشي في عمري
حتى ترم أعظمي في قبري

قال: فأجابتها هند بنت أئانة بن المطلب بن عبد مناف:

خزيت في بدر وغير بدر
يا بنت غدار عظيم الكفر
أفحمك الله غداة الفجر
بالحاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفري
حمزة ليثي وعلي صقري
إذ رام شيب وأبوك قهري
فخضبا منه ضواحي النحر

قال محمد بن إسحاق: ومن الشعر الذي ارتجزت به هند بنت عتبة يوم أحد:

شفيت من حمزة نفسي بأحد
حين بقرت بطنه عن الكبد
أذهب عني ذاك ما كنت أجد
من لوعة الحزن الشديد المعتمد
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد
نقدم إقداماً عليكم كالأسد

قال محمد بن إسحاق: حدثني صالح بن كيسان، قال: حدثت أن عمر بن الخطاب قال لحسان: يا أبا الفريعة، لو سمعت ما تقول هند! ولو رأيت شرها قائمة على صخرة ترتجز بنا، وتذكر ما صنعت بحمزة! فقال حسان: والله إني لأنظر إلى الحربة قهوي وأنا على فارع - يعني أطمه - فقلت: والله إن هذه ل سلاح ليس بسلاح العرب، وإذا بها قهوي إلى حمزة ولا أدري، ولكن أسمعني بعض قولها أكفيكموها، فأنشده عمر بعض ما قالت؟ فقال حسان يهجوها:

أشرت لكاع وكان عاداتها
لؤماً إذا أشرت مع الكفر
أخرجت مرقصة إلى أحد
في القوم مقتبة على بكر

لا عن معاتبة ولا زجر

بأبيك وابنك بعد في بدر

وأخيك منعفرين في الجفر

منا ظفرت بها ولا وتر

بكر ثقال لا حراك به

أخرجت نائرةً محاربةً

وبعمك المتروك منجدلاً

فرجعت صاغرةً بلا ترة

وقال أيضاً يهجوها:

باتت تفحص في بطحاء أجياد

إلا الوحوش وإلا جنة الوادي

وخاله وأبوه سيدي النادي

لمن سواقط ولدان مطرحة

باتت تمخض لم تشهد قوابلها

يظل يرجمه الصبيان منعفراً

في أبيات كرهت ذكرها لفحشها.

قال: وروى الواقدي، عن صفية بنت عبد المطلب، قالت: كنا قد رفعنا يوم أحد في الآطام، ومعنا حسان بن ثابت، وكان من أجبن الناس، ونحن في فارغ، فجاء نفر من يهود يرومون الأطم، فقلت: دونك يا بن الفريعة، فقال: لا والله لا أستطيع القتال، ويصعد يهودي إلى الأطم، فقلت: شد على يدي السيف، ثم برئت، ففعل، فضربت عنق اليهودي ورميت برأسه إليهم، فلما رأوه انكشفوا، قالت: وإني لفي فارغ أول النهار مشرفة على الأطم، فرأيت المزارق، فقلت أو من سلاحهم المزاريق! أفلا أراه هوى إلى أخي ولا أشعر! ثم خرجت آخر النهار حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كنت أعرف انكشاف المسلمين وأنا على الأطم برجوع حسان إلى أقصى الأطم، فلما رأى الدولة للمسلمين أقبل حتى وقف على جدار الأطم. قال: فلما انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعني نسوة من الأنصار لقيته وأصحابه أوزاع، فأول من لقيت علي بن أخي فقال: ارجعي يا عمة، فإن في الناس تكشفاً، فقلت: رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: صالح، قلت: ادللي عليه حتى أراه، فأشار إليّ إشارة خفية، فانتهيت إليه وبه الجراحة. قال الواقدي: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم أحد: ما فعل عمي! فخرج الحارث بن الصفة يطلبه فأبطأ، فخرج علي عليه السلام يطلبه فيقول:

كان رفيقاً وبنا ذا نمه

يلتمس الجنة فيها ثمه

يا رب إن الحارث بن الصمه

قد ضل في مهامه مهمه

حتى انتهى إلى الحارث، ووجد حمزة مقتولاً، فجاء فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأقبل يمشي حتى وقف عليه فقال: ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلي من هذا الموقف.

فطلعت صفية، فقال: يا زبير، اغن عني أمك، وحمزة يحفر له، فقال الزبير يا أمه، إن في الناس تكشفاً، فارجعي، فقالت: ما أنا بفاعلة حتى أرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما رآته قالت: يا رسول الله، أين ابن أُمي حمزة؟ فقال: هو في الناس؛ قالت: لا أرجع حتى أنظر إليه، قال الزبير: فجعلت أطدها إلى الأرض حتى دفن وقال رسول الله صلى الله عليه وآله

عليه وسلم: لولا أن تحزن نساؤنا لذلك لتركناه للعافية، يعني السباع والطير حتى يحشر يوم القيامة من بطونها وحواصلها. قال الواقدي: وروى أن صفية لما جاءت حالت الأنصار بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: دعوها، فجلست عنده، فجعلت إذا بكت يبكي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا نشجت ينشج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعلت فاطمة عليها السلام تبكي، فلما بكت بكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: لن أصاب بمثل حمزة أبداً، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم لصفية وفاطمة: أبشرا، أتاني جبرائيل عليه السلام فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

قال الواقدي: ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحمزة مثلاً شديداً، فحزنه ذلك وقال: إن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين منهم، فأنزل الله عليه: "وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرت لم هو خير للصابرين" فقال صلى الله عليه وآله وسلم: بل نصبر، فلم يمثل بأحد من قريش.

قال الواقدي: وقام أبو قتادة الأنصاري فجعل ينال من قريش لما رأى من غم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي كل ذلك يشير إليه أن اجلس ثلاثاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبا قتادة، إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم العوائر كبه الله لفيه، وعسى إن. طالت بك مدة أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى. فقال أبو قتادة: والله يا رسول الله ما غضبت إلا لله ورسوله حين نالوا منه ما نالوا، فقال: صدقت. بئس القوم كانوا لنبيهم.

قال الواقدي: وكان عبد الله بن جحش قبل أن تقع الحرب قال: يا رسول الله، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بحيث ترى، فقد سألت الله فقلت: اللهم أقسم عليك أن نلقى العدو غداً فيقتلوني ويقرؤوا بطني ويمثلوا بي، فتقول لي: فيم صنع بك هذا؟ فأقول: فيك. قال: وأنا أسألك يا رسول الله أخرى، أن تلي تركتي من بعدي. فقال له: نعم، فخرج عبد الله فقتل ومثل له كل المثل، ودفن هو وحمزة في قبر واحد، وولي تركته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاشترى لأمه مالا بخير. قال الواقدي: وأقبلت أخته حمزة بنت جحش، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا حمن، احتسي، قالت: من يا رسول الله؟ قال: خالك حمزة، قالت: "إنا لله وإنا إليه راجعون" غفر الله له ورحمه، وهنيئاً له الشهادة، ثم قال لها: احتسي. قالت: من يا رسول الله، قال: أخوك عبد الله، قالت: "إنا لله وإنا إليه راجعون" غفر الله له ورحمه وهنيئاً له الشهادة، ثم قال: احتسي، قالت: من يا رسول الله؟ قال: بعلك مصعب بن عمير، فقالت: واحزنه! ويقال: إنها قالت: واعقراه.

قال محمد ابن إسحاق في كتابه: فصرخت وولولت.

قال الواقدي: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن للزوج من المرأة مكاناً. ما هو لأحد. وهكذا روى ابن إسحاق أيضاً.

قال الواقدي: ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لم قلت هذا؟ قالت ذكرت يتم بنيه فراعني. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لولده أن يحسن الله عليهم الخلف، فتزوجت طلحة بن عبيد الله، فولدت منه محمد بن طلحة، فكان أوصل الناس لولد مصعب بن عمير.

القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد

قال الواقدي: حدثني موسى بن يعقوب، عن عمته، عن أمها، عن المقداد، قال: لما تصاف القوم للقتال يوم أحد، جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت راية مصعب بن عمير، فلما قتل أصحاب اللواء وهزم المشركون الهزيمة الأولى، وأغار المسلمون على معسكرهم ينهاهونهم، ثم كر المشركون على المسلمين، فأتوهم من خلفهم، ففرق الناس، ونادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أصحاب الألوية، فقتل مصعب بن عمير حامل لوائه صلى الله عليه وآله وسلم، وأخذ راية الخزرج سعد بن عباد، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحتها، وأصحابه محدقون به، ودفع لواء المهاجرين إلى أبي الردم أحد بني عبد الدار آخر نهار ذلك اليوم، ونظرت إلى لواء الأوس مع أسيد بن حضير، فناوشوا المشركين ساعة، واقتتلوا على اختلاط من الصفوف، ونادى المشركون بشعارهم: يا للعزى! يا لهبل! فأوجعوا والله فينا قتلاً ذريعاً، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما نالوا؛ لا والذي بعثه بالحق ما زال شيراً واحداً، إنه لفي وجه العدو وتشوب إليه طائفة من أصحابه مرة، وتتفرق عنه مرة، فرما رأيته قائماً يرمي عن قوسه أو يرمي بالحجر حتى تحاجزوا، وكانت العصاة التي ثبتت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، أما المهاجرون فعلي عليه السلام وأبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام، وأما الأنصار فالجباب بن المنذر وأبو دجانة وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير.

قال الواقدي: وقد روي أن سعد بن عباداً ومحمد بن مسلمة ثبتا يومئذ ولم يفرا. ومن روى ذلك جعلهما مكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير.

قال الواقدي: وبايعه يومئذ على الموت ثمانية: ثلاثة من المهاجرين، وخمسة من الأنصار، فأما المهاجرون فعلي عليه السلام، وطلحة، والزبير؛ وأما الأنصار فأبو دجانة والحارث بن الصمة والجباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف، ولم يقتل منهم ذلك اليوم أحد؛ وأما باقي المسلمين ففروا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم في أخرهم حتى انتهى منهم إلى قريب من المهراس.

قال الواقدي: وحدثني عتبة بن جبير، عن يعقوب بن عمير بن قتادة قال: ثبت يومئذ بين يديه ثلاثون رجلاً كلهم يقول: وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعليك السلام غير مودع.

قلت: قد اختلف في عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذ أم لا، مع اتفاق الرواة كافة على أن عثمان لم يثبت، فالواقدي ذكر أنه لم يثبت، وأما محمد بن إسحاق والبلاذري فجعلاه مع من ثبت ولم يفرا، واتفقوا كلهم على أن ضرار بن الخطاب الفهري قرع رأسه بالرمح وقال: إنما نعمة مشكورة يا بن الخطاب، إني آليت ألا أقتل رجلاً من قريش.

وروى ذلك محمد بن إسحاق وغيره، ولم يختلفوا في ذلك، وإنما اختلفوا، هل قرعه بالرمح وهو فار هارب، أم مقدم ثابت! والذين رَووا أنه قرعه بالرمح وهو هارب لم يقل أحد منهم إنه هرب حين هرب عثمان ولا إلى الجهة التي فر إليها

عثمان، وإنما هرب معتصماً بالجلبل، وهذا ليس بعيب ولا ذنب، لأن الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعتصموا بالجلبل كلهم وأصعدوا فيه، ولكن يبقى الفرق بين من أصعد في الجبل في آخر الأمر ومن أصعد فيه والحرب لم تضع أوزارها، فإن كان عمر أصعد فيه آخر الأمر، فكل المسلمين هكذا صنعوا حتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كان ذلك والحرب قائمة بعد تفرق.

ولم يختلف الرواة من أهل الحديث في أن أبا بكر لم يفر يومئذ، وأنه ثبت فيمن ثبت، وإن لم يكن نقل عنه قتل أو قتال، والثبوت جهاد، وفيه وحده كفاية.

وأما رواية. الشيعة فإنهم يروون أنه لم يثبت إلا علي وطلحة والزبير وأبو دجانة وسهل بن حنيف وعاصم بن ثابت، ومنهم من روى أنه ثبت معه أربعة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، ولا يعدون أبا بكر وعمر منهم. روى كثير من أصحاب الحديث إن عثمان جاء بعد ثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله إلى أين انتهيت؟ فقال: إلى الأعرض، فقال: لقد ذهبت فيها عريضة.

روى الواقدي قال: كان بين عثمان أيام خلافته وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه، فقال: اذهب إلى أخيك فأبلغه عني ما أقول لك، فإني لا أعلم أحداً يبلغه غيرك. قال الوليد: أفعل. قال قل له: يقول لك عبد الرحمن: شهدت بدرًا ولم تشهدها. وثبت يوم أحد ووليت، وشهدت بيعة الرضوان ولم تشهدها، فلما أخبره قال عثمان: صدق أخي، تخلفت عن بدر على ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي مريضة، فضرب لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسهمي وأجري، فكننت بمترلة من حفر بدرًا، ووليت يوم أحد، فعفا الله عني في محكم كتابه. وأما بيعة الرضوان فإني خرجت إلى أهل مكة، بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: إن عثمان في طاعة الله وطاعة رسوله، وباع عني بإحدى يديه على الأخرى، فكان شمال النبي خيرًا من يميني فلما جاء الوليد إلى عبد الرحمن بما قال قال: صدق أخي.

قال الواقدي: ونظر عمر إلى عثمان بن عفان فقال: هذا ممن عفا الله عنه، وهم الذين تولوا يوم التقى الجمعان، والله ما عفا الله عن شيء فرده. قال: وسأل رجل عبد الله بن عمر عن عثمان فقال: أذنب يوم أحد ذنباً عظيماً، فعفا الله عنه، وأذنب فيكم ذنباً صغيراً فقتلتموه؛ واحتج من روى أن عمر فر يوم أحد بما روي أنه جاءته في أيام خلافته امرأة تطلب برداً من برود كانت بين يديه، وجاءت معها بنت لعمر تطلب برداً أيضاً، فأعطى المرأة ورد ابنته، فقليل له في ذلك، فقال: إن أبا هذه ثبت يوم أحد، وأبا هذه فر يوم أحد ولم يثبت.

وروى الواقدي أن عمر كان يحدث فيقول: لما صاح الشيطان: قتل محمد، قلت: أرقى في الجبل كأي أروية، وجعل بعضهم هذا حجة في إثبات فرار عمر، وعندي أنه ليس بحجة، لأن تمام الخبر: فأنتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهو يقول: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" الآية، وأبو سفيان في سفح الجبل في كتيبته يرومون أن يعلوا الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا. فأنكشفوا، وهذا يدل على أن رقيه في الجبل قد كان بعد إصعاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه، وهذا بأن يكون منقبه له أشبه.

وروى الواقدي قال: حدثني ابن سيرة، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم، اسم أبي جهم عبيد، قال: كان خالد بن الوليد يحدث وهو بالشام فيقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد رأيته ورأيت عمر بن الخطاب حين جال المسلمون وانهمزوا يوم أحد وما معه أحد، وإني لفي كتيبة خشناء، فما عرفه منهم أحد غيري، وخشيت إن أغريت به من معي أن يصمدوا له، فنظرت إليه وهو متوجه إلى الشعب.

قلت: يجوز أن يكون هذا حقاً، ولا خلاف أنه توجه إلى الشعب تاركاً للحرب، لكن يجوز أن يكون ذلك في آخر الأمر لما يئس المسلمون من النصر، فكلهم توجه نحو الشعب حينئذ، وأيضاً فإن خالداً متهم في حق عمر بن الخطاب لما كان بينه وبينه من الشحناء والشنآن، فليس بمنكر من خالد أن ينعى عليه حركاته، ويؤكد صحة هذا الخبر، وكون خالد عفاً عن قتل عمر يومئذ، ما هو معلوم من حال النسب بينهما من قبل الأم، فإن أم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، وخالد هو ابن الوليد بن المغيرة، فأما عمر ابنة عم خالد لحماً، والرحم تعطف.

حضرت عند محمد بن معد العلوي الموسوي الفقيه على رأي الشيعة الإمامية رحمه الله في داره بدرب الدواب ببغداد في سنة ثمان وستمائة، وقارئاً يقرأ عنده مغازي الواقدي، فقرأ: حدثنا الواقدي قال: حدثني ابن أبي سيرة، عن خالد بن رباح، عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد قال: سمعت محمد بن مسلمة يقول: سمعت أذناي وأبصرت عيناي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم أحد وقد انكشف الناس إلى الجبل، وهو يدعوهم وهم لا يلبون عليه، سمعته يقول: إلي يا فلان، إلي يا فلان، أنا رسول الله، فما عرج عليه واحد منهما ومضيا، فأشار ابن معد إلي، أن اسمع، فقلت: وما في هذا؟ قال: هذه كناية عنهما، فقلت: ويجوز ألا يكون عنهما، لعله عن غيرهما. قال: ليس في الصحابة من يحتشم ويستحيا من ذكره بالفرار وما شابهه من العيب، فيضطر القائل إلى الكناية إلا هما قلت له: هذا وهم، فقال: دعنا من جدلك ومنعك، ثم حلف أنه ما عني الواقدي غيرهما، وأنه لو كان غيرهما لذكره صريحاً، وبأن في وجهه التنكر من مخالفتي له.

روى الواقدي قال: لما صاح إبليس: إن محمداً قد قتل، تفرق الناس، فمنهم من ورد المدينة، فكان أول من وردها يخبر أن محمداً قد قتل، سعد بن عثمان أبو عبادة، ثم ورد بعده رجال حتى دخلوا على نسائهم حتى جعل النساء يقلن: أعن رسول الله تفرون! ويقول لهم ابن أم مكتوم: أعن رسول الله تفرون؟ يؤنب بهم، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلفه بالمدينة يصلي بالناس، ثم قال: دلوني على الطريق - يعني طريق أحد - فدلوه، فجعل يستخير كل من لقي في الطريق حتى لحق القوم، فعلم بسلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم رجع. وكان ممن ولى عمر وعثمان والحارث بن حاطب وثعلبة بن حاطب وسواد بن غزيرة وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر بلغ ملل، وأوس بن قيث في نفر من بني حارثة بلغوا الشقرة ولقيتهم أم أيمن تحثي في وجوههم التراب وتقول لبعضهم: هاك المغزل فاغرل به، وهلم. واحتج من قال بفرار عمر بما رواه الواقدي في كتاب المغازي في قصة الحديبية، قال: قال عمر يومئذ: يا رسول الله، ألم تكن حدثتنا أنك ستدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرف مع المعرفين، وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحر! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أقلت لكم في سفركم هذا؟ قال عمر: لا، قال: أما إنكم ستدخلونه وأخذ مفتاح الكعبة وأحلق رأسي ورؤوسكم ببطن مكة وأعرف مع المعرفين؛ ثم أقبل على عمر وقال: أنسيتم يوم أحد،

"إذ تصعدون ولا تلوون على أحد" وأنا أدعوكم في أخراكم! أنسيتم يوم الأحزاب "إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر"! أنسيتم يوم كذا! وجعل يذكرهم أموراً، أنسيتم يوم كذا! فقال المسلمون: صدق الله وصدق رسوله، أنت يا رسول الله أعلم بالله منا، فلما دخل عام القضية وحلق رأسه قال: هذا الذي كنت وعدتكم به، فلما كان يوم الفتح وأخذ مفتاح الكعبة قال: ادعوا إلي عمر بن الخطاب، فجاء فقال: هذا الذي كنت قلت لكم. قالوا: فلو لم يكن فر يوم أحد لما قال له: أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون

القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم في الجبل

قال الواقدي: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: لما صاح الشيطان لعنه الله: إن محمداً قد قتل يحزنهم بذلك، تفرقوا في كل وجه، وجعل الناس يعمرون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يلوي عليه أحد منهم، ورسول الله يدعوهم في أحرهم، حتى انتهت هزيمة قوم منهم إلى المهراس، فتوجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد أصحابه في الشعب فأنتهى إلى الشعب وأصحابه في الجبل أوزاع، يذكرون مقتل من قتل منهم، ويذكرون ما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال كعب بن مالك: فكنت أول من عرفه وعليه المغفر، فجعلت أصيح وأنا في الشعب: هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حي، فجعل يومئذ إلي بيده على فيه أي اسكت، ثم دعا بلأمتي فلبسها ونزع لأمته.

قال الواقدي: طلع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه في الشعب بين السعدين: سعد بن عباد، وسعد بن معاذ يتكفأ في الدرع، وكان إذا مشى تكفأ تكفوفاً، ويقال: إنه كان يتوكأ على طلحة بن عبيد الله. قال الواقدي: وما صلى يومئذ الظهر إلا جالساً للجرح الذي كان أصابه.

قال الواقدي: وقد كان طلحة قال له: إن بي قوة، فقم لأحملك، فحمله حتى انتهى إلى الصخرة التي على فم شعب الجبل، فلم يزل يحمله حتى رفعه عليها ثم مضى إلى أصحابه ومعه النفر الذين ثبتوا معه، فلما نظر المسلمون إليهم ظنوه قريشاً، فجعلوا يولون في الشعب هارين منهم، ثم جعل أبو دجانة يليح إليهم بعمامة حمراء على رأسه، فعرفوه فرجعوا، أو بعضهم.

قال الواقدي: وروي أنه لما طلع عليهم في النفر الذين ثبتوا معه - وهم أربعة عشر، سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار - جعلوا يولون في الجبل خائفين منهم يظنونهم المشركين، جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبسم إلى أبي بكر وهو على جنبه ويقول له: ألح إليهم، فجعل أبو بكر يليح إليهم وهم لا يعرجون حتى نزع أبو دجانة عصا به حمراء على رأسه فأوفى على الجبل، فجعل يصيح ويليح، فوقفوا حتى عرفوهم ولقد وضع أبو بردة بن نيار سهماً على كبد قوسه، فأراد أن يرمي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، فلما تكلموا وناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمسك، وفرح المسلمون برؤيته حتى كأنهم لم تصبهم في أنفسهم مصيبة، وسروا لسلامته وسلامتهم من المشركين.

قال الواقدي: ثم إن قوماً من قريش صعدوا الجبل فعلموا على المسلمين وهم في الشعب. قال: فكان رافع بن خديج يحدث فيقول: إني يومئذ إلى جنب أبي مسعود الأنصاري وهو يذكر من قتل من قومه، ويسأل عنهم، فيخبر برجال: منهم سعد بن الربيع، وخارجة بن زهير، وهو يسترجع ويترحم عليهم، وبعض المسلمين يسأل بعضاً عن حميمه وذو رحمهم فيهم، خبر بعضهم بعضاً، فبينما هم على ذلك رد الله المشركين ليذهب ذلك الحزن عنهم، فإذا عدوهم فوقهم قد علوا، وإذا كتائب المشركين بالجبل، ففسوا ما كانوا يذكرون، وندبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحضنا على القتال، والله لكأني أنظر إلى فلان وفلان في عرض الجبل يعدوان هاربين.

قال الواقدي: فكان عمر يحدث يقول: لما صاح الشيطان: قتل محمد، أقبلت أرقى إلى الجبل، فكأني أروية، فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" الآية، وأبو سفيان في سفح الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو ربه: اللهم ليس لهم أن يعلوا. فانكشفوا.

قال الواقدي: فكان أبو أسيد الساعدي يحدث فيقول: لقد رأيتنا قبل أن يلقي النعاس علينا في الشعب وإنما لسلم لمن أرادنا، لما بنا من الحزن، فألقي علينا النعاس، فمنا حتى تناطح الحجف، ثم فزعنا وكأنا لم يصبنا قبل ذلك نكبة. قال: وقال الزبير بن العوام: غشنا النعاس فما منا رجل إلا وذقنه في صدره من النوم، فأسمع معتب بن قشير - وكان من المنافقين - يقول وإني لكالحالم: "لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا"، فأنزل الله تعالى فيه ذلك.

قال: وقال أبو اليسر: لقد رأيتني ذلك اليوم في رجال من قومي إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أنزل الله علينا النعاس أمانةً منه، ما منهم رجل إلا يغط غطيلاً حتى إن الحجف لتناطح، ولقد رأيت سيف بشر بن البراء بن معرور سقط من يده وما يشعر به حتى أخذه بعد ما تلثم، وإن المشركين لتحتنا، وسقط سيف أبي طلحة أيضاً ولم يصب أهل الشك والنفاق نعاس يومئذ، وإنما أصاب النعاس أهل الإيمان واليقين، فكان المنافقون يتكلم كل منهم بما في نفسه، والمؤمنون ناعسون.

قلت: سألت ابن النجار المحدث عن هذا الموضع فقلت له: تأمل مثل قصة أحد يدل على أن المسلمين كانت الدولة لهم بادئ الحال، ثم صارت عليهم، وصاح الشيطان: قتل محمد، فانهزم أكثرهم، ثم تاب أكثر المنهزمين إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فحاربوا دونه حرباً كثيرة طال مدتها حتى صار آخر النهار، ثم أصعدوا في الجبل معتصمين به، وأصعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معهم، فتحاجز الفريقان حينئذ، وهذا هو الذي يدل عليه تأمل قصة أحد، إلا أن بعض الروايات التي ذكرها الواقدي يقتضي غير ذلك، نحو روايته في هذا الباب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لما صاح الشيطان: إن محمداً قد قتل، كان ينادي المسلمين فلا يرجون عليه، وإنما يصعدون في الجبل، وإنه وجه نحو الجبل، فانتهى إليهم وهم أوزاع يتذاكرون بقتل من قتل منهم؛ وهذه الرواية تدل على أنه أصعد صلى الله عليه وآله وسلم في الجبل من أول الحرب، حيث صاح الشيطان، وصياح الشيطان كان حال كون خالد بن الوليد بالجبل من وراء المسلمين لما غشيهم وهم مشغولون بالهيب واختلط الناس، فكيف هذا! فقال: إن الشيطان صاح. قتل محمد دفعين: دفعة في أول الحرب، ودفعة في آخر الحرب، لما تصرم النهار وغشيت الكتائب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قتل

ناصروه وأكلتهم الحرب، فلم يبق معه إلا نفر يسير لا يبلغون عشرة، وهذه كانت أصعب وأشد من الأولى، وفيها اعتصم، وما اعتصم في صرخة الشيطان الأولى بالجبل، بل ثبت وحامى عنه أصحابه، ولقد لقي في الأولى مشقة عظيمة من ابن قميئة وعتبة بن أبي وقاص وغيرهما، ولكنه لم يفارق عرصه الحرب، وإنما فارقها وعلم أنه لم يبق له وجه مقام في صرخته الثانية.

قلت له: فكان القوم مختلطين في الصرخة الثانية حتى يصرخ الشيطان: قتل محمد! قال: نعم، المشركون قد أحاطوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبمن بقي معه من أصحابه، فاختلط المسلمون بهم، وصاروا مغمورين بينهم، لقتلهم بالنسبة إليهم؛ وظن قوم من المشركين أنهم قد قتلوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم فقدوا وجهه وصورته، فنادى الشيطان: قتل محمد، ولم يكن قتل صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن اشتبهت صورته عليهم وظنوه غيره، وأكثر من حامى عنه في تلك الحال علي عليه السلام وأبو دجاجة وسهل بن حنيف، وحامى هو عن نفسه، وجرح قوماً بيده تارة بالسهم، وتارة بالسيف ولكن لم يعلموا بأعيانهم لاختلاط القوم وثوران النقع، وكانت قريش تظنه واحداً من المسلمين، ولو عرفوه بعينه في تلك الثورة لكان الأمر صعباً جداً، ولكن الله تعالى عصمه منهم بأن أزاغ أبصارهم عنه، فلم يزل هؤلاء الثلاثة يجالدون دونه، وهو يقرب من الجبل حتى صار في أعلى الجبل، أصدع من فم الشعب إلى تدريج هناك في الجبل، وورقي في ذلك التدريج صاعداً حتى صار في أعلى الجبل، وتبعه نفر الثلاثة فلحقوا به.

قلت له: فما بال القوم الذين صعدوا الجبل من المشركين، وكيف كان إصعادهم وعودهم؟ قال: أصدعوا لحرب المسلمين لا لطلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنهم ظنوا أنه قد قتل، وهذا هو كان السبب في عودهم من الجبل، لأنهم قالوا: قد بلغنا الغرض الأصلي وقتلنا محمداً، فما لنا والتصميم على الأوس والخزرج وغيرهم من أصحابه، مع ما في ذلك من عظم الخطر بالأنفس! قلت له: فإذا كان هذا قد خطر لهم، فلماذا صعدوا في الجبل.

قال: يخطر لك خاطر، ويدعوك داع إلى بعض الحركات، فإذا شرعت فيها خطر لك خاطر آخر يصرفك عنها، فترجع ولا تتمها! قلت: نعم فما بالهم لم يقصدوا قصد المدينة وينهبوها؟ قال: كان فيها عبد الله بن أبي في ثلاثمائة مقاتل وفيها خلق كثير من الأوس والخزرج، لم يحضروا الحرب وهم مسلمون، وطوائف آخر من المنافقين لم يخرجوا، وطوائف أخرى من اليهود، أولو بأس وقوة، ولهم بالمدينة عيال وأهل ونساء، وكل هؤلاء كانوا يحامون عن المدينة، ولم تكن قريش تأمن مع ذلك أن يأتيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ورائها بمن يجامعه من أصحابه فيحصلوا بين الأعداء من خلفهم ومن أمامهم، فكان الرأي الأصوب لهم العدول عن المدينة وترك قصدتها.

قال الواقدي: حدثني الضحاك بن عثمان، عن حمزة بن سعيد، قال: لما تحاجزوا وأراد أبو سفيان الإنصراف، أقبل يسير على فرس له حوراء، فوقف على أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم في عرض الجبل، فنادى بأعلى صوته: اعل هبل، ثم صاح: أين ابن أبي كبشة؟ يوم بيوم بدر، ألا إن الأيام دول.

وفي رواية أنه نادى أبا بكر وعمر أيضاً، فقال: أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ ثم قال: الحرب سجال، حنظلة بحنظلة، يعني حنظلة بن أبي عامر بحنظلة بن أبي سفيان، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أجيبه؟ قال: نعم فأجبه،

فلما قال: اعل هبل قال عمر: الله أعلى وأجل.

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعمر: قل له: الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال عمر، أو قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قل له: الله مولانا ولا مولى لكم، فقال أبو سفيان: إنما قد أنعمت، فقال: عنها يا بن الخطاب، فقال سعيد بن أبي سفيان: ألا إن الأيام دول لأن الحرب سجال، فقال عمر: ولا سواء؛ قتلانا في الجنة وقتلاككم في النار، فقال أبو سفيان: إنكم لتقولون ذلك لقد جبننا إذاً وخسرنا، ثم قال: يا بن الخطاب، قم إلي أكلمك، فقام إليه فقال: أنشدك بدينك: هل قتلنا محمداً؟ قال: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت عندي أصدق من ابن قميئة، ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته: إنكم واجدون في قتلاككم عنتاً ومثلاً، ألا إن ذلك لم يكن عن رأي سراتنا، ثم أدركته حمية الجاهلية فقال: وأما إذ كان ذلك فلم نكرهه؟ ثم نادى: ألا إن موعدكم بدر الصفراء، على رأس الحول، فوقف عمر وقفةً ينتظر ما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: قل: نعم، فانصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا في الرحيل، فأشفق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون من أن يغيروا على المدينة فيهلك الذراري والنساء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسعد بن أبي وقاص: اذهب فأتنا بخبر القوم، فإني إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن إلى مكة، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينة، والذي نفسي بيده، إن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأنجزهم.

قال سعد: فتوجهت أسعى وأرصدت نفسي إن أفرعني شيء رجعت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أسعى، فبدأت بالسعي حين ابتدأت، فخرجت في آثارهم حتى إذا كانوا بالعقيق وأنا بحيث أراهم وأتأملهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل، فقلت: إنه الظعن إلى بلادهم، ثم وقفوا وقفةً بالعقيق، وتشاوروا في دخول المدينة، فقال لهم صفوان بن أمية: قد أصبتم القوم، فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالون، ولكم الظفر، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم، فقد وليتم يوم بدر، لا والله ما تبعوكم وكان الظفر لهم. فيقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: نأهم صفوان. فلما رآهم سعد على تلك الحال منطلقين وقد دخلوا في المكنن رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو كالمنكسر فقال: وجه القوم يا رسول الله إلى مكة، امتطوا الإبل وجنبوا الخيل. فقال: ما تقول؟ قلت: ما قلت يا رسول الله، فخلا بي فقال: أحقاً ما تقول؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: فما بالي رأيتك منكسراً؟ فقلت: كرهت أن آتي المسلمين فرحاً بقفولهم إلى بلادهم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن سعداً لجرب.

قال الواقدي: وقد روي خلاف هذا، روي أن سعداً لما رجع رفع صوته بأن جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشير إلى سعد: خفض صوتك فإن الحرب خدعة، فلا تري الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم، وإنما ردهم والله تعالى.

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سبرة، عن يحيى بن شبل، عن أبي جعفر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسعد بن أبي وقاص: إن رأيت القوم يريدون المدينة فأخبرني فيما بيني وبينك، ولا تفت في أعضاء المسلمين، فذهب فرأهم قد امتطوا الإبل، فرجع، فما ملك أن جعل يصيح سروراً بانصرافهم.

قال الواقدي: وقيل لعمر بن العاص: كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يوم أحد؟ فقال: ما تريدون إلى ذلك! قد جاء الله بالإسلام، ونفى الكفر وأهله، ثم قال: لما كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم وتفرقوا في كل وجه، وفاءت لهم فئة بعد؛ فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغلبة، فلو انصرفنا، فإنه بلغنا أن ابن أبي انصرف بثلاث الناس، وقد تخلف الناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكروا علينا، وفينا جراح، وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل، فمضينا، فما بلغنا الروحاء حتى قام علينا عدة منها؛ وانصرفنا إلى مكة.

قال الواقدي: حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة، عن عائشة؛ قال: سمعت أبا بكر يقول: لما كان يوم أحد ورمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجهه حتى دخلت في وجهه حلقتان من المغفر، أقبلت أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيراناً، فقلت: اللهم اجعله طلحة بن عبيد الله؟ حتى توافينا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا أبو عبيدة بن الجراح، فبدرني فقال: أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال أبو بكر: فتركته. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عليكم صاحبكم، يعني طلحة، فأخذ أبو عبيدة بشنيتيه حلقة المغفر، فزعاها وسقط على ظهره، وسقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة بشنيتيه الأخرى، فكان أبو عبيدة في الناس أترم. ويقال: إن الذي نزع الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقبه بن وهب بن كلفة؛ ويقال: أبو اليسر.

قال الواقدي: وأثبت ذلك عندنا عقبه بن وهب بن كلفة.

قال الواقدي: وكان أبو سعيد الخدري يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصيب وجهه يوم أحد، فدخلت الحلقتان من المغفر في وجنتيه، فلما نزعتا جعل الدم يسرب كما يسرب الشن، فجعل مالك بن سنان يمج الدم بفيه، ثم ازدرده، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أحب أن ينظر إلى من خالط دمه بدمي فليتنظر إلى مالك بن سنان. فقيل لمالك: تشرب الدم! فقال: نعم؛ أشرب دم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من مس دمه دمي لم تصبه النار.

قال الواقدي: وقال أبو سعيد: كنا ممن رد من الشيخين لم نحىء مع المقاتلة، فلما كان من النهار بلغنا مصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتفرق الناس عنه، جئت مع غلمان بني خدره نعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ننظر إلى سلامته، فراجع بذلك إلى أهلنا، فلقينا الناس متفرقين ببطن قناة، فلم يكن لنا همة إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ننظر إليه؛ فلما رأيته قال: سعد بن مالك! قلت: نعم، بأبي أنت وأمي! ودنوت منه، فقبلت ركبته وهو على فرسه، فقال: أجرك الله في أبيك! ثم نظرت إلى وجهه، فإذا في وجنتيه مثل موضع الدرهم في كل وجنة، وإذا شجة في جبهته عند أصول الشعر، وإذا شفته السفلى تدمى، وإذا في ربايعيته اليمنى شظية، وإذا على جرحه شيء أسود، فسألت: ما هذا على وجهه؟ فقالوا: حصير محرق. وسألت: من أدمى وجنتيه؟ فقيل: ابن قميئة، فقلت: فمن شحه في وجهه؟ فقيل: ابن شهاب؛ فقلت: من أصاب شفثيه؟ قيل: عتبة بن أبي وقاص. فجعلت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه، ما نزل إلا محمولاً، وأرى ركبتيه مجحوشتين يتكوى على السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عباد؛ حتى دخل بيته، فلما غربت الشمس وأذن بلال بالصلاة، خرج على تلك الحال يتوكأ على السعدين: سعد بن عباد وسعد بن معاذ، ثم انصرف إلى بيته والناس في

المسجد يوقدون النيران يتكمدون بها من الجراح، ثم أذن بلال بالعشاء حين غاب الشفق، فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجلس بلال عند بابه صلى الله عليه وآله وسلم حتى ذهب ثلث الليل، ثم ناداه: الصلاة يا رسول الله! فخرج، وقد كان نائماً، قال: فرمقته فإذا هو أخف في مشيته منه حين دخل بيته، فصليت معه العشاء، ثم رجع إلى بيته قد صفف له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه يمشي وحده حتى دخل، ورجعت إلى أهلي فخبرتهم بسلامته، فحمدوا الله وناموا، وكانت وجوه الأوس والخزرج في المسجد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحرسونه فرقاً من قریش أن تكرر.

قال الواقدي: وخرجت فاطمة عليها السلام في نساء، وقد رأت الذي بوجه أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، فاعتنقته، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله وذهب علي عليه السلام فأتى بماء من المهراس، وقال لفاطمة: امسكي هذا السيف غير ذميم، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محتضباً بالدم، فقال: لئن كنت أحسنت القتال اليوم، فلقد أحسن عاصم بن ثابت والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف، وسيف أبي دجانة غير مدموم؛ هكذا روى الواقدي. وروى محمد بن إسحاق أن علياً صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة بيبي شعر، وهما:

فلست برعديد ولا بلئيم

أفأطم هاء السيف غير ذميم

وطاعة رب بالعباد رحيم

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمد

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدق معك سماك بن خرشة، وسهل ابن حنيف.

قال الواقدي: فلما أحضر علي عليه السلام الماء أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يشرب منه، فلم يستطع، وقد كان عطشاً، ووجد رجلاً من الماء كرهها، فقال: هذا ماء آجن، فتمضمض منه للدم الذي كان بفيه ثم بجه، وغسلت فاطمة به الدم عن أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، فخرج محمد بن مسلمة يطلب مع النساء، وكن أربع عشرة امرأة، قد جئن من المدينة يتلقين الناس فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن، ويسقين الجرحى ويداوينهم.

قال الواقدي: قال كعب بن مالك: رأيت عائشة وأم سليم على ظهورهما القرب تحملاهما يوم أحد، وكانت حمئة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى، فلم يجد محمد بن مسلمة عندهن ماء، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد اشتد عطشه، فذهب محمد بن مسلمة إلى قناة ومعه سقاؤه حتى استقى من حسي - قناة عند قصور التميميين اليوم - فجاء بماء عذب، فشرب منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له بخير، وجعل الدم لا ينقطع من وجهه عليه السلام وهو يقول: لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الركن! فلما رأت فاطمة الدم لا يرقأ وهي تغسل جراحه، وعلي يصب الماء عليها بالجن، أخذت قطعة حصير فأحرقتة حتى صار رماداً، ثم ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم. ويقال: إنها داوته بصوفة محرقة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد يداوي الجراح الذي في وجهه بعظم بال

حتى ذهب أثره. ولقد مكث يجد وهن ضربة ابن قميئة على عاتقه شهراً أو أكر من شهر، ويداوي الأثر الذي في وجهه بعظم.

قال الواقدي: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن ينصرف إلى المدينة: من يأتينا بخبر سعد بن الربيع؟ فإني رأيته - وأشار بيده إلى ناحية من الوادي - قد شرع فيه اثنا عشر سنناً، فخرج محمد بن مسلمة - ويقال أبي بن كعب - نحو تلك الناحية. قال: فأنا وسط القتلى لتعرفهم، إذ مررت به صريعاً في الوادي، فناديت فلم يجب، ثم قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسلني إليك. قال: فتنفس كما يتنفس الطير؛ ثم قال: وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحى! قلت: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سنناً، فقال: طعنت اثني عشرة طعنة كلها أجافتي، أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة! والله ما لكم عذر عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف؛ فلم أرم من عنده حتى مات؛ فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته، فرأيت استقبل القبلة رافعاً يديه يقول: اللهم الق سعد بن الربيع وأنت عنه راض" قال الواقدي: وخرجت السمداء بنت قيس؛ إحدى نساء بني دينار، وقد أصيب ابنها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأحد: النعمان بن عبد عمر، وسليم بن الحارث، فلما نعيها لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قالوا: بخير، هو بمحمد الله صالح على ما تحبين، فقالت: أرونيه أنظر إليه، فأشاروا لها إليه، فقالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلت! وخرجت تسوق بابنيها بغيراً، تردهما إلى المدينة؛ فلقيتها عائشة؛ فقالت: ما وراءك؟ فأخبرتها، قالت: فمن هؤلاء معك؟ قالت ابناي؛ حل حل تحمهما إلى القبر.

قال الواقدي: وكان حمزة بن عبد المطلب أول من جيء به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انصراف قريش - أو كان من أولهم - فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: رأيت الملائكة تغسله - قالوا: لأن حمزة كان جنباً ذلك اليوم - ولم يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشهداء يومئذ، وقال: لفوهم لدمائهم وجراحهم، فإنه ليس أحد يجرح في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة لون جرحه لون الدم، وريحه ريح المسك، ثم قال: ضعوهم فأنا الشهيد على هؤلاء يوم القيامة، وكان حمزة أول من كبر عليه أربعاً، ثم جمع إليه الشهداء فكان كلما أتى بشهيد وضع إلى جنب حمزة فصلى عليه وعلى الشهيد، حتى صلى عليه سبعين مرة، لأن الشهداء سبعون.

قال الواقدي: ويقال: كان يؤتى بتسعة وحمزة عاشرهم، فيصلي عليهم، وترفع التسعة، ويترك حمزة مكانه، ويؤتى بتسعة آخرين فيوضعون إلى جنب حمزة فيصلي عليه وعليهم، حتى فعل ذلك سبع مرات، ويقال: إنه كبر عليه خمساً وسبعاً وتسعاً.

قال الواقدي: وقد اختلفت الرواية في هذا، وكان طلحة بن عبيد الله وابن عباس وجابر بن عبد الله يقولون: صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قتلى أحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء، فقال أبو بكر: ألسنا إخوانهم أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا! قال: بلى، ولكن هؤلاء لم يأكلوا من أجورهم شيئاً، ولا أدري ما تحدثون بعدي! فبكى أبو بكر وقال: إنا لكائنون بعدك! وقال أنس بن مالك وسعيد بن المسيب: لم يصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

على قتلى أحد. قال الواقدي: وقال لأهل القتلى: احفروا وأوسعوا وأحسنوا، وادفنوا الاثنين والثلاثة في القبر، وقدموا أكثرهم قرآناً.

وأمر بحمزة أن تمد بردته عليه وهو في القبر، وكانت قصيرة، فكانوا إذا خمروا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا خمروا بها رجله انكشف وجهه، فبكى المسلمون يومئذ، فقالوا: يا رسول الله، عم رسول الله يقتل فلا يوجد له ثوب! فقال: بلى؛ إنكم بأرض جردية ذات أحجار، وستفتح - يعني الأرياف والأمصار - فيخرج الناس إليها، ثم يبعثون إلى أهلهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون؛ والذي نفسي بيده لا تصير نفس على لأوائها وشدها إلا كنت لها شفيعاً أو قال: شهيداً يوم القيامة.

قال الواقدي: وأتى عبد الرحمن بن عوف في خلافة عثمان بتياب وطعام فقال: ولكن حمزة لم يوجد له كفن، ومصعب بن عمير لم يوجد له كفن، وكانا خيراً مني! قال الواقدي: ومر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمصعب بن عمير وهو مقتول مسجى ببردة خلق، فقال: لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك، ثم أنت اليوم أشعث الرأس في هذه البردة! ثم أمر به فقبر، ونزل في قبره أخوه أبو الروم وعامر بن ربيعة وسويطة بن عمرو بن حرملة، ونزل في قبر حمزة علي عليه السلام والزبيب وأبو بكر وعمر ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس على حفرة. قال الواقدي: ثم إن الناس أو عامتهم حملوا قتلاهم إلى المدينة، فدفن بالبقيع منهم عدة، عند دار زيد بن ثابت، ودفن بعضهم ببني سلمة، فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ردوا القتلى إلى مضاجعهم - وكان الناس قد دفنوا قتلاهم - فلم يرد أحد أحداً منهم إلا رجلاً واحداً أدركه المنادي ولم يدفن، وهو شماس بن عثمان المخزومي، كان قد حمل إلى المدينة وبه رمق، فأدخل على عائشة فقالت أم سلمة: ابن عمي يدخل إلى غيري! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: احملوه إلى أم سلمة، فحملوه إليها فمات عندها، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد إلى أحد فيدفن هناك كما هو في ثيابه التي مات فيها، وكان قد مكث يوماً وليلة ولم يذق شيئاً، فلم يصل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا غسله.

قال الواقدي: فأما القبور المجتمعة هناك فكثير من الناس يظنها قبور قتلى أحد، وكان طلحة بن عبيد الله وعباد بن تميم المازني يقولان: هي قبور قوم من الأعراب كانوا عام الرمادة في عهد عمر هناك، فماتوا، فتلك قبورهم. وكان ابن أبي ذئب وعبد العزيز بن محمد يقولان: لا نعرف تلك القبور المجتمعة، إنما هي قبور ناس من أهل البادية، قالوا: إنا نعرف قبر حمزة وقبر عبد الله بن حزام وقبر سهل بن قيس، ولا نعرف غير ذلك.

قال الواقدي: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزور قتلى أحد في كل حول، وإذا لقوه بالشعب رفع صوته يقول: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار! وكان أبو بكر يفعل مثل ذلك، وكذلك عمر بن الخطاب؛ ثم عثمان، ثم معاوية، حين يمر حاجاً ومعتماً.

قال: وكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تأتيهم بين اليومين والثلاثة فتبكي عندهم وتدعو، وكان سعد بن أبي وقاص يذهب إلى ماله بالغابة، فيأتي من خلف قبور الشهداء فيقول: السلام عليكم؛ ثلاثاً، ويقول: لا يسلم

عليهم أحد إلا ردوا عليه السلام إلى يوم القيامة. قال: ومر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبر مصعب بن عمير، فوقف عليه، ودعا وقرأ: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً"، ثم قال: إن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم فزورهم وسلموا عليهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه. وكان أبو سعيد الخدري يقف على قبر حمزة فيدعو ويقرأ ويقول مثل ذلك.

وكانت أم سلمة رحمها الله؛ تذهب فتسلم عليهم في كل شهر فتظل يومها، فجاءت يوماً ومعها غلامها أنبهان، فلم يسلم، فقالت: أي لكع! ألا تسلم عليهم! والله لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة.

قال: وكان أبو هريرة وعبد الله بن عمر يذهبان فيسلمان عليهم؛ قالت فاطمة الخزاعية: سلمت على قبر حمزة يوماً ومعني أخت لي؛ فسمعنا من القبر قائلاً يقول: وعليكما السلام ورحمة الله! قالت: ولم يكن قربنا أحد من الناس.

قال الواقدي: فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دفنهم دعا لفرسه فركبه، وخرج المسلمون حوله عامتهم جرحى، ولا مثل بني سلمة وبني عبد الأشهل، فلما كانوا بأصل الحرة قال: اصطفوا، فاصطفت الرجال صنفين، وخلفهم النساء وعدن أربع عشرة امرأة، فرفع يديه فدعا، فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا مانع أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت.

اللهم إني أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك الأمن يوم الخوف، والغناء يوم الفاقة، عائداً بك اللهم من شر ما أعطيت، ومن شر ما منعت، اللهم توفنا مسلمين، اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم عذب كفرة أهل الكتاب الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، اللهم أنزل عليهم رجسك وعذابك إله الحق، آمين! قال الواقدي: وأقبل حتى نزل ببني حارثة يميناً حتى طلع على بني عبد وهم ييكون على قتلاهم، فقال: لكن حمزة لا بواكى له! فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فخرجت إليه أم عامر الأشهلية، وتركت النوح، فنظرت إليه وعليه الدرع كما هي، فقالت: كل مصيبة بعدك جلل. وخرجت كبشة بنت عتبة بن معاوية بن بلحارث بن الخزرج تعدو نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو واقف على فرسه، وسعد بن معاذ أخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمي، فقال: مرحباً بها! فدنت حتى تأملت، وقالت: إذ رأيتك سالماً فقد شفت المصيبة.

فعزاها بعمر بن معاذ، ثم قال: يا أم سعد! أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً وهم اثنا عشر رجلاً، وقد شفّعوا في أهليهم، فقالت: رضينا يا رسول الله، ومن ييكي عليهم بعد هذا! ثم قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا، فقال: اللهم أذهب حزن قلوبهم، وآجر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا. ثم قال لسعد بن معاذ: حل أبا عمرو الدابة، فحل الفرس، وتبعه الناس، فقال: يا أبا عمرو، إن الجراح في أهل دارك فاشية، وليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان؛ اللون لون دم، والريح ريح مسك، فمن كان مجروحاً فليقر في داره وليداو جرحه، ولا تبلغ معي بيتي، عزمة مني.

فنادى فيهم سعد: عزمة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا يتبعه جريح من بني عبد الأشهل، فتخلف كل مجروح، وباتوا يوقدون النيران ويدأون الجراح، وإن فيهم لثلاثين جريحاً، ومضى سعد بن معاذ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيته، ثم رجع إلى نسائه فساقهن، فلم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فبكين بين المغرب والعشاء، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين فرغ من النوم لثلث الليل، فسمع البكاء فقال: ما هذا؟ قيل: نساء الأنصار يبكين على حمزة، فقال: رضي الله تعالى عنكن وعن أولادكن؛ وأمر النساء أن يرجعن إلى منازلهن، قالت أم سعد بن معاذ: فرجعنا إلى بيوتنا بعد ليل ومعنا رجالنا، فما بكت منا امرأة قط إلا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا. ويقال: إن معاذ بن جبل جاء بنساء بني سلمة، وجاء عبد الله بن رواحة بنساء بلحارث بن الخزرج، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أردت هذا؛ ونهاهن الغد عن النوح أشد النهي.

قال الواقدي: وجعل ابن أبي المنافقون معه يشمتون ويسرون بما أصاب المسلمين، ويظهرون أقبح القول، ورجع عبد الله بن أبي ابنه وهو جريح، فبات يكوي الجراحة بالنار، حتى ذهب عامة الليل وأبوه يقول: ما كان خروجك مع محمد إلى هذا الوجه برأيي؛ عصاني محمد وأطاع الولدان! والله لكأني كنت أنظر إلى هذا، فقال ابنه: الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله.

قال: وأظهرت اليهود القول السيء، وقالوا: ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب هكذا نبي قط في بدنه وأصيب في أصحابه؛ وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويأمرهم بالتفرق عنه، وقالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل؛ حتى سمع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن، فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستأذنه في قتل من سمع ذلك منهم من اليهود والمنافقين، فقال له: يا عمر، إن الله مظهر دينه، ومعر نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم.

قال: فهؤلاء المنافقون يا رسول الله يقولون، فقال: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله! قال: بلى، وإنما يفعلون تعوذاً من السيف، وقد بان لنا أمرهم، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة، فقال: إني نهيت عن قتل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله بن الخطاب، إن قريشاً لن ينالوا ما نالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إخوانكم لما أصيبوا بأحد جعلت أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة فتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مطعمهم ومشرهم ورأوا حسن منقلبهم قالوا: ليت إخواننا يعلمون بما أكرمنا الله وبما نحن فيه لئلا يزهّدوا في الجهاد، ويكلوا عند الحرب! فقال لهم الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون".

القول فيما جرى للمشرّكين بعد انصرافهم إلى مكة

قال الواقدي: حدثني موسى بن شيبه، عن قطر بن وهب الليثي، قال: لما تحاجز الفريقان، ووجه قريش إلى مكة، وامتنوا الإبل، وجنبوا الخيل، سار وحشي، عبد جبير بن مطعم على راحلته أربعاً، فقدم مكة يبشر قريشاً بمصائب المسلمين، فانتهى إلى الثنية التي تطلع على الحجون فنادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، مراراً، حتى ثاب الناس إليه وهم خائفون أن

يأتيهم بما يكرهون، فلما رضي منهم قال: أبشروا فقد قتلنا من أصحاب محمد مقتلة لم نقتل مثلها في زحف قط، وجرحنا محمداً فأثبتناه بالجراح، وقتلنا رأس الكتيبة حمزة بن عبد المطلب، ففترق الناس عنه في كل وجه بالشماتة بقتل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإظهار السرور، وخلا جبير بن مطعم بوحشي، فقال: انظر ما تقول! قال وحشي: قد والله صدقت. قال: قتلت حمزة؟ قال: إي والله ولقد زرقت بالمزراق في بطنه، فخرج من بين فخذيه، ثم نودي فلم يجب، فأخذت كبده وحملتها إليك لترأها. فقال: أذهبت حزن نساءنا، وبردت حر قلوبنا؛ فأمر يومئذ نساءه بمراجعة الطبيب والدهن.

قال الواقدي: وقد كان عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي لما انكشف المشركون بأحد في أول الأمر، خرج هارباً على وجهه، وكره أن يقدم مكة، فقدم الطائف، فأخبر ثقيفاً أن أصحاب محمد قد ظفروا وانهزمنا، وكنت أول من قدم عليكم، ثم جاءهم الخبر بعد أن قريشاً ظفرت وعادت الدولة لها.

قال الواقدي: فسارت قريش قافلة إلى مكة، فدخلتها ظافرة، فكان ما دخل على قلوبهم من السرور يومئذ نظير ما دخل عليهم من الكآبة والحزن يوم بدر، وكان ما دخل على قلوب المسلمين من الغيظ والحزن يومئذ نظير ما دخل عليهم من السرور والجدل يوم بدر، كما قال الله تعالى: "وتلك الأيام نداؤها بين الناس" وقال سبحانه: "أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أن هذا قل هو من عند أنفسكم"؛ قال: يعني إنكم يوم بدر قتلتم من قريش سبعين، وأسرت سبعين، وأما يوم أحد فقتل منكم سبعون، ولم يؤسر منكم أحد، فقد أصبتم قريشاً بمثلي ما أصابوكم يوم أحد، وقوله: "أن هذا" أي كيف هذا، ونحن موعودون بالنصر ونزول الملائكة، وفيما نبي يتزل عليه الوحي من السماء! فقال لهم في الجواب: "هو من عند أنفسكم"، يعني الرماة الذين خالفوا الأمر وعصوا الرسول، وإنما كان النصر ونزول الملائكة مشروطاً بالطاعة وألا يعصى أمر الرسول، ألا ترى إلى قوله: "بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين"، فعلقه على الشرط!

القول في مقتل أبي عزة الجمحي ومعاوية

بن المغيرة بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس

قال الواقدي: أما أبو عزة - واسمه عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة بن جمح - فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذه أسيراً يوم أحد - ولم يؤخذ يوم أحد أسير غيره فقال: يا محمد، من علي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، لا ترجع إلى مكة تمسح عارضيك، فتقول: سخرت بمحمد مرتين. ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

قال الواقدي: وقد سمعنا في أسره غير هذا، حدثني بكير بن مسمار، قال: لما انصرف المشركون عن أحد نزلوا بجمراء الأسد في أول الليل ساعة، ثم رحلوا وتركوا أبا عزة مكانه حتى ارتفع النهار، فلحقه المسلمون وهو مستتب يتلدد، وكان

الذي أخذه عاصم بن ثابت، فأمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم فضرب عنقه.

قلت: وهذه الرواية هي الصحيحة عندي، لأن المسلمين لم تكن حالهم يوم أحد حال من يتهيأ له أحد من المشركين في المعركة لما أصابهم من الوهن

فأما معاوية بن المغيرة فروى البلاذري أنه هو الذي جدع أنف حمزة ومثل به، وأنه انهزم يوم أحد فمضى على وجهه، فبات قريباً من المدينة، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص - وهو ابن عمه لحاً - فضرب بابه، فقالت أم كلثوم زوجته وهي ابنة رسول الله! صلى الله عليه وآله وسلم: ليس هو ههنا، فقال: ابعثي إليه؛ فإن له عندي ثمن بعير ابتعته منه عام أول، وقد جئته به، فإن لم يجيئ ذهبت فأرسلت إليه، وهو عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما جاء قال لمعاوية: أهلكني وأهلك نفسك! ما جاء بك؟ قال: يا بن عم، لم يكن أحد أقر إلي ولا أفس رحماً بي منك، فجئتك لتجبرني، فأدخله عثمان داره وصيره في ناحية منها، ثم خرج إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليأخذ له منه أماناً، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن معاوية في المدينة، وقد أصبح بها، فاطلبوه. فقال بعضهم: ما كان ليعدو منزل عثمان، فاطلبوه به، فدخلوا منزل عثمان، فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذي صيره فيه، فاستخرجوه من تحت حمارة لهم، فانطلقوا به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال عثمان حين رآه: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له الأمان، فهبه لي، فوهبه له، وأجله ثلاثاً، وأقسم: لئن وجدته بعدها يمشي في أرض المدينة وما حولها ليقنتلته. وخرج عثمان فجهره واشترى له بعيراً، ثم قال: ارتحل. وسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويأتي بها قريباً، فلما كان في اليوم الرابع قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن معاوية أصبح قريباً لم ينفذ، فاطلبوه. فأصابوه وقد أخطأ الطريق، فأدركوه، وكان اللذان أسرعاً في طلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فوجداه بالجماء فضربه زيد بالسيف، وقال عمار: إن لي فيه حقاً، فرمياه بسهم فقتلاه، ثم انصرفا إلى المدينة بخبره، ويقال: إنه أدرك على ثمانية أميال من المدينة، فلم يزل زيد وعمار يرميانه بالنبل حتى مات.

قال: ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أم عبد الملك بن مروان.

قال: وذكر الواقدي في كتابه مثل هذه الرواية سواء.

قال البلاذري: وقال ابن الكلبي: إن معاوية بن المغيرة جدع أنف حمزة يوم أحد وهو قتيل، فأخذ بقرب أحد، فقتل على أحد بعد انصراف قريش بثلاث، ولا عقب له إلا عائشة أم عبد الملك بن مروان. قال: ويقال: إن علياً عليه السلام هو الذي قتل معاوية بن المغيرة.

قلت: ورواية ابن الكلبي عندي أصح، لأن هزيمة المشركين كانت في الصدمة الأولى عقيب قتل بني عبد الدار أصحاب

الألوية، وكان قتل حمزة بعد ذلك لما كر خالد بن الوليد الخيل من وراء المسلمين، فاختلطوا، وانتفض صفهم، وقتل بعضهم بعضاً، فكيف يصح أن يجتمع لمعاوية كونه قد جدع أنف حمزة، وكونه قد انهزم مع المشركين في الصدمة الأولى! هذا متناقض، لأنه إذا كان قد انهزم في أول الحرب استحال أن يكون حاضراً عند حمزة حين قتل. والصحيح ما ذكره ابن

الكلبي من أنه شهد الحرب كلها، وجدع أنف حمزة، ثم حصل في أيدي المسلمين بعد انصراف قريش، لأنه تأخر عنهم لعارض عرض له فأدركه حينه، فقتل.

القول في مقتل المجذر بن زياد البلوي

والحارث بن يزيد بن الصامت

قال الواقدي: كان المجذر بن زياد البلوي حليف بني عوف بن الخزرج ممن شهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت له قصة في الجاهلية قبل قدوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، وذلك أن حضير الكتائب، والد أسيد بن حضير، جاء إلى بني عمرو بن عوف، فكلّم سويد بن الصامت وخوات بن جبير وأبا لبابة بن عبد المنذر - ويقال سهل بن حنيف - فقال: هل لكم أن تزوروني فأسقيكم شراباً، وأنخر لكم، وتقيمون عندي أياماً! قالوا: نعم، نحن نأتيك يوم كذا، فلما كان ذلك اليوم جاؤوه فنحر لهم جزوراً، وسقاهم خمرًا، وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى تغير اللحم - وكان سويد بن الصامت يومئذ شيخاً كبيراً - فلما مضت الأيام الثلاثة قالوا: ما نرانا إلا راجعين إلى أهلنا! فقال حضير: ما أحببتكم! إن أحببتهم فأقيموا، وإن أحببتهم فانصرفوا، فخرج الفتيان بسويد بن الصامت يحملانه على جمل من الثمل؛ فمروا لاصقين بالحرّة حتى كانوا قريباً من بني عيينة، فجلس سويد يبول وهو ثمل سكرًا، فبصر به إنسان من الخزرج، فخرج حتى أتى المجذر بن زياد، فقال: هل لك في الغنيمة الباردة! قال: ما هي؟ قال: سويد بن الصامت، أعزل لا سلاح معه، ثمل، فخرج المجذر بن زياد بالسيف مصلناً فلما رآه الفتيان وهما أعزلان لا سلاح معهما وليا، والعداوة بين الأوس والخزرج شديدة. فانصرفا مسرعين، وثبت الشيخ ولا حراك به، فوقف المجذر بن زياد، فقال: قد أمكن الله منك! قال: ما تريد بي؟ قال: قتلك. قال: فارفع عن الطعام، واحفض عن الدماغ، فإذا رجعت إلى أمك، فقل: إني قتل سويد بن الصامت. فقتله، فكان قتله هو الذي هيج وقعة بعاث.

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت، وأسلم المجذر فشهدا بدرًا، فجعل الحارث بن سويد يطلب المجذر في المعركة ليقنتله بأبيه، فلا يقدر عليه يومئذ؛ فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة، أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، ثم خرج إلى حمراء الأسد، فلما رجع من حمراء الأسد أتاه جبرائيل عليه السلام، فأخبره أن الحارث بن سويد قتل المجذر غيلةً، وأمره بقتله، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قباء في اليوم الذي أخبره جبرائيل في يوم حار - وكان ذلك يومًا لا يركب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قباء، إنما كانت الأيام التي يأتي فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قباء يوم السبت. ويوم الاثنين - فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجد قباء صلى فيه ما شاء الله أن يصلي، وسمعت الأنصار فجاءوا يسلمون عليه، وأنكروا إتيانه تلك الساعة، في ذلك اليوم. فجلس عليه السلام يتحدث ويتصفح الناس حتى طلع الحارث بن سويد في ملحفة مורسة فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا

عويم بن ساعدة فقال له: قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذر بن زياد، فإنه قتله يوم أحد. فأخذه عويم، فقال الحارث: دعني أكلم رسول الله - ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد أن يركب، ودعا بجماره إلى باب المسجد - فجعل الحارث يقول: قد والله قتلته يا رسول الله، وما كان قتلي إياه رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه، ولكنه حمية الشيطان، وأمر وكلت فيه إلى نفسي، وإني أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عملت، وأخرج ديتي وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة، وأطعم ستين مسكيناً، إني أتوب إلى الله يا رسول الله! وجعل يمسك بركاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبنو المجذر حضور، لا يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً، حتى إذا استوعب كلامه قال: قدمه يا عويم فاضرب عنقه. وركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقدمه عويم بن ساعدة على باب المسجد، فاضرب عنقه.

قال الواقدي: ويقال: إن الذي أعلم رسول الله قتل الحارث المجذر يوم أحد حبيب بن يساف، نظر إليه حين قتله، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأخبره، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتفحص عن هذا الأمر، فبينما هو على حماره نزل جبرائيل عليه السلام، فخبره بذلك، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عويماً فاضرب عنقه، فففى ذلك قال حسان:

يا حار في سنة من نوم أولكم أم كنت ويحك مغتراً بجبريل

فأما البلاذري فإنه ذكر هذا، وقال: ويقال إن الجلاس بن سويد بن الصامت هو الذي قتل المجذر يوم أحد غيلةً؛ إلا أن شعر حسان يدل على أنه الحارث.

قال الواقدي والبلاذري: وكان سويد بن الصامت حين ضربه المجذر بقي قليلاً ثم مات، فقال قبل أن يموت يخاطب أولاده:

أبلغ جلاساً وعبد الله مألكتاً وإن دعيت فلا تخذلها حار والحي عوقاً على عرف وإنكار

قال البلاذري: جذرة وجذارة أخوان، وهما ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج. قلت: هذه الروايات كما ترى، وقد ذكر ابن ماكولا في الإكمال أن الحارث بن سويد قتل المجذر غيلةً يوم أحد، ثم التحق بمكة كافراً، ذكره في حرف الميم من هذا الكتاب، وهذا هو الأشبه عندي.

القول فيمن مات من المسلمين بأحد جملة

قال الواقدي: ذكر سعيد بن المسيّب وأبو سعيد الخدري أنه قتل من الأنصار خاصة أحد وسبعون، وبمثله قال مجاهد. قال: فأربعة من قريش، وهم حمزة بن عبد المطلب؛ قتله وحشي، وعبد الله بن جحش بن رثاب؛ قتله أبو الحكم بن الأحنس بن شريق، وشماس بن عثمان بن الشريد من بني مخزوم؛ قتله أبي بن خلف، ومصعب بن عمير؛ قتله ابن قميئة. قال: وقد زاد قوم خامساً، وهو سعد مولى حاطب من بني أسد من عبد العزى. وقال قوم أيضاً: إن أبا سلمة بن عبد

الأسد المخزومي جرح يوم أحد، ومات من تلك الجراحة بعد أيام.

قال الواقدي: وقال قوم: قتل ابنا المهيب من بني سعد بن ليث، وهما عبد الله وعبد الرحمن ورجلان من بني مزينة وهما وهب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عتبة بن قابوس؛ فيكون جميع من قتل من المسلمين ذلك اليوم نحو أحد وثمانين رجلاً، فأما تفصيل الأسماء الأنصار فمذكور في كتب الحديث، وليس هذا الموضع مكان ذكره.

القول فيمن قتل من المشركين بأحد

قال الواقدي: قتل من بني عبد الدار طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء قريش؛ قتله علي بن أبي طالب عليه السلام مبارزة، وعثمان بن أبي طلحة؛ قتله حمزة بن عبد المطلب وأبو سعيد بن أبي طلحة؛ قتله سعد بن أبي وقاص، ومسافع بن طلحة بن أبي طلحة، قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وكلاب بن طلحة بن أبي طلحة؛ قتله الزبير بن العوام والحارث بن طلحة بن أبي طلحة، قتله عاصم بن ثابت، والجلال بن طلحة بن أبي طلحة؛ قتله طلحة بن عبيد الله، وأرطاة بن عبد شريح؛ قتله علي بن أبي طالب عليه السلام وقارظ بن شريح بن عثمان بن عبد الدار - ويروى فاسط بالسين والطاء المهملتين - قال الواقدي: لا يدري من قتله، وقال البلاذري: قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وصواب مولاهم: قتله علي بن أبي طالب عليه السلام وقيل: قتله قزمان - وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، قتله قزمان، فهؤلاء أحد عشر. ومن بني أسد بن عبد العزى عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد؛ قتله أبو دجانة في رواية الواقدي، وفي رواية محمد بن إسحاق، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقال البلاذري: قال ابن الكلبي: إن عبد الله بن حميد قتل يوم بدر.

ومن بني زهرة أبو الحكم بن الأخنس بن شريق؛ قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وسباع بن عبد العزى الخزاعي - واسم عبد العزى عمرو بن نضلة بن عباس بن سليم، وهو ابن أم أثمار الحمامة بمكة - قتله حمزة بن عبد المطلب؛ فهذان رجلان.

ومن بني مخزوم أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة؛ قتله علي عليه السلام، وهشام بن أبي أمية بن المغيرة؛ قتله قزمان، والوليد بن العاص بن هشام قتله قزمان، وخالد بن أعلم العقيلي؛ قتله قزمان، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة؛ قتله الحارث بن الصمة، فهؤلاء خمسة.

ومن بني عامر بن لؤي عبيد بن حاجز؛ قتله أبو دجانة، وشيبة بن مالك بن المضرب قتله طلحة بن عبيد الله. وهذان اثنان.

ومن بني جمح أبي بن خلف؛ قتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، وأبو عزة، قتله عاصم بن ثابت صبراً بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهذان اثنان.

ومن بني عبد مناة بن كنانة خالد بن سفيان بن عوف، وأبو الشعثاء بن سفيان بن عوف، وأبو الحمراء بن سفيان بن عوف، وغراب بن سفيان بن عوف، هؤلاء الإخوة الأربعة قتلهم علي بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن

حبيب.

فأما الواقدي فلم يذكر في باب من قتل من المشركين بأحد لهم قاتلاً معيناً، ولكنه ذكر في كلام آخر قبل هذا الباب أن أبا سيرة بن الحارث بن علقمة قتل أحد بني سفيان بن عوف، وأن رشيداً الفارسي مولى بني معاوية لقي آخر من بني سفيان بن عوف مقنعاً في الحديد وهو يقول: أنا من عوف؛ فيعرض له سعد مولى حاطب، فضربه ابن عوف ضربة جزله باثنتين، فأقبل رشيد على ابن عوف فضربه على عاتقه - فقطع الدرع - حتى جزله اثنتين وقال: خذها وأنا الغلام الفارسي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يراه ويسمعه: ألا قلت: أنا الغلام الأنصاري! قال: فيعرض لرشيد أخ للمقتول أحد بني سفيان بن عوف أيضاً، وأقبل يعدو نحوه كأنه كلب، يقول: أنا ابن عوف، ويضربه رشيد أيضاً على رأسه وعليه المغفر، ففلق رأسه، وقال: خذها وأنا الغلام الأنصاري! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أحسنت يا أبا عبد الله! فكناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مله يومئذ ولا ولد له. قلت: فأما البلاذري فلم يذكر لهم قاتلاً، ولكنه عدهم في جملة من قتل من المشركين بأحد؛ وكذلك ابن إسحاق لم يذكر من قتلهم، فإن صحت رواية الواقدي فعلي عليه السلام لم يكن قد قتل منهم إلا واحداً، وإن كانت رواية ابن حبيب صحيحة فالأربعة من قتلاه عليه السلام. وقد رأيت في بعض كتب أبي الحسن المدائني أيضاً أن علياً عليه السلام هو الذي قتل بني سفيان بن عوف يوم أحد، وروى له شعراً في ذلك.

ومن بني عبد شمس معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، قتله علي عليه السلام في إحدى الروايات، وقيل: قتله زيد بن حارثة وعمار بن ياسر.

فجميع من قتل من المشركين يوم أحد ثمانية وعشرون، قتل علي عليه السلام منهم - ما اتفق عليه وما اختلف فيه - اثني عشر؛ وهو إلى جملة القتلى كعدة من قتل يوم بدر إلى جملة القتلى يومئذ، وهو قريب من النصف.

القول في خروجه صلى الله عليه وآله بعد انصرافه من أحد

إلى المشركين ليوقع بهم علي ما هو به من الوهن

قال الواقدي: بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن المشركين قد عزموا أن يردوا إلى المدينة فينهبوها، فأحب أن يريهم قوة، فصلى الصبح يوم الأحد لثمان خلون من شوال ومعه وجوه الأوس والخزرج، وكانوا باتوا تلك الليلة في بابه يحرسونه من البيات، فيهم سعد بن عباد، وسعد بن معاذ، والحباب بن المنذر، وأوس بن خولي، وقتادة بن النعمان في عدة منهم. فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالاً أن ينادي في الناس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس، فخرج سعد بن معاذ راجعاً إلى قومه يأمرهم بالمسير، والجراح في الناس فاشية، عامة بني عبد الأشهل جريح، بل كلها، فجاء سعد بن معاذ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمركم أن تطلبوا عدوكم. قال: يقول أسيد بن حضير وبه سبع جراحات، وهو يريد أن يداويها: سمعاً وطاعة لله ولرسوله! فأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء جراحه، ولحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وجاء سعد بن عبادة قومه بني ساعدة، فأمرهم بالمسير، فلبسوا ولحقوا، وجاء أبو قتادة أهل خربا، وهم يداوون الجراح، فقال: هذا منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمركم بطلب العدو، فوثبوا إلى سلاحهم، ولم يعرجوا على جراحاتهم، فخرج من بني سلمة أربعون جريحاً، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً، وبخراش بن الصمة عشر جراحات، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً، وبقطبة بن عامر بن خديج بيده تسع جراحات، حتى وافوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقبر أبي عتبة، وعليهم السلاح، وقد صفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية، قال: اللهم ارحم بني سلمة.

قال الواقدي: وحدثني عتبة بن جبيرة عن رجال من قومه؛ أن عبد الله بن سهل ورافع بن سهل من بني عبد الأشهل رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة وعبد الله أثقلهما جرحاً، فلما أصبحا وجاء سعد بن معاذ قومه يخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمرهم بطلب العدو، قال أحدهما لصاحبه: والله إن تركنا غزاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعين، والله ما عندنا دابة نركبها، ولا ندرى كيف نصنع! قال عبد الله انطلق بنا. قال رافع: لا والله ما بي مشي، قال أخوه: انطلق بنا نقصد ونجوز، وخرجا يزحفان، فضعف رافع، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبة، ويمشي الآخر عقبة، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند العشاء وهم يوقدون النيران، فأتى بهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى حرسه تلك الليلة عماد بن بشر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهما: ما حبسكما؟ فأخبراه بعلتتهما، فدعا لهما بخير، وقال: إن طالت لكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل، وليس ذلك بخير لكما.

قال الواقدي: وقال جابر بن عبد الله: يا رسول الله، إن منادياً نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس، وقد كنت حريضاً بالأمس على الحضور، ولكن أبي خلفني على أخوات لي، وقال: يا بني لا ينبغي لك أن تدعهن ولا رجل معهن، وأخاف عليهن، وهن نسيات ضعاف، وأنا خارج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعل الله يرزقني الشهادة، فتخلفت عليهن، فاستأثر علي بالشهادة، وكنت رجوتها، فأذن لي يا رسول الله أن أسير معك. فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال جابر: فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال. فأبى ذلك عليهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلوائه وهو معقود لم يحل من أمس، فدفعه إلى علي عليه السلام، ويقال: دفعه إلى أبي بكر، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مجروح، في وجهه أثر الحلقتين، ومشجوج في جبهته في أصول الشعر، ورباعيته قد شظيت، وشفته قد كلمت من باطنها، ومنكبه الأيمن موهن بضربة ابن قمينة، وركبته مححوشتان؛ فدخل المسجد فصلى ركعتين، والناس قد حشدوا، ونزل أهل العوالي حيث جاءهم الصريخ. ودعا بفروسه على باب المسجد، وتلقاه طلحة بن عبيد الله، وقد سمع المنادي، فخرج ينظر متى يسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! فإذا هو وعليه الدرع والمغفر لا يرى منه إلا عيناه، فقال: يا طلحة، سلاحك، قال: قريباً، قال طلحة: فأخرج، وأعدو فألبس درعي وأخذ سيفي، وأطرح درعتي في صدري، وإن بي لتسع جراحات، ولأنا أهم بجراح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مني بجراحي، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على طلحة، فقال: أين ترى

القوم الآن؟ قال: هم بالسيالة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ذلك الذي ظننت، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا، قال: وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة نفر من أسلم طليعة في آثار القوم، فانقطع أحدهم، وانقطع قبال نعل الآخر، ولحق الثالث بقريش وهم بحمراء الأسد، ولهم زجل يأتمرون في الرجوع إلى المدينة، وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك، ولحق الذي انقطع قبال نعله بصاحبه، فبضرت قريش بالرجلين، فعطفت عليهما، فأصابوهما، وانتهى المسلمون إلى مصرعهما بحمراء الأسد، فقبرهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قبر واحد، فهما القرينان.

قال الواقدي: اسماهما سليط ونعمان.

قال الواقدي: قال جابر بن عبد الله: كانت عامة أزوادنا ذلك اليوم التمر، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بغيراً تمرّاً حتى وافت حمراء الأسد، وساق جزراً، فحروا في يوم ثنتين، وفي يوم ثلاثاً، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجمع الحطب، فإذا أمسوا أمرهم أن يوقدوا النيران: فيوقد كل رجل ناراً، فلقد كنا تلك الليلة نوقد خمسمائة نار حتى نرى من المكان البعيد، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كل وجه، وكان ذلك مما كبت الله به عدونا.

قال الواقدي: وجاء معبد بن أبي معبد الخزاعي - وهو يومئذ مشرك - إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت خزاعة سلماً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا محمد عز علينا ما أصابك في نفسك، وما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك، وأن المصيبة كانت بغيرك، ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشاً بالروحاء وهم يقولون: لا محمداً أصبتهم، ولا الكواعب أردفتهم، فبئسما صنعتهم! وهم مجمعون على الرجوع إلى المدينة، ويقول قائلهم فيما بينهم: ما صنعنا شيئاً، أصبنا أشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم، وقبل أن يكون لهم وفر، وكان المتكلم بهذا عكرمة بن أبي جهل، فلما جاء معبد إلى أبي سفيان قال: هذا معبد، وعنده الخبر، ما وراءك يا معبد؟ قال: تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم بمثل النيران، وقد اجتمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم، وقد غضبوا لقومهم غضباً شديداً ولمن أصبتهم من إشرافهم. قالوا: ويحك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحلوا حتى تروا نواصي الخيل، ولقد حملني ما رأيت منهم أن قلت أبيتاً، قالوا: وما هي؟ فأنشدهم هذا الشعر:

إذ سالت الأرض بالجرذ الأبابيل

كادت تهد من الأصوات راحلتي

عند اللقاء ولا ميل معازيل

تعدو بأسد ضراء لا تتابله

إذا تغطمطت البطحاء بالجيل!

فقلت ويل ابن حرب من لقائهم

وقد كان صفوان بن أمية رد القوم بكلامه قبل أن يطلع معبد، وقال لهم صفوان: يا قوم، لا تفعلوا؛ فإن القوم قد حاربوا، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعت إليهم أن تكون الدولة عليكم. قال: فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أرشدهم صفوان وما كان برشيد، ثم قال: والذي نفسي

بيده لقد سومت لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذهاب، قال: فانصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب لهم، ومر بأبي سفيان قوم من عبد القيس يريدون المدينة، فقال لهم: هل أنتم مبلغو محمد وأصحابه ما أرسلكم به؛ على أن أوفر لكم أباعركم زيبياً غداً بعكاظ؛ إن أنتم جئتموني! قالوا: نعم، قال: حيثما لقيتم محمداً وأصحابه فأخبروهم أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم، وأنا أثاركم. وانطلق أبو سفيان إلى مكة، وقدم الركب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالحمراء فأخبروهم بالذي أمرهم أبو سفيان، فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانزل ذلك في القرآن، وأرسل معبد رجلاً من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمه أنه قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ثلاث إلى المدينة.

في شرح غزاة مؤتة نذكرها من كتاب الواقدي

ونزيد على ذلك ما رواه محمد بن إسحاق في كتابه على عادتنا فيما تقدم قال الواقدي: حدثني ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحارث بن عمير الأزدي في سنة ثمان إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد. قال: نعم، فأمر به فأوثق رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسول غيره، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاشتد عليه، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث، فأسرعوا وخرجوا، فعسكروا بالحرف، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الظهر جلس وجلس أصحابه حوله، وجاء النعمان بن مهض اليهودي فوقف مع الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب ابن رواحة فليترض المسلمون من بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم.

فقال النعمان بن مهض: يا أبا القاسم، إن كنت نبياً فسيصاب من سميت قليلاً كانوا أو كثيراً، إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سمى مائة أصيبوا جميعاً.

ثم جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة: اعهد فلا ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً. قال زيد: أشهد أنه نبي صادق فلما أجمعوا المسير وعقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم اللواء بيده دفعه إلى زيد بن حارثة، وهو لواء أبيض، ومشى الناس إلى أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يودعونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف، فلما ساروا في معسكرهم ناداهم المسلمون: دفع الله عنكم، وردكم صالحين سالمين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة:

وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

يا أرشد الله من غاز فقد رشدا

لكنني أسأل الرحمن مغفرة

أو طعنة بيدي حران مجهزة

حتى يقولوا إذا مروا على جدتي

قلت: اتفق المحدثون على أن زيد بن حارثة كان هو الأمير الأول، وأنكرت الشيعة ذلك، وقالوا: كان جعفر بن أبي طالب هو الأمير الأول، فإن قتل فريد بن حارثة، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، ورووا في ذلك روايات، وقد وجدت في الأشعار التي ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازي ما يشهد لقولهم، فمن ذلك ما رواه عن حسان بن ثابت وهو:

تأوبني ليل بيثرب أعسر	وهم إذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لي عبرة	سفوحاً وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية	وكم من كريم يبتلى ثم يصبر!
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا	بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا	جميعاً وأسيف المنية تخطر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا	شعوب وخلق بعدهم يتأخر
غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم	إلى الموت ميمون النقيبة أضر
أغر كضوء البدر من آل هاشم	أبي إذا سيم الظلامة أصعر
فطاعن حتى مال غير موسد	بمعترك فيه القنا متكسر
فصار مع المستشهدين ثوابه	جنان وملنف الحقائق أخضر
وكنا نرى في جعفر من محمد	وقاراً وأمرأ حازماً حين يأمر
وما زال في الإسلام من آل هاشم	دعائم صدق لا ترام ومفخر
هم جبل الإسلام والناس حولهم	رضام إلى طوبى يطول ويقهر
بها ليل منهم جعفر وابن أمه	علي ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهم	عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج الغماء من كل مأزق	عماس إذا ما ضاق بالناس مصدر
هم أولياء الله انزل حكمه	عليهم وفيهم والكتاب المطهر

ومنها قول كعب بن مالك الأنصاري من قصيدة أولها:

نام العيون ودمع عينك يهمل	سحاً كما وكف الرباب المسبل
وجدا على نفر الذين تتابعوا	قتلى بمؤتة اسندوا لم ينقلوا
ساروا أمام المسلمين كأنهم	طود يقودهم الهزبر المشبل
إذ يهتدون بجعفر ولوائه	قدام أولهم ونعم الأول
حتى تقوضت الصفوف وجعفر	حيث التقى جمع الغواة مجدل

فتغير القمر المنير لفقده

والشمس قد كسفت وكادت تأفل

قوم علا بنيانهم من هاشم

فرع أشم وسؤدد متأثل

قوم بهم عصم الإله عباده

وعليهم نزل الكتاب المنزل

فضلوا المعاشر عفة وتكرماً

وتعمدت أخلاقهم من يجهل

قال الواقدي: فحدثني ابن أبي سيرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن رافع بن إسحاق، عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطبهم فأوصاهم فقال: أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث: فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، واكف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فاقبل واكف. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفياء ولا في الغنمة شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوا أن تستترهم على حكم الله فلا تستترهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا! وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة وأرادوا أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسول الله فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسول الله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وأصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

قال الواقدي: وحدثني أبو صفوان، عن خالد بن يزيد، قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مشيعاً لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف ووقفوا حوله، فقال: اغزوا بسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين الناس، فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص، فاقلعوها بالسيف، ولا تقتلن امرأة، ولا صغيراً، ضرعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعن نخلاً ولا شجراً، ولا تهدمن بناء.

قال الواقدي: فلما دعا ودع عبد الله بن رواحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: مربي بشيء أحفظه عنك، قال: إنك قادم غداً بلداً، السجود فيه قليل، فأكثر السجود. فقال عبد الله: زدني يا رسول الله، قال: اذكر الله، فإنه عون لك على ما تطلب.

فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع فقال: يا رسول الله: إن الله وتر يحب الوتر، فقال: يا بن رواحة، ما عجزت فلا تعجز إن أسأت عسراً أن تحسن واحدة. فقال ابن رواحة: لا أسألك عن شيء بعدها.

وروى محمد بن إسحاق أن عبد الله بن رواحة ودع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشعر منه:

فثبت الله ما آتاك من حسن

تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

إني تفرست فيك الخير نافلة

فراصةً خالفتهم في الذي نظروا

أنت الرسول فمن يحرم نوافله

والبشر منه فقد أودى به القدر

قال محمد بن إسحاق: فلما ودع المسلمين بكى، فقالوا له: ما يبكيك يا عبد الله؟ قال: والله ما بي حب الدنيا ولا صباة إليها، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ: "وإن منكم إلا واردها"، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود! قال الواقدي: وكان زيد بن أرقم يحدث، قال: كنت يتيماً في حجر عبد الله بن رواحة، فلم أر والي يتيم كان خيراً لي منه، خرجت معه في وجهة إلى مؤتة وصب بي وصبيت به، فكان يردفني خلف رحله، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين شعبي رحله:

إذا بلغتني وحملت رحلي

مسافة أربع بعد الحساء

فشأنك فانعمي وخالك ذم

ولا أرجع إلى أهلي ورائي

وآب المسلمون وخلفوني

بأرض الشام مشتهر الثواء

وزودني الأقارب من دعاء

إلى الرحمن وانقطع الإخاء

هنالك لا أبالي طلع نخل

ولا نخل أسافلها رواء

فلما سمعت منه هذا الشعر بكيت، فحفظني بالدرة وقال: وما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة فاستريح من الدنيا ونصبها، وهمومها وأحزانها وأحداثها، وترجع أنت بين شعبي الرحل! قال الواقدي: ومضى المسلمون فترلوا وادي القرى فأقاموا به أياماً، وساروا حتى نزلوا بمؤتة، وبلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل ماء من مياه البلقاء في بكر وبهراء ولحم وجذام وغيرهم مائة ألف مقاتل، وعليهم رجل من بلي، فأقام المسلمون ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنخبره الخبر؛ فإذا أن يردنا أو يزيدنا رجالاً؛ فبينما الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبد الله بن رواحة فشجعهم، وقال: والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدة ولا كثرة سلاح ولا كثرة خيل، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا فقاتلوا؛ فقد والله رأينا يوم بدر، وما معنا إلا فرسان، إنما هي إحدى الحسينين: إما الظهور عليهم فذاك ما وعدنا الله ورسوله، وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فلحق بالإخوان، نرافقهم في الجنان. فشجع الناس على قول ابن رواحة.

قال الواقدي: وروى أبو هريرة قال: شهدت مؤتة فلما رأينا المشركين رأينا ما لا قبل لنا به من العدد والسلاح والكراع والدباج والحريز والذهب، فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أرقم: مالك يا أبا هريرة؛ كأنك ترى جموعاً كثيرة! قلت: نعم، قال: لم تشهدنا ببدر، إنا لم ننصر بالكثرة.

قال الواقدي: فالتقى القوم، فأخذ اللواء زيد بن حارثة، فقاتل حتى قتل، طعنوه بالرماح، ثم أخذة جعفر فترل عن فرس له شقراء فعربها، ثم قاتل حتى قتل.

قال الواقدي: قيل: إنه ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين، فوقع أحد نصفيه في كرم هناك، فوجد فيه ثلاثون أو بضع

وثلاثون جرحاً.

قال الواقدي: وقد روى نافع عن ابن عمر أنه وجد في بدن جعفر بن أبي طالب اثنتان وسبعون ضربة وطعنة بالسيوف والرماح.

قال البلاذري: قطعت يده، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لقد أبدله الله بهما جناحين يطير بهما في الجنة؛ ولذلك سمي الطيار.

قال الواقدي: ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فنكل يسيراً، ثم حمل فقاتل حتى قتل، فلما قتل انهزم المسلمون أسوأ هزيمة كانت في كل وجه، ثم تراجعوا؟ فأخذ اللواء ثابت بن أرقم، وجعل يصيح بالأنصار، فتاب إليه منهم قليل، فقال لخالد بن الوليد: خذ اللواء يا أبا سليمان، قال خالد: لا بل خذه أنت فلك سن، وقد شهدت بدرًا. قال ثابت: خذه أيها الرجل، فوالله ما أخذته إلا لك. فأخذه خالد وحمل به ساعة، وجعل المشركون يحملون عليه حتى دهمه منهم بشر كثير، فانحاز بالمسلمين، وانكشفوا راجعين.

قال الواقدي: وقد روي أن خالدًا ثبت بالناس فلم ينهزموا؛ والصحيح أن خالدًا انهزم بالناس.

قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما التقى الناس بمؤتة جلس على المنبر، وكشف له ما بينه وبين الشام، فهو ينظر إلى معركتهم، فقال: أخذ الراية زيد بن حارثة، فجاء الشيطان فحبب إليه الحياة، وكره إليه الموت، وحبب إليه الدنيا، فقال: الآن حين استحکم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبب إلي الدنيا! فمضى قدمًا حتى استشهد، ثم صلى عليه، وقال: استغفروا له فقد دخل الجنة وهو يسعى، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجاء الشيطان فمناه الحياة وكره إليه الموت، ومناه الدنيا، فقال: الآن حين استحکم الإيمان في قلوب المؤمنين تتمنى الدنيا! ثم مضى قدمًا حتى استشهد فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له، ثم قال: استغفروا لأخيكم فإنه شهيد قد دخل الجنة، فهو يطير فيها بجناحين من ياقوت حيث شاء.

ثم قال: أخذ الراية عبد الله بن رواحة، ثم دخل معترضاً فشق ذلك على الأنصار، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أصابته الجراح. قيل: يا رسول الله، فما اعتراضه؟ قال: لما أصابته الجراح نكل فعاتب نفسه. فشجع فاستشهد؛ فدخل الجنة؛ فسري عن قومه.

وروى محمد بن إسحاق قال: لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زيداً وجعفرًا سكنت عن عبد الله بن رواحة حتى تغيرت وجوة الأنصار، وظنوا أنه قد كان من عبد الله بعض ما يكرهون، ثم قال: أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل شهيداً، ثم قال: لقد رفعوا لي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير ابن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت: لم هذا؟ فقليل: لأنهما مضيا؛ وتردد هذا بعض التردد، ثم مضى.

قال: وروى محمد بن إسحاق أنه لما أخذ جعفر بن أبي طالب الراية قاتلاً شديداً حتى إذا لحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها؛ ثم قاتل القوم حتى قتل، فكان جعفر رضي الله عنه أول رجل عقر فرسه في الإسلام.

قال محمد بن إسحاق: ولما أخذ ابن رواحة الراية جعل يتردد بعض التردد، ويستقدم نفسه يستتر لها، وقال:

طوعاً وإلا سوف تكرهنه

إذا أجنب الناس وشدوا الرنه

هل أنت إلا نطفة في شنه!

أقسمت يا نفس لتتزلنه

مالي أراك تكرهين الجنه

قد طالما قد كنت مطمئنه

ثم ارتجز أيضاً فقال:

هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما هديت

يا نفس إلا تقتلي تموتي

وما تمنيت فقد أعطيت

وإن تأخرت فقد شقيت

ثم نزل عن فرسه فقاتل، فأتاه ابن عم له ببضعة من لحم، فقال: اشدد بهذا صلبك. فأخذها من يده، فانتهش منها نهمته ثم سمع الحطمة في ناحية من الناس، فقال: وأنت يا بن راحة في الدنيا! ثم ألحها من يده وأخذ سيفه، فتقدم فقاتل حتى قتل.

قال الواقدي: حدثني داود بن سنان، قال: سمعت ثعلبة بن أبي مالك يقول: انكشف خالد بن الوليد يومئذ بالناس حتى عيروا بالفرار، وتشاءم الناس به.

قال: وروى أبو سعيد الخدري، قال: أقبل خالد بالناس منهزمين، فلما سمع أهل المدينة بهم تلقوهم بالجرف، فجعلوا يحثون في وجوههم التراب ويقولون: يا فرار، أفررت في سبيل الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليسوا بالفرار، ولكنهم كرار، إن شاء الله.

قال الواقدي: وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: ما لقي جيش بعثوا مبعثاً ما لقي أصحاب مؤتة من أهل المدينة، لقوهم بالشر، حتى إن الرجل ينصرف إلى بيته وأهله فيدق عليهم فيأبون أن يفتحوا له يقولون: ألا تقدمت مع أصحابك فقتلت، وجلس الكبراء منهم في بيوتهم استحياءً من الناس، حتى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً، يقول لهم: أنتم الكرار في سبيل الله. فخرجوا.

قال الواقدي: فحدثني مالك بن أبي الرجال عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر، عن جدتها أسماء بنت عيسى، قالت: أصبحت في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد منأت أربعين مناً من آدم وعجنت عجيني، وأخذت بني، فغسلت وجوههم ودهنتهم، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا أسماء، أين بنو جعفر؟ فجئت بهم إليه، فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناه، فبكى، فقلت: يا رسول الله، لعله بلغك عن جعفر شيء! قال: نعم، إنه قتل اليوم، فممت أصيح، واجتمع إلي النساء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يا أسماء، لا تقولي هجراً، ولا تضربي صدراً، ثم خرج حتى دخل على ابنته فاطمة رضي الله عنها، وهي تقول: واعماه! فقال: على مثل جعفر فلتبك الباكية.

ثم قال: اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن مسلم، عن يحيى بن أبي يعلى؛ قال: سمعت عبد الله بن جعفر يقول: أنا أحفظ حين دخل

النبى صلى الله عليه وآله وسلم على أمي، فعنى إليها أبي، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي، وعيناه تهرقان بالدمع حتى قطرت لحيته، ثم قال: اللهم إن جعفرأ قدم إلي أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلقت أحداً من عبادك في ذريته، ثم قال: يا أسماء، ألا أبشرك؟ قالت: بلى بأبي وأمي.

قال: فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة، قالت: بأبي وأمي، فأعلم الناس ذلك! فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيدي يمسح بيده رأسي حتى رقي على المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، وإن الحزن ليعرف عليه، فتكلم فقال: إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، ألا إن جعفرأ قد استشهد، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة. ثم نزل، فدخل بيته وأدخلني، وأمر بطعام فصنع لنا، وأرسل إلى أخي فتغدينا عنده غداء طيباً، عمدت سلمى خادمتي إلى شعير فطحنته، ثم نشفته، ثم أنضجته وآدمته بزيت، وجعلت عليه فلفلاً، فتغذيت أنا وأخي معه، وأقمنا عنده ثلاثة أيام ندور معه في بيوت نسائه، ثم أرجعنا إلى بيتنا، وأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك وأنا أساوم في شاة، فقال: اللهم بارك له في صفقته، فوالله ما بعث شيئاً ولا اشتريت إلا بورك فيه.

في مناقب جعفر الطيار

روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين أن كنية جعفر بن أبي طالب أبو المساكين، قال: وكان ثالث الإخوة من ولد أبي طالب، أكبرهم طالب، وبعده عقيل، وبعده جعفر، وبعده علي، وكل واحد منهم أكبر من الآخر بعشر سنين، وعلي أصغرهم سناً، وأمهم جميعاً فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي، وفضلها كثير، وقربها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمه لها معلوم عند أهل الحديث.

وروى أبو الفرج لجعفر رضي الله عنه فضل كثير. وقد ورد فيه حديث كثير؛ من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح خيبر قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فالتزمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل يقبل بين عشيه ويقول: ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً! بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر! قال: وقد روى خالد الحذاء، عن عكرمة، عن أبي هريرة أنه قال: ما ركب المطايا، ولا ركب الكور، ولا انتعل، ولا احتذى النعال أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأله وسلم أفضل من جعفر من أبي طالب.

قال: وقد روى عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير الناس حمزة وجعفر وعلي.

وقد روى جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خلق الناس من أشجار شتى، وخلقت أنا وجعفر من شجرة واحدة - أو قال - من طينة واحدة.

قال: وبالإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجعفر: أنت أشبهت خلقي وخلقي.

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب كانت سن جعفر عليه السلام يوم قتل إحدى وأربعين سنة. قال أبو

عمر: وقد روى ابن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: مثل لي جعفر وزيد وعبد الله في خيمة من در، كل واحد منهم على سرير، فرأيت زيدا وابن رواحة في أعناقهما صدوداً، ورأيت جعفرًا مستقيماً ليس فيه صدود، فسألت فقيلاً لي: إنهما حين غشيتهما الموت أعرضا وصدا بوجهيهما، وأما جعفر فلم يفعل.

قال أبو عمر أيضاً: وروى عن الشعبي، قال: سمعت عبد الله بن جعفر يقول: كنت إذا سألت عمي علياً عليه السلام شيئاً ويمعني، أقول له: بحق جعفر، فيعطيني.

وروى أبو عمر أيضاً في حرف الزاي في باب زيد بن حارثة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أتاه قتل جعفر وزيد بمؤتة بكى، وقال: أخوي ومؤنسي ومحدثي.

واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها الرضي رحمة الله عليه ملتقطة من كتابه عليه السلام الذي كتبه جواباً عن كتاب معاوية النافذ إليه مع أبي مسلم الخولاني وقد ذكره أهل السيرة في كتبهم، روى نصر بن مزاحم في كتاب صفين عن عمر بن سعد عن أبي ورقاء، قال: جاء أبو مسلم الخولاني في ناس من قراء أهل الشام إلى معاوية قبل مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفين فقالوا له: يا معاوية، علام تقاتل علياً وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته! فقال: إني لا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا مثل هجرته ولا قرابته؛ ولكن خبروني عنكم، أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً! قالوا: بلى، قال: فليدفع إلينا قتله لنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه، قال: فاكتب إليه كتاباً يأتيه به بعضنا، فكتب مع أبي مسلم الخولاني:

من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً بعلمه، وجعله الأمين على وحيه، والرسول إلى خلقه، واجتنبى له من المسلمين أعواناً أيده الله تعالى بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم لله ورسوله الخليفة من بعده، ثم خليفة خليفته من بعد خليفته، ثم الثالث الخليفة المظلوم عثمان، فكلهم حسدت، وعلى كلهم بغيت، عرفنا ذلك في نظرك الشزر، وقولك الهجر، وتنفسك الصعداء، وإبطائك عن الخلفاء، تقاد إلى كل منهم كما يقاد الفحل المخشوش حتى تباع وأنت كاره، ثم لم تكن لأحد منهم بأعظم حسداً منك لابن عمك عثمان، وكان أحقهم ألا تفعل ذلك في قرابته وصهره، فقطعت رحمه، وقبحت محاسنه، وألبت الناس عليه، وبطنت وظهرت حتى ضربت إليه آباط الإبل، وقيدت إليه الإبل العرب، وحمل عليه السلاح في حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقتل معك في المحلة وأنت تسمع في داره المائعة، لا تردع الظن، والتهمة عن نفسك بقول ولا عمل. وأقسم قسماً صادقاً لو قمت فيما كان من أمره مقاماً واحداً تنهته الناس عنه، ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً، ولحاً ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانة لعثمان والبغي عليه، وأخرى أنت بها عند أنصار عثمان ظنين؟ إيواؤك قتلة عثمان، فهم عضدك وأنصارك، ويدك وبطانتك؛ وقد ذكر لي أنك تتنصل من دمه، فإن كنت صادقاً فأمكننا من قتله نقتلهم به، ونحن أسرع الناس إليك، وإلا فإنه ليس لك ولأصحابك إلا السيف؛ والذي لا إله إلا هو لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر، حتى يقتلهم الله أو لتلحقن أرواحنا بالله، والسلام.

قال نصر: فلما قدم أبو مسلم على علي عليه السلام بهذا الكتاب، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنك قد

قمت بأمر وليته، والله ما أحب أنه لغيرك، إن أعطيت الحق من نفسك. إن عثمان قتل مسلماً محرماً مظلوماً، فادفع إلينا قتلته، وأنت أميرنا، فإن خالفك من الناس أحد كانت أيدينا لك ناصرة، وألستنا لك شاهدة، وكنت ذا عذر وحجة. فقال له علي عليه السلام: اغد علي غداً، فخذ جواب كتابك فانصرف، ثم رجع من غد ليأخذ جواب كتابه، فوجد الناس قد بلغهم الذي جاء فيه قبل، فلبست الشيعة أسلحتها ثم غدوا فملأوا المسجد؛ فنادوا: كلنا قتلة عثمان، وأكثرنا من النداء بذلك وأذن لأبي مسلم، فدخل، فدفع علي عليه السلام جواب كتاب معاوية، فقال أبو مسلم: لقد رأيت قوماً ما لك معهم أمر، قال: وما ذاك؟ قال: بلغ القوم أنك تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان فضجوا، واجتمعوا، ولبسوا السلاح، وزعموا أنهم قتلة عثمان. فقال علي عليه السلام، والله ما أردت أن أدفعهم إليكم طرفة عين قط، لقد ضربت هذا الأمر أنفه وعينه، فما رأيته ينبغي لي أن أدفعهم إليك، ولا إلى غيرك. فخرج أبو مسلم بالكتاب وهو يقول: الآن طاب الضراب! وكان جواب علي عليه السلام: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان.

أما بعد؛ فإن أخا خولان قدم علي بكتاب منك تذكر فيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وما أنعم الله به عليه من الهدى والوحي، فالحمد لله الذي صدقه الوعد، وأيده بالنصر، ومكن له في البلاد، وأظهره على أهل العداوة والشنآن من قومه الذين وثبوا عليه، وشنفوا له، وأظهروا تكذيبه وبارزوه بالعداوة، وظاهروا على إخراجهم وعلى إخراج أصحابه وأهله، وألبوا عليه العرب، وجادلوهم على حربته، وجهدوا في أمره كل الجهد، وقلبوا له الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون، وكان أشد الناس عليه تأليباً وتحريضاً أسرته، والأدنى فالأدنى من قومه، إلا من عصم الله.

وذكرت أن الله تعالى اجتنب له من المسلمين أعواناً أيدته الله بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم - زعمت - في الإسلام، وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة، ولعمري إن مكائهما في الإسلام لعظيم، وإن المصاب بهما لجرح في الإسلام شديد، فرحمهما الله وجزاهما أحسن ما عملاً! وذكر أن عثمان كان في الفضل تالياً، فإن يك عثمان محسناً فسيجزيه الله بإحسانه، وإن يك مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولعمري إن لأرجو إذا أعطى الله الناس على قدر فضائلهم في الإسلام ونصيحتهم لله ولرسوله، أن يكون نصيبنا في ذلك الأوفر. إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له كنا أهل البيت أول من آمن به وصدقته فيما جاء، فبتنا أحوالاً كاملةً مجرمة تامة، وما يعبد الله في ربع ساكن من العرب غيرنا، فأراد قومنا قتل نبينا، واحتياح أصلنا، وهموا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، ومنعونا الميرة، وامسكوا عنا العذب، وأحلسونا الخوف. وجعلوا علينا الأرصاد والعيون، واضطرونا إلى جبل وعر، وأوقدوا لنا نار الحرب، وكتبوا بينهم كتاباً، لا يؤاكلوننا، ولا يشاربوننا، ولا يناكحوننا، ولا يبايعوننا، ولا نأمن منهم حتى ندفع إليهم محمداً فيقتلوه ويمثلوا به، فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم إلى موسم، فعزم الله لنا على منعه، والذب عن حوزته، والرمي من وراء حرمة، والقيام بأسيافاً دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار، فمؤمننا يرجو بذلك الثواب، وكافرنا يحامي عن الأصل، وأما من أسلم من قريش فإنهم مما نحن فيه خلا، منهم الحليف الممنوع، ومنهم ذو العشيرة التي تدافع عنه، فلا يبيغيه أحد مثل ما بغانا به قومنا من التلغف، فهم من القتل بمكان نجوة وأمن، فكان ذلك ما شاء الله أن يكون. ثم أمر الله تعالى رسوله بالهجرة، وأذن له بعد ذلك في قتال

المشركين، فكان إذا احمر البأس، ودعيت نزال أقام أهل بيته، فاستقدموا، فوقى أصحابه بهم حد الأسنة والسيوف، فقتل عبدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وجعفر وزيد يوم مؤتة، وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم غير مرة، إلا أن آجالهم عجلت، ومنيته أخرت، والله ولي الإحسان إليهم، والمنة عليهم، بما أسلفوا من أمر الصالحات، فما سمعت بأحد ولا رأيته هو أنصح في طاعة رسوله ولا لنبيه، ولا أصبر على اللأواء والسراء والضراء وحين البأس، ومواطن المكروه مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هؤلاء النفر الذين سميت لك، وفي المهاجرين خير كثير يعرف، جزاهم الله خيراً بأحسن أعمالهم.

وذكرت حسدي الخلفاء إبطائي عنهم، وبغي عليهم، فأما البغي فمعاذ الله أن يكون، وأما الإبطاء عنهم والكراهية لأمرهم فلست أعتذر إلى الناس من ذلك؛ إن الله تعالى ذكره لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله وسلم قالت قريش: منا أمير، وقالت الأنصار: منا أمير؛ فقالت قريش: منا محمد، نحن أحق بالأمر، فعرفت ذلك الأنصار فسلمت لهم الولاية والسلطان، فإذا استحقوها بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحق به منهم، وإلا فإن الأنصار أعظم العرب فيها نصيباً، فلا أدري أصحابي سلموا من أن يكونوا حقي أخذوا، أو الأنصار ظلموا، بل عرفت أن حقي هو المأخوذ، وقد تركته لهم تجاوزاً لله عنهم.

وأما ما ذكرت من أمر عثمان، وقطيعتي رحمه، وتألبي عليه فإن عثمان عمل ما قد بلغك، فصنع الناس به ما رأيت، وإنك لتعلم أي قد كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنى؛ فتجن ما بدا لك؛ وأما ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فإني نظرت في هذا الأمر وضربت أنفه وعينه فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك، ولعمري لمن لم تتزع عن غيك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك لا يكلفونك أن تطلبهم في بر ولا بحر ولا سهل ولا جبل، وقد أتاني أبوك حين ولى الناس أبا بكر، فقال: أنت أحق بمقام محمد، وأولى الناس بهذا الأمر، وأنا زعيم لك بذلك على من خالف، ابسط يدك أبايعك؛ فلم أفعل، وأنت تعلم أن أباك قد قال ذلك وأراد به حتى كنت أنا الذي أبييت؛ لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإسلام، فأبوك كان أعرف بحقي منك، فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرف تصب رشذك، وإن لم تفعل فسيغني الله عنك، والسلام.

ومن كتاب له إلى معاوية أيضاً

الأصل: وكيف أنت صانع إذا تكشف عنك جلايب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزيبتها، وخدعت بلذتها، دعتك فأجبته، وقادتك فاتبعته. وأمرتك فأطعتها، وإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه منج. فاقعس عن هذا الأمر، وخذ أهبة الحساب، وشمر لما قد نزل بك، ولا تمكن الغواة من سمعك، وإلا تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك، فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح والدم. ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية، وولاة أمر الأمة، بغير قدم سابق، ولا شرف باسق، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء.

وأحذرك أن تكون متمادياً في غرة الأمانة، مختلف العلانية والسريرة.

وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً، وأخرج إلي، وأعف الفريقين من القتال، لتعلم أينما المرين على قلبه، والمغطى على بصره! فأنا أبو حسن، قاتل جدك وأخيك وخالك شديداً يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي؛ ما استبدلت ديناً، ولا استحدثت نبياً، وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين؛ ودخلتم فيه مكرهين. وزعمت أنك جئت ثائراً بدم عثمان! ولقد علمت حيث وقع دم عثمان، فاطلبه من هناك إن كنت طالباً، فكأن قد رأيتك تضج من الحرب إذا عضتك ضجيج الجمال بالأنثقال وكأني بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع، والقضاء الواقع، ومصارع بعد مصارع، إلى كتاب الله، وهي كافرة جاحدة، أو مبايعة حائدة.

الشرح: الجلابيب: جمع جلباب، وهي الملحفة في الأصل؛ واستعير لغيرها من الثياب، وتجلبب الرجل جلببة، ولم تدغم لأنها ملحقة بـ دحرجة.

قوله: وتبهجت بزيبتها: صارت ذات بهجة، أي زينة وحسن، وقد بهج الرجل بالضم، ويوشك: يسرع، ويقفك واقف، يعني الموت؛ ويروى: ولا ينجيك مجن، وهو الترس، والرواية الأولى أصح. قوله: فاقعس عن هذا الأمر، أي تأخر عنه، والماضي قعس بالفتح، ومثله تقاعس واقعسس، وأهبة الحساب: عدته، وتأهب: استعد وجمع الأهبة أهب، وشمر لما قد نزل بك، أي جد واجتهد وخف، ومنه رجل شمري بفتح الشين، وتكسر، والغواة: جهع غاو، وهو الضال.

قوله: وإلا تفعل يقول: وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتك ووعظتك به فإني أعرفك من نفسك ما أغفلت معرفته، إنك مترف، والمترف الذي قد أترفه النعمة، أي أطغته.

قد أخذ الشيطان منك مأخذه؛ ويروى مأخذه بالجمع، أي. تناول الشيطان منك لبك وعقلك. ومأخذه مصدر، أي تناولك الشيطان تناوله المعروف، وحذف مفعول أخذ لدلالة الكلام عليه، ولأن اللفظة تجري على المثل.

قوله: وجري منك مجرى الروح والدم، هذه كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم.

ثم خرج عليه السلام إلى أمر آخر، فقال لمعاوية: ومتى كنتم ساسة الرعية، وولاة أمر الأمة! ينبغي أن يحمل هذا الكلام على نفي كونهم سادة وولاة في الإسلام، وإلا ففي الجاهلية لا ينكر رياسة بني عبد شمس. ولست أقول برياستهم على بني هاشم، ولكنهم كانوا رؤساء على كثير من بطون قريش، ألا ترى أن بني نوفل بن عبد مناف ما زالوا أتباعاً لهم، وأن بني عبد شمس كانوا في يوم بدر قادة الجيش، كان رئيس الجيش عتبة بن ربيعة، وكانوا في يوم أحد ويوم الخندق قادة الجيش! كان الرئيس في هذين اليومين أبا سفيان بن حرب؛ وأيضاً فإن في لفظة أمير المؤمنين عليه السلام ما يشعر بما قلناه، وهو قوله: وولاة أمر الأمة فإن الأمة في العرب هم المسلمون، أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله عليه السلام: بغير قدم سابق، يقال: لفلان قدم صدق، أي سابقة وأثرة حسنة.

قوله عليه السلام: ولا شرف باسق؛ أي عال.

وتماذى: تفاعل، من المدى، وهو الغاية، أي لم يقف بل مضى قدماً.

والغرة: الغفلة: والأمانة: طمع النفس. ومختلف السريرة والعلانية: منافق.

قوله عليه السلام: فدع الناس جانباً، منصوب على الظرف.

والمرين على قلبه: المغلوب عليه، من قوله تعالى: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" وقيل: الرين: الذنب على القريب.

وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية هذه الكلمة لأن معاوية قالها في رسالة كتبها، ووقفت عليها من كتاب أبي

العباس يعقوب بن أبي أحمد الصيمري الذي جمعه من كلام علي عليه السلام وخطبه، وأولها:

أما بعد، فإنك المطبوع على قلبك، المغطى على بصرك؛ الشر من شيمتك، والعتو من خليقتك، فشمر للحرب، واصبر للضرب، فوالله ليرجعن الأمر إلى ما علمت، والعاقبة للمتقين. هيهات هيهات! أخطأك ما تمنى، وهوى قلبك فيما هوى، فاربع على ظلعك، وقس شريك بفترك، تعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه، ويفصل بين أهل الشك علمه؛ والسلام.

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعد، يا بن صخر، يا بن اللعين؛ يزن الجبال فيها زعمت حلفك، ويفصل بين أهل الشك علمك؛ وأنت الجاهل القليل الفقه، المتفاوت العقل، الشارد عن الدين.

وقلت: فشمر للحرب، واصبر، فإن كنت صادقاً فيما تزعم، ويعينك عليه ابن النابغة، فدع الناس جانباً، وأعف الفريقين من القتال، وابرز إلي لتعلم أين المرين على قلبه، المغطى على بصره، فأنا أبو الحسن حقاً، قاتل أخيك وخالك وجدك؛ شذخاً يوم بدر، وذلك السيف معي، بذلك القلب ألقى عدوي! قوله عليه السلام شذخاً؛ الشدخ: كسر الشيء الأجوف، شذخت رأسه فانشدخ، وهؤلاء الثلاثة: حنظلة بن أبي سفيان، والوليد بن عتبة، وأبوه عتبة بن ربيعة، فحنظلة أخوه، والوليد خاله، وعتبة جده، وقد تقدم ذكر قتله إياهم في غزاة بدر.

والثائر: طالب الثأر. وقوله: قد علمت حيث وقع دم عثمان فاطلبه من هناك، يريد به إن كنت تطلب ثأرك من عند من أجلب وحاصر، فالذي فعل ذلك طلحة والزبير؛ فاطلب ثأرك من بني تميم ومن بني أسد بن عبد العزى، وإن كنت تطلبه ممن خذل، فاطلبه من نفسك فإنك خذلت، وكنت قادراً على أن ترفده وتمده بالرجال، فخذلته وقعدت عنه بعد أن استنجدك واستغاث بك.

وتضج: تصوت. والجاحدة: المنكرة، والحائدة: العادلة عن الحق.

واعلم أن قوله: وكأني بجماعتك يدعوني جزعاً من السيف إلى كتاب الله تعالى، إما أن يكون فراسةً نبوية صادقة، وهذا عظيم، وإما أن يكون إخباراً عن غيب مفصل، وهو أعظم وأعجب، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العجب. وقد رأيت له ذكر هذا المعنى في كتاب غير هذا، وهو: أما بعد، فما أعجب ما يأتي منك، وما أعلمني بمثلتك التي أنت إليها صائر، ونحوها سائر؛ وليس إبطائي عنك إلا لوقت أنا به مصدق، وأنت به مكذب؛ وكأني أراك وأنت تضج من الحرب، وإخوانك يدعوني خوفاً من السيف، إلى كتاب هم به كافرون، وله جاحدون.

ووقفت له عليه السلام على كتاب آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى، أوله: أما بعد، فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الحق أساطير، ونبتقوه وراء ظهوركم، وحاولتم إطفاءه بأفواهكم، "ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون". ولعمري لينفذ العلم فيك، وليتمن النور بصغرك وقماءتك، ولتخسأن طريداً مدحوراً، أو قتيلاً مثبوراً؛

ولتجزين بعملك حيث لا ناصر لك، ولا مصرخ عندك. وقد أسهبت في ذكر عثمان، ولعمري ما قتله غيرك، ولا خذله سواك، ولقد تربصت به الدوائر، وتمنيت له الأمان، طمعاً فيما ظهر منك، ودل عليه فعلك، وإني لأرجو أن ألحقك به على أعظم من ذنبه، وأكبر من خطيئته.

فأنا ابن عبد المطلب صاحب السيف، وإن قائمه لفي يدي، وقد علمت من قتلت به من صناديد بني عبد شمس، وفراعة بني سهم وجهج وبني مخزوم، وأيتمت أبناءهم، وأيتمت نساءهم. وأذكرك ما لست له ناسياً؛ يوم قتلت أخاك حنظلة، وجررت برجله إلى القليب، وأسرت أخاك عمراً؛ فجعلت عنقه بين ساقيه رباطاً، وطلبتك ففررت ولك حصاص، فلولا أني لا أتبع فاراً، لجعلتك نالتهما، وأنا أولى لك بالله ألية برة غير فاجرة؛ لئن جمعتني وإياك جوامع الأقدار، لأتركك مثلاً يتمثل به الناس أبداً، ولأجمععن بك في مناخك حتى يحكم الله بيني وبينك، وهو خير الحاكمين.

ولئن أنسأ الله في أجلي قليلاً لإعزيتك سرايا المسلمين، ولأنهدن إليك في جحفل من المهاجرين والأنصار، ثم لا أقبل لك معذرة ولا شفاعة، ولا أجيبك إلى طلب وسؤال، ولترجعن إلى تحريك وترددك وتلدذك، فقد شاهدت وأبصرت ورأيت سحب الموت كيف هطلت عليك بصبيها حتى اعتصمت بكتاب أنت وأبوك أول من كفر وكذب بتزوله. ولقد كنت تفرستها، وأذنتك أنك فاعلها، وقد مضى منها ما مضى، وانقضى من كيدك فيها ما انقضى، وأنا سائر نحوك على أثر هذا الكتاب، فاختر لنفسك، وانظر لها، وتداركها، فإنك إن فطرت واستمررت على غيك وغلوائك حتى ينهد إليك عباد الله، أرتحت عليك الأمور، ومنعت أمراً هو اليوم منك مقبول.

يا بن حرب، إن لجاحك في منازعة الأمر أهله من سفاه الرأي، فلا يطمعنك أهل الضلال، ولا يوبقنك سفه رأي الجهال، فوالذي نفس علي بيده لئن برقت في وجهك بارقة من ذي الفقار لتصعقن صعقة لا تفيق منها حتى ينفخ في الصور النفخة التي يئست منها "كما يئس الكفار من أصحاب القبور".

قلت: سألت النقيب أبا زيد عن معاوية: هل شهد بدرًا مع المشركين؟ فقال: نعم شهدا ثلاثة من أولاد أبي سفيان: حنظلة وعمرو ومعاوية، قتل أحدهم، وأسر الآخر، وأفلت معاوية هارباً على رجله، فقدم مكة، وقد انتفخ قدماه، وورمت ساقاه، فعالج نفسه شهرين حتى برأ. قال النقيب أبو زيد: ولا خلاف عند أحد أن علياً عليه السلام قتل حنظلة وأسر عمراً أخاه. ولقد شهد بدرًا، وهرب على رجله من هو أعظم منهما ومن أخيهما عمرو بن عبد ود فارس يوم الأحزاب، شهدا ونجا هارباً على قدميه، وهو شيخ كبير، وارث جريحاً، فوصل إلى مكة وهو وقيد فلم يشهد أحداً، فلما برأ شهد الخندق، فقتله قاتل الأبطال، والذي فاته يوم بدر استدركه يوم الخندق.

ثم قال لي النقيب رحمه الله: أما سمعت نادرة الأعمش ومناظره؟ فقلت: ما أعلم ما تريد؛ فقال: سأل رجل الأعمش وكان قد ناظر صاحباً له: هل معاوية من أهل بدر أم لا؟ فقال له: أصلحك الله، هل شهد معاوية بدرًا؟ فقال: نعم من ذلك الجانب.

واعلم أن هذه الخطبة قد ذكرها نصر بن مزاحم في كتاب صفين على وجه يقتضي أن ما ذكره الرضي - رحمه الله - منها قد ضم إليه بعض خطبة أخرى، وهذه عادته، لأن غرضه التقاط الفصيح والبلوغ من كلامه، والذي ذكره نصر بن

مزاحم هذه صورته:.

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام على من اتبع الهدى فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنك قد رأيت مرور الدنيا وانقضائها وتصرفها بأهلها، وخير ما اكتسب من الدنيا ما أصابه العباد الصالحون منها من التقوى، ومن يقس الدنيا بالآخرة يجد بينهما بوناً بعيداً. واعلم يا معاوية أنك قد ادعيت أمراً لست من أهله لا في القديم ولا في الحديث، ولست تقول فيه بأمر بين يعرف له أثر، ولا عليك منه شاهد من كتاب الله؛ ولست متعلقاً بآية من كتاب الله، ولا عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف أنت صانع إذا تقشعت عنك غيابة ما أنت فيه من دنيا قد فتنت بزينتها، وركنت إلى ذاتها وخلي بينك وبين عدوك فيها، وهو عدو كلب مضل جاهد مليح، ملح، مع ما قد ثبت في نفسك من جهتها، دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتك فأطعتها، فاقعس عن هذا الأمر، وخذ أهبة الحساب، فإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا يجنك بحن.

ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية، أو ولاية لأمر هذه الأمة، بلا قدم حسن، ولا شرف تليد على قومكم، فاستيقظ من سنتك، وارجع إلى خالقك، وشمر لما سيترل بك، ولا تمكن عدوك الشيطان من بغيته فيك؛ مع أي أعرف أن الله ورسوله صادقان، نعوذ بالله من لزوم سابق الشقاء وإلا تفعل فإنني أعلمك ما أغفلت من نفسك، إنك مترف، قد أخذ منك الشيطان مأخذه، فجرى منك مجرى الدم في العروق، ولست من أئمة هذه الأمة ولا من رعائها. واعلم أن هذا الأمر لو كان إلى الناس أو بأيديهم لحسدوناه، ولا متنوا علينا به، ولكنه قضاء ممن منحناه واختصنا به، على لسان نبيه الصادق المصدق، لا أفلح من شك بعد العرفان والبينة! رب احكم بيننا وبين عدونا بالحق وأنت خير الحاكمين.

قال نصر: فكتب معاوية إليه الجواب: من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، أما بعد، فدع الحسد، فإنك طالما لم تنتفع به، ولا تفسد سابقة جهادك بشرة نخوتك، فإن الأعمال بخواتيمها، ولا تحص سابقتك بقتال من لا حق لك في حقه، فإنك إن تفعل لا تضر بذلك إلا نفسك، ولا تحقق إلا عملك، ولا تبطل إلا حجتك؛ ولعمري إن ما مضى لك من السابقات لشبيهه أن يكون محقوقاً، لما اجترأت عليه من سفك الدماء، وخلاف أهل الحق، فافقرأ السورة التي يذكر فيها الفلق وتعوذ من نفسك فإنك الحاسد إذا حسد.

ومن وصية له وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو

الأصل: فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قبل الأشراف، أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار، كيما يكون لكم رداءً، ودونكم مرداً.

ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال، ومناكب الهضاب، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن.

واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم؛ وعيون المقدمة طلائعهم. وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة، ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة.

الشرح: المعسكر بفتح الكاف؛ موضع العسكر، وحيث يتزل.

الأشراف: الأماكن العالية، وقبلها: ما استقبلك منها، وضده الدبر، وسفاح الجبال: أسافلها حيث يسفح منها الماء، وأثناء الأثمار: ما انعطف منها، واحدها ثني. والمعنى أنه أمرهم أن يتزلوا مسندين ظهورهم إلى مكان عال كالهضاب العظيمة، أو الجبال، أو منعطف الأثمار التي تجري مجرى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات، وليأمنوا أيضاً من إتيان العدو لهم من خلفهم، وقد فسر ذلك بقوله؛ كيما يكون لكم رداءً، والردء: العون، قال الله تعالى: "فأرسله معي رداً يصدقني. ودونكم مرداً، أي حاجزاً بينكم وبين العدو.

ثم أمرهم بأن يكون مقاتلتهم - بفتح التاء، وهي مصدر قاتل - من وجه واحد أو اثنين؛ أي لا تتفرقوا؛ ولا يكن قتالكم العدو في جهات متشعبة، فإن ذلك أدعى إلى الوهن، واجتماعكم أدعى إلى الظفر، ثم أمرهم أن يجعلوا رقباء في صياصي الجبال. وصياصي الجبال: أعاليها وما جرى مجرى الحصون منها، وأصل الصياصي القرون، ثم استعير ذلك للحصون لأنه يمتنع بها كما يمتنع ذو القرن بقرنه. ومناكب الهضاب: أعاليها؛ لئلا يأتىكم العدو إما من حيث تأمنون، أو من حيث تخافون.

قوله عليه السلام: مقدمة القوم عيونهم، المقدمة، بكسر الدال، وهم الذين يتقدمون الجيش، أصله مقدمة القوم، أي الفرقة المتقدمة. والطلائع: طائفة من الجيش تبعث ليعلم منها أحوال العدو. وقال عليه السلام: المقدمة عيون الجيش. والطلائع عيون المقدمة، فالطلائع إذاً عيون الجيش.

ثم نهاهم عن التفرق، وأمرهم أن يتزلوا جميعاً ويرحلوا جميعاً، لئلا يفجأهم العدو بغتة على غير تعبئة واجتماع، فيستأصلهم؛ ثم أمرهم أن يجعلوا الرماح كفة إذا غشيهم الليل، والكاف مكسورة، أي اجعلوها مستديرة حولكم كالدائرة، وكل ما استدار كفة بالكسر، نحو كفة الميزان، وكل ما استطال كفة بالضم نحو: كفة الثوب وهي حاشيته، وكفة الرمل، وهو ما كان منه كالخيل. ثم نهاهم عن النوم إلا غراراً أو مضمضة، وكلا اللفظتين ما قل من النوم. وقال شبيب الخارجي: الليل يكفيك الجبان، ويصف الشجاع.

وكان إذا أمسى قال لأصحابه: أتاكم المدد، يعني الليل.

قيل لبعض الملوك بيت عدوك. قال: أكره أن أجعل غلبتي سرقة.

ولما فصل قحطبة من خراسان وفي جملة خالده بن برمك، بينا هو على سطح بيت في قرية نزلاها وهم يتغذون نظر إلى الصحراء فرأى أقاطيع ظباء قد أقبلت من جهة الصحاري حتى كادت تخالط العسكر، فقال خالد لقحطبة: أيها الأمير، ناد في الناس: يا خيل الله اركبي؛ فإن العدو قد قرب منك، وعامة أصحابك لن يسرجوا ويلجموا حتى يروا سرعان الخيل. فقام قحطبة مذعوراً فلم ير شيئاً يروعه، ولم يعاين غباراً، فقال لخالد: ما هذا الرأي؟ فقال: أيها الأمير! لا تتشاغل بي، وناد في الناس، أما ترى أقاطيع الوحوش قد أقبلت وفارقت مواضعها حتى خالطت الناس! وإن وراءها لجمعاً كثيفاً. قال: فوالله ما أسرجوا ولا ألجموا حتى رأوا النقع وساطع الغبار، فسلموا، ولولا ذلك لكان الجيش قد اصطلم.

ومن وصية له وصى بها معقل بن قيس

الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له

الأصل: أتق الله الذي لا بد لك من لقائه، ولا تنتهي لك دونه، ولا تقاتلن إلا من قاتلك، وسر البردين، وغور بالناس، ورفه في السير، ولا تسر أول الليل، فإن الله جعله سكناً، وقدره مقاماً لا ظعناً، فأرح فيه بدنك، وروح ظهرك، فإذا وقفت حين ينبطح السحر، أو حين ينفجر الفجر، فسر على بركة الله. فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب. ولا تباعد عنهم تباعد من يهاب البأس، حتى يأتيك أمري. ولا يحملنكم شأنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم.

الشرح: معقل بن قيس، كان من رجال الكوفة وأبطالها، وله رياسة وقدم، أوفده عمار بن ياسر إلى عمر بن الخطاب مع الهرمزان لفتح تستر وكان من شيعة علي عليه السلام، وجهه إلى بني ساقه فقتل منهم وسى، وحارب المستورد بن علفة الخارجي من تميم الرباب، فقتل كل واحد منهما صاحبه بدجلة، وقد ذكرنا خبرهما فيما سبق، ومعقل بن قيس رياحي من ولد رياح بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.

قوله عليه السلام: ولا تقاتلن إلا من قاتلك، نهي عن البغي.

وسر البردين: هما الغداة والعشي، وهما الأبردان أيضاً.

ووصاه أن يرفق بالناس ولا يكلفهم السير في الحر.

قوله عليه السلام: وغور بالناس: انزل بهم القائلة، والمصدر التغوير، ويقال للقائلة: الغائرة.

قوله عليه السلام: ورفه في السير، أي دع الإبل ترد رفقاً، وهو أن ترد الماء كل يوم متى شئت ولا ترهقها وتخشعها

السير. ويجوز أن يكون قوله: ورفه في السير، من قولك: رفعت عن الغريم، أي نفست عنه.

قوله عليه السلام: ولا تسر أول الليل؟ قد ورد في ذلك خبر مرفوع، وفي الخبر أنه حين تنشر الشياطين. وقد علل أمير

المؤمنين عليه السلام النهي بقوله: فإن الله تعالى جعله سكناً، وقدره مقاماً لا ظعناً، يقول: لما امتن الله تعالى على عباده

بأن جعل لهم الليل ليسكنوا فيه كره أن يخالفوا ذلك. ولكن لقائل أن يقول: فكيف لم يكره السير والحركة في آخره وهو

من جملة الليل أيضاً ويمكن أن يكون فهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الليل الذي جعل سكناً للبشر إنما

هو من أوله إلى وقت السحر.

ثم أمره عليه السلام بأن يريح في الليل بدنه وظهره، وهي الإبل، وبنو فلان مظهرون، أي لهم ظهر ينقلون عليه، كما

تقول: منجبون، أي لهم نحائب.

قال الراوندي: الظهر. الخيول، وليس بصحيح، والصحيح ما ذكرناه.

قوله عليه السلام: فإذا وقفت أي فإذا وقفت ثقلك ورحلك لتسير، فليكن ذلك حين ينبطح السحر.

قال الراوندي: فإذا وقفت ثم قال وقد روي: فإذا واقفت، قال: يعني إذا وقفت تحارب العدو وإذا واقفته، وما ذكره ليس

بصحيح ولا روي، وإنما هو تصحيف، ألا تراه كيف قال بعده بقليل: فإذا لقيت العدو! وإنما مراده ههنا الوصاة بأن

يكون السير وقت السحر ووقت الفجر.

قوله عليه السلام: حين ينبطح السحر، أي حين يتسع ويمتد، أي لا يكون السحر الأول، أي ما بين السحر الأول وبين الفجر الأول، وأصل الإنبطاح السعة، ومنه الأبطح بمكة، ومنه البطيحة، وتبطح السيل، أي اتسع في البطحاء، والفجر انفجر انشق.

ثم أمره عليه السلام إذا لقي العدو أن يقف بين أصحابه وسطاً لأنه الرئيس، والواجب أن يكون الرئيس في القلب الجيش، كما أن قلب الإنسان في وسط جسده، ولأنه إذا كان وسطاً كانت نسبته إلى كل الجوانب واحدة، وإذا كان في أحد الطرفين بعد من الطرف الآخر، فربما يحتل نظامه ويضطرب.

ثم نهاه عليه السلام أن يدنو من العدو دنو من يريد أن ينشب الحرب، ونهاه أن يبعد منهم بعد من يهاب الحرب، وهي البأس، قال الله تعالى: "وحين البأس"، أي حين الحرب، بل يكون على حال متوسطة بين هذين حتى يأتيه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أعرف بما تقتضيه المصلحة.

ثم قال له: لا يحملنكم بغضكم لهم على أن تبدأوهم بالقتال قبل أن تدعوهم إلى الطاعة وتعذروا إليهم أي تصيروا ذوي عذر في حربهم.

والشئان: البغض، بسكون النون وتحريكها.

أقوال في الحروب

وفي الحديث المرفوع: لا تتمنوا العدو فعسى أن تبتلوا بهم، ولكن قولوا اللهم اكفنا شرهم؛ وكف عنا بأسهم، وإذا جاءوك يعرفون أو يضجون فعليكم الأرض جلوساً، وقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم، وبيدك نواصينا ونواصيهم، فإذا غشوكم فثوروا في وجوههم.

وكان أبو الدرداء يقول: أيها الناس، اعملوا عملاً صالحاً قبل الغزو؛ فإنما تقاتلون بأعمالكم.

وأوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان حين استعمله فقال: سر على بركة الله، فإذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح، فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات، فإن في العرب غرة، وأقلل من الكلام، فإن ما وعي عنك هو عليك؛ وإذا أتاك كتابي فأمضه، فإنما أعمل على حسب إنفاذه، وإذا قدم عليك وفود العجم فأنزلهم معظم عسكرك، وأسبغ عليهم من النفقة، وامنع الناس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين، ولا تلحن في عقوبة فإن أدناها وجيعة، ولا تسرعن إليها وأنت تكتفي بغيرها، وأقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سريرتهم، ولا تعرض عسكرك فتفضحه، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

وأوصى أبو بكر أيضاً عكرمة بن أبي جهل حين وجهه إلى عمان فقال: سر على اسم الله، ولا تترلن على مستأمن، وقدم النذير بين يديك، ومهما قلت: إني فاعل فافعله، ولا تجعل قولك لغواً في عقوبة ولا عفو، فلا ترجى إذا أمنت، ولا

تخاف إذا خوفت. وانظر متى تقول ومتى تفعل، وما تقول وما تفعل، ولا تتوعدن في معصية بأكثر من عقوبتها، فإنك إن فعلت أثمت، وإن تركت كذبت، واثق الله، وإذا لقيت فاصبر.

ولما ولي يزيد بن معاوية سلم بن زياد خراسان قال له: إن أباك كفى أخاه عظيماً، وقد استكفيتك صغيراً، فلا تتكلن على عذر مني، فقد اتكلت على كفاية منك، وإياك مني من قبل أن أقول: إياك منك، واعلم أن الظن إذا أخلف منك أخلف فيك، وأنت في أدنى حظك، فاطلب أقصاه، وقد تبعك أبوك، فلا تريحن نفسك، واذكر في يومك أحاديث غدك. وقال بعض الحكماء: ينبغي للأمر أن يكون له ستة أشياء: وزير يثق به، ويفشي إليه سره، وحسن إذا لجأ إليه عصمه - يعني فرساً - وسيف إذا نزل به الأقران لم يخف نبوته، وذخيرة خفيفة الحمل إذا نابتة نائبة وجدها - يعني جوهرراً - وطباخ إذا أقرى من الطعام صنع له ما يهيج شهوته، وامرأة جميلة إذا دخل أذهبت همه. في الحديث المرفوع: خير الصحابة أربعة؛ وخير السرايا أربعمئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة إذا اجتمعت كلمتهم.

كان يقال: ثلاثة من كن فيه لم يفلح في الحرب؛ البغي، قال الله تعالى: "إنما بغيكم على أنفسكم" والمكر السيئ، قال سبحانه: "ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله" والنكت، قال تعالى: "فمن نكت فإنما ينكت على نفسه". يقال: خرجت خارجة بخراسان على قتبية بن مسلم، فأهمه ذلك، فقليل: ما يهملك منهم! وجه إليهم وكيع بن أبي أسود يكفيك أمرهم، فقال: لا أوجهه، وإن وكيعاً رجل فيه كبر، وعنده بغي، يحقر أعداءه، ومن كان هكذا قلت مبالاته بخصمه فلم يحترس، فوجد عدوة فيه غرة، فأوقع به.

وفي بعض كتب الفرس: إن بعض ملوكهم سأل: أي مكاييد الحرب أحزم؟ فقال: إذكاء العيون، واستطلاع الأخبار، وإظهار القوة والسرور والغلبة، وإماتة الفرق، والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن ينصح، ولا انتصاح لمن يغش، وكنمان السر، وإعطاء المبلغين على الصدق، ومعاينة المتوصلين بالكذب، وألا تخرج هارباً فتحوجه إلى القتال، ولا تضيق أماناً على مستأمن، ولا تدهشك الغنيمة عن المجاوزة.

وفي بعض كتب الهند: ينبغي للعاقل أن يحذر عدوه المحارب له على كل حال؛ يرهب منه الموائبة إن قرب، والغارة إن بعد، والكمين إن انكشف، والاستطراد إن ولي، والمكر إن رآه وحيداً. وينبغي أن يؤخر القتال ما وجد بداً، فإن النفقة عليه من الأنفس، وعلى غيره من المال.

ومن كتاب له إلى أميرين من أمراء جيشه

الأصل: وقد أمرت عليكما وعلى من في حيزكما مالك بن الحارث الأشتر، فاسمعا له وأطيعا، اجعلاه درعاً ومجنأً، فإنه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل.

بعض مناقب مالك الأشتر

الشرح: هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدد. وكان فارساً شجاعاً رئيساً من أكابر الشيعة وعظماؤها، شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعد موته: رحم الله مالكا، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! ولما قنت علي عليه السلام على خمسة ولعنهم وهم: معاوية، وعمرو بن العاص، وأبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وبسر بن أرطاة، قنت معاوية على خمسة، وهم: علي، والحسن، والحسين - عليهم السلام - وعبد الله بن العباس، والأشتر، ولعنهم. وقد روي أنه قال لما ولي علي عليه السلام بني العباس على الحجاز واليمن والعراق: فلماذا قتلنا الشيخ بالأمس! وإن علياً عليه السلام لما بلغته هذه الكلمة أحضره ولاطفه واعتذر إليه وقال له: فهل وليت حسناً أو حسيناً أو أحداً من ولد جعفر أخي، أو عقيلاً أو واحداً من ولده! وإنما وليت ولد عمي العباس، لأني سمعت العباس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمارة مراراً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عم، إن الإمارة إن طلبتها وكلت إليها، وإن طلبتك أعنت عليها. ورأيت بنيه في أيام عمر وعثمان يجدون في أنفسهم إذ ولي غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يول أحداً منهم، فأحببت أن أصل رحمهم، وأزيل ما كان في أنفسهم؛ وبعد فإن علمت أحداً من أبناء الطلقاء هو خير منهم فأتني به.

فخرج الأشتر وقد زال ما في نفسه.

وقد روى المحدثون حديثاً يدل على فضيلة عظيمة للأشتر رحمه الله، وهي شهادة قاطعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه مؤمن، روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب في حرف الجيم، في باب جندب قال أبو عمر: لما حضرت أبا ذر الوفاة وهو بالربذة بكت زوجته أم ذر، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: مالي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفناً، ولا بد لي من القيام بجهازك! فقال: ابشري ولا تبكي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا يموت بين امرأتين مسلمين ولدان أو ثلاثة، فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً؛ وقد مات لنا ثلاثة من الولد. وسمعت أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لنفر أنا فيهم: ليموتن أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك نفر أحد إلا وقد مات في قرية وجماعة فأنا - لا أشك - ذلك الرجل، والله ما كذبت ولا كذبت، فانظري الطريق. قالت أم ذر: فقلت: أنى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق! فقال: اذهبي فتبصري. قالت: فكنت أشتد إلى الكتيب، فأصعد فأنظر، ثم أرجع إليه فأمرضه، فبينما أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على ركاهم كأهم الرحم تحب بهم رواحهم، فأسرعوا إلي حتى وقفوا علي وقالوا: يا أمة الله، مالك؛ فقلت: امرؤ من المسلمين يموت، تكفونونه؟ قالوا: ومن هو؟ قلت: أبو ذر، قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قلت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لنفر أنا فيهم: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك نفر إلا وقد هلك في قرية وجماعة، والله ما كذبت ولا كذبت، ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي أو لامرأتي لم أكفن إلا في ثوب لي أو لها؛ وإني أنشدكم الله ألا يكفني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً! قالت:

وليس في أولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال، إلا فتى من الأنصار قال له: أنا أكفئك يا عم في ردائي هذا، وفي ثوبين معي في عييتي من غزل أُمِّي؛ فقال أبو ذر: أنت تكفني، فمات فكفنه الأنصاري وغسله النفر الذين حضروه وقاموا عليه ودفنوه؛ في نفر كلهم يمان.

روى أبو عمر بن عبد البر قبل أن يروي هذا الحديث في أول باب جندب: كان النفر الذين حضروا موت أبي ذر بالريذة مصادفة جماعة؛ منهم حجر بن الأدبر، ومالك بن الحارث الأشتر. قلت: حجر بن الأدبر هو حجر بن عدي الذي قتله معاوية، وهو من أعلام الشيعة وعظمائها، وأما الأشتر فهو أشهر في الشيعة من أبي الهذيل في المعتزلة.

قرئ كتاب الاستيعاب على شيخنا عبد الوهاب بن سكيمة المحدث وأنا حاضر، فلما انتهى القارئ إلى هذا الخبر قال أستاذي عمر بن عبد الله الدباس - وكنت أحضر معه سماع الحديث -: لتقل الشيعة بعد هذا ما شاءت، فما قال المرتضى والمفيد إلا بعض ما كان حجر والأشتر يعتقدانه في عثمان ومن تقدمه، فأشار الشيخ إليه بالسكوت، فسكت، وذكرنا آثار الأشتر ومقاماته بصفين فيما سبق.

والأشتر هو الذي عانق عبد الله بن الزبير يوم الجمل فاصطربا على ظهر فرسيهما حتى وقعا في الأرض، فجعل عبد الله يصرخ من تحته: اقتلوني ومالكاً! فلم يعلم من الذي يعنيه لشدة الاختلاط وثوران النقع؛ فلو قال: اقتلوني والأشتر لقتلا جميعاً؛ فلما افترقا قال الأشتر:

ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا

أعائش لولا أنني كنت طاوياً

كوقع الصياصي: اقتلوني ومالكاً

غداة ينادي والرماح تنوشه

وأني شيخ لم أكن متماسكا

فنجاه مني شيعه وشبابه

ويقال: إن عائشة فقدت عبد الله فسألت عنه، فقيل لها: عهدنا به وهو معانق للأشتر، فقالت: واثكل أسماء! ومات الأشتر في سنة تسع وثلاثين متوجهاً إلى مصر والياً عليها لعلي عليه السلام. قيل: سقي سماً، وقيل: إنه لم يصح ذلك، وإنما مات حتف أنفه.

فأما ثناء أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله وسلم عليه في هذا الفصل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل، ولعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك، كان شديد البأس، جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً، وكان يجمع بين اللين والعنف، فيسطو في موضع السطوة، ويرفق في موضع الرفق.

أقوال لبعض القادة

ومن كلام عمر: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لقوي في غير عنف، ولين في غير ضعف. وكان أنوشروان إذا ولى رجلاً أمر الكاتب أن يدع في العهد موضع ثلاثة أسطر ليوقع فيها بخطه، فإذا أتى بالعهد وقع فيه: سس خيار الناس بالمودة، وسفلتهم بالإخافة، وامزج العامة رهبة برغبة.

وقال عمر بن عبد العزيز: إني لأهم أن أخرج للناس أمراً من العدل، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من ذاك سكنت إلى هذا.

وقال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني؛ ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. فقليل له: كيف؟ قال: إذا مدوها خليتها، وإذا خلوها مددتها.

وقال الشعبي في معاوية: كان كالجمل الطب. إذا سكنت عنه تقدم، وإذا رد تأخر.

وقال ليزيد ابنه: قد تبلغ بالوعيد ما لا تبلغ بالإيقاع، وإياك والقتل، فإن الله قاتل القتالين.

وأغلظ له رجل فحلم عنه، فقليل له: أتحملم عن هذا؟ قال: إنا لا نحول بين الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا.

وفخر سليم مولى زياد عند معاوية بن زياد، فقال معاوية: اسكت ويحك فما أدرك صاحبك بسيفه شيئاً قط إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني.

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: ما السياسة يا أبت؟ قال: هيبة الخاصة لك، مع صدق مودتها، واقتيادك قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع.

وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام من أصناف الثناء والمدح ما فرقه هؤلاء في كلماتهم بكلمة واحدة قالها في الأشر، وهي قوله: لا يخاف بطؤه عما الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل.

قوله عليه السلام: وعلى من في حيز كما أي في ناحيتكما.

والجن: الترس، والوهن: الصعف، والسقطة: الغلطة والخطأ، وهذا الرأي أحزم من هذا، أي أدخل في باب الحزم والاحتياط، وهذا أمثل من هذا أي أفضل.

ومن وصية له لعسكره بصفين قبل لقاء العدو

الأصل: لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً؛ ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم، وسبين أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول؛ إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر أو الهراوة، فيعير بها وعقبه من بعده.

الشرح: نهي أصحابه عن البغي والابتداء بالحرب، وقد روي عنه أنه قال: ما نصرت على الأقران الذين قتلتم إلا لأني ما ابتدأت بالمبارزة.

ونهي - إذا وقعت الهزيمة - عن قتل المدبر، والإجهاز على الجريح، وهو إتمام قتله.

قوله عليه السلام: ولا تصيبوا معوراً هو من يعتصم منك في الحرب بإظهار عورته لتكف عنه، ويجوز أن يكون المعور ههنا المريب الذي يظن أنه من القوم وأنه حضر للحرب وليس منهم، لأنه حضر لأمر آخر.

قوله عليه السلام: ولا تهيجوا النساء بأذى، أي لا تحركوهن.

والفهر: الحجر: والمراوة: العصا.

وعطف وعقبه على الضمير المستكن المرفوع في فيعير ولم يؤكد للفصل بقوله: بها، كقوله تعالى: "ما أشركنا ولا آباؤنا"، لما فصل بلا عطف ولم يحتج إلى تأكيد.

نبذ من الأقوال الحكيمة

ومما ورد في الشعر في هذا المعنى قول الشاعر:

عندي قتل بيضاء حرة عطبول

إن من أعظم الكبائر

وعلى المحصنات جر الذبول

كتب القتل والقتال علينا

وقالت امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي بالبصرة لعلي عليه السلام بعد ظفره، وقد مر بياها: يا علي، يا قاتل الأحبة، لا مرحباً بك! أيتم الله منك ولدك كما أيتم بني عبد الله بن خلف! فلم يرد عليها، ولكنه وقف وأشار إلى ناحية من دارها، ففهمت إشارته، فسكتت وانصرفت. وكانت قد سترت عندها عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم، فأشار إلى الموضوع الذي كانا فيه، أي لو شئت أخرجتهما! فلما فهمت انصرفت، وكان عليه السلام حليماً كريماً. وكان عمر بن الخطاب إذا بعث أمراء الجيوش يقول: بسم الله، وعلى عون الله، وبركته، فامضوا بتأييد الله ونصره. أوصيكم بتقوى الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند الغارة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرباً، ولا امرأة، ولا وليداً، وتوقوا أن تطأوا هؤلاء عند التقاء الزحفين وعند حمة النهضات وفي شن الغارات، ولا تغلوا عند الغنائم، ونزهوا الجهاد عن غرض الدنيا، وأبشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم. واستشار قوم أكثم بن صيفي في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم، فقال: أقلوا الخلاف على أمرائكم، واثبتوا، فإن أحزم الفريقين الركين، ورب عجلة تهب ريثاً. وكان قيس بن عاصم المنقري إذا غزا شهد معه الحرب ثلاثون من ولده يقول لهم: إياكم والبغي، فإنه ما بغى قوم قط إلا ذلوا؛ قالوا: فكان الرجل من ولده يظلم فلا ينتصف مخافة الذل. قال أبو بكر يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة - وكانوا اثني عشر ألفاً - فهزموا يومئذ هزيمة قبيحة، وأنزل الله تعالى قوله: "ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً".

وكان يقال: لا ظفر مع بغي، ولا صحة مع فهم، ولا ثناء مع كبر، ولا سؤدد مع شح.

قصة فيروز بن يزد جرد بن بهرام

ومن الكلمات المستحسنة في سوء عاقبة البغي ما ذكره ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار أن فيروز بن يزد جرد بن بهرام لما ملك سار بجنوده نحو بلاد الهياطلة، فلما انتهى إليهم اشتد رعب ملكهم أحشنوار منه وحذره، فناظر أصحابه ووزراءه في أمره فقال رجل منهم: أعطني موثقاً من الله وعهداً تطمئن إليه نفسي أن تكفيني الغم بأمر أهلي وولدي، وأن تحسن

إليهم، وتخلفني فيهم، ثم اقطع يدي ورجلي وألقني في طريق فيروز حتى يمر بي هو وأصحابه، وأنا أكفيك أمرهم، وأورطهم مورطاً تكون فيه هلكتهم.

فقال له أخشنوار: وما الذي تنتفع به من سلامتنا وصلاح حالنا إذا أنت هلكت ولم تشر كنا في ذلك! فقال: إني قد بلغت ما كنت احب أن أبلغ من الدنيا، وأنا موقن أن الموت لا بد منه، وإن تأخر أياماً قليلاً، فأحب أن أحتم عملي بأفضل ما يحتم به الأعمال من النصيحة بسلطاني، والنكاية في عدوي، فيشرف بذلك عقي، وأصيب سعادة وحظوة فيما أمامي.

ففعل أخشنوار به ذلك، وحمله فألقاه في الموضع الذي أشار إليه، فمر به فيروز في جنوده، فسأله عن حاله، فأخبره أن أخشنوار فعل به ما يراه وأنه شديد الأسف، كيف لا يستطيع أن يكون أمام الجيش في غزو بلاده وتخريب مدينته، ولكنه سيدل الملك على طريق هو أقرب من هذا الطريق الذي يريدون سلوكه وأخفى، فلا يشعر أخشنوار حتى يهجم عليه فينتقم الله منه بكم، وليس في هذا الطريق من المكروه إلا تغور يومين، ثم تفضون إلى كل ما تحبون.

فقبل فيروز قوله بعد أن أشار إليه وزراؤه بالالتفاف له، والحذر منه، وبغير ذلك. فخالفهم وسلك تلك الطريق، فانتهاها بعد يومين إلى موضع من المفازة لا صدر لهم عنه، ولا ماء معهم، ولا بين أيديهم، وتبين لهم أنهم قد خدعوا، فتفرقوا في تلك المفازة يميناً وشمالاً يلتمسون الماء، فقتل العطش أكثرهم، ولم يسلم مع فيروز إلا عدة يسيرة، فانتهى إليهم أخشنوار بجيشه، فواقعهم في تلك الحال التي هم فيها من القلة والضر والجهد، فاستمكنوا منهم، بعد أن أعظموا النكاية فيهم. وأسر فيروز، فرغب أخشنوار أن يمين عليه وعلى من بقي من أصحابه على أن يجعل له عهد الله وميثاقه؛ ألا يغزوهم أبداً ما بقي، وعلى أن يحد فيما بينه وبين مملكتهم حداً لا يتجاوز جنوده. فرضي أخشنوار بذلك، فخلى سبيله، وجعل بين المملكتين حجراً لا يتجاوز كل واحد منهما. فمكث فيروز برهة من دهره، ثم حمله الأنف على أن يعود لغزو الهياطلة، ودعا أصحابه إلى ذلك، فنهوه عنه، وقالوا: إنك قد عاهدته، ونحن نتخوف عليك عاقبة البغي والغدر، مع ما في ذلك من العار وسوء القالة فقال لهم: إنما اشترطت له ألا أجوز الحجر الذي جعلناه بيننا، وأنا أمر بالحجر فيحمل أمامنا على عجل. فقالوا: أيها الملك، إن العهود والمواثيق التي يتعاطاها الناس بينهم لا تحمل على ما يسره المعطي لها، ولكن على ما يعلن به المعطي إياها، وإنما جعلت عهد الله وميثاقه على الأمر الذي عرفه، لا على الأمر الذي لم يخطر له ببال. فأبى فيروز ومضى في غزوته حتى انتهى إلى الهياطلة، وتصاف الفريقان للقتال.

فأرسل أخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صفيهم، فخرج إليه، فقال له أخشنوار: إني قد ظننت أنه لم يدعك إلى مقامك هذا إلا الأنف مما أصابك، ولعمري إن كنا قد احتلنا لك بما رأيت لقد كنت التمسست منا أعظم منه، وما ابتدأناك ببغي ولا ظلم، وما أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحرماننا، ولقد كنت جديراً أن تكون من سوء مكافأتنا بمننا عليك وعلى من معك، ومن نقض العهد والميثاق الذي أكدته على نفسك أعظم أنفاً، وأشد امتعاضاً مما نالك منا، فإنا أطلقناكم وأنتم أسارى، ومننا عليكم وأنتم على الهلكة مشرفون، وحقنا دماءكم ولنا على سفكها قدرة. وأنا لم نجبرك على ما شرطت لنا، بل كنت أنت الراغب إلينا فيه، والمريد لنا عليه، ففكر في ذلك، وميز بين هذين الأمرين فانظر أيهما

أشدّ عاراً، وأقبح سماعاً، إن طلب رجل أمراً فلم يقدر له ولم ينجح في طلبته وسلك سبيلاً فلم يظفر فيه ببيغيته، واستمكن منه عدوه على حال جهد وضيعة منه وممن هم معه.

فمن عليهم وأطلقهم على شرط شرطوه وأمر اصطلحوا عليه، فاصطبر بمكروه القضاء، واستحيا من الغدر والنكث، أن يقال: نقض العهد وأخفر الميثاق، مع أي قد ظننت أنه يزيدك لاجحة ما تثق به من كثرة جنودك، وما ترى من حسن عدتهم، وما أجدني أشك أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شخوصك بهم، عارفون بأنك قد حملتهم على غير الحق، ودعوتهم إلى ما يسخط الله، وأنهم في حربنا غير مستبصرين، ونياتهم على مناصحتك مدخولة.

فانظر ما قدر غناء من يقاتل على هذه الحال، وما عسى أن يبلغ نكايته في عدوه، إذا كان عارفاً بأنه إن ظفر فمع عار، وإن قتل فإلى النار! وأنا أذكرك الله الذي جعلته على نفسك كفيلاً، وأذكرك نعمتي عليك وعلى من معك، بعد يأسكم من الحياة، وإشفائكم على الممات، وأدعوك إلى ما فيه حظك ورشدك من الوفاء بالعهد، والإقضاء بآبائك وأسلافك الذين مضوا على ذلك في كل ما أحبوه وكرهوه، فأحمدوا عواقبه وحسن عليهم أثره.

ومع ذلك فإنك لست على ثقة من الظفر بنا، وبلغ فحمتك فينا، وإنما يلتمس أمراً يلتمس منك مثله؛ وتنادي عدوا لعله يمنح النصر عليك، فاقبل هذه النصيحة فقد بالغت في الاحتجاج عليك، وتقدمت بالإعذار إليك، ونحن نستظهر بالله الذي اعتذرنا إليه، ووثقنا بما جعلت لنا من عهده، إذا استظهرت بكثرة جنودك، وازدهت عدة أصحابك، فدونك هذه النصيحة، فبالله ما كان أحد من أصحابك ببالغ لك أكثر منها، ولا يزيدك عليها، ولا يجرمنك منفعتها مخرجها مني، فإنه ليس يزرى بالمنافع والمصالح عند ذوي الآراء صدورها عن الأعداء، كما لا تحسن المضار أن تكون على أيدي الأصدقاء.

واعلم أنه ليس يدعوني إلى ما تسمع من مخاطبتي إياك ضعف من نفسي، ولا من قلة جنودي، ولكني أحببت أن أزداد بذلك حجةً واستظهاراً، فأزداد به للنصر والمعونة من الله استيجاباً، ولا أؤثر على العافية والسلامة شيئاً ما وجدت إليهما سبيلاً.

فقال فيروز: لست ممن يردعه عن الأمر يهيم به الوعيد، ولا يصده التهديد والترهيب، ولو كنت أرى ما أطلب غدرًا مني، إذا ما كان أحد أنظر ولا أشد إبقاء مني على نفسي، وقد يعلم الله أي لم أجعل لك العهد والميثاق إلا بما أضمرت في نفسي، فلا يغرنك الحال التي كنت صادفتنا عليها من القلة والجهد والضعف.

فقال أخشنوار: لا يغرنك ما تخدع به نفسك من حملك الحجر أمامك، فإن الناس لو كانوا يعطلون العهود على ما تصف من إسرار أمر وإعلان آخر، إذا ما كان ينبغي لأحد أن يغتر بأمان، أو يثق بعهد! وإذا ما قبل الناس شيئاً مما كانوا يعطون من ذلك، ولكنه وضع على العلانية، وعلى نية من تعقد له العهود والشروط. ثم انصرف. فقال فيروز لأصحابه: لقد كان أخشنوار حسن المحاورة، وما رأيت للفرس الذي كان تحته نظيراً في الدواب، فإنه لم يزل قوائمه، ولم يرفع حوافره عن مواضعها، ولا سهل، ولا أحدث شيئاً يقطع به المحاورة في طول ما توافقنا. وقال أخشنوار لأصحابه: لقد واقفت فيروز كما رأيتم وعليه السلاح كله، فلم يتحرك، ولم يتزع رجله من ركابه، ولا حتى ظهره، ولا التفت يميناً ولا شمالاً، ولقد توركت أنا مراراً، وتمطيت على فرسي، والتفت إلى من خلفي، ومددت بصري فيما أمامي، وهو منتصب ساكن

على حاله، ولولا محاورته إياي لظننت أنه لا يصبرني. وإنما أراداً بما وصفنا من ذلك أن ينشر هذان الحديثان في أهل عسكرهما فيشتغلوا بالإفاضة فيهما، عن النظر فيما تذاكرا. فلما كان في اليوم الثاني أخرج أخشنوار الصحيفة التي كتبها لهم فيروز، ونصبها على رمح ليراها أهل عسكر فيروز فيعرفوا غدره وبغيه، ويخرجوا من متابعتة على هواه، فما هو إلا أن رأوها، حتى انتقض عسكرهم واختلفوا، وما تلبثوا إلا يسيراً حتى انهزموا، وقتل منهم خلق كثير، وهلك فيروز، فقال أخشنوار: لقد صدق الذي قال: لا مرد لما قدر ولا شيء أشد إحالة لمنافع الرأي من الهوى واللجاج، ولا أضيع من نصيحة بمنحها من لا يوطن نفسه على قبولها، والصبر على مكروهاها، ولا أسرع عقوبة وأساء عاقبة من البغي والغدر، ولا أجب لعظيم العار والفضوح من الأنف وإفراط العجب.

وكان يقول إذا لقي العدو محارباً

الأصل: اللهم إليك أفضت القلوب، ومدت الأعناق، وشخصت الأبصار، ونقلت الأقدام، وأنضيت الأبدان. اللهم قد صرح مكنون لشنآن، وجاشت مراحل الأضغان. اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. الشرح: أفضت القلوب: أي دنت وقربت، ومنه أفضى الرجل إلى امرأته أي غشيها، ويجوز أن يكون أفضت أي بسرها، فحذف المفعول، وأنضيت الأبدان: هزلت، ومنه النضو، وهو البعير المهزول، وصرح: انكشف. والشنآن: البغضة، وجاشت: تحركت واضطربت، والمراحل: جمع مرجل، وهي القدر، والأضغان: الأحقاد، واحداً ضغن. وأخذ سديف مولى المنصور هذه اللفظة فكان يقول في دعائه: اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا وتشتت أهوائنا، وما شملنا من زيغ الفتن، واستولى علينا من غشوة الحيرة حتى عاد فينا دولة بعد القسمة. وإمارتنا غلبة بعد المشورة؛ وعدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة؛ واشترت الملاهي والمعازف بمال اليتيم والأرملة، ورعى في مال الله من لا يرعى له حرمة، وحكم في أبشار المؤمنين أهل الذمة، وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة، فلا ذائد يذودهم عن هلكة، ولا راع ينظر إليهم بعين رحمة، ولا ذو شفقة يشبع الكبد الحرى من مسغبة، فهم أولو ضرع وفاقة، وأسراء فقر ومسكنة، وخلفاء كآبة وذلة. اللهم وقد استحصد زرع الباطل وبلغ نهايته، واستحكم عموده، واستجمع طريده، وحذق وليده، وضرب بجرانه، فأتاح له من الحق يداً حاصدة، تجذ سنامه، وتهشم سوقه، وتصرع قائمه، ليستخفي الباطل بقبح حليته، ويظهر الحق بحسن صورته. ووجدت هذه الألفاظ في دعاء منسوب إلى علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ولعله من كلامه، وقد كان لسديف يدعو به.

وكان يقول لأصحابه عند الحرب

الأصل: لا تشتدن عليكم فرة بعدها كرة، ولا جولة بعدها حملة، وأعطوا السيوف حقوقها، ووطنوا للجنوب مصارعها،

واذمروا أنفسكم على الطعن الدعسي، والضرب الطلحفي، وأميتوا الأصوات فإنه أطرده للفشل.
والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسروا الكفر، فلما وجدوا أعواناً عليه أظهروه.
الشرح: قال: لا تستصعبوا فرة تفرونها بعدها كرة، تجرون بها ما تكسر من حالكم، وإنما الذي ينبغي لكم أن تستصعبوه
فرة لا كرة بعدها؛ وهذا حض لهم على أن يكروا ويعودوا إلى الحرب إن وقعت عليهم كسرة.
ومثله قوله: ولا جولة بعدها حملة، والجولة: هزيمة قرية ليست بالممعة.
واذمروا أنفسكم، من ذممه على كذا أي حظه عليه. والطعن الدعسي: الذي يخشى به أجواف الأعداء، وأصل الدعس
الحشو، دعست الوعاء: حشوته.

وضرب طلحفي، بكسر الطاء وفتح اللام، أي شديد، واللام زائدة.
ثم أمرهم بإماتة الأصوات، لأن شدة الضوضاء في الحرب أماراة الخوف والوجل.
ثم أقسم أن معاوية وعمراً ومن والاهما من قريش ما أسلموا ولكن استسلموا خوفاً من السيف وناقوا؛ فلما قدروا على
إظهار ما في أنفسهم أظهروه؛ وهذا يدل على أنه عليه السلام جعل محاربتهم له كفراً.
وقد تقدم في شرح حال معاوية وما يذكره كثير من أصحابنا من فساد عقيدته ما فيه كفاية.

أقوال آخر في الحروب

وأوصى أكثم بن صيفي قوماً فحضوا إلى الحرب فقال: ابرزوا للحرب، وادرعوا الليل، فإنه أخفى للويل، ولا جماعة لمن
اختلف، واعلموا أن كثرة الصباح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة.

وسمعت عائشة يوم الحمل أصحابها يكبرون، فقالت: لا تكبروا ههنا، فإن كثرة التكبير عند القتال من الفشل.
وقال بعض السلف: قد جمع الله أدب الحرب في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا" الآيتين.
وقال عتبة بن ربيعة لقريش يوم بدر: ألا ترونهم - يعني أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم - جثياً على الركب،
يتلمظون تلمظ الحيات! وأوصى عبد الملك بن صالح أمير سرية بعثها، فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب
الكيس الذي إن وجد رباً تجر، وإلا احتفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة، وكن من احتيالك على
عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك.

وفي الحديث المرفوع أنه عليه السلام قال لزيد بن حارثة: لا تشق جيشك؛ فإن الله تعالى ينصر القوم بأضعفهم.
وقال ابن عباس - وذكر علياً عليه السلام: ما رأيت رئيساً يوزن به، لقد رأيته يوم صفين وكأن عينيه سراجا سليط وهو
يحمس أصحابه إلى أن انتهى إلي وأنا في كنف فقال: يا معشر المسلمين، استشعروا الخشية، وتجليبوا السكينة، وأكملوا
اللأمة. الفصل المذكور فيما تقدم.

ومن كتاب له إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه

الأصل: وأما طلبك إلي الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعك أمس.
وأما قولك: إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت؛ ألا ومن أكله الحق فألى الجنة، ومن أكله الباطل فألى النار.

وأما أستواؤنا في الحرب والرجال، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة.

وأما قولك: إنا بنو عبد مناف! فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق، ولا الحق كالمبطل، ولا المؤمن كالمدغل. ولئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم.

وفي أيدينا بعد فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز، ونعشنا بها الذليل. ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجا، وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً، كنتم ممن دخل في الدين؛ إما رغبةً وإما رهبةً، على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم، فلا تجعل للشيطان فيك نصيباً، ولا على نفسك سبيلاً والسلام.

الشرح: يقال: طلبت إلى فلان كذا، والتقدير طلبت كذا راغباً إلى فلان، كما قال تعالى: "في تسع آيات إلى فرعون" أي مرسلًا.

ويروى إلا حشاشة نفس، بالافراد، وهو بقية الروح في بدن المريض.

وروي: ألا ومن أكله الحق فألى النار، وهذه الرواية أليق من الرواية المذكورة في أكثر الكتب، لأن الحق يأكل أهل الباطل، ومن روى تلك الرواية أضمر مضافاً تقديره أعداء الحق، ومضافاً آخر تقديره أعداء الباطل. ويجوز أن يكون من أكله الحق فألى الجنة، أي من أفضى به الحق ونصرته والقيام دونه إلى القتل؛ فإن مصيره إلى الجنة، فيسمى الحق لما كانت نصرته كالسبب إلى القتل أكلاً لذلك المقتول، وكذلك القول في الجانب الآخر.

وكان الترتيب يقتضي أن يجعل هاشماً بإزاء عبد شمس، لأنه أخوه في قعد، وكلاهما ولد عبد مناف لصلبه، وأن يكون أمية بإزاء عبد المطلب، وأن يكون حرب بإزاء أبي طالب، وأن يكون أبو سفيان بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام، لأن كل واحد من هؤلاء في قعد صاحبه، إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام لما كان في صفين بإزاء معاوية اضطر إلى أن جعل هاشماً بإزاء أمية بن عبد شمس.

فإن قلت: فهلا قال: ولا أنا كأنت؟ قلت: قبيح أن يقال ذلك، كما لا يقال: السيف أمضى من العصا، بل قبيح به أن يقولها مع أحد من المسلمين كافة، نعم قد يقولها لا تصريحاً، بل تعريضاً، لأنه يرفع نفسه على أن يقيسها بأحد. وههنا قد عرض بذلك في قوله: ولا المهاجر كالطليق. فإن قلت: فهل معاوية من الطلقاء؟ قلت: نعم، كل من دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عنوة بالسيف فملكه ثم من عليه عن إسلام أو غير إسلام فهو من الطلقاء ممن لم يسلم كصفوان بن أمية، ومن أسلم كمعاوية بن أبي سفيان، وكذلك كل من أسر في حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم امتن عليه بفداء أو بغير فداء فهو طليق، فمن امتن عليه بفداء كسهيل بن عمرو، ومن امتن عليه بغير فداء

أبو عزة الجمحي، ومن امتن عليه معاوضة أي أطلق لأنه بإزاء أسير من المسلمين عمرو بن أبي سفيان بن حرب، كل هؤلاء معدودون من الطلقاء.

فإن قلت: فما معنى قوله: ولا الصريح كاللصيق، وهل كان في نسب معاوية شبهة ليقول له هذا؟ قلت: كلا إنه لم يقصد ذلك، وإنما أراد الصريح بالإسلام اللصيق في الإسلام، فالصريح فيه هو من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً، واللصيق فيه من أسلم تحت السيف أو رغبة في الدنيا، وقد صرح بذلك فقال: كنتم ممن دخل في هذا الدين إما رغبة وإما رهبة. فإن قلت: فما معنى قوله: وليبس الخلف خلفاً يتبع لسلفاً هوى في نار جهنم؟ وهل يعاب المسلم بأن سلفه كانوا كفاراً؟ قلت: نعم، إذا تبع آثار سلفه واحتذى حذوهم، وأمير المؤمنين عليه السلام ما عاب معاوية بأن سلفه كفار فقط، بل بكونه متبعاً لهم.

قوله عليه السلام: وفي أيدينا بعد فضل النبوة أي إذا فرضنا تساوي الأقدام في مآثر أسلافكم كان في أيدينا بعد الفضل عليكم بالنبوة التي نعشنا بها الخامل، وأحلنا بها النبيه.

قوله عليه السلام: على حين فاز أهل السبق، قال قوم من النحاة: حين مبني ههنا على الفتح. وقال قوم: بل منصوب لإضافته إلى الفعل.

قوله عليه السلام: فلا تجعل للشيطان فيك نصيباً، أي لا تستلزم من أفعالك ما يدوم به كون الشيطان ضارباً فيك بنصيب، لأنه ما كتب إليه هذه الرسالة إلا بعد أن صار للشيطان فيه أوفر نصيب، وإنما المراد نهي عن دوام ذلك واستمراره.

ما حدث بين علي ومعاوية يوم صفين

وذكر نصر بن مزاحم بن بشار العقيلي في كتاب صفين أن هذا الكتاب كتبه علي عليه السلام إلى معاوية قبل ليلة الهير بيومين أو ثلاثة.

قال نصر: أظهر علي عليه السلام أنه مصبح معاوية ومناجز له، وشاع ذلك من قوله. ففرع أهل الشام لذلك، وانكسروا لقوله. وكان معاوية بن الضحاك بن سفيان صاحب راية بني سليم مع معاوية مبغضاً لمعاوية وأهل الشام، وله هوى مع أهل العراق وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وكان يكتب بأخبار معاوية إلى عبد الله بن الطفيل العامري، وهو مع أهل العراق، فيخبر بها عليا عليه السلام، فلما شاعت كلمة علي عليه السلام وجل لها أهل الشام، وبعث ابن الضحاك إلى عبد الله بن الطفيل: إني قائل شعراً أذعر به أهل الشام وأرغم به معاوية، وكان معاوية لا يتهمه، وكان له فضل ونجدة ولسان، فقال ليلاً ليستمع أصحابه:

علينا وأنا لا نرى بعده غدا

ألا ليت هذا الليل أطبق سرمدا

وجدنا إلى مجرى الكواكب مصعدا

ويا ليتنه إن جاءنا بصباحه

حذار علي إنه غير مخلف
وأما قراري في البلاد فليس لي
كأنني به في الناس كاشف رأسه
يخوض غمار الموت في مرجحة
فوارس بدر والنضير وخبير
ويوم حنين جالدوا عن نبههم
هنالك لا تلوي عجوز على ابنها
فقل لابن حرب ما الذي أنت صانع
فلا رأي إلا تركنا الشام جهرة
مدى الدهر ما لب الملبون موعدا
مقام وإن جاوزت جابلق مصعدا
على ظهر خوار الرحالة أجردا
ينادون في نقع العجاج محمدا
وأحد يهزون الصفيح المهندا
فريقاً من الأحزاب حتى تبددا
وان أكثر من قول: نفسي لك الفدا
أنتبث أم ندعوك في الحرب قعدا:
وإن أبرق الفجفاج فيها وأرعدا

فلما سمع أهل الشام شعره أتوا به معاوية، فهم بقتله، ثم راقب فيه قومه، فطرده من الشام، فلحق بمصر وندم معاوية على تسييره إياه. وقال معاوية: لشعر السلمي أشد على أهل الشام من لقاء علي، ماله قاتله الله، لو صار خلف جابلق مصعداً لم يأمن علياً! ألا تعلمون ما جابلق؟ يقول لأهل الشام، قالوا: لا، قال: مدينة في أقصى المشرق ليس بعدها شيء. قال نصر: وتناقل الناس كلمة علي عليه السلام: لأنجزهم مصباحاً، فقال الأشر:

قد دنا الفضل في الصباح
فرجال الحروب كل خذب
يضرب الفارس المدجج بالسي
يا بن هند شد الحيازيم للمو
إن في الصبح إن بقيت لأمرأ
فيه عز العراق أو ظفر الشا
فاصبروا للطعان بالأسل السم
إن تكونوا قتلتم النفر البي
فلنا مثلهم غداة التلاقي
يخضبون الوشيح طعناً
طلب الفوز في المعاد وفيه
وللسلم رجال وللحروب رجال
مقحم لا تهده الأهوال
ف إذا فر في الوغا الأكفال
ت ولا تذهبن بك الآمال
تتفادى من هوله الأبطال
م بأهل العراق والزلال
ر وضرب تجري به الأمثال
ض وغالت أولئك الآجال
و قليل من مثلهم أبدال
إذا جرت من الموت بينهم أذيال
تستهان النفوس والأموال

قال: فلما انتهى إلى معاوية شعر الأشر قال: شعر منك، من شاعر منك، رأس أهل العراق وعظيمهم، ومسعر حريمهم، وأول الفتنة وآخرها، قد رأيت أن أعاود علياً وأسأله إقراري على الشام، فقد كنت كتبت إليه ذلك فلم يجب إليه، ولأكتبين ثانية فالقي في نفسه الشك والرقعة. فقال له عمرو بن العاص وضحك: أين أنت يا معاوية من خدعة علي! قال:

ألسنا بني عبد مناف! قال: بلى، ولكن لهم النبوة دونك، وإن شئت أن تكتب فكتب؛ فكتب معاوية إلى علي عليه السلام مع رجل من السكاسك يقال له عبد الله بن عقبة، وكان من نافلة أهل العراق: أما بعد فإنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض، ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن تلزمني لك بيعة وطاعة، فأبيت ذلك علي، فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف، وقد والله فارت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف؛ ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز، ولا يسترق به حر، والسلام.

فلما انتهى كتاب معاوية إلى علي عليه السلام قرأه، ثم قال: العجب لمعاوية وكتابه! ودعا عبيد بن أبي رافع كاتبه، فقال: اكتب جوابه.

أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض، فإني لو قتلت في ذات الله، وحييت؛ ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة لم أرجع عن الشدة في ذات الله والجهاد لأعداء الله، وأما قولك: إنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى، فإني ما نقصت عقلي، ولا ندمت على فعلي. وأما طلبك الشام فإني لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا في الخوف والرجاء فلست أمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك: إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض! فلعمري إنا بنو أب واحد، ولكن ليس أمة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا المهاجر كالطليق، ولا الحق كالمبطل، وفي أيدينا بعد فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز وأعززنا بها الذليل. والسلام.

فلما أتى معاوية كتاب علي عليه السلام كتبه عن عمرو بن العاص أياماً، ثم دعاه فأقرأه إياه، فشمت به عمرو - ولم يكن أحد من قريش أشد إعظماً لعلي من عمرو بن العاص منذ يوم لقيه وصفح عنه - فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية:

ودر الأمرين لك الشهود!

وقد قرع الحديد على الحديد!

وتأمل أن يهابك بالوعيد

يشيب لهولها رأس الوليد

فوارسها تلهب كالأسود

وقد ملت طعان القوم: عودي

وان صدت فليس بذئ صدود

ولا هو من مسائك بالبعيد

ألا لله درك يا بن هند

أتطمع لا أبأ لك في علي

وترجو أن تحيره بشك

وقد كشف القناع وجر حرباً

له جأواء مظلمة طحون

يقول لها إذا رجعت إليه

فإن وردت فأولها ورودا

وما هي من أبي حسن بنكر

وقلت له مقالة مستكين

ضعيف الركن منقطع الوريد

دعن لي الشام حسبك يا بن هند

من السوات والرأي الزهيد

ولو أعطاكها ما ازددت عزاً

ولا لك لو أجابك من مزيد

فلم تكسر بذاك الرأي عوداً

لركته ولا ما دون عود

فلما بلغ معاوية شعر عمرو دعاه فقال له: العجب لك! تفيل رأي، وتعظم عليا وقد فضحك! فقال: أما تفيلي رأيك فقد كان، وأما إعظامي علياً فإنك بإعظامه أشد معرفة مني، ولكنك تطويه وأنا أنشره. وأما فضيحتي فلم يفتضح امرؤ لقي أبا حسن.

ومن كتاب له إلى عبد الله بن عباس

وهو عامله على البصرة

الأصل: وأعلم أن البصرة مهبط إبليس، ومغرس الفتن، فحدث أهلها بالإحسان إليهم، واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم. وقد بلغني تنمرك لبني تميم، وغلظتكم عليهم، وإن بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر، وإنهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام، وإن لهم بنا رحماً ماسةً، وقراءةً خاصةً، نحن مأجورون على صلتها، ومأزورون على قطيعتها، فاربع أبا العباس رحمك الله فيما جرى على يدك ولسانك من خير وشر! فإننا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك، ولا يفيلن رأيي فيك، والسلام.

الشرح: قوله عليه السلام: مهبط إبليس: موضع هبوطه، ومغرس الفتن: موضع غرسها، ويروى ومغرس الفتن، وهو الموضع الذي ينزل فيه القوم آخر الليل للاستراحة، يقال غرسوا وأغرسوا.

وقوله عليه السلام: فحدث أهلها، أي تعهدهم بالإحسان، من قولك: حادثت السيف بالصقال.

والتنمر للقوم: الغلظة عليهم، والمعاملة لهم بأخلاق النمر، من الجرأة والثوب، وسنذكر تصديق قوله عليه السلام: لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر.

والوغم: الترة، والأوغام: الترات، أي لم يهدر لهم دم في جاهلية ولا إسلام، يصفهم بالشجاعة والحمية. ومأزورون، كان أصله موزورون، ولكنه جاء بالألف ليحاذي به ألف مأجورون وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك. قوله عليه السلام: فاربع أبا العباس، أي قف وتثبت في جميع ما تعتمد عليه فعلاً وقولاً من خير وشر، ولا تعجل به في شريكك فيه إذ أنت عاملي والنائب عني. ويعني بالشر ههنا الضرر فقط، لا الظلم والفعل القبيح.

قوله عليه السلام: وكن عند صالح ظني فيك، أي كن واقفاً عنده كأنك تشاهده فتمنعك مشاهدته عن فعل ما لا يجوز. فالرأي يفيل، أي ضعف وأخطأ.

بنو تميم وفضائلهم

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب التاج أن لبني تميم مآثر لم يشركهم فيها غيرهم. أما بنو سعد بن زيد مناة فلها ثلاث خصال يعرفها العرب: إحداها: كثرة العدد فإنه أضعف عددها على بني تميم حتى ملأت السهل والجبل عدلت مضر كثرة، وعامة العدد منها في كعب بن سعد بن زيد مناة، ولذلك قال أوس بن مغراء:

من خيرها فوارساً وعقبا

كعبي من خير الكعاب كعبا

تعدل جنباً وتميم جنباً

وقال الفرزدق أيضاً فيهم هذه الأبيات:

فقرى عمان إلى ذوات حجور

لو كنت تعلم ما برمل مويسل

من آل سعد لم تدن لأمير

لعلمت أن قبائلاً وقبائلاً

وقال أيضاً:

ببيرين قد كادت على الناس تضعف

تبكي على سعد وسعد مقيمة

ولذلك كانت تسمى سعد الأكثرين. وفي المثل: في كل واد بنو سعد.

والثانية: الإفاضة في الجاهلية، كان ذلك في بني عطار، وهم يتوارثون ذلك كابرا عن كابر، حتى قام الإسلام، وكانوا إذا اجتمع الناس أيام الحج بمنى لم يرح أحد من الناس ديناً وسنة حتى يجوز القائم بذلك من آل كرب بن صفوان، وقال أوس بن مغراء:

حتى يقال: أجزوا آل صفوانا

ولا يريمون في التعريف موقفهم

وقال الفرزدق:

صبيحة يوم النحر من حيث عرفوا

إذا ما التقينا بالمحصب من منى

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ترى الناس ما سرنا يسيرون حولنا

والثالثة: أن منهم أشرف بيت في العرب الذي شرفته ملوك لحم. قال المنذر بن المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود العرب ودعا ببردي أبيه محرق بن المنذر فقال: ليلبس هذين أعز العرب وأكرمهم حسباً. فأحجم الناس، فقال أحيمر بن خلف بن بحدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم: أنا لهما، قال الملك: بماذا؟ قال: بأن مضر أكرم العرب وأعزها وأكثرها عديداً، وأن تميم كاهلها وأكثرها، وأن بيتها وعددها في بني بحدلة بن عوف، وهو جدي. فقال: هذا أنت في أصلك وعشيرتك، فكيف أنت في عترتك وأدانيك! قال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة. فدفعهما إليه، وإلى هذا أشار الزبرقان بن بدر في قوله:

بفضل معد حيث عدت محاصله

وبردا ابن ماء المزن عمي اكتساهما

قال أبو عبيدة: ولهم في الإسلام خصلة، قدم قيس بن عاصم المنقري على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفر من بني سعد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا سيد أهل الوبر، فجعله سيد خندف وقيس ممن يسكن الوبر.

قال: وأما بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم فلهم خصال كثيرة. قال: في بني دارم بن مالك بن حنظله، وهو بيت مضر، فمن ذلك زرارة بن عدس بن زيد بن دارم يقال: إنه أشرف البيوت في بني تميم، ومن ذلك قوس حاجب بن زرارة المرهونة عند كسرى عن مضر كلها، وفي ذلك قيل:

وأقسم كسرى لا يصلح واحداً من الناس حتى يرهن القوس حاجب

ومن ذلك في بني مجاشع بن دارم صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع، وهو أول من أحيا الوئيد، قام الإسلام وقد اشترى ثلاثمائة مؤودة فأعتقهن ورباهن، وكانت العرب تمتد البنات خوف الإملاق.

ومن ذلك غالب بن صعصعة، وهو أبو الفرزدق، وغالب هو الذي قرى مائة ضيف، واحتمل عشر ديات لقوم لا يعرفهم، وكان من حديث ذلك أن بني كلب بن وبرة افتخرت بينها في أنديتها، فقالت: نحن لباب العرب وقلبها، ونحن الذين لا ننازع حسباً وكرماً. فقال شيخ منهم: إن العرب غير مقرة لكم بذلك، إن لها أحساباً، وإن منها لباباً، وإن لها فعلاً، ولكن ابعثوا مائة منكم في أحسن هيئة وبزة ينفرون من مروا به في العرب ويسألونه عشر ديات، ولا ينتسبون له، فمن قراهم وبذل لهم الديات فهو الكريم الذي لا ينازع فضلاً؛ فخرجوا حتى قدموا على أرض بني تميم وأسد، فنفروا الأحياء حياً فحياً، وماء فماء، لا يجدون أحداً على ما يريدون؛ حتى مروا على أكثم بن صيفي، فسألوه ذلك، فقال: من هؤلاء القتلى؟ ومن أنتم؟ وما قصتكم؟ فإن لكم لشأناً باختلافكم في كلامكم! فعدلوا عنه، ثم مروا بقتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي فسألوه عن ذلك، فقال: من أنتم؟ قالوا: من كلب بن وبرة. فقال: إني لأبغي كلباً بدم، فإن انسلخ الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض وأدرككم الخيل نكلت بكم وأتكلتكم أمهاتكم. فخرجوا من عنده مرعوبين، فمروا بعطارد بن حاجب بن زرارة، فسألوه ذلك، فقال: قولوا بياناً وخذوها، فقالوا: أما هذا فقد سألكم قبل أن يعطيكم فتركوه، ومروا ببني مجاشع بن دارم فأتوا على واد قد امتلأ إبلاً فيها غالب بن صعصعة يهنأ منها إبلاً، فسألوه القرى والديات، فقال: هاكم البزل قبل التزول فابتزوها من البرك وحوزوا دياتكم، ثم انزلوا، فتتزلوا وأخبروه بالحال، وقالوا: أرشدك الله من سيد قوم! لقد أرحتنا من طول النصب، ولو علمنا لقصدنا إليك، فذلك قول الفرزدق:

قرى مائة ضيفاً ولم يتكلم

إنهم أحق بتاج الماجد المتكرم

جری بعناني كل أبلج خضرم

فله عينا من رأى مثل غالب

وإذ نبحت كلب على الناس

فلم يجل عن أحسابها غير غالب

قال: فأما بنو يربوع بن حنظلة، فمنهم. ثم من بني رياح بن يربوع عتاب بن هرمي بن رياح، كانت له ردافة الملوك، ملوك آل المنذر، وردافة الملك أن يثنى به في الشرب، وإذا غاب الملك خلفه في مجلسه، وورث ذلك بنوه كابراً عن كابر، حتى قام الإسلام، قال لبید بن ربیعة:

كعبي وأرداف الملوك شهود

وشهدت أنجبة الأكارم غالباً

ويربوع أول من قتل قتيلاً من المشركين، وهو واقد بن عبد الله بن ثعلبة بن يربوع، حليف عمر بن الخطاب، قتل عمرو بن الحضرمي في سرية نخلة، فقال عمر بن الخطاب يفتخر بذلك:

بنخلة لما أوقد الحرب واقد

سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا

تتازعه غل من القد عاندا

وظل ابن عبد الله عثمان بيننا

ولها جواد العرب كلها في الإسلام؛ بدأ العرب كلها جوداً، خالد بن عتاب بن ورقاء الرياحي. دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك، وكان يشنؤه لكثرة بأوه وفخره، فتجهمه وتنكر له، وأغلظ في خطابه حتى قال: من أنت لا أم لك! قال: أو ما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ أنا من حي هم من أوفى العرب، وأحلم العرب، وأسود العرب، وأجود العرب وأشجع العرب، وأشعر العرب. فقال سليمان: والله لتحتجن لما ذكرت أو لأوجعن ظهرك، ولا بعدن دارك. قال: أما أوفى العرب فحاجب بن زرارة؛ رهن قوسه عن العرب كلها وأوفى. وأما أحلم العرب فالأحنف بن قيس يضرب به المثل حلماء، وأما أسود العرب فقيس بن عاصم، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا سيد أهل الدير؛ وأما أشجع العرب فالحرش بن هلال السعدي؛ وأما أجود العرب فخالد بن عتاب بن ورقاء الرياحي، وأما أشعر العرب فهأنذا عندك! قال سليمان: فما جاء بك؟ لا شيء لك عندنا، فارجع على عقبك، وغمه ما سمع من عزه، ولم يستطع له رداً، فقال الفرزدق في أبيات:

إليك ولا من قلة في مجاشع

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا

قلت: ولو ذكر عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي وقال: إنه أشجع العرب لكان غير مدافع. قالوا: كانت العرب تقول: لو وقع القمر إلى الأرض لما التقفه إلا عتيبة بن الحارث لثقافته بالرمح. وكان يقال له: صياد الفوارس وسم الفوارس، وهو الذي أسر بسطام بن قيس، وهو فارس ربيعة وشجاعها، ومكث عنده في القيد مدة حتى استوفى فداؤه وحز ناصيته، وخلق سبيله على ألا يغزو بني يربوع. وعتيبة هذا هو المقدم على فرسان العرب كلها في كتاب طبقات الشجعان ومقاتل الفرسان، ولكن الفرزدق لم يذكره وإن كان تيمياً، لأن جريراً يفتخر به، لأنه من بني يربوع، فحملته عداوة جريز على أن عدل عن ذكره.

قال أبو عبيدة: ولبن يربوع بن تميم خصال تعرفها لهم العرب ولا ينازعهم فيها أحد؛ فمنها أكرم الناس عمماً وعمه، وهداً وحدة، وهو هند بن أبي هالة، واسم أبي هالة نباش بن زرارة أحد بني عمرو بن تميم، كانت خديجة بنت خويلد قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحت أبي هالة، فولدت له هنداً، ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهند بن أبي هالة غلام صغير، فتبناه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ولدت خديجة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهند بن أبي هالة وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فكان هند بن أبي هالة. أحاهم لأهمهم، ثم أولد هند بن أبي هالة هند بن هند، فهند الثاني أكرم الناس جداً وحدة، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة، وأكرم الناس عمماً وعمه - يعني بني النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبناته.

ومنها أن لهم أحكم العرب في زمانه أكثم بن صيفي؛ أحد بني أسد بن عمرو بن تميم، كان أكثر أهل الجاهلية حكماً ومثلاً وموعظة سائرة.

ومنها ذو الأعواز، كان له خراج على مضر كافة تؤديه إليه، فشاخ حتى كان يحمل على سرير يطاف به على مياه العرب، فيؤدى إليه الخراج، وقال الأسود بن يعفر النهشلي وكان ضريباً:

ولقد علمت خلاف ما تناشي **أن السبيل سبيل ذي الأعواز**

ومنها هلال بن أحوز المازني الذي ساد تميماً كلها في الإسلام، ولم يسدها غيره.

قال: ودخل خالد بن عبد الرحمن بن الوليد بن المغيرة المخزومي مسجد الكوفة، فانتهى إلى حلقة فيها أبو الصقعب التيمي، من تيم الرباب، والمخزومي لا يعرفه، وكان أبو الصقعب من أعلم الناس، فلما سمع علمه وحديثه حسده، فقال له: ممن الرجل؟ قال: من تيم الرباب، فظن المخزومي أنه وجد فرصة، فقال: والله ما أنت من سعد الأكثرين ولا من حنظلة الأكرمين، ولا من عمرو الأشدين! فقال أبو الصقعب: فمن أنت؟ قال من بني مخزوم. قال: والله ما أنت من هاشم المنتخبين، ولا من أمية المستخلفين، ولا من عبد الدار المستحججين، فبم تفخر؟ قال: نحن ربيعة قريش، قال أبو الصقعب: قبلاً لما جئت به! وهل تدري لم سميت مخزوم ربيعة قريش؟ سميت لحظوة نسائها عند الرجال، فأفحمه. روى أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن معاوية قال للأحنف بن قيس وجارية بن قدامة ورجال من بني سعد معهما كلاماً أحفظهم، فردوا عليه جواباً مقنعاً، وامراته فاختة بنت قرظة في بيت يقرب منهم، وهي أم عبد الله بن معاوية، فسمعت ذلك، فلما خرجوا قالت: يا أمير المؤمنين، لقد سمعت من هؤلاء الأجلاف كلاماً تلقوك به فلم تنكر، فكذت أن أخرج إليهم فأسطو بهم! فقال معاوية: إن مضر كاهل العرب، وتميماً كاهل مضر، وسعداً كاهل تميم، وهؤلاء كاهل سعد.

وروى أبو العباس أيضاً أن عبد الملك ذكر يوماً بني دارم فقال أحد جلسائه: يا أمير المؤمنين، هؤلاء قوم محظوظون - يعني في كثرة النسل ونماء الذرية - فلذلك انتشر صيتهم. فقال عبد الملك: ما تقول هذا وقد مضى منهم لقيط بن زرارة ولم يخلف عقباً، ومضى قعقاع بن معبد بن زرارة ولم يخلف عقباً، ومضى محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة ولم يخلف عقباً! والله لا تنسى العرب هذه الثلاثة أبداً.

قال أبو العباس: إن الأصمعي قال: إن حرباً كانت بالبادية ثم اتصلت بالبصرة، فتفاقم الأمر فيها، ثم مشى بين الناس بالصلح، فاجتمعوا في المسجد الجامع. قال: فبعثت وأنا غلام إلى ضرار بن القعقاع من بني دارم، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت، فإذا به في ثملة يخلط بزراً لعز له حلوب، فخبرته بمجتمع القوم، فأمهل حتى أكلت العز، ثم غسل الصحيفة وصاح: يا جارية، غدينا، فأنته بزيت وتمر، فدعاني، فقدرته أن أكل معه حتى إذا قضى من أكله وحاجته وطراً وثب إلى طين ملقى في الدار، فغسل به يده، ثم صاح: يا جارية، اسقيني ماءً، فأنته بماء، فشربه ومسح فضله على وجهه، ثم قال: الحمد لله، ماء الفرات بتمر البصرة بزيت الشام، متى نؤدي شكر هذه النعم! ثم قال: علي بردائي، فأنته برداء عدي

فارتدى به على تلك الشملة. قال الأصمعي: فتجافيت عنه استقباحاً لزيه، فلما دخل المسجد صلى ركعتين، ثم مشى إلى القوم، فلم تبق حبة إلا حلت إعظماً له، ثم جلس فتحمل جميع ما كان بين الأحياء في ماله ثم انصرف.

قال أبو العباس: وحدثني أبو عثمان المازني، عن أبي عبيدة، قال: لما أتى زياد بن عمرو المريد في عقب قتل مسعود بن عمرو العتكي، وجاء زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي ليثأر به من بني تميم صف أصحابه، فجعل في الميمنة بكر بن وائل، وفي الميسرة عبد القيس، وهم لكيز بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة، وكان زياد بن عمرو العتكي في القلب، فبلغ ذلك الأحنف بن قيس، فقال: هذا غلام حدث، شأنه الشهرة، وليس يبالي أين قذف بنفسه! فندب أصحابه، فجاءه حارثة بن بدر الغداني، وقد اجتمعت بنو تميم، فلما أتى قال: قوموا إلى سيدكم، ثم أجلسه فناظره، فجعلوا سعداً والرباب في القلب ورئيسهم عبس بن طلق الطعان المعروف بأخي كهمس، وهو أحد بني صريم بن يربوع، فكانوا بجداء زياد بن عمرو ومن معه من الأزدي، وجعل حارثة بن بدر الغداني في بني حنظلة بجداء بكر بن وائل، وجعل عمرو بن تميم بجداء عبد القيس، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف:

مقارعة الأزدي في المريد

لكيز بن أفصى وما عددوا

بضرب يشيب له الأمر

سيكفيك عبس أخو كهمس

ويكفيك عمرو على رسلها

ونكفيك بكراً إذا أقبلت

ولكيز بن أفصى تعمد عبد القيس. قال: فلما توافقوا بعث إليهم الأحنف: يا معشر الأزدي من اليمن وربيعه من أهل البصرة، أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة، وأنتم جيراننا في الدار، ويدنا على العدو، وأنتم بدأتمونا بالأمس، ووطئتم حريمنا، وحرقتم علينا، فدفعنا عن أنفسنا، ولا حاجة لنا في الشر ما طلبنا في الخير مسلماً، فتييموا بنا طريقة مستقيمة.

فوجه إليه زياد بن عمرو: تخير خلة من ثلاث: إن شئت فانزل أنت وقومك على حكمنا، وإن شئت فخل لنا عن البصرة، وارحل أنت وقومك إلى حيث شئتم، وإلا فعدوا قتلتنا، واهدروا دماءكم، وليود مسعود دية المشعرة.

قال أبو العباس: وتأويل قوله: دية المشعرة، يريد أمر الملوك في الجاهلية، وكان الرجل إذا قتل وهو من أهل بيت المملكة ودي عشر ديات فبعث إليه الأحنف: سنختار، فانصرفوا في يومكم، فهز القوم راياتهم وانصرفوا، فلما كان الغد بعث الأحنف إليهم: إنكم خيرتمونا خلالاً ليس لنا فيها خيار، أما التزول على حكمكم فكيف يكون والكلم يقطر، وأما ترك ديارنا فهو أخو القتل. قال الله عز وجل: "ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل"، ولكن الثالثة إنما هي حمل على المال، فنحن نبطل دماءنا، وندي قتلاككم، وإنما مسعود رجل من المسلمين، وقد أذهب الله عز وجل أمر الجاهلية. فاجتمع القوم على أن يقفوا أمر مسعود، ويغمدوا السيف، وتودى سائر القتلى من الأزدي وربيعه، فضمن ذلك الأحنف، ودفع إليهم إياس بن قتادة الجاشعي رهينة حتى يؤدي هذا المال، فرضي به القوم، ففخر بذلك الفرزدق، فقال للجرير:

لغاري معد يوم ضرب الجماجم

عجاجة موت بالسيف الصوارم

ومنا الذي أعطى يديه رهينة

عشية سال المريدان كلاهما

ويقال: إن تيمماً في ذلك الوقت مع باديتها وحلفائها من الأساورة والزط والسباجة وغيرهم كانوا زهاء سبعين ألفاً، وفي ذلك يقول جرير:

سائل ذوي يمن ورهط محرق

والأزد إذ ندبوا لنا مسعودا

فأتاهم سبعون ألف مدجج

متسربلين يلامقاً وحديدا

قال الأحنف بن قيس: فكثرت علي الديات فلم أجدها في حاضرة تميم، فخرجت نحو يبرين إلى بادية تميم، فسألت عن المقصود هناك، فأرشدت إلى قبة، فإذا شيخ جالس بفنائها مؤتزر بشملة، محتب بجبل، فسلمت عليه، وانتسبت له، فقال لي: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قلت: توفي. قال: فما فعل عمر بن الخطاب الذي كان يحفظ العرب ويحوطها؟ قلت: توفي. قال: فأبي خير في حاضرتمكم بعدهما؟ قال: فذكرت له الديات التي لزمنا للأزد وربيعه، قال: قال لي: أقم، فإذا راع قد أراح عليه ألف بعير، فقال: خذها، ثم أراح علينا آخر مثلها، فقال: خذها، فقلت: لا أحتاج إليها. قال: فانصرفت بالألف عنه، ووالله ما أدري من هو إلى الساعة!

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

الأصل: أما بعد، فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة، واحتقاراً وجفوة، ونظرت فلم أرهم أهلاً لأن يدنوا لشركهم، ولا أن يقصوا ويحفوا لعهدهم، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداول لهم بين القسوة والرافة، وأمزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء. إن شاء الله. الشرح: الدهاقين: الزعماء أرباب الأملاك بالسواد، واحدهم دهقان بكسر الدال، ولفظه معرب، وداول بينهم، أي مرة هكذا ومرة هكذا، أمره أن يسلك معهم منهجاً متوسطاً، لا يدينهم كل الدنو لأنهم مشركون، ولا يقصيههم كل الإقصاء لأنهم معاهدون، فوجب أن يعاملهم معاملة آخذة من كل واحد من القسمين بنصيب.

ومن كتاب له إلى زياد بن أبيه

وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة

وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها الأصل: وإني أقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفرة، ثقيل الظهر؛ ضئيل الأمر. والسلام.

الشرح: سيأتي ذكر نسب زياد وكيفية استلحاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى. قوله عليه السلام: لأشدن عليك شدة، مثل قوله: لأحملن عليك حملة، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال.

ثم وصف تلك الشدة فقال: إنها تتركك قليل الوفرة. أي أفقرتك بأخذ ما احتجت من بيت مال المسلمين، وثقيل الظهر، أي مسكين لا تقدر على مئونة عيالك، وضئيل الأمر، أي حقير، لأنك إنما كنت نبياً بين الناس بالغي والزوة، فإذا افتقرت صغرت عندهم، واقتحمتك أعينهم.

ومن كتاب له إلى زياد أيضاً

الأصل: فدع الإسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك، أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين، وأنت عنده من المتكبرين! وتطمع وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والأرملة، وأن يوجب لك ثواب المتصدقين؛ وإنما المرء مجزي بما أسلف، وقادم على ما قدم. والسلام.

الشرح: المتمرغ في النعيم: المتقلب فيه. ونهاه عن الإسراف وهو التبذير في الإنفاق، وأمره أن يمسك من المال ما تدعو إليه الضرورة، وأن يقدم فضول أمواله وما ليس له إليه حاجة ضرورية في الصدقة فيدخره ليوم حاجته، وهو يوم البعث والنشور.

قلت: قبح الله زياداً! فإنه كافاً إنعام علي عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لا حاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيئته ومحبيه والإسراف في لعنه، وتهجين أفعاله، والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه، ولم يكن يفعل ذلك لطلب رضا معاوية، كلا، بل يفعله بطبعه، ويعاديه بباطنه وظاهره، وأبى الله إلا أن يرجع إلى أمه، ويصحح نسبه، وكل إناء ينضح بما فيه. ثم جاء ابنه بعد فحتم تلك الأعمال السيئة بما ختم، وإلى الله ترجع الأمور!

ومن كتاب له إلى عبد الله بن العباس

رحمه الله تعالى وكان ابن عباس يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانتفاعي بهذا الكلام

الأصل: أما بعد، فإن المرء قد يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلت من دنياك فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعاً، وليكن همك فيما بعد الموت.

الشرح: يقول: إن كل شيء يصيب الإنسان في الدنيا من نفع وضرر فبقضاء من الله وقدره تعالى؛ لكن الناس لا ينظرون حق النظر في ذلك، فيسر الواحد منهم بما يصيبه من النفع، ويساء بفوت ما يفوته منه، غير عالم بأن ذلك النفع الذي أصابه، كان لا بد أن يصيبه، وأن ما فاته منه كان لا بد أن يفوته، ولو عرف ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن.

ولقائل أن يقول: هب أن الأمور كلها بقضاء وقدر، فلم لا ينبغي للإنسان أن يفرح بالنفع وإن وقع بالقدر، ويساء بفوته أو بالضرر وإن وقعاً بقدر! أليس العريان يساء بقدوم الشتاء وإن كان لا بد من قدومه، والمحوم غباً يساء بتجدد نوبة الحمى، وإن كان لا بد من تجددها! فليس سبب الاختيار في الأفعال مما يوجب أن لا يسر الإنسان ولا يساء بشيء منها.

والجواب: ينبغي أن يحمل هذا الكلام على أن الإنسان ينبغي أن لا يعتقد في الرزق أنه آتاه بسعيه وحركته فيفرح معجباً

بنفسه، معتقداً أن ذلك الرزق ثمرة حركته واجتهاده، وكذلك ينبغي ألا يساء بفوات ما يفوته من المنافع لائماً نفسه في ذلك ناسباً لها إلى التقصير وفساد الحيلة والاجتهاد، لأن الرزق هو من الله تعالى لا أثر للحركة فيه، وإن وقع عندها؛ وعلى هذا التأويل ينبغي أن يحمل قوله تعالى: "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور". من النظم الجيد الروحاني في صفة الدنيا والتحذير منها، والوصاية بترك الاغترار بها، والعمل لما بعدها، ما أورده أبو حيان في كتاب الإشارات الإلهية ولم يسم قائله:

دار الفجائع والهموم ودا	ر البث والأحزان والبلوى
مر المذاقة غب ما احتلبت	منها يداك وبية المرعى
بيننا الفتى منها بمنزلة	إذ صار تحت ترابها ملقى
تقفو مساويها محاسنها	لا شيء بين النعي والبشرى
ولقل يوم ذر شارقه	إلا سمعت بهالك ينعى
لا تعتبن على الزمان لما	يأتي به فلقلماً يرضى
للمرء رزق لا يفوت ولو	جهد الخلائق دون أن يفنى
يا عامر الدنيا المعد لها	ماذا عملت لدارك الأخرى
ومهد الفرش الوطيئة لا	تغفل فراش الرقدة الكبرى
لو قد دعيت لقد أجبته لما	تدعى له فانظر متى تدعى!
أتراك تحصي كم رأيت من ال	أحياء ثم رأيتهم موتى
من أصبحت دنياه همته	فمتى ينال الغاية القصوى!
سبحان من لا شيء يعدله	كم من بصير قلبه أعمى!
والموت لا يخفى على أحد	ممن أرى وكأنه يخفى
والليل يذهب والنهار بأحبابي	وليس عليهما عدوى

قال قبل موته على سبيل الوصية لما ضربه ابن ملجم لعنه الله

الأصل: وصيتي لكم ألا تشركوا بالله شيئاً، ومحمد صلى الله عليه وآله، فلا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخلاكم ذم! أنا بالأمس صاحبكم، واليوم عبرة لكم، وغدا مفارقكم، إن أبق فأنا ولي دمي، وإن أفن فالفناء ميعادي، وإن أعف فالفنء لي قربة، وهو لكم حسنة، فاعفوا: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم" والله ما فجأني من الموت وارد كرهته، ولا طالع أنكرته، وما كنت إلا كقارب ورد، وطالب وجد؛ "وما عند الله خير للأبرار".

قال الرضي رحمه الله تعالى: أقول وقد مضى بعض هذا الكلام فيما تقدم من الخطب، إلا أن فمه ههنا زيادة أوجبت تكريره.

الشرح: فإن قلت: لقائل أن يقول: إذا أوصاهم بالتوحيد واتباع سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يبق شيء بعد ذلك يقول فيه: أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم؛ لأن سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل كل واجب. وتجنب كل قبيح؛ فخلاهم ذم في ماذا يقال؟ والجواب أن كثيرا من الصحابة كلفوا أنفسهم أموراً من النوافل شاقة جداً، فمنهم من كان يقوم الليل كله، ومنهم من كان يصوم الدهر كله، ومنهم الم رابط في الثغور، ومنهم المجاهد مع سقوط الجهاد عنه لقيام غيره به، ومنهم تارك النكاح، ومنهم تارك المطاعم والملابس؛ وكانوا يتفاخرون بذلك، ويتنافسون فيه، فأراد عليه السلام أن يبين لأهله وشيعته وقت الوصية أن المهم الأعظم هو التوحيد، والقيام بما يعلم من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه واجب، ولا عليكم بالإحلال بما عدا ذلك، فليت من المائة واحداً نهض بذلك، والمراد ترغيبهم بتخفيف وظائف التكالييف عنهم، فإن الله تعالى يقول: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر". وقال صلى الله عليه وآله وسلم: بعثت بالحنيفية السهلة السمحة.

قوله: وخلاكم ذم: لفظة تقال على سبيل المثل أي قد أعذرتكم، وسقط عنكم الذم. ثم قسم أيامه الثلاثة أقساماً فقال: أنا بالأمس صاحبكم أي كنت أرجى وأخاف، وأنا اليوم عبرة لكم، أي عظة تعتبرون بها. وأنا غدا مفارقكم، أكون في دار أخرى غير داركم. ثم ذكر أنه إن بقي ولم يمت من هذه الضربة فهو ولي دمه، إن شاء عفا، وإن شاء اقتص، وإن لم يبق فالفناء الموعد الذي لا بد منه.

ثم عاد فقال: وإن أعف، والتقسيم ليس على قاعدة تقسيم المتكلمين. والمعنى منه مفهوم، وهو إما أن أسلم من هذه الضربة أو لا أسلم، فإن سلمت منها فأنا ولي دمي؛ إن شئت عفوت فلم أقتص، وإن شئت اقتصصت، ولا يعني بالقصاص ههنا القتل، بل ضربة بضربة، فإن سرت إلى النفس كانت السراية مهددة كقطع اليد. ثم أوماً إلى أنه إن سلم عفا بقوله: إن العفو لي إن عفوت قرية. ثم عدنا إلى القسم الثاني من القسمين الأولين، وهو أنه عليه السلام لا يسلم من هذه؛ فولاية الدم إلى الورثة، إن شاءوا اقتصوا وإن شاءوا عفوا.

ثم أوماً إلى إن العفو منهم أحسن، بقوله: وهو لكم حسنة، بل أمرهم أمراً صريحاً بالعفو، فقال: فاعفوا "ألا تحبون أن يغفر الله لكم". وهذا لفظ الكتاب العزيز، وينبغي أن يكون أمره بالعفو في هذا الكلام محمولاً على الندب. ثم أقسم عليه السلام أنه ما فجأه من الموت أمر أنكره ولا كرهه، فجأني الشيء: أتاني بغتة. ثم قال: ما كنت إلا كقارب ورد، والقارب: الذي يسير إلى الماء وقد بقي بينه وبينه ليلة واحدة، والاسم: القرب، فهم قاربون، ولا يقال مقربون، وهو حرف شاذ.

ومن وصية له بما يعمل في أمواله

كتبها بعد منصرفه من صفين الأصل: هذا ما أمر به عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين في ماله ابتغاء وجه الله ليولج به الجنة، ويعطيه به الأمانة.

الشرح: قد عاتبت العثمانية وقالت: إن أبا بكر مات ولم يخلف ديناراً ولا درهماً، وإن علياً عليه السلام مات وخلف عقاراً كثيراً - يعنون نخلاً - قيل لهم: قد علم كل أحد أن علياً عليه السلام استخرج عيوناً بكده يده بالمدينة وينبع وسويعة، وأحيا بها موتاً كثيراً، ثم أخرجها عن ملكه، وتصدق بها على المسلمين، ولم يمت وشيء منها في ملكه، ألا ترى إلى ما تتضمنه كتب السير والأخبار من منازعة زيد بن علي وعبد الله بن الحسن في صدقات علي عليه السلام، ولم يورث علي عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيراً إلا عبيده وإماءه وسبعمائة درهم من عطائه، تركها ليشترى بها خادماً لأهله قيمتها ثمانية وعشرون ديناراً، على حسب المائة أربعة دنانير، وهكذا كانت المعاملة بالدرهم إذ ذاك، وإنما لم يترك أبو بكر قليلاً ولا كثيراً لأنه ما عاش، ولو عاش لترك ألا ترى أن عمر أصدق أم كلثوم أربعين ألف درهم، ودفعها إليها! وذلك لأن هؤلاء طالت أعمارهم، فمنهم من درت عليه أخلاف التجارة، ومنهم من كان يستعمر الأرض ويزرعها، ومنهم من استفضل من رزقه من الفيء.

وفضلهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان يعمل بيده، ويحرق الأرض ويسقي الماء ويغرس النخل، كل ذلك يباشره بنفسه الشريفة، ولم يستبق منه لوقته ولا لعقبه قليلاً ولا كثيراً، وإنما كان صدقة؛ وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وله ضياع كثيرة جليلة جداً بخير وفدك وبني النضير، وكان له وادي نخلة وضياع أخرى كثيرة بالطائف، فصارت بعد موته صدقة بالخبر الذي رواه أبو بكر. فإن كان علي عليه السلام معيماً بضياعه ونخله فكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله وسلم، وهذا كفر وإلحاد! وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما ترك ذلك صدقة فرسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله وسلم ما روى عنه الخبر في ذلك إلا واحد من المسلمين، وعلي عليه السلام في حياته قد أثبت عند جميع المسلمين بالمدينة أنها صدقة، فالتهمة إليه في هذا الباب أبعد. وروي: ويعطيني به الأمانة، وهي الأمن.

الأصل: منها: فإنه يقوم بذلك الحسن بن علي يأكل منه بالمعروف، وينفق منه بالمعروف، فإن حدث بحسن حدث وحسين حي، قام بالأمر بعده وأصدره مصدره؛ وإن لابي فاطمة من صدقة علي مثل الذي لبني علي. وإني إنما جعلت القيام بذلك إلى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله، وقرية إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وتكريماً لحرمة، وتشريفاً لوصلته، ويشترط على الذي يجعله إليه أن يترك المال على أصوله، وينفق من ثمره حيث أمر به وهدي له، وألا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى ودية حتى تشكل أرضها غراساً.

ومن كان من إمائي اللاتي أطوف عليهن لها ولد أو هي حامل فتمسك على ولدها وهي من حظه؛ فإن مات ولدها وهي حية فهي عتيقة قد أفرج عنها الرق وحررها العتق.

قال السيد الرضي رحمه الله تعالى: قوله عليه السلام في هذه الوصية "وألا يبيع من نخلها ودية"، الودية: الفسيلة، وجمعها

ودي.

قوله عليه السلام: "حتى تشكل أرضها غراسا" هو من أفصح الكلام، والمراد به أن الأرض يكثر فيها غراس النخل حتى يراها الناظر على غير تلك الصفة التي عرفها بها، فيشكل عليه أمرها ويحسبها غيرها.

الشرح: جعل للحسن ابنه عليه السلام ولاية صدقات أمواله، وأذن له أن يأكل منه بالمعروف، أي لا يسرف، وإنما يتناول منه مقدار الحاجة، وما جرت بمثله عادة من يتولى الصدقات، كما قال الله تعالى: "والعاملين عليها".

ثم قال: فإن مات الحسن والحسين بعده حي فالولاية للحسين، والهاء في مصدره ترجع إلى الأمر، أي يصرفه في مصارفه التي كان الحسن يصرفه فيها. ثم ذكر أن لهذين الولدين حصة من صدقاته أسوة بسائر البنين، وإنما قال ذلك لأنه قد يتوهم متوهم أنهما لكونهما قد فوض إليهما النظر في هذه الصدقات، قد منعنا أن يسهما فيها بشيء، وأن الصدقات إنما يتناولها غيرهما من بني علي عليه السلام ممن لا ولاية له مع وجودهما، ثم بين لماذا خصهما بالولاية؟ فقال: إنما فعلت ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتقربت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن جعلت لسبطيه هذه الرئاسة، وفي هذا رمز وإزاء بمن صرف الأمر عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مع وجود من يصلح للأمر، أي كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرئاسة بعده لأهله قرابةً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتكريماً لحرمته، وطاعةً له، وأنفةً لقدره صلى الله عليه وآله وسلم أن تكون ورثته سوقةً، يليهم الأجانب، ومن ليس من شجرته وأصله.

ألا ترى أن هبة الرسالة والنبوة في صدور الناس أعظم إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبوة؛ وليس يوجد مثل هذه الهبة والجلال في نفوس الناس للنبوة إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدعوة عليه السلام! ثم اشترط على من يلي هذه الأموال أن يتركها على أصولها، وينفق من ثمرتها، أي لا يقطع النخل والثمر ويبيعه خشباً وعيداناً، فيفضي الأمر إلى خراب الضياع وعطلة العقار.

قوله: وألا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى أي من الفسلان الصغار، سماها أولاداً، وفي بعض النسخ ليست أولاد مذكورة، والودية: الفسيلة.

تشكل أرضها: تمتلي بالغراس حتى لا يبقى فيه طريقة واضحة.

قوله: أطوف عليهن، كناية لطيفة عن غشيان النساء، أي من السراري، وكان عليه السلام يذهب إلى حل بيع أمهات الأولاد، فقال: من كان من إمائي لها ولد مني؛ أو هي حامل مني وقسمتم تركتي فلتكن أم ذلك الولد مبيعة على ذلك الولد، ويحاسب بالثمن من حصته من التركة، فإذا بيعت عليه عتقت عليه، لأن الولد إذا اشترى الوالد عتق الوالد عنه، وهذا معنى، قوله فتمسك على ولدها، أي تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر، وهي من حظه، أي من نصيبه وقسطه من التركة.

قال: فإن مات ولدها وهي حية بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعها لأنها خرجت عن الرق بانتقالها إلى ولدها، فلا يجوز بيعها.

فإن قلت: فلماذا قال: فإن مات ولدها وهي حية؟ وهلا قال: فإذا قومت عليه عتقت؟ قلت: لأن موضع الاشتباه هو موت الولد وهي حية، لأنه قد يظن ظان أنه إنما حرم بيعها لمكان وجود ولدها، فأراد عليه السلام أن يبين أنها قد صارت حرة مطلقاً سواء كان ولدها حياً أو ميتاً.

ومن وصية له كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات

وإنما ذكرنا هنا جملاً منها ليعلم بها أنه عليه السلام كان يقيم عماد الحق ويشرع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها ودقيقها وجليلها

الأصل: انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلماً، ولا تحتازن عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أربابهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار؛ حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم.

ولا تخرج بالتحية لهم ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته، لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه! فإن قال قائل: لا، فلا تراجع، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده، أو تعسفه أو ترهقه؛ فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه، ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفرعنها، ولا تسؤن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرض لما أختاره. فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله؛ فاقبض حق الله منه.

فإن استقالك فأقله، ثم أصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله، ولا تأخذن عوداً ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة، ولا ذات عوار؛ ولا تأمن عليها إلا من تثق بدينه، رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم، ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً، غير معنف ولا مجحف، ولا ملغب ولا متعب.

ثم احذر إلينا ما اجتمع عندك، نصيره حيث أمر الله، فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وبين فصيلها، ولا يعصر لبنها فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدنها ركوباً، وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها، وليرفه على اللأغب، وليستأن بالنقب والظالع، وليوردها ما تمر به من الغدر، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق، وليروحها في الساعات، وليمهلها عند النطاف والأعشاب، حتى تأتينا بإذن الله بدنأ منقيات، غير متعبات ولا مجهودات، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه واله، فإن ذلك أعظم لأجرك، وأقرب لرشدك إن شاء الله.

الشرح: وقد كرر عليه السلام قوله: لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاثة مواضع من هذا الفصل: الأول قوله: حتى يوصله إلى وليهم ليقسمه بينهم، الثاني قوله عليه السلام: نصيره حيث أمر الله به.

الثالث قوله: لنقسمها على كتاب الله، والبلاغة لا تقتضي ذلك، ولكني أظنه أحب أن يحتاط، وأن يدفع الظنة عن نفسه، فإن الزمان كان في عهده قد فسد، وساءت ظنون الناس، لا سيما مع ما رآه من عثمان واستثارته بمال الفيء. ونعود إلى الشرح. قوله عليه السلام: على تقوى الله، على ليست متعلقة ب انطلق، بل بمحذوف، تقديره: مواظباً.

قوله: ولا تروعن أي لا تفزعن، والروع الفزع، رعته أروعه، ولا تروعن بتشديد الواو وضم حرف المضارعة، من روعت للتكثير.

قوله عليه السلام: ولا تجتازن عليه كارهاً، أي لا تمرن ببيوت أحد من المسلمين يكره مرورك. وروي: ولا تختارن عليه، أي لا تقسم ماله وتختار أحد القسمين، والهاء في عليه ترجع إلى مسلماً وتفسير هذا سيأتي في وصيته له أن يصدع المال ثم يصدعه، فهذا هو النهي عن أن يختار على المسلم والرواية الأولى هي المشهورة.

قوله عليه السلام: فانزل بمائهم، وذلك لأن الغريب يحمد منه الإنقباض، ويستهن في القادم أن يخالط بيوت الحي الذي قدم عليه فقد يكون هناك من النساء من لا تليق رؤيته، ولا يحسن سماع صوته، ومن الأطفال من يستهن أن يرى الغريب انبساطه على أبيه وأهله، وقد يكره القوم أن يطلع الغريب على مآكلهم ومشربهم وملبسهم وبواطن أحوالهم، وقد يكونون فقراء فيكرهون أن يعرف فقرهم فيحتقرهم، أو أغنياء أرباب ثروة كثيرة فيكرهون أن يعلم الغريب ثروتهم فيحسداهم، ثم أمره أن يمضي إليهم غير متسرع ولا عجل ولا طائش نزع، حتى يقوم بينهم فيسلم عليهم ويحييهم تحيةً كاملة، غير مخدجة، أي غير ناقصة، أخذجت الناقة إذا جاءت بولدها ناقص الخلق، وإن كانت أيامه تامة، وخدجت: ألقت الولد قبل تمام أيامه. وروي: ولا تحدج بالتحية، والباء زائدة.

ثم أمره أن يسألهم: هل في أموالهم حق لله تعالى؟ يعني الزكاة، فإن قالوا: لا، فلينصرف عنهم، لأن القول قول رب المال، فلعله قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدق إليه.

قوله: وأنعم لك، أي قال: نعم، ولا تعسفه، أي لا تطلب منه الصدقة عسفاً، وأصله الأخذ على غير الطريق، ولا ترهقه: لا تكلفه العسر والمشقة.

ثم أمره أن يقبض ما يدفع إليه من الذهب والفضة، وهذا يدل على أن المصدق كان يأخذ العين والورق كما يأخذ الماشية، وأن النصاب في العين والورق تدفع زكاته إلى الإمام ونوابه، وفي هذه المسألة اختلاف بين الفقهاء.

قوله: فإن أكثرها له: كلام لا مزيد عليه في الفصاحة والرياسة والدين، وذلك لأن الصدقة المستحقة جزء يسير من النصاب، والشريك إذا كان له الأكثر حرم عليه أن يدخل ويتصرف إلا بإذن شريكه، فكيف إذا كان له الأقل.

قوله: فلا تدخلها دخول متسلط عليه، قد علم عليه السلام أن الظلم من طبع الولاة، وخصوصاً من يتولى قبض الماشية من أربابها على وجه الصدقة، فإنهم يدخلونها دخول متسلط حاكم قاهر، ولا يبقى لرب المال فيها تصرف، فنهى عليه السلام عن مثل ذلك.

قوله: ولا تنفرن بهيمةً، ولا تفزعنها، وذلك أنهم على عادة السوء يهجهجون بالقطيع حتى تنفر الإبل، وكذلك بالشاء إظهاراً للقوة والقهر، وليتمكن أعوانهم اختيار الجيد، ورفض الرديء.

قوله: ولا تسوءن صاحبها فيها أي لا تغموه ولا تحزنوه، يقال: سؤته في كذا سوائيةً ومسائيةً.

قوله: واصدع المال صدعين وخيره، أي شقه نصفين ثم خيره، فإذا اختار أحد النصفين فلا تعرض لما اختار، ثم اصدع النصف الذي ما ارتضاه لنفسه صدعين وخيره، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تبقي من المال بمقدار الحق الذي عليه، فاقبضه

منه، فإن استقالك فأقله، ثم اخلط المال، ثم عد لمثل ما صنعت حتى يرضى، وينبغي أن يكون المعيبات الخمس وهي المهلوسة والمكسورة وأخواتهما يخرجها المصدق من أصل المال قبل قسمته ثم يقسم وإلا فربما وقعت في سهم المصدق إذا كان يعتمد ما أمره به من صدع المال مرة بعد مرة.

والعود: المسن من الإبل، والهرمة: المسنة أيضاً، والمكسورة: التي أحد قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسور، والمهلوسة: المريضة قد هلسها المرض وأفنى لحمها، والهلأس: السل: والعوار: بفتح العين: العيب، وقد جاء بالضم. والمعنف: ذو العنف بالضم وهو ضد الرفق. والمجحف: الذي يسوق المال سوقاً عنيفاً فيجحف به أي يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمه ونقيه، والملغب: المتعب، واللغوب: الإعياء، وحدرت السفينة وغيرها - بغير ألف أحدرها بالضم. قوله: بين ناقة وبين فصيلها الأفصح حذف بين الثانية؛ لأن الاسمين ظاهران، وإنما تكرر إذا جاءت بعد المضمر، كقولك: المال بيني وبين زيد وبين عمرو، وذلك لأن المجرور لا يعطف عليه إلا بإعادة حرف الجر والاسم المضاف. وقد جاء: المال بين زيد وعمرو، وأنشدوا:

قعاقع وظبى في الجو تختلط

بين السحاب وبين الريح ملحمة

وأيضاً:

غيث الضريك وفارس مقدم

بين الندي وبين برقة ضاحك

ومن شعر الحماسة:

وبين بني عمي لمختلف جدا

وإن الذي بيني وبين بني أبي

وليس قول من يقول: إنه عطف بين الثالثة على الضمير المجرور بأولى من قول من يقول: بل عطف بين الثالثة على بين الثانية، لأن المعنى يتم بكل واحد منها.

قوله عليه السلام: ولا تمصر لبنها، المصّر حلب ما في الضرع جميعه، فهاه من أن يحلب اللبن كله فيبقى الفصيل جائعاً؛ ثم فهاه أن يجهدا ركوباً، أي يتعبها ويحملها مشقة؛ ثم أمره أن يعدل بين الركاب في ذلك، لا يخص بالركوب واحدةً بعينها، ليكون ذلك أروح لهن، ليرفه على اللاغب، أي ليتركه وليعفه عن الركوب ليستريح. والرفاهية: الدعة والراحة. والنقب: ذو النقب، وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تجرحه: أمره أن يستأنى بالبعير ذي النقب، من الأناة، وهي المهلة.

والظالع: الذي ظلع، أي غمز في مشيه، والغدر: جمع غدير الماء. وجواد الطريق: حيث لا ينبت المرعى، والنطاف: جمع نطفة، وهي الماء الصافي القليل، والبدن بالتشديد: السمان، واحداها بادن، ومنقيات: ذوات نقي، وهو المخ في العظم، والشحم في العين من السمن، وأنقت الإبل وغيرها: سمنت وصار فيها نقي، وناقة منقية، وهذه الناقة لا تنقي.

ومن عهد له إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة

الأصل: أمره بتقوى الله في سرائر أمره؛ وخفيات عمله، حيث لا شاهد غيره، ولا وكيل دونه، وأمره ألا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر فيخالف إلى غيره فيما أسر، ومن لم يختلف سره وعلا نيته، وفعله ومقاتلته، فقد أدى الأمانة، وأخلص العبادة، وأفره ألا يجبههم، ولا يعصهم، ولا يرغب عنهم تفضلاً بالإمارة عليهم فإنهم الإخوان في الدين، والأعوان على استخراج الحقوق.

وإن لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً، وحقاً معلوماً، وشركاء أهل مسكنة، وضعفاء ذوي فاقة. وإنا موفوك حقك، فوفهم حقوقهم، وإلا تفعل فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة. وبؤسى لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين، والسائلون والمدفوعون، والغارمون وابن السبيل! ومن استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة، ولم يتره نفسه ودينة عنها، فقد أحل بنفسه الذل والخزي في الدنيا، وهو في الآخرة أذل وأخزى؟ وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأقطع الغش غش الأئمة. والسلام.

الشرح: حيث لا شهيد ولا وكيل دونه، يعني يوم القيامة.

قوله: ألا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر، أي لا ينافق فيعمل الطاعة في الظاهر. والمعصية في الباطن.

ثم ذكر أن الذين يتجنبون النفاق والرياء هم المخلصون.

وألا يجبههم: لا يواجههم بما يكرهونه، وأصل الجبه لقاء الجبهة أو ضربها، فلما كان المواجه غيره بالكلام القبيح كالضارب جبهته به سمي بذلك جبهاً.

قوله: ولا يعصهم: أي لا يرميهم بالبهتان والكذب، وهي العضيئة، وعصت فلاناً عضهاً، وقد عصت يا فلان، أي جئت بالبهتان.

قوله: ولا يرغب عنهم تفضلاً، يقول: لا يحقرهم ادعاءً لفضله عليهم، وتمييزه عنهم بالولاية والإمرة؛ يقال فلان يرغب عن القوم، أي يأنف من الانتماء إليهم، أو من المخالطة لهم.

وكان عمر بن عبد العزيز يدخل إليه سالم مولى بني مخزوم وعمر في صدر بيته فيتحنى عن الصدر، وكان سالم رجلاً صالحاً، وكان عمر أراد شراءه وعتقه، فأعتقه مواليه؛ فكان يسميه: أخي في الله؛ ف قيل له: أتنحنى لسالم! فقال: إذا دخل عليك من لا ترى لك عليه فضلاً فلا تأخذ عليه شرف المجلس. وهم السراج ليلة بأن يحمد، فوثب إليه رجاء بن حيوة ليصلحه، فأقسم عليه عمر بن عبد العزيز، فجلس، ثم قام عمر فأصلحه، فقال له رجاء: أتقوم أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا ترفعوني فوق قدرتي فتقولوا في ما قالت النصارى في ابن مريم، فإن الله عز وجل اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً.

ثم قال: إن أرباب الأموال الذين تحب الصدقة عليهم في أموالهم إخوانك في الدين، وأعوانك على استخراج الحقوق، لأن الحق إنما يمكن العامل استيفاؤه بمعاونة رب المال واعترافه به، ودفعه إليه، فإذا كانوا بهذه الصفة لم يجز لك عصهم وجبههم وادعاء الفضل عليهم.

ثم ذكر أن لهذا العامل نصيباً مفروضاً من الصدقة، وذلك بنص الكتاب العزيز؛ فكما نوفيكم نحن حقك يجب عليك أن توفي شركاءك حقوقهم، وهم الفقراء والمساكين والغارمون وسائر الأصناف المذكورة في القرآن، وهذا يدل على أنه عليه السلام قد فوضه في صرف الصدقات إلى الأصناف المعلومه، ولم يأمره بأن يحمل ما اجتمع إليه ليوزعه هو عليه السلام على مستحقيه كما في الوصية الأولى، ويجوز للإمام أن يتولى ذلك بنفسه، وأن يكله إلى من يثق به من عماله. وانتصب أهل مسكنه لأنه صفة شركاء، وفي التحقيق أن شركاء صفة أيضاً موصوفها محذوف، فيكون صفة بعد صفة. وقال الراوندي: انتصب أهل مسكنه لأنه بدل من شركاء، وهذا غلط، لأنه لا يعطي معناه ليكون بدلا منه. وقال أيضاً: بؤسى، أي عذاباً وشدة، فظنه منوناً وليس كذلك، بل هو بؤسى على وزن فعلى كفضلى ونعمى، وهي لفظة مؤنثة؛ يقال: بؤسى لفلان، قال الشاعر:

أرى الحلم بؤسى للفتى في حياته ولا عيش إلا ما حباك به الجهل

والسائلون ههنا هم الرقاب المذكورون في الآية، وهم المكاتبون يتعذر عليهم أداء مال الكتابة، فيسألون الناس ليتخلصوا من ربة الرق. وقيل: هم الأسارى يطلبون فكاًك أنفسهم، وقيل: بل المراد بالرقاب في الآية الرقيق، يسأل أن يبتاعه الأغنياء فيعتقوه. والمدفوعون ههنا هم الذين عناهم الله تعالى في الآية بقوله: "وفي سبيل الله"، وهم فقراء الغزاة، سماهم مدفوعين لفقرهم. والمدفوع والمدفع: الفقير، لأن كل أحد يكرهه ويدفعه عن نفسه. وقيل: هم الحجيج المنقطع بهم، سماهم مدفوعين لأنهم دفعوا عن إتمام حجهم، أو دفعوا عن العود إلى أهلهم. فإن قلت: لم حملت كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما فسرته به؟ قلت: لأنه عليه السلام إنما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة في الآية، فترك ذكر المؤلفة قلوبهم لأن سهمهم سقط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان يدفع إليهم حين الإسلام ضعيف، وقد أعزه الله سبحانه، فاستغنى عن تأليف قلوب المشركين، وبقيت سبعة أصناف، وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والرقاب والغارمون وفي سبيل الله وابن السبيل. فأما العاملون عليها فقد ذكرهم عليه السلام في قوله: وإن لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً، فبقيت ستة أصناف أتى عليه السلام بألفاظ القرآن في أربعة أصناف منها، وهي: الفقراء، والمساكين، والغارم، وابن السبيل، وأبدل لفظتين وهما الرقاب وفي سبيل الله بلفظتين وهما السائلون والمدفوعون.

فإن قلت: ما يقول الفقهاء في الصدقات؟ هل تصرف إلى الأصناف كلها أم يجوز صرفها إلى واحد منها؟ قلت: أما أبو حنيفة فإنه يقول: الآية قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة فهي مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها، كأنه تعالى قال: إنما هي لهم لا لغيرهم، كقولك: إنما الخلافة لقريش، فيجوز أن تصرف الصدقة إلى الأصناف كلها، ويجوز أن تصرف إلى بعضها، وهو مذهب ابن عباس وحذيفه وجماعة من الصحابة والتابعين. وأما الشافعي فلا يرى صرفها إلا إلى الأصناف المعدودة كلها، وبه قال الزهري وعكرمة.

فإن قلت - فمن الغارم وابن السبيل؟ قلت: الغارمون الذين ركبهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب. وقيل: هم الذين يحملون الحملات فدينوا فيها وغرموا، وابن السبيل: المسافر المنقطع عن ماله، فهو - وإن كان غنياً حيث ماله

موجود - فقير حيث هو بعيد.

وقد سبق تفسير الفقير والمسكين فيما تقدم.

قوله: فقد أحل بنفسه الذل والخزي، أي جعل نفسه محلاً لهما، ويروى: فقد أحل بنفسه بالخاء المعجمة، ولم يذكر الذل والخزي أي جعل نفسه نحلاً، ومعناه جعل نفسه فقيراً، يقال: حل الرجل: إذا افتقر، وأحل به غيره، وبغيره أي جعل غيره فقيراً، وروي: أحل بنفسه بالخاء المهملة، ولم يذكر الذل والخزي.

ومعنى أحل بنفسه أباح دمه، والرواية الأولى أصح، لأنه قال بعدها: وهو في الآخرة أذل أخزى.

وخيانة الأمة: مصدر مضاف إلى المفعول به، لأن الساعي إذا خان فقد خان الأمة كلها؛ وكذلك غش الأئمة، مصدر مضاف إلى المفعول أيضاً؛ لأن الساعي إذا غش في الصدقة فقد غش الإمام.

ومن عهد له إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه حين قلده مصر

الأصل: فاحفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يسألكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يعذب فأنتم أظلم؛ وإن يعف فهو أكرم.

واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وأجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم؛ سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحفظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذة الجبابرة المتكبرون؛ ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ؛ والمتجر الرابع؛ أصابوا لذة الدنيا في دنياهم، وتيقنوا أنفهم حيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقف لهم نصيب من لذة.

فاحذروا عباد الله الموت وقربه، وأعدوا له عدته؛ فإنه يأتي بأمر عظيم، وخطب جليل؛ بخير لا يكون معه شر أبداً، أو شر لا يكون معه خير أبداً، فمن أقرب إلى الجنة من عاملها! ومن أقرب إلى النار من عاملها! وأنتم طرداء الموت؛ إن أقمت له أخذكم، وإن فررت منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلكم. الموت معقود بنواصيكم؛ والدنيا تطوى من خلفكم. فاحذروا ناراً قعرها بعيد، وحرها شديد، وعذابها جديد؛ دار ليس فيها رحمة، ولا تسمع فيها دعوة، ولا تفرج فيها كربة.

وإن استطعتم أن يشتد خوفكم من الله، وأن يحسن ظنكم به، فاجمعوا بينهما؛ فإن العبد إنما يكون حسن ظنه بربه على قدر خوفه من ربه؛ وإن أحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً لله.

واعلم يا محمد بن أبي بكر، أي قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر، فأنت محقوق أن تخالف على نفسك، وأن تنافح عن دينك؛ ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر، ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه، فإن في الله خلفاً من غيره، وليس من الله خلف في غيره، صل الصلاة لوقتها المؤقت لها، ولا تعجل وقتها لفراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال، وأعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك.

الشرح: آس بينهم: اجعلهم أسوة، لا تفضل بعضهم على بعض في اللحظة والنظرة، ونبه بذلك على وجوب أن يجعلهم أسوة في جميع ما عدا ذلك، من العطاء والإنعام والتقريب، كقوله تعالى: "فلا تقل لهما أف".

قوله: حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، الضمير في هم راجع إلى الرعية لا إلى العظماء، وقد كان سبق ذكرهم في أول الخطبة، أي إذا سلكت هذا المسلك لم يطمع العظماء في أن تحيف على الرعية وتظلمهم وتدفع أموالهم إليهم، فإن ولاية الجور هكذا يفعلون، يأخذون مال هذا فيعطونه هذا. ويجوز أن يرجع الضمير إلى العظماء، أي حتى لا يطمع العظماء في جورك في القسم الذي إنما تفعله لهم ولأجلهم، فإن ولاية الجور يطمع العظماء فيهم أن يحيفوا في القسمة في الفيء، ويخالفوا ما حده الله تعالى فيها، حفظاً لقلوبهم، واستمالاً لهم، وهذا التفسير أليق بالخطابة؛ لأن الضمير في عليهم في الفقرة الثالثة عائد إلى الضعفاء؛ فيجب أن يكون الضمير في لهم في الفقرة الثانية عائداً إلى العظماء.

قوله: فإن يعذب فأنتم أظلم أفعل ههنا بمعنى الصفة، لا بمعنى التفضيل، وإنما يراد فأنتم الظالمون، كقوله تعالى: "وهو أهون عليه". وكقولهم: الله أكبر.

ثم ذكر حال الزهاد فقال: أخذوا من الدنيا بنصيب قوي، وجعلت لهم الآخرة؛ ويروى أن الفضيل بن عياض كان هو ورفيق له في بعض الصحاري، فأكلا كسرة يابسة، واغترفا بأيديهما ماء من بعض الغدران، وقام الفضيل فحط رجليه في الماء، فوجد برده، فالتذ به وبالحال التي هو فيها، فقال لرفيقه: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من العيش واللذة لحسدونا.

وروي: والمتجر المريح، فالرايح فاعل من ربح رجاً، يقال: بيع رابع أي يربح فيه، والمربح: اسم فاعل قد عدي ماضيه بالهمزة، كقولك: قام وأقمته.

قوله: جيران الله غداً في آخرتهم؛ ظاهر اللفظ غير مراد، لأن البارئ تعالى ليس في مكان وجهة ليكونوا جيرانه، ولكن لما كان الجار يكرم جاره سماهم جيران الله، لإكرامه إياهم، وأيضاً فإن الجنة إذا كانت في السماء والعرش هو السماء العليا، كان في الكلام محذوف مقدر، أي جيران عرش الله غداً.

قوله: فإنه يأتي بأمر عظيم، وخطب جليل، بخير لا يكون معه شر أبداً وشر لا يكون معه خيراً أبداً، نص صريح في مذهب أصحابنا في الوعيد، وأن من دخل النار من جميع المكلفين فليس بخارج، لأنه لو خرج منها لكان الموت قد جاءه بشر معه خير، وقد نفى نفيّاً عاماً أن يكون مع الشر المعقب للموت خير البتة.

قوله: من عاملها، أي من العامل لها.

قوله: طرداء الموت، جمع طريد، أي يطردكم عن أوطانكم ويخرجكم منها، لا بد من ذلك، إن أقمتهم أخذكم، وإن هربتم أدركم.

وقال الراوندي: طرداء ههنا: جمع طريدة وهي ما طردت من الصيد أو الموسيقى، وليس بصحيح، لأن فعيلة بالتأنيث لا تجمع على فعلاء. وقال النحويون: إن قوله تعالى: "ويجعلكم خلفاء الأرض" جاء على خليف لا على خليفة، وأنشدوا لأوس بن حجر بيتاً، استعملها جميعاً فيه، وهو:

إن من القوم موجوداً خليفته

وماخليف أبي ليلي بموجود

قوله: ألزم لكم من ظلكم ، لأن الظل لا تصح مفارقتة لذي الظل ما دأماً في الشمس، وهذا من إلا مثال المشهورة.

قوله: معقود بنواصيكم ، أي ملازم لكم، كالشيء المعقود بناصية الإنسان أين ذهب ذهب معه.

وقال الراوندي: أي الموت غالب عليكم، قال تعالى: "فيؤخذ بالنواصي والأقدام"، فإن الإنسان إذا أخذ بناصيته لا يمكنه الخلاص، وليس بصحيح، لأنه لم يقل: أخذ بنواصيكم.

قوله: والدنيا تطوى من خلفكم من كلام بعض الحكماء: "الموت والناس كسطور في صحيفة يقرأها قارئ ويطوي ما يقرأ، فكلما ظهر سطر خفي سطر.

ثم أمره عليه السلام بأن يجمع بين حسن الظن بالله وبين الخوف منه، وهذا مقام جليل لا يصل إليه إلا كل ضامر مهزول، وقد تقدم كلامنا فيه. وقال علي بن الحسين عليه السلام: لو أنزل الله عز وجل كتاباً أنه معذب رجلاً واحداً لرجوت أن أكونه، وأنه راحم رجلاً واحداً لرجوت أن أكونه، أو أنه معذبي لا محالة ما أزددت إلا اجتهداً لئلا أرجع إلى نفسي بلائمة.

ثم قال: وليتك أعظم أجنادي، يقال للأقاليم الأطراف: أجناد، تقول: ولي جند الشام، وولي جند الأردن، وولي جند مصر.

قوله: فأنت محقوق، كقولك حقيق وجدير وخليق، قال الشاعر:

وإني لمحقوق بألا يطولني

نداه إذا طاولته بالقصائد

وتنافح: تنافح، نافحت بالسيف أي خاصمت به.

قوله: ولو لم يكن إلا ساعة من النهار، المراد تأكيد الوصاة عليه أن يخالف على نفسه، وإلا يتبع هواها، وأن يخاصم عن دينه، وأن ذلك لازم له، وواجب عليه، ويلزم أن يفعله دائماً فإن لم يستطع فليفعله ولو ساعة من النهار، وينبغي أن يكون هذا التقييد مصروفاً إلى المنفعة عن الدين، لأن الخصام في الدين قد يمنعه عنه مانع، فأما أمره إياه أن يخالف على نفسه فلا يجوز صرف التقييد إليه، لأنه يشعر بأنه مفسوح له أن يتبع هوى نفسه في بعض الحالات، وذلك غير جائز، بخلاف المخاصمة والنضال عن المعتقد.

قال: ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه، فإن في الله خلفاً من غيره، وليس من الله خلف في غيره، أخذه الحسن البصري فقال لعمر بن هبيرة أمير العراق: إن الله مانعك من يزيد، ولم يمنعك يزيد من الله - يعني يزيد بن عبد الملك.

ثم أمره بأن يصلي الصلاة لوقتها، أي في وقتها، ونهاه أن يحمله الفراغ من الشغل على أن يعجلها قبل وقتها، فإنها تكون غير مقبولة، أو أن يحمله الشغل على تأخيرها عن وقتها فيأثم.

ومن كلام هشام بن عتبة أخي ذي الرمة - وكان من عقلاء الرجال - قال المبرد في الكامل: حدثني العباس بن الفرج الرياشي بإسناده، قال هشام لرجل أراد سفراً: اعلم أن لكل رفقة كلباً يشركهم في فضل الزاد، ويهر دونهم، فإن قدرت لا تكون كلب الرفقة فافعل، وإياك وتأخير الصلاة عن وقتها، فإنك مصليها لا محالة، فصلها وهي تقبل منك.

قوله: واعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك، فيه شبه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصلاة عماد إلا يمان، ومن تركها فقد هدم إلا يمان". وقال صلى الله عليه وسلم: "أول ما يحاسب به العبد صلاته، فإن سهل عليه كان ما بعده أسهل، وإن اشتد عليه وإن اشتد عليه كان ما بعده أشد".

ومثل قوله: ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه، ما رواه المبرد في الكامل عن عائشة قالت: من أرضى الله بإسخط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن أرضى الناس بإسخط الله وكله الله إلى الناس. ومثل هذا ما رواه المبرد أيضاً قال: لما ولي الحسن بن زيد بن الحسن المدينة قال لابن هرمة: إني لست كمن باع لك دينه رجاء مدحك، أو خوف ذمك، فقد رزقني الله عز وجل بولادة نبيه صلى الله عليه وسلم الممادح، وجنبي المقابح، وإن من حقه علي إلا أغضي على تقصير في حق الله. وأنا أقسم بالله لئن أتيت بك سكران لأضربنك حداً للخمر، وحداً للسكر، ولأزيدن لموضع حرمتك بي، فليكن تركك لها لله عز وجل تعن عليه، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم، فقال ابن هرمة:

وأدبني بآداب الكرام

لخوف الله لا خوف إلا نام

لها حب تمكن في عظامي!

وطيب النفس في خبث الحرام

نهاني ابن الرسول عن المدام

وقال لي اصطر بها ودعها

وكيف تصبري عنها وحيي

أرى طيب الحلال علي خبثاً

الأصل: ومن هذا العهد: فإنه لا سواء، إمام الهدى وإمام الردى، وولي النبي وعدو النبي، ولقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: "إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، إمام المؤمن فيمنعه الله لإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون".

الشرح: إلا شارة بإمام الهدى إليه نفسه، وإمام الردى إلى معاوية، وسماه إماماً، كما سمي الله تعالى أهل الضلال أئمة، فقال: "وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار" ثم وصفه بصفة أخرى وهو أنه عدو النبي صلى الله عليه وسلم ليس يعني بذلك أنه كان عدواً أيام حرب النبي صلى الله عليه وسلم لقريش، بل يريد أنه إلا أن عدو النبي صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم له رضي الله عنه: "وعدوك عدوي، وعدوي عدو الله". وأول الخبر: "وليك ولي، وولي ولي الله"، وتمامه مشهور، ولأن دلائل النفاق كانت ظاهرة عليه من فلتات لسانه ومن أفعاله، وقد قال أصحابنا في هذا المعنى أشياء كثيرة، فلتطلب من كتبهم، خصوصاً من كتب شيخنا أبي عبد الله، ومن كتب الشيخين أبي جعفر الإسكافي، وأبي القاسم البلخي، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما تقدم.

ثم قال رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً" أي ولا مشركاً يظهر الشرك، قال: لأن المؤمن يمنعه الله بإيمانه أن يضلل الناس. والمشرك مظهر الشرك، يقمعه الله بإظهار شركه ويخذله، ويصرف قلوب الناس عن إتباعه، لأنهم ينفرون منه لإظهاره كلمة الكفر، فلا تطمئن قلوبهم إليه، ولا تسكن

نفوسهم إلى مقالته، ولكني أخاف على أمتي المنافق الذي يسر الكفر والضلال، ويظهر الإيمان والأفعال الصالحة، ويكون مع ذلك ذا لسن وفصاحة، يقول بلسانه ما تعرفون صوابه، ويفعل سرّاً ما تنكرونه لو اطلعتم عليه، وذاك أن من هذه صفته تسكن نفوس الناس إليه، لأن الإنسان إنما يحكم بالظاهر فيقلده الناس، فيضلهم ويوقعهم في المفاصد. ومن الكتب المستحسنة الكتاب الذي كتبه المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله في سنة أربع وثمانين ومائتين ووزيره حينئذ عبيد الله بن سليمان، وأنا أذكره مختصراً من تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس، فخوفه عبيد الله بن سليمان اضطراب العامة، وأنه لا يأمن أن تكون فتنة، فلم يلتفت إليه. فكان أول شيء بدأ به المعتضد من ذلك التقدم إلى العامة بلزوم أعمالهم، وترك الإجتماع والعصبية، والشهادات عند السلطان إلا أن يسألوا، ومنع القصاص عن القعود على الطرقات، وأنشأ هذا الكتاب وعملت به نسخ قرئت بالجانبين من مدينة السلام في الأربعاء والحال والأسواق يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه، ومنع القصاص من القعود في الجانبين، ومنع أهل الحلق من القعود في المسجدين، ونودي في المسجد الجامع بنهي الناس عن الإجتماع وغيره ومنع القصاص وأهل الحلق من القعود، ونودي: إن الذمة قد برئت ممن اجتمع من الناس في مناظرة أو جدال، وتقدم إلى الشراب الذين يسقون الماء في الجامعين إلا يترحموا على معاوية، ولا يذكروه بخير، وكانت عادتهم جارية بالترحم عليه، وتحدث الناس أن الكتاب الذي قد أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر، فلما صلى الناس بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب، فلم يقرأ، وقيل: إن عبيد الله بن سليمان صرفه عن قراءته، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضي، وأمره أن يعمل الحيلة في إبطال ما عزم المعتضد عليه، فمضى يوسف فكلّم المعتضد في ذلك، وقال له: إني أخاف أن تضطرب العامة، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة، فقال: إن تحركت العامة أو نطقت وضعت السيف فيها. فقال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بالطالبيين الذين يخرجون في كل ناحية، ويميل إليهم خلق كثير، لقربتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما في هذا الكتاب من إطرائهم - أو كما قال - وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل، وكانوا هم أبسط السنة، وأثبت حجة منهم اليوم. فأمسك المعتضد فلم يرد إليه جواباً، ولم يأمر بعد ذلك في الكتاب بشيء. وكان من جملة الكتاب بعد أن قدم حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما بعد، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعة العامة من شبهة قد دخلتهم في أديانهم، وفساد قد لحقهم في معتمدتهم، وعصبية قد غلبت عليها أهواؤهم، ونطقت بها ألسنتهم، على غير معرفة ولا روية، قد قلدوا فيها قادة الضلالة بلا بينة ولا بصيرة، وخالفوا السنن المتبعة، إلى إلا هواء المبتدعة، قال الله تعالى: "ومن أضل ممن أتبع هواء بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين". خروجاً عن الجماعة، ومسارعةً إلى الفتنة، وإثارةً للفرقة، وتشتيئاً للكلمة، وإظهاراً لموالاة من قطع الله عنه الموالاة، وبتر منه العصمة، وأخرجه من الملة، وأوجب عليه اللعنة، وتعظيماً لمن صغر الله حقه، وأوهن أمره، وأضعف ركنه، من بني أمية، الشجرة الملعونة، ومخالفة لمن استنقذهم الله

به من الهلكة، وأسبغ عليهم به النعمة من أهل بيت البركة والرحمة، "والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم".

فأعظم أمير المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك، ورأى ترك إنكاره حرجاً عليه في الدين، وفساداً لمن قلده الله أمره من المسلمين، وإهمالاً لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين، وتبصير الجاهلين، وإقامة الحجة على الشاكين، وبسط اليد على المعاندين وأمير المؤمنين يخبركم معاشر المسلمين أن الله جل ثناؤه لما ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بدينه، وأمره أن يصدع بأمره، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلى ربه، وأنذرهم وبشرهم، ونصح لهم وأرشدهم، فكان من استجاب له، وصدق قوله، واتبع أمره نفيّر يسير من بني أبيه، من بين مؤمن بما أتى به من ربه، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازاً له، وإشفاقاً عليه، فمؤمنهم مجاهد ببصيرته، وكافرهم مجاهد بنصرتة وحميته، يدفعون من نابذه، ويقهرون من عازاه وعانده، ويتوثقون له ممن كاتفه وعاضده، ويباعون من سمح بنصرتة، ويتجسسون أخبار أعدائه، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأي العين، حتى بلغ المدى، وحن وقت الأهتداء، فدخلوا في دين الله وطاعته وتصديق رسوله وإيمان به بأثبت بصيرة، وأحسن هدى ورغبة، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة، وأهل بيت الدين، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. معدن الحكمة، وورثة النبوة، وموضع الخلافة. أوجب الله لهم الفضيلة، وألزم العباد لهم الطاعة. وكان ممن عانده وكذبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد إلا عظم، يتلقونه بالضرر والتشريب، ويقصدونه بالأذى والتخويف، وينابذونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة ويصدون من قصده، وينالون بالتعذيب من اتبعه، وكان أشدهم في ذلك عداوة، وأعظمهم له مخالفة، أولهم في كل حرب ومناصب، ورأسهم في كل إجلاب وفتنة، لا يرفع عل الإسلام رؤية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها، أبا سفيان بن حرب صاحب أحد والخندق وغيرهما، وأشياعه من بني أمية الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن عدة، لسابق علم الله فيهم، وماضي حكمه في أمرهم، وكفرهم ونفاقهم. فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً، ويدافع مكابداً، ويجلب منابذاً، حتى قهره السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتعوز بالإسلام غير منطو عليه، وأسر الكفر غير مقلع عنه، فقبله وقبل ولده على علم منه بحاله وحالهم. ثم أنزل الله تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم، وهو قوله تعالى: "والشجرة الملعونة في القرآن"، ولا خلاف بين أحد في أنه تعالى وتبارك أراد بها بني أمية.

ومما ورد من ذلك في السنة، ورواه ثقات الأمة، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه: "لعن الله الراكب والقائد والسائق".

ومنه ما روته الرواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان: تلقفوها يا بني عبد شمس تلقف الكرة، فو الله ما من جنة ولا نار، وهذا كفر صراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

ومنه ما يروى من وقوفه على ثنية أحد من بعد ذهاب بصره وقوله لقائده: ههنا رمينا محمداً وقتلنا أصحابه.

ومنها الكلمة التي قالها للعباس قبل الفتح وقد عرضت عليه الجنود: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال له العباس:

ويحك! إنه ليس بملك، إنها النبوة.

ومنها قوله يوم الفتح وقد رأى بلالاً على ظهر الكعبة يؤذن ويقول: أشهد أن محمداً رسول الله: لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد.

ومنه الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجم لها. قالوا: فما رأيي بعدها ضاحكاً، رأى نفرأ من بني أمية يتزرون على منبره نزو القردة.

ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم ابن أبي العاص لمحاكاته إياه في مشيته، وألحقه الله لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم آفةً باقيةً حين التفت إليه فرآه يتخلج بحكيه، فقال: "كن كما أنت"، فبقي على ذلك سائر عمره. هذا إلى ما كان من مروان ابنه في افتتاحه أول فتنة كانت في الإسلام، واحتقابه كل حرام سفك فيها أو أريق بعدها. ومنها ما أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ليلة القدر، خير من ألف شهر! قالوا: ملك بني أمية.

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا معاوية ليكتب بين يديه، فدافع بأمره واعتل بطعامه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "لا أشبع الله بطنه". فبقي لا يشبع وهو يقول: والله ما أترك الطعام شبعاً، ولكن إعياء! ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يطلع من هذا الفج رجل من أمي يحشر على غيرملي" فطلع معاوية. ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه".

ومنها الحديث المشهور المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن معاوية في تابوت من نار، في أسفل درك من جهنم، ينادي: يا حنان يا منان. فيقال له: الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين".

ومنها أفتراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً، وأحسنهم فيه أثراً وذكرأ، علي بن أبي طالب، ينازعه حقه بباطله، ويجاهد أنصاره بضلاله وأعوانه، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه، من إطفاء نور الله، وجحود دينه ويأب الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويستهووي أهل الجهالة، ويموه لأهل الغباوة بمكره وبغيه اللذين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر عنهما، فقال لعمار بن ياسر: "تقتلك الفئة الباغية"، "تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار"، مؤثراً للعاجلة، كافراً بالأجلة، خارجاً من ربة الإسلام، مستحلاً للدم الحرام حتى سفك في فتنته، وعلى سبيل غوايته وضلالته ما لا يحصى عدده من أخيار المسلمين، الذين عن دين الله والناصرين لحقه، مجاهداً في عداوة الله، مجتهداً في أن يعصى الله فلا يطاع، وتبطل أحكامه فلا تقام، ويخالف دينه. فلا بد وأن تعلق كلمة الضلال وترتفع دعوة الباطل، وكلمة الله هي العليا، ودينه المنصور، وحكمه النافذ، وأمره الغالب وكيد من عاداه وحاده المغلوب الداحض، حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما تبعها، وتطوق تلك الدماء وما سفك بعدها، وسن سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها، وأباح المحارم لمن ارتكبها، ومنع الحقوق أهلها، وغرته الآمال، واستدرجه الإمهال.

وكان مما أوجب الله عليه به اللعنة قتله من قتل صبراً من خيار الصحابة والتابعين، وأهل الفضل والدين، مثل عمرو بن الحمق الخزاعي وحجر بن عدي الكندي، فيمن قتل من أمثالهم، على أن تكون له العزة والملك والغلبة، ثم ادعاؤه زياد بن سمية أحمأ، ونسبته إياه إلى أبيه، والله تعالى يقول: "ادعوهم لآبائهم فو أقسط عند الله"، ورسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول: "ملعون من ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه". وقال: "الولد للفراش وللعاهر الحجر"، فخالف حكم الله تعالى ورسوله جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش والحجر لغير العاهر، فأحل بهذه الدعوة من محارم الله ورسوله في أم حبيبة أم المؤمنين وفي غيرها من النساء من شعور ووجوه قد حرّمها الله وأثبت بها من قربي قد أبعدّها الله، ما لم يدخل الدين خلل مثله، ولم ينل الإسلام تبديل يشبهه.

ومن ذلك إثارة لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السكير الخمير صاحب الديكة والفهود والقردة، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعد والإخافة، والتهديد والرغبة، وهو يعلم سفهه، ويطلع على رهقه وخبثه، ويعاين سكراته وفعلاته، وفجوره وكفره. فلما تمكن - قاتله الله - فيما تمكن منه، طلب بثارات المشركين وطوائهم عند المسلمين، فأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة الوقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، فشفى عند نفسه غليله، وظن أنه قد انتقم من أولياء الله، وبلغ الثأر لأعداء الله، فقال مجاهراً بكفره، ومظهراً لشركه:

جزع الخزرج من وقع الاسل

ليت أشياخي ببدر شهدوا

قول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى رسوله ولا إلى كتابه، ولا يؤمن بالله وبما جاء من عنده.

ثم أغلظ ما أنتهك، وأعظم ما احترم، سفكه دم الحسين ابن علي رضي الله عنه، مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه ومثرتة من الدين والفضل والشهادة له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة، احتراءً على الله، وكفراً بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهرة لعترته، واستهانة لحرمة، كأنما يقتل منه ومن أهل بيته قوماً من كفره الترك والديلم، ولا يخاف من الله نقمة، ولا يراقب منه سطوة، فتبر الله عمره، وأحبث أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعد له من عذابه وعقوبته، ما استحقه من الله بمعصيته.

هذا إلى ما كان من بني مروان من تبديل كتاب الله، وتعطيل أحكام الله، واتخاذ مال الله بينهم دولاً، وهدم بيت الله، واستحلالهم حرمة، ونصبهم المخانيق عليه، ورميهم بالنيران إياه، لا يألون له إحراقاً وإخرباً، ولما حرم الله منه استباحة وانتهاكاً، ولمن لجأ إليه قتلاً وتنكيلاً، ولمن آمنه الله به إخافةً وتشريداً حتى إذا حقت عليهم كلمة العذاب، واستحقوا من الله الانتقام، وملئوا الأرض بالجور والعدوان، وعموا عباد بلاد الله بالظلم والأقتسار، وحلت عليهم السخطة، ونزلت بهم من الله السطوة، أتاح الله لهم من عترة نبيه وأهل وراثته، ومن استخلصه منهم لخلافته، مثل ما أتاح من أسلافهم المؤمنين، وآبائهم المجاهدين، لأوائهم الكافرين، فسفك الله به دماءهم ودماء آبائهم مرتدين، كما سفك بآبائهم مشركين، وقطع الله دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

أيها الناس، إن الله إنما أمر ليطاع، ومثل ليتمثل، وحكم ليفعل، قال الله سبحانه وتعالى: "إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً"، وقال: "أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون".

فالعنوا أيها الناس من لعنه الله ورسوله، وفارقوا من لا تنالون القربة من الله إلا بمفارقة، اللهم العن أبا سفيان بن حرب بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم، وولده وولد ولده! اللهم العن أئمة الكفر، وقادة

الضلال، وأعداء الدين، ومجاهدي الرسول، ومعطي الأحكام، ومبدي الكتاب، ومنتهكي الدم الحرام! اللهم إنا نبرأ إليك من موالاة أعدائك، ومن الإغماض لأهل معصيتك، كما قلت: "لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله".

أيها الناس، اعرفوا الحق تعرفوا أهله، وتأملوا سبل الضلالة تعرفوا سابلها، فقفوا عند ما وقفكم الله عليه، وانفذوا كما أمركم الله به، وأمير المؤمنين يستعصم بالله لكم، ويسأله توفيقكم، ويرغب إليه في هدايتكم. والله حسبه، وعليه توكله، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قلت: هكذا ذكر الطبري الكتاب، وعندي أنه الخطبة، لأن كل ما يخطب به فهو خطبة، وليس بكتاب، والكتاب ما يكتب إلى عامل أو أمير ونحوهما، وقد يقرأ الكتاب على المنبر فيكون كالخطبة، ولكن ليس بخطبة، ولكنه كتاب قرئ على الناس. ولعل هذا الكلام كان قد انشئ ليكون كتاباً، ويكتب به إلى الأفاق، ويؤمروا بقراءته على الناس، وذلك بعد قراءته على أهل بغداد. والذي يؤكد كونه كتاباً، وينصر ما قاله الطبري، أن في آخره: كتب عبيد الله بن سليمان في سنة أربع وثمانين ومائتين، وهذا لا يكون في الخطب، بل في الكتب، ولكن الطبري لم يذكر أنه أمر بأن يكتب إلى الأفاق ولا قال: وقع العزم على ذلك، ولم يذكر إلا وقوع العزم على أن يقرأ في الجوامع ببغداد.

ومن كتاب إلى معاوية جواباً وهو من محاسن الكتب.

الأصل: أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه أصفاء الله محمداً صلى الله عليه وآله لدينه، وتأييده إياه لمن أيده من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا، ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مسدده إلى النضال.

وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان، فذكرت أمراً إن تم أعتزلك كله، وإن نقص لم يلحقك ثلمه. وما أنت والفاضل والمفضول، والسائس والمسوس! وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين إلا ولين، وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم! هيهات، لقد حن قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها! إلاتربع أيها الإنسان على ظلعك، وتعرف قصور ذرعك، وتتأخر حيث أحرك القدر! فما عليك غلبة المغلوب، ولا ظفر الظافر، فإنك لذهاب في التيه، رواج عن القصد.

الا ترى - غير مخبر لك، ولكن بنعمة الله أحدث - أن قوماً أستشهدوا في سبيل الله تعالى من المهاجرين وإلا نصار، ولكل فضل، حتى إذا أستشهد شهيدنا قيل: سيد الشهداء، وخصه رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه! أو لا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله ولكل فضل، حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم، قيل: الطيار في الجنة وذو الجناحين! ولولا ما نهي الله عنه من تزكية المرء نفسه، لذكر ذاكر فضائل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجها أذان السامعين.

فدع عنك من مالت به الرمية، فإننا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا، لم يمنعنا قديم عزنا، ولا عادي طولنا على قومك

أن خلطناكم بأنفسنا، فنكحنا وأنكحنا، فعل إلا كفاء ولستم هناك. وأنى يكون ذلك كذلك ومنا النبي ومنكم المكذب، ومنا أسد الله ومنكم أسد إلا حلاف، ومنا سيدا شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار، ومنا خير نساء العالمين، ومنكم حمالة الحطب، في كثير مما لنا وعليكم! فإسلامنا ما قد سمع، وجاهليتنا لا تدفع، وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا، وهو قوله سبحانه وتعالى: "وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله"، وقوله تعالى: "إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين"، فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أولى بالطاعة. ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وآله فلعجوا عليهم، فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم، وإن يكن بغيره فإلا نصار على دعواهم. وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت، فإن يكن ذلك كذلك فليسست الجناية عليك، فيكون العذر إليك.

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها وقلت: إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعمر الله لقد أردت أن تدم فمدحت، وأن تفضح فافتضحت! وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه! وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها. ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تحاب عن هذه لرحمك منه، فأينا كان أعدى له، وأهدى إلى مقاتله! أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه، أمن أستنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه، حتى أتى قدره عليه! كلا والله لقد "يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً". وما كنت لأعتذر من أي كنت أنقم عليه أحداثاً، فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايي له، فرب ملوم عليه السلام ذنب له. وقد يستفيد الظنة المنتصح وما أردت إلا الإصلاح ما أستطعت، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. وذكرت أنه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف، فلقد أضحكت بعد استعبار! متى ألفت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكليين، وبالسيف مخوفين، لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل، فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسرلين سرايل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك وأهلك "وما هي من الظالمين ببعيد". رسالة معاوية إلى علي رضي الله عنه.

الشرح: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد، فقلت: أرى هذا الجواب منطبقاً على كتاب معاوية الذي بعثه مع أبي مسلم الخولاني إلى علي رضي الله عنه، فإن كان هذا هو الجواب فالجواب الذي ذكره أرباب السيرة وأورده نصر بن مزاحم في كتاب صفين إذن غير صحيح، وإن كان ذلك الجواب، فهذا الجواب إذن غير صحيح ولا ثابت، فقال لي: بل كلاهما ثابت مروي، وكلاهما كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه وألفاظه، ثم أمرني أن أكتب ما عليه علي رضي الله عنه، فكتبته، قال رحمه الله: كان معاوية يتسقط علياً وينعى عليه ما عساه يذكره من حال أبي بكر وعمر، وأنهما غصباه حقه،

ولا يزال يكيده بالكتاب يكتبه، والرسالة يبعثها يطلب غرته، لينفث بما في صدره من حال أبي بكر وعمر، إما مكتابة أو مراسلة، فيجعل ذلك حجة عليه عند أهل الشام، ويضيفه إلى ما قرره في أنفسهم من ذنوبه كما زعم، فقد كان رضي الله عنه عندهم بأنه قتل عثمان ومالاً على قتله، وأنه قتل طلحة والزبير، وأسر عائشة، وأراق دماء أهل البصرة. وبقيت حصلة واحدة، وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرأ من أبي بكر وعمر، وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول في أمر الخلافة، وأنهما وثبا عليها غلبة، وغصبا إياها، فكانت هذه الطامة الكبرى ليست مقتصرة على فساد أهل الشام عليه، بل وأهل العراق الذين هم جنده وبطانته وأنصاره، لأنهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين، إلا القليل الشاذ من خواص الشيعة، فلما كتب ذلك الكتاب مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يغضب علياً ويخرجه ويوجه إذا قرأ ذكر أبي بكر، وأنه أفضل المسلمين، إلى أن يخلط خطه في الجواب بكلمة تقتضي طعناً في أبي بكر، فكان الجواب مجمماً غير بين، ليس فيه تصريح بالتظليم لهما، ولا التصريح ببراءتهما، وتارة يترحم عليهما، وتارة يقول: أخذنا حقي وقد تركته لهما، فأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب إلا ول يستفزا فيه علياً رضي الله عنه ويسخفاه، ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلقان به في تقبيح حاله وتهجين مذهبه. وقال له عمرو: إن علياً رضي الله عنه رجل نزق تياه، وما استطعت منه الكلام. بمثل تقرير أبي بكر وعمر، فاكتب. فكتب كتاباً أنفذه إليه مع أبي أمامة الباهلي، وهو من الصحابة، بعد أن عزم على بعثته مع أبي الدرداء. ونسخة الكتاب: من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب.

أما بعد، فإن الله تعالى جده اصطفى محمداً رضي الله عنه لرسالته، واختصه بوحيه وتأدية شريعته، فأنقذ به من العمآية، وهدى به من الغوآية، ثم قبضه إليه رشيداً حميداً، قد بلغ الشرع، ومحق الشرك، وأخمد نار الإفك، فأحسن الله جزاءه، وضاعف عليه نعمه وآلاءه. ثم إن الله سبحانه أختص محمداً صلى الله عليه وسلم بأصحاب أيدوه وآزروه ونصروه وكانوا كما قال الله سبحانه لهم: "أشداء على الكفار رحماء بينهم"، فكان أفضلهم مرتبة، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة، الخليفة إلا ول، الذي جمع الكلمة، ولم الدعوة، وقاتل أهل الردة، ثم الخليفة الثاني الذي فتح الفتوح، ومصر الأمصار وأذل رقاب المشركين. ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نشر الملة، وطبق الآفاق بالكلمة الحنيفة. فلما استوثق الإسلام وضرب بجرانه عدوت عليه فبغيته الغوائل، ونصبت له المكائد، وضربت له بطن الأمر وظهره، ودسست عليه، وأغريت به، وقعدت حيث استنصرك عن نصره، وسألك أن تدركه قبل أن يمزق فما أدركته، وما يوم المسلمين منك بواحد! لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه، ورمت إفساد أمره، وقعدت في بيتك، واستغويت عصابة من الناس حتى تأخرو عن بيعته، ثم كرهت خلافة عمر وحسدته واستطلت مدته، وسررت بقتله، وأظهرت الشماتة بمصابه، حتى إنك حاولت قتل ولده لأنه قتل قاتل أبيه، ثم لم تكن أشد منك حسداً لابن عمك عثمان، نشرت مقابحه، وطويت محاسنه، وطعنت في فقهه، ثم في دينه، ثم في سيرته، ثم في عقله، وأغريت به السفهاء من أصحابك وشيعتك، حتى قتلوه بمحضر منك، لا تدفع عنه بلسان ولا يد، وما من هؤلاء إلا من بغيت عليه، وتلكأت في بيعته، حتى حملت إليه قهراً، تساق بخزائم الإقتسار كما يساق الفحل المخشوش، ثم نهضت الآن تطلب الخلافة، وقتلة عثمان خلصاؤك وسجراؤك والمخدقون بك، وتلك من أمانى النفوس، وضلالات الأهواء.

فدع اللجاج والعبث جانباً، وادفع إلينا قتلة عثمان، وأعد الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على من هو الله رضاءً. فلا بيعة لك في أعناقنا، ولا طاعة لك علينا، ولا عتبى لك عندنا، وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف. والذي لا إله إلا هو لأطلبن قتلة عثمان أين كانوا، وحيث كانوا، حتى أقتلهم أو تلتحق بروحي بالله.

فأما ما لا تزال تمن به من سابقتك وجهادك فأني وجدت الله سبحانه يقول: "يؤمنون عليك إن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين". ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها أشد إلا نفس امتناناً على الله بعملها، وإذا كان الإمتنان على السائل يبطل أجر الصدقة، فالإمتنان على الله يبطل أجر الجهاد، ويجعله "كصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين".

قال النقيب أبو جعفر: فلما وصل هذا الكتاب إلى علي رضي الله عنه مع أبي أمامة الباهلي، كلم أبا أمامة بنحو مما كلم به أبا مسلم الخولاني، وكتب معه هذا الجواب.

قال النقيب: وفي كتاب معاوية هذا ذكر لفظ الجمل المخشوش أو الفحل المخشوش، لا في الكتاب الواصل مع أبي مسلم، وليس في ذلك هذه اللفظة، وإنما فيه: حسدت الخلفاء وبغيت عليهم، عرفنا ذلك من نظرك الشزر، وقولك الهجر وتنفسك الصعداء، وإبطائك عن الخلفاء.

قال: وإنما كثير من الناس لا يعرفون الكتابين، والمشهور عندهم كتاب أبي مسلم فيجعلون هذه اللفظة فيه، والصحيح أنها في كتاب أبي أمامة، إلا تراها عادت في جوابه ولو كانت في كتاب أبي مسلم لعادت في جوابه! انتهى كلام النقيب أبي جعفر.

ونحن إلا ن مبتدئون في شرح ألفاظ الجواب المذكور.

قوله: فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، موضع التعجب أن معاوية يخبر علياً رضي الله عنه باصطفاء الله تعالى محمداً وتشريفه له، وتأييده له، وهذا ظريف لأنه يجري كإخبار زيد عمراً عن حال عمرو، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم وعلي رضي الله عنه كالشيء الواحد. وخبأ مهموز، والمصدر الخبء، ومنه الخابية، وهي الخبء إلا أنهم تركوا همزها، والخبء أيضاً والخبيء على فعيل ما خبيء.

وبلاء الله تعالى: إنعامه وإحسانه.

وقوله رضي الله عنه: كناقل التمر إلى هجر، مثل قديم. وهجر: اسم مدينة لا ينصرف للتعريف والتأنيث. وقيل: هو اسم مذكر مصروف، وأصل المثل كمستبضع تمر إلى هجر، والنسبة إليه هاجري على غير قياس، وهي بلدة كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى غيرها، قال الشاعر في هذا المعنى:

لوالى البصرة التمر

أهدي له طرف الكلام كما يهدي

قوله: وداعي مسدده إلى النضال، أي معلمه الرمي، وهذا إشارة إلى قول القائل إلا ول:

فلما استند ساعده رمانى

أعلمه الرماية كل يوم

هكذا الرواية الصحيحة بالسين المهمة، أي استقام ساعده على الرمي، وسددت فلاناً: علمته النضال، وسهم سديد: مصيب، ورمح سديد، أي قل أن تخطيء طعنته، وقد ظرف القاضي إلا رجائي في قوله لسديد الدولة محمد بن عبد الكريم الأنباري كاتب الأنشاء:

غرضاً يلوح من المدى المتباعد

إلى الذي نصب المكارم للورى

وجدت يده سوى سديد واحد

نثل الأمائل من كنانته فما

ومن الأمثال في هذا المعنى: سمن كلبك يأكلك، ومنها: أحشك وتروثني!.

قوله رضي الله عنه: وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان، أي أبو بكر وعمر.

قوله رضي الله عنه: فذكرت أمراً إن تم اعتزلك كله، وإن نقص لم يلحقك ثلمه، من هذا المعنى قول الفرزدق لجرير، وقد

كان جرير في مهاجاته إياه يفخر عليه بقيس عيلان، فقد كانت لجرير في قيس خوولة، يعيره بأيامهم على بني تميم، فلما

قتل بنو تميم قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان قال الفرزدق يفتخر:

لآل تميم أقعدت كل قائم

أتاني وأهلي بالمدينة وقعة

مشدخة أماتها بالامائم

كأن رؤوس الناس إذ سمعوا بها

وبين تميم غير جز الحلاقم

وما بين من لم يؤت سمعاً وطاعةً

ثم خرج إلى خطاب جرير بعد أبيات تركنا ذكرها، فقال:

جهاراً ولم تغضب لقتل ابن حازم !

أغضب إن اذنا قتيبة جزنا

إلى الشام فوق الشاحجات الرواسم

وما منهما إلا نقلنا دماغه

محدفة الأذنان جلع المقادم

تذبذب في المخلاة. تحت بطونها

ولا من تميم في الرؤوس الأعاضم

وما أنت من قيس فتنبج دونها

لعيلان أنفاً مستقيم الخياشم.

تخوفنا أيام قيس ولم تدع

قتيبة إلا عضها بالأباهم

لقد شهدت قيس فما كان نصرها

فقوله: وما أنت من قيس فتنبج دونها. هو معنى قول علي رضي الله عنه لمعاوية: فذكرت أمراً إن تم اعتزلك كله، وابن

حازم المذكور في الشعر هو عبد الله بن حازم، من بني سليم، وسليم من قيس عيلان، وقتلته تميم أيضاً، وكان والي

خراسان.

قوله رضي الله عنه: وما أنت والفاضل والمفضول، الرواية المشهورة بالرفع، وقد رواها قوم بالنصب، فمن رفع احتج

بقوله: وما أنت وبيت أبيك والفخر.

وبقوله: فما القيسي بعدك والفخار.

ومن نصب فعلى تأويل مالك والفاضل، وفي ذلك معنى الفعل، أي ما تصنع، لأن هذا الباب لا بد أن يتضمن الكلام فيه فعلاً، أو معنى فعل، وأنشدوا: فما أنت والسير في متلف والرفع عند النحويين أولى، ثم قال: وما للطلاق وأبناء الطلاق والتمييز النصب ههنا لا غير، لأجل اللام في الطلاق ثم قال رضي الله عنه بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم، هذا الكلام ينقض ما يقول من يطعن في السلف، فإن أمير المؤمنين رضي الله عنه أنكر على معاوية تعرضه بالمفاضلة بين أعلام المهاجرين، ولم يذكر معاوية إلا للمفاضلة بينه رضي الله عنه وبين أبي بكر وعمر، فشهادة أمير المؤمنين رضي الله عنه بأتهما من المهاجرين الأولين ومن ذوي الدرجات والطبقات التي اشتبه الحال بينهما وبينه رضي الله عنه في أي الرجال منهم أفضل، وأن قدر معاوية يصغر أن يدخل نفسه في مثل ذلك شهادة قاطعة على علو شأنهما، وعظم منزلتهما.

قوله رضي الله عنه: هيهات، لقد حن قدح ليس منها هذا مثل يضرب لمن يدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخل بينهم، وأصله القداح من عود واحد يجعل فيها قدح من غير ذلك الخشب، فيصوت بينها إذا أرادها المفيض، فذلك الصوت هو حنينه.

قوله وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها، أي وطفق يحكم في هذه القصة أو في هذه القضية من يجب أن يكون الحكم لها عليه لا له فيها، ويجوز أن يكون الضمير يرجع إلى الطبقات.

ثم قال: ألا تريع أيها الإنسان على ظلعك! أي إلا ترفق بنفسك وتكف، ولا تحمل عليها ما لا تطيقه، والظلع: مصدر ظلع البعير يظلع أي غمز في مشيه.

قوله: وتعرف قصور ذرعك، أصل الذرع بسط اليد، يقال: ضقت به ذرعاً: أي ضاق ذرعي به. فنقلوا الأسم من الفاعلية فجعلوه منصوباً على التمييز، كقولهم: طبت به نفساً.

قوله: وتتأخر حيث أحرک القدر، مثل قولك: ضع نفسك حيث وضعها الله، يقال ذلك لمن يرفع نفسه فوق استحقاقه. ثم قال: فما عليك غلبة المغلوب، ولا عليك ظفر الظافر، يقول: وما الذي أدخلك بيني وبين أبي بكر وعمر، وأنت من بني أمية، لست هاشمياً ولا تيمياً ولا عدوياً هذا فيما يرجع إلى أنسابنا، ولست مهاجراً ولا ذا قدم في الإسلام فتراحم المهاجرين وأرباب السوابق بأعمالك واجتهادك، فإذا لا يضرك غلبة الغالب منا ولا يسرك ظفر الظافر، ويروى أن مروان بن الحكم كان ينشد يوم مرج راهط والرؤوس تندر عن كواهلها بينه وبين الضحاك بن قيس الفهري:

س أي غلامي قریش غلب

وماضرهم غير حين النفو

قوله رضي الله عنه: وإنك لذهاب في التيه، رواغ عن القصد، يحتمل قوله رضي الله عنه في التيه معنيين: أحدهما بمعنى الكبر، والآخر التيه من قولك: تاه فلان في البیداء و قوله تعالى: "فإنها محرمة عليهم أربعين سنة تتيهون في الأرض"، وهذا الثاني أحسن يقول: إنك شديد الإيغال في الضلال. وذهاب فعال، للتكثير، ويقال: أرض متيهة، مثل معيشة، أي يتاه فيها.

قال رضي الله عنه: رواغ عن القصد، أي تترك ما يلزمك فعله وتعدل عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديث

الصحابة، وما جرى بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن إلى الكلام في غير هذا أحوج إلى الكلام في البيعة وحقن الدماء والدخول في طاعة الإمام.

ثم قال: ألا ترى غير نحر لك، ولكن بنعمة الله أحدث، أي لست عندي أهلاً لأن أخبرك بذلك أيضاً، فإنك تعلمه، ومن يعلم الشيء لا يجوز أن يخبر به؟ ولكن أذكر ذلك لأنه تحدث بنعمة الله علينا، وقد امرنا بأن نحدث بنعمته سبحانه. قوله رضي الله عنه: إن قوماً استشهدوا في سبيل الله، المراد ههنا، سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، وينبغي أن يحمل قول النبي علب فيه إنه سيد الشهداء على أنه سيد الشهداء في حياة النبي صلى الله عليه وسلم؟ لأن علياً رضي الله عنه مات شهيداً، ولا يجوز أن يقال: حمزة سيده، بل هو سيد المسلمين كلهم، ولا خلاف بين أصحابنا رحمهم الله أنه أفضل من حمزة وجعفر رضي الله عنهما، وقد تقدم ذكر التكبير الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة في قصة أحد. قوله رضي الله عنه: ولكل فضل، أي ولكل واحد من هؤلاء فضل لا يحدد.

قوله: ألا ترى أن قوماً قطعت أيديهم، هذا إشارة إلى جعفر، وقد تقدم ذلك في قصة مؤتة.

قوله: ولولا ما هوى الله عنه، هذا إشارة إلى نفسه رضي الله عنه.

قوله: ولا تمجها آذان السامعين أي لا تقذفها، يقال: مج الرجل من فيه، أي قذفه.

قوله رضي الله عنه فدع عنك من مال! به الرمية، يقال للصيد: يرمي هذه الرمية، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، والأصل في مثلها ألا تلحقها الهاء، نحو كف خضيب، وعين كحيل، إلا أنهم أجروها مجرى الأسماء لا النعوت، كالقصيدة والقطيعة. والمعنى: دع ذكر من مال إلى الدنيا ومالت به، أي أمالته إليها.

فإن قلت: فهل هذا إشارة إلى أبي بكر وعمر؟ قلت: ينبغي أن يتره أمير المؤمنين رضي الله عنه عن ذلك، وأن تصرف هذه الكلمة إلى عثمان، لأن معاوية ذكره في كتابه ولقد أوردناه، وإذا أنصف الإنسان من نفسه علم أنه رضي الله عنه لم يكن يذكرهما بما يذكر به عثمان، فإن الحال بينه وبين عثمان كانت مضطربة جداً.

قال رضي الله عنه: فإن صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا، هذا كلام عظيم، عال على الكلام، ومعناه عال على المعاني، وصنيعة الملك من يصطنعه الملك ويرفع قدره. يقول: ليس لأحد من البشر علينا نعمة، بل الله تعالى هو الذي أنعم علينا، فليس بيننا وبينه واسطة، والناس بأسرهم صنائعنا، فنحن الواسطة بينهم وبين الله تعالى، وهذا مقام جليل ظاهره ما سمعت، وباطنه أنهم عبيد الله، وأن الناس عبيدهم.

ثم قال: لم يمنعنا قديم عزنا، وعادي طولنا، الطول: الفضل. وعادي أي قديم، بئر عادية.

قوله: على قومك أن خلطناهم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء، ولستم هناك، يقول: تزوجنا فيكم وتزوجتم فينا كما يفعل الأكفاء، ولستم أكفاءنا. وينبغي أن يحمل قوله: قديم وعادي على مجازه لا على حقيقته، لأن بني هاشم وبني أمية لم يفترقا في الشرف إلا منذ نشأ هاشم بن عبد مناف وعرف بأفعاله ومكارمه، ونشأ حينئذ أخوه عبد شمس وعرف بمثل ذلك، وصار لهذا بنون ولهذا بنون، وادعى كل من الفريقين أنه أشرف بالفعال من الآخر، ثم لم تكن المدة بين نشأ هاشم وإظهار محمد صلى الله عليه وسلم الدعوة إلا نحو تسعين سنة، ومثل هذه المدة لقصيرة لا يقال فيها: قديم عزنا

وعادي طولنا، فيجب أن يحمل اللفظ على مجازه، لأن الأفعال الجميلة كما تكون عادية بطول المدة تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر، وإن كانت المدة قصيرة. ولفظة قدس ترد ولا يراد بها قدم الزمان، بل من قولهم: لفلان قدم صدق وقديم أثر، أي سابقة حسنة.

مناكحات بين بني هاشم وبني عبد شمس.

وينبغي أن نذكر ههنا مناكحات بني هاشم وبني عبد شمس. زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه رقية و أم كلثوم من عثمان بن عفان بن أبي العاص، وزوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس في الجاهلية، وتزوج أبو لهب بن عبد المطلب أم جميل بنت حرب بن أمية في الجاهلية، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وتزوج عبد الله بن عمرو بن عثمان فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وروى شيخنا أبو عثمان عن إسحاق بن عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس قال: قلت للمنصور أبي جعفر: من أكفأنا؟ فقال: أعداؤنا، فقلت: من هم؟ فقال: بنو أمية.

وقال إسحاق بن سليمان بن علي: قلت للعباس بن محمد: إذا اتسعنا من البنات، وضقنا من البنين، وخفنا بوار الأيامي فإلى من نخرجهن من قبائل قريش؟ فأنشدني:

عبدشمس كان يتلوهاشماً

وهما بعد لام ولأب

فعرفت ما أراد وسكت.

وروى أيوب بن جعفر بن سليمان، قال: سألت الرشيد عن ذلك فقال: زوج النبي صلى الله عليه وسلم بني عبد شمس فأحمد صهرهم، وقال: "ما ذمنا من صهرنا فإننا لا ندم صهر أبي العاص بن الربيع". قال شيخنا أبو عثمان: ولما ماتت الأبتان تحت عثمان قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "ما تنتظرون بعثمان، إلا أبو أيم، إلا أخو أيم، زوجته ابنتين، ولو أن عندي ثالثة لفعلت". قال: ولذلك سمي ذا النورين. ثم قال رضي الله عنه: وأنى يكون ذلك!، أي كيف يكون شرفكم كشرفنا، ومنا النبي ومنكم المكذب - يعني أبا سفيان بن حرب، كان عدو رسول الله والمكذب له والمجلب عليه - وهؤلاء ثلاثة: بإزاء أبي سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعاوية بإزاء علي رضي الله عنه، ويزيد بإزاء الحسين رضي الله عنه، بينهم من العداوة ما لا تترك عليه الأبل. قال: ومنا أسد الله، يعني حمزة، ومنكم أسد الأحلاف، يعني عتبة بن ربيعة، وقد تقدم شرح ذلك في قصة بدر.

وقال الراوندي: المكذب من كان يكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً من قريش، وأسد الأحلاف: أسد بن عبد العزى، قال: لأن بني أسد بن عبد العزى كانوا أحد البطون الذين اجتمعوا في حلف المطيبين، وهم بنو أسد بن عبد العزى وبنو عبد مناف، وبنو تميم بن مرة، وبنو زهرة، وبنو الحارث بن فهر. وهذا كلام طريف جداً، لأنه لم يلحظ أنه يجب أن يجعل بإزاء النبي صلى الله عليه وسلم مكذب من بني عبد شمس، فقال: المكذب من كذب النبي صلى الله عليه وسلم من قريش عناداً، وليس كل من كذبه رضي الله عنه من قريش يعير معاوية به. ثم قال: أسد الأحلاف أسد بن عبد

العزى، وأي عار يلزم معاوية من ذلك، ثم إن بني عبد مناف كانوا في هذا الحلف وعلي ومعاوية من بني عبد مناف، ولكن الراوندي يظلم نفسه بتعرضه لما لا يعلمه.

قوله: ومنا سيدا شباب أهل الجنة، يعني حسناً وحسيناً رضي الله عنهما، ومنكم صبية النار، هي الكلمة التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم لعقبة بن أبي معيط حين قتله صبراً يوم بدر، وقد قال كالمستعطف له رضي الله عنه: من للصبية يا محمد؟ قال: النار. وعقبة بن أبي معيط من بني عبد شمس. ولم يعلم الراوندي ما المراد بهذه الكلمة، فقال: صبية النار أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ، ولما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنهم بهذه الكلمة كانوا صبية، ثم ترعرعوا واختاروا الكفر، ولا شبهة أن الراوندي قد كان يفسر من خاطره ما خطر له. قال: قوله رضي الله عنه: ومنا خير نساء العالمين، يعني فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، لا خلاف فيه.

ومنكم حمالة الخطب، هي أم جميل بنت حرب بن أمية، امرأة أبي لهب الذي ورد نص القرآن فيها بما ورد. قوله: في كثير مما لنا وعليكم، أي أنا قادر على أن أذكر من هذا شيئاً كثيراً، ولكنني أكتفي بما ذكرت. فإن قلت: فبماذا يتعلق في قوله في كثير؟ قلت: بمحذوف تقديره: هذا الكلام داخل في جملة كلام كثير يتضمن مالنا وعليكم.

قوله رضي الله عنه: فإسلامنا ما قد سمع، وجاهليتنا لا تدفع، كلام قد تعلق به بعض من يتعصب للأموية. وقال: لو كانت جاهلية بني هاشم في الشرف كإسلامهم لعد من جاهليتهم حسب ما عد من فضيلتهم في الإسلام. فضل بني هاشم علي بني عبد شمس.

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع فضل هاشم على عبد شمس في الجاهلية، وقد يمتزج بذلك بعض ما يمتازون به في الإسلام أيضاً، فإن استقصاءه في الإسلام كثير، لأنه لا يمكن جحد ذلك، وكيف والإسلام كله عبارة عن محمد صلى الله عليه وسلم، وهو هاشمي! ويدخل في ضمن ذلك ما يحتاج به الأموية أيضاً، فنقول: إن شيخنا أبا عثمان قال: إن أشرف خصال قريش في الجاهلية اللواء، والندوة، والسقاية، والرفادة، وزمزم، والحجابه وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بني عبد شمس. قال: على أن معظم ذلك صار شرفه في الإسلام إلى بني هاشم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ملك مكة صار مفتاح الكعبة بيده، فدفعه إلى عثمان بن طلحة، فالشرف راجع إلى من ملك المفتاح، لا إلى من دفع إليه، وكذلك دفع صلى الله عليه وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير فالذي دفع اللواء إليه وأخذه مصعب من يديه أحق بشرفه وأولى بمجده وشرفه راجع إلى رهطه من بني هاشم. قال: وكان محمد بن عيسى المخزومي أميراً على اليمن، فهجاه أبي بن فدلج فقال:

ث من السهولة بالوعور

قل لابن عيسى المستغي

جل الأمور بلا بصيره

الناطق العوراء في

صناديد العشيره

نبتت مع النخل الشعيره

فة والسقاية والمشوره

ك يداً مجذمة قصيره

ولد المغيرة تسعة كانوا

وأبوك عاشرهم كما

إن النبوة والخلا

في غيركم فاكفف إلي

قال: فانبرى له شاعر من ولد كريز بن حبيب بن عبد شمس، كان مع محمد بن عيسى باليمن يهجو عنه ابن مدلج في كلمة له طويلة، قال فيها:

لا ولا رفد بيته ذي السناء

ر وبغض النبي والشهداء

وقنيل يلعنه أهل السماء

ل ومجد السقاية الغراء

لا لواء يعد يابن كريز

لاحجاب وليس فيكم سوى الكب

بين حاك ومخلج وطيريد

ولهم زمزم كذاك وجبري

قال شيخنا أبو عثمان: فالشهداء علي وحمزة، وجعفر، والحاكي والمخلج هو الحكم بن أبي العاص، كان يحكي مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتفت يوماً فرآه، فدعا عليه، فلم يزل مخلج المشية عقوبة من الله تعالى. والطريد اثنان: الحكم بن أبي العاص، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وهما جدا عبد الملك بن مروان من قبل أمه وأبيه. وكان النبي صلى الله عليه وسلم طرد معاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثلاثاً فحيره الله، ولم يزل يتردد في ضلاله حتى بعث في أثره علياً رضي الله عنه وعماراً فقتلاه. فأما القتلى فكثير، نحو شيبه وعتبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن سعيد بن أمية، ومعاوية بن المغيرة، وغيرهم. قال أبو عثمان: وكان اسم هاشم عمراً، وهاشم لقب، وكان أيضاً يقال له القمر، وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي:

ومطعمهم في الأزل من قمع الجزر

إلى القمر الساري المنير دعوته

قال ذلك في شيء كان بينه وبين بعض قريش، فدعاه مطرود إلى المحاكمة إلى هاشم، وقال ابن الزبعرى:

فالمخ خالصة لعبد مناف

والقائلون هلم للأضياف

ورجال مكة مسنتون عجاف

كانت قريش بيضة فتفلقت

الرائثون وليس يوجد رائث

عمرو العلى هشم الثريد لقومه

فعم كما ترى أهل مكة بالأزل والعجف، وجعله الذي هشم لهم الخبز ثريداً، فغلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به، وليس لعبد شمس لقب كريم، ولا اشتق له من صالح أعماله أسم شريف، ولم يكن لعبد شمس ابن يأخذ بضبعه، ويرفع من قدره، ويزيد في ذكره، وهاشم عبد المطلب سيد الوادي غير مدافع، أجمل الناس جمالاً، وأظهرهم جوداً، وأكملهم كمالاً، وهو صاحب الفيل، والطير الأبايل، وصاحب زمزم، وساقى الحجيج. وولد عبد شمس أمية بن

عبد شمس وأمية في نفسه ليس هناك، وإنما ذكر بأولاده ولا لقب له، ولعبد المطلب لقب شهير واسم شريف: شيبة الحمد، قال مطرود الخزاعي في مدحه:

يا شيبية الحمد الذي تنثني له

أيامه من خير ذخر الذاهر

المجد ماحجت قریش بيته

ودعا هذيل فوق غصن ناضر

والله لا أنساكم وفعالكم

حتى أغيب في سفاة القابر

وقال حذافة بن غانم العدوي وهو بمدح أبا لهب، ويوصي ابنه خارجة بن حذافة بالآتساء إلى بني هاشم:

أخرج أما أهلكن فلا تزل

لهم شاكرًا حتى تغيب في القبر

بني شيبية الحمد الكريم فعاله

يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

لساقي الحجيج ثم للشيخ هاشم

وعبد مناف ذلك السيد الغمر

أبو عتبة الملقى إلي جواره

أغر هجان اللون من نفر غر

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا

به جمع الله القبائل من فهر

فأبو عتبة هو أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، وابناه عتبة وعتيبة.

وقال العبدى حين احتفل في الجاهلية فلم يترك:

لا ترى في الناس حياً مثلنا

ما خلا أولاد عبد المطلب

وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف بن قصي وبني أمية بن عبد شمس، وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف، وبابنه عبد المطلب، و الأمر في هذا بين، وهو كما أوضحه الشاعر في قوله:

إنما عبد مناف جوهر

زين الجوهر عبد المطلب

قال أبو عثمان: ولسنا نقول: إن عبد شمس لم يكن شريفاً في نفسه، ولكن الشرف يتفاضل، وقد أعطى الله عبد المطلب في زمانه، وأجرى على يديه، وأظهر من كرامته ما لا يعرف مثله إلا لنبي مرسل، وإن في كلامه لأبرهة صاحب الفيل وتوعده إياه برب الكعبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصرة وعيده بحبس الفيل، وقتل أصحابه بالطير الأبايل وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف المأكول - لأعجب البرهانات، وأسنى الكرامات، وإنما كان ذلك إرهافاً لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وتأسيساً لما يريد الله به من الكرامة، وليجعل ذلك البهاء متقدماً له، ومردوداً عليه، وليكون أشهر في الآفاق، وأجل في صدور الفراعنة والجبابرة والأكاسرة، وأجدر أن يقهر المعاند، ويكشف غباوة الجاهل. وبعد، فمن يناهض ويناضل رجالاً ولدوا محمداً صلى الله عليه وسلم، ولو عزلنا ما أكرمه الله به من النبوة حتى تقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشيمه لما وفي به بشر، ولا عدله شيء، ولو شئنا أن نذكر ما أعطى الله به عبد المطلب من تفجر العيون وينابيع الماء من تحت كل كل بعيره وأخفافه بالأرض القسي، وبما أعطي من المساهمة وعند المقارعة من الأمور العجيبة، والحصال البائنة،

لقلنا، ولكننا أحببنا ألا نحتج عليكم إلا بالموجود في القرآن الحكيم، والمشهور في الشعر القديم، الظاهر على ألسنة الخاصة والعامة ورواة الأخبار وخمال الآثار.

قال: ومما هو مذكور في القرآن عدا حديث الفيل قوله تعالى: "إيلاف قريش"، وقد اجتمعت الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف، فلما مات قام أخوه المطلب مقامه، فلما مات قام عبد شمس مقامه، فلما مات قام نوفل مقامه - وكان أصغرهم. والإيلاف، هو أن هاشماً كان رجلاً كثير السفر والتجارة، فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن والشام، نحو العباهلة باليمن، واليكسوم من بلاد الحبشة، ونحو ملوك الروم بالشام، فجعل لهم معه رجلاً فيما يربح، وساق لهم إبلاً مع إبله، فكفاهم مؤونة الأسفار، على أن يكفوه مؤونة الأعداء في طريقه ومنصرفه، فكان في ذلك صلاح عام للفريقين، وكان المقيم راجحاً، والمسافر محفوظاً، فأخصبت قريش بذلك، وحملت معه أموالها، وأتاه الخير من البلاد السافلة والعالية، وحسنت حالها، وطاب عيشها. قال: وقد ذكر حديث الإيلاف الحارث بن الحنش السلمي، وهو خال هاشم والمطلب وعبد شمس، فقال:

ليس أخا واحد

قائم للقاعد

إن أخي هاشماً

الأخذ الإيلاف وال

قال أبو عثمان: وقيل: إن تفسير قوله تعالى: "وآمنهم من خوف" هو خوف من كان هؤلاء الأخوة يبرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال، وهذا ما فسرنا به الإيلاف آنفاً، وقد فسرهم قوم بغير ذلك، قالوا: إن هاشماً جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة، فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على الحرم، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدراً، مثل طيء وختعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب، وكيفما كان الإيلاف فإن هاشماً كان القائم به دون غيره من إخوته.

قال أبو عثمان: ثم حلف الفضول وجلالته وعظمته، وهو أشرف حلف كان في العرب كلها، وأكرم عقد عقدته قريش في قديمها وحديثها قبل الإسلام لم يكن لبني عبد شمس فيه نصيب. قال النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يذكر حلف الفضول -: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت". ويكفي في جلالته وشرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد به وهو غلام، وكان عتبة بن ربيعة يقول: لو أن رجلاً خرج مما عليه قومه لدخلت في حلف الفضول، لما أرى من كماله وشرفه، ولما أعلم من قدره وفضيلته.

قال: ولفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله سمي حلف الفضول، وسميت تلك القبائل الفضول، فكان هذا الحلف في بني هاشم، وبني المطلب، وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة، وبني تميم بن مرة، تعاقبوا في دار ابن جدعان في شهر حرام قياماً يتماسحون بأكفهم صعداً ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ما بل بحر صوفة، وفي التآسي في المعاش والتساهم

بالمال. وكانت النباهة في هذا الحلف للزبير بن عبد المطلب ولعبد الله بن جدعان، أما ابن جدعان فلأن الحلف عقد في داره، و أما الزبير فلأنه هو الذي نخض فيه، ودعا إليه، وحث عليه، وهو الذي سماه حلف الفضول، وذلك لأنه لما سمع الزبيدي المظلوم ثمن سلعته قد أوفى على أبي قبيس قبل طلوع الشمس رافعاً عقيرته وقريش في أنديتها قائلاً:

ببطن مكة نائي الحي والنفر

ياللرجال المظلوم بضاعته

ولا حرام لثوبي لابس الغدر

إن الحرام لمن تمت حرامته

حمي وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوي من ظلم الضعيف، والقاطن من عنف الغريب، ثم قال:

وإن كنا جميعاً أهل دار

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم

يعز به الغريب لدى الجوار

نسميه الفضول إذا عقدنا

أباة الضيم نهجر كل عار

ويعلم من حوالي البيت أنا

فبنو هاشم هم الذين سمو ذلك الحلف حلف الفضول، وهم كانوا سببه، والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له، والشاهدة لأمره، فما ظنك بمن شاهده ولم يقم بأمره! قال أبو عثمان: وكان الزبير بن عبد المطلب شجاعاً أبيضاً، وجميلاً بهياً، وكان خطيباً شاعراً، وسيداً جواداً، وهو الذي يقول:

ثياب أعزة حتى يموتوا

ولولا الحمس لم يلبس رجال

بها دنس كمدنس الحميت

ثيابهم شمال أوعباء

الحبرات والمسك الفتيت

ولكنا خلقنا إذا خلقنا لنا

لقاتل إنما لهم سبيبت

وكأس لو تبين لهم كلاماً

رضين الحلم يشربها هيببت

تبين لنا القذى إن كان فيها

رقيق الحد ضربته صموت

ويقطع نخوة المختال عنا

إذا لقي الكريهة يستमित

بكف مجرب لا عيب فيه

قال: والزبير هو الذي يقول:

محيط عليه الجيش جلد مرأثره

وأسحم من راح العراق مملاً

إذا ما انتشى لم يختصره معاقره

صبحت به طلقاً يراح إلى الندى

كليل على جلد النديم أظافره

ضعيف بجنب الكأس قبض بنانه

قال: وبنو هاشم هم الذين ردوا على الزبيدي ثمن بضاعته، وكانت عند العاص بن وائل، وأخذوا للبارقي ثمن سلعته من أبي بن خلف الجمحي، وفي ذلك يقول البارقي:

بني جمح والحق يؤخذ بالغصب

ويأبى لكم حلف الفضول ظلامتي

وهم الذين انتزعوا من نبيه بن الحجاج قتل الحسناء بنت التاجر الخنعمي، وكان كابره عليها حين رأى جمالها، وفي ذلك يقول نبيه بن الحجاج:

قد أراني ولا أخاف الفضولا

ط إباد وهللوا تهليلا

اس هل يتبعون إلا القتولا!

وخشيث الفضول حين أتوني

إنني والذي يحج له شم

لبراء مني قتيلة يا لن

وفيها أيضاً يقول:

لا امن من عروائها

ولطفت حول خبائها

لولا الفضول وأنه

لدنوت من أبياتها

في كلمته التي يقول فيها:

منا على عدوائها

شيئاً ولا بلقائها

في مشيها ووطائها

حي النخيلة إذ نأت

لا بالفراق تتيلنا

حلت بمكة حلة

في رجال كثير انتزعوا منهم الظلامات، ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقوياء، ولهم العدد والعارضة، منهم من ذكرنا قصته.

قال أبو عثمان: ولهاشم أخرى لا يعد أحد مثلها، ولا يأتي بما يتعلق بها، وذلك أن رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بني عامر متساندين، فكان حرب بن أمية على بني عبد شمس، وكان الزبير بن عبد المطلب على بني هاشم، وكان عبد الله بن جدعان على بني تيم، وكان هشام بن المغيرة على بني مخزوم، وكان على كل قبيلة رئيس منها، فهم متكافتون في التساند، ولم يحقق واحد منهم الرئاسة على الجميع، ثم آب هاشم بما لا تبلغه يد متناول، ولا يطمع فيه طامع، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: شهدت الفجار وأنا غلام، فكنت أنبل فيه على عمومي، فنفي مقامه رضي الله عنه أن تكون قريش هي التي فجرت، فسميت تلك الحرب حرب الفجار، وثبت أن الفجور إنما كان ممن حاربهم، وصاروا بيمينه وبركته ولما يريد الله تعالى من إعزاز أمره وإعظامه الغالين العالين، ولم يكن الله ليشهده فجرة ولا غدره، فصار مشهده نصراً، وموضعه فيهم حجةً ودليلاً.

قال أبو عثمان: وشرف هاشم متصل، من حيث عدت كان الشرف معك كابرًا عن كابر، وليس بنو عبد شمس كذلك، فإن الحكم بن أبي العاص كان عادياً في الأعلام، ولم يكن له سناء في الجاهلية. وأما أمية فلم يكن في نفسه هناك، وإنما رفعه أبوه، وكان مضعوفاً، وكان صاحب عهار يدل على ذلك قول نفيل بن عدي جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم، فنفر عبد المطلب وتعجب من إقدام حرب عليه وقال له:

أبوك معاهر وأبوه عف

وذاد الفيل عن بلد حرام

وذلك أن أمية كان تعرض لامرأة من بني زهرة، فضربه رجل منهم بالسيف، فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة، فقام دوغهم قيس بن عدي السهمي - وكانوا أخواله، وكان منيع الجانب، شديد العارضة، حمي الأنف، أبي النفس - فقام دوغهم وصاح: أصبح ليل، فذهبت مثلاً، ونادى: الآن الظاعن مقيم. وفي هذه القصة يقول وهب بن عبد مناف بن زهرة جد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

مهلاً أمي فإن البغي مهلكة

لا يكسبنك يوم شبره ذكر

تبدو كواكبه والشمس طالعة

يصب في الكأس منه الصبر والمقر

قال أبو عثمان: وصنع أمية في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب، زوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته منه. فأولدها أبا معيط بن أبي عمرو بن أمية. والمفتيتون في الإسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم، فأما أن يتزوجها في حياة الأب ويبني عليها وهو يراه، فإنه شيء لم يكن قط.

قال أبو عثمان: وقد أقر معاوية على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له: أيهما كان أسود في الجاهلية؟ أنتم أم بنو هاشم؟ فقال: كانوا أسود منا واحداً، وكنا أكثر منهم سيذاً، فأقر وأدعى، فهو في إقراره بالنقص مخصوم، وفي إدعائه الفضل خصيم.

وقال جحش بن رئاب الأسدي حين نزل مكة بعد موت عبد المطلب: والله لأتزوجن ابنة أكرم أهل هذا الوادي، ولأحالفن أعزهم، فتزوج أميمة بنت عبد المطلب، وحالف أبا سفيان بن حرب. وقد يمكن أن يكون أعزهم ليس بأكرمهم، ولا يمكن أن يكون أكرمهم ليس بأعزهم، وقد أقر أبو جهل على نفسه ورهطه من بني مخزوم حين قال: تحاربنا نحن وهم، حتى إذا صرنا كهاتين قالوا: منا نبي. فأقر بالتقصير، ثم ادعى المساواة، ألا تراه كيف أقر أنه لم يزل يطلب شأوهم ثم ادعى أنه لحقهم! فهو مخصوم في إقراره، خصيم في دعواه، وقد حكم لهاشم دغفل بن حنظلة النسابة حين سألته معاوية عن بني هاشم: فقال: هم أطعم للطعام، وأضرب للهام، وهاتان خصلتان يجمعان أكثر الشرف. قال أبو عثمان: والعجب من منافرة حرب بن أمية عبد المطلب بن هاشم، وقد لطم حرب جاراً لخلف بن أسعد جد طلحة الطلحات، فجاء جاره فشكا ذلك إليه، فمشى خلف إلى حرب وهو جالس عند الحجر، فلطم وجهه عنوة من غير تحاكم ولا تراض، فما انتطح فيه عتران. ثم قام أبو سفيان بن حرب مقام أبيه بعد موته، فخالفه أبو الأزيهر الدوسي، وكان عظيم الشأن في الأزدي، وكانت بينه وبين بني الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد وبينه، فجاء هشام بن الوليد وأبو الأزيهر قاعد في مقعد أبي سفيان بذي الحجاز، فضرب عنقه، فلم يدرك به أبو سفيان عقلاً ولا قوداً في بني المغيرة. وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك:

غدا أهل حصني ذي المجاز بسحرة

وجار ابن حرب لا يروح ولا يغدو

كسالك هشام بن الوليد ثيابه

فأبل وأخلق مثلها جدداً بعد

فهذه جملة صالحة مما ذكره شيخنا أبو عثمان، ونحن نورد من كتاب أنساب قريش للزبير بن بكار ما يتضمن شرحاً لما أجمله شيخنا أبو عثمان أو لبعضه، فإن كلام أبي عثمان لمحة وإشارة، وليس بالمشروح.

قال الزبير: حدثني عمر بن أبي بكر العدوي من بني عدي بن كعب قال: حدثني يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل، عن أبيه، قال: اصطلحت قريش على أن ولي هاشم بعد موت أبيه عبد مناف السقاية والرفادة، وذلك أن عبد شمس كان يسافر، قل أن يقيم بمكة، وكان رجلاً معيلاً، وكان له ولد كثير، وكان هاشم رجلاً موسراً، فكان إذا حضر الحج قام في قريش فقال: يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، فهم لذلك ضيف الله، وأحق ضيف بالكرامة ضيف الله، وقد خصكم الله بذلك، وأكرمكم به، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزواره، فإنهم يأتون شعثاً غبراً من كل بلد ضوامر كالقداح، وقد أرجفوا وتفلوا وقملوا وأرملوا، فأقروهم وأعينوهم. قال: فكانت قريش تترافد على ذلك، حتى إن كل أهل بيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدر حالهم، وكان هاشم يخرج في كل سنة مالا كثيراً، وكان قوم من قريش يترافدون، وكانوا أهل يسار، فكان كل إنسان ربما أرسل بمائة مثقال ذهب هرقلية، وكان هاشم يأمر بجياض من أدم تجعل في مواضع زمزم من قبل أن تحفر، يستقى فيها من البئر التي بمكة، فيشرب الحاج، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل يوم التروية بيوم بمكة. وبمكة وبمكة وبجمع وعرفة، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء فيسقون. وبمكة، والماء يومئذ قليل، إلى أن يصدر الحاج من مكة، ثم تنقطع الضيافة، وتفرق الناس إلى بلادهم.

قال الزبير: وإنما سمي هاشماً لهشمه الثريد، وكان اسمه عمراً، ثم قالوا: عمرو العلاء لمعاليه. وكان أول من سن الرحلتين: رحلة إلى الحبشة، ورحلة إلى الشام، ثم خرج في أربعين من قريش فبلغ غزوة، فمرض بها، فمات، فدفنوه بها، ورجعوا بتركته إلى ولده. ويقال: إن الذي رجع بتركته إلى ولده أبو رهم عبد العزى بن أبي قيس العامري من بني عامر بن لؤي. قال الزبير: وكان يقال له هاشم والمطلب: البدران، ولعبد شمس ونوفل الأبهران. قال الزبير: وقد اختلف في أي ولد عبد مناف أسن، والثبت عندنا أن أسنهم هاشم. وقال آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عمر بن عبد العزيز بن مروان:

قول ذي دين وبر وحسب

عبد شمس عم عبد المطلب

وهما بعد لام ولأب

يا آمين الله إني قائل

عبد شمس لاتهنها إنما

عبد شمس كان يتلو هاشماً

قال الزبير: وحدثني محمد بن حسن، عن محمد بن طلحة، عن عثمان بن عبد الرحمن، قال: قال عبد الله بن عباس: والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لها العيرات لهاشم، والله ما شدت قريش رحالاً ولا حبلاً بسفر، ولا أناخت بعيراً لحضر إلا بهاشم، والله إنه أول من سقى بمكة ماءً عذباً، وجعل باب الكعبة ذهباً لعبد المطلب. قال الزبير: وكانت قريش تجاراً لا تعدو تجارتهم مكة إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم، يتبايعون بها بينهم، ويبيعون

من حولهم من العرب، حتى رحل هاشم بن عبد مناف إلى الشام، فترل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنة من ثريد، ويدعو الناس فيأكلون، وكان هاشم من أحسن الناس خلقاً وتاماً، فذكر لقيصر، وقيل له: ههنا شاب من قريش يهشم الخبز، ثم يصب عليه المرق، ويفرغ عليه اللحم، ويدعو الناس. قال: وإنما كانت الأعاجم والروم تصنع المرق في الصحاف، ثم تأتدم عليه بالخبز، فدعا به قيصر، فلما رآه وكلمه أعجب به، وجعل يرسل إليه فيدخل عليه، فلما رأى مكانه سألته أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمناجر، وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه، ففعل. فبذلك أرتفع هاشم من قريش. قال الزبير: وكان هاشم يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء يمينه فيخطب قريشاً فيقول: يا معشر قريش، أنتم سادة العرب، أحسنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً، وأوسطها أنساباً، وأقربها أرحاماً. يا معشر قريش، أنتم جيران بيت الله، أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ منكم جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد. فو رب هذه البنية، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتموه، ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فواضعه، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم تقطع فيه رحم ولم يغتصب. قال: فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ما تحتمله أحوالها، وتأتي بها إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج. قال الزبير: ومما رثي به مطرود الخزاعي هاشماً قوله:

أودى بغزة هاشم لا يبعد

مات الندى بالشام لما أن ثوى

والنصر أدق باللسان وباليد

فجفانه رذم لمن ينتابه

ومن مراثيه له:

وأبكي خبيئة نفسي في الملمات

يا عين جودي وأذري الدمع واحتفلي

ضخم الدسيعة وهاب الجزيلات

وأبكي على كل فياض أخي حسب

جلد النحيزة حمال العظيمات

ماضي الصريمة عالي الهم ذي شرف

ماض على الهول متلاف الكريمات

صعب المقادة لا نكس ولا وكل

بحبوحة المجد في الشم الرفيعات

محض توسط من كعب إذا نسبوا

تسفي الرياح عليه وسط غزات

فأبكي على هاشم في وسط بلقعة

يبكيه حسراً مثل البنيات

يا عين بكى أبا الشعث الشجيات

سمح السجية بسام العشيات

يبكين عمرو العلا إذ حان مصرعه

ياطول ذلك من حزن وعولات

يبكيه معولات في معاوزها

جر الزمان من أحداث المصيبات

محزومات على أوساطهن لما

قال الزبير: وحدثني إبراهيم بن المنذر، عن الواقدي، عن عبد الرحمن بن الحارث، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: أول من سن دية النفس مائة من الأبل عبد المطلب، فحرت في قريش والعرب سنته، وأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وأم عبد المطلب سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد، من بني النجار من الأنصار، وكان سبب تزوج هاشم بها أنه قدم في تجارة له المدينة، فترل على عمرو بن زيد، فجاءته سلمى بطعام فأعجبت هاشماً، فخطبها إلى أبيها، فأنكحها إياها، وشرط عليه أن تلد عند أهلها، فبنى عليها بالمدينة، وأقام معها سنتين، ثم ارتحل بها إلى مكة، فحملت وأثقلت، فخرج بها إلى المدينة، فوضعها عند أهلها، ومضى إلى الشام، فمات بغزة من وجهه ذلك، وولدت عبد المطلب، فسمته شيبه الحمد لشعرة بيضاء كانت في ذوائبه حين ولد، فمكث بالمدينة ست سنين أو ثمانية. ثم إن رجلاً من قهامة مر بالمدينة، فإذا غلمان ينتضلون، وغلām منهم يقول كلما أصاب: أنا ابن هاشم بن عبد مناف، سيد البطحاء، فقال له الرجل: من أنت يا غلام؟ قال: أنا ابن هاشم بن عبد مناف. قال: ما اسمك؟ قال: شيبه الحمد، فانصرف الرجل حتى قدم مكة، فيجد المطلب بن عبد مناف جالساً في الحجر، فقال: قم إلي يا أبا الحارث، فقام إليه، فقال: تعلم أي جئت الآن من يثرب فوجدت بها غلماناً ينتضلون. وقص عليه ما رأى من عبد المطلب، وقال: إنه أضرت غلام رأيته قط، فقال له المطلب: أغفلته والله! أما إني لا أرجع إلى أهلي ومالي حتى آتيه، فخرج المطلب حتى أتى المدينة، فأتاها عشاء، ثم خرج براحلته حتى أتى بني عدي بن النجار فإذا الغلمان بين ظهراي المجلس، فلما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم: هذا ابن هاشم، قالوا: نعم، وعرفه القوم فقالوا: هذا ابن أخيك، فإن كنت تريد أخذه فالساعة، لا نعلم أمه، فإنها إن علمت حلنا بينك وبينه. فأناخ راحلته، ثم دعاه فقال: يا بن أخي، أنا عمك، وقد أردت الذهاب بك إلى قومك، فاركب، قال: فوالله ما كذب أن جلس على عجز الراحلة، وجلس المطلب على الراحلة ثم بعثها فانطلقت، فلما علمت أمه قامت تدعو حزناً على ابنها، فآخبرت أنه عمه، وأنه ذهب به إلى قومه. قال: فانطلق به المطلب فدخل به مكة ضحوة، مردفه خلفه، والناس في أسواقهم ومجالسهم، فقاموا يرحبون به ويقولون: من هذا الغلام معك؟ فيقول: عبد لي ابتعته بيثرب، ثم خرج به حتى جاء إلى الحزورة فابتاع له حلة، ثم أدخله على امرأته خديجة بنت سعد بن سهم، فرجلت شعره، ثم ألبسه الحلة عشيية، فجاء به فأجلسه في مجلس بني عبد مناف، وأخبرهم خبره، فكان الناس بعد ذلك إذا رأوه يطوف في سكك مكة وهو أحسن الناس يقولون: هذا عبد المطلب - لقول المطلب: هذا عبدي - فليج به الاسم، وترك به شيبه. وروى الزبير رواية أخرى أن سلمى أم عبد المطلب حالت بين المطلب وبين ابنها شيبه، وكان بينها وبينه في أمره محاورة، ثم غلبها عليه، وقال:

عرفت شيبه والنجار قد حلفت

أبناءؤها حوله بالنبل تنتضل

فأما الشعر الذي لحذافة العذري والذي ذكره شيخنا أبو عثمان فقد ذكره الزبير بن بكار في كتاب النسب، وزاد فيه:

كهولهم خير الكهول ونسلهم

كنسل الملوك، لايبور ولايجري

تفلق عنهم بيضة الطائر الصقر

تجده على أجراء والده يجري

وهم نكلوا عنها غواة بني بكر

وهم تركوا رأي السفاهة والهجر

لهم شاكرًا حتى تغيب في القبر

ملوك وأبناء الملوك وسادة

متى تلق منهم طامحًا في عنانه

هم ملكوا البطحاء مجداً وسودداً

وهم يغفرون الذنب ينقم مثله

أخرج أما أهلكن فلا تزل

قال الزبير: وحدثني عن سبب هذا الشعر محمد بن حسن، عن محمد بن طلحة، عن أبيه، قال: إن ركباً من جذام خرجوا صادريين عن الحج من مكة، ففقدوا رجلاً منهم عالية بيوت مكة، فيلقون حذافة العذري، فريطوه وانطلقوا به، فتلقاهم عبد المطلب مقبلاً من الطائف ومعه ابنه أبو لهب يقود به، وعبد المطلب حينئذ قد ذهب بصره، فلما نظر إليه حذافة بن غانم هتف به، فقال عبد المطلب لابنه: ويلك! من هذا؟ قال: هذا حذافة بن غانم مربوطاً مع ركب. قال: فالحقهم فسلهم ما شأهم وشأنه، فالحقهم أبو لهب فأخبروه الخبر، فرجع إلى أبيه، فأخبره، فقال: ويحك! ما معك؟ قال: لا والله ما معي شيء، قال: فالحقهم لا أم لك! فأعطهم بيدك، وأطلق الرجل، فالحقهم أبو لهب، فقال: قد عرفتم تجارتي ومالي، وأنا أحلف لكم لأعطينكم عشرين أوقية ذهباً، وعشراً من الأبل وفرساً، وهذا ردائي رهن. فقبلوا ذلك منه، وأطلقوا حذافة، فلما أقبل به وقربا من عبد المطلب، سمع عبد المطلب صوت أبي لهب، ولم يسمع صوت حذافة، فصاح به: وأبي إنك لعاص، ارجع لا أم لك! قال: يا أبتا هذا الرجل معي، فناداه عبد المطلب: يا حذافة، أسمعني صوتك. قال: هأنذا بأبي أنت وأمي يا ساقى الحجيح أردفني، فأردفه حتى دخل مكة، فقال حذافة هذا الشعر.

قال الزبير: وحدثني عبد الله بن معاذ، عن معمر، عن ابن شهاب، قال: أول ما ذكر من عبد المطلب أن قريشاً خرجت فارة من الحرم خوفاً من أصحاب الفيل، وعبد المطلب يومئذ غلام شاب، فقال: والله لا أخرج من حرم الله أبغي العز في غيره! فجلس في البيت وأجلت قريش عنه، فقال عبد المطلب:

نع رحله فامنع حلالك

ومحالهم أبداً محالك

لا هم إن المرء يم

لا يغلبن صليبهم

فلم يزل ثابتاً في الحرم حتى أهلك الله الفيل وأصحابه، فرجعت قريش وقد عظم فيهم بصره وتعظيمه محارم الله عز وجل، فبينما هو على ذلك - وكان أكبر ولده وهو الحارث بن عبد المطلب قد بلغ الحلم - أري عبد المطلب في المنام، فقيل له: أحفر زمزم، خبيثة الشيخ الأعظم. فاستيقظ فقال: اللهم بين لي الشيخ، فأري في المنام مرة أخرى: أحفر تكتم بين الفرث والدم، في مبحث الغراب، في قرية النمل، مستقبلة الأنصاب الحمر. فقام عبد المطلب فمشى حتى جلس في المسجد الحرام ينتظر ما سمي له من الآيات، فنحر بقرة في الحزورة، فأفلتت من جازرها بحشاشة نفسها حتى غلب عليها الموت في المسجد في موضع زمزم، فاحتمل لحمها من مكائها، وأقبل غراب يهوي حتى وقع في الفرث فبحث عن قرية النمل، فقام عبد المطلب يحفرها، فجاءته قريش فقالت له: ما هذا الصنع، إنا لم نكن نراك بالجهل، لم تحفر في مسجدنا؟ فقال عبد

المطلب: إني لحافر هذا البئر، ومجاهد من صديني عنها، فطفق يحفر هو وابنه الحارث، وليس له يومئذ ولد غيره، فيسفه عليهما الناس من قريش فينازعونهما ويقاثلونهما. وتناهى عنه ناس من قريش لما يعلمون من زعيق نسبه وصدقه، واجتهاده في دينهم يومئذ، حتى إذا أتعبه الحفر، واشتد عليه الأذى نذر إن وفي له عشرة من الولدان ينحر أحدهم، ثم حفر فأدرك سيوفاً دفنت في زمزم حين دفنت، فلما رأت قريش أنه قد أدرك السيوف قالت: يا عبد المطلب، أحننا مما وجدت. فقال عبد المطلب: بل هذه السيوف لبيت الله، ثم حفر حتى أنبط الماء، فحفرها في القرار، ثم بحرهما حتى لا تنزف، ثم بنى عليها حوضاً وطفق هو وابنه يتزعان فيملاآن ذلك الحوض، فيشرب منه الحاج، ويكسره قوم حسدة له من قريش بالليل، فيصلحه عبد المطلب حين يصبح، فلما أكثروا فسادة دعا عبد المطلب ربه، فأري، فقبل له: قل: اللهم إني لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حل وبل، ثم كفيتهم، فقام عبد المطلب حين اختلف قريش في المسجد، فنأدى بالذي أري، ثم انصرف فلم يكن يفسد حوضه عليه أحد من قريش إلا رمي في جسده بداء، حتى تركوا حوضه ذلك وسقايته. ثم تزوج عبد المطلب النساء، فولد له عشرة رهط، فقال: اللهم إني كنت نذرت لك نحر أحدهم، وإني أقرع بينهم، فاصيب بذلك من شئت، فأقرع بينهم، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أحب ولده إليه، فقال عبد المطلب: اللهم هو أحب إليك أم مائة من الأبل! فنحرها عبد المطلب مكان عبد الله، وكان عبد الله أحسن رجل رئي في قريش قط.

وروى الزبير أيضاً قال: حدثني إبراهيم بن المنذر، عن عبد العزيز بن عمران، عن عبد الله بن عثمان بن سليمان قال: سمعت أبي يقول: لما حفرت زمزم، وأدرك منها عبد المطلب ما أدرك، وجدت قريش في أنفسها مما أعطي عبد المطلب، فلقية خويلد بن أشد بن عبد العزى فقال: يا بن سلمى، لقد سقيت ماء رغداً، ونثلت عادية حسداً، فقال: يابن أسد، أما إنك تشرك في فضلها، والله لا يساعدني أحد عليها ببر، ولا يقوم معي بارزاً إلا بذلت له خير الصهر، فقال خويلد بن أسد:

إليك ابن سلمى أنت حافر زمزم

وركضة جبريل على عهد آدم

أقول وما قولي عليهم بسبة

حفيرة إبراهيم يوم ابن هاجر

فقال عبد المطلب: ما وجدت أحداً ورث العلم إلا قدم غير خويلد بن أسد.

قال الزبير: فأما ركضة جبريل فإن سعيد بن المسيب قال: إن إبراهيم قدم بإسماعيل وأمه مكة، فقال لهما: كلا من الشجر، واشربا من الشعاب. وفارقهما، فلما ضاقت الأرض تقطعت المياه، فعطشا، فقالت له أمه: اصعد وانصب في هذا الوادي فلا أرى موتك ولا ترى موتي، ففعل، فأنزل الله تعالى ملكاً من السماء على أم إسماعيل، فأمرها فصرخت به، فاستجاب لها، وطار الملك فضرب بجناحيه مكان زمزم، فقال: اشربا، فكان سيحاً يسبح، ولو تركاه ما زال كذلك أبداً، لكنها فرقت عليه من العطش، فقرت له في السقاء، وحفرت في البطحاء، فلما نضب الماء طوياء، ثم هلك الناس، ودفنته السيول. ثم أري عبد المطلب في المنام أن أحفر زمزم لا تثرب ولا تدم، تروي الحجيج الأعظم. ثم أري مرة أخرى أن

أحفر الرواء، أعطيتها على رغم الأعداء. ثم أري مرة أخرى، أن أحفر تكتم، بين الأنصاب الحمر، في قرية النمل. فأصبح يحفر حيث أري. فطفقت قريش يستهزئون به، حتى إذا بدا عن الطي وجد فيها غزالاً من ذهب، وحلية سيف، فضرب عليها بالسهم، فخرج سهم البيت، فكان أول في حلي حلي به الكعبة.

قال الزبير: وكان حرب بن أمية بن عبد شمس نديم عبد المطلب، وكان عبيد بن الأبرص تربيته، وبلغ عبيد مائة وعشرين سنة، وبقي عبد المطلب بعده عشرين سنة.

قال: وقال بعض أهل العلم وتوفي عبد المطلب عن خمس وتسعين سنة، ويقال: كان يعرف في عبد المطلب نور النبوة، وهيبة الملك، وفيه يقول الشاعر:

إنني واللات والبيت

الذي لز بالهبرز عبد المطلب

قال الزبير: حدثني عمي مصعب بن عبد الله، قال: بينا عبد المطلب يطوف بالبيت بعد ما أسن وذهب بصره، إذ زحمة رجل، فقال: من هذا؟ فقيل: رجل من بني بكر. قال: فما منعه أن ينكب عني وقد رأي لا أستطيع لأن انكب عنه! فلما رأى بنيه قد توالوا عشرة قال: لا بد لي من العصا، فإن اتخذتها طويلة شقت علي، وإن اتخذتها قصيرة قويت عليها، ولكن ينحذب لها ظهري، والحذبة ذل، فقال بنوه: أوغير ذلك، يوافيك كل يوم منا رجل تتوكأ عليه فتطوف في حوائجك.

قال: ولذلك قال الزبير: ومكارم عبد المطلب أكثر من أن يحاط بها، كان سيد قريش غير مدافع نفساً وأباً وبيتاً وجمالاً وبهاءً وكمالاً وفعلاً، قال أحد بني كنانة يمدحه:

إنني وما سترت قريش والذي

تعزو لآل كلهن ظباء

ووحق من رفع الجبال منيفة

والأرض مداً فوقهن سماء

مثن ومهد لابن سلمى مدحة

فيها أداء ذمامه ووفاء

قال الزبير: فأما أبو طالب بن عبد المطلب - واسمه عبد مناف، وهو كافل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاميه من قريش وناصره، والرفيق به، الشفيق عليه، ووصي عبد المطلب فيه - فكان سيد بني هاشم في زمانه، ولم يكن أحد من قريش يسود في الجاهلية بمال إلا أبو طالب وعتبة بن ربيعة.

قال الزبير: أبو طالب أول من سن القسامة في الجاهلية في دم عمرو بن علقمة، ثم أثبتتها السنة في الإسلام، وكانت السقاية في الجاهلية بيد أبي طالب، ثم سلمها إلى أخيه العباس بن عبد المطلب.

قال الزبير: وكان أبو طالب شاعراً مجيداً، وكان نديمه في الجاهلية مسافر بن عمرو بن أمية بن عبد شمس، وكان قد حبن فخرج ليتداوى بالحيرة، فمات بمبالاة، فقال أبو طالب يرثيه:

ليت شعري مسافر بن أبي عم

رو وليت يقولها المحزون

كيف كانت مذاقة الموت إذ مت

وماذا بعد الممات يكون!

رحل الركب قافلين إلينا

وخليلي في مرمس مدفون

رك نصر الرياح والزيتون

لنت فياف من دونه وحزون

وبوجه يزينه العرنين

وحميم قفت عليه المنون!

ر وإني بصاحبي لضنين

بورك الميت الغريب كمابو

رزء ميت على هباله قدحا

مدره يدفع الخصوم بأيد

كم خليل وصاحب وابن عم

فتعزيت بالجلادة والصب

قال الزبير: فلما هلك مسافر نادم أبو طالب بعده عمرو بن عبد بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، ولذلك قال عمرو لعلي رضي الله عنه يوم الخندق حين بارزه: إن أباك كان لي صديقاً.

قال الزبير: وحدثني محمد بن حسن، عن نصر بن مزاحم، عن معروف بن خربوذ، قال: كان أبو طالب يحضر أيام الفجار، ويحضر معه النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام، فإذا جاء أبو طالب هزمت قيس، وإذا لم يجيء هزمت كنانة، فقالوا لأبي طالب: لا أباك! لا تغب عنا، ففعل.

قال الزبير: فأما الزبير بن عبد المطلب فكان من أشرف قريش ووجهها، وهو الذي استثنته بنو قصي على بني سهم حين هجا عبد الله بن الزبير بن قصي فأرسلت بنو قصي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس إلى بني سهم، فقال لهم: إن قومكم قد كرهوا أن يعجلوا عليكم، فأرسلوني إليكم في هذا السفية الذي هجاهم في غير ذنب اجترموا إليه، فإن كان ما صنع عن رأيكم فبئس الرأي رأيكم، وإن كان عن غير رأيكم فادفعوه إليهم. فقال القوم: نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا. قال: فأسلموه إليهم، فقال بعض بني سهم: إن شئتم فعلنا، على أن من هجانا منكم دفعتموه إلينا. فقال عتبة: ما يمنعني أن أقول ما تقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائب بالطائف، وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول: ولم أكن أجعل الزبير خطراً لابن الزبير، فقال قائل منهم: أيها القوم، ادفعوهم إليهم، فلعمري إن لكم مثل الذي عليكم، فكثرت في ذلك الكلام واللغط، فلما رأى العاص بن وائل ذلك دعا برمة، فأوثق بها عبد الله بن الزبير، ودفعه إلى عتبة بن ربيعة، فأقبل به مربوطاً حتى أتى به قومه، فأطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه، فأغرى ابن الزبير أناس من قريش بقومه بني سهم، وقالوا له: أهجهم كما أسلموك، فقال:

وإن صالحت إخوانها لا ألومها

بأيماننا مسلولة لانشيمها

غماغم منها إذ أجد يريمها

وأهل فعال لا يرام قديمها

كما منع الشول الهجان قرومها

وهل يمنع المخزاة الإحميمها!

مرازبة غلب رزان حلومها

لعمري ما جاءت بنكر عشيرتي

فود جناة الشر أن سيوفنا

فيقطع ذو الصهر القريب ويتركوا

فإن قصياً أهل مجد وثروة

هم منعوا يومي عكاظ نساءنا

وإن كان هيج قدموا فتقدموا

محاشيد للمقرى سراع إلى الندى

قال: فقدم الزبير بن عبد المطلب من الطائف، فقال قصيدته التي يقول فيها:

ثياب أعزة حتى يموتوا

فلولا الحمس لم يلبس رجال

وقد ذكرنا قطعة منها فيما تقدم.

قال الزبير: وقال الزبير بن عبد المطلب أيضاً في هذا المعنى:

أظلم من حولي بالجدل

قومي بنو عبد مناف إذا

تيم ولا زهرة للنيطل

لا أسد لن يسلموني ول

يوم من الأيام لا ينجلي

ولا بنو الحارث إن مر بي

حق له عندهم أقبل

يا أيها الشاتم قومي ولا

تقصر عن الباطل أوتعدل

إنني لهم جار لئن أنت لم

قال الزبير: ومن شعر الزبير بن عبد المطلب:

ماذا تقول ابنتي في النوح تتعاني!

يا ليت شعري إذا ما حممتي وقعت

مولى المطاف وفكاكاً عن العاني

تنعى أباً كان معروف الدفاع عن ال

إذا تضجع عنه العاجز الواني

ونعم صاحب عان كان رافده

قال الزبير: وكان الزبير بن عبد المطلب ذا نظر وفكر، أتى فقيلاً له: مات فلان - لرجل من قريش كان ظلوماً - فقال: بأي عقوبة مات، قالوا: مات حتف أنفه! فقال: لئن كان ما قلتموه حقاً إن للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم. قال: وكان الزبير يكنى بأبي الطاهر، وكانت صفية بنت عبد المطلب كنت ابنها الزبير بن العوام أباً الطاهر دهرًا بكنية أخيها، وكان للزبير بن عبد المطلب ابن يقال له الطاهر، كان من أطرف فتيان مكة، مات غلاماً، وبه سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه الطاهر، وباسم الزبير سميت أخته صفية ابنها الزبير، وقالت صفية ترثي أخاها الزبير بن عبد المطلب:

كنت على ذي كرم باكية

بكي زبير الخير إذ مات إن

أو أصبحت خاشعة عاريه

لو لفظته الأرض مالمتها

قد كان في نفسي أن أترك الموتى ولا أتبعهم قافيه

وجدته أقرب إخوانيه

فلم أطق صبراً على رزئه

لقضت العرة أضلاعيه

لو لم أقل من في قولاً له

ماخضروا، ذو الشفرة الدامي

فهو الشامي واليماني إذا

وقال ضرار بن الخطاب يبيكه

ك بكاء محزون أليم

رث السلاح ولاسليم

لو ضوءه ضوء النجوم

ونماه والده الكريم

فرعين قد فرعا القروم

بكي ضباع على أبي

قدكنت أنشده فل

كالكوكب الدريع

زخرت به أعراقه

بين الأغر وهاشم

فأما القتل الخثعمية التي اغتصبها نبيه بن الحجاج السهمي من أبيها، فقد ذكر الزبير بن بكار قصتها في كتاب أنساب قريش.

قال الزبير: إن رجل من خثعم قدم مكة تاجراً ومعه ابنة يقال لها القتل، أوضأ نساء العالمين، فعلقها نبيه بن الحجاج السهمي، فلم يرح حتى غلب أباه عليها، ونقلها إليه، فقبل لأبيها: عليك بحلف الفضول، فأتاهم فشكا إليهم ذلك، فأتوا نبيه ابن الحجاج فقالوا له: أخرج ابنة هذا الرجل - وهو يومئذ منتبذ بناحية مكة، وهي معه - وإلا فإننا من قد عرفنا، فقال: يا قوم، متعوني بها الليلة، فقالوا: قبحك الله! ما أجهلك، لا والله ولا شخب لقحة، فأخرجها إليهم فأعطوها أباه، فقال نبيه بن الحجاج في ذلك قصيدة أولها:

لم أودعهم وداعاً جميلاً

قد أراني ولا أخاف الفضول

راح صحبي ولم أحي القتولا

إذ أجد الفضول أن يمنعوها

في أبيات طويلة.

وأما قصة البارقي فقد ذكرها الزبير أيضاً، قال: قدم رجل من ثمالة من الأزدي مكة، فباع سلعة من أبي بن خلف الجمحي فمأطله بالثمن، وكان سيئ المخالطة، فأتى الشمالي أهل حلف الفضول فأخبرهم، فقالوا: اذهب فأخبره أنك قد أتيتنا، فإن أعطاك حقك وإلا فارجع إلينا، فأتاه فأخبره بما قال أهل حلف الفضول، فأخرج إليه حقه فأعطاه، فقال الشمالي:

أبي ولاقومي لدي ولاصحي

وكم دون قومي من فياف ومن سهب!

بني جمح والحق يؤخذ بالغصب

أيفجر بي ببطن مكة ظالماً

وناديت قومي بارقاً لتجيبني

ويأبى لكم حلف الفضول ظلامتي

وأما قصة حلف الفضول وشرفه فقد ذكرها الزبير في كتابه أيضاً، قال: كان بنو سهم وبنو جمح أهل بغي وعدوان، فأكثروا من ذلك، فأجمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم على أن تحالفوا وتعاهدوا على رد الظلم بمكة، وألا يظلم أحد إلا منعه، وأخذوا له بحقه، وكان حلفهم في دار عبد الله بن جدعان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولودعيت به اليوم لأجبت، لا يزيدني إلا سلاماً إلا شدة".

قال الزبير: كان رجل من بني أسد قد قدم مكة معتمراً ببضاعة، فاشترها منه العاص بن وائل السهمي، فأواها إلى بيته، ثم

تغيب، فابتغى الأسدي متاعه فلم يقدر عليه، فجاء إلى بني سهم يستعديهم عليه، فأغلظوا له، فعرف أن لا سبيل له إلى ماله، وطرف في قبائل قريش يستنفر بهم، فتخاذلت القبائل عنه، فلما رأى ذلك أشرف على أبي قبيس حين أخذت قريش مجالسها نادى بأعلى صوته:

ببطن مكة نائي الأهل والنفر

يا للرجال لمظلوم بضاعته

يا آل فهر وبين الحجر والحجر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته

ماغيبوا أم حلال مال معتمر!

هل منصف من بني سهم فمرتجع

فأعظمت ذلك قريش، وتكلموا فيه، فقال المطيبون: والله إن قمنا في هذا ليغضبن الأحلاف، وقالت الأحلاف: والله إن قمنا في هذا ليغضبن المطيبون، فقالت قبائل من قريش: هلموا فلنحتلف حلفاً جديداً، لننصرن المظلوم على الظالم ما بل بحر صوفة. فاجتمعت هاشم والمطلب وأسد وتيم وزهرة في دار عبد الله بن جدعان ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم وهو شاب ابن خمس وعشرين سنة لم يوح إليه بعد، فتحالفوا ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه، ويردوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم، ثم عمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة، ثم بعثوا به إلى البيت، فغسلوا به أركانه ثم جمعوه وأتوهم به فشربوه، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل فقالوا له: أد إلى هذا حقه، فأدى إليه حقه، فمكثوا كذلك دهرًا لا يظلم أحد بمكة إلا أخذوا له حقه، فكان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يقول: لو أن رجلاً وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس، حتى أدخل في حلف الفضول.

قال الزبير: وحدثني محمد بن حسن، عن محمد بن طلحة، عن موسى بن محمد، عن أبيه، أن الحلف كان على ألا يدعوا بمكة كلها ولا في الأحابيش مظلوماً يدعوهم إلى نصرته إلا أنجدوه حتى يردوا عليه ماله ومظلمته، أو يبلوا في ذلك عذراً، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى التآسي في المعاش.

قال الزبير: ويقال: إنه إنما سمي حلف الفضول لأن رجلاً كانوا في وجوههم تحالفوا على رد المظالم، يقال لهم فضيل وفضل ومفضل، وسمي هذا الحلف حلف الفضول، لأنه أحياناً تلك السنة التي كانت ماتت.

قال الزبير: وقدم محمد بن جبير بن مطعم على عبد الملك بن مروان - وكان من علماء قريش - فقال له: يا أبا سعيد، ألم نكن - يعني بني عبد شمس - ، وأنتم في حلف الفضول، فقال: أمير المؤمنين أعلم، قال: لتخبرني بالحق، قال: لا والله يا أمير المؤمنين، لقد خرجنا نحن وأنتم منه، وما كانت يدنا ويدكم إلا جميعاً في الجاهلية والإسلام.

قال الزبير: وحدثني محمد بن حسن، عن إبراهيم بن محمد، عن يزيد بن عبد الله بن الهادي الليثي، أن محمد ابن الحارث أخبره، قال: كان بين الحسين بن علي رضي الله عنه وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كلام في مال كان بينهما بذي المروة، والوليد يومئذ أمير المدينة في أيام معاوية، فقال الحسين رضي الله عنه: أيسقط الوليد علي بسلطانه! أقسم بالله لينصفني من حقي أو لأخذن سيفي ثم أقوم في مسجد الله فأدعو بحلف الفضول! فبلغت كلمته عبد الله بن الزبير، فقال: أحلف بالله لئن دعا به لأخذن سيفي، ثم لأقومن معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً. فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل

الزهري، فقال مثل ذلك، فبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي، فقال مثل ذلك، فبلغ ذلك الوليد بن عتبة، فأَنصف الحسين رضي الله عنه من نفسه حتى رضي.

قال الزبير: وقد كان للحسين رضي الله عنه مع معاوية قصة مثل هذه، كان بينهما كلام في أرض للحسين رضي الله عنه ، فقال له الحسين رضي الله عنه : اختر مئتي ثلاث خصال، إما أن تشري مني حقي، وإما أن ترده علي، أو تجعل بيني وبينك ابن عمر أو ابن الزبير حكماً، وإلا فالرابعة، وهي إلى الصيلم. قال معاوية: وما هي، قال أهتف بحلف الفضول، ثم قام فخرج وهو مغضب، فمر بعبد الله بن الزبير فأخبره، فقال: والله لئن هتفت به وأنا مضطجع لأفعدن، أو قاعد لأقومن، أو قائم لأمشين، أو ماش لأسعين، ثم لتنفدن روحي مع روحك، أو لينصفنك. فبلغت معاوية، فقال: لا حاجة لنا بالصيلم، ثم أرسل إليه أن أبعث فانتقد مالك، فقد ابتعناه منك.

قال الزبير: وحدثني بهذه القصة علي بن صالح عن جدي عبد الله بن مصعب، عن أبيه، قال: خرج الحسين رضي الله عنه من عند معاوية وهو مغضب، فلقي عبد الله بن الزبير، فحدثه بما دار بينهما، وقال: لأخبرنه في خصال، فقال له ابن الزبير ما قال، ثم ذهب إلى معاوية، فقال: لقد لقيني الحسين فخيرك في ثلاث خصال، والرابعة الصيلم، قال معاوية: فلا حاجة لنا بالصيلم، أظنك لقيته غضباً! فهات الثلاث، قال: أن تجعلني أو ابن عمر بينك وبينه. قال: قد جعلتك بيني وبينه، أو جعلت ابن عمر أو جعلتكما جميعاً. قال أو تقر له بحقه ثم تسأله إياه. قال: قد أقررت له بحقه وأنا أسأله إياه، قال: أو تشريه منه، قال: قد اشتريته منه، فما الصيلم، قال: يهتف، بحلف الفضول، وأنا أول من يجبه. قال: فلا حاجة لنا في ذلك.

وبلغ الكلام عبد الله بن أبي بكر والمسور بن مخرمة، فقالا للحسين مثل ما قاله ابن الزبير.

فأما تفجر الماء من تحت أخفاف بعير عبد المطلب في الأرض الجرز فقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة، قال: لما أنبط عبد المطلب الماء في زمزم حسدته قريش، فقالت له: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر أمر خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم، قالوا له: فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم حكماً أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب في نفر من بني عبد مناف، وخرج من كل قبيلة من قبائل قريش قوم، والأرض إذ ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام نفذ ما كان مع عبد المطلب وبني أبيه من الماء فعطشوا عطشاً شديداً، فاستسقوا قومهم، فأبوا أن يسقوهم، وقالوا: نحن بمفازة ونخشى على أنفسنا مثل الذي أصابكم. فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وخاف على نفسه وأصحابه الهلاك، قال لأصحابه: ما ترون، قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فمرنا بما أحببت، قال فإني أرى أن يحفر كل رجل منا حفرة لنفسه بما معه الآن من القوة، فكلما مات رجل دفنه أصحابه في حفرة، حتى يكون رجل واحد، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب، قالوا: نعم ما أشرت! فقام كل رجل منهم فحفر حفرة لنفسه، وقعدوا ينتظرون الموت. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا كذا للموت، لا نضرب في الأرض فنطلب الماء لعجز، قوموا فعمسى، الله أن يرزقنا ماءً ببعض الأرض، ارتحلوا. فارتحلوا ومن معهم من

قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم صانعون، فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت به انفجر من تحت خفها عين من ماء عذب، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش فقال لهم: هلموا إلى الماء، فقد أسقانا الله، فاشربوا واستقوا، فجاؤوا فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد والله قضى الله لك علينا، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى صقائتك راشداً. فرجع ورجعوا معه، لم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم.

وروى صاحب كتاب الواقدي أن عبد الله بن جعفر فاخر يزيد بن معاوية بين يدي معاوية، فقال له: بأي آبائك تفاخري، أجرب الذي أجرناه، أم بأمية الذي ملكناه، أم بعبد شمس الذي كفلناه! فقال معاوية: لحرب بن أمية يقال هذا! ما كنت أحسب أن أحداً في عصر حرب يزعم أنه أشرف من حرب! فقال عبد الله: بلى أشرف منه من كفأ عليه إناءه وجلله بردائه! فقال معاوية ليزيد: رويداً يا بني، إن عبد الله يفخر عليك بك لأنك منه وهو منك. فاستحيا عبد الله وقال: يا أمير المؤمنين يدان انتشطتا وأخوان اضطرعا. فلما قام عبد الله، قال معاوية ليزيد: يا بني إياك ومنازعة بني هاشم فإنهم لا يجهلون ما علموا، ولا يجد مبغضهم لهم سباً. قال: أما قوله: أجرب الذي أجرناه، فإن قريشاً كانت إذا سافرت فصارت على العقبة لم يتجاوزها أحد حتى تجوز قريش، فخرج حرب ليلة فلما صار على العقبة لقيه رجل من بني حاجب بن زرارة تميمي فتنحج حرث بن أمية وقال: أنا حب بن أمية، فتنحج التميمي وقال: أنا ابن حاجب بن زرارة، ثم بدر فجاز العقبة، فقال حرب: لاها الله لا تدخل بعدها مكة وأنا حي! فمكث التميمي حيناً لا يدخل، وكان متجره بمكة، فاستشار بها بمن يستجير من حرب، فاشير عليه بعبد المطلب أو بإبنه الزبير بن عبد المطلب. فركب ناقته وصار إلى مكة ليلاً، فدخلها وأناخ ناقته بباب الزبير بن عبد المطلب، فرغت الناقة، فخرج إليه الزبير فقال: أمستجير فتجار، أم طالب قرى فتقرى! فقال:

والليل أبلج نوره للساوي

ودعا بدعوة معلن وشعار

وكذاك كنت أكون في الأسفار

ألا أحل بها بدار قرار

وأتييت قرم مكارم وفخار

رحب المباءة مكرماً للجار

وبزمزم والحجر والأستار

صافي الحديد صارم بتار

لاقيت حرباً بالثنية مقبلاً

فعلا بصوت واكتنى ليروعني

فتركته خلفي وجزت إمامه

فمضى يهددني ويمنع مكة

فتركته كالكلب ينبج وحده

ليثاً هزيراً يستجار بقربه

وحلفت بالبيت العتيق وحجه

إن الزبير لمانعي بمهند

فقال الزبير: اذهب إلى المنزل فقد أجرتك. فلما أصبح نادى الزبير أخاه الغيدق، فخرجا متقلدين سيفيهما، وخرج التميمي معهما، فقالا له: إنا إذا أجرنا رجلاً لم نمش أمامه، فامش أمامنا ترمقك أبصارنا كي لا تحتلس من خلفنا. فجعل

التميمي يشق مكة حتى دخل المسجد، فلما بصر به حرب قال: وإنك لهنها! وسبق إليه فلطمه، وصاح الزبير: ثكلتك أمك! أتلطمه وقد أجرته! فثنى عليه حرب فلطمه ثانية، فانتفى الزبير سيفه، فحمل على حرب، ففر حرب بين يديه وسعى الزبير خلفه فلم يرجع عنه حتى هجم حرب على عبد المطلب داره، فقال: ما شأنك، قال: الزبير، قال: اجلس، وكفأ عليه إناء كان هاشم يهشم فيه الشريد، واجتمع الناس، وانضم بنو عبد المطلب إلى الزبير، ووقفوا على باب أبيهم بأيديهم سيوفهم، فازر عبد المطلب حرباً بإزار كان له، ورداه برداء له طرفان، وأخرجه إليهم، فعلموا أن أباهم قد أجاره.

وأما معنى قوله: أم بأمية الذي ملكناه!، فإن عبد المطلب راهن أمية بن عبد شمس على فرسين، وجعل الخطر ممن سبقت فرسه مائة من الأبل وعشرة أعبد وعشر إماء واستعباد سنة، وجز الناصية، فسبق فرس عبد المطلب فأخذ الخطر فقسمه في قريش، وأراد جز ناصيته، فقال: أو أفتدي منك باستعباد عشر سنين! ففعل، فكان أمية بعد في حشم عبد المطلب وعضاريطة عشر سنين.

وأما قوله: أم بعبد شمس الذي كفلناه! فإن عبد شمس كان مملقاً لا مال له، فكان أخوه هاشم يكفله ويمونه إلى أن مات هاشم.

وفي كتاب الأغاني، لأبي الفرج أن معاوية قال. لدغفل النسابة: أرايت عبد المطلب، قال: نعم، قال: كيف رأيت، قال: رأيت رجلاً نبيلاً جميلاً وضيئاً، كأن على وجهه نور النبوة. قال: أفرأيت أمية بن عبد شمس، قال: نعم، قال: كيف رأيت، قال: رأيت رجلاً ضئيلاً منحنيلاً أعمى يقوده عبده ذكوان، فقال معاوية: ذلك ابنه أبو عمرو، قال: أنتم تقولون ذلك، فأما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده. ونقلت من كتاب هاشم وعبد شمس لابن أبي ربيعة الدباس.

قال: روى هشام بن الكلبي عن أبيه، أن نوفل بن عبد مناف ظلم عبد المطلب بن هاشم أركاحاً إلى بمكة - وهي الساحات - وكان بنو نوفل يداً مع عبد شمس، وعبد المطلب يداً مع هاشم، فاستنصر عبد المطلب قوماً من قومه فقصرُوا عن ذلك، فاستنجد أخواله من بني النجار ببشر، فأقبل معه سبعون راكباً، فقالوا لنوفل: لا والله يا أبا عدي، ما رأينا بهذا الغائط ناشئاً أحسن وجهاً، ولا أمد جسماً، ولا أعف نفساً، ولا أبعد من كلى سوء من هذا الفتي - يعنون عبد المطلب - وقد عرفت قرابته منا، وقد منعتة ساحات له، ونحن نحب أن ترد عليه حقه، فرده عليه، فقال عبد المطلب:

وذبيان بن تيم اللات ضيمي

تأبى مازن وبنو عدي

ونكب بعد نوفل عن حريمي

وزادت مالك حتى تناهت

قال: ويقال إن ذلك كان سبب مخالفة خزاعة عبد المطلب.

قال: وروى أبو اليقظان سحيم بن حفص، أن عبد المطلب جمع بنيه عند وفاته - وهم عشرة يومئذ - فأمرهم ونهاهم وأوصاهم وقال: إياكم والبغي، فوالله ما خلق الله شيئاً أعجل عقوبة من البغي، وما رأيت أحداً بقي على البغي إلا

إخوتكم من بني عبد شمس.

وروى الوليد بن هشام بن قحذم، قال: قال عثمان يوماً: وددت أني رأيت رجلاً قد أدرك الملوك يحدثني عما مضى، فذكر له رجل بحضرموت، فبعث إليه فحدثه حديثاً طويلاً - تركنا ذكره - إلى أن قال: رأيت عبد المطلب بن هاشم، قال: نعم، رأيت رجلاً قعداً أبيض طويلاً مقرون الحاجبين، بين عينيه غرة يقال إن فيها بركة، وإن فيه بركة، قال أفرأيت أمية بن عبد شمس، قال: نعم، رأيت رجلاً آدم دميماً قصيراً أعمى يقال: إنه نكد، وإن فيه نكداً، فقال عثمان: يكفيك من شر سماعه وأمر بإخراج الرجل.

وروى هشام بن الكلبي أن أمية بن عبد شمس لما كان غلاماً، كان يسرق الحاج فسمي حارساً. وروى ابن أبي ربيعة في هذا الكتاب أن أول قتيل قتله بنو هاشم من بني عبد شمس عفيف بن أبي العاص بن أمية، قتله حمزة بن عبد المطلب، ولم أقف على هذا الخبر إلا من كتاب ابن أبي ربيعة. قال: ومما يصدق قول من روى أن أمية بن عبد شمس استعبده عبد المطلب شعر أبي طالب بن عبد المطلب حين تظاهرت عبد شمس ونوفل عليه وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصروهما في الشعب، فقال أبو طالب:

توالى علين أموليانا كلاهما	إذا سئلا قالوا إلى غيرنا الأمر
بلى لهما أمر ولكن تراجماً	كما أرتجمت من رأس ذي القلع الصخر
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلاً	هما نبذانا مثل ماتنذب الخمر
هما أغمضا للقوم في أخويهما	فقد أصبحت أيديهما وهما صفر
قديماً أبوهم كان عبداً لجدنا	بني أمة شهلاء جاش بها البحر
لقد سفهوا أحلامهم في محمد	فكانوا كجعر بنس ماضفت جعر

ثم نرجع إلى حكاية لشيخنا أبي عثمان، وقد نمزجه بكلام آخر لنا أو لغيرنا ممن تعاطى الموازنة بين هذين البيتين.

قال أبو عثمان: فإن قالت أمية: لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، أربعة خلفاء في نسق، قلنا لهم: ولبني هاشم: هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علي السجاد، كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة، فكان يقال له السجاد لعبادته وفضله، وكان أجمل قريش على وجه الأرض وأوسمها، ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسمي باسمه، وكني بكنيته، فقال عبد الملك: لا والله لا أحتمل لك الأسم ولا الكنية، فغير أحدهما، فغير الكنية فصيرها أبا محمد بن عبد الله، وهو البحر، وهو حير قريش، وهو المفقه في الدين المعلم التأويل، ابن العباس ذي الرأي، وحليم قريش، ابن شيبه الحمد، وهو عبد المطلب سيد الوادي ابن عمرو، وهو هاشم، هشام الزيد، وهو القمر سمي بذلك لجماله، ولأنهم كانوا يقتدون ويهتدون برأيه، ابن المغيرة وهو عبد مناف بن زيد، وهو قصي وهو مجمع، فهؤلاء ثلاثة عشر سيداً لم يحرم منهم واحد، ولا قصر عن الغاية، وليس منهم واحد إلا وهو ملقب بلقب اشتق له من فعله الكريم،

ومن خلقه الجميل، وليس منهم إلا خليفة، أو موضع للخلافة أو سيد في قديم الدهر منيع، أو ناسك مقدم، أو فقيه بارع، أو حلیم ظاهر الركانة، وليس هذا لأحد سواهم، ومنهم خمسة خلفاء في نسق، وهم أكثر مما عدته الأموية، ولم يكن مروان كالمصور لأن المنصور ملك البلاد ودوخ الأقطار، وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنة، وكانت خلافة مروان على خلاف ذلك كله، وإنما بقي في الخلافة تسعة أشهر حتى قتله امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية حين قال لابنها خالد من بعلمها الأول: يا بن الرطبة . ولئن كان مروان مستوجباً لاسم الخلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلاً عن الأطراف، فابن الزبير أولى بذلك منه، فقد كان ملك الأرض إلا بعض الأردن، ولكن سلطان عبد الملك وأولاده لما اتصل بسلطان مروان اتصل عند القوم ما انقطع منه وأخفى موضع الوهن عند من لا علم له، وسنو المهدي كانت سني سلامة، وما زال عبد الملك في انتقاض وانتكاث، ولم يكن ملك يزيد كملك هارون، ولا ملك الوليد كملك المعتصم.

قلت: رحم الله أبا عثمان! لو كان اليوم لعد من خلفاء بني هاشم تسعة في نسق: المستعصم بن المستنصر بن الطاهر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدر. والطالبيون بمصر يعدون عشرة في نسق: الأمر بن المستعلي بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعتز بن المنصور بن القائم بن المهدي.

قال أبو عثمان: وتفخر عليهم بنو هاشم بأن سني ملكهم أكثر، ومدته أطول، فإنه قد بلغت مدة ملكهم إلى اليوم أربعاً وتسعين سنة ويفخرون أيضاً عليهم بأنهم ملكوا بالميراث وبحق العصبة والعمومة، وأن ملكهم في مغرس نبوة، وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان، بل ليس لبني مروان فيها سبب، ولا بينهم وبينها نسب، إلا أن يقولوا: إنا من قریش فيساؤوا في هذا الأسم قریش الظواهر، لأن رواية الراوي: الأئمة من قریش واقعة على كل قرشي، وأسباب الخلافة معروفة، وما يدعيه كل جيل معلوم، وإلى كل ذلك قد ذهب الناس، فمنهم من ادعاه لعلبي رضي الله عنه لاجتماع القرابة والسابقة والوصية، فإن كان الأمر كذلك فليس لآل أبي سفيان وآل مروان فيها دعوى، وإن كانت إنما تنال بالوراثه، وتستحق بالعمومة، وتستوجب بحق العصبة، فليس لهم أيضاً فيها دعوى. وإن كانت لا تنال إلا بالسوابق والأعمال والجهاد، فليس لهم في ذلك قدم مذكور، ولا يوم مشهور، بل كانوا إذ لم تكن لهم سابقة، ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة، ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشد المنع، لكان أهون، ولكان الأمر عليهم أيسر، قد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وفي محاربتة له، وجلا به عليه وغزوه إياه، وعرفنا إسلامه حيث أسلم، وإخلاصه كيف أخلص، ومعنى كلمته يوم الفتح حين رأى الجنود وكلامه يوم حنين، وقوله يوم صعد بلال على الكعبة، فأذن. على أنه إنما أسلم على يدي العباس رحمه الله، والعباس هو الذي منع الناس من قتله، وجاء به رديفاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه وينوه به، وتلك يد بيضاء، ونعمة غراء، ومقام مشهود، ويوم حنين غير مجحود، فكان جزاء بني هاشم من بنيه أن حاربوا علياً، وسموا الحسن، وقتلوا الحسين، وحملوا النساء على الأقتاب حواسر، وكشفوا عن عورة علي بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يصنع بذراري المشركين إذا دخلت دورهم عنوة، وبعث معاوية

بسر بن أرطاة إلى اليمن، فقتل ابني عبيد الله بن العباس، وهما غلامان لم يبلغا الحلم، وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطف تسعة من صلب علي رضي الله عنه ، وسبعة من صلب عقيل، ولذلك قال ناعبيهم:

وأنديني إن ندبت آل الرسول

عين جودي بعبرة وعويل

قد أصيبوا وسبعة لعقيل

تسعة كلهم لصلب علي

ثم إن أمية تزعم أن عقيلاً أعان معاوية على علي رضي الله عنه ، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب! وإن كانوا صادقين فما جازوا عقيلاً بما صنع! وضرب عنق مسلم بن عقيل صبراً وغدراً بعد الأمان، وقتلوا معه هانيء بن عروة لأنه آواه ونصره، ولذلك قال الشاعر:

إلى هانيء في السوق وابن عقيل

فإن كنت لاتدرين ما الموت فانظري

وآخر يهوي من طمار قتيل

تري بطلاً قد هشم السيف وجهه

وأكلت هند كبدة حمزة، فمنهم آكلة الأكباد، ومنهم كهف النفاق، ومنهم من نقر بين ثنيتي الحسين رضي الله عنه بالقضيب، ومنهم القاتل يوم الحرة عون بن عبد الله بن جعفر، ويوم الطف أبا بكر بن عبد الله بن جعفر. وقتل يوم الحرة أيضاً من بني هاشم الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

قلت: إن أبا عثمان قايس بين مدتي ملكهما وهو حينئذ في أيام الوراق، ففضل هؤلاء عليهم، لأن ملكهم أطول من ملكهم بعشر سنين، فكيف به لو كان اليوم حياً، وقد امتد ملكهم خمسمائة وست عشرة سنة! وهذا أكثر من ملك البيت الثالث من ملوك الفرس بنحو ثلاثين سنة. وأيضاً فإن كان الفخر بطول مدة الملك فبنو هاشم قد كان لهم أيضاً ملك بمصر نحو مائتين وسبعين سنة، مع ما ملكوه بالمغرب قبل أن ينتقلوا إلى مصر.

قال أبو عثمان: وقالت هاشم لأمية: قد علم الناس ما صنعتم بنا من القتل والتشريد، لا لذنب أتيناها إليكم، ضربتم علي بن عبد الله بن عباس بالسياط مرتين، على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك، وعلى أن نلتموه قتل سليط، وسمتم أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ونبشتم زيدا وصلبتموه، ألقيتم رأسه في عرصة الدار توطأ بالأقدام، وينقر دماغه الدجاج، حتى قال القائل:

طالما كان لا تطاه الدجاج

اطرد الديك عن ذؤابة زيد

وقال شاعرهم أيضاً:

ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة

وعثمان خير من علي وأطيب

وقستم بعثمان علياً سفاهة

فروي أن بعض الصالحين من أهل البيت رضي الله عنهم قال: اللهم إن كان كاذباً فسلط عليه كلباً من كلابك، فخرج يوماً بسفر له، فعرض له الأسد فافترسه. وقتلتم الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، وقتلتم يحيى بن زيد، وسميت قاتله:

ثائر مروان، وناصر الدين، هذا إلى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم بعبد الله أبي جعفر المنصور قبل الخلافة، وما صنع مروان بإبراهيم الإمام، أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات، فإن أنشدتم:

وأفاد المدام قتلى كدى

وأفاد المدام قتلى كدى

وأفاد المدام قتلى كدى

وأفاد المدام قتلى كدى

أنشدنا نحن:

وأفاد المدام قتلى كدى

وأفاد المدام قتلى كدى

وأفاد المدام قتلى كدى

وأفاد المدام قتلى كدى

وقد علمتم حال مروان أيكم وضعفه، وأنه كان رجلاً لا فقه له، ولا يعرف بالزهد ولا الصلاح، ولا برواية الآثار، ولا بصحبة ولا يبعد همة، وإنما ولي رستاقاً من رساتيق دار بجرد لابن عامر، ثم ولي البحرين لمعاوية، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليبيع ابن الزبير حتى رده عبيد الله بن زياد، وقال يوم مرج راهط، والرؤوس تندر عن كواهلها في طاعته:

س وأي غلامي قریش غلب

س وأي غلامي قریش غلب

هذا قول من لا يستحق أن يلي ربعا من الأرباع، ولا خمسا من الأخماس، وهو أحد من قتلته النساء لكلمة كان حتفه فيها.

وأما أبوه الحكم بن العاص فهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه والمتخلج في مشيته، الحاكي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمستمع عليه ساعة خلوته، ثم صار طريداً لأب بكر وعمر، امتنعا عن إعادته إلى المدينة، ولم يقبلا شفاعته عثمان، فلما ولي أدخله، فكان أعظم الناس شؤماً عليه، ومن أكبر الحجاج في قتله وخلعه من الخلافة، فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرق الناس في الكفر لأن أحد أبويه الحكم هذا، والآخر من قبل أمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، كان النبي صلى الله عليه وسلم طرده من المدينة، وأجله ثلاثاً، فحيره الله تعالى حين خرج، وبقي متردداً متلداً حولها لا يهتدي لسبيله، حتى أرسل في أثره علياً رضي الله عنه وعماراً، فقتلاه، فأنتم أعرق الناس في الكفر، ونحن أعرق الناس في الإيمان، ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان، وأقدمهم فيه.

قال أبو عثمان: ويفخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاماً لا طواعين فيها إلا منذ ملكوا، قالوا: لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء بعمال الخراج بالتعليق والزهق والتجريد والتسهير والمسالد والنورة والجورتين والعذراء والجامعة والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيراً كثيراً، وفي الطاعون يقول العماني الراجز يذكر دولتنا:

وأذهب التعذيب والتجني

وأذهب التعذيب والتجني

وأذهب التعذيب والتجني

وأذهب التعذيب والتجني

وأذهب التعذيب والتجني

وأذهب التعذيب والتجني

والعرب تسمى الطواعين رماح الجن، وفي ذلك يقول الشاعر:

وأذهب التعذيب والتجني

وأذهب التعذيب والتجني

يقول بعض بني أسد للحارث الغساني الملك.

قال أبو عثمان: وتفاخر هاشم عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبة، ولم يحولوا القبلة، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة، ولم يخدموا في أعناق الصحابة، ولم يغيروا أوقات الصلاة، ولم ينقشوا أكف المسلمين، ولم يأكلوا الطعام ويشربوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينهبوا الحرم، ولم يطمئوا المسلمات في دار الإسلام بالسبأ.

قلت: نقلت من كتاب افتراق هاشم وعبد شمس لأبي الحسين محمد بن علي بن نصر المعروف بابن أبي رؤية الدباس قال: كان بنو أمية في ملكهم يؤذنون ويقيمون في العيد ويخطبون بعد الصلاة، وكانوا في سائر صلاتهم لا يجهرون بالتكبير في الركوع والسجود، وكان هشام بن عبد الملك خصي إذا سجد هشام وهو يصلي في المقصورة قال: لا إله إلا الله، فيسمع الناس فيسجدون، وكانوا يقعدون في إحدى خطبتي العيد والجمعة ويقومون في الأخرى، قال: ورأى كعب مروان بن الحكم يخطب قاعداً، فقال: انظروا إلى هذا يخطب قاعداً، والله تعالى يقول لرسوله: "وتركوك قائماً".

قال: وأول من قعد في الخطب معاوية، وأول من أذن وأقام في صلاة العيد بشر بن مروان، وكان عمال بني أمية يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمة، ويقولون: هؤلاء فروا من الجزية، ويأخذون الصدقة من الخيل، وربما دخلوا دار الرجل قد نفق فرسه أو باعه، فإذا أبصروا الأخية، قالوا: قد كان ههنا فرس، فهات صدقتها، وكانوا يؤخرون صلاة الجمعة تشاغلاً عنها بالخطبة، ويطيّلون فيها، إلى أن تتجاوز وقت العصر، وتكاد الشمس تصفر، فعل ذلك الوليد بن عبد الملك ويزيد أخوه والحجاج عاملهم، ووكل بهم الحجاج المسالخ معه والسيوف على رؤوسهم، فلا يستطيعون أن يصلوا الجمعة في وقتها.

وقال الحسن البصري: واعجباً من أخيفش أعيمش! جاءنا ففتننا عن ديننا، وصعد على منبرنا، فيخطب والناس يلتفتون إلى الشمس فيقول: ما بالكم تلتفتون إلى الشمس! إنا والله ما نصلي للشمس!، إنما نصلي لرب الشمس! أفلا تقولون: يا عدو الله، إن الله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل، ثم يقول الحسن: وكيف يقولون ذلك وعلى رأس كل واحد منهم علق قائم بالسيف! قال: وكانوا يسيبون ذراري الخوارج من العرب وغيرهم، لما قتل قريب وزحاف الخارجيان، سبي زياد ذراريهما، فأعطى شقيق بن ثور السدوسي إحدى بناتهما، وأعطى عباد بن حصين الأخرى. وسميت بنت لعبيدة بن هلال اليشكري، وبنت لقطري بن الفجاءة المازني، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك، واسمها أم سلمة، فوطئها بملك اليمين على رأيهم، فولدت له المؤمل، ومحمداً، وإبراهيم، وأحمد، وحصيناً، بني عباس بن الوليد بن عبد الملك. وسي واصل بن عمرو القنا واسترق، وسي سعيد الصغير الحروري واسترق، وأم يزيد بن عمر بن هبيرة، وكانت من سبي عمان الذين سباهم مجاعة، وكانت بنو أمية تتبع الرجل في الدين يلزمه وترى أنه يصير بذلك رقيقاً.

كان معن أبو عمير بن معن الكاتب حراً مولى لبني العنبر، فبيع في دين عليه، فاشتراه أبو سعيد بن زياد بن عمرو العتكي، وباع الحجاج علي بن بشير بن الماحوز لكونه قتل رسول المهلب على رجل من الأزد.

فأما الكعبة فإن الحجاج في أيام عبد الملك هدمها، وكان الوليد بن يزيد يصلي إذا صلى أوقات إفاقته من السكر إلى غير

القبلة، فقيل له، فقراً: "فأينما تولوا فثم وجه الله".

وخطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فقال: تباً لهم! إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية! هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك! ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله! قال: وكانت بنو أمية تحتّم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل علامة لاستعبادهم.

وباع مسلم بن عقبة أهل المدينة كافة، وفيها بقايا الصحابة وأولادها وصلحاء التابعين على أن كلاً منهم عبد قن لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، إلا علي بن الحسين رضي الله عنه، فإنه بايعه على أنه أخوه وابن عمه. قال: ونقشوا أكف المسلمين علامة لاسترقاقهم، كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة. وكانت خطباء بني أمية تأكل وتشرب على المنبر يوم الجمعة لإطالتهم في الخطبة، وكان المسلمون تحت منبر الخطبة يأكلون ويشربون.

قال أبو عثمان: ويفخر بنو العباس على بني مروان، وهاشم على عبد شمس، بأن الملك كان في أيديهم فانتزعوه منهم، وغلبوهم عليه بالبطش الشديد، وبالحيلة اللطيفة، ثم لم يترعوها إلا من يد أشجعهم شجاعة، وأشدّهم تدبيراً، وأبعدهم غوراً، ومن نشأ في الحروب وربي في الثغور، ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود، ثم أعطى الوفاء من أصحابه والصبر من قواده، فلم يغدر منهم غادر، ولا قصر منهم مقصر، كما قد بلغك عن حنظلة بن نباتة، وعامر بن ضبارة، ويزيد بن عمر بن هبيرة، ولا أحد من سائر قواده حتى من أحبّابه وكتابه كعبد الحميد الكاتب، ثم لم يلقه، ولا لقي تلك الحروب في عامة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علي، وصالح بن علي، وداد بن علي، وعبد الصمد بن علي، وقد لقيهم المنصور نفسه.

قال: وتفخر هاشم أيضاً عليهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق: "نقلت من الأصحاب الزكية، إلى الأرحام الطاهرة، وما افترقت فرقتان إلا كنت في خيرهما". وقال أيضاً: "بعثت من خيرة قريش".

ومعلوم أن بني عبد مناف افترقوا فكانت هاشم والمطلب يداً، وعبد شمس ونوفل يداً. قال: وإن كان الفخر بكثرة العدد فإنه من أعظم مفاخر العرب، فولد علي بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس، وكذلك ولد الحسين بن علي رضي الله عنه، هذا مع قرب ميلادهما، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "شهداء ولود خير من حسناء عقيم". وقال: "أنا مكاثر بكم الأمم".

وقد روى الشعبي عن جابر بن عبد الله، أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم من سفر، فأراد الرجال أن يطرقوا النساء ليلاً، فقال: "أمهلوا حتى تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة، فإذا قدمتم فالكيس الكيس". قالوا: ذهب إلى طلب الولد، وكانت العرب تفخر بكثرة الولد، وتمدح الفحل القبيس، وتذم العاقر والعقيم. وقال عامر بن الطفيل يعني نفسه:

جباناً فما عذري لدى كل محضر !

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً

وقال علقمة بن علاثة يفخر على عامر: آمنت وكفر، ووفيت وغدر، وولدت وعقر، وقال الزبرقان:

فاسأل بني! سعدوغيرهم
أي امرئ أنا حين يحضرني
وإذا هلكت تركت وسطهم
يوم الفخار فعندهم خبري
رغد العطاء وطالب النصر
ولدى الكرام ونابه الذكر

وقال طرفة بن العبد:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد
فأصبحت ذا مال كثير وعادني
ومدح النابغة الذبياني ناساً فقال:

لم يحرموا طيب النساء وأهم
وقال نمشل بن حري:

على بني يشد الله عظمهم
ومكث الفرزدق زماناً لا يولد له فغيرته امرأته، فقال:

قالت أراه واحداً لا أخا له
لعلك يوماً أن تريني كأنما
فإن تميماً قبل أن يلد الحصا
يؤمله في الوارثين الأباعد
بني حوالي الليوث الحوارد
قام زماناً وهو في الناس واحد

وقال الآخر، وقد مات إخوته، وملاً حوضه ليسقي، فجاء رجل صاحب عشيرة وعترة، فأخذ بضبعه فنحاه، ثم قال لراعيه: اسق إبلك:

لو كان حوض حمار ما شربت به
لكنه حوض من أودى بإخوته
لو كان يشكى إلى الأموات ما لقي ال
ثم أشتكيت لأشكاني وأنجدي
إلا بإذن حمار آخر الأبد
ريب المنون فأمسى بيضة البلد
أحياء بعدهم من قلة العدد
قبر بسنجار أوقبر على فحد

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة:

ولست بالأكثر منهم حصى
وإنما العزة للكائر

قال: وقد ولد رجال من العرب كل منهم ولد لصلبه أكثر من مائة، فصاروا بذلك مفخراً، منهم عبد الله بن عمير الليثي، وأنس بن مالك الأنصاري، وخليفة بن بر السعدي، أتى على عامتهم الموت الجارف. ومات جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة كلهم لصلبه، فما ظنك بمن مات من ولده في حياته! وليس طبقة من طبقات الأسنان الموت إليها أسرع، وفيها أعم وأفشى من سن الطفولية، وأمر جعفر بن سليمان قد عاينه

عالم من الناس، وعامتهم أحياء، وليس خبر جعفر كخبر غيره من الناس.

قال الهيثم بن عدي: أفضى الملك إلى ولد العباس، وجميع ولد العباس يومئذ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلاً، ومات جعفر بن سليمان وحده عن مثل ذلك العدد من الرجال. ومن قرب ميلاده وكثر نسله حتى صار كبعض القبائل والعمائر أبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمهلب بن أبي صفرة، ومسلم بن عمرو الباهلي، وزيد بن عبيد أمير العراق، ومالك بن مسمع. وولد جعفر بن سليمان اليوم أكثر عدداً من أهل هذه القبائل. وأربعة من قريش ترك كل واحد منهم عشرة بنين مذكورين معروفين وهم: عبد المطلب بن هاشم، والمطلب بن عبد مناف، وأمّية بن عبد شمس، والمغيرة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن نخروم، وليس على ظهر الأرض هاشمي إلا من ولد عبد المطلب، ولا يشك أحد أن عدد الهاشميين شبيه بعدد الجميع، فهذا ما في الكثرة والقلة.

قلت: رحم الله أبا عثمان! لو كان حياً اليوم لرأى ولد الحسن والحسين - رضي الله عنهما - أكثر من جميع العرب الذين كانوا في الجاهلية على عصر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين منهم والكافرين، لأنهم لو أحصوا لما نقص ديوانهم عن مائتي ألف إنسان.

قال أبو عثمان: إن كان الفخر بنبل الرأي، وصواب القول، فمن مثل عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس! وإن كان في الحكم والسؤدد وأصالة الرأي والغناء العظيم فمن مثل عبد المطلب! وإن كان إلى الفقه والعلم بالتأويل ومعرفة التأويل وإلى القياس السديد وإلى الألسنة الحداد والخطب الطوال، فمن مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعبد الله بن عباس! قالوا: خطبنا عبد الله بن عباس خطبة بمكة أيام حصار عثمان لو شهدها الترك والديلم لأسلموا. وفي عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت:

بملتقطات لا ترى بينها فضلاً

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل

لذي إربة في القول جداً ولا هزلاً

شفى وكفى ما في النفوس فلم يدع

وهو البحر، وهو الخبر، وكان عمر يقول له في حديثه عند إجماله الرأي: غص يا غواص، وكان يقامه على حلة السلف. قلت: أبي أبو عثمان إلا إعراضاً عن علي رضي الله عنه، هلا قال فيه كما قال في عبد الله! فلعمري لو أراد لوجد مجالاً، ولألفى قولاً وسيعاً، وهل تعلم الناس الخطب والعهود والفصاحة إلا من كلام علي رضي الله عنه! وهل أخذ عبد الله رحمه الله الفقه وتفسير القرآن إلا عنه! فرحم الله أبا عثمان، لقد غلبت البصرة وطينتها على إصابة رأيه! قال أبو عثمان: وإن كان الفخر في البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان، فمن كحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب! وكان الأحنف إذا ذكر حمزة قال: أكيس، وكان لا يرضى أن يقول: شجاع، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع طبقات، فتقول: شجاع، فإذا كان فوق ذلك قالت: بطل، فإذا كان فوق ذلك قالت: بهمة، فإذا كان فوق ذلك قالت: أكيس. وقال العجاج: أكيس عن حوالبه سخي وهل أكثر ما يعد الناس من جرحاهما وصرعاهما إلا سادتكم وأعلامكم! قتل حمزة وعلي رضي الله عنه عتبة والوليد، وقتلا شيبه أيضاً، شركا عبيدة بن الحارث فيه، وقتل علي رضي الله عنه حنظلة بن أبي سفيان. فأما آباء ملوككم من بني مروان فإنهم كما قال عبد الله بن الزبير لما أتاه خبر المصعب: إنا والله ما

نموت حبجاً كما يموت آل أبي العاص، والله ما قتل منهم قتيل في جاهلية ولا إسلام، وما نموت إلا قتلاً، قعصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف.

قال أبو عثمان: كأنه لم يعد قتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص قتلاً، إذ كان إنما قتل في غير معركة، وكذلك قتل عثمان بن عفان، إذ كان إنما قتل محاصراً، ولا قتل مروان بن الحكم، لأنه قتل خنقاً، خنقته النساء. قال: وإنما فخر عبد الله بن الزبير بما في بني أسد بن عبد العزى من القتلى، لأن من شأن العرب أن يفخروا بذلك، كيف كانوا قاتلين أو مقتولين، ألا ترى أنك لا تصيب كثرة القتلى إلا في القوم المعروفين بالبأس والنجدة وبكثرة اللقاء والمحاربة، كآل أبي طالب، وآل الزبير، وآل المهلب! قال: وفي آل الزبير خاصة سبعة مقتولون في نسق ولم يوجد ذلك في غيرهم، قتل عمارة وحمزة أبناء عبد الله بن الزبير يوم قديد في المعركة، قتلتهما الأباضية، وقتل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج، وقتل مصعب بن الزبير بدير الجاثليق في المعركة أكرم قتل، وبإزائه عبد الملك بن مروان، وقتل الزبير بوادي السباع منصرفه عن وقعة الجمل، وقتل العوام بن خويلد في حرب الفجار، وقتل خويلد بن أسد بن عبد العزى في حرب خزاعة، فهؤلاء سبعة في نسق. قال: وفي بني أسد بن عبد العزى قتلى كثيرون غير هؤلاء، قتل المنذر بن الزبير بمكة، قتله أهل الشام في حرب الحجاج، وهو على بغل ورد كان نفر به فأصعد به في الجبل. وإياه يعني يزيد بن مفرغ الحميري وهو يهجو صاحبكم عبيد الله بن زياد ويعيره بفراره يوم البصرة:

أولى بكل حفيظة ودفاع

لابن الزبير كداة تدمر منذراً

قتل عمرو بن الزبير، قتله أخوه عبد الله بن الزبير، وكان في حوار أخيه عبيدة بن الزبير فلم يغن عنه، فقال الشاعر يحرض عبيدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير، ويعيره بإخفاره حوار عمرو أخيهما:

بعد الهدو برنة أسماء

أعبيد لو كان المجير لولولت

تحت الضفيح تتوبه الأصداء

أعبيد إنك قد أجرت وجاركم

فيها أداء أمانة ووفاء

اضرب بسيفك ضربة مذكورة

وقتل بجير بن العوام أخو الزبير بن العوام، قتله سعد بن صفح الدوسي جد أبي هريرة من قبل أمه، قتله بناحية اليمامة، وقتل معه أصرم وبعلك أخويه ابني العوام بن خويلد، وقد قتل منهم في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم قوم مشهورون، منهم زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، كان شريفاً، قتل يوم بدر، وأبوه الأسود، كان المثل يضرب بعزته بمكة، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر عاقر الناقة: "كان عزيزاً منيعاً كأبي زمعة"، ويكنى زمعة بن الأسود أبا حكيمة، وقتل الحارث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً، وقتل عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن الأسود بن المطلب بن أسد يوم بدر أيضاً، وقتل نوفل بن خويلد يوم بدر أيضاً، قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتل يوم الحرة يزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبراً قال له: بايع لأمر المؤمنين يزيد بن معاوية على أنك عبد قن له، قال: بل أباعه على أبي أخوه وابن عمه، فضرب عنقه. وقتل إسماعيل بن هبار بن الأسود

ليلاً، وكان ادعى حيلة فخرج مصرخاً لمن استصرخه، فقتل، فاتهم به مصعب بن عبد الله بن عبد الرحمن، فأحلفه معاوية خمسين يمينا، وخلي سبيله، فقال الشاعر:

ولا أجيب بليل داعياً أبداً
أخشى الغرور كما غر ابن هبار
باتوا يجرونه في الحش منعراً
بنس الهدية لابن العم والجار

وقتل عبد الرحمن بن العوام بن خويلد في خلافة عمر بن الخطاب في بعض المغازي، وقتل ابنه عبد الرحمن يوم الدار مع عثمان، فعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام بن خويلد قتيل ابن قتيل ابن قتيل أربعة. ومن قتلهم عيسى بن مصعب بن الزبير، قتل بين يدي أبيه بمسكن في حرب عبد الملك، وكان مصعب يكنى أبا عيسى وأبا عبد الله وفيه يقول الشاعر:

لتبك أبا عيسى، وعيسى كلاهما
موالي قریش كهلهما وصميمها

ومنهم مصعب بن عكاشة بن مصعب بن الزبير، قتل يوم قديد في حرب الخوارج، وقد ذكره الشاعر فقال:

قمن فاندبن رجالاً قتلوا
بقديد ولنقصان العدد
ثم لاتعدلن فيه امصعباً
حين يبكي من قتيل بأحد
إنه قد كان فيها بأسلاً
صارماً يقدم إقدام الأسد

ومنهم خالد بن عثمان بن خالد بن الزبير، خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن، فقتله أبو جعفر وصلبه. ومنهم عتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير، قتل بقديد أيضاً، وسمي عتيقاً باسم جده أبي بكر الصديق. قلت: هذا أيضاً من تحامل أبي عثمان، هلا ذكر قتلى الطف وهم عشرون سيدياً من بيت واحد قتلوا في ساعة واحدة! وهذا ما لم يقع مثله في الدنيا لا في العرب ولا في العجم. ولما قتل حذيفة بن بدر يوم الهبأة وقتل معه ثلاثة أو أربعة من أهل بيته ضربت العرب بذلك الأمثال واستعظموه، فجاء يوم الطف، جرى الوادي فطم على القرى. وهلا عدد القتلى من آل أبي طالب فإنهم إذا عدوا إلى أيام أبي عثمان كانوا عدداً كثيراً أضعاف ما ذكره من قتلى الأسديين! قال أبو عثمان: وإن كان الفخر والفضل في الجود والسماح فمن مثل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب! ومن مثل عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب! وقد اعترضت الأموية هذا الموضع فقالت: إنما كان عبد الله بن جعفر يهب ما كان معاوية ويزيد يهبان له، فمن فضل جودنا جاد.

قالوا: ومعاوية أول رجل في الأرض وهب ألف ألف درهم، وابنه أول من ضاعف ذلك، فإنه كان يجيز الحسن والحسين ابني علي رضي الله عنه في كل عام لكل واحد منهما بألف ألف درهم، وكذلك كان يجيز عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر، فلما مات وقام يزيد وفد عليه عبد الله بن جعفر، فقال له: إن أمير المؤمنين معاوية كان يصل رحمي في كل سنة بألف ألف درهم، قال: فلك ألفا ألف درهم، فقال: بأبي أنت وأمي! أما إني ما قتلها لابن انثى قبلك، قال: فلك أربعة آلاف ألف درهم. وهذا الاعتراض ساقط، لأن ذلك إن صح لم يعد جوداً ولا جائزة ولا صلة رحم، هؤلاء قوم

كان يخافهم على ملكه، ويعرف حقهم فيه، وموقعهم من قلوب الأمة، فكان يدبر في ذلك تدبيراً، ويريع أموراً، ويصانع عن دولته وملكه، ونحن لم نعد قط ما أعطى خلفاء بني هاشم قوادهم وكتائبهم وبني عمهم جوداً، فقد وهب المأمون للحسن بن سهل غلة عشرة آلاف ألف فما عد ذلك منه مكرمة، وكذلك كل ما يكون داخلياً في باب التجارة واستمالة القلوب، وتدبير الدولة، وإنما يكون الجود ما يدفعه الملوك في الوفود والخطباء والشعراء والأشراف والأدباء والسمار ونحوهم، ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وفي الجند أعطياهم احتسب ذلك في جوده، فالعاملات شيء والإعطاء على دفع المكروه شيء، والتفضل والجود شيء. ثم إن الذين أعطاهم معاوية ويزيد هو بعض حقهم، والذي فضل عليهما أكثرهما خرج منهما.

وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصرهم لضيحة ظاهرة، فإن نساء خلفاء بني عباس أكثر معروفاً من رجال بني أمية، ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بني مروان، وذلك معروف، ولو ذكر معروف الخيزران وسلسبيل ملئت الطوامير الكثيرة به، وما نظن خالصة مولاتهم إلا فوق أجواد أجوادهم، وإن شئت أن تذكر مواليتهم وكتائبهم فاذا ذكر عيسى بن ماهان، وابنه علياً، وخالد بن برمك وابنه يحيى، وابنه جعفر والفضل وكتائبهم منصور بن زياد ومحمد بن منصور وفتى العسكر، فإنك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس.

فأما ملوك الأموية فليس منهم إلا من كان ييخل على الطعام، وكان جعفر بن سليمان كثيراً ما يذكر ذلك، وكان معاوية ييغض الرجل النهم على مائدته، وكان المنصور إذا ذكرهم يقول: كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما صنع، وكان الوليد مجنوناً، وكان سليمان همه بطنه وفرجه، وكان عمر أعور بين عميان، وكان هشام رجل القوم، وكان لا يذكر ابن عائكة. ولقد كان هشام مع ما استثناه به يقول: هو الأحوال السراق، ما زال يدخل إعطاء الجند شهراً في شهر وشهراً في شهر، حتى أخذ لنفسه مقدار رزق سنة، وأنشده أبو النجم العجلي أرجوزته التي أولها:

الحمد لله الوهب المجزل

فما زال يصفق بيديه أستحساناً لها حتى صار إلى ذكر الشمس، فقال:

والشمس في الأفق كعين الأحوال

فأمر بوجء عنقه وإخراجه، وهذا ضعف شديد، وجهل عظيم.

وقال خاله إبراهيم بن هشام المخزومي: ما رأيت من هشام خطأ قطاً إلا مرتين: حدا به الحادي مرة فقال:

من تمشي به المطي

إن عليك أيها البختي أكرم

فقال: صدقت. وقال مرة: والله لأشكون سليمان يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك. وهذا ضعف شديد، وجهل مفرط.

وقال أبو عثمان: وكان هشام يقول: والله إني لأستحي أن أعطي رجلاً أكثر من أربعة آلاف درهم، ثم أعطى عبد الله

بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدها في جوده وتوسعه، وإنما اشترى بها ملكه، وحصن بها عن نفسه وما في يديه. قال له أخوه مسلمة: أطمع أن تلي الخلافة وأنت بخيل جبان! فقال: ولكني حلیم عفيف، فاعترف بالجن والبخل، وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما! وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم، والتغريز الشديد. ولو سلمت من الفساد لم تسلم من العيب.

ولقد قدم المنصور عليهم عمر بن عبد العزيز بقوله: أعور بين عميان، وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً، فكيف وقد جلد حبيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدة، وصب على رأسه جرة من ماء بارد في يوم شات، حتى كثر فمات، فما أقر بدمه، ولا خرج إلى وليه من حقه، ولا أعطى عقلاً ولا قوداً، ولا كان حبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصه، فيقال: كان مطيعاً بإقامتها، وأنه أزهد الحد نفسه! واحتسبوا الضرب كان أديباً وتعزيراً، فما عذره في الماء البارد في الشتاء، على أثر جلد شديد! ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصي، فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه، فقال رجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج: نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر، أوتشير بي في هذا الشأن، فو الله مالي عليه من طاقة! فقال له رجاء: قاتلك الله، ما أحرصك عليها! ولما جاء الوليد بن عبد الملك بنعي الحجاج، قال له الوليد: مات الحجاج يا أبا حفص، فقال: وهل كان الحجاج إلا رجلاً منا أهل البيت! وقال في خلافته: لولا بيعة في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق وبين أحمر قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر، وبين سالم بن عبد الله بن عمر، فما كان عليه من الضرر والخرج، وما كان عليه من الوكف والنقص أن لو قال: بين علي بن العباس وعلي بن الحسين بن علي! وعلى أنه لم يرد التيمي ولا العدوي، وإنما دبر الأمر للأموي، ولم يكن عنده أحد من هاشم يصلح للشورى، ثم دبر الأمر لبياع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عوجل بالسم.

وقدم عليه عبد الله بن حسن بن حسن، فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسبه ومركبه وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفي صدور المؤمنين لم يدعه يبيت بالشام ليلة واحدة، وقال له: الحق بأهلك، فإنك لم تغنهم شيئاً هو أنفس منك ولا أرد عليهم من حياتك. أخاف عليك طواغيت الشام، وسنلحقك الحوائج على ما تشتهي وتحب. وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه، فلعله يذر في قلوبهم بذراً، ويغرس في صدورهم غرساً، وكان أعظم خلق الله قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجهمية، ويربي على كل ذي غاية، صاحب شناعة، وكان يصنع في ذلك الكتب، مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر. وقال له شوذب الخارجي: لم لا تلعن رهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة، فقال عمر: متى عهدك بلعن فرعون! قال: ما لي به عهد. قال: أفيسعك أن تمسك عن لعن فرعون، ولا يسعني أن أمسك عن لعن آبائي! فرأى أنه قد خصمه وقطع حجته، وكذلك يظنه كل من قصر عن مقدار العالم، وجاوز مقدار الجاهل، وأي شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان! هؤلاء قوم لهم حزب وشيعة، وناس كثير يدينون بتفضيلهم وقد اعتورهم الشبه في أمرهم، وفرعون على خلاف ذلك، وضده لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موال ولا صنائع ولا في أمره شبهة. ثم إن عمر ظنين في أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة منهم، وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون، وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج، فكيف إذا استويا عنده! وشكا إليه رجل من رهطه ديناً فادحاً، وعيلاً كثيراً،

فاعتل عليه، فقال له: فهلا اعتللت على عبد الله بن الحسن! قال: ومتى شاورتك في أمري! قال: أو مشيراً تراني! قال: أو هل أعطيته إلا بعض حقه! قال: ولم قصرت عن كله، فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروماً منه.

وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه. والذي حسن أمره، وشبهه على الأغنياء حاله، أنه قام بعقب قوم قد بدلوا عامة شرائع الدين وسنن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الناس قبله من الظلم والجور والتهاون بالإسلام في أمر صغر في جنبه ما عاينوا منه، وألفوه عليه، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيعة في عداد الأئمة الراشدين، وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون علياً رضي الله عنه على منابرهم، فلما نهي عمر عن ذلك عد محسناً، ويشهد لذلك قول كثير فيه:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي رضي الله عنه قد كان لهم عادة، حتى مدح من كف عنه، ولما ولي خالد بن عبد الله القسر في مكة - وكان إذا خطب بما لعن علياً والحسن والحسين رضي الله عنهم - قال عبيد الله بن كثير السهمي:

لعن الله من يسب علياً وحسين امن سوقة وإمام

أيسب المطفرون جدوداً والكرام الإباء والأعمام

يأمن الطير والحمام ولا يأمن آل الرسول عند المقام!

طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً أهل بيت النبي والإسلام!

رحمة الله والسلام عليهم كلما قام قائم بسلام!

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان - وكان ممن يناله بزعمهم إلى هشام بن عبد الملك، وهو يخطب على المنبر بعرفة - فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب، فقال هشام: ليس لهذا جئنا، ألا ترى أن ذلك يدل على أنه قد كان لعنه فيهم فاشياً ظاهراً، وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن علياً رضي الله عنه ويقول: قتل جدي جميعاً، الزبير وعثمان.

وقال المغيرة وهو عامل معاوية يومئذ لصعصعة بن صوحان: قم فالعن علياً، فقام فقال: إن أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً، فالعنوه لعنه الله! وهو يضمر المغيرة.

وأما عبد الملك فحسبك من جهله بتبديله شرائع الدين والإسلام، وهو يريد أن يلي أمور أصحابها بذلك الدين بعينه، وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابرهم، ويرمي بالفجور في مجالسه، وهذا قرّة عين عدوه وعير عين وليه، وحسبك من جهله بقيامه على منبر الخلافة قائلاً: إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون. وهؤلاء سلفه وأئمة، وبشفعتهم قام ذلك المقام، وبتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرياسة، ولولا العادة المتقدمة، والأجناد المجندة، والصنائع القائمة، لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام، وأقربهم إلى المهلكة إن رام ذلك الشرف. وعنى بالمستضعف عثمان، وبالمداهن معاوية، وبالمأفون يزيد بن معاوية، وهذا الكلام نقض لسلطانه، وعداوة لأهله، وإفساد لقلوب شيعته، ولو لم يكن من عجز رأيه إلا أنه لم يقدر

على إظهار قوته، إلا بأن يظهر عجز أئمته لكفاك ذلك منه. فهذا ما ذكرته هاشم لأنفسها.
من مفاخر بني أمية.

قالت أمية: لنا من نواذر الرجال في العقل والدهاء والأدب والمكر ما ليس لأحد، ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد، زعم الناس أن الدهاة أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وزيد، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، فمنا رجلان، ومن سائر الناس رجلان. ولنا في الأجواد سعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، لم يوجد لهما نظير إلى الساعة. و أما نواذر الرجال في الرأي والتدبير فأبو سفيان بن حرب، وعبد الملك بن مروان، ومسلمة بن عبد الملك، وعلى أنهم يعدون في الحلماء والرؤساء، فأهل الحجاز يضربون المثل في الحلم بمعاوية، كما يضرب أهل العراق المثل فيه بالأحنف. فأما الفتوح والتدبير في الحرب فلمعاوية غير مدافع، وكان خطيباً مصقوعاً ومجرباً مظفراً، وكان يجيد قول الشعر إذا أثر أن يقول، وكان عبد الملك خطيباً حازماً مجرباً مظفراً، وكان مسلمة شجاعاً مدبراً وسائساً مقدماً، وكثير الفتوح كثير الأدب.

وكان يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً، وكان الوليد بن يزيد خطيباً شاعراً، وكان مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين، وكان بشر بن مروان شاعراً ناسباً، وأديباً عالماً، وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً، جيد الرأي، أديباً كثير الأدب، حكيماً، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والأدب والألات والصناعات.
قالوا: وإن ذكرت البأس والشجاعة فالعباس بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد، وأبوه محمد بن مروان بن الحكم، وهو صاحب مصعب، وهؤلاء قوم لهم آثار بالروم لا تجهل، وآثار بأرمينية لا تنكر، ولهم يوم العقر، شاهده مسلمة والعباس بن الوليد.

قالوا: ولنا الفتوح العظام، ولنا فارس، وخراسان، وأرمينية، وسجستان، وإفريقية، وجميع فتوح عثمان، فأما فتوح، بني مروان فأكثر وأعم وأشهر من أن تحتاج إلى عدد أو إلى شاهد. والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خف وحافر أن يبلغه، حتى لم يحتجز منهم إلا ببحر أو خليج بحر أو غياض أو عقاب أو حصون وصياصي ثلاثة رجال: قتيبة بن مسلم بخراسان، وموسى بن نصير بإفريقية، والقاسم بن محمد بن القاسم الثقفي بالسند والهند، وهؤلاء كلهم عمالنا وصنائعنا. ويقال: إن البصرة كانت صنائع ثلاثة رجال: عبد الله بن عامر، وزيد، والحجاج، فرجلان من أنفسنا والثالث صنيعنا قالوا: ولنا في الأجواد وأهل الأقدار بنو عبد الله بن خالد بن أسيد بن أمية، وأخوه خالد، وفي خالد يقول الشاعر:

فنعلم الفتى يرجى ونعم المؤمل !

إلى خالد حتى أنخنا بخالد

ولنا سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وهو عقيد الندى، كان يسبت ستة أشهر ويفيق ستة أشهر، ويرى كحياً من غير اكتحال، ودهيناً من غير تدهين، وله يقول موسى شهوات:

أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد

أبا خالد أعني سعيد بن خالد

ولكنني أعني ابن عائشة الذي

أبو أبيه خالد بن أسيد

عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى

فإن مات لم يرض الندى بعقيد

قالوا: وإنما تمكن فينا الشعر وجاد، ليس من قبل أن الذين مدحونا ما كانوا غير من مدح الناس، ولكن لما وجدوا فينا مما يتسع لأجله القول، ويصدق فيه القائل. قد مدح عبد الله بن قيس الرقيات من الناس: آل الزبير عبد الله ومصعباً وغيرهما، فكان يقول كما يقول غيره، فلما صار إلينا قال:

مانقمو امن بني أمية إلا

أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم معدن الملوك فما

تصلح إلا عليهم العرب

وقال نصيب:

من نفر الشم الذين إذا انتجوا

أقرت لنجواهم لؤي بن غالب

يحيون بسامين طوراً وتارة

يحيون عباسين شوس الحوارج

وقال الأخطل:

شمس العداوة حتى يستفاد لهم

وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

قالوا: وفيما يقول شاعركم والمتشيع لكم، الكميت بن زيد:

فالآن صرت إلى أمية والأمور لها مصاير

وفي معاوية يقول أبو الجهم العدوي:

نقلبه لنخبر حالتيه

فنخبر منهما كرمنا ولينا .

نميل على جوانبه كأنا

إذا ملنا نميل على أبينا

وفيه يقول:

تريع إليه هوادي الكلام

إذا ضل خطبته المهذر

قالوا: وإذا نظرت في امتداح الشعراء عبد العزيز بن مروان عرفتم صدق ما نقوله.

قالوا: وفي إرسال النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عثمان، واستعماله عليها عتاب بن أسيد وهو ابن اثنتين وعشرين سنة دليل على موضع المنعة أن قهاب العرب وتعز قريش، وقال النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح: "فتيان أضن بهما على النار: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم" فولى عتاباً، وترك جبير بن مطعم.

وقال الشعبي: لو ولد لي مائة ابن لسميتهم كلهم عبد الرحمن، للذي رأيت في قريش من أصحاب هذا الأسم، ثم عد عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص، فأما عبد الرحمن بن عتاب فإنه صاحب الخيل يوم الجمل، وهو صاحب الكف والخاتم، وهو الذي مر به علي وهو قتيل فقال: لهفي عليك

يعسوب قريش، هذا الباب الحض من بني عبد مناف! فقال له قائل: لشد ما أتيتك اليوم يا أمير المؤمنين! قال: إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك.

قالوا: ولنا من الخطباء معاوية بن أبي سفيان، أخطب الناس قائماً وقاعداً، وعلى منبر، وفي خطبة نكاح. وقال عمر بن الخطاب: ما يتصعدني شيء من الكلام كما يتصعدني خطبة النكاح، وقد يكون خطيباً من ليس عنده في حديثه ووصفه للشيء واحتجاجة في الأمر لسان بارع. وكان معاوية يجري مع ذلك كله.

قالوا: ومن خطبائنا يزيد بن معاوية، كان أعراي اللسان، بدوي اللهجة. قال معاوية، وخطب عنده خطيب فأجاد: لأرمينه بالخطيب الأشدق يريد يزيد بن معاوية.

ومن خطبائنا سعيد بن العاص، لم يوجد كتحييره تحبير، ولا كارتجاله ارتجال.

ومنا عمرو بن سعيد الأشدق، لقب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه، فسمع كلامه، فقال: إن ابن سعيد هذا لأشدق.

وقال له معاوية: إلى من أوصى بك أبوك، قال: إن أبي أوصى إلي ولم يوص بي، قال: فبم أوصى إليك، قال: ألا يفقد إخوانه منه إلا وجهه.

قالوا: ومنا سعيد بن عمرو بن سعيد، خطيب ابن خطيب، تكلم الناس عند عبد الملك قياماً وتكلم قاعداً. قال عبد الملك: فتكلم وأنا والله أحب عشرته وإسكاته، فأحسن حتى استنطقته واستزدته، وكان عبد الملك خطيباً، خطب الناس مرة فقال: ما أنصفتُمونا معشر رعيتنا، طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسهما ورعيتهما، ولم تسيروا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيهما ولا أنفسهما، ولكل من النصفة نصيب. قالوا: فكانت خطبته نافعة.

قالوا: ولنا زياد وعبيد الله بن زياد، وكانا غنيين في صحة المعاني، وجودة اللفظ، ولهما كلام كثير محفوظ.

قالوا: ومن خطبائنا سليمان بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك.

ومن خطبائنا ونساكننا يزيد بن الوليد الناقص. قال عيسى بن حاضر: قلت لعمرو بن عبيد: ما قولك في عمر بن عبد العزيز؟ فكلح، ثم صرف وجهه عني. قلت: فما قولك في يزيد الناقص؟ فقال: أو الكامل، قال بالعدل، وعمل بالعدل، وبذل نفسه وقتل ابن عمه في طاعة ربه، وكان نكالا لأهله، ونقص من أعطياهم ما زادته الجبابة، وأظهر البراءة من آبائه، وجعل في عهده شرطاً ولم يجعله جزمًا، لا والله لكانه ينطق عن لسان أبي سعيد - يريد الحسن البصري - قال: وكان الحسن من أنطق الناس.

قالوا: وقد قرئ في الكتب القديمة: يا مبذر الكنوز، يا ساجداً بالأسحار، كانت ولايتك رحمة بهم، وحجة عليهم. قالوا: هو يزيد بن الوليد.

ومن خطبائنا ثم من ولد سعيد بن عمرو بن خولة، كان ناسباً فصيحاً خطيباً.

وقال ابن عائشة الأكبر: ما شهد خطيباً قط إلا ولجلج هيبة له ومعرفة بانتقاده.

ومن خطبائنا عبد الله بن عامر، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، وكانا من أكرم الناس، وأبين الناس، كان مسلمة بن

عبد الملك يقول: إني لأنحى كور عمامتي على أذني لأسمع كلام عبد الأعلى.
وكانوا يقولون: أشبه قريش نعمة وجهارة واقتداراً وبياناً بعمر بن سعيد عبد الأعلى بن عبد الله.
قالوا: ومن خطبائنا ورجالنا الوليد بن عبد الملك، وهو الذي كان يقال له فحل بني مروان، كان يركب معه ستون رجلاً
لصلبه.

ومن ذوي آدابنا وعلمائنا وأصحاب الأخبار ورواية الأشعار والآساب بشر بن مروان أمير العراق.
قالوا: ونحن أكثر نساكاً منكم، منا معاوية بن يزيد بن معاوية، وهو الذي قيل له في مرضه الذي مات فيه: لو أقمت
للناس ولي عهد، قال: ومن جعل لي هذا العهد في أعناق الناس، والله لولا خوفي الفتنة لما أقمت عليها طرفة عين، والله لا
أذهب بمرارتها، وتذهبون بحلاوتها، فقالت له أمه، لوددت أنك حيضة، قال: أنا والله وددت ذلك.

قالوا: ومنا سليمان بن عبد الملك الذي هدم الديماس ورد المسيرين، وأخرج المسجونين، وترك القريب. واختار عمر بن
عبد العزيز، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلاً صاحب سلامة ودعة وحب للعافية وقرب من الناس، حتى سمي المهدي،
وقيل الأشعار في ذلك.

قالوا: ولنا عمر بن عبد العزيز، شبه عمر بن الخطاب، قد ولده عمر، وباسمه سمي، وهو أشج قريش المذكور في الآثار
المنقولة في الكتب، العدل في أشد الزمان، وظلف نفسه بعد اعتياد النعم، حتى صار مثلاً ومفخراً. وقيل للحسن: أما
رويت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزداد الزمان إلا شدة، والناس إلا شحاً، ولا تقوم الساعة إلا على
شرار الخلق" قال: بلى، قيل: فما بال عمر بن عبد العزيز وعدله وسيرته! فقال: لا بد للناس من متنفس. وكان مذكوراً
مع الخطباء، ومع النساك، ومع الفقهاء.

قالوا: ولنا ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، كان ناسكاً زكياً طاهراً، وكان من اتقى الناس وأحسنهم معونة لأبيه،
وكان كثيراً ما يعظ أباه، وينهاه.

قالوا: ولنا من لا نظير له في جميع أموره، وهو صاحب الأعوص، إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص، وهو
الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز: لو كان إلي من الأمر شيء لجعلتها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله
وصاحب الأعوص.

قالوا: ومن نساكنا أبو حراب من بني أمية الصغرى، قتله داود بن علي، ومن نساكنا يزيد بن محمد بن مروان، كان
لا يهدب ثوباً ولا يصبغه، ولا يتخلق بخلق، ولا اختار طعاماً على طعام، ما أطعم أكله، وكان يكره التكلف، وينهى
عنه.

قالوا: ومن نساكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان، أراد عمر أخوه أن يجعله ولي عهده لما رأى من فضله وزهده، فسمما
فيهما جميعاً.

ومن نساكنا عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان، كان يصلي كل يوم ألف ركعة، وكان كثير الصدقة، وكان ذا
تصدق بصدقة قال: اللهم إن هذا لوجهك، فحفف عني الموت. فانطلق حاجاً، ثم أصبح بالنوم فذهبوا ينبهونه للرحيل،

فوجدوه ميتاً، فأقاموا عليه المأتم بالمدينة، وجاء أشعب فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبة من طين، فالتدم مع النساء، وكان إليه محسناً.

ومن نساكننا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. قالوا: فنحن نعد من الصلاح والفضل ما سمعتموه، وما لم نذكره أكثر، وأنتم تقولون: أمية هي الشجرة الملعونة في القرآن، وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لا تثمر الطيب، كما أن الطيب لا يثمر الخبيث، فإن كان الأمر كما تقولون، فعثمان بن عفان ثمرة خبيثة. وينبغي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم دفع ابتتيه إلى خبيث، وكذلك يزيد بن أبي سفيان صاحب مقدمة أبي بكر الصديق على جيوش الشام، وينبغي لأبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك، وكذلك عبد الله بن عثمان بن عفان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن ولدته فاطمة رضي الله عنها، لأنه من بني أمية، وكذلك عبد الله بن عثمان بن عفان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي مات بعد أن شذن ونقر الديك عينه فمات، لأنه من بني أمية، وكذلك ينبغي أن يكون عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ولاد مكة أم القرى وقبله الإسلام، مع قوله صلى الله عليه وسلم "فتيان أضن بهما عن النار: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم". وكذلك ينبغي أن يكون عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب كذلك، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية، وكذلك يزيد الناقص، وينبغي ألا يكون النبي صلى الله عليه وسلم عد عثمان في العشرة الذين بشرهم بالجنة، وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر والحبيس في سبيل الله، ووالي النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن، ووالي أبي بكر على جميع أجناد الشام، ورابع أربعة في الإسلام، والمهاجر إلى أرض الحبشة كذلك. وكذلك أبان بن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة، والقديم في الإسلام، والحبيس على الجهاد، ويجب أن يكون ملعوناً خبيثاً، وكذلك أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهو بدري من المهاجرين الأولين، وكذلك - أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرجها من المغازي، ويضرب لها بسهم، ويصافحها، وكذلك فاطمة بنت أبي معيط، وهي من مهاجرة الحبشة قالوا: ومما نفخر به وليس لبني هاشم مثله، أن منا رجلاً ولي أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة، وهو معاوية بن أبي سفيان. ولنا أربعة أخوة خلفاء: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام، بنو عبد الملك، وليس لكم إلا ثلاثة إخوة: كمحمد، وعبد الله، وأبي إسحاق أولاد هارون. قالوا: ومنا رجل ولده سبعة من الخلفاء وهو عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبوه يزيد بن عاتكة، خليفة، وجدته عبد الملك خليفة، وأبو جده مروان بن الحكم خليفة، وجدته من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها يزيد بن معاوية وهو خليفة، ومعاوية بن أبي سفيان وهو خليفة، فهؤلاء خمسة، وأم عبد الله هذا عاتكة بنت عبد الله بن عثمان بن عفان، وحفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب، فهذان خليفتان، فهذه سبعة من الخلفاء ولدوا هذا الرجل. قالوا: ومنا امرأة أبوها خليفة، وجدتها خليفة، وابنها خليفة، وأخوها خليفة، وبعلمها خليفة، فهؤلاء خمسة، وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أبوها يزيد بن معاوية خليفة، وجدتها معاوية بن أبي سفيان خليفة، وابنها يزيد بن عبد الملك بن مروان خليفة، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة، وبعلمها عبد الملك بن مروان خليفة.

قالوا: ومن ولد المديح محمد بن عبد الله الأصغر امرأة ولدها النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، وهي عائشة بنت محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان، وأمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير، وأم عروة أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق، وأم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو المديح - فاطمة بنت الحسين بن علي رضي الله عنه، وأم الحسين بن علي رضي الله عنه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأم فاطمة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهما أم إسحاق بنت طلحة بن عبد الله، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ابنة عبد الله بن عمر بن الخطاب.

قالوا: ولنا في الجمال والحسن ما ليس لكم، منا المديح، والدياج، قيل ذلك لجماله. ومنا المطرف، ومنا الأرجوان، فالمطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان، سمي المطرف لجماله، وفيه يقول الفرزدق:

أبوك فأنت منصدع النهار

نما الفاروق إنك وابن أروى

والمديح هو الدياج، كان أطول الناس قياماً في الصلاة، وهلك في سجن المنصور.

قالوا: ومنا ابن الخلائف الأربعة، دعي بذلك وشهر به، وهو المؤمل بن العباس بن الوليد بن عبد الملك، كان هو وأخوه الحارث ابني العباس بن الوليد من الفجاءة بنت قطري بن الفجاءة، إمام الخوارج، وكانت سبيت فوقعت إليه، فلما قام عمر بن عبد العزيز أتت وجوه بني مازن وفيهم حاجب بن ذبيان المازني الشاعر، فقال حاجب:

أضاعت فلا يخفى على الناس نورها

أتيناك زواراً ووفداً إلى التي

من الحنظليات الكرام حجورها

أبوها عميد الحي جمعاً وأمها

إلى نسب زاك كرام نفيها

فإن تك صارت حين صارت فإنها

فبعث عمر بن عبد العزيز إلى العباس بن الوليد إما أن تردها إلى أهلها، وإما أن تزوجهها، فقال قائل ذات يوم للمؤمل: يا بن الخلائف الأربعة، قال: ويلك من الرابع! قال: قطري، فأما الثلاثة فالوليد وعبد الملك ومروان، وأما قطري فببيع بالخلافة، وفيه يقول الشاعر: وأبو نعامة سيد الكفار.

قالوا: ومن أين صار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أحق بالدعوة والخلافة من سائر إخوته! ومن أين كان له أن يضعها في بيته دون إخوته! وكيف صار بنو الأخ أحق بها من الأعمام! وقالوا: إن يكن هذا الأمر إنما يستحق بالميراث، فالأقرب إلى العباس أحق، وإن كان بالسن والتجربة فالعمومة بذلك أولى.

قالوا: فقد ذكرنا جملاً من حال رجالنا في الإسلام، وأما الجاهلية قلنا الأعياص والعنابس، ولنا ذو العصابة أبو أحيحة سعيد بن العاص كان إذا اعتم لم يعتم بمكة أحد، ولنا حرب بن أمية رئيس يوم الفجار، ولنا أبو سفيان بن حرب رئيس أحد والخنديق، وسيد قريش كلها في زمانه.

وقال أبو الجهم بن حذيفة العدوي لعمر حين رأى العباس وأبا سفيان على فراشه دون الناس: ما نرانا نستريح من بني عبد مناف على حال! قال عمر: بمس أخو العشيرة أنت! هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا سيد قريش.

قالوا: ولنا عتبة بن ربيعة، ساد مملقاً، ولا يكون السيد إلا مترفاً، لولا ما رأوا عنده من البراعة والنبيل والكمال. وهو الذي لما تحاكت بجيلة وكلب في منافرة جرير والفرافصة، وتراهنوا بسوق عكاظ، وصنعوا الرهن على يده دون جميع من شهد على ذلك المشهد، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونظر إلى قريش مقبلة يوم بدر: "إن يكن منهم عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر"، وما ظنك بشيخ طلبوا له من جميع العسكر عند المبارزة بيضة فلم يقدرُوا على بيضة يدخل رأسه فيها، وقد قال الشاعر:

وإننا أناس يملأ البيض هامنًا

قالوا: وأمىة الأكبر صنفان: الأعياص والعنابس، قال الشاعر:

من الأعياص أو من آل حرب

أغر كغرة الفرس الجواد

سموا بذلك في حرب الفجار حين حفروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها، وقالوا: نموت جميعاً أو نظفر. وإنما سموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود، وإنما سموا الأعياص لأنها أسماء الأصول فالعنابس: حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو، والأعياص: العيص، وأبو العيص، والعاص، وأبو العاص وأبو عمرو، ولم يعقب من العنابس إلا حرب، وما عقب الأعياص إلا العيص، ولذلك كان معاوية يشكو القلة.

قالوا: وليس لبني هاشم والمطلب مثل هذه القسمة، ولا مثل هذا اللقب المشهور.

وهذا ما قالته أمىة عن نفسها.

الجواب عما فخرت به بنو أمىة.

ونحن نذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم، ونضيف إليه من قبلنا أموراً لم يذكرها، فنقول: قالت هاشم: أما ما ذكرت من الدهاء والمكر فإن ذلك من أسماء فجار العقلاء، وليس من أسماء أهل الصواب في الرأي من العقلاء والأبرار، وقد بلغ أبو بكر وعمر من التدبير وصواب الرأي، والخبرة بالأمور العامة، وليس من أوصافهما ولا من أسمائهما أن يقال: كانا داهيين، ولا كانا مكيرين. وما عامل معاوية وعمرو بن العاص علياً رضي الله عنه قط. بمعاملة إلا وكان علي رضي الله عنه أعلم بها منهما، ولكن الرجل الذي يحارب ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحل وما لا يحل، وكذلك من حدث وأخبر، ألا ترى أن الكذاب ليس لكذبه غاية، ولا لما يولد ويصنع فهاية، والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف، ومعنى محدود، ويدل على ما قلنا أنكم عددتم أربعة في الدهاء، وليس واحد منهم عند المسلمين في طريق المتقين، ولو كان الدهاء مرتبة والمكر منزلة لكان تقدم هؤلاء الجميع السابقين الأولين عيباً شديداً في السابقين الأولين، ولو أن إنساناً أراد أن يمدح أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ثم قال: الدهاة أربعة، وعدهم، لكان قد قال قولاً مرغوباً عنه، لأن الدهاء والمكر ليس من صفات الصالحين، إن علموا من غامض الأمور ما يجهله جميع العقلاء، ألا ترى أنه قد يحسن أن يقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الناس، وأحلم الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولا يجوز أن يقال: كان أمكر الناس، وأدهى الناس، وإن علمنا أن علمه قد أحاط بكل

مكر وخديعة، وبكل أدب ومكيدة، وأما ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر، فأين أنتم من عبد الله بن جعفر، وعبيد الله بن العباس، والحسن بن علي! وأين أنتم من جود خلفاء بني العباس، كمحمد المهدي، وهارون، ومحمد بن زبيدة، وعبد الله المأمون، وجعفر المقتدر! بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كيني برك وبني الفرات، أعظم من جود الرجلين اللذين ذكرتموهما، بل من جميع ماجاء به خلفاء بني أمية.

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية، فلو شئنا أن نجعل جميع ساداتنا حلماء لكانوا محتملين لذلك، ولكن الوجه في هذا ألا يشتق للرجل أسم إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه، وأن يتبين بذلك عند أصحابه حتى يصير بذلك اسماً يسمى به، ويصير معروفاً به، كما عرف الأحنف بالحلم، وكما عرف حاتم بالجود، وكذلك هرم، قالوا: هرم الجواد، ولو قُلت: كان أبو العاص بن أمية أحلم الناس، لقلنا: ولعله يكون قد كان حليماً، ولكن ليس كل حلم يكون صاحبه به مذكوراً، ومن إشكاله بائناً.

وإنكم لتظلمون خصومكم في تسميتكم معاوية بالحلم، فكيف من دونه، لأن العرب تقول: أحلم الحلمين ألا يتعرض ثم يحلم، ولم يكن في الأرض رجل أكثر تعرضاً من معاوية، والتعرض هو السفه، فإن أدعيتم أن الأخبار التي جاءت في تعرضه كلها باطلة، فإن لقائل أن يقول، وكل خير رويتموه في حلمه باطل، ولقد شهر الأحنف بالحلم، ولكنه تكلم بكلام كثير يجرح في الحلم ويثلم في العرض، ولا يستطيع أحد أن يحكي عن العباس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن علي بن أبي طالب لفظاً فاحشاً، ولا كلمة ساقطة، ولا حرفاً واحداً مما يحكى عن الأحنف ومعاوية. وكان المأمون أحلم الناس، وكان عبد الله السفاح أحلم الناس. وبعد، فمن يستطيع أن يصف هاشماً أو عبد المطلب بالحلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتى يسميه بذلك، ويخص به دون كل شيء فيه من الفضل! وكيف وأخلاقهم متساوية، وكلها في الغاية! ولو أن رجلاً كان أظهر الناس زهداً، وأصدقهم للعدو لقاء، وأصدق الناس لساناً، وأجود الناس كفاً، وأفصحهم منطقاً، وكان بكل ذلك مشهوراً، لمنع بعض ذلك من بعض، ولما كان له أسم السيد المقدم، والكمال المعظم، ولم يكن الجواد أغلب على اسمه، ولا البيان ولا النجدة.

وأما ما ذكرتم من الخطابة والفصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنسب، فقد علم الناس أن بني هاشم في الجملة أرق السنة من بني أمية، كان أبو طالب والزيبر شاعرين، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعراً، ولم يكن من أولاد أمية بن عبد شمس لصلبه شاعر، ولم يكن في أولاد أمية إلا أن تعدوا في الإسلام العرجي من ولد عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن الحكم، فنعد نحن الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، وعبد الله بن معاوية بن جعفر، ولنا من المتأخرين محمد بن الحسين بن موسى المعروف بالرضي، وأخوه أبو القاسم، ولنا الحماني، وعلي بن محمد صاحب الزنج، وكان إبراهيم بن الحسن صاحب باخرى أديباً شاعراً فاضلاً، ولنا محمد بن علي بن صالح الذي خرج في أيام المتوكل. قال أبو الفرج الأصفهاني: كان من فتیان آل أبي طالب وفتاكهم وشجعانهم وظرافهم وشعرائهم، وإن عددتم الخطابة والبيان والفصاحة لم تعدوا كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا كعبد الله بن العباس، ولنا من الخطباء زيد بن علي بن الحسين، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، وجعفر بن الحسين بن الحسن، وداود بن علي

بن عبد الله بن العباس، وداود وسليمان ابنا جعفر بن سليمان.

قالوا: كان جعفر بن الحسين بن الحسن ينازع زيد بن علي بن الحسين في الوصية، وكان الناس يجتمعون ليستمعوا محاورتهما، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي والي مكة، فكان أهل مكة يقولون: لم يرد علينا أمير إلا وسليمان أين منه قاعداً، وأخطب منه قائماً. وكان داود إذا خطب اسخنفر فلم يرده شيء.

قالوا: ولنا عبد الملك بن صالح بن علي، كان خطيباً بليغاً، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران - فقال له: كيف رأيت أرض كذا، قال: مسافي ريح، ومنابت شيخ. قال: فأرض كذا، قال: هضبات حمراء وربوات عفر، حتى أتى على جميع ما سأله عنه، فقال عيسى لسليمان: والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدون من الكلام. قالوا: وأما ما ذكرتم من نساك الملوك، فلنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبزهد وبدينه يضرب المثل، ولنا محمد بن الواثق من خلفاء بني العباس، وهو الملقب بالمهتدي، كان يقول: إني لآنف لبني العباس ألا يكون منهم مثل عمر بن عبد العزيز، فكان مثله وفوقه. ولنا القادر أبو العباس بن إسحاق بن المقتدر، ولنا القائم عبد الله بن القادر، كانا على قدم عظيمة من الزهد والدين والنسك، وإن عددتم النساك من غير الملوك فأين أنتم عن علي بن الحسين زين العابدين! وأين أنتم عن علي بن عبد الله بن العباس! وأين أنتم عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي كان يقال له: علي الخير، وعلي الأغر، وعلي العابد، وما أقسم على الله بشيء إلا وأبرقسمه، وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد! وأين أنتم عن علي بن محمد الرضا، لابس الصوف طول عمره، مع سعة أمواله، وكثرة ضياعه وغللاته! وأما ما ذكرتم من الفتوح، فلنا الفتوح المعتصمية التي سارت بها الركبان، وضربت بها الأمثال، ولنا فتوح الرشيد، ولنا الآثار الشريفة في قتل بابك الخرمي بعد أن دامت فنتته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة. وإن شئت أن تعد فتوح الطالبين بإفريقية ومصر وما ملكوه من مدن الروم والفرنج والجلالقة في سني ملكهم، عددت الكثير الجمل الذي يخرج عن الحصر، ويحتاج إلى تأريخ مفرد يشتمل على جلود كثيرة.

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل فإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد، وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبد الله بن العباس، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، ابني علي بن الحسين بن علي، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه. ويقال: إن أبا حنيفة من تلامذته، وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب، ولذلك نسب سفيان إلى أنه زيدي المذهب، وكذلك أبو حنيفة.

ومن مثل علي بن الحسين زين العابدين! وقال الشافعي في الرسالة في إثبات خبر الواحد: وجدت علي بن الحسين وهو أفقه أهل المدينة يعول على أخبار الآحاد.

ومن مثل محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم الذي قرر علوم التوحيد والعدل! وقالت المعتزلة: غلبنا الناس كلهم بأبي هاشم الأول، وأبي هاشم الثاني!

وإن ذكرتم النجدة والبسالة والشجاعة فمن مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد وقع إتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر! ومن مثل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله! ومن مثل الحسين بن علي رضي الله عنهما! قالوا يوم الطف: مارأينا مكثوراً قد أفرد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه، كان كالليث الحرب، يحطم الفرسان حطماً.

وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطي بيده، فقاتل حتى قتل هو وبنوه وإخوته وبنو عمه بعد بذل الأمان لهم، والتوثقة بالأيمان المغلظة، وهو الذي سن للعرب الإباء. واقتدى بعده أبناء الزبير وبنو المهلب وغيرهم.

ومن لكم مثل محمد وإبراهيم بن عبد الله! ومن لكم كريد بن علي، وقد علمتم كلمته التي قالها حيث خرج من عند هشام: ما أحب الحياة إلا من ذل، فلما بلغت هشاماً قال: خارج ورب الكعبة! فخرج بالسيف، ونهى عن المنكر، ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قتل صابراً محتسباً.

وقد بلغتكم شجاعة أبي إسحاق المعتصم، ووقوفه في مشاهد الحرب بنفسه حتى فتح الفتوح الجليلة. وبلغتكم شجاعة عبد الله بن علي، وهو الذي أزال ملك بني مروان، وشهد الحروب بنفسه، وكذلك صالح بن علي، وهو الذي اتبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله.

قالوا: وإن كان الفضل والفخر في تواضع الشريف، لإنصاف السيد، وسجاجة الخلق ولين الجانب للعشيرة والموالي، فليس لأحد من ذلك ما لبني العباس، ولقد سألنا طارق بن المبارك - وهو مولى لبني أمية، وصنيعة من صنائعهم - فقلنا: أي القبيلتين أشد نخوة وأعظم كبرياء وجبرية، أبنو مروان؟ أم بنو العباس؟ فقال: والله لبنو مروان في غير دولتهم أعظم كبرياء من بني العباس في دولتهم، وقد كان أدرك الدولتين، ولذلك قال شاعرهم:

يتيه فرشحه لكل عظيم

إذا نابيه من عبد شمس رأيت

يتيه لنوك أويتيه للوم

وإن تاه تياه سواهم فإنما

ومن كلامهم: من لم يكن من بني أمية تياها فهو دعي.

قالوا: وإن كان الكبر مفخراً يمدح به الرجال ويعد من خصال الشرف والفضل، فمولانا عمارة بن حمزة أعظم كبراً من كل أموي كان ويكون في الدنيا، وأخباره في كبره وتياه مشهورة متعالة.

قالوا: وإن كان الشرف والفخر في الجمال وفي الكمال وفي البسطة في الجسم وتمام القوام، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب! قالوا: رأينا العباس يطوف بالبيت وكأنه فسطاطا أبيض.

ومن مثل علي بن عبد الله بن العباس وولده، وكان كل واحد منهم إذا قام إلى جنب أبيه كان رأسه عند شحمة أذنه، وكانوا من أطول الناس، وإنك لتجد ميراث ذلك اليوم في أولادهم.

ثم الذي رواه أصحاب الأخبار وجمال الآثار في عبد المطلب من التمام والقوام والجمال والبهاء، وما كان من لقب هاشم بالقمر لجماله، ولأنهم يستضيئون برأيه، وكما رواه الناس أن عبد المطلب ولد عشرة كان الرجل منهم يأكل في المجلس الجذعة ويشرب المرق، وترد أنفهم قبل شفاههم، وإن عامر بن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جمال جون قال: هؤلاء تمنع مكة، وتشرف مكة! وقد سمعتم ما ذكره الناس من جمال السفاح وحسنه، وكذلك المهدي وابنه هارون الرشيد، وابنه محمد بن زبيدة وكذلك هارون الواثق، ومحمد المنتصر والزبير المعتز.

قالوا: ما رئي في العرب ولا في العجم أحسن صورة منه، وكان المكتفي علي بن المعتضد بارع الجمال، ولذلك قال الشاعر يضرب المثل به:

فجعل له ثالث القمرين. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه أصبح الناس وجهاً، كان يشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك عبد الله بن الحسن المحض.

قالوا: ولنا ثلاثة في عصر بنو عم، كلهم يسمى علياً، وكلهم كان يصلح للخلافة بالفقه والنسك والمركب، والرأي، والتجربة، والحال الرفيعة بين الناس: علي بن الحسين بن علي، وعلي بن عبد الله بن العباس، وعلي بن عبد الله بن جعفر، كل هؤلاء كان تاماً كاملاً بارعاً جامعاً. وكانت لبابة بنت عبد الله بن العباس عند علي بن عبد الله بن جعفر، قالت: ما رأيته ضاحكاً قط ولا قاطباً، ولا قال شيئاً احتاج إلى أن يعتذر منه، ولا ضرب عبداً قط، ولا ملكه أكثر من سنة.

قالوا: وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عم، وهم بنو هؤلاء الثلاثة، وكلهم يسمى محمداً، كما أن كل واحد من أولئك يسمى علياً، وكلهم يصلح للخلافة، بكرم النسب وشرف الخصال: محمد بن علي بن الحسين بن علي، ومحمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ومحمد بن علي بن عبد الله بن جعفر.

قالوا: كان محمد بن علي بن الحسين لا يسمع المبتلى بالإستعانة، وكان ينهى الجارية والغلام أن يقولوا للمسكين: يا سائل، وهو سيد فقهاء الحجاز، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم الناس الفقه، وهو الملقب بالباقر، باقر العلم، لقبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخلق بعد، وبشر به، ووعد جابر بن عبد الله برؤيته، وقال: ستراه طفلاً، فإذا رأيته فأبلغه عني السلام، فعاش جابر حتى رآه، وقال له ما وصي به.

وتوعد خالد بن عبد الله القسري هشام بن عبد الملك في رسالة له إليه، وقال: والله إني لأعرف رجلاً حجازي الأصل، شامي الدار، عراقي الهوى، يريد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

قالوا: وأما ما ذكرتم من أمر عاتكة بنت يزيد بن معاوية فإننا نذكر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي سيدة نساء العالمين، وأمها خديجة سيدة نساء العالمين، وبعلمها علي بن أبي طالب سيد المسلمين كافة، وابن عمها جعفر ذو الجناحين، وذو المهجرتين، وابناها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وجاهما أبو طالب بن عبد المطلب أشد الناس عارضةً وشكيمةً، وأجودهم رأياً، وأشهمهم نفساً، وأمنعهم لما وراء ظهره، منع النبي صلى الله عليه وسلم من جميع قريش، ثم بني هاشم وبني المطلب، ثم منع بني إخوانه من بني أخواته من بني مخزوم الذين أسلموا، وهو أحد الذين سادوا مع الإقلال، وهو مع هذا شاعر خطيب. ومن يطيق أن يفاخر بني أبي طالب، وأمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي، وهي التي ربي رسول الله في حجرها، وكان يدعوها أُمي، ونزل في قبرها، وكان يوجب حقها كما يوجب حق الأم! من يستطيع أن يسامي رجالاً ولدهم هاشم مرتين من قبل أبيهم ومن قبل أمهم. قالوا: ومن العجائب أنها ولدت أربعة كل منهم أسن من الآخر بعشر سنين: طالب، وعقيل، وجعفر، وعلي.

ومن الذي يعد من قريش أو من غيرهم ما يعده الطالبيون عشرة في نسق، كل واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك، فمنهم خلفاء، ومنهم مرشحوه: ابن ابن ابن، هكذا إلى عشرة، وهم الحسن بن علي بن محمد بن

علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي طحانم، وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب ولا من بيوت العجم. قالوا: فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين: أم حبيبة بنت أبي سفيان وزينب بنت جحش، فزينب امرأة من بني أسد بن خزيمه، ادعيتموها بالحلف لا بالولادة، وفينا رجل ولدته أمان من أمهات المؤمنين، محمد بن عبد الله بن الحسن المحض، ولدته خديجة أم المؤمنين، وأم سلمة أم المؤمنين، وولدت مع ذلك فاطمة بنت الحسين بن علي، وفاطمة سيدة نساء العالمين ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفاطمة بنت أسد بنت هاشم، وكان يقال: خير النساء الفواطم والعواتك وهن أمهاته. قالوا: ونحن إذا ذكرنا إنساناً فقبل أن نعد من ولده نأتي به شريفاً في نفسه، مذكوراً بما فيه دون ما في غيره، قلتم لنا: عاتكة بنت يزيد، وعاتكة في نفسها كامراً من عرض قريش، ليس فيها في نفسها خاصة أمر تستوجب به المفاخرة. ونحن نقول: منا فاطمة، وفاطمة سيدة نساء العالمين، وكذلك أمها خديجة الكبرى، وإنما تذكران مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم وذكر إحداهما القرآن، وهن المذكورات من جميع نساء العالم من العرب والعجم.

وقلتم لنا: عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ولده سبعة من الخلفاء، وعبد الله هذا في نفسه ليس هناك، ونحن نقول: منا محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، كلهم سيد، وأمه العالية بنت عبيد الله بن العباس، وإخوته داود وصالح وسليمان وعبد الله رجال كلهم أغر محجل، ثم ولدت الرؤساء إبراهيم الإمام وأخويه أبا العباس وأبا جعفر، ومن جاء بعدهما من خلفاء بني العباس.

وقلتم: منا عبد الله بن يزيد، وقلنا: منا الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة، وأولى الناس بكل مكرمة، وأطهرهم طهارة، مع النجدة والبصيرة والفقہ والصبر والحلم والآنف، وأخوه الحسن سيد شباب أهل الجنة، وأرفع الناس درجة، وأشبههم برسول الله خلقاً وخلقاً، وأبوهما علي بن أبي طالب. قال شيخنا أبو عثمان: وهو الذي ترك وصفه أبلغ في وصفه، إذ كان هذا الكتاب يعجز عنه، ويحتاج إلى كتاب يفرد له، وعمهما ذو الجناحين، وأمهما، فاطمة وجدتهما خديجة، وأخوالهما: القاسم وعبد الله وإبراهيم، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم، وجدتهما آمنة بنت وهب والدة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفاطمة بنت أسد بن هاشم، وجدتهما رسول الله صلى الله عليه وسلم المخرس لكل فاجر، والغالب لكل منافر، قل ما شئت، واذكر أي باب شئت من الفضل، فإنك تجدهم قد حووه.

وقالت أمية: نحن لا ننكر فخر بني هاشم وفضلهم في الإسلام، ولكن لا فرق بيننا في الجاهلية، إذ كان الناس في ذلك الدهر لا يقولون: هاشم وعبد شمس، ولا هاشم وآمنة، بل يقولون: كانوا لا يزيدون في الجميع على عبد مناف، حتى كان أيام تميزهم في أمر علي وعثمان في الشورى، ثم ما كان في أيام تحزيمهم وحرهم مع علي ومعاوية. ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنه ما كان يذكر فرق بين البيتين، وإنما يقال: بنو عبد مناف، ألا ترى أن أبا قحافة سمع رجلاً شديداً، وأصواتاً مرتفعة، وهو يومئذ شيخ كبير مكفوف، فقال: ما هذا، قالوا: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فما صنعت قريش، قالوا: ولوا الأمر ابنك، قال: ورضيت بذلك بنو عبد مناف، قالوا نعم. قال: ورضي

بذلك بنو المغيرة، قالوا: نعم، قال: فلا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع! ولم يقل: أرضي بذلك بنو عبد شمس، وإنما جمعهم على عبد مناف لأنه كذلك كان يقال.

وهكذا قال أبو سفيان بن حرب لعلي رضي الله عنه، وقد سخط إمارة أبي بكر: أرضيتم يا بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم؟ ولم يقل: أرضيتم يا بني هاشم، وكذلك قال خالد بن سعيد بن العاص حين قدم من اليمن وقد استخلف أبو بكر: أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم؟ قالوا: وكيف يفرقون بين هاشم وعبد شمس؟ وهما أخوان لأب وأم! ويدل على أن أمرهما كان واحداً، وأن اسمهم كان جامعاً، قول النبي صلى الله عليه وسلم وصنيعه حين قال: "منا خير فارس في العرب، عكاشة بن محصن وكان أسدياً، وكان حليفاً لبني عبد شمس، وكل من شهد بدرًا من بني كبير بن داود كانوا حلفاء بني عبد شمس، فقال ضرار بن الأزور الأسدي: ذاك منا يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: "بل هو منا بالحلف"، فجعل حليف بني عبد شمس حليف بني هاشم، وهذا بين لا يحتاج صاحب هذه الصفة إلى أكثر منه. قالوا: ولهذا نكح هذا البيت في هذا البيت، فكيف صرنا نتزوج بنات النبي وبنات بني هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أكفاء، وأمرنا واحد! وقد سمعتم إسحاق بن عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بني عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد: لولا حي أكرمهم الله بالرسالة، لزعمت أنك أشرف الناس، أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهطه إلا بالرسالة!

قالت هاشم: قلت: لولا أنا كنا أكفاءكم لما أنكحتمونا نساءكم، فقد نجد القوم يستوون في حسب الأب، ويفترقون في حسب الأنفس، وربما استووا في حسب أبي القبيلة، كاستواء قريش في النضر بن كنانة، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، وكاختلاف ابن قمي وعبد مناف وعبد الدار وعبد العزى، والقوم قد يساوي بعضهم بعضاً في وجوه، ويفارقونهم في وجوه، ويستجيزون بذلك القدر مناكحتهم، وإن كانت معاني الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم، وقد يزوج السيد ابن أخيه وهو حارص ابن حارص على وجه صلة الرحم، فيكون ذلك جائزاً عندهم، ولوجوه في هذا الباب كثيرة، فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كل وجه، لأن كنا قد زوجناكم وساويناكم في بعض الأباء والأجداد. وبعد، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب، أفترعمون أنهم أكفاؤكم عيناً بعين! وأما قولكم: إن الحيين كان يقال لهما عبد مناف فقد كان يقال لهما أيضاً مع غيرهما من قريش وبنيتها: بنو النضر. وقال الله تعالى: "وأندر عشيرتك الأقرين"، فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم أحداً من بني عبد شمس، وكانت عشيرته الأقربون بني هاشم وبني المطلب، وعشيرته فوق ذاك عبد مناف وفوق ذلك قصي، ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى بعبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس - وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم - قال صلى الله عليه وسلم: "هذا أشبه بنا منه بكم"، ثم ثقل في فيه فازدرد، فقال: أرجو أن تكون مشفياً، فكان كما قال. ففي قوله: "هو أشبه بنا منه بكم" خصلتان: إحداهما أن عبد شمس وهاشمًا لو كانا شيئاً واحداً كما أن عبد المطلب شيء واحد لما قال: "هو بنا أشبه به منكم"، والأخرى أن في هذا القول تفضيلاً لبني هاشم على بني عبد شمس، ألا ترون أنه خرج خطيباً جواداً نبيلاً وسيداً مشفياً، له مصانع وآثار كريمة، لأنه قال: "وهو بنا أشبه به منكم". وأتي عبد المطلب بعامر بن كريز وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء فتأمله، وقال: وعظام هاشم ما ولدنا ولدًا أحرص منه، فكان كما قال عبد الله يحمق، ولم يقل وعظام عبد مناف لأن شرف جده عبد

مناف له فيه شركاء، وشرف هاشم أبيه خالص له.

فأما ما ذكرتم من قول أبي سفيان وخالد بن سعيد: أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم! فإن هذه الكلمة كلمة تحريض وتهيج، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب، وأن يجمعهم على واحد، وإن كانا مفترقين، وهذا المذهب شديد، وهذا التدبير صحيح.

قال معاوية بن صعصعة للأشهب بن رميلة، وهو نمشلي وللفرزدق بن غالب، وهو مجاشعي ولمسكن بن أنيف وهو عبدلي: أرضيتم معشر بني دار. أن يسب آباءكم ويشتم أعراضكم كلب بني كليب! إنما نسبهم إلى دارملاً بالأكثر المشتمل على آباء قبائلهم ليستووا في الحمية ويتفقوا على الأنف، وهذا في مثل هذا الموضع تدبير صحيح. قالوا: ويدل على ما قلنا ما قاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين، قال حسان بن ثابت لأبي سفيان الحارث بن عبد المطلب:

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وأنت منوط نيط في آل هاشم

لم يقل: "نيط في آل عبد مناف".

وقال آخر:

ولا بني جمح الخضر الجلاعيد

ما أنت من هاشم في بيت مكرمة

ولم يقل: ما أنت من آل عبد مناف، وكيف يقول هذا، وقد علم الناس أن عبد مناف ولد أربعة: هاشماً والمطلب وعبد شمس ونوفلاً، وأن هاشماً والمطلب كانا يداً واحدة، وأن عبد شمس ونوفلاً كانا يداً واحدة، وكان مما بطأ ببني نوفل عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس، وكان مما حث بني المطلب على لإسلام فضل محبتهم لبني هاشم، لأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم كان بيناً، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة، فمن لم يكن فيه هذه العلة لم يكن له دون الإسلام مانع، ولذلك لم يصحب النبي صلى الله عليه وسلم من بني نوفل أحد فضلاً أن يشهدوا معه المشاهد الكريمة، وإنما صحبه حلفاؤهم كيعلى بن منبه وعتبة بن غزوان وغيرهما، وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدري: عبيد، وطفييل، وحصين، ومن بني المطلب مسطح بن أثاثة بدري.

وكيف يكون الأمر كما قلتم وأبو طالب يقول لمطعم بن عدي بن نوفل في أمر النبي صلى الله عليه وسلم، لما تمايلات قريش عليه:

جزاء مسيء عاجلاً غير آجل

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً

فإني متى أوكل فلست بآكل

امطعم أما سامني القوم خطّة

ولا مشهد عند الأمور الجلائل

امطعم لم أخذك في يوم شدة

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة فجعلها في بني هاشم وبني المطلب، فأتاه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقالا له: يا رسول الله، إن قرابتنا

منك وقرابة بني المطلب واحدة، فكيف أعطيتهم دوننا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إنا لم نزل وبني المطلب كهاتين"، وشبك بين أصابعه، فكيف تقولون: كنا شيئاً واحداً، وكان الأسم الذي يجمعنا واحداً! ثم نرجع إلى أفتخار بني هاشم، قالوا: وإن كان الفخر بالأيد والقوة، واهتصار الأقران ومباطشة الرجال، فمن أين لكم كمحمد بن الحنفية، وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على درع فاضلة، فجذبها فقطع ذيلها ما استدار منه كله. وسمعتم أيضاً حديثاً لأيد القوي الذي أرسله ملك الروم إلى معاوية يفخر به على العرب، وأن محمداً قعد له ليقيمه فلم يستطع، فكأنما يحرك جبلاً، وأن الرومي قعد ليقيمه محمد فرفعه إلى فوق رأسه، ثم جلد به الأرض، هذا مع الشجاعة المشهورة، والفقہ في الدين والحلم والصبر والفصاحة والعلم بالملاحم والأخبار عن الغيوب، حتى أدعي له أنه المهدي، وقد سمعتم أحاديث أبي إسحاق المعتصم، وأن أحمد بن أبي دوواد عض ساعده بأسنانه أشد العض فلم يؤثر فيه، وأنه قال: ما أظن الأسنة ولا السهام تؤثر في جسده، وسمعتم ما قيل في عبد الكريم المطيع، وأنه جذب ذنب ثور فاستلته من بين وركيه.

وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاجة الأخلاق، فمن مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد بلغ من سجاجة خلقه وطلاقة وجهه أن عيب بالدعابة! ومن الذي يسوي بين عبد شمس وبين هاشم في ذلك! كان الوليد جباراً، وكان هشام شرس الأخلاق، وكان مروان بن محمد لا يزال قاطباً عابساً، وكذلك كان يزيد بن الوليد الناقص، وكان المهدي المنصور أسرى خلق الله وألطفهم خلقاً، وكذلك محمد الأمين وأخوه المأمون، وكان السفاح يضرب به المثل في السرور وسجاجة الخلق.

قالوا: ونحن نعد من رهطنا رجالاً لا تعدون أمثالهم أبداً، فمننا الأمراء بالديلم الناصر الكبير، وهو الحسن الأطروش بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن عمر الأشرف بن زين العابدين، وهو الذي أسلمت الديلم على يده، والناصر الأصغر وهو أحمد بن يحيى بن الحسن بن القاسم بن إبراهيم طباطبا، وأخوه محمد بن يحيى، وهو الملقب بالمرتضى، وأبوه يحيى بن الحسن وهو الملقب بالهادي. ومن ولد الناصر الكبير الثائر، وهو جعفر بن محمد بن الحسن الناصر الكبير، وهم الأمراء بطبرستان وجيلان وجرجان ومانزدران وسائر ممالك الديلم، ملكوا تلك الأصقاع مائة وثلاثين سنة، وضربوا الدنانير والدرهم بأسمائهم، وخطب لهم على المنابر، وحاربوا الملوك السامانية، وكسروا جيوشهم، وقتلوا أمراءهم، فهؤلاء واحداهم أعظم كثيراً من ملوك بني أمية، وأطول مدة وأعدل وأنصف وأكثر نسكاً وأشد حياءً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يجري مجراهم الداعي الأكبر والداعي الأصغر ملكا الديلم، قادا الجيوش. واصطنعوا الصنائع. قالوا: ولنا ملوك مصر وإفريقية، ملكوا مائتين وسبعين سنة، فتحوا الفتوح واستردوا ما تغلب عليه الروم من مملكة الإسلام، واصطنعوا الصنائع الجليلة.

ولهم الكتاب والشعراء والأمراء والقواد، فأولهم المهدي عبيد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وآخرهم العاضد، وهو عبد الله بن الأمير أبي القاسم بن الحافظ أبي الميمون بن المستعلي بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن عبد العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، فإن افتخرت الأموية بملوكها في الأندلس من ولد هشام بن عبد الملك، واتصال ملكهم وجعلوهم بإزاء ملوكنا بمصر وإفريقية، قلنا لهم: ألا إنا

نحن أزلنا ملككم بالآندلس، كما أزلنا ملككم بالشام والمشرق كله، لأنه لما ملك قرطبة الظافر من بني أمية وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الملقب بالناصر، خرج عليه علي بن حميد بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقتله، وأزال ملكه. وملك قرطبة دار ملك بني أمية، ويلقب بالناصر. ثم قام بعده أخوه القاسم بن حمود، ويلقب بالمعتلي، فنحن قتلناكم وأزلنا ملككم في المشرق والمغرب، ونحن لكم على الرصد حيث كنتم، اتبعناكم فقتلناكم وشردناكم كل مشرد، والفخر للغالب على المغلوب، بهذا قضت الأمم قاطبة. قالوا: ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله، منا يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، كان شجاعاً جريئاً وهو الذي ولي الموصل لأخيه السفاح فاستعرض أهلها، حتى ساخت الأقدام في الدم.

ومنا يعقوب بن إبراهيم بن عيسى بن أبي جعفر المنصور، كان شاعراً فصيحاً، وهو المعروف بأبي الأسباط، ومنا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علي، كانا أعظم من ملوك بني أمية، وأجل قدراً وأكثر أموالاً ومكاناً عند الناس. وأهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة في يد كل واحدة منهن جام من ذهب وزنه ألف مثقال، مملوء مسكاً، وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة، فكم يكون ليت شعري غيرهم من البيض ومن الإماء! وما رأي جعفر بن سليمان راكباً قط إلا ظن أنه الخليفة.

ومن رجالنا محمد بن السفاح، كان جواداً أيداً شديد البطش، قالوا ما رأي أخوان أشد قوة من محمد وريطة أخته ولدي أبي العباس السفاح، كان محمد يأخذ الحديد فيلويه فتأخذه هي فترده.

ومن رجالنا محمد بن إبراهيم طباطبا صاحب أبي السرايا، كان ناسكاً عابداً فقيهاً عظيم القدر عند أهل بيته وعند الزيدية.

ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وهو الذي شيد ملك المنصور وحارب ابني عبدو الله بن حسن، وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه، وكان فصيحاً أديباً شاعراً.

ومن رجالنا عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، حج بالناس وولي الشام، وكان فصيحاً خطيباً.

ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادي، كان أكرم الناس وجواداً ممدوحاً أديباً شاعراً، وأخوه عيسى بن موسى الهادي، كان أكرم الناس، وأجود الناس، كان يلبس الثياب، وقد حدد ظفره فيخرقها بظفره لثلاث تعاد إليه. وعبد الله بن أحمد بن عبد الله بن موسى الهادي، وكان أديباً ظريفاً.

ومن رجالنا عبد الله بن المعتز بالله، كان أوحده الدنيا في الشعر والأدب والأمثال. الحكمة والسؤدد والرياسة، كان كما قيل فيه لما قتل:

ناهيك في العلم والأشعار والخطب

وإنما أدركته حرفة الأدب

لله درك من ميت بمضيعة

مافيه لو ولا لولا فتقصه

ومن رجالنا النقيب أبو أحمد الحسين بن موسى شيخ بني هاشم الطالبيين والعباسيين في عصره، ومن أطاعه الخلفاء والملوك في أقطار الأرض ورجعوا إلى قوله، وابناه علي ومحمد وهما المرتضى والرضي، وهما فريدا العصر في الأدب والشعر والفقه والكلام، وكان رضي شجاعاً أديباً شديداً لأنف.

ومن رجالنا القاسم بن عبد الرحيم بن عيسى بن موسى الهادي، كان شاعراً ظريفاً. ومن رجالنا القاسم بن إبراهيم طباطبا. صاحب المصنفات والورع والدعاء إلى الله وإلى التوحيد والعدل ومناذرة الظالمين، ومن أولاده أمراء اليمن. ومن رجالنا محمد الفأفأ بن إبراهيم الإمام، كان سيداً مقدماً، ولي الموسم وحج بالناس، وكان الرشيد يسايره، وهو مقنع بطيلسانه.

ومن رجالنا محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين صاحب أبي السرايا، ساد حدثاً، وكان شاعراً أديباً فقيهاً، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولما أسر وحمل إلى المأمون أكرمه وأفضل عليه، ورعى له فضله ونسبه. ومن رجالنا موسى بن عيسى بن محمد بن في بن عبد الله بن العباس، كنيته أبو عيسى، وهو أجل ولد عيسى وأنبلهم، ولي الكوفة وسوادها زماناً طويلاً للمهدي، ثم الهادي، وولي المدينة وإفريقية ومصر للرشيد، قال له ابن السماك لما رأى تواضعه: إن تواضعك في شرفك لأحب إلي من شرفك، فقال موسى، إن قومنا - يعني بني هاشم - يقولون: إن التواضع أحد مصائد الشرف.

ومن رجالنا موسى بن محمد أخو السفاح والمنصور، كان نبياً عندهم، هو وإبراهيم الإمام لإم واحدة، رأى في منامه قبل أن يصير من أمرهم ما صار أنه دخل بستاناً فلم يأخذ إلا عنقوداً واحداً عليه من الحب المتراص ما ربك به عليم، فلم يولد له إلا عيسى، ثم ولد لعيسى من ظهره أحد وثلاثون ذكراً وعشرون أنثى.

ومن رجالنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو عبد الله المحض، وأبوه الحسن بن الحسن، وأمه فاطمة بنت الحسين، وكان إذا قيل: من أجمل الناس، قالوا: عبد الله بن الحسن، فإذا قيل: من أكرم الناس، قالوا: عبد الله بن الحسن، فإذا قالوا: من أشرف الناس، قالوا: عبد الله بن الحسن.

ومن رجالنا أخوه الحسن بن الحسن، وعمه زيد بن الحسن وبنوه محمد وإبراهيم وموسى ويحيى، أما محمد وإبراهيم فأمرهما مشهور، وفضلهما غير محدود، في الفقه والأدب والنسك والشجاعة والسؤدد. وأما يحيى صاحب الديلم فكان حسن المذهب والهدي، مقدماً في أهل بيته، بعيداً مما يعاب على مثله، وقد روى الحديث وأكثر الرواية عن جعفر بن محمد، وروى عن أكابر المحدثين، وأوصى جعفر بن محمد إليه لما حضرته الوفاة وإلى ولده موسى بن جعفر. وأما موسى بن عبد الله بن الحسن، فكان شاباً نجيباً صبوراً شجاعاً سخياً شاعراً.

ومن رجالنا الحسن المثلث، وهو الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان متأهلاً فاضلاً ورعاً، يذهب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مذهب أهله. وإبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان مقدماً في أهله، يقال: إنه أشبه أهل زمانه برسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن رجالنا عيسى بن زيد، ويحيى بن زيد أخوه، وكانا أفضل أهل زمانهما شجاعة وزهداً وفقهاً ونسكاً.
ومن رجالنا يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد صاحب الدعوة. كان فقيهاً فاضلاً شجاعاً فصيحاً شاعراً، ويقال:
إن الناس ما أحبوا طالباً قط دعا إلى نفسه حبهم يحيى، ولا رثي أحد منهم بمثل ما رثي به.
قال أبو الفرج الأصفهاني: كان يحيى فارساً شجاعاً شديد البدن، مجتمتع القلب، بعيداً عن زهو الشباب وما يعاب به مثله،
كان له عمود حديد ثقیل يصحبه في منزله، فإذا سخط على عبد أو أمة من حشمه لواه في عنقه فلا يقدر أحد أن يحمله
عنه حتى يحمله هو.

ومن رجالنا محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه صاحب الطالقان، لقب
بالصوفي لأنه لم يكن يلبس إلا الصوف الأبيض، وكان عالماً فقيهاً، ديناً زاهداً، حسن المذهب، يقول بالعدل والتوحيد.
ومن رجالنا محمد بن علي بن صالح بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
كان من فتيان آل أبي طالب وفناكهم وشجعانهم وظرفائهم وشعرائهم، وله شعر لطيف محفوظ.
ومنهم أحمد بن عيسى بن زيد، كان فاضلاً عالماً مقدماً في عشيرته، معروفاً بالفضل، وقد روى الحديث وروى عنه.
ومن رجالنا موسى بن جعفر بن محمد - وهو العبد الصالح - جمع من الفقه والدين والنسك والحلم والصبر. وابنه علي
بن موسى المرشح للخلافة، والمخطوب له بالعهد، كان أعلم الناس، وأسخى الناس، وأكرم الناس أخلاقاً.

قالوا: وأما ما ذكرتم من أمر الشجرة الملعونة، فإن المفسرين كلهم قالوا ذلك ورووا فيه أخباراً كثيرة عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، ولستم قادرين على جحد ذلك، وقد عرفتم تأخركم عن الإسلام وشدة عداوتكم للرسول الداعي إليه،
ومحاربتكم في بدر وأحد والخنديق، وصدكم الهدي عن البيت، وليس ذلك مما يوجب أن يعمكم اللعن حتى لا يغادر
واحداً، فإن زعم ذلك زاعم فقد تعدى. وأما اختصاص محمد بن علي بالوصية والخلافة دون إخوته، فقد علمتم أن
وراثته السيادة والمرتبة ليس من جنس وراثته الأموال، ألا ترى أن المرأة والصبي والمجنون يرثون الأموال ولا يرثون المراتب!
وسواء في الأموال، كان الأبناً حارصاً بائراً، أو بارعاً جامعاً.

وقيل: وراثته المقام سبيل وراثته اللواء، دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء بني عبد الدار إلى مصعب بن عمير، ودفع
عمر بن الخطاب لواء بني تميم إلى وكيع بن بشر، ثم دفعه إلى الأحنف حين لم يوجد في بني زرارة من يستحق وراثته
اللواء، فإن كان الأمر بالسنة فإنما كان بين محمد بن علي وأبيه علي بن عبد الله أربع عشرة سنة، كان علي يخطب
بالسواد، ومحمد يخطب بالحمرة، فكان القادم يقدم عليهما، والزائر يأتيهما، فيظن أكثرهم أن محمداً هو علي، وأن علياً
هو محمد، حتى ربما قيل لعلي: كيف أصبح الشيخ من علة؟ ومتى رجع الشيخ إلى منزله؟ وأخرى أن أمه كانت العالية
بنت عبد الله بن العباس، فقد ولده العباس مرتين، وولده جواد بني العباس، كما والده خيرهم وحبهم، ولم يكن لأحد
من إخوته مثل ذلك. وكان بعض ولد محمد أسن من عامة ولد علي، وولد محمد المهدي بن عبد الله المنصور والعباس بن
محمد بن علي في عام واحد، وكذلك محمد بن سليمان بن علي، ولم يكن لأحد من ولد علي بن عبد الله بن العباس -
وإن كانوا فضلاء نجباء كرماء نبلاء - مثل عقله ولا كجماله، كان إذا دخل المدينة ومكة جلس الناس على أبواب

دورهم والنساء على سطوحهن للنظر إليه، والتعجب من كماله وبهائه، وقد قاتل إخوته أعداءه في دفع الملك إلى ولده غير مكرهين ولا مجبرين، على أن محمداً إنما أخذ الأمر عن أساس مؤسس، وقاعدة مقررة، ووصية انتقلت إليه من أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأخذها أبو هاشم عن أبيه محمد، وأخذها محمد عن علي بن أبي طالب أبيه. قالوا: لما سمعت بنو أمية أبا هاشم مرض فخرج من الشام وقيظاً يوم المدينة، فمر بالحميمة وقد أشفى، فاستدعى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فدفع الوصية إليه، وعرفه ما يصنع، وأخبره بما سيكون من الأمر، وقال له: إني لم أدفعها إليك من تلقاء نفسي، ولكن أبي أخبرني عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بذلك، وأمرني به، وأعلمني بلقائي إياك في هذا المكان، ثم مات فتولى محمد بن علي تجهيزه ودفنه وبث الدعاة حينئذ في طلب الأمر، وهو الذي قال لرجال الدعوة، والقائمين بأمر الدولة، حين اختارهم للتوجه، وانتخبهم للدعاء، وحين قال بعضهم: ندعو بالكوفة، وقال بعضهم: بالبصرة. وقال بعضهم: بالجزيرة. وقال بعضهم بالشام. وقال بعضهم: بمكة وقال بعضهم: بالمدينة. واحتج كل إنسان لرأيه، واعتل لقوله - فقال محمد: أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف، وقبيل عبد الله المقتول يدينون بجميع الفرق، ولا يعينون أحداً، وأما الجزيرة فحرورية مارقة، والخارجية فيهم فاشية، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما الشام فلا يعرفون إلا آل أبي سفيان، وطاعة بني مروان، وعداوة راسخة، وجهلاً متراكماً، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، وليس يتحرك معنا في أمرنا هذا منهم أحد، ولا يقوم بنصرنا إلا شيعتنا أهل البيت، ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وصدوراً سليمة، وقلوباً مجتمعة، لم تنقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم تشغلها ديانة، ولا هدم فيها فساد، وليس لهم اليوم هم العرب، ولا فيهم تجارب كتجارب الأتباع مع السادات، ولا تحالف كتحالف القبائل، ولا عصبية كعصبية العشائر، وما زالوا ينالون ويمتهنون، ويظلمون فيكظمون، وينتظرون الفرج، ويؤملون دولة، وهم جند لهم أبدان وأجسام، ومناكب وكواهل، وهامات ولحى، وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة، تخرج من أجواف منكرة.

وبعد، فكأنني أتفاءل جانب المشرق فإن مطلع الشمس سراج الدنيا، ومصباح هذا الخلق. فجاء الأمر كما دبر، وكما قدر، فإن كان الرأي الذي رأى صواباً فقد وافق الرشاد، وطبق المفصل، وإن كان ذلك عن رواية متقدمة، فلم يتلق تلك الرواية إلا عن نبوة.

قالوا: وأما قولكم: إن منا رجلاً مكث أربعين سنة أميراً وخليفة، فإن الإمارة لا تعد فخراً مع الخلافة، ولا تضم إليها، ونحن نقول: إن منا رجلاً مكث سبعة وأربعين سنة خليفة، وهو أحمد الناصر بن الحسن المستضيء، ومنا رجل مكث خمساً وأربعين سنة خليفة، وهو عبد الله القائم ومكث أبوه أحمد القادر ثلاثاً وأربعين سنة خليفة، فملكهما أكثر من ملك بني أمية كلهم، وهم أربع عشرة خليفة. ويقول الطالبيون: منا رجل مكث ستين سنة خليفة، وهو معد بن الطاهر صاحب مصر، وهذه مدة لم يبلغها خليفة ولا ملك من ملوك العرب في قديم الدهر ولا في حديثه.

وقلتم لنا: عاتكة بنت يزيد يكتنفها خمسة من الخلفاء، ونحن نقول: لنا زبيدة بنت جعفر يكتنفها ثمانية من الخلفاء، جدها المنصور خليفة، وعم أبيها السفاح خليفة وعمها المهدي خليفة، وابن عمها الهادي خليفة، وبعلمها الرشيد خليفة، وابنها

الأمين خليفة، وابنا بعلها المأمون والمعتصم خليفتان.

قالوا: وأما ما ذكرتموه من الأعياص والعنابس فلسنا نصدقكم فيما زعمتموه أصلاً بهذه التسمية، وإنما سموا الأعياص لمكان العيص وأبي العيص والعاص وأبي العاص، وهذه أسماءهم لأعلام ليست مشتقة من أفعال لهم كريمة ولا خسيصة. وأما العنابس، فإنما سموا بذلك لأن حرب بن أمية كان اسمه عنيسة، وأما حرب فلقبه، ذكر ذلك النسابون، ولما كان حرب أمثلهم سموا جماعتهم بأسمه، فقليل: العنابس، كما يقال: المهالبة والمناذرة، ولهذا المعنى سمي أبو سفيان بن حرب بن عنيسة، وشمي سعيد بن العاص بن عنيسة.

الجزء السادس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

ومن كتاب له إلى أهل البصرة

الأصل: وقد كان من انتشار جبلكم وشقاقكم ما لم تغبوا عنه، فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السيف عن مدبركم، وقبلت من مقبلكم، فإن خطت بكم الأمور المردية، وسفه الأراء الجائرة، إلى منابذي وخلافي، فهأنذا قد قربت جيادي، ورحلت ركابي.

ولئن ألتأقوني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل إليها إلا كلعقة لاعق، مع أي عارف لذي لطاعة منكم فضله، ولذي النصيحة حقه، غير متجاوز متهماً إلى بري، ولا ناكثاً إلى وفي.

الشرح: ما لم تغبوا عنه، أي لم تسهوا ولم تغفلوا، يقال: غبيت عن الشيء أغبى غباوة، إذا لم يفتن، وغبي الشيء علي كذلك إذا لم تعرفه، وفلان غبي على فعيل، أي قليل الفطنة، وقد تغابى، أي تغافل، يقول لهم: قد كان من خروجكم يوم الجمل عن الطاعة، ونشركم جبل الجماعة، وشقاقكم لي ما لستم أغبياء عنه، فغفرت ورفعت السيف، وقبلت التوبة والآنابة، والمدير ههنا: الهارب، والمقبل: الذي لم يفر، لكن جاءنا فاعتذر وتنصل.

ثم قال: فإن خطت بكم الأمور، خطأ فلان خطوة يخطو، وهو مقدار ما بين القدمين، فهذا لازم، فإن عديته، قلت: أخطيت بفلان، وخطوت به، وههنا قد عداه بالباء، والمردية: المهلكة، والجائرة: العادلة عن الصواب. والمناذرة، مفاعلة، من نبذت إليه عهده أي ألقيته وعدلت عن السلم إلى الحرب، أو من نبذت زيداً، أي أطرحته ولم أحفل به.

قوله: قربت جيادي، أي أمرت بتقريب خيلي إلي لأركب وأسير إليكم.

ورحلت ركابي، الركاب الأبل. ورحلتها: شددت على ظهورها الرحل، قال:

رحلت سمية غداة أجمالها غضبي عليك فماتقول بدا لها

كلعقة لاعق، مثل يضرب للشيء الحقير التافه، ويروى بضم اللام، وهي ما تأخذه الملعقة.

ثم عاد فقال مازجاً الخشونة باللين: مع أي عارف فضل ذي الطاعة منكم، وحق ذي النصيحة، ولو عاقبت لما عاقبت البريء بالسقيم، ولا أخذت الوفي بالناكث.

خطب زياد بالبصرة الخطبة الغراء المشهورة، وقال فيها: والله لآخذن البريء بالسقيم، والبر بالثيم، والوالد بالولد، والجار بالجار، أو تستقيم إلي فئاتكم. فقام أبو بلال مرداس بن أدية يهمس، وهو حينئذ شيخ كبير، فقال: أيها الأمير، أنبأنا الله بخلاف ما قلت، وحكم بغير ما حكمت، قال سبحانه: "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، فقال زياد: يا أبا بلال: إني لم أجهل ما علمت، ولكننا لا نخلص إلى الحق منكم حتى نخوض إليه الباطل خوضاً.

وفي رواية الرياشي: لآخذن الولي بالولي، والمقيم بالطاعن، والمقبل بالمدير والصحيح بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أوتستقيم لي قناتكم.

ومن كتاب له إلى معاوية.

الأصل: فاتق الله فيما لديك، وأنظر في حقه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالتك، فإن للطاعة أعلاماً واضحة، وسبلاً نيرة، ومحجة نهجة، وغاية مطلبة، يردّها أكياس، ويخالفها الأنكاس، من نكب عنها جار عن الحق، وخبط في التيه، وغير الله نعمته، وأحل به نعمته.

نففسك نفسك! فقد بين الله لك سبيلك، وحيث تناهت بك أمورك، فقد أجريت إلى غاية خسر، ومحلة كفر، فإن نفسك قد أوجنتك شراً، وأقحمتك غياً، وأوردتك المهالك، وأوعرت عليك المسالك.

الشرح: قوله: وغاية مطلبة، أي مساعفة لطالبها بما يطلبه، تقول: طلب فلان مني كذا فأطلبته: أي أسعفت به. قال الراوندي: مطلبة بمعنى متطلبة، يقال: طلبت كذا وتطلبتك، وهذا ليس بشيء، ويخرج الكلام عن أن يكون له معنى.

والأكياس: العقلاء، والآنكاس: جمع نكس، وهو الدنيء من الرجال، ونكب عنها: عدل.

قوله: وحيث تناهت بك أمورك، الأولى ألا يكون هذا معطوفاً ولا متصلاً بقوله: فقد بين الله لك سبيلك، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف: حيث أنت، أي قف حيث أنت، فلا يذكرون الفعل، ومثله قولهم: مكانك، أي قف مكانك.

قوله: فقد أجريت، يقال: فلان قد أجرى بكلامه إلى كذا، أي الغاية التي يقصدها هي كذا، مأخوذ من إجراء الخيل للمسابقة، وكذلك قد أجرى بفعله إلى كذا، أي انتهى به إلى كذا، ويروى: قد أوجنتك شراً أو أوردتك في الوحل، والغني ضد الرشاد، وأقحمتك غياً: جعلتك مقتحماً له، وأوعرت عليك المسالك: جعلتها وعرة.

وأول هذا الكتاب: أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر مشاغبي، وتستقيح موازيتي، وترعمني متحيراً وعن الحق مقصراً، فسبحان الله، كيف تستجيز الغيبة، وتستحسن العضيّة! إني لم أشأغب إلا في أمر معروف، أو نهي عن منكر، ولم أتجر إلا على باغ مارق، أو ملحد منافق، ولم آخذ في ذلك إلا بقول الله سبحانه: "لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم"، وأما التقصير في حق الله تعالى فمعاذ الله! وإنما المقصر في حق الله جل ثناؤه من عطل الحقوق المؤكدة، وركن إلى الأهواء المبتدعة، وأخلد إلى الضلالة المحيرة، ومن العجب أن تصف يا معاوية الإحسان، وتخالف البرهان، وتنكث الوثائق التي هي لله عز وجل طلبة، وعلى عباده حجة، مع نبذ الإسلام، وتضييع الأحكام، وطمس الأعلام، والجري في الهوى، والتهوس في الردى، فاتق الله فيما لديك، وانظر في حقه عليك. الفصل المذكور في الكتاب.

وفي الخطبة زيادات يسيرة لم يذكرها الرضي رحمه الله، منها: وإن للناس جماعة يد الله عليها، وغضب الله على من خالفها، فنفسك نفسك قبل حلول رمسك، فإنك إلى الله راجع، وإلى حشره مهطع وسيهطك كربه، ويحل بك غمه، في يوم لا يغني النادم ندمه، ولا يقبل من المعتذر عذره، "يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم يبصرون".

ومن وصيته رضي الله عنه للحسن رضي الله عنه كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين الأصل: من الوالد الفان، المقر للزمان، المدير العمر، المستسلم للدهر، الدائم للدنيا، الساكن مساكن الموتى، الظاعن عنها غداً. إلى المولود المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام، ورهينة الأيام، ورمية المصائب، وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا، وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونصب الأفات، وصرع الشهوات، وخليفة الأموات.

حياة الحسن بن علي عليه رضي الله عنه.

الشرح: قال الزبير بن بكار في كتاب أنساب قريش: ولد الحسن بن علي رضي الله عنه للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناً، وتوفي ليلال خلون من شهر ربيع الأول سنة خمسين. قال: والمروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى حسناً وحسيناً رضي الله عنهما يوم سابعهما، واشتق اسم حسين من اسم حسن.

قال: وروى جعفر بن محمد رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها خلقت حسناً وحسيناً يوم سابعهما ووزنت شعرهما فتصدقت بوزنه قال الزبير: وروت زينب بنت أبي رابع، قالت: أتت فاطمة رضي الله عنها بابنيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شكوه الذي توفي فيه، فقالت: يا رسول الله، هذان أبنائك، فورثهما شيئاً، فقال: أما حسن فإن له هيبتي وسوددي، وأما حسين فإن له جرائتي وجودي.

وروى محمد بن حبيب في أماليه أن الحسن رضي الله عنه حج خمس عشرة حجة ماشياً تقاد الجنايب معه، وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله عز وجل ثلاث مرات ماله، حتى إنه كان يعطي نعلاً ويمسك نعلاً، ويعطي خفاً ويمسك خفاً. وروى أبو جعفر محمد بن حبيب أيضاً أن الحسن رضي الله عنه أعطى شاعراً، فقال له رجل من جلسائه: سبحان الله! أتعطي شاعراً يعصي الرحمن، ويقول البهتان! فقال: يا عبد الله، إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك، وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر.

وروى أبو جعفر، قال: قال ابن عباس رحمه الله: أول ذل دخل على العرب موت الحسن رضي الله عنه. وروى أبو الحسن المدائني، قال: سقى الحسن رضي الله عنه السم أربع مرات، فقال: لقد سقيته مراراً فما شق علي مثل مشقته هذه المرة. فقال له الحسين رضي الله عنه: أخبرني من سقاك، قال: لتقتله، قال: نعم، قال: ما أنا بمخبرك، إن يكن صاحبي الذي أظن فالله أشد نقمة، وإلا فما أحب أن يقتل بي بريء.

وروى أبو الحسن، قال: قال معاوية لابن عباس، ولقيه بمكة: يا عجباً من وفاة الحسن! شرب علة بماء رومة، فقضى نجه، فوجم ابن عباس، فقال معاوية: لا يحزنك الله ولا يسوءك، فقال: لا يسوءني ما أبقاك الله! فأمر له بمائة ألف درهم.

وروى أبو الحسن قال: أول من نعى الحسن رضي الله عنه بالبصرة عبد الله بن سلمة، نعاه لزياد، فخرج الحكم بن أبي العاص الثقفي، فنعاه، فبكى الناس - وأبو بكر يومئذ مريض، فسمع الضجة، فقال: ما هذا، فقالت امرأته ميسة بنت سخام الثقفية: مات الحسن بن علي، فالحمد لله الذي أراح الناس منه! فقال: اسكتي ويحك! فقد أراحه الله من شر كثير،

وفقد الناس بموته خيراً كثيراً، يرحم الله حسناً! قال أبو الحسن المدائني: وكانت وفاته في سنة تسع وأربعين، وكان مرضه أربعين يوماً، وكانت سنه سبعاً وأربعين سنة، دس إليه معاوية سماً على يد جعدة بنت الأشعث بن قيس زوجة الحسن، وقال لها: إن قتلته بالسسم فلك مائة ألف، وأزوجك يزيد ابني. فلما مات وفي لها بالمال، ولم يزوجها من يزيد. قال: أخشى أن تصنع بابني كما صنعت بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيب بن نجبة، قال: سمعت أمير المؤمنين رضي الله عنه، يقول: أنا أحدثكم عني وعن أهل بيتي، أما عبد الله ابن أخي فصاحب لهو وسماح، وأما الحسن فصاحب جفنة وخوان، فتى من فتيان قريش، ولو قد التقت حلقتا البطان لم يغن عنكم شيئاً في الحرب، وأما أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا.

قال أبو جعفر: وروى ابن عباس، قال: دخل الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس في مجلس ضيق، فجلس عند رجله، فتحدث معاوية بما شاء أن يتحدث، ثم قال: عجباً لعائشة! تزعم أي في غير ما أنا أهله. وأن الذي أصبحت فيه ليس لي بحق، ما لها ولهذا! يغفر الله لها، إنما كان ينازعني في هذا الأمر أبو هذا المجلس، وقد استأثر الله به، فقال الحسن: أو عجب ذلك يا معاوية؟ قال: أي والله، قال: أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا، قال: ما هو، قال: جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجلك، فضحك معاوية، وقال: يا بن أخي، بلغني أن عليك ديناً، قال: إن لعلي ديناً، قال: كم هو، قال: مائة ألف، فقال: قد أمرنا لك بثلاثمائة ألف، مائة منها لدينك، ومائة تقسمها في أهل بيتك، ومائة لخاصة نفسك، فقم مكرماً، واقبض صلتك. فلما خرج الحسن رضي الله عنه، قال يزيد بن معاوية لأبيه: تالله ما رأيت رجلاً استقبلك بما استقبلك به، ثم أمرت له بثلاثمائة ألف! قال: يا بني، إن الحق حقهم، فمن أتاك منهم فاحث له. وروى أبو جعفر محمد بن حبيب، قال: قال علي رضي الله عنه: لقد تزوج الحسن وطلق حتى خفت أن يثير عداوة، قال أبو جعفر: وكان الحسن إذا أراد أن يطلق امرأة جلس إليها، فقال: أيسرك أن أهب لك كذا وكذا، فتقول له ما شئت، أو نعم، فيقول: هو لك، فإذا قام أرسل إليها بالطلاق، وبما سمي لها.

وروى أبو الحسن المدائني: قال: تزوج الحسن بن علي رضي الله عنه هنداً بنت سهيل بن عمرو - وكانت عند عبد الله بن عامر بن كريز، فطلقها - فكتب معاوية إلى أبي هريرة أن يخطبها على يزيد بن معاوية، فلقية الحسن رضي الله عنه، فقال: أين تريد، قال: أخطب هنداً بنت سهيل بن عمرو على يزيد بن معاوية، قال الحسن رضي الله عنه: فاذكرني لها، فأتاها أبو هريرة، فخيرها الخبر، فقالت: اختر لي، فقال: أختار لك الحسن. فتزوجته، فقدم عبد الله بن عامر المدينة فقال للحسن: إن لي عند هند وديعة، فدخل إليها والحسن معه، فخرجت حتى جلست بين يدي عبد الله بن عامر، فرق لها رقة عظيمة، فقال الحسن: ألا أنزل لك عنها؟ فلا أراك تجد محلاً خيراً لكما مني! قال: لا، ثم قال لها: وديعتي، فأخرجت سفتين فيهما جوهر، ففتحتهما وأخذ من أحدهما قبضة وترك الآخر عليها، وكانت قبل ابن عامر عند عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، فكانت تقول: سيدهم جميعاً الحسن، وأسخاهم ابن عامر، وأحبهم إلي عبد الرحمن بن عتاب.

وروى أبو الحسن المدائني: قال: تزوج الحسن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان المنذر بن الزبير يهواها، فأبلغ الحسن عنها شيئاً فطلقها، فخطبها المنذر، فأبت أن تتزوجه، وقالت: شهر بي! فخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب،

فتزوجها، فأبلغه المنذر عنها شيئاً فطلقها، فخطبها المنذر، فقبل لها: تزوجيه، فقالت: لا والله ما أفعل، وقد فعل بي ما قد فعل مرتين، لا والله لا يراني في منزله أبداً.

وروى المدائني، عن جويرية بن أسماء، قال: لما مات الحسن رضي الله عنه، أخرجوا جنازته، فحمل مروان بن الحكم سريره، فقال له الحسين رضي الله عنه: تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرعه الغيظ، قال مروان: نعم، كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال.

وروى المدائني عن يحيى بن زكريا، عن هشام بن عروة، قال: قال الحسن عند وفاته: ادفنوني عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن تخافوا أن يكون في ذلك شر، فلما أرادوا دفنه، قال مروان بن الحكم: لا يدفن عثمان في حش كوكب، ويدفن الحسن ههنا، فاجتمع بنو هاشم وبنو أمية، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم، وجاؤوا بالسلاح، فقال أبو هريرة لمروان: أتمنع الحسن أن يدفن في هذا الموضع، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة!" قال مروان: دعنا منك، لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبي سعيد الخدري! وإنما أسلمت أيام خبير، قال أبو هريرة: صدقت، أسلمت أيام خبير، ولكنني لزممت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أكن أفارقه، وكنت أسأله، وعנית بذلك حتى علمت من أحب ومن أبغض، ومن قرب ومن أبعد، ومن أقر ومن نفى، ومن لعن ومن دعا له، فلما رأت عائشة السلاح والرجال، وخافت أن يعظم الشر بينهم، وتسفك الدماء، قالت: البيت بيتي، ولا آذن لأحد أن يدفن فيه، وأبى الحسين رضي الله عنه أن يدفنه إلا مع جده، فقال له محمد بن الحنفية: يا أخي، إنه لو أوصى أن يدفنه لدفناه أو نموت قبل ذلك، ولكنه قد استثنى، وقال: إلا أن تخافوا الشر، فأبي شر يرى أشد مما نحن فيه! فدفنوه في البقيع.

قال أبو الحسن المدائني: وصل نعي الحسن رضي الله عنه إلى البصرة في يومين وليلتين، فقال الجارود بن أبي سبرة:

وإن كان خير آخر السير أربعا

إذا كان شر سار يوماً وليلة

بإحدى الدواهي الربد سار وأسرعاً

إذا ما بريد الشر أقبل نحونا

وروى أبو الحسن المدائني: قال: خرج على معاوية قوم من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلح الحسن رضي الله عنه له فأرسل معاوية إلى الحسن رضي الله عنه يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج، فقال الحسن: سبحان الله! تركت قتالك وهو لي حلال لصلاح الأمة وألفتهم، أفتراني أقاتل معك! فخطب معاوية أهل الكوفة، فقال: يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك، وأنتم كارهون، إلا إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين، ولا يصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وإقبال الجنود لوقتتها، وغزو العدو في داره، فإنهم إن لم تغزوهم غزوكم. ثم نزل.

قال المدائني: فقال المسيب بن نجة للحسن رضي الله عنه: ما ينقضي عجيبي منك! بايعت معاوية ومعك أربعون ألفاً، ولم

تأخذ لنفسك وثيقةً وعقداً ظاهراً، أعطاك أمراً فيما بينك وبينه، ثم قال ما قد سمعت، والله ما أراد بها غيرك، قال: فما ترى، قال: أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه، فقد نقض ما كان بينه وبينك. فقال: يا مسيب، إني لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب مني، ولكني أردت صلاحكم، وكف بعضكم عن بعض، فارضوا بقدر الله وقضائه، حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر.

قال المدائني: ودخل عبيدة بن عمرو الكندي على الحسن رضي الله عنه - وكان ضرب على وجهه ضربة وهو مع قيس بن سعد بن عباد - فقال: ما الذي أرى بوجهك، قال: أصابني مع قيس. فالتفت حجر بن عدي إلى الحسن، فقال: لوددت أنك كنت مت قبل هذا اليوم، ولم يكن ما كان، إنا رجعنا راغمين بما كرهنا، ورجعوا مسرورين بما أحبوا. فتغير وجه الحسن، وغمز الحسين رضي الله عنه حجراً، فسكت، فقال الحسن رضي الله عنه: يا حجر، ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيته كرايك، وما فعلت إلا إبقاءً عليك، والله كل يوم في شأن.

قال المدائني: ودخل عليه سفيان بن أبي ليلى النهدي، فقال له: السلام عليك يا مذل المؤمنين! فقال الحسن: اجلس يرحمك الله، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع له ملك بني أمية، فنظر إليهم يعلون منبره واحداً فواحداً، فشق ذلك عليه، فأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً قال له: "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن". وسمعت علياً رضي الله عنه يقول: سيلي أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم، كبير البطن، فسألته: من هو، فقال: معاوية. وقال لي: إن القرآن قد نطق بملك بني أمية ومدتهم، قال تعالى: "ليلة القدر خير من ألف شهر"، قال أبي: هذه ملك بني أمية.

قال المدائني: فلما كان عام الصلح، أقام الحسن رضي الله عنه بالكوفة أياماً، ثم تجهز للشخص إلى المدينة، فدخل عليه المسيب بن نجبة الفزاري وظيفان بن عمار التيمي ليودعاه، فقال الحسن: الحمد لله الغالب على أمره، لو أجمع الخلق جميعاً على ألا يكون ما هو كائن ما استطاعوا. فقال أخوه الحسين رضي الله عنه: لقد كنت كارهاً لما كان طيب النفس على سبيل أبي حتى عزم علي أخي، فأطعته، وكأنا يجذ أنفي بالمواصي، فقال المسيب: إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تضاموا وتتقصوا، فأما نحن، فإنهم سيطلبون مودتنا بكل ما قدروا عليه، فقال الحسين: يا مسيب، نحن نعلم أنك تحبنا، فقال! الحسن رضي الله عنه: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من أحب قوماً كان معهم"، فعرض له المسيب وظيفان بالرجوع، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فلما كان من غد خرج، فلما صار بدير هند نظر إلى الكوفة، وقال:

هم المانعون حوزتي وذماري

ولا عن قلبي فارقت دار معاشري

ثم سار إلى المدينة.

قال المدائني: فقال معاوية يومئذ للوليد بن عقبة بن أبي معيط بعد شخص الحسن رضي الله عنه: يا أبا وهب، هل

رمت، قال: نعم، وسموت.

قال المدائني: أراد معاوية قول الوليد بن عقبة يحرضه على الطلب بدم عثمان:

فإنك من أخي ثقة مليم

تهدر في دمشق ولا تريم

لشمر لا ألف ولا سؤوم

كدابغة وقد حلما لأديم

ألا أبلغ معاوية بن حرب

قطعت الدهر كالسدم المعنى

فلو كنت القتل وكان حياً

وإنك والكتاب إلى علي

وروى المدائني، عن إبراهيم بن محمد، عن زيد بن أسلم، قال: دخل رجل على الحسن رضي الله عنه بالمدينة، وفي يده

صحيفة، فقال له الرجل: ما هذه، قال: هذا كتاب معاوية، يتوعد فيه على أمر كذا، فقال الرجل: لقد كنت على

النصف، فما فعلت؟ فقال له الحسن رضي الله عنه: أجل، ولكني خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً،

تشخب أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله فيم هريق دمه! قال أبو الحسن: وكان الحصين بن المنذر الرقاشي يقول: والله

ما وفي معاوية للحسن بشيء مما أعطاه، قتل حجراً وأصحاب حجر، وبايع لابنه يزيد، وسم الحسن.

قال المدائني: وروى أبو الطفيل، قال: قال الحسن رضي الله عنه لمولى له: أتعرف معاوية بن خديج، قال: نعم، قال: إذا

رأيت فاعلمني، فأراه خارجاً من دار عمرو بن حريث، فقال: هو هذا! فدعاه، فقال: هل أنت الشاتم علياً عند ابن آكلة

الأكباد! أما والله لئن وردت الحوض ولن ترده لترينه مشمراً عن ساقيه، حاسراً عن ذراعيه، يذود عنه المنافقين.

قال أبو الحسن: وروى هذا الخبر أيضاً قيس بن الربيع، عن بدر بن الخليل، عن مولى الحسن رضي الله عنه .

قال أبو الحسن: وحدثنا سليمان بن أيوب، عن الأسود بن قيس العبدى، أن الحسن رضي الله عنه لقي يوماً حبيب بن

مسلمة فقال له: يا حبيب، رب مسير لك في غير طاعة الله! فقال: أما مسيري إلى أبيك فليس من ذلك، قال، بلى والله،

ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة، فلئن قام بك في دنياك، لقد قعد بك في آخرتك، ولو كنت إذ فعلت شراً قلت

خيراً، كان ذلك، كما قال عز وجل: "خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً"، ولكنك كما قال سبحانه: "كلا بل ران على

قلوبهم ما كانوا يكسبون".

قال أبو الحسن: طلب زياد رجلاً من أصحاب الحسن، ممن كان في كتاب الأمان، فكتب إليه الحسن: من الحسن بن علي

إلى زياد، أما بعد، فقد علمت ما كنا أخذنا من الأمان لأصحابنا، وقد ذكر لي فلان أنك تعرضت له، فاحب ألا تعرض

له إلا بخير. والسلام. فلما أتاه الكتاب، وذلك بعد إدعاء معاوية إياه غضب حيث لم ينسبه إلى أبي سفيان، فكتب إليه:

من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن، أما بعد، فإنه أتاني كتابك في فاسق تؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك، وإيم الله

لأطلبه بين جلدك ولحمك، وإن أحب الناس إلي لحم أن آكله للحم أنت منه والسلام.

فلما قرأ الحسن رضي الله عنه الكتاب، بعث به إلى معاوية، فلما قرأه غضب وكتب: من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد.

أما بعد، فإن لك رأيين: رأياً من أبي سفيان ورأياً من سمية، فأما رأيك من أبي سفيان فحلم وحزم، وأما رأيك من سمية

فما يكون من مثلها. إن الحسن بن علي رضي الله عنه كتب إلي بأنك عرضت لصاحبه، فلا تعرض له، فإني لم أجعل لك عليه سبيلاً، وإن الحسن ليس ممن يرمى به الرجوان ، والعجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه أو إلى أمه، فالآن حين اخترت له، والسلام.

قلت: جرى في مجلس بعض الأكابر وأنا حاضر القول في أن علياً رضي الله عنه شرف بفاطمة رضي الله عنه فقال إنسان كان حاضر المجلس: بل فاطمة من شرفت به وخاض الحاضرون في ذلك بعد إنكارهم تلك اللفظة، وسألني صاحب المجلس أن أذكر ما عندي في المعنى وأن أوضح: أيهما أفضل: علي أم فاطمة، فقلت: أما أيهما أفضل، فإن أريد بالأفضل الأجمع للمناقب التي تتفاضل بها الناس، نحو العلم والشجاعة ونحو ذلك، فعلي أفضل، وإن أريد بالأفضل الأرفع مثله عند الله، فالذي أستقر عليه رأي المتأخرين من أصحابنا، أن علياً أرفع المسلمين كافة عند الله تعالى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكور والآنث، وفاطمة امرأة من المسلمين، وإن كانت سيدة نساء العالمين، ويدل على ذلك أنه قد ثبت أنه أحب الخلق إلى الله تعالى بحديث الطائر، وفاطمة من الخلق، وأحب الخلق إليه سبحانه أعظمهم ثواباً يوم القيامة، على ما فسره المحققون من أهل الكلام، وإن أريد بالأفضل الأشر نسباً، ففاطمة أفضل لأن أباه سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، فليس في آباء علي رضي الله عنه مثله ولا مقارنه، وإن أريد بالأفضل من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد عليه حنواً وأمس به رحماً، ففاطمة أفضل، لأنها ابنته، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحب لها والحنو عليها جداً، وهي أقرب إليه نسباً من ابن العم، لا شبهة في ذلك.

فأما القول في أن علياً شرف بها أو شرفت به، فإن علياً قد كانت أسباب شرفه وتميزه على الناس متنوعة، فمنها ما هو متعلق بفاطمة رضي الله عنه ، ومنها ما هو متعلق بأبيها صلوات الله عليه، ومنها ما هو مستقل بنفسه.

فأما الذي هو مستقل بنفسه، فنحو شجاعته وعفته وحلمه وقناعته وسجاجة أخلاقه وسماحة نفسه. وأما الذي هو متعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنحو علمه ودينه وزهده وعبادته، وسبقه إلى الإسلام وإخباره بالغيوب.

وأما الذي يتعلق بفاطمة رضي الله عنها فنكاحه لها، حتى صار بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الصهر المضاف إلى النسب والسبب، وحتى إن ذريته منها صارت ذرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجزاء من ذاته صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن الولد إنما يكون من مني الرجل ودم المرأة، وهما جزآن من ذاتي الأب والأم، ثم هكذا أبداً في ولد الولد ومن بعده من البطون دائماً. فهذا هو القول في شرف علي رضي الله عنه بفاطمة.

فأما شرفها به فإنها وإن كانت ابنة سيد العالمين، إلا أن كونها زوجة علي أفادها نوعاً من شرف آخر زائداً على ذلك الشر فالأول، ألا ترى أن أباه لو زوجها أبا هريرة أو أنس بن مالك لم يكن حالها في العظمة والجلالة كحالها الآن، وكذلك لو كان بنوها وذريتها من أبي هريرة وأنس بن مالك لم يكن حالهم في أنفسهم كحالهم الآن.

قال أبو الحسن المدائني: وكان الحسن كثير التزوج، تزوج خولة بنت منظور بن زبان الفزارية، وأمها مليكة بنت خارجة بن سنان، فولدت له الحسن بن الحسن، وتزوج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، فولدت له ابناً سماه طلحة، وتزوج أم بشر بنت أبي مسعود الأنصاري - واسم أبي مسعود عقبة بن عمر - فولدت له زيد بن الحسن، وتزوج جعدة بنت

الأشعث بن قيس، وهي التي سقته السم، وتزوج هنداً بنت سهيل بن عمرو، وحفصة ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر، وتزوج امرأة من كلب، وتزوج امرأة من بنات عمرو بن أهتم المنقري، و امرأة من ثقيف، فولدت له عمرًا، وتزوج امرأة من بنات علقمة بن زرارة، و امرأة من بني شيبان من آل همام بن مرة، فقيل له: إنها ترى رأي الخوارج، فطلقها، وقال: إني أكره أن أضم إلى نخري جمرة من جمر جهنم.

قال المدائني: وخطب إلى رجل فزوجه، وقال له: إني مزوجك، وأعلم أنك ملق طلق غلق، ولكنك خير الناس نسبًا، وأرفعهم جدًّا وأبًّا.

قلت: أما قوله ملق طلق، فقد صدق، أما قوله غلق فلا، فإن الغلق الكثير الضجر، وكان الحسن رضي الله عنه أوسع الناس صدرًا وأسجحهم خلقًا.

قال المدائني: أحصيت زوجات الحسن بن علي فكن سبعين امرأة.

قال المدائني: ولما توفي علي رضي الله عنه خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس، فقال: إن أمير المؤمنين رضي الله عنه توفي، وقد ترك خلفًا، فإن أحببتم خرج إليكم، وإن كرهتم فلا أحد على أحد، فبكى الناس، وقالوا: بل يخرج إلينا، فخرج الحسن رضي الله عنه، فخطبهم فقال: أيها الناس، اتقوا الله، فإننا امرؤكم وأوليائكم، وإنا أهل البيت الذين قال الله تعالى فينا: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا"، فبايعه الناس.

وكان خرج إليهم وعليه ثياب سود، ثم وجه عبد الله بن عباس ومعه قيس بن سعد بن عبادة مقدمة له في اثني عشر ألفًا إلى الشام، وخرج وهو يريد المدائن، فطعن بساباط وانتهب متاعه، ودخل المدائن، وبلغ ذلك معاوية، فأشاعه، وجعل أصحاب الحسن الذين وجههم مع عبد الله يتسللون إلى معاوية، والوجه وأهل البيوتات. فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن رضي الله عنه فخطب الناس ووبخهم، وقال: خالفتم أبي حتى حكم وهو كاره، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم، فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله، ثم بايعتموني على أن تسالموا من سالمي، وتحاربوا من حاربي، وقد أتانى أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية، وبايعوه، فحسي منكم، لا تغروني من ديني ونفسي.

وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وأمه هند بنت أبي سفيان بن حرب - إلى معاوية يسأله مسألة، واشتراط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيه، وألا يبايع لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، وأن يكون الناس أجمعون آمنين.

وكتب بذلك كتابًا، فأبى الحسين رضي الله عنه، و امتنع، فكلمه الحسن حتى رضي، وقدم معاوية إلى الكوفة.

قال أبو الحسن: وحدثنا أبو بكر بن الأسود، قال: كتب ابن العباس إلى الحسن: أما بعد فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد علي رضي الله عنه، فشمر للحرب، وجاهد عدوك، وقارب أصحابك، واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دينًا، ووال أهل البيوتات والشرف، تستصلح به عشائرتهم، حتى يكون الناس جماعة، فإن بعض ما يكره الناس - ما لم يتعد الحق، وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل، وعز الدين - خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين، وعز الفاجرين، واقتد بما جاء عن أئمة العدل، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا في حرب أو إصلاح بين الناس، فإن الحرب خدعة، ولك في ذلك سعة إذا كنت محاربًا، ما لم تبطل حقًا.

واعلم أن علياً إنما رغب الناس عنه إلى معاوية، أنه أساء بينهم في الفبيء، وسوى بينهم في العطاء، فثقل عليهم، واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام، حتى ظهر أمر الله، فلما وحد الرب، ومحق الشرك، وعز الدين، أظهروا الإيمان وقرأوا القرآن، مستهزئين بآياته، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى، وأدوا الفرائض وهم لها كارهون، فلما رأوا أنه لا يعز في الدين إلا الأتقياء الأبرار، توسموا بسيما الصالحين، ليظن المسلمون بهم خيراً، فما زالوا بذلك حتى شركوهم في أماناتهم، وقالوا: حسابهم على الله، فإن كانوا صادقين فإخواننا في الدين، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم، والله ما زادهم طول العمر إلا غيأً، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتاً، فجاهدهم ولا ترض دنية، ولا تقبل خسفاً، فإن علياً لم يجب إلى الحكومة حتى غلب على أمره فأجاب، وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل، فلما حكموا بالهوى، رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله، ولا تخرجن من حق أنت أولى به، حتى يحول الموت دون ذلك. والسلام.

قال المدائني: وكتب الحسن رضي الله عنه إلى معاوية: من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، فأظهر له الحق، وقمع له الشرك، وأعز له العرب عامة، وشرف له قريشاً خاصة، فقال: "وإنه لذكر لك ولقومك"، فلما توفاه الله تنازعت العرب في الأمر بعده، فقالت قريش: نحن عشيرته وأوليأؤه، فلا تنازعونا سلطانه، فعرفت العرب لقريش ذلك، وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب، فهيها! ما أنصفتنا قريش وقد كانوا ذوي فضيلة في الدين، وسابقة في الإسلام، ولا غرو إلا منازعتك إيانا الأمر بغير حق في الدنيا معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، فالله الموعد، نسأل الله معروفة ألا يؤتينا في هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنده في الآخرة. إن علياً لما توفاه الله ولاني المسلمون الأمر بعده، فاتق الله يا معاوية، وانظر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ما تحقن به دماءها، وتصلح به أمرها. والسلام.

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سويد التيمي، تيم الرباب، وجندب الأزدي، فقدموا على معاوية فدعوا إلى بيعة الحسن رضي الله عنه فلم يجبهما، وكتب جوابه: أما بعد، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده، فصرحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر وأبي عبيدة الأمين، وصلحاء المهاجرين، فكرهت لك ذلك، إ الأمة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشاً أخلقها به، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله، وأخشأها له، وأقواها على الأمر، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ويذب عن حرم الإسلام ذبه ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه، فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية، وأحوط على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأكيد للعدو، وأقوى على جمع الفبيء، لسلمت لك الأمر بعد أبيك إن أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلوماً، فطالب الله بدمه، ومن يطلبه الله فلن يفوته. ثم ابتز الأمة أمرها، وفرق ساعتها، فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم في الإسلام، وادعى أنهم نكثوا بيعته، فقاتلهم فسفكت الدماء، واستحلت الحرم، ثم أقبل إلينا لا يدعي علينا بيعة، ولكنه يريد أن يملكنا اغتراراً، فحاربناه وحاربنا، ثم صارت الحرب إلى أن، اختار رجلاً واختارنا رجلاً، ليحكمنا بما تصلح عليه الأمة،

وتعود به الجماعة والألفة، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقاً وعليه مثله وعلينا مثله، على الرضا بما حكما، فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت، وخلعاه فو الله ما رضي بالحكم، ولا صبر لأمر الله، كيف تدعوني إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك؟ وقد خرج منه! فانظر لنفسك ولدينك. والسلام.

قال: ثم قال للحارث وجندب: ارجعا فليس بيني وبينكم إلا السيف، فرجعا وأقبل إلى العراق في ستين ألفاً، استخلف على الشام الضحاك بن قيس الفهري والحسن مقيم بالكوفة، لم يشخص حتى بلغه أن معاوية قد عبر جسر منبج، فوجه حجر بن عدي يأمر العمال بالأحتراس، ويذب الناس، فسارعوا. فعقد لقيس بن سعد بن عباداة على اثني عشر ألفاً، فترل دير عبد الرحمن، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأمر قيس بن سعد بالمسير، وودعه وأوصاه، فأخذ على الفرات وقرى الفلوجة، ثم إلى مسكن. وارتحل الحسن رضي الله عنه متوجهاً نحو المدائن، فأتى ساباط فأقام بها أياماً، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن قام فخطب الناس، فقال: أيها الناس، إنكم بايعتموني على أن تسالموا من سالمتم وتحاربوا من حاربتم، وإني والله ما أصبحت محتملاً على أحد من هذه الأمة ضغينة لا شرق ولا غرب، ولما تكرهون في الجماعة والألفة والأمن، وصلاح ذات البين خير مما تحبون في الفرقة، والخوف والتباغض والعداوة، وإن علياً أي كان يقول: لا تكرهوا إمارة معاوية، فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرؤوس تندرج عن كواهلها كالحنظل. ثم نزل. فقال الناس: ما قال هذا القول إلا وهو خالع نفسه وسلم الأمر لمعاوية، فثاروا به فقطعوا كلامه، وانتهبوا متاعه، وانتزعوا مطرفاً كان عليه، وأخذوا جارية كانت معه، واختلف الناس فصارت طائفة معه، وأكثرهم عليه، فقال: اللهم أنت المستعان، وأمر بالرحيل، فارتحل الناس، وأتاه رجل بفرس، فركبه وأطاف به بعض أصحابه، فمنعوا الناس عنه وساروا، فقدمه سنان بن الجراح الأسدي إلى مظلم ساباط، فأقام به فلما دنا منه تقدم إليه يكلمه، وطعنه في فخذه بالمعول طعنة كادت تصل إلى العظم، فغشي عليه وابتدره أصحابه، فسبق إليه عبيد الله الطائي، فصرع سناناً وأخذ ظبيان بن عمارة المعول من يده، فضربه به فقطع أنفه، ثم ضربه بصخرة على رأسه فقتله، وأفاق الحسن رضي الله عنه من غشيته، فعصبوا جرحه وقد نزف وضعف، فقدموا به المدائن وعليها سعد بن مسعود، عم المختار بن أبي عبيد، وأقام بالمدائن حتى برىء من جرحه.

قال المدائني: وكان الحسن رضي الله عنه أكبر ولد علي، وكان سيداً سخيّاً حليماً خطيباً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه، سابق يوماً بين الحسين وبينه فسبق الحسن، فأجلسه على فخذه اليماني، ثم أجلس الحسين على الفخذ اليسرى، فقيل له: يا رسول الله أيهما أحب إليك؟ فقال: أقول كما قال إبراهيم أبونا، وقيل له: أي ابنك أحب إليك؟ قال: أكبرهما وهو الذي يلد ابني محمداً.

وروى المدائني عن زيد ابن أرقم، قال: خرج الحسن رضي الله عنه وهو صغير، وعليه برده ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب، فعثر فسقط، فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطبة، ونزل مسرعاً إليه، وقد حمله الناس، فتسلمه وأخذه على كتفيه، وقال: إن الولد لفتنة، لقد نزلت إليه وما أدري! ثم صعد فأتم الخطبة.

وروى المدائني، قال: لقي عمرو بن العاص الحسن رضي الله عنه في الطواف، فقال له: يا حسن، زعمت أن الدين لا

يقوم إلا بك وبأبيك، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية، فجعله راسياً بعد ميله، وبيناً بعد خفائه، أفرضي الله بقتل عثمان، أو من الحق أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطحين، عليك ثياب كعرقىء البيض، وأنت قاتل عثمان، والله إنه لألم للشعث، وأسهل للوعث، أن يوردك معاوية حياض أبيك، فقال الحسن رضي الله عنه : إن لأهل النار علامات يعرفون بها، إلحاداً لأولياء الله، وموالاة لأعداء الله، والله إنك لتعلم أن علياً لم يرتب في الدين، ولا يشك في الله ساعة ولا طرفة عين قط، وأيم الله لتنتهين يابن أم عمرو أو لأنفذن حضنيك بنوافذ أشد من القعضية ، فإياك والتهجم علي، فإني من قد عرفت، لست بضعيف الغمزة، ولا هش المشاشة، ولا مرىء المأكلة، وإني من قريش كواسطة القلادة، يعرف حسبي، ولا أدعى لغير أبي، وأنت من تعلم ويعلم الناس، تحاكت فيك رجال قريش، فغلب عليك جزازها، الأمهم حسباً، وأعظمهم لؤماً، فإياك عني، فإنك رجس، ونحن أهل بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً. فأفحم عمرو وانصرف كتيباً.

وروى أبو الحسن المدائني قال: سأل معاوية الحسن بن علي بعد الصلح أن يخطب الناس، ف امتنع، فناشده أن يفعل، فوضع له كرسي، فجلس عليه، ثم قال: الحمد لله الذي توحد في ملكه، وتفرد في ربوبيته، يؤتي الملك من يشاء، ويتزعه عمن يشاء. والحمد لله الذي أكرم بنا مؤمنكم، وأخرج من الشرك أولكم، وحقق دماء آخركم، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء، إن شكرتم أو كفرتم. أيها الناس، إن رب علي كان أعلم بعلي حين قبضه إليه، ولقد أختصه بفضل لم تعتادوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقته، فهيهات هيهات! طالما قليتكم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم وهو صاحبكم، وعدوكم في بدر وأخواتها، جرعكم رنقاً، وسقاكم علقاً، وأذل رقابكم، وأشرقكم بريقكم، فلستم بملومين على بغضه. وأيم الله لا ترى أمة محمد خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أمية، ولقد وجه الله إليكم فتنة لن تصدوا عنها حتى تهلكوا، لطاعتكم طواغيتكم، وانضوائكم إلى شياطينكم، فعند الله أحتسب ما مضى وما ينتظر من سوء دعتكم، وحيف حكمكم. ثم قال: يا أهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهم من مرامي الله، صائب على أعداء الله، نكال على فجار قريش، لم يزل آخذاً بجناجرها، جاثماً على أنفاسها، ليس بالملومة في أمر الله، ولا بالسروقة لمال الله، ولا بالفروقة في حرب أعداء الله، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه، دعاه فأجابته، وقاده فاتبعه، لا تأخذه في الله لومة لائم، فصلوات الله عليه ورحمته. ثم نزل.

فقال معاوية: أخطأ عجل أو كاد، وأصاب مثبت أو كاد، ماذا أردت من خطبة الحسن! فأما أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، فإنه قال: كان في لسان أبي محمد الحسن رضي الله عنه ثقل كالفأفة، حدثني بذلك محمد بن الحسين الأشناني، قال: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي، عن مفضل بن صالح، عن جابر، قال: كان في لسان الحسن رضي الله عنه رتبة، فكان سلمان الفارسي رحمه الله يقول: أتته من قبل عمه موسى بن عمران رضي الله عنه . قال أبو الفرج: ومات شهيداً مسموماً، دس معاوية إليه وإلى سعد بن أبي وقاص حين أراد أن يعهد إلى يزيد ابنه بالأمر بعده سماً، فمات منه في أيام متقاربة، وكان الذي تولى ذلك من الحسن رضي الله عنه زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس بمال بذله لها معاوية. ويقال: إن اسمها سكيئة، ويقال عائشة ويقال: شعثاء، والصحيح أن اسمها جعدة.

قال أبو الفرج: فروى عمرو بن ثابت، قال: كنت أختلف إلى أبي إسحاق السبيعي سنة، أسأله عن الخطبة التي خطب بها الحسن بن علي رضي الله عنه عقيب وفاة أبيه، ولا يحدثني بها، فدخلت إليه في يوم شات وهو في الشمس، وعليه برنسه، فكأنه غول، فقال لي: من أنت، فأخبرته، فبكى، وقال: كيف أبوك، وكيف أهلك، قلت: صالحون، قال: في أي شيء تتردد منذ سنة، قلت: في خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه.

فقال: حدثني هبيرة بن مريم، قال: خطب الحسن رضي الله عنه بعد وفاة أمير المؤمنين رضي الله عنه، فقال: قد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون بعمل. لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسبقه بنفسه، ولقد كان يوجهه برايته.

فيكنفه جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه، ولقد توفي في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم، والتي توفي فيها يوشع بن نون، وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه، أراد أن يتاع بها خادماً لأهله.

ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه ثم قال: أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين أفترض الله مودتهم في كتابه، إذ يقول: "ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً"، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت.

قال أبو الفرج: فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة، قام عبد الله بن العباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا وقالوا: ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة، فبايعوه، ثم نزل من المنبر.

قال أبو الفرج: ودس معاوية رجلاً من حمير إلى الكوفة، ورجلاً من بني القين إلى البصرة يكتبان إليه بالأخبار، فدل على الحميري وعلى القيني، فاحذا وقتلا.

وكتب الحسن إلى معاوية: أما بعد، فإنك دسست إلي الرجال، كأنك تحب اللقاء، لا أشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله. وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به الحجي، وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول:

يروح فيمسي في المبيت ليغتدي

فإنما ومن قد مات منا لكالذي

تجهز الأخرى مثلها فكأن قد

فقل للذي مضى

فأجابه معاوية: أما بعد، فقد وصل كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن، ولم أشمت ولم آس، وإن علياً أباك لكما قال أعشى بني قيسر بن ثعلبة:

إذا ما القلوب ملأن الصدورا

فأنت الجواد وأنت الذي

ء يضرب منها النساء النحورا

جدير بطعنة يوم اللقا

ر يعلوا لأكام ويعلو الجسورا

وما مزيد من خليج البحا

بأجود منه بما عنده

فيعطيا لألوف ويعطي البدورا

قال أبو الفرج: وكتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى معاوية: أما بعد، فإنك ودسك أخا بني القين إلى البصرة، تلمس من غفلات قريش بمثل ما ظفرت به من يمانيتك، لكما قال أمية بن أبي الأسكر:

لعمرك إني والخزاعي طارقاً

كنعجة عاد حتفها تتحفز

أثارت عليها شفرة بكراعها

فظلت بها من آخر الليل تنحر

شمت بقوم من صديقك أهلكوا

أصابهم يوم من الدهر أصفر

فأجابه معاوية: أما بعد، فإن الحسن بن علي، قد كتب إلي بنحو مما كتبت به، وأنبأني بما لم يحقق سوء ظن ورأي في، وإنك لم تصب مثلي ومثلكم، وإنما مثلنا كما قال طارق الخزاعي يجب أمية عن هذا الشعر:

فو الله ما أدري وإني لصادق

إلى أي من يظنني أتعذر

أعنف إن كانت زبينة أهلكت

ونال بني لحيان شر فأنفروا

قال أبو الفرج: وكان أول شيء أحدثه الحسن رضي الله عنه أنه زاد المقاتلة مائة مائة، وقد كان علي رضي الله عنه فعل ذلك يوم الجمل، وفعله الحسن حال الاستخلاف، فتبعه الخلفاء من بعده في ذلك.

قال: وكتب الحسن رضي الله عنه إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزدي: من الحسن بن علي أمير المؤمنين إلى معاوية

بن أبي سفيان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة

للعالمين، ومنه للمؤمنين، وكافة للناس أجمعين، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فبلغ رسالات الله، وقام

بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان، وبعد أن أظهر الله به الحق، ومحق به الشرك، وخص به قريشاً خاصة فقال له:

"وإنه لذكر لك ولقومك". فلما توفي تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولا يحل لكم

أن تنازعونا سلطان محمد وحقه، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش، وأن الحجة في ذلك لهم على من نازعهم أمر

محمد، فأنعمت لهم، وسلمت إليهم. ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف

العرب لها، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف والاحتجاج، فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياؤه إلى محاجتهم،

وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا بالإجماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا، فالموعد الله، وهو الولي النصير.

ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، و امسكنا عن

منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا

من إفساده، فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر

في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتابه، والله

حسيبك، فسترد فتعلم لمن عقبى الدار، وبالله لتلقين عن قليل ربك، ثم ليجزينك بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد.

إن علياً لما مضى لسبيله - رحمة الله عليه يوم قبض ويوم من الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حياً - ولاني المسلمون الأمر

بعده، فأسأل الله ألا يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة، وإنما حملني على الكتاب إليك الأعذار فيما بيني وبين الله عز وجل في أمرك، ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم، والصالح للمسلمين، فدع التماذي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أي أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أبواب حفيظ، ومن له قلب منيب. واتق الله ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فو الله ما لك خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقية به، وادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك، ليطفىء الله النائرة بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلا التماذي في غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فكتب معاوية إليه: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي، سلام الله عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضل، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله قديمه وحديثه، وصغيره وكبيره. وقد والله بلغ وأدى، ونصح وهدى، حتى أنقذ الله به من الهلكة، وأنار به من العمى، وهدى به من الجهالة والضلالة، فجازه الله أفضل ما جزى نبياً عن أمته، وصلوات الله عليه يوم ولد، ويوم بعث، ويوم قبض، ويوم يبعث حياً! وذكرت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتنازع المسلمين الأمر بعده، وتغلبهم على أبيك، فصرحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك، إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين ولا المسيء، ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد، والذكر الجميل.

إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم ولا سابقتمكم، ولا قرابتكم من نبيكم، ولا مكانكم في الإسلام وأهله، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سادة الناس وعوامهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاماً، وأعلمها بالله، وأحبها له، وأقواها على أمر الله، فاختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأي ذوي الدين والفضل، والناظرين لأمة، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أتوا بالمخطئين، ولو رأى المسلمون أن فيكم من يغني غناؤه، ويقوم مقامه، ويذب عن حريم الإسلام ذبه، ما عدلوا بالأمر إلى غيره عنه، ولكنهم علموا في ذلك بما رأوه صلاحاً للإسلام وأهله، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيراً.

وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلو علمت أنك أضبط مني للرعية، وأحوط على هذه الامة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع ال اموال، وأكد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلاً، ولكن قد علمت أي أطول منك ولآية، وأقدم منك بهذه ال امة تجربة، وأكبر منك سناً، فأنت أحق أن تجيبي إلى هذه المثلة التي سألتني، فادخل في طاعتي، ولك الأمر من بعدي، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما يبلغ، تحمله إلى حيث أحببت، ولك خراج أي كور العراق شئت، معونة لك على نفقتك يجيها امينك ويحملها إليك في كل سنة، ولكالاً نستولي عليك بالأساءة، ولا نقضي دونك الأمور، ولا نعصي في أمر أردت به طاعة الله. أعاننا الله وإياك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء. والسلام.

قال جندب: فلما أتيت الحسن بكتاب معاوية، قلت له: إن الرجل سائر إليك، فابدأه بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعمله، فأما أن تقدر أنه ينقاد لك، فلا والله حتى يرى منا أعظم من يوم صفين. فقال: أفعل، ثم قعد عن مشورتني وتناسى قولي.

قالوا: وكتب معاوية إلى الحسن:

أما بعد، فإن الله يفعل في عباده ما يشاء، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، فاحذر أن تكون منيتك على أيدي رعا من الناس، وآتيس من أن تجد فينا غميرة، وإن أنت عرضت عما أنت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت، وأجريت لك ما شرطت، وأكون في ذلك كما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

فأوف بها تدعى إذا مت وافيًا

وإن أحد أسدى أمانةً

ولا تجفه إن كان في المال فانيًا

ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى

ثم الخلافة لك من بعدي، فأنت أولى الناس بها، والسلام.

فأجابه الحسن: أما بعد فقد وصل إلي كتابك، تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغي مني عليك، وبالله أعوذ من ذلك، فاتبع الحق تعلم أي من أهله، وعلي إثم أن أقول فأكذب. والسلام.

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه، ثم كتب إلى عماله على النواحي بنسخة واحدة: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ومن قبله من المسلمين. سلام عليكم. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، فالحمد لله الذي كفاكم مؤونة عدوكم وقتل خليفتم، إن الله بلطفه، وحسن صنعه، أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده، فاغتاله فقتله. فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائهم، فأقبلوا إلي حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال: فاجتمعت العساكر إلى معاوية، فسار بها قاصداً إلى العراق، وبلغ الحسن خبره ومسيره نحوه، وأنه قد بلغ جسر منبج، فتحرك عند ذلك، وبعث حجر بن عدي فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير، ونادى المنادي: الصلاة جامعة! فأقبل الناس يثوبون ويجمعون. وقال الحسن: إذا رضيت جماعة الناس فأعلمني، وجاء سعيد بن قيس الهمداني، فقال له: اخرج فخرج الحسن رضي الله عنه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وسماه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إن الله مع الصابرين، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون.

بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظروا، ونرى وتروا.

قال: وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له، قال: فسكتوا فما تكلم منهم أحد، ولا أجابه بحرف.

فلما رأى ذلك عدي بن حاتم قال فقال: أنا ابن حاتم! سبحان الله! ما أقبح هذا المقام! إلا تجيئون إمامكم وابن بنت

نبيكم! أين خطباء مضر أين المسلمون، أين الخواضون من أهل المصر الذي ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها.

ثم استقبل الحسن بوجهه، فقال: أصاب الله بك المرشد، وجنبك المكاره ووفقك لما يحمد ورده وصدره، قد سمعنا مقاتلك، وانتهينا إلى امرك، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت، وهذا وجهي إلى معسكري، فمن أحب أن يوافيني فليوافه. ثم مضى لوجهه، فخرج من المسجد ودابته بالباب، فركبها ومضى إلى النخيلة، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه. وكان عدي بن حاتم أول الناس عسكر.

وقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ومقل بن قيس الرياحي وزباد بن صعصعة التيمي، فأنبوا الناس ولا موهم وحرصوهم، وكلموا الحسن رضي الله عنه. بمثل كلام عدي بن حاتم في الإجابة والقبول، فقال لهم الحسن رضي الله عنه: صدقتم رحمكم الله! ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة، فجزاكم الله خيراً ثم نزل. وخرج الناس فعسكروا، ونشطوا للخروج، وخرج الحسن إلى العسكر، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأمره باستحثاث الناس وإشخاصهم إليه، فجعل يستحثهم ويستخرجهم حتى يلتئم العسكر.

وسار الحسن رضي الله عنه في عسكر عظيم وعدة حسنة. حتى نزل دير عبد الرحمن، فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع الناس، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، فقال له: يا بن عم، إني باعث إليك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرناء المصر، الرجل منهم يزيد الكتيبة، فسر بهم، وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وافرش لهم جناحك، وأدغمهم من مجلسك، فإنهم بقية ثقات أمير المؤمنين، وسر بهم على شط الفرات حتى تقطع بهم الفرات، ثم تصير إلى مسكن، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية، فإن أنت لقيته فاحبسه حتى آتيك، فإني على أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم، وشاور هذين - يعني قيس بن سعد وسعيد بن قيس - وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك، فإن فعل فقاتله، وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس، وإن أصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس.

فسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور، حتى خرج إلى شاهي، ثم لزم الفرات والفلوجة، حتى أتى مسكن، وأخذ الحسن على حمام عمر حتى أتى دير كعب، ثم بكر فزل سباط دون القنطرة، فلما أصبح نادى في الناس: الصلاة جامعة! فاجتمعوا، فصعد المنبر فخطبهم فقال: الحمد لله كلما حمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد، وأشهد أن محمداً رسول الله، أرسله بالحق، واثمنه على الوحي، صلى الله عليه وسلم. أما بعد، فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلقه لخلقه، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضعيفة، ولا مريد له بسوء ولا غائلة. ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري، ولا تردوا علي رأيي. غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإياكم لما فيه محبته ورضاه، إن شاء الله! ثم نزل.

قال: فنظر الناس بعضهم إلى بعض، وقال: ما ترونه يريد بما قال، قالوا: نظنه يريد أن يصلح معاوية، ويكل الأمر إليه، كفر والله الرجل! ثم شدوا على فسطاطه. فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته، ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي، فترع مطرفه عن عاتقه، فبقي جالساً متقلداً سيفاً بغير رداء، فدعا بفرسه فركبه، وأحرق به طوائف من

خاصته ومنعوا منه من أراده، ولأموه وضعفوه لما تكلم به، فقال: ادعوا إلي ربيعة وهدان، فدعوا له، فأطافوا به، ودفعوا الناس عنه، ومعهم شوب من غيرهم، فلما مر في مظلم ساباط، قام إليه رجل من بني أسد، ثم من بني نصر بن قعين يقال له جراح بن سنان، ويده معول، فأخذ بلجام فرسه، وقال: الله أكبر! يا حسن أشرك أبوك، ثم أشركت أنت. وطعنه بالمعول، فوقع في فخذه، فشقته حتى بلغت أربيته، وسقط الحسن رضي الله عنه إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده، واعتنقه، فخرأ جميعاً إلى الأرض، فوثب عبدالله بن الأخطل الطائي، ونزع المعول من يد جراح بن سنان، فحضره به، وأكب ظبيان بن عماره عليه، ففقطع أنفه، ثم أخذ له الأجر فشدخا رأسه، ووجهه حتى قتلوه. وحمل الحسن رضي الله عنه على سرير إلى المدائن، وبها سعيد بن مسعود الثقفي والياً عليها من قبله، وقد كان علي رضي الله عنه ولأه المدائن فأقره الحسن رضي الله عنه عليها، فأقام عنده يعالج نفسه. فأما معاوية فإنه وافى حتى نزل قرية يقال لها الحلوية بمسكن، وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه، فلما كان من غد وجه معاوية بخيله إليه فخرج إليهم عبيد الله فيمن معه فضرهم حتى ردهم إلى معسكرهم، فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس أن الحسن قد راسلي في الصلح، وهو مسلم الأمر إلي، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك إن أحببتي الآن أن أعطيك ألف ألف درهم، أعجل لك في هذا الوقت نصفها، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر، فانسأل عبيد الله إليه ليلاً، فدخل عسكر معاوية، فوفى له وعده، وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيصلي بهم، فلم يخرج حتى أصبحوا، فطلبوه فلم يجدوه، فصلى بهم قيس بن سعد بن عباد، ثم خطبهم فثبتهم، وذكر عبيد الله فنال منه، ثم أمرهم بالصبر والنهوض إلى العدو، فأجابوه بالطاعة وقالوا له: انهض بنا إلى عدونا على اسم الله، فتزل فنهض بهم. وخرج إليه بسر بن أرطاة فصاح إلى أهل العراق: ويحكم! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح، فعلام تقتلون أنفسكم!

فقال لهم قيس بن سعد: اختاروا إحدى اثنتين: أما القتال مع غير إمام، وإما أن تباعوا بيعة ضلال، فقالوا: بل نقاتل بلا إمام، فخرجوا فضرى أهل الشام حتى ردهم إلى مصافهم. فكتب معاوية إلى قيس بن سعد يدعوه ويمنيه، فكتب إليه قيس: لا والله لا تلقاني أبداً إلا بيني وبينك الرمح. فكتب إليه معاوية حينئذ لما يئس منه: أما بعد، فإنك يهودي ابن يهودي، تشقي نفسك وتقتلها فيما ليس لك، فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وغدرك، وإن ظهر أبغضهم إليك نكل بك وقتلك، وقد كان أبوك أوتر غير قوسه، ورمى غير غرضه، فأكثر الحز وأخطأ المفصل، فخذله قومه، وأدركه يومه، فمات بحوران طريداً غريباً. والسلام. فكتب إليه قيس بن سعد: أما بعد، فإنما أنت وثن ابن وثن، دخلت في الإسلام كرهاً، وأقمت فيه فرقاً، وخرجت منه طوعاً، ولم يجعل الله لك فيه نصيباً، لم يقدم إسلامك، ولم يحدث نفاقك، ولم تزل حرباً لله ولرسوله، وحزباً من أحزاب المشركين، وعدواً لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده - وذكرت أبي، فلعمري ما أوتر إلا قوسه، ولا رمى إلا غرضه، فشغب عليه من لا يشق غباره، ولا يبلغ كعبه، وزعمت أني يهودي ابن يهودي، وقد علمت وعلم الناس أبي وأبي أعداء الدين الذي خرجت منه، وأنصار الدين الذي دخلت فيه، وصرت إليه والسلام.

فلما قرأ معاوية كتابه غاظه، وأراد إجابته، فقال له عمرو: مهلاً، فإنك إن كاتبته أجابك بأشد من هذا، وإن تركته دخل

فيما دخل فيه الناس ف امسك عنه.

قال: وبعث معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح، فدعواه إليه، فزهده في الأمر، وأعطياه ما شرط له معاوية، وألا يتبع أحد بما مضى، ولا ينال أحد من شيعة علي بمكره، ولا يذكر علي إلا بخير، وأشياء شرطها الحسن. فأجاب إلى ذلك، وانصرف قيس بن سعد فيمن معه إلى الكوفة، وانصرف الحسن أيضاً إليها، وأقبل معاوية قاصداً نحو الكوفة، واجتمع إلى الحسن رضي الله عنه وجوه الشيعة وأكابر أصحاب أمير المؤمنين رضي الله عنه يلومونه، ويكون إليه جزءاً مما فعله.

قال أبو الفرج: فحدثني محمد بن أحمد بن عبيد، قال: حدثنا الفضل بن الحسن البصري قال: حدثنا ابن عمرو، قال: حدثنا مكّي بن إبراهيم، قال: حدثنا السري بن إسماعيل، عن الشعبي، عن سفيان بن أبي ليلى. قال أبو الفرج: وحدثني به أيضاً محمد بن الحسين الأشناندي، وعلي بن العباس المقانعي، عن عباد بن يعقوب، عن عمرو بن ثابت، عن الحسن بن الحكم، عن عدي بن ثابت، عن سفيان بن أبي ليلى، قال: أتيت الحسن بن علي حين بايع معاوية، فوجدته بفناء داره، وعنده رهط، فقلت: السلام عليك يا مذل المؤمنين، قال: وعليك السلام يا سفيان، ونزلت فعقلت راحلي، ثم أتيت فجلست إليه، فقال: كيف قلت يا سفيان، قلت: السلام عليك يا مذل المؤمنين! فقال: لم جرى هذا منك إلينا، قلت: أنت والله بأبي وأمي أذللت رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة، وسلمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد، ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك، فقد جمع الله عليك أمر الناس. فقال: يا سفيان، إنا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسكنا به، وإني سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تذهب الليالي والأيام حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم، ضخم البلعوم، يأكل ولا يشبع، لا ينظر الله إليه، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر"، وإنه لمعاوية، وإني عرفت أن الله بالغ أمره.

ثم أذن المؤذن، فقمنا على حالب نخلب ناقته، فتناول الآناء، فشرب قائماً، ثم سقاني، وخرجنا نمشي إلى المسجد، فقال لي: ما جاء بك يا سفيان، قلت: حبكم والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق! قال: فأبشر يا سفيان، فإني سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يرد علي الحوض أهل بيتي ومن أحبهم من أمي كهاتين - يعني السبابتين، أو كهاتين يعني السبابة والوسطى - إحداها تفضل على الأخرى، أبشر يا سفيان، فإن الدنيا تسع البر والفاجر، حتى يبعث الله إمام الحق من آل محمد صلى الله عليه وسلم . قلت: قوله: "ولا في الأرض ناصر"، أي ناصر ديني، أي لا يمكن أحداً أن ينتصر له بتأويل ديني يتكلف به عذراً لأفعاله القبيحة.

فإن قلت: قوله: "وإنه لمعاوية" من الحديث المرفوع، أو من كلام علي رضي الله عنه ، أو من كلام الحسن رضي الله عنه ، قلت: الظاهر أنه من كلام الحسن رضي الله عنه ، فإنه قد غلب على ظنه أن معاوية صاحب هذه الصفات، وإن كان القسم الأولان غير ممتنعين.

فإن قلت: فمن هو إمام الحق من آل محمد، قلت: و ما الام أمية فتزعم أنه صاحبهم الذي يعتقدون أنه الآن حي في

الأرض، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطمي يخلقه الله في آخر الزمان.

قال أبو الفرج: وسار معاوية حتى نزل النخيلة، وجمع الناس بها فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة، وجاءت منقطعة في الحديث، وسنذكر ما انتهى إلينا منها.

فأما الشعبي فإنه روى أنه قال في الخطبة: ما اختلف أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها، ثم انتبه فندم فقال: إلا هذه الأمة فإنها وإلها..

و أبو إسحاق السبيعي فقال: إن معاوية قال في خطبته بالنخيلة: إلا أن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به.

قال أبو إسحاق: وكان والله غداراً.

وروى الأعمش بن عمرو بن مرة، عن سعيد بن سويد، قال: صلى بنا معاوية بالنخيلة الجمعة، ثم خطبنا، فقال: والله إني ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون.

قال: وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدث بذلك، يقول: هذا والله هو التهتك.

قال أبو الفرج: وحدثني أبو عبيد محمد بن أحمد، قال: حدثني الفضل بن الحسن البصري، قال: حدثني يحيى بن معين قال: حدثني أبو حفص اللبان، عن عبد الرحمن بن شريك، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، والحسن والحسين رضي الله عنهما جالسا تحت المنبر، فذكر علياً رضي الله عنه فنال منه، ثم نال من الحسن، فقام الحسين رضي الله عنه ليرد عليه، فأخذه الحسن بيده فأجلسه، ثم قام فقال: أيها الذاكر علياً، أنا الحسن، وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمك هند، وجددي رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة، فلعن الله أحملاً ذكراً، وألماً حسباً، وشرناً قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً! فقال طوائف من أهل المسجد: آمين.

قال الفضل: قال يحيى بن معين: وأنا أقول آمين.

قال أبو الفرج: قال أبو عبيد: قال الفضل: وأنا أقول: آمين، ويقول علي بن الحسين الأصفهاني: آمين.

قلت: ويقول عبد الحميد بن أبي الحديد مصنف هذا الكتاب: آمين.

قال أبو الفرج: ودخل معاوية الكوفة بعد فراغه من خطبته بالنخيلة بين يديه خالد بن عرفطة، ومعه حبيب بن حماد يحمل رايته، فلما صار بالكوفة دخل المسجد من باب الفيل، واجتمع الناس إليه.

قال أبو الفرج: فحدثني أبو عبيد الصيرفي وأحمد بن عبيد الله بن عمار، عن محمد بن علي بن خلف، عن محمد بن عمرو الرازي، عن مالك بن سعيد، عن محمد بن عبد الله الليثي، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، قال: بينما علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منبر الكوفة، إذ دخل رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، مات خالد بن عرفطة، فقال: لا والله ما مات ولا يموت حتى يدخل من باب المسجد، وأشار إلى باب الفيل، ومعه راية ضلالة يحملها حبيب بن حماد.

قال: فوثب رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أنا حبيب بن حماد، وأنا لك شيعة، فقال: فإنه كما أقول. والله لقد قدم خالد

بن عرفة على مقدمة معاوية يحمل رايته حبيب بن حماد.

قال أبو الفرج: وقال مالك بن سعيد، وحدثني الأعمش بهذا الحديث، قال: حدثني صاحب هذه الدار - وأشار إلى دار السائب أبي عطاء - أنه سمع علياً رضي الله عنه يقول هذا.

قال أبو الفرج: فلما تم الصلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة، فجاءه - وكان رجلاً طويلاً يركب الفرس المشرف ورجلاه تخطان في الأرض، وما في وجهه طاقة شعر، وكان يسمى خمي الأنصار، فلما أرادوا إدخاله إليه قال: إني حلفت ألا ألقاه إلا وبيني وبينه الرمح أو السيف، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبر يمينه.

قال أبو الفرج: وقد روي أن الحسن لما صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد في أربعة آلاف فارس فأبى أن يبايع، فلما بايع الحسن أدخل قيس ليبايع، فأقبل على الحسن، فقال: أفي حل أنا من بيعتك، فقال: نعم، فألقى له كرسي، وجلس معاوية على سرير والحسن معه، فقال له معاوية: أتبايع يا قيس! قال: نعم، ووضع يده على فخذه، ولم يمدّها إلى معاوية فجاء معاوية من سريره، وأكب على قيس حتى مسح يده على يده وما رفع إليه قيس يده.

قال أبو الفرج: ثم إن معاوية أمر الحسن أن يخطب، فظن أنه سيحصر، فقام فخطب، فقال في خطبته: إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه، وليس الخليفة من سار بالجور، ذاك رجل ملك ملكاً تمتع به قليلاً، ثم تنخمه، تنقطع لذته، وتبقى تبعته وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال: وانصرف الحسن إلى المدينة، فأقام بها، وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن عليه شيء أنقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدرس إليهما سماً فماتا منه.

قال أبو الفرج: فحدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار، عن عيسى بن مهران، عن عبيد بن الصباح الخراز، عن جرير، عن مغيرة، قال: أرسل معاوية إلى بنت الأشعث بن قيس - وهي تحت الحسن - فقال لها: إني مزوجك يزيد أبني على أن تسمي الحسن، وبعث إليها مائة ألف درهم. ففعلت: وسمت الحسن، فسوغها المال ولم يزوجها منه، فخلف عليها رجل من آل طلحة، فأولدها، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام غيروهم، وقالوا: يا بني مسممة الأزواج.

قال: حدثني أحمد، قال: حدثني يحيى بن بكير، عن شعبة، عن أبي بكر بن حفص، قال: توفي الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص في أيام متقاربة، وذلك بعد ما مضى من ولاية إمارة معاوية عشر سنين، وكانوا يروون أنه سقاها السم. قال أبو الفرج: وحدثني أحمد بن عون، عن عمران بن إسحاق، قال: كنت مع الحسن والحسين رضي الله عنهما في الدار، فدخل الحسن المخرج، ثم خرج، فقال: لقد سقيت السم مراراً، ما سقيت مثل هذه المرة، لقد لفظت قطعة من كبدي فجعلت أقلبها بعود معي. فقال الحسن: ومن سقاك، قال: وما تريد منه، أتريد أن تقتله! إن يكن هو، فالله - أشد نعمة منك، وإن لم يكن هو فما أحب أن يؤخذ بي بريء.

قال أبو الفرج: دفن الحسن رضي الله عنه في قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في البقيع، وقد كان أوصى أن يدفن مع النبي صلى الله عليه وسلم، فمنع مروان بن الحكم من ذلك، وركبت بنو أمية في السلاح، وجعل مروان يقول:

يارب هيجا هي خير من دعه

يدفن عثمان في البقيع، ويدفن الحسن في بيت النبي صلى الله عليه وسلم والله لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف، وكادت الفتنة تقع، وأبى الحسين رضي الله عنه أن يدفنها إلا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له عبد الله بن جعفر: عزمت عليك يا أبا عبد الله بحقي ألا تكلم بكلمة! فمضوا به إلى البقيع، وانصرف مروان. قال أبو الفرج: وقد روى الزبير بن بكار أن الحسن رضي الله عنه أرسل إلى عائشة أن تأذن له أن يدفن مع النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: نعم، فلما سمعت بنو أمية بذلك استلاموا في السلاح، وتنادوا هم وبنو هاشم في القتال، فبلغ ذلك الحسن، فأرسل إلى بني هاشم: أما إذا كان هذا فلا حاجة لي فيه، ادفنوني إلى جنب أمي، فدفن إلى جنب فاطمة رضي الله عنها.

قال أبو الفرج: فأما يحيى بن الحسن صاحب كتاب النسب، فإنه روى أن عائشة ركبت ذلك اليوم بغلاً واستنشرت بنو أمية مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم ومن حشمتهم وهو قول القائل:

فيوماً على بغل ويوماً على جمل

قلت: وليس في رواية يحيى بن الحسن ما يؤخذ على عائشة، لأنه لم يرو أنها استنشرت الناس لما ركب البغل، وإنما المستنثرون هم بنو أمية، ويجوز أن تكون عائشة ركبت لتسكين الفتنة، لا سيما وقد روي عنها أنه لما طلب منها الدفن قالت: نعم، فهذه الحال والقصة منقبة من مناقب عائشة. قال أبو الفرج: وقال جويرية بن أسماء: لما مات الحسن وأخرجوا جنازته جاء مروان حتى دخل تحته فحمل سريره، فقال له الحسين رضي الله عنه: أتحمل اليوم سريره وبالأمس كنت تجرعه الغيظ! قال مروان: كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال.

قال: وقدم الحسين رضي الله عنه للصلاة عليه سعيد بن العاص، وهو يومئذ أمير المدينة، وقال: تقدم فلولا أنها سنة لما قدمتك.

قال: قيل لأبي إسحاق السبيعي: متى ذل الناس، فقال: حين مات الحسن، وادعى زياد، وقتل حجر بن عدي. قال: اختلف الناس في سن الحسن رضي الله عنه وقت وفاته، فقيل: ابن ثمان وأربعين - وهو المروي عن جعفر بن محمد رضي الله عنه في رواية هشام بن سالم - وقيل: ابن ست وأربعين، وهو المروي أيضاً عن جعفر بن محمد رضي الله عنه في رواية أبي بصير.

قال: وفي الحسن رضي الله عنه يقول سليمان بن قتة يرثيه، وكان محباً له:

ليس لتكذيب نعيه ثمن

لكل حي من أهله سكن

الدار أناس جوارهم غبن

ياكذب الله من نعي حسناً

كنت خليلي وكنت خالصتي

أجول في الدار لا أراك وفي

بدلتهم منك ليت أنهم

أضحوا وبيني وبينهم عدن

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل، أما قوله: كتبها إليه بحاضرين، فالذي كنا نقرؤه قديماً، كتبها إليه بالحاضرين على صيغة التشبيه، يعني حاضر حلب وحاضر قنسرين، وهي الأرباض والضواحي المحيطة بهذه البلاد، ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام، ولم يفسروه، ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية، ومنهم من يقول بخصائرين، يظنونهم تثنية خنصرة أو جمعها، وقد طلبت هذه الكلمة في الكتب المصنفة، سيما في البلاد والأرضين فلم أجدها، ولعلي أظفر بها فيما بعد فالحقها في هذا الموضع.

قوله: من الوالد الفان، حذف الياء ههنا للإزدواج بين الفان والزمان، ولأنه وقف، وفي الوقف على المنقوص يجوز مع اللام حذف الياء وإثباتها، والإثبات هو الوجه، ومع عدم اللام يجوز الأمران وإسقاط الياء هو الوجه.

قوله: المقر للزمان أي المقر له بالغلبة، كأنه جعل نفسه فيما مضى خصماً للزمان بالقهر.

قوله: المدبر العمر، لأنه كان قد جاوز الستين، ولم يبق بعد مجاوزة الستين إلا إدبار العمر، لأنها نصف العمر الطبيعي الذي قل أن يبلغه أحد، فعلى تقدير أنه يبلغه، فكل ما بعد الستين أقل مما مضى، فلا جرم يكون العمر قد أدبر.

قوله: المستسلم للدهر، هذا أكد من قوله، المقر للزمان لأنه قد يقر الإنسان لخصمه ولا يستسلم.

قوله: الدام للدنيا هذا وصف لم يستحدثه عند الكبر، بل لم يزل عليه، ولكن يجوز أن يزيد ذمه لها، لأن الشيخ تنقص قواه التي يستعين بها على الدنيا والدين جميعاً ولا يزال يتأفف من الدنيا.

قوله: الساكن مساكن الموت، إشعار بأنه سيموت، وهذا من قوله تعالى: "وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم". قوله: الظاعن عنها غداً، لا يريد الغد بعينه، بل يريد قرب الرحيل والظعن.

وهذا الكلام من أمير المؤمنين رضي الله عنه كلام من قد أيقن بالفراق، ولا ريب في ظهور الإستكانة والخضوع عليه، ويدل أيضاً على كرب وضيق عطن، لكونه لم يبلغ أربه من حرب أهل الشام، وانعكس ما قدره بتخاذل أصحابه عنه، ونفوذ حكم عمرو بن العاص فيه لحق أبي موسى وغباوته وانحرافه أيضاً.

قوله: إلى المولود هذه اللفظة بإزاء الوالد.

قوله: المؤمل ما لا يدرك، لو قال قائل: إنه كنى بذلك عن أنه لا ينال الخلافة بعد موتي وإن كان مؤملاً لها لم يبعد، ويكون ذلك إخباراً عن غيب، ولكن الأظهر أنه لم يرد ذلك، وإنما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن، وكذلك سائر الأوصاف التي تلي هذه اللفظة لا تخص الحسن رضي الله عنه بعينه، بل هي وإن كانت له في الظاهر بل هي للناس كلهم في الحقيقة، ألا ترى إلى قوله بعدها: السالك سبيل من قد هلك، فإن كل واحد من الناس يؤمل أموراً لا يدركها، وكل واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله قوله رضي الله عنه: غرض الأسقام لأن الإنسان كالمهدف لأفات الدنيا وأعراضها.

قوله رضي الله عنه: ورهينة الأيام رهينة ههنا: المهزول يقال: إنه لرهين وإنه لرهينة، إذا كان مهزولاً بالياء قال الراجز:

أما تري جسمي خلاء قد رهن

هزلاً وما مجد الرجال في السمن

ويجوز أن يريد بالرهينة واحدة الرهائن، يقال للأسير أو للزمن أو للعاجز عند الرحيل: إنه لرهينة، وذلك لأن الرهائن محتبسة عند مرتهنها.

قوله: ورمية المصائب، الرمية ما يرمى.

قوله: وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا، لأن الإنسان طوع شهواته، فهو عبد الدنيا، وحركاته فيها مبنية على غرور لا أصل له، فهو تاجر الغرور لا محالة، ولما كانت المنايا تطالبه بالرحيل عن هذه الدار كانت غريباً له يقتضيه ما لا بد له من أدائه.

قوله: وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونصب الأفات، وصريع الشهوات، لما كان الإنسان مع الموت، كما قال طرفة:

لكالطول المرخى وثنياء باليد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

كان أسيراً له لا محالة، ولما كان لا بد لكل إنسان من الهم كان حليف الهموم، وكذلك لا يخلو ولا ينفك من الحزن، فكان قريناً له، ولما كان معرضاً للآفات كان نصيباً لها، ولما كان إنما يهلك بشهواته كان صريعاً لها. قوله: وخليفة الأموات قد أخذه من قال: إن أمراً ليس بينه وبين آدمالاً أب ميت، لمعرق في الموت. واعلم أنه عد من صفات نفسه سبعا، وعد من صفات ولده أربع عشرة صفة، فجعل بإزاء كل واحدة مما له اثنتين، فليلمح ذلك.

أشعر الشعراء في الدهر.

ومن جيد ما نعى به شاعر نفسه، ووصف ما نقص الدهر من قواه، قول عوف بن محلم الشيباني في عبد الله بن طاهر أمير خراسان:

وألبس الأمن به المغربان

يابن الذي دان له المشرقان

قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

إن الثمانين وبلغتها

وكنت كالصعدة تحت السنان

وبدلنتي بالشطاط انحنا

مقاربات وثنت من عنان

وقاربت مني خطأ لم تكن

وهمه هم الجبان الهدان

وعوضتني من زماع الفتى

عنانة من غير نسج العنان

وأنشأت بيني وبين الورى

الألساني وكفاني لسان

ولم تدع في لمستمتع

على الأمير المصعبي الهجان

أدعو به الله وأنتي به

ومن الشعر القديم الجيد في هذا المعنى قول سالم بن عون الضبي:

لذاته ونباته النضر

يماض الغمام وجود بالقطر

لحفيظة ومقاعد الخمر

عوليت في خرج إلى قبري

وأن انحنى لتقادم ظهري

يوم يمر وليلة تسري

والمرء بعد تمامه يجري

في ذاك من عجب ولاسخر

ما اقتات من سنة ومن شهر

أيلامه عادت إلى نسر

رجعت محارته إلى قصر

وعلمت ما آتي من الأمر

لايبعدن عصر الشباب ول

والمشرفات من الخدور كإ

وطراد خيل مثلها التقتا

لولا أولئك ماحلقت متى

هربت زبيبة أن رأت ثرمي

من بعد ماعهدت فأدلفني

حتى كأني خاتل قنصاً

لا تهزئي مني زبيب فما

أو لم تري لقمان أهلكه

وبقاء نسر كلما انقرضت

ماطال من امد على لبد

ولقد حلبت الدهر أشطره

أنا أستفصح قوله: ما اقتات من سنة ومن شهر جعل الزمان كالقوت له، ومن اقتات الشيء فقد أكله، والأكل سبب المرض، والمرض سبب الهلاك.

الأصل: أما بعد، فإن فيما تبينت من إدبار الدنيا عني، وجموح الدهر علي، وإقبال الآخرة إلي، ما يزعني عن ذكر من سواي، والأهتمام بما ورائي، غير أنني حيث تفرد بي دون هموم الناس هم نفسي - فصدقي رأيي، وصرفني عن هواي، وصرح لي محض أمري، فأفضي بي إلى جد لا يكون فيه لعب، وصدق لا يشوبه كذب - وجدتك بعضي، بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابي، وكأن الموت لو أتاك أتايتي، فعناني من أمرك ما يعينني من أمر نفسي، فكتبت إليك كتابي هذا مستظهِراً به إن أنا بقيت لك أو فني.

الشرح: يزعني: يكفني ويصدني، وزعت فلاناً، ولا بد للناس من وزعة.

وسوى، لفظة تقصر إذا كسرت سينها، وتمد إذا فتحتها، وهي ههنا بمعنى غير، ومن قبلها بمعنى شيء منكر، كقوله: رب من أنضجت غيظاً قلبه

والتقدير: غير ذكر إنسان سواي، ويجوز أن تكون من موصولة، وقد حذف أحد جزأي الصلة، والتقدير عن ذكر الذي هو غيري، كما قالوا في: لنترعن من كل شيعة أيهم أشد، أي هو أشد. يقول رضي الله عنه: إن فيما قد بان لي من تنكر الوقت لإدبار الدنيا وإقبال الآخرة شاغلاً لي عن الأهتمام بأحد غيري، والأهتمام والفكر في أمر الولد وغيره ممن أحلفه ورائي. ثم عاد فقال: إلا أن همي بنفسي يقضي إهتمامي بك، لأنك بعضي بل كلي، فإن كان إهتمامي بنفسي يصرفني عن غيري لم تكن أنت داخلاً في جملة من يصرفني همي بنفسي عنهم، لأنك لست غيري.

فإن قلت: أفهذا الهم حدث لأمر المؤمنين رضي الله عنه الآن، أو من قبل لم يكن عالماً بأن الدنيا مدبرة، والآخرة مقبلة؟ قلت: كلا بل لم يزل عالماً عارفاً بذلك، ولكنه الآن تأكد وقوي، بطريق علو السن وضعف القوى، وهذا أمر يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب، لا بد من حصوله لكل أحد، وإن كان عالماً بالحال من قبل، ولكن ليس العيان كالخبر. ومن مستحسن ما قيل في هذا المعنى قول أبي إسحاق الصائغ:

أفئك الردى إنني تنبهت من كرى
فأثبتت شخصاً دانياً كان خافياً
هو الأجل المحتوم لي جد جده
له نذر قد آذنتني بهجمة
ولا بد منه ممهلاً أو معاجلاً
وسهو على طول المدى اعترياني
على البعد حتى صار نصب عياني
وكان يريني غفلة المتواني
له لست منها آخذاً بأمان
سيأتي فلا يثنيه عني ثان

وأول هذه القصيدة وهو داخل له في هذا المعنى أيضاً:

إذا ما تعدت بي وسارت محفة
وماكنت من فرسانها غير أنها
نزلت إليها عن سراة حصاني
فقد حملت مني ابن سبعين سالكا
كما حمل المهد الصبي وقبلها
ولي بعدها أخرى تسمى جنازة
تسير على أقدام أربعة إلى
وإني على عيث الردى في جوارحي
وإن لم يدع إلا فؤاداً مروعاً
تلوم تحت الحجب ينفث حكمه
لأعلم أني ميت عاق دفنه
وإن فما للأرض غرثان حائماً
به شره عم الورى بفجائع
غداً فاغراً يشكو الطوى وهو راتع
إذا عاضنا بالنسل ممن نعوله
إلى ذات يوم لا ترى الأرض وارثاً
لها أرجل يسعى بها رجلان
وفت لي لما خانت القدمان
بحكم مشيب أوفراش حصان
سبيلاً عليها يسلك الثقلان
ذعرت أسود الغيل بالنزوان
جنيبة يوم للمنية دان
ديار البلى معدودهن ثمان
وماكف من خطوي وبطش بناني
به غير باق من الحدثان
إلى أذن تصغي لنطق لسان
ذماء قليل في غد هو فان
يراصد من أكلي حضور أو ان
تركن فلاناً ثاكلاً لفلان
فما تلتقي يوماً له الشفتان
تلا أولاً منه بمهلك ثان
سوى الله من إنس تراه وجان

قوله: تفرد بي دون هموم الناس هم نفسي أي دون الهموم التي قد كانت تعتريني لأجل أحوال الناس. فصدقني رأي، يقال صدقته كذا أي عن كذا، وفي المثل: صدقني سن بكره لأنه لما نفر قال له: هدى، وهي كلمة تسكن بها صغار الأبل إذا نفرت، والمعنى أن هذا الهم صدقني عن الصفة التي يجب أن يكون رأي عليها وتلك الصفة هي ألا يفكر في أمر شيء من الموجودات أصلاً إلا الله تعالى ونفسه، وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى وهي ألا تفكر في شيء قط إلا في الله وحده، وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى تجل عن الذكر والتفسير، ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ، وقد ذكرها هو فيما سبق، وهو ألا يفكر في شيء أصلاً، لا في المخلوق ولا في الخالق، لأنه قد قارب أن يتحد بالخالق، ويستغني عن الفكر. قوله: وصرفني عن هواي أي عن هواي وفكري في تدبير الخلافة وسياسة الرعية والقيام بما يقوم به الأئمة.

قوله رضي الله عنه وصرح لي محض أمري يروى بنصب محض ورفع، فمن نصب فتقديره: عن محض أمري، فلما حذف الجار نصب، ومن رفع جعله فاعلاً. وصرح: كشف أو انكشف. قوله: فافضى بي إلى كذا، ليس بمعنى أنه قد كان من قبل يمازج جده باللعب، بل المعنى أن همومه الأولى قد كانت بحيث يمكن أن يتخللها وقت راحة أو دعاية لا يخرج بها عن الحق، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً، فالآن قد حدث عنده هم لا يمكن أن يتخلله من ذلك شيء أصلاً، ومدار الفرق بين الحالتين - أعني الأولى والثانية على إمكان اللعب لا نفس اللعب وما يلزم من قوله: أفضى لك بي هذا الهم إلى انتفاء إمكان اللعب أن تكون همومه الأولى قد كان يمازجها اللعب، ولكن يلزم من ذلك أنها قد كانت يمكن ذلك فيها إمكاناً محضاً على أن اللعب غير منكر، إذا لم يكن باطلاً، ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "المؤمن دعب لعب"، وكذلك القول في قوله: "وصدق لا يشوبه كذب" أي لا يمكن أن يشوبه كذب، وليس المراد بالصدق والكذب ههنا مفهوماً المشهورين، بل هو من قولهم: صدقونا اللقاء، ومن قولهم: حمل عليهم فما كذب! قال زهير:

ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

ليث بعثر يصطاد الليوث إذا

أي أفضى بي هذا الهم إلى أن صدقتني الدنيا حربها، كأنه جعل نفسه محارباً للدنيا، أي صدقتني الدنيا حربها ولم تكذب، أي لم تجبن ولم تخن.

أخبر عن شدة اتحاد ولده به، فقال وجدتك بعضي، قال الشاعر:

أكبادنا تمشي على الأرض

وإنما أولادنا بيننا

لامتنعت عيني من الغمض

لو هبت الريح على بعضهم

وغضب معاوية على ابنه يزيد، فهجره، فاستعطفه له الأحنف، قال له: يا أمير المؤمنين، أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظلية، وأرض ذليلة، فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، فلا تكن عليهم قفلاً فيملوا حياتك، ويتمنوا موتك.

وقيل لابنة الخس : أي ولديك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يقدم.
غضب الطرماح على امرأته فشفع فيها ولده منها صمصام، وهو غلام لم يبلغ عشرًا، فقال:

أصمصام إن تشفع لأمك تلقها
هل الحب إلا أنها لو تعرضت
أحاذر يا صمصام إن مت أن يلي
إذا صك وسط القوم رأسك صكة
لها شافع في الصدر لم يتزحزح
لذبحك يا صمصام قلت لها: اذبحي
تراثي وإياك امرؤ غير مصلح
يقول له الناهي: ملكت فأسجح

وفي الحديث المرفوع: "إن ريح الولد من ريح الجنة".

وفي الحديث الصحيح أنه قال لحسن وحسين رضي الله عنهما : "إنكم لتجنبون، إنكم لتبخلون، وإنكم لمن ريحان الله".
ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها:

يا حبذا ريح الولد
أهكذا كل ولد
ريح الخزامى في البلد
ام لم يلد قبلي أحد!

وفي الحديث المرفوع: "من كان له صبي فليستصب له".
وأنشد الرياشي:

من سر ه أن يرى الكبدا
يمشي على الأرض فليز الولدا

الأصل: فإني أوصيك بتقوى الله - أي بني - ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره، والإعتصام بحبله، وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله، إن أنت أخذت به! أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلك بذكر الموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين.

وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، وأين حلوا ونزلوا! فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة، وحلوا دار الغربة، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم.

فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لم تكلف، و امسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال.

الشرح: قوله رضي الله عنه: وأي سبب أوثق، إشارة إلى القرآن لأنه هو المعبر عنه بقوله تعالى: "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا".

ثم أتى بلفظتين متقابلتين، وذلك من لطيف الصنعة، فقال: أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة وإماتة الشهوات عنه.

قوله رضي الله عنه: وأعرض عليه أخبار الماضين معنى قد تداوله الناس، قال الشاعر:

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

قوله رضي الله عنه: ودع القول فيما لا تعرف من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص: "يا عبد الله، كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس، مرجت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا!" - وشبك بين أصابعه -، قال عبد الله: فقلت: مربي يا رسول الله، فقال: "خذ ما تعرف، ودع ما لا تعرف، وعليك بخويصة نفسك".

قوله: والخطاب فيما لم تكلف "من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، وقال معاوية في عبد الملك بن مروان وهو حينئذ غلام: إن لهذا الغلام لهمة، وإنه مع ذلك تارك لثلاث آخذ بثلاث: تارك مساءة الصديق جداً وهزلاً، تارك ما لا يعنيه، تارك ما لا يعتذر منه، آخذ بأحسن الحديث إذا حدث، وبأحسن الاستماع إذا حدث، وبأهون الأمرين إذا خولف.

قوله رضي الله عنه: و امسك عن طريق إذا خفت ضلالتك، "مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "دع ما يريبك"، وفي خبر آخر: "إذا رابك أمر فدعه" الأصل: وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك، وباين من فعله بجهدك، وجاهد في الله حق جهاده، ولا تأخذك في الله لومة لائم.

وخض الغمرات إلى الحق حيث كان، وتفقه في الدين، وعود نفسك الصبر على المكروه، ونعم الخلق التصبر في الحق! وألجىء نفسك في أمورك كلها إلى إلهك، فإنك تلجئها إلى كهف حريز، ومانع عزيز، وأخلص في المسألة لربك، فإن بيده العطاء والحرمان، وأكثر الاستخارة، وتفهم وصيتي، ولا تذهبن عنك صفحاً، فإن خير القول ما نفع، وأعلم أنه لا خير في علم لا ينفع، ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه.

الشرح: أمره أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهما واجبان عندنا، وأحد الأصول الخمسة التي هي أصول الدين. ومعنى قوله: تكن من أهله، لأن أهل المعروف هم الأبرار الصالحون، ويجب إنكار المنكر باللسان، فإن لم ينجع فباليد، وتفصيل ذلك وترتيبه مذكور في كتيبي الكلامية.

قوله: وخض الغمرات إلى الحق، لا شبهة أن الحسن رضي الله عنه لو تمكن لحاضها إلا أن من فقد الأنصار لا حيلة له. وهل ينهض البازي بغير جناح والذي حاضها مع عدم الأنصار هو الحسين رضي الله عنه، ولهذا عظم عند الناس قدره، فقدمه قوم كثير على الحسن رضي الله عنه.

فإن قلت: فما قول أصحابكم في ذلك، قلت: هما عندنا في الفضيلة سيان، أما الحسن فلو قوفه مع قوله تعالى: "إلا أن تتقوا"، وأما الحسين فلا عزاز الدين.

قوله: فنعم التصبر قد تقدم منا كلام شاف في الصبر.

وقوله: وأكثر الاستخارة: ليس يعني بها ما يفعله اليوم قوم من الناس من سطر رقاع وجعلها في بنادق، وإنما المراد أمره إياه بأن يطلب الخيرة من الله فيما يأتي ويذر.

قوله: لا خير في علم لا ينفع قول حق، لأنه إذا لم ينفع كان عبثاً.

قوله: ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه، أي لا يجب ولا يندب إليه، وذلك لأن النفع إنما هو نفع الآخرة، فما لم يكن من العلوم مرغباً فيه إما بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به في الآخرة، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطقي ونحوهما.

الأصل: أي بني، إني لما رأيته قد بلغت سنّاً، ورأيتني أزداد وهناً، بادرت بوصيتي إليك، وأوردت خصلاً منها قبل أن يعجل بي أجلي دون أن أفضي إليك بما في نفسي، أو أن أنقص في رأي كما نقصت في جسمي. أو يسبقني إليك بعض كليات الهوى وفتن الدنيا، فتكون كالصعب النفور.

وإنما قلب الحدث بالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشغل لبك، لتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته، فتكون قد كفيت مثونة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه.

الشرح: هذه الوصية كتبها رضي الله عنه للحسن بعد أن تجاوز الستين، وروي أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الستين والسبعين، فقال: "معترك المنايا".

قوله رضي الله عنه: أو أن أنقص في رأي هذا يدل على بطلان قول من قال: إنه لا يجوز أن ينقص في رأي، وإن الإمام معصوم عن أمثال ذلك، وكذلك قوله للحسن: أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا يدل على أن الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى، ولا عن فتن الدنيا.

قوله: فتكون كالصعب النفور، أي كالبعير الصعب الذي لا يمكن ركباً، وهو مع ذلك نفور عن الآنس.

ثم ذكر أن التعلم إنما هو في الصبا، وفي المثل: الغلام كالطين يقبل الختم ما دام رطباً. وقال الشاعر:

أختم وطينك رطب إن قدرت فكم قد أمكن الختم أقواماً فما ختموا

ومثل هو رضي الله عنه قلب الحدث بالأرض الخالية، ما ألقى فيها من شيء قبلته، وكان يقال: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر، والتعلم في الكبر كالخط في الماء.

قوله: فأتاك من ذلك ما كنا نأتيه أي الذي كنا نحن نتجشم المشقة في إكتسابه، وتكلف طلبه، يأتيك أنت الآن صفواً عفواً.

الأصل: أي بني، إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم، قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر جليله، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله، ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق، وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ومقبل الدهر، ذو نية سليمة، ونفس صافية، وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، لا أجاوز ذلك بك إلى غيره. ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم، مثل الذي ألتبس عليهم، فكان إحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له أحب إلي من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك فيه الهلكة،

ورجوت أن يوفقك الله فيه لرشدك، وأن يهديك لقصدك، فعهدت إليك وصيتي هذه.

الشرح: هذا الفصل وما بعده يشعر بالنهاية عن علم الكلام حسب ما يقتضيه ظاهر لفظه، ألا تراه قال له: كنت عازماً على أن أعلمك القرآن وتفسيره والفقه وهو المعرفة بأحكام الشريعة، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره، ثم خفت أن تدخل عليك شبهة في أصول الدين فيلتبس عليك في عقيدتك الأصلية ما التبس على غيرك من الناس، فعدلت عن العزم الأول إلى أن أوصيك بوصايا تتعلق بأصول الدين.

ومعنى قوله رضي الله عنه: وكان إحكام ذلك إلى قوله: لا آمن عليك به الهلكة، أي فكان إحكامي الأمور الأصلية عندك وتقرير الوصية التي أوصيك بها في ذهنك فيما رجع إلى النظر في العلوم الإلهية، وإن كنت كارهاً للخوض معك فيه وتنبيهك عليه أحب إلي من أن أتركك سدى مهملاً، تتلاعب بك الشبه، وتعتورك الشكوك في أصول دينك، فربما أفضى ذلك بك إلى الهلكة.

فإن قلت: فلماذا كان كارهاً تنبيه ولده على ذلك، وأنتم تقولون إن معرفة الله واجبة على المكلفين، وليس يليق بأمير المؤمنين أن يكره ما أوجبه الله تعالى! قلت: لعله علم أما من طريق وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من طريق معرفته بما يصلح أن يكون لطفاً لولده، ومعرفته بما يكون مفسدة له، لكثرة التجربة له، وطول الممارسة لأخلاقه وطباعه أنا لأصلح له ألا يخوض في علم الكلام الخوض الكلي وأن يقتنع بالمبادئ والجمال، فمصلح البشر تختلف، فرب إنسان مصلحته في أمر ذلك الأمر بعينه مفسدة لغيره، ونحن وإن أوجبنا المعرفة فلم نوجب منها إلا الأمور المجملية، وأما التفصيلات الدقيقة الغامضة، فلا تجب إلا عند ورود الشبهة، فإذا لم تقع الشبهة في نفس المكلف لم يجب عليه الخوض في التفصيلات.

قوله رضي الله عنه: قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم العين مفتوحة والميم مكسورة مخففة، تقول: عمر الرجل يعمر عمرًا وعمرًا على غير قياس، لأن قياس مصدره التحريك أي عاش زماناً طويلاً، واستعمل في القسم أحدهما فقط، وهو المفتوح. قوله رضي الله عنه: حيث عناني من امرك أي أهمني، قال: عناني من صدودك ما عنا قوله: وأجمعت عليه أي عزمت.

ومقتبل الدهر، يقال: اقتبل الغلام فهو مقتبل بالفتح وهو من الشواذ، ومثله أحصن الرجل إذا تزوج فهو محصن، وإذا عف فمحصن أيضاً، وأسهب إذا أطال الحديث فهو مسهب، وألّج إذا افتقر فهو ملفج، وينبغي أن يكون له من قوله: تنبيهك له بمعنى عليه، أو تكون على أصلها، أي ما كرهت تنبيهك لأجله.

فإن قلت: إلى الآن ما فسرت، لما ذاكره تنبيهه على هذا الفن؟ قلت: بلى قد أشرت إليه، وهو أنه كره أن يعدل به عن تفسير القرآن وعلم الفقه إلى الخوض في الأمور الأصولية فينبهه على أمور يحجر النظر وتأمل الأدلة والشبهات إليها دقيقة يخاف على الإنسان من الخوض فيها أن تضطرب عقيدته، إلا أنه لم يجد به بداً من تنبيهه على أصول الديانة، وإن كان كارهاً لتعريضه لخطر الشبهة، فنبهه على أمور جمالية غير مفصلة، وأمره أن يلزم ذلك ولا يتجاوز به إلى غيره وأن يمسك عما يشبهه عليه، وسيأتي ذكر ذلك.

الأصل: واعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إلي من وصيتي تقوى الله والأقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه الأولون من آرائك، والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر، وفكروا كما أنت مفكر. ثم ردهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عما لم يكلفوا، فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا، فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات، وعلق الخصومات.

وابداً قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإهلك، والرغبة إليه في توفيقك، وترك كل شائبة أولجتك في شبهة، أو أسلمتك إلى ضلالة، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع، وتم رأيك فاجتمع، وكان همك في ذلك همّاً واحداً، فانظر فيما فسرت لك، وإن أنت لم يجتمع لك ما تحب من نفسك، وفراغ نظرك وفكرك، فاعلم أنك إنما تخبط العشواء، وتورط الظلماء، وليس طالب الدين من خبط أو خلط، والإمساك عن ذلك أمثل.

الشرح: أمره أن يقتصر على القيام بالفرائض، وأن يأخذ بسنة السلف الصالح من آرائه وأهل بيته، فإنهم لم يقتصروا على التقليد، بل نظروا لأنفسهم، وتأملوا الأدلة، ثم رجعوا آخر الأمر إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عما لم يكلفوا.

فإن قلت: من سلفه هؤلاء الذين أشار إليهم، قلت: المهاجرون الأولون من بني هاشم وبني المطلب كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة بن الحارث، وكأبي طالب في قول الشيعة وكثير من أصحابنا، وكعبد المطلب في قول الشيعة خاصة. فإن قلت: فهل يكون أمير المؤمنين رضي الله عنه نفسه معدوداً من جملة هؤلاء! قلت: لا، فإنه لم يكن من أهل المبادئ والجمل المقتصر بهم في تكليفهم العقلية على أوائل الأدلة، بل كان سيد أهل النظر كافة وإمامهم.

فإن قلت: ما معنى قوله: لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم، قلت: لأنهم إذا تأملوا الأدلة وفكروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلصها من مضرة عظيمة سبيلها أن تقع به إن لم ينظر في الخلاص منها، وهذا هو الوجه في وجوب النظر في طريق معرفة الله، والخوف من إهمال النظر.

فإن قلت: ما معنى قوله: إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عما لم يكلفوا؟ قلت: الأخذ بما عرفوا، مثل أدلة حدوث الأجسام وتوحيد الباري وعدله، والإمساك عما لم يكلفوا، مثل النظر في إثبات الجزء الذي لا يتجزأ ونفيه، ومثل الكلام في الخلا والملا، والكلام في أن هل بين كل حركتين مستقيمتين سكون أم لا، وأمثال ذلك مما لا يتوقف أصول التوحيد والعدل عليه، فإنه لا يلزم أصحاب الجمل والمبادئ أن يخوضوا في ذلك، لأنهم لم يكلفوا الخوض فيه، وهو من وظيفة قوم آخرين.

قوله رضي الله عنه: فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا، هذا الموضع فيه نظر، لأننا قد قلنا: إنهم لم يعلموا التفاصيل الدقيقة، فكيف يجعلهم عالمين بها، ويقول: أن تعلم كما علموا وينبغي أن يقال إن الكاف وما عملت فيه في موضع نصب، لأنه صفة مصدر محذوف، وتقديره فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك علماً كما علموا دون أن تعلم التفاصيل الدقيقة، وجاز انتصاب علماً والعامل فيه تقبل لأن القبول من جنس العلم، لأن القبول اعتقاد والعلم اعتقاد، وليس لقائل أن يقول: فإذا كان قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي، لأن الفصل بينهما قد جاء كثيراً، قال الشاعر:

سرت في هلاك المال والمال نائم

جزى الله كفاً ملئها من سعادة

ويجوز أن يقال: كما علموا الآن بعد موتهم، فإنهم بعد الموت يكونون عالمين بجميع ما يشبه علمه على الناس في الحياة الدنيا، لأن المعارف ضرورية بعد الموت، والنفوس باقية على قول كثير من المسلمين وغيرهم.

واعلم أن الذي يدعو إلى تكلف هذه التأويلات أن ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النبي صلى الله عليه وسلم والأخذ بما في القرآن وترك النظر العقلي، هذا هو ظاهر الكلام، ألا تراه كيف يقول له: الأقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه أهل بيتك وسلفك، فإنهم لما حاولوا النظر رجعوا بآخره إلى السمعيات، وتركوا العقليات لأنها أفضت بهم إلى ما لا يعرفونه، ولا هو من تكليفهم.

ثم قال له: فإن كرهت التقليد المحض، وأحببت أن تسلك مسلكهم في النظر، وإن أفضى بك الأمر إلى تركه والعود إلى المعروف من الشرعيات وما ورد به الكتاب والسنة، فينبغي أن تنظر وأنت مجتمع لهم خال من الشبهة، وتكون طالباً للحق، غير قاصد إلى الجدل والمراء، فلما وجدنا ظاهر اللفظ يقتضي هذه المعاني، ولم يجز عندنا أن يأمر أمير المؤمنين رضي الله عنه ولده مع حكمته وأهلية ولده بالتقليد وترك النظر، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به رضي الله عنه من أن يأمر بما لا يجوز لمثله أن يأمر به. واعلم أنه قد أوصاه إذا هم بالشروع في النظر بمحض ما ذكره المتكلمون، وذلك أمور: منها أن يرغب إلى الله في توفيقه وتسديده.

ومنها أن يطلب المطلوب النظري بفهم وتعلم، لا بجدال ومغالبة ومراء ومخاصمة.

ومنها اطراح العصبية لمذهب بعينه، والتورط في الشبهات التي يحاول بها نصرة ذلك المذهب.

ومنها ترك الألف والعادة، ونصرة أمر يطلب به الرياسة، وهو المعني بالشوائب التي تولج في الضلال.

ومنها أن يكون صافي القلب، مجتمع الفكر، غير مشغول السرب أمر من جوع أو شبع أو شيق أو غضب، ولا يكون ذا هموم كثيرة، وأفكار موزعة مقسمة، بل يكون فكره وهمه همّاً واحداً.

قال: فإذا اجتمع لك كل ذلك فانظر، وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت كنت كالناقة العشواء الخابطة لا تهتدي، وكمن يتورط في الظلماء لا يعلم أين يضع قدمه وليس طالب الدين من كان خابطاً أو خالطاً، والإمساك عن ذلك أمثل وأفضل.

الأصل: فتفهم يا بني وصيّي، واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأن الخالق هو المميت، وأن المفني هو المعيد، وأن المبتلي هو المعافي، وأن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء والأبتلاء، والجزاء في المعاد، أو ما شاء مما لا تعلم، فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك فإنك أول ما خلقت به جاهلاً ثم علمت، وما أكثر ما تجهل من الأمر، ويتحير فيه رأيك، ويضل فيه بصرك، ثم تبصره بعد ذلك! الشرح: قد تعلق بهذه اللفظة وهو قوله: أو ما شاء مما لا تعلم، قوم من التناسخية، وقالوا: المعني بما الجزاء في الهياكل التي تنتقل النفوس إليها. وليس ما قالوه بظاهر، ويجوز أن يريد رضي الله عنه أن الله تعالى قد يجازي المذنب في الدنيا بنوع من العقوبة، كالأسقام والفقر وغيرهما، والعقاب وإن كان مفعولاً على وجه الاستحقاق والإهانة فيجوز لمستحقه وهو الباري أن يقتصر منه على الإيلاء فقط، لأن الجميع حقه، فله أن يستوفي البعض ويسقط البعض، وقد روي أو بما شاء بالباء الزائدة، وروي بما لا يعلم. واما

الثواب فلا يجوز أن يجازي به المحسن في الدنيا، لأنه على صفة لا يمكن أن تجامع التكليف، فيحمل لفظ الجزاء على جزاء العقاب خاصة.

ثم أعاد رضي الله عنه وصيته الأولى، فقال: وإن أشكل عليك شيء من أمر القضاء والقدر، وهو كون الكافر مخصوصاً بالنعماء والمؤمن مخصوصاً بضرب من الأبتلاء، وكون الجزاء قد يكون في المعاد، وقد يكون في غير المعاد، فلا تقدح جهالتك به في سكون قلبك إلى ما عرفتك جملته، وهو أن الله تعالى هو الحي والميت، المفي المعيد، المبلي المعافي، وأن الدنيا بنيت على الأبتلاء والآعام، وأنها لمصالح وأمور يستأثر الله تعالى بعلمها، وأنه يجازي عباده أما في الآخرة أو غير الآخرة، على حسب ما يريد ويختاره.

ثم قال له: إنما خلقت في مبدأ خلقتك جاهلاً، فلا تطلبن نفسك غاية من العلم لا وصول لها إليها، أو لها إليها وصول بعد أمور صعبة، ومتاعب شديدة، فمن خلق جاهلاً حقيق أن يكون جهله مدة عمره أكثر من علمه استصحاباً للأصل. ثم أراد أن يؤنس بكلمة استدرك بها إيحاشه، فقال له: وعساك إذا جهلت شيئاً من ذلك أن تعلمه فيما بعد، فما أكثر ما تجهل من الأمور وتتحير فيه، ثم تبصره وتعرفه! وهذا من الطب اللطيف، والرقى الناجعة، والسحر الحلال. الأصل: فاعتصم بالذي خلقتك ورزقك وسواك، فليكن له تعبدك، وإليه رغبتك، ومنه شفقتك. واعلم يا بني أن أحداً لم ينس عن الله سبحانه كما أنبأ نبينا صلى الله عليه وآله، فارض به رائداً، وإلى النجاة قائداً، فإني لم آلك نصيحة، وإنك لن تبلغ في النظر لنفسك، وإن اجتهدت مبلغ نظري لك.

الشرح: عاد إلى أمره باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن يعتمد على السمع وما وردت به الشريعة ونطق به الكتاب، وقال له: إن أحداً لم يخبر عن الله تعالى كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم، وصدق صلى الله عليه وسلم! فإن التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب أنبياء بني إسرائيل لم تتضمن من الأمور الألهية ما تضمنه القرآن، وخصوصاً في أمر المعاد، فإنه في أحد الكتابين مسكوت عنه، وفي الآخر مذكور ذكراً مضطرباً، والذي كشف هذا القناع في هذا المعنى، وصرح بالأمر هو القرآن. ثم ذكر له أنه أنصح له من كل أحد، وأنه ليس يبلغ وإن اجتهد في النظر لنفسه ما يبلغه هو رضي الله عنه له، لشدة حبه له وإيثاره مصلحته. وقوله: لم آلك نصيحة لم أقصر في نصحتك، إلى الرجل في كذا يألو. أي قصر فهو آل والفعل لازم، ولكنه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنسبه، وكان أصله لا آلو لك نصيحة، منصوب على التمييز، وليس كما قاله الراوندي إن انتصابه على أنه مفعول ثان، فإنه إلى مفعول واحد لا يتعدى، فكيف إلى اثنين! ويقول هذه امرأة آية أي مقصورة وجمعها أوال، وفي المثل: الأحظية فلا آية، أصله في المرأة تصلف عند بعلمها، فتوصى حيث فاتتها الخطوة إلا تألوه في التودد إليه والتحبب إلى قلبه. قوله: ومنه شفقتك، أي خوفك.

ورائد: أصله الرجل يتقدم القوم فيرتاد بهم المرعى.

الأصل: واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتكم رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد، ولا يزول أبداً ولم يزل، أول قبل الأشياء بلا أولية، وآخر بعد

الأشياء بلا نهاية، عظم أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر.

فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره، وقلة مقدرته، وكثرة عجزه، وعظيم حاجته إلى ربه، في طلب طاعته، والرغبة من عقوبته، والشفقة من سخطه، فإنه لم يأمرك إلا بحسن، ولم ينهك إلا عن قبيح. الشرح: يمكن أن يستدل بهذا الكلام على نفي الثاني من وجهين: أحدهما أنه لو كان في الوجود ثان للباريء تعالى لما كان القول بالوحدانية حقاً، بل كان الحق هو القول بالثنائية، ومحال ألا يكون ذلك الثاني حكيماً، ولو كان الحق هو إثبات ثان حكيم لوجب أن يبعث رسولاً يدعو المكلفين إلى الثنية، لأن الأنبياء كلهم دعوا إلى التوحيد، لكن التوحيد على هذا الفرض ضلال، فيجب على الثاني الحكيم أن يبعث من ينبه المكلفين على ذلك الضلال ويرشدهم إلى الحق وهو إثبات الثاني، وإلا كان منسوباً في إهمال ذلك إلى السفه واستفساد المكلفين، وذلك لا يجوز، ولكننا ما أتانا رسول يدعو إلى إثبات ثان في الألهمية فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً، وإذا لم يكن ضلالاً كان حقاً، فنقيضه وهو القول بإثبات الثاني باطل.

الوجه الثاني: أنه لو كان الوجود ثان للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريق إلى إثباته، أما من مجرد أفعاله، أو من صفات أفعاله، أو من صفات نفسه، أو لا من هذا ولا من هذا، فمن التوقيف. وهذه هي الأقسام التي ذكرها أمير المؤمنين رضي الله عنه، لأن قوله: أئتتك رسله هو التوقيف، وقوله: ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، هي صفات أفعاله، وقوله: ولعرفت أفعاله وصفاته هما القسمان الآخران.

أما إثبات الثاني من مجرد الفعل فباطل، لأن الفعل إنما يدل على فاعل ولا يدل على التعدد، و أما صفات أفعاله وهي كون أفعاله محكمة متقنة، فإن الأحكام الذي نشاهده إنما يدل على عالم ولا يدل على التعدد، وأما صفات ذات الباريء فالعلم بها فرع على العلم بذاته، فلو أثبتنا ذاته بما لزم الدور. و أما التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعوننا إلى الثاني، وإذا بطلت الأقسام كلها، وقد ثبت أن ما لا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته بطل القول بإثبات الثاني.

ثم قال: لا يضاده في ملكه أحد ليس يريد بالضد ما يريده المتكلمون من نفي ذات هي معاكسة لذات الباريء تعالى في صفاتها، كمضادة السواد للبياض، بل مراده نفي الثاني لا غير، فإن نفي الضد بحث آخر لا دخول له بين هذا الكلام. ثم ذكر له أن الباريء تعالى قديم سابق للأشياء، لا سبقاً له حد محدود، وأول معين، بل لا أول له مطلقاً. ثم قال: وهو مع هذا آخر الأشياء، آخرية مطلقة ليس تنتهي إلى غاية معينة. ثم ذكر أن له ربوبية جلت عن أن تحيط بها الأبصار والعقول.

وقد سبق منا خوض في هذا المعنى، وذكرنا من نظمنا في هذا النمط أشياء لطيفة، ونحن نذكر ههنا من نظمنا أيضاً في هذا المعنى، وفي فننا الذي اشتهرنا به، وهو المناجاة والمخاطبة على طريقة أرباب الطريقة ما لم نذكره هناك، فمن ذاك قولي:

ولا أغنى ذكاء أبي الحسين

فلا والله ما وصل ابن سينا

ولارجعا بشيء بعد بحث

لقد طوفت أطلبكم ولكن

فهل بعد إنقضاء الوقت أحظى

منى عشنا بها زمناً وكانت

فإن أكدت فذاك ضياع ديني

وتدقيق سوى خفي حنين

يحول الوقت بينكم وبينني

بوصلكم غداً وتقر عيني!

تسوفنا بصدق أو بمين

وإن أجدت فذاك حلول ديني

ومنها:

امولاي قد أحرقت قلبي فلا تكن

أتجمع لي نارين: نار محبة

غداً محرقاً بالنار من كان يهواكا

ونار عذاب أنت أرحم من ذاكا!

ومنها:

قوم موسى تاهوا سنين كما قد

ولي اليوم تائهاً في جوى من

قل لأحبابنا إلام نروم ال

كم نناجيكم فلاترشدونا

حسبنا علمكم بأنا مواليكم وإن كنتم لنا كارهيـنا

فعسى تدرك السعادة أرباب ال

جاء في النص قدرها أربعونا

لا أسمى وحبه خمسونـا

وصل منكم وأنتم تمنعونـا

ونناديكم فلاتسمعونا!

معاصي فيصبحوا فائزينـا!

ومنها:

والله ما آسى من الدنيا على

بل في صميم القلب مني حسرة

إنني أراك بباطني لا ظاهري

ي امن سهرت مفكراً في أمره

فرجعت أحقق من نع امة بيهس

مال ولا ولد ولا سلطان

تبقى معي وتلف في أكفاني

فالحسن مشغلة عن العرفان

خمسـين حولـاً دائـم الجولان

وأضل سعيـاً من أبي غبشان

ومنها:

وحقك إن أدخلتني النار قلت لل

وأفـنيت عمري في علوم دقيقة

هبوني مسيئاً أوتغ الحلم جهله

اما يقتضي شرع التكرم عتقه

ذين بها قد كنت ممن أحبه

وما بغيتي إلا رضاه وقربه

وأوبقه بين البرية ذنبه

أيحسسن أن ينسى هواه وحبـه!

اما كان ينوي الحق فيما يقوله
امارد زيغ ابن الخطيب وشكه
اما قلتم من كان فينا مجاهداً
ونهديه سبلاً من هدايا جهاده
فأي اجتهاد فوق ما كان صانعاً
وما نال قلب الجيش جيش محمد
فإن تصفحوا يغنم وإن تتجرموا
وآية صدق الصب أن يعذب الأذى

ومنها:

ألم تنصر التوحيد والعدل كتبه!
والحاده إذ جل في الدين خطبه!
سيكرم مثواه ويعذب شربه!
ويدخله خير المداخل كسبه
وقد أحرقت زرق الشياطين شهبه!
كما نال من أهل الضلالة قلبه
فتعذيبكم حلو المذاقة عذبه
إذ كان من يهوى عليه يصبه

إذا فكرت فيك يحار عقلي
وأصحو تارة فيشوب ذهني
في امن تاهت العقلاء فيه
ويا من كاعتالاً فكار عنه
ويا من ليس يعلمه نبي
ويا من ليس قد امأ وخلفاً
ولا فوق السماء ولا تدلى
ويا من أمره من ذاك أجلي
سألتك باسمك المكتوم إلا
وجدت لها بما تهوى فأنت

ومنها:

والحق بالمجانين الكبار
ويقدح خاطري كشواظ نار
ف امسوا كلهم صرعى عقار
فآبت بالمتاعب والخسار
ولا ملك ولا يدريه دار
ولاجهة اليمين ولا اليسار
منالاً رضى في لجج البحار
من ابن ذكاء أوصبح النهار
فككت النفس من رق الأسار
العليم بباطن اللغز الضمار

يا رب إنك عالم
وتجردي للذب عنك
بالعدل والتوحيد أصدع
وكشفت زيغ ابن الخطيب
ونقضت سائر ما بنا
وأبنت عن إغوائه
بمحبتتي لك واجتهادي
على مراغمة الأعادي
معلنناً في كل نادي
ولبسه بين العباد
من الضلالة والفساد
في دين أحمد ذي الرشاد

محممات بالسواد	وجعلت أوجه ناصريه
بعد التمرد والعناد	وكففت من غلوائهم
د عليهم بعد الرماد	فكأنما نخل الرما
حسن المثوبة في المعاد	وقصدت وجهك أبتغي
ير إليكم نور السداد	فأفرض على العبد الفق
معرفة المصائر والمبادي	وارزقه قبل الموت
بالأصفاد من أسر الصفاد	وأفكك أسير الحرص
أبوابكم كدر البعاد	واغسل بصفو القرب من
بوصلكم برد الفؤاد	وأعضه من حر الغليل
مية وقلبا فيك صاد	وارحم عيوناً فيك ها
د وممسك السبع الشداد	ياساطح الأرض المها

الأصل: يا بني، إني قد أنباتك عن الدنيا وحالها، وزوالها وانتقالها، وأنباتك عن الآخرة وما أعد لأهلها، وضربت لك فيهما الأمثال، لتعتبر بها، وتخذو عليها.

إنما مثل من خير الدنيا كمثل قوم سفر، نبا بهم منزل جديب، فأموا متراً خصبياً، وجناباً مريعاً، فاحتملوا وعثاء الطريق، وفراق الصديق، وخشونة السفر، وجشوبة المطعم ليأتوا سعة دارهم، ومترل قرارهم، فليس يجدون لشيء من ذلك الماء، ولا يرون نفقة فيه مغماً. ولا شيء أحب إليهم مما قريبهم من مترلهم وأدانهم إلى محلتهم. ومثل من أغتر بها كمثل قوم كانوا بمترل خصب، فنبأ بهم إلى منزل جديب، فليس شيء أكره إليهم، ولا أفضع عندهم، من مفارقة ما كانوا فيه، إلى ما يهجمون عليه، ويصيرون إليه.

الشرح: هذا عليه يخذو، واحتذى مثاله، يحتذي، أي اقتدى به. وقوم سفر، بالتسكين، أي مسافرون.

و اموا: قصدوا. والمترل الجديب: ضد المترل الخصب.

والجناب المريع بفتح الميم: ذو الكأ والعشيب، وقد مرع الوادي، بالضم.

والجناب: الفناء. ووعثاء الطريق: مشقتها.

وجشوبة المطعم: غلظه، طعام جشيب. ومجشوب، ويقال إنه الذي لا آدم معه.

يقول: مثل من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة، كمن سافر من مترل جذب إلى مترل خصب، فلقي في طريقه مشقة، فإنه لا يكثرث بذلك في جنب ما يطلب، وبالعكس من عمل للدنيا وأهمل أمر الآخرة، فإنه كمن يسافر إلى مترل ضنك ويهجر مترلاً رحيباً طيباً، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".

الأصل: يا بني، اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وأرض من

الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك. واعلم أن الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب، فاسع في كدحك، ولا تكن خازناً لغيرك، وإذا أنت هديت لقصدك، فكن أخشع ما تكون لربك.

الشرح: جاء في الحديث المرفوع: "لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه". وقال بعض الأسارى لبعض الملوك: إفعل معي ما تحب أن يفعل الله معك، فاطلقه، وهذا هو معنى قوله رضي الله عنه: ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم.

وقوله، وأحسن من قول الله تعالى: "وأحسن كما أحسن الله إليك".

وقوله: واستقبح من نفسك، سئل الأحنف عن المروءة، فقال: أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك. وروي: وأرض من الناس لك وهي أحسن.

و اما العجب وما ورد في ذمه فقد قدمنا فيه قولاً مقنعاً.

قوله رضي الله عنه واسع في كدحك أي أذهب ما اكتسبت بالأنفاق، والكدح ههنا: هو المال الذي كدح في حصوله، والسعي فيه إنفاقه، وهذه كلمة فصيحة، وقد تقدم نظائر قوله: ولا تكن خازناً لغيرك.

ثم أمره أن يكون أخشع ما يكون لله إذ هداه لرشده، وذلك لأن هدايته إياه رشده نعمة عظيمة منه، فوجب أن يقابل بالخشوع لأنه ضرب من الشكر.

الأصل: واعلم أن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة، ومشقة شديدة، وأنه لا غنى بك فيه عن حسن الارتداد، وقدر بلاغك من الزاد، مع خفة الظهر، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك، فيكون ثقل ذلك وبالأعلى عليك، وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة، فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه، وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه، فلعلك تطلبه فلا تجده.

واغتنم من استقرضك في حال غناك، ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك.

واعلم أن أمامك عقبةً كثوداً، المخف فيها أحسن حالاً من المثقل، والمبطيء عليها أقبح من المسرع، وأن مهبطها بك لا محالة، أما على جنة أو على نار، فارتد لنفسك قبل نزولك، ووطيء المتزل قبل حلولك، فليس بعد الموت مستعجب، ولا إلى الدنيا منصرف.

الشرح: أمره في هذا الفصل بإنفاق المال والصدقة والمعروف. فقال: إن بين يديك طريقاً بعيد المسافة، شديد المشقة ومن سلك طريقاً فلا غنى له عن أن يرتاد لنفسه، ويتزود من الزاد قدر ما يبلغه الغاية، وأن يكون خفيف الظهر في سفره ذلك، فإياك أن تحمل من المال ما يثقلك، ويكون وبالأعلى عليك، وإذا وجدت من الفقراء والمساكين من يحمل ذلك الثقل عنك فيوافيك به غداً وقت الحاجة فحملة إياه، فلعلك تطلب مالك فلا تجده. جاء في الحديث المرفوع: "خمس من أتى الله بهن أو بواحدة منهن أوجب له الجنة: من سقى هامة صادية، أو أطعم كبداً هافية، أو كسا جلدَةً عارية، أو حمل قدماً حافية، أو أعتق رقبةً عانية".

قيل لحاتم الأصم: لو قرأت لنا شيئاً من القرآن! قال: نعم، فاندفع فقراً: "الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة مما رزقناهم يكترون"، فقالوا أيها الشيخ ما هكذا أنزل! قال: صدقتم، ولكن هكذا أنتم! الأصل: واعلم أن الذي بيده خزائن السموات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالأجابة، و امرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينه وبينك من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه ولم يمنحك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يفضحك حيث تعرضت للفضيحة، ولم يشدد عليك في قبول الآنابة، ولم يناقشك بالجرمة، ولم يؤيسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنك عشرًا. وفتح لك باب المتاب، وباب الاستعتاب، فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم بنجواك، فأفضيت إليه بحاجتك، وأبشثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفتة كربوك، واستعنته على أمورك وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره، من زيادة الأعمار، وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق.

ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك فيه من مسألتك، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الأمل. وربما سألت الشيء فلا تعطاه، وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو أجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، وينفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك، ولا تبقى له.

الشرح: قد تقدم القول في الدعاء، قوله: بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، هذا متفق عليه بين أصحابنا، وهو أن تارك القبيح لأنه قبيح يستحق الثواب.

قوله: حسب سيئتك واحدة وحسب حسنك عشرًا، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها".

قوله: وأبشثته ذات نفسك، أي حاجتك.

ثم ذكر له وجوهاً في سبب إبطاء الإجابة: منها أن ذلك أمر عائد إلى النية، فلعلها لم تكن خالصة، ومنها أنه ربما أخرت ليكون أعظم لأجر السائل، لأن الثواب على قدر المشقة، ومنها أنه ربما أخرت ليعطى السائل خيراً مما سأل، إما عاجلاً أو أجلاً، أو في الحالين. ومنها أنه ربما صرف ذلك عن السائل، لأن في إعطائه إياه مفسدة في الدين.

قوله: فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له، لفظ شريف فصيح، ومعنى صادق محقق فيه عظة بالغة، وقال أبو الطيب:

أين الجبارة الأكاسرة الأولى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

ويروى: من يحجبه عنك. وروى: حيث الفضيحة أي حيث الفضيحة موجودة منك.

واعلم أن في قوله: قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة إشارة إلى قوله تعالى: "ادعوني أستجب لكم".

وفي قوله: و أمر أن تسأله ليعطيك إشارة إلى قوله: "واسألوا الله من فضله".

وفي قوله: وتسترحمه ليرحمك إشارة إلى قوله: "وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون".

وفي قوله: ولم يمنعك إن أسأت من التوبة إشارة إلى قوله: "إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً".

الأصل: واعلم يا بني أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا، وللغناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وأنت في منزل قلعة، ودار بلغة، وطريق إلى الآخرة، وأنت طريد الموت الذي لا ينجو هاربه، ولا يفوته طالبه، ولا بد أنه مدركه، فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيئة، قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة، فيحول بينك وبين ذلك، فإذا أنت قد أهلكت نفسك.

يا بني، أكثر من ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه، وتفضي بعد الموت إليه، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذر، وشددت له أزر، ولا يأتيك بغتة فيبهرك.

وإياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها، وتكالبهم عليها، فقد نبأك الله عنها، ونعتت لك نفسها، وتكشفت لك عن مساويها، فإنما أهلها كلاب عاوية، وسباع ضارية، يهر بعضها على بعض، ويأكل عزيزها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها.

نعم معقولة، وأخرى مهملة، قد أضلت عقولها، وركبت مجهولها.

سروح عاهة بواد وعث، ليس لها راع يقيمها، ولا مسيم يسيمها. سلكت بهم الدنيا طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى، فتأهوا في حيرتها، وغرقوا في نعمتها، واتخذوها رباً فلعبت بهم ولعبوا بها، ونسوا ما وراءها.

رويداً يسفر الظلام، كأن قد وردت الأظعان! يوشك من أسرع أن يلحق! الشرح: يقول: هذا منزل قلعة، بضم القاف وسكون اللام، أي ليس بمستوطن، ويقال: هذا مجلس قلعة، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة. ويقال أيضاً: هم على قلعة، أي على رحلة، والقلعة أيضاً: هو المال العارية، وفي الحديث: بئس المال القلعة، وكله يرجع إلى معنى واحد.

قوله: ودار بلغة، والبلغة: ما يتبلغ به من العيش.

قوله: سروح عاهة، والسروح: جمع سرح، وهو المال السارح. والعاهة: الأفة، أعاه القوم أصابت ماشيتهم العاهة. وواد وعث: لا يثبت الحافر والخف فيه، بل يغيب فيه، ويشق على من يمشي فيه.

وأوعث القوم: وقعوا في الوعث ومسيم يسيمها: راع يرعاها.

قوله: رويداً يسفر الظلام إلى آخر الفصل، ثلاثة أمثال محركة لمن عنده استعداد. واستقرأني أبو الفرج محمد بن عباد رحمه الله وأنا يومئذ حدث هذه الوصية فقرأتها عليه من حفظي، فلما وصلت إلى هذا الموضع صاح صيحة شديدة، وسقط - وكان جباراً قاسي القلب.

في وصف الدنيا وفناء الخلق.

واعلم أنا قدمنا في وصف الدنيا والفناء والموت من محاسن كلام الصالحين والحكماء ما فيه الشفاء، ونذكر الآن أشياء أخرى.

فمن كلام الحسن البصري: يابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، فإذا مضى يوم مضى بعضك.
عن بعض الحكماء: رحم الله أمراً لا يغره ما يرى من كثرة الناس، فإنه يموت وحده، ويقبر وحده، ويحاسب وحده.

وقال بعضهم: لا وجه لمقاساة الهموم لأجل الدنيا ولا الاعتداد بشيء من متاعها، ولا التخلي منها، أما ترك الأهتمام لها، فمن جهة أنه لا سبيل إلى دفع الكائن من مقدورها، وأما ترك الاعتداد بها، فإن مرجع كل أحد إلى تركها، وأما ترك التخلي عنها فإن الآخرة لا تدرك إلا بها.

ومن كلام بعض الحكماء: أفضل اختيار الإنسان ما توجه به إلى الآخرة، وأعرض به عن الدنيا، وقد تقدمت الحجة وأذا بالرحيل، ولنا من الدنيا على الدنيا دليل، وإنما ألدنا في مدة بقائه صريع لمرض، أو مكتئب بهم، أو مطروق بمصيبة، أو مترقب لمخوف، لا يأمن المرء أصناف لذته من المطعوم والمشروب أن يكون موته فيه، ولا يأمن مملوكه وجاريته أن يقتلاه بجديد أو سم، وهو مع ذلك عاجز عن استدامة سلامة عقله من زوال، وسمعه من صمم، وبصره من عمى، ولسانه من خرس، وسائر جوارحه من زمانة، ونفسه من تلف، وماله من بوار، وحببيه من فراق، وكل ذلك يشهد شهادة قطعية أنه فقير إلى ربه، ذليل في قبضته، محتاج إليه، لا يزال المرء بخير ما حاسب نفسه، وعمر آخرته بتخريب دنياه، وإذا اعترضته بحار المكاره، جعل معارها الصبر والتأسي، ولم يغتر بتتابع النعم، وإبطاء حلول النقم، وأدام صحبة التقى، وفطم النفس عن الهوى، فإنما حياته كبضاعة ينفق من رأس المال منها، ولا يمكنه أن يزيد فيها، ومثل ذلك يوشك فناؤه وسرعة زواله. وقال أبو العتاهية في ذكر الموت:

وسيضحك الباكون بعدك

وليخلفن الموت عهدك

أفنى أباك بلى وجدك

ر وطيبها وسكنت لحدك

ل صالح قد كان عندك

لك بينهم حصصاً وكذك

ت لهم ولا يجدون فقدك

ستبأشر الترباء خدك

ولينزلن بك البلى

وليفننك مثل ما

لوقد رحلت عن القصور

لم تنتفع إلا بفع

وترى الذين قسمت ما

يتلذذون بما جمع

الأصل: واعلم يا بني أن من كانت مطيته الليل والنهار، فإنه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً.

واعلم يقيناً أنك لن تبلغ املك، ولن تعدو أجلك، وأنت في سبيل من كان قبلك.

فخفض في الطلب، وأجمل في المكتسب، فإنه رب طلب قد جر إلى حرب، وليس كل طالب بمرزوق، ولا كل مجمل بمحروم.

وأكرم نفسك عن كل دنية وإن سافتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً. ولا تكن عبد غيرك

وقد جعلك الله حراً. وما خير خير لا ينال إلا بشر، ويسر لا ينال إلا بعسر.
 وإياك أن توجف بك مطايا الطمع، فتوردك مناهل الهلكة. وإن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، فإنك
 مدرك قسمك، وأخذ سهمك، وإن اليسير من الله سبحانه أكرم وأعظم من الكثير من خلقه وإن كان كل منه.
 الشرح: مثل الكلمة الأولى قول بعض الحكماء - وقد نسب أيضاً إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه: أهل الدنيا كركب
 يسار بهمومهم نيام.
 قوله: فخفض في الطلب من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس
 حتى تستكمل رزقها، فأجملوا في الطلب". وقال الشاعر:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
 عوضاً ولو نال الغنى بسؤال
 وإذا النوال إلى السؤال قرنته
 رجع السؤال وخف كل نوال

وقال آخر:

رددت رونق وجهي عن صحيفته
 رد الصقال بهاء الصارم الخدم
 وما أبالي وخير القول أصدقه
 حقنت لي ماء وجهي ام حقنت دمي

وقال آخر:

وإني لأختار الزهيد على الغنى
 وأدفع الإملاق صبراً وقد أرى
 وأجزأ بالماء القراح عن المحض
 مكان الغنى كي لا أهين له عرضي

وقال أبو محمد البزدي في المأمون:

أبقى لنا الله الإمام وزاده
 شرفاً إلى الشرف الذي أعطاه
 والله أكرمنا بأننا معشر
 عتقاء من نعم العباد سواه

وقال آخر:

كيف النهوض بما أوليت من حسن
 أم كيف أشكر ما طوقت من نعم!
 ملكتني ماء وجهه كاد يسكبه ذل
 السؤال ولم تفجع به هممي

وقال آخر:

لا تحرصن على الحطام وإنما
 يأتيتك رزقك حين يؤذن فيه
 سبق القضاء بقدره وزمانه
 وبأنه يأتيتك أو تأتية

وكان يقال: ما استغنى أحد بالله إلا افتقر الناس إليه.

وقال رجل في مجلس فيه قوم من أهل العلم: لا أدري ما يحمل من يوقن بالقدر على الحرص على طلب الرزق! فقال له

أحد الحاضرين: يحمله القدر، فسكت.

أقول: لو كنت حاضراً لقلت: لو حمله القدر لما نهاه العقلاء عن الحرص، ولما مدحوه على العفة والقناعة فإن عاد وقال: وأولئك ألباهم القدر إلى المدح والذم والأمر والنهي، فقد جعل نفسه وغيره من الناس، بل من جميع الحيوانات بمنزلة الجمادات التي يحركها غيرها ومن بلغ إلى هذا الحد لا يكلم، وقال الشاعر:

أراك تزيد كالأيام حرصاً
على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوماً
إليها قلت حسبي قدر ضيت !

أبو العتاهية:

أي عيش يكون أطيب من عي
ش كفاف قوت بقدر البلاغ
قمرتني الأيام عقلي ومالي
وشبابي وصحتي وفراغي
وأوصى بعض الأدباء ابنه فكتب إليه:

كن حسن الظن برب خلقك
واعلم بأن الحرص يظفي رونقك
فجانب الحرص وحسن خلقك
واصدق وصادق أبداً من صدقك
بنى واحمده على ما رزقك
واجعل لأعدائك حزماً ملقك
وجنب حشو الكلام منطقك
هذي وصاة والد قد عشقك
وأرشدك الله لها ووفقك

أبو العتاهية:

أجل الغنى مما يؤمل أسرع
وأراك تجمع دائماً لا تشبع
قل لي لمن أصبحت تجمع دائماً
ألبل عرسك لا أبا لك تجمع!

وأوصى زياد ابنه عبيد الله عند موته، فقال: لا تدنس عرضك، ولا تبذل وجهك، ولا تخلقن جدتك بالطلب إلى من إن ردك رده عليك عيباً، وإن قضى حاجتك جعلها عليك مناً، واحتمل الفقر بالتزهر عما في أيدي الناس، والزم القناعة بما قسم لك، فإن سوء عمل الفقير يضع الشريف، ويخمل الذكر، ويوجب الحرمان.

الأصل: وتلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك، وحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء، وحفظ ما في يديك أحب إلي من طلب ما في يدي غيرك، ومرارة اليأس، خير من الطلب إلى الناس، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور، والمرء أحفظ لسره، ورب ساع فيما يضره! من أكثر أهجر، ومن تفكر أبصر.

قارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تب عنهم.

بئس الطعام الحرام! وظلم الضعيف أفحش الظلم! إذا كان الرفق خرقاً، كان الخرق رفقاً.

رئماً كان الدواء داءً، والداء دواءً، وربما نصح غير الناصح، وغش المستنصح.
وإياك والإتكال على المني فإنها بضائع النوكى. والعقل حفظ التجارب، وخير ما جربت ما وعظك. بادر الفرصة، قبل أن تكون غصةً، ليس كل طالب يصيب، ولا كل غائب يثوب، ومن الفساد إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد. ولكل أمر عاقبة. سوف يأتيك ما قدر لك.

التاجر مخاطر، ورب يسير أنمى من كثير! الشرح: هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حكمية، أولها قوله: تلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك. وهذا مثل قولهم: أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً، ولست بقادر على أن تجعل كلامك صمتاً، وهذا حق، لأن الكلام يسمع وينقل، فلا يستطيع إعادته صمتاً، والصمت عدم الكلام، فالقادر على الكلام قادر على أن يبدله بالكلام، وليس الصمت بمنقول ولا مسموع فيتعذر إستدراكه. وثانيها قوله: حفظ ما في يديك أحب إلي من طلب ما في أيدي غيرك، هذا مثل قولهم في المثل: البخل خير من سؤال البخيل، وليس مراد أمير المؤمنين رضي الله عنه وصايته بالإمساك والبخل، بل نهيته عن التفريط والتبذير، قال الله تعالى: "ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً"، وأحقق الناس من أضاع ماله إتكالاً على مال الناس، وظناً أنه يقدر على الإستخلاف، قال الشاعر:

على ما حوت أيدي الرجال فكذب

إذا حدثتك النفس أنك قادر

وثالثها قوله: مرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس، من هذا أخذ الشاعر قوله:

أذ وأحلى من سؤال الأراذل

وءإن كان طعم اليأس مرّاً فإنه

وقال البحري:

تعباً كظن الخائب المغرور

واليأس إحدى راحتين ولن ترى

ورابعها قوله: الحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور، والحرفة بالكسر مثل الحرف بالضم، وهو نقصان الحظ وعدم المال. ومنه قوله: رجل محارف، بفتح الراء، يقول: لأن يكون المرء هكذا وهو عفيف الفرج واليد، خير من الغنى مع الفجور، وذلك لأن ألم الحرفة مع العفة ومشقتها إنما هي في أيام قليلة وهي أيام العمر، ولذة الغنى إذا كان مع الفجور، ففي مثل تلك الأيام يكون، ولكن يستعقب عذاباً طويلاً، فالحال الأولى خير لا محالة، وأيضاً ففي الدنيا خير أيضاً للذكر الجميل فيها، والذكر القبيح في الثانية، وللمحافظة على المروءة في الأولى وسقوط المروءة في الثانية.

وخامسها قوله: المرء أحفظ لسره أي الأولى الأتوبح بسرك إلى أحد، فأنت أحفظ له من غيرك، فإن أذعته فانتشر فلا تلم إلا نفسك، لأنك كنت عاجزاً عن حفظ سر نفسك، فغيرك عن حفظ سرك وهو أجنبى أعجز، قال الشاعر:

فصدر الذي يستودع السر أضيق

إذا ضاق صدر المرء عن حفظ سره

وسادسها قوله: رب ساع فيما يضره، قال عبد الحميد الكاتب في كتابه إلى أبي مسلم: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحاً.

وسابعها قوله: من أكثر أهجر يقال: أهجر الرجل، إذا أفحش في المنطق السوء والخبث، قال الشماخ:

كما جدة الأعراق قال ابن ضرة عليها كلاماً جار فيه وأهجر

وهذا مثل قولهم: من كثر كلامه كثر سقطه. وقالوا أيضاً: قلما سلم مكثراً، أو أمن من عثار.

وثامنها قوله: من تفكر أبصر، قالت الحكماء: الفكر تحديق العقل نحو المعقول، كما أن النظر البصري تحديق البصر نحو المحسوس، وكما أن من حدق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لا بد أن يبصره، كذلك من نظر بعين عقله، وأفكر فكراً صحيحاً، لا بد أن يدرك الأمر الذي فكر فيه ويناله.

وتاسعها قوله: قارن أهل الخير تكن معهم، وباين أهل الشر تب عنهم، كان يقال: حاجبك وجهك، وكتبك لسانك، وجليستك كلك. وقال الشاعر:

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مقتد

وعاشرها قوله: بئس الطعام الحرام، هذا من قوله تعالى: "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً."

وحادي عشرها قوله: ظلم الضعيف أفحش الظلم. رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً، فقال: يا بني، كيف لا يسع حلمك من تضربه فلا يمتنع منك! وأمر المأمون بإشخاص الخطابي القاص من البصرة، فلما مثل بين يديه، قال له: يا سليمان، أنت القائل: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، ومسجدي عين الربد، وأنا عين مسجدي، وأنت أعور، فإن عين الدنيا عوراء! قال: يا أمير المؤمنين، لم أقل ذاك، ولا أظن أمير المؤمنين أحضرنى لذلك، قال: بلغني أنك أصبحت فوجدت على سارية من سواي مسجداً:

رحم الله علياً إنه كان تقياً

فأمرت بمحوه، قال: يا أمير المؤمنين، كان ولقد كان نبياً فأمرت بإزالته، فقال: كذبت كانت القاف أصح من عينك الصحيحة، ثم قال: والله لولا أن أقيم لك عند العامة سوقاً لأحسننت تأديك، قال: يا أمير المؤمنين، قد ترى ما أنا عليه من الضعف والزمانة والهرم وقلة البصر، فإن عاقبتني مظلوماً فاذكر قول ابن عمك علي رضي الله عنه: ظلم الضعيف أفحش الظلم، وإن عاقبتني بحق، فاذكر أيضاً قوله: لكل شيء رأس، والحلم رأس السؤدد. فنهض المأمون من مجلسه وأمر برده إلى البصرة، ولم يصله بشيء، ولم يحضر أحد قط مجلس المأمون إلا وصله عدا الخطابي، وليس هذا هو المحدث الحافظ المشهور، ذاك أبو سليمان أحمد بن محمد بن أحمد البستي، كان في أيام المطيع والطائع، وهذا قاص بالبصرة كان يقال له أبو زكريا سليمان بن محمد البصري.

وثاني عشرها قوله: إذا كان الرفق خرقاً، كان الخرق رفقاً، يقول: إذا كان استعمال الرفق مفسدة وزيادة في الشر فلا

تستعمله، فإنه حينئذ ليس برفق بل هو خرق، ولكن استعمل الخرق، فإنه يكون رفقاً والحالة هذه، لأن الشر لا يلقي إلا بشر مثله، قال عمرو بن كلثوم:

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الأ لا يجهلن أحد علينا

وفي المثل: إن الحديد بالحديد يفلح، وقال زهير:

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه

وقال أبو الطيب:

مضر كوضع السيف في موضع الندى

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

وثالث عشرها قوله: وربما كان الدواء داء، والداء دواء، هذا مثل قول أبي الطيب:

ربما صحت الأجسام بالعلل

ومثله قول أبي نواس:

وداوني بالتتي كانت هي الداء

ومثل قول الشاعر:

دواء ولكن كان سقماً مخالفاً

تداويت من ليلي بليلي فلم يكن

ورابع عشرها قوله: ربما نصح غير الناصح، وغش المستنصح. كان المغيرة بن شعبة يبغض علياً رضي الله عنه منذ أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأكدت بغضته إلى أيام أبي بكر وعثمان وعمر، وأشار عليه يوم ببيع بالخلافة أن يقر معاوية على الشام مدة يسيرة، فإذا خطب له بالشام وتوطأت دعوته دعاه إليه كما كان عمر وعثمان يدعوانه إليهما، وصرفه فلم يقبل، وكان ذلك نصيحة من عدو كاشح.

واستشار الحسين رضي الله عنه عبد الله بن الزبير وهما بمكة في الخروج عنها، وقصد العراق ظاناً أنه ينصحه فغشه، وقال له: لا تقم بمكة، فليس بها من يبائعك، ولكن دونك العراق، فإنهم متى رأوك لم يعدلوا بك أحداً، فخرج إلى العراق، حتى كان من أمره ما كان.

وخامس عشرها قوله: إياك والإتكال على المنى، فإنها بضائع النوكى، جمع أنوك وهو الأحق، من هذا أخذ أبو تمام قوله:

روض الأمانى لم يزل مهزولاً

من كان مرعى عزمه وهمومه

ومن كلامهم: ثلاثة تخلق العقل، وهو أوضح دليل على الضعف: طول التمني وسرعة الجواب، والإستغراب في الضحك. وكان يقال: التمني والحلم سيان. وقال آخر: وشرف الفتى ترك المنى.

وسادس عشرها قوله: العقل حفظ التجارب من هذا أخذ المتكلمون قولهم: العقل نوعان: غريزي، ومكتسب، فالغريزي العلوم البديهية، والمكتسب ما أفادته التجربة وحفظته النفس.

وسابع عشرها قوله: خير ما جربت ما وعظك، مثل هذا قول أفلاطون: إذا لم تعظك التجربة فلم تجرب، بل أنت ساذج

كما كنت وثامن عشرها قوله: بادر الفرصة، قبل أن تكون غصة، حضر عبيد الله بن زياد عند هانيء بن عروة عائداً، وقد كمن له مسلم بن عقيل، وأمره أن يقتله إذا جلس واستقر، فلما جلس جعل مسلم يؤامر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تطعه، وجعل هانيء ينشد كأنه يترنم بالشعر:

ما الانتظار بسلمى لا تحيها

ويكرر ذلك، فأوجس عبيد الله خيفة ونهض، فعاد إلى قصر الإمارة، وفات مسلماً منه ما كان يؤمله بإضاعة الفرصة، حتى صار أمره إلى ما صار.

وتاسع عشرها قوله: ليس كل طالب يصيب، ولا كل غائب يثوب، الأولى كقول القائل:

ولايسوغه المقدار ماوهبا

ماكل وقت ينال المرء ما طلبا

والثانية كقول عبيد:

وغائب الموت لا يؤوب!

وكل ذي غيبة يؤوب

العشرون قوله: من الفساد، إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد، ولا ريب أن من كان في سفر وأضاع زاده، وأفسد الحال التي يعود إليها فإنه أحمق، وهذا مثل ضربه للإنسان في حالتي دنياه وآخرته.

الحادي والعشرون قوله: ولكل أمر عاقبة هذا مثل المثل المشهور لكل سائلة قرار.

الثاني والعشرون قوله: سوف يأتيك ما قدر لك هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإن يقدر لأحدكم رزق في قبة جبل أو حضيض قاع يأتيه".

الثالث والعشرون قوله: التاجر مخاطر هذا حق، لأنه يتعجل بإخراج الثمن ولا يعلم: هل يعود أم لا! وهذا الكلام ليس على ظاهره، بل له باطن، وهو أن من مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة، مثل قوله: "خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً"، فإنه مخاطر لأنه لا يأمن أن يكون بعض تلك السيئات تحبط أعماله الصالحة، كما لا يأمن أن يكون بعض أعماله الصالحة يكفر تلك السيئات، والمراد أنه لا يجوز للمكلف أن يفعل إلا الطاعة أو المباح.

الرابع والعشرون قوله: رب يسير، أنمى من كثير، قد جاء في الأثر: قد يجعل الله من القليل الكثير، ويجعل من الكثير البركة. وقال الفرزدق:

أقام زماناً وهو في الناس واحد

فإن تميماً قبل أن يلد الحصا

وقال أبو عثمان الجاحظ: رأينا بالبصرة أخوين، كان أبوهما يحب أحدهما ويغض الآخر، فأعطى محبوبه يوم موته كل ماله - وكان أكثر من مائتي درهم - ولم يعط الآخر شيئاً، وكان يتجر في الزيت، ويكتسب منه ما يصرفه في نفقة عياله، ثم رأينا أولاد الأخ الموسر بعد موت الأخوين من عائلة ولد الأخ المعسر يتصدقون عليهم من فواضل أرزاقهم.

الأصل: لا خير في معين مهين، ولا في صديق ظنين، ساهل الدهر ما ذل لك قعوده، ولا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه، وإياك أن تجمع بك مطية اللجاج.

احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند جرمه على العذر، حتى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك. وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعله بغير أهله.

لا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك، و امحض أذاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة، وتجرع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة، ولا ألد مغبةً. ولن لمن غالطك فإنه يوشك أن يلين لك، وخذ على عدوك بالفضل فإنه أحد الظفرين، وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقيةً يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما. ومن ظن بك خيراً فصدق ظنه، ولا تضيعن حق أخيك إتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه. ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك. ولا ترغبين فيمن زهد عنك، ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان. ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه يسعى في مضرتك ونفعك، وليس جزاء من سرك أن تسؤه.

الشرح: هذا الفصل قد اشتمل على كثير من الأمثال الحكمية.

فأولها قوله: لا خير في معين مهين، ولا في صديق ظنين، مثل الكلمة الأولى قولهم:

وجدته للهم غير شاف

إذا تكفيت بغير كاف

ومن الكلمة الثانية أخذ الشاعر قوله:

به وهو راع للوصال أمين

فإن من الأخوان من شحط النوى

فخلو وأما غيبه فظنين

ومنهم صديق العين أما لقاءه

وثانيها قوله: ساهل الدهر ما ذل لك قعوده، هذا استعارة، والقعود البكر حين يمكن ظهره من الركوب إلى أن يثني، ومثل هذا المعنى قولهم في المثل: من ناطح الدهر أصبح أجم. ومثله: ودر مع الدهر كيفما دارا ومثله:

فأحر بها أن تتجلي ولها القمر

ومن قامر الأيام عن ثمراتها

ومثله:

رويداً ولا تعنف فيصبح شامسا

إذا الدهر أعطاك العنان فسر به

وثالثها قوله: لا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه، هذا مثل قولهم: من طلب الفضل، حرم الأصل.

ورابعها قوله: إياك وأن تجمع بك مطية اللجاج، هذا استعارة، وفي المثل: ألج من خنفساء، وألج من زنبور. وكان يقال: اللجاج من القحمة، والقحمة من قلة الحياء، وقلة الحياء من قلة المروءة، وفي المثل: لج صاحبك فحج.

وخامسها قوله: احمل نفسك من أخيك، إلى قوله: أو تفعله بغير أهله اللطف، بفتح اللام والطاء، الأسم من أطفه بكذا أي بره به، وجاءتنا لطفة من فلان أي هدية، والملاطفة بالمباراة. وروي عن اللطف وهو الرفق للأمر، والمعنى أنه أوصاه إذا

قطعه أخوه أن يصله، وإذا جفاه أن يره، وإذا بخل عليه أن يجود عليه، إلى آخر الوصاة.

ثم قال له: ألا تفعل ذلك مع غير أهله، قال الشاعر:

وإن الذي بيني وبين بني أبي
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وبين بني أُمي لمختلف جدا
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
زجرت لهم طيراً تمر بهم سEDA
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدA

وقال الشاعر:

إني وإن كان ابن عمي كاشحاً
ومفيدة نصري وإن كان أمراً
وأكون والي سره وأصونه
وإذا الحوادث أجحفت بسو امه
وإذا دعا باسمي ليركب مركباً
وإذا أجن فليقة في خدره
لمقاذف من خلفه وورائه
متزحزحاً في أرضه وسمائه
حتى يحق علي وقت أدائه
قرنت صحيحتنا إلى جربائه
صعباً قعدت له على سيسائه
لم أطلع مما وراء خبائله

وإذا ارتدى ثوباً جميلاً لم أقل
ياليت أن علي فضل ردائه!

وسادسها قوله: لا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك، قد قال الناس في هذا المعنى فأكثرُوا، قال بعضهم:

إذا صافى صديقك من تعادي
فقد عاداك وانقطع الكلام

وقال آخر:

صديق صديقي داخل في صداقتي
وخصم صديقي ليس لي بصديق

وقال آخر:

تود عدوي ثم تزعم أنني
صديقك إن الرأي عنك لعازب

وسابعها قوله: و امحض أخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة، ليس يعني رضي الله عنه بقبيحة ههنا القبيح الذي يستحق به الذم والعقاب، وإنما يريد نافعة له في العاجل كانت أو ضارة له في الأجل، فعبر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح، كقوله تعالى: "وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون".

وقد فسره قوم فقالوا: أراد: كانت نافعة لك أو ضارة لك. ويحتمل تفسير آخر وهو وصيته إياه أن يمحض أخاه النصيحة سواء كانت مما لا يستحيا من ذكرها وشياعها، أو كانت مما يستحيا من ذكرها واستفاضتها بين الناس، كمن ينصح صديقه في أهله ويشير عليه بفراقهم لفجور اطلع عليه منهم، فإن الناس يسمون مثل هذا إذا شاع قبيحاً.

وثامنها قوله: تجرع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألد مغبة هذا مثل قولهم: الحلم مراره ساعة، وحلاوة الدهر كله. وكان يقال: التذلل للناس مصايد الشرف.

قال المبرد في الكامل: أوصى علي بن الحسين محمد بن علي رضي الله عنه ، فقال: يا بني، عليك بتجرع الغيظ من الرجال، فإن أباك لا يسره بنصيبه من تجر الغيظ من الرجال حمر النعم، والحلم أعز ناصراً، وأكثر عدداً. وتوسعها قوله: لن لمن غالظك، فإنه يوشك أن يلين لك، هذا مثل المثل المشهور: إذا عز أخوك فهن، والأصل في هذا قوله تعالى: "أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم". وعاشرها قوله: خذ على عدوك بالفضل فإنه أحد الظفرين هذا معنى مليح، ومنه قول ابن هانيء في المعز:

أعناقهم من جوده أعباء

في قتلهم قتلتهم النعماء

ضراب هام الروم منتقماً وفي

لولا انبعاث السيف وهو مسلط

وكنت كاتباً بديوان الخلافة، والوزير حينئذ نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد رحمه الله، فوصل إلى حضرة الديوان في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة محمد بن محمد أمير البحرين على البر، ثم وصل بعده الهرمزي صاحب هرمز في دجلة بالمراكب البحرية - وهرمز هذه فرضة في البحر نحو عمان - و امتلأت بغداد من عرب محمد بن محمد وأصحاب الهرمزي - وكانت تلك الأيام أياماً غراء زاهرة لما أفاض المستنصر على الناس من عطاياه، والوفود تزدحم من أقطار الأرض على أبواب ديوانه - فكتبت يوم دخول الهرمزي إلى الوزير أبياتاً سنحت على البديهة، وأنا متشاغل بما كنت فيه من مهام الخدمة، وكان رحمه الله لا يزال يذكرها وينشدها ويستحسنها:

علقت يدها بأنفس الأعلاق

أبدأ ملوك البحر في الأسواق

شغفاً بها كتنافس العشاق

وندالك كالأطواق في الأعناق

وتألفوا من بعد طول شقاق

بسحيل آراء ولا أحذاق

جلب المراكب من جزيرة واق

قول ابن حجر في لأى وعناق

سيجيئنا بممالك الأفاق

بالجود غل أو أسير وثاق

فان وسودده المعظم باق

يا أحمد بن محمد أنت الذي

ما املت بغداد قبلك أن ترى

ولها عليها غيرة وتنافسوا

وغدت صلاتك في رقاب سرائهم

بسديد رأيك أصلحت جمحاتهم

لله همة ماجد لم تعتلق

جلب السلاهب من أراك وبعدها

هذا العداء هو العداء فعد عن

وأظنه والظن علم أنه

لما أسير صنيعه في جيده

لا زال في ظل الخليفة ماله

وحادي عشرها قوله: إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا ذلك له يوماً، هذا مثل قولهم: أحب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما، وما كان يقال: إذا هويت فلا تكن غالياً، وإذا تركت فلا تكن قالياً.

وثاني عشرها قوله: من ظن بك خيراً فصدق ظنه، كثير من أرباب الهمم يفعلون هذا، يقال لمن قد شدا طرفاً من العلم: هذا عالم، هذا فاضل، فيدعوه ما ظن فيه من ذلك إلى تحقيقه، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالماً فاضلاً حقيقة وكذلك يقول الناس: هذا كثير العبادة، هذا كثير الزهد، لمن قد شرع في شيء من ذلك، فتحمله أقوال الناس على الالتزام بالزهد والعبادة.

وثالث عشرها قوله: ولا تضيعن حق أخيك إتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه، من هذا النحو قول الشاعر:

إذا خنتم بالغيب عهدي فما لكم
تدلون إدلال المقيم على العهد
صلوا وافعلوا فعل المدل بوصله
وإلا فصدوا وافعلوا فعل ذي الصدي

وكان يقال: إضاعة الحقوق، داعية العقوق.

ورابع عشرها قوله: لا ترغبن فيمن زهد فيك الرغبة في الزاهد هي الداء العياء، قال العباس بن الأحنف:

ما زلت أزهد في مودة راغب
حتى ابتليت برغبة في زاهد
هذا هو الداء الذي ضاقت به
حيل الطبيب وطال يأس العائد

وقد قال الشعراء المتقدمون والمتأخرون فأكثرُوا، نحو قولهم:

وفي الناس إن رثت حبالك واصل
وفي الأرض عن دار القلى متحول
وقول تأبط شراً:

إني إذا خلّة ضنت بنائلها
وأمسكت بضعيف الحبل أحذاقي
نجوت منها نجائي من بجيلة إذ
ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقي

وخامس عشرها قوله: لا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان. هذا أمر له بأن يصل من قطعه، وأن يحسن إلى من أساء إليه.

ظفر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد بكتب قد كتبها محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق رضي الله عنه إلى أهل الكرخ وغيرهم من أعمال أصفهان يدعوهم فيها إلى نفسه، فأحضرها بين يديه، ودفعها إليه، وقال له: أتعرف هذه، فأطرق حجلاً، فقال له: أنت امن، وقد وهبت هذا الذنب لعلي وفاطمة رضي الله عنهما، فقم إلى مترلك، وتخير ما شئت من الذنوب، فإننا نتخير لك مثل ذلك من العفو.

وسادس عشرها قوله: لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه يسعى في مضرتة ونفعك وليس جزاء من سرك أن تسوءه،

جاء في الخبر المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم سمع عائشة تدعو على من سرق عقداً لها، فقال لها: "لا تمسحي عنه بدعائك"، أي لا تخففي عذابه. وقوله رضي الله عنه: وليس جزاء من سرك أن تسوءه، يقول: لا تنتقم ممن ظلمك فإنه قد نفعك في الآخرة بظلمه لك، وليس جزاء من ينفع إنساناً أن يسيء إليه. وهذا مقام جليل لا يقدر عليه إلا الأفراد من الأولياء الأبرار. وقبض بعض الجبابرة على صالحين، فحبسهم وقيدهم، فلما طال عليهم الأمر زفر بعضهم زفرة شديدة، ودعا على ذلك الجبار، فقال له بعض أولاده - وكان أفضل أهل زمانه في العبادة. وكان مستجاب الدعوة: لا تدع عليه فتخفف من عذابه، قالوا: يا فلان، ألا ترى ما بنا وبك! لا يأنف ربك لنا! قال: إن لفلان مهبطاً في النار لم يكن ليبلغه إلا بما ترون، وإن لكم لمصعداً في الجنة لم تكونوا لتبلغوه إلا بما ترون. قالوا: فقد نال منا العذاب والحديد، فادع الله لنا أن يخلصنا وينقذنا مما نحن فيه، قال: إني لأظن أي لو فعلت لفعل، ولكن والله لا أفعل حتى أموت هكذا، فألقى الله فأقول له: أي رب سل فلاناً لم فعل بي هذا، ومن الناس من يجعل قوله رضي الله عنه: ليس جزاء من سرك أن تسوءه، كلمة مفردة مستقلة بنفسها، ليست من تمام الكلام الأول، والصحيح ما ذكرناه.

وسابع عشرها - ومن حقه أن يقدم ذكره قوله: ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك، هذا كما يقال في المثل: من شؤم الساحرة أنما أول ما تبدأ بأهلها، والمراد من هذه الكلمة النهي عن قطيعة الرحم وإقصاء الأهل وحرمانهم، وفي الخبر المرفوع: "صلوا أرحامكم ولو بالسلام".

الأصل: واعلم يا بني أن الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن أنت لم تأته أذاك. ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى! إنما لك من دنياك، ما أصلحت به مثواك، وإن كنت جازعاً على ما تفلت من يديك، فاجزع على كل ما لم يصل إليك.

استدل على ما لم يكن بما قد كان، فإن الأمور أشباه، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلاجه، فإن العاقل يتعظ بالأدب، والبهايم لا تتعظ إلا بالضرب.

اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين.

من ترك القصد جار. والصاحب مناسب، والصديق من صدق غيبه، والهوى شريك العمى، ورب بعيد أقرب من قريب، وقريب أبعد من بعيد، والغريب، من لم يكن له حبيب.

من تعدى الحق ضاق مذهبه، ومن اقتصر على قدره كان أبقي له، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله سبحانه.

ومن لم يبالك فهو عدوك، قد يكون اليأس إدراكاً، إذا كان الأمل.

ليس كل عورة تظهر، ولا كل فرصة تصاب، وربما أخطأ البصير قصده، وأصاب الأعمى رشده.

آخر الشر فإنك إذا شئت تعجلته، وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل.

من أمن الزمان خانه، ومن أعظمه أهانه، ليس كل من رمى أصاب، إذا تغير السلطان، تغير الزمان، سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار.

الشرح: في بعض الروايات: اطرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء، قد مضى لنا كلام شاف في الرزق.

وروى أبو حيان، قال: رفع الواقدي إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلبة الدين عليه، وكثرة العيال، وقلة الصبر، فوقع المأمون عليها: أنت رجل فيك خلطان، السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، واما الحياء فهو الذي بلغ بك إلى ما ذكرت، وقد امرنا لك بمائة ألف درهم، فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك، ون كنا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك، وأنت كنت حدثني وأنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير: "يا زبير، إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش، يتزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قل قل له".

قال الواقدي: وكنت أنسيت هذا الحديث، وكانت مذكرته إياي به أحب من صلته.

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على نكت كثيرة حكمية: منها قوله: الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، وهذا حق، لأن ذلك إنما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكلف، فتارة يأتيه الرزق بغير إكتساب ولا تكلف حركة، ولا تجشم سعي، وتارة يكون الأمر بالعكس. دخل عماد الدولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها، وهو فقير لا مال له، فساخت إحدى قوائم فرسه في الصحراء في الأرض، فتزل عنها وابتدورها غلمانها فخلصوها، فظهر لهم في ذلك الموضع نقب وسيع، فأمرهم بحفره، فوجدوا فيه أموالاً عظيمة، وذخائر لابن ياقوت، ثم استلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز التي كان ابن ياقوت يسكنها، فرأى حية في السقف، فأمر غلمانها بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم، ودخلت في خشب الكنيسة فأمر أن يقطع الخشب وتستخرج وتقتل، فلما قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله فقليل: ههنا خياط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهو رجل منسوب إلى الدين والخير، إلا أنه أصم لا يسمع شيئاً أصلاً، فأمر بإحضاره، فأحضر وعنده رعب وهلع، فلما أدخله إليه كلمه، وقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه، وقال: والله يا مولانا ما له عندي إلا أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء في. فتعجب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق، فوجدوا كلها ذهباً وحلياً وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت.

وأما الرزق الذي يطلبه الإنسان ويسعى إليه فهو كثير جداً لا يحصى.

ومنها قوله: ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى! هذا من قول الله تعالى: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم ييغون في الأرض بغير الحق".

ومن الشعر الحكمي في هذا الباب قول الشاعر:

تبه الغنى ومذلة الفقر

وإذا افتقرت فته على الدهر

خلفان لا أرضاهما لفتى

فإذا غنيت فلا تكن بطراً

ومنها قوله: إنما لك من دنياك، ما أصلحت به مثواك، هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا بن آدم، ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت".
وقال أبو العتاهية:

ليس للمتعب المكادح من دن ياه إلا الرغيف والطمران

ومنها قوله: وإن كنت جازعاً على ما تفلت من يديك، فاجزع على كل ما لم يصل إليك، يقول: لا ينبغي أن تجزع على ما ذهب من مالك، كما لا ينبغي أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب، فإنه لا فرق بينهما، إلا أن هذا حصل، وذاك لم يحصل بعد، وهذا فرق غير مؤثر، لأن الذي تظن أنه حاصل لك غير حاصل في الحقيقة، وإنما الحاصل على الحقيقة ما أكلته ولبسته، وأما القنيت والمدخرات فلعلها ليست لك، كما قال الشاعر:

وذي إبل يسقي ويحسبها له أخي تعب في رعيها ودؤوب غدت وغدا رب سواه يسوقها وبذل أحجاراً وجال قليب

ومنها قوله: استدل على ما لم يكن بما كان، فإن للأمور أشباها يقال: إذا شئت أن تنظر للعالم بعدك فانظرها بعد غيرك، وقال أبو الطيب في سيف الدولة:

ذكي تظنيه، طليعة عينه يرى قلبه في يومه ما يرى غدا

ومنها قوله: ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة، إلى قوله: إلا بالضرب، هو قول الشاعر:

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامه

وكان يقال: اللئيم كالعبد، والعبد كالبهيمة عتبها ضربها.

ومنها قوله: أطرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء. هذا كلام شريف فصيح عظيم النفع والفائدة، وقد أخذ عبد الله بن الزبير بعض هذه الألفاظ فقال في خطبته لما ورد عليه الخبر بقتل مصعب أخيه: لقد جاءنا من العراق خبر أحزننا وسرنا، جاءنا خبر قتل مصعب، فأما سرورنا فلأن ذلك كان له شهادة، وكان لنا إن شاء الله خيرة، وأما الحزن فلوعة يجدها الحميم عند فراق حميمه، ثم يرعوي بعدها ذو الرأي إلى حسن الصبر وكرم العزاء.
ومنها قوله: من ترك القصد جار، القصد الطريق المعتدل، يعني أن خير الأمور أوسطها، فإن الفضائل تحيط بها الرذائل فمن تعدى هذه يسيراً وقع في هذه.

ومنها قوله: صاحب مناسب، كما يقال: الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب البدن، قال أبو الطيب:

ما الخل إلا من أود بقلبه وأرى بطرف لا يرى بسوائه

ومنها قوله: الصديق من صدق غيبه، من ههنا أخذ أبو نواس قوله في المنهكة:

هل لك والهـل خبر فيمن إذا غبت حضر

أو ما لك اليوم أثر

فإن رأى خيراً شكر

أو كان تقصير عذر

ومنها قوله: الهوى شريك العمى، هذا مثل قولهم: حبك الشيء يعمي ويصم قال الشاعر:

عين الرضا عن كل عيب قليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

ومنها قوله: رب بعيد أقرب من قريب، وقريب أبعد من بعيد، هذا معنى مطروق، قال الشاعر:

لعمرك ما يضر البعد يوماً

إذا دنت القلوب من القلوب

وقال الأصوص:

إنني لامنحك الصدود وإنني

قسماً مع الصدود لأميل

وقال البحري:

ونازحة والدار منها قريبة

وما قرب ثاو في التراب مغيب !

ومنها قوله: والغريب من لم يكن له حبيب، يريد بالحبيب ههنا الحب لا المحبوب. قال الشاعر:

أسرة المرء والذاه وفيما

بين جنبيهما الحياة تطيب

وإذا وليا عن المرء يوماً

فهو في الناس أجنبى غريب

ومنها قوله: من تعدى الحق ضاق مذهبه، يريد بمذهبه ههنا طريقته، وهذه استعارة، ومعناه أن طريق الحق لا مشقة فيها

لسالكها، وطرق الباطل فيها المشاق والمضار، وكأن سالكها سالك طريقة ضيقة يتعثر فيها، ويتخبط في سلوكها.

ومنها قوله: من اقتصر على قدره كان أبقى له، هذا مثل قوله: رحم الله أمراً عرف قدره، ولم يتعد طوره وقال: من جهل قدره قتل نفسه، وقال أبو الطيب:

ومن جهلت نفسه قدره

رأى غيره منه ما لا يرى

ومنها قوله: أوثق سبب أخذت به، سبب بينك وبين الله سبحانه، هذا من قول الله تعالى: "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها".

ومنها قوله: فمن لم يبالك فهو عدوك، أي لم يكثر بك، وهذه الوصاة خاصة بالحسن رضي الله عنه و أمثاله من الولاة وأرباب الرعايا، وليست عامة للسوقة من أفناء الناس، وذلك لأن الوالي إذا أنس من بعض رعيته أنه لا يباله ولا يكثر به، فقد أبدى صفحته، ومن أبدى لك صفحته فهو عدوك، و اما غير الوالي من أفناء الناس، فليس أحدهم إذا لم يبال الآخر بعدو له.

ومنها قوله: قد يكون اليأس إدراكاً إذا كان الطمع هلاكاً، هذا مثل قول الفائل:

من عاش لاقى مايسو

ء من الأمور وما يسر

ولرب حتف فوقه

ذهب وياقوت ودر

والمعنى: ربما كان بلوغ الأمل في الدنيا والفوز بالمطلوب منها سبباً للهلاك فيها، وإذا كان كذلك، كان الحرمان خيراً من الظفر.

ومنها قوله: ليس كل عورة تظهر، ولا كل فرصة تصاب يقول: قد تكون عورة العدو مستترة عنك فلا تظهر، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها.

وقال بعض الحكماء: الفرصة نوعان: فرصة من عدوك، وفرصة في غير عدوك، فالفرصة من عدوك ما إذا بلغت نفعتك، وإن فاتتك ضرتك، وفي غير عدوك ما إذا أخطأك نفعه لم يصل إليك ضرره.

ومنها قوله: فرما أخطأ البصير قصده، وأصاب الأعمى رشده، من هذا النحو قولهم في المثل: مع الخواطىء سهم صائب، وقولهم: رمية من غير رام. وقالوا في مثل اللفظة الأولى: الجواد قد يكبو، والحسام قد ينبو . وقالوا: قد يهفو الحليم، ويجهل العليم.

ومنها قوله: آخر الشر فإنك إذا شئت تعجلته مثل هذا قولهم في الأمثال الطفيلية: كل إذا وجدت، فإنك على الجوع قادر. ومن الأمثال الحكيمة: أبدأ بالحسنة قبل السيئة، فلست بمستطيع للحسنة في كل وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر.

ومنها قوله: قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل، هذا حق، لأن الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك، وهذا كما يقول المتكلمون: عدم المضرة كوجود المنفعة، ويكاد أن يبتني على هذا قولهم: كما أن فعل المفسدة قبيح من البارئ، فالأحلال باللفظ منه أيضاً يجب أن يكون قبيحاً.

ومنها قوله: من أمن الزمان خانته، ومن أعظمه أهانه ، مثل الكلمة الأولى قول الشاعر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض

على الماء خائنته فروج الانامل

وقالوا: احذر الدنيا ما استقامت لك. ومن الأمثال الحكيمة: من أمن الزمان ضيع ثغراً مخوفاً". ومثل الكلمة الثانية قولهم: الدنيا كالأمة اللئيمة المعشوقة، كلما ازدادت لها عشقاً وعليها تهاكاً ازدادت لك إذلالاً، وعليك شطاطاً".

وقال أبو الطيب:

وهي معشوقة على الغدر لا تح

فظ عهداً ولا تنتم وصلاً

شيم الغانيات فيها فلا أد

ري لذا أنت اسمها الناس أم لا !

ومنها قوله: ليس كل من رمى أصاب هذا معنى مشهور، قال أبو الطيب:

ماكل من طلب المعالي نافذاً

فيها، ولاكل الرجال فحولاً

ومنها قوله: إذا تغير السلطان، تغير الزمان، في كتب الفرس أن أنوشروان جمع عمال السواد وبيده درة يقلبها، فقال: أي شيء أضر بارتفاع السواد وأدعى إلى محقه، أيكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرة في فيه، فقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال، فقال لوزيره: قل أنت فإني أظن

عقلك يعادل عقول الرعية كلها أو يزيد عليها، قال: تغير رأي السلطان في رعيته، وإضممار الحيف لهم، والجور عليهم، فقال: لله أبوك! بهذا العقل أهلك آبائي وأجدادي لما أهلكوك له. ودفع إليه الدرة فجعلها في فيه.

ومنها قوله: سل عن الرفيق، قبل الطريق، وعن الجار، قبل الدار وقد روي هذا الكلام مرفوعاً، وفي المثل: جار السوء كلب هارث، وأفعى ناهش.

وفي المثل: الرفيق أما رحيق أو حريق.

الأصل: إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً، وإن حكيت ذلك عن غيرك.

وإياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب أبقى عليهن، وليس خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق به عليهن، وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل، ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها، فإن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة. ولا تعد بكرامتها نفسها، ولا تطمعها في أن تشفع لغيرها.

وإياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم، والبريئة إلى الريب، واجعل لكل إنسان من خدمك عملاً تأخذه به، فإنه أحرى ألا يتواكلوا في خدمتك، وأكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول، استوح الله دينك ودينك، وأسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة، والدنيا والآخرة. والسلام.

الشرح: نهاه أن يذكر من الكلام ما كان مضحكاً لأن ذلك من شغل أرباب الهزل والبطالة، قل أن يخلو ذلك من غيبة أو سخرية. ثم قال: وإن حكيت ذلك عن غيرك، فإنه كما يستهجن الأبتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير، وذلك كلام فصيح، ألا ترى أنه لا يجوز الأبتداء بكلمة الكفر، ويكره أيضاً حكايتها. وقال عمر لما نهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلف بالله: فما حلفت به ذاكرًا، ولا آثرًا، ولا حاكياً. وكان يقال: من مازح استخف به، ومن كثر ضحكه قلت هيئته.

فأما مشاورة النساء فإنه من فعل عجرة الرجال، قال الفضل بن الربيع أيام الحرب بين الأمين والمأمون في كلام يذكر فيه الأمين ويصفه بالعجز: ينام نوم الظربان، وينتبه انتباهة الذئب، همه بطنه، ولذته فرجه، لا يفكر في زوال نعمة، ولا يروي في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد شمر له عبد الله عن ساقه، وفوق له أشد سهامه، يرميه على بعد الدار الحتف النافذ، والموت القاصد، قد عى له المنايا على متون الخيل، وناط له البلايا بأسنة الرماح، وشفار السيوف، فكأنه هو قال هذا الشعر ووصف به نفسه وأخاه:

إلى أن يرى الإصباح لا يتلعثم

نحيل، وأضحى في النعيم أصمم

وهمته درع ورمح ومخزم

يقارع أتراك ابن خاقان ليله

فيصبح من طول الطراد وجسمه

وهمي كأس من عقار وقينة

ونحن معه نحري إلى غاية إن قصرنا عنها ذمنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل، إن قوي قويننا، وإن ضعف ضعفنا، إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء، يشاور النساء، ويعتزم على الرؤيا، قد أمكن أهل الخسارة واللهو من سمعه، فهم يمتونه الظفر، ويعدونه عقب الأيام، والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل. قوله رضي الله عنه: فإن رأيهن إلى أفن، الأفن بالسكون: النقص، والمتأفن: المتقص، يقال: فلان يتأفن فلاناً، أي يتنقصه ويعيبه. ومن رواه إلى أفن بالتحريك فهو ضعف الرأي، أفن الرجل يأفن أفناً أي ضعف رأيه، وفي المثل: إن الرقين تغطي أفن الأفين، والوهن: الضعف.

قوله: واكفف عليهن من أبصارهن، من ههنا زائدة، وهو مذهب أبي الحسن الأخفش في زيادة من في الموجب، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه، فيعني به: فاكفف عليهن بعض أبصارهن.

ثم ذكر فائدة الحجاب، ونهاه أن يدخل عليهن من لا يوثق به، وقال: إن خروجهن أهون من ذلك، وذلك لأن من تلك صفته يتمكن من الخلوة ما لا يتمكن منه من يراهن في الطرقات.

ثم قال: إن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل. كان لبعضهم بنت حسناء، فحج بها، وكان يعصب عينيها، ويكشف للناس وجهها، ف قيل له في ذلك، فقال: إنما الحذر من رؤيتها الناس، لا من رؤية الناس لها.

قال: ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها، أي لا تدخلها معك في تدبير ولا مشورة، ولا تتعدين حال نفسها وما يصلح شأنها.

فإن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، أي إنما تصلح للمتعة واللذة، وليست وكيلاً في مال، ولا وزيراً في رأي.

ثم أكد الوصية الأولى، فقال: لا تعد بكرامتها نفسها، هذا هو قوله: ولا تملكها من أمرها ما جاوز نفسها، ثم نهاه أن يطمعها في الشفاعات.

وروى الزبير بن بكار، قال: كانت الخيزران كثيراً ما تكلم موسى ابنها - لما استخلف - في الحوائج، وكان يجيبها إلى كل ما تسأل، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته وتتالى الناس عليها، وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها، وكلمته يوماً في أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلاً، واحتج عليها بحجة فقالت: لا بد من إجابتي، فقال: لا أفعل، قالت: إني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب موسى وقال: ويلي على ابن الفاعلة! قد علمت أنه صاحبها، والله لا قضيتها لك ولا له! قالت: والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذن والله لا أبالي، فقامت مغضبة، فقال: مكانك تستوعي كلامي، وأنا والله برىء من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن بلغني أنه وقف أحد من قوادي وخاصتي وخدمي وكتابي على بابك لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كل يوم! أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك! إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجة لملي أو ذمي، فانصرفت وما تعقل ما تطأ عليه، وتنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها حتى هلك.

وأخذ هذه اللفظة منه وهي قوله: إن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة الحجاج فقالها للوليد بن عبد الملك، روى ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار قال: دخل الحجاج على الوليد بن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء وفرس عربية وكنانة، وذلك في أول قدمة قدمها عليه من العراق، فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهي تحت الوليد إليه: من هذا الأعرجي المستلثم في السلاح عندك وأنت في غلالة! فأرسل إليها: هذا الحجاج، فأعادت إليه الرسول: فقال: تقول لك: والله لأن يخلو بك ملك الموت في اليوم أحياناً أحب إلي من أن يخلو بك الحجاج، فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه، فقال: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، فلا تطلعها على شرك ومكايدة عدوك. فلما دخل الوليد عليها أخبرها وهو يمازحها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غداً أن يأتيني مسلماً، ففعل ذلك، فأتاها الحجاج فحجبتة، فلم يزل قائماً، ثم أذنت له، فقالت: يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث! أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام ولا يقتل ابن ذات النطاقين، أول مولود في دار هجرة الإسلام! وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره، فإن كن ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالأخذ منك! وإن كن ينفرجن عن مثله فهو غير قابل لقولك، أما والله لقد نقض نساء أمير المؤمنين الطيب من غدائهن فبعنه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيق من قرن، قد أظلتك رماحهم، وأتحنك كفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وآبائهم، فأبجأك الله من عدو أمير المؤمنين بجبههم إياه، قاتل الله القائل حين ينظر إليك، وسانن غزالة بين كتفيك:

ربداء تنفر من صغير الصافر

بل كان قلبك في جناحي طائر

أسد علي وفي الحروب نعامة

هلاً ابرزت إلى غزالة في الوغى

قم فاخرج، فقام فخرج.

أقوال الشعراء في الغيرة.

فأما قوله رضي الله عنه: إياك والتغاير في غير موضع غيرة، فقد قيل هذا المعنى، قال بعض المحدثين:

إلا لما تدركه بالبصر

بيته الدب لرمي الحجر

يا أيها الغائر مه لا تغر

ما أنت في ذلك إلا كمن

وكان مسكين الدارمي أحد من يستهجن الغيرة، ويستقبح وقوعها في غير محلها، فمن شعره في هذا المعنى:

وأقبح الغيرة في غير حين!

مناصباً فيها لرجم الظنون

يخاف، أو ينصبها للعيون

منك إلى خيم كريم ودين

فيتبع المقرون حبل القرين

ما أحسن الغيرة في حينها

من لم يزل متهماً عرسه

يوشك أن يغريها بالذي

حسبك من تحصينها ضمها

لا تظهرن يوماً على عورة

وقال أيضاً:

الأأيها الغائر المستشيط

علام تغار إذ لم تغر!

فما خير عرس إذا خفتها

وما خير بيت إذا لم يزر!

تغار من الناس أن ينظروا

وهل يفتن الصالحات النظر!

فإني سأخلي لها بيتها

فتحفظ لي نفسها أو تذر

إذا الله لم يعطه ودها

فلن يعطي الود سوط ممر

ومن ذا يراعي له عرسه

إذا ضمه والركاب السفر!

وقال أيضاً:

ولست أمراً لا أبرح الدهر قاعداً

إلى جنب عرسي لا أفارقها شبرا

ولا مقسماً لا أبرح الدهر بيتها

لأجعله قبل الممات لها قبراً

ولا حاملاً ظني ولا قول قائل

على غيرة حتى أحيط به خبراً

وهبني أمراً راعيت ما دمت شاهداً

فكيف إذا ما سرت من بيتها شهراً!

إذا هي لم تحصن لما في فنائها

فليس بمنجيبها بنائي لها قصراً

فأما قوله: واجعل لكل إنسان من خدمك عملاً تأخذه له، فقد قالت الحكماء هذا المعنى، قال أبو ريز في وصيته لولده شيرويه: وانظر إلى كتابك، فمن كان منهم ذا ضياع قد أحسن عمارتها فوله الخراج، ومن كان منهم ذا عبيد قد أحسن سياستهم وتثقيفهم فوله الجند، ومن كان منهم ذا سراري وضرائر قد أحسن القيام عليهن فوله النفقات والقهرمة، وهكذا فاصنع في خدم دارك، ولا تجعل أمرك فوضى بين خدمك فيفسد عليك ملكك. و أما قوله: فأكرم عشيرتك فإنهم جناحك فقد تقدم منا كلام في وجوب الاعتضاد بالعشائر. اعتزاز الفرزدق بنفسه وقومه.

روى أبو عبيدة قال: كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعداً، فدخل على سليمان بن عبد الملك يوماً، فأنشده شعراً فخر فيه بآبائه، وقال من جملته:

تالله ما حملت من ناقة رجلاً

متلي إذا الريح لفتني على الكور

فقال سليمان: هذا المدح لي أم لك! قال: لي ولك يا أمير المؤمنين، فغضب سليمان وقال: قم فأتمم، ولا تنشده بعده إلا قائماً، فقال الفرزدق: لا والله أو يسقط إلى الأرض أكثر شعراً. فقال سليمان: ويلى على الأحقق ابن الفاعلة! لا يكنى، وارتفع صوته، فسمع الضوضاء بالباب، فقال سليمان: ما هذا، قيل: بنو تميم على الباب، قالوا: لا ينشد الفرزدق قائماً وأيدينا في مقابض سيوفنا، قال: فلينشد قاعداً.

وفود الوليد بن جابر على معاوية.

وروى أبو عبيد الله محمد بن موسى بن عمران المزياني، قال: كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائي ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، ثم صحب علياً رضي الله عنه، وشهد معه صفين، وكان من رجاله المشهورين، ثم وفد على معاوية في الإستقامة، وكان معاوية لا يثبته، معرفة بعينه، فدخل عليه في جملة الناس، فلما انتهى إليه استنسه، فانتسب له، فقال: أنت صاحب ليلة الهرير، قال: نعم، قال: والله ما تخلو مسامعي من رجرك تلك الليلة، وقد علا صوتك أصوات الناس، وأنت تقول:

فإنما الأمر غداً لمن غلب

شدوا فداء لكم أمي وأب

تنمه للعلياء سادات العرب

هذا ابن عم المصطفى والمنتجب

أول من صلى وصام واقترب

ليس بموصوم إذا نص النسب

قال: نعم، أنا قائله. قال: فلماذا قلتها، قال: لأننا كنا مع رجل لا نعلم خصلة توجب الخلافة، ولا فضيلة تصير إلى التقدم، إلا وهي مجموعة له، كان أول الناس سلماً، وأكثرهم علماً، وأرجحهم حِلماً، فات الجياد فلا يشق غباره، يستولي على الأمد فلا يخاف عثاره، وأوضح منهج الهدى فلا يبيد مناره، وسلك القصد فلا تدرس آثاره، فلما ابتلانا الله تعالى بافتقاده، وحول الأمر إلى من يشاء من عباده، دخلنا في جملة المسلمين فلم نترع يداً عن طاعة، ولم نصدع صفاة جماعة، على أن لك منا ما ظهر، وقلوبنا بيد الله، وهو املك بها منك، فاقبل صفونا، وأعرض عن كدرنا، ولا تركوا من الأحقاد، فإن النار تقدح بالزناد. قال معاوية: وإنك لتهددني يا أخا طيء بأوباش العراق أهل النفاق، ومعدن الشقاق! فقال: يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق، وحبسوك في المضيق، وذادوك عن سنن الطريق، حتى لذت منهم بالمصاحف، ودعوت إليها من صدق بها وكذبت، وامن بمترها وكفرت، وعرف من تأويلها ما أنكرت. فغضب معاوية وأدار طرفه فيمن حوله فإذا جلهم من مضر ونفر قليل من اليمن، فقال: أيها الشقي الخائن، إني لإخال أن هذا آخر كلام تفوه به - وكان عفير بن سيف بن ذي يزن بباب معاوية حينئذ - فعرف موقف الطائي ومراد معاوية، فخافه عليه، فهجم عليهم الدار، أقبل على اليمانية، فقال: شأته الوجوه ذلاً وقلاً، وجدعاً وفلاً، كشم الله هذه الأنف كشماً مرعباً. ثم التفت إلى معاوية، فقال: إني والله يا معاوية ما أقول قولي هذا حباً لأهل العراق، ولا جنوحاً إليهم، ولكن الحفيظة تذهب الغضب، لقد رأيته بالأمس، خاطبت أخا ربيعة - يعني صعصعة بن صوحان. وهو أعظم جرماً عندك من هذا، وأنكأ لقلبك، وأقدح في صفاتك، وأجد في عداوتك، وأشد انتصاراً في حربك، ثم أثبتته وصحته، وأنت الآن مجمع على قتل هذا - زعمت - استصغاراً لجماعتنا! إنا لا نمر ولا نحلي، ولعمري لو وكلت أبناء قحطان إلى قومك لكان جدك العاثر، وذكرك الدائر، وحدك المفلول، وعرشك المثلول، فأربع على ظلعك، واطونا على بلالتنا، ليسهل لك حزننا، ويتطامن لك شاردنا، إنا لا نرام بوقع الضيم، ولا نتلمظ جرع الخسف، ولا نغمر بغمار الفتن، ولا نذر على الغضب. فقال معاوية: الغضب شيطان، فاربع نفسك أيها الإنسان، إنا لم نأت إلى صاحبك مكروهاً، ولم نرتكب منه مغضباً، ولم ننتهك منه محرماً، فدونكه فإنه لم يضق عنه حلمنا ويسع غيره. فأخذ عفير بيد الوليد، وخرج به إلى منزله، وقال له: والله

لتؤوبن بأكثر مما آب به معدي من معاوية. وجمع من بدمشق من اليمانية، وفرض على كل رجل دينارين في عطائه، فبلغت أربعين ألفاً، فتعجلها من بيت المال، ودفعها إلى الوليد، وردة إلى العراق.

ومن كتاب له إلى معاوية

الأصل: وأردت جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيك، وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجاروا عن وجهتهم، ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم، إلا من فاء من أهل البصائر، فإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من موازرتك، إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد، فاتق الله يا معاوية في نفسك، وجاذب الشيطان قيادك. فإن الدنيا منقطعة عنك، والآخرة قريبة منك، والسلام.

الشرح: أرديتهم: أهلكتهم. وجيلاً من الناس، أي صنفاً من الناس. والغي: الضلال.

وجاروا: عدلوا عن القصد. ووجهتهم، بكسر الواو، يقال: هذا وجه الرأي، أي هو الرأي نفسه، والاسم الوجه بالكسر ويجوز بالضم.

قوله: وعولوا على أحسابهم، أي لم يعتمدوا على الدين، وإنما أردتهم الحمية ونخوة الجاهلية، فأخلدوا إليها وتركوا الدين، والإشارة إلى بني أمية وخلفائهم الذين اهتموا رضي الله عنه بدم عثمان، فحاموا عن الحسب، ولم يأخذوا بموجب الشرع في تلك الواقعة.

ثم استثنى قوماً خاءوا: أي رجعوا عن نصرته معاوية، وقد ذكرنا في أخبار صفين من فارق معاوية ورجع إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه، أو فارقه واعتزل الطائفتين.

قوله: حملتهم على الصعب أي على الأمر الشاق، والأصل في ذلك البعير المستصعب يركبه الإنسان فيغمر بنفسه. الكتب المتبادلة بين علي عليه السلام ومعاوية.

وأول هذا الكتاب: من عبد الله علي أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، فإن الدنيا دار تجارة، وربحها أو خسرها الآخرة، فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة، ومن رأى الدنيا بعينها، وقدرها بقدرها! وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مرد له دون نفاذه، ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدوا الأمانة، وأن ينصحوا الغوي والرشيد، فاتق الله، ولا تكن ممن لا يرجو الله وقاراً، ومن حقت عليه كلمة العذاب، فإن الله بالمرصاد. وإن دنياك ستدبر عنك، وستعود حسرة عليك، فأقلع عما أنت عليه من الغي والضلال. على كبر سنك وفناء عمرك، فإن حالك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر، وقد أردت جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيك. إلى آخر الكتاب.

قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني: فكتب إليه معاوية: من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، أما بعد، فقد وقفت على كتابك، وقد أبيت على الفتن إلا تمادياً، وإني لعالم أن الذي يدعوك إلى ذلك مصرعك الذي لا بد لك منه، وإن كنت موثلاً، فازدد غيًّا، فطالما خف عقلك، ومنيت نفسك ما ليس لك، والتويت على من هو خير منك، ثم كالت

العاقبة لغيرك، واحتملت الوزر بما أحاط بك من خطيئتك. والسلام.

فكتب علي رضي الله عنه إليه: أما بعد، فإن ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد الشبه مما أتى به أهلك وقومك الذين حملهم الكفر وتمني الأباطيل على حسد محمد صلى الله عليه وسلم حتى ضرعوا مصارعهم حيث علمت، لم يمنعوا حريماً، ولم يدفعوا عظيماً، وأنا صاحبهم في تلك المواطن، الصالي بحرهم، والفال لحدهم، والقاتل لرؤوسهم ورؤوس الضلالة، والمتبع إن شاء الله خلفهم بسلفهم، فبئس الخلف خلف اتبع سلفاً محله ومحطه النار. والسلام.

قال: فكتب إليه معاوية: أما بعد، فقد طال في الغي ما استمرت أدرجك، كما طالما تهادى عن الحرب نكوصك وإبطاؤك، فتوعد وعيد الأسد، وتروغ روغان الثعلب فحتام تحيد عن لقاء مباشرة الليوث الضارية، والأفاعي القاتلة، ولا تستبعدنهما، فكل ما هو آت قريب إن شاء الله. والسلام.

قال: فكتب إليه علي رضي الله عنه: أما بعد، فما أعجب ما يأتيك منك، وما أعلمني بما أنت إليه صائر! وليس إبطيني عنك إلا ترقباً لما أنت له مكذب، وأنا به مصدق! وكأني بك غداً وأنت تضج من الحرب ضجيج الجمال من الأثقال، وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب تعظمونه بألستكم، وتجدونه بقلوبكم. والسلام.

قال: فكتب إليه معاوية: أما بعد، فدعني من أساطيرك، واكفف عني من أحاديثك، واقصر عن تقولك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافترائك من الكذب ما لم يقل، وغرور من معك والخداع لهم، فقد استغويتهم، ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك، ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل. والسلام.

قال: فكتب إليه علي رضي الله عنه وسلم: أما بعد، فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرجيم الحق أساطير الأولين، ونبذتموه وراء ظهوركم، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم، والله متم نوره ولو كره الكافرون. ولعمري ليتمن النور على كرهك، ولينفذ العلم بصغارك، ولتجازين بعملك، فعث في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك، فكأنك بباطلك وقد انقضى، وبعملك وقد هوى، ثم تصير إلى لظى، لم يظلمك الله شيئاً، وما ربك بظلام للعبيد! قال: فكتب إليه معاوية: أما بعد، فما أعظم الرين على قلبك، والغطاء على بصرك! الشره من شيمتك، والحسد من خليقتك، فشمّر للحرب، واصبر للضرب، فوالله ليرجعن الأمر إلى ما علمت، والعاقبة للمتقين. هيهات هيهات! أخطأك ما تمنى، وهوى قلبك مع من هوى، فاربع على ظلعك، وقس شبرك بفترك، لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه، ويفصل بين أهل الشك علمه. والسلام.

قال: فكتب إليه علي رضي الله عنه: أما بعد، فإن مساوئك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك، وأن يرعوي قلبك، يابن الصخر اللعين! زعمت أن يزن الجبال حلمك، ويفصل بين أهل الشك علمك، وأنت الجلف المنافق، الأغلف القلب، القليل العقل، الجبان الرذل، فإن كنت صادقاً فيما تسطر، ويعينك عليه أخو بني سهم، فدع الناس جانباً، وتيسر لما دعوتني إليه من الحرب، والصبر على الضرب، واعف الفريقين من القتال، ليعلم أين المرين على قلبه، المغطى على بصره، فأنا أبو الحسن، قاتل جدك وأخيك وخالك، وما أنت منهم ببعيد، والسلام! قلت: وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر - وإن كانت عجائبه وبدائعهم حجة - أن يفضي أمر علي رضي الله عنه إلى أن يصير

معاوية ندأ له ونظيراً مماثلاً، يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه، ولا يقول له علي رضي الله عنه كلمة إلا قال مثلها، وأحشن مساً منها، فليت محمداً صلى الله عليه وسلم كان شاهد ذلك، ليرى عياناً لا خيراً أن الدعوة التي قام بها، وقاسى أعظم المشاق في تحملها، وكابد الأهوال في الذب عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها، وشيد أركانها، وملا الأفاق بها، خلصت صفواً عفواً لأعدائه الذين كذبوه، لما دعا إليها، وأخرجوه عن أوطانهم لما حض عليها، وأدموا وجهه، وقتلوا عمه وأهله، فكأنه كان يسعى لهم، ويدأب لراحتهم، كما قال أبو سفيان في أيام عثمان، وقد مر بقبر حمزة، وضر به برجله، وقال: يا أبا عمار! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به! ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاوية علياً، كما يتفاخر الأكفاء والنظراء.

وقرع قساً بالفهاهة باقل

إذا عير الطائي بالبخل مادر

وقال الدجى: ياصبح لونك حائل

وقال السها للشمس: أنت خفية

وكاثرت الشهب الحسا والجنادل

وفاخرت الأرض السماء سفاهة

ويا نفس جدي إن دهرك هازل!

فيا موت زر إن الحياة زميمة

ثم أقول ثانياً لأمير المؤمنين رضي الله عنه: ليت شعري، لماذا فتح باب الكتاب والجواب بينه وبين معاوية! وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك، فهلا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرض للمفاخرة والمنافرة! وإذا كان لا بد منهما فهلا اكتفى بهما من غير تعرض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله، وبأشد منه: "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم" وهلا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السفیه الأحمق، هذا مع أنه القائل: من واجه الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون! أي افتروا عليه وقالوا فيه الباطل.

إنما أنت في الضلال تهيم

أيها الشامي لتحسب مثلي

إن سبي من الرجال الكريم

لاتسبني فلست بسبي

وهكذا جرى في القنوت واللعن، قنت بالكوفة على معاوية، ولعنه في الصلاة وخطبة الجمعة، وأضاف إليه عمرو بن العاص وأبا موسى وأبا الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة، فبلغ ذلك معاوية بالشام، فقنت عليه، ولعنه بالصلاة، وخطبة الجمعة، وأضاف إليه الحسن والحسين وابن عباس والأشتر النخعي، ولعله رضي الله عنه قد كان يظهر له من المصلحة حينئذ ما يغيب عنا الآن، والله أمر هو بالغه!

ومن كتاب له إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة.

الأصل: أما بعد، فإن عيني بالمغرب كتب إلي يعلمني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام، العمي القلوب، الصم الأسماع، الكمه الأبصار، الذين يلبسون الحق بالباطل، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق، ويحتلبون الدنيا درهماً بالدين، ويشترون عاجلها بأجل الأبرار المتقين، ولن يفوز بالخير إلا عامله، ولا يجزى جزاء الشر إلا فاعله.

فأقم على ما في يديك قيام الحازم الطيب، والناصح اللبيب، التام لسלטانه، المطيع لإمامه، وإياك وما يعتذر منه، ولا تكن

عند النعماء بطراً، ولا عند البأساء فشلاً. والسلام.

الشرح: كان معاوية قد بعث إلى مكة دعاة في السر يدعون إلى طاعته، ويشبطون العرب عن نصره أمير المؤمنين، ويوقعون في أنفسهم أنه إنما قاتل لعثمان أو خاذل، وأن الخلافة لا تصلح فيمن قتل أو خذل، وينشرون عندهم محاسن معاوية بزعمهم وأخلاقه وسيرته، فكتب أمير المؤمنين رضي الله عنه هذا الكتاب إلى عامله بمكة، ينبهه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السياسة، ولم يصرح في هذا الكتاب بما يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم.

قوله: عيني بالمغرب، أي أصحاب أخباره عند معاوية، وسمى الشام مغرباً لأنه من الأقاليم المغربية، والموسم: الأيام التي يقام فيها الحج.

وقوله: ويحتلبون الدنيا درهماً بالدين دلالة على ما قلنا: إنهم دعاة يظهرون سمت الدين، وناموس العبادة، وفيه إبطال قول من ظن أن المراد بذلك السرايا التي كان معاوية يبعثها، فتغير على أعمال علي رضي الله عنه. ودرهماً منصوب بالبدل من الدنيا وروى: الذين يلتمسون الحق بالباطل أي يطلبونه، أي يتبعون معاوية وهو على الباطل إلتماساً وطلباً للحق، ولا يعلمون أنهم قد ضلوا.

قوله: وإياك وما يعتذر منه من الكلمات الشريفة الجليلة الموقع، وقد روت مرفوعة، وكان يقال: ما شيء أشد على الإنسان من حمل المروءة، والمروءة ألا يعمل الإنسان في غيبة صاحبه ما يعتذر منه عند حضوره.

قوله: ولا تكن عند النعماء بطراً، ولا عند البأساء فشلاً معنى مستعمل، قال الشاعر:

ولا جازع من صرفه المتقلب

ولكن متى أحمل على الشر أركب

فلست بمفراح إذا الدهر سرني

ولا أتمنى الشر والشر تاركي

من أخبار قثم بن العباس.

فأما قثم بن العباس، فأفه أم إخوته، وروى ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب عن عبد الله بن جعفر، قال: كنت أنا وعبيد الله وقثم ابنا العباس نلعب، فمر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم راكباً، فقال: "ارفعوا إلي هذا الفتى" - يعني قثم - فرفع إليه! فأردفه خلفه، ثم جعلني بين يديه، ودعا لنا، فاستشهد قثم بسمرقند.

قال ابن عبد البر: وروى عبد الله بن عباس، قال: كان قثم آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم أي آخر من خرج من قبره ممن نزل فيه. قال: وكان المغيرة بن شعبة يدعي ذلك لنفسه، فأنكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذلك، وقال: بل آخر من خرج من القبر قثم بن العباس.

قال ابن عبد البر: وكان قثم والياً لعلي رضي الله عنه على مكة، عزل علي رضي الله عنه خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي - وكان واليها لعثمان - وولاه أبا قتادة الأنصاري، ثم عزله عنها وولى مكانه قثم بن العباس، فلم يزل واليه عليها حتى قتل علي رضي الله عنه. قال: هذا قول خليفة، وقال الزبير بن بكار: استعمل علي رضي الله عنه قثم بن العباس على المدينة.

قال ابن عبد البر: واستشهد قثم بسمرقند، كان خرج اليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية فقتل هناك. قال: وكان قثم يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه يقول داود بن مسلم:

يأناق إن أدنيتني من قثم

حالفني اليسر ومات العدم

بدر وفي العرنين منه شمم

وما على الخير به من صمم

فعافها واعتاض منها نعم

عتقت من حل ومن رحلة

إنك إن أدنيت منه غداً

في كفه بحر وفي وجهه

أصم عن قيل الخنا سمعه

لم يدر ما لا وبلى قد درى

ومن كتاب له إلى محمد ابن أبي بكر

لما بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر، ثم توفي الأشتر في توجّهه إلى هناك قبل وصوله إليها.

الأصل: أما بعد، فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك. وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهد، ولا ازدياداً لك في الجدد، ولو نزعنا ما تحت يدك من سلطانك، لوليتك ما هو أيسر عليك مؤونة، وأعجب إليك ولاية. إن الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان رجلاً لنا ناصحاً، وعلى عدونا شديداً ناقماً، فرحمه الله! فلقد استكمل أيامه، ولاقى حمامه، ونحن عنه راضون، أولاه الله رضوانه، وضاعف الثواب له! فأصحر لعدوك، وامض على بصيرتك، وشمر لحرب من حاربك، وادع إلى سبيل ربك، وأكثر الاستعانة بالله يكفك ما أهمك، ويعنك على ما يتزل بك، إن شاء الله.

الشرح: أم محمد رحمها الله أسماء بنت عميس الخنعمية: وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخت لبابة أم الفضل وعبد الله زوج العباس بن عبد المطلب، وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة، وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فولدت له هناك محمد بن جعفر وعبد الله وعوناً، ثم هاجرت معه إلى المدينة، فلما قتل جعفر يوم مؤتة تزوجها أبو بكر، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا، ثم مات عنها فتزوجها علي رضي الله عنه، وولدت له يحيى بن علي، لا خلاف في ذلك. وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: ذكر ابن الكلبي أن عون بن علي أسم أمه أسماء بنت عميس، ولم يقل ذلك أحد غيره.

وقد روي أن أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له بنتاً تسمى أمة الله - وقيل أمامة - ومحمد بن أبي بكر ممن لد في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب: ولد عام حجة الوداع في عقب ذي القعدة بذي الحليفة، حين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج، فسمته عائشة محمداً، وكنته أبا القاسم بعد ذلك لما ولد له ولد سماه القاسم، ولم تكن الصحابة ترى بذلك بأساً، ثم كان في حجر علي رضي الله عنه، وقتل بمصر، وكان علي رضي الله عنه يثني عليه ويقرظه ويفضله، وكان لمحمد رحمها الله عبادة واجتهاد، وكان ممن حضر عثمان ودخل عليه، فقال له: لو رأيك أبوك لم يسره هذا

المقام منك فخرج وتركه، ودخل عليه بعده من قتله. ويقال: إنه أشار إلى من كان معه فقتلوه.
قوله: وبلغني موجدتك، أي غضبك، وجدت على فلان موجدة، ووجداناً لغة قليلة، وأنشدوا:

كلانا رد صاحبه بغيظ

على حنق ووجدان شديد

فأما في الحزن فلا يقال إلا وجدت أنا بالفتح لا غير.

والجهد: الطاقة، أي لم أستبطنك في بذل طاقتك ووسعك، ومن رواها الجهد بالفتح فهو من قولهم: أجهد جهداً في كذا، أي أبلغ الغاية، ولا يقال هذا الحرف ههنا إلا مفتوحاً.

ثم طيب عليه السلام نفسه بأن قال له: لو تم الأمر الذي شرعت فيه من ولاية الأشر مصر لعوضتك بما هو أخف عليك مؤونة وثقلاً، وأقل نصباً من ولاية مصر، لأنه كان في ممر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه.

ثم أكد علي السلام ترغيبه بقوله: وأعجب إليك ولاية.

فإن قلت: ما الذي بيده مما هو أخف على محمد مؤونة وأعجب إليه من ولاية مصر، قلت: ملك الإسلام كله كان بيد علي عليه السلام إلا الشام، فيجوز أن يكون قد كان في عزمه أن يوليه اليمن أو خراسان أو أرمينية أو فارس.

ثم أخذ في الثناء على الأشر وكان علي عليه السلام شديد الاعتضاد به، كما كان هو شديد التحقق بولايته وطاعته. وناقماً: من نعمت علي فلان كذا، إذا أنكرت عليه وكرهته منه.

ثم دعا له بالرضوان، ولست أشك بأن الأشر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفر ذنوبه، ويدخله الجنة، ولا فرق عندي بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويا طوب لمن حصل له من علي عليه السلام بعض هذا! قوله: وأصحر لعدوك أي أبرز له ولا تستتر عنه بالمدينة التي أنت فيها، أصحر الأسد من خيسه، إذا خرج إلى الصحراء. وشمر فلان للحرب، إذا أخذ لها أهبتها.

ومن كتاب له إلى عبد الله بن العباس

بعد مقتل محمد بن أبي بكر.

الأصل: أما بعد، فإن مصر قد افتتحت، ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد، فعند الله نحتسبه ولدناً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً.

وقد كنت حثت الناس على لحاقه، و امرتهم بغياته قبل الوقعة، ودعوتهم سراً وجهراً، وعوداً وبدءاً، فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المعتل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً.

أسأل الله تعالى أن يجعل لي منهم فرجاً عاجلاً، فو الله لولا طمعي عند لقائي عدوي في الشهادة، وتوطيئي نفسي على المنية، لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً.

الشرح: انظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها

بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه، سلسلة سهلة، تتدفق من غير تعسف ولا تكلف، حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال: يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً، وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة، جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة، فإن أرادوا قسرهما بإعراب واحد ظهر منها في التكلف أثر بين، وعلامة واضحة، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبد القاهر، قال: انظر إلى سورة النساء وبعدها سورة المائدة، الأولى منصوبة الفواصل، والثانية ليس فيها منصوب أصلاً، ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتازا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما. ثم إن فواصل كل واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعة التكلفية. ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل، كيف قال: ولدًا ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، لو قال: ولدًا كادحاً وعاملاً ناصحاً، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في الموقع واقعاً، فسيحان من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة! أن يكون غلام من أبناء عرب مكة، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من أفلاطون وأرسطو! ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والأدب النفسانية، لأن قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط! ولم يرب بين الشجعان، لأن أهل مكة كانوا ذوي تجارة، ولم يكونوا ذوي حرب، وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض، قيل لخلف الأحمر: أيهما أشجع عنيسة وبسطام أم علي بن أبي طالب، فقال: إنما يذكر عنيسة وبسطام مع البشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة، فقليل له: فعلى كل حال. قال: والله لو صاح في وجوههما لما تقبل أن يحمل عليهما. وخرج أفصح من سحبان وقس، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جرهم وإن لم تكن لهم نباهة. وخرج أزهد الناس في الدنيا، وأعفهم، مع أن قريشاً ذوو حرص ومحبة للدنيا، ولا غرو فيمن كان محمد صلى الله عليه وسلم مربيته ومخرجه، والعناية الإلهية تمده وترفده أن يكون منه ما كان! يقال: احتسب ولده، إذا مات كبيراً، وافترط ولده، إذا مات صغيراً.

قوله: فمنهم الآتي، قسم جنده أقساماً، فمنهم من أجابه وخرج كارهاً للخروج، كما قال تعالى: "كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون"، ومنهم من قعد واعتل بعلّة كاذبة، كما قال تعالى: "يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً"، ومنهم من تأخر وصرح بالقعود والخذلان، كما قال تعالى: "فرح المخلفون بمقعدهم خلاص رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله". والمعنى أن حاله كانت مناسبة لحال النبي صلى الله عليه وسلم، ومن تذكر أحوالهما وسيرتهما، وما جرى لهما إلى أن قبضا، علم تحقيق ذلك.

ثم أقسم أنه لولا طمعه في الشهادة لما أقام مع أهل العراق ولا أصحابهم. فأن قلت: فهلا خرج إلى معاوية وحده من غير جيش إن كان يريد الشهادة، قلت: ذلك لا يجوز، لأنه إلقاء النفس إلى التهلكة، وللشهادة شروط متى فقدت، فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتين على الأخرى.

ومن كتاب له إلى أخيه عقيل بن أبي طالب

في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل.

الأصل: فسرحت إليه جيشاً كثيفاً من المسلمين، فلما بلغه ذلك شمر هارباً، ونكص نادماً، فلحقوه ببعض الطريق وقد طفلت الشمس للإياب، فاقتتلوا شيئاً كلا ولا، فما كان إلا كموقف مساعة حتى نجا جريضاً، بعد ما أخذ منه بالمخنق، ولم يبق معه غير الرمح، فلأياً بلأى ما نجا.

فدع عنك قريشاً وتركا ضلّهم في الضلال، وتجوّاهم في الشقاق، وجماعهم في التيه، فإنهم قد أجمعوا على حري كإجماعهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله قبلي، فجزت قريشاً عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطان ابن امي.

وأما ما سألت عنه من رأى في القتال، فإن رأي قتال المحلين حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة. ولا تحسن ابن أبيك - ولو أسلمه الناس - متضرعاً متخشعاً، ولا مقرأً للضميم واهناً، ولا سلس الزمام للقائد، ولا وطيء الظهر للراكب المقتعد، ولكنه كما قال أخو بني سليم:

صبور على ريب الزمان صليب

فإن تسأليني كيف أنت فإنني

فيشمت عاد أويساء حبيب

يعز علي أن ترى بي كآبة

الشرح: قد تقدم ذكر هذا الكتاب في اقتصاصنا ذكر حال بسر بن أرطاة وغارته على اليمن في أول الكتاب. ويقال: طفلت الشمس - بالتشديد - إذا مالت للغروب، وطفل الليل، مشدداً أيضاً، إذا أقبل ظلامه، والطفل، بالتحريك: بعد العصر حين تطفل الشمس للغروب، ويقال: أتيته طفلي، أي في ذلك الوقت.

وقوله عليه السلام: للإياب أي للرجوع، أي ما كانت عليه في الليلة التي قبلها، يعني غيوبتها تحت الأرض. وهذا الخطاب إنما هو على قدر أفهام العرب، كانوا يعتقدون أن الشمس منزلها ومقرها تحت الأرض، وأنها تخرج كل يوم فتسير على العالم، ثم تعود إلى منزلها، فتأوي إليه كما يأوي الناس ليلاً إلى منازلهم.

وقال الراوندي: عند الإياب عند الزوال: وهذا غير صحيح، لأن ذلك الوقت لا يسمى طفلاً، ليقال: إن الشمس قد طفلت فيه.

قوله عليه السلام: "فاقتتلوا شيئاً كلا ولا، أي شيئاً قليلاً، وموضع كلا ولا نصب، لأنه صفة شيئاً وهي كلمة تقال لما يستقصر وقته جداً، والمعروف عند أهل اللغة: كلا وذا، قال ابن هانيء المغربي:

وأقصر في السمع من لا، وذا

وأسرع في العين من لحظة

وفي شعر الكميث كلا وكذا تغميضة.

وقد رويت في نهج البلاغة كذلك، إلا أن في أكثر النسخ: كلا ولا، ومن الناس من يرويها: كلا ولات، وهي حرف أجري مجرى ليس، ولا تجيء حين إلا أن تحذف في شعر، ومن الرواة من يرويها: كلا ولأى، ولأى فعل، معناه أبطأ. وقوله عليه السلام: نجا جريضاً، أي قد غص بالريق من شدة الجهد والكر، يقال: جرض بريقه يجرض بالكسر، مثال

كسر يكسر، ورجل جريض مثل قدر يقدر فهو قدير، ويجوز أن يريد بقوله: فنجا جريضاً، أي ذا جريض، والجريض: الغضة نفسها، وفي المثل: حال الجريض دون القريض قال الشاعر:

كأن الفتى لم يغن في الناس ليلةً إذا اختلف للحيان عند الجريض

قال الأصمعي: ويقال: هو يجرض بنفسه، أي يكاد يموت، ومنه قول امرئ القيس:

وأفلتتهن علباء جريضاً ولو أدركته صفر الوطاب

وأجرضه الله بريقه: أغضه.

قوله عليه السلام: بعد ما أخذ منه بالخنق، هو موضع الخنق من الحيوان، وكذلك الخناق، بالضم، يقال أخذ بخناق، فأما الخناق بالكسر، فالحنبل تخنق به الشاة. والرمق: بقية الروح.

قوله عليه السلام: فلائياً بلأى ما نجا، أي بعد بطء وشدة، وما زائدة أو مصدرية، وانتصب لأياً على المصدر القائم مقام الحال، أي نجا مبطئاً، والعامل في المصدر محذوف أي أبطأً بطئاً، والفائدة في تكرير اللفظة المبالغة في وصف البطء الذي نجا موصوفه به، أي لأياً مقروناً بلأى.

وقال الراوندي: هذه القصة وهذا الهارب جريضاً وبعد لأي ما نجا، هو معاوية، قال: وقد قيل: إن معاوية بعث أمويّاً فهرب على هذه الحال، والأول أصح، وهذا عجيب مضحك وددت له ألا يكون شرح هذا الكتاب! قوله: فدع عنك قريشاً إلى قوله: على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا الكلام حق، فإن قريشاً اجتمعت على حربه منذ يوم بويح بغضاً له وحسداً وحقداً عليه، فأصفقوا كلهم يداً واحدة على شقاقه وحربه، كما كانت حالهم في ابتداء الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم تخرم حاله من حاله أبداً إلا أن ذاك عصمه الله من القتل، فمات موتاً طبيعياً، وهذا اغتاله إنسان فقتله.

قوله: فجرت قريشاً عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطان ابن أمي، هذه كلمة تجزي مجرى المثل، تقول لمن يسيء إليك وتدعو عليه: جزتك عني الجوازي! يقال جزاه الله بما صنع، وجزاه الله بما صنع! ومصدر الأول جزاء، والثاني مجازاة، وأصل الكلمة أن الجوازي جمع جازية كالجواري جمع جارية، فكأنه يقول: جزت قريشاً عني بما صنعت لي كل خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة، أي جعل الله هذه الدواهي كلها جزاء قريش بما صنعت بي. وسultan ابن أمي، يعني به الخلافة، وابن أمه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائد بن مخزوم، أم عبد الله وأبي طالب، ولم يقل سلطان ابن أبي، لأن غير أبي طالب من الأعمام يشركه في النسب إلى عبد المطلب.

قال الراوندي: الجوازي: جمع جازية، وهي النفس التي تجزي، أي جزاهم وفعل بهم ما يستحقون عساكر لأجلي وفي نيابتي، وكافأهم سرية تنهض إليهم، وهذا إشارة إلى أن بني أمية يهلكون من بعده. وهذا تفسير غريب طريف. وقال أيضاً: قوله. سلطان ابن أمي! يعني نفسه، أي سلطانه، لأنه ابن أم نفسه، قال: وهذا من أحسن الكلام.

ولا شبهة أنه على تفسير الراوندي لو قال: وسلبوني سلطان ابن أخت خالتي، أو ابن أخت عمتي، لكان أحسن وأحسن، وهذا الرجل قد كان يجب أن يحجر عليه، ولا يمكن من تفسير هذا الكتاب، ويؤخذ عليه أيمان البيعة ألا يتعرض له. قوله: فإن رأيي قتال المحلين، أي الخارجين من الميثاق والبيعة، يعني البغاة ومخالفو الإمام، ويقال لكل من خرج من إسلام أو حارب في الحرم أو في الأشهر الحرم: محل، وعلى هذا فسر قول زهير:

وكم بالقنان من محل ومحرم

أي من لا ذمة له ومن له ذمة، وكذلك قول خالد بن يزيد بن معاوية في زوجته رملة بنت الزبير بن العوام:

يحب المحلة أخت المحل

الأمن لقلب معنى غزل

أي ناقضة العهد أخت المحارب في الحرم، أو أخت ناقض بيعة بني أمية.

وروي متخضعاً متضرعاً بالضاد.

ومقرأً للضم وبالضم، أي هو راض به، صابر عليه. وواهنأ، أي ضعيفاً.

السلس: السهل: ومقتعد البعير: راكمه.

والشعر ينسب إلى العباس بن مرداس السلمي، ولم أجده في ديوانه، ومعناه ظاهر، وفي الأمثال الحكمية: لا تشكون حالك إلى مخلوق مثلك، فإنه إن كان صديقاً أحزنه، وإن كان عدواً أشمته، ولا خير في واحد من الأمرين.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية.

الأصل: فسبحان الله! ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتبعة، مع تضييع الحقائق، وإطراح الوثائق، التي هي لله تعالى طلبة، وعلى عباده حجة، فإما إكثارك الحجاج على عثمان وقتلته، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك، وخذلتته حيث كان النصر له. والسلام.

الشرح: أول هذا الكتاب قوله: أما بعد: فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة، لم يصب إليها أحد إلا وشغلته بزينتها عما هو أنفع له منها، وبالأخرة أمرنا، وعليها حثنا، فدع يا معاوية ما يفنى، واعمل لما يبقى، واحذر الموت الذي إليه مصيرك، والحساب الذي إليه عاقبتك.

واعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره، ووفقه لطاعته، وإذا أراد الله بعبد سوءً أغراه بالدنيا، وأنساه الآخرة، وبسط له أمله، وعاقبه عما فيه صلاحه، وقد وصلني كتابك فوجدتك ترمي غير غرضك، وتنشد غير ضالتك، وتخط في عماية، وتتيه في ضلالة، وتعتصم بغير حجة، وتلوذ بأضعف شبهة.

فإما سؤالك المتاركة والإقرار لك على الشام، فلو كنت فاعلاً ذلك اليوم لفعلته أمس.

وإما قولك: إن عمر ولاكه فقد عزل من كان ولاه صاحبه. وعزل عثمان من كان عمر ولاه ولم ينصب للناس إمام إلا ليرى من صلاح الأمة إماماً قد كان ظهر لمن قبله، أو أخفى عنهم عيبه، و الأمر يحدث بعده الأمر، ولكل وال رأي واجتهاد. فسبحان الله! ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتبعة.. إلى آخر الفصل.

و أما قوله عليه السلام: إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك. إلى آخره، فقد روى البلاذري قال: لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمده، بعث يزيد بن أسد القسري، جد خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق وقال له: إذا أتيت ذا حشب فأقم بها، ولا تتجاوزها، ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فإني أنا الشاهد، وأنت الغائب.

قال: فأقام بذي حشب حتى قتل عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية، فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان أرسل معه، وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمان فيدعو إلى نفسه.

وكتب معاوية إلى ابن عباس عند صلح الحسن رضي الله عنه له كتاباً يدعو فيه إلى بيعته، ويقول له فيه: ولعمري لو قتلتك بعثمان رجوت أن يكون ذلك لله رضاء، وأن يكون رأياً صواباً، فإنك من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني، ولا بيدك أمان. فكتب إليه ابن عباس جواباً طويلاً يقول فيه: و أما قولك إني من الساعين على عثمان، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني.

فأقسم بالله لأنك المتربص بقتله، والخب لهلاكه، والحابس الناس قبلك عنه على بصيرة من أمره، ولقد أتاك كتابه وصرىحه يستغيث بك ويستصرخ، فما حفلت به، حتى بعثت إليه معذراً بأجرة، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يقتل، فقتل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تنعى عثمان وتلزمنا دمه، وتقول: قتل مظلوماً، فإن يك قتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين، ثم لم تزل مصوباً ومصعداً، وجائماً ورايضاً، تستغوي الجهال، وتنازعنا حقنا بالسفهاء، حتى أدركت ما طلبت، "وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين".

ومن كتاب له إلى أهل مصر لما ولي عليهم الأشتر.

الأصل: من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى القوم الذين غضبوا الله حين عصي في أرضه، وذهب بحقه، ف ضرب الجور شرادقه على البر والفاجر، والمقيم والظاعن، فلا معروف يستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه. أما بعد، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينأى أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الزوع، أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له، وأطيعوا أمره فيما طابق الحق، فإنه سيف من سيوف الله، لا كليل الظبة، ولا نابي الضريبة، فإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم، ولا يؤخر ولا يقدم إلا عن أمري، وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحتي لكم، وشدة شكيمة على عدوكم. الشرح: هذا الفصل يشكل علي تأويله، لأن أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان، وإذا شهد أمير المؤمنين رضي الله عنه أنهم غضبوا لله حين عصي في الأرض، فهذه شهادة قاطعة على عثمان بالعصيان، وإتيان المنكر، ويمكن أن يقال وإن كان متعسفاً: إن الله تعالى عصي في الأرض لا من عثمان، بل من ولاته و أمرائه وأهله، وذهب بينهم بحق الله، وضرب الجور شرادقه بولايتهم، وأمرهم على البر والفاجر، والمقيم والظاعن، فشاع المنكر، وفقد المعروف. يبقى أن يقال: هب أن الأمر كما تأولت، فهؤلاء الذين غضبوا الله إلى ماذا الأمرهم، أليس الأمر آل إلى أنهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة

فقتلوا عثمان! فلا تعدو حالهم أمرين، أما أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصياً مستحقاً للقتل، أو يكونوا أسخطوا الله تعالى بقتله فعثمان إذاً على حق، وهم الفساق العصاة، فكيف يجوز أن يجعلهم أو يخطبهم خطاب الصالحين! ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنهم غضبوا لله، وجاؤوا من مصر، وأنكروا على عثمان تأميره الأمراء الفساق، وحصلوه في داره طلباً أن يدفع إليهم مروان ليحبسوه، أو يؤدبوه على ما كتبه في أمرهم، فلما حصر طمع فيه مبغضوه وأعداؤه من أهل المدينة وغيرها، وصار معظم الناس إلماً عليه، وقل عدد المصريين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصره ومطالبته بخلع نفسه، وتسليم مروان وغيره من بني أمية إليهم، وعزل عماله، والاستبدال بهم، ولم يكونوا حينئذ يطلبون نفسه، ولكن قوماً منهم ومن غيرهم تسوروا داره، فرماهم بعض عبيده بالسهم فجرح بعضهم، فقادت الضرورة إلى التزلول والأحاطة به، وتسرع إليه واحد منهم فقتله. ثم إن ذلك القاتل قتل في الوقت، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم، وشرحناه، فلا يلزم من فسق ذلك القاتل وعصيانه أن يفسق الباقيون، لأنهم ما أنكروا إلا المنكر، وأما القتل فلم يقع منهم، ولأراموه ولا أرادوه، فجاز أن يقال: إنهم غضبوا لله، وأن يثني عليهم ويمدحهم.

ثم وصف الأشر، ومثل قوله: لا ينام أيام الخوف قولهم: لا ينام ليلة يخاف، ولا يشيع ليلة يضاف"، وقال:

فأنت به حوش الفؤاد مبطناً **شهداً إذا ما نام ليل الهوجل**

ثم أمرهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به مما يطابق الحق، وهذا من شدة دينه وصلابته رضي الله عنه، لم يسامح نفسه في حق أحب الخلق إليه أن يهمل هذا القيد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". وقال أبو حنيفة: قال لي الربيع في دهليز المنصور: إن أمير المؤمنين يأمرني بالشيء بعد الشيء من أمور ملكه، فأنفذه وأنا خائف على ديني، فما تقول في ذلك؟ قال - ولم يقل لي ذلك إلا في ملأ الناس، فقالت له: أفي أمر أمير المؤمنين بغير الحق، قال: لا، قلت: فلا بأس عليك أن تفعل بالحق، قال أبو حنيفة: فأراد أن يصطادني فاصطدته.

والذي صدع بالحق في هذا المقام الحسن البصري، قال له عمر بن هبيرة أمير العراق في خلافة يزيد بن عبد الملك في ملأ من الناس، منهم الشعبي وابن سيرين: يا أبا سعيد، إن أمير المؤمنين يأمرني بالشيء أعلم أن في تنفيذه الهلكة في الدين، فما تقول في ذلك؟ قال الحسن: ماذا أقول! إن الله مانعك من يزيد، ولن يمنحك يزيد من الله، يا عمر خف الله، واذكر يوماً يأتيك تتمخض ليلته عن القيامة، إنه سيزل عليك ملك من السماء فيحطك عن سريرك إلى قصرك، ويضطرك من قصرك إلى لزوم فراشك، ثم ينقلك عن فراشك إلى قبرك، ثم لا يغني عنك إلا عملك، فقام عمر بن هبيرة باكياً يصطك لسانه. قوله: فإنه سيف من سيوف الله، هذا لقب خالد بن الوليد، واختلف فيمن لقبه به، ف قيل: لقبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصحيح أنه لقبه به أبو بكر، لقتاله أهل الردة، وقتله مسيلمة.

والظبة، بالتخفيف: حد السيف. والناي من السيوف: الذي لا يقطع، وأصله نبا، أي ارتفع، فلما لم يقطع كان مرتفعاً، فسمي نايماً، وفي الكلام حذف تقديره: ولا ناب ضارب الضريبة، وضارب الضريبة هو حد السيف، فإما الضريبة نفسها فهو الشيء المضروب بالسيف، وإنما دخلته الهاء وإن كان بمعنى مفعول لأنه صار في عداد الأسماء، كالنطيحة والأكيلة. ثم أمرهم بأن يطيعوه في جميع ما يأمرهم به من الأقدام والأحجام، وقال: إنه لا يقدم ولا يؤخر إلا عن أمري، وهذا إن

كان قاله مع أنه قد سنج له أن يعمل برأيه في أمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيم جداً، لأنه يكون قد أقامه مقام نفسه. وجاز أن يقول: إنه لا يفعل شيئاً إلا عن أمري، وإن كان لا يراجعه في الجزئيات على عادة العرب في مثل ذلك، لأنهم يقولون فيمن يثقون له نحو ذلك، وقد ذهب كثير من الأصوليين إلى أن الله تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم: احكم مما شئت في الشريعة، فإنك لا تحكم إلا بالحق، وإنه كان يحكم من غير مراجعته لجبرائيل، وإن الله تعالى قد قال في حقه: "وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى"، وإن كان رضي الله عنه قال هذا القول عن الأشر، لأنه قد قرر معه بينه وبينه ألا يعمل شيئاً قليلاً ولا كثيراً إلا بعد مراجعته، فيجوز. ولكن هذا بعيد، لأن المسافة طويلة بين العراق ومصر، وكانت الأمور هناك تقف وتفسد. ثم ذكر أنه آثرهم على نفسه، وهكذا قال عمر لما أنفذ عبد الله بن مسعود إلى الكوفة في كتابه إليهم: قد آثرتكم به على نفسي، وذلك أن عمر كان يستفتيه في الأحكام، وعلي رضي الله عنه كان يصل على الأعداء بالأشر، ويقوي أنفس جيوشه بمقامه بينهم، فلما بعثه إلى مصر كان مؤثراً لأهل مصر به على نفسه.

ومن كتاب له إلى عمرو بن العاص

الأصل: فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهر غيه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره، وطلبت فضله، اتباع الكلب للضرغام يلوذ بمخالبه، وينتظر ما يلصق إليه من فضل فريسته. فأذهبت دنياك وأخرتك، ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت.

فإن يمكن الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدمتما، وإن تعجزا وتبقيا، فما أمامكما شر لكما. والسلام الشرح: كل ما قاله فيهما هو الحق الصريح بعينه، لم يحمله بغضه لهما، وغيظه منهما، إلى أن بالغ في ذمهما به، كما يبالغ الفصحاء عند سورة الغضب، وتدقق الألفاظ على الألسنة، ولا ريب عند أحد من العقلاء ذوي الانصاف أن عمراً جعل دينه تبعاً لدنيا معاوية، وأنه ما بايعه وتابعه إلا على جعالة جعلها له، وضمان تكفل له بإيصاله، وهي ولاية مصر مؤجلة، وقطعة وافرة من المال معجلة، ولولديه وغلماؤه ما ملأ أعينهم.

فأما قوله عليه السلام في معاوية: ظاهر غيه، فلا ريب في ظهور ضلاله وبغيه، وكل باغ غاو.

أما مهتوك ستره، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة، صاحب جلسات وسمار، ومعاوية لم يتوقر، ولم يلزم قانون الرياسة إلا منذ خرج على أمير المؤمنين، واحتاج إلى الناموس والسكينة، وإلا فقد كان في أيام عثمان شديد التهتك، موسوماً بكل قبيح، وكان في أيام عمر يستتر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنية الذهب والفضة، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بها، وعليها جلال الديباج والوشي، وكان حينئذ شاباً، وعنده نرق الصبا، وأثر الشيبية، وسكر السلطان والأمرة، ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام، وأما بعد وفاة أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه، فقليل: إنه شرب الخمر في ستر، وقيل: إنه لم يشربه. ولا خلاف في أنه سمع الغناء وطرب عليه، وأعطى ووصل عليه أيضاً.

وروى أبو الفرج الأصفهاني فقال: قال عمرو بن العاص لمعاوية في قدمه قدمها إلى المدينة أيام خلافته: قم بنا إلى هذا

الذي قد هدم شرفه، وهتك ستره، عبد الله بن جعفر، نقف على بابه، فنسمع غناء جواريه، فقاما ليلاً ومعهما وردان

غلائم عمرو، ووقفنا بباب عبد الله بن جعفر، فاستمعا الغناء وأحس عبد الله بوقوفهما، ففتح الباب، وعزم على معاوية أنا يدخل، فدخل، فجلس على سرير عبد الله، فدعا عبد الله له وقدم إليه يسيراً من طعام، فأكل، فلما أنس قال: يا أمير المؤمنين، ألا تأذن لجواريك أن يتمنن أصواتهن، فإنك قطعتهما عليهن؟ قال: فليقلن، فرفعن أصواتهن، وجعل معاوية يتحرك قليلاً قليلاً حتى ضرب برجله السرير ضرباً شديداً، فقال عمرو: قم أيها الرجل، فإن الرجل الذي جئت لتلحاه أو لتعجب من أمره أحسن حالاً منك. فقال: مهلاً، فإن الكريم طروب! أما قوله: يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته: فالأمر كذلك، فإنه لم يكن في مجلسه إلا شتم بني هاشم وقذفهم، والتعرض بذكر الإسلام، والطنع عليه، وإن أظهر الآتماء إليه. و أما طلب عمرو فضله واتباعه أثره أتباع الكلب للأسد فظاهر، ولم يقل: الثعلب، غضاً من قدر عمرو، وتشبيهاً له بما هو أبلغ في الإهانة والاستخفاف.

ثم قال: ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت، أي لو قعدت عن نصره ولم تشخص إليه مماثلاً به على الحق لوصل إليك من بيت المال قدر كفايتك.

ولقائل أن يقول: إن عمراً ما كان يطلب قدر الكفاية وعلي رضي الله عنه ما كان يعطيه إلا حقه فقط، ولا يعطيه بلداً ولا طرفاً من الأطراف، والذي كان يطلب ملك مصر، لأنه فتحها. أيام عمر ووليها برهة، وكانت حسرة في قلبه، وحزاة في صدره، فباع آخرته بها، فالأولى أن يقال: معناه لو أخذت بالحق أدركت ما طلبت من الآخرة. فإن قلت: إن عمراً لم يكن علي رضي الله عنه يعتقد أنه من أهل الآخرة، فكيف يقول له هذا الكلام؟ قلت: لا خلل ولا زلل في كلامه رضي الله عنه، لأنه لو أخذ بالحق لكان معتقداً كون علي رضي الله عنه على الحق باعتقاده صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحة التوحيد، فيصير تقدير الكلام: لو بايعتني معتقداً للزوم بيعتي لك لكنت في ضمن ذلك طالباً الثواب، فكنت تدركه في الآخرة.

ثم قال مهدداً لهما، ومتوعداً إياهما: فإن يمكن الله منك ومن ابن أبي سفيان، وأقول: لو ظفر بهما لما كان في غالب ظني يقتلهما، فإنه كان حليماً كريماً، ولكن كان يحبسهما ليحسم بحبسهما مادة فسادهما.

ثم قال: وإن تعجزا وتبقيا، أي وإن لم أستطع أخذكما أو أمت قبل ذلك وبقيتما بعدي، فما أمامكما شر لكما من عقوبة الدنيا، لأن عذاب الدنيا منقطع، وعذاب الآخرة غير منقطع.

وذكر نصر بن مزاحم في كتاب صفين هذا الكتاب بزيادة لم يذكرها الرضي. قال نصر: وكتب علي رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى الأبرر عمرو بن العاص بن وائل، شأن محمد وآل محمد في الجاهلية والإسلام، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنك تركت مروءتك لامرئ فاسق مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته، فصار قلبك لقلبه تبعاً، كما قيل: وافق شن طبقة فسلبك دينك و أمانتك ودنياك وآخرتك، وكان علم الله بالغاً فيك، فصرت كالذئب يتبع الضرعام إذا ما الليل دجى، أو أتى الصبح يلتمس فاضل سوره، وحوايا فريسته، ولكن لا نجاة من القدر، ولو بالحق أخذت لأدركت ما رجوت، وقد رشد من كان الحق قائده، فإن يمكن الله منك ومن ابن آكلة

الأكباد، ألحقتكما بمن قتله الله من ظلمة قريش على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن تعجزا وتبقيا بعد، فالله حسبكما، وكفى بانتقامه انتقاماً، وبعقابه عقاباً والسلام.

ومن كتاب له إلى بعض عماله

الأصل: أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك. بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارتفع إلي حسابك، وأعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس، والسلام.

الشرح: أخزيت أمانتك: أذللتها وأهنتها، وجردت الأرض: قشرتها، والمعنى أنه نسبته إلى الخيانة في المال، وإلى إخراج الضياع، وفي حكمة أبرويز أنه قال لخازن بيت المال: إني لا أحتملك على خيانة درهم، ولا أحمذك على حفظ عشرة آلاف ألف درهم، لأنك إنما تحقن بذلك دمك، وتعمر به أمانتك، وإنك إن خنت قليلاً خنت كثيراً، فاحترس من حصلتين: من النقصان فيما تأخذ، ومن الزيادة فيما تعطي، وأعلم أي لم أجعلك على ذخائر الملك، وعمارة المملكة، والعدة على العدو، إلا وأنت أمين عندي من الموضع الذي هي فيه، ومن خواتمها التي هي عليها، فحقق ظني في اختياري إياك أحقق ظنك في رجائك لي، ولا تتعوض بخير شراً، ولا برفعة ضعةً، ولا بسلامة ندامةً، ولا بأمانة خيانةً. وفي الحديث المرفوع: "من ولي لنا عملاً فليتزوج، وليتخذ مسكناً ومركباً وخادماً، فمن آتخذ سوى ذلك جاء يوم القيامة عادلاً غالاً سارقاً".

وقال عمر في وصيته لابن مسعود: إياك والهدية، وليست بحرام، ولكني أخاف عليك الدالة. وأهدى رجل لعمر فخذ جزور فقبله، ثم ارتفع إليه بعد أيام مع خصم له، فجعل في أثناء الكلام يقول: يا أمير المؤمنين، افصل القضاء بيني وبينه كما يفصل فخذ الجزور. فقضى عمر عليه، ثم قام فخطب الناس، وحرّم الهدايا على الولاة والقضاة.

وأهدى إنسان إلى المغيرة سراجاً من شبه، وأهدى آخر إليه بغلاً، ثم اتفقت لهما خصومة في أمر فترافعا إليه، فجعل صاحب السراج يقول: إن أمري أضوا من السراج، فلما أكثر قال المغيرة: ويحك، إن البغل يرمح السراج فيكسره. ومر عمر ببناء بيني بآجر وجص لبعض عماله فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. وروي هذا الكلام عن علي عليه السلام، وكان عمر يقول: على كل عامل أمينان: الماء والطين.

ولما قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر: يا عدو الله وعدو كتابه، أسرقت مال الله تعالى، قال أبو هريرة: لست بعدو الله ولا عدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما، ولم أسرق مال الله، فضربه بجريدة على رأسه، ثم ثناه بالدرّة، وأغرّمه عشرة آلاف درهم، ثم أحضره، فقال: يا أبا هريرة، من أين لك عشرة آلاف درهم، قال: خيلي تناسلت، وعطائي تلاحق، وسهامي تتابع، قال عمر: كلا والله. ثم تركه أياماً، ثم قال له: ألا تعمل، قال: لا، قال: قد عمل من هو خير منك يا أبا هريرة، قال: من هو، قال: يوسف الصديق، فقال أبو هريرة: إن يوسف عمل لمن لم يضرب رأسه وظهره، ولا شتم عرضه، ولا نزع ماله، لا والله لا أعمل لك أبداً.

وكان زياد إذا ولي رجلاً قال له: خذ عهدك، وسر إلى عملك، وأعلم أنك محاسب رأس سنتك، وأنت ستصير إلى أربع خصال، فاحتر لنفسك: إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك، وسلمتك من معرفتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استعنا بقوتك، وأحسننا أدبك على خيانتك، وأوجعنا ظهرك، وأثقلنا غرمك، وإن جمعت علينا الجرمين، جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك أميناً قوياً زدنا رزقك، ورفعنا ذكرك، وكثرنا مالك، وأوطانا الرجال عقبك. ووصف أعرابي عاملاً خائناً فقال: الناس يأكلون أماناتهم لقماً، وهو يحسوها حسواً.

قال أنس بن أبي إياس الدؤلي لحارثة بن بدر الغداني - وقد ولي سرق - ويقال إنها لأبي الأسود:

أحار بن بدر قد وليت ولاية
ولا تحقرن يا حار شيئاً أصبته
فكنا جرذاً فيها تخون وتسرق
فحظك من ملك العراقيين سرق
وباه تميماً بالغنى إن للغنى
لساناً به المرء الهيوبه ينطق
فإن جميع الناس إما مكذب
يقولون أقوالاً ولا يتبعونها
يقول بما تهوى وإما مصدق
وإن قيل: هاتوا حقوقاً لم يحققوا

فيقال: إنها بلغت حارثة بن بدر فقال: أصاب الله به الرشاد، فلم يعد بإشارته ما في نفسي!

ومن كتاب له إلى بعض عماله

الأصل: أما بعد، فإني أشركتك في أمانتي، وجعلتك شعاري وبطاني، ولم يكن في أهلي رجل أوثق منك في نفسي، لمواساتي وموازرتي، وأداء الأمانة إلي، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب، وأمانة الناس قد خزيت، وهذه الأمة قد فتكت وشغرت، قلبت لابن عمك ظهر المحن، وفارقت مع المفارقين، وخذلت مع الخاذلين، وخنته مع الخائنين، فلا ابن عمك أسيت، ولا الأمانة أديت.

وكأنك لم تكن الله تريد بجهدك، وكأنك لم تكن على بينة من ربك، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم، وتنوي غرهم عن فيئهم، فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعرت الكرة، وعاجلت الوثبة واحتطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم، اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله، غير متأثم من أخذه، كأنك - لا أبا لغيرك، حدرت إلى أهلك ترائك من أيبك و أمك.

فسبحان الله! أما تؤمن بالمعاد! أو ما تخاف نقاش الحساب! أيها المعداد كان عندنا من أولي الأبواب، كيف تسيغ شراباً وطعاماً، وأنت تعلم أنك تأكل حراماً، وتشرب حراماً، وتبتاع الأماء، وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، وأحرز بهم هذه البلاد! فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك، لأعذرني إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به إحدأ إلا دخل النار، ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هودة، ولا ظفرا مني بإرادة، حتى أخذ الحق

منهما، وأزيع الباطل عن مظلمتها.

وأقسم بالله رب العالمين، ما يسرين أن ما أخذته من أموالهم حلال لي، أتركه ميراثاً لمن بعدي، فضح رويداً، فكأنك قد بلغت المدى، ودفنت تحت الثرى، وعرضت عليك أعمالك بالحل الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة، ويتمنى المضيع فيه الرجعة، ولات حين مناص! الشرح: أشركتك في أمانتي: جعلتك شريكاً فيما قمت فيه من الأمر، وأتمني الله عليه من سياسة الأمة، وسمى الله تعالى التكليف أمانة في قوله: "إنا عرضنا الأمانة". فأما قوله: وأداء الأمانة إلي فأمر آخر، ومراده بالأمانة الثانية ما يتعارفه الناس من قولهم: فلان ذو أمانة، أي لا يخون فيما سند إليه.

وكلب الزمان: اشتد، وكذلك: كلب البرد.

وحرب العدو: استأسد. وخزيت أمانة الناس: ذلت وهانت.

وشغرت الأمة: خلت من الخير، وشغرت البلد: خلا من الناس.

وقلبت له ظهر الجح: إذا كنت معه فصرت عليه، وأصل ذلك أن الجيش إذا لقوا العدو وكانت ظهور مجانهم إلى وجه العدو، ويطون مجانهم إلى وجه عسكرهم، فإذا فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدو كان وضع مجانهم بدلاً من الوضع الذي كان من قبل، وذلك أن ظهور الترس لا يمكن أن تكون إلا في وجوه الأعداء، لأنها مرمى سهامهم. و أمكنتك الشدة، أي الحملة.

قوله: أسرع الكرة، لا يجوز أن يقال: الكرة إلا بعد فرة، فكأنه لما كان مقلعاً في ابتداء الحال عن التعرض لأموالهم، كان كالفار عنها، فلذلك قال: أسرع الكرة.

والذئب الأزل: الخفيف الوركين، وذلك أشد لعدوه، وأسرع لوثبته، وإن اتفق أن تكون شاة من المعزى كسيرة ودامية أيضاً، كان الذئب على اختطافها أقدر.

ونقاش الحساب: مناقشته.

قوله: فضح رويداً، كلمة تقال لمن يؤمر بالتؤدة والآنة والسكون، وأصلها الرجل يطعم إبله ضحى، ويسيرها مسرعاً ليسير، فلا يشبعها، فيقال له: ضح رويداً.

وقد اختلف الناس في المكتوب إليه هذا الكتاب، فقال الأكثرون: إنه عبد الله بن العباس رحمه الله، ورووا في ذلك روايات، واستدلوا عليه بألفاظ من ألفاظ الكتاب كقوله: أشركتك في أمانتي، وجعلتك بطاني وشعاري، وأنه لم يكن في أهلي رجل أوثق منك، وقوله: على ابن عمك قد كلب، ثم قال ثانياً: قلبت لابن عمك ظهر الجح ثم قال ثالثاً: ولابن عمك آسيت، وقوله: لا أبا لغيرك، وهذه كلمة لا تقال إلا لمثله، فيما غيره من أفناء الناس، فإن علياً رضي الله عنه كان يقول: لا أبا لك.

وقوله: أيها المعداد كان عندنا من أولي الألباب. وقوله: لو أن الحسن والحسين رضي الله عنهما، وهذا يدل على أن المكتوب إليه هذا الكتاب قريب من أن يجري مجراهما عنده.

وقد روى أرباب هذا القول أن عبد الله بن عباس كتب إلى علي رضي الله عنه جواباً من هذا الكتاب، قالوا: وكان

جوابه: أما بعد، فقد أتاني كتابك تعظم علي ما أصبت من بيت مال البصرة، ولعمري إن حقي في بيت المال أكثر مما أخذت، والسلام. قالوا: فكتب إليه علي رضي الله عنه: أما بعد، فإن من العجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين، فقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل، وادعائك ما لا يكون ينجيك من المأثم، ويحل لك المحرم، إنك لأنت المهتدي السعيد إذا! وقد بلغني أنك اتخذت مكة وطناً، وضربت بها عطناً، تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف، تختارهن على عينك، وتعطي فيهن مال غيرك، فارجع هداك الله إلى رشدك، وتب إلى الله ربك، واخرج إلى المسلمين من أموالهم، فعمّا قليل تفارق من ألفت، وتترك ما جمعت، وتغيب في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد فارقت الأحباب، وسكنت التراب، وواجهت الحساب، غنياً عما خلفت، فقيراً إلى ما قدمت، والسلام.

قالوا: فكتب إليه ابن عباس: أما بعد، فإنك قد أكثرت علي، ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلها، وذهبها وعقيانها ولجينها، أحب إلي من أن ألقاه بدم امرئ مسلم. والسلام.

وقال آخرون وهم الأقلون: هذا لم يكن، ولا فارق عبد الله بن عباس علياً رضي الله عنه، ولا باينه ولا خالفه، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل علي رضي الله عنه.

قالوا: ويدل على ذلك ما رواه أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني من كتابه الذي كتبه إلى معاوية من البصرة لما قتل علي رضي الله عنه، وقد ذكرناه من قبل، قالوا: وكيف يكون ذلك ولم يخذعه معاوية، ويجره إلى جهته، فقد علمتم كيف اختدع كثيراً من عمال أمير المؤمنين رضي الله عنه واستمالهم إليه بالأموال، فمالوا وتركوا أمير المؤمنين رضي الله عنه، فما باله قد علم النبوة التي حدثت بينهما، لم يستمل ابن عباس، ولا اجتذبه إلى نفسه، وكل من قرأ السير وعرف التواريخ يعرف مشاقة ابن عباس لمعاوية بعد وفاة علي رضي الله عنه، وما كان يلقاه به من قوارع الكلام، وشديد الخصام، وما كان يثني به على أمير المؤمنين رضي الله عنه ويذكر خصائصه وفضائله، ويصدع به من مناقبه ومآثره، فلو كان بينهما غبار أو كدر لما كان الأمر كذلك، بل كانت الحال تكون بالضد لما اشتهر من أمرهما. وهذا عندي هو الأمثل والأصوب.

وقد قال الراوندي: المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العباس، لا عبد الله، وليس ذلك بصحيح، فإن عبيد الله كان عامل علي رضي الله عنه على اليمن، وقد ذكرت قصته مع بسر بن أرطاة فيما تقدم، ولم ينقل عنه أنه أخذ مالا، ولا فارق طاعة.

وقد أشكل علي أمر هذا الكتاب، فإن أنا كذبت النقل وقلت: هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين رضي الله عنه، خالفت الرواة، فإنهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد ذكر في أكثر كتب السير. وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صديني عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين رضي الله عنه في حياته وبعد وفاته. وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرفه من أهل أمير المؤمنين رضي الله عنه، والكلام يشعر بأن الرجل المخاطب من أهله وبني عمه، فأنا في هذا الموضع من المتوقفين!

ومن كتاب له إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي

وكان عامله علي البحرين، فعزله واستعمل النعمان بن عجلان الزرقى مكانه.

الأصل: أما بعد، فإني وليت النعمان بن عجلان الزرقى على البحرين، ونزعت يدك بلا ذم لك، ولا تثريب عليك، فلقد أحسنت الولاية، وأديت الأمانة، فأقبل غير ظنين ولا ملوم، ولا متهم ولا مأثوم، فقد أردت المسير إلى ظلمة أهل الشام، وأحببت أن تشهد معي، فإنك ممن أستظهر به على جهاد العدو، وإقامة عمود الدين، إن شاء الله.

الشرح: أما عمر بن أبي سلمة فهو ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبوه أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة، يكنى أبا حفص، ولد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة، وقيل: إنه كان يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن تسع سنين، وتوفي في المدينة في خلافة عبد الملك سنة ثلاث وثمانين، وقد حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث، وروى عنه سعيد بن المسيب وغيره، ذكر ذلك كله ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب.

وأما النعمان بن عجلان الزرقى فمن الأنصار، ثم من بني زريق، وهو الذي خلف على خولة زوجة حمزة بن عبد المطلب رحمه الله بعد قتله، قال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب: كان النعمان هذا لسان الأنصار وشاعرهم، ويقال: إنه كان رجلاً أحمر قصيراً تزدرية العين، إلا أنه كان سيّداً، وهو القائل يوم السقيفة:

عتيق بن عثمان حلال أبا بكر

وقلتم حرام نصب سعد ونصبكم

وإن علياً أخلق بالأمر

وأهل أبو بكر لها خير قائم

لأهل له من حيث يدري ولا يدري

وإن هوانا في علي وإنه

قوله: ولا تثريب عليك، فالتثريب الاستقصاء في اللوم، ويقال: ثربت عليه، وعربت عليه، إذا قبحت عليه والظنين: المتهم، والظنة التهمة، والجمع الظنن، يقول: قد أظن زيد عمراً، والألف ألف وصل، والطاء مشددة والنون مشددة أيضاً، وجاء بالطاء المهملة أيضاً، أي اقمه. وفي حديث ابن سيرين: لم يكن علي رضي الله عنه يظن في قتل عثمان، الحرفان مشددان وهو يفتعل من يظن وأدغم، قال الشاعر:

وما كل ما يروى علي أقول

وماكل من يظنني أنامعتب

ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عامله علي أردشير خرة.

الأصل: بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وعصيت إمامك، إنك تقسم فيء المسلمين - الذي حازته رماحهم وحيولهم، وأريقته عليه دماؤهم - فيمن اعتامك من أعراب قومك. فوالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقاً. لتجدن لك علي هواناً، ولتخفن عندي ميزاناً، فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك. فتكون من الأخسرين أعمالاً.

ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء، يردون عندي عليه ويصدرون عنه.

الشرح: قد تقدم ذكر نسب مصقلة بن هبيرة. وأردشير خرة: كورة من كور فارس.

واعتمادك: اختارك من بين الناس، أصله من العيمة بالكسر، وهي خيار المال، اعتام المصدق إذا أخذ العيمة، وقد روي: فيمن اعتمادك بالقلب، والصحيح المشهور الأول، وروي: ولتجدن بك عندي هواناً بالباء، ومعناها اللام، ولتجدن بسبب فعلك هوانك عندي، والباء ترد للسببية، كقوله تعالى: "فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم".
والحق الإهلاك.

والمعنى أنه نهي مصقلة عن أن يقسم الفيء على أعراب قومه الذين اتخذوه سيذاً ورئيساً، ويحرم المسلمين الذين حازوه بأنفسهم وسلاحهم، وهذا هو الأمر الذي كان ينكره على عثمان، وهو إثارة أهله وأقاربه بمال الفيء، وقد سبق شرح مثل ذلك مستوفى.

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه.
الأصل: وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك، ويستفل غربك، فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقترحم غفلته، ويستلب غرته. وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس، ونزعة من نزغات الشيطان، لا يثبت بها نسب، ولا يستحق بها إرث، والمتعلق بها كالواغل المدفع، والنوط المذبذب.

فلما قرأ زياد الكتاب قال: شهد بها ورب الكعبة، ولم تنزل في نفسه. حتى ادعاه معاوية.

قال الرضي رحمه الله تعالى: قوله عليه السلام: الواغل، هو الذي يهجم على الشرب ليشرب معهم وليس منهم، فلا يزال مدفعاً محاجزاً. والنوط المذبذب: هو ما يناط برحل الراكب من قعب أو قدح، أو ما أشبه ذلك، فهو أبدأً يتقلقل إذا حث ظهره، واستعجل سيره.

الشرح: يستزل لبك، يطلب زلل وخطأه، أي يحاول أن تنزل. واللب: العقل. ويستفل غربك: يحاول أن يفيل حدك، أي عزمك، وهذا من باب المجاز. ثم أمره أن يحذره، وقال: إنه - يعني معاوية - كالشيطان يأتي المرء من كذا ومن كذا، وهو مأخوذ من قول الله تعالى: "ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين"، قالوا في تفسيره: من بين أيديهم: يطمعهم في العفو ويغريهم بالعصيان، ومن خلفهم: يذكركم بخلفيهم، ويحسن لهم جمع المال وتركه لهم، وعن أيمانهم: يحبب إليهم الرياسة والثناء، وعن شمائلهم: يحبب إليهم اللهو واللذات. وقال شفيق البلخي: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، أما من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: "وإني لغفار لمن تاب و آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى"، وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على مخلفي، فأقرأ: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها"، و أما من قبل يميني فيأتي من جهة الثناء، فأقرأ: "والعاقبة للمتقين"، و أما من قبل شمالي فيأتي من قبل الشهوات، فأقرأ: "وحيل بينهم وبين ما يشتهون".
فإن قلت: لم لم يقل: "ومن فوقهم ومن تحتهم" قلت: لأن جهة فوق جهة نزول الرحمة، ويستقر الملائكة، ومكان العرش، و الأنوار الشريفة، ولا سبيل له إليها، وأما من جهة تحت فلأن الأتيان منها يوحش، وينفر عنه، لأنها الجهة المعروفة

بالشياطين، فعدل عنها إلى ما هو أدعى إلى قبول وساوسه وأضاليله.

وقد فسر قوم المعنى الأول فقالوا: "من بين أيديهم"، من جهة الدنيا، "ومن خلفهم". من جهة الآخرة، "وعن أيماهم"، الحسنات، "وعن شمائلهم"، أي يحثهم على طلب الدنيا، ويؤيسهم من الآخرة، ويشبطهم عن الحسنات، ويغريهم بالسيئات.

قوله: ليقتحم غفلته أي ليلج ويهجم عليه وهو غافل، جعل اقتحامه إياه اقتحاماً للغرة نفسها لما كانت غالبية عليه. ويستلب غرته، ليس المعنى باستلابه الغرة أن يرفعها ويأخذها، لأنه لو كان كذلك لصار ذلك الغافل المغتر فاقداً للغفلة والغرة، وكان ليبياً فطناً، فلا يبقى له سبيل عليه، وإنما المعنى بقوله: ويسلب غرته ما يعنيه الناس بقولهم: أخذ فلان غفلي وفعل كذا.

ومعنى أخذها هنا أخذ ما يستدل به على غفليتي.

وفلتة: أمر وقع من غير تثبيت ولا روية، ونزغة: كلمة فاسدة، من نزغات الشيطان، أي من حركاته القبيحة التي يستفسد بها المكلفين، ولا يثبت بها نسب، ولا يستحق بها إرث، لأن المقر بالزنا لا يلحقه النسب، ولا يرثه المولود، لقوله صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر". أخبار زياد بن أبيه.

فأما زياد، فهو زياد بن عبيد، ومن الناس من يقول: عبيد بن فلان، وينسبه إلى ثقيف، والأكثر يقولون: إن عبيداً كان عبداً، وإنه بقي إلى أيام زياد، فابتاعه وأعتقه، وسنذكر ما ورد في ذلك ونسبة زياد لغير أبيه لحمول أبيه، والدعوة التي استلحق بها، فليل تارة: زياد بن سمية، وهي أمه، وكانت أمة للحارث بن كلدة بن عمرو بن علا في الثقيفي، طبيب العرب، وكانت تحت عبيد.

وقيل تارة زياد بن أبيه، وقيل تارة: زياد بن أمه، ولما استلحق قال له أكثر الناس: زياد بن أبي سفيان، لأن الناس مع الملوك الذين هم مظنة الرهبة والرغبة، وليس اتباع الدين بالنسبة إلى اتباع الملوك إلا كالقطرة في البحر المحيط، فإما ما كان يدعى به قبل الاستلحاق فزياد بن عبيد، ولا يشك في ذلك أحد.

وروى أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب عن هاشم بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أن عمر بعث زياداً في إصلاح فساد واقع باليمن، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع مثلها - وأبو سفيان حاضر وعلي رضي الله عنه وعمرو بن العاص - فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام! لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: إنه لقرشي، وإني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه. فقال علي رضي الله عنه: ومن هو، قال: أنا، فقال: مهلاً يا أبا سفيان، فقال أبو سفيان:

يراني يا علي من الأعادي

ولم يخف المقالة في زياد

أما والله لولا خوف شخص

لأظهر أمره صخر بن حرب

عنى بقوله: لولا خوف شخص: عمر بن الخطاب.

وروى أحمد بن يحيى البلاذري: قال: تكلم زياد - وهو غلام حدث - بحفرة عمر كلاماً أعجب الحاضرين، فقال عمرو بن العاص: لله أبوه! لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: أما والله إنه لقرشي، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك، فقال: ومن أبوه، قال: أنا والله وضعت في رحم أمه، فقال: فهلا تستلحقه، قال: أخاف هذا العير الجالس أن يخرق علي إهابي.

وروى محمد بن عمر الواقدي، قال: قال أبو سفيان وهو جالس عند عمر وعلي هناك، وتد تكلم زياد فأحسن: أبت المناقب إلا أن تظهر في شمائل زياد، فقال علي رضي الله عنه: من أي بني عبد مناف هو، قال: ابني، قال: كيف؟ قال: أتيت أمه في الجاهلية سفاحاً فقال علي رضي الله عنه: مه يا أبا سفيان! فإن عمر إلى المساء سريع، قال: فعرف زياد ما دار بينهما، فكانت في نفسه.

وروى علي بن محمد المدائني قال: لما كان زمن علي رضي الله عنه ولي زياداً فارس أو بعض أعمال فارس، فضبطها ضبطاً صالحاً، وجى خراجها وحماها، وعرف ذلك معاوية، فكتب إليه: أما بعد، فإنه غرتك قلاع تأوي إليها ليلاً، كما تأوي الطير إلى وكرها، وإيم الله لولا انتظاري بك ما الله أعلم به لكان لك مني ما قاله العبد الصالح: "فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون". وكتب في أسفل الكتاب شعراً من جملته:

تتسى أباك وقد شالت نعامته

إذ يخطب الناس والوالي لهم عمر

فلما ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس، وقال: العجب من ابن آكلة الأكباد، ورأس النفاق! يهددي وبيني وبينه ابن عم رسول الله رضي الله عنه وزوج سيدة نساء العالمين، وأبو السبطين، وصاحب الولاية والمثلة والأخاء في مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان! أما والله لو تخطى هؤلاء أجمعين إلي لوجدني أحمر نحشاً ضراباً بالسيف، ثم كتب إلى علي رضي الله عنه، وبعث بكتاب معاوية في كتابه.

فكتب إليه علي رضي الله عنه، وبعث بكتابه: أما بعد، فلإني قد وليتك ما وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً، وإنه قد كانت من أبي سفيان فلة في أيام عمر من أمان التيه وكذب النفس، لم تستوجب بها ميراثاً، ولم تستحق بها نسباً، وإن معاوية كالشيطان الرحيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره، ثم احذره، ثم احذره، والسلام.

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب قال: كان علي رضي الله عنه، قد ولي زياداً قطعة من أعمال فارس، واصطنعه لنفسه، فلما قتل علي رضي الله عنه بقي زياد في عمله، وخاف معاوية جانبه، وعلم صعوبة ناحيته، وأشفق من ممالأته الحسن بن علي رضي الله عنه. فكتب إليه: من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عبيد، أما بعد، فإنك عبد قد كفرت النعمة، واستدعيت النعمة، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر، وإن الشجرة لتضرب بعرقها، وتتفرع من أصلها، إنك - لا أم لك بل لا أب لك - قد هلك وأهلك، وظننت أنك تخرج من قبضي، ولا ينالك سلطاني، هيهات! ما كل

ذي لب يصيب رأيه، ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته. أمس عبد واليوم أمير! خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمية، وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة، وأسرع الأجابة، فإنك إن تفعل فدمك حقنت، ونفسك تداركت، وإلا اختطفتك بأضعف ريش، ونلتك بأهون سعي، وأقسم قسماً مبروراً ألا أوتى بك إلا في زمارة، تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام حتى أقيمك في السوق، وأبيعك عبداً، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه. والسلام.

فلما ورد الكتاب على زياد غضب غضباً شديداً، وجمع الناس وصعد المنبر. فحمد الله ثم قال: ابن أكلة الأكباد وقاتلة أسد الله، ومظهر الخلاف، ومسر النفاق، ورئيس الأحزاب، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله، كتب إلي يردد ويبرق عن سحابة جفل لا ماء فيها، وعمّا قليل تصيرها الرياح قرعاً، والذي يدلني على ضعفه تهدده قبل القدرة، أفمن إشفاق علي تنذر وتعذر! كلا ولكن ذهب إلى غير مذهب، وقعق لمن ربي بين صواعق قحمة، كيف أرهبه ويبيني وبينه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن ابن عمه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار، والله لو أذن لي فيه، أو ندبني إليه، لأريته الكواكب نهاراً، ولأسعطته ماء الخردل. دونه الكلام اليوم، والجمع غداً، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله. ثم نزل.

وكتب إلى معاوية: أما بعد، فقد وصل إلي كتابك يا معاوية، وفهمت ما فيه، فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب، ويتعلق بأرجل الضفادع، طمعا في الحياة، إنما يكفر النعم، ويستدعي النقم من حاد الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً. فأما سبك لي فلولا حلم ينهاني عنك، وخوفي أن ادعى سفيهاً، لأثرت لك مخازي لا يغسلها الماء. وأما تعبيرك لي بسمية، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة، وأما زعمك أنك تحتطفي بأضعف ريش، وتتناولي بأهون سعي، فهل رأيت بازياً يفرغه صغير القنابر، أم هل سمعت بذئب أكله خروف! فامض الآن لطيتك، واجتهد جهدك، فلست أنزل إلا بحيث تكره، ولا أجتهد إلا فيما يسوءك، وستعلم أننا الخاضع لصاحبه. الطالع إليه. والسلام.

فلما ورد كتاب زياد على معاوية غمه وأحزنه، وبعث إلى المغيرة بن شعبة، فخلا به وقال، يا مغيرة، إنني أريد مشاورتك في أمر أهمني، فانصحي فيه، وأشر علي برأي المجتهد، وكن لي أكن لك، فقد خصصتك بسري، وأثرتك على ولدي، قال المغيرة: فما ذاك، والله لتجدي في طاعتك أمضى من الماء إلى الحدور، ومن ذي الرونق في كف البطل الشجاع. قال: يا مغيرة، إن زياداً قد أقام بفارس يكشف لنا كشيخ الأفاعي، وهو رجل ثاقب الرأي، ماضي العزيمة، جوال الفكر، مصيب إذا رمى، وقد خفت منه الآن ما كنت آمنه إذ كان صاحبه حياً وأخشى مملاؤه حسناً، فكيف السبيل إليه، وما الحيلة في إصلاح رأيه، قال المغيرة: أنا له إن لم أمت، إن زياداً رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر، فلو لاطفته المسألة، وألنت له الكتاب، لكان لك أمل، وبك أوثق، فاكتب إليه وأنا الرسول.

فكتب معاوية إليه: من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان، أما بعد، فإن المرء ربما طرحه الهوى في مطارح العطب، وإنك للمرء المضروب به المثل، قاطع الرحم، وواصل العدو. وحملك سوء ظنك بي، وبغضك لي، على أن عقلت قرابتي، وقطعت رحمي، وبتت نسي وحرمتي، حتى كأنك لست أخي، وليس صخر بن حرب أباك وأبي، وشتان ما بيني وبينك، أطلب بدم ابن أبي العاص وأنت تقاتلني! ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء، فكنت:

وملحفة بيض أخرى جناحا

كتاركة بيضها بالعراء

وقد رأيت أن أعطف عليك، ولا أؤاخذك بسوء سعيك، وأن أصل رحمك، وأبتغي الثواب في أمرك، فاعلم أبا المغيرة، أنك لو خضت البحر في طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى انقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعداً، فإن بني عبد شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح - فارجع - رحمك الله - إلى أصلك، واتصل بقومك، ولا تكن كالموصل بريش غيره، فقد أصبحت ضال النسب. ولعمري ما فعل بك ذلك إلا اللجاج، فدعه عنك، فقد أصبحت على بينة من أمرك، ووضوح من حجتك، فإن أحببت جاني، ووثقت بي، فإمرة، وإن كرهت جاني، ولم تثق بقولي، ففعل جميل لا علي ولا لي. والسلام.

فرحل المغيرة بالكتاب حتى قدم فارس، فلما راه زياد قربه وأدناه ولطف به فدفع إليه الكتاب، فجعل يتأمله ويضحك، فلما فرغ من قراءته وضعه تحت قدمه ثم قال: حسبك يا مغيرة! فإني أطلع على ما في ضميرك، وقد قدمت من سفرة بعيدة، فقم وأرح ركابك. قال: أجل، فدع عنك اللجاج يرحمك الله، وارجع إلى قومك، وصل أخاك، وانظر لنفسك، ولا تقطع رحمك! قال زياد: إني رجل صاحب أناة، ولي في أمري روية، فلا تعجل علي، ولا تبدأني بشيء حتى أبدأك. ثم جمع الناس بعد يومين أو ثلاثة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم، فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان، وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي، في كل عيد يذبجون، ولقد أفنى هذان اليومان - يوم الجمل وصفين - ما ينيف على مائة ألف، كلهم يزعم أنه طالب حق، وتابع إمام، وعلى بصيرة من أمره، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة، كلا ليس كذلك، ولكن أشكل الأمر، والتبس على القوم، وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ، فكيف لامرئ بسلامة دينه! وقد نظرت في أمر الناس فوجدت أحد العاقبتين العافية، وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغيبته، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله ثم نزل. وكتب جواب الكتاب: أما بعد، فقد وصل كتابك يا معاوية مع المغيرة بن شعبة وفهمت ما فيه. فالحمد لله الذي عرفك الحق، وردك إلى الصلة، ولست ممن يجهل معروفاً، ولا يغفل حسباً، ولو أردت أن أحييك بما أوجبه الحجة، واحتمله الجواب، لطال الكتاب، وكثر الخطاب، ولكنك إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح، ونية حسنة، وأردت بذلك براً، فستزرع في قلبي مودةً وقبولاً، وإن كنت إنما أردت مكيدةً ومكرًا وفساد نية، فإن النفس تأبى ما فيه العطب، ولقد قمت يوم قرأت كتابك مقاماً يعاب به الخطيب المدره، فتركت من حضر، لا أهل ورد ولا صدر، كالمتحيرين بمهمه ضل بهم الدليل، وأنا على أمثال ذلك قدير، وكتب في أسفل الكتاب:

أدافع عني الضيم ما دمت باقيا

فلاموا وألفوني لدى العزم ماضيا

وكننت بطبي للرجال مداويا

وأخفي له تحت العضاه الدواهيا

تجديني إذا لم تدن مني نائيا

إذا معشري لم ينصفوني وجدتني

وكم معشر أعيت قناتي عليهم

وهم به ضاقت صدور فرجته

أدافع بالحلم الجهول مكيدةً

فإن تدن مني ادن منك وإن تبين

فأعطاه معاوية جميع ما سألته، وكتب إليه بخط يده ما وثق به، فدخل إليه الشام، فقربه وأدناه، وأقره على ولايته، ثم استعمله على العراق.

وروى علي بن محمد المدائني، قال: لما أراد معاوية استلحاق زياداً وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياداً معه فأجلسه بين يديه على المرقاة التي تحت مرقاته، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد، فمن كان عنده شهادة فليقم بها. فقام ناس فشهدوا أنه ابن أبي سفيان، وأنهم سمعوا ما أقر به قبل موته، فقام أبو مريم السلولي - وكان خماراً في الجاهلية - فقال: أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف، فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً، فلما أكل قال: يا أبا مريم، اصب لي بغيّاً، فخرجت فأتيت بسمية، فقلت لها: إن أبا سفيان ممن قد عرفت شرفه وجوده، وقد أمرني أن أصيب له بغيّاً، فهل لك، فقالت: نعم، يجيء الآن عبيد بغنمه - وكان راعياً - فإذا تعشى، ووضع رأسه أتيته. فرجعت إلى أبي سفيان فأعلمته، فلم نلبث أن جاءت بحر ذيلها، فدخلت معه، فلم تزل عنده حتى أصبحت، فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبك، قال: خير صاحبة، لولا ذفر في إبطيها. فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم، لا تشتم أمهات الرجال، فتشتم أمك.

فلما انقضى كلام معاوية ومناشدته قام زياد، وأنصت الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولست أدري حق هذا من باطله! وهو والشهود أعلم بما قالوا، وإنما عبيد أب مبرور، ووال مشكور. ثم نزل.

وروى شيخنا أبو عثمان أن زياداً مر وهو والي البصرة بأبي العريان العدوي - وكان شيخاً مكفوفاً، ذا لسن وعارضة شديدة - فقال أبو العريان: ما هذه الجلبة؟ قالوا: زياد بن أبي سفيان، قال: والله ما ترك أبو سفيان إلا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً، فمن أين جاء زياد، فبلغ الكلام زياداً، وقال له قائل: لو سددت عنك فم هذا الكلب! فأرسل إليه بمائتي دينار، فقال له رسول زياد: إن ابن عمك زياداً الأمير قد أرسل إليك مائتي دينار لتنفقها، فقال: وصلته رحم! إي والله ابن عمي حقاً. ثم مر به زياد من الغد في موكبه، فوقف عليه فسلم، وبكى أبو العريان، فقبل له: ما ييكيك، قال: عرفت صوت أبي لسفيان في صوت زياد. فبلغ ذلك معاوية، فكتب إلى أبي العريان:

أن لونتك أبا العريان ألوانا

نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا

كانت له دون ما يخشاه قربانا!

ما ألبتتك الدنانير التي بعثت

أمسى إليك زياد في أرومته

لله در زياد لو تعجلها

فلما قرىء كتاب معاوية على أبي العريان قال: اكتب جوابه يا غلام:

قد كدت يابن أبي سفيان تنسانا

عندي فلا أبتغي في الحق بهتانا

أويسد شراً يصبه حيثما كانا

أحدث لنا صلة تحيا النفوس بها

أما زياد فقد صحت مناسبه

من يسد خيراً يصبه حين يفعله

وروى أبو عثمان أيضاً، قال: كتب زياد إلى معاوية ليستأذنه في الحج، فكتب إليه: إني قد أذنت لك واستعملتك على الموسم، وأجزتك بألف ألف درهم. فبينما هو يتجهز إذ بلغ ذلك أبا بكره أخاه - وكان مصارماً له منذ للجح في الشهادة على المغيرة بن شعبة أيام عمر لا يكلمه قد لزمته إيمان عظيمة ألا يكلمه أبداً - فأقبل أبو بكره يدخل القصر يريد زياداً، فبصر به الحاجب، فأسرع إلى زياد قائلاً: أيها الأمير، هذا أخوك أبو بكره قد دخل القصر، قال: ويحك، أنت رأيته! قال ها هوذا قد طلع، وفي حجر زياد بني يلاعبه، وجاء أبو بكره حتى وقف عليه، فقال للغلام: كيف أنت يا غلام؟ إن أباك ركب في الإسلام عظيماً زنى أمه، وانتفى من أبيه، ولا والله ما علمت سمية رأت أبا سفيان قط، ثم أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك، يوافي الموسم غداً، ويوافي أم حبيبة بنت أبي سفيان، وهي من أمهات المؤمنين، فإن جاء يستأذن عليها فأذنت له، فاعظم بها فرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومصيبة! وإن هي منعت فاعظم بها على أبيك فضيحة! ثم انصرف، فقال جزاك الله يا أخي عن النصيحة خيراً، ساخطاً كنت أو راضياً. ثم كتب إلى معاوية: إني قد اعتللت عن الموسم فليوجه إليه أمير المؤمنين من أحب، فوجه عتبة بن أبي سفيان.

فأما أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب فإنه قال: لما ادعى معاوية زياداً في سنة أربع وأربعين وألحقه به أخا زوج ابنته من ابنه محمد بن زياد ليؤكد بذلك صحة الاستلحاق، وكان أبو بكره أخا زياد أمه، أمهما جميعاً سمية، فحلف ألا يكلم زياداً أبداً وقال: هذا زنى أمه، وانتفى من أبيه، ولا والله ما علمت لسمية رأت أبا لسفيان قبل، وبله ما يصنع بأم حبيبة! أريد أن يراها، فإن حجبته فضحته، وإن رآها فيا لها مصيبة! يهتك من رسول الله حرمة عظيمة! وحج زياد مع معاوية، ودخل المدينة فأراد الدخول على أم حبيبة ثم ذكر قول أبي بكره، فانصرف عن ذلك، وقيل: إن أم حبيبة حجبته ولم تأذن له في الدخول عليها، وقيل: إنه حج ولم يرد المدينة من أجل قول أبي بكره، وإنه قال: جزى الله أبا بكره خيراً فما يدع النصيحة في حال.

وروى أبو عمر بن عبد البر في هذا الكتاب قال: دخل بنو أمية وفيهم عبد الرحمن بن الحكم على معاوية أيام ما استلحق زياداً، فقال له عبد الرحمن: يا معاوية، لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة - يعني على بني أبي العاص. فأقبل معاوية على مروان وقال: أخرج عنا هذا الخليع، فقال مروان: إي والله إنه لخليع ما يطاق، فقال معاوية: والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه يطاق، ألم يبلغني شعرة في وفي زياد! ثم قال مروان: أسمعني، فأنشد:

لقد ضاقت بمايأتي اليدان

وترضى أن يقال أبوك زان!

كرحم الفيل من ولد الأتان

وصخر من سمية غير دان

ألا أبلغ معاوية بن حرب

أتعضب أن يقال أبوك عف

فأشهد أن رحمك من زياد

وأشهد أنها حملت زياداً

ثم قال: والله لا أَرْضى عنه حتى يأتي زياداً فيترضاه ويعتذر إليه، فجاء عبد الرحمن إلى زياد معتذراً يستأذن عليه، فلم يأذن له، فأقبلت قريش إلى زياد تكلمه في أمر عبد الرحمن، فلما دخل سلم، فتشاور له زياد بعينه - وكان يكسر عينه -

فقال له زياد: أنت القائل ما قلت، قال عبد الرحمن: ما الذي قلت، قال: قلت ما لا يقال، قال: أصلح الله الأمير! إنه لا ذنب لمن أعتب، وإنما الصفح عمن أذنب، فاسمع مني ما أقول، قال: هات، فانشده:

إليك أبا المغيرة تبت مما	جری بالشام من خطل اللسان
وأغضبت الخليفة فيك حتى	دعاه فرط غيظ أن هجاني
وقلت لمن لحاني في اعتذاري	إليك اذهب فشأنك غير شاني
عرفت الحق بعد ضلال رأيي	وبعد الغي من زيغ الجنان
زياد من أبي سفيان غصن	تهادى ناضراً بين الجنان
أراك أخاً وعماً وابن عم	فما أدري بعيب ما تراني
وإن زيادةً في آل حرب	أحب إلي من وسطى بناني
ألا أبلغ معاوية بن حرب	فقد ظفرت بما تأتي اليدان

فقال زياد: أراك أحمق صرفاً شاعراً ضيع اللسان، يسوغ لك ريقك ساخطاً ومسخوطاً، ولكننا قد سمعنا شعرك، وقبلنا عذرك، فهات حاجتك، قال: تكتب إلى أمير المؤمنين بالرضا عني، قال: نعم، ثم دعا كاتبه فكتب له بالرضا عنه، فأخذ كتابه ومضى حتى دخل على معاوية، فلما قرأه قال: لحا الله زياداً، لم يتنبه لقوله:

وإن زيادةً في آل حرب

ثم رضي عن عبد الرحمن ورده إلى حالته، وأما أشعار يزيد بن مفرغ الحميري وهجاؤه عبيد الله وعباداً، ابني زياد بالدعوة فكثيرة مشهورة، نحو قوله:

أعباد ما للؤم عنك تحول	ولا لك أم من قريش ولا أب
وقل لعبيد الله ما لك والد	بحق ولا يدري امرؤ كيف تنسب

ونحو قوله:

شهدت بأن أملك لم تباشر	أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمر فيه لبس	على حذر شديد وارتياح
إذا أودى معاوية بن حرب	فبشر شعب قعبك بانصداع

ونحو قوله:

إن زياداً ونافعاً وأبا بكرة عندي من أعجب العجب	
هم رجال ثلاثة خلقوا	في رحم أنثى وكلهم لأب
ذا قرشي كما تقول وذا	مولى هذا بزعمه عربي

كان عبيد الله بن زياد يقول: ما شجيت بشيء أشد علي من قول ابن مفرغ:

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

هل نلت مكرمةً إلا بتأمير!

فكر ففي ذاك إن فكرت معتبر

أن ابنها من قريش في الجماهير

عاشت سمية ما عاشت وما علمت

ويقال: إن الأبيات النونية المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أم الحكم ليزيد بن مفرغ وإن أولها:

مغلغلة من الرجل اليماني

ألا أبلغ معاوية بن حرب

ونحو قوله، وقد باع برد غلامه لما حبسه عباد بن زياد بسجستان:

من قبل هذا ولابعنا له ولدا

يابرد مامسنا دهر أضربنا

لاتهلكي إثر برد هكذا كمدا

لامتني النفس في برد فقلت لها

من الحوادث ما فارقته أبدا

لولا الدعي ولولا ما تعرض بي

ونحو قوله:

عضت بأير أبيها سادة اليمن

أبلغ لديك بني قحطان مألكة

يا للعجائب يلهو بابن ذي يزن!

أضحى دعي زياد فقع قرقرة

وروى ابن الكلبي أن عباد استلحقه زياد كما استلحق معاوية زياداً، كلاهما لدعوة. قال: لما أذن لزياد في الحج تجهز، فبينما هو يتجهز وأصحاب القرب يعرضون عليه قريهم، إذ تقدم عباد - وكان خرازاً - فصار يعرض عليه ويحاوره ويحييه، فقال زياد: ويحك، من أنت، قال: أنا ابنك، قال، ويحك، وأي بني، قال: قد وقعت على أمي فلانة، وكانت من بني كذا، فولدتني، وكنت في بني قيس بن ثعلبة وأنا مملوك لهم، فقال: صدقت والله، إني لأعرف ما تقول. فبعث فاشتراه، وادعاه وألحقه، وكان يتعهد بني قيس بن ثعلبة بسببه ويصلهم، وعظم أمر عباد حتى ولاه معاوية سجستان بعد موت زياد، وولى أخاه عبید الله البصرة، فتزوج عباد الستيرة، ابنة أنيف بن زياد الكلبي، فقال الشاعر يخاطب أنيفاً - وكان سيد كلب في زمانه:

أنائماً كنت أم بالسمع من صمم!

أبلغ لديك أبا ترکان مألكة

آباؤها من عليم معدن الكرم

أنكحت عبد بني قيس مهذبة

لا در درك أم أنكحت من عدم

أكنت تجهل عباداً ومحتده

صهراً وبعد بني مروان والحكم!

أبعد آل أبي سفيان تجعله

ما دمت حياً وبعد الموت في الرحم

أعظم عليك بذاً عاراً ومنقصه

وقال الحسن البصري: ثلاث كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة منهن لكانت موبقة: انتراؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها، واستلحقه زياداً مراغمة لقول رسول الله "الولد للفراش وللعاهر الحجر"، وقتله حجر بن عدي، فيا ويله من حجر وأصحاب حجر! وروى الشرقي بن القطامي، قال!: كان سعيد بن أبي سرح مولى حبيب بن عبد شمس شيعة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: فلما قدم زياد الكوفة طلبه وأخافه، فأتى الحسن بن علي رضي الله عنه

مستجيراً به، فوثب زياد على أخيه وولده و امرأته فحبسهم، وأخذ ماله، ونقض داره، فكتب الحسن بن علي رضي الله عنه إلى زياد: أما بعد، فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، فهدمت داره، وأخذت ماله، وحبست أهله وعياله، فإن أتاك كتابي هذا فابن له داره، واردد عليه عياله وماله، وشفعني فيه، فقد أجرته. والسلام. فكتب إليه زياد: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة، أما بعد، فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي، وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سوقة، وتأمريني فيه بأمر المطاع المسلط على رعيته، كتبت إلي في فاسق آويته، إقامة منك على سوء الرأي، ورضا منك بذلك، وإيم الله لا تسبني به ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك غير رفيق بك ولا مرع عليك، فإن أحب لحم علي أن أكله للحم الذي أنت منه، فسلمه بجزيرته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن شفعتك فيه، وإن قتلته لم أقتله إلا لحبه أباك الفاسق، والسلام. فلما ورد الكتاب على الحسن رضي الله عنه قرأه وتبسم، وكتب بذلك إلى معاوية، وجعل كتاب زياد عطفه، وبعث به إلى الشام، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالث لهما: من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمية، أما بعد، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر"، والسلام. فلما قرأ معاوية كتاب زياد إلى الحسن ضاقت به الشام، وكتب إلى زياد: أما بعد، فإن الحسن بن علي بعث إلي بكتابك إليه جواباً عن كتاب كتبه إليك في ابن أبي سرح، فأكثر العجب منك، وعلمت أن لك رأيين: أحدهما من أبي سفيان، والآخر من سمية، فأما الذي من أبي سفيان فحلّم وحزم، وأما الذي من سمية، فما يكون من رأي مثلها! من ذلك كتابك إلى الحسن تشتم أباه، وتعرض له بالفسق، ولعمري إنك الأولى بالفسق من أبيه. فأما أن الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك، فإن ذلك لا يضعك لو عقلت، وأما تسلطه عليك بالأمر فحق لمثل الحسن أن يتسلط، وأما تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك، فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك. فإذا ورد عليك كتابي فخل ما في يديك لسعيد بن أبي سرح، وابن له داره، واردد عليه ماله، ولا تعرض له، فقد كتبت إلى الحسن أن يخبره، إن شاء أقام عنده، وإن شاء رجع إلى بلده، ولا سلطان لك عليه لا بيد ولا لسان. وأما كتابك إلى الحسن باسمه واسم أمه، ولا تنسبه إلى أبيه، فإن الحسن ويحك! من لا يرمى به الرجوان، وإلى أيام وكلته لا أم لك! أما علمت أنها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذاك أفخر له لو كنت تعلمه وتعقله! وكتب في أسفل الكتاب شعراً، من جملته:

إذا سار سار الموت حيث يسير

وذا حسن شبة له ونظير

بأمر لقالوا يذبل وثبير

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات أن عبد الملك أجرى خيلاً، فسبقه عباد بن زياد، فأنشد عبد الملك:

وكان خرازاً تجود قربته

أما حسن فابن الذي كان قبله

وهل يلد الرئبال إلا نظيره

ولكنه لو يوزن الحلم والحجا

سبق عباد وصلت لحيته

فشكى عباد قول عبد الملك إلى خالد بن يزيد بن معاوية، فقال له: أما والله لأنصفنك منه بحيث يكره. فوجه أخته، فكتب الحجاج إلى عبد الملك: يا أمير المؤمنين، إن مناكح آل أبي سفيان قد ضاعت. فأخبر عبد الملك خالدًا بما كتب به الحجاج، فقال خالد: يا أمير المؤمنين، ما أعلم امرأة منا ضاعت ونزلت إلا عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فإنها عندك، ولم يعن الحجاج غيرك، قال عبد الملك: بل عني الدعي ابن الدعي عبادًا، قال خالد: يا أمير المؤمنين، ما أنصفتني، أدعي رجلاً ثم لا أزوجه! إنما كنت ملوماً لو زوجت دعيك، فأما دعي فلم لا أزوجه! فأما أول ما ارتفع به زياد فهو استخلاف ابن عباس له على البصرة في خلافة علي رضي الله عنه، وبلغت علياً عنه هنات، فكتب إليه يلومه ويؤنبه، فمنها الكتاب الذي ذكر الرضي رحمه الله بعضه، وقد شرحنا فيما تقدم ما ذكر الرضي منه، وكان علي رضي الله عنه أخرج إليه سعداً مولاه يحثه على حمل مال البصرة إلى الكوفة، وكان بين سعد وزيد ملاحاة ومنازعة، وعاد سعد وشكاه إلى علي رضي الله عنه وعابه، فكتب علي عليه السلام إليه: أما بعد، فإن سعداً ذكر أنك شتمته ظلماً، وهددته وجهته تجبراً وتكبراً، فما دعاك إلى التكبر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكبر رداء الله، فمن نازع الله رداءه قصمه"، وقد أخبرني أنك تكثر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد، وتدهن كل يوم، فما عليك لو صمت لله أياماً، وتصدقت ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك مراراً قفاراً، فإن ذلك شعار الصالحين! أفتطمع وأنت متمرغ في النعيم، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرملة واليتيم، أن يحسب لك أجر المتصدقين! وأخبرني أنك تتكلم بكلام الأبرار، وتعمل عمل الخاطئين، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحبطت، فتب إلى ربك يصلح لك عملك، واقتصد في أمرك، وقدم إلى ربك الفضل ليوم حاجتك، وأدهن غباً، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ادهنوا غباً ولا تدهنوا رفهاً".

فكتب إليه زياد: أما بعد يا أمير المؤمنين، فإن سعداً قدم علي فأساء القول والعمل، فانتهرته وزجرته، وكان أهلاً لأكثر من ذلك. وأما ما ذكرت من الأسراف واتخاذ الألوان من الطعام والنعيم، فإن كان صادقاً فأثابه الله ثواب الصالحين، وإن كان كاذباً فوقاه الله أشد عقوبة الكاذبين. وأما قوله: إني أصف العدل وأخالفه إلى غيره، فإني إذن من الأخسرين. فخذ يا أمير المؤمنين بمقال قلته في مقام قمته، الدعوى بلا بينة، كالسهم بلا نصل، فإن أتاك بشاهدي. عدل، وإلا تبين لك كذبه وظلمه.

ومن كلام زياد: تأخير جزاء المحسن لؤم، وتعجيل عقوبة المسيء طيش.

وكتب إليه معاوية: أما بعد، فاعزل حريث بن جابر عن العمل، فإني لا أذكر مقاماته بصفين إلا كانت حزازة في صدري، فكتب إليه زياد: أما بعد، فخفض عليك يا أمير المؤمنين، فإن حريثاً قد سبق شرفاً لا يرفعه معه عمل، ولا يضعه معه عزل.

وقال لابنه عبيد الله: عليك بالحجاب، وإنما اجترأت الرعاة على السباع بكثرة نظرها إليها.

ومن كلامه: أحسنوا إلى أهل الخراج، فإنكم لا تزالون سماناً ما سمنوا.

قدم رجل خصماً له إلى زياد في حق له عليه وقال: أيها الأمير، إن هذا يدل بخاصة ذكر أنها له منك. قال زياد: صدق،

وسأخبرك بما ينفعه عندي من خاصته ومودته، وإن يكن له الحق عليك آخذك به أخذاً عنيفاً، وإن يكن الحق لك قضيت عليه، ثم قضيت عنه.

وقال: ليس العاقل من يحتال للأمر إذا وقع فيه، لكن العاقل من يحتال للأمر ألا يقع فيه.

وقال في خطبة له: ألا رب مسرور بقدومنا لا نسرّه، وخائف ضرنا لا نضره.

كان مكتوباً في الحيطان الأربعة في قصر زياد بالحص، أربعة أسطر، أولها: الشدة في غير عنف، واللين في غير ضعف.

والثاني: المحسن مجازى بإحسانه، والمسيء يكافأ بإساءته. والثالث: العطيات والأرزاق في إبانها وأوقاتها. والرابع: لا

احتجاب عن صاحب ثغر، ولا عن طارق ليل.

وقال يوماً على المنبر: إن الرجل ليتكلم بالكلمة يشفي بها غيظه لا يقطع بها ذنب عتر فتضره، لو بلغتنا عنه لسفكنا دمه.

وقال: ما قرأت كتاب رجل قط إلا عرفت عقله منه.

وقال في خطبة: استوصوا بثلاثة منكم خيراً: الشريف، والعالم، والشيخ، فوالله لا يأتيني وضيع بشريف يستخف به إلا

انتقمتم منه، أو شاب بشيخ يستخف به إلا أوجعته ضرباً، ولا جاهل بعالم يستخف به إلا نكلت به.

وقيل لزياد: ما الحظ، قال: أن يطول عمرك، وترى في عدوك ما يسرك.

قيل: كان زياد يقول: هما طريقان للعامة: الطاعة والسيوف.

وكان المغيرة يقول: لا والله حتى يحملوا على سبعين طريقاً غير السيوف.

وقال الحسن البصري لرجل: ألا تحدثني بخطبتي زياد والحجاج حين دخلا العراق! قال: بلى، أما زياد فلما قدم البصرة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن معاوية غير مخوف على قومه، ولم يكن ليلحق بنسبه من ليس منه، وقد شهدت

الشهود بما قد بلغكم، والحق أحق أن يتبع، والله حيث وضع البيّنات كان أعلم، وقد رحلت عنكم وأنا أعرف صديقي

من عدوي، ثم قدمت عليكم وقد صار العدو صديقاً مناصحاً، والصديق عدواً مكاشحاً، فليشتمل كل مرء على ما في

صدره، ولا يكونن لسانه شفرة تحري على أوداجه، وليعلم أحدكم إذا خلا بنفسه أي قد حملت سيفي بيدي، فإن

أشهره لم أغمده، وإن أغمده لم أشهره. ثم نزل. وأما الحجاج فإنه قال: من أعياه داؤه، فعلي دواؤه، ومن استبطأ أحله،

فعلي أن أعجله، ألا إن الحزم والعزم استلبا مني سوطي، وجعلا سوطي سيفي، فنجاده في عنقي، وقائمه بيدي، وذبابه

قلادة لمن اغتري.

فقال الحسن: البؤس لهما، ما أغرهما برهما! اللهم اجعلنا ممن يعتبر بهما.

وقال بعضهم: ما رأيت زياداً كاسراً إحدى عينيه، واضعاً إحدى رجله على الأخرى فيخاطب رجلاً إلا رحمت

المخاطب.

ومن كلامه: نعم الشي الأمارة، لولا قعقة لجام البريد، وتسئم ذروة المنبر.

قال لحاجبه: يا عجلان: إني قد وليتك هذا الباب، وعزلتك عن أربعة: المناادي إذا جاء يؤذن بالصلاة، فإنها كانت كتاباً

موقوتاً، ورسول صاحب الثغر، فإنه إن أبطأ ساعة فسد تدبير سنة، وطارق الليل فشر ما جاء به، والطباخ إذا فرغ من

الطعام، فإنه متى أعيد عليه التسخين فسد.

وكان حارثة بن بدر الغداني قد غلب على زياد، وكان حارثة مشتهراً بالشراب، فقبل لزياد في ذلك، فقال: كيف باطراح رجل هو يسايرني منذ قدمت العراق فلا يصل ركابه ركابي، ولا تقدمني قط فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي إليه، ولا أخذ علي الشمس في شتاء قط، ولا الروح في صيف قط، ولا سألته عن علم إلا ظننته لا يحسن غيره.

ومن كلامه: كفى بالبخل عاراً أن اسمه لم يقع في حمد قط، وكفى بالجود فخراً أن اسمه لم يقع في ذم قط. وقال: ملاك السلطان الشدة على المريب، واللين للمحسن، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد.

وقال: ما أتيت مجلساً قط إلا تركت منه ما لوأخذته لكان لي، وترك ما لي أحب إلي من أخذ ما ليس لي. وقال: ما قرأت مثل كتب الربيع بن زياد الحارثي، ما كتب إلي كتاباً قط إلا في اجترار منفعة، أو دفع مضرة، ولا شاورته يوماً قط في أمر مبهم إلا وسبق إلى الرأي. وقال يعجبني من الرجل إذا أتى مجلساً أن يعلم أين مكانه منه، فلا يتعداه إلى غيره، وإذا سيم خطة خسف أن يقول: لا بملء فيه.

فأما خطبة زياد المعروفة بالبراء - وإنما سميت بذلك لأنه لم يحمد الله فيها، ولا صلى على رسوله - فقد ذكرها علي بن محمد المدائني قال: قدم زياد البصرة أميراً عليها أيام معاوية والفسق فيها فاش جداً، وأموال الناس منتهبة، والسياسة ضعيفة، فصعد المنبر فقال: أما بعد، فإن الجاهلية الجهلاء، والضلالة العمياء، والغبي الموفد لأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تستمعوا ما أعد من الثواب الكثير لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمذ الذي لا يزول.

أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية! لا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به، من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر، هذا والعدد غير قليل! ألم يكن منكم فئاة تمنع الغواة عن دج الليل وغارة النهار! قربتم القرابة، وواعدتم الذين يعتذرون بغير العذر، ويعطون على المختلس، كلامرىء منكم يذب عن سيفه، صنيع من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلما، وقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرمة الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً لا مكانس الريب. حرم علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً! إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله! لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. وأنا أقسم بالله لآخذن الولي بالولي، والظاعن بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقي الرجل أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أتستقيم لي قناتكم.

إن كذبة المنبر تلتفى مشهورة، فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي! من نقب عليه منكم فأنا ضامن لما ذهب منه. فإياكم ودج الليل، فإني لا أوتى بمدج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم بقدر ما يأتي الخبر الكوفة، ويرجع إليكم.

إياكم ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق بيوت قوم غرقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب على أحد بيتنا نقبنا على قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً.

كفوا عني أيديكم وألسنتكم، أكف عنكم يدي ولساني، ولا يظهرن من أحدكم خلاف ما عليه عامتكم فأضرب عنقه. وقد كانت بيني وبين أقوام إحن فقد جعلت ذلك وراء أذني، وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مسيئاً فليترع عن إساءته، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلال من بغضي لم أكشف عنه قناعاً، ولم أهتك له سترًا حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدمنا سييسر، ومسرور بقدمنا سييأس.

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي حولناه، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل و الإنصاف فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أي مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم. ولا حابساً عطاء، ولا مجمرًا بعثًا، فادعوا الله بالصالح فإنهم ساستكم المؤدبون، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، فلا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول لذلك حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لأحد منكم لكان شراً لكم. أسأل الله أن يعين كلاً على كل. وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر، فأنفذوه على أذلاله. وإيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي.

فقام عبد الله بن الأهمم فقال: أشهد أيها الأمير، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب. فقال: كذبت، ذاك نبي الله داود. فقام الأحنف فقال: إنما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لا نثني حتى نبتلى، ولا نحمد حتى نعطي. فقال زياد: صدقت. فقام أبو بلال مرداس بن أذية يهمس ويقول: أنبأنا الله بغير ما قلت: فقال: "وإبراهيم الذي وفي ألا تزر وازرة وزر أخرى". فسمعها زياد فقال: يا أبا بلال، إنا لا نبلغ ما نريد بأصحابك حتى نخوض إليهم الباطل خوفاً. وروى الشعبي، قال: قدم زياد الكوفة لما جمعت له مع البصرة، فدنوت من المنبر لأسمع كلامه، فلم أر أحداً يتكلم فيحسن إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يسيء، إلا زياداً فإنه كان لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً، فكنت أتمنى ألا يسكت. وروى الشعبي أيضاً، قال: لما خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون، فقال: ما هذا، قالوا: إن البلد مفتونة، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتیان الفساق فيقال لها: نادي ثلاث أصوات، فإن أجابك أحد و إلا فلا لوم علينا فيما نصنع. فغضب فقال: ففيم أنا، وفيم قدمت! فلما أصبح أمر فنودي في الناس، فاجتمعوا فقال: أيها الناس، إني قد نبئت بما أنتم فيه وسمعت ذرواً منه، وقد أنذرتكم وأجلتكم شهراً مسير الرجل إلى الشام، ومسيره إلى خراسان، ومسيره إلى الحجاز، فمن وجدناه بعد شهر خارجاً من منزله بعد العشاء الآخرة فدمه هدر. فانصرف الناس يقولون: هذا القول كقول من تقدمه من الأمراء، فلما كمل الشهر دعا صاحب شرطته عبد الله بن حصين اليربوعي - وكانت رجال الشرطة معه أربعة آلاف - فقال له: هيء خيلك ورجلك، فإذا صليت العشاء

الآخرة، وقرأ القارئ مقدار سبع من القرآن، ورفع الطن القصب من القصر، فسر ولا تلقين أحداً، عبيد الله بن زياد فمن دونه، إلا جئني برأسه، وإن راجعتني في أحد ضربت عنقك.

قال: فصبح على باب القصر تلك الليلة سبعمائة رأس، ثم خرج الليلة الثانية فجاء بخمسين رأساً، ثم خرج الليلة الثالثة فجاء برأس واحد. ثم لم يجرء بعدها بشيء، وكان الناس إذا صلوا العشاء الآخرة أحضروا إلى منازلهم شداً حثيثاً، وقد يترك بعضهم نعاله.

كتبت عائشة إلى زياد كتاباً، فلم تدر ما تكتب عنوانه! إن كتبت زياد بن عبيد أو ابن أبيه أغضبتة، وإن كتبت زياد بن أبي سفيان أثمت، فكتبت: من أم المؤمنين إلى ابنها زياد. فلما قرأه ضحك، وقال: لقد لقيت أم المؤمنين من هذا العنوان نصباً!

ومن كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري

وكان عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها - قوله.

الأصل: أما بعد يا بن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها. تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان. وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما أشبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجهه فئل منه.

ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من ديناه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كثرت من دنياكم تبراً، ولا أدخرت من غنائمها وفراً. ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبيرة، ولهي في عيني أوهى من عفصة مقرة.

الشرح: هو عثمان بن حنيف - بضم الحاء - بن واهب بن العكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاري ثم الأوسي أخو سهل بن حنيف، يكنى أبا عمرو - وقيل: أبا عبد الله، عمل لعمر ثم لعلي رضي الله عنه، ولأه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق، وضرب الخراج والجزية على أهلها، وولاه علي رضي الله عنه على البصرة، فأخرجه طلحة والزبير منها حين قدماها، وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة علي رضي الله عنه، ومات بها في زمن معاوية.

قوله: من فتية البصرة، أي من فتياها. أي من شباهها أو من أسخياتها، يقال للسخي: هذا فتى، والجمع فتية وفتيان وفتو، ويروى: أن رجلاً من قطان البصرة، أي سكانها.

والمأدبة، بضم الدال: الطعام يدعى إليه القوم، وقد جاءت بفتح الدال أيضاً، ويقال: أدب فلان القوم يأدبهم بالكسر، أي دعاهم إلى طعامه، و الأدب: الداعي إليه، قال طرفة:

لا ترى الأدب فيما ينتقر

نحن في المشتاة ندعو الجفلى

ويقال أيضاً: آدبهم إلى طعامه يؤدبهم إيداباً، ويروى: وكزت عليك الجفان فكرعت وأكلت أكل ذئب فهم، أو ضيع قرم. وروي: ما حسبتك تأكل طعام قوم.

ثم ذم أهل البصرة فقال: عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو، والعائل: الفقير، وهذا كقول الشاعر:

فإن تثر فأنت لنا صديق

فإن تملق فأنت لنا عدو

ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلى مالا شبهة فيه، وسمي ذلك قضمًا ومقضمًا وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له، وازدرائه إياه، وأنه عنده ليس مما يستحق أن يسمى بأسماء المرغوب فيه، المتنافس عليه، وذلك لأن القضم يطلق على معنيين: أحدهما على أكل الشيء اليابس، والثاني على ما يؤكل ببعض الفم، وكلاهما يدلان على أن ذلك المقضم المرغوب عنه، لا فيه.

ثم ذكر رضي الله عنه حال نفسه فقال: إن إمامكم قد قنع من الدنيا بطمريه، والطمري: الثوب الخلق البالي، وإنما جعلهما اثنين لأنهما إزار ورداء لا بد منهما، أي للحسد والرأس.

قال: ومن طعمه بقرصيه، أي قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما. وروي قد اكتفى من الدنيا بطمريه، وسد فورة جوعه بقرصيه، لا يطعم الفلذة في حويله إلا في يوم أضحية.

ثم قال: إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليه، ولكني أسألكم أن تعينوني بالورع والأجتهاد.

ثم أقسم أنه ما كثر ذهباً، ولا ادخر مالا، ولا أعد ثوباً بالياً سملاً لبالي ثوبيه، فضلاً عن أن سيعد ثوباً قشيباً كما يفعله الناس في إعداد ثوب جديد ليلبسوه عوض الأسمال التي يترعوها، ولا حاز من أرضها شبراً، والضمير في أرضها يرجع إلى دنياكم، ولا أخذ منها إلا كقوت أتان دبيرة، وهي التي عقر ظهرها فقل أكلها.

ثم قال: ولهي في عيني أهون من عفصة مقرة، أي مرة، مقر الشيء بالكسر أي صار مرأً، و أمقره بالهمز أيضاً، قال لبيد

وعلى الأذنين حلو كالعسل

مقرر مر على أعدائه

الأصل: بلى كانت في أيدينا فذك من كل ما أظلمته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، ونعم الحكم الله. وما أصنع بفذك وغير فذك، والنفوس مظانها في غد حدث تنقطع في ظلمته أثارها وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها، لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم، وإنما هي نفسي أروضاها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق.

الشرح: الحدث: القبر، وأضغطها الحجر: جعلها ضاغطة، والهمزة للتعدية، ويروى: وضغطها.

وقوله: مظانها في غد حدث، المظان: جمع مظنة، وهو موضع الشيء ومألفه الذي يكون فيه، قال:

فإن مظنة الجهل الشباب

فإن يك عامر قد قال جهلاً

يقول: لا مال لي، ولا اقتنيت فيما مضى مالا، وإنما كانت في أيدينا فذك فشحت عليها نفوس قوم، أي بخلت وسخت عنها نفوس آخرين، أي سامحت وأغضت. وليس يعني ههنا بالسخاء إلا هذا، لا السخاء الحقيقي، لأنه رضي الله عنه وأهله لم يسمحوا بفذك إلا غصباً وقسراً، وقد قال هذه الألفاظ في موضع آخر فيما تقدم، وهو يعني الخلافة بعد وفاه

رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال: ونعم الحكم الله، الحكم: الحاكم، وهذا الكلام كلام شاك متظلم، ثم ذكر مال الإنسان وأنه لا ينبغي أن يكثرث بالقيينات و الأموال، فإنه يصير عن قريب إلى دار البلى ومنازل الموتى.

ثم ذكر أن الحفرة ضيقة، وأنه لو وسعها الحافر لأجأها الحجر المتداعي والمدر المتهافت، إلى أن تضغط الميت وتزحمه. وهذا كلام محمول على ظاهره، لأنه خطاب للعامة و إلا فأي فرق بين سعة الحفرة وضيقها على الميت! اللهم إلا أن يقول قائل: إن الميت يحس في قبره، فإذا قيل ذلك فالجاءل له إحساساً بعد عدم الحس هو الذي يوسع الحفرة، وإن كان الحافر قد جعلها ضيقة، فإذا هذا الكلام جيد لخطاب العرب خاصة، ومن يحمل الأمور على ظواهرها.

ثم قال: وإنما هي نفس أروضها بالتقوى، يقول: تقللي واقتصاري من المطعم والملبس على الجشب والختن رياضة لنفسي، لأن ذلك إنما أعمله خوفاً من الله أن أنغمس في الدنيا، فالرياضة بذلك هي رياضة في الحقيقة بالتقوى، لا بنفس التقلل والتقشف، لتأتي نفسي آمنة يوم الفرع الأكبر، وتثبت في مداحض الزلق. فذك في السير و الأخبار.

واعلم أنا نتكلم في شرح هذه الكلمات بثلاثة فصول: الفصل الأول فيما ورد في الحديث والسير من أمر فذك ، والفصل الثاني في هل النبي صلى الله عليه وسلم يورث أم لا، والفصل الثالث في أن فذك، هل صح كونها نحلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة أم لا؟ الفصل الأول: فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم، لا من كتب الشيعة ورجالهم، لأننا مشترطون على أنفسنا ألا نحفل بذلك، وجميع ما نورده في هذا الفصل من كتاب أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في السقيفة وفذك وما وقع من الاختلاف و الاضطراب عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر الجوهري هذا عالم محدث كثير الأدب، ثقة ورع، اثنى عليه المحدثون ورووا عنه مصنفاته.

قال أبو بكر: حدثني أبو زيد عمر بن شبة قال: حدثنا حيان بن بشر، قال: حدثنا يحيى بن آدم، قال: أخبرنا ابن أبي زائدة، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري قال: بقيت بقية من أهل خير تحصنوا، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ويسيرهم، ففعل، فسمع ذلك أهل فذك فزلوا على مثل ذلك، وكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب قال أبو بكر: وروى محمد بن إسحاق أيضاً، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من خير قذف الله الرعب في قلوب أهل فذك، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحوه على النصف من فذك، فقدمت عليه رسلهم بخير أو بالطريق، أو بعد ما أقام بالمدينة، فقبل ذلك منهم، وكانت فذك لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة له، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

قال: وقد روى أنه صالحهم عليها كلها، الله أعلم أي الأمرين كان.

قال: وكان مالك بن أنس يحدث عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم أنه صالحهم على النصف فلم يزل الأمر كذلك حتى أخرجهم عمر بن الخطاب وأجلاهم بعد أن عوضهم عن النصف الذي كان لهم عوضاً من إبل وغيرها. وقال مالك بن أنس لما أجلاهم عمر بعث إليهم من يقوم الأموال، بعث أبا الهيثم بن التيهان، وفروة بن عمرو، وحباب

بن صخر، وزيد بن ثابت، فقوموا أرض فذك ونخلها، فأخذها عمر، ودفع إليهم قيمة النصف الذي لهم، وكان مبلغ ذلك خمسين ألف درهم، أعطاهم إياها من مال أتاه من العراق، وأجلاهم إلى الشام.

قال أبو بكر: فحدثني محمد بن زكريا قال: حدثني جعفر بن محمد بن عمارة الكندي قال: حدثني أبي، عن الحسين بن صالح بن حي، قال: حدثني رجلان من بني هاشم، عن زينب بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال: وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه، قال أبو بكر: وحدثني عثمان بن عمران العجيفي، عن نائل بن نجيح بن عمير بن شمر، عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه. قال أبو بكر: وحدثني أحمد بن محمد بن يزيد، عن عبد الله بن محمد بن سليمان، عن أبيه، عن عبد الله بن حسن بن الحسن. قالوا جميعاً: لما بلغ فاطمة رضي الله عنها إجماع أبي بكر على منعها فذك، لاثت خمارها، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ في ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى دخلت على أبي بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار، فضرب بينها وبينهم ربطة بيضاء - وقال بعضهم: قبطية، وقالوا: قبطية بالكسر والضم - ثم أنت أنه أجهد لها القوم بالبكاء، ثم أمهلت طويلاً حتى سكنوا من فورهم، ثم قالت: أبتدىء بمحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد، الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما أهدى. وذكر خطبة طويلة جيدة قالت في آخرها: فاتقوا الله حق تقاته، وأطيعوه فيما أمركم به، فإنما يخشى الله من عباده العلماء، واحمدوا الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السموات والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته في خلقه، ونحن خاصته، ومحل قدسه، ونحن حجته في غيبه، ونحن ورثة أنبيائه، ثم قالت: أنا فاطمة ابنة محمد، أقول عوداً على بدء، وما أقول ذلك سرفاً ولا شططاً، فاسمعوا بأسماع واعية، وقلوب راعية، ثم قالت: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم" فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ثم ذكرت كلاماً طويلاً سنذكره فيما بعد في الفصل الثاني، تقول في آخره: ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي، "أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون"، إيهاً معاشر المسلمين، ابتز إرث أبي! أبي الله أن ترث يابن أبي قحافة أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فريباً! فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم! ثم التفتت إلى قبر أبيها فتمثلت بقول هند بنت أئاة:

لو كنت شاهداً لم تكثر الخطب

قد كان بعدك أنباء وهينة

لما قضيت وحالت دونك الكتب

أبدت رجال لنا نجوى صدورهم

إذا غبت عنا فنحن اليوم نغصب

تجهمتنا رجال وأستخف بنا

قال: ولم ير الناس أكثر باك ولا باكية منهم يومئذ. ثم عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت: يا معشر البقية، وأعضاء الملة، وحضنة الإسلام، ما هذه الفترة عن نصرتي، والونية عن معونتي، والغمرة في حقي، والسنة عن ظلامي! أما كان رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول: "المرء يحفظ في ولده"! سرعان ما أحدثتم، وعجلان ما أتيتم. الآن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أمتم دينه! ها إن موته لعمرى خطب جليل آستوسع وهنه، واستبهم فتقه، وفقد راتقه، وأظلمت الأرض له، وخشعت الجبال، وأكدت الأمال. اضيع بعده الحريم، وفكت الحرمه، وأذيلت المصونه، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته، وأنباكم بما قبل وفاته، فقال: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين" إيهاً بني قيلة! اهتضم تراث أبي. وأنتم بمرأى ومسمع، تبلغكم الدعوة، ويشملكم الصوت، وفيكم العدة والعدد، ولكم الدار والجن وأنتم نخبة الله التي انتخب، وخيرته التي اختار! باديتهم العرب، وبادهتم الأمور، وكافحتم البهم حتى دارت بكم رحى الإسلام، ودر حلبه، وخبت نيران الحرب، وسكنت فورة الشرك، وهدأت دعوة المهرج، واستوثق نظام الدين، أفتأخرتم بعد الأقدام، ونكصتم بعد الشدة، وجبنتم بعد الشجاعة، عن قوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم! فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون. ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وركنتم إلى الدعة، فجحدتم الذي وعيتهم، وسغتم الذي سوغتم، وإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد، ألا وقد قلت لكم ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، وخور القناة، وضعف اليقين، فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر، ناقبة الخف، باقية العار، موسومة الشعار، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تعملون "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

قال: وحدثني محمد بن زكريا قال: حدثنا محمد بن الضحاك قال: حدثنا هشام بن محمد، عن عوانة بن الحكم قال: لما كلمت فاطمة رضي الله عنها أبا بكر بما كلمته به حمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: يا خيرة النساء، وابنة خير الأباء، والله ما عدوت رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما عملت إلا بأمره، وإن الرائد لا يكذب أهله، وقد قلت فأبلغت، وأغلظت فأهجرت، فغفر الله لنا ولك. أما بعد، فقد دفعت آلة رسول الله ودابته، وحذاه إلى علي رضي الله عنه، وأما ما سوى ذلك فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً، ولكننا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنة"، فقد عملت بما أمرني، ونصحت له، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. قال أبو بكر: وروى هشام بن محمد، قال: قالت فاطمة لأبي بكر: إن ام أيمن تشهد لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني فذك، فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق الله أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أيك، ولوددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، والله لأن تفتقر عائشة أحب إلي من أن تفتقر، أتراني أعطي الأحمر والأبيض حقه وأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم! إن هذا المال لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلما توفي رسول الله وليته كما كان يليه. قالت: والله لا كلمتك أبداً! قال: والله لا هجرتك أبداً، قالت: والله لأدعون الله عليك، قال: والله لأدعون الله لك، فلما حضرها الوفاة أوصت ألا يصلي عليها، فدفنت ليلاً، وصلى عليها عباس بن عبد المطلب، وكان بين وفاتها ووفاء أبيها اثنتان وسبعون ليلة.

قال أبو بكر: وحدثني محمد بن زكريا، قال: حدثنا جعفر بن محمد بن عمارة بالإسناد الأول قال: فلما سمع أبو بكر

خطبتها شق عليه مقاتلتها فصعد المنبر وقال: أيها الناس، ما هذه الرعة إلى كل قالة! أين كانت هذه الأماني في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكفم، إنما هو ثعالة شهيد ذنبه، مرب لكل فتنة، هو الذي يقول: كروها جذعة بعدما هرمت، يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء، كأم طحال أحب أهلها إليها البغي. ألا إني لو أشاء أن أقول لقلت ولو قلت لبحت، إني ساكت ما تركت، ثم التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم، وأحق من لزم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم. فقد جاءكم فأوتيتهم ونصرتهم، ألا إني لست باسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحق ذلك منا.

ثم نزل، فانصرف فاطمة عليها السلام إلى منزلها.

قلت: قرأت هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن أبي زيد البصري وقلت له: بمن يعرض، فقال: بل يصرح. قلت: لو صرح لم أسألك. فضحك وقال: بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، قلت: هذا الكلام كله لعلي يقوله! قال: نعم، إنه الملك يا بني، قلت: فما مقالة الأصار؟ قال: هتفوا بذكر علي فخاف من اضطراب الأمر عليهم، فنهاهم فسألته عن غريبه، فقال: أما الرعة بالتخفيف، أي الاستماع و الأصغاء، والقالة: القول، و ثعالة: اسم الثعلب علم غير مصروف، ومثل ذؤالة للذئب، وشهيد ذنبه، أي لا شاهد له على ما يدعي إلا بعضه وجزء منه، وأصله مثل، قالوا: إن الثعلب أراد أن يغري الأسد بالذئب، فقال: إنه قد أكل الشاة التي كنت قد أعددتها لنفسك، وكنت حاضراً، قال: فمن يشهد لك بذلك، فرفع ذنبه وعليه دم، وكان الأسد قد افتقد الشاة. فقبل شهادته، وقتل الذئب، ومرب: ملازم، أرب بالمكان. وكروها جذعة: أعيدوها إلى الحال الأولى، يعني الفتنة والمهرج. وأم طحال: امرأة بغي في الجاهلية، ويضرب بها المثل فيقال، أزن من أم طحال.

قال أبو بكر: وحدثني محمد بن زكريا قال: حدثني ابن عائشة، قال: حدثني أبي، عن عمه، قال: لما كلمت فاطمة أبا بكر بكى، ثم قال: يا بنة رسول الله، والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهماً، وإنه قال: "إن الأنبياء لا يورثون"، فقالت: إن فذك وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فمن يشهد بذلك، فجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه فشهد، وجاءت أم أيمن فشهدت أيضاً، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها، قال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله، وصدق علي، وصدقت أم أيمن، وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن بن عوف، وذلك أن مالك لأبيك، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ من فذك قوتكم، ويقسم الساقى، ويحمل فيه في سسيل الله، فما تصنعين بها؟ قالت: أصنع بها كما يصنع بها أبي، قال: فلك علي الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوك، قالت: الله لتفعلن! قال: الله لأفعلن، قالت: اللهم اشهد، وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم، ويقسم الباقي، وكان عمر كذلك، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان علي كذلك، فلما ولي الأمر معاوية بن أبي سفيان أقطع مروان بن الحكم ثلثها، وأقطع عمرو بن عثمان بن عفان ثلثها، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها، وذلك بعد موت الحسن بن علي رضي الله عنه، فلم يزالوا يتداولونها حتى خلصت كلها لمروان بن الحكم أيام خلافته. فوهبها لعبد العزيز ابنه، فوهبها عبد العزيز لابنه عمر بن عبد العزيز، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، كانت أول ظلامة ردها، دعا حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وقيل: بل دعا علي بن الحسين رضي الله عنه فردها عليه،

وكانت بيد أولاد فاطمة رضي الله عنها مدة ولاية عمر بن عبد العزيز، فلما ولي يزيد بن عاتكة قبضها منهم، فصارت في أيدي بني مروان كما كانت يتداولونها، حتى انتقلت الخلافة عنهم، فلما ولي أبو العباس السفاح ردها على عبد الله بن الحسن بن الحسن، ثم قبضها أبو جعفر لما حدث من بني حسن ما حدث، ثم ردها المهدي ابنه على ولد فاطمة رضي الله عنها، ثم قبضها موسى بن المهدي وهارون أخوه، فلم تزل في أيديهم حتى ولي المأمون، فردها على الفاطميين.

قال أبو بكر: حدثني محمد بن زكريا قال: حدثني مهدي بن سابق، قال: جلس المأمون للمظالم، فأول رقعة وقعت في يده نظر فيها وبكى، وقال للذي على رأسه: ناد أين وكيل فاطمة، فقام شيخ عليه دراعة وعمامة وخف ثغرى، فتقدم فجعل يناظره في فذك والمأمون يحتج عليه وهو يحتج على المأمون، ثم أمر أن يسجل لهم بها، فكتب السجل وقرئ عليه، فانفذه، فقام دعبل إلى المأمون فأنشده الأبيات التي أولها:

برد مأمون هاشم فدكا

أصبح وجه الزمان قد ضحكا

فلم تزل في أيديهم حتى كان في أيام المتوكل، فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار، وكان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها، فإذا قدم الحجاج أهدوا لهم من ذلك التمر فيصلوهم، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل، فصرم عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر، ووجه رجلاً يقال له بشران بن أبي أمية الثقفي إلى المدينة فصرمه، ثم عاد إلى البصرة ففلج.

قال أبو بكر: أخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا سويد بن سعيد والحسن بن عثمان قالا: حدثنا الوليد بن محمد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أن فاطمة رضي الله عنها أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي حينئذ تطلب ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفذك، وما لقي من خمس خبير، فقال أبو بكر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث ما تركناه صدقة"، إنما يأكل آل محمد من هذا المال، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت من ذلك على أبي بكر وهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد أبيها ستة أشهر، فلما توفيت دفنها علي رضي الله عنه ليلاً، ولم يؤذن بها أباً بكر.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا إسحاق بن إدريس، قال: حدثنا محمد بن أحمد، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما حينئذ يطلبان أرضه لفذك وسهمه بخير، فقال لهما أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا نورث، ما تركناه صدقة"، إنما يأكل آل محمد صلى الله عليه وسلم من هذا المال، وإني والله لا أغير أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه إلا صنعته. قال: فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت.

قال أبو بكر: أخبرنا أبو زيد قال: حدثنا عمر بن عاصم. وموسى بن إسماعيل قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن الكلبي،

عن أبي صالح، عن أم هانئ، أن فاطمة قالت لأبي بكر: من يرثك إذا مت، قال: ولدي وأهلي، قالت: فما لك ترث رسول الله صلى الله عليه وسلم دوننا، قال: يا ابنة رسول الله، ما ورث أبوك داراً ولا مالاً ولا ذهباً ولا فضةً، قالت: بلى سهم الله الذي جعله لنا، وصار فينا الذي بيدك، فقال لها: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما هي طعمة أطعمناها الله، فإذا مت كانت بين المسلمين".

قال أبو بكر: أخبرنا أبو زيد قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه قال: حدثنا محمد بن الفضل، عن الوليد بن جميع، عن أبي الطفيل قال: أرسلت فاطمة إلى أبي بكر: أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أهله؟ قال: بل أهل؟ قالت: فما بال سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله أطعم نبيه طعمة"، ثم قبضه، وجعله للذي يقوم بعده، فوليت أنا بعده، على أن أردّه على المسلمين، قالت: أنت وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم.

قلت: في هذا الحديث عجب، لأنها قالت له: أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أهله، قال: بل أهله، وهذا تصريح لأنه صلى الله عليه وسلم موروث يرثه أهله، وهو خلاف قوله: "لا نورث". وأيضاً فإنه يدل على أن أبا بكر استنبط من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أطعم نبياً طعمة أن يجري رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته مجرى ذلك النبي، أو يكون قد فهم أنه عني بذلك النبي المنكر لفظاً نفسه، كما فهم من قوله في خطبته، إن عبداً خيره الله بين الدنيا وما عند ربه، فاختر ما عند ربه، فقال أبو بكر: بل نفديك بأنفسنا.

قال أبو بكر وأخبرنا أبو زيد قال: أخبرنا القعني قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة، أن فاطمة طلبت فذك من أبي بكر، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن النبي لا يورث"، من كان النبي يعوله فأنا أعوله، ومن كان النبي صلى الله عليه وسلم ينفق عليه فأنا أنفق عليه. فقالت: يا أبا بكر، أيرثك بناتك ولا يرث رسول الله بناته، فقال: هو ذاك. قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثنا فضيل بن مرزوق قال: حدثنا البحري بن حسان قال: قلت لزيد بن علي أنا أريد أن أهجن أمر أبي بكر، إن أبا بكر انتزع فذك من فاطمة رضي الله عنها، فقال: إن أبا بكر كان رجلاً رحيماً، وكان يكره أن يغير شيئاً فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتته فاطمة فقالت: رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني فذك، فقال لها: هل لك على هذا بينة، فجاءت بعلي رضي الله عنه، فشهد لها، ثم جاءت أم أيمن فقالت: أألستما تشهدان أني من أهل الجنة قالاً: بلى - قال أبو زيد يعني أنها قالت لأبي بكر وعمر - قالت: فأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاهما فذك، فقال أبو بكر: فرجل آخر أو امرأة أخرى لتستحقي بها القضية. ثم قال أبو زيد: وأتم الله لو رجع الأمر إلي لقضيت فيها بقضاء أبي بكر. قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا محمد بن الصباح قال: حدثنا يحيى بن المتوكل أبو عقيل، عن كثير النوال قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه: جعلني الله فداك! أرايت أبا بكر وعمر، هل ظلماكم من حقكم شيئاً - أو قال: ذهباً من حقكم بشيء؟ فقال: لا، والذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، ما ظلماكم من حقنا مثقال حبة من خردل، قلت: جعلت فداك أفأتولاهما؟ قال: نعم ويحك! تولهما في الدنيا والآخرة، وما أصابك فني عنقي، ثم

قال: فعل الله بالمغيرة وبنان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا عبد الله بن نافع والقعني، عن مالك عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أن أزواج النبي أردن لما توفي أن يعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن - أو قال ثمنهن - قالت: فقلت لهن: أليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم "لا نورث، ما تركنا صدقة".

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا عبد الله بن نافع والقعني وبشر بن عمر، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال: "لا يقسم ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤونة عيالي فهو صدقة".

قلت: هذا حديث غريب، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلا أبو بكر وحده وقال أبو بكر: وحدثنا أبو زيد، عن الحزامي، عن ابن وهب، عن يونس عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "والذي نفسي بيده لا يقسم ورثتي شيئاً، ما تركت صدقة"، قال: وكانت هذه الصدقة بيد علي رضي الله عنه، غلب عليها العباس، وكانت فيها خصومتها، فأبى عمر أن يقسمها بينهما حتى أعرض عنها العباس، وغلب عليها علي رضي الله عنه، ثم كانت بيد حسن وحسين ابني علي رضي الله عنه، ثم كانت بيد علي بن الحسين رضي الله عنه والحسن بن الحسن، كلاهما يتداولانها، ثم بيد زيد بن علي رضي الله عنه.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا عثمان بن عمر بن فارس، قال: حدثنا يونس، عن الزهري، عن مالك بن أوس بن الحدثان، أن عمر بن الخطاب دعاه يوماً بعدما ارتفع النهار، قال: فدخلت عليه وهو جالس على سرير رمال ليس بينه وبين الرمال فراش، على وسادة آدم، فقال: يا مالك، إنه قد قدم من قومك أهل أبيات حضروا المدينة، وقد أمرت لهم برضخ فاقسمه بينهم، فقلت: يا أمير المؤمنين، مر بذلك غيري، قال: اقسم أيها المرء.

قال: فبينما نحن على ذلك إذ دخل يرفاً، فقال: هل لك في عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير يستأذنون عليك، قال: نعم، فأذن لهم: قال: ثم لبث قليلاً، ثم جاء فقال: هل لك في علي والعباس يستأذنان عليك، قال: ائذن لهما، فلما دخلا، قال عباس: يا أمير المؤمنين، اقض بيني وبين هذا - يعني علياً - وهما يختصمان في الصوافي التي أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير، قال: فاستب علي والعباس عند عمر، فقال عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين: اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر، فقال عمر: أنشدكم الله الذي تقوم بإذنه السموات والأرض، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث. ما تركناه صدقة"، يعني نفسه، قالوا: قد قال ذلك، فأقبل علي والعباس وعلي فقال: أنشدكما الله هل تعلمان ذلك، قالاً: نعم، قال عمر: فإني أحدثكم عن هذا الأمر، إن الله تبارك وتعالى خص رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الشيء بشيء لم يعطه غيره، قال تعالى: "وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير"، وكانت هذه خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فما اختارها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد أعطاكموها وثبتها فيكم حتى بقي منها هذا المال، وكان ينفق منه على أهله سنتهم. ثم يأخذ ما بقي فيجعله فيما يجعل مال الله عز وجل، فعل ذلك في حياته ثم توفي، فقال أبو بكر: أنا ولي

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبضه الله، وقد عمل فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنتم حينئذ، والتفت إلى علي والعباس تزعمان أن أبا بكر فيها ظالم فاجر، والله يعلم أنه لصادق بار راشد، تابع للحق، ثم توفي الله أبا بكر، فقلت: أنا أولى الناس بأبي بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبضتها سنتين - أو قال سنتين من أمارتي - أعمل فيها مثل ما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، ثم قال: وأنتم - وأقبل على العباس وعلي - تزعمان أني فيها ظالم فاجر، والله يعلم أني فيها بار راشد، تابع للحق ثم جئتماني وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع، فجئتي - يعني العباس - تسألني نصيبك من ابن أخيك، وجاءني هذا - يعني علياً - يسألني نصيب امرأته من أبيها، فقلت لكما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث، ما تركناه صدقة"، فلما بدا لي أن أدفعها إليكما قلت: أدفعها علي أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وبما عملت به فيها، وإلا فلا تكلماني فقلتما: ادفعها إلينا بذلك، فدفعتها إليكما بذلك، أفنتلتمان مني قضاء غير ذلك! والله الذي تقوم بإذنه السموات والأرض لا أقضي بينكما بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فادفعاهما إلي فأنا أكفيكماها! قال أبو بكر: وحدثنا أبو زيد قال: حدثنا إسحاق بن إدريس، قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: حدثني يونس، عن الزهري قال: حدثني مالك بن أوس بن الحدثان بنحوه، قال فذكرت ذلك لعروة فقال: صدق مالك بن أوس، أنا سمعت عائشة تقول: أرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسأل لهن ميراثهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه حتى كنت أردهن عن ذلك، فقلت: ألا تتقين الله، ألم تعلمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "لا نورث، ما تركناه صدقة"، يريد بذلك نفسه، إنما يأكل آل محمد من هذا المال، فأنتهى أزواج النبي إلى ما أمرهن به.

قلت: هذا مشكل، لأن الحديث الأول يتضمن أن عمر أقسم على جماعة فيهم عثمان، فقال: نشدتكم الله، أليست تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث ما تركناه صدقة"، يعني نفسه! فقالوا: نعم، ومن جملتهم عثمان، فكيف يعلم بذلك فيكون مترسلاً لأزواج النبي: يسأله أن يعطيهم الميراث! اللهم إلا أن يكون عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير صدقوا عمر على سبيل التقليد لأبي بكر فيما رواه وحسن الظن، وسموا ذلك علماً، لأنه قد يطلق على الظن اسم العلم.

فإن قال قائل: فهلا حسن ظن عثمان برواية أبي بكر في مبدأ الأمر فلم يكن رسولاً لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم في طلب الميراث، قيل له: يجوز أن يكون في مبدأ الأمر شاكاً، ثم يغلب على ظنه صدقه لأمارات اقتضت تصديقه، وكل الناس يقع لهم مثل ذلك.

وهنا إشكال آخر، وهو أن عمر ناشد علياً والعباس: هل تعلمان ذلك؟ فقالا: نعم، فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العباس وفاطمة إلى أبي بكر يطلبان الميراث على ما ذكره في خبر سابق على هذا الخبر، وقد أوردناه نحن! وهل يجوز أن يقال: كان العباس يعلم ذلك ثم يطلب الإرث الذي لا يستحقه، وهل يجوز أن يقال: إن علياً كان يعلم ذلك ويمكن زوجته أن تطلب ما لا تستحقه، ما خرجت من دارها إلى المسجد، ونازعت أبا بكر، وكلمته بما كلمته إلا بقوله وإذنه ورأيه.

وأيضاً فإنه إذا كان صلى الله عليه وسلم لا يورث، فقد أشكل دفع آله ودابته وحذائه إلى علي رضي الله عنه، لأنه غير وارث في الأصل، وإن كان أعطاه ذلك لأن زوجته بعرضه أن ترث، لولا الخبر، فهو أيضاً غير جائز، لأن الخبر قد منع من أن يرث منه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً.

فإن قال قائل: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً.

قيل: هذا الكلام يفهم من مضمونه أنهم لا يورثون شيئاً أصلاً، لأن عادة العرب جارية بمثل ذلك، وليس يقصدون نفي ميراث هذه الأجناس المعدودة دون غيرها، بل يجعلون ذلك كالتصريح بنفي أن يورثوا شيئاً ما على الإطلاق. وأيضاً فإنه جاء في خبر الدابة والآلة والحذاء أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا نورث، ما تركناه صدقة"، ولم يقل لا نورث كذا ولا كذا وذلك يقتضي عموم انتفاء الإرث عن كل شيء.

و أما الخبر الثاني وهو الذي رواه هشام بن محمد الكلبي، عن أبيه، ففيه إشكال أيضاً، لأنه قال: إنها طلبت فذك، وقالت: إن أبي أعطانيها، وإن أم أيمن تشهد لي بذلك، فقال لها أبو بكر في الجواب: إن هذا المال لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين، يحمل به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلئلا أن يقول له: أيجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يملك ابنته أو غير ابنته من أفناء الناس ضيعةً مخصوصةً، أو عقاراً مخصوصاً من مال المسلمين، لوحى أوحى الله تعالى إليه، أو لاجتهاد رأيه على قول من أجاز له أن يحكم بالاجتهاد، أو لا يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فإن قال: لا يجوز، قال ما لا يوافقه العقل ولا المسلمون عليه، وإن قال: يجوز ذلك، قيل: فإن المرأة ما اقتصرت على الدعوى، بل قالت: أم أيمن تشهد لي، فكان ينبغي أن يقول لها في الجواب: شهادة أم أيمن وحدها غير مقبولة، ولم يتضمن هذا الخبر ذلك، بل قال لها لما ادعت وذكرت من يشهد لها: هذا مال من مال الله. لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس بجواب صحيح.

وأما الخبر الذي رواه محمد بن زكريا عن عائشة، ففيه من الأشكال مثل ما في هذا الخبر، لأنه إذا شهد لها علي رضي الله عنه وأم أيمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهب لها فذك، لم يصح اجتماع صدقها وصدق عبد الرحمن وعمر، ولا ما تكلفه أبو بكر من تأويل ذلك بمستقيم، لأن كونها هبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لها يمنع من قوله: كان يأخذ منها قوتكم ويقسم الباقي، ويحمل منه في سبيل الله، لأن هذا ينافي كونها هبة لها، لأن معنى كونها لها إنتقالها إلى ملكيتها، وأن تصرف فيها - خاصة دون كل أحد من الناس، وما هذه صفتها كيف يقسم ويحمل منه في سبيل الله! فإن قال قائل: هو أبوها، وحكمه في مالها كحكمه في ماله وفي بيت مال المسلمين، فلعله كان بحكم الأبوة يفعل ذلك! قيل: فإذا كان يتصرف فيها تصرف الأب في مال ولده، لا يخرج ذلك عن كونه مال ولده، فإذا مات الأب لم يجوز لأحد أن يتصرف في مال ذلك الولد، لأنه ليس بأب له فيتصرف في ماله تصرف الأباء في أموال أولادهم، على أن الفقهاء أو معظمهم لا يجيزون للأب أن يتصرف في مال الأبن.

وههنا إشكال آخر، وهو قول عمر لعلي رضي الله عنه والعباس: وأنتما حينئذ تزعمان أن أبا بكر فيها ظالم فاجر، ثم قال لما ذكر نفسه: وأنتما تزعمان أبي فيها ظالم فاجر، فإذا كانا يزعمان ذلك فكيف يزعم هذا الزعم مع كونهما يعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا أورث"! إن هذا لمن أعجب العجائب، ولولا أن هذا الحديث - أعني حديث

خصومة العباس وعلي عند عمر - مذكور في الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه، إذ لو كان غير مذكور في الصحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن في صحته، وإنما الحديث في الصحاح لا ريب في ذلك.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا ابن أبي شيبة، قال: حدثنا ابن عليه، عن أيوب عن عكرمة، عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: جاء العباس وعلي إلى عمر، فقال العباس: اقض بيني وبين هذا الكذا وكذا، أي يشتمه، فقال الناس: افصل بينهما، فقال لا أفصل بينهما، قد علما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث، ما تركناه صدقة".

قلت: وهذا أيضاً مشكل، لأنهما حضرا يتنازعا لا في الميراث، بل في ولاية صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيهما يتولاها ولاية لا إرثاً! وعلى هذا كانت الخصومة، فهل يكون جواب ذلك قد علما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث"! قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثني يحيى بن كثير أبو غسان قال: حدثنا شعبة عن عمر بن مرة، عن أبي البخري قال: جاء العباس وعلي إلى عمر وهما يختصمان، فقال عمر لطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد: أنشدكم الله، أسمعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل مال نبي فهو صدقة، إلا ما أطعمه أهله، إنا لا نورث"! فقالوا: نعم، قال: وكان رسول الله يتصدق به، ويقسم فضله، ثم توفي فوليه أبو بكر سنتين يصنع فيه ما كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنتم تقولون: إنه كان بذلك خاطئاً، وكان بذلك ظالماً، وما كان بذلك إلا راشداً، ثم وليته بعد أبي بكر فقلت لكما: إن شئتما قبلتماه على عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده الذي عهد فيه، فقلتما: نعم، وجئتماي الآن تحتصمان، يقول هذا: أريد نصيبي من ابن أخي، ويقول هذا: أريد نصيبي من امرأتي! والله لا أقضي بينكما إلا بذلك.

قلت: وهذا أيضاً مشكل، لأن أكثر الروايات أنه لم يرو هذا الخبر إلا أبو بكر وحده، ذكر ذلك أعظم المحدثين، حتى إن الفقهاء في أصول الفقه أطبقوا على ذلك في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابي الواحد. وقال شيخنا أبو علي: لا تقبل في الرواية إلا رواية اثنين كالشهادة، فخالفه المتكلمون والفقهاء كلهم، واحتجوا عليه بقبول الصحابة رواية أبي بكر وحده: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث"، حتى إن بعض أصحاب أبي علي تكلف لذلك جواباً، فقال: قد روي أن أبا بكر يوم حاج فاطمة رضي الله عنها قال: أنشد الله أمراً سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا شيئاً! فروى مالك بن أوس بن الحدثان، أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الحديث ينطق بأنه استشهد عمر وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعداً، فقالوا: سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأين كانت هذه الروايات أيام أبي بكر! ما نقل أن أحداً من هؤلاء يوم خصومة فاطمة رضي الله عنها! وأبي بكر روى من هذا شيئاً.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا محمد بن يحيى، عن إبراهيم بن أبي يحيى، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن عثمان إلى أبي بكر، فذكر الحديث، قال عروة: وكانت فاطمة قد سألت ميراثها من أبي بكر مما تركه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لها: بأبي أنت وأمي، وبأبي أبوك وأمي ونفسي، إن كنت سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، أو أمرك بشيء لم أتبع غير ما تقولين، وأعطيتك ما تبتغين، وإلا فإني أتبع ما أمرت به!

قال أبو بكر: وحدثنا أبو زيد قال: حدثنا عمرو بن مرزوق، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري قال: قال لها

أبو بكر لما طلبت فذك: بأبي أنت وأمي! أنت عندي الصادقة الأمانة، إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليك في ذلك عهداً، أو وعدك به وعداً، صدقتك، وسلمت إليك! فقالت: لم يعهد إلي في ذلك بشيء ولكن الله تعالى يقول: "يوصيكم الله في أولادكم"، فقال: أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن معاشر الأنبياء لا نورث".

قلت: وفي هذا من الأشكال ما هو ظاهر، لأنها قد ادعت أنه عهد إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك أعظم العهد، وهو النحلة، فكيف سككت عن ذكر هذا لما سأها أبو بكر! وهذا أعجب من العجب.

قال أبو بكر: وحدثنا أبو زيد: قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال: حدثنا عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز بن عبد الله الأنصاري عن ابن شهاب، عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: سمعت عمر وهو يقول للعباس وعلي وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة: أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنا لا نورث، معاشر الأنبياء، ما تركنا صدقة"، قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل في نفقة أهله السنة من صدقاته، ثم يجعل ما بقي في بيت المال! قالوا: اللهم نعم، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضها أبو بكر، فجئت يا عباس تطلب ميراثك من ابن أخيك، وجئت يا علي تطلب ميراث زوجتك من أبيها! وزعمتما أن أبا بكر كان فيها خائناً فاجراً، والله لقد كان أمراً مطيعاً، تابعاً للحق، ثم توفي أبو بكر فقبضتها، فجئتما تطلبان ميراثكما، أما أنت يا عباس فتطلب ميراثك من ابن أخيك، وأما علي فيطلب ميراث زوجته من أبيها، وزعمتما أني فيها خائن وفاجر، والله يعلم أني فيها مطيع تابع للحق، فأصلحنا أمركما، وألا والله لم ترجع إليكما. فقاما وتركنا الخصومة وأمضيت صدقة.

قال أبو زيد: قال أبو غسان: فحدثنا عبد الرزاق الصنعاني، عن معمر بن شهاب، عن مالك بنحوه، وقال في آخره: فغلب علي عباساً عليها، فكانت بيد علي، ثم كانت بيد الحسن، ثم كانت بيد الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم الحسن بن الحسن، ثم زيد بن الحسن.

قلت: وهذا الحديث يدل صريحاً على أنهما جاءا يطلبان الميراث لا الولاية، وهذا من المشكلات، لأن أبا بكر حسم المادة أولاً، وقرر عند العباس وعلي وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث، وكان عمر من المساعدين له على ذلك، فكيف يعود العباس وعلي بعد وفاة أبي بكر، يحاولان أمراً قد كان فرغ منه، ويتس من حصوله، اللهم إلا أن يكونا ظنا أن عمر ينقض قضاء أبي بكر في هذه المسألة، وهذا بعيد، لأن علياً والعباس كانا في هذه المسألة يتهمان عمر بممالة أبي بكر على ذلك ألا تراه يقول: نسبتماي ونسبتما أبا بكر إلى الظلم والخيانة، فكيف يظنان أنه ينقض قضاء أبي بكر ويورثهما! وأعلم أن الناس يظنون أن نزاع فاطمة أبا بكر كان في أمرين: في الميراث والنحلة، وقد وجدت في الحديث أنها نازعت في أمر ثالث، ومنعها أبو بكر إياه أيضاً. وهو سهم ذوي القربى.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري: أخبرني أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثني هارون بن عمير: قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثني صدقة أبو معاوية، عن محمد بن عبد الله، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن يزيد

الرقاشي، عن أنس بن مالك، أن فاطمة رضي الله عنها أتت أبا بكر فقالت: لقد علمت الذي ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات، وما أفاء الله علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوي القربى! ثم قرأت عليه قوله تعالى: "واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى"، فقال لها أبو بكر: بأي أنت وأمي ووالد ولدك! السمع والطاعة لكتاب الله ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحق قرابته، وأنا أقرأ من كتاب الله الذي تقرئين منه، ولم يبلغ علمي منه أن هذا السهم من الخمس يسلم إليكم كاملاً، قالت: أقل هو ولأقربائك، قال: لا، بل أنفق عليكم منه، وأصرف الباقي في مصالح المسلمين قالت: ليس هذا حكم الله تعالى، قال: هذا حكم الله، فإن كان رسول الله عهد إليك في هذا عهداً أو أوجبه لكم حقاً صدقتك وسلمته كله إليك وإلى أهلكت، قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعهد إلي في ذلك شيء، إلا أني سمعته يقول لما أنزلت هذه الآية: "أبشروا آل محمد فقد جاءكم الغنى"، قال أبو بكر: لم يبلغ علمي من هذه الآية أن أسلم إليكم هذا السهم كله كاملاً، ولكن لكم الغنى الذي يغنيكم، ويفضل عنكم، وهذا عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح فاسألهم عن ذلك، وانظري هل يوافقك على ما طلبت أحد منهم! فانصرفت إلى عمر فقالت له مثل ما قالت لأبي بكر، فقال لها مثل ما قاله لها أبو بكر، فعجبت فاطمة رضي الله عنها من ذلك، وظنت أنهما كانا قد تذاكرا ذلك واجتمعا عليه.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا هارون بن عمير، قال: حدثنا الوليد، عن ابن أبي لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، قال: أرادت فاطمة أبا بكر على فذك وسهم ذوي القربى، فأبى عليها، وجعلهما في مال الله تعالى.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، حدثنا أحمد بن معاوية، عن هيثم، عن جوير، عن أبي الضحاك عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن أبا بكر منع فاطمة وبني هاشم سهم ذوي القربى، وجعله في سبيل الله في السلاح والكراع.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا حيان بن هلال، عن محمد بن يزيد بن ذريع، عن محمد بن إسحاق، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي رضي الله عنهما، قلت: أرايت علياً حين ولي العراق وما ولي من أمر الناس كيف صنع في سهم ذوي القربى، قال: سلك بهم طريق أبي بكر وعمر، قلت: وكيف؟ ولم؟ وأنتم تقولون ما تقولون! قال: أما والله ما كان أهله يصدرون إلا عن رأيه، فصلى الله عليه وسلم: فما منعه، قال: كان يكره أن يدعى عليه مخالفة أبي بكر وعمر.

قال أبو بكر: وحدثني المؤمل بن جعفر، قال: حدثني محمد بن ميمون، عن داود بن المبارك، قال: أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن الحسن ونحن راجعون من الحج في جماعة، فسألناه عن مسائل، وكنت أحد من سألته، فسألته عن أبي بكر وعمر، فقال: سئل جدي عبد الله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة فقال: كانت أمي صديقة بنت نبي مرسل، فماتت وهي غضبي على إنسان، فنحن غضاب لغضبها، وإذا رضيت رضينا.

قال أبو بكر: وحدثني أبو جعفر محمد بن القاسم قال: حدثني علي بن الصباح قال: أنشدنا أبو الحسن رواية المفضل للكيميت:

أرضى بشتم أبي بكر ولاعمرأ

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا

ولا أقول وإن لم يعطيا فديكاً

بنت النبي ولا ميراثها: كفر

الله يعلم ماذا يحضران به

يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

قال ابن الصباح: فقال لي أبو الحسن: أتقول: إنه قد أكفرهما في هذا الشعر! قلت: نعم، قال: كذاك هو.

قال أبو بكر: حدثنا أبو زيد، عن هارون بن عمير، عن الوليد بن مسلم، عن إسماعيل بن عباس، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن مولى أم هانئ، قال: دخلت فاطمة على أبي بكر بعد ما استخلف، فسألته ميراثها من أبيها، فمنعها، فقالت له: لئن مت اليوم من كان يرثك، قال: ولدي وأهلي، قالت: فلم ورثت أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ولده وأهله، قال: فما فعلت يا بنت رسول الله! قالت: بلى، إنك عمدت إلى فديك، وكانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذتها، وعمدت إلى ما أنزل الله من السماء فرفعته عنا، فقال: يا بنت رسول الله، لم أفعل، حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يطعم النبي الطعمة ما كان حياً، فإذا قبضه الله إليه رفعت، فقالت: أنت ورسول الله أعلم، ما أنا بسائلتك بعد مجلسي. ثم انصرفت.

قال أبو بكر: وحدثنا محمد بن زكريا، قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن المهلي، عن عبد الله بن حماد بن سليمان، عن أبيه، عن عبد الله بن حسن بن حسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين رضي الله عنهما، قالت: لما اشتد بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوجع وثقلت في علتها، اجتمع عندها نساء من نساء المهاجرين والأنصار، فقلن لها: كيف أصبحت يا ابنة رسول الله، قالت: والله أصبحت عائفةً لديناكم، قاليةً لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشنتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحد وخور القناة، وخطل الرأي! وبئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، لا جرم! قد قلدتهم ربقتهم، وشتت عليهم غارتهم، فجدهاً وعقرأ، وسحقاً للقوم الظالمين! ويجهم! أين زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة، ومهبط الروح الأمين، والطيبين بأمر الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين! وما الذي نعموا من أبي حسن! نعموا والله نكير سيفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله، وتالله لوتكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعتقله، ولسار إليهم سيراً سجحاً، لا تكلم حشاشته، ولا يتعتع راكبه، ولأوردتهم منهلاً غيراً فضفاضاً يطفح ضفتاه، ولأصدرهم بطاناً قد تحير بهم الرأي، غير متحل بطائل، إلا بغمر الناهل، وردعه سورة الساعب، ولفتححت عليهم بركات من السماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون. ألا هلم فاستمع وما عشت أراك الدهر عجب، وإن تعجب فقد أعجبك الحادث، إلى أي لجأ استندوا، وبأي عروة تمسكوا! لبئس المولى ولبئس العشير، ولبئس للظالمين بدلاً! استبدلوا والله الذنابي بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، "ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون"، ويجهم! "أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون!" أما لعمر الله لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوها طلاع العقب دماً عبيطاً وذعاقاً ممرراً هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غب ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن أنفسهم نفساً، واطمئنوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيف صارم، وهرج شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم

حصيداً، فيا حسرةً عليكم، وأنى لكم وقد عميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون! والحمد لله رب العالمين،
وصلاته على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين. قلت: هذا الكلام وإن لم يكن فيه ذكر فذك والميراث، ألا أنه من تنمة
ذلك، وفيه أيضاً حلاًماً كان عندها، وبيان لشدة غيظها وغضبها، فإنه سيأتي فيما بعد ذكر ما يناقض به قاضي القضاة
والمرتضى في أنهما هل كانت غضي أم لا! ونحن لا ننصر مذهباً بعينه، وإنما نذكر ما قيل، وإذا جرى بحث نظري قلنا ما
يقوى في أنفسنا منه.

واعلم أنا إنما نذكر في هذا الفصل ما رواه رجال الحديث وثقاتهم، وما أودعه أحمد بن عبد العزيز الجوهرى في كتابه،
وهو من الثقات الأمناء عند أصحاب الحديث، وأما ما يرويه رجال الشيعة والأخباريون منهم في كتبهم من قولهم: إنهما
أهانها وأسمعها كلاماً غليظاً، وإن أبا بكر رق لها حيث لم يكن عمر حاضراً، فكتب لها بفدك كتاباً، فلما خرجت به
وجدتها عمر، فمد يده إليه ليأخذه مغالبة، فمنعته، فدفع بيده في صدرها وأخذ الصحيفة فخرقها بعد أن تفل فيها
فمحاها، وإنما دعت عليه فقالت: بقر الله بطنك كما بقرت صحيفتي، فشيء لا يرويه أصحاب الحديث ولا ينقلونه،
وقدر الصحابة يحل عنه، وكان عمر أتقى الله، وأعرف لحقوق الله من ذلك، وقد نظمت الشيعة بعض هذه الواقعة التي
يذكرونها شعراً أوله أبيات لمهيار بن مرزويه الشاعر من قصيدته التي أولها:

بالغ قتلي رضاك

يا ابنة القوم تراك

وقد ذيل عليها بعض الشيعة وأتمها، والأبيات:

رع بالظلم عصاك

يا ابنة الطاهر كم تق

ليلة الطف عراك

غضب الله لخطب

ورعى النار غداً قط رعى أمس حماك

ولا استحيا بكاك

مر لم يعطفه شكوى

د فأردى ولدك

واقترى الناس به بع

رة في لوح السكاك

يابنة الراقي إلى السد

لك فلتبك البواكي

لهف نفسي وعلى مث

إليك ابن صحاك

كيف لم تقطع يد مد

ك بما ساء أباك

فرحوا يوم أهانو

رضاه في رضاك

ولقد أخبرهم أن

تلك لما دفعاك

دفعاً النص على إر

تافه وانتهرأك

وتعرضت لقدر

فاستشاطا ثم ما إن

فزوى الله عن

ونفى عن بابه الوا

كذبا إن كذباك

الرحمة زنديقاً ذواك

سع شيطاناً نفاك

فانظر إلى هذه البلية التي صبت من هؤلاء على سادات المسلمين، وأعلام المهاجرين! وليس ذلك بقادح في علو شأنهم، وجلالة مكانهم، كما أن مبغضي الأنبياء وحسدتهم، ومصنفي الكتب في إلحاق العيب والتهجين لشرائعهم لم تزد لأنبيائهم إلا رفعة، ولا زادت شرائعهم إلا انتشاراً في الأرض، وقبولاً في النفس، وبهجة ونوراً عند ذوي الألباب والعقول.

وقال لي علوي في الحلة يعرف بعلي بن مهنا، ذكي ذو فضائل: ما تظن قصد أبي بكر وعمر بمنع فاطمة فدك؟ قلت: ما قصد؟ قال: أراد ألا يظهرها لعلي - وقد اغتصباه الخلافة - رقةً وليناً وخذلاناً ولا يرى عندهما خوراً، فأتبعها القرح بالقرح. وقلت لمتكلم من متكلمي الأمامية يعرف بعلي بن تقي من بلدة النيل: وهل كانت فدك إلا نخلاً يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير! فقال لي: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليلاً جداً، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها لأ لا يتقوى علي بحاصلها وغلتها على المنازعة في الخلافة، ولهذا أتبعها ذلك بمنع فاطمة وعلي وسائر بني هاشم وبني المطلب حقهم في الخمس، فإن الفقير الذي لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه، ويكون مشغولاً بالأحتراس والأكساب عن طلب الملك والرياسة، فانظر إلى ما قد وقر في صدور هؤلاء، وهو داء لا دواء له، وما أكثر ما تزول الأخلاق والشيم، فأما العقائد الراسخة فلا سبيل إلى زوالها! الفصل الثاني في النظر في أن النبي صلى الله عليه وسلم هل يورث أم لا.

نذكر في هذا الموضع ما حكاه المرتضى رحمه الله في الشافي عن قاضي القضاة في هذا المعنى، وما اعترضه به، وإن استضعفنا شيئاً من ذلك قلنا ما عندنا، وإلا تركناه على حاله.

قال المرتضى: أول ما ابتدأ به قاضي القضاة حكايته عنا استدلالنا على أنه صلى الله عليه وسلم مورث بقوله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين" وهذا الخطاب عام يدخل فيه النبي وغيره.

ثم أجاب - يعني قاضي القضاة - عن ذلك، فقال: إن الخبر الذي احتج به أبو بكر - يعني بقوله: "نحن معاصر الأنبياء لا نورث" - لم يقتصر على روايته هو وحده حتى استشهد عليه عمر وعثمان وطلحة والزبير وسعداً وعبد الرحمن، فشهدوا به، فكان لا يحل لأبي بكر وقد صار الأمر إليه أن يقسم التركة ميراثاً، وقد خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها صدقة وليست بميراث، وأقل ما في هذا الباب أن يكون الخبر من أخبار الآحاد، فلو أن شاهدين شهدا التركة أن فيها حقاً، أليس كان يجب أن يصرف ذلك عن الإرث! فعلمه مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شهادة غيره أقوى. ولسنا نجعله مدعياً لأنه لم يدع ذلك لنفسه، وإنما بين أنه ليس بميراث، وأنه صدقة، ولا يمتنع تخصيص القرآن بذلك، كما

يخص في العبد والقاتل وغيرهما، وليس ذلك بنقص في الأنبياء، بل هو إجلال لهم، يرفع الله به قدرهم عن أن يورثوا المال، وصار ذلك من أوكد الدواعي ألا يتشاغلوا بجمعه، لأن أحد الدواعي القوية إلى ذلك تركه على الأولاد والأهلين. ولما سمعت فاطمة رضي الله عنها ذلك من أبي بكر كفت عن الطلب فيما ثبت من الأخبار الصحيحة، فلا يمتنع أن تكون غير عارفة بذلك، فطلبت الإرث، فلما روى لها ما روى كفت. فأصاب أولاً وأصاب ثانياً.

وليس لأحد أن يقول: كيف يجوز أن يبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك للقوم ولا حق لهم بالإرث، ويدع أن يبين ذلك لمن له حق في الإرث، مع أن التكليف يتصل به، وذلك لأن التكليف في ذلك يتعلق بالإمام، فإذا بين له جاز ألا يبين لغيره ويصير البيان له بياناً لغيره، وإن لم يسمعه من الرسول، لأن هذا الجنس من البيان يجب أن يكون بحسب المصلحة! قال: ثم حكى عن أبي علي أنه قال: أتعلمون كذب أبي بكر في هذه الرواية، أم تجوزون أن يكون صادقاً، قال: وقد علم أنه لا شيء يقطع به على كذبه، فلا بد من تجويز كونه صادقاً. وإذا صح ذلك قيل لهم: فهل كان يحل له مخالفة الرسول، فإن قالوا: لو كان صدقاً لظهر واشتهر قيل لهم: إن ذلك من باب العمل، ولا يمتنع أن ينفرد بروايته جماعة يسيرة، بل الواحد واثنتان، مثل سائر الأحكام ومثل الشهادات، فإن قالوا نعم أنه لا يصح لقوله تعالى في كتابه: "وورث سليمان داود". قيل لهم: ومن أين أنه ورثه الأموال، مع تجويز أن يكون ورثه العلم والحكمة؟ فإن قالوا: إطلاق الميراث لا يكون إلا في الأموال، قيل لهم: إن كتاب الله يبطل قولكم، لأنه قال: "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا"، والكتاب ليس بمال، ويقال في اللغة: ما ورثت الأبناء عن الأباء شيئاً أفضل من أدب حسن، وقالوا: العلماء ورثة الأنبياء، وإنما ورثوا منهم العلم دون المال، على أن في آخر الآية ما يدل على ما قلناه، وهو قوله تعالى حاكياً عنه: "وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين"، فبه على أن الذي ورث هو هذا العلم وهذا الفضل، و إلا لم يكن لهذا القول تعلق بالأول. فإن قالوا: فقد قال تعالى: "فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب"، وذلك يبطل الخبر! قيل لهم: ليس في ذلك بيان المال أيضاً، وفي الآية ما يدل على أن المراد النبوة والعلم، لأن زكريا خاف على العلم أن يندرس، وقوله: "وإني خفت الموالي من ورائي" يدل على ذلك، لأن الأنبياء لا تحرص على الأموال حرصاً يتعلق خوفها بها، وإنما أراد خوفه على العلم أن يضيع، فسأل الله تعالى ولياً يقوم بالدين مقامه. وقوله: "ويرث من آل يعقوب" يدل على أن المراد العلم والحكمة، لأنه لا يرث أموال يعقوب في الحقيقة، وإنما يرث ذلك غيره. قال: فأما من يقول: إن المراد: إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة، أي ما جعلناه صدقة في حال حياتنا لا نورثه، فركبك من القول، لأن إجماع الصحابة يخالفه، لأن أحداً لم يتأوله على هذا الوجه، لأنه لا يكون في ذلك تخصيص الأنبياء، ولا مزية لهم، ولأن قوله: ما تركناه صدقة، جملة من الكلام مستقلة بنفسها، كأنه عليه السلام مع بيانه أنهم لا يورثون المال، يبين أنه صدقة، لأنه كان يجوز ألا يكون ميراثاً، ويصرف إلى وجه آخر غير الصدقة.

قال: فأما خبر السيف والبغلة والعمامة وغير ذلك، فقد قال أبو علي: إنه لم يثبت أن أبا بكر دفع ذلك إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه على جهة الإرث، كيف يجوز ذلك مع الخبر الذي رواه، وكيف يجوز لو كان وارثاً أن يخصه بذلك ولا يرث له مع العم لأنه عسبة! فإن كان وصل إلى فاطمة رضي الله عنها فقد كان ينبغي أن يكون العباس شريكاً في ذلك

وأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم، ولوجب أن يكون ذلك ظاهراً مشهوراً ليعرف أنهم أخذوا نصيبهم من ذلك أو بدله، ولا يجب إذا لم يدفع أبو بكر ذلك إليه على جهة الإرث ألا يحصل ذلك في يده، لأنه قد يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم نخله ذلك، ويجوز أيضاً أن يكون أبو بكر رأى الصلاح في ذلك أن يكون بيده لما فيه من تقوية الدين، وتصديق بدله بعد التقويم، لأن الأمام له أن يفعل ذلك.

وقال: وحكى عن أبي علي في البرد والقضيب أنه لم يمتنع أن يكون جعله عدة في سبيل الله وتقوية على المشركين، فتداولته الأئمة لما فيه من التقوية، ورأى أن ذلك أولى من أن يتصدق به إن ثبت أنه رضي الله عنه لم يكن قد نخله غيره في حياته، ثم عارض نفسه بطلب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم الميراث، وتنازع أمير المؤمنين رضي الله عنه والعباس بعد موت فاطمة رضي الله عنها وأجاب عن ذلك بأن قال: يجوز أن يكونوا لم يعرفوا رواية أبي بكر وغيره للخبر. وقد روي أن عائشة لما عرفت خبر الخبر أمسكن، وقد بينا أنه لا يمتنع في مثل ذلك أن يخفى على من يستحق الإرث، ويعرفه من يتقلد الأمر، كما يعرف العلماء والحكام من أحكام الموارث ما لا يعلمه أرباب الإرث، وقد بينا أن رواية أبي بكر مع الجماعة أقوى من شاهدين لو شهد أن بعض تركته رضي الله عنه دين، وهو أقوى من رواية سلمان وابن مسعود لو روي ذلك.

قال: ومتى تعلقوا بعموم القرآن أريناهم جواز التخصيص بهذا الخبر، كما أن عموم القرآن يقتضي كون الصدقات للفقراء، وقد ثبت أن آل محمد لا تحل لهم الصدقة.

هذا آخر ما حكاه المرتضى من كلام قاضي القضاة.

ثم قال: نحن نبين أولاً ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم يورث المال، ونرتب الكلام في ذلك الترتيب الصحيح، ثم نعطف على ما أورده، ونتكلم عليه.

قال رضي الله عنه: والذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى مخبراً عن زكريا رضي الله عنه: "وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب وأجعلته رب رضيعاً"، فخير أنه خاف من بني عمه، لأن الموالي ههنا هم بنو العم بلا شبهة، وإنما خافهم أن يرثوا ماله فينفقوه في الفساد لأنه كان يعرف ذلك من خلائقهم وطرائقهم، فسأل ربه ولداً يكون أحق بميراثه منهم. والذي يدل على أن المراد بالميراث المذكور ميراث المال دون العلم والنبوة على ما يقولون أن لفظة الميراث في اللغة والشرعة لا يفيد إطلاقها إلا على ما يجوز أن ينتقل على الحقيقة من الموروث إلى الوارث، كالأموال وما في معناها، ولا يستعمل في غير المال إلا تجوزاً واتساعاً، ولهذا لا يفهم من قول القائل: لا وارث لفلان إلا فلان، وفلان يرث مع فلان بالظاهر والإطلاق إلا ميراث الأموال والأعراض دون العلوم وغيرها. وليس لنا أن نعدل عن ظاهر الكلام وحقيقته إلى مجازه بغير دلالة. وأيضاً فإنه تعالى خبر عن نبيه أنه اشترط في وارثه أن يكون رضيعاً، ومتى لم يحمل الميراث في الآية على المال دون العلم والنبوة لم يكن للأشترط معنى، وكان لغواً وعيباً، لأنه إذا كان إنما سأل من يقوم مقامه، ويرث مكانه فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا في جملة كلامه وسؤاله، فلا مقتضى لاشتراطه، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول: اللهم ابعث إلينا نبياً واجعله عاقلاً، ومكلفاً، فإذا ثبتت هذه الجملة صح أن زكريا موروث ماله، وصح أيضاً لصحتها أن نبينا صلى الله عليه وسلم ممن يورث المال، لأن الإجماع

واقع على أن حال نبينا صلى الله عليه وسلم لا يخالف حال الأنبياء المتقدمين في ميراث المال، فمن مثبت للأمرين وناف للأمرين.

قلت: إن شيخنا أبا الحسين قال في كتاب الغرر: صورة الخبر الوارد في هذا الباب، وهو الذي رواه أبو بكر: "لا نورث"، ولم يقل: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث"، فلا يلزم من كون زكريا يورث الطعن في الخبر، وتصفحنا أنا كتب الصحاح في الحديث فوجدت صيغة الخبر كما قاله أبو الحسين، وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عني نفسه خاصة لذلك، فقد سقط احتجاج الشيعة بقصة زكريا وغيره من الأنبياء، إلا أنه يبعد عندي أن يكون أراد نفسه خاصة، لأنه لم تجر عاداته أن يخبر عن نفسه في شيء بالنون.

فإن قلت: أيصح. من المرتضى أن يوافق على أن صورة الخبر هكذا، ثم يحتج بقصة زكريا بأن يقول: إذا ثبت أن زكريا موروث، ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجوز أن يكون موروثاً، لإجماع الأمة على أن لا فرق بين الأنبياء كلهم في هذا الحكم! قلت: وإن ثبت له هذا الإجماع صح احتجاجه، ولكن ثبوته يبعد، لأن من نفى كون زكريا رضي الله عنه موروثاً من الأمة إنما نفاه لاعتقاده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نحن معاشر الأنبياء"، فإذا كان لم يقل هكذا، لم يقل: إن زكريا عليه السلام غير موروث.

قال المرتضى: ومما يقوي ما قدمناه أن زكريا عليه السلام خاف بني عمه، فطلب وارثاً لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون العلم والنبوة، لأنه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبياً ليس بأهل للنبوة، وأن يورث علمه وحكمه من ليس أهلاً لهما، ولأنه إنما بعث لإذاعة العلم ونشره في الناس، فلا يجوز أن يخاف من الأمر الذي هو الغرض في البعثة. فإن قيل: هذا يرجع عليكم في الخوف عن إرث المال لأن ذلك غاية الضن والبخل. قلنا: معاذ الله أن يستوي الحال، لأن المال قد يصح أن يرزقه الله تعالى المؤمن والكافر والعدو والولي، ولا يصح ذلك في النبوة وعلومها. وليس من الضن أن يأسى على بني عمه - وهم من أهل الفساد - أن يظفروا بماله فينفقوه على المعاصي، ويصرفوه في غير وجوهه المحبوبة، بل ذلك غاية الحكمة وحسن التدبير في الدين، لأن الدين يحظر تقوية الفساد وإمدادهم بما يعينهم على طرائقهم المذمومة، وما يعد ذلك شحاً ولا بخلاً إلا من لا تأمل له.

فإن قيل: أفلا جاز أن يكون خاف من بني عمه أن يرثوا علمه، وهم من أهل الفساد على ما ادعيتهم فيستفسدوا به الناس، ويموهوا به عليهم، قلنا: لا يخلو هذا العلم الذي أشرتم إليه من أن يكون هو كتب علمه وصحف حكمته لأن ذلك قد يسمى علماً على طريق المجاز، أو يكون هو العلم الذي يحل القلب. فإن كان الأول فهو يرجع إلى معنى المال، ويصحح أن الأنبياء يورثون أموالهم وما في معناها، وإن كان الثاني لم يخل هذا من أن يكون هو العلم الذي بعث النبي لنشره وأدائه، أو أن يكون علماً مخصوصاً لا يتعلق بالشرعية، ولا يجب إطلاع جميع الأمة عليه، كعلم العواقب وما يجري في مستقبل الأوقات، وما جرى مجرى ذلك. والقسم الأول لا يجوز على النبي أن يخاف من وصوله إلى بني عمه وهم من جملة أمته الذين بعث لإطلاعهم على ذلك، وتأديته إليهم، وكأنه على هذا الوجه يخاف مما هو الغرض من بعثته. والقسم الثاني فاسد أيضاً، لأن هذا العلم المخصوص إنما يستفاد من جهته، ويوقف عليه بإطلاعه وإعلامه، وليس هو مما يجب

نشره في جميع الناس، فقد كان يجب إذا خاف من إلقائه إلى بعض الناس فساداً ألا يلقيه إليه، فإن ذلك في يده، ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك.

قلت: لعاكس أن يعكس هذا على المرتضى رحمه الله حينئذ، ويقول له: وقد كان يجب إذا خاف من أن يرث بنو عمه أمواله فينفقوها في الفساد أن يتصدق بها على الفقراء والمساكين، فإن ذلك في يده، فيحصل له ثواب الصدقة، ويحصل له غرضه من حرمان أولئك المفسدين ميراثه.

قال المرتضى رضي الله عنه: ومما يدل على أن الأنبياء يورثون قوله تعالى: "وورث سليمان داود"، والظاهر من إطلاق لفظة الميراث! يقتضي الأموال وما في معناها على ما دللنا به من قبل.

قال: ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين"، وقد أجمعت الأمة على عموم هذه اللفظة إلا من أخرجه الدليل، فيجب أن يتمسك بعمومها، لمكان هذه الدلالة، ولا يخرج عن حكمها إلا من أخرجه دليل قاطع.

قلت: أما قوله تعالى: "وورث سليمان داود"، فظاهرها يقتضي وراثة النبوة أو الملك أو العلم الذي قال في أول الآية: "ولقد أتينا داود وسليمان علماً!" لأنه لا معنى لذكر ميراث سليمان المال، فإن غيره من أولاد داود قد ورث أيضاً أباه داود، وفي كتب اليهود والنصارى أن بني داود كانوا تسعة عشر، وقد قال بعض المسلمين أيضاً ذلك، فأبي معنى في تخصيص سليمان بالذكر إذا كان إرث المال! وأما "يوصيكم الله في أولادكم"، فالبحت في تخصيص ذلك بالخبر فرع من فروع مسألة خبر الواحد، هل هو حجة في الشرعيات أم لا! فإن ثبت مذهب المرتضى في كونه ليس بحجة فكلامه هنا جيد، وإن لم يثبت فلا مانع من تخصيص العموم بالخبر، فإن الصحابة قد خصصت عمومات الكتاب بالأخبار في مواضع كثيرة.

قال المرتضى: وأما تعلق صاحب الكتاب بالخبر الذي رواه أبو بكر وادعاؤه أنه استشهد عمر وعثمان وفلاناً وفلاناً، فأول ما فيه أن الذي ادعاه من الاستشهاد غير معروف، والذي روي أن عمر استشهد هؤلاء نفر لما تنازع أمير المؤمنين رضي الله عنه والعباس رضي الله عنه في الميراث، فشهدوا بالخبر المتضمن لنفي الميراث، وإنما مقول مخالفينا في صحة الخبر الذي رواه أبو بكر عند مطالبة فاطمة رضي الله عنها بالإرث على إمساك الأمة عن النكير عليه، والرد لقضيته.

قلت: صدق المرتضى رحمه الله فيما قال، أما عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومطالبة فاطمة رضي الله عنها بالإرث، فلم يرو الخبر إلا أبو بكر وحده. وقيل: إنه رواه معه مالك بن أوس بن الحدثان، وأما المهاجرون الذين ذكرهم قاضي القضاة فإنما شهدوا بالخبر في خلافة عمر، وقد تقدم ذكر ذلك.

قال المرتضى: ثم لو سلمنا استشهاد من ذكر على الخبر لم يكن فيه حجة، لأن الخبر على كل حال لا يخرج من أن يكون غير موجب للعلم، وهو في حكم أخبار الآحاد، وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجري هذا الجرى، لأن المعلوم لا يخص إلا بمعلوم، إذا كانت دلالة الظاهر معلومة، لم يجوز أن يخرج عنها بأمر مظنون.

قال: وهذا الكلام مبني على أن التخصيص للكتاب والسنة المقطوع بها لا يقع بأخبار الآحاد، وهو المذهب الصحيح.

وقد أشرنا إلى ما يمكن أن يعتمد في الدلالة عليه من أن الظن لا يقابل العلم، ولا يرجع عن المعلوم بالظنون. قال: وليس لهم أن يقولوا: إن التخصيص بأخبار الآحاد يستند أيضاً إلى علم، وإن كان الطريق مظنوناً، ويشيرون إلى ما يدعونه من الدلالة على وجوب العمل بخبر الواحد في الشريعة، وأنه حجة، لأن ذلك مبني من قولهم على ما لا نسلمه، وقد دل الدليل على فساده - أعني قولهم: خبر الواحد حجة في الشرع - على أنهم لو سلم لهم ذلك لاحتاجوا إلى دليل مستأنف على أنه يقبل في تخصيص القرآن، لأن ما دل على العمل به في الجملة لا يتناول هذا الموضع، كما لا يتناول جواز النسخ به.

قلت: أما قول المرتضى: لو سلمنا أن هؤلاء المهاجرين الستة روه لما خرج عن كونه خبراً واحداً، ولما جاز أن يرجع عن عموم الكتاب به، لأنه معلوم، والخبر مظنون.

ولقائل أن يقول: ليته حصل في كل واحد من آيات القرآن رواية مثل هذه الستة، حيث جمع القرآن على عهد عثمان ومن قبله من الخلفاء، فإنهم بدون هذا العدد كانوا يعملون في إثبات الآية في المصحف، بل كانوا يحلفون من أتاها بالآية. ومن نظر في كتب التواريخ عرف ذلك، فإن كان هذا العدد إنما يفيد الظن فالقول في آيات الكتاب كذلك وإن كانت آيات الكتاب أثبتت عن علم مستفاد من رواية هذا العدد ونحوه، فالخبر مثل ذلك.

فأما مذهب المرتضى في خبر الواحد فإنه قول انفرد به عن سائر الشيعة، لأن من قبله من فقهاء ما عولوا في الفقه إلا على إخبار الآحاد كزرارة، ويونس، وأبي بصير، وأبي بابويه، والحلي، وأبي جعفر القمي وغيرهم، ثم من كان في عصر المرتضى منهم كأبي جعفر الطوسي وغيره، وقد تكلمت في اعتبار الذريعة على ما اعتمد عليه في هذه المسألة، وأما تخصيص الكتاب بخبر الواحد فالظاهر أنه إذا صح كون خبر الواحد حجة في الشرع، جاز تخصيص الكتاب به، وهذا من فن أصول الفقه، فلا معنى لذكره هنا.

قال المرتضى رضي الله عنه: وهذا يسقط قول صاحب الكتاب: إن شاهدين لو شهدا أن في التركة حقاً لكان يجب أن ينصرف عن الإرث، وذلك لأن الشهادة وإن كانت مظنونة فالعمل بها يستند إلى علم، لأن الشريعة قد قررت العمل بالشهادة ولم تقرر العمل بخبر الواحد، وليس له أن يقيس خبر الواحد على الشهادة من حيث اجتماعهما في غلبة الظن، لأنها لا تعمل على الشهادة من حيث غلبة الظن دون ما ذكرناه من تقرير الشريعة العمل بها، ألا ترى أنا قد نظن بصدق الفاسق والمرأة والصبي وكثير ممن لا يجوز العمل بقوله! فبان أن المعول في هذا على المصلحة التي نستفيدها على طريق الجملة من دليل الشرع.

قال: وأبو بكر في حكم المدعي لنفسه والجار إليها بخلاف ما ظنه صاحب الكتاب، وكذلك من شهد له إن كانت هناك شهادة، وذلك أن أبا بكر وسائر المسلمين سوى أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم يحل لهم الصدقة، ويجوز أن يصيبوا فيها، وهذه قسمة في الحكم والشهادة.

قال: وليس له أن يقول: فهذا يقتضي ألا يقبل شهادة شاهدين في تركة فيها صدقة لمثل ما ذكرتم.

قال: وذلك لأن الشاهدين إذا شهدا في الصدقة فحظهما منها كحظ صاحب الميراث بل سائر المسلمين، وليس كذلك

حال تركه الرسول، لأن كونها صدقة يجرمها على ورثته، ويبيحها لسائر المسلمين.

قلت: هذا فرق غير مؤثر، اللهم إلا أن يعني به تهمة أبي بكر والشهود الستة في جر النفع إلى أنفسهم يكون أكثر من تهمتهم لو شهدوا على أبي هريرة مثلاً أن ما تركه صدقة، لأن أهل أبي هريرة يشاركون في القسمة، وأهل النبي صلى الله عليه وسلم لا يشاركون الشهود فيما يصيبهم، إذ هم لا تحمل لهم الصدقة، فتكون حصة أبي بكر والشهود مما تركه رسول الله أكثر من حصتهم مما يتركه أبو هريرة، فيكون تطرق التهمة إلى أبي بكر والشهود أكثر حسب زيادة حصتهم، وما وقفت للمرتضى على شيء أطرف من هذا، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات والمسلمون أكثر من خمسين ألف إنسان، لأنه قاد في غزوة تبوك عشرين ألفاً، ثم وفدت إليه الوفود كلها بعد ذلك، فليت شعري كم مقدار ما يتوفر على أبي بكر وستة نفر معه، وهم من جملة خمسين ألفاً، بين ما إذا كان بنو هاشم وبنو المطلب - وهم حينئذ عشرة نفر - لا يأخذون حصة، وبين ما إذا كانوا يأخذون! أترى أيكون المتوفر على أبي بكر وشهوده من التركة عشر عشر درهم! ما أظن أنه يبلغ ذلك. وكم مقدار ما يقلل حصص الشهود على أبي هريرة إذا شركهم أهلها في التركة، لتكون هذه القلة موجبة رفع التهمة، وتلك الزيادة والكثرة موجبة حصول التهمة! وهذا الكلام لا أرتضيه للمرتضى.

قال المرتضى رضي الله عنه: وأما قوله: يخص القرآن بالخبر كما خصصناه في العبد والقاتل، فليس بشيء، لأننا إنما خصصنا من ذكر بدليل مقطوع عليه معلوم، وليس هذا موجوداً في الخبر الذي ادعاه. فأما قوله: وليس ذلك ينقص الأنبياء، بل هو إجلال لهم، فمن الذي قال له: إن فيه نقصاً! وكما أنه لا نقص فيه، فلا إجلال فيه ولا فضيلة، لأن الداعي وإن يكن قد يقوي على جمع المال ليخلف على الورثة، فقد يقويه أيضاً إرادة صرفه في وجوه الخير والبر، وكلا الأمرين يكون داعياً إلى تحصيل المال، بل الداعي الذي ذكرناه أقوى فيما يتعلق بالدين.

قال: وأما قوله: إن فاطمة لما سمعت ذلك كفت عن الطلب، فأصابته أولاً وأصابته ثانياً، فلعمري إنها كفت عن المنازعة والمشاحة، لكنها انصرفت مغضبة متظلمة متألمة، والأمر في غضبها وسخطها أظهر من أن يخفى على منصف، فقد روى أكثر الرواة الذين لا يهتمون بتشجيع ولا عصبية فيه من كلامها في تلك الحال، وبعد انصرافها عن مقام المنازعة والمطالبة، ما يدل على ما ذكرناه من سخطها وغضبها.

أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني قال: حدثني محمد بن أحمد الكاتب، قال: حدثنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي، قال: حدثني الزياتي، قال: حدثنا الشرقي بن القطامي، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثنا صالح بن كيسان، عن عروة، عن عائشة، قالت: لما بلغ فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فذلك لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلابها، وأقبلت في لمة من حفدها.

قال المرتضى: وأخبرنا المرزباني قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد المكي قال: حدثنا أبو العيلاء بن القاسم اليماني قال: حدثنا ابن عائشة، قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبلت فاطمة إلى أبي بكر في لمة من حفدها. ثم اجتمعت الروايتان من ههنا.. ونساء قومها تطأ ذيولها ما تحرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، ثم أنت أنه أجهش لها القوم بالبكاء، وارتج المجلس، ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورهم، افتتحت كلامها بالحمد لله عز وجل والثناء عليه،

والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قالت: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم"، فإن تعزوه تجذوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة، مائلاً عن سنن المشركين، ضارباً ثبجهم، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، آخذاً بأكظام المشركين، يهشم الأصنام، ويفلق الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، وحتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقائق الشياطين، وتمت كلمة الإخلاص، وكنتم على شفا حفرة من النار، نخرة الطامع، ومذقة الشارب. وقبسة العجلان، وموطأ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أذلة خاسئين، يختطفكم الناس من حولكم، حتى أنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني بهم الرجال وذوiban العرب ومردة أهل الكتاب، و "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله"، أو نجم قرن الشيطان، أو فغرت فاغرة قذف أخاه في لهواتها. ولا ينكفي حتى يطاء صماخها بإخمصه ويطفىء عادية لهبها بسيفه - أو قالت: يحمد لهبها بجده - مكوداً في ذات الله، وأنتم في رفاهية فكهون آمنون وادعون.

إلى هنا انتهى خبر أبي العيناء عن أبي عائشة. وأما عروة عن عائشة، فزاد بعد هذا: حتى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ظهرت حسيكة النفاق، وشمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الأفكين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم. وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم، فدعاكم ألفاكم لدعوته مستجيين، ولقربه متلاحظين. ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم ألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب والجرح لما يندمل، إنما زعمتم ذلك خوف الفتنة، "ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين"، فهيهات! وأن بكم وأن تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، زواجه بينة، وشواهد لائحة، وأوامره واضحة. أرغبة عنه تريدون، أم لغيره تحكمون، بئس للظالمين بدلاً! ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها، تسرون حسواً في ارتغاء، ونحن نصبر منكم على مثل حز المدى، وأنتم الآن ترعمون أن لا إرث لنا، "أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون". يابن أبي قحافة، أترث أباك ولا أترث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً! فدونها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشر، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعود القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون! ثم انكفأت إلى قبر أبيها صلى الله عليه وسلم، فقالت:

لو كنت شاهداً لم تكثر الخطب

قد كان بعدك أنباء وهنبئة

واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

إذا فقدناك فقد الأرض وابلها

وروى حرمي بن أبي العلاء مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً:

لما قضيت وحالت دونك الكتب

فليت بعدك كان الموت صادفنا

قال: فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال: يا خير النساء، وابنة خير الأباء، والله ما عدوت رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عملت إلا بإذنه، وإن الرائد لا يكذب أهله، وإني أشهد الله وكفى بالله شهيداً، أبي سمعت رسول الله يقول، "إننا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً، ولا فضةً ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورث

قال: فلما وصل الأمر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلم في رد فذك، فقال: إني لأستحيي من الله أن أرد شيئاً منع منه أبو بكر و أمضاه عمر.

قال المرتضى: وأخبرنا أبو عبد الله المرزباني: قال: حدثني علي بن هارون، قال: أخبرني عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر، عن أبيه قال: ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلام فاطمة رضي الله عنها عند منع أبي بكر إياها فذك، وقلت له: إن هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء، لأن الكلام منسوق البلاغة، فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أولادهم، وقد حدثني به أبي عن جدي يبلغ به فاطمة رضي الله عنها على هذه الحكاية، وقد رواه مشايخ الشيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جد أبي العيناء، وقد حدث الحسين بن علوان، عن عطية العوفي، أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر عن أبيه هذا الكلام. ثم قال أبو الحسن زيد: وكيف تنكرون هذا من كلام فاطمة رضي الله عنها، وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة رضي الله عنها ويحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ثم ذكر الحديث بطوله على نسقه، وزاد في الأبيات بعد البيتين الأولين:

وسيم سبطاك خسفاً فيه لي نصب

ضاققت علي بلادي بعدما رحبت

قوم تمنوا فأعطوا كل ماطلبوا

فليت قبلك كان الموت صادفنا

مذ غبت عنا وكل الإرث قد غصبوا

تجهمتنا رجال واستخف بنا

قال: فما رأينا يوماً أكثر باكيةً أو باكيةً من ذلك اليوم.

قال المرتضى: وقد روي هذا الكلام على هذا الوجه من طرق مختلفة، ووجوه كثيرة، فمن أرادها أخذها من مواضعها، فكيف يدعي أنها رضي الله عنها كفت راضية، وأمسكت قانعة، لولا البهت وقلة الحياء! قلت: ليس في هذا الخبر ما يدل على فساد ما ادعاه قاضي القضاة، لأنه ادعى أنها نازعت وخاصمت ثم كفت لما سمعت الرواية وانصرفت، تاركةً للتراع، راضيةً بموجب الخبر المروي. وما ذكره المرتضى من هذا الكلام لا يدل إلا على سخطها حال حضورها، ولا يدل على أنها بعد رواية الخبر وبعد أن أقسم لها أبو بكر بالله تعالى أنه ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما سمعه منه، انصرفت ساخطة، ولا في الحديث المذكور والكلام المروي ما يدل على ذلك، ولست أعتقد أنها انصرفت راضية كما قال قاضي القضاة، بل أعلم أنها انصرفت ساخطة، وماتت وهي على أبي بكر واجدة، ولكن لا من هذا الخبر، بل من أخبار آخر، كان الأولى بالمرتضى أن يحتج بها على ما يرويه في انصرافها ساخطة، وموتها على ذلك السخط، وأما هذا الخبر وهذا الكلام فلا يدل على هذا المطلوب.

قال المرتضى رحمه الله: فأما قوله: إنه يجوز أن يبين عليه السلام أنه لا حق لميراثه في ورثته لغير الورثة، ولا يمتنع أن يرد من جهة الآحاد، لأنه من باب العمل، وكل هذا بناء منه على أصوله الفاسدة في أن خبر الواحد حجة في الشرع، وأن

العمل به واجب، ودون صحة ذلك خطر القتاد، وإنما يجوز أن يبين من جهة أخرى إذا تساوى في الحجة ووقوع العمل، فأما مع تباينهما فلا يجوز التخيير فيهما، وإذا كان ورثة النبي صلى الله عليه وسلم متعبدین بألا يرثوه، فلا بد من إزاحة علتهم في هذه العبادة بأن يوقفهم على الحكم، ويشافهم به، ويلقيه إلى من يقيم الحجة عليهم بنقله، وكل ذلك لم يكن. فأما قوله: أتجوزون صدقه في الرواية أم لا تجوزون ذلك، فالجواب إنا لا نجوز، لأن كتاب الله أصدق منه، وهو يدفع روايته ويطلبها، فأما اعتراضه على قولنا: إن إطلاق الميراث لا يكون إلا في الأموال بقوله تعالى: "ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا". وقولهم: ما ورثت الأبناء من الأباء شيئاً أفضل من أدب حسن، وقولهم: العلماء ورثة الأنبياء، فعجيب، لأن كل ما ذكر مقيد غير مطلق، وإنما قلنا إن مطلق لفظ الميراث من غير قرينة ولا تقييد يفيد بظاهره ميراث الأموال، فبعد ما ذكره وعارض به لا يخفى على متأمل.

فأما استدلاله على أن سليمان ورث داود علمه دون ماله بقوله: "يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين" وأن المراد أنه ورث العلم والفضل، وإلا لم يكن لهذا القول تعلق بالأول، فليس بشيء يعول عليه، لأنه لا يمتنع أن يريد به أنه ورث المال بالظاهر والعلم بهذا المعنى من الاستدلال، فليس يجب إذا دلت الدلالة في بعض الألفاظ على معنى المجاز أن يقتصر بها عليه، بل يجب أن يحملها على الحقيقة التي هي الأصل إذا لم يمنع من ذلك مانع، على أنه لا يمتنع أن يريد ميراث المال خاصة، ثم يقول مع ذلك: "علمنا منطق الطير"، ويشير بـ "الفضل المبين" إلى العلم والمال جميعاً، فله بالأمرين جميعاً فضل على من لم يكن عليهما، وقوله: "وأوتينا من كل شيء" يحتمل المال كما يحتمل العلم، فليس بخالص ما ظنه.

فأما قوله في قصة زكريا: إنه خاف على العلم أن يندرس، لأن الأنبياء وإن كانوا لا يحرصون على الأموال، وإنما خاف أن يضيع العلم، فسأل الله تعالى ولياً يقوم بالدين مقامه، فقد بينا أن الأنبياء وإن كانوا لا يحرصون على الأموال ولا ييخلون بها، فإنهم يجتهدون في منع المفسدين من الانتفاع بها على الفساد. ولا يعد ذلك بخلاً ولا حرصاً، بل فضلاً وديناً، وليس يجوز من زكريا أن يخاف على العلم الأندراس والضياع، لأنه يعلم أن حكمة الله تعالى تقتضي حفظ العلم الذي هو الحجة على العباد، وبه تتراح عللهم في مصالحهم، فكيف يخاف ما لا يخاف من مثله! فإن قيل: فهبوا أن الأمر كما ذكرتم من أن زكريا كان يأمن على العلم أن يندرس، أليس لا بد أن يكون مجوزاً أن يحفظه الله تعالى بمن هو من أهله وأقاربه، كما يجوز حفظه بغريب أجنبي! فما أنكرتم أن يكون خوفه إنما كان من بني عمه ألا يتعلموا العلم ولا يقوموا فيه مقامه، فسأل الله ولداً يجمع فيه هذه العلوم حتى لا يخرج العلم عن بيته، ويتعدى إلى غير قومه، فيلحقه بذلك وصمة! قلنا: أما إذا رتب السؤال هذا الترتيب، فالجواب عنه ما أجبنا به صاحب الكتاب، وهو أن الخوف الذي أشاروا إليه ليس من ضرر ديني، وإنما هو من ضرر دنيوي، والأنبياء إنما بعثوا لتحمل المضار الدنيوية، ومنازلهم في الثواب إنما زادت على كل المنازل لهذا الوجه، ومن كانت حاله هذه الحال، فالظاهر من خوفه إذا لم يعلم وجهه بعينه أن يكون محمولاً على مضار الدين، لأنها هي جهة خوفهم، والغرض في بعثهم تحمل ما سواها من المضار، فإذا قال النبي صلى الله عليه: "أنا خائف"، فلم يعلم جهة خوفه على التفصيل، يجب أن يصرف خوفه بالظاهر إلى مضار الدين دون الدنيا، لأن أحوالهم

وبعثهم يقتضي ذلك، فإذا كنا لو اعتدنا من بعضنا الزهد في الدنيا وأسبابها، والتعفف عن منافعها، والرغبة في الآخرة، والتفرد بالعمل لها، لكننا نحمل على ما يظهر لنا من خوفه الذي لا يعلم وجهه بعينه على ما هو أشبه وأليق بحاله، ونضيفه إلى الآخرة دون الدنيا، وإذا كان هذا واجباً فيمن ذكرناه فهو في الأنبياء عليهم السلام أوجب.

قلت: ينبغي ألا يقول المعارض: فيلحقه بذلك وصمة، فيجعل الخوف من هذه الوصمة، بل يقول: إنه خاف ألا يفلح بنو عمه ولا يتعلموا العلم، لما رأى من الأمارات الدالة على ذلك، فالخوف على هذا الترتيب يتعلق بأمر ديني لا دنيوي، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولداً يرث عنه علمه، أي يكون عالماً بالدينيات كما أنا عالم بها. وهذا السؤال متعلق بأمر ديني لا دنيوي. وعلى هذا يندفع ما ذكره المرتضى، على أنه لا يجوز إطلاق القول بأن الأنبياء بعثوا لتحمل المضار الدنيوية، ولا القول: الغرض في بعثهم تحمل ما سوى المضار الدينية من المضار، فإنهم ما بعثوا لذلك، ولا الغرض في بعثهم ذلك، وإنما بعثوا لأمر آخر. وقد تحصل المضار في أداء الشرع ضمناً وتبعاً، لا على أنها الغرض، ولا داخلية في الغرض، وعلى أن قول المرتضى: لا يجوز أن يخاف زكريا من تبديل الدين وتغييره، لأنه محفوظ من الله، فكيف يخاف ما لا يخاف من مثله، غير مستمر على أصوله! لأن المكلفين الآن قد حرموا بغيبة الإمام عنده ألقافاً كثيرة الوصلة بالشرعيات كالحدود وصلاة الجمعة والأعياد، وهو وأصحابه يقولون في ذلك إن اللوم على المكلفين، لأنهم قد حرموا أنفسهم اللطف، فهلا جاز أن يخاف زكريا من تبديل الدين وتغييره، وإفساد الأحكام الشرعية! لأنه إنما يجب على الله تعالى التبليغ بالرسول إلى المكلفين فإذا أفسدوا هم الأديان وبدلوها لم يجب عليه أن يحفظها عليهم، لأنهم هم الذين حرموا أنفسهم اللطف.

واعلم أنه قد قرئ: "وإني خفت الموالي من ورائي"، وقيل: إنها قراءة زين العابدين وابنه محمد بن علي الباقر رضي الله عنهما وعثمان بن عفان. وفسروه على وجهين: أحدهما أن يكون "ورائي" بمعنى خلفي وبعدي، أي قلت الموالي - وعجزوا عن إقامة الدين، تقول: قد خف بنو فلان، أي قل عددهم، فسأل زكريا ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه. وثانيهما أن يكون "ورائي" بمعنى قدامي، أي خف الموالي وأنا حي ودرجوا وانقضوا، ولم يبق منهم من به اعتضاد، وعلى هذه القراءة لا يبقى متعلق بلفظة الخوف.

وقد فسر قوم قوله: "وإني خفت الموالي"، أي خفت الذين يلون الأمر من بعدي، لأن المولى يستعمل في الوالي، وجمعه موال، أي خفت أن يلي بعد موتي أمراء ورؤساء يفسدون شيئاً من الدين، فارزقي ولداً تنعم عليه بالنبوة والعلم، كما أنعمت علي، واجعل الدين محفوظاً به، وهذا التأويل غير منكر، وفيه أيضاً دفع لكلام المرتضى. قال المرتضى: وأما تعلق صاحب الكتاب في أن الميراث محمول على العلم بقوله: "ويرث من آل يعقوب"، لأنه لا يرث أموال آل يعقوب في الحقيقة وإنما يرث ذلك غيره، فبعيد من الصواب، لأن ولد زكريا يرث بالقرابة من آل يعقوب أموالهم، على أنه لم يقل: يرث آل يعقوب، بل قال: "يرث من آل يعقوب"، تنبيهاً بذلك على أنه يرث من كان أحق بميراثه في القرابة.

فأما طعنه على من تأول الخبر بأنه عليه السلام لا يورث، ما تركه للصدقة بقوله: إن أحداً من الصحابة لم يتأوله على هذا الوجه، فهذا التأويل الذي ذكرناه أحد ما قاله أصحابنا في هذا الخبر، فمن أين له إجماع الصحابة على خلافه! وإن أحداً

لم يتأوله على هذا الوجه.

فإن قال: لو كان ذلك لظهر واشتهر، ولوقف أبو بكر عليه، فقد مضى من الكلام فيما يمنع من الموافقة على هذا المعنى ما فيه كفاية.

قلت: لم يكن ذلك اليوم - أعني يوم حضور فاطمة رضي الله عنها، وقولها لأبي بكر ما قالت - يوم تقية وخوف، وكيف يكون يوم تقية وهي تقول له - وهو الخليفة: يابن أبي قحافة، أترث أباك ولا أترث أبي! وتقول له أيضاً: لقد جئت شيئاً فرياً فكان ينبغي إذا لم يؤثر أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يفسر لأبي بكر معنى الخبر أن يعلم فاطمة رضي الله عنها تفسيره، فتقول لأبي بكر: أنت غالط فيما ظننت، إنما قال أبي: ما تركناه صدقة، فإنه لا يورث. واعلم أن هذا التأويل كاد يكون مدفوعاً بالضرورة، لأن من نظر في الأحاديث التي ذكرناها وما جرت عليه الحال يعلم بطلانه علماً قطعياً.

قال المرتضى: وقوله إنه لا يكون إذ ذلك تخصيص للأنبياء ولا مزية: ليس بصحيح، وقد قيل في الجواب عن هذا: إن النبي صلى الله عليه وسلم يجوز أن يريد أن ما ننوي فيه الصدقة، ونفرده لها من غير أن نخرجه عن أيدينا لا تناله ورثتنا. وهذا تخصيص للأنبياء ومزية ظاهرة.

قلت: هذه مخالفة لظاهر الكلام، وإحالة اللفظ عن وضعه، وبين قوله: ما ننوي فيه الصدقة، وهو بعد في ملكنا ليس بموروث، وقوله: ما نخلفه صدقة ليس بموروث فرق عظيم، فلا يجوز أن يراد أحد المعنيين باللفظ المفيد للمعنى الآخر، لأنه إلباس وتعمية. وأيضاً، فإن العلماء ذكروا خصائص الرسول في الشرعيات عن أمته وعددوها، نحو حل الزيادة في النكاح على أربع، ونحو النكاح بلفظ الهبة على قول فرقة من المسلمين، ونحو تحريم أكل البصل والثوم عليه، وإباحة شرب دمه، وغير ذلك، ولم يذكروا في خصائصه أنه إذا كان قد نوى أن يتصدق بشيء فإنه لا يناله ورثته، لو قدرنا أنه يورث الأموال، ولا الشيعة قبل المرتضى ذكرت ذلك، ولا رأينا في كتاب من كتبهم، وهو مسبوق بإجماع طائفته عليه، وإجماعهم عندهم حجة. قال المرتضى: فأما قوله: إن قوله رضي الله عنه: ما تركناه صدقة، جملة من الكلام مستقلة بنفسها، فصحيح إذا كانت لفظة ما مرفوعة على الأبداء، ولم تكن منصوبة بوقوع الفعل عليها، وكانت لفظة صدقة أيضاً مرفوعة غير منصوبة، وفي هذا وقع النزاع، فكيف يدعي أنها جملة مستقلة بنفسها! وأقوى ما يمكن أن نذكره أن نقول: الرواية جاءت بلفظ صدقة بالرفع، وعلى ما تأولتموه لا تكون إلا منصوبة، والجواب عن ذلك أنا لا نسلم الرواية بالرفع، ولم تجر عادة الرواة بضبط ما جرى هذا المجرى من الأعراب، والأشبهاء يقع في مثله، فمن حقق منهم وصرح بالرواية بالرفع يجوز أن يكون اشتبه عليه فظنها مرفوعة، وهي منصوبة.

قلت: وهذا أيضاً خلاف الظاهر، وفتح الباب فيه يؤدي إلى إفساد الاحتجاج بكثير من الأخبار. قال: وأما حكايته عن أبي علي أن أبا بكر لم يدفع إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه السيف والبغلة والعمامة على جهة الإرث، وقوله: كيف يجوز ذلك مع الخبر الذي رواه! وكيف خصصه بذلك دون العم الذي هو العصبه! فما نراه زاد على التعجب، ومما عجب منه عجبنا، ولم يثبت عصمة أبي بكر فينتفي عن أفعاله التناقض.

قلت: لا يشك أحد في أن أبا بكر كان عاقلاً، وإن شك قوم في ذلك فالعقل في يوم واحد لا يدفع فاطمة رضي الله عنها عن الإرث ويقول: إن أباك قال لي: إني لا أورث ثم يورث في ذلك اليوم شخصاً آخر من مال ذلك المتوفى الذي حكي عنه أنه لا يورث وليس انتفاء هذا التناقض عن أفعاله موقوفاً على العصمة، بل على العقل.

قال المرتضى: وقوله يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم نخله إياه وتركه أبو بكر في يده - لما في ذلك من تقوية الدين - وتصدق ببطلانه، وكل ما ذكره جائر، إلا أنه قد كان يجب أن يظهر أسباب النحلة والشهادة بها، والحجة عليها، ولم يظهر من ذلك شيء فنعرفه، ومن العجائب أن تدعي فاطمة فدك نحلة. وتستشهد على قولها أمير المؤمنين رضي الله عنه وغيره، فلا يصغى إلى قولها، ويترك السيف والبغلة والعمامة في يد أمير المؤمنين على سبيل النحلة بغير بينة ظهرت، ولا شهادة قامت! قلت: لعل أبا بكر سمع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ينحل ذلك علياً عليه السلام، فلذلك لم يحتج إلى البينة والشهادة، فقد روي أنه أعطاه خاتمه وسيفه في مرضه وأبو بكر حاضر، وأما البغلة فقد كان نخله إياها في حجة الوداع على ما وردت به الرواية، وأما العمامة فسلب الميت، وكذلك القميص والحجزة والحذاء، فالعادة أن يأخذ ذلك ولد الميت، ولا ينازع فيه لأنه خارج، أو كالحارج عن التركة، فلما غسل رضي الله عنه أخذت ابنته ثيابه التي مات فيها، وهذه عادة الناس، على أنا قد ذكرنا في الفصل الأول كيف دفع إليه آلة النبي صلى الله عليه وسلم وحذاءه ودابته، والظاهر أنه فعل ذلك اجتهداً لمصلحة رآها، ولإمام أن يفعل ذلك.

قال المرتضى: على أنه كان يجب على أبي بكر أن يبين ذلك، ويذكر وجهه بعينه، لما نازع العباس فيه، فلا وقت لذكر الوجه في ذلك أولى من هذا الوقت.

قلت: لم ينازع العباس في أيام أبي بكر، لا في البغلة والعمامة ونحوهما، ولا في غير ذلك، وإنما نازع علياً في أيام عمر، وقد ذكرنا كيفية المنازعة، وفيماذا كانت.

قال المرتضى رضي الله عنه في البردة والقضيب: إن كان نحلة، أو على الوجه الآخر، يجري مجرى ما ذكرناه في وجوب الظهور والاستشهاد، ولسنا نرى أصحابنا - يعني المعتزلة - يطالبون أنفسهم في هذه المواضع بما يطالبوننا بمثله إذا ادعينا وجوهاً وأسباباً وعللاً مجوزة، لأنهم لا يقنعون منا بما يجوز ويمكن، بل يوجبون فيما ندعيه الظهور والاستشهاد، وإذا كان هذا عليهم نسوه أو تناسوه.

قلت: أما القضيب فهو السيف الذي نخله رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه في مرضه، وليس بذي الفقار، بل هو سيف آخر، وأما البردة فإنه وهبها كعب بن زهير، ثم صار هذا السيف وهذه البردة إلى الخلفاء، بعد تنقلات كثيرة مذكورة في كتب التواريخ.

قال المرتضى: فأما قوله: فإن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إنما طلبن الميراث لأنهن لم يعرفن رواية أبي بكر للخبر، وكذلك إنما نازع علي رضي الله عنه بعد موت فاطمة رضي الله عنها! في الميراث لهذا الوجه، فمن أقبح ما يقال في هذا الباب وأبعده عن الصواب! وكيف لا يعرف أمير المؤمنين رضي الله عنه رواية أبي بكر، وبها دفعت زوجته عن الميراث! وهل مثل ذلك المقام الذي قامته، وما رواه أبو بكر في دفعها يخفى على من هو في أقاصي البلاد، فضلاً عما هو في

المدينة حاضر شاهد يراعي الأخبار، ويعني بها! إن هذا الخروج في المكابرة عن الحد! وكيف يخفى على الأزواج ذلك حتى يطلبنه مرة بعد أخرى، ويكون عثمان الرسول لهن، والمطالب عنهن، وعثمان على زعمهم أحد من شهد أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث، وقد سمعن على كل حال أن بنت النبي صلى الله عليه وسلم لم تورث ماله ولا بد أن يكن قد سألن عن السبب في دفعها، فذكر لهن الخبر، فكيف يقال: لهن لم يعرفنه! قلت: الصحيح أن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم ينازع بعد موت فاطمة في الميراث، وإنما نازع في الولاية لفدك وغيرها من صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجرى بينه وبين العباس في ذلك ما هو مشهور، وأما أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فما ثبت أنهن نازعن في ميراثه، ولا أن عثمان كان المرسل لهن، والمطالب عنهن، إلا في رواية شاذة، والأزواج لما عرفن أن فاطمة رضي الله عنها قد دفعت عن الميراث أمسكن، ولم يكن قد نازعن، وإنما اكتفين بغيرهن، وحديث فدك وحضور فاطمة عند أبي بكر كان بعد عشرة أيام من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصحيح أنه لم ينطق أحد بعد ذلك من الناس من ذكر أو أنثى بعد عود فاطمة رضي الله عنها من ذلك المجلس بكلمة واحدة في الميراث.

قال المرتضى: فإن قيل: فإذا كان أبو بكر قد حكم بالخطأ في دفع فاطمة رضي الله عنها عن الميراث، واحتج بخبر لا حجة فيه، فما بال الأمة أقرته على هذا الحكم، ولم تنكر عليه، وفي رضاها وإمساكها دليل على صوابه! قلت: قد مضى أن ترك النكير لا يكون دليل الرضا إلا في هذا الموضع الذي لا يكون له وجه سوى الرضا، وذكرنا في ذلك قولاً شافياً، وقد أجاب أبو عثمان الجاحظ في كتاب العباسية عن هذا السؤال جواباً حسن المعنى واللفظ، نحن نذكره على وجهه، ليقابل بينه وبين كلامه في العثمانية وغيرها.

قلت: ما كناه المرتضى رحمه الله في غير هذا الموضع أصلاً، بل كان ساحطاً عليه، وكناه في هذا الموضع، واستجاد قوله لأنه موافق غرضه، فسبحان الله، ما أشد حب الناس لعقائدهم! قال: قال أبو عثمان: وقد زعم أناس أن الدليل على صدق خبرهما - يعني أبا بكر وعمر - في منع الميراث وبراءة ساحتهما، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليهما.

ثم قال: قد يقال لهم: لئن كان ترك النكير دليلاً على صدقهما، ل يكون ترك النكير على المتظلمين والمحتجين عليهما، والمطالبين لهما، دليلاً على صدق دعواهم، أو استحسان مقالتهن، ولا سيما وقد طالت المناجاة، وكثرت المراجعة والملاحاة، وظهرت الشكية، واشتدت الموحدة. وقد بلغ ذلك من فاطمة رضي الله عنها، حتى إنها أوصت ألا يصلي عليها أبو بكر، ولقد كانت قالت له حين أتته طالبة بحقها، ومحتجة لرهطها: من يرثك يا أبا بكر إذا مت، قال: أهلي وولدي، قالت: فما بالنا لا نرث النبي صلى الله عليه وسلم! فلما منعها ميراثها وبخسها حقها واعتل عليها وجلح في أمرها، وعانيت التهضم، وأيسست من التورع، ووجدت نشوة الضعف وقلة الناصر، قالت: والله لأدعون الله عليك، قال: والله لأدعون الله لك، قالت: والله لا أكلمك أبداً، قال: والله لا أهجرك أبداً. فإن يكن ترك النكير على أبي بكر دليلاً على صواب منعها، إن في ترك النكير على فاطمة رضي الله عنها دليلاً على صواب طلبها! وأدن ما كان يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت، وتذكيرها ما نسيت، وصرفها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء، وأن تقول هجراً، أو تجور

عادلاً، أو تقطع واصلاً، فإذا لم تجدهم أنكروا على الخصمين جميعاً فقد تكافأت الأمور، واستوت الأسباب، والرجوع إلى أصل حكم الله من المواريث أولى بنا وبكم، وأوجب علينا وعليكم.

قال: فإن قالوا: كيف تظن به ظلمها والتعدي عليها! وكلما ازدادت عليه غلظة ازداد لها ليناً ورقة، حيث تقول له: والله لا أكلمك أبداً، فيقول: والله لا أهجرك أبداً، ثم تقول: والله لأدعون الله عليك، فيقول: والله لأدعون الله لك، ثم يحتمل منها هذا الكلام الغليظ، والقول الشديد في دار الخلافة، وبحضرة قريش والصحابة، مع حاجة الخلافة إلى البهاء والترية، وما يجب لها من الرفعة والهيبة! ثم لم يمنعه ذلك أن قال معتذراً متقرباً، كلام المعظم لحقها، المكبر لمقامها، والصائن لوجهها، المتحنن عليها: ما أحد أعز علي منك فقراً، ولا أحب إلي منك غنى، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إننا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة!" قيل لهم: ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم، والسلامة من الجور، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريباً، وللخصومة معتاداً، أن يظهر كلام المظلوم، وذلة المنتصف وحذب الوامق ومقة الحق. وكيف جعلتم ترك النكير حجة قاطعة، ودلالة واضحة، وقد زعمتم أن عمر قال على منبره: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: متعة النساء، ومتعة الحج، أنا أنهى عنهما، وأعاقب عليهما، فما وجدتم أحداً أنكر قوله، ولا استشنع مخرج نفيه، ولا خطأه في معناه، ولا تعجب منه، ولا استفهمه! وكيف تقضون بترك النكير وقد شهد عمر يوم السقيفة وبعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الأئمة من قريش"، ثم قال في شكاته: لو كان سالم حياً ما تخالجي فيه شك، حين أظهر الشك في استحقاق كل واحد من الستة الذين جعلهم شورى، وسالم عبد لأمرأة من الأنصار، وهي أعتقته، وحازت ميراثه ثم لم ينكر ذلك من قوله منكر، ولا قابل إنسان بين قوله، ولا تعجب منه، وإنما يكون ترك النكير على من لا رغبة ولا رهبة عنده دليلاً على صدق قوله، وصواب عمله، فأما ترك النكير على من يملك الضعة والرفعة، والأمر والنهي، والقتل والاستحياء، والحبس والأطلاق، فليس بحجة تشفي، ولا دلالة تضيء.

قال: وقال آخرون: بل الدليل على صدق قولهما، وصواب عملهما، إمساك الصحابة عن خلعهما، والخروج عليهما، وهم الذين وثبوا على عثمان في أيسر من جحد التزليل، ورد النصوص، ولو كان كما تقولون وما تصفون، ما كان سبيل الأمة فيهما إلا كسبيلهم فيه، وعثمان كان أعز نفراً، وأشرف رهطاً، وأكثر عدداً وثروة، وأقوى عدةً.

قلنا: إنهما لم يجحدا التزليل، ولم ينكرا النصوص، ولكنهما بعد إقرارهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ادعيا رواية، وتحدثا بحديث لم يكن محالاً كونه، ولا ممتنعاً في حجج العقول مجيئه، وشهد لهما عليه من علته مثل علتها فيه، ولعل بعضهم كان يرى تصديق الرجل إذا كان عدلاً في رهطه، مأموناً في ظاهره، ولم يكن قبل ذلك عرفه بفجرة، ولا جرت عليه غدرة، فيكون تصديقه له على جهة حسن الظن وتعديل الشاهد، ولأنه لم يكن كثير منهم يعرف حقائق الحجج، والذي يقطع بشهادته على الغيب، وكان ذلك شبهة على أكثرهم، فلذلك قل النكير وتواكل الناس، فاشتبه الأمر، فصار لا يتخلص إلى معرفة حق ذلك من باطله إلا العالم المتقدم، أو المؤيد المرشد، ولأنه لم يكن لعثمان في صدور العوام وقلوب السفلة والطعام ما كان لهما من المحبة والهيبة ولأنهما كانا أقل استئثاراً بالفيء، وتفضلاً بمال الله منه، ومن

شأن الناس إهمال السلطان ما وفر عليهم أموالهم، ولم يستأثر بخراجهم، ولم يعطل ثغورهم. ولأن الذي صنع أبو بكر من منع العترة حقها، والعمومة ميراثها، قد كان موافقاً لجلة قريش وكبراء العرب، ولأن عثمان أيضاً كان مضعوفاً في نفسه، مستخفاً بقدره، لا يمنع ضيماً، ولا يقمع عدواً، ولقد وثب الناس على عثمان بالشتم والقذف والتشنيع والنكير، لأمر لو أتى أضعافها وبلغ أقصاها لما اجترأوا على اغتيابه، فضلاً على مبادئه والإغراء به ومواجهته، كما أغلظ عيينة بن حصن له فقال له: أما إنه لو كان عمر لقمعك ومنعك، فقال عيينة: إن عمر كان خيراً لي منك، أرهبي فاتقاني.

ثم قال: والعجب أنا وجدنا جميع من خالفنا في الميراث على اختلافهم في التشبيه والقدر والوعيد يرد كل صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب إسناداً، وأصح رجالاً، وأحسن اتصالاً، حتى إذا صاروا إلى القول في ميراث النبي صلى الله عليه وسلم نسخوا الكتاب، وخصوا الخبر العام بما لا يداني بعض ما ردوه، وأكذبوا قائله، وذلك أن كل إنسان منهم إنما يجري إلى هواه، ويصدق ما وافق رضاه. هذا آخر كلام الجاحظ.

ثم قال المرتضى رضي الله عنه: فإن قيل: ليس ما عارض به الجاحظ من الاستدلال بترك النكير، وقوله: كما لم ينكروا على أبي بكر، فلم ينكروا أيضاً على فاطمة رضي الله عنها ولا على غيرها من الطالبين بالإرث، كالأزواج وغيرهن معارضة صحيحة، وذلك أن نكير أبي بكر لذلك، ودفعها و الاحتجاج عليها، يكفيهم ويغنيهم عن تكلف نكير آخر، ولم ينكر على أبي بكر ما رواه منكر فيستغنوا بإنكاره.

قلنا: أول ما يبطل هذا السؤال! أن أبا بكر لم ينكر عليها ما أقامت عليه بعد احتجاجها من التظلم والتألم، والتعنيف والتبكي، وقولها على ما روي: والله لأدعون الله عليك، ولا أكلمك أبداً، وما جرى هذا المجري، فقد كان يجب أن ينكره غيره، ومن المنكر الغضب على المنصف، وبعد، فإن كان إنكار أبي بكر مقنعاً ومغنياً عن إنكار غيره من المسلمين فإنكار فاطمة حكمه، ومقامها على التظلم منه مغن عن نكير غيرها، وهذا واضح.

الفصل الثالث.

في أن فذك هل صح كونها نحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها أم لا.

نذكر في هذا الفصل ما حكاه المرتضى عن قاضي القضاة في المغني، وما اعترض به عليه، ثم نذكر ما عندنا في ذلك. قال المرتضى حاكياً عن قاضي القضاة: ومما عظمت الشيعة القول في أمر فذك، قالوا: وقد روى أبو سعيد الخدري أنه لما أنزلت: "وآت ذا القربى حقه"، أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها فذك، ثم فعل عمر ابن عبد العزيز مثل ذلك، فردها على ولدها. قالوا: ولا شك أن أبا بكر أغضبها، إن لم يصح كل الذي روي في هذا الباب، وقد كان الأجل أن يمنعه التكرم مما ارتكبوا منها فضلاً عن الدين، ثم ذكروا أنها استشهدت أمير المؤمنين رضي الله عنه و أم أيمن، فلم يقبل شهادتهما، هذا مع تركه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في حجرهن، ولم يجعلها صدقة، وصدقهن في ذلك أن ذلك لهن ولم يصدقها.

قال: والجواب عن ذلك أن أكثر ما تروون في هذا الباب غير صحيح، ولسنا ننكر صحة ما روي من ادعائها فذك، فأما

أنها كانت في يدها فغير مسلم، بل إن كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها، فإذا كانت في جملة التركة فالظاهر أنها ميراث، وإذا كان كذلك فغير جائز لأبي بكر قبول دعواها، لأنه لا خلاف في أن العمل على الدعوى لا يجوز، وإنما يعمل على مثل ذلك إذا علمت صحته بمشاهدة، أو ما جرى مجراها، أو حصلت بينة أو إقرار، ثم إن البينة لا بد منها، وإن أمير المؤمنين رضي الله عنه لما خاصمه اليهودي حاكمه، وإن أم سلمة التي يطبق على فضلها لو ادعت نحلًا ما قبلت دعواها.

ثم قال: ولو كان أمير المؤمنين رضي الله عنه هو الوالي، ولم يعلم صحة هذه الدعوى، ما الذي كان يجب أن يعمل، فإن قلتم: يقبل الدعوى، فالشرع بخلاف ذلك، وإن قلتم: يلتبس البينة، فهو الذي فعله أبو بكر.

ثم قال: وأما قول أبي بكر: رجل مع الرجل، و امرأة مع المرأة، فهو الذي يوجب الدين، ولم يثبت أن الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين رضي الله عنه، بل الرواية المنقولة أنه شهد لها مولى لرسول الله مع أم أيمن.

قال: وليس لأحد أن يقول: فلماذا ادعت ولا بينة معها؟ لأنه لا يمتنع أن تجوز أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين، أو تجوز عند شهادة من شهد لها أن تذكر غيره فيشهد، وهذا هو الموجب على ملتبس الحق، ولا عيب عليها في ذلك، ولا على أبي بكر في التماس البينة، وإن لم يحكم لها لما لم يتم ولم يكن لها خصم، لأن التركة صدقة على ما ذكرنا، وكان لا يمكن أن يعول في ذلك على يمين أو نكول، ولم يكن في الأمر إلا ما فعله. قال: وقد أنكر أبو علي ما قاله السائل من أنها لما ردت في دعوى النحلة ادعته إرثًا، وقال: بل كان طلب الإرث قبل ذلك، فلما سمعت منه الخبر كفت وادعت النحلة.

قال: فأما فعل عمر بن عبد العزيز فلم يثبت أنه رده على سبيل النحلة، بل عمل في ذلك ما عمله عمر بن الخطاب بأن أقره في يد أمير المؤمنين رضي الله عنه ليصرف غلاتها في المواضع التي كان يجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فقام بذلك مدة، ثم ردها إلى عمر في آخر سنته، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز، ولو ثبت أنه فعل بخلاف ما فعل السلف لكان هو المحجوج بفعلهم وقولهم. وأحد ما يقوي ما ذكرناه أن الأمر لما انتهى إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه ترك فذك على ما كان، ولم يجعلها ميراثًا لولد فاطمة، وهذا يبين أن الشاهد كان غيره، لأنه لو كان هو الشاهد لكان الأقرب أن يحكم بعلمه، على أن الناس اختلفوا في الهبة إذا لم تقبض، فعند بعضهم تستحق بالعقد، وعند بعضهم أنها إذا لم تقبض يصير وجودها كعدمها، فلا يمتنع من هذا الوجه أن يمتنع أمير المؤمنين رضي الله عنه من ردها، وإن صح عنده عقد الهبة، وهذا هو الظاهر، لأن التسليم لو كان وقع لظهر أنه كان في يدها، ولكان ذلك كافيًا في الاستحقاق، فأما حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فإنما تركت في أيديهن لأنها كانت لهن، ونص الكتاب يشهد بذلك، وقوله: "وقرن في بيوتكن". وروى في الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قسم ما كان له من الحجر على نسائه وبناته. ويبين صحة ذلك أنه لو كان ميراثًا أو صدقة لكان أمير المؤمنين رضي الله عنه لما أفضى الأمر إليه يغيره.

قال: وليس لأحد أن يقول: إنما لم يغير ذلك لأن الملك قد صار له، فتبرع به، وذلك أن الذي يحصل له ليس إلا ربع ميراث فاطمة رضي الله عنها، وهو الثمن من ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان يجب أن ينتصف لأولاد العباس وأولاد فاطمة منهن في باب الحجر، ويأخذ هذا الحق منهن، فتركه ذلك يدل على صحة ما قلناه، وليس يمكنهم بعد ذلك إلا التعلق بالتقية، وقد سبق الكلام فيها.

قال: ومما يذكرون أن فاطمة رضي الله عنها لغضبها على أبي بكر وعمر أوصت ألا يصليا عليها، وأن تدفن سرّاً منهما، فدفنت ليلاً، وهذا كما ادعوا رواية رويها عن جعفر بن محمد رضي الله عنه وغيره، أن عمر ضرب فاطمة رضي الله عنها بالسوط، وضرب الزبير بالسيف، وأن عمر قصد مترلها وفيه علي رضي الله عنه والزبير والمقداد وجماعة ممن تخلف عن أبي بكر وهم مجتمعون هناك، فقال لها: ما أحد بعد أبيك أحب إلينا منك، وأيم الله لئن اجتمع هؤلاء نفر عندك لنحرقن عليهم! فمنعت القوم من الاجتماع.

قال: ونحن لا نصدق هذه الروايات ولا نجوزها. وأما أمر الصلاة فقد روي أن أبا بكر هو الذي صلى على فاطمة رضي الله عنها، وكبر عليها أربعاً، وهذا أحد ما استدل به كثير من الفقهاء في التكبير على الميت، ولا يصح أنها دفنت ليلاً، وإن صح ذلك فقد دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً، ودفن عمر ابنه ليلاً، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفنون بالنهار ويدفنون بالليل، فما في هذا مما يطعن به، بل الأقرب في النساء أن دفنهن ليلاً أستر وأولى بالسنة.

ثم حكى عن أبي علي تكذيب ما روي من الضرب بالسوط، قال: والمروي عن جعفر بن محمد رضي الله عنه أنه كان يتولاهما، ويأتي القبر فيسلم عليهما مع تسليمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، روى ذلك عباد بن صهيب، وشعبة بن الحجاج، ومهدي بن هلال، والدراوردي، وغيرهم، وقد روي عن أبيه محمد بن علي رضي الله عنه وعن علي بن الحسين مثل ذلك، فكيف يصح ما ادعوه! وهل هذه الرواية إلا كروايتهم على أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو إسماعيل والحسن ميكائيل والحسين جبرائيل وفاطمة ملك الموت، وآمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة القدر! فإن صدقوا ذلك أيضاً قيل لهم: فعمر بن الخطاب كيف يقدر على ضرب ملك الموت! وإن قالوا: لا نصدق ذلك، فقد جوزوا رد هذه الروايات، وصح أنه لا يجوز التعويل على هذا الخبر وإنما يتعلق بذلك من غرضه الأحاد كالوراق، وابن الراوندي لأن غرضهم القدح في الإسلام.

وحكى عن أبي علي أنه قال: ولم صار غضبها إن ثبت كأنه غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث قال: "فمن أغضبها فقد أغضبني"، أولى من أن يقال: فمن أغضب أبا بكر وعمر فقد نافق وفارق الدين، لأنه روي عنه صلى الله عليه وسلم قال: "حب أبي بكر وعمر إيمان، وبغضهما نفاق"! ومن يورد مثل هذا فقصد الطعن في الإسلام، وأن يتوهم الناس أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نافقوا مع مشاهدة الأعلام ليضعفوا دلالة العلم في النفوس. قال: وأما حديث الأحراق فلو صح لم يكن طعناً على عمر، لأن له أن يهدد من امتنع من المباينة إرادة للخلاف على المسلمين لكنه غير ثابت. انتهى كلام قاضي القضاة.

قال المرتضى: نحن نبتدىء فندل على أن فاطمة رضي الله عنها ما ادعت من نخل فذك إلا ما كانت مصيبة فيه، وأن مانعها ومطالبها بالبيئة متعنت، عادل عن الصواب، لأنها لا تحتاج إلى شهادة وبينه، ثم نعطف على ما ذكره على التفصيل، فتكلم عليه.

أما الذي يدل على ما ذكرناه فهو أنها كانت معصومة من الغلط، مأموناً منها فعل القبيح، ومن هذه صفته لا يحتاج فيما

يدعيه إلى شهادة وبينة.

فإن قيل: دللوا على الأمرين، قلنا: بيان الأول قوله تعالى: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً"! والآية تتناول جماعة منهم فاطمة رضي الله عنها بما تواترت الأخبار في ذلك، والإرادة ههنا دلالة على وقوع الفعل للمراد. وأيضاً فيدل على ذلك قوله رضي الله عنه: فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل"، وهذا يدل على عصمتها، لأنها لو كانت ممن تقارف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذياً له على كل حال، بل كان متى فعل المستحق من ذمها أو إقامة الحد عليها، إن كان الفعل يقتضيه ساراً له ومطيعاً، على أننا لا نحتاج أن ننبه في هذا الموضع على الدلالة على عصمتها، بل يكفي في هذا الموضع العلم بصدقها فيما ادعته، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين، لأن أحداً لا يشك أنها لم تدع ما ادعته كاذبة، وليس بعد ألا تكون كاذبة إلا أن تكون صادقة، وإنما اختلفوا في هل يجب مع العلم بصدقها تسليم ما ادعته بغير بينة أم لا يجب ذلك، قال: الذي يدل على الفصل الثاني أن البينة إنما تراد ليغلب في الظن صدق المدعي، ألا ترى أن العدالة معتبرة في الشهادات لما كانت مؤثرة في غلبة الظن لما ذكرناه، ولهذا جاز أن يحكم الحاكم بعلمه من غير شهادة لأن علمه أقوى من الشهادة، ولهذا كان الإقرار أقوى من البينة، من حيث كان أغلب في تأثير غلبة الظن، وإذا قدم الإقرار على الشهادة لقوة الظن عنده، فأولى أن يقدم العلم على الجميع، وإذا لم يحتج مع الإقرار إلى شهادة لسقوط حكم الضعيف مع القوي لا يحتاج أيضاً مع العلم إلى ما يؤثر الظن من البينات والشهادات.

والذي يدل على صحة ما ذكرناه أيضاً أنه لا خلاف بين أهل النقل في أن أعرابياً نازع النبي صلى الله عليه وسلم في ناقة، فقال صلى الله عليه وسلم: "هذه لي، وقد خرجت إليك من ثمنها"، فقال الأعرابي: من يشهد لك بذلك؟ فقال خزيمه بن ثابت: أنا أشهد بذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من أين علمت وما حضرت ذلك"، قال: لا، ولكن علمت ذلك من حيث علمت أنك رسول الله، فقال: "قد أجزت شهادتك، وجعلتها شهادتين"، فسمي ذا الشهادتين. وهذا القصة شبيهة لقصة فاطمة عليها السلام، لأن خزيمه اكتفى في العلم لأن الناقة له صلى الله عليه وسلم، وشهد بذلك من حيث علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يقول إلا حقاً، وأمضى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك له من حيث لم يحضر الأتياع وتسليم الثمن، فقد كان يجب على من علم أن فاطمة رضي الله عنها! لا تقول إلا حقاً ألا يستظهر عليها بطلب شهادة أو بينة، هذا وقد روي أن أبا بكر لما شهد أمير المؤمنين رضي الله عنه كتب بتسليم فداك إليها، فاعترض عمر قضيته، وخرق ما كتبه.

روى إبراهيم بن سعيد الثقفي، عن إبراهيم بن ميمون، قال: حدثنا عيسى بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن أبيه، عن جده عن علي رضي الله عنه، قال: جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى أبي بكر وقالت: إن أبي أعطاني فداك، وعلي وأمن يشهدان، فقال: ما كنت لتقولي على أبيك إلا الحق قد أعطيتكها، ودعا بصحيفة من آدم فكتب لها فيها، فخرجت فلقيت عمر، فقال: من أين جئت يا فاطمة؟ قالت: جئت من عند أبي بكر، أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني فداك، وأن علياً وأمن يشهدان لي بذلك، فأعطانيها، وكتب لي بها، فأخذ عمر منها

الكتاب، ثم رجع إلى أبي بكر، فقال: أعطيت فاطمة فذك، وكتبت بها لها، قال: نعم، فقال: إن علياً يجر إلى نفسه، وأم أيمن امرأة، وبصق في الكتاب فمحاها وخرقه، وقد روي هذا المعنى من طرق مختلفة، على وجوه مختلفة، فمن أراد الوقوف عليها، واستقصاءها أخذها من مواضعها.

وليس لهم أن يقولوا: إنها أخبار آحاد، لأنها وإن كانت كذلك، فأقل أحوالها أن توجب الظن، وتمنع من القطع على خلاف معناها. وليس لهم أن يقولوا: كيف يسلم إليها فذك وهو يروي عن الرسول أن ما خلفه صدقة، وذلك لأنه لا تنافي بين الأمرين، لأنه إنما سلمها على ما وردت به الرواية على سبيل النحل، فلما وقعت المطالبة بالميراث روى الخبر في معنى الميراث، فلا اختلاف بين الأمرين.

فأما إنكار صاحب الكتاب لكون فذك في يدها، فما رأيناه اعتمد في إنكار ذلك على حجة، بل قال: لو كان ذلك في يدها لكان الظاهر أنها لها. و الأمر على ما قال، فمن أين أنه لم يخرج عن يدها على وجه يقتضي الظاهر خلافه! وقد روي من طرق مختلفة غير طريق أبي سعيد الذي ذكره صاحب الكتاب أنه لما نزل قوله تعالى: "وآت ذا القربى حقه" دعا النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه فذك! وإذا كان ذلك مروياً فلا معنى لدفعه بغير حجة.

وقوله: لا خلاف أن العمل على الدعوى لا يجوز، صحيح، وقد بينا أن قولها كان معلوماً صحته، وإنما قوله: إنما يعمل على ذلك متى علم صحته بشهادة أو ما يجري مجراها، أو حصلت بينة أو إقرار، فيقال له: أما علمت بمشاهدة فلم يكن هناك، وأما بينة فقد كانت على الحقيقة، لأن شهادة أمير المؤمنين رضي الله عنه من أكبر البينات وأعدلها، ولكن على مذهبك أنه لم تكن هناك بينة، فمن أين زعمت أنه لم يكن هناك علم! وإن لم يكن عن مشاهدة فقد أدخلت ذلك في جملة الأقسام.

فإن قال: لأن قولها بمجرد لا يكون جهة للعلم، قيل له: لم قلت ذلك، أو ليس قد دللنا على أنها معصومة، وأن الخطأ مأمون عليها! ثم لو لم يكن كذلك لكان قولها في تلك القضية معلوماً صحته على كل حال، لأنها لو لم تكن مصيبة لكانت مبطلّة عاصية فيما ادعته، إذ الشبهة لا تدخل في مثله، وقد أجمعت الأمة على أنها لم يظهر منها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية بلا شك وارتياح، بل أجمعوا على أنها لم تدع إلا الصحيح، وإن اختلفوا، فمن قائل يقول: مانعها مخطيء، وآخر يقول: هو أيضاً مصيب، فقد بينة وإن علم صدقها.

وأما قوله: إنه لو حاكم غيره لطول بالبينه، فقد تقدم في هذا المعنى ما يكفي، وقصة خزيمه بن ثابت وقبول شهادته تبطل هذا الكلام.

و أما قوله: إن أمير المؤمنين رضي الله عنه حاكم يهودياً على الوجه الواجب في سائر الناس، فقد روي ذلك، إلا أن أمير المؤمنين لم يفعل من ذلك ما كان يجب عليه أن يفعله، وإنما تبرع به، واستظهر بإقامة الحجة فيه، وقد أخطأ من طالبه ببينة كائناً من كان. فأما اعتراضه بأم سلمة فلم يثبت من عصمتها ما ثبت من عصمة فاطمة رضي الله عنها، فلذلك احتاجت في دعواها إلى بينة. فأما إنكاره وادعاؤه أنه لم يثبت أن الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين، فلم يرد في ذلك إلا مجرد الدعوى و الإنكار، والأخبار مستفيضة بأنه رضي الله عنه شهد لها، فدفع ذلك بالزيف لا يغني شيئاً! وقوله: إن

الشاهد لها مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المنكر الذي ليس بمعروف.
و أما قوله: إنها جوزت أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين فطريف، مع قوله فيما بعد: إن التركة صدقة، ولا خصم فيها، فتدخل اليمين في مثلها، أفترى أن فاطمة لم تكن تعلم من الشريعة هذا المقدار الذي نبه صاحب الكتاب عليه! ولو لم تعلمه ما كان أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو أعلم الناس بالشريعة يوافقها عليه.
وقوله: إنها جوزت عند شهادة من شهد لها أن يتذكر غيرهم فيشهد باطل، لأن مثلها لا يتعرض للظنة والتهمة، ويعرض قوله للرد، وقد كان يجب أن تعلم من يشهد لها ممن لا يشهد حتى تكون دعواها على الوجه الذي يجب معه القبول و الأمضاء، ومن هو دونها في الرتبة والجلالة والصيانة من أفناء الناس لا يتعرض لمثل هذه الخطة ويتورطها، للتجويز الذي لا أصل له ولا إمارة عليه.

فأما إنكار أبي علي لأن يكون النحل قبل ادعاء الميراث وعكسه الأمر فيه، فأول ما فيه أنا لا نعرف له غرضاً صحيحاً في إنكار ذلك، لأن كون أحد الأمرين قبل الآخر لا يصحح له مذهباً، فلا يفسد على مخالفه مذهباً.
ثم إن الأمر في أن الكلام في النحل كان المتقدم ظاهراً، والروايات كلها به واردة، وكيف يجوز أن تبتدىء بطلب الميراث فيما تدعيه بعينه نحلًا! أو ليس هذا يوجب أن تكون قد طالبت بحققها من وجه لا تستحقه منه مع الاختيار! وكيف يجوز ذلك والميراث يشركها فيه غيرها، والنحل تنفرد به! ولا ينقلب مثل ذلك علينا من حيث طالبت بالميراث بعد النحل، لأنها في الابتداء طالبت بالنحل، وهو الوجه الذي تستحق فذك منه، فلما دفعت عنه طالبت بضرورة بالميراث، لأن للمدفع عن حقه أن يتوصل إلى تناوله بكل وجه وسبب، وهذا بخلاف قول أبي علي، لأنه أضاف إليها ادعاء الحق من وجه لا تستحقه منه، وهي مختارة.

و أما إنكاره أن يكون عمر بن عبد العزيز رد فذك على وجه النحل، وادعاؤه أنه فعل في ذلك ما فعله عمر بن الخطاب من إقرارها في يد أمير المؤمنين رضي الله عنه، ليصرف غلاهما في وجوهها، فأول ما فيه أنا لا نحتج عليه بفعل عمر بن عبد العزيز على أي وجه وقع، لأن فعله ليس بحجة، ولو أردنا الاحتجاج بهذا الجنس من الحجج لذكرنا فعل المأمون، فإنه رد فذك بعد أن جلس مجلساً مشهوراً حكم فيه بين خصمين نصبهما أحدهما لفاطمة، والآخر لأبي بكر، وردها بعد قيام الحجة ووضوح الأمر.

ومع ذلك فإنه قد أنكر من فعل عمر بن عبد العزيز ما هو معروف مشهور بلا خلاف بين أهل النقل فيه، وقد روى محمد بن زكريا الغلابي عن شيوخه، عن أبي المقداد هشام بن زياد مولى آل عثمان، قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز رد فذك على ولد فاطمة، وكتب إلى وليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك، فكتب إليه: إن فاطمة قد ولدت في آل عثمان، وآل فلان وفلان، فعلى من أرد منهم، فكتب إليه: أما بعد، فإني لو كتبت إليك أمرك أن تذبح شاة لكتبت إلي: أجماء أم قرناء، أو كتبت إليك أن تذبح بقرة لسألتني: ما لوها، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليه السلام من علي عليه السلام، والسلام.

قال أبو المقدام: فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه، وقالوا له: هجنت فعل الشيخين، وخرج إليه

عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة، فلما عاتبوه على فعله قال: إنكم جهلتم وعلمت، ونسيتم وذكرتم، إن أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم حدثني عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فاطمة بضعة مني يسخطها ما يسخطني، ويرضيها ما أرضاها"، وإن فذك كان صافية على عهد أبي بكر وعمر، ثم صار أمرها إلى مروان، فوهبها لعبد العزيز أبي، فورثتها أنا وإخوتي عنه، فسألتهم أن يبيعوني حصتهم منها، فمن بائع وواهب، حتى استجمعت لي، فرأيت أن أردّها على ولد فاطمة. قالوا: فإن أبيت إلا هذا فأمسك الأصل، واقسم الغله، ففعل.

وأما ما ذكره من ترك أمير المؤمنين رضي الله عنه فذك لما أفضى الأمر إليه، واستدلّاه بذلك على أنه لم يكن الشاهد فيها، فالوجه في تركه رضي الله عنه رد فذك هو الوجه في إقراره أحكام القوم وكفه عن نقضها وتغييرها، وقد بينا ذلك فيما سبق، وذكرنا أنه كان في انتهاء الأمر إليه في بقية من التقية قوية.

فأما استدلاله على أن حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كانت لهن بقوله تعالى: "وقرن في بيوتكن"، فمن عجيب الاستدلال، لأن هذه الأضافة لا تقتضي الملك، بل العادة جارية فيها أن تستعمل من جهة السكنى، ولهذا يقال: هذا بيت فلان ومسكنه، ولا يراد بذلك الملك، وقد قال تعالى: "لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"، ولا شبهة في أنه تعالى أراد منازل الرجال التي يسكنون فيها زوجاتهم، ولم يرد بهذه الإضافة الملك.

فأما ما رواه من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم حجره على نسائه وبناته، فمن أين له إذا كان الخبر صحيحاً أن هذه القسمة على وجه التملك دون الإسكان والإنزال! ولو كان قد ملكهن ذلك لوجب أن يكون ظاهراً مشهوراً.

فأما الوجه في ترك أمير المؤمنين لما صار الأمر إليه في يده منازعة الأزواج في هذه الحجر فهو ما تقدم وتكرر.

وأما قوله: إن أبا بكر هو الذي صلى على فاطمة وكبر أربعاً، وإن كثيراً من الفقهاء يستدلون به في التكبير على الميت - وهو شيء ما سمع إلا منه، وإن كان تلقاه عن غيره - فمن يجري مجراه في العصبية، وإلا فالروايات المشهورة وكتب الآثار والسير خالية من ذلك، ولم يختلف أهل النقل في أن علياً رضي الله عنه هو الذي صلى على فاطمة، إلا رواية نادرة شاذة وردت بأن العباس رحمه الله صلى الله عليها.

وروى الواقدي بإسناده في تاريخه، عن الزهري، قال: سألت ابن عباس: متى دفنت فاطمة رضي الله عنها، قال: دفناها بليل بعد هدأة، قال: قلت: فمن صلى عليها، قال: علي.

وروى الطبري عن الحارث بن أبي أسامة، عن المدائني، عن أبي زكريا العجلاني أن فاطمة رضي الله عنها عمل لها نعش قبل وفاتها، فنظرت إليه، فقالت: سترتموني ستركم الله!

قال: أبو جعفر محمد بن جرير: والثبت في ذلك أنها زينب، لأن فاطمة دفنت ليلاً، ولم يحضرها إلا علي والعباس والمقداد والزبير.

وروى القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بإسناده في تاريخه، عن الزهري، قال حدثني عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن فاطمة عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر، فلما توفيت دفنها علي ليلاً، وصلى عليها، وذكر في كتابه هذا أن علياً والحسن والحسين رضي الله عنهم دفنوها ليلاً، وغيبوا قبرها.

وروى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن فاطمة دفنت ليلاً.

وروى عبد الله بن أبي شيبه، عن يحيى بن سعيد القطان، عن معمر، عن الزهري مثل ذلك.
وقال البلاذري في تاريخه: إن فاطمة رضي الله عنها لم تر متبسمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها.
والأمر في هذا أوضح وأشهر من أن نطلب في الاستشهاد عليه، ونذكر الروايات فيه.

فأما قوله: و يصح أنها دفنت ليلاً وإن صح فقد دفن فلان وفلان ليلاً، فقد بينا أن دفنها ليلاً في الصحة أظهر من الشمس، وأن منكر ذلك كالدافع للمشاهدات، ولم يجعل دفنها ليلاً بمجردده هو الحجة ليقال: لقد دفن فلان وفلان ليلاً، بل يقع الاحتجاج بذلك على ما وردت به الروايات المستفيضة الظاهرة التي هي كالتواتر، أنها أوصت بأن تدفن ليلاً حتى لا يصلي الرجلان عليها، وصرحت بذلك وعهدت فيه عهداً بعد أن كانا استأذنا عليها في مرضها ليعوداها فأبت أن تأذن لهما، فلما طالت عليهما المدافعة رغبا إلى أمير المؤمنين رضي الله عنها في أن يستأذن لهما، وجعلها حاجة إليه، وكلمها رضي الله عنه في ذلك، وألح عليها، فأذنت لهما في الدخول، ثم أعرضت عنهما عند دخولهما ولم تكلمهما، فلما خرجا قالت لأمر المؤمنين رضي الله عنه: هل صنعت ما أردت؟ قال: نعم، قالت: فهل أنت صانع ما أمرك به؟ قال نعم، قالت: فإني أنشدك الله ألا يصليا على جنازتي، ولا يقوما على قبري! وروي أنه عفى قبرها وعلم عليه، ورش أربعين قبراً في البقيع، ولم يرش قبرها حتى لا يهتدى إليه، وأنها عاتباه على ترك إعلامهما بشأنها، وإحضارهما الصلاة عليها، فمن ههنا احتججنا بالدفن ليلاً، ولو كان ليس غير الدفن بالليل من غير ما تقدم عليه وماتأخر عنه، لم يكن فيه حجة.
وأما حكايته عن أبي علي إنكار ضرب الرجل لها. وقوله: إن جعفر بن محمد وأباه وجده كانوا يتولونهما، فكيف لا ينكر أبو علي ذلك، واعتقاده فيهما اعتقاده! وقد كنا نظن أن مخالفينا يقتنعون أن ينسبوا إلى أئمتنا الكف عن القوم، والإمساك، وما ظننا أنهم يحملون أنفسهم على أن ينسبوا إليهم الثناء والولاء، وقد علم كل أحد أن أصحاب هؤلاء السادة المختصين بهم، قد رووا عنهم ضد ما روى شعبة بن الحجاج وفلان وفلان وقولهم: هما أول من ظلمنا حقنا، وحمل الناس على رقابنا، وقولهم: إنهما أصفيا بإنائنا، واضطجعا بسبلنا، وجلسا مجلساً نحن أحق به منهما، إلى غير ذلك من فنون التظلم والشكاية، وهو طويل متسع، ومن أراد استقصاء ذلك فلينظر في كتاب المعرفة لأبي إسحاق إبراهيم بن سعيد الثقفي، فإنه قد ذكر عن رجل من أهل البيت بالأسانيد النيرة ما لا زيادة عليه، ثم لو صح ما ذكره شعبة لجاز أن يحمل على التقية.

و أما ذكره إسرائيل وميكائيل، فما كنا نظن أن مثله يذكر ذلك، وهذا من أقوال الغلاة الذين ضلوا في أمير المؤمنين رضي الله عنه وأهل البيت، وليسوا من الشيعة ولا من المسلمين، فأبي عيب علينا فيما يقولونه! ثم إن جماعة من مخالفينا قد غلوا في أبي بكر وعمر، ورووا روايات مختلفة فيهما تجري مجرى ما ذكره في الشناعة، ولا يلزم العقلاء وذوي الألباب من المخالفين عيب من ذلك.

و أما معارضة ما روي في فاطمة رضي الله عنها بما روي في: "أن حبهما إيمان، وبغضهما نفاق"، فالخبر الذي رويناه بجمع عليه، والخبر الآخر مطعون فيه، فكيف يعارض ذلك بهذا! و أما قوله: إنما قصد من يورد هذه الأخبار تضعيف

دلالة الأعلام في النفوس، من حيث أضاف النفاق إلى من شاهدها، فتشيع في غير موضعه، واستناد إلى ما لا يجدي نفعاً، لأن من شاهد الأعلام لا يضعفها ولا يوهن دليلها، ولا يقدح في كونها حجة، لأن الأعلام ليست ملجئة إلى العلم، ولا موجبة لحصوله على كل حال، وإنما تثمر العلم لمن أمعن النظر فيها من الوجه الذي تدل منه، فمن عدل عن ذلك لسوء اختياره لا يكون عدوله مؤثراً في دلالتها، فكم قد عدل من العقلاء وذوي الأحلام الراجحة والألباب الصحيحة عن تأمل هذه الأعلام وإصابة الحق منها! ولم يكن ذلك عندنا وعند صاحب الكتاب قادحاً في دلالة الأعلام. على أن هذا القول يوجب أن ينفي الشك والنفاق عن كل من صحب النبي صلى الله عليه وسلم وعاصره وشاهد أعلامه كأبي سفيان وابنه، وعمرو بن العاص، وفلان وفلان، ممن قد اشتهر نفاقهم وظهر شكهم في الدين وارتياهم باتفاق بيننا وبينه، وإن كانت إضافة النفاق إلى هؤلاء لا تثدح في دلالة الأعلام، فكذلك القول في غيرهم.

فأما قوله: إن حديث الإحراق لم يصح، ولو صح لساغ لعمر مثل ذلك، فقد بينا أن خبر الإحراق قد رواه غير الشيعة. وقوله: إنه يسوغ مثل ذلك، فكيف يسوغ إحراق بيت علي وفاطمة رضي الله عنهما! وهل في ذلك عذر يصغى إليه أو يسمع!

وإنما يكون علي وأصحابه خارقين للإجماع ومخالفين للمسلمين، لو كان الإجماع قد تقرر وثبت، وليس بمتقرر ولا ثابت مع خلاف علي وحده، فضلاً عن أن يوافقه على ذلك غيره. وبعد، فلا فرق بين أن يهدد بالإحراق لهذه العلة، وبين أن يضرب فاطمة رضي الله عنها لمثلها، فإن إحراق المنازل أعظم من ضرب سوط أو سوطين، فلا وجه لامتناع المخالف من حديث الضرب إذا كان عنده مثل هذا الاعتذار.

قلت: أما الكلام في عصمة فاطمة رضي الله عنها فهو بفساد الكلام أشبه، وللقول فيه موضع غير هذا.

وأما قول المرتضى: إذا كانت صادقة لم يبق حاجة إلى من يشهد لها، فلقال أن يقول: لم قلت ذلك، ولم زعمت أن الحاجة إلى البيعة إنما كانت لزيادة غلبة الظن، ولم لا يجوز أن يكون الله تعالى يعبد بالبيعة لمصلحة يعلمها، وإن كان المدعي لا يكذب! أليس قد تعبد الله تعالى بالعدة في العجوز التي قد أيست من الحمل، وإن كان أصل وضعها لاستبراء الرحم! وأما قصة خزيمة بن ثابت، فيجوز أن يكون الله تعالى قد علم أن مصلحة المكلفين في تلك الصورة أن يكتفى بدعوى النبي صلى الله عليه وسلم وحدها، ويستغنى فيها عن الشهادة. ولا يمتنع أن يكون غير تلك الصورة مخالفاً لها، وإن كان المدعي لا يكذب، ويبين ذلك أن مذهب المرتضى جواز ظهور خوارق العادات على أيدي الأئمة والصالحين، ولو قدرنا أن واحداً من أهل الصلاح والخير ادعى دعوى، وقال بحضرة جماعة من الناس من حملتهم القاضي: اللهم إن كنت صادقاً فأظهر علي معجزة خارقة للعادة، فظهرت عليه، لعلمنا أنه صادق، ومع ذلك لا تقبل دعواه إلا ببيعة.

وسألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة، قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فذك وهي عنده صادقة، فتبسم، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسنًا مع ناموسه وحرمة وقلة دعابته، قال: لو أعطاه اليوم فذك بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادعت لزوجه الخليفة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء، لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيعة ولا شهود، وهذا كلام صحيح، وإن كان أخرجه مخرج الدعابة والمزول.

فأما قول قاضي القضاة: لو كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها، واعتراض المرتضى عليه بقوله: إنه لم يعتمد في إنكار ذلك على حجة، بل قال: لو كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها، والأمر على ما قال، فمن أين أنها لم تخرج عن يدها على وجه! كما أن الظاهر يقتضي خلافه، فإنه لم يجب عما ذكره قاضي القضاة، لأن معنى قوله: إنها لو كانت في يدها، أي متصرف فيها لكانت اليد حجة في الملكية، لأن اليد والتصرف حجة لا محالة، فلو كانت في يدها تتصرف فيها وفي ارتفاعها كما يتصرف الناس في ضياعهم وأموالهم لما احتاجت إلى الاحتجاج بآية الميراث ولا بدعوى النحل، لأن اليد حجة، فهلا قالت لأبي بكر: هذه الأرض في يدي، ولا يجوز إنتزاعها مني إلا بحجة! وحينئذ كان يسقط إحتجاج أبي بكر بقوله: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث"، لأنها ما تكون قد ادعتها ميراثاً ليحتج عليها بالخبر. وخبر أبي سعيد في قوله فأعطاهما فذك، يدل على الهبة لا على القبض والتصرف، ولأنه يقال: أعطاني فلان كذا فلم أقبضه، ولو كان الإعطاء هو القبض والتصرف لكان هذا الكلام متناقضاً.

فأما تعجب المرتضى من قول أبي علي: إن دعوى الإرث كانت متقدمة على دعوى النحل، وقوله: إنا لا نعرف له غرضاً في ذلك، فإنه لا يصح له بذلك مذهب، ولا يبطل على مخالفه مذهب، فإن المرتضى لم يقف على مراد الشيخ أبي علي في ذلك، وهذا شيء يرجع إلى أصول الفقه، فإن أصحابنا استدلوا على جواز تخصيص الكتاب بخبر الواحد بإجماع الصحابة، لأنهم أجمعوا على تخصيص قوله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم" برواية أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا نورث، ما تركناه صدقة"، قالوا: والصحيح في الخبر أن فاطمة رضي الله عنها طالبت بعد ذلك بالنحل لا بالميراث، فلهذا قال الشيخ أبو علي: إن دعوى الميراث تقدمت على دعوى النحل، وذلك لأنه ثبت أن فاطمة انصرفت عن ذلك المجلس غير راضية ولا موافقة لأبي بكر، فلو كانت دعوى الإرث متأخرة، وانصرفت عن سخط لم يثبت الإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد، أما إذا كانت دعوى الإرث متقدمة فلما روى لها الخبر أمسكت وانتقلت إلى النزاع من جهة أخرى، فإنه يصح حينئذ الاستدلال بالإجماع على تخصيص الكتاب بخبر واحد.

فأما أنا فإن الأخبار عندي متعارضة، يدل بعضها على أن دعوى الإرث متأخرة، ويدل بعضها على أنها متقدمة، وأنا في هذا الموضع متوقف.

وما ذكره المرتضى من أن الحال تقتضي أن تكون البداية بدعوى النحل فصحيح، وأما إخفاء القبر وكتمان الموت وعدم الصلاة وكل ما ذكره المرتضى فيه فهو الذي يظهر ويقوى عندي، لأن الروايات به أكثر وأصح من غيرها، وكذلك القول في موجدتها وغضبها، فأما المنقول عن رجال أهل البيت فإنه يختلف، فتارة وتارة، وعلى كل حال فميل أهل البيت إلى ما فيه نعمة أبيهم وبيتهم.

وقد أحل قاضي القضاة بلفظة حكاها عن الشيعة فلم يتكلم عليها وهي لفظة جيدة. قال: قد كان الأجل أن يمنهم التكرم مما ارتكبا منها فضلاً عن الدين. وهذا الكلام لا جواب عنه، ولقد كان التكرم ورعاية حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظ عهده يقتضي أن تعوض ابنته بشيء يرضيها إن لم يستزل المسلمون عن فذك وتسلم إليها تطيباً لقلبها. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه، وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم،

ولا نعلم حقيقة ما كان، وإلى الله ترجع الأمور.

الأصل: ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة - ولعل بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع - أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وحولك أكباد تحن إلى القد

وحسبك عاراً أن تبيت ببطنة

أفقع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة، شغلها تقمّمها، تكثرش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى، أو أهمل عابثاً، أو أحر حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة! الشرح: قد روي: ولو شئت لاهتديت إلى هذا العسل المصفى، ولباب هذا البر المنقى، فضربت هذا بذاك، حتى ينضج وقوداً، ويستحكم معقوداً.

وروي: أولعل بالمدينة يتيماً ترباً يتضور سغباً، أأبيت مبطاناً، وحولي بطون غرثى، إذن يحضرنى يوم القيامة، وهم من ذكر وأنثى.

وروي: بطون غرثى بإضافة بطون إلى غرثى، والقمح: الحنطة، والجشع: أشد الحرص، والميطان: الذي لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، فأما المبطن: فالضامر البطن، وأما البطين، فالعظيم البطن لا من الأكل، وأما البطن، فهو الذي لا يهيمه إلا بطنه، وأما المبطون فالعليل البطن. وبطون غرثى: جائعة، والبطنة: الكظة: وذلك أن يمتلىء الإنسان من الطعام أمتلاء شديداً، وكان يقال: ينبغي للإنسان أن يجعل وعاء بطنه أثلاثاً: ثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس. والتقمم: أكل الشاة ما بين يديها بمقمتها أي بشفتها، وكل ذي ظلف كالثور وغيره فهو ذو مقمة، وتكثرش من أعلافها: تملأ كرشها من العلف.

قوله: أو أحر حبل الضلالة منصوب بالعطف على يشغلني، وكذلك أترك ويقال: أحررته رسنه، إذا أهملته، والأعتساف: السلوك في غير طريق واضح، والمتاهة: الأرض يتاه فيها أي يتحير.

وفي قوله: لو شئت لاهتديت شبه من قول عمر: لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلائق وصناب، وقد ذكرناه فيما تقدم.

وهذا البيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطائي الجواد، وأولها:

ويا ابنة ذي الجدين والفرس الورد

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك

أكياً فأني لست آكله وحدي

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له

أخاف مذمات الأحاديث من بعدي

قصياً بعيداً أوقريباً فإنني

وحولك أكباد تحن إلى القد

كفى بك عاراً أن تبيت ببطنة

الأصل: وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب، فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران، ومنازلة الشجعان. ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً، والروائع الخضرة أرق جلوداً، والنباتات العذية أقوى وقوداً، وأبطأ خموداً. وأنا من رسول الله كالضوء من الضوء، والذراع من العضد، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها، وسأجهد في أن أظهر الأرض من هذا الشخص المعكوس، والجسم المركوس، حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد.

الشرح: الشجرة البرية: التي تنبت في البر الذي لا ماء فيه، فهي أصلب عوداً من الشجرة التي تنبت في الأرض الندية، وإليه وقعت الإشارة بقوله: والروائع الخضرة أرق جلوداً.

ثم قال: والنباتات العذية التي تنبت عذياً، والعذي، بسكون الذال، الزرع لا يسقيه إلا ماء المطر، وهو يكون أقل أخذاً من الماء من النبت سقياً، قال رضي الله عنه: إنها تكون أقوى وقوداً مما يشرب الماء السائح أو ماء الناضح، وأبطأ خموداً، وذلك لصلابة جرمها.

ثم قال: وأنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم كالضوء من الضوء، والذراع من العضد، وذلك لأن الضوء الأول يكون علة في الضوء الثاني، ألا ترى أن الهواء المقابل للشمس يصير مضيئاً من الشمس! فهذا الضوء هو الضوء الأول.

ثم إنه يقابل وجه الأرض فيفيء وجه الأرض منه، فالضوء الذي على وجه الأرض هو الضوء الثاني، وما دام الضوء الأول ضعيفاً فالضوء الثاني ضعيف، فإذا ازداد الجو إضاءة ازداد وجه الأرض إضاءة، لأن المعلول يتبع العلة، فشبه رضي الله عنه نفسه بالضوء الثاني، وشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضوء الأول، وشبه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلت أسمائه بالشمس التي توجب الضوء الأول ثم الضوء الأول يوجب الضوء الثاني. وههنا نكتة، وهي أن الضوء الثاني يكون أيضاً علة لضوء ثالث، وذلك أن الضوء الحاصل على وجه الأرض - وهو الضوء الثاني - إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم، فإن ذلك المكان يصير مضيئاً بعد أن كان مظلماً، وإن كان لذلك المكان المظلم باب، وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدار كان ذلك الجدار أشد إضاءةً من باقي البيت، ثم ذلك الجدار إن كان فيه ثقب إلى موضع آخر كان ما يحاذي ذلك البيت أشد إضاءةً مما حواليه، وهكذا لا تزال الأضواء، يوجب بعضها بعضاً على وجه الإنعكاس بطريق العلية، وبشرط المقابلة، ولا تزال تضعف درجة درجة إلى أن تضمحل ويرد الأمر إلى الظلمة، وهكذا عالم العلوم، والحكم المأخوذة من أمير المؤمنين رضي الله عنه لا تزال تضعف كلما انتقلت من قوم إلى قوم إلى أن يعود الإسلام غريباً كما بدأ. بموجب الخبر النبوي الوارد في الصحاح.

و أما قوله: والذراع من العضد فلأن الذراع فرع على العضد، والعضد أصل، ألا ترى أنه لا يمكن أن يكون ذراع إلا إذا كان عضد، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له، ولهذا قال الراجز لولده:

يا بكر بكرين ويا خلب الكبد

أصبحت مني كذراع من عضد

فشبهه رضي الله عنه نفسه بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذراع الذي العضد أصله وأسه والمراد من هذا التشبيه الأمانة عن شدة الأمتزاج و الاتحاد والقرب بينهما، فإن الضوء الثاني شبيه بالضوء الأول، والذراع متصل بالعضد إتصلاً بيناً، وهذه المترلة قد أعطاه إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامات كثيرة نحو قوله في قصة براءة: "قد أمرت أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني"، وقوله: "لنتهن يا بني وليعة، أو لأبعثن إليكم رجلاً مني، أو قال: "عديل نفسي"، وقد سماه الكتاب العزيز: نفسه فقال: "ونسائنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم"، وقد قال له: "لحمك مختلط بلحمي، ودمك مسوط بدمي، وشبرك وشبري واحداً"، فإن قلت: أما قوله: لوتظاهرت العرب في لما وليت عنها، فما الفائدة في قوله: ولو أمكنت الفرصة من رقابها لساغت إليها، وهل هذا مما يفخر به الرؤساء ويعدونه منقبة، وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجاوز وعفا! قلت: غرضه أن يقرر في نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حق، وأن حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن من يجاهد الكفار يجب عليه أن يغلظ عليهم، ويستأصل شأفتهم، ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاهد بني قريظة وظفر لم يبق ولم يعف، وحصد في يوم واحد رقاب ألف إنسان صبراً في مقام واحد، لما علم في ذلك من إعزاز الدين وإذلال المشركين، فالعفو له مقام و الانتقام له مقام.

قوله: وسأجهد في أن أطهر الأرض، الإشارة في هذا إلى معاوية، سماه شخصاً معكوساً، وجسماً مركوساً، والمراد انعكاس عقيدته، وأنها ليست عقيدة هدى، بل هي معاكسة للحق والصواب، وسماه مركوساً من قولهم: ارتكس في الضلال، والركس رد الشيء مقلوباً، قال تعالى: "والله أركسهم بما كسبوا" أي قلبهم وردهم إلى كفرهم، فلما كان تاركاً للفطرة التي كل مولود يولد عليها، كان مرتكساً في ضلاله، وأصحاب التناسخ يفسرون هذا بتفسير آخر، قالوا: الحيوان على ضربين: منتصب ومنحن، فالمنتصب الإنسان، والمنحني ما كان رأسه منكوساً إلى جهة الأرض كالبهائم والسباع.

قالوا: وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله: "أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم". قالوا: فأصحاب الشقاوة تنتقل أنفسهم عند الموت إلى الحيوان المكبوب، وأصحاب السعادة تنتقل أنفسهم إلى الحيوان المنتصب، ولما كان معاوية عنده رضي الله عنه من أهل الشقاوة، سماه معكوساً ومركوساً رمزاً إلى هذا المعنى. قوله: حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد، أي حتى يتطهر الدين وأهله منه وذلك لأن الزراع يجتهدون في إخراج المدر والحجر والشوك والعوسج ونحو ذلك من بين الزرع كي لا تفسد منابته، فيفسد الحب الذي يخرج منه، فشبه معاوية بالمدر ونحوه من مفسدات الحب، وشبه الدين بالحب الذي هو ثمرة الزرع.

الأصل: إليك عني يا دنيا، فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك، وأفلت من حبالك، واجتنبت الذهاب في مداحضك. أين القرون الذين غررتهم بمداعبك! أين الأمم الذين فتنتهم بزخارفك! فيها هم رهائن القبور، ومضامين للحدود.

والله لو كنت شخصاً مرئياً، وقالباً حسياً، لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأمان، و أمم ألقيتهم في المهالوي،

وملوك أسلمتهم إلى التلف، وأوردتهم موارد البلاء، إذ لا ورد ولا صدر! هيهات! من وطىء دحضك زلق، ومن ركب لجحك غرق، ومن ازور عن حباثك وفق، والسالم منك لا تبالي إن ضاق به مناخه، والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه. الشرح: إليك عني، أي ابعدي، وحبلك على غاربك، كناية من كنايات الطلاق، أي اذهبي حيث شئت، لأن الناقة إذا ألقى حبلها على غاربها فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءت، وتذهب أين شاءت، لأنه إنما يردّها زمامها، فإذا ألقى حبلها على غاربها فقد أهملت والغارب: ما بين السنام والغنق. والمداحض: المزالق. وقيل: إن في النسخة التي بخط الرضي رضي الله عنه غررتهم بالياء، وكذلك فنتتهم، وألقيتهم، وأوردتهم، والأحسن حذف الياء، وإذا كانت الرواية وردت بما فهي من إشباع الكسرة كقوله:

بما فعلت لبون بني زياد

ألم يأتنيك والأنباء تنمي

ومضامين اللحد، أي الذين تضمنتهم، وفي الحديث نهي عن بيع المضامين والملاقيح، وهي ما في أصلاب الفحول وبطون الإناث.

ثم قال: لو كنت أيتها الدنيا إنساناً محسوساً، كالواحد من البشر، لأقمت عليك الحد كما فعلت بالناس.

ثم شرح أفعالها فقال: منهم من غررت، ومنهم من ألقى في مهاوي الضلال والكفر، ومنهم من أتلفت وأهلك.

ثم قال: ومن وطىء دحضك زلق، مكان دحض أي مزلة.

ثم قال: لا يبالي من سلم منك إن ضاق مناخه، لا يبالي بالفقر، ولا بالمرض ولا بالحبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن! لأن هذا كله حقير لا اعتداد به في جنب السلامة من فتنه الدنيا.

قال: والدنيا عند من قد سلم منها كيوم قرب إنقضاؤه وفناؤه.

الأصل: اعزبي عني! فو الله لا أذل لك فتستذليني، ولا أسلس لك فتقوديني. وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيئة الله، لأروض نفسي رياضة تمش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها، مستفركة دموعها. أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيعة من عشبها فتربض، ويأكل علي من زاده فيهجع!

قرت إذا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسائمة المرعية! طوبى لنفس أدت إلى رها فرضها،

وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها.

في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجاغت عن مضاجعهم جنوبهم، وهممت بذكر رهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم، "أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون".

فاتق الله يا بن حنيف ولتكفف أقراصك، ليكون من النار خلاصك.

الشرح: اعزبي: ابعدي، يقال عزب الرجل بالفتح، أي بعد. ولا أسلس لك بفتح اللام، أي لا أنقاد لك، سلس الرجل بالكسر يسلس فهو بين السلس، أي سهل قياده.

ثم حلف، واستثنى بالمشيئة أدباً كما أدب الله تعالى رسوله ليروض نفسه أي يدر بها بالجوع، والجوع هو أصل الرياضة

عند الحكماء وأرباب الطريقة، قال: حتى أهش إلى القرص، أي إلى الرغيف وأقنع من الأدام بالملح، ونضب معينها: في مأوها.

ثم أنكر على نفسه فقال: أتشيع السائمة من رعيها - بكسر الراء، وهو الكأ - والريضة - جماعة من الغنم أو البقر تربض في أماكنها. وأنا أيضاً مثلها أشيع وأنام! لقد قرت عيني إذاً حيث أشابه البهائم بعد الجهاد والسبق والعبادة والعلم والجد في السنين المتطاولة.

قوله: وعركت بجنبها بؤسها، أي صبرت على بؤسها، والمشقة التي تنالها. يقال: قد عرك فلان بجنبه الأذى أي أغضى عنه، وصبر عليه.

قوله: افترشت أرضها أي لم يكن لها فراش إلا الأرض، وتوسدت كفها، لم يكن لها وسادة إلا الكف، وتحافت عن مضاجعهم جنوهم لفظ الكتاب العزيز "تتجافى جنوهم عن المضاجع"، وهممت: تكلمت كلاماً خفياً، وتقشعت ذنوبهم: زالت وذهبت كما يتقشع السحاب.

قوله: ولتكفف أقراصك، إنما هو نهي لابن حنيف أن يكف عن الأقراص، وإن كان اللفظ يقتضي أن تكف الأقراص عن ابن حنيف. وقد رواها قوم بالنصب، قالوا: فأتق الله يا ابن حنيف ولتكفف أقراصك، لترجو بها من النار خلاصك، والتاء ههنا للأمر عوض الياء، وهي لغة لا بأس بها، وقد قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: "فبذلك فلتفرحوا"، بالتاء.

٨

الجزء السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الواحد العدل

من كتاب له إلى بعض عماله

الأصل: أما بعد فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأثيم، وأسد به لهأة الثغر المخوف. فاستعن بالله على ما أهمك، واخلط الشدة بضغت من اللين، وارفق ما كان الرفق أرفق، واعتزم بالشدة حين لا تغني عنك إلا الشدة.

واخفض للرعية جناحك، وابسط لهم وجهك، وألن لهم جانبك؛ وآس بينهم في اللحظة والنظرة، الإشارة والتحية، حتى لا يطمع العظماء في حيفك، ولا يئس الضعفاء من عدلك. والسلام.
الشرح: قد أخذ الشاعر معنى قوله: "وآس بينهم في اللحظة والنظرة"، فقال:

ظ لعنوان ما تجن الصدور

اقسم اللحظ بيننا إن في اللح

كان بشر فروضة وغدير

إنما البر روضة فإذا ما

قوله: وآس بينهم في اللحظة، أي اجعلهم أسوة، وروي: "وساؤ بينهم في اللحظة"؛ والمعنى واحد. واستظهر به: اجعله كالظهر.

والنخوة: الكبرياء: والأثيم: المخطيء المذنب.
وقوله: "وأسد به لهأة الثغر" استعارة حسنة.

والضغت في الأصل: قبضة حشيش مختلط يابسها بشيء من الرطب، ومنه "أضغات الأحلام" للرؤيا المختلطة التي لا يصح تأويلها، فاستعار اللفظة ههنا، والمراد: امزج الشدة بشيء من اللين فاجعلهما كالضغت، وقال تعالى: "وخذ بيدك ضغثاً". قوله: "فاعتزم بالشدة" أي إذا جد بك الجد فدع اللين، فإن في حال الشدة لا تغني إلا الشدة، قال الفند الزماني:

فأمسى وهو عريان

فلما صرح الشر

ن دناهم كما دانوا

ولم يبق سوى العدوا

قوله: "حتى لا يطمع العظماء في حيفك"، أي حتى لا يطمع العظماء في أن تمالكهم على حيف الضعفاء، وقد تقدم مثل هذا فيما سبق.

ومن وصية له رضي الله عنه للحسن والحسين

رضي الله عنهما لما ضربه ابن ملجم لعنه الله

الأصل: أوصيكمما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا بالحق، واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً.

أوصيكمما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما صلى الله عليه وآله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام.

الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم. والله الله في جيرانكم، فإلهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم. والله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم. والله الله في الصلاة، فلها عمود دينكم. والله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا. والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله. وعليكم بالتواصل والتبازل؛ وإياكم والتدابير والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فيؤلى عليكم أشراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم.

ثم قال: يا بني عبد المطلب، لا ألفتكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً، تقولون: قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين! ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا بالرجل؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور".

الشرح: روي: واعملا للآخرة، وروي: فلا تغبوا أفواهكم، يقول. لا تطلب الدنيا وإن طلبتكم؛ فإذا كان من تطلبه الدنيا منهياً عن طلبها فمن لا تطلبه يكون منهياً عن طلبها بالطريق الأولى.

ثم قال: ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، أي قبض، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "زويت لي الدنيا فأريت مشارقتها ومغارها، وسيبلغ ملك أمي ما زوي لي منها".

وروي: ولا تأسبا، وكلاهما بمعنى واحد، أي لا تحزننا، وهذا من قوله تعالى: "لكيلا تأسوا على ما فاتكم".

قوله: صلاح ذات البين أخذ هذه اللفظة عبد الملك بن مروان فقال لبنيه وقد جمعوا عنده يوم موته:

عند المغيب وفي حضور المشهد

انفوا الضغائن بينكم وعليكم

إن مد في عمري وإن لم يمدد

بصلاح ذات البين طول حياتكم

بالكسر ذو بطش شديد أيد

إن القداح إذا اجتمعن فراقها

فالوهن والتكسير للمتبدد

عزت فلم تكسر، وإن هي بددت

وذاث ههنا زائدة مقحمة.

قوله: فلا تغبوا أفواههم، أي لا تجيعوهم بأن تطعموهم غباً، ومن روى: فلا تغبوا أفواههم، فذاك لأن الجائع يتغير فمه، قال رضي الله عنه: لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

قال: ولا يضيعوا بحضرتكم أي لا تضيعوهم، فالنهي في الظاهر للأيتام وفي المعنى للأوصياء والأولياء، والظاهر أنه لا يعني الأيتام الذين لهم مال تحت أيدي أوصيائه؛ لأن أولئك الأوصياء محرم عليهم أن يصيبوا من أموال اليتامى إلا القدر التزر

جداً عند الضرورة ثم يقضونه مع التمكن، ومن هذه حاله لا يحسن أن يقال له: لا تغيروا أفواه أيتامكم، وإنما الأظهر أنه يعني الذين مات آباؤهم وهم فقراء يتعين مواساتهم ويقبح القعود عنهم، كما قال تعالى: "ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً" واليتيم في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم؛ لأن الآباء من البهائم لا عناية لهم بالأولاد، بل العناية للأم لأنها المرضعة المشفقة، وأما الناس فإن الأب هو الكافل القيم بنفقة الولد؛ فإذا مات وصل الضرر إليه لفقد كافله والأم بمعزل عن ذلك. وجمع يتيم على أيتام، كما قالوا: شريف وأشراف. وحكى أبو علي في التكملة: كميء وأكماء، ولا يسمى الصبي يتيماً إلا إذا كان دون البلوغ وإذا بلغ زال اسم اليتيم عنه. واليتامى أحد الأصناف الذين عينوا في الخمس بنص الكتاب العزيز.

بعض ما ورد في حقوق الجار

ثم أوصى بالجيران، واللفظ الذي ذكره رضي الله عنه قد ورد مرفوعاً في رواية عبد الله بن عمر لما ذبح شاة، فقال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره"، وعنه رضي الله عنه: جار السوء في دار المقامة قاصمة الظهر، وعنه رضي الله عنه: من جهد البلاء جار سوء معك في دار مقامة إن رأى حسنة دفنها، وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها. ومن أدعيتهم: اللهم إني أعوذ بك من مال يكون علي فتنة، ومن ولد يكون علي كلاً، ومن حليلة تقرب الشيب، ومن جار تراني عيناه وترعاني أذناه، إن رأى خيراً دفنه، وإن سمع شراً طار به. ابن مسعود يرفعه: "والذي نفسي بيده لا يسلم العبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ويأمن جاره بوائقه"، قالوا: ما بوائقه؟ قال: "غشمه وظلمه". لقمان: يا بني، حملت الحجارة والحديد فلم أر شيئاً أثقل من جار السوء. وأنشدوا:

كراهة بعض جبرتها تباع

ألا من يشتري داراً برخص

وقال الأصمعي: جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم خصلتين: اللؤم وقلة الغيرة، وجاور أهل البصرة الخزر، فأخذوا عنهم خصلتين: الزنا وقلة الوفاء، وجاور أهل الكوفة السواد، فأخذوا عنهم خصلتين: السخاء والغيرة. وكان يقال: من تطاول على جاره، حرم بركة داره. وكان يقال: من آذى جاره ورثه الله داره.

باع أبو الجهم العدوي داره، وكان في جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلما أحضرها المشتري قال له: هذا ثمن الدار، فأعطني ثم الجوار، قال: أي جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشتري أحد جواراً قط فقال: رد علي داري، وخذ مالك، لا أدع جوار رجل؛ إن قعدت سأل عني، وإن رأي رحب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدت عنده قربني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدائي، وإن نابتي نائبة فرج عني. فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه مائة

ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك.

الحسن: ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى.

جاءت امرأة إلى الحسن فشكت إليه الخلة، وقالت: أنا جارتك، قال: كم بيني وبينك؟ قالت: سبع أدور، فنظر الحسن فإذا تحت فراشه سبعة دراهم، فأعطها إياها، وقال: كدنا نهلك.

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يصلحه، وحماء ممن يقصده، وإن هلك له شيء أحلفه عليه، وإن مات وداه لأهله، فجاوره أبو دواد الإيادي، فزاره على العادة، فبالغ في إكرامه. وكانت العرب إذا حمدت جارا قالت: جار كجار أبي دواد، قال قيس بن زهير:

أطوف ما أطوف ثم آوي

إلى جار كجار أبي دواد

ثم تعلم منه أبو دواد، وكان يفعل لجاره فعل كعب به.

وقال مسكين الدارمي:

ما ضر جاراً لي أجاوره

ألا يكون لبابه ستر

أعمى إذا ما جرتي خرجت

حتى يوارى جرتي الخدر

ناري ونار الجار واحدة

وإليه قبلي ينزل القدر

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرساً محضيراً، فقال لأصحابه: لماذا يصلح هذا؟ فذكروا سباق الخيل، وصيد الحمر والنعام، واتباع الفار من الحرب، فقال: لم تصنعوا شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء.

سأل سليمان علي بن خالد بن صفوان عن ابنه: محمد وسليمان وكانا جاريه فقال: كيف إحمادك جوارهما؟ فتمثل يقول يزيد بن مفرغ الحميري:

سقى الله داراً لي وأرضاً تركتها

إلى جنب داري معقل بن يسار

أبو مالك جار لها وابن مرثد

فيا لك جاري ذلة وصغار!

وفي الحديث المرفوع أيضاً من رواية جابر: "الجيران ثلاثة: فجار له حق، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فصاحب الحق الواحد جار مشرك لا رحم له، فحقه حق الجوار، وصاحب الحقين جار مسلم لا رحم له، وصاحب الثلاثة جار مسلم ذو رحم، وأدى حق الجوار ألا تؤذي جارك بقتار قدرك، إلا أن تقتدح له منها". قلت: تقتدح: تغترف، والمقدحة المغرفة.

وكان يقال: الجيران خمسة: الجار الضار السيئ الجوار، والجار الدمسى الحسن الجوار، والجار اليربوعي المنافق، والجار البراقشي المتلون في أفعاله، والجار الحسدلي الذي عينه تراك وقلبه يرداك.

وروى أبو هريرة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإن دار البادية تتحول".

قوله رضي الله عنه: الله الله في القرآن أمرهما بالمسارعة إلى العمل به، ونهاهما أن يسبقهما غيرهما إلى ذلك، ثم أمرهما بالصلاة والحج.

وشدد الوصاة في الحج، فقال: فإنه إن ترك لم تناظروا أي يتعجل الانتقام منكم. فأما المثلة فمنهي عنها، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمثل بهبار بن الأسود لأنه روع زينب حتى أجهضت، ثم نهي عن ذلك، وقال: لا مثلة، المثلة حرام.

وكتب إلى معاوية

الأصل: فإن البغي والزور يوتغان المرء في دينه ودنياه، ويبدیان خلله عند من يعيبه، وقد علمت أنك غير مدرك ما قضي فواته، وقد رام أقوام أمراً بغير الحق، فتألوا على الله فأكذبهم، فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله، ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه، وقد دعوتنا إلى حكم القرآن ولست من أهله، ولسنا إياك أجبنًا، ولكننا أجبنًا القرآن في حكمه، والسلام.

الشرح: يوتغان: يهلكان؛ والتوغ بالتحريك: الهلاك، وقد وتغ يوتغ وتغاً، أي أثم وهلك، وأوتغه الله: أهلكه الله، وأوتغ فلان دينه بالإثم.

قوله: فتألوا على الله، أي حلفوا، من الألية وهي اليمين، وفي الحديث: "من تألى على الله أكذبه الله"، ومعناه: من أقسم تجراً واقتداراً: لأفعلن كذا، أكذبه الله ولم يبلغ أمه.

وقد روي: تأولوا على الله أي حرفوا الكلم عن مواضعه، وتعلقوا بشبهة في تأويل القرآن انتصاراً لمذاهبهم وآرائهم، فأكذبهم الله بأن أظهر للعقلاء فساد تأويلاتهم. والأول أصح.

ويغبط فيه: يفرح ويسر، والغبطة: السرور، روي يغبط فيه أي يتمنى مثل حاله هذه.

قوله: ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه الباء التي هي حرف المضارعة عائدة على المكلف الذي أمكن الشيطان من قياده. يقول: إذا لم يجاذب الشيطان من قياده فإنه يندم؛ فأما من جاذبه قياده فقد قام بما عليه. ومثله قوله: ولسنا إياك أجبنًا قوله: والله ما حكمت مخلوقاً وإنما حكمت القرآن ومعنى مخلوقاً: بشراً لا محدثاً.

وكتب إلى معاوية أيضاً

الأصل: أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها، ولهجاً بها، ولن يستغني صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغه منها، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، ونقض ما أبرم، ولو اعتبرت بما مضى، حفظت ما بقي؛ والسلام.

الشرح: هذا كما قيل في المثل: صاحب الدنيا كشارب ماء البحر؛ كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، والأصل في هذا قول الله تعالى: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا ابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب"، وهذا من القرآن الذي رفع ونسخت تلاوته.

وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب وقال : إن أمير المؤمنين رضي الله عنه كتبه إلى عمرو بن العاص، وزاد فيه زيادة لم يذكرها الرضي: أما بعد؛ فإن الدنيا مشغلة عن الآخرة، وصاحبها منهوم عليها، لم يصب شيئاً منها قط إلا فتحت عليه حرصاً، وأدخلت عليه مؤنة تزيد رغبة فيها؛ ولن يستغني صاحبها بما نال عما لم يدرك، ومن وراء ذلك فراق ما جمع؛ والسعيد من وعظ بغيره، فلا تحبط أجرك أبا عبد الله ولا تشرك معاوية في باطله؛ فإن معاوية غمص الناس، وسفه الحق . والسلام.

قال نصر: وهذا أول كتاب كتبه علي رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص، فكتب إليه عمرو جوابه: أما بعد، فإن الذي فيه صلاحنا، وألفة ذات بيننا، أن تنيب إلى الحق، وأن تجيب إلى ما ندعوكم إليه من الشورى؛ فصبر الرجل منا نفسه على الحق، وعذره الناس بالمحاجة، والسلام.

قال نصر: فكتب علي رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتاباً غليظاً.

وهو الذي ضرب مثله فيه بالكلب يتبع الرجل، وهو مذكور في نهج البلاغة.

واللهج: الحرص.

ومعنى قوله رضي الله عنه: لو اعتبرت بما مضى حفظت ما بقي، أي لو اعتبرت بما مضى من عمرك لحفظت باقيه أن تنفقه في الضلال وطلب الدنيا وتضييعه.

وكتب إلى أمرائه على الجيوش

الأصل: من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رفعه إلى أصحاب المسالخ: أما بعد، فإن حقاً على الوالي ألا يغيره

على رعيته فضل ناله، ولا طول خص به، وأن يزيده ما قسم الله له من نعمه دنوا من عبادته، وعطفاً على إخوانه.

ألا وإن لكم عندي ألا أحتجز دونكم سراً إلا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم، ولا أؤخر لكم حقاً عن

محله، ولا أقف به دون مقطعه، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم

الطاعة، وألا تنكصوا عن دعوة، ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق، فإن أنتم لم تستقيموا لي على

ذلك، لم يكن أحد أهون علي من أعوج منكم، ثم أعظم له العقوبة، ولا يجد عندي فيها رخصة.

فخذوا هذا من أمرائكم، وأعطوهم من أنفسكم ما يصلح الله به أمركم، والسلام.

الشرح: أصحاب المسالخ: جماعات تكون بالثغر يحمون البيضة، والمسلحة هي الثغر، كالمرغبة، وفي الحديث: "كان أدنى

مسالخ فارس إلى العرب العذيب"؛ قال: يجب على الوالي ألا يتناول على الرعية بولايته، وما خص به عليهم من الطول

وهو الفضل؛ وأن تكون تلك الزيادة التي أعطيتها سبباً لزيادة دنوه من الرعية وحنوه عليهم.

ثم قال: لكم عندي ألا أحتجز دونكم بسر، أي لا أستتر. قال: إلا في حرب، وذلك لأن الحرب يحمد فيها طي الأسرار،

والحرب خدعة.

ثم قال: ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم، أي أظهركم على كل ما في نفسي مما يحسن أن أظهركم عليه؛ فأما أحكام

الشريعة والقضاء على أحد الخصمين فإنني لا أعلمكم به قبل وقوعه؛ كيلا تفسد القضية بأن يحتال ذلك الشخص لصرف الحكم عنه.

ثم ذكر أنه لا يؤخر لهم حقاً عن محله يعني العطاء وأنه لا يقف دون مقطعه، والحق ههنا غير العطاء، بل الحكم، قال زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث

يمين أو نفار أو جلاء

أي متى تعين الحكم حكمت به وقطعت ولا أفق، ولا أتجسس.

ولما استوفى ما شرط لهم قال: فإذا أنا وفيت بما شرطت على نفسي وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة.

ثم أخذ في الإشتراط عليهم كما شرط لهم، فقال: ولي عليكم ألا تنكصوا عن دعوة، أي لا تتقاعسوا عن الجهاد إذا دعوتكم إليه، ولا تفرطوا في صلاح؛ أي إذا أمكنتكم فرصة، أو رأيتم مصلحة في حرب العدو أو حماية الثغر، فلا تفرطوا فيها فتنفوت. وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق؛ أي تكابدوا المشاق العظيمة؛ ولا يهولنكم خوضها إلى الحق.

ثم توعدهم إن لم يفعلوا ذلك، ثم قال: فخذوا هذا من أمرائكم؛ ليس يعني به أن على هؤلاء أصحاب المسالح أمراء من قبله رضي الله عنه كالواسطة بينهم وبينه، بل من أمرائكم؛ يعني مني ومن يقوم في الخلافة مقامي بعدي، لأنه لو كان الغرض هو الأول لما كان محلهم عنده أن يقول: ألا أحتجز دونكم بسر ولا أطوي دونكم أمراً، لأن محل من كان بتلك الصفة دون هذا.

وكتب إلى عماله على الخراج

الأصل: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أصحاب الخراج:

أما بعد؛ فإن من لم يحذر ما هو سائر إليه، لم يقدم لنفسه ما يحرزها.

واعلموا أن ما كلفتم يسير، وأن ثوابه كثير، ولو لم يكن فيما نهي الله عنه من البغي والعدوان عقاب يخاف، لكان في ثواب اجتنابه ما لا عذر في ترك طلبه؛ فأنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنكم خزان الرعية، ووكلاء الأئمة، وسفراء الأئمة، ولا تحشموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعن الناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبداً، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم، ولا تمسن مال أحد من الناس مصل ولا معاهد، إلا أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الإسلام، فإنه لا ينبغي للمسلم أن يدع ذلك في أيدي أعداء الإسلام، فيكون شوكة عليه.

ولا تدخروا أنفسكم نصيحة، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة، ولا دين الله قوة.

وأبلوه في سبيل ما استوجب عليكم، فإن الله سبحانه قد اصطنع عندنا وعندكم أن نشكره بمجهدنا، وأن ننصره بما بلغت قوتنا، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الشرح: يقول: لو قدرنا أن القبائح العقلية كالظلم والبغي لا عقاب على فعلها بل في تركها ثواب فقط؛ لم يكن الإنسان معذوراً إذا فرط في ذلك الترك؛ لأنه يكون قد حرم نفسه نفعاً هو قادر على إيصاله إليها.

قوله: ولا تحشموا أحداً؛ أي لا تغضبوا طالب حاجة فتقطعوه عن طلبها، أحشمت زيدا، وجاء حشمته، وهو أن يجلس إليك فتغضبه وتؤذيه. وقال ابن الأعرابي: حشمته: أحجلته، وأحشمته: أغضبته، والاسم الحشمة، وهي الاستحياء والغضب.

ثم نهاهم أن يبيعوا لأرباب الخراج ما هو من ضرورياتهم كثياب أبدانهم وكداية يعتملون عليها، نحو بقر الفلاحة، وكعبد لا بد للإنسان منه يخدمه، ويسعى بين يديه.

ثم نهاهم عن ضرب الأبخار لاستيفاء الخراج.

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في عذاب العمال، فكتب إليه: كأني لك جنة من عذاب الله، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله! من قامت عليه بينة، أو أقر بما لم يكن مضطهداً مضطراً إلى الإقرار به، فحذه بأدائه؛ فإن كان قادراً عليه فاستأذ، وإن أبي فاحبس، وإن لم يقدر فخل سبيله؛ بعد أن تحلفه بالله إنه لا يقدر على شيء، فلا أن يلقوا الله بجناياتهم أحب إلي من أن ألقاه بدمائهم.

ثم نهاهم أن يعرضوا لمال أحد من المسلمين أو من المعاهدين؛ المعاهد ههنا الذمي أو من يدخل دار الإسلام من بلاد الشرك على عهد، إما لأداء رسالة، أو لتجارة ونحو ذلك، ثم يعود إلى بلاده.

ثم نهاهم عن الظلم وأخذ أموال الناس على طريق المصادرة والتأويل الباطل؛ قال: إلا أن تخافوا غائلة المعاهدين، بأن تجدوا عندهم خيولاً أو سلاحاً، وتظنوا منهم وثبة على بلد من بلاد المسلمين، فإنه لا يجوز الإغضاء عن ذلك حينئذ. قوله: وأبلوا في سبيل الله، أي اصطنعوا من المعروف في سبيل الله ما استوجب عليكم، يقال: هو يبلوه معروفاً، أي يصنعه إليه، قال زهير:

وأبلاههما خير البلاء الذي يبلو

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم

قوله رضي الله عنه: قد اصطنع عندنا وعندكم أن نشكره، أي لأن نشكره، بلام التعليل وحذفها، أي أحسن إلينا لنشكره، وحذفها أكثر نحو قوله تعالى: "لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم".

وكتب إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة.

الأصل: أما بعد فصلوا بالناس الظهر حتى تفيء الشمس مثل مريض العتر، وصلوا بهم العصر والشمس بيضاء حية في عضو من النهار حين يسار فيها فرسخان، وصلوا بهم المغرب حين يفطر الصائم، ويدفع الحاج إلى منى، وصلوا بهم العشاء حين يتوارى الشفق إلى ثلث الليل، وصلوا بهم الغداة والرجل يعرف وجه صاحبه، وصلوا بهم صلاة أضعفهم، ولا تكونوا فتانين.

اختلاف الفقهاء في أوقات الصلاة.

الشرح: قد اختلف الفقهاء في أوقات الصلاة، فقال أبو حنيفة: أول وقت الفجر إذا طلع الفجر الثاني؛ وهو المعترض في الأفق، وآخر وقتها ما لم تطلع الشمس. وأول وقت الظهر إذا زالت الشمس، وآخر وقتها إذا صار ظل كل شيء مثليه

سوى الزوال. وقال أبو يوسف ومحمد: آخر وقتها إذا صار الظل مثله.

قال أبو حنيفة: وأول وقت العصر إذا خرج وقت الظهر؛ وهذا على القولين، وآخر وقتها ما لم تغرب الشمس، وأول وقت المغرب إذا غربت الشمس، وآخر وقتها ما لم يغب الشفق؛ وهو البياض الذي في الأفق بعد الحمرة. وقال أبو يوسف ومحمد: هو الحمرة.

قال أبو حنيفة: وأول وقت العشاء إذا غاب الشفق، وهذا على القولين، وآخر وقتها ما لم يطلع الفجر. وقال الشافعي: أول وقت الفجر إذا طلع الفجر الثاني، ولا يزال وقتها المختار باقياً إلى أن يسفر، ثم يبقى وقت الجواز إلى طلوع الشمس.

وقال أبو سعيد الإصطخري من الشافعية؛ لا يبقى وقت الجواز، بل يخرج وقتها بعد الإسفار ويصلى قضاء؛ ولم يتابعه على هذا القول أحد. قال الشافعي: وأول وقت الظهر إذا زالت الشمس. وحكى أبو الطيب الطبري من الشافعية أن من الناس من قال: لا تجوز الصلاة حتى يصير الفيء بعد الزوال مثل الشراك.

وقال مالك: أحب أن يؤخر الظهر بعد الزوال بقدر ما يصير الظل ذراعاً؛ وهذا مطابق لما قال أمير المؤمنين رضي الله عنه حين تفيء الشمس كمربض العنز، أي كموضع تربض العنز، وذلك نحو ذراع أو أكثر بزيادة يسيرة.

قال الشافعي: وآخر وقت الظهر إذا صار ظل كل شيء مثله، ويعتبر المثل من حد الزيادة على الظل الذي كان عند الزوال، وبهذا القول قال أبو يوسف ومحمد؛ وقد حكيناه من قبل، وبه أيضاً قال الثوري وأحمد، وهو رواية الحسن بن زياد اللؤلؤي عن أبي حنيفة، فأما الرواية المشهورة عنه وهي التي رواها أبو يوسف فهو أن آخر وقت الظهر صيرورة الظل مثليه، وقد حكيناه عنه فيما تقدم.

وقال ابن المنذر: تفرد أبو حنيفة بهذا القول؛ وعن أبي حنيفة رواية ثالثة أنه إذا صار ظل كل شيء مثله خرج وقت الظهر؛ ولم يدخل وقت العصر إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه.

وقال أبو ثور ومحمد بن جرير الطبري: قدر أربع ركعات بين المثل والمثلين، يكون مشتركاً بين الظهر والعصر. وحكى عن مالك أنه قال: إذا صار ظل كل شيء مثله، فهو آخر وقت الظهر وأول وقت العصر، فإذا زاد على المثل زيادة بينة خرج وقت الظهر واختص الوقت بالعصر.

وحكى ابن الصباغ من الشافعية، عن مالك، أن وقت الظهر إلى أن يصير ظل كل شيء مثله وقتاً مختاراً، فأما وقت الجواز والأداء فأخره إلى أن يبقى إلى غروب الشمس قدر أربع ركعات؛ وهذا القول مطابق لمذهب الإمامية. وقال ابن جريج وعطاء: لا يكون مفراطاً بتأخيرها حتى تكون في الشمس صفرة.

وعن طاوس: لا يفوت حتى الليل.

فأما العصر، فإن الشافعي يقول: إذا زاد على المثل أدنى زيادة، فقد دخل وقت العصر؛ والخلاف في ذلك بينه وبين أبي حنيفة؛ لأنه يقول: أول وقت العصر إذا صار ظل كل شيء مثليه، وزاد عليه أدنى زيادة. وقد حكيناه عنه فيما تقدم. وكلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في العصر مطابق لمذهب أبي حنيفة، لأن بعد صيرورة الظل مثليه، هو الوقت الذي

تكون فيه الشمس حية بيضاء في عضو من النهار، حين يسار فيه فرسخان، وأما قبل ذلك فإنه فوق ذلك يسار من الفراسخ أكثر من ذلك، ولا يزال وقت الاختيار عند الشافعي للعمر باقياً حتى يصير ظل كل شيء مثليه؛ ثم يبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس.

وقال أبو سعيد الإصطخري من أصحابه: يصير قضاء بمجاوزة المثلين؛ فأما وقت المغرب فإذا غربت الشمس وغروبها سقط القرص.

وقال أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي من الشافعية: لا بد أن يسقط القرص ويغيب حجب الشمس، وهو الضياء المستعلي عليها كالم متصل بها، ولم يذكر ذلك من الشافعية أحد غيره.

وذكر الشاشي في كتاب حلية العلماء أن الشيعة قالت: أول وقت المغرب إذا اشتبكت النجوم. قال قد حكى هذا عنهم. ولا يساوي الحكاية، ولم تذهب الشيعة إلى هذا، وسنذكر قولهم فيما بعد.

وكلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في المغرب لا ينص على وقت معين لأنه عرف ذلك بكونه وقت الإفطار، ووقت ما يدفع الحاج، وكلا الأمرين يحتاج إلى تعريف كما يحتاج وقت الصلاة، اللهم إلا أن يكون قد عرف أمراء البلاد الذين يصلون بالناس من قبل هذا الكتاب متى هذا الوقت الذي يفطر فيه الصائم، ثم يدفع فيه الحاج بعينه، ثم يحيلهم في هذا الكتاب على ذلك التعريف المخصوص.

قال الشافعي: وللمغرب وقت واحد، وهو قول مالك.

وحكى أبو ثور عن الشافعي أن لها وقتين، وآخر وقتها إذا غاب الشفق. وليس بمشهور عنه، والمشهور القول الأول، وقد ذكرنا قول أبي حنيفة فيما تقدم، وهو امتداد وقتها إلى أن يغيب الشفق، وبه قال أحمد وداود.

واختلف أصحاب الشافعي في مقدار الوقت الواحد، فمنهم من قال: هو مقدر بقدر الطهارة وستر العورة والأذان والإقامة وفعل ثلاث ركعات، ومنهم من قدره بغير ذلك.

وقال أبو إسحاق الشيرازي منهم: التضييق إنما هو في الشروع، فأما الإستدامة فتجوز إلى مغيب الشفق.

فأما وقت العشاء، فقال الشافعي: هو أن يغيب الشفق وهو الحمرة، وهو قول مالك وأحمد وداود وأبي يوسف ومحمد، وقد حكينا مذهب أبي حنيفة فيما تقدم، وهو أن يغيب الشفق الذي هو البياض، وبه قال زفر والمزني.

قال الشافعي: وآخر وقتها المختار إلى نصف الليل، هذا هو قوله القديم، وهو مذهب أبي حنيفة، وقال في الحديد: إلى ثلث الليل. ويجب أن يحمل قول أمير المؤمنين رضي الله عنه في العشاء أنها إلى ثلث الليل على وقت الاختيار، ليكون مطابقاً لهذا القول، وبه قال مالك، وإحدى الروايتين عن أحمد. ثم يذهب وقت الاختيار؛ ويبقى وقت الجواز إلى طلوع الفجر الثاني. وقال أبو سعيد الإصطخري: لا يبقى وقت الجواز بعد نصف الليل، بل يصير قضاء.

فقد ذكرنا مذهبي أبي حنيفة والشافعي في الأوقات، وهما الإمامان المعبران في الفقه، ودخل في ضمن حكاية مذهب الشافعي ما يقوله مالك وأحمد وغيرهما من الفقهاء.

فأما مذهب الإمامية من الشيعة، فنحن نذكره نقلاً عن كتاب أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رحمه الله المعروف

بالمفيد بالرسالة المقنعة قال: وقت الظهر من بعد زوال الشمس إلى أن يرجع الفيء سبعي الشخص، وعلامة الزوال رجوع الفيء بعد انتهائه إلى النقصان، وطريق معرفة ذلك بالإصطرلاب أو ميزان الشمس، وهو معروف عند كثير من الناس، أو بالعمود المنصوب في الدائرة الهندية أيضاً، فمن لم يعرف حقيقة العمل بذلك، أو لم يجد آتته فلي نصب عوداً من خشب أو غيره في أرض مستوية السطح، ويكون أصل العود غليظاً ورأسه دقيقاً شبه المذرى الذي ينسج به التكك أو المسلة التي تخاط بها الأحمال، فإن ظل هذا العود يكون بلا شك في أول النهار أطول من العود، وكلما ارتفعت الشمس نقص من طوله حتى يقف القرص في وسط السماء، فيقف الفيء حينئذ، فإذا زال القرص عن الوسط إلى جهة المغرب رجع الفيء إلى الزيادة. فليعتبر من أراد الوقوف على وقت الزوال ذلك بخطط وعلامات يجعلها على رأس ظل العود عند وضعه في صدر النهار، وكلما نقص في الظل شيء علم عليه، فإذا رجع إلى الزيادة على موضع العلامة عرف حينئذ برجوعه أن الشمس قد زالت.

وبذلك تعرف أيضاً القبلة، فإن قرص الشمس يقف فيها وسط النهار، ويصير عن يسارها ويمين المتوجه إليها بعد وقوفها وزوالها عن القطب، فإذا صارت مما يلي حاجبه الأيمن من بين عينيه علم أنها قد زالت، وعرف أن القبلة تلقاء وجهه؛ ومن سبقت معرفته بجهة القبلة فهو يعرف زوال الشمس إذا توجه إليها، فرأى عين الشمس مما يلي حاجبه الأيمن؛ إلا أن ذلك لا يبين إلا بعد زوالها بزمان، ويبين الزوال من أول وقته بما ذكرناه من الإصطرلاب وميزان الشمس والدائرة الهندية والعمود الذي وصفناه، ومن لم يحصل له معرفة ذلك، أو فقد الآلة توجه إلى القبلة فاعتبر صيرورة الشمس على طرف حاجبه الأيمن وقت العصر من بعد الفراغ من الظهر، إذا صليت الظهر في أول أوقاتها أعني بعد زوال الشمس بلا فصل ويمتد إلى أن يتغير لون الشمس باصفرارها للغروب، وللمضطر والناسي إلى مغيبها بسقوط القرص عما تبلغه أبصارنا من السماء، وأول وقت المغرب مغيب الشمس، وعلامة مغيبها عدم الحمرة في المشرق المقابل للمغرب في السماء؛ وذلك أن المشرق في السماء مظل على المغرب، فما دامت الشمس ظاهرة فوق أرضنا فهي تلقي ضوءها على المشرق في السماء، فيرى حمرة فيها، فإذا ذهب الحمرة منه علم أن القرص قد سقط وغاب. وآخره أول وقت العشاء الآخرة، وأول وقتها مغيب الشمس وهو الحمرة في المغرب، وآخره مضي الثلث الأول من الليل، وأول وقت الغداة اعتراض الفجر، وهو البياض في المشرق يعقبه الحمرة في مكانه؛ ويكون مقدمة لطلوع الشمس على الأرض من السماء؛ وذلك أن الفجر الأول، وهو البياض الظاهر في المشرق يطلع طولاً ثم ينعكس بعد مدة عرضاً ثم يحمر الأفق بعده للشمس. ولا ينبغي للإنسان أن يصلي فريضة الغداة حتى يعترض البياض، وينتشر صعداً في السماء كما ذكرنا، وآخر وقت الغداة طلوع الشمس. هذا ما تقوله الفقهاء في مواقيت الصلاة.

فأما قوله رضي الله عنه: والرجل يعرف وجه صاحبه؛ فمعناه الإسفار، وقد ذكرناه.

وقوله رضي الله عنه: وصلوا بهم صلاة أضعفهم؛ أي لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدعوات الطويلة.

ثم قال: ولا تكونوا فتانين، أي لا تفتنوا الناس بإتباعهم وإدخال المشقة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة، نحو أن يحدث الإمام فيستخلف فيصلي الناس خلف خليفته، فإن ذلك لا يجوز على أحد

قولي الشافعي؛ ونحو أن يطيل الإمام الركوع والسجود، فيظن المأمومون أنه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان كثيرة؛ ونحو ذلك من مسائل يذكرها الفقهاء في كتبهم.

واعلم أن أمير المؤمنين رضي الله عنه إنما بدأ بصلاة الظهر، لأنها أول فريضة افترضت على المكلفين من الصلاة على ما كان يذهب إليه رضي الله عنه؛ وإلى ذلك تذهب الإمامية، وينصر قولهم تسميتها بالأولى؛ ولهذا بدأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بذكرها قبل غيرها؛ فأما من عدا هؤلاء فأول الصلاة المفروضة عندهم الصبح؛ وهي أول النهار. وأيضاً يتفرع على هذا البحث القول في الصلاة الوسطى، ما هي؟ فذهب جمهور الناس إلى أنها العصر، لأنها بين صلاتي نهار وصلاتي ليل؛ وقد رويوا أيضاً في ذلك روايات بعضها في الصحاح، وقياس مذهب الإمامية أنها المغرب؛ لأن الظهر إذا كانت الأولى كانت المغرب الوسطى؛ إلا أنهم يروون عن أئمتهم رضي الله عنهم أنها الظهر، ويفسرون الوسطى بمعنى الفضلى؛ لأن الوسط في اللغة هو خيار كل شيء، ومنه قوله تعالى: "جعلناكم أمة وسطاً"، وقد ذهب إلى أنها المغرب قوم من الفقهاء أيضاً.

وقال كثير من الناس: إنها الصبح، لأنها أيضاً بين صلاتي ليل وصلاتي نهار، ورووا أيضاً فيها روايات وهو مذهب الشافعي، ومن الناس من قال: إنها الظهر كقول الإمامية ولم يسمع عن أحد معتبراً أنها العشاء إلا قولاً شاذاً ذكره بعضهم. وقال: لأنها بين صلاتين لا تقصران.

وكتب الى للأشتر النخعي رحمه الله

لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن. الأصل: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعته، وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه؛ فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه.

وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات، ويتزعمها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء، إلا ما رحم الله. ثم اعلم يا مالك، أي قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده. فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت.

الشرح: نصره الله باليد: الجهاد بالسيف، وبالقلب الإعتقاد للحق، وباللسان قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تكفل الله بنصره من نصره، لأنه تعالى قال: "ولينصرن الله من ينصره".

والجمحات: منازعة النفس إلى شهواتها ومآربها، ونزعها بكفها.
ثم قال له: قد كنت تسمع أخبار الولاة، وتعيب قوماً وتمدح قوماً، وسيقول الناس في إمارتك الآن نحو ما كنت تقول في أمراء؛ فاحذر أن تعاب وتذم كما كنت تعيب وتذم من يستحق الذم.
ثم قال: إنما يستدل على الصالحين بما يكثر سماعه من ألسنة الناس بمدحهم والثناء عليهم؛ وكذلك يستدل على الفاسقين بمثل ذلك.

وكان يقال: السنة الرعية أقلام الحق سبحانه إلى الملوك.
ثم أمره أن يشح بنفسه، وفسر له الشح ما هو؟ فقال: أن تتصف منها فيما أحببت وكرهت، أي لا تمكنها من الإسترسال في الشهوات، وكن أميراً عليها، ومسيطرًا وقامعاً لها من التهور والاهتمام.
فإن قلت: هذا معنى قوله: فيما أحببت، فما معنى قوله: وكرهت؟

قلت: لأنها تكره الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات الشرعية ومن الواجبات العقلية، وكما يجب أن يكون الإنسان مهيمناً عليها في طرف الفعل يجب أن يكون مهيمناً عليها في طرف الترك.

الأصل: وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم؛ ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين؛ وإما نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك، مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك، وقد استكفأك أمرهم، وابتلاك بهم.

ولا تنصبن نفسك لحرب الله، فإنه لا يدي لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندمن على عفوه، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة. ولا تقولن إني مؤمر أمر فأطاع، فإن ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدين، وتقرب من الغير.

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أمة أو مخيلة، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من كربك، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك. إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال!

الشرح: أشعر قلبك الرحمة، أي اجعلها كالشعار له، وهو الثوب الملاصق للجسد؛ قال: لأن الرعية؛ إما أخوك في الدين، أو إنسان مثلك تقتضي رقة الجنسية وطبع البشرية الرحمة له.

قوله: ويؤتى على أيديهم، مثل قولك: ويؤخذ على أيديهم؛ أي يهذبون ويثقفون، يقال: خذ على يد هذا السفهيه، وقد حجر الحاكم على فلان، وأخذ على يده.

ثم قال: فنسبتهم إليك كنسبتك إلى الله تعالى، وكما تحب أن يصفح الله عنك ينبغي أن تصفح أنت عنهم.
قوله: لا تنصبن نفسك لحرب الله؛ أي لا تبارزه بالمعاصي. فإنه لا يدي لك بنقمته؛ اللام مقحمة، والمراد الإضافة، ونحوه قولهم: لا أبا لك.

قوله: ولا تقولن إني مؤمر؛ أي لا تقل: إني أمير ووال أمر بالشيء فأطاع.

والإدغال: الإفساد، ومنهكة للدين: ضعف وسقم.

ثم أمره عند حدوث الأبهة والعظمة عنده لأجل الرئاسة والإمرة أن يذكر عظمة الله تعالى وقدرته على إعدامه وإيجاده، وإماتته وإحيائه؛ فإن تذكر ذلك يطامن من غلوائه، أي يغض من تعظمه وتكبره، ويطأطأ منه.

والغرب. حد السيف، ويستعار للسطوة والسرعة في البطش والفتك.

قوله: وفيء؛ أي يرجع إليك بما بعد عنك من عقلك، وحرف المضارعة مضموم لأنه من أفاء.

ومساماة الله تعالى: مباراته في السمو وهو العلو.

الأصل: أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك هوى فيه من رعتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباد، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان لله حرباً حتى يترع أو يتوب. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم؛ فإن الله يسمع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يحجب برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة.

وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة؛ وإنما عمود الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم، وميلك معهم.

الشرح: قال له إنصف الله، أي قم له بما فرض عليك من العبادة والواجبات العقلية والسمعية.

ثم قال: وأنصف الناس من نفسك ومن ولدك وخاصة أهلك ومن تحبه وتميل إليه من رعتك، فمتى لم تفعل ذلك كنت ظالماً. ثم نهاه عن الظلم، وأكد الوصاية عليه في ذلك.

ثم عرفه أن قانون الإمارة الإجهاد في رضا العامة، فإنه لا مبالاة بسخط خاصة الأمير مع رضا العامة، فإما إذا سخطت العامة لم ينفعه رضا الخاصة، وذلك مثل أن يكون في البلد عشرة أو عشرون من أغنيائه، وذوي الثروة من أهله، يلزمون الوالي ويخدمونه ويسامرونه، وقد صار كالصديق لهم، فإن هؤلاء ومن ضارهم من حواشي الوالي وأرباب الشفاعات والقربات عنده لا يغنون عنه شيئاً عند تنكر العامة له، وكذلك لا يضر لسخط هؤلاء إذا رضيت العامة، وذلك لأن هؤلاء عنهم غنى، ولهم بدل، والعامة لا غنى عنهم ولا بدل منهم، ولأنهم إذا شغبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب، فلا يقاومهم أحد، وليس الخاصة كذلك.

ثم قال رضي الله عنه ونعم ما قال: ليس شيء أقل نفعاً، ولا أكثر ضرراً على الوالي من خواصه أيام الولاية، لأنهم ينقلون عليه بالحاجات، والمسائل والشفاعات، فإذا عزل هجروه ورفضوه حتى لو لقوه في الطريق لم يسلموا عليه. والصغو بالكسر والفتح والصغا مقصور: الميل.

الأصل: وليكن أبعد رعتك منك، وأشنأهم عندك، أطلبهم لمعائب الناس، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا

تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت؛ يستر الله منك ما تحب ستره من رعتك.

أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا يضح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

الشرح: أشأنهم عندك، أبغضهم إليك. وتغاب: تغافل، يقال: تغابي فلان عن كذا. ويضح: يظهر، والماضي وضح.

بعض ما ورد في النهي عن ذكر عيوب الناس، عاب رجل رجلاً عند بعض الأشراف فقال له: لقد استدلت على كثرة عيوبك بما تكثر فيه من عيوب الناس، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها. وقال الشاعر:

على عيب الرجال أولو العيوب

وأجراً من رأيت بظهر غيب

وقال آخر:

كم فيك من عيب وأنت تعيب !

يا من يعيب وعيبه متشعب

وفي الخبر المرفوع: "ادعوا الناس بغفلاتهم يعيش بعضهم مع بعض".

وقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: كنت أساير أبي ورجل معنا يقع في رجل، فالتفت أبي إلي فقال: يا بني؛ نزه سمعك عن استماع الخنا كما تتره لسانك عن الكلام به، فإن المستمع شريك القاتل، إنما نظر إلى أحبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولوردت كلمة جاهل في فيه لسعد رادها كما شقي قائلها. وقال ابن عباس، الحدث حدثان: حدث من فيك، وحدث من فرجك.

وعاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم؛ فقال له قتيبة: أمسك ويحك! فقد تلمظت بمضغة طالما لفظها الكرام. وممر رجل بجارين له ومعه ربة، فقال أحدهما لصاحبه: أفهمت ما معه من الريبة؟ قال: وما معه؟ قال: كذا، قال: عبيدي حر لوجه الله شكراً له تعالى إذ لم يعرفني من الشر ماعرفك.

وقال الفضيل بن عياض: إن الفاحشة لتشيع في كثير من المسلمين حتى إذا صارت إلى الصالحين كانوا لها خزاناً. وقيل لبرجمهر: هل من أحد لا عيب فيه؟ فقال: الذي لا عيب فيه لا يموت. وقال الشاعر:

ل مناع خير وسبابها

ولست بذئ نيرب في الرجا

أضاع العشيرة واغتابها

ولا من إذا كان في جانب

ولا أتعلم ألقابها

ولكن أطاوع ساداتها

وقال آخر:

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا

فيكشف الله ستراً من مساويكما

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا

ولا تعب أحداً منهم بما فيكما

وقال آخر:

ابدأ بنفسك فأنهها عن عيبها

فإذا انتهت عنه، فأنت حكيم

فهناك تعذر إن وعظت ويقندى

بالقول منك، ويقبل التعليم

فأما قوله رضي الله عنه: أطلق عن الناس عقدة كل حقد، فقد استوفى هذا المعنى زياد في خطبته البتراء فقال: وقد كانت بيني وبين أقوام إحن، وقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان منكم مسيئاً فليترع عن إساءته، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلال من بغضي لم أكشف عنه قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى ييدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره، ألا فليشمل كل امرئ منكم على ما في صدره، ولا يكونن لسانه شفرة تجري على ودجه.

بعض ما ورد في النهي عن سماع السعاية.

فأما قوله: ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فقد ورد في هذا المعنى كلام حسن، قال ذو الرياستين: قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازته، فامقت الساعي على سعائته؛ فإنه لو كان صادقاً كان لئيماً، إذ هتك العورة، وأضاع الحرمه. وعاتب مصعب بن الزبير الأحنف على أمر بلغه عنه فأنكره، فقال مصعب: أخبرني به الثقة، قال: كلا أيها الأمير، إن الثقة لا يبلغ.

وكان يقال: لو لم يكن من عيب الساعي إلا أنه أصدق ما يكون أضر ما يكون على الناس، لكان كافياً. كانت الأكاسرة لا تأذن لأحد أن يطبخ السكبا، وكان ذلك مما يختص به الملك، فرفع ساع إلى أنوشروان: إن فلاناً دعانا ونحن جماعة إلى طعام له وفيه سكبا، فوقع أنوشروان على رقعته: قد حمدنا نصيحتك، وذمنا صديقك على سوء اختياره للإخوان.

جاء رجل إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة عبد الملك على دمشق، فقال: أيها الأمير، إن عندي نصيحة، قال: اذكرها، قال: جاري رجوع من بعثه سراً، فقال: أما أنت فقد أخبرتنا أنك جاري سوء، فإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت كاذباً عاقبنك، وإن كنت صادقاً مقتنك، وإن تركتنا تركناك، قال: بل أتركك أيها الأمير. قال: فانصرف. ومثل هذا يحكى عن عبد الملك أن إنساناً سأله الخلوة، فقال لجلسائه: إذا شتمت! فانصرفوا، فلما هب الرجل للكلام قال له: اسمع ما أقول، إياك أن تمدحني فأنا أعرف بنفسك منك، أو تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب، أو تسعى بأحد إلي فأني لا أحب السعاية؛ قال: أفيأذن أمير المؤمنين بالانصراف! قال: إذا شئت. وقال بعض الشعراء:

لعمرك ما سب الأمير عدوه

ولكنما سب الأمير المبلغ

وقال آخر:

حرمت منائي منك إن كان ذ الذي

أتاك به الواشون عني كما قالوا

ولكنهم لما رأوك شريعة

إلي تواصوا بالنميمة واحتالوا

فقد صرت أذنًا للوشاة سميعة

ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا

وقال عبد الملك بن صالح لجعفر بن يحيى وقد خرج يودعه لما شخص إلى خراسان: أيها الأمير، أحب أن تكون لي كما قال الشاعر:

فكوني على الواشين لداء شعبة

كما أنا للواشي ألد شغوب

قال: بل أكون كما قال:

وإذا الواشي وشى يوماً بها

نفع الواشي بما جاء يضر

وقال العباس بن الأحنف:

ما حظك الواشون من رتبة

عندي ولا ضرك مغتاب

كأنهم أثنوا ولم يعلموا

عليك عندي بالذي عابوا

قوله رضي الله عنه: ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، مأخوذ من قول الله تعالى: "الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً"؛ قال المفسرون: الفحشاء ههنا البخل: ومعنى "يعدكم الفقر"، يخيل إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوفكم فتخافون فتبخلون.

قوله رضي الله عنه: فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله، كلام شريف عال على كلام الحكماء، يقول: إن بينها قدراً مشتركاً وإن كانت غرائز وطباع مختلفة، وذلك القدر المشترك هو سوء الظن بالله، لأن الجبان يقول في نفسه: إن أقدمت قتلت، والبخيل يقول: إن سمحت وأنفقت افتقرت، والحريص يقول: إن لم أجد وأجتهد وأدأب فإني ما أروم؛ وكل هذه الأمور ترجع إلى سوء الظن بالله، ولو أحسن الظن الإنسان بالله وكان يقينه صادقاً لعلم أن الأجل مقدر، وأن الرزق مقدر، وأن الغنى والفقر مقدران، وأنه لا يكون من ذلك إلا ما قضى الله تعالى كونه.

الأصل: شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأئمة، وإخوان الظلمة؛ وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل أرائهم ونفادهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه؛ أولئك أحف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً، وأقل لغيرك إلفاً.

فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن أثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع.

الشرح: نهى رضي الله عنه ألا يتخذ بطانة قد كانوا من قبل بطانة للظلمة، وذلك لأن الظلم وتحسينه قد صار ملكة ثابتة في أنفسهم، فبعد أن يمكنهم الخلو منها إذ قد صارت كالخلق الغريزي اللازم لتكرارها وصيرورتها عادة، فقد جاءت النصوص في الكتاب والسنة بتحريم معاونة الظلمة ومساعدتهم، وتحريم الإستعانة بهم، فإن من استعان بهم كان معيناً لهم، قال تعالى: "وما كنت متخذ المضلين عضداً"، وقال: "لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله". وجاء في الخبر المرفوع: "ينادي يوم القيامة: أين من برى لهم أي الظالمين قلعاً". أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول في الحجاج؟ قال: وما عسيت أن أقول فيه! هل هو إلا خطيئة من خطاياك، وشر من نارك؟ فلعنك الله ولعن الحجاج معك! وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز فقال: ما تقول في هذا؟ قال: ما أقول فيه! هذا رجل يشتمكم، فإذا أن تشتموه كما شتمكم، وإما أن تعفوا عنه. فغضب الوليد وقال لعمر: ما أظنك إلا خارجياً! فقال عمر: وما أظنك إلا مجنوناً! وقام فخرج مغضباً، ولحقه خالد بن الريان صاحب شرطة الوليد، فقال له ما دعاك إلى ما كلمت به أمير المؤمنين! لقد ضربت بيدي إلى قائم سيفي أنتظر متى يأمرني بضرب عنقك؟ قال: أو كنت فاعلاً لو أمرك؟ قال: نعم. فلما استخلف عمر جاء خالد بن الريان فوقف على رأسه متقلداً سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضع سيفك فإنك مطيعنا في كل أمر نأمرك به وكان بين يديه كاتب كان للوليد، فقال له: ضع أنت قلمك، فإنك كنت تضر به وتنفع، اللهم إني قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فو الله ما زالا وضعين مهينين حتى ماتا.

وروى الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين، قال لما خالط الزهري السلطان كتب أن له في الدين إليه: عافنا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك، فقد أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله عليك بما فهمك من كتابه، وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، فإنه تعالى قال: "لتبيننه للناس ولا تكتمونه". واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت، أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك إلى من لم يؤد حقاً، ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك أبا بكر قطباً تدور عليه رحا ظلمهم، وجسراً يعبرون عليه إلى بلائهم ومعاصيهم، وسلماً يصعدون فيه إلى ضلالتهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا من حالك ودينك! وما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً".

يا أبا بكر، إنك تعامل من لا يجهل، يحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيء زادك فقد حضر سفر بعيد؛ "وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء"، والسلام.

الأصل: والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على ألا يطروك ولا ييجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتدني من العزة.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمثلة سواء؛ فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلا صنهم ما ألزم نفسه.

الشرح: قوله: والصق بأهل الورع، كلمة فصيحة، يقول: اجعلهم خاصتك وخلصاءك.

قال: ثم رضهم على ألا يطروك، أي عودهم ألا يمدحوك في وجهك. ولا ييجحوك بباطل: لا يجعلوك ممن ييجح أي يفخر بباطل لم يفعله. كما ييجح أصحاب الأمراء الأمراء بأن يقولوا لهم: ما رأينا أعدل منكم ولا أسمح، ولا حمى هذا الشجر أمير أشد بأساً منكم! ونحو ذلك، وقد جاء في الخبر: "احثوا في وجوه المداحين التراب".

وقال عبد الملك لمن قام يساره: ما تريد! أتريد أن تمدحني وتصفي، أنا أعلم بنفسي منك.

وقام خالد بن عبد الله القسري إلى عمر بن عبد العزيز يوم يبعثه فقال: يا أمير المؤمنين، من كانت الخلافة زائنته فقد زينتها، ومن كانت شرفته فقد شرفتها، فإنك لكما قال القائل:

كان للدر حسن وجهك زينا

وإذا الدر زان حسن وجوه

فقال عمر بن عبد العزيز: لقد أعطي صاحبكم هذا مقولاً، وحرّم معقولاً. وأمره أن يجلس.

ولما عقد معاوية البيعة لابنه يزيد قام الناس يخطبون، فقال معاوية لعمر بن سعيد الأشدق: قم فاخطب يا أبا أمية، فقام فقال: أما بعد، فإن يزيد ابن أمير المؤمنين أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، إن افتقرتم إلى حلمه وسعكم، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم، وإن احتديتم ذات يده أغناكم وشمّلكم؛ جذع قارح؛ سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع، وهو خلف أمير المؤمنين، ولا خلف منه. فقال معاوية: أوسعت يا أبا أمية فاجلس، فإنما أردنا بعض هذا. وأثنى رجل على علي رضي الله عنه في وجهه ثناء أوسع فيه وكان عنده متهما فقال له: أنا دون ما تقول فوق ما في نفسك.

وقال ابن عباس لعتبة بن أبي سفيان وقد أثنى عليه فأكثر: رويداً فقد أمهيت يا أبا الوليد يعني بالغت، يقال أمهى حافر البئر، إذا استقصى حفرها.

فأما قوله رضي الله عنه: ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمثلة سواء، فقد أخذه الصابي فقال: وإذا لم يكن للمحسن ما يرفعه، وللمسيء ما يضعه، زهد المحسن في الإحسان، واستمر المسيء على الطغيان، وقال أبو الطيب:

وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

شر البلاد بلاد لا صديق بها

شهب البزاة سواء فيه والرخم

وشر ما قبضته راحتي قنص

وكان يقال: قضاء حق المحسن أدب للمسيء، وعقوبة المسيء جزاء للمحسن.

الأصل: وأعلم أنه ليس شيء بأدمى إلى حسن ظن وال برعيتيه من إحسانه إليهم، وتخفيفه المئونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية.

ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن، فيكون الأجر لمن سنّها، والوزر عليك. بما نقضت وأكثر مدارس العلماء، ومناقشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك؛ وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

الشرح: خلاصة صدر هذا الفصل، أن من أحسن إليك حسن ظنه فيك، ومن أساء إليك استوحش منك، وذلك لأنك إذا أحسنت إلى إنسان وتكرر منك ذلك الإحسان تبع ذلك اعتقادك أنه قد أحبك، ثم يتبع ذلك الاعتقاد أمر آخر، وهو أنك تحبه؛ لأن الإنسان مجبول على أن يحب من يحبه، وإذا أحببته سكنت إليه وحسن ظنك فيه، وبالعكس من ذلك إذا أسأت إلى زيد، لأنك إذا أسأت إليه وتكررت الإساءة تبع ذلك اعتقادك أنه قد أبغضك، ثم يتبع ذلك الاعتقاد أمر آخر، وهو أن تبغضه أنت، وإذا أبغضته انقبضت منه واستوحشت، وساء ظنك به.

قال المنصور للربيع: سلمي لنفسك؛ قال: يا أمير المؤمنين، ملأت يدي فلم يبق عندي موضع للمسألة؛ قال: فسلمي لولدك، قال: أسألك أن تحبه، فقال المنصور: يا ربيع، إن الحب لا يسأل، وإنما هو أمر تقتضيه الأسباب، قال: يا أمير المؤمنين، وإنما أسألك أن تزيد من إحسانك، فإذا تكرر أحبك، وإذا أحبك أحببته، فاستحسن المنصور ذلك. ثم نهاه عن نقض السنن الصالحة التي قد عمل بها من قبله من صالحى الأمة، فيكون الوزر عليه بما نقض، والأجر لأولئك بما أسسوا، ثم أمره بمطارحة العلماء والحكماء في مصالح عمله، فإن المشورة بركة، ومن استشار فقد أضاف عقلاً إلى عقله. ومما جاء في معنى الأول: قال رجل لإياس بن معاوية: من أحب الناس إليك؟ قال: الذين يعطوني، قال: ثم من؟ قال: الذين أعطيهم. وقال رجل لهشام بن عبد الملك: إن الله جعل العطاء محبة، والمنع مبغضة، فأعني على حبك، ولا تعني في بغضك.

الأصل: واعلم أن الرعية طبقات، لا يصفح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة، وكل قد سمي الله له سهمه، ووضع على حده وفريضته في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن؛ وليس تقوم الرعية إلا بهم، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، لما يحكمون من المعاهد، ويجمعون من المنافع، ويؤمنون عليه من خواص الأمور وعوامها؛ ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم، مما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة، الذين يحق رقدتهم ومعونتهم.

وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه.

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله تعالى من ذلك، إلا بالاهتمام والاستعانة بالله؛ وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل.

الشرح: قالت الحكماء: الإنسان مدني بالطبع؛ ومعناه أنه خلق خلقة لا بد معها من أن يكون منضماً إلى أشخاص من بني جنسه، وتمدناً في مكان بعينه، وليس المراد بالمتمدن ساكن المدينة ذات السور والسوق، بل لا بد أن يقيم في موضع ما مع قوم من البشر؛ وذلك لأن الإنسان مضطر إلى ما يأكله ويشربه ليقوم صورته، ومضطر إلى ما يلبسه، ليدفع عنه أذى الحر والبرد، وإلى مسكن يسكنه ليرد عنه عادية غيره من الحيوانات، وليكون متراً له ليتمكن من التصرف والحركة عليه، ومعلوم أن الإنسان وحده لا يستقل بالأموال التي عددها، بل لا بد من جماعة يحرث بعضهم لغيره الحرث، وذلك الغير يحوكم للحراث الثوب، وذلك الحائك يبي له غيره المسكن، وذلك البناء يحمل له غيره الماء، وذلك السقاء يكفيه غيره أمر تحصيل الآلة التي يطحن بها الحب ويعجن بها الدقيق، ويخبز بها العجين، وذلك المحصل لهذه الأشياء يكفيه غيره الاهتمام بتحصيل الزوجة التي تدعو إليها داعية الشبق، فيحصل مساعدة بعض الناس لبعض، لولا ذلك لما قامت الدنيا، فهذا معنى قوله رضي الله عنه: إنهم طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غناء ببعضها عن بعض.

ثم فصلهم وقسمهم فقال: منهم الجند، ومنهم الكتاب، ومنهم القضاة، ومنهم العمال، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذمة، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين، ومنهم التجار، ومنهم أرباب الصناعات. ومنهم ذوو الحاجات والمسكنة، وهم أدون الطبقات.

ثم ذكر أعمال هذه الطبقات فقال: الجند للحماية، والخراج يصرف إلى الجند والقضاة والعمال والكتاب لما يحكمونه من المعاهد، ويجمعونه من المنافع، ولا بد لهؤلاء جميعاً من التجار لأجل البيع والشراء الذي لا غناء عنه، ولا بد لكل من أرباب الصناعات كالحداد والنجار والبناء وأمثالهم. ثم تلي هؤلاء الطبقة السفلى، وهم أهل الفقر والحاجة الذين تجب معونتهم والإحسان إليهم.

وإنما قسمهم في هذا الفصل هذا التقسيم تمهيداً لما يذكره فيما بعد، فإنه قد شرع بعد هذا الفصل، فذكر طبقة طبقة وصنفاً صنفاً، وأوصاه في كل طبقة وفي كل صنف منهم بما يليق بحاله، وكأنه مهد هذا التمهيد، كالفهرست لما يأتي بعده من التفصيل.

الأصل: قول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأطهرهم جيئاً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطيء عن الغضب؛ ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء؛ ومن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف. ثم الصق بذوي المروءات والأحساب؛ وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة؛ فإنهم جماع من الكرم؛ وشعب من العرف.

ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدتهما؛ ولا يتفاقم في نفسك شيء قويتهم به. ولا تحقرن لطفاً تعاهدكم به وإن قل؛ فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك.

ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها؛ فإن ليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به؛ وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه؛ وليكن أثر رؤوس جنودك عندك من وإساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته، بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم، حتى يكون همهم همّاً واحداً في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك. ولا

تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم، وقلة استئصال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم. فافسح في آمالهم، وواصل من حسن الثناء عليهم، وتعدد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن فعالهم تهرج الشجاع، وتخرض الناكل؛ إن شاء الله.

ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره، ولا تقصرون به دون غاية بلائه. ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً، واردد إلى الله ورسوله ما يضلحك من الخطوب، ويشتهب عليك من الأمور، فقد قال الله سبحانه لقوم أحب إرشادهم: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول"، فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة.

الشرح: هذا الفصل مختص بالوصاية فيما يتعلق بأمراء الجيش، أمره أن يولي أمر الجيش من جنوده من كان أنصحهم لله في ظنه، وأظهرهم جيباً، أي عفيفاً أميناً؛ ويكنى عن العفة والأمانة بطهارة الجيب، لأن الذي يسرق يجعل المسروق في جيبه. فإن قلت: وأي تعلق لهذا بولادة الجيش؟ إنما ينبغي أن تكون هذه الوصية في ولاة الخراج!. قلت: لا بد منها في أمراء الجيش لأجل الغنائم.

ثم وصف ذلك الأمير فقال: ممن يبطىء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، أي يقبل أدنى عذر، ويستريح إليه، ويسكن عنده. ويرؤف على الضعفاء، يرفق بهم ويرحمهم، والرفقة: الرحمة. وينبو عن الأقوياء: يتجافى عنهم ويبعد، أي لا يمكنهم من الظلم والتعدي على الضعفاء. ولا يثيره العنف: لا يهيج غضبه عنف وقسوة. ولا يقعد به الضعف، أي ليس عاجزاً. ثم أمره أن يلصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات، أي يكرمهم ويجعل معوله في ذلك عليهم ولا يتعداهم إلى غيرهم، وكان يقال: عليكم بذوي الأحساب؛ فإن هم لم يتكرموا استحيوا.

ثم ذكر بعدهم أهل الشجاعة والسخاء، ثم قال: إنما جماع من الكرم، وشعب من العرف؛ من ههنا زائدة؛ وإن كانت في الإيجاب على مذهب أبي الحسن الأخفش، أي جماع الكرم، أي يجمعه كقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الكرم جماع الإثم".

والعرف: المعروف.

وكذلك من في قوله: وشعب من العرف أي وشعب العرف، أي هي أقسامه وأجزاؤه، ويجوز أن تكون من على حقيقتها للتبعية، أي هذه الخلاصة جملة من الكرم وأقسام المعروف؛ وذلك لأن غيرها أيضاً من الكرم والمعروف، نحو العدل والعفة.

قوله: ثم تفقد من أمورهم الضمير ههنا يرجع إلى الأجناد لا إلى الأمراء لما سنذكره؛ مما يدل الكلام عليه. فإن قلت: إنه لم يجر للأجناد ذكر فيما سبق؛ وإنما المذكور الأمراء، قلت: كلا بل سبق ذكر الأجناد، وهو قوله: الضعفاء والأقوياء.

وأمره رضي الله عنه أن يتفقد من أمور الجيش ما يتفقد الوالدان من حال الولد؛ وأمره ألا يعظم عنده ما يقويهم به وإن

عظم، وألا يستحقر شيئاً تعهدهم به وإن قل، وألا يمنعه تفقد جسيم أمورهم عن تفقد صغيرها. وأمره أن يكون أثر رؤوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه من واساهم في معونته؛ هذا هو الضمير الدال على أن الضمير المذكور أولاً للجند لا لأمراء الجند؛ لولا ذلك لما انتظم الكلام.

قوله: من خلوف أهليهم، أي ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم.

ثم قال: لا يصح نصيحة الجند لك إلا بحيطتهم على ولائهم؛ أي بتعطفهم عليهم وتحننهم، وهي الحيلة على وزن الشيمة، مصدر حاطه يحوطه حوطاً وحياطاً، وحيطه، أي كلاءه ورعاه، وأكثر الناس يروونها إلا بحيطتهم بتشديد الياء وكسرهما، والصحيح ما ذكرناه.

قوله: وقله استثقال دولهم؛ أي لا تصح نصيحة الجند لك إلا إذا أحبوا أمراءهم ثم لم يستثقلوا دولهم؛ ولم يتمنوا زوالها.

ثم أمره أن يذكر المجالس والمحافل بلاء ذوي البلاء منهم؛ فإن ذلك مما يرهف عزم الشجاع ويحرك الجبان.

قوله: ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره، أي اذكر كل من أبلى منهم مفرداً غير مضموم ذكر بلائه إلى غيره، كي لا يكون مغموراً في جنب ذكر غيره.

ثم قال له: لا تعظم بلاء ذوي الشرف لأجل شرفهم، ولا تحقر بلاء ذوي الضعة لضعة أنسابهم، بل اذكر الأمور على حقائقها.

ثم أمره أن يرد إلى الله ورسوله ما يضلعه من الخطوب؛ أي ما يثوده ويميله لتفله، وهذه الرواية أصح من رواية من رواها بالظاء؛ وإن كان لتلك وجه.

رسالة الإسكندر إلى أرسطو وجواب أرسطو له.

و ينبغي أن نذكر في هذا الموضع رسالة أرسطو إلى الإسكندر في معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوي الأحساب، وأن يخصهم بالرياسة والإمرة؛ ولا يعدل عنهم إلى العامة والسفلة، فإن في ذلك تشييداً لكلام أمير المؤمنين رضي الله عنه، ووصيته.

لما ملك الإسكندر إيران شهر وهو العراق مملكة الأكاسرة وقتل دارا بن دارا كتب إلى أرسطو وهو ببلاد اليونان: عليك أيها الحكيم منا السلام، أما بعد فإن الأفلاك الدائرة، والعلل السماوية؛ وإن كانت أسعدتنا بالأمور التي أصبح الناس لنا بها دائبين، فإننا جد واحد لمس الاضطراب إلى حكمتك، غير جاحدين لفضلك والإقرار بمثلتك، والإستئمان إلى مشورتك والإقتداء برأيك؛ والاعتماد لأمرك ونهيك، لما بلونا من جدا ذلك علينا، وذقنا من جنا منفعتك، حتى صار ذلك بنجوعه فينا وترسخه في أذهاننا وعقولنا كالغذاء لنا، فما ننفك نعول عليه، ونستمد منه استمداد الجداول من البحور، وتعويل الفروع على الأصول، وقوة الأشكال بالأشكال. وقد كان مما سيق إلينا من النصر والفلاح، وأتيح لنا من الظفر، وبلغنا في العدو من النكاية والبطش ما يعجز القول عن وصفه، ويقصر شكر المنعم عن موقع الإنعام به، وكان من ذلك أنا جاوزنا أرض سورية والجزيرة إلى بابل وأرض فارس، فلما حللنا بعقوة أهلها وساحة بلادهم، لم يكن إلا ريثما تلقانا نفر منهم برأس ملكهم هدية إلينا، وطلباً للحظوة عندنا، فأمرنا بصلب من جاء به وشهرته لسوء بلائه، وقلة ارعائه

ووفائه؛ ثم أمرنا بجمع من كان هناك من أولاد ملوكهم وأحرارهم وذوي الشرف منهم؛ فرأينا رجالاً عظيمة أجسامهم وأحلامهم، حاضرة ألباهم وأذهابهم، رائعة مناظرهم ومناطقهم، دليلاً على أن ما يظهر من روائهم ومنطقهم أن وراءه من قوة أيديهم، وشدة بجدتهم وبأسهم ما لم يكن ليكون لنا سبيل إلى غلبتهم وإعطائهم بأيديهم، لولا أن القضاء أداهم، وأظفروا بهم، وأظهرنا عليهم، ولم نر بعيداً من الرأي في أمرهم أن نستأصل شأفتهم، ونجتث أصلهم، ونلحقهم بمن مضى من أسلافهم، لتسكن القلوب بذلك الآمن إلى جرائرهم وبوائقهم؛ فرأينا ألا نعجل بإسعاف بادئ الرأي في قتلهم دون الإستظهار عليهم بمشورتك فيهم. فرفع إلينا رأيك فيما استشرناك فيه بعد صحته عندك، وتقليبك إياه بجلي نظرك، وسلام أهل السلام، فليكن علينا وعليك . فكتب إليه أرسطو: لملك الملوك، وعظيم العظماء، الإسكندر المؤيد بالنصر على الأعداء، المهدى له الظفر بالملوك، من أصغر عبيده وأقل خوله؛ أرسطو طاليس البخوع بالسجود والتذلل في السلام، والإذعان في الطاعة:

أما بعد، فإنه لا قوة بالمنطق وإن احتشد الناطق فيه، واجتهد في تثقيف معانيه، وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقل ما تناله القدرة من بسطة علو الملك وسمو ارتفاعه عن كل قول، وإبرازه على كل وصف، واغترافه بكل إطناب. وقد كان تقرر عندي من مقدمات أعلام فضل الملك في سهولة سبقه، وبروز شأوه، وبمن نقيته، مذ أدت إلي حاسة بصري صورة شخصه، واضطرب في حس سمعي صوت لفظه، ووقع وهمي على تعقيب نجاح رأيه، أيام كنت أؤدي إليه من تكلف تعليمي إياه ما أصبحت قاضياً على نفسي بالحاجة إلى تعلمه منه. ومهما يكن مني إليه في ذلك، فإنما هو عقل مردود إلى عقله، مستنبطة أواليه وتواليه من علمه وحكمته. وقد جلا إلي كتاب الملك ومخاطبته إياي ومسألته لي عما لا يتخالجي الشك في لقاح ذلك وإنتاجه من عنده، فعنه صدر وعليه ورد؛ وأنا فيما أشير به على الملك وإن اجتهدت فيه واحتشدت له، وتجاوزت حد الوسع والطاقة مني في استنطاقه واستقصائه كالعدم مع الوجود، بل كما لا يتجزأ في جنب معظم الأشياء، ولكني غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سأل، مع علمي و يقيني بعظيم غناه عني، وشدة فاقتي إليه، وأنا راد إلى الملك ما اكتسبته منه، ومشير عليه بما أخذته منه، ففائل له: إن لكل تربة لا محالة قسماً من الفضائل، وإن لفارس قسمها من النجدة والقوة، وإنك إن تقتل أشرافهم تخلف الوضعاء على أعقابهم، وتورث سفلتهم على منازل عليتهم، وتغلب أدنياءهم على مراتب ذوي أخطارهم؛ ولم يبتل الملوك قط ببلاء هو أعظم عليهم وأشد توهيناً لسلطانهم من غلبة السفلة، وذو الوجوه، فاحذر الحذر كله أن تمكن تلك الطبقة من الغلبة والحركة، فإنه إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجم دهمهم منه ما لا روية فيه، ولا بقية معه؛ فانصرف عن هذا الرأي إلى غيره، واعمد إلى من قبلك من أولئك العظماء والأحرار، فوزع بينهم مملكتهم، وألزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحيته، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه، فإن المتسمى بالملك لازم لإسمه، والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره، فليس ينشب ذلك أن يوقع كل ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطعاً وتغالباً على الملك؛ وتفاحراً بالمال والجند، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك وأوتارهم فيك، ويعود حرمهم لك حرباً بينهم، وحنقهم عليك حنقاً منهم على أنفسهم، ثم لا يزدادون في ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها استقامة؛ إن دنوت منهم دانوا لك، وإن نأيت عنهم تعززوا بك، حتى يثب من ملك منهم على جاره باسمك، ويستربهه بجندك، وفي ذلك شاغل لهم عنك، وأمان لإحداثهم بعدك، وإن كان لا أمان للدهر، ولا ثقة بالأيام.

قد أدت إلى الملك ما رأيته لي حظاً، وعلي حقاً، من إجابتي إياه إلى ما سألي عنه، ومحضته النصيحة فيه، والملك أعلى عينا، وأنفذ روية، وأفضل رأياً، وأبعد همة فيما استعان بي عليه؛ وكلفني بتبيينه والمشورة عليه فيه. لا زال الملك متعرفاً من عوائد النعم وعواقب الصنع، وتوطيد الملك، وتنفيس الأجل، ودرك الأمل، ما تأتي فيه قدرته على غاية قصوى ما تناله قدرة البشر!

والسلام الذي لا انقضاء له، ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء، فليكن على الملك.
قالوا: فعمل الملك برأيه، واستخلف على إيران شهر أبناء الملوك والعظماء من أهل فارس، فهم ملوك الطوائف الذين بقوا بعده؛ والمملكة موزعة بينهم إلى أن جاء أردشير بن بابك فانزع الملك منهم.
الأصل: ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدن فهم دون أقصاه. وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطرأ، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل.
ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيح علقته، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المتزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا.
الشرح: تمحكه الخصوم: تجعله ماحكاً، أي لجوجاً، محك الرجل، أي لج، وماحك زيد عمراً؛ أي لاجه.

قوله: ولا يتمادى في الزلة، أي إن ذل رجوع وأناب، والرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل.
قوله: ولا يحصر من الفيء هو المعنى الأول بعينه، والفيء: الرجوع، إلا أن ههنا زيادة، وهو أنه لا يحصر، أي لا يعيا في المنطق، لأن من الناس من إذا زل حصر عن أن يرجع وأصابه كالفهاة والعي خجلاً.
قوله: ولا تشرف نفسه، أي لا تشفق. والإشراف: الإشفاق والخوف، وأنشد الليث:

علينا وحياها علينا تمضرا

ومن مضر الحمراء إشراف أنفس

وقال عروة بن أذينة:

أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

لقد علمت وما الإشراف من خلقي

والمعنى: ولا تشفق نفسه، وتخاف من فوت المنافع والمرافق.
ثم قال: ولا يكتفي بأدن فهم، أي لا يكون قانعاً بما يخطر له بادية الرأي من أمر الخصوم، بل يستقصي ويبحث أشد البحث.
قوله: وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، أي تضجراً، وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه رضي الله عنه، فإن القلق والضجر والتبرم قبيح، وأقبح ما يكون من القاضي.

قوله: وأصرمهم، أي أقطعهم وأمضاهم. وازدهاه كذا، أي استخفه. والإطراء: المدح. والإغراء: التحريض. ثم أمره أن يتطلع على أحكامه وأقضيته، وأن يفرض له عطاء واسعاً يملأ عينه، ويتعفف به عن المرافق والرشوات، وأن يكون قريب المكان منه، كثير الاختصاص به ليمنع قربه من سعاية الرجال به وتقبيحهم ذكره عنده. ثم قال: إن هذا الدين قد كان أسيراً، هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه، وأنهم لم يكونوا يقضون بالحق عنده، بل بالهوى لطلب الدنيا. وأما أصحابنا فيقولون: رحم الله عثمان! فإنه كان ضعيفاً، واستولى عليه أهله، قطعوا الأمور دونه، فإثمهم عليهم وعثمان بريء منهم.

بعض ما ورد في القضاة ونوادرهم،

قد جاء في الحديث المرفوع: "لا يقضي القاضي وهو غضبان". وجاء في الحديث المرفوع أيضاً: "من ابتلي بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومجلسه ومقعه". دخل ابن شهاب على الوليد أو سليمان فقال له: يابن شهاب، ما حديث يرويه أهل الشام؟ قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: إنهم يروون أن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات، ولم يكتب عليه السيئات، فقال: كذبوا يا أمير المؤمنين، أيما أقرب إلى الله؟ نبي أم خليفة؟ قال: بل نبي؛ قال: فإنه تعالى يقول لنبيه داود: "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد". فقال سليمان: إن الناس ليغروننا عن ديننا. وقال بكر بن عبد الله العدوي لابن أوطاة وأراد أن يستقضيه: والله ما أحسن القضاء، فإن كنت صادقاً لم يحل لك أن تستقضي من لا يحسن، وإن كنت كاذباً فقد فسقت، والله لا يحل أن تستقضي الفاسق. وقال الزهري: ثلاث إذا كن في القاضي فليس بقاض، أن يكره اللائمة، ويجب المحمدة، ويخاف العزل. وقال محارب بن زياد للأعمش: وليت القضاء فبكي أهلي، فلما عزلت بكى أهلي، فما أدري مم ذلك؟ قال: لأنك وليت القضاء وأنت تكرهه وتجزع منه، فبكى أهلك لجزعك، وعزلت عنه فكرهت العزل وجزعت فبكى أهلك لجزعك. قال: صدقت. أتى ابن شيرمة بقوم يشهدون على قراح نخل، فشهدوا وكانوا عدولاً فامتنحهم فقال: كم في القراح من نخلة؟ قالوا: لا نعلم، فرد شهادتهم، فقال له أحدهم: أنت أيها القاضي تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة، فأعلمنا كم فيه من اسطوانة؟ فسكت وأجازهم.

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة يتلقى الخيزران، وقد أقبلت تريد الحج، وقد كان استقضي وهو كاره، فأقام شاهي، فأقام بها ثلاثاً، فلم تواف، فخفف زاده وما كان معه، فجعل يبيله بالماء ويأكله بالملح، فقال العلاء بن المنهال الغنوي:

بأن قد أكرهوك على القضاء

تلقى من يحج من النساء

فإن كان الذي قد قلت حقاً

فمالك موضعاً في كل يوم

مقيماً في قرى شاهي ثلاثاً

بلا زاد سوى كسر وماء!

وتقدمت كلثم بنت سريع مولى عمرو بن حريث وكانت جميلة وأخوها الوليد بن سريع إلى عبد الملك بن عمير؛ وهو قاض بالكوفة، ففضى لها على أخيها، فقال هذيل الأشجعي:

أتاه وليد بالشهود يسوقهم

على ما ادعى من صامت المال والخول

وجاءت إليه كلثم وكلامها

شفاء من الداء المخامر والخبل

فأدلى وليد عند ذاك بحقه

وكان وليد ذا مرأى وذا جدل

فدلتهت القبطي حتى قضى لها

بغير قضاء الله في محكم الطول

فلو كان من في القصر يعلم علمه

لما استعمل القبطي فينا على عمل

له حين يقضي للنساء تخاوص

وكان وما فيه التخاوص والحو

إذا ذات دل كلمته لحاجة

فهم بأن يقضي تتحنح أوسعل

وبرق عينيه ولاك لسانه

يرى كل شيء ما خلا وصلها جلل

وكان عبد الملك بن عمير يقول: لعن الله الأشجعي، والله لربما جاءتني السعلة والنحنة وأنا في المتوضأ فأردهما لما شاع من شعره.

كتب عمر بن الخطاب إلى معاوية: أما بعد، فقد كتبت إليك في القضاء بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً؛ الزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ بأفضل حظك: إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينّة العادلة أو اليمين القاطعة، وادن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله؛ وإنما ضيع حقه من لم يرفق به، وآس بين الخصوم في لحظك ولفظك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء. وكتب عمر إلى شريح: لا تسارر ولا تضارر، ولا تبع ولا تتبع في مجلس القضاء، ولا تقض وأنت غضبان، ولا شديد الجوع، ولا مشغول القلب.

شهد رجل عند سوار القاضي، فقال: ما صناعتك؟ فقال: مؤدب؛ قال: أنا لا أجزر شهادتك، قال: ولم؟ قال: لأنك تأخذ على تعليم القرآن أجراً، قال: وأنت أيضاً تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً، قال: إنهم أكرهوني؛ قال: نعم أكرهوك على القضاء، فهل أكرهوك على أخذ الأجر! قال: هلم شهادتك. ودخل أبو دلامة ليشهد عند ابن أبي ليلى، فقال حين جلس بين يديه:

إذا الناس غطوني تغطيت عنهم

وإن بحثوا عني ففهم مباحث

وإن حفروا بئري حفرت بئارهم

ليعلم ما تخفيه تلك النبائث

فقال: بل نغطيك يا أبا دلامة ولا نبحتك؛ وصرفه راضياً، وأعطى المشهود عليه من عنده قيمة ذلك الشيء. كان عامر بن الظرب العدواني حاكم العرب وقاضيهما، فترل به قوم يستفتونه في الخنثى وميراثه؛ فلم يدر ما يقضي فيه، وكان له جارية اسمها خصيلة، ربما لامها في الإبطاء عن الرعي وفي الشيء يجده عليها، فقال لها: يا خصيلة، لقد أسرع هؤلاء القوم في غنمي، وأطالوا المكث؛ قالت: وما يكبر عليك من ذلك؟ أتبعه ماله وخلاك ذم، فقال لها: مسي خصيل بعدها أو روعي.

وقال أعرابي لقوم يتنازعون: هل لكم في الحق أو ما هو خير من الحق؟ قيل: وما الذي هو خير من الحق؟ قال: التحاط والهضم؛ فإن أخذ الحق كله مر.

وعزل عمر بن عبد العزيز بعض قضاته، فقال: لم عزلتني؟ فقال: بلغني أن كلامك أكثر من كلام الخصمين إذا تحاكما إليك.

ودخل إياس بن معاوية الشام وهو غلام، فقدم خصماً إلى باب القاضي في أيام عبد الملك، فقال القاضي: أما تستحي! تخاصم وأنت غلام شيخاً كبيراً، فقال: الحق أكبر منه، فقال: اسكت ويحك! قال: فمن ينطق بحجتي إذاً! قال: ما أظنك تقول اليوم حقاً حتى تقوم، فقال: لا إله إلا الله فقام القاضي ودخل على عبد الملك وأخبره، فقال: اقض حاجته وأخرجه من الشام كي لا يفسد علينا الناس.

واختصم أعرابي وحضري إلى قاض، فقال الأعرابي: أيها القاضي، إنه وإن هملج إلى الباطل، فإنه عن الحق لعطوف. ورد رجل جارية على رجل اشتراها منه بالحمق، فترافعا إلى إياس بن معاوية، فقال لها إياس: أي رجليك أطول؟ فقالت: هذه، فقال: أتذكرين ليلة ولدتك أمك؟ قالت: نعم، فقال إياس: رد ردًا!

وجاء في الخبر المرفوع من رواية عبد الله بن عمر: "لا قدست أمة لا يقضى فيها بالحق"؛ ومن الحديث المرفوع من رواية أبي هريرة: "ليس أحد يحكم بين الناس إلا جيء به يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه، فكاه العدل، وأسلمه الجور". واستعدى رجل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلي جالس، فالتفت عمر إليه، فقال: قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك، فقام فجلس معه وتناظرا، ثم انصرف الرجل ورجع علي رضي الله عنه إلى محله، فتبين عمر التغير في وجهه، فقال: يا أبا الحسن، ما لي أراك متغيراً! أكرهت ما كان؟ قال: نعم، قال: وما ذاك؟ قال: كنتني بحضرة خصمي، هلا قلت: قم يا علي فاجلس مع خصمك! فاعتنق عمر علياً، وجعل يقبل وجهه، وقال بأبي أنتم! بكم هدانا الله، وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور. أبان بن عبد الحميد اللاحق في سوار بن عبد الله القاضي:

شيمته عدل وإنصاف

وفي اعتراض الشك وقاف

لاتقدح الظنة في حكمه

يمضي إذا لم تلقه شبهة

كان ببغداد رجل يذكر بالصلاح والزهد يقال له رويم، فولي القضاء، فقال الجنيد: من أراد أن يستودع سره من لا يفشيه فعليه برويم، فإنه كتم حب الدنيا أربعين سنة إلى أن قدر عليها.
الأشهب الكوفي:

مذ صار قاضيكم نوح بن دراج

يا أهل بغداد قد قامت قيامتكم

صحيحة يده من وسم حجاج

لو كان حياً له الحجاج ماسلمت

وكان الحجاج يسم أيدي النبط بالمشراط والنيل.

لما وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شريح القضاء وقال: لا أقضي في الفتنة؛ فبقي لا يقضي تسع سنين، ثم عاد إلى القضاء وقد كبرت سنه، فاعترضه رجل وقد انصرف من مجلس القضاء، فقال له: أما حان لك أن تخاف الله! كبرت سنك، وفسد ذهنك، وصارت الأمور تجوز عليك، فقال: والله لا يقولها بعدك لي أحد. فلزم بيته حتى مات.
قيل لأبي قلابة وقد هرب من القضاء: لو أجبت؟ قال: أخاف الهلاك، قيل: لو اجتهدت لم يكن عليك بأس قال: ويحكم! إذا وقع السابح في البحر كم عسى أن يسبح!.

دعا رجل لسليمان الشاذكوني، فقال: أرانيك الله يا أبا أيوب على قضاء إصبهان! قال: ويحك! إن كان ولا بد فعلى خراجها، فإن أخذ أموال الأغنياء أسهل من أخذ أموال الأيتام.

ارتفعت جميلة بنت عيسى بن جراد وكانت جميلة كاسمها مع خصم لها إلى الشعبي وهو قاضي عبد الملك فقضى لها، فقال هذيل الأشجعي:

رفع الطرف إليها

فتن الشعبي لما

ها وقوسي حاجبها

فتنته بتنايا

ثم هزت منكبيها

ومشت مشياً رويداً

م ولم يقض عليها

فقضى جوراً على الخص

فقبض الشعبي عليه وضربه ثلاثين سوطاً.

قال ابن أبي ليلى: ثم انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء وقد شاعت الأبيات وتناشدها الناس، ونحن معه، فمررنا بخادم تغسل الثياب، وتقول:

فتن الشعبي لما

ولاتحفظ تمة البيت، فوقف عليها ولقنها، وقال:

رفع الطرف إليها

ثم ضحك وقال: أبعد الله! والله ما قضينا لها إلا بالحق.

جاءت امرأة إلى قاض فقالت: مات بعلي وترك أبوين وابناً وبني عم، فقال القاضي: لأبويه الشكل، ولابنه اليتيم، ولك اللاتمة، ولبني عمه الذلة، واحملي المال إلينا إلى أن ترتفع الخصوم!.

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

لقي سفيان الثوري شريكاً بعدما أستقضي، فقال له يا أبا عبد الله، بعد الإسلام والفقه والصلاح تلي القضاء! قال: يا أبا عبد الله، فهل للناس بد من قاض! قال: ولا بد يا أبا عبد الله للناس من شرطي.

وكان الحسن بن صالح بن حي يقول لما ولي شريك القضاء: أي شيخ أفسدوا! قال أبو ذر رضي الله عنه: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر، اعقل ما أقول لك؛ جعل يرددها علي ستة أيام، ثم قال لي في اليوم السابع: أوصيك بتقوى الله في سريرتك وعلايتك، وإذا أسأت فأحسن، ولا تسألن أحداً شيئاً ولو سقط سوطك، ولا تتقلدن أمانة، ولا تلين ولاية، ولا تكفلن يتيماً، ولا تقضين بين اثنين.

أراد عثمان بن عفان أن يستقضي عبد الله بن عمر، فقال له: أأست قد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من استعاذ بالله فقد عاذ بمعاذ!"، قال: بلى، قال: فإني أعوذ بالله منك أن تستقضيني.

وقد ذكر الفقهاء في آداب القاضي أموراً، قالوا: لا يجوز أن يقبل هدية في أيام القضاء إلا ممن كانت له عادة يهدي إليه قبل أيام القضاء، ولا يجوز قبولها في أيام القضاء ممن له حكومة وخصومة، وإن كان ممن له عادة قديمة، وكذلك إن كانت الهدية أنفس وأرفع مما كانت قبل أيام القضاء لا يجوز قبولها. ويجوز أن يحضر القاضي الولائم، ولا يحضر عند قوم دون قوم؛ لأن التخصيص يشعر بالميل، ويجوز أن يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويأتي مقدم الغائب. ويكره له مباشرة البيع والشراء. ولا يجوز أن يقضي وهو غضبان ولا جائع ولا عطشان، ولا في حال الحزن الشديد، ولا الفرح الشديد، ولا يقضي والنعاس يغلبه، والمرض يقلقه، ولا وهو يدافع الأخبثين، ولا في حر مزعج، ولا في برد مزعج. وينبغي أن يجلس للحكم في موضع بارز يصل إليه كل أحد، ولا يحتجب إلا لعذر. ويستحب أن يكون مجلسه فسيحاً لا يتأذى بذلك هو أيضاً. ويكره الجلوس في المساجد للقضاء، فإن احتاج إلى وكلاء جاز أن يتخذهم ويوصيهم بالرفق بالخصوم. ويستحب أن يكون له حبس، وأن يتخذ كاتباً إن احتاج إليه، ومن شرط كاتبه أن يكون عارفاً بما يكتب به عن القضاء. واختلف في جواز كونه ذمياً، والأظهر أنه لا يجوز. ولا يجوز أن يكون كاتبه فاسقاً، ولا يجوز أن يكون الشهود عنده قوماً معينين، بل الشهادة عامة فيمن استكمل شروطها.

الأصل: ثم انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محابة وأثرة، فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع إشرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً.

ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك، أو ثلموا أمانتك. ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدوة لهم على استعمال الأمانة، والرفق بالرعية. وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة.

الشرح: لما فرغ رضي الله عنه من أمر القضاء، شرع في أمر العمال، وهم عمال السواد والصدقات والوقوف والمصالح

وغيرها، فأمره أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجربتهم، وألا يوليهم محابة لهم، ولمن يشفع فيهم، ولا أثره ولا إنعاماً عليهم. كان أبو الحسن بن الفرات يقول: الأعمال للكفاة من أصحابنا، وقضاء الحقوق على خواص أموالنا. وكان يحيى بن خالد يقول: من تسبب إلينا بشفاعة في عمل، فقد حل عندنا محل من ينهض بغيره، ومن لم ينهض بنفسه لم يكن للعمل أهلاً.

ووقع جعفر بن يحيى في رقعة متحرم به: هذا فتى له حرمة الأمل، فامتحنه بالعمل، فإن كان كافياً فالسلطان له دوننا، وإن لم يكن كافياً فتحن له دون السلطان.

ثم قال رضي الله عنه: "فإنهما - يعني استعمالهم للمحابة والأثرة - جماع من شعب الجور والخيانة". وقد تقدم شرح مثل هذه اللفظة، والمعنى أن ذلك يجمع ضروباً من الجور والخيانة. أما الجور فإنه يكون قد عدل عن المستحق إلى غير المستحق، ففي ذلك جور على المستحق، وأما الخيانة فلا أن الأمانة تقتضي تقليد الأعمال الأكفاء، فمن لم يعتمد ذلك فقد خان من ولاه.

ثم أمره بتخير من قد جرب، ومن هو من أهل البيوتات والأشراف لشدة الحرص على الشيء والخوف من فواته. ثم أمره بإسباغ الأرزاق عليهم، فإن الجائع لا أمانة له، ولأن الحجة تكون لازمة لهم إن خانوا، لأنهم قد كفوا مؤونة أنفسهم وأهلهم بما فرض لهم من الأرزاق.

ثم أمره بالتطبع عليهم وإذكاء العيون والأرصاد على حركاتهم.

وحذوه باعث، يقال: حذاني هذا الأمر حدوة على كذا، وأصله سوق الإبل، ويقال للشمال حدواء، لأنها تسوق السحاب ثم أمره بمواخذة من ثبتت خيانتته واستعادة المال منه، وقد صنع عمر كثيراً من ذلك، وذكرناه فيما تقدم. قال بعض الأكاسرة لعامل من عماله: كيف نومك بالليل؟ قال: أنامه كله، قال: أحسنت! لو سرت ما نمت هذا النوم.

الأصل: وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله.

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلًا أو علة، أو انقطاع شرب، أو بالة، أو إحالة أرض اغتمرها غرق، أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم.

ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمداً فضل قوتهم، بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه، طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر.

الشرح: انتقل رضي الله عنه من ذكر العمال إلى ذكر أبواب الخراج ودهاقين السواد، فقال: تفقد أمرهم، فإن الناس

عيال عليهم، وكان يقال: استوصوا بأهل الخراج، فإنكم لا تزالون سماناً ما سمنوا.
ورفع إلى أنوشروان أن عامل الأهواز قد حمل من مال الخراج ما يزيد على العادة، وربما يكون ذلك قد أجحف بالرعية،
فوقع: يرد هذا المال على من قد استوفي منه، فإن تكثير الملك ماله بأموال رعيته بمثلة من يحصن سطوحه بما يقتلعه من
قواعد بنيانه.

وكان على خاتم أنوشروان: لا يكون عمران، حيث يجور السلطان.

وروي: استحلاب الخراج بالحاء.

ثم قال: فإن شكوا ثقلًا، أي ثقل الخراج المضروب عليهم، أو ثقل وطأة العامل.

قال: أو علة، نحو أن يصيب الغلة آفة كالجراد والبرق أو البرد.

قال: أو انقطاع شرب، بأن ينقص الماء في النهر، أو تتعلق أرض الشرب عنه لفقد الحفر.

قال: أو بالة، يعني المطر.

قال: أو إحالة أرض اغتمرها غرق، يعني أو كون الأرض قد حالت، ولم يحصل منها ارتفاع، لأن الغرق غمرها وأفسد
زرعها.

قال: أو أجحف به عطش، أي أتلّفها.

فإن قلت: فهذا هو انقطاع الشرب؟.

قلت: لا، قد يكون الشرب غير منقطع، ومع ذلك يجحف بها العطش، بأن لا يكفيها الماء الموجود في الشرب.

ثم أمره أن يخفف عنهم متى لحقهم شيء من ذلك، فإن التخفيف يصلح أمورهم، وهو وإن كان يدخل على المال نقصاً
في العاجل إلا أنه يقتضي توفير زيادة في الآجل، فهو بمثلة التجارة التي لا بد فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده
وعود ربحه.

قال: ومع ذلك فإنه يفضي إلى تزيين بلادك بعمارها، وإلى أنك تبجح بين الولاة بإفاضة العدل في رعيته معتمداً فضل
قوتهم، ومعتمداً، منصوب على الحال من الضمير في خففت، الأولى، أي خففت عنهم معتمداً بالتخفيف فضل قوتهم.
والإجماع: الترفيه.

ثم قال له: وربما احتجت فيما بعد إلى تكلفهم بحادث يحدث عندك المساعدة بما يقسطونه عليهم قرضاً أو معونة محضّة،
فإذا كانت لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك، طيبة قلوبهم به.

ثم قال رضي الله عنه: فإن العمران محتمل ما حملته.

سمعت أبا محمد بن خلود وكان صاحب ديوان الخراج في أيام الناصر لدين الله يقول لمن قال له: قد قيل عنك: إن واسط
والبصرة قد خربت لشدة العنف بأهلها في تحصيل الأموال! فقال أبو محمد: ما دام هذا الشط بحاله، والنخل نابتاً في منابته
بحاله، ما تخرب واسط والبصرة أبداً.

ثم قال رضي الله عنه: إنما تؤتى الأرض، أي إنما تدهى من إعواز أهلها، أي من فقرهم.

قال: والموجب لإعوازهم طمع ولائهم في الجباية وجمع الأموال لأنفسهم ولسلطانهم وسوء ظنهم بالبقاء يحتمل أن يريد به

أنهم يظنون طول البقاء وينسون الموت والزوال.

ويحتمل أن يريد به أنهم يتخيلون العزل والصرف، فينتهزون الفرص، ويقتطعون الأموال، ولا ينظرون في عمارة البلاد.

بعض ما جاء في عهد سابور بن أردشير إلى ابنه

وقد وجدت في عهد سابور بن أردشير إلى ابنه كلاماً يشابه كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في هذا العهد، وهو قوله: واعلم أن قوام أمرك بدرور الخراج، ودرور الخراج بعمارة البلاد، وبلوغ الغاية في ذلك استصلاح أهله بالعدل عليهم، والمعونة لهم، فإن بعض الأمور لبعض سبب، وعوام الناس لخواصهم عدة، وبكل صنف منهم إلى الآخر حاجة، فاختر لذلك أفضل من تقدر عليه من كتابك، وليكونوا من أهل البصر والعفاف والكفاية، واسترسل إلى كل امرئ منهم شخصاً يضطلع به ويمكنه تعجيل الفراغ منه، فإن اطلعت على أن أحداً منهم خان أو تعدى فنكل به، وبالغ في عقوبته، واحذر أن تستعمل على الأرض الكثير خراجها إلا البعيد الصوت، العظيم شرف المترلة، ولا تولين أحداً من قواد جنحك الذين هم عدة للحرب، وجنة من الأعداء، شيئاً من أمر الخراج، فلعلك تهجم من بعضهم على خيانة في المال، أو تضيع للعمل، فإن سوغته المال، وأغضيت له على التضضيع، كان ذلك هلاكاً وإضراراً بك وبرعيتك، وداعية إلى فساد غيره، وإن أنت كافأته فقد استفسدته، وأضقت صدره، وهذا أمر توقيه حزم، والإقدام عليه خرق، والتقصير فيه عجز. واعلم أن من أهل الخراج من يلجئ بعض أرضه وضياعه إلى خاصة الملك وبطانته، لأحد أمرين، أنت حري بكراهتهما: إما لامتناع من جور العمال وظلم الولاة، وتلك مترلة يظهر بها سوء أثر العمال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده، وإما للدفع عما يلزمهم من الحق والتيسر له، وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية، وتنتقص بها أموال الملك، فاحذر ذلك، وعاقب الملتجئين والملجأ إليهم.

ركب زياد يوماً بالسوس يطوف بالضياع والزروع، فرأى عمارة حسنة، فتعجب منها، فخاف أهلها أن يزيد في خراجهم، فلما نزل دعا وجوه البلد، وقال: بارك الله عليكم، فقد أحسنتم العمارة، وقد وضعت عنكم مائة ألف درهم. ثم قال: ما توفر علي من تهالك غيرهم على العمارة وأمنهم جوري أضعاف ما وضعت عن هؤلاء الآن، والذي وضعته بقدر ما يحصل من ذاك، وثواب عموم العمارة وأمن الرعية أفضل ربح.

الأصل: ثم انظر في حال كتابك، فول على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائذك وأسرارك، بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة، فيجتريء بها عليك في خلاف لك بحضرة ملاً. ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، وإصدار جواباتها على الصواب عنك، وفيما يأخذ لك ويعطي منك، ولا يضعف عقداً اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل.

ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن حديثهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم

كان في العامة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله، ولمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم، لا يقهره كبيرها، ولا يتشت عليه كثيرها، ومهما كان في كتابك من عيب فتغايبت عنه ألزمته.

في آداب مصاحبة الملك

الشرح: لما فرغ من أمر الخراج، شرع في أمر الكتاب الذين يلون أمر الحضرة، ويترسلون عنه إلى عماله وأمرائه، وإليهم معاهد التدبير وأمر الديوان، فأمره أن يتخير الصالح منهم، ومن يوثق على الإطلاع على الأسرار والمكائد والحيل والتدبيرات، ومن لا يبطره الإكرام والتقريب، فيطمع فيجترى على مخالفته على مالأ من الناس والرد عليه، ففي ذلك من الوهن للأمر وسوء الأدب الذي انكشف الكاتب عنه ما لا خفاء به. قال الرشيد للكسائي: يا علي بن حمزة، قد أحللناك المحل الذي لم تكن تبلغه همتك، فرونا من الأشعار أعفها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، وذاكرنا بآداب الفرس والهند، ولا تسرع علينا الرد في مالأ، ولا تترك تثقيفنا في خلاء.

وفي آداب ابن المقفع: لا تكونن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك! لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، فإن كنت حافظاً إذا ولوك، حذراً إذا قربوك، أميناً إذا اتّمنوك، تعلمهم وكأنك تتعلم منهم، وتؤدبهم وكأنك تتأدب بهم، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر، ذليلاً إن صرموك، راضياً إن أسخطوك، وإلا فالبعد منهم كل البعد، والحذر منهم كل الحذر. وإن وجدت عن السلطان وصحبته غنى فاستغن عنه، فإنه من يخدم السلطان حق خدمته يخلى بينه وبين لذة الدنيا وعمل الأخرى، ومن يخدمه غير حق الخدمة فقد احتمل وزر الآخرة، وعرض نفسه للهلكة والفضيحة في الدنيا. فإذا صحبت السلطان فعليك بطول الملازمة من غير إملا، وإذا نزلت منه بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق، ولا تكثر له من الدعاء، ولا تردن عليه كلاماً في حفل وإن أخطأ، فإذا خلوت به فبصره في رفق، ولا يكونن طلبك ما عنده بالمسألة، ولا تستبطئه وإن أبطأ، ولا تخبرنه أن لك عليه حقاً، وأنت تعتمد عليه ببلاء، وإن استطعت ألا تنسى حقك وبلاءك بتجديد النصيح والإجتهاد فافعل، ولا تعطينه المجهود كله من نفسك في أول صحبتك له، وأعد موضعاً للمزيد. وإذا سأل غيرك عن شيء فلا تكن المجيب. واعلم أن استلابك الكلام خفة فيك واستخفاف منك بالسائل والمسؤول، فما أنت قائل إن قال لك السائل: ما إياك سألت، أو قال المسؤول: أجب بمجالسته ومحادثته أيها المعجب بنفسه، والمستخف بسلطانه.

وقال عبد الملك بن صالح لمؤدب ولده بعد أن اختصه بمجالسته ومحادثته: يا عبد الله، كن على التماس الحظ فيك بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، فإنهم قالوا: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم. واعلم أن أصعب الملوك معاملة الجبار الفطن المتفقد، فإن ابتليت بصحبته فاحترس، وإن عوفيت فاشكر الله على السلامة، فإن السلامة أصل كل نعمة. لا تساعدني على ما يقبح بي، ولا تردن علي خطأ في مجلس، ولا تكلفني جواب التشميت

والتهنئة، ودع عنك: كيف أصبح الأمير، وكيف أمسى! وكلمني بقدر ما أتنتطقك، واجعل بدل التقريظ لي صواب الاستماع مني. واعلم أن صواب الاستماع أحسن من صواب القول، فإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتك منه شيء، وأرني فهمك إياه في طرفك ووجهك، فما ظنك بالملك وقد أحلك محل المعجب بما يسمعك إياه، وأحللته محل من لا يسمع منه! وكل من هذا يحبط إحسانك، ويسقط حق حرمتك، ولا تستدع الزيادة من كلامي بما تظهر من استحسان ما يكون مني، فمن أسوأ حالاً ممن يستكدر الملوك بالباطل، وذلك يدل على قهوانه بقدر ما أوجب الله تعالى من حقهم. واعلم أي جعلتك مؤدباً، بعد أن كنت معلماً، وجعلتك جليساً مقرباً بعد أن كنت مع الصبيان مباحداً، فمتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه، لم تعرف رجحان ما دخلت فيه، وقد قالوا: من لم يعرف سوء ما أولى، لم يعرف حسن ما أبلى. ثم قال رضي الله عنه: وليكن كاتبك غير مقصر عن عرض مكتوبات عمالك عليك، والإجابة عنها حسن الوكالة والنيابة عنك فيما يحتاج به لك عليهم من مكتوباتهم، وما يصدره عنك إليهم من الأجوبة، فإن عقد لك عقداً قواه وأحكمه، وإن عقد عليك عقداً اجتهد في نقضه وحله. قال: وأن يكون عارفاً بنفسه، فمن لم يعرف قدر نفسه لم يعرف قدر غيره. ثم نهاه أن يكون مستند اختياره لهؤلاء فراسته فيهم، وغلبة ظنه بأحوالهم، فإن التدليس ينم في ذلك كثيراً، وما زال الكتاب يتصنعون للأمراء بحسن الظاهر، وليس وراء ذلك كثير طائل في النصيحة والمعرفة، ولكن ينبغي أن يرجع في ذلك إلى ما حكمت به التجربة لهم، وما ولوه من قبل، فإن كانت ولايتهم وكتابتهم حسنة مشكورة فهم هم، وإلا فلا، ويتعرفون لفراسات الولاة، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضروب من التصنع، وروي: يتعرضون. ثم أمره أن يقسم فنون الكتابة وضروبها بينهم نحو أن يكون أحدهم للرسائل إلى الأطراف والأعداء، والآخر لأجوبة عمال السواد، والآخر بحضرة الأمير في خاصته وداره، وحاشيته وثقاته. ثم ذكر له أنه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابى عنه، ويتغافل من عيوب كتابه، فإن الدين لا يبيح الإغضاء والغفلة عن الأعوان والخول، ويوجب التطلع عليهم.

في آداب الكتاب

واعلم أن الكاتب الذي يشير أمير المؤمنين رضي الله عنه إليه هو الذي يسمى الآن في الإصطلاح العرفي وزيراً، لأنه صاحب تدبير حضرة الأمير، والنائب عنه في أموره، وإليه تصل مكتوبات العمال وعنه تصدر الأجوبة، وإليه العرض على الأمير، وهو المستدرك على العمال، والمهيمن عليهم، وهو على الحقيقة كاتب الكتاب، ولهذا يسمونه: الكاتب المطلق. وكان يقال: للكاتب على الملك ثلاث: رفع الحجاب عنه، وإتمام الوشاة عليه، وإفشاء السر إليه. وكان يقال: صاحب السلطان نصفه، وكاتبه كله. وينبغي لصاحب الشرطة أن يطيل الجلوس، ويدم العبوس، ويستخف بالشفاعات. وكان يقال: إذا كان الملك ضعيفاً، والوزير شرهاً، والقاضي جائراً، فرقوا الملك شعاعاً.

وكان يقال: لا تخف صولة الأمير مع رضا الكاتب، ولا تتقن برضا الأمير مع سخط الكاتب، وأخذ هذا لمعنى أبو الفضل بن العميد فقال:

علقت يداك بذمة الأمراء

وزعمت أنك لست تفكر بعدما

قد أوهمتكَ غنى عن الوزراء

هيهات قد كذبتك فكرتك التي

أرضاً ولا أرض بغير سماء

لم تغن عن أحد سماء لم تجد

وكان يقال: إذا لم يشرف الملك على أموره، صار أغش الناس إليه وزيره.
وكان يقال: ليس الحرب الغشوم بأسرع في اجتياح الملك من تضييع مراتب الكتاب حتى يصيبها أهل النذالة، ويزهد فيها أولو الفضل.

بعض ما ورد من نصائح للوزراء.

وكان يقال: لا شيء أذهب بالدول من استكفاء الملك الأسرار.
وكان يقال: من سعادة جد المرء ألا يكون في الزمان المختلط وزيراً للسلطان.
وكان يقال: كما أن أشجع الرجال يحتاج إلى السلام، وأسبق الخيل يحتاج إلى السوط، وأحد الشفار يحتاج إلى المسن، كذلك أحزم الملوك وأعقلهم يحتاج إلى الوزير الصالح.
وكان يقال: صلاح، الدنيا بصلاح الملوك، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء، وكما لا يصلح الملك إلا بمن يستحق الملك، كذلك لا تصلح الوزارة إلا بمن يستحق الوزارة.
وكان يقال: الوزير الصالح لا يرى أن صلاحه في نفسه كائن صلاحاً حتى يتصل بصلاح الملك وصلاح رعيته، وأن تكون عنايته فيما عطف الملك على رعيته، وفيما استعطف قلوب الرعية والعامّة على الطاعة للملك، وفيما فيه قوام أمر الملك من التدبير الحسن، حتى يجمع إلى أخذ الحق تقديم عموم الأمن. وإذا طرقت الحوادث، كان للملك عدة وعتاداً، وللرعية كافياً محتاطاً، ومن ورائها محامياً ذاباً، يعنيه من صلاحها ما لا يعنيه من صلاح نفسه دونهما.
وكان يقال: مثل الملك الصالح إذا كان وزيره فاسداً مثل الماء العذب الصافي وفيه التمساح، لا يستطيع الإنسان وإن كان ساجحاً، وإلى الماء ظامئاً دخوله، حذراً على نفسه.
قال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي حين استخلف: لو كنت كاتبني ورداء لي على ما دفعت إليه! قال: لا أفعل، ولكني سأرشدك، أسرع الاستماع، وأبطئ في التصديق حتى يأتيك واضح البرهان، ولا تعملن ثبجتك فيما تكتفي فيه بلسانك، ولا سوطك فيما تكتفي فيه بثبجتك، ولا سيفك فيما تكتفي فيه بسوطك.
وكان يقال: التقاط الكاتب للرشا وضبط الملك لا يجتمعان.

وقال أبرويز لكاتبه: اكتم السر، واصدق الحديث، واجتهد في النصيحة، وعليك بالحذر، فإن لك علي ألا أعجل عليك

حتى أستأني لك، ولا أقبل فيك قولاً حتى أستيقن، ولا أطمع فيك أحداً فتغتال، واعلم أنك بمنجاة رفعة فلا تحطنها، وفي ظل مملكة فلا تستزيلنه. قارب الناس مجاملة من نفسك، وباعدهم مسامحة عن عدوك، واقصد إلى الجميل ازدياداً لغدك، وتزده بالعفاف صوناً لمروءتك، وتحسن عندي بما قدرت عليه. احذر لا تسرعن الألسنة عليك، ولا تقبحن الأحداث عتك، وصن نفسك صون الدرة الصافية، واخلصها إخلاص الفضة البيضاء، وعاتبها معاتبة الحذر المشفق، وحصنها تحصين المدينة المنيعه. لا تدعن أن ترفع إلي الصغير فإنه يدل على الكبير، ولا تكتمن عني الكبير فإنه ليس بشاغل عن الصغير. هذب أمورك ثم القني بها، وأحكم أمرك ثم راجعني فيه، ولا تجترئن علي فأمتعض، ولا تنقبضن مني فأقم، ولا تمرضن ما تلقاني به ولا تخدجنه، وإذا أفكرت فلا تعجل، وإذا كتبت فلا تعذر، ولا تستعن بالفضول فإنها علاوة على الكفاية، ولا تقصرن عن التحقيق فإنها هجنة بالمقالة، ولا تلبس كلاماً بكلام، ولا تبعدن معنى عن معنى. وأكرم لي كتابك عن ثلاث: خضوع يستخفه، وانتشار يهجنه، ومعان تعقد به. واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول وليكن بسطة كلامك على كلام السوقه كبسطة الملك الذي تحدثه على الملوك. لا يكن ما نلت عظيمًا، وما تتكلم به صغيرًا، فإنما كلام الكاتب على مقدار الملك، فاجعله عاليًا كعلوه، وفائقًا كتفوقه، فإنما جماع الكلام كله خصال أربع: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرك عن الشيء، فهذه الخصال دعائم المقالات، إن التمس إليها خامس لم يوجد، وإن نقص منها واحد لم يتم، فإذا أمرت فأحكم، وإذا سألت فأوضح، وإذا طلبت فأسمع، وإذا أخبرت فحقق. فإنك إذا فعلت ذلك أخذت بجرائيم القول كله، فلم يشتهه عليك واردة، ولم تعجزك صادرة. أثبت في دواوينك ما أخذت، وأحص فيها ما أخرجت، وتيقظ لما تعطي، وتجرد لما تأخذ، ولا يغلبك النسيان عن الإحصاء، ولا الأناة عن التقدم، ولا تخرجن وزن قيراط في غير حق، ولا تعظمن إخراج الألوف الكثيرة في الحق، وليكن ذلك كله عن مؤامرتي. الأصل: ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات، وأوص بهم خيرًا، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلاهما من المباعد والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقته، وصلح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك. واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضره للعامة، وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل، وأسعار لا تححف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به، وعاقبه من غير إسراف.

الشرح: خرج رضي الله عنه الآن إلى ذكر التجار وذوي الصناعات، وأمره بأن يعمل معهم الخير، وأن يوصي غيره من أمرائه وعماله أن يعملوا معهم الخير. واستوص بمعنى أوص نحو قر في المكان واستقر، وعلا قرنه واستعلاه. وقوله: استوص بالتجار خيرًا، أي أوص نفسك بذلك، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "استوصوا بالنساء خيرًا"، ومفعولا استوص وأوص ههنا محذوفان للعلم بهما، ويجوز أن يكون استوص أي اقبل الوصية مني بهم، وأوص بهم أنت غيرك.

ثم قسم رضي الله عنه الموصى بهم ثلاثة أقسام: اثنان منها للتجار، وهما المقيم، والمضطرب، يعني المسافر. والضرب: السير

في الأرض: قال تعالى: "إذا ضربتم في الأرض"، وواحد لأرباب الصناعات، وهو قوله: والمترفق ببدنه، وروي بيديه، تشنية يد. والمطارح: الأماكن البعيدة.

وحيث لا يلتئم الناس: لا يجتمعون، وروي حيث لا يلتئم، بحذف الواو. ثم قال: فإنهم أولو سلم، يعني التجار والصناع، استعطفه عليهم، واستماله إليهم. وقال: ليسوا كعمال الخراج وأمراء الأجناد، فجانبهم ينبغي أن يراعى، وحالهم يجب أن يحاط ويحمى، إذ لا يتخوف منهم بائقة لا في مال يخونون فيه، ولا في دولة يفسدونها. وحواشي البلاد: أطرافها.

ثم قال له: قد يكون في كثير منهم نوع من الشح والبخل فيدعوهم ذلك إلى الإحتكار في الأقوات، والحيف في البياعات. والإحتكار ابتياع الغلات في أيام رخصها، وادخارها في المخازن إلى أيام الغلاء والقحط. والحيف: تطفيف في الوزن والكيل، وزيادة في السعر، وهو الذي عبر عنه بالتحكم، وقد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحتكار، وأما التطفيف وزيادة التسعير فمنهي عنهما في نص الكتاب .

وقارف حكرة: واقعها، والحاء مضمومة، وأمره أن يؤدب فاعل ذلك من غير إسراف، وذلك أنه دون المعاصي التي توجب الحدود، فغاية أمره من التعزير الإهانة والمنع.

الأصل: ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعا ومعترا.

واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسما من بيت مالك، وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعت حقه.

ولا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييع التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم. وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الحشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم.

ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه.

وتعهد أهل اليتيم، وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقیل، والحق كله ثقیل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

الشرح: انتقل من التجار وأرباب الصناعات إلى ذكر فقراء الرعية ومغموريها، فقال: وأهل البؤسى، وهي البؤس كالنعى للنعيم، والزمنى أولو الزمانة .

والقانع: السائل. والمعتز: الذي يعرض لك ولا يسألك، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز.

وأمره أن يعطيهم من بيت مال المسلمين لأنهم من الأصناف المذكورين في قوله تعالى: "واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"، وأن يعطيهم من غلات صوافي الإسلام وهي

الأرضون التي لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب وكانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قبض صارت لفقراء المسلمين، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام.

ثم قال له: فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، أي كل فقراء المسلمين سواء في سهامهم، ليس فيها أقصى وأدنى، أي لا تؤثر من هو قريب إليك أو إلى أحد من خاصتك على من هو بعيد ليس له سبب إليك، ولا علاقة بينه وبينك. ويمكن أن يريد به: لا تصرف غلات ما كان من الصوافي في بعض البلاد إلى مساكين ذلك البلد خاصة، فإن حق البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حق المقيم في ذلك البلد.

والتافه: الحقيير. وأشخصت زيدا من موضع كذا، أخرجته عنه. وفلان يصعر خده للناس، أي يتكبر عليهم.

وتقتحمه العيون، تزدريه وتحتقره، والإعذار إلى الله: الإجتهد والمبالغة في تأدية حقه والقيام بفرائضه.

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه، ولا يثق إلى غيره، ويقعد بحيث يسمع الصوت، فإذا سمعه أدخل المتظلم، فأصيب بصمم في سمعه فنادى مناديه، إن الملك يقول: أيها الرعية، إني إن أصبت بصمم في سمعي فلم أصب في بصري، كل ذي ظلامة فليلبس ثوباً أحمر، ثم جلس لهم في مستشرف له.

وكان لأُمير المؤمنين رضي الله عنه بيت سماه بيت القصص، يلقي الناس فيه رقاعهم، وكذلك كان فعل المهدي محمد بن هارون الواثق، من خلفاء بني العباس.

الأصل: وأجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقتك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متنتع، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في غير موطن: "لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي، غير متنتع". ثم احتمل الخرق منهم والعي، ونح عنهم الضيق والأنف، ييسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته. وأعط ما أعطيت هنيئاً، وامنع في إجمال وإعذار.

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها، منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك بما تخرج به صدور أعوانك. وأمض لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه.

الشرح: هذا الفصل من تنمة ما قبله، وقد روي: حتى يكلمك مكلمهم، فاعل من كلم والرواية الأولى أحسن. وغير متنتع: غير مزعج ولا مقلق. والمتنتع في الخبر النبوي: المتردد المضطرب في كلامه عياً من خوف لحقه، وهو راجع إلى المعنى الأول.

والخرق: الجهل. وروي: ثم احتمل الخرق منهم والغي. وهو الجهل أيضاً، والرواية الأولى أحسن.

ثم بين له رضي الله عنه أنه لا بد له من هذا المجلس لأمر آخر غير ما قدمه رضي الله عنه، وذلك لأنه لا بد من أن يكون في حاجات الناس ما يضيق به صدور أعوانه، والنواب عنه، فيتعين عليه أن يباشرها بنفسه، ولا بد من أن يكون في كتب عماله الواردة عليه ما يعيا كتابه عن جوابه، فيجيب عنه بعلمه. ويدخل في ذلك أن يكون فيها ما لا يجوز في حكم السياسة ومصلحة الولاية أن يطلع الكتاب عليه، فيجيب أيضاً عن ذلك بعلمه.

ثم قال له: لا تدخل عمل يوم في عمل يوم آخر فيتعبك ويكدرك، فإن لكل يوم ما فيه من العمل. الأصل: واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله، إذا صلحت فيها النية، وسلمت منها الرعية.

وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص، بالغاً من بدنك ما بلغ. وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً. فإن في الناس من به العلة، وله الحاجة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى وآله وصحبه حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم، فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً.

الشرح: لما فرغ رضي الله عنه من وصيته بأمور رعيته، شرع في وصيته بأداء الفرائض التي افترضها الله عليه من عبادته، ولقد أحسن رضي الله عنه في قوله: وإن كانت كلها لله، أي أن النظر في أمور الرعية مع صحة النية وسلامة الناس من الظلم من جملة العبادات والفرائض أيضاً.

ثم قال له: كاملاً غير مثلوم، أي لا يحملنك شغل السلطان على أن تختصر الصلاة اختصاراً، بل صفها بفرائضها وسننها وشعائرها في نهارك وليلك، وإن أتعبك ذلك ونال من بدنك وقوتك.

ثم أمره إذا صلى بالناس جماعة ألا يطيل فينفرهم عنها، وألا يخذج الصلاة وينقصها فيضيعها.

ثم روى خبراً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قوله صلى الله عليه وسلم له: "صل بهم كصلاة أضعفهم"، وقوله: وكن بالمؤمنين رحيماً، يحتمل أن يكون من تنمة الخير النبوي، ويحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه، والظاهر أنه من كلام أمير المؤمنين من الوصية للأشتر، لأن اللفظة الأولى عند أرباب الحديث هي المشهور في الخبر.

الأصل: وأما بعد هذا، فلا تطولن احتجاجك عن رعيته، فإن احتجاج الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور. والاحتجاج منهم يقطع عنهم علم ما احتجوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن،

ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق

سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق، فقيم

احتجاجك من واجب حق تعطيه، أو فعل كريم تسديه، أو مبتلى بالمنع، فما أسرع كف الناس عن مسألتك، إذا أيسوا من بذلك، مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب إنصاف في معاملة.

الشرح: نهاه عن الإحتجاج، فإنه مظنة انطواء الأمور عنه، وإذا رفع الحجاب دخل عليه كل أحد فعرف الأخبار، ولم يخف عليه شيء من أحوال عمله.

ثم قال له لم تحتجب، فإن أكثر الناس يحتجبون كيلاً يطلب منهم الرد.

وأنت فإن كنت جواداً سمحاً لم يكن لك إلى الحجاب داع، وإن كنت ممسكاً فسيعلم الناس ذلك منك، فلا يسألك أحد شيئاً.

ثم قال: على أن أكثر ما يسأل منك ما لا مؤونة عليك في مالك، كرد ظلامة أو إنصاف من خصم.
بعض ما ورد في الحجاب نثراً وشعراً.

والقول في الحجاب كثير:

حضر باب عمر جماعة من الأشراف: منم سهيل بن عمرو وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، فحجبوا، ثم خرج الآذن فنادى: أين عمار؟ أين سلمان؟ أين صهيب؟ فأدخلهم فتمعرت وجوه القوم، فقال سهيل بن عمرو: لم تتمعر وجوهكم، دعوا ودعينا فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر اليوم لأتتم غداً لهم أحسد.

وأستأذن أبو سفيان على عثمان فحجبه، فقبل له: حجبك، فقال: لا عدمت من أهلي من إذا شاء حجبي.
وحجب معاوية أبا الدرداء، فقبل لأبي الدرداء: حجبك معاوية، فقال: من يغش أبواب الملوك يهن ويكرم، ومن صادف باباً مغلقاً عليه وجد إلى جانبه باباً مفتوحاً، إن سأل أعطي، وإن دعا أجيب، وإن يكن معاوية قد احتجب فرب معاوية لم يحتجب.

وقال أبرويز لحاجبه: لا تضعن شريفاً بصعوبة حجاب، ولا ترفعن وضعياً بسهولة، ضع الرجال مواضع أخطارهم، فمن كان قديماً شرفه ثم ازدعره ولم يهدمه بعد آبائه فقدمه على شرفه الأول، وحسن رأيه الآخر، ومن كان له شرف متقدم ولم يصن ذلك حياطةً له، ولم يزدعره تثمير المغارسة، فالحق بآبائه من رفعة حاله ما يقتضيه سابق شرفهم، وألحق به في خاصته ما ألحق بنفسه، ولا تأذن له إلا دبرياً وإلا سراراً، ولا تلحقه بطبقة الأولين. وإذا ورد كتاب عامل من عمالي فلا تحبسه عني طرفة عين إلا أن أكون على حال لا تستطيع الوصول إلي فيها، وإذا أتاك من يدعي النصيحة لنا فلتكتبها سراً ثم أدخله بعد أن تستأذن له، حتى إذا كان مني بحيث أراه فادفع إلي كتابه، فإن أحمدت قبلت، وإن كرهت رفضت. وإن أتاك عالم مشتهر بالعلم والفضل يستأذن، فأذن له، فإن العلم شريف وشريف صاحبه، ولا تحجب عني أحداً من أئمة الناس، إذا أخذت مجلسي مجلس العامة، فإن الملك لا يحجب إلا عن ثلاث: عي يكره أن يطلع عليه منه، أو يخل يكره أن يدخل عليه من يسأله، أو ريبة هو مصر عليها فيشفق من إبدائها، ووقوف الناس عليها، ولا بد أن يحيطوا بها علماً، وإن اجتهد في سترها. وقد أخذ هذا المعنى الأخير محمود الوراق فقال:

ورد ذوي الحاجات دون حجابهم

رجمت بظن واقع بصوابه

ففي إذنه للناس إظهار ما به

من البخل يحمي ماله عن طلابه

يكتمها مستورة بثيابه

إذا اعتصم الوالي بإغلاق بابيه

ظننت به إحدى ثلاث وربما

أقول به مس من العي ظاهر

فإن لم يكن عي اللسان فغالب

وإن لم يكن لاذا ولاذا فريبة

أقام عبد العزيز بن زرارة الكلابي على باب معاوية سنةً في شملة من صوف لا يأذن له، ثم أذن له وقربه وأدناه، ولطف محله عنده حتى ولاه مصر، فكان يقال: استأذن أقوام لعبد العزيز بن زرارة، ثم صار يستأذن لهم، وقال في ذلك:

دخلت على معاوية بن حرب
وما نلت الدخول عليه حتى
وأغضبت الجفون على قذاها
وأدركت الذي أملت منه
ولكن بعد يأس من دخول
حللت محلة الرجل الذليل
ولم أنظر إلى قال وقيل
وحرمان المنى زاد العجول

ويقال: إنه قال له لما دخل عليه أمير المؤمنين: دخلت إليك بالأمل، واحتملت جفوتك بالصبر، ورأيت ببابك أقواماً قدمهم الحظ، وآخرين أخرهم الحرمان، فليس ينبغي للمقدم أن يأمن عواقب الأيام، ولا للمؤخر أن يئس من عطف الزمان.

وأول المعرفة الاختبار، فابل واختبر إن رأيت. وكان يقال: لم يلزم باب السلطان أحد فصير على ذل الحجاب، وكلام البواب، وألقى الأنف، وحمل الضيم، وأدام الملازمة، إلا وصل إلى حاجته أو إلى معظمها. قال عبد الملك لحاجبه: إنك عين أنظر بها، وجنة أستلم بها، وقد وليتك ما وراء بابي، فماذا تراك صانعاً برعيتي، قال: أنظر إليهم بعينك، وأحملهم على قدر منازلهم عندك، وأضعهم في إبطائهم عن بابك، ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم، وأرتبهم حيث وضعهم ترتيبك، وأحسن إبلاغهم عنك وإبلاغك عنهم. قال: لقد وفيت بما عليك، ولكن إن صدقت ذلك بفعلك. وقال دعبيل وقد حجب عن باب مالك بن طوق.

لعمري لئن حجبتي العبيد
سأرمي بها من وراء الحجاب
تصم السميع، وتعمي البصير
لما حجبت دونك القافيه
شنعاء تأتئك بالداهيه
ويسأل من مثلها العافيه

وقال آخر:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه
فما خاب من لم يأتته مترفعاً
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً
على ما أرى حتى يلين قليلاً
ولا فاز من قد رام فيه دخولا
وجدنا إلى ترك المجيء سبيلاً

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف الكاتب وقد حجبه:

وإن عدت بعد اليوم إنني لظالم
متى يفلح الغادي إليك لحاجة
سأصرف وجهي حيث تبغى المكارم
ونصفك محجوب، ونصفك نائم.

يعني ليله ونهاره.

استأذن رجلان على معاوية، فأذن لأحدهما، وكان أشرف منزلة من الآخر، ثم أذن للآخر فدخل، فجلس فوق الأول،

فقال معاوية: إن الله قد ألزمننا تأديكم كما ألزمننا رعايتكم، وإنا لم نأذن له قبلك، ونحن نريد أن يكون مجلسه دونك، فقم لا أقام الله لك وزناً. وقال بشار:

تأبى خلائق خالد وفعاله

إلا تجنب كل أمر عائب

وإذا أتينا الباب وقت غدائه

أدق الغداء لنا برغم الحاجب

وقال آخر يهجو:

يا أميراً على جريب من الأر

ض له تسعة من الحجاب

قاعد في الخراب يحجب عنا

ما سمعنا بحاجب في خراب

وكتب بعضهم إلى جعفر بن محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب:

أبا جعفر إن الولاية إن تكن

منبلة قوساً فأنت لها نبيل

فلا ترتفع عنا لأمر وليته

كما لم يصغر عندنا شأنك العزل

ومن جيد ما مدح به بشر بن مروان قول القائل:

بعيد مراد الطرف ما رد طرفه

حذار الغواشي باب دار ولا ستر

ولو شاء بشر كان من دون بابه

طماطم سود أو صقالبة حمر

ولكن بشراً يستر الباب للتي

يكون لها في غبها الحمد والأجر

وقال بشار:

خليلي من كعب أعينا أخاكما

على دهره إن الكريم يعين

ولا تبخلا بخل ابن قرعة إنه

مخافة أن يرجى نداه حزين

إذا جئته للعرف أغلق بابه

فلم تلقه إلا وأنت كمين

فقل لأبي يحيى متى تدرك العلا

وفي كل معروف عليك يمين

وقال إبراهيم بن هرمة:

هش إذا نزل الوفود ببابه

سهل الحجاب مؤدب الخدام

وإذا رأيت صديقه وشقيقه

لم تدر أيهما ذوي الأرحام

وقال آخر:

وإني لأستحي الكريم إذا أتى

على طمع عند اللئيم يطالبه

وأرثي له من مجلس عند بابه

كمرثيتي للطرف والعلاج راكبه

وقال عبد الله بن محمد بن عيينة:

أنتيتك زائراً لقضاء حق

ورأيي مذهب عن كل ناء

ولست بساقط في قدر قوم

وقال آخر:

فحال الستر دونك والحجاب

يجانبه إذا عز الذهاب

وإن كرهوا كما يقع الذباب

تطلب الرزق ولا راهب

أصبح يشكو جفوة الحاجب

وإنما يقصد للصاحب

ما ضاقت الأرض على راغب

بل ضاقت الأرض على شاعر

قد شتم الحاجب في شعره

الأصل: ثم إن للوالي خاصة وبطانة، فيهم استئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مؤونة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك، يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهناً ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعاً ذلك من قرابتك وخواصك حيث وقع، وابتغ عاقبة بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة. وإن ظنت الرعية بك حيفاً، فأصحر لهم بعدرك، واعدل عنك ظنونهم بإصهارك، فإن في ذلك إغذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق.

الشرح: نهى رضي الله عنه عن أن يحمل أقاربه وحاشيته وخواصه على رقاب الناس، وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتطاول والإذلال، ونهى من أن يقطع أحداً منهم قطيعة، أو يملكه ضيعة تضر بمن يجاورها من السادة والدهاقين في شرب يتغلبون على الماء منه، أو ضياع يضيفونها إلى ما ملكهم إياه، وإعفاء لهم من مؤونة، أو حفر وغيره، فيعفيهم الولاة منه مراقبة لهم، فيكون مؤونة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم، وحمل ثقلها على غيرهم. ثم قال رضي الله عنه: لأن منفعة ذلك في الدنيا تكون لهم دونك، والوزر في الآخرة عليك، والعيب والذم في الدنيا أيضاً لاحقان بك.

ثم قال له: إن اهتمت الرعية بحيف عليهم، أو ظنت بك جوراً، فاذكر لهم عذرَكَ في ذلك، وما عندك ظاهراً غير مستور، فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحق.

وأصحرت بكذا، أي كشفتته، مأخوذ من الإصهار، وهو الخروج إلى الصحراء.

وحامة الرجل: أقاربه وبطانته. واعتقدت عقدة، أي ادخرت ذخيرة. والمهناً مصدر هنأه كذا. ومغبة الشيء: عاقبته. واعدل عنك ظنونهم: نحها. والإعذار: إقامة العذر.

في ما روي حول نزاهة الخليفة عمر بن عبد العزيز.

رد عمر بن عبد العزيز المظالم التي احتقبتها بنو مروان فأبغضوه وذموه، وقيل: إنهم سموه فمات.

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات، أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه يوماً وهو في قائلته، فأيقظه. وقال له: ما يؤمنك أن تؤتي في منامك وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها، فقال: يا بني إن نفسي مطيبي إن لم أرفق بها لم تبلغني، إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يكن ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا، وإني لأحتسب في نومي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي، إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استكثر الإيمان في قلوبهم.

ثم قال: يا بني مما أنا فيه أمر هو أهم إلى أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد، وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشارهم علي، ولكني أنصف من الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءهما، فيكون أنجع له، فإن يرد الله إتمام هذا الأمر أتمه، وإن تكن الأخرى فحسب عبد أن يعلم الله منه أنه يحب أن ينصف جميع رعيته.

وروى جويرية بن أسماء، عن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز، فلما تفرقنا نادى مناديه: الصلاة جامعة، فجئت المسجد، فإذا عمر على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن هؤلاء، يعني خلفاء بني أمية قبله، قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها، وإني قد رأيت الآن أنه ليس علي في ذلك دون الله حسيب، وقد بدأت بنفسي والأقربين من أهل بيتي، اقرأ يا مزاحم. فجعل مزاحم يقرأ كتاباً فيه الإقطاعات بالضياع والنواحي، ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالجلم، لم يزل كذلك حتى نودي بالظهر.

وروى الفرات بن السائب، قال: كان عند فاطمة بنت عبد الملك بن مروان جوهر جليل، وهبها أبوها، ولم يكن لأحد مثله، وكانت تحت عمر بن عبد العزيز، فلما ولي الخلافة قال لها: اختاري، إما أن تردي. جوهرك وحليك إلى بيت مال المسلمين، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أجمع أنا وأنت وهو لا بيت واحد. فقالت: بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لي، وأمرت به فحمل إلى بيت المال، فلما هلك عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك قال لفاطمة أخته: إن شئت رددته عليك، قالت: فإني لا أشاء ذلك، طبت عنه نفساً في حياة عمر، وأرجع فيه بعد موته، لا والله أبداً. فلما رأى يزيد ذلك قسمه بين ولده وأهله.

وروى سهيل بن يحيى المروزي عن أبيه، عن عبد العزيز، عن عمر بن عبد العزيز، قال: لما دفن سليمان صعد عمر على المنبر فقال: إني قد خلعت ما في رقبتي من بيعتكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك، فتزل ودخل وأمر بالسُّتور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت إلى بيت المال، ثم خرج ونادى مناديه: من كانت له مظلمة من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين رضي الله عنه فليحضر، فقام رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية، فقال: أسألك كتاب الله، قال: ما شأنك، قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك أغضبني ضيعتي، والعباس جالس فقال عمر: ما تقول يا عباس، قال: أقطعنيها أمير المؤمنين رضي الله عنه الوليد، وكتب لي بها سجلاً. فقال عمر: ما تقول أنت أيها الذمي، قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله، فقال عمر: إيهما لعمرى إن كتاب الله لأحق أن يتبع من كتاب الوليد، اردد عليه يا عباس ضيعته، فجعل لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة.

وروى ميمون بن مهران، قال: بعث إلي عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وأبي قلابة فقال: ما ترون في هذه الأموال التي أخذها أهلي من الناس ظلماً، فقال مكحول، قولاً ضعيفاً كرهه عمر، فقال: أرى أن تستأنف وتدع ما مضى، فنظر إلي عمر كالمستغيث بي، فقلت: يا أمير المؤمنين، أحضر ولدك عبد الملك لننظر ما يقول. فحضر، فقال: ما تقول يا عبد الملك، فقال: ماذا أقول، ألسنت تعرف مواضعها، قال: بلى والله، قال: فارددها، فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها. وروى ابن درستويه، عن يعقوب بن سفيان، عن جويرية بن أسماء، قال: كان بيد عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة ضيعته المعروفة بالسهلة، وكانت باليمامة. وكانت أمراً عظيماً لها غلة عظيمة كثيرة، إنما عيشه وعيش أهله منها، فلما ولي الخلافة قال لمزاحم مولاه، وكان فاضلاً: إني قد عزمت أن أرد السهلة إلى بيت مال المسلمين، فقال، مزاحم: أتدري كم ولدك، إنهم كذا وكذا، قال: فذرفت عيناه، فجعل يستدمع ويمسح الدمعة بأصبعه الوسطى، ويقول: أكلهم إلى الله، أكلهم إلى الله، فمضى فزاحم فدخل على عبد الملك بن عمر، فقال له: ألا تعلم ما قد عزم عليه أبوك، إنه يريد أن يرد السهلة، قال: فما قلت له، قال: ذكرت له ولده فجعل يستدمع ويقول: أكلهم إلى الله. فقال عبد الملك: بئس وزير الدين أنت، ثم وثب وانطلق إلى أبيه فقال للاذن: استأذن لي عليه، فقال: إنه قد وضع رأسه الساعة للقائلة، فقال: استأذن لي عليه، فقال: أما ترحمونه، ليس له من الليل والنهار إلا هذه الساعة. قال: استأذن لي عليه لا أم لك، فسمع عمر كلامهما، فقال: ائذن لعبد الملك، فدخل فقال: على ماذا عزمت، قال: أرد السهلة قال: فلا تؤخر ذلك قم الآن. قال: فجعل عمر يرفع يديه ويقول: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. قال: نعم يا بني أصلي الظهر، ثم أصدع المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس، قال: ومن لك أن تعيش إلى الظهر، ثم من لك أن تسلم نيتك إلى الظهر إن عشت إليها، فقام عمر فصعد المنبر، فخطب الناس ورد السهلة.

قال: وكتب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز لما أخذ بني مروان برد المظالم كتاباً أغلظ له فيه، من جملة: إنك أزريت على كل من كان قبلك من الخلفاء وعبتهم، وسرت بغير سيرتهم بغضاً لهم وشنأناً لمن بعدهم من أولادهم، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل، وعمدت إلى أموال قریش ومواريتهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً، فاتق الله يا بن عبد العزيز وراقبه، فإنك خصصت أهل بيتك بالظلم والجور. والذي خص محمدًا صلى الله عليه وسلم بما خصه به لقد ازددت من الله بعداً لولايتك هذه التي زعمت أنها عليك بلاء. فأقصر عن بعض ما صنعت، واعلم أنك بعين جبار عزيز وفي قبضته، ولن يتركك على ما أنت عليه.

قالوا: فكتب عمر جوابه: أما بعد، فقد قرأت كتابك، وسوف أجيئك بنحو منه، أما أول أمرك يا بن الوليد فإن أملك نباتة أمة السكون، كانت تطوف في أسواق حمص، وتدخل حوانيتها، ثم الله أعلم بها، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين، فأهداها لأبيك، فحملت بك، فبئس الحامل وبئس المحمول، ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً. وترعم أي من الظالمين لأني حرمتك وأهل بيتك فيء الله الذي هو حق القرابة والمساكين والأرامل، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعملك صبيّاً سفيهاً على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك، ولم يكن له في ذاك نية إلا حب الوالد ولده، فويل لك وويل لأبيك، ما أكثر خصماء كما يوم القيامة، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله مني استعمل الحجاج بن يوسف على

خمسى العرب، يسفك الدم الحرام، ويأخذ المال الحرام. وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك، أعرابياً جافياً على مصر، وأذن له في المعازف والخمر والشرب واللهو. وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل عثمان بن حيان على الحجاز، فينشد الأشعار على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن جعل للعالية البربرية سهماً في الخمس، فرويداً يابن نباتة، ولو التقت حلقتا البطان ورد الفيء إلى أهله، لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتكم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق، وأخذتم في بنيات الطريق، ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أعمله، بيع رقبته، وقسم ثمنك بين الأرامل واليتامى والمساكين، فإن لكل فيك حقاً، والسلام علينا، ولا ينال سلام الله الظالمين.

وروى الأوزاعي قال: لما قطع عمر بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان من قبله يجروونه عليهم من أرزاق الخاصة، فتكلم في ذلك عنبسة بن سعيد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن لنا قرابة، فقال: مالي إن يتسع لكم، وأما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد، ولا يمنعه من أخذه إلا بعد مكانه. والله إني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لتزلت بهم بائقة من عذاب الله.

وروى الأوزاعي أيضاً، قال: قال عمر بن عبد العزيز يوماً وقد بلغه عن بني أمية كلام أغضبه: إن الله في بني أمية يوماً، أو قال: ذبحاً، وأيم الله لئن كان ذلك الذبح، أو قال ذلك اليوم على يدي لأعذر الله فيهم. قال، فلما بلغهم ذلك كفوا، وكانوا يعلمون صرامته، وأنه إذا وقع في أمر مضى فيه.

وروى إسماعيل بن أبي حكيم، قال: قال عمر بن عبد العزيز يوماً لحاجبه: لا تدخلن علي اليوم إلا مروانياً. فلما اجتمعوا قال: يا بني مروان، إنكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالاً، إني لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها في أيديكم، فسكتوا، فقال: ألا تجيبوني، فقال رجل منهم: فما بالك، قال: إني أريد أن أنتزعها منكم، فأردها إلى بيت مال المسلمين. فقال رجل منهم: والله لا يكون ذلك حتى يحال بين رؤوسنا وأجسادنا، والله لا نكفر أسلافنا، ولا نفقر أولادنا. فقال عمر: والله لولا أن تستعينوا علي بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت حدودكم، قوموا عني.

وروى مالك بن أنس، قال: ذكر عمر بن عبد العزيز من كان قبله من المروانية فعابهم، وعنده هشام بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا والله نكره أن تعيب آباءنا، وتضع شرفنا، فقال عمر: وأي عيب أعيب مما عابه القرآن.

وروى نوفل بن الفرات، قال: شكوا بنو مروان إلى عاتكة بنت مروان بن الحكم عمر، فقالوا: إنه يعيب أسلافنا، ويأخذ أموالنا. فذكرت ذلك له، وكانت عظيمة عند بني مروان، فقال لها: يا عمة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وترك الناس على نهر مورود، فولي ذلك النهر بعده رجلان لم يستخصا أنفسهما وأهلها منه بشيء، ثم وليه ثالث فكري منه ساقية، ثم لم تزل الناس يكرون منه السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه، وأيم الله لئن أبقي الله لأسكرن تلك السواقي حتى أعيد النهر إلى مجراه الأول، قالت: فلا يسبون إذاً عندك، قال: ومن يسبهم، إنما يرفع الرجل مظلمته فأردها عليه.

وروى عبد الله بن محمد التيمي، قال: كان بنو أمية يتزلون عاتكة بنت مروان بن الحكم على أبواب قصورهم، وكانت جليلة الموضع عندهم، فلما ولي عمر قال: لا يلي إنزالها أحد غيري، فأدخلوها على دابتها إلى باب قبتة، فأنزلها، ثم طبق

لها وسادتين، إحداهما على الأخرى، ثم أنشأ يمازحها، ولم يكن من شأنه ولا من شأنها المزاح فقال: أما رأيت الحرس الذين على الباب، فقالت: بلى، وربما رأيتهم عند من هو خير منك، فلما رأى الغضب لا يتحلل عنها ترك المزاح وسألها أن تذكر حاجتها، فقالت: إن قرابتك يشكونك، ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك، قال: ما منعهم شيئاً هو لهم، ولا أخذت منهم حقاً يستحقونه، قالت: إني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً، وقال: كل يوم أخافه، دون يوم القيامة، فلا وقائي الله شره. ثم دعا بدينار ومجمره وجلد فألقى الدينار في النار، وجعل ينفخ حتى احمر، ثم تناوله بشيء فأخرجه فوضعه على الجلد، فنشق وفتّر، فقال: يا عمة، أما تأوين لابن أخيك، من مثل هذا، فقامت فخرجت إلى بني مروان فقالت: تزوجون في آل عمر بن الخطاب، فإذا نزعوا إلى الشبه جزعتم، اصبروا له.

وروى وهيب بن الورد، قال: اجتمع بنو مروان على باب عمر بن عبد العزيز، فقالوا لولد له: قل لأبيك يأذن لنا، فإن لم يأذن فأبلغ إليه عنا رسالة، فلم يأذن لهم، وقال: فليقولوا، فقالوا: قل له: إن من كان قبلك من الخلفاء كان يعطينا، ويعرف لنا مواضعنا، وإن أباك قد حرمننا ما في يده. فدخل إلى أبيه فأبلغه عنهم، فقال: اخرج فقل لهم: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم.

وروى سعيد بن عمار، عن أسماء بنت عبيد، قال: دخل عنبسة بن سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عطايا منعناها، ولي عيال وضيعة، فأذن لي أخرج إلى ضيعتي، وما يصلح عيالي، فقال عمر: إن أحبكم إلينا من كفانا مؤونته. فخرج عنبسة، فلما صار إلى الباب ناداه: أبا خالد، أبا خالد، فرجع فقال: أكثر ذكر الموت فإن كنت في ضيق من العيش وسعه عليك، وإن كنت في سعة من العيش ضيقه عليك.

وروى عمر بن علي بن مقدم، قال: قال ابن صغير لسليمان بن عبد الملك لمزاحم: إن لي حاجةً إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه عمر، قال: فاستأذنت له، فأدخله، فقال: يا أمير المؤمنين، لم أخذت قطيعتي، قال: معاذ الله أن آخذ قطيعةً ثبتت في الإسلام، قال، فهذا كتابي بها، وأخرج كتاباً من كفه، فقرأه عمر وقال: لمن كانت هذه الأرض، قال: كانت للمسلمين، قال: فالمسلمون أولى بها. قال: فاردد علي كتابي، قال: إنك لو لم تأتني به لم أسألكه، فأما إذ جئتني به فلست أدعك تطلب به ما ليس لك بحق. فبكى ابن سليمان، فقال مزاحم: يا أمير المؤمنين، ابن سليمان تصنع به هذا، قال: وذلك لأن سليمان عهد إلى عمر، وقدمه على إخوته، فقال عمر: ويحك يا مزاحم، إني لأجد له من اللوط ما أجد لولدي ولكنها نفسى أجادل عنها.

وروى الأوزاعي، قال: قال هشام بن عبد الملك، وسعيد بن خالد بن عمر بن عثمان بن عفان لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك، وخل بين من سبقك وبين ما ولوه عليهم كان، أو لهم، فإنك مستكف أن تدخل في خير ذلك وشره. قال: أنشدكم الله الذي إليه تعودان، لو أن رجلاً هلك وترك بنين أصاغر وأكابر، فغر الأكابر الأصاغر بقوتهم، فأكلوا أموالهم، ثم بلغ الأصاغر الحلم فجاء وكما بهم وبما صنعوا في أموالهم ما كنتما صانعين، قالوا: كنا نرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها. قال: فإني وجدت كثيراً ممن كان قبلي من الولاة غر الناس بسلطانه وقوته، وآثر بأموالهم أتباعه وأهله ورهطه وخاصته، فلما وليت أتوني بذلك، فلم يسعني إلا الرد على الضعيف

من القوي، وعلى الديء من الشريف. فقالوا: يوفق الله أمير المؤمنين.

الأصل: ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك لله فيه رضا، فإن في الصلح دعةً لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل. فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن. وإن عقدت بينك وبين عدو لك عقدة، أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة.

واجعل نفسك جنةً دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله تعالى شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم، وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استولوا من عواقب الغدر.

فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك، ولا تحتلن عدوك، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي، وقد جعل الله تعالى عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحرماً يسكنون إلى منعه، ويستفيضون إلى جواره، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه.

ولا تعقده عقداً تجوز فيه العلل، ولا تعولن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته، خير من غدر تخاف تبعته، وأن تحيط بك من الله طلبة لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك.

الشرح: أمره أن يقبل السلم والصلح إذا دعي إليه، لما فيه من دعة الجنود، والراحة من الهم، والأمن للبلاد، ولكن ينبغي أن يحذر يعد الصلح من غائلة العدو وكيده، فإنه ربما قارب بالصلح ليتغفل، أي يطلب غفلتك، فخذ بالحزم، واتهم حسن ظنك، لا تثق ولا تسكن إلى حسن ظنك بالعدو، وكن كالطائر الحذر.

ثم أمره بالوفاء بالعهود، قال: واجعل نفسك جنةً دون ما أعطيت، أي ولو ذهب نفسك فلا تغدر.

وقال الراوندي: الناس مبتدأ، وأشد مبتدأ ثان، ومن تعظيم الوفاء خبره، وهذا المبتدأ الثاني مع خبره خبر المبتدأ الأول، ومحل الجملة نصب لأنها خبر ليس، ومحل ليس مع اسمه وخبره رفع، لأنه خبر، فإنه وشيء اسم ليس، ومن فرائض الله حال، ولو تأخر لكان صفةً لشيء. والصواب أن شيء، اسم ليس، وجاز ذلك وإن كان نكرةً لاعتماده على النفي، ولأن الجار والمجرور قبله لا موضع الحال كالصفة، فتخصص بذلك وقرب من المعرفة، والناس: مبتدأ، وأشد: خبره، وهذه الجملة المركبة من مبتدأ وخبر في موضع رفع لأنها صفة شيء، وأما خبر المبتدأ الذي هو شيء، فمحذوف، وتقديره في الوجود، كما حذف الخبر في قولنا: لا إله إلا الله، أي في الوجود. وليس. يصح ما قال الراوندي من أن أشد مبتدأ ثان، ومن تعظيم الوفاء خبره، لأن حرف الجر إذا كان خبراً لمبتدأ تعلق بمحذوف، وههنا هو متعلق بأشد نفسه، فكيف يكون خبراً عنه، وأيضاً فإنه لا يجوز أن يكون أشد من تعظيم الوفاء خبراً عن الناس، كما زعم الراوندي، لأن ذلك كلام غير مفيد، ألا ترى أنك إذا أردت أن تخبر بهذا الكلام عن المبتدأ الذي هو الناس، لم يقيم من ذلك صورة محصلة تفيدك شيئاً، بل يكون كلاماً مضطرباً.

ويمكن أيضاً أن يكون من فرائض الله، في موضع رفع، لأنه خبر المبتدأ، وقد قدم عليه، ويكون موضع الناس، وما بعده

رفع، لأنه خبر المبتدأ الذي هو شيء، كما قلناه أولاً، وليس يمتنع أيضاً أن يكون: من فراض الله، منصوب الموضع، لأنه حال، ويكون موضع الناس أشد رفعاً، لأنه خبر المبتدأ، الذي هو شيء.

ثم قال رضي الله عنه: وقد لزم المشركون مع شركهم الوفاء بالعهود، وصار ذلك لهم شريعة وبينهم سنة، فالإسلام أولى بالزوم والوفاء.

واستوبلوا: وجدوه وبيلاً، أي ثقيلاً، استوبلت البلد، أي استوخمته واستثقلته، ولم يوافق مزاجك.

ولا تخيسن بعهدك، أي لا تغدرن، خاس فلان بدمته، أي غدر ونكت.

قوله: ولا تختلن عدوك، أي لا تمكرن به، ختلته، أي خدعته.

وقوله: أفضاه بين عباد، جعله مشتركاً بينهم، لا يختص به فريق دون فريق.

قال: ويستفيضون إلى جواره، أي ينتشرون في طلب حاجاتهم ومآربهم، ساكنين إلى جواره، فإلى ههنا متعلقة بمحذوف

مقدر، كقوله تعالى: "في تسع آيات إلى فرعون"، أي مرسلاً. قال: فلا إدغال، أي لا إفساد، والدغل: الفساد. ولا

مدالسة، أي لا خديعة، يقال: فلان لا يوالس ولا يدالس، أي لا يخادع ولا يخون، وأصل الدلس الظلمة، والتدليس في

البيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري.

ثم ناه عن أن يعقد عقداً يمكن فيه التأويلات والعلل وطلب المخارج. ونهاه إذا عقد العقد بينه وبين العدو أن ينقضه

معولاً على تأويل خفي أو فحوى قول، أو يقول: إنما عنيت كذا، ولم أعن ظاهر اللفظة، فإن العقود إنما تعقد على ما هو

ظاهر في الاستعمال متداول في الاصطلاح والعرف لا على ما في الباطن.

وروي انفساحه بالحاء المهملة، أي سعته.

بعض ما جاء في الحذر من كيد العدو والنهي عن الغدر.

قد جاء في الحذر من كيد العدو والنهي عن التفريط في الرأي والسكون إلى ظاهر السلم أشياء كثيرة، وكذا في النهي عن الغدر والنهي عن طلب تأويلات العهود وفسخها بغير الحق.

فرط عبد الله بن طاهر في أيام أبيه في أمر أشرف فيه على العطب، ونجا بعد لأي فكتب إليه أبوه: أتاني يا بني من خبر

تفريطك ما كان أكبر عندي من نعيك لو ورد، لأني لم أرج قط ألا تموت، وقد كنت أرجو ألا تفتضح بترك الحزم

والتيقظ. وروى ابن الكلبي أن قيس بن زهير لما قتل حذيفة بن بدر ومن معه بجفر الهبابة، خرج حتى لحق بالنمر بن

قاسط وقال: لا تنظر في وجهي غطفانية بعد اليوم، فقال: يا معاشر النمر، أنا قيس بن زهير، غريب حريب طريد شريد

موتور، فانظروا لي امرأة قد أدها الغنى وأذهبا الفقر. فزوجوه بامرأة منهم، فقال لهم: إني لا أقيم فيكم حتى أخبركم

بأخلاقي، أنا فخور غيور أنف، ولست أفخر حتى أبتلى، ولا أغار حتى أرى، ولا أنف حتى أظلم. فرضوا أخلاقه، فأقام

فيهم حتى ولد له، ثم أراد أن يتحول عنهم، فقال: يا معشر النمر، إن لكم حقاً علي في مصاهرتي فيكم، ومقامي بين

أظهركم، وإني موصيكم بخصال آمركم بها، وأنهاكم عن خصال: عليكم بالأناة فإن بها تدرك الحاجة، وتنال الفرصة،

وتسويد من لا تعاون بتسويده، والوفاء بالعهود فإن به يعيش الناس، وعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة، ومنع ما تريدون منعه قبل الإنعام، وإجارة الجار على الدهر، وتنقيس البيوت عن منازل الأياشي، وخلط الضيف بالعيال. وأحكام عن الغدر، فإنه عار الدهر، وعن الرهان فإن به ثكلت مالكاً أخي، وعن البغي فإن به صرع زهير أبي، وعن السرف في الدماء، فإن قتلي أهل الهباءة أورثني العار. ولا تعطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق، وأنكحوا الأياشي الأكفاء فإن لم تصيبوا بمن الأكفاء فخير بيوتن القبور. وأعلموا أي أصبحت ظالماً ومظلوماً، ظلمي بنو بدر بقتلهم مالكاً، وظلمتهم بقتلي من لا ذنب له. ثم رحل عنهم إلى غمار فتتصر بها، وعف عن الماكل حتى أكل الخنظل إلى أن مات.

الأصل: إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أخرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله.

ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد، لأن فيه قود البدن، وإن ابتليت بخطأ، وأفرط عليك سوطك أو يدك بالعقوبة، فإن في الوكرة فما فوقها مقتلة، فلا تطمحن بك نحوه سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

الشرح: قد ذكرنا في وصية قيس بن زهير أنفاً النهي عن الإسراف في الدماء، وتلك وصية مبنية على شريعة الجاهلية مع حميتها وهالكها على القتل والقتال، ووصية أمير المؤمنين رضي الله عنه مبنية على الشريعة الإسلامية، والنهي عن القتل والعدوان الذي لا يسيغه الدين، وقد ورد في الخبر المرفوع: إن أول ما يقضي الله به يوم القيامة بين العباد أمر الدماء.

قال: إنه ليس شيء أدعى إلى حلول النقم، وزوال النعم، وانتقال الدول، من سفك الدم الحرام، وإنك إن ظننت أنك تقوي سلطانك بذلك، فليس الأمر كما ظننت، بل تضعفه، بل تعدمه بالكلية.

ثم عرفه أن قتل العمد يوجب القود وقال له: قود البدن أي يجب عليك هدم صورتك كما هدمت صورة المقتول، والمراد إرهابه بهذه اللفظة فإنها أبلغ من أن يقول له: فإن فيه القود.

ثم قال: إن قتلت خطأ أو شبه عمد كالضرب بالسوط فعليك الدية. وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة، فقال أبو حنيفة وأصحابه: القتل على خمسة أوجه: عمد، وشبه عمد، وخطأ، وما أجري مجرى الخطأ، وقتل بسبب.

فالعمد: ما تعمد به ضرب الإنسان بسلاح، أو ما يجري مجرى السلاح، كالحدد من الخشب وليطة القصب، والمروة المحددة والنار، وموجب ذلك المأثم والقود إلا أن يعفو الأولياء، ولا كفارة فيه.

وشبه العمد أن يتعمد الضرب بما ليس بسلاح، ولا أجري مجرى السلاح، كالحجر العظيم، والخشبة العظيمة، وموجب ذلك المأثم والكفارة، ولا قود فيه، وفيه الدية مغلظة على العاقلة.

والخطأ على وجهين: خطأ في القصد، وهو أن يرمي شخصاً يظنه صيداً، فإذا هو آدمياً، وخطأ في الفعل، وهو أن يرمي غرضاً فيصيب آدمياً، وموجب النوعين جميعاً الكفارة والدية على العاقلة، ولا مأثم فيه.

وما أجري مجرى الخطأ مثل النائم يتقلب على رجل فيقتله، فحكمه حكم الخطأ.

وأما القتل بسبب، فحافر البئر وواضع الحجر في غير ملكه، وموجهه إذا تلف فيه إنسان الدية على العاقلة، ولا كفارة

فهذا قول أبي حنيفة ومن تابعه، وقد خالفه صاحبه أبو يوسف ومحمد في شبه العمدة، وقالوا: إذا ضربه بحجر عظيم أو خشبة غليظة فهو عمدة، قال: وشبه العمدة أن يعتمد ضربه بما لا يقتل به غالباً، كالعصا الصغيرة، والسوط، وبهذا القول قال الشافعي.

وكلام أمير المؤمنين رضي الله عنه يدل على أن المؤدب من الولاة إذا تلف تحت يده إنسان في التأديب فعليه الدية، وقال لي قوم من فقهاء الإمامية: إن مذهبنا أن لا دية عليه، وهو خلاف ما يقتضيه كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه. الأصل: وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه، ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

وإياك والمن على رعتك بإحسانك؛ أو التزيد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم، فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله سبحانه وتعالى: "كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون".

وإياك والعجلة بالأمر قبل أوانها، أو التساقط فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت، فضع كل أمرٍ موضعه، وأوقع كل عملٍ موقعه.

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغابي عما تعنى به مما قد وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، ويتصف منك للمظلوم.

املك حمية أنفك، وسورة حدك، وسطوة يدك، وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة، وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك، فتملك الاختيار.

ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك. والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك، من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثرٍ عن نبينا صلى الله عليه وآله وصحبه، أو فريضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسك عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها.

الشرح: قد اشتمل هذا الفصل على وصايا نحن شارحوها، منها قوله رضي الله عنه: إياك وما يعجبك من نفسك، والثقة بما يعجبك منها؛ قد ورد في الخبر: ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه؛ وفي الخبر أيضاً: لا وحشة أشد من العجب، وفي الخبر: الناس لآدم، وآدم من تراب، فما لابن آدم والفخر والعجب! وفي الخبر: الجار ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة؛ وفي الخبر، وقد رأى أبا دجانة يتبختر: إنها لمشية ييغضها الله إلا بين الصفين.

ومنها قوله: وحب الإطراء، ناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجاني المتكلم، فجعل يصدقه ويطريه ويستحسن قوله، فقال المأمون: يا محمد، أراك تنقاد إلى ما تظن أنه يسرني قبل وجوب الحجة لي عليك، وتطريني بما لست أحب أن أطرى به، وتستخذي لي في المقام الذي ينبغي أن تكون فيه مقاوماً لي، ومحتجاً علي، ولو شئت أن أقسر الأمور بفضل بيان، وطول لسان أغتصب الحجة بقوة الخلافة، وأهمة الرياسة لصدقت وإن كنت كاذباً، وعدلت وإن كنت جائراً، وصوبت وإن كنت مخطئاً، لكني لا أرضى إلا بغلبة الحجة، ودفع الشبهة، وإن أنقص الملوك عقلاً، وأسخفهم رأياً، من رضي

بقولهم: صدق الأمير.

وأثنى رجل على رجل، فقال: الحمد لله الذي سترني عنك. وكان بعض الصالحين يقول إذا أطراه إنسان: ليسألك الله عن حسن ظنك.

ومنها قوله: وإياك والمن، قال، الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى"، وكان يقال: المن محبة للنفس، مفسدة للصنع.

ومنها نهي إياه عن التزيد في فعله، قال رضي الله عنه: إنه يذهب بنور الحق، وذلك لأنه محض الكذب، مثل أن يسدي ثلاثة أجزاء من الجميل فيدعي في المجالس والمحافل أنه أسدى عشرة، وإذا خالط الحق الكذب أذهب نوره.

ومنها نهي إياه عن خلف الوعد، قد مدح الله نبياً من الأنبياء وهو إسماعيل بن إبراهيم بصدق الوعد. وكان يقال: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطل وتعطيل. وكتب بعض الكتاب: وحق لمن أزهق بقول، أن يثمر بفعل. وقال أبو مقاتل الضرير: قلت لأعرابي: قد أكثر الناس في المواعيد؛ فما قولك فيها؟ فقال: بنس الشيء! الوعد مشغلة للقلب الفارغ، متعبة للبدن الخافض، خيره غائب، وشره حاضر. وفي الحديث المرفوع: عدة المؤمن كأخذ باليد، فأما أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال: إنه يوجب المقت، واستشهد عليه بالآية. والمقت: البغض.

ومنها نهي عن العجلة؛ وكان يقال: أصاب مثبت أو كاد، وأخطأ عجل أو كاد. وفي المثل: رب عجلة تهب ريثاً، وذمها الله تعالى فقال: "خلق الإنسان من عجل".

ومنها نهي عن التساقط في الشيء الممكن عند حضوره، وهذا عبارة عن النهي عن الحرص والجشع، قال الشنفرى:

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

ومنها نهي عن اللجاجة في الحاجة إذا تعذرت؛ كان يقال: من لاج الله فقد جعله خصماً، ومن كان الله خصمه فهو مخصوم، قال الغزي:

دعها سماويه تجري على قدر لا تفسدنها برأي منك معكوس

ومنها نهي له عن الوهن فيها إذا استوضحت، أي وضحت وانكشفت، ويروى: واستوضحت، فعل ما لم يسم فاعله، والوهن فيها إهمالها وترك انتهاز الفرصة فيها، قال الشاعر:

فإذا أمكنت فبادر إليها حذراً من تعذر الإمكان

ومنها نهي عن الاستثثار، وهذا هو الخلق النبوي، غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم، غنائم خير، وكانت ملء الأرض نعماً، فلما ركب راحلته وسار تبعه الناس يطلبون الغنائم وقسمها، وهو ساكت لا يكلمهم، وقد أكثروا عليه إلحاحاً وسؤالاً، فمر بشجرة فخطفت رداءه، فالتفت فقال: ردوا علي ردائي، فلو ملكت بعدد رمل تامة مغنماً لقسمته بينكم عن آخره ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً، ونزل وقسم ذلك المال عن آخره عليهم كله، لم يأخذ لنفسه منه وبرة.

ومنها نهي له عن التغابي، وصورة ذلك أن الأمير يومئ إليه أن فلاناً من خاصته يفعل كذا، ويفعل كذا من الأمور المنكرة

ويرتكها سرّاً، فيتغابى عنه ويتغافل، فهاه رضي الله عنه عن ذلك وقال: إنك مأخوذ منك لغيرك، أي معاقب؛ تقول: اللهم خذ لي من فلان بحقي، أي اللهم انتقم لي منه.

ومنها نفيه إياه عن الغضب، وعن الحكم بما تقتضيه قوته الغضبية حتى يسكن غضبه، قد جاء في الخير المرفوع، لا يقضي القاضي وهو غضبان، فإذا كان قد نهي أن يقضي القاضي وهو غضبان على غير صاحب الخصومة، فبالأولى أن ينهى الأمير عن أن يسطو على إنسان وهو غضبان عليه.

وكان لكسرى أنوشروان صاحب قد رتبته ونصبه لهذا المعنى يقف على رأس الملك يوم جلوسه، فإذا غضب على إنسان وأمر به قرع سلسلة تاجه بقضيب في يده وقال له: إنما أنت بشر، فارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. الأصل: ومن هذا العهد وهو آخره: وأنا أسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة، أن يوفقي وإياك لما فيه رضاه، من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، من حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة؛ وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة؛ إنا إلى الله راغبون، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين.

الشرح: روي: كل رغبة، والرغبة ما يرغب فيه؛ فأما الرغبة فمصدر رغب في كذا، كأنه قال: القادر على إعطاء كل سؤال، أي إعطاء كل سائل ما سأله.

ومعنى قوله: من الإقامة على العذر، أي أسأل الله أن يوفقي للإقامة على الاجتهاد، وبذل الوسع في الطاعة، وذلك لأنه إذا بذل جهده فقد أعذر، ثم فسر اجتهاده في ذلك في رضا الخلق، ولم يفسر اجتهاده في رضا الخالق، لأنه معلوم؛ فقال: هو حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد.

فإن قلت: فقوله وتمام النعمة على ماذا تعطفه؟ قلت: هو معطوف على ما من قوله لما فيه، كأنه قال: أسأل الله توفيقني لذا ولتمام النعمة، أي ولتمام نعمته علي، وتضاعف كرامته لدي، وتوفيقه لهما هو توفيقه للأعمال الصالحة التي يستوجبهما بها.

بعض ما ورد من وصايا العرب.

وينبغي أن يذكر في هذا الموضع وصايا من كلام قوم من رؤساء العرب أوصوا بها أولادهم ورهطهم، فيها آداب حسان، وكلام فصيح، وهي مناسبة لعهد أمير المؤمنين رضي الله عنه هذا، ووصاياه المودعة فيه، وإن كان كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه أجل وأعلى من أن يناسبه كلام، لأنه قبس من نور الكلام الإلهي، وفرع من دوحة المنطق النبوي. روى ابن الكلبي قال: لما حضرت الوفاة أوس بن حارثة أنا الخزرج، لم يكن له ولد غير مالك بن الأوس، وكان لأخيه الخزرج خمسة، قيل له: كنا نأمرك بأن تتزوج في شبابك فلم تفعل حتى حضرك الموت، ولا ولد لك إلا مالك! فقال: لم يهلك هالك ترك مثل مالك، وإن كان الخزرج ذا عدد، وليس لمالك ولد، فلعل الذي استخرج العذق من الجريمة، والنار من الوثيمة أن يجعل للمالك نسلًا، ورجالًا بسلاً، وكلنا إلى الموت. يا مالك، المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب،

والتجلد لا التبلد، وأعلم أن القبر خير من الفقر، ومن لم يعط قاعداً حرم قائماً، وشر الشرب الاشتفاف وشر الطعم الاقتفاف، وذهاب البصر، خير من كثير من النظر، ومن كرم الكريم الدفع عن الحريم، ومن قل ذل، وخير الغنى القناعة، وشر الفقر الخضوع. الدهر صرفان: صرف رخاء، وصرف بلاء؛ واليوم يومان: يوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهما سينحسر وكيف بالسلامة، لمن ليست له إقامة، وحياك ربك. وأوصى الحارث بن كعب بنيه فقال: يا بني، قد أتت علي مائة وستون سنة ما صافحت يميني غادر، ولا قنعت لنفسي بخلة فاجر، ولا صبوت بابنة عم ولا كنة، ولا بحت لصديق بسر، ولا طرحت عن مومسة قناعاً، ولا بقي على دين عيسى بن مريم، وقد روي على دين شعيب، من العرب غيري وغير تميم بن مر بن أسد بن خزيمه، فموتوا على شريعتي، واحفظوا علي وصيتي، وإلهمكم فاتقوا، يكفكم ما أهمكم، ويصلح لكم حالكم، وإياكم ومعصيته، فيحل بكم الدمار، ويوحش منكم الديار. كونوا جميعاً، ولا تفرقوا فتكونوا شيعاً، وبزوا قبل أن تبزوا، فموت في عز، خير من حياة في ذل وعجز، وكل ما هو كائن كائن، وكل جمع إلى تباين، والدهر صرفان: صرف بلاء، وصرف رخاء، واليوم يومان: يوم حيرة، ويوم عبرة، والناس رجالان: رجل لك، ورجل عليك. زوجوا النساء الأكفاء، وإلا فانتظروا بمن القضاء، وليكن أطيب طيهن الماء، وإياكم والورهاء، فإنها أدوا الداء، وإن ولدها إلى أفن يكون. لا راحة لقاطع القرابة. وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم، وآفة العدد اختلاف الكلمة، والتفضل بالحسنة يقي السيئة، والمكافأة بالسيئة دخول فيها، وعمل السوء يزيل النعماء، وقطيعة الرحم تورث الهم، وانتهاك الحرمة يزيل النعمة، وعقوق الوالدين يعقب النكد، ويخرب البلد، ويمحق العدد، والإسراف في النصيحة، هو الفضيحة، والحدق منع الرشد، ولزوم الخطيئة يعقب البلية، وسوء الدعة يقطع أسباب المنفعة، والضغائن تدعو إلى التباين، يا بني إني قد أكلت مع أقوام وشربت، فذهبوا وغبرت، وكأني بهم قد لحقت، ثم قال:

وأبليت بعد دهور دهورا

فبادوا وأصبحت شيخاً كبيراً

م قد ترك الدهر خطوي قصيرا

أقلب أمري بطونا ظهورا

أكلت شبابي فأفنيته

ثلاثة أهلين صاحبته

قليل الطعام عسير القيا

أبيت أراعي نجوم السماء

وصى أكنم بن صيفي بنيه ورهطه فقال: يا بني تميم، لا يفوتنكم وعظي، إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلاماً لا أحد له مواقع إلا أسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم، فتلقوه بأسماع مصغية، وقلوب واعية، تحمدوا مغبته: الهوى يقظان، والعقل راقد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والروية مقيدة، ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم، ولن يعدم المشاور مرشداً، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، ومن سمع سمع به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع، ولو اعتبرت مواقع الحزن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام، وعلى الاعتبار طريق الرشاد، ومن سلك الجدد أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه، ويشغل فكره، ويورث غيظه، ولا تجاوز مضرته نفسه. يا بني

تيمم، الصبر على جرع الحلم أعذب من جنا ثمر الندامة، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للدم، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإذا نجمت مزجت، فهي أسد محرب، أو نار تلهب، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز، ونفاذ الرأي في الحرب، أجدى من الطعن والضرب. وأوصى يزيد بن المهلب ابنه مخلداً حين استخلفه على جرجان، فقال له: يا بني، قد استخلفتك على هذه البلاد، فانظر هذا الحي من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر:

إذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم فرش واصطنع عند الذين بهم ترمي

وانظر هذا الحي من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك، فاقض حقوقهم، وانظر هذا الحي من تميم فأمطهم ولا تزه لهم، ولا تدنهم فيطمعوا، ولا تقصهم فيقطعوا، وانظر هذا الحي من قيس فإنهم أكفاء قومك في الجاهلية، ومناصفوهم المآثر في الإسلام، ورضاهم منك البشر. يا بني إن لأبيك صنائع فلا تفسدها، فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يهدم ما بنى أبوه، وإياك والدماء فإنه لا تقية معها، وإياك وشتم الأعراض فإن الحر لا يرضيه عن عرضه عوض، وإياك وضرب الأبخار فإنه عار باقي، ووتر مطلوب، واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى، ولا تعزل إلا عن عجز أو خيانة. ولا ممنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها. وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه العشائر. احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم. وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يفقه عني وعنك، فإن كتاب الرجل موضع عقله، ورسوله موضع سره. وأستودعك الله، فلا بد للمودع أن يسكت، وللمشييع أن يرجع. وما عفت من المنطق وقل من الخطيئة أحب إلى أبيك.

وأوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه، فقال: يا بني، خذوا عني فلا أحد أنصح لكم مني، إذا دفتنوني فانصرفوا إلى رجالكم، فسودوا أكبركم، فإن القوم إذا سودوا أكبرهم خلفوا أباهم، وإذا سودوا أصغرهم أزرى ذلك بهم في أكفائهم. وإياكم ومعصية الله وقطيعة الرحم، وتمسكوا بطاعة أمرائكم فإنهم من رفعوا ارتفع، ومن وضعوا اتضع. وعليكم بهذا المال فأصلحوه، فإنه منبهة للكريم، وجنة لعرض اللئيم. وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل، وإن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب، وإياكم والنياحة، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عنها، وادفوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفني فقد كانت بيني وبينهم مشاحنات في الجاهلية والإسلام، وأخاف أن يدخلوا عليكم بي عاراً. وخذوا عني ثلاث خصال: إياكم وكل عرق لئيم أن تلابسوه فإنه إن يسرركم اليوم يسؤكم غداً، واكظموا الغيظ، واحذروا بني أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم، ثم قال:

أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبید وللآباء أبناء

قال ابن الكلبي: فيحكى الناس هذا البيت سابقاً للزبير، وما هو إلا لقيس بن عاصم.

وأوصى عمرو بن كلثوم التغلبي بنيه فقال: يا بني؛ إني قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحد من آبائي وأجدادي، ولا بد من أمر مقتبل، وأن يتزل بي ما نزل بالآباء والأجداد والأمهات والأولاد، فاحفظوا عني ما أوصيكم به. إني والله ما غيرت

رجلاً قط أمراً إلا عيرني مثله؛ إن حقاً فحق، وإن باطلاً فباطل، ومن سب سب، فكفوا عن الشتم فإنه أسلم لأعراضكم. وصلوا أرحامكم تعم داركم، وأكرموا جاركم بحسن ثنائكم، وزوجوا بنات العم بني العم فإن تعديتهم بمن إلى الغرباء فلا تألوا بمن عن الأكفاء. وأبعدوا بيوت النساء من بيوت الرجال، فإنه أغض للبصر، وأعف للذكر؛ ومتى كانت المعاينة واللقاء، ففي ذلك داء من الأدواء، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغار لنفسه، وقل من انتهك حرمة لغيره إلا انتهكت حرمة. وامنعوا القريب من ظلم الغريب، فإنك تدل على قريبك، ولا يحمل بك ذل غريبك، وإذا تنازعتم في الدماء فلا يكن حقكم الكفاء، فرب رجل خير من ألف، وود خير من خلف، وإذا حدثتم فعوا، وإذا حدثتم فأوجزوا، فإن مع الإكثار يكون الإهذار، وموت عاجل خير من ضنى آجل، وما بكيت من زمان إلا دهاني بعده زمان، وربما شجاني من لم يكن أمره عنائي، وما عجبت من أحدى إلا رأيت بعدها أعجوبة. واعلموا أن أشجع القوم العطوف، وخير الموت تحت ظلال السيوف، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا فيمن إذا عوتب لم يعتب، ومن الناس من لا يرجى خيره، ولا يخاف شره، فبكوءه خير من دره، وعقوقه خير من بره، ولا تبرحوا في حبكم فإن من أبرح في حب آل ذلك إلى قبيح بغض، وكم قد زارني إنسان وزرته، فانقلب الدهر بنا فقبرته. واعلموا أن الحليم سليم، وأن السفية كليم، إني لم أمت ولكن هرمت، ودخلتني ذلة فسكت، وضعف قلبي فأهترن، سلمكم ربكم وحياكم! ومن كتاب أردشير بن بابك إلى بنيه والملوك من بعده: رشاد الوالي خير للرعية من خصب الزمان، الملك والدين توءمان لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، فالدين أس الملك وعماده، ثم صار الملك حارس الدين، فلا بد للملك من أسه، ولا بد للدين من حارسه، فأما ما لا حارس له فضائع، وما لا أس له فمهدوم إن رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إياكم إلى دراسة الدين وتأويله والتفقه فيه، فتحملكم الثقة بقوة الملك على التهاون بهم، فتحدث في الدين ریاسات منتشرات سرّاً فيمن قد وترتم وجفوتهم، وحرمتهم وأخفتهم، وصغرتم من سفلة الناس والرعية وحشو العامة، ثم لا تنشب تلك الرياسات أن تحدث خرقاً في الملك ووهناً في الدولة. واعلموا أن سلطانكم إنما هو على أجساد الرعية لا على قلوبها، وإن غلبتم الناس على ما في أيديهم فلن تغلبوهم على ما في عقولهم وآرائهم ومكايدهم. واعلموا أن العاقل المحروم سال عليكم لسانه، وهو أقطع سيفيه، وإن أشد ما يضر بكم من لسانه ما صرف الحيلة فيه إلى الدين، فكان للدنيا يحتج، وللدين فيما يظهر يتعصب، فيكون للدين بكاؤه، وإليه دعاؤه، ثم هو أوحدهم للتابعين والمصدقين والمناصحين والمؤازرين، لأن تعصب الناس موكل بالملوك، ورحمتهم ومحبتهم موكله بالضعفاء المغلوبين، فاحذروا هذا المعنى كل الحذر. واعلموا أنه ليس ينبغي للملك أن يعرف للعباد والنسك بأن يكونوا أولى بالدين منه، ولا أحدب عليه ولا أغضب له. ولا ينبغي له أن يخلي النسك والعباد من الأمر والنهي في نسكهم ودينهم، فإن خروج النسك وغيرهم من الأمر والنهي عيب على الملوك وعلى المملكة، وثلمة بينة الضرر على الملك وعلى من بعده.

واعلموا أنه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوك كان الملك منهم يتعهد الحماية بالتفتيش والجماعة بالترفضيل، والفراغ بالإشغال، كتعده جسده بقص فضول الشعر والظفر وغسل الدرن والغمر ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن، وقد كان من أولئك الملوك من صحة ملكه أحب إليه من صحة جسده، فتتابعت تلك الأملاك بذلك كأنهم ملك واحد،

وكان أرواحهم روح واحدة، يمكن أولهم لآخرهم، ويصدق آخرهم أولهم، يجتمع أبناء أسلافهم، وموارث آرائهم، وثمرات عقولهم عند الباقي منهم بعدهم، وكأنهم جلوس معه يتحدثونه ويشاورونه، حتى كان على رأس دارا بن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرومي على ما غلب عليه من ملكه. وكان إفساده أمرنا، وتفرقة جماعتنا، وتخريبه عمران مملكتنا أبلغ له فيما أراد من سفك دمائنا، فلما أذن الله عز وجل في جمع مملكتنا، وإعادة أمرنا، كان من بعثه إيانا ما كان. وبالاعتبار يتقى العثار، والتجارب الماضية دستور يرجع إليه من الحوادث الآتية.

واعلموا أن طباع الملوك على غير طباع الرعية والسوقة: فإن الملك يطيف به العز، والأمن والسرور والقدرة على ما يريد، والأنفة والجرأة والعبث والبطر، وكلما ازداد في العمر تنفساً، وفي الملك سلامةً ازداد من هذه الطبائع والأخلاق حتى يسلمه ذلك إلى سكر السلطان الذي هو أشد من سكر الشراب، فينسى النكبات والعثرات، والغير والدوائر وفحش تسلط الأيام، ولؤم غلبة الدهر، فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول. وعند حسن الظن بالأيام تحدث الغير، وتزول النعم؛ وقد كان من أسلافنا وقدماء ملوكنا من يذكره عزه الذل، وأمنه الخوف، وسروره الكآبة، وقدرته المعجزة، وذلك هو الرجل الكامل قد جمع بمحة الملوك، وفكرة السوقة، ولا كمال إلا في جمعها.

واعلموا أنكم ستبلون على الملك بالأزواج والأولاد والقرباء والوزراء والأخذان، والأنصار والأعوان والمتقربين والندماء والمضحكين، وكل هؤلاء - إلا قليلاً - أن يأخذ لنفسه أحب إليه من أن يعطي منها عمله، وإنما عمله سوق ليوهمه، وذخيرة لغده، فنصيحته للملوك فضل نصيحته لنفسه وغاية الصلاح عنده صلاح نفسه، وغاية الفساد عنده فسادها؛ يقيم للسلطان سوق المودة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع، إذا استوحش الملك من ثقافته أطبقت عليه ظلم الجهالة. أخوف ما يكون العامة آمن ما يكون الوزراء، وآمن ما يكون العامة أخوف ما يكون الوزراء.

واعلموا أن كثيراً من وزراء الملوك من يحاول استبقاء دولته وأيامه بإيقاع الاضطراب، والخطب في أطراف مملكة الملك، ليجتاح الملك إلى رأيه وتدبيره؛ فإذا عرفتم هذا من وزير من وزرائكم فاعزلوه فإنه يدخل الوهن والنقص على الملك والرعية لصلاح حال نفسه، ولا تقوم نفسه بهذه النفوس كلها.

واعلموا أن بدء ذهاب الدولة ينشأ من قبل إهمال الرعية بغير أشغال معروفة ولا أعمال معلومة، فإذا نشأ الفراغ تولد منه النظر في الأمور، والفكر في الفروع والأصول. فإذا نظروا في ذلك نظروا فيه بطبائع مختلفة، فتختلف بهم المذاهب، ويتولد من اختلاف مذاهبهم تعاديههم وتضاغنهم، وهم مع اختلافهم هذا متفقون ومجتمعون على بغض الملوك، فكل صنف منهم إنما يجري إلى فجاعة الملك بملكه، ولكنهم لا يجدون سلباً إلى ذلك أوثق من الدين والناموس، ثم يتولد من تعاديههم أن الملك لا يستطيع جمعهم على هوى واحد، فإن انفرد باختصاص بعضهم صار عدو بقيتهم، وفي طباع العامة استئثار الولاة وملاهم، والنفاسة عليهم، والحسد لهم، وفي الرعية المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود، ويتولد من كثرتهم مع عداوتهم أن يجبن الملك عن الإقدام عليهم، فإن في قدام الملك على الرعية كلها كافة تغيراً بملكه. ويتولد من جبن الملك عن الرعية استعجالهم عليه، وهم أقوى عدو له وأخلقه بالظفر، لأنه حاضر مع الملك في دار ملكه، فمن أفضى إليه الملك بعدي فلا يكون بإصلاح جسده أشد اهتماماً منه بهذه الحال، ولا تكونن لشيء من الأشياء أكره وأنكر لرأس صار ذنباً، وذنب صار رأساً، ويد مشغولة صارت فارغة، أو غني صار فقيراً، أو عامل مصروف، أو أمير معزول.

واعلموا أن سياسة الملك وحراسته ألا يكون ابن الكاتب إلا كاتباً، وابن الجندي إلا جندياً، وابن التاجر إلا تاجراً، وهكذا في جميع الطبقات، فإنه يتولد من تنقل الناس عن حالاتهم أن يلتبس كل امرئ منهم فوق مرتبته، فإذا أنتقل أو شك أن يرى شيئاً أرفع مما انتقل إليه، فيحسد أو ينافس، وفي ذلك من الضرر المتولد ما لا خفاء به، فإن عجز ملك منكم عن إصلاح رعيته كما أوصيناه فلا يكون للقميص القمل أسرع خلعاً منه لما لبس من قميص ذلك الملك.

واعلموا أنه ليس ملكٌ إلا وهو كثير الذكر لمن يلي الأمر بعده، ومن فساد أمر الملك نشر ذكره ولاية العهود، فإن في ذلك ضرراً من الضرر، وإن ذلك دخول عداوة بين الملك وولي عهده، لأنه تطمح عينه إلى الملك، ويصير له أحبابٌ وأخذان يمنونه ذلك، ويستبطنون موت الملك. ثم إن الملك يستوحش منه، وتنساق الأمور إلى هلاك أحدهما، ولكن لينظر الوالي منكم الله تعالى ثم لنفسه ثم للرعية، ولينتخب ولياً للعهد من بعده ولا يعلمه ذلك، ولا أحد من الخلق قريباً كان منه أو بعيداً، ثم يكتب اسمه في أربع صحائف، ويختتمها بخاتمه، ويضعها عند أربعة نفرٍ من أعيان أهل المملكة، ثم لا يكون منه في سره وعلايته أمر يستدل به على ولي عهده من هؤلاء في إدناء وتقريب يعرف به، ولا في إقصاء وإعراضٍ يستراب له. وليتق ذلك في اللحظة والكلمة، فإذا هلك الملك جمعت تلك الصحائف إلى النسخة التي تكون في خزانة الملك، فتفض جميعاً، ثم ينوه حينئذ باسم ذلك الرجل، فيلقى الملك إذا لقيه بجداته عهده بحال السوق، ويلبسه إذا لبسه ببصر السوق وسمعها، فإن في معرفته بحاله قبل إفشاء الملك إليه سكرًا تحدثه عنده ولاية العهد، ثم يلقيه الملك فيزيده سكرًا إلى سكره، فيعمى ويصم، هذا مع ما لا بد أن يلقاه أيام ولاية العهد من حيل العتاة، وبغي الكذابين، وترقية النمامين، وإيغار صدره، وإفساد قلبه على كثير من رعيته، وخواص دولته، وليس ذلك بمحمود ولا صالح.

واعلموا أنه ليس للملك أن يحلف، لأنه لا يقدر أحد استكراهه، وليس له أن يغضب لأنه قادر، والغضب لقاح الشر والندامة، وليس له أن يعبث ويلعب، لأن اللعب والعبث من عمل الفراغ، وليس له أن يفرغ لأن الفراغ من أمر السوق، وليس للملك أن يحسد أحداً إلا على حسن التدبير، وليس له أن يخاف لأنه لا يد فوق يده.

واعلموا أنكم لن تقدروا على أن تختموا أفواه الناس من الطعن والإزاء عليكم، ولا قدرة لكم على أن تجعلوا القبيح من أفعالكم حسناً، فاجتهدوا في أن تحسن أفعالكم كلها، وألا تجعلوا للعامة إلى الطعن عليكم سبيلاً.

واعلموا أن لباس الملك ومطعمه ومشربه مقارب للباس السوق ومطعمهم، وليس فضل الملك على السوق إلا بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم، فإن الملك إذا شاء أحسن، وليس كذلك السوق.

واعلموا أن لكل ملك بطانة، ولكل رجل من بطانته بطانة، ثم إن لكل امرئ من بطانة البطانة بطانة، حتى يجتمع من ذلك أهل المملكة، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصواب فيهم، أقام كل امرئ منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية.

احذروا باباً واحداً طالما أمنتهم فضري، وحذرتهم فنفعني. احذروا إفشاء السر بحضرة الصغار من أهليكم وخدمكم، فإنه ليس يصغر واحد منهم عن حمل ذلك السر كاملاً؛ لا يترك منه شيئاً حتى يضعه حيث تكرهون إما سقطاً أو غشاً.

واعلموا أن في الرعية صنفاً أتوا الملك من قبل النصائح له، والتمسوا إصلاح منازلهم بإفساد منازل الناس، فأولئك أعداء

الناس وأعداء الملوك، ومن عادى الملوك والناس كلهم فقد عادى نفسه. واعلموا أن الدهر حاملكم على طبقات؛ فمنها حال السخاء حتى يدنو أحدكم من السرف، ومنها حال التبذير حتى يدنو من البخل، ومنها حال الأناة حتى يدنو من البلادة، ومنها حال انتهاز الفرصة حتى يدنو من الخفة، ومنها حال الطلاقة في اللسان حتى يدنو من الهذر، ومنها حال الأخذ بحكمة الصمت حتى يدنو من العي، فالملك منكم جدير أن يبلغ من كل طبقة في محاسنها حدّها، فإذا وقف عليه ألجم نفسه عما وراءها.

واعلموا أن ابن الملك وأخاه وابن عمه يقول: كدت أن أكون ملكاً، وبالحرى ألا أموت حتى أكون ملكاً، فإذا قال ذلك قال ما لا يسر الملك، وإن كتمه فالداء في كل مكتوم، وإذا تمنى ذلك جعل الفساد سلماً إلى الفساد سلماً إلى صلاح قط. وقد رسمت لكم في ذلك مثلاً، اجعلوا الملك لا ينبغي إلا لأبناء الملوك من بنات عمومهم، ولا يصلح من أولاد بنات العم إلا كامل غير سخييف العقل، ولا عازب الرأي، ولا ناقص الجوارح، ولا مطعون عليه في الدين، فإنكم إذا فعلتم ذلك قل طلاب الملك، وإذا قل طلابه استراح كل امرئ إلى ما يليه، ونزع إلى حد يليه، وعرف حاله، ورضي معيشتته، واستطاب زمانه.

فقد ذكرنا وصايا قوم من العرب، ووصايا أكثر ملوك الفرس وأعظمهم حكمة لتضم إلى وصايا أمير المؤمنين رضي الله عنه فيحصل منها وصايا الدين والدنيا، فإن وصايا أمير المؤمنين رضي الله عنه، الدين عليها أغلب، ووصايا هؤلاء الدنيا عليها أغلب، فإذا أخذ من أخذ التوفيق بيده بمجموع ذلك فقد سعد، ولا سعيد إلا من أسعده الله.

وكتب إلى طلحة والزبير مع عمران

بن الحصين الخزاعي، وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقامات.

الأصل: أما بعد، فقد علمتما، وإن كتمتما، أي لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى بايعوني؛ وإنكما ممن أرادني وبايعني، وإن العامة لم تبايعني لسلطان غالب، ولا لحرص حاضر، فإن كتمتما بايعتما طائعين فارجعاً وتوباً إلى الله من قريب، وإن كتمتما بايعتما كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية. ولعمري ما كتمتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان.

وإن دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخل فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به. وقد زعمتما أنني قتلت عثمان، فبيني وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة، ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل. فارجعاً أيها الشيخان عن رأيكما؛ فإن الآن أعظم أمركما العار، من قبل أن يجتمع العار والنار والسلام.

عمران بن الحصين ونسبه.

الشرح: هو عمران بن الحصين بن عبيد بن خلف بن عبد بن نهم بن سالم بن غاضرة بن سلول بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي. يكنى أبا مجيد بابنه مجيد بن عمران. أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر، وكان من فضلاء الصحابة

وفقهاءهم، يقول أهل البصرة عنه: إنه كان يرى الحفظة، وكانت تكلمه حتى اكتوى.

وقال محمد بن سيرين: أفضل من نزل البصرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمران بن الحصين وأبو بكر. واستقضاه عبد الله بن عامر بن كريز على البصرة فعمل له أياماً، ثم استعفاه فأعفاه، ومات بالبصرة سنة اثنتين وخمسين في أيام معاوية.

أبو جعفر الإسكافي وأما أبو جعفر الإسكافي، وهو شيخنا محمد بن عبد الله الإسكافي، عده قاضي القضاة في الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة مع عباد بن سليمان الصيمري، ومع زرقان، ومع عيسى بن الهيثم الصوفي، وجعل أول الطبقة ثمانية بن أشرس أبا معن، ثم أبا عثمان الجاحظ، ثم أبا موسى عيسى بن صبيح المردار، ثم أبا عمران يونس بن عمران ثم محمد بن شبيب، ثم محمد بن إسماعيل بن العسكري، ثم عبد الكريم بن روح العسكري، ثم أبا يعقوب يوسف بن عبد الله الشحام، ثم أبا الحسين الصالح، ثم الجعفران: جعفر بن جرير وجعفر بن ميسر، ثم أبا عمران بن النقاش، ثم أبا سعيد أحمد بن سعيد الأسدي، ثم عباد بن سليمان، ثم أبا جعفر الإسكافي هذا. وقال: كان أبو جعفر فاضلاً عالماً، وصنف سبعين كتاباً في علم الكلام.

وهو الذي نقض كتاب العثمانية على أبي عثمان الجاحظ في حياته، ودخل الجاحظ الوراقين ببغداد، فقال: من هذا الغلام السوادي الذي بلغني أنه تعرض لنقض كتابي! وأبو جعفر جالس! فاختمني منه حتى لم يره. وكان أبو جعفر يقول بالترفضيل على قاعدة معتزلة بغداد، ويبالغ في ذلك، وكان علوي الرأي، محققاً منصفاً، قليل العصبية.

ثم نعود إلى شرح ألفاظ الفصل ومعانيه: قوله رضي الله عنه: لم أرد الناس، أي لم أرد الولاية عليهم حتى أرادوا هم مني ذلك.

قال: ولم أبايعهم حتى بايعوني، أي لم أمدد يدي إليهم مد الطلب والحرص على الأمر، ولم أمددها إلا بعد أن خاطبوني بالإمرة والخلافة، وقالوا بألستهم: قد بايعناك، فحينئذ مددت يدي إليهم.

قال: ولم يبايعني العامة والمسلمون لسلطان غصبهم وقهرهم على ذلك، ولا لحرص حاضر، أي مال موجود فرقة عليهم. ثم قسم عليهما الكلام، فقال: إن كنتم بايعتماني طوعاً عن رضا فقد وجب عليكم الرجوع، لأنه لا وجه لانتقاض تلك البيعة، وإن كنتم بايعتماني مكرهين عليها فالإكراه له صورة، وهي أن يجرد السيف ويمد العنق، ولم يكن قد وقع ذلك، ولا يمكنكما أن تدعياه، وإن كنتم بايعتماني لا عن رضا ولا مكرهين بل كارهين، وبين المكره والكاره فرق بين، فالأمر الشرعية إنما تبنى على الظاهر، وقد جعلتما لي على أنفسكما السبيل بإظهاركما الطاعة، والدخول فيما دخل فيه الناس، ولا اعتبار بما أسررتما من كراهية ذلك. على أنه لو كان عندي ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون في كراهية ذلك سواء؛ فما الذي جعلكما أحق المهاجرين كلهم بالكتمان والتقية! ثم قال: وقد كان امتناعكما عن البيعة في مبدأ الأمر أجمل من دخولكما فيها ثم نكثها.

قال: وقد زعمتما أن الشبهة التي دخلت عليكما في أمري أنني قتلت عثمان، وقد جعلت الحكم بيني وبينكما من تخلف

عني وعنكما من أهل المدينة، أي الجماعة التي لم تنصر علياً ولا طلحة، كمحمد بن مسلمة، وأسامه بن زيد، وعبد الله بن عمر، وغيرهم، يعني أنهم غير متهمين عليه ولا على طلحة والزبير، فإذا حكموا لزم كل امرئ منا بقدر ما تقتضيه الشهادات. ولا شبهة أنهم لو حكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة علي رضي الله عنه من دم عثمان، وبأن طلحة كان هو الجملعة والتفصيل في أمره وحصره وقتله، وكان الزبير مساعداً له على ذلك، وإن لم يكن مكاشفاً مكاشفة طلحة.

ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة، وقال لهما: إنكما إنما تخافان العار في رجوعكما وانصرافكما عن الحرب، فإن لم ترجعا اجتمع عليكما العار والنار، أما العار فلأنكما تهزمان وتفتران عند اللقاء فتعيران بذلك، وأيضاً سيكشف للناس أنكما كنتما على باطل فتعيران بذلك، وأما النار فإليها مصير العصاة إذا ماتوا على غير توبة، واحتمال العار وحده أهون من احتماله واحتمال النار معه.

وكتب إلى معاوية.

الأصل: أما بعد فإن الله سبحانه جعل الدنيا لما بعدها، وابتلى فيها أهلها، ليعلم أيهم أحسن عملاً، ولسنا للدنيا خلقنا، ولا بالسعي فيها أمرنا، وإنما وضعنا فيها لنبتلى بها، وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي، فجعل أحدنا حجة على الآخر، فعدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن، وطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني، وعصيته أنت وأهل الشام بي، وألب عالمكم جاهلكم، وقائمكم قاعدكم.

فاتق الله في نفسك، ونار ع الشيطان قيادك، واصرف إلى الآخرة وجهك، فهي طريقنا وطريقك، واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة تمس الأصل، وتقطع الدابر، فإني أولي لك بالله ألية غير فاجرة، لئن جمعتني وإياك جوامع الأقدار لا أزال بياحتك، لقوله تعالى "حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين".

الشرح: قال رضي الله عنه: إن الله قد جعل الدنيا لما بعدها، أي جعلها طريقاً إلى الآخرة.

ومن الكلمات الحكيمة: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وابتلى فيها أهلها أي اختبرهم ليعلم أيهم أحسن عملاً، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز، والمراد ليعلم خلقه، أو ليعلم ملائكته ورسله، فحذف المضاف، وقد سبق ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدم، قال: ولسنا للدنيا خلقنا، أي لم نخلق للدنيا فقط.

قال: ولا بالسعي فيها أمرنا، أي لم نؤمر بالسعي فيها لها، بل أمرنا بالسعي فيها لغيرها.

ثم ذكر أن كل واحد منه ومن معاوية مبتلى بصاحبه، وذلك كابتلاء آدم بإبليس وإبليس بآدم.

قال: فعدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن، أي تعديت وظلمت، وعلى ههنا متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، تقديره مثابراً على طلب الدنيا أو مصراً على طلب الدنيا، وتأويل القرآن ما كان معاوية يموه به على أهل الشام فيقول لهم: أنا ولي عثمان، وقد قال الله تعالى: "ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً".

ثم يعدهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى: "فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً".

قوله: وعصيته أنت وأهل الشام، أي ألزمتني كما تلزم العصاة الرأس، وألب عالمكم جاهلكم، أي حرض.

والقياد: جبل تقاد به الدابة.

قوله: واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة، الضمير في منه راجع إلى الله تعالى، ومن لا ابتداء الغاية.
وقال الراوندي: منه، أي من البهتان الذي أثبتته، أي من أجله، ومن للتعليل، وهذا بعيد وخلاف الظاهر.
قوله: تمس الأصل، أي تقطعه، ومنه ماء ممسوس أي يقطع الغلة. ويقطع الدابر أي العقب والنسل.
والألية: اليمين. وباحة الدار: وسطها، وكذلك ساحتها، وروي بناحيك.
قوله: بعاجل قارعة، وجوامع الأقدار، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف للتأكيد، كقوله تعالى: "وإنه لحق اليقين".

ومن كلام له رضي الله عنه وصى به شريح بن هانئ

لما جعله علي مقدّمته إلى الشام. الأصل: اتق الله في كل مساء وصباح، وخف على نفسك الدنيا الغرور، ولا تأمنها على حال.

واعلم أنك إن لم ترح نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروهه، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر، فكن لنفسك مانعاً رادعاً، ولتروائك عند الحفيظة واقماً قامعاً.

شريح بن هانئ.

الشرح: هو شريح بن هانئ بن يزيد بن نهيك بن دريد بن سفيان بن الضباب، وهو سلمة بن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن كعب المذحجي. كان هانئ يكنى في الجاهلية أبا الحكم، لأنه كان يحكم بينهم، فكانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي تشريح، إذ وفد عليه، وابنه تشريح هذا من جلة أصحاب علي رضي الله عنه، شهد معه المشاهد كلها، وعاش حتى قتل بسجستان في زمن الحجاج، وشريح جاهلي إسلامي، يكنى أبا المقدام، ذكر ذلك كله أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب.

قوله رضي الله عنه: وخف على نفسك الغرور، يعني الشيطان، فأما الغرور بالضم فمصدر. والرادع: الكاف المانع. والتزوات: الوثبات. والحفيظة: الغضب. والواقم: فاعل من وقمته أي رددته أقبح الرد وقهرته. يقول رضي الله عنه: إن لم تردع نفسك عن كثير من شهواتك أفضت بك إلى كثير من الضرر، ومثل هذا قول الشاعر:

وفرجك نالا منتهى الذم أجمعاً

فإنك إن أعطيت بطنك سؤلها

وكتب إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة.

الأصل: أما بعد، فإني خرجت عن حبي هذا إما ظالماً وإما مظلوماً، وإما باغياً وإما مبيعاً عليه، وأنا أذكر الله من بلغه كتناكي هذا لما نفر إلي، فإن كنت محسناً أعاني، وإن كنت مسيئاً استعيني.
الشرح: ما أحسن هذا التقسيم وما أبلغه في عطف القلوب عليه، واستمالة النفوس إليه.

قال: لا يخلو حالي في خروجي من أحد أمرين: إما أن أكون ظالماً أو مظلوماً، وبدأ بالظالم هضماً لنفسه، ولئلا يقول عدوه: بدأ بدعوى كونه مظلوماً، فأعطى عدوه من نفسه ما أراد: قال: فلينفر المسلمون إلي فإن وجدوني مظلوماً أعانوني، وإن وجدوني ظالماً فهو مني عن ظلمي لأعتب وأنيب إلى الحق. وهذا كلام حسن، ومراده رضي الله عنه يحصل على كلا الوجهين، لأنه إنما أراد أن يستنفرهم، وهذان الوجهان يقتضيان نفيهم إليه على كل حال، والحي: المنزل، ولما ههنا بمعنى إلا، كقوله تعالى: "إن كل نفس، لما عليها حافظ"، في قراءة من قرأها بالتشديد.

من كتاب له إلى أهل الأمصار يقص فيه

ما جرى بينه وبين أهل صفين.

الأصل: وكان بدء أمرنا أنا التقينا بالقوم من أهل الشام، والظاهر أن ربنا واحد، وبنينا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، والأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء، فقلنا: تعالوا ندأوي ما لا يدرك اليوم بإطفاء النائرة، وتسكين العامة، حتى يشتد الأمر ويستجمع، فنقوى على وضع الحق في مواضعه، فقالوا: بل ندأويه بالمكابرة، فأبوا، حتى جنحت الحرب وركدت، ووقدت نيرانها وحمشت. فلما ضرستنا وإياهم، ووضعت مخالبتها فينا وفيهم، أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهم إليه، فأجبناهم إلى ما دعوا، وسارعناهم إلى ما طلبوا، حتى استبان عليهم الحجة، وانقطعت منهم المذخرة، فمن تم على ذلك منهم فهو الذي أنقذه الله من الهلكة، ومن لج وتمادى فهو الراكس الذي ران الله على قلبه، وصارت دائرة السوء على رأسه. الشرح: روي التقينا والقوم بالواو، كما قالوا.

قلت إذ أقبلت

وزهر تهادى

ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلف.

قوله: والظاهر أن ربنا واحد، كلام من لم يحكم لأهل صفين من جانب معاوية حكماً قاطعاً بالإسلام، بل قال: ظاهرهم الإسلام، ولا خلف بيننا وبينهم فيه، بل الخلف في دم عثمان. قال رضي الله عنه: قلنا لهم: تعالوا فلنطفئ هذه النائرة الآن بوضع الحرب، إلى أن تتمهد قاعدتي في الخلافة وتزول هذه الشوائب التي تكدر علي الأمر، ويكون للناس جماعة ترجع إليها، وبعد ذلك أتمكن من قتلة عثمان بأعيانهم فأقتص منهم، فأبوا إلا المكابرة والمغالبة والحرب. قوله: حتى جنحت الحرب وركدت، جنحت: أقبلت، ومنه: قد جنح الليل، أي أقبل، وركدت: دامت وثبتت. قوله: ووقدت نيرانها، أي التهبت. قوله: وحمشت، أي استعرت وشبت. وروي: واستحشمت وهو أصح، ومن رواها حمست بالسين المهملة أراد أشتدت

وصلبت.

قوله: فلما ضرستنا وإياهم أي عضتنا بأضراسها، ويقال: ضرسهم الدهر، أي اشتد عليهم.
قال: لما اشتدت الحرب علينا وعليهم، وأكلت منا ومنهم، عادوا إلى ما كنا سألناهم ابتداءً، وضرعوا إلينا في رفع الحرب، ورفعوا المصاحف يسألون التزول على حكمها، وإغماد السيف، فأجبناهم إلى ذلك.
قوله: وسارعناهم إلى ما طلبوا كلمة فصيحة، وهي تعدية الفعل اللازم، كأنها لما كانت في معنى المسابقة، والمسابقة متعدية عدى المسارعة.

قوله: حتى استبانت، يقول: استمررنا على كف الحرب ووضعها، إجابة لسؤالهم، إلى أن استبانت عليهم حجتنا، وبطلت معاذيرهم وشبهتهم في الحرب وشق العصا، فمن لم منهم على ذلك، أي على انقياده إلى الحق بعد ظهوره له، فذاك الذي خلصه الله من الهلاك وعذاب الآخرة، ومن لم منهم على ذلك وتمادى في ضلاله فهو الراكس، قال قوم: الراكس هنا بمعنى المركوس، فهو مقلوب فاعل بمعنى مفعول، كقوله تعالى: "فهو في عيشة راضية"، أي مرضية، وعندني أن اللفظة على بائها، يعني أن من لم فقد ركس نفسه، فهو الراكس، وهو المركوس، يقال: ركسه وأركسه بمعنى، والكتاب العزيز جاء بالهمز فقال تعالى: "والله أركسهم بما كسبوا"، أي ردهم إلى كفرهم، ويقول: ارتكس فلان في أمر كان نجاً منه، وران على قلبه، أي ران هو على قلبه، كما قلنا في الراكس، ولا يجوز أن يكون الفاعل، وهو الله، محذوفاً، لأن الفاعل لا يحذف، بل يجوز أن يكون الفاعل كالمحذوف، وليس بمحذوف، ويكون المصدر وهو الرين، ودل الفعل عليه كقوله تعالى: "ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات"، أي بدا لهم البداء. وران بمعنى غلب وغطى، وروي فهو الراكس الذي رين على قلبه. قال: وصارت دائرة السوء على رأسه، من ألفاظ القرآن العزيز، قال الله تعالى: "عليهم دائرة السوء"، والدوائر: الدول.

قال: وإن على الباغي تدور الدوائر.

والدائرة أيضاً: الهزيمة، يقال: على من الدائرة منهما، والدوائر أيضاً الدواهي.

وكتب إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان.

الأصل: أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعة ذلك كثيراً من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل نفسك فيما افترض الله عليك، راجياً ثوابه، ومتخوفاً عقابه. واعلم أن الدنيا دار بلية لم يفرغ صاحبها فيها قط ساعة إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة، وأنه لن يغنيك عن الحق شيء أبداً، ومن الحق عليك حفظ نفسك، والاحتساب على الرعية بجهدك، فإن الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك، والسلام.

الأسود بن قطبة.

الشرح: لم أقف إلى الآن على نسب الأسود بن قطبة، وقرأت في كثير من النسخ أنه حارثي من بني الحارث بن كعب، ولم أتأكد ذلك، والذي يغلب على ظني أنه الأسود بن زيد بن قطبة بن غنم الأنصاري من بني عبيد بن عدي. ذكره أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب، وقال: إن موسى بن عقبة عده فيمن شهد بدرًا. قوله رضي الله عنه: إذا اختلف هوى الوالي منعه كثيراً من الحق قول صدق، لأنه متى لم يكن الخصمان عند الوالي سواء في الحق جار وظلم.

ثم قال له: فإنه ليس في الجور عوض من العدل، وهذا أيضاً حق، وفي العدل كل العوض من الجور. ثم أمره باجتناّب ما ينكر مثله من غيره، وقد تقدم نحو هذا.

وقوله: إلا كانت فرغته كلمة فصيحة، وهي المرة الواحدة من الفراغ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث الصحيح الفارغ لا في شغل الدنيا ولا في شغل الآخرة"، ومراد أمير المؤمنين رضي الله عنه ههنا الفراغ من عمل الآخرة خاصة.

قوله: فإن الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك، معناه: فإن الذي يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعية، وحفظ نفسك من مظالمهم والحيف عليهم، أفضل من الذي يصل بك من حراسة دمائهم وأعراضهم وأموالهم، ولا شبهة في ذلك، لأن إحدى المنفعتين دائمة، والأخرى منقطعة، والنفع الدائم أفضل من المنقطع.

وكتب إلى العمال الذين بطأ عملهم الجيوش.

الأصل: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من مر به الجيش من جباة الخراج وعمال البلاد: أما بعد، فإني قد سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى، وصرف الأذى، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش، إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهباً إلى شبعه، فنكلوا من تناول منهما ظلماً عن ظلمهم، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضادتهم، والتعرض لهم فيما استثنياه منهم، وأنا بين أظهر الجيش، فارتفعوا إلي مظالمكم، وما عراكم مما يغلبكم من أمرهم ولا تطيقون دفعه إلا بالله وبى، أغیره بمعونة الله. إن شاء الله.

الشرح: روي عن مضارقتهم بالراء المشددة. وجباة الخراج: الذين يجمعونه، جبيت الماء في الحوض، أي جمعته. والشذى: الضرب والشر، تقول: لقد أشذيت وآذيت. وإلى ذمتكم، أي إلى اليهود والنصارى الذين بينكم، قال رضي الله عنه: من آذى ذمياً فكأنما آذاني، وقال: إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا، ويسمى هؤلاء ذمة، أي أهل ذمة، بحذف المضاف. والمعرة: المضرة، قال: الجيش ممنوع من أذى من يمر به من المسلمين وأهل الذمة إلا من سد جوعة المضطر منهم خاصة، لأن المضطر تباح له الميتة فضلاً عن غيرها.

ثم قال: فنكلوا من تناول، وروي عن تناول بالباء، أي عاقبوه. وعن في قوله: عن ظلمهم، يتعلق بنكلوا، لأنها في معنى اردعوا، لأن النكال يوجب الردع.

ثم أمرهم أن يكفوا أيدي أحداثهم وسفهائهم عن منازعة الجيش ومصادمته، والتعرض لمنعه عما استثناه، وهو سد الجوعة

عند الاضطراب، فإن ذلك لا يجوز في الشرع، وأيضاً فإنه يفضي إلى فتنة وهرج.
ثم قال: وأنا بين أظهر الجيش، أي أنا قريب منكم، وسائر على إثر الجيش، فارتفعوا إلي مظالمكم وما عراكم منهم على وجه الغلبة والقهر، فإني مغير ذلك ومنتصف لكم منهم.

وكتب إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله

على هيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدو طالباً للغارة.

الأصل: أما بعد، فإن تضييع المرء ما ولي، وتكلفه ما كفي، لعجز حاضر، ورأي متبر. وإن تعاطيك الغارة على أهل قرقيسيا، وتعطيلك مسالحك التي وليناك، ليس لها من يمنعه، ولا يرد الجيش عنها، لرأي شعاع، فقد صرت جسراً لمن أراد الغارة من أعدائك على أوليائك، غير شديد المنكب، ولا مهيب الجانب، ولا ساد ثغرة، ولا كاسر لعدو شوكة، ولا مغن عن أهل مصره، ولا مجز عن أميره.

كميل بن زياد.

الشرح: هو كميل بن زياد بن سهيل بن هيثم بن سعد بن مالك بن الحارث بن صهبان بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن وعلة بن خالد بن مالك بن أدد. كان من أصحاب علي رضي الله عنه وشيعته وخاصته، وقتله الحجاج على المذهب فيمن قتل من الشيعة. وكان كميل بن زياد عامل علي رضي الله عنه على هيت، وكان ضعيفاً، يمر عليه سرايا معاوية تنهب أطراف العراق ولا يردّها، ويحاول أن يجبر ما عنده من الضعف بأن يغير على أطراف أعمال معاوية مثل قرقيسيا وما يجري مجراها من القرى التي على الفرات، فأنكر رضي الله عنه ذلك من فعله، وقال: إن من العجز الحاضر أن يهمل الوالي ما وليه، ويتكلف ما ليس من تكليفه.

والمتبر: الهالك، قال تعالى: "إن هؤلاء متبر ما هم فيه".

والمسالح: جمع مسلحة، وهي المواضع التي يقام فيها طائفة من الجند لحمايتها.

ورأي شعاع، بالفتح، أي متفرق.

ثم قال له: قد صرت جسراً أي يعبر عليك العدو كما يعبر الناس على الجسور، وكما أن الجسر لا يمنع من يعبر به ويمر عليه فكذلك أنت.

والثغرة: الثلمة. ومجز: كاف ومغن، والأصل مجزىء بالهمز، فخفف.

وكتب إلى أهل مصر مع مالك الأشتر

رحمه الله لما ولاه إمارتها. الأصل: أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وعلى صحبه وسلم نذيراً للعالمين، ومهيماً على المرسلين، فلما مضى صفى الله عليه وآله وصحبه تنازع المسلمون الأمر من بعده، فو الله ما كان

يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله وصحبه عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وصحبه، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم، التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، وكما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهه. الشرح: المهيمن: الشاهد، قال الله تعالى: "إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً"، أي تشهد بإيمان من آمن وكفر من كفر. وقيل: تشهد بصحة نبوة الأنبياء قبلك.

وقوله: على المرسلين، يؤكد صحة هذا التفسير الثاني، وأصل اللفظة من آمن غيره من الخوف، لأن الشاهد يؤمن غيره من الخوف بشهادته، ثم تصرفوا فيها فأبدلوا إحدى همزي مؤامن ياء فصار مؤمن، ثم قلبوا الهمزة هاءً كأرقت وهرقت فصار مهيمن.

والرؤع: الخلد، وفي الحديث: إن روح القدس نفث في روعي، قال: ما يخطر لي ببالي أن العرب تعدل بالأمر بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم عن بني هاشم، ثم من بني هاشم عني، لأنه كان المتيقن بحكم الحال الحاضرة، وهذا الكلام يدل على بطلان دعوى الإمامية النص وخصوصاً الجلي.

قال: فما راعني إلا انثيال الناس، تقول للشيء يفجؤك بغتةً: ما راعني إلا كذا، والرؤع بالفتح، الفرع، كأنه يقول: ما أفرعني شيء بعد ذلك السكون الذي كان عندي، وتلك الثقة التي اطمأنتت إليها إلا وقوع ما وقع من انثيال الناس، أي إنصباهم من كل وجه كما ينثال التراب، على أبي بكر، وهكذا لفظ الكتاب الذي كتبه للأشتر، وإنما الناس يكتبونه الآن على فلان تذكراً من ذكر الاسم كما يكتبون في أول الشقشقية: أما والله لقد تقمصها فلان، واللفظ "أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة.

قوله: فأمسكت يدي، أي امتنعت عن بيعته، حتى رأيت راجعة الناس، يعني أهل الردة كمسيلمة، وسجاح وطليحة بن خويلد ومانعي الزكاة، وإن كان مانعو الزكاة قد اختلف في أنهم أهل ردة أم لا، ومحق الدين: إبطاله. وزهق: خرج وزال. تنهه: سكن، وأصله الكف، تقول: فنهت السبع فتنهه، أي كف عن حركته وإقدامه، فكأن الدين كان متحركاً مضطرباً فسكن وكف عن ذلك الاضطراب.

روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة بن خويلد إلا ما كان من خواص أقوام في الطوائف الثلاث، فاجتمعت أسد بسميراء، وغطفان بجنوب طيبة وطيء في حدود أرضهم، واجتمعت ثعلبة بن أسد ومن يليهم من قيس بالأبرق من الربذة، وتأشب إليهم ناس من بني كنانة، ولم تحملهم البلاد، فافترقوا فرقتين: أقامت إحداهما بالأبرق، وسارت الأخرى إلى ذي القصة، وبعثوا وفوداً إلى أبي بكر يسألونه أن يقارهم على إقامة الصلاة ومنع الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق، فقال: لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه. ورجع الوفود إلى قومهم فأخبروهم بقله من أهل المدينة، فأطمعهم فيها وعلم أبو بكر

والمسلمون بذلك، وقال لهم أبو بكر: أيها المسلمون، إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدكم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً توتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد آيينا عليهم، ونبذنا إليهم، فأعدوا واستعدوا. فخرج علي رضي الله عنه بنفسه، وكان على نقب من أنقاب المدينة، خرج الزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وغيرهم فكانوا على الأنقاب الثلاثة، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى طرق القوم المدينة غارة مع الليل، وخلفوا بعضهم بذى حسى ليكونوا ردءاً لهم، فافوا الأنقاب وعليها المسلمون، فأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر، فأرسل إليهم أن الزموا مكانكم، ففعلوا، وخرج أبو بكر في جمع من أهل المدينة على النواضح، فانتشر العدو بين أيديهم، واتبعهم المسلمون على النواضح حتى بلغوا ذا حسى، فخرج عليهم الكمين بأنحاء قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدفوها بأرجلهم في وجوه الإبل، فتدهده كل نحي منها في طوله فنفرت إبل المسلمين، وهم عليها، ولا تنفر الإبل من شيء نفارها من الأنحاء، فعاجت بهم لا يملكونها حتى دخلت بهم المدينة، ولم يصرع منهم أحد ولم يصب، فبات المسلمون تلك الليلة يتهيثون، ثم خرجوا على تعبئة، فما طلع الفجر إلا وهم والقوم على صعيد واحد، فلم يسمعوا للمسلمين حساً ولا همساً حتى وضعوا فيهم السيف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذر قرن الشمس إلا وقد ولوا الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم، ورجعوا إلى المدينة ظافرين.

قلت: هذا هو الحديث الذي أشار رضي الله عنه إلى أنه نهض فيه أيام أبي بكر. وكأنه جواب عن قول قائل: إنه عمل لأبي بكر، وجاهد بين يدي أبي بكر، فبين رضي الله عنه عذره في ذلك، وقال: إنه لم يكن كما ظنه القائل، ولكنه من باب دفع الضرر عن النفس وعن الدين، فإنه واجب سواء كان للناس إمام أو لم يكن.

الرد علي الشيعة في طعنهم في إمامة أبي بكر.

وينبغي حيث جرى ذكر أبي بكر في كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه أن نذكر ما أورده قاضي القضاة في المغني، من المطاعن التي طعن بها فيه وجواب قاضي القضاة عنها، واعتراض المرتضى في الشافي على قاضي القضاة، ونذكر ما عندنا في ذلك، ثم نذكر مطاعن أخرى لم يذكرها قاضي القضاة.

الطعن الأول.

قال قاضي القضاة بعد أن ذكر ما طعن به فيه في أمر فذك، وقد سبق القول فيه. ومما طعن به عليه قولهم: كيف يصلح للإمامة من يخبر عن نفسه أن له شيطاناً يعتريه ومن يحذر الناس نفسه، ومن يقول: أقيلوني بعد دخوله في الإمامة، مع أنه لا يحل للإمام أن يقول: أقيلوني البيعة.

أجاب قاضي القضاة فقال: إن شيخنا أبا علي قال: لو كان ذلك نقص، فيه لكان قول الله في آدم وحواء: "فوسوس لهما الشيطان"، وقوله: "فأزلهما الشيطان". وقوله: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته"، يوجب النقص في الأنبياء، وإذا لم يجب ذلك، فكذلك ما وصف به أبو بكر نفسه، وإنما أراد أنه عند الغضب

يشفق من المعصية ويحذر منها، ويخاف أن يكون الشيطان يعتريه في تلك الحال فيوسوس إليه، وذلك منه على طريق الزجر لنفسه عن المعاصي، وقد روي عن أمير المؤمنين رضي الله عنه أنه ترك مخاصمة الناس في حقوقه إشفافاً من المعصية، وكان يولي ذلك عقياً، فلما أسن عقيل كان يوليها عبد الله بن جعفر. فأما ما روي في إقالة البيعة فهو خبر ضعيف، وإن صح فالمراد به التنبيه على أنه لا يبالي لأمر يرجع إليه أن يقيه الناس البيعة، وإنما يضرون بذلك أنفسهم، وكأنه نبه بذلك على أنه غير مكره لهم، وأذ قد خلاهم وما يريدون إلا أن يعرض ما يوجب خلافه. وقد روي أن أمير المؤمنين رضي الله عنه أقال عبد الله بن عمر البيعة حين استقاله، والمراد بذلك أنه تركه وما يختار.

اعترض المرتضى رضي الله عنه فقال: أما قول أبي بكر: ولتكنم ولست بخيركم، فإن استقمت فاتبعوني، وإن اعوججت فقوموني، فإن لي شيطاناً يعتريني عند غضبي، فإذا رأيتموني مغضباً فاجتنبوني لا تؤثر في أشعاركم وأبشاركم، فإنه يدل على أنه لا يصلح للإمامة من وجهين: أحدهما أن هذا صفة من ليس بمعصوم، ولا يأمن الغلط على نفسه من يحتاج إلى تقويم رعيته له إذا وقع في المعصية، وقد بينا أن الإمام لا بد أن يكون معصوماً موفقاً مسدداً، والوجه الآخر أن هذه صفة من لا يملك نفسه، ولا يضبط غضبه، ومن هو في نهاية الطيش والحدة والخرق والعجلة. ولا خلاف أن الإمام يجب أن يكون منزهاً عن هذه الأوصاف، غير حاصل عليها وليس يشبه قول أبي بكر ما تلاه من الآيات كلها. لأن أبا بكر خبر عن نفسه بطاعة الشيطان عند الغضب، وأن عاداته بذلك جارية، وليس هذا بمنزلة من يوسوس إليه الشيطان ولا يطيعه، ويزين له القبيح فلا يأتيه، وليس وسوسة الشيطان بعيب على الموسوس له إذا لم يستزل ذلك عن الصواب، بل هو زيادة في التكليف، ووجه يتضاعف معه الثواب، وقوله تعالى: "ألقى الشيطان في أمنيته"، قيل: معناه في تلاوته، وقيل: في فكرته، على سبيل الخاطر، وأي الأمرين كان، فلا عار في ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ولا نقص، وإنما العار والنقص على من يطيع الشيطان ويتبع ما يدعو إليه. وليس لأحد أن يقول: هذا إن سلم لكم في جميع الآيات لم يسلم في قوله تعالى: "فأزلهما الشيطان"، لأنه قد خبر عن تأثير غوايته ووسوسته بما كان منهما من الفعل. وذلك أن المعنى الصحيح في هذه الآية أن آدم وحواء كانا مندوبين إلى اجتناب الشجرة وترك تناول منها، ولم يكن ذلك عليهما واجباً لازماً، لأن الأنبياء لا يخلون بالواجب، فوسوس لهما الشيطان حتى تناولوا من الشجرة، فتركا مندوباً إليه، وحرما بذلك أنفسهما الثواب، وسماه إزلاً، لأنه حط لهما عن درجة الثواب وفعل الأفضل، وقوله تعالى في موضع آخر: "وعصى آدم ربه فغوى"، لا ينافي هذا المعنى، لأن المعصية قد يسمى بها من أخل بالواجب والندب معاً. قوله: فغوى أي خاب من حيث لم يستحق الثواب على ما ندب إليه. على أن صاحب الكتاب يقول: إن هذه المعصية من آدم كانت صغيرة لا يستحق بها عقاباً ولا ذماً، فعلى مذهبه أيضاً تكون المفارقة بينه وبين أبي بكر ظاهرة، لأن أبا بكر خبر عن نفسه أن الشيطان يعتريه حتى يؤثر في الأشعار والأبشار، ويأتي ما يستحق به التقويم، فأين هذا من ذنب صغير لا ذم ولا عقاب عليه، وهو يجري من وجه من الوجوه مجرى المباح، لأنه لا يؤثر في أحوال فاعله وحط رتبته، وليس يجوز أن يكون ذلك منه على سبيل الحشية والإشفاق على ما ظن، لأن مفهوم خطابه يقتضي خلاف ذلك، ألا ترى أنه قال: إن لي شيطاناً يعتريني وهذا قول من قد عرف عادته، ولو كان على سبيل الإشفاق والخوف لخرج عن هذا المخرج، ولكان يقول: إني لا آمن من كذا

وإني لمشفق منه. فأما ترك أمير المؤمنين رضي الله عنه مخاصمة الناس في حقوقه فكأنه إنما كان تترهاً وتكرماً، وأي نسبة بين ذلك وبين من صرح وشهد على نفسه بما لا يليق بالأئمة، وأما خبر استقالة البيعة وتضعيف صاحب الكتاب له فهو أبداً يضعف ما لا يوافقه من غير حجة يعتمدها في تضعيفه. وقوله: إنه ما استقال على التحقيق، وإنما نبه على أنه لا يبالي بخروج الأمر عنه، وأنه غير فكره لهم عليه، فبعيد من الصواب، لأن ظاهر قوله أقبيلوني أمر بالإقالة، وأقل أحواله أن يكون عرضاً لها وبذلاً، وكلا الأمرين قبيح. ولو أراد ما ظنه لكان له في غير هذا القول مندوحة، ولكان يقول: إني ما أكرهتكم ولا حملتكم على مبايعتي، وما كنت أبالي ألا يكون هذا الأمر في ولا إلي، وإن مفارقتي لتسريني لولا ما ألزمني الدخول فيه من التمسك به، ومتى عدلنا عن ظواهر الكلام بلا دليل، جر ذلك علينا ما لا قبل لنا به. وأما أمير المؤمنين رضي الله عنه رضي الله عنه فإنه لم يقل ابن عمر البيعة بعد دخوله فيها وإنما استعفاه من أن يلزمه البيعة ابتداءً فأعفاه قلة فكر فيه، وعلماً بأن إمامته لا تثبت بمبايعة من يبايعه عليها، فأين هذا من استقالة بيعة قد تقدمت واستقرت.

قلت: أما قول، أي بكر: وليتكم ولست بخيركم فقد صدق عند كثير من أصحابنا، لأن خيرهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن لا يقول بذلك يقول بما قاله الحسن البصري: والله إنه ليعلم أنه خيرهم، ولكن المؤمن يهضم نفسه. ولم يطعن المرتضى فيه بهذه اللفظة لتطيل القول فيها. وأما قول المرتضى عنه إنه قال: فإن لي شيطاناً يعتريني عند غضبي، فالمشهور في الرواية: فإن لي شيطاناً يعتريني، قال المفسرون: أراد بالشيطان الغضب وسماه شيطاناً على طريق الاستعارة، وكذا ذكره شيخنا أبو الحسين في الغرر. قال معاوية لإنسان غضب في حضرته فتكلم بما لا يتكلم بمثله في حضرة الخلفاء: أربع على ظلعك أيها الإنسان، فإنما الغضب شيطان، وإنما لم نقل إلا خيراً.

وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب التاريخ الكبير خطبتي أبي بكر عقيب بيعته بالسقيفة، ونحن نذكرهما نقلاً من كتابه، أما الخطبة الأولى فهي: أما بعد أيها الناس، فإني وليتكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، لأن الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف منكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه، والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله.

وأما الخطبة الثانية فهي: أيها الناس إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيقه.

إن الله اصطفى محمداً، على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمتبوع، فإن استقمتم فاتبعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها. ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم. ألا وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله. فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى إنقطاع الأعمال، فإن قوماً نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم

لغيرهم، فأثمّكم أن تكونوا أمثالهم. الجدد الجدد، الوحاء الوحاء، فإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجل مره سريع. احذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما يغبط به الأموات.

إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما يراد به وجهه، فأريدوا وجه الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فلتاعة أتيتموها، وحظ ظفرت به، وضرائب أديتموها، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم، فاعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس وأين هم اليوم، أين الجبارون؟ أين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحرب! قد تضعض بهم الدهر، وصاروا رميماً، قد تركت عليهم القالات الخبيثات، وإنما الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات. وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها، قد بعدوا بسبيء ذكرهم، وبقي ذكرهم وصاروا كلا شيء. ألا إن الله قد أبقي عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبقينا خلفاً من بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن اغتررنا كنا مثلهم. أين الوضاء الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم، صاروا تراباً، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط، وجعلوا فيها العجائب، وتركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية، وهم في ظلم القبور، "هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً"، أين من تعرفون من آبائكم وإخوانكم، قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ما قدموا عليه، وأقاموا للشقوة والسعادة. ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه به شر: إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عباد مدينون، وأن ما عنده لا يدرك إلا بتقواه وعبادته. ألا وإنه لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة.

فهذه خطبتا أبي بكر يوم السقيفة، واليوم الذي يليه، إنما قال: إن لي شيطاناً يعتريني، وأراد بالشيطان الغضب، ولم يرد أن له شيطاناً من مردة الجن يعتريه إذا غضب فالزيادة فيما ذكره المرتضى في قوله: إن لي شيطاناً يعتريني عند غضبي، تحريف لا محالة، ولو كان له شيطان من الجن يعتاذه وينوبا لكان في عداد المصروعين من المجانين، وما ادعى أحد على أبي بكر هذا لا من أوليائه ولا من أعدائه، وإنما ذكرنا خطبته على طولها والمراد منها كلمة واحدة، لما فيها من الفصاحة والموعظة على عادتنا في الاعتناء بإيداع هذا الكتاب ما كان ذاهباً هذا المذهب، وسالكاً هذا السبيل.

فأما قول المرتضى: فهذه صفة من ليس بمعصوم، فالأمر كذلك والعصمة عندنا ليست شرطاً في الإمامة ولو لم يدل على عدم اشتراطها، إلا أنه قال على المنبر بحضور الصحابة هذا القول، وأقروه على الإمامة، لكفى في عدم كون العصمة شرطاً، لأنه قد حصل الإجماع على عدم اشتراط ذلك، إذ لو كان شرطاً لأنكر منكر إمامته كما لو قال: إني لا أصبر عن شرب الخمر وعن الزنى.

فأما قوله: هذه صفة طائش لا يملك نفسه، فلعمري إن أبا بكر كان حديداً، وقد ذكره عمر بذلك، وذكره غيره من الصحابة بالحدة والسرعة، ولكن لا بحيث أن تبطل به أهليته للإمامة، لأن الذي يبطل الإمامة من ذلك وما يخرج الإنسان عن العقل، وأما ما هو دون ذلك فلا. وليس قوله: فاجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم محمول على ظاهره، وإنما أراد به المبالغة في وصف القوة الغضبية عنده، وإلا فما سمعنا ولا نقل ناقل من الشيعة ولا من غير الشيعة أن أبا بكر في

أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في الجاهلية ولا في أيام خلافته أحتد على إنسان فقام إليه فضربه بيده ومزق شعره.

فأما ما حكاه قاضي القضاة عن الشيخ أبي علي من تشبيه هذه اللفظة بما ورد في القرآن، فهو على تقدير أن يكون أبو بكر عن الشيطان حقيقة. وما اعترض به المرتضى ثانية عليه غير لازم، لأن الله تعالى قال: "فوسوس لهما الشيطان"، وتعقب ذلك قبولهما وسوسته، وأكلهما من الشجرة، فكيف يقول المرتضى: ليس قول أبي بكر بمتزلة من وسوس له الشيطان فلم يطعه، وكذلك قوله تعالى في قصة موسى لما قتل القبطي: "هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين"، وكذلك قوله: "فأزلهما الشيطان عنها"، وقوله: "ألقي الشيطان في أمنيه"، وما ذهب إليه المرتضى من التأويلات مبني على مذهبه في العصمة الكلية، وهو مذهب يحتاج في نصرته إلى تكلف شديد وتعسف عظيم في تأويل الآيات، على أنه إذا سلم أن الشيطان ألقى في تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم ما ليس من القرآن حتى ظنه السامعون كلاماً من كلام الرسول، فقد نقض دلالة التنفير المقتضية عنده في العصمة، لأنه لا تنفير عنده أبلغ من تمكين الله الشيطان أن يخلط كلامه بكلامه، ورسوله يؤديه إلى المكلفين حتى يعتقد السامعون كلهم أن الكلامين كلام واحد.

وأما قوله: إن آدم كان مندوباً إلى ألا يأكل من الشجرة لا محرم عليه أكلها، ولفظة عصى إنما المراد بها خالف المندوب، ولفظة غوى، إنما المراد خاب، من حيث لم يستحق الثواب على اعتماد ما ندب إليه، فقول يدفعه ظاهر الآية، لأن الصيغة صيغة النهي، وهي قوله: "ولا تقربا هذه الشجرة"، والنهي عند المرتضى يقتضي التحريم لا محالة، وليس الأمر الذي قد يراد به الندب، وقد يراد به الوجوب.

وأما قول شيخنا أبي علي: إن كلام أبي بكر خرج مخرج الإشفاق والحذر من المعصية عند الغضب فحيد. واعتراض المرتضى عليه بأنه ليس ظاهر اللفظ ذاك غير لازم، لأن هذه عادة العرب، يعبرون عن الأمر بما هو منه بسبب وسبيل، كقولهم: لا تدن من الأسد فيأكلك، فليس أنهم قطعوا على الأكل عند الدنو، وإنما المراد الحذر والخوف والتوقع للأكل عند الدنو.

وأما الكلام في قوله: أقيلوني، فلو صح الخبر لم يكن فيه مطعن عليه، لأنه إنما أراد في اليوم الثاني اختبار حالهم في البيعة التي وقعت في اليوم الأول ليعلم وليه من عدوه منهم، وقد روى جميع أصحاب السير أن أمير المؤمنين رضي الله عنه خطب في اليوم الثاني من بيعته فقال: أيها الناس، إنكم بايعتموني على السمع والطاعة، وأنا أعرض اليوم عليكم ما دعوتوني إليه أمس، فإن أحببتم قعدت لكم، وإلا فلا أحد على أحد. وليس بجيد قول المرتضى: إنه لو كان يريد العرض والبذل لكان قد قال كذا وكذا، فإن هذه مضايقة منه شديدة للألفاظ، ولو شرعنا في مثل هذا لفسد أكثر ما يتكلم به الناس. على أنا لو سلمنا أنه استقالهم البيعة حقيقة، فلم قال المرتضى: إن ذلك لا يجوز، أليس يجوز للقاضي أن يستقيل من القضاء بعد توليته إياه، ودخوله فيه، فكذلك يجوز للأمام أن يستقيل من الإمامة إذا انس من نفسه ضعفاً عنها، أو انس من رعيته نبوة عنه، أو أحس بفساد ينشأ في الأرض من جهة ولايته على الناس، ومن يذهب إلى أن الإمامة تكون بالاختيار كيف يمنع من جواز استقالة الإمام وطلبه إلى الأمة أن يختاروا غيره لعذر يعلمه من حال نفسه، وإنما يمنع من

ذلك المرتضى وأصحابه القائلون بأن الإمامة بالنص، وإن الإمام محرم عليه ألا يقوم بالإمامة، لأنه مأمور بالقيام بها لتعيينه خاصة دون كل أحد من المكلفين. وأصحاب الاختيار يقولون: إذا لم يكن زيد إماماً كان عمرو إماماً عوضه، لأنهم لا يعتبرون الشروط التي يعتبرها الإمامية من العصمة، وأنه أفضل أهل عصره وأكثرهم ثواباً وأعلمهم وأشجعهم، وغير ذلك من الشروط التي تقتضي تفرد وتوحيده بالأمر، على أنه إذا جاز عندهم أن يترك الإمام الإمامة في الظاهر كما فعله الحسن، وكما فعله غيره من الأئمة بعد الحسين رضي الله عنه للتقية، جاز للإمام على مذهب أصحاب الاختيار أن يترك الإمامة ظاهراً وباطناً لعذر يعلمه من حال نفسه أو حال رعيته.

الطعن الثاني

قال قاضي القضاة بعد أن ذكر قول عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة، وقد تقدم منا القول في ذلك في أول هذا الكتاب: ومما طعنوا به على أبي بكر أنه قال، عند موته: ليتني كنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة، فذكر في أحدها: ليتني كنت سأله: هل للأنصار في هذا الأمر حق؟ قالوا، وذلك يدل على شكه في صحة بيعته، وربما قالوا: قد روي أنه قال في مرضه: ليتني كنت تركت بيت فاطمة لم أكشفه، وليتني في ظلة بني ساعدة كنت ضربت على يد أحد الرجلين، فكان هو الأمير، وكنت الوزير. قالوا: وذلك يدل على ما روي من إقدامه على بيت فاطمة عليها السلام عند اجتماع علي رضي الله عنه والزبير وغيرهما فيه، ويدل على أنه كان يرى الفضل لغيره لا لنفسه.

قال قاضي القضاة: والجواب أن قوله: ليتني لا يدل على الشك فيما تمناه، وقول إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: "رب أرني كيف تحيي الموتى" قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي"، أقوى من ذلك في الشبهة. ثم حمل تمنيه على أنه أراد سماع شيء مفصل، أو أراد: ليتني سأله عند الموت، لقرب العهد، لأن ما قرب عهده لا ينسى ويكون أردع للأنصار على ما حاولوه. ثم قال: على أنه ليس في ظاهره أنه تمنى أن يسأل: هل لهم حق في الإمامة أم لا، لأن الإمامة قد يتعلق بها حقوق سواها. ثم دفع الرواية المتعلقة ببيت فاطمة مللي، وقال: فأما تمنيه أن يبايع غيره، فلو ثبت لم يكن ذمماً لأن من اشتد التكليف عليه فهو يتمنى خلافه.

اعترض المرتضى رحمه الله هذا الكلام فقال: ليس يجوز أن يقول أبو بكر: ليتني كنت سألت عن كذا. إلا مع الشك والشبهة، لأن مع العلم واليقين لا يجوز مثل هذا القول، هكذا يقتضي الظاهر، فأما قول إبراهيم عليه السلام، فإنما ساغ أن يعدل عن ظاهره لأن الشك لا يجوز على الأنبياء، ويجوز على غيرهم، على أنه عليه السلام قد نفى عن نفسه الشك بقوله: "بلى ولكن ليطمئن قلبي"، وقد قيل: إن عمرو قال له: إذا كنت ترغم أن لك رباً يحيي الموتى فاسأله أن يحيي لنا ميتاً إن كان على ذلك قادراً، فإن لم تفعل ذلك قتلتك، فأراد بقوله: "ولكن ليطمئن قلبي"، أي لآمن بتوعد عدوك لي بالقتل. وقد يجوز أن يكون طلب ذلك لقومه وقد سأله أن يرغب إلى الله تعالى فيه فقال: ليطمئن قلبي إلى إجابتك لي، وإلى إزاحة علة قومي، ولم يرد: ليطمئن قلبي إلى أنك تقدر على أن تحيي الموتى، لأن قلبه قد كان بذلك مطمئناً، وأي شيء يريد أبو بكر من التفصيل أكثر من قوله: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الحي من قريش، وأي فرق بين ما يقال

عند الموت وبين ما يقال قبله إذا كان محفوظاً معلوماً، لم ترفع كلمة ولم تنسخ. وبعد، فظاهر الكلام لا يقتضي هذا التخصيص، ونحن مع الإطلاق والظاهر. وأي حق يجوز أن يكون للأنصار في الإمامة غير أن يتولاها رجل منهم حتى يجوز أن يكون الحق الذي تمنى أن يسأل عنه غير الإمامة، وهل هذا إلا تعسف وتكلف، وأي شبهة تبقى بعد قول أبي بكر: ليتني كنت سألته: هل للأنصار في هذا الأمر حق فكننا لا ننازعه أهله، ومعلوم أن التنازع لم يقع بينهم إلا في الإمامة نفسها، لا في حق آخر من حقوقها. فأما قوله: إنا قد بينا أنه لم يكن منه في بيت فاطمة ما توجب أن يتمنى أنه لم يفعله، فقد بينا فساد ما ظنه فيما تقدم. فأما قوله: إن من اشتد التكليف عليه قد يتمنى خلافه، فليس بصحيح، لأن ولاية أبي بكر إذا كانت هي التي اقتضاها الدين، والنظر للمسلمين في تلك الحال وما عداها كان مفسدة، ومؤدياً إلى الفتنة، فالتمني لخلافها لا يكون إلا قبيحاً. قلت: أما قول قاضي القضاة: إن هذا التمني لا يقتضي الشك في أن الإمامة لا تكون إلا في قريش، كما أن قول إبراهيم: "ولكن ليطمئن قلبي"، لا يقتضي الشك في أنه تعالى قادر على ذلك فجيد. فأما قول المرتضى: إنما ساغ أن يعدل عن الظاهر في حق إبراهيم لأنه نبي معصوم لا يجوز عليه الشك، فيقال له: وكذلك ينبغي أن يعدل عن ظاهر كلام أبي بكر، لأنه رجل فسلم عاقل، فحسن الظن به يقتضي صيانة أفعاله وأقواله عن التناقض. قوله: إن إبراهيم قد نفى عن نفسه الشك بقوله: "بلى ولكن ليطمئن قلبي"، قلنا: إن أبا بكر قد نفى عن نفسه الشك بدفع الأنصار عن الإمامة وإثباتها في قريش خاصة، فإن كانت لفظة بلى دافعة لشك إبراهيم الذي يقتضيه قوله: "ولكن ليطمئن قلبي"، ففعل أبي بكر وقوله يوم السقيفة يدفع الشك الذي يقتضيه قوله: ليتني سألته، ولا فرق في دفع الشك بين أن يتقدم الدافع أو يتأخر أو يقارن.

ثم يقال للمرتضى ألسنت في هذا الكتاب، وهو الشافي، بينت أن قصة السقيفة لم يجر فيها ذكر نص في رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الأئمة من قريش، وأنه لم يكن هناك إلا احتجاج أبي بكر وعمر لأن قريشاً أهل النبي صلى الله عليه وسلم وعشيرته، وأن العرب لا تطيع غير قريش، وذكرت عن الزهري وغيره أن القول الصادر عن أبي بكر: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الحي من قريش، ليس نصاً مروياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما هو قول قاله أبو بكر من تلقاء نفسه، ورويت في ذلك الروايات، ونقلت من الكتب من تاريخ الطبري وغيره صورة الكلام والجدال الدائر بينه وبين الأنصار، فإذا كان هذا قولك فلم تنكر على أبي بكر قوله: ليتني كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل للأنصار في هذا الأمر حق، لأنه لم يسمع النص ولا رواه ولا روي له، وإنما دفع الأنصار بنوع من الجدل، فلا جرم بقي في نفسه شيء من ذلك، وقال عند موته: ليتني كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليس ذلك مما يقتضي شكه في بيعته كما زعم الطاعن، لأنه إنما يشك في بيعته لو كان قال قائل أو ذهب ذاهب إلى أن الإمامة ليست إلا في الأنصار، ولم يقل أحد ذلك، بل التزاع كان في هل الإمامة مقصورة على قريش خاصة، أم هي فوضى بين الناس كلهم، وإذا كانت الحال هذه لم يكن شاكاً في إمامته وبيعته بقوله: ليتني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل للأنصار في هذا حق؟ لأن بيعته على كلا التقديرين تكون صحيحة.

فأما قول قاضي القضاة: لعله أراد حقاً للأنصار غير الإمامة نفسها، فليس بجيد، والذي اعترضه به المرتضى جيد، فإن الكلام لا يدل إلا على الإمامة نفسها، ولفظة المنازعة تؤكد ذلك.

وأما حديث المهجوم على بيت فاطمة رضي الله عنها، فقد تقدم الكلام فيه، والظاهر عندي صحة ما يرويه المرتضى والشيعية، ولكن لا كل ما يزعمونه، بل كان بعض ذلك، وحق لأبي بكر أن يندم ويتأسف على ذلك، وهذا يدل على قوة دينه وخوفه من الله تعالى، فهو بأن يكون منقبةً له أولى من كونه طعنًا عليه.

فأما قول قاضي القضاة: إن من اشتد التكليف عليه فقد يتمنى خلافه واعتراض المرتضى عليه، فكلام قاضي القضاة أصح وأصوب، لأن أبا بكر، وإن كانت ولايته مصلحة وولاية غيره مفسدة، فإنه ما يتمنى أن يكون الإمام غيره، مع استلزام ذلك للمفسدة، بل تمنى أن يلي الأمر غيره وتكون المصلحة بحالها، ألا ترى أن خصال الكفارة في اليمين كل واحدة منها مصلحة، وما عداها لا يقوم مقامها في المصلحة، واحدها يقوم مقام الأخرى في المصلحة، فأبو بكر تمنى أن يلي الأمر عمر أو أبو عبيدة بشرط أن تكون المصلحة الدينية التي تحصل من بيعته حاصلة من بيعه كل واحد من الآخرين.

الطعن الثالث.

قالوا: إنه ولي عمر الخلافة، ولم يوله رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من أعماله البتة إلا ما ولاه يوم خيبر، فرجع منهزماً وولاه الصدقة، فلما شكاه العباس عزله.

أجاب قاضي القضاة بأن تركه رضي الله عنه أن يوليه لا يدل على أنه لا يصلح لذلك، وتوليته إياه لا يدل على صلاحيته للإمامة، فإنه صلى الله عليه وسلم قد ولي خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، ولم يدل ذلك على صلاحيتهما للإمامة، وكذلك تركه أن يولي لا يدل على أنه غير صالح، بل المعتبر بالصفات التي تصلح للإمامة، فإذا كملت صلح لذلك، ولي من قبل أو لم يول، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك أن يولي أمير المؤمنين رضي الله عنه أموراً كثيرة ولم يجب إلا من يصلح لها، وثبت أن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم يول الحسين رضي الله عنه ابنه، ولم يمنع ذلك من أن يصلح للإمامة. وحكي عن أبي علي أن ذلك إنما كان يصح أن يتعلق به لو ظفروا بتقصير من عمر فيما تولاه، فأما وأحواله معروفة في قيامه بالأمر حين يعجز غيره، فكيف يصح ما قالوه، وبعد فهلا دل ما روي من قوله: وإن تولوا عمر تجدوه قوياً في أمر الله، قوياً في بدنه على جواز ذلك وإن ترك النبي صلى الله عليه وسلم توليته، لأن هذا القول أقوى من الفعل.

اعتراض المرتضى رحمه الله فقال: قد علمنا بالعادة أن من ترشح الكبار الأمور لا بد من أن يدرج إليها بصغارها، لأن من يريد بعض الملوك تأهيله للأمر من بعده لا بد من أن ينبه عليه بكل قول وفعل يدل على ترشيحه لهذه المنزلة، ويستكفيه من أمور ولاياته ما يعلم عنده أو يغلب على ظنه صلاحه لما يريده له. وإن من يرى الملك مع حضوره وامتداد الزمان وتطاوله لا يستكفيه شيئاً من الولايات، ومتى ولاه عزله، وإنما يولي غيره ويستكفي سواه، لا بد إن يغلب في الظن أنه ليس بأهل للولاية، وإن جوزنا أنه لم يوله لأسباب كثيرة سوى أنه لا يصلح للولاية، إلا أن مع هذا التجويز لا بد أن يغلب على الظن بما ذكرناه. فأما خالد وعمرو فإنما لم يصلحا للإمامة لفقد شروط الإمامة فيهما، وإن كانا يصفحان لما

وليأه من الإمارة، فترك الولاية مع امتداد الزمان وتطاول الأيام، وجميع الشروط التي ذكرناها تقتضي غلبة الظن لفقد الصلاح، والولاية لشيء لا تدل على الصلاح لغيره إذا كانت الشرائط في القيام بذلك الغير معلوماً فقدها. وقد نجد الملك يولي بعض أموره من لا يصلح للفلك بعده لظهور فقد الشرائط فيه، ولا يجوز أن يكون بحضرته من يرشحه للملك بعده، ثم لا يوليه على تطاول الزمان شيئاً من الولايات. فبان الفرق بين الولاية وتركها فيما ذكرناه.

فأما أمير المؤمنين رضي الله عنه وإن لم يتول جميع أمور النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، فقد تولى أكثرها وأعظمها وخلفه في المدينة، وكان الأمير على الجيش المبعوث إلى خيبر، وجرى الفتح على يديه بعد انهزام من انهزم منها، وكان المؤدي عنه سورة براءة بعد عزل من عزل عنها وارتجاعها منه، إلى غير ذلك من عظيم الولايات والمقامات بما يطول شرحه، ولو لم يكن إلا أنه لم يول عليه والياً قط لكفى.

فأما اعتراضه بأن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم يول الحسين فبعيد عن الصواب، لأن أيام أمير المؤمنين رضي الله عنه لم تطل فيتمكن فيها من مراداته، وكانت على قصرها منقسمة بين قتال الأعداء، لأنه رضي الله عنه لما بويع لم يلبث أن خرج عليه أهل البصرة فاحتاج إلى قتالهم، ثم انكفأ من قتالهم إلى قتال أهل الشام، وتعقب ذلك قتال أهل النهروان، ولم تستقر به الدار ولا أمتد به الزمان، وهذا بخلاف أيام النبي صلى الله عليه وسلم التي تطاولت وامتدت، على أنه قد نص عليه بالإمامة بعد أخيه الحسن، وإنما تطلب الولايات لغلبة الظن بالصلاح للإمامة.

فإن كان هناك وجه يقتضي العلم بالصلاح لها كان أولى من طريق الظن، على أنه لا خلاف بين المسلمين أن الحسين رضي الله عنه كان يصلح للإمامة وإن لم يوليه أبوه الولايات، وفي مثل ذلك خلاف من حال عمر، فافترق الأمران. فأما قوله: إنه لم يعثر على عمر بتقصير في الولاية، فمن سلم بذلك، أو ليس يعلم أن مخالفته تعد تقصيراً كثيراً، ولو لم يكن إلا ما اتفق عليه من خطئه في الأحكام ورجوعه من قول إلى غيره، واستفتائه الناس في الصغير والكبير، وقوله: كل الناس أفقه من عمر، لكان فيه كفاية. وليس كل النهوض بالإمامة يرجع إلى حسن التدبير والسياسة الدنياوية ورم الأعمال والاستظهار في جباية الأموال وتمصير الأمصار ووضع الأعشار، بل حظ الإمامة من العلم بالأحكام والفتيا بالحلال والحرام، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه أقوى، فمن قصر في هذا لم ينفعه أن يكون كاملاً في ذلك.

فأما قوله: فهلا دل ما روي من قوله رضي الله عنه: فإن وليتم عمر وجدتموه قوياً في أمر الله قوياً في بدنه، فهذا لو ثبت لدل، وقد تقدم القول عليه، وأقوى ما يبطله عدول أبي بكر عن ذكره، والاحتجاج به لما أراد النص على عمر، فعوتب على ذلك وقيل له: ما تقول لربك إذ وليت علينا فظاً غليظاً، فلو كان صحيحاً لكان يحتج به ويقول: وليت عليكم من شهد النبي صلى الله عليه وسلم بأنه قوي في أمر الله، قوي في بدنه. وقد قيل في الطعن على صحة هذا الخبر: إن ظاهره يقتضي تفضيل عمر على أبي بكر، والإجماع بخلاف ذلك، لأن القوة في الجسم فضل، قال الله تعالى: "إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم". وبعد، فكيف يعارض ما اعتمدناه من عدوله رضي الله عنه عن ولايته، وهو أمر معلوم، بهذا الخبر المردود المدفوع، قلت: أما ما ادعاه من عادة الملوك، فالأمر بخلافه، فإننا قد وقفنا على سير الأكاسرة وملوك الروم وغيرهم فما سمعنا أن أحداً منهم رشح ولده للملك بعده باستعماله على طرف من الأطراف، ولا جيش من

الجيوش، وإنما كانوا يثقونهم بالآداب والفروسية في مقام ملكهم لا غير، والحال في ملوك الإسلام كذلك، فقد سمعنا بالدولة الأموية، ورأينا الدولة العباسية، فلم نعرف الدولة التي ادعاه المرتضى، وإنما قد يقع في الأقل النادر شيء مما أشار إليه، والأغلب الأكثر خلاف ذلك. على أن أصحابنا لا يقولون إن عمر كان مرشحاً للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليقال لهم: فلو كان قد رشحه للخلافة بعده لاستكفاه كثيراً من أموره، وإنما عمر مرشح عندهم في أيام أبي بكر للخلافة بعد أبي بكر، وقد كان أبو بكر استعمله على القضاء مدة خلافته، بل كان هو الخليفة في المعنى، لأنه فوض إليه أكثر التدبير، فعلى هذا يكون قد سلمنا أن ترك استعمال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر يدل على أنه مرشح في نظره للخلافة بعده، وكذلك نقول: ولا يلزم من ذلك ألا يكون خليفة بعد أبي بكر، على أننا لا نسلم أنه ما استعمله، فقد ذكر الواقدي وابن إسحاق أنه بعثه في سرية. سنة سبع من الهجرة إلى الوادي المعروف بريمة، بضم الباء وفتح الراء، وبها جمع من هوازن، فخرج ومعه دليل من بني هلال، وكانوا يسرون الليل ويكمنون النهار، وأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر محالهم، فلم يلق منهم أحداً، فانصرف إلى المدينة.

ثم يعارض المرتضى بما ذكره قاضي القضاة من ترك تولية علي ابنه الحسين رضي الله عنه، وقوله في العذر عن ذلك: إن علياً رضي الله عنه كان ممنواً بحرب البغاة والخوارج لا يدفع المعارضة، لأن تلك الأيام التي هي أيام حروبه مع هؤلاء هي الأيام التي كان ينبغي أن يولي الحسين رضي الله عنه بعض الأمور فيها، كاستعماله على جيش ينفذه سرية إلى بعض الجهات، واستعماله على الكوفة بعد خروجه منها إلى حرب صفين، أو استعماله على القضاء، وليس اشتغاله بالحرب بمنع له عن ولاية ولده، وقد كان مشغولاً بالحرب، وهو يولي بني عمه العباس الولايات والبلاد الجليلة. فأما قوله: على أنه قد نص عليه بالإمامة بعد أخيه الحسن، فهذا يغني عن توليته شيئاً من الأعمال، فلنقال أن يمنع ما ذكره من حديث النص، فإنه أمر تنفرد به الشيعة وأكثر أرباب السير والتواريخ لا يذكرون أن أمير المؤمنين رضي الله عنه نص على أحد. ثم إن ساغ له ذلك ساغ لقاضي القضاة أن يقول: إن قول النبي صلى الله عليه وسلم: اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر، يغني عن تولية عمر شيئاً من الولايات، لأن هذا القول أكد من الولاية في ترشحه للخلافة. فأما قوله: على أنه لا خلاف بين المسلمين في صلاحية الحسين للخلافة وإن لم يوله أبوه الولايات، وفي عمر خلاف ظاهر بين المسلمين، فلنقال أن يقول له: إجماع المسلمين على صلاحية الحسين للخلافة لا يدفع المعارضة، بل يؤكدها، لأنه إذا كان المسلمون قد أجمعوا على صلاحيته للخلافة ولم يكن ترك تولية أبيه إياه الولايات قادحاً في صلاحيته إلا بعده، جاز أيضاً أن يكون ترك تولية رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر الولايات في حياته غير قادح في صلاحيته للخلافة بعده.

ثم ما ذكره من تقصير عمر في الخلافة بطريق اختلاف أحكامه، ورجوعه إلى فتاوي العلماء، فقد ذكرنا ذلك فيما تقدم لما تكلمنا في مطاعن الشيعة على عمر وأجبنا عنه.

وأما قوله: لا يغني حسن التدبير والسياسة ورم الأمور، مع القصور في الفقه، فأصحابنا يذهبون إلى أنه إذا تساوى اثنان في خصال الإمامة إلا أنه كان أحدهما أعلم والآخر أسوس، فإن الأسوس أولى بالإمامة، لأن حاجة الإمامة إلى السياسة

وحسن التدبير أكد من حاجتها إلى العلم والفقه.

وأما الخبر المروي في عمر، وهو قوله: وإن تولوها عمر، فيجوز ألا يكون أبو بكر سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون الراوي له غيره، ويجوز أن يكون سمعه وشذ عنه أن يحتج به على طلحة لما أنكر استخلاف عمر، ويجوز ألا يكون شذ عنه وترك الإحتجاج به استغناء عنه لعلمه أن طلحة لا يعتد بقوله عند الناس إذا عارض قوله. ولعله كنى عن هذا النص بقوله: إذا سألتني ربي قلت له: استخلفت عليهم خير أهللك، على أنا متى فتحنا باب هلا احتج فلان بكذا جر علينا ما لا قبل لنا به. وقيل: هلا احتج علي رضي الله عنه على طلحة وعائشة والزبير بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهلا احتج عليهم بقوله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، ولا يمكن الشيعة أن يعتذروا ههنا بالتقية، لأن السيوف كانت قد سلت من الفريقين، ولم يكن مقام تقية.

وأما قوله: هذا الخبر لو صح لاقتضى أن يكون عمر أفضل من أبي بكر، وهو خلاف إجماع المسلمين، فلقاتل أن يقول: لم قلت إن المسلمين أجمعوا على أن أبا بكر أفضل من عمر، مع أن كتب الكلام والتصانيف المصنفة في المقالات مشحونة بذكر الفرقة العمرية، وهم القائلون إن عمر أفضل من أبي بكر، وهي طائفة عظيمة من المسلمين، يقال: إن عبد الله بن مسعود منهم، وقد رأيت أن جماعة من الفقهاء يذهبون إلى هذا، وينظرون عليه، على أنه لا يدل الخبر على ما ذكره المرتضى، لأنه وإن كان عمر أفضل منه باعتبار قوة البدن، فلا يدل على أنه أفضل منه مطلقاً، فمن الجائز أن يكون بإزاء هذه الخصلة خصال كثيرة في أبي بكر من خصال الخير يفضل بها على عمر، ألا ترى أنا نقول: أبو دجانة أفضل من أبي بكر بجهاده بالسيف في مقام الحرب، ولا يلزم من ذلك أن يكون أفضل منه مطلقاً، لأن في أبي بكر من خصال الفضل ما إذا قيس بهذه الخصلة أربى عليها أضعافاً مضاعفة.

الطعن الرابع.

قالوا: إن أبا بكر كان في جيش أسامة، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كرر حين موته الأمر بتنفيذ جيش أسامة، فتأخره يقتضي مخالفة الرسول. فإن قلتم: إنه لم يكن في الجيش، قيل لكم: لا شك أن عمر بن الخطاب كان في الجيش، وأنه حبسه ومنعه من النفوذ مع القوم. وهذا كالأول في أنه معصية، وربما قالوا: إنه صلى الله عليه وسلم جعل هؤلاء القوم في جيش أسامة ليبعدوا بعد وفاته عن المدينة، فلا يقع منهم توثب على الإمامة، ولذلك لم يجعل أمير المؤمنين رضي الله عنه في ذلك الجيش، وجعل فيه أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم، وذلك من أوكد الدلالة على أنه لم يرد أن يختاروا للإمامة.

أجاب قاضي القضاة بأن أنكر أولاً أن يكون في جيش أسامة، وأحال على كتب المغازي، ثم سلم ذلك وقال: إن الأمر لا يقتضي الفور، فلا يلزم من تأخر أبي بكر عن النفوذ أن يكون عاصياً. ثم قال: إن خطابه بتنفيذ الجيش يجب أن يكون متوجهاً إلى القائم بعده، لأنه من خطاب الأئمة، وهذا يقتضي ألا يدخل المخاطب بالتنفيذ في الجملة، ثم قال: وهذا يدل على أنه لم يكن هناك إمام منصوب عليه، لأنه لو كان لأقبل بالخطاب عليه، وخصه بالأمر بالتنفيذ دون الجميع ثم ذكر أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بد أن يكون مشروطاً بالمصلحة وبأن لا يعرض ما هو أهم منه، لأنه لا يجوز أن

يأمرهم بالنفوذ، وإن أعقب ضرراً في الدين، ثم قوى ذلك بأنه لم ينكر على أسامة تأخره، وقوله: لم أكن لأسأل عنك الركب، ثم قال: لو كان الإمام منصوباً عليه لجاز أن يسترد جيش أسامة أو بعضه لنصرته، وكذلك إذا كان بالاختيار، ثم حكى عن الشيخ أبي في استدلاله على أن أبا بكر لم يكن في جيش أسامة بأنه ولاه الصلاة في مرضه، مع تكريره أمر الجيش بالنفوذ والخروج.

ثم ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر بما يتعلق بمصالح الدنيا من الحروب ونحوها عن اجتهاده، وليس بواجب أن يكون ذلك عن وحي، كما يجب في الأحكام الشرعية، وأن اجتهاده يجوز أن يخالف بعد وفاته، وإن لم يجز في حياته، لأن اجتهاده في الحياة أولى من اجتهاد غيره، ثم ذكر أن العلة في احتباس عمر عن الجيش حاجة أبي بكر إليه، وقيامه بما لا يقوم به غيره، وأن ذلك أحوط للدين من نفوذه.

ثم ذكر أن أمير المؤمنين رضي الله عنه رضي الله عنه حارب معاوية بأمر الله تعالى وأمر رسوله، ومع هذا فقد ترك محاربته في بعض الأوقات، ولم يجب بذلك ألا يكون ممثلاً للأمر. وذكر تولية أبا موسى، وتولية الرسول، خالد بن الوليد مع ما جرى منهما وأن ذلك يقتضي الشرط.

ثم ذكر أن من يصلح للإمامة ممن ضمه جيش أسامة يجب تأخيرها ليختار للإمامة أحدهم، فإن ذلك أهم من نفوذهم، فإذا جاز لهذه العلة التأخير قبل العقد جاز التأخير بعده للمعاوضة وغيرها، وطعن في قول من جعل أن إخراجهم في الجيش على جهة الإبعاد لهم عن المدينة بأن قال: إن بعدهم عن المدينة لا يمنع من أن يختاروا للإمامة، ولأنه رضي الله عنه لم يكن قاطعاً على موته لا محالة، لأنه لم يرد: نفذوا جيش أسامة في حياتي. ثم ذكر أن ولاية أسامة عليهما لا تقتضي فضله وأنها دونه، وذكر ولاية عمرو بن العاص عليهما وإن لم يكونا دونه في الفضل، وأن أحداً لم يفضل أسامة عليهما. ثم ذكر أن السبب في كون عمر من جملة جيش أسامة أن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي قال عند ولاية أسامة: تولى علينا شاب حدث ونحن مشيخة قريش! فقال عمر: يا رسول الله، مرني حتى أضرب عنقه، فقد طعن في تأميرك إياه، ثم قال: أنا أخرج في جيش أسامة تواضعاً وتعظيماً لأمره رضي الله عنه.

اعترض المرتضى هذه الأجوبة، فقال: أما كون أبي بكر في جملة جيش أسامة فظاهر، قد ذكره أصحاب السير والتواريخ، وقد روى البلاذري في تاريخه وهو معروف بالثقة والضبط، وبريء من مملأة الشيعة ومقاربتهم، أن أبا بكر وعمر معاً كانا في جيش أسامة، والإنكار لما يجري هذا الجرى لا يغني شيئاً، وقد كان يجب على من أحال بذلك على كتب المغازي في الجملة أن يرمي إلى الكتاب المتضمن لذلك بعينه ليرجع إليه، فأما خطابه رضي الله عنه بالتنفيذ للجيش فالمقصود به الفور دون التراخي، إما من حيث مقتضى الأمر على مذهب من يرى ذلك لغة، وإما شرعاً من حيث وجدنا جميع الأمة من لدن الصحابة إلى هذا الوقت يحملون أوامره على الفور، ويطلبون في تراخيها الأدلة. ثم لو لم يثبت كل ذلك لكان قول أسامة: لم أكن لأسأل عنك الركب، أوضح دليل على أنه عقل من الأمر الفور، لأن سؤال الركب عنه رضي الله عنه بعد وفاته لا معنى له.

وأما قول صاحب الكتاب: إنه لم ينكر على أسامة تأخره فليس بشيء، وأي إنكار أبلغ من تكراره الأمر، وترداده القول

في حال يشغل عن المهم، ويقطع الفكر إلا فيها، وقد كرر الأمر على المأمور تارة بتكرار الأمر، وأخرى بغيره. وإذا سلمنا أن أمره رضي الله عنه كان متوجهاً إلى القائم بعده بالأمر لتنفيذ الجيش بعد الوفاة لم يلزم ما ذكره من خروج المخاطب بالتنفيذ عن الحملة، وكيف يصح ذلك وهو من جملة الجيش، والأمر متضمن لتنفيذ الجيش، فلا بد من نفوذ كل من كان في جملة، لأن تأخر بعضهم يسلب النافذين اسم الجيش على الإطلاق. أو ليس من مذهب صاحب الكتاب أن الأمر بالشيء أمر بما لا يتم إلا معه، وقد اعتمد على هذا في مواضع كثيرة، فإن كان خروج الجيش ونفوذه لا يتم إلا بخروج أبي بكر، فالأمر بخروج الجيش أمر لأبي بكر بالنفوذ والخروج، وكذلك لو أقبل عليه على سبيل التخصيص، وقال: نفذوا جيش أسامة، وكان هو من جملة الجيش، فلا بد أن يكون ذلك أمراً له بالخروج. واستدلالة على أنه لم يكن هناك إمام منصوب عليه بعموم الأمر بالتنفيذ، ليس بصحيح، لأننا قد بينا أن الخطاب إنما توجه إلى الحاضرين، ولم يتوجه إلى الإمام بعده، على أن هذا لازم، له، لأن الإمام بعده لا يكون إلا واحداً، فلم عمم الخطاب ولم يفرد به الواحد فيقول: لينفذ القائم من بعدي بالأمر جيش أسامة، فإن الحال لا يختلف في كون الإمام بعده واحداً بين أن يكون منصوباً عليه أو مختاراً.

وأما ما ادعاه أن الشرط في أمره رضي الله عنه لهم بالنفوذ فباطل، لأن إطلاق الأمر يمنع من إثبات الشرط، وإنما يثبت من الشروط ما يقتضي الدليل إثباته من التمكن والقدرة، لأن ذلك شرط ثابت في كل أمر ورد من حكيم، والمصلحة بخلاف ذلك، لأن الحكيم لا يأمر بشرط المصلحة، بل إطلاق الأمر منه يقتضي ثبوت المصلحة وانتفاء المفسدة، وليس كذلك التمكن، وما يجري مجراه، ولهذا لا يشترط أحد في أوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالشرائع المصلحة وانتفاء المفسدة. وشرطوا في ذلك التمكن ورفع التعذر، ولو كان الإمام منصوباً عليه بعينه واسمه لما جاز أن يسترد جيش أسامة، بخلاف ما ظنه، ولا يعزل من ولاه مثله ولا يولي من عزله للعلة التي ذكرناها. فأما استدلال أبي علي على أن أبا بكر لم يكن في الجيش بحديث الصلاة، فأول ما فيه أنه اعتراف بأن الأمر بتنفيذ الجيش كان في الحياة دون بعد الوفاة، وهذا ناقض لما بنى صاحب الكتاب عليه أمره رضي الله عنه. ثم إننا قد بينا أنه رضي الله عنه لم يوله الصلاة وذكرنا ما في ذلك. ثم ما المانع من أن يوليه تلك الصلاة إن كان ولاه إياها، ثم يأمره بالنفوذ من بعد مع الجيش، فإن الأمر بالصلاة في تلك الحال لا يقتضي أمره بها على التأييد. وأما ادعاؤه أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالحروب وما يتصل بها عن اجتهاد دون الوحي، فمعاذ الله أن يكون صحيحاً، لأن حروبه رضي الله عنه لم تكن مما يختص بمصالح أمور الدنيا، بل للدين فيها أقوى تعلق، لما يعود على الإسلام وأهله بفتوحه من العز والقوة وعلو الكلمة. وليس يجري ذلك مجرى أكله وشربه ونومه، لأن ذلك لا تعلق له بالدين، فيجوز أن يكون عن رأيه، ولو جاز أن تكون مغايرته وبعوثة مع التعلق القوي لها بالدين عن اجتهاد لجاز ذلك في الأحكام.

ثم لو كان ذلك عن اجتهاد لما ساءت مخالفته فيه بعد وفاته، كما لا تسوغ في حياته. فكل علة تمنع من أحد الأمرين هي مانعة من الآخر. فأما الاعتذار له عن حبس عمر عن الجيش بما ذكره فباطل، لأننا قد قلنا: إن ما يأمر به رضي الله عنه لا

يسوغ مخالفته مع الإمام، ولا مراعاة لما عساه يعرض فيه من رأي غيره، وأي حاجة إلى عمر بعد تمام العقد، واستقراره ورضا الأمة به، على طريق المخالف وإجماعها عليه، ولم يكن هناك فتنة ولا تنازع ولا اختلاف يحتاج فيه إلى مشاورته وتدييره، وكل هذا تعلق باطل.

فأما محاربة أمير المؤمنين رضي الله عنه معاوية فإنما كان مأموراً بها مع التمكن ووجود الأنصار، وقد فعل رضي الله عنه من ذلك ما وجب عليه لما تمكن منه، فأما مع التعذر وفقد الأنصار فما كان مأموراً بها. وليس كذلك القول في جيش أسامة، لأن تأخر من تأخر عنه كان مع القدرة والتمكن. فأما تولية أبي موسى فلا ندري كيف يشبه ما نحن فيه، لأنه إنما ولاه بأن يرجع إلى كتاب الله تعالى فيحكم فيه وفي خصمه بما يقتضيه، وأبو موسى فعل خلاف ما جعل إليه، فلم يكن ممثلاً لأمر من ولاه، وكذلك خالد بن الوليد إنما خالف ما أمره به الرسول صلى الله عليه وسلم فتبرأ من فعله، وكل هذا لا يشبه أمره رضي الله عنه بتنفيذ جيش أسامة أمراً مطلقاً، وتأكيد ذلك وتكراره له، فأما جيش أسامة فإنه لم يضم من يصلح للإمامة، فيجوز تأخيرهم ليختار أحدهم على ما ظنه صاحب الكتاب. على أن ذلك لو صح أيضاً لم يكن عذراً في التأخر، لأن من خرج في الجيش يمكن أن يختار وإن كان بعيداً، ولا يمنع بعده من صحة الاختيار، وقد صرح صاحب الكتاب بذلك. ثم لو صح هذا العذر لكان عذراً في التأخر قبل العقد، فأما بعد إبرامه فلا عذر فيه، والمعاوضة التي ادعاها قد بينا ما فيها.

فأما ادعاء صاحب الكتاب راداً على من جعل إخراج القوم في الجيش ليم أم النص أن من أبعدهم لا يمنع أن يختاروا للإمامة فيدل على أنه لم يتبين معنى هذا الطعن على حقيقته، لأن الطاعن به لا يقول إنه أبعدهم لئلا يختاروا للإمامة، وإنما يقول: إنه أبعدهم حتى ينتصب بعده في الأرض من نص عليه، ولا يكون هناك من ينازعه ويخالفه. وأما قوله: لم يكن قاطعاً على موته فلا يضر تسليمه، أليس كان مشفقاً وخائفاً، وعلى الخائف أن يتحرز من يخاف منه.

فأما قوله: فإنه لم يرد: نفذوا الجيش في حياتي فقد بينا ما فيه. فأما ولاية أسامة على من ولي عليه، فلا بد من اقتضاءها لفضله على الجماعة فيما كان والياً فيه، وقد دللنا فيما تقدم من الكتاب على أن ولاية المفضول على الفاضل فيما كان الفاضل منه فيه قبيحة، فكذلك القول في ولاية عمرو بن العاص عليهما فيما تقدم، والقول في الأمرين واحد. وقوله، إن أحداً لم يدع فضل أسامة على أبي بكر وعمر، فليس الأمر على ما ظنه، لأن من ذهب إلى إفساد الإمامة المفضول لا بد من أن يفضل أسامة عليهما فيما كان والياً فيه، فأما ادعاؤه ما ذكره من السبب في دخول عمر في الجيش فما نعرفه، ولا وقفنا عليه إلا من كتابه، ثم لو صح لم يغن شيئاً، لأن عمر لو كان أفضل من أسامة لمنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من الدخول في إمارته والمسير تحت لوائه، والتواضع لا يقتضي فعل القبيح.

قلت: إن الكلام في هذا الفصل قد تشعب شعباً كثيرة، والمرضى رحمه الله لا يورد كلام قاضي القضاة بنصه، وإنما يختصره ويورده مبتوراً، ويومئ إلى المعاني إيماء لطيفاً، وغرضه الإيجاز، ولو أورد كلام قاضي القضاة بنصه لكان أليق، وكان أبعد عن الظنة، وأدفع لقول قائل من خصومه: إنه يحرف كلام قاضي القضاة، ويذكره على غير وجهه، ألا ترى أن من نصب نفسه لاختصار كلام فقد ضمن على نفسه أنه قد فهم معاني ذلك الكلام حتى يصح منه اختصاره، ومن الجائز

أن يظن أنه قد فهم بعض المواضع ولم يكن قد فهمه على الحقيقة، فيختصر ما في نفسه، لا ما في تصنيف ذلك الشخص، وأما من يورد كلام الناس بنصه فقد استراح من هذه التبعة، وعرض عقل غيره وعقل نفسه على الناظرين والسامعين. ثم نقول: إن هذا الفصل ينقسم أقساماً: منها قول قاضي القضاة: لا نسلم أن أبا بكر كان في جيش أسامة. وأما قول المرتضى: إنه قد ذكره أرباب السير والتواريخ، وقوله: إن البلاذري ذكره في تاريخه، وقوله: هلا عين فاضي القضاة الكتاب الذي ذكر أنه يتضمن عدم كون أبي بكر في ذلك الجيش، فإن الأمر عندي في هذا الموضع مشتبّه، والتواريخ مختلفة في هذه القضية، فمنهم من يقول: إن أبا بكر كان في جملة الجيش، ومنهم من يقول: إنه لم يكن، وما أشار إليه قاضي القضاة بقوله في كتب المغازي لا ينتهي إلى أمر صحيح، ولم يكن ممن يستحل القول بالباطل في دينه ولا في رئاسته. ذكر الواقدي في كتاب المغازي أن أبا بكر لم يكن في جيش أسامة، وإنما كان عمر، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم، ورجال كثير من المهاجرين، والأنصار، قال: وكان المنكر لإمارة أسامة عياش بن أبي ربيعة وغير الواقدي يقول: عبد الله بن عياش، وقد قيل: عبد الله بن أبي ربيعة أخو عياش. وقال الواقدي: وجاء عمر بن الخطاب فودع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليسير مع أسامة. وقال: وجاء أبو بكر فقال: يا رسول الله، أصبحت مفيقاً بحمد الله، واليوم يوم ابنة خارجه، فأذن لي، فأذن له، فذهب إلى منزله بالسنة وسار أسامة في العسكر، وهذا تصريح بأن أبا بكر لم يكن في جيش أسامة. وذكر موسى بن عقبة في كتاب المغازي أن أبا بكر لم يكن في جيش أسامة وكثير من المحدثين يقولون: بل كان في جيشه.

فأما أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فلم يذكر أنه كان في جيش أسامة إلا عمر. وقال أبو جعفر: حدثني السدي بإسناد ذكره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب قبل وفاته بعثاً على أهل المدينة ومن حولهم وفيهم عمر بن الخطاب، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه يأذن لي أراجع بالناس، فإن معي وجوه الصحابة، ولا آمن على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون حول المدينة، وقالت الأنصار لعمر سرّاً: فإن أبي إلا أن يمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة، فخرج عمر بأمر أسامة فأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو تخطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة، فوثب أبو بكر، وكان جالساً، فأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك يا بن الخطاب، أيستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه، فخرج عمر إلى الناس، فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت في سيلكم اليوم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم، وهو ماش وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة بن زيد: يا خليفة رسول الله، لتركن أو لأنزلن، فقال: والله لا تنزل ولا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، فإن للغازي بكل

خطوة يخطوها سبعمئة حسنة تكتب له، وسبعمئة درجة ترفع له، وسبعمئة خطيئة تمحى عنه، حتى إذا انتهى قال لأسامة: إن رأيت أن تعيني بعمر فافعل، فأذن له، ثم قال: أيها الناس، قفوا حتى أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة فثمرة، ولا تذبخوا شاة ولا بعيراً ولا بقرة إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم للعبادة في الصوامع، فدعوهم فيما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على أقوام يأتونكم بصحاف فيها ألوان الطعام، فلا تأكلوا من شيء حتى تذكروا اسم الله عليه، وسوف تلقون أقواماً قد حصوا أو ساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاحفظوها بالسيوف خففاً، أفناهم الله بالطعن والطاعون، سيروا على اسم الله.

وأما قول الشيخ أبي علي فإنه يدل على أنه لم يكن في جيش أسامة، أمره إياه بالصلاة. وقول المرتضى: هذا اعتراف بأن الأمر بتنفيذ الجيش كان في الحال دون ما بعد الوفاة، وهذا ينقض ما بيني عليه قاضي القضاة أمره، فلقاتل أن يقول: إنه لا ينقض ما بناه، لأن قاضي القضاة ما قال: إن الأمر بتنفيذ الجيش ما كان إلا بعد الوفاة، بل قال: إنه أمر، والأمر على التراخي، فلو نفذ الجيش في الحال لجاز، ولو تأخر إلى بعد الوفاة لجاز.

فأما إنكار المرتضى أن تكون صلاة أبي بكر بالناس كانت عن أمر رسول الله فقد ذكرنا ما عندنا في هذا فيما تقدم. وأما قوله: يجوز أن يكون أمره بصلاة واحدة أو صلاتين، ثم أمره بالنفوذ بعد ذلك، فهذا لعمرى جائز. وقد يمكن أن يقال: إنه لما خرج متحاملاً من شدة المرض فتأخر أبو بكر عن مقامه، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس، أمره بالنفوذ مع، الجيش، وأسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء ذلك اليوم، واستمر أبو بكر على الصلاة بالناس، إلى أن توفي رضي الله عنه، فقد جاء في الحديث أنه أسكت، وأن أسامة دخل عليه فلم يستطع كلامه لكنه كان يرفع يديه ويضعهما عليه كالداعي له. ويمكن أن يكون زمان هذه السكينة قد امتد يوماً أو يومين، وهذا الموضع من المواضع المشبهة عندي.

ومنها قول قاضي القضاة: إن الأمر على التراخي، فلا يلزم من تأخر أبي بكر عن النفوذ أن يكون عاصياً.

فأما قول المرتضى: الأمر على الفور إما لغة عند من قال به، أو شرعاً لإجماع الكل على أن الأوامر الشرعية على الفور إلا ما خرج بالدليل، فالظاهر في هذا الموضع صحة ما قاله المرتضى، لأن قرائن الأحوال عند من يقرأ السير ويعرف التواريخ تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على الخروج، والمسير، وهذا هو الفور.

وأما قول المرتضى وقول أسامة: لم أكن لأسأل عنك الركب، فهو أوضح دليل على أنه عقل من الأمر الفور، لأن سؤال الركب عنه بعد الوفاة لا معنى له. فلقاتل أن يقول: إن ذلك لا يدل على الفور، بل يدل على أنه مأمور في الجملة بالنفوذ والمسير، فإن التعجيل والتأخير مفوضان إلى رأيه، فلما قال النبي صلى الله عليه وسلم: لم تأخرت عن المسير، قال: لم أكن لأسير وأسأل عنك الركب، إني انتظرت عافيتك، فإني إذا سرت وأنت على هذه الحال لم يكن لي قلب للجهد، بل

أكون قلقاً شديداً الجزع، أسأل عنك الركبان، وهذا الكلام لا يدل على أنه عقل من الأمر الفور لا محالة، بل هو على أن يدل على التراخي أظهر، وقول النبي: لم تأخرت عن المسير؟ لا يدل على الفور، لأنه قد يقال مثل ذلك لمن يؤمر بالشيء

على جهة التراخي إذا لم يكن سؤال إنكار.

وقول المرتضى: لأن سؤال الركب عنه بعد الوفاة لا معنى له، قول من قد توهم على قاضي القضاة أنه يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم ما أمرهم بالنفوذ إلا بعد وفاته، ولم يقل قاضي القضاة ذلك، وإنما ادعى أن الأمر على التراخي لا غير، وكيف يظن بقاضي القضاة أنه حمل كلام أسامة على سؤال الركب بعد الموت، وهل كان أسامة يعلم الغيب فيقول ذلك، وهل سأل أحد عن حال أحد من المرضى بعد موته.

فأما قول المرتضى عقيب هذا الكلام: لا معنى لقول قاضي القضاة إنه لم ينكر على أسامة تأخره، فإن الإنكار قد وقع بتكرار الأمر حالاً بعد حال، فللقائل أن يقول: إن قاضي القضاة لم يجعل عدم الإنكار على أسامة حجة على كون الأمر على التراخي، وإنما جعل ذلك دليلاً على أن الأمر كان مشروطاً بالمصلحة، ومن تأمل كلام قاضي القضاة الذي حكاه عنه المرتضى تحقق ذلك، فلا يجوز للمرتضى أن ينتزعه من الوضع الذي أورده فيه، فيجعله في موضع آخر. ومنها قول قاضي القضاة: الأمر بتنفيذ الجيش يجب أن يكون متوجهاً إلى الخليفة بعده، والمخاطب لا يدخل تحت الخطاب، واعتراض المرتضى عليه بأن لفظة الجيش يدخل تحتها أبو بكر فلا بد من وجوب النفوذ عليه، لأن عدم نفوذه يسلب الجماعة اسم الجيش، فليس بجيد، لأن لفظة الجيش لفظة موضوعة لجماعة من الناس قد أعدت للحرب، فإذا خرج منها واحد أو اثنان لم يزل مسمى الجيش عن الباقيين، والمرتضى اعتقد أن ذلك مثل الماهيات المركبة، نحو العشرة إذا عدم منها واحد زال مسمى العشرة، وليس الأمر كذلك، يبين ذلك أنه لو قال بعض الملوك لمائة إنسان: أنتم جيشي، ثم قال لواحد منهم: إذا مت فأعط كل واحد من جيشي درهماً من خزانتي، فقد جعلتك أميراً عليهم لم يكن له أن يأخذ لنفسه درهماً، ويقول: أنا من جملة الجماعة الذين أطلق عليهم لفظة الجيش.

ومنها قول قاضي القضاة: هذه القضية تدل على أنه لم يكن هناك إمام منصوب عليه، وأما قول المرتضى: فقد بينا أن الخطاب إنما توجه إلى الحاضرين لا إلى القائم بالأمر بعده، فلم نجد في كلامه في هذا الفصل بطوله ما بين فيه ذلك، ولا أعلم على ماذا أحال، ولو كان قد بين، على ما زعم، أن الخطاب متوجه إلى الحاضرين، لكان الإشكال قائماً، لأنه يقال له: إذا كان الإمام المنصوص عليه حاضراً عنده فلم وجه الخطاب إلى الحاضرين، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقول الملك للرعية: اقضوا بين هذين الشخصين والقاضي حاضر عنده، إلا إذا كان قد عزله عن القضاء في تلك الواقعة عن الرعية. فأما قول المرتضى: هذا ينقلب عليكم، فليس ينقلب، وإنما ينقلب لو كان يريد تنفيذ الجيش بعد موته فقط، ولا يريد به وهو حي، فكان يجيء ما قاله المرتضى لينفذ القائم بالأمر بعدي جيش أسامة، فأما إذا كان يريد نفوذ الجيش من حين ما أمر بنفوذه فقد سقط القلب، لأن الخليفة حينئذ لم يكن قد تعين، لأن الاختيار ما وقع بعد، وعلى مذهب المرتضى الإمام متعين حاضر عنده نصب عينه، فافترق الوصفان.

ومنها قول قاضي القضاة: إن مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم في النفوذ مع الجيش أو في إنفاذ الجيش لا يكون معصية، وبين ذلك من وجوه: أحدها: إن أمره رضي الله عنه بذلك لا بد أن يكون مشروطاً بالمصلحة، وألا يعرض ما هو أهم من نفوذ الجيش، لأنه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ وإن أعقب ضرراً في الدين، فأما قول المرتضى: الأمر المطلق يدل على

ثبوت المصلحة، ولا يجوز أن يجعل الأمر المطلق مقيداً بشرط المصلحة كما نقول في التمكين من الفعل إنه مشروط وإن لم يصرح به لأن الحكيم لا يأمر إلا بالمصلحة، فقول جيد إذا اعترض به على الوجه الذي أورده قاضي القضاة، فأما إذا أورده أصحابنا على وجه آخر فإنه يندفع كلام المرتضى، وذلك أنه يجوز تخصيص عمومات النصوص بالقياس الجلي عند كثير من أصحابنا، على ما هو مذكور في أصول الفقه، فلم لا يجوز لأي بكر أن يخص عموم قوله: أنفذوا بعث أسامة المصلحة غلبت على ظنه في عدم نفوذه نفسه، ولمفسدة غلبت على نفسه في نفوذه نفسه مع البعث.

وثانيها: إنه رضي الله عنه كان يبعث السرايا عن اجتهاد لا عن وحي يحرم مخالفته. فأما قول المرتضى: إن للدين تعلقاً قوياً بأمثال ذلك، وإنها ليست من الأمور الدنيوية المحضة نحو أكله وشربه ونومه، فإنه يعود على الإسلام بفتوحه عز وقوة وعلو كلمة فيقال له: وإذا أكل اللحم وقوي مزاجه بذلك ونام نوماً طبيعياً يزول عنه به المرض والإعياء، اقتضى ذلك أيضاً عز الإسلام وقوته، فقل إن ذلك أيضاً عن وحي.

ثم إن الذي يقتضيه فتوحه وغزواته وحروبه من العز وعلو الكلمة لا ينافي كون تلك الغزوات والحروب باجتهاده، لأنه لا منافاة بين اجتهاده وبين عز الدين وعلو كلمته بحروبه، وأن الذي ينافي اجتهاده بالرأي هو مثل فرائض الصلوات ومقادير الزكوات ومناسك الحج، ونحو ذلك من الأحكام التي تشعر بأنها متلقاة من محض الوحي، وليس للرأي والاجتهاد فيها مدخل، وقد خرج بهذا الكلام الجواب عن قوله: لو جاز أن تكون السرايا والحروب عن اجتهاده، لجاز أن تكون الأحكام كلها عن اجتهاده. وأيضاً فإن الصحابة كانوا يراجعونه في الحروب وآرائه التي يدبرها بها ويرجع رضي الله عنه إليهم في كثير منها بعد أن قد رأى غيره، وأما الأحكام فلم يكن يراجع فيها أصلاً، فكيف يحمل أحد البايين على الآخر. فأما قوله: لو كانت عن اجتهاد لوجب أن يحرم مخالفته فيها وهو حي، لا فرق بين الحالين، فللقائل أن يقول: القياس يقتضي ما ذكرت، إلا أنه وقع الإجماع على أنه لو كان في الأحكام أو في الحروب والجهاد ما هو باجتهاده لما جازت مخالفته، والعدول عن مذهبه وهو حي لم يختلف أحد من المسلمين في ذلك، وأجازوا مخالفته بعد وفاته بتقدير أن يكون ما صار إليه عن اجتهاد، والإجماع حجة.

فأما قول قاضي القضاة: لأن اجتهاده وهو حي أولى من اجتهاد غيره، فليس يكاد يظهر، لأن اجتهاده، وهو ميت أولى أيضاً من اجتهاد غيره، ويغلب على ظني أنهم فرقوا بين حالي الحياة والموت، فإن في مخالفته وهو حي نوعاً من أذى له، وأذاه محرم لقوله تعالى: "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله"، والأذى بعد الموت لا يكون، فافترق الحالان. وثالثها: إنه لو كان الإمام منصوباً عليه لجاز أن يسترد جيش أسامة أو بعضه لنصرتة، فكذلك إذا كان بالاختيار، وهذا قد منع منه المرتضى، وقال: إنه لا يجوز للمنصوص عليه ذلك، ولا أن يولي من عزله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أن يعزل من ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورابعها: إنه رضي الله عنه ترك حرب معاوية في بعض الحالات، ولم يوجب ذلك أن يكون عاصياً، فكذلك أبو بكر في ترك النفوذ في جيش أسامة.

فأما قول المرتضى: إن علياً رضي الله عنه كان مأموراً بحرب معاوية مع التمكن ووجود الأنصار، فإذا عدما لم يكن مأموراً بحربه، فللقائل أن يقول: وأبو بكر كان مأموراً بالنفوذ في جيش أسامة مع التمكن ووجود الأنصار، وقد عدم

التمكن لما استخلف، فإنه قد تحمل أعباء الإمامة، وتعذر عليه الخروج عن المدينة، التي هي دار الإمامة، فلم يكن مأموراً والحال هذه بالنفوذ في جيش أسامة.

فإن قلت: الإشكال عليكم إنما هو من قبل الاستخلاف، كيف جاز لأبي بكر أن يتأخر عن المسير، وكيف جاز له أن يرجع إلى المدينة وهو مأمور بالمسير، وهلا نفذ لوجهه ولم يرجع، وإن بلغه موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: لعل أسامة أذن له، فهو مأمور بطاعته، ولأنه رأى أسامة وقد عاد باللواء فعاد هو لأنه لم يكن يمكنه أن يسير إلى الروم وحده، وأيضاً فإن أصحابنا قالوا: إن ولاية أسامة بطلت بموت النبي صلى الله عليه وسلم، وعاد الأمر إلى رأي من ينصب للأمر، قالوا: لأن تصرف أسامة إنما كان من جهة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم زال تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بموته فوجب أن يزول تصرف أسامة، لأن تصرفه تبع لتصرف الرسول صلى الله عليه وسلم. قالوا: وذلك كالوكيل تبطل وكالته بموت الموكل، قالوا: ويفارق الوصي لأن ولايته لا تثبت إلا بعد موت الموصي، فهو كعهده للإمام إلى غيره لا تثبت إلا بعد موت الإمام، ثم فرع أصحابنا على هذا الأصل مسألة وهي: الحاكم هل ينزل بموت الإمام أم لا، قال قوم من أصحابنا: لا ينزل وبنوه على أن التولي من غير جهة الإمام يجوز، فجعلوا الحاكم نائباً عن المسلمين أجمعين، لا عن الإمام، وإن وقف تصرفه على اختياره، وصار ذلك عندهم بمثالة أن يختار المسلمون واحداً يحكم بينهم، ثم يموت من رضي بذلك، فإن تصرفه يبقى على ما كان عليه، وقال قوم من أصحابنا: ينزل، وإن هذا النوع من التصرف لا يستفاد إلا من جهة الإمام، ولا يقوم به غيره، وإذا ثبت أن أسامة قد بطلت ولايته لم تبق تبعه على أبي بكر في الرجوع من بعض الطريق إلى المدينة.

وخامسها: إن أمير المؤمنين رضي الله عنه ولى أبا موسى الحكم، وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه خالد بن الوليد السرية إلى الغميصاء، وهذا الكلام إنما ذكره قاضي القضاة تمةً لقوله: إن أمره رضي الله عنه بنفوذ بعث أسامة كان مشروطاً بالمصلحة، قال: كما أن توليته رضي الله عنه أبا موسى كانت مشروطة باتباع القرآن، وكما أن تولية رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد كانت مشروطة بأن يعمل بما أوصاه به، فخالفاً ولم يعملوا الحق، فإذا كانت هذه الأوامر مشروطة فكذلك أمره جيش أسامة بالنفوذ كان مشروطاً بالمصلحة ولا يعرض ما يقتضي رجوع الجيش أو بعضه إلى المدينة، وقد سبق القول في كون الأمر مشروطاً.

وسادسها: إن أبا بكر كان محتاجاً إلى مقام عمر رضي الله عنه ليعاضده ويقوم في تمهيد أمر الإمامة ما لا يقوم به غيره، فكان ذلك أصلح في باب الدين من مسيره مع الجيش، فجاز أن يجلسه عنده لذلك، وهذا الوجه مختص بمن قال: إن أبا بكر لم يكن في الجيش، وأيضاً عذره في حبس عمر عن النفوذ مع الجيش.

فأما قول المرتضى فإن ذلك غير جائز، لأن مخالفة النص حرام، فقد قلنا: إن هذا مبني على مسألة تخصيص العمومات الواردة في القرآن بالقياس.

وأما قوله: أي حاجة كانت لأبي بكر إلى عمر بعد وقوع البيعة، ولم يكن هناك تنازع ولا اختلاف، فعجيب، وهل كان لولا مقام عمر وحضوره في تلك المقامات يتم لأبي بكر أمر أو ينتظم له حال، ولولا عمر لما بايع علي ولا الزبير، ولا

أكثر الأنصار، والأمر في هذا أظهر من كل ظاهر.

وسابعها: إن من يصلح للإمامة ممن ضمه جيش أسامة يجب تأخيرهم ليختار للإمامة أحدهم، فإن ذلك أهم من نفوذهم، فإذا جاز لهذه العلة التأخر قبل العقد جاز التأخر بعده للمعاوضة وغيرها.

فأما قول المرتضى: إن ذلك الجيش لم يضم من يصلح للإمامة، فبناء على مذهبه في أن كل من ليس بمعصوم لا يصلح للإمامة. فأما قوله: ولو صح ذلك لم يكن عذراً في التأخر، لأن من خرج في الجيش يمكن أن يختار ولو كان بعيداً، ولا يمكن بعده من صحة الاختيار، فلئلا أن يقول: دار الهجرة هي التي فيها أهل الحل والعقد، وأقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم والقراء وأصحاب السسقية، فلا يجوز العدول عن الاجتماع والمشاورة فيها إلى الاختيار على البعد، وعلى جناح السفر من غير مشاركة من ذكرنا من أعيان المسلمين.

فأما قوله: ولو صح هذا العقد لكان عذراً في التأخر قبل العقد، فأما بعد إبرامه فلا عذر فيه، فلئلا أن يقول: إذا أجزت التأخر قبل العقد لنوع من المصلحة فأجز التأخر بعد العقد لنوع آخر من المصلحة، وهو المعاوضة والمساعدة.

هذه الوجوه السبعة كلها لبيان قوله: تأخر أي بكر أو عمر عن النفوذ في جيش أسامة، وإن كان مأموراً بالنفوذ. ثم نعود إلى تمام أقسام الفصل.

ومنها قول قاضي القضاة: لا معنى لقول من قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قصد إبعادهم عن المدينة، لأن بعدهم عنها لا يمنعهم من أن يختاروا واحداً منهم للإمامة، ولأنه رضي الله عنه لم يكن قاطعاً على موته لا محالة، لأنه لم يرد: نفذوا جيش أسامة في حياته.

وقد اعترض المرتضى هذا فقال: إنه لم يتبين معنى الطعن، لأن الطاعن لا يقول: إنهم ابعدوا عن المدينة كي لا يختار، واحداً للإمامة، بل يقول: إنما ابعدوا لينتصب بعد موته صلى الله عليه وسلم في المدينة الشخص الذي نص عليه، ولا يكون حاضراً بالمدينة من يخالفه وينازعه، وليس يضرنا ألا يكون صلى الله عليه وسلم قاطعاً على موته، لأنه وإن لم يكن قاطعاً فهو لا محالة يشفق ويخاف من الموت، وعلى الخائف أن يتحرر مما يخاف منه، وكلام المرتضى في هذا الموضع أظهر من كلام قاضي القضاة.

ومنها قول قاضي القضاة: إن ولاية أسامة عليهما لا تقتضي كونهما دونه في الفضل، كما ن عمرو بن العاص لما ولي عليهما لم يقتض كونه أفضل منهما. وقد اعترض المرتضى على هذا بأنه يقبح تقديم المفضول على الفاضل فيما هو أفضل منه، وأن تقدم عمرو بن العاص عليهما في الإمرة يقتضي أن يكون أفضل منهما فيما يرجع إلى الإمرة والسياسة، ولا يقتضي أفضليته عليهما في غير ذلك، وكذلك القول في أسامة.

ولقائل أن يقول: إن الملوك قد يؤمرون الأمراء على الجيوش لوجهين: أحدهما أن يقصد الملك بتأخير ذلك الشخص أن يسوس الجيش ويدبره بفضل رأيه وشيخوخته وقدم تجربته وما عرف من يمن نقيته في الحرب وقود العساكر، والثاني أن يؤمر على الجيش غلاماً حدثاً من غلمانه أو من ولده أو من أهله، ويأمر الأكابر من الجيش أن يتقفوه ويعلموه، ويأمره أن يتدبر بتدبيرهم، ويرجع إلى رأيهم، ويكون قصد الملك من ذلك تخريج ذلك الغلام وتربيته على الإمارة، وأن يثبت له

في نفوس الناس منزلة، وأن يرشحه لجلال أمور ومعظم الشئون، ففي الوجه الأول، يقبح تقديم المفضل على الفاضل، وفي الوجه الثاني لا يقبح، فلم لا يجوز أن يكون تأمير أسامة عليهما من قبيل الوجه الثاني، والحال يشهد لذلك، لأن أسامة كان غلاماً لم يبلغ ثماني عشرة سنة حين قبض النبي صلى الله عليه وسلم، فمن أين حصل له من تجربة الحرب وممارسة الوقائع وقود الجيش ما يكون به أعرف بالإمرة من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم. ومنها قول قاضي القضاة: إن السبب في كون عمر في الجيش أنه أنكر على عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة تسخطه إمرة أسامة، وقال: أنا أخرج في جيش أسامة، فخرج من تلقاء نفسه تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد اعترضه المرتضى فقال: هذا شيء لم نسمعه من راو، ولا قرأناه في كتاب، وصدق المرتضى فيما قال، فإن هذا حديث غريب لا يعرف.

وأما قول عمر: دعني أضرب عنقه فقد نافق، فمنقول مشهور لا محالة، وإنما الغريب الذي لم يعرف كون عمر خرج من تلقاء نفسه في الجيش مراغمة لعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، حيث أنكر ما أنكر، ولعل قاضي القضاة سمعه من راو أو نقله من كتاب، إلا أنا نحن ما وقفنا على ذلك.

الطعن الخامس.

قالوا: إنه صلى الله عليه وسلم لم يول أبا بكر الأعمال وولى غيره، ولما ولاه الحج بالناس وقراءة سورة براءة على الناس، عزله عن ذلك كله، وجعل الأمر إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه رضي الله عنه، وقال: لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني، حتى يرجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم. أجاب قاضي القضاة فقال: لو سلمنا أنه لم يوله، لما دل على نقص، ولا على أنه لم يصلح للإمارة والإمامة، بل لو قيل: إنه لم يوله لحاجته إليه بحضرته، إن ذلك رفعة له لكان أقرب، لا سيما، وقد روي عنه ما يدل على أنهما وزيراه، وأنه كان صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليهما وإلى رأيهما، فلذلك لم يولهما، ولو كان للعمل على تركه فضل لكان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما أفضل من أكابر الصحابة، لأنه رضي الله عنه ولاهما وقدمهما، وقد قدمنا أن توليته هي بحسب الصلاح، وقد يولى المفضل على الفاضل تارةً والفاضل أخرى، وربما ولي الواحد لاستغنائه عنه بحضرته، وربما ولاه لاتصال بينه وبين من يولى عليه، إلى غير ذلك. ثم ادعى أنه ولي أبا بكر على الموسم والحج فقد ثبت بلا خلاف بين أهل الأخبار ولم يصح أنه عزله، ولا يدل رجوع أبي بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستفهماً عن القصة على العزل، ثم جعل إنكار من أنكر حج أبي بكر في تلك السنة بالناس، كإنكار عباد وطبقته أخذ أمير المؤمنين رضي الله عنه سورة براءة من أبي بكر. وحكى عن أبي علي أن المعنى كان في أخذ السورة من أبي بكر أن من عادة العرب أن سيدياً من سادات قبائلهم إذا عقد عقد القوم، فإن ذلك العقد لا ينحل إلا أن يحله هو أو بعض سادات قومه، فلما كان هذا عادتهم وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينبذ إليهم عقدهم، وينقض ما كان بينه وبينهم، علم أنه لا ينحل ذلك إلا به أو بسيد من سادات رهطه، فعدل عن أبي بكر إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه المقرب في النسب. ثم ادعى أنه صلى الله عليه وسلم ولي أبا بكر في مرضه الصلاة، وذلك أشرف الولايات، وقال في

ذلك: يأتي الله ورسوله والمسلمون إلا أبا بكر.

ثم اعترض نفسه لصلاته خلف عبد الرحمن بن عوف: وأجاس لأنه صلى الله عليه وسلم إنما صلى خلفه، لا أنه ولاه الصلاة وقدمه فيها. قال: وإنما قدم عبد الرحمن عند غيبة النبي صلى الله عليه وسلم، فصلى بغير أمره، وقد ضاق الوقت، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فصلى خلفه.

اعترض المرتضى فقال: قد بينا أن تركه صلى الله عليه وسلم الولاية لبعض أصحابه مع حضوره وإمكان ولايته والعدول عنه إلى غيره، مع تطاول الزمان وامتداده، لا بد من أن تقتضي غلبة الظن بأنه لا يصلح للولاية، فأما ادعاؤه أنه لم يوله لاقتقاره إليه بحضرته وحاجته إلى تدبيره ورأيه، فقد بينا أنه رضي الله عنه ما كان يفتقر إلى رأي أحد لكماله ورجحانه على كل أحد، وإنما كان يشاور أصحابه على سبيل التعليم لهم والتأديب، أو لغير ذلك مما قد ذكر. وبعد، فكيف استمرت هذه الحاجة، واتصلت منه إليهما حتى لم يستغن في زمان من الأزمان عن حضورهما فيوليهما، وهل هذا إلا قدح في رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبته إلى أنه كان ممن يحتاج إلى أن يلحق ويوقف على كل شيء، وقد نزهه الله تعالى عن ذلك، فأما ادعاؤه أن الرواية قد وردت بأنهما وزيراه فقد كان يجب أن يصحح ذلك قبل أن يعتمد به، ويحتج به، فإننا ندفعه عنه أشد دفع. فأما ولاية عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد تكلمنا عليها من قبل، وبيننا أن ولايتهما تدل على صلاحهما لما ولياه، ولا تدل على صلاحهما للإمامة، لأن شرائط الإمامة لم تتكامل فيهما، وبيننا أيضاً أن ولاية المفضل على الفاضل لا تجوز، فأما تعظيمه وإكباره قول من يذهب إلى أن أبا بكر عزل عن أداء السورة والموسم جميعاً، وجمعه بين ذلك في البعد وبين إنكار عباد أن يكون أمير المؤمنين رضي الله عنه ارتجع سورة براءة من أبي بكر، فأول ما فيه أنا لا ننكر أن يكون أكثر الأخبار واردة بأن أبا بكر حج بالناس في تلك السنة، إلا أنه قد روى قوم من أصحابنا خلاف ذلك، وأن أمير المؤمنين رضي الله عنه كان أمير الموسم في تلك السنة، وأن عزل الرجل كان عن الأمرين معاً. واستكبار ذلك. وفيه خلاف لا معنى له، فأما ما حكاه عن عباد فإننا لا نعرفه، وما نظن أحداً يذهب إلى مثله، وليس يمكنه بإزاء ذلك جحد مذهب أصحابنا الذي حكيناه، وليس عباد لو صحت الرواية عنه بإزاء من ذكرناه، فهو مليء بالجهالات ودفع الضرورات. وبعد، فلو سلمنا أن ولاية الموسم لم تفسخ لكان الكلام باقياً، لأنه إذا كان ما ولي مع تطاول الزمان إلا هذه الولاية، ثم سلب شطرها، والأفخم الأعظم منها، فليس ذلك إلا تنبيهها على ما ذكرناه. فأما ما حكاه عن أبي علي من أن عادة العرب ألا يحل ما عقده الرئيس منهم إلا هو أو المتقدم من رهطه، فمعاذ الله أن يجري النبي صلى الله عليه وسلم سنته وأحكامه على عادات الجاهلية، وقد بين لما رجع إليه أبو بكر يسأله عن أخذ السورة منه الحال، فقال: إنه أوحى إلي ألا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني، ولم يذكر ما أدعاه أبو علي، على أن هذه العادة قد كان يعرفها النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثه أبا بكر بسورة براءة، فما باله لم يعتمدها في الابتداء ويبحث من يجوز أن يحل عقده من قومه.

فأما ادعاؤه ولاية أبي بكر الصلاة فقد ذكرنا فيما تقدم أنه لم يوله إياها. فأما فصله بين صلاته خلف عبد الرحمن وبين صلاة أبي بكر بالناس، فليس بشيء، لأننا إذا كنا قد دللنا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما قدم أبا بكر إلى

الصلاة، فقد استوى الأمران. وبعد، فأى فرق بين أن يصلي خلفه وبين أن يولييه ويقدمه، ونحن نعلم أن صلاته خلفه إقرار لولايته ورضاهما، فقد عاد الأمر إلى أن عبد الرحمن كأنه قد صلى بأمره وإذنه، على أن قصة عبد الرحمن أوكد، لأنه قد اعترف بأن الرسول صلى خلفه، ولم يصل خلف أبي بكر، وإن ذهب كثير من الناس إلى أنه قدمه وأمره بالصلاة قبل خروجه إلى المسجد وتحامله.

ثم سأل المرتضى رحمه الله نفسه، فقال: إن قيل: ليس يخلو النبي صلى الله عليه وسلم من أن يكون سلم في الابتداء سورة براءة إلى أبي بكر بأمر الله أو باجتهاده ورأيه، فإن كان بأمر الله تعالى، فكيف يجوز أن يرتجع منه السورة قبل وقت الأداء، وعندكم أنه لا يجوز نسخ الشيء قبل تقضي وقت فعله، وإن كان باجتهاده رضي الله عنه، فعندكم أنه لا يجوز أن يجتهد فيما يجري هذا الجرى.

وأجاب فقال: إنه ما سلم السورة إلى أبي بكر إلا بإذنه تعالى، إلا أنه لم يأمره بأدائها، ولا كلفه قراءتها على أهل الموسم، لأن أحداً لم يمكنه أن ينقل عنه رضي الله عنه في ذلك لفظ الأمر والتكليف، فكأنه سلم سورة براءة إليه لتقرأ على أهل الموسم، ولم يصرح بذكر القارئ المبلغ لها في الحال، ولو نقل عنه تصريح لجاز أن يكون مشروطاً بشرط لم يظهر. فإن قيل: فأى فائدة في دفع السورة إلى أبي بكر وهو لا يريد أن يؤديها، ثم ارتجاعها منه، وهلا دفعت في الابتداء إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه.

قيل: الفائدة في ذلك ظهور فضل أمير المؤمنين رضي الله عنه ومرتبته، وأن الرجل الذي نرعت السورة عنه لا يصفح لما يصلح له، وهذا غرض قوي في وقوع الأمر على ما وقع عليه.

قلت: قد ذكرنا فيما تقدم القول في تولية الملك بعض أصحابه، وترك تولية بعضهم، وكيفية الحال في ذلك، على أنه قد روى أصحاب المغازي أنه أمر أبا بكر في شعبان من سنة سبع على سرية بعثها إلى نجد فلقوا جمعاً من هوازن فبيتوهم، فروى إياس بن سلمة عن أبيه، قال: كنت في ذلك البعث، فقتلت بيدي سبعة منهم، وكان شعارنا: أمت أمت، وقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قوم، وجرح أبو بكر وارتث وعاد إلى المدينة، على أن أمراء السرايا الذين كان يبعثهم صلى الله عليه وسلم كانوا قوماً مشهورين بالشجاعة ولقاء الحروب، كمحمد بن مسلمة، وأبي دجانة، وزيد بن حارثة ونحوهم، ولم يكن أبو بكر مشهوراً بالشجاعة ولقاء الحروب، ولم يكن جباناً ولا خواراً وإنما كان رجلاً مجتمع القلب عاقلاً، ذا رأي وحسن تدبير، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يترك بعثه في السرايا، لأن غيره أنفع منه فيها، ولا يدل ذلك على أنه لا يصلح للإمامة، وأن الإمامة تحتاج أن يكون صاحبها من المشهورين بالشجاعة، وإنما يحتاج إلى ثبات القلب، وألا يكون هلعاً طائر الجنان. وكيف يقول المرتضى: إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن محتاجاً إلى رأي أحد، وقد نقل الناس كلهم رجوعه من رأي إلى رأي عند المشورة، نحو ما جرى يوم بدر من تغير المنزل لما أشار عليه الحباب بن المنذر، ونحو ما جرى يوم الخندق من فسخ رأيه في دفع ثلث تمر المدينة إلى عيينة بن حصن ليرجع بالأحزاب عنهم، لأجل ما رآه سعد بن معاذ وسعد بن عباد من الحرب، والعدول عن الصلح، ونحو ما جرى في تلقيح النخل بالمدينة وغير

ذلك، فأما ولاية أبي بكر الموسم فأكثر الأخبار على ذلك، ولم يرو عزله عن الموسم إلا قوم من الشيعة. وأما ما أنكره المرتضى من حال عباد بن سليمان ودفعه أن يكون على أخذ براءة من أبي بكر واستغرابه ذلك عجب، فإن قول عباد قد ذهب إليه كثير من الناس، ورووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدفع براءة إلى أبي بكر، وأنه بعد أن نفذ أبو بكر بالحجيج أتبعه علياً ومعه تسع آيات من براءة، وقد أمره أن يقرأها على الناس ويؤذنهم بنقض العهد وقطع الدنية، فانصرف أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعاده على الحجيج، وقال له: أنت الأمير، وعلي المبلغ، فإنه لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني، ولم ينكر عباد أمر براءة بالكلية، وإنما أنكر أن يكون النبي دفعها إلى أبي بكر ثم انتزعها منه، وطائفة عظيمة من المحدثين يروون ما ذكرناه، وإن كان الأكثر الأظهر أنه دفعها إليه ثم أتبعه بعلي رضي الله عنه فانتزعها منه، والمقصود أن المرتضى قد تعجب مما لا يتعجب من مثله، فظن أن عباداً أنكر حديث براءة بالكلية، وقد وقفت أنا على ما ذكره عباد في هذه القضية في كتابه المعروف بكتاب الأبواب، وهو الكتاب الذي نقضه شيخنا أبو هاشم، فأما عذر شيخنا أبي علي، وقوله: إن عادة العرب ذلك، واعتراض المرتضى عليه، فالذي قاله المرتضى أصح وأظهر، وما نسب إلى عادة العرب غير معروف، وإنما هو تأويل تأول به متعصبو أبي بكر لانتزاع براءة منه، وليس بشيء. ولست أقول ما قاله المرتضى من أن غرض رسول الله صلى الله عليه وسلم إظهار أن أبا بكر لا يصلح للأداء عنه، بل أقول: فعل ذلك لمصلحة رآها، ولعل السبب في ذلك أن علياً من بني عبد مناف وهم حمرة قريش بمكة، وعلي أيضاً شجاع لا يقام له، وقد حصل في صدور قريش منه الهيبة الشديدة والمخافة العظيمة، فإذا حصل مثل هذا الشجاع البطل وحوله من بني عمه وهم أهل العزة والقوة والحمية، كان أدعى إلى نجاته من قريش، وسلامة نفسه وبلوغ الغرض من نبذ العهد على يده، ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة الحديبية بعث عثمان بن عفان إلى مكة يطلب منهم الإذن له في الدخول، وإنما بعثه لأنه من بني عبد مناف، ولم يكن بنو عبد مناف، وخصوصاً بني عبد شمس، ليمكنوا من قتله، ولذلك حملة بنو سعيد بن العاص على بعير يوم دخل مكة وأحدقوا به مستلثمين بالسلاح، وقالوا له: أقبل وأدبر، ولا تخف أحداً، بنو سعيد أعزة الحرم. وأما القول في تولية رسول الله صلى الله عليه وسلم ثأباً بكر الصلاة، فقد تقدم، وما رآه قاضي القضاة من الفرق بين صلاة أبي بكر بالناس وصلاة عبد الرحمن بهم، مع كون رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ضعيف، وكلام المرتضى أقوى منه. فأما السؤال الذي سألته المرتضى من نفسه فقوي، والجواب الصحيح أن بعث براءة مع أبي بكر كان باجتهاد من الرسول، ولم يكن عن وحي ولا من جملة الشرائع التي تتلقى عن جبرائيل عليه السلام، فلم يقبح نسخ ذلك قبل تقضي وقت فعله، وجواب المرتضى ليس بقوي، لأنه من البعيد أن يسلم سورة براءة إلى أبي بكر ولا يقال له: ماذا تصنع بها؟ بل يقال: خذ هذه معك لا غير. والقول بأن الكلام مشروط بشرط لم يظهر خلاف الظاهر، وفتح هذا الباب يفسد كثيراً من القواعد.

الطعن السادس.

إن أبا بكر لم يكن يعرف الفقه وأحكام الشريعة، فقد قال في الكلاله: أقول فيها برأي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني، ولم يعرف ميراث الجد، ومن حاله هذه لا يصلح للإمامة.

أجاب قاضي القضاة بأن الإمام لا يجب أن يعلم جميع الأحكام، وأن القدر الذي يحتاج إليه هو القدر الذي يحتاج إليه الحاكم، وأن القول بالرأي هو الواجب فيما لا نص فيه، وقد قال أمير المؤمنين رضي الله عنه بالرأي في مسائل كثيرة. اعترض المرتضى فقال: قد دللنا على أن الإمام لا بد أن يكون عالماً بجميع الشرعيات، وفرقنا بينه وبين الحاكم، ودللنا على فساد الرأي والاجتهاد. وأما أمير المؤمنين رضي الله عنه فلم يقل قط بالرأي، وما يروى من خبر بيع أمهات أولاد غير صحيح، ولو صح لجاز أن يكون أراد بالرأي الرجوع إلى النصوص والأدلة، ولا شبهة عندنا أن قوله كان واحداً في الحالين، وإن ظهر في أحدهما خلاف مذهبه للتقية.

قلت: هذا الطعن مبني على أمرين: أحدهما هل من شرط الإمامة أن يعلم الإمام كل الأحكام الشرعية أم لا، وهذا مذكور في كتبنا الكلامية، والثاني هو القول في الاجتهاد والرأي حق أم لا؟ وهذا مذكور في كتبنا الأصولية.

الطعن السابع.

قصة خالد بن الوليد وقتله مالك بن نويرة ومضاجعته امرأته من ليلته، وأن أبا بكر ترك إقامة الحد عليه، وزعم أنه سيف من سيوف الله سله الله على أعدائه، مع أن الله تعالى قد أوجب القود وحد الزنا عموماً، وأن عمر نبهه وقال له: اقتله، فإنه قتل مسلماً.

أجاب قاضي القضاة فقال: إن شيخنا أبا علي قال: إن الردة ظهرت من مالك بن نويرة، لأنه جاء في الأخبار أنه رد صدقات قومه عليهم لما بلغه موت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعله سائر أهل الردة فاستحق القتل. فإن قال قائل: فقد كان يصلي، قيل له: وكذلك سائر أهل الردة، وإنما كفروا بالامتناع من الزكاة، واعتقادهم إسقاط وجوبها دون غيره. فإن قيل: فلم أنكر عمر؟ قيل: كان الأمر إلى أبي بكر، فلا وجه لإنكار عمر، وقد يجوز أن يعلم أبو بكر من الحال ما يخفى على عمر. فإن قيل: فما معنى ما روي عن أبي بكر من أن خالداً تأول فأخطأ، قيل: أراد عجلته عليه بالقتل، وقد كان الواجب عنده على خالد أن يتوقف للشبهة. واستدل أبو علي على ردة بأن أخاه متمم بن نويرة لما أنشد عمر مرثيته أخاه قال له: وددت أني أقول الشعر فأرثي أخي زيدا بمثل ما رثيت به أخاك، فقال متمم: لو قتل أخي على مثل ما قتل عليه أخوك ما رثيته، فقال عمر: ما عزاني أحد بمثل تعزيتك، فدل هذا على أن مالكا لم يقتل على الإسلام كما قتل زيد.

وأجاب عن تزويج خالد بامرأته بأنه إذا قتل على الردة في دار الكفر جاز تزويج امرأته عند كثير من أهل العلم، وإن كان لا يجوز أن يطأها إلا بعد الاستبراء.

وحكي عن أبي علي أنه إنما قتله لأنه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: صاحبك، وأوهم بذلك أنه ليس بصاحب له، وكان عنده أن ذلك ردة وعلم عند المشاهدة المقصد، وهو أمير القوم، فجاز أن يقتله وإن كان الأولى ألا يستعجل، وأن يكشف الأمر في رده حتى يتضح، فلماذا لم يقتله أبو بكر به. فأما وطؤه لامرأته فلم يثبت، فلا يصح أن يجعل طعناً فيه.

اعترض المرتضى فقال: أما منع خالد قتل مالك بن نويرة واستباحة امرأته وأمواله لنسبته إياه إلى ردة لم تظهر منه، بل كان الظاهر خلافها من الإسلام، فعظيم. ويجري مجراه في العظم تغافل من تغافل عن أمره، ولم يقم فيه حكم الله تعالى، وأقره على الخطأ الذي شهد هو به على نفسه، ويجري مجراه من أمكنه أن يعلم الحال فأهملها ولم يتصفح ما روي من الأخبار في هذا الباب وتعصب لأسلافه ومذهبه. وكيف يجوز عند خصومنا على مالك وأصحابه جحد الزكاة مع المقام على الصلاة، وهما جميعاً في قرن، لأن العلم الضروري بأتهما من دينه رضي الله عنه وشريعته على حد واحد، وهل نسبة مالك إلى الردة مع ما ذكرناه إلا قدح في أصول ونقض، لما تضمنته من الزكاة معلومة ضرورة من دينه رضي الله عنه. وأعجب من كل عجب قوله: وكذلك سائر أهل الردة، يعني أنهم كانوا يصلون ويحدون الزكاة، لأننا قد بينا أن ذلك مستحيل غير ممكن، وكيف يصح ذلك، وقد روى جميع أهل النقل أن أبا بكر لما وصى الجيش الذين أنفذهم بأن يؤذنوا ويقيموا، فإن أذن القوم كأذانهم وإقامتهم كفوا عنهم، وإن لم يفعلوا أغاروا عليهم، فجعل أمانة الإسلام والبراءة من الردة الأذان والإقامة، وكيف يطلق في سائر أهل الردة ما أطلقه من أنهم كانوا يصلون، وقد علمنا أن أصحاب مسيلمة وطليحة وغيرهما ممن كان ادعى النبوة وخلع الشريعة ما كانوا يرون الصلاة ولا شيء مما جاءت به شريعتنا. وقصة مالك معروفة عند من تأمل كتب السير والنقل، لأنه كان على صدقات قومه بني يربوع والياً من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما بلغت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن أخذ الصدقة من قومه وقال لهم: تربصوا بها حتى يقوم قائم بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ونظر ما يكون من أمره، وقد صرح بذلك في شعره حيث يقول:

وقال رجال مالك لم يسدد

فلم أخط رأياً في المقام ولا الندي

ولا ناظر فيما يجيء به غدي

مصورة أخلاقها لم تجدد

وأرهنكم يوماً بما قلته يدي

أطعنا وقلنا: الدين دين محمد

وقال رجال سدد اليوم مالك

فقلت: دعوني لا أبا لأبيكم

وقلت: خذوا أموالكم غير خائف

فدونكموها إنما هي مالكم

سأجعل نفسي دون ما تحذرونه

فإن قام بالأمر المجدد قائم

فصرح كما ترى أنه استبقى الصدقة في أيدي قومه رفقا بهم وتقرباً إليهم، إلى أن يقوم بالأمر من يدفع ذلك إليه. وقد روى جماعة عن أهل السير، وذكره الطبري في تاريخه أن مالكاً نهى قومه عن الاجتماع على منع الصدقات وفرقهم، وقال: يا بني يربوع، إنا كنا قد عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين، وبطأنا الناس عنه، فلم نفلح ولم ننجح، وإني قد نظرت في هذا الأمر فوجدت الأمر يتأتى لهؤلاء القوم بغير سياسة، وإذا أمر لا يسوسه الناس، فإياكم ومعاداة قوم يصنع لهم فتفرقوا على ذلك إلى أموالهم، ورجع مالك إلى منزله، فلما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتيوه بكل من لم يجب، وأمرهم إن امتنع أن يقتلوه، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني يربوع، واختلف السرية في أمرهم، في السرية أبو قتادة الحارث بن ربيعي، فكان ممن شهد أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا، فلما اختلفوا فيهم أمر بهم خالد فحبسوا وكانت ليلة باردة لا يقوم لها شيء، فأمر خالد منادياً ينادي: أدفنوا أسراءكم، فظنوا أنهم أمروا بقتلهم،

لأن هذه اللفظة تستعمل في لغة كنانة للقتل، فقتل ضرار بن الأزور مالكا، وتزوج خالد زوجته أم تميم بنت المنهال.

وفي خبر آخر أن السرية التي بعث بها خالد لما غشيت القوم تحت الليل راعوهم، فأخذ القوم السلاح، قال: فقلنا: إنا المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم، قلنا: فضعوا السلاح، فلما وضعوا السلاح ربطوا أسارى فأتوا بهم خالداً. فحدث أبو قتادة خالد بن الوليد أن القوم نادوا بالإسلام، وأن لهم أماناً، فلم يلتفت خالد إلى قولهم وأمر بقتلهم، وقسم سبيهم، وحلف أبو قتادة ألا يسير تحت لواء خالد في جيش أبداً، وركب فرسه شاداً إلى أبي بكر، فأخبره الخبر، وقال له: إني نهيته خالداً عن قتله، فلم يقبل قولي، وأخذ بشهادة الأعراب الذين غرضهم الغنائم، وإن عمر لما سمع ذلك تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر وقال: إن القصاص قد وجب عليه. ولما أقبل خالد بن الوليد قافلاً دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدأ الحديد، معتجراً بعمامة له قد غرز في عمامته أسهماً، فلما دخل المسجد قام إليه عمر فترع الأسهم عن رأسه فحطمها، ثم قال له: يا عدو نفسه، أعدوت على امرئ مسلم فقتلته، ثم نزوت على امرأته، والله لنرجمنك بأحجارك. وخالد لا يكلمه، ولا يظن إلا أن رأي أبي بكر مثل رأيهِ حتى دخل إلى أبي بكر واعتذر إليه بعذره وتجاوز عنه، فخرج خالد وعمر جالس في المسجد فقال: هلم إلي يا بن أم ثملة، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه، ودخل بيته.

وقد روي أيضاً أن عمر لما ولي جمع من عشيرة مالك بن نويرة من وجد منهم واسترجع ما وجد عند المسلمين من أموالهم وأولادهم ونسائهم، فرد ذلك عليهم جميعاً مع نصيبه كان منهم. وقيل: إنه ارتجع بعض نسائهم من نواحي دمشق، وبعضهن حوامل، فردهن على أزواجهن. فالأمر ظاهر في خطأ خالد، وخطأ من تجاوز عنه. وقول صاحب الكتاب: إنه يجوز أن يخفى عن عمر ما يظهر لأبي بكر ليس بشيء، لأن الأمر في قصة خالد لم يكن مشتبهاً، بل كان مشاهداً معلوماً لكل من حضره، وما تأول به في القتل لا يعذر لأجله، وما رأينا أبا بكر حكم فيه بحكم المتأول ولا غيره، ولا تلافي خطأه وزله، وكونه سيفاً من سيوف الله على ما ادعاه لا يسقط عنه الأحكام، ويبرئه من الآثام. وأما قول متمم: لو قتل أخي على ما قتل عليه أخوك لما رثيته، لا يدل على أنه كان مرتداً، فكيف يظن عاقل أن متمماً يعترف بردة أخيه وهو يطالب أبا بكر بدمه والاقتصاص من قاتليه، ورد سبيه، وأنه أراد في الجملة التقرب إلى عمر بتقريظ أخيه، ثم لو كان ظاهر هذا القول كباطنه لكان إنما يقصد تفضيل قتلة زيد على قتلة مالك، والحال في ذلك أظهر، لأن زيдаً قتل في بعث المسلمين ذاباً عن وجوههم، ومالك قتل على شبهة، وبين الأمرين فرق.

وأما قوله في النبي صلى الله عليه وسلم: صاحبك فقد قال أهل العلم: إنه أراد القرشية لأن خالداً قرشي. وبعد، فليس في ظاهر إضافته إليه دلالة على نفيه له عن نفسه، ولو كان علم من مقصده الاستخفاف والإهانة على ما ادعاه صاحب الكتاب لوجب أن يعتذر خالد بذلك عند أبي بكر وعمر ويعتذر به أبو بكر لما طالبه عمر بقتله، فإن عمر ما كان يمنع من قتل قاذح في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان الأمر على ذلك فأبي بكر: تأول فأخطأ، وإنما تأول فأصاب إن كان الأمر على ما ذكر. قلت: أما تعجب المرتضى من كون قوم منعوا الزكاة وأقاموا على الصلاة

ودعواه أن هذا غير ممكن ولا صحيح، فالعجب منه كيف ينكر وقوع ذلك، وكيف ينكر إمكانه، أما الإمكان فلأنه لا ملازمة بين العبادتين إلا من كونهما مقترنتين في بعض المواضع في القرآن، وذلك لا يوجب تلازمهما في الوجود، أو من قوله: إن الناس يعلمون كون الزكاة واجبة في دين الإسلام ضرورة، كما تعلمون كون الصلاة في دين الإسلام ضرورة، وهذا لا يمنع اعتقادهم سقوط وجوب الزكاة لشبهة دخلت عليهم. فإنهم قالوا: إن الله تعالى قال لرسوله: "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم". قالوا: فوصف الصدقة المفروضة بأنها صدقة من شأنها أن يطهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ويزكيهم لأخذها منهم، ثم عقب ذلك بأن فرض عليه مع أخذ الزكاة منهم أن يصلي عليهم صلاة تكون سكناً لهم. قالوا: وهذه الصفات لا تتحقق في غيره، لأن غيره لا يطهر الناس ويزكيهم بأخذ الصدقة، ولا إذا صلى على الناس كانت صلاته سكناً لهم، فلم يجب علينا دفع الزكاة إلى غيره. وهذه الشبهة لا تنافي كون الزكاة معلوماً وجوباً ضرورة من دين محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم ما جحدوا وجوبها، ولكنهم قالوا: إنه وجوب مشروط، وليس يعلم بالضرورة انتفاء كونها مشروطة، وإنما يعلم ذلك بنظر وتأويل، فقد بان أن ما ادعاه من الضرورة ليس بدال على أنه لا يمكن أحداً اعتقاد نفي وجوب الزكاة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو عرضت مثل هذه الشبهة في صلاة لصح لذهاب أن يذهب إلى أنها قد سقطت عن الناس، فأما الوقوع فهو المعلوم ضرورة بالتواتر، كالعلم بأن أبا بكر ولي الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة بطريق التواتر، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر في كتب التواريخ فإنها تشتمل من ذلك على ما يشفي ويكفي. وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ الكبير بإسناد ذكره: إن أبا بكر أقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجيهه أسامة في جيشه إلى حيث قتل أبوه زيد بن حارثة لم يحدث شيئاً، وجاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة ويمنعون الصدقة، فلم يقبل منهم وردهم، وأقام حتى قدم أسامة بعد أربعين يوماً من شخوصه، ويقال: بعد سبعين يوماً. وروى أبو جعفر قال: امتنعت العرب قاطبة من أداء الزكاة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا قريشاً وثقيفاً. وروى أبو جعفر، عن السري عن شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ارتدت العرب ومنعت الزكاة إلا قريشاً وثقيفاً، فأما هوازن فقدمت رجلاً وأخرت أخرى، أمسكوا الصدقة. وروى أبو جعفر، قال: لما منعت العرب الزكاة كان أبو بكر ينتظر قدوم أسامة بالجيش، فلم يحارب أحداً قبل قدومه إلا عيساً وذبيان، فإنه قاتلهم قبل رجوع أسامة. وروى أبو جعفر، قال: قدمت وفود من قبائل العرب المدينة، فزلوا على وجوه الناس بها، ويحملونهم إلى أبي بكر أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق، وقال: لو منعوني عقالاً بغير لجاهدكم عليه. وروى أبو جعفر شعراً للخطيل بن أوس، أخي الحطيئة في معنى منع الزكاة، وأن أبا بكر رد سؤال العرب ولم يجبه من جملته:

فيا لعباد الله ما لأبي بكر

وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا

أيورثها بكر إذا مات بعده

فهلا رددتم وفدنا بإجابة

وهلا حسبتهم منه راعية البكر

فإن الذي سالوكم فمنعتم

لكالتنمر أو أحلى لحلف بني فهر

وروى أبو جعفر قال: لما قدمت العرب المدينة على أبي بكر فكلموه في إسقاط الزكاة، نزلوا على وجوه الناس بالمدينة فلم يبق أحد إلا وأنزل عليه ناساً منهم، إلا العباس بن عبد المطلب، ثم اجتمع إلى أبي بكر المسلمون، فخوفوه بأس العرب واجتماعها. قال ضرار بن الأزور: فما رأيت أحداً، ليس رسول الله، أملاً بحرب شعواء من أبي بكر فجعلنا نخوفه ونروعه، وكأنما إنما نخبره بما له لا ما عليه، واجتمعت كلمة المسلمين على إجابة العرب إلى ما طلبت، وأبي بكر أن يفعل إلا ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يأخذ إلا ما كان يأخذ، ثم أجلهم يوماً وليلة، ثم أمرهم بالانصراف، وطاروا إلى عشائريهم. وروى أبو جعفر، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن العاص إلى عمان قبل موته، فمات وهو بعمان، فأقبل قافلاً إلى المدينة، فوجد العرب قد منعت الزكاة، فنزل في بني عامر على قرة بن هبيرة، وقرة يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وعلى ذلك بنو عامر كلهم إلا الخواص. ثم قدم المدينة، فأطافت به قريش، فأخبرهم أن العساكر معسكرة حولهم، فتفرق المسلمون، وتحلقوا حلقاً، وأقبل عمر بن الخطاب، فمر بحلقة وهم يتحدثون فيما سمعوا من عمرو، وفي تلك الحلقة علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد، فلما دنا عمر منهم سكتوا، فقال: في أي شيء أنتم، فلم يخبروه، فقال: ما أعلمني بالذي خلوتهم عليه، فغضب طلحة وقال: الله يا بن الخطاب، إنك لتعلم الغيب، فقال: لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن أظن قلتهم: ما أخوفنا على قريش من العرب وأخفقهم ألا يقرؤا بهذا الأمر. قالوا: صدقت، فقال: فلا تخافوا هذه المتزلة، أنا والله منكم على العرب أخوف مني عليكم من العرب. قال أبو جعفر: وحدثني السري، قال: حدثنا شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: نزل عمرو ابن العاص بمنصرفه من عمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرّة ابن هبيرة بن سلمة بن يسير، وحوله عساكر من أفنائهم، فذبح له، وأكرم منزله، فلما أراد الرحلة خلا به وقال: يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم أنفساً بالإتاوة، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع وتطيع، وإن أبيتم فإنها تجتمع عليكم، فقال عمرو: أتوعدنا بالعرب وتخوفنا بها؟ موعدنا حفش أمك، أما والله لأوطئته عليك الخيل، وقدم على أبي بكر والمسلمين فأخبرهم.

وروى أبو جعفر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرق عماله في بني تميم على قبض الصدقات فجعل الزبرقان بن بدر على عوف والرباب، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون، وصفوان بن صفوان وسيرة بن عمرو على بني عمرو، ومالك بن نويرة على بني حنظلة، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب صفوان إلى أبي بكر حين وقع إليه الخبر بموت النبي صلى الله عليه وسلم بصدقات بني عمرو، وبما ولي منها، وما ولي سيرة، وأقام سيرة في قومه لحدث إن ناب، وأطرق قيس بن عاصم ينظر ما الزبرقان صانع، فكان له عدواً وقال وهو ينتظره وينتظر ما يصنع: ويلي عليه، ما أدري ما أصنع إن أنا بايعت أبا بكر وأتيته بصدقات قومي خلفني فيهم فساءني عندهم، وإن رددتها عليهم

فلبائين أبا بكر فيسوءني عنده، ثم عزم قيس على قسمته في مقاعس والبطون، ففعل وعزم الزبرقان على الوفاء، فأتبع صفوان بصدقات عوف والرباب حتى قدم بها المدينة وقال شعراً يعرض فيه بقيس بن عاصم، ومن جملته:

سعاة فلم يردد بعيراً أميرها

وفيت بأذواد الرسول وقد أبت

فلما أرسل أبو بكر إلى قيس العلاء بن الحضرمي أخرج الصدقة، فأتاه بها وقدم معه إلى المدينة.

وفي تاريخ أبي جعفر الطبري من هذا الكثير الواسع، وكذلك في تاريخ غيره من التواريخ، وهذا أمر معلوم باضطراب، لا يجوز لأحد أن يخالف فيه.

فأما قوله: كيف يصح ذلك، وقد قال لهم أبو بكر: إذا أذنوا وأقاموا كأذانكم وإقامتكم، فكفوا عنهم، فجعل أمانة الإسلام والبراءة من الردة الأذان والإقامة، فإنه قد أسقط بعض الخبر، قال أبو جعفر الطبري في كتابه: كانت وصيته لهم: إذا نزلتم فأذنوا وأقيموا، فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم، فإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة، ثم اقتلوهم كل قتلة، الحرق فما سواه، وإن أجابوا داعية الإسلام فاسألوهم، فإن أقروا بالزكاة فأقبلوا منهم، وإن أبوا فلا شيء إلا الغارة، ولا كلمة.

فأما قوله: وكيف يطلق قاضي القضاة في سائر أهل الردة ما أطلقه من أنهم كانوا يصلون ومن جملتهم أصحاب مسيلمة وطلحة، فإنما أراد قاضي القضاة بأهل الردة ههنا مانعي الزكاة لا غير، ولم يرد من جحد الإسلام بالكلية.

فأما قصة مالك بن نويرة وخالد بن الوليد فإنها مشتبهة عندي، ولا غرو فقد اشتبهت على الصحابة، وذلك أن من حضرها من العرب اختلفوا في حال القوم: هل كان عليهم شعار الإسلام أو لا، واختلف أبو بكر وعمر في خالد مع شدة اتفاقهما، فأما الشعر الذي رواه المرتضى لمالك بن نويرة فهو معروف إلا البيت الأخير، فإنه غير معروف، وعليه عمدة المرتضى في هذا المقام، وما ذكره بعد من قصة القوم صحيح كله مطابق لما في التواريخ إلا موبضعات يسيرة: منها قوله: إن مالكا نهي قومه عن الاجتماع على منع الصدقات، فإن ذلك غير منقول وإنما المنقول أنه نهي قومه عن الاجتماع في موضع واحد، وأمرهم أن يتفرقوا في ميَاهم، ذكر ذلك الطبري ولم يذكر نهي إياهم عن الاجتماع على منع الصدقة، وقال الطبري: إن مالكا تردد في أمره: هل يحمل الصدقات أم لا؟ فجاءه خالد وهو متحير سبّح.

ومنها أن الطبري ذكر أن ضرار بن الأزور قتل مالكا عن غير أمر خالد، وأن خالداً لما سمع الواقعة خرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه، قال الطبري: وغضب أبو قتادة لذلك، وقال لخالد: هذا عملك، وفارقه وأتى أبا بكر فأخبره فغضب عليه أبو بكر حتى كلمه فيه عمر، فلم يرضى إلا أن يرجع إلى خالد، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة. ومنها أن الطبري روى أن خالداً لما تزوج أم تميم بنت المنهال امرأة مالك لم يدخل بها وتركها حتى تقضي طهرها، ولم يذكر المرتضى ذلك.

ومنها أن الطبري روى أن متمماً لما قدم المدينة طلب إلى أبي بكر في سبيهم، فكتب له برد السبي، والمرتضى ذكر أنه لم يرد إلا في خلافة عمر.

فأما قول المرتضى: إن قول متمم: لو قتل أخي على مثل ما قتل عليه أخوك لما رثيته. لا يدل على رذته، فصحيح، ولا ريب أنه قصد تقرير زيد بن الخطاب وأن يرضي عمر أخاه بذلك. ونعما قال المرتضى، إن بين القتلين فرقاً ظاهراً، وإليه أشار متمم لا محالة.

فأما قول مالك: صاحبك، يعني النبي صلى الله عليه وسلم، فقد روى هذه اللفظة الطبري في التاريخ، قال: كان خالد يعتذر عن قتله، فيقول: إنه قال له وهو يراجع: ما إخال صاحبكم إلا قال كذا وكذا، فقال له خالد: أو ما تعده لك صاحباً، وهذه لعمرى كلمة جافية، وإن كان لها مخرج في التأويل، إلا أنه مستكره، وقرائن الأحوال يعرفها من شاهدها وسمعتها، فإذا كان خالد قد كان يعتذر بذلك، فقد اندفع قول المرتضى: هلا اعتذر بذلك، ولست أنزه خالداً عن الخطأ، وأعلم أنه كان جباراً فاتكاً لا يراقب الدين فيما يحمله عليه الغضب وهوى نفسه، ولقد وقع منه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بني جذيمة بالغميصاء أعظم مما وقع منه في حق مالك بن نويرة، وعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن غضب عليه مدة وأعرض عنه، وذلك العفو هو الذي أطمعه حتى فعل ببني يربوع ما فعل بالبطاح.

الطعن الثامن.

قولهم: إن مما يؤثر في حاله وحال عمر دفنهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته، وقد منع الله تعالى الكل من ذلك في حال حياته، فكيف بعد الممات، بقوله تعالى: "لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم".

أجاب قاضي القضاة بأن الموضع كان ملكاً لعائشة، وهي حجرتها التي كانت معروفة بها، والحجر كلها كانت أملاًكاً لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نطق القرآن بذلك في قوله: "وقرن في بيوتكن"، وذكر أن عمر استأذن عائشة في أن يدفن في ذلك الموضع، وحتى قال: إن لم تأذن لي فادفنوني في البقيع، وعلى هذا الوجه يحمل ما روي عن الحسن رضي الله عنه أنه لما مات أوصى أن يدفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن لم يترك ففي البقيع، فلما كان من مروان وسعيد بن العاص ما كان دفن بالبقيع. وإنما أوصى بذلك بإذن عائشة، ويجوز أن يكون علم من عائشة أنها جعلت الموضع في حكم الوقف، فاستباحوا ذلك لهذا الوجه، قال: وفي دفنه رضي الله عنه في ذلك الموضع ما يدل على فضل أبي بكر، لأنه رضي الله عنه لما مات اختلفوا في موضع دفنه، وكثر القول حتى روى أبو بكر عنه، أنه قال ما يدل على أن الأنبياء إذا ماتوا دفنوا حيث ماتوا، فزال الخلاف في ذلك.

اعترض المرتضى فقال: لا يخلو موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم من أن يكون باقياً على ملكه رضي الله عنه، أو يكون انتقل في حياته إلى عائشة على ما ادعاه، فإن كان الأول لم يخل أن يكون ميراثاً بعده أو صدقة، فإن كان ميراثاً فما كان يخل لأبي بكر ولا لعمر من بعده أن يأمر بدفنهما فيه إلا بعد إرضاء الورثة الذين هم على مذهبنا فاطمة وجماعة الأزواج، وعلى مذهبهم هؤلاء والعباس، ولم نجد واحداً منهما خاطب أحداً من هؤلاء الورثة على ابتياع هذا المكان ولا استنزله عنه بثمان ولا غيره. وإن كان صدقة فقد كان يجب أن يرضي عنه جماعة المسلمين ويبتاعه منهم، هذا إن جاز الابتاع لما يجري هذا المجرى، وإن كان انتقل في حياته فقد كان يجب أن يظهر سبب انتقاله والحجة فيه، فإن فاطمة

رضي الله عنها لم يقنع منها في انتقال فذك إلى ملكها بقولها، ولا بشهادة من شهد. فأما تعلقه بإضافة البيوت إليهن في قوله: "وقرن في بيوتكن"، فمن ضعيف الشبهة، لأننا قد بينا فيما مضى من هذا الكتاب أن هذه الإضافة لا تقتضي الملك، وإنما تقتضي السكنى، والعادة في استعمال هذه اللفظة فيما ذكرناه ظاهرة، قال تعالى: "لا تخرجوهن من بيوتهن"، ولم يرد الله تعالى إلا حيث يسكن ويتزلن دون حيث يملكن وما أشبهه، وأظرف من كل شيء تقدم قوله: إن الحسن رضي الله عنه استأذن عائشة في أن يدفن في البيت حتى منعه مروان وسعيد بن العاص، لأن هذه مكابرة منه ظاهرة، فإن المانع للحسن رضي الله عنه من ذلك لم يكن إلا عائشة، ولعل من ذكره من مروان وسعيد وغيرهما أعانها واتبع في ذلك أمرها، وروي أنها خرجت في ذلك اليوم على بغل حتى قال ابن عباس: يوماً على بغل ويوماً على جمل، فكيف تأذن عائشة في ذلك، وهي مالكة الموضع على قولهم، ويمنع منه مروان وغيره ممن لا ملك له في الموضع ولا شركة ولا يد، وهذا من قبيح ما يرتكب. وأي فضل لأبي بكر في روايته عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث الدفن، وعملهم بقوله إن صح فمن مذهب صاحب الكتاب وأصحابه العمل بخبر الواحد العدل في أحكام الدين العظيمة، فكيف لا يعمل بقول أبي بكر في الدفن وهم يعملون بقول من هو دونه فيما هو أعظم من ذلك.

قلت: أما أبو بكر، فإنه لا يلحقه بدفنه مع الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه ما دفن نفسه، وإنما دفنه الناس وهو ميت، فإن كان ذلك خطأ فالإثم والذم لاحقان بمن فعل به ذلك، ولم يثبت عنه بأنه أوصى أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما قد يمكن أن يتوجه هذا الطعن إلى عمر، لأنه سأل عائشة أن يدفن في الحجرة مع رسول الله وأبي بكر. والقول عندي شبه في أمر حجر الأزواج: هل كانت على ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن توفي، أم ملكها نساؤه، والذي تنطق به التواريخ أنه لما خرج من قباء ودخل المدينة وسكن منزل أبي أيوب، اختط المسجد واختط حجر نسائه وبناته، وهذا يدل على أنه كان المالك للموضع، وأما خروجها عن ملكه إلى الأزواج والبنات فمما لم أقف عليه. ويجوز أن تكون الصحابة فهمت من قرائن الأحوال ومما شاهدوه منه، أنه قد أقر كل بيت منها في يد زوجة من الزوجات على سبيل الهبة والعطية، وإن لم ينقل عنه في ذلك صيغة لفظ معين، والقول في بيت فاطمة، رضي الله عنها كذلك، لأن فاطمة رضي الله عنها لم تكن تملك مالاً، وعلي رضي الله عنه بعلمها كان فقيراً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إنه كان يستقي الماء ليهود بيده، يسقي بساتينهم لقوت يدفعونه إليه، فمن أين كان له ما يبتاع به حجرة يسكن فيها هو وزوجته، والقول في كثير من الزوجات كذلك أنه كن فقيرات مدقعات، نحو صفية بنت حمي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث، وميمونة، وغيرهن، فلا وجه يمكن أن يتملك منه هؤلاء النسوة والبنات الحجر، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما لهن، هذا إن ثبت أنها خرجت عن ملكيته رضي الله عنه، وإلا فهي لاقية على ملكيته باستصحاب الحال. والقول في حجرة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك، لأنه أقدمها من مكة مفارقة لبعلمها أبي العاص بن الربيع، فأسكنها بالمدينة في حجرة منفردة خالية عن بعل، فلا بد أن تكون تلك الحجرة بمقتضى ما يتغلب على الظن ملكاً له، فيستدام الحكم بملكه لها إلى أن نجد دليلاً ينقلنا عن ذلك. وأما رقية وأم كلثوم زوجتا عثمان، فإن كان مثيراً ذا مال فيجوز أن يكون ابتاع حجرة سكنت فيها الأولى منهما، ثم الثانية بعدها.

فأما احتجاج قاضي القضاة بقوله: "وقرن في بيوتكن"، فاعتراض المرتضى عليه قوي، لأن هذه الإضافة إنما تقتضي التخصيص فقط لا التملك، كما قال: لا تخرجوهن من بيوتكن، ويجوز أن يكون أبو بكر لما روى قوله: نحن لا نورث ترك الحجر في أيدي الزوجات والبنات على سبيل الإقطاع لمن لا التملك، أي أباحهن السكنى لا التصرف في رقاب الأرض والأبنية والآلات، لما رأى في ذلك من المصلحة، ولأنه كان من المتهجن القبيح إخراجهن من البيوت، وليس كذلك فذك، فإنها قرية كبيرة ذات نخل كثير خارجة عن المدينة، ولم تكن فاطمة متصرفة فيها من قبل نفسها ولا بوكيلها، ولا رأها قط، فلا تشبه حالها حال الحجر. وأيضاً لإباحة هذه الحجر ونزارة أئمانهن، فإنها كانت مبنية من طين قصيرة الجدران، فلعل أبا بكر والصحابة استحقروها، فأقروا النساء فيها وعوضوا المسلمين عنها بالشيء اليسير مما يقتضي الحساب أن يكون من سهم الأزواج والبنات عند قسمة الفيء.

وأما القول في الحسن وما جرى من عائشة وبني أمية فقد تقدم، وكذلك القول في الخبر المروي في دفن الرسول صلى الله عليه وسلم فكان أبو المظفر هبة الله بن الموسوي صدر المخزن المعمور، كان في أيام الناصر لدين الله إذا حادثته حديث وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواية أبي بكر ما رواه من قوله رضي الله عنه: الأنبياء يدفنون حيث يموتون، يحلف أن أبا بكر افتعل هذا الحديث في الحال والوقت، ليدفن النبي في حجرة ابنته، ثم يدفن هو معه عند موته، علماً أنه لم يبق من عمره إلا مثل ظمء الحمار، وأنه إذا دفن النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة ابنته فإن ابنته تدفنه لا محالة في حجرتها عند بعليها، وأن دفن النبي صلى الله عليه وسلم في موضع آخر فرما لا يتهيأ له أن يدفن عنده، فرأى أن هذا الفوز بهذا الشرف العظيم، وهذا المكان الجليل، مما لا يقتضي حسن التدبير فوته، وأن انتهاز الفرصة فيه واجب، فروى لهم الخبر، فلا يمكنهم بعد روايته ألا يعملوا به، لا سيما وقد صار هو الخليفة، وإليه السلطان والنفع والضرر، وأدرك ما كان في نفسه، ثم نسج عمر على منواله، فرغب إلى عائشة في مثل ذلك، وقد كان يكرمها ويقدمها على سائر الزوجات في العطاء وغيره، فأجابته إلى ذلك، وكان مطاعاً في حياته وبعد مماته، وكان يقول: وأعجباً للحسن وطمعه في أن يدفن في حجرة عائشة، والله لو كان أبوه الخليفة يومئذ لما تهيأ له ذلك، ولا تم لبغض عائشة لهم، وحسد الناس إياهم، وتماؤ بني أمية وغيرهم من قريش عليهم، ولهذا قالوا: يدفن عثمان في حش كوكب، ويدفن الحسن في حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف والخليفة معاوية والأمراء بالمدينة بنو أمية، وعائشة صاحبة الموضع، والناصر لبني هاشم قليل، والشأن كثير.

وأنا أستغفر الله مما كان أبو المظفر يحلف عليه، وأعلم وأظن ظناً شبيهاً بالعلم أن أبا بكر ما روى إلا ما سمع، وأنه كان أتقى الله من ذلك.

الطعن التاسع.

قولهم: إنه نص على عمر بالخلافة، فخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يزعم هو ومن قال لقوله، أن رسول الله لم يستخلف.

والجواب أن كونه لم يستخلف لا يدل على تحريم الاستخلاف، كما أنه من لم يركب الفيل لا يدل على تحريم ركوب الفيل. فإن قالوا: ركوب الفيل فيه منفعة ولا مضرة فيه ولم يرد نص بتحريمه، فوجب أن يحسن قيل لهم: والاستخلاف مصلحة، ولا مضرة فيه، وقد أجمع المسلمون أنه طريق إلى الإمامة، فوجب كونه طريقاً إليها، وقد روي عن عمر أنه قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني، يعني أبا بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما الاجتماع المشار إليه فهو أن الصحابة أجمعوا على أن عمر إمام بنص أبي بكر عليه، وأنفذوا أحكامه، وأنفذوا إليه لأجل نص أبي بكر لا لشيء سواه، فلو لم يكن ذلك طريقاً إلى الإمامة لما أطبقوا عليه. وقد اختلف الشيخان أبو علي وأبو هاشم في أن نص الإمام على إمام بعده، هل يكفي في انعقاد إمامته، فقال أبو علي: لا يكفي، بل لا بد من أن يرضى به أربعة حتى يجري عهده إليه مجرى عقد الواحد برضا أربعة، فإذا قارنه رضا أربعة صار بذلك إماماً، ويقول فيبيعة عمر: إن أبا بكر أحضر جماعة من الصحابة لما نص عليه، ورجع إلى رضاهم بذلك، وقال أبو هاشم: بل يكفي نصه عليه، ولا يراعى في ذلك رضا غيره به، ولو ثبت أن أبا بكر فعله لكان على طريق التبع للنص، لا أنه يؤثر في إمامته مع العهد، ولعل أبا بكر إن كان فعل ذلك فقد استطاب به نفوسهم، ولهذا لم يؤثر فيه كراهية طلحة حين قال: وليت علينا فظاً غليظاً. ويبين ذلك أنه لم ينقل استئناف العقد من الصحابة لعمر بعد موت أبي بكر ولا اجتماع جماعة لعقد البيعة له، والرضا به، فدل على أنهم اكتفوا بعهد أبي بكر إليه.

الطعن العاشر.

قولهم: إنه سمي نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لاستخلافه إياه بعد موته، مع اعترافه أنه لم يستخلفه.

والجواب أن الصحابة سمته خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستخلافه إياه على الصلاة عند موته، والاستخلاف على الصلاة عند الموت له ميزة على الاستخلاف على الصلاة حال الحياة، لأن حال الموت هي الحال التي تكون فيها العهود والوصايا وما يهتم به الإنسان من أمور الدنيا والدين، لأنها حال المفارقة. وأيضاً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استخلف أحداً على الصلاة بالمدينة وهو حاضر، وإنما كان يستخلف على الصلاة قوماً أيام غيبته عن المدينة، فلم يحصل الاستخلاف المطلق على الصلاة بالناس كلهم، وهو صلى الله عليه وسلم حاضر بين الناس حي إلا لأبي بكر، وهذه ميزة ظاهرة على سائر الاستخلافات في أمر الصلاة، فلذلك سموه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد فإذا ثبت أن الإجماع على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة وحجة، وثبت أن قوماً من أفاضل الصحابة اختاروه للخلافة، فقد ثبت أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه لا فرق بين أن ينص الرسول صلى الله عليه وسلم على شخص معين، وبين أن يشير إلى قوم فيقول: من اختار هؤلاء القوم فهو الإمام، في أن كل واحد منهما يصح أن يطلق عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الطعن الحادي عشر.

قولهم: إنه حرق الفجاءة السلمي بالنار، وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم أن يحرق أحد بالنار. والجواب أن الفجاءة جاء إلى أبي بكر كما ذكر أصحاب التواريخ فطلب منه سلاحاً يتقوى به على الجهاد في أهل الردة، فأعطاه فلما خرج قطع الطريق ونهب أموال المسلمين وأهل الردة جميعاً، وقتل كل من وجد، كما فعلت الخوارج حيث خرجت، فلما ظفر به أبو بكر رأى حرقه بالنار إرهاباً لأمثاله من أهل الفساد، ويجوز للإمام أن يخص النص العام بالقياس الجلي عندنا.

الطعن الثاني عشر.

قولهم: إنه تكلم في الصلاة قبل التسليم، فقال: لا يفعلن خالد ما أمرته، قالوا، ولذلك جاز عند أبي حنيفة أن يخرج الإنسان من الصلاة بالكلام وغيره من مفسدات الصلاة من دون تسليم، وبهذا احتج أبو حنيفة. والجواب أن هذا من الأخبار التي تتفرد بها الإمامية، ولم تثبت، وأما أبو حنيفة فلم يذهب إلى ما ذهب إليه لأجل هذا الحديث، وإنما احتج بأن التسليم خطاب آدمي، وليس هو من الصلاة وأذكارها، ولا من أركانها، بل هو ضدها، ولذلك يبطلها قبل التمام، ولذلك لا يسلم المسبوق تبعاً لسلام الإمام، بل يقوم من غير تسليم، فدل على أنه ضد للصلاة وجميع الأضداد بالنسبة إلى رفع الضد على وتيرة واحدة، ولذلك استوى الكل في الإبطال قبل التمام، فيستوي الكل في الانتهاء بعد التمام. وما يذكره القوم من سبب كلام أبي بكر في الصلاة أمر بعيد، ولو كان أبو بكر يريد ذلك لأمر خالداً أن يفعل ذلك الفعل بالشخص المعروف وهو نائم ليلاً في بيته، ولا يعلم أحد من الفاعل.

الطعن الثالث عشر.

قولهم: إنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو على الشام يأمره أن يقتل سعد بن عباد، فكمن له هو وآخر معه ليلاً، فلما مر بهما رمياه فقتلاه، وهتف صاحب خالد في ظلام الليل بعد أن ألقيا سعداً في بئر هناك فيها ماء بيتين:

رج سعد بن عباد

ن فلم تخط فؤاده

نحن قتلنا سيد الخز

ورميناه بسهمي

يوهم أن ذلك شعر الجن، وأن الجن قتلت سعداً، فلما أصبح الناس فقدوا سعداً، وقد سمع قوم منهم ذلك الهاتف فطلبوه، فوجدوه بعد ثلاثة أيام في تلك البئر، وقد اخضر، فقالوا: هذا ميسس الجن، وقال شيطان الطاق لسائل سأله: ما منع علياً أن يخاصم أبا بكر الخلافة؟ فقال: يا بن أخي، خاف أن تقتله الجن. والجواب، أما أنا فلا أعتقد أن الجن قتلت سعداً، ولا أن هذا شعر الجن، ولا أرتاب أن البشر قتلوه، وأن هذا الشعر شعر البشر، ولكن لم يثبت عندي أن أبا بكر أمر خالداً، ولا أستبعد أن يكون فعله من تلقاء نفسه ليرضي بذلك أبا بكر، وحاشاه، فيكون الإثم على خالد، وأبو بكر بريء من إثمه، وما ذلك من أفعال خالد بعيد.

الطعن الرابع عشر.

قولهم: إنه لما استخلف قطع لنفسه على بيت المال أجرة كل يوم ثلاثة دراهم، قالوا: وذلك لا يجوز، لأن مصارف أموال بيت المسلمين لم يذكر فيها أجرة للإمام.

والجواب أنه تعالى جعل في جملة مصرف أموال الصدقات العاملين عليها، وأبو بكر من العاملين. واعلم أن الإمامية لو أنصفت لرأت أن هذا الطعن بأن يكون من مناقب أبي بكر أولى من أن يكون من مساويه ومثالبه، ولكن العصبية لا حيلة فيها.

الطعن الخامس عشر.

قولهم: إنه لما استخلف صرخ مناديه في المدينة: من كان عنده شيء من كلام الله فليأتنا به، فإننا عازمون على جمع القرآن، ولا يأتنا بشيء منه إلا ومعه شاهدا عدل، قالوا: وهذا خطأ، لأن القرآن قد بان بفصاحته عن فصاحة البشر، فأبي حاجة إلى شاهدي عدل.

والجواب، أن المرتضى ومن تابعه من الشيعة لا يصح لهم هذا الطعن، لأن القرآن عندهم ليس معجزاً بفصاحته، على أن من جعل معجزته للفصاحة لم يقل: إن كل آية من القرآن هي معجزة في الفصاحة، وأبو بكر إنما طلب كل آية من القرآن لا السورة بتمامها وكما لها التي يتحقق الإعجاز من طريق الفصاحة فيها. وأيضاً فإنه لو أحضر إنسان آية أو آيتين ولم يكن معه شاهد، فرما تختلف العرب: هل هذه في الفصاحة بالغة مبلغ الإعجاز الكلي، أم هي ثابتة من كلام العرب بشبوته، غير بالغة إلى حد الإعجاز؟ فكان يلتبس الأمر ويقع النزاع، فاستظهر أبو بكر بطلب الشهود تأكيداً، لأنه إذا انضمت الشهادة إلى الفصاحة الظاهرة ثبت أن ذلك الكلام من القرآن.

الأصل: ومن هذا الكتاب: إني والله لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلها ما باليت ولا استوحشت، وإني من ضلالهم الذي هم فيه، والهدى الذي أنا عليه، لعل بصيرة من نفسي، ويقين من ربي. وإني إلى لقاء الله لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر راج، ولكنني آسى أن يلي هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفساقين حزباً، فإن منهم الذي شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام. وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ، فلولا ذلك ما أكثرت تألييكم وتأنبيكم، وجمعكم وتحريضكم، ولتركتكم إذ أبيتم وونيتم. ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقصت، وإلى أمصاركم قد افتتحت، وإلى ممالككم تزوى، وإلى بلادكم تغزى. انفروا رحكم الله إلى قتال عدوكم، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف، وتبوءوا بالذل، ويكون نصيبكم الأخس، وإن أخوا الحرب الأرق ومن نام لم ينم عنه، والسلام.

الشرح: طلاع الأرض: ملؤها، ومنه قول عمر: لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطلاع. وآسى: أحزن.

وأكثر تألييكم، تحريضكم وإغراءكم به. والتأنيب: أشد اللوم. وونيتم: ضعفتم وفترتم. وممالككم تزوى، أي تقبض.

ولا تثاقلوا، بالتشديد، أصله تثاقلوا. وتقرؤا بالخسف: تعترفوا بالضعف وتصبروا له. وتبوءوا بالذل: ترجعوا به. والأرق: الذي لا ينام. ومثل قوله رضي الله عنه: من نام لم ينم عنه قول الشاعر:

حران ليس عن الترات براقد

الله درك ما أردت بثائر

حنقاً عليك وكيف نوم الحاقد

أسهرته ثم اضطجعت ولم ينم

فأما الذي رضخت له على الإسلام الرضائخ، فمعاوية، والرضيخة: شيء قليل يعطاه الإنسان يصانع به عن شيء يطلب منه كالأجر، وذلك لأنه من المؤلفة قلوبهم الذين رغبوا في الإسلام والطاعة بحمال وشاء دفعت إليهم، وهم قوم معروفون كمعاوية وأخيه يزيد، وأبيهما أبي سفيان، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام بن المغيرة، وحويطب بن عبد العزى، والأحنس بن شريق، وصفوان بن أمية، وعمير بن وهب الجهمي، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعباس بن مرداس وغيرهم. وكان إسلام هؤلاء للطمع والأغراض الدنيوية، ولم يكن عن أصل ولا عن يقين وعلم.

وقال الراوندي: عني بقوله: رضخت لهم الرضائخ، عمرو بن العاص، وليس بصحيح، لأن عمراً لم يسلم بعد الفتح، وأصحاب الرضائخ كلهم أسلموا بعد الفتح، صونعوا على الإسلام بغنائم حنين. ولعمري إن إسلام عمرو كان مدخولاً أيضاً، إلا أنه لم يكن عن رضيخة، وإنما كان لمعنى آخر. فأما الذي شرب الحرام، وجلد في حد الإسلام، فقد قال الراوندي: هو المغيرة بن شعبه، وأخطأ فيما قال، لأن المغيرة إنما اتهم بالزنا ولم يحد ولم يجر للمغيرة ذكر في شرب الخمر، وقد تقدم خبر المغيرة مستوفى، وأيضاً فإن المغيرة لم يشهد صفين مع معاوية ولا مع علي رضي الله عنه، له وما للراوندي ولهذا، إنما يعرف هذا الفن أربائه. والذي عناه علي رضي الله عنه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان أشد الناس عليه وأبلغهم تحريضاً لمعاوية وأهل الشام على حربه.

أخبار الوليد بن عقبة.

ونحن نذكر خبر الوليد وشربه الخمر منقولاً من كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، قال أبو الفرج: كان سبب إمارة الوليد بن عقبة الكوفة لعثمان ما حدثني به أحمد بن عبد العزيز الجوهرى، قال: حدثنا عمر بن شبة، قال: حدثني عبد العزيز بن محمد بن حكيم، عن خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد، عن أبيه، قال: لم يكن يجلس مع عثمان على سريرته إلا العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن حرب، والحكم بن أبي العاص، والوليد بن عقبة، ولم يكن سريرته يسع إلا عثمان وواحداً منهم، فأقبل الوليد يوماً فجلس، فجاء الحكم بن أبي العاص فأومأ عثمان إلى الوليد، فزحل له عن مجلسه، فلما قام الحكم قال الوليد: والله يا أمير المؤمنين رضي الله عنه لقد تلجلج في صدري بيتان قلتها حين رأيتك آثرت ابن عمك على ابن أمك، وكان الحكم عم عثمان، والوليد أخاه لأمه، فقال عثمان: إن الحكم شيخ قريش، فما البيتان، فقال:

دوين أخيه حادثاً لم يكن قدما

رأيت لعم المرء زلفى قرابة

فأملت عمراً أن يشب وخالداً

لكي يدعواني يوم نائبة عما

يعني عمراً وخالداً ابني عثمان. قال: فرق له عثمان وقال: قد وليتك الكوفة، فأخرجه إليها. قال أبو الفرج: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز، قال: حدثني عمر بن شبة، قال: حدثني بعض أصحابنا، عن ابن دأب قال: لما ولي عثمان الوليد بن عقبة الكوفة قدمها وعليها سعد بن أبي وقاص، فأخبر بقدمه ولم يعلم أنه قد أمر، فقال: وما صنع، قالوا: وقف في السوق فهو يحدث الناس هناك، ولسنا ننكر شيئاً من أمره، فلم يلبث أن جاءه نصف النهار، فاستأذن على سعد، فأذن له، فسلم عليه بالإمرة، وجلس معه، فقال، له سعد: ما أقدمك يا أبا وهب، قال: أحببت زيارتك، قال: وعلى ذاك، أحتت بريدًا؟ قال: أنا أرزن من ذلك، ولكن القوم احتاجوا إلى عملهم فسرحتني إليه، وقد استعملني أمير المؤمنين رضي الله عنه على الكوفة. فسكت سعد طويلاً، ثم قال: لا والله ما أدري أصلحت بعدنا أم فسدنا بعدك، ثم قال:

كليني وجريني ضباع وأبشري

بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره

فقال الوليد: أما والله لأننا أقول للشعر منك، وأروى له، ولو شئت لأجبتك، ولكني أدع ذاك لما تعلم. نعم والله لقد أمرت بحاسبتك، والنظر في أمر عمالك. ثم بعث إلى عمال سعد فحبسهم وضيق عليهم، فكتبوا إلى سعد يستغيثون به، فكلمه فيهم فقال له: أو للمعروف عندك موضع؟ قال: نعم، فخلى سبيلهم. قال أحمد: وحدثني عمر، عن أبي بكر الباهلي، عن هشيم، عن العوام بن حوشب. قال: لما قدم الوليد على سعد قال له سعد: والله ما أدري كست بعدنا أم حمقنا بعدك، فقال: لا تجزعن يا أبا إسحاق، فإنه الملك يتغداه قوم ويتعشاها آخرون. فقال سعد: أراكم والله ستجعلونه ملكاً. قال أبو الفرج. وحدثنا أحمد قال. حدثني عمر قال: حدثني هارون بن معروف، عن ضمرة بن ربيعة، عن ابن شوذب قال: صلى الوليد بأهل الكوفة الغداة أربع ركعات، ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟ فقال عبد الله بن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم. قال أبو الفرج: وحدثني أحمد قال: حدثنا عمر، قال: حدثنا محمد بن حميد، قال. حدثنا جرير، عن الأجلح، عن الشعبي قال: قال الحطيئة يذكر الوليد:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه

أن الوليد أحق بالغدر

أزديكم، كسكراً، ولم يدر

لقرنت بين الشفع والوتر

تركوا عنانك لم تنزل تجري

نادى وقد تمت صلاتهم

فأبوا أبا وهب ولو أذنوا

كفوا عنانك إذ جريت ولو

وقال الحطيئة أيضاً:

تكلم في الصلاة وزاد فيها

علانية وأعلن بالنفاق

ومج الخمر في سنن المصلى

ونادى والجميع إلى افتراق

أزيدكم على أن تحمدوني

فما لكم ومالي من خلاق

قال أبو الفرج: وأخبرنا محمد بن خلف وكيع قال: حدثنا حماد بن إسحاق، قال: حدثني أبي قال: قال أبو عبيدة وهشام بن الكلبي والأصمعي: كان الوليد زانياً يشرب الخمر، فشرّب بالكوفة وقام ليصلي بهم الصبح في المسجد الجامع، فصلّى بهم أربع ركعات ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم، وتقياً في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته في الصلاة:

علق القلب الربابا

بعد ما شابت وشابا

فشخص أهل الكوفة إلى عثمان فأخبروه بخبره، وشهدوا عليه بشرب الخمر، فأتي به، فأمر رجلاً من المسلمين أن يضربه الحد، فلما دنا منه قال: نشدتك الله وقرابتي من أمير المؤمنين، فتركه، فخاف علي بن أبي طالب أن يعطل الحد، فقام إليه فحده بيده، فقال الوليد: نشدتك الله والقرابة، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه، اسكت أبا وهب، فإنما هلك بنو إسرائيل لتعطيلهم الحدود، فلما ضربه وفرغ منه قال: لتدعوني قريش بعدها جلاداً. قال إسحاق: وحدثني مصعب بن الزبير قال: قال الوليد بعد ما شهدوا عليه فجلد: اللهم إنهم قد شهدوا علي بزور، فلا ترضهم عن أمير، ولا ترض عنهم أميراً، قال: وقد عكس الخطيئة أبياته فجعلها مدحاً للوليد:

شهد الخطيئة حين يلقي ربه

أن الوليد أحق بالعذر

كفوا عنانك إذ جريت ولو

تركوا عنانك لم تزل تجري

ورأوا شمائل ماجد أنف

يعطي على الميسور والعسر

فنزعت مكذوباً عليك ولم

تنزع على طمع ولاذعر

قال أبو الفرج: ونسخت من كتاب هارون بن الرباب بخطه، عن عمر بن شبة، قال: شهد رجل عند أبي العجاج وكان على قضاء البصرة، على رجل من المعيطيين بشهادة، وكان الشاهد سكران، فقال، المشهود عليه، وهو المعيطي: أعزك الله أيها القاضي، إنه لا يحسن من السكر أن يقرأ شيئاً من القرآن، فقال الشاهد: بلى أحسن، قال: فاقرأ، فقال:

علق القلب الربابا

بعد ما شابت وشابا

يمجن بذلك، ويحكي ما قاله الوليد في الصلاة، وكان أبو العجاج أحق، فظن أن هذا الكلام من القرآن، فجعل يقول: صدق الله ورسوله، ويلكم، كم تعلمون ولا تعملون.

قال أبو الفرج: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز، قال: حدثنا عمر بن شبة، عن المدائني، عن مبارك بن سلام، عن فطر بن خليفة، عن أبي الضحى، قال: كان ناس من أهل الكوفة يتطلبون عثرة الوليد بن عقبة، منهم أبو زينب الأزدي، وأبو مورع، فجاء يوماً ولم يحضر الوليد الصلاة، فسأله عنه، فتلطفاً حتى علما أنه يشرب، فاقتحما الدار فوجداه يقيء، فاحتملاه وهو سكران حتى وضعاه على سريره، وأخذوا خاتمه من يده، فأفاق، فاقتقد خاتمه، فسأل عنه أهله، فقالوا: لا ندري، وقد رأينا رجلين دخلا عليك فاحتملاك فوضعاك على سريرك. فقال: صفوهما لي، فقالوا: أحدهما آدم طويل حسن الوجه، والآخر عريض مربوع عليه خميصة، فقال: هذا أبو زينب، وهذا أبو مورع.

قال: ولقي أبو زينب وصاحبه عبد الله بن حبيش الأسدي وعلقمة بن يزيد البكري وغيرهما، فأخبروهم، فقالوا: اشخصوا إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه فأعلموه، وقال بعضهم: إنه لا يقبل قولكم في أخيه، فشخصوا إليه، فقالوا: إنا جئناك في أمر، ونحن مخرجوه إليك من أعناقنا، وقد قيل: إنك لا تقبله، قال: وما هو؟ قالوا: رأينا الوليد وهو سكران من خمر شربها، وهذا خاتمه أخذناه من يده وهو لا يعقل. فأرسل عثمان إلى علي رضي الله عنه فأخبره، فقال: أرى أن تشخصه، فإذا شهدوا عليه بمحضر منه حددته. فكتب عثمان إلى الوليد. فقدم عليه، فشهد عليه أبو زينب وأبو مورم وجندب الأزدي وسعد بن مالك الأشعري، فقال عثمان لعلي رضي الله عنه: قم يا أبا الحسن فاجلده، فقال علي رضي الله عنه للحسن ابنه: قم فاضربه، فقال الحسن: مالك ولهذا، يكفيك غيرك، فقال علي لعبد الله بن جعفر: قم فاضربه، فضربه بمخضرة فيها سير له رأسان، فلما بلغ أربعين قال: حسبك.

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد قال: حدثنا عمر قال: حدثني المدائني عن الوقاصي، عن الزهري قال: خرج رهط من أهل الكوفة إلى عثمان في أمر الوليد، فقال: أكلما غضب رجل على أميره رماه بالباطل، لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم، فاستجاروا بعائشة، وأصبح عثمان فسمع من حجرهما صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة، فقال: أما يجد فساق العراق ومراقها ملجأ إلا بيت عائشة، فسمعت، فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: تركت سنة صاحب هذا النعل، وتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد، فمن قائل: قد أحسنت، ومن قائل: ما للنساء ولهذا، حتى تخاصموا وتضاربوا بالنعال، ودخل رهط من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان فقالوا له: اتق الله ولا تعطل الحدود، واعزل أخاك عنهم، ففعل.

قال أبو الفرج: حدثنا أحمد قال: حدثني عمر، عن المدائني، عن أبي محمد الناجي، عن مطر الوراق، قال: قدم رجل من أهل الكوفة إلى المدينة فقال لعثمان: إني صليت صلاة الغداة خلف الوليد، فالتفت في الصلاة إلى الناس، فقال: أأزيدكم، فإني أجد اليوم نشاطاً؟ وشمنا منه رائحة الخمر، فضرب عثمان الرجل، فقال الناس: عطلت الحدود، وضربت الشهود. قال أبو الفرج: وحدثنا أحمد، قال: حدثنا عمر قال: حدثنا أبو بكر الباهلي، عن بعض، من حدثه قال: لما شهد على الوليد عند عثمان بشرب الخمر كتب إليه يأمره بالشخص، فخرج وخرج معه قوم يعذرونه، منهم عدي بن حاتم الطائي، فتزل الوليد يوماً يسوق بهم، فارتجز وقال:

والنشوات من معتق صاف

لاتحسبنا قد نسينا الأحقاف

وعزف قينات علينا عزاف

فقال عدي: فأين تذهب بنا إذن، فأقم.

قال أبو الفرج: وقد روى أحمد عن عمر، عن رجاله، عن الشعبي، عن جندب الأزدي قال: كنت فيمن شهد على الوليد عند عثمان، فلما استتمنا عليه الشهادة حبسه عثمان. ثم ذكر باقي الخبر وضرب علي رضي الله عنه إياه، وقول الحسن ابنه: مالك ولهذا، وزاد فيه، وقال علي رضي الله عنه: لست إذن مسلماً، أو قال: من المسلمين.

قال أبو الفرج: وأخبرني أحمد، عن عمر عن رجاله، أن الشهادة لما تمت قال عثمان لعلي رضي الله عنه: دونك ابن عمك فأقم عليه الحد. فأمر علي رضي الله عنه ابنه الحسن رضي الله عنه، فلم يفعل، فقال: يكفيك غيرك، فقال علي رضي الله عنه: بل ضعفت ووهنت وعجزت، قم يا عبد الله بن جعفر فاجلده، فقام فجلده، وعلي رضي الله عنه، يعد حتى بلغ أربعين، فقال له علي رضي الله عنه: أمسك حسبك، جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وكملها عمر ثمانين، وكل سنة.

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد، عن عمر، عن عبد الله بن محمد بن حكيم، عن خالد بن سعيد، قال: وأخبرني بذلك أيضاً إبراهيم بن محمد بن أيوب، عن عبد الله بن مسلم، قالوا جميعاً: لما ضرب عثمان الوليد الحد، قال: إنك لتضربني اليوم بشهادة قوم ليقتلنك عاماً قابلاً.

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد بن عبد العزيز الجوهري، عن عمر بن شبة، عن عبد الله بن محمد بن حكيم، عن خالد بن سعيد. وأخبرني أيضاً إبراهيم، عن عبد الله، قالوا جميعاً: كان أبو زبيد الطائي نديماً للوليد بن عقبة أيام ولايته الكوفة، فلما شهدوا عليه بالسكر من الخمر خرج عن الكوفة معزولاً، فقال أبو زبيد يتذكر أيامه وندامته:

من يرى العير لابن أروى على ظه	ر المرورى حداتهن عجال
ناعجات والبيت بيت أبي وه	ب خلاء تحن فيه الشمال
يعرف الجاهل المضلل أن الده	ر فيه النكراء والزلال
ليت شعري كذاكم العهد أم كا	نوا أناساً كمن يزول فزالوا
بعدما تعلمين يا أم عمرو	كان فيهم عز لنا وجمال
ووجوه تودنا مشرقات	ونوال إذا أريد النوال
أصبح البيت قد تبدل	بالحي وجوها كأنها الأقبال
كل شيء يحتال فيه الرجال	غير أن ليس للمنايا احتيال
ولعمر الإله لو كان للسي	ف مضاء ولللسان مقال
ما تناسيتك الصفاء ولا	الود ولا حال دونك الإشغال
ولحرمت لحمك المتعضي	ضلة ضل حلمهم ما اغتالوا
قولهم شربك الحرام وقد كا	ن شراب سوى الحرام حلال
وأبى ظاهر العداوة والشن	أن إلا مقال ما لا يقال
من رجال تقارضوا منكرات	لينالوا الذي أرادوا فنالوا
غير ماطالبين ذحلاً ولكن	مال دهر على أناس فمالوا
من يخنك الصفاء أويتبدل	أويزل مثل ما يزول الظلال

فاعلمن أنني أخوك أخو ال

ود حياتي حتى تزول الجبال

ليس بخلي عليك يوماً بمال

أبدًا ما أقل نعلًا قبال

ولك النصر باللسان وبالك

ف إذا كان لليدين مصال

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد قال: حدثني عمر قال: لما قدم الوليد بن عقبة الكوفة قدم عليه أبو زبيد فأنزله دار عقيل بن أبي طالب على باب المسجد، وهي التي تعرف بدار القبطي، فكان مما احتج به عليه أهل الكوفة أن أبا زبيد كان يخرج إليه من داره وهو نصراني يخترق المسجد فيجعله طريقاً.

قال أبو الفرج: وأخبرني محمد بن العباس اليزيدي قال: حدثني عمي عبيد الله، عن ابن حبيب عن ابن الأعرابي، أن أبا زبيد وفد على الوليد حين استعمله عثمان على الكوفة، فأنزله الوليد دار عقيل بن أبي طالب عند باب المسجد، واستوهبها منه، فوهبها له، فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة، لأن أبا زبيد كان يخرج من داره حتى يشق المسجد إلى الوليد فيسمر عنده، ويشرب معه، ويخرج فيشق المسجد وهو سكران، فذاك نبههم عليه.

قال: وقد كان عثمان ولى الوليد صدقات بني تغلب، فبلغه عنه شعر فيه خلاعة، فعزله . قال: فلما ولاه الكوفة اختص أبا زبيد الطائي وقربه، ومدحه أبو زبيد بشعر كثير، وقد كان الوليد يستعمل الربيع بن مري بن أوس بن حارثة بن لأم الطائي على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة، فأجذبت الجزيرة، وكان أبو زبيد في بني تغلب نازلاً، فخرج بإبلهم ليرعيهم، فأبى عليهم الربيع بن مري ومنعهم، وقال لأبي زبيد: إن شئت أروعك وحدك فعلت، فأتى أبو زبيد إلى الوليد فشكاه، فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام، إلى القصور الحمر من الحيرة، وجعلها له حمى، وأخذها من الربيع بن مري، فقال أبو زبيد بمدح الوليد، والشعر يدل على أن الحمى كان بيد مري بن أوس، لا بيد الربيع ابنه، وهكذا هو في رواية عمر بن شبة:

لعمر أبليك يابن أبي مري

لغيرك من أباح لنا الديارا

أباح لنا أبارق ذات قور

ونرعى القف منها والقفارا

بحمد الله ثم فتى قریش

أبي وهب غدت بدنا غزارا

أباح لنا ولانحمي عليكم

إذا ما كنتم سنةً جزارا

قال: يقول، إذا أجذبتهم فإننا لا نحميها عليكم، وإذا كنتم أساتم وحميتموها علينا.

فتى طالت يداه إلى المعالي

وطحطحت المجذمة القصارا

قال: ومن شعر أبي زبيد فيه يذكر نصره له على مري بن أوس بن حارثة:

يا ليت شعري بأنباء أنبؤها

قد كان يعنى بها صدري وتقديري

عن امرئ مايزده الله من شرف

أفرح به ومري غير مسرور

إن الوليد له عندي وحق ل
لقد دعاني وأدنانني وأظهرني
وشذب القوم عني غير مكترث
نفسي فداء أبي وهب وقل له
ود الخليل ونصح غير مذخور
على الأعادي بنصر غير تغرير
حتى تنأهوا على رغم وتصغير
يا أم عمرو فحلي اليوم أو سيري

وقال أبو زبيد يمدح الوليد ويتألم لفراقه حين عزل عن الكوفة:

لعمري لئن أمسى الوليد ببلدة
خلا أن رزق الله غاد ورائح
وكان هو الحصن الذي ليس مسلمي
إذا صادفوا دوني الوليد فإنما
سواي لقد أمسيت للدهر معورا
وإني له راج وإن سار أشهراً
إذا أنا بالذكراء هيجت معشراً
يرون بوادي ذي حماس مزعفراً

وهي طويلة يصف فيها الأسد .

قال أبو الفرج: وحدثنا أحمد بن عبد العزيز قال: حدثنا عمر عن رجاله، عن الوليد قال: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم، فيدعو لهم بالبركة، ويمسح يده على رؤوسهم، فجيء بي إليه وأنا مخلوق، فلم يمسي، وما منعه إلا أن أمني خلقتني بخلق، فلم يمسي من أجل الخلق.

قال أبو الفرج: وحدثني إسحاق بن بنان الأنماطي، عن حنيش بن ميسر، عن عبد الله بن موسى، عن أبي ليلى، عن الحكم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أحد منك سنناً، وأبسط منك لساناً، وأملأ للكتيبة، فقال علي رضي الله عنه: اسكت يا فاسق، فترل القرآن فيهما: "أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون".

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد بن عبد العزيز، عن عمر بن شبة، عن محمد بن حاتم، عن يونس بن عمر، عن شيبان، عن يونس، عن قتادة في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ، فتبينوا". قال: هو الوليد بن عقبة، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مصداً إلى بني المصطلق، فلما رأوه أقبلوا نحوه، فهاهم، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: إنهم ارتدوا عن الإسلام، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، فعلم علمهم، وأمره أن يتثبت، وقال له: انطلق ولا تعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً، وأنفذ عيونهم نحوه، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمع أذانهم وصلاتهم، فلما أصبح أتاهم فرأى ما يعجبه، فرجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره فترلت هذه الآية.

قلت: قد لمح ابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في هذا الموضع نكتة حسنة، فقال في حديث الخلق: هذا حديث مضطرب منكر، لا يصح، وليس يمكن أن يكون من بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مصداً صبيّاً يوم الفتح، قال: ويدل أيضاً على فساده أن الزبير بن بكار وغيره من أهل العلم بالسير والأخبار ذكروا أن الوليد وأخاه عمارة ابني عقبة بن أبي معيط خرجا من مكة ليردا أختيهما أم كلثوم عن الهجرة، وكانت هجرتهما في الهدنة التي بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة، ومن كان غلاماً مخلقاً بالخلق يوم الفتح ليس يجيء منه مثل هذا. قال: ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل

القرآن أن قوله عز وجل: "إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" أنزلت في الوليد لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقاً، فكذب على بني المصطلق وقال: إنهم ارتدوا وامتنعوا من أداء الصدقة. قال أبو عمر: وفيه وفي علي رضي الله عنه نزل: "أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون"، في قصتهما المشهورة. قال: ومن كان صبيّاً يوم الفتح لا يجيء منه مثل هذا، فوجب أن ينظر في حديث الخلق، فإنه رواية جعفر بن برقان، عن ثابت، عن الحجاج، عن أبي موسى الهمداني، وأبو موسى مجهول لا يصح حديثه.

ثم نعود إلى كتاب أبي الفرج الأصبهاني، قال أبو الفرج: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز، عن عمر بن شبة، عن عبد الله بن موسى، عن نعيم بن حكيم، عن أبي مريم، عن علي رضي الله عنه، أن امرأة الوليد بن عقبة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تشتكي إليه الوليد، وقالت: إنه يضرهما، فقال لها: أرجعي إليه وقولي له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجارني، فانطلقت، فمكثت ساعة، ثم رجعت فقالت: إنه ما أفلح عني، فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم هدبة من ثوبه وقال: اذهبي بها إليه وقولي له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجارني، فانطلقت فمكثت ساعة ثم رجعت فقالت: ما زادني إلا ضرباً، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم قال: "اللهم عليك بالوليد" مرتين أو ثلاثاً. قال أبو الفرج: واختص الوليد لما كان والياً بالكوفة ساحراً كاد يفتن الناس، كان يريه كتيبتيْن تقتتلان فتحمل إحدهما على الأخرى فتتهزمها، ثم يقول له أيسرك أن أريك المنهزمة تغلب الغالبة فتتهزمها، فيقول: نعم، فجاء جندب الأزدي مشتملاً على سيفه، فقال: أفرجوا لي، فأفرجوا فضربه حتى قتله، فحبسه الوليد قليلاً ثم تركه. قال أبو الفرج: وروى أحمد بن عمر، عن رجاله، أن جندباً لما قتل الساحر حبسه الوليد، فقال له دينار بن دينار: فيم حبست هذا، وقد قتل من أعلن بالسحر في دين محمد صلى الله عليه وسلم، ثم مضى إليه فأخرجه من الحبس، فأرسل الوليد إلى دينار بن دينار فقتله.

قال أبو الفرج: حدثني عمي الحسن بن محمد قال: حدثني الخراز، عن المدائني، عن علي بن مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن الزهري وغيره، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن غزاة بني المصطلق نزل رجل من المسلمين فساق بالقوم ورجز، ثم آخر فساق بهم ورجز، ثم بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يواسي أصحابه، فتل فساق بهم ورجز، وجعل يقول فيما يقول:

والأقطع زيد الخير

جندب وما جندب

فدنا منه أصحابه فقالوا: يا رسول الله، ما ينفعنا سيرنا مخافة أن تنهشك دابة، أو تصيبك نكبة. فركب ودنوا منه وقالوا: قلت قولاً لا ندري ما هو، قال: وما ذاك، قالوا: كنت تقول: جندب وما جندب، والأقطع زيد الخير. فقال: رجالان يكونان في هذه الأمة يضرب أحدهما ضربة يفرق بين الحق والباطل، وتقطع يد الآخر في سبيل الله، ثم يتبع الله آخر جسده بأوله، وكان زيد، هو زيد بن صوحان، وقطعت يده في سبيل الله يوم جلواء، وقتل يوم الجمل مع علي

بن أبي طالب رضي الله عنه، وأما جندب هذا فدخل على الوليد بن عقبة وعنده ساحر يقال له: أبو شيبان، يأخذ أعين الناس، فيخرج مصارين بطنهم ثم يردّها، فجاء من خلفه فضربه فقتله، وقال:

العن وليداً وأبا شيبان وابن حبّيش راكب الشيطان

رسول فرعون إلى هامان

قال أبو الفرج: وقد روي أن هذا الساحر كان يدخل عند الوليد في جوف بقرة حية، ثم يخرج منها، فرآه جندب فذهب إلى بيته، فاشتمل على سيف، فلما دخل الساحر في البقرة قال جندب: "أفتاتون السحر وأنتم تبصرون"، ثم ضرب وسط البقرة فقطعها وقطع الساحر معها، فذعر الناس، فسجنه الوليد، وكتب بأمره إلى عثمان.

قال أبو الفرج: فروى أحمد بن عبد العزيز، عن حجاج بن نصير، عن قرّة، عن محمد بن سيرين، قال: انطلق بجندب بن كعب الأزدي قاتل الساحر بالكوفة إلى السجن، وعلى السجن رجل نصراني من قبل الوليد، وكان يرى جندب بن كعب يقوم بالليل ويصبح صائماً، فوكل بالسجن رجلاً، ثم خرج فسأل الناس عن أفضل أهل الكوفة، فقالوا: الأشعث بن قيس، فاستضافه، فجعل يراه ينام الليل ثم يصبح فيدعو بغدائه، فخرج من عنده وسأل: أي أهل الكوفة أفضل، قالوا: جرير بن عبد الله، فذهب إليه فوجده ينام الليل ثم يصبح فيدعو بغدائه، فاستقبل القبلة، وقال: ربي رب جندب، وديني دين جندب. ثم أسلم.

قال أبو الفرج: فلما نزع عثمان الوليد عن الكوفة أمر عليها سعيد بن العاص، فلما قدمها قال: اغسلوا هذا المنبر، فإن الوليد كان رجلاً نجساً، فلم يصعده حتى غسل. قال أبو الفرج: وكان الوليد أسن من سعيد بن العاص، وأسخى نفساً، وألين جانباً، وأرضى عندهم، فقال بعض شعرائهم:

وجاءنا من بعده سعيد ينقص في الصاع ولا يزيد

وقال آخر منهم:

فررت من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ فزعوا فباروا

يلينا من قریش كل عام أمير محدث أو مستشار

لنا نار تحرقنا فنخشى وليس لهم ولا يخشون نار

قال أبو الفرج: وحدثنا أحمد، قال: حدثنا عمر، عن المدائني، قال: قدم الوليد بن عقبة الكوفة في أيام معاوية زائراً للمغيرة بن شعبة، فأتاه أشراف الكوفة فسلموا عليه. وقالوا: والله ما رأينا بعدك مثلك، فقال: أخيراً أم شراً، قالوا: بل خيراً، قال: ولكني ما رأيت بعدكم شراً منكم. فأعادوا الثناء عليه، فقال: بعض ما تأتون به، فو الله إن بغضكم لتلف، وإن حبكم لصلف.

قال أبو الفرج: وروى عمر بن شبة، أن قبيصة بن جابر كان ممن كثر على الوليد، فقال معاوية يوماً والوليد وقبيصة عنده: يا قبيصة، ما كان شأنك وشأن الوليد، قال: خير يا أمير المؤمنين، إنه في أول الأمر وصل الرحم، وأحسن الكلام، فلا تسأل عن شكر وحسن ثناء، ثم غضب على الناس وغضبوا عليه، وكنا معهم، فإما ظالمون فنستغفر الله، وإما

مظلومون فيغفر الله له، فخذ في غير هذا يا أمير المؤمنين، فإن الحديث ينسي القديم. قال معاوية: ما أعلمه إلا قد أحسن السيرة، وبسط الخير، وقبض الشر. قال: فأنت يا أمير المؤمنين رضي الله عنه اليوم أقدر على ذلك فافعله، فقال: اسكت لا سكت، فسكت وسكت القوم، فقال معاوية بعد يسير: مالك لا تتكلم يا قبيصة، قال: نهيتني عما كنت أحب فسكت عما لا أحب.

قال أبو الفرج: ومات الوليد بن عقبة فويق الرقة، ومات أبو زبيد هناك، فدفنا جميعاً في موضع واحد، فقال في ذلك أشجع السلمي وقد مر بقبريهما:

وقد لاحت ببلقعة صلود

فنادم قبره قبر الوليد

بحمزة أم بأشجع أم يزيد

مررت على عظام أبي زبيد

فكان له الوليد نديم صدق

وما أدري بمن تبدو المنايا

قيل: هم إخوانه، وقيل: ندماءه.

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد بن عبد العزيز، عن محمد بن زكريا الغلابي، عن عبد الله بن الضحاك، عن هشام بن محمد، عن أبيه، قال: وفد الوليد بن عقبة، وكان جواداً، إلى معاوية، فقبل له: هذا الوليد بن عقبة بالباب، فقال: والله ليرجعن مغيضاً غير معطى، فإنه الآن قد أتانا يقول: علي دين وعلي كذا، ائذن له، فأذن له، فسأله وتحدث معه، ثم قال له معاوية: أما والله إن كنا لنحب إتيان مالك بالوادي، ولقد كان يعجب أمير المؤمنين، فإن رأيت أن تحبه ليزيد فافعل، قال: هو ليزيد، ثم خرج وجعل يختلف إلى معاوية، فقال له يوماً: انظر يا أمير المؤمنين رضي الله عنه في شأني، فإن علي مؤونة، وقد أرهقني دين، فقال له: ألا تستحي لنفسك وحسبك، تأخذ ما تأخذه فتبذره، ثم لا تنفك تشكو ديناً، فقال الوليد: أفعل، ثم انطلق من مكانه، فسارع إلى الجزيرة، وقال يخاطب معاوية:

وإذا سألت تقول: هات

تروي وأنت على الفرات

أو ترك لا حتى الممات

فإذا سئلت تقول: لا

تأبى فعال الخير لا

أفلا تميل إلى نعم

وبلغ معاوية شخوصه إلى الجزيرة فخافه، وكتب إليه: أقبل، فكتب:

فأعط سواي ما بدا لك وابلخ

إذا نابني أمر كسلة منصل

وليس شبا قفل علي بمقفل

أعف وأستعفي كما قد أمرتني

سأحدو ركابي عنك إن عزيمتي

وإني امرؤ للنأي مني تطرب

ثم رحل إلى الحجاز، فبعث إليه معاوية بجائزة.

وأما أبو عمر بن عبد البر فإنه ذكر في الاستيعاب في باب الوليد، قال: إن له أخباراً فيها شناعة تقطع على سوء حاله، وقبح أفعاله، غفر الله لنا وله، فلقد كان من رجال قریش ظرفاً وحلماً وشجاعةً وجوداً وأدباً، وكان من الشعراء المطبوعين. قال: وكان الأصمعي وأبو عبيدة وابن الكلبي وغيرهم يقولون: إنه كان فاسقاً شريب خمر، وكان شاعراً

كريمًا. قال: وأخبره في شربه الخمر ومنادمته أبا زيد الطائي كثيرة مشهورة، ويسمح بنا ذكرها، ولكننا نذكر منها طرفاً. ثم ذكر ما ذكره أبو الفرج في الأغاني، وقال: إن خبر الصلاة وهو سكران، وقوله: أأزيدكم؟ خبر مشهور روته الثقات من نقلة الحديث.

قال أبو عمر بن عبد البر: وقد ذكر الطبري في رواية أنه تغضب عليه قوم من أهل الكوفة حسداً وبغياً، وشهدوا عليه بشرب الخمر، وقال: إن عثمان قال له: يا أخي اصبر، فإن الله يأجرك ويؤم القوم بإثمك. قال أبو عمر: هذا الحديث لا يصح عند أهل الأخبار ونقله الحديث، ولا له عند أهل العلم أصل، والصحيح ثبوت الشهادة عليه عند عثمان، وجلده الحد، وأن علياً هو الذي جلده. قال: ولم يجلده بيده، وإنما أمر بجلده، فنسب الجلد إليه.

قال أبو عمر: ولم يرو الوليد من السنة ما يحتاج فيها إليه، ولكن حارثة بن مضرب روى عنه أنه قال: ما كانت نبوة إلا كان بعدها ملك.

وكتب إلى أبي موسى الأشعري وهو عامله على الكوفة

وقد بلغه عنه تشبیهه الناس عن الخروج إليه لما نديهم لحرب أصحاب الجمل. الأصل: من عبد الله علي أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى عبد الله بن قيس: أما بعد، فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك، فإذا قدم عليك رسولي فارفع ذيلك، واشدد مئزرك، واخرج من جحرك، وانذب من معك، فإن حققت فانفذ، وإن تفشلت فابعد، وأيم الله لتؤتين من حيث أنت، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخائرك، وذائبك بجامدك، وحتى تعجل عن قعدتك، وتحذر من أمامك، كحذر من خلفك، وما هي بالهويني التي ترجو، ولكنها الداهية الكبرى، يركب حملها، ويذل صعبها، ويسهل جبلها. فاعقل عقلك، واملك أمرك، وخذ نصيبك وحظك، فإن كرهت فتنح إلى غير رحب، ولا في نجاة، فبالخري لتكفين وأنت نائم حتى لا يقال: أين فلان، والله إنه لحق مع محق وما يبالي ما صنع الملحدون، والسلام.

الشرح: المراد بقوله: قول هو لك وعليك، أن أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة: إن علياً إمام هدى، وبيعه صحبة، إلا أنه لا يجوز القتال معه لأهل القبلة، وهذا القول بعضه حق، وبعضه باطل.

وقوله: فارفع ذيلك، أي شمر للنهوض معي واللاحق بي، لنشهد حرب أهل البصرة، وكذلك قوله: واشدد مئزرك، وكلتاها كنايةتان عن الجد والتشمير في الأمر.

قال: واخرج من جحرك، أمر له بالخروج من منزله للحاق به، وهي كناية فيها غرض، من أبي موسى وأستهانة به لأنه لو أراد إعظامه لقال: واخرج من خيسك، أو من غيلك كما يقال للأسد، ولكنه جعله ثعلباً أو ضباً.

قال: وانذب من معك أي، وانذب رعبك من أهل الكوفة إلى الخروج معي واللاحق بي.

ثم قال: وإن تحققت فانفذ أي أمرك مبني على الشك، وكلامك في طاعتي كالمتناقض، فإن حققت لزوم طاعتي لك فانفذ، أي سر حتى تقدم علي، وإن أقمت على الشك فاعتزل العمل، فقد عزلتك.

قوله: وأيم الله لتؤتين معناه إن أقمت على الشك والإستراية وتثبيط أهل الكوفة عن الخروج إلي وقولك لهم: لا يحل لكم سل السيف لا مع علي ولا مع طلحة، والزموا بيوتكم، واكسروا سيوفكم، ليأتينكم وأنتم في منازلكم بالكوفة أهل البصرة مع طلحة، ونأتينكم نحن بأهل المدينة والحجاز، فيجتمع عليكم سيفان من أمامكم ومن خلفكم، فتكون ذلك الداهية الكبرى التي لا شواة لها.

قوله: ولا تترك حتى يخلط زبدك بخاثرك تقول للرجل إذا ضربته حتى أثختته: لقد ضربته حتى خلطت زبده بخاثره، وكذلك حتى خلطت ذائبه بجامده، والخاثر: اللبن الغليظ، والزبد خلاصة اللبن وصفوته، فإذا أثخت الإنسان ضرباً كنت كأنك خلطت ما رق ولطف من أخلاطه بما كثف وغلظ منها، وهذا مثل، ومعناه لتفسدن حالك وتخلطن، وليضربن ما هو الآن منتظم من أمرك.

قوله: وحتى تعجل عن قعدتك، القعدة بالكسر هيئة القعود كالجلسة والركبة أي وليعجلنك الأمر عن هيئة قعودك، يصف شدة الأمر وصعوبته.

قوله: وتحذر من أمامك كحذرك من خلفك، يعني يأتيك من خلفك إن أقمت على منع الناس عن الحرب معنا ومعهم أهل البصرة وأهل المدينة، فتكون كما قال الله تعالى: "إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم".
قوله: وما هي بالهويني التي ترجو، الهويني تصغير الهوى التي هي أنثى أهون، أي ليست هذه الداهية والجائحة التي أذكرها لك بالشيء الهين الذي ترجو اندفاعه وسهولته.

ثم قال: بل هي الداهية الكبرى ستفعل لا محالة إن استمررت على ما أنت عليه، وكفى عن قوله: ستفعل لا محالة بقوله: يركب جملها وما بعده، وذلك لأنها إذا ركب جملها، وذلل صعبها وسهل وعرها فقد فعلت، أي لا تقل: هذا أمر عظيم صعب المرام، أي قصد الجيوش من كلا الجانبين الكوفة، فإنه إن دام الأمر على ما أشرت إلى أهل الكوفة من التخاذل والجلوس في البيوت، وقولك لهم: كن عبد الله المقتول لنقعن بموجب ما ذكرته لك، وليرتكبن أهل الحجاز وأهل البصرة هذا الأمر المستصعب، لأننا نحن نطلب أن نملك الكوفة، وأهل البصرة كذلك، فيجتمع عليها الفريقان.
ثم عاد إلى أمره بالخروج إليه فقال له: فاعقل عقلك، واملك أمرك، وخذ نصيبك وحظك، أي من الطاعة، واتباع الإمام الذي لزمته بيعته، فإن كرهت ذلك، فتنح عن العمل فقد عزلتك. وابعد عنا لا في رحب، أي لا في لسعة، وهذا ضد قولهم: مرحباً.

ثم قال: فجدير أن تكفي ما كلفته من حضور الحرب وأنت نائم، أي لست معدوداً عندنا ولا عند الناس من الرجال الذين تفتقر الحروب والتدبيرات إليهم، فسيغني الله عنك ولا يقال: أين فلان، ثم أقسم إنه لحق، أي إني في حرب هؤلاء لعلى حق، وإن من أطاعني مع إمام محق ليس يبالي ما صنع الملحدون، وهذا إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم أدر الحق معه حيثما دار".

وكتب إلى معاوية جواباً عن كتابه.

الأصل: أما بعد، فإننا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت من الألفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس أنا آمنا وكفرتكم، واليوم أنا استقمنا وفتنتكم، وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً، وبعد أن كان أنف الإسلام كله لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه حرباً.

وذكرت أي قتلت طلحة والزبير، وشردت بعائشة، ونزلت بين المصريين، وذلك أمر غبت عنه، فلا عليك، ولا العذر فيه إليك.

وذكرت أنك زائري في جمع المهاجرين والأنصار، وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك، فإن كان فيك عجل فاسترفه، فإني إن أزررك فذلك جدير أن يكون الله إنما بعثني إليك للنقمة منك، وإن ترزني فكما قال أخو بني أسد:

مستقبلين رياح الصيف تضربهم بحاصب بين أغوار وجمود

وعندي السيف الذي أعضضته بجذك وخالك وأخيك في مقام واحد.

فإنك والله ما علمت الأغلف القلب، المقارب العقل، والأولى أن يقال لك: إنك رقيت سلماً أطلعك مطلع سوء عليك لا لك، لأنك نشدت غير ضالتك، ورعيت غير سائمتك، وطلبت أمراً لست من أهله ولا في معدنه، فما أبعد قولك من فعلك.

وقريب ما أشبهت من أعمام وأحوال، حملتهم الشقاوة وتمني الباطل على الجحود. بمحمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فصرعوا مصارعهم حيث علمت، لم يدفعوا عظيماً، ولم يمنعوا حريماً، بوقع سيوف ما خلا منها الوغى، ولم تماشها الهوينى.

وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إلي، أحملك وإياهم على كتاب الله تعالى، وأما تلك التي تريد، فإنها خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصل، والسلام لأهله.

كتاب معاوية إلى علي.

الشرح: أما الكتاب الذي كتبه إليه معاوية، وهذا الكتاب جوابه، فهو: من معاوية بن أبي سفيان، إلى علي بن أبي طالب:

أما بعد، فإننا بني عبد مناف لم نزل نترع من قلب واحد، ونجري في حلبة واحدة، ليس لبعضنا على بعض فضل، ولا لقائنا على قاعدنا فخر، كلمتنا مؤتلفة، وألفتنا جامعة، ودارنا واحدة، يجمعنا كرم العرق، ويحونا شرف النجار، ويحونا قوينا على ضعيفنا، ويواسي غنيا فقيرنا، قد خلصت قلوبنا من وغل الحسد، وطهرت أنفسنا من خبث النية، فلم نزل كذلك حتى كان منك ما كان من الإدهان في أمر ابن عمك، والحسد له، ونصرة الناس عليه، حتى قتل بمشهد منك، لا تدفع عنه بلسان ولا يد. فليتك أظهرت نصره، حيث أسررت خبره، فكنت كالمعلق بين الناس بعذر وإن ضعف، والمتبرئ من دمه بدفع وإن وهن، ولكنك جلست في دارك تدس إليه الدواهي، وترسل إليه الأفاعي، حتى إذا قضيت وطرك منه، أظهرت شماتة، وأبديت طلاقاً، وحسرت للأمر عن ساعدك، وشررت عن ساقك، ودعوت الناس إلى نفسك، وأكرهت أعيان المسلمين على بيعتك، ثم كان منك بعد ما كان، من قتلك شيخي المسلمين أبي محمد طلحة وأبي عبد الله

الزبير، وهما من الموعودين بالجنة، والمبشر قاتل أحدهما بالنار في الآخرة، هذا إلى تشريك بأم المؤمنين عائشة وإحلالها محل الهون، مبتدلةً بين أيدي الأعراب وفسقة أهل الكوفة، فمن بين مشهر لها، وبين شامت بها، وبين ساخر منها. ترى ابن عمك كان بهذه لو رآه راضياً، أم كان يكون عليك ساخطاً، ولك عنه زاجراً، أن تؤذي أهله وتشرذ بحليلته، وتسفك دماء أهل ملته. ثم تركد دار الهجرة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها: "إن المدينة لتتفي حبشها كما ينفي الكبير حبث الحديد"، فلعمري لقد صح وعده وصدق قوله، ولقد نفت حبشها، طردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها، فأقمت بين المصريين، وبعدت عن بركة الحرمين، ورضيت بالكوفة بدلاً من المدينة، وبمجاورة الخورنق والحيرة عوضاً عن مجاورة خاتم النبوة، ومن قبل ذلك ما عبت خليفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام حياتهما، فقعدت عنهما وألبت عليهما، وامتنعت من بيعتهما، ورميت أمراً لم يرك الله تعالى له أهلاً، ورقيت سلماً وعراً، وحاولت مقاماً دحضاً، وادعيت ما لم تجد عليه ناصراً، ولعمري لو وليتها حينئذ لما ازدادت إلا فساداً واضطراباً، ولا أعقبت ولا يتكها إلا انتشاراً وارتداداً، لأنك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيل على الناس بلسانه ويده، وها أنا سائر إليك في جمع من المهاجرين والأنصار تحفهم سيوف شامية، ورماح قحطانية، حتى يحاكموك إلى الله. فانظر لنفسك وللمسلمين، وادفع إلي قتلة عثمان، فإنهم خاصتك وخلصاؤك والمحدقون بك، فإن أبيت إلا سلوك سبيل اللجاج، والإصرار على الغي والضلال، فاعلم أن هذه الآية إنما نزلت فيك وفي أهل العراق معك: "وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون".

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل ومعانيه، قال رضي الله عنه: لعمري إنا كنا بيتاً واحداً في الجاهلية، لأننا بنو عبد مناف، إلا أن الفرقة ليننا ولينكم حصلت منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، فإننا آمننا وكفرتهم، ثم تأكدت الفرقة اليوم بأنا استقمنا على منهاج الحق وفنتهم.

ثم قال: وما أسلم من أسلم منكم إلا كرهاً، كأبي سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وغيرهم من بني عبد شمس. قال: وبعد أن كان أنف الإسلام محارباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أي في أول الإسلام، يقال: كان ذلك في أنف دولة بني فلان، أي في أولها، وأنف كل شيء أوله وطرفه، وكان أبو سفيان وأهله من بني عبد شمس أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الهجرة، إلى أن فتح مكة، ثم أجابه عن قوله: قتلت طلحة والزبير، وشردت بعائشة، ونزلت بين المصريين بكلام مختصر أعرض فيه عنه هواناً به، فقال: هذا أمر غبت عنه، فليس عليك كان العدوان الذي تزعم، ولا العذر إليك لو وجب على العذر عنه.

فأما الجواب المفصل فأن يقال: إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكثهما، ولو استقاما على الطريقة لسلمنا، ومن قتله الحق قدمه هدر، وأما كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغير مدفوع، ولكن العيب يحدث، وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمين على ما صنعا، وكذلك نقول نحن، فإن الأخبار كثرت بذلك، فهما من أهل الجنة لتوبتهما، ولولا توبتهما لكانا هالكين كما هلك غيرهما، فإن الله تعالى لا يحايي أحداً في الطاعة والتقوى، قال تعالى "ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة".

وأما الوعد لهما بالجنة فمشروط بسلامة العقاب، والكلام في سلامتهما، وإذا ثبتت توبتهما فقد صح الوعد لهما وتحقق، وقوله: بشر قاتل ابن صفية بالنار، فقد اختلف فيه، فقال قوم من أرباب السير وعلماء الحديث: هو كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه غير مرفوع، وقوم منهم جعلوه مرفوعاً، وعلى كل حال فهو حق، لأن ابن جرموز قتله مولياً خارجاً من الصف، مفارقاً للحرب، فقد قتله على توبة وإنابة ورجوع من الباطل، وقاتل من هذه حاله فاسق مستحق للنار، وأما أم المؤمنين عائشة فقد صحت توبتها، والأخبار الواردة في توبتها أكثر من الأخبار الواردة في توبة طلحة والزبير، لأنهما عاشتا زماناً طويلاً، وهما لم يبقيا، والذي جرى لها كان خطأ منها، فأى ذنب لأمر المؤمنين رضي الله عنه في ذلك، ولو أقامت في منزلها لم تبتذل بين الأعراب وأهل الكوفة، على أن أمير المؤمنين رضي الله عنه أكرمها وصانها وعظم من شأنها، ومن أحب أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة. ولو كانت فعلت بعمر ما فعلت به، وشقت عصا الأمة عليه، ثم ظفر بها، لقتلها ومزقها إرباً إرباً، ولكن علياً كان حليماً كريماً.

وأما قوله: لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم فربك هل كان يرضى لك أن تؤذي حليلته، فلعلي رضي الله عنه أن يقلب الكلام عليه، فيقول: أفترأه لو عاش أكان يرضى لحليلته أن تؤذي أخاه ووصيه، وأيضاً أترأه لو عاش أكان يرضى لك يا بن أبي سفيان أن ننازع علياً الخلافة وتفرق جماعة هذه الأمة، وأيضاً أترأه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا، ثم ينكتا لا لسبب، بل قالوا: جئنا نطلب الدراهم، فقد قيل لنا: إن بالبصرة أموالاً كثيرة، هذا كلام يقوله مثلهما. فأما قوله: تركت دار الهجرة، فلا عيب عليه إذا انقضت عليه أطراف الإسلام بالبغي والفساد أن يخرج من المدينة إليها، ويهذب أهلها، وليس كل من خرج من المدينة كان خبثاً، فقد خرج عنها عمر مراراً إلى الشام. ثم لعلي رضي الله عنه أن يقلب عليه الكلام فيقول له: وأنت يا معاوية، قد نفتك المدينة أيضاً عنها، فأنت إذا خبث، وكذلك طلحة والزبير وعائشة الذين تتعصب لهم وتحتج على الناس بهم، وقد خرج عن المدينة الصالحون، كابن مسعود وأبي ذر وغيرهما، وماتوا في بلاد نائية عنها.

وأما قوله: لا بعدت عن حرمة الحرمين، ومجاورة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلام إقناع ضعيف، والواجب على الإمام أن يقدم الأهم فالأهم من مصالح الإسلام، وتقديم قتال أهل البغي على المقام بين الحرمين أولى. فأما ما ذكره من خذلانه عثمان وشماتته به ودعائه الناس بعد قتله إلى نفسه وإكراهه طلحة والزبير وغيرهما على بيعته فكله دعوى والأمر بخلافها، ومن نظر كتب السير عرف أنه قد بهته وادعى عليه ما لم يقع منه.

وأما قوله: التوبت على أبي بكر وعمر، وقعدت عنهما، وحاولت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن علياً رضي الله عنه لم يكن يجحد ذلك ولا ينكره، ولا ريب أنه كان يدعي الأمر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه على الجملة، إما لنص كما تقوله الشيعة، أو لأمر آخر كما يقوله أصحابنا. فأما قوله: لو وليتها حينئذ لفسد الأمر واضطرب الإسلام، فهذا علم غيب لا يعلمه إلا الله، ولعله لو وليها حينئذ لاستقام الأمر وصلاح الإسلام وتمهد، فإنه ما وقع الاضطراب عند ولايته بعد عثمان إلا لأن أمره هان عندهم بتأخره عن الخلافة، وتقدم غيره عليه، فصغر شأنه في النفوس، وقرر من تقدمه في قلوب الناس أنه لا يصلح لها كل الصلاحية، والناس على ما يحصل في نفوسهم، ولو كان

وليها ابتداء وهو على تلك الحالة التي كان عليها أيام حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك الميزة الرفيعة والاختصاص الذي كان له، لكان الأمر غير الذي رأيناه عند ولايته بعد عثمان. وأما قوله: لأنك الشامخ بأنفه، الذهاب بنفسه، فقد أسرف في وصفه بما وصفه به، ولا شك أن علياً رضي الله عنه كان عنده زهو لكن لا هكذا، وكان رضي الله عنه مع زهوه ألطف الناس خلقاً.

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظه رضي الله عنه، قوله: وذكرت أنك زائري في جمع من المهاجرين والأنصار، وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك هذا الكلام تكذيب له في قوله: في جمع من المهاجرين والأنصار، أي ليس معك مهاجر لأن أكثر من معك ممن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أبناء الطلقاء، ومن أسلم بعد الفتح، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا هجرة بعد الفتح".

وعبر عن يوم الفتح بعبارة حسنة فيها تقرير لمعاوية وأهله بالكفر، وأنهم ليسوا من ذوي السوابق، فقال: قد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك، يعني يزيد بن أبي سفيان أسر يوم الفتح في باب الخندمة، وكان خرج في نفر من قريش يحاربون ويمنعون من دخول مكة، فقتل منهم قوم وأسروا يزيد بن أبي سفيان، أسره خالد بن الوليد، فخلصه أبو سفيان منه، وأدخله داره، فأمن لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن".

خبر فتح مكة.

ويجب أن نذكر في هذا الموضوع ملخص ما ذكره الواقدي في كتاب المغازي في فتح مكة، فإن الموضوع يقتضيه، لقوله رضي الله عنه: ما أسلم مسلمكم إلا كرهاً. وقوله: يوم أسر أخوك. قال محمد بن عمر الواقدي في كتاب المغازي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم قد هادن قريشاً في عام الحديبية عشر سنين، وجعل خزاعة داخله معه، وجعلت قريش بني بكر بن عبد مناة من كنانة داخله معهم، وكان بين بني بكر وبين خزاعة ترات في الجاهلية ودماء، وقد كانت خزاعة من قبل حلفت عبد المطلب بن هاشم، وكان معها كتاب منه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف ذلك، فلما تم صلح الحديبية وأمن الناس، سمع غلام من خزاعة إنساناً من بني كنانة يقال له: أنس بن زعيم الدؤلي ينشد هجاء له في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضربه فشجه، فخرج أنس إلى قومه فأراههم شجته فثار بينهم الشر، وتذاكروا أحقادهم القديمة، والقوم مجاورون بمكة، فاستنجدت بكر بن عبد مناة قريشاً على خزاعة، فمن قريش من كره ذلك وقال: لا أنقض عهد محمد، ومنهم من خف إليه. وكان أبو سفيان أحد من كره ذلك، وكان صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ممن أعان بني بكر، ودسوا إليهم الرجال بالسلاح سراً، وبيتوا خزاعة ليلاً، فأوقعوا بهم، فقتلوا منهم عشرين رجلاً، فلما أصبحوا عاتبوا قريشاً، فحدثت قريش أنها أعانت بكراً، وكذبت في ذلك، وتبرأ أبو سفيان وقوم من قريش مما جرى، وشخص قوم من خزاعة إلى المدينة مستصرخين برسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخلوا عليه وهو في المسجد، فقام عمرو بن سالم الخزاعي فأنشده:

حلف أبينا وأبيه الأتدا

لا هم إني ناشد محمداً

لكنت والداً وكنا ولداً
 إن قريشاً أخلفوك الموعداً
 هم بيتونا بالوتير هجدا
 وزعموا أن لست ندعو أحدا
 ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 نتلو القرآن ركعاً وسجدا
 وهم أذل وأقل عددا

فانصر هداك الله نصراً أيذا
 في فيلق كالبحر يجري مزبدا
 قمر لقوم من قروم أصيدا
 وادع عباد الله يأتوا مددا
 فيهم رسول الله قد تجردا

ثم ذكروا له ما أثار الشر، وقالوا له: إن أنس بن زعيم هجاك، وإن صفوان بن أمية وفلاناً وفلاناً دسوا إلينا رجال قريش مستنصرين، فبيتونا بمتزلنا بالوتير فقتلونا، وجئناك مستصرخين بك، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام مغضباً بجر رداءه ويقول: "لا نصرت إن لم أنصر خزاعة فيما أنصر منه نفسي". قلت: فصادف ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم إثارةً وحباً لنقض العهد، لأنه كان يريد أن يفتح مكة وهم بها في عام الحديبية فصد، ثم هم بها في عمرة القضية، ثم وقف لأجل العهد والميثاق الذي كان عقده معهم، فلما جرى ما جرى على خزاعة اغتتمها.

قال الواقدي: فكتب إلى جميع الناس في أقطار الحجاز وغيرها يأمرهم أن يكونوا بالمدينة في رمضان من سنة ثمان للهجرة، فوافته الوفود والقبائل من كل جهة، فخرج من المدينة بالناس يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان في عشرة آلاف، فكان المهاجرون سبعمائة، ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس، وكانت الأنصار أربعة آلاف، معهم من الخيل خمسمائة، وكانت مزينة ألفاً، فيها من الخيل مائة فرس، وكانت أسلم أربعمائة، فيها من الخيل ثلاثون فرساً، وكانت جهينة ثمانمائة معها خمسون فرساً، ومن سائر الناس تمام عشرة آلاف، وهم بنو ضمرة وبنو غفار وأشجع وبنو سليم وبنو كعب بن عمرو وغيرهم. وعقد للمهاجرين ثلاثة ألوية: لواء مع علي، ولواء مع الزبير، ولواء مع سعد بن أبي وقاص، وكانت الرايات في الأنصار وغيرهم، وكنتم عن الناس الخير، فلم يعلم به إلا خواصه، وأما قريش بمكة فندمت على ما صنعت بخزاعة، وعرفت أن ذلك انقضاء ما بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم من العهد، ومشى الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى أبي سفيان فقالا له: إن هذا أمر لا بد له أن يصلح، والله إن لم يصلح لا يروعكم إلا محمد في أصحابه. وقال أبو سفيان: قد رأت هند بنت عتبة رؤيا كرهتها وأفظعتها، وخفت من شرها، قالوا: ما رأت، قال: رأت كأن دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخدماء ملياً، ثم كأن ذلك الدم لم يكن، فكره القوم ذلك وقالوا: هذا شر.

قال الواقدي: فلما رأى أبو سفيان ما رأى من الشر قال: هذا والله أمر لم أشهده ولم أعجب عنه، لا يحمل هذا إلا علي، ولا والله ما شوورت ولا هونت حيث بلغني، والله ليغزونا محمد إن صدق ظني وهو صادق، ومالي بد أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في الهدنة، ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر. قالت قريش: قد والله أصبت، وندمت قريش على ما

صنعت بخزاعة وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بد أن يغزوها، فخرج أبو سفيان وخرج معه مولى له على راحلتين، وأسرع السير وهو يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: وقد روي الخبر على وجه آخر، وهو أنه لما قدم ركب خزاعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بمن قتل منهم، قال لهم: بمن تهمتكم وطلبتكم؟ قالوا: بنو بكر بن عبد مناة، قال: كلها، قالوا: لا، ولكن تهمتنا بنو نفاثة قصرة، ورأسهم نوفل بن معاوية النفاثي، فقال: هذا بطن من بكر، فأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر، ومخيرهم في حصال. فبعث إليهم ضمرة يخيرهم بين إحدى خلال ثلاث: بين أن يدوا خزاعة، أو يبرءوا من حلف نفاثة، أو ينبذ إليهم على سواء. فأتاهم ضمرة فخيرهم بين خلال الثلاث، فقال قريظة بن عبد عمرو الأعمى: أما أن ندي قتل خزاعة، فإننا إن وديناهم لم يبق لنا سب ولا لبد، وأما أن نبرأ من حلف نفاثة، فإنه ليس قبيلة تحج هذا البيت أشد تعظيماً له من نفاثة، وهم حلفاؤنا فلا نبرأ من حلفهم، ولكننا ننبد إليه على سواء. فعاد ضمرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، وندمت قريش أن ردت ضمرة بما ردت به.

قال الواقدي: وقد روي غير ذلك، روي أن قريشاً لما ندمت على قتل خزاعة وقالت: محمد غازينا، قال لهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو يومئذ كافر مرتد عندهم - إن عندي رأياً، إن محمداً ليس يغزوكم حتى يعذر إليكم ويخبركم في حصال كلها أهون عليكم من غزوه، قالوا: ما هي، قال: يرسل إليكم أن تدوا قتل خزاعة، أو تبرءوا من حلف من نقض العهد وهم بنو نفاثة، أو ينبذ إليكم العهد. فقال القوم: أحر بما قال ابن أبي سرح أن يكون، فقال سهيل بن عمرو: ما خصلة أيسر علينا من أن نبرأ من حلف نفاثة، فقال شيبه بن عثمان العبدري: حطت أحوالك خزاعة، وغضبت لهم، قال سهيل: وأي قريش لم تلد خزاعة، قال شيبه: لا، ولكن ندي قتل خزاعة فهو أهون علينا. فقال قريظة بن عبد عمرو: لا والله لا نديهم ولا نبرأ عن نفاثة أبر العرب بنا، وأعمرهم لبيت ربنا، ولكن ننبد إليهم على سواء. فقال أبو سفيان: ما هذا بشيء، وما الرأي إلا جحد هذا الأمر أن تكون قريش دخلت في نقض العهد، أو قطع مدة، فإن قطعه قوم بغير هوى منا ولا مشورة فما علينا، قالوا: هذا هو الرأي، لا رأي إلا الجحد لكل ما كان من ذلك، فقال: أنا أقسم إني لم أشهد ولم أوامر، وأنا صادق، لقد كرهت ماصنعتهم، وعرفت أن سيكون له يوم غماس، قالت قريش لأبي سفيان: فاحرج أنت بذلك، فخرج.

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عطاء بن أبي مروان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة، صبيحة الليلة التي أوقعت فيها نفاثة وقريش بخزاعة بالوتير: يا عائشة لقد حدث الليلة في خزاعة أمر، فقالت عائشة: يا رسول الله، أترى قريشاً تحترىء على نقض العهد بينك وبينهم، أينقضون وقد أفناهم السيف، فقال: العهد لأمر يريد الله بهم، فقالت: خير أم شر يا رسول الله، فقال: خير.

قال الواقدي: وحدثني عبد الحميد بن جعفر، قال: حدثني عمران بن أبي أنس، عن ابن عباس، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر طرف رداءه ويقول: لا نصرت إن لم أنصر بني كعب، يعني خزاعة، فيما أنصر منه نفسي.

قال الواقدي: وحدثني حرام بن هشام، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، "لكنكم بأبي سفيان قد

جاءكم يقول: جدد العهد وزد في الهدنة وهو راجع بسخطه. وقال لبني خزاعة عمرو بن سالم وأصحابه: ارجعوا وتفرقوا في الأودية، وقام فدخل على عائشة وهو مغضب، فدعا بماء، فدخل يغتسل، قالت عائشة: فأسمعه يقول وهو يصب الماء على رجله: "لا نصرت إن لم أنصر بني كعب".

قال الواقدي: فأما أبو سفيان فخرج من مكة وهو متخوف أن يكون عمرو بن سالم ورهطه من خزاعة سبقوه إلى المدينة، وكان القوم لما رجعوا من المدينة وأتوا الأبناء تفرقوا كما أوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهبت طائفة إلى الساحل تعارض الطريق، ولزم بديل بن أم أصرم الطريق في نفر معه، فلقىهم أبو سفيان، فلما رآهم أشفق أن يكونوا لقوا محمداً صلى الله عليه وسلم بل كان اليقين عنده، فقال للقوم: منذ كم عهدكم يثرب؟ قالوا: لا عهد لنا بها، فعرف أنهم كتموه، فقال: أما معكم من تمر يثرب شيء تطعموناه، فإن لتمر يثرب فضلاً على تمر تهامة؟ قالوا: لا، ثم أبت نفسه أن تقر، فقال: يا بديل، هل جئت محمداً؟ قال: لا ولكني سرت في بلاد خزاعة من هذا الساحل في قتيل كان بينهم حتى أصلحت بينهم. قال: يقول أبو سفيان: إنك - والله ما علمت - بر واصل. فلما راح بديل وأصحابه جاء أبو سفيان إلى أبعاد إبلهم ففتها فإذا فيها النوى، ووجد في مترلهم نوى من تمر عجوة كأنه ألسنة العصفير، فقال: أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً. وأقبل حتى قدم المدينة، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا في المدة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولذلك قدمت يا أبا سفيان، قال: نعم، قال: فهل كان قبلكم حدث، فقال: معاذ الله، فقال رسول الله: فنحن على موثقتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبذل. فقام من عنده فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته دونه، فقال: أرغبت بهذا الفراش عني، أم رغبت بي عنه، فقال: بل هو فراش رسول

الله صلى الله عليه وسلم، وأنت أمرؤ نجس مشرك. قال: يا بنية، لقد أصابك بعدي شر، فقالت: إن الله هادي للإسلام، وأنت يا أبت سيد قریش وكبيرها، كيف يخفى عنك فضل الإسلام، وتبعد حجراً لا يسمع ولا يبصر، فقال: يا عجباً، وهذا منك أيضاً، أترك ما كان يعبد آباي وأتبع دين محمد، ثم قام من عندها فلقي أبا بكر، فكلمه، وقال: تكلم أنت محمداً، وتجير أنت بين الناس. فقال: أبو بكر: جوارى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لقي عمر فكلمه، بمثل ما كلم به أبا بكر، فقال عمر: والله لو وجدت السنور تقاتلكم لأعنتها عليكم. قال أبو سفيان: جزيت من ذي رحم شراً! ثم دخل على عثمان بن عفان فقال له: إنه ليس في القوم أحد أمس بي رحماً منك، فزدني الهدنة ودد العهد، فإن صاحبك لا يرد عليك أبداً، والله ما رأيت رجلاً قط أشد إكراماً لصاحبه من محمد لأصحابه، فقال عثمان: جوارى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء أبو سفيان حتى دخل على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمها، وقال: أجيئ بين الناس، فقالت: إنما أنا امرأة، قال: إن جوارك جائز، وقد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع، فأجاز محمد ذلك. فقالت فاطمة: ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبت عليه، فقال: مري أحد هذين ابنيك يميز بين الناس، قالت: إنهما صبيان، وليس يميز الصبي. فلما أبت عليه، أتى علياً رضي الله عنه فقال: يا أبا حسن، أجز بين الناس وكلم محمداً ليزيد في المدة، فقال علي رضي الله عنه: ويحك يا أبا سفيان، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزم ألا يفعل، وليس أحد يستطيع أن يكلمه في شيء يكرهه، قال أبو سفيان: فما الرأي عندك فتشير لأمرى، فإنه قد ضاق

علي، فمرني بأمر ترى أنه نافع، قال علي رضي الله عنه: والله ما أجد لك شيئاً مثل أن تقوم فتجبر بين الناس، فإنك سيد كنانة، قال: أترى ذلك مغنياً عني شيئاً، قال علي: إني لا أظن ذلك والله، ولكني لا أجد لك غيره. فقام أبو سفيان بين ظهري الناس فصاح: ألا إني قد أجرت بين الناس، ولا أظن محمداً يحقرني. ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد ما أظن أن ترد جوارى، فقال صلى الله عليه وسلم: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان، ويقال: إنه لما صاح لم يأت النبي صلى الله عليه وسلم وركب راحلته وأنطلق إلى مكة. ويروى أنه أيضاً أتى سعد بن عبادَةَ فكلّمه في ذلك: وقال: يا أبا ثابت، قد عرفت الذي كان بيني وبينك، وإني كنت لك في حرماً جاراً، وكنت لي يبشرب مثل ذلك، وأنت سيد هذه المدرة، فأجر بين الناس، وزدني في المدة. فقال سعد: جوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يجبر أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انطلق أبو سفيان إلى مكة، كان طالت غيبته عن قريش وأبطأ، فاتهموه وقالوا: نراه قد صبأً واتبع محمداً سراً، وكنتم سلامه، فلما دخل على هند ليلاً قالت: قد أحبتست حتى أتهمك قومك، فإن كنت جئتهم بنجح فأنت الرجل. وقد كان دنا منها ليغشاها، فأخبرها الخبر وقال: لم أجد إلا ما قال لي علي، فضربت برجلها في صدره وقالت: قبحت من رسول قوم.

قال الواقدي: فحدثني عبد الله بن عثمان، عن أبي سليمان، عن أبيه، قال: لما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند الصنمين: أساف ونائلة، وذبح لها، وجعل يمسح بالدم رؤوسهما، ويقول: لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبي. قال: فعل ذلك ليبريء نفسه مما أتهمته قريش به.

قال الواقدي: وقالت قريش لأبي سفيان: ما صنعت؟ وما وراءك؟ وهل جئتنا بكتاب من محمد وزيادة في المدة؟ فإننا لا نأمن من أن يغزونا، فقال: والله لقد أبي علي، ولقد كلمت عليه أصحابه فما قدرت على شيء منهم، ورموني بكلمة منهم واحدة، إلا أن علياً قال لما ضاقت بي الأمور: أنت سيد كنانة، فأجر بين الناس، فنادت بالجوار، ثم دخلت على محمد فقلت: إني قد أجرت بين الناس، وما أظن محمداً يرد جوارى، فقال محمد: أنت تقول ذاك يا أبا سفيان، لم يزد على ذلك، قالوا: ما زاد على أن يلعب بك تلعباً، قال: فو الله ما وجدت غير ذلك.

قال الواقدي: فحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، قال: لما خرج أبو سفيان عن المدينة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة: جهزينا وأخفى أمرك. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم خذ عن قريش الأخبار والعيون حتى تأتيهم بغتة، وروى أنه قال: اللهم خذ على أبصارهم فلا يروني إلا بغتة، ولا يسمعون بي إلا فجأة. قال: وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عم، الأنقاب وجعل عليها الرجال، ومنع من يخرج من المدينة، فدخل أبو بكر على عائشة وهي تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعمل له قمحاً سويقاً ودقيقاً، وتمرّاً، فقال لها: أهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزو؟ قالت: لا أدري، قال: إن كان هم بسفر فأذنينا نتهياً له، قالت: لا أدري لعله أراد بني سليم، لعله أراد ثقيفاً أو هوازن، فاستعجمت عليه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أردت سفرّاً، قال: نعم، قال: وأين تريد، قال: قريشاً، وأخف ذلك يا أبا بكر، وأمر رسول الله الناس فتجهزوا، وطوى عنهم الوجه الذي يريد، وقال له أبو بكر: يا رسول الله، أو ليس بيننا وبينهم مدة، فقال: إنهم غدروا ونقضوا العهد، فأنا

غازيهم، فاطو ما ذكرت لك، فكان الناس بين ظان يظن أنه يريد سليماً، وظان يظن أنه يريد هوازن، وظان يظن أنه يريد ثقيفاً، وظان يظن أنه يريد الشام، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قتادة بن رنعي في نفر إلى بطن ليظن الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم أمامه أولئك الرجال لتوجهه إلى تلك الجهة، ولتذهب بذلك الأخبار.

قال الواقدي: حدثني المنذر بن سعد، عن يزيد بن رومان، قال: لما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى قريش، وعلم بذلك من علم من الناس، كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرهم، وأعطى الكتاب امرأة من مزينة، وجعل لها على ذلك جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلت الكتاب في رأسها، ثم قتلت عليه قرونها وخرجت به، وأتى الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً رضي الله عنه والزبير فقال: أدركا امرأة من مزينة قد كتب معها حاطب كتاباً يحذر قريشاً، فخرجوا وأدركاها بذي الحليفة، فاستترلاها والتمسا الكتاب في رحلها فلم يجدا شيئاً، فقالا لها: نلخف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبننا، ولتخرجن الكتاب أو لنكشفنك. فلما رأت منهما الجد حلت قرونها، واستخرجت الكتاب فدفعته إليهما، فاقبلا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا حاطباً وقال له: ما حملك على هذا، فقال: يا رسول الله، والله إني لمسلم مؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم أهل وولد، فصانعتهم. فقال عمر: قاتلك الله، ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذرهم، دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه، قد نافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، قال الواقدي: فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة بالألوية المعقودة والرايات بعد العصر من يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان لم يحل عقده حتى انتهى إلى الصلصل، والمسلمون يقودون الخيل، وقد امتطوا الإبل، وقدم أمامه الزبير بن العوام في مائتين، قال: فلما كان بالبيداء نظر إلى عنان السماء، فقال: إني لأرى السحاب تستهل بنصر بني كعب، يعني خزاعة.

قال الواقدي: وجاء كعب بن مالك ليعلم أي جهة يقصد، فبرك بين يديه على ركبتيه، ثم أنشده:

وخبير ثم أحمينا السيوف

قواضيهن دوساً أو ثقيفا

بساحة داركم منها ألوف

ونترك دوركم منها خلوف

قضينا من تهامة كل نحب

فسائلها ولو نطقت ل قالت

فلست بحاضر إن لم تروها

فننزع الخيام ببطن وج

قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزد على ذلك، فجعل الناس يقولون: والله ما بين لك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، فلم تزل الناس كذلك حتى نزلوا بمر الظهران.

قال الواقدي: وخرج العباس بن عبد المطلب ومخرمة بن نوفل من مكة يطلبان رسول الله صلى الله عليه وسلم ظناً منهما أنه بالمدينة يريدان الإسلام، فلقياه بالسقيا.

قال الواقدي: فلما كانت الليلة التي أصبح فيها بالجحفة رأى فيها أبو بكر في منامه أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد دنوا من مكة فخرجت عليهم كلبة تهر فلما دنوا منها استلقت على قفاها، وإذا أطباؤها تشخص لبناً. فقصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذهب كلبهم، وأقبل درهم، وهم سائلونا بأرحامهم، وأنتم لا قون بعضهم، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه.

قال الواقدي: وإلى أن وصل مر الظهران لم يبلغ قريشاً حرف واحد من حاله، فلما نزل بمر الظهران أمر أصحابه أن يوقدوا النار، فأوقدوا عشرة آلاف نار، وأجمعت قريش أن يبعثوا أبا سفيان يتجسس لهم الأخبار، فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء. قال: وقد كان العباس بن عبد المطلب قال: واسوء صباح قريش، والله إن دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنوةً إنه لهلك قريش آخر الدهر، قال العباس: فأخذت بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء فركبتها، وقلت: ألتمس حظاً أو إنساناً أبعثه إلى قريش فيلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخلها عليهم عنوةً، فو الله إني لأراك ليلاً أبتغي ذلك إذ سمعت كلاماً يقول: والله إن رأيت كالليلة ناراً، قال: يقول بديل بن ورقاء: إنما نيران خزاعة جاشها الحرب. قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فعرفت صوته، فقلت: أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: لبيك أبا الفضل، فقلت: ويحك، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف، وهو مصبحكم، فقال: بأبي وأمي، فهل من حيلة، فقلت: نعم، تتركب عجز هذه البغلة، فأذهب بك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه إن ظفر لك دون ذلك ليقتلنك، قال: والله أنا أرى ذلك، فركب خلفي، ورحل بديل وحكيم فتوجهت به كلما مررت به على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا، فإذا رأوني قالوا: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة رسول الله، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فلما رأي قال: من هذا؟ قلت: العباس، فذهب ينظر فرأى أبا سفيان خلفي، فقال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وركضت البغلة حتى اجتمعنا جميعاً على باب قبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخلت ودخل عمر بن الخطاب على أثري، فقال عمر: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عهد، فدعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله، إني قد أجرتة، ثم لزمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني، فلما أكثر عمر فيه قلت: مهلاً يا عمر، فإنه لو كان رجلاً من عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنه أحد بني عبد مناف. فقال عمر: مهلاً يا أبا الفضل، فو الله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب، أو قال: من إسلام رجل من ولد الخطاب، لو أسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب به فقد أجرناه، فليت عندك حتى تغدو له علينا إذا أصبحت. فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك، قد كان يقع في نفسي أن لو كان مع الله إله آخر لأغنى، قال: يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك، أما هذه فو الله إن في النفس منها شيئاً بعد، قال العباس: فقلت ويحك، تشهد وقل لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تقتل. فتشهد. وقال العباس: يا رسول الله، إنك قد

عرفت أبا سفيان وفيه الشرف والفخر، فاجعل له شيئاً، فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق داره فهو آمن، ثم قال: خذه فاحبسه بمضيق الوادي إلى خطم الجبل حتى تمر عليه جنود الله فيراها. قال العباس: فعدلت به في مضيق الوادي إلى خطم الجبل فحبسته هناك، فقال: أغدراً يا بني هاشم، فقلت له: إن أهل النبوة لا يغدرون، وإنما حبستك لحاجة، قال: فهلاً بدأت بما أولاً فأعلمتنيها، فكان أفرخ لروعي، ثم مرت به القبائل على قادتها، والكتائب على راياتها، فكان أول من مر به خالد بن الوليد في بني سليم، وهم ألف، ولهم لواءان يحمل أحدهما العباس بن مرداس والآخر خفاف بن ندبة، وراية يحملها المقداد، فقال أبو سفيان، يا أبا الفضل، من هؤلاء، قال: هؤلاء بنو سليم، وعليهم خالد بن الوليد، قال: الغلام، قال: نعم، فلما حاذى خالد العباس وأبا سفيان كبر ثلاثاً وكبروا معه، ثم مضوا. ومر على أثره الزبير بن العوام في خمسمائة، فيهم جماعة من المهاجرين وقوم من أفناء الناس، ومعه راية سوداء، فلما حاذوها كبر ثلاثاً وكبر أصحابه فقال: من هذا، قال: هذا الزبير، قال: ابن أختك، قال: نعم، قال: ثم مرت به بنو غفار في ثلاثمائة يحمل رايتهم أبو ذر، - ويقال: إماء بن رحضة - فلما حاذوها كبروا ثلاثاً، قال: يا أبا الفضل: من هؤلاء، قال: بنو غفار، قال: ما لي ولبنو غفار، ثم مرت به أسلم في أربعمائة يحمل لواءها يزيد بن الحصيب، ولواء آخر مع ناجية بن الأعجم، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً، فسأل عنهم فقال: هؤلاء أسلم، فقال: ما لي ولأسلم، ما كان بيننا وبينهم ترة قط، ثم مرت بنو كعب بن عمرو بن خزاعة في خمسمائة يحمل رايتهم بشر بن سفيان، فقال: من هؤلاء؟ قال: كعب بن عمرو، قال: نعم حلفاء محمد، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً. ثم مرت مزينة في ألف فيها ثلاثة ألوية مع النعمان بن مقرن، وبلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو، فلما حاذوها كبروا، قال: من هؤلاء؟ قال: مزينة، قال: يا أبا الفضل، ما لي ولمزينة، قد جاءتني تقعقع من شواهقها. ثم مرت جهينة في ثمانمائة، فيها أربعة ألوية مع معبد بن خالد، وسويد بن صخر، ورافع بن مكيث، وعبد الله بن بدر، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً فسأل عنهم، فقيل: جهينة. ثم مرت بنو كنانة وبنو ليث وضمرة وسعد بن أبي بكر في مائتين، يحمل لواءهم أبو واقد الليثي، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً، قال: من هؤلاء؟ قال: بنو بكر. قال: نعم أهل شؤم هؤلاء الذين غزانا محمد لأجلهم، أما والله ما شوورت فيهم، ولا علمته، ولقد كنت له كارهاً حيث بلغني، ولكنه أمر حم، قال العباس، لقد حار الله لك في غزو محمد إياكم، ودخلتم في الإسلام كافة، ثم مرت أشجع، وهم آخر من مر به قبل أن تأتي كتيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم ثلاثمائة يحمل لواءهم معقل بن سنان، ولواء آخر مع نعيم بن مسعود فكبروا، قال: من هؤلاء؟ قال: أشجع، فقال: هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد، قال العباس: نعم، ولكن الله أدخل الإسلام قلوبهم، وذلك من فضل الله. فسكت وقال: أما مر محمد بعد، قال: لا، ولو رأيت الكتيبة التي هو فيها لرأيت الحديد والخيل والرجال، وما ليس لأحد به طاقة، فلما طلعت كتيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخضراء طلع سواد شديد وغبرة من سنايك الخيل، وجعل الناس يمرون، كل ذلك يقول: أما مر محمد بعد، فيقول العباس: لا، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير على ناقته القصوى بين أبي بكر وأسيد ابن حضير، وهو يحدثهما، وقال له العباس: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء، فانظر، قال: وكان في تلك الكتيبة وجوه المهاجرين والأنصار، وفيها الألوية والرايات، وكلهم منغمسون في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، ولعمر بن الخطاب فيها رجل وعليه الحديد، وصوته عال، وهو يزعها، فقال: يا أبا الفضل، من هذا المتكلم، قال: هذا عمر بن

الخطاب، قال: لقد أمر أمر بني عدي بعد قلة وذلة، فقال: إن الله يرفع من يشاء بما يشاء، وإن عمر ممن رفعه الإسلام، وكان في الكتيبة ألفا دارع، وراية رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعد بن عباد، وهو أمام الكتيبة، فلما حاذاهما سعد نادى: يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة اليوم تسمى الحرمة اليوم أذل الله قريشاً، فلما حاذاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداه أبو سفيان: يا رسول الله، أمرت بقتل قومك، إن سعداً قال: اليوم يوم الملحمة اليوم تسمى الحرمة اليوم أذل الله قريشاً، وإني أنشدك الله في قومك فأنت أبر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس. فقال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، إنا لا نأمن سعداً أن يكون له في قريش صولة، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وناداه، يا أبا سفيان، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشاً، وأرسل إلى سعد فعزله عن اللواء. وأختلف فيمن دفع إليه اللواء فقيل: دفعه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فذهب به حتى دخل مكة، فغرزته عند الركن، وهو قول ضرار بن الخطاب الفهري، وقيل: دفعه إلى قيس بن سعد ابن عمادة، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يخرج عن سعد حيث دفعه إلى ولده، فذهب به حتى غرزه بالحجون، قال: وقال أبو سفيان للعباس: ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط، ولا أخبرني به من قبل، سبحان الله، ما لأحد بمؤلاء طاقة ولا يدان، لقد أصبح ملك ابن أخيك يا عباس عظيماً، قال: فقلت: ويحك، إنه ليس بملك، وإنها النبوة، قال: نعم.

قال الواقدي: قال العباس: فقلت له: انج ويحك، فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم، فخرج أبو سفيان حتى دخل من كداء وهو ينادي: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، حتى انتهى إلى هند بنت عتبة، فقالت: ما وراءك؟ قال: هذا محمد في عشرة آلاف، عليهم الحديد، وقد جعل لي أنه من دخل داري فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، فقالت: قبحك الله من رسول قوم، وجعلت تقول، ويحكم، اقتلوا وافدكم قبحه الله من وافد قوم، فيقول أبو سفيان: ويحكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإني رأيت ما لم تروا: الرجال، والكراع، والسلاح، ليس لأحد بهذا طاقة، محمد في عشرة آلاف، فأسلموا تسلموا. وقال المبرد في الكامل: أمسكت هند برأس أبي سفيان وقالت: بئس طليعة القوم، والله ما خدشت خدشاً، يا أهل مكة، عليكم الحميت الدسم فاقتلوه. قال: الحميت: الزق المزفت.

قال الواقدي: وخرج أهل مكة إلى ذي طوى ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانضوى إلى صفوان ابن أمية وعكرمة ابن أبي جهل وسهيل بن عمرو ناس من أهل مكة ومن بني بكر وهذيل، فلبسوا السلاح، وأقسموا لا يدخل محمد مكة عنوة أبداً. وكان رجل من بني الدؤل يقال له: حماس بن قيس بن خالد الدؤلي لما سمع برسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يصلح سلاحه، فقالت له امرأته: لم تعد السلاح؟ قال: لحمد وأصحابه، وإني لأرجو أن أخدمك منهم خادماً، فإنك إليه محتاجة، قالت: ويحك لا تفعل، لا تقاتل محمداً، والله ليضلن هذا عنك لو رأيت محمداً وأصحابه، قال: سترين، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته القصواء معتجراً ببرد حبرة، وعليه عمامة سوداء، ورايته سوداء، ولواؤه أسود، حتى وقف بذي طوى، وتوسط الناس، وإن عثونه ليمس واسطة الرحل، أو يقرب منه تواضعاً لله حيث رأى ما رأى من الفتح وكثرة المسلمين، وقال: لا عيش إلا عيش الآخرة.

وجعلت الخيل تعج بذي طوى في كل وجه، ثم ثابت وسكنت، والتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أسيد بن حضير، فقال: كيف قال حسان بن ثابت، قال فأنشده:

عدمنا خيلنا إن لم تروها

تشير النقع موعدها كداء

تظل جيادنا متمطرات

تلطمهن بالخمير النساء

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمد الله، وأمر الزبير بن العوام أن يدخل من كداء، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من الليط، وأمر قيس بن سعد أن يدخل من كدى، ودخل هو صلى الله عليه وسلم من أذاخر. قال الواقدي: وحدثني مروان بن محمد، عن عيسى بن عميلة الفزاري، قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن.

قال الواقدي: وروى عيسى بن معمر، عن عباد بن عبد الله، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: صعد أبو قحافة بصغرى بناته وأسمها قرية، وهو يومئذ أعمى، وهي تقوده حتى ظهرت به إلى أبي قبيس، فلما أشرفت به قال: يا بنية، ماذا ترين، قالت: أرى سواداً مجتمعاً مقبلاً كثيراً، قال: يا بنية، تلك الخيل، فانظري ماذا ترين، قالت: أرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومديراً، قال: ذاك الوازع، فانظري ماذا ترين، قالت: قد تفرق السواد، قال: قد تفرق الجيش، البيت البيت، قالت: فتزلت الجارية به وهي ترعب لما ترى، فقال: يا بنية، لا تخافي، فو الله إن أخاك عتيقاً لآثر أصحاب محمد عند محمد، قالت: وعليها طوق من فضة، فاختلسه بعض من دخل، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جعل أبو بكر ينادي: أنشدكم الله أيها الناس طوق أخي، فلم يرد أحد عليه، فقال: يا أخية إحسني طوقك، فإن الأمانة في الناس قليل.

قال الواقدي: ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرب، وأمر بقتل ستة رجال وأربع نسوة: عكرمة ابن أبي جهل، وهبار ابن الأسود، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صباة الليثي، والحويرث بن نفيل، وعبد الله بن هلال بن خطل الأدرمي، وهند بنت عتبة، وسارة مولاة لبني هاشم، وقينتين لابن خطل: قريبا وقريبة، ويقال: قرينا وأرنب .

قال الواقدي. ودخلت الجنود كلها، فلم تلق حرباً إلا خالد بن الوليد فإنه وجد جمعاً من قريش وأحابيها قد جمعوا له، فيهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، فمنعوه الدخول، وشهروا السلاح، ورموه بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة أبداً، فصاح خالد في أصحابه، وقتلهم، فقتل من قريش أربعة وعشرون، ومن هذيل أربعة، وانهمزوا أقبح إنهمز حتى قتلوا بالحزورة، وهم مولون من كل وجه، وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال، واتبعهم المسلمون، وجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يناديان: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقون عليهم الأبواب، ويطرحون السلاح في الطرق حتى يأخذه المسلمون.

قال الواقدي: وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من على ثنية أذاخر، فنظر إلى البارقة، فقال: ما هذه البارقة؟ ألم أنه عن القتال، قيل: يا رسول الله، خالد بن الوليد قاتل، ولو لم يقاتل ما قاتل، فقال: قضاء الله خير، وأقبل ابن حنبل مدحجاً في الحديد على فرس ذنوباً بيده قنّاة يقول: لا والله لا يدخلها عنوة حتى يرى ضرباً كأفواه المزاد، فلما انتهى إلى الندمة ورأى القتال دخله رعب حتى ما يستمسك من الرعدة، وفر هارباً حتى انتهى إلى الكعبة، فدخل بين أستارها بعد أن طرح سلاحه وترك فرسه، وأقبل حماس بن خالد الدؤلي منهزماً حتى أتى بيته فدقه، ففتحت له امرأته فدخل، وقد ذهبت روحه، فقالت: أين الخادم التي وعدتني؟ ما زلت منتظرتك منذ اليوم، تسخر به، فقال: دعي هذا وأغلقي الباب، فإنه من أغلق بابه فهو آمن، قالت: ويحك، ألم أهلك عن قتال محمد، وقلت لك: إني ما رأيته يقاتلكم مرة إلا وظهر عليكم، وما بابنا؟ قال: إنه لا يفتح على أحد بابه، ثم أنشدها:

إذ فر صفوان وفر عكرمه

إنك لو شهدتنا بالخندمه

وضربناهم بالسيوف المسلمه

وأبو يزيد كالعجوز المؤتمه

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

لهم زئير خلفنا وغمغمه

قال الواقدي: وحدثني قدامة بن موسى، عن بشير مولى المازنيين، عن جابر بن عبد الله، قال: كنت ممن لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر، فلما أشرف نظر إلى بيوت مكة، فحمد الله وأثنى عليه، ونظر إلى موضع قمة بالأبطح تجاه شعب بني هاشم حيث حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله ثلاث سنين، وقال: يا جابر، إن منزلنا اليوم حيث تقاسمت علينا قريش في كفرها، قال جابر: فذكرت كلاماً كنت أسمع في المدينة قبل ذلك، كان يقول: منزلنا غداً إن شاء الله إذا فتح علينا مكة في الخيف حيث تقاسموا على الكفر.

قال الواقدي: وكانت قبته يومئذ بالأدم ضربت له بالحجون، فأقبل حتى انتهى إليها ومعه أم سلمة وميمونة. قال، الواقدي: وحدثني معاوية بن عبد الله بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي رافع، قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا تنزل منزل من الشعب؟ قال: وهل ترك لنا عقيل من منزل! وكان عقيل قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فانزل في بعض بيوت مكة من غير منازل. فأبى وقال: لا أدخل البيوت، فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً، وكان يأتي إلى المسجد من الحجون، قال: وكذلك فعل في عمرة القضية وفي حجته.

قال الواقدي: وكانت أم هانئ بنت أبي طالب تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومي فلما كان يوم الفتح دخل عليها حموان لها: عبد الله بن أبي ربيعة والحارث بن هشام المخزوميان، فاستجارا بها، وقالوا: نحن في جوارك، فقالت: نعم أنتما في جوارى. قالت أم هانئ: فهما عندي إذ دخل علي فارس مدحج في الحديد ولا أعرفه، فقلت له: أنا بنت عم رسول الله، فأسفر عن وجهه، فإذا علي أخي، فاعتنقته، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما، فقلت: أخي من بين الناس تصنع بي هذا، فألقيت عليهما ثوباً، فقال: أتجيزين المشركين، فحلت دونهما، وقلت: لا والله ابتدئ بي قبلهما، قالت: فخرج ولم يكد،

فأغلقت عليهما بيتاً، وقلت: لا تخافا، وذهبت إلى خباء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء فلم أجده، ووجدت فيه فاطمة، فقلت لها: ما لقيت من ابن أُمِّي علي، أجرت حموين لي من المشركين، فتفلت عليهما ليقتلهما، قالت: وكانت أشد علي من زوجها، وقالت: لم تجيرين المشركين؟ وطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه الغبار، فقال: مرحباً بفاختة - وهو اسم أم هانئ -، فقلت: ماذا لقيت من ابن أُمِّي علي ما كدت أفلت منه، أجرت حموين لي من المشركين، فتفلت عليهما ليقتلهما، فقال: ما كان ذلك له، قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت، ثم أمر فاطمة فسكبت له غسلاً فاغتسل، ثم صلى ثماني ركعات في ثوب واحد ملتحفاً به وقت الضحى، قالت: فرجعت إليهما وأخبرتهما، وقلت: إن شئتما فأقيما، وإن شئتما فارجعا إلى منازلكما، فأقاما عندي في منزلي يومين، ثم انصرفا إلى منازلهما. وأتى آت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة جالسان في ناديهما متفضلان في الملاء المزعفر، فقال: لا سبيل إليهما، قد أجرناهما .

قال الواقدي: ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبه ساعة من النهار، ثم دعا براحلته بعد أن اغتسل وصلى، فأدנית إلى باب القبة، وخرج وعليه السلاح والمغفر على رأسه، وقد صف له الناس، فركبها والخيل تمعج ما بين الخندمة إلى الحجون، ثم مر وأبو بكر إلى جانبه على راحلة أخرى يسير ويحادثه، وإذا بنات أبي أحيحة سعيد بن العاص بالبطحاء حذاء منزل أبي أحيحة، وقد نشرن شعورهن، فلطمن وجوه الخيل بالخمير، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر، فتبسم وأنشده قول حسان:

تلطمهن بالخمير النساء

تظل جياندا متمطرات

فلما انتهى إلى الكعبة تقدم على راحلته، فاستلم الركن بمحجنه، وكبر فكبر المسلمون لتكبيره، وعجوا بالتكبير حتى ارتجت مكة، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إليهم أن اسكتوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون، ثم طاف بالبيت على راحلته، ومحمد بن مسلمة أخذ بزمامها، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصوطةً بالرصاص، وكان هبل أعظمها، وهو تجاه الكعبة على بائها، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح، فجعل كلما يمر بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"، فيقع الصنم لوجهه، ثم أمر هبل فكسر وهو واقف عليه، فقال الزبير لأبي سفيان: يا أبا سفيان، قد كسر هبل، أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم، فقال: دع هذا عنك يا بن العوام، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.

قال الواقدي: ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ناحية من المسجد وأرسل بلالاً إلى عثمان ابن طلحة يأتيه بالمفتاح، مفتاح الكعبة، فقال عثمان: نعم، فخرج إلى أمه وهي بنت شيبه، فقال لها والمفتاح عندها يومئذ: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد طلب المفتاح، فقالت: أعيذك بالله أن يكون الذي يذهب مأثرة قومه على يده! فقال: فوالله لتأتيني به أو ليأتينك غيري فيأخذه منك، فأدخلته في حجرها، وقالت: أي رجل يدخل يده ههنا، فبينما هما على ذلك وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدار، وعمر رافع صوته حين رأى عثمان أبطاً: يا عثمان اخرج،

فقلت أمه: خذ المفتاح، فلأن تأخذه أنت أحب إلي من أن يأخذه تيم وعدي، فأخذه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما تناوله بسط العباس ابن عبد المطلب يده وقال: يا رسول الله، بأي أنت، إجمع لنا بين السقاية والحجاجة، فقال: إنما أعطيك ما ترضون فيه، ولا أعطيك ما ترزؤون منه، قالوا: وكان عثمان ابن طلحة قد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص مسلماً قبل الفتح.

قال الواقدي: وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ومعه عثمان بن طلحة، وأمره أن يفتح البيت فلا يدع فيه صورة ولا تمثالاً إلا صورة إبراهيم الخليل عليه السلام، فلما دخل الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخاً كبيراً يستقسم بالأزلام.

قال الواقدي: وقد روي أنه أمره بمحو الصور كلها لم يستثن، فترك عمر صورة إبراهيم، فقال لعمر: ألم آمرك ألا تدع فيها صورة، فقال عمر: كانت صورة إبراهيم، قال: فامحها، وقال: قاتلهم الله، جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام. قال، ومحا صورة مريم. قال: وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم محا الصور بيده، روى ذلك ابن أبي ذئب، عن عبد الرحمن بن مهران، عن عمير مولى ابن عباس، عن أسامة بن زيد، قال: دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة، فرأى فيها صوراً، فأمرني أن آتيه في الدلو بماء، فجعل يبل به الثوب ويضرب به الصور ويقول: قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون.

قال الواقدي: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة فأغلقت عليه، ومعه فيها أسامة بن زيد، وبلال بن رباح، وعثمان بن طلحة، فمكث فيها ما شاء الله، وخالد ابن الوليد واقف على الحال، يذب الناس عنه، حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوقف وأخذ بعضادتي الباب، وأشرف على الناس وفي يده المفتاح، ثم جعله في كمه، وأهل مكة قيام تحته، وبعضهم جلوس قد ليط بهم، فقال الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ماذا تقولون، وماذا تظنون، قالوا: نقول خيراً، ونظن شراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال: إني أقول كما قال أخي يوسف: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"، ألا إن كل رباً في الجاهلية أو دم أو مائة فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج. ألا وفي قتيل شبه العمدة، قتيل العصا والسوط الدية مغلظة مائة ناقة، منها أربعون في بطونها أولادها. إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بأبائها، كلكم لآدم، وآدم من تراب. وأكرمكم عند الله أتقاكم. ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرم الله، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يأتي بعدي، وما أحلت لي إلا ساعة من النهار، قال: يقصدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده هكذا، لا ينفر صيدها، ولا يعضد عضائها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يختلي خلاها. فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لا بد منه للقبور والبيوت، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال إلا الإذخر، فإنه حلال، ولا وصية لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة أن تعطي من مالها إلا بإذن زوجها، والمسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، يد واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، والبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد العصر، ولا بعد الصبح،

وأنهاكم عن صيام يومين: يوم الأضحى ويوم الفطر.

ثم قال: ادعوا لي عثمان ابن طلحة، فجاء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له يوماً بمكة قبل الهجرة ومع عثمان المفتاح: لعلك ستري هذا المفتاح بيدي يوماً أضعه حيث شئت، فقال عثمان: لقد هلك قريش إذاً وذلت، فقال صلى الله عليه وسلم: بل عمرت وعزت، قال عثمان: فلما دعاني يومئذ والمفتاح بيده ذكرت قوله حين قال، فاستقبلته ببشر، فاستقبلني بمثله، ثم قال: خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة، لا يترعها منكم إلا ظالم. يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا بالمعروف، قال عثمان: فلما وليت ناداني فرجعت، فقال: ألم يكن الذي قلت لك، يعني ما كان قاله بمكة من قبل، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

قال الواقدي: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ برفع السلاح، وقال: إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر. فخبطوهم بالسيف ساعة، وهي الساعة التي أحلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: وقد كان نوفل بن معاوية الدؤلي من بني بكر استأمن رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه فأمنه، وكانت خزاعة تطلبه بدماء من قتلت بكر وقريش منها بالوتير، وقد كانت خزاعة قالت أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أنس بن زنيم هجأك، فهذر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه، فلما فتح مكة هرب والتحق بالجبال، وقد كان قبل أن يفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قال شعراً يعتذر فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، من جملته:

بك الله يهديها وقال لها ارشدي

أبر وأوفى ذمة من محمد

إذا راح يهتز اهتزاز المهند

وأعطى لرأس السابق المتجرد

وإن وعيداً منك كالأخذ باليد

على كل حي من تهام ومنجد

فلا رفعت سوطي إلي إذن يدي

أصيبوا بنحس يوم طلق وأسعد.

كفاءً فعزت عبرتي وتلدد

جميعاً فالأ تدمع العين أكم

وإخوته وهل ملوك كأعبد!

هرقت ففكر عالم الحق واقصد

أنت الذي تهدي معد بأمره

فما حملت من ناقة فوق كورها

أحث على خير وأوسع نائلاً

وأكسى لبرد الخال قبل ارتدائه

تعلم رسول الله أنك مدركي

تعلم رسول الله أنك قادر

ونبي رسول الله أنني هجوته

سوى أنني قد قلت ياويح فتية

أصابهم من لم يكن لدمائهم

ذؤيباً وكلثوماً وسلمى تتابعوا

على أن سلمى ليس منهم كمثلته

فإني لا عرضاً خرقت ولا دماً

قال الواقدي: وكانت كلمته هذه قد بلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يفتح مكة، فنهنت عنه، وكلمه يوم الفتح نوفل بن معاوية الدؤلي، فقال: يا رسول الله، أنت أولى الناس بالعفو، ومن منا لم يعادك ولم يؤذك، ونحن في جاهلية لا ندري ما نأخذ وما ندع، حتى هدانا الله بك، وأنقذنا بيمينك من الهلكة، وقد كذب عليه الركب، وكثروا في أمره عندك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دع الركب عنك، إنا لم نجد بتهامة أحداً من ذوي رحم ولا بعيد الرحم كان أبر بنا من خزاعة، فاسكت يا نوفل، فلما سكت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد عفوت عنه فقال نوفل: فذاك أبي وأمي.

قال الواقدي: وجاءت الظهر، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً أن يؤذن فوق ظهر الكعبة وقريش في رؤوس الجبال، ومنهم من قد تغيب وستر وجهه خوفاً من أن يقتلوا، ومنهم من يطلب الأمان، ومنهم من قد آمن. فلما أذن بلال وبلغ إلى قوله: أشهد أن محمداً رسول الله، رفع صوته كأشد ما يكون، قال: تقول جويرية بنت أبي جهل: قد لعمرى رفع لك ذكرك، فأما الصلاة فسنصلي، ولكن والله لا نحب من قتل الأحبة أبداً، ولقد كان جاء أبي الذي جاء محمداً من النبوة، فردها ولم يرد خلاف قومه.

وقال خالد بن سعيد بن العاص: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يدرك هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: واثكلاه.

ليتني مت قبل هذا اليوم قبل أن اسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة، وقال الحكم بن أبي العاص: هذا والله الحدث العظيم، أن يصيح عبد بني جمح، يصيح بما يصيح به على بيت أبي طلحة، وقال سهيل بن عمرو، إن كان هذا سخطاً من الله تعالى فسيغيره، وإن كان الله رضاً فسيقره، وقال أبو سفيان: أما أنا فلا أقول شيئاً، لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصباء، قال: فأتى جرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بمقالة القوم.

قال الواقدي: فكان سهيل بن عمرو يحدث فيقول: لما دخل محمد مكة انقمعت فدخلت بيتي وأغلقت علي، وقلت لابني عبد الله بن سهيل: اذهب فاطلب لي حواراً من محمد، فإني لا آمن أن أقتل، وجعلت أتذكر أثري عنده وعند أصحابه فلا أرى أسوأ أثراً مني، فإني لقيته يوم الحديبية بما لم يلقيه أحد به، وكنت الذي كاتبه، مع حضوري بديراً وأحداً، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله ابن سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أبي تؤمنه؟ قال: نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر، ثم التفت إلى من حوله فقال: من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدن النظر إليه. ثم قال: قل له: فليخرج، فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أن لم يكن له تتابع، فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سهيل: كان والله براً صغيراً وكبيراً، وكان سهيل يقبل ويدبر غير خائف، وخرج إلى خيبر مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو على شركه حتى أسلم بالجرعانة.

الجزء الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تتمة خبر فتح مكة

قال الواقدي: وهرب هبيرة بن أبي وهب وعبد الله بن الزبير جميعاً حتى انتهيا إلى نجران فلم يأمنوا الخوف حتى دخلا حصن نجران، فقبل: ما شأنكما، قالوا: أما قريش فقد قتلت ودخل محمد مكة، ونحن والله نرى أن محمداً سائر إلى حصنكم هذا، فجعلت الحارث بن كعب يصلحون ما رث من حصنهم، وجمعوا ماشيتهم، فأرسل حسان بن ثابت إلى ابن الزبير:

نجران في عيش أجد ذميم

لاتعد من رجلاً أهلك بغضه

جوفاء ذات معايب ووصوم

بليت قناتك في الحروب فألفيت

بعذاب سوء في الحياة مقيم

غضب الإله على الزبير وابنه

فلما جاء ابن الزبير شعر حسان تهيأ للخروج، فقال هبيرة بن وهب: أين تريد يا بن عم، قال له: أريد والله محمداً، قال: أتريد أن تتبعه، قال: أي والله، قال هبيرة: يا ليت أي كنت رافقت غيرك، والله ما ظننت أنك تتبع محمداً أبداً، قال ابن الزبير: هو ذاك، فعلى أي شيء أقيم مع بني الحارث بن كعب وأترك ابن عمي وخير الناس وأبرهم، وبين قومي وداري، فأنحدر ابن الزبير حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في أصحابه، فلما نظر إليه قال: هذا ابن الزبير ومعه وجه فيه نور الإسلام، فلما وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: السلام عليك يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت عبده ورسوله، والحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد عاديتك وأجلبت عليك وركبت الفرس والبعير، ومشيت على قدمي في عداوتك، ثم هربت منك إلى نجران، وأنا أريد ألا أقرب الإسلام أبداً، ثم أرادني الله منه بخير، فألقاه في قلبي، وحببه إلي، وذكرت ما كنت فيه من الضلال واتباع ما لا ينفع ذا عقل، من حجر يعبد، ويذبح له لا يدري من عبده ومن لا يعبد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي هداك للإسلام، أحمد الله، إن الإسلام يجب ما كان قبله. وأقام هبيرة بنجران، وأسلمت أم هانئ، فقال هبيرة حين بلغه إسلامها يوم الفتح يؤنبها شعراً من جملته:

وقطعت الأرحام منك حبالها

وإن كنت قد تابعت دين محمد

مللمة غبراء ببس بلالها

فكوني على أعلى سحوق بهضبة

فأقام بنجران حتى مات مشركاً قال الواقدي: وهرب حويطب بن عبد العزى فدخل حائطاً بمكة، وجاء أبو ذر لحاجته، فدخل الحائط فرآه، فهرب حويطب، فقال أبو ذر: تعال فأنت آمن، فرجع إليه فقال: أنت آمن، فاذهب حيث شئت،

وإن شئت أدخلتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن شئت فإلى منزلك، قال: وهل من سبيل إلى منزلي ألقى فاقتل قبل أن أصل إلى منزلي، أو يدخل علي منزلي فاقتل، قال: فأنا أبلغ معك منزلك، فبلغ معه منزله، ثم جعل ينادي على بابه: إن حويطباً آمن فلا يهيج. ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: أو ليس قد أمانا الناس كلهم إلا من أمرت بقتله. قال الواقدي: وهرب عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن حتى ركب البحر، قال: وجاءت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة منهن هند بنت عتبة - وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتلها - والبعوم بنت المعدل الكنانية امرأة صفوان بن أمية، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة الحارث بن هشام، وهند بنت عتبة بن الحجاج أم عبد الله بن عمرو بن العاص، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبطح، فأسلمن، ولما دخلن عليه دخلن وعنده زوجته وابنته فاطمة ونساء من نساء عبد المطلب وسألن أن يبايعهن، فقال: إني لا أصافح النساء، ويقال: إنه وضع على يده ثوباً فمسحن عليه، ويقال: كان يؤتى بقدر من ماء فيدخل يده فيه ثم يرفعه إليهن، فيدخلن أيديهن فيه، فقالت أم حكيم امرأة عكرمة: يا رسول الله، إن عكرمة هرب منك إلى اليمن، خاف أن تقتله، فأمنه، فقال: هو آمن. فخرجت أم حكيم في طلبه، ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت به على حي، فاستغاثت بهم عليه، فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة، فركب البحر، فهاج بهم، فجعل نوتي السفينة يقول له: أن أخلص، قال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله، قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا من الأمر فجعلت تلح عليه وتقول: يابن عم، جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، لا تهلك نفسك، فوقف لها حتى أدركته، فقالت: إني قد استأمنت لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنك، قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم أنا كلمته، فأمنك، فرجع معها، فقالت: ما لقيت من غلامك الرومي، وأخبرته خبره، فقتله عكرمة، فلما دنا من مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي. ولا يبلغ الميت. فلما وصل عكرمة ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وثب إليه صلى الله عليه وسلم وليس عليه رداء فرحاً له، ثم جلس فوق عكرمة بين يديه ومعه زوجته منقبة، فقال: يا محمد، إن هذه أخبرتني أنك أمتني، فقال: صدقت، أنت آمن، فقال عكرمة: فإلام تدعو؟ فقال: إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وعد خصال الإسلام، فقال عكرمة: ما دعوت إلا إلى حق، وإلى حسن جميل، ولقد كنت فينا من قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقنا حديثاً، وأعظمنا براً. ثم قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه، قال: فإني أسألك أن تغفر لي كل عداوة عاديتكها أو مسير أوضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك، أو أنت غائب عنه. فقال: اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلي يريد بذلك إطفاء نورك، واغفر له ما نال مني ومن عرضي، في وجهي أو أنا غائب عنه. فقال عكرمة: رضيت بذلك يا رسول الله، ثم قال: أما والله لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقته ضعفها في سبيل الإسلام وفي سبيل الله، ولأجتهدن في القتال بين يديك حتى أقتل شهيداً، قال: فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأته بذلك النكاح الأول.

قال الواقدي: وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشعبة، وجعل يقول لغلامه يسار، وليس معه غيره: ويحك. انظر من ترى؟ فقال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمداً علي، فلحقه، فقال صفوان: يا عمير، مالك؟ ما كفك ما صنعت؟ حملتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي، فقال: يا أبا وهب، جعلت فداك، جئتك من عند خير الناس، وأبى الناس وأوصل الناس، وقد كان عمير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، سيد قومي صفوان بن أمية خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، خاف ألا تؤمنه، فأمنه فداك أبي وأمي، فقال: قد أمنت، فخرج في أثره، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنك قال صفوان: لا والله حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، جئته وهو يريد أن يقتل نفسه فقال: لا أرجع إلا بعلامة أعرفها، فقال: خذ عمامتي، فرجع عمير إليه بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهي البرد الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة معتجراً به - برد حبرة أحمر - فخرج عمير في طلبه الثانية حتى جاءه بالبرد فقال: يا أبا وهب، جئتك من عند خير الناس وأوصل الناس وأبى الناس، مجده بمجدك، وعزه عزك، وملكه ملكك، ابن أبيك وأملك، أذكرك الله في نفسك، فقال: أخاف أن أقتل، قال: فإنه دعاك إلى الإسلام فإن رضيت وإلا سيرك شهرين فهو أوفى الناس وأبرهم، وقد بعث إليك بيرده الذي دخل به معتجراً، أتعرفه؟ قال: نعم، فأخرجه، فقال: نعم هو هو، فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجده يصلي العصر بالناس، فقال: كم يصلون؟ قالوا: خمس صلوات في اليوم والليلة قال: أحمد يصلي بهم؟ قالوا: نعم، فلما سلم من صلاته صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم إليك، فإن رضيت أمراً، وإلا سيرتني شهرين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزل أبا وهب، فقال: لا والله أو تبين، لي، قال: بل سر أربعة أشهر. فترل صفوان وخرج معه إلى حنين وهو كافر، وأرسل إليه يستعير أذراعه، وكانت مائة درع، فقال: أطوعاً أم كرهاً؟ فقال رضي الله عنه بل طوعاً عارية مؤداة، فأعاره إياها، ثم أعادها إليه بعد إنقضاء حنين والطائف، فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجعرانة يسير في غنائم هوازن ينظر إليها، فنظر صفوان إلى شعب هناك مملوء نعماً وشاء ورعاء، فأدام النظر إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرمقه، فقال: أبا وهب: يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم، قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله.

قال الواقدي: فأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فكان قد أسلم، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، فربما أملى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم "سميع عليم" فيكتب "عزيز حكيم" ونحو ذلك، ويقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: كذلك الله، ويقرأ فافتن، وقال: والله ما يدري ما يقول، إني لأكتب له ما شئت فلا ينكر، وإنه ليوحى إلي كما يوحى، إلى محمد، وخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه، وأمر بقتله يوم الفتح، فلما كان يومئذ جاء إلى عثمان، وكان أخاه من الرضاعة، فقال: يا أخي، إني قد أجزتك فاحتبسني ههنا واذهب إلى محمد فكلّمه في، فإن محمداً إن رأيي ضرب عنقي، إن جرمي أعظم الجرم، وقد جئت تائباً، فقال عثمان: قم فاذهب معي إليه، قال: كلا، والله إنه إن رأيي ضرب عنقي ولم يناظرني، قد أهدر دمي وأصحابه

يطلبوني في كل موضع، فقال عثمان: انطلق معي فإنه لا يقتلك إن شاء الله، فلم يرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعثمان آخذاً بيد عبد الله بن سعد واقفين بين يديه، فقال عثمان: يا رسول الله، هذا أخي من الرضاعة، إن أمه كانت تحملي وتمشيه وترضعني وتلفظني وتتركه. فبه لي، فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل عثمان كلما أعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه استقبله بوجهه، وأعاد عليه هذا الكلام، وإنما أعرض صلى الله عليه وسلم عنه إرادةً لأن يقوم رجل فيضرب عنقه، فلما رأى ألا يقوم أحد وعثمان قد انكب عليه يقبل رأسه ويقول: يا رسول الله، بايعه فذاك أبي وأمي على الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، فبايعه.

قال الواقدي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك للمسلمين: ما منعكم أن يقوم منكم واحد إلى هذا الكلب فيقتله، أو قال: الفاسق، فقال عباد بن بشر: والذي بعثك بالحق، إني لأتبع طرفك من كل ناحية، رجاء أن تشير إلي فأضرب عنقه. ويقال: إن أبا البشير هو الذي قال هذا، ويقال: بل قاله عمر بن الخطاب، فقال صلى الله عليه وسلم: إني لا أقتل بالإشارة، وقيل: إنه قال: إن النبي لا يكون له خائنة الأعين.

قال الواقدي: فجعل عبد الله بن سعد يفر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما رآه، فقال له عثمان: بأي أنت وأمي، لو ترى ابن أم عبد يفر منك كلما رآك، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أو لم أبايعه وأؤمنه، قال: بلى، ولكنه يتذكر عظم جرمه في الإسلام، فقال: إن الإسلام يجب ما قبله.

قال الواقدي: وأما الحويرث بن معبد، وهو من ولد قصي بن كلاب، فإنه كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فأهدر دمه، فبينما هو في منزله يوم الفتح وقد أغلق عليه بابه، جاء علي رضي الله عنه يسأل عنه، فقبل له: هو في البادية، وأخبر الحويرث أنه جاء يطلبه وتنحى علي رضي الله عنه عن بابه، فخرج الحويرث يريد أن يهرب من بيت إلى بيت آخر، فتلقاه علي رضي الله عنه فضرب عنقه.

قال الواقدي: وأما هبار بن الأسود، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يحرقه بالنار، ثم قال: إنما يعذب بالنار رب النار، اقطعوا يديه ورجليه إن قدرتم عليه، ثم اقتلوه، وكان جرمه أن نحس زينب، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجرت، وضرب ظهرها بالرمح وهي حبلى، فأسقطت، فلم يقدر المسلمون عليه يوم الفتح، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة طلع هبار بن الأسود قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم إسلامه، فخرجت سلمى مولاة النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: لا أنعم الله بك عينا، أنت الذي فعلت وفعلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبار يعتذر إليه: "الإسلام محاذ ذلك. ونهى عن التعرض له." قال الواقدي: قال ابن عباس رضي الله عنه: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبار يعتذر إليه وهو يطأطأ رأسه استحياءً مما يعتذر هبار ويقول له: قد عفوت عنك.

قال الواقدي: وأما ابن خطل فإنه خرج حتى دخل بين أستار الكعبة، فأخرجته أبو برزة الأسلمي منها، فضرب عنقه بين الركن والمقام، ويقال: بل قتله عمار بن ياسر، وقيل: سعد بن حريث المخزومي، وقيل: شريك بن عبدة العجلاني، والأثبت أنه أبو برزة، قال: وكان جرمه أنه أسلم وهاجر إلى المدينة وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعياً، وبعث

معه رجلاً من خزاعة فقتله، وساق ما أخذ من مال الصدقة، ورجع إلى مكة، فقالت له قريش: ما جاء بك، قال: لم أجد ديناً خيراً من دينكم، وكانت له قيتتان: إحداهما قريني، والأخرى قرينة - أو أرنب، وكان ابن خطل يقول الشعر يهجو به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويغنيان به، ويدخل عليه المشركون بيته فيشربون عنده الخمر، ويسمعون الغناء بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: وأما مقس بن صباية فإن أمه سهمية، وكان يوم الفتح عند أخواله بني سهم، فاصطبح الخمر ذلك اليوم في ندامى له، وخرج ثملاً يتغنى ويتمثل بأبيات منها:

رأيت الموت نقب عن هشام

دعيني أصطبح يا بكر إني

أخي القينات والشرب الكرام

ونقب عن أهلك أبي يزيد

وكيف حياة أصداء وهام!

يخبرنا ابن كبشة أن سنجيا

فقد شبع الأنيس من الطعام

إذا ما الرأس زال بمنكبيه

وتحيني إذا رمت عظامي!

أتقتلني إذا ما، كنت حياً

فلقيه نميلة بن عبد الله الليثي وهو من رهطه، فضربه بالسيف حتى قتله، فقالت أخته ترثيه:

وفجع أصناف النساء بمقيس

لعمري لقد أخزى نميلة رهطه

إذا النفساء أصبحت لم تخرس

فله عينا من رأى مثل مقيس

وكان جرم مقيس من قبل أن أخاه هاشم بن صباية أسلم وشهد المريسيع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتله رجل من رهط عبادة بن الصامت، وقيل: من بني عمرو بن عوف وهو لا يعرفه، فظنه من المشركين، فمضى له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدية على العاقلة، فقدم مقيس أخوه المدينة فأخذ ديته، وأسلم، ثم عدا على قاتل أخيه، فقتله، وهرب مرتداً كافراً يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر، فأهدر دمه.

قال الواقدي: فأما سارة مولاة بني هاشم، وكانت مغنية نواحة بمكة، وكانت قد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تطلب أن يصلها، وشكت إليه الحاجة وذلك بعد بدر وأحد، فقال لها: أما كان لك في غنائك ونياحك ما يغنيك؟ قالت: يا محمد، إن قريشاً منذ قتل من قتل منهم بدير تركوا استماع الغناء، فوصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوقر لها بغيراً طعاماً، فرجعت إلى قريش وهي على دينها، وكانت يلقي عليها هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغني به، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أن تقتل، فقتلت، وأما قيتتا ابن خطل فقتل يوم الفتح إحداهما، وهي أرنب، أو قرينة، وأما قريني فاستؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمنها وعاشت حتى ماتت في أيام عثمان.

قال الواقدي: وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل وحشي يوم الفتح، فهرب إلى الطائف، فلم يزل بها مقيماً حتى قدم مع وفد الطائف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل عليه فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله، فقال: أوحشي؟ قال: نعم، قال: اجلس وحدثني كيف قتلت حمزة؟ فلما أخبره قال: قم وغيب عني وجهك،

فكان إذا رآه توارى عنه.

قال الواقدي: وحديثي ابن أبي ذئب ومعمر عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبي عمرو بن عدي بن أبي الحمراء، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعد فراغه من أمر الفتح وهو يريد الخروج من مكة: أما والله إنك لخير أرض الله، وأحب بلاد الله إلي، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت.

وزاد محمد بن إسحاق في كتاب المغازي أن هند بنت عتبة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نساء قريش متنكرة متنعبة لحدثها الذي كان في الإسلام، وما صنعت بحمزة حين جدعته وبقرت بطنه عن كبده، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحدثها ذلك، فلما دنت منه، وقال حين بايعته على ألا تشركن بالله شيئاً قلن: نعم، قال: ولا يسرقن، فقالت هند: والله أنا كنت لاصيب من مال أب سفيان الهنة والهنهية فما أعلم أحلال ذلك أم لا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وإنك لهند؟ قالت، نعم، أنا هند، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، فاعف عما سلف عفا الله عنك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولا يزينن، فقالت هند: وهل تزين الحرة، فقال: لا، ولا يقتلن أولادهن، فقالت هند: قد لعمرى ربي ناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ببدر، فأنت وهم أعرف، فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى أسفرت نواحيه، قال: ولا يأتين ببهتان يفتريه، فقالت هند: إن إتيان البهتان لقبيح، فقال: ولا يعصينك في معروف، فقالت: ما جلسنا هذه الجلسة ونحن نريد أن نعصيك.

قال محمد بن إسحاق: ومن جيد شعر عبد الله بن الزبير الذي اعتذر به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه:

فالليل ممتد الرواق بهيم

فيه، فبت كأني محموم

عيرانة سرح اليدين سعوم

أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

سهم، وتأمرنى به مخزوم

أمر الغواة وأمرهم مشؤوم

قلبي، ومخطيء هذه محروم

ودعت أواصر، بيننا وحلوم

زللي، فإنك راحم مرحوم

نور أغر وخاتم مختوم

شرفاً وبرهان الإله عظيم

منع الرقاد بلابل وهموم

مما أتاني أن أحمد لأمني

ياخير من حملت على أوصالها

إني لمعتذر إليك من الذي

أيان تأمرني بأغوى خطة

وأمد أسباب الردى ويقودني

فالיום آمن بالنبي محمد

مضت العداوة وانقضت أسبابها

فاغفر فدى لك والدي كلاهما

وعليك من علم الملوك علامة

أعطاك بعد محبة برهانه

ولقد شهدت بأن دينك صادق

بر وشأنك في العباد جسيم

والله يشهد أن أحمد مصطفى

مقبّل في الصالحين كريم

فرع علا بيانه من هاشم

دوح تمكن في العلا وأروم

قال الواقدي: وفي يوم الفتح سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة الذين دخلها عليهم الطلقاء، لئنه عليهم بعد أن أظفره الله بهم، فصاروا أرقاء له. وقد قيل له يوم الفتح: قد أمكنك الله تعالى فخذ ما شئت من أقمار على غصون - يعنون النساء - فقال صلى الله عليه وسلم: يأبى ذلك إطعامهم الضيف، وإكرامهم البيت، ووجوهم مناصر الهدى. ثم نعود إلى تفسير ما بقي من ألفاظ الفصل، قوله: فإن كان فيك عجل فاسترفه أي كن ذا رفاهية، ولا ترهقن نفسك بالعجل، فلا بد من لقاء بعضنا بعضاً، فأى حاجة بك إلى أن تعجل، ثم فسر ذلك فقال: إن أزرك في بلادك، أي إن غزوتك في بلادك فخلق أن يكون الله بعثني للانتقام منك، وإن زرتني - أي إن غزوتني في بلادك وأقبلت بجموعك إلي كنتم كما قال أخو بني أسد، كنت أسمع قديماً أن هذا البيت من شعر بشر بن أبي حازم الأسدي، والآن فقد تصفحت شعره فلم أجده، ولا وقفت بعد على قائله، إن وقفت فيما يستقبل من الزمان عليه الحقته.

وريح حاصب، تحمل الحصباء، وهي صغار الحصى، وإذا كانت بين أغوار - وهي ما سفّل من الأرض وكانت مع ذلك ريح صيف - كانت أعظم مشقة، وأشدّ ضرراً على من تلاقيه. وجمود، يمكن أن يكون عطفاً على حاصب، ويمكن أن يكون عطفاً على أغوار، أي بين غور من الأرض وحرّة، وذلك أشدّ لأذاها لما تكسبه الحرّة من لفح السموم ووهجها. والوجه الأول أليق.

وأعضضته أي - جعلته معضوضاً برؤوس أهلّك، وأكثر ما يأتي أفعلته أن يجعله فاعلاً، وهي ههنا من المقلوب، أي أعضضت رؤوس أهلّك به، كقوله. قد قطع الحبل بالمروء.

وجده عتبة بن ربيعة، وخاله الوليد بن عتبة، وأخوه حنظلة بن أبي سفيان، قتلهم علي رضي الله عنه يوم بدر.

والأغلف القلب: الذي لا بصيرة له، كأن قلبه في غلاف، قال تعالى: وقالوا قلوبنا غلف.

والمقارب العقل، بالكسر الذي ليس عقله بجيد، والعامة تقول فيما هذا شأنه: مقارب، بفتح الراء.

ثم قال: الأولى أن يقال هذه الكلمة لك.

ونشدت الضالة: طلبتها، وأنشدتها: عرفتتها، أي طلبت ما ليس لك.

والسائمة: المال الراعي، والكلام خارج، مخرج الاستعارة.

فإن قلت: كل هذا الكلام يطابق بعضه بعضاً إلا قوله: فما أبعد قولك من فعلك وكيف استبعد رضي الله عنه ذلك ولا بعد بينهما، لأنه يطلب الخلافة قولاً وفعلًا، فأى بعد بين قوله وفعله.

قل: لأن فعله البغي، والخروج على الإمام الذي ثبتت إمامته وصحت، وتفريق جماعة المسلمين، وشق العصا، هذا مع الأمور التي كانت تظهر عليه وتقتضي الفسق، من لبس الحرير، والمنسوج بالذهب، وما كان يتعاطاه في حياة عثمان من

المنكرات التي لم تثبت توبته منها، فهذا فعله.

وأما قوله: فرعمه أنه أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، وهذا القول بعيد من ذلك الفعل جداً.

و ما في قوله: وقريب ما أشبهت مصدرية، أي وقريب شبهك بأعمام وأحوال. وقد ذكرنا من قتل من بني أمية في حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تقدم، وإليهم الإشارة بالأعمام والأحوال، لأن أحوال معاوية من بني عبد شمس، كما أن أعمامه من بني عبد شمس.

قوله: ولم تماشها الهويين أي لم تصحبها، يصفها بالسرعة والمضي في الرؤوس والأعناق وأما قوله: ادخل فيما دخل فيه الناس وحاكم القوم، فهي الحجة التي يحتج بها أصحابنا له في أنه لم يسلم قتله عثمان إلى معاوية، وهي حجة صحيحة، لأن الإمام يجب أن يطاع، ثم يتحاكم إليه أولياء الدم والمتهمون، فإن حكم بالحق استديمت حكومته، وإلا فسق وبطلت إمامته.

قوله: فأما تلك التي تريدها، قيل إنه يريد التعلق بهذه الشبهة، وهي قتلة عثمان، وقيل: أراد به ما كان معاوية يكرر طلبه من أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهو أن يقره على الشام وحده، ولا يكلفه البيعة، قال: إن ذلك كمخادعة الصبي في أول فطامه عن اللبن بما تصنعه النساء له مما يكره إليه الثدي ويسليه عنه، ويرغبه في التعوض بغيره، وكتاب معاوية الذي ذكرناه لم يتضمن حديث الشام.

وكتب إليه أيضاً.

الأصل: أما بعد، فقد آن لك أن تنتفع باللمح الباصر من عيان الأمور، فلقد سلكت مدارج أسلافك بادعائك الأباطيل، واقتحامك غرور المين والأكاذيب، من إنتحالك ما قد علا عنك، وابتزازك لما قد اخترن دونك، فراراً من الحق، وجحوداً لما هو أَلَزَم لك من لحمك ودمك، مما قد وعاه سمعك، وملىء به صدرك، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وبعد البيان إلا اللبس! فاحذر الشبهة واشتمالها على لبستها، فإن الفتنة طالما أغدقت جلايبها، وأعشت الأبصار ظلمتها، وقد أتاني كتاب منك ذو أفانين من القول ضعفت قواها عن السلم، وأساطير لم يحكها عنك علم ولا حلم، أصبحت منها كالحائض في الدهاس، والخابط في الدیماس، وترقيت إلى مرقبة بعيدة المرام، نازحة الأعلام، تقصر دونهما الأنوق، ويجاذى بها العيوق، وحاش لله أن تلي للمسلمين من بعدي صدرأً أو وردأً، أو أجري لك على أحد منهم عقداً أو عهداً، فمن الآن فتدارك نفسك وانظر لها، فإنك إن فرطت حتى ينهد إليك عباد الله أرتجت عليك الأمور، ومنعت أمراً هو منك اليوم مقبول، والسلام.

الشرح: آن لك وأنى لك بمعنى، أي قرب وحن، تقول: آن لك أن تفعل كذا يبين أيناً، وقال:

وأقصر عن ليلي، بلى قد أنى ليا

ألم يأن لي أن تجلى عني عمايتي

فجمع بين اللغتين، وأنى مقلوبة عن آن، ومما يجري مجرى المثل قولهم لمن يرونه شيئاً شديداً يبصره ولا يشك فيه، قد رأيته لحاً باصراً، قالوا: أي نظراً بتحديد شديد، ومخرجه مخرج رجل لابن وتامر، أي ذو لبن وتمر، ومعنى باصر ذو بصر، يقول رضي الله عنه لمعاوية: قد حان أن تنتفع بما تعلمه من معاينة الأمور والأحوال وتحققه يقيناً بقلبك، كما يتحقق ذو اللمح

الباصر ما يبصره بحاسة بصره، وأراد ببيان الأمور ههنا معاينتها، وهو ما يعرفه ضرورة من استحقاق علي رضي الله عنه للخلافة دونه، وبراءته من كل شبهة ينسبها إليه.

ثم قال له: فقد سلكت، أي اتبعت طرائق أبي سفيان أبيك وعتبة جدك وأمثالهما من أهلك ذوي الكفر والشقاق، والأباطيل: جمع باطل على غير قياس، كأنهم جمعوا إبطيلاً، والافتحام: إلقاء النفس في الأمر من غير روية. والمين الكذب. والغرور بالضم المصدر وبالفتح الاسم، وانتحلت القصيدة، أي ادعيتها كذباً. قال: ما قد علا عنك، أي أنت دون الخلافة، ولست من أهلها والابتزاز: الاستلاب. قال: لما قد اختزن دونك، يعني التسمي بإمرة المؤمنين.

ثم قال: فراراً من الحق، أي فعلت ذلك كله هرباً من التمسك بالحق والدين، وحباً للكفر والشقاق والتغلب. قال: وجحوداً لما هو ألزم، يعني فرض طاعة علي رضي الله عنه، لأنه قد وعّاها سمعه، لا ريب في ذلك، إما بالنص في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تذكره الشيعة، فقد كان معاوية حاضراً يوم الغدير لأنه حج معهم حجة الوداع، وقد كان أيضاً حاضراً يوم تبوك حين قال له بمحض من الناس كافة، أنت مني بمثلة هارون من موسى، وقد سمع غير ذلك، وإما بالبيعة كما نذكره نحن فإنه قد اتصل به خبرها، وتواتر عنده وقوعها، فصار وقوعها عنده معلوماً بالضرورة كعلمه بأن في الدنيا بلداً اسمها مصر، وإن كان ما رآها.

والظاهر من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه أنه يريد المعنى الأول! ونحن نخرجه على وجه لا يلزم منه ما تقوله الشيعة، فنقول: لنفرض أن النبي صلى الله عليه وسلم ما نص عليه بالخلافة بعده، أليس يعلم معاوية وغيره من الصحابة أنه لو قال له في ألف مقام: أنا حرب لمن حاربك وسلم لمن سالمك، ونحو ذلك من قوله: اللهم عاد من عاداه، ووال من والاه، وقوله: حربك حربي وسلمك سلبي، وقوله: أنت مع الحق والحق معك، وقوله: هذا مني وأنا منه، وقوله: هذا أخي، وقوله: يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، وقوله: اللهم اثني بأحب خلقك إليك، وقوله: إنه ولي كل مؤمن ومؤمنة بعدي، وقوله في كلام قاله: خاصف النعل، وقوله: لا يحبه إلا مؤمن، ولا يبغضه إلا منافق، وقوله: إن الجنة لتشتاق إلى أربعة، وجعله أولهم، وقوله لعمار: تقتلك الفئة الباغية، وقوله: ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعدي، إلى غير ذلك مما يطول تعداده جداً، ويحتاج إلى كتاب مفرد يوضع له، أما كان ينبغي لمعاوية أن يفكر في هذا ويتأمله، ويخشى الله ويتقيه، فلعله رضي الله عنه إلى هذا أشار بقوله: وجحوداً لما هو ألزم لك من لحملك ودمك مما قد وعّا سمعك، وملىء به صدرك.

قوله: "فماذا بعد الحق إلا الضلال"؟ كلمة من الكلام الإلهي المقدس.

قال: وبعد البيان إلا اللبس، يقال: لبست عليه الأمر لبساً، أي خلطته والمضارع يلبس بالكسر.

قال: فاحذر الشبهة واشتمالها على اللبسة بالضم، يقال في الأمر لبسة أي اشتباه وليس بواضح، ويجوز أن يكون اشتمال مصدراً مضافاً إلى معاوية، أي أحذر الشبهة واحذر اشتمالك إياها على اللبسة، أي ادراعك بها وتقمصك بها على ما فيها من الإبهام والاشتباه، ويجوز أن يكون مصدراً مضافاً إلى ضمير الشبهة فقط، أي أحذر الشبهة واحتواءها على اللبسة

التي فيها.

وتقول: أغدقت المرأة قناعها، أي أرسلته على وجهها، وأغدق الليل، أي أرخى سدوله، وأصل الكلمة التغطية، والجلابيب: جمع جلباب، وهو الثوب.

قال: وأعشت الأبصار ظلمتها: أي أكسبتها العشى وهو ظلمة العين. وروي وأعشت بالعين المعجمة ظلمتها بالنصب، أي جعلت الفتنة ظلمتها غشاء للأبصار، والأفانين: الأساليب المختلفة.

قوله: ضعفت قواها عن السلم، أي عن الإسلام، أي لا تصدر تلك الأفانين المختلطة عن مسلم، وكان كتب إليه يطلب منه أن يفرد بالشام، وأن يوليه العهد من بعده، وألا يكلفه الحضور عنده. وقرأ أبو عمرو: "أدخلوا في السلم كافة"، وقال: ليس المعني بهذا الصلح، بل الإسلام والإيمان لا غير، ومعنى ضعفت قواها، أي ليس لتلك الطلبات والدعاوى والشبهات التي تضمنها كتابك من القوة ما يقتضي أن يكون المتمسك به مسلماً، لأنه كلام لا يقوله إلا من هو إما كافر منافق أو فاسق، والكافر ليس بمسلم، والفاسق أيضاً ليس بمسلم، على قول أصحابنا، ولا كافر.

ثم قال: وأساطير لم يحكها منك علم ولا حلم، الأساطير: الأباطيل، وأحدها أسطورة بالضم وإسطارة بالكسر والألف. وحوك الكلام: صنعته ونظمه. والحلم: العقل. يقول، له: ما صدر هذا الكلام والمهرج الفاسد عن عالم ولا عاقل. ومن رواها الدهاس بالكسر فهو جمع دهس، ومن قرأها بالفتح فهو مفرد، يقول: هذا دهس ودهاس بالفتح، مثل لبث ولبات للمكان السهل الذي لا يبلغ أن يكون رملاً، وليس هو بتراب ولا طين.

والديماس بالكسر: السرب المظلم تحت الأرض، وفي حديث المسيح: إنه سبط الشعر، كثير خيلان الوجه، كأنه خرج من ديماس، يعني في نصرته وكثرة ماء وجهه كأنه خرج من كن، لأنه قال في وصفه: كأن رأسه يقطر ماء، وكان للحجاج سجن اسمه الديماس لظلمته، وأصله من دمس الظلام يدمس أي اشتد، وليل دامس وداموس، أي مظلم: وجاءنا فلان بأمور دمس، أي مظلمة عظيمة، يقول له: أنت في كتابك هذا كالحائض في تلك الأرض الرخوة، تقوم وتقع ولا تتخلص، وكالحابط في الليل المظلم يعثر وينهض ولا يهتدي الطريق.

والمرقبة: الموضع العالي. والأعلام: جمع علم، وهو ما يهتدى به في الطرقات من المنار، يقول له: سمت همتك إلى دعوى الخلافة، وهي منك كالمراقبة التي لا ترام بتعد على من يطلبها، وليس فيه أعلام تهدي إلى سلوك طريقها، أي الطرق إليها غامضة، كالجبل الأملس الذي ليس فيه درج ومراق يسلك منها إلى ذروته.

والأنوق: على فعول بالفتح كأقول وشروب: طائر، هو الرخمة. وفي المثل: أعز من بيض الأنوق، لأنها تحرزه ولا يكاد أحد يظفر به، وذلك لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة، والعيوق: كوكب معروف فوق زحل في العلو، وهذه أمثال ضربها في بعد معاوية عن الخلافة.

ثم قال: حاش الله أن أوليك شيئاً من أمور المسلمين بعدي، أي معاذ الله، والأصل إثبات الألف في حاشا، وإنما اتبع فيها المصحف.

والورد والصدر: الدخول والخروج، وأصله في الإبل والماء، وينهد إليك عباد الله، أي ينهض، وأرتجت عليك الأمور:

أغلقت.

وهذا الكتاب هو جواب كتاب وصل من معاوية إليه رضي الله عنه بعد قتل علي رضي الله عنه الخوارج، وفيه تلويح بما كان يقوله من قبل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدني بقتال طائفة أخرى غير أصحاب الجمل وصفين، وإنه سماهم المارقين، فلما واقعهم بالنهروان وقتلهم كلهم بيوم واحد وهم عشرة آلاف فارس أحب أن يذكر معاوية بما كان يقول من قبل ويعد به أصحابه وخواصه، فقال له: قد آن لك أن تنتفع بما عاينت وشاهدت معاينة ومشاهدة، من صدق القول الذي كنت أقوله للناس ويبلغك فتستهزىء به.

ومن كتاب له إلى عبد الله بن العباس

وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية.

لأصل: أما بعد، فإن العبد ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته، ويجزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة، أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل، وإحياء حق. وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلقت، وهمك فيما بعد الموت الشرح: هذا الفصل قد تقدم شرح نظيره، وليس في ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تفسير، ولكننا سنذكر من كلام الحكماء والصالحين كلمات تناسبه: بعض ما قيل في الدنيا وأحوالها. فمن كلام بعضهم: ما قدر لك أذاك، وما لم يقدر لك تعداك، فعلام تفرح بما لم يكن بد من وصوله إليك، وعلام تحزن بما لم يكن ليقدّم عليك.

ومن كلامهم: الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، وتصل وصال المتهالك، وتفارق فراق المبغض الفارك، فخبرها يسير، وعيشها قصير، وإقبالها خدعة، وإدبارها فجعة، ولذا لها فانية، وتبعاتها باقية، فاغتنم غفلة الزمان، وانتهاز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزود من يومك لغدك قبل نفاذ المدة، وزوال القدرة، فلكل امرئ من دنياه ما ينفعه على عمارة آخره.

ومن كلامهم: من نكد الدنيا أهما لا تبقى على حالة، ولا تخلو من استحالة، تصلح جانباً بإفساد جانب، وتسرع صاحباً بمساءة صاحب، فالسكون فيها خطر، والثقة إليها غرر، والإلتجاء إليها محال، والإعتماد عليها ضلال.

ومن كلامهم: لا تبتهجن لنفسك بما أدركت من لذاتها الجسمانية، وابتهج لها بما تناله من لذاتها العقلية، ومن القول بالحق، والعمل بالحق، فإن اللذات الحسية خيال ينفد، والمعارف العقلية باقية بقاء الأبد.

وكتب كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله علي مكة.

الأصل: أما بعد، فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله، واجلس، لهم العصيرين، فأفت المستفتي، وعلم الجاهل، وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك. ولا تحجن ذا حاجة عن لقائك بها، فإنها إن زيدت عن أبوابك في أول وردها لم تحمد فيما بعد على قضائها.

وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مصيباً به مواضع المفاقر والخلات، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا.

ومر أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجراً، فإن الله سبحانه يقول: "سواء العاكف فيه والباد"، فالعاكف: المقيم به، والبادي: الذي يحج إليه من غير أهله، وفقنا الله وإياكم لمحابه، والسلام.

الشرح: قد تقدم ذكر قثم ونسبه، أمره أن يقيم للناس حجهم، وأن يذكرهم بأيام الله، وهي أيام الإنعام، وأيام الإنتقام، لتحصل الرغبة والرغبة.

واجلس لهم العصرين: الغداة والعشي.

ثم قسم له ثمة جلوسه لهم ثلاثة أقسام: إما أن يفتي مستفتياً من العامة في بعض الأحكام، وأما أن يعلم متعلماً يطلب الفقه، وإما أن يذاكر عالماً ويباحثه ويفاوضه، ولم يذكر السياسة والأمور السلطانية لأن غرضه متعلق بالحجيج، وهم أضيافه، يقيمون ليالي يسيرة ويقفلون، وإنما يذكر السياسة وما يتعلق بها فيما يرجع إلى أهل مكة، ومن يدخل تحت ولايته دائماً، ثم نهاه عن توسط السفراء والحجاب بينه وبينهم، بل ينبغي أن يكون سفيره لسانه، وحاجبه وجهه، وروي ولا يكن إلا لسانك سفيراً لك إلى الناس بجعل لسانك اسم كان مثل قوله: "فما كان جواب قومه إلا أن قالوا". والرواية الأولى هي المشهورة، وهو أن يكون سفير اسم كان ولك خبرها، ولا يصح ما قاله الراوندي: إن خبرها إلى الناس، لأن إلى ههنا متعلقة بنفس سفير، فلا يجوز أن تكون الخبر عن سفير، تقول: سمرت إلى بني فلان في الصلح، وإذا تعلق حرف الجر بالكلمة صار كالكشيء الواحد.

ثم قال: فإنها إن زيدت أي طردت ودفعت.

كان أبو عباد بن ثابت بن يحيى كاتب المأمون إذا سئل الحاجة يشتم السائل، ويسطو عليه ويخجله، ويكته ساعة ثم يأمر له بها، فيقوم وقد صارت إليه، وهو يذمه ويلعنه قال علي بن جبلة العكوك:

لعن الله أبا عباد لعناً يتوالى

يوسع السائل شتماً

ثم يعطيه السؤال

وكان الناس يقفون لأبي عباد وقت ركوبه، فيتقدم الواحد منهم إليه بقصته ليناوله إياها، فيركله برجله بالركاب، ويضربه بسوطه، ويطير غضباً، ثم لا يتزل عن فرسه حتى يقضي حاجته، ويأمر له بطلبته، فينصرف الرجل بها وهو ذام له ساخط عليه، فقال فيه دعبل:

أولى الأمور بضيعة وفساد

متعمد بدواته جلساءه

وكأنه من دير هرقل مفلت

فاشدد أمير المؤمنين صفاده

ملك يدبره أبو عباد

فمضرج ومحضب بمداد

حرب يجر سلاسل الأقياد

بأشد منه في يد الحداد

وقال فيه بعض الشعراء:

والمفارقة: الحاجات، يقال: سد الله مفارقة، أي أغنى الله فقره، ثم أمره أن يأمر أهل مكة ألا يأخذوا من أحد من الحجيج أجره مسكن، واحتج على ذلك بالآية، وأصحاب أبي حنيفة يتمسكون بها في امتناع بيع دور مكة وإجارتها، وهذا بناء على أن المسجد الحرام هو مكة كلها، والشافعي يرى خلاف ذلك، ويقول: إنه الكعبة، ولا يمنع من بيع دور مكة ولا إجارتها، ويحتج بقوله تعالى: "الذين أخرجوا من ديارهم"، وأصحاب أبي حنيفة يقولون: إنها إضافة إختصاص لا إضافة تمليك، كما تقول: جل الدابة، وقرأ سواء بالنصب على أن يكون أحد مفعولي جعلنا أي جعلناه مستوياً فيه العاكف والباد، ومن قرأ بالرفع جعل الجملة هي المفعول الثاني.

من كتاب له إلى سلمان الفارسي

رحمه الله قبل أيام خلافته.

الأصل أما بعد فإنما الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فأعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها، لما أيقنت به من فراقها، وتصرف حالها، وكن آنس ما تكون بها أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصته عنه إلى محذور، أو إلى إيناس أزالته عنه إلى إيجاش، والسلام. نبذ من حياة سلمان الفارسي وخبر إسلامه.

الشرح: سلمان، رجل من فارس من رامهرمز، وقيل: بل من أصبهان، من قرية يقال لها جي، وهو معدود من موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنيته أبو عبد الله، وكان إذا قيل: ابن من أنت؟ يقول: أنا سلمان، ابن الإسلام، أنا من بني آدم.

وقد روي أنه قد تداوله أرباب كثيرة، بضعة عشر رباً، من واحد إلى آخر حتى أفضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب أن سلمان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة، فقال: هذه صدقة عليك وعلى أصحابك، فلم يقبلها، وقال: إنه لا تحل لنا الصدقة، فرفعها، ثم جاء من الغد بمثلها وقال: هدية هذه، فقال لأصحابه: كلوا.

واشتره من أربابه، وهم قوم يهود بدرهم، وعلى أن يغرس لهم من النخيل كذا وكذا، ويعمل فيها حتى تدرك، فغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك النخل كله بيده إلا نخلة واحدة غرسها عمر بن الخطاب، فأطعم النخل كله إلا تلك النخلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من غرسها؟ قيل: عمر، فقلعها وغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فاطعمت.

قال أبو عمر: وكان سلمان يسف الخوص وهو أمير على المدائن ويبيعه ويأكل منه، ويقول: لا أحب أن أكل إلا من عمل يدي، وكان قد تعلم سف الخوص من المدينة.

وأول مشاهدته الخندق، وهو الذي أشار بحفره، فقال أبو سفيان وأصحابه لما رأوه: هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها.

قال أبو عمر: وقد روي أن سلمان شهد بدر وأحداً، وهو عبد يومئذ، والأكثر أن أول مشاهدته الخندق، ولم يفته بعد ذلك مشهد.

قال: وكان سلمان خيراً، فاضلاً، حبراً، عالماً، زاهداً، متقشفاً.

قال: وذكر هشام بن حسان عن الحسن البصري، قال: كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به، ويأكل من عمل يده، وكانت له عباءة يفرش بعضها ويلبس بعضها.

قال: وقد ذكر ابن وهب وابن نافع أن سلمان لم يكن له بيت، إنما كان يستظل بالجدر والشجر، وأن رجلاً قال له: ألا أبني لك بيتاً تسكن فيه؟ قال: لا حاجة لي في ذلك، فما زال به الرجل حتى قال له: أنا أعرف البيت الذي يوافقك، قال: فصفه لي، قال: أبني لك بيتاً إذا أنت قمت فيه أصاب رأسك سقفه، وإن أنت مددت فيه رجلك أصابهما الجدار قال: نعم، فبني له.

قال أبو عمر: وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجوه أنه قال: "لو كان الدين في الثريا لناله سلمان" وفي رواية أخرى "لناله رجل من فارس".

قال: وقد روينا عن عائشة قالت: كان لسلمان مجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفرد به بالليل حتى يكاد يغلبنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: وقد روي من حديث ابن بريدة، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أمرني ربي بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان.

قال: وروى قتادة عن أبي هريرة، قال: سلمان صاحب الكتابين يعني الإنجيل والقرآن.

وقد روى الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخترى، عن علي رضي الله عنه أنه سئل عن سلمان فقال: علم العلم الأول، والعلم الآخر، ذاك بحر لا يتزف، وهو منا أهل البيت.

قال: وفي رواية زاذان، عن علي رضي الله عنه: سلمان الفارسي كلقمان الحكيم.

قال: وقال فيه كعب الأحبار: سلمان حشي علماً وحكمة.

قال: وفي الحديث المروي أن أبا سفيان مر على سلمان وصهيب وبلال في نفر من المسلمين فقالوا: ما أخذت السيوف من عنق عدو الله مأخذها، وأبو سفيان يسمع قولهم، فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فقال: "يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله"، فأتاهم أبو بكر، فقال أبو بكر: يا إخوتاه، لعلني أغضبتكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر، يغفر الله لك.

قال: وأخى رسول الله بينه وبين أبي الدرداء لما آخى بين المسلمين.

قال: ولسلمان فضائل جمة، وأخبار حسان، وتوفي في آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين، وقيل: توفي في أول سنة ست وثلاثين. وقال قوم: توفي في خلافة عمر، والأول أكثر.

وأما حديث إسلام سلمان فقد ذكره كثير من المحدثين ورووه عنه، قال: كنت ابن دهقان قرية جي من أصبهان، وبلغ من حب أبي لي أن حبسني في البيت، كما تحبس الجارية، فاجتهدت في الجوسية حتى صرت قطن بيت النار، فأرسلني أبي يوماً إلى ضيعة له، فمررت بكنيسة النصارى، فدخلت عليهم، فأعجبني صلاتهم، فقلت: دين هؤلاء خير من ديني، فسألتهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فهربت من والدي حتى قدمت الشام، فدخلت على الأسقف فجعلت أخدمه وأتعلّم منه، حتى حضرته الوفاة، فقلت: إلى من توصي بي، فقال: لقد هلك الناس وتركوا دينهم إلا رجلاً بالموصل فالحق به، فلما قضى نحبه لحقت بذلك الرجل فلم يلبث إلا قليلاً حتى حضرته الوفاة، فقلت: إلى من توصي بي؟ فقال: ما أعلم رجلاً بقي على الطريقة المستقيمة إلا رجلاً بنصيبين، فلحقت بصاحب نصيبين. قالوا: وتلك الصومعة اليوم باقية، وهي التي تعبد فيها سلمان قبل الإسلام قال: ثم احتضر صاحب نصيبين، فبعثني إلى رجل بعمورية من أرض الروم. فأتيته وأقمت عنده، واكتسبت بغيرات وغنيمات، فلما نزل به الموت قلت له: بمن توصي بي، فقال: قد ترك الناس دينهم، وما بقي أحد منهم على الحق، وقد أظلم زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين، لها نخل، قلت: فما علامته؟ قال: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة.

قال: ومر بي ركب من كلب، فخرجت معهم، فلما بلغوا بي وادي القرى ظلموني وباعوني من يهودي، فكنت أعمل له في زرعته ونخله، فبينما أنا عنده إذ قدم ابن عم له، فابتاعني منه، وحملني إلى المدينة، فو الله ما هو إلا أن رأيته فعرفتها، وبعث الله محمداً بمكة، ولا أعلم بشيء من أمره، فبينما أنا في رأس نخلة إذ أقبل ابن عم لسيدي، فقال: قاتل الله بني قيلة، قد اجتمعوا على رجل بقباء قدم عليهم من مكة، يزعمون أنه نبي، قال: فأخذني القر والانتفاض، ونزلت عن النخلة، وجعلت أستقصي في السؤال، فما كلمني سيدي بكلمة، بل قال: أقبل على شأنك، ودع ما لا يعينك، فلما أمسيت أخذت شيئاً كان عندي من التمر، وأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له: بلغني أنك رجل صالح، وأن لك أصحاباً غرباء ذوي حاجة، وهذا شيء عندي للصدقة، فرأيتم أحق به من غيركم، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: كلوا، وأمست فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة، وانصرفت، فلما كان من الغد أخذت ما كان بقي عندي وأتيته به، فقلت له: إني رأيته لا تأكل الصدقة، وهذه هدية، فقال: كلوا وأكل معهم، فقلت إنه لهو، فأكبت عليه قبله وأبكي، فقال: مالك، فقصصت عليه القصة، فأعجبه، ثم قال: يا سلمان، كاتب صاحبك، فكاتبته على ثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عله للأنصار: "أعينوا أحاكم فأعانوني بالنخل حتى جمعت ثلاثمائة ودية، فوضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فصحت كلها، وأتاه مال من بعض المغازي، فأعطاني منه، وقال: أد كتابتك، فأديت وعثقت.

وكان سلمان من شيعة علي رضي الله عنه، وتزعم الإمامية أنه أحد الأربعة الذين حلّقوا رؤوسهم وأتوه متقلدي سيوفهم في خبر يطول، وليس هذا موضع ذكره، وأصحابنا لا يخالفونهم في أن سلمان كان من الشيعة، وإنما يخالفونهم في أمر أزيد من ذلك، وما يذكره المحدثون من قوله للمسلمين يوم السقيفة: كرديد ونكرديد محمول عند أصحابنا على أن المراد

صنعتهم شيئاً وما صنعتهم، أي استخلفتم خليفة ونعم ما فعلتم، إلا أنكم عدلتم عن أهل البيت، فلو كان الخليفة منهم كان أولى، والإمامية تقول: معناه: أسلمتم وما أسلمتم، واللفظة المذكورة في الفارسية لا تعطي هذا المعنى، وإنما تدل على الفعل والعمل لا غير، ويدل على صحة قول أصحابنا أن سلمان عمل لعمر على المدائن، فلو كان ما تنسبه الإمامية إليه حقاً لم يعمل له.

فأما ألفاظ الفصل ومعانيه فظاهرة، ومما يناسب مضمونه قول بعض الحكماء: تعز عن الشيء إذا منعت، بقلة صحبته لك إذا أعطيته.

وكان يقال: الهالك على الدنيا رجلان: رجل نafs في عزها، ورجل أنف من ذلها.

ومر بعض الزهاد بباب دار وأهلها ييكون ميتاً لهم، فقال: واعجباً لقوم مسافرين، ييكون مسافراً قد بلغ منزله. وكان يقال: يابن آدم، لا تأسف على مفقود لا يرده عليك الموت، ولا تفرح بموجود لا يتركه عليك الموت. لقي عالم من العلماء راهباً فقال: أيها الراهب، كيف ترى الدنيا؟ قال: تخلق الأبدان، وتحدد الآمال، وتباعد الأمنية، وتقرب المنية، قال: فما حال أهلها؟ قال: من ظفر بها نصب، ومن فاتته أسف، قال: فكيف الغنى عنها؟ قال: بقطع الرجاء منها، قال: فأبي أصحاب أبر وأوفى؟ قال: العمل الصالح، قال: فأبهم أضر وأنكى؟ قال: النفس والهوى، قال: فكيف المخرج؟ قال: في سلوك المنهج، قال: وبماذا أسلكه؟ قال: بأن تخلع لباس الشهوات الفانية، وتعمل للدار الباقية.

ومن كتاب له إلى الحارث الهمداني

الأصل: وتمسك بجبل القران وانتصحه، وأحل حلاله، وحرم حرامه وصدق بما سلف من الحق، وأعتبر بما مضى من الدنيا لما بقي منها، فإن بعضها يشبه بعضاً، وآخرها لاحق بأولها، وكلها حائل مفارق. وعظم اسم الله أن تذكره إلا على حق، وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت، ولا تتمن الموت إلا بشرط وثيق.

واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه، ويكرهه لعامة المسلمين، واحذر كل عمل يعمل به في السر، ويستحي منه في العلانية، واحذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه. ولا تجعل عرضك غرضاً لنبال القوم، ولا تحدث الناس بكل ما سمعت به، فكفى بذلك كذباً، ولا ترد على الناس كل ما حدثوك به، فكفى بذلك جهلاً. واكظم الغيظ، واحلم عند الغضب، وتجاوز عند المقدرة، واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة، واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك، ولا تضيعن نعمة من نعم الله عندك، ولير عليك أثر ما أنعم الله به عليك.

واعلم أن أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمه من نفسه وأهله وماله، وأنك ما تقدم من خير ييق لك ذخره، وما تؤخره يكن لغيرك خيره.

واحذر حابة من يفيل رأيه، وينكر عمله، فإن صاحب معتبر بصاحبه.

واسكن الأمصار العظام فإنها جماع المسلمين، واحذر منازل الغفلة والجفاء، وقلة الأعوان على طاعة الله، واقصر رأيك على ما يعينك.

وإياك ومقاعد الأسواق فإنها محاضر الشيطان، ومعارض الفتن. وأكثر أن تنظر إلى من فضلت عليه، فإن ذلك من أبواب الشكر.

ولا تسافر في يوم جمعة حتى تشهد الصلاة إلا فاصلاً في سبيل الله، أو في أمر تعذر به. وأطع الله في جمل أمورك، فإن طاعة الله فاضلة على ما سواها. وخادع نفسك في العبادة وارفق بها ولا تقهرها، وخذ عفوها ونشاطها، إلا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة، فإنه لا بد من قضائها، وتعاهدها عند محلها.

وإياك أن يتزل بك الموت وأنت أبق من ربك في طلب الدنيا. وإياك ومصاحبة الفساق، فإن الشر بالشر ملحق. ووقر الله، وأحب أعباءه، واحذر الغضب، فإنه جند عظيم من جنود إبليس، والسلام. الحارث الأعور.

الشرح: هو الحارث الأعور صاحب أمير المؤمنين رضي الله عنه: وهو الحارث بن عبد الله بن كعب بن أسد بن نخلة بن حرث بن سبيع بن صعب بن معاوية الهمداني، كان أحد الفقهاء، له قول في الفتيا، وكان صاحب علي رضي الله عنه، وإليه تنسب الشيعة الخطاب الذي خاطبه به في قوله رضي الله عنه:

من مؤمن أو منافق قبلاً

يا حار همدان من يمت يرني

وهي أبيات مشهورة قد ذكرناها فيما تقدم. بعض الأقوال الحكمية.

وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جليلة الموقع: منها قوله: وتمسك بجبل القرآن، جاء في الخبر المرفوع لما ذكر الثقلين فقال: أحدهما كتاب الله، جبل ممدود من السماء إلى الأرض طرف بيد الله وطرف بأيديكم. ومنها قوله: انتصحه أي عده ناصحاً لك فيما أمرك به ونهاك عنه.

ومنها قوله: وأحل حلاله وحرم حرامه، أي أحكم بين الناس في الحلال والحرام. بما نص عليه القرآن.

ومنها قوله: وصدق بما سلف من الحق أي صدق بما تضمنه القرآن من أيام الله ومثلاته في الأمم السالفة لما عصوا وكذبوا.

ومنها قوله: واعتبر بما مضى من الدنيا لما بقي منها، وفي المثل: إذا شئت أن تنظر الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك، وقال الشاعر:

أقمنا قليلاً بعدهم ثم نرحل

وما نحن إلا مثلهم غير أننا

ويناسب قوله: وآخرها لاحق بأولها، وكلها حائل مفارق قوله أيضاً رضي الله عنه في غير هذا الفصل: الماضي للمقيم عبرة، والميت للحي عظة، وليس لأمس عودة، ولا المرء من غد على ثقة، الأول للأوسط رائد، والأوسط للأخير قائد، وكل بكل لاحق، والكل لكل مفارق.

ومنها قوله: وعظم اسم الله أن تذكره إلا على حق، قال الله سبحانه: "ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم"، وقد نهي عن

الحلف بالله في الكذب والصدق، أما في أحدهما فمحرم وأما في الآخر فمكروه، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى في لغو القول والهزء والعبث.

ومنها قوله: وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت، جاء في الخبر المرفوع: "أكثرُوا ذكر هادم اللذات، وما بعد الموت: العقاب والثواب في القبر وفي الآخرة.

ومنها قوله: ولا تتمن الموت إلا بشرط وثيق، هذه كلمة شريفة عظيمة القدر، أي لا تتمن الموت إلا وأنت واثق من أعمالك الصالحة أنها تؤدبك إلى الجنة، وتنقذك من النار، وهذا هو معنى قوله تعالى لليهود: "إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين".

ومنها قوله: واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه، ويكرهه لعامة المسلمين، واحذر كل عمل يعمل به في السر، ويستحيا منه في العلانية، واحذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه، وهذه الوصايا الثلاث متقاربة في المعنى، ويشملها معنى قول الشاعر:

لاتنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى حاكياً عن نبي من أنبيائه: "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه".

ومن كلام الجنيد الصوفي: ليكن عملك من وراء سترك كعملك من وراء الزجاج الصافي. وفي المثل وهو منسوب إلى علي رضي الله عنه: إياك وما يعتذر منه.

ومنها قوله: ولا تجعل عرضك غرضاً لنبال القوم، قال الشاعر:

لا تستتر أبداً ما لا تقوم له
ولا تهيجن من عريسه الأسد
إن الزنابير إن حركتها سفهاً
من كورها أوجعت من لسعها الجسدا

وقال:

مقالة السوء إلى أهلها
ومن دعا الناس إلى ذمه
أسرع من منحدر سائل
ذموه بالحق وبالباطل

ومنها قوله: ولا تحدث الناس بكل ما سمعت، فكفى بذلك كذباً، قد نهي أن يحدث الإنسان بكل ما رأى من العجائب فضلاً عما سمع، لأن الحديث الغريب المعجب تسارع النفس إلى تكذيبه، وإلى أن تقوم الدلالة على صدقه قد فرط من سوء الظن فيه ما فرط.

ويقال: إن بعض العلوية قال في حضرة عضد الدولة ببغداد، عندنا في الكوفة نبق وزن كل نبقة مثقالان، فاستطرف الملك ذلك، وكاد يكذبه الحاضرون، فلما قام ذكر ذلك لأبيه، فأرسل حماماً كان عنده في الحال إلى الكوفة يأمر وكلاءه بإرسال مائة حمامة، في رجلي كل واحدة نبقتان من ذلك النبق، فجاء النبق في بكرة الغد وحمل إلى عضد الدولة، فاستحسنه وصدقته حينئذ، ثم قال له: لعمرى لقد صدقت، ولكن لا تحدث فيما بعد بكل ما رأيت من الغرائب، فليس كل وقت يتهيأ لك إرسال الحمام.

وكان يقال: الناس يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون، والأصدق نوع تحت جنس الأحسن.

ومنها قوله: ولا ترد على الناس كل ما حدثوك، فكفى بذلك جهلاً، من الجهل المبادرة بإنكار ما يسمعه، وقال ابن سينا آخر الإشارات: إياك أن يكون تكيسك وتبرؤك من العامة، هو أن تنبري منكرًا لكل شيء، فذلك عجز وطيش، وليس الخرق في تكذيبك ما لم يستين لك بعد جليته دون الخرق في تصديقك بما لم تقم بين يديك بينة، بل عليك الإعتصام بجبل التوقف وإن أزعجك إستنكار ما يوعيه سمعك مما لم يبرهن على استحالة لك، فالصواب أن تسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان، ما لم يذكك عنها قائم البرهان.

ومنها قوله: واكظم الغيظ قد مدح الله تعالى ذلك فقال: "والكاظمين الغيظ"، وروي أن عبداً لموسى بن جعفر رضي الله عنه قدم إليه صحيفة فيها طعام حار، فعجل فصبها على رأسه ووجهه، فغضب، فقال له: والكاظمين الغيظ، قال: قد كظمت، قال: والعافين عن الناس، قال: قد عفوت، قال: والله يحب المحسنين، قال: أنت حر لوجه الله، وقد نخلتكم ضيعتي الفلانية.

ومنها قوله: واحلم عند الغضب، هذه مناسبة الأولى، وقد تقدم منا قول كثير في الحلم وفضله، وكذلك القول في قوله رضي الله عنه: وتجاوز عند القدرة، وكان يقال: القدرة تذهب الحفيظة.

ومنها قوله: واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة، هذه كانت شيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشيمة علي رضي الله عنه، أما شيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظفر بمشركي مكة وعفا عنهم، كما سبق القول فيه في عام الفتح، وأما علي رضي الله عنه فظفر بأصحاب الجمل وقد شقوا عصا الإسلام عليه، وطعنوا فيه وفي خلافته، فعفا عنهم، وعلمه بأنهم يفسدون عليه أمره فيما بعد، ويصيرون إلي معاوية، إما بأنفسهم أو بأرائهم ومكتوباتهم، وهذا أعظم من الصفح عن أهلة مكة، لأن أهل مكة لم يبق لهم لما فتحت فئة يتحيزون إليها، ويفسدون الدين عندها.

ومنها قوله: واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك معنى استصلحها استدمها، لأنه إذا استدامها فقد أصلحها، فإن بقاءها صلاح لها، واستدامتها بالشكر.

ومنها قوله: ولا تضعين نعمة من نعم الله عندك، أي واس الناس منها، واجعل بعضها لنفسك، وبعضها للصدقة والإيثار، فإنك إن لم تفعل ذلك تكن قد أضعتها.

ومنها قوله: ولير عليك أثر النعمة قد أمر بأن يظهر الإنسان على نفسه آثار نعمه الله عليه، وقال سبحانه: "وأما بنعمة ربك فحدث". وقال الرشيد لجعفر: قم بنا لنمضي إلى منزل الأصمعي، فمضيا إليه خفية ومعهما خادم معه ألف دينار ليدفع ذلك إليه، فدخل داره فوجدا كساء جرداء، وبارية سملاء، وحصيماً مقطوعاً، وخباءً قديمة، وأباريق من خرف، ودواة من زجاج، ودفاتر عليها التراب وحيطاناً مملوءة من نسج العناكب، فوجم الرشيد، وسأله مسائل غشة لم تكن من غرضه، وإنما قطع بها خجله، وقال الرشيد لجعفر: ألا ترى إلى نفس هذا المهين، قد بررناه بأكثر من خمسين ألف دينار وهذه حاله، لم تظهر عليه آثار نعمتنا، والله لا دفعنا إليه شيئاً، وخرج ولم يعطه.

ومنها قوله: واعلم أن أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمه من نفسه وأهله وماله، أي أفضلهم إنفاقاً في البر والخير من ماله، وهي التقدمة، قال الله تعالى: "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه"، فأما النفس والأهل، فإن تقدمتهما في الجهاد، وقد تكون التقدمة في النفس بأن يشفع شفاعة حسنة أو يحضر عند السلطان بكلام طيب، وثناء حسن، وأن يصلح بين المتخاصمين، ونحو ذلك، والتقدمة في الأهل أن يحج بولده وزوجته ويكلفهما المشاق في طاعة الله، وأن يؤدب ولده إن أذنب، وأن يقيم عليه الحد، ونحو ذلك.

ومنها قوله: وما تقدم من خير يبق لك ذخره وما تؤخره يكن لغيرك خير، وقد سبق مثل هذا، وأن ما يتركه الإنسان بعده فقد حرم نفعه، وكأنما كان يكدح لغيره، وذلك من الشقاوة وقلة التوفيق.

ومنها قوله: واحذر صحابة من يفيل رأيه الصحابة بفتح الصاد، مصدر صحبت والصحابة بالفتح أيضاً جمع صاحب، والمراد ههنا الأول، وقال رأيه: فسد، وهذا المعنى قد تكرر، وقال طرفه:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي

ومنها قوله: واسكن الأمصار العظام، وقد قيل: لا تسكن إلا في مصر فيه سوق قائمة، ونهر جار، وطيب حاذق، وسلطان عادل، فأما منازل الغفلة والجفاء، فمثل قرى السواد الصغار، فإن أهلها لا نور فيهم، ولا ضوء عليهم، وإنما هم كاللدواب والأنعام، همهم الحرث والفلاحة، ولا يفقهون شيئاً أصلاً، فمجاورتهم تعمي القلب، وتظلم الحس، وإذا لم يجد الإنسان من يعينه على طاعة الله وعلى تعلم العلم قصر فيهما.

ومنها قوله: واقصر رأيك على ما يعينك، كان يقال: من دخل فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه.

ومنها نهي إياه عن القعود في الأسواق، قد جاء في المثل: السوق محل الفسوق. وجاء في الخبر المرفوع: "الأسواق مواطن إبليس وجنده"، وذلك لأنها قلما تخلو عن الأيمان الكاذبة، والبيوع الفاسدة، وهي أيضاً مجمع النساء المومسات، وفجار الرجال، وفيها اجتماع أرباب الأهواء والبدع، فلا يخلو أن يتجادل اثنان منهم في المذاهب والنحل فيفضي إلى الفتن.

ومنها قوله: وانظر إلى من فضلت عليه، كان يقال: أنظر إلى من دونك، ولا تنظر إلى من فوقك. وقد بين رضي الله عنه السر فيه فقال: إن ذلك من أبواب الشكر، وصدق رضي الله عنه، لأنك إذا رأيت جاهلاً وأنت عالم، أو عالماً وأنت أعلم منه، أو فقيراً وأنت أغنى منه، أو مبتلى بسقم وأنت معافي عنه، كان ذلك باعثاً وداعياً لك إلى الشكر.

ومنها نهي عن السفر يوم الجمعة، ينبغي أن يكون هذا النهي عن السفر يوم الجمعة قبل الصلاة، وأما بعد الصلاة، فلا بأس به، واستثنى فقال: إلا فاصلاً في سبيل الله، أي شاخصاً إلى الجهاد.

قال: أو في أمر تعذر به، أي لضرورة دعتك إلى ذلك.

وقد ورد نهي كثير عن السفر يوم الجمعة قبل أداء الفرض، على أن من الناس من كره ذلك بعد الصلاة أيضاً، وهو قول شاذ.

منها قوله: وأطع الله في جمل أمورك، أي في جملة ما أمرك، وفيها كلها، وليس يعني في جملة ما دون تفاصيلها. قال: فإن طاعة الله

فاضلة على غيرها، وصدق رضي الله عنه، لأنها توجب السعادة الدائمة، والخلاص من الشقاء الدائم، ولا أفضل مما يؤدي إلى ذلك.

ومنها قوله: وخادع نفسك في العبادة، أمره أن يتلطف بنفسه في النوافل، وأن يخادعها ولا يقهرها فتمل وتضجر وتترك، بل يأخذ عفوها، ويتوخى أوقات النشاط، وانشرح الصدر للعبادة.

قال: فأما الفرائض فحكمها غير هذا الحكم، عليك أن تقوم بها، كرهتها النفس، أو لم تكرهها، ثم أمره أن يقوم بالفريضة في وقتها، ولا يؤخرها عنه فتصير قضاء.

ومنها قوله: وإياك أن يتزل بك المنون وأنت آبق من ربك في طلب الدنيا، هذه وصية شريفة جداً، جعل طالب الدنيا المعرض عن الله عند موته كالعبد الآبق يقدم به على مولاه أسيراً مكتوفاً ناكس الرأس، فما ظنك به حينئذ.

ومنها قوله: وإياك ومصاحبة الفساق، فإن الشر بالشر ملحق، يقول: إن الطباع يترع بعضها إلى بعض، فلا تصحب الفساق فإنه يترع بك ما فيك من طبع الشر إلى مساعدتهم على الفسوق والمعصية، وما هو إلا كالنار تقوى بالنار، فإذا لم تجاورها وتمازجها نار كانت إلى الانطفاء والخمود أقرب.

وروي ملحق بكسر الحاء، وقد جاء ذلك في الخبر النبوي فإن عذابك بالكفار ملحق بالكسر.

ومنها قوله: وأحب أحياءه، قد جاء في الخبر: لا يكمل إيمان امرئ حتى يحب من أحب الله، ويبغض من أبغض الله.

ومنها قوله: واحذر الغضب، قد تقدم لنا كلام طويل في الغضب، وقال، إنسان للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: لا تغضب، فقال: زدني، فقال: لا تغضب، قال: زدني، قال: لا أجد لك مزيداً، وإنما جعله صلى الله عليه وسلم جنداً عظيماً من جنود إبليس، لأنه أصل الظلم والقتل وإفساد كل أمر صالح، وهو إحدى القوتين المشؤومتين اللتين لم يخلق أضر منهما على الإنسان، وهما منبع الشر: الغضب والشهوة.

وكتب إلى سهل بن حنيف الأنصاري

وهو عامله على المدينة، في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية.

الأصل: أما بعد، فقد بلغني أن رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غيماً، ولك منهم شافياً فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعهم إلى العمى والجهل، فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون إليها، قد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً، إنهم والله لم يفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل، وإننا لنطمع في هذا الأمر أن يذل الله لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الشرح: قد تقدم نسب سهل بن حنيف وأخيه عثمان فيما مضى.

ويتسللون: يخرجون إلى معاوية هارين في خفية واستتار.

قال: فلا تأسف أي لا تحزن. والغني: الضلال.

قال: ولك منهم شافياً، أي يكفيك في الانتقام منهم وشفاء النفس من عقوبتهم أنهم يتسللون إلى معاوية.

قال: ارض لمن غاب عنك غيبته، فذاك ذنب عقابه فيه.

والإيضاع: الإسراع. وضع البعير أي أسرع، وأوضعه صاحبه، قال:

فلا يك ما أسأل ولا أعاما

رأى برقاً فأوضع فوق بكر

ومهطعون: مسرعون أيضاً، والأثرة: الاستثثار، يقول: قد عرفوا أنني لا أقسم إلا بالسوية، وأني لا أنفل قوماً على قوم، ولا أعطي على الأحساب والأنساب كما فعل غيري، فتركوني وهربوا إلى من يستأثر ويؤثر.

قال: فبعداً لهم وسحقاً، دعاء عليهم بالبعد والهلاك.

وروي أنهم لينفروا بالنون، من نفر، ثم ذكر أنه راج من الله أن يذل له صعب هذا الأمر، ويسهل له حزنه، والحزن، ما غلظ من الأرض، وضده السهل.

وكتب إلى المنذر بن الجارود العبدى

وقد كان استعمله على بعض النواحي فخان الأمانة في بعض ما ولاه من أعماله.

الأصل: أما بعد، فإن صلاح أهلك غربي منك، وظننت أنك تتبع هدي، وتسلك سبيله، فإذا أنت فيما رقي إلى عنك لا تدع لهواك إنقياداً، ولا تبقي لآخرتك عتاداً، تعمّر دنياك بخراب آخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقاً لجمال أهلك وشسع نعلك خير منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يسد به ثغر، أو ينفذ به أمر، أو يعلى له قدر، أو يشرك في أمانة، أو يؤمن على جباية، فأقبل إلي حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله.

قال الرضي رضي الله عنه: المنذر بن الجارود هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنين رضي الله عنه: إنه لنظار في عطفه مختال في برديه، فقال في شراكيه.

المنذر وأبوه الجارود.

الشرح: هو المنذر بن الجارود. واسم الجارود بشر بن خنيس بن المعلى، وهو الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة بن جذيمة بن عوف بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفضى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، بيتهم بيت الشرف في عبد القيس، وإنما سمي الجارود لبيت قاله بعض الشعراء فيه في آخره:

كما جرد الجارود بكر بن وائل .

ووفد الجارود على النبي صلى الله عليه وسلم في سنة تسع، وقيل: في سنة عشر.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب أنه كان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان قد وفد مع المنذر بن ساوى في جماعة من عبد القيس، وقال:

بنات فؤادي بالشهادة والنهض

شهدت بأن الله حق وسامحت

فأبلغ رسول الله مني رسالة

بأنني حنيف حيث كنت من الأرض

قال: وقد اختلف في نسبه اختلافاً كثيراً، فقليل: بشر بن المعلی بن خنيس، وقيل: بشر بن خنيس بن المعلی، وقيل: بشر بن عمرو بن العلاء، وقيل: بشر بن عمرو بن المعلی، وكنيته أبو عتاب، ويكنى أيضاً أبا المنذر. وسكن الجارود البصرة، وقتل بأرض فارس، وقيل: بل قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن. وقيل: إن عثمان بن العاص بعث الجارود في بعث نحو ساحل فارس، فقتل بموضع يعرف بعقبة الجارود، وكان قبل ذلك يعرف بعقبة الطين، فلما قتل الجارود فيه عرفه الناس بعقبة الجارود، وذلك في سنة إحدى وعشرين. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث وروى عنه، وأمه دريمكة بنت رويم الشيبانية. وقال أبو عبيدة معمر ابن المثنى في كتاب التاج: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الجارود وعبد القيس حين وفدا إليه، وقال للأنصار: قوموا إلى إخوانكم، وأشبهه الناس بكم، قال: لأنهم أصحاب نخل، كما أن الأوس والخزرج أصحاب نخل، ومسكنهم البحرين واليمامة. قال أبو عبيدة: وقال عمر ابن الخطاب: لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا الأمر لا يكون إلا في قريش لما عدلت بالخلافة عن الجارود بن بشر بن المعلی، ولا تخالجي في ذلك الأمور.

قال أبو عبيدة: ولعبد القيس ست خصال فاقت بها على العرب، منها: أسود العرب بيتاً، وأشرفهم رهطاً الجارود هو وولده. ومنها أشجع العرب حكيم بن جبلة، قطعت رجله يوم الجمل، فأخذها بيده وزحف على قاتله فضربه بها حتى قتله، وهو يقول:

يا نفس لا تراعي

إن قطعت كراعي

إن معي ذراعي

فلا يعرف في العرب أحد صنع صنيعة.

ومنها أعبد العرب هرم بن حيان صاحب أويس القرني.

ومنها أجود العرب عبد الله بن سواد بن همام، غزا السند في أربعة آلاف، ففتحها وأطعم الجيش كله ذاهباً وقافلاً، فبلغه أن رجلاً من الجيش مرض، فاشتبه خبيصاً، فأمر باتخاذ الخبيص لأربعة آلاف إنسان، فأطعمهم حتى فضل، وتقدم إليهم ألا يوقد أحد منهم ناراً لطعام في عسكره مع ناره.

ومنها أخطب العرب مصقلة بن رقة، به يضرب المثل فيقال: أخطب من مصقلة.

ومنها أهدى العرب في الجاهلية وأبعدهم مغاراً وأثراً في الأرض في عدوه، وهو دعيميص الرمل كان يعرف بالنجوم هداية، وكان أهدى من القطا، يدفن بيض النعام في الرمل مملوءاً ماء ثم يعود إليه فيستخرجه.

فأما المنذر بن الجارود فكان شريفاً، وابنه الحكم بن المنذر يتلوه في الشرف، والمنذر غير معدود في الصحابة، ولا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ولد له في أيامه، وكان تائهاً معجماً بنفسه، وفي الحكم ابنه يقول الراجز:

أنت الجواد ابن الجواد المحمود

يا حكم بن المنذر بن الجارود

سرادق المجد عليك ممدود

وكان يقال: أطوع الناس في قومه الجارود بن بشر بن المعلى، لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب، خطب قومه فقال: أيها الناس، إن كان محمد قد مات فإن الله حي لا يموت، فاستمسكوا بأيديكم، ومن ذهب له في هذه الفتنة دينار أو درهم أو بقرة أو شاة فعلي مثلاه، فما خالفه من عبد القيس أحد.

قوله رضي الله عنه: إن صلاح أهلك غربي منك، قد ذكرنا حال الجارود وصحته وصلاحه، وكثيراً ما يغر الإنسان بحال الآباء فيظن أن الأبناء على منهاجهم، فلا يكون الأمر كذلك، "يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي".

قوله: فيما رقي بالتشديد، أي فيما رفع إلي، وأصله أن يكون الإنسان في موضع عال فيرقى إليه شيء، وكأن العلو ههنا هو علو الرتبة بين الإمام والأمير، ونحو قولهم: تعال باعتبار علو رتبة الأمر على المأمور. واللام في لهُواك متعلقة بمحذوف دل عليه انقياداً، ولا يتعلق بنفس انقياد لأن المتعلق من حروف الجر بالمصدر لا يجوز أن يتقدم على المصدر. والعتاد: العدة قوله: وتصل عشيرتك، كان فيما رقي إليه عنه أنه يقتطع المال ويفيضة على رهطه وقومه ويخرج بعضه في لذاته ومآربه.

قوله: لجمال أهلك، العرب تضرب بالجمال المثل في الهوان قال:

ولم يستغن بالعظم البعير

لقد عظم البعير بغير لب

ويحبسه على الخسف الجريير

يصرفه الصبي بكل وجه

فلا غير لديه ولا نكير

وتضربه الوليدة بالهراوى

فأما شسع النعل فضرب المثل بها في الإستهانة مشهور، لا ابتذالها ووطئها الأقدام في التراب.

ثم ذكر أنه من كان بصفته فليس بأهل لكذا وكذا ولا كذا، إلى أن قال: أو يشرك في أمانة، وقد جعل الله تعالى البلاد والرعايا أمانة في ذمة الإمام، فإذا استعمل العمال على البلاد والرعايا فقد شركهم في تلك الأمانة.

قال: أو يؤمن على جباية، أي على استجباء الخراج وجمعه، وهذه الرواية التي سمعناها، ومن الناس من يرويها على خيانة وهكذا رواها الراوندي، ولم يرو الرواية الصحيحة التي ذكرناها نحن، وقال يكون على متعلقة بمحذوف، أو يؤمن نفسها، وهو بعيد ومتكلف.

ثم أمره أن يقبل إليه، وهذه كناية عن العزل.

فأما الكلمات التي ذكرها الرضي عنه رضي الله عنه، في أمر المنذر فهي دالة على أنه نسبته إلى التيه والعجب، فقال: نظار في عطفه، أي جانيبه، ينظر تارةً هكذا وتارةً هكذا، ينظر لنفسه، ويستحسن هيئته ولبسته، وينظر هل عنده نقص في ذلك أو عيب فيستدركه بإزالته، كما يفعل أرباب الزهو ومن يدعي لنفسه الحسن والملاحة.

قال: مختال في برديه: يمشي الخيلاء عجباً قال محمد بن واسع لابن له وقد رآه يختال في برد ادن، فدنا فقال: من أين جاءتك هذه الخيلاء ويلك! أما أمك فامة ابتعتها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في الناس أمثاله.
قوله: تغال في شراكيه، السير الذي يكون في النعل على ظهر القدم.
والتفل بالسكون: مصدر تفل أي بصق، والتفل محرّكاً البصاق نفسه، وإنما يفعله المعجب والتائه في شراكيه ليذهب عنهما الغبار والوسخ، يتفل فيهما ويمسحهما ليعودا كالجديدين.

وكتب إلى عبد الله بن العباس رضي الله عنه.

الأصل: أما بعد، فإنك لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ما ليس لك، واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، وأن الدنيا دار دول، فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك.
الشرح: قد تقدم شرح مثل هذا الكلام، وهذا معنى مطروق، قد قال الناس فيه فأكثرُوا، قال الشاعر:

شد بكور رحلاً ولا قتباً

والرأي ومن لا يزال مغترباً

قد يرزق العاجز الضعيف وما

ويحرم المرء ذو الجلالة

ومن جيد ما قيل في هذا المعنى قول أبي يعقوب الخريمي:

وسراء عيش زائل ومصائبه

لوارثه ما ثمر المال كاسبه

ويتركه نهياً لمن لا يحاسبه

شحيحاً ودهراً تعتريك نوائبه

فلا البخل مبقية ولا الجود خاربه

وليس يفوت المرء ماخط كاتبه

ويعطى الفتى من حيث يحرم صاحبه

ويحرم هذا الرزق وهو يغالبه

تطالبه أم في الذي لاتطالبه!

لكل حميم راكب هو راكبه

بنصرة يوم لا توارى كواكبه

بنصرة يوم لا توارى كواكبه

وأعظمهم في النائبات أقاربه

هل الدهر إلا صرفه ونوائبه

يقول الفتى ثمرت مالي وإنما

يحاسب فيه نفسه في حياته

فكله وأطعمه وخالسه وارثاً

أرى المال والإنسان للدهر نهبةً

لكل امرئ رزق وللرزق جالب

يخيب الفتى من حيث يرزق غيره

يساق إلى ذا رزقه وهو ودع

وإنك لا تدري: أرزقك في الذي

تناس ذنوب الأقربين فإنه

له هفوات في الرخاء يشوبها

تراه غدواً ما أمنت وتتقي

لكل امرئ إخوان بؤس ونعمة

وكتب إلى معاوية.

الأصل: أما بعد، فإني على التردد في جوابك، والاستماع إلى كتابك، لموهن رأي، ومخطيء فراستي، وإنك إذ تحاولني الأمور، وتراجعني السطور، كالمستثقل النائم تكذبه أحلامه، والمتحير القائم يبهظه مقامه، لا يدري أله ما يأتي أم عليه، ولست به، غير أنه بك شبيه.

وأقسم بالله أنه لولا بعض الاستبقاء، لوصلت مني إليك قوارع تفرع العظم، وتنهس اللحم.

واعلم أن الشيطان قد ثبطك عن أن تراجع أحسن أمورك، وتأذن لمقال نصيحتك، والسلام لأهله.

الشرح: روي نوازع جمع نازعة، أي جاذبة قالعة، وروي قهلس اللحم وتلهس بتقديم اللام، وقهلس بكسر اللام: تذييه حتى يصير كبدن به الهلاس، وهو السل، وأما تلهس فهو بمعنى تلحس، أبدلت الحاء هاء، وهو عن لحست كذا بلساني بالكسر، ألحسه، أي تأتى على اللحم حتى تلحسه لحساً لأن الشيء إنما يلحس إذا ذهب وبقي أثره، وأما ينهس وهي الرواية المشهورة، فمعناه يعترق.

وتأذن بفتح الذال، أي تسمع.

قوله رضي الله عنه: إني لموهن رأيي بالتشديد، أي لائم نفسي، ومستضعف رأيي، في أن جعلتك نظيراً، أكتب وتجيبي، وتكتب وأجيبك، وإنما كان ينبغي أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانك.

فإن قلت: فما معنى قوله: على التردد، قلت: ليس معناه التوقف، بل معناه التردد والتكرار، أي أنا لائم نفسي على أي أكرر تارة بعد تارة أجوبتك عما تكتبه.

ثم قال: وإنك في مناظرتي ومقاومتي بالأمور التي تحاولها، والكتب التي تكتبها كالنائم يرى أحلاماً كاذبة، أو كمن قام مقاماً بين يدي سلطان، أو بين قوم عقلاء، ليعتذر عن أمر، أو ليخطب بأمر في نفسه، قد بهظه مقامه، أي أثقله فهو لا يدري: هل ينطق بكلام هو له، أم عليه، فيتحير ويتبدل، ويدركه العي والحصر.

قال: وإن كنت لست بذلك الرجل فإنك شبيه به، أما تشبيهه بالنائم ثم ذي الأحلام، فإن معاوية لو رأى في المنام في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خليفة يخاطب بإمرة المؤمنين، ويحارب علياً على الخلافة، ويقوم في المسلمين مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طلب لذلك المنام تأويلاً ولا تعبيراً، ولعده من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام، وكيف له أن يخطر هذا بباله، وهو أبعد الخلق منه! وهذا كما يخطر للنفاط أن يكون ملكاً، ولا تنظرن إلى نسبه في المناقب، بل انظر إلى أن الإمامة هي نبوة مختصرة، وأن الطليق المعداد من المؤلفة قلوبهم المكذب بقلبه وإن أقر بلسانه، الناقص المتزلة عند المسلمين، القاعد في أخريات الصف، إذا دخل إلى مجلس فيه أهل السوابق من المهاجرين، كيف يخطر ببال أحد أنها تصير فيه ويملكها ويسمه الناس وسمها، ويكون للمؤمنين أميراً، ويصير هو الحاكم في رقاب أولئك العظماء من أهل الدين والفضل، وهذا أعجب من العجب، أن يجاهد النبي صلى الله عليه وسلم قوماً بسيفه ولسانه ثلاثاً وعشرين سنة، ويلعنهم ويبيدهم عنه، ويتزل القرآن بدمهم ولعنهم، والبراءة منهم، فلما تمهدت له الدولة، وغلب الدين على الدنيا، وصارت شريعة دينية محكمة، مات فشيده دينه الصالحون من أصحابه، وأوسعوا رقعة ملته، وعظم قدرها في النفوس، فتسلمها منهم أولئك الأعداء الذين جاهدتهم النبي صلى الله عليه وسلم فملكوها وحكموا فيها، وقتلوا الصلحاء

والأبرار وأقارب نبيهم الذين يظهرون طاعته، وآلت تلك الحركة الأولى وذلك الإجتهد السابق إلى أن كان ثمرته لهم، فليته كان يبعث فيرى معاوية الطليق وابنه، ومروان وابنه خلفاء في مقامه، يحكمون على المسلمين، فوضح أن معاوية فيما يراجع ويكتبه به، كصاحب الأحلام.

وأما تشبيهه إياه بالقائم مقاماً قد بهظه، فلأن الحجج والشبه والمعاذير التي يذكرها معاوية في كتبه أو هن من نسج العنكبوت، فهو حال ما يكتب كالقائم ذلك المقام يحبط خبط العشواء، ويكتب ما يعلم هو والعقلاء من الناس أنه سفه وباطل.

فإن قلت: فما معنى قوله رضي الله عنه: لولا بعض الاستبقاء، وهل كانت الحال تقتضي أن يستبقي، وما تلك القوارع التي أشار إليها، قلت: قد قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم فوض إليه أمر نسائه بعد موته، وجعل إليه أن يقطع عصمة أيتهن شاء إذا رأى ذلك، وله من الصحابة جماعة يشهدون له بذلك فقد كان قادراً على أن يقطع عصمة أم حبيبة، ويبيح نكاحها الرجال عقوبة لها ولمعاوية أخيها، فإنها كانت تبغض علياً كما يبغضه أخوها، ولو فعل ذلك لانتهس لحمه، وهذا قول الإمامية، وقد رووا عن رجالهم أنه رضي الله عنه تهدد عائشة بضرب من ذلك، وأما نحن فلا نصدق هذا الخبر، ونفسر كلامه على معنى آخر، وهو أنه قد كان معه من الصحابة قوم كثيرون سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعن معاوية بعد إسلامه، ويقول: إنه منافق كافر، وإنه من أهل النار، والأخبار في ذلك مشهورة، فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك، ويسمعهم قولهم ملافة ومشافهة لفعل، ولكنه رأى العدول عن ذلك، مصلحة لأمر يعلمه هو رضي الله عنه، ولو فعل ذلك لانتهس لحمه، وأما أبقى عليه. وقلت لأبي زيد البصري: لم أبقى عليه؟ فقال: والله ما أبقى عليه مراعاة له، ولا رفقا به، ولكنه خاف أن يفعل كفعله، فيقول لعمر بن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أبي أرطاة وأبي الأعور وأمثالهم: ارووا أنتم عن النبي صلى الله عليه وسلم أن علياً رضي الله عنه منافق من أهل النار، ثم يحمل ذلك إلى أهل العراق، فلهذا السبب أبقى عليه

ومن حلف له رضي الله عنه كتبه بين ربيعة واليمن

ونقل من خط هشام بن الكلبي .

الأصل: هذا ما اجتمع عليه أهل اليمن حاضرها وباديها، وربيعه حاضرها وباديها، أنهم على كتاب الله، يدعون إليه، ويأمرون به، ويجيبون من دعا إليه وأمر به، لا يشتركون به ثمناً قليلاً، ولا يرضون به بدلاً، وأنهم يد واحدة على من خالف ذلك وتركه، وأنهم أنصار بعضهم لبعض، دعوتهم واحدة، لا ينقضون عهدهم لمعتبة عاتب، ولا لغضب غاضب، ولا لاستدلال قوم قوماً، ولا لمسبة قوم قوماً، على ذلك شاهدتهم وغائبهم، وسفيهم وعالمهم، وحليمهم وجاهلهم. ثم إن عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، إن عهد الله كان مسؤولاً.

وكتب علي بن أبي طالب.

الشرح: الحلف: العهد، أي ومن كتاب حلف، فحذف المضاف. واليمن: كل من ولده قحطان، نحو حمير، وعك وجذام، وكندة، والأزد، وغيرهم.

وربيعة، هو ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وهم بكر وتغلب، وعبد القيس. وهشام، هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي، نساية ابن نساية، عالم بأيام العرب وأخبارها، وأبوه أعلم منه، وهو يروي عن أبيه.

والحاضر: ساكنو الحضر: والبادي: ساكنو البادية، واللفظ لفظ المفرد والمعنى الجمع. قوله: إنهم على كتاب الله حرف الجر يتعلق بمحذوف، أي مجتمعون. قوله: "لا يشترون به ثمنًا قليلاً"، أي لا يتعوضون عنه بالثمن، فسمى التعوض اشتراء، والأصل هو أن يشتري الشيء بالثمن لا الثمن بالشيء، لكنه من باب إتساع العرب، وهو من ألفاظ القرآن العزيز. وأنهم يد واحدة، أي لا خلف بينهم.

قوله: لمعتبة عاتب، أي لا يؤثر في العهد والحلف، ولا ينقضه أن يعتب أحد منهم على بعضهم، لأنه استجداه فلم يجده، أو طلب منه أمراً فلم يقم به، ولا لأن أحداً منهم غضب من أمر صدر من صاحبه، ولا لأن عزيزاً منهم استذل ذليلاً منهم، ولا لأن إنساناً منهم سب أو هجا بعضهم، فإن أمثال هذه الأمور يتعذر ارتفاعها بين الناس، ولو كانت تنقض الحلف لما كان حلف أصلاً.

واعلم أنه قد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة"، ولا حلف في الإسلام، لكن فعل أمير المؤمنين رضي الله عنه أولى بالإتباع من خبر الواحد، وقد تحالفت العرب في الإسلام مراراً، ومن أراد الوقوف على ذلك فليطلبه من كتب التواريخ.

وكتب إلى معاوية من المدينة

في أول ما بويع له بالخلافة، ذكره الواقدي في كتاب الجمل.

الأصل: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد، فقد علمت إعداري فيكم، وإعراضي عنكم، حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له، والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل، فبايع من قبلك، وأقبل إلي في وفد من أصحابك والسلام.

الشرح: كتابه إلى معاوية ومخاطبته لبني أمية جميعاً. قال: وقد علمت إعداري فيكم، أي كوني ذا عذر لو لمتكم أو ذممتكم، يعني في أيام عثمان.

ثم قال: وإعراضي عنكم أي مع كوني ذا عذر لو فعلت ذلك فلم أفعله، بل أعرضت عن إساءتكم إلي وضربت عنكم صفحاً. حتى كان ما لا بد منه - يعني قتل عثمان وما جرى من الرحبة بالمدينة.

ثم قاطعه الكلام مقاطعة وقال له: والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ذلك الزمان، وأقبل زمان آخر، فبايع واقد،

فلم يبائع ولا قدم، وكيف يبائع وعينه طامحة إلى الملك والرياسة منذ أمره عمر على الشام، وكان عالي الهمة، تواقاً إلى معالي الأمور، وكيف يطيع علياً والمحرضون له على حربه عدد الحصا، ولو لم يكن إلا الوليد بن عقبة لكفى، وكيف يسمع قوله:

النهار ولم يثأر بعثمان ثائر

فو الله ما هند بأملك إن مضى

ولم تقتلوه، ليت أمك عاقر

أيقتل عبد القوم سيد أهله

قريباً وقد دارت عليه الدوائر.

ومن عجب أن بت بالشام وادعاً

ويطيع علياً، ويبائع له، ويقدم عليه، ويسلم نفسه إليه، وهو نازل بالشام في وسط قحطان ودونه منهم حرة لا ترام، وهم أطوع له من نعله، والأمر قد أمكنه الشروع فيه، وتالله لو سمع هذا التحريض أجبن الناس وأضعفهم نفساً وأنقصهم همّة لحركه وشحذ من عزمه، فكيف معاوية، وقد أيقظ الوليد بشعره من لا ينام!

ومن وصية له لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة

الأصل: سعى الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان. واعلم أن ما قربك من الله يبعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار. الشرح: روي: وحلمك. والقرب من الله، هو القرب من ثوابه، ولا شبهة أن ما قرب من الثواب باعد من العقاب، وبالعكس لتنافيهما.

فأما وصيته له أن يسع الناس بوجهه ومجلسه وحكمه، فقد تقدم شرح مثله، وكذلك القول في الغضب. وطيرة من الشيطان: بفتح الطاء وسكون الباء، أي خفة وطيش قال الكميت:

وطيرتك الصاب والحنظل

وحلمك عز إذا ما حلمت

ومن وصية له رضي الله عنه لعبد الله بن العباس أيضاً لما بعثه للإحتجاج على الخوارج الأصل: لا تخصمهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً. الشرح: هذا الكلام لا نظير له في شرفه وعلو معناه، وذلك أن القرآن كثير الإشتباه، فيه مواضع يظن في الظاهر أنها متناقضة متنافية، نحو قوله: "لا تدركه الأبصار"، وقوله: "إلى ربها ناظرة"، ونحو قوله: "وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون"، وقوله: "فأما ثمود فهديناهم، فاستحبوا العمى على الهدى"، ونحو ذلك، وهو كثير جداً، وأما السنة فليست كذلك، وذلك لأن الصحابة كانت تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتستوضح منه الأحكام في الوقائع، وما عساه يشته عليه من كلامه، يراجعونه فيه، ولم يكونوا يراجعونه في القرآن إلا فيما قل، بل كانوا يأخذونه منه تلقفاً، وأكثرهم لا يفهم معناه، لا لأنه غير مفهوم، بل لأنهم ما كانوا يتعاطون فهمه، إما إحلالاً له أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسأله عنه، أو يجروونه مجرى الأسماء الشريفة التي إنما يراد منها بركتها لا الإحاطة

بمعناها، فلذلك كثر الاختلاف في القرآن. وأيضاً فإن ناسخه ومنسوخه أكثر من ناسخ السنة ومنسوخها، وقد كان في الصحابة من يسأل الرسول عن كلمة في القرآن يفسرها له تفسيراً موجزاً، فلا يحصل له كل الفهم، لما أنزلت آية الكلاله، وقال في آخرها: "يبين الله لكم أن تضلوا"، سألهم عمر عن الكلاله ما هو؟ فقال له: يكفيك آية الصيف، لم يزد على ذلك، فلم يراجع عمر وانصرف عنه، فلم يفهم مراده، وبقي عمر على ذلك إلى أن مات، وكان يقول بعد ذلك: اللهم مهما بينت، فإن عمر لم يتبين، يشير إلى قوله: يبين الله لكم أن تضلوا، وكانوا في السنة ومخاطبة الرسول على خلاف هذه القاعدة، فلذلك أوصاه علي رضي الله عنه أن يحاجهم بالسنة لا بالقرآن.

فإن قلت: فهل حاجهم بوصيته؟ قلت: لا، بل حاجهم بالقرآن، مثل قوله: "فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها"، ومثل قوله في صيد المحرم: "يحكم به ذوا عدل منكم"، ولذلك لم يرجعوا والتحمت الحرب، وإنما رجع باحتجاجة نفر منهم.

فإن قلت: فما هي السنة التي أمره أن يحاجهم بها؟ قلت: كان لأمر المؤمنين رضي الله عنه في ذلك غرض صحيح، وإليه أشار، وحوله كان يطوف ويحوم، وذلك أنه أراد أن يقول لهم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار"، وقوله: "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، ونحو ذلك من الأخبار التي كانت الصحابة قد سمعتها من فلق فيه صلوات الله عليه، وقد بقي ممن سمعها جماعة تقوم الحجة وتثبت بنقلهم، ولو احتج بها على الخوارج في أنه لا يحل مخالفته والعدول عنه بحال لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين رضي الله عنه في محاجتهم، وأغراض أخرى أرفع وأعلى منهم، فلم يقع الأمر بموجب ما أراد، وقضي عليهم بالحرب، حتى أكلتهم عن آخرهم، وكان أمر الله مفعولاً.

ومن كتاب له أجاب به أبا موسى الأشعري

عن كتاب كتبه إليه من المكان الذي اتعدوا فيه للحكومة، وذكر هذا الكتاب سعيد بن يحيى الأموي في كتاب المغازي

الأصل: فإن الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم، فمالوا مع الدنيا، ونطقوا بالهوى. وإني نزلت من هذا الأمر منزلاً معجباً، اجتمع به أقوام أعجبته أنفسهم، وأنا أدأوي منهم قرحاً أخاف أن يكون علقاً يعود، وليس رجل - فاعلم - أحرص الناس على جماعة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وألفتها مني، أبتغي بذلك حسن الثواب، وكرم المآب. وسأفي بالذي وأيت على نفسي، وإن تغيرت عن صالح ما فارقتني عليه، فإن الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة، وإني لأعبد أن يقول قائل بباطل، وأن أفسد أمراً قد أصلحه الله، فدع عنك ما لا تعرف، فإن شرار الناس طائرون إليك بأقويل السوء والسلام.

الشرح: روي: ونطقوا مع الهوى، أي مائلين مع الهوى.

وروي: وأنا أدأوي بالراء، من المداراة، وهي الملاينة والمساهلة.

وروي: نفع ما أولى باللام، يقول: أوليته معروفاً.

وروي: إن قال قائل بباطل ويفسد أمراً قد أصلحه الله.

واعلم أن هذا الكتاب كتاب من شك في أبي موسى واستوحش منه، ومن قد نقل عنه إلى أبي موسى كلاماً إما صدقاً وإما كذباً. وقد نقل عن أبي موسى إليه كلاماً إما صدقاً أيضاً وإما كذباً، قال رضي الله عنه: إن الناس قد تغير كثير منهم عن حظهم من الآخرة، فمالوا مع الدنيا. وإني نزلت من هذا الأمر منزلاً معجباً، بكسر الجيم، أي يعجب من رآه، أي يجعله متعجباً منه. وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونصاره من أهل العراق، فإنهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديداً جداً. والمترل والتزول ههنا مجاز واستعارة، والمعنى أي حصلت في هذا الأمر الذي حصلت فيه على حال معجبة لمن تأملها، لأنني حصلت بين قوم كل واحد منهم مستبد برأي يخالف فيه رأي صاحبه، فلا تنتظم لهم كلمة ولا يستوثق لهم أمر، وإن حكمت عليهم برأي أراه أنا خالفوه وعصوه، ومن لا يطاع فلا رأي له، وأنا معهم كالطبيب الذي يداوي قرحاً، أي جراحة قد قاربت الإندمال ولم تندمل بعد، فهو يخاف أن يعود علقاً أي دماً.

ثم قال له: ليس أحد، فاعلم، أحرص على ألفه الأمة وضم نشر المسلمين.

وأدخل قوله: فاعلم بين اسم ليس وخبرها فصاحة، ويجوز رفع أحرص بجعله صفة لاسم ليس، ويكون الخبر محذوفاً، أي ليس في الوجود رجل.

وتقول: قد وأيت وأياً، أي وعدت وعداً، قال له: أما أنا فسوف أفي بما وعدت وما استقر بيني وبينك، وإن كنت أنت قد تغيرت عن صالح ما فارقني عليه.

فإن قلت: فهل يجوز أن يكون قوله: وإن تغيرت من جملة قوله فيما بعد فإن الشقي كما تقول: إن خالفني فإن الشقي من يخالف الحق.

قلت: نعم، والأول أحسن، لأنه أدخل في مدح أمير المؤمنين رضي الله عنه، كأنه يقول: أنا أفي وإن كنت لا تفي، والإيجاب يحسنه السلب الواقع في مقابله:

والضد يظهر حسنه الضد

ثم قال: وإني لأعبد أي آنف، من عبد بالكسر أي آنف، وفسروا قوله: "فأنا أول العابدين" بذلك، يقول: إني لأنف من أن يقول غيري قولاً باطلاً، فكيف لا آنف من ذلك لنفسي؟ ثم تختلف الروايات في اللفظة بعدها كما ذكرنا. ثم قال: فدع عنك ما لا تعرف أي لا تبين أمرك إلا على اليقين والعلم القطعي، ولا تصغ إلى أقوال الوشاة ونقله الحديث، فإن الكذب يخالط أقوالهم كثيراً، فلا تصدق ما عساه يبلغك عني شرار الناس، فإنهم سراع إلى أقاويل السوء، ولقد أحسن القائل فيهم:

شراً أذاعوا وإن لم يسمعوا كذبوا

إن يسمعوا الخير يخفوه وإن سمعوا

ونحو قول الآخر:

وإن ذكرت بخير عندهم دفنوا

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً

وكتب لما استخلف إلى أمراء الأجناد .

الأصل: أما بعد، فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه.
الشرح: أي منعوا الناس الحق فاشتروا الحق منهم بالرشا والأموال، أي لم يضعوا الأمور مواضعها، ولا ولوا الولايات مستحقيها، وكانت أمورهم الدينية والدنيوية تجري على وفق الهوى والغرض الفاسد، فاشتري الناس منهم الميراث والحقوق كما تشتري السلع بالمال.
ثم قال: وأخذوهم بالباطل فاقتدوه، أي حملوهم على الباطل فجاء الخلف، بعد السلف، فاقتدوا بآبائهم وأسلافهم في ارتكاب ذلك الباطل ظناً أنه حق لما قد ألفوه ونشؤوا وربوا عليه.
وروي: فاستروه بالسين المهملة أي اختاروه، يقال، استريت خيار المال، أي اخترته ويكون الضمير عائداً إلى الظلمة لا إلى الناس، أي منعوا الناس حقهم من المال واختاروه لأنفسهم واستأثروا به.

باب المختار من حكم أمير المؤمنين ومواعظه

ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير الخارج من سائر أغراضه.

اعلم أن هذا الباب من كتابنا كالروح من البدن، والسواد من العين، وهو الدرة المكنونة التي سائر الكتاب صدفها، وربما وقع فيه تكرار لبعض ما تقدم يسير جداً، وسبب ذلك طول الكتاب وبعد أطرافه عن الذهن، وإذا كان رضي رحمه الله قد سها فكرر في مواضع كثيرة في نهج البلاغة على اختصاره كنا نحن في تكرار يسير في كتابنا الطويل أعذر الأصل: كن في الفتنة كابن اللبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب.

الشرح: ابن اللبون: ولد الناقة الذكر إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة، ولا يقال للأنثى: ابنة اللبون، وذلك لأن أهمها في الأغلب ترضع غيرهما، فتكون ذات لبن، واللبنون من الإبل والشاة: ذات اللبن، غزيرة كانت أو بكيفة، فإذا أرادوا الغزيرة قالوا: لبنة، ويقال: ابن لبون وابن اللبون، منكرًا أو معرفًا، قال الشاعر:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وابن اللبون لا يكون قد كمل وقوي ظهره على أن يركب، وليس بأنثى ذات ضرع فيحلب وهو مطرح لا ينتفع به.
وأيام الفتنة هي أيام الخصومة والحرب بين رئيسين ضالين يدعوان كلاهما إلى ضلالة كفتنة عبد الملك وابن الزبير، وفتنة مروان والضحاك، وفتنة الحجاج وابن الأشعث ونحو ذلك، فأما إذا كان أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة كالجمل وصفين ونحوهما بل يجب الجهاد مع صاحب الحق وسل السيف والنهي عن المنكر وبذل النفس في إعزاز الدين وإظهار الحق.

قال: أحمل نفسك أيام الفتنة، وكن ضعيفاً مغموراً بين الناس لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء.
وقوله: فيركب فيحلب، منصوبان لأنهما جواب النفي، وفي الكلام محذوف تقديره: له، وهو يستحق الرفع، لأنه خير

المبتدأ، مثل قولك: لا إله إلا الله، تقديره: لنا، أو في الوجود.

الأصل: أزرى بنفسه من استشعر الطمع، ورضي بالذل من كشف عن ضره، وهانت عليه نفسه من أمر عليها لسانه. الشرح: هذه ثلاثة فصول: الفصل الأول في الطمع: قوله رضي الله عنه: أزرى بنفسه، أي قصر بها. من استشعر الطمع، أي جعله شعاره أي لازمه.

وفي الحديث المرفوع: "إن الصفا الزلزال الذي لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع".

وفي الحديث أنه قال للأنصار: "إنكم لتكثرلون عند الفزع وتقلون عند الطمع أي عند طمع الرزق.

وكان يقال: أكثر مصارع الألباب تحت ظلال الطمع.

وقال بعضهم: العبيد ثلاثة: عبد رق، وعبد شهوة، وعبد طمع.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغنى، فقال: "اليأس عما في أيدي الناس، ومن مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً".

وقال أبو الأسود:

طوبى لذي إربة للدهر لباس

لبس عدوك في رفق وفي دعة

قد يركب الدبر الدامي بأحلاس

ولا تغرنك أحقاد مزملة

إن الغني الذي استغنى عن الناس

واستغن عن كل ذي قرىبي وذو رحم

قال، عمر: ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

وفي الحديث المرفوع: "الطمع الفقر الحاضر".

قال الشاعر:

وفي الطمع المذلة للرقاب

رأيت مخيلةً فطمعت بها

الفصل الثاني في الشكوى: قال رضي الله عنه: من كشف للناس ضره أي شكى إليهم بؤسه وفقره، فقد رضي بالذل. كان يقال: لا تشكون إلى أحد، فإنه إن كان عدواً سره، وإن كان صديقاً ساءه وليست مسرة العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة.

سمع الأحنف رجلاً يقول: لم أتم الليلة من وجع ضرسي، فجعل يكثر، فقال: يا هذا لم تكثر، فو الله لقد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة فما شكوت ذلك إلى أحد، ولا أعلمت بها أحداً.

الفصل الثالث في حفظ اللسان: قد تقدم قول شاف في ذلك، وكان يقال: حفظ اللسان راحة الإنسان، وكان يقال: رب كلمة سفكت دماً، وأورثت ندماً.

وفي الأمثال العامة، قال اللسان للرأس: كيف أنت؟ قال: بخير لو تركتني.

وفي وصية المهلب لولده، يا بني تباذلوا تحابوا، فإن بني الأعيان يختلفون فكيف ببني العلات، إن البر ينسأ في الأجل، ويزيد في العدد، وإن القطيعة تورث القلة، وتعقب النار بعد الذلة، اتقوا زلة اللسان فإن الرجل تزل رجله فينتعش، ويزل لسانه

فيهلك، وعليكم في الحرب بالملكيدة، فإنها أبلغ من النجدة، وإن القتال إذا وقع وقع القضاء، فإن ظفر الرجل ذو الكيد والحزم سعد، وإن ظفر به لم يقولوا: فرط.
وقال الشاعر في هذا المعنى:

وليس يموت المرء من عشرة الرجل

يموت الفتى من عشرة بلسانه

الأصل: البخل عار، والجبن منقصة، والفقر يخرس الفطن عن حاجته، والمقل غريب في بلده.
الشرح: هذه ثلاثة فصول: الفصل الأول في البخل: وقد تقدم لنا كلام مقنع في ذلك.

ومن كلام بعض الحكماء في ذلك: ما أقل من يحمده الطالب، وتستقل به العشائر، ويرضى عنه السائل، وما زالت أم الكرم نزوراً وأم اللوم ذلولاً. وأكثر الواحدين من لا يجود، وأكثر الأجواد من لا يجد.
وما أحسن قول القائل: كفى حزناً أن الجواد مقتر عليه، ولا معروف عند بخيل.
وكان يقال: البخل مهانة، والجود مهابة.

ومن أحسن ما نقل من جود عبد الله المأمون أن عمر بن مسعدة كاتبه مات في سنة سبع عشرة ومائتين، وخلف تركة جلييلة، فبعث أخاه إسحاق المعتصم وجماعة معه من الكتاب ليحصرها، فجاء المعتصم إليه وهو في مجلس الخلافة، ومعه الكتاب، فقال: ما رأيتم؟ فقال المعتصم معظماً لما رآه: وجدنا عيناً، وصامتاً، وضياعاً، قيمة ذلك أجمع ثمانية آلاف ألف دينار، ومد صوته، فقال المأمون: إنا لله، والله ما كنت أرضاها لتابع من أتباعه ليوفر هذا على مخلفيه، فخرج المعتصم حتى ظهر خجله للحاضرين.

الفصل الثاني في الجبن، وقد تقدم قولنا في فضل الشجاعة.

وقال هشام بن عبد الملك لمسلمة أخيه: يا أبا سعيد، هل دخلك ذعر في حرب قط شهدتها، قال: ما سلمت في ذلك عن ذعر ينه على حيلة، ولا غشيني ذعر سلبني رأيي، فقال له هشام: هذه والله البسالة، قال أبو دلامة، وكان جباناً:

إلى القتال فتشقى بي بنو أسد

إني أعوذ بروح أن يقدمني

ولم أرث رغبة في الموت عن أحد

إن المهلب حب الموت أورثكم

قال المنصور لأبي دلامة في حرب إبراهيم: تقدم ويلك! قال: يا أمير المؤمنين، شهدت مع مروان بن محمد أربعة عساكر كلها انهزمت وكسرت، وإني أعيدك بالله أن يكون عسكرك الخامس.

الفصل الثالث في الفقر. وقد تقدم القول فيه أيضاً: ومثل قوله: الفقر يخرس الفطن عن حاجته قول الشاعر:

غنى المال يوماً أو غنى الحدثان

سأعمل نص العيس حتى يكفني

على الحر بالإقلال وسم هوان

فللموت خير من حياة يرى لها

وإن لم يقل قالوا عديم بيان

متى يتكلم يلغ حكم كلامه

بغير لسان ناطق بلسان

كأن الغنى على أهله بورك الغنى

ومثل قوله رضي الله عنه: والمقل غريب في بلدته قول خلف الأحمر:

ئي ولكنما الغريب المقل

لاتظني أن الغريب هو النا

وكان يقال: مالك نورك، فإن أردت أن تنكشف ففرقه وأتلفه.

قيل للإسكندر: لم حفظت الفلاسفة المال مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا، قال: لئلا تحوجهم الدنيا إلى أن يقوموا مقاماً لا يستحقونه.

وقال بعض الزهاد: ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد.

وقال الحسن رضي الله عنه: من زعم أنه لا يجب المال فهو عندي كاذب، فإن علمت صدقه فهو عندي أحق.

الأصل: العجز آفة، والصبر شجاعة، والزهد ثروة، والورع جنة، ونعم القرين الرضا.

الشرح: فهذه الفصول خمسة: الفصل الأول: قوله رضي الله عنه: العجز آفة، وهذا حق لأن الآفة هي النقص أو ما أوجب النقص، والعجز كذلك.

وكان يقال: العجز المفرط ترك التأهب للمعاد.

وقالوا: العجز عجزان: أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر، والثاني الجد في طلبه وقد فات.

وقالوا: العجز نائم، والحزم يقظان.

الفصل الثاني في الصبر والشجاعة: قد تقدم قولنا في الصبر.

وكان يقال: الصبر مر، لا يتجرعه إلا حر.

وكان يقال: إن للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وأجالاً كأعمار الناس وآجالهم، فاصبروا لزمان السوء حتى يفنى عمره، ويأتي أجله.

وكان يقال: إذا تضيفتك نازلة فاقرها الصبر عليها، وأكرم مثواها لديك بالتوكل والإحتساب لترحل عنك، وقد أبقت

عليك أكثر مما سلبت منك، ولا تنسها عند رخائك، فإن تذكرك لها أوقات الرخاء يبعد السوء عن فعلك، وينفي

القساوة عن قلبك ويوزعك حمد الله وتقواه.

الفصل الثالث: قوله: والزهد ثروة، وهذا حق، لأن الثروة ما استغنى به الإنسان عن الناس، ولا غناء عنهم كالزهد عن

دنياههم، فالزهد على الحقيقة هو الغنى الأكبر.

وروي أن علياً رضي الله عنه قال لعمر بن الخطاب أول ما ولي الخلافة: إن سرك أن تلحق بصاحبك فقصر الأمل، وكل

دون الشبع، وارقع القميص، واخصف النعل، واستغن عن الناس بفقرك تلحق بهما.

وقف ملك على سقراط وهو في المشرقة قد أسند ظهره إلى جب كان أوى إليه، فقال له: سل حاجتك، فقال: حاجتي

أن تتنحي عني، فقد منعتني ظلك الموقف بالشمس، فسأله عن الجب، قال: آوي إليه، فإن انكسر الجب لم ينكسر المكان.

وكان يقال: الزهد في الدنيا هو الزهد في الحمدة والرياسة، لا في المطعم والمشرب، وعند العارفين، الزهد ترك كل شيء

يشغلك عن الله.

وكان يقال: العالم إذا لم يكن زاهداً لكان عقوبة لأهل زمانه، لأنهم يقولون: لولا أن علمه لم يصوب عنده الزهد لزهد، فهم يقتدون بزهده في الزهد.

الفصل الرابع قوله: والورع جنة، كان يقال: لا عصمة كعصمة الورع والعبادة، أما الورع فيعصمك من المعاصي، وأما العبادة فتعصمك من خصمك، فإن عدوك لو رآك، قائماً تصلي وقد دخل ليقنتك لصد عنك وهابك.

وقال رجل من بني هلال لبنيه: يا بني أظهروا النسك فإن الناس إن رأوا من أحد منكم بخلاً، قالوا: مقتصد لا يجب الإسراف، وإن رأوا عيلاً، قالوا: متوق يكره الكلام، وإن رأوا جنباً قالوا: متخرج يكره الإقدام على الشبهات.

الفصل الخامس: قوله: ونعم القرين الرضا، قد سبق منا قول مقنع في الرضا.

وقال أبو عمرو بن العلاء: دفعت إلى أرض مجدبة بها نافر من الأعراب، فقلت لبعضهم: ما أرضكم هذه؟ قال: كما ترى، لا زرع ولا ضرع، قلت: فكيف تعيشون؟ قالوا: نخترش الضباب، ونصيد الدواب، قلت: فكيف صبركم على ذلك؟ قالوا: يا هذا، سل خالق الخلق، هل سويت؟ فقال: بل رضيت.

وكان يقال: من سخط القضاء طاح، ومن رضي به استراح.

وكان يقال: عليك بالرضا، ولو قلبت على جمر الغضا.

وفي الخبر المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم قال عن الله تعالى: "من لم يرض بقضائي فليتخذ رباً سوائى".

الأصل: العلم وراثته كريمة، والآداب حلل مجددة، والفكر مرآة صافية.

الشرح: إنما قال: العلم وراثته لأن كل عالم من البشر إنما يكتسب علمه من أستاذ يهذبه وموقف يعلمه، فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الابن المال عن أبيه، وقد سبق منا كلام شاف في العلم والآداب.

وكان يقال: عطية العالم شبيهة بمواهب الله عز وجل، لأنها لا تنفذ عند الجود بها وتبقى بكاملها عند مفيدها.

وكان يقال: الفضائل العلمية تشبه النخل، بطيء الثمرة، بعيد الفساد.

وكان يقال: ينبغي للعالم ألا يترفع على الجاهل، وأن يتطامن له بمقدار ما رفعه الله عليه، وينقله من الشك إلى اليقين، ومن الحيرة إلى التبيين، لأن مكافحته قسوة والصبر عليه وإرشاده سياسة.

ومثاله قول بعض الحكماء: الخير من العلماء من يرى الجاهل بمثالة الطفل الذي هو بالرحمة أحق منه بالغلظة، ويعذره بنقصه فيما فرط منه ولا يعذر نفسه في التأخر عن هدايته.

وكان يقال: العلم في الأرض بمثالة الشمس في الفلك، لولا الشمس لأظلم الجو، ولولا العلم لأظلم أهل الأرض.

وكان يقال: لا حلة أجمل من حلة الأدب، لأن حلل الثياب تبلى، وحلل الآداب تبقى، وحلل الثياب قد يغتصبها الغاصب، ويسرقها السارق، وحلل الآداب باقية مع جوهر النفس.

وكان يقال: الفكرة الصحيحة إصطربلاب روحاني.

وقال أوس بن حجر يرثي:

إن الذي جمع السماحة والنجدة والحزم والنهي جمعا

كأن قد رأى وقد سمعا

الألمعي الذي يظن بك الظن

ومن كلام الحكماء: النار لا ينقصها ما أخذ منها، ولكن يخمدها ألا تجد خطباً، وكذلك العلم لا يفنيه الإقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه قليل لبعضهم: أي العلوم أفضل؟ قال: ما العامة فيه أزهد.

وقال أفلاطون: من جهل الشيء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتين.

وكان يقال: ثلاثة لا تجربة معهن: أدب يزين، ومجانبة الريبة، وكف الأذى.

وكان يقال: عليكم بالأدب، فإنه صاحب في السفر، ومؤنس في الوحدة، وجمال في الحفل، وسبب إلى طلب الحاجة.

وكان عبد الملك أديباً فاضلاً، ولا يجالس إلا أديباً.

وروى الهيثم بن عدي عن مسعر بن كدام قال: حدثني سعيد بن خالد الجدلي قال: لما قدم عبد الملك الكوفة بعد قتل مصعب دعا الناس بعضهم على فرائضهم، فحضرنا بين يديه، فقال: من القوم؟ قلنا: جديلة، فقال: جديلة عدوان، قلنا: نعم، فأنشد:

ن كانوا حية الأرض

فلم يرعوا على بعض

ت والموفون بالقرض

عذير الحي من عدوا

بغى بعضهم بعضاً

ومنهم كانت السادا

فلا ينقض ما يقضي

س بالسنة والفرض

ومنهم حكم يقضي:

ومنهم من يجيز الننا

ثم أقبل على رجل منا وسيم جسيم قدمناه أماناً، فقال: أيكم يقول هذا الشعر؟ قال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: يقوله ذو الإصبع، فتركني وأقبل على ذلك الرجل الجسيم، فقال: ما كان اسم ذي الإصبع، قال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: اسمه حرثان، فتركني وأقبل عليه، فقال له: ولم سمي ذا الإصبع؟ قال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: نهمته حية في إصبعه، فأقبل عليه وتركني، فقال: من أيكم كان؟ فقال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: من بني تاج الذين يقول الشاعر فيهم:

ولا تتبعن عيناك من كان هالكا

فأما بنو تاج فلا تذكرنهم

فأقبل على الجسيم، فقال: كم عطاؤك؟ قال: سبعمائة درهم، فأقبل علي، وقال: وكم عطاؤك أنت؟ قلت أربعمائة. فقال: يا أبا الزعزعة، حط من عطاء هذا ثلاثمائة وزدها في عطاء هذا، فرحت وعطائي سبعمائة وعطاؤه أربعمائة. وأنشد منشداً بحضرة الوائق هارون بن المعتصم:

أهدى السلام تحيةً ظلم

أظلم إن مصابكم رجلاً

فقال شخص: رجل هو خبر إن، ووافقه على ذلك قوم وخالفه آخرون، فقال الواثق: من بقي من علماء النحويين، قالوا: أبو عثمان المازني بالبصرة، فأمر بإشخاصه إلى سر من رأى بعد إزاحة علقته، قال أبو عثمان: فاشخصت، فلما أدخلت عليه قال: ممن الرجل؟ قلت: من مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم مازن قيس، أم مازن اليمن، قلت: من مازن ربيعة، قال: باسمك؟ بالباء؟ - يريد ما اسمك لأن لغة مازن ربيعة هكذا، يبدلون الميم باء والباء ميماً، فقلت: مكر أي بكر، فضحك وقال: اجلس واطمئن، فجلست فسألني عن البيت فأنشدته منصوباً، فقال: فأين خبر إن، فقلت: ظلم قال: كيف هذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أن البيت إن لم يجعل ظلم خبر إن يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة، فلما كررت القول عليه فهم، وقال: قبح الله من لا أدب له، ثم قال: ألك ولد؟ قلت: بنية، قال: فما قالت لك حين ودعتها؟ قلت: ما قالت بنت الأعشى:

أرانا سواءً ومن قد يتم

فإننا بخير إذا لم ترم

د نجفى وتقطع منا الرحم

تقول ابنتي حين جد الرحيل

أبانا فلا رمت من عندنا

أبانا إذا أضمرت لك البلاء

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت أنشدتها بيت جرير:

ومن عند الخليفة بالنجاح

ثقي بالله ليس له شريك

فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله تعالى، ثم أمر لي بألف دينار وكسوة، وردني إلى البصرة.

الأصل: وصدر العاقل صندوق سره، والبشاشة حباله المودة، والاحتمال قبر العيوب.

وروي أنه قال في العبارة عن هذا المعنى أيضاً: المسالمة حياء العيوب .

الشرح: هذه فصولاً ثلاثة: الفصل الأول: قوله: صدر العاقل صندوق سره، قد ذكرنا فيما تقدم طرفاً صالحاً في كتمان السر.

وكان يقال: لا تنكح خاطب سرك.

قال معاوية للنجار العذري: ابغ لي محدثاً، قال: معي يا أمير المؤمنين، قال: نعم، أستريح منك إليه، ومنه إليك، وأجعله

كتوماً، فإن الرجل إذا اتخذ جليساً ألقى إليه عجره وبجره .

وقال بعض الأعراب: لا تضع سرك عند من لا سر له عندك.

وقالوا: إذا كان سر الملك عند اثنين دخلت على الملك الشبهة، واتسعت على الرجلين المعاذير، فإن عاقبهما عند شياعه،

عاقب اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بجناية مجرم، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن

الآخر ولا حجة عليه.

الفصل الثاني: قوله: البشاشة حباله المودة، قد قلنا في البشر والبشاشة فيما سبق قولاً مقنعاً.

وكان يقال: البشر دال على السخاء من ممدوحك، وعلى الود من صديقك دلالة النور على الثمر.

وكان يقال: ثلاث تبين لك الود في صدر أخيك: تلقاه ببشرك، وتبدؤه بالسلام، وتوسع له في المجلس.

وقال الشاعر:

لا تدخلنك ضجرة من سائل
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل
تلقى الكريم فتستدل ببشره
واعلم بأنك عن قليل صائر
فلخير دهرك أن ترى مسؤولاً
قد رام غيرك أن يرى مأمولاً
وترى العبوس على اللئيم دليلاً
خبراً فكن خبراً يروق جميلاً

وقال البحري:

لو أن كفك لم تجد لمؤمل
ولو أن مجدك لم يكن متقادماً
أدركت ما فات الكهول من الحجا
فإذا أمرت فما يقال لك انتد
لكفاه عاجل بشرك المتهلل
أغناك آخر سودد عن أول
من عنفوان شبابك المستقبل
وإذا حكمت فما يقال لك: اعدل

الفصل الثالث: قوله: الاحتمال قبر العيوب، أي إذا احتملت صاحبك وحملت عنه ستر هذا الخلق الحسن منك عيوبك، كما يستر القبر الميت، وهذا مثل قولهم في الجود: كل عيب فالكرم يغطيه. فأما الخبء فمصدر خبأته أخبؤه، والمعنى في الروايتين واحد، وقد ذكرنا في فضل الإحتمال والمسألة فيما تقدم أشياء صالحة.

ومن كلامه رضي الله عنه: وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال. ومن كلامه: من سالم الناس سلم منهم، ومن حارب الناس حاربوه، فإن العثرة للكثير. وكان يقال: العاقل خادم الأحمق أبداً، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرب إليه بدأ، وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شره بدأ.

وأسمع رجل يزيد بن عمر بن هبيرة فأعرض عنه، فقال الرجل: إياك أعني، قال: وعنك أعرض.

وقال الشاعر:

إذا نطق السفية فلا تجبه
سكت عن السفية فظن أني
فخير من إجابته السكوت
عبيت عن الجواب وماعبيت

الأصل: من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه، والصدقة دواء منجح، وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم.

الشرح: هذه فصول ثلاثة: الفصل الأول: قوله: من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه. قال بعض الفضلاء لرجل كان يرضى عن نفسه ويدعي التميز على الناس بالعلم: عليك بقوم تروقهم بيزرجك، وتروعهم بزخرفك، فإنك لا تعدم عزاً،

ولا تفقد غمراً، لا يبلغ مسبارهما غورك، ولا تستغرق أقدارهما طورك.

وقال الشاعر:

ويعمى عن العيب الذي هو فيه

أرى كل إنسان يرى عيب غيره

ويبدو له العيب الذي بأخيه

وما خير من تخفى عليه عيوبه

وقال بعضهم: دخلت على ابن منارة وبين يديه كتاب قد صنفه، فقلت: ما هذا؟ قال: كتاب عملته مدخلاً إلى التورية، فقلت: إن الناس ينكرون هذا، فلو قطعت الوقت بغيره، قال: الناس جهال، قلت: وأنت ضدهم، قال: نعم، قلت: فينبغي أن يكون ضدهم جاهلاً عندهم، قال: كذاك هو، قلت: فقد بقيت أنت جاهلاً بإجماع الناس، والناس جهال بقولك وحدك، ومثل هذا المعنى قول الشاعر:

وأن بني حواء غيرك جاهل

إذا كنت تقضي أن عقلك كامل

فمن ذا الذي يدري بأنك عاقل !

وأن مفيض العلم صدرك كله

الفصل الثاني: الصدقة دواء منجح، قد جاء في الصدقة فضل كثير، وذكرنا بعض ذلك فيما تقدم. وفي الحديث المرفوع: "تاجروا الله بالصدقة ترجوا"، وقيل: الصدقة صداق الجنة.

وقيل للشيلي: ما يجب في مائتي درهم، فقال: أما من جهة الشرع فخمسة دراهم، وأما من جهة الإخلاص فالكل. وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل فقيل: أي الصدقة أفضل، فقال: "أن تعطي وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا". ومثل قوله رضي الله عنه: الصدقة دواء منجح، قول النبي صلى الله عليه وسلم: "داووا مرضاكم بالصدقة".

الفصل الثالث: قوله: أعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم، هذا من قوله تعالى: "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً". وقال تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره".

ومن كلام بعضهم: إنما تقدم على ما قدمت، ولست تقدم على ما تركت، فأثر ما تلقاه غداً على ما لا تراه أبداً. ومن حكمة أفلاطون: اكتم حسن صنيعك عن أعين البشر، فإن له ممن بيده ملكوت السماء أعياناً ترمقه فتجازي عليه. الأصل: اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم، ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس من حرم. الشرح: هذا كلام محمول بعضه على ظاهره، لما تدعو إليه الضرورة من مخاطبة العامة بما يفهمونه والعدول عما لا تقبله عقولهم، ولا تعيه قلوبهم.

أما الإبصار، فقد اختلف فيه، فقيل: إنه بخروج شعاع من العين يتصل بالمرئي. وقيل: إن القوة المبصرة التي في العين تلاقي بذاتها المرئيات فتبصرها. وقال قوم: بل بتكيف الهواء بالشعاع البصري من غير خروج، فيصير الهواء باعتبار تكيفه بالشعاع به آلة العين في الإدراك.

وقال المحققون من الحكماء: إن الإدراك البصري هو بانطباع أشباح المراتب في الرطوبة الجلدية من العين عند توسط الهواء الشفاف المضيء، كما تنطبع الصورة في المرآة. قالوا: ولو كانت المرآة ذات قوة مبصرة لأدركت الصور المنطبعة فيها، وعلى جميع الأقوال فلا بد من إثبات القوة المبصرة في الرطوبة الجلدية، وإلى الرطوبة الجلدية وقعت إشارته رضي الله عنه بقوله: ينظر بشحم.

وأما الكلام فمحلله اللسان عند قوم. وقال قوم: ليس اللسان آلة ضرورية في الكلام لأن من يقطع لسانه من أصله يتكلم. وأما إذا قطع رأسه لم يتكلم. قالوا: وإنما الكلام باللهوات، وعلى كلا القولين فلا بد أن تكون آلة الكلام لحماً، وإليه وقعت إشارة أمير المؤمنين رضي الله عنه، وليس هذه البنية المخصوصة شرطاً في الكلام على الإطلاق لجواز وجوده في الشجر والجماد عند أصحابنا، وإنما هي شرط في كلام الإنسان، ولذا قال أمير المؤمنين: اعجبوا لهذا الإنسان. فأما السمع للسمع فليس بعظم عند التحقيق، وإنما هي بالقوة المودعة في العصب المفروش في الصماخ كالغشاء، فإذا حمل الهواء الصوت ودخل في ثقب الأذن المنتهي إلى الصماخ بعد تعويجات فيه جعلت لتجري بحرى اليراعة المصوتة، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصب الحامل للقوة السامعة حصل الإدراك. وبالجملية فلا بد من عظم، لأن الحامل اللحم والعصب إنما هو العظم.

وأما التنفس فلا ريب أنه من حرم، لأنه من الأنف، وإن كان قد يمكن لو سد الأنف أن يتنفس الإنسان من الفم وهو حرم أيضاً، والحاجة إلى التنفس إخراج الهواء الحار عن القلب وإدخال النسيم البارد إليه، فجعلت الرئة كالمروحة تنبسط وتنقبض، فيدخل الهواء بها ويخرج من قصبته النافذة إلى المنخرين.

الأصل: إذا أقبلت الدنيا على قوم أعارتهم محاسن غيرهم، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم. الشرح: كان الرشيد أيام كان حسن الرأي في جعفر بن يحيى، يحلف بالله أن جعفرأ أفصح من قس بن ساعدة، وأشجع من عامر بن الطفيل، وأكتب من عبد الحميد بن يحيى، وأسوس من عمر بن الخطاب، وأحسن من مصعب بن الزبير، وكان جعفر ليس بحسن الصورة، وكان طويل الوجه جداً، وأنصح له من الحجاج لعبد الملك، وأسمح من عبد الله بن جعفر، وأعف من يوسف بن يعقوب، فلما تغير رأيه فيه أنكر محاسنه الحقيقية التي لا يختلف اثنان أنها فيه، نحو كياسته وسماحته. ولم يكن أحد يجسر أن يرد على جعفر قولاً ولا رأياً، فيقال: إن أول ما ظهر من تغير الرشيد له أنه كلم الفضل بن الربيع بشيء فردده عليه الفضل، ولم تجر عادته من قبل أن يفتح فاه في وجهه، فأنكر سليمان بن أبي جعفر ذلك على الفضل، فغضب الرشيد لإنكار سليمان، وقال: ما دخولك بين أخي ومولاي؟ كالراضي بما كان من الفضل، ثم تكلم جعفر بشيء قاله للفضل، فقال الفضل: إشهد عليه يا أمير المؤمنين، فقال جعفر: فض الله فاك يا جاهل، إذا كان أمير المؤمنين رضي الله عنه الشاهد، فمن الحاكم المشهود عنده؟ فضحك الرشيد، وقال: يا فضل، لا تمار جعفرأ، فإنك لا تقع منه موقعاً.

واعلم أنا قد وجدنا تصديق ما قاله رضي الله عنه في العلوم والفضائل والخصائص النفسانية، دع حديث الدنيا والسلطان والرياسة، فإن المخطوط من علم أو من فضيلة تضاف إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفن، مثاله حظ علي رضي

الله عنه من الشجاعة، ومن الأمثال الحكمية قل أن ترى مثلاً شارباً أو كلمة حكمية إلا وتضيفها الناس إليه، وكذلك ما يدعي العامة له من الشجاعة وقتل الأبطال حتى يقال: إنه حمل على سبعين ألفاً فهزمهم، وقتل الجن في البئر، وقتل الطوق الحديد في عنق خالد بن الوليد. وكذلك حظ عنترة بن شداد في الشجاعة، يذكر له من الأخبار ما لم يكن، وكذلك ما اشتهر به أبو نواس في وصف الخمر، يضاف إليه من الشعر في هذا الفن ما لم يكن قاله، وكذلك جود حاتم وعبد الله بن جعفر ونحو ذلك، وبالعكس من لا حظ له ينفي عنه ما هو حقيقة له، فقد رأينا كثيراً من الشعر الجيد ينفي عن قائله استحقاقاً له، لأنه حامل الذكر، وينسب إلى غيره، بل رأينا كتباً مصنفة في فنون من العلوم حمل ذكر مصنفها ونسبت إلى غيرهم من ذوي النباهة والصيت، وكل ذلك منسوب إلى الجد والإقبال.

الأصل: خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم، وإن عشتهم حنوا إليكم. الشرح: وقد روي: حنوا بالخاء المعجمة، من الحنين، وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء، وإلى تتعلق بمحذوف، أي حنوا شوقاً إليكم.

وقد ورد في الأمر بإحسان العشرة مع الناس الكثير الواسع، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما تقدم. وفي الخبر المرفوع: "وإذا وسعتم الناس ببسط الوجوه، وحسن الخلق، وحسن الجوار، فكأنما وسعتموهم بالمال". وقال أبو الدرداء: إنا لنهش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتقلبيهم. وقال محمد بن الفضل الهاشمي لأبيه: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته، قال: أحيى ناراً، وأقذح عن ود. وقال المهاجر بن عبد الله:

وإني أقي المرء من غير بغضة وأدني أخوا البغضاء مني على عمد
ليحدث وداً بعد بغضاء أو أرى له مصرعاً يردي به الله من يردي

وقال عقاب بن شبة التميمي: كنت ردف أبي، فلقية جرير بن الخطفي على بغلة، فحياه أبي وألطفه، فلما مضى قلت له: أبعد أن قال لنا ما قال، قال: يا بني أفأوسع جرحي.

وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: قد يدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه. وقال الحسن رضي الله عنه: حسن السؤال نصف العلم، ومداواة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة. ومدح ابن شهاب شاعراً فأعطاه، وقال: إن من ابتغاء الخير إتقاء الشر. وقال الشاعر:

وأنزلني طول النوى دار غربة متى شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
أخا ثقة حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وفي الحديث المرفوع: "للمسلم على المسلم ست: يسلم عليه إذا لقيه، ويحييه إذا دعاه، ويشتمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويجب له ما يجب لنفسه، ويشيع جنازته إذا مات". ووقف صلى الله عليه وسلم على عجوز، فجعل يسألها ويتحفاها، وقال: إن حسن العهد من الإيمان، إنها كانت تأتينا أيام

خديجة".

الأصل: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.

الشرح: قد أخذت أنا هذا المعنى، فقلت في قطعة لي:

تقنع بها واركب الأهوال والخطرا

في الموبقات ولا تستشعر الحذرا

فاشكر بعفوك عن أعدائك الظفرا

إن الأمانى أكساب الجهول فلا

واجعل من العقل جهلاً واطرح نظراً

وإن قدرت على الأعداء منتصراً

وقد تقدم لنا كلام طويل في الحلم والصفح والعفو.

ونحن نذكر ههنا زيادة على ذلك: شجر بين أبي مسلم وبين صاحب مرو كلام أرى فيه صاحب مرو عليه، وأغلظ له في القول، فاحتمله أبو مسلم، وندم صاحب مرو، وقام بين يدي أبي مسلم معتذراً، وكان قال له في جملة ما قال: يا لقيط! فقال أبو مسلم: مه! لسان سبق، ووهم أخطأ، والغضب شيطان وأنا جرأتك علي باحتمالك قديماً، فإن كنت للذنب معتذراً، فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوباً فالعفو يسعك. فقال صاحب مرو: أيها الأمير، إن عظم ذنبي يمنعني من الهدوء. فقال أبو مسلم: يا عجباً، أقابلك بإحسان، وأنت مسيء، ثم أقابلك بإساءة وأنت محسن، فقال: الآن وثقت بعفوك.

وأذن بعض كتاب المأمون ذنباً، وتقدم إليه ليحتج لنفسه، فقال: يا هذا، قف مكانك، فإنما هو عذر أو يمين، فقد وهبتهما لك، وقد تكرر منك ذلك، فلا تزال تسيء ونحس، وتذنب ونغفر، حتى يكون العفو هو الذي يصلحك. وكان يقال: أحسن أفعال القادر العفو، وأقبحها الانتقام.

وكان يقال: ظفر الكريم عفو، وعفو اللئيم عقوبة وكان يقال: رب ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به، ولا يجاوز به حد الإرتفاع إلى الإيقاع.

وكان يقال: ما عفا عن الذنب من قرع به.

ومن الحلم الذي يتضمن كثيراً مستحسناً، ما روي أن مصعب بن الزبير لما ولي العراق عرض الناس ليدفع إليهم أرزاقهم، فنادى مناديه: أين عمرو بن جرموز؟ فقليل له: أيها الأمير، إنه أبعد في الأرض، قال: أو ظن الأحمق أنني أقتله بأبي عبد الله! قولوا له: فليظهر آمناً، وليأخذ عطاءه مسلماً.

وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه، فقال الرجل: وبلي عليه، والله ما منعه من جوابي إلا هواي عنده. وقال لقيط بن زرار:.

ترقون مني ما استطعتم وأعتق

بصير وأني بالفواحش أخرق!

هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذق

فقل لبني سعد ومالي ومالكم

أغرکم أني بأحسن شيمة

وأنك قد ساببتني فقهرتني

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي لما ظفر به: إني قد شاورت في أمرك، فأشير علي بقتلك، إلا أني وجدت قدرك فوق ذنبك، فكرهت قتلك للآزم حرمتك. فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إن المشير أشار بما تقتضيه السياسة، وتوجيه العادة، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث عودته من العفو، فإن قتلت فلك نظراء، وإن عفوت فلا نظير لك. قال: قد عفوت، فاذهب آمناً.

ضل الأعشى في طريقه، فأصبح بأبيات علقمة بن غلاثة، فقال قائده، وقد نظر إلى قباب الأدم: وأساء صباحاه يا أبا بصير! هذه والله أبيات علقمة، فخرج فتيان الحي، فقبضوا على الأعشى، فأثوا به علقمة، فمثل بين يديه، فقال: الحمد لله الذي أظفري بك من غير ذمة ولا عقد، قال الأعشى: أو تدري لم ذلك جعلت فداك؟ قال: نعم، لأنتقم اليوم منك بتقولك علي الباطل مع إحساني إليك، قال: لا والله، ولكن أظفرك الله بي ليلو قدر حلمك في. فأطرق علقمة، فاندفع الأعشى فقال:

إليك وما كان بي منكص

أعلقم قد صيرتني الأمور

وورثكم حلمه الأحوص

كساكم علاثة أثوابه

فلا زلت تنمي ولا تنقص

فهب لي نفسي فدنك النفوس

فقال: قد فعلت، أما والله لو قلت في بعض ما قلته في عامر بن عمر، لأغنيتك طول حياتك، ولو قلت في عامر بعض ما قلته في ما أذاقك برد الحياة.

قال معاوية لخالده بن معمر السدوسي: على ماذا أحب علياً؟ قال: على ثلاث: حلمه إذا غضب، وصدقه إذا قال، ووفاءه إذا وعد.

الأصل: أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

الشرح: قد ذكرنا قطعة صالحة من الإخوانيات فيما تقدم. وفي الحديث المرفوع أن النبي صلى الله عليه وسلم بكى لما قتل جعفر بمؤتة، وقال: المرء كثير بأخيه.

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه: لكل شيء حلية وحلية الرجل أوداؤه.

وأنشد ابن الأعرابي:

ولكن إخوان الصفا الذخائر

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة

وكان أبو أيوب السخيتاني يقول: إذا بلغني موت أخ كان لي، فكأنما سقط عضو مني.

وكان يقال: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء يحتاج إليه عند المرض، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً.

وكان يقال: صاحبك كرقعة في قميصك، فانظر بما ترقع قميصك.

وكان يونس بن عبيد يقول: اثنان ما في الأرض أقل منهما، ولا يزدادان إلا قلة: درهم يوضع في حق، وأخ يسكن إليه

في الله. وقال الشاعر:

كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وهل ينهض البازي بغير جناح،

أخاك أخاك إن من لا أخا له
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه

وقال آخر:

فأكثر ما استطعت من الصديق
وأسلم من مودة ذي الفسوق

ولن تنفك تحسد أوتعادي
وبغضك للنتقي أقل ضرراً

وأوصى بعضهم ابنه، فقال: يا بني، إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرجال فاصحب من إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا عرضت لك مؤنة أعانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شد صولك، وإن مددت يدك لأمر مدها، وإن بدت لك عورة سدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك ملمة واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختار عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق. ومن الشعر المنسوب إلى علي رضي الله عنه:

ومن يضر نفسه لينفك
شتت فيك شمله ليجمعك

إن أخاك الحق من كان معك
ومن إذا ريب الزمان صدعك

ومن الشعر المنسوب إليه رضي الله عنه أيضاً:

من الدهر لم يبرح لها الدهر واجماً
عليك أمور ظل يلحاك لائماً

أخوك الذي إن أجرضتك ملمة
وليس أخوك بالذي إن تشعبت

وقال بعض الحكماء: ينبغي للإنسان أن يوكل بنفسه كالثين: أحدهما يكلؤه من أمامه، والآخر يكلؤه من ورائه، وهما عقله الصحيح، وأخوه النصيح، فإن عقله وإن صح فلن يبصره من عيبه إلا بمقدار ما يرى الرجل من وجهه في المرأة، ويخفى عليه ما خلفه، وأما أخوه النصيح فيبصره ما خلفه وما أمامه أيضاً. وكتب ظريف إلى صديق له: إني غير محمود على الإنقياد إليك، لأني صادقتك من جوهر نفسي، والنفس يتبع بعضها بعضاً.

وفي الحديث المرفوع: "إذا أحب حدكم أخاه فليعلمه".

وقال الأحنف: خير الإخوان من إذا استغنيت عنه لم يزدك ودّاً، وإن احتجت إليه لم ينقصك.

وقال أعشى باهلة يرثي المنتشر بن وهب:

فاذهب فلا يبعدنك الله منتشر

إما سلكت سبيلاً كنت سالكها

على الصديق ولا في صفوه كدر

من ليس في خيره شر ينكده

وقال آخر يرثي صديقاً له:

أخ طالما سرني ذكره

وأصبحت أشجى لدى ذكره

وقد كنت أغدو إلى قصره

فأصبحت أغدو إلى قبره

وكنت أراني غنياً به

عن الناس لو مد في عمره

إذا جئته طالباً حاجة

فأمرني يجوز على أمره

رأى بعض الحكماء مصطحبين لا يفترقان، فسأل عنهما، فقيل: صديقان، قال: فما بال أحدهما غنياً والآخر فقيراً! وقال رضي الله عنه في الذين اعتزلوا القتال معه. لأصل: خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل.

الشرح: قد سبق ذكر هؤلاء فيما تقدم، وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن عمرو بن نفيل، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وأنس بن مالك، وجماعة غيرهم.

وقد ذكر شيخنا أبو الحسين في الغرر أن أمير المؤمنين رضي الله عنه لما دعاهم إلى القتال معه، واعتذروا بما اعتذروا به، قال لهم: أتذكرون هذه البيعة؟ قالوا: لا، لكننا لا نقاتل، فقال: إذا بايعتم فقد قاتلتم، قال: فسلموا بذلك من الدم، لأن إمامهم رضي عنهم.

ومعنى قوله: خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل، أي خذلوني ولم يحاربوا معي معاوية، وبعض أصحابنا البغداديين يتوقف في هؤلاء، إلى هذا القول يميل شيخنا أبو جعفر الإسكافي. الأصل: إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر.

الشرح: قد سبق القول في الشكر، ونحن نذكر ههنا زيادة على ذلك.

قال بعضهم: ما شيتني السنون، بل شكري من أحتاج أن أشكره.

وقالوا: العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى.

وقالوا: من سعادة المرء أن يضع معروفه عند من يشكره.

ومن جيد ما قيل في الشكر قول أبي نواس:

قد قلت للعباس معتذراً

من ضعف شكره ومعتزفاً

أنت امرؤ حملتني نعماً

أوهت قوى شكري فقد ضعفاً

فإليك مني اليوم معذرة

جاءتك بالتصريح منكشفاً

لا تسدين إلي عارفة

حتى أقوم بشكر ماسلفاً

وقال البحتري:

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهداً

فلا نلت نعمي بعدها توجب الشكرا

وقال أيضاً:

سأجهد في شكري لنعماك إنني

أرى الكفر للنعماء ضرباً من الكفر

وقال ابن أبي طاهر :

شكرت علياً بره وبلاءه
وما أنا من شكري علياً بواحد
فقصر بي شكري وإني لجاهد
ولكنه في الفضل والجود واحد

وقال أبو الفتح البستي:

لا تظنن بي وبرك حي
أنا أرض وراحتاك سحاب
أن شكري وشكر غيري موات
والأيادي وبلى وشكري نبات

وقال أيضاً:

وخر لما أوليت شكري ساجداً
ومثل الذي أوليت يعبدك الشكر

البحثري:

أراك بعين المكتسي ورق الغنى
ويعجبني فقري إليك ولم يكن
بآلائك اللاتي يعددها الشكر
ليعجبني لولا محبتك الفقر

آخر:

بدأت بمعروف وثنيت بالرضا
وباشرت أمري واعتنيت بحاجتي
وصدقت لي ظني، وأنجزت مواعيدي
فإن نحن كافأنا بشكر فواجب
وثلثت بالحسنى وربعت بالكرم
وأخرت لا عني وقدمت لي نعم
وطببت به نفساً ولم تتبع الندم
وإن نحن قصرنا فما الود متهم

الأصل: من ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد.

الشرح: إن الإنسان قد ينصره من لا يرجو نصره وإن أهمله أقربوه وخذلوه، فقد تقوم به الأجانب من الناس. وقد وجدنا ذلك في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ضيعه أهله ورهطه من قريش وخذلوه، وتمائلوا عليه، فقام بنصره الأوس والخزرج، وهم أبعد الناس نسباً منه، لأنه من عدنان وهم من قحطان، وكل واحد من الفريقين لا يحب الآخر حتى تحب الأرض الدم.

وقامت ربيعة بنصر علي رضي الله عنه في صفين، وهم أعداء مضر الذين هم أهله ورهطه، وقامت اليمن بنصر معاوية في صفين، وهم أعداء مضر، وقامت الخراسانية وهم عجم بنصر الدولة العباسية، وهي دولة العرب. وإذا تأملت السير وجدت هذا كثيراً شائعاً.

الأصل: ما كل مفتون يعاتب.

الشرح: هذه الكلمة قالها علي رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر لما امتنعوا من الخروج معه لحرب أصحاب الجمل، ونظيرها أو قريب منها قول أبي الطيب:

فما كل فعال يجازى بفعله

ولا كل قول لدي يجاب

ورب كلام مر فوق مسامعي

كما ظن في لفح الهجير ذباب

الأصل: تذلل الأمور للمقادير، حتى يكون الحتف في التدبير.

الشرح: إذا تأملت أحوال العالم وجدت صدق هذه الكلمة ظاهراً، ولو شئنا أن نذكر الكثير من ذلك لذكرنا ما يحتاج في تقييده بالكتابة إلى مثل حجم كتابنا هذا، ولكننا نذكر لحاً ونكتاً وأطرافاً ودرراً من القول.

فرش مروان بن محمد - وقد لقي عبد الله بن علي - أنطاعاً وبسط عليها المال، وقال: من جاءني برأسه فله مائة درهم، فعجزت الحفظة والحراس عن حمايته، واشتغلت طائفة من الجند بنهبه، وتهافت الجيش عليه لينتهبوه، فغشيهم عبد الله بن علي بعساكره، فقتل منهم ما لا يحصى، وهزم الباقون.

وكسر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن جيش أبي جعفر المنصور بباخرى وأمر أصحابه باتباعهم، فحال بينهم وبين أصحاب أبي جعفر ماء ضحضاح، فكره إبراهيم وجيشه خوض ذلك الماء، وكان واسعاً، فأمر صاحب لوائه أن يتعرج باللواء على مسناة كانت على ذلك الماء يابسة، فسلكها صاحب اللواء وهي تفضي بانعراج وانعكاس إلى الأرض اليس، فلما رأى عسكر أبي جعفر أن لواء القوم قد تراجع القهقري ظنهم منهزمين، فعطفوا عليهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وجاء سهم غرب فأصاب إبراهيم فقتله.

وقد دبرت من قبل قریش في حماية العير بأن نفرت على الصعب والذلول لتدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اللطيمة، هلاكها في تدبيرها.

وكسرت الأنصار يوم أحد بأن أخرجت النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة ظناً منها أن الظفر والنصرة كانت بذلك، وكان سبب عطبها وظفر قریش بها، ولو أقامت بين خدران المدينة لم تظفر قریش منها بشيء.

ودبر أبو مسلم الدولة الهاشمية، وقام بها حتى كان حتفه في تدبيره.

وكذلك جرى لأبي عبد الله المختسب مع عبد الله المهدي بالمغرب.

ودبر أبو القاسم بن المسلمة رئيس الرؤساء في إخراج البساسيري عن العراق حتى كان هلاكه على يده، وكذلك أيضاً انعكس عليه تدبيره في إزالة الدولة البويهية من الدولة السلجوقية ظناً منه أنه يدفع الشر بغير الشر، فدفع الشر بما هو شر منه. وأمثال هذا ونظائره أكثر من أن تخصى.

الأصل: وسئل رضي الله عنه عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "غيروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود، فقال رضي الله عنه: إنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك والدين قل، فأما الآن وقد اتسع نطاقه، وضرب بجرائه، فامروء وما اختار.

الشرح: اليهود لا تحضب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالخضاب ليكونوا في مرأى العين شباباً فيجبن المشركون عنهم حال الحرب، فإن الشيخ مظنة الضعف.

قال علي رضي الله عنه ذلك والإسلام قل، أي قليل، وأما الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرائه فقد سقط ذلك الأمر

وصار الخضاب مباحاً غير مندوب.

والنطاق: ثوب تلبسه المرأة لبسة مخصوصة ليس بصدرة ولا سراويل، وسميت أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين لأنها قطعت من ثوبها ذلك قطعة شددت بها سفرة لها حملها أبو بكر معه حين خرج من مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد أبدلها الله بها نطاقين في الجنة"، وكان نفر الشام ينادون عبد الله ابنها حين حصره الحجاج بمكة يشتمونه كما زعموا، يا بن ذات النطاقين، فيضحك عبد الله منهم. وقال لابن أبي عتيق: ألا تسمع؟ يظنونهم ذماً ثم يقول:

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

واستعار أمير المؤمنين رضي الله عنه هذه اللفظة لسعة رقعة الإسلام، وكذلك استعار قوله: وضرب بجراحه، أي أقام وثبت، وذلك لأن البعير إذا ضرب بجراحه الأرض - وجراحه مقدم عنقه - فقد استنخا وبرك.

وامرؤ مبتدأ إن كان نكرة، كقولهم: شر أهر ذا ناب، للحصول الفائدة، والواو بمعنى مع، وهي وما بعدها الخبر، وما مصدرية، أي امرؤ مع اختياره.

بعض ما ورد في الشيب والخضاب.

فأما القول في الخضاب فقد روى قوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدا شيب يسير في لحيته، فغيره بالخضاب، خضب بالحناء والكتم، وقال قوم: لم يشب أصلاً.

وروي أن عائشة قالت: ما كان الله ليشينه بالشيب، فقيل: أو شين هو يا أم المؤمنين، قالت: كلكم يكرهه. وأما أبو بكر فصح الخبر عنه بذلك، وكذلك أمير المؤمنين، وقيل: إنه لم يخضب. وقتل الحسين رضي الله عنه يوم الطف وهو مخضوب. وفي الحديث المرفوع رواه عقبة بن عامر: "عليكم بالحناء، فإنه خضاب الإسلام، إنه يصفى البصر ويذهب بالصداع، ويزيد في الباه، وإياكم والسواد، فإنه من سود، سود الله وجهه يوم القيامة".

وعنه رضي الله عنه: عليكم بالخضاب، فإنه أهيب لعدوكم وأعجب إلى نساءكم.

ويقال في أبواب الكناية للمختضب، هو يسود وجه النذير، لأن النذير الشيب، قيل في قوله تعالى: "وجاءكم النذير": إنه الشيب.

وكان عبد الرحمن بن الأسود أبيض الرأس واللحية، فأصبح ذات يوم وقد حمرهما، وقال: إن عائشة أرسلت إلي البارحة جاريته فأقسمت علي لأغيرن، وقالت: إن أبا بكر كان يصبغ.

وروى قيس بن أبي حازم قال: كان أبو بكر يخرج إلينا وكان لحيته ضرام عرفج.

وعن أبي عامر الأنصاري: رأيت أبا بكر يغير بالحناء والكتم، ورأيت عمر لا يغير شيئاً من شيبه، وقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من شاب شيبه في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة"، ولا أحب أن أغير نوري.

وكان أنس بن مالك يخضب وينشد:

نسود أعلاها وتأبى أصولها

وليس إلى رد الشباب سبيل

وروي أن عبد المطلب وفد على سيف بن ذي يزن، فقال له: لو خضبت، فلما عاد إلى مكة خضب، فقالت له امرأته
نثيلة أم العباس وضرار: ما أحسن هذا الخضاب لو دام، فقال:

فلو دام هذا الخضاب حمدته

وكان بديلاً من خليل قد انصرم

تمتعت منه والحياة قصيرة

أو هرم نثيلة ولا بد من موت

وموت جهيز عاجل لا شوى له

أحسب إلينا من مقالكم حكم

قال: يعني أنه صار شيخاً، فصار حكماً بين الناس، من قوله:

لا تغبط المرء أن يقال له

أضحى فلان لسنه حكماً

وقال أسماء بن خارجة لجاريته: أخضبي، فقالت حتى متى أرفعك! فقال:

عيرتني خلقاً أبليت جدته

وهل رأيت جديداً لم يعد خلقاً!

وأما من يروي أن علياً رضي الله عنه ما خضب، فيحتج بقوله، وقد قيل له: لو غيرت شيبك يا أمير المؤمنين، فقال:
الخضاب زينة، ونحن في مصيبة، يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وسئل الحسن رضي الله عنه عن الخضاب فقال: هو جزع قبيح، وقال محمود الوراق:

يا خاضب الشيب الذي

في كل ثالثة يعود

إن الخضاب إذا مضى

فكأنه شيب جديد

فدع المشيب وما يريد

فلن تعود كما تريد

وقد روى قوم عن النبي صلى الله عليه وسلم كراهية الخضاب، وأنه قال: "لو استقبلتم الشيب بالتواضع لكان خيراً لكم".
وقال الشاعر:

وصبغت ما صبغ الزمان فلم يدم

صبغي ودامت صبغة الأيام

وقال آخر:

يا أيها الرجل المغير شيبه

كيما تعد به من الشبان

أقصر فلو سودت كل حمامة

بيضاء ما عدت من الغربان

ويقولون في ديوان عرض الجيش ببغداد لمن يخضب إذا ذكروا حليته، مستعارة وهي كناية لطيفة. وأنا أستحسن قول
البحري: خضبت بالمقراض: كناية عن قص الشعر الأبيض، فجعل ذلك خضابه عوضاً عن الصبغ، والأبيات هذه:

لابس من شيبه أم ناض

ومليح من شيب أم راض

وإذا ما امتعضت من ولع الشي

ب برأسي لم يثن ذاك امتعاضي

ليس يرضى عن الزمان امرؤ في

ه إلا عن غفلة أو تغاضي

والبواقي من الليالي وإن خا
وأبت تركي الغديات والآ
ودواء المشيب كالخص في
طال حزني على الشباب وما بيض
فهل الحادثات يابن عويف
لفن شيئاً شبيهة بالمواضي
صال حتى خضبت بالمقراض
عيني فقل فيه في العيون المراض
من لون صبغه الفضفاض
تاركاتي ولبس هذا البياض.

الأصل: من جرى في عنان أمله عثر بأجله.

الشرح: قد تقدم لنا قول كثير في الأمل، ونذكر ههنا زيادةً على ذلك: قال الحسن رضي الله عنه: لو رأيت الأجل ومسيره، لنسيت الأمل وغروره، ويقدر المقدرين والقضاء يضحك. وروى أبو سعيد الخدري أن أسامة بن زيد اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا تعجبون من أسامة يشتري إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل". أبو عثمان النهدي: قد بلغت نحواً من ثلاثين ومائة سنة فما من شيء إلا قد عرفت فيه النقص إلا أمني، فإنه كما كان. قال الشاعر:

أراك تزيدك الأيام حرصاً
فهل لك غاية إن صرت يوماً
على الدنيا كأنك لا تموت
إليها قلت حسبي قد رضيت !

وقال آخر:

من تمنى المنى فاغرق فيها
ليس في مال من تتابع في
مات من قبل أن ينال مناه
اللذات فضل عن نفسه لسواه

الأصل: أقبلوا ذوي المروءات عثراتهم فما يعث، منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه. بعض ما ورد في المروءة.

الشرح: قد رويت هذه الكلمة مرفوعة، ذكر ذلك ابن قتيبة في عيون الأخبار وأحسن ما قيل في المروءة قولهم: اللذة ترك المروءة، والمروءة ترك اللذة.

وفي الحديث أن رجلاً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أأست أفضل قومي؟ فقال: "إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك تقى فلك دين". وسئل الحسن عن المروءة فقال: جاء في الحديث المرفوع: "إن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها". وكان يقال: من مروءة الرجل جلوسه بباب داره. وقال الحسن: لا دين إلا بمروءة.

وقيل لابن هبرة: ما المروءة: فقال: إصلاح المال، والرزانة في المجلس، والغذاء والعشاء بالفناء. وجاء أيضاً في الحديث المرفوع: "حسب الرجل ماله، وكرمه دينه، ومروءته خلقه". وكان يقال: ليس من المروءة كثرة

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

الإلتفات في الطريق.

ويقال: سرعة المشي تذهب بمروءة الرجل.

وقال معاوية لعمرو: ما ألد الأشياء؟ قال: مر فتیان قريش أن يقوموا، فلما قاموا قال: إسقاط المروءة.

وكان عروة بن الزبير يقول، لبنیه: يا بني العبوا، فإن المروءة لا تكون إلا بعد اللعب، وقيل للأحنف: ما المروءة؟ قال:

العفة والحرفة، تعف عما حرم الله، وتحترف فيما أحل الله.

وقال محمد بن عمران التيمي: لا أشد من المروءة، وهي ألا تعمل في السر شيئاً تستحي منه في العلانية، وسئل النظام عن

المروءة، فانشد بيت زهير:

الستر دون الفاحشات ولا

يلقاك دون الخير من ستر

وقال عمر: تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة، وتعلموا النسب فرب رحم مجهولة قد وصلت به.

وقال ميمون بن مهران: أول المروءة طلاقة الوجه، والثاني التودد إلى الناس، والثالث قضاء الحوائج.

وقال مسلمة بن عبد الملك: مروءتان ظاهرتان: الرياش والفصاحة.

وكان يقال: تعرف مروءة الرجل بكثرة ديونه.

وكان يقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل.

لام معاوية يزيد ابنه على سماع الغناء، وحب القيان، وقال له: أسقطت مروءتك، فقال يزيد: أتكلم بلساني كلمة؟ قال:

نعم، وبلسان أبي سفيان بن حرب وهند بنت عتبة مع لسانك، قال: والله لقد حدثني عمرو بن العاص، واستشهد على

ذلك ابنه عبد الله بصدقه، أن أبا سفيان كان يخلع على المغني الفاضل والمضاعف من ثيابه، ولقد حدثني أن جاريي عبد

الله بن جدعان غنتاه يوماً فاطربتاه، فجعل يخلع عليهما أثوابه ثوباً ثوباً حتى تجرد تجرد العير، ولقد كان هو وعفان بن أبي

العاص ربما حملاً جارية العاص بن وائل على أعناقهما، فمراهما على الأبطح وجلة قريش ينظرون إليهما، مرة على ظهر

أبيك، ومرة على ظهر عفان، فما الذي تنكر مني! فقال معاوية: اسكت لحاك الله، والله ما أحد الحق بأبيك هذا إلا

ليغرك ويفضحك، وإن كان أبو سفيان ما علمت لثقل الحلم، يقظان الرأي، عازب الهوى، طويل الأناة، بعيد القعر، وما

سودته قريش إلا لفضله.

الأصل: قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مر السحاب، فانتهزوا فرص الخير.

الشرح: في المثل: من أقدم لم يندم، وقال الشاعر:

ليس للحاجات إلا

من له وجه وقاح

ولسان طرمذي

وغدو ورواح

فعليه السعي فيها

وعلى الله النجاح

وكان يقال: الفرصة ما إذا حاولته فإخطأك نفعه، لم يصل إليك ضرره.

ومن كلام ابن المقفع: انتهر الفرصة في إحراز المآثر، واغتتم الإمكان باصطناع الخير، ولا تنتظر ما تعامل فتجازى عنه بمثله، فإنك إن عوملت بمكره واشتغلت برصد المكافأة عنه قصر العمر بك عن اكتساب فائدة، واقتناء منقبة، وتصرمت أيامك بين تعد عليك، وانتظار للظفر بإدراك الثأر من خصمك، ولا عيشة وفي الحياة أكثر من ذلك.

كانت العرب إذا أوفدت وافداً قالت له: إياك والهيبة، فإنها خيبة، ولا تبت عند ذنب الأمر وبت عند رأسه.

الأصل: لنا حق فإن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل، وإن طال السرى.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذا القول من لطيف الكلام وفصيحته، ومعناه أنا إن لم نعط حقنا كنا أذلاء، وذلك أن الرديف يركب عجز البعير، كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما.

الشرح: هذا الفصل قد ذكره أبو عبيد الهروي في الجمع بين الغريبين وصورته: إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل، وإن طال السرى. قال قد فسروه على وجهين: أحدهما أن راكب عجز البعير يلحقه مشقة وضرر، فأراد أنا إذا منعنا حقنا صبرنا على المشقة والمضرة، كما يصبر راكب عجز البعير، وهذا التفسير قريب مما فسره الرضي. والوجه الثاني أن راكب عجز البعير إنما يكون إذا كان غيره قد ركب على ظهر البعير، وراكب ظهر البعير متقدم على راكب عجز البعير، فأراد أنا إذا منعنا حقنا تأخرنا وتقدم غيرنا علينا، فكنا كالراكب رديفاً لغيره، وأكد المعنى على كلا التفسيرين بقوله: وإن طال السرى، لأنه إذا طال السرى كانت المشقة على راكب عجز البعير أعظم، وكان الصبر على تأخر راكب عجز البعير عن الراكب على ظهره أشد وأصعب.

وهذا الكلام تزعم الإمامية أنه قاله يوم السقيفة أو في تلك الأيام، ويذهب أصحابنا إلى أنه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماع الجماعة لاختيار واحد من الستة، وأكثر أرباب السير ينقلونه على هذا الوجه.

الأصل: من أبطأ به عمله، لم يسرع به حسبه.

الشرح: هذا الكلام حث وحض وتحريض على العبادة، وقد تقدم أمثاله، وسيأتي له نظائر كثيرة، وهو مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "يا فاطمة بنت محمد، إني لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، إني لا أغني عنك من الله شيئاً، إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

الأصل: من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب.

الشرح: قد جاء في هذا المعنى آثار كثيرة، وأخبار جميلة. كان العتابي قد أملق، فجاء فوقف بباب المأمون يسترزق الله على يديه، فوافي يحيى بن أكثم، فعرض له العتابي، فقال له: إن رأيت أيها القاضي أن تعلم أمير المؤمنين رضي الله عنه مكاني فافعل، فقال: لست بحاجب، قال: قد علمت، ولكنك ذو فضل، وذو الفضل معوان، فقال: سلكت بي غير طريقي، قال: إن الله أتخفك منه بجاه، ونعمة، وهو مقبل عليك بالزيادة إن شكرت، وبالتغيير إن كفرت، وأنا لك اليوم خير منك لنفسك، لأنني أدعوك إلى ما فيه ازدياد نعمتك، وأنت تأبى علي، ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاه رقد المستعين. فدخل يحيى فأخبر المأمون به، فأحضره وحادثه ولاطفه ووصله.

الأصل: يابن آدم، إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.
الشرح: هذا الكلام تخويف وتحذير من الاستدراج، قال سبحانه: "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون"، وذلك لأن العبد بغروره يعتقد أن موالاة النعم عليه وهو عاص من باب الرضا عنه، ولا يعلم أنه استدراج له ونقمة عليه.
فإن قلت: كيف يصح القول بالاستدراج على أصولكم في العدل؟ أليس معنى الاستدراج إيهام العبد أنه سبحانه غير ساخط فعله ومعصيته؟ فهل هذا الاستدراج إلا مفسدة وسبب إلى الإصرار على القبيح.
قلت: إذا كان المكلف عالماً بقبح القبيح، أو متمكناً من العلم بقبحه ثم رأى النعم تتوالى عليه وهو مصر على المعصية، كان ترادف تلك النعم كالمنبه له على وجوب الحذر، مثال ذلك من هو في خدمة ملك، وهو عون ذلك الملك في دولته، ويعلم أن الملك قد عرف حاله، ثم يرى نعم الملك مترادفة إليه، فإنه يجب بمقتضى الاحتياط أن يشتد حذره، لأنه يقول: ليست حالي مع الملك حال من يستحق هذه النعم، وما هذه إلا مكيدة وتحتها غائلة، فيجب إذن عليه أن يحذر.
الأصل: ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه.
الشرح: قال زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقال آخر:

تخبرني العينان ما القلب كاتم وما جن بالبغضاء والنظر الشرر

وقال آخر:

وفي عينيك ترجمة أراها
وأخلاق عهدت اللين فيها
وقد عاهدتني بخلاف هذا
تدل على الضغائن والحقود
غدت وكأنها زبر الحديد
وقال الله: أوفوا بالعقود

وكان يقال: العين والوجه واللسان أصحاب أخبار على القلب، وقالوا: القلوب كالمرايا المتقابلة، إذا ارتسمت في إحداهن صورة ظهرت في أخرى.

الأصل: امش بدائك ما مشى بك.

الشرح: يقول، مهما وجدت إلى الصبر على أمر من الأمور التي قد دفعت إليها، وفيها مشقة عليك، وضرر لاحق بك، فاصبر ولا تلتمس طريقاً إلى تغيير ما دفعت إليه أن تسلكها بالعنف، ومراغمة الوقت، ومعاناة الأفضية والأقدار، ومثال ذلك من يعرض له مرض ما يمكنه أن يحتمله ويدافع الوقت، فإنه يجب عليه ألا يطرح جانبه إلى الأرض، ويخلد إلى النوم على الفراش، ليعالج ذلك المرض قوةً وقهراً، فرمما أفضى به مقاهرة ذلك المرض الصغير بالأدوية إلى أن يصير كبيراً معضلاً.

الأصل: أفضل الزهد إخفاء الزهد.

الشرح: إنما كان كذلك لأن الجهر بالعبادة والزهادة والإعلان بذلك قل أن يسلم من مخالطة الرياء، وقد تقدم لنا في

الرياء أقوال مقنعة.

رأى المنصور رجلاً واقفاً ببابه، فقال: مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ببابنا، فقال الربيع: نعم، لأنه ضرب على غير السكة.

شاعر:

لجباه يشقها المحراب

معشر أثبت الصلاة عليهم

ومكان الإخلاص منهم خراب

عمروا موضع التصنع منهم

الأصل: إذا كنت في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى.

الشرح: هذا ظاهر، لأنه إذا كان كلما جاء ففي إدبار، والموت كلما جاء ففي إقبال، فيا سرعان ما يلتقيان، وذلك لأن إدباره هو توجهه إلى الموت، وإقبال الموت هو توجه الموت إلى نحوه، فقد حق إذن الإلتقاء سريعاً، ومثال ذلك سفينتان بدجلة أو غيرها، تصعد إحداهما، وأخرى تنحدر نحوها، فلا ريب أن الإلتقاء يكون وشيكاً.

الأصل: الحذر الحذر، فو الله لقد ستر، حتى كأنه قد غفر.

الشرح: قد تقدم هذا المعنى وهو الإستدراج الذي ذكرناه آنفاً.

الأصل: وسئل رضي الله عنه عن الإيمان فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهد.

والصبر منها على أربع شعب، على الشوق، والشفق، والزهد، والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات.

واليقين منها على أربع شعب، على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصر في الفطنة، تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة، عرف العبرة، ومن عرف العبرة، فكأنما كان في الأولين.

والعدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحلم، ومن حلم لم يفرط في أمره، وعاش في الناس حميداً.

والجهد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنان الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه ومن شنىء الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة.

والكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازع، والزيف، والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق، ومن زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكر سكر الضلالة، ومن شاق وعرت عليه طريقه، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه.

والشك على أربع شعب: على التماذي، والهول، والتردد، والإستسلام، فمن جعل المرء ديدناً لم يصبح ليله، ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه، ومن تردد في الريب، وطئته سنابك الشياطين، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك

فيهما.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وبعد هذا كلام تركنا ذكره خوف الإطالة والخروج عن الغرض المقصود في هذا الكتاب. الشرح: من هذا الفصل أخذت الصوفية وأصحاب الطريقة والحقيقة كثيراً من فنونهم في علومهم، ومن تأمل كلام سهل بن عبد الله التستري وكلام الجنيد والسري وغيرهم رأى هذه الكلمات في فرش كلامهم تلوح كالكوكب الزاهرة وكل المقامات والأحوال المذكورة في هذا الفصل قد تقدم قولنا فيها.

أخبار مع الملوك.

ونذكر ههنا الصدق في المواطن، وبين يدي الملوك، ومن يغضب لله، وينهى عن المنكر، ويقوم بالحق ولا ييالي بالسلطان ولا يراقبه.

دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه، وهو يومئذ ولي عهده، قد عقد له من بعده، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء، فقال سليمان: ما إخال النساء يرثن في العقار شيئاً، فقال عمر بن عبد العزيز: سبحان الله، وأين كتاب الله، فقال سليمان: يا غلام، اذهب فأتني بسجل عبد الملك الذي كتب في ذلك، فقال له عمر: لكأنك أرسلت إلي المصحف! فقال أيوب بن سليمان: والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين، فلا يشعر حتى يفارقه رأسه، فقال عمر: إذا أفضى الأمر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشد مما يخشى عليكم من هذا القول، ثم قام فخرج.

وروى إبراهيم بن هشام بن يحيى، قال: حدثني أبي، عن جدي، قال: كان عمر بن عبد العزيز ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية، ويقول: ضمنهم الحبوس حتى يحدثوا توبة، فأتي سليمان بحروري مستقتل، وعنده عمر بن عبد العزيز، فقال سليمان للحروري: ماذا تقول؟ قال: ما أقول يا فاسق يابن الفاسق، فقال سليمان لعمر: ما ترى يا أبا حفص؟ فسكت، فقال: أقسمت عليك لتخبرني ماذا ترى عليه! فقال: أرى أن تشتمه كما شتمك، وتشتم أباه كما شتم أباك، فقال سليمان: ليس إلا! قال: ليس إلا، فلم يرجع سليمان إلى قوله، وأمر بضرب عنق الحروري.

وروى ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار قال: بينما المنصور يطوف ليلاً بالبيت سمع قائلاً يقول: اللهم إليك أشكو ظهور البغي والفساد، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى ركعتين، واستلم الركن، وأقبل على المنصور فسلم عليه بالخلافة، فقال المنصور: ما الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فو الله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني فقال: يا أمير المؤمنين، إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها، وإلا احتجرت منك، واقتصرت على نفسي فلي فيها شاغل، قال: أنت آمن على نفسك، فقل، فقال: إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغي والفساد لأنت، قال: ويحك! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضي، والحلو والحامض عندي! قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك، إن الله عز وجل استرعاك المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجباً من الحص والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح، ثم سجنك نفسك فيها منهم،

وبعث عمالك في جباية الأموال وجمعها، فقويتهم بالسلاح والرجال والكراع، وأمرت بألا يدخل عليك إلا فلان وفلان، نفر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم والمهوف، ولا الجائع والفقر، ولا الضعيف والعمري، ولا أحد ممن له في هذا المال حق، فما زال هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرهم على رعيك، وأمرت ألا يجربوا عنك، يجربون الأموال ويجمعونها ويحبونها، وقالوا: هذا رجل قد خان الله، فما لنا لا نخونه، وقد سخرنا، فائتمروا على ألا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا بغضوه عندك وبغوه الغوائل، حتى تسقط منزلته ويصغر قدره. فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيك لينالوا به ظلم من دونهم، فامتألت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطنتك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين دخول دارك، وإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك وقد نمت عن ذلك، ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء المتظلم إليه أرسلوا إلى صاحب المظالم ألا يرفع إليك قصته، ولا يكشف لك حاله، فيجيبهم خوفاً منك، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه، ويلوذ به، ويستغيث إليه وهو يدفعه، ويعتل عليه، وإذا أجهد وأخرج، وظهرت أنت لبعض شأنك صرخ بين يديك، فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر ولا تنكر، فما بقاء الإسلام على هذا.

ولقد كنت أيام شيبتي أسافر إلى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكي بكاءً شديداً، فحداه جلساؤه على الصبر، فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكن أبكي للمظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته! ثم قال: أما إذ ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس ألا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم، ثم كان يركب الفيل طرقي نهاره ينظر هل يرى مظلوماً، فهذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على شح نفسه، وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك، فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله تعالى عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه، ما له على الأرض مال، وما من مال يومئذ إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فلا يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست بالذي تعطي، لكن الله يعطي من يشاء ما يشاء. وإن قلت: إنما أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عبراً في بني أمية، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة، وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد، وإن قلت: أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها، فو الله ما فوق ما أنت إلا مترلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه، انظر هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ قال: لا، قال: فإن الملك الذي حولك ما حولك لا يعاقب من عصاه بالقتل، بل بالخلود في العذاب الأليم، وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحت يداك ومشيت إليه رجلاك. وانظر هل يغني عنك ما شححت عليه من أمر الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب على ما منحك! فبكي المنصور وقال: ليتني لم أخلق، ويحك، فكيف أحتال لنفسي؟ قال: إن للناس أعلاماً يفرعون إليهم في دينهم، ويرضون بقولهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسدوك، قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال: نعم، خافوا أن تحملهم على طريقك، ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانظر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك

ويسعدوك على صلاح الأمة.

وجاء المؤذنون فسلموا عليه، ونادوا بالصلاة، فقام وصلى، وعاد إلى مجلسه، فطلب الرجل فلم يوجد.
وروى ابن قتيبة أيضاً في الكتاب المذكور أن عمرو بن عبيد قال للمنصور: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، واذكر ليلةً تتمخض لك صبيحتها عن يوم القيامة. قال: يعني ليلة موته، فوجم المنصور، فقال الربيع: حسبك، فقد غممت أمير المؤمنين، فقال عمرو بن عبيد: إن هذا صحك عشرين سنة لم ير عليه أن ينصحك يوماً واحداً، ولم يعمل وراء بابك بشيء مما في كتاب الله ولا في سنة نبيه، قال أبو جعفر: فما أصنع؟ قد قلت لك: خاتمي في يدك فهلهم أنت وأصحابك فاكفني، فقال عمرو: دعنا بعدلك نسخ بأنفسنا بعونك، وببابك مظالم كثيرة، فارددها نعلم أنك صادق.

وقال ابن قتيبة في الكتاب المذكور: وقد قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك بنحو هذا، قال له: إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فيه بعض الغلظة فاحتمله إن كرهته، فإن وراءه ما تحب، قال: قل، قال: إني سأطلق لساني بما خست عنه الألسن من عظمتك تأدية لحق الله. إنك قد تكنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم، فابتاعوا دنياهم بدنيهم، فهم حرب الآخرة، سلم الدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألو الأمانة تضييعاً، والأمة خسفاً، وأنت مسئول عما اجترحوه، وليسوا مسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك. فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنياه غيره. قال: فقال، سليمان: أما أنت يا أعرابي، فإنك قد سللت علينا عاجلاً لسانك، وهو أقطع سيفيك. قال: أجل، لقد سللته، ولكن لك لا عليك.

الأصل: فاعل الخير خير منه، وفاعل الشر شر منه.

الشرح: قد نظمت أنا هذا اللفظ والمعنى، فقلت في جملة أبيات لي:

تنمي وتزكو إذا بارت بضائعه

والشر شر وشر منه صانعه

خير البضائع للإنسان مكرمة

فالخير خير وخير منه فاعله

فإن قلت: كيف يكون فاعل الخير خيراً من الخير؟ وفاعل الشر شراً من الشر! مع أن فاعل الخير إنما كان ممدوحاً لأجل الخير، وفاعل الشر إنما كان مذموماً لأجل الشر، فإذا كان الخير والشر هما سببا المدح والذم، وهما الأصل في ذلك، فكيف يكون فاعلهما خيراً وشرّاً منهما؟ قلت: لأن الخير والشر ليسا عبارة عن ذات حية قادرة، وإنما هما فعلا، أو فعل وعدم فعل، أو عدمان، فلو قطع النظر في الذات الحية القادرة التي يصدران عنها، لما انتفع أحد بهما ولا استضر، فالنفع والضرر إنما حصلا من الحي الموصوف بهما لا منهما على انفرادهما، فلذلك كان فاعل الخير خيراً من الخير، وفاعل الشر شراً من الشر.

الأصل: كن سمحاً، ولا تكن مبذراً، وكن مقدراً، ولا تكن مقترراً.

الشرح: كل كلام جاء في هذا فهو مأخوذ من قوله سبحانه: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط

فتتعد ملوماً محسوراً"، ونحو قوله: "إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً".

الأصل: أشرف الغنى، ترك المني.

الشرح: قد سبق منا قول كثير في المني، ونذكر ههنا ما لم نذكره هناك.

سئل عبيد الله بن أبي بكر: أي شيء أدوم متاعاً؟ فقال: المني.

وقال بلال بن أبي بردة: ما يسرني بنصبي من المني حمر النعم.

وكان يقال: الأماي للنفس كالرونق للبصر.

ومن كلام بعض الحكماء: الأماي تعمي أعين البصائر، والحظ يأتي من لا يأتيه، وربما كان الطمع وعاء حشوه المتالف،

وسائلاً يدعو إلى الندامة، وأشقى الناس بالسلطان صاحبه، كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها إحراقاً، ولا يدرك

الغنى بالسلطان إلا نفس خائفة، وجسم لعب، ودين منكتم، وإن كان البحر كدر الماء، فهو بعيد الهواء.

الأصل: من أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون.

الشرح: هذا المعنى كثير واسع، ولنتقصر ههنا فيه على حكاية ذكرها المبرد في الكامل.

خبر الحَضِين مع قتيبة بن مسلم الباهلي.

قال: لما فتح قتيبة بن مسلم سمرقند أفضى إلى أثاث لم ير مثله، وإلى آلات لم ير مثله، فأراد أن يري الناس عظيم ما أنعم

الله به عليه، ويعرفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم، فأمر بدار ففرشت وفي صحنها قدور يرتقى إليها بالسلام، فإذا

الحَضِين بن المنذر بن الحارث بن ويلة الرقاشي قد أقبل والناس جلوس على مراتبهم، والحَضِين شيخ كبير، فلما آره عبد

الله بن مسلم قال لأخيه قتيبة: ائذن لي في معاتبته، قال: لا ترده لأنه خبيث الجواب، فأبى عبد الله إلا أن يأذن له - وكان

عبد الله يضعف، وقد كان تسور حائطاً إلى امرأة قبل ذلك - فأقبل على الحَضِين، فقال: أמן الباب دخلت يا أبا

ساسان؟ قال: أجل، أسن عمك عن تسور الحيطان. قال: رأيت هذه القدور؟ قال: هي أعظم من ألا ترى، قال: ما

أحسب بكر بن وائل رأى مثله، قال: أجل، ولا غيلان، ولو كان رأها سمي شبعان، ولم يسم غيلان، قال له عبد الله: يا

أبا ساسان أتعرف الذي يقول:

عزلنا وأمرنا وبكر بن وائل

قال: أجل أعرفه، وأعرف الذي يقول:

بأدنى العزم قاد بني قشير

وخيبة من يخيب على غني

يريد: يا خيبة من يخيب، قال: أفتعرف الذي يقول:

كأن فقاح الأزد حول ابن مسمع

قال: نعم أعرفه وأعرف الذي يقول:

قوم قتيبة أمهم وأبوهم

لولا قتيبة أصبحوا في مجهل

إذا عرقت أفواه بكر بن وائل

قال: أما الشعر فأراك ترويه، فهل تقرأ من القرآن شيئاً، قال: أقرأ منه الأكثر الأطيب: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً"، فأغضبه، فقال: والله لقد بلغني أن امرأة الحظين حملت إليه وهي حبلى من غيره قال: فما تحرك الشيخ عن هيئته الأولى، ثم قال على رسله، وما يكون! تلد غلاماً على فراشي، فيقال: فلان ابن الحظين، كما يقال: عبد الله بن مسلم. فأقبل قتيبة على عبد الله وقال: لا يبعد الله غيرك! قلت: هو الحظين بالضاد المعجمة، وليس في العرب من اسمه الحظين بالضاد المعجمة غيره الأصل: من أطال الأمل، أساء العمل.

الشرح: قد تقدم منا كلام في الأمل.

وقيل لبعض الصالحين: ألك حاجة إلى بغداد؟ قال: ما أحب أن أبسط أجلي حتى تذهب إلى بغداد وتعود.

وقال، أبو عثمان النهدي: قد أتت علي ثلاثون ومائة سنة، ما من شيء إلا وأجد فيه النقص إلا أجلي، فإنني وجدته كما هو أو يزيد.

وقال رضي الله عنه وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجلوا له واشتدوا بين يديه.

الأصل: ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خلق منا نعظم به أمراءنا، فقال: والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في أخراكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب، وأريح الدعة معها الأمان من النار. الشرح: اشتدوا بين يديه: أسرعوا شيئاً، فنهاهم عن ذلك وقال: إنكم تشقون به على أنفسكم لما فيه من تعب الأبدان، وتشقون به في آخرتكم: تخضعون للولادة، كما زعمتم أنه خلق وعادة لكم، خضوعاً تطلبون به الدنيا والمنافع العاجلة فيها، وكل خضوع وتذلل لغير الله فهو معصية.

ثم ذكر أن الخسران مشقة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة والربح المبين دعة عاجلة يتبعها الأمان من النار.

قال رضي الله عنه لابنه الحسن رضي الله عنه. الأصل: يا بني احفظ عني أربعاً، لا يضررك ما عملت معهن: إن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الحسب حسن الخلق.

يا بني إياك ومصادقة الأحق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة البخيل، فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه، وإياك ومصادقة الكذاب، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد، ويبعد عليك القريب.

الشرح: هذا الفصل يتضمن ذكر العقل والحمق، والعجب وحسن الخلق، والبخل والفجور، والكذب، وقد تقدم كلامنا في هذه الخصال أجمع، وقد أخذت قوله رضي الله عنه: إياك ومصادقة الأحق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك فقلت في أبيات لي:

فلا خير في صحبة الأخرق

ل عين الرشاد فلايتقي

فيسرق منه ولا يسرق

حياتك لاتصحبن الجهول

يظن أخو الجهل أن الضلا

ويكسب صاحبه حمقه

الأصل: لا قرينة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض.

الشرح: هذا الكلام يمكن أن يحمل على حقيقته، ويمكن أن يحمل على مجازة، فإن حمل على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثير من الفقهاء، وهو مذهب الإمامية، وهو أنه لا يصح التغفل ممن عليه قضاء فريضة فاتته لا في الصلاة ولا في غيرها، فأما الحج فمتفق عليه بين المسلمين أنه لا يصح الإبتداء بنفله، وإذا نوى نية النفل، ولم يكن قد حج حجة الإسلام وقع حجه فرضاً، فأما نوافل الزكاة فما عرفت أحداً قال: إنه لا يثاب المتصدق بها، وإن كان لم يؤد الزكاة الواجبة. وأما إذا حمل على مجازة، فإن معناه يجب الإبتداء بالأهم وتقديمه على ما ليس بأهم، فتدخل هذه الكلمة في الآداب السلطانية والإخوانية، نحو أن تقول لمن توصيه: لا تبدأ بخدمة حاجب الملك قبل أن تبدأ بخدمة ولد الملك، فإنك إنما تروم القرينة للملك بالخدمة، ولا قرينة إليه في تأخير خدمة ولده وتقديم خدمة غلامه، وحمل الكلمة على حقيقته أولى، لأن اهتمام أمير المؤمنين رضي الله عنه بالأمر الديني والشرعي في وصاياه ومنتور كلامه أعظم.

الأصل: لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذا من المعاني العجيبة الشريفة، والمراد به أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية، ومؤامرة الفكرة، والأحمق تسبق حذفات لسانه، وفلتات كلامه، ومراجعة فكره، ومماخضة رأيه، فكأن لسان العاقل تابع لقلبه، وكأن قلب الأحمق تابع للسانه.

قال: وقد روي عنه رضي الله عنه هذا المعنى بلفظ آخر، وهو قوله: قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه ومعناها واحد.

الشرح: قد تقدم القول في العقل والحمق، ونذكر ههنا زيادات أخرى.

أقوال ونوادر عن الحمقى.

قالوا: كل شيء يعز إذا قل، والعقل كلما كان أكثر كان أعز وأعلى.

وكان عبد الملك يقول: أنا للعاقل المدبر أرجى مني للأحمق المقبل.

قيل لبعضهم: ما جماع العقل، فقال: ما رأيته مجتمعاً في أحد فأصفه، وما لا يوجد كاملاً فلا حد له. وقال الزهري: إذا أنكرت عقلك فاقدحه بعقل.

وقيل: عظمت المؤونة في عاقل متجاهل، وجاهل متعاقل.

وقيل: الأحمق يتحفظ من كل شيء إلا من نفسه.

وقيل لبعضهم: العقل أفضل أم الجسد، فقال: العقل من الجسد.

وخطب رجلان إلى ديماءوس الحكيم ابنته، وكان أحدهما فقيراً والآخر غنياً، فزوجها من الفقير، فسأله الإسكندر عن ذلك، فقال: لأن الغني كان أحمق، فكنت أخاف عليه الفقر، والفقير كان عاقلاً. فرجوت له الغنى.

وقال أرسطو: العاقل يوافق العاقل، والأحمق لا يوافق العاقل، والأحمق كالعود المستقيم الذي ينطبق على المستقيم، فأما المعوج فإنه لا ينطبق على المعوج ولا على المستقيم.

وقال بعضهم: لأن أزاول أحمق أحب إلي من أن أزاول نصف أحمق، أعني الجاهل المتعقل.

واعلم أن أخبار الحمقى ونوادرهم كثيرة، إلا أنا نذكر منها ههنا ما يليق بكتابنا، فإنه كتاب نزهناه عن الخلاعة والفحش إجلالاً لمنصب أمير المؤمنين.

قال هشام بن عبد الملك يوماً لأصحابه: إن حمق الرجل يعرف بخصال أربع: طول لحيته، وبشاعة كنيته، ونقش خاتمه، وإفراط فهمته. فدخل عليه شيخ طويل العثنون، فقال هشام: أما هذا فقد جاء بواحدة، فانظروا أين هو من الباقي، قالوا له: ما كنية الشيخ؟ قال: أبو الياقوت، فسأله عن نقش خاتمه، فإذا هو: "وجاؤوا على قميصه بدم كذب" فقليل له: أي الطعام تشتهي؟ قال: الدباء بالزيت، فقال هشام: إن صاحبكم قد كمل.

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً ينادي آخر: يا أبا العمرين، فقال: لو كان له عقل لكفاه أحدهما.

وأرسل ابن لعجل بن لجيم فرساً له في حلبة، فجاء سابقاً، فقليل له: سمه باسم يعرف به، فقام ففقأ عينه وقال: قد سميت الأعرور، فقال شاعر يهجو:

وأي عباد الله أنوك من عجل.

رمتني بنو عجل بداء أبيهم

فأضحت به الأمثال تضرب بالجهل

أليس أبوهم عار عين جواده

وقال أبو كعب القاص في قصصه: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال في كبد حمزة ما علمتم، فادعوا الله أن يطعمنا من كبد حمزة.

وقال مرة في قصصه: اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا، فقليل له: إن يوسف لم يأكله الذئب؟ فقال: فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

ودخل كعب البقر الهاشمي على محمد بن عبد الله بن طاهر يعزيه في أخيه، فقال له: أعظم الله مصيبة الأمير، فقال الأمير: أما فيك فقد فعل، والله لقد هممت أن أحلق لحيتك، فقال: إنما هي لحية الله ولحية الأمير فليفعل ما أحب.

وكان عامر بن كريز أبو عبد الله بن عامر، من حمقى قريش، نظر إلى عبد الله وهو يخطب والناس يستحسنون كلامه، فقال لإنسان إلى جانبه: أنا أخرجته من هذا، وأشار إلى متاعه.

ومن حمقى قريش العاص بن هشام المخزومي، وكان أبو لب قامره فقمرة ماله ثم داره، ثم قليله وكثيره، وأهله ونفسه، فاتخذ عبداً، وأسلمه قيناً، فلما كان يوم بدر بعث به بديلاً عن نفسه، فقتل بيدر، قتله عمر بن الخطاب، وكان ابن عم أمه.

ومن الحمقى الأحوص بن جعفر بن عمرو بن حريث، قال له يوماً مجالسوه: ما بال وجهك أصفر؟ أتشتكي شيئاً؟ فرجع إلى أهله، وقال: يا بني الحية، أنا شاك ولا تعلموني! اطحروا علي الثياب وابعثوا إلي الطبيب.

ومن حمقى بني عجل حسان بن الغضبان من أهل الكوفة، ورث نصف دار أبيه، فقال: أريد أن أبيع حصتي من الدار،

وأشترى بالثمن النصف الباقي، فتصير الدار كلها لي.

ومن حمقى قريش بكار بن عبد الملك بن مروان، وكان أبوه ينهيه أن يجالس خالد بن يزيد بن معاوية لما يعرف من حمقه، فجلس يوماً إلى خالد، فقال خالد يعث به: هذا والله المردد في بني عبد مناف، فقال بكار، أجل، أنا والله كما قال الأول:

مردد في بني اللخناء ترديدا

وطار لبكار هذا بازي، فقال لصاحب الشرطة: أغلق أبواب دمشق لئلا يخرج البازي.

ومن حمقى قريش معاوية بن مروان بن الحكم، بينا هو واقف بباب دمشق ينتظر أخاه عبد الملك على باب طحان، وحمار الطحان يدور بالرحا وفي عنقه جلجل، فقال للطحان: لم جعلت في عنق هذا الحمار جلجلاً؟ فقال: ربما أدركتني نعسة أو سامة، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت، أنه قد نام، فصحت به، فقال: رأيته إن قام وحرك رأسه، ما علمك به أنه قائم؟ فقال: ومن لحماري يمثل عقل الأمير.

وقال معاوية لحميه وقد دخل بابنته تلك الليلة فافتضها: لقد ملأتنا ابنتك البارحة دماً، فقال: إنها من نسوة يخبأن ذلك لأزواجهن.

ومن حمقى قريش سليمان بن يزيد بن عبد الملك، قال يوماً: لعن الله الوليد أخي، فلقد كان فاجراً، أرادني على الفاحشة، فقال له قائل من أهله، اسكت ويحك، فو الله إن كان هم لقد فعل. وخطب سعيد بن العاص عائشة ابنة عثمان، فقالت: هو أحق، لا أتزوجه أبداً، له برذونان لوئهما واحد عند الناس، ويحمل مؤنة اثنين.

ومن كان يحقق من قريش عتبة بن أبي سفيان بن حرب وعبد الله بن معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن قيس بن مخزومة بن المطلب وسهل بن عمرو أخو سهيل بن عمرو بن العاص. وكان عبد الملك بن مروان يقول: أحقق بيت في قريش آل قيس بن غرمة.

ومن القبائل المشهورة بالحمق الأزدي، كتب مسلمة بن عبد الملك إلى يزيد بن المهلب لما خرج عليهم: إنك لست بصاحب هذا الأمر، إن صاحبه مغموز موتور، وأنت مشهور غير موثور. فقام إليه رجل من الأزدي، فقال: قدم ابنك مخلداً حتى يقتل فتصير موتوراً.

وقام رجل من الأزدي إلى عبيد الله بن زياد فقال: أصلح الله الأمير، إن امرأتي هلكت، وقد أردت أن أتزوج أمها، وهذا عريفي فأعني في الصداق، فقال: في كم أنت من العطاء، فقال: في سبعمائة، فقال: حطوا من عطائه أربعمائة، يكفيك ثلاثمائة.

ومدح رجل منهم المهلب فقال:

أبيض وضاح ككتيس الحلب

نعم أمير الرفقة المهلب

فقال المهلب: حسبك يرحمك الله! وكان عبد الملك بن هلال عنده زنبيل مملوء حصاً للتسبيح، فكان يسبح بواحدة واحدة، فإذا مل طرح اثنين اثنين، ثم ثلاثاً ثلاثاً، فإذا أزداد ملاله قبض قبضة وقال: سبحان الله عددك، فإذا ضجر أخذ بعرا الزنبيل وقلبه، وقال: سبحان الله بعدد هذا.

ودخل قوم منزل الخريمي لبعض الأمر، فجاء وقت صلاة الظهر، فسألوه عن القبلة، فقال: إنما تركتها منذ شهر. وحكى بعضهم: قال: رأيت أعرابياً يبكي، فسألته عن سبب بكائه، فقال: بلغني أن جالوت قتل مظلوماً. وصف بعضهم أحق، فقال: يسمع غير ما يقال، ويحفظ غير ما يسمع، ويكتب غير ما يحفظ، ويحدث غير ما يكتب. قال المأمون لثمامة: ما جهد البلاء يا أبا معن؟ قال: عالم يجري عليه حكم جاهل. قال: من أين قلت هذا؟ قال: حبسني الرشيد عند مسرور الكبير، فضيق علي أنفاسي، فسمعتة يوماً يقرأ: "ويل يومئذ للمكذبين"، بفتح الذال، فقلت له: لا تقل أيها الأمير هكذا، قل: للمكذبين، وكسرت له الذال، لأن المكذبين هم الأنبياء، فقال: قد كان يقال لي عنك إنك قدري، فلا نجوت إن نجوت الليلة مني، فعانيت منه تلك الليلة الموت من شدة ما عذبي. قال أعرابي لابنه: يا بني كن سبعاً خالصاً، أو ذئباً حائساً، أو كلباً حارساً، ولا تكن أحق ناقصاً. وكان يقال: لولا ظلمة الخطأ ما أشرق نور الصواب.

وقال أبو سعيد السيرافي: رأيت متكلماً ببغداد بلغ به نقصه في العربية أنه قال في مجلس مشهور: إن العبد مضطر بفتح الطاء، والله مضطر بكسرهما، وزعم أن من قال: والله مضطر عبد إلى كذا، بالفتح كافر، فانظر أين بلغ به جهله، وإلى أي رذيلة أداه نقصه.

وصف بعضهم إنساناً أحق، فقال: والله للحكمة أزل عن قلبه من المداد عن الأديم الدهين. مر عمر بن الخطاب على رماة غرض، فسمع بعضهم يقول: أخطيت وأسبت، فقال له: مه، فإن سوء اللحن شر من سوء الرماية.

تضجر عمر بن عبد العزيز من كلام رجل بين يديه، فقال له صاحب شرطته: قم فقد أوذيت أمير المؤمنين، فقال عمر: والله إنك لأشد أذى لي بكلامك هذا منه.

ومن حمقى العرب وجهلائهم كلاب بن صعصعة، خرج إخوته يشترون خيلاً، فخرج معهم، فجاء بعجل يقوده، فقيل له: ما هذا؟ فقال: فرس اشتريته، فقالوا: يا مائق، هذه بقرة، أما ترى قرنيها، فرجع إلى منزله فقطع قرنيها، ثم قادها، فقال لهم: قد أعدتها فرساً كما تريدون، فأولاده يدعون بني فارس البقرة.

وكان شذرة بن الزبرقان بن بدر من الحمقى، جاء يوم الجمعة إلى المسجد فاخذ بعضادتي الباب، ثم رفع صوته: سلام عليكم، أيلج شذرة؟ فقيل له: هذا يوم لا يستأذن فيه، فقال: أويلج مثلي على قوم ولم يعرف له مكانه. واستعمل معاوية عاملاً من كلب، فخطب يوماً، فذكر الجوس، فقال: لعنهم الله، ينكحون أمهاتهم، والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أُمي، فبلغ ذلك معاوية، فقال: قبحه الله! أترونها لو زادوه فعل وعزله.

وشرد بعير لهبنقة - واسمه يزيد بن شروان - فجعل ينادي: لمن أتى به بعيران، فقيل له: كيف تبذل ويلك بعيرين في بعير!

فقال للحلاوة الوجدان.

وسرق من أعراي حمار، فقيل له: أسرق حمارك؟ قال: نعم، وأحمد الله، فقيل له: على ماذا تحمده؟ قال: كيف لم أكن عليه.

وخطب وكيع بن أبي سود بخراسان، فقال: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أشهر، فقيل له: إنها ستة أيام، فقال: والله لقد قتلها وأنا أستقلها! وأجريت خيل فطلع فيها فرس سابق، فجعل رجل من النظارة يكبر ويشب من الفرح، فقال له رجل إلى جانبه: يا فتى، أهذا الفرس السابق لك؟ قال: لا ولكن اللجام لي.

وقيل لأبي السفاح الأعراي عند موته: أوص، فقال: إنا الكرام يوم طخفة، قالوا: قل خيراً يا أبا السفاح، قال: إن أحببت امرأتي فأعطوها بعيراً، قالوا: قل خيراً قال: إذا مات غلامي فهو حر.

وقيل لرجل عند موته: قل لا إله إلا الله، فأعرض، فأعادوا عليه مراراً، فقال لهم: أخبروني عن أبي طالب، قالها عند موته؟ قالوا: وما أنت وأبو طالب! فقال: أرغب بنفسي عن ذلك الشريف.

وقيل لآخر عند موته: ألا توصي، فقال: أنا مغفور لي، قالوا: قل: إن شاء الله، قال: قد شاء الله ذلك، قالوا: يا هذا لا

تدع الوصية، فقال لابني أخيه: يابني حريث، ارفعا وسادي، واحتفظا بالحلة الجياد، فإنما حولكما الأعادي.

وقيل لمعلم ابن معلم: ما لك أحمق؟ فقال: لو لم أكن أحمق، لكنت ولد زناً.

وقال رضي الله عنه لبعض أصحابه في علة اعتلها. الأصل: جعل الله ما كان منك من شكواك خطأً لسيئاتك، فإن المرض لا أجر فيه، ولكنه يحط السيئات ويحتها حث الأوراق، وإنما الأجر في القول باللسان، والعمل بالأيدي والأقدام، وإن الله سبحانه يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنة.

قال رضي الله عنه تعالى: وأقول: صدق، إن المرض لا أجر فيه، لأنه ليس من قبيل ما يستحق عليه العوض، لأن العوض يستحق على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك، والأجر والثواب يستحقان على ما كان في مقابلة فعل العبد، فبينهما فرق قد بينه رضي الله عنه كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب. الشرح: ينبغي أن يحمل كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في هذا الفصل على تأويل يطابق ما تدل عليه العقول وألا يحمل على ظاهره، وذلك لأن المرض إذا استحق عليه الإنسان العوض لم يجز أن يقال: إن العوض يحط السيئات بنفسه، لا على قول أصحابنا، ولا على قول الإمامية، أما الإمامية فإنهم مرجئة، لا يذهبون إلى التحابط، وأما أصبنا فإنهم لا محابط عندهم إلا في الثواب والعقاب، فأما العقاب والعوض فلا تحابط بينهما، لأن التحابط بين الثواب والعقاب، إنما كان باعتبار

التنافي بينهما من حيث كان أحدهما يتضمن الإجلال والإعظام، والآخر يتضمن الإستهفاف والإهانة، ومحال أن يكون الإنسان الواحد مهاناً معظماً في حال واحدة، ولما كان العوض لا يتضمن إجلالاً وإعظاماً، وإنما هو نفع خالص فقط، لم يكن منافياً للعقاب، وجاز أن يجتمع للإنسان الواحد في الوقت الواحد كونه مستحقاً للعقاب والعوض، إما بأن يوفر العوض عليه في دار الدنيا، وإما بأن يوصل إليه في الآخرة قبل عقابه، إن لم يمنع الإجماع من ذلك في حق الكافر، وإما أن يخفف عليه بعض عقابه، ويجعل ذلك بدلاً من العوض الذي كان سبيله أن يوصل إليه، وإذا ثبت ذلك وجب أن يجعل كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه على تأويل صحيح، وهو الذي أراده رضي الله عنه، لأنه كان أعرف الناس بهذه المعاني،

ومنه تعلم المتكلمون علم الكلام، وهو أن المرض والألم يحط الله تعالى عن الإنسان المبتلى به ما يستحقه من العقاب على معاصيه السالفة تفضلاً منه سبحانه، فلما كان إسقاط العقاب متعقباً للمرض، وواقعاً بعده بلا فصل، جاز أن يطلق اللفظ بأن المرض يحط السيئات ويحتها حث الورق، كما جاز أن يطلق اللفظ بأن الجماع يحبل المرأة، وبأن سقي البذر الماء ينبت، إن كان الولد والزرع عند المتكلمين وقعا من الله تعالى على سبيل الاختيار، لا على الإيجاب، ولكنه أجرى العادة أن يفعل ذلك عقيب الجماع وعقيب سقي البذر الماء.

فإن قلت: أيجوز أن يقال: إن الله تعالى يمرض الإنسان المستحق للعقاب، ويكون إنما أمرضه ليسقط عنه العقاب لا غير؟ قلت: لا، لأنه قادر على أن يسقط عنه العقاب ابتداءً، ولا يجوز إنزال الألم إلا حيث لا يمكن اقتناص العوض الجزى به إليه إلا بطريق الألم، وإلا كان فعل الألم عبثاً، ألا ترى أنه لا يجوز أن يستحق زيد على عمرو ألف درهم فيضربه ويقول: إنما أضربه لأجعل ما يناله من ألم الضرب مسقطاً لما أستحقه من الدراهم عليه؟ وتذمه العقلاء ويسفهونه، ويقولون له فهلا وهبتها له، وأسقطتها عنه من غير حاجة إلى أن تضربه وتؤله، والبحث المستقصى في هذه المسائل مذكور في كتي الكلامية، فليرجع إليها، وأيضاً فإن الآلام قد تنزل بالأنبياء وليسوا ذوي ذنوب ومعاص ليقال: إنما تحطها عنهم. فأما قوله رضي الله عنه: وإنما الأجر في القول... إلى آخر الفصل، فإنه رضي الله عنه قسم أسباب الثواب أقساماً، فقال: لما كان المرض لا يقتضي الثواب لأنه ليس فعل المكلف، وإنما يستحق المكلف الثواب على ما كان من فعله، وجب أن يبين ما الذي يستحق به المكلف الثواب، والذي يستحق المكلف به ذلك أن يفعل فعلاً إما من أفعال الجوارح، وإما من أفعال القلوب، فأفعال الجوارح إما قول باللسان أو عمل ببعض الجوارح وعبر عن سائر الجوارح، عدا اللسان، بالأيدي والأقدام، لأن أكثر ما يفعل بها، وإن كان قد يفعل بغيرها نحو مجامعة الرجل زوجته إذا قصد به تحصينها وتحسينه عن الزنا، ونحو أن ينحي حجراً ثقيلاً برأسه عن صدر إنسان قد يقتله، وغير ذلك، وأما أفعال القلوب فهي العزوم والإرادات والنظر والعلوم والظنون والندم، فعبر رضي الله عنه عن جميع ذلك بقوله: بصدق النية والسريرة الصالحة، واكتفى بذلك عن تعدد هذه الأجناس.

فإن قلت: فإن الإنسان قد يستحق الثواب على ألا يفعل القبيح، وهذا يخرم الحصر الذي حصره أمير المؤمنين؟ قلت: يجوز أن يكون يذهب مذهب أبي علي في أن القادر بقدره لا يخلو عن الأخذ والترك. وقال رضي الله عنه في ذكر خباب الأصل: رحم الله خباب بن الأرت، فلقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، طوي لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله. خباب بن الأرت.

الشرح: هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن مسعد بن زيد مناة بن تميم يكنى أبا عبد الله - وقيل: أبا محمد وقيل: أبا يحيى - أصابه سبي فبيع بمكة.

وكانت أمه ختانة، وخباب من فقراء المسلمين وخيارهم، وكان به مرض، وكان في الجاهلية قيناً حداداً يعمل السيوف، وهو قديم الإسلام، قيل إنه كان سادس ستة، وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وهو معدود في المعدين في الله، سأل

عمر بن الخطاب أيام خلافته: ما لقيت من أهل مكة؟ فقال: انظر إلى ظهري، فنظر فقال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل! فقال خباب: أوقدوا لي ناراً وسحبت عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهري .

وجاء خباب إلى عمر، فجعل يقول: ادنه، ادنه ثم قال له: ما أحد أحق بهذا المجلس منك، إلا أن يكون عمار بن ياسر. نزل خباب إلى الكوفة، ومات بها في سنة سبع وثلاثين، وقيل: سنة تسع وثلاثين، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين رضي الله عنه صفين ونهروان، وصلى عليه علي رضي الله عنه، وكانت سنه يوم مات ثلاثاً وسبعين سنة، ودفن بظهر الكوفة. وهو أول من دفن بظهر الكوفة، وعبد الله بن خباب هو الذي قتلته الخوارج، فاحتج علي رضي الله عنه به وطلبهم بدمه، وقد تقدم ذكر ذلك.

وقال رضي الله عنه. الأصل: لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يا علي، لا يبغضك مؤمن، ولا يحبك منافق". الشرح: جماتها بالفتح: جمع حمة، وهي المكان يجتمع فيه الماء وهذه استعارة، والخيشوم، أقصى الأنف.

ومراده رضي الله عنه من هذا الفصل إذكار الناس ما قاله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو: "لا يبغضك مؤمن، ولا يحبك منافق"، وهي كلمة حق، وذلك لأن الإيمان وبغضه رضي الله عنه لا يجتمعان، لأن بغضه كبيرة، وصاحب الكبيرة عندنا لا يسمى مؤمناً، وأما المنافق فهو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، والكافر بعقيدته لا يحب علياً رضي الله عنه، لأن المراد من الخبر المحبة الدينية، ومن لا يعتقد الإسلام لا يحب أحداً من أهل الإسلام، لإسلامه وجهاده في الدين، فقد بان أن الكلمة حق، وهذا الخبر مروي في الصحاح بغير هذا اللفظ: "لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق"، وقد فسرناه فيما سبق.

الأصل: سيئة تسوءك خير عند الله من حسنة تعجبك.

الشرح: هذا حق، لأن الإنسان إذا وقع منه القبيح ثم ساءه ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التوبة كفرت توبته معصيته، فسقط ما كان يستحقه من العقاب، وحصل له ثواب التوبة، وأما من فعل واجباً واستحق به ثواباً ثم خامره الإعجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه، والتهيه على الناس بعبادته واجتهاده، فإنه يكون قد أحبط ثواب عبادته بما شفعها من القبيح الذي أتاه، وهو العجب والتهيه والإدلال على الله تعالى، فيعود لا مثاباً ولا معاقباً، لأنه يتكافأ الإستحقاقان. ولا ريب أن من حصل له ثواب التوبة، وسقط عنه عقاب المعصية، خير ممن خرج من الأمرين كفافاً لا عليه ولا له. الأصل: قدر الرجل على قدر همته، وصدقه على قدر مروءته، وشجاعته على قدر أنفته، وعفته على قدر غيرته.

الشرح: قد تقدم الكلام في كل هذه الشيم والخصال، ثم نقول ههنا: إن كبر الهمة خلق محتلق بالإنسان فقط، وأما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك، وإنما يتجرأ كل نوع منها الفعل بقدر ما في طبعه، وعلو الهمة حال متوسطة محمودة بين حالتين طرفي رذيلتين، وهما الندح، وتسميه الحكماء - التفتح وصغر الهمة - وتسميه الناس الدناءة، فالتفتح تأهل الإنسان، لما لا يستحقه، وصغر الهمة تركه لما يستحقه لضعف في نفسه، فهذان مذمومان، والعدالة وهي الوسط بينهما

محمودة، وهي علو المهمة، وينبغي أن يعلم أن المتفتح جاهل أحمق، وصغير المهمة ليس بجاهل ولا أحمق، ولكنه ديني ضعيف قاصر، وإذا أردت التحقيق، فالكبير المهمة من لا يرضى بالهمم الحيوانية، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه، بل يجتهد في معرفة صانع العالم ومصنوعاته، وفي اكتساب المكارم الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه في الدنيا، ومجاوريه في الآخرة.

ولذلك قيل: من عظمت همته لم يرض بقنية مستردة، وحياة مستعارة، فإن أمكنك أن تقتني قنية مؤبدة، وحياة مخلدة، فافعل غير مكترث بقلة من يصحبك ويعينك على ذلك فإنه كما قيل: إذا عظم المطلوب قل المساعد وكما قيل: طرق العلاء قليلة الإيناس وأما الكلام في الصدق والمروءة والشجاعة والأنفة والعفة والغيرة، فقد تقدم كثير منه، وسيأتي ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى.

الأصل: الظفر بالحزم والحزم بإحالة الرأي، والرأي بتحصيل الأسرار. الشرح: قد تقدم القول في كتمان السر وإذاعته.

وقالت الحكماء: السر ضربان: أحدهما ما يلقي إلى الإنسان من حديث ليستكنم، وذلك إما لفظاً كقول القائل: اكتم ما أقوله لك، وإما حالاً وهو أن يجهر بالقول حال انفراد صاحبه، أو يخفض صوته حيث يخاطبه، أو يخفيه عن مجالسيه، ولهذا قيل: إذا حدثك إنسان والتفت إليه فهو أمانة.

والضرب الثاني نوعان: أحدهما أن يكون حديثاً في نفسك تستقبح إشاعته، والثاني أن يكون أمراً تريد أن تفعله. وإلى الأول أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "من أتى منكم شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عز وجل"، وإلى الثاني أشار من قال: من الوهن والضعف إعلان الأمر قبل إحكامه، وكتمان الضرب الأول من الوفاء، وهو مخصوص بعوام الناس، وكتمان الضرب الثاني من المروءة والحزم، والنوع الثاني من نوعيه أخص بالملوك وأصحاب السياسات.

قالوا: وإذاعة السر من قلة الصبر، وضيق الصدر، ويوصف به ضعفة الرجال والنساء والصبيان. والسبب في أنه يصعب كتمان السر أن للإنسان قوتين: إحداهما آخذة، والأخرى معطية، وكل واحدة منهما تشوق إلى فعلها الخاص بها، ولولا أن الله تعالى وكل المعطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبار من لم تزود، فعلى الإنسان أن يمسك هذه القوة ولا يطلقها إلا حيث يجب إطلاقها، فإنها إن لم تزم وتخطم، تقحمت بصاحبها في كل مهلكة.

الأصل: احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللثيم إذا شبع.

الشرح: ليس يعني بالجوع والشبع ما يتعارفه الناس، وإنما المراد، احذروا صولة الكريم إذا ضيم، وامتنع، واحذروا صولة اللثيم إذا أكرم. ومثل المعنى الأول قول الشاعر:

وإنما يصبر الحر تحت ضيم

ولا يصبر الحر تحت ضيم

ومثل المعنى الثاني قول أبي الطيب:

وإن أنت أكرمت اللثيم تمردا

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

الأصل: قلوب الرجال وحشية، فمن تألفها أقبلت عليه.

الشرح: هذا مثل قولهم: من لان استمال، ومن قسا نفر، وما استعبد الحر بمثل الإحسان إليه. وقال الشاعر:

وإنني إذا ألفتني لألوف

وإنني لوحشي إذا ما زجرتني

فأما قول عمار بن عقيل:

نخيلة نفسي كان صفواً ضميرها

تبحثتم سخطي فكدر بحثكم

على قومها أن يستمر مريرها

ولم يلبث التخشين نفساً كريمة

إذا لم تكدر كان صفواً غديرها

وما النفس إلا نطفة بقرارة

فيكاد يخالف قول أمير المؤمنين رضي الله عنه في الأصل، لأن أمير المؤمنين رضي الله عنه جعل أصل طبيعة القلوب التوحش، وإنما تستمال لأمر خارج، وهو التألف والإحسان، وعمار جعل أصل طبيعة النفس الصفو والسلامة، وإنما تتكدر وتحمج لأمر خارج، وهو الإساءة والإيحاء.

الأصل: عيبك مستور ما أسعدك جدك.

الشرح: قد قال الناس في الجد فأكثرُوا، وإلى الآن لم يتحقق معناه، ومن كلام بعضهم: إذا أقبل البخت باضت الدجاجة على الودت، وإذا أدبر البخت أسعر الهاون في الشمس.

ومن كلام الحكماء: إن السعادة لتلحظ الحجر فيدعى رباً.

وقال أبو حيان: نوادر ابن الجصاص الدالة على تغفله وبلهه كثيرة جداً، قد صنف فيها الكتب. من حملتها أنه سمع إنساناً

ينشد نسباً فيه ذكر هند، فأنكر ذلك، وقال: لا تذكرُوا حماة النبي صلى الله عليه وسلم إلا بخير، وأشياء عجيبة أظرف

من هذا. وكانت سعادته تضرب بها الأمثال، وكثرة أمواله التي لم يجتمع لقارون مثلها. قال أبو حيان: فكان الناس

يعجبون من ذلك، حتى إن جماعة من شيوخ بغداد كانوا يقولون: إن ابن الجصاص أعقل الناس، وأحزم الناس، وإنه هو

الذي ألحم الحال بين المعتضد وبين خمارويه بن أحمد بن طولون، وسفر بينهما سفارة عجيبة، وبلغ من الجهتين أحسن

مبلغ، وخطب قطر الندى بنت خمارويه للمعتضد، وجهزها من مصر على أجمل وجه وأعلى ترتيب، ولكنه كان يقصد

أن يتغافل ويتجاهل ويظهر البله والنقص، يستبقي بذلك ماله، ويحرس به نعمته، ويدفع عنه عين الكمال، وحسد الأعداء.

قال أبو حنان: قلت لأبي غسان البصري: أظن ما قاله هؤلاء صحيحاً، فإن المعتضد مع حزمه وعقله وكماله وإصابة رأيه

ما اختاره للسفارة والصلح إلا والمرجو منه فيما يأتيه ويستقبله من أيامه نظير ما قد شوهد منه فيما مضى من زمانه، وهل

كان يجوز أن يصلح أمر قد تفاقم فسادُه وتعاضم واشتد برسالة أحقق، وسفارة أحرقت، فقال أبو غسان: إن الجد ينسخ

حال الأخرق، ويستر عيب الأحمق، ويذب عن عرض المتلطح، ويقرب الصواب بمنطقه، والصحة برأيه، والنجاح بسعيه،

والجد يستخدم العقلاء لصاحبه، ويستعمل آراءهم وأفكارهم في مطالبه، وابن الجصاص على ما قيل وروي وحدث

وحكي، ولكن جده كفاه غائلة الحمق، وحماه عواقب الخرق، ولو عرفت خبط العاقل وتعسفه وسوء تأتبه وانقطاعه إذا

فارقه الجد، لعلمت أن الجاهل قد يصيب بجعله ما ليصيب العالم بعلمه مع حرمانه.

قال أبو حيان: فقلت له: فما الجدد؟ وما هذا المعنى الذي علقته عليه هذه الأحكام كلها، فقال: ليس لي عنه عبارة معينة، ولكن لي به علم شاف، استفدته بالإعتبار والتجربة والسماع العريض من الصغير والكبير، ولهذا سمع من امرأة من الأعراب ترقص ابناً لها فتقول له: رزقك الله جداً يخدمك عليه ذوو العقول، ولا رزقك عقلاً تخدم به ذوي الجلود. الأصل: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.

الشرح: قد تقدم لنا قول مقنع في العفو والحلم.

وقال الأحنف: ما شيء أشد اتصالاً بشيء من الحلم بالعز.

وقالت الحكماء: ينبغي للإنسان إذا عاقب من يستحق العقوبة، ألا يكون سبعاً في انتقامه، وألا يعاقب حتى يزول سلطان غضبه، لئلا يقدم على ما لا يجوز، ولذلك جرت سنة السلطان بحبس المجرم حتى ينظر في جرمه، ويعيد النظر فيه. وأتي الإسكندر بمذنب فصفح عنه، فقال له بعض جلسائه: لو كنت إياك أيها الملك لقتلته، قال: فإذا لم تكن إياي ولا كنت إياك لم يقتل.

وانتهى إليه أن بعض أصحابه يعيبه، ف قيل له: أيها الملك، لو تمكنته عقوبة! فقال: يكون حينئذ أبسط لساناً وعذراً في اجتنائي.

وقالت الحكماء أيضاً: لذة العفو أطيب من لذة التشفي والانتقام، لأن لذة العفو يشفعها حميد العاقبة، ولذة الانتقام يلحقها ألم الندم. وقالوا: العقوبة الأم حالات ذي القدرة وأدناها، وهي طرف من الجزع، ومن رضي ألا يكون بينه وبين الظالم إلا ستر رقيق فليتنصف.

الأصل: السخاء ما كان ابتداءً، فإذا كان عن مسألة فحياء وتذمم.

الشرح: يعجبني في هذا المعنى قول ابن حيوس:

فلأشكرن ندى أجاب وما دعي

شكر بطيء عن ندى المتسرع

إني دعوت ندى الكرام فلم يجب

ومن العجائب والعجائب جمة

وقال آخر:

عوضاً ولو نال الغنى بسؤال

رجح السؤال وخص كل نوال

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله

وإذا النوال إلى السؤال قرننته

الأصل: لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب، ولا ظهير كالمشاورة.

الشرح: روى أبو العباس في "الكامل" عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: خمس من لم يكن فيه لم يكن فيه كثير مستمتع: العقل، والدين، والأدب، والحياء، وحسن الخلق.

وقال أيضاً: لم يقسم بين الناس شيء أقل من خمس: اليقين، والقناعة، والصبر، والشكر، والخامسة التي يكمل بها هذا كله العقل.

وعنه عليه السلام: أول ما خلق الله العقل، قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال: ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، لك الثواب، وعليك العقاب.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله ليغض الضعيف الذي لا زبر له، قال: الزبر: العقل. وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما قسم الله للعباد أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وفطر العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شحوص الجاهل، وما بعث الله رسولاً حتى يستكمل العقل، وحتى يكون عقله أفضل من عقول جميع أمته، وما يضممه في نفسه أفضل من اجتهد جميع المجتهدين، وما أدى العبد فرائض الله تعالى حتى عقل عنه، ولا يبلغ جميع العابدين في عبادتهم ما يبلغه العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب، الذين قال الله تعالى عنهم: "وما يذكر إلا أولوا الألباب".

قال أبو العباس: وقال رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام له وقد سمعه يقول، بل يروى مرفوعاً: إذا بلغكم عن رجل حسن الحال فانظروا في حسن عقله، فإنما يجازى بعقله: يا بن رسول الله، إن لي جاراً كثير الصدقة، كثير الصلاة، كثير الحج، لا بأس به! فقال: كيف عقله؟ فقال: ليس له عقل، فقال: لا يرتفع بذاك منه.

وعنه عليه السلام: ما بعث الله نبياً إلا عاقلاً، وبعض النبيين أرحح من بعض، وما استخلف داود سليمان عليه السلام حتى اختبر عقله، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فمكث في ملكه ثلاثين سنة. وعنه مرفوعاً: صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله.

وعنه مرفوعاً: إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم.

قال أبو العباس: وسئل أبو عبد الله عليه السلام: ما العقل؟ فقال: ما عبد به الرحمن واكتسبت به الجنان. قال: وقال أبو عبد الله: سئل الحسن بن علي عليه السلام عن العقل، فقال: التجرع للغصة، ومداهنة الأعداء.

قلت: هذا كلام الحسن عليه السلام، وأنا أقطع بذلك.

قال أبو العباس: وقال أبو عبد الله: العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يثق بمن يخاف غدره، ولا يرجو من لا يوثق برجائه.

قال أبو العباس: وروى عن أبي جعفر عليه السلام، قال: كان موسى عليه السلام يدي رجلًا من بني إسرائيل لطول سجوده، وطول صمته، فلا يكاد يذهب إلى موضع إلا وهو معه، فبينما هو يوماً من الأيام إذ مر على أرض معشبة تهنتر، فتأوه الرجل، فقال له موسى: على ماذا تأوهت؟ قال: تمنيت أن يكون لربي حمار وأرعاه ههنا، فأكب موسى طويلاً ببصره إلى الأرض اغتماماً بما سمع منه، فانخط عليه الوحي، فقال: ما الذي أنكرت من مقالة عبدي! إنما آخذ عبادي على قدر ما آتيتهم.

قال أبو العباس: وروى عن علي عليه السلام: هبط جبرائيل عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاث ليختار منها واحدة ويدع اثنتين، وهي: العقل والحياء، والدين، فاختر العقل، فقال جبرائيل للحياء والدين: انصرفا، فقالا: إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، فقال: فشأنكما! ففاز بالثلاث.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

فأما قوله عليه السلام: "ولا ميراث كالأدب" فإني قرأت في حكم الفرس عن بزرجهر: ما ورثت الآباء أبناءها شيئاً
أفضل من الأدب، لأنها إذا ورثتها الأدب اكتسبت بالأدب المال، فإذا ورثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل، وقعدت صفراً
من المال والأدب.

قال بعض الحكماء: من أدب ولده صغيراً، سر به كبيراً.

وكان يقال: من أدب ولده أرغم حاسده.

وكان يقال: ثلاثة لا غربة معهم: بجانب الريب، وحسن الأدب، وكف الأذى.

وكان يقال: عليكم بالأدب، فإنه صاحب في السفر، ومؤنس في الوحدة، وجمال في الحفل، وسبب إلى طلب الحاجة.

وقال بزرجهر: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان قبل وضعياً، وبعد صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً،
وكثر الحاجة إليه وإن كان مقللاً.

وقال بعض الملوك لبعض وزرائه: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عدمه؟ قال: أدب يتحلى به،

قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستتر به؟ قال: فإن عدمه؟ قال: صاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد.

وقيل لبعض الحكماء: متى يكون العلم شراً من عدم؟ قال: إذا كثر الأدب ونقصت القريحة - يعني بالقريحة العقل.

فأما القول في المشورة فقد تقدم، وربما ذكرنا منه نبذاً فيما بعد.

الأصل: الصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبر عما تحب.

الشرح: النوع الأول أشق من النوع الثاني، لأن الأول صبر على مضرة نازلة، والثاني صبر على محبوب متوقع لم يحصل،
وقد تقدم لنا قول طويل في الصبر.

سئل بزرجهر في بليته عن حاله، فقال: هون علي ما أنا فيه فكري في أربعة أشياء: أولها أي قلت: القضاء والقدر لا بد

من جريانهما، والثاني أي قلت: إن لم أصبر فما أصنع! والثالث أي قلت: قد كان يجوز أن تكون الحنة أشد من هذه!

والرابع أي قلت: لعل الفرج قريب! وقال أنو شروان: جميع أمر الدنيا. منقسم إلى ضربين لا ثالث لهما: أما ما في دفعه

حيلة فالاضطراب دواؤه، وأما ما لا حيلة فيه فالصبر شفاؤه.

الأصل: الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة.

الشرح: قد تقدم لنا قول مقنع في الفقر والغنى ومدحهما وذمهما على عادتنا في ذكر الشيء ونقيضه، ونحن نذكر ههنا
زيادة على ذلك.

قال رجل لبقرط: ما أشد الفقر أيها الحكيم؟ قال: لو عرفت راحة الفقر لشغلكت التوجع لنفسك عن التوجع لي، الفقر

ملك ليس عليه محاسبة.

وكان يقال: أضعف الناس من لا يحتمل الغنى.

وقيل للكندي: فلان غني، فقال: أنا أعلم أن له مالاً، ولكني لا أعلم: أغني هو أم لا! لأنني لا أدري كيف يعمل في ماله!

قيل لابن عمر: توفي زيد بن ثابت وترك مائة ألف درهم، قال: هو تركها لكنها لم تتركه.

وقالوا: حسبك من شرف الفقر أنك لا ترى أحداً يعصي الله ليفتقر، أخذه الشاعر فقال:

يا عائب الفقر ألا ترذجر

عيب الغنى أكبر لو تعتبر

إنك تعصي الله تبغي الغنى

وليس تعصي الله كي تفتقر

وكان يقال: الحلال يقطر، والحرام يسيل.

وقال بعض الحكماء: ألا ترون ذا الغنى ما أدوم نصبه، وأقل راحته، وأحسن من ماله حظه، وأشد من الأيام حذره، وأغرى الدهر بنقصه وثلمه! ثم هو بين سلطان يرعاه، وحقوق تسترعيه، وأكفاء ينافسونه، وولد يودون موته، قد بعث الغنى عليه من سلطانه العناء، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوي الحقوق الدم، ومن الولد الملالة وتمني الفقد، لا كذي البلغة قنع فدام له السرور، ورفض الدنيا فسلم من الحسد، ورضي بالكفاف فكفي الحقوق. الأصل: القناعة مال لا ينفد.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وقد روي هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم الشرح: قد ذكرنا نكتاً جليلة الموقع في القناعة فيما تقدم ونذكر ههنا زيادة على ذلك. فمن كلام الحكماء: قاوم الفقر بالقناعة، وقاهر الغنى بالتعفف، وطاول عناء الحاسد بحسن الصنع، وغالب الموت بالذكر الجميل.

وكان يقال: الناس رجلان واحد لا يكتفي، وطالب لا يجد، أخذه الشاعر فقال:

وما الناس إلا واحد غير قانع

بأرزاقه أو طالب غير واجد

قال رجل لبقرط وراه يأكل العشب: لو خدمت الملك لم تحتج إلى أن تأكل الحشيش، فقال له: وأنت إن أكلت الحشيش لم تحتج أن تخدم الملك! الأصل: المال مادة الشهوات.

الشرح: قد تقدم لنا كلام في المال مدحاً وذمماً.

وقال أعرابي لبنيه: اجمعوا الدراهم فإنها تلبس اليلمق، وتطعم الجردق.

وقال أعرابي وقد نظر إلى دينار: قاتلك الله! ما أصغر قمتك، وأكبر همتك!.

ومن كلام الحكماء: ما اخترت أن تحيا به فمت دونه.

سئل أفلاطون عن المال، فقال: ما أقول في شيء يعطيه الحظ ويحفظه اللؤم، ويبلغه الكرم! وكان يقال: ثلاثة يؤثرون المال على أنفسهم: تاجر البحر، والمقاتل بالأجرة، والمرتشى في الحكم، وهو شرهم، لأن الأولين ربما سلما، ولا سلامة للثالث من الإثم.

ثم قالوا: وقد سمى الله تعالى المال خيراً في قوله: "إن ترك خيراً"، وفي قوله: "وإنه لحب الخير لشديد".

كان عبد الرحمن بن عوف يقول: حبذا المال، أصون به عرضي، وأقرضه ربي فيضاعفه لي. وقالوا في ذم المال: المال مثل الماء غاد ورائح، طبعه كطبع الصبي لا يوقف على سبب رضاه ولا سخطه. المال لا ينفحك ما لم تفارقه. وفيه قال الشاعر:

وصاحب صدق ليس ينفع قربه

ولا وده حتى تفارقه عمدا

وأخذ هذا المعنى الحريري فقال:

وليس يغني عنك في المضايق

إلا إذا فر فرار الأبق

قال الشاعر:

ألم تر أن المال يهلك ربه

إذا جم آتية وسد طريقه

ومن جاوز البحر الغزير بقحمة

وسد طريق الماء فهو غريقه

الأصل: من حذرک، کمن بشرك.

الشرح: هذا مثل قولهم: اتبع أمر مبكياتك، لا أمر مضحكاتك. ومثله: صديقك من نھاك، لا من أغراك. ومثله: رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي.

والتحذير هو النصيح، والنصح واجب، وهو تعريف الإنسان ما فيه صلاحه، ودفع المضرة عنه، وقد جاء في الخبر الصحيح: "الدين النصيحة"، فقليل: يا رسول الله، لمن؟ فقال: "لعمامة المسلمين". وأول ما يجب على الإنسان أن يحذر نفسه وينصحها، فمن غش نفسه فقلما يحذر غيره وينصحه، وحق من استنصح أن يبذل غاية النصيح ولو كان في أمر يضره، وإلى ذلك وقعت الإشارة في الكتاب العزيز بقوله سبحانه: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم"، وقال سبحانه: "وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى".

ومعنى قوله عليه السلام: "كمن بشرك" أي ينبغي لك أن تسر بتحذيره لك، كما تسر لو بشرك بأمر تحبه، وأن تشكره على ذلك كما تشكره لو بشرك بأمر تحبه، لأنه لو لم يكن يريد بك الخير لما حذرک من الوقوع في الشر.

الأصل: اللسان سبع، إن خلي عنه عقر.

الشرح: قد تقدم لنا كلام طويل في هذا المعنى.

وكان يقال: إن كان في الكلام درك ففي الصمت عافية.

وقالت الحكماء: النطق أشرف ما خص به الإنسان، لأنه صورته المعقولة التي باين بها سائر الحيوانات، ولذلك قال سبحانه: "خلق الإنسان علمه البيان"، ولم يقل: "وعلمه" بالواو لأنه سبحانه جعل قوله: "علمه البيان" تفسيراً لقوله: "خلق الإنسان ! لا عطفاً عليه، تنبيهاً على أن خلقه وتخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لارتفعت إنسانيته، ولذلك قيل: ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهمل، أو صورة مثله. وقال الشاعر:

لسان الفتى نصف ويصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

قالوا: والصمت من حيث هو صمت مذموم، وهو من صفات الجمادات، فضلاً عن الحيوانات، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام وغيره من العلماء في مدح الصمت محمول على من يسيء الكلام فيقع منه جنايات عظيمة في أمور الدين والدنيا، كما روي في الخبر. "إن الإنسان إذا أصبح قالت أعضاؤه للسانه: اتق الله فينا، فإنك إن استقمتم نجونا، وإن زغت

هلكننا"، فأما إذا اعتبر النطق والصمت بذاتيهما فقط، فمحال أن يقال في الصمت فضل، فضلاً عن أن يخاير ويقايس بينه وبين الكلام.

الأصل: المرأة عقرب حلوة اللسبة.

الشرح: اللسبة: اللسعة، لسبته العقرب بالفتح: لسعته. ولسبت العسل بالكسر، أي لعقته.

وقيل لسقراط: أي السباع أجسر؟ قال: المرأة.

ونظر حكيم إلى امرأة مصلوبة على شجرة، فقال: ليت كل شجرة تحمل مثل هذه الثمرة.

مرت بسقراط امرأة وهي تتشوف، فقالت: يا شيخ، ما أقبحك؟ فقال: لولا أنك من المرايا الصدئة لغمني ما بان من قبح صورتني فيك.

ورأى بعضهم مؤدباً يعلم جارية الكتابة، فقال: لا تزدد الشر شراً، إنما تسقي سهماً سماً لترمي به يوماً ما.

ورأى بعضهم جارية تحمل ناراً، فقال: نار على نار، والحامل شر من المحمول.

وتزوج بعضهم امرأة نحيفة، ف قيل له في ذلك، فقال: اخترت من الشر أقله.

كتب فيلسوف على بابهِ: ما دخل هذا المنزل شر قط، فقال له بعضهم: اكتب: "إلا المرأة".

ورأى بعضهم امرأة غريقة في الماء، فقال: زادت الكدر كدراً، والشر بالشر يهلك.

وفي الحديث المرفوع: استعينوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر.

وفي كلام الحكماء: اعص هواك والنساء، وافعل ما شئت.

دعا بعضهم لصاحبه، فقال: أ مات الله عدوك. فقال: لو قلت: زوج الله عدوك، لكان أبلغ في الانتقام! ومن الكنايات المشهورة عنهن: "سلاح إبليس".

وفي الحديث المرفوع: "إنهن ناقصات عقل ودين".

وقد تقدم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكتاب ما هو شرح وإيضاح لهذا المعنى.

وجاء في الحديث أيضاً: "شاوروهن وخالفوهن".

وفي الحديث أيضاً: "النساء حبائل الشيطان".

وفي الحديث أيضاً: "ما تركت بعدي فتنة أضر من النساء على الرجال".

وفي الحديث أيضاً: "المرأة ضلع عوجاء إن داريتها استمتعت بها، وإن رمت تقويمها كسرتها." وقال الشاعر في هذا المعنى:

ألا إن تقويم الضلوع انكسارها

أليس عجيباً ضعفها واقتدارها؟

هي الضلع العوجاء لست تقيمها

أيجمعن ضعفاً واقتداراً على الفتى

ومن كلام بعض الحكماء: ليس ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة إلا بعد موتها.

وفي الأمثال: لا تحمدن أمة عام شرائها، ولا حرة عام بنائها.

ومن كلام عبد الله المأمون: إنهن شر كلهن، وشر ما فيهن ألا غنى عنهن.

وقال بعض السلف: إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، لأن الله تعالى ذكر الشيطان، فقال: "إن كيد الشيطان كان ضعيفاً".

وذكر النساء فقال: "إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم".

وكان يقال: من الفواق امرأة سوء إن حضرتهما لسبتك، وإن غبت عنها لم تأمنها.

وقال حكيم: أضر الأشياء بالمال والنفس والدين والعقل والعرض شدة الإغرام بالنساء، ومن أعظم ما يتلى به المغرم بهن أنه لا يقتصر على ما عنده منهن ولو كن ألفاً، ويطمح إلى ما ليس له منهن.

وقال بعض الحكماء: من يحصي مساوئ النساء! اجتمع فيهن نجاسة الحيض والاستحاضة، ودم النفاس، ونقص العقل والدين، وترك الصوم والصلاة في كثير من أيام العمر، ليست عليهن جماعة ولا جمعة، ولا يسلم عليهن، ولا يكون منهن إمام ولا قاض ولا أمير ولا يسافرن إلا بولي.

وكان يقال: ما نهيت امرأة عن أمر إلا أتته.

وفي هذا المعنى يقول طفيل الغنوي:

هن المرار وبعض المر مأكول

إن النساء كأشجار نبتن معاً

فإنه واجب لا بد مفعول

إن النساء متى ينهين عن خلق

الأصل: إذا حييت بتحية فحي بأحسن منها، وإذا أسديت إليك يد فكافئها بما يربي عليها، والفضل مع ذلك للباديء.

الشرح: اللفظة الأولى من القرآن العزيز، والثانية تتضمن معنى مشهوراً.

وقوله: "والفضل مع ذلك للباديء"، يقال في الكرم والحث على فعل الخير.

وروى المدائني، قال: قدم على أسد بن عبد الله القشيري بخراسان رجل، فدخل مع الناس، فقال أصلح الله الأمير! إن لي

عندك يداً، قال: وما يدك؟ قال: أخذت بركابك يوم كذا قال: صدقت، حاجتك، قال: توليني أبيورد، قال: لم؟ قال:

لأكسب مائة ألف درهم، قال: فإننا قد أمرنا لك بها الساعة، فنكون قد بلغناك ما تحب، وأقررنا صاحبنا على عمله، قال:

أصلح الله الأمير! إنك لم تقض ذمامي، قال: ولم؟ وقد أعطيتك ما أملت؟ قال: فأين الإمارة؟ وأين حب الأمر والنهي!

قال: قد وليتك أبيورد، وسوغت لك ما أمرت لك به، وأعفيتك من المحاسبة إن صرفتك عنها، قال: ولم تصرفني عنها

ولا يكون الصرف إلا من عجز أو خيانة، وأنا بريء منهما؟ قال: اذهب فأنت أميرها ما دامت لنا خراسان، فلم يزل

أميراً على أبيورد حتى عزل أسد.

قال المدائني: وجاء رجل إلى نصر بن سيار يذكر قرابة، قال: وما قرابتك؟ قال: ولدتي وإياك فلانة! قال نصر: قرابة

عورة، قال: إن العورة كالشن البالي، يرفعه أهله فيتنفعون به، قال: حاجتك، قال: مائة ناقة لاقح، ومائة نعجة ربي - أي

معها أولادها - قال: أما النعاج فخذها، وأما النوق فنأمر لك بأثمائها.

وروى الشعبي، قال: حضرت مجلس زياد وحضره رجل فقال: أيها الأمير، إن لي حرمة أفأذكرها؟ قال: هاتهما، قال:

رأيتك بالطائف وأنت غليم ذو ذؤابة، وقد أحاطت بك جماعة من الغلمان، وأنت تركض هذا مرةً برجلك، وتنطح هذا

مرةً برأسك، وتكدم مرةً بأنيابك، فكانوا مرةً ينثالون عليك، وهذه حالهم، ومرة يندون عنك وأنت تتبعهم، حتى كاثروك واستقوا عليك، فجئت حتى أخرجتك من بينهم وأنت سليم وكلهم جريح، قال: صدقت، أنت ذاك الرجل! قال: أنا ذاك، قال حاجتك، قال: الغنى عن الطلب، قال: يا غلام، أعطه كل صفراء وبيضاء عندك، فنظر فإذا قيمة كل ما يملك ذلك اليوم من الذهب والفضة أربعة وخمسون ألف درهم. فأخذها وانصرف، فقيل له بعد ذلك: أنت رأيت زياداً وهو غلام بذلك الحال؟ قال: أي والله، لقد رأيته وقد اكتنفه صبيان صغيران كأنهما من سخال المعز، فلولا أي أدركته لظننت أنهما يأتیان على نفسه.

وجاء رجل إلى معاوية وهو في مجلس العامة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي حرمة قال: وما هي؟ قال: دنوت من ركابك يوم صفين، وقد قربت فرسك لتفر، وأهل العراق قد رأوا الفتح والظفر، فقلت لك: والله لو كانت هند بنت عتبة مكانك ما فرت ولا اختارت إلا أن تموت كريمة أو تعيش حميدة، أين تفر وقد قلدتك العرب أزمة أمورها، وأعطتك قياد أعنتها! فقلت لي: اخفض صوتك لا أم لك! ثم تماسكت وثبت وثابت إليك حماتك، وتمثلت حينئذ بشعر أحفظ منه:

مكانك تحمدي أو تستريحي

وقولي كلما جشأت وجاشت

فقال معاوية: صدقت، وددت أنك الآن أيضاً خفضت من صوتك، يا غلام أعطه خمسين ألف درهم، فلو كنت أحسنت في الأدب لأحسنا لك في الزيادة.

الأصل: الشفيح جناح الطالب.

الشرح: جاء في الحديث مرفوعاً: "اشفعوا إلي تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء".

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي لما عفا عنه: إن أعظم يداً عندك من عفوي عنك أي لم أجرك مرارة امتنان الشافعين.

ومن كلام قابوس بن وشمكير: بزند الشفيح توري نار النجاح، ومن كف المفيض ينتظر فوز القداح.

قال المبرد: أتاني رجل يستشفع بي في حاجة، فأنشدني لنفسه:

ولا بقربي، ولكن قد فشت نعمك

إنني قصدتك لا أدلي بمعرفة

ذل الغريب ويغشيني الكرى كرمك

فبت حيران مكروباً يؤرقني

به يداك ولا انقادت له شيمك

ولو هممت بغير العرف ما علقت

فاحتل لتثيبتها لا زلزلت قدمك

مازلت أنكب حتى زلزلت قدمي

قال: فشفعت له وقمت بأمره حتى بلغت له ما أحب.

بزرجمهر: من لم يستغن بنفسه عن شفيعه ووسائله وهت قوى أسبابه، وكان إلى الحرمان أقرب منه إلى بلوغ المراد.

ومثله: من لم يرغب أوداؤه في اجتنابه لم يحظ بمدح شفعائه. ومثله: إذا زرت الملوك فإن حسي شفيعاً عندهم أن يعرفوني.

كلم الأحنف مصعب بن الزبير في قوم حبسهم، فقال: أصلح الله الأمير! إن كان هؤلاء حبسوا في باطل فالحق يخرجهم،

وإن كانوا حبسوا في حق فالعفو يسعهم، فأمر بإخراجهم.

آخر:

إذا أنت لم تعطفك إلا شفاععة

فلا خير في ود يكون بشافع

خرج العطاء في أيام المنصور، وأقام الشقراي - من ولد شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ببابه أياماً لا يصل إليه عطاؤه، فخرج جعفر بن محمد من عند المنصور، فقام الشقراي إليه، فذكر له حاجته، فرحب به، ثم دخل ثانياً إلى المنصور، وخرج وعطاء الشقراي في كفه فصبه في كفه ثم قال: يا شقران، إن الحسن من كل أحد حسن، وإنه منك أحسن لمكانك منا، وإن القبيح من كل أحد قبيح، وهو منك أقبح لمكانك منا. فاستحسن الناس ما قاله، وذلك لأن الشقراي كان صاحب شراب. قالوا: فانظر كيف أحسن السعي في استنجاز طلبته، وكيف رحب به وأكرمه مع معرفته بحاله، وكيف وعظه ونهاه عن المنكر على وجه التعريض! قال الرمخشري: وما هو إلا من أخلاق الأنبياء. كتب سعيد بن حميد شفاععة لرجل: كتابي هذا كتاب معتن بمن كتب له، واثق بمن كتب إليه، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية إن شاء الله.

أبو الطيب:

إذا عرضت حاج إليه فنفسه

إلى نفسه فيها شفيع مشفع

خبر محمد بن جعفر مع المنصور كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبيد الله بن العباس، وكان الناس لعظم قدره عند المنصور يفزعون إليه في الشفاعات وقضاء الحاجات، فنقل ذلك على المنصور فحجبه مدة، ثم تتبعته نفسه، فحدث الربيع فيه، وقال: إنه لا صبر لي عنه لكي قد ذكرت شفاعاته، فقال الربيع: أنا أشرت ألا يعود، فكلمه الربيع، فقال: نعم، فمكث أياماً لا يشفع، ثم وقف له قوم من قريش وغيرهم برقاع وهو يريد دار المنصور، فسأله أن يأخذ رقاعهم، فقص عليهم القصة، فضرعوا إليه وسألوه، فقال أما إذا أبيت قبول العذر فإني لا أقبضها منكم، ولكن هلموا فاجعلوها في كمي، فقذفوها في كفه، ودخل على المنصور وهو في الخضراء يشرف على مدينة السلام وما حولها بين البساتين والضياع، فقال: أما ترى إلى حسننها! قال: بلى يا أمير المؤمنين، فبارك الله لك فيما آتاك، وهنأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك! فما بنت العرب في دولة الإسلام، ولا العجم في سالف الأيام، أحسن ولا أحسن من مدينتك، ولكن سمجتها في عيني خصلة، قال: ما هي؟ قال: ليس لي فيها ضيعة، فضحك وقال: نحسنها في عينك، ثلاث ضياع قد أقطعتكها، فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد، كريم المصادر، فجعل الله باقي عمرك أكثر من ماضيه، وجعلت الرقاع تبدر من كمي في أثناء كلامه وخطابه للمنصور، وهو يلتفت إليها ويقول: ارجعن خاسئات، ثم يعود إلى حديثه، فقال المنصور: ما هذه بحقي عليك؟ ألا أعلمتني خبرها! فأعلمه، فضحك فقال: أبيت يا بن معلم الخير إلا كرمًا! ثم تمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

لسنا وإن أحسابنا كملت

يوماً على الأحساب نتكل

نبنني كما كانت أوائلنا

تبنني ونفعل مثل ما فعلوا

ثم أخذها وتصفحها ووقع فيها كلها بما طلب أصحابها.

قال محمد بن جعفر: فخرجت من عنده وقد رجحت وأربحت.

قال الميرد لعبد الله بن يحيى بن خاقان: أنا أشفع إليك أصلحك الله في أمر فلان، فقال له: قد سمعت وأطعت، وسأفعل في أمره كذا، فما كان من نقص فعلي، وما كان من زيادة فله، قال الميرد: أنت - أطل الله بقاءك - كما قال زهير:

أجاءته المخافة والرجاء

وجار سار معتمداً إلينا

علينا نقصه وله النماء

ضمننا ماله فغدا سليماً

وقال دعبل:

إليه ويرجو الشكر مني لأحمق

وإن امرأ السدى إلي بشافع

يصونك عن مكروها وهو يخلق

شفيحك يا شكر الحوائج إنه

آخر:

فهل لي إلى ليلى الغداة شفيح!

مضى زمني والناس يستشفعون بي

آخر:

إلي، فهلا نفس ليلى شفيحها!

ونبتت ليلى أرسلت بشفاعة

به الجاه، أم كنت امرأ لا أطيعها!

أكرم من ليلى علي فتبتغي

آخر:

شفيحاً له عند الخليفة ينجح

ومن يكن الفضل بن يحيى بن خالد

آخر:

من جاهه، فكأنها من ماله

وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعاً

وهذا مثل قول الآخر:

ت عناية فيه عطاؤك

وعطاء غيرك إن بذل

ابن الرومي:

إذا أيقظ الملهوف مثلك ناما

ينام الذي استسعاك في الأمر إنه

وجردت للجلي فكنت حساما

كفى العود منك البدء في كل موقف

ولم أرث من هز وكنت كهاما!

فمالك تنبو في يدي عن ضريبتي

الأصل: أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام.

الشرح: هذا التشبيه واقع وهو صورة الحال لا محالة.

وقد أتيت بهذا المعنى في رسالة لي كتبتها إلى بعض الأصدقاء تعزيةً، فقلت: "ولو تأمل الناس أحوالهم، وتبينوا مآلهم،

لعلموا أن المقيم منهم بوطنه، والساكن إلى سكنه، أخو سفر يسرى به وهو لا يسري، وراكب بحر يجرى به وهو لا يدري " .

الأصل: فقد الأحبة غربة.

الشرح: مثل هذا قول الشاعر:

ولكن من تتأين عنه غريب

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى

ومثله قوله عليه السلام: "الغريب من ليس له حبيب " .

وقال الشاعر:

بين حضنهما الحياة تطيب

أسرة المر والداه وفيما

فهو في الناس أجنبي غريب

وإذا وليا عن المرء يوماً

وقال آخر:

وخلفت في قرن فأنت غريب

إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهم

الأصل: فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها.

الشرح: قد سبق هذا المعنى، وذكرنا كثيراً مما قيل فيه.

وكان يقال: لا تطلبوا الحوائج إلى ثلاثة: إلى عبد يقول: الأمر إلى غيري، وإلى رجل حديث الغنى، وإلى تاجر همته أن يستريح في كل عشرين ديناراً حبة واحدة.

الأصل: لا تستح من إعطاء القليل، فإن الحرمان أقل منه.

الشرح: هذا نوع من الحث على الإفضال والجود لطيف، وقد استعمل كثيراً في الهدية والاعتذار لقلتها، وقد تقدم منا قول شاف في مدح السخاء والجود.

وكان يقال: أفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره.

وسئل أرسطو: هل من جود يستطيع أن يتناول به كل أحد؟ قال: نعم، أن تنوي الخير لكل أحد.

الأصل: العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى.

الشرح: من الأبيات المشهورة:

متخشعاً وتجمل

فإذا افتقرت فلا تكن

ومن أمثالهم المشهورة: "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

وأنشد الأصمعي لبعضهم:

وشرب ماء القلب المالحه

أقسم بالله لمص النوى

ومن سؤال الأوجه الكالحه

أحسن بالإنسان من ذله

مغتبطاً بالصفقة الرابعه

فاستغن بالله تكن ذا غنى

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وقال بعضهم: وقفت على كنيف وفي أسفله كناف، وهو ينشد:

وأكرم نفسي عن أمور كثيرة
وأبخل بالفضل المبين على الألى
وما شأنني كنس الكنيف وإنما
وأقبح مما بي وقوفي مؤملاً
ألا إن إكرام النفوس من العقل
رأيتهم لا يكرمون ذوي الفضل
يشين الفتى أن يجتدي نائل النذل
نوال فتى مثلي، وأي فتى مثلي !

وأما كون الشكر زينة الغنى، فقد تقدم من القول ما هو كاف.

وكان يقال: العلم بغير عمل قول باطل، والنعمة بغير شكر جيد عاطل.

الأصل: إذا لم يكن ما تريد، فلا تبذل كيف كنت! الشرح: قد أعجم تفسير هذه الكلمة على جماعة من الناس، وقالوا: المشهور في كلام الحكماء: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون، ولا معنى لقوله: "فلا تبذل كيف كنت"! وجهلوا مراده عليه السلام.

ومراده: إذا لم يكن ما تريد فلا تبذل لذلك، أي لا تكثر بفوت فرادك ولا تبتئس بالحرمان، ولو وقف على هذا لثم الكلام وكمل المعنى، وصار هذا مثل قوله: "فلا تكثر على ما فاتك منها أسفاً"، ومثل قول الله تعالى: "لكيلا تأسوا على ما فاتكم"، لكنه تم وأكد فقال: "كيف كنت"، أي لا تبذل بفوت ما كنت أملتته، ولا تحمل لذلك همّاً كيف كنت، وعلى أي حال كنت، من حبس أو مرض أو فقر أو فقد حبيب، وعلى الجملة، لا تبذل الدهر، ولا تكثر بما يعكس عليك من غرضك، ويحرمك من أملك؟ وليكن هذا الإهوان به والاحتقار له مما تعتمد دائماً على أي حال أفضى بك الدهر إليها. وهذا واضح.

الأصل: لا يرى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرطاً.

الشرح: العدالة هي الخلق المتوسط، وهو محمود بين مذمومين، فالشجاعة مخوفة بالتهور والجبن، والذكاء بالغباوة والجربرة، والجود بالشح والتبذير، والحلم بالجمادية والاستشاطعة، وعلى هذا كل ضدين من الأخلاق فيبينهما خلق متوسط، وهو المسمى بالعدالة، فلذلك لا يرى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرطاً، كصاحب الغيرة، فهو إما أن يفرط فيها، فيخرج عن القانون الصحيح فيغار لا من موجب، بل بالوهم وبالخيال وبالوسواس، وإما أن يفرط فلا يبحث عن حال نسائه ولا يبالي ما صنعن، وكلا الأمرين مذموم، والمحمود الاعتدال.

ومن كلام بعض الحكماء: إذا صح العقل التحم بالأدب كالتحام الطعام بالجسد الصحيح، وإذا مرض العقل نبا عنه ما يستمتع من الأدب كما يقيء الممعد ما أكل من الطعام فلو أثر الجاهل أن يتعلم شيئاً من الأدب لتحول ذلك الأدب جهلاً، كما يتحول ما خالط جوف المريض من طيب الطعام داءً.

الأصل: إذا تم العقل نقص الكلام.

الشرح: قد سبق القول في هذا المعنى.

وكان يقال: إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس، فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة.

الأصل: الدهر يخلق الأبدان، ويجدد الآمال، ويقرب المنية، ويباعد الأمنية. من ظفر به نصب، ومن فاته تعب.

الشرح: قد سبق لنا قول طويل عريض في ذكر الدهر والدنيا، ونذكر الآن شيئاً آخر، قال بعض الحكماء: الدنيا تسر لتغر، وتفيد لتكيد، كم راقد في ظلها قد أيقظته، وواثق بما قد خذلته، بهذا الخلق عرفت، وعلى هذا الشرط صوحت. وكتب الإسكندر إلى أرسطوطاليس: عظمي، فكتب إليه: إذا صفت لك السلامة فجدد ذكر العطب، وإذا اطمأن بك الأمن فاستشعر الخوف، وإذا بلغت نهاية الأمل فاذكر الموت، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لها نصيباً في الإساءة، وقال شاعر فأحسن:

ولم تر بالباقيين ما صنع الدهر

عفاها محال الريح بعدك والقطر

على الدهر إلا بالعراء له قبر

ولكن ما قدمت من صالح وفر

سوى الفقر يا بؤسى لمن زاده الفقر !

وحتام لا ينجاب عن قلبك السكر !

وتذكر قولي حين لا ينفع الذكر

إذا انتصح الأقوام أنفسهم عمر

وما هو إلا وقتك الضيق النزر

فعما قليل بعدها يحمد الصبر

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى

فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم

وهل أبصرت عينك حياً بمنزل

فلا تحسبن الوفر مالاً جمعته

مضى جامعوا الأموال لم يتزودوا

فحتام لا تصحو وقد قرب المدى

بلى لسوف تصحو حين ينكشف الغطا

وما بين ميلاد الفتى ووفاته

لأن الذي يأتيه شبه الذي مضى

فصبراً على الأيام حتى تجوزها

الأصل: من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم.

الشرح: الفروع تابعة للأصول، فإذا كان الأصل معوجاً استحال أن يكون الفرع مستقيماً، كما قال صاحب المثل: وهل يستقيم الظل والعود أعوج "، فمن نصب نفسه للناس إماماً، ولم يكن قد علم نفسه ما انتصب ليعلّمه الناس، كان مثل من نصب نفسه ليعلّم الناس الصياغة، والنجارة، وهو لا يحسن أن يصوغ خائماً، ولا ينجر لوحاً، وهذا نوع من السفه، بل هو السفه كله، ثم قال عليه السلام: وينبغي أن يكون تأديبه لهم بفعله وسيرته قبل تأديبه لهم بلسانه، وذلك لأن الفعل أدل على حال الإنسان من القول.

ثم قال: ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم، وهذا حق، لأن من علم نفسه محاسن الأخلاق أعظم قدراً ممن تعاطى تعليم الناس ذلك وهو غير عامل بشيء منه، فأما من علم نفسه وعلم الناس فهو أفضل وأجل ممن

اقتصر على تعليم نفسه فقط لا شبهة في ذلك.

الأصل: نفس المرء خطاه إلى أجله.

الشرح: وجدت هذه الكلمة منسوبة إلى عبد الله بن المعتز في فصل أوله: "الناس وفد البلاء، وسكان الثرى، وأنفاس الحي خطاه إلى أجله، وأمله خادع له عن عمله، والدنيا أكذب وأعديه، والنفس أقرب أعاديته، والموت ناظر إليه، ومنتظر فيه أمراً يمضيه، فلا أدري هل هي لاین المعتز، أم أخذها من أمير المؤمنين عليه السلام! والظاهر أنها لأمر المؤمنين عليه السلام، فإنها بكلامه أشبه، ولأن الرضي قد رواها عنه، وخبر العدل معمول به.

الأصل: كل معدود منقوض، وكل متوقع آت.

الشرح: الكلمة الأولى تؤكد مذهب جمهور المتكلمين في أن العالم كله لا بد أن ينقضي ويفنى، ولكن المتكلمين الذاهبين إلى هذا القول لا يقولون: يجب أن يكون فانياً ومنقضياً لأنه معدود، فإن ذلك لا يلزم، ومن الجائز أن يكون معدوداً ولا يجب فناؤه، ولهذا قال أصحابنا، إنما علمنا أن العالم يفنى عن طريق السمع لا من طريق العقل، فيجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يطابق ذلك، وهو أنه ليس يعني أن العدد علة في وجوب الانقضاء، كما يشعر به ظاهر لفظه، وهو الذي يسميه أصحاب أصول الفقه إيماء، وإنما مراده كل معدود فاعلموا أنه فان ومنقوض، فقد حكم على كل معدود بالانقضاء حكماً مجرداً عن العلة، كما لو قيل: زيد قائم، ليس يعني أنه قائم، لأنه يسمى زيداً. فأما قوله: "وكل متوقع آت" فيماثله قول العامة في أمثالها: "لو انتظرت القيامة لقامت"، والقول في نفسه حق، لأن العقلاء لا ينتظرون ما يستحيل وقوعه، وإنما ينتظرون ما يمكن وقوعه، وما لا بد من وقوعه، لقد صح أن كل منتظر سيأتي.

الأصل: إن الأمور إذا اشتبهت اعتبر آخرها بأولها.

الشرح: روي: "إذا اشتبهت"، والمعنى واحد وهو حق، وذلك أن المقدمات تدل على النتائج، والأسباب تدل على المسببات، وطالما كان الشيطان ليساً علةً ومعلولاً، وإنما بينهما أدنى تناسب، فيستدل بحال أحدهما على حال الآخر، وإذا كان كذلك واشتبهت أمور على العاقل الفطن ولم يعلم إلى ماذا تقول، فإنه يستدل على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفواتحها، كالرعية ذات السلطان الركيك الضعيف السياسة، إذا ابتدأت أمور مملكته تضطرب، واشتبهت على العاقل كيف يكون الحال في المستقبل، فإنه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها، ويعلم أنه سيفضي أمر ذلك البلد إلى انتشار واخلال في مستقبل الوقت، لأن الحركات الأولى منذرة بذلك، وواعدة بوقوعه، وهذا واضح.

الأصل: ومن خبر ضرار بن ضمير الضابي عند دخوله على معاوية، ومسأله له عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تلمل السليم، ويكي بكاء الحزين، وهو يقول: يا دنيا يا دنيا إليك عني، أي تعرضت، أم إلي تشوفت! لا حان حينك، هيهات، غري غري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً، لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير. آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد! الشرح: السدول: جمع سديل، وهو ما أسدل على الهودج، ويجوز في جمعه أيضاً السدال وسدائل، وهو ههنا استعارة. والتلمل والتملل أيضاً، عدم الاستقرار من المرض، كأنه على ملة، وهي الرماد

الحار.

والسليم: الملسوع.

ويروى: "تشوقت" بالقاف.

وقوله: "لا حان حينك"، دعاء عليها، أي لا حضر وقتك، كما تقول: لا كنت.

فأما ضرار بن ضمرة، فإن الرياشي روى خبره، ونقلته أنا من كتب عبد الله بن إسماعيل بن أحمد الحلبي في "التذيل على نهج البلاغة"، قال: دخل ضرار على معاوية- وكان ضرار من صحابة علي عليه السلام- فقال له معاوية: يا ضرار، صف لي علياً، قال: أو تعفيني! قال: لا أعفيك، قال: ما أصف منه! كان والله شديد القوى، بعيد المدى، يتفجر العلم من أنحائه، والحكمة من أرجائه، حسن المعاشرة، سهل المباشرة، خشن المأكل، قصير الملبس، غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، وكان فينا كأحدنا، يجيئنا إذا سألنا، ويبتدئنا إذا سكتنا، ونحن مع تقريره لنا أشد ما يكون صاحب لصاحب هبة، لا نبتدئه الكلام لعظمته، يحب المساكين، ويقرب أهل الدين، وأشهد لقد رأيته في بعض موافقه... وتمام الكلام مذكور في الكتاب.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب "الاستيعاب" هذا الخبر، فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن يوسف، قال: حدثنا يحيى بن مالك بن عائد، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد، بن مقله البغدادي بمصر. وحدثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، قال: حدثنا العكلي، عن الحرمازي، عن رجل من همدان، قال: قال معاوية لضرار الضبائي: يا ضرار صف لي علياً، قال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفه، قال: أما إذ لا بد من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. كان فينا كأحدنا، يجيئنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استفتيناه، ونحن والله مع تقريره إيانا، وقربه منا، لا نكاد نكلمه هبة له. يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا يبأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض موافقه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تملل السليم، ويكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غري غيري، أبي تعرضت! أم إلي تشوقت! هيهات هيهات! قد بايتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير! آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق! فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا حسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها في حجرها.

ومن كلامه عليه السلام للسائل الشامي لما سأل: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره؟ بعد كلام طويل هذا مختاره الأصل: ويحك! لعلك ظننت قضاءً لازماً، وقدرًا حاتماً! لو كان ذلك كذلك، لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم يزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، "وذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار".

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

الشرح: قد ذكر شيخنا أبو الحسين رحمه الله هذا الخبر في كتاب "الغرر" ورواه عن الأصمغ بن نباتة، قال: قام شيخ إلى علي عليه السلام فقال: أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام، أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما وطننا موطناً، ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره. فقال الشيخ: فعند الله أحسب عنائي! ما أرى لي من الأجر شيئاً! فقال: مه أيها الشيخ، لقد عظم الله أجركم لا مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين. فقال الشيخ: وكيف القضاء والقدر ساقانا؟ فقال!: ويحك! لعلك ظننت قضاءً لازماً، وقدرًا حتمًا! لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولم تأت لائمة من الله للذنوب، ولا محمداً لحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمديح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة عباد الأوثان، وجنود الشيطان، وشهود الزور، وأهل العمى عن الصواب، وهم قدرية هذه الأمة وبجوسها، إن الله سبحانه أمر تخيراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، "ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار"، فقال الشيخ: فما القضاء والقدر للذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال: هو الأمر من الله والحكم، ثم تلا قوله سبحانه: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه"، فنهض الشيخ مسروراً وهو يقول:

يوم النشور من الرحمن رضوانا

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته

جزاك ربك عنا فيه إحسانا

أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً

ذكر ذلك أبو الحسين في بيان أن القضاء والقدر قد يكون بمعنى الحكم والأمر، وأنه من الألفاظ المشتركة. الأصل: خذ الحكمة أنى كانت، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبه في صدر المؤمن.

قال الرضي رحمه الله تعالى - وقد قال علي عليه السلام في مثل ذلك: الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق.

الشرح: خطب الحجاج فقال: إن الله أمرنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤونة الدنيا، فليتنا كفيها مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا! فسمعها الحسن فقال: هذه ضالة المؤمن خرجت من قلب المنافق.

وكان سفيان الثوري يعجبه كلام أبي حمزة الخارجي ويقول: ضالة المؤمن على لسان المنافق، تقوى الله أكرم سريرة، وأفضل ذخيرة، منها ثقة الواصل، وعليها مقة الوامق. ليعمل كل امرئ في مكان نفسه وهو رخي اللب، طويل السبب، ليعرف ممد يده، وموضع قدمه، وليحذر الزلل، والعلل المانعة من العمل. رحم الله عبداً أثر التقوى، واستشعر شعارها، واجتنى ثمارها، باع دار البقاء بدار الآباد، الدنيا كروضة يونق مرعاها، وتعجب من رآها. تمج عروقه الثرى، وتنطف فروعها بالندى، حتى إذا بلغ العشب إناءه، وانتهى الزبرج منتهاه، ضعف العمود، وذوى العود، وتولى من الزمان ما لا يعود، فحتت الرياح الورق، وفرقت ما كان اتسق، فأصبحت هشيماً، وأمست رميمًا.

الأصل: قيمة كل امرئ ما يحسنه.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذه الكلمة التي لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة.

الشرح: قد سلف لنا في فضل العلم أقوال شافية، ونحن نذكر ههنا نكتاً أخرى.

يقال: إن من كلام أردشير بن بابك في رسالته إلى أبناء الملوك: بحسبكم دلالة على فضل العلم أنه ممدوح بكل لسان، يتزين به غير أهله، ويدعيه من لا يلصق به. قال: وبحسبكم دلالة على عيب الجهل أن كل أحد ينتفي منه، ويغضب أن يسمى به.

وقيل لأنوشروان: ما بالكم لا تستفيدون من العلم شيئاً إلا زادكم ذلك عليه حرصاً؟ قال: لأننا لا نستفيد منه شيئاً إلا ازددنا به رفعةً وعزاً. وقيل له: ما بالكم لا تأنفون من التعلم من كل أحد؟ قال: لعلنا بأن العلم نافع من حيث أخذ. وقيل ليزرجهر: بم أدركت ما أدركت من العلم؟ قال: بيبكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنزير، وصبر كصبر الحمار.

وقيل له: العلم أفضل أم المال؟ فقال: العلم، قيل: فما بالناس نرى أهل العلم على أبواب أهل المال أكثر مما نرى أصحاب الأموال على أبواب العلماء! قال: ذاك أيضاً عائد إلى العلم والجهل، وإنما كان كما رأيتم، لعلم العلماء بالحاجة إلى المال، وجهل أصحاب المال بفضيلة العلم. وقال الشاعر:

وليس أخو علم كمن هو جاهل

تعلم فليس المرء يخلق عالماً

صغير إذا التفت عليه المحافل

وإن كبير القوم لا علم عنده

الأصل: أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً: لا يرجون أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، وعليكم بالصبر، فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا خير في إيمان لا صبر معه. الشرح: قد تقدم الكلام في جميع الحكم المنظوي عليها هذا الفصل، وقال أبو العتاهية:

ك ولا أخاف سوى ذنوبي

والله لا أرجو سوا

م فأنت ستار العيوب

فاغفر ذنوبي يا رحي

وكان يقال: من استحيا من قول: "لا أدري" كان كمن يستحي من كشف ركبته، ثم يكشف سوءته، وذلك لأن من امتنع من قول: "لا أدري" وأجاب بالجهل والخطأ فقد واقع ما يجب في الحقيقة أن يستحيا منه، وكف عما ليس بواجب أن يستحيا منه، فكان شبيهاً بما ذكرنا في الركبة والعورة. وكان يقال يحسن بالإنسان التعلم ما دام يقبح منه الجهل، وكما يقبح منه الجهل ما دام حياً كذلك يحسن به التعلم ما دام حياً.

وأما الصبر فقد سبق فيه كلام مقنع، وسيأتي فيما بعد جملة من ذلك.

الأصل: وقال عليه السلام لرجل أفرط في الثناء عليه - وكان له متهماً: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك.

الشرح: قد سبق منا قول مقنع في كراهية مدح الإنسان في وجهه.

وكان عمر جالساً وعنده الدرة، إذ أقبل الجارود العبدى، فقال رجل: هذا الجارود سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين! قال: ما لي ولك! أما لقد سمعتها، قال: وما سمعتها فمه! قال: ليخالطن قلبك منها شيء، وأنا أحب أن أطأطأ منك.

وقالت الحكماء: إنه يحدث للممدوح في وجهه أمران مهلكان: أحدهما الإعجاب بنفسه. والثاني إذا أثني عليه بالدين أو العلم فتر وقل اجتهاده، ورضي عن نفسه، ونقص تشميره وجده في طلب العلم والدين، فإنه إنما يتشمر من رأى نفسه مقصراً فأما من أطلقت الألسن بالثناء عليه، فإنه يظن أنه قد وصل وأدرك، فيقل اجتهاده، ويتكل على ما قد حصل له عند الناس، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن مدح إنساناً كاد يسمعه: "ويحك! قطعت عنق صاحبك، لو سمعها لما أفلح".

فأما قوله عليه السلام: "وفوق ما في نفسك"، فإنه إنما أراد أن ينبهه على أنه قد عرف أنه كان يقع فيه، وينحرف عنه، وإنما أراد تعريفه ذلك لما رآه من المصلحة، إما لظنه أنه يقلع عما كان يذمه به، أو ليعلمه بتعريفه أنه قد عرف ذلك، أو ليخوفه ويزجره، أو لغير ذلك.

الأصل: بقية السيف أئمنى عدداً، وأكثر ولداً.

الشرح: قال شيخنا أبو عثمان: ليته لما ذكر الحكم ذكر العلة! ثم قال: قد وجدنا مصداق قوله في أولاده وأولاد الزبير وبني المهلب وأمثالهم ممن أسرع القتل فيهم.

وأبي زياد بامرأة من الخوارج فقال لها: أما والله لأحصدنكم حصداً، لأفنينكم عدداً، فقالت: كلا إن القتل ليزرعنا، فلما هم بقتلها تسترت بثوبها، فقال: اهتكوا سترها لحاها الله! فقالت: إن الله لا يهتك ستر أوليائه، ولكن التي هتك سترها على يد ابنها سمية، فقال: عجلوا قتلها أبعداها الله! فقتلت.

الأصل: من ترك قول: "لا أدري" أصيبت مقاتله.

الشرح: جاءت امرأة إلى بزرجمهر، فسألته عن مسألة فقال: لا أدري، فقالت: أيعطيك الملك كل سنة كذا وكذا وتقول: لا أدري؟ فقال: إنما يعطيني الملك على ما أدري.

ولو أعطاني على ما لا أدري لما كفاني بيت ماله.

وكان يقول: قول "لا أعلم" نصف العلم.

وقال بعض الفضلاء: إذا قال لنا إنسان، "لا أدري" علمناه حتى يدري، وإن قال: أدري، امتحناه حتى لا يدري.

الأصل: رأي الشيخ أحب إلي من جلد الغلام.

ويروى: "من مشهد الغلام".

الشرح: إنما قال كذلك لأن الشيخ كثير التجربة، فيبلغ من العدو برأيه ما لا يبلغ بشجاعته الغلام الحدث غير الحرب، لأنه قد يغرر بنفسه فيهلك ويهلك أصحابه، ولا ريب أن الرأي مقدم على الشجاعة، ولذلك قال أبو الطيب:

الرأي قبل شجاعة الشجعان
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة
ولربما طعن الفتى أقرانه
لولا العقول لكان أدنى ضيغم
هو أول وهي المحل الثاني
بلغت من العلياء كل مكان
بالرأي قبل تطاعن الأقران
أدق إلى شرف من الإنسان
أيدي الكمأة عوالي المران
ولما تفاضلت الرجال ودبرت

ومن وصايا أبرويز إلى ابنه شيرويه: لا تستعمل على جيشك غلاماً غمراً ترفاً، قد كثر إعجابه بنفسه، وقلت تجاربه في غيره، ولا هرمًا كبيراً مدبراً قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذت السن من جسمه، وعليك بالكهول ذوي الرأي! وقال لقيط بن يعمر الإيادي في هذا المعنى:

وقلدوا أمركم الله دركم
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره
حتى استمر على شزر مريرته
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
ولا إذا عض مكروه به خشعا
فيكون متبعاً طوراً ومتبعاً
مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعا

الأصل: عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار.

الشرح: قالوا: الاستغفار حوارس الذنوب.

وقال بعضهم: العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحها إلا الشكر والاستغفار.

وقال الربيع بن خثعم: "لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه" فيكون ذنباً وكذباً إن لم يفعل، ولكن ليقول: اللهم اغفر لي وتب علي.

وقال الفضيل: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين.

وقيل: من قدم الاستغفار على الندم، كان مستهزئاً بالله وهو لا يعلم.

وحكى عنه أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه كان عليه السلام قال: الأصل: كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما، فدونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الأمان الباقي فلاستغفار، قال الله تعالى: "ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون". قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذا من محاسن الاستخراج، ولطائف الاستنباط.

الشرح: قال قوم من المفسرين: "وهم يستغفرون"، في موضع الحال، والمراد نفي الاستغفار عنهم، أي لو كانوا ممن يستغفرون لما عذبهم، وهذا مثل قوله تعالى: "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"، فكأنه قال: لكنهم لا يستغفرون فلا انتفاء للعذاب عنهم.

وقال قوم: معناه، وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين.

ثم قال: "وما لهم ألا يعذبهم الله"، أي ولأي سبب لا يعذبهم الله مع وجود ما يقتضي العذاب، وهو صدهم المسلمين والرسول عن البيت في عام الحديبية! وهذا يدل على أن ترتيب القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث، لأن سورة الأنفال نزلت عقيب وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وصد الرسول صلى الله عليه وسلم عن البيت كان في السنة السادسة، فكيف يجعل آية نزلت في السنة السادسة في سورة نزلت في السنة الثانية! وفي القرآن كثير من ذلك، وإنما رتبته قوم من الصحابة في أيام عثمان.

الأصل: من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس. ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دينه. ومن كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ.

الشرح: مثل الكلمة الأولى قولهم: رضا المخلوقين عنوان رضا الخالق، وجاء في الحديث المرفوع: "ما من وال رضي الله عنه إلا أرضى عنه رعيته".

ومثل الكلمة الثانية دعاء بعضهم في قوله:

أنا خائف أنا جائع أنا عار

أنا شاكر أنا مادم أنا حامد

فكن الضمين بنصفها يا باري

هي ستة وأنا الضمين بنصفها

ومثل الكلمة الثالثة قوله تعالى: "إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون".

الأصل: الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله.

الشرح: قل موضع من الكتاب العزيز يذكر فيه الوعيد إلا ويمزجه بالوعد، مثل أن يقول: "إن ربك سريع العقاب"، ثم يقول: "وإنه لغفور رحيم"، والحكمة تقتضي هذا ليكون المكلف متردداً بين الرغبة والرغبة.

ويقولون في الأمثال المرموزة: لقي موسى وهو ضاحك مستبشر عيسى وهو كالح قاطب، فقال عيسى: ما لك كأنك آمن من عذاب الله؟ فقال موسى عليه السلام: ما لك كأنك آيس من روح الله! فأوحى الله إليهما: موسى أحبكما إلي شعاراً، فإني عند حسن ظن عبدي بي.

واعلم أن أصحابنا وإن قالوا بالوعيد، فإنهم لا يؤيسون أحداً ولا يقنطونه من رحمة الله، وإنما يحثونه على التوبة، ويخوفونه إن مات من غير توبة، وبحق ما قال شيخنا أبو الهذيل: لولا مذهب الإرجاء لما عصي الله في الأرض، وهذا لا ريب فيه، فإن أكثر العصاة إنما يعولون على الرحمة، وقد اشتهر واستفاض بين الناس أن الله تعالى يرحم المذنبين، فإنه وإن كان هناك عقاب فأوقاتاً معدودة، ثم يخرجونه إلى الجنة. والنفوس تحب الشهوات العاجلة، فتتهافت الناس على المعاصي وبلوغ الشهوات والمآرب، معولين على ذلك، فلولا قول المرجئة وظهوره بين الناس لكان العصيان إما معدوماً، أو قليلاً جداً. الأصل: أوضع العلم ما وقف على اللسان، وأرفعه ما ظهر في الجوارح والأركان.

الشرح: هذا حق، لأن العالم إذا لم يظهر من علمه إلا لقلقة لسانه من غير أن تظهر منه العبادات، كان عالماً ناقصاً، فأما إذا كان يفيد الناس بألفاظه ومنطقه، ثم يشاهده الناس على قدم عظيمة من العبادة، فإن النفع يكون به عاماً تاماً، وذلك لأن الناس يقولون: لو لم يكن يعتقد حقيقة ما يقوله، لما أداها نفسه هذا الدأب.

وأما الأول فيقولون فيه: كل ما يقوله نفاق وباطل، لأنه لو كان يعتقد حقيقة ما يقول لأخذ به، ولظهر ذلك في حركاته، فيقتدون بفعله لا بقوله، فلا يشتغل أحد منهم بالعبادة ولا يهتم بها. الأصل: إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.

الشرح: لو قال: إنما تمل كما تمل الأبدان، فأحمضوا كما نقل عن غيره لحمل ذلك على أنه أراد نقلها إلى الفكاهات والأخبار والأشعار، ولكنه لم يقل ذلك، ولكن قال: "فابتغوا لها طرائف الحكمة" فوجب أن يحمل كلامه عليه السلام على أنه أراد أن القلوب تمل من الأنظار العقلية، في البراهين الكلامية على التوحيد والعدل، فابتغوا لها عند ملاحها طرائف الحكمة، أي الأمثال الحكمية الراجعة إلى الحكمة الخلقية، كما نحن ذاكره في كثير من فصول هذا الباب، مثل مدح الصبر، والشجاعة، والزهد، والعفة، وذم الغضب، والشهوة، والهوى، وما يرجع إلى سياسة الإنسان نفسه، وولده، ومثله، وصديقه، وسلطانة، ونحو ذلك، فإن هذا علم آخر وفن آخر، لا تحتاج القلوب فيه إلى فكر واستنباط، فتتعب وتكل بترادف النظر والتأمل عليها، وفيه أيضاً لذة عظيمة للنفس. وقد جاء في إجماع النفس كثير.

قال بعضهم: روحوا القلوب بروائع الذكر.

وعن سلمان الفارسي: أنا أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن نفسي راحلي، إن كلفتها فوق طاقتها انقطعت بي.

وقال بعضهم: روحوا الأذهان، كما تروحوا الأبدان.

وقال أردشير بن بابك: إن للأذان بحجة، وللقلوب ملة، ففرقوا بين الحكمتين بلهو يكن ذلك استحماماً.

الأصل: لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول: "واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة". ومعنى ذلك أنه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه، والراضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب، لأن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث، وبعضهم يحب تسمير المال، ويكره انثلام الحال.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذا من غريب ما سمع منه عليه السلام في التفسير.

الشرح: الفتنة لفظ مشترك، فتارة تطلق على الجائحة والبلية تصيب الإنسان، تقول: قد افتتن زيد وفتن فهو مفتون إذا أصابته مصيبة فذهب ماله أو عقله، أو نحو ذلك، قال تعالى: "إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات" يعني الذين عذبوهم بمكة ليرتدوا عن الإسلام، وتارة تطلق على الاختبار والامتحان، يقال: فتنن الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته. ودينار

مفتون، وتارة تطلق على الإحراق، قال تعالى: "يوم هم على النار يفتنون" وورق مفتون، أي فضة محرقة، ويقال للحرقة: فتين كأن حجارها محرقة، وتارة تطلق على الضلال، يقال رجل فاتن ومفتن أي مضل عن الحق جاء ثلاثياً ورباعياً، قال تعالى: "ما انتم عليه بفاتنين. إلا من هو صال الجحيم" أي بمضلين، وقرأ قوم "مفتنين"، فمن قال: إني أعوذ بك من الفتنة، وأراد الجائحة، أو الإحراق أو الضلال، فلا بأس بذلك، وإن أراد الاختبار والامتحان فغير جائز، لأن الله تعالى أعلم بالمصلحة، وله أن يختبر عباده لا ليعلم حالهم، بل ليعلم بعض عباده حال بعض، وعندني أن أصل اللفظة هو الاختبار والامتحان، وأن الاعتبار الأخرى راجعة إليها، وإذا تأملت علمت صحة ما ذكرناه.

الأصل: وسئل عن الخير ما هو؟ فقال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، وأن يعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله. ولا خير في الدنيا إلا لرجلين: رجل أذنب ذنباً فهو يتداركها بالتوبة، ورجل يسارع في الخيرات، ولا يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل ما يتقبل! الشرح: قد قال الشاعر لهذا المعنى:

بل السعيد الذي ينجو من النار

ليس السعيد الذي دنياه تسعده

قوله: "ولا يقل عمل مع التقوى"، أي مع اجتناب الكبائر، لأنه لو كان موقعاً لكبيرة لما تقبل منه عمل أصلاً على قول أصحابنا، فوجب أن يكون المراد بالتقوى اجتناب الكبائر، فأما مذهب المرجئة فإنهم يحملون التقوى ههنا على الإسلام، لأن المسلم عندهم يتقبل أعماله، وإن كان موقعاً للكبائر.

فإن قلت: فهل يجوز حمل لفظة "التقوى" على حقيقتها، وهي الخوف؟ قلت: لا، أما على مذهبنا فلأن من يخاف الله ويواقع الكبائر لا تتقبل أعماله، وأما مذهب المرجئة فلأن من يخاف الله من مخالفتي ملة الإسلام لا تتقبل أعماله، فثبت أنه لا يجوز حمل التقوى ههنا على الخوف.

فإن قلت: من هو مخالف لملة الإسلام لا يخاف الله لأنه لا يعرفه.

قلت: لا نسلم، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصفاته، كما نعرفه نحن، ويحدد النبوة لشبهة وقعت له فيها، فلا يلزم من جحد النبوة عدم معرفة الله تعالى.

الأصل: إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به، ثم تلا عليه السلام: ماله إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا... الآية.

ثم قال عليه السلام: إن ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته.

الشرح: هكذا الرواية "أعلمهم"، والصحيح "أعملهم"، لأن استدلاله بالآية يقتضي ذلك، وكذا قوله فيما بعد. "إن ولي محمد من أطاع الله... إلى آخر الفصل، فلم يذكر العلم، وإنما ذكر العمل. واللحمة بالضم: النسب والقرابة، وهذا مثل الحديث المرفوع، "اتوني بأعمالكم، ولا تأتوني بأنسابكم، إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وفي الحديث الصحيح: "يا فاطمة بنت محمد، إني لا أغني عنك من الله شيئاً".

وقال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام: رأيت قوله عليه السلام: "إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار،

أليس هذا أماناً لكل فاطمي في الدنيا؟ فقال: إنك لأحق، إنما أراد حسناً وحسيناً، لأنهما من لحمة أهل البيت، فأما من عداهما فمن قعد به عمله لم ينهض به نسبه.

الأصل: وسمع عليه السلام رجلاً من الحرورية يتعهد ويقرأ، فقال: نوم على يقين، خير من صلاة في شك. الشرح: هذا نهي عن التعرض للعبادة مع الجهل بالمعبود، كما يصنع اليوم كثير من الناس، ويظنون أنهم خير الناس، والعقلاء الألباء من الناس يضحكون منهم، ويستهزئون بهم، والحرورية: الخوارج، وقد سبق القول فيهم، وفي نسبتهم إلى حروراء.

يقول عليه السلام: ترك التنفل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصلية، خير من الاشتغال بالنوافل وأوراد الصلاة مع عدم العلم، وهو المعني بقوله: "في شك"، فإذا كان عدم التنفل خيراً من التنفل مع الشك فهو مع الجهل المحض - وهو الاعتقاد الفاسد - أولى بأن يكون.

الأصل: اعقلوا الخير إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل. الشرح: نهاهم عليه السلام عن أن يقتصروا إذا سمعوا منه أو من غيره أطرافاً من العلم والحكمة، على أن يرووا ذلك رواية كما يفعله اليوم المحدثون، وكما يقرأ أكثر الناس القرآن دراسة ولا يدري من معانيه إلا اليسير. وأمرهم أن يعقلوا ما يسمعون عقل رعاية أي معرفة وفهم.

ثم قال لهم: "إن رواة العلم كثير، ورعاته قليل"، أي من يراعيه ويتدبره وصدق عليه السلام! الأصل: وقال عليه السلام وقد سمع رجلاً يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فقال: إن قولنا "إنا لله" إقرار على أنفسنا بالملك، وقولنا: "وإنا إليه راجعون" إقرار على أنفسنا بالهلك.

الشرح: قوله إنا لله اعتراف بأنا مملوكون لله وعبيد له، لأن هذه اللام لام التملك، كما تقول: الدار لزيد، فأما قوله: "وإنا إليه راجعون"، فهو إقرار واعتراف بالنشور والقيامة، لأن هذا هو معنى الرجوع إليه سبحانه، واقتنع أمير المؤمنين عن التصريح بذلك، فذكر الهلك، فقال: إنه إقرار على أنفسنا بالهلك، لأن هلكنا مفض إلى رجوعنا يوم القيامة إليه سبحانه، فعبّر بمقدمة الشيء عن الشيء نفسه، كما يقال: الفقر الموت، والحمى الموت، ونحو ذلك. ويمكن أن يفسر ذلك على قول مثبت النفس الناطقة بتفسير آخر فيقال: إن النفس ما دامت في أسر تدابير البدن فهي معزلة عن مبادئها، لأنها مشغولة مستغرقة بغير ذلك، فإذا مات البدن رجعت النفس إلى مبادئها، فقوله: "وإنا إليه راجعون"، إقرار بما لا يصح الرجوع بهذا التفسير إلا معه، وهو الموت المعبر عنه بالهلك.

الأصل: اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم. اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون! الشرح: قد تقدم القول في كراهية مدح الإنسان في وجهه. وفي الحديث المرفوع: "إذا مدحت أحاك في وجهه، فكأنما أمرت على حلقه موسى وميضة".

وقال أيضاً لرجل مدح رجلاً في وجهه: "عقرت الرجل عقرك الله"! وقال أيضاً: "لو مشى رجل إلى رجل بسيف مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه. ومن كلام عمر: المدح هو الذبح، قالوا: لأن المذبوح ينقطع عن الحركة

والأعمال، وكذلك الممدوح يفتر عن العمل ويقول: قد حصل في القلوب والنفوس ما أستغني به عن الحركة والجد. ومن أمثال الفلاحين: إذا طار لك صيت بين الحصادة، فاكسر منجلك. وقال مطرف بن الشخير: ما سمعت من ثناء أحد علي، أو مدحة أحد لي، إلا وتصاغرت إلي نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد سمع ثناء أحد عليه إلا وتراءى له شيطان، ولكن المؤمن يراجع. فلما ذكر كلامهم لابن المبارك قال: صدقا، أما قول زياد فتلك قلوب العوام، وأما قول مطرف فتلك قلوب الخواص. الأصل: لا يستقيم قضاء الحوائج إلا بثلاث: باستصغارها لتعظم، وباستكثامها لتظهر، وبتعجيلها لتتهو. الشرح: قد تقدم لنا قول مستقصى في هذا النحو، وفي الحوائج وقضائها واستنجاحها. وقد جاء في الحديث المرفوع: "استعينوا على حاجاتكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود". وقال خالد بن صفوان: لا تطلبوا الحوائج في غير حينها، ولا تطلبوها إلى غير أهلها، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمنع خلقاء. وكان يقال: لكل شيء أس، وأس الحاجة تعجيل أروح من التأخير. وقال رجل لمحمد بن الحنفية: جئتك في حويجة، قال: فاطلب لها رجلاً! وقال شبيب بن شبة بن عقال: أمران لا يجتمعان إلا وجب النجاح، وهما العاقل لا يسأل إلا ما يجوز، والعاقل لا يرد سائله عما يمكن. وكان يقال: من استعظم حاجة أخيه إليه بعد قضائها امتناناً بما فقد استصغر نفسه. وقال أبو تمام في المطل:

دخاناً للصنيعة وهي نار

يكن نسب فبينهما جوار

إلى جود، وبعض الجود عار

وكان المطل في بدء وعود

نسب البخل مذ كانا وإلا

لذلك قيل: بعض المنع أدنى

الأصل: يأتي على الناس زمان لا يقرب فيه إلا الماحل، ولا يظرف فيه إلا الفاجر، ولا يضعف فيه إلا المنصف، يعدون الصدقة فيه غرمًا، وصلة الرحم منًا، والعبادة استطالة على الناس، فعند ذلك يكون السلطان بمشورة الإماء، وإمارة الصبيان، وتدبير الخصيان.

الشرح: المحل: المكر والكيد، يقال محل به إذا سعى به إلى السلطان، فهو ماحل ومحول، والماحلة: المماكرة والمكايدة. قوله: "ولا يظرف فيه إلا الفاجر"، لا يعد الناس الإنسان ظريفًا إلا إذا كان خليعًا ماجنًا متظاهرًا بالفسق. وقوله: "ولا يضعف فيه إلا المنصف"، أي إذا رأوا إنسانًا عنده ورع وإنصاف في معاملته الناس عدوه ضعيفًا، ونسبوه إلى الركة والرخاوة، وليس الشهم عندهم إلا الظالم. ثم قال: "يعدون الصدقة غرمًا"، أي خسارة، وممنون إذا وصلوا الرحم وإذا كانوا ذوي عبادة استطالوا بها على الناس وتبجحوا بها، وأعجبهم أنفسهم، واحتقروا غيرهم.

قال: فعند ذلك يكون السلطان والحكم بين الرعايا بمشورة الإماماء.. إلى آخر الفصل، وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهي إحدى آياته، والمعجزات المختص بها دون الصحابة.

الأصل: وقال عليه السلام وقد رئي عليه إزار خلق مرقوع، فقيل له في ذلك، فقال: يخشع له القلب، وتذل به النفس، ويقتدي به المؤمنون.

الشرح: قد تقدم القول في هذا الباب، وذكرنا أن الحكماء والعارفين فيه على قسمين: منهم من آثر لبس الأدنى على الأعلى، ومنهم من عكس الحال، وكان عمر بن الخطاب من أصحاب المذهب الأول، وكذلك أمير المؤمنين، وهو شعار عيسى بن مريم عليه السلام، كان يلبس الصوف وغيلظ الثياب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النوعين جميعاً، وأكثر لبسه كان الجيد من الثياب مثل أبراد اليمن، وما شاكل ذلك، وكانت ملحفته موروثة حتى إنها لتردع على جلده كما جاء في الحديث. ورئي محمد بن الحنفية عليه السلام واقفاً بعرفات على برزون أصفر، وعليه مطرف خز أصفر، وجاء فرقد السبخي إلى الحسن وعلى الحسن مطرف خز، فجعل ينظر إليه وعلى فرقد ثياب صوف، فقال الحسن: ما بالك تنظر إلي وعلى ثياب أهل الجنة، عليك ثياب أهل النار! إن أحدكم ليجعل الزهد في ثيابه والكبر في صدره، فلهو أشد عجباً بصوفه من صاحب المطرف.

وقال ابن السماك لأصحاب الصوف: إن كان لباسكم هذا موافقاً لسرائركم فلقد أحببتهم أن يطلع الناس عليها، ولئن كان مخالفاً لها لقد هلكتم.

وكان عمر بن عبد العزيز على قاعدة عمر بن الخطاب في ملبوسه، وكان قبل الخلافة يلبس الثياب المثمنة جداً، كان يقول: لقد خفت أن يعجز ما قسم الله لي من الرزق عما أريده من الكسوة، وما لبست ثوباً جديداً قط إلا وخيل لي حين يراه الناس أنه سمل أو بال، فلما ولي الخلافة ترك ذلك كله.

وروى سعيد بن سويد، قال: صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: إن الله أعطاك يا أمير المؤمنين، فلو لبست، فنكس ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد ما كان عند الجدة، وأفضل العفو ما كان عند المقدرة.

وروى عاصم بن معدة: كنت أرى عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة فأعجب من حسن لونه وجودة ثيابه وبزته، ثم دخلت عليه بعد أن ولي، وإذا هو قد احترق واسود ولصق جلده بعظمه، حتى ليس بين الجلد والعظم لحم، وإذا عليه قطنسوة بيضاء قد اجتمع قطنها ويعلم أنها قد غسلت، وعليه سحق أنبجانية قد خرج سداها، وهو على شاذكونة، قد لصقت بالأرض تحت الشاذكونة عباءة قطوانية من مشاقة الصوف، وعنده رجل يتكلم، فرفع صوته، فقال له عمر: اخفض قليلاً من صوتك، فإنما يكفي الرجل من الكلام قدر ما يسمع صاحبه.

وروى عبيد بن يعقوب أن عمر بن عبد العزيز كان يلبس الفرو الغليظ من الثياب، وكان سراجاه على ثلاث قصبات فوقهن طين.

الأصل: إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعادها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما، كلما قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعد ضرتان.

الشرح: هذا الفصل بين في نفسه لا يحتاج إلى شرح، وذلك لأن عمل كل واحد من الدارين مضاد لعمل الأخرى، فعمل هذه الاكتساب، والاضطراب في الرزق، والاهتمام بأمر المعاش، والولد والزوجة، وما ناسب ذلك. وعمل هذه قطع العلائق، ورفض الشهوات، والانتصاب للعبادة، وصرف الوجه عن كل ما يصد عن ذكر الله تعالى، ومعلوم أن هذين العملين متضادان، فلا جرم كانت الدنيا والآخرة ضرتين لا يجتمعان! الأصل: وعن نوف البكائي - وقيل البكالي باللام، وهو الأصح - قال: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه فنظر إلى النجوم، فقال: يا نوف، أراقد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق يا أمير المؤمنين، فقال: يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة! أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وتراهم فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن شعاراً، والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح. يا نوف، إن داود عليه السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل، فقال: إنها لساعة لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له، إلا أن يكون عشاراً، أو عريفاً، أو شرطياً، أو صاحب عرطبة - وهي الطنبور - أو صاحب كوبة، وهي الطبل. وقد قيل أيضاً: إن العرطبة الطبل، والكوبة الطنبور.

الشرح: قال صاحب الصحاح: نوف البكالي كان صاحب علي عليه السلام وقال ثعلب: هو منسوب إلى قبيلة تدعى بكالة، ولم يذكر من أي العرب هي، والظاهر أنها من اليمن، وأما بكيل فحي من همدان، وإليه أشار الكمي بقوله:

فقد شركت فيه بكيل وأرحب

فأما البكالي في نسب نوف فلا أعرفه.

قوله: أم رامق، أي أم مستيقظ ترمق السماء والنجوم ببصره.

قوله: قرضوا الدنيا، أي تركوها وخلفوها وراء ظهورهم، قال تعالى: "وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال" أي تتركهم وتخلفهم شمالاً، ويقول الرجل لصاحبه: هل مررت بمكان كذا، يقول نعم قرضته ليلاً ذات اليمين، وأنشد لذي الرمة:

شمالاً وعن أيمنهن الفوارس

إلى ظعن يقرضن أجواز مشرف

قالوا: مشرف والفوارس: موضعان، يقول: نظرت إلى ظعن يجزن بين هذين الموضعين.

الأصل: إن الله تعالى افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحد لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلفوها.

الشرح: قال الله تعالى: "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم".

وجاء في الأثر: أهتموا ما أهتم الله.

وقال بعض الصالحين لبعض الفقهاء: لم تفرض مسائل لم تقع وأتعبت فيها فكر! حسبك بالمتداول بين الناس.

قالوا: هذا مثل قولهم في باب المسح على الخفين: فإن مسح على خف من زجاج، ونحو ذلك من النوادر الغريبة.

وقال شريك في أبي حنيفة: أجهل الناس بما كان، وأعلمهم بما لم يكن.

وقال عمر: لا تتنازعوا فيما لم يكن فتختلفوا، فإن الأمر إذا كان أعان الله عليه، وانتهاك الحرمة: تناولها بما لا يحل، إما

بارتكاب ما نهي عنه، أو بالإحلال بما أمر به.

الأصل: لا يترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه.

الشرح: مثال ذلك إنسان يضيع وقت صلاة الفريضة عليه، وهو مشغول بمحاسبة وكيله ومخافته على ماله، خوفاً أن يكون خانه في شيء منه، فهو يحرص على مناقشته عليه، فتفوته الصلاة.

قال عليه السلام: من فعل مثل هذا فتح الله عليه في أمر دنياه وماله ما هو أضر عليه مما رام أن يستدركه بإهماله الفريضة. الأصل: رب عالم قد قتله جهله، وعلمه معه لم ينفعه.

الشرح: قد وقع مثل هذا كثيراً، كما جرى لعبد الله بن المقفع، وحكمته أشهر من أن تذكر، ولو لم يكن له إلا كتاب "التيمة" لكفى.

تهور ابن المقفع

واجتمع ابن المقفع بالخليل بن أحمد، وسمع كل منهما كلام الآخر، فسئل الخليل عنه فقال: وجدت علمه أكثر من عقله، وهكذا كان، فإنه كان مع حكمته متهوراً، لا جرم تهوره قتله! كتب كتاب أمان لعبد الله بن علي عم المنصور ويوجد فيه خطه، فكان من جملة: ومتى غدر أمير المؤمنين بعمره عبد الله، أو أبطن غير ما أظهر أو تأول في شيء من شروط هذا الأمان فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده وإماؤه أحرار، والمسلمون في حل من بيعته. فاشتد ذلك على المنصور لما وقف عليه، وسأل: من الذي كتب له الأمان؟ ف قيل له: عبد الله بن المقفع كاتب عميك عيسى وسليمان، ابني علي بالبصرة، فكتب المنصور إلى عامله بالبصرة سفيان بن معاوية يأمره بقتله.

وقيل: بل قال: أما أحد يكفيني ابن المقفع! فكتب أبو الخصيب بها إلى سفيان بن معاوية المهلي أمير البصرة يومئذ - وكان سفيان واحداً على ابن المقفع لأنه كان يعث به ويضحك منه دائماً، فغضب سفيان يوماً من كلامه وافترى عليه، فرد ابن المقفع عليه رداً فاحشاً، وقال له: يا بن المغتلمة! وكان يمتنع ويعتصم بعيسى وسليمان ابني علي بن عبد الله بن العباس، فحقدها سفيان عليه - فلما كوتب في أمره بما كوتب اعتزم قتله، فاستأذن عليه جماعة من أهل البصرة، منهم ابن المقفع، فأدخل ابن المقفع قبلهم، وعدل به إلى حجرة في دهليزه، وجلس غلامه بدابته ينتظره على باب سفيان، فصادف ابن المقفع في تلك الحجرة سفيان بن معاوية، وعنده غلماناه وتور نار يسجر، فقال له سفيان: أتذكر يوم قلت لي كذا! أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد، ثم قطع أعضائه عضواً عضواً، وألقاها في النار وهو ينظر إليها حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق التنور عليه، وخرج إلى الناس فكلهم، فلما خرجوا من عنده تخلف غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرج، فمضى وأخبر عيسى بن علي وأخاه سليمان بحاله، فخاصما سفيان بن معاوية في أمره، فجحد دخوله إليه، فأشخصاه إلى المنصور، وقامت البينة العادلة أن ابن المقفع دخل دار سفيان حياً سليماً ولم يخرج منها. فقال المنصور: أنا أنظر في هذا الأمر إن شاء الله غداً، فجاء سفيان ليلاً إلى المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله في صنيعتك ومتبع أمرك، قال: لا ترع، وأحضرهم في غد، وقامت الشهادة وطلب سليمان وعيسى القصاص، فقال المنصور: رأيتم إن قتلت سفيان بابن المقفع، ثم خرج ابن المقفع عليكم من هذا الباب - وأوماً إلى باب خلفه - من ينصب لي نفسه حتى أقتله بسفيان؟ فسكتوا، واندفع الأمر، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكر ابن المقفع بعدها، وذهب دمه هدرًا.

قيل للأصمعي: أما كان أعظم ذكاء وفطنة الخليل أم ابن المقفع؟ فقال: كان ابن المقفع أفصح وأحكم، والخليل أدب وأعقل؟ ثم قال: شتان ما بين فطنة أفضت بصاحبها إلى القتل، وفطنة أفضت بصاحبها إلى النسك والزهد في الدنيا، وكان الخليل قد نسك قبل أن يموت.

الأصل: لقد علق بنيائ هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وهو القلب، وذلك أن له مواد من الحكمة وأضداداً من خلافها، فإن سرح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ، وإن غاله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمر استلبته الغرة، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعدت به الضعة، وإن أفرط به الشبع كظته البطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد.

الشرح: روي: "قعد به الضعف". والنياب: عرق علق به القلب من الوتين، فإذا قطع مات صاحبه، ويقال له النييط أيضاً. والبضعة بفتح الباء: القطعة من اللحم، والمراد بها ههنا القلب، وقال: يعتور القلب حالات مختلفات متضادات، فبعضها من الحكمة، وبعضها - وهو المضاد لها - مناف للحكمة، ولم يذكرها عليه السلام، وليست الأمور التي عددها شرحاً لما قدمه من هذا الكلام المحمل، وإن ظن قوم أنه أراد ذلك، ألا ترى أن الأمور التي عددها ليس فيها شيء من باب الحكمة وخلافها! فإن قلت: فما مثال الحكمة وخلافها، وإن لم يذكر عليه السلام مثاله؟ قلت: كالشجاعة في القلب وضدها الجبن، وكالجلود وضده البخل، وكالعفة وضدها الفجور، ونحو ذلك.

فأما الأمور التي عددها عليه السلام فكلام مستأنف، إنما هو بيان أن كل شيء مما يتعلق بالقلب يلزمه لازم آخر نحو الرجاء، فإن الإنسان إذا اشتد رجاؤه أذله الطمع، والطمع يتبع الرجاء، والفرق بين الطمع والرجاء أن الرجاء توقع منفعة ممن سبيله أن تصدر تلك المنفعة عنه، والطمع توقع منفعة ممن يستبعد وقوع تلك المنفعة منه، ثم قال: وإن هاج به الطمع قتله الحرص، وذلك لأن الحرص يتبع الطمع، إذا لم يعلم الطامع أنه طامع، وإنما يظن أنه راج. ثم قال: وإن ملكه اليأس، قتله الأسف، أكثر الناس إذا يئسوا أسفوا.

ثم عدد الأخلاق وغيرها من الأمور الواردة في الفصل إلى آخره، ثم ختمه بأن قال: "فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد"، وقد سبق كلامنا في العدالة، وأما الدرجة الوسطى بين طرفين هما رذيلتان، والعدالة هي الفضيلة، كالجود الذي يكتنفه التبذير والإمساك، والذكاء الذي يكتنفه الغباوة والجربرة، والشجاعة التي يكتنفها الهوج والجبن، وشرحنا ما قاله الحكماء في ذلك شرحاً كافياً، فلا معنى لإعادته.

الأصل: نحن النمرقة الوسطى التي يلحق بها التالي، وإليها يرجع الغالي.

الشرح: النمرق والنمرقة بالضم فيهما: وسادة صغيرة، ويجوز النمرقة بالكسر فيهما، ويقال للطنفسة فوق الرحل نمرقة. والمعنى أن كل فضيلة فإنها بمنحة بطرفين معدودين من الرذائل كما أوضحناه آنفاً، والمراد أن آل محمد عليه وعليهم السلام هم الأمر المتوسط بين الطرفين المذمومين، فكل من جاوزهم فالواجب أن يرجع إليهم، وكل من قصر عنهم فالواجب أن يلحق بهم.

فإن قلت: فلم استعار لفظ النمرقة لهذا المعنى؟ قلت: لما كانوا يقولون: قد ركب فلان من الأمر منكراً وقد ارتكب الرأي الفلاني، وكانت الطنفسة فوق الرحل مما يركب، استعار لفظ النمرقة لما يراه الإنسان مذهباً يرجع إليه ويكون كالراكب له، والجالس عليه، والمتورك فوقه.

ويجوز أيضاً أن تكون لفظة "الوسطى" يراد بها الفضلى، يقال: هذه هي الطريقة الوسطى، والخليقة الوسطى، أي الفضلى، ومنه قوله تعالى: "قال أوسطهم" أي أفضلهم، ومنه: "وجعلناكم أمة وسطاً".

الأصل: لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع، ولا يضارع، ولا يتبع المطامع. الشرح: قد سبق من كلام عمر شيء يناسب هذا إن لم يكن هو بعينه، والمصانعة: بذل الرشوة. وفي المثل: من صانع بالمال، لم يحتشم من طلب الحاجة.

فإن قلت: كان ينبغي أن يقول: "من لا يصانع" بالفتح.

قلت: المفاعلة تدل على كون الفعل بين الاثنين كالمضاربة والمقاتلة.

ويضارع: يتعرض لطلب الحاجة، ويجوز أن يكون من الضراعة وهي الخضوع أي يخضع لزيد ليخضع زيد له، ويجوز أن يكون من المضاربة بمعنى المشاهدة، أي لا يتشبه بأئمة الحق أو ولاية الحق، وليس منهم. وأما اتباع المطامع فمعروف.

الأصل: وقال عليه السلام: وقد توفي سهل بن حنيف الأنصاري بالكوفة بعد مرجعه من صفين معه، وكان من أحب الناس إليه: لو أحبني جبل لتهافت.

قال الرضي رحمه الله تعالى: ومعنى ذلك أن المحنة تغلظ عليه، فتسرع المصائب إليه، ولا يفعل ذلك إلا بالأتقياء الأبرار، المصطفين الأخيار.

وهذا مثل قوله عليه السلام: "من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقير جلباباً" وقد يؤول ذلك على معنى آخر ليس هذا موضع ذكره.

الشرح: قد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق".

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن البلوى أسرع إلى المؤمن من الماء إلى الحذور".

وفي حديث آخر: "المؤمن ملقى، والكافر موقى".

وفي حديث آخر: "خيركم عند الله أعظمكم مصائب في نفسه وماله وولده".

وهاتان المقدمتان يلزمهما نتيجة صادقة، وهي أنه عليه السلام لو أحبه جبل لتهافت. ولعل هذا هو مراد الرضي بقوله:

"وقد يؤول ذلك على معنى آخر ليس هذا موضع ذكره".

الأصل: لا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عقل كالتدبير، ولا كرم كالتقوى، ولا قرين كحسن الخلق، ولا ميراث كالأدب، ولا قائد كالتوفيق، ولا تجارة كالعمل الصالح، ولا ربح كالثواب، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزهد في الحرام، ولا علم كالتفكير، ولا عبادة كأداء الفرائض. ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حسب كالتواضع، ولا شرف كالعلم، ولا عز كالعلم، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة.

الشرح: قد تقدم الكلام في جميع هذه الحكم.

أما المال فإن العقل أعود منه، لأن الأحمق ذا المال طالما ذهب ماله بحمقه، فعاد أحمق فقيراً، والعاقل الذي لا مال له طالما اكتسب المال بعقله، وبقي عقله عليه.

وأما العجب فيوجب المقت، ومن مقت أفرد عن المخالطة واستوحش منه، ولا ريب أن التدبير هو أفضل العقل، لأن العيش كله في التدبير.

وأما التقوى فقد قال الله: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

وأما الأدب فقالت الحكماء: ما ورثت الآباء أبناءها كالأدب.

وأما التوفيق فمن لم يكن قائده ضل.

وأما العمل الصالح، فإنه أشرف التجارات، فقد قال الله تعالى: "هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم...". ثم عد الأعمال الصالحة.

وأما الثواب فهو الربح الحقيقي، وأما ربح الدنيا فشبيهه بحلم النائم.

وأما الوقوف عند الشبهات فهو حقيقة الورع، ولا ريب أن من يزهد في الحرام أفضل ممن يزهد في المباحات، كما لكل اللذينة، والملابس الناعمة، وقد وصف الله تعالى أرباب التفكير فقال: "ويتفكرون في خلق السموات والأرض". وقال: "أو لم ينظروا" ولا ريب أن العبادة بأداء الفرائض فوق العبادة بالنوافل. والحياء مخ الإيمان، وكذلك الصبر والتواضع مصيدة الشرف، وذلك هو الحسب، وأشرف الأشياء العلم، لأنه خاصة الإنسان، وبه يقع الفضل بينه وبين سائر الحيوان.

والمشورة من الحزم فإن عقل غيرك تستضيفه إلى عقلك. ومن كلام بعض الحكماء: إذا استشارك عدوك في الأمر فامحضه النصيحة في الرأي، فإنه إن عمل برأيك وانتفع ندم على إفراطه في مناوأتك، وأفضت عداوته إلى المودة، وإن خالفك واستضر عرف قدر أمانتك بنصحه، وبلغت منك في مكروهه.

الأصل: إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه حوبة، فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله، فأحسن رجل الظن برجل فقد غرر.

الشرح: يريد أنه يتعين على العاقل سوء الظن حيث الزمان فاسد، ولا ينبغي له سوء الظن حيث الزمان صالح، وقد جاء في الخبر المرفوع النهي عن أن يظن المسلم بالمسلم ظن السوء، وذلك محمول على المسلم الذي لم تظهر منه حوبة، كما أشار إليه علي عليه السلام؟ والحوبة: المعصية، والخبر هو ما رواه جابر قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة فقال: "مرحباً بك من بيت! ما أعظمك وأعظم حرمتك! والله إن المؤمن أعظم حرمة منك عند الله عز وجل، لأن الله حرم منك واحدة، ومن المؤمن ثلاثة: دمه وماله وأن يظن به ظن السوء".

ومن كلام عمر، ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيء ما يغلبك منه، ولا تظن بكلمة خرجت من في أخيك المسلم

سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن.

شاعر:

والحزم سوء الظن بالناس

أسأت إذ أحسنت ظني بكم

قيل لعالم: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: من لا يثق بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء فعله.

شاعر:

فأدبني هذا الزمان وأهله

وقد كان حسن الظن بعض مذاهبي

قيل لصوفي: ما صناعتك؟ قال: حسن الظن بالله، وسوء الظن بالناس. وكان يقال: ما أحسن حسن الظن إلا أن فيه العجز، وما أقبح سوء الظن إلا أن فيه الحزم.

ابن المعتز:

فإن العيون وجوه القلوب

تفقد مساقط لحظ المريب

فإنك تجني ثمار العيوب

وطالع بواده في الكلام

الأصل: وقيل له عليه السلام: كيف تجددك يا أمير المؤمنين؟ فقال: كيف يكون حال من يفنى ببقائه، ويسقم بصحته، ويؤتى من مأمنه.

الشرح: هذا مثل قول عبدة بن الطيب:

وحسبك داء أن تصح وتسلما

أرى بصري قد رابني بعد صحة

إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

ولن يلبث العصران يوم وليلة

وقال آخر:

فألانها الإصباح والإمساء

كانت قناتي لا تلين لغامز

ليصحني فإذا السلامة داء

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً

الأصل: كم من مستدرج بالإحسان إليه، ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه! وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له.

الشرح: قد تقدم القول في الاستدراج والإملاء.

فأما القول في فتنه الإنسان بحسن القول فيه فقد ذكرنا أيضاً طرفاً صالحاً يتعلق بها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل مدح رجلاً قد مر بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمع، ولكن قال: "ويحك لكدت تضرب عنقه، لو سمعها لما أفلح".

الأصل: هلك في رجلان: محب غال، ومبغض قال.

الشرح: قد تقدم القول في مثل هذا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لولا أي أشفق أن تقول طوائف من

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

أمي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمر بأحد من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة". ومع كونه صلى الله عليه وسلم لم يقل فيه ذلك المقال فقد غلت فيه غلاة كثيرة العدد منتشرة في الدنيا، يعتقدون فيه ما يعتقد النصارى في ابن مريم، وأشنع من ذلك الاعتقاد.

فأما الميغض القالي فقد رأينا من ييغضه، ولكن ما رأينا من يلعنه ويصرح بالبراءة منه، ويقال: إن في عمان وما والاهما من صحار وما يجري مجراها قوماً يعتقدون فيه ما كانت الخوارج تعتقده فيه، وأنا أبرأ إلى الله منهما.

الأصل: إضاعة الفرصة غصة.

الشرح: في المثل: انتهبوا الفرص، فإنها تمر مر السحاب.

وقال الشاعر:

وإن أمكنت فرصة في العدو فلا يك همك إلا بها
فإن تك لم تأت من بابها أتاك عدوك من بابها
وإياك من ندم بعدها وتأميل أخرى، وأنى بها..؟

الأصل: مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها، والسمم الناقع في جوفها، يهوي إليها الغر الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل.

الشرح: قد تقدم القول في الدنيا مراراً، وقد أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال:

إنما الدهر أرقم لين المس وفي نابه السقام العقام

الأصل: وقال عيله السلام: وقد سئل عن قريش فقال: أما بنو مخزوم فريحانة قريش، تحب حديث رجالهم، والنكاح في نسائهم. وأما بنو عبد شمس فأبعدها رأياً، وأمنعها لما وراء ظفورها، وأما نحن فأبذل لما في أيدينا وأسمح عند الموت بنفوسنا، وهم أكثر وأمكر وأنكر، ونحن أفصح وأنصح وأصبح.

الشرح: قد تقدم القول في مفاخرة هاشم وعبد شمس، فأما بنو مخزوم فإنهم بعد هذين البيتين أفخر قريش وأعظمها شرفاً. قال شيخنا أبو عثمان: حظيت مخزوم بالأشعار، فانتشر لهم صيت عظيم بها، واتفق لهم فيها ما لم يتفق لأحد، وذلك أنه يضرب بهم المثل في العز والمنعة والجلود والشرف ووضعوا في كل غاية، فمن ذلك قول سيحان الجسري حليف بني أمية في كلمة له:

وحين يناعي الركب موت هشام

فدل ذلك على أن ما تقوله مخزوم في التاريخ حق، وذلك أنهم قالوا: كانت قريش وكنانة ومن والاهم من الناس يؤرخون بثلاثة أشياء: كانوا يقولون: كان ذلك زمن مبنى الكعبة، وكان ذلك من مجيء الفيل، وكان ذلك عام مات هشام بن المغيرة.

كما كانت العرب تؤرخ فتقول: كان ذلك زمن الفطحل، وكان ذلك زمن الحيان، وكان ذلك زمن الحجارة، وكان ذلك عام الحجاف، والرواة تجعل ضرب المثل من أعظم المفاخر، وأظهر الدلائل. والشعر - كما علمت - كما يرفع يضع، كما رفع من بني أنف الناقة قول الحطيئة:

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم

ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا؟

وكما وضع من بني نمير قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فلقيت نمير من هذا البيت ما لقيت.

وجعلهم الشاعر مثلاً فيمن وضعه المهجاء، وهو يهجو قوماً من العرب:

وسوف يزيدكم ضعةً هجائي

كما وضع الهجاء بني نمير

ونمير قبيل شريف، وقد تلم في شرفهم هذا البيت.

وقال ابن غزالة الكندي، وهو يمدح بني شيبان ولم يكن في موضع رغبة إلى بني مخزوم، ولا في موضع رهبة:

كأنني إذ حططت الرحل فيهم

بمكة حين حل بها هشام

فضرب بهشام المثل.

وقال رجل من بني حزم أحد بني سلمى، وهو يمدح حرب بن معاوية الخفاجي وخفاجة من بني عقيل:

إلى حزن الحزون سمت ركابي

بوابل خلفها عسلان جيش

فلما أن أنخت إلى ذراه

أمنت فراشني منه بريش

توسط بيته في آل كعب

كبيت بني مغيرة في قریش

فضرب المثل ببيتهم في قریش.

وقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن الحكم:

مارست أكيس من بني قحطان

صعب الذرا متمنع الأركان

إنني طمعت بفخر من لو رامه

آل المغيرة أو بنو ذكوان

لملأتها خيلاً تضب لثاتها

مثل الدبا وكواسر العقبان

منهم هشام والوليد وعدلهم

وأبو أمية مفزع الركبان

فضرب المثل بآل المغيرة.

وأما بنو ذكوان فبنو بدر بن عمرو بن حوية بن ذكوان أحد بني عدي بن فزارة منهم حذيفة وحمل ورهطهما، وقال

مالك بن نويرة:

ألم ينه عنا فخر بكر بن وائل

هزيمتهم في كل يوم لزام

فمنهن يوم الشر أو يوم منعج

وبالجزع إذ قسمن حي عصام

أحاديث شاعت في معد وغيرها

وخبرها الركبان حي هشام

فجعل قريشاً كلها حياً لهشام.

وقال عبد الله بن ثور الخفاجي:

وأصبح بطن مكة مقشعراً

كأن الأرض ليس بها هشام

وهذا مثل وفوق المثل.

قالوا: وقال الخروف الكلبي - وقد مر به ناس من تجار قريش يريدون الشام بادين قشفين -: مالكم معاشر قريش هكذا أجديتم أم مات هشام، فجعل موت هشام بإزاء الجذب والخل، وفي هذا المعنى قال مسافر بن أبي عمرو:

تقول لنا الركبان في كل منزل:

أمات هشام أم أصابكم جذب؟

فجعل موت هشام وفقد الغيث سواء.

وقال عبد الله بن سلمة بن قشير:

دعيني أصطبح يا بكر إني

رأيت الموت نقب عن هشام

وقال أبو الطمحان القيبي - أو أخوه:

وكانت قريش لا تخون حريمها

من الخوف حتى ناهضت بهشام

وقال أبو بكر بن شعوب لقومه كنانة:

يا قومنا لا تهلكوا إخفاتا

إن هشام القرشي ماتا

وقال خدش بن زهير:

وقد كنت هجاء لهم ثم كفكفوا

نوافذ قولي بالهمام هشام

وقال علي بن هرمة، عم إبراهيم بن هرمة:

ومن يرتئي مدحي فإن مدائي

نوافق عند الأكرمين سوام

نوافق عند المشتري الحمد بالندی

نفاق بنات الحارث بن هشام

وقال الشاعر وهو يهجو رجلاً:

أحسبت أن أباك يوم نسبتي

في المجد كان الحارث بن هشام

أولى قريش بالمكارم كلها

في الجاهلية كان والإسلام

وقال الأسود بن يعفر النهشلي:

إن الأكارم من قريش كلها

شهدوا فراموا الأمر كل مرام

حتى إذا كثر التجادل بينهم

حزم الأمور الحارث بن هشام

وقال ثابت قطنة - أو كعب الأشقرى لحمد بن الأشعث بن قيس:

أتوعدني بالأشعثي ومالك

وتفخر جهلاً بالوسط الطماطم !

كأنك بالبطحاء تنمر حارثاً

وخالد سيف الدين بين الملاحم

وقال الخزاعي في كلمته التي يذكر فيها أبا أحичة:

له سرّة البطحاء والعد والثرى

ولا كهشام الخير والقلب مردف

وسأل معاوية صعصعة بن صوحان العبدي عن قبائل قريش، فقال: إن قلنا غضبتكم، وإن سكتنا غضبتكم، فقال: أقسمت عليك، قال: فيمن يقول شاعركم:

وعشرة كلهم سيد

آباء سادات وأبناؤها

إن يسألوا يعطوا وإن يعدموا

يبيض من مكة بطحاؤها

وقال عبد الرحمن بن سيحان الجسري حليف بني أمية وهو يهجو عبد الله بن مطيع من بني عدي:

حرام كنتني مني بسوء

وأذكر صاحبي أبداً بدام

لقد أصرمت ود بني مطيع

حرام الدهر للرجل الحرام

وإن خيف الزمان مددت حبلاً

متيناً من حبال بني هشام

وريق عودهم أبداً رطيب

إذا ما اهتز عيدان الكرام

وقال أبو طالب بن عبد المطلب وهو يفخر بخاليه هشام والوليد على أبي سفيان بن حرب:

وخالي هشام بن المغيرة ثاقب

إذا هم يوماً كالحسام المهند

وخالي الوليد العدل عال مكانه

وخال أبي سفيان عمرو بن مرثد

وقال ابن الزبعرى فيهم:

لهم مشية ليست تليق بغيرهم

إذا احدثوا المثلون في السنة الجذب

وقال شاعر من بني هوازن، أحد بني أنف الناقة حين سقى إبله عبد الله بن أبي أمية المخزومي بعد أن منعه الزبرقان بن بدر:

أتدري من منعت سيال حوض

سليل خضارم منعوا البطاحا

أزاد الركب تمنع أم هشاماً

وذا الرمحين أمنعهم سلاحا

هم منعوا الأباطح دون فهر

ومن بالخيف والبلد الكفاحا

بضرب دون بيضهم طلخف

إذا الملهوف لاذ بهم وصاحا

وما تدري بأبيهم تلاقي

صدور المشرفية والرماحا

فقال عبد الله بن أبي أمية مجيباً له:

لعمري لأنت المرء يحسن بادياً

وتحسن عوداً شيمة وتصنعاً

عرفت لقوم مجدهم وقديمهم

وكننت لما أسديت أهلاً وموضعاً

قالوا: وكان الوليد بن المغيرة يجلس بذى المجاز فيحكم بين العرب أيام عكاظ وقد كان رجل من بني عامر بن لؤي رافق رجلاً من بني عبد مناف بن قصي، فجرى بينهما كلام في حبل، فعلاه بالعصا حتى قتله، فكاد دمه يطل، فقام دونه أبو طالب بن عبد المطلب وقدمه إلى الوليد، فاستحلفه خمسين يميناً أنه ما قتله، ففي ذلك يقول أبو طالب:

أمن أجل حبل ذي رمام علوته

بمنسأة قد جاء حبل وأحبل

هلم إلى حكم ابن صخرة إنه

سيحكم فيما بيننا ثم يعدل

وقال أبو طالب أيضاً في كلمة له:

وحكمك يبقي الخير إن عز أمره

تخبط واستعلى على الأضعف الفرد

وقال أبو طالب أيضاً يرثي أبا أمية زاد الركب وهو خاله:

كأن على رضراض قص وجندل

من اليبس أو تحت الفراش المجامر

على خير حاف من معد وناعل

إذا الخير يرجى أو إذا الشر حاسر

ألا إن زاد الركب غير مدافع

بسرو سحيم غيبته المقابر

تتادوا بأن لا سيد اليوم فيهم

وقد فجع الحيان كعب وعامر

وكان إذا يأتي من الشام قافلاً

تقدمه قبل الدنو البشائر

فيصبح آل الله بيضاً ثيابهم

وقدماً حباهم والعيون كواسر

أخو جفنة لا تبرح الدهر عندنا

مجعجة تدمى وشاء وباقر

ضروب بنصل السيف سوق سمانها

إذا أرسلوا يوماً فإنك عاقر

فيالك من راع رميت بآلة

شراعية تخضر منه الأظافر

وقال أبو طالب أيضاً يرثي خاله هشام بن المغيرة:

فقدنا عميد الحي والركن خاشع

كفقد أبي عثمان والبيت والحجر

وكان هشام بن المغيرة عصمة

إذا عرك الناس المخاوف والفقر

بأبياته كانت أرامل قومه

تلوذ وأيتام العشيرة والسفر

فودت قریش لو فדתه بشطرها

وقل لعمري لو فدوه له الشطر

نقول لعمرو أنت منه وإننا

لنرجوك في جل الملمات يا عمرو

عمرو هذا هو أبو جهل بن هشام، وأبو عثمان هو هشام.

وقالت ضباعة بنت عامر بن سلمة بن قرط ترثيه:

وإن صبراً عن بكاه لحوب

أي ذنوب صوبوا في القلبيب

إن أبا عثمان لم أنسه

تفاقدوا من معشر ما لهم

وقال حسان بن ثابت وهو يهجو أبا جهل، وكان يكنى أبا الحكم:

والله كناه أبا جهل

لؤم الفروع ودقة الأصل

الناس كنوه أبا حكم

أبقت رياسته لأسرته

فاعترف له بالرياسة والتقدم.

وقال أبو عبيد معمر بن المثنى: لما تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة إلى هرم بن قطبة وتوارى عنهما، أرسل إليهما:

عليكما بالفتى الحديث السن، الحديد الذهن، فصاروا إلى أبي جهل، فقال له ابن الزبعرى:

وكن كالمرء حاكم آل عمرو

فلا تحكم فذاك أبي وخالي

فأبي أن يحكم، فرجعا إلى هرم.

وقال عبد الله بن ثور:

ضباع وحاربي نوحاً قياما

وغلقت البيوت فلا هشاما

هريقا من دمو عكما سجاما

فمن للركب إذ جاؤوا طروقاً

وقال أيضاً في كلمة له:

ولا رشحن أكرم من هشام

وأفضل من سقى صوب الغمام

وما ولدت نساء بني نزار

هشام بن المغيرة خير فھر

وقال عمارة بن أبي طرفة الهذلي، سمعت ابن جريج يقول في كلام له: هلك سيد البطحاء بالعراف؟ قلت: ومن سيد

البطحاء؟ قال: هشام بن المغيرة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو دخل أحد من مشركي قريش الجنة لدخلها هشام بن المغيرة، كان أبذلهم للمعروف،

وأحملهم للكل.

وقال عمر بن الخطاب، لا قليل في الله، ولا كثير في الله. ولو بالخلق الجزل والفعال الدثر، تنال المثوبة لناها هشام بن

المغيرة، ولكن بتوحيد الله، والجهاد في سبيله.

وقال خدش بن زهير في يوم شمطة، وهو أحد أيام الفجار، وهو عدو قريش وخصمها:

وذا الرمحين بلغ والوليدا

وبلغ إن بلغت بنا هشاماً

أولئك إن يكن في الناس جود

هم خير المعاشر من قريش

وقال أيضاً وذكرهما في تلك الحروب:

يا شدة ما شددنا غير كاذبة

إذا ثقفنا هشاماً بالوليد ولو

وذكرهم ابن الزبيري في تلك الحروب فقال:

ألا لله قوم و

هشام وأبو عبد

وذو الرمحين أشباك

فهذان يزودان

وهم يوم عكاظ م

بجأواء طحون فخمة القونس كالنجم

أسود تزدهي الأقرا

فإن أحلف وبيت الل

وما من إخوة بين

بأزكى من بني ريط

فإن لديهم حسباً وجودا

وأوراها إذا قدحوا زنودا

على سخينة لولا الليل والحرم

أنا ثقفنا هشاماً شالت الجذم

لدت أخت بني سهم

مناف مدره الحنصم

من القوة والحزم

وذا عن كئيب يرمي

نعوا الناس من الهزم

ن مناعون للهضم

ه لا أحلف على إثم

دروب الشام والردم

ة أو أوزن من حلم

ريطة: هي أم ولد المغيرة، وهي ريطة بنت سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وأبو عبد مناف هو أبو أمية بن المغيرة، ويعرف بزد الركب، واسمه حذيفة، وإنما قيل له: زاد الركب لأنه كان إذا خرج مسافراً لم يتزود معه أحد، وكانت عنده عاتكة بنت عبد المطلب بن هشام، وأما ذو الرمحين فهو أبو ربيعة بن المغيرة واسمه عمرو، وكان المغيرة يكنى باسم ابنه الأكبر، وهو هشام، ولم يعقب إلا من حنتمة ابنته، وهي أم عمر بن الخطاب.

وقال ابن الزبيري يمدح أبا جهل:

رب نديم ماجد الأصل

منهم أبو عبد مناف وكم

عمرو الندى ذاك وأشياعه

وقال الورد بن خلاس السهمي سهم باهلة يمدح الوليد:

إذا كنت في حي جذيمة ثاوياً

فذاك وحيد الرأي مشترك الندى

فعند عظيم القرينتين وليد

وعصمة ملهوف الجنان عميد

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وقال أيضاً:

ربا تهامة في الميسور والعسر
عز الذليل وغيظ الحاسد الوغر

إن الوليدين والأبناء ضاحية
هم الغياث وبعض القوم قرقة

وقال:

وأمنع للجار اللهيف المهضم

ورھطك يا بن الغيث أكرم محتد

قالوا: الغيث لقب المغيرة، وجعل الوليد وأخاه هشاماً ربي تهامة كما قال لبيد بن ربيعة في حذيفة بن بدر:

ورب معد بين خبت وعرعر

وأهلكن يوماً رب كندة وابنه

فجعله رب معد.

قالوا: يدل على قدر مخزوم ما رأينا من تعظيم القرآن لشأنهم دون غيرهم من سائر قريش، قال الله تعالى مخبراً عن العرب:

إنهم قالوا: "لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" فأحد الرجلين العظيمين بلا شك الوليد بن المغيرة،

والآخر مختلف فيه، أهو عروة بن مسعود، أم جد المختار بن أبي عبيد.

وقال سبحانه في الوليد: "ذري ومن خلقت وحيداً. وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً.." الآيات.

قالوا: وفي الوليد نزلت: "أما من استغنى فأنت له تصدى".

وفي أبي جهل نزلت: "ذق إنك أنت العزيز الكريم".

وفيه نزلت: "فليدع ناديه".

وفي مخزوم: "وذري والمكذبين أولي النعمة".

وفيه نزلت: "ما حولناكم وراء ظهوركم".

وزعم اليعقوبي أبو اليقظان وأبو الحسن أن الحجاج سأل أعشى همدان عن بيوتات قريش في الجاهلية، فقال: إني قد آليت

ألا أنفر أحداً على أحد، ولكن أقول وتسمعون، قالوا: فقل. قال: من أيهم الحبيب في أهله، المؤرخ بذكره، محلي الكعبة،

وضارب القبة، والملقب بالخير، وصاحب الخير والمير؟ قالوا: من بني مخزوم، قال: فمن أيهم ضجيع بسباسة، والمنحور عنه

ألف ناقة، وزاد الركب، ومبيض البطحاء؟ قالوا: من بني مخزوم، قال: فمن أيهم كان المقنع في حكمه، والمنفذ وصيته

على قهكمه، وعدل الجميع في الرفادة، وأول من وضع أساس الكعبة؟ قالوا من بني مخزوم، قال: فمن أيهم صاحب

الأريكة، ومطعم الخزيرة، قالوا من بني مخزوم، قال فمن أيهم الإخوة العشرة، الكرام البررة؟ قالوا من بني مخزوم، قال:

فهو ذاك؟ فقال رجل من بني أمية، أيها الأمير، لو كان لهم مع قديمهم حديث الإسلام! فقال الحجاج: أو ما علمت بأن

منهم رداد الردة، وقاتل مسيلمة، وآسر طليحة، والمدرك بالطائفة، مع الفتوح العظام والأبيادي الجسام فهذا آخر ما ذكره

أبو عثمان.

ويمكن أن يزداد عليه فيقال: قالت مخزوم ما أنصفنا من اقتصر في ذكرنا على أن قال: مخزوم ريحانة قريش، تحب حديث

رجالها، والنكاح في نسائهم، ولنا في الجاهلية والإسلام أثر عظيم، ورجال كثيرة، ورؤساء شهيرة، فمننا المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، كان سيد قريش في الجاهلية، وهو الذي منع فزارة من الحج لما عبر خشين بن لاي الفزاري، ثم الشمخي قوماً من قريش أنهم يأخذون ما ينحره العرب من الإبل في الموسم، فقال خشين لما منع من الحج:

يارب هل عندك من عقيره
فإن منا مانع المغيره
وأصلح مالي وأدع تنحيه
ومانعاً بيتك أن أزوره

منا بنو المغيرة العشرة أمهم ربيعة، وقد تقدم ذكر نسبها، وأمها عاتكة بنت عبد العزى بن قصي، وأمها الحظيا بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة. أول امرأة من قريش ضربت قباب الأدم بذي المجاز، ولها يقول الشاعر:

مضى بالصالحات بنو الحظيا
وكان بسيفهم يغنى الفقير

فمن هؤلاء- أعني الحظيا- الوليد بن المغيرة أمه صخرة بنت الحارث بن عبد الله بن عبد شمس القشيري، كان أبو طالب بن عبد المطلب يفتخر بأنه خاله، وكفاك من رجل يفتخر أبو طالب بختولته! ألا ترى إلى قول أبي طالب:

وخالي الوليد قد عرفتم مكانه
وخالي أبو العاصي إياس بن معبد

ومنهم حفص بن المغيرة، وكان شريفاً. وعثمان بن المغيرة. وكان شريفاً. ومنهم السيد المطاع هشام بن المغيرة، وكان سيد قريش غير مدافع، له يقول أبو بكر بن الأسود بن شعوب يرثيه:

ذريني أصطحب يا بكر إني
رأيت الموت نقب عن هشام

تخيره ولم يعدل سواه
ونعم المرء بالبلد الحرام!

وكننت إذا الأقيه كأني
إلى حرم وفي شهر حرام

فود بنو المغيرة لو فدوه
بألف مقاتل وبألف رام

وود بنو المغيرة لو فدوه
بألف من رجال أو سوام

فبكيه ضباع ولا تملي
هشاماً إنه غيث الأنام

ويقول له الحارث بن أمية الضمري:

ألا هلك القناص والحامل الثقلا
ومن لا يضمن عن عشيرته فضلا

وحرب أبا عثمان لعله ولولا
هشاماً أوقدت حطباً جز لا

وعان تريك يستكين لعله
فككت أبا عثمان عن يده الغلا

ألا لست كالهلكي فتبكي بكاءهم
ولكن أرى الهلاك في جنبه وغلا

غداة غدت تبكي ضباعة غيثنا
هشاماً وقد أعلت بمهلكه ضحلا

ألم ترياً أن الأمانة أصعدت
مع النعش إذ ولى، كان لها أهلا

وقال أيضاً يكيه ويرثيه:

وأصبح بطن مكة مقشعراً
يروح كأنه أشلاء سوط
فللكبراء أكل كيف شأؤوا
فبكيه ضباع ولا تملي
وإن بني المغيرة من قريش
هم الرأس المقدم والسنام
شديد المحل ليس به هشام
وفوق جفانه شحم ركام
وللودان لقم واغتنام
ثمّال الناس إن قحط الغمام

وضباعة التي يذكرها الشعراء زوجة هشام، وهي من بني قشيرة.

قال الزبير بن بكار: فلما قال الحارث: "ألا لست كاهلكي..."، البيت، عظم ذلك على بني عبد مناف فأغروا به حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي حليف بني عبد شمس، وكانت قريش رضيت به واستعملته على سقائها، ففر منه على سقائها، ففر منه الحارث، وقال:

أفر من الأباطح كل يوم
محافة أن ينكل بي حكيم

فهدم حكيم داره، فأعطاه بنو هشام داره التي بأجياد عوضاً منها.
وقال عبد الله بن ثور البكائي يرثيه:

هريقي من دموعهما سجاما
على خير البرية لن تراه
جواد مثل سيل الغيث يوماً
إذا ما كان عائم ذو عرام
فمن للركب إذا أمسوا طروقاً
وأوحش بطن مكة بعد أنس
فلم أر مثله في أهل نجد
ضباع وجاوبي نوحاً قياما
ولن تلقى مواهبه العظاما
إذا علجانه يعلو الإكاما
حسبت قدوره جبلاً صياما
وغلقت البيوت فلا هشاما
ومجد كان فيها قد أقاما
ولا فيمن بغورك يا تهاما

قال الزبير: وكان فارس قريش في الجاهلية هشام بن المغيرة، وأبو لبيد بن عبدة بن حجرة بن عبد بن معيض بن عامر بن لؤي، وكان يقال لهشام: فارس البطحاء، فلما هلكا كان فارسي قريش بعدهما عمرو بن عبد العامري المقتول يوم الخندق، وضرار بن الخطاب الحاربي الفهري، ثم هبيرة بن أبي وهب وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان قالوا: وكان عام مات هشام تاريخاً، كعام الفيل، وعام الفجار، وعام بنيان الكعبة. وكان هشام رئيس بني مخزوم يوم الفجار. قالوا: ومنا أبو جهل بن هشام، واسمه عمرو، وكنيته أبو الحكم، وإنما كناه "أبا جهل" رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان سيداً أدخلته قريش دار الندوة فسودته وأجلسته فوق الجلة من شيوخ قريش، وهو غلام لم يطر شاربه، وهو أحد

من ساد على الصبا. والحارث بن هشام أخو أبي جهل كان شريفاً مذكوراً، وله يقول كعب بن الأشرف اليهودي الطائي:

في الناس بيني المكرمات ويجمع

نبئت أن الحارث بن هشام

يبني على الحسب القديم الأروع

ليزور يثرب بالجموع وإنما

وهو الذي هاجر من مكة إلى الشام بأهله وماله في خلافة عمر بن الخطاب، فتبعه أهل مكة ليكون، فرق وبكى وقال: إنا لو كنا نستبدل داراً بدار، وجاراً بجار، ما أردنا بكم بدلاً، ولكنها النقلة إلى الله عز وجل، فلم يزل حابساً نفسه ومن معه بالشام مجاهداً حتى مات.

قال الزبير: جاء الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب فجلسا عنده وهو بينهما، فجعل المهاجرون الأولون والأنصار يأتون عمر فينحيهما، ويقول: ههنا يا سهيل، ههنا يا حارث! حتى صاروا في آخر الناس، فقال الحارث لسهيل: ألم تر ما صنع بنا عمر اليوم! فقال سهيل: أيها الرجل، إنه لا لوم عليه، ينبغي أن نرجع باللوم على أنفسنا، دعي القوم ودعينا، فأسرعوا وأبطانا. فلما قاما من عند عمر أتياه في غد فقالا له: قد رأينا ما صنعت بالأمس، وعلمنا أننا أتينا من أنفسنا فهل من شيء نستدرك به؟ فقال: لا أعلم إلا هذا الوجه - وأشار لهما إلى ثغر الروم فخرجا إلى الشام، فجاهدا بها حتى ماتا.

قالوا: ومنا عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أمه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وكان شريفاً سيداً، وهو الذي قال لمعاوية لما قتل حجر بن عدي وأصحابه: أين عزب منك حلم أبي سفيان، ألا حبستهم في السجون، وعرضتهم للطاعون! فقال: حين غاب عني مثلك من قومي. وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام هو الذي رغب فيه عثمان بن عفان وهو خليفة فزوجه ابنته.

قالوا: ومنا أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، كان سيداً جواداً وفقياً عالماً، وهو الذي قدم عليه بنو أسد بن خزيمة يسألونه في دماء كانت بينهم، فاحتمل عنهم أربعمائة بعير دية أربعة من القتلى، ولم يكن بيده مال، فقال لابنه عبد الله بن أبي بكر: اذهب إلى عمك المغيرة بن عبد الرحمن فاسأله المعونة، فذهب عبد الله إلى عمه فذكر له ذلك، فقال المغيرة: لقد أكبر علينا أبوك، فانصرف عنه عبد الله وأقام أياماً لا يذكر لأبيه شيئاً، وكان يقود أباه إلى المسجد وقد ذهب بصره، فقال له أبوه يوماً: أذهبت إلى عمك؟ قال: نعم، وسكت، فعرف حين سكت أنه لن يجد عند عمه ما يجب. فقال له: يا بني ألا تخبرني ما قال لك؟ قال: أفعل أبو هشام - وكانت كنية المغيرة - فرما فعل، ولكن اغد غداً إلى السوق فخذ لي عينة، فغدا عبد الله فتعين عينة من السوق لأبيه وباعها، فأقام أياماً لا يبيع أحد في السوق طعاماً ولا زيتاً غير عبد الله بن أبي بكر من تلك العينة، فلما فرغ أمره أبوه أن يدفعها إلى الأسديين فدفعها إليهم.

وكان أبو بكر خصيصاً بعبد الملك بن مروان، وقال عبد الملك لابنه الوليد لما حضرته الوفاة: إن لي بالمدينة صديقين فاحفظني فيهما: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

وكان يقال: ثلاثة أبيات من قريش توالى بالشرف خمسة خمسة، وعدوا منها أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة.

قالوا: ومنا المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، كان أجود الناس بالمال، وأطعمهم للطعام، وكانت عينه أصيبت مع مسلمة بن عبد الملك في غزوة الروم، وكان المغيرة ينحر الجزور، ويطعم الطعام حيث نزل، ولا يرد أحداً، فجاء قوم من الأعراب فجلسوا على طعامه، فجعل أحدهم يحد النظر إليه، فقال له المغيرة: مالك تحد النظر إلي! قال: إني ليريني عينك وسماحك بالطعام، قال: ومم ارتبت؟ قال: أظنك الدجال، لأننا روينا أنه أعور، وأنه أطعم الناس للطعام، فقال المغيرة: ويحك! إن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله. وللمغيرة يقول الأقيشر الأسدي لما قدم الكوفة فنحر الجزر وبسط الأنطاع وأطعم الناس وصار صيته في العرب:

معيترتي فقد راع ابن بشر

رأى المعروف منه غير نزر

ورھط الحاطبي ورھط صخر

ولا سرح ببزيون ونمر

أتاك البحر طم على قريش

وراع الجدي جدي التيم لما

ومن أوتار عقبة قد شفاني

فلا يغرك حسن الزي منهم

فابن بشر، عبد الله بن بشر بن مروان بن الحكم، وجدي التيم: حماد بن عمران بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وأوتار عقبة يعني أولاد عقبة بن أبي معيط، والحاطبي لقمان بن محمد بن حاطب الجمحي، ورھط صخر: بنو أبي سفيان بن حرب بن أمية، وكل هؤلاء كانوا مشهورين بالكوفة، فلما قدمها المغيرة أحمل ذكرهم، والمغيرة هذا هو الذي بلغه أن سليم بن أقح مولى أبي أيوب الأنصاري أراد أن يبيع المنزل الذي نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة على أبي أيوب بمئتمائة دينار، فأرسل إليه ألف دينار، وسأله أن يبيعه إياه، فباعه، فلما ملكه جعله صدقة في يومه. قال الزبير: وكان يزيد بن المغيرة بن عبد الرحمن يطاف به بالكوفة على العجل، وكان ينحر في كل يوم جزوراً، وفي كل جمعة جزورين. ورأى يوماً إحدى جفنته مكحلة بالسنام تكليلًا حسناً، فأعجبه، فسأل فقال: من كللها؟ قيل: اليسع ابنك، فسر، وأعطاه ستين ديناراً.

ومر إبراهيم بن هشام على بردة المغيرة وقد أشرقت على الجفنة، فقال لعبد من عبيد المغيرة: يا غلام، على أي شيء نصبتم هذا الثريد على العمد؟ قال: لا، ولكن على أعضاء الإبل، فبلغ ذلك المغيرة، فأعتق ذلك الغلام.

والمغيرة هو الذي مر بجرة الأعراب فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا هشام، قد فاض معروفك على الناس، فما بالناس أشقى الخلق بك! قال: إنه لا مال معي، ولكن خذوا هذا الغلام فهو لكم، فأخذوه، فبكى الغلام، فقال: يا مولاي، خدمتي وحرمتي! فقال: أتبيعوني إياه؟ قالوا: نعم، فاشتراه منهم بمال ثم أعتقه، وقال له: والله لا أعرضك لمثلها أبداً، اذهب فأنت حر، فلما عاد إلى الكوفة حمل ذلك المال إليهم.

وكان المغيرة يأمر بالسكر والجوز فيدقان ويطعمهما أصحاب الصفة المساكين، ويقول: إنهم يشتهون كما يشتهي غيرهم

ولا يمكنهم، فخرج المغيرة في سفر ومعه جماعة فوردوا غديراً ليس لهم ماء غيره- وكان ملحاً- فأمر بقرب العسل فشقت في الغدير وخيضت بمائه، فما شرب أحد منهم حتى راحوا إلا من قرب المغيرة.

وذكر الزبير أن ابناً لهشام بن عبد الملك كان يسوم المغيرة ماله بالمكان المسمى بديعاً، فلا يبيعه، فغزا ابن هشام أرض الروم ومعه المغيرة، فأصاب الناس بمجاعة في غزاتهم، فجاء المغيرة إلى ابن هشام فقال: إنك كنت تسومني مالي ببديع فأبي أن أبيعك. فاشتر الآن مني نصفه بعشرين ألف دينار. فأطعم المغيرة بها الناس، فلما رجع ابن هشام بالناس من غزوته تلك وقد بلغ هشاماً الخبر قال لابنه: قبح الله رأيك أنت أمير الجيش، وابن أمير المؤمنين، يصيب الناس معك مجاعة فلا تطعمهم حتى يبيعك رجل سوقة ماله، ويطعم به الناس! ويحك أخشيت أن تفتقر إن أطعمت الناس! قالوا: ولنا عكرمة بن أبي جهل الذي قام له رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً، وهو بعد مشرك لم يسلم ولم يقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل داخل عليه من الناس شريف ولا مشرف، إلا عكرمة، وعكرمة هو الذي اجتهد في نصرته الإسلام بعد أن كان شديد العداوة، وهو الذي سأله أبو بكر أن يقبل منه معونة على الجهاد فأبى، وقال: لا آخذ على الجهاد أجراً ولا معونة، وهو الشهيد يوم أجنادين، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسألني اليوم شيئاً إلا أعطيتك"، فقال: فإني أسألك أن تستغفر لي، ولم يسأل غير ذلك، وكل قريش غيره سألوا المال، كسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وغيرهما.

قالوا: ولنا الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة، كان شاعراً مجيداً كثيراً، وكان أمير مكة استعمله عليها يزيد بن معاوية. ومن شعره:

فالأقحوانة منا منزل قمن

قرب الوشاة ولا ينبوبنا الزمن

من كان يسأل عنا أين منزلنا

إذ نلبس العيش غصاً لا يكدره

وأخوه عكرمة بن خالد كان من وجوه قريش، وروى الحديث، وروي عنه.

ومن ولد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة خالد بن إسماعيل بن عبد الرحمن، كان جواداً متلاًفاً، وفيه قال الشاعر:

على العمر من ذي كبدة لمقيم

ويخصبن حتى نبتهن عميم

لعمرك إن المجد ما عاش خالد

وتتدى البطاح البيض من جود خالد

قالوا: ولنا الأوقص، وهو محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن المغيرة، كان قاضي مكة، وكان فقيهاً.

قالوا: ومن قدماء المسلمين عبد الله بن أمية بن المغيرة أخو أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان شديد الخلاف على المسلمين، ثم خرج مهاجراً، وشهد فتح مكة وخنين، وقتل يوم الطائف شهيداً.

والوليد بن أمية، غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه، فسماه المهاجر، وكان من صلحاء المسلمين.

قالوا: ومنا زهير بن أبي أمية بن المغيرة، وبجير بن أبي ربيعة بن المغيرة، غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه، فسماه عبد الله، كانا من أشرف قريش، وعباس بن أبي ربيعة، كان شريفاً.

قالوا: ومنا الحارث القباع، وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، كان أمير البصرة، وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر، المشهور ذي الغزل والتشبيب.

قالوا: ومن ولد الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الفقيه المشهور، وهو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث، كان فقيه المدينة بعد مالك بن أنس، وعرض عليه الرشيد جائزة أربعة آلاف دينار، فامتنع ولم يتقبل له القضاء.

قالوا: ومن يعد ما تعده مخزوم ولها خالد بن الوليد بن المغيرة سيف الله! كان مباركاً، ميمون النقيبة شجاعاً، وكان إليه أئنة الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد معه فتح مكة، وجرح يوم حنين، فنفت رسول الله صلى الله عليه وسلم على جرحه فبرأ، وهو الذي قتل مسيلمة وأسر طليحة، ومهد خلافة أبي بكر، وقال يوم موته: لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع إصبع إلا وفيه طعنة أو ضربة، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء! ومر عمر بن الخطاب على دور بني مخزوم والنساء يندبن خالداً، وقد وصل خبره إليهم وكان مات بحمص، فوقف وقال: ما على النساء أن يندبن أبا سليمان، وهل تقوم حرة عن مثله! ثم أنشد:

ولا تبكي فوارس كالجبال

من الأنعام والعكر الحلال

فما بلغوا لغايات الكمال

أتبكي ما وصلت به الندامى

أولئك إن بكيت أشد فقداً

تمنى بعدهم قوم مداهم

وكان عمر مبغضاً لخالد، ومنحرفاً عنه، ولم يمنعه ذلك من أن صدق فيه.

قالوا: ومنا الوليد بن الوليد بن المغيرة، كان رجل صدق من صلحاء المسلمين.

ومنا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان عظيم القدر في أهل الشام، وخاف معاوية منه أن يثب على الخلافة بعدهم، فسمه، أمر طبيباً له يدعى ابن أثال فسقاه فقتله.

وخالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد قاتل ابن أثال بعمره عبد الرحمن والمخالف على بني أمية، والمنقطع إلى بني هاشم. وإسماعيل بن هشام بن الوليد كان أمير المدينة. وإبراهيم ومحمد ابنا هشام بن عبد الملك. وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد، وكان من رجال قريش، ومن ولده هشام بن إسماعيل بن أيوب وسلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد، ولي شرطة المدينة.

قالوا: ومن ولد حفص بن المغيرة عبد الله بن أبي عمر بن حفص بن المغيرة، هو أول خلق الله حاج يزيد بن معاوية.

قالوا: ولنا الأزرق، وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة والي اليمن لابن الزبير، وكان من أجود العرب، وهو ممدوح أبي دهب الجمحي.

قالوا: ولنا شريك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عبد الله بن السائب بن أبي السائب، واسم أبي السائب صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، كان شريك النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية، فجاءه يوم الفتح فقال له: أتعرفني؟ قال: أأست شريكي؟ قال: بلى، قال: لقد كنت خير شريك، لا تشاري ولا تماري.

قالوا: ومنا الأرقم بن أبي الأرقم الذي استتر رسول الله في داره بمكة في أول الدعوة، واسم أبي الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

ومنا أبو سلمة بن عبد الأسد، واسمه عبد الله، وهو زوج أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد أبو سلمة بدرًا، وكان من صلحاء المسلمين.

قالوا: ولنا هبيرة بن أبي وهب، كان من الفرسان المذكورين، وابنه جعدة بن هبيرة، وهو ابن أخت علي بن أبي طالب عليه السلام، أمه أم هانئ بنت أبي طالب، وابنه عبد الله بن جعدة بن هبيرة هو الذي فتح القهندر وكثيراً من خراسان، فقال فيه الشاعر:

لولا ابن جعدة لم تفتح قهندرکم ولا خراسان حتى ينفخ الصور

قالوا: ولنا سعيد بن المسيب الفقيه المشهور. وأما الجواد المشهور فهو الحكم بن المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم.

وقد اختصرنا واقتصرنا على من ذكرنا، وتركنا كثيراً من رجال مخزوم خوف الإسهاب.

وينبغي أن يقال في الجواب: إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقاراً لهم، ولا استصغاراً لشأنهم، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكثر همه يوم المفاخرة أن يفاخر بني عبد شمس لما بينه وبينهم، فلما ذكر مخزوماً بالعرض قال فيهم ما قال، ولو كان يريد مفاخرتهم لما اقتصر لهم على ما ذكره عنهم، على أن أكثر هؤلاء الرجال إسلاميون بعد عصر علي عليه السلام، وعلي عليه السلام إنما يذكر من قبله لا من يجيء بعده.

فإن قلت: إذا كان قد قال في بني عبد شمس إنهم أمتع لما وراء ظهورهم، ثم قال في بني هاشم: إنهم أمتع عند الموت بنفوسهم، فقد تناقض الوصفان.

قلت: لا مناقضة بينهما، لأنه أراد كثرة بني عبد شمس، فبالكثرة تمنع ما وراء ظهورها، وكان بنو هاشم أقل عدداً من بني عبد شمس، إلا أن كل واحد منهم على انفراده أشجع وأمتع بنفسه عند الموت من كل واحد على انفراده من بني عبد شمس، فقد بان أنه لا مناقضة بين القولين.

الأصل: شتان ما بين عمليين، عمل تذهب لذته، وتبقى تبعته، وعمل تذهب مؤونته، ويبقى أجره الشرح: أخذ هذا المعنى بعض الشعراء، فقال:

تفنى اللذاذة ممن نال بغيته من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

الأصل: وقال عليه السلام وقد تبع جنازة فسمع رجلاً يضحك، فقال: كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذي نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجدائهم، ونأكل تراثهم، كأننا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظ وواعظة، ورمينا بكل جائحة.

طوبى لمن ذل في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته، وحسنت خليقته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه، وعزل عن الناس شره، ووسعته السنة، ولم ينسب إلى بدعة.

قال الرضي رحمه الله تعالى: أقول: ومن الناس من ينسب هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. الشرح: الأشهر الأكثر في الرواية أن هذا الكلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثل قوله: "كأن الموت فيها على غيرنا كتب" قول الحسن عليه السلام: ما رأيت حقاً لا باطل فيه أشبه بباطل لا حق فيه من الموت، والألفاظ التي بعده واضحة ليس فيها ما يشرح، وقد تقدم ذكر نظائرها.

الأصل: غيرة المرأة كفر، وغيرة الرجل إيمان.

الشرح: المرجع في هذا إلى العقل والتماسك، فلما كان الرجل أعقل وأشد تماسكاً كانت غيرته في موضعها، وكانت واجبة عليه، لأن النهي عن المنكر واجب، وفعل الواجبات من الإيمان، وأما المرأة فلما كانت أنقص عقلاً وأقل صبراً كانت غيرتها على الوهم الباطل والخيال غير المحقق، فكانت قبيحة لوقوعها غير موقعها، وسماها عليه السلام كفرة لمشاركتها الكفر في القبح فأجرى عليها اسمه.

وأيضاً فإن المرأة قد تؤدي بها الغيرة إلى ما يكون كفراً على الحقيقة كالسحر، فقد ورد في الحديث المرفوع أنه كفر، وقد يفضي بها الضجر والقلق إلى أن تتسخط وتشتم وتلفظ بألفاظ تكون كفراً لا محالة.

الأصل: لأنسب الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي. الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل.

الشرح: خلاصة هذا الفصل تقتضي صحة مذهب أصحابنا المعتزلة في أن الإسلام والإيمان عبارتان عن معبر واحد، وأن العمل داخل في مفهوم هذه اللفظة، ألا تراه جعل كل واحدة من اللفظات قائمة مقام الأخرى في إفادة المفهوم، كما تقول: الليث هو الأسد والأسد هو السبع، والسبع هو أبو الحارث! فلا شبهة أن الليث يكون أبا الحارث! أي أن الأسماء مترادفة، فإذا كان أول اللفظات الإسلام، وآخرها العمل، دل على أن العمل هو الإسلام، وهكذا يقول أصحابنا: إن تارك العمل وتارك الواجب لا يسمى مسلماً.

فإن قلت: هب أن كلامه عليه السلام يدل على ما قلت، كيف يدل على أن الإسلام هو الإيمان؟ قلت: لأنه إذا دل على أن العمل هو الإسلام وجب أن يكون الإيمان هو الإسلام لأن كل من قال: إن العمل داخل في معنى الإسلام، قال: إن الإسلام هو الإيمان، فالقول بأن العمل داخل في معنى الإسلام، وليس الإسلام هو الإيمان، قول لم يقل به أحد، فيكون الإجماع واقعاً على بطلانه.

فإن قلت: إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل كما تقوله المعتزلة، لأن المعتزلة تقول: الإسلام اسم واقع على العمل وغيره من الاعتقاد، والنطق باللسان، وأمير المؤمنين عليه السلام جعل الإسلام هو العمل فقط، فكيف ادعت أن قول أمير المؤمنين عليه السلام يطابق مذهبهم؟

قلت: لا يجوز أن يريد غيره، لأن لفظ العمل يشمل الاعتقاد، والنطق باللسان، وحركات الأركان بالعبادات، إذ كل ذلك عمل وفعل، وإن كان بعضه من أفعال القلوب، وبعضه من أفعال الجوارح، ولو لم يرد أمير المؤمنين عليه السلام ما

شرحناه لكان قد قال: الإسلام هو العمل بالأركان خاصة، ولم يعتبر فيه الاعتقاد القلي، ولا النطق اللفظي، وذلك مما لا يقوله أحد.

الأصل: عجبت للبخل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته القنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء، وعجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفةً، ويكون غداً جيفةً، وعجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله، وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى من يموت، وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت لعامر دار الفناء، وتارك دار البقاء.

الشرح: قال أعرابي: الرزق الواسع لمن لا يستمتع به بمثلة الطعام الموضوع على قبر. ورأى حكيم رجلاً مثيراً يأكل خبزاً وملحاً، فقال: لم تفعل هذا؟ قال: أخاف الفقر، قال: فقد تعجلته. فأما القول في الكبر والتهيه فقد تقدم منه ما فيه كفاية، وقال ابن الأعرابي: ما تاه علي أحد قط أكثر من مرة واحدة، أخذ هذا المعنى شاعر فقال وأحسن:

ت إلى الباب فمني

هذه منك فإن عد

وقد تقدم من كلامنا في نظائر هذه الألفاظ المذكورة ما يغني عن الإطالة ههنا.

"الأصل: من قصر في العمل، ابتلي بالهم.

الشرح: هذا مخصوص بأصحاب اليقين، والاعتقاد الصحيح، فإنهم الذين إذا قصرُوا في العمل ابتلوا بالهم، فأما غيرهم من المسرفين على أنفسهم وذوي النقص في اليقين والاعتقاد، فإنه لا هم يعرفهم وإن قصرُوا في العمل، وهذه الكلمة قد جربناها من أنفسنا فوجدنا مصداقها واضحاً، وذلك أن الواحد منا إذا أحل بفريضة الظهر مثلاً حتى تغيب الشمس وإن كان أحل بها لعذر وجد ثقلاً في نفسه وكسلاً وقلة نشاط، وكأنه مشكول بشكال أو مقيد بقيد، حتى يقضي تلك الفريضة، فكأنما أنشط من عقال.

الأصل: لا حاجة لله فيمن ليس لله في ماله ونفسه نصيب.

الشرح: قد جاء في الخبر المرفوع: "إذا أحب الله عبداً ابتلاه في ماله أو في نفسه".

وجاء في الحديث المرفوع: "اللهم إني أعوذ بك من جسد لا يمرض، ومن مال لا يصاب".

وروى عبد الله بن أنس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أيكم يحب أن يصح فلا يسقم؟"، قالوا: كلنا يا رسول الله، قال: "أتحبون أن تكونوا كالحمير الصائلة، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات! والذي بعثني بالحق إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة لا يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله ليبلغه الله درجة لا يبلغها بعمله".

وفي الحديث أيضاً: "ما من مسلم يمرض مرضاً إلا حث الله به خطاياهم كما تحث الشجرة ورقها".

وروى أبو عثمان النهدي قال: دخل رجل أعرابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو جسمان عظيم، فقال له: متى عهدك بالحمى؟ قال: ما أعرفها، قال: بالصداع، قال: ما أدري ما هو؟ قال: فأصبت بمالك؟ قال: لا، قال: فرزئت بولدك؟ قال: لا، فقال عليه السلام: "إن الله ليكره العفريت النفريت الذي لا يرزأ في ولده ولا يصاب في ماله". وجاء في بعض الآثار: "أشد الناس حساباً الصحيح الفارغ".

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: إن أقر يوم لعيني ليوم لا أجد فيه طعاماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالطعام، وإن الله يحمي عبده المؤمن كما يحمي أحدكم المريض من الطعام". وفي الحديث المرفوع أيضاً: "إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه" قالوا: وما اقتناؤه؟ قال: "ألا يترك له مالاً ولا ولداً".

مر موسى عليه السلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله قد مزقت السباع لحمه وأضلعه، وكبده ملقاة، فوقف متعجباً فقال: أي رب، عبدك المطيع لك ابتليته بما أرى، فأوحى الله إليه: إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله، فجعلت له بما ترى سبيلاً إلى تلك الدرجة.

وجاء في الحديث: "إن زكريا لم يزل يرى ولده يحيى مغموماً باكياً مشغولاً بنفسه، فقال: يا رب طلبت منك ولداً أنتفع به فرزقتني لا نفع لي فيه، فقال له: إنك طلبته ولياً، والولي لا يكون إلا هكذا، مسقماً فقيراً مهموماً.

وقال سفيان الثوري: كانوا لا يعدون الفقيه فقيهاً من لا يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

جابر بن عبد الله يرفعه: "يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء". الأصل: توقوا البرد في أوله، وتلقوه في آخره، فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار، أوله يحرق، وآخره يورق. الشرح: هذه مسألة طبيعية قد ذكرها الحكماء، قالوا: لما كان تأثير الخريف في الأبدان، وتوليد الأمراض كالزكام والسعال وغيرهما أكثر من تأثير الربيع، مع أنهما جميعاً فصلاً اعتدال، وأجابوا بأن برد الخريف يفجأ الإنسان وهو معتاد لحر الصيف فينكأ فيه، ويسد مسام دماغه، لأن البرد يكتف ويسد المسام فيكون كمن دخل من موضع شديد الحرارة إلى خيش بارد فأما المنتقل من الشتاء إلى فصل الربيع فإنه لا يكاد برد الربيع يؤذيه ذلك الأذى لأنه قد اعتاد جسمه برد الشتاء، فلا يصادف من برد الربيع إلا ما قد اعتاد ما هو أكثر منه، فلا يظهر لبرد الربيع تأثير في مزاجه، فأما لم أورقت الأشجار وأزهرت في الربيع دون الخريف؟ فلما في الربيع من الكيفيتين اللتين هما منبع النمو والنفس النباتية، وهما الحرارة والرطوبة وأما الخريف فخال من هاتين الكيفيتين ومستبدل بهما ضدتهما، وهما البرودة واليبس المنافيان للنشوء وحياة الحيوان والنبات. فأما لم كان الخريف بارداً يابساً والربيع حاراً رطباً مع أن نسبة كل واحد منهما إلى الفصلين الخارجين عن الاعتدال وهما الشتاء والصيف نسبة واحدة؟ فإن تعليل ذلك مذكور في الأصول الطبية، والكتب الطبيعية، وليس هذا الموضع مما يحسن أن يشرح فيه مثل ذلك.

الأصل: عظم الخالق عندك يصغر المخلوق في عينك.

الشرح: لا نسبة للمخلوق إلى الخالق أصلاً وخصوصاً البشر، لأنهم بالنسبة إلى فلك القمر كالذرة، ونسبة فلك القمر كالذرة بالنسبة إلى قرص الشمس، بل هم دون هذه النسبة مما يعجز الحاسب الحاذق عن حساب ذلك، وفلك القمر بالنسبة إلى الفلك المحيط دون هذه النسبة، ونسبة الفلك المحيط إلى الباري سبحانه كنسبة العدم المحض والنفي الصرف إلى الموجود البائن، بل هذا القياس أيضاً غير صحيح، لأن المعدوم يمكن أن يصير موجوداً بائناً، والفلك لا يتصور أن يكون صانع العالم الواجب الوجود لذاته.

وعلى الجملة فالأمر أعظم من كل عظيم، وأجل من كل جليل، ولا طاقة للعقول والأذهان أن تعبر عن جلالة ذلك الجنب وعظمته، بل لو قيل: إنها لا طاقة لها أن تعبر عن جلال مصنوعاته الأولى المتقدمة علينا بالرتبة العقلية والزمانية لكان ذلك القول حقاً وصدقاً، فمن هو المخلوق ليقال: إن عظم الخالق يصغره في العين؟ ولكن كلامه عليه السلام محمول على مخاطبة العامة الذين تضيق أفهامهم عما ذكرناه.

الأصل: وقال عليه السلام، وقد رجع من صفين فأشرف على القبور بظاهر الكوفة: يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، والقبور المظلمة. يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق، أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خير ما عندنا، فما خير ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما والله لو أذن لقم في الكلام، لأخبروكم أن خير الزاد التقوى. الشرح: الفرط: المتقدمون، وقد ذكرنا من كلام عمر ما يناسب هذا الكلام، لما ظعن في القبور وعاد إلى أصحابه أحمر الوجه، ظاهر العروق، قال: قد وقفت على قبور الأحبة فناديتها الحديث... إلى آخره، فقل له: فهل أجابتك؟ قال: نعم، قالت: إن خير الزاد التقوى.

وقد جاء في حديث القبور ومخاطبتها وحديث الأموات وما يتعلق بذلك شيء كثير يتجاوز الإحصاء. وفي وصية النبي صلى الله عليه وسلم أبا ذر رضي الله عنه: زر القبور تذكر بها الآخرة ولا تررها ليلاً، وغسل الموتى يتحرك قلبك، فإن الجسد الخاوي عظة بليغة، وصل على الموتى فإن ذلك يجزئك، فإن الحزين في ظل الله. وجد على قبر مكتوباً:

لقاؤك لا يرجى وأنت رقيب

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه

وتنسى كما تبلى وأنت حبيب

تريد بلى في كل يوم وليلة

وقال الحسن عليه السلام: مات صديق لنا صالح، فدفناه ومددنا على القبر ثوباً، فجاء صلة بن أشيم، فرفع طرف الثوب ونادى: يا فلان:

والإفاني لا إخالك ناجيا

إن نتج منها نتج من ذي عزيمة

وفي الحديث المرفوع، إنه عليه السلام كان إذا تبع الجنائز أكثر الصمات، ورئي عليه كآبة ظاهرة، وأكثر حديث النفس. سمع أبو الدرداء رجلاً يقول في جنازة: من هذا؟ فقال: أنت، فإن كرهت فأنا. سمع الحسن عليه السلام امرأة تبكي خلف جنازة، وتقول، يا أبتاه، مثل يومك لم أره! فقال. بل أبوك مثل يومه لم يره. وكان مكحول إذا رأى جنازة قال: اغد فإننا رائحون.

وقال ابن شوذب: اطلعت امرأة صالحة في لحد فقالت لامرأة معها: هذا كندوج العمل - يعني خزانته. وكانت تعطيها الشيء بعد الشيء تأمرها أن تتصدق به، فتقول: اذهبي فضعي هذا في كندوج العمل. شاعر:

نعبي أم يكون لها اصطبار !

أجازة ردينة أن أتاها

إذا ما أهل قبري ودعوني
وغودر أعظمي في لحد قبر
تهب الريح فوق محط قبري
مقيم لا يكلمني صديق
فذاك النأي لا الهجران حولاً
وراحوا والأكف بها غبار
تراوحه الجنائب والقطار
ويرعى حوله اللهق النوار
بقفر لا أزور ولا أزار
وحولاً ثم تجتمع الديار

وقال آخر:

كأنني بإخواني على حافتي قبري
فيا أيها المذري علي دموعه
عفا الله عني يوم أترك ثاويّاً
س تعرض في يوم عني وعن ذكري
أزار فلا أدري وأخفى فلا أدري

وجاء في الحديث المرفوع: "ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفضع منه".

وفي الحديث أيضاً: "القبر أول منزل من منازل الآخرة، فمن نجا منه فما بعده أيسر، ومن لم ينج منه فما بعده شر.

وقال وقد سمع رجلاً يذم الدنيا

الأصل: أيها الزام للدنيا، المغتر بغرورها، المنخدع بأباطيلها، أفتنتن بها ثم تدمها! أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك! متى استهوتك، أم متى غرتك! أمصارع آبائك من البلى، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى! كم عللت بكفيك، وكم مرضت بيديك. تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداة لا يغني عنهم دواؤك، ولا يجدي عليهم بكاؤك! لم ينفع أحدهم إشفائك، ولم تسعف فيه بطلبتك، ولم تدفع عنه بقوتك، وقد علت لك به الدنيا نفسك، ومصرعه مصرعك.

إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها. مسجد أحبائه الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها، وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعمت نفسها وأهلها، فمثلت لهم بيلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور! راحت بعافية، وابتكرت بفجعية، ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمها رجال غداة الندامة، وحملوها آخرون يوم القيامة، ذكروهم الدنيا فذكروا وحدثهم فصدقوا ووعظتهم فاتعظوا.

الشرح: تجرمت على فلان: ادعيت عليه جرماً وذنباً، واستهواه كذا: استزله.

وقوله عليه السلام: "فمثلت لهم بيلائها البلاء"، أي بلاء الآخرة وعذاب جهنم، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، أي إلى سرور الآخرة ونعيم الجنة، وهذا الفصل كله لمدح الدنيا، وهو ينشأ عن اقتداره عليه السلام على ما يريد من المعاني، لأن كلامه كله في ذم الدنيا، وهو الآن يمدحها، وهو صادق في ذلك وفي هذا، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم كلام يتضمن مدح الدنيا أو قريباً من المدح، وهو قوله عليه السلام: "الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحقها بورك له فيها".

واحتذى عبد الله بن المعتز حذو أمير المؤمنين عليه السلام في مدح الدنيا فقال في كلام له: الدنيا دار التأديب والتعريف، التي بمكروها توصل إلى محبوب الآخرة، ومضمار الأعمال، السابقة بأصحابها إلى الجنان، ودرجة الفوز التي يرتقي عليها المتقون إلى دار الخلد، وهي الواعظة لمن عقل، والناصحة لمن قبل، وبساط المهل، وميدان العمل، وقاصمة الجبارين، وملحقة الرغم معاطس المتكبرين، وكاسية التراب أبدان المختالين، وصارعة المغترين، ومفرقة أموال الباخلين، وقاتلة القاتلين، والعادلة بالموت على جميع العالمين، وناصرة المؤمنين، ومبيرة الكافرين، الحسنات فيها مضاعفة، والسيئات بآلامها محو، ومع عسرها يسر، والله تعالى قد ضمن أرزاق أهلها، وأقسم في كتابه بما فيها، ورب طيبة من نعيمها قد حمد الله عليها فتلقتها أيدي الكتبة ووجبت بها الجنة، وكم نائبة من نوائبها، وحادثة من حوادثها، قد راضت الفهم، ونبتت الفطنة، وأذكت القريحة، وأفادت فضيلة الصبر، وكثرت ذخائر الأجر ومن الكلام المنسوب إلى علي عليه السلام: الناس أبناء الدنيا، ولا يلام المرء على حب أمه، أخذه محمد بن وهب الحميري فقال:

ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها وما كنت منه فهو شي محبب

الأصل: إن الله ملكاً ينادي في كل يوم: لدوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب. الشرح: هذه اللام عند أهل العربية تسمى لام العاقبة، ومثل هذا قوله تعالى: "فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً"، ليس أنهم التقطوه لهذه العلة، بل التقطوه فكان عاقبة التقاطهم إياه العداوة والحزن، ومثله:

فللموت ما تلد الوالدة

ومثله قوله تعالى: "ولقد ذرأنا لجهنم"، ليس أنه ذرأهم ليعذبهم في جهنم، بل ذرأهم وكان عاقبة ذرئهم أن صاروا فيها، وبهذا الحرف يحصل الجواب عن كثير من الآيات المتشابهة التي تتعلق بها المجيزة. وأما فحوى هذا القول وخلاصه فهو التنبيه على أن الدنيا دار فناء وعطب، لا دار بقاء وسلامة، وأن الولد يموت، والدور تخرب، وما يجمع من الأموال يفنى.

الأصل: الدنيا دار ممر، لا دار مقر، والناس! فيها رجالان: رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها. الشرح: قال عمر بن عبد العزيز يوماً لجلسائه: أخبروني من أحق الناس؟ قال: رجل باع آخرته بدنياه، فقال: ألا أنبئكم بأحق منه؟ قالوا: بلى، قال: رجل باع آخرته بدنياه غيره. قلت: لقائل أن يقول له: ذاك باع آخرته بدنياه أيضاً، لأنه لو لم يكن له لذة في بيع آخرته بدنياه غيره لما باعها، وإذا كان له في ذلك لذة، فإذا باع آخرته بدنياه، لأن دنياه هي لذته.

الأصل: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته. الشرح: قد تقدم لنا كلام في الصديق والصدقة: وأما النكبة وحفظ الصديق فيها فإنه يقال: في الحبوس مقابر الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. وأما الغيبة فإنه قد قال الشاعر:

وإذا الفتى حسنت مودته

في القرب ضاعفها على البعد

وأما الموت فقد قال الشاعر:

وإني لأستحييه والترب بيننا

كما كنت أستحييه وهو يراني

ومن كلام علي عليه السلام: الصديق من صدق في غيبته.

وقال الحكيم: من أبعد الناس سَفْراً؟ قال: من سافر في ابتغاء الأخ الصالح.
أبو العلاء المعري:

أزرت بكم يا ذوي الألباب أربعة

يتركن أحلامكم نهب الجهالات

ود الصديق، وعلم الكيمياء، وأح

كام النجوم، وتفسير المنامات

قيل للثوري: دلني على جليس أجلس إليه؟ قال: تلك ضالة لا توجد.

الأصل: من أعطي أربعاً لم يحرم أربعاً: من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة، ومن أعطي التوبة لم يحرم القبول، ومن أعطي الاستغفار لم يحرم المغفرة، ومن أعطي الشكر لم يحرم الزيادة.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى، قال في الدعاء: "ادعوني أستجب لكم".

وقال في الاستغفار: "ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً".

وقال في الشكر: "ولئن شكرتم لأزيدنكم".

وقال في التوبة: "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً".

الشرح: في بعض الروايات أن ما نسب إلى الرضي رحمه الله من استنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين عليه السلام وقد سبق القول في كل واحدة من هذه الأربع مستقصىً.

الأصل: الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف، ولكل شيء زكاة، وزكاة البدن الصوم، وجهاد المرأة حسن التبعل.

الشرح: قد تقدم القول في الصلاة والحج والصيام، فأما أن جهاد المرأة حسن التبعل، فمعناه حسن معاشرة بعلها وحفظ ماله وعرضه، وإطاعته فيما يأمر به، وترك الغيرة فإنها باب الطلاق.

بعض الوصايا الحكمية وأوصت امرأة من نساء العرب بنتها ليلة إهدائها فقالت لها: لو تركت الوصية لأحد لحسن أدب وكرم حسب، لتركته لك، ولكنها تذكرة للغافل، ومؤونة للعاقل. إنك قد خلفت العش الذي فيه درجت، والوكر

الذي منه خرجت، إلى منزل لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فكوني له أمة، يكن لك عبداً، واحفظي عني خصالاً عشرين.

أما الأولى والثانية، فحسن الصحابة بالقناعة، وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة، ففي حسن الصحابة راحة القلب، وفي جميل المعاشرة رضا الرب.

والثالثة والرابعة، التفقد لمواقع عینه، والتعهد لمواضع أنفه، فلا تقع عینه منك على قبیح، ولا یجد أنفه منك خبیث ریح، واعلمی أن الکحل أحسن الحسن المفقود، وأن الماء أطیب الطیب الموجود.

والخامسة والسادسة، الحفظ لماله، والإرعاء على حشمه وعباله، واعلمی أن أصل الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، وأصل الإرعاء على الحشم والعیال حسن التدبیر.

والسابعة والثامنة، التعهد لوقت طعامه، والهدو والسكون عند منامه، فحرارة الجوع ملهبة، وتنغیص النوم مغضبة.

والتاسعة والعاشره: لا تفشین له سرّاً، ولا تعصین له أمراً، فإنك إن أفشیت سره لم تأمینی غدره، وإن عصیت أمره أوغرت صدره.

وأوصت امرأة ابنتها وقد أهدتها إلى بعلها، فقالت: کونی له فراشاً، یکن لك معاشاً، وکونی له وطاء، یکن لك غطاءً، وإیاك والاکتئاب إذا کان فرحاً، والفرح إذا کان کثیباً، ولا یطلعن منك على قبیح، ولا یضمن منك إلا طیب ریح.

وزوج عامر بن الطرب ابنته من ابن أخیه، فلما أراد تحویلها قال لأمها: مری ابنتك ألا تترل مفازة إلا ومعها ماء، فإنه للأعلى جلاء، وللأسفل نقاء، ولا تكثر مضاجعته، فإذا مل البدن مل القلب، ولا تمنعه شهوته، فإن الحظوة فی المواقعة.

فلم یلبث إلا شهراً حتى جاءت مشجوجة، فقال لابن أخیه: یا بني ارفع عصاک عن بکرتك، فإن کان من غیر أن تنفر بك فهو الداء الذی لیس له دواء، وإن لم یکن بینكما وفاق ففراق، الخلع أحسن من الطلاق، وأن تترك أهلک ومالك.

فرد علیه صداقها، وخلعها منه، فهو أول خلع کان فی العرب.

وأوصی الفرافصة الکلبی ابنته نائلة حین أهداها إلى عثمان، فقال: یا بنية، إنك تقدمین على نساء من نساء قریش هن أقدر على الطیب منك، ولا تغلبین على حصلتین: الکحل والماء. تطهري حتى یكون ریح جلدك ریح شن أصابه مطر، وإیاك والغیره على بعلک، فإنها مفتاح الطلاق.

وروی أبو عمرو بن العلاء قال: أنکح ضرار بن عمرو الضبی ابنته من معبد بن زرارة، فلما أخرجها إليه قال: یا بنية، أمسکی علیک الفضلین: فضل الغلمة، وفضل الکلام.

قال أبو عمرو: وضرار هذا هو الذی رفع عقیرته بعکاظ، وقال: ألا إن شر حائل أم، فزوجوا الأمهات، قال: وذلك أنه صرع بین الرماح، فأشبلى علیه إخوته لأمه حتى استنقذوه.

وأوصت أعرابية ابنتها عند إهدائها، فقالت لها: اقلعی زج رحه، فإن أقر فاقلعی سنانه، فإن أقر فاکسري العظام بسیفه، فإن أقر فاقطعی اللحم على ترسه، فإن أقر فضعی الأكاف على ظهره، فإنما هو حمار.

وهذا هو قبح التبعل، وذكرناه نحن فی باب حسن التبعل، لأن الضد یذكر بضده.

الأصل: استترلوا الرزق بالصدقة.

الشرح: جاء فی الحدیث المرفوع وقیل: إنه موقوف على عثمان: "تاجروا الله بالصدقة ترجحوا".

وكان یقال: الصدقة صداق الجنة.

وفی الحدیث المرفوع: "ما أحسن عبد الصدقة، إلا أحسن الله الخلافة على مخلفیه".

وعنه صلی الله علیه وسلم: "ما من مسلم یکسو مسلماً ثوباً إلا کان فی حفظ الله ما دام منه رقعة".

وقال عمر بن عبد العزيز: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه.
الأصل: ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية.

الشرح: هذا حق، لأن من لم يوقن بالخلف ويتخوف الفقر يضمن بالعطية، ويعلم أنه إذا أعطى ثم أعطى استنفد ماله، واحتاج إلى الناس لانقطاع مادته، وأما من يوقن بالخلف، فإنه يعلم أن الجود شرف لصاحبه، وأن الجواد ممدوح عند الناس، فقد وجد الداعي إلى السماح - ولا صارف له عنه - لأنه يعلم أن مادته دائمة غير منقطعة، فالصارف الذي يخافه من قدمنا ذكره مفقود في حقه، فلا جرم أنه يجود بالعطية! الأصل: تنزل المعونة على قدر المؤونة.

الشرح: جاء في الحديث المرفوع: "من وسع وسع عليه، وكلما كثر العيال كثر الرزق".
وكان على بعض الموسرين رسوم لجماعة من الفقراء يدفعها إليهم كل سنة، فاستكثرها، فأمر كاتبه بقطعها، فرأى في المنام كأن له أهواء كثيرة في داره، وكأنها تصعد أقدام من الأرض إلى السماء، وهو يجزع من ذلك، فيقول: يا رب رزقي رزقي! فقيل له: إنما رزقناك هذه لتصرفها فيما كنت تصرفها فيه، فإذا قطعت ذلك رفعناها منك، وجعلناها لغيرك. فلما أصبح أمر كاتبه بإعادة تلك الرسوم أجمع.
الأصل: ما عال من اقتصد.

الشرح: ما عال، أي ما افتقر، وقد تقدم لنا قول مقنع في مدح الاقتصاد.
وقال أبو العلاء:

فعند التناهي يقصر المتناول

وإن كنت تهوى العيش فابغ توسطاً

ويدركها النقصان وهي كوامل

توقى البدور النقص وهي أهلة

وهذا الشعر وإن كان في الاقتصاد في المراتب والولايات، إلا أنه مدح للاقتصاد في الجملة، فهو من هذا الباب. وسمع بعض الفضلاء قول الحكماء: التدبير نصف العيش، فقال: بل العيش كله.
الأصل: قلة العيال أحد اليسارين.

الشرح: اليسار الثاني كثرة المال، يقول: إن قلة العيال مع الفقر كاليسار الحقيقي مع كثرهم.
ومن أمثال الحكماء: العيال أرضة المال.
الأصل: التودد نصف العقل.

الشرح: دخل حبيب بن شاذب على جعفر بن سليمان بالبصرة، فقال: نعم المرء حبيب بن شاذب! حسن التودد، طيب الثناء، يكره الزيارة المتصلة، والقعدة المنسية.
وكان يقال: التودد ظاهر حسن، والمعاملة بين الناس على الظاهر، فأما البواطن فيلإ عالم الخفيات.
وكان يقال: قل من تودد إلا صار محبوباً، والمحبوب مستور العيوب.
الأصل: والهم نصف الهرم.

الشرح: من كلام بعض الحكماء. اهتم يشيب القلب، ويعقم العقل، فلا يتولد معه رأي، ولا تصدق معه روية.
وقال الشاعر:

هموم قد أبت إلا التباساً
وتنهد قائماً بشجا حشاه
وأضحت خشعاً منها نزار
تبث الشيب في رأس الوليد
وتطلق للقيام حبا القعود
مركبة الرواجب في الخدود

وقال سفيان بن عيينة: الدنيا كلها هموم وغموم، فما كان منها سرور فهو ربح.
ومن أمثالهم: اهتم كافور الغلظة.
وقال أبو تمام:

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس
وكذاك القلوب في كل بؤس
طال إنكاري البياض ولو عمرت
إلا من فضل شيب الفؤاد
ونعيم طلائع الأجساد
شيئاً أنكرت لون السواد

الأصل: يتزل الصبر على قدر المصيبة، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبته حبط أجره.
الشرح: قد مضى لنا كلام شاف في الصبر، وكان الحسن يقول في قصصه: الحمد لله الذي كلفنا ما لو كلفنا غيره لصرنا فيه إلى معصيته، وآجرنا على ما لا بد لنا منه، يقول: كلفنا الصبر، ولو كلفنا الجزع، لم يمكننا أن نقيم عليه، وآجرنا على الصبر ولا بد لنا من الرجوع إليه.
ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول عند التعزية: عليكم بالصبر، فإن به يأخذ الحازم، ويعود إليه الجازع.
وقال أبو خراش الهذلي يذكر أخاه عروة:

تقول أراه بعد عروة لاهياً
فلا تحسبي أنني تناسيت عهده
وذلك رزء لو علمت جليل
ولكن صبري يا أميم جميل

وقال عمرو بن معد يكرب:

كم من أخ لي صالح
ألبيسته أكفانه
بوائه بيدي لحدا
وخلقت يوم خلقت جلدا

وكان يقال: من حدث نفسه بالبقاء، ولم يوطنها على المصائب، فهو عاجز الرأي. وكان يقال: كفى باليأس معزياً، وبانقطاع الطمع زاجراً! وقال الشاعر:

أيا عمرو لم أصبر ولي فيك حيلة
ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر

تصبرت مغلوباً وإنني لموجع
كما صبر القطان في البلد القفر

الأصل: كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء. حبذا نوم الأكياس وإفطارهم! الشرح: الأكياس ههنا العلماء العارفون، وذلك لأن عباداتهم تقع مطابقة لعقائدهم الصحيحة، فتكون فروعاً راجعةً إلى أصل ثابت، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى، لأنهم إذا لم يعرفوه ولم تكن عباداتهم متوجهة إليه فلم تكن مقبولة، ولذلك فسدت عبادة النصارى واليهود.

وفيه ورد قوله تعالى: "عاملة ناصبة. تصلى ناراً حامية".

الأصل: سوسوا إيمانكم بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء.

الشرح: قد تقدم الكلام في الصدقة والزكاة والدعاء، فلا معنى لإعادة القول في ذلك.

ومن كلام له لكميل بن زياد النخعي

الأصل: قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فأخرجني إلى الجبان، فلما أصحر تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل بن زياد، إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك.

الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله.

يا كميل بن زياد، معرفة العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدثة بعد وفاته. والعلم حاكم، والمال محكوم عليه.

يا كميل بن زياد، هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. ها إن ههنا لعلماً حمماً وأشار إلى صدره - لو أصبت له حملة! بلى أصيب لقناً غير مأمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهِراً بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة. ألا لاذا ولا ذاك، أو منهوماً باللذة، سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع

والادخار، ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامله.

اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبياناته.

وكم ذا! وأين هم أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبياناته حتى يودعوها

نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم. هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلنا ما استوعره

المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في

أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إلى رؤيتهم! انصرف يا كميل إذا شئت.

الشرح: الجبان والجبانة: الصحراء.

وتنفس الصعداء، أي تنفس تنفساً ممدوداً طويلاً.

قوله عليه السلام: "ثلاثة" قسمة صحيحة، وذلك لأن البشر باعتبار الأمور الإلهية: إما عالم على الحقيقة يعرف الله تعالى، وإما شارع في ذلك فهو بعد في السفر إلى الله يطلبه بالتعلم والاستفادة من العالم، وإما لا ذا ولا ذاك، وهو العامي الساقط الذي لا يعبأ الله به. وصدق عليه السلام في أنهم همج رعاع أتباع كل ناعق، ألا تراهم ينتقلون من التقليد لشخص إلى تقليد الآخر، لأدق خيال وأضعف وهم! ثم شرع عليه السلام في ذكر العلم وتفضيله على المال، فقال: "العلم يحرسك، وأنت تحرس المال"، وهذا أحد وجوه التفضيل.

ثم ابتداءً فذكر وجهاً ثانياً فقال: المال ينقص بالإنفاق منه، والعلم لا ينقص بالإنفاق بل يزداد، وذلك لأن إفاضة العلم على التلامذة تفيد المعلم زيادة استعداد، وتقرر في نفسه تلك العلوم التي أفاضها على تلامذته وتثبتها وتزيدها رسوخاً.

فأما قوله: "وصنيع المال يزول بزواله"، فتحتته سر دقيق حكيم، وذلك لأن المال إنما يظهر أثره ونفعه في الأمور الجسمانية، والملاذ الشهوانية، كالنساء والخيل والأبنية والمأكول والمشرب والملابس ونحو ذلك، وهذه الآثار كلها تزول بزوال المال أو بزوال رب المال، ألا ترى أنه إذا زال المال اضطر صاحبه إلى بيع الأبنية والخيل والإماء، ورفض تلك العادة من المأكول الشهية والملابس البهية! وكذلك إذا زال رب المال بالموت، فإنه تزول آثار المال عنده: فإنه لا يبقى بعد الموت أكلاً شارباً لابساً، وأما آثار العلم فلا يمكن أن تزول أبداً والإنسان في الدنيا، ولا بعد خروجه عن الدنيا، أما في الدنيا فلأن العالم بالله تعالى لا يعود جاهلاً به، لأن انتفاء العلوم البديهيّة عن الذهن وما يلزمها من اللوازم بعد حصولها محال، فإذا قد صدق قوله عليه السلام في الفرق بين المال والعلم: "إن صنيع المال يزول بزواله"، أي وصنيع العلم لا يزول ولا يحتاج إلى أن يقول "بزواله" لأن تقدير الكلام: وصنيع المال يزول، لأن المال يزول وأما بعد خروج الإنسان من الدنيا فإن صنيع العلم لا يزول، وذلك لأن صنيع العلم في النفس الناطقة اللذة العقلية الدائمة لدوام سببها، وهو حصول العلم في جوهر النفس الذي هو معشوق النفس مع انتفاء ما يشغلها عن التمتع به، والتلذذ بمصاحبتها، والذي كان يشغلها عنه في الدنيا استغراقها في تدبير البدن، وما تورده عليها الحواس من الأمور الخارجية، ولا ريب أن العاشق إذا خلا بمعشوقه، وانتفت عنه أسباب الكدر، كان في لذة عظيمة، فهذا هو سر قوله: "وصنيع المال يزول بزواله".

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام: "معرفة العلم دين يداّن به"، وهل هذا إلا بمزلة قولك: معرفة المعرفة أو علم العلم! وهذا كلام مضطرب.

قلت: تقديره: معرفة فضل العلم أو شرف العلم، أو وجوب العلم دين يداّن به، أي المعرفة بذلك من أمر الدين، أي ركن من أركان الدين واجب مفروض.

ثم شرح حال العلم الذي ذكر أن معرفة وجوبه أو شرفه دين يداّن به، فقال: "العلم يكسب الإنسان الطاعة في حياته"، أي من كان عالماً كان لله تعالى مطيعاً، كما قال سبحانه: "إنما يخشى الله من عباده العلماء".

ثم قال: "وجميل الأحدثة بعد وفاته"، أي الذكر الجميل بعد موته.

ثم شرع في تفضيل العلم على المال من وجه آخر، فقال: "العلم حاكم، والمال محكوم عليه"، وذلك لعلمك أن مصلحتك في إنفاق هذا المال تنفقه، ولعلمك بأن المصلحة في إمساكه تمسكه، فالعلم بالمصلحة داع، وبالمضرة صارف، وهما الأمران

الحاكمان بالحركات والتصرفات إقداماً، وإحجاماً، ولا يكون القادر قادراً مختاراً إلا باعتبارهما، وليس إلا عبارة عن العلم أو ما يجري مجرى العلم من الاعتقاد والظن، فإذا قد بان وظهر أن العلم من حيث هو علم حاكم، وأن المال ليس بحاكم، بل محكوم عليه.

ثم قال عليه السلام: "هلك خزان المال وهم أحياء"، وذلك لأن المال المخزون لا فرق بينه وبين الصخرة المدفونة تحت الأرض، فخازنه هالك لا محالة، لأنه لم يلتذ بإنفاقه، ولم يصرفه في الوجوه التي ندب الله تعالى إليها، وهذا هو الهلاك المعنوي، وهو أعظم من الهلاك الحسي.

ثم قال: "والعلماء باقون ما بقي الدهر"، هذا الكلام له ظاهر وباطن، فظاهرة قوله: "أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة"، أي آثارهم وما دونه من العلوم، فكأنهم موجودون وباطنه أنهم موجودون حقيقة لا مجازاً، على قول من قال ببقاء الأنفس وأمثالهم في القلوب كناية ولغز، ومعناه ذواتهم في حظيرة القدوس، والمشاركة بينها وبين القلوب ظاهرة، لأن الأمر العام الذي يشملهما هو الشرف، فكما أن تلك أشرف عالمها، كذا القلب أشرف عالمه، فاستعير لفظ أحدهما وعبر به عن الآخر.

قوله عليه السلام: "ها إن ههنا لعلماً جمّاً، وأشار بيده إلى صدره". هذا عندي إشارة إلى العرفان والوصول إلى المقام الأشرف الذي لا يصل إليه إلا الواحد الفذ من العالم ممن لله تعالى فيه سر، وله به اتصال. ثم قال: "لو أصبت له حملة!" ومن الذي يطيق حملة! بل من الذي يطيق فهمه فضلاً عن حملة! ثم قال: "بلى أصيب". ثم قسم الذي يصيبهم خمسة أقسام.

أحدها: أهل الرياء والسمعة، الذين يظهرون الدين والعلم ومقصودهم الدنيا، فيجعلون الناموس الديني شبكة لاقتناص الدنيا.

وثانيها. قوم من أهل الخير والصلاح ليسوا بذوي بصيرة في الأمور الإلهية الغامضة.

فيخاف من إفشاء السر إليهم أن تنقدح في قلوبهم شبهة بأدق خاطر، فإن مقام المعرفة مقام خطر صعب لا يثبت تحته إلا الأفراد من الرجال، الذين أيدوا بالتوفيق والعصمة.

وثالثها: رجل صاحب لذات وطرب مشتهر بقضاء الشهوة، فليس من رجال هذا الباب.

ورابعها: رجل عرف بجمع المال وادخاره، لا ينفقه في شهواته ولا في غير شهواته، فحكمه حكم القسم الثالث.

ثم قال عليه السلام: "كذلك يموت العلم بموت حامله"، أي إذا مات مات العلم الذي في صدري، لأنني لم أجد أحداً أدفعه إليه، وأورثه إياه. ثم استدرك فقال: "اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله تعالى: كيلا يخلو الزمان ممن هو مهيمن لله تعالى على عباده، ومسيطر عليهم، وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية، إلا أن أصحابنا يحملونه على أن المراد به الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عنهم أنهم في الأرض سائحون، فمنهم من يعرف، ومنهم من لا يعرف، وأنهم لا يموتون حتى يودعوا السر، وهو العرفان عند قوم آخرين يقومون مقامهم.

ثم استتر عددهم فقال: "وكم ذا!" أي كم ذا القبيل! وكم ذا الفريق! ثم قال: "وأين أولئك!" استبهم مكانهم ومحلهم.

ثم قال: "هم الأقلون عدداً، الأعظمون قدراً".

ثم ذكر أن العلم هجم بهم على حقيقة الأمر، وانكشف لهم المستور المغطى، وباشروا راحة اليقين وبرد القلب وثلج العلم، واستلنوا ما شق على المترفين من الناس، ووعر عليهم نحو التوحد، ورفض الشهوات وخشونة العيشة.

قال: "وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون"، يعني العزلة وبجانبه الناس، وطول الصمت، وملازمة الخلوة، ونحو ذلك مما هو شعار القوم.

قال: "وصحبوا الدنيا بأرواح أبدانها معلقة بالحلل الأعلى"، هذا مما يقوله أصحاب الحكمة من تعلق النفوس المجردة بمبادئها من العقول المفارقة، فمن كان أزكى كان تعلقه بها أتم.

ثم قال: "أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه"، لا شبهة أن بالوصول يستحق الإنسان أن يسمى خليفة الله في أرضه، وهو المعني بقوله سبحانه للملائكة: "إني جاعل في الأرض خليفة"، وبقوله: "هو الذي جعلكم خلائف في الأرض".

ثم قال: "آه آه شوقاً إلى رؤيتهم"؟ هو عليه السلام أحق الناس بأن يشترك إلى رؤيتهم، لأن الجنسية علة الضم، والشيء يشترك إلى ما هو من سنخه وسوسته وطبيعته، ولما كان هو شيخ العارفين وسيدهم - لا جرم - اشتاقت نفسه الشريفة إلى مشاهدة أبناء جنسه، وإن كان كل واحد من الناس دون طبقته.

ثم قال لكميل: "انصرف إذا شئت"، وهذه الكلمة من محاسن الآداب، ومن لطائف الكلام، لأنه لم يقتصر على أن قال: "انصرف" كيلا يكون أمراً وحكماً بالانصراف لا محالة، فيكون فيه نوع علو عليه، فأتبع ذلك بقوله: "إذا شئت" ليخرجه من ذل الحكم وقهر الأمر إلى غرة المشيئة والاختيار.

الأصل: المرء محبوب تحت لسانه.

الشرح: قد تكرر هذا المعنى مراراً، فأما هذه اللفظة فلا نظير لها في الإيجاز والدلالة على المعنى. وهي من ألفاظه عليه السلام المعدودة.

وقال الشاعر:

زيادته أو نقصه في التكلم

وكائن ترى من صامت لك معجب

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

وتكلم عبد الملك بن عمير وأعرابي حاضر، فقيل له: كيف ترى هذا؟ فقال: لو كان كلام يؤتد به لكان هذا الكلام مما يؤتد به.

وتكلم جماعة من الخطباء عند مسلمة بن عبد الملك فأسهبوا في القول، ولم يصنعوا شيئاً، ثم أفرغ النطق رجل من أخرياتهم، فجعل لا يخرج من فن إلا إلى أحسن منه، فقال مسلمة: ما شبهت كلام هذا بعقب كلام هؤلاء إلا بسحابة لبدت عجاجة.

وسمع رجل منشداً ينشد:

وكان أخلائي يقولون مرحباً

فلما رأوني مقتراً مات مرحب

فقال: أخطأ الشاعر، إن مرحباً لم يمت، وإنما قتله علي بن أبي طالب عليه السلام! وقال رجل لأعرابي: كيف أهلك؟ قال: صلباً إن شاء الله.

وكان مسلمة بن عبد الملك يعرض الجند، فقال لرجل: ما اسمك؟ فقال: "عبد" الله، وخفض، فقال: ابن من؟ فقال: ابن "عبد" الله، وفتح، فأمر بضربه، فجعل يقول: "سبحان" الله، ويضم، فقال مسلمة: ويحكم! دعوه فإنه محبوب على اللحن والخطأ، لو كان تاركاً للحن في وقت لتركه وهو تحت السياط.

الأصل: هلك أمرؤ لم يعرف قدره.

الشرح: هذه الكلمة من كلماته المعدودة. وكتب النعمان بن عبد الله إلى القاسم بن عبيد الله كتاباً يدل فيه بخدمته، ويستزيد في رزقه، فوقع على ظهره: رحم الله امرأً عرف قدره! أنت رجل قد أعجبتك نفسك فلست تعرفها، فإن أحببت أن أعرفكها عرفتك. فكتب إليه النعمان: كنت كتبت إلى الوزير أعزه الله كتاباً أستزيده في رزقي، فوقع على ظهره توقيع ضجر لم يخرج فيه مع ضجره عما ألقته من حياطته وحسن نظره، فقال: إنه قد حدث لعبده عجب بنفسه، وقد صدق - أعلى الله قدره - لقد شرفني الوزير بخدمته، وأعلى ذكرني بجميل ذكره، ونبه على كفايتي باستكفائه، ورفعني وكثرتني عند نفسي، فإن أعجبت فبنعمته عندي، وجميل تطوله علي، ولا عجب، وهل خلا الوزير من قوم يصطنعهم بعد ملة ويرفعهم بعد خمول، ويحدث لهم همماً رفيعة وأنفساً عليّة، وفيهم شاكر وكفور، وأرجو أن أكون أشكرهم للنعمة، وأقومهم بحققها. وقال أطال الله بقاءه: إن عرف نفسه وإلا عرفناه إياها، فما أنكرها، وهي نفس أنشأها نعمة الوزير وأحدثت فيها ما لم تزل تحدثه في نظرائها من سائر عبيده وخدمه، والله يعلم ما يأخذ به نفسه من خدمة مولاه وولي نعمته، إما عادةً ودربة وإما تأديباً وهيبة، وإما شكراً واستدامةً للنعمة.

فلما قرأ القاسم بن عبيد الله كتابه استحسنته، وزاد في رزقه.

وقال عليه السلام لرجل سألته أن يعظه

الأصل: لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويرجو التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراكبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويتعجى الزيادة فيما بقي، ينهى ولا ينتهي، ويأمر الناس بما لم يأت.

يجب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت من أجله، إن سقم ظل نادماً، وإن صح أمن لاهياً. يعجب بنفسه إذا عوفي، ويقنط إذا ابتلي! وإن أصابه بلاء دعا مضطراً، وإن ناله رخاء أعرض مغترّاً، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، يخاف على غيره باع دني من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله إن استغنى بطن وفتن، وإن افتقر قنط ووهن، يقصر إذا عمل، ويبالغ إذا سأل، إن عرضت له شهوة أسلف المعصية، وسوف التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة.

يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ، فهو بالقول مدل ومن العمل مقل.

ينافس فيما يفنى، ويسامح فيما يبقى، يرى الغنم مغرمًا، والغرم مغنمًا، يخشى الموت، ولا يبادر الفوت، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن، ولنفسه مداهن.

اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره، يرشد نفسه ويغوي غيره، فهو يطاع ويعصى، ويستوفي ولا يوفي، ويخشى الخلق في غير ربه، ولا يخشى ربه في خلقه. قال الرضي رحمه الله تعالى: ولو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة، وحكمة بالغة، وبصيرة لمبصر، وعبرة لناظر مفكر.

الشرح: كثير من الناس يرجون الآخرة بغير عمل، ويقولون: رحمة الله واسعة، ومنهم من يظن أن التلفظ بكلمتي الشهادة كاف في دخول الجنة، ومنهم من يسوف نفسه بالتوبة، ويرجى الأوقات من اليوم إلى غد، وقد يخترم على غرة فيفوته ما كان أملاً، وأكثر هذا الفصل للنهي عن أن يقول الإنسان واعظاً لغيره ما لم يعلم هو من نفسه، كقوله تعالى: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم".

فأول كلمة قالها عليه السلام في هذا المعنى من هذا الفصل قوله: "يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين".

ثم وصف صاحب هذا المذهب وهذه الطريقة فقال: "إنه إن أعطي من الدنيا لم يشبع"، لأن الطبيعة البشرية مجبولة على حب الازدياد، وإنما يقهرها أهل التوفيق وأرباب العزم القوي.

قال: "وإن منع منها لم يقنع" بما كان وصل إليه قبل المنع.

ثم قال: يعجز عن شكر ما كان أنعم به عليه، ليس يعني العجز الحقيقي، بل المراد ترك الشكر، فسمى ترك الشكر عجزاً. ويجوز أن يحمل على حقيقته، أي أن الشكر على ما أولي من النعم لا تنتهي قدرته إليه، أي نعم الله عليه أجل وأعظم من أن يقام بواجب شكرها.

قال: "ويبتغي الزيادة فيما بقي"، هذا راجع إلى النحو الأول.

قال: "ينهى ولا ينتهي ويأمر الناس بما لا يأتي"، هذا كما تقدم.

قال: "يجب الصالحين ولا يعمل عملهم"، إلى قوله: "وهو أحدهم"، وهو المعنى الأول بعينه.

قال: يكره الموت لكثرة ذنوبه، وقيم على الذنوب، وهذا من العجائب أن يكره إنسان شيئاً ثم يقيم عليه، ولكنه الغرور وتسويق النفس بالأمان.

ثم قال: "إن سقم ظل نادماً، وإن ص! أمن لاهياً"، "فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين" ... الآيات.

قال: "يعجب بنفسه إذا عوفي، ويقنط إذا ابتلي" "فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن"، ومثل الكلمة الأخرى: "إن أصابه بلاء"، و "إن ناله رخاء".

ثم قال: "تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن"، هذه كلمة جلييلة عظيمة يقول: هو يستيقن الحساب والثواب والعقاب، ولا يغلب نفسه على مجانبة ومتاركة ما يفضي به إلى ذلك الخطر العظيم، وتغلبه نفسه على السعي إلى ما يظن أن فيه لذة عاجلة، فواعجباً ممن يترجح عنده جانب الظن على جانب العلم! وما ذاك إلا لضعف يقين الناس وحب العاجل. ثم قال: "يخاف على غيره بأدق من ذنبه، ويرجو لنفسه أكثر من عمله"، ما يزال يرى الواحد منا كذلك يقول: إني لخائف على فلان من الذنب الفلاني وهو مقيم على أفحش من ذلك الذنب، ويرجو لنفسه النجاة بما لا تقوم أعماله الصالحة بالمصير إلى النجاة به، نحو أن يكون يصلي ركعات في الليل أو يصوم أياماً يسيرة في الشهر، ونحو ذلك. قال: "إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط ووهن" قنط بالفتح يقنط بالكسر، قنوطاً مثل جلس يجلس جلوساً، ويجوز قنط يقنط بالضم مثل قعد يقعد، وفيه لغة ثالثة: قنط يقنط قنطاً، مثل تعب يتعب تعباً وقناطة فهو قنط، وبه قرئ: "فلا تكن من القانطين"، والقنوط اليأس. ووهن الرجل يهن، أي ضعف وهذا المعنى قد تكرر. قال: "يقصر إذا عمل، ويبالغ إذا سئل"، هذا مثل ما مدح به النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار: "إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع".

قال: "إن عرضت له شهوة أسلف المعصية، وسوف التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة"، هذا كما قيل: أمدحه نقداً ويثيبي نسيئة، وانفراج عن شرائط الملة، قال: أو فعل ما يقتضي الخروج عن الدين؟ وهذا موجود في كثير من الناس إذا عرته المحن كفر أو قال ما يقارب الكفر من التسخط والتبرم والتأفف. قال: "يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ"، هذا هو المعنى الأول. قال: "فهو بالقول مدل، ومن العمل مقل"، هذا هو المعنى أيضاً. قال: "ينافس فيما يفنى"، أي في شهوات الدنيا ولذاتها، و"يسامح فيما يبقى" أي في الثواب. قال: "يرى الغنم مغرمًا، والغرم مغنماً"، هذا هو المعنى الذي ذكرناه آنفاً. قال: "يخشى الموت، ولا يبادر الفوت"، قد تكرر هذا المعنى في هذا الفصل، وكذلك قوله: "يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه..."، وإلى آخر الفصل كل مكرر وإن اختلفت الألفاظ، وذلك لاقتداره عليه السلام على العبارة، وسعة مادة النطق عنده.

الأصل: لكل امرئ عاقبة حلوة أو مرة.

الشرح: هكذا قرأناه ووجدناه في كثير من النسخ، ووجدناه في كثير منها "لكل أمر عاقبة"، وهو الأليق، ومثل هذا المعنى قولهم في المثل: لكل سائل قرار، وقد أخذه الطائي فقال:

فكانت لوعة ثم استقرت

كذاك لكل سائلة قرار

وقال الكميت في مثل هذا:

فالآن صرت إلى أُمي

ة والأمور إلى مصائر

فأما الرواية الأولى وهي: "لكل امرئ فنظائرها في القرآن كثيرة، نحو قوله تعالى: "يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد"، وقوله: "يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى"، وغير ذلك من الآيات. الأصل: الراضي يفعل قوم كالداحل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثم: إثم العمل به، وإثم الرضا به. الشرح: لا فرق بين الرضا بالفعل وبين المشاركة فيه، ألا ترى أنه إذا كان الفعل قبيحاً استحق الراضي به الذم كما يستحقه الفاعل له! والرضا يفسر على وجهين: الإرادة، وترك الاعتراض، فإن كان الإرادة فلا ريب أنه يستحق الذم لأن مرید القبيح فاعل للقبيح، وإن كان ترك الاعتراض مع القدرة على الاعتراض فلا ريب أنه يستحق الذم أيضاً، لأن تارك النهي عن المنكر مع ارتفاع الموانع يستحق الذم.

فأما قوله عليه السلام: "وعلى كل داخل في باطل إثم"، فإن أراد الداحل فيه بأن يفعله حقيقة فلا شبهة في أنه يأثم من جهتين: إحداهما من حيث إنه أراد القبيح.

والأخرى من حيث إنه فعله، وإن كان قوم من أصحابنا قالوا: إن عقاب المراد هو عقاب الإرادة. وإن أراد أن الراضي بالقبيح فقد يستحق إثمين: أحدهما لأنه رضي به، والآخر لأنه كالفاعل، فليس الأمر على ذلك، لأنه ليس بفاعل للقبيح حقيقة ليستحق الإثم من جهة الإرادة ومن جهة الفعلية جميعاً، فوجب إذن أن يحمل كلامه عليه السلام على الوجه الأول.

الأصل: يكل مقبل إدبار، وما أدبر فكأن لم يكن.

الشرح: هذا معنى قد استعمل كثيراً جداً، فمنه المثل:

ما طار طير وارتفع

إلا كما طار وقع

وقال الشاعر:

بقدر العلو يكون الهبوط

وإياك والرتب العالية

وقال بعض الحكماء: حركة الإقبال بطيئة، وحركة الإدبار سريعة، لأن المقبل كالصاعد إلى مرقاة، ومرقاة المدير كالمقذوف به من علو إلى أسفل، قال الشاعر:

في هذه الدار في هذا الرواق على

هذي الوسادة كان العز فانقرضا

آخر:

إن الأمور إذا دنت لزوالها

فعلامه الإدبار فيها تظهر

وفي الخبر المرفوع: كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد على الصحابة ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن حقاً على الله ألا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه". وقال شيخ من همدان: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع بهدايا، فمكثت تحت قصره حولاً لا أصل إليه، ثم أشرف

إشرافه من كوة- له فخر له من حول العرش سجداً، ثم رأيته بعد ذلك بجمص فقيراً يشتري اللحم ويسمطه خلف دابته، وهو القائل:

أف لدينا إذا كانت كذا
إن صفا عيش امرئ في صباحها
لقد كنت إذا ما قيل من
أنعم العالم عيشاً؟ قيل: ذا

وقال بعض الأدباء في كلام له: بينا هذه الدنيا ترضع بدرتها وتصرح بزبدتها، وتلحف فضل جناحها، وتغر بركود رياحها، إذ عطفت عطف الضروس، وصرحت صراخ الشموس، وشتت غارة الهموم، وأراقت ما حلبت من النعيم، فالسعيد من لم يغتر بنكاحها، واستعد لو شك طلاقها.
شاعر- هو إهاب بن همام بن صعصعة المجاشعي، وكان عثمانياً:

لعمر أببك فلا تكذبين
وقد فتن الناس في دينهم
لقد ذهب الخير إلا قليلا
وخلى ابن عفان شراً طويلا

وقال أبو العتاهية:

يعمر بيت بخراب بيت
يعيش حي بتراث ميت

وقال أنس بن مالك: ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه، سمعت ذلك من نبيكم صلى الله عليه وسلم، فقال شاعر:

رب يوم بكيت منه فلما
صرت في غيره بكيت عليه

قيل لبعض عظماء الكتاب بعد ما صودر: ما تفكر في زوال نعمتك؟ فقال: لا بد من الزوال، فلأن تزول وابقى خير من أن أزول وتبقى.

ومر كلام الجاهلية الأولى: كل مقيم شاخص، وكل زائد ناقص.
شاعر:

إنما الدنيا دول
إذا نازل قيل رحل
فراحل قيل نزل

لما فتح خالد بن الوليد عين التمر سأل عن الحرقة بنت النعمان بن المنذر، فأتاها وسألها عن حالها، فقالت: لقد طلعت علينا الشمس وما من شيء يدب تحت الخورنق إلا وهو تحت أيدينا، ثم غربت وقد رحمتنا كل من نلم به، وما بيت دخلته حيرة، إلا استدخله عبرة، ثم قالت:

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا
إذا نحن فيهم سوقة نتتصف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها

تقلب تارات بنا وتصرف

وجاءها سعد بن أبي وقاص مرة، فلما رآها، قال: قاتل الله عدي بن زيد، كأنه كان ينظر إليها حيث قال لأبيها:

إن للدهر صرعة فاحذرنها

لا تبيتن قد أمنت الدهورا

قد يبيت الفتى معافى فيردى

ولقد كان آمناً مسرورا

وقال مطرف بن الشخير: لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظروا إلى سرعة طعنهم وسوء منقلبهم، وإن عمراً قصيراً يستوجب به صاحبه النار لعمر مشؤوم على صاحبه.

لما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد وقعد على فراشه، قالت ابنة مروان له: يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليها لمبلغ في عظتك إن عقلت.

الأصل: لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان.

الشرح: قد تقدم كلامنا في الصبر.

وقالت الحكماء: الصبر ضربان. جسيمي ونفسي، فالجسيمي تحمل المشاق بقدر القوة البدنية، وليس ذلك بفضيلة تامة، ولذلك قال الشاعر:

والصبر بالأرواح يعرف فضله

صبر الملوك وليس بالأجسام

وهذا النوع إما في الفعل كالمشي ورفع الحجر أو في رفع الانفعال كالصبر على المرض واحتمال الضرب المقطع. وأما النفسي ففيه تتعلق الفضيلة، وهو ضربان: صبر عن مشتهى، ويقال له: عفة، وصبر على تحمل مكروه أو محبوب. وتختلف أسماءه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان في نزول مصيبة لم يتعد به اسم الصبر، ويضاده الجزع والهلع والحزن، وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس، ويضاده البطر والأشر والرفغ وإن كان في محاربة سمي شجاعةً ويضاده الجبن، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حلمًا، ويضاده التذمر والاستشاطاة، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة صدر، ويضاده الضجر وضيق العطن والتبرم، وإن كان في إمساك كلام في الضمير سمي كتمان السر، ويضاده الإفشاء، وإن كان عن فضول العيش سمي قناعةً وزهدًا ويضاده الحرص والشره. فهذه كلها أنواع الصبر، ولكن اللفظ العرفي واقع على الصبر الجسماني، وعلى ما يكون في نزول المصائب، وتنفرد باقي الأنواع بأسماء تخصها.

الأصل: ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداها ضلالة.

الشرح: هذا عند أصحابنا مختص باختلاف الدعوة في أصول الدين، ويدخل في ذلك الإمامة، لأنها من أصول الدين، ولا يجوز أن يختلف قولان متضادان في أصول الدين فيكونا صوابًا، لأنه إن عني بالصواب مطابقة الاعتقاد للخارج، فمستحيل أن يكون الشيء في نفسه ثابتاً منفيًا، وإن أراد بالصواب سقوط الإثم - كما يحكى عن عبيد بن الحسن العنبري - فإنه جعل اجتهاد المجتهدين في الأصول عذرا، فهو قول مسبوق بالإجماع.

ولا يحمل أصحابنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام على عمومته، لأن المجتهدين في فروع الشريعة وإن اختلفوا وتضادت أقوالهم ليسوا ولا واحد منهم على ضلال، وهذا مشروح في كتبنا الكلامية في أصول الفقه.

الأصل: ما كذبت ولا كذبت، ولا ضللت ولا ضل بي.

الشرح: هذه كلمة قد قالها مراراً، إحداهن في وقعة النهروان.

وكذبت بالضم أخبرت بخبر كاذب، أي لم يخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المخدج خيراً كاذباً، لأن أخباره صلى الله عليه وسلم كلها صادقة.

وضل بي، بالضم نحو ذلك، أي لم يضللي مضلل عن الصدق والحق، لأنه كان يستند في إخباره عن الغيوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مته عن إضلاله وإضلال أحد من المكلفين.

فكأنه قال لما أخبرهم عن المخدج وإبطاء ظهوره لهم: أنا لم أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكذب فيما أخبرني بوقوعه، فإذا لا بد من ظفركم بالمخدج فاطلبوه.

الأصل: للظالم البادي غداً بكفه عضة.

الشرح: هذا من قوله تعالى: "ويوم يعض الظالم على يديه"، وإنما قال: "للبادي" لأن من انتصر بعد ظلمه فلا سبيل عليه. ومن أمثالهم: البادي أظلم.

فإن قلت: فإذا لم يكن بادياً لم يكن ظالماً، فأبي حاجة له إلى الاحتراز بقوله: "البادي"؟ قلت: لأن العرب تطلق على ما يقع في مقابلة الظلم اسم "الظلم" أيضاً كقوله تعالى: "وجزاء سيئة سيئة مثلها".

الأصل: الرحيل وشيك.

الشرح: الوشيك: السريع، وأراد بالرحيل ههنا الرحيل عن الدنيا وهو الموت.

وقال بعض الحكماء: قبل وجود الإنسان عدم لا أول له، وبعده عدم لا آخر له، وما شبهت وجوده القليل المتناهي بين العدمين غير المتناهيين إلا بريق يخطف خطفة خفيفة في ظلام معتكر، ثم يخمد ويعود الظلام كما كان.

الأصل: من أبدى صفحته للحق هلك.

الشرح: قد تقدم تفسيرنا لهذه الكلمة في أول الكتاب، ومعناها: من نابذ الله وحاربه هلك، يقال لمن خالف وكاشف: قد أبدى صفحته.

الأصل: استعصموا بالذمم في أوتارها.

الشرح: أي في مظانها وفي مركزها، أي لا تستندوا إلى ذمام الكافرين والمارقين فإنهم ليسوا أهلاً للاستعصام بذممهم، كما قال الله تعالى: "لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة". وقال: "إنهم لا إيمان لهم".

وهذه كلمة قالها بعد انقضاء أمر الحمل وحضور قوم من الطلقاء بين يديه ليبياعوه، منهم مروان بن الحكم، فقال: وماذا أصنع ببيعتك؟ ألم تبايعني بالأمس! يعني بعد قتل عثمان، ثم أمر بإخراجهم ورفع نفسه عن مبايعة أمثالهم، وتكلم بكلام ذكر فيه ذمام العربية وذمام الإسلام، وذكر أن من لا دين له فلا ذمام له.

ثم قال في أثناء الكلام: "فاستعصموا بالذمم في أوتارها"، أي إذا صدرت عن ذوي الدين، فمن لا دين له لا عهد الأصل: عليكم بطاعة من لا تعذرون في جهالته.

الشرح: يعني نفسه عليه السلام: وهو حق على المذهبين جميعاً، أما نحن فعندنا أنه إمام واجب الطاعة بالاختيار، فلا يعذر أحد من المكلفين في الجهل بوجوب طاعته، وأما على مذهب الشيعة فلا أنه إمام واجب الطاعة بالنص، فلا يعذر أحد من المكلفين في جهالة إمامته، وعندهم أن معرفة إمامته تجري بمعرفة محمد صلى الله عليه وسلم وبمعرفة الباري سبحانه، ويقولون: لا تصح لأحد صلاة ولا صوم ولا عبادة إلا بمعرفة الله والني والإمام.

وعلى التحقيق، فلا فرق بيننا وبينهم في هذا المعنى، لأن من جهل إمامة علي عليه السلام وأنكر صحتها ولزومها، فهو عند أصحابنا مخلد في النار، لا ينفعه صوم ولا صلاة، لأن المعرفة بذلك من الأصول الكلية التي هي أركان الدين، ولكن لا نسمي منكر إمامته كافراً، بل نسميه فاسقاً، وخارجياً، ومارقاً، ونحو ذلك، والشيعة تسميه كافراً، فهذا هو الفرق بيننا وبينهم، وهو في اللفظ لا في المعنى.

الأصل: ما شككت في الحق منذ أريته.

الشرح: أي منذ أعلمته، ويجب أن يقدر ههنا مفعول محذوف، أي منذ أريته حقاً، لأن "أرى" يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، تقول: "أرى الله زيداً عمراً خيراً الناس، فإذا بنيت للمفعول به قام واحد من الثلاثة مقام الفاعل ووجب أن يؤتى بمفعولين غيره، تقول: أريت زيداً خيراً الناس، وإن كان أشار بالحق إلى أسر مشاهد بالبصر لم يحتج إلى ذلك، ويجوز أن يعني بالحق الله سبحانه وتعالى، لأن الحق من أسمائه عز وجل، فيقول: منذ عرفت الله لم أشك فيه، وتكون الرؤية بمعنى المعرفة، فلا يحتاج إلى تقدير مفعول آخر، وذلك مثل قوله تعالى: "وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم" أي لا تعرفونهم، الله يعرفهم، والمراد من هذا الكلام ذكر نعمة الله عليه في أنه منذ عرف الله سبحانه لم يشك فيه، أو منذ عرف الحق في العقائد الكلامية والأصولية والفقهية لم يشك في شيء منها، وهذه مزية له ظاهرة على غيره من الناس، فإن أكثرهم أو كلهم يشك في الشيء بعد أن عرفه وتعتوره الشبه والوساوس ويران على قلبه وتخلجه الشياطين عما أدى إليه نظره. وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قاضياً ضرب على صدره وقال: "اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه"، فكان يقول: ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ "وتعيها أذن واعية" قال: "اللهم اجعلها أذن علي"، وقيل له: "قد أجيبت دعوتك".

الأصل: وقد بصرتم إن أبصرتم، وقد هديتم إن اهتديتم.

الشرح: قال الله تعالى: "وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى". وقال سبحانه: "وهديناه النجدين".

وقال بعض الصالحين: ألا إنهما نجدا الخير والشر، فجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير. قلت: النجد: الطريق.

واعلم أن الله تعالى قد نصب الأدلة ومكن المكلف بما أكمل له من العقل من الهداية، فإذا ضل فمن قبل نفسه أتي. وقال بعض الحكماء: الذي لا يقبل الحكمة هو الذي ضل عنها ليست هي الضالة عنه.

وقال: متى أحسست بأنك قد أخطأت وأردت ألا تعود أيضاً فتخطئ فانظر إلى أصل في نفسك حدث عنه ذلك الخطأ، فاحتل في قلعه، وذلك أنك إن لم تفعل ذلك عاد فثبت خطأ آخر. وكان يقال: كما أن البدن الخالي من النفس تفوح منه رائحة النتن، كذلك النفس الخالية من الحكمة، وكما أن البدن الخالي من النفس ليس يحس ذلك بالبدن بل الذين لهم حس يحسونه به، كذلك النفس العديمة للحكمة ليس تحس به تلك النفس، بل يحس به الحكماء، وقيل لبعض الحكماء: ما بال الناس ضلوا عن الحق؟ أتقول: إنهم لم تخلق فيهم قوة معرفة؟ فقال: لا، بل خلق لهم ذلك، ولكنهم استعملوا تلك القوة على غير وجهها، وفي غير ما خلقت له، كالسم تدفعه إلى إنسان ليقتل به عدوه فيقتل به نفسه. الأصل: عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شره بالإنعام عليه.

الشرح: الأصل في هذا قول الله تعالى: "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم". وروى المبرد في "الكامل" عن ابن عائشة، عن رجل من أهل الشام، قال: دخلت المدينة، فرأيت رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسن وجهاً ولا ثوباً ولا سمتاً ولا دابة منه، فمال قلبي إليه، فسألت عنه، فقيل: هذا الحسن بن الحسن بن علي، فامتلاً قلبي له بغضاً، وحسدت عليه أن يكون له ابن مثله، فصرت إليه وقلت له: أنت ابن أبي طالب؟ فقال: أنا ابن ابنه، قلت: فبك وبأبيك! فلما انقضى كلامي قال: أحسبك غريباً؟ قلت: أجل، قال: فصل بنا، فإن احتجت إلى منزل أنزلناك، أو إلى مال واسيناك، أو إلى حاجة عاوناك. فانصرفت عنه وما على الأرض أحد أحب إلي منه. وقال محمود الوراق:

و غفرت ذاك له على علم	إني شكرت لظالمي ظلمي
لما أبان بجهله حلمي	ورأيته أهدى إلي يداً
ساني فعاد مضاعف الجرم	رجعت إساءته عليه وإح
وغدا بكسب الظلم والإثم	وغدوت ذا أجر ومحمدة
وأنا المسيء إليه في الحكم	فكأنما الإحسان كان له
حتى بكيت له من الظلم	ما زال يظلمني وأرحمه

قال المبرد: أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش قال له رجل منهم: إني مررت بآل فلان وهم يشتمونك شتماً رحمتك منه، قال: أفسمعتني أقول إلا خيراً! قال: لا، قال: إياهم فارحم.

وقال رجل لأبي بكر: لأشتمنك شتماً يدخل معك قبرك، فقال: معك والله يدخل، لا معي.

الأصل: من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء به الظن.

الشرح: رأى بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً في درب من دروب المدينة ومعه امرأة فسلم عليه، فرد عليه، فلما جاوزه ناداه فقال: هذه زوجتي فلانة، قال: يا رسول الله، أوفيك يظن! فقال: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم".

وجاء في الحديث المرفوع: "دع ما يريك إلى ما لا يريك".
وقال أيضاً: "لا يكمل إيمان عبد حتى يترك ما لا بأس به".
وقد أخذ هذا المعنى شاعر فقال:

هذا المقرطق واقفاً ما يصنع !

وزعمت أنك لا تلوط فقل لنا

وعلى المريب شواهد لا تدفع

شهدت ملاحظته عليك بريية

الأصل: من ملك استأثر.

الشرح: المعنى أن الأغلب في كل ملك يستأثر على الرعية بالمال والعز والجاه.

ونحو هذا المعنى قولهم: من غلب سلب، ومن عز بز.

ونحوه قول أبي الطيب:

ذا عفة فلعله لا يظلم

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

الأصل: من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها.

الشرح: قد تقدم لنا قول كاف في المشورة مدحاً وذمماً.

وكان عبد الملك بن صالح الهاشمي يذمها ويقول: ما استشرت واحداً قط إلا تكبر علي وتصاغرت له، ودخلته العزة ودخلتني الذلة، فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب، واشتبهت عليك المسائل، وأداك الاستبداد إلى الخطأ الفادح.

وكان عبد الله بن طاهر يذهب إلى هذا المذهب، ويقول: ما حك جلدك مثل ظفرك، ولأن أخطيء مع الاستبداد أُلَف خطأ، أحب إلي من أن أَسْتَشِير وأرى بعين النقص والحاجة.

وكان يقال: الاستشارة إذاعة الشر، ومخاطرة بالأمر الذي ترومه بالمشاورة، فرب مستشار أذاع عنك ما كان فيه فساد تدبيرك.

وأما المادحون للمشورة فكثير جداً. وقالوا: خاطر من استبد برأيه.

وقالوا: المشورة راحة لك، وتعس على غيرك.

وقالوا: من أكثر من المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً.

وقالوا: المستشار على طرف النجاح، والاستشارة من عزم الأمور.

وقالوا: المشورة لقاح العقول، ورائد الصواب.

ومن ألفاظهم البديعة: ثمرة رأي المشير أحلى من الأري المشور.

وقال بشار:

بعزم نصيح أو مشورة حازم

إذا باخ الرأي النصيحة فاستعن

فإن الخوافي عدة للقوادم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة

الأصل: من كتم سره كانت الخيرة في يده.

الشرح: قد تقدم القول في السر والأمر بكتمانه، ونذكر ههنا أشياء أخرى: من أمثالهم: مقتل الرجل بين لحييه.

دنا رجل من آخر فساره، فقال: إن من حق السر التداني.

كان مالك بن مسجع إذا ساره إنسان قال له: أظهره، فلو كان فيه خير لما كان مكتوماً.

حكيم يوصي ابنه: يا بني كن جواداً بالمال في موضع الحق، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر.

ومن كلامهم: سرك من دمك، فإذا تكلمت به فقد أركته.

وقال الشاعر:

فلا تفش سرك إلا إليك

فإن لكل نصيح نصيحا

ألم تر أن غواة الرجال

لا يتركون أديماً صحيحاً !

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية الأسرار والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره.

وقال بعض الحكماء: من أفشى سره كثر عليه المتآمرون.

أسر رجل إلى صديق سراً ثم قال له: أفهمت؟ قال له: بل جهلت، قال: أحفظت؟ قال: بل نسيت.

وقيل لرجل: كيف كتمانك السر؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخير.

أنشد الأصمعي قول الشاعر:

إذا جاوز الاثنين سر فإنه

بنث وتكثر الوشاة قمين

فقال: والله ما أراد بالاثنتين إلا الشفتين الأصل: الفقر الموت الأكبر.

الشرح: في الحديث المرفوع: "أشقى الأشقياء من جمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة".

وأتى بزرجمهر فقير جاهل، فقال: بئسما اجتمع على هذا البائس: فقر ينقص دنياه، وجهل يفسد آخرته.

شاعر:

خلق المال واليسار لقوم

وأراني خلقت للإملاق

أنا فيما أرى بقية قوم

خلقوا بعد قسمة الأرزاق

أخذ السيواسي هذا المعنى، فقال في قصيدته الطويلة المعروفة بالساسانية:

ليت شعري لما بدا يقسم الأر

زاق في أي مطبق كنت

قرئ على أحد جاني دينار:

قرنت بالنجح وبى كل ما

يراد من ممتنع يوجد

وعلى الجانب الآخر:

وكل من كنت له آلفاً

فالإنس والجن له أعبد

وقال أبو الدرداء: من حفظ ماله فقد حفظ الأكثر من دينه وعرضه.

بعضهم:

وإذا رأيت صعوبة في مطلب

فاحمل صعوبته على الدينار

تردده كالظهر الذلول فإنه

حجر يلين قوة الأحجار

ومن دعاء السلف: اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى.

الأصل: من قضى حق من لا يقضى حقه فقد عبده.

الشرح: عبده بالتشديد، أي اتخذ عبداً، يقال: عبده واستعبده. بمعنى واحد، والمعنى بهذا الكلام مدح من لا يقضى حقه، أي من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنه لم يفعل معه ذلك مكافأة له عن حق قضاه إياه، بل فعل ذلك إنعاماً مبتدأ، فقد استعبده بذلك.

وقال الشاعر في نقض هذه الحال يخاطب صاحباً له:

كن كأن لم تلاقني قط في الناء

س ولا تجعلن ذكراي شوقا

وتيقن بأنني غير راء

لك حقاً حتى ترى لي حقا

وبأنني مفوق ألف سهم

لك إن فوقت يمينك فوقاً

الأصل: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الشرح: هذه الكلمة قد رويت مرفوعة، وقد جاء في كلام أبي بكر: أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم.

وقال معاوية لشداد بن أوس: قم فاذكر علياً فانتقصه، فقام شداد فقال: الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده، وجعل رضاه عند أهل التقوى أثر من رضا غيره، على ذلك مضى أولهم، وعليه مضى آخرهم. أيها الناس، إن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر وإن الدنيا أكل حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن السامع المطيع لله لا حجة عليه وإن السامع العاصي لله لا حجة له، وإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإذا أراد الله بالناس خيراً استعمل عليهم صلحاءهم، وقضى بينهم فقهاؤهم، وجعل المال في سمحاتهم، وإذا أراد بالعباد شراً عمل عليهم سفهاؤهم، وقضى بينهم جهلاؤهم، وجعل المال عند بخلائهم. وإن من إصلاح الولاية أن تصلح قرنائها. ثم التفت إلى معاوية فقال: نصحك يا معاوية من أسخطك بالحق، وغشك من أرضاك بالباطل! فقطع معاوية عليه كلامه، وأمر بإنزاله، ثم لطفه وأمر له بمال، فلما قبضه قال: ألسنت من السمحاء الذين ذكرت؟ فقال: إن كان لك مال غير مال المسلمين أصبته حلالاً، وأنفقتة إفضالاً فنعيم، وإن كان مال المسلمين احتجبتة دونهم أصبته اقتراً، وأنفقتة إسرافاً، فإن الله يقول: "إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين".

الأصل: لا يعاب المرء بتأخير حقه، إنما يعاب من أخذ ما ليس له.

الشرح: لعل هذه الكلمة قالها في جواب سائل سأله: لم أخرت المطالبة بحقك من الإمامة؟ ولا بد من إضمار شيء في الكلام على قولنا وقول الإمامية، لأننا نحن نقول: الأمر حقه بالأفضلية وهم يقولون: إنه حقه بالنص، وعلى كلا التقديرين فلا بد من إضمار شيء في الكلام، لأن لقائل أن يقول له عليه السلام: لو كان حقك من غير أن يكون للمكلفين فيه نصيب لجاز ذلك أن يؤخر كالدين الذي يستحق على زيد، يجوز لك أن تؤخره لأنه خالص لك وحدك، فأما إذا كان للمكلفين فيه حاجة ماسة لم يكن حقك وحدك، لأن مصالح المكلفين منوطة بإمامتك دون إمامة غيرك، فكيف يجوز لك تأخير ما فيه مصلحة المكلفين؟ فإذا لا بد من إضمار شيء في الكلام. وتقديره: لا يعاب المرء بتأخير حقه إذا كان هناك مانع عن طلبه، ويستقيم المعنى حينئذ على المذهبين جميعاً، لأنه إذا كان هناك مانع جاز تقديم غيره عليه، وجاز له أن يؤخر طلب حقه خوف الفتنة، والكلام في هذا الموضوع مستقصى في تصانيفنا في علم الكلام.

الأصل: الإعجاب يمنع من الازدياد.

الشرح: قد تقدم لنا قول مقنع في العجب، وإنما قال عليه السلام: "يمنع من الازدياد" لأن المعجب بنفسه ظان أنه قد بلغ الغرض، وإنما يطلب الزيادة من يستشعر التقصير لا من يتخيل الكمال، وحقيقة العجب ظن الإنسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها، ولهذا قال بعضهم لرجل رآه معجباً بنفسه: يسري أن أكون عند الناس مثلك في نفسك، وأن أكون عند نفسي مثلك عند الناس، فتمنى حقيقة ما يقدره ذلك الرجل، ثم تمنى أن يكون عارفاً بعيوب نفسه، كما يعرف الناس عيوب ذلك الرجل المعجب بنفسه.

وقيل للحسن: من شر الناس؟ قال: من يرى أنه خيرهم.

وقال بعض الحكماء: الكاذب في نهاية البعد من الفضل، والمرائي أسوأ حالاً من الكاذب، لأنه يكذب فعلاً، وذاك يكذب قولاً، والفعل أكد من القول، فأما المعجب بنفسه فأسوأ حالاً منهما، لأنهما يريان نقص أنفسهما، ويريدان إخفاءه، والمعجب بنفسه قد عمي عن عيوب نفسه فإراها محاسن ويديها.

وقال هذا الحكيم أيضاً: ثم إن المرائي والكاذب قد ينتفع بهما كمالح خاف ركابه الغرق من مكان مخوف من البحر، فبشرهم بتجاوزه قبل أن يتجاوزه لئلا يضطربوا فيتعجل غرقهم.

وقد يحمد رياء الرئيس إذا قصد أن يقتدى به في فعل الخير، والمعجب لا حظ له في سبب من أسباب المحمدة بحال.

وأيضاً فلائك إذا وعظت الكاذب والمرائي فنفسهما تصدقك وتلبههما لمعرفتهما بنفسهما، والمعجب فلهجه بنفسه يظنك في وعظه لاغياً، فلا ينتفع بمقالك، وإلى هذا المعنى أشار سبحانه بقوله: "أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً"، ثم قال سبحانه: "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات"، تنبيهاً على أنهم لا يعقلون لإعجابهم.

وقال عليه السلام: ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه.

وفي المثل: إن إبليس قال: إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لم أطالبه بغيرها: إذا أعجب بنفسه، واستكثر عمله، ونسي ذنوبه.

وقالت الحكماء: كما أن المعجب بفرسه لا يروم أن يستبدل به غيره، كذلك المعجب بنفسه لا يريد بحاله بدلاً، وإن كانت رديئة.

وأصل الإعجاب من حب الإنسان لنفسه، وقد قال عليه السلام: "حبك الشيء يعمي ويصم"، ومن عمي وصم تعذر عليه رؤية عيوبه وسماعها، فلذلك وجب على الإنسان أن يجعل على نفسه عيوناً تعرفه عيوبه، نحو ما قال عمر: أحب الناس إلي امرؤ أهدى إلي عيوبه.

ويجب على الإنسان إذا رأى من غيره سيئة أن يرجع إلى نفسه، فإن رأى ذلك موجوداً فيها نزعها ولم يغفل عنها، فما أحسن ما قال المتنبي:

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وأما التيه وماهيته فهو قريب من العجب، لكن المعجب يصدق نفسه وهماً فيما يظن بها، والتياه يصدقها قطعاً، كأنه متحير في تيه. ويمكن أن يفرق بينهما بأمر آخر، ويقول: إن المعجب قد يعجب بنفسه ولا يؤذي أحداً بذلك الإعجاب، والتياه يضم إلى الإعجاب الغض من الناس والترفع عليهم، فيستلزم ذلك الأذى لهم، فكل تائه معجب، وليس كل معجب تائهاً.

الأصل: الأمر قريب، والاصطحاب قليل.

الشرح: هذه الكلمة تذكر بالموت وسرعة زوال الدنيا، وقال أبو العلاء:

شراً إلي فجل الواحد الصمد

وتلك تزعم أن الظالم الجسد

فإن ذاك لأحداث الزمان يد

موصولة واستراح الآخر الجمد

نفسي وجسمي لما استجمعا صنعا

فالجسم يعذل فيه النفس مجتهداً

إذا هما بعد طول الصحبة افترقا

وأصبح الجوهر الحساس في محن

الأصل: قد أضاء الصبح لذي عينين.

الشرح: هذا الكلام جار مجرى المثل، ومثله:

والشمس لا تخفى عن الأبصار

ومثله:

إن الغزاة لا تخفى عن البصر

وقال ابن هانئ يمدح المعتز:

ما بالصباح عن العيون خفاء

لكن أرضاً تحتويه سماء

فاستيقظوا من رقدة وتنبهوا

ليست سماء الله ما ترونها

الأصل: ترك الذنب أهون من طلب التوبة.

الشرح: هذا حق، لأن ترك الذنب هو الإحجام عنه، وهذا سهل على من يعرف أثر الذنب على ماذا يكون، وهو أسهل من أن يواقع الإنسان الذنب، ثم يطلب التوبة، فقد لا يخلص داعيه إليها، ثم لو خلس فكيف له بحصوله على شروطها، وهي أن يندم على القبيح لأنه قبيح، لا لخوف العقاب، ولا لرجاء الثواب، ثم لا يكفيه أن يتوب من الزنا وحده، ولا من شرب الخمر وحده، بل لا تصح توبته حتى تكون عامة شاملة لكل القبائح فيندم على ما قال ويود أنه لم يفعل، ويعزم على ألا يعاود معصية أصلاً، وإن نقض التوبة عادت عليه الآثام القديمة، والعقاب المستحق أولاً الذي كان سقط بالتوبة على رأي كثير من أرباب علم الكلام، ولا ريب أن ترد الذنب من الابتداء أسهل من طلب توبة هذه صفتها.

وهذا الكلام جار مجرى المثل يضرب لمن يشرع في أمر يخاطر فيه، ويرجو أن يتخلص منه فيما بعد بوجه من الوجوه.

الأصل: كم من أكلة تمنع أكالات.

الشرح: أخذ هذا المعنى بلفظه الحريري فقال في المقامات: "رب أكلة هاضت الأكل، ومنعته مأكلاً"، وأخذه أبو العلاف الشاعر فقال في سنوره الذي يرثيه:

يأكلك الدهر أكل مضطهد

ويحك هلا قنعت بالقدد!

فأخرجت روحه من الجسد

أردت أن تأكل الفراخ ولا

ما من لذيذ الفراخ أوقعه

كم أكلة خامرت حشا شره

نوادير عن المكثرين من الأكل وكان ابن عياش المنتوف يمازح المنصور أبا جعفر فيحتمله على أنه كان جداً كله، فقدم المنصور لجلسائه يوماً بطة كثيرة الدهن، فأكلوا وجعل يأمرهم بالازدياد من الأكل لطبيعتها، فقال ابن عياش: قد علمت غرضك يا أمير المؤمنين، إنما تريد أن ترميهم منها بالحجاب - يعني الهيضة - فلا يأكلوا إلى عشرة أيام شيئاً.

وفي المثل: "أكلة أبي خارجة" وقال أعرابي وهو يدعو الله بباب الكعبة: اللهم ميتة كميته أبي خارجة، فسألوه فقال: أكل بذجاً - وهو الحمل -، وشرب وطباً من اللبن - ويروى من النبيذ - وهو كالحوض من جلود ينبذ فيه، ونام في الشمس فمات فلقي الله تعالى شبعان ريان دفيئاً.

والعرب تعبر بكثرة الأكل، وتعييب بالخشع والشره والنهم، وقد كان فيهم قوم موصوفون بكثرة الأكل منهم معاوية، قال أبو الحسن المدائني في "كتاب الأكلة": كان يأكل في اليوم أربع أكالات أخراهن عظماءهن، ثم يتعشى بعدها بشريدة عليه بصل كثير، ودهن كثير قد شغلها. وكان أكله فاحشاً يأكل فيلطح منديلين أو ثلاثة قبل أن يفرغ، وكان يأكل حتى يستلقي ويقول: يا غلام، ارفع، فلأني والله ما شبعت ولكن مللت.

وكان عبيد الله بن زياد يأكل في اليوم خمس أكالات أخراهن خبية بعسل، ويوضع بين يديه بعد أن يفرغ الطعام عناق أو جدي فيأتي عليه وحده.

وكان سليمان بن عبد الملك المصيبة العظمى في الأكل، دخل إلى الرافقة فقال لصاحب طعامه: أطعمنا اليوم من خرفان

الرافقة، ودخل الحمام فأطال، ثم خرج فأكل ثلاثين خروفاً بثمانين رغيفاً، ثم قعد على المائدة فأكل مع الناس كأنه لم يأكل شيئاً.

وقال الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص: قدم سليمان الطائف وقد عرفت استجاعته، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب ابنه إلى بستان لي هناك يعرف "بالرھط فقال: ناهيك بمالك هذا لولا جرار فيه، قلت: يا أمير المؤمنين، إنما ليست بجرار ولكنها جرار الزبيب، فضحك، ثم جاء حتى ألقى صدره على غصن شجرة هناك، وقال: يا شمردل، أما عندك شيء تطعمني؟ وقد كنت استعددت له، فقلت: بلى والله عندي جدي كانت تغدو عليه حافلة، وتروح عليه أخرى، فقال: عجل به، فجئت به مشوياً كأنه عكة سمن، فأكله لا يدعو عليه عمر ولا ابنه، حتى إذا بقي فخذ قال: يا عمر، هلم، قال: إني صائم. ثم قال: يا شمردل، أما عندك شيء قلت: بلى، دجاجات خمس كأهّن رتلان النعام، فقال: هات، فأتيته بهن، فكان يأخذ برجل الدجاجة حتى يعري عظامها، ثم يلقيها، حتى أتى عليهن، ثم قال: ويحك يا شمردل! أما عندك شيء، قلت: بلى سويق كأنه قراضة الذهب ملتوت بعسل وسمن؟ قال: هلم، فجئت به بعس تغيب فيه الرأس، فأخذه فطعم به جبهته حتى أتى عليه، فلما فرغ تجشأ كأنه صارخ في جب، ثم التفت إلى طباخة فقال: ويحك! أفرغت من طبيخك؟ قال: نعم، قال: وما هو؟ قال: نيف وثمانون قدراً، قال: فأتني بما قدراً قدراً، فعرضها عليه، وكان يأكل من كل قدر لقمتين أو ثلاثاً، ثم مسح يده، واستلقى على قفاه، وأذن للناس، ووضعت الموائد، فقعد فأكل مع الناس كأنه لم يطعم شيئاً.

قالوا. وكان الطعام الذي مات منه سليمان، أنه قال لديراني كان صديقه قبل الخلافة: ويحك! لا تقطعني أطفالك التي كنت تلتفني بها على عهد الوليد أخي، قال: فأتيته يوماً بزنبيلين كبيرين أحدهما بيض مسلوق، والآخر تين، فقال: لقمني، فكنت أقشر البيضة وأقرها بالتينة وألقمه، حتى أتى على الزنبيلين، فأصابته تحمة عظيمة ومات. ويحكى أن عمرو بن معد يعرب أكل عتراً رباعية وفرقاً من ذرة - والفرق ثلاثة أصع - وقال لامرأته: عاجلي لنا هذا الكبش حتى أرجع، فجعلت توقد تحته وتأخذ عضواً عضواً فتأكله، فاطلعت فإذا ليس في القدر إلا المرق، فقامت إلى كبش آخر فذبحته وطبخته، ثم أقبل عمرو فثردت له في جفنة العجين وكفأت القدر عليها، فمد يده وقال: يا أم ثور، دونك الغداء، قالت: قد أكلت، فأكل الكبش كله ثم اضطجع ودعاها إلى الفراش فلم يستطع الفعل، فقالت له: كيف تستطيع وبينك كبشان! وقد روي هذا الخبر عن بعض العرب، وقيل: إنه أكل حواراً وأكلت امرأته حائلاً، فلما أراد أن يدنو منها وعجز قالت له: كيف تصل إلي وبينك بعيران.

وكان الحجاج عظيم الأكل، قال مسلم بن قتيبة: كنت في دار الحجاج مع ولده وأنا غلام، فقيل: قد جاء الأمير، فدخل الحجاج فأمر بتنوير فنصب، وأمر رجلاً أن يخبز له خبز الملة، ودعا بسمك، فأتوه به، فجعل يأكل حتى أكل ثمانين جاماً من السمك بثمانين رغيفاً من خبز الملة.

وكان هلال بن أشعر المازني موصوفاً بكثرة الأكل، أكل ثلاث جفان ثريد، واستسقى، فجاءوه بقربة مملوءة نبيذاً فوضعوا فمها في فمه حتى شربها باشرها.

وكان هلال بن أبي بردة أكولاً، قال قصابه: جاءني رسوله سحرةً فأتيته وبين يديه كانون فيه جمر وتيس ضخيم، فقال: دونك هذا التيس فاذبحه فذبحته وسلخته، فقال: أخرج هذا الكانون إلى الرواق وشرح اللحم وكبه على النار، فجعلت كلما استوى شيء قدمته إليه حتى لم يبق من التيس إلا العظام وقطعة لحم على الجمر، فقال لي: كلها، فأكلتها، ثم شرب خمسة أقداح، وناولني قدحاً فشربته فهزني، وجاءته جارية ببرمة فيها ناهضان ودجاجتان وأرغفة، فأكل ذلك كله، ثم جاءته جارية أخرى بقصعة مغطاة لا أدري ما فيها، فضحك إلى الجارية، فقال: ويحك! لم يبق في بطني موضع لهذا، فضحكت الجارية وانصرفت، فقال لي: الحق باهلك.

وكان عنبسة بن زياد أكولاً لهماً، فحدث رجل من ثقيف قال: دعاني عبيد الله الأحمر فقلت لعنبسة: هل لك يا ذبحة - وكان هذا لقبه - في إتيان الأحمر! فمضينا إليه، فلما رآه عبيد الله رحب به وقال للخباز: ضع بين يدي هذا مثل ما تضع بين يدي أهل المائدة كلهم، فجعل يأتيه بقصعة وأهل المائدة بقصعة، وهو يأتي عليها، ثم أتاه بجدي فأكله كله، ونهض القوم فأكل ما تخلف على المائدة، وخرجنا فلقينا خلف بن عبد الله القطامي، فقال له: يا خلف: أما تغديني يوماً؟ فقلت لخلف: ويحك! لا تجده مثل اليوم. فقال له: ما تشتهي؟ قال: تمرّاً وسمناً، فانطلق به إلى منزله فجاء بخمس جلال تمرّاً وجرة سمناً، فأكل الجميع وخرج، فمر برجل يبي داره ومعه مائة رجل، وقد قدم لهم سمناً وتمرّاً، فدعاه إلى الأكل معهم، فأكل حتى شكوه إلى صاحب الدار، ثم خرج فمر برجل بين يديه زنبيل فيه خبز أرز يابس بسمسسم وهو يبيعه فجعل يساومه ويأكل حتى أتى على الزنبيل، فأعطيت صاحب الزنبيل ثمن خبزه.

وكان ميسرة الرأس أكولاً، حكى عنه عند المهدي محمد بن المنصور أنه يأكل كثيراً، فاستدعاه وأحضر فيلاً، وجعل يرمي لكل واحد منهما رغيفاً حتى أكل كل واحد منهما تسعة وتسعين رغيفاً، وامتنع الفيل من تمام المائة، وأكل ميسرة تمام المائة وزاد عليها.

وكان أبو الحسن العلاف والد أبي بكر بن العلاف الشاعر المحدث أكولاً دخل يوماً على الوزير أبي بكر محمد المهلي، فأمر الوزير أن يؤخذ حماره فتذبح ويطبخ بماء وملح، ثم قدم له على مائدة الوزير، فأكل وهو يظنه لحم البقر، ويستطيعه حتى أتى عليه، فلما خرج ليركب طلب الحمار، فقيل له: في جوفك.

وكان أبو العالية أكولاً، نذرت امرأة حامل إن أتت بذكر تشبع أبا العالية خبيصاً، فولدت غلاماً، فأحضرتها، فأكل سبع جفان خبيصاً، ثم أمسك وخرج، فقيل له: إنها كانت نذرت أن تشبعك، فقال: والله لو علمت ما شبعت إلى الليل. الأصل: الناس أعداء ما جهلوا.

الشرح: هذه الكلمة قد تقدمت وتقدم منا ذكر نظائرها. والعلة في أن الإنسان عدو ما يجهله أنه يخاف من تقريره بالنقص وبعدم العلم بذلك الشيء، خصوصاً إذا ضمه ناد أو جمع من الناس فإنه تتصاغر نفسه عنده إذا خاضوا فيما لا يعرفه وينقص في أعين الحاضرين، وكل شيء آذاك ونال منك فهو عدوك.

الأصل: من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ.

الشرح: قد قالوا في المثل: شر الرأي الدبري.

وقال الشاعر:

وخير الرأي ما استقبلت منه

وليس بأن تتبعه اتباعاً

وليس المراد بهذا الأمر سرعة فصل الحال لأول خاطر، ولأول رأي، إن ذلك خطأ، وقديماً قيل: دع الرأي يغب. وقيل: كل رأي لم يخمر ويبيت فلا خير فيه.

وإنما المنهي عنه تضييع الفرصة في الرأي، ثم محاولة الاستدراك بعد أن فات وجه الرأي، فذاك هو الرأي الدبري. الأصل: من أحد سنان الغضب لله قوي على قتل أشداء الباطل.

الشرح: هذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلمة تتضمن استعارة تدل على الفصاحة، والمعنى أن من أرهف عزمه على إنكار المنكر، وقوي غضبه في ذات الله ولم يخف ولم يخلوفاً، أعانه الله على إزالة المنكر، وإن كان قوياً صادراً من جهة عزيزة الجانب، وعنهما وقعت الكناية بأشياء الباطل. الأصل: إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه. الشرح: ما أحسن ما قال المتنبي في هذا المعنى:

وإذا لم يكن من الموت بد

فمن العجز أن تكون جباناً

كل ما لم يكن من الصعب في الآن

فس سهل فيها إذا هو كانا

وقال آخر:

لعمرك ما المكروه إلا ارتقابه

وأعظم مما حل ما يتوقع

وقال آخر:

صعوبة الرزء تلقى في توقعه

مستقبلاً وانقضاء الرزء أن يقعا

وكان يقال: توسط الخوف تأمن.

ومن الأمثال العامية: أم المقتول تنام، وأم المهدي لا تنام.

وكان يقال: كل أمر من خير أو شر فسماعه أعظم من عيانه.

وقال قوم من أهل الملة وليسوا عند أصحابنا مصيبين: إن عذاب الآخرة المتوعد به إذا حل بمستحقه وجدوه أهون مما كانوا يسمعون في الدنيا، والله أعلم بحقيقة ذلك.

الأصل: آلة الرياسة سعة الصدر.

الشرح: الرئيس محتاج إلى أمور، منها الجود، ومنها الشجاعة، ومنها - وهو الأهم - سعة الصدر، فإنه لا تتم الرئاسة إلا بذلك.

وكان معاوية واسع الصدر كثير الاحتمال، وبذلك بلغ ما بلغ.

حكايات حول سعة الصدر ونحن نذكر من سعة الصدر حكايتين دالتين على عظم محله في الرئاسة، وإن كان مذموماً في باب الدين، وما أحسن قول الحسن فيه وقد ذكر عنده عقيب ذكر أبي بكر وعمر، فقال: كانا والله خيراً منه، وكان أسود منهما.

الحكاية الأولى: وفد أهل الكوفة على معاوية حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده، وفي أهل الكوفة هانئ بن عروة المرادي - وكان سيداً في قومه - فقال يوماً في مسجد دمشق والناس حوله: العجب لمعاوية يريد أن يقسرنا على بيعه يزيد، وحاله حاله، وما ذاك والله بكائن! وكان في القوم غلام من قريش جالساً، فتحمل الكلمة إلى معاوية، فقال معاوية: أنت سمعت هانئاً يقولها؟ قال: نعم، قال: فاخرج فأث حلقته، فإذا خف الناس عنه فقل له: أيها الشيخ، قد وصلت كلمتك إلى معاوية، ولست في زمن أبي بكر وعمر، ولا أحب أن تتكلم بهذا الكلام فإنهم بنو أمية، وقد عرفت جرأهم وإقدامهم، ولم يدعني إلى هذا القول لك إلا النصيحة والإشفاق عليك، فانظر ما يقول، فأتني به.

فأقبل الفتى إلى مجلس هانئ، فلما خف من عنده دنا منه فقص عليه الكلام وأخرج محرج النصيحة له، فقال هانئ: والله يا بن أخي ما بلغت نصيحتك كل ما أسمع، وإن هذا الكلام لكلام معاوية أعرفه! فقال الفتى: وما أنا ومعاوية! والله ما يعرفني، قال: فلا عليك، إذا لقيته فقل له: يقول لك هانئ: والله ما إلى ذلك من سبيل، انفض يا بن أخي راشداً! فقام الفتى فدخل على معاوية فأعلمه، فقال: نستعين بالله عليه.

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد: ارفعوا حوائجكم - وهانئ فيهم - فعرض عليه كتابه فيه ذكر حوائجه، فقال: يا هانئ، ما أراك صنعت شيئاً، زد، فقام هانئ فلم يدع حاجة عرضت له إلا وذكرها، ثم عرض عليه الكتاب فقال: أراك قصرت فيما طلبت، زد، فقام هانئ فلم يدع حاجة لقومه ولا لأهل مصره إلا ذكرها، ثم عرض عليه الكتاب، فقال: ما صنعت شيئاً، زد، فقال: يا أمير المؤمنين، حاجة بقيت، قال: ما هي؟ قال: أن أتولى أخذ البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعرف، قال: افعل، فما زلت لمثل ذلك أهلاً، فلما قدم هانئ العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شعبة وهو الوالي بالعراق يومئذ.

وأما الحكاية الثانية: كان مال حمل من اليمن إلى معاوية، فلما مر بالمدينة وثب عليه الحسين بن علي عليه السلام، فأخذه وقسمه في أهل بيته ومواليه، وكتب إلى معاوية: من الحسين بن علي إلى معاوية بن أبي لسفيان، أما بعد، فإن غيراً مرت بنا من اليمن تحمل مالاً وحللاً وعنبراً وطيباً إليك لتودعها خزائن دمشق، وتعل بها بعد النهل بني أبيك، وإني احتجت إليها فأخذتها. والسلام. فكتب إليه معاوية: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسين بن علي: سلام عليك، أما بعد، فإن كتابك ورد علي تذكر أن غيراً مرت بك من اليمن تحمل مالاً وحللاً وعنبراً وطيباً إلي لأودعها خزائن دمشق، وأعل بها بعد النهل بني أبي، وأنت احتجت إليها فأخذتها ولم تكن جديراً بأخذها إذ نسبتها إلي، لأن الوالي أحق بالمال، ثم عليه المخرج منه، وإيم الله لو ترك ذلك حتى صار إلي، لم أبخسك حظك منه، ولكني قد ظننت يا بن أخي أن في رأسك نزوة وبودي أن يكون ذلك في زمني فأعرف لك قدرك، وأتجاوز عن ذلك، ولكني والله أتخوف أن تبتلى بمن لا ينظرك فواق ناقة، وكتب في أصل كتابه:

جئت بالسائغ يوماً في العلل

يا حسين بن علي ليس ما

إن هذا من حسين لعجل

أخذك المال ولم تؤمر به

قد أجزناها ولم نغضب لها

يا حسين بن علي ذا الأمل

وبودي أنني شاهدها

إنني أرهب أن تصلى بمن

واحتملنا من حسين ما فعل

لك بعدي وثبة لا تحتمل

فأليها منك بالخلق الأجل

عنده قد سبق السيف العذل

وهذه سعة صدر وفراصة صادقة.

الأصل: أزجر المسيء بثواب المحسن.

الشرح: قد قال ابن هانئ المغربي في هذا المعنى:

لولا انبعاث السيف وهو مسلط

فأفصح به أبو العتاهية في قوله:

في قتلهم قتلتهم النغماء

زجرت المذنبين عن الذنوب

ويمكنك التناول من قريب

إذا جازيت بالإحسان قوماً

فمالك والتناول من بعيد

الأصل: احصد الشر من صدر غيرك، بقلعه من صدرك.

الشرح: هذا يفسر على وجهين: أحدهما أنه يريد: لا تضمر لأخيك سوءاً، فإنك لا تضمر ذاك إلا يضمر هو لك سوءاً،

لأن القلوب يشعر بعضها ببعض، فإذا صفوت لواحد صفا لك.

والوجه الثاني أن يريد: لا تعظ الناس ولا تنههم عن منكر إلا وأنت مقلع عنه، فإن الواعظ الذي ليس بزكي لا ينجع

وعظه ولا يؤثر نهي.

وقد سبق الكلام في كلا المعنيين.

الأصل: اللجاجة تسل الرأي.

الشرح: هذا مشتق من قوله عليه السلام: "لا رأي لمن لا يطاع"، وذلك لأن عدم الطاعة هو اللجاجة، وهو خلق

يتركب من خلقين: أحدهما الكبير، والآخر الجهل بعواقب الأمور وأكثر ما يعتري الولاية لما يأخذهم من العزة بالإثم.

ومن كلام بعض الحكماء: إذا اضطررت إلى مصاحبة السلطان، فابدأ بالفحص عن معتاد طبعه، ومألوف خلقه، ثم

استحدث لنفسك طبعاً ففرغه في قالب إرادته، وخلقاً تركبه مع موضع وفاقه حتى تسلم معه، وإن رأيت يهوى فناً من

فنون المحبوبات فأظهر هواك لشدة ذلك الفن، ليبعد عنك إرهابه، بل ويكثر سكونه إليك، وإذا بدا لك منه فعل ذميم

فإياك أن تبداه فيه بقول ما لم يستبدل فيه نصحك، ويستدعي رأيك، وإن استدعى ذاك فليكن ما تفاوضه فيه بالرفق

والاستعطاف، لا بالخشونة والاستنكاف، فيحمله اللجاج المركب في طبع الولاية على ارتكابه، فكل وال لجوج، وإن علم

ما يتعقبه لجاحه من الضرر، وأن اجتنابه هو الحسن.

الأصل: الطمع رق مؤبد.

الشرح: هذا المعنى مطروق جداً، وقد سبق لنا فيه قول شاف.

وقال الشاعر:

تعفف وعش حراً ولاتك طامعاً فما قطع الأعناق إلا المطامع

وفي المثل: أطمع من أشعب، رأى سلالاً يصنع سلة، فقال له: أوسعها، قال: ما لك وذاك؟ قال: لعل صاحبها يهدي لي فيها شيئاً.

ومر بمكتب وغلّام يقرأ على الأستاذ: "إن أبي يدعوك"، فقال: قم بين يدي حفظك الله وحفظ أباك، فقال: إنما كنت أقرأ وردي، فقال: أنكرت أن تفلح أو يفلح أبوك! وقيل: لم يكن أطمع من أشعب إلا كلبه، رأى صورة القمر في البئر فظنه رغيماً، فألقى نفسه في البئر يطلبه، فمات.

الأصل: ثمرة التفريط الندامة، وثمره الحزم السلامة.

الشرح: قد سبق من الكلام في الحزم والتفريط ما فيه كفاية. وكان يقال: الحزم ملكة يوجبها كثرة التجارب، وأصله قوة العقل، فإن العاقل خائف أبدأً والأحمق لا يخاف، وإن خاف كان قليل الخوف، ومن خاف أمراً توقاه، فهذا هو الحزم. وكان أبو الأسود الدؤلي من عقلاء الرجال وذوي الحزم والرأي، وحكى أبو العباس المبرد قال: قال زياد لأبي الأسود - وقد أسن -: لولا ضعفك لاستعملناك على بعض أعمالنا، فقال: أللصراع يريدني الأمير! قال زياد: إن للعمل مؤونة، ولا أراك إلا تضعف عنه، فقال أبو الأسود:

زعم الأمير أبو المغيرة أنني شيخ كبير قد دنوت من البلى

صدق الأمير لقد كبرت وإنما نال المكارم من يدب على العصا

يا با المغيرة رب أمر مبهم فرجته بالحزم مني والدها

وكان يقال: من الحزم والتوقي ترك الإفراط في التوقي.

لما نزل بمعاوية الموت وقدم عليه يزيد ابنه فرآه مسكناً لا يتكلم، بكى وأنشد:

لو فات شيء يرى لفات أبو حيان لا عاجز ولا وكل

الحول القلب الأريب ولا تدفع يوم المنية الحيل

الأصل: من لم ينجه الصبر، أهلكه الجزع.

الشرح: قد تقدم لنا قول شاف في الصبر والجزع.

وكان يقال: ما أحسن الصبر لولا أن النفقة عليه من العمر! أخذه شاعر فقال:

وإني لأدري أن في الصبر راحةً ولكن إنفاقي على الصبر من عمري

وقال ابن أبي العلاء يستبطن بعض الرؤساء:

فإن قيل لي صبراً فلا صبر للذي غداً بيد الأيام تقتله صبراً

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد

وإن قيل لي عذرا فوالله ما أرى

لمن ملك الدنيا إذا لم يجد عذرا

فإن قلت: أي فائدة في قوله عليه السلام: "من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع"؟ وهل هذا إلا كقول من قال: "من لم يجد ما يأكل ضره الجوع"؟.

قلت: لو كانت الجهة واحدة، لكان الكلام عبثاً، إلا أن الجهة مختلفة، لأن معنى كلامه عليه السلام من لم يخلصه الصبر من هموم الدنيا وغمومها هلك من الله تعالى في الآخرة بما يستبدله من الصبر بالجزع، وذلك لأنه إذا لم يصبر فلا شك أنه يجزع، وكل جازع آثم والإثم مهلكة، فلما اختلفت الجهة وكانت تارة للدنيا وتارة للآخرة لم يكن الكلام عبثاً بل كان مفيداً.

الأصل: واعجباً أن تكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وقد روي له شعر قريب من هذا المعنى وهو:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم

فكيف بهذا والمشيرون غيب!

وإن كنت بالقربى حجبت خصيمهم

فغيرك أولى بالنبي وأقرب

الشرح: حديثه عليه السلام في النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر، أما النثر فإلى عمر توجيهه لأن أبا بكر لما قال لعمر: امدد يدك، قال له عمر: أنت صاحب رسول الله في المواطن كلها، شدتها ورخائها، فامدد أنت يدك، فقال علي عليه السلام: إذا احتججت لاستحقاقه الأمر بصحبته إياه في المواطن كلها، فهلا سلمت الأمر إلى من قد شركه في ذلك، وزاد عليه "بالقرابة"! وأما النظم فموجه إلى أبي بكر، لأن أبا بكر حاج الأنصار في السقيفة. فقال: نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيضته التي تفقأت عنه، فلما بويع احتج على الناس بالبيعة، وأنها صدرت عن أهل الحل والعقد، فقال علي عليه السلام: أما احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قومه، فغيرك أقرب نسباً منك إليه، وأما احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف يثبت! واعلم أن الكلام في هذا تتضمنه كتب أصحابنا في الإمامة، ولهم عن هذا القول أجوبة ليس هذا موضع ذكرها.

الجزء التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

الأصل: إنما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا، ونهب تبادره المصائب، ومع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، ولا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله، فنحن أعوان المنون، وأنفسنا نصب الحتوف، فمن أين نرجو البقاء؟ وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً، إلا أسرعاً الكرة في هدم ما بنيا، وتفريق ما جمعنا! الشرح: قد سبق من هذا الكلام في أثناء خطبته عليه السلام، وقد ذكرنا نحن أشياء كثيرة في الدنيا وتقلبها بأهلها.

ومن كلام بعض الحكماء: طوبى للهارب من زخارف الدنيا، والصاد عن زهرة دمنتها والخائف عند أمانها، والمتهم لضماها، والباكي عند ضحكها إليه، والمتواضع عند إعزازها له، والناظر بعين عقله إلى فضائحتها، والمتأمل لقبح مصارعها، والتارك لكلاهما على جيفها، والمكذب لمواعيدها، والمتيقظ لخدعها، والمعرض عن لمعها، والعامل في إمهاها، والمتزود قبل إعجالها.

قوله: "تنتضل" النضل شيء يرمى، ويروى "تبادره" أي تتبادره، والغرض. الهدف. والنهب: المال المنهوب غنيمة، وجمعه نهاب.

وقد سبق تفسير قوله: "لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى"، وقلنا: إن الذي حصلت له لذة الجماع حال ما هي حاصلة له، لا بد أن يكون مفارقاً لذة الأكل والشرب، وكذلك من يأكل ويشرب يكون مفارقاً حال أكله وشربه لذة الرقص على الخيل في طلب الصيد، ونحو ذلك.

قوله: "فنحن أعوان المنون"، لأننا نأكل، ونشرب، ونجامع، ونركب الخيل، والإبل، ونتصرف في الحاجات والمآرب، والموت إنما يكون بأحد هذه الأسباب، إما من أخلاط تحدثها المآكل والمشارب، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابة هو راكبها، أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرط، أو لمصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه في مآربه وحركته وسعيه، ونحو ذلك، فكأننا نحن أعوان الموت على أنفسنا.

قوله: "نصب الحتوف" يروى بالرفع والنصب، فمن رفع فهو خبر المبتدأ، ومن نصبه جعله ظرفاً.

الأصل: لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل.

الشرح: قد تكرر ذكر هذا القول، وتكرر منا شرحه وشرحه نظائره.

وكان يقال: ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة متهمة، أو صورة ممثلة.

وكان يقال: اللسان عضو إن مرنته مرن، وإن تركته خزن.

الأصل: يا بن آدم، ما كسبت فوق قوتك، فأنت فيه خازن لغيرك.

الشرح: أخذ هذا المعنى بعضهم، فقال:

البعل عرسك لا أبا لك تجمع !

مالي أراك الدهر تجمع دائباً

وعاد الحسن البصري عبد الله بن الأهمم في مرضه الذي مات فيه، فأقبل عبد الله يصرف بصره إلى صندوق في جانب البيت، ثم قال للحسن: يا أبا سعيد، فيه مائة ألف لم يؤد منها زكاة، ولم توصل بها رحم، قال الحسن: ثكلتك أمك! فلم أعددها؟ قال: لروعة الزمان، ومكاثرة الإخوان، وجفوة السلطان.

ثم مات، فحفر الحسن جنازته، فلما دفن صفق بإحدى راحتيه الأخرى، وقال: إن هذا تاه شيطانه، فحذره روعة زمانه، وجفوة سلطانه، ومكاثرة إخوانه، فيما استودعه الله إياه فادخره، ثم خرج منه كثيراً حزينا، لم يؤد زكاة، ولم يصل رحماً. ثم التفت فقال: أيها الوارث، كل هنيئاً، فقد أتاك هذا المال حلالاً، فلا يكن عليك وبالاً، أتاك ممن كان له جمعاً ممنوعاً، يركب فيه لجج البحار، ومفاوز القفار، من باطل جمعه، ومن حق منعه، لم ينتفع به في حياته، وضره بعد وفاته، جمعه فأوعاه، وشده فأوكاه إلى يوم القيامة، يوم ذي حسرات، وإن أعظم الحسرات أن ترى مالك في ميزان غيرك، بخلت بمال أوتيته من رزق الله أن تنفقه في طاعة الله، فحزنته لغيرك، فأنفقه في مرضاة ربه، يا لها حسرة لا تقال، ورحمة لا تنال! إنا لله وإنا إليه راجعون! الأصل: إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي.

الشرح: قد تقدم القول في هذا المعنى، والعلة في كون القلب يعمى إذا أكره على ما لا يحبه، أن القلب عضو من الأعضاء، يتعب ويستريح كما تتعب الجثة عند استعمالها وأحمالها، وتستريح عند ترك العمل، كما يتعب اللسان عند الكلام الطويل، ويستريح عند الإمساك، وإذا تواصل إكراه القلب على أمر لا يحبه ولا يؤثره تعب، لأن فعل غير المحبوب متعب، ألا ترى أن جماع غير المحبوب يحدث من الضعف أضعاف ما يحدثه جماع المحبوب، والركوب إلى مكان غير محبوب متعب ولا يشتهي، يتعب البدن أضعاف ما يتعبه الركوب إلى تلك المسافة إذا كان المكان محبوباً، وإذا أتعب القلب وأعيى، عجز عن إدراك ما نكلفه إدراكه، لأن فعله هو الإدراك، وكل عضو يتعب فإنه يعجز عن فعله الخاص به، فإذا عجز القلب عن فعله الخاص به وهو العلم والإدراك، فذاك هو عماه.

الأصل: وكان عليه السلام يقول: متى أشفي غيظي إذا غضبت! أحياناً أعجز عن الانتقام فيقال لي: لو صبرت! أم حين أقدر عليه، فيقال لي: لو عفوت! الشرح: قد تقدم القول في الغضب مراراً، وهذا الفصل فصيح لطيف المعنى، قال: لا سبيل لي إلى شفاء غيظي عند غضبي، لأني إما أن أكون قادراً على الانتقام فيصديني عن تعجيله قول القائل: لو غفرت لكان أولى! وإما ألا أكون قادراً على الانتقام فيصديني عنه كوني غير قادر عليه، فإذا لا سبيل لي إلى الانتقام عند الغضب.

وكان يقال: العقل كالمرآة المجلوة يصدئه الغضب، كما تصدأ المرآة بالخل، فلا يثبت فيها صورة القبح والحسن. واجتمع سفيان الثوري وفضيل بن عياض فتذاكرا الزهد، فأجمعا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند

الطمع.

الأصل: وقال عليه السلام وقد مر بقدر على مزبلة: هذا ما بخل به الباخلون.

وفي خبر آخر أنه قال: هذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس!

الشرح: قد سبق القول في مثل هذا، وأن الحسن البصري مر على مزبلة، فقال: انظروا إلى بطهم ودجاجهم وحلوائهم وعسلهم وسمنهم، والحسن إنما أخذه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقال ابن وكيع في قول المتنبّي:

حسن الذي يسببه لم يسبه

لو أفكر العاشق في منتهى

إنه أراد: لو أفكر في حاله وهو في القبر، وقد تغيرت محاسنه، وسالت عيناه، قال: وهذا مثل قولهم: لو أفكر الإنسان فيما يتول إليه الطعام لعافته نفسه.

وقد ضرب العلماء مثلاً للدنيا ومخالفة آخرها أولها، ومضادة مبادئها عواقبها، فقالوا: إن شهوات الدنيا في القلب لذيدة كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد الإنسان عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا طبختها المعدة وبلغت غاية نضجها، وكما أن الطعام كلما كان ألد طعماً وأظهر حلاوة، كان رجيعة أقدر وأشدّ تنناً، فكذلك كل شهوة في القلب أشهم وألد وأقوى، فإن ننتها وكراحتها والتأذي بها عند الموت أشد، بل هذه الحال في الدنيا مشاهدة، فإن من نبت داره، وأخذ أهله وولده وماله، تكون مصيبته وألمه وتفجعه في الذي فقد بمقدار لذته به، وحبّه له، وحرصه عليه، فكل ما كان في الوجود أشهى وألد، فهو عند الفقد أدهى وأمر، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحّاك بن سفيان الكلّابي: ألسنت تؤتى بطعامك وقد قرح وملح، ثم تشرب عليه اللبن والماء! قال: بلى، قال: فيألى ماذا يصير؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله، قال: فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم.

وروى أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أنت ضربت مثلاً لابن آدم فانظر ما يخرج من ابن آدم، وإن كان قرحه وملحه إلى ماذا صار.

وقال الحسن رحمه الله: قد رأيتهم يطيبونه بالطيب والأفاويه ثم يرمونه حيث رأيتم، قال الله عز وجل: "فلينظر الإنسان إلى طعامه"، قال ابن عباس: إلى رجيعة.

وقال رجل لابن عمر: إني أريد أن أسألك وأستحيي، فقال: لا تستحي وسل؟ قال: إذا قضى أحدنا حاجته فقام، هل ينظر إلى ذلك منه؟ فقال: نعم، إن الملك يقول له: أنظر هذا ما بخلت به، انظر إلى ماذا صار! الأصل: لم يذهب من مالك ما وعظك.

الشرح: مثل هذا قولهم: إن المصائب أثمان التجارب. وقيل لعالم فقير بعد أن كان غنياً: أين مالك؟ قال: تجرت فيه فابتعت به تجربة الناس والوقت، فاستفدت أشرف العوضين.

الأصل: إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.

الشرح: هذا قد تكرر، وتكرر منا ذكر ما قيل في إجمام النفس والتنفيس عنها من كرب الجد والإحماض وفسرنا معنى قوله عليه السلام: "فابتغوا لها طرائف الحكمة" وقلنا: المراد ألا يجعل الإنسان وقته كله مصروفاً إلى الأنظار العقلية في البراهين الكلامية والحكمية، بل ينقلها من ذلك أحياناً إلى النظر في الحكمة الخلقية فإنها حكمة لا تحتاج إلى إتعاب النفس وال خاطر.

فأما القول في الدعاة فقد ذكرناه أيضاً فيما تقدم، وأوضحنا أن كثيراً من أعيان الحكماء والعلماء كانوا ذوي دعاية مقتصدة لا مسرفة، فإن الإسراف فيها يخرج صاحبه إلى الخلاعة، ولقد أحسن من قال:

تجم وعلله بشيء من المزح

أفد طبعك المكدود بالجد راحة

بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

ولكن إذا أعطيته ذاك فليكن

الأصل: وقال عليه السلام لما سمع قول الخوارج: لا حكم إلا لله، كلمة حق يراد بها باطل.

الشرح: معنى قوله سبحانه: "إن الحكم إلا لله"، أي إذا أراد شيئاً من أفعال نفسه فلا بد من وقوعه، بخلاف غيره من القادرين بالقدرة فإنه لا يجب حصول مرادهم إذا أرادوه، ألا ترى ما قيل هذه الكلمة: "يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أكني عنكم من شيء إن الحكم إلا لله" خاف عليهم من الإصابة بالعين إذا دخلوا من باب واحد، فأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، ثم قال لهم: "وما أغني عنكم من شيء"، أي إذا أراد الله بكم سوءاً لم يدفع عنكم ذلك السوء ما أشرت به عليكم من التفرق، ثم قال: "إن الحكم إلا لله" أي ليس حي من الأحياء ينفذ حكمه لا محالة ومراده لما هو من أفعاله إلا الحي القديم وحده، فهذا هو معنى هذه الكلمة، وضلت الخوارج عندها فأنكروا على أمير المؤمنين عليه السلام موافقته على التحكيم، وقالوا، كيف يحكم وقد قال الله سبحانه: "إن الحكم إلا لله"، فغلطوا لموضع اللفظ المشترك، وليس هذا الحكم هو ذلك الحكم، فإذن هي كلمة حق يراد بها باطل، لأنها حق على المفهوم الأول، ويريد بها الخوارج نفي كل ما يسمى حكماً إذا صدر عن غير الله تعالى، وذلك باطل، لأن الله تعالى قد أمضى حكم المخلوقين في كثير من الشرائع، الأصل: وقال عليه السلام في صفة الغوغاء: هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا.

وقيل: بل قال عليه السلام: هم الذين إذا اجتمعوا ضروا، وإذا تفرقوا نفعوا.

ف قيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم؟ فقال عليه السلام: يرجع أهل المهن إلى مهنتهم، فينتفع الناس بهم، كرجوع البناء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه.

الشرح: كان الحسن إذا ذكر الغوغاء وأهل السوق قال: قتلة الأنبياء؟ وكان يقال: العامة كالبحر إذا هاج أهلك راكمه. وقال بعضهم: لا تسبوا الغوغاء فإنهم يطفتون الحريق، وينقذون الغريق، ويسدون البثوق.

وقال شيخنا أبو عثمان: الغاغة والباغة والحاقة كأنهم أعداء عام واحد، ألا ترى أنك لا تجد أبداً في كل بلد، وفي كل عمر هؤلاء إلا بمقدار واحد وجهة واحدة من السخف والنقص والخمول والغباوة، وكان المأمون يقول: كل شر وظلم

في العالم فهو صادر عن العامة والغوغاء، لأنهم قتلة الأنبياء والمغرون بين العلماء، والنامون بين الأوداء، ومنهم اللصوص، وقطاع الطريق، والطارون، والختالون والساعون إلى السلطان، فإذا كان يوم القيامة حشروا على عادتهم في السعاية فقالوا: "ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آثم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً".
الأصل: وقال عليه السلام وقد أتى بجان ومعه غوغاء فقال: لا مرحباً بوجوه لا ترى إلا عند كل سوء.
الشرح: أخذ هذا اللفظ المستعين بالله وقد أدخل عليه ابن أبي الشوارب القاضي ومعه الشهود ليشهدوا عليه أنه قد خلع نفسه من الخلافة وباع للمعتز بالله، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا ترى إلا يوم سوء.
وقال من مدح الغوغاء والعامة: إن في الحديث المرفوع: إن الله ينصر هذا الدين يقوم لا خلاق لهم.
وكان الأحنف يقول: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار.
وقال الشاعر:

لعدوة عريض من الناس جائب

وإني لأستبقي امرأ السوء عدةً

إذا لم تجاوبها كلاب الأقارب

أخاف كلاب الأبعدين وهرشها

الأصل: إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة.

الشرح: قد تقدم هذا، وقلنا: إنه ذهب كثير من الحكماء هذا المذهب، وإن الله تعالى ملائكة موكلة تحفظ البشر من التردى في بئر، ومن إصابة سهم معترض في طريق، ومن رفس دابة، ومن نهش حية، أو لسع عقرب، ونحو ذلك. والشرائع أيضاً قد وردت بمثله وإن الأجل جنة، أي درع، ولهذا في علم الكلام مخرج صحيح، وذلك لأن أصحابنا يقولون: إن الله تعالى إذا علم أن في بقاء زيد إلى وقت كذا لطفاً له أو لغيره من المكلفين صد من يهم بقتله عن قتله بالطف يفعّلها تصده عنه أو تصرفه عنه بصارف، أو يمنعه عنه بمانع، كي لا يقطع ذلك الإنسان بقتل زيد الألفاف التي يعلم الله أنها مقربة من الطاعة، ومبعدة من المعصية لزيد أو لغيره، فقد بان أن الأجل على هذا التقدير جنة حصينة لزيد، من حيث كان الله تعالى باعتبار ذلك الأجل مانعاً من قتله وإبطال حياته، ولا جنة أحصن من ذلك.
الأصل: وقال عليه السلام: وقد قال له طلحة والزبير: نبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر، فقال: لا: ولكنكما شريكان في القوة والاستعانة، وعونان على العجز والأود.

الشرح: قد ذكرنا هذا فيما تقدم حيث شرحنا بيعة المسلمين لعلي عليه السلام كيف وقعت بعد مقتل عثمان، ولقد أحسن فيما قال لهما لما سألاه أن يشركاه في الأمر، فقال: أما المشاركة في الخلافة فكيف يكون ذلك؟ وهل يصح أن يدبر أمر الرعية إمامان!

وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

وإنما تشركاني في القوة والاستعانة أي إذا قوي أمري وأمر الإسلام بي قويتما أنتما أيضاً، وإذا عجزت عن أمر، أو تأود علي أمر - أي اعوج - كنتما عونين لي ومساعدتين على إصلاحه.

فإن قلت: فما معنى قوله: "والاستعانة"؟ قلت: الاستعانة ههنا الفوز والظفر، كانوا يقولون للقامر يفوز قدحه: قد جرى ابنا عنان. وهما خطان يخطان في الأرض يزجر بهما الطير، واستعان الإنسان، إذا قال وقت الظفر والغلبة هذه الكلمة. الأصل: أيها الناس، اتقوا الله الذي إن قلتم سمع، وإن أضمرتم علم، وبادروا الموت الذي إن هربتم منه أدرككم، وإن أقمتم أخذكم، وإن نسيتموه ذكركم.

الشرح: قد تقدم منا كلام كثير في ذكر الموت، ورأى الحسن البصري رجلاً يجود بنفسه، فقال: إن أمراً هذا آخره، لجدير أن يزهد في أوله، وإن أمراً هذا أوله لجدير أن يخاف من آخره. ومن كلامه: فضح الموت الدنيا.

وقال خالد بن صفوان: لو قال قائل: الحسن أفصح الناس لهذه الكلمة لما كان مخطئاً. وقال لرجل في جنازة: أترى هذا الميت لو عاد إلى الدنيا لكان يعمل عملاً صالحاً؟ قال: نعم، قال: فإن لم يكن ذلك فكن أنت ذاك.

الأصل: لا يزهديك في المعروف من لا يشكره لك، فقد يشكره عليه من لا يستمتع بشيء منه، وقد يدرك من شكر الشاكر أكثر مما أضاع الكافر، "والله يحب المحسنين".

الشرح: قد أخذت أنا هذا المعنى فقلت من جملة قصيدة لي حكمية:

فإنه سبخ لا ينبت الشجرا

لا تسدين إلى ذي اللؤم مكرمة

وأكل زرعك شكر الغير إن كفر

فإن زرعت فمحفوظ بمضيعة

وقد سبق منا كلام طويل في الشكر.

ورأى العباس بن المأمون يوماً بحضرة المعتصم خاتماً في يد إبراهيم بن المهدي، فاستحسنه، فقال له: ما فص هذا الخاتم، ومن أين حصلته؟ فقال إبراهيم: هذا خاتم رهنته في دولة أبيك، وافتككته في دولة أمير المؤمنين، فقال العباس: فإن لم تشكر أبي على حقنه دمك، فأنت لا تشكر أمير المؤمنين على فكه خاتمك.

وقال الشاعر:

وفي أهله إلا كبعض الودائع

لعمرك ما المعروف في غير أهله

ومستودع ما عنده غير ضائع

فمستودع ضاع الذي كان عنده

وفي كفرها إلا كبعض المزارع

وما الناس في شكر الصنيعة عندهم

ومزرعة أكدت على كل زارع

فمزرعة طابت وأضعف نبتها

الأصل: كل وعاء يضيّق بما جعل فيه، إلا وعاء العلم فإنه يتسع به.

الشرح: هذا الكلام تحته سر عظيم، ورمز إلى معنى شريف غامض، ومنه أخذ مثبتو النفس الناطقة الحجة على قولهم، ومحصول ذلك أن القوى الجسمانية يكلها ويتعبها تكرار أفاعيلها عليها، كقوة البصر تتعبها تكرار إدراك المرئيات، حتى ربما أذهبها وأبطلها أصلاً، وكذلك قوة السمع يتعبها تكرار الأصوات عليها، وكذلك غيرها من القوى الجسمانية، ولكننا

وجدنا القوة العاقلة بالعكس من ذلك، فإن الإنسان كلما تكررت عليه المعقولات ازدادت قوته العقلية سعةً وانبساطاً واستعداداً لإدراك أمور أخرى غير ما أدركته من قبل، حتى كان تكرار المعقولات عليها يشحذها ويصقلها، فهي إذن مخالفة في هذا الحكم للقوى الجسمانية، فليست منها، لأنها لو كانت منها لكان حكمها حكم واحد من أخواتها، وإذا لم تكن جسمانية فهي مجردة، وهي التي نسميها بالنفس الناطقة.

الأصل: أول عوض الحليم من حلمه، أن الناس أنصاره على الجاهل.

الشرح: قد تقدم من أقوالنا في الحلم ما في بعضه كفاية.

وفي الحكم القديمة: لا تشن حسن الظفر بقبح الانتقام.

وكان يقال: اعف عمن أبطأ عن الذنب، وأسرع إلى الندم.

وكان يقال: شاور الأناة والتثبت، وذاكر الحفيظة عند هيجانها ما في عواقب العقوبة من الندم، وخاصمها بما يؤدي إليه الحلم من الاغتياب.

وكان يقال: ينبغي للحازم أن يقدم على عذابه وصفحه تعريف المذنب بما جناه، وإلا نسب حلمه إلى الغفلة وكلال حد الفطنة. وقالت الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: إنهم فعلوا بك ثم فعلوا، يغرونه بقريش، فقال: "إنما سميت محمداً لأحمد".

الأصل: إن لم تكن حليماً فتحلم، فإنه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم.

الشرح: التحلم: تكلف الحلم، والذي قاله عليه السلام صحيح في مناهج الحكمة، وذلك لأن من تشبه بقوم وتكلف التخلق بأخلاقهم، والتأدب بأدابهم، واستمر على ذلك ومرن عليه الزمان الطويل، اكتسب رياضة قوية، وملكة تافهة،

وصار ذلك التكلف كالطبع له، وانتقل عن الخلق الأول، ألا ترى أن الأعرابي الجلف الجافي إذا دخل المدن والقرى

وخالط أهلها وطال مكثه فيهم انتقل عن خلق الأعراب الذي نشأ عليه، وتلطف طبعه، وصار شبيهاً بساكني المدن،

وكالأجنبي عن ساكني الوبر، وهذا قد وجدناه في حيوانات أخرى غير البشر كالبازي والصقر والفهد التي تراض حتى تذل وتأنس وتترك طبعها القديم، بل قد شاهدناه في الأسد، وهو أبعد الحيوان من الإنس.

وذكر ابن الصايي أن عضد الدولة بن بويه كانت له أسود يصطاد بها كالفهود فتمسكه عليه حتى يدركه فيذكيه، وهذا من العجائب الطريفة.

الأصل: من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف أمن، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم.

الشرح: قد جاء في الحديث المرفوع: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا".

قوله: "ومن خاف أمن" أي من اتقى الله أمن من عذابه يوم القيامة.

ثم قال: "ومن اعتبر أبصر" أي من قاس الأمور بعضها ببعض، واتعظ بآيات الله وأيامه أضاءت بصيرته، ومن أضاءت بصيرته فهم، ومن فهم علم.

فإن قلت: الفهم هو العلم، فأى حاجة له إلى أن يقول: "ومن فهم علم"؟ قلت: الفهم ههنا هو معرفة المقدمات، ولا بد

أن يستعقب معرفة المقدمات معرفة النتيجة، فمعرفة النتيجة هو العلم، فكأنه قال: من اعتبر تنور قلبه بنور الله تعالى ومن تنور قلبه عقل المقدمات البرهانية، ومن عقل المقدمات البرهانية علم النتيجة الواجبة عنها، وتلك هي الثمرة الشريفة التي في مثلها يتنافس المتنافسون.

الأصل: لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها. وتلا عقيب ذلك: "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين".

الشرح: الشماس: مصدر شمس الفرس إذا منع من ظهره، والضروس: الناقة السيئة الخلق تعض حالبها، والإمامية تزعم أن ذلك وعد منه بالإمام الغائب الذي يملك الأرض في آخر الزمان. وأصحابنا يقولون: إنه وعد بإمام يملك الأرض ويستولي على الممالك، ولا يلزم من ذلك أنه لا بد أن يكون موجوداً، وإن كان غائباً إلى أن يظهر، بل يكفي في صحة هذا الكلام أن يخلق في آخر الوقت.

وبعض أصحابنا يقول: إنه إشارة إلى ملك السفاح والمنصور وابني المنصور بعده. فإنهم الذين أزالوا ملك بني أمية، وهم بنو هاشم، وبطريقهم عطف الدنيا على بني عبد المطلب عطف الضروس.

وتقول الزيدية: إنه لا بد من أن يملك الأرض فاطمي يتلوها جماعة من الفاطميين على مذهب زيد، وإن لم يكن أحد منهم الآن موجوداً.

الأصل: اتقوا الله تقاة من شمر تجريداً، وجد تشميراً، وأكمش في مهل، وبادر عن وجل، ونظر في كرة الموثل، وعاقبة المصدر، ومغبة المرجع.

الشرح: لو قال: "وجرد تشميراً"؟ لكان قد أتى بنوع مشهور من أنواع البديع، لكنه لم يحفل بذلك، وجرى على مقتضى طبعه من البلاغة الخالية من التكلف والتصنع، على أن ذلك قد روي، والمشهور الرواية الأولى. وأكمش: جد وأسرع، ورجل كمش، أي جاد.

وفي مهل: أي في مهلة العمل قبل أن يضيق عليه وقته بدنو الأجل.

الأصل: الجود حارس الأعراض، والحلم فدام السفية، والعفو زكاة الظفر، والسلو عوضك ممن غدر، والاستشارة عين الهداية.

وقد خاطر من استغنى برأيه، والصبر يناضل الحدثان، والجزع من أعوان الزمان، وأشرف الغنى، ترك المني. وكم من عقل أسير عند هوى أمير! ومن التوفيق حفظ التجربة، والمودة قرابة مستفادة، ولا تأمن ملولاً.

الشرح: مثل قوله: "الجود حارس الأعراض" قولهم: كل عيب فالكرم يغطيه. والفدام: خرقة تجعل على فم الإبريق، فشبه الحلم بها، فإنه يرد السفية عن السفه كما يرد الفدام الخمر عن خروج القذى منها إلى الكأس.

فأما "والعفو زكاة الظفر" فقد تقدم أن لكل شيء زكاة، وزكاة الجاه ردف المستعين، وزكاة الظفر العفو.

وأما "السلو عوضك ممن غدر"، فمعناه أن من غدر بك من أحبائك وأصدقائك فاسل عنه وتناسه، واذكر ما عاملك به من الغدر، فإنك تسلو عنه ويكون ما استفدته من السلو عوضاً عن وصاله الأول، قال الشاعر:

أعتقني سوء ما صنعت من الرق

فيا بردها على كبدي

فصرت عبداً للسوء فيك وما

أحسن سوء قبلي إلى أحد

وقد سبق القول في الاستشارة، وأن المستغني برأيه مخاطر، وكذلك القول في الصبر. والمناضلة: المراماة. وكذلك القول في الجزع، وأن الإنسان إذا جزع عند المصيبة فقد أعان الزمان على نفسه، وأضاف إلى نفسه مصيبة أخرى.

وسبق أيضاً القول في المني، وأنها من بضائع النوكى.

وكذلك القول في الهوى، وأنه يغلب الرأي ويأسره.

وكذلك القول في التجربة، وقولهم: من حارب المحرب حلت به الندامة، وإن من أضاع التجربة فقد أضاع عقله ورأيه.

وقد سبق القول في المودة، وذكرنا قولهم: الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب الجسم، وسبق القول في الملal.

وقال العباس بن الأحنف:

لو كنت عاتبة لسكن عبرتي

ألمي رضاك وزرت غير مراقب

لكن مللت فلم يكن لي حيلة

صد الملول خلاف صد العاتب

الأصل: عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله.

الشرح: قد تقدم القول في العجب، ومعنى هذه الكلمة أن الحاسد لا يزال مجتهداً في إظهار معائب المحسود وإخفاء محاسنه، فلما كان عجب الإنسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذي دأبه إظهار عيب المحسود ونقصه. وكان يقال: من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه.

وقال مطرف بن الشخير: لان أبيت نائماً، وأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح نادماً.

الأصل: أغض على القذى والألم ترض أبداً.

الشرح: نظير هذا قول الشاعر:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه

وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهداً كل عثرة

يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وقال الشاعر:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربته !

وكان يقال: أغض عن الدهر وإلا صرعت.

وكان يقال: لا تحارب الأيام وإن جنحت دون مطلوبك منها، واصحبها بسلاسة القياد، فإنك إن تصحبها بذلك تعطك بعد المنع، وتلن لك بعد القساوة، وإن أبيت عليها قادتك إلى مكروه صروفها.

الأصل: من لان عوده كثفت أغصانه.

الشرح: تكاد هذه الكلمة أن تكون إيماء إلى قوله تعالى: "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه"، ومعنى هذه الكلمة أن من

حسن خلقه، ولانت كلمته، كثر محبوه وأعوانه وأتباعه.

ونحوه قوله: "من لانت كلمته، وجبت محبته".

وقال تعالى: "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك"، وأصل هذه الكلمة مطابق للقواعد الحكمية، أعني الشجرة ذات الأغصان حقيقة، وذلك لأن النبات كالحیوان في القوى النفسانية، أعني الغاذية والمنمية، وما يخدم الغاذية من القوى الأربع، وهي الجاذبة، والماسكة، والدافعة، والهاضمة، فإذا كان الییس غالباً على شجرة كانت أغصانها أخف، وكان عودها أدق، وإذا كانت الرطوبة غالبية كانت أغصانها أكثر، وعودها أغلظ، وذلك لاقتضاء الییس الذبول، واقتضاء الرطوبة الغلظ والعبالة والضخامة، ألا ترى أن الإنسان الذي غلب الییس على مزاجه، لا يزال مهلوساً نحيفاً، والذي غلبت الرطوبة عليه لا يزال ضخماً عبلاً.

الأصل: الخلاف يهدم الرأي.

الشرح: هذا مثل قوله عليه السلام في موضع آخر: "لا رأي لمن لا يطاع".

ويروى: لا إمرة لمن لا يطاع.

وفي أخبار قصير وجذيمة: "لو كان يطاع لقصير أمر!".

وكان يقال: اللجاج يشحد الزجاج، ويشير العجاج.

وقال دريد بن الصمة:

فلم يستبينوا النصيح إلا ضحى الغد

غوايتهم وأنني غير مهتدي

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى

وكان يقال: أهدى رأي الرجل ما نفذ حكمه، فإذا حولف فسد.

ومن كلام أفلاطون: اللجاج محسر انطباع المعقولات في النفس، وذلك إما لفرط حدة تكون في الإنسان، وإما لغلظ طبع فلا ينقاد للرأي.

الأصل: من نال استطال.

الشرح: يجوز أن يريد به: من أثرى ونال من الدنيا حظاً استطال على الناس.

ويجوز أن يريد به: من جاد استطال بجوده.

يقال: نالي فلان بكذا أي جاد به علي، ورجل نال، أي جواد ذو نائل، ومثله رجل طان أي ذو طين، ورجل مال أي ذو مال.

الأصل: في تقلب الأحوال، علم جواهر الرجال.

الشرح: معناه: لا تعلم أخلاق الإنسان إلا بالتجربة، واختلاف الأحوال عليه.

وقديماً قيل: ترى الفتیان كالنخل، وما يدريك ما الدخل.

وقال الشاعر:

لا تحمدن امرأ حتى تجربه ولا تذمنه إلا بتجريب

وقالوا: التجربة محك، وقالوا: مثل الإنسان مثل البطيخة، ظاهرها مونتق، وقد يكون في باطنها العيب والدود، وقد يكون طعمها حامضاً وتنفهاً.

وقالوا للرجل المحرب يمدحونه: قد آل وائل عليه.

وقال الشاعر يمدح:

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعاً طوراً ومتبعاً

حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعاً

الأصل: حسد الصديق من سقم المودة.

الشرح: إذا حسدك صديقك على نعمة أعطيتها لم تكن صداقته صحيحة، فإن الصديق حقاً من يجري مجرى نفسك، والإنسان لم يحسد نفسه.

وقيل لحكيم: ما الصديق؟ فقال: إنسان هو أنت، إلا أنه غيرك.

وأخذ هذا المعنى أبو الطيب فقال:

ما الخل إلا من أود بقلبه وأرى بطرف لا يرى بسوائه

ومن أدعية الحكماء: اللهم اكفني بوائق الثقات واحفظني من كيد الأصدقاء.

وقال الشاعر:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مره

فلربما انقلب الصدي ق فكان أعرف بالمضره

وقال آخر:

احذر مودة ماذق شاب المرارة بالحلاوه

يحصي الذنوب عليك أيام الصداقة للعداوه

وذكر خالد بن صفوان شبيب بن شيبه، فقال: ذاك رجل ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية.

وقال الشاعر:

إذا كان دواماً أخوك مصارماً موجهة في كل أوب ركائبه

فخل له ظهر الطريق ولا تكن مطية رجال كثير مذاهبه

الأصل: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

الشرح: قد تقدم منا قول في هذا المعنى.

ومنه قول الشاعر:

طمعت بليلى أن تريع وإنما

تقطع أعناق الرجال المطامع

وقال آخر:

إذا حدثتك النفس أنك قادر

على ما حوت أيدي الرجال فكذب

وإياك والأطماع إن وعودها

رقارق آل أو بوارق خلب

الأصل: ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن.

الشرح: هذا مثل قول أصحاب أصول الفقه: لا يجوز نسخ القران والسنة المتواترة بخبر الواحد، لأن المظنون لا يرفع المعلوم.

ولفظ الثقة ههنا مرادف للفظ العلم، فكأنه قال: لا يجوز أن يزال ما علم بطريق قطعية لأمر ظني.

فإن قلت: أليس البراءة الأصلية معلومة بالعقل، ومع ذلك ترفع بالأمارات الظنية كأخبار الأحاد؟ قلت: ليست البراءة

الأصلية معلومة بالعقل مطلقاً، بل مشروطة بعدم ما يرفعها من طريق علمي أو ظني، ألا ترى أن أكل الفاكهة وشرب

الماء معلوم بالعقل حسنه، ولكن لا مطلقاً، بل بشرط انتفاء ما يقتضي قبحه، فإننا لو أخبرنا إنسان أن هذه الفاكهة أو هذا

الماء مسموم لقبح منا الإقدام على تناولهما، وإن كان قول ذلك المخبر الواحد لا يفيد العلم القطعي.

الأصل: بثس الزاد إلى المعاد، العدوان على العباد.

الشرح: قد تقدم من قولنا في الظلم والعدوان ما فيه كفاية.

وكان يقال: عجباً لمن عومل فأنصف، إذا عامل كيف يظلم! وأعجب منه: من عومل فظلم إذا عامل كيف يظلم! وكان

يقال: العدو عدوان: عدو ظلمته، وعدو ظلمك، فإن اضطرك الدهر إلى أحدهما فاستعن بالذي ظلمك، فإن الآخر

موتور.

الأصل: من أشرف أفعال الكريم غفلته عما يعلم.

الشرح: كان يقال: التغافل من السؤدد، وقال أبو تمام:

ليس الغبي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتغابي

وقال طاهر بن الحسين بن مصعب:

ويكفيك من قوم شواهد أمرهم

فخذ صفوهم قبل امتحان الضمائر

فإن امتحان القوم يوحش منهم

ومالك إلا ما ترى في الظواهر

وإنك إن كشفت لم تر مخلصاً

وأبدى لك التجريب خبث السرائر

وكان يقال: بعض التغافل فضيلة، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب، ومن الكرم أن تصفح عن التوبيخ، وأن تلتبس ستر هتك الكريم.

الأصل: من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه.

الشرح: قد سبق منا قول كثير في الحياء.

بعض ما قيل في الحياء وكان يقال: الحياء تمام الكرم، والحلم تمام العقل.

وقال بعض الحكماء: الحياء انقباض النفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان، لأنه لا يوجد في الفرس ولا في الغنم والبقر، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات، فهو كالضحك الذي يختص به نوع الإنسان، وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان الحياء، وقد جعله الله تعالى في الإنسان ليرتدع به عما تترع إليه نفسه من القبيح، فلا يكون كالبهيمة، وهو خلق مركب من جبن وعفة، ولذلك لا يكون المستحي فاسقاً، ولا الفاسق مستحيّاً، لتنافي اجتماع العفة والفسق، وقلما يكون الشجاع مستحيّاً والمستحي شجاعاً لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة، ولعزة وجود ذلك ما يجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة والمدح بالحياء نحو قول القائل:

في حين يجري من أكفهم الدم

يجري الحياء الغض من قسماتهم

وقال آخر:

ويدنو وأطراف الرماح دوان

كريم يغض الطرف فضل حياته

ومتى قصد به الانقباض فهو مدح للصبيان دون المشايخ، ومتى قصد به ترك القبيح فهو مدح لكل أحد، وبالاختبار الأول قيل: الحياء بالأفاضل قبيح، وبالاختبار الثاني ورد: إن الله ليستحيي من ذي شبهة في الإسلام أن يعذبه، أي يترك تعذيبه ويسقيح لكرمه ذلك.

فأما الخجل فحيرة تلحق النفس لفرط الحياء، ويحمد في النساء والصبيان ويذم بالاتفاق في الرجال.

فأما الفحة فمذمومة بكل لسان، إذ هي انسلاخ من الإنسانية، وحقيقتها لجأ النفس في تعاطي القبيح، واشتقاقها من حافر وقاح أي صلب.

ولهذه المناسبة قال الشاعر:

فأعد منها حافراً للأشهب

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة

وما أصدق قول الشاعر:

إلا تكامل فيه الشر واجتماعا

صلابة الوجه لم تغلب على أحد

فأما كيف يكتسب الحياء، فمن حق الإنسان إذا هم بقبيح أن يتصور أجل من نفسه أنه يراه، فإن الإنسان يستحيي ممن يكبر في نفسه أن يطلع على عيبه ولذلك لا يستحيي من الحيوان غير الناطق، ولا من الأطفال الذين لا يميزون، ويستحيي من العالم أكثر مما يستحيي من الجاهل ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحد، والذين يستحيي الإنسان منهم ثلاثة: البشر، ونفسه، والله تعالى، أما البشر فهم أكثر من يستحيي منه الإنسان في غالب الناس، ثم نفسه، ثم خالقه، وذلك لقلّة

واعلم أن من استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه فنفسه عنده أحسن من غيره، ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله تعالى فليس عارفاً، لأنه لو كان عارفاً بالله لما استحيا من المخلوق دون الخالق، ألا ترى أن الإنسان لا بد أن يستحي من الذي يعظمه ويعلم أنه يراه أو يستمع بخره فيبكته، ومن لا يعرف الله تعالى كيف يستعظمه! وكيف يعلم أنه يطلع عليه! وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استحيوا من الله حق الحياء"، أمر في ضمن كلامه هذا بمعرفته سبحانه وحث عليها، وقال سبحانه: "ألم يعلم بأن الله يرى"، تنبيهاً على أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب. وسئل الجنيد رحمه الله عما يتولد منه الحياء من الله تعالى؟ فقال: أن يرى العبد آلاء الله سبحانه ونعمه عليه، ويرى تقصيره في شكره.

فإن قال قائل: فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من لا حياء له فلا إيمان له". قيل له: لأن الحياء أول ما يظهر من أمانة العقل في الإنسان، وأما الإيمان فهو آخر المراتب، ومحال حصول المرتبة الآخرة لمن لم تحصل له المرتبة الأولى، فالواجب إذن أن من لا حياء له فلا إيمان له. وقال عليه السلام: "الحياء شعبة من الإيمان". وقال: "الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء".

الأصل: بكثرة الصمت تكون الهيبة، وبالنصفة يكثر المواصلون، وبالإفضال تعالم الأقدار، وبالتواضع تتم النعمة، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالسيرة العادلة يقهر المناوئ، وبال حلم عن السفه تكثر الأنصار عليه. الشرح: قال يحيى بن خالد: ما رأيت أحداً قط صامتاً إلا هبته حتى يتكلم، فإما أن ترداد تلك الهيبة أو تنقص. ولا ريب أن الإنصاف سبب انعطاف القلوب إلى المنصف، وأن الإفضال والحد يقتضي عظم القدر، لأنه إنعام، والمنعم مشكور، والتواضع طريق إلى تمام النعمة، ولا سؤدد إلا باحتمال المؤن؟ كما قال أبو تمام:

يجنيه إلا من نقيع الحنظل

لم يوه عاتقه خفيف المحمل

والحمد شهد لا ترى مشتاره

غل لحامله ويحسبه الذي

والسيرة العادلة سبب لقهر الملك الذي يسير بها أعداءه، ومن حلم عن سفه وهو قادر على الانتقام منه نصره الناس كلهم عليه، واتفقوا كلهم على ذم ذلك السفه وتقبيح فعله، والاستقراء واختبار العادات تشهد بجميع ذلك. الأصل: العجب لغفلة الحساد، عن سلامة الأجساد! الشرح: إنما لم يحسد الحاسد على صحة الجسد لأنه صحيح الجسد، فقد شارك في الصحة، وما يشارك الإنسان غيره فيه لا يحسده عليه، ولهذا أرباب الحسد إذا مرضوا حسدوا الأصحاء على الصحة.

فإن قلت: فلماذا تعجب أمير المؤمنين؟ قلت: لكلامه عليه السلام وجه، وهو أن الحسد لما تمكن في أربابه، وصار غريزة فيهم، تعجب كيف لا يتعدى هذا الخلق الذميم إلى أن يحسد الإنسان غيره على ما يشاركه فيه، فإن زيدا إذا أبغض عمراً

بغضاً شديداً ود أن تزول عنه نعمته إليه، وإن كان ذا نعمة كنعمته، بل ربما كان أقوى وأحسن حالاً. ويجوز أن يريد معنى آخر، وهو تعجبه من غفلة الحساد، على أن الحسد مؤثر في سلامة أجسادهم، ومقتض سقمهم، وهذا أيضاً واضح.

الأصل: الطامع في وثاق الذل.

الشرح: من أمثال البحري قوله:

تعباً كظن الخائب المكدود

والياس إحدى راحتين ولن ترى

وكان يقال: ما طمعت إلا وذلت - يعنون النفس. وفي البيت المشهور:

تقطع أعناق الرجال المطامع .

وقالوا: عز من قنع، وذل من طمع. وقد تقدم القول في الطمع مراراً.

الأصل: وقال عليه السلام وقد سئل عن الإيمان: الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

الشرح: قد تقدم قولنا في هذه المسألة.

وهذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة بعينه، لأن العمل بالأركان عندنا داخل في مسمى الإيمان - أعني فعل الواجبات، فمن لم

يعقل لم يستم مؤمناً وإن عرف بقلبه وأقر بلسانه، وهذا خلاف قول المرجئة من الأشعرية والإمامية، والحشوية.

فإن قلت: فما قولك في النوافل: هل هي داخلية في مسمى الإيمان أم لا؟ قلت: في هذا خلاف بين أصحابنا، وهو

مستقصى في كتي الكلامية.

الأصل: من أصبح على الدنيا حزيناً، فقد أصبح لقضاء الله ساعطاً.

ومن أصبح يشكو مصيبةً نزلت به، فإنما يشكو ربه.

ومن أتى غنياً فتواضع له لغناه ذهب ثلثا دينه.

ومن قرأ القرآن فمات فدخل النار، فهو كان ممن يتخذ آيات الله هزواً.

ومن لهج قلبه بحب الدنيا التايط منها بثلاث: هم لا يغبه، وحرص لا يتركه، وأمل لا يدركه.

الشرح: إذا كان الرزق بقضاء الله وقدره، فمن حزن لفوات شيء منه فقد سخط قضاء الله وذلك معصية، لأن الرضا

بقضاء الله واجب، وكذلك من شكا مصيبة حلت به، فإنما يشكو فاعلها لا هي، لأنها لم تنزل به من تلقاء نفسها،

وفاعلها هو الله، ومن اشتكى الله فقد عصاه، والتواضع للأغنياء تعظيماً لغناهم أو رجاء شيء مما في أيديهم فسق.

وكان يقال: لا يحمد التيه إلا من فقير على غني.

فأما قوله عليه السلام: "ومن قرأ القرآن فمات فدخل النار، فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً".

فلقائل أن يقول: قد يكون مؤمناً بالقرآن ليس بمتخذ له هزواً، ويقرؤه ثم يدخل النار، لأنه أتى بكبيرة أخرى نحو القتل

والزنا والفرار من الزحف وأمثال ذلك! والجواب أن معنى كلامه عليه السلام هو أن من قرأ القرآن فمات فدخل النار

لأجل قراءته القرآن فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً، أي يقرؤه هازئاً به، ساخراً منه، مستهيناً بمواعظه وزواجه، غير معتقد أنه من عند الله.

فإن قلت: إنما دخل من ذكرت النار، لا لأجل قراءته القرآن، بل لهزئه به، وجحوده إياه، وأنت قلت: معنى كلامه أنه من دخل النار لأجل قراءته القرآن فهو ممن كان يستهزئ بالقرآن! قلت: بل إنما دخل النار لأنه قرأه على صفة الاستهزاء والسخرية، ألا ترى أن الساجد للصنم يعاقب لسجوده له على جهة العبادة والتعظيم، وإن كان لولا ما يحدثه مضافاً للسجود من أفعال القلوب لما عوقب.

ويمكن أن يحمل كلامه عليه السلام على تفسير آخر، فيقال: إنه عني بقوله: إنه كان ممن يتخذ آيات الله هزواً أنه يعتقد أنها من عند الله، ولكنه لا يعمل بموجبها كما يفعله الآن كثير من الناس.

قوله عليه السلام: "التايط بقلبه" أي لصق. ولا يغبه، أي لا يأخذه غباً، بل يلزمه دائماً، وصدق عليه السلام فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وحث الدنيا هو الموجب للهم والغم والحرص والأمل والخوف على ما اكتسبه أن ينفد، وللشح بما حوت يده، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة.

الأصل: كفى بالقناعة ملكاً، وبحسن الخلق نعيماً.

الشرح: قد تقدم القول في هذين، وهما القناعة وحسن الخلق.

وكان يقال: يستحق الإنسانية من حسن خلقه، ويكاد السيئ الخلق يعد من السباع.

وقال بعض الحكماء: حد القناعة هو الرضا بما دون الكفاية، والزهد: الاقتصار على الزهد، أي القليل، وهما متقاربان، وفي الأغلب إنما الزهد هو رفض الأمور الدنيوية مع القدرة عليها، وأما القناعة فهي إلزام النفس الصبر عن المشتبهات التي لا يقدر عليها، وكل زهد حصل عن قناعة فهو زهد، وليس بزهد، وكذلك قال بعض الصوفية: القناعة أول الزهد، تنبيهاً على أن الإنسان يحتاج أولاً إلى قدع نفسه وتخصيصه بالقناعة ليسهل عليه تعاطي الزهد، والقناعة التي هي الغنى بالحقيقة، لأن الناس كلهم فقراء من وجهين: أحدهما لافتقارهم إلى الله تعالى كما قال: "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد".

والثاني لكثرة حاجاتهم فأغناهم لا محالة أقلهم حاجة، ومن سد مفارقة بالمقتنيات فما في انسدادها مطمع، وهو كمن يرقع الحرق بالخرق، ومن يسدها بالاستغناء عنها بقدر وسعه والاقتصار على تناول ضرورياته فهو الغني المقرب من الله سبحانه، كما أشار إليه في قصة طالوت: "إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفةً بيده"، قال أصحاب المعاني والباطن: هذا إشارة إلى الدنيا.

الأصل: وسئل عليه السلام عن قول الله عز وجل: "فلنحيينه حياة طيبة"، فقال: هي القناعة.

الشرح: لا ريب أن الحياة الطيبة هي حياة الغنى، وقد بينا أن الغنى هو القنوع، لأنه إذا كان الغنى عدم الحاجة فأغنى الناس أقلهم حاجة إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى أغنى الأغنياء، لأنه لا حاجة به إلى شيء، وعلى هذا دل النبي بقوله صلى الله عليه وسلم: "ليس الغنى بكثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس".

وقال الشاعر:

فمن أشرب اليأس كان الغني

ومن أشرب الحرص كان الفقير

وقال الشاعر:

غنى النفس ما يكفيك من سد خلة

فإن زاد شيئاً عاد ذلك الغنى فقراً

قال بعض الحكماء: المخير بين أن يستغني عن الدنيا وبين أن يستغني بالدنيا كالمخير بين أن يكون مالكاً أو مملوكاً. ولهذا قال عليه السلام: "تعس عبد الدينار والدرهم، تعس فلا انتعش، وشيك فلا انتقش". وقيل لحكيم: لم لا تغتم؟ قال: لأني لم آخذ ما يغمني ففقدته.

وقال الشاعر: فمن سره ألا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدماً وقال أصحاب هذا الشأن: القناعة من وجه صبر، ومن وجه جود، لأن الجود ضربان: جود بما في يدك منتزعاً، وجود عما في يد غيرك متورعاً، وذلك أشرفهما، ولا يحصل الزهد في الحقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ما هي، ويعرف عيوبها وآفاتهما، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها، ولا بد في ذلك من العلم، ألا ترى إلى قوله تعالى: "قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم". وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون". ولأن الزاهد في الدنيا راغب في الآخرة وهو يبيعها بها، كما قال الله تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين..." الآية. والكيس لا يبيع عيناً بأثر، إلا إذا عرفهما وعرف فضل ما يتناع على ما يبيع. الأصل: شاركوا الذين قد أقبل عليهم الرزق، فإنه أخلق للغنى، وأجدر بإقبال الحظ. الشرح: قد تقدم القول في الحظ والبخت.

وكان يقال: الحظ يعدي كما يعدي الجرب، وهذا يطابق كلمة أمير المؤمنين عليه السلام لأن مخالطة المجدود ليست كمخالطة غير المجدود، فإن الأولى تقتضي الاشتراك في الحظ والسعادة، والثانية تقتضي الاشتراك في الشقاء والحرمان. والقول في الحظ وسيع جداً.

وقال بعضهم: البخت على صورة رجل أعمى أصم أخرس، وبين يديه جواهر وحجارة، وهو يرمي بكلتا يديه. وكان مالك بن أنس فقيه المدينة، وأخذ الفقه عن الليث بن سعد، وكانوا يزدحمون عليه والليث جالس لا يلتفتون إليه، فقيل لليث: إن مالكاً إنما أخذ عنك فما لك خاملاً وهو أنه الناس ذكراً! فقال: دانق بخت خير من جمل بختي حمل علماً. وقال الرضي:

أسبغ الغيظ من نوب الليالي

وما يحفلن بالحنق المغيظ

وأرجو الرزق من خرق دقيق

يسد بسلك حرمان غليظ

وأرجع ليس في كفي منه سوى

عض اليدين على الحظوظ

الأصل: وقال عليه السلام في قوله عز وجل: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان": العدل الإنصاف، والإحسان التفضل. الشرح: هذا تفسير صحيح اتفق عليه المفسرون كافة، وإنما دخل النذب تحت الأمر لأن له صفة زائدة على حسنه، وليس

كالمباح الذي لا صفة له زائدة على حسنه.

وقال الزمخشري: العدل هو الواجب، لأن الله عز وجل عدل فيه على عباده، فجعل ما فرضه عليهم منه واقعاً تحت طاقتهم، والإحسان الندب، وإنما علق أمره بهما جميعاً، لأن الفرض لا بد أن يقع فيه تفريط، فيجبره الندب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان علمه الفرائض فقال: والله لا زدت فيها ولا نقصت منها: "أفلح إن صدق"، فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط، وقال صلى الله عليه وسلم: "استقيموا، ولن تحصوا"، فليس ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل.

ولقائل أن يقول: إن كان إنما سمي الواجب عدلاً لأنه داخل تحت طاقة المكلف، فليس الندب عدلاً لأنه داخل تحت طاقة الكلف، وأما قوله: إنما أمر بالندب لأنه يجبر ما وقع فيه التفريط من الواجب، فلا يصح على مذهبه، وهو من أعيان المعتزلة لأنه لو جبرت النافلة بالتفريط في الواجب لكانت واجبة مثله، وكيف يقول الزمخشري هذا ومن قول مشايخنا إن تارك صلاة واحدة من الفرائض لو صلى مائة ألف ركعة من النوافل لم يكفر ثوابها عقاب ترك تلك الصلاة! الأصل: وقال عليه السلام: من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة.

قال الرضي رحمه الله تعالى: ومعنى ذلك أن ما ينفقه المرء من ماله في سبيل الخير والبر وإن كان يسيراً فإن الله تعالى يجعل الجزاء عليه عظيماً كثيراً، واليدان ههنا عبارة عن النعمتين ففرق عليه السلام بين نعمة العبد ونعمة الرب تعالى ذكره، بالقصيرة والطويلة، فجعل تلك قصيرة وهذه طويلة، لأن نعم الله أبداً تضعف على نعم المخلوقين أضعافاً كثيرة، إذ كانت نعم الله أصل النعم كلها، فكل نعمة إليها ترجع، ومنها تترع.

الشرح: هذا الفصل قد شرحه الرضي رحمه الله، فأغنى عن التعرض بشرحه.

الأصل: وقال عليه السلام لابنه الحسن: لا تدعون إلى مبارزة، فإن دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ، والباغي مصروع.

نبد عن شجاعة علي "ع"، الشرح: قد ذكر عليه السلام الحكمة، ثم ذكر العلة، وما سمعنا أنه عليه السلام دعا إلى مبارزة قط، إنما كان يدعى هو بعينه، أو يدعو من يبارز، فيخرج إليه فيقتله، دعا بنو ربيعة بن عبد شمس بني هاشم إلى البراز يوم بدر، فخرج عليه السلام فقتل الوليد واشترك هو وحمزة عليه السلام في قتل عتبة، ودعا طلحة بن أبي طلحة إلى البراز يوم أحد، فخرج إليه فقتله، ودعا مرحب إلى البراز يوم خيبر فخرج إليه فقتله.

فأما الخرجة التي خرجها يوم الخندق إلى عمرو بن عبد ود فإنها أجل من أن يقال جليلة، وأعظم من أن يقال عظيمة، ما هي إلا كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائل أيما أعظم منزلة عند الله، علي أم أبو بكر؟ فقال: يا بن أخي، والله لمبارزة علي عمراً يوم الخندق تعدل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها وتربي عليها فضلاً عن أبي بكر وحده. وقد روي عن حذيفة بن اليمان ما يناسب هذا، بل ما هو أبغ منه، روى قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدى، عن ربيعة بن مالك السعدي، قال: أتيت حذيفة بن اليمان فقلت: يا أبا عبد الله، إن الناس يتحدثون عن علي بن أبي طالب ومناقبه، فيقول لهم أهل البصرة: إنكم لتفرطون في تقريظ هذا الرجل، فهل أنت محدثي بمحدث عنه أذكره للناس؟ فقال:

يا ربيعة، وما الذي تسألني عن علي، وما الذي أحدثك عنه! والذي نفس حذيفة بيده لو وضع جميع أعمال أمة محمد صلى الله عليه وسلم في كفة الميزان منذ بعث الله تعالى محمداً إلى يوم الناس هذا، ووضع عمل واحد من أعمال علي في الكفة الأخرى لرجح على أعمالهم كلها، فقال ربيعة: هذا المدح الذي لا يقام له ولا يقعد ولا يحمل، إني لأظنه إسرافاً يا أبا عبد الله! فقال حذيفة: يا لكع، وكيف لا يحمل! وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحجموا عنه حتى برز إليه علي فقتله! والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة.

وجاء في الحديث المرفوع: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك اليوم حين برز إليه: "برز الإيمان كله إلى الشرك كله".

وقال أبو بكر بن عياش: لقد ضرب علي بن أبي طالب عليه السلام ضربة ما كان في الإسلام أئمن منها ضربته عمراً يوم الخندق، ولقد ضرب علي ضربة ما كان في الإسلام أشأم منها - يعني ضربة ابن ملجم لعنه الله.

وفي الحديث المرفوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بارز علي عمراً ما زال رافعاً يديه مقمحاً رأسه نحو السماء، داعياً ربه قائلاً: اللهم إنك أخذت مني عبدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، فاحفظ علي اليوم علياً، "رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين".

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: والله ما شبعت يوم الأحزاب، قتل علي عمراً وتخاذل المشركين بعده، إلا بما قصه الله تعالى من قصة طالوت وجالوت في قوله: "فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت".

وروى عمرو بن أزهري، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أن علياً عليه السلام لما قتل عمراً احتز رأسه وحمله فألقاه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام أبو بكر وعمر فقبلا رأسه، ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل، فقال: هذا النصر! أو قال: هذا أول النصر.

وفي الحديث المرفوع: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم قتل عمرو: "ذهب ربحهم، ولا يغزوننا بعد اليوم، ونحن نغزوهم إن شاء الله".

خبر غزوة الخندق

وينبغي أن نذكر ملخص هذه القصة من مغازي الواقدي وابن إسحاق، قالوا: خرج عمرو بن عبد ود يوم الخندق وقد كان شهد بدرًا فارتث جريحاً، ولم يشهد أحداً، فحضر الخندق شاهراً سيفه معلماً، مدلاً بشجاعته وبأسه، وخرج معه ضرار بن الخطاب الفهري وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميون، فطافوا بخيولهم على الخندق إصعاداً وانحداراً، يطلبون موضعاً ضيقاً يعبرونه، حتى وقفوا على أضييق موضع فيه في المكان المعروف بالمرار، فأكروها خيولهم على العبور فعبرت، وصاروا مع المسلمين على أرض واحدة ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه قيام على رأسه، فتقدم عمرو بن عبد ود فدعا إلى البراز مراراً، فلم يقم إليه أحد، فلما أكثر، قام علي عليه السلام فقال: أنا أبارزه يا رسول الله، فأمره بالجلوس، وأعاد عمرو النداء والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، فقال عمرو: أيها الناس، إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، أفما يجب أحدكم أن يقدم على الجنة أو يقدم

عدواً له إلى النار! فلم يقم إليه أحد، فقام علي عليه السلام دفعةً ثانية وقال: أنا له يا رسول الله، فأمره بالجلوس، فجال عمرو بفرسه مقبلاً ومديراً، وجاءت عظماء الأحزاب فوقفت من وراء الخندق ومدت أعناقها تنظر، فلما رأى عمرو أن أحداً لا يجيبه، قال:

ء بجمعهم: هل من مبارز!

ولقد بحثت من النداء

ووقفت مذ جبن المشيع موقف القرن المناجز

متسرعاً قبل الهزاهز

إني كذلك لم أزل

والجود من خير الغرائز

إن الشجاعة في الفتى

فقام علي عليه السلام فقال: يا رسول الله، ائذن لي في مبارزته، فقال: ادن، فدنا فقلده سيفه، وعممه بعمامته، وقال: امض لشأنك، فلما انصرف قال: "اللهم أعنه عليه"، فلما قرب منه قال له مجيباً إياه عن شعره:

ك مجيب صوتك غير عاجز

لا تعجلن فقد أتا

يرجو بذاك نجاة فائز

ذو نية وبصيرة

إني لأمل أن أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة فوهاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

فقال عمرو: من أنت! وكان عمرو شيخاً كبيراً قد جاوز الثمانين، وكان نديم أبي طالب بن عبد المطلب في الجاهلية، فانتسب علي عليه السلام له وقال: أنا علي بن أبي طالب، فقال: أجل، لقد كان أبوك نديماً لي وصديقاً، فارجع فإني لا أحب أن أقتلك - كان شيخنا أبو الخير مصدق بن شبيب النحوي يقول إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع: والله ما أمره بالرجوع إبقاء عليه، بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر وأحد، وعلم أنه إن ناهضه قتله، فاستحيا أن يظهر الفشل، فأظهر الإبقاء والإرعاء، وإنه لكاذب فيهما - قالوا: فقال له علي عليه السلام: لكني أحب أن أقتلك، فقال يا بن أخي، إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، فارجع وراءك خير لك، فقال علي عليه السلام: إن قريشاً تتحدث عنك أنك قلت: لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلا أحببت ولو إلى واحدة منها، قال: أجل، فقال علي عليه السلام: فإني أدعوك إلى الإسلام، قال: دع عنك هذه، قال: فإني أدعوك إلى أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكة، قال: إذن تتحدث نساء قريش عني أن غلاماً خدعني، قال: فإني أدعوك إلى البراز، فحامي عمرو وقال: ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومها مني، ثم نزل فعقر فرسه - وقيل: ضرب وجهه ففر - وتجاوزا، فثارت لهما غيرة وارتقما عن العيون، إلى أن سمع الناس التكبير عالياً من تحت الغيرة، فعلموا أن علياً قتله، وانجلى الغيرة عنهما، وعلي ركب صدره يحز رأسه، وفر أصحابه ليعبروا الخندق، فظفرت بهم خيلهم إلا نوفل بن عبد الله، فإنه قصر فرسه، فوقع في الخندق، فرماه المسلمون بالحجارة، فقال: يا معاشر الناس، قتلة أكرم من هذه، فترل إليه علي عليه السلام فقتله، وأدرك الزبير هبيرة بن أبي وهب فضربه فقطع ثفر فرسه وسقطت درع كان حملها من ورائه، فأخذها الزبير، وألقى عكرمة رحمه، وناول عمر بن الخطاب ضرار

بن عمرو، فحمل عليه ضرار حتى إذا وجد عمر مس الرمح رفعه عنه وقال: إنها لنعمة مشكورة، فاحفظها يا بن الخطاب، إني كنت آليت ألا تمكيني يداي من قتل قرشي فأقتله. وانصرف ضرار راجعاً إلى أصحابه، وقد كان جرى له معه مثل هذه في يوم أحد. وقد ذكر هاتين القصتين معاً محمد بن عمر الواقدي في كتاب المغازي.

الأصل: خيار خصال النساء شرار خصال الرجال: الزهو والجبن والبخل، فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها.

الشرح: أخذ هذا المعنى الطغرائي شاعر العجم فقال:

والبخل في الفتيات والإشفاق

والراميات سهامها الأحداق

الجود والإقدام في فتيانهم

والطعن في الأحداق دأب رماثهم

وله:

ما بالكرائم من جبن ومن بخل

قد زاد طيب أحاديث الكرام بها

وفي حكمة أفلاطون: من أقوى الأسباب في محبة الرجل لامرأته واتفاق ما بينهما أن يكون صوتها دون صوته بالطبع، وتميزها دون تميزه، وقلبها أضعف من قلبه، فإذا زاد من هذا عندها شيء على ما عند الرجل تنافرا على مقداره.

وتقول: زهي الرجل علينا فهو مزهو، إذا افتخر، وكذلك نخي فهو منخو، من النخوة، ولا يجوز زها إلا في لغة ضعيفة.

وفرقت: خافت. والفرق: الخوف.

الأصل: وقيل له عليه السلام: صف لنا العاقل، فقال: هو الذي يضع الشيء موضعه.

فقليل: فصف لنا الجاهل، قال: قد قلت.

قال الرضي رحمه الله تعالى: يعني أن الجاهل هو الذي لا يضع الشيء موضعه، فكأن ترك صفته صفة له، إذ كان بخلاف وصف العاقل.

الشرح: هذا مثل الكلام الذي تنسبه العرب إلى الضب. قالوا: اختصمت الضبع والثعلب إلى الضب، فقالت الضبع: يا أبا الحسل إني التقطت ثمرة، قال: طيباً جنيت، قالت: وإن هذا أخذها مني، قال: حظ نفسه أحرز، قالت: فإني لطمته، قال: كريم حمى حقيقته، قالت: فلطمني، قال: حر انتصر، قالت: اقض بيننا، قال: قد فعلت.

الأصل: والله لديناكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم.

الشرح: العراق: جمع عرق، وهو العظم عليه شيء من اللحم، وهذا من الجموع النادرة، نحو رخل ورخال وتؤم وتؤام، ولا يكون شيء أحقر ولا أبغض إلى الإنسان من عراق خنزير في يد مجذوم، فإنه لم يرض بأن يجعله في يد مجذوم - وهو غاية ما يكون من التنفير - حتى جعله عراق خنزير.

ولعمري لقد صدق - وما زال صادقاً - ومن تأمل سيرته في حالتي خلوه من العمل وولايته الخلافة عرف صحة هذا القول.

الأصل: إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار.

الشرح: هذا مقام جليل تتقاصر عنه قوى أكثر البشر، وقد شرحناه فيما تقدم، وقلنا: إن العبادة لرجاء الثواب تجارة ومعاوضة، وإن العبادة لخوف العقاب لمثلة من يستجدي لسلطان قاهر يخاف سطوته.

وهذا معنى قوله: "عبادة العبيد"، أي خوف السوط والعصا، وتلك ليس عبادة نافعة، وهي كمن يعتذر إلى إنسان خوف أذاه ونقمته، لأن ما يعتذر منه قبيح لا ينبغي له فعله، فأما العبادة لله تعالى شكراً لأنعمه فهي عبادة نافعة لأن العبادة شكر مخصوص، فإذا أوقعها على هذا الوجه فقد أوقعها الموقع الذي وضعت عليه.

فأما أصحابنا المتكلمون فيقولون: ينبغي أن يفعل الإنسان الواجب لوجه وجوبه، ويترك القبيح لوجه قبحه، وربما قالوا: يفعل الواجب لأنه واجب، ويترك القبيح لأنه قبيح، والكلام في هذا الباب مشروح مبسوط في الكتب الكلامية. الأصل: المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها.

الشرح: حلف إنسان عند بعض الحكماء أنه ما دخل باي شر قط، فقال الحكيم: فمن أين دخلت امرأتك! وكان يقال: أسباب فتنة النساء ثلاثة: عين ناظرة، وصورة مستحسنة، وشهوة قادرة، فالحكيم من لا يردد النظرة حتى يعرف حقائق الصورة، ولو أن رجلاً رأى امرأة فأعجبته ثم طالبها فامتنعت، هل كان إلا تاركها! فإن تأبى عقله عليه في مطالبتها كتأبيها عليه في مساعفتها قدع نفسه عن لذته قدع الغيور إياه عن حرمة مسلم.

وكان يقال: من أتعب نفسه في الحلال من النساء لم يتق إلى الحرام منهن كالطليح مناه أن يستريح.

الأصل: من أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن أطاع الواشي ضيع الصديق.

الشرح: قد تقدم الكلام في التواني والعجز، وتقدم أيضاً الكلام في الوشاية والسعاية.

ورفع إلى كسرى أبرويز أن النصراني الذين يحضرون باب الملك يعرفون بالتجسس إلى ملك الروم، فقال: من لم يظهر له ذنب لم يظهر منا عقوبة له.

ورفع إليه أن بعض الناس ينكر إصغاء الملك إلى أصحاب الأخبار، فوقع: هؤلاء بمثلة مداخل الضياء إلى البيت المظلم، وليس لقطع مواد النور مع الحاجة إليه وجه عند العقلاء.

قال أبو حيان: أما الأصل في التدبير فصحيح، لأن الملك محتاج إلى الأخبار، لكن الأخبار تنقسم إلى ثلاثة أوجه: خبر يتصل بالدين، فالواجب عليه أن يبالغ ويحتاط في حفظه وحراسته وتحقيقه ونفي القذى عن طريقه وساحته.

وخبر يتصل بالدولة ورسومها، فينبغي أن يتيقظ في ذلك خوفاً من كيد ينفذ، وبغي يسري.

وخبر يدور بين الناس في منصرفهم وشأنهم وحالهم، متى زاحمتهم فيه اضطغنوا عليك، وتمنوا زوال ملكك، وأرصدوا العداوة لك، وجهروا إلى عدوك وفتحوا له باب الحيلة إليك.

وإنما لحق الناس من هذا الخبر هذا العارض، لأن في منع الملك إياهم عن تصرفاتهم وتبعه لهم في حركاتهم، كرباً على

قلوبهم، ولهيئاً في صدورهم، ولا بد لهم في الدهر الصالح والزمان المعتدل، والخصب المتتابع، والسبيل الآمن، والخير

المتصل، من فكاها وطيب واسترسال! وأشر وبطر، وكل ذلك من آثار النعمة الدارة، والقلوب القارة، فإن أغضى الملك

بصره على هذا القسم عاش محبوباً، وإن تنكر لهم فقد استأسدهم أعداء. والسلام.

الأصل: الحجر الغصب في الدار رهن على خراجها.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وقد روي ما يناسب هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عجب أن يشته الكلامان فإن مستقاهما من قليب، ومفرغهما من ذنوب! الشرح: الذنوب: الدلو الملاءى، ولا يقال لها وهي فارغة: ذنوب، ومعنى الكلمة أن الدار المبنية بالحجارة المغصوبة ولو بحجر واحد، لا بد أن يتعجل خراجها، وكأما ذلك الحجر رهن على حصول التخرب، أي كما أن الرهن لا بد أن يفتك، كذلك لا بد لما جعل ذلك الحجر رهناً عليه أن يحصل. وقال ابن بسام لأبي علي بن مقلة لما بنى داره بالزاهر ببغداد من الغصب وظلم الرعية:

ودارك ثلاثة تهدم

بجنبك داران مهدومتان

بين دامت فكيف لمن يظلم !

فليت السلامة للمنصف

والداران: دار أبي الحسن بن الفرات، ودار محمد بن داود بن الجراح. وقال فيه أيضاً:

فإنما أنت في أضغاث أحلام

قل لابن مقلة مهلاً لا تكن عجلاً

داراً ستنتقض أيضاً بعد أيام

تبنى بأنقاض دور الناس مجتهداً

وكان ما تفرسه ابن بسام فيه حقاً، فإن داره نقضت حتى سويت بالأرض في أيام الراضي بالله.

الأصل: يوم المظلوم على الظالم، أشد من يوم الظالم على المظلوم.

الشرح: قد تقدم الكلام في الظلم مراراً وكان يقال: اذكر عند الظلم عدل الله تعالى فيك، وعند القدرة قدرة الله تعالى عليك.

وإنما كان يوم المظلوم على الظالم أشد من يومه على المظلوم، لأن ذلك اليوم يوم الجزاء الكلي، والانتقام الأعظم وقصارى أمر الظالم في الدنيا أن يقتل غيره فيميته ميتة واحدة، ثم لا سبيل له بعد إماتته إلى أن يدخل عليه ألماً آخر، وأما يوم الجزاء فإنه يوم لا يموت الظالم فيه فيستريح، بل عذابه دائم متجدد، نعوذ بالله من سخطه وعقابه! الأصل: اتق الله بعض التقى وإن قل، واجعل بينك وبين الله سترًا وإن رق.

الشرح: يقال في المثل: ما لا يدرك كله لا يترك كله.

فالواجب على من عسرت عليه التقوى بجمعها أن يتقي الله في البعض، وأن يجعل بينه وبينه سترًا وإن كان رقيقاً.

وفي أمثال العامة: اجعل بينك وبين الله روزنة، والروزنة لفظة صحيحة معربة، أي لا تجعل ما بينك وبينه مسدوداً مظلماً بالكلية.

الأصل: إذا ازدحم الجواب، خفي الصواب.

الشرح: هذا نحو أن يورد الإنسان إشكالاً في بعض المسائل النظرية بحضرة جماعة من أهل النظر، فيتغالب القوم ويتسابقون إلى الجواب عنه، كل منهم يورد ما خطر له.

فلا ريب أن الصواب يخفى حينئذ، وهذه الكلمة في الحقيقة أمر للناظر الباحث أن يتحرى الإنصاف في بحثه ونظره مع رفيقه، وألا يقصد المرء والمغالبة والقهر.

الأصل: إن لله تعالى في كل نعمة حقاً، فمن أداها زادة منها، ومن قصر فيه خاطر بزوال نعمته.

الشرح: قد تقدم الكلام في هذا المعنى، وجاء في الخبر: من أوتي نعمة فأدى حق الله منها برد اللهفة، وإجابة الدعوة وكشف المظلمة، كان جديراً بدوامها ومن قصر قصر به.

الأصل: إذا كثرت المقدرة قلت الشهوة.

الشرح: هذا مثل قولهم: كل مقدور عليه مملول، ومثل قول الشاعر:

وكل كثير عدو الطبيعه

ومثل قول الآخر:

وأخ كثرت عليه حتى ملني

والشيء مملول إذا هو يرخص

يا ليتته إذ باع ودي باعه

ممن يزيد عليه لا من ينقص

ولهذا الحكم علة في العلم العقلي، وذلك أن النفس عندهم غنية بذاتها، مكتفية بنفسها، غير محتاجة إلى شيء خارج عنها، وإنما عرضت لها الحاجة والفقر إلى ما هو خارج عنها لمقارنتها الهوى، وذلك أن أمر الهوى بالصد من أمر النفس في الفقر والحاجة، ولما كان الإنسان مركباً من النفس والهوى عرض له الشوق إلى تحصيل العلوم والقنيات لانتفاعه بهما، والتأذاه بمحصولهما، فأما العلوم فإنه يحصلها في شبيه بالخزانة له، يرجع إليها متى شاء، ويستخرج منها ما أراد، أعني القوى النفسانية التي هي محل الصور والمعاني على ما هو مذكور في موضعه. وأما القنيات والمحسوسات فإنه يروم منها مثل ما يروم من تلك، وأن يودعها خزانة محسوسة خارجة عن ذاته، لكنه يغلط في ذلك من حيث يستكثر منها، إلى أن يتنبه بالحكمة على ما ينبغي أن يقتني منها، وإنما حرص على ما منع لأن الإنسان إنما يطلب ما ليس عنده، لأن تحصيل الحاصل محال، والطلب إنما يتوجه إلى المعدوم، لا إلى الموجود، فإذا حصله سكن وعلم أنه قد ادخره، ومتى رجع إليه وحده إن كان مما يبقى بالذات، خزنه وتشوق إلى شيء آخر منه، ولا يزال كذلك إلى أن يعلم أن الجزئيات لا نهاية لها وما لا نهاية له، فلا مطمع تحصيله، ولا فائدة في التزوع إليه، ولا وجه لطلبه سواء كان معلوماً أو محسوساً، فوجب أن يقصد من المعلومات إلى الأهم ومن المقتنيات إلى ضرورات البدن ومقيماته، ويعدل عن الاستكثار منها، فإن حصولها كلها مع أنها لا نهاية لها غير ممكن، وكلما فضل عن الحاجة وقدر الكفاية فهو مادة الأحزان والهموم، وضروب المكاره. والغلط في هذا الباب كثير، وسبب ذلك طمع الإنسان في الغنى من معدن الفقر، لأن الفقر هو الحاجة، والغنى هو الاستقلال، إلى أن يحتاج إليه، ولذلك قيل: إن الله تعالى غني مطلقاً، لأنه غير محتاج البتة، فأما من كثرت قنياته فإنه يستكثر حاجاته بحسب كثرة قنياته، وعلى قدر منازعته إلى الاستكثار تكثر وجوه فقره، وقد بين ذلك في شرائع الأنبياء، وأخلاق الحكماء، فأما الشيء الرخيص الموجود كثيراً فإنما يرغب عنه، لأنه معلوم أنه إذا التمس وجد والغالي فإنما يقدر

عليه في الأحيان ويصيبه الواحد بعد الواحد، وكل إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحد ليصيبه وليحصل له مالا يحصل لغيره.

الأصل: احذروا نفار النعم، فما كل شارد بمردود.

الشرح: هذا أمر بالشكر على النعمة وترك المعاصي، فإن المعاصي تزيل النعم كما قيل:

فإن المعاصي تزيل النعم

إذا كنت في نعمة فارعها

وقال بعض السلف: كفران النعمة بوار، وقلما أقلعت نافرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاردها بالشكر، واستدم رهنها بكرم الجوار، ولا تحسب أن سبوغ ستر الله عليك غير متقلص عما قليل عنك إذا أنت لم ترج الله وقاراً. وقال أبو عصمة: شهدت سفیان وفضيلاً فما سمعتهما يتذاكران إلا النعم، يقولان: أنعم الله سبحانه علينا بكذا، وفعل بنا كذا.

وقال الحسن: إذا استوى يوماك فأنت ناقص، قيل له: كيف ذاك؟ قال: إن زادك الله اليوم نعماً فعليك أن تزداد غداً له شكراً.

وكان يقال: الشكر حنة من الزوال، وأمنة من الانتقال.

وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة.

الأصل: الكرم أعطف من الرحم.

الشرح: مثل هذا المعنى قول أبي تمام لابن الجهم:

أدب أقمناه مقام الوالد

إلا يكن نسب يؤلف بيننا

عذب تحدر من غمام واحد

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا

ومن قصيدة لي في بعض أغراضه:

ضلاء فوق وشائج النسب

ووشائج الآداب عاطفة الف

الأصل: من ظن بك خيراً فصدق ظنه.

الشرح: هذا قد تقدم في وصيته عليه السلام لولده الحسن.

ومن كلام بعضهم: إني لأستحي أن يأتيني الرجل يحمر وجهه تارةً من الخجل، أو يصفر أخرى من خوف الرد قد ظن بي الخير وبات عليه وغدا علي أن أردّه خائباً.

الأصل: أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه.

الشرح: لا ريب أن الثواب على قدر المشقة، لأنه كالعوض عنها، كما أن العوض الحقيقي عوض عن الألم، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "أفضل العبادة أحزها". أي أشقها.

الأصل: عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، وحل العقود، ونقض الهمم.

الشرح: هذا أحد الطرق إلى معرفة الباري سبحانه، وهو أن يعزم الإنسان على أمر، ويصمم رأيته عليه، ثم لا يلبث أن يخطر الله تعالى بباله خاطراً صارفاً له عن ذلك الفعل، ولم يكن في حسابه، أي لولا أن في الوجود ذاتاً مدبرة لهذا العالم لما خطرت الخواطر التي لم تكن محتسبة، وهذا فصل يتضمن كلاماً دقيقاً يذكره المتكلمون في الخاطر الذي يخطر عن غير موجب لخطوره، فإنه لا يجوز أن يكون الإنسان أخطره بباله، وإلا لكان ترجيحاً من غير مرجح لجانب الوجود على جانب العدم، فلا بد أن يكون المخطر له بالبال شيئاً خارجاً عن ذات الإنسان، وذلك هو الشيء المسمى بصانع العالم. وليس هذا الموضع مما يحتمل استقصاء القول في هذا المبحث.

ويقال: إن عضد الدولة وقعت في يده قصة وهو يتصفح القصص، فأمر بصلب صاحبها، ثم أتبع الخادم خادماً آخر يقول له: قل للمطهر- وكان وزيره- لا يصلبه، ولكن أخرجه من الحبس فاقطع يده اليمنى، ثم أتبعه خادماً ثالثاً، فقال: بل تقول له: يقطع أعصاب رجله، ثم أتبعه خادماً آخر فقال له: ينقله إلى القلعة بسيراف في قيوده فيجعله هناك، فاختلفت دواعيه في ساعة واحدة أربع مرات.

الأصل: مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة.

الشرح: لما كانت الدنيا ضد الآخرة، وجب أن يكون أحكام هذه ضد أحكام هذه، كالسواد يجمع البصر والبياض يفرق البصر، والحرارة توجب الخفة، والبرودة توجب الثقل، فإذا كان في الدنيا أعمال هي مرة المذاق على الإنسان قد ورد الشرع بإيجابها فتلك الأفعال تقتضي وتوجب لفاعلها ثواباً حلو المذاق في الآخرة. وكذلك بالعكس ما كان من المشتبهات الدنياوية التي قد نهى الشرع عنها توجب - وإن كانت حلوة المذاق - مرارة العقوبة في الآخرة.

الأصل: فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تزيهاً عن الكبر، والزكاة تسبيهاً للرزق، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق، والحج تقوية للدين، والجهاد عزاً للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء، وصلة الرحم منماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، وإقامة الحدود إعظماً للمحارم، وترك شرب الخمر تحصيماً للعقل، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة، وترك الزنا تحصيماً للنسب، وترك اللواط تكثيراً للنسل، والشهادات استظهاراً على المجاحدات، وترك الكذب تشريفاً للصدق، والسلام أماناً من المخاوف، والأمانة نظاماً للأمة، والطاعة تعظيماً للإمامة.

الشرح: هذا الفصل يتضمن بيان تعليل العبادات إيجاباً وسلباً.

قال عليه السلام: فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، وذلك لأن الشرك نجاسة حكمية لا عينية، وأي شيء يكون أنجس من الجهل أو أقبح! فالإيمان هو تطهير القلب من نجاسة ذلك الجهل.

وفرضت الصلاة تزيهاً من الكبر، لأن الإنسان يقوم فيها قائماً، والقيام مناف للتكبر وطارد له، ثم يرفع يديه بالتكبير وقت الإحرام بالصلاة فيصير على هيئة من يمد عنقه ليوسطه السياف، ثم يستكتف كما يفعل العبيد الأذلاء بين يدي السادة العظماء، ثم يركع على هيئة من يمد عنقه ليضربها السياف، ثم يسجد فيضع أشرف أعضائه وهو جبهته على أدون المواضع، وهو التراب. ثم تتضمن الصلاة من الخضوع والخشوع والامتناع من الكلام والحركة الموهمة لمن رآها أن صاحبها خارج عن الصلاة، وما في غضون الصلاة من الأذكار المتضمنة الذل والتواضع لعظمة الله تعالى.

وفرضت الزكاة تسبيهاً للرزق، كما قال الله تعالى: "وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه"، وقال: "من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له".

وفرض الصيام ابتلاءً لإخلاص الخلق، قال النبي صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى: "الصوم لي وأنا أجزي به"، وذلك لأن الصوم أمر لا يطلع عليه أحد، فلا يقوم به على وجهه إلا المخلصون.

وفرض الحج تقوية للدين، وذلك لما يحصل للحاج في ضمنه من المتاجر والمكاسب، قال الله تعالى: "ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بيمية الأنعام". وأيضاً فإن المشركين كانوا يقولون: لولا أن أصحاب محمد كثير وأولو قوة لما حجوا، فإن الجيش الضعيف يعجز عن الحج من المكان البعيد.

وفرض الجهاد عزاً للإسلام، وذلك ظاهر، قال الله تعالى: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً"، وقال سبحانه: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم".

وفرض الأمر بالمعروف مصلحة للعوام، لأن الأمر بالعدل والإنصاف ورد الودائع، وأداء الأمانات إلى أهلها، وقضاء الديون، والصدق في القول، وإنجاز الوعد، وغير ذلك من محاسن الأخلاق، مصلحة للبشر عظيمة لا محالة.

وفرض النهي عن المنكر ردعاً للسفهاء، كالنهي عن الظلم والكذب والسفه، وما يجري مجرى ذلك.

وفرض صلة الرحم منمة للعدد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "صلة الرحم تزيد في العمر وتنمي العدد".

وفرض القصاص حقناً للدماء، قال سبحانه: "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب".

وفرض إقامة الحدود إعظماً للمحارم، وذلك لأنه إذا أقيمت الحدود امتنع كثير من الناس عن المعاصي التي تجب الحدود فيها، وظهر عظم تلك المعاصي عند العامة فكانوا إلى تركها أقرب.

وحرم شرب الخمر تحصيماً للعقل، قال قوم لحكيم: اشرب الليلة معنا، فقال: أنا لا أشرب ما يشرب عقلي، وفي الحديث المرفوع: "إن ملكاً ظالماً خير إنساناً بين أن يجمع أمه أو يقتل نفساً مؤمنة، أو يشرب الخمر حتى يسكر، فرأى أن الخمر أهونها، فشرب حتى سكر، فلما غلبه قام إلى أمه فوطئها، وقام إلى تلك النفس المؤمنة فقتلها"، ثم قال عليه السلام: "الخمر جماع الآثم، الخمر أم المعاصي".

وحرمت السرقة إيجاباً للعفة، وذلك لأن العفة خلق شريف، والطمع خلق دنيء، فحرمت السرقة ليطمئن الناس على ذلك الخلق الشريف، ويجانبوا ذلك الخلق الذميم، وأيضاً حرمت لما في تحريمها من تحصين أموال الناس.

وحرم الزنا تحصيماً للنسب، فإنه يفضي إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب، وألا ينسب أحد بتقدير ألا يشرع النكاح إلى أب، بل يكون نسب الناس إلى أمهاتهم، وفي ذلك قلب الحقيقة، وعكس الواجب، لأن الولد مخلوق من ماء الأب، وإنما الأم وعاء وظرف.

وحرم اللواط تكثيراً للنسل، وذلك أن اللواط بتقدير استفاضته بين الناس والاستغناء به عن النساء يفضي إلى انقطاع النسل والذرية، وذلك خلاف ما يريد الله تعالى من بقاء هذا النوع الشريف الذي ليس في الأنواع مثله في الشرف، لمكان

النفس الناطقة التي هي نسخة ومثال للحضرة الإلهية، ولذلك سمى الحكماء الإنسان العالم الصغير.

وحرّم الاستمناء باليد وإتيان البهائم للمعنى الذي لأجله حرّم اللواط، وهو تقليل النسل، ومن مستحسن الكلمات النبوية قوله عليه السلام في الاستمناء باليد: "ذلك الوأد الخفي"، لأن الجاهلية كانت تند البنات أي تقتلن خنقاً، وقد قدمنا ذكر سبب ذلك، فشبه عليه السلام إتلاف النطفة التي هي ولد بالقوة بإتلاف الولد بالفعل.

وأوجبت الشهادات على الحقوق استظهاراً على المجاحدات، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو أعطي الناس بدعائهم لاستحل قوم من قوم دمائهم وأموالهم"، ووجب ترك الكذب تشريعاً للصدق، وذلك لأن مصلحة العامة إنما تتم وتنظم بالصدق، فإن الناس يبنون أكثر أمورهم في معاملاتهم على الأخبار، فإنها أعم من العيان والمشاهدة، فإذا لم تكن صادقة وقع الخطأ في التدبيرات، وفسدت أحوال الخلق.

وشرع رد السلام أماناً من المخاوف، لأن تفسير قول القائل: "سلام عليكم"، أي لا حرب بيني وبينكم، بل بيني وبينكم السلام، وهو الصلح.

وفرضت الإمامة نظاماً لأمة، وذلك لأن الخلق لا يرتفع الهرج والعسف والظلم والغضب والسرقة عنهم إلا بوازع قوي، وليس يكفي في امتناعهم قبح القبيح، ولا وعيد الآخرة، بل لا بد لهم من سلطان قاهر ينظم مصالحهم، فيردع ظالمهم، ويأخذ على أيدي شفهاءهم.

وفرضت الطاعة تعظيماً للإمامة، وذلك لأن أمر الإمامة لا يتم إلا بطاعة الرعية، وإلا فلو عصت الرعية إمامها لم ينتفعوا بإمامته ورئاسته عليهم.

الأصل: وكان عليه السلام يقول: أحلفوا الظالم إذا أردتم يمينه بأنه بريء من حول الله وقوته، فإنه إذا حلف بها كاذباً عوجل، وإذا حلف بالله الذي لا إله إلا هو لم يعاجل، لأنه قد وحد الله سبحانه وتعالى.

ما جرى بين يحيى بن عبد الله وبين ابن مصعب في مجلس الرشيد

الشرح: روى أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني في كتاب "مقاتل الطالبين" أن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام لما أمنه الرشيد بعد خروجه بالديلم وصار إليه بالغ في إكرامه وبره، فسعى به بعد مدة عبد الله بن مصعب الزبيري إلى الرشيد - وكان يبغضه - وقال له: إنه قد عاد يدعو إلى نفسه سراً، وحسن له نقض أمانه، فأحضره وجمع بينه وبين عبد الله بن مصعب لينظره فيما قذفه به ورفع عليه فجبهه ابن مصعب بحضرة الرشيد، وادعى عليه الحركة في الخروج وشق العصا، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، أتصدق هذا علي وتستنصحه، وهو ابن عبد الله بن الزبير، الذي أدخل أباك عبد الله وولده الشعب، وأضرهم عليهم النار حتى خفصه أبو عبد الله الجدلي، صاحب علي بن أبي طالب عليه السلام منه عنوة، وهو الذي ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين جمعة في خطبته، فلما التأت عليه الناس قال: إن له أهيل سوء إذا صليت عليه أو ذكرته أتلعوا أعناقهم واشربوا لذكرك، فأكره أن أسره أو أقر أعينهم، وهو الذي كان يشتم أباك ويلصق به العيوب حتى ورم كبده، ولقد ذبحت بقرة يوماً لأبيك فوجدت كبدها سوداء قد نقت، فقال علي ابنه: أما ترى كبده هذه البقرة يا أبت! فقال: يا بني هكذا ترك ابن الزبير كبده أهلك، ثم نفاه إلى الطائف، فلما حضرته الوفاة قال لابنه علي: يا بني إذا مت فالحق بقومك من بني عبد مناف بالشام، ولا تقم في بلد

لابن الزبير فيه إمرة، فاختار له صحبة يزيد بن معاوية على صحبة عبد الله بن الزبير. ووالله إن عداوة هذا يا أمير المؤمنين لنا جميعاً بمنزلة سواء، ولكنه قوي علي بك، وضعف عنك، فتقرب بي إليك ليظفر منك بي بما يريد، إذا لم يقدر على مثله منك، وما ينبغي لك أن تسوغه ذلك في، فإن معاوية بن أبي سفيان وهو أبعد نسباً منك إلينا ذكر الحسن بن علي يوماً فسيبه، فساعده عبد الله بن الزبير على ذلك، فرجره وانتهره، فقال: إنما ساعدتك يا أمير المؤمنين، فقال: إن الحسن لحمي أكله ولا أوكله. ومع هذا فهو الخارج مع أخي محمد على أبيك المنصور أبي جعفر، والقائل لأخي في قصيدة طويلة أولها:

هاجت فؤاد محب دائم الحزن

إن الحمامة يوم الشعب من وثن

يحرص أخي فيها على الوثوب والنهوض إلى الخلافة، ويمدحه ويقول له:

إن أسلمتك ولا ركنا ذوي يمن

لا عز ركنا نزار عند سطوتها

يوماً وأظهرهم ثوباً من الدرن!

ألست أكرمهم عوداً إذا انتسبوا

وأبعد الناس من عيب ومن وهن!

وأعظم الناس عند الناس منزلة

إن الخلافة فيكم يا بني حسن

قوموا ببيعكم ننهض بطاعتها

بعد التدابر والبغضاء والإحن

إننا لنأمل أن ترتد ألفتنا

ويأمن الخائف المأخوذ بالدمن

حتى يثاب على الإحسان محسننا

فينا كأحكام قوم عابدي وثن

وتتقضي دولة أحكام قادتها

بري الصناع قداح النبع بالسفن

فطالما قد بروا بالجور أعظمنا

فتغير وجه الرشيد عند سماع هذا الشعر، وتغيظ على ابن مصعب، فابتدأ ابن مصعب يحلف بالله الذي لا إله إلا هو وبأيمان البيعة أن هذا الشعر ليس له، وأنه لسديف، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين ما قاله غيره، وما حلفت كاذباً ولا صادف بالله قبل هذا، وإن الله عز وجل إذا مجده العبد في يمينه فقال: والله الطالب الغالب الرحمن الرحيم، استحي أن يعاقبه فدعني أن أحلفه بيمين ما حلف بها أحد قط كاذباً إلا عوجل، قال فحلفه، قال قل: برئت من حول الله وقوته، واعتصمت بحولي وقوتي، وتقلدت الحول والقوة من دون الله، استكباراً على الله واستعلاء عليه، واستغناء عنه إن كنت قلت هذا الشعر! فامتنع عبد الله من الحلف بذلك، فغضب الرشيد، وقال للفضل بن الربيع. يا عباسي ما له لا يحلف إن كان صادقاً! هذا طيلسان علي، وهذه ثيابي لو حلفني بهذه اليمين أنها لي لحلفت. فوكر الفضل عبد الله برجله - وكان له فيه هوى - وقال له: احلف ويحك! فجعل يحلف بهذه اليمين، ووجهه متغير، وهو يرعد، فضرب يحيى بين كتفيه، وقال: يا بن مصعب، قطعت عمرك، لا تفلح بعدها أبداً!

قالوا: فما برح من موضعه حتى عرض له أعراض الجذام، استدارت عيناه، وتفقأ وجهه، وقام إلى بيته فتقطع وتشقق لحمه وانتثر شعره، ومات بعد ثلاثة أيام، وحضر الفضل بن الربيع جنازته، فلما جعل في القبر انخسف اللحد به حتى خرج منه غبرة شديدة، وجعل الفضل يقول: التراب التراب! فطرح التراب وهو يهوي، فلم يستطيعوا سده حتى سقف بخشب، وطم عليه، فكان الرشيد يقول بعد ذلك للفضل: رأيت يا عباسي ما أسرع ما أديل ليحيى من ابن مصعب. الأصل: يا

بن آدم، كن وصي نفسك واعمل في مالك ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك.

الشرح: لا ريب أن الإنسان يؤثر أن يخرج ماله بعد موته في وجوه البر والصدقات والقربات ليصل ثواب ذلك، لكنه يضمن بإخراجه وهو حي في هذه الوجوه لحبه العاجلة وخوفه من الفقر والحاجة إلى الناس في آخر العمر، فيقيم وصياً يعمل ذلك في ماله بعد موته.

وأوصى أمير المؤمنين عليه السلام الإنسان أن يعمل في ماله وهو حي ما يؤثر أن يجعل فيه وصية بعد موته، وهذه حالة لا يقدر عليها إلا من أخذ التوفيق بيده.

الأصل: الحدة ضرب من الجنون، لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم.

الشرح: كان يقال: الحدة كنية الجهل. وكان يقال: لا يصح لحديد رأي، لأن الحدة تصدئ العقل كما يصدئ الخل المرأة، فلا يرى صاحبه فيه صورة حسن فيفعله، ولا صورة قبيح فيجتنبه.

وكان يقال: أول الحدة جنون وآخرها ندم، وكان يقال: لا تحملنك الحدة على اقتراف الإثم، فتشفي غيظك، وتسقم دينك.

الأصل: صحة الجسد من قلة الجسد.

الشرح: معناه أن القليل الجسد لا يزال معافي في بدنه، والكثير الجسد يمرضه ما يجده في نفسه من مضاضة المنافسة، وما يتجرعه من الغيظ، ومزاج البدن يتبع أحوال النفس.

قال المأمون: ما حسدت أحداً قط إلا أبا دلف على قول الشاعر فيه:

بين باديه ومحتضره

إنما الدنيا أبو دلف

ولت الدنيا على أثره

فإذا ولي أبو دلف

وروى أبو الفرج الأصبهاني عن عبدوس بن أبي دلف قال: حدثني أبي، قال: قال لي المأمون: يا قاسم، أنت الذي يقول فيك علي بن جبلة:

إنما الدنيا أبو دلف

البيتين، فقلت مسرعاً: وما ينفعني ذلك يا أمير المؤمنين مع قوله في:

سواي فإنني في مديحك أكذب

أبا دلف يا أكذب الناس كلهم

ومع قول بكر بن النطاح في:

لمن يرتجي جدوى يديك ويأمله

أبا دلف إن الفقير بعينه

إذا فتحوه عنك فالبؤس داخله

أرى لك باباً مغلقاً متمنعاً

خلي من الخيرات تعس مداخله

كأنك طبل هائل الصوت معجب

عليك على طنز وأنك قابله

وأعجب شيء فيك تسليم إمرة

قال: فلما انصرفت قال المأمون لمن حوله: لله دره! حفظ هجاء نفسه حتى انتفع به عندي، وأطفأ لهيب المنافسة. الأصل: وقال عليه السلام لكميل بن زياد النخعي: يا كميل، مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً شروراً إلا وخلق الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره، حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل.

الشرح: قال عمرو بن العاص لمعاوية: ما بقي من لذتك؟ فقال: ما من شيء يصيبه الناس من اللذة إلا وقد أصبته حتى مللته، فليس شيء عندي اليوم ألد من شربة ماء بارد في يوم صائف، ونظري إلى بني وبناتي يدرجون حولي، فما بقي من لذتك أنت؟ فقال: ارض أغرسها وأكل ثمرتها، لم يبق لي لذة غير ذلك. فالتفت معاوية إلى وردان غلام عمرو، فقال: فما بقي من لذتك يا وريد؟ فقال: سرور أدخله قلوب الإخوان، وصنائع أعتقدها في أعناق الكرام، فقال معاوية لعمرو: تبارك مجلسي ومجلسك! لقد غلبني وغلبك هذا العبد، ثم قال: يا وردان، أنا أحق بهذا منك؟ قال: قد أمكنتك فافعل.

فإن قلت: السرور عرض، فكيف يخلق الله تعالى منه لطفاً؟ قلت: من هاهنا هي مثل "من" في قوله: "ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون"، أي عوضاً منكم.

ومثله:

ليت لنا من ماء زمزم شربةً مبردة باتت على طهيان

أي ليت لنا لضربة مبردة باتت على طهيان، وهو اسم جبل، بدلاً وعوضاً من ماء زمزم.

الأصل: إذا أملتكم فتاجروا الله بالصدقة.

الشرح: قد تقدم القول في الصدقة.

وقالت الحكماء: أفضل العبادات الصدقة، لأن نفعها يتعدى، ونفع الصلاة والصوم لا يتعدى.

وجاء في الأثر أن علي عليه السلام عمل ليهودي في سقي نخل له في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. بعد من شعير، فخبزه قرصاً، فلما هم أن يفطر عليه، أتاه سائل يستطعم، فدفعه إليه، وبات طاوياً وتاجر الله تعالى بتلك الصدقة، فعد الناس هذه الفعلة من أعظم السخاء، وعدوها أيضاً من أعظم العبادات.

وقال بعض شعراء الشيعة يذكر إعادة الشمس عليه، وأحسن فيما قال:

جاد بالقرص والطوى ملء جنبى ه وعاف الطعام وهو سغوب

فأعاد القرص المنير عليه ال قرص والمقرض الكرام كسوب

الأصل: الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله.

الشرح: معناه أنه إذا اعتيد من العدو أن يغدر ولا يفي بأقواله وأيمانه وعهوده، لم يجوز الوفاء له، ووجب أن ينقض عهوده ولا يوقف مع العهد المعقود بيننا وبينه، فإن الوفاء لمن هذه حاله ليس بوفاء عند الله تعالى، بل هو كالغدر في قبحه، والغدر بمن هذه حاله ليس بقبيح، بل هو في الحسن كالوفاء لمن يستحق الوفاء عند الله تعالى.

الأصل: كم من مستدرج بالإحسان إليه، ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى الله سبحانه أحداً بمثل الإملاء له.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم، إلا أن فيه هاهنا زيادة جيدة.

الشرح: قد تقدم الكلام في الاستدراج والإملاء.

وقال بعض الحكماء: احذر النعم المتواصلة إليك أن تكون استدراجاً، كما يحذر المحارب من اتباع عدوه في الحرب إذا فر من بين يديه من الكمين، وكم من عدو فر مستدرجاً، ثم إذ هو عاطف، وكم من ضارع في يدك ثم إذ هو خاطف. الأصل: ومن كلامه عليه السلام المتضمن ألفاظاً من الغريب تحتاج إلى تفسير: قوله عليه السلام في حديثه: فإذا كان ذلك ضرب يعسوب الدين بذنبه، فيجتمعون إليه كما يجتمع قزح الخريف.

قال الرضي رحمه الله تعالى: يعسوب الدين: السيد العظيم المالك لأموال الناس يومئذ، والقزح: قطع الغيم التي لا ماء فيها. الشرح: أصاب في يعسوب، فأما القزح فلا يشترط فيها أن تكون خالية من الماء، بل القزح قطع من السحاب رقيقة، سواء كان فيها ماء أو لم يكن، الواحدة قرعة بالفتح، وإنما غره قول الشاعر يصف جيشاً بالقلة والخفة.

كأن رعاله قزح الجهام

وليس يدل ذلك على ما ذكره، لأن الشاعر أراد المبالغة، فإن الجهام الذي لا ماء فيه إذا كان أقطاعاً متفرقة خفيفة، كان ذكره أبلغ فيما يريد من التشبيه، وهذا الخبر من أخبار الملاحم التي كان يخبر بها عليه السلام، وهو يذكر فيه المهدي الذي يوجد عند أصحابنا في آخر الزمان. ومعنى قوله: "ضرب بذنبه" أقام وثبت بعد اضطرابه، وذلك لأن يعسوب فحل النحل وسيدها، وهو أكثر زمانه طائر بجناحيه، فإذا ضرب بذنبه الأرض فقد أقام وترك الطيران والحركة. فإن قلت: فهذا يشبه مذهب الإمامية في أن المهدي خائف مستتر ينتقل في الأرض، وأنه يظهر آخر الزمان ويثبت ويقوم في دار ملكه.

قلت: لا يبعد على مذهبنا أن يكون الإمام المهدي الذي يظهر في آخر الزمان مضطرب الأمر، منتشر الملك في أول أمره لمصلحة يعلمها الله تعالى، ثم بعد ذلك يثبت ملكه، وتنظم أموره.

وقد وردت لفظة يعسوب عن أمير المؤمنين عليه السلام في غير هذا الموضع، قال يوم الجمل لعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وقد مر به قتيلاً: "هذا يعسوب قريش"، أي سيدها.

الأصل: وفي حديثه - "ع": هذا الخطيب الشحشع.

قال الرضي رضي الله عنه: يريد الماهر بالخطبة، الماضي فيها، وكل ماض في كلام أو سير فهو شحشع. والشحشع في غير هذا الموضع: البخيل المسك.

الشرح: قد جاء الشحشع بمعنى الغيور، والشحشع بمعنى الشجاع، والشحشع بمعف المواظب على الشيء الملازم له، والشحشع: الحاوي، ومثله الشحشعان.

وهذه الكلمة قالها علي عليه السلام لصعصعة بن صوحان العبدي رحمه الله، وكفى صعصعة بما فخراً أن يكون مثل علي

عليه السلام يثني عليه بالمهارة وفصاحة اللسان، وكان صعصعة من أفصح الناس، ذكر ذلك شيخنا أبو عثمان الجاحظ. الأصل: ومنه: إن للخصومة قحماً.

قال الرضي رضي الله عنه: يريد بالقحم المهالك، لأنها تقحم أصحابها في المهالك والمتالف في الأكثر فمن ذلك قحمة الأعراب، وهو أن تصيبهم السنة فتتفرق أموالهم، فذلك تقحمها فيهم. وقيل فيه وجه آخر، وهو أنها تقحمهم بلاد الريف، أي تجوهم إلى دخول الحضر عند محول البدو.

الشرح: أصل هذا البناء للدخول في الأمر على غير روية ولا تثبت، قحم الرجل في الأمر بالفتح قحوماً، وأقحم فلان فرسه البحر فانقحم، واقتحمت أيضاً البحر دخلته مكافحة، وقحم الفرس فارسه تقحيماً على وجهه، إذا رماه، وفحل مقحام، أي يقتحم الشول من غير إرسال فيها.

وهذه الكلمة قالها أمير المؤمنين حين وكل عبد الله بن جعفر في الخصومة عنه، وهو شاهد. وأبو حنيفة لا يجيز الوكالة على هذه الصورة، ويقول: لا تجوز إلا من غائب أو مريض، وأبو يوسف ومحمد يجيزانها أخذاً بفعل أمير المؤمنين عليه السلام.

الأصل: ومنه: إذا بلغ النساء نص الحقائق فالعصبة أولى.

قال الرضي رضي الله عنه: ويروى "نص الحقائق"، والنص منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها كالنص في السير لأنه أقصى ما تقدر عليه الدابة، ويقال: نصبت الرجل عن الأمر إذا استقصيت مسألته لتستخرج ما عنده فيه، ونص الحقائق يريد به الإدراك، لأنه منتهى الصغر، والوقت الذي يخرج منه الصغير إلى حد الكبر، وهو من أفصح الكنايات عن هذا الأمر وأغربها، يقول: فإذا بلغ النساء ذلك فالعصبة أولى بالمرأة من أمها إذا كانوا محرماً مثل الإخوة والأعمام، وبتزويجها إن أرادوا ذلك.

والحقاق: محاكاة الأم للعصبة في المرأة، وهو الجدال، والخصومة، وقول كل واحد منهما للآخر: أنا أحق منك بهذا، يقال منه: حاقفته حقاقاً، مثل جادلته جدالاً. قال: وقد قيل إن نص الحقائق بلوغ العقل وهو الإدراك، لأنه عليه السلام إنما أراد منتهى الأمر الذي تجب به الحقوق والأحكام.

وقال: ومن رواه "نص الحقائق" فإنما أراد جمع حقيقة، هذا معنى ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام.

قال: والذي عندي أن المراد بنص الحقائق هاهنا بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها وتصرفها في حقوقها، تشبيهاً بالحقاق من الإبل، وهي جمع حقة وحق، وهو الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة، وعند ذلك يبلغ إلى الحد الذي يمكن فيه من ركوب ظهره ونصه في سيره. والحقائق أيضاً: جمع حقة، فالروايتان جميعاً ترجعان إلى مسمى واحد، وهذا أشبه بطريقة العرب من المعنى المذكور أولاً.

الشرح: أما ما ذكره أبو عبيد فإنه لا يشفي الغليل، لأنه فسر معنى النص، ولم يفسر معنى نص الحقائق، بل قال: هو عبارة عن الإدراك، لأنه منتهى الصغر، والوقت الذي يخرج منه الصغير إلى حد الكبر، ولم يبين من أي وجه يدل لفظ نص الحقائق على ذلك، ولا اشتقاق الحقائق وأصله، ليظهر من ذلك مطابقة اللفظ للمعنى الذي أشير إليه.

فأما قوله: "الحقاق هاهنا مصدر حاقه يحاقه"، فلقائل أن يقول: إن كان هذا هو مقصوده عليه السلام فقبل الإدراك يكون الحقاق أيضاً، لأن كل واحدة من القربات تقول للأخرى: أنا أحق بها منك، فلا معنى لتخصيص ذلك بحال البلوغ، إلا أن يزعم زاعم أن الأم قبل البلوغ لها الحضانة، فلا ينازعها قبل البلوغ في البنت أحد ولكن في ذلك خلاف كثير بين الفقهاء. وأما التفسير الثاني، وهو أن المراد بنص الحقاق منتهى الأمر الذي تجب به الحقوق فإن أهل اللغة لم ينقلوا عن العرب أنها استعملت الحقاق في الحقوق، ولا يعرف هذا في كلامهم.

فأما قوله: "ومن رواه نص الحقائق"، فإنما أراد جمع حقيقة، فلقائل أن يقول: وما معنى الحقائق إذا كانت جمع حقيقة هاهنا؟ وما معنى إضافة "نص" إلى "الحقائق" جمع حقيقة، فإن أبا عبيد لم يفسر ذلك مع شدة الحاجة إلى تفسيره! وأما تفسير الرضي - رحمه الله - فهو أشبه من تفسير أبي عبيد، إلا أنه قال في آخره: والحقائق أيضاً جمع حقة، فالروايتان ترجعان إلى معنى واحد. وليس الأمر على ما ذكر من أن الحقائق جمع حقة، ولكن الحقائق جمع حقاق، والحقاق جمع حق، وهو ما كان من الإبل ابن ثلاث سنين، وقد دخل في الرابعة، فاستحق أن يحمل عليه وينتفع به، فالحقائق إذن جمع الجمع لحق لا لحقة، ومثل إفال وأفائل. قال: ويمكن أن يقال: الحقاق هاهنا الخصومة، يقال: ما له فيه حق ولا حقاق أي ولا خصومة، ويقال لمن ينازع في صغار الأشياء إنه لبرق الحقاق، أي خصومته في الدين من الأمر، فيكون المعنى إذا بلغت المرأة الحد الذي يستطيع الإنسان الخصومة والجدال فعصبتها أولى بها من أمها، والحد الذي تكفل فيه المرأة والغلام للخصومة والحكومة والجدال والمناظرة هو سن البلوغ.

الأصل: ومنه: إن الإيمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة. قال الرضي رضي الله عنه: اللمظة مثل النكتة أو نحوها من البياض، ومنه قيل: فرس ألمظ إذا كان بجحفلته شيء من البياض.

الشرح: قال أبو عبيد: هي لمظة بضم اللام، والمحدثون يقولون: لمظة بالفتح، والمعروف من كلام العرب الضم، مثل الدهمة والشبهة والحمرة. قال: وقد رواه بعضهم: "لمطة" بالطاء المهملة، وهذا لا نعرفه. قال: وفي هذا الحديث حجة على من أنكر أن يكون الإيمان يزيد وينقص، ألا تراه يقول: كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة.

الأصل: ومنه: إن الرجل إذا كان له الدين الظنون يجب عليه أن يزكيه لما مضى إذا قبضه. قال الرضي: الظنون: الذي لا يعلم صاحبه أيقضيه من الذي هو عليه أم لا، فكأنه الذي يظن به ذلك، فمرة يرجوه، ومرة لا يرجوه، وهو من أفصح الكلام، وكذلك كل أمر تطلبه ولا تدري على أي شيء أنت منه فهو ظنون، وعلى ذلك قول الأعشى:

جنب صوب اللجب الماطر

يقذف بالبوصي والماهر

من يجعل الجد الظنون الذي

مثل الفراتي إذا ما طما

والجد: البئر العادية في الصحراء. والظنون: التي لا يعلم هل فيها ماء أم لا.

الشرح: قال أبو عبيد: في هذا الحديث من الفقه أن من كان له دين على الناس فليس عليه أن يزكيه حتى يقبضه، فإذا قبضه زكاه لما مضى، وإن كان لا يرجوه، قال: وهذا يرده قول من قال: إنما زكاته على الذي عليه المال، لأنه المنتفع به، قال: وكما يروى عن إبراهيم، والعمل عندنا على قول علي عليه السلام، فأما ما ذكره الرضي من أن الجد هي البئر العادية في الصحراء، فالمعروف عند أهل اللغة أن الجد البئر التي تكون في موضع كثير الكلاء، ولا تسمى البئر العادية في الصحراء الموات جداً، وشعر الأعشى لا يدل على ما فسره الرضي، لأنه إنما شبه علقمة بالبئر والكلاء، يظن أن فيها ماء لمكان الكلاء، ولا يكون موضع الظن هذا هو مراده ومقصوده، ولهذا قال: الظنون، ولو كانت عادية في بيدا مقفرة لم تكن ظنوناً، بل كان يعلم أنه لا ماء فيها، فسقط عنها اسم الظنون.

الأصل: ومنه أنه شيع جيشاً يغزيه فقال: اعزبوا عن النساء ما استطعتم.

ومعناه: اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلوب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن، لأن ذلك يفت في عضد الحمية، ويقدر في معاهد العزيمة، ويكسر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو، فكل من امتنع من شيء فقد أعزب عنه، والعازب والعزوب: الممتنع من الأكل والشرب.

الشرح: التفسير صحيح، لكن قوله: "من امتنع من شيء فقد أعزب عنه" ليس بجيد، والصحيح "فقد عزب عنه" ثلاثي، والصواب: وكل من منعه من شيء فقد أعزبته عنه تعديده بالهمزة، كما تقول: أقمته وأقعدته، والفعل ثلاثي قام وقعد، والدليل على أن الماضي ثلاثي هاهنا. قوله: "والعازب والعزوب: الممتنع من الأكل والشرب"، ولو كان رباعياً لكان "المعزب"، وهو واضح، وعلى هذا تكون الهمزة في أول الحرف همزة وصل مكسورة، كما في "اضربوا" لأن المضارع يعزب بالكسر.

الأصل: ومنه: كالياسر الفالج، ينتظر أول فوزة من قداحه.

قال: الياسرون هم الذين يتضاربون بالقداح على الجزور، والفالج: القاهر الغالب، يقال: قد فلج عليهم وفلجهم، قال الراجز:

لما رأيت فالجاً قد فلجاً

الشرح: أول الكلام أن المرء المسلم ما لم يغش دناءة يخشع لها إذا ذكرت، ويغري به لثام الناس، كالياسر الفالج ينتظر أول فوزة من قداحه، أو داعي الله، فما عند الله خير للأبرار، يقول: هو بين خيرتين: إما أن يصير إلى ما يحب من الدنيا، فهو بمنزلة صاحب القدح الملقى، وهو أوفرها نصيباً، أو يموت فما عند الله خير له وأبقى.

وليس يعني بقوله: الفالج: القاهر الغالب كما فسره الرضي رحمه الله، لأن الياسر الغالب القاهر لا ينتظر أول فوزة من قداحه، وكيف ينتظر وقد غلب! وأي حاجة له إلى الانتظار! ولكنه يعني بالفالج الميمون النقيية الذي له عادة مطردة أن يغلب، وقل أن يكون مقهوراً.

الأصل: ومنه: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه.
قال: معنى ذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو، واشتد عضاض الحرب فرع المسلمون إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه، فيترل الله تعالى النصر عليهم به، ويأمنون ما كانوا يخافونه بمكانه. وقوله: "إذا احمر البأس": كناية عن اشتداد الأمر، وقد قيل في ذلك أقوال، أحسنها أنه شبه حمي الحرب بالنار التي تجمع الحرارة والحمرة بفعلها ولونها، ومما يقوي ذلك قول الرسول صلى الله عليه وآله وقد رأى مجتلد الناس يوم حنين وهي حرب هوازن: "الآن حمي الوطيس"، والوطيس: مستوقد النار، فشبه رسول الله صلى الله عليه وآله ما استحر من جلال القوم باحتدام النار وشدة التهاجم. الشرح: الجيد في تفسير هذا اللفظ أن يقال: البأس الحرب نفسها، قال الله تعالى: "والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس"، وفي الكلام حذف مضاف تقديره إذا احمر موضع البأس، وهو الأرض التي عليها معركة القوم، واحمرارها لما يسيل عليها من الدم.

من غريب كلام الإمام علي وشرحه لأبي عبيد ولما كان تفسير الرضي رحمه الله قد تعرض للغريب من كلامه عليه السلام، ورأينا أنه لم يذكر من ذلك إلا اليسير، آثرنا أن نذكر جملة من غريب كلامه عليه السلام مما نقله أرباب الكتب المصنفة في غريب الحديث عنه عليه السلام.
فمن ذلك ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه: لأن أطلي بجواء قدر أحب إلي من أن أطلي بزعفران. قال أبو عبيد: هكذا الرواية عنه "بجواء قدر"، قال: وسمعت الأصمعي يقول: إنما هي الجاوة، وهي الوعاء الذي يجعل القدر فيه وجمعها جياء.

قال: وقال أبو عمرو: يقال لذلك الوعاء جواء وجياء، قال: ويقال للخرقة التي يتزل بها الوعاء عن الأثافي جعال. ومنها قوله عليه السلام حين أقبل يريد العراق فأشار إليه الحسن بن علي عليه السلام أن يرجع. والله لا أكون مثل الضبع تسمع اللدم حتى تخرج فتصاد.

قال أبو عبيد: قال الأصمعي: اللدم صوت الحجر، أو الشيء يقع على الأرض، وليس بالصوت الشديد، يقال منه: لدم ألد بالكسر، وإنما قيل ذلك للضبع، لأنهم إذا أرادوا أن يصيدوها رموا في جحرها بحجر خفيف، أو ضربوا بأيديهم فتحسبه شيئاً تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد، وهي زعموا أنها من أحرق الدواب، بلغ من حمقها أن يدخل عليها فيقال: أم عامر نائمة، أو ليست هذه والضبع، هذه أم عامر، فتسكت حتى تؤخذ، فأراد علي عليه السلام أني لا أحدع كما تحدع الضبع باللدم.

ومنها قوله عليه السلام: من وجد في بطنه رزاً فلينصرف وليتوضأ.
قال أبو عبيد. قال أبو عمرو: إنما هو أرزاً مثل أرز الحية، وهو دوراها وحركتها، فشبه دوران الريح في بطنه بذلك. قال: وقال الأصمعي: هو الرز، يعني الصوت في البطن من القرقرة ونحوها قال الراجز:

رز عشار جلن في عشار

كأن في ربابه الكبار

وقال أبو عبيد: فقه هذا الحديث أن ينصرف فيتوضأ ويبيني على صلاته ما لم يتكلم، وهذا إنما هو قبل أن يحدث.
قلت: والذي أعرفه من الأرز أنه الانقباض لا الدوران والحركة، يقال: أرز فلان بالفتح وبالكسر، إذا تضام وتقبض من
بخله فهو أرز، والمصدر أرزاً وأروزاً، قال رؤبة:

فذاك يخال أرز الأرز

فأضاف الاسم إلى المصدر كما يقال: عمر العدل وعمر الدهاء، لما كان العدل والدهاء أغلب أحوالهما، وقال أبو
الأسود الدؤلي يذم إنساناً: إذا سئل أرز، وإذا دعي اهتز - يعني إلى الطعام، وفي الحديث: "إن الإسلام ليأرز إلى المدينة
كما تأرز الحية إلى جحرها". أي يجتمع إليها وينضم بعضه إلى بعض فيها.
ومنها قوله: لئن وليت بني أمية لأنفضنهم نفص القصاب التراب الودمة.
وقد تقدم منا شرح ذلك والكلام فيه.

ومنها قوله في ذي الثدية المقتول بالنهروان: إنه مودن اليد أو مثدن اليد أو مخدج اليد.
قال أبو عبيد: قال الكسائي وغيره: المودن اليد: القصير اليد، ويقال: أودنت الشيء أي قصرته، وفيه لغة أخرى، ودنته
فهو مودون، قال حسان يذم رجلاً:

وأملك سوداء مودونة

كأن أناملها الحنظب

وأما مثدن اليد، بالثاء فإن بعض الناس قال نراه أخذ من الشدوة وهي أصل الثدي فشبه يده في قصرها واجتماعها بذلك،
فإن كان من هذا فالقياس أن يقال: مشد، لأن النون قبل الدال في الشدوة، إلا أن يكون من المقلوب، فذاك كثير في
كلامهم.

وأما مخدج اليد فإنه القصير اليد أيضاً، أخذ من إخداج الناقة ولدها، وهو أن تضعه لغير تمام في خلقه، قال: وقال الفراء:
إنما قيل ذو الثدي، فأدخلت الهاء فيها، وإنما هي تصغير "ثدي"، والثدي مذكر، لأنها كأنها بقية ثدي قد ذهب أكثره
فقللها كما تقول لحيمة وشحيمة، فأنت على هذا التأويل، قال: وبعضهم يقول ذو اليدية، قال أبو عبيد: ولا أرى الأصل
كان إلا هذا، ولكن الأحاديث كلها تتابع بالثاء ذو الثدي.

ومنها قوله عليه السلام لقوم وهو يعاتبهم: ما لكم لا تنظفون عذراتكم! قال: العذرة فناء الدار، وإنما سميت تلك الحاجة
عذرة لأنها بالأفنية كانت تلقى، فكنى عنها بالعذرة كما كنى عنها بالغائط، وإنما الغائط الأرض المطمئنة، وقال الخطيئة
يهجو قوماً:

لعمري لقد جربتكم فوجدتكم

قباح الوجوه سيئي العذرات

ومنها قوله عليه السلام: لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر جامع.
قال أبو عبيد: التشريق هاهنا صلاة العيد، وسميت تشريقاً لإضاءة وقتها، فإن وقتها إشراق الشمس وصفاءها وإضاءتها،
وفي الحديث المرفوع: "من ذبح قبل التشريق فليعد"، أي قبل صلاة العيد.

قال: وكان أبو حنيفة يقول: التشريق هاهنا هو التكبير في دبر الصلاة، يقول: لا تكبير إلا على أهل الأمصار تلك الأيام، لا على المسافرين أو من هو في غير مصر.

قال أبو عبيد: وهذا كلام لم نجد أحداً يعرفه، إن التكبير يقال له التشريق، وليس يأخذ به أحد من أصحابه لا أبو يوسف ولا محمد، كلهم يرى التكبير على المسلمين جميعاً حيث كانوا في السفر والحضر وفي الأمصار وغيرها. ومنها قوله عليه السلام: "استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه، فكأنني برجل من الحبشة أصعل أصمع حمش الساقين قاعداً عليها وهي تخدم". قال أبو عبيد: هكذا يروى "أصعل" وكلام العرب المعروف "صعل" وهو الصغير الرأس، وكذا رؤوس الحبشة، ولهذا قيل للظليم: صعل، وقال عنترة يصف ظليماً:

كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم

صعل يلوذ بذى العشيرة ببيضه

قال: وقد أجاز بعضهم أصعل في الصعل، وذكر أنها لغة لا أدري عن من هي! والأصمع: الصغير الأذن، وامرأة صمعاء. وفي حديث ابن عباس: إنه كان لا يرى بأساً أن يضحى بالصمعاء. وحمش الساقين بالتسكين: دقيقتها. ومنها أن قوماً أتوه برجل فقالوا: إن هذا يؤمننا ونحن له كارهون، فقال له: إنك لخروط، أتوم قوماً هم لك كارهون! قال أبو عبيد: الخروط: المتهور في الأمور، الراكب برأسه جهلاً، ومنه قيل: انخرط علينا فلان، أي اندرأ بالقول السيئ والفعل. قال: وفقه هذا الحديث أنه ما أفنى عليه السلام بفساد صلاته لأنه لم يأمره بالإعادة، ولكنه كره له أن يؤم قوماً هم له كارهون. ومنها أن رجلاً أتاه وعليه ثوب من قهز، فقال: إن بني فلان ضربوا بني فلانة بالكناسة، فقال عليه السلام: صدقي سن بكره.

قال أبو عبيد: هذا مثل تضربه العرب للرجل يأتي بالخبر على وجهه ويصدق فيه. ويقال: إن أصله أن الرجل ربما باع بغيره فيسأل المشتري عن سنه فيكذبه، فعرض رجل بكرّاً له فصدق في سنه، فقال الآخر: صدقي سن بكره، فصار مثلاً. والقهز بكسر القاف: ثياب بيض يخالطها حرير، ولا أراها عربية، وقد استعملها العرب، قال ذو الرمة يصف البزاة البيض:

من القهز والقوهي بيض المقانع

من الورق أو صقع كأن رؤوسها

ومنها: ذكر عليه السلام آخر الزمان والفتن، فقال: خير أهل ذلك الزمان كل نومة، أولئك مصاييح الهدى، ليسوا بالمصاييح ولا المذاييع البذر. وقد تقدم شرح ذلك. ومنها أن رجلاً سافر مع أصحاب له فلم يرجع حين رجعوا، فاتهم أهله أصحابه ورفعوهم إلى شريح، فسألهم البينة على قتله، فارتفعوا إلى علي عليه السلام، فأخبروه بقول شريح، فقال:

ثم قال: إن أهون السقي التشريع، ثم فرق بينهم وسألهم، فاختلفوا، ثم أقرروا بقتله، فقتلهم به.

قال أبو عبيد: هذا مثل، أصله أن رجلاً أورد إبله ماء لا تصل إليه الإبل إلا بالاستقاء، ثم اشتمل ونام وتركها لم يستسق لها، والكلمة الثانية مثل أيضاً، يقول: إن أيسر ما كان ينبغي أن يفعل بالإبل أن يمكنها من الشريعة ويعرض عليها الماء.

يقول: أقل ما كان يجب على شريح أن يستسقي في المسألة والبحث عن خبر الرجل ولا يقتصر على طلب البينة.

ومنها قوله، وقد خرج على الناس وهم ينتظرونه للصلاة قياماً: "ما لي أراكم سامدين".

قال أبو عبيد: أي قائمين، وكل رافع رأسه فهو سامد، وكانوا يكرهون أن ينتظروا الإمام قياماً ولكن قعوداً، والسامد في غير هذا الموضع: اللاهي اللاعب، ومنه قوله تعالى: "وأنتم سامدون"، وقيل: السمود الغناء بلغة حمير.

ومنها أنه خرج فرأى قوماً يصلون قد سدلو ثيابهم، فقال: كأثم اليهود خرجوا من فهرهم.

قال أبو عبيد: فهرهم بضم الفاء: موضع مدراسهم الذي يجتمعون فيه كالعيد يصلون فيه ويسمدلون ثيابهم، وهي كلمة نبطية أو عبرانية أصلها بئر بالباء فعربت بالفاء.

والسدل: إسبال الرجل ثوبه من غير أن يضم جانبيه بين يديه، فإن ضمه فليس بسدل، وقد رويت فيه الكراهة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنها أن رجلاً أتاه في فريضة وعنده شريح، فقال: أتقول أنت فيها أيها العبد الأبطر! قال أبو عبيد: هو الذي في شفته العليا طول وتواء في وسطها محاذي الأنف. قال: وإنما نراه قال لشريح: "أيها العبد"، لأنه كان قد وقع عليه سي في الجاهلية.

ومنها أن الأشعث قال له وهو على المنبر: غلبتنا عليك هذه الحمراء، فقال عليه السلام: من يعذرني من هؤلاء الضيافة، يتخلف أحدهم يتقلب على فراشه وحشاياه كالعير ويهجر هؤلاء للذكر! أأطردهم؟ إني إن طردتهم لمن الظالمين، والله لقد سمعته يقول: والله ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً.

قال أبو عبيد: الحمراء: العجم والموالي، سموا بذلك لأن الغالب على ألوان العرب السمرة، والغالب على ألوان العجم البياض والحمرة. والضيافة: الضخام الذين لا نفع عندهم ولا غناء، واحدهم ضيفار.

ومنها قوله عليه السلام: اقتلوا الجان ذا الطفيتين، والكلب الأسود ذا الغرتين.

قال أبو عبيد: الجان حية بيضاء، والطفية في الأصل: حوصة المقل، وجمعها طففي، ثم شبهت الخطتان على ظهر الحية بالفتيتين. والغرة: البياض في الوجه.

من غريب كلام الإمام علي وشرحه لابن قتيبة وقد ذكر ابن قتيبة في غريب الحديث له عليه السلام كلمات أخرى: فمنها قوله: من أراد البقاء - ولا بقاء - فليباكر الغداء، وليخفف الرداء، وليقل غشيان النساء. فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما خفة الرداء في البقاء؟ فقال: الدين.

قال ابن قتيبة: قوله "الرداء الدين" مذهب في اللغة حسن جيد، ووجه صحيح، لأن الدين أمانة، وأنت تقول: هو لك

علي وفي عنقي حتى أؤديه إليك، فكأن الدين لازم للعنق، والرداء موضعه صفحتا العنق، فسمى الدين رداء وكنى عنه به، وقال الشاعر:

إن لي حاجة إليك فقالت

بين أذني وعاتقي ما تريد

يريد بقوله: "بين أذني وعاتقي ما تريد" في عنقي، والمعنى أي قد ضمنتته فهو علي، وإنما قيل للسيف رداء لأن حمالته تقع موقع الرداء، وهو في غير هذا الموضع العطاء، يقال: فلان غمر الرداء أي واسع العطاء؟ قال: وقد يجوز أن يكون كنى بالرداء عن الظهر، لأنه يقع عليه، يقول: فليخفف ظهره ولا يثقله بالدين، كما قال الآخر: "خماص الأزر"، يريد خماص البطون.

وقال: وبلغني نحو هذا الكلام عن أبي عبيد، قال: قال فقيه العرب: من سره النساء - ولا نساء - فليكر العشاء، وليباكر الغداء، وليخفف الرداء، وليقل غشيان النساء قال: فالنساء التأخير، ومنه: "إنما النسيء زيادة في الكفر". وقوله: فليكر العشاء، أي فليؤخره، قال الشاعر:

فأكريت العشاء إلى .

ويجوز أن يريد فلينقص العشاء، قال الشاعر:

والطل لم يفضل ولم يكر

ومنها أنه أتى عليه السلام بالمال فكوم كومة من ذهب وكومة من فضة، فقال: يا حمراء ويا بيضاء احمري وايضي وغري غيري.

هذا جنائي وخياره فيه

وكل جان يده إلى فيه

قال ابن قتيبة. هذا مثل ضربه، وكان الأصمعي يقول: "وهجانه فيه"، أي خالصه، وأصل المثل لعمر بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش، كان يجني الكمأة مع أتراب له، فكان أترابه يأكلون ما يجدون، وكان عمرو يأتي به خاله ويقول هذا القول.

ومنها حديث أبي جأب قال: جاء عمي من البصرة يذهب بي وكنت عند أُمِّي، فقالت: لا أتركك تذهب به، ثم أتت علياً عليه السلام فذكرت ذلك له، فجاء عمي من البصرة، فقال: نعم والله لأذهبن به وإن رغم أنفك، فقال علي عليه السلام: كذبت والله، وولقت، ثم ضرب بين يديه بالدرّة.

قال: ولقت مثل كذبت وكذلك ولعت بالعين، وكانت عائشة تقرأ: "إذ تلقونه بألسنتكم" وقال الشاعر:

وهن من الأحلاف والولعان

يعني النساء أي من أهل الأحلاف.

ومنها قوله عليه السلام: إن من ورائكم أموراً متماحلة رديحاً وبلاءً مكلحاً مبلحاً.

قال ابن قتيبة: المتماحلة الطوال: يعني فتناً يطول أمرها ويعظم، ويقال: رجل متماحل وسبب متماحل، والردح جمع

رداح، وهي العظيمة، يقال للكتيبة إذا عظمت: رداح، ويقال للمرأة العظيمة العجيزة: رداح.
قال: ومنه حديث أبي موسى، وقيل له زمن علي ومعاوية: أهى هي؟ فقال: إنما هذه الفتنة حيضة من حيضات الفتن،
وبقيت الرداح المظلمة التي من أشرف أشرفت له.
ومكلحاً أي يكلح الناس بشدتها، يقال كلح الرجل وأكلحه، الكلحة المهم. والمبلح، من قولهم: بلح الرجل إذا انقطع من
الإعياء، فلم يقدر على أن يتحرك، وأبلحه السير، وقال الأعشى:

واشتكى الأوصال منه وبلح

ومنها قوله عليه السلام يوم خير:

كليث غابات كرية المنظره

أنا الذي سمتن أمي حيدرہ

أوفيههم بالصاع كيل السندره

قال ابن قتيبة: كانت أم علي عليه السلام سمته وأبو طالب غائب حين ولدته أسداً باسم أبيها أسد بن هاشم بن عبد
مناف، فلما قدم أبو طالب غير اسمه وسماه علياً. وحيدرة: اسم من أسماء الأسد، والسندرة: شجرة يعمل منها القسي
والنبل، قال:

حنوت لهم بالسندري المؤثر

فالسندرة في الرجز يحتمل أن تكون مكيالاً يتخذ من هذه الشجرة، سمي باسمها كما يسمى القوس بنبعة. قال: واحسب
إن كان الأمر كذلك أن الكيل بما قد كان جزافاً فيه إفراط، قال: ويحتمل أن تكون السندرة هاهنا امرأة كانت تكيل
كيلاً وافيّاً أو رجلاً.
ومنها قوله عليه السلام: من يطل أير أبيه يتمنطق به.

قال ابن قتيبة: هذا مثل ضربه، يريد من كثرت إخوته عز واشتد ظهره، وضرب المنطقة إذا كانت تشد الظهر مثلاً لذلك،
قال الشاعر:

طويلاً كأير الحارث بن سدوس

فلو شاء ربي كان أير أبيكم

قيل: كان للحارث بن سدوس أحد وعشرون ذكراً، وكان ضرار بن عمرو الضبي يقول: ألا إن شر حائل أم، فزوجوا
الأمهات، وذلك أنه صرع، فأخذته الرماح، فاشتبك عليه إخوته لأمه حتى خلصوه.
قال: فأما المثل الآخر وهو قولهم: من يطل ذيله يتمنطق به، فليس من المثل الأول في شيء، وإنما معناه من وجد سعة
وضعها في غير موضعها، وأنفق في غير ما يلزمه الإنفاق فيه.

ومنها قوله: خير بئر في الأرض زمزم، وشر بئر في الأرض برهوت.

قال ابن قتيبة: هي بئر بحضرموت يروى أن فيها أرواح الكفار.

قال: وقد ذكر أبو حاتم عن الأصمعي عن رجل من أهل حضرموت قال: نجد فيها الرائحة المنتنة الفظيعة جداً، ثم نمكث

حيناً فيأتينا الخبر بأن عظيماً من عظماء الكفار قد مات، فنرى أن تلك الرائحة منه، قال: وربما سمع منها مثل أصوات الحاج، فلا يستطيع أحد أن يمشي بها.

ومنها قوله عليه السلام: أيما رجل تزوج امرأةً مجنونةً، أو جذماء، أو برصاء، أو بها قرن، فهي امرأته، إن شاء أمسك، وإن شاء طلق.

قال ابن قتيبة: القرن بالتسكين: العفلة الصغيرة، ومنه حديث شريح أنه اختصم إليه في قرن تجارية، فقال: أقعدوها فإن أصاب الأرض فهو عيب، وإن لم يصب الأرض فليس بعيب.

ومنها قوله عليه السلام: لود معاوية أنه ما بقي من بني هاشم نافخ ضرمه إلا طعن في نيطة.

قال ابن قتيبة: الضرمه النار، وما بالدار نافخ ضرمه، أي ما بها أحد.

قال: وقال أبو حاتم عن أبي زيد: طعن فلان في نيطة أي في جنازته، ومن ابتدأ في شيء أو دخل فيه فقد طعن فيه، قال:

ويقال: النيط: الموت، رماه الله بالنيط، قال: وقد روي "إلا طعن" بضم الطاء، وهذا الراوي يذهب إلى أن النيط نياط

القلب، وهي علاقته التي يتعلق بها، فإذا طعن إنسان في ذلك المكان مات.

ومنها قوله عليه السلام: إن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاق بذلك ذرعاً، فأرسل الله إليه السكينة، وهي ريح خجوج، فتطوقت حول البيت كالحجفة.

وقال ابن قتيبة: الخجوج من الرياح: السريعة المرور، ويقال أيضاً: خجوجاء، قال ابن أحر:

جاة الغدو رواحها شهر

هوجاء رعبلة الرواح خجو

قال: وهذا مثل حديث علي عليه السلام الآخر، وهو أنه قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، وهي بعد ريح هفافة، أي خفيفة سريعة، والحجفة: الترس.

ومنها أن مكاتباً لبعض بني أسد، قال: جئت بنقد أجلبه إلى الكوفة، فانتهيت به إلى الجسر، فإني لأسربه عليه إذ أقبل مولى لبكر بن وائل يتخلل الغنم ليقطعها، فنفرت نقدة، فقطرت الرجل في الفرات، فغرق، فأخذت. فارتفعنا إلى علي عليه السلام فقصصنا عليه القصة، فقال: انطلقوا فإن عرفتم النقدة بعينها فادفعوها إليهم. وإن اختلطت عليكم فادفعوا شرواها من الغنم إليهم.

قال ابن قتيبة: النقد: غنم صغار، الواحدة نقدة، ومنه قولهم في المثل: "أذل من النقد".

وقوله: "أسربه" أي أرسله قطعةً قطعةً. وشرواها: مثلها.

ومنها قوله عليه السلام في ذكر المهدي من ولد الحسين عليه السلام، قال: إنه رجل أجلى الجبين، أقنى الأنف، ضخم

البطن، أربل الفخذين، أفلج الشنایا، بفخذه اليمنى شامة.

قال ابن قتيبة: الأجلى والأجلح شيء واحد، والقنا في الأنف: طوله ودقة أرنبته وحدث في وسطه. والأربل الفخذين:

المتباعد ما بينهما، وهو كالأفحج، تربل الشيء، أي انفرج، والفالج: صفرة في الأسنان.

ومنها قوله عليه السلام: إن بني أمية لا يزالون يطعنون في مسجل ضلالة، ولهم في الأرض أجل حتى يهريقوا الدم الحرام

في الشهر الحرام، والله لكأني أنظر إلى غرنوق من قريش يتخبط في دمه، فإذا فعلوا ذلك لم يبق لهم في الأرض عاذر، ولم يبق لهم ملك، على وجه الأرض.

قال ابن قتيبة: هو من قولك: ركب فلان مسجله، إذا جد في أمر هو فيه كلاماً كان أو غيره، وهو من السجل وهو الصب. والغرنوق: الشاب.

قلت: والغرنوق: القرشي الذي قتلوه، ثم انقضى أمرهم عقيب قتله إبراهيم الإمام، وقد اختلفت الرواية في كيفية قتله، فقليل: قتل بالسيف، وقيل: خنق في جراب فيه نورة، وحديث أمير المؤمنين عليه السلام يسند الرواية الأولى.

ومنها ما روي أنه اشترى قميصاً بثلاثة دراهم ثم قال: الحمد لله الذي هذا من ريشه.

قال ابن قتيبة: الريش والرياش واحد، وهو الكسوة، قال عز وجل: "قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً"، وقرئ "وريشاً".

ومنها قوله عليه السلام: لا قود إلا بالأسل.

قال ابن قتيبة: هو ما أرهف وأرق من الحديد، كالسنان والسيف والسكين، ومنه قيل: أسلة الذراع لما استدق منه، قال: وأكثر الناس على هذا المذهب وقوم من الناس يقولون: قد يجوز أن القود بغير الحديد كالحجر والعصا إن كان المقتول قتل بغير ذلك.

ومنها أنه عليه السلام رأى رجلاً في الشمس، فقال: قم عنها فإنها مبخرة بجفرة، لثفل الريح، وتبلي الثوب، وتظهر الداء الدفين.

قال ابن قتيبة: مبخرة: تورث البخر في الفم. ومجفرة: تقطع عن النكاح وتذهب شهوة الجماع، يقال جفر الفحل عن الإبل، إذا أكثر الضراب حتى يمل وينقطع، ومثله قدر، وتقذر، قذوراً، ومثله أقطع فهو مقطوع.

وجاء في الحديث أن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله، إني رجل تشق علي العزبة في المغازي، أفتأذن لي في الخصاء؟ قال: لا، ولكن عليك بالصوم فإنه مجفر.

قال: وقد روى عبد الرحمن عن الأصمعي عمه، قال: تكلم أعرابي فقال: لا تنكحن واحدة فتحيض إذا حاضت، وتمرض إذا مرضت، ولا تنكحن اثنتين فتكون بين ضربتين ولا تنكحن ثلاثاً فتكون بين أثاف، ولا تنكحن أربعاً فيفلسنك ويهرمنك، وينحلنك ويجفرنك فقليل له: لقد حرمت ما أحل الله، فقال: سبحان الله! كوزان، وقرصان، وطمران وعبادة الرحمن. وقوله "تثفل الريح"، أي تتننها، والاسم الثفل، ومنه الحديث "وليخرجن ثقلات". والداء الدفين، المستتر الذي قد قهرته الطبيعة، فالشمس تعينه على الطبيعة وتظهره.

ومنها قوله عليه السلام وهو يذكر مسجد الكوفة في زاويته: فار التنور، وفيه هلك يغوث ويعوق، وهو الفاروق، ومنه يستتر جبل الأهواز، ووسطه على روضة في رياض الجنة، وفيه ثلاث أعين أنبتت بالضغث، تذهب الرجس، وتظهر المؤمنين: عين من لبن، وعين من دهن، وعين من ماء، في جانبه الأيمن ذكر، وفي جانبه الأيسر مكر، ولو يعلم الناس ما فيه من الفضل لأتوه ولو حبوا.

قال ابن قتيبة: قوله "أنبت بالضغث" أحسبه الضغث الذي ضرب أيوب أهله. والعين التي ظهرت لما ركض الماء برجله. قال: والباء في "بالضغث" زائدة، تقديره: أنبت الضغث، كقوله تعالى: "تنبت بالدهن"، وكقوله: "يشرب بها عباد الله". وأما قوله: "في جانبه الأيمن ذكر"، فإنه يعني الصلاة. "وفي جانبه الأيسر مكر" أراد به المكر به حتى قتل عليه السلام في مسجد الكوفة.

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا رافع موله يتلقى جعفر بن أبي طالب لما قدم من الحبشة، فأعطاه علي عليه السلام حتيًا وعكة سمن، وقال له: أنا أعلم بجعفر أنه إن علم ثراه مرة واحدة ثم أطعمه، فادفع هذا السمن إلى أسماء بنت عميس تدهن به بني أخي من صمر البحر، وتطعمهم من الحتي. قال ابن قتيبة: الحتي: سويق يتخذ من المقل، قال الهذلي يذكر أضيافه:

قرف الحتي وعندي البر مكنوز

لا در دري إن أطعمت نازلکم

وقوله: "ثراه مرة" أي بله دفعة واحدة وأطعمه الناس، والثري: النداء. وصمر البحر: نتنه وغمقه، ومنه قيل للدبر الضماری.

ومنها قوله عليه السلام يوم الشورى لما تكلم: الحمد لله الذي اتخذ محمدًا مني نبيًا، وابتعثه إلينا رسولاً، فنحن أهل بيت النبوة، ومعدن الحكمة، أمان لأهل الأرض، ونجاة لمن طلب، إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل، وإن طال السرى، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً جالداً عليه حتى نموت، أو قال لنا قولاً لأنفذنا قوله على رغمتنا. يسرع أحد قبلي إلى صلة رحم ودعوة حق، والأمر إليك يا بن عوف على صدق النية، وجهد النصيح، وأستغفر الله لي ولكم.

قال ابن قتيبة: أي أن معناه ركبنا مركب الضيم والذل، لأن راكب عجز البعير يجد مشقة، لا سيما إذا تطاول به الركوب على تلك الحال، ويجوز أن يكون أراد: نصبر على أن نكون أتباعاً لغيرنا، لأن راكب عجز البعير يكون ردفاً لغيره.

ومنها قوله عليه السلام لما قتل ابن آدم أخاه: غمص الله الخلق ونقص الأشياء. قال ابن قتيبة: يقال غمصت فلاناً أغمصه واغتمصته، إذا استصغرت واحتقرته، قال: ومعنى الحديث أن الله تعالى نقص الخلق من عظم الأبدان وطولها من القوة والبطش وطول العمر ونحو ذلك.

ومنها أن سلامة الكندي قال: كان علي عليه السلام يعلمنا الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: اللهم داحي المدحوات، وبارئ المسموكات، وجبار القلوب على فطراتها، شقيها وسعيدها، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحياتك، على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حملته فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، لغير نكل في قدم، ولا وهن في عزم، داعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أوري قبساً لقابس، آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب

بعد خوضات الفتن والإثم، موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مفسحاً في عدلك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك، مهنات غير مكدرات، من فوز ثوابك المحلول، وجزل عطائك المعلول، اللهم أعل على بناء البانين بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزله، أتمم له نوره، واجزه من ابتعائك له مقبول الشهادة، مرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فصل، وبرهان عظيم.

قال ابن قتيبة: داحي المدحوات، أي باسط الأرضين، وكان الله تعالى خلقها ربوة ثم بسطها، قال سبحانه: "والأرض بعد ذلك دحاها"، وكل شيء بسطته فقد دحوته ومنه قيل لموضع بيض النعامة: أدحي، لأنها تدحوه للبيض أي توسعه، ووزنه أفعول.

وبارء المسموكات: خالق السموات. وكل شيء رفعته وأعليته فقد سمكته، وسمك البيت والحائط ارتفاعه، قال الفرزدق:

بيتاً دعائمه أعز وأطول

إن الذي سمك السماء بنى لنا

وقوله: جبار القلوب على فطرتها. من قولك حبرت العظم فجبر إذا كان مكسوراً فلائمه وأقمته، كأنه أقام القلوب وأثبتها على ما فطرها عليه من معرفته والإقرار به، شقيها وسعيدها، قال: ولم أجعل جباراً ههنا، من أجبرت فلانا على الأمر إذا أدخلته فيه كرهاً، وقسرتة، لأنه لا يقال من أفعل فعال، لا أعلم ذلك إلا أن بعض القراء قرأ "أهديكم سبيل الرشاد" بتشديد الشين، وقال: الرشاد الله، فهذا فعال من أفعل، وهي قراءة شاذة، غير مستعملة، فأما قول الله عز وجل: "وما أنت عليهم بجبار" فإنه أراد وما أنت عليهم بمسلط تسليط الملوك. والجبابرة: الملوك، واعتبار ذلك قوله: "لست عليهم بمسيطر" أي بمسلط تسليط الملوك، فإن كان يجوز أن يقال من أجبرت فلاناً على الأمر: أنا جبار له، وكان هذا محفوظاً، فقد يجوز أن يجعل قول علي عليه السلام: جبار القلوب من ذلك، وهو أحسن في المعنى.

وقوله: "الدامغ جيشات الأباطيل"، أي مهلك ما نجم وارتفع من الأباطيل، وأصل الدمغ من الدماغ، كأنه الذي يضرب وسط الرأس فيدمغه أي يصيب الدماغ منه. ومنه قول الله عز وجل: "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه" أي يبطله والدماغ مقتل، فإذا أصيب هلك صاحبه.

وجيشات: مأخوذ من جاش الشيء أي ارتفع، وجاش الماء إذا طمى، وجاشت النفس.

وقوله: "كما حمل فاضطلع" افتعل من الضلالة وهي القوة.

وقوله: "الغير نكل في قدم"، الثكل: مصدر وهو النكول، يقال: نكل فلان عن الأمر ينكل نكولاً، فهذا المشهور ونكل بالكسر ينكل نكلاً قليلة.

والقدم: التقدم، قال أبو زيد: رجل مقدم إذا كان شجاعاً، فالقدم يجوز أن يكون بمعنى التقدم، وبمعنى المتقدم.

قوله: "ولا وهن في عزم"، أي ولا ضعف في رأي.

وقوله: "حتى أورى قبساً لقابس"، أي أظهر نوراً من الحق، يقال: أورت النار إذا قدحت ما ظهر بها، قال سبحانه:

"أفرايتم النار التي تورون".

وقوله: "آلاء الله تصل بأهله أسبابه"، يريد نعم الله تصل بأهل ذلك القبس، - وهو الإسلام والحق سبحانه - أسبابه وأهله، المؤمنون به.

قلت: تقدير الكلام حتى أوري قبساً لقابس، تصل أسباب ذلك القبس آلاء الله ونعمه بأهله المؤمنين به. واعلم أن اللام في "لغير نكل" متعلقة بقوله: "مستوفزاً"، أي هو مستوفز لغير نكل، بل للخوف منك، والخضوع لك. قال ابن قتيبة: قوله عليه السلام: "به هديت القلوب بعد الكفر، والفتن موضحات الأعلام"، أي هديته لموضحات الأعلام، يقال هديت الطريق وللطريق وإلى الطريق. وقوله: "ناترات الأحكام، ومنيرات الإسلام"، يريد الواضحات البينات، يقال: نار الشيء وأنار، إذا وضع.

وقوله: "شهيدك يوم الدين"، أي الشاهد على الناس يوم القيامة. ويعيثك رحمة، أي مبعوثك، فاعيل في معنى مفعول. وقوله: "أفسح له مفسحاً" أي أوسع له سعةً وروي "مفتسحاً" بالتاء. وقوله: "في عدلك" أي في دار عدلك، يعني يوم القيامة، ومن رواه: "عدنك" بالنون، أراد جنة عدن. وقوله: "من جزل عطائك المعلول"، من العلل، وهو الشرب بعد الشرب، فالشرب الأول نحل، والثاني علل، يريد أن عطاءه عز وجل مضاعف، كأنه يعل عباده، أي يعطيهم عطاء بعد عطاء. وقوله: "أعل على بناء البانين بناءه"، أي ارفع فوق أعمال العاملين عمله. وأكرم مثواه، أي منزله، من قولك: ثويت بالمكان أي نزلته وأقمت به، ونزله: رزقه.

ونحن قد ذكرنا بعض هذه الكلمات فيما تقدم على رواية الرضي رحمه الله وهي مخالفة لهذه الرواية، وشرحنا ما رواه الرضي، وذكرنا الآن ما رواه ابن قتيبة وشرحه لأنه لا يخلو من فائدة جديدة. ومنها قوله عليه السلام: خذ الحكمة أن أتنك، فإن الكلمة من الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجج في صدره حتى تسكن إلى صاحبها.

قال ابن قتيبة: يريد الكلمة قد يعلمها المنافق فلا تزال تتحرك في صدره ولا تسكن حتى يسمعها منه المؤمن أو العالم فيعيها ويشقفها ويفقهها منه، فتسكن في صدره إلى أخواتها من كلم الحكمة. ومنها قوله عليه السلام: البيت المعمور نتاق الكعبة من فوقها. قال ابن قتيبة: نتاق الكعبة، أي مظل عليها من فوقها، من قول الله سبحانه: "وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة"، أي زعزع فأظل عليهم.

ومنها قوله عليه السلام: "أنا قسيم النار"، قال ابن قتيبة: أراد أن الناس فريقان: فريق معي فهم على هدى، وفريق علي فهم على ضلالة، كالخوارج، ولم يجسر ابن قتيبة أن يقول: "وكأهل الشام" يتورع بزعم، ثم إن الله أنطقه بما تورع عن ذكره، فقال متمماً للكلام بقوله: فأنا قسيم النار، نصف في الجنة معي، ونصف في النار، قال: وقسيم في معنى مقاسم، مثل جليس و أكيل وشريب.

قلت: قد ذكر أبو عبيد الهروي هذه الكلمة في الجمع بين الغريبين، قال: وقال قوم: إنه لم يرد ما ذكره، وإنما أراد: هو قسيم النار والجنة يوم القيامة حقيقة، يقسم الأمة فيقول هذا للجنة، وهذا للنار.

خطبة الإمام علي عليه السلام الخالية من الألف وأنا الآن أذكر من كلامه الغريب ما لم يورده أبو عبيد وابن قتيبة في كلامهما وشرحه أيضاً، وهي خطبة رواها كثير من الناس له عليه السلام خالية من حرف الألف، قالوا: تذاكر قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي حروف الهجاء أدخل في الكلام، فأجمعوا على الألف، فقال علي عليه السلام: حمدت من عظمت منته، وسبغت نعمته، وسبقت غضبه رحمته، وتمت كلمته، ونفذت مشيئته، وبلغت قضيته، حمدته حمد مقرر بريوبيته، متخضع لعبوديته، متنصل من خطيئته، متفرد بتوحيده، مؤمل منه مغفرة تنجيه، يوم يشغل عن فصيلته وبنيه.

ونستعينه ونسترشده ونستهديه، ونؤمن به ونتوكل عليه، وشهدت له شهود مخلص موقن، وفردته تفريد مؤمن متيقن، ووحدته توحيد عبد مدعن، ليس له شريك في ملكه، ولم يكن له ولي في صنعه، جل عن مشير ووزير، وعن عون معين ونصير ونظير.

علم فستر، وبطن فخير، وملك فقهر، وعصي فغفر، وحكم فعدل، لم يزل ولن يزول، "ليس كمثله شيء"، وهو بعد كل شيء رب متعزز بعزته، متمكن بقوته، متقدس بعلوه، متكبر بسموه، ليس يدركه بصر، ولم يحط به نظر، قوي منيع، بصير سميع، رؤوف رحيم.

عجز عن وصفه من يصفه، وضل عن نعته من يعرفه.

قرب فبعد، وبعد فقرب، يجيب دعوة من يدعوه، ويرزقه ويحبوه، ذو لطف خفي، وبطش قوي، ورحمة موسعة، وعقوبة موجعة، رحمته جنة عريضة مounقة، وعقوبته جحيم ممدودة موبقة. وشهدت ببعث محمد رسوله، وعبدته وصفيه، ونبه ونجيه، وحببيه وخليله، بعثه في خير عصر، وحين فترة وكفر، رحمةً لعبيده، ومنةً لمزيدة، ختم به نبوته، وشيد به حجته، فوعظ ونصح، وبلغ وكدح، رؤوف بكل مؤمن، رحيم سخي، رضي ولي زكي، عليه رحمة وتسليم، وبركة وتكريم، من رب غفور رحيم، قريب مجيب.

وصيتكم معشر من حضري بوصية ربكم، وذكرتكم بسنة نبيكم، فعليكم برهبة تسكن قلوبكم، وخشية تدرى دموعكم، وتقية تنجيكم قبل يوم تبليكم وتذهلكم، يوم يفوز فيه من ثقل وزن حسنته، وخف وزن سيئته، ولتكن مسألتكم وتلقاكم مسألة ذل وخضوع، وشكر وخشوع، بتوبة وتورع، وندم ورجوع، وليغتنم كل مغتنم منكم صحته قبل سقمه، وشيئته قبل هرمه، وسعته قبل فقره، وفرغته قبل شغله، وحضره قبل سفره، قبل تكبر وقهره وتسقم، يمله طبيبه، ويعرض عنه حببيه وينقطع غمده، ويتغير عقله، ثم قيل: هو موعود، وجسمه منهوك، ثم جد في نزع شديد، وحضره كل قريب وبعيد، فشخص بصره، وطمح نظره، ورشح جبينه، وعطف عرينه، وسكن حنينه، وحزنه نفسه، وبكته عرسه، وحفر رمسه، ويتم منه ولده، وتفرق منه عدده، وقسم جمعه، وذهب بصره وسمعته، ومدد وجرده، وعري وغسل، ونشف وسجي، وبسط له وهيب، ونشر عليه كفنه، وشد منه ذقنه، وقمص وعمم، وودع وسلم، وحمل فوق

سريـر، وصلي عليه بتكبير، ونقل من دور مزخرفة، وقصور مشيدة، وحجر منجدة، وجعل في ضريح ملحود وضيق مرصود، بلبن منصود، مسقف بجلمود، وهيل عليه حفرة، وحثي عليه مدره، وتحقق حذره، ونسي خبره، ورجع عنه وليه وصفيه، ونديمه ونسيبه، وتبدل به قرينه وحبيبه، فهو حشو قبر، ورهين قفر، يسعى بجسمه دود قبره، ويسيل صديده من منخره، يسحق تربه لحمه، وينشف دمه، ويرم عظمه حتى يوم حشره، فنشر من قبره حين ينفخ في صور، ويدعى بحشر ونشور.

فثم بعثت قبور، وحصلت سريرة صدور، وجيء بكل نبي وصديق وشهيد، وتوحد للفصل قدير بعبد خبير بصير، فكم من زفرة تضنيه، وحسرة تنضيه، في موقف مهول، ومشهد جليل، بين يدي ملك عظيم، وبكل صغير وكبير عليم، فحينئذ يلجمه عرقه، ويحصره قلقه، عبرته غير مرحومة، وصرخته غير مسموعة، وحجته غير مقولة، زالت جريدته، ونشرت صحيفته، نظر في سوء عمله، وشهدت عليه عينه بنظره، ويده ببطشه، ورجله بخطوه، وفرجه بلمسه، وجلده بمسه، فسلسل جيده، وغلت يده، وسبق فسحب وحده، فورد جهنم بكرب وشدة، فظل يعذب في جهنم، ويسقى شربة من حميم، تشوي وجهه، وتسليخ جلده، وتضربه زبينة بمقمع من حديد، ويعود جلده بعد نضجه كجلد جديد، يستغيث فتعرض عنه حزنة جهنم، ويستصرخ فيلث حقة يندم.

نعوذ برب قدير، من شر كل مصير، ونسأله عفو من رضي عنه، ومغفرة من قبله، فهو ولي مسألتي، ومنجح طلبتي، فمن زحزح عن تعذيب ربه جعل في جنته بقربه، وخلد في قصور مشيدة، وملك بحور عين وحفدة، وطيف عليه بكنوس، وأسكن في حظيرة قدوس، وتقلب في نعيم، وسقى من تسنيم، وشرب من عين سلسبيل، ومزج له بزنجبيل، مختم بمسك وعبير، مستديم للملك، مستشعر للسرر، يشرب من خمور، في روض مغدق، ليس يصدع من شربه، وليس يتزف. هذه منزلة من خشى ربه، وحذر نفسه معصيته، وتلك عقوبة من جحد مشيئته، وسولت له نفسه معصيته، فهو قول فصل، وحكم عدد وخبر قصص قص، ووعظ نص، "تزيـل من حكيم حميد"، نزل به روح قدس مبين، على قلب نبي مهتد رشيد، صلت عليه رسل سفرة، مكرمون بررة، عذت برب عليم، رحيم كريم، من شر كل عدو لعين رحيم، فليتضرع متضرعكم، وليتهل مبتهلكم، وليستغفر كل مريبوب منكم لي ولكم، وحسي ربي وحده. الشرح: فصيلة الرجل: رهطه الأدنون. وكدح: سعى سعياً فيه تعب، وفرغته: الواحدة من الفراغ، تقول: فرغت فرغة، كقولك: ضربت ضربة. وسجى الميت: بسط عليه رداء. ونشر الميت من قبره بفتح النون والشين، وأنشره الله تعالى. وبعثت قبور: انتشرت ونبشت.

قوله: "وسيق بسحب وحده"، لأنه إذا كان معه غيره كان كالمتأسى بغيره، فكان أخف لألمه وعذابه، وإذا كان وحده كان أشد ألماً وأهول، وروي "فسيق يسحب وحده" وهذا أقرب إلى تناسب الفقرتين، وذاك أفخم معنى. وزبينة على وزن "عفرية" واحد الزبانية، وهم عند العرب الشرط، وسمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها كما يفعل الشرط في الدنيا، ومن أهل اللغة من يجعل واحد الزبانية زباني. وقال بعضهم: زابن، ومنهم من قال: هو جمع لا واحد له، نحو أبابيل وعباديد، وأصل الزبن في اللغة الدفع، ومنه ناقة زبون: تضرب حالها وتدفعه.

وتقول: ملك زيد بفلانة بغير ألف، والباء هاهنا زائدة كما زیدت في "كفى بالله حسيباً"، وإنما حکمنا بزيادتها لأن العرب تقول: ملكت أنا فلانة أي تزوجتها، وأملكك فلانة بزيد أي زوجتها به، فلما جاءت الباء هاهنا ولم يكن بد من إثبات الألف لأجل مجيئها جعلناها زائدة، وصار تقديره: وملك حوراً عيناً.

وقال المفسرون في تسنيم: إنه اسم ماء في الجنة لسمي بذلك لأنه يجري من فوق الغرف والقصور.

وقالوا في سلسبيل: إنه اسم عين في الجنة ليس يتزف ولا يخمر كما يخمر شارب الخمر في الدنيا.

انقضى هذا الفصل، ثم رجعنا إلى سنن الغرض الأول.

الأصل: وقال عليه السلام، لما بلغه إغارة أصحاب معاوية على الأنبار، فخرج بنفسه ماشياً حتى أتى النخيلة، وأدركه الناس وقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نكفيكم، فقال عليه السلام: والله ما تكفوني أنفسكم، فكيف تكفوني غيركم! إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعايتي، فإني اليوم لأشكو حيف رعيي، كأني المقود وهم القادة، أو الموزوع وهم الوزعة.

قال: فلما قال هذا القول في كلام طويل قد ذكرنا مختاره في جملة الخطب، تقدم إليه رجلان من أصحابه، فقال أحدهما: "إني لا أملك إلا نفسي وأخي"، فمرنا بأمرك يا أمير المؤمنين ننفذ، فقال: وأين تقعان مما أريد! الشرح: السنن: الطريقة، يقال: تنح عن السنن، أي عن وجه الطريق. والنخيلة: بظاهر الكوفة، وروي "ما تكفوني" بحذف النون. والحيف: الظلم.

والوزعة: جمع وازع، وهو الدافع الكاف.

ومعنى قوله: "ما تكفوني أنفسكم"، أي أفعالكم رديئة قبيحة تحتاج إلى جند غيركم أستعين بهم على تثقيفكم وتهذيبكم، فمن هذه حاله كيف أثقف به غيره، وأهذب به سواه! وإن كانت الرعايا: إن هاهنا مخففة من الثقيلة، ولذلك دخلت اللام في جوابها.

وقد تقدم ذكرنا هذين الرجلين، وإن أحدهما قال: يا أمير المؤمنين، أقول لك ما قاله العبد الصالح: "رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي". فشكر لهما وقال: وأين تقعان مما أريد! الأصل: وقيل: إن الحارث بن حوط أتاه عليه السلام، فقال له: أتراني أظن أن أصحاب الحمل كانوا على ضلالة؟ فقال عليه السلام: يا حار، إنك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف أهله، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه.

فقال الحارث: فإني أعتزل مع سعد بن مالك وعبد الله بن عمر.

فقال عليه السلام: إن سعداً وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق، ولم يخذلا الباطل.

الشرح: اللفظة التي وردت قبل أحسن من هذه اللفظة، وهي: أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل، وتلك كانت حالهم، فإنهم خذلوا علماً ولم ينصروا معاوية ولا أصحاب الحمل.

فأما هذه اللفظة ففيها إشكال، لأن سعداً وعبد الله لعمرى إنهما لم ينصرا الحق، وهو جانب علي عليه السلام، لكنهما خذلا الباطل، وهو جانب معاوية وأصحاب الحمل، فإنهم لم ينصروهم في حرب قط، لا بأنفسهم ولا بأموالهم ولا

بأولادهم، فينبغي أن نتأول كلامه فنقول: إنه ليس يعني بالخذلان عدم المساعدة في الحرب، بل يعني بالخذلان هاهنا كل ما أثر في محق الباطل وإزالته، قال الشاعر يصف فرساً:

وهو كالدلو بكف المستقي

خذلت عنه العراقي فانجذم

أي باينته العراقي، فلما كان كل مؤثر في إزالة شيء فباينا له نقل اللفظ بالاشتراك في الأمر العام إليه، ولما كان سعد وعبد الله لم يقوموا خطيبين في الناس يعلمانهم باطل معاوية وأصحاب الجمل، ولم يكشفوا اللبس والشبهة الداخلة على الناس في حرب هذين الفريقين، ولم يوضحا وجوب طاعة علي عليه السلام فيردا الناس عن اتباع صاحب الجمل وأهل الشام صدق عليهما أنهما لم يخذلا الباطل. ويمكن أن يتأول على وجه آخر، وذلك أنه قد جاء خذلت الوحشية إذا قامت على ولدها، فيكون معنى قوله: "ولم يخذلا الباطل"، أي لم يقيما عليه وينصراه، فترجع هذه اللفظة إلى اللفظة الأولى، وهي قوله: "أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل".

والحارث بن حوط بالخاء المهملة. ويقال إن الموجود في خط الرضي "ابن حوط" بالخاء المعجمة المضمومة. الأصل: صاحب السلطان كراكب الأسد يغبط بموقعه، وهو أعلم بموضعه.

بعض ما قيل في صحبة السلطان

الشرح: قد جاء في صحبة السلطان أمثال حكمية مستحسنة تناسب هذا المعنى، أو تجري مجراه في شرح حال السلطان، نحو قولهم: صاحب السلطان كراكب الأسد يهابه الناس، وهو لمركوبه أهيب. وكان يقال: إذا صحبت السلطان فلتكن مداراتك له مداراة المرأة القبيحة لبعولها المبغض لها، فإنها لا تدع التصنع له على حال.

قيل للعتابي: لم لا تقصد الأمير؟ قال: لأني أراه يعطي واحداً لغير حسنة ولا يد، ويقتل آخر بلا سيئة ولا ذنب، ولست أدري أي الرجلين أكون! ولا أرجو منه مقدار ما أخاطر به. وكان يقال: العاقل من طلب السلامة من عمل السلطان، لأنه إن عفى جنى عليه العفاف عداوة الخاصة، وإن بسط يده جنى عليه البسط ألسنة الرعية.

وكان سعيد بن حميد يقول: عمل السلطان كالحمام، الخارج يؤثر الدخول، والداخل يؤثر الخروج.

ابن المقفع: إقبال السلطان على أصحابه تعب، وإعراضه عنهم مذلة.

وقال آخر: السلطان إن أرضيته أتعبك، وإن أغضبته أعطبك.

وكان يقال: إذا كنت مع السلطان فكن حذراً منه عند تقريبه، كأنما لسره إذا استسرك، وأميناً على ما أئتمنك، تشكر له ولا تكلفه الشكر لك، وتعلمه وكأنك تتعلم منه وتؤدبه وكأنه يؤدبك، بصيراً بهواه، مؤثراً لمنفعته، ذليلاً إن ضامك، راضياً إن أعطاك، قانعاً إن حرمك، وإلا فابعد منه كل البعد.

وقيل لبعض من يخدم السلطان: لا تصحبهم، فإن مثلهم مثل قدر التنور، كلما مسه الإنسان اسود منه، فقال: إن كان خارج تلك القدر أسود فداخلها أبيض.

وكان يقال: أفضل ما عوشر به الملوك قلة الخلاف، وتخفيف المئونة.

وكان يقال: لا يقدر على صحبة السلطان إلا من يستقل بما حملوه، ولا يلحف إذا سألهم، ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه، ولا يطغى إذا سلطوه، ولا يبطر إذا أكرموه.

وكان يقال: إذا جعلك السلطان أحاً فاجعله رباً، وإن زادك فرده.

وقال أبو حازم: للسلطان كحل يكحل به من يوليه، فلا يبصر حتى يعزل.

وكان يقال: لا ينبغي لصاحب السلطان أن يتدثه بالمسألة عن حاله، فإن ذلك من كلام النوكى وإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبح الله الأمير بالكرامة، وإن أردت أن تقول: كيف يجد الأمير نفسه؟ فقل: وهب الله الأمير العافية؟ ونحو هذا، فإن المسألة توجب الجواب، فإن لم يجبك اشتد عليك، وإن أجابك اشتد عليه.

وكان يقال: صحبة الملوك بغير أدب كركوب الفلاة بغير ماء.

وكان يقال: ينبغي لمن صحب السلطان أن يستعد للعدو عن ذنب لم يجنه، وأن يكون آنس ما يكون به، أوحش ما يكون منه.

وكان يقال: شدة الانقباض من السلطان تورث التهمة، وسهولة الانبساط إليه تورث الملامة.

وكان يقال: اصحب السلطان بإعمال الحذر، ورفض الدالة، والاجتهاد في النصيحة، وليكن رأس مالك عنده ثلاث: الرضا، والصبر، والصدق.

واعلم أن لكل شيء حداً، فما جاوزه كان سرفاً، وما قصر عنه كان عجزاً، فلا تبلغ بك نصيحة السلطان أن تعادي حاشيته وخاصته وأهله، فإن ذلك ليس من حقه عليك، وليكن أقصى لحقه عنك، وأدعى لاستمرار السلامة لك، أن تستصلح أولئك جهديك، فإنك إذا فعلت ذلك شكرت نعمته، وأمنت سطوته، وقللت عدوك عنده، وإذا جاريت عند السلطان كفوّاً من أكفائك فتلكن مجاراتك ومباراتك إياه بالحجة، وإن عضهك، وبالرفق وإن خرف بك. واحذر أن يستحلحك فتحمى، فإن الغضب يعمي عن الفرصة، ويقطع عن الحجة، ويظهر عليك الخصم، ولا تتوردن على السلطان بالدالة وإن كان أحاك، ولا بالحجة وإن وثقت أهما لك، ولا بالنصيحة وإن كانت له دونك، فإن السلطان يعرض له ثلاث دون ثلاث: القدرة دون الكرم، والحمية دون النصفة، واللجاج دون الحظ.

الأصل: أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم.

الشرح: أكثر ما في هذه الدنيا يقع على سبيل القرض والمكافأة، فقد رأينا عياناً من ظلم الناس فظلم عقبه وولده، ورأينا من قتل الناس فقتل عقبه وولده، ورأينا من أخرج دوراً فأخربت داره، ورأينا من أحسن إلى أعقاب أهل النعم فأحسن الله إلى عقبه وولده.

وقرأت في تاريخ أحمد بن طاهر أن الرشيد أرسل إلى يحيى بن خالد وهو في محبسه يقرعه بذنوبه، ويقول له: كيف رأيت! ألم أخرب دارك؟ ألم أقتل ولدك جعفر؟ ألم أنهب مالك؟ فقال يحيى للرسول: قل له: أما إخراجك داري فستخرب دارك، وأما قتلك ولدي جعفر فسيقتل ولدك محمد، وأما نهبك مالي فسينهب مالك وخزانتك. فلما عاد الرسول إليه بالجواب

وجم طويلاً وحزن، وقال: والله ليكونن ما قال، فإنه لم يقل لي شيئاً قط إلا وكان كما قال، فأخربت داره - وهي الخلد - في حصار بغداد، وقتل ولده محمد، ونهب ماله، وخزانتها، نهبها طاهر بن الحسين. الأصل: إن كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داءً.

الشرح: كل كلام يقلد المتكلم به لحسن عقيدة الناس فيه نحو كلام الحكماء وكلام الفضلاء والعلماء من الناس إذا كان صواباً كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داءً، لأن الناس يحذون حذو المتكلم به، ويقلدونه فيما يتضمنه ذلك الكلام من الآداب والأوامر والنواهي. فإذا كان حقاً أفلحوا، وحصل لهم الثواب واتباع الحق، وكانوا كالدواء المبرئ للسقم، وإذا كان ذلك الكلام خطأً واتبعوه خسروا ولم يفلحوا، فكان بمثابة الداء والمرض.

الأصل: وقال عليه السلام حين سأله رجل أن يعرفه ما الإيمان، فقال: إذا كان غد فأتني حتى أخبرك على أسمع الناس، فإن نسيت مقالتي حفظها عليك غيرك، فإن الكلام كالشاردة يثقفها هذا ويخطئها هذا.

قال: وقد ذكرنا ما أجابه به عليه السلام فيما تقدم من هذا الباب، وهو قوله: "الإيمان على أربع شعب".

الشرح: يقول: إذا كان غد فأتني فتكون "كان" هاهنا تامة، أي إذا حدث ووجد، وتقول: إذا كان غداً فأتني فيكون النسب باعتبار آخر، أي إذا كان الزمان غداً، أي موصوفاً بأنه من الغد، ومن النحويين من يقدره: إذا كان الكون غداً، لأن الفعل يدل على المصدر، والكون هو التجدد والحدوث.

وقائل هذا القول يرجحه على القول الآخر، لأن الفاعل عندهم لا يحذف إلا إذا كان في الكلام دليل عليه. ويثقفها، يجدها، ثقت كذا بالكسر، أي وجدته وصادفته.

والشاردة: الضالة.

الأصل: يا بن آدم، لا تحمل هم يومك الذي لم يأتك على يومك الذي أتاك، فإنه إن يكن من عمرك يأت الله فيه برزقك.

الشرح: قد تقدم هذا الفصل بتمامه، واعلم أن كل ما ادخرته مما هو فاضل عن قوتك فإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وخلاصة هذا الفصل النهي عن الحرص على الدنيا والاهتمام لها، وإعلام الناس أن الله تعالى قد قسم الرزق لكل حي من خلقه، فلو لم يتكلف الإنسان فيه لأتاه رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي المثل: يا رزاق البغاث في عشه.

وإذا نظر الإنسان إلى الدودة المكنونة داخل الصخرة كيف ترزق، علم أن صانع العالم قد تكفل لكل ذي حياة بمادة تقيم حياته إلى انقضاء عمره.

الأصل: أحب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

الشرح: الهون بالفتح: التآني، والبغض: المبغض، وخلاصة هذه الكلمة، النهي عن الإسراف في المودة والبغضة، فرما

انقلب من تود فصار عدواً، وربما انقلب من تعاديه فصار صديقاً، وقد تقدم القول في ذلك على أتم ما يكون.

وقال بعض الحكماء: توق الإفراط في المحبة، فإن الإفراط فيها داع إلى التقصير منها، ولأن تكون الحال بينك وبين حبيبك

نامية أولى من أن تكون متناهية.
ومن كلام عمر: لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً.
وقال الشاعر:

وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً
وأبغض إذا أبغضت غير مباين
فإنك لا تدري متى أنت نازع!
فإنك لا تدري متى أنت راجع!
وقال عدي بن زيد:

ولا تأمن من مبغض قرب داره
ولا من محب أن يمل فيبعدها
الأصل: الناس في الدنيا عاملان: عامل في الدنيا للدنيا، قد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على من يخلف الفقر، ويأمنه على نفسه، فيفني عمره في منفعة غيره.
وعامل عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل، فأحرز الحظين معاً، وملك الدارين جميعاً، فأصبح وجهياً عند الله، لا يسأل الله حاجة فيمنعه.
الشرح: معنى قوله: "ويأمنه على نفسه"، أي ولا يبالي أن يكون هو فقيراً، لأنه يعيش عيش الفقراء، وإن كان ذا مال، لكنه يدخر المال لولده فيفني عمره في منفعة غيره.

ويجوز أن يكون معناه إنه لكثرة ماله قد أمن الفقر على نفسه ما دام حياً، ولكنه لا يأمن الفقر على ولده لأنه لا يثق من ولده بحسن الاكتساب كما وثق من نفسه، فلا يزال في الاكتساب والازدياد منه لمنفعة ولده الذي يخاف عليه الفقر بعد موته. فأما العامل في الدنيا لما بعدها فهم أصحاب العبادة، يأتيهم رزقهم بغير اكتساب ولا كد، وقد حصلت لهم الآخرة، فقد حصل لهم الحظان جميعاً.

الأصل: وروي أنه ذكر عند عمر بن الخطاب في أيامه حلي الكعبة وكثرته، فقال قوم: لو أخذتة فجهزت به جيوش المسلمين، كان أعظم للأجر، وما تصنع الكعبة بالحلي! فهم عمر بذلك، وسأل عنه أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: إن هذا القرآن أنزل على محمد صلى الله عليه وآله، والأموال أربعة: أموال المسلمين، فقسمها بين الورثة في الفرائض، والفيء قسمه على مستحقه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله على حاله، ولم يتركه نسياناً، ولم يخف عنه مكاناً، فأقره حيث أقره الله ورسوله، فقال له عمر: لولاك لافتضحنا! وترك الحلي بحاله.

الشرح: هذا استدلال صحيح، ويمكن أن يورد على وجهين: أحدهما أن يقال: أصل الأشياء الحظر والتحريم، كما هو مذهب كثير من أصحابنا البغداديين، فلا يجوز التصرف في شيء من الأموال والمنافع إلا بإذن شرعي، ولم يوجد إذن شرعي في حلي الكعبة، فبقينا فيه على حكم الأصل.

والوجه الثاني أن يقال: حلي الكعبة مال مختص بالكعبة، هو جار مجرى ستور الكعبة، ومجرى باب الكعبة، فكما لا يجوز

التصرف في ستور الكعبة وبابها إلا بنص فكذلك حلي الكعبة، والجامع بينهما الاختصاص الجاعل كل واحد من ذلك كالجاء من الكعبة، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يكون الاستدلال.

ويجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام عليه، وألا يحمل على ظاهره، لأن لمعترض أن يعترض استدلاله إذا حمل على ظاهره، بأن يقول: الأموال الأربعة التي عددها إنما قسمها الله تعالى حيث قسمها لأنها أموال متكررة بتكرر الأوقات على مر الزمان يذهب الموجود منها ويخلفه غيره، فكان الاعتناء بها أكثر، والاهتمام بوجوه متصرفها أشد، لأن حاجات الفقراء والمساكين وأمثالهم من ذوي الاستحقاق كثيرة ومتجددة بتجدد الأوقات، وليس كذلك حلي الكعبة، لأنه مال واحد باق غير متكرر، وأيضاً فهو شيء قليل يسير، ليس مثله مما يقال: ينبغي أن يكون الشارع قد تعرض لوجوه مصرفه حيث تعرض لوجوه مصرف الأموال، فافترق الموضعان.

الأصل: روي أنه رفع إليه رجلان سرقا من مال الله، أحدهما عبد من مال الله، والآخر من عرض الناس، فقال: أما هذا فهو من مال الله فلا حد عليه، مال الله أكل بعضه بعضاً، وأما الآخر فعليه الحد الشديد. فقطع يده.

الشرح: هذا مذهب الشيعة أن عبد المغنم إذا سرق من المغنم لم يقطع، فأما العبد الغريب إذا سرق من المغنم فإنه يقطع إذا كان ما سرقه زائداً عما يستحقه من الغنيمة بمقدار النصاب الذي يجب فيه القطع، وهو ربع دينار، وكذلك الحر إذا سرق من المغنم حكمه هذا الحكم بعينه، فوجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين على أن العبد المقطوع قد كان سرق من المغنم ما هو أزيد من حقه من الغنيمة بمقدار النصاب المذكور أو أكثر.

فأما الفقهاء فإنهم لا يوجبون القطع على من سرق من مال الغنيمة قبل قسمتها، سواء كان ما سرقه أكثر من حقه أو لم يكن، لأن مخالطة حقه وممازجته للمسروق شبهة في الجملة تمنع من وجوب القطع، هذا إن كان له حق في الغنيمة بأن يكون شهد القتال بإذن سيده، فإن لم يكن ذلك وكان لسيده فيها حق لم يقطع أيضاً، لأن حصة سيده المشاعة شبهة تمنع من قطعه، فإن لم يشهد القتال ولا يشهده سيده وسرق من الغنيمة قبل القسمة ما يجب في مثله القطع وجب عليه القطع.

الأصل: لو قد استوت قدمي من هذه المداحض لغيرت أشياء.

الشرح: لسنا نشك أنه كان يذهب في الأحكام الشرعية والقضايا إلى أشياء يخالف فيها أقوال الصحابة، نحو قطعه يد السارق من رؤوس الأصابع، وبيعه أمهات الأولاد، وغير ذلك، وإنما كان يمنعه من تغيير أحكام من تقدمه اشتغاله بحرب البغاة والخوارج، وإلى ذلك يشير بالمداحض التي كان يؤمل استواء قدميه منها، ولهذا قال لقضاته: "اقضوا كما كنتم تقضون حتى يكون للناس جماعة"، فلفظة "حتى" هاهنا مؤذنة بأنه فسح لهم في اتباع عادتهم في القضايا والأحكام التي يعهدونها إلى أن يصير للناس جماعة، وما بعد "إلى" و "حتى" ينبغي أن يكون مخالفاً لما قبلهما.

فأما أصحابنا فيقولون: إنه كان فيما يحاول أن يحكم بين الناس مجتهداً، ويجوز لغيره من المجتهدين مخالفته. والإمامية تقول: ما كان يحكم إلا عن نص وتوقيف، ولا يجوز لأحد من الناس مخالفته. والقول في صحة ذلك وفساده فرع من فروع مسألة الإمامة.

الأصل: اعلّموا علماً يقينا أن الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته، واشتدت طلبته، وقويت مكيدته، أكثر مما سمي له في الذكر الحكيم، ولم يجل بين العبد في ضعفه وقلة حيلته، وبين أن يبلغ ما سمي له في الذكر الحكيم. والعارف لهذا، العامل به، أعظم الناس رحمةً في منفعة، والتارك له، الشاك فيه، أعظم الناس شغلاً في مضرة.

ورب منعم عليه مستدرج بالنعمة، ورب مبتلى مصنوع له بالبلوى. فزد أيها المستمع في شكرك، وقصر من عجلتك، وقف عند منتهى رزقك.

الشرح: قد تقدم القول في الحرص والجشع وذم الكادح في طلب الرزق، ومدح القناعة والاقتصار، ونذكر هنا طرفاً آخر من ذلك. قال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غمّاً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص، وأخفّضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط. وقال عمر: الطمع فقر، واليأس غنى، ومن يئس مما عند الناس استغنى عنهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك، ورضاك بما يكفيك، ولذلك قيل: العيش ساعات تمر، وخطوب تكرر وقال الشاعر:

واترك هواك وأنت حر

ذهب وياقوت ودر

اقنع بعيشك ترضه

فلرب حتف فوقه

وقال آخر:

من طول سعي وإدبار وإقبال!

عن الأحبة لا يدرون ما حالي

لا يخطر الموت من حرص على بالي

إن القنوع الغنى لا كثرة المال

إلى متى أنا في حل وترحال

ونازح الدار لا أنفك مغترباً

بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها

ولو قنعت أتانى الرزق في دعة

وجاء في الخبر المرفوع: "أجملوا في الطلب، فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له، ولن يخرج عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له في الدنيا وهي راغمة".

الأصل: لا تجعلوا علمكم جهلاً، ويقىنكم شكاً، إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا.

الشرح: هذا نهي للعلماء عن ترك العمل، يقول: لا تجعلوا علمكم كالجهل، فإن الجاهل قد يقول: جهلت فلم أعمل، وأنتم فلا عذر لكم، لأنكم قد علمتم وانكشف لكم سر الأمر، فوجب عليكم أن تعملوا، ولا تجعلوا علمكم جهلاً، فإن من علم المنفعة في أمر ولا حائل بينه وبينه ثم لم يأت به كان سفيهاً.

الأصل: إن الطمع مورد غير مصدر، وضامن غير وفي، وربما شرب الماء قبل ريه، وكلما عظم قدر الشيء المتنافس فيه عظمت الرزية لفقده، والأماي تعمي أعين البصائر، والحظ يأتي من لا يأتيه.

الشرح: قد تقدم القول في هذه المعاني كلها وقد ضرب الحكماء مثلاً لفرط الطمع، فقالوا: إن رجلاً صاد قبره فقالت:

ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وأكلك، قالت: والله ما أشفي من قرم، ولا أشبع من جوع، ولكني أعلمك ثلاث خصال هن خير لك من أكلي، أما واحدة فأعلمك إياها وأنا في يدك، وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة، وأما الثالثة فإذا صرت على الجبل. فقال: هاتي الأولى، قالت: لا تلهفن على ما فات، فحلاها، فلما صارت على الشجرة قال: هاتي الثانية، قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت، فصارت على الجبل، فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلي درتين وزن كل واحدة ثلاثون مثقالاً، فعض على يديه وتلهف تلهفاً شديداً، وقال: هاتي الثالثة، فقالت: أنت قد أنسيت الدرتين، فما تصنع بالثالثة؟ ألم أقل لك: لا تلهفن على ما فات! وقد تلهفت، وألم أقل لك لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون. وأنا ولحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً، فكيف صدقت أن في حوصلي درتين كل واحدة منهما ثلاثون مثقالاً! ثم طارت وذهبت.

وقوله: "وربما شرب الماء قبل ريه"، كلام فصيح، وهو مثل لمن يخترم بغتة، أو تطرقه الحوادث والخطوب وهو في تلهية من عيشه.

ومثل الكلمة الأخرى قولهم: على قدر العطية تكون الرزية.

والقول في الأماني قد أوسعنا القول فيه من قبل، وكذلك في الحظوظ.

الأصل: اللهم إني أعوذ بك من أن تحسن في لامعة العيون علانيتي، وتقبح فيما أبطن لك سريري، محافظاً على رياء الناس من نفسي بجميع ما أنت مطلع عليه مني، فأبدي للناس حسن ظاهري، وأفضي إليك بسوء عملي، تقرباً إلى عبادك، وتباعداً من مرضاتك.

الشرح: قد تقدم القول في الرياء، وأن يظهر الإنسان من العبادة والفعل الجميل ما يبطن غيره، ويقصد بذلك السمعة والصيت لا وجه الله تعالى.

وقد جاء في الخبر المرفوع: "أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية".

قال المفسرون: والرياء من الشهوة الخفية، لأنه شهوة الصيت والجاه بين الناس بأنه متين الدين، مواظب على نوافل العبادات، وهذه هي الشهوة الخفية، أي ليست كشهوة الطعام والنكاح وغيرهما من الملاذ الحسية. وفي الخبر المرفوع أيضاً أن اليسير من الرياء شرك، وأن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين هم في بيوتهم إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصايح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة.

الأصل: وقال عليه السلام: لا والذي أمسينا منه في غير ليلة دهماء، تكشر عن يوم أغر، ما كان كذا وكذا. الشرح: قد روي: "تفتر عن يوم أغر".

والغبر: البقايا، وكذلك الإغبار، وكشر أي بسم، وأصله الكشف.

وهذا الكلام إما أن يكون قاله على جهة التفاؤل، أو أن يكون إخباراً بغيب، والأول أوجه.

الأصل: قليل تدوم عليه، أرجى من كثير مملول منه.

الشرح: لا ريب أن من أراد حفظ كتاب من الكتب العلمية فحفظ منه قليلاً قليلاً، ودام على ذلك، فإن ذلك أنفع له وأرجى لفلاحه من أن يحفظ كثيراً، ولا يدوم عليه لماله إياه وضجره منه، والتجربة تشهد بذلك.

والقول في غير الحفظ كالقول في الحفظ، نحو الزيارة القليلة للصديق، ونحو العطاء اليسير الدائم الذي هو خير من الكثير المنقطع، ونحو ذلك.

الأصل: إذا أضرت النوافل بالفرائض فافرضوها.

الشرح: قد تقدم القول في النافلة: هل تصح من عليه "فريضة" لم يؤدها، وذكرنا مذاهب الفقهاء في ذلك. ولا ريب أن من استغرق الوقت بالنوافل حتى آن أوقات الفرائض لم يفعل الفرائض فيها، وشغلها بالعبادة النفلية، فقد أخطأ، والواجب أن يرفض النافلة حيث يتضيق وقت الفريضة، لا خلاف بين المسلمين في ذلك، ويصلح أن يكون هذا مثلاً ظاهره ما ذكرنا، وباطنه أمر آخر.

الأصل: من تذكر بعد السفر استعد.

الشرح: هذا مثل قولهم في المثل: "الليل طويل، وأنت مقمر"، وقال أيضاً: عش ولا تغتر. وقال أصحاب المعاني: مثل الدنيا كركب في فلاة وردوا ماءً طيباً، فمنهم من شرب من ذلك الماء شرباً يسيراً، ثم أفكر في بعد المسافة التي يقصدها، وأنه ليس بعد ذلك الماء ماءً آخر، فتزود منه ماءً أوصله إلى مقصده، ومنهم من شرب من ذلك الماء شرباً عظيماً، ولها عن التزود والاستعداد، وظن أن ما شرب كاف له ومغن عن ادخار شيء آخر، فقطع به، وأخلفه ظنه، فعطش في تلك الفلاة ومات.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه: "إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كقوم سلكوا مفازةً غرباء حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي أنفدوا الزاد وحسروا الظهر، وبقوا بين ظهري المفازة لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه ماء، فقالوا: هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم وشاهد حالهم قال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء، ورياض خفر، ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، فأعطوه ذلك، فأوردتهم ماءً رواءً ورياضاً خضراً، ومكث بينهم ما شاء الله، ثم قال: إني مفارقكم، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، ورياض ليست كرياضكم، فقال الأكثرون منهم: والله ما وجدنا ما نحن فيه حتى ظننا أننا لا نجد، وما نصنع بمثل خير من هذا! وقال الأقلون منهم: ألم تعطوا هذا الرجل مواثيقكم وعهودكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم في أول حديثه، والله ليصدقنكم في آخره، فراح فيمن تبعه منهم، وتخلف الباقيون، فدهمهم عدو شديد البأس عظيم الجيش، فأصبحوا ما بين أسير وقتيل.

الأصل: ليست الرؤية مع الإبصار، فقد تكذب العيون أهلها، ولا يغش العقل من استنصحه. الشرح: هذا مثل قوله

تعالى: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

أي ليس العمى عمى العين، بل عمى القلب.

كذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام، ليست الرؤية مع العيون، وإنما الرؤية الحقيقية مع العقول.

وقد ذهب أكابر الحكماء إلى أن اليقينيات هي المعقولات لا المحسوسات، قالوا: لأن حكم الحس في مظنة الغلط، وطال ما كذب الحس، واعتقدنا بطريقه اعتقادات باطلة، كما نرى الكبير صغيراً، والصغير كبيراً، والمتحرك ساكناً، والساكن

متحركاً، فأما العقل فإذا كان المعقول به بديهياً أو مستنداً إلى مقدمات بديهية فإنه لا يقع فيه غلط أصلاً.

الأصل: بينكم وبين الموعظة حجاب من الغرة.

الشرح: قد تقدم ذكر الدنيا وغرورها، وأنها بشهواتها ولذاتها حجاب بين العبد وبين الموعظة، لأن الإنسان يغتر بالعاجلة، ويتوهم دوام ما هو فيه، وإذا خطر بباله الموت والفناء وعد نفسه رحمة الله تعالى وعفوه، هذا إن كان ممن يعترف بالمعاد، فإن كثيراً ممن يظهر القول بالمعاد هو في الحقيقة غير مستيقن له، والإخلاص إلى عفو الله تعالى والاتكال على المغفرة مع الإقامة على المعصية، غرور لا محالة، والحازم من عمل لما بعد الموت، ولم يمتن نفسه الأمانى التي لا حقيقة لها.

الأصل: جاهلكم مزداد، وعالمكم مسوف.

الشرح: هذا قريب مما سلف: يقول: إن الجاهل من الناس مزداد من جهله، مصر على خطيئته، مسوف من توهّماته وعقيدته الباطلة بالعفو عن ذنبه، وليس الأمر كما توهّمه. "ليس بأمانيكُم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً".

الأصل: قطع العلم عذر المتعللين.

الشرح: هذا أيضاً قريب مما تقدم، يقول: قطع العلم عذر الذين يعللون أنفسهم بالباطل، ويقولون: إن الرب كريم رحيم، فلا حاجة لنا إلى إعتاب أنفسنا بالعبادة، كما قال الشاعر:

من الأعمال ذا ذنب عظيم

إذا كان القدوم على الكريم

قدمت على الكريم بغير زاد

وسوء الظن أن تعتد زاداً

وهذا هو التعليل بالباطل، فإن الله تعالى وإن كان كريماً رحيماً عفواً غفوراً، إلا أنه صادق القول، وقد توعد العصاة، وقال: "وإن الفجار لفي جحيم. يصلونها يوم الدين. وما هم عنها بغائبين"، وقال: "لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد"، ويكفي في رحمته وعفوه وكرمه أن يغفر للتائب أو لمن ثوابه أكثر مما يستحقه من العقاب، فالقول بالوعيد معلوم بأدلة السمع المتظاهرة المتناصرة التي قد أطنب أصحابنا في تعدادها وإيضاحها، وإذا كان الشيء معلوماً، فقد قطع العلم به عذر أصحاب التعلل والتمني، ووجب العمل بالمعلوم ورفض ما يخالفه.

الأصل: كل معاجل يسأل الإنظار، وكل مؤجل يتعلل بالتسويق.

الشرح: قال الله سبحانه: "حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون".

فهذا هو سؤال الإنظار لمن عوجل، فأما من أجل فإنه يعلل نفسه بالتسويق، ويقول: سوف أتوب، سوف أقلع عما أنا عليه، فأكثرهم يحترم من غير أن يبلغ هذا الأمل، وتأتية المنية وهو على أقبح حال وأسوئها، ومنهم من تشمله السعادة فيتوب قبل الموت، وأولئك الذين ختمت أعمالهم بخاتمة الخير، وهم في العالم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود.

الأصل: ما قال الناس لشيء: طوبى له! إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء.

الشرح: قد تقدم هذا المعنى، وذكرنا فيه نكتاً جيدة حميدة.

بعض ما ورد في تغلبات الدهر كان محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد في قصره على دجلة يوماً، وإذا بحشيش على وجه الماء، في وسطه قصبة عليها رقعة، فأمر بأخذها، فإذا فيها:

فقل له: خير ما استعملته الحذر

تاه الأعيرج واستولى به البطر

ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت

وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها

فما انتفع بنفسه مدة، وفي المثل: الدهر إذا أتى بسحواء سحسح، يعقبها بنكباء زعزع. وكذاك شرب العيش فيه تلون، بيناه عذباً إذ تحول آجناً.

يحيى بن خالد: أعطانا الدهر فأسرف، ثم مال علينا فأجحف.

قال الشاعر:

وخاست بنا أكفاله والروادف

فيا لنعيم ساعدتنا رقابه

إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

فاصبر فليس لها صبر على حال

هي المقادير تجري في أعنتها

إلى السماء ويوماً تخفض العالي

يوماً تزيش خسيس الحال ترفعه

إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث كان يأتي الخير.

هانئ بن مسعود:

مان حتى سقاه أم الرقوب

إن كسرى أبى على الملك النع

بأناس يعود للتصويب

كل ملك وإن تصعد يوماً

أحيحة بن الجلاح:

وما يدري الغني متى يعيل

وما يدري الفقير متى غناه

أتلحق بعد ذلك أم تحيل

وما تدري إذا أضربت شولاً

بأي الأرض يدركك المقيـل !

وما تدري إذا أزمعت سيراً

آخر:

ولا شرة الدنيا بضربة لازم

فما دون الدنيا بباق لأهله

آخر:

في سرور ونعيم وغدق

رب قوم غبروا من عيشهم

ثم أبكاهم دماً حين نطق

سكت الدهر زماناً عنهم

ومن الشعر المنسوب إلى محمد الأمين بن زبيدة:

أين الفرار من القدر

يا نفس قد حق الحذر

ف ويرتجيه على خطر

كل امرئ مما يخاف

ن يغص يوماً بالكدر

من يرتشف صفو الزمان

الأصل: وقال عليه السلام وقد سئل عن القدر: طريق مظلم فلا تسلكوه. ثم سئل ثانياً فقال: بحر عميق فلا تلجوه، ثم سئل ثالثاً، فقال: سر الله فلا تتكلفوه.

الشرح: قد جاء في الخير المرفوع: القدر سر الله في الأرض، وروي: سر الله في عباده، والمراد نهي المستضعفين عن الخوض في إرادة الكائنات، وفي خلق أعمال العباد، فإنه ربما أفضى بهم القول بالجبر، لما في ذلك من الغموض، وذلك أن العامي إذا سمع قول القائل: كيف يجوز أن يقع في عالمه ما يكرهه، وكيف يجوز أن تغلب إرادة المخلوق إرادة الخالق! ويقول أيضاً: إذا علم في القدم أن زيدا يكفر، فكيف لزيد أن لا يكفر! وهل يمكن أن يقع خلاف ما علمه الله تعالى في القدم، اشتبه عليه الأمر، وصار شبهة في نفسه، وقوي في ظنه مذهب المجرة، فنهي عليه السلام هؤلاء عن الخوض في هذا النحو من البحث، ولم ينه غيرهم من ذوي العقول الكاملة، والرياضة القوية، والملكة التامة، ومن له قدرة على حل الشبه، والتقصي عن المشكلات.

فإن قلت: فإنكم تقولون: إن العامي والمستضعف يجب عليهما النظر! قلت: نعم إلا أنه لا بد لهما من موقف بعد إعمالهما ما ينتهي إليه جهدهما من النظر، بحيث يرشدهما إلى الصواب، والنهي إنما هو لمن يستبد من ضعفاء العامة بنفسه في النظر ولا يبحث مع غيره ليرشده.

الأصل: إذا أرذل الله عبداً حظر عليه العلم.

الشرح: أرذله: جعله رذلاً، وكان يقال: من علامة بغض الله تعالى للعبد أن يبغض إليه العلم. وقال الشاعر:

فأرشدني إلى ترك المعاصي

شكوت إلى وكيع سوء حفظي

وفضل الله لا يؤتية عاصي

وقال لأن حفظ العلم فضل

وقال رجل لحكيم: ما خير الأشياء لي؟ قال: أن تكون عالماً، قال. فإن لم أكن؟ قال: أن تكون مشرباً؟ قال: فإن لم أكن؟ قال: أن تكون شارباً؟ قال: فإن لم أكن؟ قال: فأنت ميتاً. أخذ هذا المعنى بعض المحدثين فقال:

وإن فأتك المال سد بالقراع

إذا فأتك العلم جد بالقرى

فمت فحياتك شر المتاع

فإن فات هذا وهذا وذاك

وقال أيضاً في المعنى بعينه:

الأصل: وقال عليه السلام: كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يتشهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتاً، فإن قال بذ القائلين، ونقع غليل السائلين، وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإن جاء الجد فهو ليث عاد، وصل واد، لا يدلي بحجة حتى يأتي قاضياً، كان لا يلوم أحداً على ما لا يجد العذر في مثله حتى يسمع اعتذاره، وكان لا يشكو وجعاً إلا عند برئه، وكان يفعل ما يقول، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إن غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، وكان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم، وكان إذا بدده أمران نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه، فعليكم بهذه الخلائق فالزموها، وتنافسوا فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا أن أخذ القليل خير من ترك الكثير.

الشرح: قد اختلف الناس في المعنى بهذا الكلام، ومن هو هذا الأخ المشار إليه؟ فقال قوم: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستبعده قوم لقوله: "وكان ضعيفاً مستضعفاً"، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقال في صفاته مثل هذه الكلمة، وإن أمكن تأويلها على لين كلامه وسماحة أخلاقه، إلا أنها غير لائقة به عليه السلام. وقال قوم: هو أبو ذر الغفاري واستبعده قوم لقوله: "فإن جاء الجد فهو ليث عاد، وصل واد"، فإن أبا ذر لم يكن من الموصوفين بالشجاعة، والمعروفين بالبسالة.

وقال قوم: هو المقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الأسود، وكان من شيعة علي عليه السلام المخلصين، وكان شجاعاً مجاهداً حسن الطريقة، وقد ورد في فضله حديث صحيح مرفوع. وقال قوم: إنه ليس بإشارة إلى أخ معين، ولكنه كلام خارج مخرج المثل، وعادة العرب جارية بمثل ذلك، مثل قولهم في الشعر: فقلت لصاحبي، ويا صاحبي، وهذا عندي أقوى الوجوه. بعض ما ورد في حد القناعة وقلة الأكل وقد مضى القول في صغر الدنيا في عين أهل التحقيق، فأما سلطان البطن ومدح الإنسان بأنه لا يكثر من الأكل إذا وجد أكلاً، ولا يشتهي من الأكل ما لا يجده، فقد قال الناس فيه فأكثرُوا. قال أعشى باهلة يرثي المنتشر بن وهب:

طاوي المصير على العزاء منصلت

بالقوم ليلة لا ماء ولا شجر

تكفيه فلذة لحم إن ألم بها من

الشواء ويروي شربه الغمر

ولا يباري لما في القدر يرقبه

ولا تراه أمام القوم يفتقر

لا يغمر الساق من أين ولا وصب

ولا يعرض على شرسوفه الصفر

وقال الشنفرى:

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت

خيوطه ماري تغار وتفتل

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن

بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

وماذا لك إلا بسطة عن تفضل

عليهم وكان الأفضل المتفضل

وقال بعضهم لابنه: يا بني عود نفسك الأثرة، ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نكش السباع، ولا تقضم قضم البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال، إن الله جعلك إنساناً، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سباعاً، واحذر سرعة الكظة، وداء البطنة، فقد قال الحكيم: إذا كنت بطناً فعد نفسك من الزمنى وقال الأعشى:

والبطنة يوماً تسفه الأحلاما

واعلم أن الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات مودة لئيمة، وهو مع هذا قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره. يا بني، والله ما أدى حق السجود والركوع ذو كظة، ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم مصحة، ولربما طالت أعمار الهند، وصحت أبدان العرب، والله در الحارث بن كلدة حيث زعم أن الدواء هو الأزم، وأن الداء إدخال الطعام في أثر الطعام، يا بني لم صفت أذهان الأعراب، وصحت أذهان الرهبان مع طول الإقامة في الصوامع، حتى لم تعرف وجع المفاصل، ولا الأورام، إلا لقلة الرزء، ووقاحة الأكل، وكيف لا ترغب في تدبير يجمع لك بين صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح المعاد والقرب وعيش الملائكة. يا بني لم صار الضب أطول شيء ذمماً، إلا لأنه يتبلغ بالنسيم. ولم زعم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصوم وجاء، ألا ليحمله حجاباً دون الشهوات! فافهم تأديب الله ورسوله، فإنهما لا يقصدان إلا مثلك. يا بني، إني قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لي سن، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت دين أنف، ولا سيلان عين، ولا تقطير بول، ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد، فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تريد الموت فلا يبعد الله إلا من ظلم.

وكان يقال: البطنة تذهب الفطنة.

وقال عمرو بن العاص لأصحابه يوم حكم الحكماء: أكثروا لأبي موسى من الطعام الطيب فوالله ما بطن قوم قط إلا فقدوا عقولهم أو بعضها، وما مضى عزم رجل بات بطنياً. وكان يقال: أقلل طعاماً تحمد مناماً.

ودعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى الغداء فقال: ما في فضل، فقال: إني أحب الرجل يأكل حتى لا يكون فيه فضل، فقال: يا أمير المؤمنين، عندي مستزاد، ولكني أكره أن أصير إلى الحال التي استقبحها أمير المؤمنين، وكان يقال: مسكين ابن آدم، أسير الجوع، صريع الشبع.

وسأل عبد الملك أبا الزعيرة، فقال: هل اتخمت قط؟ قال: لا، قال: وكيف؟ قال: لأننا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دققنا، ولا نكظ المعدة ولا نخلجها.

وكان يقال: من المروءة أن يترك الإنسان الطعام وهو بعد يشتهي، وقال الشاعر:

فإن قراب البطن يكفيك ملؤه

ويكفيك سوات الأمور اجتنابها

وقال عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي: كان عمي يقول لي: لا تخرج يا بني من منزلك حتى تأخذ حلمك - يعني تتغذى - فإذا أخذت حلمك فلا ترد إليه حلماً، فإن الكثرة تتول إلى قلة. وفي الحديث المرفوع: ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من

بطن، بحسب الرجل من طعامه ما أقام صلبه، وأما إذا آتيت فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس. وروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من قل طعامه، صح بطنه، وصفا قلبه، ومن كثر طعامه، سقم بطنه وقسا قلبه"، وعنه صلى الله عليه وسلم: "لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت بهما، كالزراع يموت إذا كثر عليه الماء". وروى عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: أكلت يوماً ثريداً ولحماً سميناً، ثم أتيت رسول الله وأنا أتجشأ، فقال: احبس جشأك أبا جحيفة، إن أكثركم شبعاً في الدنيا أكثركم جوعاً في الآخرة، قال: فما أكل أبو جحيفة بعدها ملء بطنه إلى أن قبضه الله. وأكل علي عليه السلام قليلاً من تمر دقل وشرب عليه ماء، وأمر يده على بطنه وقال: من أدخله بطنه النار فأبعده الله، ثم تمثل:

وفرجك نالا منتهى الذم أجمعاً

فإنك مهما تعط بطنك سؤله

وكان عليه السلام يفطر في رمضان الذي قتل فيه عند الحسن ليلة، وعند الحسين ليلة، وعند عبد الله بن جعفر ليلة، لا يزيد على اللقمتين أو الثلاث، فيقال له، فيقول: إنما هي ليال قلائل، حتى يأتي أمر الله وأنا خميص البطن، فضربه ابن ملجم لعنه الله تلك الليلة.

وقال الحسن: لقد أدركت أقواماً ما يأكل أحدهم إلا في ناحية بطنه، ما شبع رجل منهم من طعام حتى فارق الدنيا، كان يأكل، فإذا قارب الشبع أمسك وأنشد المبرد:

قليل الغناء وهو في الجسم صالح

فإن امتلاء البطن في حسب الفتى

وقال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل، لا تكثروا الأكل، فإنه من أكثر من الأكل أكثر من النوم، ومن أكثر النوم أقل الصلاة، ومن أقل الصلاة كتب من الغافلين. وقيل ليوسف عليه السلام: ما لك لا تشبع وفي يديك خزائن مصر؟ قال: إني إذا شبعت نسيت الجائعين. وقال الشاعر:

كحبة القمح دقت عنق عصفور

وأكلة أوقعت في الهلك صاحبها

ألد من تمره تحشى بزنبور

لكسرة بجريش الملح أكلها

ووصف لسابور ذي الأكتاف رجل من إصطخر للقضاء، فاستقدمه، فدعاه إلى الطعام، فأخذ الملك دجاجة من بين يديه فنصفها، وجعل نصفها بين يدي ذلك الرجل، فأتى عليه قبل أن يفرغ الملك من أكل النصف الآخر، فصرفه إلى بلده، وقال: إن سلفنا كانوا يقولون: من شره إلى طعام الملك كان إلى أموال الرعية أشره. قيل لسميرة بن حبيب: إن ابنك أكل طعاماً فأتخم، وكاد يموت، فقال: والله لو مات منه ما صليت عليه. أنس يرفعه: إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت. دخل عمر على عاصم ابنه وهو يأكل لحماً، فقال: ما هذا؟ قال: قرمنا إليه، قال: أوكلما قرمت إلى اللحم أكلته! كفى بالمرء شرهاً أن يأكل كل ما يشتهي.

أبو سعيد يرفعه: استعينوا بالله من الرعب، قالوا: هو الشره، ويقال: الرعب شؤم. أنس يرفعه: أصل كل داء البردة، قالوا: هي التخممة؟ وقال أبو دريد: العرب تعبر بكثرة الأكل، وأنشد:

لست بأكال كأكل العبد

ولا بنوام كنوم الفهد

وقال الشاعر:

إذا لم أزر إلا لأكل أكلة

فلا رفعت كفي إلى طعامي

فما أكلة إن نلتها بغنيمة

ولا جوعة إن جعتها بغرام

ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت طاوياً ليلي ما له ولأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وقالت عائشة: والذي بعث محمداً بالحق ما كان لنا منخل، ولا أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً منخولاً منذ بعثه الله إلى أن قبض، قالوا: فكيف كنتم تأكلون دقيق الشعير؟ قالت: كنا نقول: أف أف. أنس: ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفاً محوراً إلى أن لقي ربه عز وجل. أبو هريرة: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله ثلاثة أيام متوالية من خبز حنطة حتى فارق الدنيا. وروى مسروق قال: دخلت على عائشة وهي تبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قالت: ما أشاء أن أبكي إلا بكيت، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يشبع من خبز البر في يوم مرتين، ثم افطرت علينا الدنيا. حاتم الطائي:

وإني لأستحيي صحابي أن يروا

مكان يدي من جانب الزاد أقرعا

أقصر كفي أن تنال أكفهم

إذا نحن أهوينا وحاجاتنا معا

أبيت خميص البطن مضطمر الحشا

حياء أخاف الضيم أن أتضلعا

فإنك إن أعطيت نفسك سؤلها

وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

فأما قوله عليه السلام: "كان لا يتشهى ما لا يجد" فإنه قد نهي أن يتشهى الإنسان ما لا يجد؟ وقالوا: إنه دليل على سقوط المروءة.

وقال الأحنف: جنبوا مجالسنا ذكر تشهى الأطعمة وحديث النكاح.

وقال الجاحظ: جلسنا في دار فجعلنا نتشهى الأطعمة، فقال واحد: أنا أشتهى سكباجاً كثيرة الزعفران.

وقال آخر: أنا أشتهى طباهجة ناشفة، وقال آخر: أنا أشتهى هريسة كثيرة الدارصيني، وإلى جانبنا امرأة بيننا وبينها بئر الدار، فضربت الحائط وقالت: أنا حامل، فأعطوني ملء هذا الغضارة من طيخكم، فقال ثمامة: جارتنا تشم رائحة الأماني.

الأصل: لو لم يتوعد الله سبحانه على معصيته، لكان يجب ألا يعصى شكراً لنعمه.

الشرح: قالت المعتزلة: إنا لو قدرنا أن الوعيد السمعي لم يرد لما أحل ذلك بكون الواجب واجباً في العقل، نحو العدل والصدق، والعلم، ورد الوديعة، هذا في جانب الإثبات، وأما في جانب السلب فيجب في العقل ألا يظلم، وألا يكذب،

وَأَلَا يَجْهَل، وَأَلَا يَخُون الأمانة، ثم اختلفوا فيما بينهم، فقالت معتزلة بغداد: ليس الثواب واجباً على الله تعالى بالعقل، لأن الواجبات إنما تجب على المكلف، لأن أدائها كالشكر لله تعالى، وشكر المنعم واجب، لأنه شكر منعم، فلم يبق وجه يقتضي وجوب الثواب على الله سبحانه، وهذا قريب من قول أمير المؤمنين عليه السلام.

وقال البصريون: بل الثواب واجب على الله تعالى عقلاً، كما يجب عليه العوض عن إيلاام الحي، لأن التكليف إلزام بما فيه مضرة، كما أن الإيلاام إنزال مضرة، والإلزام كالإنزال.

الأصل: وقال عليه السلام للأشعث بن قيس وقد عزاه عن ابن له.

يا أشعث، إن تحزن على ابنك فقد استحققت ذلك منك الرحم، وإن تصبر ففي الله من كل مصيبة خلف.

يا أشعث، إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور.

يا أشعث، ابنك سر، وهو بلاء وفتنة، وحزنك، وهو ثواب ورحمة.

الشرح: قد روي هذا الكلام عنه عليه السلام على وجوه مختلفة وروايات متنوعة، هذا الوجه أحدها، وأخذ أبو العتاهية ألفاظه عليه السلام فقال لمن يعزيه عن ولد:

إِما مثاباً وإِما أثيماً

ولا بد من جريان القضاء

ومن كلامهم في التعازي: إذا استأثر الله بشيء فإله عنه، وتنسب هذه الكلمة إلى عمر بن عبد العزيز.

وذكر أبو العباس في الكامل أن عقبة بن عياض بن تميم أحد بني عامر بن لؤي استشهد، فعزى أباه معز، فقال: احتسبه ولا تجزع عليه، فقد مات شهيداً، فقال عياض: أتراني كنت أسر به وهو من زينة الحياة الدنيا، وأساء به وهو من الباقيات الصالحات! وهذا الكلام مأخوذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن التعازي الجيدة قول القائل:

ن يتركه كل يوم عميدا

ومن لم يزل غرضاً للمنو

فيوشك مخطئها أن يعودا

فإن هن أخطأته مرة

قصدن فأعجلنه أن يحيدا

فبينا يحيد وأخطأته

وقال آخر:

فصبراً على مكروهه وتجلدا

هو الدهر قد جربته وعرفته

وفانت موت سوف يلحقه غدا

وما الناس إلا سابق ثم لاحق

وقال آخر:

فالذي أخرجت سريع اللحاق

أينا قدمت صروف الليالي

عنقينا من أنس هذا العناق

غدرات الأيام منتزعات

ابن نباتة السعدي:

نعلل بالدواء إذا مرضنا
ونختار الطبيب وهل طبيب
وهل يشفي من الموت الدواء !
يؤخر ما يقدمه القضاء!
وما أنفاسنا إلا حساب
وما حركاتنا إلا فناء

البحثري:

إن الرزية في الفقيد فإن هفا
ومتى وجدت الناس إلا تاركاً
جزع بلبك فالرزية فيكا
لحميمه في الترب أو متروكا
لو ينجلي لك ذخرها من نكبة
جل لأضحكك الذي يبيكا

وكتب بعضهم إلى صديق له مات ابنه: كيف شكرك الله تعالى على ما أخذ من وديعته، وعوض من مثوبته! وعزى عمر بن الخطاب أبو بكر عن طفل، فقال: عوضك الله منه ما عوضه منك، فإن الطفل يعوض من أبويه الجنة. وفي الحديث المرفوع: "من عزى مصاباً كان له مثل أجره". وقال عليه السلام: "من كنوز السر كتمان المصائب، وكتمان الأمراض - وكتمان الصدقة". وقال شاعر في رثاء ولده:

وسميته يحيى ليحيا ولم يكن
تخيرت فيه الفأل حين رزقته
إلى رد أمر الله فيه سبيل
ولم أدر أن الفأل فيه يفيل

وقال آخر:

وهون وجدي بعد فقدك أنني
إذا شئت لأقيت امرأ مات صاحبه

آخر:

وقد كنت أرجو لو تمليت عيشة
فأما وقد أصبحت في قبضة الردى
عليك الليالي مرها وانتقالها
فقل للليالي فلتصب من بدالها

أخذه المتنبى فقال:

قد كنت أشفق من دمعي على بصري
فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

ومثله لغيره:

فراقك كنت أخشى فافترقنا
فمن فارقت بعدك لا أبالي

الأصل: وقال عليه السلام عند وقوفه على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة دفن رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الصبر الجميل إلا عنك، وإن الجزع لقيح إلا عليك، وإن المصاب بك للجليل، وإنه بعدك لقليل. الشرح: قد أخذت هذا المعنى الشعراء، فقال بعضهم:

أمسست بجفني للدموع كلوم
حزناً عليك وفي الخدود رسوم

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

والصبر يحمد في المواطن كلها

إلا عليك فإنه مذموم

وقال أبو تمام:

وقد كان يدعى لابس الصبر حازماً

فقد صار يدعى حازماً حين يجزع

وقال أبو الطيب:

أجد الجفاء على سواك مروءة

والصبر إلا في نواك جميلاً

وقال أبو تمام أيضاً:

الصبر أجمل غير أن تلذذاً

في الحب أولى أن يكون جميلاً

وقالت خنساء أخت عمرو بن الشريد:

ألا يا صخر إن أبكيت عيني

لقد أضحتتني دهرًا طويلاً

بكيتك في نساء معولات

وكننت أحق من أبدى العويلا

دفعت بك الجليل وأنت حي

فمن ذا يدفع الخطب الجليلا !

إذا قبح البكاء على قتيل

رأيت بكاءك الحسن الجميلا

ومثل قوله عليه السلام: "وإنه بعدك لقليل"، يعني المصاب أي لا مبالاة بالمصائب بعد المصيبة بك، قول بعضهم:

قد قلت للموت حين نازله

والموت مقدمة على البهم

أذهب بمن شئت إذ ظفرت

به ما بعد يحيى للموت من ألم

وقال الشمر دل اليربوعي يرثي أخاه:

إذا ما أتى يوم من الدهر بيننا

فحياك عنا شرقه وأصائله

أبى الصبر أن العين بعدك لم تزل

يحالف جفنيها قذى ما تزايله

وكننت أعير الدمع قبلك من بكى

فأنت على من مات بعدك شاغله

أعيني إذا أبكاكما الدهر فابكيا

لمن نصره قد بان عنا ونائله

وكننت به أغشى القتال فعزني

عليه من المقدار من لا أقاتله

لعمرك إن الموت منا لمولع

بمن كان يرجى نفعه وفواضله

قوله:

فأنت على من مات بعدك شاغله

هو المعنى الذي نحن فيه، وذكرنا سائر الأبيات لأنها فائقة بعيدة النظر.

وقال آخر يرثي رجلاً اسمه جارية:

أجاري ما أزداد إلا صبايةً
عليك وما تزداد إلا تنائياً
أجاري لو نفس فدت نفس ميت
فديتك مسروراً بنفسي وماليا
وقد كنت أرجو أن أراك حقيقةً
فحال قضاء الله دون قضائيا
ألا فليمت من شاء بعدك إنما
عليك من الأقدار كان حذاريا

ومن الشعر المنسوب إلى علي عليه السلام - ويقال: إنه قاله يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كنت السواد لناظري
فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت
فعليك كنت أحاذر

ومن شعر الحماسة:

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض
فحسبك مني ما تجن الجوانح
كأن لم يمت حي سواك ولم تقم
على أحد إلا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثي بوصفها
لقد حسنت من قبل فيك المدائح
فما أنا من رزء وإن جل جازع
ولا بسرور بعد موتك فارح

الأصل: لا تصحب المائق فإنه يزين لك فعله، ويود أن تكون مثله.

الشرح: المائق: الشديد الحمق، والموق: شدة الحمق، وإنما يزين لك فعله لأنه يعتقد فعله صواباً بحمقه فيزينه لك كما يزين العاقل لصاحبه فعله لاعتقاد كونه صواباً، ولكن هذا صواب في نفس الأمر، وذلك صواب في اعتقاد المائق، لا في نفس الأمر، وأما كونه يود أن تكون مثله فليس معناه أنه يود أن تكون أحمق مثله، وكيف وهو لا يعلم من نفسه أنه أحمق، ولو علم أنه أحمق لما كان أحمق، وإنما معناه أنه لربه لك، وصحبته إياك، يود أن تكون مثله، لأن كل أحد يود أن يكون صديقه مثل نفسه في أخلاقه وأفعاله، إذ كل أحد يعتقد صواب أفعاله، وطهارة أخلاقه، ولا يشعر بعيب نفسه لأنه يهوى نفسه، فعيب نفسه مطوي مستور عن نفسه، كما تخفى عن العاشق عيوب المعشوق.

الأصل: وقال عليه السلام وقد سئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب، فقال: مسيرة يوم للشمس.

الشرح: هكذا تقول العرب "بينهما مسيرة يوم" بالهاء ولا يقولون "مسير يوم" لأن المسير المصدر، والمسيرة الاسم.

وهذا الجواب تسميه الحكماء جواباً إقناعياً، لأن السائل أراد أن يذكر له كمية المسافة مفصلة، نحو أن يقول: بينهما ألف فرسخ أو أكثر أو أقل، فعدل عليه السلام عن ذلك وأجابه بغيره، وهو جواب صحيح لا ريب فيه، لكنه غير شاف لغيل السائل، وتحت غرض صحيح، وذلك لأنه سأله بحضور العامة تحت المنبر. فلو قال له: بينهما ألف فرسخ مثلاً، لكان للسائل أن يطالبه بالدلالة على ذلك، والدلالة على ذلك يشق حصولها على البديهة، ولو حصلت لشق عليه أن يوصلها إلى فهم السائل، ولو فهمها السائل لما فهمتها العامة الحاضرون، ولصار فيها قول وخلاف، وكانت تكون فتنة أو شبيهاً

بالفتنة، فعدل إلى جواب صحيح إجمالي أسكت السائل به، وقنع به السامعون أيضاً واستحسنوه، وهذا من نتائج حكمته عليه السلام.

الأصل: أصدقاؤك ثلاثة، وأعداؤك ثلاثة، فأصدقاؤك: صديقك، وصديق صديقك، وعدو عدوك. وأعداؤك: عدوك، وعدو صديقك، وصديق عدوك.

الشرح: قد تقدم القول في هذا المعنى.

والأصل في هذا أن صديقك جار مجرى نفسك، فاحكم عليه بما تحكم به على نفسك، وعدوك ضدك، فاحكم عليه بما تحكم به على الضد، فكما أن من عاداك عدو لك، وكذلك من عادى صديقك عدو لك، وكذلك من صادق صديقك فكأنما صادق نفسك، فكان صديقاً لك أيضاً، وأما عدو عدوك فعدو ضدك، وضد ضدك ملائم لك، لأنك أنت ضد لذلك الضد، فقد اشتركتما في ضدية ذلك الشخص، فكنتما متناسبين، وأما من صادق عدوك فقد ماثل ضدك، فكان ضداً لك أيضاً، ومثل ذلك بياض مخصوص يعادي سواداً مخصوصاً ويضاده.

وهناك بياض ثان هو مثل البياض الأول وصديقه، وهناك بياض ثالث مثل البياض الثاني، فيكون أيضاً مثل البياض الأول وصديقه، وهناك بياض رابع تأخذه بالاعتبار ضداً للسواد المخصوص المفروض، فإنه يكون مماثلاً وصديقاً للبياض الأول، لأنه عدو عدوه، ثم نفرض سواداً ثانياً مضاداً للبياض الثاني، فهو عدو للبياض الأول، لأنه عدو صديقه، ثم نفرض سواداً ثالثاً هو مماثل السواد المخصوص المفروض، فإنه يكون ضداً للبياض المفروض المخصوص، لأنه مثل ضده، وإن مثلت ذلك بالحروف كان أظهر وأكشف.

الأصل: وقال عليه السلام لرجل رآه يسعى على عدو له بما فيه إضرار بنفسه: إنما أنت كالطاعن نفسه ليقتل ردفة. الشرح: هذا يختلف باختلاف حال الساعي، فإنه إن كان يضر نفسه أولاً ثم يضر عدوه تبعاً لإضراره بنفسه، كان - كما قال أمير المؤمنين عليه السلام - كالطاعن نفسه ليقتل ردفه، والردف: الرجل الذي نرتدفه خلفك على فرس أو ناقة أو غيرهما، وفاعل ذلك يكون أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، لأنه يبدأ بقتل نفسه وإن كان يضر عدوه أولاً، ثم يحصل في ضمن إضراره بعدوه إضراره بنفسه، فليس يكون مثال أمير المؤمنين عليه السلام منطبقاً على ذلك، ولكن يكون كقولي في غزل من قصيدة لي:

لك موطن تأوي إليه ومنزل

إن ترم قلبي تصم نفسك إنه

الأصل: ما أكثر العبر وأقل الاعتبار! الشرح: ما أوجز هذه الكلمة وما أعظم فائدتها! ولا ريب أن العبر كثيرة جداً، بل كل شيء في الوجود ففيه عبرة، ولا ريب أن المعتبرين بها قليلون، وأن الناس قد غلب عليهم الجهل والهوى، وأرداهم حب الدنيا، وأسكرهم خمرها، وإن اليقين في الأصل ضعيف عندهم، ولولا ضعفه لكانت أحوالهم غير هذه الأحوال. الأصل: من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من خاصم.

الشرح: هذا مثل قوله عليه السلام في موضع آخر: الغالب بالشر مغلوب.

وكان يقال: ما تساب اثنان إلا غلب الأملهما.

وقد نهي العلماء عن الجدل والخصومة في الكلام والفقه، وقالوا: إنهما مظنة المباهاة وطلب الرئاسة والغلبة، والمجادل يكره أن يقهره خصمه، فلا يستطيع أن يتقي الله، وهذا هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه.

وأما الخصومة في غير العلم كمنازعة الناس بعضهم بعضاً في أمورهم الدنياوية، فقد جاء في ذمها والنهي عنها شيء كثير، وقد ذكرنا منه فيما تقدم قولاً كافياً، على أن منهم من مدح الجهل والشر في موضعهما.

وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا.

وقال بعض الحكماء: لا يخرج أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجزته قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل.

وقالوا: الجاهل من لا جاهل له.

وقال الشاعر:

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعداً
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً
وخبيرت أنى شئت فالعلم أفضل
ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل
إذا جاءني من يطلب الجهل عامداً
فإني سأعطيه الذي هو سائل

الأصل: ما أهمني أمر أمهلت بعده، حتى أصلي ركعتين وأسأل الله العافية.

الشرح: هذا فتح لباب التوبة وتطريق إلى طريقها، وتعليم للنهضة إليها والاهتمام بها، ومعنى الكلام أن الذنب الذي لا يعاجل الإنسان عقبيه بالموت ينبغي للإنسان ألا يهتم به، أي لا ينقطع رجاءه عن العفو وتأميله الغفران، وذلك بأن يقوم إلى الصلاة عاجلاً، ويستغفر الله، ويندم ويعزم على ترك المعادة، ويسأل الله العافية من الذنوب والعصمة من المعاصي، والعون على الطاعة، فإنه إذا فعل ذلك بنية صحيحة واستوفى شرائط التوبة سقط عنه عقاب ذلك الذنب.

وفي هذا الكلام تحذير عظيم من واقعة الذنوب، لأنه إذا كان هذا هو محصول الكلام، فكأنه قد قال الحذر الحذر من الموت المفاجيء قبل التوبة، ولا ريب أن الإنسان ليس على ثقة من الموت المفاجيء قبل التوبة، أنه لا يفاجئه ولا يأخذه بغتة، فالإنسان إذا كان عاقلاً بصيراً يتوقى الذنوب والمعاصي غاية التوقي.

الأصل: وسئل عليه السلام: كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ فقال: كما يرزقهم على كثرتهم.

ف قيل: كيف يحاسبهم ولا يرونه! فقال: كما يرزقهم ولا يرونه.

الشرح: هذا جواب صحيح، لأنه تعالى لا يرزقهم على الترتيب، أعني واحداً بعد واحد، وإنما يرزقهم جميعهم دفعةً واحدة، وكذلك تكون محاسبتهم يوم القيامة.

والجواب الثاني صحيح أيضاً، لأنه إذا صح أن يرزقنا ولا نرى الرازق، صح أن يحاسبنا ولا نرى المحاسب.

فإن قلت: فقد ورد أنهم يمكثون في الحساب ألف سنة؟ وقيل أكثر من ذلك، فكيف يجمع بين ما ورد في الخبر وبين قولكم: "إن حسابهم يكون ضربةً واحدة!" ولا ريب أن الأخبار تدل على أن الحساب يكون لواحد بعد واحد.

قلت: إن أخبار الآحاد لا يعمل عليها، لا سيما الأخبار الواردة في حديث الحساب والنار والجند، فإن المحدثين طعنوا في أكثرها، وقالوا: إنها موضوعة، وجملة الأمر أنه ليس هناك تكليف، فيقال إن ترتيب المحاسبة في زمان طويل جداً يتضمن

لطفاً في التكليف فيفعله البارئ تعالى لذلك، وإنما الغرض من المحاسبة صدق الوعد وما سبق من القول، والكتاب العزيز لم ينطق إلا بالمحاسبة مجملة، فوجب القول بالمتيقن المعلوم فيها ورفض ما لم يثبت!

الأصل: رسولك ترجمان عقلك، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك.

الشرح: قالوا في المثل: الرسول على قدر المرسل، وقيل أيضاً: رسولك أنت، إلا أنه إنسان آخر، وقال الشاعر:

تخير إذا ما كنت في الأمر مرسلًا

فمبلغ آراء الرجال رسولها

ورو وفكر في الكتاب فإنما

بأطراف أقلام الرجال عقولها

الأصل: ما المبتلى الذي قد اشتد به البلاء، بأحوج إلى الدعاء من المعافي الذي لا يأمن البلاء.

الشرح: هذا ترغيب في الدعاء، والذي قاله عليه السلام حق، لأن المعافي في الصورة مبتلى في المعنى، وما دام الإنسان في قيد هذه الحياة الدنيا فهو من أهل البلاء على الحقيقة، ثم لا يأمن البلاء الحسي، فوجب أن يتضرع إلى الله تعالى أنه ينقذه من بلاء الدنيا المعنوي، ومن بلائها الحسي في كل حال.

ولا ريب أن الأدعية مؤثرة، وأن لها أوقات إجابة، ولم يختلف المليون والحكماء في ذلك.

الأصل: الناس أبناء الدنيا، ولا يلام الرجل على حب أمه.

الشرح: قد قال عليه السلام في موضع آخر: "الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم"، وقال الشاعر:

ونحن بني الدنيا غدينا بدرها

وما كنت منه فهو شيء محبب

الأصل: إن المسكين رسول الله، فمن منعه فقد منع الله، ومن أعطاه فقد أعطى الله.

الشرح: هذا حض على الصدقة، وقد تقدم لنا قول مقنع فيها.

وفي الحديث المرفوع: "اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة".

وقال صلى الله عليه وسلم: "لو صدق السائل لما أفلح من رده".

وقال أيضاً: "من رد سائلاً خائباً لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام".

وكان صلى الله عليه وسلم لا يكل حصلتين إلى غيره: كان يصنع ظهوره بالليل ويخمره، وكان يناول المسكين بيده.

وقال بعض الصالحين: من لم تكن نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته، فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه.

وقال بعضهم: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه.

الأصل: ما زنى غيور قط.

الشرح: قد جاء في الأثر: من زنى زني به ولو في عقب عقبه.

وهذا قد جرب فوجد حقاً، وقل من ترى مقدماً على الزنا إلا والقول في حرمه وأهله وذوي محارمه كثير فاش.

والكلمة التي قالها عليه السلام حق لأن من اعتاد الزنا حتى صار دربته وعادته وألفته نفسه، لا بد أن يهون عليه حتى يظنه

مباحاً، أو كالمباح، لأن من تدرب بشيء ومرن عليه زال قبحه من نفسه، وإذا زال قبح الزنا من نفسه لم يعظم عليه ما يقال في أهله، وإذا لم يعظم عليه ما يقال في أهله، فقد سقطت غيرته.
الأصل: كفى بالأجل حارساً! الشرح: قد تقدم القول في هذا المعنى.
وكان عليه السلام يقول: إن علي من الله جنة حصينة، فإذا جاء يومي أسلمتني، فحينئذ لا يطيش السهم، ولا يبرأ الكلم.
والقول في الأجل وكونه حارساً شعبة من شعب القول في القضاء والقدر، وله موضع هو أملك به.
الأصل: ينام الرجل على الثكل، ولا ينام على الحرب.
قال السيد: ومعنى ذلك أنه يصبر على قتل الأولاد، ولا يصبر على سلب الأموال.
الشرح: كان يقال: المال عدل النفس، وفي الأثر أن من قتل من دون ماله فهو شهيد، وقال الشاعر:

لنا إبل غر يضيق فضاؤها ويغبر عنها أرضها وسماؤها
فمن دونها أن تستباح دماؤها ومن دوننا أن تستباح دماؤها
حمى وقرى فالموت دون مرامها وأيسر أمر يوم حق فناؤها

الأصل: مودة الآباء قرابة بين الأبناء، والقرابة أحوج إلى المودة من المودة إلى القرابة.
الشرح: كان يقال: الحب يتوارث، والبغض يتوارث، وقال الشاعر:

أبقى الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبید وللآباء أبناء

ولا خير في القرابة من دون مودة، وقد قال القائل لما قيل له: إيماء أحب إليك؛ أخوك أم صديقك؛ فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقاً، فالقربى محتاجة إلى المودة، والمودة مستغنية عن القربى.
الأصل: أتقو ظنون المؤمنين فإن الله تعالى جعل الحق على ألسنتهم.
الشرح: كان يقال!: ظن المؤمن كهانة، وهو أثر جاء عن بعض السلف، قال أوس بن حجر:

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وقال أبو الطيب:

ذكي تظنيه طليعة عينه يرى قلبه في يومه ما يرى غداً

أصل: لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله سبحانه أوثق منه بما في يده.
الشرح: هذا كلام في التوكل، وقد سبق القول فيه، وقال بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل، فتضيع أمر آخرتك، ولا تنال من الدنيا إلا ما كتب الله لك.
وقال يحيى بن معاذ في جود العبد: الرزق عن غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكلاً، وجدت إلى كل خير سبيلاً.

الأصل: وقال عليه السلام لأنس بن مالك، وقد كان بعثه إلى طلع و الزبير لما جاء إلى البصرة يذكرهما شيئاً قد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معناهما، فلوى عن ذلك فرجع إليه، فقال: إني أنسيت ذلك الأمر، فقال عليه

السلام: إن كنت كاذباً فضربك الله بما بيضاء لامعة لا توارىها العمامة.

قال: يعني البرص، فأصاب أنسا هذا الداء فيما بعد في وجهه، فكان لا يرى إلا تبرقعا.

الشرح: المشهور أن علياً عليه السلام ناشد الناس الله في الرحبة بالكوفة، فقال: أنشدكم الله رجلاً سمع صلى الله عليه وآله وسلم يقول لي وهو منصرف من حجة الوداع: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه" فقام رجال فشهدوا بذلك، فقال عليه السلام لأنس بن مالك: لقد حضرتها، فما بالك! فقال: يا أمير المؤمنين كبرت سني، وصار ما أنساه أكثر مما أذكره؛ فقال له: إن كنت كاذباً فضربك الله بما بيضاء لا توارىها العمامة، فما مات حتى أصابه البرص.

فأما ما ذكره الرضي من أنه بعث أنساً إلى طلحة و الزبير فغير معروف، ولو كان قد بعثه ليذكرهما بكلام يختص بهما من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! لما أمكنه أن يرجع، فيقول: إني أنسيته، لأنه ما فارقه متوجها نحوهما إلا وقد أقر بمعرفته وذكره، فكيف يرجع بعد ساعة أو يوم فيقول: إني أنسيته، فينكر بعد الإقرار! هذا مما لا يقع.

وقد ذكر ابن قتيبة حديث البرص، والدعوة التي دعا بها أمير المؤمنين عليه السلام على أنس بن مالك في كتاب المعارف في باب البرص من أعيان الرجال، وابن قتيبة غير متهم في حق علي عليه السلام، على المشهور من انحرافه عنه.

الأصل: إن للقلوب إقبالاً وأدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقصروا بها على الفرائض.

الشرح: لا ريب أن القلوب تمل كما تمل الأبدان؛ وتقبل تارة على العلم وعلى العمل، وتدبر تارة عنهما.

قال علي عليه السلام: فإذا رأيتموها مقبلة أي قد نشطت وارتاحت للعمل فاحملوها على النوافل؛ ليس يعني اقتصروا بها على النافلة، بل أدوا الفريضة وتنفلوا بعد ذلك. وإذا رأيتموها قد ملت العمل وسئمت فاقصروا بها على الفرائض، فإنه لا انتفاع بعمل لا يحضر القلب في.

الأصل: في القرآن نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم.

الشرح: هذا حق؛ لأن فيه أخبار القرون الماضية، وفيه أخبار كثيرة عن أمور مستقبلية، وفيه أخبار كثيرة شرعية؛ فالأقسام الثلاثة كلها موجودة فيه.

الأصل: ردوا الحجر من حيث جاء، فإن الشر لا يدفعه إلا الشر.

الشرح: هذا مثل قولهم في المثل: إن الحديد بالحديد يفلح؛ وقال عمرو بن كلثوم:

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ألا لا يجهلن أحد علينا

وقال الفند الزماني:

فأمسى وهو عريان

فلما صرح الشر

ن دناهم كما دانوا

ولم يبق سوى العدوا

الجهل للذئبة إذعان

وبعض الحلم عند

وفي الشر نجاة حي

ن لا ينجيك إحسان

وقال الأحنف:

وذي ضغن أمت القول عنه

بحلمي فاستمر على المقال

ومن يحلم وليس له سفية

يلاق المعضلات من الرجال !

وقال الراجز:

لا بد للسؤدد من أرماح

ومن عديد يتقي بالراح

ومن سفية

دائم النباح

وقال آخر:

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا

أخا الحلم ما لم يستعن بجهول

وقال آخر:

ولا أتمنى الشر والشر تاركي

ولكن متى احمل على الشر أركب

الأصل: وقال عليه السلام لكاتبه عبيد الله بن أبي رافع: ألق دواتك، وأطل حلفة قلمك، وفرج بين الطور، وقر مط بين الحروف فإن ذلك أجدر بصباحه الخط.

الشرح: لاق الخبر بالكا غد يليق، أي ألصق، ولقيته أنا يتعدى ولا يتعدى، وهذه دواة مليقة، أي قد أصلح مدادها، وجاء ألق الدواة الأفة فهي مليقة، وهي لغة قليلة وعليها وردت كلمة أمير المؤمنين عليه السلام .

ويقال للمرأة إذا لم تحظ عند زوجها: ما عاقت عند زوجها ولا لاقت، أي ما التصقت بقلبه. وتقول: هي حلفة القلم بالكسر، وأصل الجلف القشر، جلفت الطين من رأس الدن، والجلفة هيئة فتحة القلم التي يستمد بها المداد، كما تقول: هو حسن الركبة والجلسة ونحو ذلك من الهيئات، وتقول: قد قر مط فلان خطوه إذا مشى مشياً فيه ضيق وتقارب، وكذلك القول في تضيق الحروف.

فأما التفريج بين السطور فيكسب الخط بهاء ووضوحاً.

الأصل: أنا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الفجار.

قال: معنى ذلك أن المؤمنين يتبعوني، والفجار يتبعون المال، كما تتبع النحل يعسوبها، وهو رئيسها.

الشرح: هذه كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلفظين مختلفين، تارةً: "أنت يعسوب الدين" وتارةً: "أنت يعسوب المؤمنين"، والكل راجع إلى معنى واحد، كأنه جعله رئيس المؤمنين وسيدهم، أو جعل الدين يتبعه، ويقفو أثره حيث سلك كما يتبع النحل يعسوب.

وهذا نحو قوله: "وأدر الحق معه كيف دار".

الأصل: وقال لبعض اليهود حين قال له: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه فقال له: إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون".

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

الشرح: ما أحسن قوله: "اختلفنا عنه لا فيه"، وذلك لأن الاختلاف لم يكن في التوحيد والنبوة، بل في فروع خارجة عن ذلك، نحو الإمامة والميراث، والخلاف في الزكاة هل هي واجبة أم لا، واليهود لم يختلفوا كذلك، بل في التوحيد الذي هو الأصل.

قال المفسرون: مروا على قوم يعبدون أصناماً لهم على هيئة البقر، فسألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً كواحد منها، بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام، وخلصهم من رق العبودية، وعبورهم البحر، ومشاهدة غرق فرعون، وهذه غاية الجهل. وقد روي حديث اليهودي على وجه آخر، قيل: قال يهودي لعلي عليه السلام: اختلفتم بعد نبئكم ولم يحف مأؤه - يعني غسله - صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عليه السلام: وأنتم قُلتُم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ولما يحف مأؤكم. الأصل: وقيل له عليه السلام: بأي شيء غلبت الأقران؟ قال: ما لقيت أحداً إلا أعاني على نفسه قال رضي رحمه الله تعالى: يومي بذلك إلى تمكن هيئته في القلوب.

الشرح: قالت الحكماء: الوهم مؤثر، وهذا حق، لأن المريض إذا تقرر في وهمه أن مرضه قاتل له ربما هلك بالوهم، وكذلك من تلبسه الحية، ويقع في خياله أنها قاتلته، فإنه لا يكاد يسلم منها، وقد ضربوا لذلك مثلاً، الماشي على جذع معترض على مهواة، فإن وهمه وتخيله السقوط يقتضي سقوطه، وإلا فمشيه عليه وهو منصوب على المهواة كمشيه عليه وهو ملقى على الأرض، لا فرق بينهما إلا الوهم والخوف والإشفاق والحذر. فكذلك الذين بارزوا علياً عليه السلام من الأقران، لما كان قد طار صيته، واجتمعت الكلمة أنه ما بارزه أحد إلا كان المقتول، غلب الوهم عليهم، فقصرت أنفسهم عن مقاومته، وانخذلت أيديهم وجوارحهم عن مناهضته، وكان هو في الغاية القصوى من الشجاعة والإقدام فيقتحم عليهم ويقتلهم.

الأصل: وقال عليه السلام لابنه: يا بني إني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت.

بعض ما قيل في الفقر والغنى

الشرح: هذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيراً، ففضل قوم الغنى، وفضل قوم الفقر. فقال أصحاب الغنى: قد وصف الله تعالى المال، فسماه خيراً، فقال: "إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي" وقال ممتناً على عباده، واعدأ لهم بالإنعام والإحسان، "ويمدكم بأموال وبنين". وقال: "وجعلت له مالاً ممدوداً". وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "المال الحسب، إن أحساب أهل الدنيا هذا المال". وقال عليه السلام: "نعم العون على تقوى الله المال". قالوا: ولا ريب أن الأعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيأ حصولها إلا بالمال، كالحج والوقوف والصدقات والزكوات والجهاد.

وقد جاء في الخبر: "خير المال سكة مأبورة، أو مهرة مأمورة".

وقال الحكماء: المال يرفع صاحبه وإن كان وضع النسب قليل الأدب، وينصره وإن كان جباناً، ويسيطر لسانه وإن كان عيماً، به توصل الأرحام، وتصل الأعراس، وتظهر المروءة، وتتم الرياسة، ويعمر العالم، وتبلغ الأغراض، وتدرك المطالب، وتنال المآرب، يصلك إذا قطعك الناس، وينصرك إذا خذلوك، ويستعبد لك الأحرار، ولولا المال لما بان كرم الكريم، ولا ظهر لؤم اللئيم، ولا شكر جواد، ولا ذم بخيل، ولا صن حريم، ولا أدرك نعيم.

وقال الشاعر:

المال أنفع للفتى من علمه والفقر أقتل للفتى من جهله
ما ضر من رفع الدراهم قدره جهل يناط إلى دناءة أصله

وقال آخر:

دعوت أخي فولى مشمئزاً ولبي درهمي لما دعوت

وقال آخر:

ولم أر أوفى ذمة من دراهمي وأصدق عهداً في الأمور العظام
فكم خانني خل وثقت بعهد وكان صديقاً لي زمان الدراهم

وقال آخر:

أبو الأصفر المنقوش أنفع للفتى من الأصل والعلم الخطير المقدم
وما مدح العلم امرؤ ظفرت به يده ولكن كل مقو ومعدم

وقال الشاعر:

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

وقال العتابي: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أرفع من السماء، وأعذب من الماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطؤه صواب، و سيئته حسنة وقوله مقبول، يغشى مجلسه، ولا يمل حديثه، والفلس عندهم أكذب من لمعان السراب، ومن رؤيا الكظة، ومن مرآة اللقوة، ومن سحب تموز، ولا يسأل عنه إن غاب، ولا يسلم عليه إذا قدم، إن غاب شتموه، وإن حضر طردوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة، أثقل من الأمانة، وأبغض من السائل المبرم.

وقال بعض الشعراء الظرفاء، وأحسن كل الإحسان مع خلاعته:

أصون دراهمي وأذب عنها لعلمي أنها سيفي وترسي
وأدخرها وأجمعها بجهدي ويأخذ وارثي منها وعرسي
فيأكلها و يشربها هنيئاً على النعمات من نقر وجس

ويقعد فوق قبري بعد موتي
أحب إلي من قصدي عظيماً
أمد إليه كفي مستميحاً
ويتركني أجر الرجل مني
ولا يتصدقن عني بفلس
كبيراً أصله من عبد شمس
واصبح عبد خدمته أمسي
وقد صارت كنفس الكلب نفسي

وقال أصحاب الفقر: الغنى سبب الطغيان، قال الله تعالى: "كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه أستغني".
وقال تعالى: "وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه".
وكان يقال: الغنى يورث البطر، وغنى النفس خير من غنى المال.
وقال محمود البقال:

الفقر خير فانتسع واقتصد
كم واجد أطلق وجدانه
ومدمن للخمر عاد على
لو لم يجد خمراً ولا مسمعاً
إن من العصمة ألا تجد
عنانه في بعض ما لم يرد
سماع عود وغناء غرد
يرد بالماء غليل الكبد
طأطأ منه الفقر حتى اقتصد
كم من يد للفقر عند امرئ

وكان يقال: الفقر شعار الصالحين، والفقر لباس الأنبياء، ولذلك قال البحري:

فقر كفقر الأنبياء وغربة
وصبابة ليس البلاء بواحد

وكان يقال: الفقر مخف، والغنى مثقل. وفي الخبر: نجا المخفون. وما أحسن قول أبي العتاهية:

ألم تر أن الفقر يرجي له الغنى
وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقد ذم الله تعالى المال، فقال: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة".

وكان يقال: المال ملول، المال ميلال، المال غاد ورائح، طبع المال كطبع الصبي، لا يوقف على وقت رضاه، ولا وقت سخطه، المال لا ينفعك حتى يفارقك، وإلى هذا المعنى نظر القائل:

وصاحب صدق ليس ينفع قربه
ولا وده حتى تفارقه عمدا

يعني الدينار، وما أحسن ما قاله الأول:

وقد يهلك الإنسان حسن ريشه
كما يذبح الطاووس من أجل ريشه

وقال آخر:

رويدك إن المال يهلك ربه
إذاجم واستعلى وسد طريقة

ومن جاوز الماء الغزير بجمه
وسد طريق الماء فهو غريقة

الأصل: وقال لسائل سأله عن مسألة: سل تفقهاً، ولا تسأل تعنتاً؛ فإن الجاهل المتعلم شبيه بالجاهل، وإن العالم المتعنت شبيه بالجاهل.

الشرح: قد ورد نهي كثير عن السؤال على طريق الإعنات .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تضع له غامضات المسائل، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفش له سرا، ولا تغتاب عنده أحداً، ولا تنقلن إليه حديثاً، ولا تطلبن عشرته، وإن زل! قبلت معذرتي، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام حافظاً أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك إلى خدمته.

وقال ابن سيرين لسائل سأله: سل أخاك إبليس، إنك لن تسأل وأنت طالب رشد.

وقالوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نعنت كما نعوذ بك أن نعنت، ونستكفيك أن نفضح، كما نستكفيك أن نفضح.

وقالوا: إذا آنس المعلم من التلميذ سؤال التعنت حرم عليه تعليمه.

الأصل: وقال عليه السلام لعبد الله بن العباس رضي الله عنه وقد أشار إليه في شيء لم يوافق راية: لك أن تشير علي وأرى فإذا عصيتك فأطعني.

الشرح: الإمام أفضل من الرعية رأياً وتديراً فالواجب على من يشير عليه بأمر فلا يقبل أن يطيع ويسلم علم أن الإمام قد عرف من المصلحة ما لم يعرف.

ولقد أحسن الصابي في قوله في بعض رسائله: ولولا فضل الرعاية على الرعايا في بعد مطرح النظرة، واستشفاف عيب العاقبة، لتساوت الأقدام، وتقاربت الإفهام، واستغنى المأموم عن الإمام.

الأصل: وروي أنه عليه السلام لما ورد الكوفة قادماً من صفين مر بالشاميين، فسمع بكاء النساء على قتلى صفين، وخرج إليه حرب بن شريحيل الشامي؛ وكان من وجوه قومه، فقال له: أيغلبكم نساؤكم على ما أسمع ألا تنهونهن عن هذا الرنين!.

وأقبل حرب يمشي معه وهو عليه السلام راكب، فقال له: ارجع فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن.

الشرح: قد ذكرنا نسب الشاميين فيما اقتصصناه من أخبار صفين في أول الكتاب.

والرنين: الصوت، وإنما جعله فتنة للوالي لما يتداخله من العجب بنفسه والزهو، ولا ريب أيضاً في أنه مذلة للمؤمن. فإن الراحل الماشي إلى ركاب الفارس أذل الناس.

الأصل: وقال عليه السلام وقد مر بقتلى الخوارج يوم النهر وان: بؤسا لكم! لقد ضركم من غركم.

ف قيل له: من غركم يا أمير المؤمنين؟ فقال: للشيطان الفضل، والنفس الأماراة بالسوء؛ غرتم بالأمان، وفسحت لهم في المعاصي، ووعدهم الإظهار، فافتحمت بهم النار.

الشرح: يقال: بؤسي لزيد وبؤساً بالتثنية لزيد، وبؤساً نظيره نعمة، وبؤساً نظيره نعمة، ينتصب على المصدر.

وهذا الكلام رد على المجبرة، وتصريح بأن النفس الأماراة بالسوء هي الفاعلة.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

والإظهار: مصدر، أظهرته على زيد، أي جعلته ظاهراً عليه غالباً له، أي وعدتهم الانتصار والظفر.

الأصل: اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم.

الشرح: إذا كان الشاهد هو الحاكم استغنى عن يشهد عنده؛ فالإنسان إذن جدير أن يتقي الله حق تقاته، لأنه تعالى الحاكم فيه وهو الشاهد عليه .

الأصل: وقال عليه السلام لما بلغه قتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه: أن حزننا عليه على قدر سرورهم به، ألا أنهم نقصوا بغيضاً؛ ونقصنا حبباً.

الشرح: قد تقدم ذكر مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه.

وقال عليه السلام : إن حزننا به في العظم على قدر فرحهم به؛ ولكن وقع التفاوت بيننا وبينهم من وجه آخر؛ وهوانا نقصنا حبباً إلينا، وأما هم فنقصوا بغيضاً إليهم.

فإن قلت: كيف نقصوا، ومعلوم أن أهل الشام ما نقصوا بقتل محمد شيئاً لأنه ليس في عددهم!.

قلت: لما كان أهل الشام يعدون في كل وقت أعداءهم وبغضاءهم من أهل العراق، وصار ذلك العدد معلوماً عندهم محصور الكمية، نقصوا بقتل محمد من ذلك العدد واحداً، فإن النقص ليس من عدد أصحابهم، بل من عدد أعدائهم الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر، ويتمنون لهم الخطوب والأحداث، كأنه يقول: استراحوا من واحد من جملة جماعة كانوا ينتظرون موتهم.

الأصل: وقال عليه السلام: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة.

الشرح: أعذر الله فيه؛ أي سوغ لابن آدم أن يعتذر، يعني أن ما قبل الستين هي أيام الصبا والشبيبة والكهولة، وقد يمكن أن "يعذر الإنسان فيه على أتباع قوى النفس لغلبة الشهوة وشره الحداثة، فإذا تجاوز الستين دخل فلا سن الشيخوخة، وذهبت عنه غلواء شرته، فلا عذر له في الجهل.

وقد قالت الشعراء نحو هذا المعنى في دون هذه السن التي عينها عليه السلام، وقال بعضهم:

عليه الأربعون عن الرجال

فليسق بلحق أخرى الليالي

إذا ما المرة قصر ثم مرت

ولم يلحق بصالحهم فدعه

الأصل: ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب.

الشرح: قد قال عليه السلام نحو هذا، وذكرناه في هذا الكتاب: من قصر في الخصومة ظلم ومن بالغ فيها أثم.

الأصل: إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله تعالى جده سائلهم عن ذلك.

الشرح: قد تقدم القول في الصدقة وفضلها وما جاء فيها.

وقد ورد في الأخبار الصحيحة أن أبا ذر قال: انتهيت إلى رسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في ظل الكعبة،

فلما رأي قال: "هم الآخسرون ورب الكعبة! فقلت: من هم؟ قال: هم الأكثر ون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه، تنطحه بقرونها، وتطاه بأظلافها، فما، كلما نفدت أحرارها عادت عليه أولاهها حتى يقضي الله بين الناس..."

الأصل: الاستغناء عن العذر، أعز من الصدق به.

الشرح: روي "خير من الصدق"، والمعنى: لا تفعل شيئاً تعتذر عنه وإن كنت صادقاً في العذر، فألا تفعل خير لك وأعز لك من أن تفعل ثم تعتذر وإن كنت صادقاً.

ومن حكم ابن المعتز: لا يقوم عز الغضب بذل الاعتذار.

وكان يقال: إياك أن تقوم في مقام معذرة، فرب عذر أسجل بذنب صاحبه.

اعتذر رجل إلى يحيى بن خالد، فقال له: ذنبك يستغيث من عذرك.

ومن كلامهم: ما رأيت عذراً أشبه بذنب من هذا.

ومن كلامهم: أضربه على ذنبه مائة، وأضربه على عذره مائتين، قال شاعرهم:

إذا كان وجه العذر ليس بواضح فإن اطراح العذر خير من العذر

كان النخعي يكره أن يعتذر إليه ويقول: اسكت معذوراً، فإن المعاذير يحضرها الكذب.

الأصل: أقل ما يلزمكم لله سبحانه ألا تستعينوا بنعمه على معاصيه.

الشرح: لا شبهة أن من القبيح الفاحش أن ينعم الملك على بعض رعيته بمال وعبيد وسلاح، فيجعل ذلك المال مادة

لعصيانه والخروج عليه، ثم يجاربه بأولئك العبيد، وبذلك السلاح بعينه.

وما احسن ما قال الصابي في رسالته إلى سبكتكين من عز الدولة باختيار: وليت شعري بأي قدم توافقنا وراياتنا خافقة

على رأسك، ومماليكنا عن يمينك وشمالك، وخيلنا موسومة بأسمائنا تحتك، وثيابنا محوكة في طرازنا على جسدك،

وسلاحنا المشحوذ لأعدائنا في يدك! الأصل: إن الله سبحانه جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط العجزة.

الشرح: الأكياس العقلاء أولو الألباب.

قال عليه السلام: جعل الله طاعته غنيمة هؤلاء، إذا فرط فيها العجزة المخدولون من الناس، كصيد استهدف لرجلين:

أحدهما جلد والأخر عاجز، فقعد عنه العاجز لعجزه وحرمانه، واقتنصه الجلد لشهامته وقوة جده.

الأصل: السلطان وزعه الله في أرضه.

الشرح: الوازع عن الشيء: الكاف عنه، والمانع منه، والجمع وزعه، مثل قاتل وقتلة.

وقد قيل هذا المعنى كثيراً، قالوا: لا بد للناس من وزعه.

وقيل: ما يزرع الله عن الدين بالسلطان أكثر كما يزرع عنه بالقرآن. وتنسب هذه اللفظة إلى عثمان بن عفان، قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وكان يقال: السلطان القاهر وإن كان ظالماً خيراً للرعية وللملك من السلطان الضعيف وإن كان عادلاً. وقال الله سبحانه "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"، قالوا في تفسيره: أراد السلطان. الأصل: وقال عليه السلام في صفة المؤمن: بشره في وجهه، وحزنه في قلبه. أوسع شيء صدرًا، وأذل شيء نفساً. يكره الرفعة، ويشنأ السمعة. طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور صبور. مغمور بفكرته، ضنين بخلته. سهل الخليفة، لين العريكة؛ نفسه أصلب من الصلد؛ وهو أذل من العبد. الشرح: هذه صفات العارفين، وقد تقدم كثير من القول في ذلك. وكان يقال: البشر عنوان النجاح، والأمر الذي يختص به العارف أن يكون بشره في وجهه وهو حزين وحزنه في قلبه، وإلا فالبشر قد يوجد في كثير من الناس. ثم ذكر أنه أوسع الناس صدرًا، وأذلهم نفسًا، وأنه يكره الرفعة والصيت. وجاء في الخبر في وصفهم: "كل حامل نوم". وطول الغم وبعد الهم من صفاتهم، وكذلك كثرة الصمت وشغل الوقت بالذكر والعبادة، وكذلك الشكر والصبر والاستغراق في الفكر وتدبر آيات الله تعالى في خلقه، والضم بالخلة وقلة المخالطة والتوفر على العزلة وحسن الخلق ولين الجانب، وأن يكون قوي النفس جدا، مع ذل للناس وتواضع بينهم؛ وهذه الأمور كلها قد أتى عليها الشرح فيما تقدم. الأصل: الغنى أكبر اليأس عما في أيدي الناس. الشرح: هذه الكلمة قد رويت مرفوعةً، وقد تقدم القول في الطمع وذمه، واليأس ومدحه.

وفي الحديث المرفوع: "أزهد في الناس يحبك الله، وأزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس". ومن كلام بعضهم: ما أكلت طعام واحد إلا هنت عليه، وكان يقال: نعوذ بالله من طمع يدي إلى طبع. وقال الشاعر:

أرحت روحي من عذاب الملاح لليأس روح مثل روح النجاح

وقال بعض الأدباء: هذا المعنى الذي أطنب فيه الناس ليس كما يزعمونه، لعمرى إن لليأس راحة، ولكن لا كراحة النجاح، وما هو إلا كقول من قال: لا أدري نصف العلم، فقيل له: ولكنه النصف الذي لا ينفع! وقال ابن الفضل:

لا أمدح اليأس ولكنه أروح للقلب من المطمع

يرعى فلم يرع ولم يرتع

افلح من أبصر روض المنى

ومما يروى لعبد الله بن المبارك الزاهد:

من غدو ورواح

ووزير ذي سماح

وقنوع وصلاح

حاً لأبواب النجاح

قد أرحنا واسترحنا

واتصال بأمر

بعفاف وكفاف

وجعلنا اليأس مفتاً

الأصل: المسئول حر حتى يعد.

بعض ما قيل في الوعد والمطل،

الشرح : قد سبق القول في الوعد والمطل. ونحن نذكر هاهنا نكتاً أخرى: في الحديث المرفوع: "من وعد وعداً فكأنما عهد عهداً"، وكان يقال: الوعد دين الكرام، والمطل دين اللثام. وكان يقال: الوعد شبكة من شباك الأحرار يتصيدون بها المحامد.

وقال بعضهم: الوعد مرض المعروف، والإنجاز برؤه.

وقال يحيى بن خالد: الوعد سحاب، والإنجاز مطره.

وفي الحديث المرفوع "عدة المؤمن عطية". وعنه عليه السلام : "لا تواعد أخاك موعداً لتخلفه".

وقال يحيى بن خالد لبنيه: يا بني، كونوا أسداً في الأقوال، نجازاً في الأفعال، ولا تعدوا إلا وتنجزوا، فإن الحر يثق بوعد الكريم، وربما أداً عليه.

وكان جعفر بن يحيى يكره الوعد ويقول: الوعد من العاجز، فأما القادر فالتقدي.

وفي الحديث المرفوع: "مطل الغني ظلم".

وقال ابن الفضل:

واللؤم كل اللؤم مطل الموسر

اثروا ولم يقضوا ديون غريمهم

وقال الآخر:

فلا كانت وإن كانت سنيه

إذا أتت العطية بعد مطل

وكان يقال: المطل يسد على صاحبه باب العذر، ويوجب عليه الأحسن والأكثر، والتعجيل يحسن سيئة، ويسقط عذره في التقليل.

وقال يحيى بن خالد لبنيه: يا بني لا تمطلوا معروفكم، فإن كثير العطاء بعد المطل قليل، وعجلوا فإن عذرهم مقبول مع التعجيل.

ومن كلام الحسن بن سهل : المطل يذهب رونق البر، ويكدر صفو المعروف، ويحبط أجر الصدقة، ويعقل اللسان عن الشكر. وللتعجيل حلاوة وأن قلت العارفة ، ولذة وإن صغرت الصنعة، وربما عرض ما يمنع الإنجاز من تعذر الإمكان، وتغير الزمان، فبادر المكنة، وعاجل القدرة، وانتهاز الفرصة.

وقال الشاعر:

وأنت إذا فرغت تكون مثلي

تحيل على الفراغ قضاء شغلي

ولا تدعى بسيدنا الأجل

فلا ادعى بخادمك المرجى

وقال آخر:

لو علم الماثل أن المطال

وان أعلى البر ما ناله

عجل للسائل معرفه

فقد به يذهب طعم النوال

طالبه نقدا عقيب السؤال

مهناً من طول قيل وقال

الأصل: لو رأى العبد الأجل ومصيره، لأبغض الأمل وغروره.

الشرح: قد تقدم من الكلام في الأمل ما فيه كفاية، وكان يقال: وأعجبا لصاحب الأمل الطويل! وربما يكون كفه في يد النساج وهو لا يعلم.

الأصل: لكل أمرى في ماله شريكان: الوارث والحوادث.

الشرح: أخذه الرضي فقال:

جذ من تراثك ما استطعت فإنما

لم يقض حق المال إلا معشر

شركاؤك الأيام و الوراث

نظروا الزمان يعيث فيه فعائوا

وقد قال عليه السلام في موضع آخر: بشر مال البخيل بحادث أو وارث.

ورأيت بخط ابن الخشاب رحمه الله على ظهر كتاب لعبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ثم لحادث أو وارث، كأنه يعني ضنه به، أي لا أخرجه عن يدي اختياراً.

الأصل: الداعي بلا عمل، كالرامي بلا وتر.

الشرح: من خلا من العمل فقد أحل بالواجبات، ومن أحل بالواجبات فقد فسق، والله تعالى لا يقبل دعاء الفاسق، وشبهه عقنه بالرامي بلا وتر، فإن سهمه لا ينفذ .

الأصل: العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع، إذا لم يكن المطبوع.

الشرح: هذه قاعدة كلية مذكورة في الكتب الحكمية، إن العلوم منها ما هو غريزي، ومنها ما هو تكليفي، ثم كل واحد من القسمين يختلف بالأشد والأضعف، أما الأول فقد يكون في الناس من لا يحتاج في النظر إلى ترتيب المقدمات، بل تنساق النتيجة النظرية إليه سوقاً من غير احتياج منه إلى التأمل والتدبر، وقد يكون فيهم من هو دون ذلك، وقد يكون من هو دون الأول، وأما الثاني فقد يكون في الناس من لا يجدي فيه التعليم، بل يكون كالصخرة الجامدة بلادة وغبابة، ومنهم من يكون أقل تبلداً وجنوح ذهن من ذلك، ومنهم من يكون الوقفة عنده أقل، فيكون ذا حال متوسطة، وبالجملة فاستقراء أحوال الناس يشهد بصحة ذلك.

وقال عليه السلام : ليس ينفع المسموع، إذا لم يكن المطبوع، يقول: إذا لم يكن هناك أحوال استعداد لم ينفع الدرس

والتكرار، وقد شاهدنا مثل هذا في حق أشخاص كثيرة اشتغلوا بالعلم الدهر الأطول، فلم ينجع معهم العلاج، وفارقوا الدنيا وهم على الغريزة الأول في الساذجية وعدم الفهم.

الأصل: صواب الرأي بالدول يقبل لإقبالها، ويدبر بأدبارها .

الشرح: قال الصولي: اجتمع بنو برمك عند يحيى بن خالد في آخر دولتهم وهم يومئذ عشرة، فأداروا بينهم الرأي في أمر فلم يصلح لهم، فقال يحيى: إنا لله " ذهب والله دولتنا! كنا في إقبالنا يرم الواحد منا عشرة آراء مشكلة في وقت واحد، واليوم نحن عشرة في أمر غير مشكل، ولا يصح لنا فيه رأي " نسأل الله حسن الخاتمة.

أرسل المنصور لما هاضمه أمر إبراهيم إلى عمه عبد الله بن علي وهو في السجن يستشيريه ما يصنع! وكان إبراهيم قد ظهر بالبصرة، فقال عبد الله: أنا محبوب، والمحبوس محبوب الرأي، قال له: فعلى ذاك؛ قال يفرق الأموال كلها على الرجال ويلقاه، فإن ظفر فذاك، وإلا يتوجه إلى أبيه محمد بجرجان، ويتركه يقدم على بيوت أموال فارغة، فهو خير له من أن تكون الدبرة عليه، ويقدم عدوه على بيوت أموال مملوءة.

قال سليمان بن عبد الملك ليزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج يوماً: لعن الله رجلاً أجرك رسنه، وخرب لك آخرته، قال: يا أمير المؤمنين، رأيتني والأمر عني مدبر ولو رأيتني والأمر علي مقبل لاستكبرت مني ما استصغرت، ولا استعظمت مني ما استحققت.

الأصل: العفاف زينة الفقير، والشكر زينة الغني.

الشرح: قد سبق القول في أن الأجل بالفقير أن يكون عفيفاً، وألا يكون جشعاً حريصاً، ولا جاداً في الطلب متهالكا، وأنه ينبغي أنه إذا افتقر أن يتيه على الوقت وأبناء الوقت، فإن التيه في مثل ذلك المقام لا بأس به، ليبعد جداً عن نظنة الحرص والطمع.

وقد سبق أيضاً القول في الشكر عند النعمة ووجوب، وأنه سبب لاستدامها، وأن الإحلال به داعية إلى زوالها وانتقالها، وذكرنا في هذا الباب أموراً مستحسنة، فلتراجع، وقال عبد الصمد بن المعدل في العفاف:

وليس غنى النفس حوز الجزيل

ولا أستعد لذم البخيل

تحل العزيز محل الذليل

من ليس مستغنيا بالقليل

سأقني العفاف وأرضى الكفاف

ولا أتصدى لشكر الجواد

وأعلم أن بنات الرجاء

وأن ليس مستغنيا بالكثير

الأصل: يوم العدل على الظالم، أشد من يوم الجور على المظلوم.

الشرح: شيثان مؤلمان: أحدهما ينقضني سريعاً، والآخر يدوم أبداً، فلا جرم، كان اليوم المذكور على الظالم، أشد من يوم الجور على المظلوم.

الأصل: الأقاويل محفوظة، والسرائر مبلوة و ماله " كل نفس بما كسبت رهينة"، و الناس منقوصون مدخولون إلا من عصم الله، سائلهم متعنت، و مجيبهم فتكلف، يكاد أفضلهم رأياً يرده عن فضل رأيه الرضا والسخط، ويكاد أصلبهم عوداً تنكؤه اللحظة، و تستحيله الكلمة الواحدة.

الشرح: السرائر هاهنا: ما أسر في القلوب من النيات والعقائد وغيرها، وما يخفي من أعمال الجوارح أيضاً. وبلاؤها:

تعرفها وتصفحها، والتميز بين ما طاب منها وما خبث.

وقال عمر بن عبد العزيز للأحوص لما قال:

سريرة حب يوم تبلى السرائر

ستبلى لها في مضمرة القلب والحشا

إنك يومئذ عنها لمشغول.

ذكر عليه السلام الناس فقال: قد عمهم النقص إلا المعصومين. ثم قال: سائلهم يسأل تعنتاً، والسؤال على هذا الوجه مذموم، و مجيبهم متكلف للجواب، وأفضلهم رأياً يكاد رضاه تارة وسخطه أخرى يرده عن فضل رأيه، أي يتبعون الهوى ويكاد أصلبهم عوداً، أي أشدهم احتمالاً، تنكؤه اللحظة، نكأت القرحة إذا صدمتها بشيء فتقشرها. قال: "و تستحيله الكلمة الواحدة"، أي تحيله وتغيره عن مقتضى طبعه، يصفهم بسرعة القلب والتلون، وأنهم مطيعون دواعي الشهوة والغضب. و أستفعل بمعنى "فعل قد جاء كثيراً استغلظ العسل، أي غلظ. الأصل : قال: معاشر الناس، اتقوا الله، فكم من مؤمل ما لا يبلغه، وبان ما لا يسكنه، وجامع ما سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه، أصابه حراماً، وأحتمل به آثاماً، فباء بوزره، وقدم على ربه، آسفاً لاهفاً، قد خسر الدنيا والأخرة ذلك هو الخسران المبين.

الشرح: قد تقدم شرح هذه المعاني والكلام عليها، أما الآمال التي لا تبلغ، فأكثر من أن تحصى، بل لا نهاية لها، وما أحسن قول القائل:

وللحظوظ كما للناس آجال

وحسرتا مات حظي من وصالكم

كم تحت هذي القبور الخرس آمال !

إن مت شوقاً ولم أبلغ مدى أمني

وأما بناء ما لا يسكن، فنحو ذلك، وقال الشاعر:

بناء نفعه لبني نفيله

ألم تر حوشباً بالأمس بيني

وأمر الله يطرق كل ليله

يؤمل أن يعمر عمر نوح

وأما جامع ما سوف يتركه، فأكثر الناس، قال الشاعر:

أخو تعب في رعيها ودعوب

وذي إبل يسعى ويحسبها له

وبدل أحجارا وجال قليب

غدت وغدا رب سواه يسوقها

الأصل : من العصمة تعذر المعاصي.

الشرح: قد وردت هذه الكلمة على صيغ مختلفة. من العصمة ألا تقدر. وأيضاً، من العصمة ألا تجدد.

وقد رويت مرفوعة أيضاً، وليس المراد بالعصمة هاهنا العصمة التي ذكرها المتكلمون، لأن العصمة عند المتكلمين من شرطها القدرة، وحقيقتها راجعة إلى لطف يمنع القادر على المعصية من المعصية، إنما المراد أن غير القادر في اندفاع العقوبة عنه كالقادر الذي لا يفعل.

الأصل : ماء وجهك جامد، يقطره السؤال، فانظر عند من تقطره.

الشرح: هذا حسن، وقد أخذه شاعر فقال:

كفتك القناعة شبعاً ورياً

إذا أظمأتك أكف اللئام

وهامة همته في الثريا

فكن رجلاً رجله في الثرى

ة دون إراقة ماء المحيا

فإن إراقة ماء الحيا

وقال آخر:

رد الصقال بهاء الصارم الجذم

رددت لي ماء وجهي في صفيحته

حقنت لي ماء وجهي أو حقنت دمي

وما أبالي وخير القول أصدقه

وقال مصعب بن الزبير: أني لأستحي من رجل وجهه إلي رغبته، فبات ليلته يتململ ويتقلقل على فراشه، ينتظر الصباح، قد جعلني أهلاً لأن يقطر ماء وجهه لدي أن أردته خائباً.

وقال آخر:

من ماء وجهي إذا استقطرته عوض

ما ماء كفيك إن أرسلت مزنته

الأصل : الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد.

الشرح: كانوا يكرهون أن يثني الشاعر في شعره على الممدوح الثناء المفرط، ويقولون: خير المدح ما قارب فيه الشاعر واقتصد، وهذا هو المذهب الصحيح، وإن كان قوم يقولون: إن خير الشعر المنظوم في المدح ما كان أشد مغالاة وأكثر تبجيلاً وتعظيماً ووصفاً ونعتاً.

وينبغي أن يكون قوله عليه السلام محمولاً على الثناء في وجه الإنسان، لأنه هو الموصوف بالملق إذا أفرط، فأما من يثني بظهر الغيب فلا يوصف ثناؤه بالملق، سواء كان مقتصداً أو مسرفاً.

وقوله عليه السلام: "والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد" لا مزيد عليه في الحسن، لأنه إذا قصر به عن استحقاقه كان المانع إما من جانب المثنى فقط من غير تعلق له بالمثنى عليه، أو مع تعلق به، فالأول هو العي والحصر، والثاني هو الحسد والمنافسة.

الأصل: أشد الذنوب ما استهان به صاحبه.

الشرح: قد ذكرنا هذا فيما تقدم وذكرنا العلة فيه، وهي أن فاعل ذلك الذنب قد جمع بين فعل الذنب وفعل ذنب آخر، وهو الاستهانة بما لا يستهان به، لأن المعاصي لاهين فيها، والصغير منها كبير، والحقير منها عظيم، وذلك لجلالة شأن المعصية سبحانه.

فأما من يذنب يستعظم ما أتاه، فحاله أخف من حال الأول، لأنه يكاد يكون نادماً.

الأصل: من نظر في عيب نفسه أشغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاتته، ومن سل سيف البغي

قتل به، ومن كابد الأمور عطب، ومن أقتحم ألجج غرق، ومن دخل مداخل سوء أتهم، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعة، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار، ومن نظر في عيوب غيره فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك الأحق بعينه. والقناعة مال لا ينفد، ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

الشرح: كل هذه الفصول قد تقدم الكلام فيها وهي عشرة: أولها: من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره؛ كان يقال: أصلح نفسك أولاً، ثم أصلح غيرك.

وثانيها: من رضي برزق الله لم يحزن على ما فاتته؛ كان يقال: الحزن على المنافع الدنيوية سم ترياقه الرضا بالقضاء.

وثالثها: من سل سيف البغي قتل به؛ كان يقال: الباغي مصروع وإن كثر جنوده.

ورابعها: من كابد الأمور عطب، ومن اقتحم ألجج غرق؛ مثل هذا قول القائل:

من حارب الأيام أصبح رمحه قصداً وأصبح سيفه مفلولا

وخامسها: من دخل مداخل سوء أتهم؛ هذا مثل قولهم: من عرض نفسه للشبهات فلا يلو من من أساء به الظن. وسادسها: من كثر كلامه... إلى قوله: دخل النار؛ قد تقدم القول في المنطق الزائد وما فيه من المحذور؛ وكان يقال: قلما سلم مكثراً، أو آمن من عثار.

وسابعها: من نظر في عيوب غيره فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذاك هو الأحق بعينه؛ وكان يقال: أجهل الناس من يرضى لنفسه بما يسخطه من غيره.

وثامنها: القناعة مال لا ينفد؛ قد سبق القول في هذا، وسيأتي أيضاً.

وتاسعها: من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير؛ كان يقال: إذا أحببت أل أتخذ أحداً فأكثر ذكر الموت، واعلم أنك ومن تحسده عن قليل من عديد الملوك.

وعاشرها: من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه؛ لا ريب أن الكلام عمل من الأعمال، وفعل من الأفعال، فكما يستهجن من الإنسان ألا يزال يحرك يده وإن كان عابثاً، كذلك يستهجن ألا يزال يحرك لسانه فيما هو عبث، أو يجري مجرى العبث، وقال الشاعر:

يخوض أناس في الكلام ليوجزوا وللصمت في بعض الأحايين أوجز

إذا كنت عن أن تحسن الصمت عاجزاً فأنت عن الإبلاغ في القول أعجز

الأصل: للظالم من الرجال ثلاث علامات:

يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظهر القوم الظلمة.

الشرح: يمكن أن يفسر هذا الكلام على وجهين: أحدهما أن كل من وجدت فيه إحدى هذه الثلاث فهو ظالم، إما أن يكون قد وجبت عليه طاعة من فوقه فعصاه، فهو بعصيانته ظالم له، لأنه قد وضعه في غير موضعه، الظلم في أصل اللغة؛ هو هذا المعنى، ولذلك سماوا اللبن يشرب قبل أن يبلغ الروب مظلوماً، لأن الشرب منه كان في غير موضعه إذا لم يرب ولم

يخرج زبده، فكذلك من عمى من فوقه فقد زحزحه عن مقامه إذا لم يطعه. وإما أن يكون قد قهر من دونه وغلبه. وإما أن يكون قد ظاهر الظلمة.

والوجه الثاني أن كل ظالم فلا بد من اجتماع هذه العلامات الثلاث فيه؛ وهذا هو الأظهر.

الأصل: عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء.

الشرح: كان يقال: إذا اشتد المضيق، اتسعت الطريق، وكان يقال: توقعوا الفرج عند آرتاج المخرج، وقال الشاعر:

فرج بعيدها الفرج المطلاً

وكم خطب تجلى حين جلى

إذا بلغ الحوادث منتهاها

فكم كرب تولى إذ توالى

وفي الأثر: تضايقي تنفجني، سيجعل الله بعد العسر يسراً.

والفرجة بفتح الفاء: التفصي من المهم، قال الشاعر:

رله فرجة كحل العقال

ربما تجزع النفوس من الأه

فأما الفرجة بالضم، ففرجة الحائط وما أشبهه.

الأصل: وقال عليه السلام لبعض أصحابه: "لا تجعل كثير شغلِكَ بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن

الله لا يضيع أوليائه، وإن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلِكَ بأعداء الله!"

الشرح: تقدم القول نحو هذا المعنى، وهو أمر بالتفويضي والتوكل على الله تعالى فيمن يخففه الإنسان من ولده وأهله، فإن

الله تعالى أعلم بالمصلحة، وأرأف بالإنسان من أبيه وأمه؛ ثم إن كان الولد في علم الله تعالى ولياً من أولياء الله سبحانه،

فإن الله تعالى لا يضيعه، قال سبحانه: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه".

وكل ولي لله فهو متوكل عليه لا محالة، وإن كان عدواً لله لم يجز الاهتمام له والاعتناء بأمره، لأن أعداء الله تحب

مقاطعتهم، ويحرم توليهم، فعلى كل حال لا ينبغي للإنسان أن يحفل بأهله وولده بعد موته.

واعلم أن هذا كلام العارفين الصديقين، لا كلام أهل هذه الطبقات التي نعرفها، فإن هذه الطبقات تقصر أقدامهم عن

الوصول إلى هذا المقام، ويعجبني قول الشاعر:

لغيرك إذ لم تكن خالداً

فقد يسبق الولد الوالداً

فكن من تصاريفه واحد

أي جامع المال وفرته

فإن قلت: أجمعه للبنين

وإن قلت أخشى صروف الزمان

الأصل: كبر العيب أن تعيب ما فيك مثله.

الشرح: قد تقدم هذا المعنى مراراً، وقال الشاعر:

فأنت ومن تزري عليه سواء

إذا أنت عبت الأمر ثم أتيت

الأصل: وهناً بحضرته رجل رجلاً آخر بغيلاً ولد له فقال له: ليهنئك الفارس! فقال عليه السلام: لا تقل ذلك، ولكن قل:

شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، وبلغ أشده، ورزقت به.

الشرح: هذه كلمة كانت من شعار الجاهلية، فنهى عنها كما نهى عن تحية الجاهلية: "أبيت اللعن"، وجعل عوضها "سلام عليكم".

وقال رجل للحسن البصري وقد بشره بغلام: ليهنتك الفارس! فقال: بل الراجل، ثم قال: لا مرحباً بمن إن عاش كدني، ! أن مات هدي، وإن كنت مقلاً أنصبي، وإن كنت غنياً أذهلي، ثم لا أرضى بسعي له سعيًا، ولا بكدي عليه في الحياة كدا، حتى أشفق عليه بعد موتي من الفاقة، وأنا في حال لا يصل إلي من فرحه سرور، ولا من همه حزن. الأصل: وبني رجل من عماله بناء فخماً فقال عليه السلام:

أطلعت الورق رؤوسها؛ إن البناء يصف لك الغنى .

الشرح: قد رويت هذه الكلمة عن عمر - رضي الله عنه - ذكر ذلك ابن قتيبة "عيون الأخبار"، وروي عنه أيضاً: لي على كل خائن أمينان: الماء والطين.

قال يحمى بن خالد لابنه جعفر حين اختط داره ببغداد لبينها: هي قميصك، فإن شئت فوسعه، وإن شئت فضيقه، ورآه وهو يخصص حيطان داره المبنية بالأجر، فقال له: إنك تغطي الذهب بالفضة، فقال جعفر: ليس في كل مكان يكون الذهب خيراً من الفضة، ولكن هل ترى عيباً؟ قال: نعم، مخالطتها دور السوق. وقيل ليزيد بن المهلب، ألا بيني الأمير داراً، فقال: متزلي دار الإمارة أو الحبس. وكان يقال، في الدار: لتكن أول ما يتتاع وآخر ما تباع.

ومر رجل من الخوارج بأخر من أصحابهم وهو بيني داراً فقال: من ذا الذي يقيم كفيلاً. وقالوا: كل ما يخرج بخروجك، ويرجع برجوعك، كالدار والنخل ونحوهما فهو كفيل.

الأصل: وقيل له عليه السلام: لو سد على رجل باب بيت وترك فيه، من أين كان يأتيه رزقه؛ فقال عليه السلام، من حيث يأتيه أجله.

الشرح: ليس يعني عليه السلام أن كل من يسد عليه باب بيت؛ فإنه لا بد أن يرزقه الله تعالى، لأن العيان والمشاهدة تقتضي خلاف ذلك؛ وما رأينا من سد عليه باب بيت مدة طويلة فعاش، ولا ريب أن من شق أسطوانة وجعل فيها حيا ثم بنيت الأسطوانة عليه فإنه يموت محتقناً، ولا يأتيه رزقه ولا حياته؛ ولأن للحكماء أن يقولوا في الفرق بين الموضعين: إن أجله إنما يأتيه لأن الأجل عدم الحياة، والحياة لعدم ما يوجبها، والذي يوجب استمرارها الغذاء، فلما انقطع الغذاء حضر الأجل، فهذا هو الوجه الذي يأتيه منه أجله، ولا سبيل إلى ذكر مثله في حضور الرزق لمن يسد عليه الباب.

فإذا معنى كلامه عليه السلام أن الله تعالى إذا علم فيمن يجعل في دار ويسد عليه بابها أن في بقاء حياته لطفاً لبعض المكلفين فإنه يجب على الله تعالى أن يديم حياته، كما يشاء سبحانه؛ إما بغذاء يقيم به مادة حياته، أو يديم حياته بغير سبب، وهذا هو الوجه الذي منه يأتيه أجله أيضاً، لأن إماتة الله المكلف أمر تابع للمصلحة، لأنه لا بد من انقطاع التكليف على كل حال للوجه الذي يذكره أصحابنا في كتبهم، فإذا كان الموت تابعا للمصلحة، وكان الإحياء تابعا

للمصلحة، فقد أتى الإنسان رزقه - يعني حياته - من حيث يأتيه أجله. وانتظم الكلام.
الأصل: وعزى قوماً عن ميت مات لهم فقال عليه السلام: إن هذا الأمر ليسر بكم بدأ، ولا إليكم انتهى، وقد كان صاحبكم هذا يسافر؛ فقالوا: نعم؛ قال: فعدوه في بعض سفراته، فإن قدم عليكم وإلا قدمتم عليه.
الشرح: قد ألم إبراهيم بن المهدي ببعض هذا في شعره الذي رثى به ولده فقال:

يئوب إلى أوطانه كل غائب
وأحمد في الغياب ليس يئوب
تبدل داراً غير داري وجيرة
سواي وأحداث الزمان تنوب
أقام بها مستوطناً غير أنه
على طول أيام المقام غريب
وإني وإن قدمت قبلي لعالم
بأنني وإن أبطأت عنك قريب
وإن صباحاً نلتقي في مسائه
صباح إلى قلبي الغداة حبيب

الأصل: أيها الناس، ليركم الله من النعمة، وجلين، كما يراكم من النعمة فرقين. إنه من وسع عليه في ذات يده، فلم ير ذلك استدراجاً، فقد أمن مخوفاً، ومن ضيق عليه في ذات يده، فلم ير ذلك اختباراً، فقد ضيع مأمولاً.
الشرح: قد تقدم القول في استدراج المترف الغني، واختبار الفقير الشقي، وأنه يجب على الإنسان وإن كان مشمولاً بالنعمة أن يكون وجلاً، كما يجب عليه إذا كان فقيراً أن يكون شكوراً صبوراً.
الأصل: يا أسرى الرغبة، اقصروا، فإن المعرج على الدنيا لا يروعه منها إلا صريف أنياب الحدثان، أيها الناس؛ تولوا عن أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراية عاداتها .
الشرح: تضرى يضرى ضراية مثل رمى يرمى رماية، أي جرى وسال!، ذكره ابن الأعرابي، وعليه ينبغي أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ أي اعدلوا بها عن عاداتها الجارية، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وهذا خير من تفسير الراوندي؛ وقوله: إنه من ضري الكلب بالصيد؛ لأن المصدر من ذلك الضراوة بالواو وفتح الضاد، ولم يأت فيه ضراية. وقوله: "يا أسرى الرغبة" كلمة فصيحة.
وكذلك قوله: "لا يروعه منها إلا صريف أنياب الحدثان"، وذلك لأن الفهد إذا وثب والذئب إذا حمل يصرف نابه، ويقولون لكل خطب وداهية: جاءت تصرف ناهها. و الصريف: صوت الأسنان إما عند رعدة أو عند شدة الغضب والحنق، والحرص على الانتقام، أو نحو ذلك.
وقد تقدم الكلام في الدنيا والرغبة فيها، وغدرها وحوادثها، ووجوب العدول عنها، وكسر عاداته السوء المكتسبة فيها.

الأصل: لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً.
الشرح: هذه الكلمة يرويها كثير من الناس لعمر بن الخطاب، ويرويها بعضهم لأمر المؤمنين عليه السلام. وكان ثامة يحدث بسؤدد يحمي بن خالد وابنه جعفر. ويقول: إن الرشيد نكب على بن عيسى بن ماهان وألزمه مائة ألف دينار أذى منها خمسين ألفاً، ويلح بالباقي، فأقسم الرشيد إن لم يؤد المال في بقية هذا اليوم وإلا قتله. وكان علي بن عيسى عدواً

للبرامكة مكاشفاً، فلما علم أنه مقتول سأل أن يمكن من السعي إلى الناس ستنجدهم، ففسح له في ذلك، فمضى ومعه وكيل الرشيد وأعوانه إلى باب يحيى وجعفر، فأشبلا عليه وصححا من صلب أموالهما خمسين ألف دينار في باقي نهار ذلك اليوم بديوان الرشيد باسم علي بن عيسى، واستخلصاه؛ فنقل بعض المنتصحين لهما إليهما أن في بن عيسى قال في آخر نهار ذلك اليوم متمثلاً:

فما بقيا في تركتmani

ولكن خفتما صرد النبال

فقال يحيى للناقل إليه ذلك: يا هذا إن المرعوب ليسبق لسانه إلى ما لم يخطر بقلبه. وقال جعفر: ومن أين لنا أنه تمثل بذلك وعناناً، ولعله أراد أمراً آخر فكان ثامة يقول: ما في الأرض أسي من رجل يتأول كلام عدوه فيه ويحمله على أحسن محامله، وقال الشاعر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة

فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

الأصل: إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة فابداً بمسألة الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم سل حاجتك؛ فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين، فيقضي إحداها ويمنع الأخرى.

الشرح: هذا الكلام على حسب الظاهر الذي بتعارفه الناس بينهم، وهو عليه السلام يسلك هذا المسلك كثيراً، ويخاطب الناس على قدر عقولهم، وأما باطن الأمر فإن الله تعالى لا يصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأجل دعائنا إياه أن يصلي عليه، لأن معنى قولنا: اللهم صل على محمد، أي أكرمه، وارفح درجته، والله سبحانه قد قضى له بالإكرام التام ورفعة الدرجة من دون دعائنا، وإنما تعبدنا نحن بأن نصلي عليه لأن لنا ثواباً في ذلك، لا لأن إكرام الله تعالى له أمرى ستعقبه وستستبعه دعاؤنا.

وأيضاً فأى غضاضة على الكريم إذا سئل حاجتين فقضى إحداها دون الأخرى، إن كان عليه في ذلك غضاضة فعليه في رد الحاجة الواحدة غضاضة أيضاً.

الأصل: من ضن بعرضه فليدع المراء.

الشرح: قد تقدم من القول في المراء ما فيه كفاية، وحد المراء الجدال المتصل لا يقصد به الحق.

وقيل لميمون بن مهران: مالك لا تفارق أحاً لك عن قلبي؛ قال: لأني لا أشاركه ولا أماريه، وكان يقال: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله تعالى إلا بالمراء والإصرار في الجدال على نصرة الباطل.

وقال سفيان الثوري: إذا رأيتم الرجل لجوجاً مमारياً معجباً بنفسه فقد تمت خسارته.

الأصل: من الخرق المعالجة قبل الإمكان، والأناة بعد الفرصة.

الشرح: قد تقدم القول في هذين المعنيين.

ومن كلام ابن المعتز: إهمال الفرصة حتى تفوت عجز، والعجلة قبل التمكن حرق.

وقد جعل أمير المؤمنين عليه السلام كلتا الحالتين خرقاً؛ وهو صحيح، لأن الخرق الحمق، وقلة العقل، وكلتا الحالتين دليل على الحمق والنقص.

الأصل: لا تسأل عما لم يكن، ففي الذي قد كان لك شغل.

الشرح: من هذا الباب قول أبي الطيب في سيف الدولة :

فمن كليب وأهل الأعصر الأول!

ليس المدائح تستوفي مناقبه

به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت

الأصل: الفكر مرآة صافية، والاعتبار منذر ناصح، وكفي أدباً لنفسك تجنبك ما كرهته لغيرك.

الشرح: قد تقدم القول في نحو هذا، وفي المثل: كفي بالاعتبار منذراً، وكفي بالشيب زاجراً، وكفي بالموت واعظاً، وقد

سبق القول في وجوب تجنب الإنسان ما يكرهه من غيره.

وقال بعض الحكماء: إذا أحببت أخلاق امرئ فكنه، وإن أبغضتها فلا تكنه. أخذه شاعرهم فقال:

فكنه يكن منك ما يعجبك

إذا أعجبتك خصال امرئ

إذا جئتها حاجب يحجبك

فليس على المجد و المكرمات

الأصل: العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجب وإلا أرتحل عنه.

الشرح: لا خير في علم بل عمل، والعلم بغير العمل حجة على صاحبه، كلام أمير المؤمنين عليه السلام يشعر بأنه لا

عالم إلا وهو عامل، ومراده بالعلم هاهنا العرفان، ولا ريب أن العارف لا بد أن يكون عاملاً.

ثم استأنف فقال: العلم يهتف بالعمل أي يناديه، وهذه اللفظة استعارة.

قال: فإن أجابه وإلا ارتحل، أي إن كان الإنسان عالماً بالأمر الدينية ثم لم يعمل بما سلبه الله تعالى علمه، ولم يمت إلا

وهو معدود في زمرة الجاهلين، ويمكن أن يفسر على أنه أراد بقوله: ارتحل ارتحلت ثمرته ونتيجته، وهي الثواب، فإن الله

تعالى لا يثيب المكلف على علمه بالشرائع إذا لم يعمل بها، لأن إخلاله بالعمل يحبط ما يستحقه من ثواب العلم لو قدرنا

أنه استحق على العلم ثواباً، واق به على الشرائط التي معها يستحق الثواب.

الأصل: أيها الناس متاع الدنيا حطام موبىء، فتجنبوا مرعاة قلعتها أحظى من طمأنينتها، وبلغنها أركى من ثروتها، حكم

على مكثريها بالفاقة، وأغني من غني عنها بالراحة، من راقه زبرجها أعقت ناظريه كمها، ومن أستشعر الشغف بها

ملأت ضميره أشجاناً، لمن رقص على سويداء قلبه، هم يشغله وغم يحزنه ، حتى يؤخذ بكظمه فيلقى بالفضاء، منقطعاً

أبهره، هينا على الله فناؤه، وعلى الإخوان إلقاؤه.

وإنما ينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار، ويقتات منها ببطن الاضطراب، ويسمع فيها بأذن المقت والإبغاض، إن قيل أثرى

قيل كدي، وإن فرح له بالبقاء حزن له بالفناء، هذا ولم يأثم يوم هم فيه مبلسون .

الشرح: متاع الدنيا: أموالها وقنياتها، والحطام: ما تكسر من الحشيش و اليبس، وشبه متاع الدنيا بذلك لحقارتها، وموبىء:

محدث للوباء، وهو المرض العام، ومرعاه: بقعة ترعى، كقولك مأسدة فيها الأسد، ومحياة، فيها الحيات، وقلعتها بسكون

اللام، خير من طمأنينتها: أي كون الإنسان فيها مترعجاً متهيئاً للرحيل عنها خير له من أن يكون ساكناً إليها، مطمئناً

بالمقام فيها.

و البلغة: ما يتبلغ به. الثروة: اليسار والغنى، وإنما حكم على مكثريها بالفاقة والفقر لأنهم لا ينتهون إلى حد من الثروة والمال إلا وجدوا واجتهدوا، وحرصوا في طلب الزيادة عليه، فهم في كل أحوالهم فقراء إلى تحصيل المال، كما أن من لا مال له أصلاً يجد ويجتهد في تحصيل المال، بل ربما كان جدهم وحرصهم على ذلك أعظم من كدح الفقير وحرصه، وروى: "واعين من غني عنها" ومن رواه "أغنى أي أغنى الله من غني عنها وزهد فيها بالراحة وخلو البال وعدم الهم والغم.

والزبرج: الزينة، وراقه: أعجبه، والكمه: العمى الشديد، وقيل: هو أن يولد أعمى، والأشجان: الأحران، والرقص بفتح القاف، الاضطراب والغليان والحركة، والكظم بفتح الظاء: مجرى النفس، والأهمران: عرقان متصلان بالقلب، ويقال للميت: قد انقطع أهره.

قوله: "وإنما ينظر المؤمن": إخبار في الصورة، وأمر في المعنى، أي لينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار، وليأكل منها بطن الاضطراب، أي قدر الضرورة، لا احتكار أو استكثار، وليسمع حديثها بأذن المقت والبغض، أي ليتخذها عدواً قد صاحبه في طريق، فليأخذ حذره منه جهده وطاقته، وليسمع كلامه وحديثه لا استماع مصغ ومحب وامق، بل استماع مبغض محترز من غائلته.

ثم عاد إلى وصف الدنيا وطالبها فقال: إن قيل أثرى قيل: أكدي، وفاعل أثرى هو الضمير العائد إلى من استشعر الشغل بها. يقول: بينا يقال: أثرى قيل: افتقر، لأن هذه صفة الدنيا في قلبها بأهلها، وإن فرح له بالحياة ودوامها، قيل: مات وعدم، هذا ولم يأتهم يوم القيامة يوم هم فيه ملبسون، ألبس الرجل يلبس إلباساً أي قنط ويتس، واللفظ من لفظات الكتاب العزيز.

بعض ما قيل في حال الدنيا وصروفها

وقد ذكرنا من حال الدنيا وصر وفها وغدورها بأهلها فيما تقدم أبواباً كثيرة نافعة، ونحن نذكر هاهنا زيادة على ذلك. فمن كلام الحكماء: ويل لصاحب الدنيا، كيف يموت ويتركها، وتغره و يأ منها وتخذله ويثق بها! ويل للمغتربين، كيف أرهقهم ما يكرهون، وفاهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون! ويل لمن الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غداً بذنبه. وروى أنس قال: كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي بناقة له فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "حق على الله ألا يرفع في الدنيا شيئاً إلا وضعه". وقال بعض الحكماء: من ذا الذي يبني على موج البحر داراً! تلکم الدنيا، فلا تتخذوها قراراً. وقيل للحكيم: علمنا عملاً واحداً إذا عملناه أحبنا الله عليه، فقال: ابغضوا الدنيا يحبكم الله. وقال! أبو الدرداء: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولهانت عليكم الدنيا، ولأثرتم الآخرة".

ثم قال أبو الجرداء من قبل نفسه: أيها الناس، لو تعلمون ما اعلم لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أنفسكم، ولتركتكم أموالكم لا حارس لها، ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه، ولكن غاب عن قلوبكم ذكر الآخرة، وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرت كالأذين لا يعلمون، فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها، ما لكم لا تحابون ولا تناصحون في أموركم، وأنتم إخوان على دين واحد، ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم، ما لكم لا تناصحون في أموركم، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم، ولو كنتم توقنون بأمر الآخرة كما توقنون بالدنيا لأثرتم طلب الآخرة، فإن قلتم حب العاجلة غالب، فأنا نراكم تدعون العاجل من الدنيا للآجل منها، ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم، ويظهر على ألسنتكم، وتسمونها المصائب، وتقيمونها فيها المآثم، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوههم، ولا تتغير حال بهم، يلقي بعضهم بعضا بالمسرة، ويكره كل منكم أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله، فاصطحبتم على الغل، وبنيتم مراعيكم على الدمن، وتصافيتم على رفض الأجل، أراحني الله منكم، و أرحني بمن احب رؤيته.

وقال حكيم لأصحابه: ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا. وقيل في معناه:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما أس تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وفي الحديث المرفوع: "ليأتينكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب".

وقال الحسن رحمه الله: أدركت أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم ركضوا خفافاً.

وقال أيضاً: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره.

وقال الفضيل: طالت فكرتي في هذه الآية: "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً، وإنا فجاجلون ما عليها صعيدا جرزا".

ومن كلام بعض الحكماء: لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك ويكون له أهل من بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة، وغداء يوم، فلا تهلك نفسك في أكلة، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، فإن رأس مال الدنيا الهوى، ورجحها النار.

وقيل لبعض الرهبان: كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان، ويجدد الآمال، ويقرب المنية، ويباعد الأمنية.

قيل: فما حال أهله؟ قال من ظفر به تعب، ومن فاته اكتأب. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمرى عن قليل يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، ولست أسكن إليها، فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة، أو ببليّة نازلة، أو ميتة قاضية. وقال بعضهم: من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحق، إما أن تزيد له، وأما أن تنقص.

وقال سفيان الثوري: أما ترون النعم كأنها مغضوب عليها، قد وضعت في غير أهلها.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً، فإنه يجيء في طلبك حتى يأخذك.

وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والأخرة من خزف يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى! وقال بعضهم: ما أصبح أحد في الدنيا إلا وهو ضيف، ولا شبهة في أن الضيف مرتحل، وما أصبح ذو مال فيها إلا وماله عارية عنده، ولا ريب أن العارية مردودة، ومثل هذا قول الشاعر :

ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وما المال والأهلون إلا ودیعة

وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت؛ فأنشد:

فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع

نرفع ديننا بتمزيق ديننا

وزار رابعة العدوية أصحابها، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها وكفوا، فلولا موقعها في قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، إن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وقال فطرف بن الشخير: لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك، ولين رياشهم، ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم، وسوء منقلبهم. قال الشاعر:

ونال من الدنيا سوراً وأنغما

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره

فلما استوى ما قد بناه تهدما

كبان بنى بنيانه فأقامه

وقال أبو العتاهية:

اذل الحرص أعناق الرجال

تعالى الله يا سلم بن عمرو

أليس مصير ذاك إلى الزوال !

هب الدنيا تساق إليك عفوا

أظلك ثم آذن بانتقال

وما دنياك إلا مثل فيء

وقاد بعضهم: الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرّة الكلاب.

وقال أبو إمامة الباهلي: لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أتت إبليس جنوده وقالوا: قد بعث نبي وجددت ملة وأمة، فقال: كيف حالهم؟ أيجبون الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: إن كانوا يجونها فلا أبالي ألا يعبدوا الأصنام، فإنما أغدو عليهم أروح بثلاث. أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، لإمساكه عن حقه، والشر كله لهذه الثلاث نبع.

وكان مالك بن دينار يقول: اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا.

وقال أبو سليمان الرازي: إذا كانت الأخرة في القلب جاءت الدنيا فزاحمتها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها

الأخرة، لأن الأخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الأخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للأخرة يخرج هم الدنيا من قلبك. وهذا مقتبس من قول أمير المؤمنين عليه السلام: الدنيا والأخرة ضربتان: فبقدر ما ترضي إحداها تسخط الأخرى، وقال الشاعر:

تتخ عن خطبتها تسلم

يا خاطب الدنيا إلى نفسها

قريبة العرس من المأتم

إن التي تخطب غداره

وقالوا: لو وصفت الدنيا نفسها لما قالت أحسن من قول أبي نواس فيها:

له عن عدو في ثياب صديق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

ومن كلام الشافعي يعظ أحبا له: يا أخي، إن الدنيا دحض مزلة، ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب سائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إفسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله، وارض برزق الله، ولا تستلف من دار بقائك في دار فنائك، فإن عيشك في زائل، وجدار مائل. أكثر من عملك، وأقصر من املك.

وقال إبراهيم بن ادهم لرجل: أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال: دينار في اليقظة، فقال: كذبت إن الذي تحبه في الدنيا فكأنك تحبه في المنام، والذي تحبه في الأخرة فكأنك تحبه في اليقظة.

وقال بعض الحكماء: من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب.

وقال بعضهم: الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نجبها، فكيف لو تحببت إلينا! وقال بعضهم: الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها، والجنة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها.

وقال يحيى بن معاذ: العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال بعضهم: من أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا كان كفطفيء النار بالتبن.

ومن كلام بعض فصحاء الزهاد: أيها الناس اعملوا في مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل، ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا؛ فإنها غدارة غرارة خداعه، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيتها، وتزينت لخطاياها، فأضحت كالعروس المتحلية، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة. فكم من عاشق لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت! فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دار كثرت بوائقها، وذمها خالقها، جديدها ييلي، وملكها يفنى، وعزيزها يذل وكثيرها يقل، وحيها يموت، وخيرها يفوت؛ فاستيقظوا من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم، قبل أن يقال: فلان عليل، ومدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل، وهل إلى الطبيب من سبيل؛ فتدعى لك الأطباء، ولا يرجى لك الشفاء، ثم يقال: فلان أوصى، وماله أحصى، ثم يقال: قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه، ولا يعرف جيرانه، وعرق عند

ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك، وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان؛ منعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك القضاء، وانتزعت روحك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فأجتمع عند ذلك إخوانك، أحضرت أكفانك، فغسلوك وكفنوك، ثم حملوك فدفنوك، فانقطع عوادك، واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتقنا بأعمالك. وقال بعض الزهاد لبعض الملوك: إن أحق الناس بدم الدنيا وقلاها من بسط له فيها، أعطي حاجته منها، لأنه يتوقع آفة تغدو على ماله فتجتاحه، وعلى جمعه فتفرقه أو تأتي على سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدس إلى جسمه فتسقمه، أو تفجعه بشيء هو ضنين به من أحبابه، فالدنيا الأحق بالذام، وهي الآخذة ما تعطي، الراجعة فيما تهب؛ فبينا هي تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره، وبينا هي تبكي له إذ أبكت عليه، وبينا هي تبسط كفه بالإعطاء إذ بسطت كفها إليه بالاسترجاع والاسترداد، تعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره في التراب غدا، سواء عليها ذهاب من ذهب وبقاء من بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفا، وترضى بكل من كل بدلا.

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل إليها عقوبة فأحذرهما فإن الزاد منها ربحها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذلل من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمدأوي جراحه، يحمي قليلاً مخافة ما يكرهه طويلاً، ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول البلاء، فأحذر هذه الدنيا الغدارة المكاراة، الخثالة الخداعة، التي قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وتحلت بآمالها، وتشرفت لخطاياها، فأصبحت بينهم كالعروس تجلى على بعلها، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها وألمه، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مدكر، فمن عاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتر وطغى ونسى المعاد، وشغل بها لبه حتى زلت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت بألمه، وحسرات الفوت بغصته، ومن راغب فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يرح نفسه من التعب، خرج منها بغير زاد، وقدم على غير مهاد؛ فأحذرهما ثم أحذرهما، وكن ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، والसार منها لأهلها كار، والنافع منها في غد ضار، قد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها للفناء؛ فسرورها مشوب بالأحزان، ونعيمها مكار بالأشجان، لا يرجع ما ولى منها وأدبر، ولا يدري ما هو آت فينتظر، أمانيتها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، والإنسان فيها على خطر إن عقل ونظر، وهو من النعماء على غرر، ومن البلاء على حذر، لو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً، لكانت هي نفسها قد أيقظت النائم، ونهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عنها زاجر، وبتصاريفها واعظ، فما لها عند الله قدر، ولا نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، كره أن يخالف على الله أمره، أو يحب ما أبغضه خالقه، أو يرفع ما وضعه مليكه، زواها الرب سبحانه عن الصالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن المغرور بها، المقتدر عليها، أنه أكرم بها، وينسى ما صنع الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم "من شدة الحجر

على بطنه، وقد جاءت الرواية عنه عن ربه سبحانه أنه قال لموسى: إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين؛ وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى؛ كان يقول: آدمي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، وصفاتي في الشتاء مشارق الشمس، وسراجي القمر، ووسادي الحجر، ودابتي رجلاي، وفاكهي وطعامي ما أنبت الأرض، أبيت وليس لي شيء، وليس على الأرض أحد أغنى مني.

وفي بعض الكتب القديمة: إن الله تعالى لما بعث موسى وهارون عليه السلام إلى فرعون قال: لا يروعنكما لباسه الذي لبس من الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني، ولا يعجبكما ما متع به منها، فإن ذلك زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين، ولو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عما وهبما لفعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك، وأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة، وإني أجنبهم حب المقام فيها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك العر، وما ذاك لهوهم علي، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفوراً، إنما يتزين لي أوليائي بالذل والخضوع والخوف، وإن التقوى لتثبت في قلوبهم، فتظهر على وجوههم، فهي ثيابهم التي يلبسونها، ودثارهم الذي يظهرون، وضميرهم الذي يستشعرون، ونجائهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إياه يأملون، ومجدهم الذي به يفتخرون، وسيماهم التي بها يعرفون، فإذا لقيهم أحدكم فليخفض لهم جناحه، وليذل لهم قلبه ولسانه، وليعلم أنه من أخاف لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر به يوم القيامة.

ومن كلام بعض الحكماء: الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه، ويتخرمك بلياليه وأيامه؛ حتى يستغرق جميع أجزائك، ويصمي جميع أبعاضك، فكيفكء سلامتك من وقوع الأيام بك، وسرعة الليالي في بدنك! ولو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت ممر الساعات بك، ولكن تدبير الله تعالى فوق النظر والاعتبار.

وقال بعض الحكماء- وقد ستوصف الدنيا وقدر بقائها-: الدنيا وقتك الذي يرجع إليه طرفك، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأت فلا علم لك به؛ والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته، وتطويه ساعاته، وأحداثه تتوالى على الإنسان، بالتغيير والنقصان، والدهر موكل بتشتيت الجماعات، وانحرام الشمل، وتنقل الدول، والأمل طويل، والعمر قصير، وإلى الله تصير الأمور.

وقال بعض الفضلاء: الدنيا سريعة الفناء، قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء، وتحلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً، ومرحلة ارتحالا سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس بذلك بعد انقضائها؛ ومثلها الظل، فإنه متحرك ساكن: متحرك في الحقيقة، وساكن في الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة.

الأصل: إن الله سبحانه وضع الثواب على طاعته، والعقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نعمته، وحياسة لهم إلى جنته. الشرح: زيادة، أي دفعاً. ذدته عن كذا، أي دفعته ورددته. وحياسة: مصدر حشت الصيد بضم الحاء، أحوشه، إذا جنته

من حواليه لتصرفه إلى الحباله، وكذلك أحشت الصيد وأحوشته، وقد احتوش القوم الصيد إذا نفره بعضهم إلى بعض. وهذا هو مذهب أصحابنا إن الله تعالى لما كلف العباد التكليف الشاقة، وقد كان يمكنه أن يجعلها غير شاقة عليهم بأن يزيد في قدرهم، وجب أن يكون في مقابلة تلك التكليف ثواب، لأن إلزام المشاق كإنزال المشاق، فكما يتضمن ذلك عوضاً، وجب أن يتضمن هذا ثواباً، ولا بد أن يكون في مقابلة فعل القبيح عقاب، وإلا كان سبحانه ممكناً الإنسان من القبيح، مغرياً له بفعله، إذ الطبع البشري يهوى العاجل، ولا يحفل بالذم، ولا يكون القبيح قبيحاً حينئذ في العقل، فلا بد من العقاب ليقع الاتزار.

الأصل: يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلا رسمه، ومن الإسلام إلا اسمه، مساجدهم يومئذ عامرة من البناء، خراب من الهدى، سكانها وعمارها شر أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تاوي الخطيئة، يردون من شد عنها فيها، ويسوقون من تأخر عنها إليها، يقول الله سبحانه في حلفت، لأبعثن على أولئك فتنة أترك الحليم فيها حيران، وقد فعل، ونحن نستقيل الله عشرة الغفلة.

الشرح: هذه صفة حال أهل الضلال والفسق والرياء من هذه الأمة، ألا تراه يقول: سكانها وعمارها، يعني سكان المساجد، وعمار المساجد شر أهل الأرض، لأنهم أهل ضلالة كمن يسكن المساجد الآن ممن يعتقد التحسيم والتشبيه والصورة والتزول والصعود والأعضاء والجوارح، ومن يقول بالقدر يضيف فعل الكفر والجهل والقبيح إلى الله تعالى، فكل هؤلاء أهل فتنة، يردون من خرج منها إليها، ويسوقون من لم يدخل فيها إليها أيضاً.

ثم قال حاكياً عن الله تعالى: إنه حلف بنفسه ليعثن على أولئك فتنة، يعني استتصلاً وسيفاً حاصداً يترك الحليم العاقل اللبيب فيها حيران لا يعلم كيف وجه خلاصه.

ثم قال عليه السلام: وقد فعل، وينبغي أن يكون قد قال هذا الكلام في أيام خلافته، لأنها كانت أيام السيف المسلط على أهل الضلال من المسلمين، وكذلك ما بعثه الله تعالى على بني أمية وأتباعهم من سيوف بني هاشم بعد انتقاله عليه السلام.

الأصل: وروي أنه عليه السلام قلما اعتدل به المنبر إلا قال أمام خطبته: أيها الناس، اتقوا الله فما خلق أمراً عبثاً فيلهو، ولا ترك سدى فيلغو، وما دنياه التي تحسنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده، وما المغرور الذي ظفر من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر من الآخرة بدني سهمته.

الشرح: قال تعالى: "فحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون". ومن الكلمات النبوية: إن المرء لم يترك سدى، ولم يخلق عبثاً.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: "من ظفر من الدنيا بأعلى وأعظم أمنية ليس كأخر ظفر من الآخرة بأدون درجات أهل الثواب، لا مناسبة ولا قياس بين نعيم الدنيا والآخرة".

وفي قوله عليه السلام: التي قبحها سوء المنظر عنده" تصريح بمذهب أصحابنا أهل العدل رحمهم الله، وهو أن الإنسان هو الذي أضل نفسه لسوء نظره، ولو كان الله تعالى هو الذي أضله لما قال: قبحها سوء النظر عنده.

الأصل: لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عز أعز من التقوى، ولا معقل أحسن من الورع، ولا شفيح أنجح من التوبة، ولا كثر أغنى من القناعة، ولا مال أذهب للفاقة من الرضي بالقوت.

ومن أقتصر على بلغة الكفاف فقد أنتظم الراحة، و تبؤا خفض الدعة. والدعة مفتاح النصب، ومطية التعب، والحرص والكبر والحسد دواع إلى التفحم في الذنوب، والشر جامع لمساوي العيوب.

الشرح: كل هذه المعاني قد سبق القول فيها مراراً شتى، نأتي كل مرة بما لم نأت به فيما تقدم، وإنما يكررها أمير المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجة على المكلفين، كما يكرر الله سبحانه في القرآن المواعظ و الزواجر، لذلك كان أبو ذر - رضي الله عنه - جالسا بين الناس فأثته امرأته فقالت: أنت جالس بين هؤلاء، ولا والله ما عندنا في البيت هفة ولا سفه ؛ فقال: يا هذه، إن بين أيدينا عقبة كؤوداً، لا ينجو منها إلا كل مخف. فرجعت وهي راضية.

وقيل لبعض الحكماء.: ما مالك؛ قال: التجل في الظاهر، والقصد في الباطن، والغنى عما في أيدي الناس.

وقال أبو سليمان الداراني: تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غني ألف عام. وقال رجل لبشر بن الحارث: ادع لي فقد أضر الفقر بي وبعيالي؛ فقال: إذا قال لك عيالك؛ ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع لبشر بن الحارث في ذلك الوقت، فإن دعائك أفضل من دعائه.

ومن دعاء بعض الصالحين: اللهم إني أسألك ذل نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف.

الأصل: وقال عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصاري : يا جابر، قوائم الدين والدنيا بأربعة: عالم يستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وجواد لا ييخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه.

يا جابر، من كثرت نعمة الله عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام بما يجب لله فيها عرض نعمة الله لدوامها ومن ضيع ما يجب لله فيها عرض نعمته لزوالها .

الشرح: قد تقدم القول في هذه المعاني. والحاصل أنه ربط اثنتين من أربعة إحداها بأخرى، وكذلك جعل في الاثنتين الآخرين، فقال: إن قوام الدين والدنيا بأربعة: عالم يستعمل علمه، يعني يعمل ولا يقتصر على أن يعلم فقط ولا يعمل، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وأضر ما على الجهلاء الاستنكاف من التعلم، فإنهم يستمرون على الجهالة إلى الموت، والثالث جواد لا ييخل بالمعروف، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه، أي لا يسرق، ولا يقطع الطرية!، أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبه الله، كالقمار، والمواخير، والمزاجر، والمآصر، ونحوها.

ثم قال: فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمه استنكف الجاهل من التعلم، وذلك لأن الجاهل إذا رأى العالم يعصي ويجاهر الله بالفسق زهد في التعلم، وقال: لماذا تعلم العلم إذا كانت ثمرته الفسق والمعصية.

ثم قال: والرابعة مرتبطة بالثالثة: إذا بخل الغني بمعروفه، باع الفقير آخرته بدنياه، وذلك لأنه إذا عدم الفقير المواساة مع حاجته إلى القوت دعت الضرورة إلى الدخول في الحرام والاكتساب من حيث لا يحسن، وينبغي أن يكون عوض لفظة جواد لفظة غني ليطابق أول الكلام آخره، إلا أن الرواية هكذا وردت، وجواد لا ييخل بمعروفه، وفي ضمير اللفظ كون ذلك الجواد غنيا، لأنه قد جعل له معروفاً والمعروف لا يكون إلا عن ظهر غنى، وباقي الفصل قد سبق شرح أمثاله.

الأصل: وروى ابن جرير الطبري في تاريخه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه، وكان ممن خرج لقتال الحجاج مع ابن الأشعث، انه قال فيما كان يحض به الناس على الجهاد: إني سمعت علياً رفع الله درجته في الصالحين. وأنا به ثواب الشهداء والصديقين، يقول يوم لقينا أهل الشام:

أيها المؤمنون، إنه من رأى عدواناً يعمل به، ومنكراً يدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم وبريء، ومن أنكره بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقام على الطريق، ونور في قلبه اليقين.

الشرح: قد تقدم الكلام في النهي عن المنكر، وكيفية ترتيبه، وكلام أمير المؤمنين في هذا الفصل مطابق لما يقوله المتكلمون - رحمهم الله.

وقد ذكرنا فيما تقدم، وسنذكر فيما بعد من هذا المعنى ما يجب. وكان النهي عن المنكر معروفاً في العرب في جاهليتها، كان في قريش حلف الفضول، تحالفت قبائل منها على أن يردعوا الظالم، وينصروا المظلوم، ويردوا عليه حقه ما بل بحر صوفه، وقد ذكرناه فيما تقدم.

الأصل: وقال عليه السلام في كلام له غير هذا يجري هذا الجرى: فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه، فذلك المستكمل لخصال الخير، ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده، فذلك متمسك بخصالتين من خصال الخير، ومضيع خصلة، ومنهم المنكر بقلبه، والتارك بيده ولسانه، فذلك الذي ضيع أشرف الخصالتين من الثلاث، وتمسك بواحدة، ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده، فذلك ميت الأحياء، وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفته في بحر لحي، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق، وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر.

الشرح: قد سبق قولنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أحد الأصول الخمسة عند أصحابنا، ولجة الماء أعظمه، وبحر لحي: ذو ماء عظيم. والنفثة: الفعلة الواحدة من نفثت الماء من فمي، أي قذفته بقوة. قال عليه السلام: لا يعتقدن أحد إن أمر ظالماً بمعروف، أو نهي ظالماً عن منكر، أن ذلك يكون سبباً لقتل ذلك الظالم المأمور أو المنهي إياه، أو يكون سبباً لقطع رزقه من جهته، فإن الله تعالى قدر الأجل، وقفي الرزق، ولا سبيل لأحد أن يقال على أحد عمره أو رزقه.

وهذا الكلام ينبغي أن يحمل على أنه حث وحض وتحريض على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ولا يحمل على ظاهره، لأن الإنسان لا يجوز أن يلقي بنفسه إلى التهلكة، معتمداً على أن الأجل مقدر، وأن الرزق مقسوم، وأن الإنسان متى غلب على ظنه أن الظالم يقتله ويقيم على ذلك المنكر، ويضيف إليه منكراً آخر لم يجز له الإنكار. فأما كلمة العدل عند الإمام الجائر فنحو ما روي أن زيد بن أرقم رأى عبيد الله بن زياد - ويقال: بل يزيد بن معاوية - يضرب بقضيب في يده ثنايا الحسين عليه السلام حين حمل إليه رأسه، فقال له: أيها! ارفع يدك، فطالما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقبلها!

النهي عن المنكر،

ونحن نذكر خلاصة ما يقوله أصحابنا في النهي عن المنكر، ونترك الاستقصاء فيه للكتب الكلامية التي هي أولى ببسط القول فيها من هذا الكتاب.

قال أصحابنا: الكلام في ذلك يقع من وجوه: منها وجوبه، ومنها طريق وجوبه، ومنها كيفية وجوبه، ومنها شروط حسنه، ومنها شروط وجوبه، ومنها كيفية إيقاعه، ومنها الكلام في الناهي عن المنكر، ومنها الكلام في النهي عن المنكر. أما وجوبه، فلا ريب فيه، لأن المنكر قبيح كله، والقبيح يجب تركه، فيجب النهي عنه. وأما طريق وجوبه فقد قال الشيخ أبو هاشم رحمه الله: انه لا طريق إلى وجوبه إلا السمع، وقد أجمع المسلمون على ذلك، وورد به نص القرآن في غير موضع. قال الشيخ أبو علي - رحمه الله: العقل يدل على وجوبه، وإلى هذا القول مال شيخنا أبو الحسين رحمه الله. وأما كيفية وجوبه فإنه واجب على الكفاية دون الأعيان، لأن الغرض ألا يقع المنكر، فإذا وقع لأجل إنكار طائفة لم يبق وجه لوجوب الإنكار على من سواها.

وأما شروط حسنه فوجوه: منها أن يكون ما ينكره قبيحاً، لأن إنكار الحسن وتحريمه قبيح، والقبيح على ضرر: فمنه ما يقبح من كل مكلف، وعلى كل حال، كالظلم. ومنه ما يقبح من كل مكلف على وجه دون وجه، كالرمي بالسهام، وتصريف الحمام، والعلافي بالسلاح، لأن تعاطي ذلك لمعرفة الحرب والتقوى على العدو، ولتعرف أحوال البلاد بالحمام حسن لا يجوز إنكاره، وإن قصد بالاجتماع على ذلك الاجتماع على السخف واللهو ومعاشرة ذوي الريب والمعاصي فهو قبيح يجب إنكاره.

ومنها ما يقبح من مكلف ويحسن من آخر على بعض الوجوه، كشرب النبيذ، والتشاغل بالشطرنج، فأما من يرى حظراً، أو يختار تقليد من يفتي بحظرهما فحرام عليه تعاطيهما على كل حال، ومتى فعلهما حسن الإنكار عليه، وأما من يرى إباحتهما أو من يختار تقليد من يفتي بإباحتهما، فانه يجوز له تعاطيهما على وجه دون وجه، وذلك أنه يحسن شرب النبيذ من غير سكر ولا معاورة والاشتغال بالشطرنج للفرجة وتخريج الرأي والعقل، ويقبح ذلك إذا قصد به السخف، وقصد بالشرب المعاورة والسكر، فالثاني يحسن إنكاره ويجب، والأول لا يحسن إنكاره لأنه حسن من فاعله.

ومنها أن يعلم المنكر أن ما لمنكره قبيح، لأنه إذا جوز حسنه كان بنكاره له وتحريمه إياه عرماً لما لا يأمن أن يكون حسناً، فلا يأمن أن يكون ما فعله من النهي نهياً عن حسن، وكل فعل لا يأمن فاعله أن يكون مختصاً بوجه قبيح فهو قبيح، ألا ترى أنه يقبح من الإنسان أن يخبر على القطع بأن زيدا في الدار "ذا لم يأمن ألا يكون فيها، لأنه لا يأمن أن يكون خبره كذباً"! ومنها أن يكون ما ينهى عنه واقعاً، لأن غير الواقع لا يحسن النهي عنه، لا نأمنه بالدم عليه، والنهي عن أمثاله. ومنها ألا يغلب على ظن المنكر أنه إن أنكر المنكر، فعله المنكر عليه، وضم إليه منكراً آخر، ولو لم ينكر عليه لم يفعل المنكر الآخر، فمتى غلب على ظنه ذلك قبح إنكاره، لأنه يصير مفسدة، نحو أن يغلب على ظننا أنا إن أنكرنا على شارب

الخمير مر بها شرهما وقرن إلى شرهما القتل، وإن لم ننكر عليه شرهما ولم يقتل أحداً.

ومنها ألا يغلب على ظن الناهي عن المنكر أن نهي لا يؤثر، فإن غلب على ظنه ذلك قبح نهي عند من يقول من أصحابنا إن التكليف من المعلوم منه أنه يكفر لا يحسن، إلا أن يكون فيه لطف لغير ذلك المكلف. وأما من يقول من أصحابنا إن التكليف من المعلوم منه أنه يكفر حسن وإن لم يكن فيه لطف لغير المكلف، فإنه لا يصح منه القول بقبح هذا الإنكار. فأما شرائط وجوب النهي عن المنكر فأمر: منها أن يغلب على الظن وقوع المعصية نحو أن يضيق وقت صلاة الظهر، ويرى الإنسان لا يتهيأ للصلاة، أو يراه تهيأاً لشرب الخمر بإعداد آتته، ومتى لم يكن كذلك حسن منا أن ندعوه إلى الصلاة، وإن لم يجب علينا دعاؤه.

ومنها ألا يغلب على ظن الناهي عن المنكر أنه إن أنكر المنكر ألحقته في نفسه وأعضائه مضرة عظيمة، فإن غلب ذلك على ظنه وأنه لا يمتنع من ينكر عليه من فعل ما تنكره عليه أيضاً، فإنه لا يجب عليه الإنكار، بل ولا يحسن منه لأنه مفسدة. وإن غلب على ظنه أنه لا يفعل ما أنكره عليه ولكنه يضر به؛ نظر فإن كان إضراره به أعظم قبحاً مما يتركه إذا أنكر عليه، فإنه لا يحسن الإنكار عليه، لأن الإنكار عليه قد صار والحالة هذه مفسدة، نحو أن ينكر الإنسان على غيره شرب الخمر، فيترك شرهما ويقتله. وإن كان ما يتركه إذا أنكر عليه أعظم قبحاً مما يتزل به من المضرة، نحو أن يهجم بالكفر، فإذا أنكر عليه تركه وجرح المنكر عليه أو قتله فإنه لا يجب عليه الإنكار، ويحسن منه الإنكار، أما قولنا: لا يجب عليه الإنكار، فلأن الله تعالى قد أباحنا التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه، فبأن يبيحنا ترك غيرنا أن يتلفظ بذلك عند الخوف على النفس أولى، وأما قولنا: إنه يحسن الإنكار، فلأن في الإنكار مع الظن لما يتزل! بالنفس من المضرة إعزازاً للدين، كما أن في الامتناع من إظهار كلمة الكفر مع الصبر على قتل النفس إعزازاً للدين، لا فضل بينهما.

فأما كيفية إنكار المنكر فهو أن يتدبى بالسهل، فإن نفع وإلا ترقى إلى الصعب، لأن الغرض ألا يقع المنكر، فإذا أمكن ألا يقع بالسهل فلا معنى لتكلف الصعب، ولأنه تعالى أمر بالإصلاح قبل القتال في قوله: "فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي".

فأما الناهي عن المنكر من هو؛ فهو كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه، لأن الله تعالى قال: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويبرون بالمعروف وينهون عن المنكر"، وإجماع المسلمين على أن كل من شاهد غيره تاركاً للصلاة غير محافظ عليها فله أن يأمره بها، بل يجب عليه، ألا أن الإمام وخلفاءه أولى بالإنكار بالقتال، لأنه أعرف بسياسة الحرب وأشد استعداداً لآلاتها.

فأما المنهي من هو؛ فهو كل مكلف أختص بما ذكرناه من الشروط، وغير المكلف إذا هم بالإضرار لغيره يمنع منه، ويمنع الصبيان وينهون عن شرب الخمر حتى لا يتعودوا، كما يؤاخذون بالصلاة حتى يبرنوا عليها، وهذا ما ذكره أصحابنا. فأما قوله عليه السلام: "ومنهم المنكر بلسانه وقلبه، والتارك بيده، فذلك متمسك بمحصلتين من خصال الخير، ومضيع حصلة"، فإنه يعني به من يعجز عن الإنكار باليد لمانع، لأنه لم يخرج هذا الكلام مخرج الدم، ولو كان لم يعن العاجز لوجب أن يخرج الكلام مخرج الدم، لأنه ليس بمعذور في أن ينكر بقلبه ولسانه إذا أحل بالإنكار باليد مع القدرة عل

ذلك، وارتفاع الموانع.

وأما قوله: "ضيع أشرف الخصلتين فاللام زائدة، وأصله ضيع أشرف خصلتين من الثلاث"، لأنه لا وجه لتعريف المعهود هاهنا في الخصلتين، بل تعريف الثلاث باللام أولى، ويجوز حذفها من الثلاث، ولكن إثباتها أحسن، كما تقول: قتلت أشرف رجلين من الرجال الثلاثة.

وأما قوله: "فذلك ميت الأحياء"، فهو نهاية ما يكون من الدم.

وأعلم أن النهي عن المنكر، والأمر بالمعروف عند أصحابنا أصل عظيم من أصول الدين، وإليه تذهب الخوارج الذين خرجوا على السلطان، متمسكين بالدين وشعار الإسلام، مجتهدين في العبادة، لأنهم إنما خرجوا لما غلب على ظنهم، أو علموا جور الولاة وظلمهم، وأن أحكام الشريعة قد غيرت، وحكم بما لم يحكم به الله، وعلى هذا الأصل تبني الإسماعيلية من الشيعة قتل ولاة الجور غيلة، وعليه بناء أصحاب الزهد في الدنيا الإنكار على الأمراء والخلفاء، ومواجهتهم بالكلام الغليظ لما عجزوا عن الإنكار باليد، وبالجملة فهو أصل شريف أشرف من جميع أبواب البر والعبادة، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

الأصل: وروى أبو جحيفة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم، ثم بالسنتكم، ثم بقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفاً أو لم ينكر منكراً، قلب فجعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه.

الشرح: إنما قال ذلك لأن الإنكار بالقلب آخر المراتب، وهو الذي لا بد منه على كل حال، فأما الإنكار باللسان وباليد فقد يكون منهما بد، وعنهما عذر، فمن ترك النهي عن المنكر بقلبه، والأمر بالمعروف بقلبه، فقد سخط الله عليه لعصيانته، فصار كالممسوخ الذكي يجعل الله تعالى أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه تشويهاً لخلقه، ومن يقول بالأنفس الجسمانية، وإنما بعد المفارقة يصعد بعضها إلى العالم العلوي، وهي نفوس الأبرار وبعضها يتزل إلى المركز، وهي نفوس الأشرار، يتأول هذا الكلام على مذهبه، فيقول: إن من لا يعرف بقلبه معروفاً، أي لا يعرف من نفسه باعثاً عليه ولا متقاضياً بفعله، ولا ينكر بقلبه منكراً، أي لا ينف منه ولا يستقبحه، ويمتنع من فعله يقلب نفسه التي قد كان سبيلها أن تصعد إلى عالمها فتجعل هاوية في حضيض الأرض، وذلك عندهم هو العذاب والعقاب.

الأصل: إن ألحق ثقل مريّة، وإن الباطل خفيص و!ي.

الشرح: تقول: مرؤ الطعام بالضم، يمرؤ مراءة فهو مريء على فعيل مثل خفيف وثقل، وقد جاء مريء الطعام بالكسر، كما قالوا فقه الرجل وفقه. ووبئ البلد بالكسر يوبأ وباءة فهو وبئ على فعيل أيضاً، ويجوز فهو وبئ على فعل مثل خذر وأشر.

يقول عليه السلام: الحق وإن كان ثقيلاً إلا أن عاقبته محمودة، ومغبته صالحة، والباطل وإن كان خفيفاً إلا أن عاقبته مذمومة، ومغبته غير صالحة، فلا يحملن أحدكم حلاوة عاجل الباطل على فعله، فلا خير في لذة قليلة عاجلة، يتعقبها مضار عظيمة آجلة، ولا يصرفن أحدكم عن الحق ثقله فإنه سيحمد عقبى ذلك، كما يحمد شارب الدواء المر شره فيما

بعد إذا وجد لذة العافية.

الأصل: لا "تأمن على خير هذه الأمة عذاب الله، لقوله سبحانه وتعالى: " فلا يمين مكر الله إلا القوم الخاسرون" ولا تياسن لشر هذه الأمة من روح الله تعالى "إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون".

الشرح: هذا كلام ينبغي أن يحمل على أنه أراد عليه السلام النهي عن القطع على مغيب أحد من الناس، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: فلان قد نجا، ووجبت له الجنة، ولا فلان قد هلك ووجبت له النار، وهذا القول حق، لأن الأعمال الصالحة لا يحكم لصاحبها بالجنة إلا بسلامة العاقبة، وكذلك الأعمال السيئة لا يحكم لصاحبها بالنار إلا إن مات عليها؛ فأما الاحتجاج بالآية الأولى فللقائل أن يقول: إنما لا تدل على ما أفتى عليه السلام به، وذلك لأن معناها أنه لا يجوز للعاصي أن يأمن مكر الله على نفسه، وهو مقيم على عصيانه، ألا ترى أن أولها: "أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بسنا بيئاتاً وهم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون" أفأمنوا مكر الله فلا يمين مكر الله إلا القوم الخاسرون"، وليست دالة على ما نحن فيه، لأن الذي نحن فيه: هل يجوز لأحد أن يأمن على الصالحين من هذه الامة عذاب الله.

فأما الآية الثانية فالاحتجاج بها جيد لا شبهة فيه، لأنه يجوز أن يتوب العاصي والتوبة من روح الله. فإن قلت: وكذا يجوز أن يكفر المسلم المطيع، قلت: صدقت، ولكن كفره ليس من مكر الله، فدل! على أن المراد بالآية أنه لا ينجي للعاصي أن يأمن من عقوبة الله ما دام عاصياً، وهذا غير مسألتنا. الأصل: البخل جامع لمساوىء العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء. الشرح: قد تقدم القول في البخل والشح. ونحن نذكر هاهنا زيادات أخرى.

بعض ما ورد في الجود والبخل،

قال بعض الحكماء: السخاء هيئة للإنسان، داعية إلى بذل المقتنيات، حصل معه البذل لها أو لم يحصل، وذلك خلق، ويقابله الشح؛ وأما الجود، فهو بذل المقتنى؛ ويقابله البخل؛ هذا هو الأصل، وإن كان كل واحد منها قد يستعمل في موضع الآخر، والذي يدل على صحة هذا الفرق أنهم جعلوا اسم الفاعل من السخاء والشح على بناء الأفعال الغريزية، فقالوا: شحيح وسخي، فبنوه على "فعل" كما قالوا: حليم وسفيه وعفيف، وقالوا: جائد وباخل، فبنوهما على "لم! فاعل" كضارب وقاتل؛ فأما قولهم: بخيل، فمصرف عن لفظ فاعل للمبالغة، كقولهم في راحم رحيم، وبدل أيضاً على أن السخاء غريزة وخلق أنهم لم يصفوا البارئ سبحانه به فيقولوا سخي، فأما الشح فقد عظم أمره وخوف منه، ولهذا قال عليه السلام: "ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه"، فخص المطاع تنبيهها على أن وجود الشح في النفس فقط ليس مما يستحق به ذم لأنه ليس من فعله، وإنما يذم بالانقياد له؛ قال سبحانه: "ومن يوق شح نفسه"، وقال: "واحضرت الأنفس الشح".

وقال عليه السلام: لا يجتمع شح وإيمان في قلب أبداً.

فأما الجود فإنه محمود على جميع ألسنة العالم، ولهذا قيل: كفي بالجود مدحاً أن اسمه مطلقاً لا يقع إلا في حمد، وكفي

بالبخل ذماً أن اسمه مطلقاً لا يقع إلا في ذم.

وقيل لحكيم: أي أفعال البشر أشبه بأفعال البارئ سبحانه؛ فقال: الجود.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "الجود شجرة من أشجار الجنة، من أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى الجنة، والبخل شجرة من أشجار النار من أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى النار".

ومن شرف الجود أن الله سبحانه قرن ذكره بالإيمان، ووصف أهله بالفلاح، والفلاح اسم جامع لسعادة الدارين؛ قال سبحانه: "الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" إلى قوله: "وأولئك هم المفلحون" وقال: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".

وحق للجود بأن تقرن بالإيمان، فلا شيء أخص به وأشد مجانسة له منه، فإن من صفة المؤمن انشراح الصدر، كما قال تعالى: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء"؛ وهذا من صفات الجواد والبخیل، لأن الجواد واسع الصدر، منشرح مستبشر للإنفاق والبذل، والبخیل قنوط ضيق الصدر، حرج القلب ممسك.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "وأي داء أدوأمن البخل".

والبخل على ثلاثة أضرب: بخل الإنسان بماله عك نفسه، وبخله بماله على غيره، وبخله بماله حرجاً كأنما يصعد في السماء؛ وأفحشها بخله بماله على نفسه، وأهونها - وإن كان لا هين فيها - بخله بماله على غيره. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً". وقال: "إن الله عز وجل يتزل المعونة على قدر المؤونة". وقال أيضاً: "من وسع وسع عليه".

وقالت الفلاسفة: الجود على أقسام: فمنها الجود الأعظم، وهو الجود الإلهي، وهو الفيض العام المطلق، وإنما يختلف باختلاف المواد واستعداداتها، والا فالفيض في نفسه عام غير خاص، وبعده جود الملوك، وهو الجود بجزء من المال على من تدعوهم الدواعي والأغراض إلى الجود عليه، ويتلوه جود السوق، وهو بذل المال للعفاة أو الندامى والشرب والمعاشرين والإحسان إلى الأقارب.

قالوا: واسم الجود مجاز، إلا الجود الآهي العام؛ فانه عار من الغرض والداعي. وأما من يعطي لغرض وداع نحو أن يحب الثناء والمحمدة، فانه مستعيص وتاجر يعطي شيئاً ليأخذ شيئاً، قالوا قول أبي نواس:

ويعلم أن الدائرات تدور

فتى يشتري حسن الثناء بماله

ليس بغاية في الوصف بالجود التام، بل هو وصف بتجارة عمودة، وأحسن منه قول ابن الرومي:

ربحان في كل متجرتجره

وتاجر البر لا يزال له

ر ولكن كلاهما اعتوره

أجر وحمد وإنما طلب الأج

وأحسن منهما قول بشار:

ف ولكن يلذ طعم العطاء

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو

ونحن قد ذكرنا ما في هذا الموضع من البحث العقلي في كتبنا العقلية.

الأصل: يا بن آدم، الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فأن لم تاته أذاك، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك، كفاك كل يوم ما فيه، فن تكن السنة من عمرك فأن الله تعالى سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهم فيما ليس لك، ولم يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب، ولن ييطيء عنك ما قد قدر لك.

قال: وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم من هذا الباب، إلا أنه هاهنا أوضح وأشرح، فلذلك كررناه على القاعدة المقررة في أول هذا الكتاب.

الشرح: قد تقدم القول في معاني هذا الفصل، وروي أن جماعة دخلوا على الجنيد، فاستأذنوه في طلب الرزق، فقال: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه: قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك، قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه، قالوا: فندخل البيت ونتوكل وننتظر ما يكون، فقال: التوكل على التجربة شك، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

وروي أن رجلاً لازم باب عمر فضجر منه، فقال له: يا هذا، هاجرت إلى الله تعالى أم إلى باب عمر! اذهب فتعلم القرآن، فإنه سيغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل وغاب مدة حتى افتقده عمر، فإذا هو معتزل مشغل بالعبادة، فأتاه عمر فقال له إني اشتقت إليك، فما الذي شغلك عنا! قال: إني قرأت القرآن فأغنياني عن عمر وآل عمر، فقال: رحمك الله! فما وجدت فيه؟ قال: وجدت فيه: "وفي السماء رزقكم وما توعدون"، فقلت: رزقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض، إني لبئس الرجل، فبكى عمر وقال: صدقت، وكان بعد ذلك يتنابه ويجلس إليه.

الأصل: رب مستقبل يوماً ليس بمستدبره، ومغبوط في أول ليلة قامت بواكيه في آخره.

الشرح: مثل هذا قول الشاعر:

إن الحوادث تديطرقن أسحارا

يا راقد الليل مسروراً بأوله

ومثله:

قد يوافي بالمنيات السحر

لا يغرنك عشاء ساكن

الأصل: الكلام في وثاقتك ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقتك؛ فاحزن لسانك كما تحزن ذهبك وورقك؛ فرب كلمة سلبت نعمة الشرح: قد تقدم القول في مدح الصمت وذم الكلام الكثير.

وكان يقال: لا خير في الحياة إلا لصموت واع، أو ناطق محسن.

وقيل لحذيفة: قد أطلت سجن لسانك! فقال: لأنه غير مأمون إذا اطلق.

ومن أمثال العرب: رب كلمة تقول: دعني، وقالوا: أصلها أن بعض ملوك الحيرة كان قد استراب ببعض خوله، فترل يوماً

وهو يتصيد على تلة ، ونزل أصحابه حوله فأفاضوا في حديث كثير، فقال ذلك الإنسان: أترى لو أن رجلاً ذبح على رأس هذه التلة هل كان يسيل دمه إلى أول الغائط؟ فقال الملك: هلموا فاذبحوه للنظر، فذبحوه، فقال الملك: رب كلمة تقول: دعني.

وقال أكثم بن صيفي: من إكرام الرجل نفسه ألا يتكلم بكل ما يعلم.

وتذاكر قوم من العرب وفيهم رجل بأهلي ساكت، ف قيل له: بحق ما سميتم خرس العرب، فقال: أما علمتم أن لسان المرء لغيره، وسمعه لنفسه! الأصل: لا تقل ما لا تعلم؛ بل لا تقل كل ما تعلم، فإن الله سبحانه قد فرض على جوارحك كلها فرائض يحتج بها عليك يوم القيامة.

الشرح: هذا نهي عن الكذب، وأن تقول ما لا تأمن من كونه كذباً، فإن الأمرين كليهما قبيحان عقلاً عند أصحابنا. فإن قلت كيف يقول أصحابكم: إن الخير الذي لا يأمن كونه كذباً قبيح، والناس يستحسنون الأخبار عن المظنون. قلت: إذا قال الإنسان: زيدا في الدار وهو يظنه في الدار ولا يقطع عليه، فإن الحسن منه أن يخبر عن ظنه كأن يقول: أخبر عن أبي أظن أن زيدا في الدار، لهذا كان هذا هو تقديره فالخير إذن خبر عن معلوم لا عن مظنون، لأنه قاطع على أنه ظان أن زيدا في الدار.

فأما إذا فرض الخبر لا على هذا الوجه بل على القطع بأن زيدا في الدار وهو لا يقطع على أن زيدا في الدار، فقد أخبر بخبر ليس على ما أخبر به عنه، لأنه أخبر عن أنه قاطع، وليس بقاطع، فكان قبيحاً.

الأصل: أخطر أن يراك الله عند معصيته؛ ويفقدك عند طاعته، فتكون من الخاسرين؛ وإذا قويت فاقو على طاعة الله، وإذا ضعفت فاضعف عن معصية الله.

الشرح: من علم يقينا أن الله تعالى يراه عند معصيته، كان أجدر الناس أن يجتنبها؛ كما إذا علمنا يقينا أن الملك يرى الواحد منا وهو يراد جاريته عن نفسها، أو يحدث ولده ليفجر به، ولكن اليقين في البشر ضعيف جدا، أو أنهم أحق الحيوان وأجهله، وبحق أقول: إنهم إن اعتقدوا ذلك اعتقاداً لا يخالطه الشك، ثم واقعوا المعصية، وعندهم عقيدة أخرى ثابتة أن العقاب لاحق بمن عصى، فإن الإبل والبقر أقرب إلى الرشاد منهم.

وأقول: إن الذي جرأ الناس على المعصية الطمع في المغفرة، والعفو العام. وقولهم: الحلم والكرم والصفح من أخلاق ذوي النباهة والفضل من الناس، فكيف لا يكون من الباري سبحانه عفو عن الذنوب! وما أحسن قول شيخنا أبي علي رحمه الله: لولا القول بالإرجاء، لما عمي الله في الأرض.

الأصل: الركون إلى الدنيا مع ما تعاین منها جهل، والتقصير في حسن العمل إذا وثقت بالثواب عليه غبن، والطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار له عجز .

الشرح: قد تقدم الكلام في الدنيا وحمق من يركن إليها مع معاناة غدرها، وقلة وفائها ونقضها عهودها، وقتلها عشاقها. ولا ريب أن الغبن وأعظم الغبن هو التقصير في الطاعة مع يقين الثواب عليها. وأما الطمأنينة إلى من لم يعرف ولم يختبر فإنها عجز - كما قال عليه السلام - يعني عجزاً في العقل والرأي، فإن الوثوق مع التجربة فيه ما فيه، فكيف قبل التجربة! وقال الشاعر:

الأصل: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها.
الشرح: هذا الكلام نسبه الغزالي في كتاب "إحياء علوم الدين إلى أبي الدرداء، والصحيح أنه من كلام علي عليه السلام، ذكره شيخنا أبو عثمان الجاحظ في غير موضع من كتبه، وهو أعرف بكلام الرجال.

بعض ما قيل في حال الدنيا،

وقد تقدم من كلامنا في حال الدنيا وهوانها على الله واغترار الناس بها وغدرها بهم ، وذم العقلاء لها، وتحذيرهم منها ما فيه كفاية.
ونحن نذكر هاهنا زيادة على ذلك؛ يقال: أن في بعض كتب الله القديمة، الدنيا غنيمة الأكياس، وغفلة الجهال، لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا.
وقال بعض العارفين: من سأل الله تعالى الدنيا فإنما سأل طول الوقوف بين يديه،
وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه.

ومن كلامه؛ أهينوا الدنيا، فو الله ما هي لأحد بأهناً منها لمن أهانها.
وقال عماد بن المنكدر: أرأيت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا يفر، وتصدق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارم الله تعالى، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال: أن هذا مع ما قد عمل كان يعظم في عينه ما صغر الله، ويصغر في عينه ما عظم الله، كيف ترى يكون حاله! فمن منا ليس هكذا، الدنيا عظيمة عنده مع ما اقتربنا من الذنوب والخطايا.

وقد ضربت الحكماء مثلاً للدنيا نحن نذكره هاهنا، قالوا: مثل الدنيا وأهلها كقوم ركبوا سفينة فانتهدت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذرهم المقام، وخوفهم مرور السفينة، واستعجالها، ففارقوا في نواحي الجزيرة، فقصى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة، فصادف المكان خالياً، فأخذ أوسع المواضع وألينها وأوفقها لمراده. وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، وغياضها الملتفة، ونغمات طيورها الطيبة، وألحانها الموزونة الغريبة، ولحظ في تزيينها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان ذوات الأشكال الحسنة المنظر، العجيبة النقش، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجها، وعجائب صورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة، فرجع إليها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً، فاستقر فيه. وبعضهم أكب فيها على تلك الأصداف والأحجار، وقد أعجبه حسننها، ولم تسمح نفسه بإهمالها وتركها، فأستصحب منها جملة، فجاء إلى السفينة فلم يجد إلا مكاناً ضيقاً، وزاده ما حمله ضيقاً، وصار ثقلاً عليه ووبالاً، فندم على أخذه، ولم تطعه نفسه على رميه، ولم يجد موضعاً له، فحمله على عنقه ورأسه، وجلس في المكان الضيق في السفينة، وهو متأسف على أخذه ونادم، وليس ينفعه ذلك. وبعضهم تولى بتلك الأنوار والغياض، ونسي السفينة وأبعد في متفرجه ومتترهه، حتى أن نداء الملاح لم يبلغه لاشتغاله بأكل تلك الثمار، واشتغاله بتلك الأنوار، والتفرج بين تلك

الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع، والسقطات والنكبات، ونهش الحيات، وليس ينفك عن شوك
يثبت بشيابه، وغصن يجرح جسمه، ومروه تدمى رجله، وصوت هائل يفزع منه، وعوسج يملأ طريقه، ويمنعه عن
الانصراف لو أراد، وكان في جماعة ممن كان معه في السفينة حالهم حاله، فلما بلغهم نداء السفينة راح بعضهم مثقلاً بما
معه فلم يجد في السفينة موضعاً واسعاً ولا ضيقاً، فبقي على الشط حتى مات جوعاً. وبعضهم بلغه النداء، فلم يعرج عليه،
واستغرقته اللذة، وسارت السفينة، فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه وهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من
أرتطم في الأوحال، ومنهم من نهشته الحيات. فنفروا هلكى كالخيف المنتنة. فأما من وصل إلى السفينة مثقلاً بما أخذه من
الأزهار والفاكهة اللذيذة، والأحجار المعجبة، فإنها استرقتة وشغله الحزن بحفظها والخوف من ذهابها عن جميع أموره،
وضاق عليه بطريقها مكانه، فلم تلبث أن ذبلت تلك الأزهار، وفست تلك الفاكهة الغضة. وكمدت ألوان الأحجار
وحالت، فظهر له نتن رائحتها، فصارت مع كونها مضيقاً عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها، فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في
البحر هرباً منها وقد أثر في مزاجه ما أكله منها، فلم ينته إلى بلده إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بما أكل وما شم من
تلك الروائح، فبلغ سقيماً وقيداً مدبراً، وأما من كان رجوع عن قريب وما فاتته إلا سعة المحل، فإنه تأذى بضيق المكان
مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، وأما من رجع أولاً فانه وجد المكان الأوسع، ووصل إلى الوطن سالماً طيب
القلب مسروراً.

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردتهم ومصدرهم، وغفلتهم عن عاقبة أمرهم، وما أقبح
حال من يزعم أنه بصير عاقل وتغره حجارة الأرض، وهي الذهب والفضة، وهشيم النبت وهو زينة الدنيا، وهو يعلم
يقيناً أن شيئاً من ذلك لا يصحبه عند الموت، بل يصير كله وبالاً عليه، وهو في الحال الحاضرة شاغل له بالخوف عليه،
والحزن وألهم لحفظه، وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله.

وقد ضرب أيضاً لها مثال آخر في عبور الإنسان عليها، قالوا: الأحوال ثلاثة: حال لم يكن الإنسان فيها شيئاً، وهي ما
قبل وجوده إلى الأزل، وحال لا يكون فيها موجوداً مشاهداً للدنيا، وهي بعد موته إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأزل
والأبد، وهي أيام حياته في الدنيا، فلينظر العاقل إلى الطرفين الطويلين، ولينظر إلى الحالة المتوسطة، هل يجد لها نسبة إليها،
وإذا رأى العاقل الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها، في ضر وضيق، أو في سعة ورفاهة، بل
لا يبيّن لبنة على لبنة؛ توفي رسول صلى الله عليه وآله وسلم. وما وضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة. ورأى بعض
الصحابه بنى بيتاً من حص فقال: أرى الأمر أعجل من هذا، أنكر ذلك، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما لي
وللدنيا، إنما مثلي ومثلها كراكب سار في يوم صائف، فرفعت له شجرة فقام تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها، وإلى هذا
أشار عيسى بن مريم حيث قال: الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها، وهو مثل صحيح، فإن الحياة الدنيا قنطرة إلى
الأخرة، والمهد هو أحد جانبي القنطرة، واللحد الجانب الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن الناس من قطع نصف
القنطرة، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور
والانتهاء، ولا ريب أن عمارة هذه القنطرة، وتزيينها بأصناف الزينة لمن هو محمول قسراً وقهراً على عبورها، يسوقه

سائق عنيف، غاية الجهل والخذلان.

وفي الحديث المرفوع: "إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر على شاة ميتة، فقال: أترون أن هذه الشاة هينة على أهلها: قالوا: نعم، ومن هوأها ألقوها، فقال: والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء".

وق صلى الله عليه وآله وسلم: "الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر".

وقال أيضاً: "الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ما كان لله منها".

وقال أيضاً: "من أحب دنياه أضر بأخرفته، ومن أحب أخرفته أضر بدنياه، فأثروا ما يبقى على ما يفنى".

وقال أيضاً: "حب الدنيا رأس كل خطيئة".

وروى زيد بن أرقم قال: كنا مع أبي بكر، فدعا بشراب، فأتى بماء عسل، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه، فسكنوا وما سكت، ثم عاد ليشرب، فبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرّون على مسألته، ثم مسح عينيه، فقالوا: يا خليفة رسول الله، ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأيتُه يدفع بيده عن نفسه شيئاً، ولم أر معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: هذه الدنيا مثلت لي، فقلت لها: إليك عني، فرجعت وقالت: إنك إن أفلتت مني لم يفلت مني من بعدك، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور!".

ومن الكلام المأثور عن عيسى عليه السلام: "لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم الدنيا عبيداً، فاكثروا كثركم عند من لا يضيعه، فإن صاحب كثر الدنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كثر الآخرة لا يخاف عليه".

الأصل: من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه.

وفي رواية أخرى: من فاته حسب نفسه، لم ينفعه حسب إباطه.

الشرح: قد لقدّم مثل هذا، وقد ذكرنا ما عندنا فيه، وقال الشاعر:

لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

لئن فخرت بآباء ذوي حسب

وكان يقال: أجهل الناس من افتخر بالعظام البالية، وتبجح بالقرون الماضية، واتكل على الأيام الخالية.

وكان يقال: من طريف الأمور حي يتكل على ميت. وكان يقال: ضعة الديء في نفسه والرفيع في أصله، أقبح من ضعة الوضيع في نفسه وأصله، لأن هذا تشبه بآبائه وسلفه، وذاك قصر عن أصله وسلفه، فهو إلى الملامة أقرب، وعن العذر أبعد.

افتخر شريف بأبيه، فقال خصمه: لو وفقت، لما ذكرت أباك، لأنه حجة عليك تنادي بنقصك، وتقر بتخلفك.

كان جعفر بن يحيى يقول: ليس من الكرام من افتخر بالعظام.

وقال الفضل بن الربيع: كفي بالمرء عاراً أن يفتخر بغيره.

وقال الرشيد: من افتخر بآبائه فقد نادى على نفسه بالعجز، وأقر على همته بالدناءة.

وقال ابن الرومي:

وما الحسب الموروث لا در دره بمحتسب إلا بأخر مكتسب

إذا العود لم يثمر وإن كان شعبةً من الثمرات اعتده الناس في الحطب

وقال عبد الله بن جعفر :

لسنا وإن اعتدّهموما على الآباء نتكل

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقال آخر:

وما فخري بمجد قام غيري إليه إذا رقدت الليل عنه

إلى حسب الفتى في نفسه أنظر ولا تنتظر هديت إلي ابن من هو

وقال آخر:

إذا فخرت بآبائي وأجدادي فقد حكمت على نفسي لأضدادي

هل نافعي إن سعى جدي لمكرمة ونمت عن أختها في جانب الوادي !!

وقال آخر:

أيقنني كوني بمن كوني ابنه أبا لي أن أرضى لفخري بمجده

إذا المرء لم يجد العلاء بنفسه فليس بحاو للعلاء بجده

وهل يقطع السيف الحسام بأصله إذا هو لم يقطع بصارم حده!

وقيل لرجل يدل بشرف آبائه، لعمرى لك أول، ولكن ليس لأولك آخر.

ومثله أن شريفاً بآبائه فأخر شريفاً بنفسه، فقال الشريف بنفسه: انتهى إليك شرف أهللك، أو مني ابتداء شرف أهلي،

وشتان بين الابتداء والانتهاء! وقيل لشريف ناقص الأدب: إن شرفك بأبيك لغيرك، وشرفك بنفسك لك، فافرق بين ما

لك وما لغيرك، ولا تفرح بشرف النسب، فإنه دون شرف الأدب.

الأصل: من طلب شيئاً ناله أو بعضه.

الشرح: هذا مثل قولهم: من طلب وجد، وقال بعض الحكماء: ما لازم أحد باب الملك فاحتمل الذل وكظم الغيظ ورفق

بالبواب، وخالط الحاشية إلا وصل إلى حاجته من الملك.

الأصل: ما خير بخير بعده النار، وما شر بشر بعده الجنة؛ وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية

الشرح: موضع "بعده النار" رفع لأنه صفة "خير" الذي بعد ما، وخبر يرفع لأنه اسم ما، وموضع الجار والمجرور نصب

لأنه خير ما، والبلاء زائدة، مثلها في قولك: ما أنت بزيد، كما تزداد في خير ليس، والتقدير ما خير تتعقبه النار بخير، كما تقول: ما لذة تتلوها نغصه بلذة، ولا ينقدح في ما الوجهان اللذان ذكرهما أرباب الصناعة النحوية في قولهم: لا خير بخير بعده النار، أحدهما ما ذكرناه في ما، والآخر أن يكون موضع بعده النار جراً لأنه صفة خير المجرور، ويكون معنى البلاء معنى في كقولك: زيد بالدار وفي الدار، ويصير تقدير الكلام: لا خير في خير تعقبه النار، وذلك أن ما تستدعي خيراً موجوداً في الكلام، بخلاف لا، فإن خبرها محذوف في مثل قولك: لا إله إلا الله، ونحوه، أي في الوجود أو لنا أو ما أشبه ذلك، وإذا جعلت بعده صفة خبر المجرور لم يبق معك ما تجعله خبر ما.

وأيضاً فإن معنى الكلام يفسد في ما بخلاف لا، لأن لا لنفي الجنس، فكأنه نفي جنس الخير عن خير تتعقبه النار؛ وهذا معنى صحيح، وكلام منتظم، وما هاهنا أن كانت نافية احتاجت إلى خبر ينتظم به الكلام، وإن كانت استفهاماً فسد المعنى، لأن ما "لفظ يطلب به معنى الاسم، كقوله: ما العنقاء؛ أو يطلب به حقيقة الذات، كقولك: ما الملك؛ وليس! تطبيق أن تدعي أن ما للاستفهام هاهنا عن أحد القسمين مدخلاً لأنك تكون كأنك قد قلت: أي شيء هو خير في خير تتعقبه النار؛ وهذا كلام لا معنى له.

الأصل: ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب؛ ألا وإن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب. الشرح: قد تقدم الكلام في الفاقة والغنى، فأما المرض والعافية ففي الحديث المرفوع: "إليك انتهت الأمانى يا صاحب العافية". فأما مرض القلب وصحته فالمراد به التقوى وضدها، وقد سبق القول في ذلك. وقال أحمد بن يوسف الكاتب:

خير من الوالدين والولد

خيراً من المال صحة الجسد

وقوت يوم فقر إلى أحد

المال للمرء في معيشته

وإن تدم نعمة عليك تجد

وما بمن نال فضل عافية

الأصل: للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم فيها معاشه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويحرم؛ وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم. الشرح: تقدير الكلام: ينبغي أن يكون زمان العاقل مقسوماً ثلاثة أقسام:

ويرم معاشه: يصلحه. وشاخصاً: راحلاً. وخ خطوة في معاد، يعني في عمل المعاد، وهو العبادة والطاعة.

وكان شيخنا أبو علي رحمه الله يقسم زمانه على ما أصف لك: كان يصلي الصبح والكواكب طالعة، ويجلس في محرابه للذكر والتسبيح إلى بعد طلوع الشمس بقليل، ثم يتكلم مع التلامذة وطلبة العلم إلى ارتفاع النهار، ثم يقوم فيصلي الضحى، ثم يجلس فيتمم البحث مع التلامذة إلى أن يؤذن للظهر، فيصليها بنوافلها، ثم يدخل إلى أهله فيصلح شأنه، ويقضي حوائجه، ثم يخرج للعصر فيصليها بنوافلها، ويجلس مع التلامذة إلى المغرب فيصليها، ويصلي العشاء، ثم يشتغل بالقرآن إلى ثلث الليل، ثم ينام الثلث الأوسط، ثم يقعد فيصلي الثلث الأخير كله إلى الصبح.

الأصل: ازهد في الدنيا يبصرك الله عوراتها، ولا تغفل فلست بمغفول عنك.
الشرح: أمره بالزهد في الدنيا، وجعل جزاء الشرط تبصير الله تعالى له عورات الدنيا، وهذا حق، لأن الراغب في الدنيا عاشق لها، والعاشق لا يرى عيب معشوقه، كما قال القائل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلية ولكن عين السخط تبدي المساويا

فإذا زهد فيها فقد لسخطها وإذا سخطها ابصر عيوبها مشاهدة لا رواية.
ثم نهاه عن الغفلة، وقال له: إنك غير مغفول عنك، فلا تغفل أنت عن نفسك، فإن أحق الناس وأولاهم ألا يغفل عن نفسه من ليس بمغفول عنه؛ ومن عليه رقيب شهيد يناقشه على الفتيل والنكير.
الأصل: تكلموا تعرفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه.

الشرح: هذه إحدى كلماته عليه السلام التي لا قيمة لها، ولا يقدر قدرها؛ والمعنى قد تداوله الناس قال:

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وكان يحيى بن خالد يقول: ما جلس إلي أحد قط إلا هبته حتى يتكلم، فإذا تكلم إما أن تزداد الهيبة أو تنقص.
الأصل: نعم الطيب المسك، خفيف محملة، عطر ريحه.

بعض ما ورد في الطيب،

الشرح: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثير التطيب بالمسك وبغيره من أصناف الطيب. وجاء الخبر الصحيح عنه: "حُب إلي من دناكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة".

وقد رويت لفظة أمير المؤمنين عليه السلام عنه مرفوعة. ونحوها: "لا تردوا الطيب فإنه طيب الريح، خفيف الحمل".
سرق إعرابي نافجة مسك، ف قيل له: "ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة"، قال: إذن أحملها طيبة الريح، خفيفة الحمل.
وفي الحديث المرفوع أنه عليه السلام بايع قومًا كان بيد رجل منهم ردع خلواتي، فبايعه بأطراف أصابعه، وقال: "خير طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه، وخير طيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه".

وعنه عليه السلام في صفة أهل الجنة: "ومحامرهم الألوة"، وهي العود الهندي.

وروى سهل بن سعد عنه عليه السلام: "إن في الجنة لمراغًا من مسك مثل مراغ دوابكم هذه".

وروي عنه عليه السلام أيضًا في صفة الكوثر: جاله المسك - أي جانبه - ورض راضه التوم، وحصباؤه اللؤلؤ.

وقالت عائشة: كأني أنظر إلى ويص المسك في مفارق رسول الله عليه السلام وهو محرم.

وكان ابن عمر يستحمر بعود غير مطرى ويجعل معه الكافور، ويقول: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصنع.

وروى أنس بن مالك قال: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عندنا والوقت صيف، فعرق، فجاءت

أمي بقارورة فجعلت تسلت عرقه، فاستيقظ وقال: يا أم سليم، ما تصنعين؟ قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، فإنه من أطيب الطيب، ونرجو به بركة صبياننا؛ فقال: أصبت. ومن كلام عمر: لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر، إن فائتي ربحه لم يفتني ربحه. ناول المتوكل أحمد بن أبي فنن فرة مسك، فأنشده:

لقد طيبته من يدك الأنامل

لئن كان هذا طيبنا وهو طيب

قالوا: !سميت الغالية غالية، لأن عبد الله بن جعفر أهدى لمعاوية قارورة منها، فسأله، كم أنفق عليها، فذكر مالا، فقال: هذه غالية فسميت غالية.

شم مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري من أخته هند بنت أسماء ريح غالية، وكانت تحت الحجاج، فقال: علميني طيبك؛ قالت: لا أفعل، أتريد أن تعلمه جواريك! هو لك عندي ما أردته، ثم ضحكت وقالت: والله ما تعلمته إلا من شعرك حيث قلت:

فأر مسك بعنبر مسحوق

أطيب الطيب طيب أم أبان

فهو أحوى على اليدين شريق

خلطته بعودها وبيان

وروى أبو قلابة قال: كان أبن مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف من في الطريق أنه قد مر من طيب ريحه. وروى الحسن بن زيد عن أبيه، قال: رأيت ابن عباس حين أحرم والغالية على صلته كأثما الرب. أو لم المتوكل في طهر بنيه، فلما كثر اللعب قال ليحمى بن أكتثم: انصرف أيها القاضي، قال: ولم؛ قال: لأنهم يريدون أن يخلطوا؛ قال: أحوج ما يكونون إلى قاض إذا خلطوا، فاستظرفه وأمر أن تغلف لحيته؛ ففعل؛ فقال يحمى: إنا لله! ضاعت الغالية، كانت هذه تكفيني دهرًا لو دفعت إلي، فأمر له بزورق لطيف من ذهب مملوء من غالية ودرج بخور، فأخذهما وانصرف.

وروى عكرمة أن ابن عباس كان يطلي جسده بالمسك، فإذا مر بالطريق قال الناس: أمر ابن عباس أم المسك.

وقال أبو الضحى: رأيت على رأس ابن الزبير من المسك مالو كان لي لكان رأس مالي.

لما بنى عمر بن عبد العزيز على فاطمة بنت عبد الملك اشرح في مسارجه تلك الليلة الغالية إلى أن طلعت الشمس.

كانت لابن عمر بندقية من مسك يوكها بين راحتيه فتفوح رائحتها.

كان عمر، بن عبد العزيز في إمارته المدينة يجعل المسك بين قدميه ونعله، فقال فيه الشاعر يمدحه:

وإن وُضعت في مجلس القوم شمت

له نعل لا تطبي الكلب ريحها

سمع عمر قول سحيم عبد بني الحسحاس:

ولا ثوب إلا درعها وردائيا

وهبت شمال آخر الليل قرة

مدى الحول حتى أنهج البرد باليا

فما زال بردي طيباً من ثيابها

فقال له: ويحك! إنك مقتول، فلم تمض عليه أيام حتى قتل.

قال الشعبي: الرائحة الطيبة تزيد في العقل.

كان عبد الله بن زيد يتخلق بالخلق، ثم يجلس في المجلس.

وكانوا يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسخوا مقاديرهم بالطيب.

واشترى تميم الداري حلة بثمانمائة درهم، وهياً طيباً، فكان إذا قام من الليل تطيب وليس حلتته، وقام في المحراب.

وقال أنس: يا جميلة، هبني لنا طيباً امسح به يدي، فإن ابن أم ثابت إذا جاء قبل يدي - يعني ثابتاً الباني.

وقال سلم بن قتيبة: لقد شمت من فلان رائحة أطيب من مشطه العروس الحسناء في انف العاشق الشيق.

ومن كلام بعض الصالحين: الفاسق رجس ولو تضحك بالغالية.

عرضت مدينة لكثير فقالت له: أنت القائل:

يمج الندى جثائها وعرارها!

فما روضة بالحزن طيبة الثرى

وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

بأطيب من أردأن عزة موهناً

لو كانت هذه الصفة لزنجية تجتلي الحلة لطابت، هلا قلت كما قال سيدك أمرؤ القيس:

وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

ألم ترياني كلما جث طارقاً

وقال الزمخشري: إن النوى المنقع بالمدينة ينتاب أشرافها المواضع التي يكون فيها التماسنا لطيب ريحه، وإذا وجدوا ريحه

بالعراق هربوا منها لخبثها، قال: ومن اختلف في طرقات المدينة وجد رائحة طيبة وبنة عجيبة، ولذلك سميت طيبة،

والزنجية بما تجعل في رأسها شيئاً من بلح وما لا قيمة له، فتجد له خمرة لا يعدلها بيت عروس من ذوات الأقدار.

قال: ولو دخلت كل غالية وعطر قصبة الأهواز وقصبة إنطاكية لوجدتها قد تغيرت وفسدت في مدة يسيرة.

أراد الرشيد المقام في إنطاكية، فقال له شيخ منها: إنما ليست من بلادك، فإن الطيب الفأخر يتغير فيها حتى لا ينتفع منه بشيء، والسلاح يصدأ فيها.

سيراف: من بلاد فارس، لها فغمة طيبة.

فأرة المسك دوية شبيهة بالخشف تكون في ناحية تبت تصاد لأجل سرقتها، فإذا صاها الصائد عصب سرقتها بعصاب

شديد وهي مدلاة، فيجتمع فيها دمها، ثم يذبحها، وما أكثر من يأكلها، ثم يأخذ السرة فيدفنها في الشعر حتى يستحيل

الدم المحتقن فيها مسكاً ذكياً بعد أن كان لا يرام نثناً، وقد يوجد في البيوت جردان سود يقال لها فأر المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها

وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ قال: سألت بعض أصحابنا المعتزلة عن شأن المسك فقال: لولا أن رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم تطيب بالمسك لما تطيب به، لأنه دم، فأما الزباد فليس مما يقرب ثيابي، فقلت له: قد يرتضع الجدي من

لبن خنزيره فلا يحرم لحمه، لأن ذلك اللبن استحلال لحم، وخرج من تلك الطبيعة، وعن تلك الصورة، وعن ذلك الاسم،

وكذا لحم الجلالة، فالمسك غير الدم، والخل غير الخمر، والجوهر لا يحرم لذاته وعينه، وإنما يحرم للأعراض والعلل فلا تقرز

منه عند ذكرك الدم، فليس به بأس.

قال الزمخشري: والزبادة هرة. ويقال للزبلع، وهم الذين يجتلبون الزباد يا زبلع الزبادة ماتت، فيغضب.

وقال ابن جزلة الطبيب في المنهاج: الزباد طيب يؤخذ من حيوان كالسنور يقال: إنه وسخ في رحمها.

وقال الزمخشري: العنبر يأتي طفاوة على الماء لا يدري أحد معدنه، يقذفه البحر إلى البر فلا يأكل منه شيء إلا مات، ولا

نقره طائر إلا بقي منقاره فيه، ولا يقع عليه إلا نصلت أظفاره، والبحريون والعطارون ربما وجدوا فيه المنقار والظفر.

قال: والبال، وهو سمكة طولها خمسون ذراعاً، يأكل منه اليسير فيموت.

قال: وسمعت ناساً من أهل مكة يقولون: هو ضعف ثور في بحر الهند، وقيل: هو من زبد بحر سرنديب، وأجوده الأشهب،

ثم الأزرق وأدونه الأسود.

وفي حديث ابن عباس: ليس في العنبر زكاة، إنما هو شيء يدسر به البحر، أي يدفعه.

فأما صاحب المنهاج في الطب فقال: العنبر من عين في البحر، ويكون حماحم أكبرها وزنه ألف مثقال، والأسود أردأ

أصنافه، وكثيراً ما يوجد في أجواف السمك التي تأكله وتموت. وتوجد فيه سهوكة.

وقال في المسك: إنه سرّة دابة كالظبي، له نابان أبيضال! معقفان إلى جانب الإنسي كقرنين. جاء في الحديث المرفوع: "لا

تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن إذا خرجن ثقلات"، أي غير متطيبات.

وفي الحديث أيضاً: "إذا شهدت إحداكن العشاء فلا تمس طيباً، والمراد من ذلك إلا تهيج عليهن شهوة الرجال، قال

الشاعر:

والمسك بينا تراه ممتهنّاً

بفهر عطاره وساحقه

حتى تراه في عارضي ملك

أو موضع التاج من مفارقه

الصنوبري في استهداء المسك:

المسك أشبه شيء بالشباب فهب

بعض الشباب لبعض العصبية الشيب

يقال: إن رجلاً وجد قرطاساً فيه اسم الله تعالى، فرفعه، وكان عنده دينار، فاشترى به مسكاً، فطيبه، فرأى في المنام قائلاً

يقول له كما طيبت اسمي لاطين ذكرك.

قال خالد بن صفوان ليزيد بن المهلب: ما رأيت صداً المغفر، ولا عقب العنبر بأحد أليق منه بك، فقال: حاجتك، قال: ابن

أخ لي في حبسك، فقال: يسبقك إلى المنزل.

قال الشاعر:

كأن دخان الند ما بين جمره

بقايا ضباب في رياض شقيق

قالوا: خير العود المندي، وهو منسوب آل مندل: قرية من قرى الهند، وأجوده أصلبه، وامتحان رطبه أن ينطبع فيه نقش

الخاتم، واليابس تفصح عنه النار، ومن خاصية المندي أن رائحته تثبت في الثوب أسبوعاً، وأنه لا يقمل ما دامت فيه. قال

صاحب المنهاج: العود عروق أشجار تقلع وتدفن في الأرض حتى تتعفن، منها الخشبية والقشرية، ويبقى العود الخالص،

وأجوده المندلي، ويجلب من وسط بلاد الهند، ثم الجود الهندي، وهو يفضل على المندلي بأنه لا يولد القمل، وهو أعبق بالثياب.

قال: وأفضل العود أرسبه في الماء، والطافي ردي، وقال أبو العباس الأعمى:

ليت شعري من أين رائحة المس
حين غابت بنو أمية عنه
خطباء على المنابر فرسا
بحلوم مثل الجبال رزان
ك وما إن أخال بالخيف انسي
والبهاليل من بني عبد شمس
ن على الخيل قاله غير خرس
ووجوه مثل الدنانير ملمس

وقال المسيب بن علس:

تبيت الملوك على عتبها
وكالشهد بالراح ألفاظهم
وكالمسك ترب مقاماتهم
وشيبان إن غضبت تعتب
وأخلاقهم منهما أعذب
وترب قبورهم أطيب

أخذه العباس بن الأحنف فقال:

وأنت إذا ما وطئت التراب
ب كان تراكب للناس طيبا

وهجا بعض الشعراء العمال في أيام عمر، ووقع عليهم، فقال في بعض شعره:

نثوب إذا أبوا ونغزو إذا غزوا
إذا التاجر الداري جاء بفأرة
فانى لهم وفر ولسنا ذوي وفر
من المسك راحت في مفارقهم تجري

فقبض عمر على العمال وصادرهم.

قالوا في الكافور: إنه ماء في شجر مكفور فيه يغرزونه بالحديد، فإذا خرج إلى ظاهر ذلك الشجر ضربه الهواء فانهقد كالصموغ الجامدة على الأشجار.

وقال صاحب المنهاج: هو أصناف: منها الفنصوري، والرباحي، والأزاد، والإسفرک الأزرق، وهو المختلط بخشبه، وقيل إن شجرته عظيمة تظل أكثر من مائة فارس، وهي بحرية، وخشب الكافور أبيض إلى الحمرة خفيف، والرباحي يوجد في بدن شجرته قطع كالتلج، فإذا شققت الشجرة تناثر منها الكافور.

الند: هو الغالية، وهو العود المطري بالمسك والعنبر ودهن ألبان، ومن الناس من لا يضيف إليه دهن ألبان، ويجعل عوضه الكافور، ومنهم من لا يضيف إليه الكافور أيضاً، ومن الناس من يركب الغالية من المسك والعنبر والكافور ودهن النيلوفر.

قال الأصمعي: قلت لأبي المهدية الأعرابي: كيف تقول، ليس الطيب إلا المسك؛ فلم يحفل الأعرابي، وذهب إلى مذهب آخر، فقال: فأين أنت عن العنبر؛ فقلت: كيف تقول: ليس الطيب إلا المسك والعنبر؛ قال: فأين أنت عن ألبان، قلت:

فكيف تقول: ليس الطيب إلا المسك والعنبر والبان؛ قال: فأين أنت عن ادهان بحجر - يعني اليمامة، قلت: فكيف تقول ليس الطيب إلا المسك والعنبر بالبان وادهان بحجر؛ قال: فأين أنت عن فارة الإبل صادرة؛ فرأيت أي قد أكثرت عليه، فتركته قال: وفأرة الإبل ريحها حين تصدر عن الماء. وقد أكلت العشب الطيب. وفي فارة الإبل يقول الشاعر:

كأن فارة مسك في مباعثها

إذا بدا من ضياء الصبح تنتشر

كان لأبي أيوب المرزباني وزير المنصور دهن طيب يدهن به إذا ركب إلى المنصور فلما رأى الناس غلبته على المنصور وطاعته له فيما يريد، حتى إنه ربما كان يستحضره ليقع به، فإذا رآه تبسم إليه وطابت نفسه، قالوا: دهن أبي أيوب من عمل السحرة، وضربوا به المثل، فقالوا لمن يغلب على الإنسان، معه دهن أبي أيوب. أعرابي: فيها مدر كف ومشم أنف، وقال عيينة بن أسماء بن خارجة الفزاري:

لو كنت احمل خمرًا حين زرتكم

لم ينكر الكلب أني صاحب الدار

لكن أتيت وريح المسك يقدمني

والعنبر مشبوباً على النار

فأنكر الكلب ريحي حين خالطني

وكان يألّف ريح الزق والقار

قال الأصمعي: ذكر لأبي أيوب هؤلاء الذين يتقشفون، فقال: ما علمت أن القذر والذفر من الدين. ريح الكلب مثل في النتن، قال الشاعر:

ريحها ريح كلاب

هارشت في يوم ظل

وقال آخر: يزداد لؤماً على المديح كما يزداد نتن الكلاب في المطر وقالت امرأة امرئ القيس له وكان مفركاً عند النساء: إذا عرقت عرقت بريح كلب. قال: صدقت، إن أهلي أَرْضَعُونِي مرة بلبن كلبية. قال سلمة بن عياش، يقول لجعفر بن سليمان:

فما شم أنفي ريح كف رأيتها

من الناس إلا ريح كفك أطيب

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال من المسك ومائة مثقال من العنبر. وجه عمر إلى ملك الروم بريداً فاشتريت أم كلثوم امرأة عمر طيباً بدنانيير وجعلته في قارورتين وأهدتهما إلى امرأة ملك الروم، فرجع البريد إليها ومعه ملء القارورتين جواهر، فدخل عليها عمر، وقد صبت الجواهر في حجرها، فقال: من أين لك هذا؟ فأخبرته، فقبض عليه، وقال: هذا للمسلمين، قالت: كيف وهو عوض هديتي! قال: بيني وبينك أبوك، فقال علي عليه السلام لك منه بقيمة دينارك، والباقي للمسلمين جملة لأن بريد المسلمين حملة. قيل لخديجة بنت الرشيد: رسل العباس بن محمد على الباب، معهم زنبيل يحمله رجلان. فقالت: تراه بعث إلي باقلاء؛ فكشف الزنبيل عن جرة مملوءة غالية فيها مسحة من ذهب، وإذا برقعة: هذه جرة أصيبت هي وأختها في خزائن بني أمية، فأما أختها فغلب عليها الخلفاء، وأما هذه فلم أر أحداً أحق بها منك.

الأصل: ضع فخرك، واحالط كبرك، وأذكر قبرك.

الشرح: قد تقدم القول في العجب والكبر والفخر.

بعض ما قيل في الفخر

في الحديث المرفوع: "إن الله قد اذهب عنكم عيبه الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس لآدم، وآدم من تراب، مؤمن تقي، وفاجر شقي، لينتهين أقوام يتفأخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من جعلات تدفع التتن بأنفها".

ومن وصيته صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي عليه السلام: "لا فقر أشد من الجهل، ولا وحشة أفحش من العجب".
أتى وائل بن حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأقطعه أرضاً، وأمر معاوية أن يمضي معه فيريه الأرض ويعرضها عليه، ويكتبها له، فخرج مع وائل في هاجرة شاوية، ومشى خلف ناقته فأحرقته الرمضاء، فقال: أردفني: قال: لست من أرداف الملوك، قال: فادفع إلي نعليك، قال: ما بخل بمنعني يا بن أبي سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلي، ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بذاك شرفاً، ويقال: إنه عاش حتى أدرك زمن معاوية فأجسه معه على سريره.
قيل لحكيم: ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقاً؛ فقال: الفخر.

حبس هشام بن عبد الملك الفرزدق في سجن خالد بن عبد الله القسري، فوفد جرير إلى خالد ليشفع فيه، فقال له خالد: ألا يسرك أن الله قد أخزى الفرزدق؛ فقال: أيها الأمير، والله ما أحب أن يحزيه الله إلا بشعري، وإنما قدمت لأشفع فيه.
قال: فاشفع فيه في مألٍ ليكون أخزى له، فشفع فيه، فدعا به فقال: إني مطلقك بشفاعتي جرير، قال: أسير قسري، وطليق كلي، فبأي وجه أفأخر العرب بعدها! ردي إلى السجن.

ذكر أعرابي قوماً فقال: ما نالوا بأناملهم شيئاً إلا وقد وطئناه بأخص أقدامنا، وإن أقصى مناهم لأدق فعالنا.
نظر رجل إلى بعض ولد أبي موسى يحتال في مشيته، فقال: ألا ترون مشيته؛ كأن أباه خدع عمرو بن العاص! وسمع الفرزدق أبا بردة يقول: كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحكمين، فقال: أحدهما مائق، والآخر فاسق، فكن ابن أيهما شئت.

نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي دجانة وهو يتبختر بين الصفين، فقال: "إن هذه مشيه ييغضها الله إلا في هذا الموطن".

لما بلغ الحسن بن علي عليه السلام قول معاوية: إذا لم يكن الهاشمي جواداً والأموي حليماً والعوامي شجاعاً والمخزومي تياهاً لم يشبهوا آباءهم، فقال: إنه والله ما أراد بها النصيحة، ولكن أراد أن يفني بنو هاشم ما في أيديهم فيحتاجوا إليه، وأن يشجع بنو العوام فيقتلوا، وإن يتيه بنو مخزوم فيمقتلوا، وأن يحلم بنو أمية فيحبهم الناس.
كان قاضي القضاة محمد بن أبي الشوارب الأموي تائهاً، فهجاه عبد الأعلى البصري فقال:

مستصغراً لجميع هذي الناس

إنني رأيت محمداً متشاورساً

نفساً له يعلو على الأنفاس

تستن دون لحى بني العباس!

ويقول لما أن تنفس خالياً

ويح الخلافة في جوانب لحيتي

بعض الأموية:

يتيه فرشحه لكل عظيم

يتيه لحمق أوبيته للوم

إذا تائه من عبد شمس رأيته

وإن تاه تياه سواء فإنه

لبعض الأموية أيضاً:

بنا الحال أو دارت علينا الدوائر !

له الأرض واهترت إليه المنابر

ألسنا بني مروان كيف تبدلت

إذا ولد المولود منا تهلت

بعض التياهين:

ولولم أجد خلقاً أتيه على نفسي

سوى ما يقول الناس في وفي جنسي

فما لي عيب غير أني من الإنس

أتيه على إنس البلاد وجنها

أتيه فلا أدري من التيه من أنا

فإن زعموا أني من الإنس مثلهم

بعض العلوية:

بمط خدود وامتداد أصابع

عليهم بما نهوى نداء الصوامع

عليهم أذان الناس في كل جامع

وأن بنيهم كالنجوم الطوالع

لقد نازعتنا من قريش عصابة

فلما تنازعنا الفخار قضى لنا

ترانا سكوتاً والشهيد بفضلنا

بأن رسول الله لا شك جدنا

كان عمارة بن حمزة بن ميمون مولى بني العباس مثلاً في التيه؛ حتى قيل: أتيه من عمارة. وكان يتولى دواوين السفاح والمنصور، وكان إذا أخطأ مضى على خطئه تكبراً عن الرجوع، ويقول: نقض وإبرام في حالة واحدة، الإصرار على الخطأ أهون من ذلك.

وافتحرت أم سلمة المخزومية امرأة السفاح ذات ليلة بقومها على السفاح، وبنو مخزوم يضرب بهم المثل في الكبر والتيه، فقال: أنا أحضرك الساعة على غير أهبة مولى من موالي ليس في أهلك مثله، فأرسل إلى عمارة، وأمر الرسول أن يعجله عن تغيير زيه، فجاء على الحال التي وجدته عليها الرسول في ثياب ممسكة مزررة بالذهب، وقد غلف لحيته بالغالية حتى قامت، فرمى إليه السفاح بمدخن ذهب مملوء غالية، فلم يلتفت إليه، وقال: هل ترى لها في لحيته موضعاً؛ فأخرجت أم سلمة عقداً لها ثميناً، وأمرت خادماً أن يضعه بين يديه، فقام وتركه، فأمرت الخادم أن يتبعه به، ويقول: إنها تسألك قبوله، فقال للخادم: هو لك، فأنصرف بالعقد إليها، فأعطت الخادم فكاكه عشرة آلاف دينار، واسترجعته، وعجبت من نفس

عمارة، وكان عمارة لا يذل للخلفاء وهم مواليه ويتيه عليهم.

نظر رجل إلى المهدي ويده في يد عمارة، وهما يمشيان، فقال: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: هذا أخي، وابن عمي عمارة بن حمزة، فلما ولى الرجل ذكر المهدي الكلمة كالممازح لعمارة، فقال عمارة: والله لقد انتظرت أن تقول: مولاي فأنفض يدي من يدك، فتبسم المهدي.

وكان أبو الربيع الغنوي أعرايياً جافياً تياهاً شديد الكبر، قال أبو العباس المبرد في الكامل: فذكر الجاحظ أنه أتاه ومعه رجل هاشمي، قال: فنادت: أبو الربيع هنا؛ فخرج إلي وهو يقول: خرج إليك رجل أكرم الناس، فلما رأى الهاشمي استحيا وقال: أكرم الناس رديفاً، وأشرفهم حليفاً - أراد بذلك أبا مرثد الغنوي، لأنه كان رديف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وحلف أبي بكر - قال: حدثنا ساعة ثم نهض الهاشمي فقلت له: من خير الخلق؟ قال: الناس والله، قلت: من خير الناس؟ قال: العرب والله، قلت: فمن خير العرب؟ قال: مضر والله؛ قلت: فمن خير مضر؟ قال: قيس والله؛ قلت: فمن خير قيس؟ قال: يعصر والله، قلت: فمن خير يعصر، قال: غني والله، قلت: فمن خير غني؟ قال: المخاطب لك والله، قلت: أفأنت خير الناس؟ قال: إي والله؛ قلت: أيسرك أن تكون تحتك ابنة يزيد بن المهلب؟ قال: لا والله قلت: ولك ألف دينار؟ قال: لا والله؛ قلت: فالف دينار؟ قال: لا والله؛ قلت: ولك الجنة، قال: فأطرق ثم قال: على ألا تلدمني، ثم انشد:

من أن تناسب قوماً غير أكفاء

فأذكر حذيفاً فإني غير أبا

أتأبى ليعصر أعراق مهذبة

فإن يكن ذاك حتماً لا مرد له

أراد حذيفة بن بدر الفزاري، وكان سيد قيس في زمانه.

رأى عمر رجلاً يمشي مرخياً يديه، طارحاً رجله، يتبختر، فقال له: دع هذه المشية، فقال: ما أطيق، فجلده ثم خلعه، فترك التبختر، فقال عمر: إذا لم أجلد في هذا ففم أجلد؛ فجاءه الرجل بعد ذلك فقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً، إن كان إلا شيطاناً سلط علي فأذهب الله بك.

الأصل: خذ من الدنيا ما أتاك، وتول عما تولى عنك، فإن أنت لم تفعل فأجل في الطلب.

الشرح: كان يقال: اجعل الدنيا كغريم السوء حصل منه ما يرضخ لك به، ولا تأس على ما دفعك عنه؛ ثم قال عليه السلام: "إن لم تفعل فأجل في الطلب، وهي من الألفاظ النبوية: "لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فأجملوا في الطلب".

قيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ فقال: قلة تمنيك، ورضاك بما يكفيك.

الأصل: رب قول، أنفذ من أصول.

الشرح: قد قيل هذا المعنى كثيراً، فمنه قولهم:

والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

ومن ذلك: القول لا تملكه إذا نما، كالسهم لا تملكه إذا رمى، وقال الشاعر:

وقافية مثل حد السنا

تخيرتها ثم أرسلتها

وقال محمود الوراق:

أتاني منك ما ليس

فأغضيت على عمد

وأدبتك بالهجر

ولا ردك عما كا

فلما اضطرني المكر

تناولتك من شعري

فحركت جناح الضر

إذا لم يصلح الخير أم

وقال الرضي رحمه الله:

سأمضغ بالأقوال أعراض قومكم

يرى للقوافي والسماء جلية

وقال أيضاً:

كعمت لساني أن يقول وإن يقل

وإن بروداً للمخازي معدة

قلائد في الأعناق بالعار لا تهـي

إذا صلصلت بين القنا قضت القنا

الأصل: كل مقتصر عليه كاف.

الشرح: هذا من باب القناعة، وإن من أقتصر على شيء وقنعت به نفسه فقد كفاه، وقام مقام الفضول التي يرغب فيها المترفون؛ وقد تقدم القول في ذلك.

الأصل: المنية ولا الدنية، والتقلل ولا التوسل.

الشرح: قد تقدم من كلامنا في هذا الباب شيء كثير، وقال الشاعر:

اقسم بالله لمص النوى

أحسن بالإنسان من ذله

فاستغن بالله تكن ذا غنى

ن تبقى ويذهب من قالها

ولم يطق الناس إرسالها

على مكروهة صبر

وكم يغضي الفتى الحر

فما أدبك الهجر

ن منك الصفح والبر

ه اشتد بي الأمر

بما ليس له قدر

لما مسك الضر

راً أصلحه الشر

وللقول أنياب لدي حداد

عليكم بروق جمة ورعاد

فقل في الجراز العضب إن فارق الغمدا

فمن شاء من ذا الحي أسحبته بردا

على مر أيام الزمان ولا تصدا

وإن زفرت في السرد قطعت السردا

وشرب ماء القلب المالحة

ومن سؤال الأوجه الكالحة

مغتبطاً بالصفقة الراححة

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

فالزهد عز والتقى سؤدد

وذلة النفس لها فاضحه

كم سالم صيح به بغتة

وقائل عهدي به البارحة

أمسى وأمست عنده قينة

وأصبحت تندبه نائحة

طوبى لمن كانت موازينه

يوم يلاقي ربه راجحة

وقال أيضاً:

لمص الثماد وخرط القتاد

وشرب الأجاج أوان الظمأ

على المرء أهون من أن يرى

ذليلاً لخلق إذا أعدم

وخير لعينيك من منظر

إلى ما بأيدي اللئام العمى

قلت: لحاه الله، هلا قال: بأيدي الرجال! الأصل: من لم يعط قاعداً، لم يعط قائماً.

الشرح: مراده أن الرزق قد قسمه الله تعالى، فمن لم يرزقه قاعداً لم يجب عليه القيام والحركة؛ وقد جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم ناول أعرابياً ثمرة، وقال له: "خذها فلو لم تأكلها لأنتك"، وقال الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون

فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق

ويرزق في غشاوته الجنين

الأصل: الدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر.

الشرح: قديماً قيل هذا المعنى: الدهر يومان: يوم بلاء، ويوم رخاء. والدهر ضربان: حيرة وعبرة. والدهر وقتان: وقت سرور، ووقت ثبور.

وقال أبو سفيان يوم أحد: يوم بيوم بدر، والدنيا دول.

قال عليه السلام: فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر.

قد تقدم القول في ذم البطر ومدح الصبر، ويحمل ذم البطر هاهنا على محملين. أحدهما البطر بمعنى الأشر، وشدة المرح، بطر الرجل بالكسر يبطر، وقد أبطره المال، وقالوا: بطر فلان معيشته، كما قالوا: رشد فلان أمره. والثاني البطر بمعنى الحيرة والدهش، أي إذا كان الوقت لك فلا تقطعن زمانك بالحيرة والدهش عن شكر الله ومكافأة النعمة بالطاعة والعبادة والمحمل الأول أوضح.

الأصل: إن للوالد على الولد حقاً، وإن للولد على الوالد حقاً، فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، ويحسن أدبه، ويعلمه القرآن.

الشرح: أما صدر الكلام فمن قول الله سبحانه: "أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما".

نوادير حول الأسماء والكنى

وأما تعليم الوالد الولد القرآن والأدب فمأمور به، وكذلك القول في تسميته باسم حسن، وقد جاء في الحديث: "تسموا بأسماء الأنبياء"، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن. وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة". وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم".

وقال عليه السلام: "إذا سميتم فعبدوا أي سموا بانيكم عبد الله ونحوه من أسماء الإضافة إليه عز اسمه".

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يغير بعض الأسماء، سمي أبا بكر عبد الله، وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، وسمى ابن عوف عبد الرحمن، وكان اسمه عبد الحارث، وسمى شعب الضلالة شعب الهدى، وسمى يثرب طيبة، وسمى بني الرية بني الرشدة، وبني معاوية بني مرشدة.

كان سعيد ابن المسيب بن حزن المخزومي أحد الفقهاء المشهورين، أتى جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: ما اسمك؟ ألا وسلم قال: حزن، قال: لا، بل أنت سهل، لا، بل أنا حزن، عاوده فيها ثلاثاً، ثم قال: لا أحب هذا الاسم، السهل يوطأ ويمتن، فقال: فأنت حزن، فكان سعيد يقول: فما زلت أعرف تلك الحزونة فينا.

وروى جابر عنه عليه السلام: "ما من بيت فيه أحد اسمه محمد إلا وسع الله عليه الرزق فإذا سميتموهم به فلا تضربوهم ولا تشتموهم، ومن ولد له ثلاثة ذكور ولم يسم أحدهم أحمد أو محمداً فقد جفاني" أبو هريرة عنه عليه السلام، أنه نهى أن يجمع بين اسمه وكنيته لأحد.

وروى أنه أذن لعلي بن أبي طالب عليه السلام في ذلك، فسمى ابنه محمد بن الحنفية محمداً، وكناه أبا القاسم. وقد روي أن جماعة من أبناء الصحابة جمع لهم بين الاسم والكنية.

وقال الزمخشري: قد قدم الخلفاء وغيرهم من الملوك رجالاً بحسن أسمائهم، وأقصوا قوماً لشناعة أسمائهم، وتعلق المدح والذم بذلك في كثير من الأمور.

وفي رسالة الجاحظ إلى أبي الفرج نجاح بن سلمة: قد أظهر الله في أسمائكم وأسماء آبائكم وكنائكم وكنى أجدادكم من برهان الفأل الحسن، ونفي طيرة السوء، "ما جمع لكم صنوف الأمل، وصرف إليكم وجوه الطلب، فأسمائكم وكنائكم بين فرج ونجاح، وسلامة وفضل، ووجوهكم وأخلاقكم وفق أعراقكم وأفعالكم، فلم يضرب التفاوت فيكم بنصيب. أراد عمر الاستعانة برجل! فسأله عن اسمه واسم أبيه، فقال: سراق بن ظالم، فقال: تسرق أنت وبظلم أبوك!! فلم يستعن به.

سأل رجل رجلاً: ما اسمك؟ فقال: بحر؛ قال: أبو من؛ قال: أبو الفيض قال: ابن من؛ قال: ابن الفرات، قال: ما ينبغي لصديقك أن يلقاك إلا في زورق.

وكان بعض الأعراب اسمه وثاب، وله كلب اسمه عمرو، فهجاه أعرابي آخر فقال:

من التوفيق أسبابا

ولو هيا له الله

لسمى نفسه عمراً

وسمى الكلب وثابا

قالوا: وكلما كان الاسم غريباً كان أشهر لصاحبه وأمنع من تعلق النبز به قال رؤية:

قد رفع العجاج ذكرى فادعني

باسمي إذا الأسماء طالت تكفني

ومن هاهنا أخذ المعري قوله بمدح الرضي والمرتضى رحمهما الله:

أنتم ذو و النسب القصير فطولكم

باد على الكبراء والأشراف

والراح إن قيل ابنة العنب اكتفت

بأب عن الأسماء والأوصاف

وسأل النسابة البكري رؤية عن نسبه ولم يكن يعرفه، قال: أنا ابن العجاج، قال: قصرت وعرفت.

صاح أعرابي بعبد الله بن جعفر: يا أبا الفضل! قيل: ليست كنيته، قال: وإن لم تكن كنيته فإنها صفته. نظر عمر إلى جارية له سوداء تبكي فقال: ما شأنك؟ قالت: ضربني ابنك أبو عيسى، قال: أوقد تكني بأبي عيسى! علي به، فأحضره، فقال: ويحك! أكان لعيسى أب فتكني به! أتدري ما كنى العرب! أبو سلمة، أبو عرفة، أبو طلحة، أو حنظلة، ثم أدبه. لما أقبل قحطبة بن شبيب نحو ابن هبيرة أراد ابن هبيرة أن يكتب إلى مروان بخبره، وكره أن يسميه، فقال: اقبلوا اسمه، فوجدوه هبط حق، فقال: دعوه على هيئته.

قال برصوما الزامر لأمه: ويحك! أما وجدت اسماً تسميني به غير هذا! قالت: لو علمت أنك تجالس الخلفاء والملوك سميتك يزيد بن مزيد.

قيل لبعض صبيان الأعراب: ما اسمك! قال: قراد، قيل: لقد ضيق أبوك عليك الاسم، قال: إن ضيق الاسم لقد أوسع الكنية، قال: ما كنيته؟ قال: أبو الصحاري نظر المأمون إلى غلام حسن الوجه في الموكب، فقال له: يا غلام، ما اسمك؟ قال: لا أدري، قال: أو يكون أحد لا يعرف اسمه، فقال: يا أمير المؤمنين، اسمي الذي أعرف به "لا أدري"، فقال المأمون:

وسميت لا أدري لأنك لا تدري

بما فعل الحب المبرح في صدري

ولد لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ولد ذكر، فبشر به وهو عند معاوية بن أبي سفيان، فقال له معاوية، سمه باسمي ولك خمسمائة ألف درهم، فسماه معاوية، فدفعها إليه، وقال اشتر بها لسمي ضيعة. ومن حديث علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إذا سميت الولد محمداً فأكرموه، وأوسعوا له في المجلس، ولا تقبحوا له وجهاً".

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: "ما من قوم كانت لهم مشورة فحضر معهم عليها من اسمه محمداً أو أحمد فأدخلوه في مشورتهم إلا خير لهم، وما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه محمد أو أحمد إلا قدس ذلك المنزل في كل يوم مرتين".

من أبيات المعاني:

وحللت من مضر بأمنع ذروة

منعت بحد الشوك والأحجار

قالوا: يريد بالشوك أخواله، وهم: قتادة وطلحة وعوسجة ، وبالأحجار أعمامه، وهم صفوان وفهر وجندل وصخر وجرول .

سمى عبد الملك ابناً له الحجاج لحبه الحجاج بن يوسف وقال فيه:

سميته الحجاج بالحجاج

الناصح المكاشف المداجي

استأذن الجاحظ والشكاك - وهو من المتكلمين - على رئيس، فقال الخادم لمولاه: الجاحد والشكاك، فقال: هذان من الزنادقة لا محالة! فصاح الجاحظ: ويحك! ارجع قل: الحدقي بالباب - وبه كان يعرف - فقال الخادم: الحلقي بالباب، فصاح الجاحظ ويلك! ارجع إلى الجاحد.

جمع ابن دريد ثمانية أسماء في بيت واحد فقال:

فنعم أخو الجلى ومستتبط الندى

وملجأ مكروب ومفزع لاهث!

عياذ بن عمرو بن الجليس بن جابر

بن زيد بن منظور بن زيد بن وارث

قال محمد بن صدقة المقرئ ليموت بن المزارع: صدق الله فيك اسمك! فقال له: أحوجك الله إلى اسم أبيك. سأل رجل أبا عبيده عن اسم رجل من العرب، فلم يعرفه، فقال كيسان غلامه: أنا أعرف الناس به، هو خراش أو خدش أو رياش أو شي آخر، فقال أبو عبيده ما أحسن ما عرفته يا كيسان! قال: إي والله، وهو قرشي أيضاً، قال: وما يدريك به؟ قال: أما ترى كيف احتوشته الشينات من كل جانب! قال الفرزدق:

وقد تلتقي الأسماء في الناس والكنى

كثيراً ولكن ميزوا في الخلائق

رأى الإسكندر في عسكره رجلاً لا يزال ينهزم في الحرب، فسأله عن اسمه؛ فقال: اسمي الإسكندر، فقال!: يا هذا، إما أن تغير اسمك، وإما أن تغير فعلك.

قال شيخنا أبو عثمان: لولا أن القدماء من الشعراء سمى الملوك وكنيتها في أشعارها، وأجازت واصطلحت عليه ما كان جزء من فعل ذلك إلا العقوبة، على أن ملوك بني سامان لم يكن لها أحد من رعاياها قط، ولا سماها في شعر ولا خطبة، وإنما حدث هذا في ملوك الحيرة، وكانت الجفأة من العرب لسوء أدبها وغلظ تركيبها إذا أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاطبوه باسمه وكنيته، فأما أصحابه فكانت مخاطبتهم له: يا رسول الله. وهكذا يجب أن يقال للملك في المخاطبة: يا خليفة الله، ويا أمير المؤمنين. وينبغي للداخل على الملك أن يتلطف في مراعاة الأدب، كما حكى سعيد بن مرة الكندي، دخل على معاوية فقال!: أنت سعيد؛ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة.

وقال المأمون للسيد بن أنس الأزدي: أنت السيد؛ فقال: أنت السيد يا أمير المؤمنين، وأنا ابن أنس.

شاعر:

لعمرك ما الأسماء إلا علامة

منار ومن خير المنار ارتفاعها

كان قوم من الصحابة يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يا نبي الله بالهمزة، فأنكر ذلك وقال: "لست بنبي الله، ولكنني نبي الله".

وكان البحثري إذا ذكر الخثعمي الشاعر يقول: ذاك الغث العمي.

وكان صاحب ربيع يتشيع، فارتفع إليه خصمان: اسم أحدهما علي، والآخر معاوية، فانحنى على معاوية فضربه مائة سوط من غير أن اتجهت عليه حجة، ففطن من أين أتى! فقال: أصلحك الله! سل خصمي عن كنيته، فإذا هو أبو عبد الرحمن - وكانت كنية معاوية بن أبي سفيان - فبطحه وضربه مائة سوط، فقال لصاحبه: ما أخذته مني بالاسم استرجعته منك بالكنية.

الأصل: العين حق، والرقى حق، والسحر حق، والفأل حق والطيرة ليست بحق، والعدوى ليست بحق، والطيب نشرة، والعسل نشرة، والركوب نشرة، والنظر إلى الخضرة نشرة. الشرح: ويروى: "والعسل نشرة بالغين المعجمة، أي التطهير بالماء.

أخبار حول العين والطيرة والفأل والسحر والعدوى،

وقد جاء في الحديث المرفوع: "العين حق، ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين، إذا استغسلتم فاغسلوا"، قالوا في تفسيره: إنهم كانوا يطلبون من العائن أن يتوضأ بماء ثم يسقى منه المعين ويغتسل بسائره. وفي حديث عائشة: "العين حق كما أن محمداً حق"، وللحكماء في تعليل ذلك قول لا بأس به، قالوا: هذا عائذ إلى نفس العائن، وذلك لأن الهوى مطيعة للأنفس، متأثرة، بها، ألا ترى أن نفوس الأفلاك تؤثر فيها بتعاقب الصور عليها! والنفوس البشرية من جوهر نفوس الأفلاك، وشديدة الشبه بها، إلا أن نسبتها إليها نسبة السراج إلى الشمس، فليست عامة التأثير، بل تأثيرها في أغلب الأمر في بدنها خاصة، ولهذا يحمى مزاج الإنسان، عند الغضب، ويستعد للجماع عند تصور النفس صورة المعشوق، فإذا صار تصور النفس مؤثراً فيما هو خارج عنها، لأنها ليست حالة في البدن، فلا يستبعد وجود نفس لها جوهر مخصوص مخالف لغيره من جواهر النفوس تؤثر في غير بدنها، ولهذا يقال: إن قوماً من الهند يقتلون بالوهم، والإصابة بالعين من هذا الباب، وهو أن تستحسن النفس صورة مخصوصة وتتعجب منها، وتكون تلك النفس خبيثة جداً، فينفع جسم تلك الصورة مطيعاً لتلك النفس كما ينفع البدن للسم. وفي حديث أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى في وجه جارية لها سعفه، فقال: "إن بها نظرة فاسترقوا لها".

وقال عوف بن مالك الأشجعي: كنا نرقى في الجاهلية، فقلت: يا رسول الله، ما ترى في ذلك؟ فقال: "اعرضوا علي رقاكم فلا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك".

كان ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فمروا بحج من أحياء العرب، فاستضافوهم فلم يضيفوهم وقالوا لهم: هل فيكم من راق، فإن سيد الحي لديغ؛ فقال رجل منهم: نعم، فأتاه فرقاها بفاتحة الكتاب فبرئ، فعطى قطيعاً من الغنم، فأبى أن يقبلها حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: وعيشك ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، فقال: "ما أدراكم أنها رقية! خذوا منهم، واضربوا لي

معكم بسهم".

وروى بريدة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد ذكرت عنده الطيرة: "من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

وعنه عليه السلام: "ليس منا من تطئر أو تطيرله، أو تكهن أو تكهن له".

أنس بن مالك يرفعه: "ل عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح"، قالوا: فما الفأل الصالح؟ قال: الكلمة الطيبة. وعنه عليه السلام: "تفاءلوا ولا تطيروا".

وروى عبد الله بن بريدة، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه، فإذا أعجبه سر به، ورئي بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رثيت الكراهة على وجهه، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها فإن أعجبه ظهر على وجهه.

بنى عبيد الله بن زياد بالبصرة داراً عظيمة، فمر بها بعض الأعراب، فرأى في دهاليزها صورة أسد و كلب وكبش، فقال: أسد كالح، وكبش ناطح، و كلب نابح، والله لا يمتع بها، فلم يلبث عبيد الله فيها إلا أياماً يسيرة.

أبو هريرة يرفعه: "إذا ظننتم فلا تحققوا، وإذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا".

وقال عليه السلام: "أحسنها الفأل، ولا يرد قدراً، ولكن إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك".

وقال بعض الشعراء:

إلا كواذب ما يجري به الفال

مضللون ودون الغيب أقفال

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبحه

والفأل والزجر والكهان كلهم

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "القيافة والطرق والطيرة من الخبث .

ابن عباس يرفعه: "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر".

أبو هريرة يرفعه: "من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول فقد برئ مما أنزل الله على أبي القاسم".

شاعر:

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى

وقال آخر:

ء الخير تعقاد العزائم

أغدو على راق وحائم

لا يقعدنك عن بغا

فلقد غدوت وكنت لا

من والأيا من كالأشائم

شر على أحد بدائم

فإذا الأشائم كالأيا

وكذاك لا خير ولا

تفأل هشام بن عبد الملك بنصر بن سيار فقلده خراسان، فبقي فيها عشر سنين.
وتفأل عامر بن إسماعيل قاتل مروان بن محمد باسم رجل لقيه، فسأله عن أسمه، فقال: منصور بن سعد، قال: من أي العرب؟ قال: من سعد العشيرة، فاستصحبه وطلب مروان فظفر به وقتله.
وتفأل المأمون بمنصور بن بسام فكان سبب مكانته عنده.
قالوا: إنما أصل اليد اليسرى العسرى، إلا أنهم أبدلوا اليسرى من اليسر تفأؤلاً.
مزرد بن ضرار:

من الذئب يعوي والغراب المحجل

وإني امرؤ لا تقشعر ذؤابتي

الكميت:

أصاح غراب أم تعرض ثعلب

ولا أنا ممن يزجر الطير همه

وقال بعض العرب: خرجت في طلب ناقة ضلت لي، فسمعت قائلاً يقول:

ة فما البغاة بواجدينا

ولئن بعثت لها بغا

فلم أتطير و مضيت لوجهي، فلقيني رجل قبيح الوجه به ما شئت من عاهة، فلم أتطير و تقدمت فلاحت لي أكمة
فسمعت منها صائحاً:

مطالع الأكم

والشر يلقي

فلم أكثرث ولا اثنتيت وعلوئها، فوجدت ناقتي قد تفاجت للولادة فتجتتها ، وعدت إلى منزلي بها ومعها ولدها.
وقيل لعلي عليه السلام: لا تحاربهم اليوم فإن القمر في العقرب، فقال: قمرنا أم قمرهم!! وروي عنه عليه السلام أنه كان
يكره أن يسافر أو يتزوج في محاق الشهر، وإذا كان القمر في العقرب.
وروي أن ابن عباس قال على منبر البصرة: إن الكلاب من الجن وإن الجن من ضعفاء الجن، فإذا غشيكم منهم شيء
فألقوا إليه شيئاً أو اطرده، فإن لها أنفوس سوء.

وقال أبو عثمان الجاحظ: كان علماء الفرس والهند وأطباء اليونانيين ودهاء العرب وأهل التجربة من نازلة الأمصار
وحذاق المتكلمين يكرهون الأكل بين يدي السباع يخافون عيونها للذي فيها من النهم والشره، ولما ينحل عند ذلك من
أجوافها من البخار الرديء، وينفصل من عيونها مما إذا خالط الإنسان نقض بنية قلبه وأفسده. وكانوا يكرهون قيام الخدم
بالمذاب والأشربة على رؤوسهم خوفاً من أعينهم وشدة ملاحظتهم إياهم، وكانوا يأمرؤن بإشباعهم قبل أن يأكلوا،
وكانوا يقولون في الكلب والسنور إما أن يطرد أو يشغل بما يطرح له.
وقالت الحكماء: نفوس السباع أردأ النفوس وأحبثها لفرط شرها وشرها. قالوا: وقد وجدنا الرجل يضرب الحية بعصا
فيموت الضارب والحية، لأن سم الحية فصل منها حتى خالط أحشاء الضارب وقلبه، ونفذ لا مسام جسده.
وقد يديم الإنسان النظر إلى العين الحمرة فتعتري عينه حمرة، والتثاؤب يعدي أعداء ظاهراً، ويكره دنو الطامث من اللين
لتسوطه، لأن لها رائحة وبخاراً يفسد اللبن المسوط .

وقال الأصمعي: رأيت رجلاً عيوناً كان يذكر عن نفسه أنه إذا أعجبه الشيء وجد حرارة تخرج من عينه.
وقال أيضاً: كان عندنا عيونان فمر أحدهما بحوض من حجارة، فقال: قال! ما رأيت كاليوم حوضاً! فانصدع فلقطين،
فمر عليه الثاني، فقال: وأييك لقلما ضررت أهلك فيك! فتطاير أربع فلق.
وسمع آخر صوت بول من وراء جدار حائط، فقال: إنك كثير الشخب، فقالوا: هو ابنك، فقال: أوه انقطع ظهره! فقيل:
لا بأس عليه إن شاء الله، فقال: والله لا يبول بعدها أبداً، فما بال حتى مات.
وسمع آخر صوت شخب ناقة بقوة فأعجبه، فقال: أيتها هذه؛ فوروا بأخرى عنها، فهلكتا جميعاً، المورى بما والمورى
عنها.

قال رجل من خاصة المنصور له قبل أن يقتل أبا مسلم بيوم واحد: إني رأيت اليوم لأبي مسلم ثلاثاً تطيرت له منها.
قال: ما هي؟ قال: ركب فوقعت قلنسوته عن رأسه، فقال المنصور: الله أكبر! تبعها والله رأسه، فقال: وكبا به فرسه،
فقال: الله أكبر! كبا والله جده، وأصلد زنده، فما الثالثة؟ قال: إنه قال لأصحابه: أنا مقتول، وإنما أحادع نفسي، وإذا
رجل ينادي آخر من الصحراء: اليوم آخر الأجل يا فلان، فقال: الله أكبر! انقضى أجله إن شاء الله، وانقطع من الدنيا
أثره. فقتل في غد ذلك اليوم.

تجهز النابغة الذبياني للغزو - واسمه زياد بن عمرو مع زبان بن سيار الفزاري - فلما أراد الرحيل سقطت عليه جرادة
فتطير، وقال: ذات لونين تجرد، غري من خرج، فأقام ولم يلتفت زبان إلى طيرته، فذهب ورجع غائماً، فقال:

لتخبره و ما فيها خبير

أشار له بحكمته مشير

على متطير و هو الثبور

أحاييناً وباطله كثير

تطير طيرة يوماً زياد

أقام كأن لقمان بن عاد

تعلم أنه لا طير إلا

بل شيء يوافق بعض شيء

حضر عمر بن الخطاب الموسم، فصاح به صائح: يا خليفة رسول الله، فقال رجل من بني لهب، وهم أهل عيافة وزجر:
دعاه باسم ميت: مات والله أمير المؤمنين عليه السلام، فلما وقف الناس للجمار إذا حصاة صكت صلعة عمر، فادمي
منها، فقال ذلك القائل: أشعر والله أمير المؤمنين، لا والله ما يقف هذا الموقف أبداً، فقتل عمر قبل أن يحول الحول وقال
كثير بن عبد الرحمن:

وقد صار علم العائفين إلى لهب

كان للعرب كاهنان اسم أحدهما شق، وكان نصف إنسان، واسم الآخر سطيح، وكان يطوى طي الحصر، ويتكلمان
بكل أعجوبة في الكهانة، فقال ابن الرومي:

وسطيح قريعي الكهان

بعيون جلية الإنسان

تيممت لهباً أبتغي العلم عندها

لك رأى كأنه رأى شق

يستشف الغيوب عما توارى

وقال أبو عثمان الجاحظ: كان مسيلمة قبل أن يتنبأ يدور في الأسواق التي كانت بين دور العرب والعجم كسوق الأبله وسوق بقة وسوق الأنبار وسوق الحيرة يلتبس تعلم الحيل والنيرنجيات واحتيالات أصحاب الرقي والعزائم والنجوم، وقد كان أحكم علم الحزاة وأصحاب الزجر والخط، فعمد إلى بيضة فصب إليها خلا حاذقاً قاطعاً، فلانت، حتى إذا مدها الإنسان استطالت ودقت كالعلك، ثم أدخلها قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وجمدت، فعادت كهيئتها الأول، فأخرجها إلى قوم وهم أعراب واستغواهم بها، وفيه قيل:

وتوصيل مقطوع من الطير حاذق

ببيضة قارورة وراية شادن

قالوا: أراد براية الشادن التي يعملها الصبي من القرطاس الرقيق، ويجعل لها ذنبا وجناحين ويرسلها يوم الريح بحيث يطول. كان مسيلمة يعمل رايات من هذا الجنس، ويلق فيها الجلاجل، ويرسلها ليلا في شدة الريح، ويقول: هذه الملائكة تنزل علي، وهذه خشخشة الملائكة وزجلها، وكان يصل جناح الطير المقصوص بريش معه فيطير و ستغوي به الأعراب. شاعر في الطيرة:

عليك إذ قيل لي نصف اسمه ياس

وأمنع الياسمين الغض من حذري

وقال آخر:

منه وظل مفكراً مستعبراً

أهدت إليه لسفر جلاً فتطيرا

سفر وحق له بأن يتطيرا

خوف الفراق لأن شطر هجائه

وقال آخر:

ما كنت في إهدائه محسنا

يا ذا الذي أهدى لنا لسوسنا

يا ليت أني لم أر السوسنا

نصف اسمه سو فقد ساءني

ومثله:

ري أهوى الشقائقا

لا تراني طوال د

د فنصف اسمه شقا

إن يكن يشبه الخدو

وكانوا يتفاءلون بالأس لدوامه، ويتطيرون من النرجس لسرعة انقضائه، ويسمون الغدار، وقال العباس بن الأحنف:

بالنرجس الغدار ما أنصفا

إن الذي سماك يامنيتي

وفيت إن الأس أهل الوفا

لو أنه سماك بالاسة

خرج كثير يريد عزة ومعه صاحب له من همد، فرأى غراباً ساقطاً فوق بانة ينتف ريشه، فقال له النهدي: إن صدق الطير فقد ماتت عزة، فوافي أهلها وقد أخرجوا جنازتها، فقال:

وأزجره للطير لا عز ناصره

وما أعيف النهدي لا در دره

ينتف أعلى ريشه ويطايره

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانة

فقال غراث لا غتراب، وبانة

لبين، وفقد من حبيب تعاشره

وقال الشاعر:

وسميته يحيى ليحيا و لم يكن

إلى رد حكم الله فيه سبيل

تيممت فيه الفأل حين رزقته

ولم أدر أن الفأل فيه يفيل

فأما القول في السحر فإن الفقهاء يثبتونه ويقولون: فيه القود، وقد جاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سحره لبيد بن أعصم اليهودي حتى كان يخيل إليه أنه عمل الشيء ولم يعمله. وروي أن امرأة من يهود سحرته بشعر و قصاص ظفر و جعلت السحر في بئر، وأن الله تعالى دله على ذلك، فبعث علياً عليه السلام فاستخرجه وقتل المرأة.

وقوم من المتكلمين ينفون هذا عنه عليه السلام، ويقولون: إنه معصوم من مثله.

والفلاسفة تزعم أن السحر من آثار النفس الناطقة، وأنه لا يبعد أن يكون في النفوس نفس تؤثر في غير بدنها المرض والحب والبغض ونحو ذلك، وأصحاب الكواكب يجعلون للكواكب في ذلك تأثيراً، وأصحاب خواص الأحجار والنبات وغيرها يسندون ذلك إلى الخواص، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام دال على تصحيح ما يدعى من السحر. وأما العدوى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا عدوى في الإسلام". وقال لمن قال: أعدي بعضها بعضاً- يعني الإبل: د أد وسلم فمن أعدي الأول؛ وقال: "لا عدوى ولا هامة ولا صفر"، فالعدوى معروفة، والهامة: ما كانت العرب تزعمه في المقتول لا يؤخذ بثأره، والصفر: ما كانت العرب تزعمه من الحية في البطن تعض عند الجوع.

أخبار حول مذاهب العرب وتخيالاتها

وسنذكر هاهنا نكتاً ممتعة من مذاهب العرب وتخيالاتها، لأن الموضوع قد ساقنا إليه، أنشد هشام بن الكلبي لامية بن أبي الصلت:

لسنة أزمة تبرح بالننا

س ترى للعضاء فيها صريرا

لا على كوكب تنوء ولا ري

ح جنوب ولا ترى طرورا

ويسقون باقر السهل للطو

د مهازيل خشية أن تبورا

عاقدين النيران في تكن الأذ

ناب منها لكي تهيج البحورا

سلع ما ومثله عشر ما

عامل ما وعالت البيقورا

يروى أن عيسى بن عمر قال: ما أدري معنى هذا البيت! ويقال إن الأصمعيي صحف فيه، فقال: "وغالت البيقورا" بالغين المعجمة، وفسره غيره فقال: عالت بمعنى أثقلت البقر بما حملتها من السلع والعشر، والبيقور: البقر. وعائل: غالب، أو مثقل.

وكانت العرب إذا أجذبت وأمسكت السماء عنهم وأرادوا أن يستمطروا عمدوا إلى السلع والعشر فحزموها وعقدوها في أذنان البقر، وأضرموا فيها النيران، اصعدوها في جبل وعمر، واتبعوها يدعون الله ويستسقونه، وإنما يضرمون النيران في أذنان البقر، تفاؤلاً للبرق بالنار، وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات، وقال! أعرابي:

شفعنا ببيقور إلى هائل الحيا فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا

فعدنا إلى رب الحياة فأجارنا وصير جذب الأرض من عنده خصبا

وقال آخر:

قل لبني نهشل أصحاب الحور: أتطلبون الغيث جهلاً بالبقر!

وسلع من بعد ذاك وعشر ليس بذأ يجلل الأرض المطر

ويمكن أن يحمل تفسير الأصمعي على محمل صحيح، فيقال: غالت بمعنى أهلكت، يقال: غاله كذا و اغتاله أي أهلكه، وغالتهم غول، يعني المنية، ومنه الغضب غول الحلم.

وقال آخر:

لما كسونا الأرض أذنان البقر بالسلع المعقود فيها والعشر

وقال آخر:

يا كحل قد أثقلت أذنان البقر بسلع يعقد فيها وعشر

فهل تجودين فبرق ومطر

وقال آخر: يعيب العرب بفعلهم هذا :

لا در رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الإعسار بالعشر

أجاعل أنت بيقوراً مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر

وقال بعض الأذكياء: كل أمة قد تحذو في مذاهبها مذاهب ملة أخرى، وقد كانت الهند تزعم أن البقر ملائكة، سخط الله عليها فجعلها في الأرض، وأن لها عنده حرمة، وكانوا يلطخون الأبدان بأختائها ، ويغسلون الوجوه بيولها ويجعلونها مهور نسائهم، ويتبركون بها في جميع أحوالهم، فلعل أوائل العرب حذوا هذا الحذو، وانتهجوا هذا المسلك. وللعرب في البقر خيال آخر، وذلك أنهم إذا أوردوها فلم ترد، ضربوا الثور ليقتم الماء، فتقتم البقر بعده، ويقولون: إن الجن تصد البقر عن الماء، وإن الشيطان يركب قرني الثور، وقال قائلهم:

إنني وقتلي سليكاً حين أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر

وقال نهشل بن حري:

كذاك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء

وقال آخر:

فإن كان ليس إلا هذا فليس ذاك بعجيب من البقر ولا بمذهب من مذاهب العرب لأنه قد يجوز أن تمتنع البقر من الورود حتى يرد الثور كما تمتنع الغنم من سلوك الطرق أو دخول الذور والأخبية حتى يتقدمها الكباش أو التيس، وكانحل تتبع اليعسوب، والكراكي تتبع أميرها، ولكن الذي تدل عليه أشعارها أن الثور يرد ويشرب ولا يمتنع ولكن البقر تمتنع وتعاف الماء وقد رأت الثور يشرب، فحينئذ يضرب الثور مع إجابتهما إلى الورود فتشرب البقر عند شربه، وهذا هو العجب، قال الشاعر:

فإني إذن كالثور يضرب جنبه

إذا لم يعف شرباً وعافت صواحيه

وقال آخر:

فلا تجعلوني كالبقر و فحلها

يكسر ضرباً وهو للورد طائع

وما ذنبه إن لم يرد بقراته

وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

وقال الأعشى:

كالثور والجني يضرب وجهه

وما ذنبه إن عافت الماء مشرباً !

وما ذنبه إن عافت الماء باقر

وما إن يعاف الماء إلا ليضرباً

قالوا في تفسيره: لما كان امتناعها يتعقبه الضرب، حسن أن يقال: عافت الماء لتضرب، وهذه اللام هي لام العاقبة، كقوله: "لدوا للموت"، وعلى هذا فسر أصحابنا قوله سبحانه: "ولقد زرانا لجهنم كثيراً من الجن والإنس". ومن مذاهب العرب أيضاً تعليق الحلي والجلال على اللديغ يرون أنه يفيق بذلك، ويقال: إنه إنما يعلق عليه لأنهم يرون أنه إن نام يسري السم فيه فيهلك، فشغلوه بالحلي والجلال وأصواتها عن النوم، وهذا قول النضر بن شميل، وبعضهم يقول: إنه إذا علق عليه حلي الذهب برأ، وإن علق الرصاص أو حلي الرصاص مات. وقيل لبعض الأعراب: أتريدون شهرة؟ فقال: إن الحلي لا تشهر، ولكنها سنة ورثناها. وقال النابغة:

فبت كأني ساورتني ضئيلة

من الرقش في أنيابها السم نافع

يسهد من ليل التمام سليمها

لحلي النساء في يديه قعاقع

وقال بعض بني عذرة:

كأني لسليم ناله كلم حية

ترى حوله حلي النساء مرصعا

وقال آخر:

وقد عللوا بالبطل في كل موضع

وغروا كما غر السليم الجلال

وقال جميل وظرف في قوله، ولو قاله العباس بن الأحنف لكان ظريفاً:

فحليكَ أُمسى يا بئينة دائياً

إذا ما لدبغ أبرأ الحلي داءه

وقال عويمر النبهاني وهو يؤكد قول النضر بن شميل:

سليم نفي عنه الرقاد الجالجل

فبت معنى بالهموم كأنني

ومثله قول الآخر:

فراقب من ليل التمام الكواكبا

كأنني سليم سهد الحلي عينه

ويشبه مذهبهم في ضرب الثور مذهبهم في العريصيب الإبل فيكوى الصحيح ليبرا السقيم. وقال النابغة:

كذي العريكوى غيره وهو راتع

وكلفتني ذنب آمرىء وتركته

وقال بعض الأعراب:

به من كل جرباء الإهاب

كمن يكوي الصحاح يروم برءا

وهذا البيت يطل رواية من روى بيت النابغة "كذي العر" بضم العين، لأن العر بالضم: قرح في مشافر الإبل غير الجرب، والعر بالفتح: الجرب نفسه، فإذا دل الشعر على أن يكوى الصحيح ليبراً الأجرب، فالواجب أن يكون بيت النابغة "كذي العر" بالفتح.

ومثل هذا البيت قول الآخر:

حنانيك لا يكوى الصحيح بأجرب

فألزمتني ذنباً وغيري جره

إلا أن يكون إطلاق لفظ الجرب على هذا المرض المخصوص من باب المجاز لمشابهته له.

ومن تخیلات العرب ومذاهبها أنهم كانوا يفتنون عين الفحل من الإبل إذا بلغت ألفاً، كأنهم يدفعون العين عنها، قال الشاعر:

وأنتم برعي ألبهم أولى وأجدر

فقانا عيوننا من فحول بهازر

وقال آخر:

تفقاً فيها أعين البعران

وهبتها وكنت ذا امتتان

وقال الآخر:

ففقأت عين فحيلها معتافا

أعطيتها ألفاً ولم تبخل بها

وقد ظن قوم أن بيت الفرزدق وهو:

وبيت المجتبي والخافقان

غلبتك بالمفقى والمعنى

من هذا الباب، وليس الأمر على ذلك، وإنما أراد بالمفقى قوله لجرير:

أخا كلقيط أو أبا مثل دارم

ولست ولو فقأت عينيك واجداً

وأراد بالمعنى قوله لجرير أيضاً:

وإنك إذ تسعى لتدرك دارماً

لأنت المعنى يا جرير المكلف

وأراد بقوله: بيت المحتبي قوله:

بيت زرارة محتب بفنائله

ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبيت الخافقان، قوله:

ومعصب بالتاج يخفق فوقه

خرق الملوك له خميس جحفل

فأما مذهبهم في البلية، وهي ناقة تعقل عند القبر حتى تموت، فمذهب مشهور، والبلية أنهم إذا مات منهم كريم بلوا ناقته أو بعيره، فعكسوا عنقها، وأداروا رأسها إلى مؤخرها، وتركوها في حقيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها، وربما سلخت وملئ جلدتها تماماً. وكانوا يزعمون أن من مات ولم يبل عليه حشر ماشياً، ومن كانت له بلية حشر راكباً على بليته، قال جريرة بن الأشيم الفقعسي لابنه:

يا سعد إما أهلكن فإنني

أوصيك إن أذا الوصاة الأقرب

لا أعرفن أباك يحشر خلفكم

تعباً يجر على اليدين وينكب

واحمل أباك على بعير صالح

وثق الخطيئة إنه هو أصوب

ولعل لي مما جمعت مطية

في الحشر أركبها إذ قيل اركبوا

وقال جريرة أيضاً:

إذا مت فادفني بجداء ما بها

سوى الاصرخين أو يفوز راكب

فإن أنت لم تعقر علي مطيتي

فلا قام في مال لك الدهر جالب

ولا تدفني في صوى وادفني

بديمومة تنزو عليها الجنادب

وقد ذكرت في مجموعي المسمى "بالعقري الحسان" أن أبا عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع رحمه الله ذكر في كتابه آراء العرب وأديانها هذه الأبيات، واستشهد بها على ما كانوا يعتقدون في البلية، وقلت: إنه وهم في ذلك، وإنه ليس في هذه الأبيات دلالة على هذا المعنى، ولا لها به تعلق، وإنما هي وصية لولده أن يعقر مطيته بعد موته، إما لكيلا يركبها غيره بعده، أو على هيئة القربان كالهدي المعقور بمكة، أو كما كانوا يعقرون عند القبور، ومذهبهم في العقر على القبور، كقول زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب:

إن السماحة والمروءة ضمنا

قبراً بمرؤ على الطريق الواضح

فإذا مررت بقبره فاعقر به

كوم الهجان وكل طرف سابح

وقال الآخر:

نفرت قلوصي عن حجارة حرة

بنيت على طلق اليدين وهوب

لا تتفري ياناق منه فإنه

شريب خمر مسعر لحروب

لولا السفار و بعد خرق مهمه

لتركبتها تحبو على العرقوب

ومذهبهم في العقر على القبور مشهور، وليس في هذا الشعر ما يدل على مذهبهم في البلية، فإن ظن ظان أن قوله: "أو يفوز راكب"، فيه إيماء إلى ذلك، فليس الأمر كما ظنه، ومعنى البيت ادفني بفلاة جداء مقطوعة عن الإنس، ليس بها إلا الذئب والغراب، أو أن يعتسف راكبها المفازة وهي المهلكة، سموها مفازة على طريق الفأل. وقيل: إنما تسمى مفازة، من فوز أي هلك، فليس في هذا البيت ذكر البلية، ولكن الخالغ أخطأ في إيراد هذا البيت، كما أخطأ في هذا البيت أيضا في إيراده قول مالك بن الرب:

وعطل قلوصي في الركاب فإنها

ستبرد أكباداً وتبكي بواكيا

فظن أن ذلك من هذا البيت الذي نحن فيه، ولم يرد الشاعر ذلك، وإنما أراد لا تركبوا راحلتي بعدي، وعطلوها بحيث لا يشاهدها أعادي واصادقي ذاهبة حائية تحت راكبها، فيشمت العدو ويساء الصديق، وقد أخطأ الخالغ في مواضع عدة من هذا الكتاب، وأورد أشعاراً في غير موضعها، وظنها مناسبة لما هو فيه، فمنها ما ذكرناه، ومنها أنه ذكر مذهب العرب في الحلي ووضع على اللديغ، واستشهد عليه بقول الشاعر:

يلاقي من تذكر آل ليلي

كما يلقي السليم من العداد

ولا وجه لإيراد هذا البيت في هذا الموضع، فالعداد معاودة السم الملسوع لا كل سنة في الوقت الذي لدغ فيه، وليس هذا من باب الحلي بسيل ومن ذلك إيراده قول الفرزدق "غلبتك بالمفقى" في باب فقاء عيون الفحول، إذا بلغت الإبل ألفاً، وقد تقدم شرحنا لموضع الوهم في ذلك. وسنذكر هاهنا كثيراً من المواضع التي وهم فيها إن شاء الله. ومما ورد عن العرب في البلية قول بعضهم:

أبني زودني إذا فارقتني

في القبر راحلة برحل فاتر

للبعث أركبها إذا قيل اركبوا

مستوثقين معاً لحشر الحاشر

وقال عويم النبهي:

أبني لا تنسى البلية إنها

لأبيك يوم نشوره مركوب

ومن تخيلات العرب ومذاهبها ما حكاه ابن الأعرابي، قال: كانت العرب إذا نفرت الناقة فسميت لها أمها سكنت من النفار، قال الراجز:

أقول والوجناء بي تقحم

ويلك قل ما اسم أمها يا علكم

علكم: اسم عبد له، وإنما سأل عبده ترفعاً أن يعرف اسم أمها، لأن العبيد بالإبل أعرف، وهم رعاها. وأنشد السكري:

فقلت له اسم أمها هات فادعها

تجبك ويسكن روعها ونفاذها

ومما كانت العرب كاجتمعة عليه الهامة، وذلك أنهم كانوا يقولون: ليس من ميت يموت ولا قتيل يقتل، إلا ويخرج من رأسه هامة، فإن كان قتل ولم يؤخذ بثأره نادى الهامة على قبره: اسقوني، فإني صديقة، وعن هذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لا هامة".

وحكي أن أبا زيد كان يقول: الهامة مشددة الميم إحدى هوام الأرض، وأنها هي المتكونة المذكورة. وقيل: إن أبا عبدة قال: ما أرى أبا زيد حفظ هذا، وقد يسمونها الصدى والجمع أصداء، قال:

وكيف حياة

أصداء وهام

وقال أبو دواد الأيادي:

سلط الموت والمنون عليهم

فلهم في صدى المقابر هام

وقال بعضهم لابنه:

لا تزقون لي هامة فوق مرقب

فإن زرقاء الهام للمرء عائب

تتادي ألا اسقوني وكل صدى به

وتلك التي تبيض منها الذوائب

يقول له: لا تترك ثأري إن قتلت، فإنك إن تركته صاحت هامتي: اسقوني، فإن كل صدى - وهو هاهنا العطش - بأبيك، وتلك التي تبيض منها الذوائب، لصعوبتها وشدها، كما يقال: أمر يشيب رأس الوليد، ويحتمل أن يريد به صعوبة الأمر عليه، وهو مقبور إذا لم يثأر به، ويحتمل أن يريد به صعوبة الأمر على ابنه، يعني أن ذلك عار عليك، وقال ذو الإصبع:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي

أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وقال آخر:

فيا رب إن أهلك ولم ترو هامتي

بليلي أمت لا قبر أعطش من قبري

ويحتمل هذا البيت أن يكون خارجاً عن هذا المعنى الذي نحن فيه، وأن يكون ري هامته الذي طلبه من ربه هو وصال ليلي وهما في الدنيا. وهم يكونون عما يشفيهم بأنه يروي هامتهم.

وقال مغلس الفقيسي:

وإن أخاكم قد علمت مكانه

بسفح قبا تسفي عليه الأعاصر

له هامة تدعو إذا الليل جنها

بني عامر هل للهلالي ثائر

وقال توبة بن الحمير :

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت

علي ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا

إليها صدى من جانب القبر صائح

وقال قيس بن الملوّح، وهو المجنون:

ومن دوننا رمس من الأرض أنكب
لصوت صدى ليلى يهش ويضطرب

ولو تلتقي أصدقاؤنا بعد موتنا
لظل صدى رمسي وإن كنت رمة

وقال حميد بن ثور:

صدائي إذا ما كنت رسماً واعظماً

ألا هل صدى أم الوليد مكلم

ومما أبطله الإسلام قول العرب بالصفرة، زعموا أن في البطن حية إذا جاع الإنسان عضت على شرسوفه وكبدته، وقيل: هو الجوع بعينه، ليس أنها تعض بعد حصول الجوع، فأما لفظ الحديث: "لا عدوى ولا هامة ولا صفرة ولا غول"، فإن أبا عبيدة معمر بن المثنى قال: هو صفر الشهر الذي بعد الحرم، قال: ففى عليه السلام عن تأخيرهم الحرم إلى صفر، يعنى ما كانوا يفعلونه من المسيء، ولم يوافق أحد من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير، وقال الشاعر:

ولايعض على شرسوفه الصفرة

لا يتأرى لما في القدو يرقبه

وقال بعض شعراء بني عبس يذكر قيس بن زهير لما هجر الناس وسكن الفيامي وانس بالوحش، ثم رأى ليلة ناراً فعشا إليها، فشم عندها قنار اللحم، فنازعتته شهوته، فغلبها وقهرها، ومال إلى شجرة سلم فلم يزل يكدمها ويأكل من خبطها إلى أن مات:

كرم والحي منطلق

إن قيساً كان ميته

وشجاع البطن يختنق

شام ناراً بالهوى فهو

رب حر ثوبه خلق

في دريس ليس يستره

وقوله: "بالهوى" اسم موضع بعينه.

وقال أبو النجم العجلي:

على زمان مسنت بجهد

إنك يا خير فتى نستعدي

صفر بكبد

عضاً كعض

وقال آخر:

وأوثر غيري من عيالك بالطعم

أرد شجاع البطن قد تعلمينه

ومن خرافات العرب أن الرجل منهم كان إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها أو جنها، وقف على بابها، قبل أن يدخلها فنهق نهيق الحمار، ثم علق عليه كعب أرنب، كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن، ويسمون هذا النهيق التعشير، قال شاعرهم:

ولا زعزع ولا كعب أرنب

ولا ينفع التعشير أن حم واقع

وقال الهيثم بن عدي: خرج عروة بن الورد إلى خير في رفقة ليمتاروا، فلما قربوا منها عثروا، وعاف عروة أن يفعل فعلهم، وقال:

لعمري لئن عثرت من خيفة الردى
فلا وألت تلك النفوس ولا أتت
وقالوا ألا أنهق لا تضرك خير
نهاق حمير إنني لجزوع
قفولاً إلى الأوطان وهي جميع
وذلك من فعل اليهود ولوع

الولوع بالضم: الكذب، ولع الرجل إذا كذب، فيقال إن رفقة مرضوا ومات بعضهم، ونجا عروة من الموت والمرض. وقال آخر:

لا ينجينك من حمام واقع
كعب تعلقه ولا تعشير

ويشابه هذا أن الرجل منهم كان إذا ضل في فلاة قلب قميصه، وصفق بيديه كأنه يومئ بما إلى إنسان فيهتدي، قال أعرابي:

قلبت ثيابي والظنون تجول بي
فلأياً بلأى ما عرفت جليتي
وترمي برحلي نحو كل سبيل
وأبصرت قصداً لم يصب بدليل

وقال أبو العملس الطائي:

فلو أبصرتني بلوى بطن
فأقلب تارة خوفاً ردائي
أصفق بالبنان على البنان
وأصرخ تارة بأبي فلان
لقلت أبو العملس قد دهاه
من الجنان خالعة العنان

والأصل في قلب الثياب التفاؤل بقلب الحال، وقد جاء في الشريعة الإسلامية نحو ذلك في الاستسقاء. ومن مذاهب العرب أن الرجل منهم كان إذا سافر عمد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها، فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط، فإن وجده بحاله علم أن زوجته لم تخنه، وإن لم يجده أو وجده محلولاً، قال: قد خانتني، وذلك العقد يسمى الرتم، ويقال: بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجرة بطرف غصن آخر، وقال الراجز:

هل ينفعنك اليوم إن همت بهم
كثرة ما توصي وتعقاد الرتم

وقال آخر:

خانتته لما رأت شيباً بمفرقه
وغره حلفها والعقد للرتم

وقال آخر:

لا تحسبن رتائماً عقدتها
تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال آخر:

يعلل عمرو بالرتائم قلبه
وفي الحي ظبئ قد أحلت محارمه

فما نفعت تلك الوصايا ولاجنت

عليه سوى ما لا يحب رثائمه

وقال آخر:

ماذا الذي تنفعلك الرثائم

إذا أصبحت وعشقتها ملازم

وهي على لذاتها تداوم

يزورها طب الفؤاد عارم

بكل أدواء

النساء عالم

وقد كانوا يعقدون الرتم للحمى، ويرون أن من حلها انتقلت الحمى إليه، وقال الشاعر:

حللت رتيمة فمكنت شهراً

اكابد كل مكروه الدواء

وقال إن السكيت: إن العرب كانت تقول: إن المرأة المقلات وهي التي لا يعيش لها ولد، إذا وطئت القاتيل الشريف عاش ولدها، قال بشر بن أبي خازم:

تظل مقاليت النساء تطأنه

يقلن ألا يلقي على المرء مئزر

وقال أبو عبيدة: تتخطاه المقلاة سبع مرات، فذلك وطؤها له.

وقال ابن الأعرابي: يمرون به ويطنون حوله وقيل: إنما كانوا يفعلون ذلك بالشريف يقتل غدرًا أو قودًا. وقال الكميت:

وتطيل المرزآت المقالي

ت إليه القعود بعد القيام

وقال الآخر:

تركنا الشعثمين برمل خبت

تزورهما مقاليت النساء

وقال الآخر:

بنفسي التي تمشي المقاليت حوله

يطاف له كشحاً هضيماً مهشما

وقال آخر:

تبا شرت المقالة حين قالوا

ثوى عمرو بن مرة بالحفير

ومن تخيلات العرب وخرافاتها، أن الغلام منهم كان إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام وأستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها، وقال: يا شمس أبدليني بسن أحسن منها، وليجر في ظلمها آياتك، أو تقول: "إياؤك"، وهما جميعاً شعاع الشمس، قال طرفة:

سقطته إياة الشمس

وإلى هذا الخيال أشار شاعرهم بقوله:

شادن يجلو إذا ما ابتسمت

عن أقاح كأقاح الرمل غر

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الأشر

وقال آخر:

وأشنعب واضح عذب الثنايا
كسته الشمس لوناً من سناها
كأن رضابه صافي المدام
فلاح كأنه برق الغمام

وقال آخر:

بذي أشر عذب المذاق نفردت
والناس اليوم في صبيانهم على هذا المذهب.
به الشمس حتى عاد أبيض ناصعا
وكانت العرب تعتقد أن دم الرئيس يشفي من عضه الكلب، قال الشاعر:

بناة مكارم وأساءة جرح
وقال عبد الله بن الزبير الأشدي:

من خير بيت علمناه وأكرمه
كانت دماؤهم تشفي من الكلب
وقال الكميت:

أحلامكم لسقام الجهل شافية
ومن تخيلات العرب أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الأقدار عليه،
كخرقة الحيض وعظام الموتى، قالوا: وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامث عظام موتى، ثم لا يراها يومه ذلك، وأنشدوا
للممزق العبدى:

فلو أن عندي جارتين وراقياً
قالوا: والتنجيس يشفي إلا من العشق، قال أعرابي:
وهل ينفع التجيس من كان عاشقاً !
يقولون علق يالك الخير رمة
وقالت امرأة- وقد نجست ولدها فلم ينفعه ومات:

نجسته لو ينفع التجيسق
وكان أبو مهدية يعلق في عنقه العظام والصوف حذر الموت، وأنشدوا:

أتوفي بأنجاس لهم ومنجس
ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله ذكر من يجب أو دعاه فيذهب خدرها.
وروي أن عبد الله بن عمر خدرت رجله، فقليل له: ادع أحب الناس إليك، فقال: يا رسول الله.
وقال الشاعر:

على أن رجلي لا يزال أمذلالها
مقيماً بها حتى أجيلك في فكري

وقال كثير:

إذا مذلت رجلي ذكرك أشتفي بدعواك من مذل بها فيهون

وقال جميل:

وأنت لعيني قرة حين نلتقي وذكرك يشفيني إذا خدرت رجلي

وقالت امرأة:

إذا خدرت رجلي دعوت ابن مصعب فإن قلت عبد الله أجلي فتورها

وقال آخر:

صب محب إذا ما رجفة خدرت نادى كبيشة حتى يذهب الخدر

وقال المؤمل:

والله ما خدرت رجلي ولا عثرت إلا ذكرك حتى يذهب الخدر

وقال الوليد بن يزيد:

أثيبي هائماً كلفاً معني إذا خدرت له رجل دعاك

ونظير هذا الوهم أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال: أري من احبه، فإن كان غائباً توقع قدومه، وإن كان بعيداً توقع قربه.

وقال بشر:

إذا اختلجت عيني أقول لعلها فتاة بني عمرو بها العين تلمع

وقال آخر:

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وإن كان المزار بعيدا

وقال آخر:

إذا اختلجت عيني أقول لعلها لرؤيتها تهتاج عيني وتطرف

وهذا الوهم باق في الناس اليوم.

ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان إذا عشق ولم يسئل وافرط عليه العشق حملة رجل على ظهره كما يحمل الصبي، وقام آخر فأحى حديدة أو ميلاً، وكوى به بين أليتيه فيذهب عشقه فيما يزعمون.

وقال أعرابي:

كويتم بين رانفتي جهلاً ونار القلب يضرمها الغرام

وقال آخر:

شكوت إلى رفيقي اشتياقي فجاءاني وقد جمعا دواء

وجاء بالطبيب ليكويانيو لا ابغي عدمتهما اكتواء

لعاضاني من السقم الشفاء

ولو أتيا بسلمى حين جاء

واستشهد الخالع على هذا المعنى بقول كثير:

حنو العائدات على وسادي

أغاضر لو شهدت غداة بنتم

بواقدة تلذع بالزناد

أويت لعاشق لم ترحميه

هذا البيت ليس بصريح في هذا الباب، ويحتمل أن يكون مراده فيه المعنى المشهور المطروق بين الشعر من ذكر حرارة الوجد ولذعه، وتشبيهه بالنار، إلا أنه قد روى في كتابه خبراً يؤكد المقصد الذي عزاه وادعاه، وهو عن محمد بن سليمان بن فليح، عن أبيه، عن جده، قال: كنت عند عبد الله بن جعفر، فدخل عليه كثير وعليه أثر علة، فقال عبد الله: ما هذا بك؟ قال: هذا ما فعلت بي أم الحويرث، ثم كشف عن ثوبه وهو مكوي، وأنشد:

علام تعنيني وتكمي دوائيا

عفا الله عن أم الحويرث ذنبها

لقلت لهم: أم الحويرث دائيا

ولو آذنوني قبل أن يرقموا بها

ومن أوهامهم وتخيلاتهم أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا أحب امرأة وأحبته فشق برقعها، وشقت رداءه، صلح حبهما ودام، فإن لم يفعل ذلك فسد حبهما، قال سحيم عبد بني الحسحاس:

ومن برقع عن طفلة غير عابس

وكم قد شققنا من رداء محبر

دوايك حتى كلنا غير لابس

إذا شق برد شق بالبرد برقع

وإلف الهوى يغري بهذي الوسوس

نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى

وقال آخر:

وأمكنني من شق برقعك السحقا

شققنت ردائي يوم برقة عالج

ويمحق حبل الوصل ما بيننا محقا !!

فما بال هذا الود يفسد بيننا

ومن مذاهبهم أنهم كانوا يرون أن أكل لحوم السباع تزيد في الشجاعة والقوة، وهذا مذهب طب والأطباء يعتقدونه، قال بعضهم:

تظن أنك تلقي منه كرارا

أبا المعارك لا تتعب بأكلك ما

ما كنت إلا جبان القلب خوارا

فلو أكلت سباع الأرض قاطبة

وقال بعض الأعراب - وأكل فؤاد الأسد ليكون شجاعاً - فعدا عليه نمر فجرحه:

لاصبح أجرى منه قلباً وأقدما

أكلت من الليث الهصور فؤاده

فيا لك تأراً ما أشد وأعظما!

فأدرك مني ثأره بابن اخته

وقال آخر:

أصم فقلب الليث ليس بنافع

إذا لم يكن قلب الفتى غدوة الوغى

إذا كان سيف المرء ليس بقاطع!

وما نفع قلب الليث في حومة الوغى

ومن مذهبهم أن صاحب الفرس المهقوع إذا ركب فغرق تحته اغتلمت امرأته وطمحت إلى غيره، وألحقته: دائرة تكون بالفرس، وربما كانت على الكتف في الأكثر، وهي مستقبحة عندهم، قال بعضهم لصاحبه:

حليلته وازداد حر عجانها

إذ عرق المهقوع بالمرء انعطت

فأجابه صاحبه:

وقد يركب المهقوع زوج حصان

قد يركب المهقوع من ليس مثله

ومن مذهبهم أنهم كانوا يوقدون النار خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه، يقولون في دعائهم: أبعده الله واسحقه، وأوقد ناراً أثره! قال بعضهم:

ورد عليك الصبا ما استعارا

صحوت أوقدت للجهل ناراً

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم وبين المنزل الذي يريدونه، ولم يوقدوها بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع إليه.

ومن مذهبهم المشهورة تعليق كعب الأرنب، قال ابن الأعرابي: قلت لزيد بن كثرة: أتقولون: إن من علق عليه كعب أرنب لم تقربه جنان الدار، ولا عمار الحي؛ قال: إي والله، ولا شيطان الخماطة ولا جار العشيرة، ولا غول القفر. وقال امرؤ القيس:

عليه عقيقته احسبا

أيا هند لا تتكحي بوهة

به عسم يبتغي أرنبا

مرسعة بين أدباقه

حذار المنية أن يعطبا

ليجعل في أرجله كعبها

والخماطة: شجرة، والعشيرة: تصغير العشرة، وهي شجرة أيضاً.

وقال أبو محلم: كانت العرب تعلق على الصبي سن ثعلب وسن هرة خوفاً من الخطفة والنظرة، ويقولون: إن جنية أرادت صبي قوم فلم تقدر عليه، فلامها قومها من الجن في ذلك، فقالت تعتذر إليهم:

ثعلب وهرره

كأن عليه نفره

والحيض حيض السمرة

والسمرة شيء يسيل من السمرة كدم الغزال، وكانت العرب إذا ولدت المرأة أخذوا من دم السمرة - وهو صمغه الذي يسيل منه - ينقطونه بين عيني النفساء، وخطوا على وجه الصبي خطأً، ويسمى هذا الصمغ السائل من السمرة الدودم،

ويقال بالذال المعجمة أيضاً، وتسمى هذه الأشياء التي تعلق على الصبي: النفرات.
قال عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي: إن بعض العرب قال لأبي: إذا ولد لك ولد فنفر عنه، فقال له أبي: وما التنفير؟ قال:
غرب اسمه، فولد له ولد فسماه قنفذاً، وكناه أبا العداء، قال: وأنشد أبي.

تشفي الضداع وتبرئ المنجودا

كالخمر مزج دوائها منها بها

قال: يريد أن القنفذ من مراكب الجن، فداوى منهم ولده بمراكبهم.
ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد إلى وادي شجر فأناخ
راحلته في قراراته، وعقلها وخط عليها خطاً ثم قال: أعوذ بصاحب هذا الوادي، وربما قال: بعظيم هذا الوادي، وعن هذا
قال الله سبحانه في القرآن: "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً".
واستعاذ رجل منهم ومعه ولد فأكله الأسد، فقال:

من شرما فيه من الأعادي

قد استعذنا بعظيم الوادي

فلم يجرنا من هزبر عاد

وقال آخر:

بسيد معظم مجيد

أعوذ من شر البلاد البيد

ذي عزة وكاهل شديد

أصبح يأوي بلوى زرود

وقال آخر:

عاذ بكم ساري الظلام الدالج

يا جن أجراع اللوى من عالج

لا ترهقه بغوي هائج

وقال آخر:

المانعي من سطوة الأعادي

قد بت ضيفاً لعظيم الوادي

راحلتي في جاره وزادي

وقال آخر:

فإني ضيف نازل بفنائكا

هيا صاحب الشجراء هل أنت مانعي

ومثلك آوى في الظلام الصعالكا

وإنك للجنان في الأرض سيد

ومن مذاهبهم أن المسافر إذا خرج من بلده إلى آخر فلا ينبغي له أن يلتفت، فإنه إذا ألتفت عاد، فلذلك لا يلتفت إلا
العاشق الذي يريد العود، قال بعضهم:

وجه الهواجر تأمن رجعة البلد

دع التلفت يا مسعود وأرم بها

وقال آخر، أنشده الخالغ:

عيل صبري بالثعلبية لما

طال ليلي وملني قرنائي

كلما سارت المطايا بنا مي

تنفست والتفت ورائي

هذان البيتان ذكرهما الخالغ في هذا الباب، وعندي أنه لا دلالة فيهما على ما أراد، لأن التلفت في أشعارهم كثير، ومرادهم به الإبانة والإعراب عن كثرة الشوق، والتأسف على المفارقة، وكون الراحل عن المنزل حيث لم يمكنه المقام فيه بجثمانه يتبعه بصره، ويتزود من رؤيته، كقول الرضي رحمه الله:

ولقد مررت على طولهم

ورسومهم بيد البلى نهب

فوقفت حتى ضج من لغب

نضوي ولبح بعذلي الركب

وتلفتت عيني فمذ خفيت

عني الطلول تلفت القلب

وليس يقصد بالتلفت هاهنا التفاؤل بالرجوع إليها، لأن رسومها قد صارت نهباً ليد البلى، فأى فائدة في الرجوع إليها! وإنما يريد ما قدمنا ذكره من الحنين والتذكر لما مضى من أيامه فيها، وكذلك قول الأول:

تلفت نحو الحي حتى وجدتي

وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

ومثل ذلك كثير، وقال بعضهم في المذهب الأول:

تلفت ترجو رجعة بعد نية

فكان التفاتي زائداً في بلائيا

أرجو رجوعاً بعد ما حال بيننا

وبينكم حزن الفلا والفيافيا

وقال آخر، وقد طلق امرأته فتلفتت إليه:

تلفت ترجو رجعة بعد فرقة

وهيهات مما ترتجي أم مازن!

ألم تعلمي أنني جموح عنانه

إذا كان من أهواه غير ملاين

ومن مذاهبهم: إذا بشرت شفة الصبي حمل منخلاً على رأسه، ونادى بين بيوت الحي: الحلا الحلا، الطعام الطعام، فتلقي له النساء كسر الخبز وأقطع التمر واللحم في المنخل، ثم يقلبي ذلك للكلاب فتأكله فيبراً من المرض، فإن أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب ثمرة أو لقمة أو لحمه أصبح وقد بشرت شفته. وانشد لامرأة:

ألا حلا في شفة مشقوقه

فقد قضى منخلنا حقوقه

ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان إذا طرفت عينه بثوب آخر مسح الطارف عين المطروف سبع مرات، يقول في الأولى: بإحدى جاءت من المدينة، وفي الثانية باثنتين جاءت من المدينة، وفي الثالثة بثلاث جئن من المدينة، إلى أن يقول في السابعة: بسبع جئن من المدينة، فتبرا عين المطروف.

وفيه من يقول: بإحدى من سبع جئن من المدينة، باثنتين من سبع، إلى أن يقول بسبع من سبع.

ومن مذاهبهم أن المرأة منهم كان إذا عسر عليها خاطب النكاح نشرت جانباً من شعرها، وكحلت إحدى عينيها مخالفة

للشعر المنشور، وحجلت على إحدى رجليها ويكون ذلك ليلاً، وتقول: يا لكاح، أبغي النكاح، قبل الصباح، فيسهل أمرها وتزوج عن قرب، قال رجل لصديقه وقد رأى امرأة تفعل ذلك:

أما ترى أمك تبغي بعلاً
قد نشرت من شعرها الأقلا
ولم توف مقلتيها كحلا
ترفع رجلا وتحط رجلا
هذا وقد شاب بنوها أصلا
وأصبح الأصغر منهم كهلا
خذ القطيع ثم سمها الذلا
ضرباً به تترك هذا الفعلا

وقال أخ :

قد كحلت عينا و أعفت عينا
تظن زيناً ما تراه شينا
وحجلت ونشرت قرينا

وقال آخر:

تصنعي ما شئت أن تصنعي
ثم احجلي في البيت أو في المجمع
وكحلي عينيك أولاً فدعي
مالك في بعل أرى من مطقع

ومن مذاهبهم كانوا إذا رحل الضيف أو غيره عنهم وأحبوا ألا يعود كسروا شيئاً من الأواني وراءه، وهذا مما عمله الناس اليوم أيضاً، قال بعضهم:

كسرنا القدر بعد أبي سواح
فعاد وقدرنا ذهباً ضياعاً

وقال آخر:

ولا نكسر الكيزان في إثريضفنا
ولكننا نقفيه زاداً ليرجعا

وقال آخر:

أما والله إن بني نفيل
أناس ليس تكسر خلف ضيف
لحلالون بالشرف اليفاع
أوانبهم ولا شعب القصصاع

ومن مذاهبهم قولهم: إن من ولد في القمراء تقلصت غرلته فكان كالمختون. ويجوز عندنا أن يكون ذلك من خواص القمر، كما أن من خواصه إبلاء الكتان، وإنتان اللحم، وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: إذا رأيت الغلام طويل الغرلة فأقرب به من السوداء، وإذا رأيت قصير الغرلة كأنما ختنه القمر فأبعد به.

وقال امرؤ القيس لقيصر: وقد دخل معه الحمام فرآه أقلف:

إني حلفت يميناً غير كاذبة
لأنت أغلف إلا ما جنى القمر

ومن مذاهبهم التشاؤم بالعطاس، قال امرؤ القيس:

وقد أغتدي قبل
العطاس بهيكل

وقال آخر:

مضيت ولم يحبسك عنه العواطس

وخرق إذا وجهت فيه لغزوة

ومن مذهبهم قولهم في الدعاء: لا عشت إلا عيش القراد! يضربونه مثلاً قي الشدة والصبر على المشقة، ويزعمون أن القراد يعيش ببطنه عاماً وبظهره عاماً، ويقولون: إنه يترك في طينه ويرمى بها الحائط فيبقى سنة على بطنه، وسنة على ظهره ولا يموت، قال بعضهم:

د عاماً ببطن و عاماً بظهر

فلا عشت إلا كعيش القرا

ومن مذهبهم كانت النساء إذا غاب عنهن من يحببهن أخذن تراباً من موضع رجله كانت العرب تزعم أن ذلك أسرع لرجوعه.

وقالت امرأة من العرب - واقتبضت من أثره:

وجار خصييه وجار نكره

يا رب جاره أنت في سفره

وقالت امرأة:

غداة غداً كيما يؤوب فسلما

أخذت تراباً من مواطئ رجله

ومن مذهبهم، أنهم كانوا يسمون العشا في العين الهدبد، وأصل الهدبد، اللبن الخاثر، فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سنام فقطع منه قطعة ومن الكبد قطعة، وقلاهما، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته:

ألا أذهباً بالهدبد

فيا سناماً وكبد

إلا السنام والكبد

ليس شفاء الهدبد

قال: فيذهب العشا بذلك.

ومن مذهبهم اعتقادهم أن الورل والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والنعام مراكب الجن يمتطونها، ولهم في ذلك أشعار مشهورة، ويزعمون أنهم يرون الجن ويظاهروهم ويخاطبونها، ويشاهدون الغول، وربما جامعوها وتزوجوها، وقالوا: إن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين، ومكثت عنده دهرًا، فكانت تقول له: إذا لاح البرق من جهة بلادي - وهي جهة كذا - فاستره عني، فأبى إن لم تستره عني تركت ولدك عليك، وطرت إلى بلاد قومي، فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره، وإلى هذا المعنى أشار أبو العلاء المعري في قوله يذكر الإبل وحينئذ إلى البرق:

ببغداد وهنا ما لهن وما لي

طربن لضوء البارق المتعالي

بناريه من هنا وثم صوالي

سمت نحوه الأبصار حتى كأنها

تمد إليه في صدور عوالي

إذا طال عنها سرها لو رؤوسها

تراث لها من أينق وجمال

تمنت قويقاً والصراة أمامها

كأنني عمرو والمطي سعالِي

إذا لاح إيماض سترت وجوها

إلى الشام لولا حبسه بعقالي

وكم هم نضو أن يطير مع الصبا

قالوا: فغفل عمرو بن يربوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يستر وجهها، فطارت وقالت له وهي تطير:

برق على أرض السعالي الق

أمسك بنيك عمرو إني أبقي

ومنهم من يقول: ركبت بعيراً وطارت عليه - أي أسرع - فلم يدركها. وعن هذا قال الشاعر:

فلا بك ما أسأل! ولا اغما

رأى برقاً فأوضع فوق بكر

قال: فبنو عمرو بن يربوع إلى اليوم يدعون بني السعلاة، ولذلك قال الشاعر يهجوهم:

عمرو بن يربوع شرار النار

يا قبح الله بني السعلاة

ليسوا بأبطال ولا أكيات

فأبدل السين تاء، وهي لغة قوم من العرب ومن مذاهبهم في الغول قولهم؛ إنما إذا ضربت ضربةً واحدة بالسيف هلكت، فإن ضربت ثانية عاشت، وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

مكانك، إنني ثبت الجنان

فقلت: ثن، قلت لها: رويداً

وكانت العرب تسمي أصوات الجن العزيف وتقول: إن الرجل إذا قتل قنفذاً أو ورلاً لم يأمن الجن على فحل إبله، وإذا أصاب إبله خطب أو بلاغ حملة على ذلك، ويزعمون أنهم يسمعون الهاتف بذلك، ويقولون مثله في الجن من الحيات، وقتله عندهم عظيم.

ورأى رجل منهم جناً في قعر بئر لا يستطيع الخروج منها، فترل وأخرجه منها على خطر عظيم، وغمض عينيه لئلا يرى أين يدخل، كأنه يريد بذلك التقرب إلى الجن.

وقال أبو عثمان الجاحظ: وكانوا يسمون من يجاور منهم الناس عامراً، والجمع عمار فإن تعرض للصبيان فهو روح، فإن خبث وتعرم فهو شيطان، فإن زاد على ذلك فهو مارد، فإن زاد على ذلك في القوة فهو عفريت، فإن طهر ولطف وصار خيراً كله فهو ملك، ويفاضلون بينهم، ويعتقدون مع كل شاعر شيطانا، ويسمونهم بأسماء مختلفة قال أبو عثمان: وفي النهار ساعات يرى فيها الصغير كبيراً ويوجد لأوساط الفيافي والرمال والحرار مثل الدوي، وهو طبع ذلك الوقت، قال ذو الرمة:

صه لم يكن إلا دوي المسامع

إذا قال حادينا لترنيم نبأ

وقال أبو عثمان أيضاً في الذين يذكرون عزيف الجن وتغول الغيلان: إن أثر هذا الأمر وابتداء هذا الخيال أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه في البلاد الخلاء استوحش، ولا سيما مع قلة الأشغال وفقد المذاكرين، والوحدة لا تقطع أيامها إلا بالتمني والأفكار، وذلك أحد أسباب الوسواس .

ومن عجائب اعتقادات العرب اعتقادهم في الديك والغراب والحمامة وساق حر - وهو الهديل - والحية، فمنهم من يعتقد

أن للجن بهذه الحيوانات تعلقات، ومنهم من يزعم أنها نوع من الجن، ويعتقدون أن سهيلاً والزهرة والضب والذئب والضبع مسوخ، ومن أشعارهم في مراكب الجن قول بعضهم في قنفذ رآه ليلاً:

وفي الأسد أفراس لهم ونجائب

فما يعجب الجنان منك عدمتهم

لقد أعوزتكم ما علمت النجائب

أيسرج يربوغ ويلجم قنفذ

ومن الشعر المنسوب إلى الجن:

الذ وأشهى من ركوب الأرنب

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد

أبادر سرباً من عطاء قوارب

ومن عضر فوط عن لي فركبته

وقال أعرابي يكذب بذلك:

لقد ضاع سر الله يا أم معبد !!

أيستمع الأسرار راكب قنفذ

ومن أشعارهم وأحاديثهم في رواية الجن وخطابهم وهتافهم ما رواه أبو عثمان الجاحظ لسمير بن الحارث الضبي:

بدار لا أريد بها مقاما

ونار قد حضأت بعيد وهن

اكاكئها مخافة أن تناما

لسوى تحليل راحلة وعين

فقالوا: الجن قلت: عموا ظلاما

أتوا ناري فقلت: منون أنتم

ويزعمون أن عمير بن ضبيعة رأى غلماناً ثلاثة يلعبون فهاراً، فوثب غلام منهم فقام على عاتقي صاحبه، ووثب الآخر، فقام على عاتقي الأعلى منهما، فلما رآهم كذلك حمل عليهم فصدّمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يضحكون، فقال عمير بن ضبيعة: فما مررت يومئذ بشجرة إلا وسمعت من تحتها ضحكاً، فلما رجع إلى منزله مرض أربعة أشهر.

وحكى الأصمعي عن بعضهم أنه خرج هو وصاحب له يسيران، فإذا غلام على الطريق، فقالا له: من أنت؟ قال: أنا مسكين قد قطع بي فقال أحدهما لصاحبه: أردفه خلفك، فأردفه، فالتفت الآخر إليه فرأى فمه يتأجج ناراً فشد عليه بالسيف فذهبت النار، فرجع عنه، ثم التفت فرأى فمه يتأجج ناراً فشد عليه فذهبت النار ففعل ذلك مراراً، فقال ذلك الغلام: قاتلكما الله! ما أجلدكما! والله ما فعلتها بآدمي إلا وانخلع فؤاده، ثم غاب عنهما فلم يعلموا خبره.

وقال أبو البلاد الطهوي - ويروى لتأبط شراً:

من الروعات يوم رحا بطن

لهان على جهينة ما الاقي

بسهب كالعباءة صحصان

لقيت الغول تسري في ظلام

أخو سفر فخلي لي مكاني

فقلت لها: كلانا نقض أرض

لها كفي بمصقول يمانى

فشدت شدة نحوي فأهوى

على أمثالها تبت الجنان

فقلت: زد فقلت: رويد إني

والذين يروون هذا الشعر لتأبط شراً يروون أوله:

ألا من مبلغ فتيات جهم	بما لاقيت عند رحا بطان
بأنّي قد لقيت الغول تلوي	يمرت كالصحيفة صححان
فصدت فانتحيت لها بعضب	حسام غير مؤتشب يمانى
فقد سراتها والبرك منها	فخرت لليدين وللجران
فقلت: ثن قلت لها: رويداً	مكانك إنني ثبت الجنان
ولم أنفك مضطجعاً لديها	لأنظر مصباحاً ماذا دهاني
إذا عينان في رأس دقيق	كراس الهر مشقوق اللسان
وساقا مخدع ولسان كلب	وثوب من عباء أو شنان

وقال البهراني:

وتزوجت في الشيبية غولاً
وقال الجاحظ: أصدقها الخمر لطيب ريحها، والغزال! لأنه من مراكب الجن. وقال أبو عبيدة بن أيوب العنبري أحد
لصوص العرب:

تقول وقد الممت بالإنسي لمة	مخضبة الأطراف خرس الخلاخل
أهذا خدين الغول والذئب والذي	يهيم بربات الحجال الهراكل!
رأت خلق الدركسين أسود شاحباً	من القوم بساماً كريم الشمائل
تعود من آبائه فتكاتهم	وإطعامهم في كل غبراء شامل
إذا صاد صيداً لفه بضرامه	وشيكاً ولم ينظر لغلي المراحل
ونهباً كنهس الصقر ثم مراسه	بكفيه رأس الشيحة المتماثل

ومن هذه الأبيات:

إذا ما أراد الله ذل قبيلة	رماها بتشتيت الهوى والتخاذل
وأول عجز القوم عما ينوبهم	تقاعدهم عنه وطول التواكل
وأول خبث الماء خبث ترابه	وأول لؤم القوم لؤم الحلائل

وهذا الشعر من جيد شعر العرب، وإنما كان غرضنا منه متعلقاً بأوله، وذكرنا سائره لما فيه من الأدب.
وقال عبيد بن أيوب أيضاً في المعنى الذي نحن بصدده:

وصار خليل الغول بعد عداوة
صفيّاً وربته القفار البسابس

وقال أيضاً:

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

فلله در الغول أي رفيقة

لصاحب قفر في المهامه يذعر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت

حوالي نيرانا تلوح وتزهر

وقال أيضاً:

وغولا قفرة: ذكر وأنثى

كأن عليهما قطع البجاد

وقال أيضاً:

فاقد لاقت الغزلان مني بلية

وقد لاقت الغيلان مني الدواھيا

وقال البهراني في قتل الغول:

ضربت ضربةً فصارت هباء

في محاق القمرء آخر شهر

وقال أيضاً، يزعم أنه لما ثنى عليها الضرب عاشت:

فتثيت والمقدار يحرس أهله

فليت يميني يوم ذلك شلت !

وقال تأبط شراً يصف الغول ويذكر أنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه فقتلها:

فأصبحت والغول لي جارة

فيا جارة أنت ما اغولا

وطالبتها بضعها فالتوت

فكان من الرأي أن تقتلا

فجللتها فرهفاً صارماً

أبان المرافق والمفصلا

فطار بقحف ابنة الجن ذا

شفاشق قد أخلق المحملا

فمن يك يسأل عن جارتي

فإن لها باللوى منزلا

عطاء أرض لها حلتان

من ورق الطلح لم تغزلا

وكنت إذا ما هممت آبتهل

واحرى إذا قلت أن افعل

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم وظنوا أن به مسا من الجن، لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً، عملوا جمالاً من طين، وجعلوا عليها جوالق، وملئوها حنطة وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس، وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين، فإن رأوا أنها بجالها قالوا: لم تقبل الدية، فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية، واستدلوا على شفاء المريض وضربوا بالدف، قال بعضهم:

قالوا وقد طال عنائي والسقم

إحمل إلى الجن جمالات وضم

فقد فعلت والسقام لم يرم

فبالذي يملك برئي اعتصم

وقال آخر:

فيا ليت أن الجن جازوا جمالتي

وزحزح عني ما عنائي من السقم

ويا ليتهم قالوا اعطنا كل ماحوت

أعلل قلبي بالذي يزعمونه

وقال آخر:

يمينك في حرب عماس وفي سلم

فيا ليتني عوفيت في ذلك الزعم

أرى أن جنان النويرة أصبحوا

حملت ولم اقبل إليهم حمالة

ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم

تغطوا بثوب الأرض عني ولو بدوا

وهم بين غضبان علي وآسف

تسكن عن قلب من السقم تالف

ومن لي من أمثالهم بالتناصف!

لأصبحت منهم آمناً غير خائف

وكانوا إذا غم عليهم أمر الغائب ولم يعرفوا له خيراً جاؤوا إلى بئر عادية أو حفر قديم ونادوا فيه: يا فلان، أو يا أبا فلان، ثلاث مرات، ويزعمون أنه إن كان ميتاً لم يسمعوا صوتاً، وإن كان حياً سمعوا صوتاً ربما توهموه وهماً، أو سمعوه من الصدى، فبنوا عليه عقيدتهم، قال بعضهم:

دعوت أبا المغوار في الجفر دعوة

أظن أبا المغوار في قعر مظلم

فما أض صوتي بالذي كنت داعياً

تجر عليه الذاريات السوافيا

وقال:

وكم ناديته والليل ساج

بعادي البئار فما أجابا

وقال آخر:

غاب فلم أرج له إياباً

وما قرأت مذ نأى كتابا

عنه وكل يمنع الخطابا

والجفر لا يرجع لي جوابا

حتى متى استنشد الركابا

وقال آخر:

ألم تعلمي أنني دعوت مجاشعاً

فجاوبني حتى ظننت بأنه

لقد سكنت نفسي وأيقنت أنه

من الجفر و الظلماء باد كسورها

سيطلع من جوفاء صعب خدورها

سيقدم والدنيا عجاب أمورها

و قال آخر:

دعونه من عادية نضب ماؤها

فرد جواباً ما شككت بأنه

أقوى في البيت الثاني، وسكن "نضب" ضرورةً كما قال:

وهدم جاليها اختلف عصور

قريب إلينا بالإياب يصير

لو عصر منه ألبان والسمك انعصر

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا في الحرب ربما أخرجوا النساء فيلن بين الصفين، يرون أن ذلك يطفئ نار الحرب ويقودهم إلى السلم، قال بعضهم:

ونحن نلاقيهم ببيض قواضب

لقونا بأبوال النساء تجهالةً

وقال آخر:

منا وأدبرت الرجال شلالا

بالت نساء بني خراشة خيفةً

وقال آخر:

منهم مأخذ يستشفي بها الكلب

بالت نساؤهم والبيض قد أخذت

وهذان البيتان يمكن أن يراد بهما أن النساء يملن خيفة وذعراً، لا على المعنى الذي نحن في ذكره، فإذن لا يكون فيهما دلالة على المراد.

وقال آخر:

إذا غدت في صور السعالي

هيهات رد الخيل بالأبوال

وقال آخر:

بول النساء وقل ذاك غناء

جعلوا السيوف المشرفية منهم

فأما ذكرهم عزيز الجن في المفاوز والسباسب فكثير مشهور، كقول بعضهم:

حديث العذارى بأسرارها

وخرق تحدث غيطانه

وقال آخر:

من البيد تعزف جنانها

ودوية سبب سملق

وقال الأعشى:

مناهلها أجنات سدم

وبهماء تعزف جناتها

وقال:

للجن بالليل في حافاتها زجل

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة

وقال آخر:

ببيداء في أرجائها الجن تعزف

وقال الشرقي بن القطامي: كان رجل من كلب - يقال له عبيد بن الحمارس - شجاعاً، وكان نازلاً بالسماوة أيام الربيع، فلما حسر الربيع، وقل ماؤه، وأقلعت أنواؤه، تحمل إلى وادي تبل، فرأى روضة وغديراً، فقال: روضة وغدير، وخطب يسير، وأنا لما حويت مجير، فترل هناك، وله امرأتان: اسم إحدهما الرباب، والأخرى خولة، فقالت له خولة:

أرى بلدةً فقراً قليلاً أنيسها

وإننا لنخشى إن دجا الليل أهلها

وقالت له الرباب:

أرتك برأي فاستمع عنك قولها

ولا تأمن جن العزيز وجهلها

فقال مجيباً لهما:

ألست كمياً في الحروب مجرباً

شجاعاً إذا شبت له الحرب محرباً

سريعاً إلى الهيجا إذا حمس الوغى

فاقسم لا أعدو الغدير منكبا

ثم صعد إلى جبل تبلى فرأى شيهمة - وهي الأنثى من القنافذ - فرماها فأقعصها ومعها ولدها، فارتبطه، فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن:

يا بن الحمارس قد أسأت جوارنا

وركبت صاحبنا بأمر مفتح

وعقرت لقحته وقدت فصيلها

قوداً عنيفاً في المنيع الأرفع

ونزلت مرعى شائناً وظلمتنا

والظلم فاعله وخيم المرتع

فانظر فئك بالذي أوليتنا

شر يجيئك ماله من مدفع

فأجابه ابن الحمارس:

يا مدعي ظلمي ولست بظالم

إسمع لديك مقالتي وتسمع

إن كنتم جنأً ظلمتم قنفذاً

عقرت فشر عقيرة في مصرع

لا تطمعوا فيما لدي فما لكم

فيما حويت وحزته من مطمع

فأجابه الجني:

يا ضارب اللقحة بالعصب الأفل

قد جاعك الموت وأوفاك الأجل

وساقك الحين إلى جن تبلى

فالיום أقوت وأعينك الحيل

فأجابه ابن الحمارس:

يا صاحب اللقحة هل أنت بجل

مستمع مني فقد قلت الخطل

وكثرة المنطق في الحرب فشل

هيجت قمقاماً من القوم بطل

ليث ليوث وإذا هم فعل

لا يرهب الجن ولا الإنس أجل

من كان بالعقوة من جن تبلى

قال: فسمعهما شيخ من الجن، فقال: لا والله لا نرى قتل إنسان مثل هذا ثابت القلب ماضي العزيمة، فقام ذلك الشيخ وحمد الله تعالى ثم أنشد:

يا بن الحارس قد نزلت بلادنا
فبدانتا ظلاماً بعقر لقوحنا
فاعمد لأمر الرشد واجتنب الردى
واغرم لصاحبنا لقوحاً

فأصبت منها مشرباً ومناما
وأسأت لما أن نطقت كلاما
إنا نرى لك حرمة وذماما
متبعاً فلقد أصبت بما فعلت أثاما

فأجابه ابن الحماس:

الله يعلم حيث يرفع عرشه
أما ادعاؤك ما ادعيت فإنني
فأسمت فيها مالنا ونزلتها
فليغد صاحبكم علينا نعطه

أنني لأكره أن أصيب أثاما
جئت البلاد ولا أريد مقاما
لأريح فيها ظهرنا أياما
ما قد سألت ولا نراه غراما

ثم غرم للجن لقوحاً متبعاً للقنفذ وولدها.

وهذه الحكاية وإن كانت كذباً إلا أنها تتضمن أدباً، وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها، ويقال: إن الشرقي بن القطامي كان يصنع أشعاراً وينحلها غيره.

فأما مذهب العرب في أن لكل شاعر شيطاناً يلقي إليه الشعر فمذهب مشهور، والشعراء كافة عليه، قال بعضهم:

إني وإن كنت صغير السن
فإن شيطاني أمير الجن

وكان في العين نبو عني
يذهب بي في الشعر كل فن

وقال حسان بن ثابت:

إذا ترعرع فينا الغلام
إذا لم يسد قبل شد الإزار

فما إن يقا له: من هو؛
فذلك فينا الذي لا هو

ولي صاحب من بني الشيصبان
فطوراً أقول وطوراً هو

وكانوا يزعمون أن اسم شيطان الأعشى مسحل واسم شيطان المخبل عمرو.

وقال الأعشى:

دعوت خليلي مسحلاً و دعوا له
جهنم جدعاً للهجين المزمم

وقال آخر:

لقد كان جني الفرزدق قدوةً
ولا في القوافي مثل عمرو وشيخه

وما كان فينا مثل فحل المخبل
ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل

وقال الفرزدق يصف قصيدته:

كأنها الذهب العقيان حبرها

وقال أبو النجم :

لسان أشعر خلق الله شيطاناً

شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

إني وكل شاعر من البشر

وأنشد الخالغ فيما نحن فيه لبعض الرجاز:

في غلس الليل وفيهم زوبعة

إن الشياطين أتوني أربعة

وهذا لا يدل على ما نحن بصدد من أمر الشعر وإلقائه إلى الإنسان، فلا وجه لإدخاله في هذا الموضع.

ومن مذهبهم أنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره، فيأخذون روثه ويفتونها على رأسه، ويقولون: روثه راث ثائر، وقال بعضهم:

فراث علينا ثأره والطوائل

طرحنا عليه الروث والزجر صادق

وقد يذر على الحية المقتولة يسير رماد، ويقال لها: قتلك العين فلا ثأر لك، وفي أمثالهم لمن ذهب دمه هدرًا: هو قتيل العين، قال الشاعر:

ولا ذبيحة تشريق وتتحار

ولا أكن كقتيل العين ولسطكم

فأما مذهبهم في الخزرات والأحجار والرقى والعزائم فمشهور، فمنها السلوانة- ويقال السلوة- وهي خرزة يسقى العاشق منها فيسلو في زعمهم، وهي بيضاء شفافة، قال الراجز:

مابي غنى عنكم وإن غنيت

لو اشرب السلوان مالسليت

السلوان: جمع سلوانة.

وقال اللحياني: السلوانة تراث من قبر يسقى منه العاشق فيسلو، وقال غروة بن حزام:

وعراف نجد إن هما شفياني

جعلت لعراف اليمامة حكمه

وقاما مع العواد يبتدران

فقالا نعم: نشفي من الداء كله

ولا سلوة إلا وقد سقياني

فما تركا من زقية يعرفانها

وقال آخر:

سقى الله المنية من سقاني

لمسقوني لمسلوة فسلوت عنها

أي سلوت عن السلوة واشتد بي العشق ودام. وقال الشمر دل:

قال المداوي للخيال بها أزد

ولقد سقيت بسلوة فكأنما

ومن خرزاتهم الهنمة تجتلب بها الرجال وتعطف بها قلوبهم، ورقيتها: أخذته بالهنمة، بالليل زوج وبالنهارة أمه. ومنها الفطسة والقبلة والدرديس، كلها لاجتلاب قلوب الرجال، قال الشاعر:

والدرديس تمنأ في منظم

جمعن من قبل لهن وفطسة

فأنقاد كل مشذب مرس القوى لحبالهن وكل جلد شيطم

وقيل: الدرديس خرزة سوداء يتحبب بها النساء إلى بعولتهن، توجد في القبور العادية، ورقيتها: أخذته بالدرديس، تدر العرق اليبس، وتذر الحديد كالدريس، وأنشد:

فمن لي من علاج الدرديس !

قطعت القيد والخرزات عني

واضل الدرديس الداهية، ونقل إلى هذه لقوة تأثيرها.

ومن خرزاتهم القرزحلة، أنشد ابن الأعرابي:

إذا قطعن دونها المفاوزا

لانتفع القرزحلة العجائزا

وهي من خرز الضرائر، إذا لبستها المرأة مال إليها بعلها دون ضررها.

ومنها خرزة العقرة تشدها المرأة على حقويها فتمنع الحمل، ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق.

ومنها الينجلب، ورقيتها: أخذته بالينجلب، فلا يرم ولا يغب، ولا يزل عند الطنب.

ومنها كرار، مبنية على الكسر، وزقيتها: يا كرار كرية، إن اقبل فسريه، وإن أدبر فضريه، من فرجه إلى فيه.

ومنها الهمرة ورقيتها: يا همرة اهريره، من آسته إلى فيه، وماله وبنيه.

ومنها الخصمة، خرزة للدخول على السلطان والخصومة، تجعل تحت فص الخاتم أو في زر القميص أو في حمائل السيف،

قال بعضهم:

ومالي عليكم خصمة غير منطقي

يعلق غيري خصمة في لقائهم

ومنها الوجيهة، وهي كالخصمة حمراء كالعقيق.

ومنها العطفة، خرزة العطف، والكحلة، خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم، والقبلة خرزة بيضاء تجعل في

عنق الفرس من العين، والفطسة خرزة يمرض بها العدو ويقتل، ورقيتها: أخذته بالفطسة، بالثوباء والعطسة، فلا يزال في

تعسة، من أمره ونكسة، حتى يزور رمسه.

ومن رقاهم للحب: هوايه هوايه، البرق والسحابه، أخذته بمركن، فحبه تمكن. أخذته بإبره، فلا يزل في غيره، خليته

بإشفي، فقلبه لا يهدا. خليته بمبرد، فقلبه لا يبرد.

وترقي الفارك زوجها إذا سافر عنها فتقول: باقول القمر، وظل الشجر، شمال تشمله، ودبور تدبره، ونكباء تنكبه، شيك

فلا انتعش، ثم ترمي في أثره بحصاة ونواة وروثة وبكرة، وتقول: حصاة حصت أثره، نواة أنأت داره، روثه راث خبره

لقعته بكرة.

وقالت فارك في زوجها:

بعد النواة روثه حيث أنتوي

أتبعته إذ رحل العيس ضحي

الروث للروث وللنای النوی

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

و قال آخر:

رمت خلفه لما رأت وشك بينه
وقالت: نأت منك الديار فلا دنت
نواة تلتها روثة وحصاة
وراثت بك الأخبار و الرجعات
ولا فارق الترحال منك شتات

وقال آخر يخاطب امرأته:

لا تقذفي خلفي إذا الركب آغدى
لن يدفع المقدار أسباب الرقى
روثة عبر حصاة ونوى
ولا التهاويل على جن الفلا

هذا الرجز أورده الخالع في هذا المعرض، وهو بأن يدل على عكس هذا المعنى أولى، لأن قوله: "لن يدفع المقدار بالرقى، ولا بالتهاويل على الجن كلام يشعر بأن قذف الحصاة والنواة خلفه كالعوده له، لا كما تفعله الفارك التي تتمنى الفراق. فأما مذهبهم في القيافة والزجر والكهانة واختلافهم في السانح والبارح، وتشاؤمهم باللفظة والكلمة وتأويلهم إلا وتيمنهم بكلمة أخرى، وما كانوا يفعلونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي فكله مشهور معروف لا حاجة لنا إلى ذكره هاهنا.

فأما لفظ أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: "نشرة"، فإن النشرة في اللغة كالعوده والرقية، قالوا: نشرت فلاناً تنشيراً، أي رقيته وعودته، وقال الكلابي: إذا نشر المسفوع فكأنما انشط من عقال، أي يذهب عنه ما به صريعاً. وفي الحديث أنه قال: "فلعل طباً أصابه" يعني سحراً، ثم عوده ب"قل أعوذ برب الناس"، أي رقاه، وكذلك إذا كتب له النشرة.

وقد عد أمير المؤمنين عليه السلام أموراً أربعة ذكر منها النشرة، ولم يكن عليه الصلاة والسلام ليقول ذلك إلا عن توقيف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الجزء العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

الأصل: وقال عليه السلام: مقارنة الناس في أخلاقهم أمن من غوائلهم.

الشرح: إلى هذا نظر المتنبي في قوله:

كيما يرى أننا مثلان في الوهن

وخلة في جليس أتقيه بها

فيهتدى لي فلم أقدر على اللحن

وكلمة في طريق خفت اعربها

وقال الشاعر:

صحوت وإن ماق الزمان أموق

وما أنا إلا كالزمان إذا صحا

وكان يقال: إذا نزلت على قوم فتشبه بأخلاقهم، فإن الإنسان من حيث يوجد، لا من حيث يولد. وفي الأمثال القديمة: من دخل ظفار حمر.

شاعر:

ولو كان ذا عقل لكنت اعاقله

أحامقه حتى يقال سجية

الأصل: وقال عليه السلام لبعض خاطبيه وقد تكلم بكلمة يستصغر مثله عن قول مثلها: لقد طرت شكيراً، وهدرت سقياً.

قال: الشكير هاهنا: أول ما ينبت من ريش الطائر قبل أن يقوى ويستحصف. والسقب: الصغير من الإبل، ولا يهدأ إلا بعد أن يستفحل.

الشرح: هذا مثل قولهم: قد زب قبل أن يحصرم.

ومن أمثال العامة: يقرأ بالشواذ، وما حفظ بعد جزء المفصل.

الأصل: وقال عليه السلام: من أوماً إلى متفاوت خذلته الحيل.

الشرح: قيل في تفسيره: من أستدل بالمتشابه من القرآن في التوحيد والعدل انكشفت حيلته، فإن علماء التوحيد قد

أوضحوا تأويل ذلك، وقيل: من بنى عقيدة له مخصوصة على أمرين مختلفين: حق وباطل كان مبطلاً.

وقيل: من أوماً بطمعه وأمله إلى فائت قد مضى وانقضى لن تنفعه حيلة، أي لا يتبعن أحدكم أمله ما قد فات؛ وهذا

ضعيف لأن متفاوت في اللغة غير الفائت.

الأصل: قال عليه السلام - وقد سئل عن معنى قولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله: إنا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك إلا ما

ملكنا، فميتى ملكنا ما هو أملك به منا كلفنا، ومتى أخذنا منا وضع تكليفه عنا.

الشرح: معنى هذا الكلام أنه عليه السلام جعل الحول عبارة عن الملكية والتصرف، وجعل القوة عبارة عن التكليف، كأنه يقول: لا تملك ولا تصرف إلا بالله، ولا تكليف لأمر من الأمور إلا بالله؛ فنحن لا نملك مع الله شيئاً، أي لا نستقل بأن نملك شيئاً؛ لأنه لولا أقداره إيانا وخلقته لنا أحياء لم نكن مالكين ولا متصرفين، فإذا ملكنا شيئاً هو أملك به - أي أقدر عليه منا - صرنا مالكين له كالمال مثلاً حقيقة، وكالعقل والجوارح والأعضاء مجازاً، وحينئذ يكون مكلفاً لنا أمراً يتعلق بما ملكنا إياه، نحو أن يكلفنا الزكاة عند تملكنا المال، ويكلفنا النظر عند تملكنا العقل، ويكلفنا الجهاد والصلاة والحج وغير ذلك عند تملكنا الأعضاء والجوارح، ومتى أخذ منا المال وضع عنا تكليف الزكاة، ومتى أخذ العقل سقط تكليف النظر، ومتى أخذ الأعضاء والجوارح سقط تكليف الجهاد وما يجري مجراه.

هذا هو تفسير قوله عليه السلام؛ فأما غيره فقد فسر به بشيء آخر، قال أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: فلا حول على الطاعة ولا قوة على ترك المعاصي إلا بالله؛ وقال قوم - وهم المجبرة: لا فعل من الأفعال ألا وهو صادر من الله، وليس في اللفظ ما يدل على ما ادعوا، وإنما فيه أنه لا اقتدار إلا الله، وليس يلزم من نفي الاقتدار إلا الله صدق قولنا: لا فعل من الأفعال إلا وهو صادر عن الله؛ والأولى في تفسير هذه اللفظة أن تحمل على ظاهرها، وذلك أن الحول هو القوة، والقوة هي الحول كلاهما مترادفان؛ ولا ريب أن القدرة من الله تعالى، فهو الذي أقدر المؤمن على الإيمان، والكافر على الكفر، ولا يلزم من ذلك مخالفة القول بالعدل؛ لأن القدرة ليست موجبة.

فإن قلت: فأني فائدة في ذكر ذلك وقد علم كل أحد أن الله تعالى خلق القدرة في جميع الحيوانات.

قلت: المراد بذلك الرد على من أثبت صانعاً غير الله، كالجوس والثنية، فإنهم قالوا بإلهين: أحدهما يخلق قدرة الخير، والآخر يخفق قدرة الشر.

الأصل: وقال عليه السلام لعمار بن ياسر رحمه الله تعالى وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاماً: دعة يا عمار، فأنة لن ياخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا، وعلى عمد لبس على نفسه، ليجعل الشبهات عاذراً لسقطاته.

نبذة من حياة المغيرة بن شعبة،

الشرح: أصحابنا غير متفقين على السكوت على المغيرة، بل أكثر البغداديين يفسقونه، ويقولون فيه ما يقال في الفاسق؛ ولما جاء عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الحديبية نظر إليه قائماً على رأس رسول الله مقلداً سيفاً، فقبل: من هذا؟ قيل: ابن أخيك المغيرة، قال: وأنت هاهنا يا غدر! والله إني إلى الآن ما غسلت سوءتك. وكان إسلام المغيرة من غير اعتقاد صحيح، ولا نابه ونية جميلة، كان قد صحب قوماً في بعض الطرق، فاستغفلهم وهم نيام، فقتلهم وأخذ أموالهم وهرب خوفاً أن يلحق فيقتل، أو يؤخذ ما فاز به من أموالهم؛ فقدم المدينة فأظهر الإسلام، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يرد على أحد إسلامه؛ اسلم عن علة أو عن إخلاص، فامتنع بالإسلام، واعتصم، وحمى جانبه.

ذكر حديثه أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب "الأغاني"، قال: كان المغيرة يحدث حديث إسلامه، قال:

خرجت مع قوم من بني مالك ونحن على دين الجاهلية إلى المقوقس ملك مصر، فدخلنا إلى الإسكندرية، وأهدينا للملك هدايا كانت معنا، فكنت أهون أصحابي عليه، وقبض هدايا القوم، وأمر لهم بجوائز، وفضل بعضهم على بعض، وقصر بي فأعطاني شيئاً قليلاً لا ذكر له، وخرجنا، فأقبلت بنو مالك يشتررون هدايا لأهلهم وهم مسرورون، ولم يعرض أحد منهم علي مواساة، فلما خرجوا حملوا معهم خمراً، فكانوا يشربون منها، فأشرب معهم، ونفسي تأبى أن تدعني معهم، وقلت: ينصرفون إلى الطائف بما أصابوا، وما حباهم به الملك، ويخبرون قومي بتقصيره بي وازدراؤه إياي! فأجمعت على قتلهم، فقلت: إني أجد صداعاً، فوضعوا شراهم ودعوني، فقلت: رأسي يصدع، ولكن اجلسوا فأسقيكم، فلم ينكروا من أمري شيئاً، فجلست أسقيهم واشرب القدح بعد القدح، فلما دبت الكأس فيهم اشتبهوا الشراب، فجعلت اصرف لهم أترع الكأس، فيشربون ولا يدرون، فأهدتهم الخمر حتى ناموا، ما يعقلون، فوثبت إليهم فقتلتهم جميعاً، وأخذت جميع ما كان معهم.

وقدمت المدينة فوجدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمسجد وعنده أبو بكر - وكان بي عارفاً - فلما رأي قال: ابن أخي عروة؛ قلت: نعم، قد جئت أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الحمد لله، فقال أبو بكر من مصر أقبلت؛ قلت: نعم؛ قال: فما فعل المالكيون الذين كانوا معك؛ قلت: كان بيني وبينهم بعض ما يكون بين العرب، ونحن على دين الشرك، فقتلتهم، وأخذت أسلحتهم، وجئت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليخمسها، ويرى فيها رأيها؛ فإنها غنيمة من المشركين، فقال رسول الله: أما أسلافك فقد قبلته، ولا تأخذ من أموالهم شيئاً ولا نخمسها، لأن هذا غدر، والغدر لا خير فيه، فأخذني ما قرب وما بعد، فقلت: يا رسول الله، إنما قتلتهم وأنا على دين قومي، ثم أسلمت حين دخلت إليك الساعة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: الإسلام يجب ما قبله. قال: وكان قتل منهم ثلاثة عشر إنساناً، واحتوى على ما معهم؛ فبلغ ذلك ثقيفاً بالطائف، فتداعوا للقتال، ثم اصطلحوا على أن حمل عمي عروة بن مسعود ثلاث عشرة دية.

قال: فذلك معنى قول عروة يوم الحديبية: "يا غدر، أنا إلى الأمس أغسل سوءتك، فلا أستطيع أن أغسلها"، فلهذا قال أصحابنا البغداديون: من كان إسلامه على هذا الوجه، وكانت خاتمته ما قد تواتر الخبر به؛ من لعن علي عليه السلام على المنابر إلى أن مات على هذا الفعل، وكان المتوسط من عمره الفسق والفجور وإعطاء البطن والفرج سؤلها، وممالأة الفاسقين، وصرف الوقت إلى غير طاعة الله، كيف نتولاه؟ وأي عذر لنا في الإمساك عنه، وألا نكشف للناس فسقه!

مع أبي المعالي الجويني في أمر الصحابة والرد عليه

وحضرت عند النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي البصري في سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد، وعنده جماعة، وأحدهم يقرأ في الأغاني لأبي الفرج، فمر ذكر المغيرة بن شعبة وخاض القوم، فذمه بعضهم، وأثنى عليه بعضهم، وأمسك عنه آخرون؛ فقال بعض فقهاء الشيعة ممن كان يشغل بطرف من علم الكلام على رأي الأشعري: الواجب الكف والإمساك عن الصحابة، وعما شجر بينهم، فقد قال أبو المعالي الجويني: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهي عن ذلك، وقال: "ياكم وما شجر بين صحابي"، وقال: "دعوا لي أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً لما بلغ مد

أحدهم ولا نصيفه ، وقال: "أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم"، وقال: "خيركم القرن الذي أنا فيه ثم الذي يليه، ثم الذي يليه ثم الذي يليه"، وقد ورد في القرآن الشاء على الصحابة وعلى التابعين؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" ! وقد روي عن الحسن البصري أنه ذكر عنده الجمل وصفين فقال: تلك دماء طهر الله منها أسيفنا، فلا نلطح بها ألسنتنا.

ثم إن تلك الأحوال قد غابت عنا وبعدت أخبارها على حقائقها؛ فلا يليق بنا أن نخوض فيها؛ ولو كان واحد من هؤلاء قد أخطأ لوجب أن يحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه، ومن المروءة أن يحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عائشة زوجته، وفي الزبير ابن عمته، وفي طلحة الذي وقاه بيده. ثم ما الذي ألزمننا وأوجب علينا أن نلعن أحداً من المسلمين أو نبرأ منه!! وأي ثواب في اللعنة والبراءة!! إن الله تعالى لا يقول يوم القيامة للمكلف: لم تلعن؛ بل قد يقول له: لم لعنت؛ ولو أن إنساناً عاش عمره كله لم يلعن إبليس لم يكن عاصياً ولا آثماً، وإذا جعل الإنسان عوض اللعنة أستغفر الله كان خيراً له. ثم كيف يجوز للعامة أن تدخل أنفسها في أمور الخاصة، وأولئك قوم كانوا أمراء هذه الأمة وقادتها، ونحن اليوم في طبقة سافلة جداً عنهم؛ فكيف يحسن بنا التعرض لذكرهم! أليس يقبح من الرعية أن تخوض في دقائق أمور الملك وأحواله وشؤونه التي تجري بينه وبين أهله وبني عمه ونسائه وسراريه! وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صهراً معاوية، وأخته أم حبيبة و هي أم المؤمنين في أخيها.

وكيف يجوز أن يلعن من جعل الله تعالى بينه وبين رسوله مودة! أليس المفسرون كلهم قالوا: هذه الآية أنزلت في أبي سفيان وآله، وهي قوله تعالى: "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة" ! فكان ذلك مصاهرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا سفيان وتزويجه ابنته. على أن جميع ما تنقله الشيعة من الاختلاف بينهم والمشاجرة لم يثبت، وما كان القوم إلا كبني أم واحدة ولم يتكدر باطن أحد منهم على صاحبه قط، ولا وقع بينهم اختلاف ولا نزاع. فقال أبو جعفر رحمه الله: قد كنت منذ أيام عقلت بخطي كلاماً وجدته لبعض الزيدية في هذا المعنى نقضاً ورداً على أبي المعالي الجويني فيما اختاره لنفسه من هذا الرأي، وأنا أخرجه إليكم لأستغني بتأمله عن الحديث على ما قاله هذا الفقيه، فإني أجد أماً يمنعني من الإطالة في الحديث؛ لا سيما إذا خرج نخرج الجدل ومقاومة الخصوم. ثم أخرج من بين كتبه كراساً قرأناه في ذلك المجلس وأستحسنه الحاضرون، وأنا أذكر هاهنا خلاصته.

قال: لولا أن الله تعالى، أوجب معاداة أعدائه، كما أوجب موالة أوليائه، وضيق على المسلمين تركها إذا دل العقل عليها، أو صح الخبر عنها بقوله سبحانه: ألا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم"، ويقول تعالى: "ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذهم أولياء"، ويقول سبحانه: "ألا تتولوا قوما غضب الله عليهم؟" وإجماع المسلمين على أن الله تعالى فرض عداوة أعدائه، وولاية أوليائه، وعلى أن البغض في الله واجب، والحب في الله واجب - لما تعرضنا لمعاداة أحد من الناس في الدين، ولا البراءة منه، ولكانت عداوتنا للقوم تكلفاً. ولو ظننا أن الله عز وجل يعذرنا إذا قلنا: يا رب غاب أمرهم عنا، فلم يكن لخوضنا في أمر قد غاب عنا معنى، لاعتمدنا على هذا العذر، وواليناهم، ولكننا نخاف أن يقول سبحانه لنا: إن كان أمرهم قد

غاب عن أبصاركم، فلم يغيب عن قلوبكم وأسماعكم؛ قد أتتكم به الأخبار الصحيحة التي يمثلها ألزمت أنفسكم الإقرار بالني صلى الله عليه وآله وسلم وموالاة من صدقه، ومعاداة من عصاه وجمده، أمر بتدبر القرآن وما جاء به الرسول، فهلا حذرت من أن تكونوا من أهل هذه الآية غدا: "ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل" ! أما لفظة اللعن فقد أمر الله تعالى بها وأوجبها، ألا ترى إلى قوله: "أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون"، فهو إخبار معناه الأمر، كقوله: "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"؛ وقد لعن الله تعالى العصاة بقوله: "لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود"، وقوله: "إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً"، وقوله: "ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً"، وقال الله تعالى لإبليس: "وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين"، وقال: "إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً".

فأما قول من يقول: "أي ثواب في اللعن! وإن الله تعالى لا لقول للمكلف! لم تلعن؛ بل قد يقول له: لم لعنت؛ وأنه لو جعل مكان لعن الله فلانا، اللهم اغفر لي لكان خيراً له، ولو أن إنساناً عاش عمره كله لم يلعن إبليس لم يؤخذ بذلك"؛ فكلام جاهل لا يدري ما يقول اللعن طاعة، ويستحق عليها الثواب إذا فعلت على وجهها، وهو أن يلعن مستحق اللعن لله وفي الله، لا في العصبية والهوى، ألا ترى أن الشرع قد ورد بها في نفي الولد، ونطق بها القرآن، وهو أن يقول الزوج في الخامسة: "أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين"، فلو لم يكن الله تعالى يريد أن يتلفظ عباده بهذه اللفظة وأنه قد تعبد بهم بها، لما جعلها من معالم الشرع، ولما كررها في كثير من كتابه العزيز، ولما قال في حق القاتل: "وغضب الله عليه ولعنه"، وليس المراد من قوله: "لعنه" إلا الأمر لنا بأن نلعنه، ولو لم يكن المراد بها ذلك لكان لنا أن نلعنه، لأن الله تعالى قد لعنه، أيلعن الله تعالى إنساناً ولا يكون لنا أن نلعنه! هذا ما لا يسوغ في العقل، كما لا يجوز أن يمدح الله إنساناً إلا ولنا أن نمدحه، ولا يذمه إلا ولنا أن نذمه؛ وقال تعالى: "هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله"، وقال: "إن ربنا آثم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً"، وقال عز وجل: "وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا". وكيف يقول القاتل: إن الله تعالى لا يقول للمكلف: لم لم تلعن؛ ألا يعلم هذا القاتل أن الله تعالى أمر بولاية أوليائه، وأمر بعداوة أعدائه، فكما يسأل! عن التولي يسأل عن التبري؟ ألا ترى أن اليهودي إذا أسلم يطالب بأن يقال له: تلفظ بكلمة الشهادتين، ثم قل: برئت من كل دين يخالف دين الإسلام، فلا بد من البراءة، لأن بها يتم العمل! ألم يسمع هذا القاتل قول الشاعر:

صديقك، إن الرأي عنك لعازب

ترو عدوي ثم تزعم أنني

فمودة العدو خروج عن ولاية الولي، وإذا بطلت المودة لم يبق إلا البراءة؛ لأنه لا يجوز أن يكون الإنسان في درجة متوسطة مع أعداء الله تعالى وعصاته بالا يودهم ولا يبرأ منهم بإجماع المسلمين على نفي هذه الواسطة. وأما قوله: "لو جعل عوض اللعنة أستغفر الله لكان خيراً له"، فإنه لو أستغفر من غير أن يلعن أو يعتقد وجوب اللعن لما نفعه استغفاره ولا قبل منه، لأنه يكون عاصياً لله تعالى، مخالفاً أمره في إمساكه عمن أوجب الله تعالى عليه البراءة منه،

وإظهار البراءة، والمصر على بعض المعاصي لا تقبل توبته واستغفاره عن البعض الآخر، وأما من يعيش عمره ولا يلعن إبليس، فإن كان لا يعتقد وجوب لعنه فهو كافر، وإن كان يعتقد وجوب لعنه ولا يلعنه فهو مخطئي على أن الفرق بينه وبين ترك لعنه رؤوس الضلال في هذه كعواوية والمغيرة وأمثالهما، أن أحدا من المسلمين لا يورث عنده الإمساك عن لعن إبليس شبهة في أمر إبليس، والإمساك عن لعن هؤلاء وأضر بهم يثير شبهة عند كثير من المسلمين في أمرهم، وتجنب ما يورث الشبهة في الدين واجب، فلهذا لم يكن الإمساك عن لعن إبليس نظيرا للإمساك عن "أمر هؤلاء".

قال: ثم يقال للمخالفين: أرأيتم لو قال قائل: قد غاب عنا أمر يزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف، فليس ينبغي أن نخوض في قصتهما، ولا أن نلعنهما ونعاديهما ونبرأ منهما، هل كان هذا إلا كقولكم: قد غاب عنا أمر معاوية والمغيرة بن شعبة وأضرأ بهما، فليس لخوضنا في قصتهم معنى! وبعد، فكيف أدخلتم أيها العامة والحشوية وأهل الحديث أنفسكم في أمر عثمان وخضتم فيه، وقد غاب عنكم! وبرئتم من قتلته، ولعنتموهم! وكيف لم تحفظوا أبا بكر الصديق في محمد ابنه فإنكم لعنتموه وفسقتموه، ولا حفظتم عائشة أم المؤمنين في أخيها محمد المذكور، ومنعتمونا أن نخوض و ندخل أنفسنا في أمر علي والحسن والحسين ومعاوية الظالم له ولهما، المتعقب على حقه وحقوقهما! وكيف صار لعن ظالم عثمان من السنة عندكم، ولعن ظالم علي والحسن والحسين تكلفاً!! وكيف أدخلت العامة أنفسها في أمر عائشة وبرئتم ممن نظر إليها، ومن القائل لها: يا حميراء، أو إنما هي حميراء، ولعنته بكشفه سترها، ومنعنا نحن عن الحديث في أمر فاطمة وما جرى لها بعد وفاة أبيها.

فإن قلت: إن بيت فاطمة إنما دخل، وسترها إنما كشف، حفظاً لنظام الإسلام، وكيلاً ينتشر الأمر ويخرج قوم من المسلمين أعناقهم من ربة الطاعة ولزوم الجماعة.

قيل لكم: وكذلك ستر عائشة إنما كشف، وهودجها إنما هتك، لأنها نشرت جبل الطاعة، وشقت عصا المسلمين، وأراقت دماء المسلمين من قبل وصول علي بن أبي طالب عليه السلام إلى البصرة، وجرى لها مع عثمان بن خنيف وحكيم بن جبلة ومن كان معهما من المسلمين الصالحين من القتل ولسفك الدماء ما تنطق به كتب التواريخ والسير؛ فإذا جاز دخول بيت فاطمة لأمر لم يقع بعد جاز كشف ستر عائشة على ما قد وقع وتحقق، فكيف صار هتك ستر عائشة من الكبائر التي يجب معها التخليد في النار، والبراءة من فاعله من أو كد عرى الإيمان، وصار كشف بيت فاطمة والدخول عليها مترها وجمع حطب بياها، وتهدها بالتحريق من أو كد غري الدين، وأثبت دعائم الإسلام؛ ومما أعز الله به المسلمين وأطفأ به نار الفتنة؛ والحرمتان واحدة، والستران واحد. وما نحب أن نقول لكم: إن حرمة فاطمة أعظم، ومكانها أرفع، وصيانتها لأجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنها بضعة منه، وجزء من لحمه ودمه، وليست كالزوجة الأجنبية التي لا نسب بينها وبين الزوج، وإنما هي وصلة مستعارة، وعقد يجري مجرى إجارة المنفعة، وكما يملك رق الأمة بالبيع والشراء، ولهذا قال الفرضيون: أسباب التوارث ثلاثة: سبب، ونسب، وولاء؛ فالنسب القرابة، والسبب النكاح، والولاء: ولاء العتق؛ فجعلوا النكاح خارجاً عن النسب؛ ولو كانت الزوجة ذات نسب لجعلوا الأقسام الثلاثة قسمين.

وكيف تكون عائشة أو غيرها في منزلة فاطمة، وقد أجمع المسلمون كلهم من يحبها ومن لا يحبها منهم أنها سيدة نساء العالمين!! قال: وكيف يلزمنا اليوم حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في زوجته، وحفظ أم حبيبة في أحبيها، ولم تلزم الصحابة أنفسهم حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته، ولا ألزمت الصحابة أنفسهم حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صهره وابن عمه ابن عفان، وقد قتلوه ولعنوه؛ ولقد كان كثير من الصحابة يلعن عثمان وهو خليفة؛ منهم عائشة كانت تقول: اقتلوا نعثلاً، لعن الله نعثلاً؛ ومنهم عبد الله بن مسعود؛ وقد لعن معاوية علي بن أبي طالب وابنيه حسنا وحسينا وهم أحياء يرزقون بالعراق، وهو يلعنهم بالشام على المنابر، ويقنت عليهم في الصلوات، وقد لعن أبو بكر وعمر سعد بن عبادة وهو حي، وبرثا منه، وأخرجاه من المدينة إلى الشام، ولعن عمر خالد بن الوليد لما قتل مالك بن نويرة، وما زال اللعن فاشياً في المسلمين إذا عرفوا من الإنسان معصية تقتضي اللعن والبراءة. قال: ولو كان هذا أمراً معتبراً وهو أن يحفظ زيد لأجل عمرو فلا يلعن، لوجب أن تحفظ الصحابة في أولادهم، فلا يلعنوا لأجل آبائهم، فكان يجب أن يحفظ سعد بن أبي وقاص فلا يلعن ابنه عمر بن سعد قاتل الحسين، وأن يحفظ معاوية فلا يلعن يزيد صاحب وقعة الحرة وقاتل الحسين، ومخيف المسجد الحرام بمكة، وأن يحفظ عمر بن الخطاب في عبيد الله ابنه قاتل الهرمزان، والمحارب علياً عليه السلام في صفين.

قال: على أنه لو كان الإمساك عن عداوة من عادى الله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أصحابه ورعاية عهده وعقده لم نعادهم ولو ضربت رقابنا بالسيوف، ولكن محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه ليست كمحبة الجهال الذين يضع أحدهم محبته لصاحبه موضع العصبية، وإنما أوجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محبة أصحابه لطاعتهم لله، فإذا عصوا الله وتركوا ما أوجب محبتهم، فليس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محابة في ترك لزوم ما كان عليه من محبتهم، ولا تغطرس في العدول عن التمسك بمواليتهم، فلقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يحب أن يعادي أعداء الله ولو كانوا عترته، كما يحب أن يوالي أولياء الله ولو كانوا أبعد الخلق نسباً منه، والشاهد على ذلك إجماع الأمة على أن الله تعالى قد أوجب عداوة من ارتد بعد الإسلام، وعداوة من نافق وإن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أمر لذلك ودعا إليه وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أوجب!

قطع السارق وضرب القاذف، وجلد البكر إذا زنا، وإن كان من المهاجرين أو الأنصار؛ ألا ترى أنه قال: لو سرقت فاطمة لقطعتها فهذه ابنته، الحارية مجرى نفسه، ولم يحأها في دين الله، ولا راقبها في حدود الله، وقد جلد أصحاب الإفك، ومنهم مسطح بن أثاثه، وكان من أهل بدر.

قال: وبعد، فلو كان محل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محل لا يعادى إذا عصى الله سبحانه ولا يذكر بالقبيح، بل يجب أن يراقب لأجل اسم الصحبة، ويغضى عن عيوبه وذنوبه، لكان كذلك صاحب موسى المسمطور ثناؤه في القرآن لما اتبع هواه، فانسلخ مما أوتي من الآيات وغوى، قال سبحانه: "وتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين"، ولكان ينبغي أن يكون محل عبدة العجل من أصحاب موسى هذا المحل، لأن هؤلاء كلهم قد صحبوا رسولاً جليلاً من رسل الله سبحانه.

قال: ولو كانت الصحابة عند أنفسهم بهذه المترلة لعلمت ذلك من حال أنفسهم، لأنهم أعرف بمحلهم من عوام أهل دهرنا، وإذا قدرت أفعال بعضهم ببعض دلتك على أن القصة كانت على خلاف ما قد سبق إلى قلوب الناس اليوم، هذا علي وعمار، وأبو الهيثم بن التيهان، وخزيمة بن ثابت، وجميع من كان مع علي عليه السلام من المهاجرين والأنصار، لم يروا أن يتغافلوا عن طلحة والزبير حتى فعلوا بهما وبمن معهما ما يفعل بالشرارة في عصرنا، وهذا طلحة والزبير وعائشة ومن كان معهم وفي جانبهم لم يروا أن يمسكوا عن علي؛ حتى قصدوا له كما يقصد للمتغلبين في زماننا، وهذا معاوية وعمرو لم يريا عليا بالعين التي يرى بها العامي صديقه أو جاره، ولم يقصرا دون ضرب وجهه بالسيف ولعنه ولعن أولاده وكل من كان حياً من أهله، وقتل أصحابه، وقد لعنهما هو أيضاً في الصلوات المفروضة، ولعن معهما أبا الأعور السلمي، وأبا موسى الأشعري، وكلاهما من الصحابة، وهذا سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، واسامة بن زيد، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الله بن عمر، وحسان بن ثابت، وانس بن مالك، لم يروا أن يقلدوا عليا في حرب طلحة، ولا طلحة في حرب علي، وطلحة والزبير بإجماع المسلمين أفضل من هؤلاء المعدودين، لأنهم زعموا أنهم قد خافوا أن يكون علي قد غلط وزل في حربهما، وخافوا أن يكونا قد غلطا وزلا في حرب علي؛ وهذا عثمان قد نفى أبا ذر إلى الربرة كما يفعل بأهل الخنا والريب، وهذا عمار وابن مسعود تلقيا عثمان بما تلقياه به لما ظهر لهما - بزعمهما - منه ما وعظاه لأجله، ثم فعل بهما عثمان ما تناهى إليكم، ثم فعل القوم بعثمان ما قد علمتم وعلم الناس كلهم، وهذا عمر يقول في قصة الزبير بن العوام لما أستأذنه في الغزو: ها إني ممسك بباب هذا الشعب أن يتفرق أصحاب محمد في الناس فيضلّوهم، وزعم أنه وأبو بكر كانا يقولان: إن علياً والعباس في قصة الميراث زعماءهما كاذبين ظالمين فاجرين؛ وما رأينا علياً والعباس اعتذراً ولا تنصلاً، ولا نقل أحد من أصحاب الحديث ذلك؛ ولا رأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنكروا عليهما ما حكاه عمر عنهما، ونسبه إليهما، ولا أنكروا أيضاً على عمر قوله في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنهم يريدون إضلال الناس ويهمون به، ولا أنكروا على عثمان دوس بطن عمار، ولا كسر ضلع ابن مسعود، ولا على عمار وابن مسعود ما تلقيا به عثمان، كإنكار العامة اليوم الخوض في حديث الصحابة، ولا اعتقدت الصحابة في أنفسهم ما يعتقد العامة فيها؛ اللهم إلا أن يزعموا أنهم أعرف بحق القوم منهم، وهذا علي وفاطمة والعباس ما زالوا على كلمة واحدة يكذبون الرواية: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث"، ويقولون: إنها مختلقة.

قالوا: وكيف كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعرف هذا الحكم غيرنا ويكتمه عنا ونحن الورثة؛ ونحن أولك الناس بأن يؤدي هذا الحكم إليه، وهذا عمر بن الخطاب يشهد لأهل الشورى أنهم النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو عنهم راض، ثم يأمر بضرب أعناقهم إن أخرجوا فصل حال الإمامة، هذا بعد أن ثلبهم، وقال في حقهم ما لو سمعته العامة اليوم من قائل لوضعت ثوبه في عنقه سحباً إلى السلطان، ثم شهدت عليه بالرفض واستحلت دمه، فإن كان الطعن على بعض الصحابة رفضاً فعمر بن الخطاب أرفض الناس وإمام الروافض كلهم. ثم ما شاع وأشتهر من قول عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة، وقى الله شرها؛ فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه؛ وهذا طعن في العقد، وقدح في البيعة الأصلية.

ثم ما نقل عنه من ذكر أبي بكر في صلاته، وقوله عن عبد الرحمن أبنه: دويبة سوء وهو خير من أبيه. ثم عمر القائل في سعد بن عباد، وهو رئيس الأنصار وسيدها: اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً، اقتلوه فإنه منافق. وقد شتم أبا هريرة وطعن في روايته، وشتم خالد بن الوليد وطعن في دينه، وحكم بنفسه وبوجوب قتله، وخون عمرو بن العاصى ومعاوية بن أبي سفيان ونسبهما إلى سرقة مال الفيء واقتطاعه، وكان سريعاً إلى المساءلة، كثير الجبة والشتم والسب لكل أحد، وقل أن يكون في الصحابة من سلم من معرة لسانه أو يده، ولذلك أبغضوه وملوا أيامه مع كثرة الفتوح فيها، !لا احترام عمر الصحابة كما تحترمهم العامة! إما أن يكون عمر مخطئاً، وإما أن تكون العامة على الخطأ! فإن قالوا: عمر ما شتم ولا ضرب، ولا أساء إلا إلى عاص مستحق لذلك، قيل لهم: فكأننا نحن نقول: إنا نريد أن نبرأ ونعادي من لا يستحق البراءة والمعاداة! كلا ما قلنا هذا، ولا يقول هذا مسلم ولا عاقل.

وإنما غرضنا الذي إليه نجري بكلامنا هذا أن نوضح أن الصحابة قوم من الناس لهم ما للناس، وعليهم ما عليهم، من أساء منهم ذمناه، ومن أحسن منهم حمدناه، وليس لهم على غيرهم من المسلمين كبير فضل إلا بمشاهدة الرسول ومعاصرته لا غير، بل ربما كانت ذنوبهم أفحش من ذنوب غيرهم، لأنهم شاهدوا الأعلام والمعجزات، فقتربت اعتقادهم من الضرورة، ونحن لم نشاهد ذلك، فكانت عقائدنا محض النظر والفكر، وبعرضية الشبهة والشكوك، فمعاصينا أخف لأننا أعذر. ثم نعود إلى ما كنا فيه فنقول: وهذه عائشة أم المؤمنين؛ خرجت بقميص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت للناس: هذا قميص رسول الله لم يبل، وعثمان قد أبلى سنته؛ ثم تقول: اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلاً، ثم لم ترض بذلك حتى قالت: أشهد أن عثمان جيفة على الصراط غداً. فمن الناس من يقول: روت في ذلك خبراً، ومن الناس من يقول: هو موقوف عليها؛ وبدون هذا لو قاله إنسان اليوم يكون عند العامة زنديقاً. ثم قد حصر عثمان؛ حصرته أعيان الصحابة، فما كان أحد ينكر ذلك، ولا يعظمه ولا يسعى في إزالته، وإنما أنكروا على من أنكر على المحاصرين له، وهو رجل كما علمتم من وجوه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ثم من أشرفهم، ثم هو أقرب إليه من أبي بكر وعمر؛ وهو مع ذلك إمام المسلمين، والمختار منهم للخلافة، ولإمام حق على رعيته عظيم، فإن كان القوم قد أصابوا فيذن ليست الصحابة في الموضع الذي وضعتها به العامة، وإن كانوا ما أصابوا فهذا هو الذي نقول من أن الخطأ جائز على آحاد الصحابة؛ كما يجوز على أحادنا اليوم. ولسنا نقدح في الإجماع، ولا ندعي إجماعاً حقيقياً على قتل عثمان، وإنما نقول: إن كثيراً من المسلمين فعلوا ذلك والخصم يسلم أن ذلك كان خطأ ومعصية، فقد سلم أن الصحابي يجوز أن يخطئ ويعصي، وهو المطلوب.

وهذا المغيرة بن شعبة وهو من الصحابة، ادعى عليه الزنا، وشهد عليه قوم بذلك، فلم ينكر ذلك عمر، ولا قال: هذا محال وباطل لأن هذا صحابي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يجوز عليه الزنا، وهلا أنكر عمر على اليهود وقال لهم: ويحكم هلا تغافلتم عنه لما رأيتموه يفعل ذلك، فإن الله تعالى أوجب الإمساك عن مساوئ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأوجب السر عليهم! وهلا تركتموه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: "دعوا لي أصحابي"! ما رأينا عمر إلا وقد انتصب لسماع الدعوى، وإقامة الشهادة، وأقبل يقول للمغيرة: يا

مغيرة، ذهب ربعك، يا مغيرة، ذهب نصفك يا مغيرة، ذهب ثلاثة أرباعك، حتى اضطرب الرابع، فجلد الثلاثة. وهلا قال المغيرة لعمر: كيف تسمع في قول هؤلاء، وليسوا من الصحابة، وأنا من الصحابة، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قال: "أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم"! ما رأيناه قال ذلك، بل استسلم لحكم الله تعالى. وهاهنا من هو أمثل من المغيرة وأفضل، قدامة بن مظعون، لما شرب الخمر في أيام عمر، فأقام عليه الحد، وهو رجل من عليّة الصحابة ومن أهل بدر، والمشهود لهم بالجنة، فلم يرد عمر الشهادة، ولا درأ عنه الحد لعله أنه بدري، ولا قال: قد نهي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذكر مساوئ الصحابة. وقد ضرب عمر أيضاً ابنه حدا فمات، وكان ممن عاصر رسول صلى الله عليه وآله وسلم لم تمنعه محاصرته له من أقامه الحد عليه.

وهذا علي عليه السلام يقول: ما حدثني أحد بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا استحلفته عليه، أليس هذا اتِّماماً لهم بالكذب! وما استثنى أحداً من المسلمين إلا أبا بكر على ما ورد في الخبر، وقد صرح غير مرة بتكذيب أبي هريرة، وقال: لا أحد أكذب من هذا الدوسي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقال أبو بكر في مرضه الذي مات فيه: وددت أني لم اكشف بيت فاطمة ولو كان اغلق على حرب، فندم والندم لا يكون إلا عن ذنب.

ثم ينبغي للعاقل أن يفكر في تأخر علي عليه السلام عن بيعة أبي بكر ستة أشهر إلى أن ماتت فاطمة، فإن كان مصيباً فأبو بكر على الخطأ في انتصابه في الخلافة، وإن كان أبو بكر مصيباً فعلي على الخطأ في تأخره عن البيعة وحضور المسجد؛ ثم قال أبو بكر في مرض موته أيضاً للصحابة: فلما استخلفت عليكم خير في نفسي - يعني عمر - فكلكم ورم لذلك أنفه يريد أن يكون الأمر له، لما رأيتم الدنيا قد جاءت، أما والله لتتخذن ستائر الدياج ونضائد الحرير أليس هذا طعناً في الصحابة، وتصريحاً بأنه قد نسبهم إلى الحسد لعمر، لما نص عليه بالعهد! ولقد قال له طلحة لما ذكر عمر للأمر: ماذا تقول لربك إذا سألك عن عبادته، وقد وليت عليهم فظاً غليظاً! فقال أبو بكر: أجلسوني أجلسوني، بالله تخوفني! إذا سألتني قلت: وليت عليهم خير أهلك، ثم شتمه بكلام كثير منقول، فهل قول طلحة إلا طعن في عمر، وهل قول أبي بكر إلا طعن في طلحة! ثم الذي كان بين أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود من السباب حتى نفى كل واحد منهما الآخر عن أبيه وكلمة أبي بن كعب مشهورة منقولة: ما زالت هذه الأمة مكبوبة على وجهها منذ فقدوا نبيهم، وقوله: ألا هلك أهل العقيدة، والله ما أسي عليهم إنما آسى على من يضلون من الناس.

ثم قول عبد الرحمن بن عوف: ما كنت أرى أن أعيش حتى يقول لي عثمان: يا منافق؛ وقوله: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما وليت عثمان شسع نعلي، وقوله: اللهم إن عثمان قد أبي أن يقيم كتابك فافعل به وافعل. وقال عثمان لعلي عليه السلام في كلام دار بينهما: أبو بكر وعمر خير منك؛ فقال علي: كذبت، أنا خير منك ومنهما، عبدت الله قبلهما، وعبدته بعدهما.

وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، قال: كنت عند عروة بن الزبير، فنذاكرنا كم أقام النبي بمكة بعد الوحي؛ فقال عروة: أقام عشرة، فقلت: كان ابن عباس يقول: ثلاث عشرة، فقال: كذب ابن عباس. وقال ابن عباس: المتعة حلال، فقال له جبير بن مطعم: كان عمر ينهى عنها، فقال يا عدي نفسه، من هاهنا ضللتم، أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتحدثني عن عمر! وجاء في الخبر عن علي عليه السلام، لولا ما فعل عمر بن الخطاب في

المتعة ما زنى إلا شقي؛ وقيل: ما زنى إلا شفا، أي قليلاً.

فأما سب بعضهم بعضاً وقدح بعضهم في بعض في المسائل الفقهية فأكثر من أن يحصى، مثل قول ابن عباس وهو يرد على زيد مذهبه القول في الفرائض: إن شاء- أو قال: من شاء- باهلتة إن الذي أحصى رمل عاجل عدداً أعدل من أن يجعل في مال نصفاً ونصفاً وثلاثاً، هذان النصفان قد ذهباً بالمال، فأين موضع الثلث! ومثل قول أبي بن كعب في القرآن: لقد قرأت القرآن وزيد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود في المكتب.

وقال علي عليه السلام في أمهات الأولاد وهو على المنبر: كان رأي ورأي عمر ألا يبعن، وأنا أرى الآن يبعهن، فقام إليه عبيدة السلماني، فقال: رأيك في الجماعة أحب إلينا من رأيك في الفرقة. وكان أبو بكر يرى التسوية في قسم الغنائم، وخالفه عمر وأنكر فعله. وأنكرت عائشة على أبي سلمة بن عبد الرحمن خلافه على ابن عباس في عدة المتوفى عنها زوجها وهي حامل؛ وقالت: فروج يصقع مع الديكة.

وأنكرت الصحابة على ابن عباس قوله في الصرف، وسفهاوا رأيه حتى قيل إنه تاب من ذلك عند موته. واختلفوا في حد شارب الخمر حتى خطأ بعضهم بعضاً.

وروى بعض الصحابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: الشؤم في ثلاثة: المرأة والدار، والفرس، فأنكرت عائشة ذلك، وكذبت الراوي وقالت: إنه إنما قال صلى الله عليه وآله وسلم ذلك حكاية عن غيره. وروى بعض الصحابة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: التاجر فاجر، فأنكرت عائشة ذلك، وكذبت الراوي وقالت: إنما قاله صلى الله عليه وآله وسلم في تاجر دلس.

وأنكر قوم من الأنصار رواية أبي بكر: "الأئمة من قريش"، ونسبوه إلى افتعال هذه الكلمة.

وكان أبو بكر يقضي بالقضاء فينقضه عليه أصاغر الصحابة كبلال وصهيب ونحوهما. قد روي ذلك في عدة قضايا. وقيل لابن عباس: إن عبد الله بن الزبير يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى بني إسرائيل؛ فقال: كذب عدو الله! أخبرني أبي بن كعب، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذكر كذا؛ بكلام يدل على أن موسى صاحب الخضر هو موسى إسرائيل.

وباع معاوية أواني ذهب وفضة بأكثر من وزنها، فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينهى عن ذلك، فقال معاوية: أما أنا فلا أرى به بأساً؛ فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية! أخبره عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يخبرني عن رأيه! والله لا أساكنك بأرض أبداً.

وطعن ابن عباس في أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخلن يده في الإناء حتى يتوضأ"، وقال: فما نصنع بالمهراس! وقال علي عليه السلام لعمر وقد أفتاه الصحابة في مسألة واجمعوا عليها: إن كانوا راقبوك فقد غشوك، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطئوا.

وقال ابن عباس: ألا يتقي الله زيد بن ثابت، يجعل ابن الابن ابناً، ولا يجعل أب الأب أباً! وفالت عائشة: أخروا زيد بن

أرقم أنه قد احبط جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأنكرت الصحابة على أبي موسى قوله: إن النوم لا ينقض الوضوء، ونسبته إلى الغفلة وقلة التحصيل، وكذلك أنكرت على أبي طلحة الأنصاري قوله: إن أكل البرد لا يفطر الصائم، وهزئت به ونسبته إلى الجهل.

وسمع عمر عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب يختلفان في صلاة الرجل في الثوب الواحد، فصعد المنبر وقال: إذا اختلف اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعن أي فتياكم يصدر المسلمون! لا اسمع رجلين يختلفان بعد مقامي هذا إلا فعلت وصنعت.

وقال جرير بن كليب: رأيت عمر ينهى عن المتعة، وعلي عليه السلام يأمر بها، فقلت: إن بينكما لشرا، فقال علي عليه السلام: ليس بيننا إلا الخير، ولكن خيراً أتبعنا لهذا الدين.

قال هذا المتكلم: وكيف يصح أن يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"؛ لا شبهة أن هذا يوجب أن يكون أهل الشام في صفين على هدى، وأن يكون أهل العراق أيضاً على هدى، وأن يكون قاتل عمار بن ياسر مهتدياً؛ وقد صح الخبر الصحيح أنه قال له: "تقتلك الفئة الباغية"، وقال في القرآن: "فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله"؛ فدل على أنها ما دامت موصوفة بالمقام على البغي، مفارقة لأمر الله، ومن يفارق أمر الله لا يكون مهتدياً.

وكان يجب أن يكون بسر بن أبي ارمطة الذي ذبح ولدي عبد الله بن عباس الصغيرين مهتدياً، لأن بسرّاً من الصحابة أيضاً، وكان يجب أن يكون عمرو بن العاص ومعاوية اللذان كانا يلعبان علياً أدبار الصلاة وولديه مهتدين؛ وقد كان في الصحابة من يزني ومن يشرب الخمر كأبي محجن الثقفي، ومن يرتد عن الإسلام كطليحة بن خويلد، فيجب أن يكون كل من اقتدي بهؤلاء في أفعالهم مهتدياً.

قال: وإنما هذا من موضوعات متعصبة الأموية، فإن لهم من ينصرهم بلسانه، وبوضعه الأحاديث إذا عجز عن نصرهم بالسيف.

وكذا القول في الحديث الآخر، وهو قوله: "القرن الذي أنا فيه"، ومما يدل على بطلانه أن القرن الذي جاء بعده بخمسين سنة شر قرون الدنيا، وهو أحد القرون التي ذكرها في النص، وكان ذلك القرن هو القرن الذي قتل فيه الحسين، وأوقع بالمدينة، وحوصرت مكة، ونقضت الكعبة، وشر بت خلفاؤه والقائمون مقامه والمنتصبون في منصب النبوة الخمر، وارتكبوا الفجور، كما جرى ليزيد بن معاوية ويزيد بن عاتكة وللوليد بن يزيد، أريق الدماء الحرام، وقتل المسلمون، وسي الحریم، واستعبد أبناء المهاجرين والأنصار، ونقش على أيديهم كما ينقش على أيدي الروم، وذلك في خلافة عبد الملك وإمرة الحجاج. إذا تأملت كتب التواريخ وجدت الخمسين الثانية شراً كلها لا خير فيها، ولا في رؤسائها وأمرائها، والناس برؤسائهم وأمرائهم، والقرن خمسون سنة، فكيف يصح هذا الخبر.

قال: فأما ما ورد في القرآن من قوله تعالى: "لقد رضي الله عن المؤمنين". وقوله: "محمد رسول الله والذين معه".

وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله اطلع على أهل بدر؛ إن كان الخبر صحيحاً فكله مشروط بسلامة العاقبة،

ولا يجوز أن يخبر الحكيم مكلفاً غير معصوم بأنه لا عقاب عليه، فليفعل ما شاء.

قال هذا المتكلم: ومن انصف وتأمل أحوال الصحابة وجددهم مثلنا، يجوز عليهم ما يجوز علينا، ولا فرق بيننا وبينهم إلا بالصحة لا غير، فإن لها منزلة وشرفاً، ولكن لا إلى حد يمتنع على كل من رأى الرسول أو صحبه يوماً أو شهراً أو أكثر من ذلك أن يخطئ ويزل، ولو كان هذا صحيحاً ما احتاجت عائشة إلى نزول لبراءتها من السماء، بل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أول يوم يعلم كذب أهل الإفك، لأنها زوجته، وصحبتها له أكد من صحة غيرها. وصفوان بن المعطل أيضاً كان من الصحابة، فكان ينبغي ألا يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يحمل ذلك الهم والغم الشديدين اللذين حملهما ويقول: صفوان من الصحابة، وعائشة من الصحابة، والمعصية عليهما ممتعة. وأمثال هذا كثير، وأكثر من الكثير؛ لمن أراد أن يستقرئ أحوال القوم، وقد كان التابعون يسلكون بالصحابة هذا المسلك، ويقولون في العصاة منهم مثل هذا القول، وإنما اتخذهم العامة أرباباً بعد ذلك.

قال: ومن الذي يجترئ على القول بأن أصحاب محمد لا تجوز البراءة من أحد منهم وإن أساء وعصى بعد قول الله تعالى للذي شرفوا برؤيته: "لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين" بعد قوله: "قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم" وبعد قوله: "فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد"، إلا من لا فهم له ولا نظر معه، ولا تمييز عنده.

قال: ومن أحب أن ينظر إلى اختلاف الصحابة، وطعن بعضهم في بعض ورد بعضهم على بعض، وما رد به التابعون عليهم واعترضوا به أقوالهم، واختلاف التابعين أيضاً فيما بينهم، وقدح بعضهم في بعض، فلينظر في كتاب النظام، قال الجاحظ: كان النظام أشد الناس إنكاراً على الرافضة، لطعنهم على الصحابة، حتى إذا ذكر الفتيا وتنقل الصحابة فيها، وقضايا في بالأمور المختلفة، وقول من استعمل الرأي في دين الله، انتظم مطاعن الرافضة وغيرها، وزاد عليها؛ وقال في الصحابة أضعاف قولها.

قال: وقال بعض رؤساء المعتزلة: غلط أبي حنيفة في الأحكام عظيم، لأنه أضل خلقاً وغلط حماد أعظم من غلط أبي حنيفة، لأن حماداً أصل أبي حنيفة الذي منه تفرع، وغلط إبراهيم أغلظ وأعظم من غلط حماد، لأنه أصل حماد وغلط علقمة والأسود أعظم من غلط إبراهيم؛ لأنهما أصله الذي عليه اعتمد، وغلط ابن مسعود أعظم من غلط هؤلاء جميعاً، لأنه أول من بدر إلى وضع الأديان برأيه، وهو الذي قال: أقول فيها برأي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني.

قال: واستأذن أصحاب الحديث على ثمامة بخراسان حيث كان مع الرشيد بن المهدي، فسأله كتابه الذي صنفه على أبي حنيفة في اجتهاد الرأي، فقال لست على أبي حنيفة كتبت ذلك الكتاب، وإنما كتبت على علقمة والأسود وعبد الله بن مسعود لأنهم الذين قالوا بالرأي قبل أبي حنيفة.

قال: وكان بعض المعتزلة أيضاً إذا ذكر ابن عباس استصغره وقال: صاحب الذؤابة يقول في دين الله برأيه. وذكر الجاحظ في كتابه المعروف بكتاب التوحيد أن أبا هريرة ليس بثقة في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وسلم ؛ قال: ولم يكن علي عليه السلام يوثقه في الرواية، بل يتهمه، ويقدر فيه ، وكذلك عمر وعائشة.

وكان الجاحظ يفسق عمر بن عبد العزيز ويستهزئ به ويكفره، وعمر بن عبد العزيز وإن لم يكن من الصحابة فأكثر العامة يرى له من الفضل ما يراه لواحد من الصحابة.

وكيف يجوز أن نحكم حكماً جزمياً أن كل واحد من الصحابة عدل، ومن جملة الصحابة الحكم بن أبي العاص! وكفاك به عدواً مبغضاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! ومن الصحابة الوليد بن عقبة الفاسق بنص الكتاب، ومنهم حبيب بن مسلمة الذي فعل ما فعل بالمسلمين في دولة معاوية، وبسر بن أبي أرطاة عدو الله وعدو رسوله، وفي الصحابة كثير من المنافقين لا يعرفهم الناس. وقال كثير من المسلمين: مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعرفه الله سبحانه كل المنافقين بأعيانهم، وإنما كان يعرف قوماً منهم، ولم يعلم بهم أحداً إلا حذيفة فيما زعموا، فكيف يجوز أن نحكم حكماً جزمياً أن كل واحد ممن صحب رسول الله أو رآه أو عاصره عدل مأمون، لا يقع منه خطأ ولا معصية، ومن الذي يمكنه أن يتحجر واسعاً كهذا التحجر، أو يحكم هذا الحكم! قال: والعجب من الحشوية وأصحاب الحديث إذ يجادلون على معاصي الأنبياء، ويشتون أنهم عصوا الله تعالى، وينكرون على من ينكر ذلك، ويطعنون فيه، ويقولون: قدرني معترلي، وربما قالوا: ملحد مخالف لنص الكتاب، وقد رأينا منهم الواحد والمائة والألف يجادل في هذا الباب، فتارة يقولون: إن يوسف قعد من امرأة العزيز مقعد الرجل من المرأة، وتارة يقولون: إن داود قتل أوريا لينكح امرأته، وتارة يقولون: إن رسول الله كان كافراً ضالاً قبل النبوة، وربما ذكروا زينب بنت جحش وقصة الفداء يوم بدر.

فأما قدحهم في آدم عليه السلام ، وإثباتهم معصيته ومناظرتهم من يذكر ذلك فهو دأبهم وديدهم ، فإذا تكلم واحد في عمرو بن العاص أو في معاوية وأمثالهما ونسبهم إلى المعصية وفعل القبيح، احمرت وجوههم، وطالت أعناقهم، وتحازرت أعينهم ، وقالوا مبتدع رافضي، يسب الصحابة، ويشتم السلف، فإن قالوا: إنما اتبعنا في ذكر معاصي الأنبياء نصوص الكتاب؛ قيل لهم: فاتبعوا في البراءة من جميع العصاة نصوص الكتاب، فإنه تعالى قال: "لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله" وقال: "وإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله" ، وقال: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم".

ثم يسألون عن بيعة علي عليه السلام: هل هي صحيحة لازمة لكل الناس؟ فلا بد من "بلى" ، فيقال لهم: فإذا خرج على الإمام الحق خارج أليس يجب على المسلمين قتاله حتى يعود إلى الطاعة؟ فهل يكون هذا القتال إلا البراءة التي نذكرها لأنه لا فرق بين الأمرين، وإنما برئنا منهم لأننا لسنا في زمانهم، فيمكننا أن نقاتل بأيدينا، فقصارى أمرنا الآن أن نبرأ منهم ونلعنهم، وليكون ذلك عوضاً عن القتال الذي لا سبيل لنا إليه.

قال هذا المتكلم: على أن النظام وأصحابه ذهبوا إلى أنه لا حجة في الإجماع، وأنه يجوز أن تجتمع الأمة على الخطأ والمعصية، وعلى الفسق بل على الردة، وله كتاب موضوع في الإجماع يطعن فيه في أدلة الفقهاء، ويقول: إنها ألفاظ غير صريحة في كون الإجماع حجة، نحو قوله: "جعلناكم أمة وسطاً" وقوله: "كنتم خير أمة" وقوله: "ويتبع غير سبيل المؤمنين".

وأما الخبر الذي صورته: "لا تجتمع أمي على الخطأ"، فخير واحد، وأمثلة دليل للفقهاء قولهم: إن الهمم المختلفة، والآراء المتباينة، إذا كان أربابها كثيرة عظيمة، فإنه يستحيل اجتماعهم على الخطأ، وهذا باطل باليهود والنصارى وغيرهم من فرق الضلال.

هذه خلاصة ما كان النقيب أبو جعفر، علقه بخطه من الجزء الذي أقرأناه.

ونحن نقول: أما إجماع المسلمين فحجة، ولسنا نرتضي ما ذكره عنا من أنه أمثلة دليل لنا أن الهمم المختلفة، والآراء المتباينة، يستحيل أن تتفق على غير الصواب؛ ومن نظر في كتبنا الأصولية علم وثاقة أدلتنا على صحة الإجماع وكونه صواباً، وحجة تحريم مخالفته، وقد تكلمت في اعتبار الذريعة للمرتضى على ما طعن به المرتضى في أدلة الإجماع.

وأما ما ذكره من الهجوم على دار فاطمة وجمع الخطب لتحريقها فهو خبر واحد غير موثوق به، ولا معول عليه في حق الصحابة، بل ولا في حق أحد من المسلمين ممن ظهرت عدالته.

وأما عائشة والزبير وطلحة فمذهبنا أنهم أخطئوا، ثم تابوا، وأثم من أهل الجنة، وأن علياً عليه السلام شهد لهم بالجنة بعد حرب الجمل.

وأما طعن الصحابة بعضهم في بعض، فإن الخلاف الذي كان بينهم في مسائل الاجتهاد لا يوجب إثماً، لأن كل مجتهد مصيب، وهذا أمر مذكور في كتب أصول الفقه وما كان من الخلاف خارجاً عن ذلك فالكثير من الأخبار الواردة فيه غير موثوق بها وما جاء من جهة صحيحة نظر فيه ورجح جانب أحد الصحابين على قدر منزلته في الإسلام كما يروى عن عمر وأبي هريرة. فأما علي عليه السلام فإنه عندنا بمنزلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في تصويب قوله، والاحتجاج بفعله، ووجوب طاعته؛ ومتى صح عنه أنه قد برئ من أحد من الناس برئاً منه كائناً من كان، ولكن الشأن في تصحيح ما يروى عنه عليه السلام، فقد أكثر الكذب عليه، وولدت العصبية أحاديث لا أصل لها.

فأما براءته عليه السلام من المغيرة وعمرو بن العاص ومعاوية، فهو عندنا معلوم جار مجرى الأخبار المتواترة، فلذلك لا يتولاها أصحابنا، ولا يثنون عليهم، وهم عند المعتزلة في مقام غير محمود، وحاش لله أن يكون عليه السلام ذكر من سلف من شيوخ المهاجرين إلا بالجميل والذكر الحسن. بموجب ما تقتضيه رئاسته في الدين، وإخلاصه في طاعة رب العالمين، ومن أحب تتبع ما روي عنه مما يوهم في الظاهر خلاف ذلك فليراجع هذا الكتاب، أعني شرح نهج البلاغة، فأنا لم نترك موضعاً يوهم خلاف مذهبنا إلا أوضحناه وفسرناه على وجه يوافق الحق، والله التوفيق.

أخبار عمار بن ياسر ونسبه،

فأما عمار بن ياسر رحمه الله، فنحن نذكر نسبه وطرفاً من حاله مما ذكره ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب، قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: هو عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن حصين بن لؤذ بن ثعلبة بن عوف بن حارثة بن عامر بن نام بن عنس - بالنون - بن مالك بن ادد العنسي المذحجي، يكنى أبا اليقظان، حليف لبني مخزوم، كذا قال ابن شهاب وغيره.

وقال موسى بن عقبة: ومن شهد بدرا عمار بن ياسر حليف لبني مخزوم بن يقظة.

وقال الواقدي وطائفة من أهل العلم: إن ياسرا والد عمار بن ياسر عربي قحطاني من عنس، من مذحج، إلا أن ابنه عماراً مولى لبني مخزوم، لأن أباه ياسراً تزوج أمة لبعض بني مخزوم فأولدها عماراً، وذلك أن ياسرا قدم مكة مع أخوين له يقال لهما: الحارث ومالك في طلب أخ لهم رابع، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فزوجه أبو حذيفة أمة له يقال لها سمية بنت خياط، فولدت له عماراً فأعتقه أبو حذيفة، فصار ولاية لبني مخزوم، وللحلف والولاء الذي بين بني مخزوم وعمار بن ياسر كان اجتماع بني مخزوم إلى عثمان حين نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب حتى انفتق له فتق في بطنه وكسروا ضلعا من أضلاعه، فاجتمعت بنو مخزوم؛ وقالوا: والله لئن مات لا قتلنا به أحداً غير عثمان.

قال أبو عمر: وأسلم عمار وعبد الله أخوه وياسر أبوهما وسمية أمهما، وكان إسلامهم قديماً في أول الإسلام فعذبوا في الله عذاباً عظيماً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمر بهم وهم يعذبون فيقول: "صبراً يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة"، ويقول لهم أيضاً: "صبراً يا آل ياسر، اللهم اغفر آل ياسر، وقد فعلت".

قال أبو عمر: ولم يزل عمار مع أبي حذيفة بن المغيرة حتى مات وجاء الله بالإسلام.

فأما سمية فقتلها أبو جهل، طعنها بحربة في قلبها فماتت، وكانت من الخيرات الفاضلات وهي أول شهيدة في الإسلام، وقد كانت قريش أخذت ياسراً وسمية وأبنيهما؛ وبلالاً وخباباً وصهيباً فألبسوهم أدرع الحديد، وصهر وهم في الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ، فأعطوهم ما سألوا من الكفر، وسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم جاء إلى كل واحد منهم قومة بأنطاع الأدم فيها الماء فألقوهم فيها، ثم حملوا بجوانبها، فلما كان العشي جاء أبو جهل فجعل يشتم سمية ويرفث، ثم وجأها بحربة في قلبها فقتلها؛ فهي أول من استشهد في الإسلام، فقال عمار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله بلغ العذاب من أمني كل مبلغ، فقال: "صبراً يا أبا اليقظان، اللهم لا تعذب أحداً من آل ياسر بالنار"، قال أبو عمر: وفيهم انزل: "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان".

قال: وهاجر عمار إلى أرض الحبشة وصلى القبلتين، وشهد بدرًا والمشاهد كلها وأبلى بلاء حسناً، ثم شهد اليمامة، فأبلى فيها أيضاً، ويومئذ قطعت أذنه.

قال: وذكر الواقدي عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر، قال: رأيت عمار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة وقد اشرف يصيح: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرون؟ أنا عمار بن ياسر، هموا إلي، وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت، فهي تذبذب وهو يقاتل أشد القتال.

قال أبو عمر: وكان عمار طويلاً أشهل، بعيد ما بين المنكبين، قال: وقد قيل في صفته: كان آدم طوالاً مضطرباً، أشهل العينين، بعيد ما بين المنكبين، رجلاً لا يغير شيبه.

قال: وكان عمار يقول: أنا ترب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لم يكن أحد أقرب إليه سنّاً مني.

قال: وقتل عمار وهو ابن ثلاث وتسعين سنة، والخبر المرفوع مشهور في حقه: "تقتلك الفئة الباغية"، وهو من دلائل نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه إخبار عن غيب.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمار: "ملئ إيماناً إلى مشاشه"، ويروى: "إلى أخص قدميه".
وفضائل عمار كثيرة، وقد تقدم القول في ذكر عمار وأخباره، وما ورد في حقه.
الأصل: وقال عليه السلام: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله، وأحسن منه تبه الفقراء على الأغنياء اتكالاً
على الله سبحانه.
الشرح: قد تقدم شرح مثل هذه الكلمة مراراً.
وقال الشاعر:

قنعت فأعتقت نفسي ولن
ونزهتها عن سؤال الرجال
وإن القناعة كنز لا يبب
سبيعت رزق الشفاء الغراث
فما فارقت مهجة جسمها
مواعيد ربك مصدوقة
أملك ذا ثروة رققها
ومنة من لا يرى حقها
إذا ارتقت فتقت رققها
وخصم البطون الذي شققها
لعمرك أو وفيت رزقها
إذا غيرها فقدت صدقها

الأصل: وقال عليه السلام: ما استودع الله امرأ عقلاً إلا ليستنقذه به يوماً ما.

الشرح: لا بد أن يكون للبارئ تعالى في إيداع العقل قلب زيد مثلاً غرض، ولا غرض إلا أن يستدل به على ما فيه نجاته
وخلصه، وذلك هو التكليف، فإن قصر في النظر وجهل وأخطأ الصواب فلا بد أن ينقذه عقله من ورطة من ورطات
الدنيا، وليس يخلو أحد عن ذلك أصلاً، لأن كل عاقل لا بد أن يتخلص من مضرة سبيلها أن تنال بإعمال فكرته وعقله
في الخلاص منها؛ فالحاصل أن العقل إما أن ينقذ الإنقاذ الديني، وهو الفلاح والنجاح على الحقيقة، أو ينقذ من بعض
مهالك الدنيا وآفاتهما، وعلى كل حال فقد صح قول أمير المؤمنين عليه السلام، وقد رويت هذه الكلمة مرفوعة،
ورويت: "إلا استنقذه به يوماً ما".

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: "العقل نور في القلب يفرق له لين الحق والباطل".

وعن أنس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يكون حسن العقل كثير الذنوب، فقال: ما من بشر
إلا وله ذنوب وخطايا يقترفها، فمن كانت سجيته العقل، وغريزته اليقين، لم تضره ذنوبه؛ قيل: كيف ذلك يا رسول
الله؟ قال: كلما أخطأ لم يلبث أن يتدارك ذلك بتوبة وندامة على ما فرط منه، فيمحو ذنوبه، ويبقى له فضل يدخل به
الجنة.

بعض ما قيل في مدح العقل،

وقد تقدم من قولنا في العقل وما ذكر فيه ما فيه كفاية؛ ونحن نذكر هاهنا شيئاً آخر: كان يقال: العاقل يروي ثم يروي و يخبر ثم يخبر.

وقال عبد الله بن المعتز: ما أبين وجوه الخير و الشر في مرآة العقل! لقمان: يا بني، شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وتأخذه أنت بالجان.

أردشير بن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. الإسكندر: لا تحتقر الرأي الجزيل من الحقير، فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها.

مسلمة بن عبد الملك: ما ابتدأت أمراً قط بحزم فرجعت على نفسي بلائمة، وإن كانت العاقبة علي، ولا أضعت الحزم فسررت وإن كانت العاقبة لي.

وصف رجل عضد الدولة بن بويه، فقال: لو رأيته لرأيت رجلاً له وجه فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب.

أثنى قوم من الصحابة على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة والعبادة وخصال الخير حتى بالغوا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: كيف عقله؛ قالوا: يا رسول الله نخبرك باجتهاده في العبادة وضروب الخير، وتسأل عن عقله! فقال: إن الأحقق ليصيب بحمقه أعظم مما يصيبه الفاجر بفجوره، وإنما ترتفع العباد غداً في درجاتهم، وينالون من الزلفي من ربهم على قدر عقولهم.

الريحاني: العقل ملك، والخصال رعيته، فإذا ضعف عن القيام عليها، وصل الخلل إليها. وسمع هذا الكلام أعرابي فقال!: هذا كلام يقطر عسله.

قال معن بن زائدة: ما رأيت قفا رجل إلا عرفت عقله، قيل: فإن رأيت وجهه؛ قال: ذا كتاب يقرأ. بعض الفلاسفة: عقل الغريزة مسلم إلى عقل التجربة.

بعضهم: كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل، فإنه إذا كثر غلا. قالوا في قوله تعالى: " لينذر من كان حياً"، أي من كان عاقلاً.

ومن كلامهم: العاقل بخشونة العيش مع العقلاء آنس منه بلين العيش مع السفهاء.

أعرابي: لو صور العل لأظلمت معه الشمس، ولو صور الحمق لأضاء معه الليل.

قيل لحكيم: متى عقلت؛ قال: حين ولدت، فأنكروا ذلك، فقال: أما أنا فقد بكيت حين جعت، وطلبت الثدي حين احتجت، وسكت حين أعطيت؛ يريد أن من عرف مقادير حاجته فهو عاقل.

المأمون: إذا أنكرت من عقلك شيئاً فاقدحه بعقل.

بزرجمهر: العاقل الحازم إذا أشكل عليه الرأي. بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها من التراب، ثم التمسها حتى وجدها، وكذلك العاقل يجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل، ثم يضرب بعضها في بعض حتى يستخلص الرأي الأصوب.

كان يقال: هجين عاقل خير من هجان جاهل .

كان بعضهم إذا استشير قال لمشاوره: أنظرني حتى أصقل عقلي بنومه.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

إذا نرك المقادير، نزلت التدابير. من نظر في المغاب ، ظفر بالحباب. من اشتدت عزائمه اشتدت دعائمه. الرأي السديد،
أجدى من الأيد الشديد.
بعضهم:

يعارض يوم الروح رأيا مسددا

وما ألف مطرور السنان مشدد

أبو الطيب:

هو أول وهي المحل الثاني

الرأي قبل شجاعة الشجعان

بلغت من العلياء كل مكان

فإذا هما اجتماعا لنفس حرة

بالرأي قبل تطاعن الأقران

ولربما طعن الفتى أقرانه

أدنى إلى شرف من الإنسان

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أيدي الكماة عوالي المران

ولما تفاضلت النفوس ودبرت

ذكر المأمون ولد علي عليه السلام، فقال: خصوا بتدبير الآخرة، وحرموا تدبير الدنيا.
كان يقال: إذا كان الهوى مقهوراً تحت يد العقل، والعقل مسلط عليه، صرفت مساوئ صاحبه إلى المحاسن، فعدت
بلاذته حلمًا، وحدته ذكاءً، وحذره بلاغةً، وعيه صمتًا، وجبنه حذرًا، وإسرافه جودًا.
وذكر هذا الكلام عند بعضهم فقال: هذه خصيصة الحظ نقلها مرتب هذا الكلام إلى العقل.
سمع محمد بن يزداد كاتب المأمون قول الشاعر:

فإن فساد الرأي أن تترددا

إذا كنت ذا أي فكن ذا عزيمة

فأضاف إليه:

فإن فساد العزم أن يتفندا

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً

الأصل: وقال عليه السلام: من صارع الحق صرعه.

الشرح: هذا مثل قوله في موضع آخر: من أبدى صفحته للحق هلك، ونحو هذا قول الطائي:

فاحج بها أن تتجلي ولها القمر

ومن قامر الأيام عن ثمراتها

الأصل: وقال عليه السلام: القلب مصحف البصر.

الشرح: هذا مثل قول الشاعر:

وما جن بالبغضاء والنظر الشرر

تخبرني العينان ما القلب كاتم

يقول عليه السلام: كما أن الإنسان إذا نظر في المصحف قرأ ما فيه، كذلك إذا أبصر الإنسان صاحبه فإنه يرى قلبه بواسطة رؤية وجهه، ثم يعلم ما في قلبه من حب وبغض وغيرهما، كما يعلم برؤية الخط الذي في المصحف ما يدل الخط عليه. وقال الشاعر:

ما في الضمائر من ود ومن حنق

إن العيون لتبدي في تقلبها

الأصل: وقال عليه السلام: التقى رئيس الأخلاق.

الشرح: يعني رئيس الأخلاق الدينية، لأن الأخلاق الحميدة كالجود والشجاعة والحلم والعفة وغير ذلك، لو قدرنا انتفاء التكاليف العقلية والشرعية، لم يكن التقى رئيساً لها، وإنما رياسة التقى لها مع ثبوت التكليف، لا سيما الشرعي، والتقى في الشرع هو الورع والخوف من الله، وإذا حصل حصلت الطاعات كلها، وانتفت القبائح كلها، فصار الإنسان معصوماً، وتلك طبقة عالية، وهي أشرف من جميع الطبقات التي يمدح بها الإنسان، نحو قولنا: جواد أو شجاع أو نحوهما، لأنهما طبقة ينتقل الإنسان منها إلى الجنة ودار الثواب الدائم، وهذه مزية عظيمة يفضل بها على سائر طبقات الأخلاق. الأصل: وقال عليه السلام: لا تجعلن ذرب لسانك على من أنطقك، وبلاغة قولك على من سددك.

الشرح: يقول: لا شبهة أن الله تعالى هو الذي أنطقك، وسدد لفظك، وعلمك البيان كما قال سبحانه: "خلق الإنسان، علمه البيان"، فقيح أن يجعل الإنسان ذرب لسانه وفصاحة منطقته على من انطقه أفدره على العبادة، وقيح أن يجعل الإنسان بلاغة قوله على من سدد قوله، وجعله بليغاً حسن التعبير عن المعاني التي في نفسه، وهذا كمن ينعم على إنسان بسيف فإنه يقبح منه أن يقتله بذلك السيف ظلماً قبحاً زائداً على ما لو قتله بغير ذلك السيف، وما أحسن قول المتنبي في سيف الدولة:

رمى كل ثوب من سنان بخارق

ولما كسا كعباً ثياباً طغوا بها

كما يوجع الحرمان من كف رازق

وما يوجع الحرمان من كف حازم

الأصل: وقال عليه السلام: كفاك أدبا لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك.

الشرح: قد قال عليه السلام هذا اللفظ أو نحوه مراراً، وقد تكلمنا نحن عليه، وذكرنا نظائر له كثيرة نثراً ونظماً. وكتب بعض الكتاب إلى بعض الملوك في حال اقتضت ذلك:

ولا هكذا عهدنا الإخاء

ما على ذا افترقنا بشبذان إذ كنا

على غدرهم وتنسى الوفاء

تضرب الناس بالمهنة البيض

الأصل: وقال عليه السلام يعزي قوماً: من صبر صبر الأحرار، وإلا سلا سلو الأغمار.

وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال للأشعث بن قيس معزياً عن ابن له:

وإلا سلوت سلو البهائم.

إن صبرت صبر الأكرم،

الشرح: أخذ هذا المعنى أبو تمام بل حكاه فقال:

وخاف عليه بعض تلك المآثم

وقال علي في التعازي لأشعث

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

أتصبر للبلوى عزاء وحسبة

فتؤجر أم تسلو سل والبهايم !

الأصل: وقال عليه السلام في صفة الدنيا: الدنيا تغر وتضر وتمر؛ إن الله سبحانه لم يرضها ثواباً لأولياءه، ولا عقاباً لأعدائه.

الشرح: قد تقدم لنا كلام طويل في ذم الدنيا، ومن الكلام المستحسن قوله: "تغر وتضر وتمر"، والكلمة الثانية أحسن وأجمل.

وقرأت في بعض الآثار أن عيسى عليه السلام مر بقريّة وإذا أهلها موتى في الطرق والأفنية، فقال للتلامذة: إن هؤلاء ماتوا عن سخطه، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا، فقالوا يا سيدنا، وددنا أن علمنا خبرهم، فسأل الله تعالى، فقال له: إذا كان الليل فنادهم يجيئوك فلما كان الليل أشرف على نشز ثم ناداهم، فأجابه مجيب، فقال: ما حالكم، وما قصتكم؟ فقال: بتنا في عافية، وأصبحنا في الهاوية، قال: وكيف ذلك؟ قال: لحبنا الدنيا، قال: كيف كان حبكم لها؟ قال: حب الصبي لأمه، إذا أقبلت فرح بها، وإذا أدبرت حزن عليها وبكى، قال: فما بال أصحابك لم يجيئوني؟ قال: لأنهم ملجمون بلحم من نار بأيدي ملائكة غلظ شداد؛ قال: فكيف أحببتي أنت من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم، ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدري أنجو منها أم اكبكب فيها؟ فقال المسيح لتلامذته: لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل وسباخ الأرض في حر الصيف، كثير مع العافية من عذاب الآخرة.

الأصل: وإن أهل الدنيا كركب، بينا هم حلوا إذ صاح بهم سائقهم فارتجفوا.

الشرح: "بيننا هم حلول"، وبيننا هي بين نفسها، ووزنها "فعك"، أشبعت فتحة النون فصارت ألفاً؛ ثم قالوا: "بينما" فزادوا "ما"، والمعنى واحد، تقول: بينا نحن نفعل كذا جاء زيد، أي بين أوقات فعلنا كذا جاء زيد، والجمل قد يضاف إليها أسماء الزمان نحو قولهم: "أتيتك زمن الحجاج أمير"، ثم حذفوا المضاف الذي هو أوقات، وولي الظرف الذي هو بين الجملة التي أقيمت مقام المحذوف.

وكان الأصمعي يخفض بعد "بيننا" إذا صلح في موضعه "بين"، وينشد قول أبي ذؤيب بالكسر:

بيننا تعنقه الكماة وروغه

يوماً أتيج له جريء سلفع

وغيره يرفع ما بعد "بيننا" و "بينما" على الابتداء والخبر، فأما إذ وإذا فإن أكثر أهل العربية يمنعون من مجيئهما بعد بينا وبينما، ومنهم من يجيزه، وعليه جاء كلام أمير المؤمنين، وأنشدوا:

بينما الناس على غليائها

إذ هووا في هوة منها فغاروا

وقالت الحرقة بنت النعمان بن المنذر:

وبينا نسوس الناس والأمر أمرنا

إذا نحن فيهم لسوقة نتنصف

وقال الشاعر:

فبينما العسر إذا دارت مياسير

إذا صار في اللحد تغفوه الأعاصير

استقدر الله خيراً وأرضين به

وبينما المرء في الأحياء مغتبط

وما جاء في وصف الدنيا مما يناسب كلام أمير المؤمنين قول أبي العتاهية:

ليس فيها لمقيم قرار

ذهب الليل بهم والنهار

فاستراحوا ساعة ثم ساروا

يذهب الناس وتخلو الديار

إن دارا نحن فيها لدار

كم وكم قد حلها من اناس

فهم الركب قد أصابوا مناخاً

وكذا الدنيا على مارأينا

الأصل: وقال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: يا بني؛ لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا فإنك تخلفه لأحد رجلين: إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقي بما جمعت له؛ فكنت عوناً له على معصيته؛ وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك.

ويروى هذا الكلام على وجه آخر، وهو: أما بعد؛ فإن الذي في يديك من الدنيا قد كان له أهل قبلك، وهو صائر إلى أهل بعدك، وإنما أنت جامع لأحد رجلين: رجل عمل فيما جمعته بطاعة الله فسعد بما شقيت به، أو رجل عمل فيما جمعته بمعصية الله فشقي بما جمعت له؛ وليس أحد هذين أهلاً أن تؤثره على نفسك، أو تحمل له على ظهره؛ فارج لمن مضى رحمة الله، وعن بقي رزق الله تعالى.

الشرح: روي: "فإنك لا تخلفه إلا لأحد رجلين"، وهذا الفصل نهي عن الادخار، وقد سبق لنا فيه كلام مقنع.

وخلاصة هذا الفصل أنك أن خلفت مالا، فإذا أن تخلفه لمن يعمل فيه بطاعة الله، أو لمن يعمل فيه بمعصيته، فالأول يسعد بما شقيت به أنت، والثاني يكون معانا منك على المعصية بما تركته له من المال، وكلا الأمرين مذموم، وإنما قال له: "فارج لمن مضى رحمة الله، ولمن بقي رزق الله"، لأنه قال في أول الكلام: "قد كان لهذا المال أهل قبلك، وهو صائر إلى أهل بعدك".

والكلام في ذم الادخار والجمع كثير، وللشعراء فيه مذاهب واسعة ومعان حسنة. وقال بعضهم:

مدبراً أي باب عنه يغلقه

أغادياً أم بها يسري فتطرقة

يا جامع المال أياماً تفرقه

ما المال مالك إلا يوم تتفقه

ان الذي قسم الأرزاق يرزقه

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه

وناسيا كيف تأتیه منيته

جمعت مالا فقل لي هل جمعت له

المال عندك مخزون لوارثه

ارفه ببال فتى يغدو على ثقة

فالعرض منه مصون لا يدنس

والوجه منه جديد ليس يخلقه

إن القناعة من يحلل بساحتها

لم يلق في ظلها هما يؤرقه

الأصل: وقال عليه السلام لقائل قال بحضرته أستغفر الله: ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؛ إن للاستغفار درجة العالين، وهو أسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعتمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيه بالأحزان حتى تلتصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله. الشرح: قد روي: "إن الاستغفار درجة العالين"، فيكون على تقدير حذف مضاف، أي أن درجة الاستغفار درجة العالين، وعلى الرواية الأولى يكون على تقدير حذف مضاف، أي أن لصاحب الاستغفار درجة العالين، وهو هاهنا جمع على "فعل" كضليل وخمير، تقول: هذا رجل علي؛ أي كثير العلو، ومنه العلية للغرفة على إحدى اللغتين، ولا يجوز أن يفسر بما فسر به الراوندي من قوله: إنه اسم السماء السابعة، ونحو قوله: "هو سدرة المنتهى"، ونحو قوله: "هو موضع تحت قائمة العرش اليميني"؛ لأنه لو كان كذلك لكان علماً، فلم تدخله اللام، كما لا يقال: "الجهنم"، وكذلك أيضاً لا يجوز تفسيره بما فسر به الراوندي أيضاً؛ قال: العالين، جمع في: الأمكنة في السماء، لأنه لو كان كذلك لم يجمع بالنون لأنها تختص بمن يعقل، وتصلح أن تكون الوجوه الأولى تفسيراً لقوله تعالى: "كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين". قوله: "نبت على السحت"، أي على الحرام؛ يقال: سحت، بالتسكين، وشحت بالضم، وأسحت الرجل في تجارته؛ أي اكتسب السحت.

في ماهية التوبة وشروطها،

وينبغي أن نذكر في هذا الموضوع كلاماً مختصراً مما يقوله أصحابنا في التوبة؛ فإن كلام أمير المؤمنين هو الأصل الذي أخذ منه أصحابنا مقالته، والذي يقولونه في التوبة، فقد أتى على جوامعه عليه السلام في هذا الفصل على اختصاره. قال أصحابنا: الكلام في التوبة يقع من وجوه: منها الكلام في ماهية التوبة والكلام في إسقاطها الدم والعقاب، والكلام في أنه يجب علينا فعلها، والكلام في شرطها.

أما ماهية التوبة فهي الندم والعزم، لأن التوبة هي الإنابة والرجوع، وليس يمكن أن يرجع الإنسان عما فعله إلا بالندم عليه، والعزم على ترك معاودته. وما يتوب الإنسان منه، إما أن يكون فعلاً قبيحاً، وإما أن يكون إخلالاً بواجب، فالتوبة من الفعل القبيح هي أن يندم عليه، ويعزم ألا يعود إلى مثله، وعزمه على ذلك هو كراهيته لفعله، والتوبة من الإخلال بالواجب هي أن يندم على إخلاله بالواجب ويعزم على أداء الواجب فيما بعد.

فأما القول في أن التوبة تسقط العذاب فعندنا أن العقل يقتضي قبح العقاب بعد التوبة، وخالف أكثر المرجئة في ذلك من الأمامية وغيرهم؛ واحتج أصحابنا بقبح عقوبة المسيء إلينا بعد ندمه واعتذاره وتنصله، والعلم بصدقه والعلم بأنه عازم على ألا يعود.

فأما القول في وجوب التوبة على العصاة، فلا ريب أن الشرع يوجب ذلك، فأما العقل فالقول فيه إنه لا يخلو المكلف إما أن يعلم أن معصيته كبيرة، أو يعلم أنها صغيرة، أو يجوز فيها كلا الأمرين، فإن علم كونها كبيرة وجب عليه في العقول التوبة منها، لأن التوبة مزيلة لضرر الكبيرة، وإزالة المضار واجبة في العقول، وإن جوز كونها كبيرة وجوز كونها صغيرة، لزمه أيضاً في العقل التوبة منها، لأنه يأمن بالتوبة من مضرة مخوفة، وفعل ما يؤمن من المضار المخوفة واجب، وإن علم أن معصيته صغيرة؛ وذلك كمعاصي الأنبياء؛ وكمن عصى ثم علم بإخبار نبي أن معصيته صغيرة محبطة، فقد قال الشيخ أبو علي: إن التوبة منها واجبة في العقول، لأنه إن لم يتب كان مصراً والإصرار قبيح.

وقال الشيخ أبو هاشم: لا تجب التوبة منها في العقل بالشرع، لأن فيها مصلحة يعلمها الله تعالى، قال: إنه يجوز أن يخلو الإنسان من التوبة عن الذنب، ومن الإصرار عليه، لأن الإصرار عليه هو العزم على معاودة مثله، والتوبة منه أن يكره معاودة مثله مع الندم على ما مضى، ويجوز أن يخلو الإنسان من العزم على الشيء، ومن كراهيته.

ومال شيخنا أبو الحسين رحمه الله إلى وجوب التوبة هاهنا عقلاً، لدليل غير دليل أبي علي رحمه الله.

فأما القول في صفات التوبة وشروطها فإنها على ضربين: أحدهما يعم كل توبة، والآخر يختلف بحسب اختلاف ما يتاب منه، فالأول هو الندم والعزم على ترك المعاودة.

وأما الضرب الثاني؛ فهو أن ما يتوب منه المكلف إما أن يكون فعلاً أو إخلالاً بواجب؛ فإن كان فعلاً قبيحاً وجب عند الشيخ أبي هاشم رحمه الله أن يندم عليه، لأنه فعل قبيح، وأن يكره معاودة مثله لأنه قبيح وإن كان إخلالاً بواجب وجب عليه عنده أن يندم عليه، لأنه إخلال بواجب، وأن يعزم على فعل مثل ما أحل به لأنه واجب، فإن ندم خوف النار فقط، أو شوقاً إلى الجنة فقط، أو لأن القبيح الذي فعله يضر ببدنه كانت توبته صحيحة، وإن ندم على القبيح لقبحه ولخوف النار، وكان لو انفرد قبحه ندم عليه، فإن توبته تكون صحيحة، وإن كان لو انفرد القبح لم يندم عليه؛ فإنه لا تكون توبته صحيحة عنده، والخلاف فيه مع الشيخ أبي علي وغيره من الشيوخ رحمهم الله؛ وإنما اختار أبو هاشم هذا القول لأن التوبة تجري مجرى الاعتذار بيننا، ومعلوم أن الواحد منا لو أساء إلى غيره ثم ندم على إساءته إليه واعتذر منها خوفاً من معاقبته له عليها، أو من معاقبة السلطان حتى لو أمن العقوبة، لما اعتذر ولا ندم، بل كمان يواصل الإساءة، فإنه لا يسقط ذمه، فكذلك التوبة خوف النار لا لقبح الفعل.

وقد نقل قاضي القضاة هذا المذهب عن أمير المؤمنين عليه السلام والحسن البصري وعلي بن موسى الرضا والقاسم بن إبراهيم الزيني.

قال أصحابنا: وللتوبة شروط آخر تختلف بحسب اختلاف المعاصي، وذلك أن ما يتوب منه المكلف؛ إما أن يكون فيه لآدمي حق أو لا حق فيه لآدمي، فما ليس للآدمي فيه حق فنحو ترك الصلاة، فإنه لا يجب فيه إلا الندم والعزم على ما قدمنا وما لآدمي فيه حق على ضربين: أحدهما أن يكون جنائية عليه في نفسه أو أعضائه أو ماله أو دينه، والآخر ألا يكون جنائية عليه في شيء من ذلك، فما كان جنائية عليه في نفسه أو أعضائه أو ماله، فالواجب فيه الندم والعزم، وأن يشرع في تسليم بدل ما اتلف، فإن لم يتمكن من ذلك لفقر أو غيره عزم على ذلك إذا تمكن منه، فإن مات قبل التمكن

لم يكن من أهل العقاب، وإن جنى عليه في دينه بأن يكون قد أضله بشبهة آسترله بها؛ فالواجب عليه مع الندم العزم والاجتهاد في حل شبهته من نفسه، فإن لم يتمكن من الاجتماع به عزم على ذلك إذا تمكن، فإن مات قبل التمكن، أو تمكن منه واجتهد في حل الشبهة فلم تنحل من نفس ذلك الضال، فلا عقاب عليه؛ لأنه قد آستفرغ جهده؛ فإن كانت المعصية غير جنائية نحو أن يعتابه أو يسمع غيبته فإنه يلزمه الندم والعزم، ولا يلزمه أن يستحله أو يعتذر إليه، لأنه ليس يلزمه أرش لمن أعتابه فيستحله، ليسقط عنه الأرش، ولا غمه فيزيل غمه بالاعتذار، وفي ذكر الغيبة له ليستحله فيزيل غمه منها إدخال غم عليه، فلم يجوز ذلك، فإن كان قد اسمع المغتاب غيبته فذلك جنائية عليه، لأنه قد أوصل إليه مفرة الغم، فيلزمه إزالة ذلك بالاعتذار.

الأصل: وقال عليه السلام: الحلم عشيرة.

الشرح: كان يقال: الحلم جنود مجندة لا أرزاق لها.

وقال عليه السلام: وجدت الاحتمال انصر لي من الرجال. وقال الشاعر:

وللكف عن شتم اللئيم تكرماً **أضر له من شتمه حين يشتم**

وكان يقال: من غرس شجرة الحلم، اجتنى ثمره السلم. وقد تقدم من القول في الحلم ما فيه كفاية.

الأصل: وقال عليه السلام: "مسكين ابن آدم! مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تؤلم البقرة، وتقتله الشرقة، وتنتن العرقة".

الشرح: قد تقدم هاهنا خبر المبتدأ عليه، والتقدير: "ابن آدم مسكين"، ثم بين مسكنته من أين هي؛ فقال: إنها من ستة أوجه: أجله مكتوم لا يدري متى يخترم، وعلله باطنه لا يدري بها حتى تهيج عليه، وعمله محفوظ؛ "ما لهاذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها"، وقرص البقرة يؤلمه، والشرقة بالماء تقتله، وإذا عرق أنتنت العرقة الواحدة وغيرت ريحه؛ فمن هو على هذه الصفات فهو مسكين لا محالة، لا ينبغي أن يأمن ولا أن يفخر.

الأصل: ويروى أنه عليه السلام كان جالساً في أصحابه إذ مرت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم، فقال عليه السلام: إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هبائها؛ فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلا مس أهله، فإنما هي امرأة كامرأته.

فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً، ما أفقهه! قال: فوثب القوم ليقتلوه؛ فقال عليه السلام: رويدا، إنما هو سب بسب، أو عفو عن ذنب.

الشرح: تقول: هب الفحل والتيس يهب بالكسر هيباً أو هباباً؛ إذا هاج للضراب أو للسفاد، والهباب أيضاً: صوت، والتيس إذا هب فهو كهباب؛ وقد بهبته، أي دعوته ليترو فتهبهب؛ أي ترزع.

وسألني صديقنا علي بن البطريق عن هذه القصة فقال: ما باله عفا عن الخارجي وقد طعن فيه بالكفر، أنكر على الأشعث قوله: "هذه عليك لا لك"، فقال: ما يدريك عليك لعنة الله ما علي مما لي! حائك ابن حائك، منافق ابن كافر؛ وما

واجهه به الخارجي أفطع مما واجهه الأشعث! فقلت: لا أدري.

قال: لأن كل صاحب فضيلة يعظم عليه أن يطعن في فضيلته تلك، ويدعى عليه أنه فيها ناقص، العلم، فلما طعن فيه الأشعث طعن بأنك لا تدري ما عليك مما لك، فشق ذلك عليه، وأمتعض منه، وجبهة ولعنه؛ وأما الخارجي فلم يطعن في علمه، بل اثبت له، واعترف به، وتعجب منه، فقال: "قاتله الله كافراً ما أفقهه!" فأغتر له لفظة "كافر" بما اعترف له به من علو طبقة في الفقه، ولم يخشن عليه خشونته على الأشعث، وكان قد مرن على سماع قول الخوارج: أنت كافر، وقد كفرت، يعنون التحكيم، فلم يحفل بتلك اللفظة ونهى أصحابه عن قتله محافظة ورعاية له على ما مدحه به.

الأصل: وقال عليه السلام: كفاك من عقلك، ما أوضح لك سبل غيك من رشدك .

الشرح: يقول عليه السلام: كفي الإنسان من عقله ما يفرق به بين الغي والرشد، وبين الحق من العقائد والباطل، فإنه بذلك يتم تكليفه، ولا حاجة في التكليف، والفرق بين الغي والرشد إلى زيادة على ذلك، نحو التجارب التي تفيده الحزم التام، ومعرفة أحوال الدنيا وأهلها، وأيضاً لا حاجة له إلى أن يكون عنده من الفطنة الثاقبة والذكاء التام ما يستنبط به دقائق الكلام في الحكمة والهندسة والعلوم الغامضة، فإن ذلك كله فضل مستغنى عنه، فإن حصل للإنسان فقد كمل، وإن لم يحصل للإنسان فقد كفاه في تكليفه ونجاته من معاطب العصيان ما يفرق به بين الغي والرشد، وهو حصول العلوم البديهية في القلب، وما جرى مجراها من علوم العادات، وما يذكره أصحابنا في باب التكليف.

الأصل: وقال عليه السلام: افعلوا الخير، ولا تحقروا منه شيئاً، فإن صغيره كبير، وقليلة كثير ولا يقولن أحدكم: إن أحداً أولى بفعل الخير مني، فيكون والله كذلك.

الشرح: القليل من الخير خير من عدم الخير أصلاً.

قال عليه السلام: لا يقولن أحدكم إن فلاناً أولى بفعل الخير مني، فيكون والله كذلك، مثاله قوم موسرون في محلة واحدة، قصد واحداً منهم سائل فرد، وقال له: اذهب إلى فلان، فهو أولى بأن يتصدق عليك مني، فإن هذه الكلمة تقال دائماً، نهي عليه السلام عن قولها وقال: "فيكون والله كذلك"، أي أن الله تعالى يوفق ذلك الشخص الذي أحيل ذلك السائل عليه، ويسر الصدقة عليه، ويقوي دواعيه إليها، فيفعلها فتكون كلمة ذلك الإنسان الأول قد صادفت قدراً وقضاء، ووقع الأمر بموجبها.

الأصل: إن للخير وللشر أهلاً، فمهما تركتوه منهما كفاكموه أهله.

الشرح: يقول عليه السلام: إن عن لك باب من أبواب الخير وتركته، فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعله الله تعالى أهلاً للخير وإسداء المعروف إلى الناس، وإن عن لك باب من أبواب الشر فتركته، فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعلتهم أنفسهم وسوء اختيارهم أهلاً للشر وأذى الناس؛ فاختر لنفسك أيما أحب إليك، أن تحظى بالمحبة والثواب، ولفعل ما إن تركته فعله غيرك وحظي بحمده وثوابه، أو أن تتركه! وأيما أحب إليك: أن تشقى بالذم عاجلاً، والعقاب آجلاً، وتفعل ما إن تركته كفاكه غيرك، وبلغت غرضك منه على يد غيرك، أو أن تفعله؛ ولا ريب أن العاقل يختار فعل الخير وترك الشر إذا أفكر حق الفكر فيما قد أوضحناه .

الأصل: وقال عليه السلام: من أصلح سريره، أصلح الله علاقته، ومن عمل لدينه، كفاه الله أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله، أحسن الله ما بينه وبين الناس.

الشرح: لا ريب أن الأعمال الظاهرة تبع للأعمال الباطنة، فمن صلح باطنه صلح ظاهره وبالعكس، وذلك لأن القلب أميز مسلط على الجوارح، والرعية تتبع أميرها. ولا ريب أن من عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه، وقد شهد بذلك الكتاب العزيز في قوله سبحانه: "ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب".

ولهذا أيضاً علة ظاهرة؛ وذلك أن من عمل لله سبحانه وللدين فإنه لا يخفي حاله في أكثر الأمر عن الناس، ولا شبهة أن الناس إذا حسنت عقيدتهم في إنسان وعلموا متانة دينه بوبوا له إلى الدنيا أبواباً لا يحتاج أن يتكلفها، ولا يتعب فيها، فيأتيه رزقه من غير كلفة ولا كد؛ ولا ريب أن من احسن فيما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس، وذلك لأن القلوب بالضرورة تميل إليه وتحبه، وذلك لأنه إذا كان محسناً بينه وبين الناس عفا عن أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، وترك الدخول فيما لا يعنيه، ولا شبهة أن من كان بهذه الصفة فإنه يحسن ما بينه وبين الناس.

الأصل: وقال عليه السلام: الحلم غطاء ساتر، والعقل حسام قاطع، فاستر خلل خلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك. الشرح: لما جعل الله الحلم غطاء، والعقل حساماً، أمره أن يستر خلل خلقه بذلك الغطاء وأن يقاتل هواه بذلك الحسام، وقد سبق القول في الحلم والعقل.

الأصل: وقال عليه السلام: إن لله عبداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد، فيقرها في أيديهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم، ثم حولها إلى غيرهم.

الشرح: قد ذكرنا هذا المعنى فيما تقدم، وقد قالت الشعراء فيه فأكثرُوا، وقريب من ذلك قول الشاعر:

من الناس مرغوب إليه وراغب

وبالناس عاش الناس قدماً ولم يزل

وأشدّ تصريحاً بالمعنى قول الشاعر:

إلا لتوسع من يرجوك إحسانا

لم يعطك الله ما أعطاك من نعم

تطير عنك زرافات ووحدانا

فإن منعت فاخلق أن تصادفها

الأصل: وقال عليه السلام: لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين: العافية والغنى، بينا تراه معافى إذ سقم وبيننا تراه غنياً إذ افتقر. الشرح: قد تقدم القول في هذا المعنى. وقال الشاعر:

إذ صار في اللحد تسفيه الأعاصير

وبينما المرء في الإحياء مغتبط

وقال آخر:

قد يوافي بالمنيات السحر

لا يغرنك عشاء ساكن

وقال عبيد الله بن طاهر:

فهو لا بد آخذ ما أعارا

وإذا ما أعارك الدهر شيئاً

آخر:

وقال آخر:

ورب غني عظيم الثراء

أمسى مقللاً عديماً فقيراً

وكم بات من مترف في القصور

فغوض في الصبح عنها القبور

الأصل: وقال عليه السلام: من شكا الحاجة إلى مؤمن فكأنما شكها إلى الله، ومن شكها إلى كافر فكأنما شكا الله. الشرح: قد تقدم القول في شكوى الحال وكرهيتها، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدل على أنه لا يكره شكوى الحال إلى المؤمن، ويكرهها إلى غير المؤمن، وهذا مذهب ديني غير المذهب العرفي. وأكثر مذاهبه ومقاصده عليه السلام في كلامه ينحو فيها نحو الدين والورع والإسلام، وكأنه يجعل الشكوى إلى المؤمن كالشكوى إلى الخالق سبحانه، لأنه لا يشكو إلى المؤمن إلا وقد خلت شكواه من التسخن والتأفف، ولا يشكو إلى الكافر إلا وقد شاب شكواه بالاستزادة والتضجر، فافتقرت الحال في الموضعين. فأما المذهب المشهور في العرف والعادة فاستهجان الشكوى على الإطلاق لأنها دليل على ضعف النفس وخذلانها، وقلة الصبر على حوادث الدهر، وذلك عندهم غير محمود. الأصل: وقال عليه السلام في بعض الأعياد: إنما هو عيد لمن قبل الله صيامه، وشكر قيامه، وكل يوم لا نعصي الله فيه فهو يوم عيد.

الشرح: المعنى ظاهر، وقد نقله بعض المحدثين إلى الغزل فقال:

قالوا أتى العيد قلت أهلاً

إن جاء بالوصل فهو عيد

من ظفرت بالمنى يداه

فكل أيامه سعود

ورأيت بعض الصوفية وقد سمع هذين البيتين من مغن حاذق، فطرب وصفق وأخذهما المعنى عنده، وقد قال بعض المحدثين في هذا المعنى أيضاً:

قالوا أتى العيد والأيام مشرقة

وأنت تبكي وكل الناس مسرور

فقلت إن واصل الأحباب كان لنا

عيداً وإلا فهذا اليوم عاشور

الأصل: وقال عليه السلام: إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالا في غير طاعة الله؛ فورثه رجلاً فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنة، ودخل الأول به النار.

الشرح: كان يقال لعمر بن عبد العزيز بن مروان: السعيد ابن الشقي، وذلك أن عبد العزيز بن مروان ملك ضياعاً كثيرة بمصر والشام والعراق والمدينة من غير طاعة الله، بل بسلطان أخيه عبد الملك، وبولاية عبد العزيز نفسه مصر وغيرها، ثم تركها لابنه عمر، فكان ينفقها في طاعة الله سبحانه وفي وجوه البر والقربات، إلى أن أفضت الخلافة إليه، فلما أفضت إليه أخرج سجلات عبد الملك بما لعبد العزيز فمزقها بمحض من الناس، وقال: هذه كتبت من غير أصل شرعي، وقد

أعدتها إلى بيت المال.

الأصل: وقال عليه السلام: إن أخسر الناس صفقة، وأحبيهم سعيًا، رجل أخلق بدنه في طلب آماله ، ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرتة، وقدم على الآخرة بتبعته.

الشرح: هذه صورة أكثر الناس، وذلك لأن أكثرهم يكذب بدنه ونفسه في بلوغ الآمال الدنيوية، والقليل منهم تساعده المقادير على إرادته، وإن ساعدته على شيء منها بقي في نفسه ما لا يبلغه، كما قيل:

وحاجة من عاش لانقضى

نروح ونغدو لحاجاتنا

وتبقى له حاجة ما بقي

تموت مع المرء حاجاته

فأكثرهم إذن يخرج من الدنيا بحسرتة، ويقدم على الآخرة بتبعته ، لأن تلك الآمال التي كانت الحركة والسعي فيها ليست متعلقة بأمور الدين والآخرة، لا جرم ألها تبعات وعقوبات، ونسأل الله عفوه.

الأصل: وقال عليه السلام: الرزق رزقان: طالب ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجها عنها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه .

الشرح: هذا تحريض على طلب الآخرة، ووعد لمن طلبها بأنه سيكفي طلب الدنيا، وأن الدنيا ستطلبه حتى يستوفي رزقه منها.

وقد قيل: مثل الدنيا مثل ظلك، كلما طلبته بعد عنك، فإن أدبرت عنه تبعك.

الأصل: وقال عليه السلام: إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بأجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أنه سيمتلكهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً ودر كهم لها فواتاً، أعداء لما سالم الناس، وسلم لمن عادى الناس ، بهم علم الكتاب، وبه علموا، وبهم قام كتاب الله تعالى، وبه قاموا، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون.

الشرح: هذا يصلح أن يجعله الإمامية شرح حال الأئمة المعصومين على مذاهبهم، لقوله: فوق ما يرجون، بهم علم الكتاب، وبه علموا؛ وأما نحن فنجعل شرح حال العلماء العارفين وهم أولياء الله الذين ذكرهم عليه السلام لما نظر الناس إلى ظاهر الدنيا وزخرفها من المناكح والملابس والشهوات الحسية، نظروا هم إلى باطن الدنيا، فاشتغلوا بالعلوم والمعارف والعبادة والزهد في الملاذ الجسمانية، فأماتوا من شهواتهم وقواهم المدمومة كقوة الغضب وقوة الحسد ما خافوا أن يميتهم، وتركوا من الدنيا اقتناء الأموال لعلمهم أنها ستتركهم، وأنه لا يمكن دوام الصحة معها، فكان استكثار الناس من تلك الصفات استقلالاً عندهم، وبلوغ الناس لها فواتاً أيضاً عندهم، فهم خصم لما سألهم الناس من الشهوات، وسلم لما عاداه الناس من العلوم والعبادات، وبهم علم الكتاب، لأنه لولاهم لما عرف تأويل الآيات المتشابهات، ولأخذها الناس على ظواهرها فضلوا. وبالكتاب علموا، لأن الكتاب دل عليهم، ونبه الناس على مواضعهم، نحو قوله: "إنما يخشى الله من عباده العلماء". وقوله: "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" وقوله: "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً".

ونحو ذلك من الآيات التي تنادي عليهم، وتخطب بفضلهم، وبهم قام الكتاب لأنهم قرروا البراهين على صدقه وصحة وروده من الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ولولا هم لم يقم على ذلك دلالة للعوام، وبالكتاب قاموا، أي باتباع أوامر الكتاب وادابه قاموا، لأنه لولا تأدهم بآداب القرآن، وامتثالهم أوامره؛ لما أغنى عنهم علمهم شيئاً، بل كان وباله عليهم، ثم قال: إنهم لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون، وكيف لا يكونون كذلك ومرجوههم مجاورة الله تعالى في حظائر قدسه، وهل فوق هذا مرجو لراج، ومخوفهم سخط الله عليهم وإبعادهم عن جنابه، وهل فوق هذا مخوف لخائف.

الأصل: وقال عليه السلام: أذكروا انقطاع اللذات، وبقاء التبعات.

الشرح: قد تقدم القول في نحو هذا مراراً؛ وقال الشاعر:

من الحرام، ويبقى الإثم والعار

تفنى للذادة ممن نال بغيتة

لاخير في لذة من بعدها النار

تبقى عواقب سوء في مغبتها

ورأود رجل امرأة عن نفسها، فقالت له: إن امرأ يبيع جنة عرضها السموات والأرض بمقدار إصبعين لجاهل بالمساحة؛ فاستحيا ورجع.

الأصل: وقال عليه السلام: أخبر تعلقه.

قال الرضى رحمه الله تعالى: ومن الناس من يروي هذا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومما يقوي أنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما حكاه ثعلب قال: حدثنا ابن الأعرابي قال: قال المأمون: لولا أن علياً عليه السلام قال: أخبر تعلقه، لقلت أنا: أفله تخبر.

الشرح: المعنى اختبر الناس وجربهم تبغضهم، فإن التجربة تكشف لك مساويهم وسوء أخلاقهم، فضرِب مثلاً لمن يظن به الخير وليس هناك، فأما قول المأمون: لولا أن علياً قاله لقلت: أقله تخبر، فليس المراد حقيقة القلي، وهو البغض بل المراد الهجر والقطيعة، يقول: قاطع أذاك مجرباً له هل يبقى على عهدك أم ينقضه ويحوله عنك.

ومن كلام عتبة بن أبي سفيان: طيروا الدم في وجوه الشباب، فإن حلموا واحسنوا الجواب فهم هم، وإلا فلا تطمعوا فيهم، يقول: أغضبوهم لأن الغضب يحمر وجهه، فان ثبتوا لذلك الكلام المغضب وحلموا وأجابوا جواب الحليم العاقل، فهم ممن يعقد عليه الخنصر ويرجى فلاحه، وإن سفهوا وشتموا ولم يثبتوا لذلك الكلام فلا رجاء لفلاحهم. ومن المعنى الأول قول أبي العلاء:

لي التجارب في ود أمري غرضاً

جربت دهري وأهليه فما تركت

وقال آخر:

فخانت ثقات الناس حتى التجارب

وكننت أري أن التجارب عدة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

فأبرزه التمهيص حتى بدافيا

رأيت فضيلاً كان شيئاً ملففاً

آخر:

عتبت على سلم فلما فقدته

وجربت أقواماً رجعت إلي سلم

مثله:

ذممتك أولاً حتى إذا ما

بلوت سواك عاد الذم حمدا

ولم أحمذك من خير ولكن

وجدت سواك شراً منك جدا

فعدت إليك مضطراً ذليلاً

لأنني لم أجد من ذاك بدا

كمجهود تحامى أكل ميت

فلما اضطر عاد إليه شدا

الذي يتعلق به غرضنا من الأبيات هو البيت الأول، وذكرنا سائرهما لحسنها.

الأصل: وقال عليه السلام: ما كان الله عز وجل ليفتح على عبد باب الشكر، ويغلق عنه باب الزيادة، ولا ليفتح على عبد باب الدعاء، ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح عليه باب التوبة، ويغلق عنه باب المغفرة.

الشرح: قد تقدم القول في الشكر واقتضائه الزيادة واقتضاء الدعاء الإجابة؛ والتوبة المغفرة، على وجه الاستقصاء في الجميع.

الأصل: وقال عليه السلام: أولي الناس بالكرم من عرقت فيه الكرام.

الشرح: أعرقت وعرقت في هذا الموضع بمعنى، أي ضربت عروقه في الكرم، أي له سلف وآباء كرام، وقال المبرد: أنشدني أبو محلم السعدي:

إننا سألنا قومنا فخيرهم

من كان أفضلهم أبوه الأفضل

أعطى الذي أعطي أبوه قبله

وتبخلت أبناء من يتبخل

قال: وأنشدني أيضاً في المعنى:

لطلحة بن خثيم حين تسأله

أندي و أكرم من فند بن هطال

وبيت طلحة في عز ومكرمة

وبيت فند إلى ربق و أحمال

ألا فتي من بني ذبيان يحملني

وليس يحملني إلا ابن حمال

فقلت طلحة أولى من عمدت له

وجئت أمشي إليه مشي مختال

مستيقناً أن حبلي سوف يعلقة

في رأس ذيالة أو رأس ذيال

وقال آخر:

عند الملوك مضرة ومنافع

وأري البرامك لا تضر وتنفع

إن العروق إذا استسر بها الثرى

اثرى النبات بها وطاب المزرع

وإذا جهلت من امرئ أعراقه

وقديمه فانظر إلى ما يصنع

وقال آخر:

إن السري إذا سري فبنفسه

وابن السري إذا سري أسرهما

وقال البحري:

واري النجابة لا يكون تمامها

لنجيب قوم ليس بابن نجيب

الأصل: وسئل عليه السلام: أيما أفضل؟ العدل أو الجود؛ فقال: العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يخرجها من جهتها، والعدد سائس عام؛ والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما وأفضلهما. الشرح: هذا كلام شريف جليل القدر؛ فضل عليه السلام العدل بأمرين: أحدهما أن العدل وضع الأمور مواضعها، وهكذا العدالة في الاصطلاح الحكمي، لأنها المرتبة المتوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط، والجود يخرج الأمر من موضعه، والمراد بالجود هاهنا هو الجود العرفي، وهو بذل المقتنيات للغير، لا الجود الحقيقي، لأن الجود الحقيقي ليس يخرج الأمر من جهته، نحو جود البارئ تعالى.

والوجه الثاني أن العدل سائس عام في جميع الأمور الدينية والدنيوية، وبه نظام العالم وقوام الوجود؛ وأما الجود فأمر عارض خاص، ليس عموم نفعه كعموم نفع العدل. الأصل: وقال عليه السلام، الناس أعداء ما جهلوا. الشرح: هذه من ألفاظه الشريفة التي لا نظير لها، وقد تقدم ذكرها وذكر ما يناسبها. وكان يقال: من جهل شيئاً عاداه. وقال الشاعر:

جهلت أمراً فأبديت النكير له

والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقيل لأفلاطون: لم يبغض الجافل العالم، ولا يبغض العالم الجاهل؛ فقال: لأن الجاهل يستشعر النقص في نفسه، ويظن أن العالم يحتقره، ويزدريه فيبغضه، والعالم لا نقص عنده ولا يظن أن الجاهل يحتقره، فليس عنده سبب لبغض الجاهل. الأصل: وقال عليه السلام: الزهد كله بين كلمتين من القرآن؛ قال الله سبحانه: "لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم"، ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه. الشرح: قد تقدم القول في هذين المعنيين بما فيه كفاية. الأصل: وقال عليه السلام: الولايات مضامير الرجال. الشرح: أي تعرف الرجال بما كما تعرف الخيل بالمضمار، وهو الموضع أو المدة التي تضر فيها الخيل، فمن الولاة من يظهر منه أخلاق حميدة، ومنهم من يظهر منه أخلاق ذميمة. وقال الشاعر:

سكرات خمس إذا مني المر

ء بها صار عرضة للزمان

سكرات المال والحدائث والعش

ق وسكر الشراب والسلطان

وقال آخر:

طأن أعمى ما دام يدعي أميراً

يا بن وهب والمرء في دولة السل

واستوي بالرجال عاد بصيرا

فإذا زالت الولاية عنه

وقال البحري:

وقلد أمراً كان دون رجاله

وتاه سعيد أن أعير رياسة

فأوسعته عذراً لضيق احتماله

وضاق على حقي بعقب اتساعه

وغير حالي عنده حسن حاله

فأدبر عني عند إقبال حظه

كإمساكه عند الحقوق بماله

فليت أبا عثمان امسك تيهه

الأصل: وقال عليه السلام: ما أنقض النوم لعزائم اليوم! الشرح: هذه الكلمة قد سبق، وتكلمنا عليها، وما أحسن قول المعري:

نومه فوق فراش من نمال

ما قضي الحاجات إلا شمل

وقال الرضي رحمه الله:

طوال الرجاء جسام الأرب

عليها أخامس مثل الصقور

من النوم مضمضة يستلب

وكل فتى حظ أجفانه

بقطع من الليل إذ قيل هب

فبينما يقال كري جفنه

الأصل: وقال عليه السلام: ليس بلد بأحق بك من بلد؛ خير البلاد ما حملك. الشرح: هذا المعنى قد قيل كثيراً؛ ومن ذلك قول الشاعر:

فراق أهل وأحاب وجيران

لا يصدفك عن أمر تحاوله

أهلاً بأهل وأوطاناً بأوطان

تلقي بكل ديار ما حلت بها

وقال شيعي أبو جعفر يحيى بن أبي زيد نقيب البصرة:

ونزلت من نعماك أكرم منزل

أنسيتني بلدي وأرض عشيرتي

في آل شماس مدائح جرول

وأخذت فيك مدائح فكأنها

أبوعبادة البحري:

أكنافها فكأنني في منبج

في نعمة اوطنتها وأقمت في

ومنبج، هي مدينة البحري، قال أبو تمام:

فهو شعبي وشعب كل أديب

كل شعب كنتم به آل وهب

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

إن قلبي لكم لكالكد الحري وقلبي لغيركم كالقلوب

وقد ذهب كثير من الناس إلى غير هذا المذهب، فجعلوا بعض البلاد أحق بالإنسان من بعض، وهو الوطن الأول ومسقط الرأس، قال الشاعر:

أحب بلاد الله ما بين منبج
بلاد بها نيطت علي تمائي
إلي وسلمي أن يصوب سحابها
وأول أرض مس جلدي ترابها

وكان يقال: ميلك إلى مولدك من كرم محتدك .

وقال ابن عباس: لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم، لما اشتكى أحد الرزق.

وكان يقال: كما أن لحاضنتك حق أبنها فلارضك حرمة وطنها.

وكانت العرب تقول: حماك أحمي لك وأهلك أحفي بك وقال الشاعر:

وكنا ألفناها و لم نك مألفا
كما تؤلف الأرض التي لم يطب
وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
بها هواء ولا ماء ولكنها وطن

أعرابي:

رمله حضنتني أحشاؤها، وأرضعتني أحساؤها .

كانت العرب إذا سافرت حملت معها في تربة أرضها ما تستنشق ريحه، وتطرحه في الماء إذا شربته، وكذلك كانت فلاسفة يونان تفعل.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

نسير علي علم بكنه مسيرنا
ولا بد في أسفارنا من قبيصة
بعفة زاد في بطون المزاد
من الترب نسقاها لحب الموالد

وقالت الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك، كان غذاؤك منهما وأنت جنين وكان غذاؤهما منك.

ومن الكلام القديم: لولا الوطن وحبه لحرب بلد السوء. قال ابن الرومي:

وحبب أوطان الرجال إليهم
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم
مأرب قضاها الشباب هنالكا
عهود الصبا فيها فحنوا لذالكا

الأصل: وقال عليه السلام وقد جاءه نعي الأشتر رحمه الله: مالك وما مالك؟ والله لو كان جبلا لكان فنداً، أو كان حجراً لكان صلداً لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر.

قال الرضي رحمه الله تعالى: الفند: المفرد من الجبال.

الشرح: يقال: إن الرضي ختم كتاب نهج البلاغة بهذا الفصل، وكتبت به نسخ متعددة ثم زاد عليه إلى أن وفي الزيادات التي نذكرها فيما بعد.

وقد تقدم ذكر الأشر، وإنما قال: لو كان جبلاً لكان فنداً، لأن الفند قطعة الجبل طولاً، وليس الفند القطعة من الجبل كيفما كانت، ولذلك قال: لا يرتقيه الحافر، لأن القطعة المأخوذة من الجبل طولاً في دقة لا سبيل للحافر إلى صعودها، ولو أخذت عرضاً لأمكن صعودها.

ثم وصف تلك القطعة بالعلو العظيم، فقال: ولا يوفي عليه الطائر، أي لا يصعد عليه، لقال: أوفي فلان على الجبل: اشرف.

الأصل: وقال عليه السلام: قليل مدوم عليه، خير من كثير ملول منه.

الشرح: هذا كلام يخاطب به أهل العبادات والصلاة، قال: قليل من النوافل يدوم المرء عليه خير له من كثير منها يمله ويتركه.

والجيد النادر في هذا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً ابقى.

وكان يقال: كل كثير ملول، وقالوا: كل كثير عدو للطبيعة، وقال الشاعر:

فمل والشيء ملول إذا كثرا

إني كثرت عليه في زيارته

في طرفه قصراً عني إذا نظرا

ورابني منه أني لا أزال أري

الأصل: وقال عليه السلام: إذا كان في رجل خلة رائعة، فانتظروا منه أخواتها .

الشرح: مثال ذلك إنسان مستور الحال عنا رأيناه وقد صدرت عنه حركة تروعك وتعجبك إما لحسنها أو لقبحها، مثل أن يتصدق بشيء له وقع ومقدار من ماله، أو ينكر منكراً عجز غيره عن إنكاره أو يسرق أو يزني، فينبغي أن ينتظر ويتربص منه أخوات ما وقع منه؛ وذلك لأن العقل والطبيعة التي فيه المحركة له إلى فعل تلك الحركة، لا بد أن تحركه إلى فعل ما يناسبها، لأنها ما دعت به إلى فعل تلك الحركة لخصوصية تلك الحركة، بل لما فيها من المعنى المقتضي وقوعها، وهذا يتعدى إلى غيرها مما يجانسها، ولذلك لا ترى أحداً قد اطلعت من حاله يوماً على أنه قد شرب الخمر إلا وسوف تطلع فيما بعد منه على أنه يشربها، وبالعكس في الأمور الحسنة لا ترى أحداً قد صدر عنه فعل من أفعال الخير والمروءة إلا وستراه فيما بعد فاعلاً نظيره أو ما يقاربه. وشتم بعض سفهاء البصرة الأحنف شتماً قبيحاً فحلم عنه، فقبل له في ذلك؛ فقال: دعوه فإنني قد قتلته بالحلم عنه، وسيقتل نفسه بجرائته، فلما كان بعد أيام جاء ذلك السفه فشتم زياداً؛ وهو أمير البصرة حينئذ، وظن أنه كالأحنف، فأمر به فقطع لسانه ويده.

الأصل: وقال عليه السلام لغالب بن صعصعة أبي الفرزدق في كلام دار بينهما: ما فعلت إبلك الكثيرة؟ قال: زعزعتها الحقوق يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: ذلك أحمد سبلها.

الشرح: زعزعتها بالذال المعجمة مكررة: فرقتها، زعزعتة فتززعز، وزعزعة السر: إذاعته. والذعادع: الفرق المتفرقة، الواحدة زعزعة، وربما قالوا: تفرقوا.

دخل غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال الجاشعي على أمير المؤمنين عليه السلام أيام خلافته، وغالب شيخ كبير، ومعه ابنه همام الفرزدق وهو غلام يومئذ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: من الشيخ؟ قال: أنا غالب بن صعصعة؛ قال: ذو الإبل الكثيرة؛ قال: نعم، قال: ما فعلت إبلك؛ قال: زعزعتها الحقوق، وأذهبتها الحملات والنائب؛ قال: ذاك أحمد شبلها؛ من هذا الغلام معك؛ قال: هذا أبنني، قال: ما أسمه؛ قال همام؛ وقد رويته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب، ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً؛ فقال: لو أقرأته القرآن فهو خير له؛ فكان الفرزدق بعد يروي هذا الحديث ويقول: ما زالت كلمته في نفسي، حتى قيد نفسه بقيد وآلى ألا يفكه حتى يحفظ القرآن، فما فكه حتى حفظه.

الأصل: وقال عليه السلام: من أبحر بغير فقه فقد ارتطم في الربا.

الشرح: يقول: تبحر فلان وتبحر فهو تاجر، والجمع تبحر، مثل صاحب وصحب، والتجارة والتجر بمعنى واحد، إذا أخذت ما مصدرين لي "تبحر"، وأرض متجرة، يتجر فيها.

وارتطم فلان في الوحل والأمر إذا ارتبك فيه ولم يقدر على الخروج منه، وإنما قال عليه السلام ذلك لأن مسائل الربا مشتبهة بمسائل البيع، ولا يفرق بينهما إلا الفقيه، حتى إن العظماء من الفقهاء قد اشتبه عليهم الأمر فيها فاختلّفوا فيها أشد اختلاف؛ كبيع لحم البقر بالغنم تفاضلاً، هل يجوز أم لا؛ وكذلك لبن البقر بلبن الغنم، وجلود البقر بجلود الغنم، فقال أبو حنيفة: اللحوم والألبان والجلود أجناس مختلفة، فيجوز بيع بعضها ببعض متفاضلاً، نظراً إلى أن أصولها أجناس مختلفة، والشافعي لا يجوز ذلك ويقول: هو ربا، وكذلك القول في مدي عجوة ودرهم بمد عجوة. وكذلك بيع الرطب بالتمر متساوياً كيلاً، كل ذلك يقول الشافعي: انه ربا، وأبو حنيفة يخرجه عن كونه رباً، ومسائل هذا الباب كثيرة.

الأصل: وقال عليه السلام: من عظم صغار المصائب؛ ابتلاه الله بكبارها.

الشرح: إنما كان كذلك لأنه يشكو الله ويتسخط قضاءه، ويحمد النعمة في التخفيف عنه، ويدعي فيما ليس بمجحف به من حوادث الدهر أنه مجحف، ويتألم بين الناس لذلك أكثر مما تقتضيه نكبته، ومن فعل ذلك استوجب السخط من الله تعالى، وابتلي بالكثير من النكبة، وإنما الواجب على من وقع في أمر يشق عليه، ويتألم منه وينال من نفسه، أو من ماله نيلاً ما، أن يحمد الله تعالى على ذلك، ويقول: لعله قد دفع بهذا عني ما هو أعظم منه، ولئن كان قد ذهب من مالي حزة فلقد بقي أجزاء كثيرة.

وقال عروة بن الزبير لما وقعت الأكلة في رجله فقطعها ومات ابنه: اللهم إنك أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابناً وتركت أبناء، فليهنك؛ لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت.

الأصل: وقال عليه السلام: من كرمته عليه نفسه، هانت عليه شهوته الشرح: قد تقدم مثل هذا المعنى مراراً، ومن الكلام المشهور بين العامة: قبح الله أمراً تغلب شهوته على نخوته، والجيد النادر في هذا قول الشاعر:

وفرجك نال امنتني الذم أجمعاً

فذاك إن أعطيت بطنك سؤله

الأصل: وقال عليه السلام: ما مزح امرؤ مزحاً، إلا مج من عقله مجاً .

الشرح: قد تقدم القول في المزاح؛ وكان يقال: خير المزاح لا ينال، وشره لا يستقال، وقيل: إنما سمي المزاح مزاحاً لأنه أزيح عن الحق.

الأصل: وقال عليه السلام: زهدك في راغب فيك نقصان حظ، ورغبتك في زاهد فيك ذل نفس.

الشرح: أي نقصان حظ لك، وذلك لأنه ليس من حق من رغب فيك أن ترهّد فيه لأن الإحسان لا يكافأ بالإساءة، وللقصد حرمة، وللأمل زمام، ومن طلب مودتك فقد قصّدك واملّك، فلا يجوز رفضه واطراحه والزهد فيه، وإذا زهدت فيه فذلك لنقصان حظك لا لنقصان حظه، فأما رغبتك في زاهد فيك فمذلة، لأنك تطرح نفسك لمن لا يعبأ بك، وهذا ذل وصغار.

وقال العباس بن الأحنف في نسيبه، وكان جيد النسيب:

حتى ابتليت برغبة في زاهد

ما زلت ازهد في مودة راغب

حيل الطبيب وطال يأس العائد

هذا هو الداء الذي ضاقت به

أي ما زلت عزيزاً حتى أذلني الحب.

الأصل: وقال عليه السلام: ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشووم عبد الله.

الشرح: ذكر هذا الكلام أبو عمر بن عبد البر في كتاب "الاستيعاب" عن أمير المؤمنين عليه السلام في عبد الله بن الزبير، إلا أنه لم يذكر لفظة المشووم.

عبد الله بن الزبير نسبه وبعض أخباره

ونحن نذكر ما ذكره ابن عبد البر في ترجمة عبد الله بن الزبير، فإن هذا المصنف يذكر جمل أحوال الرجل دون تفاصيلها، ثم نذكر تفصيل أحواله من مواضع أخرى.

قال أبو عمر رحمه الله: يكنى عبد الله بن الزبير أبا بكر، وقال بعضهم: أبا بكير، ذكر ذلك أبو أحمد الحاكم الحافظ في كتابه في الكني. والجمهور من أهل السير وأهل الأثر على أن كنيته أبو بكر، وله كنية أخرى أبو حبيب بابنه حبيب وكان أسن ولده، وخبيب هو صاحب عمر بن عبد العزيز الذي مات من ضربه إذ كان والياً على المدينة للوليد، وكان الوليد أمره بضربه فمات من أذية ذلك فوداه عمر بعد.

قال أبو عمر: وسماه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باسم جده، كناه لكنية حده عبد الله أبي بكر، وهاجرت أمه أسماء من مكة إلى المدينة وهي حامل به، فولدته في سنة اثنتين من الهجرة لعشرين شهراً من التاريخ، وقيل: ولد في السنة الأولى، وهو أول مولود ولد في الإسلام من المهاجرين بعد الهجرة.

وروي هشام بن عروة عن أسماء قالت: حملت بعبد الله بمكة، فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة فترلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوضعت في حجره، فدعا بتمر فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول شيء

دخل جوفه ريق صلى الله عليه وآله وسلم، حنكه بالتمر، ثم دعا له وبارك عليه، وهو أول مولود ولد في الإسلام للمهاجرين بالمدينة، قال: ففرحوا به فرحاً شديداً، وذلك أنهم قد كان قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم.

قال أبو عمر: وشهد عبد الله الجمل مع أبيه وخالته، وكان شهماً ذكراً ذا أنفة، وكان له لسن وفصاحة وكان أطلس لا الحية له ولا شعر في وجهه، وكان كثير الصلاة، كثير الصيام، شديد البأس، كريم الجدات والأمهات والخالات، إلا أنه كان فيه خلال لا يصلح معها للخلافة، فإنه كان بخيلاً ضيق العطن سيء الخلق حسوداً، كثير الخلاف، أخرج محمد بن الحنفية.

من مكة والمدينة، ونفي عبد الله بن عباس إلى الطائف.

وقال علي عليه السلام في أمره: ما زال الزبير يعد منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله. قال أبو عمر: وبويع له بالخلافة سنة أربع وستين في قول أبي معشر.

وقال المدائني: بويع له بالخلافة سنة خمس وستين.

وكان قبل ذلك لا يدعي باسم الخلافة، وكانت بيعته بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان، وحج بالناس ثمانى حجج، وقتل في أيام عبد الملك بن مروان يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقين من جمادى الأولى؛ وقيل: من جمادى الآخر سنة ثلاث وسبعين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة؛ وصلب بمكة بعد قتله، وكان الحجاج قد ابتدأ بحصاره من أول ليلة من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين، وحج الحجاج بالناس في ذلك العام، ووقف بعرفة وعليه درع ومغفر، ولم يطوفوا بالبيت تلك السنة، فحاصره ستة أشهر وسبعة عشر يوماً إلى أن قتله. قال أبو عمر: فروي هشام بن عروة عن أبيه، قال: لما كان قبل قتل عبد الله بعشرة أيام دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر وهي شاكية، فقال: كيف تجدنيك يا أمه؟ قالت: ما أجدي إلا شاكية، فقال لها: إن في الموت لراحة؛ فقالت: لعلك تمنيته لي، وما أحب أن أموت حتى يأتي علي إحدى حالتك، إما قتلت فأحتسبك، وإما ظفرت بعدوك فقرت عيني.

قال عروة: فالتفت عبد الله إلي وضحك، فلما كان اليوم الذي قتل فيه دخل عليها في المسجد، فقالت: يا بني لا تقبل منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل؛ والله لضربة سيف في عز خير من ضربة سوط في مذلة، قال: فخرج عبد الله وقد نصب له مصراع عند الكعبة، فكان يكون تحته، فأتاه رجل من قريش فقال له: ألا نفتح لك باب الكعبة فتدخلها؛ فقال: والله لو وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم عن آخركم، وهل حرمة البيت إلا كحرمة الحرم! ثم أنشد:

ولست بمبتاع الحياة بسبة

ولامرتق من خشية الموت لسلما

ثم شد عليه أصحاب الحجاج، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أهل مصر، فقال لأصحابه: اكسروا أغماد سيوفكم، واحملوا معي، فإنني في الرعيل الأول، ففعلوا، ثم حمل عليهم وحملوا عليه فكان يضرب بسيفين، فلحق رجلاً فضربه فقطع يده، وانهمزوا وجعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد، وجعل رجل منهم أسود يسبه، فقال له: اصبر يا بن حام، ثم

حمل عليه فصرعه، ثم دخل عليه أهل حمص من باب بني شيبه فسأل عنهم، فقبل: هؤلاء أهل حمص، فشد عليهم وجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد، ثم انصرف وهو يقول:

لو كان قرني واحداً أرديته **أوردته الموت وقد ذكيتته**

ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر، فقال: من هؤلاء؟ قيل: أهل الأردن، فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد، ثم انصرف وهو يقول:

لا عهد لي بغارة مثل السيل **لاينجلي قتامها حتى الليل**

فاقبل عليه حجر من ناحية الصفا فأصابه بين عينيه، فنكس رأسه وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمي كلومنا **ولكن على أقدامنا تقطر الدما**

أنشده متمثلاً، وحماه موليان له، فكان أحدهما يرتجز فيقول:

العبد يحمي ربه ويحتمي

قال: ثم اجتمعوا عليه، فلم يزالوا يضربونه ويضربهم حتى قتلوه وموليه جميعاً، فلما قتل كبر أهل الشام، فقال عبد الله بن عمر: المكبرون يوم ولد خير من المكبرين يوم قتل.

قال أبو عمر: وقال يعلى بن حرملة: دخلت مكة بعد ما قتل عبد الله بن الزبير بثلاثة أيام، فإذا هو مصلوب، فجاءت أمه أسماء، وكانت امرأة عجوزاً طويلة مكفوفة البصر تقاد، فقالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن يتزل؟ فقال لها: المنافق! قالت: والله ما كان منافقاً، ولكنه كان صواماً قواماً براً؛ قال: انصرفي فإنك عجوز قد خرفت. قالت: لا والله ما خرفت، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "يخرج من ثقيف كذاب ومبير"، أما الكذاب فقد رأيته - تعني المختار - وأما المبير فأنت.

قال أبو عمر: وروي سعيد بن عامر الخراز عن ابن أبي مليكة، قال: كنت الأذن لمن بشر أسماء بترول ابنها عبد الله من الخشبة، فدعت بمركن وشب يمان، فأمرتني بغسله، فكنا لا نتناول منه عضواً إلا جاء معنا، فكنا نغسل العضو وندعه في أكفانه ونتناول العضو الذي يليه فنغسله، ثم نضعه في أكفانه، حتى فرغنا منه، ثم قامت فصلت عليه، وقد كانت تقول: اللهم لا تميتني حتى تقرعيني بجثته، فلما دفنته لم يأت عليها جمعة حتى ماتت.

قال أبو عمر: وقد كان عروة بن الزبير رحل إلى عبد الملك، فرغب إليه في إنزال عبد الله من الخشبة، فأسعفه بذلك، فانزل.

قال أبو عمر: وقال علي بن مجاهد: قتل مع ابن الزبير مائتان وأربعون رجلاً، إن منهم لمن سال دمه في جوف الكعبة. قال أبو عمر: وروي عيسى عن أبي القاسم، عن مالك بن أنس، قال: كان ابن الزبير أفضل من مروان أولى بالأمر منه ومن أبيه، قال وقد روي علي بن المدائني، عن سفيان بن عيينة، أن عامر بن عبد الله بن الزبير مكث بعد قتل أبيه حولا لا يسأل الله لنفسه شيئاً إلا الدعاء لأبيه.

قال أبو عمر: وروي إسماعيل بن علي، عن أبي سفيان بن العلاء، عن ابن أبي عتيق، قال: قالت عائشة: إذا مر ابن عمر فارونه، فلما مر قالوا: هذا ابن عمر فقالت: يا أبا عبد الرحمن، ما منعك أن تنهاني عن مسيري، قال: رأيت رجلاً قد غلب عليك، ورأيتك لا تخالفينه - يعني عبد الله بن الزبير - فقالت: أما إنك لو نهيتني ما خرجت.

فأما الزبير بن بكار فإنه ذكر في كتاب "أنساب قريش" من أخبار عبد الله وأحواله جملة طويلة نحن نختصرها، ونذكر اللباب منها، مع أنه قد أطنب في ذكر فضائله والثناء عليه، وهو معذور في ذلك، فإنه لا يلام الرجل على حب قومه، والزبير بن بكار أحد أولاد عبد الله بن الزبير، فهو أحق بتقريظه وتأيينه.

قال الزبير بن بكار: أمه أسماء ذات النطاقين ابنة أبي بكر الصديق، وإنما سميت ذات النطاقين لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما تجهز مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر لم يكن لسفرهما شناق؛ فشقت أسماء نطاقها فشنتها به، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قد أبدلك الله تعالى بنطاقك هذا نطاقين في الجنة، فسميت ذات النطاقين. قال: وقد روي محمد بن الضحاك عن أبيه أن أهل الشام كانوا وهم يقاتلون عبد الله بمكة يصيحون: يا بن ذات النطاقين، يظنونهم عيباً، فيقول ابنها: والإله، ثم يقول: إني وإياكم لكما قال أبو ذؤيب:

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وعيرني الواشون أنني احبها

وإن تعتذر يردد عليك اعتذارها

فإن أعتذر عنها فإني مكذب

ثم يقبل على ابن أبي عتيق - وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر - فيقول: ألا تسمع يا بن أبي عتيق! قال الزبير: وزعموا أن عبد الله بن الزبير لما ولد أتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنظر في وجهه وقال: "أهو هو؟ ليمنعن البيت أو ليموتن دونه"، وقال العقيلي في ذلك:

وذو صلاة بضاحي وجهه علم

بر تبين ما قال الرسول له

لا تتبع الناس إن جاروا وإن ظلموا

حمامة من حمام البيت قاطنة

قال: وقد روي نافع بن ثابت، عن محمد بن كعب القرظي، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل على أسماء حين ولد عبد الله فقال: أهو هو؟ فتركت أسماء رضاعه، فليل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أسماء تركت رضاع عبد الله لما سمعت كلمتك، فقال لها: "أرضعيه ولو بماء عينيك، كبش بين ذئاب عليها ثياب، ليمنعن الحرم أو ليموتن دونه".

قال: وحدثني عمي مصعب بن عبد الله، قال: كان عبد الله بن الزبير يقول: هاجرت بي أُمِّي في بطنها، فما أصابها شيء من نصب أو مخمصة إلا وقد أصابني.

قال: وقالت عائشة: يا رسول الله، ألا تكنيني؟ فقال: تكني باسم ابن أختك عبد الله، فكانت تكني أم عبد الله.

قال: وروي هند بن القاسم، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: احتجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم دفع إلي دمه، فقال: اذهب به فواره حيث لا يراه أحد، فذهبت به فشربته، فلما رجعت قال: ما صنعت؟

قلت: جعلته في مكان أظن أنه أخفي مكان عن الناس، فقال: فلعلك شربته؛ فقلت: نعم.
قال: وقال وهب بن كيسان: أول من صف رجله في الصلاة عبد الله بن الزبير فاقتدي به كثير من العباد، وكان مجتهداً.
قال: وخطب الحجاج بعد قتله زجلة بنت منظور بن زبان بن سيار الفزارية، وهي أم هاشم بن عبد الله بن الزبير، فقلعت
ثنيتهما وردته، وقالت: ماذا يريد إلى ذلفاء ثكلى حري! وقالت:

أبعد عائد بيت الله تخالبنني
فأذهب إليك فإني غير ناكحة
جهلاً جهلت وغب الجهل مذموم
بعد أبين أسماء ما استنن الدياميم
من يجعل العير مصفراً جحافله
مثل الجواد و فضل الله مقسوم!

قال: وحدثني عبد الملك بن عبد العزيز، عن خاله يوسف بن الماجشون، قال قسم عبد الله بن الزبير الدهر على ثلاث
ليال: فليلة هو قائم حتى الصباح، وليلة هو راکع حتى الصباح، وليلة هو ساجد حتى الصباح.
قال: وحدثنا سليمان بن حرب بإسناد ذكره ورفعته إلى مسلم المكي، قال: ركع عبد الله بن الزبير يوماً ركعة، فقرأت
البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وما رفع رأسه.

قال: وقد حدث من لا أحصيه كثرة من أصحابنا، أن عبد الله كان يواصل الصوم سبعا، يصوم يوم الجمعة فلا يفطر إلا
يوم الجمعة الآخر، ويصوم بالمدينة فلا يفطر إلا بمكة، ويصوم بمكة فلا يفطر إلا بالمدينة.

قال: وقال عبد الملك بن عبد العزيز: وكان أول ما يفطر عليه إذا أفطر لبن لقحة بسمن بقر، قال الزبير: وزاد غيره
وصبر.

قال: وحدثني يعقوب بن محمد بن عيسى بإسناد رفعه إلى عروة بن الزبير، قال: لم يكن أحد أحب إلى عائشة بعد رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد أبي بكر من عبد الله بن الزبير.

قال: وحدثني يعقوب بن محمد بإسناد يرفعه إلى عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه قال: ما كان أحدا أعلم بالمناسك من
ابن الزبير.

قال: وحدثني مصعب بن عثمان، قال: أوصت عائشة إلى عبد الله بن الزبير أوصي إليه حكيم بن حزام وعبد الله بن عامر
بن كريز والأسود بن أبي البحتري وشبيه بن عثمان والأسود بن عوف.

قال الزبير: وحدث عمر بن قيس، عن أمه قالت: دخلت على عبد الله بن الزبير بيته، فإذا هو قائم يصلي، فسقطت حية
من البيت على ابنه هاشم بن عبد الله فتطوقت على بطنه وهو نائم، فصاح أهل البيت: الحية الحية! ولم يزالوا بها حتى
قتلوها وعبد الله قائم يصلي ما التف ولا عجل، ثم فرغ من صلاته بعد ما قتلت الحية فقال: ما بالكم؟ فقالت أم هاشم؛
إي رحمك الله، رأيت إن كنا هنا عليك أيهون عليك ابنك! قال: ويحك! وما كانت التفاتة لو آلتفتها مبقية من صلاتي.

قال الزبير: وعبد الله أول من كسا الكعبة الدياج، وإن كان ليطيبها حتى يجد ريجها من دخل الحرم. قال: ولم تكن
كسوة الكعبة من قبله إلا المسوح والأنطاع، فلما جرد المهدي بن المنصور الكعبة، كان فيما نزع عنها كسوة من دياج

مكتوب عليها: لعبد الله أبي بكر أمير المؤمنين. قال: وحدثني يحيى بن معين بإسناد رفعه إلى هشام بن عروة، أن عبد الله بن الزبير اخذ من بين القتلى يوم الجمل وبه بضع وأربعون طعنة وضربة، قال الزبير: واعتلت عائشة مرة، فدخل عليها بنو أختها أسماء: عبد الله وعروة والمنذر، قال عروة: فسألناها عن حالها، فشكت إلينا نكحة من علتها فعزاها عبد الله عن ذلك، فأجابته بنحو قولها، فعاد لها بالكلام، فعادت له بالجواب، فصمت وبكي، قال عروة: فما رأينا متحاورين من خلق الله أبلى منهما. قال: ثم رفعت رأسها تنظر إلى وجهه، فابتمت لبكائه، فبكت ثم قالت: ما أحقني منك يا بني، ما أري. فلم علم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد أبوي أحداً انزل عندي منزلتك، قال عروة: وما سمعت عائشة وأمي أسماء تدعوان لأحد من الخلق دعاءهما لعبد الله، قال: وقال موسى بن عقبة: أقرأني عامر بن عبد الله بن الزبير وصية عبد الله بن مسعود إلى الزبير بن العوام وإلى عبد الله بن الزبير من بعده، وإني في وصيتي في حل وبل . قال: وروي أبو الحسن المدائني، عن أبي إسحاق التميمي، أن معاوية سمع رجلاً ينشد:

يا بني فيعطي عن يد أو يمنع

ابن رقاش ماجد لسميدع

فقال: ذلك عبد الله بن الزبير: وكان عبد الله من جملة نفر الذين أمرهم عثمان بن عفان أن ينسخوا القرآن في المصاحف.

قال: وحدثنا محمد بن حسن؛ عن نوفل بن عمار، قال: سئل سعيد بن المسيب عن خطباء قريش في الجاهلية، فقال: الأسود بن المطلب بن أسد، وسهيل بن عمرو. وسئل عن خطبائهم في الإسلام، فقال: معاوية وابنه، وسعيد بن العاص وابنه، وعبد الله بن الزبير.

قال: وحدثنا إبراهيم بن المنذر، عن عثمان بن طلحة، قال: كان عبد الله بن الزبير لا ينازع في ثلاث: شجاعة، وعبادة، و بلاغة.

قال الزبير: وقال هشام بن عروة: رأيت عبد الله أيام حصاره والحجر من المنجنيق يهوي حتى أقول: كاد يأخذ بلحيته، فقال له أبي: أيابن أم، والله إن كاد ليأخذ بلحيتك، فقال عبد الله: دعني يا ابن أم، والله ما هي إلا هنة حتى كأن الإنسان لم يكن، فيقول أبي وهو يقبل علينا بوجهه: والله ما أخشى عليك إلا من تلك الهنة.

قال الزبير: فذكر هشام، قال: والله لقد رأيته يرمي بالمنجنيق فلا يلتفت ولا يردد صوته؛ وربما مرت الشظية منه قريباً من نحره.

وقال الزبير: وحدثنا ابن الماجشون، عن ابن أبي مليكة عن أبيه قال: كنت أطوف بالبيت مع عمر بن عبد العزيز، فلما بلغت الملتزم تخلفت عنده أدعو ثم لحقت عمر، فقال لي: ما خلفك؟ قال: كنت أدعو في موضع رأيت عبد الله بن الزبير فيه يدعو، فقال: ما تترك تخناتك على ابن الزبير أبداً! فقلت: والله ما رأيت أحداً أشد جلدأ على لحم، ولحمأ على عظم من ابن الزبير؛ ولا رأيت أحداً أثبت قائماً، ولا أحسن مصلياً من ابن الزبير، ولقد رأيت حجراً من المنجنيق جاءه فصاب شرفة من المسجد، فمرت قذاذة منها بين لحيته وحلقه، فلم يزل من مقامه، ولا عرفنا ذلك في صوته، فقال عمر: لا إله إلا الله، لجاد ما وصفت! قال الزبير: وسمعت إسماعيل بن يعقوب التيمي يحدث، قال: قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي

مليكة، صف لنا عبد الله بن الزبير، فإنه ترمم على أصحابنا فتغشمروا عليه ، فقال: عن أي حاله تسأل؟ أعن دينه، أم عن دنياه؟ فقال: عن كل، قال: والله ما رأيت جلدًا قط ركب على لحم ولا لحمًا على عصب، ولا عصبًا على عظم، مثل جلده على لحمه ولا مثل لحمه على عصبه، ولا مثل عصبه على عظمه؛ ولا رأيت نفساً ركبت بين جنبين مثل نفس له ركبت بين جنبين، ولقد قام يوماً إلى الصلاة، فمر به حجر من حجارة المنجنيق، بلبنة مطبوخة من شرفات المسجد، فمرت بين لحييه وصدره، والله ما خشع لها بصره، ولا قطع لها قراءته، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع، ولقد كان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء إليها؛ ولقد كان يركع في الصلاة فيقع الرخم على ظهره ويسجد فكأنه مطروح.

قال الزبير: وحدث هشام بن عروة، قال: سمعت عمي، يقول: ما أبالي إذا وجدت ثلاثمائة يصبرون صبري، لو أجلب علي أهل الأرض.

قال الزبير: وقسم عبد الله بن الزبير ثلث ماله وهو حي؛ وكان أبوه الزبير قد أوصي أيضاً بثلث ماله. قال: وابن الزبير أحد الرهط الخمسة الذين وقع اتفاق أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص على إحضارهم، والاستشارة بهم في يوم التحكيم وهم: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو، وأبو الجهم بن حذيفة، وجبير بن مطعم، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

قال الزبير: وعبد الله هو الذي صلى بالناس بالبصرة لما ظهر طلحة والزبير على عثمان بن حنيف بأمر منهما له. قال: وأعطت عائشة من بشرها بأن عبد الله لم يقتل يوم الجمل عشرة آلاف درهم.

قلت: الذي يغلب على ظني أن ذلك كان يوم إفريقية، لأما يوم الجمل كانت في شغل بنفسها عن عبد الله وغيره. قال الزبير: وحدثني علي بن صالح مرفوعاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلم في صبية ترعرعوا، منهم عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن أبي سلمة، ف قيل: يا رسول الله، لو بايعتهم فتصيبهم بركتك، ويكون لهم ذكر! فأتى بهم فكأنهم تكعكعوا حين جى بهم إليه، واقتحم ابن الزبير، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال: إنه ابن أبيه؛ وبايعهم.

قال: وسئل رأس الجالوت: ما عندكم من الفراسة في الصبيان؛ فقال: ما عندنا فيهم شيء، لأنهم يخلقون خلقاً من بعد خلق؛ غير أنا نرمقهم، فان سمعنا منهم من يقول في لعبه: من يكون معي؟ رأيناها همة وخب صدق فيه، وإن سمعناه يقول: مع من أكون؛ كرهناها منه. قال: فكان أول شيء سمع من عبد الله بن الزبير أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان، فمر رجل، فصاح عليهم، ففروا منه، ومشى ابن الزبير القهقري، ثم قال: يا صبيان؛ اجعلوني أميركم، وشدوا بنا عليه. قال: ومر به عمر بن الخطاب وهو مع الصبيان، ففروا ووقف، فقال لم لم تفر مع أصحابك؟ فقال: لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع عليك! وروي الزبير بن بكار، أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح غزا إفريقية في خلافة عثمان، فقتل عبد الله بن الزبير جرجير أمير جيش الروم، فقال ابن أبي لمرح: إني موجه بشيراً إلى أمير المؤمنين بما فتح علينا، وأنت أولى من هاهنا، فانطلق إلى أمير المؤمنين فأخبره الخبر، قال عبد الله: فلما قدمت على عثمان أخبرته بفتح الله

وصنعه ونصره، ووصفت له أمرنا كيف كان، فلما فرغت من كلامي قال: هل تستطيع أن تؤدي هذا إلى الناس؟ قلت: وما يعني من ذلك! قال: فأخرج إلى الناس فأخبرهم قال عبد الله: فخرجت حتى جئت المنبر فاستقبلت الناس، فتلقاني وجه أبي، فدخلتني له هيبة عرفها أبي في وجهي، فقبض قبضة من حصاء، وجمع وجهه في وجهي وهم أن يحصيني فأحزمت، فتكلمت.

فزعموا أن الزبير لما فرغ عبد الله من كلامه قال: والله لكأني أسمع كلام أبي بكر الصديق: من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى أبيها وأخيها فإنها تأتيه بأحدهما. قال الزبير: ويلقب عبد الله بعائد البيت، لاستعاضته به.

قال: وحدثني عمي مصعب بن عبد الله، قال: إن الذي دعا عبد الله إلى التعوذ بالبيت شيء سمعه من أبيه حين سار من مكة إلى البصرة؛ فإن الزبير التفت إلى الكعبة بعد أن ودع ووجه يريد الركوب، فأقبل على ابنه عبد الله وقال: تالله ما رأيت مثلها لطالب رغبة أو خائف رهبة.

وروي الزبير بن بكار، قال: كان سبب تعوذ ابن الزبير بالكعبة أنه كان يمشي بعد عتمه في بعض شوارع المدينة؛ إذ لقي عبد الله بن سعد بن أبي سرح مثلثا لا يبدو منه إلا عيناه. قال: فأخذت بيده وقلت: ابن أبي سرح! كيف كنت بعدي؟ وكيف تركت أمير المؤمنين؟ يعني معاوية- وقد كان ابن أبي سرح عنده بالشام- فلم يكلمني، فقلت: ما لك؟ أمارت أمير المؤمنين؟ فلم يكلمني، فتركته وقد أثبت معرفته، ثم خرجت حتى لقيت الحسين بن علي رضي الله عنه، فأخبرته خبره، وقلت: ستأتيك رسل الوليد، وكان الأمير على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فانظر ما أنت صانع! وأعلم أن رواحلي في الدار معدة، والموعد بيني وبينك أن تغفل عنا عيولهم، ثم فارقتهم فلم البث أن أتاني رسول الوليد، فجئته فوجدت الحسين عنده، ووجدت عنده مروان بن الحكم، فنعني إلي معاوية؛ فاسترجعت فأقبل علي، وقال: هلم إلى بيعة يزيد، فقد كتب إلينا يأمرنا أن نأخذها عليك! فقلت: إني قد علمت أن في نفسه علي شيئا لتركبي بيعته في حياة أبيه، وإن بايعت له على هذه الحال توهم أبي مكره على البيعة، فلم يقع منه ذلك بحيث أريد، ولكن أصبح ويجمع الناس، ويكون ذلك علانية إن شاء الله؛ فنظر الوليد إلى مروان فقال مروان: هو الذي قلت لك؛ إن يخرج لم تره. فأحببت أن ألقني بيني وبين مروان شراً تتشاغل به، فقلت له: وما أنت وذاك يا بن الزرقاء! فقال لي، وقلت له، حتى تواتبنا، فتناصيت أنا وهو، وقام الوليد فحجز بيننا، فقال مروان: أتحتجز بيننا بنفسك، وتدع أن تأمر أعوانك! فقال: قد أرى ما تريد، ولكن لا أتولي ذلك منه والله أبداً، اذهب يا بن الزبير حيث شئت؛ قال: فأخذت بيد الحسين، وخرجنا من الباب حتى صرنا إلى المسجد، وأنا أقول:

تعجلها من جانب القدر جائع

ولتحسبني يا مسافر شحمة

فلما دخل المسجد افترق هو والحسين، وعمد كل واحد منهما إلى مصلاه يصلي فيه، وجعلت الرسل تختلف إليهما، يسمع وقع أقدامهم في الحصاء حتى هدأ عنهما الحس، ثم انصرفا إلى منازلهما، فأتى ابن الزبير رواحله، فقعد عليها،

وخرج من أدبار داره، ووافاه الحسين بن علي، فخرجوا جميعاً من ليلتهم، وسلخوا طريق الفرع حتى مروا بالجشائة وبها جعفر بن الزبير قد ازدرعها، وغمز عليهم بعير من إبلهم فانتهاوا إلى جعفر، فلما رأهم قال: مات معاوية؟ فقال عبد الله: نعم؛ انطلق معنا وأعطينا أحد جمليك - وكان ينضح على جملين له - فقال جعفر متمثلاً:

أخوتي لا تبعدوا أبداً

وبلي والله قد بعدوا

فقال عبد الله - وتطير منها: بفيك التراب! فخرجوا جميعاً حتى قدموا مكة، قال الزبير: فأما الحسين عليه السلام فإنه خرج من مكة يوم التروية يطلب الكوفة والعراق، وقد كان قال لعبد الله بن الزبير: قد أتني بيعة أربعين ألفاً يخلفون لي بالطلاق والعتاق من أهل العراق، فقال: أخرج إلى قوم قتلوا أباك وخذلوا أخاك! قال: وبعض الناس يزعم أن عبد الله بن عباس هو الذي قال للحسين ذلك.

قال الزبير: وقال هشام بن عروة: كان أول ما أفصح به عمي عبد الله وهو صغير: السيف، فكان لا يضعه من فيه، وكان أبوه الزبير إذا سمع منه ذلك يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام! فأما خبر مقتل عبد الله بن الزبير فنحن نورده من تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله. قال أبو جعفر: حصر الحجاج عبد الله بن الزبي رثمانية أشهر، فروي إسحاق بن يحيى بن يوسف بن ماهك، قال: رأيت منجنيق أهل الشام يرمي به، فرعدت السماء وبرقت، وعلا صوت الرعد على صوت المنجنيق، فأعظم أهل الشام ما سمعوا، فأمسكوا أيديهم، فرفع الحجاج بركة قبائه، فغرزاها في منطقته، ورفع حجر المنجنيق فوضعه فيه، ثم قال: ارموا، ورمي معهم، قال: ثم أصبحوا فجاءت صاعقة يتبعها أخرى، فقتلت من أصحاب الحجاج اثني عشر رجلاً، فأنكر أهل الشام، فقال الحجاج: يا أهل الشام، لا تنكروا هذا، فإني ابن تامة، هذه صواعق تامة، هذا الفتح قد حضر فابشروا، فإن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم، فصعقت من الغد فاصيب من أصحاب ابن الزبير عدة ما أصاب الحجاج، فقال الحجاج: ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة، وهم على خلاف الطاعة! فلم تزل الحرب بين ابن الزبير و الحجاج حتى تفرق عامة أصحاب ابن الزبير عنه، وخرج عامة أهل مكة إلى الحجاج في الأمان.

قال: وروي إسحاق بن عبيد الله، عن المنذر بن الجهم الأسلمي، قال: رأيت ابن الزبير، وقد خذله من معه خذلانا شديداً، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج، خرج إليه منهم نحو عشرة آلاف، وذكر أنه كان ممن فارقه، وخرج إلى الحجاج ابنه: خبيب وحزمة، فأخذوا من الحجاج لأنفسهما أماناً.

قال أبو جعفر: فروي محمد بن عمر، عن ابن أبي الزناد، عن مخزومة بن سلمان الوالي، قال: دخل عبد الله بن الزبير على أمه حين رأي من الناس ما رأي من خذلانه، فقال: يا أمه، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فأمض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بك غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، أهلكت من قتل معك، وإن قلت: قد

كنت على حق فلما وهن أصحابي وهنت وضعفت، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا! القتل أحسن، فدنا ابن الزبير فقبل رأسها، وقال: هذا والله رأي الذي قمت به داعياً إلى يومي هذا، وما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها؛ ولم يدعني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل محارمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي. فانظري يا أمه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكرك، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء أثر عندي من رضا ربي. اللهم إني لا أقول هذا تركية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكنني أقوله تعزية لأمي لتسلو عني. فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني، فلا أخرج من الدنيا حتى أنظر إلى ما يصير أمرك، فقال: جزاك الله يا أمه خيراً! فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد؛ قالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتل على حق. ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبني! اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين.

قال أبو جعفر: وروي محمد بن عمر، عن موسى بن يعقوب بن عبد الله، عن عمه، قال: دخل ابن الزبير على أمه وعليه الدرع والمغفر، فوقف فسلم، ثم دنا فتناول يدها فقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعد، فقال: نعم، إني جئت مودعاً، إني لأري أن هذا اليوم آخر يوم من الدنيا يمر بي، واعلمي يا أمه أي إن قتلت فإنما أنا لحم لا يضره ما صنع به، فقالت: صدقت يا بني، أتم على بصيرتك، ولا تمكن ابن أبي عقيل منك، وادن مني أودعك؛ فدنا منها فقبلها وعانقها، فقالت: حيث مست الدرع: ما هذا صنيع من يريد ما تريد! فقال: ما لبستها إلا لأشد منك، فقالت: إنها لا تشد مني، فترعها، ثم أخرج كميته وشد أسفل قميصه، وعمد إلى جبة خز تحت القميص، فادخل أسفلها في المنطقة، فقالت أمه: شمر ثيابك، فشمرها، ثم انصرف وهو يقول:

إني إذا أعرف يومي أصبر

إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فسمعت العجوز قوله، فقالت: تصبر والله، ولم لا تصبر وأبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب! قال وروي محمد بن عمر عن ثور بن يزيد عن رجل من أهل حمص قال: شهدته والله ذلك اليوم ونحن خمسمائة من أهل حمص، فدخل من باب المسجد لا يدخل منه غيرنا، وهو يشد علينا ونحن منهزمون وهو يرتجز:

إني إذا أعرف يومي أصبر

وإنما يعرف يوميه الحر

وبعضهم يعرف ثم ينكر

فأقول: أنت والله الحر الشريف، فلقد رأيته يقف بالأبطح، لا يدنو منه أحد حتى ظننا أنه لا يقتل.

قال وروي مصعب بن ثابت، عن نافع مولي بني أسد، قال: رأيت الأبواب قد شحنت بأهل الشام، وجعلوا على كل باب قائداً ورجالاً وأهل بلد، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبه، ولأهل

الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل فسرين باب بني سهم، وكان الحجاج وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح إلى المروة، فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية، ولكنه اشد في أجمة ما يقدم عليه الرجال، فيغدو في اثر الرجال وهم على الباب حتى يخرجهم، ثم يصيح إلى عبد الله بن صفوان، يا أبا صفوان، ويل أمه فتحاً لو كان له رجال! ثم يقول:

لو كان قرني

واحداً كفيته

فيقول عبد الله بن صفوان: إي والله وألفاً .

قال أبو جعفر: فلما كان يوم الثلاثاء، صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب، بات ابن الزبير تلك الليلة يصلي عامة الليل، ثم احتبي بمائل سيفه، فأغفي ثم انتبه بالفجر، فقال: أذن يا سعد؛ فأذن عند المقام، وتوضأ ابن الزبير و ركع ركعتي الفجر، ثم تقدم وأقام المؤذن، فصلي ابن الزبير بأصحابه فقرأ "ن والقلم" حرفاً حرفاً ثم سلم، ثم قام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر، وعليها المغافر والعمائم، فكشفوا وجوههم، فقال: يا آل الزبير، لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اضطلمنا، لم تصبنا مذلة، ولم نقر على ضيم. أما بعد يا آل الزبير، فلا يرعكم وقع السيوف، فإني لم أحضر موطناً قط ارتثت فيه بين القتلى، وما أحد من دواء جراحها أشد مما أحد من ألم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم. لا أعلم امرأ كسر سيفه واستبقي نفسه. فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة اعزل. غضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قرنه، ولا يلهينكم السؤال عني، ولا تقولن: أين عبد الله بن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول، ثم قال:

أبى لابن سلمى أنه غير خالد

يلاقي المنايا أي وجه تيمما

فلست بمبتاع الحياة بسبة

ولامرتق من خشية الموت سلما

ثم قالوا: احملوا على بركة الله، ثم حمل حتى بلغ بهم إلى الحجون، فرمي بحجر، فأصاب وجهه، فارعش ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم تسيل على وجهه ولحيته قال:

ولسنا على الأعقاب تدمي كلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

قال: وتقاوا عليه، وصاحت مولاة له مجنونة: وا أمير المؤمنيناه! وقد كان هوي، ورأته حين هوي فأشارت لهم إليه، فقتل وإن عليه لثياب خز، وجاء الخبز إلى الحجاج، فسجد وسار هو وطارق بن عمرو، فوقفاً عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء اذكر من هذا، فقال الحجاج: أتمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين! فقال طارق: هو أعذر لنا، ولولا هذا ما كان لنا عذر، إنا محاصروه وهو في غير خندق ولا حصن ولا منعة منذ ثمانية أشهر ينتصف منا، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو؛ قال: فبلغ كلامهما عبد الملك، فصوب طارقاً.

قال: وبعث الحجاج برأس ابن الزبير ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة، فنصبت الثلاثة بها، ثم حملت إلى عبد الملك .

ونحن الان نذكر بقية أخبار عبد الله بن الزبير ملتقطة من مواضع متفرقة: رثي عبد الله بن الزبير في أيام معاوية واقفاً بباب مية مولاة معاوية، فقيل له: يا أبا بكر، مثلك يقف بباب هذه! فقال: إذا أعيتكم الأمور من رؤوسها فخذوها من أذناها. ذكر معاوية لعبد الله بن الزبير يزيد ابنه، وأراد منه البيعة له، فقال ابن الزبير: أنا أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تقدم، وتفكر قبل أن تتقدم؛ فإن النظر قبل التقدم؛ والتفكر قبل التندم؛ فضحك معاوية وقال: تعلمت يا أبا بكر الشجاعة عند الكبير.

كان عبد الله بن الزبير شديد البخل، كان يطعم جنده تمرًا، ويأمرهم بالحرب، فإذا فروا من وقع السيوف لامهم وقال! لهم: أكلتم تمرى، وعصيتم أمرى فقال بعضهم:

ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يبغى الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده خمسة أرماع في صدور أصحاب الحجاج، وكلما كسر رمحاً أعطاه رمحاً، فشق عليه ذلك، وقال: خمسة أرماع! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا.

قال: وجاءه أعرابي سائل فردّه، فقال له: لقد أحرقت الرضاء قدمي، فقال: بل عليهما يردان.

جمع عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس في سبعة عشر رجلاً من بني هاشم، منهم الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وحضرهم في شعب بمكة يعرف بشعب عارم، وقال: لا تمضي الجمعة حتى تبايعوا إلي أو أضرب أعناقكم، أو أحرقكم بالنار، ثم نهض إليهم قبل الجمعة يريد إحراقهم بالنار، فالتزمه ابن مسور بن مخزومة الزهري، وناشده الله أن يؤخرهم إلى يوم الجمعة، فلما كان يوم الجمعة دعا محمد بن الحنفية بغسول وثياب بيض، فاغتسل وتلبس وتحنط، لا يشك في القتل، وقد بعث المختار بن أبي عبيد من الكوفة أبا عبد الله الجدلي في أربعة آلاف، فلما نزلوا ذات عرق؛ تعجل منهم سبعون على رواحهم حتى وافوا مكة صبيحة الجمعة ينادون: يا محمد، يا محمد! وقد شهروا السلاح حتى وافوا شعب عارم، فاستخلصوا محمد بن الحنفية ومن كان معه، وبعث محمد بن الحنفية الحسن بن الحسن ينادي: من كان يرى أن الله عليه حقاً فليشم سيفه، فلا حاجة لي بأمر الناس، إن أعطيتها عفوا قبلتها، وإن كرهوا لم نبتزهم أمرهم.

وفي شعب عارم وحصار ابن الحنفية فيه يقول كثير بن عبد الرحمن:

من الناس يعلم أنه غير ظالم

وحمال أثقال وفكاك غارم

بل العائذ المحبوس في سجن عارم

ومن يره ذا الشيخ بالخيف من مني

سمي النبي المصطفى وابن عمه

تخبر من لاقيت أنك عائذ

وروي المدائني، قال: لما أخرج ابن الزبير عبد الله بن عباس من مكة إلى الطائف مر بنعمان، فترل فصلى ركعتين، ثم رفع يديه يدعو، فقال: اللهم إنك تعلم أنه لم يكن بلد أحب إلي من أن أعبدك فيه من البلد الحرام، وأني لا أحب أن تقبض روحي إلا فيه، وأن الزبير أخرجني منه، ليكون الأقوى في سلطانه. اللهم فأوهن كيده، واجعل دائرة الله عليه. فلما دنا

من الطائف تلقاه أهلها، فقالوا: مرحباً بابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! أنت والله أحب إلينا وأكرم علينا ممن أخرجك؛ هذه منازلنا تخيرها، فانزل! منها حيث أحببت؛ فترل مترلاً، فكان يجلس إليه أهل الطائف بعد الفجر وبعد العصر، فيتكلم بينهم، كان يحمد الله ويذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء بعده، ويقول: ذهبوا فلم يدعوا أمثالهم ولا أشباههم ولا من يدانيهم؛ ولكن بقي أقوام يطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون جلود الضأن، تحتها قلوب الذئاب والنمور، ليظن الناس أنهم من الزاهدين في الدنيا، يراءون الناس بأعمالهم، ويستخبطون الله بسرائرهم، فادعوا الله أن يقضي لهذه الأمة بالخير والإحسان، فيولي أمرها خيارها وإبرارها. ويهلك فجارها وشرارها. ارفعوا أيديكم إلى ربكم وسلوه ذلك؛ فيفعلون. فبلغ ذلك ابن الزبير، فكتب إليه: أما بعد، فقد بلغني أنك تجلس بالطائف العصرين فتفتيهم بالجهل، تعيب أهل العقل والعلم؛ وإن حلمي عليك، واستدامتي فيك جراك علي، فاكفف - لا أبا لغيرك - من غربك، وأربع على ظلعك، واعقل إن كان لك معقول، وأكرم نفسك فإنك إن تهنها تجدها على الناس أعظم هواناً، ألم تسمع قول الشاعر:

فنفسك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً

وإني أقسم بالله لئن لم تنته عما بلغني عنك لتجدن جانبي خشناً، ولتجدني إلى ما يردعك عني عاجلاً، فر رأيك، فإن أشفي بك شقاؤك على الردى فلا تلم إلا نفسك. فكتب إليه ابن عباس: أما بعد، فقد بلغني كتابك، قلت: إني أفتي الناس بالجهل، وإنما يفتي بالجهل من لم يعرف من العلم شيئاً، وقد أتاني الله من العلم ما لم يؤتك، وذكرت أن حلمك عني، واستدامتك فيني جرائي عليك، ثم قلت: اكفف من غربك، وأربع على ظلعك؛ وضربت لي الأمثال، أحاديث الضبع، متى رأيتني لعرامك هائباً، ومن حدك ناكلاً! وقلت: لئن لم تكفف لتجدن جانبي خشناً، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا أرفعى عليك إن أرفعيت! فو الله لا أنتهي عن قول الحق، وصفة أهل العدل والفضل، وذم الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ والسلام.

قدم معاوية المدينة راجعاً من حجة حجها، فكثر الناس عليه في حوائجهم، فقال! لصاحب إبله: قدم إبلك ليلاً حتى أرتحل، ففعل ذلك، وسار ولم يعلم بأمره إلا عبد الله بن الزبير، فإنه ركب فرسه وقفاً أثره، ومعاوية نائم في هودجه، فجعل يسير إلى جانبه، فانتبه معاوية وقد سمع وقع حافر الفرس، فقال: من صاحب الفرس؛ قال: أنا أبو حبيب، لو قد قتلتك منذ الليلة! يمازحه، فقال معاوية: كلا لست من قتلة الملوك، إنما يصيد كل طائر قدره. فقال ابن الزبير: إلي تقول هذا، وقد وقفت في الصف بازاء علي بن أبي طالب، وهو من تعلم! فقال معاوية: لا جرم! إنه قتلك وأباك بيسري يديه، وبقيت يده اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها. فقال ابن الزبير: أما والله ما كان ذاك إلا في نصر عثمان فلم نجز به، فقال معاوية: حل هذا عنك، فو الله لولا شدة بغضك ابن أبي طالب لجررت برجل عثمان مع الضبع. فقال ابن الزبير: افتعلتها يا معاوية! أما إنا فد أعطيناك عهداً، ونحن وافون لك به ما دمت حياً، ولكن ليعلمن من بعدك، فقال معاوية: أما والله ما أخافك إلا على نفسك، وكأني بك وأنت مشدود مربوط في الأنشودة، وأنت تقول: ليت أبا عبد الرحمن كان حياً،

وليتني كنت حياً يومئذ، فأحلك حلاً رفيقاً، ولبئس المطلق والمعتق والمسنون عليه أنت يومئذ! دخل عبد الله بن الزبير على معاوية وعنده عمرو بن العاص، فتكلم عمرو - وأشار إلى ابن الزبير - فقال: هذا والله يا أمير المؤمنين الذي غرته أناتك، وأبطره حلمك، فهو يتزو في نشطته نزو العير في حبالته، كلما قمصته الغلواء والشرة سكنت الأنشودة منه النفرة، وأحر به أن يثول إلى القلة أو الذلة، فقال ابن الزبير: أما والله يا بن العاص، لولا أن الإيمان ألزمننا بالوفاء، والطاعة للخلفاء - فنحن لا نريد بذلك بدلاً، ولا عنه حولاً - لكان لنا وله ولك شأن، ولو وكله القضاء إلى رأيك، ومشورة نظرائك لدفعناه بمنكب لا تتوده المزاحمة، ولقاذفناه بحجر لا تنكؤه المزاحمة؛ فقال معاوية: أما والله يا بن الزبير لولا إيثاري الأناة على العجل، والصفح على العقوبة، وأني كما قال الأول:

أجامل أقواماً حياءً وقد أري

قلوبهم تغلي علي مراضها

إذا لقرنتك إلى سارية من سوارى الحرم تسكن بها غلواءك، وينقطع عندها طمعك، وتنقص من املك، ما لعلك قد لويته فشزرتة، وقتلته فأبرمته . وإيم الله إنك من ذلك لعلى شرف جرف بعيد الهوة، فكن على نفسك ولها، فما توبق ولا تنقذ غيرها، فشأنك وإياها.

قطع عبد الله بن الزبير في الخطبة ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمعاً كثيرة، فاستعظم الناس ذلك، فقال: إني لا أرغب عن ذكره، ولكن له أهيل سوء إذا ذكرته أتلعوا أعناقهم، فأنا احب أن أكبتهم.

لما كاشف عبد الله بن الزبير بني هاشم وأظهر بغضهم وعابهم، وهم بما هم به في أمرهم، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة، لا يوم الجمعة ولا غيرها، عاتبه على ذلك قوم من خاصته، وتشاءموا بذلك منه، وخافوا عاقبته، فقال: والله ما توكت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سرّاً وأكثر منه؛ لكني رأيت بني هاشم إذا سمعوا ذكره اشرأبوا واحمرت ألوانهم، وطالت رقابهم، والله ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرة ثم اضرمتها عليهم ناراً، فإني لا أقتل منهم إلا آثماً كفاراً سحاراً، لا أنماهم الله ولا بارك عليهم، بيت سوء لا أول لهم ولا آخر، والله ما ترك نبي الله فيهم خيراً، استفرع نبي الله صدقهم فهم أكذب الناس.

فقام إليه محمد بن سعد بن أبي وقاص فقال: وفقك الله يا أمير المؤمنين! أنا أول! من أعانك في أمرهم، فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي، فقال: والله ما قلت صواباً، ولا هممت برشد، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعيب، وإياهم تقتل والعرب حولك! والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسلمين ما سوغه الله لك، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره. فقال: اجلس أبا صفوان فلست بناموس.

فبلغ الخبر عبد الله بن العباس، فخرج مغضباً ومعه ابنه حتى أتى المسجد، فقصد قصد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: أيها الناس، إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا آخر، فيا عجباً كل العجب لافتراءه ولكذبه! والله إن أول من اخذ الإيلاف وحمي عيرات قريش لهاشم، وإن

أول من سقي مكة عذباً، وجعل باب الكعبة ذهباً لعبد المطلب، والله لقد نشأت ناشتتنا مع ناشئة قريش، وإن كنا لقاتلهم إذا قالوا، وخطباءهم إذا خطبوا، وما عد مجد كمجد أولنا، ولا كان في قريش مجد لغيرنا، لأنها في كفر ماحق، ودين فاسق، وضلة وضلالة، في عشواء عمياء، حتى اختار الله تعالى لها نوراً، وبعث لها سراجاً، فانتجبه طيباً من طيبين، لا يسبه بمسبة، ولا يبغي عليه غائلة، فكان أحدنا وولدنا، وعمنا وابن عمنا . ثم إن أسبق السابقين إليه منا وابن عمنا، ثم تلاه في السبق، أهلنا ولحمتنا واحداً بعد واحد.

ثم إنا لخير الناس بعده وأكرمهم أدباً، وأشرفهم حسباً، وأقربهم منه رحماً. واعجبنا كل العجب لابن الزبير! يعيب بني هاشم، ونما شرف هو وأبوه وجاده بمصاهرتهم، أما والله إنه لمصلوب قريش، ومتى كان العوام بن خويلد يطمع في صفية بنت عبد المطلب! قيل للبغل: من أبوك يا بغل؛ فقال: خالي الفرس. ثم نزل. خطب ابن الزبير بمكة على المنبر، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر، فقال: إن هاهنا رجلاً قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره، يزعم أن متعة النساء حلال من الله ورسوله، ويفتي في القملة والنملة، وقد احتمل بيت مال البصرة بالأمس، وترك المسلمين بما يرتضخون النوى، وكيف ألومه في ذلك، وقد قاتل أم المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن وقاه بيده! فقال ابن عباس لقائده سعد بن جبيرة بن هشام موك بني أسد بن خزيمه: استقبل بي وجه ابن الزبير، وارفع من صدري، وكان ابن عباس قد كف بصره فاستقبل به قائدة وجه ابن الزبير، وأقام قامته فحسر عن ذراعيه، ثم قال يا بن الزبير:

إنا إذا ما فئة نلقاها

قد انصف القارة من راماها

حتى تصير حرصاً دعواها

نرد أولاهها على أخراها

يا بن الزبير، أما العمى فإن الله تعالى يقول: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"، وأما فتياي في القملة والنملة، فإن فيها حكمين لا تعلمها أنت ولا أصحابك. وأما حملي المال! فإنه كان مالاً جبيناه فأعطينا كل ذي حق حقه، وبقيت بقية هي دون حقنا في كتاب الله فأخذناها بحقنا. وأما المتعة فسل أمك أسماء إذا نزلت عن بردي عوسجة. وأما قتالنا أم المؤمنين فبنا سميت أم المؤمنين لا بك ولا بأبيك، فانطلق أبوك وخالك إلى حجاب مده الله عليها، فهتكاه عنها، ثم اتخذها فتنة يقتلان دونها، وصانا حلالتهما في بيوتهما، فما انصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن ابرزا زوجة نبيه وصانا حلالتهما. وأما قتالنا إياكم فأنا لقينا زحفاً، فإن كنا كفاراً فقد كفرتم بفراركم منا، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا، وأيم الله لولا مكان صفية فيكم، ومكان خديجة فينا، لما تركت لبني أسد بن عبد العزي عظماً إلا كسرتة.

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بردي عوسجة، فقالت: ألم أنهك عن ابن عباس وعن بني هاشم! فإنهم كعم الجواب إذا بدوها، فقال: بلى، وعصيتك.

فقلت: يا بني، أحذر هذا الأعمى الذي ما أطاقتة الإنس والجن، واعلم أن عنده فضائح قريش ومخزيتها بأسرها، فإياك وإياه آخر الدهر، فقال أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي:

من البوائق فالطف لطف محتال
في مغرسيه كريم العم والخال
على الجواب بصوت مسمع عال
خلف الغبيط وكنت الباذخ العالي
خير الأنام له حال من الحال
وبالقتال وقد عيرت بالمال
جرت عليك بسيف الحال والبال

يا بن الزبير لقد لاقيت بائقةً
لاقيته هاشمياً طاب منبته
ما زال يقرع عنك العظم مقتدراً
حتى رأيتك مثل الكلب منججراً
إن ابن عباس المعروف حكمته
عيرته المتعة المتبوع سننها
لما رماك على رسل بأسهمه

حزاً وحيأً بلا قيل ولا قال
عادت عليك مخاز ذات أذيال

فاحتز مقولك الأعلى بشفرتة
وأعلم بأنك إن عاودت غيبته

وروي عثمان بن طلحة العبدري، قال: شهدت من ابن عباس رحمه الله مشهداً ما سمعته من رجل من قريش، كان يوضع إلي جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سريرته؛ فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك، فأذن مروان يوماً للناس، وإذا سرير آخر قد احدث تجاه سرير مروان فأقبل ابن عباس فجلس على سريرته، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المحدث، وسكت مروان والقوم، فإذا يد ابن الزبير تتحرك فعلم أنه يريد أن ينطق، ثم نطق فقال: إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وغلطة ومغالبة، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا، ويزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحد أثبت إيماناً، ولا أعظم سابقة من أبي بكر، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله! فأين هم حين عقد أبو بكر لعمر، فلم يكن إلا ما قال، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ، وجدهم في حدود، فقسمت تلك الحظوظ، فأخر الله سهمهم، وأدحض جدتهم، وولي الأمر عليهم من كان أحق به منهم، فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجاً من القرية، فأصابوا منه غرة فقتلوه، ثم قتلهم الله به قتلة، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب. فقال ابن عباس: على رسلك أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً إلا وصاحبنا خير ممن نالا، وما أنكرنا تقدم من تقدم لعيب عناه عليه، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل، ولولا أنك إنما تذكر حظ غيرك وشرف امرئ سواك لكلمتك، ولكن ما أنت وما لا حظ لك فيه! اقتصر على حظك، وع تيماً لتيم، وعدياً لعدى، وأمية لأمية، ولو كلمني تيمي أو عدوي أو أموي لكلمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر، لا خبر غائب عن غائب، ولكن ما أنت، وما ليس عليك! فإن يكن في أسد بن عبد العزي شيء فهو لك، أما والله لنحن أقرب بك عهداً، وأبيض عندك يداً، وأوفر عندك نعمة ممن أمسيت؛ تظن أنك تصول به علينا، وما اخلق ثوب صفية بعد! والله المستعان على ما تصفون.

أوصي معاوية يزيد ابنه لما عقد له الخلافة بعده، فقال: إني لا أخاف عليك إلا ممن أوصيك بحفظ قرابته ورعاية حق

رحمه، من القلوب إليه مائلة، والأهواء نحوه جانحة، والأعين إليه طامحة، وهو الحسين بن علي، فاقسم له نصيباً من حلمك، واخصصه بقسط وافر من مالك، ومتعه بروح الحياة، وأبلغ له كل ما أحب في أيامك، فأما من عداه فثلاثة: وهم عبد الله بن عمر رجل قد وقذته العبادة، فليس يريد الدنيا إلا أن تحيته طائعة لا تراق فيها محجمة دم، وعبد الرحمن بن أبي بكر، رجل هقل لا يحمل ثقلًا، ولا يستطيع نهوضاً، وليس بذئ همة ولا شرف ولا أعوان، وعبد الله بن الزبير وهو الذئب الماكر، والثعلب الخائر، فوجه إليه جدك وعزمك ونكيرك ومكرك، واصرف إليه لسطوتك، ولا تثق إليه في حال، فإنه كالثعلب، راغ بالختل عند الإرهاق، والليث صال بالجرأة عند الإطلاق، وأما ما بعد هؤلاء فإني قد وطأت لك الأمم، وذلت لك أعناق المناير، وكفيتك من قرب منك، ومن بعد عنك، فكن للناس كما كان أبوك لهم يكونوا لك كما كانوا لأبيك. خطب عبد الله بن الزبير أيام يزيد بن معاوية فقال في خطبته: يزيد القروء، يزيد الفهود، يزيد الخمور، يزيد الفجور! أما والله لقد بلغني أنه لا يزال مخموراً يخطب الناس وهو طافح في سكره، فبلغ ذلك يزيد بن معاوية، فما أمسى ليلته حتى جهز جيش الحررة، وهو عشرون ألفاً، وجلس والشموع بين يديه، وعليه ثياب معصفرة، والجنود تعرض عليه ليلاً، فلما أصبح خرج فأبصر الجيش، ورأي تعبته فقال:

وأخذ القوم على وادي القرى

أجمع لسكران من القوم تري

أبلغ أبا بكر إذا الجيش أنبري

عشرين ألفا بين كهل وفتي

أم جمع ليث دونه ليث الشري

لما خرج الحسين عليه السلام من مكة إلى العراق ضرب عبد الله بن عباس بيده على منكب ابن الزبير، وقال:

خلالك الجو فبيضي واصفري

يا لك من قبرة بمعمر

هذا الحسين سائر فأبشري

ونقري ما شئت أن تنتقري

خلا الجو والله لك يا بن الزبير! وسار الحسين إلى العراق، فقال ابن الزبير: يا بن عباس، والله ما ترون هذا الأمر إلا لكم، ولا ترون إلا أنكم أحق به من جميع الناس، فقال ابن عباس: إنما يري من كان في شك، ونحن من ذلك على يقين ولكن أخبرني عن نفسك، بماذا تروم هذا الأمر؟ قال: بشرفي، قال: وبماذا شرفت إن كان لك شرف؟ فإنما هو بنا، فنحن أشرف منك، لأن شرفك منا، وعلت أصواتهما، فقال غلام من آل الزبير: دعنا منك يا بن عباس، فوالله لا تحبوننا يا بني هاشم ولا نحبكم أبداً، فلطمه عبد الله بن الزبير بيده وقال: أتتكلم وأنا حاضر! فقال ابن عباس: لم ضربت الغلام، والله أحق بالضرب منه من مزق ومرق، قال: ومن هو؟ قال: أنت، قال: واعترض بينهما رجال من قريش فأسكنوهما. دخل عبد الله بن الزبير على معاوية، فقال: اسمع أبياتا قتلها عاتبتك فيها، قال: هات، فانشده:

على أيننا تعدو المنية أول

إن أعيالك خصم أو نبا بك منزل

واحبس يوماً إن حبست فاعقل

لعمري ما ادري وإني لأوجل

وإني أخوك الدائم العهد لم ازل

أحارب من حاربت من ذي عداوة

وإن سؤتتي يوماً صفحت إلى غد
ليعقب يوم منك آخر مقبل
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتن
أييمينك، فانظر أي كف تبدل
إذا أنت لم تتصف أخاك وجدته
على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركب حد السيف من أن تضيمه
إذا لم يكن عن شفرة السيف معدل
وكننت إذا ما صاحب ما مل صحبتي
وبدل شراً بالذي كنت أفعل
قلبت له ظهر المجن ولم اقم
على الضيم إلا ريثما أتحول
وفي الناس إن رثت حبالك واصل
وفي الأرض عن دار القلي متحول
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد
إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقال معاوية: لقد شعرت بعدي يا أبا حبيب! وبينما هما في ذلك دخل معن بن أوس المزني، فقال له معاوية: إيه! هل أحدثت بعدنا شيئاً؟ قال: نعم، قال: قل، فأنشده هذه الأبيات، فعجب معاوية وقال لابن الزبير: ألم تنشدها لنفسك آنفاً! فقال: أنا سويت المعاني، وهو ألف الألفاظ ونظمها، وهو بعد ظئري، فما قال من شيء فهو لي - وكان ابن الزبير مسترضعاً في مزرعة - فقال معاوية: وكذبا يا أبا حبيب! فقام عبد الله فخرج.

وقال الشعبي: فقد رأيت عجباً بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير، فقام القوم بعد ما فرغوا من حديثهم، فقالوا: ليقم كل واحد منكم، فليأخذ بالركن اليماني، ثم يسأل الله تعالى حاجته، فقام عبد الله بن الزبير فالتزم الركن وقال: اللهم إنك عظيم ترجي لكل عظيم، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة بيتك هذا، ألا تخرجني من الدنيا حتى إلى الحجاز، وسلم علي بالخلافة. وجاء فجلس، فقام أخوه مصعب فالتزم الركن وقال: اللهم رب كل شيء، وإليك مصير كل شيء، أسألك بقدرتك على كل شيء، ألا تميتني حتى إلى العراق، وأتزوج سكينه بنت الحسين بن علي، ثم جاء فجلس. فقام عبد الملك فالتزم الركن وقال: اللهم رب السموات السبع، والأرض ذات النبت والقفر، أسألك بما سألك به المطيعون لأمرك، وأسألك بحق وجهك، وبحقك على جميع خلقك، ألا تميتني حتى ألي شرق الأرض وغربها، لا ينازعني أحد إلا ظهرت عليه، ثم جاء فجلس. فقام عبد الله بن عمر فأخذ بالركن وقال: يا رحمن يا رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وبقدرتك على جميع خلقك، ألا تميتني حتى توجب لي الرحمة. قال الشعبي: فوالله ما خرجت من الدنيا حتى بلغ كل من الثلاثة ما سأل، واخلق بعبد الله بن عمر أن تحاب دعوته، وأن يكون من أهل الرحمة.

قال الحجاج في خطبته يوم دخل الكوفة: هذا أدب ابن نهيمة، أما والله لاؤدبنكم غير هذا الأدب. قال ابن مأكولا في كتاب الإكمالي: "يعني مصعب بن الزبيرو عبد الله أخاه، وهي نهيمة بنت سعيد بن سهم بن هصيص، وهي أم ولد أسد بن عبد العزي بن قي"، وهذا من المواضع الغامضة.

وروي الزبير بن بكار في كتاب أنساب قريش قال: قد وفد من العراق على عبد الله بن الزبير، فأتوه في المسجد الحرام،

فسلموا عليه، فسألهم عن مصعب أخيه وعن سيرته فيهم، فاثنوا عليه، وقالوا خيراً، وذلك في يوم الجمعة، فصلى عبد الله بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر، فحمد الله ثم تمثل:

قد جربوني ثم جربوني

من غلوتين ومن المنئين

حتى إذا شابوا وشيبوني

خلوا عناني ثم سيبوني

أيها الناس، إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق عن عاملهم مصعب بن الزبير فأحسنوا الثناء عليه، وذكروا عنه ما أحب، ألا إن مصعباً أطى القلوب حتى لا تعدل به، والأهواء حتى لا تحول عنه، واستمال الألسن بشنائها، والقلوب بنصائحها، والأنفس بمحبتها وهو المحبوب في خاصته، المأمون في عامته، بما أطلق الله به لسانه من الخير وبسط به يديه من البذل، ثم نزل.

وروي الزبير قال: لما جاء عبد الله بن الزبير نعي المصعب صعد المنبر فقال: الحمد الذي له الخلق والأمر، يؤتي، الملك من يشاء، ويتزعج الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويدل من يشاء، إلا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه ولو كان فرداً، ولم يعزز الله ولي الشيطان وحزبه وإن كان الأنام كلهم معه، ألا وإنه قد أتانا من العراق خير أحرزنا وأفرحنا، أتانا قتل المصعب رحمه الله، فأما الذي أحرزنا فإن لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي بعدها ذو الرأي إلى جميل الصبر وكريم العزاء، وأما الذي أفرحنا فأن قتله كان عن شهادة، وأن الله تعالى جعل ذلك لنا وله ذخيرة. ألا إن أهل العراق، أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل المصعب فأنا لله وأنا إليه راجعون! ما نموت جباً كما يموت بنو العاص، ما نموت إلا قتلاً، فقصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف، ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد، فإن تقبل الدنيا علي لا آخذها أخذ الأشر البطر، أن تدبر عني لا أبكي عليها بكاء الخرف المهتر، وإن جهلك المصعب فإن في آل الزبير خلفاً. ثم نزل.

وروي الزبير بن بكار قال: خطب عبد الله بن الزبير بعد أن جاءه مقتل المصعب، فحمد الله واثني عليه ثم قال: لئن صبت بمصعب فلقد أصبت بإمامي عثمان، فعظمت مصيبتة، ثم أحسن الله وأجمل، ولئن أصبت بمصعب فلقد أصبت بأبي الزبير فعظمت مصيبتة فظننت أني لا أجيزها ثم أحسن الله وسلم واستمرت ميريقي وهل كان مصعب إلا في من فتياي! ثم غلبه البكاء فسالت دموعه وقال: كان والله سرياً مريباً، ثم قال:

هم دفعوا الدنيا على حين أعرضت

كراماً وسنوا للكرام التاسيا

وروي أبو العباس في الكامل أن عروة لما صلب عبد الله جاء إلى عبد الملك فوقف ببابه، وقال للحاجب: اعلم أمير المؤمنين أن أبا عبد الله بالباب، فدخل الحاجب فقال: رجل يقول قولاً عظيماً، قال: وما هو؟ فتهيب، فقال: قل. قال: رجل يقول: قل لأمر المؤمنين: أبو عبد الله بالباب، فقال عبد الملك: قل لعروة يدخل، فدخل فقال: تأمر بإنزال جيفة أبي بكر فإن النساء يجزعن، فامر بإنزاله. قال: وقد كان كتب الحاج إلى عبد الملك يقول: أن خزائن عبد الله عند عروة، فمره فليسقمها؛ فدفع عبد الملك إلى عروة، وظن أنه يتغير، فلم يحفل بذلك كأنه ما قرأه، فكتب عبد الملك إلى الحاج ألا يعرض لعروة.

ومن الكلام المشهور في بخل عبد الله بن الزبير الكلام الذي يحكي أن أعرابياً أتاه يستحمله، فقال: قد نقب خف راحلتي فاحملني إني قطعت الهواجر إليك عليها، فقال له: أرقعها بسبت، واخصفها بملب، وانجد بها، وسر بها البردين فقال: إنما أتيتك مستحماً، لم إتك مستوصفاً، لعن الله ناقة حملتني إليك، قال: إن وراكبها.
وهذا الأعرابي هو فضالة بن شريك، فهجاه فقال:

نكدن ولا أمية بالبلاد

أرى الحاجات عند أبي خبيب

أغر كغرة الفرس الجواد

من الأعياص أو من آل حرب

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، لا تدعن مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه، ويضرب صفاتهم بمعوله. أما والله، إنه لولا مكانك لكان أخف على رقابنا من فراشة، وأقل في أنفسنا من خشاشة، وأيم الله لئن ملك أعنة خيل تنقاد له لتركب منه طبقاً تخافه.

فقال معاوية: إن يطلب مروان هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه، وإن يتركه يتركه لمن فوقه، وما أراكم بممتنين حتى يبعث الله عليكم من لا يعطف عليكم بقراة، ولا يذكركم عند ملمة، يسومكم خسفاً، ويسوقكم عسفاً.
فقال ابن الزبير: إذن والله يطلق عقال الحرب بكتائب تمر كرجل الحراد، تتبع غطريفاً من قريش لم تكن أمه راعية ثلة فقال معاوية: أنا ابن هند، أطلقت عقال الحرب، فأكلت ذروة السنام، وشر بت عنفوان المكرع وليس للأكل بعدي إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرنق فسكت ابن الزبير.

قام عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً، فرحب به وأدناه حتى أجلسه على سريرته، ثم قال: حاجتك أبا خبيب! فسأله أشياء، ثم قال له: سل غير ما سألت، قال: نعم، المهاجرون والأنصار ترد عليهم فيهم، وتحفظ وصية نبي الله فيهم، تقبل من محسنهم، وتتجاوز عن مسيئهم.

فقال معاوية: هيهات هيهات، لا والله ما تأمن النعجة الذئب وقد أكل اليتها.

فقال ابن الزبير: مهلاً يا معاوية، فإن الشاة لتدر للحالب وإن المدية في يده، وإن الرجل الأريب لصانع ولده الذي خرج من صلبه، وما تدور الرحي إلا بقطبها، ولا تصلح القوس إلا بمعجسها فقال: يا أبا خبيب، لقد أحررت الطروقة قبل هباب الفحل هيهات، وهي لا تصطك لحبائها اصطكاك القروم السوامي.

فقال ابن الزبير: العطن بعد العل، والعل بعد النهل، ولا بد للرحاء من الثفال ثم نهض ابن الزبير.

فلما كان العشاء أخذت قريش مجالسها، وخرج معاوية على بني أمية فوجد عمرو بن العاص فيهم، فقال: ويحكم يا بني أمية! أفيكم من يكفيني ابن الزبير؟ فقال عمرو: أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين، قال: ما أظنك تفعل؟ قال: بك والله لا ربدن وجهه، ولأخرسن لسانه، ولأردنه ألين من خميلة.

فقال: دونك، فاعرض له إذا دخل. فدخل ابن الزبير - وكان قد بلغه كلام معاوية وعمرو - فجلس نصب عيني عمرو، فتحدثوا ساعة ثم قال عمرو:

فاطرق ابن الزبير ساعة ينكت في الأرض، ثم رفع رأسه وقال:

وإني لبحر ما يسلمي عبابه

متى يلق بحري حر نارك يخمد

فقال عمرو: والله يا بن الزبير إنك ما علمت لمتجلبحب جلايب الفتنة، متآزر بوصائل التيه، تتعاطى الذرا الشاهقة، والمعالي الباسقة، وما أنت من قريش في لباب جوهرها ولا مؤنق حسبها! فقال ابن الزبير: أما ما ذكرت من تعاطي الذرا فإنه طال بي إليها وسما ما لا يطول بك مثله: انف حمي، وقلب ذكي، وصارم مشرفي، في اليد فارغ، وطريف مانع، إذ قعد بك انتفاخ سحر، ووجيب قلبك. وأما ما ذكرت من أني لست من قريش في لباب جوهرها، ومؤنق حسبها، فقد أحضرتني وإياك الأكفاء العالمون بي وبك، فأجعلهم بيني وبينك فقال القوم: قد أنصفك يا عمرو، قال: قد فعلت. فقال ابن الزبير: أما إذا أمكنني الله منك فاربدن وجهك، ولأخرسن لسانك ولترجعن في هذه الليلة، وكأن الذي بين منكيك مشدود إلى عروق أهدعك، ثم قال: أقسمت عليكم يا معاشر قريش، أنا أفضل في دين الإسلام أم عمرو؛ فقالوا: اللهم أنت، قال: فأبي أفضل أم أبوه؟ قالوا: أبوك حواري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمته، قال: فأمي أفضل أم أمه؟ قالوا: أمك أسماء بنت أبي بكر الصديق، وذات النطاقين، قال: فعمتي أفضل أم عمته؟ قالوا: عمتك سلمى ابنة العوام صاحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من عمته قال: فخالتي أفضل أم خالته؟ قالوا: خالتك عائشة أم المؤمنين، قال: فجدي أفضل أم جدته؟ فقالوا: جدتك صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: فجدي أفضل أم جده؟ قالوا: جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال:!

قضت الغطارف من قريش بيننا

فاصبر لفضل خصامها وقضائها

وإذا جريت فلا تجار مبرزاً

بذ الجياد على احتفال جرائها

أما والله يا بن العاص، لو أن الذي أمرك بهذا واجهني بمثله لقصرت إليه من سامي بصره، ولتركته يتلجلج لسانه، وتضطرم النار في جوفه، ولقد استعان منك بغير واف ولجأ إلى غير كاف، ثم قام فخرج.

وذكر المسعودي في كتاب مروج الذهب أن الحجاج لما حاصر ابن الزبير لم يزل يزحف حتى ملك الجبل المعروف بأبي قبيس، وقد كان بيد ابن الزبير، فكتب بذلك إلى عبد الملك، فلما قرأ كتابه كبر وكبر من كان في داره حتى اتصل التكبير بأهل السوق، فكبروا، وسأل الناس ما الخير؛ فقيل لهم: إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة، وظفر بأبي قبيس، فقال الناس: لا نرضي حتى يحمل أبو حبيب إلينا مكبلاً على رأسه برنس، راكب جمل، يطاف به في الأسواق، تراه العيون. وذكر المسعودي أن عمة عبد الملك كانت تحت عروة بن الزبير، وأن عبد الملك كتب إلى الحجاج يأمره بالكف عن عروة، وذلك قبل أن يقتل عبد الله وألا يسوءه إذا ظفر بأخيه في ماله ولا في نفسه، قال: فلما اشتد الحصار علي عبد الله خرج عروة إلى الحجاج فأخذ لعبد الله أماناً ورجع إليه، فقال: هذا عمرو بن عثمان، وخالد بن عبد الله بن خالد بن اسيد، وهما فتيا بني أمية يعطيانك أمان عبد الملك ابن عمهما على ما أحدثت أنت ومن معك، وأن تنزل أي البلاد شئت،

ولك بذلك عهد الله وميثاقه، فأبي عبد الله قبول ذلك، ونهته أمه وقالت: لا تموتن إلا كريماً، فقال لها: إني أخاف إن قتلت أن اصلب أو يمثل بي، فقالت: إن الشاة بعد الذبح لا تحس بالسلخ .

وروي المسعودي أن عبد الله بن الزبير بعد موت يزيد بن معاوية طلب من يؤمره على الكوفة، وقد كان أهلها أحبوا أن يليهم غير بني أمية، فقال له المختار بن أبي عبيد: اطلب رجلاً له رفق وعلم بما يأتي، وتدبر قوله إياها يستخرج لك منها جنداً تغلب به أهل الشام، فقال: أنت لها، فبعثه إلى الكوفة، فأتاها وأخرج ابن مطيع منها، وابتني لنفسه داراً، وانفق عليها مالاً جليلاً، وسأل عبد الله بن الزبير أن يحتسب له به من مال العراق، فلم يفعل، فخلعه ووجد بيعته، ودعا إلى الطالبين.

قال المسعودي: وأظهر عبد الله بن الزبير الزهد في الدنيا، وملازمة العبادة، مع الحرص على الخلافة وشبر بطنه، فقال: إنما بطني شبر، فاعسي أن يسع ذلك الشبر! وظهر عنه شح عظيم على سائر الناس، ففي ذلك يقول أبو حمزة مولى آل الزبير:

على الخليفة تشكو الجوع والحربا

إن الموالى أمست وهي عاتبة

أي الملوك على ماحولنا غلبا!

ماذا علينا وماذا كان يرزونا

وقال فيه أيضاً:

وقد فضلت فضلاً كثيراً للمساكين

لو كان بطنك شبراً قد شبعت

حتى فؤادي مثل الخز في اللين

ما زلت في سورة الأعراف تدرسها

وقال فيه شاعر أيضاً، لما كانت الحرب بينه وبين الحصين بن نمير قبل أن يموت يزيد بن معاوية:

كبير بني العوام إن قيل من تعني

فيا راكباً إما عرضت فبلغن

وتكثر قتلى بين زمزم والركن

تخبر من لا ليت أنك عائذ

وقال الضحاك بن فيروز الديلمي:

وبطنك شبر أو أقل من الشبر

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة

كما قضمت ناراً لغضا حطب السدرا

وأنت إذا ما نلت شيئاً قضمته

قريباً لردتك العطوف على عمرو

فلو كنت تجزي أو تثيب بنعمة

قال: هو عمرو بن الزبير أخوه، ضربه عبد الله حتى مات وكان مابيناً له .

كان يزيد بن معاوية قد ولى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة، فسرّح الوليد منها جيشاً إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير، عليه عمرو بن الزبير، فلما تصاف القوم انهزم رجال عمرو وأسلموه، فظفر به عبد الله، فاقامه للناس بباب المسجد مجرداً، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات .

وقد رأيت في غير كتاب المسعودي، أن عبد الله وجد عمرًا عند بعض زوجاته، وله في ذلك خبر لا أحب أن أذكره.

قال المسعودي: ثم إن عبد الله بن الزبير حبس الحسن بن محمد بن الحنفية في حبس مظلم ، وأراد قتله، فاعمل الحيلة حتى

تخلص من السجن، وتعسف الطريق على الجبال، حتى مني، وبها أبوه محمد بن الحنفية .

ثم إن عبد الله جمع بني هاشم كلهم في سجن عارم، وأراد أن يحرقهم بالنار، وجعل في فم الشعب حطباً كثيراً، فأرسل المختار أبا عبد الله الجدلي في أربعة آلاف، فقال أبو عبد الله لأصحابه: ويحكم! إن بلغ ابن الزبير الخبر عجل على بني هاشم فأتى عليهم، فانتدب هو نفسه في ثمانمائة فارس جريدة، فما شعر بهم ابن الزبير إلا والرايات تخفق بمكة، فقصده قصد الشعب، فأخرج الهاشميين منه، ونادي بشعار محمد بن الحنفية، وسماه المهدي، وهرب ابن الزبير، فلاذ بأستار الكعبة، فنهاهم محمد بن الحنفية عن طلبه وعن الحرب، وقال: لا أريد الخلافة إلا إن طلبني الناس كلهم، واتفقوا علي كلهم، ولا حاجة لي في الحرب .

قال المسعودي: وكان عروة بن الزبير يعذر أخاه عبد الله في حصر بني هاشم في الشعب، وجمعه الخطب ليحرقهم ويقول: إنما أراد بذلك ألا تنتشر الكلمة، ولا يختلف المسلمون، وأن يدخلوا في الطاعة، فتكون الكلمة واحدة، كما فعل عمر بن الخطاب ببني هاشم لما تأخروا عن بيعة أبي بكر، فإنه احضر الخطب ليحرق عليهم الدار .

قال المسعودي وخطب ابن الزبير يوم قدم أبو عبد الله الجدلي قبل قدومه بساعتين، فقال: إن هذا الغلام محمد بن الحنفية قد أبي بيعتي، والوعد بيني وبينه أن تغرب الشمس، ثم أضرم عليه مكانه ناراً، فجاء إنسان إلى محمد فاخبره بذلك؛ فقال: سيمنعه مني حجاب قوي، فجعل ذلك الرجل ينظر إلى الشمس، ويرقب غيوبتها لينظر ما يصنع ابن الزبير، فلما كادت تغرب حالست خيل أبي عبد الله الجدلي ديار مكة وجعلت تمعج بين الصفا والمروة، وجاء أبو عبد الله الجدلي بنفسه، فوقف على فم الشعب، وأستخرج محمداً، ونادي بشعاره، وأستأذنه في قتل ابن الزبير، فكره ذلك ولم يأذن فيه، وخرج من مكة فأقام بشعب رضوي حتى مات .

وروي المسعودي عن سعيد بن خبير، أن ابن عباس دخل على ابن الزبير فقال له ابن الزبير: آلام تؤنبي وتعنني! قال أن إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "بئس المرء المسلم يشيع ويجوع جاره"، وأنت ذلك الرجل، فقال ابن الزبير: والله إني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة. وتشاجراً، فخرج ابن عباس من مكة، خوفاً على نفسه، فأقام بالطائف حتى مات .

وروي أبو الفري الأصفهاني قال: أتى فضالة بن شريك الوالي ثم الأسدي من بني اشد بن خزيمة عبد الله بن الزبير فقال: نفدت نفقتي، ونقبت ناقتي، فقال: أحضرنيها، فأحضرها، فقال: اقبل بها، أدبر بها، ففعل، فقال: أرقعها بسبت، وأخصفها بهلب، وانجد بها يبرد خفها، وسر البردين تصح. فقال فضالة: إني أتيتك مستحماً، ولم آتك مستوصفاً، فلعن الله ناقة حملتي إليك! فقال: إن وراكبها، فقال فضالة:

أجاوز بطن مكة في سواد

إلى ابن الكاهلية من معاد

وتعليق الأداوي والمزاد

أقول لغلظة شدوا ركابي

فمالي حين أقطع ذات عرق

سبيعد بيننا نص المطايا

وكل معبد قد أعلمته

مناسمهن طلاع النجاد

أرى الحاجات عند أبي خبيب

نكدن ولا أمية بالبلاد

من الأعياص أو من آل حرب

أغر كغرة الفرس الجواد

قال: ابن الكاهلية هو عبد الله بن الزبير، والكاهلية هذه هي أم حويلد بن أسد بن عبد العزي، وأسمها زهرة بنت عمرو بن خنثر بن روية بن هلال، من بني كاهل بن أسد بن خزيمه - قال: فقال عبد الله بن الزبير لما بلغه الشعر: علم أنها شر أمهاتي فعيرني بها، وهي خير عماته.

وروي أبو الفرج قال: كانت صفية بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفي تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب فمشي ابن الزبير إليها، فذكر لها أن خروجه كان غضباً لله عز وجل و لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وللمهاجرين والأنصار من أثره فعاوية وابنه بالفيء، وسألها مسألة زوجها عبد الله بن عمر أن يبايعه، فلما قدمت له عشاء ذكرت له أمر ابن الزبير وعبادته واجتهاده، أثنت عليه، وقالت: إنه ليدعو إلى طاعة الله عز وجل، وأكثرت القول في ذلك، فقال لها: ويحك! أما رأيت البغلات الشهب التي كان يحج معاوية عليها، وتقدم إلينا من الشام؟ قالت: بلى، قال: والله ما يريد ابن الزبير بعبادته غيرهن الأصل: وقال عليه السلام: ما لابن آدم والفخر! أوله نطفة، وآخره جيفة. لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه.

الشرح: قد تقدم كلامنا في الفخر، وذكرنا الشعر الذي أخذ من هذا الكلام، وهو قول القائل:

ما بال من أوله نطفة

وجيفة آخره يفخر

يصبح ما يملك تقديم ما

يرجو ول اتأخير ما يحذر!

بعض ما قيل في الفخر وقبحه،

وقال بعض الحكماء: الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان، وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين عقله، وانحسر عنه قناع جهله، فأعراض الدنيا عارية مستردة، لا يؤمن في كل ساعة أن ترتجع، والمباهي بما مباه بما في غير ذاته. وقد قال لبعض من فخر بثروته ووفره: إن افتخرت بفرسك فالحسن والفراة له دونك، وإن افتخرت بشبابك وآلاتك فالجمال لهما دونك، وإن افتخرت بآبائك وسلفك فالفضل فيهم لا فيك، ولو تكلمت هذه الأشياء لقلت لك: هذه محاسننا فما محاسنك! وأيضاً فإن الأعراض الدنيوية كما قيل: سحابة صيف عن قليل تقشع، وظل زائل عن قريب يضمحل، كما قال الشاعر:

إنما الدنيا كرؤيا فرحت

من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ".

وإذا كان لا بد من الفخر فليفخر الإنسان بعلمه وبشريف خلقه، وإذا أعجبك من الدنيا شيء فاذكر فناءك وبقائه، أو بقاءك وفناءه، أو فناءكما جميعاً، وإذا راقك ما هو لك فانظر إلى قرب خروجه من يدك، وبعد رجوعه إليك، وطول حسابك عليه وقد ذم الله الفخور فقال: "والذي لا يحب كل مختال فخور".

الأصل: الغني والفقر بعد العرض على الله تعالى.

الشرح: أي لا يعد الغني غنياً في الحقيقة إلا من حصل له ثواب الآخرة الذي لا ينقطع أبداً، ولا يعد الفقير فقيراً إلا من لم يحصل له ذلك، فإنه لا يزال شقياً معذباً، وذلك هو الفقر بالحقيقة.

فأما غني الدنيا وفقرها فأمران عرضيان، زوالهما سريع، وانقضاؤهما وشيك.

وإطلاق هاتين اللفظتين على مسماهما الدنيوي على سبيل المجاز عند أرباب الطريقة، أعني العارفين.

الأصل: وسئل عن أشعر الشعراء، فقال عليه السلام: إن القوم لم يجزوا في حلبة تعرف الغاية عند قضيتها، فإن كان ولا بد فالملك الضليل، قال: يريد امرأ القيس.

مع بن أبي طالب حول أشعر الشعراء

الشرح: قرأت في أمال ابن دريد، أخبرنا الجرموزي، عن ابن المهلي، عن ابن الكلبي، عن شداد بن إبراهيم، عن عبيد الله بن الحسن العنبري، عن ابن عرادة، قال: كان علي بن أبي طالب عليه السلام يعيش الناس في شهر رمضان باللحم ولا يتعشي معهم، فإذا فرغوا خطبهم ووعظهم، فأفاضوا ليلة في الشعراء وهم على عشائهم، فلما فرغوا خطبهم عليه السلام وقال في خطبته: اعلموا أن ملاك أمركم الذين، وعصمتكم التقوى، وزينتكم الأدب، وحصون أعراضكم الحلم، ثم قال: قل يا أبا الأسود فيم كنتم تفيضون فيه؟ أي الشعراء أشعر؟ فقال: يا أمير المؤمنين الذي يقول:

أعوجي ذو ميعة إضريح

ولقد أغتدي يدافع ركني

منفح مطرح سبوح خروج

مخلط مزيل معن مفن

يعني أبا دواد الأيادي، فقال عليه السلام: ليس به، قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ فقال: لو رفعت للقوم غاية فجروا إليها معاً علمنا من السابق منهم، ولكن إن يكن فالذي لم يقل عن رغبة ولا رهبة. قيل: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هو الملك الضليل ذو القروح، قيل: امرؤ القيس يا أمير المؤمنين؟ قال: هو. قيل: فأخبرنا عن ليلة القدر؟ قال: ما أخلو من أن أكون أعلمها فاستر علمها، ولست أشك أن الله إنما يسترها عنكم نظراً لكم، لأنه لو أعلمكموها عملتم فيها وتركتم غيرها، وأرجو أن لا تخطئكم إن شاء الله. انهضوا رحمكم الله.

وقال ابن دريد لما فرغ من الخير: إضريح: ينبثق في عدوه، وقيل واسع الصدر ومنفح: يخرج الصيد من موضعه، ومطرح: يطرح ببصره. وخروج: سابق. والغاية بالغين المعجمة: الراية، قال الشاعر:

نهض الصلّت إليها فحواها

وإذا غاية مجد رفعت

ويروي قول الشماخ:

بالعين، والراء أكثر. فأما البيت الأول فبالعين لا غير، أنشدته الخليل في عروضه، وفي حديث طويل في الصحيح: " فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً ". والميعة: أول جري الفرس، وقيل: الجري بعد الجري.

اختلاف العلماء في تفضيل بعض الشعراء على بعض،

وأنا أذكر في هذا الموضوع ما اختلف فيه العلماء من تفضيل بعض الشعراء على بعض، وأبتدئ في ذلك بما ذكره أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب الأغاني.

قال أبو الفرج: الثلاثة المقدمون على الشعراء: امرؤ القيس، وزهير، والنابعة، لا اختلاف في أنهم مقدمون على الشعراء كلهم، وإنما اختلف في تقديم بعض الثلاثة على بعض .

قال: فأخبرني أبو خليفة، عن محمد بن سلام، عن أبي قبيس، عن عكرمة بن جرير، عن أبيه، قال: شاعر أهل الجاهلية زهير.

قال: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري، قال: حدثني عمر بن شبة، عن هارون بن عمر، عن أيوب بن سويد، عن يحيى بن زياد، عن عمر بن عبد الله الليثي قال: قال عمر بن الخطاب ليلة في مسيره إلى الجابية: أين عبد الله بن عباس؛ فأتى به، فشكا إليه تخلف علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام عنه. قال ابن عباس: فقلت له: أو لم يعتذر إليك؟ قال: بلى، قلت: فهو ما اعتذر به. قال: ثم أنشأ يحدثني فقال: إن أول من راثكم عن هذا الأمر أبو بكر، إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوة. قال أبو الفرج: ثم ذكر قصة طويلة ليست من هذا الباب، فكرهت ذكرها ثم قال: يا بن عباس، هل تروي لشاعر الشعراء؛ قلت: ومن هو؟ قال: ويحك! شاعر الشعراء، الذي يقول:

ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلو أن حمداً يخلد الناس خلدوا

فقلت: ذاك زهير، فقال: ذاك شاعر الشعراء، قلت: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: إنه كان لا يعاظم الكلام، ويتجنب وحشيه، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه.

قال أبو الفرج: وأخبرني أبو خليفة قال: قال ابن سلام: وأخبرني عمر بن موسى الجمحي، عن أخيه قدامة بن موسى - وكان من أهل العلم - أنه كان يقدم زهيراً، قال: فقلت له: أي شعره كان أعجب إليه؛ فقال: الذي يقول فيه:

والسائلون إلى أبوابه طرقا

قد جعل المبتغون الخير في هرم

قال ابن سلام: وأخبرني أبو قيس العنبري - ولم أر بدوياً يفني به - عن عكرمة بن جرير، قال: قلت لأبي: يا أبت، من أشعر الناس؟ قال: أعن أهل الجاهلية تسألني، أم عن أهل الإسلام؟ قال: قلت: ما أردت إلا الإسلام، فإذا كنت قد ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها، فقال: زهير أشعر أهلها، قلت: فالإسلام؟ قال: الفرزدق نبعة الشعر، قلت: فالأخطل، قال: يجيد مدح الملوك، ويصيب وصف الخمر، قلت: فما تركت لنفسك؟ قال: إني نخرت الشعر نحرًا. قال:

وأخبرني الحسن بن علي قال: أخبرنا الحارث بن عمد عن المدائني، عن عيسى بن يزيد، قال: سأل معاوية الأحنف عن أشعر الشعراء؟ فقال: زهير، قال: وكيف ذاك، قال: ألقى على المادحين فضول الكلام، وأخذ خالصه وصفوته، قال: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

توارثه آباء آبائهم قبل

وما يك من خير أتوه فإنما

وتغرس آل أفي منابتها النخل

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه

قال: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز قال: حدثنا عمر بن شبة، قال: حدثنا عبد الله بن عمرو القيسي قال: حدثنا خارجة بن عبد الله بن أبي سفيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: خرجت مع عمر في أول غزاة غزاهما، فقال لي ليلة: يا بن عباس، أنشدني لشاعر الشعراء، قلت: من هو؟ قال: ابن أبي سلمى. قلت: ولم صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتبع حوشي الكلام، ولا يعاظم في منطقته، ولا يقول إلا ما يعرف، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، أليس هو الذي يقول:

إلى المجد من يسبق إليها يسود

إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية

سبوق إلى الغايات غير مزند

سبقت إليها كل طلق مبزر

قال: أي لا يحتاج إلى أن يجلد الفرس بالسوط.

السراع وان يجهد ويجهدن يبعد

كفعل جواد يسبق الخيل عفوه

ولكن حمد الناس ليس بمخلد

فلو كان حمداً يخلد الناس لم تمت

أنشدني له: فأنشدته حتى برق الفجر، فقال: حسبك الآن، اقرأ القرآن. قلت: ما أقرأ؟ قال: الواقعة، فقرأها، ونزل فأذن وصلى.

وقال محمد بن سلام في كتاب "طبقات الشعراء": دخل الحطيئة على سعيد بن العاص متذكراً، فلما قام الناس وبقي الخواص أراد الحاجب أن يقيمه، فأبي أن يقوم، فقال سعيد دعه، وتذاكروا أيام العرب وأشعارها، فلما أسهبوا قال الحطيئة: ما صنعت شيئا، فقال سعيد: فهل عندك علم من ذلك؟ قال: نعم، قال: فمن أشعر العرب؟ قال: الذي يقول:

والسائلون إلى أبوابه طرقا

قد جعل المبتغون الخير في هرم

قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:

إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فإنك شمس والملوك كواكب

يعني زهيرا، ثم النابغة، ثم قال: وحسبك بي إذا وضعت إحدى رجلي على الأخرى، ثم عويت في إثر القوافي كما يعوي الفصيل في أثر أمه! قال: فمن أنت؟ قال: أنا الحطيئة، فرحب به سعيد، وأمر له بألف دينار.

قال: وقال من احتج لزهير: كان أحسنهم شعرا، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى قي قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة في المدح، وأبعدهم تكلفا وعجرفية وأكثرهم حكمة ومثلاً سائراً في شعره: وقد روي ابن عباس عن النبي

صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "أفضل شعرائكم القائل ومن ومن"، يعني زهيراً، وذلك في قصيدته التي أولها: "أمن أم أوفي" يقول فيها:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
ولو نال أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفرة ومن لا يتق الشتم يشتم

فأما القول في النابغة الذبياني فإن أبا الفرج الأصفهاني قال في كتاب الأغاني: كنيته النابغة أبو أمامه، واسمه زياد بن معاوية، ولقب بالنابغة لقوله:

فقد نبغت لهم منا شئون

وهو أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم، وهو من الطبقة الأول المقدمين على سائر الشعراء. أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهرى وحبیب بن نصر قال: حدثنا عمر بن شبة، قال: حدثني أبو نعيم، قال: حدثنا شريك عن مجالد، عن الشعبي، عن ربعي بن خراش، قال: قال لنا عمر يا معشر غطفان، من الذي يقول:

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي
على خوف تظن بي الظنون

قلنا: النابغة، قال: ذاك أشعر شعرائكم.

قلت: قوله: "أشعر شعرائكم"، لا يدل على أنه أشعر العرب، لأنه جعله أشعر شعراء غطفان، فليس كقوله في زهير شاعر الشعراء، ولكن أبا الفرج قد روي بعد هذا خبراً آخر صريحاً في أن النابغة عند عمر أشعر العرب. قال: حدثني أحمد وحبیب، عن عمر بن شبة، قال: حدثنا عبيد بن جناد، قال: حدثنا معن بن عبد الرحمن، عن عيسى بن عبد الرحمن السلمي، عن جده، عن الشعبي قال: قال عمر يوماً: من أشعر الشعراء؟ فقليل له: أنت أعلم يا أمير المؤمنين؛ قال: من الذي يقول:

إلا سليمان إذا قال المليك له
قم في البرية فاحدها عن الفند

وخيس الجن إني قد أذنت لهم
بينون تدمر بالصفاح والعمد

قالوا: النابغة؛ قال: فمن الذي يقول:

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي على
خوف تظن بي الظنون

قالوا: النابغة؛ قال: فمن الذي يقول:

حلقت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمر مذهب

لئن كنت قد بلغت عني خيانة
لمبلغك الواشي أغش وأكذب

قالوا: النابغة، قال: فهو أشعر العرب .

قال: وأخبرني أحمد، قال: حدثنا عمر، قال: حدثني علي بن محمد المدائني قال: قام رجل إلى ابن عباس، فقال له: أي الناس أشعر؟ قال: أخبره يا أبا الأسود، فقال أبو الأسود: الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأي عنك واسع

يعني النابغة .

قال أبو الفرج: وأخبرني أحمد وحبيب، عن عمر عن أبي بكر العليمي، عن الأصمعي، قال: كان يضرب للنابغة قبة آدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فأنشده مرة الأعشى، ثم حسان بن ثابت، ثم قوم من الشعراء، ثم جاءت الخنساء فأنشدته:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقال: لولا أن أبا بصير - يعني الأعشى - أنشدني آنفاً لقلت: إنك أشعر الإنس والجن. فقام حسان بن ثابت فقال: أنا والله أشعر منها ومنك ومن أبيك، فقال له النابغة: يا بن أخي، أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأي عنك واسع

خطاطيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع

قال: فحنس حسان لقوله .

قال: وأخبرني أحمد وحبيب، عن عمر، عن الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء قال: حدثني رجل سماه أبو عمر أنسيته، قال: بينما نحن نسير بين أنقاء من الأرض، فتذاكرنا الشعر، فإذا راكب اطيلس يقول: أشعر الناس زياد بن معاوية، ثم تملس فلم نره .

قال: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز، عن عمر بن شبة، عن الأصمعي، قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: ما ينبغي لزهير إلا أن يكون أجيراً للنابغة.

قال أبو الفرج: وأخبرنا أحمد عن عمر، قال: قال عمرو بن المنتشر المرادي: وفدنا على عبد الملك بن مروان، فدخلنا عليه، فقام رجل فاعتذر من أمر وحلف عليه، فقال له عبد الملك: ما كنت حرياً أن تفعل ولا تعتذر، ثم أقبل على أهل الشام فقال: أيكم يروي اعتذار النابغة إلى النعمان في قوله:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه، فاقبل علي وقال: أترويه؟ قلت: نعم، فأنشدته القصيدة كلها، فقال: هذا أشعر العرب .

قال: وأخبرني أحمد وحبيب عن عمر، عن معاوية بن بكر الباهلي، قال: قلت لحمام الراوية: لم قدمت النابغة؟ قال: لاكتفائك بالبيت الواحد من شعره، لا بل بنصف البيت، لا بل بربع البيت، مثل قوله:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

ولست بمستبق أخاً لا تلمه

على شعث، أي الرجال المهذب

ربع البيت يغنيك عن غيره، فل وتمثلت به لم تحتج إلى غيره.

قال: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز، عن عمر بن شبة، عن هارون بن عبد الله الزبير، قال: حدثني شيخ يكنى بأبي داود، عن الشعبي، قال: دخلت على عبد الملك وعنده الأخطل وأنا لا أعرفه، وذلك أول يوم وفدت فيه من العراق على عبد الملك، فقلت حين دخلت: عامر بن شراحيل الشعبي يا أمير المؤمنين، فقال: على علم ما أذنا لك، فقلت: هذه واحدة على وافد أهل العراق - يعني أنه أخطأ - قال: ثم إن عبد الملك سأل الأخطل: من أشعر الناس؟ فقال: أنا، فعجلت وقلت لعبد الملك: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فتبسم، وقال: الأخطل، فقلت في نفسي: اثنتان على وافد أهل العراق، فقلت له: أشعر منك الذي يقول:

هذا غلام حسن وجهه

مستقل الخير سريع التمام

للحارث الأكبر والحارث أل

صغر فالأعرج خير الأنام

ثم لعمر وولعمر ووقد

أسرع في الخيرات منه أمام

قال: هي إمامة أم عمرو الأصغر بن المنذر بن أمراء القيس بن النعمان بن الشقيقة:

خمسة أباء هم ما هم

أفضل من يشرب صوب الغمام

والشعر للنابغة، فالتفت إلي الأخطل فقال: إن أمير المؤمنين إنما سألني عن أشعر أهل زمانه، ولو سألني عن أشعر أهل الجاهلية كنت حرياً أن أقول كما قلت أو شبيها به، فقلت في نفسي: ثلاث على وافد أهل العراق.

قال أبو الفرج: وقد وجدت هذا الخبر أتم من هذه الرواية، ذكره أحمد بن الحارث الخراز في كتابه، عن المدائني، عن عبد الملك بن مسلم، قال: كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: إنه ليس شيء من لذة الدنيا إلا وقد أصبت منه، ولم يبق عندي شيء ألد من مناقلة الإخوان الحديث، وقبلك عامر الشعبي فابعث به إلي، فدعا الحجاج الشعبي، فجهزه وبعث به إليه، وقرظه واطراه في كتابه، فخرج الشعبي حتى إذا كان بباب عبد الملك قال للحاجب: استأذن لي، قال: من أنت؟ قال: أنا عامر الشعبي قال: يرحمك الله، قال: ثم نهض فأجلسني على كرسيه، فلم يلبث أن خرج إلي فقال: ادخل يرحمك الله، فدخلت، فإذا عبد الملك جالس على كرسي، وبين يديه رجل أبيض الرأس واللحية، جالس على كرسي، فسلمت، فرد علي السلام، فأومأ إلي بقضيبه، فجلست عن يساره، ثم أقبل على ذلك الإنسان الذي بين يديه فقال له: من أشعر الناس؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين، قال الشعبي: فأظلم ما بيني وبين عبد الملك، فلم أصبر أن قلت: ومن هذا الذي يزعم أنه أشعر الناس يا أمير المؤمنين؟ فعجب عبد الملك من عجلتي قبل أن يسألني عن حالي، فقال: هذا الأخطل؛ فقلت: يا أخطل: أشعر والله منك الذي يقول:

هذا غلام حسن وجهه

مستقبل الخير سريع التمام

الآيات...

قال: فأستحسنها عبد الملك، ثم رددتها عليه حتى حفظها، فقال الأخطل: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الشعي؛ فقال: والجيلون ما استعذت الله من شر إلا من هذا- أي والإنجيل- صدق والله يا أمير المؤمنين، النابغة أشعر مني، قال الشعي: فأقبل عبد الملك حينئذ علي فقال: كيف أنت يا شعي؟ قلت: بخير يا أمير المؤمنين، فلا زلت به ثم ذهبت لأصنع معاذير لما كان من خلافي مع ابن الأشعث على الحجاج، فقال: مه إنا لا نحتاج إلى هذا المنطق، ولا تراه منا في قول ولا فعل حتى تفارقنا، ثم أقبل علي فقال: ما تقول في النابغة؟ قلت: يا أمير المؤمنين، قد فضله عمر بن الخطاب في غير موطن على جميع الشعراء، ثم أنشدته الشعر الذي كان عمر يعجب به من شعره، وقد تقدم ذكره . قال: فأقبل عبد الملك على الأخطل فقال له: أتحب أن لك قياضاً بشعرك شعر أحد من العرب، أم تحب أنك قلتها؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين إلا أني وددت أني كنت قلت أبياتاً قالها رجل منا، ثم أنشدته قول القطامي:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل	وإن بليت وإن طالت بك الطيل
ليس الجديد به تبقى بشاشته	إلا قليلاً ولا ذو خلة يصل
والعشق لا عيش إلا ما تقربه	عين ولا حال إلا سوف تنتقل
إن ترجعي من أبي عثمان منجحة	فقد يهون على المستجح العمل
والناس من يلق خيراً قائلون له	ما يشتهي ولا م المخطئ الهبل
قد يدرك المتأني بعض حاجته	وقد يكون مع المستعجل الزلل

قال الشعي: فقلت: قد قال القطامي أفضل من هذا، قال: وما قال؛ قلت: قال:

طرقت جنوب رحالنا من مطرق	ماكنت أحسبها قريب المعنق

إلى آخرها ، فقال عبد الملك: ثكلت القطامي أمه! هذا والله الشعر، قال: فالتفت إلي الأخطل فقال: يا شعي، إن لك فنوناً في الأحاديث، وإنما لي فن واحد فإن رأيت ألا تحملي علي أكتاف قومك فأدعهم حرصاً! فقلت: لا أعرض لك في شيء من الشعر أبداً، فأقلي هذه المرة، فقال: من يتكفل بك؟ قلت: أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: هو علي أنه لا يعرض لك أبداً، ثم قال عبد الملك: يا شعي، أي نساء الجاهلية أشعر؟ قلت: الخنساء، قال: ولم فضلتها على غيرها؛ قلت: لقولها:

وقائلة والنعش قد فات خطوها	لتدركه: يا لهف نفسي على صخر !
ألا هبل أم الذين غدوا به	إلى القبر، ماذا يحملون إلى القبر!
فقال عبد الملك: أشعر منها والله التي تقول :	
فهفه أهضم الكشحين منخرق	عنه القميص بسير الليل محتقر
ل أيامن الدهر ممساه ومصبحه	من كل أوب وإن لم يغز ينتظر

قال: ثم تبسم عبد الملك وقال: لا يشق عليك يا شعبي، فإنما أعلمتك هذا لأنه بلغني أن أهل العراق يتناولون على أهل الشام، ويقولون: إن كان غلبونا على الدولة فلم يغلبونا على العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق من أهل العراق، ثم ردد علي أبيات ليلي حتى حفظتها، ثم لم أزل عنده أول داخل وآخر خارج، فكنت كذلك سنين، وجعلني في ألفين من العطاء، وجعل عشرين رجلاً من ولدي وأهل بيتي في ألف ألف، ثم بعثني إلى أخيه عبد العزيز بمصر، وكتب إليه: يا أخي، قد بعثت إليك بالشعبي، فانظر هل رأيت قط مثله ! قال أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة أوس بن حجر: إن أبا عبيدة قال: كان أوس شاعر مضر حتى أسقطه النابغة، قال: وقد ذكر الأصمعي أنه سمع أبا عمرو بن العلاء يقول: كان أوس بن حجر فحل العرب، فلما نشأ النابغة طأطأ منه .

وقال محمد بن سلام في كتاب طبقات الشعراء: وقال من أحتج للنابغة: كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً - كأن شعره كلام ليس بتكلف، والمنطق على المتكلم أوسع منه على الشاعر، لأن، الشعر يحتاج إلى البناء والعروض والقوافي، والمتكلم مطلق، يتخير الكلام كيف شاء، قالوا: والنابغة نبغ بالشعر بعد أن آحتك، وهلك قبل أن يهتر .

قلت: وكان أبو جعفر يحمي بن محمد بن أبي زيد العلوي البصري يفضل النابغة، واستقراني يوماً ويدي ديوان النابغة قصيدته التي يمدح بها النعمان بن المنذر، ويذكر مرضه، ويعتذر إليه مما كان أتهم به، وقذفه به أعداؤه، وأولها:

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً
وهمين :هماً مستكناً وظاهراً
أحاديث نفس تشتكي مايريبيها
ورود هموم لو يجدن مصادرا
تكلفني أن يغفل الدهر همها
وهل وجدت قبلي على الدهر ناصرا !

يقول: هذه النفس تكلفني ألا يحدث لها الدهر همّاً ولا حزناً، وذلك مما لم يستطعه أحد قبلي .

ألم تر خير الناس أصبح نعشه
على فتية قد جاوز الحي سائرا !
كان الملك منهم إذا مرض حمل على نعش وطيف به على أكتاف الرجال بين الحيرة والخورنق والنحف، يزهونه .

ونحن لديه نسأل الله خلد
يرد لنا ملكاً وللأرض عامرا
ونحن نرجى الخير إن فاز قدحنا
ونهرب قدح الدهر إن جاء قامرا
لك الخير إن وارت بك الأرض واحداً
وأصبح جد الناس بعدك عاثرا
وردت مطايا الراغبين وعريت
جياذك لا يخفي لها الدهر حافرا
رأيتك ترعاني بعين بصيرة
وتبعث حراساً علي وناظرا
وذلك من قول أتك أقوله
ومن دس أعداء إليك المآبرا
فأليت لا آتيك إن كنت مجرمًا
ولا ابتغي جاراً لسواك مجاورا

أي لا آتيك حتى يثبت عندك أي غير مجرم.

تقبل معروف في وسد المفافرا

فأهلي فداء لامرئ إن أتيتته

وإن كنت ارامي مسحلان وحامرا

ربط كلبتي أن يربيك نبحه

أي سأمسك لساني عن هجائك وإن كنت بالشام في هذين الوادين البعيدين عنك.

تخال به راعي الحمولة طائرا

وحلت بيوتي في يفاع ممنع

ويضحي ذراه بالسحاب كوافرا

تزل الوعود العصم عن قذفاته

ولا نسوتي حتى أمتن حرائرا

حذاراً على ألا تنال مقادتي

يقول: أنا لا أهجرك وإن كنت من المنعة والعصمة على هذه الصفة.

إذا ما لقيمت من معد فسافرا

أقول وقد شطت بي الدار عنكم

فأهدي له الله الغيوث ألبوا كرا

ألا أبلغ النعمان حيث لقيته

على كل من عادي من الناس ظاهرا

وأصحبه فلجا ولا زال كعبه

وكان على كل المعادين ناصرا

ورب عليه الله أحسن صنعه

فجعل أبو جعفر رحمه الله يهتز و يطرب، ثم قال: والله لو مزجت هذه القصيدة بشعر البحري لكادت تتمزج لسهولةها وسلامة ألفاظها، وما عليها من الديباجة والرونق. من يقول: إن امرأ القيس وزهيراً أشعر من هذا! هلموا فليحاكموني. فأما امرؤ القيس بن حجر، فقال محمد بن سلام الجمحي في كتاب "طبقات الشعراء" أخبرني يونس بن حبيب أن علماء البصرة كانوا يقدمونه على الشعراء كلهم، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وأن أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابعة.

قال ابن سلام: فالطبقة الأولى إذن أربعة: قال: وأخبرني شعيب بن صخر، عن هارون بن إبراهيم، قال: سمعت قائلاً يقول للفرزدق: من أشعر الناس يا أبا فراس؟ فقال: ذو القروح، يعني أمرو القيس، قال: حين يقول ماذا؟ قال حين يقول:

و بالأشقين ما كان العقاب

وقاهم جدهم ببني أبيهم

قال: وأخبرني أبان بن عثمان البجلي، قال: مر لبيد بالكوفة في بني نهد، فاتبعوه رسولاً يسأله: من أشعر الناس؟ فقال: الملك الضليل. فأعادوه إليه، فقال: ثم من؟ فقال: الغلام القتيل - يعني طرفة بن العبد - وقال غير أبان: قال: ثم ابن العشرين، قال: ثم من؟ قال: الشيخ أبو عقيل يعني نفسه.

قال ابن سلام: واحتج لامرئ القيس من يقدمه فقال: إنه ليس قال ما لم يقولوه، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعتها استحسنتها العرب، فاتبعه فيها الشعراء، منها استيقاف صحبه، والبكاء في الديار، ورقة النسب، وقرب المأخذ، وتشبيه النساء بالظباء وبالبيض، وتشبيه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد، وأجاد في النسيب، وفصل بين النسيب وبين

المعني، وكان أحسن الطبقة تشبيهاً.

قال: وحدثني معلم لبني داود بن علي، قال: بينا أنا أسير في البادية إذا أنا برجل على ظليم قد زمه وخطمه وهو يقول:

هقل كأن رأسه جماح

هل يبلغنهم إلى الصباح

قال: فما زال يذهب به ظليمه ويجيء حتى أنست به وعلمت أنه ليس بإنسي فقلت: يا هذا، من أشعر العرب؟ قال: الذي يقول:

وأنتك مهما تأمري القلب يفعل

أغرك مني أن حبك قاتلي

يعني امرأ القيس، قلت: ثم من؟ قال: الذي يقول:

س بالصيف رقرقت فيه العبير

ويبرد برد رداء العرو

نباحاً بها الكلب الإهريرا

ويسخن ليلة لا يستطيع

ثم ذهب به ظليمه فلم أره.

قال: وحدث عوانة، عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لحسان بن ثابت: من أشعر العرب؟ قال: الزرق العيون من بني قيس، قال: لست أسألك عن القبيلة، إنما أسألك عن رجل واحد، فقال حسان: يا رسول الله، إن مثل الشعراء والشعر كمثل ناقة نحر، فجاء امرؤ القيس بن حجر فأخذ سنابها وأطايها، ثم جاء المتجاوران من الأوس والخزرج فأخذوا ما والى ذلك منها، ثم جعلت العرب تمزعها حتى إذ بقي الفرث والدم جاء عمرو بن تميم والنمر بن قاسط فأخذاه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها حامل يوم القيامة، معه لواء الشعراء إلى النار".

فأما الأعشى فقد احتج أصحابه لتفضيله بأنه كان أكثرهم عروضاً، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم قصيدة طويلة جيدة، وأكثرهم مدحاً وهجاءً، وكان أول من سأل بشعره، وإن لم يكن له بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه الثلاثة. وقد سئل خلف الأحمر من أشعر الناس؟ فقال: ما ينتهي إلى واحد يجمع عليه كما لا ينتهي إلى واحد هو أشجع الناس، ولا أخطب الناس، ولا أجمل الناس، فقليل له: يا أبا محرز فأيهم أعجب إليك؟ فقال: الأعشى كان أجمعهم. قال ابن سلام: وكان أبو الخطاب الأخفش مستهتراً به يقدمه، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره. ويقول: نظيره في الإسلام جرير، ونظير النابغة الأخطل، ونظير زهير الفرزدق.

فأما قول أمير المؤمنين عليه السلام "الملك الضليل" فإنما سمي امرؤ القيس ضليلاً لما يعلن به قي شعره من الفسق والضليل: الكثير الضلال. كالشريب، والخمير، والسكير، والفسيق، للكثير الشرب وإدمان الخمر والسكر والفسق، فمن ذلك قوله:

فالهيتها عن ذي تمانم محول

فمثلك حبلي قد طرقت ومرضعاً

بشق وتحتي شقها لم يحول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له

وقوله:

سموت إليها بعدما نام أهلها
فقال لـحاك الله إنك فاضحي
فقلت لها تالله أبرح قاعداً
فلما تنازعنا الحديث واسمحت
فصرنا إلى الحسني ورق كلامنا
حلفت، لها بالله حلفة فاجر
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلمها

وقوله اللامية الأولى :

سموحباب الماء حالاً على حال
ألست تري السمار والناس أحوالي
ولو قطعوا رأسي لديك واوصالي
هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
ورضت فذلت صعبة أي إذلال
لناموا فما إن من حديث ولا صالي
عليه القتام كاسف الوجه والبال!

وببيضة خدر لا يرام خباؤها
تخطيت أبواباً إليها ومعشراً
فجئت وقد نصت لنوم ثيابها
فقال يمين الله ما لك حيلة
فقمت بها أمشي نجر وراعنا
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي
هصرت بفودي رأسها فتمايلت

وقوله :

م والقلب من خشية مقشعر
فثوباً نسييت وثوب اجر
ولم يبد منا لدي البيت سر
ه يحك ألحقت شراً بشر!
كما رعت مكحول المدامع اتلعا
سواك ولكن لم نجد له مدفعا
قتيلان لم يعلم لنا الناس مصرعا
وتدني علي السابري المضلعا

فبت أكابد ليل التما
فلما دنوت تسديتها
ولم يرنا كالي كاشح
وقد رابني قولها: يا هنا
تقول وقد جردتها من ثيابها
لعمرك لوأشى أتنا رسله
فبتنا نصد الوحش عنا كأننا
تجافي عن المأثور بيني وبينها

وفي شعر امرئ القيس من هذا الفن كثير، فمن أراد فليطلبه من مجموع شعره.

الأصل: وقال عليه السلام: ألا حر يدع هذه اللماظة لأهلها! إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها.

الشرح: اللماظة بفتح اللام: ما تبقي في الفم من الطعام، قال يصف الدنيا:

لماظة أيام

كأحلام نائم

ولمظ الرجل يلمظ بالضم لمظاً، إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه وأخرج لسانه فمسح به شفتيه، وكذلك التلمظ، يقال: تلمظت الحية إذا أخرجت لسانها كما يتلمظ الآكل.

وقال: "ألا حر!، مبتدأ وخبره محذوف أي في الوجود. وإلا حرف، قال:

ألا جل جزاه الله خيراً

يدل على محصلة تثبيت

ثم قال: إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها، من الناس من يبيع نفسه بالدرهم والدنانير، ومن الناس من يبيع نفسه بأحقر الأشياء وأهونها، ويتبع هواه فيهلك، وهؤلاء في الحقيقة أحق الناس، إلا أنه قد رين على القلوب، فغطتها الذنوب، أظلمت الأنفس بالجهل وسوء العادة، وطال الأمد أيضاً على القلوب فقست، ولو فكر الإنسان حق الفكر لما باع نفسه إلا بالجنة لا غير.

الأصل: وقال عليه السلام: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا.

الشرح: تقول: نهم فلان بكذا فهو منهوم، أي مولع به، وهذه الكلمة مروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

"منهومان لا يشبعان: منهوم بالمال، ومنهوم بالعلم". والنهم بالفتح: إفراط الشهوة في الطعام، تقول منه: نهمت إلى

الطعام بكسر الهاء أنهم فأنا نهم، وكان في القرآن آية أنزلت ثم رفعت: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغي لهما ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب".

فأما طالب العلم العاشق له، فإنه لا يشبع منه أبداً، وكلما استكثر منه زاد عشقه له، وتهالكه عليه. مات أبو عثمان الجاحظ والكتاب على صدره وكان شيخنا أبو علي رحمه الله في الترع وهو يملي على ابنه أبي هاشم مسائل في علم الكلام. وكان القاضي أحمد بن أبي

دواد يأخذ الكتاب في خفه وهو راكب، فإذا جلس في دار الخليفة اشتغل بالنظر فيه إلى أن يجلس الخليفة، ويدخل إليه. وقيل: ما فارق ابن أبي دواد الكتاب قط إلا في الخلاء. وأعرف أنا في زماننا من مكث نحو خمس سنين لا ينام إلا وقت السحر صيفاً وشتاءً مكباً على كتاب صنفه، وكانت وسادته التي ينائم عليها الكتاب.

الأصل: وقال عليه السلام: علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل عن علمك، وأن تتقي الله في حديث غيرك.

الشرح: قد أخذ المعني الأول القائل:

عليك بالصدق ولو أنه

احرقك الصدق بنار الوعيد

وينبغي أن يكون هذا الحكم مقيداً لا مطلقاً، لأنه إذا أضر الصدق ضرراً عظيماً يؤدي إلى تلف النفس أو إلى قطع بعض الأعضاء لم يجوز فعله صريحاً، ووجبت المعارض حينئذ.

فإن قلت: فالمعارض صدق أيضاً، فالكلام على إطلاقه! قلت: هي صدق في ذاتها، ولكن فستعملها لم يصدق فيما سئل عنه، ولا كذب أيضاً، لأنه لم يخبر عنه، وإنما أخبر عن شيء آخر وهي المعارض، والتارك للخبر لا يكون صادقاً ولا كاذباً، فوجب أن يقيد إطلاق الخبر بما إذا كان الضرر غير عظيم، وكانت نتيجة الصدق أعظم نفعاً من تلك المضرة. قال صلى الله عليه وآله وسلم: "وأن يكون في حديثك فضل عن علمك"، متى زاد منطق الرجل على علمه فقد لغا وظهر نقصه، والفاضل من كان علمه أكثر من منطق. قوله: "وأن تتقي الله في حديث غيرك"، أي في نقله وروايته فترويه كما سمعته من غير تحريف.

الأصل: وقال عليه السلام: يغلب المقدار على التقدير، حتى تكون الآفة في التدبير.

قال: وقد مضى هذا المعنى فيما تقدم برواية تخالف بعض هذه الألفاظ.

الشرح: قد تقدم هذا المعنى، وهو كثير جداً، ومن جيده قول الشاعر:

ولكنه من يخذل الله يخذل

وقلقل يبغي العز كل مقلقل

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه

لجاهد حتى تبلغ النفس عذرها

وقال أبو تمام:

على مثلها والليل تسطو غياهبه

وليس عليهم أن تتم عواقبه

وركب كأطراف الأسنة عرسوا

لأمر عليهم أن تتم صدوره

وقال آخر:

اولئك عقالاته لا معاقله

فإن بين حيطاناً عليه فإنما

الأصل: وقال عليه السلام: الحلم والأناة توءمان، ينتجهما علو الهمة.

الشرح: قد تقدم هذا المعنى وشرحه مراراً، وقال ابن هانئ:

ولا كأناة من تدبر محكم

من الصفح يصفح عن كثير ويحلم

وكل أناة في المواطن سؤدد

ومن يتبين أن للسيف موضعاً

وقال أرباب المعاني: علمنا الله تعالى فضيلة الأناة بما حكاه عن سليمان: "سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين". وكان

يقال: الأناة حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة، وكان يقال: التأني مع الخيبة، خير من التهور مع النجاح، وقال الشاعر:

فتأن في أمر تلاق نجاحا

الرفق يمن والأناة لسعادة

وقال من كره الأناة وذمها: لو كانت الأناة محمودة والعجلة مذمومة، لما قال موسى لربه: "وعجلت إليك رب لترضي". وأنشدوا:

غيب الأناة وإن لسرت عواقبها

أن لا خلود وأن ليس الفتى حجراً

وقال آخر:

كم من مضيع فرصة قد امكنت

لغد وليس له غد بمواتي

حتى إذا فاتت وفات طلابها

ذهبت عليها نفسه حسرات

الأصل: وقال عليه السلام: الغيبة جهد العاجز.

الشرح: قد تقدم كلامنا في الغيبة مستقمي.

وقيل للأحنف: من أشرف الناس؟ قال: من إذا حضر هابوه، وإذا غاب اغتابوه.

وقال الشاعر:

ويغتابني من لو كفاني اغتيابه

لكنك له العين البصيرة والاذنا

وعندي من الأشياء ما لوذكرتها

إذا قرع المغتاب من ندم سنا

وقد نظمت أنا كلمة الأحنف فقلت:

أكل عرضي إن غبت ذماً فإن أب

ت فمدح ورهبة وسجود

هكذا يفعل الجبان: شجاع

حين يخلو، وفي الوغى رعديد

لك مني حالان: في عينك الجنة حسناً

وفي الفؤاد وقود

الأصل: وقال عليه السلام: رب مفتون بحسن القول فيه.

الشرح: طالما فتن الناس بثناء الناس عليهم، فيقصر العالم في اكتساب العلم اتكالا على ثناء الناس عليه، ويقصر العابد في

العبادة اتكالا على ثناء الناس عليه، ويقول كل واحد منهما: إنما أردت ما اشتهرت به للصيت، وقد حصل، فلماذا

أتكلف الزيادة، أعاني التعب! وأيضاً فإن ثناء الناس على الإنسان يقتضي اعتراء العجب له، وإعجاب المرء بنفسه مهلك.

واعلم أن الرضي رحمه الله قطع كتاب نهج البلاغة على هذا الفصل، وهكذا وجدت النسخة بخطه وقال: "هذا حين

انتهاء الغاية بنا إلى قطع المنتزع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حامدين لله سبحانه على ما من به من توفيقنا لضم

ما انتشر من أطرافه وتقريب ما بعد من أقطاره، مقررين العزم كما شرطنا أولاً على تفضيل أوراق من البياض في آخر

كل باب من الأبواب، لتكون لاقتناص الشارد، واستلحاق الوارد، وما عساه أن يظهر لنا بعد الغموض، ويقع إلينا بعد

الشذوذ، وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولي ونعم النصير".

ثم وجدنا نسخاً كثيرة فيها زيادات بعد هذا الكلام، قيل: إنها وجدت في نسخة كتبت في حياة الرضي رحمه الله وقرئت

عليه فأمضاها، وأذن في إلحاقها بالكتاب ونحن نذكرها.

الأصل: وقال عليه السلام: الدنيا خلقت لغيرها، ولم تخلق لنفسها.

الشرح: قال أبو العلاء المعري - مع ما كان يرمي به - في هذا المعنى ما يطابق إرادة أمير المؤمنين عليه السلام بلفظه هذا:

الأصل: وقال عليه السلام؛ إن لبني أمية مرودا يجرون فيه، ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم لو كادتهم الضباع لغلبتهم. قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذا من أفصح الكلام وأغربه، والمروء هاهنا مفعول من الإرواء، وهو الإمهال والأنظار، فكأنه عليه السلام شبه المهلة التي هم فيها بالمضمار الذي يجرون فيه إلى الغاية، فإذا بلغوا فنقطعها انتقض نظامهم بعدها. الشرح: هذا إخبار عن غيب صريح، لأن بني أمية لم يزل فلكتهم منتظما لما لم يكن بينهم اختلاف، وإنما كانت حروبهم مع غيرهم كحرب معاوية في صفين، وحرب يزيد أهل المدينة، وابن الزبير بمكة، وحرب مروان الضحاك، وحرب عبد الملك ابن الأشعث وأبن الزبير، وحرب يزيد ابنه بني المهلب، وحرب هشام زيد بن علي، فلما ولي الوليد بن يزيد وخرج عليه أبن عمه يزيد بن الوليد وقتله، اختلفت بنو أمية فيما بينهما، وجاء الوعد - وصدق من وعد به - فإنه منذ قتل الوليد دعمت دعاة بني العباس بخرا سان، وأقبل مروان بن محمد من الجزيرة يطلب الخلافة، فخلع إبراهيم بن الوليد، وقتل قوماً من بني أمية، وأضطرب أمر الملك وانتشر، وأقبلت الدولة الهاشمية ونمت، وزال فلك بني أمية، وكان زوال ملكهم على يد أبي مسلم، وكان في بدايته اضعف خلق الله وأعظمهم فقراً ومسكنة، وفي ذلك، تصديق قوله عليه السلام: "ثم لو كادتهم الضباع لغلبتهم".

الأصل: وقال عليه السلام في مدح الأنصار: هم والله ربوا الإسلام كما يربي ألفلو مع غنائهم باع يديهم السباط، وألستهم السلاط.

الشرح: ألفلو: المهرو. ويروي: "بأيديهم السباط"، أي الباسطة، والأولى جمع سبط يعني السماح، وقد يقال للحاذق بالطعن: إنه لسبط اليمين، يريد الثقافة، وألستهم السلاط، يعني الفصيحة.

وقد تقدم القول في مدح الأنصار، ولو لم يكن إلا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم: "إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع"، ولو لم يكن إلا ما قاله لعامر بن الطفيل فيهم لما قال له: "لأغزونك في كذا وكذا من الخيل" يتوعده، فقال عليه السلام: "يكفي الله ذلك وأبناء قيلة"، لكان فخراً لهم وهذا عظيم جداً وفوق العظيم، ولا ريب أنهم الذين أيد الله بهم الدين، وأظهر بهم الإسلام بعد خفائه، ولولاهم لعجز المهاجرون عن حرب قريش والعرب، وعن حماية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولولا مدينتهم لم يكن للإسلام ظهر يلجئون عليه، ويكفيهم فخراً يوم حمراء الأسد، يوم خرج بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قريش بعد انكسار أصحابه، وقتل من قتل منهم، وخرجوا نحو القوم والجراح فيهم فاشية، ودماؤهم تسيل، وإهم مع ذلك كالأسد الغراث تتواثب على فرائسها، وكم لهم من يوم أغر محجل! وقالت الأنصار: لولا علي بن أبي طالب عليه السلام في المهاجرين لأبينا لأنفسنا أن يذكر المهاجرون معنا، أو أن يقرنوا بنا، ولكن رب واحد كألف، بل كالف.

وقد تقدم ذكر الشعر المنسوب إلى الوزير المغربي وما طعن به القادر بالله الخليفة العباسي في دينه بطريقه، وكان الوزير

المغربي يتبرأ منه ويحجده، وقيل: إنه وجدت مسودة بخطه فرفعت إلى القادر بالله. وما وجد بخطه أيضاً- وكان شديد العصبية للأنصار ولقحطان قاطبة، على عدنان، وكان ينتمي إلى الأزدي، أزد شناعة- قوله:

إن الذي أرامى دعائم أحمد
وعلأ بدعوته على كيوان
أبناء قبيلة وارثو شرف العلا
وعراعر الأقبال من قحطان
بسيوفهم يوم الوغي وأكفهم
ضربت مصاعب ملكه بجران
لولا مصارعهم وصدق قراعهم
خرت عروش الدين للأذقان
فليشكرن محمد أسياف من
لولاة كان كخالد بن سنان

وهذا إفراط قبيح، ولفظ شنيع، والواجب أن يسان قدر النبوة عنه، وخصوصاً البيت الأخير، فإنه قد أساء فيه الأدب، وقال ما لا يجوز قوله، وخالد بن سنان كان من بني عبس بن بغيض، من قيس عيلان، ادعي النبوة، وقيل: إنه كانت تظهر عليه آيات ومعجزات، ثم مات وانقرض دينه ودثرت دعوته، ولم يبق إلا اسمه، وليس يعرفه كل الناس، بل البعض منهم.

الأصل: وقال عليه السلام: العين وكاء الستة .

قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذه من الاستعارات العجيبة، كأنه شبه الستة بالوكاء، والعين بالوكاء، فإذا أطلق الوكاء لم ينضبط الوعاء. وهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبي صلى الله عليه وآله ، وقد رواه قوم لأمير المؤمنين عليه السلام، وذكر ذلك المبرد في الكتاب المقتضب في باب اللفظ المعروف .

قال الرضي: وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بمجازاة الآثار النبوية.

الشرح: المعروف أن هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ذكره المحدثون في كتبهم وأصحاب غريب الحديث في تصانيفهم، وأهل الأدب في تفسير هذه اللفظة في مجموعاتهم اللغوية، ولعل المبرد اشتبه عليه فنسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، والرواية بلفظ التثنية: " العينان وكاء الستة "، والستة: الإست.

وقد جاء في تمام الخبر في بعض الروايات: "فإذا نامت العينان استطلق الوكاء" و الوكاء: رباط القربة، فجعل العينين وكاء- والمراد اليقظة- الستة كالوكاء للقربة، ومنه الحديث في اللقطة: "احفظ عفاصها ووكاءها، وعرفها سنة، فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها"، والعفاص: السداد، و الوكاء: السداد، وهذه من الكنايات اللطيفة.

بعض ما ورد في الكنايات وبعض الشواهد عليها،

وقد كنا قدمنا قطعة صالحة من الكنايات المستحسنة، ووعدنا أن نعاود ذكر طرف منها، وهذا الموضع موضعه، فمن الكناية عن الحدث الخارج- وهو الذي كني عنه أمير المؤمنين عليه السلام ، أو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -

الكناية التي ذكرها يحيى أن زياد في شعره، قيل: إن يحيى بن زياد ومطيع بن أبيأس، وحامداً الراوية جلسوا على شرب لهم، ومعهم رجل منهم، فاخل وكاؤه، فاستحيا وخرج، ولم يعد إليهم، فكتب إليه يحيى بن زياد.

أمن قلوب غدت لم يؤذها احد
إلا تذكرها بالرمل أوطانا

خان العقال لها فانبت إذ نفرت
منحتنا منك هجراناً ومقليةً
خفض عليك فما في الناس ذو إيل
إلا وأينقه يشردن أحيانا

وليس هذا الكتاب أهلاً أن يضمن حكاية سخيصة أو نادرة خليعة، فنذكر فيه ما جاء في هذا المعنى، وإنما جراناً على ذكر هذه الحكاية خاصة كناية أمير المؤمنين رضي الله عنه أو رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، ولكننا نذكر كنايات كثيرة في غير هذا المعنى مستحسنة، ينتفع القارئ بالوقوف عليها.

يقال: فلان من قوم موسى، إذا كان ملولاً، إشارة إلى قوله تعالى: "وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد". قال الشاعر:

فيا من ليس يكفيه صديق
أظنك من بقايا قوم موسى
ولا ألفا صديق كل عام
فهم لا يصبرون على طعام

وقال العباس بن الأحنف:

كتبت تلوم وتستريث زيارتي
فأجبتها ودموع عيني سجم
يا فوز لم أهجركم لمالة
لكنني جربتكم فوجدتكم
وتقول: لست لنا كعهد العاهد
تجري على الخدين غير جوامد
عرضت ولا لمقال واش حاسد
لاتصبرون على طعام واحد

ويقولون للجارية الحسنة: قد أبقت من رضوان، قال الشاعر:

جست العود بالبنان الحسان
فسجدنا لها جميعاً وقلنا
حاش لله أن تكوني من الإن
وتنثت كأنها غصن بان
إذ شجنتنا بالحسن والإحسان
س ولكن أبقت من رضوان

ويقولون للمكشوف الأمر الواضح الحال: ابن جلا، وهو كناية عن الصبح ومنه ما تمثل به الحاج:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفوني

ومنه قول القلاخ بن حزن:

أنا القلاخ بن القلاخ ابن جلا

ومنه قولهم: فلان قائد الجمل لأنه لا يخفى لعظم الجمل وكبر جثته، وفي المثل: ما استتر من قاد جملاً، وقالوا: كفى برغائها نداءً، ومثل هذا قولهم: ما يوم حليلة بسر يقال ذلك في الأمر المشهور الذي لا يستر، ويوم حليلة يوم التقى المنذر الأكبر والحارث الغساني الأكبر. وهو أشهر أيام العرب، يقال: إنه ارتفع من العجاج ما ظهرت معه الكواكب نهاراً، وحليمة: اسم امرأة أضيف اليوم إليها، لأنها أخرجت إلى المعركة مراكن الطيب، فكانت تطيب بها الداخلين إلى القتال، فقاتلوا حتى تفانوا.

ويقولون في الكناية عن الشيخ الضعيف: قائد الحمار، وإشارة إلى ما أنشده الأصمعي:

وأقود للشرف الرفيع حماري

أتى الندي فلا يقرب مجلسي

أي أقوده من الكبر إلى موضع مرتفع لأركبه لضعفي، ومثل ذلك كنايتهم عن الشيخ الضعيف بالعاجن، لأنه إذا قام عجن في الأرض بكفيه، قال الشاعر:

وشر خصال المرء كنت وعاجن

فأصبحت كنتياً وأصبحت عاجناً

قالوا: الكنتي الذي يقول كنت أفعل كذا، وكنت أركب الخيل، يتذكر ما مضى من زمانه، ولا يكون ذلك إلا عند الهرم أو الفقر والعجز.

ومثله قولهم للشيخ: راعع، قال لييد:

أدب كأني كلما قمت راعع

أخبر أخبار القرون التي مضت

والركوع: هو التطأطؤ والإنحاء بعد الاعتدال والإستواء، ويقال للإنسان إذا انتقل من الثروة إلى الفقر: قد ركع قال:

كع يوماً والدهر قد رفعه

لا تهين الفقير علك أن تر

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يوماً فتدركه الحوادث قد نما!

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه

يثني عليك بما فعلت فقد جرى

يجزيك أويثني عليك وإن من

ومثله أيضاً:

لعاقبة إن العضاه تروح

وأكرم كريماً إن أذاك لحاجة

تروح الشجر: إذا انفطر بالنبت، يقول: إن كان فقيراً فقد يستغني، كما أن الشجر الذي لا ورق عليه سيكتسي ورقاً، ويقال: ركع الرجل، أي سقط.

وقال الشاعر:

لم يطو دون رفيقه ذا المروء

خرق إذا ركع المطي من الوجي

حمد الرفيق نذاك أو لم يحمد

حتى يؤوب به قليلاً فضله

وكما يشبهون الشيخ بالرايع فيكون به عنه، كذلك يقولون: يحجل في قيده لتقارب خطوه، قال أبو الطمحان القيني:

حننتي حانيات الدهر حتى

كأني خاتل أدنو لصيد

قريب الخطو يحسب من رأني ولست مقيداً أني بقيد

ونحو هذا قولهم للكبير: بدت له الأرنب، وذلك أن من يختل الأرنب ليصيدها يتمايل في مشيته، وأنشد ابن الأعرابي في النوادر:

وطالت بي الأيام حتى كأنني

من الكبر العالي بدت لي أرنب

ونحوه يقولون للكبير: قيد بفلان البعير، أي لا قوة ليده على أن يصرف البعير تحته على حسب إرادته، فيقوده قائد يحمله حيث يريد.

ومن أمثالهم: لقد كنت وما يقاد بي البعير: يضرب لمن كان ذا قوة وعزم، ثم عجز وفتر.

ومن الكنايات عن شيب العنفة قولهم: قد عض على صوفه.

ويكونون عن المرأة التي كبر سنها فيقولون: امرأة قد جمعت الثياب، أي تلبس القناع والخمار والإزار، وليست كالفتاة التي تلبس ثوباً واحداً.

ويقولون لمن يخضب: يسود وجه النذير، وقالوا في قوله تعالى: "وجاءكم النذير": إنه الشيب. وقال الشاعر:

وقائلة لي اخضب فالغواني

تطير من ملاحظة القتير

فقلت لها المشيب نذير موتي

ولست مسوداً وجه النذير

وزاحم شاب شيخاً في طريق فقال الشاب: كم ثمن القوس؟ يعيره بانحناء الظهر، فقال الشيخ: يابن أخي: إن طال بك عمر فسوف تشتريها بلا ثمن. وأنشد لابن خلف:

تعبرني وخط المشيب بعارضي

ولولا الحبول البلق لم تعرف الدهم

حنى الشيب ظهري فاستمرت مريرتي

ولولا انحناء القوس لم ينفذ السهم

ويقولون لمن رشا القاضي أو غيره: صب في قنديله زيتاً، وأنشد:

وعند قضائنا خبث ومكر

وزرع حين تسقيه يسنبل

إذا ما صب في القنديل زيت

تحولت القضية للمقنديل

وكان أبو صالح كاتب الرشيد ينسب إلى أخذ الرشا، وكان كاتب أم جعفر وهو سعدان بن يحيى كذلك، فقال لها الرشيد يوماً: أما سمعت ما قيل في كاتبك؟ قالت: ما هو؟ فأنشدتها:

صب في قنديل سعدا

ن مع التسليم زيت

وقناديلبنيه

قبل أن تخفى الكميتا

قالت: فما قيل في كاتبك أشنع، وأنشدته:

قنديل سعدان علا ضوءه

فرخ لقنديل أبي صالح

تراه في مجلسه أحوصاً

من لمحله للدرهم اللائح

ويقولون لمن طفق ثلاثاً: قد نخرها بمثلثة.

ويقولون أيضاً: أعطائها نصف السنة.

ويقولون لمن يفخر بآبائه: هو عظامي، ولمن يفخر بنفسه هو عصامي، إشارة إلى قول النابغة في عصام بن سهل حاجب النعمان:

نفس عصام سودت عصاما

وعلمته الكر والإقداما

وجعلته ملكاً هماماً

وأشار بالعظامي إلى فخره بالأموال من آبائه ورهطه، وقال الشاعر:

إذا ما الحي عاش بعظم ميت

فذاك العظم حي وهو ميت

ونحو هذا أن عبد الله بن زياد بن ظبيان التميمي دخل على أبيه وهو يجود بنفسه فقال: ألا أوصي بك الأمير؟ فقال: إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت فالحي هو الميت، ويقال: إن عطاء بن أبي سفيان قال ليزيد بن معاوية: أغني عن غيرك، قال: حسبك ما أغناك به معاوية، قال فهو إذن الحي وأنت الميت، ومثل قولهم: عظامي قولهم: خارجي، أي يفخر بغير أولية كانت له، قال كثير لعبد العزيز:

أبا مروان لست بخارجي

وليس قديم مجدك بانتحال

ويكونون عن العزيز وعن الدليل أيضاً فيقولون: بيضة البلد، فمن يقولها للمدح يذهب إلى أن البيضة هي الحوزة والحمى، يقولون: فلان يحمي بيضته، أي يحمي حوزته وجماعته، ومن يقولها للذم يعني أن الواحدة من بيض النعام إذا فسدت تركها أبواها في البلد وذهبا عنها، قال الشاعر في المدح:

لكن قائله من لاكفاء له

من كان يدعى أبوه بيضة البلد

وقال الآخر في الذم:

تأبى قضاة لم تعرف لكم نسباً

وآبنا نزار فأنتم بيضة البلد

ويقولون للشيء الذي يكون في الدهر مرة واحدة: هو بيضة الديك، قال بشار:

يا أطيب الناس ريقاً غير محتبر

إلا شهادة أطراف المساويك

قد زرتنا زورة في الدهر واحدة

ثني ولا تجعلها بيضة الديك

ويكونون عن الثقيل بالقذى في الشراب، قال الأخطل يذكر الخمر والاجتماع عليها:

وليس قذاها بالذي قد يضيرها

ولا بذباب نزعه أيسر الأمر

ولكن قذاها كل جلف مكلف

أنتنا به الأيام من حيث لاندري

فذاك القذى وابن القذى وأخو القذى

فإن له من زائر آخر الدهر

ويكونون أيضاً عنه بقدرح اللباب، قال الشاعر:

يا ثقيلاً زاد في الثقل على كل ثقل

أنت عندي قدح اللب

لاب في كف العليل

ويكونون عنه أيضاً بالقدح الأول، لأن القدح الأول من الخمر تكرهه الطبيعة وما بعده فدونه لاعتياده، قال الشاعر:

وأنقل من حزين بادياً

وأبغض من قدح أول

ويكونون عنه بالكانون، قال الخطيئة يهجو أمه:

تتحي فاقعدي عني بعيداً

أراح الله منك العالمينا

أغربالاً إذا استودعت سراً

وكانوناً على المتحدثينا!

قالوا: وأصله من كنت أي سترت، فكأنه إذا دخل على قوم وهم في حديث ستروه عنه، وقيل: بل المراد شدة برده.

ويكونون عن الثقل أيضاً برحا البزر، قال الشاعر:

وأنقل من رحا بزر علينا

كأنك من بقايا قوم عاد

ويقولون لمن يحمدون جواره: جاره جار أبي دواد، وهو كعب بن مامة الإيادي، كان إذا جاوره رجل فمات وداه، وإن هلك عليه شاة أو بعير أخلف عليه، فجاوره أبو دواد الإيادي، فأحسن إليه، فضرب به المثل.

ومثله قولهم: هو جليس قعقاع بن شور، وكان قد قدم إلى معاوية فدخل عليه، والجلس غاص بأهله ليس فيه مقعد، فقام له رجل من القوم وأجلسه مكانه، فلم يرح القعقاع من ذلك الموضع يكلم معاوية ومعاوية يخاطبه حتى أمر له بمائة ألف درهم، فأحضرت إليه، فجعلت إلى جانبه، فلما قام قال الرجل القائم له من مكانه: ضمها إليك، فهي لك بقيامك لنا عن مجلسك، فقبل فيه:

وكنت جليس قعقاع بن شور

ولايشقى بقعقاع جليس

ضحوك السن إن نطقوا بخير

وعند الشر مطراق عبوس

أخذ قوله: ولايشقى بقعقاع جليس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "هم القوم لايشقى بهم جليسه".

ويكونون عن السمين من الرجال بقولهم: هو جار الأمير وضيع الأمير، وأصله أن الغضبان بن القبعثرى كان محبوساً في سجن الحجاج، فدعا به يوماً فكلمه، فقال له في جملة خطابه: إنك لسمين يا غضبان، فقال: القيد والرتعة، والخفض والدعة، ومن يكن ضيف الأمير يسمن.

ويكني الفلاسفة عن السمين بأنه يعرض سور حبسه، وذلك أن أفلاطون رأى رجلاً سميناً، فقال: يا هذا، ما أكثر عنايتك بتعريض سور حبسك! ونظر أعرابي إلى رجل جيد الكدنة، فقال: أرى عليك قطيفة محكمة. قال: نعم، ذاك عنوان نعمة الله عندي.

ويقولون للكذاب: هو قموص الحنجرة، وأيضاً هو لثوق الكبد، وأيضاً لا يوثق بسيل بلقعه. وأيضاً أسير الهند لأنه يدعي أنه ابن الملك، وإن كان من أولاد السفلة.

ويكنى عنه أيضاً بالشيخ الغريب، لأنه يجب أن يتزوج في الغربية فيدعي أنه ابن خمسين سنة، وهو ابن خمس وسبعين.
ويقولون: هو فاختة البلد، من قول الشاعر:

تصيح فوق الكرب

هذا أوان الرطب

أكذب من فاختة

والطلع لم يبد لها:

وقال آخر في المعنى:

كقول الفواخت: جاء الرطب

فلسن يدانينه في الكذب

حديث أبي حازم كله

وهن وإن كن يشبهنه

ويكنون عن النمام بالزجاج، لأنه يشف على ما تحته، قال الشاعر:

يرى الشيء فيها ظاهراً وهو باطن

أنم بما استودعته من زجاجة

ويكنون عنه بالنسيم، من قول الآخر:

أنم من النسيم على الرياض

وإنك كلما استودعت سراً

ويقولون: إنه لصبح، وإنه لطيب، كله في النمام. ويقولون: ما زال يقتل له في الذروة والغارب حتى أسمحت قرونته، وهي النفس والذروة: أعلى السنام، والغارب: مقدمه.

ويقولون في الكناية عن الجاهل: ما يدري أي طرفيه أطول، قالوا: ذكره ولسانه، وقالوا: هل نسب أبيه أفضل أم نسب أمه؟ ومثله: لا يعرف قطانه من لطانه، أي لا يعرف جبهته مما بين وركيه، وقالوا: الحدة كنية الجهل، والإقتصاد كنية البخل، والإستقصاء كنية الظلم.

وقالوا للجائع: عضه الصفر، وعضه شجاع البطن.

وقال الهذلي:

وأوثر غرثي من عيالك بالطعم

وللموت خير من حياة على رغم

أرد شجاع البطن قد تعلمينه

مخافة أن أحيا برغم وذلة

ويقولون: زوده زاد الضب، أي لم يزوده شيئاً، لأن الضب لا يشرب الماء، وإنما يتغذى بالريح والنسيم، ويأكل القليل من عشب الأرض.

وقال ابن المعتز:

وعشر دجاجات شواء بألبان

سوى زاد ضب يبلى الريح عطشان

يقول أكلنا لحم جدي وبطة

وقد كذب الملعون ما كان زاده

وقال أبو الطيب:

وزودني في السير ما زود الضبا

لقد لعب البين المشت بها وبني

ويقولون للمختلفين من الناس: هم كنعم الصدقة، وهم كبعر الكيش، قال عمرو بن لجأ:

وشعر كبعر الكيش ألف بينه

لسان دعي في القريض دخيل

وذلك لأن بعر الكيش يقع متفرقاً.

وقال بعض الشعراء لشاعر آخر: أنا أشعر منك لأنني أقول البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمه، فأما قول جرير في ذي الرمة، إن شعره بعر ظباء ونقط عروس، فقد فسرهُ الأصمعي فقال: يريد أن شعره حلو أول ما تسمعه، فإذا كرر إنشاده ضعف، لأن أبعاد الظباء أول ما تشم توجد لها رائحة ما أكلت من الجنجاث والشيخ والقيصوم، فإذا أدمت شمه عذمت تلك الرائحة، ونقط العروس إذا غسلتها ذهبته.

ويقولون أيضاً للمختلفين: أخيف، والخيف: سواد إحدى العينين وزرق أخرى.

ويقولون فيهم أيضاً: أولاد علالات كالأخوة لأمهات شتى، والعلة: الضرة.

ويقولون فيهم: خبز كتاب، لأنه يكون مختلفاً، قال شاعر يهجو الحجاج بن يوسف:

أينسى كليب زمان الهزال

وتعليمه سورة الكوثر

رغيف له فلكة ماترى

وآخر كالقمر الأزهر

ومثله:

أما رأيت بني سلم وجوههم

كأنها خبز كتاب ويقال

ويقول للمتساوين في الرداءة: كأسنان الحمار، قال الشاعر:

سواء كأسنان الحمار فلاترى

لذي شبيبة منهم على ناشيء فضلا

وقال آخر:

شبابهم وشبيهم سواغ

فهم في اللؤم أسنان الحمار

وأنشد المبرد في الكامل لأعرابي يصف قوماً من طيء بالتساوي في الرداءة:

ولما أن رأيت بني جوين

جلوساً ليس بينهم جليس

يئست من الذي أقبلت أبغي

لديهم، إنني رجل يئوس

إذا ما قلت أيهم لأي

تشابهت المناكب والرؤوس

قال: فقوله: ليس بينهم جليس هجاء قبيح، يقول: لا ينتجع الناس معروفهم، فليس بينهم غيرهم، ويقولون في المتساوين في الرداءة أيضاً: هما كحماري العبادي، قيل له: أي حماريك شر؟ قال: هذا ثم هذا. ويقال في التساوي في الشر والخير: هم كأسنان المشط، ويقال: وقعا كركبتي البعير، وكرجلي النعامة.

وقال ابن الأعرابي: كل طائر إذا كسرت إحدى رجليه تحامل على الأخرى إلا النعامة فإنه متى كسرت إحدى رجليه جثم، فلذلك قال الشاعر يذكر أخاه:

وإني وإياه كرجلي نعمة

على ما بنا من ذي غنى وفقير

وقال أبو سفيان بن حرب لعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وقد تنافرا إليه: أنتما كركبتي البعير، فلم ينفر واحداً منهما، فقالا: فأينا اليمنى؟ فقال: كل منكما يمنى.

وسأل الحجاج رجلاً عن أولاد المهلب: أيهم أفضل؟ فقال: هم كالحلقة الواحدة.

وسئل ابن دريد عن المبرد وثعلب، فأثنى عليهما، فقليل: فابن قتيبة؟ قال: ربوة بين جبلين، أي خمل ذكره بنباهتهما. ويكنى عن الموت بالقطع عند المنجمين، وعن السعاية بالنصيحة عند العمال، وعن الجماع بالوطء عند الفقهاء، وعن السكر بطيب النفس عند الندماء، وعن السؤال بالزوار عند الأجواد، وعن الصدقة بما أفاء الله عند الصوفية. ويقال للمتكلف بمصالح الناس: إنه وصي آدم على ولده، وقد قال شاعر في هذا الباب:

فكأن آدم عند قرب وفاته

أوصاك وهو وجود بالحوباء

ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم

وكفيت آدم عيلة الأبناء

ويقولون: فلان خليفة الخضر إذا كان كثير السفر، قال أبو تمام:

خليفة الخضر من يربع على وطن

أوبلدة فظهور العيس أوطاني

بغداد أهلي وبالشام الهوى وأنا

بالرقتين وبالفسطاط إخواني

وما أظن النوى ترضى بما صنعت

حتى تبلغ بي أقصى خراسان

ويقولون للشيء المختار المنتخب: هوثرة الغراب لأنه ينتقي خير الثمر.

ويقولون: سمن فلان في أدبمه، كناية عمن لا ينتفع به، أي ما خرج منه يرجع إليه، وأصله أن نحياً من السمن انشق في ظرف من الدقيق، فقليل ذلك، قال الشاعر:

ترحل فما بغداد دار إقامة

ولا عند من أضحى ببغداد طائل

محل ملوك سمنهم في أدبهم

وكلهم من حلية المجد عاطل

فلاغرو أن شلت يد المجد والعلی

وقل سماح من رجال ونائل

إذا غضعض البحر الغطامط ماءه

فليس عجيباً أن تغيض الجداول

ويقولون لمن لا يفى بالعهد: فلان لا يحفظ أول المائدة، لأن أولها: "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود".

ويقولون: لمن كان حسن اللباس ولا طائل عنده، هو مشجب، والمشجب: خشبة القصار التي يطرح الثياب عليها، قال ابن الحجاج:

لي سادة طائر السرور بهم

يطرده اليأس بالمقاليع

مشاجب للثياب كلهم

وهذه عادة المشاقيع

جائزتي عندهم إذا سمعوا

شعري :هذا كلام مطبوع

وإنهم يضحكون إن ضحكوا

مني وأبكي أنا من الجوع

وقال آخر :

إذا لبسوا دكن الخروز وخضرها

وراحوا فقد راحت عليك المشاجب

وروي أن كيسان غلام أبي عبيدة وفد على بعض البرامكة فلم يعطه شيئاً، فلما وافى البصرة قيل له: كيف وجدته؟ قال: وجدته مشجباً من حيث ما أتيته وجدته.

ويكنون عن الطفيلي فيقولون: هو ذباب، لأنه يقع في القدور، قال الشاعر:

أتيتك زائراً لقضاء حق

فحال الستر دونك والحجاب

ولست بواقع في قدر قوم

وإن كرهوا كما يقع الذباب

وقال آخر:

وأنت أخو السلام وكيف أنتم

ولست أخوا الملمات الشداد

وأطفل حين يجفى من ذباب

وألزم حين يدعى من قراد

ويكنون عن الجرب بحب الشباب، قال الوزير المهلي:

يا صروف الدهر حسبي

أي ذنب كان ذنبي

علة خصت وعمت

في حبيب ومحب

دب في كفيه يا من

حبه دب بقلبي

فهو يشكو حر حب

وشكاتي حر حب

ويكنون عن القصير القامة بأبي زبيبة، وعن الطويل بخيط باطل. وكانت كنية مروان بن الحكم لأنه كان طويلاً مضطرباً، قال فيه الشاعر:

لحا الله قوماً أمروا خيط باطل

على الناس يعطي من يشاء ويمنع

وفي خيط باطل قولان: أحدهما أنه الهباء الذي يدخل من ضوء الشمس في الكوة من البيت، وتسميه العامة غزل الشمس، والثاني أنه الخيط الذي يخرج من فم العنكبوت، وتسميه العامة مخاط الشيطان. وتقول العرب للملقو: لطيم الشيطان، وكان لقب عمرو بن سعيد الأشدق، لأنه كان ملقوا.

وقال بعضهم لآخر: ما حدث؟ قال: قتل عبد الملك عمراً، فقال: قتل أبو الذبان لطيم الشيطان، "وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون".

ويقولون للحزين المهموم: يعد الحصى، ويخط في الأرض، ويفت اليرمع .

قال المجنون:

بلقط الحصى والخط في الدار مولع

عشية مالي حيلة غير أنني

بدمعي والغربان حولي وقع

أخط وأمحو كل ما قد خططته

وهذا كالنادم يقرع السن، والبخيل ينكت الأرض بينانه، أو يعود عند الرد، قال الشاعر:

يوم الكريهة فالآساد في الأجم

عبيد إخوانهم حتى إذا ركبوا

لا يقرعون على الأسنان من ندم

يرضون في العسر والإيسار سائلهم

وقال آخر في نكت الأرض بالعيدان:

تركوه رب صواهل وقيان

قوم إذا نزل الغريب بدارهم

لتطلب العلات بالعيدان

لا ينكتون الأرض عند سؤالهم

ويقولون للفارغ: فؤاد أم موسى.

ويقولون للمشري من المال: منقرس، وذلك أن علة النقرس أكثر ما تعتري أهل الثروة والتنعيم.

حكى المبرد، قال: كان الحرمازي في ناحية عمرو بن مسعدة، وكان يجري عليه، فخرج عمرو بن مسعدة إلى الشام، وتخلف الحرمازي ببغداد، فأصابه النقرس، فقال:

ومطلبه بالشام غير قريب

أقام بأرض الشام فاختل جانبي

أما نقرس في مفلس بعجيب!

ولاسيما من مفلس حلف نقرس

وقال بعضهم يهجو ابن زيدان الكاتب:

صار إلى رجل ابن زيدان

تواضع النقرس حتى لقد

قد وجدت في غير إنسان

علة إنسان ولكنها

ويقولون للمتترف: رقيق النعل، وأصله قول النابغة:

يحيون بالريحان يوم السباسب

رقاق النعال طيب حجاتهم

يعني أنهم ملوك، والملك لا يخصف نعله إنما يخصف نعله من يمشي. وقوله: طيب حجاتهم، أي هم أعفاء الفروج، أي يشدون حجاتهم على عفة. وكذلك قولهم: فلان مسمط النعال، أي نعله طبقة واحدة غير مخصوف، قال المار بن سعيد الفقعسي:

كرام الناس مسمطة النعال

وجدت بني خفاجة في عقيل

وقريب من هذا قول النجاشي:

ولا ينتقي المخ الذي في الجماجم

ولا يأكل الكلب السروق نعالنا

يريد أن نعالهم سبت، والسبت: جلود البقر المدبوغ بالقرظ ، ولا تقرهما الكلاب، وإنما تأكل الكلاب غير المدبوغ، لأنه إذا أصابه المطر دسّمه فصار زهماً. ويقولون للسيد: لا يطاءً على قدم، أي هو يتقدم الناس ولا يتبع أحداً فيطأ على قدمه. ويقولون: قد اخضرت نعالهم، أي صاروا في خصب وسعة، قال الشاعر:

وفي الحفيظة أبرام مضاجير

يتايهون إذا اخضرت نعالهم

وإذا دعوا على إنسان بالزمانة قالوا: خلع الله نعليه، لأن المقعد لا يحتاج إلى نعل، ويقولون: أطفأ الله نوره، كناية عن العمى وعن الموت أيضاً، لأن من يموت فقد طفت ناره. ويقولون: سقاه الله دم جوفه، دعاء عليه بأن يقتل ولده، ويضطر إلى أخذ ديتة إبلاً فيشرب ألبانها، ويقولون: رماه الله بليلة لا أخت لها، أي ليلة موته، لأن ليلة الموت لا أخت لها، ويقولون: وقعوا في سلا جهل، أي في داهية لا يرى مثلها، لأن الجمل لا سلا له، وإنما السلا للناقة، وهي الجليدة التي تكون ملفوفة على ولدها، ويقولون: صاروا في حواء ناقة، إذا صاروا في خصب. وكانوا إذا وصفوا الأرض بالخصب قالوا: كأنها حواء ناقة. ويقولون لأبناء الملوك والرؤساء ومن يجري مجراهم: جفاة الحز، قال الشاعر:

ولا يأكلون اللحم إلا تخذما

جفاة المحز لا يصيبون مفصلاً

يقول: هم ملوك، وأشباه الملوك لا حذق لهم بنحر الإبل والغنم، ولا يعرفون التحليد والسلخ، ولهم من يتولى ذلك عنهم، وإذا لم يحضرهم من يجزر الجزور تكلفوا هم ذلك بأنفسهم، فلم يحسنوا حز المفصل كما يفعله الجزار، وقوله:

ولا يأكلون اللحم إلا تخذما

أي ليس بهم شره فإذا أكلوا اللحم تخذموا قليلاً قليلاً، والحزم: القطع، وأنشد الجاحظ في مثله:

جفاة المحز غلاظ القصر

وصلع الرؤوس عظام البطون

لأن ذلك كله أمارات الملوك، وقريب من ذلك قوله:

ولابجزار على ظهر وضم

ليس براعي إبل ولا غنم

ويقولون: فلان أملس، يكون عمن لا خير فيه ولا شر، أي لا يثبت فيه حمد ولا ذم.

ويقولون: ملحه على ركبته، أي هو سيء الخلق، يغضبه أدنى شيء، قال:

ملحها موضوعة فوق الركب

لا تلمها إنها من عصابة

ويقولون، كناية عن مجوسي: هو ممن يخط على النمل، والنمل جمع غملة، وهي قرحة بالإنسان، كانت العرب تزعم أن ولد المجوسي إذا كان من أخته وخط عليها برأت، قال الشاعر:

كرام وأنا لا نخط على النمل

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر

ويقولون للصبي: قد قطفت ثمرته، أي ختن. وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير:

حتى دفعنا إلى يحيى ودينار

ما زال عصياننا لله يردلنا

إلا عليجينلم تقطف ثمارهما

قد طالما سجدا للشمس والنار

ويقولون: قدر حليلة، أي لا غليان فيها، ويقولون لمن يصلي صلاة مختصرة: هو راجز الصلاة.
وقال أعرابي لرجل رآه يصلي صلاة خفيفة: صلاتك هذه رجز.

ويقولون: فلان عفيف الشفة، أي قليل السؤال، وفلان خفيف الشفة، كثير السؤال، وتكني العرب عن المتيقظ بالقطامي، وهو الصقر، ويكونون عن الشدة والمشقة بعرق القربة، يقولون: لقيت من فلان عرق القربة، أي العرق الذي يحدث بك من حملها وثقلها، وذلك لأن أشد العمل كان عندهم السقي وما ناسبه من معالجة الإبل، وتكني العرب عن الحشرات وهوام الأرض بجنود سعد، يعنون سعد الأخبية، وذلك لأنه إذا طلع انتشرت في ظاهر الأرض، وخرج منها ما كان مستتراً في باطنها، قال الشاعر:

قد جاء سعد منذراً بحرّه

موعدةً جنوده بشره

ويكني قوم عن السائلين على الأبواب بحفاظ سورة يوسف عليه السلام لأنهم يعتنون بحفظها دون غيرها، وقال عمارة يهجو محمد بن وهيب:

تشبهت بالأعراب أهل التعجرف

فدل على ماقلت قبح التكلف

لسان عراقي إذا ماصرفته

إلى لغة الأعراب لم يتصرف

ولم تنس ماقد كان بالأمس حاكه

أبوك وعود الجف لم يتقصف

لئن كنت للأشعار والنحو حافظاً

لقد كان من حفاظ سورة يوسف

ويكنون عن اللقيط بترية القاضي، وعن الرقيب بثاني الحبيب، لأنه يرى معه أبداً، قال ابن الرومي:

موقف للرقيب لا أنساه لست

أختاره ولا آباه

مرحباً بالرقيب من غير وعد

جاء يجلو علي من أهواه

لا أحب الرقيب إلا لأنني

لا أرى من أحب حتى أراه

ويكنون عن الوجه المليح بحجة المذنب، إشارة إلى قول الشاعر:

قد وجدنا غفلةً من رقيب

فسرقنا نظرة من حبيب

ورأينا ثم وجهاً مليحاً

فوجدنا حجةً للذنوب

ويكنون عن الجاهل ذي النعمة بحجة الزنادقة، قال ابن الرومي:

مهلاً أبا الصقر فكم طائر

خر صريعاً بعد تحليق

لا قدست نعى تسربلتها

كم حجة فيها لزنديق!

وقال ابن بسام في أبي الصقر أيضاً:

يا حجة الله في الأرزاق والقسم

وعبرة لأولي الألباب والفهم

تراك أصبحت في نعماء سابغة

إلا وربك غضبان على النعم

فهذا ضد ذلك المقصد، لأن ذاك جعله حجة على الزندقة، وهذا جعله حجة على قدرة الباري سبحانه على عجائب الأمور وغرائبها، وأن النعم لا قدر لها عنده سبحانه، حيث جعلها عند أبي الصقر مع دناءة منزلته. وقال ابن الرومي:

وقينة أبرد من تلجه

تببت منها النفس في ضجه

كأنها من ننتها صخة

لكنها في اللون أترجه

تفاوتت خلقتها فاغتدت

لكل من عطل محتجه

وقد يشابه ذلك قول أبي علي البصير في ابن سعدان:

يابن سعدان أجلي الرزق في أم

رك واستحسن القبيح بمره

نلت ما لم تكن تمنى إذا ما

أسرفت غاية الأمانى عشره

ليس فيما أظن إلا لكيلا

ينكر المنكرون لله قدره

وللمفجع في قريب منه:

إن كنت خنتكم المودة غادراً

أو حلت عن سنن المحب الوامق

فمسخت في قبج ابن طلحة إنه

ما دل قط على كمال الخالق

ويقولون: عرض فلان علي الحاجة عرضاً سابرياً، أي خفيفاً من غير استقصاء، تشبيهاً له بالثوب السابري، والدرع السابرية، وهي الخفيفة.

ويحكى أن مرتداً مر على قوم يأكلون وهو راكب حماراً، فقالوا: إنزل إلينا، فقال: هذا عرض سابري، فقالوا: انزل يابن الفاعلة، وهذا ظرف ولباقة.

ويقولون في ذلك: وعد سابري، أي لا يقرن به وفاء، وأصل السابري، اللطيف الرقيق.

وقال المبرد: سألت الجاحظ: من أشعر المولدين؟ فقال: القائل:

كأن ثيابه أطلع

ن من أزراره قمرا

يزيدك وجهه حسناً

إذا ما زدته نظرا

بعين خالط التفت

ير في أجفانها الحورا

ووجه سابري لو

تصوب ماؤه قطرا

يعني العباس بن الأحنف.

وتقول العرب في معنى قول المحدثين، عرض عليه كذا عرضاً سابرياً: عرض عليه عرض عالة، أي عرض الماء على النعم

العالاة التي قد شربت شرباً بعد شرب، وهو العلل، لأنها تعرض على الماء عرضاً خفيفاً لا تبالغ فيه.
ومن الكنايات الحسنة قول أعرابية قالت لقيس بن سعد بن عباد: أشكو إليك قلة الجرذان في بيتي، فاستحسن منها ذلك، وقال لأكثرهما، إملئوا لها بيتها خبزاً وتمرّاً وسمناً واقطاً ودقيقاً.
وشية بذلك ما روي أن بعض الرؤساء سايه صاحب له على برذون مهزول، فقال له: ما أشد هزال دابتك! فقال: يدها مع أيدينا، ففطن لذلك ووصله.
وقريب منه ما حكى أن المنصور قال لإنسان: ما مالك؟ قال ما أصون به وجهي، ولا أعود به على صديقي، فقال: لقد تلطف في المسألة، وأمر له بصلة.
وجاء أعرابي إلى أبي العباس ثعلب وعنده أصحابه، فقال له: ما أراد القائل بقوله:

صار الثريد في رؤوس القضببان

الحمد لله الوهوب المنان

فأقبل ثعلب على أهل المجلس فقال: أحبيوه، فلم يكن عندهم جواب، وقال له نبطويه: الجواب منك يا سيدي أحسن، فقال: على أنكم لا تعلمونه! قالوا: لا نعلمه، فقال الأعرابي، قد سمعت ما قال القوم، قال: ولا أنت أعزك الله تعلمه، فقال ثعلب: أراد أن السنبل قد أفرك، قال: صدقت فأين حق الفائدة، فأشار إليهم ثعلب، فبروه، فقام قائلاً: بورك من ثعلب، ما أعظم بركتك!.
ويكنون عن الشيب بغبار العسكر، وبرغوة الشباب، قال الشاعر:

هذا غبار من غبار العسكر

قالت أرى شيباً برأسك، قلت لا

وقال آخر - وسماه غبار وقائع الدهر:

وصبت ضمائرهما إلى الغدر

غضبت ظلوم وأزمت هجري

هذا غبار وقائع الدهر

قالت أرى شيباً فقلت لها:

ويقولون للسحاب: فحل الأرض.

وقالوا: القلم أحد اللسانين، ورداءة الخط أحد الزمانتين.

قال: وقال الجاحظ: رأيت رجلاً أعمى يقول في الشوارع وهو يسأل: ارحموا ذا الزمانتين، قلت: وما هما؟ قال: أنا أعمى وصوتي قبيح. وقد أشار شاعر إلى هذا فقال:

حقيق بهما الموت

اثتان إذا عدا

وأعمى ماله صوت

فقير ما له زهد

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدمن"، فلما سئل عنها قال: "المرأة الحسناء في المنبت السوء".
وقال صلى الله عليه وسلم في صلح قوم من العرب: "إن بيننا وبينهم عيبة مكفوفة"، أي لا تكشف ما بيننا وبينهم من ضغن وحقد ودم. وقال صلى الله عليه وسلم: "الأنصار كرشى وعييتي"، أي موضع سري. وكرشي: جماعتي.

ويقال: جاء فلان ربد العنان، أي منهزماً، وجاء ينفض مذرويه ، أي يتوعد من غير حقيقة، وجاء ينظر عن شماله، أي منهزماً، وتقول: فلان عندي بالشمال، أي منزله خسيصة. وفلان عندي باليمين، أي بالمتزلة العليا، قال أبو نواس:

لقد أصبحت عندي باليمين

أقول لناقتي إذ بلغتني

ولم أقل أشرقي بدم الوتين

فلم أجعلك للغربان نهياً

وأعلاق الرحالة والوضين

حرمت على الأزمة والولايا

وقال ابن ميادة:

فأفرح أم صيرتني في شمالك !

أبينني أفي يمني يدبك جعلتني

تنقول العرب: التقى الثريان في الأمرين يأتلفان ويتفقان، أو الرجلين، قال أبو عبيدة: والثرى: التراب الندي في بطن الوادي، فإذا جاء المطر وسح في بطن الوادي حتى يلتقي نداه والندى الذي في بطن الوادي يقال: التقى الثريان. ويقولون: هم في خير لا يطير غرابه، يريدون أنهم في خير كثير وخصب عظيم فيقع الغراب فلا ينفر لكثرة الخصب. وكذلك أمر لا ينادى وليده، أي أمر عظيم ينادى فيه الكبار دون الصغار.

وقيل: المراد أن المرأة تشتغل عن وليدها فلا تناديه لعظم الخطب، ومن هذا قول الشاعر يصف حرباً عظيمة:

وصاح الكلاب وعق الولد

إذا خرس الفحل وسط الحجور

يريد أن الفحل إذا عاين الجيش والبارقة لم يلتفت لفت الحجور ولم يصهل، وتنبح الكلاب أربابها، لأنها لا تعرفهم للبسهم الحديد، وتذهل المرأة عن ولدها رعباً، فجعل ذلك عقوقاً. ويقولون: أصبح فلان على قرن أعفر، وهو الظبي إذا أرادوا أصبح على خطر. وذلك لأن قرن الظبي ليس يصلح مكاناً، فمن كان عليه فهو على خطر، قال امرؤ القيس:

كأني وأصحابي على قرن أعفرا

ولا مثل يوم بالعظالي قطعته

وقال أبو العلاء المعري:

كأني فوق روق الظبي من حذر

وأنشد ابن دريد في هذا المعنى:

محلة يعسوب برأس سنان

وما خير عيش لا يزال كأنه

يعني من القلق وأنه غير مطمئن.

ويقولون: به داء الظبي، أي لا داء به، لأن الظبي صحيح لا يزال، والمرض قل أن يعتريه. ويقولون للمتلون المختلف الأحوال: ظل الذئب، لأنه لا يزال مرة هكذا ومرة هكذا، ويقولون: به داء الذئب، أي الجوع.

وعهد فلان عهد الغراب، يعنون أنه غادر، قالوا: لأن كل طائر يألف أنثاه إلا الغراب، فإنه إذا باضت الأنثى تركها

وصار إلى غيرها.

ويقولون: ذهب سمع الأرض وبصرها، أي حيث لا يدرى أين هو! ويقولون: ألقى عصاه، إذا أقام واستقر، قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافرا

ووقع القضيبي من يد الحجاج وهو يخالب، فتطير بذلك حتى بان في وجهه، فقام إليه رجل فقال: إنه ليس ما سبق وهم الأمير إليه، ولكنه قول القائل، وأنشده البيت، فسري عنه.

ويقال للمختلفين: طارت عصاهم شققاً، ويقال: فلان منقطع القبال، أي لا رأي له، وفلان عريض البطن، أي كثير الثروة، وفلان رخي اللب، أي في سعة، وفلان واقع الطائر، أي ساكن، وفلان شديد الكاهل، أي منيع الجانب، وفلان ينظر في أعقاب نجم مغرب، أي هو نادم آيس، قال الشاعر:

فأصبحت من ليلي الغداة كناظر مع الصبح في أعقاب نجم مغرب

وسقط في يده، أي أيقن بالهلكة، وقد رددت يده إلى فيه، أي منعته من الكلام، وبنو فلان يد على بني فلان، أي مجتمعون، وأعطاه كذا عن ظهري، أي ابتداءً لا عن مكافأة. ويقولون: جاء فلان ناشراً أذنيه، أي جاء طامعاً، ويقال: هذه فرس غير محلفة، أي لا تحوج صاحبها إلى أن يحلف أنها كريمة، قال:

كميت غير محلفة ولكن كلون الصرف عل به الأديم

وتقول: حلب فلان الدهر أشطره، أي مرت عليه ضروبه خيره وشره، وقرع فلان لأمر ظنوبه، أي جد فيه واجتهد، وتقول: أبدى الشر نواجذه، أي ظهر، وقد كشفت الحرب عن ساقها، وكشرت عن ناهها، وتقول: استنوق الحمل، يقال ذلك للرجل يكون في حديث ينتقل إلى غيره يخلطه به، وتقول لمن يهون بعد عز: استأتن العير، وتقول للضعيف يقوى: استنسر البغات، ويقولون: شراب بأنقع، أي معاود للأمر، وقال الحجاج: يا أهل العراق، إنكم شرابون بأنقع، أي معتادون الخير والشر. والأنقع: جمع نقع، وهو ما استنقع من الغدران، وأصله في الطائر الحذر يرد المنافع في الفلوات حيث لا يبلغه قانص، ولا ينصب له شرك. خبر عن امرئ القيس.

ونختم هذا الفصل في الكنايات بحكاية رواها أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، قال أبو الفرج: أخبرني محمد بن القاسم الأنباري، قال: حدثني ابن عمي، قال: حدثنا أحمد بن عبد الله، عن الهيثم بن عدي. قال: وحدثني عمي، قال: حدثنا محمد بن سعد الكراي، قال: حدثنا العمري، عن الهيثم بن عدي، عن مجالد بن سعيد، عن عبد الملك بن عمير، قال: قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة أميراً على العراق، فأرسل إلى عشرة من وجوه أهل الكوفة أنا أحدهم، فسرنا عنده، فقال: ليحدثني كل رجل منكم أحدثه وأبداً أنت يا أبا عمرو، فقلت: أصلح الله الأمير! أحدث حق أم حديث باطل؟ قال: بل حديث حق، فقلت: إن امرأ القيس كان إلى ألية ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنتين، فجعل

يخطب النساء، فإذا سألهن عن هذا قلن: أربعة عشر، فبينما هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنة صغيرة له كأنها البدر لتمع، فأعجبته، فقال لها: يا جارية، ما ثمانية، وأربعة، واثنان؟ فقالت: أما ثمانية فأطباء الكلبة، وأما أربعة: فأخلاف الناقة، وأما اثنان فتديا المرأة، فخطبها إلى أبيها، فزوجه إياها وشرطت عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل، وعشرة أعبد، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس، ففعل ذلك، ثم بعث عبداً إلى المرأة، وأهدى إليها معه نجياً من سمن ونجياً من غسل وحلة من عصب، فترل العبد على بعض المياه، ونشر الحلة فلبسها فتعلقت بسفرة فانشقت، وفتح النحيين فأطعم أهل الماء منهما فنقصا، ثم قدم على المرأة وأهلها خلوف فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع إليها هديتها، فقالت: أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرب بعيداً، ويعد قريباً، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين، وأن أخي ذهب يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعاءكم نضبا. فقدم الغلام على مولاه، فأخبره فقال: أما قولها: إن أبي ذهب يقرب بعيداً ويعد قريباً، فإن أباهما ذهب يحالف قوماً على قومه، وأما قولها: إن أمي ذهبت تشق النفس نفسين، فإن أمها ذهبت تقبل امرأة نفساء. وأما قولها: إن أخي ذهب يراعي الشمس، فإن أخاها في سرح له يراعاه، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به، وأما قولها: إن سماءكم انشقت، فإن البرد الذي بعثت به انشق، وأما قولها إن وعاءكم نضبا فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا، فاصدقني. فقال: يا مولاي، إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسي فأخبرتهم أي ابن عمك، ونشرت الحلة ولبستها وتحمّلت بها، فتعلقت بسمرة فانشقت، وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل الماء، فقال: أولى لك! ثم ساق مائة من الإبل، وخرج نحوها ومعه العبد يسقي الإبل، فعجز، فأعانه امرؤ القيس، فرمى به العبد في البئر، وخرج حتى أتى إلى أهل الجارية بالإبل، فأخبرهم أنه زوجها، فقبل لها: قد جاء زوجك، فقالت: والله ما أدري أزوجي هو أم لا! ولكن انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذبها، ففعلوا، فأكل ما أطعموه، فقالت: اسقوه لبناً حازراً وهو الحامض - فسقوه فشرّب، فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، ففرشوا له، فنام فلما أصبحت أرسلت إليه: إني أريد أن أسألك، فقال لها: سلي عما بدا لك، فقالت: مم تختلج شفتاك؟ قال: من تقبيلي إياك، فقالت: مم يختلج كشحك؟ قال: لالتزامي إياك، قالت: فمم يختلج فخذاك؟ قال: لتوركي إياك، فقالت عليكم العبد فشددوا أيديكم به، ففعلوا.

قال: ومر قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرجع إلى حيه وساق مائة من الإبل، وأقبل إلى امرأته فقبل لها: قد جاء زوجك، فقالت: والله ما أدري أزوجي هو أم لا! ولكن انحروا له جزوراً، وأطعموه من كرشها وذبها، ففعلوا، فلما أتوه بذلك قال: وأين الكبد والسنام والملحاء، وأبي أن يأكل، فقالت اسقوه لبناً حازراً، فأتي به، فأبى أن يشربه، وقال: فأين الضريب والرثية؟ فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، ففرشوا له، فأبى أن ينام، وقال: افرشوا لي عند التلعة الحمراء، واضربوا لي عليها خباءً، ثم أرسلت إليه: هلم شريطتي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها أن سلي عما شئت، فقالت: مم تختلج شفتاك؟ فقال: لشربي المشعشات، قالت: فمم يختلج كشحك؟ قال: للبسي الحبرات. قالت: فمم تختلج فخذاك؟ قال: لركضي المطهومات، فقالت: هذا زوجي لعمرى، فعليكم به. فهديت إليه الجارية. فقال ابن هبيرة: حسبكم، فلا خير في الحديث سائر الليلة بعد حديث أبي عمرو، ولن يأتي أحد منكم بأعجب منه، فانصرفنا وأمر لي

بجائزة.

الأصل: وقال رضي الله عنه في كلام له: ووليهم وال فأقام واستقام، حتى ضرب الدين بجرانه.

الشرح: الجران: مقدم العنق، وهذا الوالي هو عمر بن الخطاب.

وهذا الكلام من خطبة خطبها في أيام خلافته طويلة، يذكر فيها قربه من النبي صلى الله عليه وسلم واختصاصه له، وإفضاءه بأسراره إليه، حتى قال فيها: فاختار المسلمون بعده بأرائهم رجلاً منهم، فقارب وسدد حسب استطاعته على ضعف وحد كانا فيه، وليهم بعده وال، فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه، على عسف وعجرفة كانا فيه، ثم اختلفوا ثالثاً لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً، غلب عليه أهله فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدة البعير المخطوم، فلم يزل الأمر بينه وبين الناس يبعد تارة ويقرب أخرى حتى نزوا عليه فقتلوه، ثم جاؤوا بي مدب الدبا، يريدون بيعتي. وتمام الخطبة معروف، فليطلب من الكتب الموضوعة لهذا الفن.

الأصل: وقال رضي الله عنه: يأتي على الناس زمان عضوض، يعض الموسر فيه على ما في يديه، ولم يؤمر بذلك، قال الله سبحانه: "ولا تنسوا الفضل بينكم"، ينهد فيه الأشرار، ويستذل الأخيار، ويبايح المضطرون، وقد نهي رسول الله صلى الله عليه وآله عن بيع المضطرين.

الشرح: زمان عضوض، أي كلب على الناس، كأنه يعضهم، وفعل للمبالغة، كالنفور والعقوق، ويجوز أن يكون من قولهم بثر عضوض، أي بعيدة القعر ضيقة، وما كانت البئر عضوضاً، فأعضت كقولهم: ما كانت جروراً فأجرت، وهي كالعضوض.

وعض فلان على ما في يده أي بخل وأمسك.

وينهد فيه الأشرار، ينهضون إلى الولايات والرياسات، وترتفع أقدارهم في الدنيا. ويستذل فيه أهل الخير والدين، ويكون فيه بيع على وجه الاضطراب والإلجاء، كمن بيعت ضيعته، وهو ذليل ضعيف، من رب ضيعة مجاورة لها ذي ثروة وعز وجاه فيلجئته بمنعه الماء واستدلاله الأكرة والوكيل إلى أن يبيعها عليه، وذلك منهى عنه، لأنه حرام محض.

الأصل: وقال رضي الله عنه: يهلك في رجلان: محب مفرط، وباهت مفتر.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذا مثل قوله رضي الله عنه: يهلك في اثنان: محب غال، ومبغض قال.

الشرح: قد تقدم شرح مثل هذا الكلام، وخلاصة هذا القول أن الهالك فيه المفرط والمفرط، أما المفرط فالغلاة، ومن قال بتكفير أعيان الصحابة ونفاقهم أو فسقهم، وأما المفرط فمن استنقص به رضي الله عنه أو أبغضه أو حاربه أو أضمر له غلاً، ولهذا كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز في هذه المسألة، لأنهم سلكوا طريقة مقتصدة، قالوا: هو أفضل الخلق في الآخرة، وأعلامهم منزلة في الجنة، وأفضل الخلق في الدنيا، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فإنه عدو لله سبحانه وخالد في النار مع الكفار والمنافقين، إلا أن يكون من قد ثبتت توبته، ومات على توبته وحبه.

فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله فلو أنه أنكر إمامتهم، وغضب عليهم، وسخط فعلهم، فضلاً

عن أن يشهر عليهم السيف، أو يدعو إلى نفسه، لقلنا: إنهم من الهالكين، كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه قد ثبت أن رسول الله علب قال له: "حربك حربي، وسلمك سلمي"، وأنه قال: "اللهم وال من ولاده، وعاد من عاداه"، وقال له: "لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق"، ولكننا رأينا رضي إمامتهم وبايعهم وصك خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم، فلم يكن لنا أن نتعدى فعله، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه، ألا ترى أنه لما برىء من معاوية برئنا منه، ولما لعنه لعناه، ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضا بضلالهم! والحاصل أنا لم نجعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا رتبة النبوة، وأعطينا كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه، ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم، وعاملناهم بما عاملهم رضي الله عنه به.

في التفضيل بين الصحابة.

والقول بالتفضيل قول قديم، قد قال به كثير من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة عمار، والمقداد، وأبو ذر، وسلمان، وجابر بن عبد الله، وأبي بن كعب، وحذيفة، وبريدة، وأبو أيوب، وسهل بن حنيف، وعثمان بن حنيف، وأبو الهيثم بن التيهان، وخزيمة بن ثابت، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، والعباس بن عبد المطلب وبنوه، وبنو هاشم كافة، وبنو المطلب كافة.

وكان الزبير من القائلين به في بدء الأمر، ثم رجع، وكان من بني أمية قوم يقولون بذلك، منهم خالد بن سعيد بن العاص، ومنهم عمر بن عبد العزيز.

وأنا أذكر هاهنا الخبر المروي المشهور عن عمر، وهو من رواية ابن الكلبي، قال: بينا عمر بن عبد العزيز جالسا في مجلسه، دخل حاجبه ومعه امرأة أدماء طويلة حسنة الجسم والقامة، ورجلان متعلقان بها، ومعهم كتاب من ميمون بن مهران إلى عمر، فدفعوا إليه الكتاب، ففضضه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، من ميمون بن مهران، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فإنه ورد علينا أمر ضاقت به الصدور، وعجزت عنه الأوساع، وهربنا بأنفسنا عنه، ووكلناه إلى عالمه، لقول الله عز وجل: "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"، وهذه المرأة والرجلان أحدهما زوجها والآخر أبوها، وإن أباهما يا أمير المؤمنين زعم أن زوجها حلف بطلاقها أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خير هذه الأمة وأولاها برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه يزعم أن ابنته طلقت منه، وأنه لا يجوز له في دينه أن يتخذها صهرا، وهو يعلم أنها حرام عليه كأمه. وإن الزوج يقول له: كذبت وأثمت، لقد بر قسمي، وصدقت مقالتي، وإنها امرأتني على رغم أنفك، وغيظ قلبك، فاجتمعوا إلي يَحْتَصِمُونَ في ذلك، فسألت الرجل عن يمينه، فقال: نعم، قد كان ذلك، وقد حلفت بطلاقها أن عليا خير هذه الأمة وأولاها برسول الله صلى الله عليه وسلم، عرفه من عرفه، وأنكره من أنكره، فليغضب من غضب، وليرض من رضى، وتسامع الناس بذلك، فاجتمعوا له، وإن كانت الألسن مجتمعة فالقلوب شتى، وقد علمت يا أمير المؤمنين اختلاف الناس في أهوائهم، وتسرعهم إلى ما فيه الفتنة، فأحجمنا عن الحكم لنحكم بما أراك الله، وإنهما تعلقا به، واقسم أبوها ألا يدعها معه، وأقسم زوجها ألا يفارقها ولو

ضربت عنقها إلا أن يحكم عليه بذلك حاكم لا يستطيع مخالفته والإمتناع منه، فرفعناهم إليك يا أمير المؤمنين، أحسن الله توفيقك وأرشدك! وكتب في أسفل الكتاب:

فحارت في تأملها العيون

فأنت لها أبا حفص أمين

وأحكمك التجارب والشؤون

فحظك فيهم الحظ الثمين

إذا ما المشكلات وردن يوماً

وضاق القوم ذرعاً عن نباها

لأنك قد حويت العلم طراً

وخلفك الإله على الرعايا

قال: فجمع عمر بن عبد العزيز بني هاشم وبني أمية وأفخاذ قريش، ثم قال لأبي المرأة: ما تقول أيها الشيخ؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا الرجل زوجته ابنتي، وجهازها إليه بأحسن ما يجهز به مثلها، حتى إذا أملت خيره، ورجوت صلاحه، حلف بطلاقها كاذباً، ثم أراد الإقامة معها، فقال له عمر: يا شيخ، لعله لم يطلق امرأته، فكيف حلف؟ قال الشيخ: سبحان الله! الذي حلف عليه لأين حثاً وأوضح كذباً من أن يختلج في صدري منه شك، مع سني وعلمي، لأنه زعم أن علياً خير هذه الأمة وإلا فامرأته طالق ثلاثاً. فقال للزوج: ما تقول؟ أهكذا حلفت؟ قال: نعم، فقل: إنه لما قال: نعم، كاد المجلس يرتج بأهله، وبنو أمية ينظرون إليه شزراً، إلا أنهم لم ينطقوا بشيء، كل ينظر إلى وجه عمر. فأكب عمر ملياً ينكت الأرض بيده والقوم صامتون ينظرون ما يقوله، ثم رفع رأسه وقال:

أصاب الحق والتمس السدادا

الحق واجتنب الرشادا

إذا ولي الحكومة بين قوم

وما خير الإمام إذا تعدى خلاف

ثم قال للقوم: ما تقولون في يمين هذا الرجل؟ فسكتوا، فقال: سبحان الله! قولوا. فقال رجل من بني أمية: هذا حكم في فرج، ولسنا نجترى على القول فيه، وأنت عالم بالقول، مؤتمن لهم وعليهم، قل ما عندك، فإن القول ما لم يكن يحق باطلاً ويظل حقاً جائز علي في مجلسي.

قال: لا أقول شيئاً، فالتفت إلى رجل من بني هاشم، من ولد عقيل بن أبي طالب، فقال له: ما تقول فيما حلف به هذا الرجل يا عقيلي؟ فاغتنمها، فقال: يا أمير المؤمنين، إن جعلت قولي حكماً، أو حكمي جائزاً قلت، وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لي، وأبقى للمودة، قال: قل وقولك حكم، وحكمك ماض.

فلما سمع ذلك بنو أمية قالوا: ما أنصفتنا يا أمير المؤمنين إذ جعلت الحكم إلى غيرنا، ونحن من لحمك وأولي رحمك! فقال عمر: اسكتوا، أعجزاً ولؤماً! عرضت ذلك عليكم آنفاً فما انتدبتم له. قالوا: لأنك لم تعطينا ما أعطيت العقيلي، ولا حكمتنا كما حكمته، فقال عمر: إن كان أصاب وأخطأتم، وحزم وعجزتم، وأبصر وعميتم، فما ذنب عمر، لا أبا لكم! أتدرون ما مثلكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكن العقيلي يدري، ثم قال: ما تقول يا رجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، كما قال الأول: دعيتم إلى أمر فلما عجزتم تناوله من لا يداخله عجز فلما رأيتم ذلك أبدت نفوسكم نداماً وهل يغني من القدر الحذر! فقال عمر: أحسنت وأصبت، فقل ما سألتك عنه. قال: يا أمير المؤمنين، بر قسمه، ولم تطلق امرأته، قال:

وَأَنى علمت ذاك؟ قال: نشدتك الله يا أمير المؤمنين، أَلَمْ تعلم أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة رضي الله عنها وهو عندها في بيتها عائد لها: يا بنية، ما علتك؟ قالت: الوعك يا أبتاه - وكان علي غائباً في بعض حوائج النبي صلى الله عليه وسلم - فقال لها: أتشتين شيئاً؟ قالت: نعم أشتي عنباً، وأنا أعلم أَنه عزيز، وليس وقت عنب، فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله قادر على أَن يجيئنا به، ثم قال: اللهم ائتنا به مع أَفضل أمتي عندك منزلةً، فطرق علي الباب، ودخل ومعه مَكتل قد ألقى عليه طرف رداءه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا يا علي؟ قال: عنب التمسته لفاطمة، فقال: الله أَكبر الله أَكبر، اللهم كما سررتني بَأَن خصصت علياً بدعوتي فاجعل فيه شفاء بنيي، ثم قال: كلي على إسم الله يا بنية، فأكلت، وما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استقلت وبرأت، فقال عمر: صدقت وبررت، أَشهد لقد سمعته ووعيته، يا رجل، خذ بيد إمرأتك فإن عرض لك أبوها فاهشم أَنفه. ثم قال: يا بني عبد مناف، والله ما نجعل ما يعلم غيرنا، ولا بنا عمى في ديننا، ولكننا كما قال الأول:

فلم يدركوا خيراً بل استقبحوا الشرا

تصيدت الدنيا رجالاً بفخها

فلم يدركوا إلا الخسارة والوزرا

وأعماهم حب الغنى وأصمهم

قيل: فكأنما أَلقم بني أُمية حجراً، ومضى الرجل بامرأته.

وكتب عمر إلى ميمون بن مهران:

عليك سلام، فإني أَحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني قد فهمت كتابك، وورد الرجلان والمرأة، وقد صدق الله يمين الزوج، وأبر قسمه، وأثبتته على نكاحه، فاستيقن ذلك، واعمل عليه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. فأما من قال بتفضيله على الناس كافة من التابعين فخلق كثير كأويس القرني وزيد بن صوحان، وصعصعة أخيه، وجندب الخير، وعبيدة السحلماي وغيرهم ممن لا يحصى كثرة، ولم تكن لفظة الشيعة تعرف في ذلك العصر إلا لمن قال بتفضيله، ولم تكن مقالة الإمامية ومن نحا نحوها من الطاعنين في إمامة السلف مشهورة حينئذ على هذا النحو من الإشتهار، فكان القائلون بالتفضيل هم المسمون الشيعة وجميع ما ورد من الآثار والأخبار في فضل الشيعة وأنهم موعودون بالجنة، فهؤلاء هم المعنيون به دون غيرهم، ولذلك قال أصحابنا المعتزلة في كتبهم وتصانيفهم: نحن الشيعة حقاً فهذا القول هو أَقرب إلى السلامة وأشبهه بالحق من القولين المقتسمين طرقي الإفراط والتفريط، إن شاء الله. الأَصْل: وسئل عن التوحيد والعدل، فقال رضي الله عنه: التوحيد ألا تتوهمه، والعدل ألا تنتهمه.

الشرح: هذان الركنان هما ركنا علم الكلام، وهما شعار أصحابنا المعتزلة، لنفيهم. المعاني القديمة التي يشبها الأشعري وأصحابه، ولتزيههم البارئ سبحانه عن فعل القبيح.

ومعنى قوله: ألا تتوهمه أي ألا تتوهمه جسماً أو صورةً أو في جهة مخصوصة، أو مائلاً لكل الجهات كما ذهب إليه قوم، أو نوراً من الأنوار، أو قوةً ساريةً في جميع العالم، كما قاله قوم، أو من جنس الأعراض التي تحل الحال أو تحل المحل، وليس بعرض كما قاله النصاري وغلاة الشيعة، أو تحل المعاني والأعراض، فمضى توهم على شيء من هذا فقد خولف التوحيد، وذلك لأن كل جسم أو عرض أو حال في محل أو محل للحال، أو مختص بجهة، لا بد أن يكون منقسماً في ذاته، لا سيما

على قول من نفى الجزء مطلقاً، وكل منقسم فليس بواحد وقد ثبت أنه واحد. وأضاف أصحابنا إلى التوحيد نفى المعاني القديمة، ونفى ثان في الإلهية، ونفى الرؤية، ونفى كونه مشتبهاً أو نافراً أو ملتزماً أو عالماً بعلم محدث، أو قادراً بقدره محدثه، أو حياً بحياة محدثه، أو نفى كونه عالماً بالمستقبلات أبداً، أو نفى كونه عالماً بكل معلوم أو قادراً على كل الأجناس وغير ذلك من مسائل علم الكلام التي يدخلها أصحابنا في الركن الأول، وهو التوحيد.

وأما الركن الثاني فهو ألا تتهمه، أي لا تتهمه في أنه أجبرك على القبيح، ويعاقبك عليه، حاشاه من ذلك! ولا تتهمه في أنه مكن الكذابين من المعجزات، فأضل بهم الناس، ولا تتهمه في أنه كلفك ما لا تطبيقه، وغير ذلك من مسائل العدل التي يذكرها أصحابنا مفصلة في كتبهم كالعوض عن الألم، فإنه لا بد منه، والثواب على فعل الواجب فإنه لا بد منه، وصدق وعده ووعدته، فإنه لا بد منه.

وجملة الأمر أن مذهب أصحابنا في العدل والتوحيد مأخوذ عن أمير المؤمنين، وهذا الموضع من المواضع التي قد صرح فيها بمذهب أصحابنا بعينه، وفي فرش كلامه من هذا النمط ما لا يحصى.

الأصل: وقال رضي الله عنه: في دعاء استسقى به: اللهم اسقنا ذلل السحاب دون صعباها.

قال رضي الله عنه: وهذا من الكلام العجيب الفصاحة، وذلك أنه رضي الله عنه شبه السحب ذوات الرغود والبوارق، والرياح والصواعق، بالإبل الصعاب التي تقمص برحائها، وتتوقص بركبائها، وشبه السحاب الخالية من تلك الزوامم بالإبل الذلل التي تحتلب طيعة، وتقتعد مسمحة.

الشرح: قد كفانا رضي - رحمه الله - بشرحه هذه الكلمة مئونة الخوض في تفسيرها.

الأصل: وقيل له رضي الله عنه: لو غيرت شيبك يا أمير المؤمنين! فقال: الخضاب زينة، ونحن قوم في مصيبة برسول الله صلى الله عليه وآله.

بعض ما قيل من الشعر في الشيب والخضاب.

الشرح: قد تقدم لنا في الخضاب قول كاف، وأنا أستملح قول الصابي فيه:

ولكن شأني فيه خالف شأنها

خضاب تقاسمناه بيني وبينها

ويا حسنه إذا حل منها بنائها

فيا قبحه إذا حل مني بمفرقي

وأهلاً به في كفها حيث زانها

وسحقاً له عن لمتي حين شأنها

وقال أبو تمام:

فأبكي تماضراً ولعوبا

لعب الشيب بالمفارق بل جد

أن رأيت شواتي خضيبا

خضبت خدها إلى لؤلؤ العقد دماً

الفضيعين: ميتة ومشيبا

كل داء يرجى الدواء له إلا

حسناتي عند الحسان ذنوبا

يانسيب الثغام ذنبك أبقى

مستنكراً وعين معيبا

ولئن عبن ما رأين لقد أنكرن

لو رأى الله أن في الشيب فضلاً

جاورته الأبرار في الخلد شيبا

وقال:

فإن يكن المشيب طغى علينا

وأودى بالبشاشة والشباب

فإني لست أدفعه بشيء

يكون عليه أثقل من خضاب

أردت بأن ذاك وذا عذاب

فسلطت العذاب على العذاب

ابن الرومي:

لم أخضب الشيب للغواني

أبغى به عندهم ودادا

لكن خضابي على شباب

لبست من بعده حدادا

ومن مختار ما جاء من الشعر في الشيب وإن لم يكن فيه ذكر الخضاب قول أبي تمام:

نسج المشيب له لفاعاً مغدفاً

يقفأً فققع مذرويه ونصفاً

نظر الزمان إليه قطع دونه

نظر الشقيق تحسراً وتلهفاً

ما اسود حتى أبيض كالكرم الذي

لم يبد حتى جيء كيما يقطفاً

لما تفوقت الخطوب سوادها

ببياضها عبثت به فتفوقفاً

ماكان يخطر قبل ذا في فكره

للبدر قبل تمامه أن يكسفاً

وقال أيضاً:

غدا لهم مختطاً بفودي خطةً

طريق الردى منها إلى الموت مهيع

هو الزور يجفى، والمعاشر يجتوى

وذو الإلف يقلى، والجديد يرقع

له منظر في العين أبيض ناصع

ولكنه في القلب أسود أسفع

ونحن نرجيه على الكره والرضا

وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع

وقال أيضاً:

شعلة من المفارق استودعتني

في صميم الأحشاء ثكلاً صميماً

تستثير الهموم ما آكتن منها

صعداً وهي تستثير الهموما

غرة مرة ألا إنما كن

ت أغر أيام كنت بهيماً

دقة في الحياة تدعى جلاً

مثل ما سمي اللديغ سليماً

حلمتني زعمتم وأراني

قبل هذا التحليم كنت حلیم

وقال الصابي وذكر الخضاب:

خضبت مشيبي للتلوق بالصبا
فلما ادعى مني العذار شبيبةً
فكم طرة طارت ودانت ذوائب
شواهد بالتزوير يحوين ربها
وأوهمت من أهواه أني لم أشب
إذا صلعي قد صاح من فوقه كذب
وكم وجنة حالت وماء بها نصب
فهجرانه عند الأحبة قد وجب

البحثري:

بانشباب فلا عين ولا أثر
قد كدت أخرجه عن منتهى عددي
سوء العواقب يأس قبله أمل
والمرء طاعة أيام تنقله
إلا بقية برد منه أسمال
يأساً وأسقطه إذ فات من بالي
وأعضل الداء نكس بعد إيلال
تنقل الظل من حال إلى حا

الأصل: وقال رضي الله عنه: ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعف، لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة .

أخبار حول العفة.

الشرح: قد تقدم القول في العفة، وهي ضروب: عفة اليد، وعفة اللسان، وعفة الفرج، وهي العظمى، وقد جاء في الحديث المرفوع: "من عشق فكنتم وعف وصبر فمات مات شهيداً ودخل الجنة".

وفي حكمة سليمان بن داود: إن الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده.

نزل خارجي على بعض إخوانه منهم مستتراً من الحجاج، فشخص المتزول عليه لبعض حاجاته وقال لزوجاته: يا ظمياء، أوصيك بضيفي هذا خيراً - وكانت من أحسن الناس - فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف كان ضيفك؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شيء؟ وكان الضيف أطبق جفنيه فلم ينظر إلى المرأة ولا إلى مترها إلى أن عاد زوجها.

وقال الشاعر:

إن أكن طامح اللحاظ فإني
والذي يملك القلوب عفيف

خرجت امرأة من صالحات نساء قريش إلى بابها لتغلقه، ورأسها مكشوف، فرآها رجل أجنبي فرجعت وحلقت شعرها، وكانت من أحسن النساء شعراً، فقبل لها في ذلك، قالت: ما كنت لادع على رأسي شعراً رآه من ليس لي بمحرم. كان ابن سيرين يقول: ما غشيت امرأة قط في يقظة ولا نوم غير أم عبد الله وإني لأرى المرأة في المنام وأعلم أنها لا تحل لي فأصرف بصري عنها.

وقال بعضهم:

وإني لعف عن فكاها جارتني
وإني لمشوء إلي اغتياها

صديقاً ولم تأنس إلي كلابها

ولا عالماً من أي حوك ثيابها

إذا غاب عنها بعلمها لم أكن لها

ولم أكن طلاباً أحاديث سرها

دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فقال: ما أرى فيك يا بثينة شيئاً مما كان يلهج به جميل! فقالت: إنه كان يربو إلي بعينين ليستا في رأسك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف صادفته في عفته؟ قالت: كما وصف نفسه إذ قال:

ما لي بما ضم ثوبها خبر

ما كان إلا الحديث والنظر

لا والذي تسجد الجباه له

ولا بفيها ولا هممت به

وقال أبو سهل السعدي: دخلت على جميل في مرض موته، فقال: يا أبا سهل، رجل يلقي الله ولم يسفك دمًا حراماً، ولم يشرب خمرًا، ولم يأت فاحشةً، أترجو له الجنة؟ قلت: أي والله فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون أنا ذلك، فذكرت له بثينة، فقال: إني لفي آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، لا نالني شفاعة محمد إن كنت حدثت نفسي برية معها أو مع غيرها قط.

قال الشاعر:

حبلى أمرىء بوصالكم صب

الغدر شيء ليس من شعبي

عرس الصديق وجارة الجنب

والجار أوصاني به ربي

قالت وقلت ترفقي فصلي

صديق إذا بعلي فقلت لها

ثنتان لا أصبو لوصلهما

أما الصديق فلست خائنه

يقال: إن امرأة ذات جمال دعت عبد الله بن عبد المطلب إلى نفسها لما كانت ترى على وجهه من النور، فأبى وقال:

والحل لآحل فأستبينه

يحمي الكريم عرضه ودينه

أما الحرام فالممات دونه

فكيف بالأمر الذي تبغينه

راود توبة بن الحمير ليلي الأخيلية مرةً عن نفسها، فاشمأزت منه وقالت:

فليس إليها ما حبيت سبيل

وأنت لأخرى صاحب و خليل

وذي حاجة قلنا له لاتبع بها

لنا صاحب لاينبغي أن نخونه

ابن ميادة:

وهن زوان في الحديث أوانس

كما كرهت صوت اللجام الشوامس

موانع لايعطين حبة خردل

ويكرهن أن يسمعن في اللهو ربية

آخر:

كظباء مكة صيدهن حرام

ويصدهن عن الخنا الإسلام

بيض أوانس ما هممن بربية

يحسبن من لين الكلام زوانياً

في الحديث المرفوع: "لا تكونن حديد النظر إلى ما ليس لك، فإنه لا يزين فرجك ما حفظت عينيك، وإن استطعت ألا تنظر إلى ثوب المرأة التي لا تحل لك فافعل ولن تستطيع ذلك إلا بإذن الله".
كان ابن المولى الشاعر المدني موصوفاً بالعفة وطيب الإزار، فأنشد عبد الملك شعراً له من جملته:

وأبكي فلا ليلى بكت من صباية

لباك ولا ليلى لذي البذل تبذل

وأخضع العتبي إذا كنت مذنباً

وإن أذنبت كنت الذي أتصل

فقال عبد الملك: من ليلى هذه؟ إن كانت حرة لازوجنكها، وإن كانت أمة لأشترينها لك بالغة ما بلغت، فقال: كلا يا أمير المؤمنين، ما كنت لأصعر وجهه حر أبداً في حرته ولا في أمته، وما ليلى التي آتست بها إلا قوسي هذه سميتها ليلى لأن الشاعر لا بد له من النسيب.

ابن الملووح المخنون:

بماء الندى من آخر الليل غابق
كما شيم من أعلى السحابة بارق

كأن على، أنيابها الخمر مجه
وماذقته إلا بعيني تفرساً

هذا مثل بيت الحماسة:

ولكنني فيما ترى العين فارس

بأعذب من فيها وماذقت طعمه

شاعر:

إلا نهاني الحياء والكرم
ولا مشيت بي لريبة قدم

ما إن دعاني الهوى لفاحشة
ولا إلى محرم مددت يدي

العباس بن الأحنف:

فعندكم شهوات السمع والبصر
عف الضمير ولكن فاسق النظر

أتأذنون لصب في زيارتكم
لايضمر السوء إن طال الجلوس به

قال بعضهم: رأيت امرأة مستقبلة البيت في الموسم، وهي في غاية الضر والنحافة رافعة يديها تدعو، فقلت لها: هل لك من حاجة؟ قالت: حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

ومالي زاد والسلام على نفسي

تزود كل الناس زاداً يقيمهم

ففعلت، وإذا أنا بفتى منهوك، فقال: أنا الزاد، فمضيت به إليها، فما زادوا على النظر والبكاء، ثم قالت له: انصرف مصاحباً، فقلت: ما علمت أن التقاء كما يقتصر فيه على هذا، فقالت: أمسك يا فتى، أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد.

قال بعضهم:

منه الحياء وخوف الله والحذر

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني

منه الفكاهة والتحديث والنظر

وليس لي في حرام منهم وطر

لاخير في لذة من بعدها سقر

وكم خلوت بمن أهوى فيقتعني

أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم

كذلك الحب لا إتيان معصية

قال محمد بن عبد الله بن طاهر لبنيه: اعشقوا تظرفوا، وعفوا تشرفوا.

وصف أعرابي امرأة طرقها، فقال: ما زال القمر يرينيها فلما غاب أرتنيه، فقليل: فما كان بينكما؟ قال: ما أقرب ما أحل الله مما حرم، إشارة في غير باس، ودنو من غير مساس، ولا وجع أشد من الذنوب. كثير عزة:

لو أبصره الواشي لقرت بلابله

وبالوعد حتى يسأم الوعد آمله

وأخاره لا نلتقي وأوائله

وإني لأرضى منك يا عز بالذي

بلا وبألا أستطيع وبالمنى

وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي

وقال بعض الظرفاء: كان أرباب الهوى يسرون فيما مضى، ويقنعون بأن يمضغ أحدهم لبناً قد مضغته محبوبته، أو يستاك بسواكها، ويرون ذاك عظيماً، واليوم يطلب أحدهم الخلوة وإرخاء الستور، كأنه قد أشهد على نكاحها أبا سعيد وأبا هريرة.

وقال أحمد بن أبي عثمان الكاتب:

وأقنع منها بالوعيد وبالزجر

وقالت معاذ الله من فعل ما حرم

وعرفت ما رخص الله في اللمم

وإني ليرضيني المرور ببابها

إذا قلت هاتي نولينى تبسمت

فما نولت حتى تصرعت حولها

فضحك وقال: إن كان وضاح لفقيهاً في نفسه.

قال آخر:

إذا كان لون الليل لون الطيالس

وقد نام عنها كل وال وحارس

جميعاً لم أمدد لها كف لأمس

فقلت بحق الله إلا أتيتنا

فجئت وما في القوم يقظان غيرها

فبتنا مبيتاً طيباً نستلذه

مرت امرأة حسناء بقوم من بني غير مجتمعين في ناد لهم، فرمقوها بأبصارهم، وقال قائل منهم: ما أكملها لولا أنها رسحاء! فالتفت إليهم، وقالت: والله يا بني نمير، ما أطعمم الله ولا الشاعر، قال الله تعالى: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم". وقال الشاعر:

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فغض الطرف إنك من نمير

فأخجلتهم، وقال أبو صخر الهذلي من شعر الحماسة:

لليلة منها تعود لنا
أشهى إلى نفسي ولو برحت
من غير ما رفت ولا إثم
مما ملكت ومن بني سهم

آخر:

وما نلت منها محرماً غير أنني
وألثم فاهاً آخذاً بقرونها
أقبل بساماً من الثغر أفلجا
وأترك حاجات النفوس تخرجاً

وأعف من هذا الشعر قول عبد بني الحسحاس على فسقه:

لعمر أبيها ما صبوت ولاصبت
سوى قبلة أستغفر الله ذنبها
إلي وإني من صبا لحليم
سأطعم مسكيناً لها وأصوم

وقال آخر:

ومجدولة جدل العناق كأنما
ضربت لها الميعاد ليست بكنة
سنا البرق في داجي الظلام ابتسامها
ولا جارة يخشى علي ذمامها
فلما التقينا قالت الحكم فاحتكم
فقلت معاذ الله أن أركب التي
سوى خلة هيهات منك مرامها
تبيد ويبقى في المعاد أثامها

قوله: ليست بكنة ولد ولا جارة يخشى علي ذمامها، مأخوذ من قول قيس بن الخطيم:

ومثلك قد أحببت ليست بكنة
ولا جارة ولا حليلة صاحب

وهذا الشاعر قد زاد عليه قوله: ولا حليلة صاحب.

وأنشد ابن مندويه لبعضهم:

أنا زاني اللسان والطرف
لا يراني الإله أشرب إلا
إلا أن قلبي يعاف ذاك ويأبى
كل ماحل شربه لي وطابا

آخر:

نلهو بهن كذا من غير فاحشة
لهو الصيام بتفاح البساتين

بشار بن برد:

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم
من راقب الناس لم يظفر بحاجته
ما في التزام ولا في قبلة حرج
وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

البيت الآخر مثل قول القائل:

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

من راقب الناس مات هماً

وفاز باللذة الجسور

أبو الطيب المتنبي:

وترى الفتوة والمروءة والأبوة

في كل مليحة ضراتها

هن الثلاث المانعاني لذتي

في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

إنني على شغفي بما في خمرها

لأعف عما في سراويلاتها

كان الصاحب رحمه الله يستهجن قوله: عما في سراويلاتها، ويقول: إن كثيراً من العهر أحسن من هذه العفة، ومعنى البيت الأول أن هذه الخلال الثلاث تراهن الملاح ضرائر لمن لأنهن يمنعهن عن الخلوة بالملاح والتمتع بهن. ثم قال: إن هذه الخلال هي التي تمنعه لا الخوف من تبعاتها، وقال قوم: هذا تمأون بالدين، ونوع من الإلحاد. وعندي أن هذا مذهب للشعراء معروف، لا يريدون به التهاون بالدين، بل المبالغة في وصف سجايهم وأخلاقهم بالطهارة، وأنهم يتركون القبيح لأنه قبيح، لا لورود الشرع به، وخوف العقاب منه. ويمكن أيضاً أن يريد بتبعاتها تبعات الدنيا، أي لا أخاف من قوم هذه المحبوبة التي أنست بها، ولا أشفق من حرهم وكيدهم، فأما عفة اليد وعفة اللسان فهما باب آخر. وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من ذلك في الأجزاء المتقدمة عند ذكرنا الورع.

وفي الحديث المرفوع: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذار ما به البأس".

وقال أبو بكر في مرض موته: إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأخذ لهم درهماً ولا ديناراً، وأكلنا من جريش الطعام، ولبسنا من خشن الثياب، وليس عندنا من فيء المسلمين إلا هذا الناضح، وهذا العبد الحبشي، وهذه القطيفة، فإذا قبضت فادفعوا ذلك إلى عمر ليضعه في بيت مال المسلمين، فلما مات حمل ذلك إلى عمر، فبكى كثيراً ثم قال: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده! قال سليمان بن داود: يا بني إسرائيل، أوصيكم بأمرين أفلح من فعلهما: لا تدخلوا أجوافكم إلا الطيب ولا تخرجوا من أفواهكم إلا الطيب.

وقال بعض الحكماء: إذا شئت أن تعرف ربك معرفة يقينية فاجعل بينك وبين المحارم حائطاً من حديد، فسوف يفتح عليك أبواب معرفته.

ومما يحكى من ورع حسان بن أبي سنان أن غلاماً له كتب إليه من الأهواز: إن قصب السكر أصابته السنة آفة فابتع ما قدرت عليه من السكر، فإنك تجد له ربحاً كثيراً فيما بعد، فابتاع، وطلب منه ما ابتاعه بعد قليل بربح ثلاثين ألف درهم، فاستقال البيع من صاحبه، وقال: إنه لم يعلم ما كنت أعلم حين اشتريته منه، فقال البائع: قد علمت الآن مقدار الربح، وقد طيبته لك وأحللتك، فلم يطمئن قلبه، وما زال حتى رده عليه.

يقال: إن غنم الغارة اختلطت بغنم أهل الكوفة، فتورع أبو حنيفة أن يأكل اللحم، وسأل كم تعيش الشاة؟ قالوا: سبع سنين، فترك أكل لحم الغنم سبع سنين.

ويقال: إن المنصور حمل إليه بدرة فرمى بها إلى زاوية البيت، فلما مات جاء بها ابنه حماد بن أبي حنيفة إلى أبي الحسن بن أبي قحطبة، وقال: إن أبي أوصاني أن أرد هذه عليك، وقال: إنها كانت عندي كالوديع، فاصرفها فيما أمرك الله به،

فقال أبو الحسن: رحم الله أبا حنيفة! لقد شح بدينه إذ سخت به نفوس أقوام.

وقال سفيان الثوري: انظر درهمك من أين هو، وصل في الصف الأخير.

جابر، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لكعب بن عجرة: "لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت، النار أولى به".
الحسن: لو وجدت رغيماً من حلال لأحرقت ثم سحقت ثم جعلته ذروراً، ثم داويت به المرضى.

عائشة، قالت: يا رسول الله، من المؤمن؟ قال: من إذا أصبح نظر إلى رغيفيه كيف يكتسبهما، قالت: يا رسول الله، أما إنهم لو كلفوا ذلك لتكلفوه، فقال لها: إنهم قد كلفوه، ولكنهم يعسفون الدنيا عسفاً.

حذيفة بن اليمان يرفعه: إن قوماً يجيئون يوم القيامة ولهم من الحسنات كأمثال الجبال، فيجعلها الله هباءً منثوراً، ثم يؤمر بهم إلى النار، فقليل: حلهم لنا يا رسول الله، قال: إنهم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون أهبة من الليل، ولكنهم كانوا إذا عرض عليهم الحرام وثبوا عليه.

الأصل: وقال رضي الله عنه: القناعة مال لا ينفد، قال: وقد روى بعضهم هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله. الشرح: قد تقدم القول في هذا المعنى، وقد تكررت هذه اللفظة بذاتها في كلامه رضي الله عنه، ومن جيد القول في القناعة قول الغزي:

لست محتاجاً إلى ثوب الجمال

والقنوع الملك، هذا ما بدا لي

أنا كالثعبان جلدي ملبسي

فالخمول العز واليأس الغنى

وقال أيضاً:

دنياه فالخلق في أرجوحة القدر

ولجة البحر لا تخلو من الكدر

لاتعجب لمن يهوى ويصعد في

واقنع بما قل فالأوشال صافية

الأصل: وقال رضي الله عنه لزياد بن أبيه وقد استخلفه لعبد الله بن العباس على فارس وأعمالها، في كلام طويل كان بينهما هما فيه عن تقديم الخراج: استعمل العدل، واحذر العسف والحييف، فإن العسف يعود بالجللاء، والحييف يدعو إلى السيف.

الشرح: قد سبق الكلام في العدل والجور.

وكانت عادة أهل فارس في أيام عثمان أن يطلب الوالي منهم خراج أملاكهم قبل بيع الثمار على وجه الاستسلاف، أو لأنهم كانوا يظنون أن أول السنة القمرية هو مبتدأ وجوب الخراج حملاً للخراج التابع لسنة الشمس على الحقوق الهلالية التابعة لسنة القمر، كأجرة العقار، وجوالي أهل الذمة، فكان ذلك يححف بالناس ويدعو إلى عسفهم وحيفهم.

وقد غلط في هذا المعنى جماعة من الملوك في كثير من الأعصار، ولم يعلموا فرق ما بين السنتين، ثم تنبه له قوم من أذكيا الناس فكبسوا وجعلوا السنين واحدة، ثم أهمل الناس الكبس، وانفرج ما بين السنة القمرية والسنة الخراجية التي هي سنة الشمس إنفراجاً كثيراً.

واستقصاء القول في ذلك لا يليق بهذا الموضوع، لأنه خارج عن فن الأدب الذي هو موضوع كتابنا هذا.

الأصل: وقال رضي الله عنه: أشد الذنوب ما استخف بها صاحبها .

الشرح: عظم المصيبة على حسب نعمة العاصي، ولهذا كان لطم الولد وجه الوالد كبيراً ليس كلطمة وجه غير الوالد. ولما كان البارئ تعالى أعظم المنعمين، بل لا نعمة إلا وهي في الحقيقة من نعمه، ومنسوبة إليه، كانت مخالفته، ومعصيته عظيمة جداً، فلا ينبغي لأحد أن يعصيه في أمر وإن كان قليلاً في ظنه، ثم يستقله ويستتهين به، ويظهر الإستخفاف وقلة الإحتفال بمواقفته، فإنه يكون قد جمع إلى المعصية معصية أخرى، وهي الإستخفاف بقدر تلك المعصية التي لو أمعن النظر لعلم أنها عظيمة، ينبغي له لو كان رشيداً أن يبكي عليها الدم فضلاً عن الدمع، فلهذا قال رضي الله عنه: أشد الذنوب ما استخف بها صاحبها.

الأصل: وقال رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

الشرح: تعليم العلم فرض كفاية، وفي الخبر المرفوع "من علم علماً وكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار". وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تعلموا العلم فإن تعلمه خشية الله، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قرية، لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والمحدث في الخلوة، والجلس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء".

ورئي واصل بن عطاء يكتب من صبي حديثاً، فقيل له: مثلك يكتب من هذا! فقال: أما إنني أحفظ له منه، ولكنني أردت أن أذيقه كأس الرياسة، ليدعوه ذلك إلى الإزدیاد من العلم. وقال الخليل: العلوم أقفال، والسؤالات مفاتيحها.

وقال بعضهم: كان أهل العلم يضمنون بعلمهم عن أهل الدنيا فيرغبون فيه ويبدلون لهم دنياهم، واليوم قد بذل أهل العلم علمهم لأهل الدنيا فزهدوا فيه وضنوا عنهم بدنياهم.

وقال بعضهم: إبدل علمك لمن يطلبه، وادع إليه من لا يطلبه، وإلا كان مثلك كمن أهديت له فاكهة فلم يطعمها ولم يطعمها حتى فسدت.

الأصل: وقال رضي الله عنه: شر الإخوان من تكلف له.

الشرح: إنما كان كذلك لأن الإخاء الصادق بينهما يوجب الإنسباط، وترك التكلف، فإذا احتيج إلى التكلف له فقد دل ذلك على أن ليس هناك إخاء صادق، ومن ليس بأخ صادق فهو من شر الإخوان.

وروى ابن نايقا في كتاب ملح المماحة، قال: دخل الحسن بن سهل على المأمون، فقال له: كيف علمك بالمروءة؟ قال: ما أعلم ما يريد أمير المؤمنين فاجيبه؟ قال: عليك بعمر بن مسعدة، قال: فوافيت عمراً وفي داره صناع، وهو جالس على آجرة ينظر إليهم، فقلت: إن أمير المؤمنين يأمر أن تعلمني المروءة، فدعا بآجرة فأجلسني عليها، وتحدثنا ملياً، وقد امتلأت غيظاً من تقصيره بي، ثم قال: يا غلام عندك شيء يؤكل؟ فقال: نعم، فقدم طبقاً لطيفاً، عليه رغيفان وثلاث

سكراجات، في إحداهن خل، وفي الأخرى مريء، وفي أخرى ملح، فأكلنا، وجاء الفراش فوضأنا، ثم قال: إذا شئت! فنهضت متحفظاً، ولم أودعه، فقال لي: إن رأيت أن تعود إلي في يوم مثله! فلم أذكر للمأمون شيئاً مما جرى، فلما كان في اليوم الذي وعدني فيه لقياه سرت إليه فاستؤذن لي عليه، فتلقاني على باب الدار، فعانقني، وقبل بين عيني، وقدمني أمامه، ومشى خلفي حتى أقعدني في الدست، وجلس بين يدي، وقد فرشت الدار، وزينت بأنواع الزينة، وأقبل يحدثني ويتنادر معي إلى أن حضر وقت الطعام، فأمر فقدمت أطباق الفاكهة، فأصبنا منها، ونصبت الموائد، فقدم عليها أنواع الأطعمة من حارها وباردها، وحلوها وحامضها، ثم قال: أي الشراب أعجب إليك؟ فاقترحت عليه، وحضر الوصائف للخدمة، فلما أردت الإنصراف حمل معي جميع ما أحفر من ذهب وفضة وفرش وكسوة، وقدم إلى البساط فرس بمركب ثقيل، فركبته وأمر من بحضرته من الغلمان الروم والوصائف حتى سعوا بين يدي، وقال: عليك بهم فهم لك. ثم قال: إذا زارك أخوك فلا تتكلف له، واقتصر على ما يحضرك، وإذا دعوته فاحتفل به واحتشد، ولا تدعن ممكناً، كفعلنا إياك عند زيارتك إيانا، وفعلنا يوم دعوناك.

الأصل: وقال رضي الله عنه: إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه .

الشرح: ليس يعني أن الاحتشام علة الفرقة بل هو دلالة وأمانة على الفرقة، لأنه لو لم يحدث عنه ما يقتضي الاحتشام لانبسط على عادته الأولى، فالإنقباض أمانة المباينة.

هذا آخر ما دونه الرضي أبو الحسن رحمه الله من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في نهج البلاغة، قد أتينا على شرحه بمعونة الله تعالى.

ونحن الآن ذاكرون ما لم يذكره الرضي مما نسبته قوم إليه، فبعضه مشهور عنه، وبعضه ليس بذلك المشهور، لكنه قد روي عنه، وعزي إليه، وبعضه من كلام غيره من الحكماء، ولكنه كالنظير لكلامه، والمضارع لحكمه، ولما كان ذلك متضمناً فنوناً من الحكمة نافعة، رأينا ألا نخلي هذا الكتاب عنه، لأنه كالتكملة والتممة لكتاب نهج البلاغة. وربما وقع في بعضه تكرار يسير شذ عن أذهاننا التنبيه له، لطول الكتاب وتباعد أطرافه، وقد عددنا ذلك كلمة كلمة، فوجدناه ألف كلمة.

فإن اعترضنا معترض وقال: فإذا كنتم قد أقرتم بأن بعضها ليس بكلام له، فلماذا ذكرتموه، وهل ذلك إلا نوع من التطويل! أجبناه وقلنا: لو كان هذا الاعتراض لازماً لوجب ألا نذكر شيئاً من الأشباه والنظائر لكلامه، فالعذر هاهنا هو العذر هناك، وهو أن الغرض بالكتاب الأدب والحكمة، فإذا وجدنا ما يناسب كلامه رضي الله عنه، وينصب في قلبه ويحتذي حذوه، ويتقبل منهاجه، ذكرناه على قاعدتنا في ذكر النظير عند الخوض في شرح نظيره. وهذا حين الشروع فيها خالية عن الشرح لجلائها ووضوحها، وإن أكثرها قد سبقت نظائره وأمثاله، وبالله التوفيق. الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان كثيراً ما يقول إذا فرغ من صلاة الليل: أشهد أن السماوات والأرض وما بينهما آيات تدل عليك، وشواهد تشهد بما إليه دعوت. كل ما يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية، موسوم بآثار نعمتك ومعالم تدبيرك. علوت بها عن

خلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها من وحشة الفكر، وكفاها رجم الإحتجاج، فهي مع معرفتها بك،
 وولها إليك، شاهدة بأنك لا تأخذك الأوهام، ولا تدركك العقول ولا الأبصار. أعوذ بك أن أشير بقلب أو لسان أو يد
 إلى غيرك، لا إله إلا أنت، واحداً أحداً، فرداً صمداً، ونحن لك مسلمون.
 إلهي، كفاني فخراً أن تكون لي رباً، وكفاني عزاً أن أكون لك عبداً، أنت كما أريد، فاجعلي كما تريد.
 ما خاف امرؤ عدل في حكمه، وأطعم من قوته، وذخر من دنياه لآخرته.
 أفضل على من شئت تكن أميره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.
 لولا ضعف اليقين ما كان لنا أن نشكو محنةً يسيرةً نرجو في العاجل سرعة زوالها، وفي الآجل عظيم ثوابها، بين أضعاف
 نعم لو اجتمع أهل السماوات والأرض على إحصائها ما وفوا بها فضلاً عن القيام بشكرها.
 من علامات المأمون على دين الله بعد الإقرار والعمل، الحزم في أمره، والصدق في قوله، والعدل في حكمه، والشفقة على
 رعيته، لا تخرجه القدرة إلى خرق، ولا اللين إلى ضعف، ولا تمنعه العزة من كرم عفو، ولا يدعوه العفو إلى إضاعة حق،
 ولا يدخله الإعطاء في سرف، ولا يتخطى به القصد إلى بخل، ولا تأخذه نعم الله ببطر.
 الفسق نجاسة في الهمة، وكلب في الطبيعة.
 قلوب الجهال تستفزها الأطماع، وترقن بالأمان، وتتعلق بالخدائع. وكثرة الصمت زمام اللسان، وحسم الفطنة، وإمالة
 الخاطر، وعذاب الحس.
 عداوة الضعفاء للأقوياء، والسفهاء للحلماء والأشرار للأخيار، طبع لا يستطيع تغييره.
 العقل في القلب، والرحمة في الكبد، والتنفس في الرئة.
 إذا أراد الله بعد خيراً حال بينه وبين شهوته، وحجز بينه وبين قلبه، وإذا أراد به شراً وكله إلى نفسه.
 الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو.
 رحم الله عبداً اتقى ربه، وناصح نفسه، وقدم توبته، وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان
 موكل به.
 مر بمقبرة فقال: السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، أنتم
 لنا فرط، ونحن لكم تبع نزوركم عما قليل، ونلحق بكم بعد زمان قصير. اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم. الحمد
 لله الذي جعل الأرض كفاتاً، أحياء وأمواتاً. والحمد لله الذي منها خلقنا، وعليها ممشاننا، وفيها معاشنا، وإليها يعيدنا،
 طوبى لمن ذكر المعاد، وقنع بالكفاف، وأعد للحساب! إنكم مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، ومضمنون أجداثاً،
 وكائنون رفاتاً، ومبعوثون أفراداً، ومدينون حساباً. فرحم الله امرأً اقترب فاعترف، ووجل فعقل، وحاذر فبادر، وعمر
 فاعتبر، وحذر فازدجر، وأجاب فأجاب، وراجع فتأب، واقتدى فاحتذى، وتأهب للمعاد، واستظهر بالزاد، ليوم رحيله،
 ووجه سبيله ولحال حاجته، وموطن فاقته، فقدم أمامه لدار مقامه، فمهدوا لأنفسكم على سلامة الأبدان وفسحة
 الأعمار. فهل ينتظر أهل غضارة الشباب إلا حواني الهرم، وأهل بضاضة الصحة إلا نوازل السقم، وأهل مدة البقاء إلا
 مفاجأة الفناء واقتراب الموت، ومشارفة الإنتقال، وإشفاء الزوال، وحفز الأنين ورشح الجبين، وامتداد العرنين، وعلز

القلق، وقيظ الرمق وشدة المضض، وغصص الجرض.

ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا.

إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش، وإياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، هو الذي سفك دماء الرجال، وهو الذي قطع أرحامها، فاجتنبوه.

إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا في ثلاث: صدقة جارية، وعلم كان علمه الناس فانتفعوا به، وولد صالح يدعو له. إذا فعلت كل شيء فكن كمن لم يفعل شيئاً.

سأله رجل، فقال: بماذا أسوء عدوي؟ فقال: بأن تكون على غاية الفضائل، لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فارة، أو كلب صيود، فهو لأن تذكر بالجميل وينسب إليك أشد مساءة. إذا قذفت بشيء فلا تتهاون به وإن كان كذباً، بل تحرز من طرق القذف جهدك، فإن القول وإن لم يثبت يوجب ريبةً وشكاً.

عدم الأدب سبب كل شر.

الجهل بالفضائل عدل الموت.

ما أصعب على من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلاً! من لم يقهر حسده كان جسده قبراً لنفسه.

أحمد من يغلظ عليك ويعظك، لا من يزيك ويتملقك.

اختر أن تكون مغلوباً وأنت منصف، ولا تختار أن تكون غالباً وأنت ظالم.

لا تهضمن محاسنك بالفخر والتكبر.

لا تنفك الدنية من شر، حتى يجتمع مع قوة السلطان قوة دينه وقوة حكمته.

إذا أردت أن تحمد فلا يظهر منك حرص على الحمد.

من كثر همه سقم بدنه، ومن ساء خلقه عذب نفسه، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، وذهبت كرامته، وأفضل إيمان العبد أن يعلم أن الله معه حيث كان.

كن ورعاً تكن من أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، ولا تكثرن الضحك، فإن كثرت تميت القلب، وأخرس لسانك، واجلس في بيتك، وابك على خطيئتك.

إن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، ولا يزول قدم ابن آدم يوم

القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعما عمل فيما

علم! في التجارب علم مستأنف، والاعتبار يفيدك الرشاد، وكفأك أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك، وعليك لأخيك مثل الذي عليه لك.

الغضب يثير كامن الحقد، ومن عرف الأيام لم يغفل الاستعداد، ومن أمسك عن الفضول عدلت رأيه العقول.

اسكت واستر تسلم. وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرفق! أكبر الفخر ألا تفخر.

ما أصعب اكتساب الفضائل وأيسر إتلافها! لا تنازع جاهلاً، ولا تشايح مائثاً، ولا تعاد مسلطاً.

الموت راحة للشيخ الفاني من العمل، وللشباب السقيم من السقم، وللغلام الناشئ من استقبال الكد والجمع لغيره، ولمن ركبته الدين لغرمائه، وللمطلوب بالوتر، وهو في جملة الأمر أمنية كل ملهوف مجهود.

ما كنت كاتمه عدوك من سر، فلا تطلعن عليه صديقك. واعرف قدرك يستعل أمرك، وكفى ما مضى مخبراً عما بقي! لا تعدن عدةً تحرقها قلة الثقة بنفسك، ولا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً.

اتق العواقب عالماً بأن للأعمال جزاءً وأجرًا، واحذر تبعات الأمور بتقدم الحزم فيها.

من استرشد غير العقل أخطأ منهاج الرأي، ومن أخطأته وجوه المطالب خذلته الحيل، ومن أحل بالصبر أحل به حسن العاقبة، فإن الصبر قوة من قوى العقل، وبقدر مواد العقل وقوتها يقوى الصبر.

الخطأ في إعطاء من لا يبتغي ومنع من يبتغي واحد.

العشق مرض ليس فيه أجر ولا عوض.

أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب، وقائل كلمة الزور ومن يمد بحبلها في الإثم سواء. الخصومة تمحق الدين.

الجهاد ثلاث: جهاد باليد، وجهاد باللسان، وجهاد بالقلب، فأول ما يغلب عليه من الجهاد يدك ثم لسانك، ثم يصير إلى القلب، فإن كان لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً نكس فجعل أعلاه أسفله.

ما أنعم الله على عبد نعمة فشكرها بقلبه إلا استوجب المزيد عليها قبل ظهورها على لسانه. الحاجة مسألة، والدعاء زيادة، والحمد شكر، والندم توبة.

لن واحلم تنبل، ولا تكن معجباً فتمقت وتمتهن.

ما لي أرى الناس إذا قرب إليهم الطعام ليلاً تكففوا إنارة المصاييح ليصروا ما يدخلون بطونهم، ولا يهتمون بغذاء النفس بأن ينبروا مصاييح ألبابهم بالعلم ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب في اعتقادهم وأعمالهم.

الفقر هو أصل حسن سياسة الناس، وذلك أنه إذا كان من حسن السياسة أن يكون بعض الناس يسوس، وبعضهم يساس، وكان من يساس لا يستقيم أن يساس من غير أن يكون فقيراً محتاجاً، فقد تبين أن الفقر هو السبب الذي به يقوم حسن السياسة.

لا تتكلم بين يدي أحد من الناس دون أن تسمع كلامه، وتقيس ما في نفسك من العلم إلى ما في نفسه، فإن وجدت ما في نفسه أكثر، فحينئذ ينبغي لك أن تروم زيادة الشيء الذي به يفضل على ما عندك.

إذا كان اللسان آلة لترجمة ما يخطر في النفس، فليس ينبغي أن تستعمله فيما لم يخطر فيها.

إذا كان الآباء هم السبب في الحياة، فمعلمو الحكمة والدين هم السبب في جودتها.

وشكا إليه رجل تعذر الرزق، فقال: مه، لا تجاهد الرزق جهاد المغالب، ولا تتكل على القدر إتكال المستسلم، فإن ابتغاء الفضل من السنة، والإجمال في الطلب من العفة، وليست العفة دافعةً رزقاً، ولا الحرص جالباً فضلاً، لأن الرزق مقسوم، وفي شدة الحرص إكتساب المآثم. إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه.

العمر أقصر من أن تعلم كل ما يحسن بك علمه، فتعلم الأهم فالأهم.
من رضي بما قسم له استراح قلبه وبدنه.
أبعد ما يكون العبد من الله إذا كان همه بطنه وفرجه.
ليس في الحواس الظاهرة شيء أشرف من العين فلا تعطوها سؤلها، فيشغلكم عن ذكر الله.
ارحموا ضعفاءكم فالرحمة سبب رحمة الله لكم.
إزالة الجبال أسهل من إزالة دولة قد أقبلت، فاستعينوا بالله واصبروا، فإن الأرض لله يورثها من يشاء.
قال له عثمان في كلام تلاحيا فيه حتى جرى ذكر أبي بكر وعمر: أبو بكر وعمر خير منك، فقال: أنا خير منك ومنهما،
عبدت الله قبلهما، وعبدته بعدهما.
أوثق سلم يتسلق عليه إلى الله تعالى أن يكون خيراً.
ليس الموسر من كان يساره باقياً عنده زماناً يسيراً، وكان يمكن أن يغتصبه غيره منه، ولا يبقى بعد موته له، لكن اليسار
على الحقيقة هو الباقي دائماً عند مالكة، ولا يمكن أن يؤخذ منه، ويبقى له بعد موته، وذلك هو الحكمة.
الشرف اعتقاد المن في أعناق الرجال.
يضر الناس أنفسهم في ثلاثة أشياء: الإفراط في الأكل إتكالاً على الصحة، وتكلف حمل ما لا يطاق إتكالاً على القوة،
والتفريط في العمل إتكالاً على القدر.
أحزم الناس من ملك جده هزله، وقهر رأيه هواه، وأعرب عن ضميره فعله، ولم يخدعه رضاه عن حظه، ولا غضبه عن
كيدته.
من لم يصلح خلأته، لم ينفع الناس تأديبه.
من اتبع هواه ضل، ومن حاد ساد، وخمود الذكر أجمل من ذميم الذكر.
لهب الشوق أخف محملاً من مقاساة الملالة.
بالرفق تنال الحاجة، وبحسن التأني تسهل المطالب.
عزيمة الصبر تطفئ نار الهوى، ونفي العجب يؤمن به كيد الحساد.
ما شيء أحق بطول سجن من لسان.
لا نذر في معصية، ولا يمين في قطيعة.
لكل شيء ثمرة، وثمره المعروف تعجيل السراح.
إياكم والكسل، فإنه من كسل لم يؤد لله حقاً.
احسبوا كلامكم من أعمالكم، وأقلوه إلا في الخير.
أحسنوا صحبة النعم فإنها تزول، وتشهد على صاحبها بما عمل فيها.
أكثرُوا ذكر الموت، ويوم خروجكم من قبوركم، ويوم وقوفكم بين يدي الله عز وجل، يهن عليكم المصاب .
بحسب مجاهدة النفوس وردّها عن شهواتها ومنعها عن مصافحة لذاتها ومنع ما أدت إليه العيون الطامحة من لحظاتها تكون

المثوبات والعقوبات، والحازم من ملك هواه، فكان بملكه له قاهرًا، ولما قدحت الأفكار من سوء الظنون زاجرًا، فمتى لم ترد النفس عن ذلك هجم عليها الفكر بمطالبة ما شغفت به، فعند ذلك تأنس بالآراء الفاسدة، والأطماع الكاذبة، والأمانى المتلاشية، وكما أن البصر إذا اعتل رأى أشباحاً وخيالات لا حقيقة لها، كذلك النفس إذا اعتلت بحب الشهوات وانطوت على قبيح الإرادات، رأت الآراء الكاذبة، فإلى الله سبحانه نرغب في إصلاح ما فسد من قلوبنا، وبه نستعين على إرشاد نفوسنا، فإن القلوب بيده يصرفها كيف شاء. لا تؤاخذ الفاجر، فإنه يزين لك فعله، ويود لو أنك مثله، ويحسن لك أقبح خصاله، ومدخله ومخرجه من عندك شين وعار ونقص، ولا الأحق فإنه يجهد لك نفسه ولا ينفعلك وربما أراد أن ينفعلك فضرك، سكوته خير لك من نطقه، وبعده خير لك من قربه، وموته خير لك من حياته، ولا الكذاب فإنه لا ينفعلك معه شيء، ينقل حديثك، وينقل الحديث إليك، حتى إنه ليحدث بالصدق فلا يصدق. ما استقصى كريم قط، قال تعالى في وصف نبيه: "وعرف بعضه وأعرض عن بعض". رب كلمة يخترعها حلیم مخافة ما هو شر منها، وكفى بالحلم ناصراً. من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً، ولا عن النار مهرباً: من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها. من استحي من الناس، ولم يستحي من نفسه فليس لنفسه عند نفسه قدر. غاية الأدب أن يستحي الإنسان من نفسه.

البلاغة النصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، وسن البصر بالحجة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وكانت الكناية أبلغ في الدرك وأحق بالظفر. إياك والشهوات، وليكن مما تستعين به على كفها علمك بأنها ملهية لعقلك، مهجنة لرأيك، شائنة لغرضك، شاكلة لك عن معاصم أمورك، مشتدة بما التبعة عليك في آخرتك. إنما الشهوات لعب، فإذا حضر اللعب غاب الجد، ولن يقام الدين وتصلح الدنيا إلا بالجد، فإذا نازعتك نفسك إلى اللهو واللذات، فاعلم أنها قد نرعت بك إلى شر مترع، وأرادت بك أفضح الفضح، فغالبا مغالبة ذلك، وامتنع منها امتناع ذلك، وليكن مرجعك منها إلى الحق، فإنك مهما تترك من الحق لا تتركه إلا إلى الباطل، ومهما تدع من الصواب لا تدعه إلا إلى الخطأ، فلا تدهنن هواك في اليسير فيطمع منك في الكثير. وليس شيء مما أوتيت فاضلاً عما يصلحك، وليس لعمرك وإن طال فضل عما ينوبك من الحق اللازم لك، ولا بمالك وإن كثر فضل عما يجب عليك فيه، ولا بقوتك وإن تمت فضل عن أداء حق الله عليك، ولا برأيك وإن حزم فضل عما لا تعذر بالخطأ فيه، فليمنعك علمك بذلك من أن تطيل لك عمراً في غير نفع، أو تضع لك مالا في غير حق أو أن تصرف لك قوة في غير عبادة، أو تعدل لك رأياً في غير رشد. فالحفظ الحفظ لما أوتيت، فإن بك إلى صغير ما أوتيت الكثير منه أشد الحاجة.

وعليك بما أضعته منه أشد الرزية، ولا سيما العمر الذي كل منفذ سواه مستخلف. وكل ذاهب بعده مرتجع. فإن كنت شاغلاً نفسك بلذة فلتكن لذتك في محادثة العلماء ودرس كتبهم، فإنه ليس سرورك بالشهوات بالغاً منك مبلغاً

إلا وإكبابك على ذلك، ونظرك فيه بالغه منك، غير أن ذلك يجمع إلى عاجل السرور تمام السعادة، وخلاف ذلك يجمع إلى عاجل الغي وخامة العقابة، وقديماً قيل: أسعد الناس أدركهم لهواه إذا كان هواه في رشده، فإذا كان هواه في غير رشده. فقد شقي بما أدرك منه. وقديماً قيل: عود نفسك الجميل، فباعتيك إياه يعود لذيذاً. وكل ثلاث ثلاث: الرزق بالحق، والحرمان بالعقل، والبلاء بالمنطق، ليعلم ابن آدم أن ليس له من الأمر شيء. ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك: عبدك، وزوجتك، وابنك.

وقد روينا هذه الكلمة لعمر فيما تقدم.

للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم قهمة، وغنيمتهم غلول، لا يعرفون المساجد إلا هجراً، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً، مستكبرون لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل صخب بالنهار.

الحسد حزن لازم، وعقل هائم، ونفس دائم، والنعمة على المحسود نعمة، وهي على الحاسد نقمة.

يا حملة العلم، أتحملونه! فإنما العلم لمن علم ثم عمل، ووافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم، لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يقعدون حلقاً، فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جلسائه أن يجلس إلى غيره، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله سبحانه.

تعلموا العلم صغاراً تسودوا به كباراً، تعلموا العلم ولو لغير الله، فإنه سيصير الله. العلم ذكر لا يحبه إلا ذكر من الرجال. ليس شيء أحسن من عقل زانه علم، ومن علم زانه حلم، ومن حلم زانه صدق، ومن صدق زانه رفق، ومن رفق زانه تقوى. إن ملاك العقل ومكارم الأخلاق صون العرض، والجزاء بالفرض، والأخذ بالفضل، والوفاء بالعهد، والإنجاز للوعد. ومن حاول أمراً بالمعصية كان أقرب إلى ما يخاف، وأبعد مما يرجو. إذا جرت المقادير بالمكاره سبقت الآفة إلى العقل فحيرته، وأطلقت الألسن بما فيه تلف الأنفس. لا تصحبوا الأشرار فإنهم يمنون عليكم بالسلامة منهم. لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم.

لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده، فإن الناس لا يسألون في كم فرغ من العمل، إنما يسألون عن جودة صنعته.

ليس كل ذي عين يبصر، ولا كل ذي أذن يسمع، فتصدقوا على أولي العقول الزممة، والألباب الحائرة، بالعلوم التي هي أفضل صدقاتكم، ثم تلا: "إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم اللاعنون".

من أتت عليه الأربعون من السنين قيل له: خذ حذرَكَ من حلول المقدور فإنك غير معذور، وليس أبناء الأربعين بأحق بالحذر من أبناء العشرين، فإن طال بهما واحد، وليس عن الطلب براقد، وهو الموت، فاعمل لما أمامك من الهول، ودع عنك زخرف القول.

سئل عن القدر فقال: أقصر أم أطيل؟ قيل: بل تقصر، فقال: جل الله أن يريد الفحشاء، وعز عن أن يكون له في الملك إلا ما يشاء.

من علم أنه يفارق الأحباب، ويسكن التراب، ويواجه الحساب، ويستغني عما ترك، ويفتقر إلى ما قدم، كان حرياً بقصر

الأمل، وطول العمل.

المؤمن لا تحتله كثرة المصائب، وتواتر النوائب عن التسليم لربه والرضا بقضائه، كالحمامة التي تؤخذ فراحها من وكرها ثم تعود إليه.

ما مات من أحياء علماء، ولا افتقر من ملك فهماً.

العلم صبغ النفس، وليس يفوق صبغ الشيء حتى ينظف من كل دنس.

اعلم أن الذي مدحك بما ليس فيك، إنما هو مخاطب غيرك، وثوابه جزاؤه قد سقطا عنك. إحسانك إلى الحر يحركه على المكافأة، وإحسانك إلى النذل يبعثه على معاودة المسألة.

الأشرار يتبعون مساوئ الناس، ويتركون محاسنهم، كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة.

موت الرؤساء أسهل من رياسة السفلة.

ينبغي لمن ولي أمر قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيته، وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظل العود قبل أن يستقيم ذلك العود.

إذا قوي الوالي في عمله حركته ولايته على حسب ما هو مركز في طبعه من الخير والشر. ينبغي للوالي أن يعمل بخصال ثلاث: تأخير العقوبة منه في سلطان الغضب، والأناة فيما يرتفيه من رأي، وتعجيل مكافأة المحسن بالإحسان، فإن في تأخير العقوبة إمكان العفو، وفي تعجيل المكافأة بالإحسان طاعة الرعية، وفي الأناة انفساح الرأي وحمد العاقبة ووضوح الصواب.

من حق العالم على المتعلم ألا يكثر عليه السؤال، ولا يعتنه في الجواب، ولا يلح عليه إذا كسل، ولا يفشي له سرّاً، ولا يغتاب عنده أحداً، ولا يطلب عثرته، فإذا زل تأنيت أوبته، وقبلت معذرتة، وأن تعظمه وتوقره ما حفظ أمر الله وعظمه، وألا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت غيرك إلى خدمته فيها. ولا تضجر من صحبتته، فإنما هو بمنزلة النحلة ينتظر متى يسقط عليك منها منفعة. وخصه بالتحية، واحفظ شاهده وغائبه، وليكن ذلك كله لله عز وجل، فإن العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد في سبيل الله. وإذا مات العالم تلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف منه. وطالب العلم تشييعه الملائكة حتى يرجع.

وصول معدم خير من جاف مكث، ومن أراد أن ينظر ما له عند الله فليُنظر ما لله عنده.

لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا أكثر الناس صلاةً ولا صياماً ولا حجاً ولا اعتماراً، ولكن عقلوا عن الله أمره فحسنت طاعتهم، وصح ورعهم وكمل يقينهم، ففاقوا غيرهم بالخطوة ورفيع الميزة.

ما من عبد إلا ومعه ملك يقيه ما لم يقدر له، فإذا جاء القدر خلاه وإياه.

إن الله سبحانه أدب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"، فلما علم أنه قد تأدب، قال له: "وإنك لعلی خلق عظيم"، فلما استحکم له من رسوله ما أحب قال: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا".

كنت أنا والعباس وعمر نتذاكر المعروف، فقلت أنا: خير المعروف ستره، وقال العباس: خيره تصغيره، وقال عمر: خيره

تعجيله، فخرج علينا رسول الله، فقال: فيم أنتم؟ فذكرنا له، فقال: خيره أن يكون هذا كله فيه.

العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح من الكريم.

إذا خبت الزمان كسدت الفضائل وضرت، ونفقت الرذائل ونفعت، وكان خوف الموسر أشد من خوف المعسر.

انظر إلى المنتصح إليك، فإن دخل من حيث يضار الناس فلا تقبل نصيحته وتحرز منه، وإن دخل من حيث العدل والصلاح فاقبلها منه.

أعداء الرجل قد يكونون أنفع من إخوانه، لأنهم يهدون إليه عيوبه فيتجنبها ويخاف شماتهم به فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه.

المرأة التي ينظر الإنسان فيها إلى أخلاقه هي الناس، لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم، ومساويه من أعدائه فيهم. انظر وجهك كل وقت في المرأة، فإن كان حسناً فاستقبح أن تضيف إليه فعلاً قبيحاً وتشينه به، وإن كان قبيحاً فاستقبح أن تجمع بين قبحين.

موقع الصواب من الجهال مثل موقع الخطأ من العلماء.

ذك قلبك بالأدب كما تذكى النار بالحطب.

كفر النعمة لؤم، وصحبة الجاهل شؤم.

عاديت من ماريت.

لا تصرم أحاك على ارتياب، ولا تقطعه دون استعتاب.

خير المقال ما صدقه الفعال.

إذا لم ترزق غنى فلا تحرمن تقوى.

من عرف الدنيا لم يحزن للبلوى.

دع الكذب تكراً إن لم تدعه تأثماً.

الدنيا طواحة طراحة فضاحة، آسية جراحة.

الدنيا حمة المصائب، مرة المشارب، لا تمتع صاحباً بصاحب.

المعتذر من غير ذنب، يوجب على نفسه الذنب.

من كسل لم يؤد حقاً.

كثرة الجدال تورث الشك.

خير القلوب أوعاها.

الحياء لباس سابغ، وحجاب مانع، وستر من المساوىء واق، وحليف للدين، وموجب للمحبة، وعين كائلة تذود عن الفساد، وتنهى عن الفحشاء. والعجلة في الأمور مكسبة للمذلة، وزمام للندامة، وسلب للمروءة، وشين للحجى، ودليل على ضعف العقيدة.

إذا بلغ المرء من الدنيا فوق قدره تنكرت للناس أخلاقه.

لا تصحب الشرير فإن طبعك يسرق من طبعه شراً وأنت لا تعلم.

موت الصالح راحة لنفسه، وموت الطالح راحة للناس.

ينبغي للعاقل أن يتذكر عند حلاوة الغذاء مرارة الدواء.

إن حسدك أخ من إخوانك على فضيلة ظهرت منك فسعى في مكروهك فلا تقابله بمثل ما كافحك به، فتعذر نفسه في الإساءة إليك، وتشرع له طريقاً إلى ما يحبه فيك، لكن اجتهد في التزيد من تلك الفضيلة التي حسدك عليها، فإنك تسوء من غير أن توجده حجةً عليك.

إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره، فإنك تقف من مشورته على عدله وجوره، وخيره وشره.

يجب عليك أن تشفق على ولدك أكثر من إشفاقه عليك.

زمان الجائر من السلاطين والولاة أقصر من زمان العادل، لأن الجائر مفسد، والعادل مصلح، وإفساد الشيء أسرع من إصلاحه.

إذا خدمت رئيساً فلا تلبس مثل ثوبه، ولا تتركب مثل مركوبه، ولا تستخدم كخدمه، فعساك تسلم منه.

لا تحدث بالعلم السفهاء فيكذبوك، ولا الجهال فيستقلوك، ولكن حدث به من يتلقاه من أهله بقبول وفهم يفهم عنك ما تقول، ويكتم عليك ما يسمع، فإن لعلمك عليك حقاً، كما أن عليك في مالك حقاً: بذله لمستحقه، ومنعه عن غير مستحقه.

اليقين فوق الإيمان، والصبر فوق اليقين، ومن أفرط رجاؤه غلبت الأمانى على قلبه واستعبدته. إياك وصاحب السوء، فإنه كالسيف كالمسلول يروق منظره، ويقبح أثره.

يا بن آدم، احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى الموت فيها فلا تجده.

من أخطأه سهم المنية قيده الهرم.

من سمع بفاحشة فأبداها كان كمن أتاها.

العاقل من اهتم رأيه ولم يثق بما سولته له نفسه.

من سامح نفسه فيما يجب أتعبها فيما لا يجب.

كفى ما مضى مخبراً عما بقي، وكفى عبراً لذوي الألباب ما جربوا.

أمر لا تدري متى يغشاك، ما يمنعك أن تستعد له قبل أن يفجأك! ليس في البرق الخاطف مستمتع لمن يخوض في الظلمة.

إذا أعجبك ما يتوآصفه الناس من محاسنك، فانظر فيما بطن من مساوئك، ولتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك.

من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك.

إذا تشبه صاحب الرياء بالمخلصين في الهيئة كان مثل الوارم الذي يوهم الناس أنه سمين، فيظن الناس ذلك فيه وهو يستر ما يلقي من الألم التابع للورم.

إذا قويت نفس الإنسان انقطع إلى الرأي، وإذا ضعفت انقطع إلى البخت.

الرغبة إلى الكريم تحركه على البذل، وإلى الخسيس تغريه بالمنع.

خيار الناس يترفعون عن ذكر معائب الناس، ويتهمون المخبر بها، ويؤثرون الفضائل، ويتعصبون لأهلها، ويستعرضون مآثر الرؤساء، وإفضالهم عليهم، ويطالبون أنفسهم بالمكافأة عليها وحسن الرعاية لها.

لكل شيء قوت، وأنتم قوت الهوام، ومن مشى على ظهر الأرض فإن مصيره إلى بطنها.

من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه، وحنينه إلى أوطانه، وحفظه قديم إخوانه.

ومن دعائه: اللهم إن كنا قد قصرنا عن بلوغ طاعتك فقد تمسكنا من طاعتك بأحبها إليك، لا إله إلا أنت جاءت بالحق من عندك.

أصاب الدنيا من أمنها وأصاب الدنيا من حذرها.

ووقف على قوم أصيبوا بمصيبه، فقال: إن تجزعوا فحق الرحم بلغتكم، وإن تصبروا فحق الله أدبكم.

مكارم الأخلاق عشر خصال: السخاء، والحياء، والصدق، وأداء الأمانة، والتواضع، والغيرة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والشكر.

من أداء الأمانة المكافأة على الصنيعة لأنها كالوديعة عندك.

الخير النفس تكون الحركة في الخير عليه سهلة متيسرة، والحركة في الإضرار عسرة بطيئة، والشرير بالضد من ذلك.

البخلاء من الناس يكون تغافلهم عن عظيم الجرم أسهل عليهم من المكافأة على يسير الإحسان. مثل الإنسان الحصيف مثل الجسم الصلب الكثيف، يسخن بطيئاً، وتبرد تلك السخونة بأطول من ذلك الزمان.

ثلاثة يرحمون: عاقل يجري عليه حكم جاهل، وضعيف في يد ظالم قوي، وكريم قوم احتاج إلى لئيم.

من صحب السلطان وجب أن يكون معه كراكب البحر، إن سلم بجسمه من الغرق لم يسلم بقلبه من الفرق.

لا تقبلن في استعمال عمالك وأمرائك شفاعاً إلا شفاعاً الكفاية والأمانة.

إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة، لأنه باستشارتك قد خرج من عدواتك ودخل في مودتك.

العدل صورة واحدة، والجور صور كثيرة، ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحري العدل، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها، وإن الإصابة تحتاج إلى ارتياض وتعهد، والخطأ لا يحتاج إلى شيء من ذلك.

لا يخطئ المخلص في الدعاء إحدى ثلاث: ذنب يغفر، أو خير يعجل، أو شر يؤجل.

لا ينتصف ثلاثة من ثلاثة: بر من فاجر، وعاقل من جاهل، وكريم من لئيم.

أشرف الملوك من لم يخالطه البطر، ولم يحل عن الحق، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً. وخير الأصدقاء من لم يكن على إخوانه مستصعباً، وخير الأخلاق أعونها على التقى والورع.

أربع القليل منهن كثير: النار، والعداوة، والمرض، والفقر.

أربعة من الشقاء: جار سوء، وولد سوء، وامرأة سوء، والمزل الضيق.

أربعة تدعو إلى الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان الصدقة، وبر الوالدين، والإكثار من قول لا إله إلا الله. لا تصحب الجاهل، فإن فيه خصالاً، فاعرفوه بها: يغضب من غير غضب، ويتكلم في غير نفع، ويعطي في غير موضع الإعطاء، ولا يعرف صديقه من عدوه، ويفشي سره إلى كل أحد. إياك ومواقف الاعتذار، فرب عذر أثبت الحجة على صاحبه وإن كان بريئاً.

الصراط ميدان يكثر فيه العثار، فالسالم ناج، والعائر هالك. لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أولو الفضل. إن لله عبداً في الأرض كأنما رأوا أهل الجنة في جنتهم وأهل النار في نارهم: اليقين وأنواره لامعة على وجوههم، قلوبهم محزونة، وشروهم مأمونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة لراحة طويلة، أما الليل فصافون أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى الله سبحانه بأدعيتهم، قد حلا في أفواههم، وحلا في قلوبهم طعم مناجاته ولذيق الخلوة به، قد أقسم الله على نفسه بجلال عزته ليورثهم المقام الأعلى في مقعد صدق عنده، وأما نهارهم فحلما علماء، بررة، أتقياء، كالقذاح ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى، وما بالقوم من مرض، أو يقول: قد حولطوا، ولعمري لقد خالطهم عظيم جليل. عاتبه عثمان فاكتر وهو ساكت، فقال: مالك لا تقول! قال: إن قلت لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب. بليت في حرب الجمل بأشد الخلق شجاعة، وأكثر الخلق ثروة وبذلاً، وأعظم الخلق في الخلق طاعة، وأوفى الخلق كيداً وتكثراً، بليت بالزبير، لم يرد وجهه قط، ويبيع بن منه يحمل المال على الإبل الكثيرة ويعطي كل رجل ثلاثين ديناراً وفرساً على أن يقاتلني، وبعائشة ما قالت قط بيدها هكذا إلا واتبعتها الناس، وبطلحة لا يدرك غوره، ولا يطال مكره. بعث عثمان بن حنيف إلى طلحة والزبير، فعاد فقال: يا أمير المؤمنين، جئتكم بالخبيثة، فقال: كلا! أصبت خيراً وأجرت، ثم قال: إن من العجب إنقيادهما لأي بكر وعمر وخلافهما علي، أما والله إنهما ليعلمان أني لست بدون واحد منهما، اللهم عليك بهما.

الرزق مقسوم، والأيام دول، والناس شرع سواء، آدم أبوهم، وحواء أمهم. قوت الأجسام الغذاء، وقوت العقول الحكمة، فمتى فقد واحد منهما قوته بار واضمحل. الصبر على مشقة العباد يترقى بك إلى شرف الفوز الأكبر.

الروح حياة البدن والعقل حياة الروح.

حقيق بالإنسان أن يخشى الله بالغيب، ويحرس نفسه من العيب، ويزداد خيراً مع الشيب. أفضل الولاة من بقي بالعدل ذكره، واستمده من يأتي بعده.

قدم العدل على البطش تظفر بالحب، ولا تستعمل الفعل حيث ينجع القول.

البخيل يسخو من عرضه بمقدار ما ييخل به من ماله، والسخي ييخل من عرضه بمقدار ما يسخو به من ماله. فضل العقل على الهوى، لأن العقل يملكك الزمان، والهوى يستعبدك للزمان. كل ما حملت عليه الحر احتمله، ورآه زيادة في شرفه، إلا ما حطه جزءاً من حريته، فإنه يأباه ولا يجيب إليه.

إذا منعك اللئيم البر مع إعظامه حقك، كان أحسن من بذل السخي لك إياه مع الإستخفاف بك. الملك كالنهر العظيم، تستمد منه الجداول، فإن كان عذباً عذبت، وإن كان ملحاً ملحت. الفرق بين السخاء والتبذير أن السخي يسمح بما يعرف مقداره ومقدار الركبة فيه إليه، ويضعه بحيث يحسن وضعه، وتزكو عارفته، والمبذر يسمح بما لا يوازن به رغبة الراغب، ولا حق القاصد، ولا مقدار ما أولى، ويستفزه لذلك خطرة من خطراته، والتصدي لإطراء فطر له بينهما بون بعيد. لا تلاج الغضببان، فإنك تقلقه باللجاج، ولا ترده إلى الصواب. لا تفرح بسقطة غيرك، فإنك لا تدري ما تتصرف الأيام بك! قليل العلم إذا قر في القلب كالطل يصيب الأرض المطمئنة فتعشب.

مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها. المؤمن إذا نظر اعتبر، وإذا سكت تفكر، وإذا تكلم ذكر، وإذا استغنى شكر، وإذا أصابته شدة صبر، فهو قريب الرضا، بعيد السخط، يرضيه عن الله اليسير، ولا يسخطه البلاء الكثير، قوته لا تبلغ به، ونيته تبلغ، مغموسة في الخير يده، ينوي كثيراً من الخير، ويعمل بطائفة منه، ويتلهف على ما فاتته من الخير كيف لم يعمل به! والمنافق إذا نظر لها، وإذا سكت سها، وإذا تكلم لغا، وإذا أصابه شدة شكا، فهو قريب السخط بعيد الرضا، يسخطه على الله اليسير، ولا يرضيه الكثير، قوته تبلغ، ونيته لا تبلغ، مغموسة في الشر يده، ينوي كثيراً من الشر، ويعمل بطائفة منه فيتلهف على ما فاتته من الشر كيف لم يأمر به، وكيف لم يعمل به! على لسان المؤمن نور يسطع، وعلى لسان المنافق شيطان ينطق. سوء الظن يدوي بالقلوب، ويتهم المأمون ويوحش المستأنس، ويغير مودة الإخوان. إذا لم يكن في الدنيا إلا محتاج فأغنى الناس أقنعهم بما رزق.

قيل له: إن درعك صدر لا ظهر لها، إنا نخاف أن تؤتى من قبل ظهرك، فقال: إذا وليت فلا واءلت. أشد الأشياء الإنسان، لأن أشدها - فيما يرى - الجبل، والحديد ينحت الجبل، والنار تاكل الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والريح يفرق السحاب، والإنسان يتقي من الريح. إنما الناس في نفس معدود، وأمل ممدود، وأجل محدود، فلا بد للأجل أن يتناهى، وللنفس أن يحمى، وللأمل أن ينقضي، ثم قرأ: "وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين".

اللهم لا تجعل الدنيا لي سجنًا، ولا فراقها علي حزنًا، أعوذ بك من دنيا تحرمي الآخرة، ومن أمل يحرمي العمل، ومن حياة تحرمني خير الممات.

تعطروا بالإستغفار لا تفضحكم رائحة الذنوب.

للكبات غايات تنتهي إليها، ودواؤها الصبر عليها، وترك الحيلة في إزالتها، فإن الحيلة في إزالتها قبل انقضاء مدتها سبب لزيادتها! لا يرضى عنك الحاسد حتى يموت أحدكما.

لا يكون الرجل سيد قومه حتى لا يبالي أي ثوبه لبس! كتب إلى عامل له: إعمل بالحق ليوم لا يقضى فيه إلا بالحق.

نظر إلى رجل يغتاب آخر عند ابنه الحسن، فقال: يا بني نزه سمعك عنه، فإنه نظر إلى أحبب ما في وعائه فأفرغه في وعائك.

احذروا الكلام في مجالس الخوف، فإن الخوف يذهل العقل الذي منه نستمد، ويشغله بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذي نروم نصرته. واحذر الغضب ممن يحملك عليه، فإنه مميت للخواطر، مانع من التثبت. واحذر من تبغضه فإن بغضك له يدعوك إلى الضجر به، وقليل الغضب كثير في أذى النفس والعقل، والضجر مضيق للصدر، مضعف لقوى العقل، واحذر المحافل التي لا إنصاف لأهلها في التسوية بينك وبين خصمك في الإقبال والإستماع، ولا أدب لهم بمنعهم من جور الحكم لك وعليك. واحذر حين تظهر العصبية لخصمك بالإعتراض عليك وتشديد قوله وحجته، فإن ذلك يهيج العصبية، والإعتراض على هذا الوجه يخلق الكلام، ويذهب بحجة المعاني. واحذر كلام من لا يفهم عنك فإنه يضجرك واحذر استصغار الخصم فإنه يمنع من التحفظ، ورب صغير غلب كبيراً! لا تقبل الرياسة على أهل مدينتك، فإنهم لا يستقيمون لك إلا بما تخرج به من شرط الرئيس الفاضل.

لا تهزأ بخطأ غيرك، فإن المنطق لا يملكه، وأقلل من الخطأ الذي أنت فيه بقدر الصبر، واجعل العقل والحق إماميك تنل البغية بهما.

الرأي يريك غاية الأمر مبدأه.

الخير من الناس من قدر على أن يصرف نفسه كما يشاء ويدفعها عن الشرور، والشرير من لم يكن كذلك. السلطان الفاضل هو الذي يحرس الفضائل، ويجود بها لمن دونه، ويرعاها من خاصته وعامته، حتى تكثر في أيامه، ويتحسن بها من لم تكن فيه.

للكریم رباطان: أحدهما الرعاية لصديقه وذوي الحرمة به، والآخر الوفاء لمن ألزمه الفضل ما يجب له عليه.

إذا تحركت صورة الشر ولم تظهر ولدت الفرع، فإذا ظهرت ولدت الألم، وإذا تحركت صورة الخير ولم تظهر ولدت الفرع، فإذا ظهرت ولدت اللذة.

الفرق بين الإقتصاد والبخل، أن الإقتصاد تمسك الإنسان بما في يده خوفاً على حريته وجاهه من المسألة، فهو يضع الشيء موضعه، ويصبر عما لا تدعو ضرورة إليه، ويصل صغير بره بعظيم بشره، ولا يستكثر من المودات خوفاً من فرط الإجحاف به، والبخل لا يكافئ على ما يسدى إليه، ويمنع أيضاً اليسير من استحق الكثير، ويصبر لصغير ما يجري عليه على كثير من الذلة.

لا تحتقرن صغيراً يمكن أن يكبر، ولا قليلاً يمكن أن يكثر.

ما زلت مظلوماً منذ قبض الله نبيه حتى يوم الناس هذا، ولقد كنت أظلم قبل ظهور الإسلام، ولقد كان أخي عقيل يذنب أخي جعفر فيضربني. لو كسرت لي الوسادة لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقاتهم، حتى تزهرك تلك القضايا إلى الله عز وجل وتقول: يا رب، إن علياً قضى بين خلقك بقضائك. مر بدار بالكوفة في مراد تبني فوقعت منها شظية على صلعتة فأدمتها، فقال: ما يومي من مراد بواحد! اللهم لا ترفعها،

قالوا: فو الله لقد رأينا تلك الدار بين الدور كالشاة الجماء بين الغنم ذوات القرون.
أقتل الأشياء لعدوك ألا تعرفه أنك اتخذته عدواً.
الخبرة في ترك الطيرة.

قيل له في بعض الحروب: إن جالت الخيل أين نطلبك؟ قال: حيث تركتموني.
شفيع الذنب إقراره، وتوبته اعتذاره.

قصم ظهري رجلاً: جاهل متنسك وعالم متهتك.
ألا أخبركم بذات نفسي! أما الحسن ففتى من الفتيان، وصاحب جفنة وخوان، ولو التقت حلقتا البطان لم يغن عنكم في
الحرب كناء عصفور، وأما عبد الله بن جعفر فصاحب هو وظل باطل، وأما أنا والحسين فنحن منكم وأنتم منا.
قال في المنبرية: صار ثمنها تسعاً. على البديهة وهذا من العجائب.

جاء الأشعث إليه وهو على المنبر، فجعل يتخطى رقاب الناس حتى قرب منه ثم قال. يا أمير المؤمنين، غلبتنا هذه الحمراء
على قربك يعني العجم - فركض المنبر برجله، حتى قال صعصعة بن صوحان: ما لنا وللأشعث! ليقولن أمير المؤمنين
رضي الله عنه اليوم في العرب قولاً لا يزال يذكر، فقال رضي الله عنه: من يعذرني من هؤلاء الضيافة! يتمرغ أحدهم
على فراشه تمرغ الحمار، ويهجر قوماً للذكر، أفتأمروني أن أطردهم! ما كنت لأطردهم فأكون من الجاهلين! أما والذي
فلق الحبة، وبرأ النسمة، ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً.

كان إذا رأى ابن ملجم يقول: أريد حياته.. البيت. فيقال له: فاقتله، فيقول: كيف أقتل قاتلي! إلهي ما قدر ذنوب أقابل
بها كرمك، وما قدر عبادة أقابل بها نعمك! وإني لأرجو أن تستغرق ذنوبي في كرمك، كما استغرقت أعمالي في نعمك.

إذا غضب الكريم فألن له الكلام، وإذا غضب اللئيم فخذ له العصا.

غضب العاقل في فعله، وغضب الجاهل في قوله.

رأى رجلاً يحدث منكر الحديث، فقال: يا هذا، أنصف أذنك من فمك، فإنما جعل الأذنان اثنتين، والفم واحداً، لتسمع
أكثر مما تقول.

إياك وكثرة الاعتذار، فإن الكذب كثيراً ما يخالط المعاذير.

اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك.

سل مسألة الحمقى واحفظ حفظ الأكياس.

مروا الأحداث بالمرء والجدال، والكهول بالفكر، والشيوخ بالصمت.

عود نفسك الصبر على جليس السوء، فليس يكاد يخطئك.

يا بني إن الشر تاركك إن تركته.

لا تطلبوا الحاجة إلى ثلاثة: إلى الكذوب، فإنه يقرها وإن كانت بعيدة، ولا إلى أحق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا
إلى رجل له إلى صاحب الحاجة حاجة، فإنه يجعل حاجتك وقاية لحاجته.

إياك وصدر المجلس فإنه مجلس قلعة.

احذروا صولة الكريم إذا جاع، وصوله اللئيم إذا شبع.

سرك دمك فلا تجرينه إلا في أوداجك.

وسئل عن الفرق بين الغم والخوف، فقال: الخوف مجاهدة الأمر المخوف قبل وقوعه، والغم ما يلحق الإنسان من وقوعه.

المعروف كثر فانظر عند من تودعه.

إذا أرسلت لبعر فلا تأت بتمر فيؤكل تمرك وتعنف على خلافك.

إذا وقع في يدك يوم السرور فلا تخله فإنك إذا وقعت في يد يوم الغم لم يخلك.

إذا أردت أن تصادق رجلاً فانظر من عدوه.

الإنقباض من الناس مكسبة للعداوة، والإنبساط مجلبة لقرين السوء، فكن بين المنقبض والمسترسل، فإن خير الأمور أوساطها.

أنا عبد الله، وأخو رسول الله، لا يقولها بعدي إلا كذاب. أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيدي فهزها، وقال:

ما أول نعمة أنعم الله بها عليك؟ قلت: أن خلقتني حياً، وأقدرني، وأكمل حواسي ومشاعري وقواي، قال: ثم ماذا؟ قلت:

أن جعلني ذكراً، ولم يجعلني أنثى، قال والثالثة: قلت: أن هداني للإسلام، قال: والرابعة، قلت: "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها".

اللهم إني أسألك إخبات المختبين، وإخلاص الموقنين، ومرافقة الأبرار، والعزيمة في كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

لما ضربه ابن ملجم وأوصى ابنه بما أوصاهما قال لابن الحنفية: هل فهمت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم، قال: فإني أوصيك بمثله وبتوقير أخويك، واتباع أمرهما، وألا تبرم أمراً دونهما، ثم قال لهما: أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه فأحياه.

أما هذا الأعور - يعني الأشعث - فإن الله لم يرفع شرفاً إلا حسده، ولا أظهر فضلاً إلا عابه وهو يمين نفسه ويخدعها، يخاف ويرجو، فهو بينهما لا يثق بواحد منهما، وقد من الله عليه بأن جعله جباناً، ولو كان شجاعاً لقتله الحق، وأما هذا الأكثف عند الجاهلية - يعني جرير بن عبد الله البجلي - فهو يرى كل أحد دونه، ويستصغر كل أحد ويحتقره، قد ملئ ناراً، وهو مع ذلك يطلب رئاسة، ويروم إمارة، وهذا الأعور يغويه ويطغيه، إن حدثه كذبه، وإن قام دونه نكص عنه، فهما كالشيطان إذ قال للإنسان: اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين.

بلوغ أعلى المنازل بغير استحقاق من أبر أسباب الهلكة.

الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم يجاوز الأذان.

الكرم حسن الفطنة، واللؤم سوء التغافل.

أسوأ الناس حالاً من اتسعت معرفته، وبعدت همته، وضائق قدرته.

أمران لا ينفكان من الكذب: كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

عادة النوكى الجلوس فوق القدر، والمجيء في غير الوقت.

العافية الملك الخفي.

سوء حمل الغنى يورث مقتاً، وسوء حمل الفاقة يضع شرفاً.

لا ينبغي لأحد أن يدع الحزم لظفر ناله عاجز، ولا يسامح نفسه في التفريط لنكبة دخلت على حازم.

ليس من حسن التوكل أن يقال العاثر عثرة، ثم يركبها ثانية.

سوء القالة في الإنسان إذا كان كذباً نظير الموت لفساد دنياه، فإن كان صدقاً فأشد من الموت لفساد آخرته.

ترضى الكرام بالكلام، وتصاد اللئام بالمال، وتستصلح السفلة بالهوان.

لا يزال المرء مستمراً ما لم يعثر، فإذا عثر مرة لج به العثار ولو كان في جدد.

التواضع كالوهدة يجتمع فيها قطرها وقطر غيرها، والمتكبر كالربوة لا يقر عليها قطرها، ولا قطر غيرها.

لا يصبر على الحرب ويصدق في اللقاء إلا ثلاثة: مستبصر في دين، أو غيران على حرمة، أو ممتعض من ذل.

مجاوزتك ما يكفيك فقر لا منتهى له.

قيل له: أي الأمور أعجل عقوبة، وأسرع لصاحبها صرعة؟ فقال: ظلم من لا ناصر له إلا الله، ومجازاة النعم بالتقصير،

واستطالة الغني على الفقير.

الجماع للمحن جاع، وللخيرات مناع، حياء يرتفع، وعورات تجتمع، أشبه شيء بالجنون، ولذلك حجب عن العيون،

نتيجته ولد فتون، إن عاش كد، وإن مات هد.

ما شيء أهون من ورع، وإذا رابك أمر فدعه.

إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه عملاً يقربني إلى الله، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم. أشرف الأشياء العلم، والله

تعالى عالم يحب كل عالم.

ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم! بل أي شيء فات من أدرك العلم! لا يسود الرجل حتى لا يبالي في أي ثوبيه

ظهر.

سمع رجلاً يدعو لصاحبه، فقال: لا أراك الله مكروهاً، فقال: إنما دعوت له بالموت، لأن من عاش في الدنيا لا بد أن يرى

المكروه.

من صفة العاقل ألا يتحدث بما يستطيع تكذيبه فيه.

السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره.

ذو الهمة وإن حط نفسه يأبى إلا علواً، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها، وتأبى إلا ارتفاعاً. الدين غل الله في أرضه، إذا

أراد أن يذل عبداً جعله في عنقه.

العاقل إذا تكلم بكلمة أتبعها حكمة ومثلاً، والأحمق إذا تكلم بكلمة أتبعها حلفاً.

الحركة لقاح الجد العظيم.

ثلاثة لا يستحي من الحتم عليها: المال لنفي التهمة، والجوهر لنفاسته، والدواء للاحتياط من العدو.

إذا أيسرت فكل الرجال رجالك، وإذا أعسرت أنكرك أهلك.

من الحكمة جعل المال في أيدي الجهال، فإنه لو خص به العقلاء لامت الجهال جوعاً، ولكنه جعل في أيدي الجهال، ثم استتر لهم عنه العقلاء بلطفهم وفطنتهم.

ما رد أحد أحداً عن حاجة إلا وتبين العز في قفاه، والذل في وجهه.

ابتداء الصنيعة نافلة، وربما فريضة.

الحاسد المبطن للحسد كالنحل يمج الدواء، ويطن الداء.

الحاسد يرى زوال نعمتك نعمة عليه.

التواضع إحدى مصايد الشرف.

تواضع الرجل في مرتبته ذب للشماتة عنه عند سقطته.

رب صلف أدى إلى تلف.

سوء الخلق يعدي، وذاك أنه يدعو صاحبك إلى أن يقابلك بمثله.

المروءة التامة مباينة العامة.

أسوأ ما في الكريم أن يمنحك نداءه، وأحسن ما في اللئيم أن يكف عنك أذاه.

السفلة إذا تعلموا تكبروا، وإذا تمولوا استطالوا، والعلية إذا تعلموا تواضعوا، وإذا افتقروا صالوا.

ثلاث لا يستصلح فسادهن بحيلة أصلاً: العداوة بين الأقارب، وتحاسد الأكفاء، وركاكة الملوك. السخي شجاع القلب، والبخيل شجاع الوجه.

العزلة توفر العرض وتستتر الفاقة، وترفع ثقل المكافأة.

ما احتنتك أحد قط إلا أحب الخلوة والعزلة.

خير الناس من لم تجربه.

الكريم لا يلين على قسر، ولا يقسو على يسر.

المرأة إذا أحببتك آذتك، وإذا أبغضتك خانتك، وربما قتلتك، فحبها أذى، وبغضها داء بلا دواء. المرأة تكتم الحب أربعين سنة، ولا تكتم البغض ساعة واحدة. الممتحن كالمختنق، كلما ازداد اضطراباً ازداد اختناقاً.

كل ما لا ينتقل بانتقالك من مالك فهو كفيل بك.

أجل ما يتزل من السماء التوفيق، وأجل ما يصعد من الأرض الإخلاص.

اثنان يهون عليهما كل شيء: عالم عرف العواقب، وجاهل يجهل ما هو فيه.

شر من الموت ما إذا نزل تمتيت بتزوله الموت، وخير من الحياة ما إذا فقدته أبغضت لفقده الحياة.

ما وضع أحد يده في طعام أحد إلا ذل له.

المرأة كالنعل يلبسها الرجل إذا شاء، لا إذا شاءت.

أبصر الناس لعوار الناس المعور.

العجب ممن يخاف عقوبة السلطان وهي منقطعة، ولا يخاف عقوبة الديان وهي دائمة.

من عرف نفسه فقد عرف ربه.

من عجز عن معرفة نفسه فهو عن معرفة خالقه أعجز.

لو تكاشفتكم لما تدافنتم.

شيطان كل إنسان نفسه.

إن لم تعلم من أين جئت، لم تعلم إلى أين تذهب! غاية كل متعمق في معرفة الخالق سبحانه الإعراف بالقصور عن إدراكها.

الكمال في خمس: ألا يعيب الرجل أحداً يعيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه، فإنه لا

يفرغ من إصلاح عيب من عيوبه حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس، وألا يطلق لسانه ويده حتى يعلم أفي طاعة ذلك أم في معصية، وألا يلتمس من الناس إلا ما يعطيهم من نفسه مثله، وأن يسلم من الناس باستشعار مداراتهم وتوفيتهم حقوقهم، وأن ينفق الفضل من ماله، ويمسك الفضل من قوله. صديق البخيل من لم يجربه.

من الخيط الضعيف يقتل الحبل الحصيف، ومن مقدحة صغيرة تحترق مدينة كبيرة، ومن لبنة لبنة تبنى قرية حصينة.

محب الدراهم معذور وإن أدنته من الدنيا، لأنها صانته عن أبناء الدنيا.

عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح! وعجباً لمن قيل فيه الشر وليس فيه كيف يغضب! ثلاث موبقات: الكبير فإنه حط إبليس عن مرتبته، والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة، والحسد فإنه دعا ابن آدم إلى قتل أخيه. الفطام عن الحطام شديد.

إذا أقبلت الدنيا أقبلت على حمار قطوف، وإذا أدبرت أدبرت على البراق.

أصاب متأمل أو كاد، وأخطأ مستعجل أو كاد.

سنة لا تخطئهم الكتابة: فقير حديث عهد بغنى، ومكثر يخاف على ماله، وطالب مرتبة فوق قدره، والحسود، والحقود، ومخالط أهل الأدب وليس بأديب.

طلبت الراحة لنفسى فلم أجد شيئاً أروح من ترك ما لا يعينني، وتوحشت في القفر البلقع فلم أر وحشة أشد من قرين السوء، وشهدت الزخوف ولقيت الأقران، فلم أر قرناً أغلب من المرأة، ونظرت إلى كل ما يذل العزيز ويكسره، فلم أر شيئاً أذل له ولا أكسر من الفاقة.

أول رأي العاقل آخر رأي الجاهل.

المسترشد موقى، والمختسر ملقى.

الحر عبد ماطمع، والعبد حر ما قنع.

ما أحسن حسن الظن إلا أن فيه العجز، وما أقبح سوء الظن إلا أن فيه الحزم! ما الحيلة فيما أعنى إلا الكف عنه، ولا

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

الرأي فيما لا ينال إلا اليأس منه.

الأحمق إذا حدث ذهل، وإذا حدث عجل، وإذا حمل على القبيح فعل.

إثبات الحجة على الجاهل سهل، ولكن إقراره بها صعب.

كما تعرف أواني الفخار بامتاحتها بأصواتها فيعلم الصحيح منها من المكسور، كذلك يمتحن الإنسان بمنطقه فيعرف ما عنده.

احتمال الفقر أحسن من احتمال الذل، لأن الصبر على الفقر قناعة، والصبر على الذل ضراعة. الدنيا حمقاء لا تميل إلا إلى أشباهها.

السفر ميزان الأخلاق العقل ملك والخصال رعيته، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. الكذاب يخيف نفسه وهو آمن.

لولا ثلاث لم يسئل سيف: سلك أدق من سلك، ووجه أصبح من وجه، ولقمة أسوغ من لقمة. قد يحسن الإمتنان بالنعمة وذلك عند كفرها، ولولا أن بني إسرائيل كفروا النعمة لما قال الله لهم: "اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم".

إذا تنهى الغم انقطع الدمع.

إذا ولي صديقك ولاية فأصبته على العشر من صداقته فليس بصاحب سوء.

أعجب الأشياء بديهة أمن وردت في مقام خوف.

الحرص محرمة والجبن مقتلة، وإلا فانظر فيمن رأيت وسمعت أمن قتل في الحرب مقبلاً أكثر، أم من قتل مديراً! وانظر أمن يطلب بالإجمال والتكرم أحق أن تسخو نفسك له أم من يطلب بالشره والحرص! إذا كان العقل تسعة أجزاء احتاج إلى جزء من جهل ليقدم به صاحبه على الأمور، فإن العاقل أبداً متوان مترقب متخوف.

عمل الرجل بما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف، وترك العمل بما يعلم أنه صواب قهاون، والتهاون آفة الدين، وإقدامه على ما لا يدري أصواب هو أم خطأ لجاج واللجاج آفة العقل.

ضعف العقل أمان من الغم.

لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعاماً حتى يستمره، ولا صديقاً حتى يستقرضه، وليس من حسن الحوار ترك الأذى، ولكن حسن الحوار الصبر على الأذى.

لا يتأدب العبد بالكلام إذا وثق بأنه لا يضرب.

الفرق بين المؤمن والكافر الصلاة، فمن تركها وادعى الإيمان كذبه فعله، وكان عليه شاهد من نفسه. من خاف الله خافه كل شيء.

من النقص أن يكون شفيحك شيئاً خارجاً عن ذاتك وصفاتك.

ويلي على العبد اللثيم، عبد بني ربيعة! نزع به عرق الشرك العبشمي إلى مساعتي، وتذكر دم الوليد وعتبة وشيبة أولى له، والله ليريني في موقف يسوءه ثم لا يجد هناك فلاناً وفلاناً - يعني سالماً مولى خديفة.

أنا قاتل الأقران، ومجدل الشجعان، أنا الذي فقأت عين الشرك، وثلثت عرشه ، غير ممتن على الله بجهادي، ولا مدل إليه بطاعتي، ولكن أحدث بنعمة ربي.

الصوم عبادة بين العبد وخالقه، لا يطلع عليها غيره، وكذلك لا يجازي عنها غيره.
طوب لمن شغله عييه عن عيوب الناس! طوب لمن لا يعرف الناس ولا يعرفه الناس! طوب لمن كان حياً كميث، وموجوداً كمعدوم، قد كفى جاره خيره وشره، لا يسأل عن الناس، ولا يسأل الناس عنه.
ما السيف الصارم في كف الشجاع بأعز له من الصدق.
لا يكن فقرك كفراً، وغناك طغياناً.
ثمرة القناعة الراحة، وثمره التواضع المحبة.
الكريم يلين إذا استعطف، واللتيم يقسو إذا لوطف.
أنكى لعدوك ألا تريه أنك اتخذته عدواً.
عذابان لا يأبه الناس لهما: السفر البعيد، والبناء الكثير.
ثلاثة يؤثرون المال على أنفسهم: تاجر البحر، وصاحب السلطان، والمرتشي في الحكم.
أعجز الناس من قصر في طلب الصديق، وأعجز منه من وجدته فضيعه.
أشد المشاق وعد كذاب لحريص.
العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئاً في سره وخلوته فضحه في جهره وعلايته.
الأخ البار مغيض الأسرار.
عدم المعرفة بالكتابة زمانة خفية.
قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة.
ركوب الخيل عز، وركوب البراذين لذة، وركوب البغال مهزمة، وركوب الحمير مذلة.
العقل يظهر بالمعاملة، وشيم الرجال تعرف بالولاية.
قال له قائل: علمني الحلم، فقال: هو الذل، فاصطبر عليه إن استطعت.
قلتم: إن فلاناً أفاد مالاً عظيماً، فهل أفاد أياماً ينفقه فيها! عيادة النوكى أشد على المريض من وجعه.
المريض يعاد، والصحيح يزار.
الشيء الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقاً، مدح الإنسان نفسه.
الشيء الذي لا يستغنى عنه بحال من الأحوال التوفيق.
أوسع ما يكون الكريم مغفرةً، إذا ضاقت بالذنب المعذرة.
ستر ما عاينت أحسن من إشاعة ما ظننت.
التكبر على المتكبرين هو التواضع بعينه.

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

إذا رفعت أحداً فوق قدره فتوقع منه أن يحط منك بقدر ما رفعت منه.

إساءة المحسن أن يمنعك جدواه، وإحسان المسيء أن يكف عنك أذاه.

اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم أضمرُوا لرسولك صلى الله عليه وآله وسلم ضروباً من الشر والغدر، فعجزوا عنها وحلت بينهم وبينها، فكانت الوجبة بي، والدائرة علي. اللهم احفظ حسناً وحسيناً، ولا تمكن فجرة قريش منهما ما دمت حياً، فإذا توفيتني فأنت الرقيب عليهما، وأنت على كل شيء شهيد.

قال له قائل: يا أمير المؤمنين، أرايت لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترك ولداً ذكراً قد بلغ الحلم، وآنس منه الرشد، أكانت العرب تسلم إليه أمرها؟ قال: لا، بل كانت تقتله إن لم يفعل ما فعلت، إن العرب كرهت أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحسدته على ما آتاه الله من فضله، واستطالت أيامه حتى قذفت زوجته، ونفرت به ناقته، مع عظيم إحسانه إليها، وحسب منعه عندها، وأجمعت مذ كان حياً على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته، ولولا أن قريشاً جعلت اسمه ذريعة إلى الرياسة، وسلموا إلى العز والإمرة، لما عبدت الله بعد موته يوماً واحداً. ولارتدت في حافرتها، وعاد قارحها جذعاً، وبازلها بكرأ، ثم فتح الله عليها الفتوح، فأثرت بعد الفاقة، وتمولت بعد الجهد والمخمصة، فحسن في عيونها من الإسلام ما كان سمجاً، وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطرباً، وقالت: لولا أنه حق لما كان كذا، ثم نسبت تلك الفتوح إلى آراء ولائها، وحسن تدبير الأمراء القائمين بها، فتأكد عند الناس نباهة قوم وخمول آخرين، فكنا نحن ممن خمل ذكره، وخبث ناره، وانقطع صوته وصيته، حتى أكل الدهر علينا وشرب، ومضت السنون والأحقاب بما فيها، ومات كثير ممن يعرف، ونشأ كثير ممن لا يعرف. وما عسى أن يكون الولد لو كان! إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! لم يقربني بما تعلمونه من القرب للنسب واللحمة، بل للجهاد والنصيحة، أفتراه لو كان له ولد هل كان يفعل ما فعلت! وكذاك لم يكن يقرب ما قربت، ثم لم يكن عند قريش والعرب سبباً للحظوة والمترلة، بل للحرمان والجفوة. اللهم إنك تعلم أي لم أرد الإمرة، ولا علو الملك والرياسة، وإنما أردت القيام بحدودك، والأداء لشرعك، ووضع الأمور في مواضعها، وتوفير الحقوق على أهلها، والمضي على منهاج نبيك، وإرشاد الضال إلى أنوار هدايتك.

البر ما سكنت إليه نفسك، واطمأن إليه قلبك، والإثم ما جال في نفسك وتردد في صدرك. الزكاة نقص في الصورة، وزيادة في المعنى.

ليس الصوم الإمساك عن المأكول والمشرب، الصوم الإمساك عن كل ما يكرهه الله سبحانه.

إذا كان الراعي ذبياً، فالشاة من يحفظها! كل شيء يعصيك إذا أغضبتك إلا الدنيا، فإنها تطيعك إذا أغضبتك.

رب مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من سقم هو شفاؤه.

إذا أراد الله أن يسلط على عبد عدواً لا يرحمه سلط عليه حاسداً.

شرب الدواء للجسد كالصابون للثوب، ينقيه ولكن يخلقه.

الحسد خلق ديني، ومن دناءته أنه موكل بالأقرب فالأقرب.

لو أن أحد مكتفياً من العلم لا كتفى نبي الله موسى، وقد سمعتم قوله: "هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً".
أستغفر الله مما أملك، وأستصلحه فيما لا أملك.

إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب، قعدت وأنت كبير حيث تكره.

الولد العاق كالإصبع الزائدة، إن تركت شانت، وإن قطعت آلت.

خرج العز والغنى يجولان فلقيا القناعة فاستقرا.

الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب الجسم.

جزية المؤمن كراء منزله، وعذابه سوء خلق زوجته.

الوعد وجه والإنجاز محاسنه.

أنعم الناس عيشاً من عاش في عيشه غيره.

لا تشاقمن أحداً، ولا تردن سائلاً، إما هو كريم تسد خلته، أو لئيم تشتري عرضك منه.

النمام سهم قاتل.

ثلاثة أشياء لا دوام لها: المال في يد المبذر، وسحابة الصيف، وغضب العاشق.

الزاهد في الدينار والدرهم أعز من الدينار والدرهم.

رب حرب أحييت بلفظة، ورب ود غرس بلحظة.

إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر، فإن ولد له فقد كسر به.

صلاح كل ذي نعمة في خلاف ما فسد عليه.

أنعم الناس عيشةً من تحلى بالعفاف، ورضي بالكفاف، وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف. التواضع نعمة لا يفتن لها الحاسد.

ينبغي للعاقل أن يمنع معروفه الجاهل واللئيم والسفيه، أما الجاهل فلا يعرف المعروف ولا يشكر عليه، وأما اللئيم فأرض

سبخة لا تنبت، وأما السفيه فيقول: إنما أعطاني فرقاً من لساني. خير العيش ما لا يطغيك، ولا يلهيك.

ما ضرب الله العباد بسوط أوجع من الفقر.

إذا أراد الله أن يزيل عن عبد نعمة كان أول ما يغير منه عقله.

خير الدنيا والآخرة في خصلتين: الغنى والتقوى، وشر الدنيا والآخرة في خصلتين: الفقر والفجور.

ثمانية إذا أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الآتي طعاماً لم يدع إليه، والمتأمر على رب البيت في بيته، وطالب المعروف من غير

أهله، والداخل بين اثنين لم يدخله، والمستخف بالسلطان، والجالس مجلساً ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا

يسمعه، ومن جرب المحرب.

أنفس الأعلام عقل قرن إليه حظ.

اللطافة في الحاجة أجدى من الوسيلة.

إحتمال نخوة الشرف أشد من إحتمال بطر الغنى، وذلة الفقر مانعة من الصبر، كما أن عز الغنى مانع من كرم الإنصاف،

إلا لمن كان في غريزته فضل قوة، وأعراق تنازعه إلى بعد الهمة.
أبعد الناس سفيراً من كان في طلب صديق يرضاه.
استشارة الأعداء من باب الخذلان.
الجاهل يعرف بست خصال: الغضب من غير شيء، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضعها، وألا يعرف صديقه من عدوه، وإفشاء السر، والثقة بكل أحد.
سوء العادة كمين لا يؤمن.
العادة طبيعة ثانية غالبية.
التجني وافد القطيعة.
صديقك من نهاك، وعدوك من أغراك.
يا عجباً من كفلة الحساد عن سلامة الأجساد! من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرى في أعدائه ما يسره.
الضغائن تورث كما تورث الأموال.
رب عزيز أذله خرقه، وذليل أعزه خلقه.
لا يصلح اللئيم لأحد، ولا يستقيم إلا من فرق أو حاجة، فإذا استغنى أو ذهب خوفه عاد إليه جوهره.
ثلاثة في المجلس وليسوا فيه: الحاقن، والضيق الخف، والسيء الظن بأهله.
وسئل: ما أبقى الأشياء في نفوس الناس؟ فقال: أما في أنفس العلماء فالندامة على الذنوب، وأما في نفوس السفهاء فالحقق.
إذا انقضى ملك قوم خيبر في آرائهم.
الضعيف الخرس من العدو أقرب إلى السلامة من القوي المغتر بالعدو الضعيف.
الحزن سوء استكانة، والغضب لؤم قدرة.
كل ما يؤكل ينتن وكل ما يوهب يأرج.
الطرش في الكرام، والهوج في الطوال، والكيس في القصار، والنبل في الربعة، وحسن الخلق في الحول، والكبر في العور، والبهت في العميان، والذكاء في الخرس.
الأم الناس من سعى بإنسان ضعيف إلى سلطان جائر.
أعسر الحيل تصوير الباطل في صورة الحق عند العاقل المميز.
الغدر ذل حاضر، والغيبة لؤم باطن.
القلب الفارغ يبحث عن السوء واليد الفارغة تنازع إلى الإثم.
لا كثير مع إسراف، ولا قليل مع احتراف، ولا ذنب مع اعتراف.
المتعبد على غير فقه كحمار الرحا يدور ولا يبرح.

المحروم من طال نصبه، وكان لغيره مكسبه.

في الاعتبار غنى عن الإختبار.

غيظ البخيل على الجواد أعجب من بخله. أذل الناس معتذر إلى اللئيم. أشجع الناس أثبتهم عقلاً في بداهة الخوف.

المعتذر منتصر، والمعاتب مغاضب.

المروءة بلا مال كالأسد الذي يهاب ولم يفترس، وكالسيف الذي يخاف وهو مغمد، والمال بلا مروءة كالكلب الذي يجتنب عقر أو لم يعقر.

عليكم بالأدب، فإن كنتم ملوكاً برزتم، وإن كنتم وسطاً فقتم، وإن أعوزتكم المعيشة عشتم بأدبكم.

الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

لا ينبغي للعاقل أن يكون إلا في إحدى مترلتين: إما في الغاية القصوى من مطالب الدنيا، وإما في الغاية القصوى من الترك لها.

من أفضل أعمال البر الجود في العسر، والصدق في الغضب، والعفو عند القدرة.

إن الله أنعم على العباد بقدر قدرته، وكلفهم من الشكر بقدر قدرتهم.

العيش في ثلاث: صديق لا يعد عليك في أيام صداقتك ما يرضى به أيام عداوتك، وزوجة تسرك إذا دخلت عليها وتحفظ غيبك إذا غبت عنها، وغلام يأتي على ما في نفسك كأنه قد علم ما تريد.

تحتاج القرابة إلى مودة ولا تحتاج المودة إلى قرابة.

الصابر على مخالطة الأشرار وصحبتهم، كراكب البحر إن سلم بيدنه من التلف، لم يسلم بقلبه من الحذر.

لأخيك عليك إذا حز به أمر أن تشير عليه بالرأي ما أطاعك، وتبذل له النصر إذا عصاك. الغيبة ربيع اللثام.

أطول الناس نصباً الحريص إذا طمع، والحقود إذا منع.

الشريف دون حقه يقتل ويعطي نافلة فوق الحق عليه.

اجعل عمرك كنفقة دفعت إليك، فكما لا تحب أن يذهب ما تنفق ضياعاً، فلا تذهب عمرك ضياعاً.

من أظهر شكرك فيما لم تأت إليه، فاحذر أن يكفرك فيما أسديت إليه.

لا تستعن في حاجتك بمن هو للمطلوب إليه أنصح منه لك.

لا يؤمنك من شر جاهل قرابة ولا جوار، فإن أخوف ما تكون لحريق النار أقرب ما تكون إليها.

كن في الحرص على تفقد عيوبك كعدوك.

عليك بسوء الظن، فإن أصاب فالحزم وإلا فالسلامة.

رضا الناس غاية لا تدرك، فتحذر الخير بجهدك، ولا تبال بسخط من يرضيه الباطل.

لا تماكس في البيع والشراء، فما يضيع من عرضك أكثر مما تنال من عرضك.

الدين رق فلا تبذل رقبك لمن لا يعرف حقك.

احذر كل الحذر أن يخدعك الشيطان فيمثل لك التواني في صورة التوكل، ويورثك الهوينى بالإحالة على القدر، فإن الله

أمر بالتوكل عند انقطاع الحبل، وبالتسليم للقضاء بعد الإعذار، فقال: "خذوا حذرکم"، "لا تلقوا بأيديکم إلى التهلكة"، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "اعقلها وتوكل".

لا تصحب في السفر غنياً، فإنك إن ساوَيْته في الإنفاق أضربك، وإن تفضل عليك استذلّك. إذا سألت كريماً حاجة فدعة يفكر، فإنه لا يفكر إلا في خير، وإذا سألت لئيماً حاجة فغافضه فإنه إذا فكر عاد إلى طبعه. ما أقبح بالصبيح الوجه أن يكون جاهلاً! كدار حسنة البناء وساكنها شر، وجنة يعمرها بوم، أو صرمة يحرسها ذئب. قبيح بذي العقل أن يكون بهيمةً وقد أمكنه أن يكون إنساناً، وقد أمكنه أن يكون ملكاً، وأن يرضى لنفسه بقنية فعارة وحياة مستردة، وله أن يتخذ قنيةً مخلدةً وحياةً مؤبدةً.

الذي يستحق اسم السعادة على الحقيقة سعادة الآخرة، وهي أربعة أنواع: بقاء بلا فناء، وعلم بلا جهل، وقدرة بلا عجز، وغنى بلا فقر.

ما خاب من استخار.

الدين قد كشف عن غطاء قلبه، يرى مطلوبه قد طبق الخافقين فلا يقع بصره على شيء إلا رآه فيه.

من غرس النخل أكل الرطب، ومن غرس الصفصاف والعليق عدم ثمرته، وذهبت ضياعاً خدمته.

إذا أردت العلم والخير فانفض عن يدك أداة الجهل والشر، فإن الصائغ لا يتهيا له الصياغة إلا إذا ألقى أداة الفلاحة عن يده.

الصبر مفتاح الفرج.

غاية كل متعمق في علمنا أن يجهل.

ستعرف الحال على حقيقتها، ولكن حيث لا تستطيع أن تذاكر أحداً بها.

السعادة التامة بالعلم، والسعادة الناقصة بالزهد، والعبادة من غير علم ولا زهادة تعب الجسد. الآمال مطايا، وربما حسرت، ونقبت أخفافها.

حب الرياسة شاغل عن حب الله سبحانه.

يا أبا عبيدة، طال عليك العهد فنسيت، أم نافست فأنسيت؟ لقد سمعتها ووعيتها فهلا رعتها.

قال لما سمعت خطبة عمر بالمدينة التي شرح فيها قصة السقيفة: معذرةً ورب الكعبة، ولكن بعد ماذا! هيهات علقت معالقها، وصر الجندب.

أول من جرأ الناس علينا سعد بن عبادة، فتح باباً ولجه غيره، وأضرم ناراً كان لهبها عليه، وضوءها لأعدائه.

ما لنا ولقریش! يخضمون الدنيا باسمنا، ويطفون على رقابنا، فيالله وللعجب! من اسم حليل لمسمى ذليل! الخير كله في السيف، وما قام هذا الدين إلا بالسيف، أتعلمون ما معنى قوله تعالى: "وأنزّلنا الحديد فيه بأس شديد"؟ هذا هو السيف. لم يفت من لم يمت.

من فسدت بطائته كان كمن غص بالماء، فإنه لو غص بغيره لأساغ الماء غصته.

من ضمن بعرضه فليدع المراء.
 من أيقظ فتنة فهو آكلها.
 من أثرى كرم على أهله، ومن أملق هان على ولده.
 من أمل أحداً هابه، ومن جهل شيئاً عابه.
 أسوأ الناس حالاً من لا يثق بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء أثره.
 أحب الناس إليك من كثرت أياديه عندك، فإن لم يكن فمن كثرت أياديك عنده.
 من طال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه، ومن الوحشة ما لا يضره.
 من زاد عقله نقص حظه، وما جعل الله لأحد عقلاً وافراً إلا احتسب به عليه من رزقه.
 من عمل بالعدل فيمن دونه، رزق العدل ممن فوقه.
 من طلب عزاً بظلم وباطل أورثه الله ذلاً بإنصاف وحق.
 من وطئته الأعين، وطئته الأرجل.
 ينادي مناد يوم القيامة: من كان له أجر على الله فليقم، فيقوم العافون عن الناس، ثم تلا: "فمن عفا وأصلح فأجره على الله".

اصحب الناس بأي خلق شئت يصحبوك بمثله.
 كأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل.
 قال لمريض أبل من مرضه: إن الله ذكرك فاذكره، وأقالك فاشكره.
 الدار دار من لا دار له، وبها يفرح من لا عقل له، فأنزلوها منزلتها.
 لا تستصغرن أمر عدوك إذا حاربتك، فإنك إن ظفرت به لم تحمد، وإن ظفر بك لم تعذر، والضعيف المخترس من العدو القوي أقرب إلى السلامة من القوي المغتر بالضعيف.
 لا تصحب من تحتاج إلى أن تكتمه ما يعرف الله منك.
 لا تسأل غير الله، فإنه إن أعطاك أغناك.
 الصاحب كالرقعة في الثوب، فاتخذة مشاكلاً.
 إياك وكثرة الإخوان، فإنه لا يؤذك إلا من يعرفك.
 دع اليمين لله إجلالاً، وللناس إجمالاً.
 العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئاً في سره فضحه في علانيته.
 إذا كان لك صديق ولم تحمد إحياءه ومودته فلا تظهر ذلك للناس، فإنما هو بمنزلة السيف البهليل في منزل الرجل، يرهب به عدوه، ولا يعلم العدو أصارم هو أم كليل! دع الذنوب قبل أن تدعك.
 إذا نزل بك مكروه فانظر، فإن كان لك حيلة فلا تعجز، وإن لم يكن فيه حيلة فلا تجزع.
 تعلموا العلم، فإنه زين للغي وعون للفقير، ولست أقول إنه يطلب به، ولكن يدعوه إلى القناعة. لا ترضين قول أحد حتى

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

ترضى فعله، ولا ترض فعله حتى ترضى عقله، ولا ترض عقله حتى ترضى حياته، فإن الإنسان مطبوع على كرم ولؤم،
فإن قوي الحياء عنده قوي الكرم، وإن ضعف الحياء قوي اللؤم.

تعلموا العلم وإن لم تنالوا به حظاً، فلأن يذم الزمان لكم أحسن من أن يذم بكم.
اجعل شرك إلى واحد، ومشورتك إلى ألف.

إن الله خلق النساء من عي وعورة، فداووا عيهن بالسكوت، واستروا العورة بالبيوت.

لا تعدن عدة لا تثق في نفسك بإنجازها، ولا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق
العواقب، وأن للأمور بغتات فكن على حذر.

لا تجاهد الطلب جهاد المغالب، ولا تتكل على القدر إتكال المستسلم، فإن ابتغاء الفضل من السنة، والإجمال في الطلب
من العفة، وليست العفة برافعة رزقاً، ولا الحرص بجالب فضلاً. من لم تستقم له نفسه، فلا يلومن من لم يستقم له.
من رجي الرزق لديه صرفت أعناق الرجال إليه.

من انتجعك مؤملاً فقد أسلفك حسن الظن.

إذا شئت أن تطاع فاسأل ما يستطيع.

من أعذر كمن أنجح.

من كانت الدنيا همه كثر في القيامة غمه.

من أجمل في الطلب أتاه رزقه من حيث لا يحتسب.

من ركب العجلة لم يأمن الكبوة.

من لم يثق لم يوثق به.

من أفاده الدهر أفاد منه.

من أكثر ذكر الضغائن اكتسب العداوة.

من لم يحمد صاحبه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنعة.

تأمل ما تحدث به، فإنما تمل على كاتبيك صحيفةً يوصلانها إلى ربك، فانظر على من تمل، وإلى من تكتب.

أقم الرغبة إليك مقام الحرمة بك، وعظم نفسك عن التعظم، وتطول ولا تتطاول.

عاملوا الأحرار بالكرامة المحضة، والأوساط بالرغبة والرغبة، والسفلة بالهوان.

كن للعدو المكاتم أشد حذراً منك للعدو المبارز.

احفظ شيئك ممن تستحي أن تسأله عن مثل ذلك الشيء إذا ضاع لك.

إذا كنت في مجلس ولم تكن المحدث ولا المحدث فقم.

لا تستصغرن حدثاً من قريش، ولا صغيراً من الكتاب، ولا صعلوكاً من الفرسان. ولا تصادقن ذمياً ولا خصياً ولا مؤثناً،
فلا ثبات لموداتهم.

لا تدخل في مشورتك بخيلاً فيقصر بفعلك، ولا جباناً فيخوفك ما لا تخاف، ولا حريصاً فيعذك ما لا يرجى، فإن الجبن والبخل والحرص طبيعة واحدة، يجمعها سوء الظن بالله تعالى. لا تكن ممن تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن. اعص هواك والنساء وافعل ما بدا لك.

ما كنت كاتم من عدوك فلا تظهر عليه صديقك.

كل من الطعام ما تشتهي، والبس من الثياب ما يشتهي الناس. ولتكن دارك أول ما يتتاع وآخر ما يباع. من كان في يده شيء من رزق الله سبحانه فليصلحه، فإنكم في زمان إذا احتاج المرء فيه إلى الناس كان أول ما يبذله لهم دينه.

ابذل لصديقك مالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحننك، ولعدوك عدلك وإنصافك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد.

جالس العقلاء أعداء كانوا أو أصدقاء، فإن العقل يقع على العقل.

كن في الحرب بجيلتك أوثق منك بشدتك، وبجذرك أفرح منك بنجدتك، فإن الحرب حرب المتهور، وغنيمة المتحذر. النعم وحشية فقيدوها بالمعروف.

إذا أخطأتك الصنعة إلى من يتقي الله فاصنعها إلى من يتقي العار.

لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض.

إذا أكرمك الناس مال أو سلطان فلا يعجبك ذاك، فإن زوال الكرامة بزوالهما، ولكن ليعجبك إن أكرمك الناس لدين أو أدب.

ينبغي لمن لم يكرم وجهه عن مسألتك أن تكرم وجهك عن رده.

إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن، واكفف من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب

خير لك من الإرتياب، وليس خروجهن بأشد عليك من دخول من لا تثق به عليهن، وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل، ولا تمكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لبالها، وأرخص لحالها، وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تعد بكرامتها نفسها، ولا تعطها أن تشفع لغيرها، ولا تطل الخلوة معهن فيملنك وتملهن، واستبق من نفسك بقية، فإن إمساكك عنهن وهن يردنك ذلك باقتدار، خير من أن يهجمن منك على انكسار. وإياك والتغايير في غير موضع الغيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم.

إذا أردت أن تحتم على كتاب، فأعد النظر فيه، فإنما تحتم على عقلك.

إن يوماً أسكر الكبار وشيب الصغار لشديد.

كم من مبرد له الماء والحميم يغلى له.

الصلاة صابون الخطايا.

إن امرأ عرف حقيقة الأمر وزهد فيه لأحقق، وإن امرأ جهل حقيقة الأمر مع وضوحه لجاهل. إذا قال أحدكم: والله،

فليُنظر ما يضيف إليها.

رأيك لا يتسع لكل شيء، ففرغه للمهم من أمورك، ومالك لا يغني الناس كلهم فاحصص به أهل الحق، وكرامتك لا تطيق بذلها في العامة، فتوخ بها أهل الفضل، وليلك ونهارك لا يستوعبان حوائجك، فأحسن القسمة بين عملك ودعتك. أحي المعروف بإماتته.

اصحبوا من يذكر إحسانكم إليه، وينسى أياديته عندكم.

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم.

إذا رغبت في المكارم فاجتنب المحارم.

لا تثقن كل الثقة بأخيك، فإن سرعة الإسترسال لا تقال.

انتقم من الحرص بالقناعة، كما تنتقم من العدو بالقصاص.

إذا قصرت يدك عن المكافأة، فليطل لسانك بالشكر.

من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤنة الإستماع منك.

الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان ير الهوان.

لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف، كم من راغب أصبح مرغوباً إليه، ومتبوع أمسى تابعاً.

إن غلبت يوماً على المال فلا تغلبن على الحيلة على كل حال.

كن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً أقل ما تكون في الباطن مآلاً.

لا تكونن المحدث من لا يسمع منه، والداخل في سر اثنين لم يدخله فيه، ولا الآتي وليمة لم يدع إليها، ولا الجالس في

مجلس لا يستحقه، ولا طالب الفضل من أيدي اللئام، ولا المتحقم في الدالة، ولا المتعرض للخير من عند العدو.

اطبع الطين ما دام رطباً، واغرس العود ما دام لدناً.

خف الله حتى كأنك لم تطعه، وارج الله حتى كأنك لم تعصه.

لا تبلغ في سلامك على الإخوان حد النفاق، ولا تقصرهم عن درجة الاستحقاق.

انصح لكل مستشير، ولا تستشر إلا الناصح اللبيب.

ما أقبح بك أن ينأى غداً: يا أهل خطيئة كذا، فتقوم معهم، ثم ينأى ثانياً: يا أهل خطيئة كذا، فتقوم معهم، ما أراك يا

مسكين إلا تقوم مع أهل كل خطيئة! ما أصاب أحد ذنباً ليلاً إلا أصبح وعليه مذلته.

الإستغفار يحث الذنوب حت الورق، ثم تلا قوله تعالى: "ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً".

أيها المستكثر من الذنوب، إن أباك أخرج من الجنة بذنب واحد.

إذا عصى الرب من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه.

لقاء أهل الخير عمارة القلوب.

أنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالعضد من المنكب، وكالذراع من العضد، وكالكف من الذراع، رباني صغيراً، وأخاني كبيراً، ولقد علمتم أني كان لي منه مجلس سر لا يطلع عليه غيري، وأنه أومى إلي دون أصحابه وأهل بيته، ولأقولن ما لم أقله لأحد قبل هذا اليوم، سألته مرة أن يدعو لي بالمغفرة فقال: أفعل، ثم قام فصلى، فلما رفع يده للدعاء استمعت عليه، فإذا هو قائل: اللهم بحق علي عندك إغفر لعلي، فقلت. يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: أواحد أكرم منك عليه فأستشفع به إليه! والله ما قلعت باب خير، ودكدكت حصن يهود بقوة جسمانية بل بقوة إلهية.

يا بن عوف، كيف رأيت صنيعك مع عثمان! رب واثق خجل، ومن لم يتوخ بعمله وجه الله عاد مادحه من الناس له ذاماً. لو رأيت ما في ميزانك لختمت على لسانك. ليس الحلم ما كان حال الرضا، بل الحلم ما كان حال الغضب. ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول: لا إله إلا الله، كلمة التقوى.

لا تحملوا ذنوبكم وخطاياكم على الله، وتذروا أنفسكم والشيطان.

إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة من الدجال، أئمة مضلون وهم رؤساء أهل البدع.

إذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا أسأت فاندِم، وإذا مننت فاكتم، وإذا منعت فأجمل، ومن يسلف المعروف يكن ربحه الحمد.

استشر عدوك تجربةً لتعلم مقدار عداوته.

لا تطلبن من نفسك العام ما وعدتك عاماً أول.

أطول الناس عمراً من كثر علمه، فتأدب به من بعده، أو كثر معرفته فشرف به عقبه.

استهينوا بالموت فإن مرارة في خوفه.

لا دين لمن لا نية له، ولا مال لمن لا تدبير له، ولا عيش لمن لا رفق له.

من اشتغل بتفقد اللفظة، وطلب السجعة، نسي الحجة.

الدنيا مطية المؤمن، عليها يرتحل إلى ربه، فأصلحوا مطاياكم تبلغكم إلى ربكم.

من رأى أنة مسيء فهو محسن، ومن رأى أنه محسن فهو مسيء.

سيئة تسوءك خير من حسنة تعجبك.

اطلبوا الحاجات بعزة الأنفس، فإن بيد الله قضاءها.

عذب حسادك بالإحسان إليهم.

إظهار الفاقة من خمول المهمة.

يا عالم، قد قام عليك حجة العلم، فاستيقظ من رقدتك.

الرفق يفل حد المخالفة.

أرجح الناس عقلاً، وأكملهم فضلاً، من صحب أيامه بالموادعة وإخوانه بالمسالمة، وقبل من الزمان عفوه.

الوجوه إذا كثر تقابلها، اعتصر بعضها ماء بعض.

أداء الأمانة مفتاح الرزق.

حصن علمك من العجب، ووقارك من الكبر، وعطاءك من السرف، وصرامتك من العجلة، وعقوبتك من الإفراط، وعفوك من تعطيل الحدود، وصمتك من العي، واستماعك من سوء الفهم، واستئناسك من البذاء، وخلواتك من الإضاعة، وغراماتك من اللجاجة وروغانك من الاستسلام، وحذراتك من الجبن. لا تجد للموتور المحقود أماناً من أذاه أوثق من البعد عنه، والاحتباس منه. احذر من أصحابك ومخالطيك الكثير المسألة، الخشن البحث، اللطيف الإستدراج، الذي يحفظ أول كلامك على آخره، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ولا تظهرن له المخافة فيرى أنك قد تحزرت وتحفظت. واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الحذر، فخالط هذا مخالطة الآمن، وتحفظ منه تحفظ الخائف، فإن البحث يظهر الخفي، وييدي المستور الكامن.

من سره الغنى بلا سلطان، والكثرة بلا عشيرة، فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته، فإنه واجد ذلك كله. الشيب إغدار الموت.

من ساس نفسه بالصبر على جهل الناس صلح أن يكون سائساً. لله تعالى كل لحظة ثلاثة عساكر: فعسكر يتزل من الأصلاب إلى الأرحام، وعسكر يتزل من الأرحام إلى الأرض، وعسكر يرتحل من الدنيا إلى الآخرة.

اللهم ارحمني رحمة الغفران، إن لم ترحمني رحمة الرضا. إلهي كيف لا يحسن مني الظن وقد حسن منك المن! إلهي إن عاملتنا بعدلك لم يبق لنا حسنة، وإن أنلتنا فضلك لم يبق لنا سيئة.

العلم سلطان، من وجده صال به، ومن لم يجده صيل عليه. يابن آدم إنما أنت أيام مجموعة، فإذا مضى يوم مضى بعضك. حيث تكون الحكمة تكون خشية الله، وحيث تكون خشيته تكون رحمته. اللهم إني أرى لدي من فضلك ما لم أسألك، فعلمت أن لديك من الرحمة ما لا أعلم، فصغرت! قيمة مطلبي فيما عاينت، وقصرت غاية أمني عندما رجوت، فإن ألحفت في سؤالي فلفاقتي إلى ما عندك، وإن قصرت في دعائي فبما عودت من ابتدائك.

من كان همته ما يدخل جوفه كانت قيمته ما يخرج منه. يقول الله تعالى: يابن آدم، لم أحلقك لأربح عليك، إنما خلقتك لتربح علي، فاتخذني بدلاً من كل شي فإني ناصر لك من كل شيء.

الرجاء للخالق سبحانه أقوى من الخوف، لأنك تخافه لذنبك، وترجوه لجوده، فالخوف لك والرجاء له. أسألك بعزة الوحدانية، وكرم الإلهية، ألا تقطع عني برك بعد مماتي، كما لم تزل تراني أيام حياتي، أنت الذي تجيب من دعاك، ولا تخيب من رجاك، ضل من يدعو إلا إياك، فإنك لا تحجب من أتك، وتفضل على من عصاك، ولا يفوتك من

ناواك، ولا يعجزك من عاداك، كل في قدرتك، وكل يأكل رزقك.

لا تطلبن إلى أحد حاجة ليلاً، فإن الحياء في العينين.

من ازداد علماً فليحذر من توكيد الحجة عليه.

العاقل ينافس الصالحين ليلحق بهم، ويجهلهم ليشاركهم بمحبته، وإن قصر عن مثل عملهم، والجاهل يذم الدنيا ولا يسخو لإخراج أqlها، يمدح الجود، ويخل بالبدل، يتمنى التوبة بطول الأمل، ولا يعجلها لخوف حلول الأجل، يرجو ثواب عمل لم يعمل به، ويفر من الناس ليطلب، ويخفي شخصه ليشتهر، ويذم نفسه ليمدح، وينهى عن مدحه وهو يحب ألا ينتهى من الشناء عليه.

الأنس بالعلم من نبل المهمة.

اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصن وجهي عن مسألة غيرك.

من الناس من ينقصك إذا زدته، ويهون عليك إذا خاصصته، ليس لرضاه موضع تعرفه، ولا لسخطه مكان تحذره، فإذا لقيت أولئك فابذل لهم موضع المودة العامة، واحرمهم موضع الخاصة، ليكون ما بذلت لهم من ذلك حائلاً دون شرهم، وما حرمتهم من هذا قاطعاً لحرمتهم. من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات: يلقي الغطاء على قلبه، والنعاس على عينه، والكسل على بدنه.

ذم العقلاء أشد من عقوبة السلطان. يقطع البليغ عن المسألة أمران: ذل الطلب، وخوف الرد. المؤمن محدث.

قل أن ينطق لسان الدعوى إلا ويخرسه كعام الامتحان.

انظر ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وما عند غيرك فلا تأخذه إلا بحقه.

إذا صافاك عدوك رياء منه فتلق ذلك بأوكد مودة، فإنه إن ألف ذلك واعتاده خلصت لك مودته. لا تألف المسألة فيألفك المنع.

لا تسأل الحوائج غير أهلها، ولا تسألها في غير حينها، ولا تسأل ما لست له مستحقاً فتكون للحرمان مستوجباً. إذا غشك صديقك فاجعله مع عدوك.

لا تعدن من إخوانك من آحاك في أيام مقدرتك للمقدرة، واعلم أنه ينتقل عنك في أحوال ثلاث: يكون صديقاً يوم حاجته إليك، ومعرضاً يوم غناه عنك، وعدواً يوم حاجتك إليه.

لا تسرن بكثرة الإخوان ما لم يكونوا أحياناً، فإن الإخوان بمثلة النار التي قليلها متاع، وكثيرها بوار. كفاك خيانة أن تكون أميناً للخونة.

لا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر، فإنك إذا رأيت سر ك مكانه ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيت ساء ك مكانه.

يابن آدم، ليس بك غناء عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر.

معصية العالم إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا ظهرت ضرت صاحبها والعامة.

يجب على العاقل أن يكون بما أحيا عقله من الحكمة أكلف منه بما أحيا جسمه من الغذاء. أعسر العيوب صلاحاً العجب

واللحاجة.

لكل نعمة مفتاح ومغلاق، فمفتاحها الصبر، ومغلاقها الكسل.

الحزن والغضب أميران تابعان لوقوع الأمر بخلاف ما تحب، إلا أن المكروه إذا أتاك ممن فوقك نتج عليك حزناً، وإن أتاك ممن دونك نتج عليك غضباً.

أول المعروف مستخف، وآخره مستثقل، تكاد أوائله تكون للهوى دون الرأي، وأواخره للرأي دون الهوى، ولذلك قيل: رب الصنيعة أشد من الإبتداء بها.

لا تدع الله أن يغنيك عن الناس فإن حاجات الناس بعضهم إلى بعض متصلة كاتصال الأعضاء فمتى يستغني المرء عن يده أو رجله! ولكن ادع الله أن يغنيك عن شرارهم.

احترس من ذكر العلم عند من لا يرغب فيه، ومن ذكر قدیم الشرف عند من لا قدیم له، فإن ذلك مما يحقدما عليك. ينبغي لذوي القربات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا.

لا تواخ شاعراً فإنه يمدحك بثمان، ويهجوك بمائة.

لا تتزل حوائجك بجيد اللسان، ولا بمتسرع إلى الضمان.

كل شيء طلبته في وقته فقد فات وقته.

إذا شككت في مودة إنسان فاسأل قلبك عنه.

العقل لم يجن على صاحبه قط، والعلم من غير عقل يجني على صاحبه.

يا بن آدم، هل تنتظر إلا هرمًا حائلاً، أو مرضاً شاغلاً، أو موتاً نازلاً! ابنك يأكلك صغيراً ويرثك كبيراً، وابنتك تأكل من وعائك، وترث من أعدائك، وابن عمك عدوك، وعدو عدوك، وزوجتك إذا قلت لها قومي قامت.

إذا ظفرت فأكرموا الغلبة، وعليكم بالتغافل فإنه فعل الكرام، وإياكم والمن فإنه مهدة للصنيعة، منبهة للضعيفة.

من لم يرج إلا ما يستوجبه أدرك حاجته.

بلغ من خدع الناس، أن جعلوا شكر الموتى تجارة عند الأحياء، والثناء على الغائب استمالة للشاهد.

من احتاج إليك ثقل عليك، ومن لم يصلحه الخير أصلحه الشر، ومن لم يصلحه الطالي أصلحه الكاوي.

من أكثر من شيء عرف به، ومن زنى زنى به، ومن طلب عظيمًا خاطر بعظمته، ومن أحب أن يصرم أخاه فليقرضه ثم

ليتقاضه، ومن أحبك لشيء ملك عند انقضائه، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

من بلغ السبعين اشتكى من غير علة.

في المال ثلاث خصال مذمومة: إما أن يكتسب من غير حله، أو يمنع إنفاقه في حقه، أو يشغل بإصلاحه عن عبادة الله تعالى.

يباعدك من غضب الله ألا تغضب.

لا تستبدلن بأخ لك قدیم أحماً مستفاداً ما استقام لك، فإنك إن فعلت فقد غيرت، وإن غيرت تغيرت نعم الله عليك.

أشد من البلاء شماتة الأعداء.

ليس يزي فرجك إن غضضت طرفك.

كما ترك لكم الملوك الحكمة والعلم فاتركوا لهم الدنيا.

الهدية تفقأ عين الحكيم.

ليكن أصدقاؤك كثيراً، واجعل شرك منهم إلى واحد.

يا عبيد الدنيا، كيف تخالف فرووعكم أصولكم، وعقولكم أهواءكم، قولكم شفاء يبرئ الداء، وعملكم داء لا يقبل

الدواء، ولستم كالكرمة التي حسن ورقها، وطاب ثمرها، وسهل مرتقاها، ولكنكم كالشجرة التي قل ورقها، وكثر

شوكها، وخبث ثمرها، وصعب مرتقاها. جعلتم العلم تحت أقدامكم، والدنيا فوق رؤوسكم، فالعلم عندكم مذل ممتن،

والدنيا لا يستطيع تناولها، فقد منعتم كل أحد من الوصول إليها، فلا أحرار كرام أنتم، ولا عبيد أتقياء. ويحكم يا أجراء

السوء! أما الأجر فتأخذون، وأما العمل فلا تعملون، إن عملتم فللعمل تفسدون، وسوف تلقون ما تفعلون، يوشك رب

العمل أن ينظر في عمله الذي أفسدتم، وفي أجره الذي أخذتم. يا غرماء سوء، تبدءون بالهدية قبل قضاء الدين،

تطوعون بالنوافل ولا تؤدون الفرائض، إن رب الدين لا يرضى بالهدية حتى يقضى دينه.

الدنيا مزرعة إبليس، وأهلها أكرة حراثون له فيها.

واعجباً ممن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بغير عمل، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بالعمل! لا تجالسوا إلا من

يذكركم الله رؤيته، ويزيد في عملكم منطقته، ويرغبكم في الآخرة عمله. كثرة الطعام تमित القلب كما تमित كثرة الماء

الزرع.

ضرب الوالد الولد كالسماد للزرع.

إذا أردت أن تصادق رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك في غضبه وإلا فدعه.

إذا أتيت مجلس قوم فارمهم بسهم الإسلام، ثم اجلس - يعني السلام - فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك مع

سهامهم، وإن أفاضوا في غيره فخلهم وانفض.

الأوطار تكسب الأوزار، فارفض وطرك، واغضض بصرك.

إذا قعدت عند سلطان فليكن بينك وبينه مقعد رجل، فلعله أن يأتيه من هو أثر عنده منك، فيريد أن تتنحى عن مجلسك،

فيكون ذلك نقصاً عليك وشيناً.

ارحم الفقراء لقلة صبرهم، والأغنياء لقلة شكرهم، وارحم الجميع لطول غفلتهم.

العالم مصباح الله في الأرض، فمن أراد الله به خيراً اقتبس منه.

لا يهونن عليك من قبح منظره ورث لباسه، فإن الله تعالى ينظر إلى القلوب ويجازي بالأعمال.

من كذب ذهب بماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمه، ونقل الصخور من مواضعها أهون من تفهيم من لا يفهم.

كنت في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كجزء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ينظر إلي الناس كما

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

ينظر إلى الكواكب في أفق السماء، ثم غض الدهر مني، فقرن بي فلان وفلان، ثم قرنت بخمسة أمثلهم عثمان، فقلت: واذفراه! ثم لم يرض الدهر لي بذلك، حتى أردلني، فجعلني نظيراً لابن هند وابن النابغة! لقد استنت الفصل حتى القرعى. أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي إلي أن الأمة ستغدر بك من بعدي. لامته فاطمة على قعوده وأطالت تعنيفه، وهو ساكت حتى أذن المؤذن، فلما بلغ إلى قوله: أشهد أن محمداً رسول الله، قال لها: أتحبين أن تزول هذه الدعوة من الدنيا؟ قالت: لا، قال: فهو ما أقول لك.

قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن اجتمعوا عليك فاصنع ما أمرتك، وإلا فالصق كلكلك بالأرض، فلما تفرقوا عني جررت على المكروه ذيلي، وأغضيت على القذى جفني، وألصقت بالأرض كلكلي.

الدنيا حلم والآخرة يقظة، ونحن بينهما أضغاث أحلام.

لما عرف أهل النقص حالهم عند أهل الكمال، استعانوا بالكبر ليعظم صغيراً، ويرفع حقيراً، وليس بفاعل.

لو تميزت الأشياء كان الكذب مع الجبن، والصدق مع الشجاعة، والراحة مع اليأس، والتعب مع الطمع، والحرمان مع الحرص، والذل مع الدين.

المعروف غل لا يفكه إلا شكر أو مكافأة.

كثرة مال الميت تسلي ورثته عنه.

من كرمته عليه نفسه هان عليه ماله.

من كثر مزاحته لم يسلم من استخفاف به، أو حقد عليه.

كثرة الدين تضطر الصادق إلى الكذب والواعد إلى الإخلاف.

عار النصيحة يكدر لذها.

أول الغضب جنون، وآخره ندم.

انفرد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون.

لا تقطع أحاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه، ولا تتبعه بعد القطيعة وقبعة فيه، فتسد طريقه عن الرجوع إليك، ولعل التجارب أن ترده عليك وتصلحه لك.

من أحس بضعف حيلته عن الإكتساب بخل.

الجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير وإن كان حدثاً.

الميت يقل الحسد له، ويكثر الكذب عليه.

إذا نزلت بك النعمة فاجعل قراها الشكر.

الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في حظه.

الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود.

أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.

لا تتبع الذنب العقوبة واجعل بينهما وقتاً للإعتذار.

اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك.
 لا يحملنك الحق على اقرار الإثم فتشفي غيظك وتسقم دينك.
 الملك بالدين يقي والدين بالملك يقوى.
 كأن الحاسد إنما خلق ليغتاظ.
 عقل الكاتب في قلمه.
 اقتصر من شهوة خالفت عقلك بالخلاف عليها.
 اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وأفتن بدم من منعي، وأنت من وراء ذلك ولي الإعطاء والمنع، إنك على كل شيء قدير.
 كل حقد حقدته قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أظهرته في وستظهره في ولدي من بعدي، ما لي ولقريش! إنما وترهم بأمر الله وأمر رسوله، أفهذا جزاء من أطاع الله ورسوله إن كانوا مسلمين! عجباً لسعد وابن عمر! يزعمان أني أحارب على الدنيا، أفكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحارب على الدنيا! فإن زعما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حارب لتكسير الأصنام، وعبادة الرحمن، فإنما حاربت لدفع الضلال والنهي عن الفحشاء والفساد، أفمثلي يزن بحب الدنيا! والله لو تمثلت لي بشراً سوياً لضربت بها بالسيف.
 اللهم أنت خلقتني كما شئت، فارحمي كيف شئت، ووفقني لطاعتك، حتى تكون ثقتي كلها بك، وخوفي كله منك.
 لا تسب إبليس في العلانية وأنت صديقه في السر.
 من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها فما قرها.
 لا تطمع في كل ماتسمع.
 من عاتب ووبخ فقد استوفى حقه.
 الجود الذي يستطيع أن يتناول به كل أحد، هو أن ينوي الخير لكل أحد.
 من صحب السلطان بالصحة كان أكثر عدواً ممن صحبه بالغش والخيانة.
 من عاب سفلة فقد رفعه، ومن عاب كريماً فقد وضع نفسه.
 الموالي ينصرون، وبنو العم يحسدون.
 الصدق عز، والكذب مذلة، ومن عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه. إذا سمعت الكلمة تؤذيك فطأطأ لها فإنها تتخطاك.
 نحن نريد ألا نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت.
 أنزل الصديق منزلة العدو في رفع المونة عنه، وأنزل العدو منزلة الصديق في تحمل المونة له.
 أول عقوبة الكاذب أن صدقه يرد عليه.
 الأدب عند الأحق كالماء العذب في أصول الحنظل، كما ازداد رياً ازداد مرارة.

إياكم وحمية الأوغاد، فإنهم يرون العفو ضيماً.
الكريم لا يستقصي في محافة المعتذر، خوفاً أن يجزي من لا يجد مخرجاً من ذنبه.
العفو عن المقر لا عن المصر.
ما استغنى أحد بالله إلا افتقر الناس إليه.
من جاد بماله فقد جاد بنفسه، فإن لم يكن جاد بما بعينها فقد جاد بقوامها.
الدين ميسم الكرام، وطالما قر الكرام بالدين! الماضي قبلك هو الباقي بعدك، والتهنئة بآجل الثواب أولى من التعزية بعاجل المصائب.
مما تكتسب به المحبة أن تكون عالماً كجاهل، وواعظاً كموعوظ.
لا تحمدن الصبي إذا كان سخيّاً، فإنه لا يعرف فضيلة السخاء، وإنما يعطي ما في يده ضعفاً. خير الإخوان من إذا استغنى عنه لم يزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها.
عجباً للسلطان، كيف يحسن، وهو إذا أساء وجد من يزيه ويمدحه!
إذا صادقت إنساناً وجب عليك أن تكون صديق صديقه، وليس يجب عليك أن تكون عدو عدوه، لأن هذا إنما يجب على خادمه وليس يجب على مماثل له.
ليس تكمل فضيلة الرجل حتى يكون صديقاً لمتعاضدين.
من سعادة الحدث ألا يتم له فضيلة في رذيلة.
إذا منعت من شيء قد التمسته، فليكن غيظك منه على نفسك في المسألة أكثر من غيظك على من منعك.
الأسخياء يشمتون بالبخلاء عند الموت، والبخلاء يشمتون بالأسخياء عند الفقر.
ليس يضبط العدد الكثير من لا يضبط نفسه الواحدة.
إذا أحسن أحد من أصحابك فلا تخرج إليه بغاية برك، ولكن اترك منه شيئاً تزيده إياه عند تبينك منه الزيادة في نصيحته.
الوقوع في المكروه أسهل من توقع المكروه.
الحسود ظالم، ضعفت يده عن انتزاع ما حسدك عليه، فلما قصر عليك بعث إليك تأسفه.
أعم الأشياء نفعاً موت الأشرار.
الشيء المعزي للناس عن مصائبهم علم العلماء أنها نفعاء اضطرارية وتأسى العامة بعضها ببعض.
العقل الإصابة بالظن ومعرفة ما لم يكن بما كان.
يا عجباً للناس قد مكنتهم الله من الاقتداء به، فيدعون ذلك إلى الاقتداء بالبهائم! سلوا القلوب عن المودات، فإنها شهود لا تقبل الرشا.
إنما يحزن الحسدة أبداً لأنهم لا يحزنون لما يتزل بهم من الشر فقط، بل ولما ينال الناس من الخير.
العشق جهد عارض صادف قلباً فارغاً.
تعرف حساسة المرء بكثرة كلامه فيما لا يعنيه، وإخباره عما لا يسأل عنه.

لا تؤخر إنالة المحتاج إلى غد، فإنك لا تعرف ما يعرض في غد.
إن تتعب في البر، فإن التعب يزول والبر يبقى.
أجهل الجاهل من عشر بحجر مرتين.
كفأك موجباً على الكذب علمك بأنك كاذب، وكفأك ناهياً عنه خوفك من تكذيبك حال إخبارك. العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً.
لا تتكلوا على البخت فرما لم يكن وربما كان وزال، ولا على الحسب فطالما كان بلاءً على أهله، يقال للناقص: هذا ابن فلان الفاضل، فيتضاعف غمه وعاره، ولكن عليكم بالعلم والأدب، فإن العالم يكرم وإن لم ينتسب، ويكرم وإن كان فقيراً، ويكرم وإن كان حدثاً.
خير ما عوشر به الملك قلة الخلاف وتخفيف المؤنة، وأصعب الأشياء على الإنسان أن يعرف نفسه، وأن يكتم سره.
العدل أفضل من الشجاعة، لأن الناس لو استعملوا العدل عموماً في جميعهم لاستغنوا عن الشجاعة.
أولى الأشياء أن يتعلمها الأحداث الأشياء التي إذا صاروا رجالاً احتاجوا إليها.
لا ترغب في اقتناء الأموال، وكيف ترغب فيما ينال بالبخت لا بالاستحقاق، ويأمر البخل والشره بحفظه والجود والزهد بإخراجه! إذا عاتبت الحدث فاترك له موضعاً من ذنبه، لئلا يحمله الإخراج على المكابرة.
ما انتقم الإنسان من عدوه بأعظم من أن يزداد من الفضائل.
إنما لم تجتمع الحكمة والمال، لعزة وجود الكمال.
يمنع الجاهل أن يجد ألم الحرق المستقر في قلبه ما يمنع السكران أن يجد مس الشوكة في يده. القنية مخدومة، ومن خدم غير نفسه فليس بحر.
لا تطلب الحياة لتأكل، بل أطلب الأكل لتحييا.
إذا رأيت العامة منازل الخاصة من السلطان حسدتها عليها، وتمنت أمثالها، فإذا رأيت مصارعها بدا لها. الشيء الذي لا يستغني عنه أحد هو التوفيق.
ليس ينبغي أن يقع التصديق إلا بما يصح، ولا العمل إلا بما يحل، ولا الابتداء إلا بما تحسن فيه العاقبة.
الوحدة خير من رفيق السوء.
لكل شيء صناعة، وحسن الاختبار صناعة العقل.
من حسدك لم يشكرك على إحسانك إليه.
البغي آخر مدة الملوك.
لأن يكون الحر عبداً لعبيده خير من أن يكون عبداً لشهواته.
من أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد بناه، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه.

أرسل إليه عمرو بن العاص يعييه بأشياء، منها أنه يسمي حسناً وحسيناً: ولدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لرسوله: قل للشانيء ابن الشانيء، لو لم يكونا ولديه لكان أبتى، كما زعمه أبوك!.
قال معاوية لما قتل عمار واضطرب أهل الشام لرواية عمرو بن العاص كانت لهم: تقتله الفتنة الباكية: إنما قتله من أخرجه إلى الحرب وعرضه للقتل، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه: فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذن قاتل حمزة! هذا يدي - يعني محمد بن الحنفية - وهذان عيناى - يعني حسناً وحسيناً - وما زال الإنسان يذب بيده عن عينيه، قالها لمن قال له: إنك تعرض محمداً للقتل، وتقذف به في نحر الأعداء دون أخويه.
شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، ورزقت خير وبره، خذ إليك أبا الأملاك، قالها لعبد الله بن العباس لما ولد أبنه علي بن عبد الله.

ما يسرني أني كفيت أمر الدنيا كله، لأنني أكره عادة العجز.
اجتماع المال عند الأسخياء أحد الخصبين، واجتماع المال عند البخلاء أحد الجديين.
من عمل عمل أبيه كفي نصف التعب.
المصطنع إلى اللثيم كمن طوق الخنزير تبرأ، وقرط الكلب درأ، وألبس الحمار وشياً، وألقم الأفعى شهداً.
الحازم إذا أشكل عليه الرأي بمتزلة من أضل لؤلؤة، فجمع ما حول مسقطها من التراب ثم التمسها حتى وجدها، ولذلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل، ثم يضرب بعضه بعض حتى يخلص إليه الصواب.
الأشراف يعاقبون بالهجران لا بالحرمان.
الشح أضر على الإنسان من الفقر، لأن الفقير إذا وجد اتسع، والشحيح لا يتسع وإن وجد.
أحب الناس إلى العاقل أن يكون عاقلاً عدوه، لأنه إذا كان عاقلاً كان منه في عافية.
عليك بمجالسة أصحاب التجارب، فإنها تقوم عليهم بأغلى الغلاء، وتأخذها منهم بأرخص الرخص.
من لم يحمذك على حسن النية لم يشكرك على جميل العطية.
لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، ولأمة سوداء خرماء ذات دين أفضل.

أفضل العبادة الإمساك عن المعصية، والوقوف عند الشبهة.
ذم الرجل نفسه في العلانية مدح لها في السر.
من عدم فضيلة الصدق في منطقته فقد فجع بأكرم أخلاقه.
ليس يضرك أن ترى صديقك عند عدوك، فإنه إن لم ينفكك لم يضرك.
قل أن ترى أحداً تكبر على من دونه إلا وبذلك المقدار يجود بالذل لمن فوقه.
من عظمت عليه مصيبة فيذكر الموت، فإنها تهون عليه، ومن ضاق به أمر فليذكر القبر فإنه يتسع.
خير الشعر ما كان مثلاً، وخير الأمثال ما لم يكن شعراً.

إلى الناس عند حاجتهم إليك بالبشر والتواضع، فإن نابتك نائبة، وحالت بك حال لقيتهم، وقد أمنت ذلة التنصل إليهم

والتواضع.

إن الله يحب أن يعفى عن زلة السري.

من طال لسانه وحسن بيانه، فليترك التحدث بغرائب ما سمع، فإن الحسد لحسن ما يظهر منه يحمل أكثر الناس على تكذيبه، ومن عرف أسرار الأمور الإلهية فليترك الخوض فيها، وإلا حملتهم المنافسة على تكفيره.

ليس كل مكتوم يسوغ إظهاره لك، ولا كل معلوم يجوز أن تعلمه غيرك.

ليس يفهم كلامك من كان كلامه لك أحب إليه من الاستماع منك، ولا يعلم نصيحتك من غلب هواه على رأيك، ولا يسلم لك من اعتقد أنه أتم معرفة بما أشرت عليه به منك.

خف الضعيف إذا كان تحت راية الإنصاف أكثر من خوفك القوي تحت راية الجور، فإن النصر يأتيه من حيث لا يشعر، وجرحه لا يندمل .

إخافة العبيد والتضييق عليهم يزيد في عبوديتهم وصيانتهم، وإظهار الثقة بهم يكسبهم أنفة وجبرية.

أضر الأشياء عليك أن تعلم رئيسك أنك أعرف بالرياسة منه.

عداوة العقليين أشد العداوات وأنكاهها، فإنها لا تقع إلا بعد الإعذار والإنذار، وبعد أن يئس إصلاح ما بينهما.

لا تخدم من رئيساً كنت تعرفه بالخمول، وسمت به الحال، ويعرف منك أنك تعرف قديمه، فإنه وإن سر بمكانك من خدمته، إلا أنه يعلم العين التي تراه بها، فينقبض عنك بحسب ذلك.

إذا احتجت إلى المشورة في أمر قد طرأ فاستبد به بداية الشبان، فإنهم أحد أذهاناً، وأسرع حذساً، ثم رده بعد ذلك إلى رأي الكهول والشيخوخة ليستعقبوه، ويحسنوا الاختيار له، فإن تجربتهم أكثر. الإنسان في سعيه وتصرفاته كالعائم في اللجة، فهو يكافح الجرية في إدباره، ويجري معها في إقباله.

ينبغي للعقل أن يستعمل فيما يلتمسه الرفق، ومجانبة الهذر، فإن العلة تأخذ بهدوئها من الدم ما لا تأخذه البعوضة باضطرابها وفرط صياحها.

أقوى ما يكون التصنع في أوائله، وأقوى ما يكون التطبع في أواخره.

غاية المروءة أن يستحي الإنسان من نفسه، وذلك أنه ليس العلة في الحياء من الشيخ كبر سنه ولا بياض لحيته وإنما علة الحياء منه عقله فينبغي إن كان هذا الجوهر فينا أن نستحي منه ولا نحضره قبيحاً.

من ساس رعية حرم عليه السكر عقلاً، لأنه قبيح أن يحتاج الحارس إلى من يحرسه.

لا تبتاعن مملوكاً قوي الشهوة، فإن له مولى غيرك، ولا غضوباً فإنه يؤذيكَ في استخدامك له، ولا قوي الرأي فإنه يستعمل الحيلة عليك، لكن اطلب من العبيد من كان قوي الجسم حسن الطاعة، شديد الحياء.

لا تعادوا الدول المقبلة، وتشربوا قلوبكم بغضها، فتدبروا بإقبالها.

الغريب كالفرس الذي زایل شربه، وفارق أرضه، فهو ذاو لا يتقد وذابل لا يثمر.

السفر قطعة من العذاب، والرفيق السوء قطعة من النار.

شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد

كل خلق من الأخلاق فإنه يكسد عند قوم من الناس إلا الأمانة فإنها نافقة عند أصناف الناس، يفضل بها من كانت فيه، حتى إن الآنية إذا لم تنشف وبقي ما يودع فيها على حاله لم ينقص - كانت أكثر ثناءً من غيرها مما يرشح أو ينشف. اصبر على سلطانك في حاجاتك، فلست أبر شغله، ولا بك قوام أمره. قوة الاستشعار من ضعف اليقين.

إذا أحسست من رأيك بإكداد، ومن تصورك بفساد، فاقم نفسك بمجالستك لعامي الطبع، أو لسييء الفكر، وتدارك إصلاح مزاج تخيلك بمكاثرة أهل الحكمة، وبمجالسة ذوي السداد، فإن مفاوضتهم تريح الراي المكدود، وترد ضالة الصواب المفقود.

من جلس في ظل الملق، لم يستقر به موضعه، لكثرة تنقله وتصرفه مع الطباع، وعرفه الناس بالخدعة. كثير من الحاجات تقضى برماً لا كرمًا. أصحاب السلطان في المثل كقوم رقوا جبلاً ثم سقطوا منه، فأقربهم إلى الهلكة والتلف أبعدهم كان في المرتقى. لا تضع سررك عند من لا سر له عندك. سعة الأخلاق كيمياء الأرزاق.

العلم أفضل الكنوز وأجملها، خفيف الحمل، عظيم الجدوى، في الملاء جمال، وفي الوحدة أنس. السباب مزاح النوكى، ولا بأس بالمفاكهة، يروح بها الإنسان عن نفسه، ويخرج عن حد العبوس. ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الهدية، والرسول، والكتاب. التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة. أنت مخير في الإحسان إلى من تحسن إليه، ومرتهن بدوام الإحسان إلى من أحسنت إليه، لأنك إن قطعتَه فقد أهدرتَه، وإن أهدرتَه فلم فعلته.

الناس من خوف الذل في ذل. إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيًّا، وإذا كان الإيجاز مقصراً كان الإكثار واجباً. بئس الزاد إلى المعاد، العدوان على العباد.

الخلق عيال الله، وأحب الناس إلى الله أشفقهم على عياله. تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك. العاقل بخشونة العيش مع العقلاء، آنس منه بلين العيش مع السفهاء. الإنقباض بين المنبسطين ثقل، والإنبساط بين المنقبضين سخف. السخاء والجود بالطعام لا بالمال، ومن وهب ألفاً وشح بصفحة طعام فليس بجواد. إن بقيت لم يبق الهم.

لا يقوم عز الغضب بذلة الاعتذار. الشفيع جناح الطالب.

الأمل رفيق مؤنس، إن لم يبلغك فقد استمتعت به.

إعادة الإعتذار تذكير بالذنب.

الصبر في العواقب شاف أو مريح.

من طال عمره، رأى في أعدائه ما يسره.

لا نعمة في الدنيا أعظم من طول العمر، وصحة الجسد.

الناس رجالان: إما مؤجل بفقد أحبائه، أو معجل بفقد نفسه.

العقل غريزة تربيها التجارب.

النصح بين الملاءم تقريع.

لا تنكح خاطب سرك.

من زاد أدبه على عقله كان كالراعي الضعيف مع الغنم الكثير.

الدار الضيقة العمى الأصغر.

النمام جسر الشر.

لا تشن وجه العفو بالتقريع .

كثرة النصح تهجم بك على كثرة الظنة.

لكل ساقطة لاقطة.

ستساق إلى ما أنت لاق.

عاداك من لاحاك.

جدك لا كدك.

تذكر قبل الورد الصدر ، والحذر لا يغني من القدر، والصبر من أسباب الظفر.

عار النساء باق يلحق الأبناء بعد الآباء.

أعجل العقوبة عقوبة البغي والغدر واليمين الكاذبة، ومن إذا تضرع إليه وسئل العفو لم يغفر. لا ترد بأس العدو القوي

وغضبه. يمثل الخضوع والذل، كسلامة الحشيش من الريح العاصف بانثائه معها كيفما مالت.

قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك، ولا تفرط في مقاربتك فتذل نفسك وناصرك، وتأمل حال الخشبة المنصوبة في

الشمس التي إن أملتها زاد ظلها، وإن أفرطت في الإمالة نقص الظل.

إذا زال المحسود عليه علمت أن الحاسد كان يحسد على غير شيء.

العجز نائم، والحزم يقظان.

من تجرأ لك تجرأ عليك.

ما عفا عن الذنب من قرع به.

عبد الشهوة أذل من عبد الرق.

ليس ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره، وطاعة نفسه عليه ممتنعة.

الناس رجالان: واحد لا يكتفي، وطالب لا يجد.

كلما كثر خزان الأسرار، زادت ضياعاً.

كثرة الآراء مفسدة، كالقدر لا تطيب إذا كثر طباعوها.

من اشتاق خدام، ومن خدم اتصل، ومن اتصل وصل، ومن وصل عرف.

عجباً لمن يخرج إلى البساتين للفرجة على القدرة، وهلا شغلته رؤية القادر عن رؤية القدرة! كل الناس أمروا بأن يقولوا:

لا إله إلا الله، إلا رسول الله، فإنه رفع قدره عن ذلك، وقيل له: فاعلم أنه لا إله إلا الله، فأمر بالعلم لا بالقول.

كل مصطنع عارفة فإنما يصنع إلى نفسه، فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيت به إلى نفسك وتمت به لذتك، ووقيت به عرضك.

ولذك ريحانتك سبباً، وخادمك سبباً، ثم هو عدوك أو صديقك.

من قبل معروفك فقد باعك مروءته.

إلى الله أشكو بلادة الأمين ويقظة الخائن.

من كثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً.

من كثر حقه قل عتابه.

الحازم من لم يشغله البطر بالنعمة عن العمل للعاقبة، والهمل بالحادثة عن الحيلة لدفعها.

كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحاً فيها.

من قبل عطاءك فقد أعانك على الكرم، ولولا من يقبل الجود لم يكن من يجود.

إخوان السوء كشجرة النار، يحرق بعضها بعضاً.

زلة العالم كإنكسار السفينة تغرق ويغرق معها خلق.

أهون الأعداء كيداً أظهرهم لعداوتهم.

أبق لرضاك من غضبك، وإذا طرت فقع قريباً.

لا تلتبس بالسلطان في وقت اضطراب الأمور عليه، فإن البحر لا يكاد يسلم صاحبه في حال سكونه، فكيف يسلم مع اختلاف رياحه واضطراب أمواجه.

إذا خلى عنان العقل، ولم يحبس على هوى نفس، أو عادة دين، أو عصبية لسلف، ورد بصاحبه على النجاة.

إذا زادك الملك تأنيساً فزده إجلالاً.

من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه.

قليل يترقى منه إلى كثير خير من كثير ينحط عنه إلى قليل.

جنبوا موتاكم في مدافنهم جار السوء، فإن الجار الصالح ينفع في الآخرة كما ينفع في الدنيا. زر القبور تذكر بها الآخرة،

شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد

وغسل الموتى يتحرك قلبك، فإن الجسد الخاوي عظة بليغة، وصل على الجنائز لعله يحزنك، فإن الحزين قريب من الله. الموت خير للمؤمن والكافر، أما المؤمن فيتعجل له النعيم، وأما الكافر فيقل عذابه، وآية ذلك من كتاب الله تعالى: "وما عند الله خير للأبرار"، "ولا يحسن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً".

جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك.

من خاف إساءتك اعتقد مساءتك، ومن رهب صولتك ناصب دولتك.

من فعل ما شاء لقي ما شاء.

يسرني من القرآن كلمة أرجوها لمن أسرف على نفسه "قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء" فجعل الرحمة عموماً والعذاب خصوصاً.

الإستثثار يوجب الحسد، والحسد يوجب البغضة، والبغضة توجب الإختلاف، والإختلاف يوجب الفرقة، والفرقة توجب الضعف، والضعف يوجب الذل، والذل يوجب زوال الدولة، وذهاب النعمة.

لا يكاد يصح رؤيا الكذاب، لأنه يخبر في اليقظة بما لم يكن فأحر به أن يرى في المنام ما لا يكون.

يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له.

لا تكاد الظنون تزدهم على أمر مستور إلا كشفته.

المشورة راحة لك وتعب على غيرك.

حق كل سر أن يصاب، وأحق الأسرار بالصيانة سرك مع مولاك، وسره معك، واعلم أن من فضح فضح، ومن باح فلدمه أباح.

يا من ألم بجنب الجلال، أحفظ ما عرفت، واكنم ما استودعت، واعلم أنك قد رشحت لأمر فافطن له، ولا ترض

لنفسك أن تكون خائناً، فمن يؤد الأمانة فيما استودع، أخلق الناس بسمة الخيانة، وأجدر الناس بالإبعاد والإهانة! لا

تعامل العامة فيما أنعم به عليك من العلم، كما تعامل الخاصة، واعلم أن الله سبحانه رجالاً أودعهم أسراراً خفية، ومنعهم

عن إشاعتها، واذكر قول العبد الصالح لموسى وقد قال له: "هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً. قال إنك لن

تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً!".

لكل دار باب، وباب دار الآخرة الموت.

إن لك فيمن مضى من آبائك وإخوانك لعبرة، وإن ملك الموت دخل على داود النبي، فقال: من أنت؟ قال: من لا يهاب

الملوك، ولا تمنع منه القصور، ولا يقبل الرشأ، قال: فإذا أنت ملك الموت جئت، ولم أستعد بعد! فقال: فأين فلان

جارك، أين فلان نسيبك؟ قال: ماتوا، قال: ألم يكن لك في هؤلاء عبرة لتستعد! ما أخسر صفقة الملوك إلا من عصم الله،

باعوا الآخرة بنومة.

إن هذا الموت قد أفسد على الناس نعيم الدنيا، فما لكم لا تلتمسون نعيماً لا موت بعده! انظر العمل الذي يسرك أن

يأتيك الموت وأنت عليه فافعله الآن، فلست تأمن أن تموت الآن.

لا تستبطن القيامة فتسكن إلى طول المدة الآتية عليك بعد الموت، فإنك لا تفرق بعد عودك بين ألف سنة وبين ساعة واحدة، ثم قرأ "ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار".!

لا بد لك من رفيق في قبرك، فاجعله حسن الوجه طيب الريح، وهو العمل الصالح.

رب مرتاح إلى بلد وهو لا يدري أن حمامه في ذلك البلد.

الموت قانص يصمي ولا يشوي.

ما من يوم إلا يتصفح ملك الموت فيه وجوه الخلائق، فمن رآه على معصية أو لهو، أو رآه ضاحكاً فرحاً، قال له: يا

مسكين ما أغفلك عما يراد بك! اعمل ما شئت، فإن لي فيك غمرة أقطع بها وتينك.

إذا وضع الميت في قبره اعتورته نيران أربع، فتجىء الصلاة فتطفئ واحدة، ويجىء الصوم فيطفئ واحدة، وتجيء الصدقة

فتطفئ واحدة، ويجىء العلم فيطفئ الرابعة، ويقول: لو أدركتهن لأطفأكن كلهن، فقر عيناً فأنا معك، ولن ترى بؤساً.

استجيروا بالله تعالى، واستخيروه في أموركم، فإنه لا يسلم مستجيراً، ولا يحرم مستخيراً.

ألا أدلكم على ثمرة الجنة! لا إله إلا الله بشرط الإخلاص.

من شرف هذه الكلمة وهي الحمد لله. أن الله تعالى جعلها فاتحة كتابه، وجعلها خاتمة دعوى أهل جنته، فقال: "وآخر

دعواهم أن الحمد لله رب العالمين".

ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط المهشم، وكالدار العامرة بين الربوع الخربة. أفضل الأعمال أن تموت

ولسانك رطب بذكر الله سبحانه.

الذكر ذكران: أحدهما ذكر الله وتحميده، فما أحسنه وأعظم أجره! والثاني ذكر الله عندما حرم الله وهو أفضل من الأول!

ما أضيق الطريق على من لم يكن الحق تعالى دليلاً، وما أوحشها على من لم يكن أنيسه! ومن اعتر بغير عز الله ذل، ومن

تكثر بغير الله قل.

اللهم إن فهمت عن مسألي، أو عمهت عن طلبتي، فدلني على مصالحتي، وخذ بناصيتي إلى مراشدي.

اللهم احملي على عفوك، ولا تحملي على عدلك.

مخ الإيمان التقوى والورع، وهما من أفعال القلوب، وأحسن أفعال الجوارح ألا تزال مالتاً فاك بذكر الله سبحانه.

اللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تشغلي بما تكفلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبي وأنا أستغفرك.

سبحان من ندعوه لحظنا فيسرع! ويدعونا لحظنا فنبطئ! خيرهِ إلينا نازل، وشرنا إليه صاعد، وهو مالك قادر.

اللهم إنا نعوذ بك من بيات غفلة وصباح ندامة.

اللهم أي أستغفرك لما تبت منه إليك ثم عدت فيه، وأستغفرك لما وعدتك من نفسي ثم أخلفتك،

وأستغفرك للنعم التي أنعمت بها علي فتقويت بها على معصيتك.

اللهم إني أعوذ بك أن أقول حقاً ليس فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك، وأعوذ بك أن أترين للناس بشيء يشينني عندك،

وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك. وأعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد بما علمتني مني.

يا من ليس إلا هو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، اعف عني! اللهم إن الآمال منوطة بكرمك، فلا تقطع علائقها

بسخطك.

اللهم إني أبرأ من الحول والقوة إلا بك، وأدراً بنفسي عن التوكل على غيرك.

اللهم صل على محمد وآل محمد، كلما ذكره الذاكرون، وصل على محمد وآل محمد كلما غفل عن ذكره الغافلون، اللهم صل على محمد وآل محمد عدد كلماتك، وعدد معلوماتك، صلاة لا نهاية لها، ولا غاية لامدها.

سبحان الواحد الذي ليس غيره، سبحان الدائم الذي لا نفاد له، سبحان القديم الذي لا ابتداء له، سبحان الغني عن كل شيء ولا شيء من الأشياء يغني عنه!.

يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام اعف عني .

وهذا حين انتهاء قولنا في شرع نهج البلاغة، ولم ندرك ما أدركناه منه بقوتنا وحولنا، فإننا عاجزون عما هو دونه، ولقد شرعنا فيه وإنه لفي أنفسنا كالطود الأملس تزل الوعول العصم عن قذفاته، بل كالفلك الأطلس لا تبلغ الأوهام والعقول إلى حدود غاياته، فما زالت معونة الله سبحانه وتعالى تسهل لنا حزنه، وتذلل لنا صعبه، حتى أصبح أبيه، وأطاع عصيه، وفتحت علينا - بحسن النية وإخلاص الطوية - في تصنيفه أبواب البركات، وتيسرت علينا مطالب الخيرات، حتى لقد كان الكلام ينثال علينا إنثيالاً، ويواتينا بديهياً وارتجالاً، فتم تصنيفه في مدة قدرها أربع سنين وثمانية أشهر، وأولها غرة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة. وآخرها سلخ صفر من سنة تسع وأربعين وستمائة، وهو مقدار مدة خلافة أمير المؤمنين رضي الله عنه، وما كان في الظن والتقدير أن الفراغ منه يقع في أقل من عشر سنين، إلا أن الألطاف الإلهية والعناية السماوية، شملتنا بارتفاع العوائق، وانتفاء الصوارف، وشجدت بصيرتنا فيه، وأرهفت هممتنا في تشييد مبانيه، وتنضيد ألفاظه ومعانيه.

وكان لسعادة المجلس المولوي المؤيدي الوزيري أجرى الله بالخير أقلامه، وأمضى في طلي الأعداء حسامه في المعونة عليه أوفر قسط، وأوفى نصيب وحظ، إذ كان مصنوعاً لخزائنه، وموسوماً بسمته، ولأن همته أعلاها الله ما زالت تتقاضى عنده بإتمامه، وتحته على إنجازه وإبرامه، وناهيك بها من همة راضت الصعب الجامح، وخففت العبء الفادح، ويسرت الأمر العسير، وقطعت المدى الطويل في الزمن القصير.

وقد استعملت في كثير من فصوله فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة ألفاظ القوم، مع علمي أن العربية لا تجيزها، نحو قولهم: المحسوسات، وقولهم: الكل والبعض، وقولهم: الصفات الذاتية، وقولهم: الجسمانيات، وقولهم: أما أولاً فالحال كذا، ونحو ذلك مما لا يخفى عن له أدنى أنس بالأدب، ولكننا استهجننا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم، فمن كلم قوماً كلمهم باصطلاحهم، ومن دخل ظفار حمر.

والنسخة التي بني هذا الشرح على نصها أتم نسخة وجدتها بنهج البلاغة، فإنها مشتملة على زيادات تخلو عنها أكثر النسخ.

وأنا أستغفر الله العظيم من كل ذنب يبعد من رحمته، ومن كل خاطر يدعو إلى الخروج عن طاعته، وأستشفع إليه بمن أنصبت جسدي، وأسهرت عيني، وأعملت فكري، واستغرقت طائفة من عمري، في شرح كلامه، والتقرب إلى الله بتعظيم منزلته ومقامه، أن يعتق رقبي من النار، وألا ييليني في الدنيا ببلاء تعجز عنه قوتي، وتضعف عنه طاقتي، وأن يصون

وجهي عن المخلوقين، ويكف عني عادية الظالمين، إنه سميع مجيب، وحسبنا الله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله وسلامه.

الفهرس

2	الجزء الأول.....
2	باب المختار من الخطب والأوامر.....
2	فمن خطبة له خلق السماء والأرض وخلق آدم.....
17	رأي المعتزلة بالملائكة.....
22	كيف ابتدأ خلق البشر.....
24	الزنادقة من عصبة إبليس.....
25	تضارب الآراء في خلق الجنة والنار.....
26	آدم والملائكة أيهما أفضل.....
29	أديان العرب وفرقهم في الجاهلية.....
32	الملائكة وآدم والبيت المعمور.....
33	القول في الكلام على السجع.....
35	ومن خطبة له بعد انصرافه من صفين.....
36	لزوم ما لا يلزم أحد أنواع البديع.....
41	أشعار وأراجيز في الوصاية.....
45	ومن خطبة له وهي المعروفة بالشقشقية.....
47	التعريف بأبي بكر.....
49	تأثير أسامة بن زيد.....
51	أبو بكر يعهد بالخلافة إلى عمر.....
56	نبذة من أخبار عمر بن الخطاب.....
62	ما هي قصة الشورى.....
68	نبذة من أخبار عثمان بن عفان.....
72	ومن خطبة له في هداية الناس وكمال يقينه.....
	ومن كلامه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له
75	بالخلافة :.....

- 79 ومن كلام له لما أشير عليه بالألا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال :
- 81 التعريف بطلحة والزبير .
- 81 طارق بن شهاب يستقبل علياً
- 82 ومن خطبة له في ذم أتباع الشيطان
- 82 ومن كلام له يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك
- 83 طلحة والزبير ينكثان البيعة
- 85 ومن كلام في صفة قوم أرعدوا وفشلهم في ذلك
- 86 ومن خطبة له يوعد قوماً
- 87 ومن كلام له لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل :
- 88 وحشي يقتل حمزة
- 88 من أخبار محمد بن الحنفية
- 90 ومن كلام له لما أظفره الله بأصحاب الجمل
- 91 ومن كلام له في ذم أهل البصرة
- 100 ومن كلام له في ذم أهل البصرة أيضاً
- 100 ومن كلام له فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان رضي الله عنه :
- 101 ومن خطبة له لما بويع بالمدينة
- 106 ومن كلام له في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل :
- 108 ومن كلام له في ذم اختلاف العلماء في الفتيا
- 109 ومن كلام له قاله للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب
- 110 من أخبار الأشعث بن قيس
- 112 ومن خطبة له في تهويل ما بعد الموت وتعظيمه
- 113 ومن خطبة له في موعظة الناس
- 114 ومن خطبة له بعدما أتهموه بقتل عثمان
- 116 خطبة علي في المدينة
- 116 خطبته عند مسيره إلى البصرة
- 117 خطبته بذى قار
- 118 ومن خطبة له في قسمة الأرزاق بين الناس
- 119 النهى عن الحسد
- 121 الأمر بالصبر وانتظار الفرج

125	 النهي عن الرياء والكذب
125	 أهمية العشيرة والقبيلة والتقوي بهما
127	 في الصدق والأريحية
127	 في صلة الرحم
128	 ومن خطبة له في الحث على قتال الخوارج
128	 ومن خطبة له وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد
129	 من أخبار معاوية بن أبي سفيان
133	 بسر بن أرطأة ونسبه
133	 أخبار عبيد الله بن العباس
134	 عصيان أهل العراق على الأمراء
134	 ومما خطب به في ذم أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم :
135	 ومن خطبة له في هذا المعنى وقد أراد الحج
135	 ومن خطبة له في هذا المعنى
137	 الجزء الثاني
137	 باب المختار من الخطب والأوامر
137	 بسر بن أرطأة إلى الحجاز واليمن
144	 ومن خطبة له في ذم من بايعه بشروط
145	 اختلاف الروايات في قصة السقيفة
165	 كتب إلى معاوية وعمرو بن العاص
171	 ومن خطبة له في الحث على الجهاد وذم القاعدين
174	 كلام لابن نباتة نسج فيه على منوال كلامه
174	 عليه السلام في الجهاد:
176	 ومن خطبة ابن نباتة التي يحرض فيها على الجهاد
177	 كتائب سفيان الغامدي في الأنبار
179	 ومن خطبة له في الحث على التزود للآخرة
181	 من مواعظ الصالحين
185	 في الكلام على المقابلة
189	 ومن خطبة له في ذم المتخاذلين
190	 من أخبار الضحاك بن قيس

196	ومن خطبة له في معنى قتل عثمان
197	المؤرخون يروون أخبار مقتل عثمان
212	لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير
212	قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته :
214	من أخبار عبد الله بن الزبير وأبيه
216	في الكلام على الاستدراج
218	ومن خطبة له عليه السلام في جور الزمان
220	في ذم الرياء والشهرة
223	عند خروجه لقتال أهل البصرة
224	حذيفة بن اليمان وخبر يوم ذي قار
225	ومن خطبة له في استنفار إلى أهل الشام
227	أول خطبة لعللي بالكوفة بعد قدومه
227	من حرب الخوارج:
229	نبذ من فضائل الإمام علي
232	ومن خطبة له بعد التحكيم
233	التحكيم وظهور الخوارج
260	في تخويف أهل النهروان
260	الثواب لقاتلي الخوارج
268	ومن كلام له يجري مجرى الخطبة
269	سلوني قبل أن تفقدوني
269	الإمام علي عليه السلام وعلم الغيب
275	ومن خطبة له في معنى الشبهة
276	في ذم المتقاعدين عن القتال
276	خبر النعمان بن بشير ومالك الأرحي
276	مع الإمام علي عليه السلام:
279	ومن كلام له عليه السلام للخوارج
279	لما سمع قولهم: لا حكم إلا لله، قال :
279	القول بوجوب الإمامة
280	الخوارج عود على بدء

281	ومن خطبة له في الوفاء والصدق
282	مدح الوفاء وذم الغدر
283	في اتباع الهوى وطول المل
285	وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام
285	بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجلي :
286	ماذا قال قاضي القضاة
288	رد المرتضى على قاضي القضاة
291	الجزء الثالث
291	تابع بقية رد المرتضى
291	عود على بدء بقية رد المرتضى
295	متفرقات
295	المطاعن على عثمان والرد عليها
323	أخبار جرير بن عبد الله البجلي
323	وبيعته لعلي عليه السلام:
325	بين علي عليه السلام ومعاوية
333	متفرقات
344	جرير البجلي يفارق علياً عليه السلام
346	لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية
346	من هم بنو ناجية
347	أخبار علي بن الجهم
350	نسب مصقلة وخبر بني ناجية مع علي عليه السلام
350	أخبار الخريت بن راشد الناجي
362	ومن خطبة له في الزهد وتعظيم الله
362	الموازنة والسجع
363	التحذير من مفاتن الدنيا
368	عند عزمه على المسير إلى الشام
369	ما قاله عليه السلام يوم خروجه من الكوفة
370	علي عليه السلام في كربلاء واهاً لك يا تربة
371	مفارقة علي والمسير إلى الشام

379	بين محمد بن أبي بكر ومعاوية
382	ومن كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة
383	الكوفة في نظر علي عليه السلام
383	وجعفر بن محمد عليه السلام:
384	ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام
385	في الطريق إلى صفين
391	في تمجيد الله تعالى وتمجيده
391	مباحث من العلم الإلهي
391	وهذا الفصل يشتمل على عدة مباحث من العلم الإلهي:
402	ومن خطبة له في وقوع الفتن
403	لما غلب أصحاب معاوية أصحابه
403	على شريعة الفرات بصفين ومنعواهم من الماء:
404	أشعار في الإباء والتحريض على الحرب
406	من هم أباة الضيم
440	شريعة الفرات بين معاوية وعلي
450	ومن خطبة له وقد تقدم مختارها برواية
450	ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى لتغاير الروايتين:
452	أشعار في ذم الدنيا
462	الجزء الرابع
462	متفرقات
462	ومنها في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية
462	رأي الفقهاء في وجوب الأضحية
463	ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة
463	بيعة علي عليه السلام
466	وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين
466	بعض ما جاء من أخبار في يوم صفين
475	يذكر حروبه مع الرسول
476	عبد الله بن الحضرمي وفتنته بالبصرة
485	ومن كلام له لأصحابه يخبر عن رجل يأمر بسبه

486	أهل العدل والمجبرة وبعض المسائل الكلامية
486	معاوية يأمر بسب علي عليه السلام
490	الأحاديث الموضوعة في ذم علي عليه السلام
495	فصل في ذكر المنحرفين عن علي عليه السلام
513	سب علي عليه السلام عند الإكراه زكاة له
514	معنى السب والبراءة
515	علي عليه السلام يقول إني ولدت على الفطرة
516	المحققون من أهل السيرة
516	علي عليه السلام أول من أسلم
521	علي عليه السلام من السابقين إلى الهجرة
522	ومن كلام له كلم به الخوارج
523	الخوارج رجاهم وحروهم
523	عروة بن حدير
524	نجدة بن عويمر الحنفي
524	المستورد بن سعد التميمي
525	حوثر الأسدي
525	قريب بن مرة وزحاف الطائي
525	نافع بن الأزرق الحنفي
528	عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي
529	الزبير بن علي السليطي وظهور أمر المهلب
540	قطري بن الفجاءة المازني
556	عبد ربه الصغير
560	المهلب وبنوه
566	شبيب بن يزيد الشيباني
568	بين شبيب والحجاج
588	الجزء الخامس
588	ظهور الغلاة
591	الإخبار عن الغيوب
593	الكناية وتوابعها

613	الفرق بين الكناية والتعريض
619	الوليد بن طريف
620	خروج ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة
621	ذكر طائفة من جماعة الخوارج
622	في ذكر الخوارج وحروبهم
623	مرداس بن حدير الناسك
628	فقيه الصفرية عمران بن حطان
631	الناسك المجتهد المستورد السعدي
631	حوثرة الأسدي
632	الرهين الرادي
632	عباد بن أخضر المازني
633	أبو الوازع الراسي
634	عمران بن الحارث الراسي
635	عبد الله بن يحيى طالب الحق
639	أبو حمزة الشاري
646	أما أنكر علي معاوية
648	من كلام له لما خوف من الغيلة
648	الآجال واختلاف الناس فيها
651	ومن خطبة له يحذر من فتنة الدنيا
654	ومن خطبة في الاستعداد للموت
655	من مواعظ الحسن البصري
656	خطبتان لعمر بن عبد العزيز
657	خطبة لابن نباتة
657	ومن خطبة له في تزيه الله وتقديسه
660	اختلاف الفلاسفة والمجوس
660	والمناوية ومتكلمي الإسلام في خلق العالم
665	كان يقول لأصحابه في بعض أيام صفين
669	وقعة صفين
708	الجزء السادس

708	ومن كلام له في معنى الأنصار.....
709	خبر السقيفة.....
713	قصيدة أبي القاسم المغربي.....
713	وتعصبه للأنصار على قريش.....
716	المهاجرون والأنصار بعد بيعة أبي بكر.....
732	خبر أمر فاطمة مع أبي بكر وعمر.....
736	ومن كلام له لما قلد محمد بن أبي بكر.....
736	مصر فملكك عليه وقتل.....
736	محمد بن أبي بكر.....
737	نسب هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.....
738	ولاية قيس بن سعد علي مصر.....
742	ولاية محمد بن أبي بكر.....
756	خطبة للإمام علي بعد فتح مصر.....
759	مقتل محمد بن أبي حذيفة،.....
760	ومن كلام له في ذم أصحابه.....
761	دم الجبن في شعر الشعراء.....
762	أخبار الجبناء ونوادرهم.....
765	وقال في سحرة اليوم الذي ضرب فيه.....
765	مقتل الامام علي عليه السلام.....
772	ومن كلام له في ذم أهل العراق.....
773	مطاعن النظام على الإمام علي والرد عليه.....
775	خطبة بعد انقضاء أمر النهروان.....
776	بعض مما قاله عليه السلام.....
777	خطبة له علم فيها الناس الصلاة على النبي.....
777	صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.....
780	معنى الصلاة على الرسول.....
780	صلى الله عليه وآله وسلم.....
781	كلام له قاله مروان بن الحكم بالبصرة.....
781	نسب مروان بن الحكم وبعض أخباره.....

790	ومن كلام له لما عزموا علي بيعه عثمان
791	الامام قبل المبايعة لعثمان
791	لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان
793	ومن خطبة له في الزهد
793	في حال بني أمية
794	ومن كلمات كان عليه السلام يدعو بها
795	من أدعية رسول الله المأثورة
795	من أدعية الصحيفة السجادية
799	من الأدعية المأثورة عن عيسى عليه السلام
800	من الأدعية المأثورة عن بعض الصالحين
804	آداب الدعاء
805	ومن كلام له عليه السلام
806	اختلاف الناس في أحكام النجوم
812	بعد فراغه من حرب الجمل في ذم النساء
813	أخبار عائشة
816	تفسير غريب هذا الخبر
820	ومن كلام له رضي الله عنه في الزهد
821	ما جاء في الزهد من أخبار
824	ومن كلام له رضي الله عنه في صفة الدنيا
826	ومن الغراء وهي من الخطب العجيبة
840	القبر وسؤال منكر ونكير
843	ومن ذكر عمرو بن العاص
843	أخبار عمرو بن العاص
845	الحسن بن علي رضي الله عنه يفحم رجالات من قریش
850	عمرو بن العاص ومعاوية
851	عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص في مجلس معاوية
852	عبد الله بن العباس ورجالات
852	قریش في مجلس معاوية
855	عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص في الحبشة

857	جعفر الطيار وابن العاص في الحبشة
859	ابن العاص في صفين
862	إسلام ابن العاص
863	بعث رسول الله عمراً إلى ذات السلاسل
863	ولايات عمرو بن العاص ونبذ من كلامه
866	الإمام علي رجل العبادة لا رجل الدعابة
868	المزاح وما قيل فيه
872	حسن الخلق وما قيل فيه
873	الغلظة والفظاظة
875	في تعظيم الله وتمجيده
877	ومن خطبة له عليه السلام في الوعظ
880	ذم الكذب والكذابين
882	في صفات من يحبه الله تعالى
883	العباد والزهاد والعارفون
892	في وصف ما عليه الناس من الخطأ
893	ذكر حال الناس قبل البعثة
896	في عد بعض صفات الله تعالى
921	في بيان أنه إمام أرباب صناعة البديع
923	الجزء السابع
924	اختلاف المتكلمين في عصمة الأنبياء
925	الفصل الأول في حال الأنبياء قبل البعثة
925	ومن الذي يجوز أن يرسله الله تعالى إلى العباد
926	الفصل الثاني عصمة الأنبياء في زمن النبوة
930	الفصل الثالث خطئهم في التبليغ والفتاوى
936	لما أراوده الناس على البيعة
936	بعد قتل عثمان رضي الله عنه
937	طلحة والزبير وقسم المال
941	يذكر ما كان من تغلبه على الخوارج
943	الإمام علي وإخباره بأمر غيبية

949	يصف فيها حال الأنبياء
952	يذكر فيها حال الناس عند البعثة
952	ومن خطبة له في تمجيد الله وتعظيمه
953	ومن كلام له في توبيخ أصحابه
957	ومن كلام له رضي الله عنه في وصف بني أمية
957	ومن خطبة له رضي الله عنه في وصف الدنيا
959	يذكر محمداً صلى الله عليه وسلم وما تركه في أصحابه
960	مدح الأناة وذم العجلة
961	مدح المقل من الكلام وذم المكث
965	ومن خطبة له عليه السلام
968	ومن خطبة له تجري هذا الجرى
969	في وصف الناس في بعض الأزمان
973	ومن خطبة له يصف فيها حال الناس
975	ومن خطبة له في شأن أهل البيت؛
977	نهاية مروان بن محمد الملقب بالحمار
981	انتقال الملك من بني أمية إلى بني العباس
1000	ومن خطبة له في وصف الإسلام
1004	ومن كلام له في بعفر أيام صفين
1004	ومن خطبة له وهي من خطب الملاحم
1010	ومن خطبة له في تمجيد الله ووصف ملائكته
1025	ومن خطبة له في وصف الدنيا
1029	يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس
1030	بعض الأشعار في التخلص
1032	شواهد في الاستطراد
1034	ومن خطبة في التحذير من أمر الدنيا
1036	ومن خطبة له في الحفر على التقوى
1042	ومن خطبة له في الاستسقاء
1044	رأي الفقهاء في صلاة الاستسقاء
1046	أحاديث في الاستسقاء

1048	ومن خطبة له في تعظيم ما حجب عن الناس
1050	ومن كلام له في التوبيخ على البخل
1051	في حث أصحابه على مناصحته
1051	ومن كلام له وقد جمع الناس، وحضهم
1051	على الجهاد، فسكتوا ملياً، فقال عليه السلام
1052	ومن كلام له في الحث على الإستقامة
1053	وقد قام إليه رجل من أصحابه
1056	ومن كلام له قاله للخوارج
1056	وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة
1057	ومن كلام له قاله لأصحابه في ساعة الحرب
1059	ومن كلام له في توبيخ أصحابه
1059	ووصفهم بالجبن
1060	الجزء الثامن
1060	ومن كلام له وحث أصحابه على القتال
1062	عود إلى أخبار صفين
1110	ومن كلام له عليه السلام في الخوارج
1110	لما أنكروا تحكيم الرجال ويذم فيه أصحابه في التحكيم
1113	ومن كلام له لما عوتب كل التسوية في العطاء
1113	وتصويره الناس أسوة في العطاء من غير تفضيل أولي السابقات والشرف
1114	ومن كلام له قاله للخوارج أيضاً
1115	الخوارج يكفرون أهل الكبائر
1117	غلاة الشيعة والنصيرية وغيرهم
1120	فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة
1121	أخبار صاحب الزنج
1164	جنكيز خان وفتنة التتر،
1177	ومن خطبة له في ذكر المكايل والموازن
1178	من أقوال الحكماء والصالحين،
1181	ومن كلام له لأبي ذر رحمه الله
1181	لما أخرج إلى الربرة

1181	أخبار أبي ذر الغفاري حين خروجه إلى الريدة،
1186	ومن كلام له في حال نفسه أوصاف الإمام
1188	ومن خطبة له عنه في تمجيد الله تعالى
1190	ومن كلام له عليه السلام في أوصاف الدنيا
1191	الجناس وأنواعه
1202	ومن كلام له وقد شاوره عمر بن الخطاب
1202	في الخروج إلى غزو الروم
1203	غزوة فلسطين وفتح بيت المقدس
1204	من كلام له وقد وقع بينه وبين عثمان مشاجرة
1204	فقال المغيرة بن الأحنس لعثمان: أنا أكفيكه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة.
1206	نبذ من أخبار ثقيف
1208	الجزء التاسع
1208	ذكر ما شجر بين علي وعثمان
1215	بين عثمان وابن عباس بحضور علي
1218	أسباب المنافسة بين علي رضي الله عنه وعثمان
1221	ومن كلام له عنه في أمر البيعة
1222	في شأن طلحة والزبير
1225	ومن خطبة له يومئذ فيها إلى ذكر الملاحم
1226	فصل في الاعتراض،
1229	ومن كلام له في وقت الشورى
1230	تكملة حديث الشورى
1235	ومن كلام له في النهي عن غيبة الناس
1235	في ذم الغيبة والاستماع إلى المغتابين
1238	الغيبة وحكمها في الشرع الاسلامي
1240	الأسباب الباعثة على الغيبة
1241	ومن كلام له في النهي عن سوء الظن
1242	ومن كلام له عنه في وضع المعروف في غير أهله
1243	ومن خطبة عنه في الاستسقاء
1244	الثواب والعقاب عند أهل الكتاب

- 1246 قال في بعثة الأنبياء
- 1247 أهل يتوجب أن يكون الأئمة من قريش؟
- 1249 ومن خطبة له عنه في شؤون الدنيا والناس
- 1251 ومن كلام له وقد استشاره عمر
- 1251 في الشخوص لقتال الفرس بنفسه
- 1252 وقعة القادسية
- 1253 وقعة نهاوند
- 1255 ومن خطبة له رضي الله عنه في الغاية من بعثة الرسول
- 1257 ومن كلام له رضي الله عنه في ذكر أهل البصرة
- 1258 وقعة يوم الجمل
- 1259 مقتل طلحة والزبير
- 1260 ومن كلام له رضي الله عنه قبل موته
- 1264 ومن خطبة له رضي الله عنه ويومئذ فيها إلى الملاحم
- 1269 ومن خطبة له رضي الله عنه في التحذير من الفتن
- 1274 ومن خطبة له رضي الله عنه في صفات الله وأئمة الدين
- 1277 هل الإمام إذا عمي استحق الخلع،
- 1278 ومن خطبة له رضي الله عنه في تحذير الناس من الغفلة
- 1281 ومن خطبة له في فضائل أهل البيت
- 1282 في فضائل الامام علي رضي الله عنه،
- 1289 ومن خطبة له يذكر فيها بديع خلقة الخفاش
- 1290 أخبار غرائب الطيور وصفاتها،
- 1293 ومن كلام له خاطب به أهل البصرة
- 1293 على جهة اقتصاص الملاحم
- 1293 عائشة وبعض أخبارها
- 1300 وقام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة
- 1300 وهل سألت عنها رسول الله
- 1300 صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام
- 1301 قال في صف الدهر
- 1305 ومن خطبة له في فضل الرسول والقرآن

- 1307 ومن خطبة له في وصف حاله مع أصحابه
- 1307 ومن خطبة له في عظمة الله تعالى
- 1312 الدنيا الفانية
- 1313 ومن خطبة له في أسرة الرسول وشرفه
- 1315 قال لبعض أصحابه
- 1315 وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به
- 1316 حديث امرئ القيس
- 1320 ومن خطبة له في ذكر الخالق عز وجل
- 1321 بحث في علم التوحيد
- 1324 ومن كلام له لعثمان بن عفان
- 1326 يذكر فيها عجب خلق الطاوس
- 1332 ومن خطبة له في الحث على التآلف
- 1335 ومن خطبة له في أول خلافته
- 1336 ومن كلام له بعد ما بويع له بالخلافة
- 1336 موقف الإمام علي من قتلة عثمان
- 1337 عند مسير أصحاب الحمل إلى البصرة
- 1339 ومن كلام له كلم به بعض العرب
- 1339 لما عزم علي لقاء القوم بصفين
- 1340 ومن خطبة له في من رماه بالحرص
- 1343 خروج عائشة ومسيرها إلى القتال
- 1349 منافرة بين ولدي علي عليه السلام وطلحة
- 1350 منافرة بين ابن الزبير وابن عباس
- 1351 ومن خطبة له في الرسول ومن أجدر بالخلافة بعده
- 1355 الجزء العاشر
- 1355 ومن كلام له في شأن طلحة بن عبيد الله
- 1355 ما جرى بين طلحة وعثمان
- 1357 من خطبة له عليه السلام في ذم الغافلين
- 1359 رأي بعض الغلاة في أمير المؤمنين
- 1359 أمير المؤمنين وإخباره بالأمور الغيبية

1360	ومن خطبة له في التحذير من متابعة الهوى
1362	القرآن الكريم وفضله
1369	في عذاب جهنم
1370	في الاجتماع والعزلة
1372	في فوائد العزلة
1379	قال في معنى الحكمين
1380	ومن خطبة له رضي الله عنه يذكر أن زوال النعم من سوء الفعال
1382	ومن كلام له رضي الله عنه
1387	ومن خطبة له في تزيه الله وذكر آثار قدرته
1388	نسب جعدة بن هبيرة،
1395	نسب العمالقة وعاد وثمود والفراعنة وأصحاب الرس،
1399	أخبار عمار بن ياسر
1402	أخبار أبي الهيثم بن التيهان
1402	ذوالشهادتين خزيمة بن ثابت
1403	أخبار سعد بن عباد
1404	أبو أيوب الأنصاري
1404	من خطبة له في قدرة الله وفضل القرآن
1408	جاء في التقوى من أخبار
1410	أخبار وطرف
1411	خطبة لأبي الشخباء العسقلاني
1411	رأي للمؤلف في كتاب نهج البلاغة
1412	ومن كلام له قاله للبرج بن مسهر الطائي
1413	ومن خطبة له في وصف المتقين
1414	في فضل الصمت وآفات اللسان
1419	ما قيل في الخوف،
1425	بعض أحوال العارفين
1426	ومن خطبة له يصف فيها المنافقين
1428	ومن خطبة له في ذكر بعض صفات الله
1432	ومن خطبة له مواقفه من الرسول

1433	خبر موت الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم
1435	ومن خطبة له في حث الناس علي التقوى
1437	ما قيل في عمر الدنيا
1440	قال كان يوصي به أصحابه
1441	في الصلاة وفضلها
1442	في فضل الزكاة والتصدق
1444	قال في شأن معاوية
1444	حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام
1449	الأسباب التي أوجبت محبة الناس لعلي
1451	سياسة الإمام علي عليه السلام ومعاوية
1453	أقوال من طعن في سياسة علي والرد عليها
1467	قال في الوعظ
1467	قصة ثمود وصالح
1468	ومن كلام له عند دفن السيدة فاطمة رضي الله عنها
1471	كلام مصنوع لأبي حيان في حديث السقيفة
1479	الجزء الحادي عشر
1479	ومن كلام له في صفة الدنيا والآخرة
1479	ومن كلام له عليه السلام كان كثيراً ما ينادي به أصحابه
	ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه من ترك مشورتها والاستعانة في
1480	الأمر بهما
1481	طلحة والزبير وبعض من أخبارهما
1486	ومن كلام له وقد سمع قوماً من أصحابه يسيون
1486	أهل الشام أيام حرمهم بصفين
1487	ومن كلام له في بعض أيام صفين
1487	وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرع إلى الحرب
1488	قال لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة
1490	قال بالبصرة
1491	أخبار بعض العارفين والزهاد
1492	قال وقد سأله سائل عن أحاديث البدع

1492	وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر فقال عليه السلام
1493	النفاق لم يمت بموت الرسول عليه السلام
1494	آل البيت عليهم السلام وبعض ما نالهم من الأذى
1497	أفضل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث
1498	ومن خطبة له في عجب صنعة الكون
1501	في استنهاض أصحابه إلى الجهاد
1502	قال في تمجيد الله وتعظيمه
1503	قال في صفة الرسول والعلماء
1504	كلام الجاحظ حول المطاعن في النسب
1506	كلام حول العارفين والأولياء
1511	ومن دعاء له عليه السلام كان يدعو به كثيراً
1512	ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين
1515	ما ورد من الأخبار فيما يصلح الملك
1516	أخبار في العدل والانصاف
1518	ومن كلام له رضي الله عنه
1521	قال يشكو فيه أمر قريش
1524	لو كان جعفر وحمة حيين لبايعا علياً رضي الله عنه
1527	في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه رضي الله عنه
1528	ومن كلام له رضي الله عنه
1528	عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد
1528	بنو جمح
1529	يصف أحوال تقى عارف بالله
1530	فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار
1533	في الرياضة النفسية وأثر الجوع،
1537	ومن كلام له يحث فيه أصحابه على الجهاد
1538	قال بعد تلاوته أهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر"
1544	بعض الأشعار والحكايات في وصف القبور والموتى
1550	الموت وأحوال الموتى في شعر الشعراء
1554	قال عند تلاوته "رجال لا تلهيهم"

1556	 في مقامات العارفين
1584	 قال عند تلاوته "يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم"
1587	 قال في التبرؤ من الظلم
1589	 حياة عقيل بن أبي طالب عليه السلام
1591	 ومن دعاء له عليه السلام كان يدعو به
1592	 قال في التنفير من الدنيا
1592	 ذم الدنيا في شعر بعض الشعراء
1598	 أدعية أبي حيان التوحيدي
1604	 الجزء الثاني عشر
1604	 قال يريد به بعض أصحابه
1605	 سيرة عمر بن الخطاب
1652	 خطب لعمر بن الخطاب فيها بعض الطول
1655	 بعض من كلام عمر
1656	 عمر وعمر بن معد يكرب
1658	 كلمات عمر الغريبة وتفسيرها
1680	 أحاديث واردة في فضل عمر،
1683	 في إسلام عمر
1684	 ما ورد في تاريخ موت عمر
1689	 عشرة طعون في عمر والرد عليها،
1737	 الجزء الثالث عشر
1737	 قال في وصف بيعته بالخلافة وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة
1737	 قال في الوصية بالتقوى
1739	 قال بذي قار، وهو متوجه إلى البصرة ذكرها الواقدي في كتاب الحمل
1739	 ومن كلام له كلم به عبد الله بن زمعة وهو من شيعته، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالا، ...
1740	 قال في إحجام اللسان عن الكلام
1742	 قال عند اختلاف الناس
1745	 قال وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجهيزه
1755	 قال في صفة خلق بعض الحيوانات
1767	 قال في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة

- 1767 من أصول العلم ما لا تجمع خطبة غيرها
- 1779 ومن خطبة له تختص بذكر الملاحم
- 1781 قال في الوصية بالتقوى
- 1782 قال في الإيمان ووجوب الهجرة
- 1786 ومن خطبة له في الأمر بالتقوى
- 1788 ومن خطبة له في وصيته بالزهد
- 1794 ومن خطبة له عليه السلام في ذم الكبر
- 1875 قال لعبد الله بن عباس وقد جاءه برسالة من عثمان
- 1880 قال في المسارعة إلى العمل
- 1881 قال في شأن الحكمين وذم أهل الشام
- 1885 ومن خطبة له ذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله
- 1886 الجزء الرابع عشر
- 1886 باب الكتب والرسائل
- 1886 من كتاب له إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة
- 1896 ومن كتاب له إليهم بعد فتح البصرة
- 1896 ومن كتاب له كتبه لشريح بن الحارث قاضيه
- 1898 ومن كتاب له كتبه إلى بعض أمراء جيشه
- 1898 ومن كتاب له إلى لأشعث
- 1898 بن قيس وهو عامل أذربيجان
- 1903 ومن كتاب له إلى جرير بن عبد الله
- 1903 البجلي لما أرسله إلى معاوية
- 2014 الجزء الخامس عشر
- 2017 القول في الملائكة هل نزلت بأحد وقاتلت أم لا
- 2018 القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه
- 2022 القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد
- 2025 القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم في الجبل
- 2034 القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة
- 2035 القول في مقتل أبي عزة الجمحي ومعاوية
- 2035 بن المغيرة بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس

2037	القول في مقتل المجذر بن زياد البلوي
2037	والحارث بن يزيد بن الصامت
2038	القول فيمن مات من المسلمين بأحد جملة
2039	القول فيمن قتل من المشركين بأحد
2040	القول في خروجه صلى الله عليه وآله بعد انصرافه من أحد
2040	إلى المشركين ليوقع بهم علي ما هو به من الوهن
2043	في شرح غزاة مؤتة نذكرها من كتاب الواقدي
2049	في مناقب جعفر الطيار
2052	ومن كتاب له إلى معاوية أيضاً
2056	ومن وصية له وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو
2057	ومن وصية له وصى بها معقل بن قيس
2058	الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له
2059	أقوال في الحروب
2060	ومن كتاب له إلى أميرين من أمراء جيشه
2060	بعض مناقب مالك الأشتر
2062	أقوال لبعض القادة
2063	ومن وصية له لعسكره بصفين قبل لقاء العدو
2064	نبذ من الأقوال الحكيمة
2064	قصة فيروز بن يزد جرد بن بهرام
2067	وكان يقول إذا لقي العدو محارباً
2067	وكان يقول لأصحابه عند الحرب
2068	أقوال آخر في الحروب
2068	ومن كتاب له إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه
2070	ما حدث بين علي ومعاوية يوم صفين
2073	ومن كتاب له إلى عبد الله بن عباس
2073	وهو عامله على البصرة
2073	بنو تميم وفضائلهم
2079	ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله
2079	ومن كتاب له إلى زياد بن أبيه

- 2079 وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة.
- 2080 ومن كتاب له إلى زياد أيضاً.
- 2080 ومن كتاب له إلى عبد الله بن العباس.
- 2081 قال قبل موته على سبيل الوصية لما ضربه ابن ملجم لعنه الله.
- 2083 ومن وصية له بما يعمل في أمواله.
- 2085 ومن وصية له كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات.
- 2087 ومن عهد له إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة.
- 2090 ومن عهد له إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه حين قلده مصر.
- 2098 ومن كتاب إلى معاوية جواباً وهو من محاسن الكتب.
- 2159 الجزء السادس عشر.
- 2159 ومن كتاب له إلى أهل البصرة.
- 2160 ومن كتاب له إلى معاوية.
- 2219 وفود الوليد بن جابر على معاوية.
- 2221 ومن كتاب له إلى معاوية.
- 2223 ومن كتاب له إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة.
- 2225 ومن كتاب له إلى محمد ابن أبي بكر.
- 2225 لما بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر، ثم توفي الأشتر في توجهه إلى هناك قبل وصوله إليها.
- 2226 ومن كتاب له إلى عبد الله بن العباس.
- 2226 بعد مقتل محمد بن أبي بكر.
- 2227 ومن كتاب له إلى أخيه عقيل بن أبي طالب.
- 2227 في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل.
- 2230 ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية.
- 2231 ومن كتاب له إلى أهل مصر لما ولى عليهم الأشتر.
- 2233 ومن كتاب له إلى عمرو بن العاص.
- 2235 ومن كتاب له إلى بعض عماله.
- 2236 ومن كتاب له إلى بعض عماله.
- 2239 ومن كتاب له إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي.
- 2239 وكان عامله علي البحرين، فعزله واستعمل النعمان بن عجلان الزرقى مكانه.
- 2254 ومن كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري.

- 2254 وكان عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها - قوله.
- 2300 الجزء السابع عشر.
- 2300 من كتاب له إلى بعض عماله.
- 2300 ومن وصية له رضي الله عنه للحسن والحسين.
- 2300 رضي الله عنهما لما ضربه ابن ملجم لعنه الله.
- 2302 بعض ما ورد في حقوق الجار.
- 2304 وكتب إلى معاوية.
- 2304 وكتب إلى معاوية أيضاً.
- 2305 وكتب إلى أمرائه على الجيوش.
- 2306 وكتب إلى عماله على الخراج.
- 2307 وكتب إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة.
- 2307 اختلاف الفقهاء في أوقات الصلاة.
- 2311 وكتب إلى للأشتر النخعي رحمه الله.
- 2315 بعض ما ورد في النهي عن سماع السعاية.
- 2322 رسالة الإسكندر إلى أرسطو وجواب أرسطو له.
- 2325 بعض ما ورد في القضاة ونوادرهم،
- 2332 بعض ما جاء في عهد سابور بن أردشير إلى ابنه.
- 2333 في آداب مصاحبة الملك.
- 2334 في آداب الكتاب.
- 2335 بعض ما ورد من نصائح للوزراء.
- 2340 والقول في الحجاب كثير:
- 2343 في ما روي حول نزاهة الخليفة عمر بن عبد العزيز.
- 2349 بعض ما جاء في الحذر من كيد العدو والنهي عن الغدر.
- 2353 بعض ما ورد من وصايا العرب.
- 2359 وكتب إلى طلحة والزبير مع عمران.
- 2359 بن الحصين الخزاعي، وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقامات.
- 2359 عمران بن الحصين ونسبه.
- 2361 وكتب إلى معاوية.
- 2362 ومن كلام له رضي الله عنه وصى به شريح.

- 2362 بن هانئ لما جعله علي مقدمته إلى الشام. الأصل:
- 2362 شريح بن هانئ.
- 2362 وكتب إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة.
- 2363 من كتاب له إلى أهل الأمصار يقص فيه
- 2363 ما جرى بينه وبين أهل صفين.
- 2364 وكتب إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان.
- 2364 الأسود بن قطبة.
- 2365 وكتب إلى العمال الذين بطأ عملهم الجيوش.
- 2366 وكتب إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله.
- 2366 على هيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدو طالباً للغارة.
- 2366 كميل بن زياد.
- 2366 وكتب إلى أهل مصر مع مالك الأشر.
- 2368 الرد علي الشيعة في طعنهم في إمامة أبي بكر.
- 2368 الطعن الأول.
- 2373 الطعن الثاني.
- 2375 الطعن الثالث.
- 2378 الطعن الرابع.
- 2388 الطعن الخامس.
- 2391 الطعن السادس.
- 2392 الطعن السابع.
- 2398 الطعن الثامن.
- 2400 الطعن التاسع.
- 2401 الطعن العاشر.
- 2401 الطعن الحادي عشر.
- 2402 الطعن الثاني عشر.
- 2402 الطعن الثالث عشر.
- 2402 الطعن الرابع عشر.
- 2403 الطعن الخامس عشر.
- 2404 أخبار الوليد بن عقبة.

- 2414 وكتب إلى أبي موسى الأشعري وهو عامله على الكوفة.
- 2415 وكتب إلى معاوية جواباً عن كتابه.
- 2416 كتاب معاوية إلى علي.
- 2419 خبر فتح مكة.
- 2434 الجزء الثامن عشر.
- 2434 تتممة خبر فتح مكة.
- 2441 وكتب إليه أيضاً.
- 2444 ومن كتاب له إلى عبد الله بن العباس.
- 2444 وكتب كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة.
- 2446 من كتاب له إلى سلمان الفارسي.
- 2446 رحمه الله قبل أيام خلافته.
- 2449 ومن كتاب له إلى الحارث الهمداني.
- 2454 وكتب إلى سهل بن حنيف الأنصاري.
- 2455 وكتب إلى المنذر بن الجارود العبدي.
- 2455 وقد كان استعمله على بعض النواحي فخان الأمانة في بعض ما ولاه من أعماله.
- 2458 وكتب إلى عبد الله بن العباس رضي الله عنه.
- 2458 وكتب إلى معاوية.
- 2460 ومن حلف له رضي الله عنه كتبه بين ربيعة واليمن.
- 2460 ونقل من خط هشام بن الكلبي.
- 2461 وكتب إلى معاوية من المدينة.
- 2461 في أول ما بويع له بالخلافة، ذكره الواقدي في كتاب الجمل.
- 2462 ومن وصية له لعبد الله بن العباس.
- 2462 عند استخلافه إياه على البصرة.
- 2463 ومن كتاب له أجاب به أبا موسى الأشعري.
- عن كتاب كتبه إليه من المكان الذي اتعدوا فيه للحكومة، وذكر هذا الكتاب سعيد بن يحيى الأموي في كتاب
- 2463 المغازي.
- 2465 وكتب لما استخلف إلى أمراء الأجناد.
- 2465 باب المختار من حكم أمير المؤمنين ومواعظه.
- 2465 ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير الخارج من سائر أغراضه.

2553	وقال وقد سمع رجلاً يذم الدنيا
2559	ومن كلام له لكميل بن زياد النخعي
2563	وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه
2585	الجزء التاسع عشر
2659	بعض ما قيل في الفقر والغنى
2666	بعض ما قيل في الوعد والمطل،
2677	بعض ما قيل في حال الدنيا وصروفها
2686	النهى عن المنكر،
2689	بعض ما ورد في الجود والبخل،
2693	بعض ما قيل في حال الدنيا،
2698	بعض ما ورد في الطيب،
2704	بعض ما قيل في الفخر
2708	نوادير حول الأسماء والكنى
2712	أخبار حول العين والطيرة والفأل والسحر والعدوى،
2717	أخبار حول مذاهب العرب وتخيلاها
2746	الجزء العشرون
2747	نبذة من حياة المغيرة بن شعبة،
2748	مع أبي المعالي الجويني في أمر الصحابة والرد عليه
2760	أخبار عمار بن ياسر ونسبه،
2762	بعض ما قيل في مدح العقل،
2768	في ماهية التوبة وشروطها،
2782	عبد الله بن الزبير نسبه وبعض أخباره
2805	بعض ما قيل في الفخر وقبحه،
2806	مع بن أبي طالب حول أشعر الشعراء
2807	اختلاف العلماء في تفضيل بعض الشعراء علي بعض،
2821	بعض ما ورد في الكنايات وبعض الشواهد عليها،
2901	الفهرس

To PDF: www.al-mostafa.com